الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الحادي والاربعون

الاجزاء من ٨١٨ الى ٨٤٠

وهو الاخير

أَلْحَاوِي فِي أَلْتَّفْسِيْرِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝

وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
818	سورة الليل	فصول مهمة	2
819	سورة الضحى	فصول مهمة	364
820	سورة الشرح	فصول مهمة	851
821	سورة التين	فصول مهمة	1145
822	سورة العلق	فصول مهمة	1417
823	=	الآية 15 الى الآية 19	1613
824	سورة القدر	فصول مهمة	2124
825	سورة البينة	فصول مهمة	2538
826	سورة الزلزلة	فصول مهمة	2949
827	سورة العاديات	فصول مهمة	3191
828	سورة القارعة	فصول مهمة	3469
829	سورة التكاثر	فصول مهمة	3632
830	سورة العصر	فصول مهمة	3958
831	سورة الفيل	فصول مهمة	4329
832	سورة قريش	فصول مهمة	4653
833	سورة الماعون	فصول مهمة	4903
834	سورة الكوثر	فصول مهمة	5132
835	سورة الكافرون	فصول مهمة	5441
836	سورة النصر	فصول مهمة	5781
837	سورة المسد	فصول مهمة	6126
838	سورة الاخلاص	فصول مهمة	6417
839	سورة الفلق	فصول مهمة	7449
840	سورة الناس	فصول مهمة	7921
000	The Quran and Modern Science	=	8609

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن عشر بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن عشر بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الليل)

(4/818)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الليل)

(5/818)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الليل

مقصودها الدلالة على مقصود الشمس ، وهو التصرف التام في النفوس بإثبات كمال القدرة

بالاختيار باختلاف الناس في السعي مع اتحاد مقاصدهم ، وزهي الوصول إلى الملاذ من

شهوة البطن والفرج وما يتبع ذكلك من الراحة ، واسمها الليل أوضح ما فيها على ذلك بتأمل القسم والجواب ، والوقوع من ذلك على الصواب ، وأيضا ليل نفسه دال على ذلك لأنه على غير مراد النفس بما فيه من الظلام والنوم الذي هو أخو الموت ، وذلك مانع عن أكثر المرادات ، ومقتضى لأكثر المضادات . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 445﴾

(6/818)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والليل إذا يغشى)

السّورة مكِّيّة .

وآياتها إِحدى وعشرون بلا خلاف .

وكلماتها إِحدى وسبعون .

وحروفها ثلاثمائة وعشر .

فواصل آياتها على الأَلف .

قيل لها سورة اللَّيل ؛ لمفتتحها .

مقصود السّورة : القسم على تفاوتُ حال الخَلق فى الإِساءَة والإِحسان ، وهدايتُهم إِلى شأْن القرآن ، وترهيب بعض بالنار ، وترغيبُ بعض بالجِنان والبدارُ إِلى الصّدقة كفارةً للذنوبِ والعصيان ، ووعد بالرضى الرحمنُ المنّان ، فى قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .

السّورة محكمة .

ومن المتشابه : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ وبعده : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ أَى سنهيّئه للحالة اليسرى ، والحالة العسرى .

وقيل : الأُولى الجنَّة ، والثانية النّار ، ولفظة : ﴿ سَنُيَسِّرُهُ ﴾ للإِزواج وجاءَ فى الخبر (كلٌّ ميّسر لما خُلِق له) .

فضل السّورة

فى حديث أُبىّ : من قرأَها أَعطاه الله الحُسْنى ، ويرضى عنه ، وعافاه من العسر ، ويَسّر له اليسر ، وحديث علىّ : يا علىّ من قرأَها أَعطاه الله ثواب القائمين ، وله بكلّ آية قرأَها حاجة يقضيها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 523.524 ﴾

(7/818)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الليل

469 - مسألة :

قوله تعالى : (وَاللَّيْلِ) قدم فيها القسم بالليل وفى

"الضحى" قدم القسم" بالنهار" ؟ .

جوابه :

لما كان المقسم عليه هنا : سعى الإنسان وغالبه المعاصى قدم الليل الذى هو مظنة الظلمة

ولما كان المقسم عليه فى الضحى لطفه بنبيه - صلى الله عليه وسلم - قدم الضحى

لحسنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 376. 377﴾

(8/818)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الليل

سميت هذه السورة في معظم المصاحف وبعض كتب التفسير (سورة الليل) بدون واو ، وسميت في معظم كتب التفسير (سورة والليل) بإثبات الواو ، وعنونها البخاري والترمذي (سورة والليل إذا يغشى) .

وهي مكية في قول الجمهور ، واقتصر عليه كثير من المفسرين . وحكى ابن عطية عن المهدوي أنه قيل : إنها مدنية ، وقيل : بعضها مدني ، وكذلك ذكر الأقوال في (الإتقان) ، وأشار إلى أن ذلك لِما روي من سبب نزول قوله تعالى : (فأما من أعطى واتقى ((الليل : 5) إذ روي : (أنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري في نخلة كان يأكل أيتامٌ من ثمرها وكانت لرجل من المنافقين فمنعهم من ثمرها فاشتراها أبو الدحداح بنخيل وجعلها لهم) وسيأتي .

وعُدّت التاسعة في عداد نزول السور ، نزلت بعد سورة الأعلى وقبل سورة الفجر .

وعدد آيها عشرون .

أغراضها

احتوت على بيان شرف المؤمنين وفضائل أعمالهم ومذمة المشركين ومساويهم وجزاء كلَ

.

وأن الله يهدي الناس إلى الخير فهو يجزي المهتدين بخير الحياتين والضالين بعكس ذلك .

وأنه أرسل رسوله (صلى الله عليه وسلم) للتذكير بالله وما عنده فينتفع من يخشى فيفلحُ

(9/818)

وَيَصدف عن الذكرى من كان شقياً فيكون جزاؤه النار الكبرى وأولئك هم الذين صدهم عن التذكر إيثار حب ما هم فيه في هذه الحياة .

وأُدمج في ذلك الإِشارة إلى دلائل قدرة الله تعالى وبديع صنعه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 377 . 378 ﴾

(10/818)

وقال الشيخ الصابوني :

سورة الليل

مكية وآياتها إحدى وعشرون آية

بين يدي السورة

* سورة الليل مكية ، وهي تتحدث عن سعي الإنسان وعمله ، وعن كفاحه ونضاله في هذه الحياة ، ثم نهايته إلى النعيم أو إلى الجحيم .

* إبتدأت السورة الكريمة بالقسم بالليل إذا غشي الخليقة بظلامه ، وبالنهار إذا أنار الوجود بإشراقه وضيائه ، وبالخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى ، أقسم على أن عمل الخلائق مختلف ، وطريقهم متباين [والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى] الآيات .

* ثم وضحت السورة سبيل السعادة ، وسبيل الشقاء ، ورسمت الخط البياني لطالب النجاة ، وبينت أوصاف الأبرار والفجار ، وأهل الجنة وأهل النار [فأما من أعطى وإتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى] الآيات .

* ثم نبهت إلى اغترار بعض الناس بأموالهم التي جمعوها ، وثرواتهم التي كدسوها ، وهي لا تنفعهم في يوم القيامة شيئًا ، وذكرتهم بحكمة الله في توضيحه لعباده طريق الهداية وطريق الضلالة [وما يغني عنه ماله إذا تردى ، إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى] الآيات .

* ثم حذرت أهل مكة من عذاب الله وانتقامه ، ممن كذب بآياته ورسله ، وأنذرهم من نار حامية ، تتوهج من شدة حرها ، لا يدخلها ولا يذوق سعيرها إلا الكافر الشقي ، المعرض عن هداية الله [فأنذرتكم نارا تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى ، الذي كذب وتولى .

* وختمت السورة بذكر نموذج للمؤمن الصالح ، الذي ينفق ماله في وجوه الخير ، ليزكي نفسه ويصونها من عذاب الله ، وضربت المثل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حين

اشترى بلالا وأعتقه في سبيل الله [وسيجنبها الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 568 ﴾

(11/818)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الليل

يغشى : أي يغطى كل شىء فيواريه بظلامه ، تجلى : أي ظهر وانكشف بظهوره كل شىء ، وما خلق : أي والذي خلق ، وشتى : واحدها شتيت ، وهو المتباعد بعضه من بعض .

أعطى : أي بذل ماله ، واتقى : أي ابتعد عن الشر وإيصال الأذى إلى الناس ، بالحسنى : أي بالخصلة الحسنى التي هى أفضل من غيرها ، لليسرى : أي للخصلة التي تؤدى إلى يسر وراحة بتمتعه بالنعيم ، استغنى : أي عدّ نفسه غنيا عما عند الناس بما لديه من مال ، فلا يجد فى قلبه راحة لضعفائهم ببذل المال والمعونة لهم ، بالحسنى :

أي بالفضيلة وبأنها ركن من أركان الاجتماع ، للعسرى : أي الخصلة التي تؤديه إلى العسر ،

ويقال تردى فلان من الجبل إذا هوى من أعلاه وسقط إلى أسفله .

تلظى : أصله تتلظى ، أي تتوقد وتلتهب ، يقال : تلظت النار تلظيا بمعنى التهبت التها با ومنه سميت النار لظى ، يصلاها : أي يحترق بها ، كذب : أي كذب الرسول فيما جاء به عن ربه ، وتولى : أي أعرض عن طاعة ربه ، وسيجنبها : أي يبعد عنها ويصير منها على جانب ، والأتقى : المبالغ فى اتقاء الكفر والمعاصي : الشديد التحرز منهما ، يتزكى : أي يتطهر ، تجزى : أي تجازى وتكافأ ، ابتغاء وجه ربه :

أن طلب مثوبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 173.178 ﴾ .

باختصار .

(12/818)

وقال الفراء :

سورة (الليل)

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . . . ﴾ .

هى فى قراءة عبد الله "والذكرِ والأنثى" فلو خفض فى قراءتنا "الذكر والأنثى" يجعل "وما

خلق" كأنه قال: والذى خلق من الذكر والأنثى، وقرأه العوام على نصبها، يريدون: وخلقه الذكر والأنثى.

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى... ﴾.

هذا جواب القسم، وقوله: "لشتى" يقول: لمختلف، نزلت فى أبى بكر بن أبى قحافة رحمه الله، وفى أبى سفيان، وذلك أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه اشترى تسعة رجال كانوا فى أيدى المشركين من ماله يريد به الله تبارك وتعالى؛ فأنزل الله جل وعز فيه ذلك: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى... ﴾ ﴿ بِالْحُسْنَى... ﴾ أبو بكر ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى... ﴾ للعود إلى العمل الصالح.

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾

وقوله: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى... ﴾.

يقول: قد خلق على أنه شقى ممنوع من الخير، ويقول القائل: فكيف قال: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ فهل فى العسرى تيسير؟ فيقال فى هذا إجازته بمنزلة قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. والبشارة فى الأصل على المفرح والسار؛ فإذا جمعت فى كلامين: هذا خير: وهذا شر جاز التيسير فيهما جميعا.

وقوله عز وجل: ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾ سنهيئه. والعرب تقول: قد يسّرت الغنم إذا ولدت وتهيأت للولادة: وقال الشاعر:

هما سيدانا يزعمان وإنما * يسودانا أن يسَّرت غنماها

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾

وقوله [١/ا] عز وجل: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى... ﴾.

(13/818)

يقول: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، ومثله قوله: ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ يقول: من أرادَ اللهَ فهو على السبيل القاصد، ويقال: إن علينا للهدى والإضلال، فترك الإضلال كما قال: ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ ﴾، وهى تقى الحرّ والبرد.

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى... ﴾.

لثواب هذه، وثواب هذه.

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى... ﴾.

معناه: تتلظى فهى فى موضع رفع ، ولو كانت على معنى فعل ماض لكانت: فأنذرتكم نارا تلظّت.

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد] قال: حدثنا الفراء ، قال: حدثنى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال ، "فاتت عبيدَ بن عمير ركعةٌ من المغرب ، فقام يقضيها فسمعته يقرأ: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَتَلَظَّى ﴾ : قال الفراء ورأيتُها فى مصحف عبد الله: "تتلظّى" بتاءين.

﴿ لاَ يَصْلاَهَآ إِلاَّ الأَشْقَى ﴾

وقوله عز وجل ﴿ لاَ يَصْلاَهَآ إِلاَّ الأَشْقَى... ﴾ .

إلاّ من كان شقيا فى علم الله.

﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى... ﴾ .

لم يكن كذّب بردٍّ ظاهر ، ولكنه قصّر عما أُمِر به من الطاعة ، فجُعل تكذيبا ، كما تقول: لقى فلان العدو ؛ فكذب إذا نكَل ورجع. قال الفراء: وسمعت أبا ثَرْوان يقول: إنّ بنى نمير ليس لجدهم مكذوبة. يقول: إذا لَقُوا صدقوا القتال ولم يرجعوا ، وكذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ يقول: هى حق.

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . . . ﴾ أبو بكر .

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى . . . ﴾ .

(14/818)

يقول: لم ينفق نفقته مكافأة ليد أحد عنده ، ولكن أنفقها ابتغاء وجه ربه ، فإلاّ فى هذا الموضع بمعنى (لكن) وقد يجوز أن تجعل الفعل فى المكافأة مستقبلا ، فتقول: ولم يُرد مما أنفق مكافأةً من أحد . ويكون موقع اللام التى فى أحدٍ ـ فى الهاء التى [/ب] خفضتها عنده ، فكأنك قلت: وماله عن أحد فيما أنفق من نعمة يلتمس ثوابها ، وكلا الوجهين حسن ، قال الفراء: ما أدرى أى الوجهين أحسن ، وقد تضع العرب الحرف فى غير موضعه إذا كان المعنى معروفا

وقد قال الشاعر:

لقد خفت حتى ما تزيدُ مخافتى * على وعلٍ فى ذى المكاره عاقِل

والمعنى: حتى ما تزيد مخافة (وعل) على مخافتى ، ومثله من غير المخفوض قول الراجز:

إن سراجا لكريم مفخره * تحلى به العين إذا ما تجهره

قال الفراء: حِليت بعينى، وحلَوت فى صدرى والمعنى: تحلى بالعين إذا ما تجهره، ونصبُ الابتغاء من جهتين: من أن تجعل فيها نية إنفاقه ما ينفق إلا ابتغاء وجه ربه. والآخر على اختلاف ما قبْلَ إلاّ وما بعدها: والعرب تقول: ما فى الدار أحد إلاّ أكلباً وأحمرةً، وهى لغة لأهل الحجاز، ويتبعون آخر الكلام أوله فيرفعون فى الرفع، وقال الشاعر فى ذلك.

وبلدةٍ ليس بها أنيس * إلاّ اليعافيرُ وإلاّ العيس (1)

فرفع، ولو رفع (إلا ابتغاء وجه ربه) رافع لم يكن خطأ؛ لأنك لو ألقيت من: من النعمة لقلت: ما لأحد عنده نعمة تُجزى إلا ابتغاء، فيكون الرفع على اتباع المعنى، كما تقول: ما أتانى من أحد إلاّ أبوك. انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 270 . 273﴾

---

(1) الرواية التي أحفظها هي:

يا ليتني وأنت يا لميس في بلد ليس به أنيس

إلا اليعافير وإلا للعيس

وقال الأخفش :

سورة (الليل)

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾

قال ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ فهذه الواو واو عطف عطف بها على الواو التي في القسم الأول . وقال بعضهم ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ فجعل القسم بالخلق كأنه أقسم بما خلق ثم فسره وجلعه بدلا من ﴿ ما ﴾ . انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 580 ﴾

(16/818)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الليل «1»

4 - إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى أي [إن] عملكم لمختلف .

7 - فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى أي للعود إلى العمل الصالح .

وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى أي بالجنة والثواب .

11 - تَرَدَّى في النار ، أي سقط .

ويقال: «تريّ»: تفعّل، من «الرّدي» وهو: الهلاك. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 458﴾

---

(1) هي مكية. وتسمى سورة والليل إذا يغشى.

(17/818)

وقال الغزنوى:

[سورة الليل]

5 فَأَمَّا مَنْ أَعْطى: أي: حق اللّه، وَاتَّقى: محارمه.

6 بِالْحُسْنى: بالجنّة «1».

7 فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى: نهيّئه، يسّرت الغنم: تهيأت للولادة «2».

11 تَرَدَّى: مات فوقع في قبره، فالموت من الرّدى والوقوع في القبر من التردي «3».

15 لا يَصْلاها أبو أمامة «4»: «لا يبقى أحد من هذه الأمّة إلّا أدخله اللّه الجنّة إلّا من شرد على اللّه كما يشرد البعير السّوء على أهله، فإن لم تصدقوني فاقرؤوا: لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ بما جاء به محمد صلى اللّه عليه وسلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 880. 881﴾

(1) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 531 ، وهو قول مجاهد كما في تفسير

الطبري :

30/ 220 ، وتفسير البغوي : 4/ 495 ، وزاد المسير : 9/ 149 ، وتفسير

القرطبي :

20/ .83

(2) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 271 ، وانظر تفسير الطبري : 30/ 221 ،

وتفسير البغوي :

4/ 495 ، واللسان : 5/ 295 (يسر) .

(3) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 531 ، وتفسير الطبري : 30/ 225 ، وتفسير

الماوردي :

4/ 468 ، وزاد المسير : 9/ 151 ، وتفسير القرطبي : 20/ 85 ، واللسان : 14/

316 (ردي) .

(4) هو أبو أمامة الباهلي رضي الله تعالى عنه ، والخبر عنه والخبر عنه في المعجم الكبير

للطبراني :

8/ 206 ، حديث رقم (7730) وحسن الهيثمي في مجمع الزوائد : 10/ 74

إسناد الطبراني .

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده : 5/ 258 مرفوعا بلفظ : «ألا كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على اللّه شراد البعير على أهله» . قال الهيثمي في مجمع الزوائد : 10/ 74 : رجاله رجال الصحيح غير علي بن خالد وهو ثقة . اه - .

وأخرجه - أيضا - الحاكم في المستدرك : (1/ 55 ، 56) كتاب الإيمان .

(18/818)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الليل

عدد 9 و92

نزلت بمكة بعد الأعلى وهي إحدى وعشرون آية ، وإحدى وسبعون كلمة وثلاثمائة وعشرة أحرف ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها ، ولا يوجد في القرآن سورة مبدوءه بما بدئت به ولا مختومة بما ختمت به ولا مثلها في عدد الآي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى مقسما عزّ قسمه : (وَاللَّيْلِ) الذي هو سكن يأوى فيه جلّ الحيوان إلى مأواه .

واعلم أنه لا يقال كيف يقسم اللّه بخلقه وقد نهى رسوله عن الحلف بغيره لأن القسم يكون مما

يعظمه المقسم ولا يجوز تعظيم غيره بالحلف لأن القسم بمصنوعاته يستلزم القسم به ولهذا قال بعضهم في القسم حذف مضاف أي ورب الليل ، ورب القمر ، وهكذا على أن اللّه تعالى له أن يقسم بما شاء من خلقه ، وليس لعباده أن يقسموا ، الآية ، وقد أقسم بحضرة رسوله "بقوله لَعَمْرُكَ" الآية 72 من سورة الحجر في ج 2 ، ليعرف الناس عظمته ومكانته عنده ، وهو لا يسأل عما يفعل "إِذا يَغْشى 1" النهار بظلمته ، ويغطي نور الشمس "وَالنَّهارِ" واقسم به لأن جل الحيوان يسعى فيه لطلب رزقه ، وإنما قلنا جل الحيوان لأنه يوجد حيوانات وحشرات على خلاف ذلك "إِذا تَجَ

مطلب في أنواع الخلق :

"وَما خَلَقَ" ، ثم أق لغير العاقل ، والأولى إجراء الآية على عمومها .

وخص بعض المفسرين "الذَّكَرَ وَالْأُنْثى" بآدم وحواء عليهما السلام ، وقال : إنما أقسم بهما لأنهما ابتداء خلقه ، وإذا كان أقسم بالشمس والضحى وغيرهما ، فلأن يقسم بأول أنبيائه أولى ، لانهما أفضل من الجميع وهو كذلك ، لكن ما جرينا عليه اولى لأن الآية لم تقيد أو تخصص .

وجدير بأن تبقى على إطلاقها وعمومها .

واعلم أن أنواع الخلق من البشر أربعة : من غير أب وأم وهو آدم ، ومن أب بلا أم حواء ، ومن أم بلا أب عيسى ، ومن أم وأب سائر البشر ، وغير البشر أنواع .

راجع تفسير الآية 45 من سورة النور في ج 3 ، وجواب القسم "إِنَّ سَعْيَكُمْ" أيها الناس في هذه الدنيا وعملكم فيها "لَشَتَّى 4" مختلف متفرق متباين ، وهي جمع شتيت ، وأتى بلفظ الجمع باعتبار ضمير سعيكم ، والمعنى أن منكم من يسعى لخلاص نفسه ، ومنكم من يسعى لهلاكها ، ومنكم من يجمع بين الأمرين .

روى أبو مالك الأشعري أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها .

ثم بين ما يؤول اليه ذلك الاختلاف بقوله جل قوله : "فَأَمَّا مَنْ أَعْطى" ماله في سبيل اللّه وصلة الرحم والنفقة في طريق الخير "وَاتَّقى 5" ربه فيما أنعم به عليه ، واجتنب ما حرم عليه وفعل ما أمر به "وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى 6" كلمة التوحيد ، وأيقن أن اللّه يخلف له ما أنفقه في طاعته ، وانه يثيبه عليه في الآخرة ، وآمن بما وعد به المتقين في الجنة المعبر عنها بالحسنى في الآية 26 من سورة يونس في ج 2 ، وقيل : ان الحسنى هي ملة الإسلام وهو كذلك إلا أنها غير مراده هنا واللّه أعلم "فَسَنُيَسِّرُهُ" في الدنيا "لِلْيُسْرى 7" الخلال الطيبة والأفعال الحسنة ونسهل له كل ما نرضاه له من أعمال وأقوال توصله إلى الجنة "وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ" بماله

فكنزه ومنع الفقراء من حقهم فيه ولم يصرف جوارحه لما خلقت لها في الدنيا "وَاسْتَغْنى 8" عما قدره اللّه من الثواب المخصص للمتقين فى سبيله وخصّ ماله للشهوات وأنفقه فيما لا يرضي ربه "وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى 9" بكلمة التوحيد والخلف بالوعد والجنة وما وعد اللّه المتقين فيها لأجله "فَسَنُيَسِّرُهُ" بالدنيا التي آثرها على الآخرة "لِلْعُسْرى 10" الخلال الخبيثة والأنكال المذمومة والأحوال السيئة والأعمال القبيحة من كل ما يغضب الرب من الخصال المؤدية إلى النار التي لا أعسر من عذابها .

روى البخاري ومسلم عن علي رضي اللّه عنه قال : كنا في جنازة في بقيع الفرقد ،

(20/818)

فأتانا رسول اللّه فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة (عصى رفيعة في رأسها مثل الهلال) فنكس وجعل ينكت (يضرب الأرض) بمخصرته ثم قال : ما منكم أحد إلّا قد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة .

زاد مسلم (1) : إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة (وفي روايته بدل أحد نفس .

فقالوا يا رسول اللّه : أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ فقال : اعملوا فكل ميسّر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فيعد لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة

فيعدّ لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى﴾ إلى ﴿لِلْيُسْرَى﴾ .

وفي هذا دليل أهل السنة في القدر وصحة قولهم فيه وان التوفيق والخذلان والسعادة والشقاوة بيد اللّه يسرها لمن يشاء من عباده ووجوب العمل للمرء بما سبق له في الأزل ويستدل على الإنسان من أي الفريقين هو بعمله ، فإذا عمل عمل أهل السعادة من البرّ والتقوى فهو من أهل الجنة أزلا ، وان عمل عمل أهل الشقاوة من الشر والعصيان فهو من أهل النار ، وعمل كل دليل عليه مطلب قوة إيمان بلال :

نزلت هذه الآية في أبي بكر رضي اللّه عنه لما اشترى بلال بن رياح بن حمامة من أمية بن خلف ببردة وعشرة أواق فأعتقه لأنه كان صادق الإسلام طاهر القلب ، وكان أمية يعذبه فيبطحه بالشمس إذا حميت على ظهره ثم يضع الصخرة الحامية العظيمة على صدره ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، فيقول وهو في تلك الحالة : أحد أحد ، بالتخفيف أي اللّه واحد ، وبالتشديد أي لا تشرك مع اللّه أحدا .

فمر به أبو بكر يوما وهم يصنعون به ذلك فقال لأمية ألا تتقي اللّه في هذا المسكين ، قال : أنت أفسدته فأنقذه مما ترى ، فقال : عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى وهو على دينك أعطيكه ، قال : قد فعلت ، فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالا وأعتقه وأعتق ست رقاب معه .

---

(1) (قوله زاد مسلم إلخ) حديث مسلم «ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب اللّه مكانها من الجنة والنار وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة» إلخ.

(21/818)

أما ما قيل: إنها نزلت في أبي الدحداح الأنصاري الذي اشترى النخلة فلا يصح لأن حادثه النخلة في المدينة، وهذه السورة مكية والحادثة في مكة.

فانظر رعاك اللّه إلى إيمان هذا العبد كيف كان في بداية الإسلام.

ولعمري لو عذب الآن بعض الناس بالضرب لكفر هلعا، ولو أرشي بأوقية

لتنصر طمعا، ولا حول ولا قوة إلا باللّه،

قال تعالى: "وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ" أي أمية بن خلف الذي فعل ما فعل في بلال بقصد تكفيره "إِذا تَرَدَّى 21" بأكفانه وطرح في قبره، ثم هوى وسقط في نار جهنم فهل يغنى عنه في الآخرة ماله وولده وهل يحول دون هلاكه فيها؟ كلا لا شيء ينجيه من ذلك "إِنَّ عَلَيْنا" نحن إله الكل "لَلْهُدى 12" فتبين طريقه من طريق الضلال، وعلى العبد سلوك أيهما شاء "وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ" فنثيب من اهتدى "وَالْأُولى 13" لنا أيضا نيسر لخيرها من أراد هدانا فكلاهما في تصرفنا كما نشاء.

فمن طلبهما من غيرنا آب بالخسران وأخطأ الطريق السوي، ولا يضرنا ترككم الاهتداء له لأن مضرته عليكم، ثم التفت جل شأنه من الاخبار إلى الخطاب فقال: "فَأَنْذَرْتُكُمْ" يا أهل مكة ويا أمة محمد "نارا تَلَظَّى 14" بتاء واحدة، وقرأ بعضهم بتاءين أي تتلظى وتتوقد وتتلهب وتتوهج أجارنا اللّه منها "لا يَصْلاها" يحرق بها "إِلَّا الْأَشْقَى 15" الكافر المتوغل بالكفر والشقاء "الَّذِي كَذَّبَ" الرسل ومجد الآلهة "وَتَوَلَّى 16" عن الإيمان مصرا على كفره "وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى 17" المبالغ في تقواه المتقى الكفر ودواعيه المشرّب بالإيمان ومراميه "الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ" للمساكين طلبا لما عند اللّه من الثواب في الآخرة "يَتَزَكَّى 18" يطهر نفسه من دون الكفر فيلقى اللّه تعالى طاهرا من شوائبه، خاليا من الرياء والسمعة.

(22/818)

قال أبو عبيدة: الأشقى بمعنى الشقي وهو الكافر، والأتقى بمعنى التقي وهو المؤمن، لأنه لا يختص بالصّلي أشقى الأشقياء، ولا يختصّ بالنجاة أتقى الأتقياء، ولا يقال إنه أراد نارا مخصوصة بالأشقى، لأن هذه النار نفسها هي التي يجنبها الأتقى فلأن يجنب غيرها من باب أولى.

"وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ" أي أبي بكر لأن هذه السورة نزلت في حقه وفي بطل أمية، والذي يؤيد

نزولها ، ما رواه سعيد بن المسيب قال : بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر في بلال حين قال له : أتبيعه ، قال بفسطاس ، عبد لأبي بكر وكان صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجواري ومواشي .

وكان مشركا ، وقد حمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون ماله له فأبى فأبغضه ، فلما قال له أمية :

أتبيعه بغلامك فسطاس ، اغتنمه أبو بكر وباعه ، فقال المشركون : ما فعل ذلك إلا ليد كانت له عنده فأنزل اللّه هذه الآية تكذيبا لهم بقوله : ليس لأحد عند أبي بكر "نِعْمَةٍ تُجْزَى 19" .

مطلب في أبي بكر رضي اللّه عنه وأمية غضب اللّه عليه :

وقد أجمع المفسرون على عود الضمير لأبي بكر ، وان ليس لفسطاس ولا لبلال ولا لغيرهما عنده نعمة سابقة يكافئه عليها بالإعتاق ، وان السياق والسباق يؤيده لذلك فإن من قال أن الضمير في عنده يعود إلى اللّه أراد أنه ينعم على عبده تفضلا منه ، وهو كذلك .

إلا أنه بعيد عن المغزى مخطئ المرمى ، لما فيه من نفي التخصيص بأبي بكر وجعل الآية عامة في المؤمن والكافر ، لأن نعمة اللّه غير مقصورة على أحد ولكنها على المؤمن نعمة حالا ومآلا ، وعلى الكافر في الدنيا فقط لأنها نقمة عليه في الآخرة استيفاء لما يقع من الخير على يده كي يلقى اللّه ولا حسنة له .

وليعلم انه ما فعل أبو بكر ما فعله من الاعتاق "إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى 20" أي طلب مرضاته لا غير

(23/818)

"وَلَسَوْفَ يَرْضَى 21" في الآخرة من عطاء ربه بالكرامة والجنة ونعيمها كما طلب هو مرضاة ربه في الدنيا بالإنفاق من ماله واعتاق عبيده واللام في ولسوف جواب القسم المضمر وتقديره واللّه لسوف يرضى رضاء ما فوقه رضاء ، ويجوز أن يعود ضمير يرضى إلى اللّه ويكون المعنى ولسوف يرضى عنه ربه وهو أبلغ لأن رضاء اللّه عن عبده أكمل للعبد من رضاه على ربه ، وما جرينا عليه يحتمل المعنيين .

هذا ، واللّه أعلم ، واستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . اهـ ﴿بيان المعاني حـ 1 صـ 138 . 142﴾

(24/818)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة والليل

مكية

وجاب القيم إن سعيكم لشتى وهو تام لليسرى كاف وكذا للعسرى وقال أبو عمرو في لثانية تام وقيل كاف إذا ترى تام والأولي كاف وقال أبو عمرو تام تلظى جائز وتوللا تام وكذا الاعلى وأخر السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد ص ﴾

(25/818)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة والليل

مكية لا وقف من أولها إلى إنَّ سعيكم لشتى وهو جواب القسم * وهو (تام) قال الرضي وإذا تكررت الواو بعد واو القسم كما هنا فمذهب سيبويه والخليل إنَّ المتكررة واو العطف وقال بعضهم هي واو القسم والأوَّل أجود وذلك أنَّها لو كانت للقسم لكانت بدلاً من الباء ولم تفد العطف وربط المقسم به الثاني وما بعده بالأوّل بل يكون التقدير أقسم

بالليل أقسم بالنهار أقسم بما خلق الذكر والأنثى فهذه الثلاثة كل واحد منها لابد له من جواب فيطلب ثلاثة أجوبة فإن قلنا حذف جوابان استغناء بما بقي فالحذف خلاف الأصل وإن جعلنا الواحد جواباً للمجموع فهو خلاف الأصل أيضاً فلم يبق إلاَّ أن نقول القسم شيء واحد والمقسم به ثلاثة والقسم هو الطالب للجواب لا المقسم به فيكون جواباً واحداً فكأنه قال أقسم بالليل والنهار وما خلق الذكر والأنثى إن سعيكم لشتى قاله الشنواني وإنما حذف مفعولي أعطى ومفعول اتقى لأنَّ الغرض ذكر هذه الأحداث دون متعلقاتها والمعنى أعطى حق الله واتقى الله

لليسرى (كاف) ومثله للعسرى وكذا تردَّى للابتداء بإن

للهدى (جائز)

والأولى (كاف)

تلظى (جائز) لأن ما بعده يصلح استئنافاً وصفة

وتولى (تام) ولا يوقف على الأتقى لأن ما بعده صفة والصفة والموصوف كالشيء الواحد

يتزكى (حسن) ومثله تجزى وتجاوزه أولى

الأعلا (تام) ورسموا الأعلى بلا ألف كما ترى

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

قرأ : "وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى والذَّكَرِ وَالْأُنْثَى" بغير "ما 1 " – النبي "صلى الله عليه وسلم" وعلي بن أبي طالب وابن مسعود وأبو الدرداء وابن عباس ، رضي الله عنهم .

قال أبو الفتح : في هذه القراءة شاهد لما أخبرنا به أبو بكر محمد بن الحسن عن أبي العباس أحمد بن يحيى من قراءة بعضهم : "وَمَا خَلَقَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى" ، وذلك أنه جره لكونه بدلا من "ما" ، فقراءة النبي "صلى الله عليه وسلم" شاهد بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 363﴾

---

1 سورة الليل : 3 ، وفي البحر "8 : 483" والثابت في مصاحف الأمصار والمتواتر : ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى﴾ ، وما ثبت في الحديث من قراءة : "والذَّكَرَ وَالْأُنْثَى" نقل آحاد مخالف للسواد ، فلا يعد قرآنا .

وقال العلامة الدمياطي :

سورة الليل

مكية وقيل مدنية وآيها إحدى وعشرون مشبه الفاصلة أعطى القرآت أمال فواصلها اليائية وهي تسع عشرة حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق وأما أبو عمرو فله الفتح والتقليل وأمال الأشقى و الآتقى وقفا لكونهما من الفواصل وأمال لليسرى و العسرى أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان من طريق الصوري وقللهما الأزرق وأما من أعطى فليس برأس آية وأماله حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ومثلها يصليها ومر عن الأزرق أنه حيث قللها رقق اللام حتما وحيث فتحها غلظها كذلك لما مر أن التغليظ والإمالة ضدان

وقرأ (لليسرى وللعسرى) الآية 7 10 بضم السين فيهما أبو جعفر ومر بالبقرة

وقرأ ( ) نارا تلظى ( ) بتشديد التاء البزي بخلفه ورويس وهو شائع وإن كان فيه عسر للجمع بين ساكنين لصحة الرواية به واستعماله عن العرب والقراء فلا يلتفت لطعن الطاعن فيه وأما ما ذكره الديواني من تحريك النون هنا بالكسر وعزاه لقراءته على الجعبري فرده في النشر كما مر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة والليل "

" لليسرى ، للعسرى " ضم السين فيهما أبو جعفر وأسكنها غيره .

" نارا تلظى " شدد البزي ورويس التاء وصلا وخففها غيرهما . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البدور الزاهرة صـ 352 ﴾

(29/818)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة والليل 92

مكية وقال علي بن أبي طلحة هي مدنية وقد ذكر نظيرتها في المدني الأخير والمكي ولا نظير لها في غيرهما

وكلمها إحدى وسبعون كلمة

وحروفها ثلاث مئة وعشرة أحرف

وهي إحدى وعشرون آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل موضع واحد قوله عز وجل (﴿ فأما من أعطى ﴾) ورؤوس الآي

يغشى

1 تجلى

2 والأنثى

3 لشتى

4 واتقى

5 بالحسنى

6 لليسرى

7 واستغنى

8 بالحسنى

9 للعسرى

10 تردى

11 للهدى

12 والأولى

13 تلظى

14 الأشقى

15 وتولى

16 الأتقى

17 يتزكى

18 تجزى

19 الأعلى

20 يرضى

21 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 276﴾

(30/818)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبري :

سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (وما خلق) " ما " بمعنى من أو مصدرية ، فعلى الأول من كنى به عن الله عزوجل ، و (الذكر) مفعول أو يكون عن المخلوق ، فيكون الذكر بدلا من " من " والعائد محذوف (وما يغنى) يجوز أن يكون نفيا : وأن يكون استفهاما ، و (نارا تلظى) يقرأ بكسر التنوين وتشديد التاء ، وقد ذكر وجهه في قوله تعالى " ولا تيمموا الخبيث " .

قوله تعالى (إلا ابتغاء) هو استثناء من غير الجنس ، والتقدير : لكن فعل ذلك ابتغاء وجه ربه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(31/818)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الليل

[سورة الليل (92) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى (1)

"وَاللَّيْلِ" جار ومجرور متعلقان بفعل قسم محذوف "إِذا" ظرف زمان "يَغْشى" مضارع فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة .

[سورة الليل (92) : آية 2]

وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى (2)

معطوفة على ما قبلها والإعراب مماثل.

[سورة الليل (92) : آية 3]

وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (3)

"وَما" اسم موصول معطوف على ما قبله "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر "الذَّكَرَ" مفعول به "وَالْأُنْثى" معطوف على الذكر والجملة صلة.

[سورة الليل (92) : آية 4]

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4)

"إِنَّ سَعْيَكُمْ" إن واسمها واللام المزحلقة "لَشَتَّى" خبرها والجملة جواب القسم لا محل لها.

[سورة الليل (92) : آية 5]

فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى (5)

"فَأَمَّا" الفاء حرف تفريع واستئناف "أما" حرف شرط وتفصيل "مَنْ" مبتدأ "أَعْطى" ماض والفاعل مستتر "وَاتَّقى" معطوف على أعطى. وجملة أعطى صلة.

[سورة الليل (92) : آية 6]

وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى (6)

معطوفة على ما قبلها .

[سورة الليل (92) : آية 7]

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى (7)

"فَسَنُيَسِّرُهُ" الفاء واقعة في جواب من والسين للاستقبال ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر

"لِلْيُسْرى" متعلقان بالفعل والجملة خبر المبتدأ من .

[سورة الليل (92) : آية 8]

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى (8)

معطوفة على ما قبلها والإعراب واحد .

[سورة الليل (92) : آية 9]

وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى (9)

معطوفة أيضا على ما قبلها وإعرابه مثل سابقه .

[سورة الليل (92) : آية 10]

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى (10)

انظر الآية رقم - 7 - .

[سورة الليل (92) : آية 11]

وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى (11)

"وَما" الواو حرف استئناف "وَما" نافية "يُغْنِي" مضارع مرفوع "عَنْهُ" متعلقان بالفعل "مالُهُ" فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها . "إِذا" ظرف زمان "تَرَدَّى" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة .

[سورة الليل (92) : آية 12]

إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (12)

"إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "عَلَيْنا" متعلقان بمحذوف خبر إن المقدم "لَلْهُدى" اللام لام المزحلقة "الهدى" اسم إن المؤخر ، والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الليل (92) : آية 13]

وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى (13)

معطوفة على ما قبلها وإعرابها مثلها .

[سورة الليل (92) : آية 14]

فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (14)

"فَأَنْذَرْتُكُمْ" الفاء حرف استئناف وماض وفاعله ومفعوله الأول "ناراً" مفعول به ثان

والجملة مستأنفة لا محل لها . "تَلَظَّى" مضارع فاعله مستتر والجملة صفة نارا .

[سورة الليل (92) : آية 15]

لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى (15)

"لا يَصْلاها" لا نافية ومضارع ومفعوله "إِلَّا" حرف حصر "الْأَشْقَى" فاعل والجملة صفة ثانية لنارا .

[سورة الليل (92) : آية 16]

الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16)

"الَّذِي" اسم موصول صفة للأشقى "كَذَّبَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "وَتَوَلَّى" معطوف على كذب .

[سورة الليل (92) : آية 17]

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17)

"وَسَيُجَنَّبُهَا" الواو حرف عطف والسين للاستقبال ومضارع مبني للمجهول وها مفعول به "الْأَتْقَى" نائب فاعل . والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الليل (92) : آية 18]

الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى (18)

"الَّذِي" اسم موصول صفة الأتقى "يُؤْتِي" مضارع فاعله مستتر "مالَهُ" مفعول به والجملة

صلة "يَتَزَكَّى" مضارع فاعله مستتر والجملة حال .

[سورة الليل (92) : آية 19]

وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (19)

(33/818)

"وَما" الواو حرف عطف "ما" نافية "لِأَحَدٍ" خبر مقدم "عِنْدَهُ" ظرف مكان "مِنْ" حرف جر زائد "نِعْمَةٍ" مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخر والجملة معطوفة على ما قبلها "تُجْزى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة صفة نعمة .

[سورة الليل (92) : آية 20]

إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى (20)

"إِلَّا" حرف استثناء "ابْتِغاءَ" مستثنى منصوب "وَجْهِ" مضاف إليه "رَبِّهِ" مضاف إليه أيضا "الْأَعْلى" صفة وجه

[سورة الليل (92) : آية 21]

وَلَسَوْفَ يَرْضى (21)

"وَلَسَوْفَ" الواو حرف قسم وجر واللام واقعة في جواب القسم "سوف" حرف تسويف

واستقبال "يَرْضى " مضارع فاعله مستتر والجملة جواب القسم لا محل لها . انتهى انتهى .

اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 452. 453﴾

(34/818)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة وَاللَّيْل

فِيهَا حديثان

1498 - الحَدِيث الأول

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كل ميسر لما خلق لَهُ

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي آخر صَحِيحه فِي بَاب قَوْله تَعَالَى وَلَقَد يسرنَا الْقُرْآن للذّكر وَمُسلم فِي كتاب الْقدر من حَدِيث مطرف عَن عمرَان بن حُصَيْن قَالَ قيل يَا رَسُول الله اعْلَم أهل الْجنَّة من أهل النَّار فَقَالَ نعم قَالَ فَفِيمَ يعْمل الْعَامِلُونَ قَالَ كل ميسر لما خلق لَهُ انْتَهَى

وَرَوَاهُ مُسلم أَيْضا من حَدِيث عَلّي بن أبي طَالب قَالَ كُنَّا جُلُوسًا مَعَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَمَعَهُ عود ينكت بِهِ الأَرْض فَقَالَ مَا مِنْكُم من أحد إِلَّا وَقد كتب مَقْعَده من النَّار أَو

من الْجنَّة فَقَال رجل من الْقَوْم الا نتَّكِل يَا رَسُول الله قَال لَا اعْمَلُوا فَكل ميسر لما خلق لَهُ ثمَّ قَرَأَ فَأَما من أعْطى واتَّقى وَصدق بِالْحُسْنَى الْآيَة انْتَهَى أخرجه أَيْضا فِي كتاب الْقدر عَن أبي عبد الرَّحْمَن السّلمِيّ عَن عَلّي

1499 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انه قَالَ من قَرَأَ سُورَة وَاللَّيْل أعطَاهُ الله تَعَالَى حَتَّى يرْضى وَعَافَاهُ من الْعسر وَيسر لَهُ الْيُسْر

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن اسْلَمْ عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَبِسَنَد الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 223.224﴾

(35/818)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة والليل إذا يغشى» (92)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى» (3) ومن خلق «1» الذكر والأنثى . .

«لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى» (16) والعرب تضع «أفعل» فى موضع «فاعل» قال طرفة :

تمنّى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد

. (531)

«مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى» (19 - 20) استثنى من النعمة كما يستثنى الشيء من الشيء ليس منه . انتهى انتهى . اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 301﴾

---

(1) . - 3 «ومن خلق» : رواه القرطبي (20/ 81) عن أبي عبيدة .

(36/818)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الليل

"والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجلى " ظلام الليل يغطى العالم وضوء النهار يكشفه . ومع اختلاف الليل والنهار يقضى الناس آجالهم ويصنعون مستقبلهم ، فإما إلى جنة وإما إلى نار . السعى الصالح يرشح صاحبه لمستقبل نضير ، والعمل الردىء يمهد لصاحبه النهاية المزرية " فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى" . ولقد ظهرت أجيال فى الأمة الإسلامية جحدت طاقاتها ، ولاذت بالقعود والكسل ، ففقدت حاضرها ومستقبلها جميعا ، لأنها استحمقت فى فهم القضاء والقدر ، واعتنقت خرافة الجبر ، واعتمدت على الثرثرة فى تسويغ فشلها وعجزها . ومع ضرورة العطاء والصدق والتقوى ، لابد من ابتغاء وجه الله وتجريد النية من كل شائبة ! وهذا مطلب عسير . فأغلب الناس يعبد المال والجاه ، ويدور حول شخصه وأمجاده ومآربه ! ويخيل إلى أحيانا أن الرياء محور النشاط البشرى ، وأن الإخلاص أندر من الكبريت الأحمر كما يقولون ! " الذي يؤتي ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى" . ولو خلص العمل من حب الدنيا ، وقارنه طلب الآخرة لنجت الدنيا من فتن رهيبة ، وانطفأت حروب مدمرة واجتمعت أحزاب متفرقة ، وانتظمت صفوف مختلة . نسأل الله أن يأخذ بنواصينا إلى ما يرضى . . ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 523 ﴾

(37/818)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(38/818)

قوله تعالى ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي له العظمة الظاهرة والحكمة الباهرة (الرحمن) الذي شملت نعمته إيجاده وبيانه المتواترة (الرحيم) الذي خص من أراده بما يرضيه ، فجعله حامده وشاكره .

(39/818)

لما بين في الشمس حال من زكى نفسه وحال من دساها ، وأوضح في آخرها من مخالفة ثمود لرسولهم ما أهلكهم ، فعلم أن الناس مختلفون في السعي في تحصيل نجد الخير ونجد الشر ، فمنهم من تغلب عليه ظلمة اللبس ، ومنهم من يغلب عليه نهار الهدى ، فتباينوا في مقاصدهم ، وفي مصادرهم ومواردهم ، بعد أن أثبت أنه هو الذي تصرف في النفوس بالفجور والتقوى ، أقسم أول هذه بما يدل على عجائب صنعه في ضره ونفعه على ذلك ، تنبيهاً على تمام قدرته في أنه الفاعل بالاختيار ، يحول بين المرء وقلبه حتى يحمله على التوصل إلى مراده ، بضد ما يوصل إليه بل بما يوصل إلى مضاده ، وعلى أنه لا يكاد يصدق الاتحاد في القصد والاختلاف في السعي والتوصل ، وشرح جزاء كل تحذيراً من نجد الشر وترغيباً في نجد الخير ، وبين ما به التزكية وما به التدسية فقال : ﴿ والّيل ﴾ أي الذي هو آية الظلام الذي هو سبب الخبط والخلط لما يحدث عنه من الإشكال واللبس في الأحوال والإهلال الموصل إلى ظلمة العدم ، وهو محل الأسرار بما يصل الأخيار ويقطع الأشرار : ﴿ إذا يغشى ﴾ أي يغطي ما كان من الوجود مبصراً بضياء النهار على التدريج قليلاً قليلاً ، وما يدل عليه من جليل مبدعه ، وعظيم ماحقه ومطلعه ﴿ والنهار ﴾ أي الذي هو سبب انكشاف الأمور كالموت الذي يزيل عن الروح علائق البدن فينجلي لها ما كانت فيه من القبائح ، والجهر الذي يشرح النفس بإزالة اللبس ﴿ إذا تجلّى ﴾ أي ظهر ظهوراً عظيماً

بضياء الشمس ، وأظهر ما كان خفياً فلم يدع لمبصر شيئاً من لبس ، فمن كان يريد السر قصد الليل ، ومن أراد الجهر قصد النهار سواء كان من الأبرار أو من الفجار .

(40/818)

ولما ذكر المتخالطين معنى ، أتبعهما المتخالطين حساً ، فقال مصرحاً فيهما بما هو مراد في الأول ، وخص هذا بالتصريح تنبيهاً على أنه لكونه عاقلاً - عاقد يغلط في نفسه فيدعي الإلهية أو الاتحاد ، أو غير ذلك من وجوه الإلحاد ﴿ وما خلق ﴾ وحكم التعبير بما الأغلب فيه غير العقلاء ما تقدم في سورة الشمس من تنبيههم على أنهم لما أشركوا به سبحانه وتعالى ما لا يعقل نزلوه تلك المنزلة وقد أحاط بكل شيء ، وهو الذي خلق العلماء ، وهم لا يحيطون به علماً مع ما يفيده " ما " من التعجب منهم في ذلك لكونها صيغة التعجب ﴿ الذكر ﴾ أي حساً بآلة الرجل ومعنًى بالهمة والقوة ﴿ والأنثى ﴾ حساً بآلة المرأة ومعنًى بسفول الهمة وضعف القوة وما دلّا عليه من عظيم الاصطناع ، وباهر الاختراع والابتداع ، فإنه دل فرقه بينهما وهما من غير ؟ واحدة وهي التراب على تمام قدرته المستلزم لشمول علمه وفعله بالاختيار ، فالآية من الاحتباك : ذكر أولاً الصنعة دلالة على حذفها ثانياً ، وثانياً الصانع دلالة على حذفه أولاً .

ولما ذكر ما هو محسوس التخالف من المعاني والأجرام ، أتبعه ما هو معقول التباين من الأعراض فقال : ﴿ إن سعيكم ﴾ أي عملكم أيها المكلفون في التوصل إلى مقصد واحد ، ولذلك أكده لأنه لا يكاد يصدق اختلاف وجوه السعي مع اتحاد المراد ، وعبر بالسعي ليبذل كل في عمله غاية جهده ﴿ لشتى ﴾ أي مختلف اختلافاً شديداً باختلاف ما تقدم ، وهو جمع شتيت كقتلى وقتيل ، فيكون الإنسان رجلاً وهو أنثى الهمة ، ويكون أنثى وهو ذكر الفعل ، فتنافيتم في الاعتقادات ، وتعاندتم في المقالات ، وتباينتم غاية التباين بأفعال طيبات وخبيثات ، فساع في فكاك نفسه ، وساع في إيثامها ، فعلم قطعاً أنه لا بد من محق ومبطل ومرض ومغضب لأنه لا جائز أن يكون المتنافيان متحدين في الوصف بالإرضاء أو الإغضاب ، فبطل ما أراد المشركون من قولهم ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ [النحل : 35] الآية وما ضاهاها .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما بين قبل حالهم في الافتراق ، أقسم سبحانه على ذلك الشأن في الخلائق بحسب تقديره أزلاً ﴿ ليبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ [لا يوجد ليبلوهم بالياء في لغتنا وإنما كما في الكهف آية 7 : لنبلوهم .

.

.

وفي الملك آية 2 : لنبلوكم .

.

.

(42/818)

فقال تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ فاتصل بقوله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس : 10] إن قوله تعالى ﴿ فأما من أعطى واتقى – إلى – العسرى ﴾ يلائمه تفسيراً وتذكيراً بما الأمر عليه من كون الخير والشر بإرادته وإلهامه وبحسب السوابق قوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ [الشمس : 8] فهو سبحانه الملهم للإعطاء والاتقاء والتصدق ، والمقدر للبخل والاستغناء والتكذيب ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ [الصافات : 96] ﴿ لا يسئل عما يفعل ﴾ [الأنبياء : 23] ثم زاد ذلك إيضاحاً بقوله تعالى " إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ فتباً للقدرية

والمعتزلة ﴿ وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ [يوسف : 105] - انتهى .

(43/818)

ولما طابق بين القسم والمقسم عليه ، ونبه بالقسم والتأكيد مع ظهور المسقم عليه على أنهم في أمنهم مع التحذير كمن يدعي أنه لا فرق وأن مآل الكل واحد كما يقوله أصحاب الوحدة - عليهم الخزي واللعنة شرع في بيان تشتت المساعي وبيان الجزاء لها ، فقال مسبباً عن اختلافهم ما هو مركوز في الطباع من أنه لا يجوز تسوية المحسن بالمسيء ناشراً لمن زكى نفسه أو دساها نشراً مستوياً إيذاناً بأن المطيع فيه هذه الأمة - ولله الحمد - كثير بشارة لنبيها .صلى الله عليه وسلم. : ﴿ فأما من أعطى ﴾ أي وقع منه إعطاء على ما حددنا له وأمرناه به ﴿ واتقى ﴾ أي وقعت منه التقوى وهو اتخاذ الوقايات من الطاعات واجتناب المعاصي خوفاً من سطواتنا ﴿ وصدق ﴾ أي أوقع التصديق للمخبر ﴿ بالحسنى ﴾ أي وهي كلمة العدل التي هي أحسن الكلام من التوحيد وما يتفرع عنه من الوعود الصادقة بالآخرة والإخلاف في النفقة في الدنيا وإظهار الدين وإن قل أهله على الدين كله ، وغير ذلك من كل ما وعد به الرسول .صلى الله عليه وسلم. سبحانه وتعالى ، وعدل الكلام إلى

مظهر العظمة إشارة إلى صعوبة الطاعة على النفس وإن كانت في غاية اليسر في نفسها لأنها في غاية الثقل على النفس فقال : ﴿ فسنيسره ﴾ أي نهيئه بما لنا من العظمة بوعد لا خلف فيه ﴿ لليسرى ﴾ أي الخصلة التي هي في غاية اليسر والراحة من الرحمة المقتضية للعمل بما يرضيه سبحانه وتعالى ليصل إلى ما يرضى به من الحياة الطيبة ودخول الجنة.

ولما ذكر المزكي وثمرته ، أتبعه المدسي وشقوته فقال : ﴿ وأما من بخل ﴾ أي أوجد هذه الحقيقة الخبيثة فمنع ما أمر به وندب إليه ﴿ واستغنى ﴾ أي طلب الغنى عن الناس وعما وعد به من الثواب وأوجده بما زعمت له نفسه الخائبة وظنونه الكاذبة.

(44/818)

فلم يحسن إلى الناس ولا عمل للعقبى : ﴿ وكذب ﴾ أي أوقع التكذيب أن يستحق التصديق ﴿ بالحسنى ﴾ أي فأنكرها ، ولما كان جامداً مع المحسوسات كالبهائم قال : ﴿ فسنيسره ﴾ أي نهيئه بما لنا من العظمة وعد لا خلف فيه ﴿ للعسرى ﴾ أي للخصلة التي هي أعسر الأشياء وأنكدها ، وهي العمل بما يغضبه سبحانه الموجب لدخول النار وما أدى إليه ، وأشار بنون العظمة في كل من نجد الخير ونجد الشر إلى أن ارتكاب الإنسان لكل منهما في غاية البعد ، أما نجد الخير فلما حفه من المكاره ، وأما نجد الشر فلما في العقل

والفطرة الأولى من الزواجر عنه ، وذلك كله أمر قد فرغ منه في الأزل بتعيين أهل السعادة وأهل الشقاوة " وكل كما قال . صلى الله عليه وسلم . - ميسر لما خلق له " .

ولما كان أهل الدنيا إذا وقعوا في ورطة تخلصوا منها بأموالهم قال : ﴿ وما يغني ﴾ أي في تلك الحالة ﴿ عنه ﴾ أي هذا الذي بخل وكذب ﴿ ماله ﴾ أي الذي بخل به رجاء نفعه ، ويجوز أن يكون استفهاماً إنكارياً فيكون نافياً للإغناء على أبلغ وجه ﴿ إذا تردّى ﴾ أي هلك بالسقوط في حفرة القبر والنار ، تفعّل من الردى وهو الهلاك والسقوط في بئر . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 445 . 448 ﴾

(45/818)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ ناراً تلظى ﴾ بتشديد التاء : البزي وابن فليح .

الوقوف : ﴿ يغشى ﴾ ە لا ﴿ تجلى ﴾ ە لا ﴿ والأنثى ﴾ ە لا ﴿ لشتى ﴾ ە ط ﴿ واتقى ﴾ ە لا ﴿ بالحسنى ﴾ ە لا ﴿ لليسرى ﴾ ە ط ﴿ واستغنى ﴾ ە لا ﴿ بالحسنى ﴾ ە لا ﴿ للعسرى ﴾ ط ﴿ تردّى ﴾ ە ط ﴿ للهدى ﴾ ە ز للعطف مع

رعاية جانب " أنّ " والوصل أجوز لإتمام الكلام ﴿ والأولى ﴾ ه ﴿ تلظى ﴾ ه ج لأن ما بعده صفة أو استئناف ﴿ الأشقى ﴾ ه لا ﴿ وتولى ﴾ ه ط ﴿ الأتقى ﴾ ه لا ﴿ يتزكى ﴾ ه ج لأن ما بعده استئناف أو حال ﴿ تجزى ﴾ ه ﴿ الأعلى ﴾ ه ج لاختلاف الجملتين ﴿ يرضى ﴾ ه. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 510 ﴾

(46/818)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) ﴾

اعلم أنه تعالى أقسم بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه ويسكن الخلق عن الاضطراب ويغشاهم النوم الذي جعله الله راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم ، ثم أقسم بالنهار إذا تجلى ، لأن النهار إذا جاء انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة ، وجاء الوقت الذي يتحرك فيه الناس لمعاشهم وتتحرك الطير من أوكارها والهوام من مكامنها ، فلو كان الدهر كله ليلاً لتعذر المعاش ولو كان كله نهاراً لبطلت الراحة ، لكن المصلحة كانت في تعاقبهما على ما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً ﴾ [

الفرقان : 62] ، ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ [إبراهيم : 33] أما قوله : ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾ فاعلم أنه تعالى لم يذكر مفعول يغشى ، فهو إما الشمس من قوله : ﴿ والليل إِذَا يغشاها ﴾ [الشمس : 4] وإما النهار من قوله : ﴿ يغشى الليل والنهار ﴾ [الرعد : 3] وإما كل شيء يواريه بظلامه من قوله : ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ [الفلق : 3] وقوله : ﴿ والنهار إِذَا تجلى ﴾ أي ظهر بزوال ظلمة الليل ، أو ظهر وانكشف بطلوع الشمس .

وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تفسيره وجوه أحدها : أي والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد ، وقيل : هما آدم وحواء وثانيها : أي وخلقه الذكر والأنثى وثالثها : ما بمعنى من أي ومن خلق الذكر والأنثى ، أي والذي خلق الذكر والأنثى .

المسألة الثانية :

قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ والذكر والأنثى ﴾ وقرأ ابن مسعود : (والذي خلق الذكر والأنثى) وعن الكسائي : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ بالجر ، ووجهه أن يكون معنى : ﴿ وَمَا خَلَقَ ﴾ أي وما خلقه الله تعالى ، أي مخلوق الله ، ثم يجعل الذكر والأنثى

بدلاً منه ، أي ومخلوق الله الذكر والأنثى ، وجاز إضمار اسم الله لأنه معلوم أنه لا خالق إلا هو .

(47/818)

المسألة الثالثة :

القسم بالذكر والأنثى يتناول القسم بجميع ذوي الأرواح الذين هم أشرف المخلوقات ، لأن كل حيوان فهو إما ذكر أو أنثى والخنثى فهو في نفسه لا بد وأن يكون إما ذكراً أو أنثى ، بدليل أنه لو حلف بالطلاق ، أنه لم يلق في هذا اليوم لا ذكراً ولا أنثى ، وكان قد لقي خنثى فإنه يحنث في يمينه .

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4)

هذا الجواب القسم ، فأقسم تعالى بهذه الأشياء ، أن أعمال عباده لشتى أي مختلفة في الجزاء وشتى جمع شتيت مثل مرضى ومريض ، وإنما قيل للمختلف : شتى ، لتباعد ما بين بعضه وبعضه ، والشتات هو التباعد والافتراق ، فكأنه قيل : إن عملكم لمتباعد بعضه من بعض ، لأن بعضه ضلال وبعضه هدى ، وبعضه يوجب الجنان ، وبعضه يوجب النيران ، فشتان ما بينهما ، ويقرب من هذه الآية قوله : ﴿ لَا يَسْتَوِى أصحاب النار وأصحاب

الجنة ﴾ [الحشر : 20] وقوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يستوون ﴾ [السجدة : 18] وقوله : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ [الجاثية : 21] وقال : ﴿ وَلَا الظل ولا الحرور ﴾ [فاطر : 21] قال المفسرون : نزلت هذه الآية في أبي بكر وأبي سفيان .

ثم إنه سبحانه بين معنى اختلاف الأعمال فيما قلناه من العاقبة المحمودة والمذمومة والثواب والعقاب .

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5)

وفي قوله ﴿ أعطى ﴾ وجهان : أحدهما : أن يكون المراد إنفاق المال في جميع وجوه الخير من عتق الرقاب وفك الأسارى وتقوية المسلمين على عدوهم كما كان يفعله أبو بكر سواء كان ذلك واجباً أو نفلاً ، وإطلاق هذا كالإطلاق في قوله : ﴿ وَمِمَّا رزقناهم يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال : 3] فإن المراد منه كل ذلك إنفاقاً في سبيل الله سواء كان واجباً أو نفلاً ، وقد مدح الله قوماً فقال : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ [الإنسان :

8] وقال في آخر هذه السورة : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى * الذى يُؤْتى مَالَهُ يتزكى * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نّعْمَةٍ تجزى * إلاّ ابتغاء وَجْهِ رَبّهِ الأعلى ﴾ [الليل : 17-20] ، وثانيهما : أن قوله : ﴿ أعطى ﴾ يتناول إعطاء حقوق المال وإعطاء حقوق النفس في طاعة الله تعالى ، يقال : فلان أعطى الطاعة وأعطى السعة وقوله : ﴿ واتقى ﴾ فهو إشارة إلى الاحتراز عن كل مالا ينبغي ، وقد ذكرنا أنه هل من شرط كونه متقياً أن يكون محترزاً عن الصغائر أم لا في تفسير قوله تعالى : ﴿ هُدًى لّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] وقوله : ﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ فالحسنى فيها وجوه أحدها : أنها قول لا إله إلا الله ، والمعنى : فأما من أعطى واتقى وصدق بالتوحيد والنبوة حصلت له الحسنى ، وذلك لأنه لا ينفع مع الكفر إعطاء مال ولا اتقاء محارم ، وهو كقوله : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ [البلد : 14] إلى قوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البلد : 17] وثانيها : أن الحسنى عبارة عما فرضه الله تعالى من العبادات على الأبدان وفي الأموال كأنه قيل : أعطى في سبيل الله واتقى المحارم وصدق بالشرائع ، فعلم أنه تعالى لم يشرعها إلا لما فيها من وجوه الصلاح والحسن وثالثها : أن الحسنى هو الخلف الذي وعده الله في قوله : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مّن شَىْء فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ [سبأ : 39] والمعنى : أعطى

من ماله في طاعة الله مصدقاً بما وعده الله من الخلف الحسن ، وذلك أنه قال : ﴿ مَّثَلُ الذين يُنفِقُونَ أموالهم فِي سَبِيلِ الله ﴾ [البقرة : 261] فكان الخلف لما كان زائداً صح إطلاق لفظ الحسنى عليه ، وعلى هذا المعنى : ﴿ وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ أي لم يصدق بالخلف ، فبخل بماله لسوء ظنه بالمعبود ، كما قال بعضهم : منع الموجود ، سوء ظن بالمعبود ، وروي عن أبي الدرداء أنه قال : " ما من يوم غربت فيه الشمس إلا وملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثقلين .

اللهم أعط كل منفق خلفاً وكل ممسك تلفاً " ورابعها : أن الحسنى هو الثواب ، وقيل : إنه الجنة ، والمعنى واحد ، قال قتادة : صدق بموعود الله فعمل لذلك الموعود ، قال القفال : وبالجملة أن الحسنى لفظة تسع كل خصلة حسنة ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الحسنيين ﴾ [التوبة : 52] يعني النصر أو الشهادة ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ [الشورى : 23] فسمى مضاعفة الأجر حسنى ، وقال : ﴿ إِنَّ لِى عِندَهُ للحسنى ﴾ [فصلت : 50] .

وأما قوله : ﴿ فَسَنُيَسّرُهُ لليسرى ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تفسير هذه اللفظة وجوه أحدها : أنها الجنة وثانيها : أنها الخير وقالوا في العسرى : أنها الشرك وثالثها : المراد منه أن يسهل عليه كل ما كلف به من الأفعال والتروك ، والمراد من العسرى تعسير كل ذلك عليه ورابعها : اليسرى هي العود إلى الطاعة التي أتى بها أولاً ، فكأنه قال فسنيسره لأن يعود إلى الإعطاء في سبيل الله ، وقالوا : في العسرى ضد ذلك أي نيسره لأن يعود إلى البخل والامتناع من أداء الحقوق المالية ، قال القفال : ولكل هذه الوجوه مجاز من اللغة ، وذلك لأن الأعمال بالعواقب ، فكل ما أدت عاقبته إلى يسر وراحة وأمور محمودة ، فإن ذلك من اليسرى ، وذلك وصف كل الطاعات ، وكل ما أدت عاقبته إلى عسر وتعب فهو من العسرى ، وذلك وصف كل المعاصي .

المسألة الثانية :

التأنيث في لفظ اليسرى ، ولفظ العسرى فيه وجوه أحدها : أن المراد من اليسرى والعسرى إن كان جماعة الأعمال ، فوجه التأنيث ظاهر ، وإن كان المراد عملاً واحداً رجع التأنيث إلى الخلة أو الفعلة ، وعلى هذا من جعل يسرى هو تيسير العود (ة) إلى ما فعله الإنسان من الطاعة رجع التأنيث إلى العود (ة) ، وكأنه قال : فسنيسره للعود (ة) التي

هي كذا وثانيها : أن يكون مرجع التأنيث إلى الطريقة فكأنه قال : للطريقة اليسرى والعسرى وثالثها : أن العبادات أمور شاقة على البدن ، فإذا علم المكلف أنها تفضي إلى الجنة سهلت تلك الأفعال الشاقة عليه ، بسبب توقعه للجنة ، فسمى الله تعالى الجنة يسرى ، ثم علل حصول اليسرى في أداء الطاعات بهذه اليسرى وقوله : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ﴾ بالضد من ذلك .

المسألة الثالثة :

(51/818)

في معنى التيسير لليسرى والعسرى وجوه : وذلك لأن من فسر اليسرى بالجنة فسر التيسير لليسرى بإدخال الله تعالى إياهم في الجنة بسهولة وإكرام ، على ما أخبر الله تعالى عنه بقوله : ﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مّن كُلّ بَابٍ * سلام عَلَيْكُمُ ﴾ [الرعد : 24 23] وقوله : ﴿ طِبْتُمْ فادخلوها خالدين ﴾ [الزمر : 73] وقوله : ﴿ سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عقبى الدار ﴾ [الرعد : 24] وأما من فسر اليسرى بأعمال الخير فالتيسير لها هو تسهيلها على من أراد حتى لا يعتريه من التثاقل ما يعتري المرائين والمنافقين من الكسل ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] وقال : ﴿ وإذا قاموا إلى

الصلاة قاموا كسالى ﴾ [النساء : 142] وقال : ﴿ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفروا فِى سَبِيلِ الله اثاقلتم إِلَى الارض ﴾ [التوبة : 38] فكان التيسير هو التنشيط .

المسألة الرابعة :

استدل الأصحاب بهذه الآية على صحة قولهم في التوفيق والخذلان ، فقالوا : إن قوله تعالى : ﴿ فَسَنُيَسّرُهُ لليسرى ﴾ يدل على أنه تعالى خص المؤمن بهذا التوفيق ، وهو أنه جعل الطاعة بالنسبة إليه أرجح من المعصية ، وقوله : ﴿ فَسَنُيَسّرُهُ للعسرى ﴾ يدل على أنه خص الكافر بهذا الخذلان ، وهو أنه جعل المعصية بالنسبة إليه أرجح من الطاعة ، وإذا دلت الآية على حصول الرجحان لزم القوم بالوجوب لأنه لا واسطة بين الفعل والترك ، ومعلوم أن حال الاستواء يمتنع الرجحان ، فحال المرجوحية أولى بالامتناع ، وإذا امتنع أحد الطرفين وجب حصول الطرف الآخر ضرورة أنه لا خروج عن طرفي النقيض .

(52/818)

أجاب القفال رحمه الله عن وجه التمسك بالآية من وجوه أحدها : أن تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور ، قال تعالى : ﴿ وَجَزَاء سَيّئَةٍ سَيّئَةٌ مّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] وقال : ﴿ فَبَشّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الإنشقاق : 24] فلما سمى الله فعل

الألطاف الداعية إلى الطاعات تيسيراً لليسرى ، سمى ترك هذه الألطاف تيسيراً للعسرى

وثانيها : أن يكون ذلك على جهة إضافة الفعل إلى المسبب له دون الفاعل .

كما قيل في الأصنام : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ الناس ﴾ [إبراهيم : 36] وثالثها : أن يكون ذلك على سبيل الحكم به والإخبار عنه والجواب : عن الكل أنه عدول عن الظاهر ، وذلك غير جائز ، لاسيما أنا بينا أن الظاهر من جانبنا متأكد بالدليل العقلي القاطع ، ثم إن أصحابنا أكدوا ظاهر هذه الآية بما روى عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من نفس منفوسة إلا وقد علم الله مكانها من الجنة والنار ، قلنا : أفلا نتكل ؟ قال : لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له " أجاب القفال عنه بأن الناس كلهم خلقوا ليعبدوا الله ، كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] واعلم أن هذا ضعيف لأنه عليه السلام إنما ذكر هذا جواباً عن سؤالهم ، يعني اعملوا فكل ميسر لما وافق معلوم الله ، وهذا يدل على قولنا : أن ما قدره الله على العبد وعلمه منه فإنه ممتنع التغيير ، والله أعلم .

المسألة الخامسة :

في دخول السين في قوله : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾ وجوه أحدها : أنه على سبيل الترفيق والتلطيف وهو من الله تعالى قطع ويقين ، كما في قوله : ﴿ اعبدوا رَبَّكُمُ ﴾ إلى قوله ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : 21] وثانيها : أن يحمل ذلك على أن المطيع قد يصير عاصياً ، والعاصي قد يصير بالتوبة مطيعاً ، فهذا السبب كان التغيير فيه محالاً وثالثها : أن الثواب لما كان أكثره واقعاً في الآخرة ، وكان ذلك مما لم يأت وقته ، ولا يقف أحد على وقته إلا الله ، لا جرم دخله تراخ ، فأدخلت السين لأنها حرف التراخي ليدل بذلك على أن الوعد آجل غير حاضر ، والله أعلم .

أما قوله تعالى :

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11)

فاعلم أن (ما) هنا يحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الإنكار ، ويحتمل أن يكون نفياً .

وأما ﴿ تردى ﴾ ففيه وجهان الأول : أن يكون ذلك مأخوذاً من قولك : تردى من الجبل : قال الله تعالى : ﴿ والمتردية والنطيحة ﴾ [المائدة : 3] فيكون المعنى : تردى في الحفرة إذا قبر ، أو تردى في قعر جهنم ، وتقدير الآية : إنا إذا يسرناه للعسرى ، وهي النار تردى في جهنم ، فماذا يغني عنه ماله الذي بخل به وتركه لوارثه ، ولم يصحبه منه إلى آخرته ، التي هي موضع فقره وحاجته شيء ، كما قال : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خولناكم وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام : 94] وقال : ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا

فَرْداً ﴾ [مريم : 80] أخبر أن الذي ينتفع الإنسان به هو ما يقدمه الإنسان من أعمال البر وإعطاء الأموال في حقوقها ، دون المال الذي يخلفه على ورثته الثاني : أن تردى تفعل من الردى وهو الهلاك يريد الموت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 179 . 183 ﴾

(54/818)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ واللَّيلِ إذَا يغشى ﴾

أي يُغَطِّي .

ولم يذكر معه مفعولاً للعلم به .

وقيل : يغشى النهار .

وقيل : الأرض .

وقيل : الخلائق .

وقيل : يغشى كل شيء بظلمته .

وروى سعيد عن قتادة قال : أولُ ما خلق الله النور والظلمة ، ثم مَيَّز بينهما ، فجعل الظلمة

ليلاً أسود مظلماً ، والنور نهاراً مضيئاً مبصِراً .

﴿ والنهار إذَا تجلى ﴾ أي إذا انكشف ووضح وظهر ، وبان بضوئه عن ظلمة الليل .

﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ قال الحسن : معناه والذي خلق الذكر والأنثى ؛ فيكون قد أقسم بنفسه عز وجل .

وقيل : معناه وخلق الذكر والأنثى ؛ (فَما) : مصدرية على ما تقدم .

وأهل مكة يقولون للرعد : سُبْحان ما سَبَّحتَ لَه ! (فما) على هذا بمعنى (مَنْ) ، وهو قول أبي عبيدة وغيره .

وقد تقدّم .

وقيل : المعنى وما خلق من الذكر والأنثى ؛ فتكون "مِنْ" مضمرة ، ويكون القسم منه بأهل طاعته ، من أنبيائه وأوليائه ، ويكون قسمه بهم تكرمة لهم وتشريفاً .

وقال أبو عبيدة : "وما خلق" أي مَنْ خلق .

وكذا قوله : "والسماءِ وما بناها" ، "ونفس وما سوّاها" ، "ما" في هذه المواضع بمعنى منْ .

ورُوي عن ابن مسعود أنه كان يقرأ "والنهار إذا تجلى .

والذكر والأنثى" ويسقط "وما خلق" .

وفي صحيح مسلم عن علقمة قال : قدمنا الشام ، فأتانا أبو الدرداء ، فقال : فيكم أحد

يقرأ عليّ قراءة عبد الله ؟ فقلت : نعم ، أنا .

قال : فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾ ؟ قال : سمعته يقرأ "والليلِ إذا يَغْشَى .

والذكر والأنثى" قال : وأنا والله هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ، ولكن هؤلاء يريدون أن أقرأ "وما خلق" فلا أتابعهم .

(55/818)

قال أبو بكر الأنباريّ : وحدثنا محمد بن يحيى المروزيّ قال حدثنا محمد قال حدّثنا أبو أحمد الزبيريّ قال حدّثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم "إني أنا الرازق ذو القوّة المتِين" ؛ قال أبو بكر : كل من هذين الحديثين مردود ؛ بخلاف الإجماع له ، وأن حمزة وعاصماً يرويان عن عبد الله بن مسعود ما عليه جماعة المسلمين ، والبناء على سندين يوافقان الإجماع أولى من الأخذ بواحد يخالفه الإجماع والأمة ، وما يبنى على رواية واحد إذا حاذاه رواية جماعة تخالفه ، أخذ برواية الجماعة ، وأبطل نقل الواحد ؛ لما يجوز عليه من النسيان والإغفال .

ولو صح الحديث عن أبي الدرداء وكان إسناده مقبولاً معروفاً ، ثم كان أبو بكر وعمر

وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم يخالفونه ، لكان الحكم العمل بما روته الجماعة ، ورفض ما يحكيه الواحد المنفرد ، الذي يسرع إليه من النسيان ما لا يسرع إلى الجماعة ، وجميع أهل الملة .

وفي المراد بالذكر والأنثى قولان : أحدهما : آدم وحوّاء ؛ قاله ابن عباس والحسن والكلبيّ .

الثاني : يعني جميع الذكور والإناث من بني آدم والبهائم ؛ لأن الله تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى من نوعهم .

وقيل : كل ذكر وأنثى من الآدميين دون البهائم لاختصاصهم بولاية الله وطاعته .

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ هذا جواب القسم .

والمعنى : إن عملكم لمختلف .

وقال عكرمة وسائر المفسرين : السعي : العمل ؛ فساعٍ في فَكَاك نفسه ، وساعٍ في عَطَبها ؛ يدل عليه قوله عليه السلام : " الناس غاديان : فمبتاع نفسه فمعتِقها ، وبائع نفسه فموبِقها "

وشتى : واحده شتيت ؛ مثل مريض ومرضى .

وإنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه .

أي إنّ عملكم لمتباعد بعضه من بعض ؛ لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى .

أي فمنكم مؤمن وبر ، وكافر وفاجر ، ومطيع وعاصٍ .

وقيل : "لشتى" أي لمختلف الجزاء ؛ فمنكم مثاب بالجنة ، ومعاقب بالنار .

وقيل : أي لمختلف الأخلاق ؛ فمنكم راحم وقاس ، وحليم وطائش ، وجواد وبخيل ؛ وشبه ذلك .

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5)

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى ﴾ قال ابن مسعود : يعني أبا بكر رضي الله عنه ؛ وقاله عامة المفسرين .

فروي عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يُعْتق على الإسلام عجائز ونساء ، قال : فقال له أبوه قحافة : أي بني ! لو أنك أعتقت رجالاً جُلْداً يمنعونك ويقومون معك ؟ فقال : يا أبت إنما أريد ما أريد .

وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى ﴾ أي بذل .

﴿ واتقى ﴾ أي محارم الله التي نَهَى عنها .

﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ أي بالخَلَف من الله تعالى على عطائه .

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ومَلَكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعطِ

منفقاً خَلَفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً " وروي من حديث أبي الدرداء : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من يوم غرَبَت شمسه إلا بُعِث بجنبتها ملكان يناديان يسمعهما خلق الله كلهم إلا الثَّقلين : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأَعطِ ممسِكاً تلفاً " فأنزل الله تعالى في ذلك في القرآن ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى ﴾ . . .

الآيات .

وقال أهل التفسير : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى ﴾ المُعْسِرين .

وقال قتادة : أعطى حق الله تعالى الذي عليه .

وقال الحسن : أعطى الصدق من قلبه .

﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ أي بلا إله إلا الله ؛ قاله الضحاك والسلمي وابن عباس أيضاً .

وقال مجاهد : بالجنة ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] . . .

الآية .

وقال قتادة : بموعود الله الذي وعده أن يثيبه .

زيد بن أسلم : بالصلاة والزكاة والصوم .

الحسن : بالخَلَف من عطائه ؛ وهو اختيار الطبريّ .

وتقدم عن ابن عباس ، وكله متقارب المعنى إذ كله يرجع إلى الثواب الذي هو الجنة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ﴾ أي نرشده لأسباب الخير والصلاح ، حتى يسهل عليه فعلها .

وقال زيد بن أسلم : "لليسرى" للجنة .

وفي الصحيحين والترمذي " عن عليّ رضي الله عنه قال : كنا في جنازة بالبقِيع ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فجلس وجلسنا معه ، ومعه عود ينكُتُ به في الأرض ، فرفع رأسه إلى السماء فقال : "ما مِن نفسٍ منفوسةٍ إلا قد كِتب مدخلها" فقال القوم : يا رسول الله ، أفلا نتكِل على كتابنا ؟ فمن كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة ، ومن كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء .

قال : "بل اعملوا فكل ميسر ؛ أما من كان من أهل السعادة فإنه يُيَسَّر لعمل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه ييسر لعمل الشقاء ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى * وَصَدَّقَ بالحسنى * فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى * وَأَمَّا من بَخِلَ واستغنى * وَكَذَّبَ بالحسنى * فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ " "

لفظ الترمذيّ .

وقال فيه : حديث حسن صحيح .

" وسأل غلامان شابان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : العمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم في شيء يستأنف ؟ فقال عليه السلام : "بل فيما جفت به الأقلام ، وجرت به المقادير" قالا : ففيم العمل ؟ قال : "اعملوا ، فكل ميسر لعمل الذي خلق له" " قالا : فالآن نجد ونعمل .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغنى ﴾ أي ضنّ بما عنده ، فلم يبذل خيراً .

وقد تقدّم بيانه وثمرته في الدنيا في سورة "آل عمران" .

وفي الآخرة مآله النار ، كما في هذه الآية .

روى الضحاك عن ابن عباس ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ قال : سوف أحول بينه وبين الإيمان بالله وبرسوله .

(58/818)

وعنه عن ابن عباس قال : نزلت في أمية بن خلف وروى عكرمة عن ابن عباس : "وأما من بخِل واستغنى" يقول : بخِل بماله ، واستغنى عن ربه .

﴿ وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ أي بالخلف .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد : "وكذب بالحسنى" قال : بالجنة .

وبإسناد عنه آخر قال : "بالحسنى" أي بلا إله إلا الله .

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾ أي نسهل طريقه .

﴿ للعسرى ﴾ أي للشر .

وعن ابن مسعود : للنار .

وقيل : أي فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها .

وقد تقدّم : أن الملك ينادي صباحاً ومساءً : " اللهم أعطِ منفِقاً خلفاً ، وأعط ممسِكاً تلفاً " رواه أبو الدرداء .

مسألة : قال العلماء : ثبت بهذه الآية وبقوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ [البقرة : 3] ، وقوله : ﴿ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بالليل والنهار سِرّاً وَعَلاَنِيَةً ﴾ [البقرة : 274] إلى غير ذلك من الآيات أن الجود من مكارم الأخلاق ، والبخل من أرذلها .

وليس الجواد الذي يعطي في غير موضع العطاء ، ولا البخيل الذي يمنع في موضع المنع ، لكن الجواد الذي يعطي في موضع العطاء ، والبخيل الذي يمنع في موضع العطاء ، فكل من استفاد بما يعطي أجراً وحمداً فهو الجواد .

وكل من استحق بالمنع ذماً أو عقاباً فهو البخيل .

ومن لم يستفد بالعطاء أجراً ولا حمداً ، وإنما استوجب به ذماً فليس بجواد ، وإنما هو

مسرف مذموم ، وهو من المبذِّرين الذين جعلهم الله إخوان الشياطين ، وأوجب الحجْر عليهم .

ومن لم يستوجب بالمنع عقاباً ولا ذماً ، واستوجب به حمداً ، فهو من أهل الرشد ، الذين يستحقون القيام على أموال غيرهم ، بحسن تدبيرهم وسداد رأيهم .

(59/818)

الرابعة : قال الفراء : يقول القائل : كيف قال : "فسنيسره للعسرى" ؟ وهل في العسرى تيسير ؟ فيقال في الجواب : هذا في إجازته بمنزلة قوله عز وجل : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21] ، والبِشارة في الأصل على المفرح والسارّ ، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر ، جاءت البشارة فيهما .

وكذلك التيسير في الأصل على المفرح ، فإذا جمع في كلامين هذا خير وهذا شر ، جاء التيسير فيهما جميعاً .

قال الفراء : وقوله تعالى : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾ : سنهيئه .

والعرب تقول : قد يَسَّرَتِ الغنم : إذا ولدت أو تهيأت للولادة .

قال :

هما سيدانا يزعمان وإنما . . .

يَسُودانِنا أن يَسَّرتْ غنما هما

قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ﴾ أي مات .

يقال : رَدِيَ الرجُل يَرْدَى رَدًى : إذا هلك .

قال :

صرفت الهوى عنهنّ من خشية الردى . . .

وقال أبو صالح وزيد بن أسلم : "إذا تردى" : سقط في جهنم ؛ ومنه المتردّية .

ويقال : رَدِي في البئر وتردى : إذا سقط في بئر ، أو تهوّر من جبل .

يقال : ما أدري أين رَدِيَ ؟ أي أين ذهب .

و"ما" : يحتمل أن تكون جحداً ؛ أي ولا يغني عنه ماله شيئًا ؛ ويحتمل أن تكون استفهاماً معناه التوبيخ ؛ أي أيّ شيء يغني عنه إذا هلك ووقع في جهنم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

تفسير سورة الليل

وهي مكية .

تقدم قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ : "فهلا صليت ب " سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى " " وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا " " وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى " ؟ " .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا شعبة ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، عن علقمة : أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق ، فصلى فيه ركعتين وقال : اللهم ، ارزقني جليسًا صالحًا . قال : فجلس إلى أبي الدرداء ، فقال له أبو الدرداء : ممن أنت ؟ قال : من أهل الكوفة . قال : كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ ؟ قال علقمة : "والذكر والأنثى" . فقال أبو الدرداء : لقد سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما زال هؤلاء حتى شككوني . ثم قال : ثم ألم يكن فيكم صاحب الوساد وصاحب السر الذي لا يعلمه أحد غيره ، والذي أجير من الشيطان على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ؟ (1) .

---

(1) المسند (449/6) وتكملة الحديث "وصاحب الوساد : ابن مسعود ، وصاحب السر : حذيفة ، والذي أجير من الشيطان : عمار" .

(61/818)

وقد رواه البخاري هاهنا ومسلم ، من طريق الأعمش ، عن إبراهيم قال : قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء ، فطلبهم فوجدهم ، فقال : أيكم يقرأ على قراءة عبد الله ؟ قالوا : كلنا ، قال : أيكم أحفظ ؟ فأشاروا إلى علقمة ، فقال : كيف سمعته يقرأ : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ ؟ قال : "والذكر والأنثى" . قال : أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هكذا ، وهؤلاء يريدوني أن أقرأ : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ والله لا أتابعهم (1) .

هذا لفظ البخاري : هكذا قرأ ذلك ابن مسعود ، وأبو الدرداء – ورفعه أبو الدرداء – وأما الجمهور فقرأوا ذلك كما هو مُثبَت في المصحف الإمام العثماني في سائر الآفاق : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾

---

(1) صحيح البخاري برقم (4944) وصحيح مسلم برقم (824) .

فأقسم تعالى بـ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ أي: إذا غشي الخليقة بظلامه، ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ أي: بضيائه وإشراقه، ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ كقوله: ﴿ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ [النبأ: 8]، وكقوله: ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: 49].

ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضا متضادا؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ أي: أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة أيضًا ومتخالفة، فمن فاعل خيرا ومن فاعل شرا.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ أي: أعطى ما أمر بإخراجه، واتقى الله في أموره، ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أي: بالمجازاة على ذلك - قاله قتادة، وقال خَصِيف: بالثواب. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وأبو صالح، وزيد بن أسلم: ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أي: بالخلف. وقال أبو عبد الرحمن السلمي، والضحاك: ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أي: بلا إله إلا الله. وفي رواية عن عكرمة: ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أي: بما أنعم الله عليه. وفي رواية عن زيد بن أسلم: ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ قال:

الصلاة والزكاة والصوم . وقال مرة : وصدقة الفطر .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان بن صالح الدمشقي ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا زُهَير بن محمد ، حدثني مَن سَمِع أبا العالية الرياحي يُحدث عن أبي بن كعب قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحسنى قال : "الحسنى : الجنة" (1) .

وقوله : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ قال ابن عباس : يعني للخير . وقال زيد بن أسلم : يعني للجنة .

---

(1) ورواه الطبري في تفسيره (15/69) ط - المعارف ، من طريق عمرو بن أبي سلمة عن زهير به .

(63/818)

وقال بعض السلف : من ثواب الحسنة الحسنةُ بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئةُ بعدها ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ أي : بما عنده ، ﴿ واستغنى ﴾ قال عكرمة ، عن ابن عباس : أي بخل بماله ، واستغنى عن ربه ، عز وجل . رواه ابن أبي حاتم .

﴿ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴾ أي : بالجزاء في الدار الآخرة .

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ أي : لطريق الشر ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : 11] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله ، عز وجل ، يُجازي من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان . وكل ذلك بقدر مُقدّر ، والأحاديث الدالة على هذا المعنى كثيرة :

رواية أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه : قال الإمام أحمد : حدثنا علي بن عَيَّاش ، حدثني العطاف بن خالد ، حدثني رجل من أهل البصرة ، عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، عن أبيه قال : سمعت أبي يذكر أن أباه سمع أبا بكر وهو يقول : قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، أنعمل على ما فرغ منه أو على أمر مؤتنف ؟ قال : "بل على أمر قد فُرِغ منه" .

(64/818)

قال : ففيم العمل يا رسول الله ؟ قال : "كل ميسر لما خلق له" (1) .

رواية علي ، رضي الله عنه : قال البخاري ، حدثنا أبو نعيم : حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن سعد بن عبيدة ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، عن علي بن أبي طالب

قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بَقِيع الغَرْقَد في جنازة، فقال: "ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار". فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: "اعملوا، فكل ميسر لما خلق له". قال: ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ إلى قوله: ﴿ لِلْعُسْرَى ﴾ (2).

وكذا رواه من طريق شعبة ووكيع، عن الأعمش، بنحوه (3) ثم رواه عن عثمان بن أبي شيبة، عن جرير، عن منصور، عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن، عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرَةٌ فَنَكَسَ فجعل ينكُت بمخصرته، ثم قال: "ما منكم من أحد -أو: ما من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة". فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نتكل وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال: "أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء". ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ الآية (4).

وقد أخرجه بقية الجماعة، من طرق، عن سعد بن عبيدة، به (5).

---

(1) المسند (5/1).

(2) صحيح البخاري برقم (4945) .

(3) صحيح البخاري برقم (4946 ، 4947) .

(4) صحيح البخاري برقم (4948) .

(5) صحيح مسلم برقم (2647) وسنن أبي داود برقم (4694) وسنن الترمذي برقم (3344) وسنن النسائي الكبرى برقم (11678) وسنن ابن ماجة برقم (78) .

(65/818)

رواية عبد الله بن عمر : وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا شعبة عن عاصم بن عبيد الله قال : سمعت سالم بن عَبد الله يُحدث عن ابن عُمَر : قال : قال عمر : يا رسول الله ، أرأيت ما نعمل فيه ؟ أفي أمر قد فُرِغ أو مبتدأ أو مبتدع ؟ قال : " فيما قد فُرِغَ منه ، فاعمل يا ابن الخطاب ، فإن كُلا مُيَسَّر ، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء " .

ورواه الترمذي في القدر ، عن بندار ، عن ابن مَهْدِي ، به (1) وقال : حسن صحيح .

حديث آخر من رواية جابر : قال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني

عمرو ابن الحارث، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله أنه قال: يا رسول الله، أنعمل لأمر قد فرغ

---

(1) المسند (52/2) وسنن الترمذي برقم (2135).

(66/818)

منه، أو لأمر نستأنفه؟ فقال: "لأمر قد فرغ منه". فقال سراقة: ففيم العمل إذاً؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل عامل مُيَسَّر لعمله".

ورواه مسلم عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، به (1).

حديث آخر: قال ابن جرير: حدثني يونس، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن طلق ابن حبيب، عن بشير بن كعب العدوي قال: سأل غلامان شابان النبي صلى الله عليه وسلم فقالا يا رسول الله، أنعمل فيما جَفَّت به الأقلام وجَرَتْ به المقادير، أو في شيء يستأنف؟ فقال: "بل فيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير". قالا ففيم العمل إذاً؟ قال: "اعملوا فكل عامل ميسر لعمله الذي خلق له". قالا فالآن نجد ونعمل (2).

رواية أبي الدرداء: قال الإمام أحمد: حدثنا هَيْثَم بن خارجة، حدثنا أبو الربيع سليمان بن عتبة السلمي، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبس، عن أبي إدريس، عن أبي الدرداء قال

: قالوا : يا رسول الله ، أرأيت ما نعمل ، أمر قد فُرِغ منه أم شيء نستأنفه ؟ قال : "بل أمر قد فرغ منه" . قالوا : فكيف بالعمل يا رسول الله ؟ قال : "كل امرئ مهيأ لما خلق له" (3) .

تفرد به أحمد من هذا الوجه .

حديث آخر : قال ابن جرير : حدثني الحسن بن سلمة بن أبي كَبْشَة ، حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حدثنا عباد بن راشد ، عن قتادة ، حدثني خُلَيد العصري ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبجَنْبَتَيْهَا ملكان يناديان بصوت يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : اللهم أعط منفقًا خلفًا ، وأعط ممسكًا تلفًا" . وأنزل الله في ذلك القرآن : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ (4) .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن ابن أبي كبشة ، بإسناده مثله .

---

(1) تفسير الطبري (144/30) وصحيح مسلم برقم (2648) . تنبيه : لم يقع ذكر سراقة في رواية الطبري ولا في رواية أبي الطاهر في صحيح مسلم ، وإنما وقع في صحيح مسلم من طريق آخر .

(2) تفسير الطبري (144/30) .

(3) المسند (441/6) .

(4) تفسير الطبري (142/30) .

(67/818)

حديث آخر : قال ابن أبي حاتم : حدثني أبو عبد الله الطهراني ، حدثنا حفص بن عُمَر العَدَاني ، حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة ، عن ابن عباس ؛ أن رجلا كان له نخل ، ومنها نخلة فرعها إلى دار رجل صالح فقير ذي عيال ، فإذا جاء الرجل فدخل داره وأخذ الثمر من نخلته ، فتسقط الثمرة فيأخذها صبيان الفقير فنزل من نخلته فَنزع الثمرة من أيديهم ، وإن أدخل أحدهم

(68/818)

الثمرة في فمه أدخل أصبعه في حلق الغلام ونزع الثمرة من حلقه . فشكا ذلك الرجلُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وأخبره بما هو فيه من صاحب النخلة ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : "اذهب" . ولقي النبي صلى الله عليه وسلم صاحب النخلة ، فقال له النبي

صلى الله عليه وسلم : "أعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة" فقال له : لقد أعطيت ، ولكن يعجبني ثمرها ، وإن لي لنخلا كثيرًا ما فيها نخلة أعجب إلي ثمرة من ثمرها . فذهب النبي صلى الله عليه وسلم فتبعه رجل كان يسمع الكلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن صاحب النخلة . فقال الرجل : يا رسول الله ، إن أنا أخذت النخلة فصارت لي النخلة فأعطيتها أتعطيني بها ما أعطيته بها نخلة في الجنة ؟ قال : "نعم" . ثم إن الرجل لقي صاحب النخلة ، ولكلاهما نخل ، فقال له : أخبرك أن محمدًا ، [قد] أعطاني بنخلتي المائلة في دار فلان نخلة في الجنة ، فقلت ، له : قد أعطيتُ ولكن يعجبني ثمرها . فسكت عنه الرجلُ ، فقال له : أتُراك إذا بعتها ؟ قال : لا إلا أن أعطى بها شيئًا ، ولا أظنني أعطاه . قال : وما مناك بها ؟ قال : أربعون نخلة . فقال الرجل : لقد جئتَ بأمر عظيم ، نخلتك تطلب بها أربعين نخلة ؟ ! ثم سكتا وأنشأ في كلام [آخر] ثم قال : أنا أعطيتك أربعين نخلة ، فقال : أشهد لي إن كنت صادقا . فأمر بأناس فدعاهم فقال : اشهدوا أني قد أعطيته من نخلي أربعين نخلة بنخلته التي فرعها في دار فلان ابن فلان . ثم قال : ما تقول ؟ فقال صاحب النخلة : قد رضيت . ثم قال بعدُ : ليس بيني وبينك بيع لم نفترق قال له : قد أقالك الله ، ولست بأحمق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة . فقال صاحب النخلة : قد رضيتُ على أن تعطيني الأربعين على ما أريد . قال : تعطينيها

على ساق . ثم مكث ساعة ، ثم قال : هي لك على ساق وأوقف له شهودًا وعد له

أربعين نخلة على ساق ، فتفرقا ، فذهب الرجل إلى رسول

(69/818)

الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إن النخلة المائلة في دار فلان قد صارت لي ، فهي لك . فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرجل صاحب الدار فقال له : "النخلة لك ولعيالك" . قال عكرمة : قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ إلى آخر السورة (1) .

هكذا رواه ابن أبي حاتم ، وهو حديث غريب جدًا .

قال ابن جرير : وذكر أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه : حدثني هارون ابن إدريس الأصم ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي ، حدثنا محمد بن إسحاق ، عن محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أي بني ، أراك تعتق أناسًا ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالا جُلَداء

يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك ؟ ! فقال : أيْ أبَت ، إنما أريد – أظنه قال – ما عند الله : قال : فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية

---

(1) ذكره السيوطي في الدر المنثور (532/8) وقال : "أخرج ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن ابن عباس" .

أنزلت فيه : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ (1) .

وقوله : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ قال مجاهد : أي إذا مات . وقال أبو صالح ، ومالك عن زيد بن أسلم : إذا تردى في النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 8 صـ 421.416 ﴾

---

(1) تفسير الطبري (142/30) .

وقال الآلوسى :

﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾

أي حين يغشى الشمس كقوله تعالى ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ [الشمس : 4] أو النهار كقوله تعالى ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ [الأعراف : 54] أو كل ما يواريه في الجملة بظلامه والمقسم به في الأوجه الثلاث الليل كله .

﴿ والنهار إِذَا تجلى ﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل أو تبين وانكشف بطلوع الشمس والأول على تقدير كون المغشى النهار أو كل ما يواري إذ مآلهما اعتبار وجود الظلام والثاني على تقدير كونه الشمس إذ ما له اعتبار غروبها فيحسن التقابل بين القرينتين على ذلك واختلاف الفعليه مضيا واستقبالاً قد تقدم الكلام فيه وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير تتجلى بتائين على أن الضمير للشمس وقريء تجلى بضم التاء وسكون الجيم على أن الضمير لها أيضاً .

وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3)

(72/818)

أي والقادر العظيم القدرة الذي خلق صنفي الذكر والأنثى من الحيوان المتصف بذلك وقيل من بني آدم وقال ابن عباس والحسن والكلبي المراد بالذكر آدم عليه السلام وبالأنثى حواء رضي الله تعالى عنها وأيًا ما كان فما موصولة بمعنى من واو ثرت عليها لإرادة الوصفية على ما سمعت وتحتمل المصدرية وليس بذاك وقرىء والذي خلق وقرأ ابن مسعود والذكر والأنثى وتبعه ابن عباس كما أخرج ذلك ابن انلجار في تاريخ بغداد من طريق الضحاك عنه ونسبت لعلي كرم الله تعالى وجهه وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن علقمة أنه قدم الشام فجلس إلى أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه فقال له أبو الدرداء فمن أنت فقال من أهل الكوفة قال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ والليل إذا يغشى قال علقمة والذكر والأنثى فقال أبو الدرداء أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هكذا وهؤلاء يريدوني على أن أقرأ وما خلق الذكر والأنثى والله لا أتابعهم وأنت تعلم أن هذه قراءة شاذة منقولة آحاداً لا تجوز القراءة بها لكنها بالنسبة إلى من سمعها من النبي عليه الصلاة والسلام في حكم المتواترة تجوز قراءته بها وذكر ثعلب أن من السلف من قرأ وما خلق الذكر بجر الراء وحكاها الزمخشري عن الكسائي وخرجوا ذلك على البدل من ما بمعنى وما خلقه الله أي ومخلوق الله الذكر والأنثى قيل وقد يخرج على توهم المصدر بناء على مصدرية ما أي وخلق الذكر والأنثى كما في قوله

: تطوف العفاة بأبوابه . . .

كما طاف بالبيعة الراهب

بجر الراهب على توهم النطق بالمصدر أي كطواف الراهب بالبيعة .

(73/818)

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ ﴾ أي مساعيكم فإن المصدر المضاف يفيد العموم فيكون جمعاً معنى ولذا أخبر عنه بجمع أعني قوله تعالى : ﴿ لشتى ﴾ فإنه جمع شتيت بمعنى متفرق ويجوز أن لا يعتبر سعيكم في معنى الجمع ويكون شتى مصدرا مؤنثاً كذكرى وبشرى خبراً له بتقدير مضاف أي ذو شتى أو بتأويله بالوصف أي شتيت أو بجعلها عين الافتراق مبالغة وأيّا ما كان فالجملة جواب القسم كما أخرجه ابن جرير عن قتادة وجوز أن يكون الجواب مقدراً كما مر غير مرة والمراد بتفرق المساعي اختلافها في الجزاء وقوله تعالى :

(74/818)

﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى ﴾ الخ تفصيل مبين لتفرقها واختلافها في ذلك وجوز أن يراد باختلافها كون البعض طالباً لليوم المتجلي والبعض طالباً لليل الغاشي وبعضها مستعاناً بالذكر وبعضها مستعاناً بالأنثى فيكون الجواب شديد المناسبة بالقسم ولا يخفى بعده وركاكته والظاهر أن المراد بالإعطاء بذل المال ومن هنا قال ابن زيد المراد إنفاق ماله في سبيل الله تعالى وقال قتادة المعنى أعطى حق الله تعالى وظاهره الحقوق المالية ﴿ واتقى ﴾ أي واتق الله عز وجل كما قال ابن عباس وفي معناه قول قتادة واتقى ما نهى عنه وفي رواية محارم الله تعالى وقال مجاهد واتقي البخل وهو كما ترى ﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ أي بالكلمة الحسنى وهي كما قال أبو عبد الرحمن السلمي وغيره وروي ذلك عن ابن عباس لا إله إلا الله أو هي ما دلت على حق كما قال بعضهم وتدخل كلمة التوحيد دخولاً أولياً أو بالمالة الحسنى وهي ملة الإسلام وقال عكرمة وجماعة وروي عن ابن عباس أيضاً هي المثوبة بالخلف في الدنيا مع المضاعفة وقال مجاهد الجنة وقيل المثوبة مطلقاً ويترجح عندي أن الإعطاء إشارة إلى العبادة المالية والاتقاء إشارة إلى ما يشمل سائر العبادات من فعل الحسنات وترك السيآت مطلقاً والتصديق بالحسنى إشارة إلى الإيمان بالتوحيد أو بما يعمه وغيره مما يجب الإيمان به وهو تفصيل شامل للمساعي كلها وتقديم الإعطاء لما أنه سبب النزول ظاهراً فقد أخرج الحاكم وصححه عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال قال أبو قحافة لأبي بكر رضي الله تعالى عنه أراك تعتق رقابا ضعافاً فلو أنك إذ فعلت ما

فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقيمون دونك فقال يا أبه إنما أريد ما أريد فنزلت فأما من أعطى واتقى إلي ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزي ﴾ [الليل : 5-19] وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن مسعود قال أن أبا بكر اشترى بلالاً من أمية بن خلف ببردة وعشرة أواق فاعتقه فأنزل الله تعالى والليل

(75/818)

إذا يغشى إلى قوله سبحانه ﴿ أن سعيكم لشتى ﴾ [الليل : 1-4] وكذا على القول بأنها نزلت في أبي الدحداح ولما كان الإيمان أمراً معتنى به في نفسه أخر عن الاتقاء ليكون ذكره بعده من باب ذكر الخاص بعد العام مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة وقيل المراد أعطي الطاعة واتقي المعصية وصدق بالكلمة الدالة على الحق ككلمة الوحيد وفيه أن المعروف في الإعطاء تعلقه بالمال خصوصاً وقد وقع في مقابلة ذكر البخل والمال وأمر تأخير الإيمان عليه بحاله وقيل آخر لأن من جملة إعطاء الطاعة الإصغاء لتعلم كلمة التوحيد التي لا يتم الإيمان إلا بها ومن جملة الاتقاء الاتقاء عن الإشراك وهما مقدمان على ذلك وليس بشيء .

﴿ فَسَنُيَسّرُهُ لليسرى ﴾ فسنهيئه للخصلة التي تؤدي إلى يسر وراحة كدخول الجنة

ومباديه من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها وألجمها ووصفها باليسرى إما على الاستعارة المصرحة أو المجاز المرسل أو التجوز في الإسناد .

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ ﴾ بما له فلم يبذله في سبيل الخير وقيل أي بخل بفعل ما أمر به وفيه ما فيه ﴿ واستغنى ﴾ أي وزهد فيما عنده عز وجل كأنه مستغن عنه سبحانه فلم يتقه جل وعلا أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى لأنه في مقابلة ﴿ واتقى ﴾ كما أن قوله تعالى :

وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9)

في مقابلة ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ [الليل : 6] والمراد بالحسنى فيه ما مر في الأقوال قبل .

(76/818)

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ أي للخصلة المؤدية إلى العسر والشدة كدخول النار ومباديه ووصفها بالعسرى على نحو ما ذكر وأصل التيسير من اليسر بمعنى السهولة لكن أريد التهيئة والإعداد للأمر أعني ما يفضي إلى راحة وما يفضي إلى شدة والسين في سنيسره قيل للتأكيد وقيل للدلالة على أن لحزاء الموعود معظمة يكون في الآخرة التي هي أمر منتظر

متراخ وتقديم البخل فالاستغناء فالتكذيب يعلم وجهه مما تقدم وفي الإرشاد لعل تصدير القسمين بالإعطاء والبخل مع أن كلا منهما أدنى رتبة مما بعد في استتباع التيسير لليسرى والتعسير للعسرى للإيذان بأن كلاًّ منهما أصيل فيما ذكر لما بعدهما من التصديق والتقوى والتكذيب والاستغناء وقيل التيسير أولاً بمعنى اللطف وثانياً بمعنى الخذلان واليسرى والعسرى الطاعة لكونها أيسر شيء على المتقي وأعسره على غيره والمعنى أما من أعطى فسنلطف به ونوفقه حتى تكون الطاعة عليه أيسر الأمور وأهونها من قوله تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾ [الأنعام : 125] وأما من بخل الخ فسنخذله ونمنعه الالطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد من قوله تعالى ﴿ يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾ [الأنعام : 125] وأصل هذا فسنيسره للطاعة العسرى ثم أريد ما ذكر على أن الوصف هو المقصود بتعلق التيسير أعني التعسير لا الموصوف أعني الطاعة ومع هذا إطلاق التيسير للعسرى مشاكلة وجوز أن يراد باليسرى طريق الجنة وبالعسرى طريق النار وبالتيسير في الموضعين معنى الهداية وهو في الآخرة وعدا ووعيدا وأمر المشاكلة فيه على حاله وجوز أن يراد بالتيسير التهيئة والإعداد واليسرى والعسرى الطاعة والمعصية ومباديهما من الصفات المحمودة والمذمومة وهو وجه حسن غير بعيد عن الأول وكلاهما حسن الطباق لما صح في الأخبار أخرج

الإمام أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن علي بن أبي طالب كرم الله تعالى

(77/818)

وجهه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فقال ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار فقالوا يا رسول الله أفلا نتكل فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاء ثم قرأ عليه الصلاة والسلام ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ [الليل : 5] الآيتين وكان حاصل ما أراده صلى الله عليه وسلم بقوله " اعملوا " الخ عليكم بشأن العبودية وما خلقتم لأجله وأمرتم به وكلوا أمور الربوبية المغيبة إلى صاحبها فلا عليكم بشأنها وأيًّا ما كان فالمراد بمن أعطى الخ وبمن بخل الخ المتصف بعنوان الصلة مطلقاً وإن كان السبب خاصاً إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب نعم هو قطعي الدخول وقيل من أعطى أبو بكر رضي الله تعالى عنه ومن بخل أمية بن خلف وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس أن الأول أبو بكر رضي الله تعالى عنه والثاني أبو سفيان بن حرب ونحوه عن عبد الله بن أبي أوفي وفي هذا انظر لأن أبا سفيان

أسلم وقوى إسلامه في آخر أمره عند أهل السنة وفي رواية الطستي عنه أن ﴿ وأما من بخل ﴾ [الليل : 8] الخ نزل في أبي جهل ولعل كل ما قيل من التخصيص فهو من باب التنصيص على بعض أفراد العام لتحقق دخوله فيه عند من خصص .

﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ ﴾ أي ولا يغنى عنه على أن ما نافية أو أي شيء يغنى عنه ماله الذي يبخل به على أنها استفهامية ﴿ إِذَا تردى ﴾ أي هلك تفعل من الردي وهو الهلاك قاله مجاهد وقيل تردي في حفرة القبر وقال قتادة وأبو صالح تردي في جهنم أي سقط وقال قوم ترى باكفانه من الرداء وهو كناية عن موته وهلاكه . انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(78/818)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(92) سورة الليل

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة « الأعلى » .

عدد آياتها : إحدى وعشرون آية .

عدد كلماتها : إحدى وسبعون كلمة .

عدد حروفها : ثلاثمائة وعشرة أحرف

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة « الشمس » بهذا العذاب الذي أوقعه اللّه سبحانه بثمود ، فغشيهم العذاب واشتمل عليهم ، ولفّهم برداء أسود كئيب . .

وبدئت سورة « الليل » بالقسم بالليل إذا يغشى ، فكان ظلام هذا الليل كفنا آخر لثمود ، يصحبهم فى قبورهم التي ابتلعتهم ، ويقيم عليهم راية سوداء تحوّم عليهم ، كما تحوّم الغربان على الجيف ! ! بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الآيات : (1 . 21) [سورة الليل (92) : الآيات 1 إلى 21]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى (1) وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى (2) وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4)

فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى (9)

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى (10) وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى (11) إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (12) وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (14)

لا يَصْلاها إِلاَّ الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي

يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (19)

إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضى (21)

(79/818)

قوله تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى » قسم بالليل حين يغشى ظلامه الكائنات ، ويغطّى سواده وجه الأرض . .

وبدء السورة بهذا القسم ـ كما قلنا ـ هو أشبه براية سوداء تحوّم على مواطن ثمود ، التي دمدم اللّه عليها ، كما تحوم الغربان على الرمم . . ثم إنه من جهة أخرى ، يمثل الجانب الأعظم من جانبى الإنسانية ، جانبى الكفر والإيمان ، والضلال ، والهدى ، والظلام والنور . . فأغلب الناس على ضلال ، وقليل منهم المهتدون ، كما يقول سبحانه : « وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » (103 : يوسف) وفى التعبير بفعل المستقبل « يغشى » عن ظلام الليل ـ إشارة إلى أن الظلام عارض دخيل ، يعرض للنور الذي هو أصل الوجود ، كما يعرض الضلال للفطرة الإنسانية التي خلقها اللّه تعالى صافية لا شية فيها .

(80/818)

وقوله تعالى : « وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى » معطوف على قوله تعالى : « وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى » .

. وهو قسم بالنهار إذا ظهر ، وتجلّى على الوجود ضوءه . .

وفى تقديم الليل على النهار ، إشارة إلى هذا الظلام الذي كان منعقدا فى أفق الحياة الإنسانية حين كانت ثمود تتحرك بطغيانها على الأرض ، فلما دمدم اللّه عليهم الأرض ، ورمى فى أحشائها بهذا الظلام. عاد إلى الحياة صفاؤها ، وطلع نهارها ! ! وقوله تعالى : « وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى » :

معطوف على قوله تعالى : « وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى » و« ما » هنا مصدرية . . أي وخلق الذكر والأنثى ، وما أودع الخالق فى كلّ منهما من آيات علمه ، وحكمته ، ورحمته . .

والذكر والأنثى ، هو مطلق كل ذكر ، وكل أنثى ، فى عالم المخلوقات . .

والذكر والأنثى تتم دورة الحياة وتعاقب الأجيال ، كما بالليل والنهار يتولد الزمن ، وبتكاثر نسله من الليالى والأيام ! وقوله تعالى : « إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى » هو جواب القسم ، وهو المقسم عليه . .

والسعى : العمل فى كل وجه من وجوه الحياة . . « وشتّى » أي شتيت مختلف الوجوه ، متغاير الألوان . . فلكل إنسان وجهته التي هو مولّيها ، وطريقه

الذي يسلكه ، وهيهات أن يتطابق إنسان وإنسان تطابقا تاما ، حتى ولو أخذا وجها واحدا ، ودانا بدين واحد . .

ففى الناس المؤمن والكافر ، وفى الناس المنافق الذي يجمع بين الكفر ولإيمان . . والمؤمنون ، درجات ، ومنازل ، والكافرون ، أنماط وصور ، والمنافقون وجوه وأشكال . .

واختلاف سعى الناس ، أمر بدهىّ ، يراه كل إنسان : المؤمنون والكافرون ، والمحسنون والمسيئون جميعا . . فكل ذى عينين يشهد أن الناس طرائق قدد ، وإلّا لاجتمعوا على عقيدة واحدة ، ومذهب واحد ، واتجاه واحد ، فيما يأخذون أو يدعون من أمور . .

هذه بديهة لا تحتاج إلى توكيد . فلم جاءت الآيات القرآنية مؤكدة لها بهذا القسم ؟

والجواب على هذا ، هو أن التوكيد بالقسم وإن وقع على المقسم عليه ، وهو اختلاف سعى الناس . إلا أن المنظور إليه هو ما وراء هذا الاختلاف فى المسعى ، وهو أن هناك محسنين ومسيئين . . وهذا أمر يدعو العاقل إلى أن ينظر إلى نفسه وأن يفتش عن مكانه فى المحسنين أو المسيئين ، إذ كل إنسان عند نفسه أنه محسن ، وحتى المحسن حقيقة ، يقدر أن إحسانه مطلق لا تقع منه إساءة ، وهذا غير واقع ، فالمحسن ليس سعيه كله قائما على

ميزان الإحسان ، بل إن سعيه مختلف ، فيه الحسن ، وفيه السيّء ، فلا ينبغى أن يسوّى حساب أعماله بينه وبين نفسه على ميزان الإحسان دائما . . بل يجب أن ينظر فى كل عمل ، ويعرضه على ميزان الحق ، والعدل ، والخير ، فإن اطمأن إليه ، ورضى عنه ، أمضاء ، وإلا عدل عنه .

(82/818)

قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى » .

والناس فى عمومهم ، يدخلون تحت وصفين عامّين : مؤمنون وكافرون ، أو محسنون ومسيئون . .

فأما من أعطى ، أي أنفق فى سبيل اللّه ، وفى وجوه الخير والإحسان ، متّقيا بذلك ربّه ، خائفا عذابه ، طامعا فى ثوابه « وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى » أي مؤمنا بما للعمل الطيب من قدر ، معتقدا أنه العمل الأفضل والأحسن ، لا أن يكون ما يصدر منه من أعمال الخير تلقائيا ، وعفوا ، لا تشده إليه إرادة صادقة ، أو قصد محسوب حسابه ، مقدرة آثاره . . وهذا يعنى أن الأعمال إنما تحكمها النيات الباعثة لها ، الداعية إليها . . أما العمل الذي لا تنعقد عليه نية ، ولا ينطلق من إرادة ، فإنه سهم طائش ، ورمية من غير رام . . وهذا ما يشير

إليه الرسول الكريم بقوله :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرى ما نوى » . .

وفى إطلاق الفعل « أعطى » من قيد الشيء المعطى ـ إشارة إلى أمرين :

أولهما : أن ما يعطى لا بد أن يكون شيئا طيبا نافعا لأن الإعطاء يقابله الأخذ ، والإعطاء والأخذ لا يتّمان إلا برغبة متبادلة بين المعطى والآخذ . . والآخذ لا يأخذ إلا ما ينفعه ويرضيه . .

والأمر الآخر الذي يشير إليه إطلاق الفعل ، هو أنه لا حدود للإعطاء ، قلّة أو كثرة ، كما يقول سبحانه : « ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ » .

. (91 : التوبة) وقوله تعالى : « فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى » أي أن من أخذ طريق الحق ، وشدّ عزمه عليه ، وصرف همه نحوه ، يسّر اللّه له طريقه ، وأعانه على المضي فيه ، لأنه طريق اللّه ، ومن كان على طريق اللّه ، لم يحرم عونه ، وتوفيقه . .

(83/818)

وقوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى » .

وعلى عكس هذا من يبخل بماله ، ويضنّ ببذله فى سبيل اللّه ، وفى وجوه الخير ، ومن

وراء هذا البخل تكذيب بالإحسان ، وبخس لقدره ، واعتقاد بعدم جدواه.من يفعل هذا ، فهو على طريق الضلال ، يرصده عليه شيطان يغريه ويغويه ، ويدفع به دفعا على هذا الطريق . . وهذا يعنى أن اللّه سبحانه وتعالى ييسّر لكل إنسان طريقه الذي يضع قدمه عليه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » (39 : الأنعام) أي من يشأ اللّه إضلاله ، أخلى بينه وبين نفسه ، على طريق الضلال ، وقيض له شيطانا ، فهو له قرين ، ورفيق ، على هذا الطريق كما يقول سبحانه : « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » (36 : الزخرف) . . ومن يشأ اللّه هدايته أقام وجهه على طريق الهدى ، وزوده بالزاد الطيب الذي يعينه على مواصلة السير فيه . . وفى هذا يقول الرسول الكريم : « اعملوا فكلّ ميسر لما خلق له . . »

والعسرى : ضد اليسرى . . وهى من العسر ، والتعقيد ، بخلاف اليسرى فإنها من اليسر والسهولة . . وسميت طريق الضلال « عسرى » لأنها طريق مظلم ، لا معلم من معالم الهدى فيه ، وإن صاحبه ليظل يخبط فى ظلام ، ويتردّى فى معاثر حتى يرد مورد الهالكين . . أما طريق الهدى ، فهى طريق واضحة المعالم ، لا يضل سالكها أبدا . . « أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » (22 : الملك)

وقوله تعالى : « وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى » أي أن الذي يخل بماله ، وضمن بالإنفاق منه فى وجوه الخير ، لن ينفعه هذا المال الذي أمسكه ، ولن يجد منه عونا ، إذا هو تردّى فى هاوية الجحيم ! .

والتردي : الهويّ والسقوط من عل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1589.1595 ﴾

(85/818)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) ﴾

افتتاح الكلام بالقسم جار على أسلوب السورتين قبل هذه ، وغرض ذلك ما تقدم آنفاً .

ومناسبة المُقْسَمِ به للمُقْسَمِ عليه أن سعي الناس منه خير ومنه شر وهما يماثلان النور والظلمة وأن سعي الناس ينبثق عن نتائج منها النافع ومنها الضار كما ينتج الذكر والأنثى ذرية صالحة وغير صالحة .

وفي القسم بالليل وبالنهار التنبيه على الاعتبار بهما في الاستدلال على حكمة نظام الله في

هذا الكون وبديع قدرته ، وخص بالذكر ما في الليل من الدلالة من حالة غشيانه الجانب الذي يغشاه من الأرض .

ويغشى فيه من الموجودات فتعمها ظلمته فلا تبدو للناظرين ، لأن ذلك أقوى أحواله ، وخص بالذكر من أحوال النهار حالة تجليته عن الموجودات وظهوره على الأرض كذلك .

وقد تقدم بيان الغشيان والتجلي في تفسير قوله : ﴿ والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها ﴾ في سورة الشمس (3 ، 4) .

واختير القسم بالليل والنهار لمناسبته للمقام لأن غرض السورة بيان البون بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة .

وابتدىء في هذه السورة بذكر الليل ثم ذكر النهار عكسَ ما في سورة الشمس لأن هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس بمدة وهي سادسة السور وأيّامئذٍ كان الكفر مخيماً على الناس إلا نفراً قليلاً ، وكان الإسلام قد أخذ في التجلي فناسب تلك الحالة بالإشارة إلى تمثيلها بحالة الليل حين يعقبه ظهور النهار ، ويتضح هذا في جواب القسم بقوله : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ إلى قوله : ﴿ إذا تردى ﴾ [الليل : 4 11] .

وفي قوله : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ إجمال يفيد التشويق إلى تفصيله بقوله : ﴿ فأما من أعطى ﴾ [الليل : 5] الآية ليتمكن تفصيله في الذهن .

وحذف مفعول ﴿ يغشى ﴾ لتنزيل الفعل منزلة اللازم لأن العبرة بغشيانه كلَّ ما تغشاه

ظلمته.

وأسند إلى النهار التَجلي مدحاً له بالاستنارة التي يراها كل أحد ويحس بها حتى البصراء.

(86/818)

والتجلّي: الوضوح، وتجلي النهار: وضوح ضيائه، فهو بمعنى قوله: ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس: 1] وقوله: ﴿ والضحى ﴾ [الضحى: 1].

وأشير إلى أن ظلمة الليل كانت غالبة لضوء النهار وأن النهار يعقبها والظلمةُ هي أصل أحوال أهل الأرض وجميع العوالم المرتبطة بالنظام الشمسي وإنما أضاءت بعد أن خلق الله الشمس ولذلك اعتبر التاريخ في البدء بالليالي ثم طَرأ عليه التاريخ بالأيام.

والقول في تقييد الليل بالظرف وتقييد النهار بمثله كالقول في قوله: ﴿ والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها في السورة السابقة ﴾ [الشمس: 3، 4].

و﴿ ما ﴾ في قوله: ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ مصدرية أقسم الله بأثر من آثار قدرته وهو خلق الزوجين وما يقتضيه من التناسل.

والذكر والأنثى: صنفا أنواع الحيوان.

والمراد : خصوص خلق الإنسان وتكونه من ذكر وأنثى كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ [الحجرات : 13] لأنه هو المخلوق الأرفع في عالم الماديات وهو الذي يدرك المخاطَبون أكثرَ دقائقه لتكرره على أنفسهم ذُكورهم وإناثهم بخلاف تكوّن نسل الحيوان فإن الإنسان يدرك بعض أحواله ولا يُحصي كثيراً منها .

والمعنى : وذلك الخلقِ العجيب من اختلاف حالي الذكورة والأنوثة مع خروجهما من أصل واحد ، وتوقف التناسل على تزاوجهما ، فالقسم بتعلقٍ مِن تعلقِ صفات الأفعال الإلهية وهي قِسْم من الصفات لا يُختلف في ثبوته وإنما اختلَف علماء أصول الدين في عدّ صفات الأفعال من الصفات فهي موصوفة بالقدم عند الماتريدي ، أو جَعْلِها من تعلق صفة القدرة فهي حادثة عند الأشعري ، وهو آيل إلى الخلاف اللفظي .

وقد كان القسم في سورة الشمس بتسوية النفس ، أي خلق العقل والمعرفة في الإنسان ، وأما القَسَم هنا فبِخلق جسد الإِنسان واختلاف صنفيه ، وجملة : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ جوابُ القسم .

والمقصود من التأكيد بالقسم قوله : ﴿ وما يغني عنه مالُهُ إذا تردى ﴾ [الليل : 11] .

والسَّعي حقيقته : المشي القوي الحثيث ، وهو مستعار هنا للعمل والكدّ .

وشتّى : جمع شتيت على وزن فَعْلَى مثل قَتِيل وقَتْلى ، مشتق من الشتِّ وهو التفرق الشديد يقال : شتَّ جمعُهم ، إذا تفرقوا ، وأريد به هنا التنوع والاختلاف في الأحوال كما في قول تأبط شرّاً :

قليل التشكي للملم يصيبه

كثير الهوى شَتَّى النّوى والمسالك . . .

وهو استعارة أو كناية عن الأعمال المتخالفة لأن التفرق يلزمه الاختلاف .

والخطاب في قوله : ﴿ إن سعيكم ﴾ لجميع الناس من مؤمن وكافر .

واعلم أنه قد روي في "الصحيحين" عن علقمة قال : "دخلت في نفر من أصحاب عبد الله (يعني ابنَ مسعود) الشام فسمع بِنا أبو الدرداء فأتانا فقال : أيكم يقرأ على قراءة عبد الله ؟ فقلت : أنا .

قال : كيف سمعتَه يقرأ ؟ ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ قال سمعته يقرأ : "والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والذكر والأنثى" قال : أشهد أني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هكذا" .

وسماها في "الكشاف" : قراءة النبي صلى الله عليه وسلم أي ثَبت أنه قرأ بها ، وتأويل ذلك

: أنه أقرأها أبا الدرداء أيام كان القرآن مرخَّصاً فيه أن يُقرأ على بعض اختلاف ، ثم نُسخ ذلك الترخيص بما قرأ به النبي صلى الله عليه وسلم في آخر حياته وهو الذي اتفق عليه قراء القرآن .

وكتب في المصحف في زمن أبي بكر رضي الله عنه ، وقد بينت في المقدمة السادسة من مقدمات هذا التفسير معنى قولهم : قراءة النبي صلى الله عليه وسلم

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5)

﴿ فأما ﴾ تفريع وتفصيل للإجمال في قوله : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ [الليل : 4]

فحرف (أمّا) يفيد الشرط والتفصيل وهو يتضمن أداة شرط وفعل شرط لأنه بمعنى : مَهما يكن من شيء ، والتفصيل : التفكيك بين متعدد اشتركت آحاده في حالة وانفرد بعضها عن بعض بحالة هي التي يُعتنَى بتمييزها .

(88/818)

وقد تقدم تحقيقه عند قوله تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ﴾ في سورة الفجر (15) .

والمحتاج للتفصيل هنا هو السعي المذكور ، ولكن جعل التفصيل ببيان الساعين بقوله : فأما

من أعطى ﴾ لأن المهم هو اختلاف أحوال الساعين ويُلازمهم السعي فإيقاعهم في التفصيل بحسب مساعيهم يساوي إيقاع المساعي في التفصيل ، وهذا تفنن من أفانين الكلام الفصيح يحصل منه معنيان كقول النابغة :

وقَد خِفت حتى ما تزيد مخافتي

على وعلٍ في ذي المَطارة عَاقِل . . .

أي على مخافة وَعِل .

ومنه قوله تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ إلخ في سورة البقرة (177) .

وقوله تعالى : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 19] الآية ، أي كإيمان من آمن بالله .

وانحصر تفصيل "شتى" في فريقين : فريق ميسَّر لليسرى وفريق ميسَّر للعسرى ، لأن الحالين هما المهم في مقام الحث على الخير ، والتحذير من الشر ، ويندرج فيهما مختلف الأعمال كقوله تعالى : ﴿ يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ في سورة الزلزلة (86) .

ويجوز أن يجعل تفصيل شتى هم من أعطى واتّقى وصدّق بالحسنى ، ومنْ بخل واستغنى وكذب بالحسنى وذلك عدد يصح أن يكون بياناً لشتّى .

ومَن ﴾ في قوله : ﴿ من أعطى ﴾ الخ وقوله : ﴿ من بخل ﴾ الخ يعم كل من يفعل الإعطاء ويتقي ويصدّق بالحسنى .

وروي أن هذا نزل بسبب أن أبا بكر اشترى بلالاً من أمية بن خلف وأعتقه ليُنجيه من تعذيب أمية بن خلف ، ومن المفسرين من يذكر أبا سفيان بن حرب عوضَ أمية بن خلف ، وهم وهَم .

وقيل : نزلت في قضية أبي الدحداح مع رجل منافق ستأتي .

وهذا الأخير متقض أن السورة مدنية وسببُ النزول لا يخصص العموم .

(89/818)

وحُذف مفعول ﴿ أعطى ﴾ لأن فعل الإعطاء إذا أريد به إعطاء المال بدون عوض ، يُنزَّل منزَلة اللازم لاشتهار استعماله في إعطاء المال (ولذلك يسمى المالُ الموهوب عَطاءَ) ، والمقصود إعطاء الزكاة .

وكذلك حُذف مفعول ﴿ اتقى ﴾ لأنه يعلم أن المقدّر اتّقى الله .

وهذه الخلال الثلاث من خلال الإيمان ، فالمعنى : فأما من كان من المؤمنين كما في قوله تعالى : ﴿ قالوا لم نَكُ من المصلين ولم نَكُ نطعم المسكين ﴾ [المدثر : 43 44] ، أي لم نك من

أهل الإيمان .

وكذلك فعل ﴿ بَخل ﴾ لم يُذكر متعلقه لأنه أريد به البخل بالمال .

و﴿ استغنى ﴾ جُعل مقابلاً ل ﴿ اتَّقى ﴾ فالمراد به الاستغناء عن امتثال أمْرِ الله ودعوته لأن المصرَّ على الكفر المعرِضَ عن الدعوة يَعُد نفسه غنياً عن الله مكتفياً بولاية الأصنام وقومِه ، فالسين والتاء للمبالغة في الفعل مثل سين استحباب بمعنى أجاب .

وقد يراد به زيادة طلب الغنى بالبخل بالمال ، فتكون السين والتاء للطلب ، وهذه الخلال كناية عن كونه من المشركين .

والحُسنى : تَأنيث الأحسن فهي بالأصالة صفَة لموصوف مقدر ، وتأنيثها مشعر بأن موصوفها المقدر يعتبر مؤنث اللفظ ويحتمل أموراً كثيرة مثل المثوبة أو النصر أو العدة أو العاقبة .

وقد يصير هذا الوصف علماً بالغلبة فقيل : الحسنى الجنة ، وقيل : كلمة الشهادة ، وقيل : الصلاة ، وقيل : الزكاة .

وعلى الوجوه كلها فالتصديق بها الاعتراف بوقوعها ويكنى به عن الرغبة في تحصيلها .

وحاصل الاحتمالات يحوم حول التصديق بوعد الله بما هو حسن من مثوبة أو نصر أو إخلاف ما تلف فيرجع هذا التصديق إلى الإيمان .

ويتضمن أنه يعمل الأعمال التي يحصل بها الفوز بالحسنى .

ولذلك قوبل في الشق الآخر بقوله : ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ .

(90/818)

والتيسير : جعل شيء يسيرَا الحصول ، ومفعول فعل التيسير هو الشيء الذي يجعل يسيراً ، أي غير شديد ، والمجرور باللام بعده هو الذي يسهَّل الشيءُ الصعب لأجله وهو الذي ينتفع بسهولة الأمر ، كما في قوله تعالى : ﴿ ويسر لي أمري ﴾ [طه : 26] وقوله : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ [القمر : 17] .

واليسرى في قوله : ﴿ لليسرى ﴾ هي ما لا مشقة فيه ، وتأنيثها : إما بتأويل الحالة ، أي الحالة التي لا تشق عليه في الآخرة ، وهي حالة النعيم ، أو على تأويلها بالمكانة .

وقد فسرت اليسرى بالجنة عن زيد بن أسلم ومجاهد .

ويحتمل اللفظ معاني كثيرة تندرج في معاني النافع الذي لا يشق على صاحبه ، أي الملائم .

والعسرى : إما الحالة وهي حالة العسر والشدة ، أي العذاب ، وإما مكانته وهي جهنّم ، لأنها مكان العسر والشدائد على أهلها قال تعالى : ﴿ فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾ [المدثر : 9 ، 10] ، فمعنى : "نيسره" ندرّجُهُ في عملي السعادة

والشقاوة وبه فسر ابن عطية ، فالأعمال اليسرى هي الصالحة ، وصفت باليسرى باعتبار عاقبتها لصاحبها ، وتكون العسرى الأعمال السيئة باعتبار عاقبتها على صاحبها فتأنيثهما باعتبار أن كلتيهما صفة طائفة من الأعمال .

وحرف التنفيس على هذا التفسير يكون مراداً منه الاستمرار من الآن إلى آخر الحياة كقوله تعالى : ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ [يوسف : 98] .

وحرف (ال) في "اليسرى" وفي "العسرى" لتعريف الجنس أو للعهد على اختلاف المعاني .

(91/818)

وإذ قد جاء ترتيب النظم في هذه الآية على عكس المتبادر إذ جُعل ضمير الغيبة في "نيسره لليسرى" العائدُ إلى ﴿ من أعطى واتقى ﴾ هو الميسرَ ، وجعل ضمير الغيبة في "نيسره للعسرى" العائدُ إلى ﴿ من بخل واستغنى ﴾ هو الميسرَ ، أي الذي صار الفعل صعبُ الحصول حاصلاً له ، وإذ وقع المجروران باللام "اليسرى" و "العسرى" ، وهما لا ينتفعان بسهولة من أعلى أو من بَخل ، تعين تأويل نظم الآية بإحدى طريقتين:

الأولى : إيفاء فعل "نيسر" على حقيقته وجَعْلُ الكلام جارياً على خلاف مقتضى الظاهر

بطريق القلب بأن يكون أصل الكلام : فسنيسر اليسرى له وسنيسر العسرى له ولا بد من مقتض للقلب ، فيصار إلى أن المتقضي إفادة المبالغة في هذا التيسير حتى جعل الميسَّر ميسراً له والميسر له ميسراً على نحو ما وجهوا به قول العرب : عرضت الناقة على الحوض .

والثانية : أن يكون التيسير مستعملاً مجازاً مرسلاً في التهيئة والإعداد بعلاقة اللزوم بين إعداد الشيء للشيء وتيسره له ، وتكون اللام من قوله : ﴿ لليسرى ﴾ و ﴿ للعسرى ﴾ لام التعليل ، أي نيسره لأجل اليسرى أو لأجل العسرى ، فالمراد باليسرى الجنة وبالعُسرى جهنم ، على أن يكون الوصفان صارا علماً بالغلبة على الجنة وعلى النار ، والتهيئةُ لا تكون لذات الجنة وذاتِ النار فتعين تقدير مضاف بعد اللام يناسب التيسير فيقدر لدخُول اليسرى ولدخول العسرى ، أي سنعجّل به ذلك .

والمعنى : سنَجْعل دخول هذه الجنةَ سريعاً ودخولَ الآخِر النارَ سريعاً ، بشبه الميسَّر من صعوبة لأن شأن الصعب الإبطاءُ وشأن السهل السرعةُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ [ق : 44] ، أي سريع عاجل .

ويكون على هذا الوجه قوله : ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ مشاكلةٌ بُنيت على استعارة تهكمية قرينتها قولُه : "العسرى" .

والذي يدعو إلى هذا أن فعل "نيسر" نصبَ ضمير ﴿ من أعطى واتقى وصدَّق ﴾ ، وضمير ﴿ من بَخل واستغنى وكذَّب ، فهو تيسيرٌ ناشىء عن حصول الأعمال التي يجمعها معنى اتَّقى ﴾ أو معنى ﴿ استغنى ﴾ ، فالأعمال سابقة لا محالة .

والتيسير مستقبل بعد حصولها فهو تيسير ما زاد على حصولها ، أي تيسير الدوام عليها والاستزادة منها .

ويجوز أن يكون معنى الآية : أن يُجعل التيسير على حقيقتِهِ ويجعل اليسرى وصفاً أي الحالة اليسرى ، والعسرى أي الحالة غير اليسرى .

وليس في التركيب قلب ، والتيسير بمعنى الدوام على العمل ، ففي "صحيح البخاري" عن علي قال : "كنا مع رسول الله في بقيع الغَرقد في جنازة فقال : ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مَقْعَده من الجنة ومَقْعَدَه من النار ، فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكِلُ ؟ فقال : اعملوا فكل ميسَّر لما خلق له .

أما أهل السعادة فُيَيَسَّرُونَ لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاء فييسرون لعمل أهل الشقاء ، ثم قرأ : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ " أ هـ .

فصدر الحديث لا علاقة له بما تضمنته هذه الآية لأن قوله : " ما من أحد إلا وقد كتبَ

مقعده " الخ معناه قد علم الله أن أحداً سيعمل بعمل أهل الجنة حتى يُوافيَ عليه ، أو سيعمل بعمل أهل النار حتى يُوافِيَ عليه ، فقوله : "وقد كتب مقعده" جعلت الكتابة تمثيلاً لعلم الله بالمعلومات علماً موافقاً لما سيكون لا زيادة فيه ولا نقص ، كالشيء المكتوب إذ لا يقبل زيادة ولا نقصاً دون المقول الذي لا يكتب فهو لا ينضبط .

فنشأ سؤال من سأل عن فائدة العمل الذي يعمله الناس ، ومعنى جوابه : أن فائدة العمل الصالح أنه عنوان على العاقبة الحسنة .

وذُكر مقابله وهو العمل السيىء إتماماً للفائدة ولا علاقة له بالجواب .

(93/818)

وليس مجازه مماثلاً لما استعمل في هذه الآية لأنه في الحديث علق به عمل أهل السعادة فتعين أن يكون تيسيراً للعمل ، أي إعداداً وتهيئة للأعمال صالحها أو سيئها .

فالذي يرتبط بالآية من اللفظ النبوي هو أن النبي صلى الله عليه وسلم أعقب كلامه بأن قرأ : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ الآية لأنه قرأها تبييناً واستدلالاً لكلامه فكان للآية تعلق بالكلام النبوي ومَحَلّ الاستدلال هو قوله تعالى : ﴿ فسنيسره ﴾ .

فالمقصود منه إثبات أن من شؤون الله تعالى تيسراً للعبد أن يعمل بعمل السعادة أو عمل

الشقاء سواء كان عمله أصلاً للسعادة كالإيمان أو للشقاوة كالكفر ، أم كان للعمل مما يزيد السعادة ويُنقص من الشقاوة وذلك بمقدار الأعمال الصالحة لمن كان مؤمناً لأن ثبوت أحد معنَيَي التيسير يدل على ثبوت جنسه فيصلح دليلاً لثبوت التيسيرِ من أصله .

أو يكون المقصود من سوق الآية الاستدلال على قوله : "اعملوا" لأن الآية ذكرت عملاً وذكرت تيسيراً لليسرى وتيسيراً للعسرى ، فيكون الحديث إشارة إلى أن العمل هو علامة التيسير وتكون اليسرى معنياً بها السعادة والعسرى معنياً بها الشقاوة ، وما صدْق السعادة الفوز بالجنة ، وما صدْق الشقاوة الهُويُّ في النار .

وإذ كان الوعدُ بتيسير اليُسرى لصاحب تلك الصلات الدالة على أعمال الإِعطاء والتقوى والتصديق بالحسنى كان سلوك طريق الموصولية للإِيماء إلى وجه بناء الخبر وهو التيسير فتعين أن التيسير مسبب عن تلك الصلات ، أي جزاءٌ عن فعلها : فالمتيسر : تيسير الدوام عليها ، وتكون اليسرى صفة للأعمال ، وذلك من الإِظهار في مقام الإِضمار .

والأصل : مستيسر له أعمالَه ، وعدل عن الإِضمار إلى وصف اليسرى للثناء على تلك الأعمال بأنها مُيسرة من الله كقوله تعالى : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ في سورة الأعلى (8) .

وخلاصة الحديث أنه بيان للفرق بين تعلق علم الله بأعمال عباده قبل أن يعملوها ، وبين تعلُّق خطابه إياهم بشرائعه ، وأن ما يصدر عن الناس من أعمال ظاهرة وباطنة إلى خاتمة كل أحد وموافاته هو عنوان للناس على ما كان قد علمه الله ، ويلتقي المهيعان في أن العمل هو وسيلة الحصول على الجنة أو الوقوع في جهنم .

وإنما خص الإِعطاء بالذِكْر في قوله : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ مع شمول ﴿ اتقى ﴾ لمفاده ، وخص البخل بالذكر في قوله : ﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ مع شمول ﴿ استغنى ﴾ له ، لتحريض المسلمين على الإِعطاء ، فالإِعطاء والتقوى شعار المسلمين مع التصديق بالحسنى وضد الثلاثة من شعار المشركين .

وفي الآية محسن الجمع مع التقسيم ، ومحسن الطباق ، أربع مرات بين ﴿ أعطى ﴾ و ﴿ بخل ﴾ ، وبين ﴿ اتقى ﴾ ، و ﴿ استغنى ﴾ ، وبين و ﴿ صدق ﴾ و ﴿ كذب ﴾ وبين "اليسرى" و"العسرى" .

وجملة : ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾ عطف على جملة ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ أي سنعجل به إلى جهنم .

فالتقدير : إذا تردّى فيها .

والتردّي : السقوط من علوّ إلى سفل ، يعني : لا يغني عنه ماله الذي بخل به شيئاً من عذاب

النار .

و﴿ مَا ﴾ يجوز أن تكون نافية .

والتقدير : وسَوْف لا يغني عنه ماله إذا سقط في جهنم ، وتحتمل أن تكون استفهامية وهو استفهام إنكار وتوبيخ .

ويجوز على هذا الوجه أن تكون الواو للاستئناف .

والمعنى : وما يغني عنه ماله الذي بخل به .

(95/818)

رَوى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس : "أنه كانت لرجل من المنافقين نخلة مائلة في دار رجل مسلم ذي عيال فإذا سقط منها ثمرٌ أكله صبيةٌ لذلك المسلم فكان صاحب النخلة ينزع من أيديهم الثمرة ، فشكا المسلم ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكلم النبي صلى الله عليه وسلم صاحب النخلة أن يتركها لهم وله بها نخلة في الجنة فلم يفعل ، وسمع ذلك أبو الدحداح الأنصاري فاشترى تلك النخلة من صاحبها بحائط فيه أربعون نخلة وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " يا رسول الله اشترِها مني بنخلة في الجنة فقال : نعم والذي نفسي بيده ، فأعطاها الرجلَ صاحب الصبية " قال عكرمة قال ابن عباس :

فأنزل الله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ [الليل : 1] إلى قوله : ﴿ للعسرى ﴾ وهو حديث غريب ، ومن أجل قول ابن عباس : فأنزل الله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ قال جماعة : السورة مدنية وقد بينا في المقدمة الخامسة أنه كثيراً ما يقع في كلام المتقدمين قولهم : فأنزل الله في كذا قوله كذا ، أنهم يريدون به أن القصّة ممّا تشمله الآية .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كمْ من عَذْق رَدَاحْ في الجنة لأبي الدحداح"

ولمح إليها بشار بن برد في قوله :

إن النُحيلة إذْ يميل بها الهوى

كالعَذق مال على أبي الدحداح . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(96/818)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعی :

ولما كان ربما قال المتعنت الجاهل بما له سبحانه وتعالى من العظمة التي لا اعتراض لأحد عليها : ما له لا ييسر الكل للحسنى ، استأنف جوابه مبيناً من ألزم به نفسه من المصالح تفضلاً منه بما له من اللطف والكرم وما يفعله مما هو له من غير نظر إلى ذلك بما له من الجبروت والكبر ، فقال مؤكداً تنبيهاً على أنه يجب العلم بأنه لا حق لأحد عليه أصلاً :

﴿ إن علينا ﴾ أي على ما لنا من العظمة ﴿ للهدى ﴾ أي البيان للطريق الحق وإقامة الأدلة الواضحة على ذلك .

ولما بين ما ألزمه نفسه المقدس فصار كأنه عليه لتحتم وقوعه فكان ربما أوهم أنه يلزمه شيء ، أتبعه ما ينفيه ويفيد أن له غاية التصرف فلا يعسر عليه شيء أراده فقال : ﴿ وإن لنا ﴾ أي يا أيها المنكرون خاصاً بنا ، وقدم ما العناية به أشد لأجل إنكارهم لا للفاصلة ، فإنه يفيدها مثلاً أن يقال : للعاجلة والأخرى ، فقال : ﴿ للآخرة والأولى ﴾ فمن ترك ما بينا له من طريق الهداية لم يخرج عن كونه لنا ولم يضر إلا نفسه ولنا التصرف التام ، بما نقيم من الأسباب المقربة للشيء جداً ، ثم بما نقيم من الموانع الموجبة لبعده غاية البعد ، فنعطي من نشاء ما نشاء ونمنع من نشاء ما نشاء ، ومن طلب منهما شيئاً من غيرنا فال رأيه وخاب سعيه ، وليس التقديم لأجل الفاصلة ، فقد ثبت بطلان هذا وأنه لا يحل اعتقاده في غير موضع ، منها آخر سورة براءة ، وأنه لا فرق بين أن يعتقد أن فيه شيئاً موزوناً بقصد الوزن

فقط ليكون شعراً ، وأن يعتقد أن فيه شيئاً قدم أو أخر لأجل الفاصلة فقط ليكون سجعاً ، على أنه لو كان هذا لأجل الفاصلة فقط لكان يمكن أن يقال : للأولى - أو للأولة - والأخرى مثلاً .

(97/818)

ولما أخبر سبحانه وتعالى أنه ألزم نفسه المقدس البيان ، وأن له كل شيء ، المستلزم لإحاطة العلم وشمول القدرة ، شرح ذلك بما سبب عنه من قوله لافتاً القول إلى تجريد الضمير من مظهر العظمة للترفق بالمخاطبين في تبعيد الوهم وتقريب الفهم فقال : ﴿ فأنذرتكم ﴾ أي حذرتكم أيها المخالفون للطريق الذي بينته ﴿ ناراً تلظّى ﴾ أي تتقد وتتلهب تلهباً هو في غاية الشدة من غير كلفة فيه على موقدها أصلاً ولا أحد من خزنتها - بما أشار إليه إسقاط التاء ، وفي الإدغام أيضاً إشارة إلى أن أدنى نار الآخرة كذلك ، فيصير إنذار ما يتلظى وما فوق ذلك من باب الأولى .

ولما كان قد تقدم غير مرة تخصيص كل من المحسن والمسيء بداره بطريق الحصر إنكاراً لأن يسوى محسن بمسيء في شيء ، وكان الحصر ب " لا " و " إلا " أصرح أنواعه قال : ﴿ لا يصلاها ﴾ أي يقاسي حرها وشدتها على طريق اللزوم والانغماس ﴿ إلا الأشقى ﴾ أي

الذي هو في الذروة من الشقاوة وهو الكافر ، فإن الفاسق وإن دخلها لا يكون ذلك له على طريق اللزوم ، ولذلك وصفه بقوله تعالى : ﴿ الذي كذب ﴾ أي أفسد قوته العلمية بأن أعرض عن الحق تكبراً وعناداً فلم يؤت ماله لزكاة نفسه ﴿ وسيجنبها ﴾ أي النار الموصوفة بوعد لا خلف فيه عن قرب – بما أفهمته السين من التأكيد مع التنفيس ، وتجنيبه له في غاية السهولة – بما أفهمه البناء للمفعول ﴿ الأتقى ﴾ أي الذي أسس قوته العلمية أمكن تأسيس ، فكان في الذروة من رتبة التقوى وهو الذي اتقى الشرك والمعاصي ، وهو يفهم أن من لم يكن في الذروة لا يكون كذلك ، فإن الفاسق يدخلها ثم يخرج منها ، ولا ينافي الحصر السابق .

(98/818)

ولما ذكر ما يتعلق بالقوة العلمية ، أتبعه ما ينظر إلى القوة العملية فقال : ﴿ الذي يؤتي ماله ﴾ أي يصرفه في مصارف الخير ، ولذلك بينه بقوله تعالى : ﴿ يتزكّى ﴾ أي يتطهر من الأوضار والأدناس بتطهيره لنفسه وتنميتها بذلك الإيتاء بالبعد عن مساوىء الأخلاق ولزوم محاسنها لأنه ما كذب وما تولى ، والآية من الاحتباك : ذكر التكذيب أولاً دليلاً على حذف ضده ثانياً ، وإيتاء المال ثانياً دليلاً على حذف ضده أولاً .

ولما كان الإنسان قد يعطي ليزكي نفسه بدفع ما نّه ومكافأة نعمه قال : ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ لأحد عنده ﴾ وأعرق في النفي فقال : ﴿ من نعمة تجزى ﴾ أي هي مما يحق جزاؤه لأجلها .

ولما نفى أن يكون بذلك قصد مكافأة ، قال مبيناً قصده باستثناء منقطع : ﴿ إلا ﴾ أي لكن قصد بذلك ﴿ ابتغاء ﴾ أي طلب وقصد ، ولفت القول إلى صفة الإحسان إشارة إلى وصفه بالشكر فقال : ﴿ وجه ربه ﴾ الذي أوجده ورباه وأحسن إليه بحيث إنه لم ير إحساناً إلا منه ولا عنده شيء إلا وهو من فضله ﴿ الأعلى ﴾ أي مطلقاً فهو أعلى من كل شيء ، فلا يمكن أن يعطي أحد من نفسه شيئاً يقع مكافأة له ، وعبر عن المنقطع بأداة المتصل للإشارة إلى أن الابتغاء المذكور كأنه نعمة ممن آتاه المال لأن الابتغاء - وهو تطلب رضا الله - كان السبب في ذلك الإيتاء بغاية الترغيب ، وقد آل الأمر بهذه العبارة الرشيقة والإشارة الأنيقة مع ما أومأت إليه من الترغيب ، وأعطته من التحبيب إلى أن المعنى : إنه لا نعمى عليه لأحد في ذلك إلا الله ، وعبر بالوجه إشارة إلى أن قصده أعلى القصود فلا نظر له إلا إلى ذاته سبحانه وتعالى التي عبر عنها بالوجه لأنه أشرف الذات ، وبالنظر إليه تحصل الحياة والرغبة والرهبة ، لا إلى طلب شيء من دنيا ولا آخرة .

ولما كان هذا مقاماً ليس فوقه مقام ، قال تعالى بعد وعده من الإنجاء من النار : ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أي بإعطاء الجنة العليا والمزيد بوعد لا خلف فيه بعد المذلة في الحياة الطيبة – بما أشارت إليه أداة التنفيس ولا بدع أن يكون هذا الوعد على هذا الوجه الأعلى لأن الآية نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ حين اشترى بلالاً ـ رضى الله عنه ـ في جماعة من الضعفاء المسلمين يؤذيهم المشركون فأعتقهم ، فبين تعالى أنه مطبوع على تزكية نفسه فهو المفلح كما ذكر في سورة الشمس ، وأنه مخلص لإعطائه الضعفاء من الأيتام والمساكين وإعتاقه الضعفاء في كل حال كما ذكر في سورة البلد ، نقل البغوي رضي الله تعالى عنه عن الزبير يعني ابن بكار أنه قال : كان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ يبتاع الضعفاء فيعتقهم فقال له أبوه : أي بني ! لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك ، قال : منع ظهري أريد .

وقال : إنه أعتق بلالاً وأم عميس وزهرة فأصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى ، فقالت : كذبوا وبيت الله ، ما تضر اللات والعزى ولا تنفعان ، فرد الله عليها بصرها ، وأعتق النهدية وابنتها وجارية بني المؤمل .

وقال : إنه اشترى بلالاً من أمية بن خلف استنقاذاً له مما كان فيه من العذاب حين كان يشد يديه ورجليه وقت الهاجرة ويلقيه عرياناً على الرمضاء ويضربه ، وكلما ضربه صاح ونادى : أحد أحد ، فيزيده ضرباً فاشتراه بعبد كان لأبي بكر ـ رضى الله عنه ـ ، كان ذلك

العبد صاحب عشرة الآف دينار وغلمان وجوار ومواش وكان مشركاً ، فلما اشتراه به وأعتقه قال المشركون : ما فعل هذا ببلال إلا ليد كانت لبلال عنده ، يعني فأنزل الله ذلك تكذيباً لهم .

(100/818)

ومن أبدع الأشياء تعقيبها بالضحى التي هي في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيها ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [الضحى : 5] إشارة إلى أنه أقرب أمته إلى مقامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما عدا عيسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه الأتقى بعد النبيين مطلقاً ، وإلى أن خلافته حق لا مرية فيه لأنه مما وعد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه يرضيه وأنه لا يرضيه غيره كما أنه أرضاه خلافته له في الصلاة ولم يرضه غيره حين نهى عن ذلك بل زجر لما سمع قراءة غيره وقال : " يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ " وقد رجع آخرها على أولها بأن سعي هذا الصديق ـ رضى الله عنه ـ مباين أتم مباينة سعي ذلك الأشقى ، وقال بعضهم : إن المراد بذلك الأشقى أبو جهل ، وأيضاً فإن هذا الختم دال على أن من صفى نفسه وزكاها بالتجلي بالنور المعنوي من إنارة ظلام الليل بما يجليه به من

ضياء القيام وغير ذلك من أنواع الخير يرضى بالنور الحسي بعد الموت – والله الموفق للصواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 448. 451﴾

(101/818)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) ﴾

فاعلم أنه تعالى لما عرفهم أن سعيهم شتى في العواقب وبين ما للمحسن من اليسرى وللمسيء من العسرى، أخبرهم أنه قد قضى ما عليه من البيان والدلالة والترغيب والترهيب والإرشاد والهداية فقال : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا للهدى﴾ أي إن الذي يجب علينا في الحكمة إذا خلقنا الخلق للعبادة أن نبين لهم وجوه التعبد وشرح ما يكون المتعبد به مطيعاً مما يكون به عاصياً، إذ كنا إنما خلقناهم لننفعهم ونرحمهم ونعرضهم للنعيم المقيم، فقد فعلنا ما كان فعله واجباً علينا في الحكمة، والمعتزل احتجوا بهذه الآية على صحة مذهبهم في مسائل إحداها : أنه تعالى أباح الأعذار وما كلف المكلف إلا ما في وسعه وطاقته، فثبت أنه تعالى لا يكلف بما لا يطاق وثانيها : أن كلمة على للوجوب، فتدل على أنه قد يجب

للعبد على الله شيء وثالثها : أنه لو لم يكن العبد مستقلاً بالإيجاد لما كان في وضع الدلائل فائدة ، وأجوبة أصحابنا عن مثل هذه الوجوه مشهورة ، وذكر الواحدي وجهاً آخر نقله عن الفراء فقال المعنى : إن علينا للهدى والإضلال ، فترك الإضلال كما قال : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] وهي تقي الحر والبرد ، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء ، قال : يريد أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي ، وأحول بين أعدائي أن يعملوا بطاعتي فذكر معنى الإضلال ، قالت المعتزلة : هذا التأويل ساقط لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الله قَصْدُ السبيل وَمِنْهَا جَائِرٌ ﴾ [النحل : 9] فبين أن قصد السبيل على الله ، وأما جور السبيل فبين أنه ليس على الله ولا منه ، واعلم أن الاستقصاء قد سبق في تلك الآية .

أما قوله تعالى :

وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13)

(102/818)

ففيه وجهان الأول : أن لنا كل ما في الدنيا والآخرة فليس يضرنا ترككم الاهتداء بهدانا ، ولا يزيد في ملكنا اهتداؤكم ، بل نفع ذلك وضره عائدان عليكم ولو شئنا لمنعناكم من المعاصي قهراً ، إذ لنا الدنيا والآخرة ولكننا لا نمنعكم من هذا الوجه ، لأن هذا الوجه يخل

بالتكليف ، بل نمنعكم بالبيان والتعريف ، والوعد والوعيد الثاني : أن لنا ملك الدارين نعطي ما نشاء من نشاء ، فيطلب سعادة الدارين منا ، والأول أوفق لقول المعتزلة ، والثاني أوفق لقولنا .

أما قوله تعالى :

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14)

تلظى أي تتوقد وتتلهب وتتوهج ، يقال : تلظت النار تلظياً ، ومنه سميت جهنم لظى ، ثم بين أنها لمن هي بقوله : ﴿ لاَ يصلاها إِلاَّ الأشقى ﴾ قال ابن عباس : نزلت في أمية بن خلف وأمثاله الذين كذبوا محمداً والأنبياء قبله ، وقيل : إن الأشقى بمعنى الشقي كما يقال : لست فيها بأوحد أي بواحد ، فالمعنى لا يدخلها إلا الكافر الذي هو شقي لأنه كذب بآيات الله ، وتولى أي أعرض عن طاعة الله .

(103/818)

واعلم أن المرجئة يتمسكون بهذه الآية في أنه لا وعيد إلا على الكفار ، قال القاضي : ولا يمكن إجراء هذه الآية على ظاهرها ، ويدل على ذلك ثلاثة أوجه أحدها : أنه يقتضي أن لا يدخل النار إلا الأشقى الذي كذب وتولى فوجب في الكافر الذي لم يكذب ولم يتول أن لا

يدخل النار وثانيها : أن هذا إغراء بالمعاصي ، لأنه بمنزلة أن يقول الله تعالى : لمن صدق بالله ورسوله ولم يكذب ولم يتول : أي معصية أقدمت عليها ، فلن تضرك ، وهذا يتجاوز حد الإغراء إلى أن تصير كالإباحة ، وتعالى الله عن ذلك وثالثها : أن قوله تعالى : من بعد ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى ﴾ [الليل : 17] يدل على ترك هذا الظاهر لأنه معلوم من حال الفاسق ، أنه ليس بأتقى ، لأن ذلك مبالغة في التقوى ، ومن يرتكب عظائم الكبائر لا يوصف بأنه أتقى ، فإن كان الأول يدل على أن الفاسق لا يدخل النار ، فهذا الثاني يدل على أن الفاسق لا يجنب النار ، وكل مكلف لا يجنب النار ، فلا بد وأن يكون من أهلها ، ولما ثبت أنه لا بد من التأويل ، فنقول : فيه وجهان الأول : أن يكون المراد بقوله : ﴿ نَاراً تلظى ﴾ ناراً مخصوصة من النيران ، لأنها دركات لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ المنافقين فِى الدرك الأسفل مِنَ النار ﴾ [النساء : 145] فالآية تدل على أن تلك النار المخصوصة لا يصلاها سوى هذا الأشقى ، ولا تدل على أن الفاسق وغير من هذا صفته من الكفار لا يدخل سائر النيران الثاني : أن المراد بقوله : ﴿ نَاراً تلظى ﴾ النيران أجمع ، ويكون المراد بقوله : ﴿ لاَ يصلاها إِلاَّ الأشقى ﴾ أي هذا الأشقى به أحق ، وثبوت هذه الزيادة في الاستحقاق غير حاصل إلا لهذا الأشقى .

واعلم أن وجوه القاضي ضعيفة .

أما قوله أولاً : يلزم في غير هذا الكافر أن لا يدخل النار فجوابه : أن كل كافر لا بد وأن يكون مكذباً للنبي في دعواه ، ويكون متولياً عن النظر في دلالة صدق ذلك النبي ، فيصدق عليه أنه أشقى من سائر العصاة ، وأنه كذب وتولى وإذا كان كل كافر داخلاً في الآية سقط ما قاله القاضي .

وأما قوله ثانياً : إن هذا إغراء بالمعصية فضعيف أيضاً ، لأنه يكفي في الزجر عن المعصية حصول الذم في العاجل وحصول غضب الله بمعنى أنه لا يكرمه ولا يعظمه ولا يعطيه الثواب ، ولعله يعذبه بطريق آخر ، فلم يدل دليل على انحصار طريق التعذيب في إدخال النار .

وأما قوله ثالثاً : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى ﴾ فهذا لا يدل على حال غير الأتقى إلا على سبيل المفهوم ، والتمسك بدليل الخطاب وهو ينكر ذلك فكيف تمسك به ؟ والذي يؤكد هذا أن هذا يقتضي فيمن ليس بأتقى دخول النار ، فيلزم في الصبيان والمجانين أن يدخلوا النار وذلك باطل .

وأما قوله رابعاً : المراد منه نار مخصوصة ، وهي النار التي تلظى فضعيف أيضاً ، لأن قوله : ﴿ نَاراً تلظى ﴾ يحتمل أن يكون ذلك صفة لكل النيران ، وأن يكون صفة لنار مخصوصة ، لكنه تعالى وصف كل نار جهنم بهذا الوصف في آية أخرى ، فقال : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا لظى نَزَّاعَةً للشوى ﴾ [المعارج : 15] .

وأما قوله: المراد إن هذا الأشقى أحق به فضعيف لأنه ترك للظاهر من غير دليل، فثبت ضعف الوجوه التي ذكرها القاضي، فإن قيل: فما الجواب عنه على قولكم، فإنكم لا تقطعون بعدم وعيد الفساق؟ الجواب: من وجهين: الأول: ما ذكره الواحدي وهو أن معنى: ﴿ لاَ يصلاها ﴾ لا يلزمها في حقيقة اللغة، يقال: صلى الكافر النار إذا لزمها مقاسياً شدتها وحرها، وعندنا أن هذه الملازمة لا تثبت إلا للكافر، أما الفاسق فإما أن لا يدخلها أو إن دخلها تخلص منها الثاني: أن يخص عموم هذا الظاهر بالآيات الدالة على وعيد الفساق، والله أعلم.

قوله تعالى:

(105/818)

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18)

معنى سيجنبها أي سيبعدها ويجعل منها على جانب يقال: جنبته الشيء أي بعدته وجنبته عنه، وفيه مسألتان:

المسألة الأولى:

أجمع المفسرون منا على أن المراد منه أبو بكر رضي الله تعالى عنه.

واعلم أن الشيعة بأسرهم ينكرون هذه الرواية ، ويقولون : إنها نزلت في حق علي بن أبي طالب عليه السلام والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتونَ الزكواة وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ [المائدة : 55] فقوله : ﴿ الأتقى * الذى يُؤْتِي مَالَهُ يتزكى ﴾ إشارة إلى ما في الآية من قوله : ﴿ يُؤْتُونَ الزكواة وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ ولما ذكر ذلك بعضهم في محضري قلت : أقيم الدلالة العقلية على أن المراد من هذه الآية أبو بكر وتقريرها : أن المراد من هذا الأتقى هو أفضل الخلق ، فإذا كان كذلك ، وجب أن يكون المراد هو أبو بكر ، فهاتان المقدمتان متى صحتا صح المقصود ، إنما قلنا : إن المراد من هذا الأتقى أفضل الخلق لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أتقاكم ﴾ [الحجرات : 13] والأكرم هو الأفضل ، فدل على أن كل من كان أتقى وجب أن يكون أفضل ، فإن قيل : الآية دلت على أن كل من كان أكرم كان أتقى ، وذلك لا يقتضي أن كل من كان أتقى كان أكرم ، قلنا وصف كون الإنسان أتقى معلوم مشاهد ، ووصف كونه أفضل غير معلوم ولا مشاهد ، والإخبار عن المعلوم بغير المعلوم هو الطريق الحسن ، أما عكسه فغير مفيد ، فتقدير الآية كأنه وقعت الشبهة في أن الأكرم عند الله من هو ؟ فقيل : هو الأتقى ، وإذا كان كذلك كان التقدير أتقاكم أكرمكم عند الله ، فثبت أن

الأتقى المذكور ههنا لا بد وأن يكون أفضل الخلق عند الله ، فنقول : لا بد وأن يكون المراد به أبا بكر لأن الأمة مجمعة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله ، إما أبو بكر أو علي ، ولا يمكن حمل هذه الآية على علي بن أبي طالب ، فتعين حملها على أبي بكر ، وإنما قلنا : إنه لا يمكن حملها على علي بن أبي طالب لأنه قال في صفة هذا الأتقى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى ﴾ وهذا الوصف لا يصدق على علي بن أبي طالب ، لأنه كان في تربية النبي صلى الله عليه وسلم لأنه أخذه من أبيه وكان يطعمه ويسقيه ، ويكسوه ، ويربيه ، وكان

الرسول منعماً عليه نعمة يجب جزاؤها ، أما أبو بكر فلم يكن للنبي عليه الصلاة والسلام عليه دنيوية ، بل أبو بكر كان ينفق على الرسول عليه السلام بل كان للرسول عليه السلام عليه نعمة الهداية والإرشاد إلى الدين ، إلا أن هذا لا يجزى ، لقوله تعالى : ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ [الفرقان : 57] والمذكور ههنا ليس مطلق النعمة بل نعمة تجزى ، فعلمنا أن هذه الآية لا تصلح لعلي بن أبي طالب ، وإذا ثبت أن المراد بهذه الآية من كان أفضل الخلق وثبت أن ذلك الأفضل من الأمة ، إما أبو بكر أو علي ، وثبت أن الآية غير صالحة لعلي ، تعين حملها على أبي بكر رضي الله عنه ، وثبت دلالة الآية أيضاً على أن أبا

بكر أفضل الأمة ، وأما الرواية فهي أنه كان بلال (عبداً) لعبد الله بن جدعان ، فسلح على الأصنام فشكا إليه المشركون فعله ، فوهبه لهم ، ومائة من الإبل ينحرونها لآلهتهم ، فأخذوه وجعلوا يعذبونه في الرمضاء وهو يقول : أحد ، أحد ، فمر به رسول الله ، وقال : ينجيك أحد ، أحد .

" ثم أخبر رسول الله أبا بكر أن بلالاً يعذب في الله : " فحمل أبو بكر رطلاً من ذهب فابتاعه به ، فقال المشركون : ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده ، فنزل : ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى * إِلاَّ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ﴾ وقال ابن الزبير وهو على المنبر : كان أبو بكر يشتري الضعفة من العبيد فيعتقهم ، فقال له أبوه : يا بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك ، فقال : منع ظهري أريد .

فنزلت هذه الآية .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" في محل : ﴿ يتزكى ﴾ وجهان : إن جعلت بدلاً من يؤتي فلا محل له ، لأنه داخل في حكم الصلة ، والصلات لا محل لها .

وإن جعلته حالاً من الضمير في ﴿ يُؤْتي ﴾ فمحله النصب .

إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(108/818)

﴿ ابتغاء وَجْهِ ربِّهِ ﴾ مستثنى من غير جنسه وهو النعمة أي ما لأَحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه كقولك ما في الدار أحداً إلا حماراً ، وذكر الفراء فيه وجهاً آخر وهو أن يضمر الإنفاق على تقدير : ما ينفق إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، كقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابتغاء وَجْهِ الله ﴾ [البقرة : 272] .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى بين أن هذا : الأَتقى الذي يؤتي ماله يتزكى لا يؤتيه مكافأة على هدية أو نعمة سالفة ، لأن ذلك يجري مجرى أداء الدين ، فلا يكون له دخل في استحقاق مزيد الثواب بل إنما يستحق الثواب إذا فعله ، لأجل أن الله أمره به وحثه عليه .

المسألة الثالثة :

المجسمة تمسكوا بلفظة الوجه والملحدة تمسكوا بلفظة ﴿ ربِّهِ الاعلى ﴾ وإن ذلك يقضي وجود رب آخر ، وقد تقدم الكلام على كل ذلك .

المسألة الرابعة :

ذكر القاضي أبو بكر الباقلاني في كتاب "الإمامة" ، فقال : الآية الواردة في حق علي عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ [الإنسان : 9 10] والآية الواردة في حق أبي بكر : ﴿ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ فدلت الآيتان على أن كل واحد منهما إنما فعل ما فعل لوجه الله إلا أن آية علي تدل على أنه فعل ما فعل لوجه الله ، وللخوف من يوم القيامة على ما قال : ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ وأما آية أبي بكر فإنها دلت على أنه فعل ما فعل لمحض وجه الله من غير أن يشوبه طمع فيما يرجع إلى رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب ، فكان مقام أبي بكر أعلى وأجل .

المسألة الخامسة :

من الناس من قال : ابتغاء الله بمعنى ابتغاء ذاته وهي محال ، فلا بد وأن يكون المراد ابتغاء ثوابه وكرامته ، ومن الناس من قال : لا حاجة إلى هذا الإضمار ، وحقيقة هذه المسألة راجعة إلى أنه هل يمكن أن يحب العبد ذات الله ، أو المراد من هذه المحبة محبة ثوابه

وكرامته، وقد تقدم الكلام في هذه المسألة في تفسير قوله: ﴿ والذين ءامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: 165].

المسألة السادسة:

قرأ يحيى بن وثاب: ﴿ إِلَّا ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِ ﴾ بالرفع على لغة من يقول: ما في الدار أحد إلا حماراً وأنشد في اللغتين، قوله:

وبلدة ليس بها أنيس.. إلا اليعافير وإلا العيس

أما قوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ فالمعنى أنه وعد أبا بكر أن يرضيه في الآخرة بثوابه، وهو كقوله لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى: 5] وفيه عندي وجه آخر، وهو أن المراد أنه ما أنفق إلا لطلب رضوان الله، ولسوف يرضى الله عنه، وهذا عندي أعظم من الأول لأن رضا الله عن عبده أكمل للعبد من رضاه عن ربه، وبالجملة فلا بد من حصول الأمرين على ما قال: ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: 28] والله سبحانه وتعالى أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 183.187﴾

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) ﴾

أقسم الله ب ﴿ الليل إذا يغشى ﴾ الأرض وجميع ما فيها وب ﴿ النهار إذا تجلى ﴾ ، أي ظهر وضوى الآفاق ، ومنه قول الشاعر : [الطويل]

تجلى السرى من وجهه عن صحيفة . . . على السير مشراق كريم شجونها

(111/818)

وقوله تعالى : ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى الذي كما قالت العرب في سبحان ما سبح الرعد بحمده ، وقال أبو عمرو وأهل مكة يقولون للرعد سبحان ما سبحت له ، ويحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية ، وهو مذهب الزجاج. وقرأ جمهور الصحابة " وما خلق الذكر " ، وقرأ علي بن أبي طالب وابن عباس وعبد الله بن مسعود وأبو الدرداء وسمعها من النبي صلى الله عليه وسلم وعلقمة وأصحاب عبد الله : " والذكر والأنثى " وسقط عندهم ﴿ وما خلق ﴾ وذكر ثعلب أن من السلف من قرأ " وما خلق الذكرِ والأنثى " بخفض " الذكرِ " على البدل من ﴿ ما ﴾ على أن التقدير وما

خلق الله وقراءة علي ومن ذكر تشهد لهذه ، وقال الحسن : المراد هنا ب ﴿ الذكر والأنثى ﴾ آدم وحواء ، وقال غيره عام ، و" السعي " العمل ، فأخبر تعالى مقسماً أن أعمال العباد شتى ، أي مفترقة جداً بعضها في رضى الله وبعضها في سخطه ، ثم قسم تعالى الساعين فذكر أن من أعطى وظاهر ذلك إعطاء المال ، وهي أيضاً تتناول إعطاء الحق في كل شيء ، قول وفعل ، وكذلك البخل المذكور بعد أن يكون بالإيمان وغيره من الأقوال التي حق الشريعة أن لا يبخل بها ويروى أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ، وذلك أنه كان يعتق ضعفة العبيد الذين أسلموا وكان ينفق في رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماله ، وكان الكفار بضد ذلك ، وهذا قول من قال السورة كلها مكية ، قال عبد الله بن أبي أوفى : نزلت هذه السورة في أبي بكر الصديق وأبي سفيان بن حرب ، وقال مقاتل : مر أبو بكر على أبي سفيان وهو يعذب بلالاً فاشتراه منه ، وقال السدي : نزلت هذه الآية بسبب أبي الدحداح الأنصاري ، وذلك أن نخلة لبعض المنافقين كانت مطلة على دار امرأة من المسلمين لها أيتام فكانت التمر تسقط عليهم فيأكلونه فمنعهم المنافق من ذلك ، واشتد عليهم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بعنيها بنخلة في الجنة " ، فقال : لا أفعل ، فبلغ ذلك أبا

الدحداح فذهب إليه واشترى منه النخلة بحائط له ، وجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : أنا أشتري النخلة في الجنة بهذه ، ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر على الحائط الذي أعطى أبو الدحداح وقد تعلقت أقناؤه فيقول :

(113/818)

" وكم قنو معلق لأبي الدحداح في الجنة " ، وفي البخاري أن هذا اللفظ كان رسول الله صلى الله عيله وسلم يقوله في الأقناء التي كان أبو الدحداح يعلقها في المسجد صدقة ، وهذا كله قول من يقول بعض السور مدني ، واختلف الناس في ﴿ الحسنى ﴾ ما هي في هذه السورة ، فقال أبو عبد الرحمن السلمي وغيره : هي لا إله إلا الله ، وقال ابن عباس وعكرمة وجماعة : هي الخلف الذي وعد الله تعالى به ، وذلك نص في حديث الملكين إذ يقول أحدهما : اللهم اعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً ، وقال مجاهد والحسن وجماعة : ﴿ الحسنى ﴾ : الجنة ، وقال كثير من المفسرين ﴿ الحسنى ﴾ : الأجر والثواب مجملاً ، وقوله تعالى : ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ ومعناه : سيظهر تيسيرنا

إياه يتدرج فيه من أعمال الخير وختم بتيسير قد كان في علم الله أولاً ، و" اليسرى " الحال الحسنة المرضية في الدنيا والآخرة ، و" العسرى " : الحال السيئة في الدنيا والآخرة ولا بد من جعل بخل في المال خاصة جعل استغنى في المال أيضاً لتعظم المذمة ، ومن جعل البخل عاماً في جميع ما ينبغي أن يبذل من قول وفعل قال استغنى عن الله ورحمته بزعمه ، ثم وقف تعالى على موضع غناء ماله عنه وقت ترديه ، وهذا يدل على أن الإعطاء والبخل المذكورين إنما هما ماله عنه وقت ترديه ، وهذا يدل على أن الإعطاء والبخل المذكورين إنما هما في المال ، واختلف الناس في معنى ﴿ تردى ﴾ : فقال قتادة وأبو صالح معناه ﴿ تردى ﴾ في جهنم ، أي سقط من حافاتها ، وقال مجاهد : ﴿ تردى ﴾ معناه هلك من الردى ، وقال قوم معناه ﴿ تردى ﴾ بأكفانه من الرداء ، ومنه قول مالك بن الريب : [الطويل]

وخطّا بأطراف الأسنّة مضجعي . . . وردّا على عينيّ فضل ردائيا

ومنه قول الآخر : [الطويل]

نصيبك مما تجمع الدهر كله . . . رداءان تلوى فيهما وحنوط

ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعاً ، أي تعريفهم بالسبل كلها ومنحهم الإدراك ، كما قال تعالى : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ [النحل : 9] ثم كل أحد بعد يتكسب ما قدر له ، وليست هذه الهداية بالإرشاد إلى الإيمان ، ولو كان كذلك لم يوجد كافر . ثم أخبر تعالى أن " الآخرة والأولى " أي الدارين . وقوله تعالى : ﴿ فأنذرتكم ﴾ إما مخاطبة وإما على معنى قل لهم يا محمد ، وقرأ جمهور السبعة " تلظى " بتخفيف التاء ، وقرأ البزي عن ابن كثير بشد التاء وإدغام الراء فيها . وقرأها كذلك عبيد بن عمير ، وروي أيضاً عنه " تتلظى " بتاءين وكذلك قرأ ابن الزبير وطلحة ، وقوله تعالى : ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ أي ﴿ لا يصلاها ﴾ صلي خلود ، ومن هنا ضلت المرجئة لأنها أخذت نفي الصلي مطلقاً في قليله وكثيره ، و﴿ الأشقى ﴾ هنا ، الكافر بدليل قوله الذي كذب ، والعرب تجعل أفعل في موضع فاعل مبالغة كما قال طرفة : [الطويل]

(تمنى رجال أن أموت وإن أمت

فتلك سبيل لست فيها بأوحد)

الليل : (17 - 18) وسيجنبها الأتقى ولم يختلف اهل التأويل ان المراد ب " الأتقى " الى

آخر السورة أبو بكر الصديق ثم هي تتناول كل من دخل في هذه الصفات وقوله تعالى " يتزكى " معناه يتطهر ويتنمى وظاهر هذه الآية انه في المندوبات

الليل : (19) وما لأحد عنده . . . . . وقوله تعالى " وما لأحد عنده " الآية المعنى وليس إعطاؤه ليجزي نعما قد ازلت اليه بل هو مبتدىء ابتغاء وجه الله تعالى وروي في سبب هذا ان قريشا قالوا لما اعتق أبو بكر بلالا كانت لبلال عنده يد وذهب الطبري الى ان المعنى وليس يعطي ليبيث نعما يجزى بها يوما ما وينتظر ثوابها وحوم في هذا المعنى وحلق بتطويل غير مغن ويتجه المعنى الذي أراد بأيسر من قوله وذلك ان التقدير " وما لأحد عنده " اعطاء ليقع عليه من ذلك لأحد جزاء بل هو لمجرد ثواب الله تعالى وجزائه

الليل : (20 - 21) إلا ابتغاء وجه . . . . . وقوله تعالى " إلا ابتغاء " نصب بالاستثناء المنقطع وفيه نظر والابتغاء الطلب ثم وعده تعالى بالرضى في الآخرة وهذه عدة لأبي بكر رضي الله عنه وقرا (يرضى) بضم الياء على بناء الفعل للمفعول وهذه الآية تشبه الرضى في قوله تعالى " ارجعي الى ربك راضية مرضية " الفجر 31 الآية .

انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبي :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى ﴾

أي إن علينا أن نُبَيِّن طريق الهدى من طريق الضلالة .

فالهدى : بمعنى بيان الأحكام ، قاله الزجاج : أي على الله البيان ، بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته ؛ قاله قتادة .

وقال الفرّاء : من سلك الهدى فعلى الله سبيله ؛ لقوله : ﴿ وعلى الله قَصْدُ السبيل ﴾ [النحل : 9] يقول : من أراد الله فهو على السبيل القاصد .

وقيل : معناه إن علينا للهدى والإضلال ، فترك الإضلال ؛ كقوله : ﴿ بِيدِكَ الخير ﴾ [آل عمران : 26] ، و ﴿ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [ياس : 83] .

وكما قال : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] وهي تقي البرد ؛ عن الفرّاء أيضاً .

وقيل : أي إن علينا ثواب هداه الذي هديناه .

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ والأولى ﴾ ﴿ لَلآخِرَةَ ﴾ الجنة .

"والأولى" الدنيا .

وكذا روى عطاء عن ابن عباس .

أي الدنيا والآخرة لله تعالى .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : ثواب الدنيا والآخرة ، وهو كقوله تعالى : ﴿ مَّن كَانَ

يُرِيدُ ثَوَابَ الدنيا فَعِندَ الله ثَوَابُ الدنيا والآخرة ﴾ [النساء : 134] فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ ﴾ أي حذرتكم وخوّفتكم .

﴿ نَاراً تلظى ﴾ أي تلَهّب وتتوقد .

وأصله تتلظى .

وهي قراءة عُبيد بن عُمير ، ويحيى بن يعمر ، وطلحة بن مصرف .

﴿ لاَ يَصْلاَهَآ ﴾ أي لا يجد صَلاَها وهو حرها .

﴿ إِلاَّ الأشقى ﴾ أي الشقي .

﴿ الذي كَذَّبَ ﴾ نبي الله محمداً صلى الله عليه وسلم .

﴿ وتولى ﴾ أي أعرض عن الإيمان .

وروى مكحول عن أبي هريرة قال : كل يدخل الجنة إلا من أباها .

قال : يا أبا هريرة ، ومن يأبى أن يدخل الجنة ؟ قال : الذي كَذَّب وتَوَلَّى .

وقال مالك : صلَّى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب ، فقرأ ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾ فلما بلغ ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ وقع عليه البكاء ، فلم يقدر يتعدّاها من البكاء ، فتركها وقرأ سورة أخرى .

وقال الفرّاء : "إلا الأشقى" إلا من كان شقِياً في علم الله جل ثناؤه .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : "لا يصلاها إلا الأَشقَى" أمية بن خلف ونظراؤه الذين كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقال قتادة : كذب بكتاب الله ، وتولى عن طاعة الله .

وقال الفرّاء : لم يكن كذب بردّ ظاهر ، ولكنه قصّر عما أُمِر به من الطاعة ؛ فجُعِل تكذيباً ؛ كما تقول : لِقي فلان العدوّ فكذب : إذا نكل ورجع عن اتباعه .

قال : وسمعت أبا ثروان يقول : إن بني نُمَيْر ليس لجِدّهم مكذوبة .

يقول : إذا لَقُوا صدقوا القتال ، ولم يرجعوا .

وكذلك قوله جل ثناؤه : ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾ [الواقعة : 2] يقول ؛ هي حق .

وسمعت سلم بن الحسن يقول : سمعت أبا إسحاق الزجاج يقول : هذه الآية التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء ، فزعموا أنه لا يدخل النار إلا كافر ؛ لقوله جل ثناؤه : ﴿ لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأشقى * الذي كَذَّبَ وتولى ﴾ وليس الأمر كما ظنوا .

هذه نار موصوفة بعينها ، لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولّى .

ولأهل النار منازل ؛ فمنها أن المنافقين في الدّرْك الأسفل من النار ؛ والله سبحانه كل ما وعد عليه بجنس من العذاب فجائز أن يعذب به .

وقال جل ثناؤه : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾ [النساء : 48] ، فلو كان كل من لم يشرك لم يعذَّب ، لم يكن في قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ فائدة ، وكان ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾ كلاماً لا معنى له .

(118/818)

الزمخشريّ : الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين ، فقيل : الأشقى ، وجعل مختصاً بالصّلى ، كأن النار لم تخلق إلا له .

وقيل : الأتقى ، وجعل مختصاً بالجنة ، كأن الجنة لم تخلق إلا له .

وقيل : هما أبو جهل أو أمية بن خلف .

وأبو بكر رضي الله عنه .

قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ أي يكون بعيداً منها .

﴿ الأتقى ﴾ أي المتقي الخائف .

قال ابن عباس : هو أبو بكر رضي الله عنه ، يزحزح عن دخول النار .

ثم وصف الأتقى فقال ﴿ الذى يُؤْتِي مَالَهُ يتزكى ﴾ أي يطلب أن يكون عند الله زاكياً ، ولا يطلب بذلك رياء ولا سمعة ، بل يتصدق به مبتغياً به وجه الله تعالى .

وقال بعض أهل المعاني : أراد بقوله "الأتقى" و"الأشقى" أي النقيّ والشقيّ ؛ كقول طرفة :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت . . .

فتلك سبيل لست فيها بأوحدِ

أي واحد ووحيد ؛ وتوضع (أَفْعَل) موضع فعيل ، نحو قولهم : الله أكبر بمعنى كبير ، ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : 27] بمعنى هين .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى ﴾ أي ليس يتصدق ليجازِيَ على نعمة ، إنما يبتغي وجه ربه الأعلى ، أي المتعالي ﴿ وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ أي بالجزاء .

فروى عطاء والضحاك عن ابن عباس قال : "عَذَّب المشركون بلالاً ، وبلال يقول أَحَد أَحَد ؛ فمرّ به النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "أحد يعني الله تعالى ينجيك" ثم قال لأبي بكر : "يا أبا بكر إنّ بلالاً يعذب في الله" فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانصرف إلى منزله ، فأخذ رطلاً من ذهب ، ومضى به إلى أمية بن خلف ، فقال له : أتبيعني بلالاً ؟ قال : نعم ، فاشتراه فأعتقه .

فقال المشركون : ما أعتقه أبو بكر إلا ليدٍ كانت له عنده " ؛ فنزلت ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ ﴾ أي عند أبي بكر ﴿ مِن نِّعْمَةٍ ﴾ ، أي من يدٍ ومِنَّة ، ﴿ تجزى ﴾ بل ﴿ ابتغآء ﴾ بما فعل ﴿ وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ﴾ .

وقيل : اشترى أبو بكر من أمية وأبيّ بن خلف بلالاً ، ببردة وعشر أواق ، فأعتقه لله ، فنزلت : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [الليل : 4] .

وقال سعيد بن المسيب : بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر حين قال له أبو بكر : أَتَبيعُنيه ؟ فقال : نعم ، أبيعه بِنسطاس ، وكان نِسْطاس عبداً لأبي بكر ، صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوارٍ ومواشٍ ، وكان مشركاً ، فحمله أبو بكر على الإسلام ، على أن يكون له مالُه ، فأبى ، فباعه أبو بكر به .

فقال المشركون : ما فعل أبو بكر ببلال هذا إلا ليد كانت لبلال عنده ؛ فنزلت : ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى * إِلاَّ ابتغآء ﴾ أي لكن ابتغاء ؛ فهو استثناء منقطع ؛ فلذلك نصبت .

كقولك : ما في الدار أحد إلا حماراً .

ويجوز الرفع .

وقرأ يحيى بن وثاب "إلا ابتغاءُ وجهِ ربه" بالرفع ، على لغة من يقول : يجوز الرفع في المستثنى .

وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبي خازم :

أضحتْ خَلاءً قِفاراً لا أنيسَ بها . . .

إلا الجآذرَ والظلمانَ تختلفُ

وقول القائل :

وبلدةٍ ليسَ بها أنيسُ . . .

إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ

وفي التنزيل : ﴿ مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ﴾ [النساء : 66] وقد تقدم .

﴿ وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ﴾ أي مَرْضاته وما يقرّب منه .

و"الأعلى" من نعت الرب الذي استحق صفات العلو .

ويجوز أن يكون "ابتغاء وجهِ ربه" مفعولاً له على المعنى ؛ لأن معنى الكلام : لا يؤتي ماله إلا ابتغاء وجهِ ربه ، لا لمكافأة نعمته .

﴿ ولَسَوْفَ يرضى ﴾ أي سوف يعطيه في الجنة ما يرْضى ؛ وذلك أن يعطيه أضعاف ما أنفق .

وروى أبو حَيّان التيميّ عن أبيه عن عليّ رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رَحِم الله أبا بكر ! زوجنِي ابنته ، وحملني إلى دار الهِجرة ، وأعتق بلالاً من ماله "

ولما اشتراه أبو بكر قال له بلال : هل اشتريتني لعملك أو لعمل الله ؟ قال : بل لعمل الله قال : فذرني وعمل الله ، فأعتقه .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا (يعني بلالاً رضي الله عنه) .

وقال عطاء وروي عن ابن عباس : إن السورة نزلت في أبي الدَّحداح ؛ في النخلة التي اشتراها بحائط له ؛ فيما ذكر الثعلبيّ عن عطاء .

وقال القشيريّ عن ابن عباس : بأربعين نخلة ؛ ولم يسم الرجل .

قال عطاء : "كان لرجل من الأنصار نخلة ، يسقط من بلحِها في دار جارٍ له ، فيتناوله صبيانه ، فشكا ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "تبيعها بنخلة في الجنة" ؟ فأبى ؛ فخرج فلقِيه أبو الدَّحداح فقال : هل لك أن تبيعنِيها

ب"حُسْنَى" : حائط له .

فقال : هي لك .

فأتى أبو الدَّحداح إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله ، اشترها مني بنخلة في الجنة .

قال : "نعم ، والذي نفسي بيده" فقال : هي لك يا رسول الله ؛ فدعا النبيّ صلى الله عليه وسلم جار الأنصاريّ ، فقال : "خذها" فنزلت ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾ إلى آخر السورة في بستان أبي الدحداح وصاحب النخلة" ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى ﴾ يعني أبا الدحداح .

﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ أي بالثواب .

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ﴾ : يعني الجنة .

﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغنى ﴾ يعني الأنصاريّ .

﴿ وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ أي بالثواب .

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ [الليل : 10] ، يعني جهنم .

﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ﴾ أي مات .

إلى قوله : ﴿ لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأشقى ﴾ يعني بذلك الخزرجِيّ ؛ وكان منافقاً ، فمات على نفاقه .

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى ﴾ يعني أبا الدحداح.

﴿ الذى يُؤْتِي مَالَهُ يتزكى ﴾ في ثمن تلك النخلة.

﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى ﴾ يكافئه عليها ؛ يعني أبا الدحداح.

﴿ وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ إذا أدخله الله الجنة.

والأكثر أن السورة نزلت في أبي بكر رضي الله عنه.

وروي ذلك عن ابن مسعود وابن عباس وعبد الله بن الزبير وغيرهم.

وقد ذكرنا خبراً آخر لأبي الدحداح في سورة "البقرة"، عند قوله: ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً ﴾ [البقرة: 245].

والله تعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾

أي حينَ يغشَى الشمسَ كقولِه تعالَى : ﴿ والليل إِذَا يغشاها ﴾ أو النهارَ أو كلَّ ما يوارِيه بظلامِه ﴿ والنهار إِذَا تجلى ﴾ ظهرَ بزوالِ ظلمةِ الليلِ أو تبينَ وتكشفَ بطلوعِ الشمسِ ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والانثى ﴾ أي والقادرِ العظيمِ القدرةِ الذي خلقَ صنفيَّ الذكرِ والأُنثى من كلِّ ما لَهُ توالدٌ وقيلَ : هُما آدمُ وحواءُ وقُرىءَ والذكرِ والأُنْثى وقُرىءَ وَالذي خلقَ الذكرَ والأُنثى وقيلَ : مَا مصدريةٌ ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ جوابُ القسمِ وشَتَّى جمع شتيتٍ أي أنَّ مساعيَكُم لأشتاتٍ مختلفةٍ وقولُه تعالَى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى * وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ الخ تفصيلٌ لتلكَ المساعِي المشتتةِ وتبيينٌ لأحكامِها أي فأمَّا من أعطَى حقوقَ مالِه واتقى محارمَ الله تعالى التي نهى عنها وصدّقَ بالخصلةِ الحُسْنى وهي الإيمانُ أو بالكلمةِ الحُسْنى وهي كلمةُ التوحيدِ أو بالملةِ الحُسْنى وهي ملةُ الإسلامِ أو بالمثوبةِ الحُسْنى وهي الجنةُ ﴿ فَسَنُيَسّرُهُ لليسرى ﴾ فسنهيئُه للخصلةِ التي تؤدِي إلى يُسرٍ وراحةٍ كدخولِ الجنةِ ومباديهِ من يسرَ الفرسَ للركوبِ إذا أسرجَها وألجمَها ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ ﴾ أي بمالِه فلم يبذلْه في سبيلِ الخيرِ ﴿ واستغنى ﴾ أي زهدَ فيما عنده تعالَى كأنَّه مستغنٍ عنْهُ فلم يتَّقِه أو استغنَى بشهواتِ الدُّنيا عن نعيمِ الآخرةِ .

﴿ وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ أي ما ذكرَ من المعاني المتلازمة ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ أي للخصلةِ المؤديةِ إلى العسرِ والشدةِ كدخولِ النارِ ومقدماتِه لاختيارِه لَها ولعلَّ تصديرَ القسمينِ بالإعطاءِ والبخلِ مع أنّ كلاًّ منهما أدْنى رتبةً مما بعدهُما في استتباعِ التيسيرِ لليُسرى والتيسيرِ للعُسرى للإيذانِ بأنّ كلاًّ منهما أصلٌ فيما ذكرَ لا تتمةٌ لما بعدهُما من التصديقِ والتَّقوى والتكذيبِ والاستغناءِ وتفسيرُ الأولِ بإعطاءِ الطاعةِ والثاني بالبخلِ بما أمرَ مع كونِه خلافَ الظاهرِ يأباهُ قولُه تعالَى :

(124/818)

﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ ﴾ أيْ ولا يُغنِي أو أيُّ شيءٍ يُغني عنْهُ ﴿ مَالَهُ ﴾ الذي يبخلُ به ﴿ إِذَا تردى ﴾ أي هلكَ تفعّلَ من الرّدَى الذي هو الهلاكُ أو تردّى في الحفرةِ إذا قُبرَ أو تردّى في قعرِ جهنمَ ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى ﴾ استئنافٌ مقررٌ لما قبلَه أي إنّ علينا بموجبِ قضائِنا المبنيِّ على الحكمِ البالغةِ حيث خلقنَا الخلقَ للعبادةِ أن نبينَ لهم طريقَ الهُدى وما يؤدّي إليهِ من طريقِ الضلالِ وما يؤدّي إليه وقد فعلنَا ذلكَ بما لا مزيدَ عليهِ حيثُ بيَّنا حالَ من سلكَ كلا الطريقينِ ترغيباً وترهيباً ومن هاهنا تبينَ أنّ الهدايةَ هي الدلالةُ على ما يوصلُ إلى البغيةِ لا

الدلالةُ الموصلةُ إليها قطعاً ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ والأولى ﴾ أي التصرفَ الكليَّ فيهما كيفما نشاءُ فنفعلُ فيهما ما نشاءُ من الأفعالِ التي من جُملتها ما وعدنَا من التيسيرِ لليُسرى والتيسيرِ للعُسرى وقيلَ : إن لنا كلَّ ما في الدُّنيا والآخرةِ فلا يضرنا تركُكُم الاهتداءَ بهدانَا ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ بحذفِ إحْدى التاءينِ من تتلظَّى أي تتلهبُ وقرِىءَ على الأصلِ ﴿ لاَ يصلاها ﴾ صلياً لازماً ﴿ إِلاَّ الأشقى ﴾ إلا الكافرُ فإنَّ الفاسقَ لا يصلاهَا صلياً لازماً وقد صرَّحَ به قولُه تعالى : ﴿ الذى كَذَّبَ وتولى ﴾ أي كذَّبَ بالحقِّ وأعرضَ عن الطاعةِ .

(125/818)

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ أي سيُبعدُ عنْها ﴿ الأتقى ﴾ المبالغُ في اتقاءِ الكفرِ والمعاصِي فلا يحومُ حولَها فضلاً عن دخولِها أو صليها الأبديِّ وأما من دُونَهُ ممن يتقي الكفرَ دُونَ المعاصِي فلا يُبعد عنْها هذا التبعيدَ وذلكَ لا يستلزمُ صليها بالمعْنى المذكورِ فلا يقدحُ في الحصرِ السابقِ ﴿ الذى يُؤْتِى مَالَهُ ﴾ يُعْطيه ويصرفُهُ في وجوهِ البرِّ والحسناتِ وقولُه تعالى : ﴿ يتزكى ﴾ إما بدلٌ من يُؤتِي داخلٌ في حكمِ الصلةِ لا محلَّ لهُ أو في حيزِ النصبِ على أنه حالٌ من ضميرِ يُؤتِي أي يطلبُ أن يكونَ عند الله تعالى زاكياً نامياً لا يريدُ بهِ رياءً ولا سمعةً .

﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى ﴾ استئنافٌ مقررٌ لكونِ إيتائِه للتزّكي خالصاً لوجهِ الله تعالى أي ليسَ لأحدٍ عنده نعمةٌ من شأنِها أنْ تُجزى وتكافأ فيقصدَ بإيتاءِ ما يُؤتى مجازاتِها وقولُه تعالى : ﴿ إِلاَّ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ﴾ استثناءٌ منقطعٌ من نعمةٍ وقُرِىءَ بالرفعِ على البدلِ من محلِّ نعمةٍ فإنَّه الرفعُ إما على الفاعليةِ أو على الابتداءِ ومِنْ مزيدةٌ ويجوزُ أنْ يكونَ مفعولاً له لأنَّ المَعْنى لا يُؤتي مالَه إلا ابتغاءَ وجهِ ربّه لا لمكافأةِ نعمةٍ والآياتُ نزلتْ في حقِّ أبي بكرٍ الصديقِ رضيَ الله عنه حينَ اشترى بلالاً في جماعةٍ كانَ يؤذيهم المشركونَ فأعتقُهم ولذلكَ قالُوا : المرادُ بالأشقى أبو جهلٍ أو أميةُ بنُ خلفٍ وقد روَى عطاءٌ والضحاكُ عن ابنِ عباسٍ رضيَ الله عنهُمَا أنه عذَّبَ المشركونَ بلالاً وبلالٌ يقولُ : أَحَدٌ أَحَدٌ فمرَّ به النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ فقالَ : " أَحَدٌ يعني الله تعالَى ينجيكَ " ثم قالَ لأبي بكرٍ رضي الله عنه : " إنَّ بلالاً يعذبُ في الله " فعرفَ مرادَهُ عليه الصلاةُ والسلامُ فانصرفَ إلى منزلِه فأخذ رطلاً من ذهبٍ ومَضى به إلى أميةَ بنِ خلفٍ فقالَ له : أتبيعُني بلالاً ؟ قالَ : نعَم ، فاشتراهُ فأعتقَهُ فقالَ المشركونَ : ما أعتقَهُ أبو بكرٍ إلا ليدٍ كانتْ له عندَهُ فنزلتْ وقولُه تعالَى : ﴿ وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ جوابُ قسمٍ مضمرٍ أيْ وبالله لسوفَ يَرْضَى وهو وعدٌ

كريمٌ بنيلِ جميعَ ما يبتغيهِ على أكملِ الوجوهِ وأجملِها إذْ بهِ يتحققُ الرِّضَا وقُرِىءَ يُرْضَى مبنياً للمفعولِ من الإرضاءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(127/818)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى ﴾

استئناف مقرر لما قبله أي إن علينا بموجب قضائنا المبني على الحكم البالغة حيث خلقنا الخلق للعبادة أي ندلهم ونرشدهم إلى الحق أو أن نبين لهم طريق الحدى وما يؤدي إليه من طريق الضلال وما يؤدي إليه وقد فعلنا ذلك بما لا مزيد عليه فلا يتم الاستدلال بالآية على الوجوب عليه عز وجل بالمعنى الذي يزعمه المعتزلة وقيل المراد أن الهدى موكول علينا لا على غيرنا كما قال سبحانه ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ [القصص : 56] وليس المعنى أن الهدى يجب علينا حتى يكون بظاهره دليلاً على وجوب الأصلح عليه تعالى عن ذلك علواً كثيراً وفيه أن تعلق الجار بالكون الخاص أعني موكولاً خلاف الظاهر ومثله ما قيل أن المراد ثم أن علينا طريقة الهدى على معنى أن من سلك الطريقة المبينة بالهدى والإرشاد إليها يصل إلينا كما قيل في قوله تعالى ﴿ وعلى الله

قصد السبيل أي من سلك السبيل ﴾ [النحل : 9] القصد أي المستقيم وصل إليه سبحانه :

وَإِنَّ لَنَا لَلْآَخِرَةَ وَالْأُولَى (13)

أي التصرف الكلي فيهما كيفما نشاء فنفعل فيهما ما نشاء من الأفعال التي من جملتها ما ذكرنا فيمن أعطى وفيمن بخل أو أن لنا ذلك فنثيب من اهتدى وأنجع فيه هدانا أوان لنا كل ما في الدارين فلا يضرنا ترككم الاهتداء وعدم انتفاعكم بهدانا أو فلا ينفعنا اهتداؤكم كما لا يضرنا ضلالكم فمن اهتدى ﴿ فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ [يونس : 108] .

﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ قيل متفرع على كون الهدى عليه سبحانه أي فهديتكم بالإنذار وبالغت في هدايتكم وتلظى بمعنى تلتهب وأصله تتلظى بتاءين فحذفت منه إحداهما وقد قرأ بذلك ابن الزبير وزيد بن علي وطلحة وسفيان بن عيينة وعبيد بن عمير .

لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15)

المراد به الكافر فإنه أشقى من الفاسق ويفصح بذلك وصفه بقوله تعالى :

﴿ الذى كَذَّبَ ﴾ أي بالحق ﴿ وتولى ﴾ وأعرض عن الطاعة.

(129/818)

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ أي سيبعد عنها ﴿ الاتقى ﴾ المبالغ في اتقاء الكفر والمعاصي فلا يحوم حولها واستشكل بأن صلى النار دخولها أو مقاساة حرها وهو لازم دخولها على المشهور فالحصر السابق يقتضي أن لا يصلي المؤمن العاصي النار لأنه ليس داخلاً في عموم الأشقى الموصوف بما ذكر وان سيجنبها الاتقى يقتضي بمفهومه أن غير الاتقى أعني التقى في الجملة وهو المؤمن العاصي لا يجنبها بل يصلاها فبين الحصرين مخالفة وأجيب بأن الصلى مطلق دخول النار ولا مطلق مقاساة حرها بل هو مقاساته على وجه الأشدية فقد نقل ابن المنير عن أئمة اللغة أن الصلى أن يحفروا حفيرة فيجمعوا فيها جمراً كثيراً ثم يعمدوا لي شاة فيدسوها وسطه بين أطباقه فالمعنى لا يعذب بين أطباقها ولا يقاسي حرها على وجه الأشدية إلا الأشقى وسيعد عنها الاتقى فلا يدخلها فضلاً عن مقاساة ذلك فيلزم من الأول أن غير الأشقى وهو المؤمن العاصي لا يعذب بين أطباقها ولا يقاسي حرها على وجه الأشدية ولا يلزم منه أن لا يدخلها ولا يعذب بها أصلا فيجوز أن يدخلها ويعذب بها

على وجهها عذاباً دون ذلك العذاب ويلزم من الثاني أن غير الاتقى لا يجنبها ولا يلزم منه أن غيره أعني التقي في الجملة وهو المؤمن العاصي يصلاها ويعذب بين أطباقها أشد العذاب بل غايته أنه لا يجنبها فيجوزو أن يدخلها ويعذب بها على وجهها عذاباً ليس بالأشد فلا مخالفة بين الحصرين واعتبر بعضهم في الصلى الأشدية لما ذكر واللزوم هنا لمقابلته بقوله تعالى وسيجنبها كذا قيل واستحسن جعل السين للتأكيد ليكون المعنى يجبنها الاتقى ولا بد فيفيد على القول بالمفهوم إن غيره وهو المؤمن العاصي لا يجنبها ولا بد على معنى أنه يجوز أن يجنبها وجيوز أن لا يجنبها بل يدخلها غيربها وقرر الزمخشري الاستشكال بأنه قد علم أن كل شقي بصلاها وكل تقي بجنيها لا يختص الصلى باشقى الأشقياء ولا التجنب والنجاة بأتقى الأتقياء وظاهر الجملتين ذلك وأجاب بما حاصله

(130/818)

أن الحصر حيث كانت الآية واردة للموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ادعائي مبالغة لا حقيقي كان غير هذا الأشقى غير صال وغير هذا الأتقى غير مجنب بالكلية واستحسنه في الكشف فقال هو معنى حسن وأنت تعلم أن مبني ما قاله على الاعتزال وتخليد العصاة في النار وقال القاضي إن قوله تعالى ﴿ لا يصلاها ﴾ [الليل

: 15] لا يدل على أنه تعالى لا يدخل النار إلا الكافر كما يقول المرجئة وذلك لأنه تعالى نكر النار فيها فالمراد أن ناراً من النيران لا يصلاها إلا من هذه حاله والنار دركات على ما علم من الآيات فمن أين عرف أن هذه النار لا يصلاها قوم آخرون وتعقبه الزمخشري بأنه ما يصنع عليه بقوله تعالى وسيجنبها الاتقى فقد علم أن أفسق المسلمين يجنب تلك النار المخصوصة لا الاتقي منهم خاصة وأجيب بأنه لعل هذا القائل لا يقول بمفهوم الصفة ونحوها فلا تفيد الآية المذكورة عنده الحصر ويكون تمييز هذا الاتقى عنده بمجموع التجنب وما سيذكر بعد ولعل كل من لا يقول بالمفهوم لا يشكل عليه الأمر إلا أمر الحصر في لإيصالها الخ فإنه كالنص في بادىء النظر فيما يدعيه المرجئة لحملهم الصلى فيه على مطلق الدخول وأيدوه بما أخرج الإمام أحمد وابن ماجه وابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" لا يدخل النار إلا من شقى قيل ومن الشقي قال الذي لا يعمل لله تعالى طاعة ولا يترك لله تعالى معصية " وهذا الخبر ونحوه من الأخبار مما يستندون إليه في تحقيق دعواهم وأهل السنة يؤولون ما صح من ذلك للنصوص الدالة على تعذيب بعض ممن ارتكب الكبيرة على ما بين في موضعه وقيل في الجواب أن المراد بالاشقى والاتقى الشقي والتقي وشاع أفعل في مثل ذلك ومنه قول طرفة

.

تمنى رجال أن أموت فإن أمت . . .

فتلك سبيل لست فيها بأوحد

فإنه أراد بواحد واعترض بأنه لا يحسم مادة الإشكال إذ ذلك الشقي في الآية ليس إلا الكافر فيلزم الحصر أن لا يدخل النار أو لا يعذب بها غيره مع أنه خلاف المذهب الحق وأيضاً أن ذلك التقي فيها قد وصف بما وصف فعلى القول بالمفهوم يلزم أن لا يجنبها التقي الغير الموصوف بذلك كالتقي الذي لا مال له وكغير المكلفين من الأطفال والمجانين مع أن الحق أنهم يجنبونها وقيل غير ذلك ولعلك بعد الاطلاع عليه وتدقيق النظر في جميع ما قيل واستحضار ما عليه الجماعة في أهل الجمع نستحسن ان قلت بالمفهوم ما استحسنه صاحب الكشف مما مر عن الزمخشري وإن لم تكن ممن يقول بتخليد أهل الكبائر من المؤمنين فتأمل وجنب يتعدى إلى مفعولين فالضمير ههنا المفعول الثاني والاتقى المفعول الأول وهو النائب عن الفاعل ويقال جنب فلان خيراً وجنب شراً وإذا أطلق فقيل جنب فلان فمعناه على ما قال الراغب أبعد عن الخير وأصلب جنبته كما قيل جعلته على جانب منه وكثيراً ما يراد منه التبعيد ومنه ما هنا ولذا قلنا أي سيبعد عنها الاتقى .

﴿ الذى يُؤْتِى مَالَهُ ﴾ أي يعطيه ويصرفه ﴿ يتزكى ﴾ طالباً أن يكون عند الله تعالى زاكياً نامياً لا يريد به رياء ولا سمعة أو متطهراً من الذنوب فالجملة نصب على الحال من ضمير يؤتي وجوز أن تكون بدلاً من الصلة فلا محل لها من الإعراب وجوز أيضاً أن يكون الفعل وحده بدلاً من الفعل السابق وحده واعترض كلا الوجهين بأن البدل من قسم التابع المعرف بكل ثان أعرب بإعراب سابقه ولا إعراب للصلة حتى يثبت لها تابع فيه وسبب الإعراب وهو الرفع في الفعل متوفر مع قطع النظر عن التبعية وهو على المشهور تجرده عن الناصب والجازم فليس معرباً بإعراب سابقه لظهور ذلك في كون إعرابه للتبعية وهو هنا ليس لها بل للتجرد وأجيب مع الإغماض عما في ذلك التعريف مما نبه على بعضه الرضى أما عن الأول فبان المراد أعرب بإعراب سابقه إن كان له إعراب أو بأن المراد أعرب بإعراب سابقه وجوداً وعدما وقيل إطلاق التابع على ذلك ونحوه من الحرف والفعل الغير المعرب مجاز من حيث انه مشابه للتابع لموافقته لسابقه فيما له وأما عن الثاني فبان الشيء قد يقصد لشيء وإن كان متحققاً قبل ذلك الشيء لأمر آخر كألف التثنية وواو الجمع فإنه يؤتي بهما للدلالة على التثنية والجمع فيتحققان ويأتي عامل الرفع على المثنى والمجموع وهما

فيهما قبله فيقصدان له وقال السيد عيسى المراد بقولهم كل ثان أعرب الخ كل ثان أعرب لو لم يكن معرباً فتدبر ولا تغفل وجوز أن يكون يتزكى بتقدير لأن يتزكى متعلقاً بيؤتي علة له ثم حذفت اللام وحذفها من أن وأن شائع ثم حذفت أن فارتفع الفعل أو بقي منصوباً كما في قول طرفة

: ألا أيهذا الزاجري أحضر الوغي . . .

فقد روي برفع أحضر وبنصبه وقيل إنه بتقدير لأن أو عن أن أحضر فصنع فيه نحو ما سمعت وأيّاً ما كان يدل الكلام على أن المراد بأيتائه صرفه في وجوه البر والخير وقرأ الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم يزكي بإدغام التاء في الزاي .

(133/818)

وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19)

استئناف مقرر لما أفاده الكلام السابق من كون إيتائه للزكى خالصاً لله تعالى أي ليس لأحد عنده نعمة من شأنها أن تجزي وتكافأ فيقصد بإيتاء ما يؤتي مجازاتها ويعلم مما ذكر أن بناء تجزي للمفعول لأن القصد ليس لفاعل معين وقيل إن ذلك لكونه فاصلة وأصله يجزيه إياها أو يجزيها إياه .

إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20)

منصوب على الاستثناء المنقطع من ﴿ نعمة ﴾ لأن الابتغاء لا يندرج فيها فالمعنى لكنه فعل ذلك لابتغاء وجه ربه سبحانه وطلب رضاه عز وجل لا لمكافأة نعمة وقرأ يحيى بن وثاب ابتغاء بالرفع على البدل من محل من نعمة فإنه الرفع إما على الفاعلية أو على الابتداء ومن مزيدة والرفع في مثل ذلك لغة تميم وعليها قوله

: وبلدة ليس بها أنيس . . .

إلا اليعافير وإلا العيس

وروي بالرفع والنصب على ما في البحر قول بشر بن أبي حازم

.

أضحت خلاء قفاراً لا أنيس بها . . .

إلا الجآذر والظلمان تختلف

وجوز أن يكون نصبه على أنه مفعول له على المعنى لأن معنى الكلام لا يؤتي ماله لأجل شيء من الأشياء إلا لأجل طلب رضا ربه عز وجل لا لمكافاة نعمة فهو استثناء مفرغ من

أعم العلل والأسباب وإنما أولا لأن الكلام أعني ﴿ يؤتي ماله ﴾ [الليل : 18] موجب والاستثناء المفرغ يختص بالنفي عند الجمهور لكنه لما عقب بقوله تعالى ﴿ وما لأحد ﴾ [الليل : 19] وقد قال سبحانه أولاً يتزكى متضمناً نفي الرياء والسمعة دل على المعنى المذكور وقرأ بن أبي عبلة إلا ابتغا مقصور وفيه احتمال النصب والرفع وهذه الآيات على ما سمعت نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه لما أنه كان يعتق رقاباً ضعافاً فقال له أبوه ما قال وأجابه هو بما أجاب وقد أوضحت ما أبهمه رضي الله تعالى عنه في قوله فيه إنما أريد ما أريد وفي رواية ابن جرير وابن عساكر أنه قال أي أبه إنما أريد ما عند الله تعالى وفي رواية عطاء والضحاك عن ابن عباس أنه رضي الله تعالى عنه اشترى بلالاً وكان رقيقاً لامية بن خلف يعذبه لإسلامه برطل من ذهب فأعتقه فقال المشركون ما أعتقه أبو بكر الأليد كانت له عنده فنزلت وهو رضي الله تعالى عنه أحد الذين عذبوا لإسلامهم فاشتراهم الصديق وأعتقهم فقد أخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أعتق سبعة كلهم يعذب في الله عز وجل بلال وعامر بن فهيرة والنهدية وابنتها ودنيرة وأم عيسى وأمة بني المؤمنل وفيه نزلت ﴿ وسيجنبها الاتقى ﴾ [الليل : 17] إلى آخر السورة واستدل بذلك الإمام علي أنه رضي الله تعالى عنه أفضل الأمة وذكر أن في الآيات ما يأبى قول الشيعة أنها في علي كرم الله تعالى وجهه وأطال الكلام في ذلك وأتى بما لا يخلو عن قيل وقال قوله تعالى :

(135/818)

﴿ وَلَسَوْفَ يَرضى ﴾ جواب قسم مضمر أي وبالله ﴿ لَسَوْفَ يَرضى ﴾ والضمير فيه للاتقى لمحدث عنه وهو وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها إذ به يتحقق الرضا وجوز الإمام كون الضمير للرب تعالى حيث قال بعد أن فسر الجملة على رجوعه للأتقى وفيه عندي وجه آخر وهو أن المراد أن ما أنفق إلا لطلب رضوان الله تعالى ﴿ وَلَسَوْفَ يَرضى ﴾ الله تعالى عنه وهذا عندي أعظم من الأول لأن رضا الله سبحانه عن عبده أكمل للعبد من رضاه عن ربه عز وجل وبالجملة فلا بد من حصول الأمرين كما قال سبحانه : ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : 28] انتهى والظاهر هو الأول وقد قرىء ﴿ وَلَسَوْفَ يَرضى ﴾ بالبناء للمفعول من الإرضاء وما أشار إليه في معنى ﴿ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ غير متعين كما سمعت وفي هذه الجملة كلام يعلم مما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(136/818)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

قوله : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾

أي : يغطي بظلمته ما كان مضيئاً .

قال الزجاج : يغشى الليل الأفق ، وجميع ما بين السماء والأرض ، فيذهب ضوء النهار ،

وقيل : يغشى النهار .

وقيل : يغشى الأرض .

والأوّل أولى .

﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ أي : ظهر وانكشف ، ووضح لزوال الظلمة التي كانت في الليل ، وذلك بطلوع الشمس ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ " ما " هنا هي الموصولة ، أي : والذي خلق الذكر والأنثى ، وعبر عن من بما للدلالة على الوصفية ، ولقصد التفخم ، أي : والقادر العظيم الذي خلق صنفي الذكر والأنثى .

قال الحسن ، والكلبي : معناه ، والذي خلق الذكر والأنثى فيكون قد أقسم بنفسه .

قال أبو عبيدة : ﴿ وما خلق ﴾ ، أي : ومن خلق .

وقال مقاتل : يعني : وخلق الذكر والأنثى فتكون "ما" على هذا مصدرية .

قال الكلبي ، ومقاتل : يعني : آدم وحواء ، والظاهر العموم .

قرأ الجمهور : ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ .

وقرأ ابن مسعود (والذكر والأنثى) بدون " ما خلق " .

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ هذا جواب القسم ، أي : إن عملكم لمختلف : فمنه عمل للجنة ، ومنه عمل للنار .

قال جمهور المفسرين : السعي العمل ، فساع في فكاك نفسه ، وساع في عطبها .

و﴿ شتى ﴾ جمع شتيت : كمرضى ومريض .

وقيل : للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعض .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى ﴾ أي : بذل ماله في وجوه الخير ، واتقى محارم الله التي نهى عنها ﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ أي : بالخلف من الله .

قال المفسرون : فأما من أعطى المعسرين .

وقال قتادة : أعطى حقّ الله الذي عليه .

وقال الحسن : أعطى الصدق من قلبه ، وصدّق بالحسنى ، أي : بلا إله إلاّ الله ، وبه قال الضحاك ، والسلمي .

وقال مجاهد : بالحسنى بالجنة .

وقال زيد بن أسلم : بالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والأوّل أولى .

قال قتادة : بالحسنى ، أي : بموعود الله الذي وعده أن يثيبه .

قال الحسن : بالخلف من عطائه ، واختار هذا ابن جرير ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ﴾ أي : فسنهيئه للخصلة الحسنى ، وهي : عمل الخير ، والمعنى : فسنيسر له الإنفاق في سبيل الخير ، والعمل بالطاعة لله .

قال الواحدي : قال المفسرون : نزلت هذه الآيات في أبي بكر الصدّيق اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا في أيدي أهل مكة يعذبونهم في الله .

﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغنى ﴾ أي بخل بماله ، فلم يبذله في سبل الخير ، واستغنى أي : زهد في الأجر والثواب ، أو ﴿ استغنى ﴾ بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة .

﴿ وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ أي : بالخلف من الله عزّ وجلّ ، وقال مجاهد : بالجنة ، وروي عنه أيضاً أنه قال : بلا إله إلاّ الله ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ أي : فسنهيئه للخصلة العسرى ، ونسهلها له حتى تتعسر عليه أسباب الخير والصلاح ، ويضعف عن فعلها ، فيؤديه ذلك إلى النار .

قال مقاتل : يعسر عليه أن يعطي خيراً .

قيل العسرى الشرّ ، وذلك أن الشرّ يؤدي إلى العذاب ، والعسرة في العذاب ، والمعنى : سنهيئه للشرّ بأن نجريه على يديه .

قال الفراء : سنيسره سنهيئه ، والعرب تقول : قد يسرت الغنم إذا ولدت ، أو تهيأت

للولادة .

قال الشاعر :

هما سيدانا يزعمان وإنما . . . يسودانا إن يسرت غنماهما

﴿ ومَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ﴾ أي : لا يغني عنه شيئًا ماله الذي بخل به ، أو أي شيء يغني عنه إذا تردّى ، أي : هلك ، يقال : ردي الرجل يردى ردى ، وتردى يتردّى : إذا هلك .

وقال قتادة ، وأبو صالح ، وزيد بن أسلم : ﴿ إذا تردّى ﴾ : إذا سقط في جهنم ، يقال ردي في البئر ، وتردّى : إذا سقط فيها ، ويقال : ما أدري أين ردى ، أي : أين ذهب ؟ ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى ﴾ هذه الجملة مستأنفة مقرّرة لما قبلها ، أي : إن علينا البيان .

قال الزجاج : علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال .

قال قتادة : على الله البيان : بيان حرامه ، وطاعته ، ومعصيته .

قال الفراء : من سلك الهدى ، فعلى الله سبيله ، لقوله : ﴿ وَعَلَى الله قَصْدُ السبيل ﴾ [النحل : 9] يقول : من أراد الله ، فهو على السبيل القاصد .

قال الفراء أيضاً : المعنى إن علينا للهدى والإضلال ، فحذف الإضلال كقوله : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحر ﴾ [النحل : 81] وقيل المعنى : إن علينا ثواب هداه الذي هديناه ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلأَخِرَةَ والأولى ﴾ أي : لنا كلّ ما في الآخرة ، وكلّ ما في الدنيا نتصرف به كيف نشاء . فمن أرادهما أو إحداهما ، فليطلب ذلك منا ، وقيل المعنى : إن لنا ثواب الآخرة ، وثواب الدنيا .

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ أي : حذرتكم وخوّفتكم ناراً تتوقد وتتوهج ، وأصله تتلظى ، فحذفت إحدى التاءين تخفيفاً .

وقرأ على الأصل عبيد بن عمير ، ويحيى بن يعمر ، وطلحة بن مصرف .

﴿ لاَ يصلاها إِلاَّ الأشقى ﴾ أي : يصلاها صلياً لازماً على جهة الخلود إلاّ الأشقى وهو الكافر ، وإن صليها غيره من العصاة ، فليس صليه كصليه .

والمراد بقوله : ﴿ يصلاها ﴾ : يدخلها ، أو يجد صلاها ، وهو حرّها .

ثم وصف الأشقى فقال : ﴿ الذى كَذَّبَ وتولى ﴾ أي : كذب بالحق الذي جاءت به الرسل ، وأعرض عن الطاعة والإيمان .

قال الفراء : ﴿ إِلاَّ الأشقى ﴾ إلاّ من كان شقياً في علم الله جلّ ثناؤه .

قال أيضاً : لم يكن كذب بردّ ظاهر ، ولكن قصر عما أمر به من الطاعة ، فجعل تكذيباً ، كما تقول لقي فلان العدوّ ، فكذّب : إذا نكل ، ورجع عن اتباعه .

قال الزجاج : هذه الآية هي التي من أجلها قال أهل الإرجاء بالإرجاء ، فزعموا أنه لا يدخل النار إلاّ كافر ؛ ولأهل النار منازل ، فمنها أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار .

والله سبحانه كلّ ما وعد عليه بجنس من العذاب ، فجدير أن يعذب به ، وقد قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾

(139/818)

[النساء : 48] فلو كان كلّ من لم يشرك لم يعذب لم يكن في قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ فائدة .

وقال في الكشاف : الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين ، وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين .

فقيل : الأشقى ، وجعل مختصاً بالصلي كأن النار لم تخلق إلاّ له .

وقيل : الأتقى ، وجعل مختصاً بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلاّ له ، وقيل : المراد بالأشقى أبو جهل ، أو أمية بن خلف ، وبالأتقى : أبو بكر الصدّيق ، ومعنى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى ﴾ سيباعد عنها المتقي للكفر اتقاء بالغاً .

قال الواحدي : الأتقى أبو بكر الصدّيق في قول جميع المفسرين انتهى ، والأولى حمل الأشقى

والأتقى على كل متصف بالصفتين المذكورتين ، ويكون المعنى أنه لا يصلاها صلياً تاماً إلاّ الكامل في الشقاء ، وهو الكافر ، ولا يجنبها ويبعد عنها تبعيداً كاملاً بحيث لا يحوم حولها فضلاً عن أن يدخلها إلاّ الكامل في التقوى ، فلا ينافي هذا دخول بعض العصاة من المسلمين النار دخولاً غير لازم ، ولا تبعيد بعض من لم يكن كامل التقوى عن النار تبعيداً غير بالغ مبلغ تبعيد الكامل في التقوى عنها .

والحاصل أن من تمسك من المرجئة بقوله : ﴿ لَا يصلاها إِلَّا الأشقى ﴾ زاعماً أن الأشقى الكافر ؛ لأنه الذي كذب وتولى ، ولم يقع التكذيب من عصاة المسلمين ، فيقال له : فما تقول في قوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الاتقى ﴾ فإنه يدل على أنه لا يجنب النار إلاّ الكامل في التقوى ، فمن لم يكن كاملاً فيها كعصاة المسلمين لم يكن ممن يجنب النار .

فإن أوّلت الأتقى بوجه من وجوه التأويل لزمك مثله في الأشقى ، فخذ إليك هذه مع تلك ، وكن كما قال الشاعر :

على أنني راض بأن أحمل الهوى . . . وأخرج منه لا عليّ ولا ليه

وقيل : أراد بالأشقى ، والأتقى الشقيّ ، والتقيّ ، كما قال طرفة بن العبد :

تمنى رجال أن أموت وإن أمت . . . فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أي : بواحد .

ولا يخفاك أنه ينافي هذا وصف الأشقى بالتكذيب ، فإن ذلك لا يكون إلاّ من الكافر ، فلا يتمّ ما أراده قائل هذا القول من شمول الوصفين لعصاة المسلمين .

ثم ذكر سبحانه صفة الأتقى فقال : ﴿ الذى يُؤْتِى مَالَهُ ﴾ أي : يعطيه ، ويصرفه في وجوه الخير ، وقوله : ﴿ يتزكى ﴾ في محل نصب على الحال من فاعل يؤتي ، أي : حال كونه يطلب أن يكون عند الله زكياً لا يطلب رياء ولا سمعة ، ويجوز أن يكون بدلاً من يؤتي داخلاً معه في حكم الصلة .

قرأ الجمهور : ﴿ يتزكى ﴾ مضارع " تزكى " .

وقرأ عليّ بن الحسين بن علي : (تزكى) بإدغام التاء في الزاي .

﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نّعْمَةٍ تجزى ﴾ الجملة مستأنفة : لتقرير ما قبلها من كون التزكي على جهة الخلوص ، غير مشوب بشائبة تنافي الخلوص أي : ليس ممن يتصدّق بماله ليجازي بصدقته نعمة لأحد من الناس عنده ويكافئه عليها ، وإنما يبتغي بصدقته وجه الله تعالى ؛ ومعنى الآية : أنه ليس لأحد من الناس عنده نعمة من شأنها أن يجازى عليها حتى يقصد بإيتاء ما يؤتي من ماله مجازاتها ، وإنما قال : ﴿ تجزى ﴾ مضارعاً مبنياً للمفعول لأجل الفواصل ، والأصل يجزيها إياه ، أو يجزيه إياها .

﴿ إِلَّا ابتغاء وَجْهِ ربِّهِ الاعلى ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ إلاّ ابتغاء ﴾ بالنصب على الاستثناء المنقطع لعدم اندراجه تحت جنس النعمة ، أي : لكن ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ويجوز أن يكون منصوباً على أنه مفعول له على المعنى ، أي : لا يؤتي إلاّ لابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة .

قال الفراء : هو منصوب على التأويل ، أي : ما أعطيتك ابتغاء جزائك بل ابتغاء وجه الله ، وقرأ يحيى بن وثاب بالرفع على البدل من محل نعمة ؛ لأن محلها الرفع إما على الفاعلية ، وإما على الابتداء ، ومن مزيدة ، والرفع لغة تميم ؛ لأنهم يجوّزون البدل في المنقطع ، ويجرونه مجرى المتصل .

قال مكي : وأجاز الفراء الرفع في "ابتغاء" على البدل من موضع نعمة ، وهو بعيد .

(141/818)

قال شهاب الدين : كأنه لم يطلع عليها قراءة ، واستبعاده ، هو البعيد فإنها لغة فاشية ، وقرأ الجمهور أيضاً : ﴿ ابتغاء ﴾ بالمدّ .

وقرأ ابن أبي عبلة بالقصر و ﴿ الأعلى ﴾ : نعت للربّ .

﴿ ولَسَوْفَ يرضى ﴾ اللام هي : الموطئة للقسم ، أي : وتالله لسوف يرضى بما نعطيه من

الكرامة والجزاء العظيم .

قرأ الجمهور : ﴿ يرضى ﴾ مبنياً للفاعل ، وقرئ مبنياً للمفعول .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾ قال : إذا أظلم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن عساكر عن ابن مسعود قال : إن أبا بكر الصدّيق اشترى بلالاً من أمية بن خلف ، وأبيّ بن خلف ببردة ، وعشر أواق ، فأعتقه لله ، فأنزل الله : ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ سعي أبي بكر ، وأمية وأبيّ إلى قوله : ﴿ وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ قال : لا إله إلاّ الله إلى قوله : ﴿ فَسَنُيَسّرُهُ للعسرى ﴾ قال : النار .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى ﴾ من الفضل : ﴿ واتقى ﴾ قال : اتقى ربه ﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ قال : صدّق بالخلف من الله .

﴿ فَسَنُيَسّرُهُ لليسرى ﴾ قال : للخير من الله .

﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغنى ﴾ قال : بخل بماله ، واستغنى عن ربه .

﴿ وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ قال : بالخلف من الله .

﴿ فَسَنُيَسّرُهُ للعسرى ﴾ قال : للشرّ من الله .

وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ قال : أيقن بالخلف .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ يقول : صدّق بلا إله إلاّ الله .

﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغنى ﴾ يقول : من أغناه الله ، فبخل بالزكاة .

(142/818)

وأخرج ابن جرير ، وابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، وكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه : أي بنيّ أراك تعتق أناساً ضعفاً ، فلو أنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك .

قال : أي أبت إنما أريد ما عند الله ، قال : فحدّثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى * وَصَدَّقَ بالحسنى * فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن مردويه ، وابن عساكر عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى * وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ قال : أبو بكر الصدّيق ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغنى * وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ قال : أبو سفيان بن حرب .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وأهل السنن ، وغيرهم عن عليّ بن أبي طالب قال : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في جنازة ، فقال : " ما منكم من أحد إلاّ وقد كتب مقعده من الجنة ، ومقعده من النار " فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل ؟ قال : " اعملوا ، فكل ميسر لما

خلق له ؛ أما من كان من أهل السعادة ، فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء ، فييسر لعمل أهل الشقاء " ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى * وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ إلى قوله : ﴿ للعسرى ﴾ .

وأخرج أحمد ، ومسلم ، وغيرهما عن جابر بن عبد الله : أن سراقة بن مالك قال : يا رسول الله في أيّ شيء نعمل ؟ أفي شيء ثبتت فيه المقادير ، وجرت به الأقلام ، أم في شيء يستقبل فيه العمل ؟ قال : " بل في شيء ثبتت فيه المقادير ، وجرت فيه الأقلام " قال سراقة : ففيم العمل إذن يا رسول الله ؟ قال : " اعملوا ، فكلّ ميسر لما خلق له " وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى ﴾ إلى قوله : ﴿ فَسَنُيَسّرُهُ للعسرى ﴾ " .

وقد تقدّم حديث عمران بن حصين في السورة التي قبل هذه .

وفي الباب أحاديث من طريق جماعة من الصحابة .

(143/818)

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال : "لتدخلن الجنة إلاّ من يأبى ، قالوا : ومن يأبى أن يدخل الجنة ؟ فقرأ : ﴿ الذى كَذَّبَ وتولى ﴾ " .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي أمامة قال : لا يبقى أحد من هذه الأمة إلاّ أدخله الله الجنة ، إلاّ من شرد على الله ، كما يشرد البعير السوء على أهله ، فمن لم يصدّقني فإن الله يقول : ﴿ لَا يصلاها إِلَّا الأشقى * الذى كَذَّبَ وتولى ﴾ كذّب بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وتولى عنه .

وأخرج أحمد ، والحاكم ، والضياء عن أبي أمامة الباهلي أنه سئل عن ألين كلمة سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ألا كلكم يدخل الله الجنة إلاّ من شرد على الله شراد البعير على أهله " وأخرج أحمد ، وابن ماجه ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل النار إلاّ شقيّ .

قيل : ومن الشقيّ ؟ قال : الذي لا يعمل لله بطاعة ، ولا يترك لله معصية " وأخرج أحمد ، والبخاري عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كلّ أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلاّ من أبى ، قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى " وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة أنّ أبا بكر الصدّيق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله : بلال ، وعامر بن فهيرة ، والنهدية ، وابنتها ، وزنيرة ، وأمّ عيسى ، وأمة بني المؤمل .

وفيه نزلت : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج الحاكم وصححه عن عامر بن عبد الله بن الزبير ما قدّمنا عنه ، وزاد فيه ، فنزلت فيه هذه الآية : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نّعْمَةٍ تجزى * إِلاَّ ابتغاء وَجْهِ رَبّهِ الأعلى * وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ .

(144/818)

وأخرج البزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، وابن عساكر عنه نحو هذا من وجه آخر .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى ﴾ قال : هو : أبو بكر الصدّيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 451 . 455 ﴾

(145/818)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

وقوله تعالى : «إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى»

أي إن علينا أن نبين للإنسان طريق الهدى ، ونكشف له عنه ، بما أودعنا فيه من عقل ،

وما بعثنا إليه من رسل ، وما أنزلنا من كتب . . فهذه كلها أنوار كاشفة تكشف للإنسان عن وجه الحق والخير ، وعن وجوه الضلال والشر . .

ثم إن للإنسان أن يختار الطريق الذي يسلكه . .

فالهدى ، غير الهداية . . ولهذا جاء النظم القرآنى : «إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى» ولو جاء هكذا : «إن علينا للهدآية» لكان على اللّه أن يهدى الناس جميعا ، وأن يكون ذلك على سبيل القهر والإلزام ، وهذا مالم يقع فى حكمة اللّه ، ولم يكن من تدبيره سبحانه وتعالى . . بل جعل اللّه للإنسان كسبا يكسبه بإرادته ، وعملا بعمله باختياره ، حتى يحقق وجوده كإنسان ، ويثبت ذاتيته كخليفة اللّه على الأرض . . وبهذا يستأهل الثواب والعقاب ! ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «وَلَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها » (13 : السجدة) . . وهذا لا يتعارض مع ما للّه سبحانه من مشيئة مطلقة غالبة . . ولكنّ مشيئة اللّه تدور فى فلكها مشيئة الإنسان ، التي بها يقضى فى أموره ، ويأخذ الطريق الذي يختاره ويرضاه .

فالإنسان ـ فيما يرى نفسه ـ مطلق المشيئة ، وإن كان مقيدا ، حرّ الإرادة ، وإن كان مجبرا . .

وقوله تعالى : « وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى » . .

للمفسرون مجمعون على أن الآخرة ، هى الحياة الآخرة ، وأن الأولى هى الحياة الدنيا . .

والرأى عندنا ـ والله أعلم ـ أن الآخرة والأولى ، هما اليسرى والعسرى ، اللتان أشار إليهما سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة . . وفى ذلك إشارة إلى أن اختيار الإنسان لليسرى أو العسرى ، وإن بدا أنه اختيار مطلق ، هو مقيد بمشيئة اللّه ، محكوم بإرادته ، إذ كلّ مردّه إلى اللّه ، فى واقع الأمر ، وكلّ صائر إلى حكمه ، وما قضى به فى عباده : « وَما تَشاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ » (29 : التكوير) . . ربّ العالمين « مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » (39 : الأنعام) . .

وقوله تعالى : « فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى » . .

وهذا مما أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله : « إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى » .

. ومن هذا الهدى ما أنذر اللّه به عباده ، على يد رسله ، من عذاب أليم فى الآخرة ، لمن رأى الضلال ، وسلك مسالكه ، ورأى الهدى ، فحاد عنه ، وصرف نفسه عن طريقه . .

وقوله تعالى : « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى وما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى ولَسَوْفَ يَرْضى » . .

والسلامة من هذا البلاء ، والنجاة من ذلك العذاب ، إنما هى لمن اتقى اللّه ، وخاف عذابه ، وأنفق المال طالبا زكاة نفسه ، وتطهيرها ، مبتغيا بذلك وجه ربه الأعلى ، المالك كلّ شىء ، القائم على كل شىء ، لا يريد بما أنفق جزاء ولا شكورا من أحد من عباد اللّه . . فمن فعل ذلك ابتغاء وجه اللّه ، أرضاه للّه وأقرّ عينه بما عمل . . إنه أرضى ربه ، فكان حقّا على اللّه أن يرضيه . .

وفى لفظ « الأشقى » و« الأتقى » ما يفيد المبالغة فى كل من الشّقوة والتقوى ، وفى هذا ما يدعو الشقي إلى التخفف مما يزيد فى شقوته ، حتى لا يزداد بذلك عذابه ، كما يدعو التقىّ أن يزداد فى تقواه ما استطاع ، حتى يزداد بذلك بعدا من النار ، وقربا من الجنة . .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن ـ 16 ـ ص 1595 . 1597 ﴾

(148/818)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) ﴾

استئناف مقرّر لمضمون الكلام السابق من قوله: ﴿ فأما من أعطى ﴾ إلى قوله: ﴿ للعسرى ﴾ [الليل: 5-10]، وذلك لإلقاء التبعة على من صار إلى العسرى بأن الله أعذر إليه إذ هداه بدعوة الإسلام إلى الخير فأعرض عن الاهتداء باختياره اكتسابَ السيئات، فإن التيسير لليسرى يحصل عند ميل العبد إلى عمل الحسنات، والتيْسير للعسرى يحصل عند ميله إلى عمل السيئات.

وذلك الميل هو المعبَّرُ عنه بالكسب عند الأشعري، وسماه المعتزلة: قدرة العبد، وهو أيضاً الذي اشتبه على الجبرية فسمَّوْه الجبر.

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إنَّ ﴾ ولام الابتداء يومىء إلى أن هذا كالجواب عما يجيش في نفوس أهل الضلال عند سماع الإِنذار السابق من تكذيبه بأن الله لو شاء منهم مَا دعاهم إليه لألجأهم إلى الإِيمان.

فقد حكي عنهم في الآية الأخرى: ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ﴾ [الزخرف: 20].

وحرف (على) إذا وقع بين اسم وما يدل على فِعل يُفيد معنى اللزوم، أي لازم لنا هُدَى الناس، وهذا التزام من الله اقتضاه فضله وحكمته فتولى إرشاد الناس إلى الخير قبل أن يؤاخذهم بسوء أعمالهم التي هي فساد فيما صنع الله من الأعيان والأنظمة التي أقام عليها فطرة نظام العالم، فهدى الله الإنسان بأن خلقه قابلاً للتمييز بين الصلاح والفساد ثم عزز

ذلك بأن أرسل إليه رُسلاً مبينين لما قد يخفى أمرُه من الأفعال أو يشتبه على الناس فساده بصلاحه ومنبهين الناس لما قد يغفلون عنه من سابق ما علموه.

وعطف ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ على جملة: ﴿ إن علينا للهدى ﴾ تتميم وتنبيه على أن تعهّد الله لعباده بالهُدى فضلٌ منه وإلا فإن الدار الآخرة ملكه والدار الأولى ملكه بما فيهما قال تعالى: ﴿ وللَّه ملك السماوات والأرض وما بينهما ﴾ [المائدة: 17] فله التصرف فيهما كيف يشاء فلا يحسبوا أن عليهم حقاً على الله تعالى إلا ما تفضل به.

وفي الآية إشارة عظيمة إلى أن أمور الجزاء في الأخرى تجري على ما رتبه الله وأعلم به عباده.

وأن نظام أمور الدنيا وترتب مسبباته على أسبابه أمر قد وضعه الله تعالى وأمر بالحفاظ عليه وأرشد وهدى، فمن فرط في شيء من ذلك فقد استحق ما تسبب فيه.

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14)

يجوز أن تكون الفاء لمجرد التفريع الذِكري إذا كان فعل: "أنذرتكم" مستعملاً في ماضيه حقيقةً وكان المراد الإنذار الذي اشتمل عليه قوله: ﴿ وأما من بخل واستغنى وكذب

بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ إلى قوله : ﴿ تردى ﴾ [الليل : 8 11] .

وهذه الفاء يشبه معناها معنى فاء الفصيحة لأنها تدلّ على مراعاة مضمون الكلام الذي قبلها وهو تفريع إنذار مفصَّلٍ على إنذار مجمل .

ويجوز أن تكون الفاء للتفريع المعنوي فيكون فعلُ "أنذرتكم" مراداً به الحال وإنما صيغ في صيغة المضي لتقريب زمان الماضي من الحال كما في : قد قَامت الصلاة ، وقولهم : عزمت عليك إلاّ ما فعلت كذا ، أي أعزم عليك ، ومثل ما في صيغ العقود : كبعتُ ، وهو تفريع على جملة : ﴿ إن علينا للهدى ﴾ [الليل : 12] والمعنى : هديكم فأنذرتكم إبلاغاً في الهدى .

وتنكير ﴿ ناراً ﴾ للتهويل ، وجملة ﴿ تلظى ﴾ نعت .

وتلظى : تلتهب من شدة الاشتعال .

وهو مشتق من اللّظى مصدر : لَظَيَتْ النار كرَضيتْ إذا التهبت ، وأصل ﴿ تلظى ﴾ تتلظى بتاءين حذفت إحداهما للاختصار .

وجملة ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ صفة ثانية أو حال من ﴿ ناراً ﴾ بعد أن وصفت .

وهذه نار خاصة أعدت للكافرين فهي التي في قوله : ﴿ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة : 24] والقرينة على ذلك قوله : ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ الآية .

وذكر القرطبي أن أبا إسحاق الزجاج قال : هذه الآية التي من أجلها قال أهلُ الإِرجاء بالإِرجاء فزعموا : أن لا يدخل النار إلا كافر ، وليس الأمر كما ظنوا : هذه نار موصوفة بعينها لا يصلى هذه النار إلا الذي كذب وتولى ، ولأهل النار منازل فمنها أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار أ هـ .

والمعنى : لا يصلاها إلا أنتم .

وقد أتبع ﴿ الأشقى ﴾ بصفة ﴿ الذي كذب وتولى ﴾ لزيادة التنصيص على أنهم المقصود بذلك فإنهم يعلمون أنهم كذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم وتولوا ، أي أعرضوا عن القرآن ، وقد انحصر ذلك الوصف فيهم يومئذ فقد كان الناس في زمن ظهور الإسلام أحد فريقين : إما كافر وإما مؤمن تقي ، ولم يكن الذين أسلموا يغشون الكبائر لأنهم أقبلوا على الإِسلام بشراشرهم ، ولذلك عطف ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ الخ تصريحاً بمفهوم القصر وتكميلاً للمقابلة .

و﴿ الأشقى ﴾ و ﴿ الأتقى ﴾ مراد بهما : الشديد الشقاء والشديد التقوى ومثله كثير في الكلام .

وذكر القرطبي : أن مالكاً قال : صلّى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب فقرأ ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ فلما بلغ : ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾ وقع عليه البكاء فلم يقدر يتعدّاها من البكاء فتركها وقرأ سورة أخرى" .

ووصف ﴿ الأشقى ﴾ بصلة ﴿ الذي كذب وتولى ﴾ ، ووصف ﴿ الأتقى ﴾ بصلة ﴿ الذي يؤتى ماله يتزكى ﴾ للإِيذان بأن للصلة تسبباً في الحكم .

وبين ﴿ الأشقى ﴾ و ﴿ الأتقى ﴾ محسن الجناس المضارع .

وجملة ﴿ يتزكى ﴾ حال في ضمير ﴿ يؤتي ﴾ ، وفائدة الحال التنبيه على أنه يؤتي ماله لقصد النفع والزيادة من الثواب تعريضاً بالمشركين الذي يؤتون المال للفخر والرياء والمفاسد والفجور .

والتزكي : تكلف الزكاء ، وهو النماء من الخير .

والمَال : اسم جنس لما يختص به أحد الناس من أشياء ينتفع بذاتها أو بخراجها وغلتها مثل الأنعام والأرضين والآبار الخاصة والأشجار المختص به أربابها .

S

ويطلق عند بعض العرب مثل أهل يثرب على النخيل .

وليس في إضافة اسم الجنس ما يفيد العموم ، فلا تدل الآية على أنه آتى جميع ماله .

وقوله : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ الآية اتفق أهل التأويل على أن أول مقصود بهذه الصلة أبو بكر الصديق رضي الله عنه لمَّا أعتق بلالاً قال المشركون : ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده .

وهو قول من بهتانهم (يعللون به أنفسهم كراهية لأن يكون أبو بكر فعل ذلك محبة للمسلمين) ، فأنزل الله تكذيبهم بقوله : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ مراداً به بعض من شمله عموم ﴿ الذي يؤتي ماله يتزكى ﴾ ، وهذا شبيه بذكر بعض أفراد العام وهو لا يخصص للعموم ولكن هذه لما كانت حالة غير كثيرة في أسباب إيتاء المال تعين أن المراد بها حالة خاصة معروفة بخلاف نحو قوله : ﴿ وآتى المال على حبه ذوي القربى ﴾ [البقرة : 177] ، وقوله : ﴿ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ [الإنسان : 9] .

و﴿ عنده ﴾ ظرف مكان وهو مستعمل هنا مجازاً في تمكن المعنى من المضاف إليه عنه كتمكن الكائن في المكان القريب ، قال الحارث بن حِلّزَة :

من لنا عِندَه من الخير آيا

ت ثلاث في كلهن القضاء . . .

و﴿ من نعمة ﴾ اسم ﴿ ما ﴾ النافية جر بـ ﴿ من ﴾ الزائدة التي تزاد في النفي لتأكيد

النفي، والاستثناء في ﴿ إلا ابتغاء وجه ربه ﴾ مُنقطع، أي لكن ابتغاء لوجه الله.

والابتغاء: الطلب بجد لأنه أبلغ من البغي.

والوجه مستعمل مراداً به الذات كقوله تعالى: ﴿ ويبقى وجه ربك ﴾ [الرحمن: 27].

ومعنى ابتغاء الذات ابتغاء رضا الله.

وقوله: ﴿ ولسوف يرضى ﴾ وعد بالثواب الجزيل الذي يرضى صاحبه.

وهذا تتميم لقوله: ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ لأن ذلك ما أفاد إلا أنه ناج من عذاب النار لاقتضاء المقام الاقتصار على ذلك لقصد المقابلة مع قوله: ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ فتمم هنا بذكر ما أعد له من الخيرات.

(152/818)

وحرف "سَوف" لتحقيق الوعد في المستقبل كقوله: ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ [يوسف: 98] أي يتغلغل رضاه في أزمنة المستقبل المديد.

واللام لام الابتداء لتأكيد الخبر.

وهذه من جوامع الكلم لأنها يندرج تحتها كل ما يرغب فيه الراغبون.

وبهذه السورة انتهت سورة وسط المفصّل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(153/818)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ .

يدل على أن الله التزم على نفسه الهدى للخلق مع أنه جاءت آيات كثيرة تدل على عدم هداه لبعض الناس كقوله: ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ وقوله: ﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا ﴾ الآية .

إلى غير ذلك من الآيات .

والجواب هو ما تقدم من أن الهدى يستعمل في القرآن خاصا وعاما فالمثبت العام والمنفي الخاص ونفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم وأما على قول من قال أن معنى الآية إن الطريق الذي يدل علينا وعلى طاعتنا هو الهدى لا الضلال ، وقول من قال أن معنى الآية إن من

سلك طريق الهدى وصل إلى الله فلا إشكال في الآية أصلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 333 ﴾

(154/818)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) ﴾

أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله .

وأخرج البيهقي في سننه عن جابر بن سمرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الظهر والعصر ب ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ ونحوها .

(155/818)

وأخرج ابن أبي حاتم بسند ضعيف عن ابن عباس : " أن رجلاً كانت له نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال ، فكان الرجل إذا جاء فدخل الدار فصعد إلى النخلة ليأخذ منها الثمرة فربما تقع ثمرة فيأخذها صبيان الفقير ، فينزل من نخلته ، فيأخذ الثمرة من أيديهم ، وإن وجدها في فم أحدهم أدخل أصبعه حتى يخرج الثمرة من فيه ، فشكا ذلك الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذهب ولقي النبي صلى الله عليه وسلم صاحب النخلة . فقال له : أعطني نخلتك المائلة التي فرعها في دار فلان ، ولك بها نخلة في الجنة . فقال له الرجل : لقد أعطيت وإن لي لنخلاً كثيراً وما فيه نخل أعجب إلي ثمرة منها . ثم ذهب الرجل ولقي رجلاً كان يسمع الكلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم لصاحب النخلة ، فأتى رسول الله : فقال أعطني ما أعطيت الرجل إن أنا أخذتها . قال : نعم ، فذهب الرجل فلقي صاحب النخلة ولكليهما نخل فقال له صاحب النخلة : أشعرت أن محمداً أعطاني بنخلتي المائلة إلى دار فلان نخلة في الجنة ، فقلت : لقد أعطيت ، ولكن يعجبني ثمرها ، ولي نخل كثير ما فيه نخلة أعجب إليّ ثمرة منها ، فقال له الآخر : أتريد بيعها ؟ فقال : لا إلا أن أعطي بها ما أريد ، ولا أظن أعطى . قال : فكم تؤمل فيها ؟ قال : أربعين نخلة ، فقال له الرجل : لقد جئت بأمر عظيم تطلب بنخلتك المائلة أربعين نخلة . ثم سكت عنه فقال : أنا أعطيك أربعين نخلة فقال له : أشهد إن كنت صادقاً . فأشهد له بأربعين نخلة بنخلته المائلة ، فمكث ساعة ثم قال : ليس بيني وبينك بيع لم نفترق . فقال له

الرجل : ولست بأحق حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة . فقال له : أعطيك على أن تعطيني كما أريد تعطينيها على ساق . فسكت عنه ثم قال : هي لك على ساق . قال : ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله إن النخلة قد صارت لي فهي لك . فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صاحب الدار فقال : النخلة لك ولعيالك .

(156/818)

فأنزل الله ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ "إلى آخر السورة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : إني لأقول هذه السورة نزلت في السماحة والبخل ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ قال : إذا أظلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ قال : إذا أقبل فغطى كل شيء .

وأخرج سعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن علقمة أنه قدم الشام فجلس إلى أبي الدرداء فقال

له أبو الدرداء ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة. قال: كيف سمعت عبد الله يقرأ ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ قال: علقمة: " والذكر والأنثى " فقال أبو الدرداء: أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ هكذا. وهؤلاء يريدوني على أني أقرؤها: " خلق الذكر والأنثى " والله لا أتابعهم.

(157/818)

وأخرج البخاري في تاريخ بغداد من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه كان يقرأ القرآن على قراءة زيد بن ثابت إلا ثمانية عشر حرفاً أخذها من قراءة عبد الله بن مسعود وقال ابن عباس ما يسرني أني تركت هذه الحروف ولو ملئت لي الدنيا ذهبة حمراء منها حرف في البقرة: " من بقلها وقثائها وثومها ". بالثاء وفي الأعراف: " فلنسألن الذين أرسل إليهم قبلك من رسلنا ولنسألن المرسلين " وفي براءة " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ". وفي إبراهيم: " وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال " وفي الأنبياء: " وكنا لحكمهم شاهدين "، وفيها: " وهم من كل جدث ينسلون " وفي الحج " يأتون من كل فج سحيق " وفي الشعراء: " فعلتها إذاً وأنا من الجاهلين "، وفي النمل: " اعبد رب هذه البلدة التي حرمها " وفي الصافات: " فلما سلما وتله للجبين " وفي الفتح: " وتعزروه

وتوقروه وتسبحوه " بالتاء وفي النجم : " ولقد جاء من ربكم الهدى " وفيها : " إن تتبعون إلا الظن " وفي الحديد : " لكي يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شيء " وفي ن : " لولا أن تداركته نعمة من ربه " على التأنيث وفي إذا الشمس كوّرت : " وإذا الموءودة سألت بأي ذنب قتلت " وفيها : " وما هو على الغيب بضنين " وفي الليل : " والذكر والأنثى " قال : هو قسم فلا تقطعوه .

وأخرج ابن جرير عن أبي إسحاق قال ؛ في قراءة عبد الله : " والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى والذكر والأنثى " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنه كان يقرؤها ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ يقول : والذي خلق الذكر والأنثى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ إن سعيكم ﴾ قال : السعي العمل .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : وقع القسم ههنا ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ يقول : مختلف .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن ابن مسعود أن أبا بكر الصديق اشترى بلالاً من أمية بن خلف وأبي بن خلف ببردة وعشر أواق ، فأعتقه لله ، فأنزل الله ﴿ والليل إذا يغشى إن سعيكم لشتى ﴾ سعي أبي بكر وأمية وأبي إلى قوله : ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ قال : لا إله إلا الله إلى قوله : ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ قال : النار .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ فأما من أعطى ﴾ من الفضل ﴿ واتقى ﴾ قال : اتقى ربه ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ قال : صدق بالخلف من الله ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ قال : الخير من الله ﴿ وأما من بخل واستغنى ﴾ قال : بخل بماله واستغنى عن ربه ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ قال : بالخلف من الله ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ قال : للشر من الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فأما من أعطى ﴾ قال : أعطى حق الله عليه ﴿ واتقى ﴾ محارم الله ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ قال : بموعود الله على نفسه ﴿ وأما من بخل ﴾ قال : بحق الله عليه ﴿ واستغنى ﴾ في نفسه عن ربه ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ قال : بموعود الله الذي وعد .

وأخرج ابن جرير من طرق عن ابن عباس ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ قال : أيقن بالخلف .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ يقول صدق بلا إله ألا الله ﴿

وأما من بخل واستغنى ﴾ يقول : من أغناه الله فبخل بالزكاة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي عبد الرحمن السلمي ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ قال : بلا إله إلا الله .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ قال : بالجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ قال : الجنة .

(159/818)

وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن ، فقال له أبوه أي بني أراك تعتق أناساً ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالاً جلداً يقومون معك ، ويمنعونك ، ويدفعون عنك . قال : أي أبت إنما أريد ما عند الله . قال : فحدثني بعض أهل بيتي أن هذه الآية نزلت فيه ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر في طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ قال :

أبو بكر الصديق ﴿ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ﴾ قال : أبو سفيان بن حرب .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن مردويه وابن جرير عن علي بن أبي طالب قال :

"كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فقال : ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار ، فقالوا ، يا رسول الله أفلا نتكل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاء ، ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ إلى قوله : ﴿ للعسرى ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن أبي عبد الرحمن السلمي قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [القمر : 49] قال رجل : يا رسول الله ففيم العمل أفي شيء نستأنفه أم في شيء قد فرغ منه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعملوا فكل ميسر نيسره لليسرى ونيسره للعسرى " " .

وأخرج الطستي في مسائله عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق سأله عن قوله : ﴿ إذا تردّى ﴾ قال : إذا تردى ودخل في النار نزلت في أبي جهل . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال

: نعم أما سمعت قول عدي بن زيد :

خطفته منية فتردى . . . وهو في الملك يأمل التعميرا

(160/818)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ إذا تردى ﴾ قال : في النار .

وأخرج ابن أبي شيبة ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾ قال : في النار .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ إذا تردى ﴾ قال : إذا مات وفي قوله : ﴿ ناراً تلظى ﴾ قال : توهج .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ إن علينا للهدى ﴾ يقول : على الله البيان بيان حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته .

وأخرج سعيد بن منصور والفراء والبيهقي في سننه بسند صحيح عن عبيد بن عمير أنه قرأ : " فأنذرتكم ناراً تتلظى " بالتاءين .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال : لتدخلن الجنة إلا من يأبى . قالوا ومن يأبى أن يدخل الجنة ؟ فقرأ ﴿ الذي كذب وتولى ﴾ .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن أبي أمامة

قال : لا يبقى أحد من هذه الأمة إلا أدخله الله الجنة إلا من شرد على الله كما يشرد البعير السوء على أهله ، فمن لم يصدقني فإن الله تعالى يقول : ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى ﴾ يقول : لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وتولى عنه .

وأخرج أحمد والحاكم عن أبي أمامة الباهلي أنه سئل عن ألين كلمة سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

"كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شرد البعير على أهله " .

وأخرج أحمد والبخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى . قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى " .

وأخرج أحمد وابن مردويه عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يدخل النار إلا شقيّ . قيل : ومن الشقي ؟ قال : الذي لا يعمل لله بطاعة ولا يترك لله معصية " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة أن أبا بكر الصديق أعتق سبعة كلهم يعذب في الله بلال وعامر بن فهيرة والنهدية وابنتها وزنيرة وأم عيسى وأمة بني المؤمل ، وفيه نزلت ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج أحمد ومسلم وابن حبان والطبراني وابن مردويه عن جابر بن عبد الله : " أن سراقة بن مالك قال : يا رسول الله أفي أي شيء نعمل ؟ أفي شيء ثبتت فيه المقادير ، وجرت فيه الأقلام أم في شيء نستقبل فيه العمل ؟ قال : بل في شيء ثبتت فيه المقادير وجرت فيه الأقلام . قال سراقة : ففيم العمل إذن يا رسول الله ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ إلى قوله : ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ " .

وأخرج ابن قانع وابن شاهين وعبدان كلهم في الصحابة عن بشير بن كعب الأسلمي " أن سائلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيم العمل قال : " فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، فاعملوا ، فكل ميسر لما خلق له ، ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ " " .

وأخرج الحاكم وصححه عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قال أبو قحافة لأبي بكر : أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جلداً يمنعونك ويقومون دونك ، فقال : يا أبت إنما أريد وجه الله ، فنزلت هذه الآية فيه : ﴿ فأما من

أعطى واتقى ﴾ إلى قوله: ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾.

وأخرج البزار وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن عديّ وابن مردويه وابن عساكر من وجه آخر عن عامر بن الزبير عن أبيه قال: نزلت هذه الآية ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى ﴾ في أبي بكر الصديق.

وأخرج ابن جرير عن سعيد قال: نزلت ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ في أبي بكر أعتق ناساً لم يلتمس منهم جزاء ولا شكوراً ستة أو سبعة منهم بلال وعامر بن فهيرة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ قال: هو أبو بكر الصديق.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ يقول: ليس به مثابة الناس ولا مجازاتهم إنما عطيته لله. انتهى انتهى. اهـ

﴿ الدر المنثور جـ 8 صـ 532. 538 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾

أقسم الله تعالى بالليل ، إذا غشيت ظلمته ضوء النهار .

ويقال : أقسم بخالق الليل إذا يغشى ، يعني : يغشى الليل ضوء النهار ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ يعني : أقسم بالنهار إذا استنار ، وتجلى عن الظلمة ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والانثى ﴾ يعني : والذي خلق الذكر والأنثى ، يعني : آدم وحواء .

وقال القتبي : ما ومن أصلهما واحد ، وجعل من للناس ، وما لغير الناس .

ويقال : من مَرّ بك من الناس ، وما مَرّ بك من الإبل .

وقال أبو عبيد : وما خلق ، أي : وما خلق ، وكذلك قوله : ﴿ والسمآء وَمَا بناها ﴾ [الشمس : 5] ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 7] "وما" في هذه المواضع بمعنى "من" وقال أبو عبيد : وما بمعنى من وبمعنى الذي .

وروي عن ابن مسعود ، أنه كان يقرأ والنهار إذا تجلى ، والذكر والأنثى وروى الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة قال : قدمنا الشام ، فأتانا أبو الدرداء ، فقال : أفيكم أحد يقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود ؟ فأشاروا إلي ، فقلت : نعم أنا .

فقال : كيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية ؟ قلت : سمعته يقرأ ، والذكر والأنثى .

قال : أنا هكذا والله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرأها ، وهؤلاء يريدونني على أن أقرأها كلا أنا معهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ فهذا موضع جواب القسم ، أقسم الله تعالى بخالق هذه الأشياء ، إن سعيكم لشتى ، يعني : أديانكم ومذاهبكم مختلفة ، يعني : عملكم مختلف .

عامل للجنة ، وعامل للنار .

وقال أبو الليث رحمه الله : حدّثنا أبو جعفر ، حدّثنا أبو بكر أحمد بن محمد بن سهل القاضي قال : أخبرنا حدّثنا أحمد بن جرير ، قال حدّثنا أبو عبد الرحمن راشد بن إسماعيل ، عن منصور بن مزاحم ، عن يونس بن إسحاق ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أن أبا بكر رضي الله عنه ، اشترى بلالاً من أمية بن خلف ، وأبي بن خلف ببردة وعشرة أواق من فضة ، فأعتقه لله تعالى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ والليل إِذَا يغشى والنهار إِذَا تجلى وَمَا خَلَقَ الذكر والانثى إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ يعني : سعي أبي بكر ، وأمية بن

خلف .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ يعني : بلا إله إلا الله ، يعني : أبا بكر ﴿ فَسَنُيَسّرُهُ لليسرى ﴾ يعني : الجنة ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغنى وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ يعني : بلا إله إلا الله ﴿ فَسَنُيَسّرُهُ للعسرى ﴾ يعني : أمية ، وأبي ابني خلف إذا ماتا .

ويقال : لنزول هذه الآية سبب آخر ، كان رجل من الكفار له نخلة في دار ، وشعبها في دار رجل آخر من المسلمين ، وكان إذا سقطت ثمرة في دار المسلم ، نادى الكافر : حرام حرام ، وكان المسلم يأخذ الثمرة ، فيرمي بها في دار الكافر ، لئلا يأكل ذلك صبيانه فسقطت يوماً ثمرة ، فأخذها ابن صغير للمسلم ، فجعلها في فيه ، فدخل الكافر ، فأخرج الثمرة من فيه ، وأبكى الصبي .

فشكى المسلم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعا المشرك فقال : أتبيع نخلتك ليعطيك الله أفضل منها في الجنة ، فقال : لا أبيع العاجل بالآجل ، فسمع رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فاشترى النخلة من الكافر ، وتصدق بها على المسلم .

فنزلت ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى ﴾ يعني : أعطى من ماله حق الله تعالى ، واتقى الشرك ، وسخط الله تعالى ، ﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ .

يعني : بثواب الله في الجنة ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾ يعني : سنعينه ونوفقه ﴿ لليسرى ﴾ يعني : لعمل أهل الجنة ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ ﴾ بالصدقة ﴿ واستغنى ﴾ يعني : رأى نفسه مستغنياً عن ثواب الله ، وعن جنته ﴿ وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ يعني : بالثواب وهو الجنة ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ يعني : نخذله ولا نوفقه للطاعة ، فسنيسر عليه طريق المعصية ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغنى ﴾ ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ﴾ يعني : ما ينفعه ماله ، إذا مات وتركه في الدنيا ، وهو يرد إلى النار .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى ﴾ يعني : علينا بيان الهدى ، ويقال : علينا التوفيق للهدى من كان أهلاً لذلك ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلأُخِرَةَ والاولى ﴾ يعني : الدنيا والآخرة لله تعالى ، يعطي منها من يشاء ويقال : معناه إلى الله تعالى ثواب الدنيا والآخرة .

ويقال : وإن لنا للآخرة والأولى ، يعني : لله تعالى نفاذ الأمر في الدنيا والآخرة ، يعطي في الدنيا المغفرة ، والتوفيق للطاعة ، وفي الآخرة الحسنة والثواب .

ثم قال : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ يعني : خوفتكم بالقرآن ناراً تلظى ، يعني : تثقل على أهلها ، وتغيظ على أهلها ، وتزفر عليهم .

قوله عز وجل : ﴿ لاَ يصلاها ﴾ يعني : لا يدخل في النار ﴿ إِلاَّ الاشقى ﴾ يعني : الذي ختم له بالشقاوة ﴿ الذى كَذَّبَ وتولى ﴾ يعني : كذب بالتوحيد ، وتولى عن الإيمان ،

وعن طاعة الله تعالى ، وأخذ في طاعة الشيطان .

ثم قال : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الاتقى ﴾ يعني : يباعد عنها الأتقى ، يعني : المتقي الذي يتقي الشرك وهو ﴿ الذى يُؤْتِى مَالَهُ يتزكى ﴾ يعني : يعطي من ماله حق الله تعالى ﴿ يتزكى ﴾ يعني : يريد به وجه الله تعالى .

(166/818)

ثم قال : ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى ﴾ يعني : لا يفعل ذلك مجازاة لأحد ﴿ إِلاَّ ابتغاء وَجْهِ رَبّهِ الاعلى ﴾ ولكن يفعل ذلك وجه ابتغاء ربه الأعلى ، يفعل ذلك طلب رضاء الله تعالى الأعلى ، يعني : الله العلي الكبير ، الرفيع فوق خلقه ، بالقهر والغلبة .

﴿ وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ يعني : سوف يعطي الله من الثواب ، حتى يرضى بذلك .

وقال مقاتل : مر أبو بكر على بلال ، وسيده أمية بن خلف يعذ به ، فاشتراه وأعتقه ، فكره أبو قحافة عتقه ، فقال لأبي بكر : أما علمت أن مولى القوم من أنفسهم ، فإذا أعتقت فأعتق من له منظرة وقوة ، فنزل ﴿ وَمَا لِاحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى ﴾ يعني : لا يعقل لطلب المجازاة ، ولكن إنما يعطي ما له ﴿ ابتغاء وَجْهِ رَبّهِ الاعلى وَلَسَوْفَ يرضى ﴾

بثواب الله تعالى ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 564 . 566 ﴾

(167/818)

وقال الثعلبى :

سورة الليل

﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾

النهار فيذهب بضوءه ﴿ والنهار إِذَا تجلى * وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ يعني ومن خلق .

أخبرنا محمد بن نعيم قال : أخبرنا الحسين بن أيوب قال : حدّثنا علي بن عبد العزيز قال : أخبرنا أبو عبيد قال : حدّثنا حجاج ، عن هارون ، عن إسماعيل ، عن الحسن : أنه كان يقرأ : وما خلق الذكر والأنثى ، فيقول : والذي خلق ، قال هارون قال أبو عمرو وأهل مكة : يقول للرعد : سبحان ما سبّحت له . وقيل : وخلق الذكر والأنثى ، وذكر أنّها في قراءة ابن مسعود وأبي الدرداء : والذكر والأنثى .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا مكي قال : أخبرنا عبد الله بن هاشم قال : حدّثنا

أبو معونة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة قال : قدمنا الشام ، فأتانا أبو الدرداء ، فقال : أمنكم أحد يقرأ عليّ قراءة عبد الله ؟ قال : فأشاروا إليّ ، فقلت : نعم أنا ، فقال : فكيف سمعت عبد الله يقرأ هذه الآية ، ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾ ؟ قال : قلت : سمعته يقرأها (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلّى والذكر والأنثى) .

قال لنا : والله هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها وهؤلاء يريدونني أن أقرأ ﴿ وَمَا خَلَقَ ﴾ فلا أُتابعهم .

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ إنّ عملكم لمختلف [وقال عكرمة وسائر المفسرين : السعي : العمل] ، فساع في فكاك نفسه ، وساع في عطبها ، يدل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " والناس عاديان فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها " .

(168/818)

﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى ﴾ ماله في سبيل الله ﴿ واتقى ﴾ ربّه واجتنب محارمه ﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ اي بالخلف أيقن بأن الله سبحانه سيخلف هذه ، وهذه رواية عكرمة وشهر بن حوشب ، عن ابن عباس ، يدلّ عليه ما أخبرني عقيل أن أبا الفرج أخبرهم ، عن محمد بن جرير قال : حدّثني الحسن بن أبي سلمة بن أبي كبشة قال : حدّثنا عبد الملك بن عمرو

قال : حدّثنا عباد بن راشد ، عن قتادة قال : حدّثنا خليل العصري ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من يوم غربت شمسه إلاّ وبعث بجنبتها ملكان ينادیان ، یسمعهما خلق الله تعالی کلهم إلاّ الثقلين ، اللهم أعطِ منفقاً خلفا وأعطِ ممسكاً تلفاً ، فأنزل في ذلك القرآن ، فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى الى قوله للعسرى " .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي والضحّاك : وصدّق بالحسنى ، ب (لا إله إلاّ الله) . وهي رواية عطية ، عن ابن عباس . وقال مجاهد : بالجنة ، ودليله قوله سبحانه ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] ، وقال قتادة ومقاتل والكلبي : بموعود الله الذي وعده أن يثيبه .

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾ فسنهيّئه في الدنيا ، تقول العرب : يسّرت غنم فلان إذا ولدت أو تهيّأت للولادة ، قال الشاعر :

هما سيدانا يزعمان وإنما . . . يسودانا إن يسّرت غنماهما

﴿ لليسرى ﴾ للخلّة اليسرى ، وهي العمل بما يرضاه الله سبحانه ، وقيل : نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ ﴾ بالنفقه في الخير ﴿ واستغنى ﴾ عن ربّه فلم يرغب في ثوابه ﴿ وَكَذَّبَ بالحسنى * فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ أي للعمل بما لا يرضى الله حتى يستوجب به

النار ، فكأنه قال : نخذله ونؤذيه إلى الأمرّ العسير ، وهو العذاب . وقيل : سندخله جهنم ، والعسرى اسم لها .

(169/818)

فإنْ قيل : فأي تيسير في العسرى ؟ قيل : إذا جمع بين كلامين أحدهما ذكر الخير والآخر ذكر الشر جاز ذلك ، كقوله : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21] [التوبة : 34] [الانشقاق : 24] .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا ابن ماهان محمد بن صي قال : حدّثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن سعد بن عبيدة ، عن أبي عبد الرحمن السلمي ، عن علي بن أبي طالب : "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في جنازة فأخذ عوداً فجعل ينكث في الأرض ، فقال : " ما منكم من أحد إلاّ قد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار " ، فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نتكل ؟ فقال " اعملوا فكلٌّ ميسّر " ، ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى ﴾ الآيات " .

﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ﴾ قال مجاهد : مات ، وقال قتادة وأبو صالح : هو لحد في جهنم ، قال الكلبي : نزلت في أبي سفيان بن حرب .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى ﴾ أي بيان الحق من الباطل، وقال الفرّاء: يعني من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله سبحانه: ﴿ وعلى الله قَصْدُ السبيل ﴾ [النحل: 9]، يقول: من أراد الله فهو على السبيل القاصد. وقيل: معناه: إنّ علينا للهدى والإضلال، كقوله: بيدك الخير وسرابيل تقيكم الحر.

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ والأولى ﴾ فمن طلبها من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق.

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ تتوقد وتتوهج، وقرأ عبيد بن عمير (تتلظى) على الأصل، وغيره على الحذف ﴿ لاَ يَصْلاَهَآ إِلاَّ الأشقى * الذي كَذَّبَ وتولى ﴾ قرأ أبو هريرة: ليدخلنّ الجنة إلاّ من يأبى، قالوا: يا أبا هريرة، ومن يأبى أن يدخل الجنة؟ فقرأ قوله سبحانه: ﴿ الذي كَذَّبَ وتولى ﴾.

(170/818)

أخبرني ابن فنجويه قال: حدّثنا برهان بن علي الصوفي قال: حدّثنا أبو خليفة قال: حدّثنا القعنبي قال: حدّثنا مالك قال: صلّى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب، فقرأ فيها ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾، فلمّا أتى على هذه الآية ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ وقع عليه البكاء فلم يقدر أن [يتعدّاها] من البكاء، وقرأ سورة أُخرى.

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى * الذى يُؤْتِي مَالَهُ يتزكى ﴾ قال أهل المعاني : أراد الشقي والتقي ، كقول طرفة :

تمنى رجال أن أموت ، فإن أمت . . . فتلك سبيل لست فيها بأوحد

أي بواحد .

أخبرني الحسين قال : حدّثنا أبو حذيفة أحمد بن محمد بن علي قال : حدّثنا عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله المقري قال : حدّثنا جدّي قال : حدّثنا سفيان ، عن هشام بن عروة ، عن سالم .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن يوسف قال : حدّثنا ابن عمران قال : حدّثنا أبو عبيد الله المخزومي قال : حدّثنا سفيان ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه أنّ أبا بكر رضي الله عنه اعتق من كان يعذّب في الله : بلال وعامر بن فهيرة والنهدية وبنتها وزنيرة وأم عميس وأمة بني المؤمّل .

فأما زنيرة فكانت رومية وكانت لبني عبد الدار ، فلمّا أسلمت عميت ، فقالوا : أعمتها اللاتِ والعزى .

فقالت : هي تكفر باللات والعزى ، فردّ الله إليها بصرها ، ومرّ أبو بكر بها وهي تطحن وسيّدتها تقول : والله لا أعتقك حتى يعتقك صُباتك ، فقال أبو بكر فحلى إذاً يا أم فلان فبكمْ هي إذاً ؟ قالت : بكذا وكذا أوقية ، قال : قد أخذتها ، قومي ، قالت : حتى أفرغ

من طحني .

وأما بلال فاشتراه ، وهو مدفون بالحجارة ، فقالوا : لو أبيت إلاّ أوقية واحدة لبعناك ، فقال أبو بكر : لو أبيتم إلاّ مائة أوقية لأخذته ، وفيه نزلت يعني أبا بكر ، ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى * الذى يُؤْتِي مَالَهُ يتزكى ﴾ إلى آخرها ، وأسلم وله أربعون ألفاً فأنفقها كلّها ، يعني أبا بكر .

(171/818)

وأنبأني عبد الله بن حامد قال : أخبرني أبو سعيد الحسن بن أحمد بن جعفر اليزدي قال : أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي عبد الرحمن المقري قال : حدّثنا سفيان ، عن عتبة قال : حدّثني من سمع ابن الزبير على المنبر وهو يقول : كان أبو بكر يبتاع الضعفة فيعتقهم ، فقال له أبوه : يا بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك ، قال : [إنما أريد ما أُريد] فنزلت فيه ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى * الذى يُؤْتِي مَالَهُ يتزكى ﴾ إلى آخر السورة ، وكان اسمه عبد الله بن عثمان .

عن عطاء ، عن ابن عباس ، في هذه الآية " أن بلالا لما أسلم ذهب إلى الأصنام فسلح عليها ، وكان المشركون وكلوا امراة تحفظ الأصنام ، فأخبرتهم المرأة ، وكان بلال عبداً لعبد الله ابن جدعان ، فشكوا إليه ، فوهبه لهم ومائة من الإبل ينحرونها لآلهتهم ، فأخذوه

وجعلوا يعذبونه في الرمضاء ، وهو يقول : أحداً أحد ، فمرّ به النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ينجيك أحد أحد ، ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن بلالا يعذَّب في الله ، فحمل أبو بكر رطلا من ذهب فابتاعه به " .

وقال سعيد بن المسيب : بلغني أن أُمية بن خلف قال لإبي بكر حين قال له أبو بكر : أتبيعه ؟ قال : نعم أبيعه بنسطاس ، وكان نسطاس عبداً لأبي بكر صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجواري ومواشي ، وكان مشركاً [وحمله] أبو بكر على الإسلام على أن يكون [له] ماله ، فأبى فأبغضه أبو بكر ، فلمّا قال له أُمية : أتبيعه بغلامك نسطاس ؟ اغتنمه أبو بكر وباعه به ، فقال المشركون : ما فعل أبو بكر ذلك لبلال إلاّ ليد كانت لبلال عنده ، فأنزل الله سبحانه ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ ﴾ من أُولئك الذين أعتقهم ﴿ مِن نِّعْمَةٍ تجزى ﴾ يد نكافئه عليها ﴿ إِلاَّ ﴾ لكن ﴿ ابتغآء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى * وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ بثواب الله في العقبى عوضاً مما فعل في الدنيا .

(172/818)

وأخبرنا أبو القاسم يعقوب بن أحمد بن السري العروضي في درب الحاجب قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن عبد الله العماني الحفيد قال : حدّثنا أحمد بن نصر بن خفيف القلانسي

الرقّاء قال : حدّثنا محمد بن جعفر بن سوّار بن سنان في سنة خمس وثمانين ومائتين قال : حدّثنا علي ابن حجر ، عن إسحاق بن نجح ، عن عطاء قال : "كان لرجل من الأنصار نخلة ، وكان له جار ، فكان يسقط من بلحها في دار جاره ، فكان صبيانه يتناولون ، فشكا ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي (عليه السلام) "بعنيها بنخلة في الجنة" ، فأبى قال : فخرج ، فلقيه أبو الدحداح ، فقال : هل لك أن تبيعها بجبس ؟ يعني حائطاً له ، فقال : هي لك ، قال : فأتى النبي (عليه السلام) ، فقال : يا رسول الله اشترها منّي بنخلة في الجنة ، قال : نعم ، قال : هي لك ، فدعا النبي (عليه السلام) جار الأنصاري ، فأخذها ، فأنزل الله سبحانه وتعالى ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ أبو الدحداح والأنصاري صاحب النخلة" .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى ﴾ أبو الدحداح ﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ يعني الثواب ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ﴾ يعني الجنة.

(173/818)

﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغنى ﴾ يعني الأنصاري ﴿ وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ يعني الثواب ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ يعني النار ، ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ﴾ يعني به إذا مات كما

في قوله : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى * لاَ يَصْلاَهَآ إِلاَّ الأشقى ﴾ صاحب النخلة ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى ﴾ يعني أبا الدحداح ﴿ الذى يُؤْتِي مَالَهُ يتزكى ﴾ يعني أبا الدحداح ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى ﴾ يكافئه بها ، يعني أبا الدحداح ﴿ إِلاَّ ابتغآء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى * وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ إذا أدخله الجنة . " فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر بذلك بحبس وعذوقه دانية ، فيقول : " عذوق وعذوق لأبي الدحداح في الجنة " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 216. 221 ﴾

(174/818)

وقال الزمخشري :

سورة الليل

مكية ، وآياتها 21 «نزلت بعد الأعلى» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الليل (92) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى (1) وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى (2) وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4)

المغشى : إما الشمس من قوله وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشاها وإما النهار من قوله يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ وإما كل شيء يواريه بظلامه من قوله إِذا وَقَبَ. تَجَلَّى ظهر بزوال ظلمة الليل. أو تبين وتكشف بطلوع الشمس وَما خَلَقَ والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى من ماء واحد. وقبل : هما آدم عليه السلام وحواء. وفي قراءة النبي صلى اللّه عليه وسلم : والذكر والأنثى. وقرأ ابن مسعود : والذي خلق الذكر والأنثى.

(175/818)

وعن الكسائي : وما خلق الذكر والأنثى بالجر على أنه بدل من محل ما خَلَقَ بمعنى : وما خلقه اللّه، أى : ومخلوق اللّه الذكر والأنثى. وجاز إضمار اسم اللّه لأنه معلوم لانفراده بالخلق. إذ لا خالق سواه. وقيل : إنّ اللّه لم يخلق خلقا من ذوى الأرواح ليس بذكر ولا أنثى. والخنثى، وإن أشكل أمره عندنا فهو عند اللّه غير مشكل، معلوم بالذكورة أو الأنوثة، فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه ذكرا ولا أنثى، ولقد لقى خنثى مشكلا : كان حانثا، لأنه في الحقيقة إمّا ذكرا أو أنثى، وإن كان مشكلا عندنا لَشَتَّى جمع شتيت، أى : إنّ مساعيكم أشتات مختلفة، وبيان اختلافها فيما فصل على أثره.

[سورة الليل (92) : الآيات 5 إلى 7]

فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى (7)

أَعْطى يعنى حقوق ماله وَاتَّقى الله فلم يعصه وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى بالخصلة الحسنى: وهي الإيمان. أو بالملة الحسنى: وهي ملة الإسلام، أو بالمثوبة الحسنى: وهي الجنة فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى فسنهيؤه لها من يسر الفرس للركوب إذا أسرجها وألجمها. ومنه قوله عليه السلام:

«كل ميسر لما خلق «1» له» والمعنى: فسنلطف به ونوفقه حتى تكون الطاعة أيسر الأمور عليه وأهونها «2»، من قوله فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ.

[سورة الليل (92): الآيات 8 إلى 11]

وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى (10) وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى (11)

وَاسْتَغْنى وزهد فيما عند الله كأنه مستغن عنه فلم يتقه. أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الجنة، لأنه في مقابلة وَاتَّقى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى فسنخذله ونمنعه الألطاف، حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشده، من قوله يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ أو سمى طريقة الخير باليسرى، لأنّ عاقبتها اليسر، وطريقة الشر العسرى، لأن عاقبتها العسر. أو أراد بهما طريقى الجنة والنار، أى: فسنهديهما في الآخرة للطريقين. وقيل: نزلتا في أبى بكر رضى الله عنه، وفي أبى سفيان بن حرب وَما يُغْنِي عَنْهُ

استفهام في معنى الإنكار، أو نفى تَرَدَّى تفعل من الردى وهو الهلاك، يريد: الموت. أو تردّى في الحفرة إذا قبر.

أو تردى في قعر جهنم.

---

(1). متفق عليه من حديث عمران بن حصين، ومن حديث على رضى اللّه عنه.

(2). قال محمود: «التيسير لليسرى خلق الألطاف... الخ» قال أحمد: ألا يطيل لسانه هاهنا على أهل السنة ولكن قصره الحق فتراه يؤول الكلام بل يعطله، لأنه يحمله ما لا يحتمله، وعلى كلامه في أمثالها روعة السارق الخائف.

(176/818)

[سورة الليل (92): الآيات 12 إلى 13]

إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (12) وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى (13)

إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى إن الإرشاد إلى الحق واجب علينا بنصب الدلائل «1» وبيان الشرائع وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى أى ثواب الدّارين للمهتدى، كقوله وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.

[سورة الليل (92): الآيات 14 إلى 21]

فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (14) لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16)

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى (18)

وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (19) إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضى (21)

وقرأ أبو الزبير: تتلظى. فإن قلت: كيف قال لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى ...... وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى وقد علم أن كل شقىّ يصلاها «2»، وكل تقىّ يجنبها، لا يختص بالصلى أشقى الأشقياء، ولا بالنجاة

---

(1). قوله «له واجب علينا بنصب الدلائل» وجوب شيء على اللّه تعالى: مذهب المعتزلة. ولا يجب عليه شيء عند أهل السنة، ولكن شأن الكريم تأكيد الوعد. (ع)

(2). قال محمود: «فان قلت: كيف قال لا يصلاها إلا الأشقى وسيجنبها الأتقى، وقد علم أن كل شقى يصلاها ... الخ» قال أحمد: لا شك أن السائل بنى سؤاله على التمسك بمفهوم الآية لورودها بصيغة التخصيص، فحاصل جواب الزمخشري أن التخصيص ها هنا لفائدة أخرى غير النفي عما عدا المخصص، وتلك الفائدة المقابلة، وحيث تمحض لك السؤال والجواب، فهو يلاحظ نظر الشافعي رحمه اللّه في قوله تعالى قُلْ لا أَجِدُ فِي ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلى طاعِمٍ يَطْعَمُهُ فانه لم يقل بمفهوم حصرها، وحملها على أن الحصر لفائدة المقابلة بالرد لأحكام الجاهلية، لا لنفى ما عدا المحصور.

على أن الزمخشري إنما ضيق عليه الخناق في هذه الآية حتى التزم ورود السؤال المذكور ، التفاته إلى قاعدته الفاسدة وحذره أن تنقض ، ويأبى اللّه إلا نقضها ورفضها ، وإذا نزلت الآية على قواعد أهل السنة وضع لك ما قلته ، فنقول : المصلى في اللغة أن يحفروا حفيرا فيجمعوا فيه جمرا كثيرا ، ثم يعمدوا إلى شاة فيدسوها وسطه بين أطباقه ، فأما ما يشوى فوق الجمر أو على المقلى أو على التنور فليس بمصلى ، وهذا التفسير بعينه نص عليه الزمخشري ونقطة عن أهل اللغة في سورة الغاشية أيضا ، وأنا وقفت عليه في كتبهم ، فإذا عرفت معنى التصلية لغة وأنها أشد أنواع الإحراق بالنار ، وفي علمك أن الناس عند أهل السنة ثلاثة أصناف : مؤمن صالح فائز ، ومؤمن عاص ، وكافر ، وأن المؤمن الفائز يمر على النار فيطفئ نوره لهبها ولا يؤلم بمسها البتة ، وإنما يردها تحلة القسم ، والعاصي إن شاء اللّه تعذيبه ومجازاته فإنما يعذب على وجه النار في الطبقة الأولى باتفاق ، حتى أن منهم من تبلغ النار إلى كعبه : وأشدهم من تبلغ النار إلى موضع سجوده فيحسه ، ولا يعذب أحد من المؤمنين بين أطباقها ألبتة بوعد اللّه تعالى ، والكافر هو المعذب بين أطباقها : تبين لك أن النار لا يصلاها أي يعذب بين أطباقها – كما علمت تفسيره في اللغة – إلا الكافر : وهو الأشقى ، لأن المؤمن العاصي لا يبلغ مبلغه في الشقاء ، وأن المؤمن الفائز وهو الأتقى بالنسبة إلى المؤمن العاصي يجنب النار بالكلية ، لأن وروده تحلة القسم لا يصل إليه مسها ولا ألمها ، وأن المؤمن العاصي الذي ليس بالأتقى ولا بالأشقى لا يصلاها ولا يجنبها بالكلية

، لأن وروده تحلة القسم بل يعذب فيها لا بالصلى ، فهذا أحسن ما حملت الآية عليه ، لكن إنما ينزل على جادة السنة . وأما الزمخشري فينحرف عنها ، فلا جرم أنه في عهدة الجواب يفكر ويقدر . واللّه أعلم .

(177/818)

أتقى الأتقياء ، وإن زعمت أنه نكر النار فأراد نارا بعينها مخصوصة بالأشقى ، فما تصنع بقوله وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى فقد علم أن أفسق المسلمين «1» يجنب تلك النار المخصوصة ، لا الأتقى منهم خاصة ؟ قلت : الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين فقيل : الأشقى ، وجعل مختصا بالصلى ، كأن النار لم تخلق إلا له . وقيل : الأتقى ، وجعل مختصا بالنجاة ، كأن الجنة لم تخلق إلا له . وقيل : هما أبو جهل أو أمية بن خلف ، وأبو بكر رضى اللّه عنه يَتَزَكَّى من الزكاء . أى : يطلب أن يكون عند اللّه زاكيا ، لا يريد به رياء ولا سمعة . أو يتفعل من الزكاة . فإن قلت : ما محل يتزكى ؟ قلت : هو على وجهين : إن جعلته بدلا من يُؤْتِي فلا محل له لأنه داخل في حكم الصلة ، والصلات لا محل لها وإن جعلته حالا من الضمير في يُؤْتِي فمحله النصب اِبْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ مستثنى من غير جنسه وهو النعمة أى : ما لأحد عنده نعمة إلا

ابتغاء وجه ربه ، كقولك : ما في الدار أحد إلا حمارا وقرأ يحيى بن وثاب ، إلا ابتغاء وجه ربه بالرفع : على لغة من يقول : ما في الدار أحد إلا حمار وأنشد في اللغتين قول بشر بن أبى حازم :

أضحت خلاء قفارا لا أنيس بها إلا الجآذر والظّلمان تختلف «2»

وقول القائل :

وبلدة ليس بها أنيس إلّا اليعافير وإلّا العيس «3»

---

(1) . قوله «فقد علم أن أفسق المسلمين» لعله : وقد . (ع)

(2) أضحت خلايا قفارا لا أنيس بها إلا الجاذر والظلمان تختلف

رقفت فيها قلوصي كى تجاوبنى أو بخبر الرسم عنهم أية انصرفوا

لبشر بن أبى خازم . وخلايا : جمع خلية أى خالية ، والجآذر والظلمان . استثناء منقطع ، لأنها لا تدخل في الأنيس . ورويا بالنصب على الاستثناء ، وبالرفع على الابدال من الضمير المستكن في الخبر ، كما هو لغة عند تميم . والجآذر : أولاد بقر الوحش . وروى : الجوازئ ، رهى الظباء التي اجتزأت بأكل الربيع عن شرب الماء . والظلمان : أولاد النعام . أو النعام نفسه . والقلوص . الفتية من الإبل المكتنزة اللحم ، والضمير فيها عائد للديار . وضمير «تجاوبنى» لها أيضا . والرسم : آثار الديار . وأية : اسم استفهام منصوب بما بعده على الظرفية ، لقطعه عن الاضافة ، أى :

صرفهم عزمهم ونيتهم . وشبه الرسم بعاقل على طريق المكنية فأسند له الاخبار تخييلا ، وكذلك الدار ومجاوبتها .

(3) قد ندع المنزل يا لميس يعيش فيه السبع الجروس

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

لعامر بن الحرث المشهور بجران العود . ولميس : امرأة . والجروس : كثير الصوت ، وبلدة - بالجر برب المقدرة بعد الواو ، أى : قد نترك المنزل خاليا من أهله بقتلنا إياهم ، أو لارتحالنا عنهم . واليعافير - بالرفع - : بدل من أنيس على لغة تميم في الاستثناء المنقطع بعد النفي ، وإلا الثانية توكيد للأولى . واليعافير - جمع يعفور - : دابة قدر السخلة على لون الرماد . وقيل : غزال كذلك . وقيل : ولد البقرة الوحشية . والعيس : البيض من الظباء أو الإبل : جمع أعيس أو عيساء . والعيساء أيضا : أنثى الجراد ، يخالط بياضها شقرة .

(178/818)

ويجوز أن يكون ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ مفعولا له على المعنى ، لأنّ معنى الكلام : لا يؤتى ماله إلا ابتغاء وجه ربه ، لا لمكافأة نعمة وَلَسَوْفَ يَرْضى موعد بالثواب الذي يرضيه ويقرّ عينه .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة والليل ، أعطاه اللّه حتى يرضى ،

وعافاه من العسر ويسر له اليسر» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 761 765.﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

(179/818)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ واللّيلِ إذا يَغْشَى ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : إذا أظلم ، قاله مجاهد .

الثاني : غطى وستر ، قاله ابن جبير .

الثالث : إذا غشى الخلائق فعّمهم وملأهم ، قاله قتادة ، وهذا قَسَم .

﴿ والنّهارِ إذا تَجَلّى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إذا أضاء ، قاله مجاهد .

الثاني : إذا ظهر ، وهو مقتضى قول ابن جبير .

ويحتمل ثالثاً : إذا أظهر ما فيه من الخلق ، وهذا قسم ثانٍ .

﴿ وما خَلَقَ الذَّكَرَ والأُنثى ﴾ قال الحسن : معناه والذي خلق الذكر والأنثى فيكون هذا قسماً بنفسه تعالى .

ويحتمل ثانياً : وهو أشبه من قول الحسن أن يكون معناه وما خلق من الذكر والأنثى ، فتكون " من " مضمرة المعنى محذوفة اللفظ ، وميزهم بخلقهم من ذكر وأنثى عن الملائكة الذين لم يخلقوا من ذكر وأنثى ، ويكون القسم بأهل طاعته من أوليائه وأنبيائه ، ويكون قسمه بهم تكرمة لهم وتشريفاً .

وفي المراد بالذكر والأنثى قولان :

أحدهما : آدم وحواء ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : من كل ذكر وأنثى .

فإن حمل على قول الحسن فكل ذكر وأنثى من آدمي وبهيمة ، لأن الله خلق جميعهم .

وإن حمل على التخريج الذي ذكرت أنه أظهر ، فكل ذكر وأنثى من الآدميين دون البهائم لاختصاصهم بولاية الله وطاعته ، وهذا قسم ثالث :

﴿ إنّ سَعْيَكم لشَتّى ﴾ أي مختلف ، وفيه وجهان :

أحدهما : لمختلف الجزاء ، فمنكم مثاب بالجنة ، ومنكم معاقب بالنار .

الثاني : لمختلف الأفعال ، منكم مؤمن وكافر ، وبر وفاجر ، ومطيع وعاص .

ويحتمل ثالثاً : لمختلف الأخلاق ، فمنكم راحم وقاس ، وحليم وطائش ، وجواد وبخيل ،

وعلى هذا وقع القسم .

وروى ابن مسعود أن هذه الآية نزلت في أبي بكر رضي الله عنه ، وفي أمية وأّبي ابني خلف حين عذّبا بلالاً على إسلامه ، فاشتراه أبو بكر ، ووفي ثمنه بردةً وعشر أوراقٍ ، وأعتقه للَّه تعالى ، فنزل ذلك فيه .

﴿ فأمّا من أَعْطَى واتّقَى ﴾ قال ابن مسعود يعني أبا بكر .

(180/818)

وفي قوله " أعطى " ثلاثة أوجه :

أحدها : من بذل ماله ، قاله ابن عباس .

الثاني : اتقى محارم الله التي نهى عنها ، قال قتادة .

الثالث : اتقى البخل ، قاله مجاهد .

﴿ وصَدّق بالحُسْنَى ﴾ فيه سبعة تأويلات :

أحدها : بتوحيد الله ، وهو قول لا إله إلا الله ، قاله الضحاك .

الثاني : بموعود الله ، قاله قتادة .

الثالث : بالجنة ، قاله مجاهد .

الرابع : بالثواب ، قاله خصيف .

الخامس : بالصلاة والزكاة والصوم ، قاله زيد بن أسلم .

السادس : بما أنعم الله عليه ، قاله عطاء .

السابع : بالخلف من عطائه ، قاله الحسن ، ومعاني أكثرها متقاربة .

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : للخير ، قاله ابن عباس .

الثاني : للجنة ، قاله زيد بن أسلم .

ويحتمل ثالثاً : فسنيسر له أسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها .

﴿ وأمّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى ﴾ قال ابن مسعود : يعني بذلك أُمية وأبيّاً ابني خلف . وفي قوله " بخل " وجهان :

أحدهما : بخل بماله الذي لا يبقى ، قاله ابن عباس والحسن .

الثاني : بخل بحق الله تعالى ، قاله قتادة .

" واستغنى " فيه وجهان :

أحدهما : بماله ، قاله الحسن .

الثاني : عن ربه ، قاله ابن عباس .

﴿ وكَذَّبَ بالحُسْنَى ﴾ فيه التأويلات السبعة .

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسْرَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : للشر من الله تعالى ، قاله ابن عباس .

الثاني : للنار ، قاله ابن مسعود .

ويحتمل ثالثاً : فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها فعند نزول هاتين الآيتين يروي قتادة عن خليد عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا وملكان ينا ديان : اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً " ، ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ .

الآية والتي بعدها .

﴿ وما يُغْنِي عنه ماله إذا تَرَدَّى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إذا تردّى في النار ، قاله أبو صالح وزيد بن أسلم .

(181/818)

الثاني : إذا مات فتردى في قبره ، قاله مجاهد وقتادة .

ويحتمل ثالثاً : إذا تردى في ضلاله وهوى في معاصيه .

﴿ إنّ علينا لَلْهُدَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن نبيّن سبل الهدى والضلالة قاله يحيى بن سلام .

الثاني : بيان الحلال والحرام ، قاله قتادة .

ويحتمل ثالثاً : علينا ثواب هداه الذي هدينا .

﴿ وإنَّ لنا لَلآخِرةَ والأُولى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : ثواب الدنيا والآخرة ، قاله الكلبي والفراء .

الثاني : ملك الدنيا وملك الآخرة ، قاله مقاتل .

ويحتمل ثالثاً : الله المُجازي في الدنيا والآخرة .

﴿ فأنذَرْتُكم ناراً تلَظَّى ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه تتغيظ ، قاله الكلبي .

الثاني : تشتعل ، قاله مقاتل .

الثالث : تتوهج ، قاله مجاهد ، وأنشد لعلّي رضي الله عنه :

كأن الملح خالطه إذا ما . . . تلظّى كالعقيقة في الظلال

﴿ لا يَصلاها إلا الأَشْقَى ﴾ أي الشقّي .

﴿ والذي كذّب وتولّى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : كذّب بكتاب الله وتولّى عن طاعة الله ، قاله قتادة .

الثاني : كذّب الرسولَ وتولّى عن طاعته .

﴿ وما لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمةٍ تُجْزَى * إلا ابتغاءَ وجهِ ربّه الأَعْلَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : وما لأحد عند الله تعالى من نعمة يجازيه بها إلا أن يفعلها ابتغاء وجه ربه فيستحق عليها الجزاء والثواب ، قاله قتادة .

الثاني : وما لبلال عند أبي بكر حين اشتراه فأعتقه من الرق وخلّصه من العذاب نعمةٌ سلفت جازاه عليها بذلك إلا ابتغاء وجه ربه وعتقه ، قاله ابن عباس وابن مسعود ﴿ ولَسوفَ يَرْضَى ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يرضى بما أعطيه لسعته .

الثاني : يرضى بما أعطيه لقناعته ، لأن من قنع بغير عطاء كان أطوع لله . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 286 . 290 ﴾

(182/818)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾

قال ابن عباس : يغشى بظلمته النهار .

وقال الزجاج : يغشى الأفق ، ويغشى جميع ما بين السماء والأرض ، ﴿ والنهار إذا تجلى

﴿ أي: بان وظهر من بين الظلمة، ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ في "ما" قولان.

وقد ذكرناهما عند قوله تعالى: ﴿ وما بناها ﴾ [الشمس: 5] وفي "الذكر والأنثى" قولان.

أحدهما: آدم وحواء، قاله ابن السائب، ومقاتل.

والثاني: أنه عام، ذكره الماوردي.

قوله تعالى: ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ هذا جواب القسم.

قال ابن عباس: إن أعمالكم لمختلفة، عمل للجنة، وعمل للنار.

وقال الزجاج: سعي المؤمن والكافر مختلف، بينهما بُعْدٌ.

وفي سبب نزول هذه السورة قولان.

أحدهما: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه اشترى بلالاً من أُمَيَّة وأُبَيٍّ ابنَي خلف بِبُرْدةٍ وعشرة أواق، فأعتقه، فأنزل الله عز وجل "والليل" إلى قوله تعالى: ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ يعني: سعي أبي بكر، وأميَّة وأُبَيٍّ، قاله عبد الله بن مسعود.

والثاني : " أن رجلاً كانت له نخلةٌ فرعُها في دار رجلٍ فقيرٍ ذي عيال ، وكان الرجل إذا صَعِدَ النخلة ليأخذ منها الثمر ، فربما سقطت الثمرة ، فيأخذها صبيان الفقير فينزل الرجل من نخلته حتى يأخذ الثمرة من أيديهم ، فإن وجدها في فم أحدهم أدخل أصبعه حتى يخرجها ، فشكا ذلك الرجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فلقي النبيُّ صلى الله عليه وسلم صاحبَ النخلة ، فقال : "تعطني نخلتك التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة ؟" فقال الرجل : إن لي نخلاً وما فيه نخلة أعجب إليَّ منها ، ثم ذهب الرجل ، فقال رجل : ممن سمع ذلك الكلام : يا رسول الله ، أتعطيني نخلة في الجنة إن أنا أخذتها ؟ قال : نعم ، فذهب الرجل ، فلقي صاحب النخلة ، فساومها منه ، فقال له : أَمَا شَعَرْتَ أن محمداً أعطاني بها نخلة في الجنة ؟ فقلتُ : ما لي نخلة أعجب إليَّ منها ، فقال له : أتريد بيعها ؟ قال : لا ، إلا أن أُعطى بها مالا أظنني أعطى ، قال : ما مناك ؟ قال : أربعون نخلة ، فقال : أنا أُعطيك أربعين نخلة ، فأشهد له ناساً ، ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن النخلة قد صارت في ملكي ، وهي لك ، فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صاحب الدار ، فقال : النخلة لك ولعيالك ، فأنزل الله عز وجل "والليل إذا يغشى" إلى قوله تعالى ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ " رواه عكرمة عن ابن عباس .

وقال عطاء : الذي اشتراها من الرجل أبو الدحداح ، أخذها بحائط له ، فأنزل الله تعالى هذه الآيات إلى قوله تعالى : "إن سعيكم لشتى" أبو الدحداح ، وصاحب النخلة .

قوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ قال ابن مسعود : يعني : أبا بكر الصديق ، هذا قول الجمهور .

وقال عطاء : هو أبو الدحداح.

وفي المراد بهذا العطاء ثلاثة أقوال .

أحدها : أعطى من فضل ماله ، قاله ابن عباس .

والثاني : أعطى الله الصدق من قبله ، قاله الحسن .

والثالث : أعطى حق الله عليه ، قاله قتادة .

وفي قوله تعالى ﴿ واتقى ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : اتقى الله ، قاله ابن عباس .

والثاني : اتقى البُخْل ، قاله مجاهد .

والثالث : اتقى محارم الله التي نهى عنها ، قاله قتادة .

وفي "الحسنى" ستة أقوال :

أحدها : أنه "لا إله إلا الله" ، رواه عطية عن ابن عباس ، وبه قال الضحاك .

والثاني : الخَلَف ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال الحسن .

والثالث : الجنة ، قاله مجاهد .

والرابع : نِعَم الله عليه ، قاله عطاء .

والخامس : بوعد الله أن يثيبه ، قاله قتادة ، ومقاتل .

والسادس : الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، قاله زيد بن أسلم .

قوله تعالى : ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ ضم أبو جعفر سين "اليسرى" وسين "العسرى" وفيه قولان .

أحدهما : للخير ، قاله ابن عباس .

والمعنى : نُيَسِّر ذلك عليه .

والثاني : للجنة ، قاله زيد بن أسلم .

﴿ وأما من بخل ﴾ قال ابن مسعود : يعني ذلك أُميَّة وأُبي ابنَيْ خلف .

وقال عطاء : هو صاحب النخلة .

قال المفسرون : "وأما من بخل" بالنفقة في الخير والصدقة .

وقال قتادة : بحق الله عز وجل ﴿ واستغنى ﴾ عن ثواب الله فلم يرغب فيه ﴿ وكذّب بالحسنى ﴾ وقد سبقت الأقوال فيها .

وفي "العسرى" قولان .

أحدهما : النار ، قاله ابن مسعود .

والثاني : الشر ، قاله ابن عباس .

والمعنى : سنهيؤه للشر فيؤدّيه إلى الأمر العسير ، وهو عذاب النار .

ثم ذكر أن ما أمسكه من ماله لا ينفعه ، فقال تعالى : ﴿ وما يغنى عنه ماله ﴾ الذي بخل به عن الخير ﴿ إذا تردَّى ﴾ وفيه قولان .

أحدهما : إذا تردَّى في جهنم ، قاله ابن عباس ، وقتادة ، والمعنى : إذا سقط فيها .

والثاني : إذا مات فتردَّى في قبره ، قاله مجاهد .

(185/818)

قوله تعالى : ﴿ إن علينا للْهُدى ﴾ قال الزجاج : المعنى : إن علينا أن نبيِّن طريق الهدى من طريق الضلالة ﴿ وإنَّ لنا للآخرة والأولى ﴾ أي : فليطلبا منا ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾ أي : تَوَقَّد وتتوهَّج ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ يعني : المشرك ﴿ الذي كذب ﴾ الرسول ﴿ وتولى ﴾ عن الإيمان .

قال أبو عبيدة : ﴿ الأشقى ﴾ بمعنى الشقيّ .

والعرب تضع "أَفْعَلَ" في موضع "فاعل" .

قال طرفة :

تَمَنَّى رِجَالٌ أَنْ أَمُوتَ وَإِنْ أَمُتْ . . .

فَتِلْكَ سَبِيلٌ لَسْتُ فيها بِأَوْحَدِ

قال الزجاج : وهذه الآية التي من أجلها زعم أهل الإرجاء أنه لا يدخل النار إلا كافر ،

وليس [الأمر] كما ظنوا .

هذه نار موصوفة بعينها ، ولأهل النار منازل .

فلو كان [كل] من لا يشرك لا يعذَّب لم يكن في قوله تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ [النساء : 48] فائدة [وكان "ويغفر ما دون ذلك" كلاماً لا معنى له] .

قوله تعالى : ﴿ وسيجنَّبُها ﴾ أي : يُبْعَدُ عنها ، فيجعل منها على جانب ﴿ الأتقى ﴾ يعني : أبا بكر الصديق في قول جميع المفسرين ﴿ الذي يؤتي ماله يتزكَّى ﴾ أي : يطلب أن يكون عنه الله زاكيا ، ولا يطلب الرياء ، ولا السمعة ، ﴿ وما لأحدٍ عنده من نعمةٍ تجزى ﴾ أي : لم يفعل ذلك مجازاة ليد أُسْدِيَتْ إليه .

وروى عطاء عن ابن عباس أن أبا بكر لما اشترى بلالاً بعد أن كان يعذَّب قال المشركون : ما فعل أبو بكر ذلك إلا ليدٍ كانت لبلال عنده ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ .

أي : إلا طلباً لثواب ربه .

قال الفراء : و "إلا" بمعنى "لكن" ونصب "ابتغاءَ" على إضمار إنفاقه .

فالمعنى : وما ينفق إلا ابتغاء وجه ربه .

قوله تعالى : ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أي : بما يُعطَى في الجنة من الثواب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 153.145 ﴾

(186/818)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ واللّيل إذا يغشى ﴾

أي يغشى النّهار بظلمته فيذهب الله بضوئه .

أقسم الله تعالى بالليل لأنه سكن لكافة الخلق يأوى فيه كل حيوان إلى مأواه ، ويسكن عن الاضطراب ، والحركة ، ثم أقسم بالنهار بقوله ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ أي بان وظهر بعد الظلمة لأن فيه حركة الخلق في طلب الرزق ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ أي ومن خلق فعلى هذا يكون أقسم بنفسه تعالى ، والمعنى والقادر العظيم الذي قدر على خلق الذكر ، والأنثى من ماء واحد إن أريد به جنس الذكر والأنثى ، وقيل هما آدم وحواء ، وإنما أقسم بهما لأنه تعالى ابتدأ خلق آدم من طين وخلق منه حواء من غير أم وجواب القسم قوله تعالى

: ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ أي إن أعمالكم لمختلفة فساع في فكاك نفسه ، وساع في عطبها

روى أبو مالك الأشعري عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : "كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها " قوله موبقها أي مهلكها .

قوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى ﴾ أي أنفق ماله في سبيل الله : ﴿ واتقى ﴾ أي ربه ، وفيه إشارة إلى الاحتراز عن كل ما لا ينبغي .

﴿ وصدق بالحسنى ﴾ قال ابن عباس صدق بقول لا إله إلا الله وعنه صدق بالخلف به ، أي أيقن أن الله سيخلف عليه ما أنفقه في طاعته ، وقيل صدق بالجنة ، وقيل صدق بموعد الله الذي وعده أنه يثيبه ﴿ فسنيسره ﴾ فسنهيئه في الدنيا ﴿ لليسرى ﴾ أي للخلة والفعلة اليسرى ، وهو العمل بما يرضاه الله .

قوله : ﴿ وأما من بخل ﴾ أي بالنّفقة في الخير والطاعة ﴿ واستغنى ﴾ أي عن ثواب الله تعالى فلم يرغب فيه ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أي بلا إله إلا الله أو كذب بما وعده الله من الجنة والثواب ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ أي فسنهيئه للشّر بأن نجريه على يديه حتى يعمل بما لا يرضى الله تعالى فيستوجب بذلك النار ، وقيل نعسر عليه أن يأتي خيراً وفي الآية

دليل لأهل السّنة وصحة قولهم في القدر وأن التّوفيق والخذلان والسّعادة والشّقاوة بيد الله تعالى ، ووجوب العمل بما سبق له في الأزل (ق) عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال : "كنا في جنازة في بقيع الغرقد ، فأتانا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس ، وجعل ينكت بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة " زاد مسلم " وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل فقال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السّعادة فيصير لعمل أهل السّعادة وأما من كان من أهل الشّقاوة ، فيصير لعمل أهل الشّقاوة ثم قرأ ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ " المخصرة بكسر الميم كالسّوط والعصا ، ونحو ذلك مما يمسكه الإنسان بيده ، والنكت بالتاء المثناة فوق ضرب الأرض بذلك أو غيرها مما يؤثر فيه الضرب ، وهذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق ، وذلك أنه اشترى بلالاً من أمية بن خلف ببردة وعشرة أواق فأعتقه ، فأنزل الله تعالى ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ إلى قوله ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ يعني سعي أبي بكر وأمية بن خلف ، وقيل كان لرجل من الأنصار نخلة وفرعها في دار رجل فقير وله عيال ، فكان صاحب النخلة إذا طلع نخلته ليأخذ منها التمر فربما سقطت التمرة ، فيأخذها صبيان

ذلك الفقير ، فينزل الرجل عن نخلته حتى يأخذ التمرة من أيديهم وإن وجدها في فم أحدهم أدخل

أصبعه في فيه حتى يخرجها فشكا ذلك الرّجل الفقير إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فلقي النّبي (صلى الله عليه وسلم) صاحب النّخلة فقال له : " تعطيني نخلتك التي فرعها في دار فلان ، ولك بها نخلة في الجنة "

قوله : ﴿ وما يغني عنه ماله ﴾ أي الذي بخل به ﴿ إذا تردى ﴾ أي إذا مات ، وقيل هوى في جهنم ﴿ إن علينا للهدى ﴾ أي إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضّلالة وذلك أنه لما عرفهم ما للمحسن من اليسرى ، وما للمسيء من العسرى أخبرهم أن بيده الإرشاد والهداية وعليه تبيين طريقها ، وقيل معناه إن علينا للهدى والإضّلال فاكتفى بذكر أحدهما ، والمعنى أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي وأصرف أعدائي عن العمل بطاعتي ، وقيل معناه من سلك سبيل الهدى فعلى الله سبيله .

﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ أي لنا ما في الدّنيا والآخرة فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق ﴿ فأنذرتكم ﴾ أي يا أهل مكة ﴿ ناراً تلظى ﴾ أي تتوقد وتتوهج ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ يعني الشّقي ﴿ الذي كذب ﴾ يعني الرّسل ﴿ وتولى ﴾ أي عن الإيمان ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ يعني التّقي ﴿ الذي يؤتي ﴾ أي يعطي ﴿ ماله يتزكى ﴾ أي يطلب عند الله أن يكون زاكياً لا يطلب بما ينفقه رياء ولا سمعة وهو أبو بكر الصديق في قول جميع المفسرين قال ابن الزبير : كان يبتاع الضعفاء فيعتقهم ، فقال له أبوه أي بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك ، قال منع ظهري أريد فأنزل الله ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ إلى آخر السّورة ، وذكر محمد ابن إسحاق قال : كان بلال لبعض بني جمح وهو بلال بن رباح ، واسم أمه حمامة ، وكان صادق الإسلام طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الشّمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة ثم يأمر بالصّخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول له لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد فيقول وهو في ذلك أحد أحد قال محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه قال : مر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون به ذلك ، وكانت دار أبي بكر في بني جمح فقال لأمية : ألا تتقي الله في هذا المسكين قال : أنت أفسدته فأنقذه مما ترى فقال أبو بكر أفعل عندي غلام أسود أجلد منه ، وأقوى ، وهو على دينك أعطيكه قال قد فعلت فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالاً فأعتقه ، وكان قد أعتق

ست رقاب على الإسلام قبل أن يهاجر بلال سابعهم ، وهم عامر بن فهيرة شهد بدراً وأحداً ، وقتل يوم بئر معونة شهيداً ، وأم عميس وزهرة فأصيب بصرها حين أعتقها أبو بكر فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى فقالت : كذبوا ورب البيت ما تضر اللاّت ، والعزى ، ولا تنفعان فرد الله تعالى : عليها بصرها وأعتق النّهدية وابنتها ، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار ، فرآهما أبو بكر وقد بعثتهما سيدتهما يحتطبان لها وهي

تقول والله لا أعتقهما أبداً فقال أبو بكر كلا يا أم فلان فقالت كلا أنت أفسدتهما فأعتقهما ، قال فبكم قالت بكذا وكذا قال أخذتهما وهما حرتا ومر بجارية من بني المؤمل وهي تعذب فابتاعها وأعتقها فقال عمار بن ياسر : يذكر بلالاً وأصحابه وما كانوا فيه من البلاء وإعتاق أبي بكر إياهم وكان اسم أبي بكر عتيقاً فقال في ذلك :

﴿ وما لأحد عنده ﴾ أي عند أبي بكر ﴿ من نعمة تجزى ﴾ أي من يد يكافئه عليها ﴿ إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ أي لم يفعل ذلك مجازاة لأحد ولا ليد كانت له عنده لكن فعله ابتغاء وجه ربه الأعلى وطلب مرضاته ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أي بما يعطيه الله في

الآخرة من الجنة والخير والكرامة جزاء على ما فعل ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 253.257 ﴾

(191/818)

وقال النسفى :

سورة اللَّيْلِ

إحدى وعشرون آية مكية

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾

المغشي ، أما الشمس من قوله ﴿ واليل إِذَا يغشاها ﴾ [الشمس : 4] أو النهار من قوله ﴿ يغشى الليل النهار ﴾ [الأعراف : 54] أو كل شيء يواريه بظلامه من قوله ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ [الفلق : 3] ﴿ والنهار إِذَا تجلى ﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ والقادر العظيم القدرة الذي قدر على خق الذكر والأنثى من ماء واحد ، وجواب القسم ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ إن عملكم لمختلف وبيان الاختلاف فيما فصل على أثره ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى ﴾ حقوق ماله ﴿ واتقى ﴾ ربه فاجتنب محارمه ﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ بالملة الحسنى وهي ملة الإسلام ، أو بالمثوبة الحسنى وهي الجنة ، أو

بالكلمة الحسنى وهي لا إله إلا الله ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ﴾ فسنهيئه للخلة اليسرى وهي العمل بما يرضاه ربه ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ ﴾ بماله ﴿ واستغنى ﴾ عن ربه فلم يتقه أو استغنى بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى ﴿ وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ بالإسلام أو الجنة ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ للخلة المؤدية إلى النار فتكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد ، أو سمى طريقة الخير باليسرى لأن عاقبتها اليسر ، وطريقة الشر بالعسرى لأن عاقبتها العسر ، أو أراد بهما طريقي الجنة والنار .

(192/818)

﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ﴾ ولم ينفعه ماله إذا هلك ، وتردى تفعّل من الردى وهو الهلاك ، أو تردى في القبر أو في قعر جهنم أي سقط ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى ﴾ إن علينا الإرشاد إلى الحق بنصب الدلائل وبيان الشرائع ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ والأولى ﴾ فلا يضرنا ضلال من ضل ولا ينفعنا اهتداء من اهتدى ، أو أنهما لنا فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ الطريق ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ ﴾ خوفتكم ﴿ نَاراً تلظى ﴾ تتلهب ﴿ لاَ يصلاها ﴾ لا يدخلها للخلود فيها ﴿ إِلاَّ الأشقى الذى كَذَّبَ وتولى ﴾ إلا الكافر الذي كذب الرسل وأعرض عن الإيمان ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ وسيبعد منها ﴿ الأتقى ﴾ المؤمن ﴿ الذى يُؤْتِى مَالَهُ ﴾

للفقراء ﴿ يتزكى ﴾ من الزكاء أي يطلب أن يكون عند الله زاكياً لا يريد به رياء ولا سمعة ، أو يتفعل من الزكاة و ﴿ يتزكى ﴾ إن جعلته بدلاً من ﴿ يؤتى ﴾ فلا محل له لأنه داخل في حكم الصلة ، والصلاة لا محل لها ، وإن جعلته حالاً من الضمير في ﴿ يؤتى ﴾ فمحله النصب .

قال أبو عبيدة : الأشقى بمعنى الشقي وهو الكافر ، والأتقى بمعنى التقي وهو المؤمن لأنه لا يختصر بالصلى أشقى الأشقياء ، ولا بالنجاة أتقى الأتقياء ، وإن زعمت أنه نكر النار فأراد ناراً مخصوصة بالأشقى فما تصنع بقوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى ﴾ ، لأن التقي يجنب تلك النار المخصوصة لا الأتقى منهم خاصة ، وقيل : الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ في صفتيها ، فقيل ﴿ الأشقى ﴾ وجعل مختصاً بالصلي كأن النار لم تخلق إلا له ، وقيل الأتقى وجعل مختصاً بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له ، وقيل : هما أبو جهل وأبو بكر .

(193/818)

وفيه بطلان زعم المرجئة لأنهم يقولون لا يدخل النار إلا كافر ﴿ وَمَا لِاَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى إِلاَّ ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِ ﴾ أي وما لأحد عند الله نعمة يجازيه بها إلا أن يفعل فعلا يبتغي

به وجه ربه فيجازيه عليه ﴿ الأعلى ﴾ هو الرفيع بسلطانه المنيع في شأنه وبرهانه ، ولم يرد به العلو من حيث المكان فذا آية الحدثان ﴿ وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ موعد بالثواب الذي يرضيه ويقرّ عينه وهو كقوله تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 5] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 362 . 363 ﴾

(194/818)

وقال ابن جزى :

سورة اللَّيْلِ

﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾

(195/818)

أي يغطي وحذف المفعول وهو الشمس لقوله : ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾ أو النهار لقوله : ﴿ يُغْشِي اليل النهار ﴾ [الأعراف : 54] أو كل شيء يستره الليل ﴿ والنهار إِذَا تجلى ﴾ أي ظهر وتبين والنهار من طلوع الشمس واليوم من طلوع الفجر ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر

والأنثى ﴾ ما بمعنى من والمراد بها الله تعالى وعدل عن من لقصد الوصف كأنه قال : والقدر الذي خلق الذكر والأنثى وقيل : هي مصدرية وروى ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ والذكر والأنثى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ هذا جواب القسم ومعناه إن عملكم مختلف فمنه حسنات ومنه سيئات ، وشتى جمع شتيت ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى ﴾ أي أعطى ماله في الزكاة والصدقة وشبه ذلك ، أو أعطى حقوق الله من طاعته في جميع الأشياء واتقى الله ﴿ وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ أي بالخصلة الحسنة وهي الإسلام ، ولذلك عبّر عنها بعضهم بأنها لا إله إلا الله ، أو بالمثوبة الحسنى وهي الجنة ، وقيل : يعني الأجر والثواب على الاطلاق ، وقيل : يعني الخلف على المنفق ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ﴾ أي نهيؤه للطريقة اليسرى ، وهي فعل الخيرات وترك السيئات وضد ذلك تيسيره للعسرى ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : "اعلموا فكل ميسر لما خلق له" أي يهيؤه الله لما قدر له ويسهل عليه فعل الخيرات أو الشر ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغنى ﴾ أي بخل بماله أو بطاعة الله على الاطلاق فيحتمل الوجهين ؛ لأنه في مقابلة أعطى ، كما أن استغنى في مقابلة اتقى ، وكذلك كذب بالحسنى في مقابلة صدق بالحسنى ، ونيسره للعسرى في مقابلة نيسره لليسرى ، ومعنى استغنى : استغنى عن الله فلم يطعه واستغنى بالدنيا عن الآخر ، ونزلت آية المدح في أبي بكر الصديق ، لأنه أنفق ماله في مرضات الله ، وكان يشتري من أسلم من

العبيد فيعتقهم، وقيل نزلت في أبي الدحداح، وهذا ضعيف، لأنها مكية وإنما أسلم أبو الدحداح في المدينة، وقيل: إن آية الذم نزلت في أبي سفيان بن حرب، وهذا

(196/818)

ضعيف لقوله: فسنيسره للعسرى وقد أسلم أبو سفيان بعد ذلك.

﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ﴾ هذا نفي، أو استفهام بمعنى الإنكار.

واختلف في معنى تردّى على أربعة أقوال: الأول: تردى أي هلك، فهو مشتق من الردى وهو الموت، أو تردّى أي سقط في القبر، أو سقط في جهنم، أو تردى بأكفانه من الرداء.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى ﴾ أي بيان الخير والشر، وليس المراد الإرشاد عند الأشعرية خلافاً للمعتزلة.

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ خطاب من الله أو من النبي صلى الله عليه وسلم على تقدير: قل ﴿ لاَ يَصْلاَهَآ إِلاَّ الأشقى ﴾ استدل المرجئة بهذه الآية على أن النار لا يدخلها إلا الكفار لقوله: الذي كذب وتولى.

وتأولها الناس بثلاثة أوجه أحدها: أن المعنى لا يصلاها صلي خلود إلا الأشقى، والآخر: أنه أراد ناراً مخصوصة. الثالث: أنه أراد بالأشقى كافراً معينا وهو أبو جهل وأمية بن

خلف ، وقابل به الأتقى وهو أبو بكر الصديق ؛ فخرج الكلام مخرج المدح والذم على الخصوص ، لا مخرج الإخبار على العموم .

﴿ يتزكى ﴾ من أداء الزكاة أو من الزكاة ، أي يصير زكياً عند الله ، أو يتطهر من ذنوبة ، وهذا الفعل بدل من يؤتى ماله أو حال من الضمير ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى ﴾ أي لا يفعل الخير جزاء على نعمة أنعم بها عليه أحد فيما تقدم ، بل يفعله ابتداء خالصاً لوجه الله ، وقيل : المعنى لا يقصد جزاء من أحد في المستقبل على ما يفعل ، والأول أظهر ويؤيده ما روي أن سبب الآية أن أبا بكر الصديق لما أعتق بلالاً قالت قريش : كان لبلال عنده يد متقدمة فنفى الله قولهم . ﴿ إِلَّا ابتغآء وَجْهِ رَبِّهِ ﴾ استثناء منقطع ﴿ وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ وعد بأن يرضيه في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 203 . 204﴾

(197/818)

وقال البيضاوى :

سورة اللَّيْلِ

مكية . وآيها إحدى وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾

أي يغشى الشمس أو النهار أو كل ما يواريه بظلامه .

﴿ والنهار إِذَا تجلى ﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل ، أو تبين بطلوع الشمس .

﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ والقادر الذي خلق صنفي الذكر والأنثى من كل نوع له توالد ، أو آدم وحواء وقيل ﴿ مَا ﴾ مصدرية .

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ إن مساعيكم لأشتات مختلفة جمع شتيت .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ تفصيل مبين لتشتت المساعي . والمعنى من أعطى الطاعة واتقى المعصية وصدق بالكلمة الحسنى وهي ما دلت على حق ككلمة التوحيد .

﴿ فَسَنُيَسّرُهُ لليسرى ﴾ فسنهيئه للخلة التي تؤدي إلى يسر وراحة كدخول الجنة ، من يسر الفرس إذا هيأه للركوب بالسرج واللجام .

﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ ﴾ بما أمر به . ﴿ واستغنى ﴾ بشهوات الدنيا عن نعيم العقبى .

﴿ وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ وبإنكار مدلولها .

﴿ فَسَنُيَسّرُهُ للعسرى ﴾ للخلة المؤدية إلى العسر والشدة كدخول النار .

﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ ﴾ نفي أو استفهام إنكار . ﴿ إِذَا تردى ﴾ هلك تفعل من الردى ،

أو تردى في حفرة القبر أو قعر جهنم.

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا للهدى ﴾ للإرشاد إلى الحق بموجب قضائنا أو بمقتضى حكمتنا ، أو ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا ﴾ طريقة الهدى كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَلَى الله قَصْدُ السبيل ﴾

﴿ وَإِنَّ لَنا لَلآخِرَةَ والأولى ﴾ فنعطي في الدارين ما نشاء لمن نشاء ، أو ثواب الهداية للمهتدين ، أو فلا يضرنا ترككم الاهتداء.

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى ﴾ تتلهب.

﴿ لاَ يصلاها ﴾ لا يلزمها مقاسياً شدتها. ﴿ إِلاَّ الأشقى ﴾ إلا الكافر فإن الفاسق وإن دخلها لا يلزمها ولذلك سماه أشقى ووصفه بقوله :

﴿ الذى كَذَّبَ وتولى ﴾ أي كذب الحق وأعرض عن الطاعة.

(198/818)

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى الذى ﴾ اتقى الشرك والمعاصي فإنه لا يدخلها فضلاً عن أن يدخلها ويصلاها ، ومفهوم ذلك أن من اتقى الشرك دون المعصية لا يجنبها ولا يلزم ذلك صليها فلا يخالف الحصر السابق. ﴿ يُؤْتِي مَالَهُ ﴾ يصرفه في مصارف الخير لقوله : ﴿ يتزكى ﴾ فإنه بدل من ﴿ يُؤْتِي ﴾ أو حال من فاعله.

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجزَى ﴾ فيقصد بإيتائه مجازاتها .

﴿ إِلَّا ابتغاء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ﴾ استثناء منقطع أو متصل عن محذوف مثل لا يؤتى إلا ابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة .

﴿ وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ وعد بالثواب الذي يرضيه . والآيات نزلت في أبي بكر رضي الله تعالى عنه حين اشترى بلالاً في جماعة تولاهم المشركون فأعتقهم ، ولذلك قيل : المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة والليل أعطاه الله سبحانه وتعالى حتى يرضى وعافاه من العسر ويسر له اليسر " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 498.500 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(199/818)

وقال أبو حيان :

سورة اللَّيْل

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) ﴾

لما ذكر فيما قبلها ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ ذكر هنا من الأوصاف ما يحصل به الفلاح وما تحصل به الخيبة ، ثم حذر النار وذكر من يصلاها ومن يتجنبها ،

ومفعول يغشى محذوف ، فاحتمل أن يكون النهار ، كقوله : ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ وأن يكون الشمس ، كقوله : ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ وقيل : الأرض وجميع ما فيها بظلامه .

وتجلى : انكشف وظهر ، إما بزوال ظلمة الليل ، وإما بنور الشمس .

أقسم بالليل الذي فيه كل حيوان يأوي إلى مأواه ، وبالنهار الذي تنتشر فيه .

وقال الشاعر :

يجلي السرى من وجهه عن صفيحة . . .

على السير مشراق كثير شحومها

وقرأ الجمهور : ﴿ تجلى ﴾ فعلاً ماضياً ، فاعله ضمير النهار .

وقرأ عبد الله بن عبيد بن عمير : تتجلى بتاءين ، يعني الشمس .

وقرىء : تجلى بضم التاء وسكون الجيم ، أي الشمس .

﴿ وما خلق ﴾ : ما مصدرية أو بمعنى الذي ، والظاهر عموم الذكر والأنثى .

وقيل : من بني آدم فقط لاختصاصهم بولاية الله تعالى وطاعته .

وقال ابن عباس والكلبي والحسن : هما آدم وحواء .

والثابت في مصاحف الأمصار والمتواتر ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ ، وما ثبت في

الحديث من قراءة .

والذكر والأنثى : نقل آحاد مخالف للسواد ، فلا يعد قرآناً .

وذكر ثعلب أن من السلف من قرأ : وما خلق الذكر ، بجر الذكر ، وذكرها الزمخشري عن الكسائي ، وقد خرجوه على البدل من على تقدير : والذي خلق الله ، وقد يخرج على توهم المصدر ، أي وخلق الذكر والأنثى ، كما قال الشاعر :

تطوف العفاة بأبوابه . . .

كما طاف بالبيعة الراهب

بجر الراهب على توهم النطق بالمصدر ، رأى كطواف الراهب بالبيعة .

﴿ إن سعيكم ﴾ : أي مساعيكم ، ﴿ لشتى ﴾ : لمتفرقة مختلفة ، ثم فصل هذا السعي .

(200/818)

﴿ فأما من أعطى ﴾ الآية : روي أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، كان يعتق ضعفة عبيده الذين أسلموا ، وينفق في رضا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ماله ، وكان الكفار بضدّه .

قال عبد الله بن أبي أوفى : نزلت هذه السورة في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، وأبي سفيان بن حرب .

وقال السدّي : نزلت في أبي الدحداح الأنصاري بسبب ما كان يعلق في المسجد صدقة ، وبسبب النخلة التي اشتراها من المنافق بحائط له ، وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) ساوم المنافق في شرائها بنخلة في الجنة ، وذلك بسبب الأيتام الذين كانت النخلة تشرف على بيتهم ، فيسقط منها الشيء فتأخذه الأيتام ، فمنعهم المنافق ، فأبى عليه المنافق ، فجاء أبو الدحداح وقال : يا رسول الله أنا أشتري النخلة التي في الجنة بهذه ، وحذف مفعولي أعطى ، إذ المقصود الثناء على المعطى دون تعرض للمعطى والعطية .

وظاهره بذل المال في واجب ومندوب ومكرمة .

وقال قتادة : أعطى حق الله .

وقال ابن زيد : أنفق ماله في سبيل الله .

﴿ واتقى ﴾ ، قال ابن عباس : اتقى الله .

وقال مجاهد : واتقى البخل .

وقال قتادة : واتقى ما نهي عنه .

﴿ وصدق بالحسنى ﴾ ، صفة تأنيث الأحسن .

فقال ابن عباس وعكرمة وجماعة : هي الخلف في الدنيا الوارد به وعد الله تعالى .

وقال مجاهد والحسن وجماعة : الجنة .

وقال جماعة : الثواب .

وقال السلمي وغيره : لا إله إلا الله .

﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ : أي نهيئة للحالة التي هي أيسر عليه وأهون وذلك في الدنيا والآخرة .

وقابل أعطى ببخل ، واتقى باستغنى ، لأنه زهد فيما عند الله بقوله : ﴿ واستغنى ﴾ ، ﴿ للعسرى ﴾ ، وهي الحالة السيئة في الدنيا والآخرة .

وقال الزمخشري : فسنخذله ونمنعه الألطاف حتى تكون الطاعة أعسر شيء عليه وأشد كقوله : ﴿ يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء ﴾ إذ سمى طريقة الخير باليسرى لأن عاقبتها اليسر ، وطريقة الشر العسرى لأن عاقبتها العسر ، أو أراد بهما طريقي الجنة والنار ، أي فسنهديهما في الآخرة للطريقين .

انتهى ، وفي أول كلامه دسيسة الاعتزال .

وجاء ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ على سبيل المقابلة لقوله : ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ ،

والعسرى لا تيسير فيها ، وقد يراد بالتيسير التهيئة ، وذلك يكون في اليسرى والعسرى .

﴿ وما يغني ﴾ : يجوز أن تكون ما نافية واستفهامية ، أي : وأي شيء يغني عنه ماله ؟

﴿ إذا تردى ﴾ : تفعل من الرّدى ، أي هلك ، قاله مجاهد ، وقال قتادة وأبو صالح : تردى في جهنم : أي سقط من حافاتها .

وقال قوم : تردى بأكفانه ، من الردى ، وقال مالك بن الذئب :

وخطا بأطراف الأسنة مضجعي . . .

ورداً على عينيّ فضل ردائيا

وقال آخر :

نصيبك مما تجمع الدهر كله . . .

رداآن تلوي فيهما وحنوط

﴿ إن علينا للهدى ﴾ : التعريف بالسبيل ومنحهم الإدراك ، كما قال تعالى : ﴿ وعلَى الله قصد السبيل ﴾ وقال الزمخشري : إن الإرشاد إلى الحق واجب علينا بنصب الدلائل وبيان الشرائع .

﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ : أي ثواب الدارين ، لقوله تعالى : ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ وقرأ ابن الزبير وزيد بن عليّ وطلحة وسفيان بن عيينة وعبيد بن عمير : تتلظى بتاءين ، والبزي بتاء مشدّدة ، والجمهور : بتاء واحدة .

وقال الزمخشري : الآية واردة في الموازنة بين حالتي عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين ، فقيل : ﴿ الأشقى ﴾ ، وجعل مختصاً بالصلى ، كأن النار لم تخلق إلا له .

وقال : ﴿ الأتقى ﴾ ، وجعل مختصاً بالنجاة وكأن الجنة لم تخلق إلا له .

وقيل : هما أبو جهل ، أو أمية بن خلف وأبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه .

(202/818)

﴿ يتزكى ﴾ ، من الزكاة : أي يطلب أن يكون عند الله زاكياً ، لا يريد به رياء ولا سمعة ، أو يتفعل من الزكاة ، انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ يتزكى ﴾ مضارع تزكى .

وقرأ الحسن بن عليّ بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم : بإدغام التاء في الزاي ، ويتزكى في موضع الحال ، فموضعه نصب .

وأجاز الزمخشري أن لا يكون له موضع من الإعراب لأنه جعله بدلاً من صلة الذي ، وهو ﴿ يؤتي ﴾ ، قاله : وهو إعراب متكلف ، وجاء ﴿ تجزى ﴾ مبنياً للمفعول لكونه فاصلة ، وكان أصله نجزيه إياها أو نجزيها إياه .

وقرأ الجمهور : ﴿ إلا ابتغاء ﴾ بنصب الهمزة ، وهو استثناء منقطع لأنه ليس داخلاً في ﴿ من نعمة ﴾ .

وقرأ ابن وثاب : بالرفع على البدل في موضع نعمة لأنه رفع ، وهي لغة تميم ، وأنشد بالوجهين قول بشر بن أبي حازم :

أضحت خلاء قفاراً لا أنيس بها . . .

إلا الجآذر والظلمات تختلف

وقال الراجز في الرفع :

وبلدة ليس بها أنيس . . .

إلا اليعافير وإلا العيس

وقرأ ابن أبي عبلة : ﴿ إلا ابتغا ﴾ ، مقصوراً .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون ابتغاء وجه الله مفعولاً له على المعنى ، لأن معنى الكلام لا يؤتي ماله إلا ابتغاء وجه ربه ، لا لمكافأة نعمه ، انتهى .

وهذا أخذه من قول الفراء .

قال الفراء : ونصب على تأويل ما أعطيك ابتغاء جزائك ، بل ابتغاء وجه الله .

﴿ ولسوف يرضى ﴾ : وعد بالثواب الذي يرضاه .

وقرأ الجمهور : ﴿ يرضى ﴾ بفتح الياء ، وقرىء : بضمها ، أي يرضى فعله ، يرضاه الله ويجازيه عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(203/818)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) ﴾

التفسير : هذه السورة نزلت باتفاق كثير من المفسرين في أبي بكر وفي أبي سفيان ابن حرب أو أمية بن خلف ، إلا أن المعنى على العموم لقوله تعالى ﴿ إن سعيكم لشتى فأنذرتكم ﴾ ومفعول ﴿ يغشى ﴾ محذوف وهو إما الشمس كقوله تعالى ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ [الآية : 4] أو النهار أو كل شيء يمكن تواريه بالظلام . أقسم سبحانه بالليل والنهار اللذين بتعاقبهما يتم أمر المعاش والراحة مع أنهما آيتان في أنفسهما . ومعنى ﴿ تجلى ﴾ ظهر بزوال ظلمة الليل وتبين بطلوع الشمس ثم بذاته الذي خلق كل شيء ذي روح لأن الروح إما ذكر أو أنثى ، والخنثى المشكل معين في علم الله وإن كان مبهماً في علمنا ولهذا قال الفقهاء : لو حلف بالطلاق أنه لم يلق يومه ذكراً ولا أنثى وقد لقي خنثى مشكلاً حنث . وقيل : هما آدم وحواء ﴿ شتى ﴾ جمع شتيت وهو المتفرق المختلف . ثم بين اختلاف الأعمال في

ذاتها وفيما يرجع إليها في العاقبة من الثواب والعقاب أو التوفيق والخذلان . " عن علي رضي الله عنه أنه قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدنا حوله فقال " ما منكم نفس منفوسة إلا وقد علم مكانها من الجنة والنار . فقلنا : يا رسول الله أفلا نتكل ؟ قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ثم قرأ ﴿ فأمّا من أعطى ﴾ "يعني حقوق ما له ﴿ واتقى ﴾ المحارم ﴿ وصدّق ﴾ بالخصلة الحسنى وهي الإيمان أو كلمة الشهادة أو بالملة الحسنى أو بالمثوبة ﴿ فسنيسره ﴾ فسنهيئه للطريق اليسرى . يقال يسر الفرس للركوب إذا أسرجها وألجمها . ومعنى استغنى أنه رغب عما عند الله كأنه مستغن ، أو استغنى باللذات العاجلة عن الآجلة . والتحقيق فيه أن الأعمال الفاضلة إذا واظب المكلف عليها حصلت في نفسه ملكة نورانية تسهل عليه سلوك سبيل الخيرات حتى يصير التكليف طبعاً . والتعب راحة والتكليف عادة ، ولأن هذه الملكة تحصل بالتدريج فلا جرم أدخل الفاء في ﴿ فسنيسره ﴾ ومن فسر اليسرى

بالجنة فمعنى الاستقبال عنده واضح .

والرذائل بالضد حتى تصير النفس من الكسل بحيث لا تواتي صاحبها إلا في مواجب الكسل وجذب الراحات العاجلة كقوله ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ [البقرة : 45] ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ﴾ [النساء : 148] ويقرب مما ذكرنا قول القفال : كل ما أدت عاقبته إلى يسر وراحة وأمور محمودة فإن ذلك من اليسرى وذلك وصف كل الطاعات ، وكل ما أدّت عاقبته إلى عسر وتعب فهو من العسرى وذلك وصف كل المعاصي ، ومن جملة اليسرى الجنة ومن جملة العسرى النار . استدل بعض الأشاعرة بقوله ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ على أنه تعالى قد يخلق القبائح في المكلف ويقوي دواعيه على فعلها . والمعتزلة عبروا عن هذا التيسير بالخذلان وعن الأول بمنح الألطاف والتوفيق . ثم وبخ هذا الكافر بقوله ﴿ وما يغني عنه ماله ﴾ وهو استفهام في معنى النفي أي لا ينفعه ماله الذي بخل به ﴿ إذا تردّى ﴾ أي مات من الردى وهو الهلاك . ويجوز أن يكون من قولهم " تردّى من الجبل " أي تردّى من الحفرة في القبر أو في قعر جهنم . استدل المعتزلة بقوله ﴿ إن علينا للهدى ﴾ على أنه تعالى أزاح الأعذار وما كلف المكلف إلا ما في سعته وطاقته ، وعلى أنه يجب على الله الهداية ، وعلى أن العبد لو لم يكن مستقلاً

بالإيجاد لما كان في وضع الدلائل فائدة . وأجوبة أهل السنة عن المسائل الثلاث معلومة .

ونقل الواحدي عن الفراء وجهاً آخر وهو أن المراد إن علينا للهدى والإضلال فاقتصر كقوله ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : 81] وأكدوا ذلك بما روي عن ابن عباس في رواية عطاء أن معنى الآية أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي وأحول بين أعدائي أن يعملوا بطاعتي . ثم بين بقوله ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ أن لله كل ما في الدنيا والآخرة فلا يضره عصيان العاصين ولا ينفعه طاعة المطيعين ، وإنما يعود ضره أو نفعه إليهم . ويمكن أن يراد أن سعادة الدارين تتعلق بمشيئته وإرادته فيعطي الهداية من يشاء ويمنعها من يشاء . والأول أوفق

(206/818)

للمعتزلة والثاني للأشاعرة . ثم ذكر نتيجة المواعظ المذكورة قائلاً ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾ يعني إذا عرفتم هذه البيانات الوافية والتقريرات الشافية فقد صح إني أنذرتكم ، ويجوز أن يراد بالمضيّ تحقق الوقوع . والمعنى على الاستقبال أي إذا تقررت مراتب النفوس الإنسانية وعرفتم درجاتها ودركاتها فإني أنذرتكم ناراً تلظى تلهب وتتوقد وأصله تتلظى حذف إحدى التاءين . ثم إن كان المراد بالأشقى هو أبو سفيان أو أمية وبالأتقى هو

أبو بكر فلا إشكال وتناول الآية غيرهما من الأشقياء والأتقياء بالتبعية إذ لا عبرة بخصوص السبب ، وإن كان المراد أعم فإن أريد بهم الشقي والتقي فلا إشكال أيضاً ، وإن أريد حقيقة أفعل التفضيل فإما أن يراد نار مخصوصة بدلالة التنكير ، وإما أن يراد بالأشقى الكافر على الإطلاق لأنه أشقى من الفاسق .

(207/818)

وأما الكلام في الأتقى فنقول : إنه لا يلزم من تخصيصه بالذكر نفي ما عداه . قال جار الله : هذا الكلام وارد على سبيل المبالغة فجعل الأشقى مختصاً بالصلى كأن النار لم تخلق إلا له ، وجعل الأتقى مختصاً بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له . وقوله ﴿ يتزكى ﴾ أي يطلب أن يكون عند الله زاكياً ، أو هو من الزكاة لا محل له لأنه بدل من ﴿ يؤتى ﴾ والصلة لا محل لها لأنها كبعض الكلمة ، أو هو منصوب المحل على الحال . قال بعض المفسرين : إن بلالاً كان يعذب في الله وهو يقول أحد أحد ، فسمع بذلك أبو بكر فحمل رطلاً من ذهب فابتاعه به فقال المشركون : ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده فنزل ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء ﴾ قال أكثر النحويين : هذا الاستثناء منقطع لأن الابتغاء ليس من جنس النعمة . وقال الفراء : وهو مفعول له من ﴿ يؤتى ﴾ على المعنى أي لا ينفق ماله إلا

ابتغاء رضوان الله لا لمكافأة نعمة ﴿ ولسوف يرضى ﴾ عن الله أو يرضى الله عنه فيكون راضياً مرضياً . واعلم أن بعض الشيعة زعموا أن السورة نزلت في عليّ رضي الله عنه لقوله ﴿ يتزكى ﴾ لأنه قال في موضع آخر ﴿ ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ [المائدة : 55] وقال بعض أهل السنة : إنها تدل على أفضلية أبي بكر لأنه قال في وصف عليّ وسائر أهل البيت رضي الله عنهم ﴿ ويطعمون الطعام ﴾ إلى قوله ﴿ إنا نخاف ﴾ [الدهر : 8 ، 10] وذكر في صفة أبي بكر أنه لا ينفق إلا لوجه الله من غير شائبة رغبة أو رهبة ، وهذا المقام أعلى وأجل . وعندي أن أمثال هذه الدلائل لا تصلح لترجيح أكابر الصحابة بعضهم على بعض ، وأن نزول هذه السورة في الشخص الفلاني مبني على الرواية فلا سبيل للاستدلال إليه ، وإليه المرجع والمآب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 510.513 ﴾

(208/818)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة والليل

مكية وهي إحدى وعشرون آية وإحدى وسبعون كلمة وثلاثمائة وعشرة أحرف

﴿ بسم الله ﴾ الملك الحق المبين ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ رزقه العالمين ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص بجنته المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿ والليل ﴾، أي: الذي هو آلة الظلام ﴿ إذا يغشى ﴾ قسم. وقد مرّ الكلام على ذلك، ولم يذكر تعالى مفعولاً للعلم به، فقيل: يغشى بظلمته كل ما بين السماء والأرض، وقيل: يغشى النهار، وقيل: الأرض، وقيل: الخلائق. قال قتادة: أوّل ما خلق الله تعالى النور والظلمة ثم ميز بينهما فجعل الظلمة ليلاً أسود مظلماً، والنور نهاراً مضيئاً مبصراً.

وقوله تعالى: ﴿ والنهار ﴾، أي: الذي هو سبب انكشاف الأمور ﴿ إذا تجلى ﴾، أي: تكشف وظهر قسم آخر. قال الرازي: أقسم بالليل الذي يأوي فيه كل حيوان إلى مأواه وتسكن الخلق عن الاضطراب، ويغشاهم النوم الذي جعله الله تعالى راحة لأبدانهم وغذاء لأرواحهم، ثم أقسم بالنهار إذا تجلى؛ لأن النهار إذا جاء انكشف بضوئه ما كان في الدنيا من الظلمة، وجاء الوقت الذي تتحرّك فيه الناس لمعايشهم وتتحرك الطير من أوكارها والهوامّ من مكانها، فلو كان الدهر كله ليلاً لتعذّر المعاش، ولو كان كله نهاراً لبطلت الراحة، لكن المصلحة في تعاقبهما كما قال تعالى: ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾ (الفرقان:)

وقال تعالى : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار ﴾ [إبراهيم :]

u.

(209/818)

﴿ وما ﴾ بمعنى من أي ، ومن ﴿ خلق الذكر والأنثى ﴾ ، أي : فيكون قد أقسم بنفسه ، أو مصدرية ، أي : وخلق الله الذكر والأنثى وجاز إضمار اسم الله تعالى لأنه معلوم لانفراده بالخلق ؛ إذ لا خالق سواه والذكر والأنثى آدم وحوّاء عليهما السلام ، أو كل ذكر وأنثى من سائر الحيوانات . والخنثى وإن أشكل أمره عندنا فهو عند الله تعالى غير مشكل معلوم بالذكورة أو الأنوثة ، فلو حلف بالطلاق أنه لم يلق ذكراً ولا أنثى وقد لقي خنثى مشكلاً كان حانثاً ، لأنه في الحقيقة ذكر أو أنثى وإن كان مشكلاً عندنا . وقيل : كل ذكر وأنثى من الآدميين فقط لاختصاصهم بولاية الله تعالى وطاعته .

وقوله تعالى : ﴿ إنّ سعيكم ﴾ ، أي : عملكم ﴿ لشتى ﴾ جواب القسم ، والمعنى : أنّ أعمالكم لتختلف ، فعامل للجنة بالطاعة وعامل للنار بالمعصية ، ويجوز أن يكون محذوفاً كما قيل في نظائره المتقدّمة ، وشتى : واحده شتيت مثل : مريض ومرضى ، وإنما قيل : للمختلف شتى : لتباعد ما بين بعضه وبعضه ، أي : إنّ عملكم المتباعد بعضه من بعض

لشتى ؛ لأنّ بعضه ضلال وبعضه هدى ، أي : فيكم مؤمن وبر وكافر وفاجر ، ومطيع وعاص . وقيل : لشتى ، أي : لمختلف الجزاء ، فمنكم مثاب بالجنة ومعاقب بالنار . وقيل : لمختلف الأخلاق فمنكم راحمٌ وقاسٍ وحليمٌ وطائشٌ وجوادٌ وبخيل قال بعض المفسرين : نزلت هذه الآية في أبي بكر وأبي سفيان بن حرب . وروى أبو مالك الأشعري "أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها" ، أي : مهلكها .

وقوله تعالى : ﴿ فأمّا من أعطى ﴾ ، أي : وقع منه إعطاء على ما حدّدناه له وأمرناه به ﴿ واتقى ﴾ ، أي : ووقعت منه التقوى ، وهي إيجاد الوقايات من الطاعات واجتناب المعاصي خوفاً من سطواتنا .

﴿ وصدّق بالحسنى ﴾ تفصيل مبين لتشتيت المساعي . واختلف في الحسنى فقال ابن عباس : ، أي : بلا إله إلا الله . وقال مجاهد : بالجنة لقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى ﴾ (يونس :)

. وقال زيد بن أسلم : الصلاة والزكاة والصوم .

﴿ فسنيسره ﴾ ، أي : نهيئه بما لنا من العظمة بوعدٍ لا خلف فيه ﴿ لليسرى ﴾ ، أي : لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل فعلها . وقال زيد بن أسلم : لليسرى ، أي : للجنة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من نفس منفوسة إلا كتب الله تعالى مدخلها ، فقال القوم : يا رسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم بل اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أمّا من كان من أهل السعادة فإنه ميسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فإنه ميسر لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ ﴿ فأمّا من أعطى وأتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ " .

﴿ وأمّا من بخل ﴾ ، أي : أوجد هذه الحقيقة الخبيثة فمنع ما أمر به وندب إليه .

﴿ واستغنى ﴾ ، أي : طلب الغنى عن الناس وعما وعد به من الثواب ، أو وجده بما زعمت له نفسه الخائنة وظنونه الكاذبة فلم يحسن إلى الناس ولا عمل للعقبى .

﴿ وكذب ﴾ ، أي : أوقع التكذيب لمن يستحق التصديق ﴿ بالحسنى ﴾ ، أي : فأنكرها وكان عامداً مع المحسوسات كالبهائم .

﴿ فسنيسره ﴾ ، أي : نهيئه ﴿ للعسرى ﴾ ، أي : للخلة المؤدية إلى العسرة والشدة كدخول النار . وعن ابن عباس قال : نزلت في أمية بن خلف ، وعنه فسنيسره للعسرى ، أي : سأحول بينه وبين الإيمان بالله ورسوله وعنه أيضاً .

﴿ وأمّا من بخل ﴾ ، أي : بماله واستغنى عن ربه ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ ، أي : بالخلف الذي وعده الله تعالى في قوله سبحانه : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ (سبأ :) وقال مجاهد : ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ ، أي : بالجنة ، وعنه بلا إله إلا الله ويجوز في ما في قوله تعالى:

﴿ وما يغني عنه ماله ﴾ أن تكون نافية ، أي : لا يغني عنه ماله شيئاً وأن تكون استفهاماً انكارياً ، أي : شيء يغني عنه ماله ﴿ إذا تردّى ﴾ قال أبو صالح : أي إذا سقط في جهنم . وقيل : هو كناية عن الموت كما قال القائل:

*نصيبك مما تجمع الدهر كله ** رداآن تطوى فيهما وحنوط*

(211/818)

ولما عرفهم سبحانه أنّ سعيهم شتّى وبين للمحسنين من اليسرى وما للمسيئين من العسرى أخبرهم بأنّ عليه بيان الهدى من الضلال بقوله تعالى:

﴿ إنّ علينا ﴾ ، أي : بما لنا من القدرة والعظمة ﴿ للهدى ﴾ ، أي : للإرشاد إلى الحق بموجب قضائنا ، أو بمقتضى حكمتنا فنبين طريق الهدى من طريق الضلال ليمتثل أمرنا بسلوك الأوّل ، ونهينا عن ارتكاب الثاني . وقال الفراء : معناه إن علينا للهدى والإضلال

فحذف المعطوف ، كقوله تعالى : ﴿ سرابيل تقيكم الحرّ ﴾ (النحل :)

وهو معنى قول ابن عباس : يريد أرشد أوليائي للعمل بطاعتي ، وأحول بين أعدائي أن يعملوا بطاعتي ، وهو معنى الإضلال . وقيل : معناه من سلك سبيل الهدى فعلى الله تعالى سبيله كقوله تعالى : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ (النحل :)

﴿ وإنّ لنا للآخرة والأولى ﴾ ، أي : لنا ما في الدنيا والآخرة فنعطي في الدارين ما نشاء لمن نشاء فمن طلبهما من غيرنا فقد أخطأ الطريق . وعن ابن عباس قال : ثواب الدنيا والآخرة . وهو كقوله تعالى : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ (النساء :)

﴿ فأنذرتكم ﴾ ، أي : حذرتكم وخوّفتكم يا أيها المخالفون للطريق الذي بينته ﴿ ناراً تلظى ﴾ بحذف إحدى التاءين من الأصل ، أي : تتلهب وتتوقد وتتوهج ، يقال : تلظت النار تلظياً ، ومنه سميت جهنم لظى . وقرأ البزي في الوصل بتشديد التاء وهو عَسِرٌ لالتقاء الساكنين على غير حدّهما ، وهو نظير قوله تعالى : ﴿ إذ تلقونه ﴾ (النور :) والباقون بغير تشديد .

﴿ لا يصلاها ﴾ ، أي : لا يقاسى شدّتها على طريق اللزوم والانغماس ﴿ إلا الأشقى ﴾ ، أي : الذي هو في الذروة من الشقاوة وهو الكافر فإنّ الفاسق وإن دخلها لم يلزمها ولذلك سماه أشقى ووصفه بقوله تعالى:

(212/818)

﴿ الذي كذب ﴾ النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وتولى ﴾ ، أي : عن الإيمان ، أو كذب الحق وأعرض عن الطاعة أو الأشقى بمعنى الشقي كقوله : لست فيها بأوحد ، أي : واحد . والحصر مؤوّل لقوله تعالى : ﴿ ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (النساء :) فيكون المراد الصليّ المؤبد .

﴿ وسيجنبها ﴾ ، أي : النار الموصوفة بوعد لا خلف فيه ﴿ الأتقى ﴾ ، أي : الذي اتقى الشرك والمعاصي فإنه لا يدخلها فضلاً أن يدخلها ويصلاها ، ومفهوم ذلك على التفسير الأوّل أنّ من أتقى الشرك دون المعصية لا يتجنبها ولا يلزم ذلك صليها ولا يخالف الحصر السابق ، أو الأتقى بمعنى التقى على وزان ما مرّ .

(213/818)

﴿ الذي يؤتي ماله ﴾ ، أي : يصرفه في وجوه الخير لقوله تعالى : ﴿ يتزكى ﴾ فإنه بدل من يؤتى أو حال من فاعله فعلى الأوّل : لا محل له لأنه داخل في حكم الصلة ، والصلة لا محل

لها . وعلى الثاني : محله نصب . قال البغوي : يعني أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه في قول الجميع . قال ابن الزبير : كان يبتاع الضَعَفَة فيعتقهم ، فقال له أبوه : أي بنيّ لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك ، فقال : منع ظهري أريد ، فأنزل الله تعالى ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ إلى آخر السورة . وذكر محمد بن إسحاق قال : كان بلال لبعض بني جمح وهو بلال ابن رباح واسم أمّه حمامة ، وكان صادق الإسلام طاهر القلب ، وكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الشمس فيطرحه على ظهره ببطحاء مكة ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ، ثم يقول : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، فيقول : وهو في ذلك أحد أحد . قال محمد بن إسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه قال : مرّ به أبو بكر يوماً وهم يصنعون به ذلك ، وكانت دار أبي بكر في بني جمح ، فقال لأمية ألا تتقي الله تعالى في هذا المسكين ، قال : أنت أفسدته فأنقذه مما ترى ، قال أبو بكر : أفعل عندي غلام أسود أجلد منه ، وهو على دينك أعطيكه ، قال : قد فعلت فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذه فأعتقه . وكان قد أعتق ست رقاب على الإسلام قبل أن يهاجر وبلال سابعهم ، وهم عامر بن هبيرة قوله ابن هبيرة : هكذا في النسخ والذي في حاشية الجمل ابن فهيرة بالفاء والهاء اه شهد بدراً وأحداً ، وقتل يوم بئر معونة شهيداً ، وأعتق أمّ عميس فأصيب بصرها حين أعتقها فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى ، فقالت : كذبوا وبيت الله ما تضر اللات والعزى ولا تنفعان ، فرد الله تعالى بصرها وأعتق النهدية وابنتها وكانتا لامرأةٍ لبني عبد الدار ، فمرّ

بهما وقد بعثتهما سيدتهما يحتطبان لها وهي تقول لهما : والله لا أعتقكما أبداً ، فقال أبو بكر : كلا يا أمّ فلان ، فقالت : كلا أنت أفسدتهما فأعتقهما ، قال : فبكم ؟

(214/818)

قالت : بكذا وكذا ، قال:

قد أخذتهما وهما حرّتان . ومرّ بجارية من بني المرسل وهي تعذب فابتاعها فأعتقها .

وقال سعيد بن المسيب : بلغني أنّ أمية بن خلف قال له أبو بكر في بلال : أتبيعه ؟ قال : نعم أبيعه بقسطاس عبدٍ لأبي بكر صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوارٍ ومواش وكان مشركاً ، حمله أبو بكر على الإسلام على أن يكون ماله له فأبى ، فأبغضه أبو بكر فلما قال له أمية : أبيعه بغلامك قسطاس اغتنمه أبو بكر وباعه به . وروى الضحاك عن ابن عباس قال : عذب المشركون بلالاً وبلال يقول أحد أحد ، فمرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "أحد يعني الله تعالى ينجيك ، ثم قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : يا أبا بكر إنّ بلالاً يعذب في الله فعرف أبو بكر الذي يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف إلى منزله فأخذ رطلاً من ذهب ومضى به إلى أمية بن خلف ، فقال له : أتبيعني بلالاً قال : نعم فاشتراه فأعتقه ، فقال : المشركون ما فعل ذلك أبو بكر ببلال إلا ليد كانت لبلال عنده"

فأنزل الله تعالى:

﴿ وما لأحد عنده ﴾ ، أي : أبي بكر ﴿ من نعمة تجزى ﴾ " ، أي : يد يكافئه عليها .

(215/818)

وقوله تعالى : ﴿ إلا ابتغاء ﴾ استثناء منقطع ، أي : لم يفعل ذلك مجازاة لأحد بيد كانت له عنده لكن فعله ابتغاء ﴿ وجه ربه ﴾ ، أي : المحسن إليه ﴿ الأعلى ﴾ وطلب رضاه . ويجوز أن يكون متصلاً عن محذوف مثل ﴿ لا يؤتى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ لا لمكافأة نعمة ﴿ ولسوف يرضى ﴾ ، أي : بما يعطى من الثواب في الجنة . وروي عن عليّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "رحم الله أبا بكر زوجني ابنته وحملني إلى دار الهجرة وأعتق بلالاً" والآية تشمل من فعل مثل فعله فيبعد عن النار ويثاب . وقرأ حمزة والكسائيّ يغشى ، تجلى ، والأنثى ، لشتى ، من أعطى ، وأتقى ، وصدّق بالحسنى واستغنى بالحسنى ، تردّى ، للهدى ، والأولى ، تلظى ، الأشقى ، وتولى ، الأتقى ، يتزكى ، تجزى ، الأعلى ، يرضى بالإمالة محضة في جميع ذلك ، وأمال ورش جميع ذلك بين بين والفتح عنه قليل ، وله في من أعطى الفتح وبين اللفظين سواء ، وأمال أبو عمرو بين بين إلا من أعطى لأنه ليس برأس آية ، والباقون بالفتح ، وقرأ أبو بكر وحمزة والكسائي لليسرى للعسرى بالإمالة

محضة، وورش بين اللفظين والباقون بالفتح، وأمال حمزة والكسائي يصلاها محضة ولورش الفتح وبين اللفظين وإذا فتح اللام وإذا أمال رققها، وأمّا الأشقى والأتقى فلا يمالان إلا في الوقف دون الوصل. وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "من قرأ سورة والليل أعطاه الله تعالى حتى يرضى وعافاه من العسر ويسر له اليسر" حديث موضوع. انتهى انتهى. اهـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 355.360 ﴾

(216/818)

وقال القاسمى:

سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾

أي: يغشى الشمس أو النهار بظلمته، فيذهب بذاك الضياء ﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ أي: ظهر بزوال الليل أو تبينَ بطلوع الشمس.

قال الإمام: والتعبير في الغشيان بالمضارع، لما سبق من عروض الظلمة لأصل النور الذي هو أكمل مظاهر الوجود، حتى عبر به عن الوجود نفسه. أما تجلي النهار فهو لازم له.

لهذا عبر عنهُ بالماضي كما سبق بيانه .

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ أي : والقادر الذي خلق صنفي الذكر والأنثى من كل نوع له توالد . ف : ﴿ مَا ﴾ موصولة بمعنى من ، أوثرت لإرادة الوصفية ، كما تقدم .

قال الإمام : وإنما أقسم بذاته بهذا العنوان ، لما فيه من الإشعار بصفة العلم المحيط بدقائق المادة وما فيها ، والإشارة إلى الإبداع في الصنع ؛ إذ لا يعقل أن هذا التخالف بين الذكر والأنثى ، في الحيوان ، يحصل بمحض الاتفاق من طبيعة لا شعور لها بما تفعل ، كما يزعم بعض الجاحدين ، فإن الأجزاء الأصلية في المادة متساوية النسبة إلى كون الذكر أو كون الأنثى ، فتكوين الولد من عناصر واحدة تارةً ذكراً وتارةً أنثى ، دليل على أن واضع هذا النظام عالم بما يفعل ، محكم فيما يضع ويصنع . انتهى .

وقوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ جواب القسم . أو هو مقدر ، كما مر تفصيلهُ . أي : مختلف في جزائه . ومفرّق في عاقبته . فمنه ما يسعد به الساعي ومنهُ ما يشقى به ، فشتان ما بينهما ، كما فصله بعد . وشتى إما جمع شتيت أو شت ، بمعنى متفرق ، والمصدر المضاف يفيد العموم . فيكون جمعاً معنى . ولذا أخبر عنه بـ : شتى وهو جمع . وفيه وجه آخر وهو أنه مفرد مصدر مؤنث كذكرى وبشرى . فهو بتقدير مضاف ، أو مؤول ، أو بجعله عين الافتراق ، مبالغة .

قال الرازيّ : ويقرب من هذه قوله : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ [الحشر : 20] ، وقوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ [السجدة : 18] ، وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُم وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : 21] .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ تفصيل لتلك المساعي الشتى ، وتبيين لمآلها ما تقدم .

قال الرازيّ : وفي ﴿ أَعْطَى ﴾ وجهان :

أحدهما : أن يكون المراد إنفاق المال في جميع وجوه الخير من عتق الرقاب ، وفك الأسارى وتقوية المسلمين على عدوّهم ، كما كان يفعله أبو بكر ، سواء كان ذلك واجباً أو نفلاً وإطلاق هذا كالإطلاق في قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة : 3] ، فإن المراد منه كل ما كان إنفاقاً في سبيل الله ، سواء كان واجباً أو نفلاً . وقد مدح الله قوماً فقال : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ [الْإِنْسَان : 8] ، وقال في آخر هذه السورة ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ [الليل : 17 - 18] الآية .

وثانيهما : أن قوله : ﴿ أَعْطَى ﴾ يتناول إعطاء حقوق المال ، وإعطاء حقوق النفس في

طاعة الله تعالى . يقال : فلان أعطى الطاعة وأعطى السعة . انتهى .

إلا أن الأول هو المناسب للإعطاء ؛ لأن المعروف فيه تعلقه بالمال خصوصاً وقد وقع في مقابلة ذكر البخل والمال ﴿ وَاتَّقَى ﴾ أي : ربه فاجتنب محارمه .

(218/818)

﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ أي : بالمثوبة الحسنى . قال قتادة : أي : صدق بموعود الله الحسن . وهو بمعنى قول مجاهد : إنها الجنة كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً ﴾ [الشورى : 23] ، فسمى مضاعفة الأجر حسنى . وقال القاشاني : أي : صدق بالفضيلة الحسنى التي هي مرتبة الكمال بالإيمان العلميّ ، إذ لو لم يتيقن بوجود كمال كامل لم يمكنه الترقي .

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ أي : فسنهيئه ونوفقه للطريقة اليسرى ، التي هي السلوك في طريق الحق ، لقوة يقينه .

قال الشهاب : ولما كانت مؤدية إلى اليسر ، وهو الأمر السهل الذي يستريح به الناس وصفت بأنها يسرى ، على أنه استعارة مصرحة أو مجاز مرسل أو تجوّز في الإسناد .

﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ ﴾ أي : بالنفقة في سبيل الله ، ومنع ما وهب الله له من فضله من صرفه

في الوجوه التي أمر الله بصرفه فيها ﴿ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ أي : عن ربه فلم يرغب إليه بالعمل له بطاعته بالزيادة فيما خوّله ، أو استغنى بماله عن كسب الفضيلة ، وعمه به عن الحق .

﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي : بوجود المثوبة للحسنى لمن آمن بالحق ، لاستغنائه بالحياة الدنيا واحتجابه بها عن عالم الآخرة .

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ أي : للطريقة العسرى المؤدية إلى الشقاء الأبديّ .

قال الإمام : الخطة العسرى هي الخطة التي يحط فيها الْإِنْسَان من نفسه ، ويغض من حقها وينزل بها إلى حضيض البهيمية ، ويغمسها في أوحال الخطيئة . وهي أعسر الخطتين على الْإِنْسَان ، لأنه لا يجد معيناً عليها ، لا من فطرته ولا من الناس .

(219/818)

﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ أي : وما يفيده ماله الذي تعب في تحصيله ، وأفنى عمره في حفظه وبطر الحق لأجله ، إذا هلك ، من قولهم : تردى من الجبل وفي الهوة ، وفي التعبير به إشارة إلى أنه بما قدمهُ من أعماله الخبيثة ، هو المهلك والموقع لنفسه . وهو الحافر على حتفه بظلفه . و ﴿ مَا ﴾ نافية أو استفهام في معنى الإنكار . وقوله :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ استئناف مقرر لما قبله ، أي : علينا بموجب قضائنا المبنيّ على

الحكم البالغة ، حيث خلقنا الخلق للإصلاح في الأرض ، أن نبين لهم طريق الهدى ليجتنبوا مواقع الردى . وقد فعل سبحانه ذلك بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، والتمكين من الاستدلال والاستبصار ، بخلق العقل وهبة الاختيار .

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾ أي : ملكاً وخلقاً ، فلا يضرنا توليكم عن الهدى ؛ وذلك لغناه تعالى المطلق ، وتفرده بملك ما في الدارين ، وكونه في قبضة تصرفه ، لا يحول بينهُ وبينهُ أحد ، ولا يحصله أحد ، حتى يضر عدم اهتدائه أو ينفع اهتداؤه . وفيه إشارة على تناهي عظمته وتكامل قهره وجبروته . وإن من كان كذلك ، فجدير أن يبادر لطاعته ويحذر من معصيته ؛ ولذا رتب عليه قوله : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ أي : تتلظى وتتوهج ، وهي نار الآخرة .

﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ ﴾ أي : بالحق الذي جاءه ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ أي : عن آيات ربه وبراهينها التي وضح أمرها وبهر نورها ، عناداً وكفراً .

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ أي : ينفق ماله في سبيل الخير ، يتزكى عن رجس البخل ودنس الإمساك .

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ أي : من يد يكافئه عليها ، أي : لا يؤتيه للمكافأة والمعارضة .

﴿ إِلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ أي : لكن يؤتيه ابتغاء وجه ربه وطلب مرضاته . لا لغرض آخر من مكافأة أو محمدة أو سمعة . وفي حصر ﴿ الْأَتْقَى ﴾ بالمنفق ، على الشريطة المذكورة ، عناية عظيمة به ، وترغيب شديد في اللحاق به ، كيف لا ؟ وبالمال قوام الأعمال ، ورفع مباني الرشاد وهدم صروح الفساد . وقوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ قال ابن جرير : أي : ولسوف يرضى هذا المؤتي ماله في حقوق الله عز وجل ، يتزكى بما يثيبه الله في الآخرة عوضاً مما أتى في الدنيا في سبيله إذا لقي ربه تبارك وتعالى ؛ ففيه وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها ، إذ به يتحقق الرضا . وهذا على أن ضمير ﴿ يَرْضَى ﴾ لـ ﴿ الْأَتْقَى ﴾ لا للرب . قال الشهاب : وهو الأنسب بالسياق واتساق الضمائر .

وذهب بعضهم إلى الثاني ، ومنهم الإمام ، قال : أي : ولسوف يرضى الله عن ذلك الأتقى الطالب بصفة رضاه ، ثم قال : والتعبير بـ سوف ؛ لإفادة أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير ، ولا يكفي القليل من المال ، لأن يبلغ العبد درجة الرضا الإلهيّ .

تنبيه :

قال ابن كثير : ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الايات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه داخل فيها

وأولى الأمة بعمومها ؛ فإن اللفظ لفظ العموم وهو قوله تعالى :

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴾

(221/818)

ولكنه مقدم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ، فإنه كان صدّيقاً تقيّاً كريماً جواداً بذّالاً لأمواله في طاعة مولاهُ ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم . ولم يكن لأحد من الناس عنده منة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل . ولهذا قال له عروة بن مسعود – وهو سيد ثقيف – يوم صلح الحديبية : أما والله ! لولا يدٌ لك عندي لم أجزك بها ، لأجبتك . وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة . فإذا كان هذا حالهُ مع سادات العرب ورؤساء القبائل ، فكيف بمن عداهم ؟ وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : > من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة : يا عبد الله هذا خير > . فقال أبو بكر : يا رسول الله ! ما على من يدعى منها ضرورة ، فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : > نعم ، وأرجوا أن تكون منهم > . انتهى . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 413.417 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الليل

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1)

سورة الليل

التعريف بسورة الليل

في إطار من مشاهد الكون وطبيعة الإنسان تقرر السورة حقيقة العمل والجزاء . ولما كانت هذه الحقيقة منوعة المظاهر :(إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) . . وكانت العاقبة كذلك في الآخرة مختلفة وفق العمل والوجهة:(فأنذرتكم نارا تلظى . لا يصلاها إلا الأشقى . الذي كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى , الذي يؤتي ماله يتزكى . .) .

لما كانت مظاهر هذه الحقيقة ذات لونين , وذات اتجاهين . . كذلك كان الإطار المختار لها في مطلع السورة ذا لونين في الكون وفي النفس سواء :(والليل إذا يغشى . والنهار إذا

تجلى) . . (وما خلق الذكر والأنثى) . . وهذا من بدائع التناسق في التعبير القرآني .

الدرس الأول: 1 - 3 القسم بالليل والنهار والذكر والأنثى

(والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . . وما خلق الذكر والأنثى) . . .

وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3)

يقسم الله - سبحانه - بهاتين الآيتين: الليل والنهار . مع صفة كل منهما الصفة المصورة للمشهد . (والليل إذا يغشى) . . (والنهار إذا تجلى) . . الليل حين يغشى البسيطة, ويغمرها ويخفيها . والنهار حين يتجلى ويظهر, فيظهر في تجليه كل شيء ويسفر . وهما آنان متقابلان في دورة الفلك, ومتقابلان في الصورة, ومتقابلان في الخصائص, ومتقابلان في الآثار . . كذلك يقسم بخلقه الأنواع جنسين متقابلين: (وما خلق الذكر والأنثى) . . تكملة لظواهر التقابل في جو السورة وحقائقها جميعا .

(223/818)

والليل والنهار ظاهرتان شاملتان لهما دلالة توحيان بها إيحاء للقلب البشري; ولهما دلالة كذلك أخرى عند التدبر والتفكر فيهما وفيما وراءهما . والنفس تتأثر تأثرا تلقائيا بتقلب الليل والنهار . الليل إذا يغشى ويعم, والنهار إذا تجلى وأسفر . ولهذا التقلب حديث

وإيحاء . حديث عن هذا الكون المجهول الأسرار , وعن هذه الظواهر التي لا يملك البشر من أمرها شيئا . وإيحاء بما وراء هذا التقلب من قدرة تدير الآونة في الكون كما تدار العجلة اليسيرة ! وبما هنالك من تغير وتحول لا يثبت أبدا على حال .

ودلالتهما عند التدبر والتفكر قاطعة في أن هنالك يدا أخرى تدير هذا الفلك , وتبدل الليل والنهار . بهذا الانتظام وهذا الاطراد وهذه الدقة . وأن الذي يدير الفلك هكذا يدير حياة البشر أيضا . ولا يتركهم سدى , كما أنه لا يخلقهم عبثا .

ومهما حاول المنكرون والمضلون أن يلغوا في هذه الحقيقة , وأن يحولوا الأنظار عنها , فإن القلب البشري سيظل موصولا بهذا الكون , يتلقى إيقاعاته , وينظر تقلباته , ويدرك تلقائيا كما يدرك بعد التدبر والتفكر , أن هنالك مدبرا لا محيد من الشعور به , والاعتراف بوجوده من وراء اللغو والهذر , ومن وراء الجحود والنكران !

وكذلك خلقة الذكر والأنثى . . إنها في الأنسان والثديات الحيوانية نطفة تستقر في رحم . وخلية تتحد ببويضة . ففيم هذا الاختلاف في نهاية المطاف ? ما الذي يقول لهذه: كوني ذكرا . ويقول لهذه: كوني أنثى ? . . إن كشف هذه العوامل التي تجعل هذه النطفة تصبح ذكرا , وهذه تصبح أنثى لا يغير من واقع الأمر شيئا . . فإنه لماذا تتوفر هذه العوامل هنا وهذه العوامل هناك ? وكيف يتفق أن تكون صيرورة هذه ذكرا , وصيرورة هذه أنثى هو الحدث الذي يتناسق مع خط سير الحياة كلها , ويكفل امتدادها بالتناسل مرة أخرى ?

مصادفة ؟ ! إن للمصادفة كذلك قانونا يستحيل معه أن تتوافر هذه الموافقات كلها من قبيل المصادفة . . فلا يبقى إلا أن هنالك مدبرا يخلق الذكر والأنثى لحكمة مرسومة وغاية معلومة . فلا مجال للمصادفة , ولا مكان للتلقائية في نظام هذا الوجود أصلا .

والذكر والأنثى شاملان بعد ذلك للأنواع كلها غير الثدييات . فهي مطردة في سائر الأحياء ومنها النبات . . قاعدة واحدة في الخلق لا تختلف . لا يتفرد ولا يتوحد إلا الخالق سبحانه الذي ليس كمثله شيء . . .

هذه بعض إيحاءات تلك المشاهد الكونية , وهذه الحقيقة الإنسانية التي يقسم الله - سبحانه - بها , لعظيم دلالتها وعميق إيقاعها . والتي يجعلها السياق القرآني إطارا لحقيقة العمل والجزاء في الحياة الدنيا وفي الحياة الأخرى . .

الدرس الثاني:4 - 21 سعي الناس شتى مختلف وصفات المؤمنين الإيجابية وصفات الكفار السلبية

يقسم الله بهذه الظواهر والحقائق المتقابلة في الكون وفي الناس , على أن سعي الناس مختلف وطرقهم مختلفة , ومن ثم فجزاؤهم مختلف كذلك ; فليس الخير كالشر , وليس

الهدى كالضلال , وليس الصلاح كالفساد ,

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11)

وليس من أعطى واتقى كمن بخل واستغنى , وليس من صدق وآمن كمن كذب وتولى .

وأن لكل طريقا , ولكل مصيرا , ولكل جزاء وفاقا :

(إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى , وصدق بالحسنى , فسنيسره لليسرى .

وأما من بخل واستغنى , وكذب بالحسنى , فسنيسره للعسرى , وما يغني عنه ماله إذا تردى) . .

(225/818)

إن سعيكم لشتى . . مختلف في حقيقته . مختلف في بواعثه . مختلف في اتجاهه . مختلف في نتائجه . . والناس في هذه الأرض تختلف طبائعهم , وتختلف مشاربهم , وتختلف تصوراتهم , وتختلف اهتماماتهم , حتى لكأن كل واحد منهم عالم خاص يعيش في كوكب خاص .

هذه حقيقة . ولكن هناك حقيقة أخرى . حقيقة إجمالية تضم أشتات البشر جميعا . وتضم هذه العوالم المتباينة كلها . تضمها في حزمتين اثنتين . وفي صفين متقابلين . تحت رايتين عامتين: (من أعطى واتقى وصدق بالحسنى) . . و (من بخل واستغنى وكذب بالحسنى) . .

من أعطى نفسه وماله . واتقى غضب الله وعذابه . وصدق بهذه العقيدة التي إذا قيل (الحسنى) كانت اسما لها وعلما عليها .

ومن بخل بنفسه وماله . واستغنى عن الله وهداه . وكذب بهذه الحسنى . .

هذان هما الصفان اللذان يلتقي فيهما شتات النفوس , وشتات السعي , وشتات المناهج , وشتات الغايات . ولكل منهما في هذه الحياة طريق . . ولكل منهما في طريقه توفيق !

(فأما من أعطى واتقى , وصدق بالحسنى . . فسنيسره لليسرى) . .

والذي يعطي ويتقي ويصدق بالحسنى يكون قد بذل أقصى ما في وسعه ليزكي نفسه ويهديها . عندئذ يستحق عون الله وتوفيقه الذي أوجبه - سبحانه - على نفسه بإرادته ومشيئته . والذي بدونه لا يكون شيء , ولا يقدر الإنسان على شيء .

ومن يسره الله لليسرى فقد وصل . . وصل في يسر وفي رفق وفي هوادة . . وصل وهو بعد في هذه الأرض . وعاش في يسر . يفيض اليسر من نفسه على كل ما حوله وعلى كل من حوله . اليسر في خطوه . واليسر في طريقه . واليسر في تناوله للأمور كلها . والتوفيق

الهادئ المطمئن في كلياتها وجزئياتها . وهي درجة تتضمن كل شيء في طياتها . حيث تسلك صاحبها مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في وعد ربه له: ونيسرك لليسرى . .

(وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . . فسنيسره للعسرى . وما يغني عنه ماله إذا تردى .) . .

(226/818)

والذي يبخل بنفسه وماله , ويستغني عن ربه وهداه , ويكذب بدعوته ودينه . . يبلغ أقصى ما يبلغه إنسان بنفسه من تعريضها للفساد . ويستحق أن يعسر الله عليه كل شيء , فييسره للعسرى ! ويوفقه إلى كل وعورة ! ويحرمه كل تيسير ! ويجعل في كل خطوة من خطاه مشقة وحرجا , ينحرف به عن طريق الرشاد . ويصعد به في طريق الشقاوة . وإن حسب أنه سائر في طريق الفلاح . وإنما هو يعثر فيتقي العثار بعثرة أخرى تبعده عن طريق الله , وتنأى به عن رضاه . . فإذا تردى وسقط في نهاية العثرات والانحرافات لم يغن عنه ماله الذي بخل به , والذي استغنى به كذلك عن الله وهداه . . (وما يغني عنه ماله إذا تردى) . . والتيسير للشر والمعصية من

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14) لَا
يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي
مَالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى
(20)

التيسير للعسرى , وإن أفلح صاحبها في هذه الأرض ونجا . . وهل أعسر من جهنم ؟ وإنها لهي العسرى ! .

هكذا ينتهي المقطع الأول في السورة . وقد تبين طريقان ونهجان للجموع البشرية في كل زمان ومكان . وقد تبين أنهما حزبان ورايتان مهما تنوعت وتعددت الأشكال والألوان . وأن كل إنسان يفعل بنفسه ما يختار لها ! فييسر الله له طريقه: إما إلى اليسرى وإما إلى العسرى .

فأما المقطع الثاني فيتحدث عن مصير كل فريق . ويكشف عن نهاية المطاف لمن يسره لليسرى , ومن يسره للعسرى . وقبل كل شيء يقرر أن ما يلاقيه كل فريق من عاقبة ومن جزاء هو عدل وحق , كما أنه واقع وحتم . فقد بين الله للناس الهدى , وأنذرهم نارا تلظى:

(إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم نارا تلظى , لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى . وسيجنبها الأتقى , الذي يؤتي ماله يتزكى , وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى , ولسوف يرضى) . .

لقد كتب الله على نفسه - فضلا منه بعباده ورحمة - أن يبين الهدى لفطرة الناس ووعيهم . وأن يبينه لهم كذلك بالرسل والرسالات والآيات , فلا تكون هناك حجة لأحد , ولا يكون هناك ظلم لأحد: (إن علينا للهدى) . .

واللمسة الثانية هي التقرير الجازم لحقيقة السيطرة التي تحيط بالناس , فلا يجدون من دونها موئلا: (وإن لنا للآخرة والأولى) . . فأين يذهب من يريد أن يذهب عن الله بعيدا ? !

وتفريعا على أن الله كتب على نفسه بيان الهدى للعباد , وأن له الآخرة والأولى داري الجزاء والعمل . تفريعا على هذا يذكرهم أنه أنذرهم وحذرهم وبين لهم: (فأنذرتكم نارا تلظى) . . وتتسعر . . هذه النار المتسعرة (لا يصلاها إلا الأشقى) . . أشقى العباد جميعا . وهل بعد الصلي في النار شقوة ? ثم يبين من هو الأشقى . إنه: (الذي كذب وتولى) . . كذب بالدعوة وتولى عنها . تولى عن الهدى وعن دعوة ربه له ليهديه كما وعد كل من يأتي إليه راغبا .

(وسيجنبها الأتقى) . . وهو الأسعد في مقابل الأشقى . . ثم يبين من هو الأتقى: (الذي

يؤتي ماله يتزكى) . الذي ينفق ماله ليتطهر بإنفاقه , لا ليرائي به ويستعلي . ينفقه تطوعا لا ردا لجميل أحد , ولا طلبا لشكران أحد , وإنما ابتغاء وجه ربه خالصا . ربه الأعلى . .

(وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى) . .

ثم ماذا ? ماذا ينتظر هذا الأتقى , الذي يؤتي ماله تطهرا , وابتغاء وجه ربه الأعلى ? إن الجزاء الذي يطالع القرآن به الأرواح المؤمنة هنا عجيب . ومفاجئ . وعلى غير المألوف .

(ولسوف يرضى) .

(228/818)

إنه الرضى ينسكب في قلب هذا الأتقى . إنه الرضى يغمر روحه . إنه الرضى يفيض على جوارحه . إنه الرضى يشيع في كيانه . إنه الرضى يندي حياته . .

ويا له من جزاء ! ويا لها من نعمة كبرى !

(ولسوف يرضى) . يرضى بدينه . ويرضى بربه . ويرضى بقدره . ويرضى بنصيبه . ويرضى بما يجد من سراء وضراء . ومن غنى وفقر . ومن يسر وعسر . ومن رخاء

وشدة . يرضى فلا يقلق ولا يضيق ولا يستعجل ولا يستثقل العبء , ولا يستبعد الغاية .

. إن هذا الرضى جزاء - جزاء أكبر من كل جزاء - جزاء يستحقه من

وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)

يبذل له نفسه وماله - من يعطي ليتزكى . ومن يبذل ابتغاء وجه ربه الأعلى .

إنه جزاء لا يمنحه إلا الله . وهو يسكبه في القلوب التي تخلص له , فلا ترى سواه أحدا .

(ولسوف يرضى) . .

يرضى وقد بذل الثمن . وقد أعطى ما أعطى . .

إنها مفاجأة في موضعها هذا . ولكنها المفاجأة المرتقبة لمن يبلغ ما بلغه الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى , وما لأحد عنده من نعمة تجزى , إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . .

(ولسوف يرضى) . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3920. 3924 ﴾

(229/818)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سُورَةُ اللَّيْلِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1)

يقسم الله تعالى بالليل والنهار وأثرهما على الكون، على أنهما آيتان عظيمتان.

وتقدم الكلام عليهما في السورة قبلها عند قوله: ﴿ والنهار إِذَا جَلاَّهَا والليل إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ [الشمس: 3-4].

وتقدم للشيخ رحمة الله علينا وعليه الكلام على هاتين الآيتين، عند قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا الليل والنهار آيَتَيْنِ ﴾ [الإسراء: 12]، في سورة بني إسرائيل، وذكر النصوص في هذا المعنى. وأثر الليل والنهار في حياة الناس، ومعرفة الحساب ونحوه.

وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحث هذه المسألة، وإيراد كل النصوص في عدة مواضع، أشار إليها كلها في سورة النجم عند قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تمنى ﴾ [النجم: 45-46]، وقد قرئت بعد قراءات منها ﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾، ومنها ﴿ الذكر والأنثى ﴾.

وذكرها ابن كثير مرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى القراءة المشهورة.

﴿ وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾، اختلف في لفظة "ما" فقيل: إنها مصدرية، أي وخلق الذكر والأنثى.

وقيل: بمعنى من، أي والذي خلق الذكر والأنثى. فعلى الأول يكون القسم بصفة من

صفات الله وهي صفة الخلق ، ويكون خص الذكر والأنثى لما فيهما من بديع صنع الله وقوة قدرته سبحانه على ما يأتي .

(230/818)

وعلى قراءة : والذكر والأنثى . يكون القسم بالمخلوق كالليل والنهار ، لما في الخلق من قدرة الخالق أيضاً ، وعلى أنها بمعنى الذي يكون القسم بالخالق سبحانه ، وتكون ما هنا مثل في قوله : ﴿ والسمآء وَمَا بَنَاهَا ﴾ [الشمس : 5] ، وغاية ما فيه استعمالها وهي في الأصل لغير أولي العلم ، إلا أنها لوحظ فيها معنى الصفة ، وهي صفة الخلق أو على ما تستعمله العرب عند القرينة ، كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ ﴾ [النساء : 22] ، وقوله : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء ﴾ [النساء : 3] ، لما لوحظ فيه معنى الصفة وهو الاستمتاع ، ساغ استعمال ما بدلاً عمن .

وفي اختصاص خلق الذكر والأنثى في هذا المقام لفت نظر إلى هذه الصفة ، لما فيها من إعجاز البشر عنها ، كما في الليل والنهار من الإعجاز للبشر من أن يقدروا على شيء في خصوصه ، كما قدمنا في السورة قبلها .

وذلك : أن أصل التذكير والتأنيث أمر فوق إدراك وقوى البشر ، وهي كالآتي أولاً في

الحيوانات الثديية، وهي ذوات الرحم تحمل وتلد، فإنها تنتج عن طريق اتصال الذكور بالإناث.

وتذكير الجنين أو تأنيثه ليس لأبويه ودخل فيه، إنه من نطفة أمشاج، أي أخلاط من ماء الأب والأم، وجعل هذا ذكراً وذاك أنثى، فهو هبة من الله كما في قوله: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: 49-50].

وقد ثبت علمياً أن سبب التذكير والتأنيث من جانب الرجل، أي أن المرأة صالح لهذا وذاك، وماء الرجل هو الذي يكون عن طريقه، كما أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: 223]، والحرث لا يتصرف في الزرع، وإنما التصرف عن طريق الحارث.

ويتم ذلك عن طريق مبدء معلوم علمياً، وهو أن خلية التلقيح في الأنثى دائماً وأبداً مكونة من ثمانية وأربعين جزءاً، وهي دائمة وأبداً تنقسم إلى قسمين متساوين أربعة وعشرين، فيلتحم قسم منها مع قسم خلية الذكر، وخلية الذكر سبعة وأربعون، وإنما أبداً تنقسم

أيضاً عند التلقيح إلى قسمين ، ولكن أحدهما أربعة وعشرون ، والآخر ثلاثة وعشرون ، فإذا أراد الله تذكير الحمل سبق القسم الذي من ثلاثة وعشرين .

فيندمج مع قسيم خلية الأنثى ، وهو أربعو وعشرون ، فيكون مجموعهما سبعة وأربعين ، فيكون الذكر بإذن الله .

وإذا أراد الله تأنيث الحمل سبق القسم الذي هو أربعو وعشرون من الرجل ، فيندمج مع قسيم خلية المرأة أربعة وعشرين ، فيكون من مجموعهما ثمانية وأربعون ، فتكون النثى بإذن الله ، وهكذا في جميع الحيوانات .

أما النباتات فإن بعض الأشجار تتميز فيه الذكور من الإناث ، كالنخل والتوت مثلاً ، وبقية الأشجار تكون الشجرة الواحدة تحمل زهرة الذكور وزهرة الأنوثة ، فتلقح الرياح بعضها من بعض .

وقد حدثني عدة أشخاص عن غريبتين في ذلك .

إحداهما أن نخلة موجودة حتى الآن في بعض السنين فحلاً يؤخذ منه ليؤبر النخيل ، وفي بعض السنين نخلة تطلع وتثمر .

وحدثني آخر في نفس المجلس : من أنه توجد عندهم شجرة نخل يكون أحد شقيها فحلاً يؤخذ منه الطلع يلقح به النخل ، وشقها الآخر نخلة يتلقح من الشق الآخر لمجاورته .

كما حدثني ثالث : أن والده قطع بعض فحل النخل لكثرته في النخيل ، وبعد قطعه نبت في

أصله ومن جذعه وجذوره نخلة تثمر وكل ذلك على خلاف العادة ، ولكنه دال على قدرة الله تعالى ، وانه خالق الذكر والأنثى .

أما عمل هذا الجهاز في الحيوانات ، بل وفي الحشرات الدقيقة ، وتكاثرها ، فهو فوق الحصر والحد .

(232/818)

وقد ذكروا في عالم الحشرات ، ما يلقح نفسه بنفسه ، باحتكاك بعض فخذيه ببعض ، وكل ذلك مما لا يعلمه ولا يقدر على إيجاد إلا الله سبحانه وتعالى ، مما لو تأمله العاقل لوجد فيه كما أسلفنا القدرة الباهرة ، أعظم مما في الليل إذا يغشى وما في النهار إذا تجلى ، ولا سيما إذا صغر الكائن كالبعوضة فما دونها مما لا يكاد يرى بالعين ، ومع ذلك فإن فيه الذكورة والأنوثة . سبحانك اللَّهم ما أعظم شأنك .

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4)

تقدم في السورة الأولى قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : 9-10] ، وكلاهما بالسعي إليه والعمل من أجله ، وهنا يقول : إن سعيكم مهما كان لشتى ، أي متباعد بعض عن بعض .

والشتات : التباعد والافتراق ، وشتى : جمع شتيت ، كمرض ومريض ، وقتلى وقتيل ونحوه ، ومنه قو الشاعر :

قد يجمع الله الشتيتين بعد ما . . . يظنان كل الظن ألا تلاقيا

وهذا جواب القسم ، وفي القسم ما يشعر بالارتباط به ، كبعد ما بين الليل والنهار ، وما بين الذكر والأنثى ، فهما مختلفان تماماً ، وهكذا هما مفترقان في النتائج والوسائل ، كبعد ما بين فلاح من زكاها ، وخيبة من دساها المتقدم في السورة قبلها .

ثم فصل هذا الشتات في التفصيل الآتي ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى وَصَدَّقَ بالحسنى فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغنى وَكَذَّبَ بالحسنى فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ [الليل : 5-10] .

وما أبعد ما بين العطاء والبخل والتصديق والتكذيب واليسرى والعسرى ، وقد أطلق أعطى ليعم كل عطاء من ماله وجاهه وجهده حتى الكلمة الطيبة ، بل حتى طلاقة الوجه ، كما في الحديث : " ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق " .

والحسنى : قيل المجازاة على الأعمال .

وقيل : للخلف على الإنفاق .

وقيل : لا إله إلاَّ الله .

قيل : الجنة .

والذي يشهد له القرآن هو الأخير لقوله تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الحسنى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : 26] ، فقالوا : الحسنى هي الجنة ، والزيادة النظر إلى وجهه الكريم ، وهذا المعنى يشمل كل المعاني لأنها أحسن خلف لكل ما ينفق العبد ، وخير وأحسن مجازاة على أي عمل مهما كان ، ولا يتوصل إليها إلا بلا إله إلا الله .

وقوله : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ﴾ وقوله : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ بعد ذكر أعطى واتقى في الأولى ، وبخل واستغنى في الثانية .

قيل : هو دلالة على أن فعل الطاعة ييسر إلى طاعة أخرى ، وفعل المعصية يدفع إلى معصية أخرى .

قال ابن كثير : مثل قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : 110] .

ثم قال : والآيات في هذا المعنى كثيرة ، دالة على أن الله عزّ وجلّ ، يجازي من قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان ، وكل ذلك بقدر مقدر .

والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة . وذكر عن أبي بكر عند أحمد ، وعن علي عند

البخاري، وعبد الله عمر عند أحمد ، وعدد كثير بروايات متعددة، أشملها وأصحها حديث علي عند البخاري قال علي : "كنا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم في بقيع الغرقد في جنازة فقال : " ما منكم من أحد إلاّ وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار " فقالوا : يا رسول الله، أفلا نتكل ؟ " فقال : " اعملوا فكل ميسر لما خلق له" ، ثم قرأ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى وَصَدَّقَ بالحسنى فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ﴾ [الليل5–7] –إلى قوله– ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ [الليل : 10] فهي من الآيات التي لها تعلق ببحث القدر.

وتقدم مراراً بحث هذه المسألة. والعلم عند الله تعالى.

تنبيه

(234/818)

قال أبو حيان : جاء قوله : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ على سبيل المقابلة، لأن العسرى على سبيل المقابلة، لأن العسرى لا تيسير فيها . اهـ.

وهذا من حيث الأسلوب ممكن، ولكن لا يبعد أن يكون معنى التيسير موجوداً بالفعل، إذ المشاهد أن من خذلهم الله –عياذاً بالله– يوجد منهم إقبال وقبول وارتياح، لما يكون أثقل وأشق ما يكون على غيرهم، ويرون ما هم فيه سهلاً ميسراً لا غضاضة عليهم فيه، بل

وقد يستمرؤون الحرام ويستطعمونه .

كما ذكر لي شخص : أن لصّاً قد كفَّ عن السرقة حياءً من الناس ، وبعد أن كثر ماله وكبر سنه أعطى جلاً دراهم ليسرق له من زرع جاره ، فذهب الرجل ودار من جهة أخرى وأتاه بثمرة من زرعه هو ، أي زرع اللص نفسه ، فلما أكلها تفلها ، وقال : ليس فيه طعمة المسروق ، فمن أين أتيت به ؟ قال : أتيت من زرعك ، ألا تستحي من نفسك ، تسرق وعندك ما يغنيك . فخجل وكف .

وقد جاء عن عمر نقيض ذلك تماماً ، وهو أنه طلب من غلامه أن يسقيه مما في شكوته من لبنه ، فلما طعمه استنكر طعمه ، فقال للغلام : من أين هذا ؟ فقال : مررت على إبل الصدقة فحلبوا لي منها ، وها هو ذا ، وضع عمر إصبعه في فيه ، واستقاء ما شرب .

إنها حساسية الحرام استنكرها عمر ، وأحسن بالحرام فاستقاءه ، وهذا وذاك بتيسير من الله تعالى ، وصدق صلى الله عليه وسلم " اعملوا فكل ميسر لما خلق له " .

ونحن نشاهد في الأمور العادية أصحاب المهن والحرف كل واحد راضٍ بعمله وميسر له ، وهكذا نظام الكون كله ، والذي يهم هنا أن كلاً من الطاعة أو المعصية له أثر كبير على ما بعده .

تنبيه

قيل : إن هذه المقارنة بين : من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، ومن بخل واستغنى

وكذب بالحسنى، واقعة بين أبي بكر رضي الله عنه، وبين غيره من المشركين.

ومعلوم أن العبرة بعموم اللفظ فهي عامة في كل من أعطى واتقى وصدق، أو بخل واستغنى وكذب. والله تعالى أعلم.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11)

(235/818)

رد على من بخل واستغنى، وما هنا يمكن أن تكون نافية أي لا يغني عنه شيء، كما في قوله: ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴾ [الحاقة: 28] وقوله: ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ ﴾ [الشعراء: 88].

ويمكن أن تكون استفهمية وقوله: ﴿ إِذَا تردى ﴾ أي في النار عياذاً بالله، أو تردى في أعماله، فمآله إلى النار بسبب بخله في الدنيا، كما يشهد له قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الذين يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ القيامة ﴾ [آل عمران: 180] الآية.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (12)

فيه للعلماء أوجه، منها: إن طريق الهدى وموصل علينا بخلاف الضلال.

ومنها : التزام الله للخلق عليه لهم الهدى ، وهذا الوجه محل إشكال ، إذ أن بعض الخلق لم يهدهم الله .

وقد بحث هذا الأمر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ، من أن الجواب عليه من حيث إن الهدى عام وخاص . والله تعالى أعلم .

وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (13)

أي بكمال التصرف والمر ، وقد بينه تعالى في سورة الفاتحة ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] ، أي المتصرف في الدنيا ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] ، أي المتصرف في الآخرة وحده ﴿ لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16] .

وهذا كدليل على تيسيره لعباده إلى ما يشاء في الدنيا ، ومجازاتهم بما شاء في الآخرة .

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14)

أي تتلظى ، واللظى : اللهب الخالص ، وفي وصف النار هنا بتلظى مع أن لها صفات عديدة منها : السعير ، وسقر ، والجحيم ، والهاوية ، وغير ذلك .

وذكر هنا صنفاً خاصاً ، وهو من كذب وتولى ، كما تقدم في موضع آخر في وصفها أيضاً بلظى في قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا لظى نَزَّاعَةً للشوى ﴾ [المعارج : 15-16] ، ثم بين أهلها بقوله : ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وتولى وَجَمَعَ فأوعى ﴾ [المعارج : 17-18] .

وهو كما هو ما ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تلظى لاَ يَصْلاَهَآ إِلاَّ الأشقى الذي كَذَّبَ وتولى ﴾ [الليل : 14-16] ، وهو المعنى في قوله قبله : ﴿ وَأَمَّا مَن بَخِلَ واستغنى وَكَذَّبَ بالحسنى ﴾ [الليل : 8-9] ، مما يدل أن للنار عدة حالات أو مناطق أو منازل ، كل منزلة تختص بصنف من الناس ، فاختصت لظى بهذا الصنف ، واختصت سقر بمن لم يكن من المصلين ، وكانوا يخوضون مع الخائضين ، ونحو ذلك . ويشهد له قوله : ﴿ إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار ﴾ [النساء : 145] ، كما أن الجنة منازل ودرجات ، حسب أعمال المؤمنين ، والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لاَ يَصْلاَهَآ إِلاَّ الأشقى الذي كَذَّبَ وتولى وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى الذى يُؤْتِي مَالَهُ يتزكى ﴾ .

هذه الآية من مواضع الإيهام ، ولم يتعرض لها في دفع إيهام الاضطراب ، وهو أنها تنص وعلى سبيل الحصر ، أنه لا يصلى النار ألاَّ الأشقى مع مجيء قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ [مريم : 71] مما يدل على ورود الجميع .

والجواب من وجهين : الأول كما قال الزمخشري : إن الآية بين حالي عظيم من المشركين

وعظيم من المؤمنين ، فأريد أن يبالغ في صفتيهما المتناقضتين .

فقيل : الأشقى وجعل مختصاً بالصلى ، كأن النار لم تخلق إلا له ، وقال الأتقى ، وجعل مختصاً بالجنة ، وكأن الجنة لم تخلق إلا له ، وقيل : عنهما هما أبو جهل أو أمية بن خلف المشركين ، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ، حكاه أبو حيان عن الزمخشري .

(237/818)

والوجه الثاني : هو أن الصلى الدخول والشي ، وأن يكون وقود النار على سبيل الخلود ، والورود والدخول المؤقت بزمن غير الصلى لقوله في آية الورود ، التي هي قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] ، ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَّنَذَرُ الظالمين فِيهَا جِثِيّاً ﴾ [مريم : 72] ، ويبقى الإشكال ، بين الذين اتقوا وبين الأتقى ويجاب عنه : بأن التقى يرد ، والأتقى لا يشعر بورودها ، كمن يمر عليها كالبرق الخاطف . والله تعالى أعلم .

ولولا التأكيد في آية الورود بالمجيء بحرف من وإله وقوله : ﴿ كَانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً ﴾ [مريم : 71] لولا هذه المذكورات لكان يمكن أن يقال : إنها مخصوصة بهذه الآية ، وأن الأتقى لا يردها ، إلاّ أن وجود تلك المذكورات يمنع من القول بالتخصيص . والله تعالى أعلم .

وفيه تقرير مصير القسمين المتقدمين ، من أعطى واتقى وصدق ، ومن بخل واستغنى وكذب ، وأن صليها بسبب التكذيب والتولي والإعراض وهو عين الشقاء ، ويتجنبها الأتقى الذي صدق ، وكان نتيجة تصديقه أنه أعطى ماله يتزكى ، وجعل إتيان المال نتيجة التصديق أمر بالغ الأهمية .

وذلك أن العبد لا يخرج من ماله شيئاً إلاَّ بعوض ، لأن الدنيا كلها معاوضة حتى الحيوان تعطيه علفاً يعطيك ما يقابله من خدمة أو حليب . . إلخ .

فالمؤمن المصدق بالحسنى يعطي وينتظر الجزاء الأوفى الحسنة بعشر أمثالها ، لأنه مؤمن أنه متعامل مع الله ، كما في قوله : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً ﴾ [البقرة : 245] .

(238/818)

أما المكذب : فلم يؤمن بالجزاء آجلاً ، فلا يخرج شيئاً لأنه لم يجد عوضاً معجلاً ، ولا ينتظر ثواباً مؤجلاً ، ولذا كان الذين تبؤوا الدار والإيمان ، يحبون من هاجر إليهم ويواسونهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، إيماناً بما عند الله ، بينما كان المنافقون لا ينفقون إلا كرهاً ولا يخرجون إلا الرديء ، الذي لم يكونوا

ليأخذوه من غيرهم إلاَّ ليغمضوا فيه ، ولك ذلك سببه التصديق بالحسنى أو التكذيب بها .

ولذا جاء في الحديث الصحيح " والصدقة برهان " أي على صحة الإيمان بما وعد الله المتقين ، من الخلف المضاعفة الحسنة .

وقوله : ﴿ يُؤْتِي مَالَهُ يتزكى ﴾ ، أي يتطهر ويستزيد ، إذ التزكية تأتي بمعنى النماء ، كقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : 103] ، وهذا رد على قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى ﴾ [الأعلى : 14] ، وعلى عموم : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى ﴾ [الليل : 5] ، ولا يقال : إنها زكاة المال ، لأن زكاة المال ، لأن الزكاة لم تشرع إلا بالمدينة ، والسورة مكية عند الجمهور ، وقيل : مدنية . والصحيح الأول .

تنبيه

قد قيل أيضاً : إن المراد بقوله : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى الذى يُؤْتِي مَالَهُ يتزكى ﴾ [الليل : 17 – 18] ، إلى آخر السورة . نازل في أبي بكر رضي الله عنه ، ولما كان يعتق ضعفة المسلمين ، فأنزل الله الآيات إلى قوله : ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى إِلاَّ ابتغآء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى ﴾ [الليل : 19 – 20] ، وابتغاء وجهة رب هو بعينه ، وصدق بالحسنى أي لوجه الله يرجو الثواب من الله .

وكما تقدم ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وإن صورة السبب قطيعة الدخول . فهذه بشرى عظيمة للصديق رضي الله عنه ، ولسوف يرضى في غاية من التأكيد من الله تعالى ، على وعده إياه صلى الله عليه وسلم وأرضاه . وذكر ابن كثير : أن في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة : يا عبد الله هذا خير ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما على من يدعي منها ضرورة ، فهل يدعي منها كلها أحد ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم " اهـ .

وإنا لنرجو الله كذلك فضلاً منه تعالى .

تنبيه

في قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ [الليل : 21] ، وذكر ابن كثير إجماع المفسرين أنها في أبي بكر رضي الله عنه أعلى منازل البشرى ، لأن هذا الوصف بعينه ، قيل للرسول صلى الله عليه وسلم قطعاً في السورة بعدها ، سورة الضحى ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 4-5] ، فهو وعد مشترك للصديق وللرسول صلى الله عليه وسلم ، إلاَّ أنه في حق الرسول صلى الله عليه وسلم أسند العطاء فيه لله تعالى بصفة الربوبية ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ﴾ [الضحى : 5] كما ذكر فيه العطاء ، مما يدل على غيره صلى الله عليه وسلم ، وهو معلوم بالضرورة ، من أنه صلى الله

عليه وسلم له عطاءات لا يشاركه فيها أحد ، على ما سيأتي إن شاء الله . انتهى ا .

هـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(240/818)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ اللَّيْلِ

[فِيهَا آيَتَانِ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي مَعْنَى الْقَسَمِ فِيهَا : وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : إنَّ مَعْنَاهُ وَرَبِّ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى .

وَهَذَا الْمَحْذُوفُ مُقَدَّرٌ فِي كُلِّ قَسَمٍ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْقَسَمِ بِهَا .

الثَّانِي : أَنَّ مَعْنَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ كَمَا تَقَدَّمَ يَعْنِي آدَمَ وَحَوَّاءَ ، وَآدَمُ خُلِقَ وَحْدَهُ قَبْلَ خَلْقِ حَوَّاءَ حَسْبَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قِرَاءَةُ الْعَامَّةِ وَصُورَةُ الْمُصْحَفِ ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَابْنَ مَسْعُودٍ ، كَانَا يَقْرَآنِ : وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى .

قَالَ إبْرَاهِيمُ : قَدِمَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ فَطَلَبَهُمْ فَوَجَدَهُمْ ، فَقَالَ : أَيُّكُمْ يَقْرَأُ عَلَى قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ ؟ قَالُوا : كُلُّنَا .

قَالَ تَقْرَءُونَ : ﴿ وَاللَّيْلِ إذَا يَغْشَى ﴾ ؟ قَالَ عَلْقَمَةُ : وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى .

قَالَ : أَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ هَكَذَا ، وَهَؤُلَاءِ يُرِيدُونَ أَنْ أَقْرَأَ : وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ، وَاَللَّهِ لَا أُتَابِعُهُمْ .

(241/818)

قَالَ الْقَاضِي : هَذَا مِمَّا لَا يَلْتَفِتُ إلَيْهِ بَشَرٌ ، إنَّمَا الْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ مَا فِي الصُّحُفِ ؛ فَلَا تَجُوزُ مُخَالَفَتُهُ لِأَحَدٍ ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ يَقَعُ النَّظَرُ فِيمَا يُوَافِقُ خَطَّهُ مِمَّا لَمْ يَثْبُتْ ضَبْطُهُ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوْضِعِهِ ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ لَا يَثْبُتُ بِنَقْلِ الْوَاحِدِ ، وَإِنْ كَانَ عَدْلًا ؛ وَإِنَّمَا يَثْبُتُ بِالتَّوَاتُرِ الَّذِي يَقَعُ بِهِ الْعِلْمُ ، وَيَنْقَطِعُ مَعَهُ الْعُذْرُ وَتَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ عَلَى الْخَلْقِ .

(242/818)

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ فِيهَا ثَمَانِ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رُوِيَ فِي ذَلِكَ رِوَايَاتٌ : الرِّوَايَةُ الْأُولَى عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَا مِنْ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ شَمْسُهُ إلَّا وَبِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ ، يَسْمَعُهُمَا خَلْقُ اللَّهِ كُلُّهُمْ إلَّا الثَّقَلَيْنِ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا ﴾ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ الرِّوَايَةُ الثَّانِيَةُ عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ : كَانَ أَبُو بَكْرٍ يُعْتِقُ عَلَى الْإِسْلَامِ بِمَكَّةَ ، وَكَانَ يُعْتِقُ نِسَاءً وَعَجَائِزَ ؛ فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : أَيْ بُنَيَّ ، أَرَاك تُعْتِقُ أُنَاسًا ضُعَفَاءَ ، فَلَوْ أَنَّك أَعْتَقْت رِجَالًا جُلْدًا يَقُومُونَ مَعَك ، وَيَدْفَعُونَ عَنْك ، وَيَمْنَعُونَك ، فَقَالَ : أَيْ أَبَتِ ؛ إنَّمَا أُرِيدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ .

قَالَ : فَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ بَيْتِي أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ مَنْ أَعْطَى ﴾ : حَقِيقَةُ الْعَطَاءِ هِيَ الْمُنَاوَلَةُ ، وَهِيَ فِي اللُّغَةِ وَالِاسْتِعْمَالِ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّ نَفْعٍ أَوْ ضُرٍّ يَصِلُ مِنْ الْغَيْرِ إلَى الْغَيْرِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْأَمَدِ الْأَقْصَى وَغَيْرِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَاتَّقَى ﴾ : وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِي حَقِيقَةِ التَّقْوَى، وَأَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ حِجَابٍ مَعْنَوِيٍّ يَتَّخِذُهُ الْعَبْدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعِقَابِ، كَمَا أَنَّ الْحِجَابَ الْمَحْسُوسَ يَتَّخِذُهُ الْعَبْدُ مَانِعًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَكْرَهُهُ.

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾ : فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: الْأَوَّلُ: أَنَّهَا الْخَلَفُ مِنْ الْمُعْطِي؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ.

الثَّانِي: أَنَّهَا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ؛ قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا.

الثَّالِثُ: أَنَّهَا الْجَنَّةُ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ فِي الْمُخْتَارِ: كُلُّ مَعْنًى مَمْدُوحٍ فَهُوَ حُسْنَى، وَكُلُّ عَمَلٍ مَذْمُومٍ فَهُوَ سُوأَى وَعُسْرَى، وَأَوَّلُ الْحُسْنَى التَّوْحِيدُ، وَآخِرُهُ الْجَنَّةُ؛ وَكُلُّ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ بَيْنَهُمَا فَهُوَ حُسْنَى، وَأَوَّلُ السُّوأَى كَلِمَةُ الْكُفْرِ، وَآخِرُهُ النَّارُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا فَهُوَ مِنْهُمَا وَمُرَادٌ بِاللَّفْظِ الْمُعَبِّرِ عَنْهُمَا.

وَاخْتَارَ الطَّبَرِيُّ أَنَّ الْحُسْنَى الْخَلَفُ، وَكُلُّ ذَلِكَ يَرْجِعُ إلَى الثَّوَابِ الَّذِي هُوَ الْجَنَّةُ.

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ قَوْلُهُ : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾ يَعْنِي نُهَيِّئُهُ بِخَلْقِ أَسْبَابِهِ ، وَإِيجَادِ مُقَدِّمَاتِهِ ، ثُمَّ نَخْلُقُهُ بَعْدَ ذَلِكَ .

(244/818)

فَإِنْ كَانَ حَسَنًا سُمِّيَ يُسْرَى ، وَإِنْ مَذْمُومًا سُمِّيَ عُسْرَى ، وَالْبَارِي سُبْحَانَهُ خَالِقُ الْكُلِّ ، فَإِنْ أَرَادَ السَّعَادَةَ هَيَّأَ أَسْبَابَهَا لِلْعَبْدِ وَخَلَقَهَا فِيهِ ، وَإِنْ أَرَادَ الشَّقَاءَ هَيَّأَ أَسْبَابَهُ لِلْعَبْدِ ، وَخَلَقَهَا فِيهِ ؛ وَذَلِكَ مَرْوِيٌّ أَيْضًا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَرِيقٍ صَحِيحَةٍ ، يُعَضِّدُ مَا قَامَتْ عَلَيْهِ أَدِلَّةُ الْقَوْلِ ، وَيَعْتَضِدُ بِالشَّرْعِ الْمَنْقُولِ ، مِنْهُ مَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ : { كُنَّا فِي جِنَازَةٍ بِالْبَقِيعِ ، فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَلَسَ ، وَجَلَسْنَا ، وَمَعَهُ عُودٌ يَنْكُتُ بِهِ فِي الْأَرْضِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إلَى السَّمَاءِ فَقَالَ : مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إلَّا كُتِبَ مَدْخَلُهَا .

فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا ؟ فَقَالَ : بَلْ اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ ، فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَإِنَّهُ يُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَإِنَّهُ يُيَسَّرُ لِعَمَلِ الشَّقَاءِ .

ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ

وَاسْتَغْنَى ﴾ إلى قَوْلِه : ﴿ لِلْعُسْرَى ﴾ ﴾ .

﴿ وَسَأَلَ غُلَامَانِ شَابَّانِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَا : الْعَمَلُ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ ، وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ أَمْ فِي شَيْءٍ يُسْتَأْنَفُ ؟ فَقَالَ : بَلْ فِيمَا جَفَّتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَجَرَتْ بِهِ الْمَقَادِيرُ .

(245/818)

فَقَالَا : فَفِيمَ الْعَمَلُ إذَنْ ؟ قَالَ : اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِعَمَلِهِ الَّذِي خُلِقَ لَهُ .

قَالَا : فَالْآنَ نَجِدُّ وَنَعْمَلُ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ بَخِلَ ﴾ : قَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ الْبُخْلِ فِيمَا تَقَدَّمَ ، وَأَنَّهُ مَنْعُ الْوَاجِبِ ؛ وَقَدْ ذَكَرْنَا قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ .

﴾ الْحَدِيثَ إلَى آخِرِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَاسْتَغْنَى ﴾ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : اسْتَغْنَى عَنْ اللَّهِ ، وَهُوَ كُفْرٌ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ ، وَهُمْ فُقَرَاءُ إلَيْهِ ، وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ .

وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ اسْتَغْنَى بِالدُّنْيَا عَنْ الْآخِرَةِ ، فَرَكَنَ إلَى الْمَحْسُوسِ ، وَآمَنَ بِهِ ، وَضَلَّ

عَنْ الْمعْقُولِ ، وكَذَّبَ به ، ورَأَى أَنّ رَاحةَ النّقْدِ خيْرٌ مِنْ رَاحةِ النّسِيئَةِ ، وضَلَّ عَنْ وجْهِ النّجَاةِ ، وربْحِ التّجارَةِ الّتي اتّفقَ الْعُقَلَاءُ عَلَى طَلَبِهَا بِإِسْلَامِ دِرْهَمٍ إلَى غَنِيٍّ وَفِيٍّ لِيَأْخُذَ عَشْرَةً فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَاَللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى لَا يُخْلِفُ الْمِيعادَ ، وَهُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَالْخَلْقُ مِلْكُهُ ، أَمَرَ بِالْعَمَلِ ونَدَبَ إلَى النّصَبِ ، ووَعَدَ عَلَيْهِ بِالثّوَابِ ؛ فَالْحَرَامُ مَعْقُولًا ، وَالْوَاجِبُ مَنْقُولًا امْتِثَالَ أَمْرِهِ ، وَارْتِقَابَ وَعْدِهِ ، وَهَذَا مُنْتَهَى الْحُكْمِ فِي الْآيَةِ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ الْبَيَانِ

مَا يَخْرُجُ عَنْ الْمَقْصُودِ فَأَرْجَأْته إلَى مَكَانِهِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(246/818)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الليل

وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3)

قوله : ﴿ وَمَا خَلَقَ ﴾ : يجوزُ في " ما " أَنْ تكونَ بمعنى " مَنْ " وهو رأيُ جماعةٍ تقدَّم

ذِكْرُهمْ في السورةِ قبلَها . وقيل: هي مصدريةٌ . وقال الزمخشري: " والقادرُ: العظيمُ القدرةِ الذي قَدَرَ على خَلْقِ الذكرِ والأنثى من ماءٍ واحدٍ " قلت: قد تقدَّم تقريرُ قولِه هذا وما اعْتُرِضَ به عليه، وما أُجيب عنه، في السورةِ قبلها . وقرأ أبو الدرداء " والذَّكرِ والأنثى " وقرأ عبد الله " والذي خَلَق " ، والكسائيُّ ونَقَلها ثعلبٌ عن بعض السَّلَف " وما خَلَقَ الذَّكَرِ " بجرِّ " الذكرِ " قال الزمخشري: " على أنه بدلٌ من محلِّ " ما خَلَقَ " بمعنى " وما خَلَقَه " أي: ومخلوقِ اللَّهِ الذكرِ، وجاز إضمارُ " الله " لأنه معلومٌ بانفرادِه بالخَلْق " . وقال الشيخ: " وقد يُخَرَّجُ على تَوَهُّم المصدرِ، أي: وخَلْقِ الذَّكرِ، كقوله:

4583 تَطُوفُ العُفاةُ بأبوابه . . . كما طاف بالبَيْعَةِ الراهبِ

بجرِّ " الراهب " على توهُّمِ النطقِ بالمصدر، أي: كطَوافِ الراهبِ " انتهى . والذي يَظْهَرُ في تخريجِ البيت أنَّ أصلَه " الراهبيّ " بياءِ النسَبِ، نسبةً إلى الصفةِ، ثم خُفِّف، وهو قليلٌ كقولِهم: أَحْمري ودَوَّاري، وهذا التخريجُ بعينِه في قولِ امرئ القيس:

4584 . . . . فَقُلْ في مَقيلِ نَحْسُه مُتَغَيِّبِ

استشهد به الكوفيون على تقديمِ الفاعلِ . وقرأ العامَّةُ ﴿ تجلى ﴾ فعلاً ماضياً، وفاعلُه ضميرٌ عائدٌ على النهار . وعبد الله بن عبيد بن عمير " تتجلى " بتاءَيْن، أي: الشمس . وقُرِئ " تُجْلي " بضمِّ التاءِ وسكونِ الجيم، أي: الشمسُ أيضاً، ولا بُدَّ من عائدٍ على

النهارِ محذوفٍ ، أي : تتجلى أو تُجْلِي فيه .

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4)

(247/818)

قوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ ﴾ : هذا جوابُ القسمِ . ويجوزُ أَنْ يكونَ محذوفاً ، كما قيل في نظائره المتقدمةِ .

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (5)

قوله : ﴿ أعطى ﴾ : حَذَفَ مفعولَيْ " أعطى " ومفعولَ " اتقى " ومفعولَ " صَدَّق " المجرور ب " على " ؛ لأنَّ الغرضَ ذِكْرُ هذه الأحداثِ دونَ متعلَّقاتها ، وكذلك مُتَعَلَّقا البخل والاستغناءِ . وقوله : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ للعسرى ﴾ إمَّا من بابِ المقابلةِ لقولِه : ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ لليسرى ﴾ ، وإمَّا لأنَّ تَيْسيره بمعنى نُهَيِّئُه ، والتهيئةُ تكونُ في اليُسْرِ والعُسْر .

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (11)

قوله : ﴿ وَمَا يُغْنِي ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ " ما " نفياً ، وأَنْ تكونَ استفهاماً إنكارياً .

قوله : ﴿ تردى ﴾ إمَّا من الهلاكِ ، أو مِنْ تردى بأكفانه ، وهو كنايةٌ عن الموت كقولِه :

4585 وخُطَّا بأَطْرافِ الأَسِنَّةِ مَضْجعي . . . ورُدَّا على عَيْنَيَّ فَضْلَ ردائيا

وقول الآخر :

4586 نَصيبُك مِمَّا تَجْمَعُ الدهرَ كلَّه . . . رِداءان تلوى فيهما وحَنُوطُ

فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (14)

قوله : ﴿ نَاراً تلظى ﴾ : قد تقدَّم في البقرة أن البزيِّ يُشَدِّد مثلَ التاء ، والتشديدُ فيها عَسِرٌ لالتقاءِ الساكنين فيها على غيرِ حَدِّهما ، وهو نظيرُ قولِه : ﴿ إِذْ تَّلَقَّوْنَهُ ﴾ [النور : 15] وقد تقدَّم . وقال أبو البقاء : يُقرأ بكسر التنوين وتشديد التاءِ ، وقد ذُكِرَ وَجْهُه عند ﴿ وَلاَ تَّيَمَّمُواْ الخبيث ﴾ [البقرة : 267] انتهى . وهذه قراءةٌ غريبةٌ ، ولكنها موافقةٌ للقياس من حيث إنه لم يلتقِ فيها ساكنان . وقوله : " وقد ذُكِر وجهُه الذي قاله في البقرة لا يُفيد هنا شيئاً البتة ، فإنه قال هناك : " ويُقْرأُ بتشديدِ التاءِ ، وقبلَه ألفٌ ، وهو جَمْعٌ بين ساكنَيْن ، وإنما سَوَّغَ ذلك المدُّ الذي في الألفِ " .

(248/818)

وقرأ ابن الزُّبير وسفيان وزيد بن علي وطلحة " تتلظى " بتاءَيْن وهو الأصلُ .

لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (15)

قوله : ﴿ إلاَّ الأشقى ﴾ : قيل : الأشقى والأتْقى بمعنى الشقيّ والتقيّ ولا تفضيلَ فيهما ؛

لأنَّ النارَ ليسَتْ مختصةً بالأكثرِ شقاءً ، وتجنُّبها ليس مختصاً بالأكثرِ تَقْوى . وقيل : بل هما على بابِهما ، وإليه ذهب الزمخشريُّ قال : " فإنْ قلتَ : كيف قال : " لا يَصْلاها إلاَّ الأشقى " ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى ﴾ وقد عُلِمَ أنَّ كلَّ شقيّ يَصْلاها ، وكلَّ تقيّ يُجَنَّبُها ، لا يَخْتَصُّ بالصَّلْي أشقى الأشقياءِ ، ولا بالنجاةِ أتقى الأتقياءِ ، وإنْ زَعَمْتَ أنه نكَّر النار فأراد ناراً بعينِها مخصوصةً بالأشقى ، فما تصنع بقولِه ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى ﴾ ؟ فقد عُلِمَ أنَّ أَفْسَقَ المسلمين يُجَنَّبُ تلك النارَ المخصوصةَ لا الأتقى منهم خاصة . قلت : الآية واردةٌ في لموازنةِ بين حالتَيْ عظيمٍ من المشركين وعظيمٍ من المؤمنين ، فأُرِيد أَنْ يُبالَغَ في صفتَيْهما المتناقضَتَيْن فقيل : الأشقَى ، وجُعِل مختصَّاً بالصَّلْي ، كأن النارَ لم تُخْلَقْ إلاَّ له . وقيل : الأتقى . وجُعل مختصَّاً بالنجاةِ ، كأنَّ الجنةَ لم تُخْلَقْ إلاَّ له . وقيل : هما أبو جهل أو أمية بن خلف وأبو بكر الصديق رضي الله عنه " انتهى . فآل جوابُه إلى أنَّ المرادَ بهما شخصان معيَّنان .

الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (18)

قوله : ﴿ يتزكى ﴾ : قرأ العامَّةُ ﴿ يتزكى ﴾ مضارعَ تَزَكَّى ، والحسن بن علي بن الحسن بن علي أمير المؤمنين يزكى بإدغامِ التاءِ في الزاي . وفي هذه الجملةِ وجهان ، أحدُهما : أنها في موضعِ الحالِ من فاعلِ " يُؤْتي " أي : يُؤتيه مُتَزَكِّياً به . والثاني : أنها لا موضعَ لها من الإِعراب ، على أنها بدلٌ مِنْ صلة " الذي " ذكرهما الزمخشري . وجعل الشيخُ متكلِّفاً .

وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (19)

قوله : ﴿ تجزى ﴾ : صفةٌ لنعمةٍ ، أي : تُجْزِي الإنسانَ ، وإنما جيء به مضارعاً مبنياً للمفعولِ لأجلِ الفواصل ؛ إذ الأصل يُجْزيها إياه أو يُجْزِيه إياها .

إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (20)

قوله : ﴿ إلاَّ ابتغآء ﴾ : في نصبه وجهان ، أحدهما : أنه مفعولٌ له . قال الزمخشري : " ويجوزُ أَنْ يكونَ مفعولاً له على المعنى ؛ لأنَّ المعنى : لا يُؤْتي مالَه إلاَّ ابتغاءَ وَجْهِ ربه لا لمكافأةِ نعمةٍ " وهذا أَخَذَه مِنْ قولِ الفَرَّاء فإنه قال : " ونَصِبَ على تأويل : ما أَعْطَيْتُكَ ابتغاءَ جزائِك ، بل ابتغاءَ وجهِ اللّهِ تعالى . والثاني : أنَّه منصوبٌ على الاستثناء المنقطع ، إذ لم يندَرِجْ تحت جنسِ " مِنْ نعمة " وهذه قراءة العامَّةِ ، أعني النصبَ والمدَّ . وقرأ يحيى برفعِه ممدوداً على البدل مِنْ محلِّ " مِنْ نعمة " لأنَّ محلَّها الرفعُ : إمَّا على الفاعليَّةِ ، وإمَّا على الابتداءِ ، و " مِنْ " مزيدةٌ في الوجهَيْن ، والبدلُ لغةُ تميمٍ ، لأنهم يُجْرُون المنقطعَ في غيرِ الإيجاب مجرى المتصل . وأنشد الزمخشريُّ بالوجهَيْن : النصبِ والبدلِ قولَ بشرِ بن أبي خازم :

4587- أَضْحَتْ خَلاءً قِفاراً أَنيسَ بها . . . إلاَّ الجآذِرُ والظِّلْمانُ تَخْتَلِفُ

وقولَ القائلِ في الرفع :

4588- وبَلْدَةٍ ليس بها أنيسُ . . . إلاَّ اليَعافيرُ وإلاَّ العِيْسُ

وقال مكي : " وأجاز الفراء الرفعَ في " ابتغاء " على البدل مِنْ موضع " نِعْمَةٍ " وهو بعيدٌ "

قلت : كأنَّه لم يَطَّلِعْ عليها ، قراءةً ، واستبعادُه هو البعيدُ ، فإنَّها لغةٌ فاشيةٌ . وقرأ ابنُ أبي عبلة " ابْتِغا " بالقصر .

وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21)

(250/818)

قوله : { وَلَسَوْفَ يرضى } : هذا جوابُ قَسَمٍ مضمرٍ . والعامَّةُ على " يرضى " مبنياً للفاعلِ . وقُرِئ ببنائِه للمفعول مِنْ أَرْضاه الله ، وهو قريبٌ مِنْ قولِه في آخر سورةِ طه { لَعَلَّكَ ترضى } و { ترضى } [طه : 130] . انتهى انتهى . ا هـ { الدر المصون حـ 11 صـ 27.33 }

(251/818)

فصل في منزلة الإرادة

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الإرادة

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام: 52] وقال تعالى: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ [الليل: 19-21] وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: 29] وقد أشكل على المتكلمين تعلق الإرادة بالله وكون وجهه تعالى مرادا قالوا : الإرادة لا تتعلق إلا بالحادث وأما بالقديم: فلا لأن القديم لا يراد وأولوا الإرادة المتعلقة به بإرادة التقرب إليه ثم إنه لا يتصور عندهم التقرب إليه فأولوا ذلك بإرادة طاعته الموجبة لجزائه هذا حاصل ما عندهم وحجابهم في هذا الباب: غليظ كثيف من أغلظ الحجب وأكثفها ولهذا تجدهم أهل قسوة ولا تجد عليهم روح السلوك ولا بهجة المحبة والطلب والإرادة عند أرباب السلوك: هي التجرد عن الإرادة فلا تصح عندهم الإرادة إلا لمن لا إرادة له ولا تظن أن هذا تناقض بل هو محض الحق واتفاق كلمة القوم عليه وقد تنوعت عبارات القوم عنها وغالبهم يخبر عنها بأنها ترك العادة ومعنى هذا : أن عادة الناس غالبا التعريج على أوطان الغفلة وإجابة داعي

الشهوة والإخلاد إلى أرض الطبيعة والمريد منسلخ عن ذلك فصار خروجه عنه: أمارة ودلالة على صحة الإرادة فسمي انسلاخه وتركه إرادة وقيل: نهوض القلب في طلب الحق

ويقال: لوعة تهون كل روعة قال الدقاقي: الإرادة لوعة في الفؤاد لذعة في القلب غرام في الضمير انزعاج في الباطن نيران تأجج في القلوب وقيل: من صفات المريد التحبب إلى الله بالنوافل والإخلاص في نصيحة الأمة والأنس بالخلوة والصبر على مقاساة الأحكام والإيثار لأمره والحياء من نظره وبذل المجهود في محبوبه والتعرض لكل سبب يوصل إليه والقناعة بالخمول وعدم قرار القلب حتى يصل إلى وليه ومعبوده وقال حاتم الأصم: إذا رأيت المريد يريد غير مراده فاعلم أنه أظهر نذالته وقيل: من حكم المريد: أن يكون نومه غلبة وأكله فاقة وكلامه ضرورة وقال بعضهم: نهاية الإرادة: أن تشير إلى الله فتجده مع الإشارة فقيل له: وابن تستوعبه الإشارة فقال: أن تجد الله بلا إشارة وهذا كلام متين فإن المراتب ثلاثة: أعلاها: أن يكون واجدا لله في كل وقت لا يتوقف وجوده له على الإشارة منه ولا من غيره الثاني: أن يكون له ملكة وحال وإرادة تامة بحيث إنه متى أشير له إلى الله وجده عند إشارة المشير الثالث: أن لا يكون كذلك ويتكلف وجدانه عند الإشارة إليه فالمرتبة

الأولى: للمقربين السابقين والوسطى: للأبرار المقتصدين والثالثة: للغافلين وقال أبو عثمان الحيري: من لم تصح إرادته ابتداء فإنه لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدبارا

(253/818)

وقال: المريد إذا سمع شيئا من علوم القوم فعمل به: صار حكمة في قلبه إلى آخر عمره ينتفع به وإذا تكلم انتفع به من سمعه ومن سمع شيئا من علومهم ولم يعمل به كان حكاية يحفظها أياما ثم ينساها وقال الواسطي: أول مقام المريد: إرادة الحق بإسقاط إرادته وقال يحيى بن معاذ: أشد شيء على المريد: معاشرة الأضداد وسئل الجنيد: ما للمريد حظ في مجازات الحكايات فقال: الحكايات جند من جند الله يثبت الله بها قلوب المريدين ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: 120] وقد ذكر عن الجنيد كلمتان في الإرادة مجملتان تحتاج كل منهما إلى تفسير الكلمة الواحدة: قال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت محمد بن مخلد يقول: سمعت جعفرا يقول: سمعت الجنيد يقول: المريد الصادق غني من العلماء وقال أيضا: سمعت الجنيد يقول: إذا أراد الله بالمريد خيرا: أوقعه إلى الصوفيه ومنعه صحبة القراء قلت: إذا صدق المريد وصح عقد صدقه مع الله: فتح الله على قلبه ببركة الصدق وحسن المعاملة مع الله: ما يغنيه عن العلوم التي هي

نتائج أفكار الناس وآرائهم وعن العلوم التي هي فضلة ليست من زاد القبر وعن كثير من إشارات الصوفية وعلومهم التي أفنوا فيها أعمارهم: من معرفة النفس وآفاتها وعيوبها ومعرفة مفسدات الأعمال وأحكام السلوك فإن حال صدقه وصحة طلبه: يريه ذلك كله بالفعل

ومثال ذلك: رجل قاعد في البلد يدأب ليله ونهاره في علم منازل الطريق وعقباتها وأوديتها ومواضع المتاهات فيها والموارد والمفاوز وآخر: حمله الوجد وصدق الإرادة على أن ركب الطريق وسار فيها فصدقه يغنيه عن علم ذلك القاعد ويريه إياها في سلوكه عيانا

وأما أن يغنيه صدق إرادته عن علم الحلال والحرام وأحكام الأمر والنهي ومعرفة العبادات وشروطها وواجباتها ومبطلاتها وعن علم أحكام الله ورسوله على ظاهره وباطنه: فقد أعاذ الله من هو دون الجنيد من ذلك فضلا عن سيد الطائفة وإمامها وإنما يقول ذلك قطاع الطريق وزنادقة الصوفية وملاحدتهم الذين لا يرون اتباع الرسول شرطا في الطريق وأيضا فإن المريد الصادق: يفتح الله على قلبه وينوره بنور من عنده مضاف إليها معه من نور العلم يعرف به كثيرا من أمر دينه فيستغني به عن كثير من علم الناس فإن العلم نور وقلب الصادق

ممتلىء بنور الصدق ومعه نور الإيمان والنور يهدي إلى النور والجنيد أخبر بهذا عن حاله وهذا أمر جزئي ليس على عمومه بل صدقه يغنيه عن كثير من العلم وأما عن جملة العلم: فكلام أبي القاسم الثابت عنه في ضرورة الصادق إلى العلم وأنه لا يفلح من لم يكن له علم وأن طريق القوم مقيدة بالعلم وأنه لا يحل لأحد أن يتكلم في الطريق إلا بالعلم فمشهور معروف قد ذكرنا فيما مضى طرفا منه كقوله: من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة وأيضا فإن علم العلماء الذين أشار إليهم: هو ما فهموه واستنبطوه من القرآن والسنة

والمريد الصادق: هو الذي قرأ القرآن وحفظ السنة والله يرزقه ببركة صدقه ونور قلبه فهما في كتابه وسنة رسوله يغنيه عن تقليد فهم غيره وأما قوله يعني الجنيد إذا أراد الله بالمريد خيرا: أوقعه على الصوفية ومنعه صحبة القراء فالقراء في لسانهم: هم أهل التنسك والتعبد سواء كانوا يقرءون القرآن أم لا فالقارىء عندهم: هو الكثير التعبد والتنسك الذي قد قصر همته على ظاهر العبادة دون أرواح المعارف ودون حقائق الإيمان وروح المحبة وأعمال القلوب فهمتهم كلها إلى العبادة ولا خبر عندهم مما عند أهل التصوف وأرباب

القلوب وأهل المعارف ولهذا قال من قال: طريقنا تفت لا تقسر فسير هؤلاء: بالقلوب والأرواح وسير أولئك: بمجرد القوالب والأشباح وبين أرواح هؤلاء وقلوبهم وأرواح هؤلاء وقلوبهم: نوع تناكر وتنافر ولا يقدر أحدهم على صحبة النوع الآخر إلا على نوع إغضاء وتحميل للطبيعة ما تأباه وهو من جنس ما بينهم وبين ظاهرية الفقهاء من التنافر ويسمونهم: أصحاب الرسوم ويسمون أولئك: القراء والطائفتان عندهم: أهل ظواهر لا أرباب حقائق هؤلاء مع رسوم العلم وهؤلاء مع رسوم العبادة ثم إنهم في أنفسهم فريقان: صوفية وفقراء وهم متنازعون في ترجيح الصوفية على الفقراء أو بالعكس أو هما سواء على ثلاثة أقوال فطائفة رجحت الصوفي منهم كثير من أهل العراق وعلى هذا صاحب العوارف وجعلوا نهاية الفقير: بداية الصوفي وطائفة رجحت الفقير وجعلوا الفقر لب التصوف وثمرته وهم كثير من أهل خراسان

وطائفة ثالثة قالوا: الفقر والتصوف شيء واحد وهؤلاء هم أهل الشام ولا يستقيم الحكم بين هؤلاء وهؤلاء حتى تتبين حقيقة الفقر والتصوف وحينئذ يعلم: هل هما حقيقة واحدة أو حقيقتان ويعلم راجحهما من مرجوحهما وسترى ذلك مبينا إن شاء الله في منزلتي الفقر

والتصوف إذا انتهينا إليهما إن ساعد الله ومن بفضله وتوفيقه فلا حول ولا قوة إلا بالله وبه المستعان وعليه التكلان وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن والمقصود: أن المراتب عندهم ثلاثة: مرتبة التقوى وهي مرتبة التعبد والتنسك ومرتبة التصوف وهي مرتبة التفتي بكل خلق حسن والخروج من كل خلق ذميم ومرتبة الفقر وهي مرتبة التجرد وقطع كل علاقة تحول بين القلب وبين الله تعالى فهذه مراتب طلاب الآخرة ومن عداهم: فمع القاعدين المتخلفين فأشار أبو القاسم الجنيد إلى أن المريد لله بصدق إذا أراد الله به خيرا: أوقعه على طائفة الصوفية يهذبون أخلاقه ويدلونه على تزكية نفسه وإزالة أخلاقها الذميمة والاستبدال بالأخلاق الحميدة ويعرفونه منازل الطريق ومفازاتها وقواطعها وآفاتها وأما القراء: فيدقونه بالعبادة من الصوم والصلاة دقا ولا يذيقونه شيئا من حلاوة أعمال القلوب وتهذيب النفوس إذ ليس ذلك طريقهم ولهذا بينهم وبين أرباب التصوف نوع تنافر كما تقدم

والبصير الصادق: يضرب في كل غنيمة بسهم ويعاشر كل طائفة على أحسن ما معها ولا يتحيز إلى طائفة وينأى عن الأخرى بالكلية: أن لا يكون معها شيء من الحق فهذه طريقة الصادقين ودعوى الجاهلية كامنة في النفوس ولا أعني بذلك أصغريهم ولكني أريد به الدوينا

سمع النبي صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته قائلا يقول: "يا للمهاجرين" وآخر يقول: "يا للأنصار" ! فقال: "ما بال دعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم" هذا وهما اسمان شريفان سماهم الله بهما في كتابه فنهاهم عن ذلك وأرشدهم إلى أن يتداعوا ب المسلمين و المؤمنين و عباد الله وهي الدعوى الجامعة بخلاف المفرقة ك الفلانية و الفلانية فالله المستعان وقال لأبي ذر: "إنك امروء فيك جاهلية" فقال: على كبر السن مني يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نعم فمن يأمن القراء بعدك يا شهر ولا يذوق العبد حلاوة الإيمان وطعم الصدق واليقين حتى تخرج الجاهلية كلها من قلبه والله لو تحقق الناس في هذا الزمان ذلك من قلب رجل لرموه عن قوس واحدة وقالوا: هذا مبتدع ومن دعاة البدع فإلى الله المشتكى وهو المسئول الصبر والثبات فلابد من لقائه ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ [طه: 61]

﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: 227]

(258/818)

فصل قال صاحب المنازل رحمه الله: باب الإرادة: قال الله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ [الإسراء: 84] في تصديره الباب بهذه الآية دلالة على عظم قدره وجلالة محله من هذا العلم فإن معنى الآية: كل يعمل على ما يشاكله ويناسبه ويليق به فالفاجر يعمل

على ما يليق به وكذلك الكافر والمنافق ومريد الدنيا وجيفتها : عامل على ما يناسبه ولا يليق به سواه ومحب الصور: عامل على ما يناسبه ويليق به فكل امرىء يهفو إلى ما يحبه وكل امرىء يصبو إلى ما يناسبه فالمريد الصادق المحب لله: يعمل ما هو اللائق به والمناسب له فهو يعمل على شاكلة إرادته وما هو الأليق به والأنسب لها قال: الإرادة: من قوانين هذا العلم وجوامع أبنيته وهي الإجابة لدواعي الحقيقة طوعا أو كرها يريد : أن هذا العلم مبني على الإرادة فهي أساسه ومجمع بنائه وهو مشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة وهي حركة القلب ولهذا سمي علم الباطن كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ولهذا سموه علم الظاهر فها تان حركتان اختياريتان وللعبد حركة طبيعية اضطرارية فالعلم المشتمل على تفاصيلها وأحكامها : هو علم الطب فهذه العلوم الثلاثة: هي الكفيلة بمعرفة حركات النفس والقلب وحركات اللسان والجوارح وحركات الطبيعة فالطبيب: ينظر في تلك الحركات من جهة تأثر البدن عنها صحة واعتلالا وفي لوازم ذلك ومتعلقاته

والفقيه: ينظر في تلك الحركات من جهة موافقتها لأمر الشرع ونهيه وإذنه وكراهته ومتعلقات ذلك

والصوفي: ينظر في تلك الحركات من جهة كونها موصلة له إلى مراده أو قاطعة عنه ومفسدة لقلبه أو مصححة له وأما قوله: وهي الإجابة لداعي الحقيقة ف الإجابة هي الانقياد

والإذعان و الحقيقة عندهم: مشاهدة الربوبية و الشريعة التزام العبودية فالشريعة: أن تعبده والحقيقة: أن تشهده فالشريعة: قيامك بأمره والحقيقة: شهودك لوصفه وداعي الحقيقة: هو صحة المعرفة فإن من عرف الله أحبه ولا بد

(259/818)

ولابد في هذه الإجابة من ثلاثة أشياء: نفس مستعدة قابلة لا تعوز إلا الداعي ودعوة مستمعة وتخلية الطريق من المانع فما انقطع من انقطع إلا من جهة من هذه الجهات الثلاث وقوله: طوعا أو كرها يشير إلى المجذوب المختطف من نفسه والسالك إرادة واختيارا ومجاهدة قال: وهي على ثلاث درجات الدرجة الأولى: ذهاب عن العادات بصحة العلم والتعلق بأنفاس السالكين مع صدق القصد وخلع كل شاغل من الإخوان ومشتت من الأوطان هذا يوافق من حد الإرادة بأنها: مخالفة العادة وهي ترك عوائد النفس وشهواتها ورعوناتها وبطالاتها ولا يمكن ذلك إلا بهذه الأشياء التي أشار إليها وهي: صحبة العلم ومعانقته فإنه النور الذي يعرف العبد مواقع ما ينبغي إيثار طلبه وما ينبغي إيثار تركه فمن لم يصحبه العلم: لم تصح له إرادة باتفاق كلمة الصادقين ولا عبرة بقطاع الطريق وقال بعضهم: متى رأيت الصوفي والفقير يقدح في العلم فاتهمه على الإسلام

ومنها : التعلق بأنفاس السالكين ولا ريب أن كل من تعلق بأنفاس قوم انخرط في مسلكهم ودخل في جماعتهم وقال: أنفاس السالكين ولم يقل: أنفاس العابدين فإن العابدين من شأنهم القيام بالأعمال وشأن السالكين مراعاة الأحوال وقوله: مع صدق القصد يكون بأمرين أحدهما : توحيده والثاني: توحيد المقصود فلا يقع في قصدك قسمة ولا في مقصودك وقوله: وخلع كل شاغل من الإخوان: ومشتت من الأوطان يشير إلى ترك الموانع والقواطع العائقة عن السلوك: من صحبة الأغيار والتعلق بالأوطان التي ألف فيها البطالة والنذالة فليس على المريد الصادق أضر من عشرائه ووطنه القاطعين له عن سيره إلى الله تعالى فليغترب عنهم بجهده والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل قال: الدرجة الثانية: تقطع بصحبة الحال وترويح الأنس والسير

بين القبض والبسط أي ينقطع إلى صحبة الحال وهو الوارد الذي يرد على القلب من تأثيره بالمعاملة السالب لوصف الكسل والفتور الجالب له إلى مرافقة الرفيق الأعلى الذين أنعم الله عليهم فينتقل من مقام العلم إلى مقام الكشف ومن مقام رسوم الأعمال إلى مقام حقائقها وأذواقها ومواجيدها وأحوالها فيترقى من الإسلام إلى الإيمان ومن الإيمان إلى الإحسان

وأما ترويح الأنس الذي أشار إليه: فإن السالك في أول الأمر يجد تعب التكاليف ومشقة العمل لعدم أنس قلبه بمعبوده فإذا حصل للقلب روح الأنس زالت عنه تلك التكاليف والمشاق فصارت قرة عين له وقوة ولذة

فتصير الصلاة قرة عينه بعد أن كانت عملا عليه ويستريح بها بعد أن كان يطلب الراحة منها فله ميراث من قوله أرحنا بالصلاة يا بلال وجعلت قرة عيني في الصلاة بحسب إرادته ومحبته وأنسه بالله سبحانه وتعالى ووحشته مما سواه وأما السير بين القبض والبسط ف

القبض و البسط حالتان تعرضان لكل سالك يتولدان من الخوف تارة والرجاء تارة فيقبضه الخوف ويبسطه الرجاء

ويتولدان من الوفاء تارة والجفاء تارة فوفاؤه: يورثه البسط ورجاؤه يورثه القبض

ويتولدان من التفرقة تارة والجمعية تارة فتفرقته تورثه القبض وجمعيته تورثه البسط

ويتولدان من أحكام الوارد تارة فوارد يورث قبضا ووارد يورث بسطا وقد يهجم على قلب السالك قبض لا يدري ما سببه وبسط لا يدري ما سببه وحكم صاحب هذا القبض: أمران

الأول: التوبة والاستغفار لأن ذلك القبض نتيجة جناية أو جفوة ولا يشعر بها

والثاني: الاستسلام حتى يمضي عنه ذلك الوقت ولا يتكلف دفعه ولا يستقبل وقته مغالبة وقهرا ولا يطلب طلوع الفجر في وسط الليل وليرقد حتى يمضي عامة الليل ويحين طلوع الفجر وانقشاع ظلمة الليل بل يصبر حتى يهجم عليه الملك فالله يقبض ويبسط وكذلك إذا هجم عليه وارد البسط: فليحذر كل الحذر من الحركة والاهتزاز وليحرزه بالسكون والانكماش فالعاقل يقف على البساط ويحذر من الانبساط وهذا شأن عقلاء أهل الدنيا ورؤسائهم: إذا ما ورد عليهم ما يسرهم ويبسطهم

ويهيج أفراحهم قابلوه بالسكون والثبات والاستقرار حتى كأنه لم يهجم عليهم وقال كعب بن زهير في مدح المهاجرين:

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم قوما . . . وليسوا مجازيعا إذا نيلوا

قال الدرجة الثالثة: ذهول مع صحبة الاستقامة وملازمة الرعاية على تهذيب الأدب

الذهول ههنا: الغيبة في المشاهدة بالحال الغالب المذهل لصاحبه عن التفاته إلى غيره وهذا إنما ينفع إذا كان مصحوبا بالإستقامة وهي حفظ حدود العلم والوقوف معها وعدم إضاعتها وإلا فأحسن أحوال هذا الذاهل: أن يكون كالمجنون الذي رفع عنه القلم فلا يقتدى به ولا يعاقب على تركه الاستقامة وأما إن كان سبب الذهول المخرج عن الإستقامة باستدعائه وتكلفه وإرادته: فهو عاص مفرط مضيع لأمر الله له حكم أمثاله من

المفرطين وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: متى كان السبب محظورا لم يكن السكران معذورا وقوله: وملازمة الرعاية على تهذيب الأدب

يريد به: ملازمته رعاية حقوق الله مع التأدب بآدابه فلا يخرجه ذهول عن استقامته ولا عن رعاية حقوق سيده ولا عن الوقوف بالأدب بين يديه والله المستعان. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ مدارج السالكين جـ 2 صـ 364. 375 ﴾

(262/818)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الليل

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

"بسم الله" تخبر عن إلهية الله ، وهي استحقاقه لنعوت المجد والتوحد ، وصفات العز والتفرد ، فمن تجرد في طلبه عن الكسل ، ولم يستوطن مركب العجز والفشل ، ووضع النظر موضعه وصل بدليل العقل إلى عرفانه ومن بذل روحه ونفسه شهود سلطانته ، والناس فيه بين موفق ومخذول ، أو مؤيد ومردود .

قوله جل ذكره : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ .

يغشى الأفقَ ، وما بين السماء والأرض فيستره بظُلْمتِه .

والليلِ لأصحاب التحيُّر يستغرق جميعَ أقطار أفكارهم فلا يهتدون الرشد .

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ .

أنار وَظَهرَ ، ووَضح وأسفر .

ونهارُ أهلِ العرفان بضياء قلوبهم وأسرارهم ، حتى لا يَخْفَى عليهم شيءٌ ، فسكنوا بطلوعِ الشمس عن تكلُّف إيقاد السراجِ .

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ﴾ .

أي : " من " خلَقَ الذكر والأنثى ؛ وهو الله سبحانه :

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ .

هذا جوابُ القَسَم ، والمعنى : إنّ عملكم لمختلف ؛ فمنكم : مَنْ سَعْيُه في طلب دنياه ، ومنكم مَنْ سعيهُ في شهواتِ نَفْسِه واتباع هواه ، ومنكم مَنْ سعيهُ في شهواتِ ، ومنكم مَنْ في طَلَب جاهِه ومُناه ، وآخر في طلب عقباه ، وآخر في تصحيح تقواه ، وآخر في تصفية ذكراه ، وآخر في القيام بحُسْنِ رضاه ، وآخر في طلب مولاه .

ومنكم : من يجمع بين سعي النّفْس بالطاعة ، وسَعْي القلب بالإخلاص ، وسعي البَدَن بالقُرَب ، وسعي اللسان بذكر الله ، والقول الحَسَنِ للناس ، ودعاء الخَلْقِ إلى الله والنصيحة

لهم.

ومنهم مَنْ سعيُه في هلاكِ نَفْسِه وما فيه هلاكُ دنياه.. ومنهم.. ومنهم.

قوله جل ذكره: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى ﴾ من مالِه، ﴿ وَاتَّقَى ﴾ مخالفةَ ربِّه..

(263/818)

ويقال: ﴿ أعطى ﴾ الإنصافَ من نَفْسِه، ﴿ وَاتَّقَى ﴾ طَلَبَ الإنصافِ لنفسِه...

ويقال: "اتقى" مساخِطَ الله. ﴿ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴾: بالجنة، أو بالكرَّةِ الآخرة، وبالمغفرةِ لأهل الكبائر، وبالشفاعة من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبالخَلَفِ من قِبَلِ الله... فسَنُيَسِّرُه لليُسْرَى: أي نُسَهِّلُ عليه الطاعاتِ، ونُكَرِّهُ إليه المخالفاتِ، ونُشَهِّي إليه القُرَبَ، ونُحبِّبُ إليه الإيمان، ونُزَيِّنُ في قلبه الإحسان.

ويقال: الإقامة على طاعته والعود إلى ما عمله من عبادته.

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾.

أما من مَنَعَ الواجبَ، واستغنى في اعتقاده، وكَذَّبَ بالحسنى: أي بما ذَكَرْنا، فسينسره للعسرى؛ فيقع في المعصية ولم يُدَبِّرْها، ونوفق له أسبابَ المخالفة.

ويقال: "أعطى" أعْرَضَ عن الدارين، "واتَّقى" أن يجعل لهما في نفسه مقداراً.

قوله جل ذكره: ﴿ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾.

يعني: إذا مات.. فما الذين يغني عنه ماله بعد موته؟

قوله جل ذكره: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾.

لأوليائنا، الذين أرشدناهم. ويقال: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ بنصيب الدلائل.

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلأَخِرَةَ وَالأُولَى ﴾.

مُلْكاً، نعطيه من نشاء.

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى ﴾.

أي: تتلظَّى.

﴿ لاَ يَصْلاَهَا إِلاَّ الأَشْقَى ﴾.

أي: لا يُعذَّبُ بها إلاَّ الأشقى، وهو:

﴿ الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾.

يعني: كَفَرَ.

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾.

يُعْطي الزكاة المفروضة.

ويقال يَتَطَهَّر من الذنوب.

ونزلت الآية في أبي بكر رضي الله عنه، والآية عامة.

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ .

(264/818)

حتى تكون هذه مكافأة له. ولا يفعل هذا لِيَتَّخِذَ عند أحدٍ يَداً، ولا يطلب منه مكافأةٍ:

﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴾ .

أي: ليتقرَّبَ بها إلى الله.

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ .

يَرْضَى اللَّهُ عنه، ويرضى هو بما يعطيه. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 738.735﴾

(265/818)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة:

سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى (1) وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى (2) وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4)

الإعراب :

(والليل) متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (إذا) ظرف بمعنى حين مجرّد من الشرط في محلّ نصب متعلّق بـ (أقسم) في الموضعين (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، وفاعل (خلق) ضمير مستتر تقديره هو أي اللّه (اللام) لام القسم عوض من المزحلقة .

---

(1) أو هو موصول استعمل للعاقل بمعنى من أي اللّه في محلّ جرّ معطوف على الليل .

(266/818)

جملة : " (أقسم) بالليل . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " يغشى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تجلّى . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

والمصدر المؤوّل (ما خلق . . .) في محلّ جرّ معطوف على المقسم به الليل .

وجملة : " إنّ سعيكم لشتّى " لا محلّ لها جواب القسم .

الفوائد

تناسق وانسجام :

(267/818)

من بديع ما في كتاب اللّه عز وجل تناسقه وانسجامه بصورة رائعة متناهية في الروعة والجمال ، ومن أمثلة ذلك ما ورد في هذه السورة الكريمة ، حيث تناسق إطار السورة مع مضمونها ، فجاء الإطار متناسقا متوافقا مع معاني السورة وأفكارها ، فالسورة تفتتح بقوله تعالى (وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى . وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى) فهما صورتان متعاكستان : صورة الليل عند ما يستر بظلامه ، وصورة النهار عند ما يتجلى وينكشف لذي عينين لذا فقد جاء موضوع السورة متناسقا منسجما مع هذا المطلع الرائع ، فقوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى) فإنها توافق صورة النهار بضيائه وإشراقه وجماله ، وأما قوله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى) فتوافق صورة الليل بظلامه وسواده ، ومن هنا نلاحظ أسرار كتاب اللّه عز وجل التي لا تنفد أبدا ، كما نلاحظ الروابط التي تمسك بآياته بحالة من التآلف البديع والانسجام الرائع .

[سورة الليل (92) : الآيات 5 إلى 11]

فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى (9)

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى (10) وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى (11)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (من) موصول في محلّ رفع مبتدأ (الواو) عاطفة في الموضعين (بالحسنى) متعلّق ب (صدّق) ، (الفاء) رابطة لجواب أمّا (السين) للاستقبال (لليسرى) متعلّق ب (نيسّر) .

جملة : " من أعطى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أعطى . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " اتّقى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " صدّق . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة: "سنيسّره... " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) "1".

8 - 11 (الواو) عاطفة (أمّا من بخل... للعسرى) مثل السابقة (ما) نافية "2"، (عنه) متعلّق بـ (يغني)، (إذا) ظرف في محلّ نصب متضمّن معنى الشرط متعلّق بالجواب المقدّر..

وجملة: "يغني... " في محلّ رفع معطوفة على جملة سنيسّره للعسرى.

وجملة: "تردّى... " في محلّ جرّ مضاف إليه.. وجواب الشرط محذوف تقديره ما يغني عنه ماله.

---

(1) أصل التركيب: مهما يكن الأمر فمن أعطى.. فسنيسّره، وحذفت الفاء الثانية تخفيفا.

(2) أو اسم استفهام مبتدأ خبره جملة يغني.

الصرف:

(10) العسرى: اسم بمعنى الضيق والشدّة، أو اسم تفضيل مؤنّث الأعسر ضد اليسرى وزنه فعلى بضمّ فسكون.

(11) تردّى: فيه إعلال بالقلب، أصله تردّي - بياء في آخره - تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا.

[سورة الليل (92): الآيات 12 إلى 18]

إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (12) وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (14) لا يَصْلاها إِلاَّ الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16)

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى (18)

الإعراب:

(علينا) متعلّق بخبر إنّ (اللام) للتوكيد (الهدى) اسم إنّ منصوب (إنّ لنا للآخرة) مثل إنّ علينا للهدى (الفاء) عاطفة (نارا) مفعول به ثان منصوب (تلظّى) مضارع محذوف منه إحدى التاءين (لا) نافية (إلّا) للحصر.

جملة: "إنّ علينا للهدى" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "إنّ لنا للآخرة" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "أنذرتكم..." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "تلظّى..." في محلّ نصب نعت لـ (نارا).

وجملة: "لا يصلاها إلّا الأشقى" في محلّ نصب نعت ثان لـ (نارا) "1".

16 - 18 (الذي) في محلّ رفع نعت للأشقى "2"، والثاني نعت للأتقى "3"، (ماله)

مفعول أول أو ثان منصوب والآخر مقدّر .

---

(1) أو في محلّ نصب حال من (نارا) لتخصّصه بالوصف .

(2 ، 3) أو خبر لمبتدأ محذوف . . أو مفعول به لفعل محذوف تقديره أعني .

وجملة : "كذّب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الأول .

وجملة : " تولّى " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " سيجنّبها الأتقى . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة لا يصلاها . . .

وجملة : " يؤتي ماله . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " يتزكّى . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يؤتي " 1 " .

الصرف :

(14) تلظّى ، فيه حذف إحدى التاءين أصله تتلظّى . . وفيه إعلال بالقلب ، قلبت الياء - لام الكلمة - ألفا لأنها متحرّكة بعد فتح .

(17) الأتقى : فيه إعلال بالقلب قياسه كفعل تلظّى .

[سورة الليل (92) : الآيات 19 إلى 21]

وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (19) إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضى (21)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة - أو حاليّة - (ما) نافية (لأحد) متعلّق بخبر مقدّم (عنده) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف حال من نعمة "2"، (نعمة) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (إلّا) للاستثناء "3"، (ابتغاء) منصوب على الاستثناء المنقطع "4"، (الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (سوف) للاستقبال، وفاعل (يرضى) ضمير يعود على الأتقى "5"..

---

(1) أو هي بدل من جملة يؤتي لا محلّ لها.

(2) أو متعلّق بـ (تجزى).

(3) أو بمعنى لكن..

(4) أو مفعول لأجله، والعامل مقدّر وإلّا بمعنى لكن، أي: لكن فعل ذلك ابتغاء وجه ربّه ...

(5) وكذلك الضمائر في (ماله، عنده، ربّه)، وقيل نزلت هذه الآيات في حقّ أبي بكر رضي اللّه عنه لمّا أعتق بلالا.

جملة: " ما لأحد . . . من نعمة " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة: " تجزى . . . " في محلّ رفع نعت لنعمة.

وجملة: " سوف يرضى . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر . . . وجملة القسم المقدّرة

لا محلّ لها استئنافيّة. انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 345.350 ﴾

(1) أو في محلّ نصب حال.

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(92) سورة اللّيل

مكيّة وآياتها احدى وعشرون

[سورة الليل (92) : الآيات 1 إلى 21]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى (1) وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى (2) وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4)

فَأَمَّا مَنْ أَعْطى وَاتَّقى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنى (9)

فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرى (10) وَما يُغْنِي عَنْهُ مالُهُ إِذا تَرَدَّى (11) إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى (12) وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى (13) فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى (14)

لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى (15) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (16) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (17) الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى (18) وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى (19)

إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى (20) وَلَسَوْفَ يَرْضى (21)

الإعراب:

(وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى وَالنَّهارِ إِذا تَجَلَّى وَما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

الواو حرف قسم وجر والليل مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بمحذوف تقديره أقسم وإذا ظرف لمجرد الظرفية المجردة عن الشرط وهو متعلق بفعل القسم وقد تقدم

البحث فيه ، وجملة يغشى في محل جر بإضافة الظرف إليها ، والنهار إذا تجلى عطف على الجملة السابقة ، وما خلق : ما مصدرية أو موصولة عطف على ما تقدم ، وإن سعيكم لشتى جواب القسم أقسم سبحانه على أن أعمال عباده شتى جمع شتيت وقيل للمختلف المتباين شتى لتباعد ما بين بعضه وبعضه والشتات الافتراق وفي المصباح " شت شتا من باب ضرب إذا تفرق والاسم الشتات وشيء شتيت وزان كريم متفرق وقوم شتى فعلى متفرقون وجاءوا أشتاتا كذلك وشتان ما بينهما أي بعد " وإن واسمها واللام المزحلقة وشتى خبر إن (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) الفاء استئنافية وأما حرف شرط وتفصيل ومن اسم موصول مبتدأ وجملة أعطى صلة واتقى عطف على أعطى وصدّق بالحسنى عطف أيضا ، فسنيسّره الفاء رابطة لجواب الشرط والسين للتسويف ونيسره فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ولليسرى متعلقان بنيسّره (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) عطف على ما تقدم مماثل له في إعرابه (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى) الواو عاطفة وما نافية ويجوز أن تكون استفهامية في معنى الإنكار في محل نصب مفعول مطلق ليغني أي أيّ إغناء يغني ، وبعضهم يعربها مفعولا مقدّما ويقدّر أي شيء يغني ، ويغني فعل مضارع مرفوع وعنه متعلقان بيغني وماله فاعل وإذا ظرف لمجرد الظرفية متعلق بيغني وجملة تردى في محل جر بإضافة الظرف إليها ، ولابن خالويه في تردى بحث لطيف قال : " تردّى فعل ماض والمصدر تردّى يتردّى

تردّيا فهو متردّ ومنه قوله تعالى والمتردية والنطيحة ، يقال : تردّى في بئر وفي أهوية وفي هلكة ، إذا

وقع فيها ويقال : ردي زيد يردى ردى إذا هلك وأرداه اللّه يرديه إرداء ويقال ردى الفرس يردي رديانا ، قال الأصمعي : سألت منتجع بن بنهان عن رديان الفرس فقال : هو عدوه بن آريّه ومتمعّكه الآري الآخيّة أي المعلف والمتمعّك الموضع الذي يتمرغ فيه والآري وزنه فاعول سمى بذلك لحبسه الدابة ، يقال : تأريت بالمكان إذا لزمته وتحبست به " وقال المبرد : " قيل فيه قولان : أحدهما إذا تردى في النار والآخر إذا مات وهل تفعّل من الردى " (إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى) كلام مستأنف مسوق لإخبارهم بأن عليه سبحانه بمقتضى حكمته بيان الهدى من الضلال . وإن حرف مشبّه بالفعل وعلينا خبرها المقدّم واللام للتأكيد والهدى اسم إن المؤخر (وَإِنَّ لَنا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولى) الواو عاطفة وما بعدها عطف على ما تقدم مماثل له في الإعراب (فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى) الفاء عاطفة على مقدّر أي فمن طلب الدنيا والآخرة من غير مالكهما الحقيقي وهو اللّه فقد أخطأ الطريق وضلّ سواء السبيل ، وأنذرتكم فعل ماض وفاعل ومفعول به ونارا مفعول به ثان وجملة

تلظى نعت لنارا وتلظى فعل مضارع والأصل تتلظى ، وعبارة ابن خالويه جيدة وهي : " تلظى فعل مضارع والأصل تتلظى وقد قرأ ابن مسعود بذلك وقرأ ابن كثير :

نارا تّلظى بإدغام التاء يريد نارا تتلظى ولو كان تلظى فعلا ماضيا لقيل تلظت لأن النار مؤنثة والمصدر تلظّت تتلظى تلظّيا فهي متلظية ويقال في أسماء جهنم سقر وجهنم والجحيم ولظى نعوذ باللّه منها وهذه الأسماء معارف لا تنصرف للتأنيث والمعرفة " (لا يَصْلاها إِلَّا الْأَشْقَى) لا نافية ويصلاها فعل مضارع مرفوع والهاء مفعول به وإلا أداة حصر والأشقى فاعل يصلاها (الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى) الذي نعت للأشقى وجملة كذب لا محل لها لأنها صلة وتولى عطف على كذب داخل في حيز الصلة (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مالَهُ يَتَزَكَّى) الواو عاطفة والسين حرف استقبال جيء به للتأكيد ويجنبها فعل مضارع مرفوع ومفعول به والأتقى فاعل والذي نعت وجملة يؤتي صلة وماله مفعول به ويتزكى فعل مضارع وفاعله مستتر والجملة إما بدل من يؤتي فتكون لا محل لها لأنها داخلة في حيز صلة الذي وإما حال من فاعل يؤتي أي متزكيا به عند اللّه (وَما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزى إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى) الواو حرف عطف وما نافية ولأحد الجار والمجرور متعلقان بمحذوف

خبر مقدّم وعنده ظرف متعلق بمحذوف حال ومن حرف جر زائد ونعمة مجرور بمن لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ وإلا أداة استثناء بمعنى لكن وابتغاء مستثنى من غير الجنس لأنه منقطع لأن ابتغاء وجه ربه ليس من جنس النعمة أي ما لأحد عنده نعمة إلا ابتغاء وجه ربه والأحسن أن يعرب ابتغاء مفعولا لأجله لأن المعنى لا يؤتي ماله إلا لابتغاء وجه ربه لا لمكافأة نعمة وقرىء ابتغاء بالرفع على لغة من يقول ما في الدار أحد إلا حمار فتكون بدلا من محل من نعمة ، قال :

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

وقال بشر بن أبي حازم :

أضحت خلاء قفارا لا أنيس بها إلا الجآذر والظلمان تختلف

(276/818)

و سيأتي تفصيل هذه القاعدة في باب الفوائد (وَلَسَوْفَ يَرْضى) الواو عاطفة واللام جواب قسم مضمر أي والله لسوف يرضى ، وسوف حرف تسويف ويرضى فعل مضارع وفاعله هو يعود على أبي بكر الذي نزلت فيه الآية لما اشترى بلالا المعذب على إيمانه من سيده أمية بن خلف وأعتقه فقال الكفار إنما فعل ذلك ليد كانت له عنده .

الفوائد :

إذا كان الاستثناء منقطعا وهو ما لا يكون المستثنى بعض المستثنى منه بشرط أن يكون ما قبل " إلا " دالّا على ما يستثنى فإن لم

يمكن تسليط العامل على المستثنى وجب النصب في المستثنى اتفاقا نحو ما زاد هذا المال إلا ما نقص ، فما مصدرية ونقص صلتها وموضعهما نصب على الاستثناء ، ولا يجوز رفعه على الإبدال من الفاعل لأنه لا يصحّ تسليط العامل عليه إذ لا يقال زاد النقص ، ومثله ما نفع زيد إلا ما ضرّ إذ لا يقال ما نفع الضرّ وإن أمكن تسليطه على المستثنى نحو ما قام القوم إلا حمارا إذ يصحّ أن يقال قام حمار فالحجازيون يوجبون النصب لأنه لا يصحّ فيه الإبدال حقيقة من جهة أن المستثنى ليس من جنس المستثنى منه وعليه قراءة السبعة : ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وتميم ترجحه وتجيز الاتباع ويقرءون إلا اتباع الظن بالرفع على أنه بدل من العلم باعتبار الموضع ومنه قول جران العود عامر بن الحارث :

وبلدة ليس بها أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

فأبدل اليعافير والعيس من الأنيس، وإلا الثانية مؤكدة للأولى واليعافير جمع يعفور وهو ولد البقرة الوحشية والعيس بكسر العين جمع عيساء كالبيض جمع بيضاء وهي الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة، وذكر سيبويه في توجيه الرفع وجهين: أحدهما أنهم حملوا ذلك على المعنى لأن المقصود هو المستثنى فالقائل ما في الدار أحد إلا حمار المعنى فيه ما في الدار إلا حمار وصار ذكر أحد توكيد ليعلم أنه ليس ثم آدمي ثم أبدل من أحد ما كان مقصوده من ذكر الحمار، الوجه الثاني أنه جعل الحمار إنسان الدار أي الذي يقوم مقامه في الإنس.

وقال ابن يعيش: " ومن الاستثناء المنقطع قوله تعالى: وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى وبنو تميم يقرءونها بالرفع ويجعلون ابتغاء وجهه سبحانه نعمة لهم عنده ". انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 501. 505﴾

(278/818)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع عشر بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/819)

الجزء التاسع عشر بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الضحى)

(4/819)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الضحى)

(5/819)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الضحى

مقصودها الدلالة على آخر الليل بأن أتقى الأتقياء الذي هو الأتقى على الإطلاق في عين الرضا دائما ، لا ينفك عنه في الدنيا والآخرة ، لما تحلى به من صفات الكمال التي هي الإيصال للمقصود بما لها من النور المعنوي كالضحى بما له من النور الحسي الذي هو أشرف ما في النهار وقد علم بهذا أن اسمها أدل ما فيها على مقصودها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 452 ﴾

(6/819)

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والضحى)

السّورة مكّيّة .

وآياتها إِحدى عشرة .

وكلماتها أَربعون .

وحروفها مائة واثنتان وسبعون .

وفواصلها على (ثرا) .

سمّيت (والضُّحى﴾ ، لمفتتحها .

معظم مقصود السّورة : بيان ما للرّسول صلَّى الله عليه وسلَّم : من الشرف والمنقَبَة ، ووعده فى القيامة بالشفاعة ، وذكر أَنواع الكرامة له ، والمِنَّة ، وصيانة الفقر واليُتْم من بين الحرمان والمذلَّة ، والأَمر بشكر النِّعمة فى قوله ، ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

فضل السّورة

فيه الحديث الضعيف عن أُبىّ : مَن قرأَها كان فيمن أَوصى الله - تعالى - بأَن يشفع له ، وعشر حسنات تكتب له بعدد كلّ يتيم وسائل ؛ وحديث على : يا علىّ مَنْ قرأَها أَعطاه

الله ثواب النبيّين ، وله بكل آية قرأها ثوابُ المتصدّق .

من المتشابه :

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ كُرّر ثلاث مرّات ؛ لأَنَّها وقعت فى مقابلة ثلاث آيات أَيضاً .

وهى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَى * فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ واذكر يتمك ﴿ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ واذكر فقرك ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ النبوّة والإِسلام ﴿ فَحَدِّثْ ﴾ واذكر ضلالك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 525 ﴾

(7/819)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الضحى

سميت هذه السورة في أكثر المصاحف وفي كثير من كتب التفسير وفي (جامع الترمذي) (سورة الضحى) بدون واو .

وسميت في كثير من التفاسير وفي (صحيح البخاري) (سورة والضحى) بإثبات الواو .

ولما يبلغنا عن الصحابة خبر صحيح في تسميتها .

وهي مكية بالاتفاق .

وسبب نزولها ما ثبت في (الصحيحين) يزيد أحدهما على الآخر عن الأسود بن قيس عن جندب بن سفيان البَجَلي قال : (دَمِيَتْ إصبعُ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاشتكى فلم يقُم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة (وهي أم جميل بنت حرب زوج أبي لهب كما في رواية عن ابن عباس ذكرها ابن عطية) فقالت : يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أرَهُ قَرِبَك منذ ليلتين أو ثلاثٍ . فأنزل الله : (والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ((الضحى : 31) .

وروى الترمذي عن ابن عيينة عن الأسود عن جندب البَجَلي قال : (كنت مع النبي (صلى الله عليه وسلم) في غار فدميت إصبعه فقال : (هل أنتِ إلا إصْبَعٌ دمِيتِ . وفي سبيل الله ما لَقيتِ) . قال فأبطأ عليه جبريل ، فقال المشركون : قد وُدِّعَ محمد فأنزل الله تعالى : . وقال : حديث حسن صحيح .

ويظهر أن قول أم جميل لم يسمعه جندب لأن جندباً كان من صغار الصحابة وكان يروي عن أبي بن كعب وعن حذيفة كما قال ابن عبد البر . ولعله أسلم بعد الهجرة فلم يكون قوله : (كنت مع النبي (صلى الله عليه وسلم) في غار) مقارناً لقول المشركين

(وقد وُدّع محمد) . ولعل جندباً روى حديثين جَمَعُهما ابنُ عيينة . وقيل : إن كلمة (في غار) تصحيف ، وأن أصلها : كنت غَازياً . ويتعين حينئذ أن يكون حديثه جمع حديثين .

وعدّت هذه السورة حادية عشرة في ترتيب نزول السور ، نزلت بعد سورة الفجر وقبل سورة الانشراح .

وعددُ آيها إحدى عشرة آية .

وهي أول سورة في قِصَار المفصَّل .

أغراضها

إبطال قول المشركين إذْ زعموا أن ما يأتي من الوحي للنبيء (صلى الله عليه وسلم) قد انقطع عنه .

وزاده بشارة بأن الآخرة خير له من الأولى على معنيين في الآخرة والأولى . وأنه سيعطيه ربه ما فيه رضاه . وذلك يغيظ المشركين .

ثم ذكَّره الله بما حفّه به من ألطافه وعنايته في صباه وفي فتوته وفي وقت اكتهاله وأمره بالشكر على تلك النعم بما يناسبها من نفع لعبيده وثناء على الله بما هو أهله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 393 . 394 ﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الضحى

مكية وآياتها إحدى عشرة آية

بين يدي السورة

* سورة الضحى مكية ، وهي تتناول شخصية النبي (صلى الله عليه وسلم) الأعظم ، ، وما حباه الله به من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة ، ليشكر الهن على تلك النعم الجليلة ، التي أنعم الله بها عليه .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على جلالة قدر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأن ربه لم يهجره ولم يبغضه كما زعم المشركون ، بل هو عند الهن رفيع القدر ، عظيم الشأن والمكانة [والضحى ، والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللأخرة خير لك من الأولى] .

* ثم بشرته بالعطاء الجزيل في الآخرة ، وما أعده الله تعالى لرسوله من أنواع الكرامات ، ومنها الشفاعة العظمى [ولسوف يعطيك ربك فترضى] .

* ثم ذكرته بما كان عليه في الصغر ، من اليتم ، والفقر ، والفاقة ، والضياع ، فآواه ربه وأغناه ، وأحاطه بكلاءه وعنايته [ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى] .

* وختمت السورة بتوصيته (صلى الله عليه وسلم) بوصايا ثلاث ، مقابل تلك النعم الثلاث ، ليعطف على اليتيم ، ويرحم المحتاج ، ويمسح دمعة البائس المسكين [فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث] وهو ختم يتناسق فيه جمال اللفظ ، مع روعة البيان ، في أروع صور الإبداع والجلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 571.572 ﴾

(10/819)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الضحى

الضحى : صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى أشعتها على هذا الكون ، وسجى : أي سكن والمراد سكن الأحياء فيه وانقطعوا عن الحركة ، ما ودعك ربك : أي ما تركك ،

وما قلى : أي وما قلاك وما أبغضك ، والقلى : شدة الكره والبغض .

ضالا فهدى : أي غافلا عن الشرائع فهداك إلى مناهجها ، عائلا : أي فقيرا ، فلا تقهر : أي فلا تستذل ، فلا تنهر : أي فلا تزجر ، فحدّث : أي فأدّ الشكر لموليها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 182.184 ﴾ . باختصار .

(11/819)

وقال الفراء :

سورة (الضحى)

﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَالضُّحَى . . . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . . . ﴾ .

فأمّا الضحى فالنهار كله ، والليل إذا سجى: إذا أظلم وركد فى طوله ، كما تقول: بحر ساج ، وليل ساج ، إذا ركد وسكن وأظلم .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . . . ﴾ .

نزلت فى احتباس الوحى عن النبى صلى الله عليه وسلم خمس عشرة [ليلة] ، فقال

المشركون: قد ودّع محمدا صلى الله عليه وسلم ربُّه، أو قلاه التابع الذى يكون معه، فأنزل الله جلّ وعزّ: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ يا محمد، ﴿ وَمَا قَلَى ﴾ يريد: وما قلاك، فألقيت الكاف، كما يقول: قد أعطيتك وأحسنتُ ومعناه: أحسنت إليك، فتكتفى بالكاف الأولى من إعادة الأخرى، ولأن رءوس الآيات بالياء، فاجتمع ذلك فيه.

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى... ﴾.

وهى فى قراءة عبدالله: "ولسيعطيك [ربك فترضى]" والمعنى واحد، إلا أن (سوف) كثرت فى الكلام، وعرِف موضعها، فترك منها الفاء والواو، والحرف إذا كثر فربما فعل به ذلك، كما قيل: أيشٍ تقول، وكما قيل: قم لا بَاك، وقم لا بِشانئك، يريدون: لا أبالك، ولا أبا لشانئك، وقد سمعتُ بيتاً حذفت الفاء فيه من كيف، قال الشاعر:

من طالبين لِبُعران لنا رفضت * كيلا يُحسون من بعراننا أثرا

أراد: كيف لا يحسون؟ وهذا لذلك.

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى... ﴾.

يقول: كنت فى حجر أبى طالب، فجعل لك مأوى، وأغناك عنه، ولم يك غنى عن كثرة مال، ولكنّ الله رضّاه بما آتاه.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَى. . . ﴾ .

(12/819)

يريد: فى قوم ضلاّل فهداك ﴿ وَوَجَدَكَ عائلاً ﴾ : فقيرا، ورأيتها فى مصاحف عبدالله "عديما"، والمعنى واحد .

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَأَغْنَى. . . ﴾ و "فآوى" يراد به (فأغناك) و (فآواك) فجرى على طرح الكاف لمشاكلة رءوس الآيات. ولأنّ المعنى معروف .

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ. . . ﴾ .

فتذهب بحقه لضعفه، وهى فى مصحف عبدالله "فلا تكهر"، وسمعتها من أعرابى من بنى أسد قرأها علىّ .

﴿ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ. . . ﴾ .

السائل على [/ب] الباب يقول: إمّا أعطيته، وإمّا رددته ردًّا لينا.

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

وقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ... ﴾.

فكان القرآن أعظم نعمة الله عليه، فكان يقرؤه ويحدث به، وبغيره من نعمه. انتهى.

ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 273. 275 ﴾

(13/819)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة الضحى «1»

2 - وَاللَّيْلِ إِذا سَجى: إذا سكن. وذلك عند تناهي ظلامه وركوده.

3 - وَما قَلى: ما أبغضك.

8 - عائِلًا: فقيرا. و«العائل»: الفقير كان له عيال، أو لم يكن. يقال: عال الرجل، إذا افتقر. وأعال: إذا كثر عياله. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 459 ﴾

---

(1) هي مكية.

وقال الغزنوى:

[سورة الضحى]

2 سَجى: سكن «1».

(1) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن: 2/ 302، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 531، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير: 9/ 156 عن عطاء، وعكرمة، وابن زيد.

ورجح القرطبي هذا القول في تفسيره: 20/ 92.

وانظر تفسير الطبري: 30/ 229، والمفردات للراغب: 225، واللسان: 14/ 371 (سجا).

وقيل «1»: أقبل.

7 ضَالًّا: لا تعرف الحق فهداك إليه «2». وقيل «3»: ضائعا في قومك فهداهم إليك.

8 عائِلًا : ذا عيال «4» ، بل ضارعا للفقر «5» .

10 فَلا تَنْهَرْ : لا تجبهه بالرّدّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 882.881 ﴾

---

(1) تفسير الطبري : 30/ 229 ، وتفسير الماوردي : 4/ 470 ، وزاد المسير : 9/ 156 ، وتفسير القرطبي : 20/ 92 .

(2) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 4/ 472 ، عن ابن عيسى .

وأخرج الطبري نحوه عن السدي .

ينظر تفسيره : (30/ 232 ، 233) ، وعصمة الأنبياء للفخر الرازي : 121 .

(3) ذكره الفخر الرازي في تفسيره : 31/ 217 ، والقرطبي في تفسيره : 20/ 97 .

(4) هذا قول الأخفش كما في تفسير الماوردي : 4/ 473 ، وتفسير القرطبي : 20/ 99 .

(5) وهو قول الجمهور كما في معاني القرآن للفراء : 3/ 274 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة :

2/ 302 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 531 ، وتفسير الطبري : 30/ 233 ، والمفردات للراغب : 354 ، وتفسير الفخر الرازي : 31/ 218 .

قال النحاس في إعراب القرآن : 5/ 205 : «وقد عال يعيل عيلة إذا افتقر ، وأعال يعيل إذا كثر عياله ، لا نعلم بين أهل اللغة فيه اختلافا» .

(16/819)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الضحى

عدد 11 - 93

نزلت بمكة بعد سورة الفجر على أثر انقطاع الوحي أياما ، وهي احدى عشرة آية ومثلها في عدد الآي القارعة والعاديات والجمعة والمنافقون ، وهي أربعون كلمة ، ومائتان وسبعون حرفا ، لا يوجد في القرآن سورة مبدوءة أو مختومة بما بدئت وختمت به ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ"

قال تعالى "وَالضُّحى 1" هو الوقت المعلوم من النهار أقسم اللّه به لأنه من الأوقات المباركة وفيه صلاة مسنونة وفيه كلّم اللّه موسى وفيه سجد سحرة فرعون للّه حينما ظهرت لهم آية العصا اعترافا بأنها معجزة وليست بسحر كما يقوله من غضب اللّه عليه "وَاللَّيْلِ إِذا

سَجى 2" سكن الناس فيه قال الأعشى الشاعر المعروف :

وما ذنبنا ان جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج لا يواري الدعا صما

أي ساكن ، والد عاصم كثيب الرمل ، وسجّى بالتشديد بمعنى غطّى وجواب القسم "ما وَدَّعَكَ" ما تركك "رَبُّكَ" منذ اختارك نبيا لخلقه واصطفاك حبيبا لنفسه كما رعاك بعنايته في الأزل وفي عالم الذر وحينما كنت نطفة في المستقر والمستودع .

والتوديع مبالغة في الوداع لأن من ودعك فقد بالغ في تركك "وَما قَلى 3" وما أبغضك منذ أحبك واجتباك ولذلك قال ما ودعك لأن الوداع انما يكون بين الأحباب ومن تقر مفارقته قال المتنبي :

حشاشة نفس ودّعت يوم ودعوا فلم أدر أي الظاعنين أودع

مطلب نزول هذه السورة وبشارة اللّه اليه :

أما الترك فلا يختص بالمحبين وهذا من لطائف القسم ، انه أقسم على انعامه على رسوله وإكرامه له ، وهو يتضمن أيضا لتصديقه له على صحة نبوته وعلى جزائه في الآخرة بالحسنى ، وقسم أيضا على النبوة والمعاد ، وتقدم في بحث فترة الوحي سبب نزول هذه السورة فراجعه في أوائل سورة المدثر .

وما قيل إنّ اليهود سألوا رسول اللّه عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف وانه قال لهم سأخبركم غدا ولم يستثن لا حجة له لأن السورة مكية ومجادلة اليهود لحضرته واسئلتهم كانت في المدينة وكل ما وقع له معهم في قضية الروح وغيرها كان هناك .

وما جاء في حديث خولة خادمة الرسول أن جروا دخل تحت سرير رسول اللّه ومات ولم تشعر به وأن الوحي انقطع بسببه أربعة أيام لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب أو تصاوير ، ثم انها نفضت البيت فاخرجته ميتا وطرحته فأنزل اللّه هذه السورة ، ورواية ابن

(18/819)

الكلبي بأن انقطاع الوحي خمسة عشر يوما ، ورواية ابن جريح اثنى عشر يوما ، وهناك روايات بخمس وعشرين وأربعين ، عن ابن عباس والسدي ، لا يوثق به كله ، لأن أربعة الأيام لا تستوجب حزن النبي بالدرجة المار ذكرها في المدثر لا سيما وأن الوحي لم يحجم بعد ، على أنه قد جاء في بعض الآثار أن حضرة الرسول قال لجبريل ما جئتني حتى اشتقت إليك فقال بل كنت إليك أشوق ولكني عبد مأمور وتلا قوله تعالى "وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ" الآية 64 من سورة مريم الآتية وفي رواية أنه عاتبة فقال أما علمت أنا لا ندخل بيتا فيه كلب

ولا صورة ؟ على أن هذه الآية لم تنزل بعد وعلى كل فلا مانع من تعدد الأسباب إذا قلنا بجواز ذلك كله بشرط أن يكون السائل كفار قريش على لسان اليهود كما سيأتي في الآية 85 من سورة الإسراء الآتية والآية 29 من سورة الكهف في ج 2 واللّه أعلم بالصواب قال تعالى "وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى 4" وهذه بشارة عظيمة من ربه اليه بأن ما أعده له من المقام المحمود في الآخرة أحسن وأعظم مما إعطاء في الدنيا ، روى البغوي عن ابن مسعود أنه صلى اللّه عليه وسلم قال إنا أهل بيت اختار اللّه لنا الآخرة على الدنيا ، ثم اقسم جل قسمه تطمينا لقلب حبيبه وإقرارا لعينه وقال "وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى 5" من جزيل عطائه وجليل رضائه وعظيم مواهبه ومن الحوض المورود واللواء المعقود والشفاعة العظمى في اليوم الموعود وغيرها مما وعده به وهذا العطاء كائن لا محالة .

روى ابن عباس أنه صلى اللّه عليه وسلم عرض عليه ما هو مفتوح على أمته من بعده ، فسرّ فأنزل اللّه هذه الآية بشارة له بأنه سيعطيه من النعيم الدائم في الآخرة ما لا يقاس بما أعطاه له ولإمته في الدنيا .

ولما نزلت هذه الآية قال صلى اللّه عليه وسلم لا أرضى وواحد من أمتي بالنار .

(19/819)

وروى مسلم عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه صلى اللّه عليه وسلم رفع يديه وقال اللهم أمتي أمتي وبكى ، فقال اللّه يا جبريل اذهب إلى محمد واسأله ما يبكيك ؟ وهو أعلم ، فأتى جبريل وسأله فأخبره بما قال وهو أعلم ، فقال : يا جبريل اذهب إلى محمد وقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك فيهم .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن

النبي صلى اللّه عليه وسلم قال لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته واني اختبأت دعوتي شفاعتي لأمتي فهي نائلة إن شاء اللّه من مات من أمتي لا يشرك باللّه شيئًا .

وهذه بشارة عظيمة لأمة محمد صلى اللّه عليه وسلم وتأميل لهم بالنجاة هذا وان اللّه أعطاه في الدنيا النصر والظفر وكثرة الأتباع والفتوح في زمنه وزمن خلفائه واتباعهم ومن بعدهم وإلى يوم القيمة إن شاء اللّه وان ما وقع فهو من فترات الزمن وسيعيد اللّه التاريخ الناصع لهم إذ أحسنت الناس ظنها باللّه واتبعت أوامره واجتنبت نواهيه وإلا لا .

وليعلم ان اللّه تعالى أعلى رتبة محمد على سائر الأنبياء وجعل أمته خير الأمم وأعطاه في الآخرة الشفاعة الخاصة والعامة والفضيلة والوسيلة .

قال حرب بن شريح سمعت جعفر بن علي يقول

انكم يا أهل العراق تقولون أرجى آية في القرآن (قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ)

الآية 53 من سورة الزمر في ج 2 وإنا أهل البيت نقول ان أرجى آية في كتاب اللّه "وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى" ولهذا البحث صلة في الآية 8 من الإسراء الآتية.

(20/819)

ثم شرع يعدد نعمه على نبيه فقال "أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً" فاقد الأبوين صغيرا ووجد هذه وما بعدها بمعنى علم ويقال لفاقد الأب يتيم ولفاقد الأم عجي ولفاقدهما لطيم وكان والده صلى اللّه عليه وسلم توفي بعد حمله بشهرين ثم توفيت أمه وهو ابن ست سنين "فَآوى 6" جعل لك مأوى تأوي اليه بأن ضمك أولا إلى جدك عبد المطلب الذي كان يقدمك على كل أحد ويفتخر بك ويتفرض بك الخير وبعد وفاته ضمك إلى عمك أبى طالب فأحسن تربيتك وحماك من أعدائك وكفاك مؤنتك، فكنت كالدرّة اليتيمة التي لا نظير لها، فأيدك وشرفك ربك بالنبوة المشعر بها قوله جل قوله "وَوَجَدَكَ ضَالًّا" عاقلا عن الشرائع التي لا تهتدي إليها العقول قال تعالى "ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ" الآية 53 من الشورى في ج 2 أي خاليا من الهام النبوة غير عالم بمعالمها "فَهَدى 7" أرشدك إليها وعرفك الشريعة التي أنزلها عليك وما يتعلق بها من أصول وفروع بما أنزله عليك من الوحي.

مطلب هدايته صلى اللّه عليه وسلم ومعاملته اليتيم:

ولا يقال انه صلى اللّه عليه وسلم كان على ملة قومه استفادة من معنى "ضالا" فهداه للاسلام لأن سائر الأنبياء منذ يولدون ينشأون على التوحيد والأيمان وأنهم قبل النبوة وبعدها معصومون من الجهل بعصمة اللّه ، يدل على هذا أنه لما سافر مع عمه أبي طالب ورأى بحيرا الراهب فيه علامة النبوة فاستحلفه باللات والعزى فقال صلى اللّه عليه وسلم : لا تسألني بهما فواللّه ما أبغضت شيئا كبغضهما ويؤكد هذا شرح صدره واستخراج العلقة منه وقول جبريل هذا حظ الشيطان منك وملأه حكمة وإيمانا .

(21/819)

وقوله جل قوله (ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غوى) الآية 2 من سورة النجم الآتية قال الزمخشري في كشافه : من قال انه كان على دين قومه أربعين سنة ، فإن أراد أنه على خلوه من العلوم السمعية فنعم ، وإن أراد أنه على دين قومه ، فمعاذ اللّه ، أما ما قيل انه ضل في شعاب مكة وردّه فرعونه أبو جهل ، وأنه أركبه وراءه فلم تقم الناقة فأركبه امامه فقامت وقالت يا أحمق هذا الإمام ، فكيف يكون خلف المقتدي ؟ فكان ارجاعه إلى جده على ما يدعوه كإرجاع موسى لأمه ، أو أنه ضل في طريق الشام واقتاد ناقته إبليس فنفحه جبريل ورد ناقته إلى طريقها ، أو أنه ضل مرة أخرى في مكة فتعلق جده بأستار الكعبة وصار

يتضرع إلى اللّه بردّه فسمع مناديا لا تضجوا فان محمدا لا يضيعه اللّه ربه وأنه بوادي تهامة .

فذهب إليه جده وورقة بن نوفل ، فأتيا به من تحت شجرة يلعب عندها ، أو أنه ضل عند مرضعته حليمة فهذا كله على فرض وقوعه حقيقة غير مقصود هنا لأنه من ضل الطريق إذا سلك غيره على أن إضلاله الطريق قد يؤدي إلى المقصود المقدر من علم اللّه مثل إضلال سيدنا موسى الآتي في الآية 30 من سورة القصص الآتية قال ابن الفارض :

ما بين ضال المنحني وظلاله ضل المتيّم واهتدى بضلاله

ولكن نفس الأضلال لا يستوجب أن يعده اللّه عليه نعمة بالصورة المذكورة لأنه يقع لكل واحد ، وانما القصد واللّه أعلم هو ما ذكرناه في تفسير الآية لإن الهداية منه نعمة كبرى لا تحصل لبشر غيره ولن تحصل أبدا "وَوَجَدَكَ عائِلًا"

ذا عيال فقير ليس لك شيء "فَأَغْنى 8" فيسر لك ما أغناك به عن الناس ولم يحجك إلى أحد من خلقه إذ أرضاك بما أعطاك من القناعة التي وفرت في صدرك روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النّفس .

وروى مسلم عن عبد اللّه بن عمر بن العاص أن رسول اللّه قال قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه .

وما قيل أغناه بمال خديجة غير سديد لإن مال الزوجة لا يستوجب عده من قبل اللّه نعمة أما كونها وبنيها من عياله وبهم صار ذا عيال فنعم وما قاله بعض المفسرين بما أفاء عليك من الغنائم لا صحة له ، إذ لا يوجد في مكة غنائم وانما كانت الغنائم والحروب في المدينة وهذ السورة مكية ولكنه صلى الله عليه وسلم جبل منذ كان في مهده بإلهام من ربه على القناعة وفيه قيل :

في المهد يعرب عن سعادة جده أثر النجابة ساطع البرهان

ثم طفق بوصيه بقوله "فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ 9" لا تذله ولا تظلمه ولا تحقره ولا تعمل به عملا يوجب انزعاجه ، وهذا لا يتصور من حضرة الرسول وانما نهاه ليتجنب الناس ظلم اليتيم على حد إياك اعني واسمعي يا جارة ، وذلك لان قومه كانوا لا يورثون اليتيم ويغلبونه على ماله ويهضمون حقه روى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال قال صلى اللّه عليه وسلم أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما .

وروى البغوي عن أبي هريرة قال قال عليه الصلاة والسلام خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن اليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء اليه ثم قال أنا وكافل اليتيم هكذا ويشير بأصبعيه .

مطلب عدم رد السائل واللطف باليتيم :

"وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ 10" لا تزجره إذا سأل ولا ترده إذا طلب ولا تمنعه إذا أراد من فضلك وابذل اليه مما عندك ولو قليلا ولا تردّ وجهه فيرجع صفر اليدين وإذا لم تجد ما تعطيه فرده بكلمة طيبة ردا جميلا من غير تقطب وجه قال ابراهيم بن أدهم ، نعم القوم السؤّال يحملون زادنا إلى الآخرة .

وقال ابراهيم

النخعي ، السائل بريدنا إلى الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول أتوجهون إلى أهلكم أي موتاكم شيئا ، قال جرير :

(23/819)

اللّه نزل في الكتاب فريضة لابن السبيل وللفقير العائل

وقرىء فلا تكهر لغة أعرابية والاعراب حتى الآن يبدلون القاف القولي بالكاف الفارسي والكاف بالجيم الفارسي على أن تفشي هذين الحرفين لديهم يوقع في الخلد أنهما عربيان وضعا واللّه أعلم .

وما قيل ان السائل هنا هو طالب العلم ليس بشيء ، على أنه لا يجوز منع السائل عنه بل

يجب عليه اجابته .

هذا وقد عاتب اللّه رسوله في الفقراء في ثلاثة مواضع أحدها في ابن أم كلثوم إذ أنزل اللّه فيه مبادئ سورة عبس الآتية ، والثانية فيما كلفته قريش بأن لا يجلس الفقراء معهم إذ أنزل قوله :

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ) الآية 38 من سورة الكهف في ج 2 ، والثالثة أن سائلا وقف ببابه وكان أمامه عنقود من التمر فسأل فأعطاه إياه فقام عثمان فاشتراه منه ووضعه أمام الرسول ، فعاد وطلب فأعطاه إياه ثانيا ، فعاد عثمان واشتراه منه ، ثم عاد ثالثا فقال صلى اللّه عليه وسلم أسائل أنت أم بائع ، فأنزل اللّه هذه الآية

"وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ 11" بها أداء لشكرها وأراد بالنعمة هنا واللّه أعلم النبوة التي شرفه بها فكل نعمة دونها ، فأمره في هذه الآية أن يبلغ ما يوحيه إليه إلى قومه ، وأن يتحدث بما فضله اللّه به ، واعلم أنه كما يجب على العبد شكر نعم الخالق ، ينبغي له أن يشكر نعمة المخلوق ، روى جابر عن عبد اللّه أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : من أعطى عطاء فليجز به إن وجد ، فإن لم يجد فليثن عليه ، فإن من أثنى عليه فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور .

أي الذي يقول فلان أعطاني كذا وفلان عمل لي كذا من حيث لم يعطه ولم يعمل له شيئا ، وكذلك الضرّة إذا قالت لضرّتها إن زوجي فعل لي كيت وكيت من حيث لم يفعل .

ولهذا قال صلى اللّه عليه وسلم : المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور - أخرجه الترمذي -

(24/819)

مطلب الشكر للّه ولخلقه :

عن أبي سعيد الخدري أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : من لا يشكر الناس لا يشكر اللّه .

وله عن أبي هريرة : الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر ، وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن النعمان بن بشير صاحب معرة النعمان بين حلب وحماة قال :

سمعت رسول اللّه على المنبر يقول : من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر اللّه ، والتحدث بالنعمة شكر ، وتركه كفر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب .

وورد أشكركم للناس أشكركم للّه .

هذا وبما أن هذه السورة نزلت بعد انحباس الوحي مدة ، كبّر النبي صلّى اللّه عليه وسلم عند نزولها فرحا بنزول الوحي وإدغاما لما قاله المشركون فيه .

كما مر في سورة المدثر ، فاتخذ قراء مكة هذا التكبير عادة من هذه السورة إلى آخر القرآن

بحسب ترتيب المصاحف وحتى الآن يكبرون بختام كل سورة منها الناس ، وصيغة التكبير : اللّه أكبر اللّه أكبر لا إله إلا اللّه واللّه أكبر اللّه أكبر ولله الحمد .

أخرجه الحاكم وصححه ابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق أبي الحسن البزي البغوي قال : سمعت عكرمة بن سليمان يقول : قرأت على إسماعيل بن قسطنطين فلما بلغت والضحى قال كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم ، فإني قرأت على عبد اللّه بن كثير ، فلما بلغت والضحى قال كبر حتى تختم وأخبره عبد اللّه بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك وأخبره أن ابن عباس أمره بذلك وأخبره أن أبي بن كعب أمره بذلك وأخبره أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أمره بذلك .

هذا وما قيل إن هذه السورة هي الثالثة بالنزول لا صحة له بل هي الحادية عشرة كما أنها احدى عشرة آية ، وما قيل إنها نزلت في العام الثالث من البعثة أو انها بعد فترة الوحي الطويلة لا يلتفت إليه ، كما بيناه أول المدثر المارة ايضا فراجعها ففيها ما يركن إليه العقل ويسلم له العاقل ويرتاح له الضمير .

(25/819)

هذا ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وأصحابه واتباعه صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 152.159 ﴾

(26/819)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الضحى

مكية

وجواب القسم ما ودعك ربك وما قلى وهو حسن من الأولي صالح فترضى تام فأغنى كاف وقال أبو عمرو في الجميع تام تقهر جائز وكذا تنهر آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(27/819)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الضحى

مكية ولا وقف من أولها إلى قلى فلا يوقف على سجى لأن ما بعده جواب القسم ولا

يفصل بين القسم وجوابه بالوقف

قلى (حسن)

من الأولى (كاف) للابتداء بـ ولسوف

فترضى (تام) قال الأخفش لأنَّ القسم وقع على أربعة أشياء اثنين منفيين وهما توديعه

وقلاه واثنين مثبتين مؤكدين وهما كون الآخرة خيرا له من الدنيا وإنه سوف يعطيه ما يرضيه

فآوى (جائز) ومثله فهدى لتعداد النعم

فأغنى (كاف)

تقهر (جائز) ومثله فلا تنهر

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

(28/819)

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة الضحى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "مَا وَدَّعَكَ" ، خفيفة – النبي "صلى الله عليه وسلم" وعروة بن الزبير .

قال أبو الفتح : هذه قليلة الاستعمال . قال سيبويه : استغنوا عن وذر وودع بقولهم : ترك1

، وعلى أنها قد جاءت في شعر أبي الأسود ، قال : وأنشدناه أبو علي :

ليت شعري عن خليلي ما الذي غاله في الحب حتى ودعه2

إلا أنهم قد استعملوا مضارعة ، فقالوا : يدع . ويروى بيت الفرزدق :

وعض زمان يا بن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف3

على ثلاث أصرب : لم يدع ، ولم يدع – بكسر الدال ، وفتح الياء – ولم يدع ، بضم الياء .

فأما يدع – بفتح الياء والدال – فهو المشهور ، وإعرابه أنه لما قال : لم يدع من المال إلا مسحتا دل على أنه قد بقى ، فأضمر ما يدل عليه القول ، فكأنه قال : وبقى مجلف .

وأما يدع – بفتح الياء وكسر الدال – فهو من الاتداع ، كقولك : قد استراح وودع ، وهو وادع من تعبه . فالمسحت – على هذه الرواية – مرفوع بفعله ، ومجلف معطوف عليه ، وهذا ما لا نظر فيه لوضوحه .

وأما يدع – بضم الياء – فقياسه يودع ، كقول الله "تعالى" : ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ، ومثله يوضع ، والحديد يوقع ، أي : يطرق ، من قولهم : وقعت الحديدة ، أي : طرقتها . قالوا : إلا أن هذا الحرف كأنه – كثرة استعماله – جاء شاذا ، فحذفت واوه تخفيفا ، فقيل : لم يدع4 ، أي : لم يترك ، والمسحت والمجلف جميعا مرفوعان أيضا ، كما يجب . انتهى انتهى . اهـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 364﴾

---

2 عبارة سيبويه : كما أن يدع ويذر على ودعت ، ووذرت ، وأن لم يستعمل "الكتاب : 2 : 256" .

3 ينسب أيضا لأنس بن زنيم في أبيات قالها لعبيد الله بن زياد . وانظر شرح شواهد الشافية : 53 ، والخصائص : 1 : 99 .

1 من قصيدة في مدح عبد الله بن مروان ، وقبله :

إليك أمير المؤمنين رمت بنا شعوب النوى والهوجل المتعسف

والهوجل : المفازة البعيدة لا علم بها . والمسحت : المبدد . والمجلف : الذي أخذ من جوانبه ، والذي بقيت منه بقية . ويروى مجرف مكان "مجلف" ، من جرفه : إذا ذهب به كله ، أو أخذه أخذ كثيرا . وانظر ديوان الشاعر : 556 ، والنقائض 2 : 556 ، والخصائص 1 : 99 .

3 كذا في ك ، وفي الأصل : يودع ، وهو تحريف .

وقال العلامة الدمياطي :

سورة الضحى

مكية وآيها إحدى عشرة القرآت أمال فواصلها الثمانية ومنها والضحى سوى سجى حمزة والكسائي وخلف وقللهما الأزرق وأبو عمرو بخلفه وأما سجى فأمالها الكسائي وحده وقللها الأزرق وابو عمرو بخلفه وقرأ و للآخرة بالنقل ورش كحمزة وقفا في أحد وجهيه وثانيهما السكت وثلث الأزرق مد الألف بعد اللام لعدم الاعتداد بالعارض وهو النقل مع ترقيق رائها وجها واحدا بخلاف المضمومة في خير لك فله فيها الترقيق وعدمه غير أن الأصح الترقيق كما مر وسكت على اللام حمزة وابن ذكوان وحفص ورويس وإدريس عن خلف بخلفهم المتقدم ويوقف لحمزة على فآوى وفأغنى بالتسهيل بين بين وبالتحقيق لكونه متوسطا بزائد

المرسوم اتفقوا على كتابة والضحى وسجى بالياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة والضحى "

وللآخرة ، خير ، جلي .

" الأولى " لورش ثلاثة البدل ، وعلى كل التقليل فقط لكونه رأس آية .

" فحدث " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

سورة الشمس والليل والضحى من السور الإحدى عشرة .

" رءوس الآي الممالة " :

" وضحاها ، تلاها ، جلاها ، يغشاها ، بناها ؛ طحاها ، سواها ، وتقواها ، زكاها ، دساها ، بطغواها ، أشقاها ، وسقياها ، فسواها ، عقباها ، يغشى ، تجلى ، والأنثى ، لشتى واتقى ، بالحسنى ، لليسرى ، واستغنى ، بالحسنى ، للعسرى ، تردى ، للهدى ، والأولى ، تلظى ، الأشقى ، وتولى ، يتزكى ، تجزى ، الأعلى ، يرضى ، والضحى ، سجى ، قلى ، الأولى ، فترضى ، فآوى ، فهدى ، فأغنى ، ولا خلاف في عدها كلها . فأما فواصل سورة الشمس فأمالها كلها الكسائي من غير استثناء ، وأمالها كلها حمزة وخلف إلا تلاها وطحاها فلهما فيهما الفتح قولا واحدا ، وقللها كلها أبو عمرو ، ولورش فيها الوجهان الفتح

والتقليل لأنها كلها مصحوبة بها . وأما فواصل سورة الليل فأمالها كلها الأخوان وخلف وقللها كلها ورش وقللها كلها أبو عمرو إلا فاصلتين لليسرى وللعسرى فأمالهما . وأما فواصل الضحى فأمالها كلها الكسائي وقللها كلها الكسائي وقللها كلها ورش والبصري وأمالها كلها حمزة إلا سجى ففتحها .

" ما ليس برأس آية " : أدراك . تقدم في الانفطار ، النهار معا بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش . خاب لحمزة ، أعطى ولا يصلاها بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه فيغلظ حال الفتح ويرقق حال التقليل .

المدغم

" الصغير " كذبت ثمود للبصري والشامي والأخوين .

" الكبير " لا أقسم بهذا ، فقال لهم ، وكذب بالحسنى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 352 . 353 ﴾

(31/819)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة والضحى لأن سورة والليل لا خلاف فيها إلا الإمالة والتفخيم

قوله تعالى ﴿ والضحى ﴾ قسم وكان ابن كثير يكبر من اول هذه السورة الى ان يختم فيقول اذا انقضت السورة الله اكبر بسم الله الرحمن الرحيم الى آخر القرآن يختم وحجته في ذلك ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يفعل ذلك

ووجهه ان الوحي ابطأ عنه اربعين صباحا فقال كفار قريش ومنافقوها قلاه ربه وودعه الناموس فأهبط الله عز وجل عليه جبريل عليه السلام فقال له يا محمد السلام عليك فقال وعليك السلام فقال صلى الله عليه وسلم سرورا بموافاة جبريل وابطال قول المشركين الله اكبر فقال جبريل اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ ثم عدد عليه انعامه وذكره احسانه وادبه بأحسن الآداب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 373 ﴾

(32/819)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة والضحى 93

مكية وقد ذكر نظيرتها في جميع العدد

وكلمها أربعون كلمة ككلم والعاديات

وحروفها مئة واثنان وسبعون حرفا

وهي إحدى عشرة آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف ورؤوس الآي

والضحى

1 سجى

2 قلى

3 الأولى

4 فترضى

5 فآوى

6 فهدى

7 فأغنى

8 تقهر

9 تنهر

10 فحدث

11 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 277 ﴾

(33/819)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى:

سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (ودعك) بالتشديد ، وقد قرئ بالتخفيف ، وهى لغة قليلة قال أبو الأسود الدؤلى: ليت شعرى عن خليلي ما الذى * غاله في الحب حتى ودعه أي ترك الحب.

قوله تعالى (وما قلى) الألف مبدلة عن ياء لقولهم قليته ، والمفعول محذوف: أي وما قلاك ، وكذلك فآواك وفهداك وفأغناك ، و (اليتيم) منصوب ، بعده ، وكذلك (السائل) و (بنعمة ربك) متعلق ب (حدث) ولا تمنع الفاء من ذلك لأنها كالزائدة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(34/819)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الضحى

[سورة الضحى (93) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحى (1) وَاللَّيْلِ إِذا سَجى (2)

"وَالضُّحى " جار ومجرور متعلقان بفعل قسم محذوف "وَاللَّيْلِ" معطوف على الضحى "إِذا" ظرف زمان "سَجى " ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة.

[سورة الضحى (93) : آية 3]

ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى (3)

"ما" نافية "وَدَّعَكَ" ماض ومفعوله "رَبُّكَ" فاعل والجملة جواب القسم لا محل لها "وَما قَلى " معطوفة على ما قبلها.

[سورة الضحى (93) : آية 4]

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى (4)

"وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ" الواو حرف عطف واللام لام الابتداء والآخرة خير مبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها "لَكَ" متعلقان بخير "مِنَ الْأُولى " متعلقان بخير.

[سورة الضحى (93) : آية 5]

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى (5)

"وَلَسَوْفَ" اللام لام الابتداء وسوف حرف استقبال "يُعْطِيكَ" مضارع ومفعوله "رَبُّكَ" فاعل والجملة معطوفة على ما قبلها "فَتَرْضى" الفاء حرف عطف ومضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الضحى (93) : آية 6]

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى (6)

"أَلَمْ يَجِدْكَ" الهمزة حرف استفهام وتقرير ومضارع مجزوم بلم والكاف مفعول به أول والفاعل مستتر "يَتِيماً" مفعول به ثان والجملة مستأنفة "فَآوى" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الضحى (93) : آية 7]

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى (7)

"وَوَجَدَكَ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر "ضَالًّا" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها "فَهَدى" معطوفة على ما قبلها .

[سورة الضحى (93) : آية 8]

وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى (8)

معطوفة على ما قبلها .

[سورة الضحى (93) : آية 9]

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (9)

(35/819)

"فَأَمَّا" الفاء الفصيحة "أما" حرف شرط وتفصيل "الْيَتِيمَ" مفعول به مقدم "فَلا تَقْهَرْ" الفاء رابطة ومضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر والجملة الفعلية جواب الشرط لا محل لها.

[سورة الضحى (93) : آية 10]

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (10)

معطوفة على ما قبلها والإعراب واضح.

[سورة الضحى (93) : آية 11]

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

"وَأَمَّا" الواو حرف عطف "أَمَّا" حرف شرط وتفصيل "بِنِعْمَةِ" متعلقان بحدث "رَبِّكَ" مضاف إليه "فَحَدِّثْ" الفاء زائدة وأمر فاعله مستتر. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 454﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة وَالضُّحَى

ذكر فِيهَا سِتَّة أَحَادِيث

1500 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن الْوَحْي تَأَخّر عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَّامًا فَقَالَ الْمُشْركُونَ إِن مُحَمَّدًا ودعه ربه وقلاه

وَقيل إِن أم جميل امْرَأَة أبي لَهب قَالَت لَهُ يَا مُحَمَّد مَا أرى شَيْطَانك إِلَّا قد تَركك فَنزلت

قلت رَوَى البُخَارِيّ وَمُسلم عَن الْأسود عَن قيس عَن جُنْدُب بن عبد الله البَجلِيّ قَالَ أَبْطَأ جبْرِيل عَلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ الْمُشْركُونَ قد ودع مُحَمَّد فَأنْزل الله تَعَالَى وَالضُّحَى وَاللَّيْل إِذا سجى إِلَى آخرهَا انْتَهَى

وَرَوَى البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي التَّهَجُّد وَفِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي الْمَغَازِي بِهَذَا السَّنَد قَالَ احْتبسَ جِبْرِيل عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَت امْرَأَة فَقَالَت يَا مُحَمَّد إِنِّي

لأرجو أن يكون شيْطَانك قد تَركك فَأنْزل الله وَالضُّحَى وَاللَّيْل إِلَى آخرهَا انْتهى

وَفِي مُسْتَدْرك الْحَاكِم من حَدِيث زيد بن أَرقم أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكث أَيَّامًا

لَا ينزل عَلَيْهِ الْوَحْي فَأَتَتْهُ امْرَأَة أبي لَهب فَقَالَت يَا مُحَمَّد مَا أرى صَاحبك إِلَّا قد وَدعك

وَقَلاك فَأنْزل الله تَعَالَى (وَالضُّحَى) إِلَى آخرهَا مُخْتَصرا وَقَالَ

صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وروى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدِيث التِّرْمِذِيّ بِسَنَدِهِ وَمَتنه

(37/819)

وَرَوَاهُ أَيْضا ثَنَا أَحْمد بن كَامِل ثَنَا مُحَمَّد بن سعد ثني أبي ثَنَا عمى ثَنَا أبي عَن أَبِيه عَن ابْن

عَبَّاس فِي قَوْله مَا وَدعك رَبك وَمَا قلى قَالَ أَبْطَأَ عَلَيْهِ جِبْرِيل أَيَّامًا فَعير بذلك وَقَالَ

الْمُشْركُونَ ودعه ربه وقلاه فَأنْزل الله مَا وَدعك رَبك وَمَا قلى انْتهى

1501 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَاتَ أَبوهُ وَهُوَ جَنِين قد أَتَت عَلَيْهِ سِتَّة أشهر وَمَاتَتْ

أمه وَهُوَ ابْن ثَمَان سِنِين فكفله عَمه أَبُو طَالب وعطفه الله عَلَيْهِ فَأحْسن تَرْبِيَته

قلت غَرِيب

وروى الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْفَضَائِل من طَرِيق ابْن إِسْحَاق حَدثنِي مطلب بن عبد الله بن قيس بن مخرمَة عَن أَبِيه عَن جده أَنه ذكر ولادة رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ توفّي أَبوهُ وَأمه حُبْلَى بِهِ انْتَهَى وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

وَفِي السِّيرَة قَالَ ابْن إِسْحَاق ثمَّ لم يلبث عبد الله بن عبد الْمطلب أَن هلك وَأم رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَامِل بِهِ وَقَالَ ابْن إِسْحَاق أَيْضا وَتوفيت أمه وَهُوَ ابْن سِتّ سِنِين وَقَالَ أَبُو عمر سبع سِنِين وَقَالَ قَالَ مُحَمَّد بن حبيب الْمحبر توفيت أمه وَهُوَ ابْن ثَمَان سِنِين

من سيرة أبي الْفَتْح الْيَعْمرِي

وَقَالَ السُّهيْلي فِي الرَّوْض الْأنف وَأكْثر الْعلمَاء عَلَى انه عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام توفّي أَبوهُ وَهُوَ فِي المهد كَمَا ذكره الدولابي وَغَيره انْتَهَى

وَقَالَ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات وَالْأول اثْبتْ انه عَلَيْهِ السَّلَام توفّي أَبوهُ عبد الله وَهُوَ حمل

1502 - الحَدِيث الثَّالِث

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل رِزْقِي تَحت ظلّ رُمْحِي

قلت رُوِيَ من حَدِيث ابْن عمر وَمن حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث انس ابْن مَالك

أما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ الإِمَام احْمَد وَابْن أبي شيبَة وَعبد بن حميد وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مسانيدهم وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث عشر من حَدِيث عبد الرَّحْمَن بن ثَابت بن ثَوْبَان ثَنَا حسان بن عَطِيَّة عَن أبي منيب الْجرشِي عَن عبد الله بن عمر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثت بَين يَدي السَّاعَة بِالسَّيْفِ حَتَّى يعبد الله تَعَالَى وَجعل رِزْقِي تَحت ظلّ رُمْحِي وَجعل الذل وَالصغَار عَلَى من خَالف أَمْرِي وَمن تشبه بِقوم فَهُوَ مِنْهُم انْتَهَى

وَذكره البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي كتاب الْجِهَاد تَعْلِيقا فَقَالَ بَاب مَا قيل فِي الرماح وَيذكر عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بعثت بَين يَدي السَّاعَة . . . إِلَى آخِره

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث صَدَقَة بن عبد الله عَن الْأَوْزَاعِيّ عَن يَحْيَى بن أبي كثير عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل رِزْقِي تَحت ظلّ رُمْحِي وَجعل الذل وَالصغَار عَلَى من خَالف أَمْرِي وَمن تشبه بِقوم فَهُوَ مِنْهُم انْتَهَى ثمَّ قَالَ لم يُتَابع صَدَقَة عَلَى رِوَايَته هَذِه وَغَيره يرويهِ عَن الْأَوْزَاعِيّ مُرْسلا انْتَهَى

وَأما حَدِيث انس فَرَوَاهُ أَبُو نعيم الْحَافِظ فِي كِتَابه تَارِيخ أَصْبَهَان فِي تَرْجَمَة احْمَد

ابْن مَحْمُود فَقَال ثَنَا الْحجَّاج بن يُوسُف بن قُتَيْبَة ثَنَا بشر بن الْحُسَيْن الْأَصْبَهَانِيّ ثَنَا الزُّبَيْر بن عدي عَن أنس بن مَالك قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثت بَين يَدي السَّاعَة وَجعل رِزْقِي تَحت ظلّ رُمْحِي وَجعل الذل الصغار عَلَى من خَالف أَمْرِي وَمن تشبه بِقوم فَهُوَ مِنْهُم انْتَهَى

1503 - الحَدِيث الرَّابِع

فِي الحَدِيث بِأبي وَأمي هُوَ وَالله مَا كَهَرَنِي

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي كتاب الصَّلَاة من حَدِيث مُعَاوِيَة بن الحكم السّلمِيّ قَالَ بَينا أَنا أُصَلِّي مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ عطس رجل من الْقَوْم فَقلت يَرْحَمك الله فرمَانِي الْقَوْم بِأَبْصَارِهِمْ فَقلت وأثكل أُمّياه مَا شَأْنكُمْ تنْظرُون إِلَيّ فَجعلُوا يضْربُونَ بِأَيْدِيهِم عَلَى أَفْخَاذهم وَلما رَأَيْتهمْ يصمتُونِي لكني سكت فَلَمَّا صَلَّى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبأبي هُوَ وَأمي مَا رَأَيْت معلما قبله وَلَا بعده أحسن تَعْلِيما مِنْهُ فوَاللَّه مَا كهرني وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي قَالَ إِن هَذِه الصَّلَاة لَا يصلح فِيهَا شَيْء من كَلَام النَّاس إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيح وَالتَّكْبِير وَقِرَاءَة الْقُرْآن الحَدِيث بِطُولِهِ

قَالَ الْجَوْهَرِي فِي الصِّحَاح الْكَهْر الِانْتِهَار قَالَ وَمِنْه قِرَاءَة ابْن مَسْعُود فَأَما الْيَتِيم فَلَا تكهر وَفَسرهُ الْمُصَنّف بالعبس

1504 - الحَدِيث الْخَامِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِذا رددت السَّائِل ثَلَاثًا فَلم يرجع فَلَا عَلَيْك أَن تزبره

(40/819)

قلت رَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي كتاب الموضوعات من طَرِيق الدَّارَقُطْنِيّ ثَنَا إِسْمَاعِيل بن أبي الْعَبَّاس الْوراق ثَنَا عباد بن الْعَوام ثَنَا الْوَلِيد بن الْفضل الْعمريّ

ثَنَا عبد الرَّحْمَن بن أبي حسن ثَنَا ابْن جريج عَن عَطاء عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا رددت السَّائِل ثَلَاثًا فَلَا بَأْس أَن تزبره انْتَهَى ثمَّ قَالَ الدَّارَقُطْنِيّ تفرد بِهِ الْوَلِيد قَالَ ابْن حبَان يروي الْمَنَاكِير الَّتِي لَا يشك أَنَّهَا مَوْضُوعَة انْتَهَى

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره أخبرنَا ابْن فَنْجَوَيْه ثَنَا عبد الله بن يُوسُف ثَنَا الْحسن بن عَليّ بن زَكَرِيَّا الْقرشِي ثَنَا قُتَيْبَة بن مجالد ثَنَا حبَان بن عَليّ ثَنَا طَلْحَة ابْن عَمْرو عَن عَطاء عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا رددت السَّائِل ثَلَاثًا فَلم يرجع فَلَا عَلَيْك أَلا تنهره انْتَهَى

قَالَ ابْن الْجَوْزِيّ وَقد رُوِيَ من حَدِيث عَائِشَة ثمَّ سَاق من طَرِيق عبد الْغَنِيّ ابْن سعيد الْحَافِظ بِسَنَدِهِ إِلَى وهب بن زَمعَة الْقرشِي عَن هِشَام بن عُرْوَة عَن أَبِيه عَن عَائِشَة قَالَت

قَالَ لِي رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَا عَائِشَة إِذا رددت السَّائِل ثَلَاثًا فَلم يذهب فَلَا بَأْس أَن تزبريه انْتَهَى ثمَّ قَالَ قَالَ عبد الْغَنِيّ وهب ابْن زَمعَة هَذَا هُوَ وهب بن وهب الْقَاضِي قَالَ ابْن الْجَوْزِيّ وَكَانَ يضع الْأَحَادِيث قَالَ وَمن المصائب الْعَظِيمَة فِي الدّين تَدْلِيس اسْم الْكذَّاب انْتَهَى

(41/819)

ورَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه الْوسط فَقَالَ ثَنَا عبد الْملك بن مُحَمَّد ثَنَا نعيم ثَنَا عمار بن رَجَاء ثَنَا أَحْمد بن أبي طيبَة ثَنَا حبَان بن عَلّي عَن طَلْحَة ابْن عَمْرو عَن عَطاء عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا رددت السَّائِل ثَلَاثًا فَلَا عَلَيْك أَن تزبره انْتَهَى

1505 - الحَدِيث السَّادِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة وَالضُّحَى جعله الله فِيمَن يرْضى بِمُحَمد أَن يشفع لَهُ وَعشر حَسَنَات يَكْتُبهَا الله بِعَدَد كل يَتِيم وَسَائِل

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث مُحَمَّد بن عمرَان بن عبد الرَّحْمَن ابْن أبي لَيْلَى

ثنى أبي عَن مجَالد بن عبد الْوَاحِد عَن الْحجَّاج بن عبد الله عَن أبي الْجَلِيل عَن عَلّي بن زيد وَعَطَاء بن أبي مَيْمُونَة عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 227. 232﴾

(42/819)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

ومن سورة الضحى :

قوله تعالى : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ) ، الآية/ 9 :

يحتمل أن يكون نهيا عن قهره وظلمه وأخذ ماله ، وخص اليتيم بالذكر ، لأنه لا ناصر له إلا اللّه ، فغلظ في أمره بتغليظ العقوبة على ظالمه .

وأما قوله : (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ) ، الآية/ 10 .

فيه نهي عن إغلاظ القول له، لأن الانتهار هو الزجر وإغلاظ القول. انتهى انتهى. ا هـ

﴿أحكام القرآن/ للكيا هراسي حـ 4 صـ 429. 430﴾

(43/819)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى:

«سورة والضّحى» (93)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وَاللَّيْلِ إِذا سَجى» (2) إذا سكن، يقال: ليلة ساجية وليلة ساكنة.

قال الحادي:

يا حبّذا القمراء والليل السّاجوطرق مثل ملاء النسّاج

«1» [944].

«ما وَدَّعَكَ» (3) من التوديع وما ودعك مخفّفة من ودعت «2» تدعه..

«وَما قَلى» (3) أبغض..

«عائِلًا «3»» (8) ذا فقر، قال:

وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنىّ متى يعيل

(287) أي يفتقر. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 302 ﴾

---

(1) . - 944: فى الكامل ص 161 والطبري 30/ 127 واللسان (سجى) والقرطبي 20/ 91.

(2) . - 6 «يعنى . . . ودعت» الذي ورد فى الفروق: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 546) .

(3) . - 8 «ذو عيال» الذي ورد فى الفروق: رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 536) .

(44/819)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى:

ومن السورة التي يذكر فيها «الضحى»

[سورة الضحى (93) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2)

وقوله تعالى: وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى [1، 2] وهذه استعارة. ومعنى سجى، أي سكن. والليل لا يسكن، وإنما تسكن حركات الناس فيه، فأجرى سبحانه صفة السكون عليه لما كان السكون واقعا فيه. وقد مضى الكلام على نظائر ذلك. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تلخيص البيان صـ 367﴾

(45/819)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى:

سورة الضحى

وصف القرآن فى آيات كثيرة منه بأنه نور "فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا " . " ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا " . ولاشك أن الوحى الأعلى كان شروقا دائما على قلب محمد ، ظل معه إلى آخر العمر ! ربما تريث الوحى مرة أو مرتين لأسباب طبيعية . وقد حدث ذلك فى أوائل نزوله . فهل يعنى ذلك أن رب محمد كرهه ؟ كذلك زعم خصوم الرسالة ! فنزلت هذه السورة " والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك

ربك وما قلى" . قال العلماء وفى هذين القسمين إشارة إلى وقت نزول الوحى ووقت توقفه ، ولابد من استجمام وراحة لأن نزول الوحى تصحبه معاناة . ولا مكان هنا لترك أو كراهية " وللآخرة خير لك من الأولى" . فى أول الرسالة كان النبى صلى الله عليه وسلم يربى أناسا يعدون على الأصابع ، ثم أخذت دائرة الدعوة تتداح فإذا هو يقوم على تكوين أمة كبيرة . كانت هذه الأمة هى الدعائم المختفية فى التراب للبناء الإسلامى الشامخ الباقى إلى قيام الساعة . لقد استقبل خلال ذلك وحيا كثيرا وتحمل جهودا مضنية ، حتى غير التاريخ العام وأنشأ حضارة أخرى . والكتاب الذى صنع ذلك ما زال بين أيدينا شاهد صدق على عظمة الإسلام ورسوله . " ولسوف يعطيك ربك فترضى " ما نوع هذا العطاء ؟ لقد مات إبان المعركة الدائرة مع الكفر ، ودفن فى حجرة ملحقة بالمسجد ، وخرج من الدنيا وحلوائها كما تخرج الشعرة من العجين ما علق به شىء منها ! وترك للأوفياء من رجاله أن يمضوا على الطريق لا يعوقهم شىء ، فلقيت جمهرتهم الله على التوحيد والتقوى .

إن الله قال لموسى من قبل " ولتصنع على عيني " . وقال لمحمد ـ بعد ما حمله رسالة هائلة ـ " واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم " والله الذى يتولى تربية الأنبياء يختارهم من معادن نفيسة ثم يصقلهم فى حياتهم بالأحداث الشداد ، وهو أولى بهم منهم . . ! " ألم يجدك يتيما فآوى * ووجدك ضالا فهدى * ووجدك عائلا فأغنى " الضلال المقصود الحيرة فى معرفة الطريق وقيادة العالم . ومحمد والأنبياء جميعا معصومون من الضلال الذى هو ظلمة النفس ووضاعة السلوك . وما ينسب إليهم فى بعض الكتب محض افتراء . . ثم إن الله أغناه عن الناس فعاش مكفول الضرورات ، ولكنه ليس صاحب كنوز ، بل ليس صاحب فضول ! وبعد أن ذكره الله بنعمته السابقة واللاحقة ، قال له " فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث " والتحديث بالنعمة كقوله فى سورة أخرى " فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون " إنك مختار لتبليغ رسالة وإنقاذ عوالم من الناس ، فحدث فلست كاهنا ولا متكلفا . . ! " إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 525.524﴾

قوله تعالى ﴿ وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) المعز لمن أراد ، الكريم البر الودود ذي الجلال والإكرام (الرحمن) الذي عمن بنعمته الإيجاد الخاص والعام (الرحيم) الذي أعلى أهل وده فخصهم بإتمام الإنعام .

ولما حكم في آخر الليل بإسعاد الأتقياء ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتقى الخلق مطلقاً ، وكان قد قطع عنه الوحي حيناً ابتلاء لمن شاء من عباده ، وكان به ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلاح الدين والدنيا والآخرة ، وكان الملوان سبب صلاح معاش الخلق وكثير من معادهم ، أقسم سبحانه وتعالى بهما على أنه أسعد الخلائق دنيا وأخرى ، فقال مقدماً ما يناسب حال الأتقى الذي قصد به أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ قصداً أولياً من النور الذي يملأ الأقطار ، ويمحو كل ظلام يرد عليه ويصل إليه ، مفهماً بما ذكر من وقت الضياء الناصع

حالة أول النهار وآخر الليل التي هي ظلمة ملتف بساقها ساق النهار عند الإسفار : ﴿ والضحى ﴾ فذكر ما هو أشرف النهار وألطفه وهو زهرته ، وأضوأه وهو صدره ، وذلك وقت ارتفاع الشمس لأن المقسم لأجله أشرف الخلائق ، وذلك يدل على أنه يبلغ من الشرف ما لا يبلغه أحد من الخلق .

(49/819)

ولما ذكر النهار بأشرف ما فيه مناسبة لأجل المقسم لأجله ، أتبعه الليل مقيداً له بما يفهم إخلاصه لأنه ليس لأشرف ما فيه اسم يخصه فقال : ﴿ والّيل ﴾ أي الذي به تمام الصلاة ؛ ولما كان أوله وآخر النهار وآخره وأول النهار ضوءاً ممتزجاً بظلمة لالتفات ساق الليل بساق النهار ، قيد بالظلام الخالص فقال : ﴿ إذا سجى ﴾ أي سكن أهله أو ركد ظلامه وإلباسه وسواده واعتدل فخلص فغطى بظلامه كل شيء ، والمتسجي : المتغطي ، ومع تغطيته سكنت ريحه ، فكان في غاية الحسن ، ويمكن أن يكون الأول مشيراً إلى ما يأتي به هذا الرسول - صلى الله عليه وسلم - من المحكم ، والثاني مشيراً إلى المتشابه ، وهذا الأربعة الأحوال للنور والظلمة - وهي ضوء ممتزج بظلمة ، وظلمة ممتزجة بضوء ، وضياء خالص وظلام خالص - الحاصلة في الآفاق في الإنسان مثلها ، فروحه نور خالص ، وطبعه

ظلام حالك ، وقلبه نور ممتزج بظلمة النفس ، والنفس ظلمة ممتزجة بنور القلب ، فإن قويت شهوة النفس على نورانية القلب أظلم جميعه ، وإن قويت نورانية القلب على ظلمة النفس صار نورانياً ، وإن غلبت الروح على الطبع تروحن فارتفع عن رتبة الملائكة ، وإن غلب الطبع على الروح أنزله عن رتبة البهائم كما قال تعالى : ﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ [الأعراف : 179] .

ولما أقسم بهذا القسم المناسب لحاله - صلى الله عليه وسلم - ، أجابه بقوله تعالى : ﴿ ما ودعك ﴾ أي تركك تركاً يحصل به فرقة كفرقة المودع ولو على أحسن الوجوه الذي هو مراد المودع ﴿ ربك ﴾ أي الذي أحسن إليك بإيجادك أولاً ، وجعلك أكمل الخلق ثانياً ، ورباك أحسن تربية ثالثاً ، كما أنه لا يمكن توديع الليل للنهار بل الضحى للنهار الذي هو أشد ضيائه ، ولا يمكن توديع الضحى للنهار ولا الليل وقت سجوه له .

(50/819)

ولما كان ربما تعنت متعنت فقال : ما تركه ولكنه لا يحبه ، فكم من مواصل وليس بواصل ، قال نافياً لكل ترك : ﴿ وما قلى ﴾ أي وما أبغضك بغضاً ما ، وحذف الضمير اختصاراً لفظياً ليعم ، فهو من تقليل اللفظ لتكثير المعنى ، وذلك لأنه كان انقطاع عنه الوحي مدة

لأنهم سألوه عن الروح وقصة أهل الكهف وذي القرنين فقال : " أخبركم بذلك غداً " ، ولم يستثن ، فقالوا : قد ودعه ربه وقلاه ، فنزلت لذلك ، ولما نزلت كبر.صلى الله عليه وسلم. فكان التكبير فيها وفيما بعدها سنة كما يأتي إيضاحه وحكمته آخرها ، وقد أفهمت هذه العبارة أن المراتب التقريبية أربع : تقريب بالطاعات ومحبة وهي للمؤمنين ، وإبعاد بالمعاصي وبغض وهي للكفار ، وتقريب بالطاعات مخلوط بتبعيد للمعاصي وهي لعصاة المؤمنين ، وإعراض مخلوط بتقريب بصور طاعات لا قبول لها وهي لعباد الكفار .

(51/819)

وقال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : لما قال تعالى : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ [الشمس : 8] ثم أتبعه بقوله في الليل : ﴿ فسنيسره ﴾ [الليل : 7 - 13] وبقوله : ﴿ إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ [الليل : 7 - 13] ، فلزم الخوف واشتد الفزع وتعين على الموحد الإذعان للتسليم والتضرع في التخلص والتجاؤه إلى السميع العليم ، أنس تعالى أحب عباده إليه وأعظمهم منزلة لديه ، وذكر له ما منحه من تقريبه واجتبائه وجمع خير الدارين له فقال تعالى : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ ثم عدد تعالى عليه نعمه بعد وعده الكريم له بقوله :

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وأعقب ذلك بقوله : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ﴾ فقد آويتك قبل تعرضك وأعطيتك قبل سؤالك ، فلا تقابله بقهر من تعرض وانتهار من سأل ، وقد حاشاه سبحانه عما نهاه عنه ولكنه تذكير بالنعم وليستوضح الطريق من وفق من أمة محمد . صلى الله عليه وسلم . ، أما هو . صلى الله عليه وسلم . فحسبك من تعرف رحمته ورفقه ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ [الأحزاب : 43] ﴿ عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ [التوبة : 128] ثم تأمل استفتاح هذه السورة ومناسبة ذلك المقصود ولذلك السورة قبلها برفع القسم في الأولى بقوله : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ [الليل : 1] تنبيهاً على إبهام الأمر في السلوك على المكلفين وغيبة حكم العواقب ، وليناسب هذا حال المتذكر بالآيات وما يلحقه من الخوف مما أمره غائب عنه من تيسيره ومصيره واستعصامه به يحصل اليقين واستصغار درجات المتقين ، ثم لما لم يكن هذا غائباً بالجملة عن آحاد المكلفين أعني ما يثمر العلم اليقين ويعلي من أهل للترقي في درجات المتقين ، بل قد يطلع سبحانه خواص عباده – بملازمته التقوى والاعتبار – على واضحة السبيل ويريهم مشاهدة وعياناً ما قد انتهجوا قبل سبيله بمشقة النظر في الدليل ، قال . صلى الله

عليه وسلم ـ لحارثة :

(53/819)

" وجدت فالزم " وقال مثله للصديق ، وقال تعالى : ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ [يونس : 64] ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ [فصلت : 30] فلم يبق في حق هؤلاء ذلك الإبهام ، ولا كدر خواطرهم بتكاثف ذلك الإظلام ، بما منحهم سبحانه وتعالى من نعمة الإحسان بما وعدهم في قوله : ﴿ يجعل لكم فرقاناً ﴾ [الأنفال : 29] و ﴿ يجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ [الحديد : 28] ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ [الأنعام : 122] فعمل هؤلاء على بصيرة ، واستولوا اجتهاداً بتوفيق ربهم على أعمال جليلة خطيرة ، فقطعوا عن الدنيا الآمال ، وتأهبوا لآخرتهم بأوضح الأعمال ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ [السجدة : 16] ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ [السجدة : 17] فلابتداء الأمر وشدة الإبهام والإظلام أشار قوله

سبحانه وتعالى : ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ ولما يؤول إليه الحال في حق من كتب في قلبه الإيمان وأيده بروح منه أشار قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ ولانحصار السبل وإن تشعبت في طريقي ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ [التغابن : 2] ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ [الشورى : 7] أشار قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ [الليل : 3] ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ [الذاريات : 49] ﴿ ففروا إلى الله ﴾ [الذاريات : 50] الواحد مطلقاً ، فقد وضح لك إن شاء الله بعض ما يسر من تخصيص هذا القسم - والله أعلم ، أما سورة الضحى فلا إشكال في مناسبة في استفتاح القسم بالضحى لما يسره به سبحانه لا سيما إذا اعتبر ما ذكر من سبب نزول السورة ، وأنه -صلى الله عليه وسلم- كان قد فتر عنه الوحي حتى قال بعض الكفار : قلى محمداً ربه ، فنزلت السورة مشعرة عن

(54/819)

هذه النعمة والبشارة - انتهى .

ولما ذكر حاله في الدنيا بأنه لا يزال يواصله بالوحي والكرامة ، ومنه ما هو مفتوح على أمته من بعده روي عن أنس -رضي الله عنه- أنه قال : سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم

يقول : " أريت ما هو مفتوح على أمتي من بعدي كَفراً كَفراً فسرني ذلك " فلما كان ذلك.
وكان ذكره على وجه شمل الدارين صرح بالآخرة التي هي أعلى وأجل ، ولأدنى من
يدخلها فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فكيف بما له
صلى لله عليه وسلم ، فقال مؤكداً لذلك كما أكد الأول بالقسم بما لهم فيه من الإنكار :
﴿ وللآخرة ﴾ أي التي هي المقصود من الوجود بالذات لأنها باقية خالصة عن شوائب
الكدر أو الحالة المتأخرة لك ليفهم منه أنه لا يزال في ترق من عليّ إلى أعلى منه وكامل إلى
أكمل منه دائماً أبداً لا إلى نهاية ﴿ خير ﴾ وقيد بقوله : ﴿ لك ﴾ لأنه ليس كل أحد كذلك
﴿ من الأولى ﴾ أي الدنيا الفانية التي لا سرور فيها خالص كما أن النهار الذي هو بعد الليل
خير منه وأشرف ولا سيما الضحى منه ، وقد أفهم ذلك أن الناس على أربعة أقسام :
منهم من له الخير في الدارين وهم أهل الطاعة الأغنياء ، ومنهم من له الشر فيهما وهم
الكفرة الفقراء ، ومنهم من له صورة خير في الدنيا وشر الآخرة وهم الكفرة الأغنياء ،
ومنهم من له صورة شر في الدنيا وخير في الآخرة وهم المؤمنون الفقراء ، قد قال :

الناس في الدنيا على أربع . . .

والنفس في فكرتهم حائره

فواحد دنياه مقبوضة . . .

إن له من بعدها آخره

وواحد دنياه مبسوطة . . .

ليس له من بعدها آخره

وواحد قد حاز حظيهما . . .

سعيد في الدنيا وفي الآخره

وواحد يسقط من بينهم . . .

فذلك لا دنيا ولا آخره

(55/819)

ولما ذكر سبحانه الدنيا والآخرة، ذكر ما يشملهما مما زاده من فضله، فقال مصدراً بحرف الابتداء تأكيداً للكلام لأنهم ينكرونه وليست للقسم لأنها إذا دخلت على المضارع لزمته النون المؤكدة، وضم هذه اللام إلى كلمة التنفيس للدلالة على أن العطاء وإن تأخر وقته لحكمة كائن لا محالة: ﴿ ولسوف يعطيك ﴾ أي بوعد لا خلف فيه وإن تأخر وقته بما أفهمته الأداة ﴿ ربك ﴾ أي الذي لم يزل يحسن إليك بوعد الدنيا ووعد الآخرة ﴿ فترضى ﴾ أي فيتعقب على ذلك ويتسبب عنه رضاك.

وهذا شامل لما منحه بعد كمال النفس من كمال العلم وظهور الأمر وإعلاء الدين وفتح

البلاد ودينونة العباد ونقص ممالك الجبابرة ، وإنهاب كنوز الأكاسرة والقياصرة ، وإحلال الغنائم حتى كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر ، وشامل لما ادخره له سبحانه وتعالى في الآخرة من المقام المحمود والحوض المورود ، والشفاعة العظمى إلى غير ذلك مما لا يدخل تحت الحدود ، وقد أفهمت العبارة أن الناس أربعة أقسام : معطى راض ، وممنوع غير راض ، ومعطى غير راض ، وممنوع راض ، وعن علي -رضى الله عنه- أنها أرجى آية في القرآن لأنه -صلى الله عليه وسلم- لا يرضى واحداً من أمته في النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 452-456 ﴾

(56/819)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ سجى ﴾ مثل ﴿ دحاها ﴾ [الآية : 30] في " النازعات " .

الوقوف : ﴿ والضحى ﴾ ه لا ﴿ سجى ﴾ ه لا ﴿ قلى ﴾ ه لا ﴿ الأولى ﴾ ه لا ﴿ فترضى ﴾ ه ط ﴿ فآوى ﴾ ه ص ﴿ فهدى ﴾ ه ك ﴿ فأغنى ﴾ ط ﴿ فلا تقهر ﴾

ه ط ﴿ فلا تنهر ﴾ ه ط ﴿ فحدّث ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 514﴾

(57/819)

فصل

قال الفخر :

سورة الضحى

إحدى عشرة آية مكية

وأنا على عزم أن أضم إلى تفسير هذه السورة ما فيها من اللطائف التذكارية

﴿ وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) ﴾

لأهل التفسير في قوله : ﴿ والضحى ﴾ وجهان :

أحدهما : أن المراد بالضحى وقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقي شعاعها وثانيها : الضحى هو النهار كله بدليل أنه جعل في مقابلة الليل كله .

وأما قوله : ﴿ والليل إذَا سجى ﴾ فذكر أهل اللغة في ﴿ سجى ﴾ ثلاثة أوجه متقاربة : سكن وأظلم وغطى أما الأول : فقال أبو عبيد والمبرد والزجاج : سجى أي سكن يقال :

ليلة ساجية أي ساكنة الريح ، وعين ساجية أي فائزة الطرف .

وسجى البحر إذا سكنت أمواجه ، وقال في الدعاء :

يا مالك البحر إذا البحر سجى

وأما الثاني : وهو تفسير سجى بأظلم .

فقال الفراء : سجى أي أظلم وركد في طوله .

وأما الثالث : وهو تفسير سجى بغطى ، فقال الأصمعي وابن الأعرابي سجى الليل تغطيته النهار ، مثل ما يسجى الرجل بالثوب ، واعلم أن أقوال المفسرين غير خارجة عن هذه الوجوه الثلاثة فقال ابن عباس : غطى الدنيا بالظلمة ، وقال الحسن : ألبس الناس ظلامه ، وقال ابن عباس في رواية سعيد بن جبير : إذا أقبل الليل غطى كل شيء ، وقال مجاهد وقتادة والسدي وابن زيد : سكن بالناس ولسكونه معنيان أحدهما : سكون الناس فنسب إليه كما يقال ليل نائم ونهار صائم والثاني : هو أن سكونه عبارة عن استقرار ظلامه واستوائه فلا يزداد بعد ذلك ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : ما الحكمة في أنه تعالى في السورة الماضية قدم ذكر الليل ، وفي هذه السورة أخره ؟ قلنا : فيه وجوه أحدها : أن بالليل والنهار ينتظم مصالح المكلفين ، والليل له فضيلة السبق لقوله : ﴿ وَجَعَلَ الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] وللنهار فضيلة النور ، بل الليل كالدنيا والنهار كالآخرة ، فلما كان لكل واحد فضيلة ليست للآخر ، لا جرم قدم هذا على ذاك تارة وذاك ، على هذا أخرى ، ونظيره أنه تعالى قدم السجود على الركوع في قوله :

﴿ واسجدى واركعى ﴾ [آل عمران : 43] ثم قدم الركوع على السجود في قوله :

﴿ اركعوا واسجدوا ﴾ [الحج : 77] وثانيها : أنه تعالى قدم الليل على النهار في سورة أبي بكر لأن أبا بكر سبقه كفر ، وههنا قدم الضحى لأن الرسول عليه الصلاة والسلام ما سبقه ذنب وثالثها : سورة والليل سورة أبي بكر ، وسورة الضحى سورة محمد عليه الصلاة والسلام ثم ما جعل بينهما واسطة ليعلم أنه لا واسطة بين محمد وأبي بكر ، فإذا ذكرت الليل أولاً وهو أبو بكر ، ثم صعدت وجدت بعده النهار وهو محمد ، وإن ذكرت والضحى أولاً وهو محمد ، ثم نزلت وجدت بعده ، والليل وهو أبو بكر ، ليعلم أنه لا واسطة بينهما .

السؤال الثاني : ما الحكمة ههنا في الحلف بالضحى والليل فقط ؟ والجواب : لوجوه أحدها : كأنه تعالى يقول : الزمان ساعة ، فساعة ساعة ليل ، وساعة نهار ، ثم يزداد

فمرة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار ، ومرة بالعكس فلا تكون الزيادة لهوى ولا النقصان لقلى .

(59/819)

بل للحكمة ، كذا الرسالة وإنزال الوحي بحسب المصالح فمرة إنزال ومرة حبس ، فلا كان الإنزال عن هوى ، ولا كان الحبس عن قلى وثانيها : أن العالم لا يؤثر كلامه حتى يعمل به ، فلما أمر الله تعالى بأن البينة على المدعي واليمين على من أنكر ، لم يكن بد من أن يعمل به ، فالكفار لما ادعوا أن ربه ودعه وقلاه ، قال : هاتوا الحجة فعجزوا فلزمه اليمين بأنه ما ودعه ربه وما قلاه وثانيها : كأنه تعالى يقول : انظروا إلى جوار الليل مع النهار لا يسلم أحدهما عن الآخر بل الليل تارة يغلب وتارة يغلب فكيف تطمع أن تسلم على الخلق .

السؤال الثالث : لم خص وقت الضحى بالذكر ؟ الجواب : فيه وجوه أحدها : أنه وقت اجتماع الناس وكمال الأنس بعد الاستيحاش في زمان الليل ، فبشروه أن بعد استيحاشك بسبب احتباس الوحي يظهر ضحى نزول الوحي وثانيها : أنها الساعة التي كلم فيها موسى ربه ، وألقى فيها السحرة سجداً ، فاكتسى الزمان صفة الفضيلة لكونه ظرفاً ، فكيف

فاعل الطاعة ! وأفاد أيضاً أن الذي أكرم موسى لا يدع إكرامك ، والذي قلب قلوب السحرة حتى سجدوا يقلب قلوب أعدائك .

(60/819)

السؤال الرابع : ما السبب في أنه ذكر الضحى وهو ساعة من النهار ، وذكر الليل بكليته ؟ الجواب : فيه وجوه أحدها : أنه إشارة إلى أن ساعة من النهار توازي جميع الليل كما أن محمداً إذا وزن يوازي جميع الأنبياء والثاني : أن النهار وقت السرور والراحة ، والليل وقت الوحشة والغم فهو إشارة إلى أن هموم الدنيا أدوم من سرورها ، فإن الضحى ساعة والليل كذا ساعات ، يروى أن الله تعالى لما خلق العرش أظلت غمامة سوداء عن يسارة ، ونادت ماذا أمطر ؟ فأجيبت أن امطري الهموم والأحزان مائة سنة ، ثم انكشفت فأمرت مرة أخرى بذلك وهكذا إلى تمام ثلاثمائة سنة ، ثم بعد ذلك أظلت عن يمين العرش غمامة بيضاء ونادت : ماذاء أمطر ؟ فأجيبت أن أمطري السرور ساعة ، فلهذا السبب ترى الغموم والأحزان دائمة ، والسرور قليلاً ونادراً وثالثها : أن وقت الضحى وقت حركة الناس وتعارفهم فصارت نظير وقت الحشر ، والليل إذا سكن نظير سكون الناس في ظلمة القبور ، فكلاهما حكمة ونعمة لكن الفضيلة للحياة على الموت ، ولما بعد الموت على ما

قبله ، فلهذا السبب قدم ذكر الضحى على ذكر الليل ورابعها : ذكروا الضحى حتى لا يحصل اليأس من روحه ، ثم عقبه بالليل حتى لا يحصل الأمن من مكره .

السؤال الخامس : هل أحد من المذكرين فسر الضحى بوجه محمد والليل بشعره ؟

والجواب : نعم ولا استبعاد فيه ومنهم من زاد عليه فقال : والضحى ذكور أهل بيته ، والليل إناثهم ، ويحتمل الضحى رسالته والليل زمان احتباس الوحي ، لأن في حال النزول حصل الاستئناس وفي زمن الاحتباس حصل الاستيحاش ، ويحتمل والضحى نور علمه الذي به يعرف المستور من الغيوب : والليل عفوه الذي به يستر جميع الغيوب .

ويحتمل أن الضحى إقبال الإسلام بعد أن كل غريباً والليل إشارة إلى أنه سيعود غريباً ، ويحتمل والضحى كمال العقل ، والليل حال الموت ، ويحتمل أقسم بعلانيتك التي لا يرى عليها الخلق عيباً ، وبسرك الذي لا يعلم عليه عالم الغيب عيباً .

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال أبو عبيدة والمبرد : ودعك من التوديع كما يودع المفارق ، وقرىء بالتخفيف أي ما تركك ، والتوديع مبالغة في الوداع ، لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك والقلى البغض . يقال : قلاه يقليه قلى ومقلية إذا أبغضه ، قال الفراء : يريد وما قلاك ، وفي حذف الكاف وجوه أحدها : حذفت الكاف اكتفاء بالكاف الأولى في ودعك ، ولأن رؤس الآيات بالياء ، فأوجب اتفاق الفواصل حذف الكاف وثانيها : فائدة الإطلاق أنه ما قلاك ولا (قلا) أحد من أصحابك .

ولا أحداً ممن أحبك إلى قيام القيامة ، تقريراً لقوله : "المرء مع من أحب" .

المسألة الثانية :

قال المفسرون : أبطأ جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال المشركون : قد قلاه الله وودعه ، فأنزل الله تعالى عليه هذه الآية ، وقال السدي : أبطأ عليه أربعين ليلة فشكا ذلك إلى خديجة ، فقالت : لعل ربك نسيك أو قلاك ، وقيل : إن أم جميل امرأة أبي لهب قالت له : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، وروي عن الحسن أنه قال : أبطأ على الرسول صلى الله عليه وسلم الوحي ، فقال لخديجة : "إن ربي ودعني

وقلاني ، يشكو إليها ، فقالت : كلا والذي بعثك بالحق ما ابتدأك الله بهذه الكرامة إلا وهو يريد أن يتمها لك" فنزل : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ وطعن الأصوليون في هذه الرواية ، وقالوا : إنه لا يليق بالرسول صلى الله عليه وسلم أن يظن أن الله تعالى ودعه وقلاه ، بل يعلم أن عزل النبي عن النبوة غير جائز في حكمة الله تعالى ، ويعلم أن نزول الوحي يكون بحسب المصلحة ، وربما كان الصلاح تأخيره ، وربما كان خلاف ذلك ، فثبت أن هذا الكلام غير لائق بالرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم إن صح ذلك يحمل على أنه كان مقصوده عليه الصلاة والسلام أن يجربها ليعرف قدر علمها ، أو ليعرف الناس قدر علمها ، واختلفوا في قدر مدة انقطاع الوحي ، فقال ابن جريج : اثنا عشر يوماً ، وقال الكلبي : خمسة عشر يوماً ، وقال ابن عباس : خمسة وعشرون يوماً ، وقال السدي ومقاتل : أربعون يوماً ، واختلفوا في سبب احتباس جبريل عليه السلام ، فذكر أكثر المفسرين أن اليهود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف ، فقال : " سأخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله " فاحتبس عنه الوحي ، وقال ابن زيد : السبب فيه كون جرو في بيته للحسن والحسين ، فلما نزل جبريل عليه السلام ، عاتبه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال : "أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة" وقال جندب بن سفيان : رمى النبي عليه الصلاة بحجر في إصبعه ، فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت . . وفي سبيل الله ما لقيت

فأبطأ عنه الوحي ، وروي أنه كان فيهم من لا يقلم الأظفار وههنا سؤالان .

السؤال الأول : الروايات التي ذكرتم تدل على أن احتباس الوحي كان عن قلى : قلنا أقصى ما في الباب أن ذلك كان تركاً للأفضل والأولى ، وصاحبه لا يكون ممقوتاً ولا مبغضاً ، وروى أنه عليه الصلاة والسلام قال لجبريل : " ما جئتني حتى اشتقت إليك ، فقال جبريل : كنت إليك أشوق ولكني عبداً مأموراً " وتلا : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم : 64] .

السؤال الثاني : كيف يحسن من السلطان أن يقول لأعظم الخلق قربة عنده : إني لا أبغضك تشريفاً له ؟ الجواب : أن ذلك لا يحسن ابتداء ، لكن الأعداء إذا ألقوا في الألسنة أن السلطان يبغضه ، ثم تأسف ذلك المقرب فلا لفظ أقرب إلى تشريفه من أن يقول له : إني لا أبغضك ولا أدعك ، وسوف ترى منزلتك عندي .

المسألة الثالثة :

هذه الواقعة تدل على أن القرآن من عند الله ، إذ لو كان من عنده لما امتنع .

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4)

واعلم أن في اتصاله بما تقدم وجوهاً أحدها : أن يكون المعنى أن انقطاع الوحي لا يجوز أن

يكون لأنه عزل عن النبوة ، بل أقصى ما في الباب ، أن يكون ذلك لأنه حصل الاستغناء عن الرسالة ، وذلك أمارة الموت فكأنه يقال : انقطاع الوحي متى حصل دل على الموت ، لكن الموت خير لك .

(64/819)

فإن مالك عند الله في الآخرة خير وأفضل مما لك في الدنيا وثانيها : لما نزل : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ [الضحى : 3] حصل له بهذا تشريف عظيم ، فكأنه استعظم هذا التشريف فقيل له : ﴿ وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ أي هذا التشريف وإن كان عظيماً إلا أن مالك عند الله في الآخرة خير وأعظم وثالثها : ما يخطر ببالي ، وهو أن يكون المعنى وللأحوال الآتية خير لك من الماضية كأنه تعالى وعده بأنه سيزيده كل يوم عزاً إلى عز ، ومنصباً إلى منصب ، فيقول : لا تظن أني قليتك بل تكون كل يوم يأتي فإني أزيدك منصباً وجلالاً ، وههنا سؤالان :

السؤال الأول : بأي طريق يعرف أن الآخرة كانت له خيراً من الأولى ؟ الجواب : لوجوه أحدها : كأنه تعالى يقول له إنك في الدنيا على خير لأنك تفعل فيها ما تريد ، ولكن الآخرة خير لك لأنا نفعل فيها ما نريد وثانيها : الآخرة خير لك يجتمع عندك أمتك إذ الأمة له

كالأولاد قال تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ [الأحزاب : 6] وهو أب لهم ، وأمته في الجنة فيكون كأن أولاده في الجنة ، ثم سمى الولد قرة أعين ، حيث حكى عنهم : ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أزواجنا وذرياتنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان : 74] وثالثها : الآخرة خير لك لأنك اشتريتها ، أما هذه ليست لك ، فعلى تقدير أن لو كانت الآخرة أقل من الدنيا لكانت الآخرة خيراً لك ، لأن مملوكك خير لك مما لا يكون مملوكاً لك ، فكيف ولا نسبة للآخرة إلى الدنيا في الفضل ورابعها : الآخرة خير لك من الأولى لأن في الدنيا الكفار يطعنون فيك أما في الآخرة فأجعل أمتك شهداء على الأمم ، وأجعلك شهيداً على الأنبياء ، ثم أجعل ذاتي شهيداً لك كما قال : ﴿ وكفى بالله شَهِيداً * مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ الله ﴾ [الفتح : 29 28]

وخامسها : أن خيرات الدنيا قليلة مشوبة منقطعة ، ولذات الآخرة كثيرة خالصة دائمة .

(65/819)

السؤال الثاني : لم قال : ﴿ وَلَلأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ ﴾ ولم يقل خير لكم ؟ الجواب : لأنه كان في جماعته من كانت الآخرة شراً له ، فلو أنه سبحانه عمم لكان كذباً ، ولو خصص المطيعين بالذكر لافتضح المذنبون والمنافقون .

ولهذا السبب قال موسى عليه السلام : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِىَ رَبّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 62

] وأما محمد صلى الله عليه وسلم فالذي كان معه لما كان من أهل السعادة قطعاً ، لا جرم

قال : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾

[التوبة : 40] إذ لم يكن ثم إلا نبي وصديق ، وروي أن موسى عليه السلام خرج

للاستسقاء ، ومعه الألوف ثلاثة أيام فلم يجدوا الإجابة ، فسأل موسى عليه السلام عن

السبب الموجب لعدم الإجابة .

فقال : لا أجيبكم ما دام معكم ساع بالنميمة ، فسأل موسى من هو ؟ فقال : (إني)

أبغضه فكيف أعمل عمله ، فما مضت مدة قليلة حتى نزل الوحي بأن ذلك النمام قد مات

، وهذه جنازته في مصلى ، كذا فذهب موسى عليه السلام إلى تلك المصلى ، فإذا فيها

سبعون من الجنائز ، فهذا ستره على أعدائه فكيف على أوليائه .

ثم تأمل فإن فيه دقيقة لطيفة ، وهي أنه عليه السلام قال : " لولا شيوخ ركع " وفيه إشارة

إلى زيادة فضيلة هذه الأمة ، فإنه تعالى كان يرد الألوف لمذنب واحد ، وههنا يرحم المذنبين

لمطيع واحد .

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5)

واعلم اتصاله بما تقدم من وجهين الأول : هو أنه تعالى لما بين أن الآخرة : خير له من الأولى

ولكنه لم يبين أن ذلك التفاوت إلى أي حد يكون .

فبين بهذه الآية مقدار ذلك التفاوت ، وهو أنه ينتهي إلى غاية ما يتمناه الرسول ويرتضيه الوجه الثاني : كأنه تعالى لما قال : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ [الضحى : 4] فقيل ولم قلت إن الأمر كذلك ، فقال : لأنه يعطيه كل ما يريده وذلك مما لا تتسع الدنيا له ، فثبت أن الآخرة خير له من الأولى ، واعلم أنه إن حملنا هذا الوعد على الآخرة فقد يمكن حمله على المنافع ، وقد يمكن حمله على التعظيم ، أما المنافع ، فقال ابن عباس : ألف قصر في الجنة من لؤلؤ أبيض ترابه المسك وفيها ما يليق بها ، وأما التعظيم فالمروى عن علي بن أبي طالب عليه السلام وابن عباس ، أن هذا هو الشفاعة في الأمة ، يروى أنه عليه السلام لما نزلت هذه الآية قال : إذاً لا أرضى وواحد من أمتي في النار ، واعلم أن الحمل على الشفاعة متعين ، ويدل عليه وجوه أحدها : أنه تعالى أمره في الدنيا بالاستغفار فقال : ﴿ أَسْتَغْفِرُ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ [محمد : 19] فأمره بالاستغفار والاستغفار عبارة عن طلب المغفرة ، ومن طلب شيئاً فلا شك أنه لا يريد الرد ولا يرضى به وإنما يرضى بالإجابة ، وإذا ثبت أن الذي يرضاه الرسول صلى الله عليه وسلم هو الإجابة لا الرد ، ودلت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه كل ما يرتضيه .

علمنا أن هذه الآية دالة على الشفاعة في حق المذنبين والثاني : وهو أن مقدمة الآية مناسبة لذلك كأنه تعالى يقول لا أودعك ولا أبغضك بل لا أغضب على أحد من أصحابك وأتباعك وأشياعك طلباً لمرضاتك وتطييباً لقلبك ، فهذا التفسير أوفق لمقدمة الآية والثالث : الأحاديث الكثيرة الواردة في الشفاعة دالة على أن رضا الرسول عليه الصلاة والسلام في العفو عن المذنبين ، وهذه الآية دلت على أنه تعالى يفعل كل ما يرضاه الرسول فتحصل من مجموع الآية والخبر حصول الشفاعة ، وعن جعفر الصادق عليه السلام أنه قال : رضاء جدي أن لا يدخل النار موحد ، وعن الباقر ، أهل القرآن يقولون : أرجى آية قوله : ﴿ ياعبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر : 53] وإنا أهل البيت نقول : أرجى آية قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ والله إنها الشفاعة ليعطاها في أهل لا إله إلا الله حتى يقول رضيت ، هذا كله إذا حملنا الآية على أحوال الآخرة ، أما لو حملنا هذا الوعد على أحوال الدنيا فهو إشارة إلى ما أعطاه الله تعالى من الظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجاً ، والغلبة على قريظة والنضير وإجلائهم وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب ، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن ، و (ما) هدم بأيديهم من ممالك الجبابرة ، وأنهبهم من كنوز الأكاسرة ، وما قذف

في أهل الشرق والغرب من الرعب وتهييب الإسلام وفشو الدعوة ، واعلم أن الأولى حمل الآية على خيرات الدنيا والآخرة ، وههنا سؤالات .

(68/819)

السؤال الأول : لم لم يقل : يعطيكم مع أن هذه السعادات حصلت للمؤمنين أيضاً ؟ الجواب : لوجوه : أحدها : أنه المقصود وهم أتباع وثانيها : أني إذا أكرمت أصحابك فذاك في الحقيقة إكرام لك ، لأني أعلم أنك بلغت في الشفقة عليهم إلى حيث تفرح بإكرامهم فوق ما تفرح بإكرام نفسك ، ومن ذلك حيث تقول الأنبياء : نفسي نفسي ، أي أبدأ بجزائي وثوابي قبل أمتي ، لأن طاعتي كانت قبل طاعة أمتي ، وأنت تقول : أمتي أمتي ، أي أبدأ بهم ، فإن سروري أن أراهم فائزين بثوابهم وثالثها : أنك عاملتني معاملة حسنة ، فإنهم حين شجوا وجهك ، قلت : " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون " وحين شغلوك يوم الخندق عن الصلاة ، قلت : " اللهم املأ بطونهم ناراً " فتحملت الشجة الحاصلة في وجه جسدك ، وما تحملت الشجة الحاصلة في وجه دينك ، فإن وجه الدين هو الصلاة ، فرجحت حقي على حقك ، لا جرم فضلتك ، فقلت من ترك الصلاة سنين ، أو حبس غيره عن الصلاة سنين لا أكفره ، ومن آذى شعرة من شعراتك ، أو جزء من نعلك أكفره .

السؤال الثاني : ما الفائدة في قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ ﴾ ولم لم يقل : وسيعطيك ربك ؟ الجواب : فيه فوائد إحداها : أنه يدل على أنه ما قرب أجله ، بل يعيش بعد ذلك زماناً وثانيها : أن المشركين لما قالوا : ودعه ربه وقلاه فالله تعالى رد عليهم بعين تلك اللفظة ، فقال : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 3] ثم قال المشركون : سوف يموت محمد ، فرد الله عليهم ذلك بهذه اللفظة فقال : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ .

السؤال الثالث : كيف يقول الله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ ؟ الجواب : هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام جبريل عليه السلام معه ، لأنه كان شديد الاشتياق إليه وإلى كلامه كما ذكرنا ، فأراد الله تعالى أن يكون هو المخاطب له بهذه البشارات .

(69/819)

السؤال الرابع : ما هذه اللام الداخلة على سوف ؟ الجواب : قال صاحب "الكشاف" : هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة ، والمبتدأ محذوف تقديره : ولأنت سوف يعطيك ربك والدليل على ما قلنا أنها إما أن تكون لام القسم ، أو لام الابتداء ، ولام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد ، فبقي أن تكون لام ابتداء ، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر ، فلا بد من تقدير مبتدأ وخبر ، وأن يكون أصله : ولأنت سوف

يعطيك ، فإن قيل ما معنى الجمع بين حرفي التوكيد والتأخير ؟ قلنا معناه : أن العطاء كائن لا محالة ، وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 188.194 ﴾

(70/819)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ والضحى * والليل إذا سجى ﴾

قد تقدّم القول في "الضحى" ، والمراد به النهار ؛ لقوله ؛ ﴿ والليل إذا سجى ﴾ فقابله بالليل .

وفي سورة (الأعراف) ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف : 97 98] أي نهاراً .

وقال قتادة ومقاتل وجعفر الصادق : أقسم بالضحى الذي كلم الله فيه موسى ، وبليلة المِعراج.

وقيل : هي الساعة التي خرّ فيها السَّحَرة سجداً .

بيانه قوله تعالى : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ [طه : 59] .

وقال أهل المعاني فيه وفي أمثاله : فهي إضمار ، مجازه ورب الضحى .

و ﴿ سجى ﴾ معناه : سكن ؛ قاله قتادة ومجاهد وابن زيد وعكرمة .

يقال : ليلة ساجية أي ساكنة .

ويقال للعين إذا سكن طرفها : ساجية .

يقال : سجا الليل يسجو سَجْواً : إذا سكن .

والبحر إذا سجا : سكن .

قال الأعشى :

فما ذنبنا أن جاش بحر ابن عمكم . . .

وبحرك ساجٍ ما يوارِي الدعامِصا

وقال الراجز :

يا حَبَّذَا القَمْراءُ والليلُ الساجْ . . .

وطُرُق مِثل مِلاءِ النسّاجْ

وقال جرير :

ولقد رمينَك يوم رُحْن بأعينٍ . . .

ينظرن من خِلَل الستور سواجي

وقال الضحاك : "سجا" غطَّى كل شيء .

قال الأصمعيّ : سَجْو الليل : تغطيته النهار ؛ مثلما يُسَجَّى الرجل بالثوب .

وقال الحسن : غشى بظلامه ؛ وقاله ابن عباس .

وعنه : إذا ذهب .

وعنه أيضاً : إذا أظلم .

وقال سعيد بن جبير : أقبل ؛ وروي عن قتادة أيضاً .

وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد : "سجا" استوى .

والقول الأوّل أشهر في اللغة : "سجا" سكن ؛ أي سكن الناس فيه .

كما يقال : نهار صائم ، وليل قائم .

وقيل : سكونه استقرار ظلامه واستواؤه .

ويقال : "والضحى .

والليلِ إذا سَجَا" : يعني عباده الذين يعبدونه في وقت الضحى ، وعباده الذين يعبدونه بالليلِ إذا أظلم .

ويقال : "الضحى" : يعني نور الجنة إذا تنوّر .

"والليل إذا سجا" : يعني ظلمة الليل إذا أظلم .

ويقال : "والضحى" : يعني النور الذي في قلوب العارفين كهيئة النهار .

"والليلِ إذا سجا" : يعني السواد الذي في قلوب الكافرين كهيئة الليل ؛ فأقسم الله عز وجل بهذه الأشياء .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ : هذا جواب القسم .

وكان جبريل عليه السلام أبطأ على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال المشركون : قلاه الله وودّعه ؛ فنزلت الآية .

وقال ابن جريج : احتبس عنه الوحي اثني عشر يوماً .

وقال ابن عباس : خمسة عشر يوماً .

وقيل : خمسة وعشرين يوماً .

وقال مقاتل : أربعين يوماً .

فقال المشركون : إن محمداً ودّعه ربه وقلاه ، ولو كان أمره من الله لتابع عليه ، كما كان يفعل بمن كان قبله من الأنبياء .

وفي البخاريّ عن جندب بن سفيان قال : اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يقُم ليلتين أو ثلاثاً ؛ فجاءت امرأة فقالت : يا محمد ، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد

تركك ، لم أره قرِبَك منذ ليلتين أو ثلاث ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ .

وفي الترمذيّ " عن جندب البجليّ قال : كنت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في غار فدمِيت إصبعه ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ ، وفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ" قال : وأبطأ عليه جبريل فقال المشركون : قد وُدِّعَ محمد ؛ فأنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ " هذا حديث حسن صحيح .

لم يذكر الترمذي : " فلم يَقُم ليلتين أو ثلاثاً " أسقطه الترمذيّ .

وذكره البخاري ، وهو أصح ما قيل في ذلك .

والله أعلم .

(72/819)

وقد ذكره الثعلبي أيضاً عن جندب بن سفيان البجلي ، قال : " رُمِي النبيّ صلى الله عليه وسلم في إصبعه بحجر ، فدمِيت ، فقال : "هل أنتِ إلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ ، وفي سبيل اللَّهِ ما لَقِيتِ" فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم الليل .

فقالت له أم جميل امرأة أبي لهب : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، لم أره قرِبك منذ ليلتين أو

ثلاث ؛ فنزلت ﴿ والضحى ﴾ " وروى عن أبي عِمران الجَوني ، قال : " أبطأ جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى شق عليه ؛ فجاء وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو ؛ فنكت بين كتفيه ، وأنزل عليه : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ .

وقالت خولة وكانت تخدُم النبيّ صلى الله عليه وسلم : إن جَرْواً دخل البيت ، فدخل تحت السرير فمات ، فمكث نبيّ الله صلى الله عليه وسلم أياماً لا ينزل عليه الوحي .

فقال : "يا خولة ، ما حدث في بيتي ؟ ما لجبريل لا يأتيني" قالت خولة فقلت : لو هيأت البيت وكنسته ؛ فأهويت بالمِكنسة تحت السرير ، فإذا جَرْوٌ ميت ، فأخذته فألقيته خلف الجدار ؛ فجاء نبيّ الله ترعد لِحْيَاه وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرِّعدة فقال : "يا خولة دثِريني" فأنزل الله هذه السورة .

ولما نزل جبريل سأله النبيّ صلى الله عليه وسلم عن التأخر فقال : "أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صُورة" " وقيل : " لما سألته اليهود عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف قال : "سأخبركم غداً" ولم يقل إن شاء الله .

فاحتبس عنه الوحي ، إلى أن نزل جبريل عليه بقوله : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف : 23 24] فأخبره بما سئل عنه " وفي هذه القصة نزلت ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ .

وقيل : " إن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، ما لك لا ينزل عليك الوحي ؟ فقال : "وكيف

ينزل عليّ وأنتم لا تنقون رواجِبكم وفي رواية براجِمكم ولا تقصون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم" .

(73/819)

فنزل جبريل بهذه السورة ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما جئت حتى اشتقت إليك" فقال جبريل : "وأنا كنت أشدّ إليك شوقاً ، ولكني عبد مأمور" ثم أنزِل عليه ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم : 64] "

"ودّعك" بالتشديد : قراءة العامة ، من التوديع ، وذلك كتوديع المُفارق .

وروي عن ابن عباس وابن الزبير أنهما قرأاهُ "وَدَعك" بالتخفيف ، ومعناه : تركك .

قال :

وثم وَدَعْنا آلَ عمرو وعامر . . .

فرائسَ أطراف المثقفة السمْرِ

واستعماله قليل .

يقال : هو يدع كذا ، أي يتركه .

قال المبرد محمد بن يزيد : لا يكادون يقولون وَدَعَ ولا وَذَرَ ، لضعف الواو إذا قدمت ،

واستغنوا عنها بترك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا قلى ﴾ أي ما أبغضك ربك منذ أحبك .

وترك الكاف ، لأنه رأس آية .

والقِلَى : البغض ؛ فإن فتحت القاف مددت ؛ تقول ؛ قلاه يقلِيه قِلًى وقَلَاءً .

كما تقول ؛ قريت الضيف أقرِيه قِرًى وقَرَاء .

ويقلاه : لغة طيء .

وأنشد ثعلب :

أيامَ أمِّ الغمْرِ لا نقْلاها . . .

أي لا نُبغضها .

ونَقْلِي أي نُبغض .

وقال :

أسِيئي بنا أو أحْسِنِي لا ملومةٌ . . .

لدينا ولا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ

وقال امرؤ القيس :

ولستُ بمقْلِيّ الخِلال ولا قالِ . . .

وتأويل الآية : ما ودّعك ربك وما قلاك .

فترك الكاف لأنه رأس آية؛ كما قال عز وجل: ﴿ والذاكرين الله كَثِيراً والذاكرات ﴾ [الأحزاب: 35] أي والذاكراتِ الله.

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5)

روى مسلمة عن ابن إسحاق قال: ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ أي ما عندي في مرجعك إليّ يا محمد، خير لك مما عجلت لك من الكرامة في الدنيا.

وقال ابن عباس: أُرِي النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يفتح الله على أمته بعده؛ فسُرّ بذلك؛ فنزل جبريل بقوله: ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾.

(74/819)

قال ابن إسحاق: الفَلْجُ في الدنيا، والثواب في الآخرة.

وقيل: الحوض والشفاعة.

وعن ابن عباس: ألف قَصْر من لؤلؤ أبيض ترابه المِسك.

رفعه الأوزاعيّ، قال: حدثني إسماعيل بن عبيد الله، عن علي بن عبد الله بن عباس، عن أبيه قال: أرِي النبي صلى الله عليه وسلم ما هو مفتوح على أمّته، فسر بذلك؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿ والضحى ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾،

فأعطاه الله جل ثناؤه ألف قصر في الجنة ، ترابها المسك ؛ في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم .

وعنه قال : رضِي محمد ألا يدخل أحد من أهل بيته النار .

وقال السدي .

وقيل : هي الشفاعة في جميع المؤمنين .

وعن عليّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يشفعنِي الله في أُمّتي حتى يقول الله سبحانه لي : رضيت يا محمد ؟ فأقول يا رب رضِيت " وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى في إبراهيم : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 36] وقول عيسى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : 118] ، فرفع يديه وقال : "اللهم أمتي أمتي" وبكى .

فقال الله تعالى لجبريل : "اذهب إلى محمد ، وربك أعلم ، فسله ما يبكيك" فأتى جبريل النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فسأله فأخبره .

فقال الله تعالى لجبريل : "اذهب إلى محمد ، فقل له : إن الله يقول لك : إنا سنرضيك في أمتك ولا نَسوءك" " وقال عليّ رضي الله عنه لأهل العراق : إنكم تقولون إن أرجى آية في كتاب الله تعالى : ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ [

الزمر : 53] قالوا : إنا نقول ذلك .

قال : ولكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .

(75/819)

وفي الحديث : لما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذاً واللَّهِ لا أرضَى وواحد من أمتي في النار " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(76/819)

وقال ابن كثير :

تفسير سورة الضحى

وهي مكية .

روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بَزةَ المقرئ قال : قرأت على عكرمة بن سليمان ، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عبَّاد ، فلما

بلغت " وَالضُّحَى " قالا لي : كَبر حتى تختم مع خاتمة كل سورة ، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك . وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك ، وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك ، وأخبره أبي أنه قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره بذلك (1) .

فهذه سُنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزي ، من ولد القاسم بن أبي بزة ، وكان إمامًا في القراءات ، فأما في الحديث فقد ضَعَّفَه أبو حاتم الرازي وقال : لا أحدث عنه ، وكذلك أبو جعفر العقيلي قال : هو منكر الحديث . لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في شرح الشاطبية عن الشافعي أنه سمع رجلا يكبر هذا التكبير في الصلاة ، فقال له : أحسنت وأصبت السنة . وهذا يقتضي صحة هذا الحديث .

ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته ، فقال بعضهم : يكبر من آخر " وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى " وقال آخرون : من آخر " وَالضُّحَى " وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول : الله أكبر ويقتصر ، ومنهم من يقول الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر .

وذكر الفراء في مناسبة التكبير من أول سورة "الضحى" : أنه لما تأخر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتر تلك المدة [ثم] جاءه الملك فأوحى إليه : " وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى " السورة بتمامها ، كبر فرحًا وسرورًا . ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف ، فالله أعلم .

---

(1) ورواه الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال (145/1) ثم قال : "هذا حديث غريب ، وهو مما أنكر على البزي ، قال أبو حاتم : هذا منكر" .

(77/819)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم ، حدثنا سفيان ، عن الأسود بن قيس قال : سمعت جُنْدُبا يقول : اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (1) .

رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، وابن جرير ، من طرق ، عن الأسود بن قيس ، عن جُنْدُب - هو ابن عبد الله البَجلي ثم العَلَقي به (2) وفي رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس : سمع جندبًا قال : أبطأ جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال المشركون : وُدِّع محمد . فأنزل الله : ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (3) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله الأودي قالا حدثنا أبو أسامة ، حدثني سفيان ، حدثني الأسود بن قيس ، أنه سمع جندبًا يقول : رمي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر في أصبعه فقال :

هل أنت إلا أصبع دميت . . . وفي سبيل الله ما لقيت؟ . . .

قال : فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم ، فقالت له امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك فنزلت : ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ والسياق لأبي سعيد .

قيل : إن هذه المرأة هي : أم جميل امرأة أبي لهب ، وذكر أن إصبعه ، عليه السلام ، دميت . وقوله – هذا الكلام الذي اتفق أنه موزون – ثابت في الصحيحين (4) ولكن الغريب هاهنا جعله سببًا لتركه القيام ، ونزول هذه السورة . فأما ما رواه ابن جرير :

---

(1) المسند (312/4) .

(2) صحيح البخاري برقم (1124 ، 1125 ، 4983 ، 4950 ، 4951) وصحيح مسلم برقم (1797) وسنن الترمذي برقم (3345) وسنن النسائي الكبرى برقم (11681) وسنن ابن ماجة برقم (3250) .

(3) هذه الرواية في مسلم والترمذي .

(4) صحيح البخاري برقم (2802) وصحيح مسلم برقم (1796) .

(78/819)

حدثنا ابن أبي الشوارب، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا سليمان الشيباني، عن عبد الله ابن شداد: أن خديجة قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: ما أرى ربك إلا قد قلاك. فأنزل الله: ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾

وقال أيضا: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وكيع، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه قال: أبطأ جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، فجزع جزعًا شديدًا، فقالت خديجة: إني أرى ربك قد قلاك مما نرى من جزعك. قال: فنزلت: ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ إلى آخرها (1).

---

(1) تفسير الطبري (148/30).

(79/819)

فإنه حديث مرسل من [هذين الوجهين] ولعل ذكر خديجة ليس محفوظًا، أو قالته على وجه التأسف والتحزن، والله أعلم.

وقد ذكر بعض السلف – منهم ابن إسحاق – أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين تبدى له في صورته التي خلقه الله عليها ، ودنا إليه وتدلى منهبطًا عليه وهو بالأبطح ، ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النجم : 10] .

قال : قال له هذه السورة : ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾

قال العوفي ، عن ابن عباس : لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، أبطأ عنه جبريل أياما ، فتغير بذلك ، فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه . فأنزل الله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾

وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ أي : سكن فأظلم وادلَهَم . قاله مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغيرهم . وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا . كما قال : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ [الليل : 1 ، 2] ، وقال : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [الأنعام : 96] .

وقوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ أي : ما تركك ، ﴿ وَمَا قَلَى ﴾ أي : وما أبغضك ، ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾ أي : والدار الآخرة خير لك من هذه الدار . ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهد الناس في الدنيا ، وأعظمهم لها إطراحًا ، كما هو معلوم [بالضرورة] من سيرته . ولما خُيِّرَ ، عليه السلام ، في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى

آخرها ثم الجنة، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية.

(80/819)

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا المسعودي، عن عمرو بن مرة، عن إبراهيم النَّخعِي، عن علقمة، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال: اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير، فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئًا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظَلّ تحت شجرة، ثم راح وتركها.

ورواه الترمذي وابن ماجة، من حديث المسعودي به (1) وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقوله: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ أي: في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته، وفيما أعدّه له من الكرامة، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، وطينه [من] مسك أذفر كما سيأتي.

وقال الإمام أبو عمر الأوزاعي ، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي ، عن

(1) المسند (391/1) وسنن الترمذي برقم (2377) وسنن ابن ماجة برقم (4109) .

(81/819)

علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال : عرض على رسول الله ما هو مفتوح على أمته من بعده كنزا كنزا ، فسر بذلك ، فأنزل الله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ فأعطاه في الجنة ألف ألف قصر ، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم . رواه ابن جرير من طريقه ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس : ومثلُ هذا ما يقال إلا عن توقيف .

وقال السدي ، عن ابن عباس : من رضاء محمد صلى الله عليه وسلم ألا يدخل أحد من أهل بيته النار . رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم .

وقال الحسن : يعني بذلك الشفاعة . وهكذا قال أبو جعفر الباقر .

وقال أبو بكر بن أبي شيبة : حدثنا معاويةُ بن هشام ، عن علي بن صالح ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"إنا أهلُ بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾

(1) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 5 صـ 423. 426 ﴾

---

(1) ورواه البغوي في شرح السنة (248/14) من طريق ابن أبي شيبة فذكره دون الآية ، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (236/15) بهذا الطريق ولم يذكر الآية ، ولعل ذكرها وقع في كتاب التفسير ، ورواه ابن ماجة في السنن برقم (4082) عن عثمان بن أبي شيبة ، عن معاوية بن هشام به ، وقال البوصيري في الزوائد (262/3) : "هذا إسناد فيه يزيد بن أبي زياد الكوفي مختلف فيه" .

(82/819)

وقال الآلوسى :

﴿ والضحى ﴾ تقدم الكلام فيه والمراد به هنا وقت ارتفاع الشمس الذي يلي وقت بروزها للناظرين دون ضوئها وارتفاعها لأنه أنسب بما بعد وتخصيصه بالأقسام به لأنه شباب النهار وقوله فيه قوة غير قريبة من ضدها .

ولذا عد شرفاً يومياً للشمس وسعداً ولأنه على ما قالوا الساعة التي كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام وألقى فيه السحرة سجداً لقوله تعالى : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النّاس ضُحًى ﴾ [طه : 59] ففيه مناسبة للمقسم عليه وهو أنه تعالى لم يترك النبي صلى الله عليه

وسلم ولم يفارقه الطاقة تعالى وتكليمه سبحانه وقيل المراد به النهار كما في قوله تعالى : ﴿ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ﴾ [الأعراف : 98] واعترض بالفرق فإنه فوقع هناك في مقابلة البيات وهو مطلق الليل وهنا في مقابلة الليل مقيداً معنى باشتداد ظلمته فالمناسب أن يراد به وقت ارتفاعه وقوة إضاءته وأجيب بمنع دلالة القيد على الاشتداد وستسمع إن شاء الله تعالى ما في ذلك وأياً ما كان فالظاهر أن المراد الجنس أي وجنس الضحى .

﴿ والليل ﴾ أي وجنس الليل ﴿ إِذَا سجى ﴾ أي سكن أهله على أنه من السجو وهو السكون مطلقاً كما قال غير واحد والإسناد مجازي أو هو على تقدير المضاف كما قيل ونحوه ما روى عن قتادة أي سكن أهله على أنه من السجو وهو السكون مطلقاً كما قال غير واحد والإسناد مجازي أو هو على تقدير المضاف كما قيل ونحوه ما روى عن قتادة أي سكن الناس والأصوات فيه وهذا يكون في الغالب فيما بين طرفيه أو بعد مضى برهة من أوله أو ركد ظلامه من سجا البحر سكنت أمواجه قال الأعشى

: وما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم . . .

وبحرك ساج لا يوارى الدعا مصا

فالسجو قيل على هذا في الأصل سكون الأمواج ثم عم والمراد بسكون ظلامه عدم تغيره بالاشتداد والتنزل أي فيما يحس ويظهر وذلك إذا كمل حساً بوصول الشمس إلى سمت القدم وقبيله وبعيده وصرح باعتبار الاشتداد ابن الأعرابي حيث قال سجا الليل اشتد ظلامه وأخرج ابن المنذر وغيره عن ابن جبير أنه قال أي إذا أقبل فغطى كل شيء وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس تفسير سجا بأقبل بدون ذكر التغطية وأخرجاهما وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه أيضاً أنه قال سجا إذا ذهب وكلا التفسيرين خلاف المشهور وشاعر ليل ساكن أوساج لما لا ريح فيه ووصفه بذلك أعني السكون قيل على الحقيقة كما إذا قيل ليل لا ريح فيه ولا يقال إن الساكن هو الريح بالحقيقة لأن السكون عليها حقيقة محال لأنه هواء متحرك ثم إنهم يقولونه لما لا ريح فيه لا لما سكن ريحه والتحقيق أن يقال إن السكون على تفسيريه أعني عدم الحركة عما من شأنه الحركة أو كونين في حيز واحد لا يصح على الليل لأنه زمان خاص لكن لما كان سكون الهواء بمنزلة عدم له في العرف العامي لعدم الإحساس أو لتضمنه عدم الريح لا الهواء قيل ليل ساج وساكن وصف الليل على الحقيقة أي لا إسناد فيه إلى غير ملائم على أنه يحتمل أن يجعل السكون بهذا المعنى حقيقة عرفية وجوز حمل ما في الآية على هذا الشائع ولعل التقييد بذلك لأن الليل الذي لا ريح فيه أبعد عن الغوائل وقد ذكر بعض الفقهاء أن الريح الشديدة ليلاً عذر من أعذار الجماعة ونقل عن قتادة ومقاتل أن المراد بالضحى هو الضحى الذي كلم الله تعالى

فيه موسى عليه السلام وبالليل ليلة المعراج ومن الناس من فسر الضحى بوجهه صلى الله عليه وسلم والليل بشعره عليه الصلاة والسلام كما ذكر الإمام وقال لا استبعاد فيه وهو كما ترى ومثله ما قيل الضحى ذكور أهل بيته عليه الصلاة والسلام أناثهم وقال الإمام يحتمل أن يقال الضحى رسالته صلى الله عليه وسلم والليل زمان احتباس الوحي

(84/819)

فيه لأن في حال النزول حصل الاستئناس وفي زمان الاحتباس حصل الاستيحاش أو الضحى نور علمه تعالى الذي يعرف المستور من الغيوب والليل عفوه تعالى الذي به يستر جميع العيوب أو الضحى إقبال الإسلام بعد أن كان غريباً والليل إشارة إلى أنه سيعود غريباً أو الضحى كمال العقل والليل حال الموت أو الضحى علانيته عليه الصلاة والسلام التي لا يرى الخلق عليها عيباً والليل سره صلى الله عليه وسلم لا يعلم عالم الغيب عليها عيباً انتهى ولا يخفى أنه ليس من التفسير في شيء وباب التأويل والإشارة يدخل فيه أكثر من ذلك وتقديم الضحى على الليل بناء على ما قلنا أولاً لرعاية شرفه لما فيه من ظهور زيادة النور وللنور شرف ذاتي على الظلمة لكونه وجودياً أو لكثرة منافعه أو لمناسبته لعالم الملائكة فإنها نورانية وتقديم الليل في السورة السابقة لما فيه من الظلمة التي هي لعدميتها أصل للنور

الحادث بإزالتها لأسباب حادثة وقيل تقديمه هناك لأن السورة في أبي بكر وهو قد سبقه كفر وتقديم الضحى هنا لأن السورة في رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو صلى الله عليه وسلم لم يسبقه ذلك وتخصيصه تعالى الوقتين بالأقسام قيل ليشير سبحانه بحالهما إلى حال ما وقع له عليه الصلاة والسلام ويؤيد عز وجل نفي ما توهم فيه فكأنه تعالى يقول الزمان ساعة فساعة ساعة ليل وساعة نهار ثم تارة تزداد ساعات الليل وتنقص ساعات النهار وأخرى بالعكس فلا الزيادة لهوى ولا النقصان لقلى بل كل لحكمة وكذا أمر الوحي مرة إنزال وأخرى حبس فلا كان الانزال عن هوى ولا الحبس عن قلى بل كل لحكمة وقيل ليسلى عز وجل بحالهما حبيبه عليه الصلاة والسلام كأنه سبحانه يقول انظر إلى هذين المتجاورين لا يسلم أحدهما من الآخر بل الليل يغلب تارة والنهار أخرى فكيف تطمع أن تسلم من الخلق والقولان مبنيان على أن المراد بالضحى النهار كله وبالليل إذا سجى جميع الليل وتخصيص الضحى على ما سمعت ولا لما سمعت وتخصيص الليل

(85/819)

بناء على أن المراد وقت اشتداد الظلمة قيل لأنه وقت خلو المحب بالمحبوب والأمن من كل واش ورقيب وقال الطيبي طيب الله تعالى ثراه في ذلك أنه تعالى أقسم له صلى الله عليه

وسلم بوقتين فيهما صلاته عليه الصلاة والسلام التي جعلت قرة عينه وسبب مزيد قربه وأنسه أما الضحى فلما رواه الدارقطني في المجتبى عن ابن عباس مرفوعاً كتب على النحر ولم يكتب عليكم وأمرت بصلاة الضحى ولم تؤمروا بها وأما الليل فلقوله تعالى ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نافلة لك ﴾ [الإسراء : 79] إرغاماً لأعدائه وتكذباً لهم في زعم قلاه وجفائه فكأنه قيل وحق قربك لدينا وزلفاك عندنا إنا اصطفيناك ما هجرناك وقليناك فهو كقوله

: وثناياك انها اغريض . . .

وهو مما تستطيبه أهل الأذواق ويمكن أن يكون الأقسام بالليل على ما نقل عن قتادة من باب وثناياك أيضاً وكذا الأقسام بهما على بعض الأوجه المارة كما لا يخفى وعلى كون المراد بالضحى الوقت المعروف من النهار وبالليل جميعه قيل إن التفرقة للإشارة إلى أن ساعة من النهار توازي جميع الليل كما أن النبي عليه الصلاة والسلام يوازي جميع الأنبياء عليهم السلام وللإشارة لكون النهار وقت السرور والليل وقت الوحشة والغم إلى أن هموم الدنيا وغمومها أدوم من سرورها وقد روى أن الله تعالى لما خلق العرش أظلت عن يساره غمامه فنادت ماذا أمطر فأمرت أن تمطر الغموم والأحزان فامطرت مائة سنة ثم انكشفت فأمرت مرة أخرى بذلك وهكذا إلى إتمام ثلثمائة سنة ثم أظلت عن يمين العرش غمامة بيضاء فنادت ماذا أمطر فأمرت أن تمطر السرور اسعة فلذا ترى الغموم والأحزان أدوم من المسار في

الدنيا والله تعالى أعلم بصحة الخبر وقيل غير ذلك وقوله تعالى :

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3)

(86/819)

جواب القسم وودع من التوديع وهو في الأصل من الدعة وهو أن تدعو للمسافر بأن يدفع الله تعالى عنه كآبة السفر وأن يبلغه الدعة وخفض العيش كما أن التسليم دعاء له بالسلامة ثم صار متعارفاً في تشييع المسافر وتركه ثم استعمل في الترك مطلقاً وفسر به هنا أي ما تركك ربك وفي البحر والكشاف التوديع مبالغة في الودع أي الترك لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك قيل وعليه يلزم أن يكون المنفي الترك المبالغ فيه دون أصل الترك مع أن الظاهر نفى ذلك فلا بد من أن يقال إنه إنما نفى ذلك لأنه الواقع في كلام المشركين الذي نزلت له الآية أو أن المبالغة تعود على النفي فيكون المراد المبالغة في النفي لا نفي المبالغة وقد ذكروا نظير هذين الوجهين في قوله تعالى : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ [فصلت : 46] فتدبر وقيل : إن المعنى ما قطعك قطع المودع على أن التوديع مستعار استعارة تبعية للترك وفهي من اللطف والتعظيم ما لا يخفى فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعز مفارقته كما قال المتنبي :

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا . . .

فلم أدر أي الظاعنين أشيع

(87/819)

وحقيقة التوديع المتعارف غير متصورة ههنا وتعقب بأنه على هذا لا يكون رداً لما قاله المشركون لأنهم لم يقولوا ودعه ربه على هذا المعنى كيف وهم بمعزل عن اعتقاد كونه عليه الصلاة والسلام بالمحل الذي هو صلى الله عليه وسلم فيه من ربه سبحانه وقيل في الجواب أنه يجوز أن يدل ودعه ربه على ذلك إلا أنهم قاتلهم الله تعالى قالوه على سبيل التهكم والسخرية وحين رد عليهم قصد ما يشعر به اللفظ على التحقيق وقيل إن الترك مطلق في كلامهم والظاهر من حال أنهم لم يريدوا الماهية من حيث هي ولا من حيث تحققها في ضمن ما لا يخل بشريف مقامه عليه الصلاة والسلام بل الماهية من حيث تحققها في ضمن ما يخل بذلك ولما كان المقصود إيناسه صلى الله عليه وسلم وإزالة وحشته عليه الصلاة والسلام جيء بما يتضمن نفي ما زعموه على أبلغ وجه كأنه قيل إن هذا النوع الغير المخل بمقامك من الترك لم يكن فضلاً عما زعموه من الترك المخل بعزيز مقامك وعندي أن الظاهر أن ذلك القول بأي معنى كان صادر على سبيل التهكم إذا كان المراد بالرب هو الله عز وجل وكان

القائل من المشركين كما لا يخفى على المتأمل وقرأ عروة بن الزبير وابنه هشام وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة ما ودعك بالتخفيف وهي على ما قال ابن جني قراءة النبي صلى الله عليه وسلم وخرجت على أن ودع مخفف ودع ومعناه معناه قال في "القاموس" ودعه كوضعه وودع بمعنى وقيل ليس بمخففة بل هو فعل برأسه بمعنى ترك وأنه يعكر على قول النحاة أماتت العرب ماضي يدع ويذر ومصدرهما واسم فاعلهما واسم مفعولهما واستغنوا بما ليترك من ذلك وفي المغرب أن النحاة زعموا أن العرب أماتت ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم أفصحهم وقد قال عليه الصلاة والسلام لينتهين أقوام عن ودعهم الجماعات وقرأ ما ودعك وقال أبو الأسود

: ليت شعري عن خليلي ما الذي . . .

غاله في الحب حتى ودعه

ومثله قول آخر

: وثم ودعنا إل عمرو وعامر . . .

فرائس أطراف المثقفة السمر

وهو دليل أيضاً على استعمال ودع وهو بمعنى ترك المتعلق بمفعولين فلا تغفل وفي الحديث " اتركوا الترك ما تركوكم ودعوا الحبشة ما ودعوكم " وفي المستوفي أن كل ذلك قد ورد في كلام العرب ولا عبرة بكلام النحاة وإذا جاء نهر الله بطن نهر معقل نعم وروده نادر وقال الطيبي بعد أن ذكر ورود نظماً ونثراً إنما حسن هذه القراءة الموافقة بين الكلمتين يعني هذه وما بعدها كما في حديث الترك والحبشة لأن رد العجز على الصدر وصنعة الترصيع قد جبرا منه وقيل إن القائلين إنما قالوا ودعه ربه بالتخفيف فنزلت فيكون المحسن له قصد المشاكلة لما قالوه وهم تكلموا بغير المعروف طيرة منهم كان غير المعروف من اللفظ مما يتشاءم به من الفأل الرديء أو أنهم لما قصدوا السخرية حسن استعمال اللفظ وقد قالوا يحسن استعمال الألفاظ الغريبة ونحوها في الهجاء فلا يبعد أن يكون في السخرية كذلك والحق أنه بعد ثبوت وروده لا يحتاج إلى تكلف محسن له والظاهر أن المراد بالرب هو الله عز وجل وفي التعبير عنه بعنوان الربوبية وإضافته إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من اللطف ما لا يخفى فكأنه قيل ما تركك المتكفل بمصلحتك والمبلغ لك على سبيل التدريج كمالك اللائق بك ﴿ وَمَا قلى ﴾ أي وما أبغضك وحذف المفعول لئلا يواجه عليه الصلاة والسلام بنسبة القلى وإن كانت في كلام منفي لطفاً به صلى الله عليه وسلم وشفقة عليه عليه الصلاة والسلام أو لنفي صدوره عنه عز وجل بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم ولأحد من أصحابه ومن أحبه صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة أو للاستغناء عنه بذكره من قبل مع أن فيه مراعاة

للفواصل واللغة المشهورة في مضارع قلى يقلي كيرمي وطيىء تقول يقل بفتح العين كيرضى وتفير القلى بالبغض شائع وفي القاموس من الواوي قلا زيداً قلا وقلاه أبغضه ومن اليائي قلاه كرماه ورضيه قلى وقلاء ومقلية أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه أو قلاه في الهجر وقليه في البغض وفي مفردات الراغب

(89/819)

القلي شدة البغض يقال قلاه يقلوه ويقليه فمن جعله من الواوي فهو من القلو أي الرمي من قولهم قلت الناقة براكبها قالوا وقلوت بالقلة فكان المقلو هو الذي يقذفه القلب من بغضه فلا يقبله ومن جعله من اليائي فمن قليت اليسر والسويق على المقلاة انتهى وبينهما مخالفة لا تخفى وعلى اعتبار شدة البغض فالظاهر أن ذلك في الآية ليس إلا لأنه الواقع في كلامهم قال المفسرون أبطأ جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم فقال المشركون قد قلاه ربه وودعه فأنزل الله تعالى ذلك وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم قال لما نزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ [المسد : 1] الخ قيل لامرأة أبي لهب أم جميل أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد هجاك فاتته عليه الصلاة والسلام وهو صلى الله عليه وسلم جالس في الملأ فقالت يا محمد علام تهجوني قال إني والله ما هجوتك ما هجاك إلا الله تعالى فقالت

هل رأيتني أحمل حطباً أو في جيدي حبلاً من مسد ثم انطلقت فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينزل عليه فاتته فقالت ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك فأنزل الله تعالى ذلك وأخرج الترمذي وصححه وابن أبي حاتم واللفظ له عن جندب البجلي قال رمى صلى الله عليه وسلم بحجر في أصبعه فقال

: ما أنت إلا اصبع دميت . . .

وفي سبيل الله ما لقيت

(90/819)

فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم فقالت له امرأة ما أرى شيطانك إلا قد تركك وفي رواية للترمذي أيضاً والإمام أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وجماعة بلفظ اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فأنزل الله تعالى والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وليس فيه حديث المرأة ولا الحجر والرجز وذلك لا يطعن في صحته وقال جمع من المفسرين أن اليهود سألوه عليه الصلاة والسلام عن أصحاب الكهف وعن الروح وعن قصة ذي القرنين فقال عليه الصلاة والسلام سأخبركم غداً ولم يستثن فاحتبس عنه الوحي فقال المشركون ما قالوا فنزلت وقيل إن عثمان أهدى إليه صلى الله عليه وسلم

عنقود عنب وقيل عذق تمر فجاء سائل فأعطاه ثم اشتراه عثمان بدرهم فقدمه إليه عليه الصلاة والسلام ثانياً ثم عاد السائل فاعطيه وهكذا ثلاث مرات فقال عليه الصلاة والسلام ملاطفاً لا غضبان أسائل أنت يا فلان أم تاجر فتأخر الوحي أياماً فاستوحش فنزلت ولعلهم أيضاً قالوا ما قالوا وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده والطبراني وابن مردويه من حديث خوله وكانت تخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جروا دخل تحت سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات ولم نشعر به فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي فقال يا خولة ما حدث في بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام جبريل لا يأتيني فقلت يا نبي الله ما أتى علينا يو خير منا اليوم فأخذ برده فلبسه وخرج فقلت في نفسي لو هيأت البيت وكنسته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا بشيء ثقيل فلم أزل به حتى بدا لي الجر وميتا فأخذته بيدي فألقيته خلف الدار فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ترعد لحيته وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة فقال يا خولة دثريني فأنزل الله تعالى ﴿ والضحى والليل ﴾ إلى قوله بسحانه : ﴿ فترضى ﴾ وهذه الرواية تدل على أن الانقطاع كان أربعة أيام وعن ابن جريج أنه كان اثني عشر يوماً وعن الكلبي خمسة عشر

يوماً وقبل بضعة عشر يوما وعن ابن عباس خمسة وعشرين يوماً وعن السدي ومقاتل أربعين يوماً وأنت تعلم أن مثل ذلك مما يتفاوت العلم بمبدئه ولا يكاد يعلم على التحقيق إلا منه عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم وفي بعض الروايات ما يدل على أن قائل ذلك هو النبي عليه الصلاة والسلام فعن الحسن أنه قال أبطأ الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لخديجة أن ربي ودعني وقلاني يشكو إليها فقالت كلا والذي بعثك بالحق ما ابتدأك الله تعالى بهذه الكرامة إلا وهو سبحانه يريد أن يتمها لك فنزلت واستشكل هذا بأنه لا يليق بالرسول صلى الله عليه وسلم أن يظن أن الله تعالى شأنه ودعه وقلاه وهل إلا نحو من العزل وعزل النبي عن النبوة غير جائز في حكمته عز وجل والنبي عليه الصلاة والسلام أعلم بذلك ويعلم صلى الله عليه وسلم أيضاً أن إبطاء الوحي وعكسه لا يخلو كل منهما عن مصلحة وحكمة وأجيب بأن مراده عليه الصلاة والسلام إن صح أن يجربها ليعرف قدر علمها أو ليعرف الناس ذلك فقال ما قال صلى الله عليه وسلم بضرب من التأويل كان يكون قد قصد إن ربي ودعني وقلاني بزعم المشركين أو أن معاملته سبحانه إياي بإبطاء الوحي تشبه صورة معاملة المودع والقالي وأنت تعلم أن هذه الرواية شاذة لا يعول عليها ولا يلتفت إليها فلا ينبغي اتعاب الذهن بتأويلها ونحوها ما دل على أن قائل ذاك خديجة رضي الله تعالى عنها أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عروة قال ابطأ جبريل عليه

السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم فجزع جزعاً شديداً فقالت خديجة أرى ربك قد قلاك مما أرى من جزعك فنزلت ﴿ والضحى والليل ﴾ إلى آخرها والقول بأنها رضي الله تعالى عنها أرادت أن هذا الجزع لا ينبغي أن يكون إلا من قلى ربك إياك وحاشى أي يقلاك فما هذا الجزع بعيد غاية البعد والمعول ما عليه الجمهور وصحت به الأخبار أن القائل هم المشركون وأنه عليه الصلاة والسلام إنما أحزنه بمقتضى الطبيعة البشرية

(92/819)

تعبيرهم وعدم رؤية جبريل عليه السلام مع مزيد حبه إياه وفي بعض الآثار أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام

" (ما جئتني حتى اشتقت إليك فقال جبريل عليه السلام كنت أنت إليك أشوق ولكني عبد مأمور وتلا وما نتنزل إلا بأمر ربك " وفي رواية أنه عاتبه عليهما الصلاة والسلام " فقال أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة " وراوي هذا يروي أن السبب في إبطاء الوحي وجود جرو في بيته عليه الصلاة والسلام والروايات في ذلك مختلفة وجوز بعضهم أن يكون الإبطاء لتجمع الأسباب ثم أن قد زعم بعض بناء على بعض الروايات السابقة جواز أن يكون المراد بربك في ما وعدك ربك دون ما بعد صاحبك والمراد به جبريل عليه السلام

وهو كما ترى وحيث تضمن ما سبق من نفي التوديع والقلي أنه عز وجل لا يزال يواصله

عليه الصلاة والسلام بالوحي والكرامة في الدنيا بشر صلى الله عليه وسلم بأن ما سيؤتاه

في الآخرة أجل وأعظم من ذلك فقيل :

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4)

(93/819)

لما أنها باقية صافية عن الشوائب على الإطلاق وهذه فانية مشوبة بالمضار وما أوتي عليه

الصلاة والسلام من شرف النبوة وإن كان مما لا يعادله شرف ولا يدانيه فضل لكنه لا يخلو في

الدنيا عن بعض العوارض القادحة في تمشية الأحكام مع أنه عندما أعد له عليه الصلاة

والسلام في الآخرة من السبق والتقدم على كافة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام يوم

الجمع يوم يوم النار لرب العالمين وكون أمته صلى الله عليه وسلم شهداء على سائر الأمم

ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من

الكرامات السنية التي لا تحيط بها العبارات وتقصر دونها الإشارات بمنزلة بعض المبادي

بالنسبة إلى المطالب كذا في الأرشاد والاختصاص الذي تقتضيه اللام قيل إضافي على

معنى اختصاصه عليه الصلاة والسلام بخيرية الآخرة دون من آذاه وشمت بتأخير الوحي

عنه صلى الله عليه وسلم ولا مانع من عمومه لجميع الفائزين كيف وقد علم بالضرورة أن الخير المعد له عليه الصلاة والسلام خير من المعد لغيره على الإطلاق ويكفي في ذلك اختصاص المقام المحمود به صلى الله عليه وسلم على أن اختصاص اللام ليس قصرياً كما قرر في موضعه وحمل الآخرة على الدار الآخرة المقابلة للدنيا والأولى على الدار الأولى وهي الدنيا هو الظاهر المروى عن أبي إسحاق وغيره وقال ابن عطية وجماعة يحتمل أن يراد بهما نهاية أمره صلى الله عليه وسلم وبدايته فاللام فيهما للعهد أو عوض عن المضاف إليه أي لنهاية أمرك خير من بدايته لا تزال تتزايد قوة وتتصاعد رفعة وفي بعض الأخبار المرفوعة ما هو أظهر في الأول أخرج الطبراني في "الأوسط" والبيهقي في "الدلائل" عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "عرض على ما هو مفتوح لأمتي بعدي فسرني فأنزل الله تعالى وللآخرة خير لك من الأولى" ثم أن ربط الآية بما قبلها على الوجه الذي سمعت هو ما اختاره غير واحد من الأجلة

وجوز أن يقال فيه أنه لما نزل ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ [الضحى : 3] حصل له عليه الصلاة والسلام به تشريف عظيم فكأنه صلى الله عليه وسلم استعظم ذلك فقيل له

وللآخرة خير لك من الأولى على معنى أن هذا التشريف وإن كان عظيماً إلا أن مالك عند الله تعالى في الآخرة خير وأعظم وجوز أيضاً أن يكون المعنى إنقطاع الوحي لا يجوز أن يكون لما يتوهمون لأنه عزل عن النبوة وهو مستحيل في الحكمة بل أقصى ما في الباب أن يكون ذلك لأنه حصل الاستغناء عن السالة وذلك إمارة الموت فكأنه تعالى قال انقطاع الوحي متى حصل دل على الموت لكن الموت خير لك فإن مالك عند الله تعالى في الآخرة أفضل مما لك الدنيا وهذا كما ترى دون ما قبله بكثير والمتبادر مما قرروه أن الجملة مستأنفة واللام فيها ابتدائية وقد صرح جمع بأنها كذلك في قوله تعالى :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾

وقالوا فائدتها تأكيد مضمون لجملة وبعدها مبتدأ محذوف أي ولانت سوف يعطيك الخ وأورد عليه أن التأكيد يقتضي الاعتناء والحذف ينافيه ولذا قال ابن الحاجب أن المبتدأ المؤكد باللام لا يحذف وأن اللام مع المبتدأ كقد مع الفعل وإن مع الاسم فكما لا يحذف الفعل والاسم ويبقيان بعد حذفهما كذلك لا يحذف المبتدأ وتبقى اللام وأنه يلزم التقدير والأصل عدمه وأن اللام لتخلص المضارع الذي في حيزها للحال كتأكيد مضمون الجملة وهو هنا مقرون بحرف التنفيس والتأخير فيلزم التنافي ورد بأن المؤكد الجملة لا المبتدا وحده حتى ينافي تأكيده حذفه وكلام ابن الحاجب ليس حجة على الفارسي وأمثاله وأن يحذف معها الاسم كثيراً كما ذكره النحاة وكذا قد يحذف بعدها الفعل كقوله :

أزف الترحل غير أن ركابنا . . .

لما تزل برحالنا وكان قد

(95/819)

مع أنه لو سلم فقد يفرق كما قال الطيبي بين أن وقد وهذه اللام بأنهما يؤثران في المدخول عليه مع التأكيد بخلاف هذه اللام فإن مقتضاه أن تؤكد مضمون الجملة لا غير وهو باقي وإن حذف المبتدا فالقياس قياس مع الفارق والنحويون يقدرون كثيراً في الكلام كما قدروا المبتدا في نحو قمت واصك عينه وهو لأجل الصناعة دون المعنى كما فيما نحن فيه واللام المؤكدة لا نسلم أنها لتلخيص المضارع للحال أيضاً بل هي لمطلق التأكيد فقط ويفهم معها الحال بالقرينة لأنه أنسب بالتأكيد على تسليم أنها لتخليصه للحال أيضاً يجوز أن يقال إنها تجردت للتأكيد هنا بقرينة ذكر سوق بعدها والمراد تأكيد المؤخر أعني الإعطاء لا تأكيد التأخير فالمعنى أن الإعطاء كائن لا محالة وإن تأخر لحكمة وعلى تسليم أنها للأمرين ولا تجرد يجوز أن يقال نزل المستقبل أعني الإعطاء الذي يعقبه الرضا لتحقق وقوعه منزلة الواقع الحالي نظير ما قيل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القيامة ﴾ [النحل : 124] وقيل يحسن هذا جداً فيما نحن فيه على القول بأن الإعطاء قد شرع فيه عند

نزول الآية بناء على أحد أوجهها الآتية بعد أن شاء الله تعالى وذهب بعضهم بأن اللام الأولى للقسم وكذا هذه اللام وبقسميتها جزم غير واحد فالواو عليه للعطف فكلا الوعدين داخل في المقسم عليه ويكون الله تعالى قد أقسم على أربعة أشياء اثنان منفيان واثنان مثبتان وهو حسن في نظري واعترض بأن لام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة فلو كان للقسم لقيل لسوف يعطيك ربك ولا يخفى أن هذا أحد مذهبين للنحاة والآخر أن يستثنى ما قرن بحرف تنفيس كما هنا ففي "المغنى" أنه تجب اللام وتمتنع النون فيه كقوله

: فوربي لسوف يجزى الذي . . .

أسلفه المرء سيئاً أو جميلاً

(96/819)

وكذا مع فصل معمول الفعل بين اللام والفعل نحو ﴿ ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون ﴾ [آل عمران : 158] ومع كون الفعل للحال نحو لاقسم وقد يمتنعان وذلك مع الفعل المنفي نحو ﴿ تالله تفتؤ ﴾ [يوسف : 85] وقد يجبان وذلك فيما بقي نحو ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ [الأنبياء : 57] وعليه لا يتجه الاعتراض مع أن الممنوع بدون النون في

جواب القسم لا في المعطوف عليه كما هنا فإنه يغتفر في التابع ما لا يغتفر في المتبوع وإنما ذكرت اللام تأكيداً للقسم وتذكيراً به وبالجملة هذا الوجه أقل دغدغة من الوجه السابق ولا يحتاج فيه إلى توجيه جمع اللام مع سوف إذ لم يقل أحد من علماء العربية بأن اللام القسمية مخلصة المضارع للحال كما لا يخفى على من تتبع كتبهم وظاهر كلام الفاضل الكلنبوي أن كلا من اللامين موضوع للدلالة على الحال ووجه الجمع على تقدير كونها في الآية قسمية بأنها محمولة على معناها الحقيقي وسوف محمولة على تأكيد الحكم ولذا قامت مقام إحدى النونين عند أبي علي الفارسي وقد أطال رحمه الله تعالى الكلام فيما يتعلق بهذا المقام وأتى على غزارة فضله بما يستبعد صدوره من مقله وقال عصام الدين الأظهر أن جملة ﴿ ما ودعك ﴾ [الضحى : 3] حالية أي ما ودعك ربك وما قلاك والحال أن الآخرة خير لك من الأولى وأنت تختارها عليها ومن حاله كذلك لا يتركه ربه ففيه إرشاد للمؤمنين إلى ما هو ملاك قرب العبد إلى الرب عز وجل وتوبيخ للمشركين بما هم فيه من التزام أمر الدنيا والإعراض عن الآخرة وحينئذ معنى قوله سبحانه : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ ﴾ أنه سوف يعطيك الآخرة ولا يخفى حينئذ كمال اشتباك الجمل انتهى وفيه أن دخول اللام عليها مع دخوله على الجملة بعدها وسبقهما بالقسم يبعد الحالية جداً وأيضاً المعنى ذكره على تقديرها غير ظاهر من الآية وكان الظاهر عليه عندك بدل لك كما لا يخفى عليك واختلف في قوله تعالى ولسوف الخ فقيل هو عدة كريمة شاملة لما أعطاه

الله عز وجل في الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين وظهور الأمر وإعلاء الدين بالفتوح الواقعة في عصره صلى الله عليه وسلم وفي أيام خلفائه عليه الصلاة والسلام وغيرهم من الملوك الإسلامية وفشو الدعوة والإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ولما ادخر جل وعلا له عليه الصلاة والسلام في الآخرة من الكرامات التي لا يعلمها إلا هو جل جلاله وعم نواله وقيل عدة بما أعطاه سبحانه وتعالى في الدنيا من فتح مكة وغيره والجمهور على أنه عدة أخروية فأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال هي الشفاعة وروى نحوه عن بعض أهل البيت رضي الله تعالى عنهم أخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في "الحلية" من طريق حرب بن شريح قال قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين على جدهم وعليهم الصلاة والسلام أرأيت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق أحق هي قال أي والله حدثني محمد بن الحنفية عن علي كرم الله تعالى وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال

" اشفع لأمتي حتى ينادي ربي ارضيت يا محمد فأقول نعم يا رب رضيت " ثم اقبل علي فقال إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية في كتاب الله تعالى ﴿ يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله أن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ [الزمر : 53] قلت إنا لنقول ذلك قال فكلنا أهل البيت نقول إن أرجى آية في كتاب الله تعالى ولسوف يعطيك ربك فترضى وقال هي الشفاعة وقيل هي أعم من الشفاعة وغيرها ويرشد إليه ما أخرجه العسكري في المواعظ وابن مردويه وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من جلد الإبل فلما نظر إليها قال يا فاطمة تعجلي مرارة الدنيا بنعيم الآخرة غداً فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ وقال أبو حيان الأولى العموم لما في الدنيا والآخرة على اختلاف أنواعه والخبر المذكور لو سلم صحته لا يأبى ذلك نعم عطايا الآخرة أعظم من عطايا الدنيا بكثير فقد روى الحاكم وصححه وجماعة عن ابن عباس أنه قال أعطاه الله تعالى في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم وأخرج ابن جرير عنه أنه قال في الآية من رضا محمد صلى الله عليه وسلم أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار وأخرج البيهقي في "شعب الايمان" عنه أنه قال رضاه صلى الله عليه وسلم أن يدخل أمته كلهم الجنة وفي رواية الخطيب في تلخيص المتشابه من وجه آخر عنه لا يرضى محمد صلى الله عليه وسلم وأحد من أمته النار وهذا ما تقتضيه شفقته العظيمة

عليه الصلاة والسلام على أمته فقد كان صلى الله عليه وسلم حريصاً عليهم رؤوفاً بهم مهتماً بأمرهم وقد أخرج مسلم كما في "الدر المنثور" عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى في إبراهيم عليه السلام ﴿ فمن تبعني فإنه مني ﴾ [إبراهيم : 36] وقوله تعالى في عيسى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ

(99/819)

عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : 118] الآية فرفع عليه الصلاة والسلام يديه وقال " اللهم أمتي أمتي وبكى فقال الله تعالى يا جبريل اذهب إلى محمد صلى الله عليه وسلم فقل له أنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك " وفي إعادة اسم الرب مع إضافته إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ما لا يخفى أيضاً من اللطف به صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(100/819)

وقال الشيخ المراغى :

سورة الضحى

هى مكية ، وآياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد سورة الفجر .

ومناسبتها لما قبلها - أنه ذكر فى السابقة « وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى » ولما كان سيد الأتقين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عقب ذلك سبحانه بذكر نعمه عزّ وجل عليه .

(101/819)

[سورة الضحى (93) : الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحى (1) وَاللَّيْلِ إِذا سَجى (2) ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى (4)

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى (5)

شرح المفردات

الضحى : صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى أشعتها على هذا الكون ، وسجى : أي سكن والمراد سكن الأحياء فيه وانقطعوا عن الحركة ، ما ودعك ربك : أي ما تركك ،

وما قلى : أي وما قلاك وما أبغضك ، والقلى : شدة الكره والبغض .

المعنى الجملي

أجمع الرواة على أن سبب نزول هذه السورة حدوث فترة فى نزول الوحى على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأنه حزن لذلك حزنا شديدا حتى غدا مرارا إلى الجبال ليتردّى من شواهقها ، وأنه ما كان يمنعه إلا تمثل الملك له وإخباره إياه أنه رسول اللّه حقّا .

وإنما حزن لهذه الفترة خيفة أن يكون ذلك من غضب أو قلى من ربه له ، بعد أن ذاق حلاوة الاتصال به ، وشاهد من جمال الأنس بالوحى ما يثير لواعج شوقه إلى التزوّد منه ، وقد كان يعلم أنه بشر ، لا فضل له على غيره إلا بهذا القرب الذي يعلو به على من عداه ، وقد كان صلى اللّه عليه وسلم شديد الحرص على تكميل نفسه وإعدادها لتحمل ما هى بسبيله من أعباء الرسالة .

لا جرم يكون حزنه لهذه الفترة شديدا ، وأن يتوجس منه خيفة ، ولا عجب أن يدعوه ذلك إلى التفكير فيما كان يفكر فيه ، وأن يهمّ بتنفيذه .

ومن ثم نزلت هذه السورة حاملة له أجمل البشرى ، ملقية فى نفسه الطمأنينة ، معدّدة ما أنعم اللّه به عليه ، وكأنه تعالى يقول لرسوله : إن من أنعم عليك بكذا وكذا لم يكن ليتركك ولا ينساك بعد أن هيأك لحمل أمانته ، وأعدّك للاضطلاع بأعباء رسالته ، فلا تحزن على ما كان من فترة الوحى عنك ، ولا يكن فى صدرك حرج منها ، فما ذلك إلا لتثبيت قلبك ،

وتقوية نفسك على احتمال مشاقّها .

الإيضاح

(102/819)

(وَالضُّحى . وَاللَّيْلِ إِذا سَجى . ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى) أقسم سبحانه لرسوله بآيتين عظيمتين من آياته فى الكون ضحى النهار وصدره والليل وظلامه - إنه ما تركك وما أبغضك كما يقال لك وما تتوهم فى نفسك .

ثم ذكر له ما يثلج صدره ، وما فيه كمال الطمأنينة والبشرى فقال :

(وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى) أي وإن أحوالك فى مستأنف حياتك خير لك مما مضى منها ، وأن كل يوم ستزداد عزّ ، إلى عزّ ، وسيرتفع شأنك كل يوم عما قبله ، وسأمنحك كل آن جلالا فوق جلالك ، ورفعة فوق رفعتك وكأنه يقول له لا تظنّن أنى كرهتك أو تركتك ، بل أنت عندى اليوم أشد تمكينا وأقرب اتصالا .

ولقد صدق اللّه وعده ، فما زال يسمو بنبيه ، ويرفع درجته يوما بعد يوم حتى بلغ الغاية التي لم يبلغها أحد قبله ، فجعله رسول الرحمة والهداية والنور إلى جميع خلقه ،

وجعل محبته من محبة اللّه ، واتباعه والاقتداء به سببا للفوز العظيم بنعيمه ، وجعله وأمته

شهداء على الناس جميعا ، ونشر دينه ، وبلّغ دعوته إلى أطراف المعمورة ، فأى فضل فوق ذلك الفضل ؟ وأي نعمة أضفى من هذه النعمة ؟ وأي إكرام فوق هذا الإكرام ؟ وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء .

ثم زاده فى البشرى فقال :

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى) أي ولسوف يظاهر ربك عليك نعمه ، ويوالى عليك مننه ، ومنها توارد الوحى عليك بما فيه إرشادك وإرشاد قومك إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وسيظهر دينك على الأديان كلها ، وتعلو كلمتك ويرتفع شأنك على شئون الناس جميعا . انتهى . اهـ ﴿ تفسير المراغى حـ 1 صـ 182. 184 ﴾

(103/819)

وقال الشيخ : دروزة :

سورة الضحى

في هذه السورة تطمين النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعدم ترك اللّه إياه . وتذكير له بما كان من أفضاله عليه ، وحثه على البر باليتيم والسائل والتحدث بنعمة اللّه . وأسلوبها ومضمونها يلهمان أنها نزلت في ظروف أزمة نفسية ألّمت بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، وأن نزولها كان

في عهد مبكر من الدعوة. وفيها إشارة إلى نشأة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في طفولته وحاله الاقتصادية والروحية في شبابه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الضحى (93) : الآيات 1 الى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحى (1) وَاللَّيْلِ إِذا سَجى (2) ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى (4)

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى (7)

وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (9)

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11).

(1) سجى: هدأ وسكن أو أطبق بالظلام.

(2) ودعك: بمعنى تركك.

(3) قلى: ترك وهجر.

(4) ضالا: هنا بمعنى حائرا.

(5) عائلا: فقيرا.

(6) فلا تقهر : فلا تظلمه ولا تغلبه على حقه ولا تذله .

(7) فلا تنهر : فلا تصرخ فيه ولا تؤذه بالقول .

(104/819)

---

(8) التحدث بنعمة اللّه كناية عن ذكر نعمة اللّه وشكر اللّه عليها وأداء الواجب على صاحبها نحو اللّه والناس .

جميع آيات السورة موجهة إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، ومعانيها واضحة . وفي آياتها الخمس الأولى قسم رباني في معرض التوكيد والتطمين . وفي آياتها الثلاث الأخيرة تعليمه ما يجب عليه إزاء نعم اللّه من الشكر وإزاء اليتيم من الرعاية وإزاء السائل من كلمة الخير والمساعدة .

ومع احتمال انصراف الآية الرابعة إلى الحياة الأخروية فإن من المحتمل أيضا أن يكون قصد بها تطمين النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وتبشيره بنجاح الدعوة ، وبأن مستقبلها سيكون خيرا من بدئها وقد تساعد الآية الخامسة على تدعيم هذا التوجيه حيث تلهم أن ما احتوته من الوعد والبشرى بإعطاء اللّه له حتى يرضى هما بالنسبة لظروف الحياة الدنيا أقوى منهما بالنسبة للحياة الأخروية .

ومع أن الخطاب في الآيات موجه إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فإن الأوامر الربانية الواردة في الآيات الثلاث الأخيرة متسقة مع المبادئ والأهداف التي احتواها القرآن منذ بدء تنزيله ، وتلقينها شامل لجميع المؤمنين . ويلحظ أن الفصول القرآنية السابقة قد احتوت ما يماثل هذه الأوامر ، وقد استمرت الفصول القرآنية على ذكرها مما له مغزى جليل ينطوي على عظمة أهداف الرسالة المحمدية في صدد البرّ بالفقراء والرأفة بالضعفاء والتحدث بنعمة اللّه قولا وفعلا . ويتبادر لنا أن هذا كان من الأسباب القوية التي جعلت أغنياء مكة وزعماءها يتحالفون ضدّ الدعوة ويشتدون في مناوأتها ، ويستمرون في ذلك طيلة العهد المكي والشطر الأكبر من العهد المدني .

تعليق على روايات فتور الوحي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم

ولقد روى المفسرون أن هذه السورة نزلت بعد فترة من نزول الوحي على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والروايات متنوعة ومتعددة في ذلك . منها ما هو في مدة هذه الفترة حيث تتراوح حسب اختلاف الروايات بين يومين وبين ثلاث سنين . ومنها ما هو في أسبابها وأثرها حيث روي فيما روي أن السيدة خديجة أم المؤمنين رضي اللّه عنها

قالت له حينما فتر عنه الوحي : ما أرى إلّا أن ربك قلاك ، وأن مثل هذا القول صدر عن امرأة أبي لهب في معرض السخرية والشماتة ، وأن امرأة أتت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقالت له ما أرى شيطانك إلّا تركك فإني لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث ، وأن المشركين أو بعضهم قالوا لما عرفوا خبر الفترة إن محمدا قد ودّع وأن السورة لم تلبث أن نزلت بعد هذه الأقوال ، وحيث روي أن اليهود سألوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم عن ذي القرنين وأهل الكهف والروح فقال لهم : سأخبركم غدا ولم يقل إن شاء اللّه ففتر الوحي عنه ، فلما جاءه بعد الفتور بهذه السورة قال له يا جبريل ما جئت حتى اشتقت إليك ، فقال : إني كنت أشد شوقا إليك ولكني عبد مأمور ، وحيث روي أنه كان للحسن أو الحسين في بيته جرو فلما نزل الوحي بالسورة وسأله النبي عن فتوره قال له : إنا لا ندخل بيتا فيه كلب ! ومن الروايات ما هو في وقت نزول السورة حيث روي أن الفترة كانت بعد نزول آيات سورة العلق الأولى ، وأن سورة الضحى هي أول ما نزل بعد هذه الآيات . ومنها ما هو في عدد فترات الوحي حيث روي أنها لم تكن مرة واحدة وإنما تكررت قصيرة حينا وطويلة حينا . وقد روي فيما روي كذلك أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حزن حزنا شديدا من الفترة حتى همّ بأن يلقي نفسه من شاهق الجبل «1» .

ومعظم الروايات غير موثق ومنها ما لا يمكن التسليم به لتعارضه مع وقت نزول السورة خاصة مثل رواية الفترة بسبب عدم قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إن شاء اللّه حينما

سأله اليهود عن المسائل الثلاث وقال لهم سأخبركم غدا . لأن احتكاك النبي صلّى اللّه عليه وسلّم باليهود وأسئلتهم التعجيزية له كانت في العهد المدني ولم ترد رواية وثيقة عن مثل ذلك في العهد المكي فضلا عن أن نزول قصص أهل الكهف وذي القرنين والسؤال عن الروح إنما كان في أواسط العهد المكي ، ومثل رواية الفترة بسبب جرو الحسن

---

(1) انظر هذه الروايات المتنوعة والمتعددة في سياق تفسير السورة في تفسير الطبري والنيسابوري وابن كثير والبغوي والطبرسي والزمخشري والخازن والآلوسي وشرح العيني على البخاري ج 19 ص 62 وكتاب التاج الجامع وكتاب التفسير في تفسير سورة الضحى وفترة الثلاث سنين ذكرت في شرح العيني على البخاري ورواية حزن النبي من الفترة حتى همّ بأن يلقي نفسه من شاهق في تاريخ الطبري ج 2 ص 52 مطبعة الاستقامة .

أو الحسين رضي اللّه عنهما في بيت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لأن السبطين الشريفين من مواليد المدينة ، ومثل رواية قول خديجة رضي اللّه عنها للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم : ما أرى ربك إلّا قلاك ، لأن المأثور أنها كانت تشجعه وتثبته وتبثّ في نفسه الثقة والقوة والعزيمة على ما أوردنا بعض ذلك في مناسبة سابقة ومثل رواية استمرار الفترة ثلاث سنين

لأن هذا لو وقع لكان غيّر مجرى تاريخ الدعوة لأن من شأنه أن يثير القلق بل والشكّ حتى في نفوس المؤمنين المخلصين الذين استجابوا للدعوة والتفوا حول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

والموثق من الروايات والتي يبدو عليها سمة الصحة وصدق الاحتمال هي رواية فتور الوحي ليلتين أو ثلاثا وقول امرأة للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم إني أرى شيطانك قد تركك، فما لبث السورة أن نزلت وقد جاءت هذه الرواية في حديث للبخاري ومسلم، ورواية إبطاء الوحي عن النبي أياما وقول المشركين أن محمدا قد ودّع فما لبثت السورة أن نزلت، وقد جاءت هذه الرواية في حديث لمسلم والترمذي «1».

وعلى كل فيمكن القول بشيء من القطعية والجزم استلهاما من سورة الضحى واستئناسا بالروايات الكثيرة المتواترة:

1 - إن الوحي قد فتر أياما عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في أوائل عهد الدعوة.

2 - وإن الفترة قد أثارت في نفسه حزنا وأزمة وخوفا من أن يكون اللّه قد تخلّى عنه بعد أن سار في الدعوة شوطا ما.

3 - وإن المشركين أو بالأحرى الذين قادوا حركة المعارضة لدعوته والذين أظهروا عداء شديدا له استغلوا ذلك وقالوا في سخرية وشماتة إن ربّه قد قلاه

---

(1) التاج الجامع ج 4 ص 260 ونص الحديث الأول: «اشتكى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا فجاءت امرأة فقالت يا محمد إني لأرجو أن يكون

شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث فأنزل اللّه : وَالضُّحى (1) وَاللَّيْلِ إِذا سَجى (2) ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى (3)» ، وعلق مؤلف التاج على هذا الحديث أن المرأة هي العوراء أخت أبي سفيان وزوجة أبي لهب . وقد روى المفسرون اسمها في جملة ما رووه . ونصّ الحديث الثاني قال الراوي :

«كنت مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في غار فدميت إصبعه فقال هل أنت إلّا إصبع دميت وفي سبيل اللّه ما لقيت . قال فأبطأ عليه جبريل فقال المشركون قد ودّع محمد فأنزل اللّه ما ودّعك ربّك وما قلى» .

وودعه ، وإن منهم من عيّره بذلك مواجهة ، وإن ذلك قد زاد من حزنه وأزمته حتى نزلت السورة التي احتوت تثبيتا وتطمينا وردا على الشامتين .

ومن الجدير بالذكر أن في القرآن قرائن قد تدل على أن الوحي فتر عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في أواسط العهد المكي على ما سوف ننبه عليه في مناسباته . غير أن ذلك لم يحدث في النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أزمة ، ولم يتعرض بمناسبة ذلك لحملة كما كان شأن هذه المرة مما هو طبيعي ، لأن هذه المرة كانت في مبادئ الدعوة وخطواتها الأولى .

صورة من صميمية النبي صلّى اللّه عليه وسلّم

والمتمعن في آيات السورة الأولى وهي تؤكد للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم عدم ترك ربّه إياه يلمس صميمية رائعة تملأ النفس إعجابا فيما أثارته الفترة من قلق في نفس النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وتنمّ عن يقينه العميق بأنه رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم، وبأن ما كان يبلغه من الآيات والفصول القرآنية هو وحي اللّه، فإذا أوحي إليه بشيء تلاه وإذا فتر عنه الوحي أعلن ذلك، وإذا لم يتل على الناس شيئا جديدا في ظرف ما فلأنه لم يوح إليه بشيء جديد.

فقد علمه اللّه أن يعلن للناس أنه ليس عنده خزائن اللّه ولا يعلم الغيب ولا يزعم أنه ملك كما جاء في سورة الأنعام هذه: قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ [50] وآية سورة الأعراف هذه: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَما مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (188) وقد أمره اللّه أن يعلن أنه لا يبلغ إلّا ما يوحى إليه ولا يستطيع أن يغير ويبدل فيه كما جاء في آية يونس هذه: وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15).

نشأة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم منذ طفولته إلى نبوته

وفي الآيات [6 و7 و8] إشارة إلى ما كانت عليه ظروف النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في نشأته الشخصية والروحية وحاله الاقتصادية منذ طفولته إلى أن أكرمه اللّه بالنبوة ، فأشير فيها إلى يتمه في عهد طفولته ، وفقره في عهد فتوته وشبابه ، ثم حيرته الروحية في الاتجاه الذي يتجه إليه في دينه وعبادته ومبادئه . وقد قررت أن اللّه قد حماه في عهد يتمه حيث كان اليتيم معرضا للإرهاق والقهر والضياع فجعل له مأوى أمينا ، ويسّر له في عهد شبابه من بسطة العيش واليسر ما جعله في غنى عن التكسب وفي راحة من عناء المعيشة وهمها ، ونقّى نفسه ووجّهه إلى سبيل الهدى القويم فأنقذه من حيرته .

والروايات تكاد تكون متواترة إلى حد اليقين « 1 » بأنه كان له من جده عبد المطلب أولا ومن عمه أبي طالب بعده من البرّ والرأفة والحماية والعناية في طفولته وشبابه ثم من عمّه بعد بعثته من النصر والعطف ما ضمن له النشأة الصالحة ثم الحرية والمنعة .

كذلك فإن الروايات تكاد تكون متواترة إلى حدّ اليقين «2» بأن حاله الاقتصادية قد تحسنت وانتهى ما كان يعانيه من متاعب العيش بزواجه من السيدة خديجة رضي اللّه عنها الشريفة في قومها ، الغنية في مالها القوية في خلقها وعقلها وروحها ، المتنعمة في معيشتها ، وكان من أثر ذلك أن اطمأنت نفسه وأخذ يفرغ قلبه وذهنه لما كانت نفسه

مستعدة له من الاستغراق في آلاء اللّه ومظاهر الكون والتفكير فيما عليه قومه من ضلال في التقاليد والعقائد ، وتمكن من القيام باعتكافات روحية كانت خديجة رضي اللّه عنها تشجعه عليها وتهيىء له ما يحتاج إليه فيها على ما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان عن عائشة والذي أوردناه في سياق سورة العلق ، حتى كان مظهر اختصاص اللّه إياه بالرسالة العظمى حينما بلغ أشده واستوى .

ولقد كانت السيدة خديجة رضي اللّه عنها عطوفة عليه بارة به ، ومن أقوى

---

(1) انظر طبقات ابن سعد ج 1 ص 99 وما بعدها مثلا .

(2) انظر طبقات ابن سعد ج 1 ص 113 وما بعدها وانظر أيضا الأمرين في كتاب حياة محمد صلّى اللّه عليه وسلّم لهيكل طبعة ثانية ص 105 - 132 .

المشجعين المثبتين له الذابّين عنه المصدقين به ، مما يمكن أن يدل على أنها قد أدركت بفراستها القابليات العظمى التي تميز بها والاستعداد الروحي الذي ظهرت آثاره عليه ، والأخلاق الكريمة التي تحلى بها فلم يكد يخبرها بأمر الوحي حتى تيقنت صدقه ونفت ما طاف في ذهنه من خوف وهتفت بتلك الكلمات المأثورة الخالدة : «كلا إن اللّه لن يخزيك .

فإنك تفعل المعروف . وتقري الضيف . وتحمل الكل . وتعين على نوائب الدهر» على ما أوردناه من حديث للبخاري في سياق سورة القلم .

وأما عن حيرته فقد كان إزاء ما عليه قومه من تقاليد وطقوس وأخلاق وعادات وعقائد في موقف المنقبض المتشكك منذ عهد شبابه على ما ذكرته الروايات»

كما كان في مثل هذا الموقف إزاء ما كان عليه أهل الكتاب من اختلاف ونزاع وشذوذ من دون شك ولا سيما حينما كان يسمع اليهود يقولون ليست النصارى على شيء ، وحينما كان يسمع النصارى يقولون ليست اليهود على شيء ، ويرى الخلاف والنزاع يشتدان بينهم إلى درجة الاقتتال مما أشارت إليه آية البقرة هذه : وَقالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصارى عَلى شَيْءٍ وَقالَتِ النَّصارى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتابَ كَذلِكَ قالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113) وآية البقرة هذه أيضا : وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ وَلكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ «2» [253] . فكانت تعتلج في نفسه الأفكار وتقوم في صدره الشكوك في صواب ما يرى ، ويسلم نفسه إلى التفكير في آلاء الله وعظمة الكون والاعتكافات الروحية ، فلم يلبث أن صفت نفسه وشعّ في قلبه نور الحقيقة الإلهية العظمى واهتدى إليها بإلهام اللّه فجعلها الهدف الذي يستهدفه والاتجاه الذي يتجه إليه .

---

(1) انظر طبقات ابن سعد ج 1 ص 112 و 126 - 127 و 136 و 140 .

[.....]

(2) الآيات تذكر أمرا واقعا قبل نزولها ممتدا إلى ما قبل البعثة ونعتقد أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يسمعه ويعرفه .

ولقد روت الروايات «1» أنه أخذ ينشأ في بيئة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم طبقة من العقلاء داخلهم الشك مثله في صواب ما عليه العرب والكتابيون ، وأخذوا يبحثون مثله عن الطريق الأقوم والسبيل الحق ويتجهون مثله إلى الحقيقة الإلهية العظمى وحدها ، ومنهم من كان اعتزم الطواف للبحث عن ملّة إبراهيم ليسير عليها وأن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم التقى ببعض هؤلاء قبل البعثة .

فمن الممكن أن يقال إن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان في عهد حيرته هذا من هذه الطبقة وإنه كان مثل أفرادها يود أن يتعرف على حدود ملة إبراهيم ويسير في سبيلها عن يقين ، ثم كان له من صفاء النفس وذكاء العقل وقوة القلب وعظيم الخلق وعميق الاستغراق ما جعله يمتاز عليهم فكان مصطفى اللّه من بينهم ، فأتم اللّه إيمانه وأنار بصيرته وأنقذه من

حيرته إلى اليقين واختصه بالنبوة وانتدبه للمهمة العظمى التي أوحي إليها فيما بعد بآيات الأحزاب هذه : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (45) وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً (47) وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا (48) .

ولقد نصت الآيات القرآنية على أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إلى عهد نبوته لم يكن يدري من أمر نبوته ومهمته شيئا ، ولم يكن يرجو أن ينزل عليه كتاب كما جاء في آية سورة القصص هذه : وَما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْكَ الْكِتابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ [86] وفي آية سورة الشورى هذه : وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) وفي آية سورة يونس هذه : قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا

---

(1) انظر الفصلين الخامس والسادس من الباب الرابع في الحياة الدينية عند العرب في كتاب المؤلف عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة ص 396 - 434 وانظر سيرة ابن هشام ج 1 ص 215 - 323 وج 2 ص 103 ، وص 177 ، 178 وطبقات ابن سعد ج 1 ص 202 وتفسير الرازي ج 1 ص 369 ، 370 وأسد الغابة ج 2 ص 327 - 329 .

أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (16) . وهذا يجعلنا نقول إن هذا الدور الذي قضاه منذ شبابه إلى اكتمال نضجه ونزول الوحي عليه كان دور استعداد وتأهل روحي ، وهو الدور الذي يمكن أن يطلق عليه دور الحيرة والذي عنته الآية الكريمة : وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى فيما يتبادر لنا مما يجعلنا نعتقد أن كلمة ضَالًّا لم تعن السير في سبيل الضلالة والشرك والتقاليد الجاهلية والوثنية التي كان عليها العرب ، وأن كلمة فَهَدَى لم تعن أن اللّه أخرجه من هذا النطاق بعد أن ارتكس فيه ، وإنما عنت الأولى ما كان في نفسه من حيرة وتململ وتوقان إلى ساحل اليقين ، كما عنت الأخرى ما كان من اليقين الذي وصل إليه فاطمأنت به نفسه .

وفي سورة الأنعام آيات يمكن الاستئناس بها لما قررناه بوجه عام ولما أشرنا إليه في صدد ملة إبراهيم والرغبة في الاهتداء إليها واتباعها بوجه خاص وهي : قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (161) قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) وقوة التلقين والدلالة في هذه الآيات قوية أخاذة .

هذا ولقد روى بعض المفسرين «1» في سياق آية وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى (7) أنها إشارة إلى أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قد تاه في طفولته في جبال مكة فقلق عليه جده وبحث عنه طويلا حتى وجده ولم يصب بسوء. ونحن نشك في الرواية كل الشك، لأنّ الحادث الذي ذكرته أتفه من أن يكون موضوع ذكر وتذكير، فضلا عن عدم وثوقها وعن التوجيه الصحيح الذي قررناه والذي تسنده آيات القرآن. انتهى انتهى. ا هـ ﴿التفسير الحديث ح 1 ص 549. 557﴾

---

(1) انظر تفسير السورة في تفسير الكشاف للزمخشري وتفسير مجمع البيان للطبرسي والخازن.

على أن هؤلاء المفسرين وجمهرة المفسرين الآخرين يؤولون الضلال بنحو ما أولناه أو في نطاقه. انظر كتب التفسير الثلاثة المذكورة وانظر أيضا تفسير الطبري والنيسابوري والبغوي وابن كثير والآلوسي إلخ.

(112/819)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب:

(93) سورة الضحى

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة الفجر . .

عدد آياتها : إحدى عشرة آية . .

عدد كلماتها : أربعون كلمة . .

عدد حروفها : مائة واثنان وسبعون حرفا . .

مناسبتها لما قبلها

أقسم سبحانه فى سورة « الليل » ، بالليل إذا يغشى ، وبالنهار إذا تجلى . .

وبدأ بالقسم بالليل ، ثم أعقبه بالقسم بالنهار . .

وهنا يقسم اللّه سبحانه بالنهار أولا « والضحى » ثم بالليل ثانيا . . « والليل إذا سجى »

وبهذا يتوازن الليل والنهار ، فيقدّم أحدهما فى موضع ويقدم الآخر فى موضع ، ولكل من التقديم والتأخير فى الموضعين مناسبته . . وقد أشرنا من قبل إلى المناسبة فى تقديم الليل على النهار فى سورة الليل ، وسترى هنا المناسبة فى تقديم النهار على الليل . .

بسم اللّه الرحمن الرّحيم

الآيات : (1 . 11) [سورة الضحى (93) : الآيات 1 إلى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحى (1) وَاللَّيْلِ إِذا سَجى (2) ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى (4)

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى (7)
وَوَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (9)
وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

(113/819)

التفسير :

قوله تعالى : «وَالضُّحى . وَاللَّيْلِ إِذا سَجى . ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى» الضحى ، أول النهار وشبابه ، حيث تعلو الشمس على أفقها الشرقي ، فتبسط ضوءها على الوجود . .

«وَاللَّيْلِ إِذا سَجى» .

. سجا الليل ، يسجو ، سجوّا ، وسجوّا ، أي سكن ، وهدأ ، حيث تسكن فيه حركة الحياة ، كما يسكن موج البحر ، وينطوى صخبه وهديره ، وهذا يعنى الدخول فى الليل إلى حدّ استوائه ، كالدخول فى النهار إلى وقت الضحى ، حيث يسفر وجه النهار على تمامه وكماله . .

قيل إن هذه السورة نزلت بعد فترة انقطع فيها الوحى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم ، حتى

لقد اتخذ المشركون من ذلك مادة للسخرية من النبي ، وأن ربّه. الذي يقول إنه يوحى إليه بما يحدثهم به. قد قلاه ، أي هجره ، كرها له وبغضا ! ! وفى القسم بالضحى ، إشارة إلى مطلع شمس النبوة ، وأن مطلعها لا يمكن أن يقف عند حد الضحى الذي بلغته فى مسيرتها ، بل لا بد أن تبلغ مداها ، وأن تتم دورتها . . فالشمس فى مسيرتها ، لا يمسكها شىء إذا طلعت.

وفى القسم بالليل بعد الضحى ، وإلى سجوّ هذا الليل وسكونه. إشارة أخرى إلى أن فترة انقطاع الوحى ، ليست إلا فترة هدوء ، واستجمام يجمع فيها النبي نفسه ، ويلمّ فيها خواطره ، بعد هذا النور الغامر الذي بهره ، وهز أعماق نفسه . . وإن بعد هذا الليل الهادئ الوادع نهارا ، مشرقا وضيئا . . فهكذا يجرى نظام السكون ، على ما أقامه الصانع الحكيم.

(114/819)

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده : « وليس فى نسق السورة ما يشير إلى أن المشركين أو غيرهم بغرض من الخطاب . . ومن أين كان للمشركين أن يعلموا فترة الوحى ، فيقولوا أو يطعنوا ، ولكن ذلك كان شوق النبي. صلى اللّه عليه وسلم إلى مثل ما رأى وما فهم عن اللّه ، وما

ذاق من حلاوة الاتصال بوحيه . . وكل شوق يصحبه قلق ، وكل قلق يشوبه خوف » . .

وهذا ما نقول به ، ونرضى عنه . . وقد ورد أن النبي صلى الّله عليه وسلم سأل جبريل ، لم لا يداوم الاتصال به ويكثر من الوحى إليه ، فنزل قوله تعالى : « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ . . » (64 : مريم) وقوله تعالى : « ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » هو المقسم عليه ، وهو أن الّله سبحانه لم يودع النبي ، وداعا لا لقاء بعده ، بل إن الّله معه ، فى كل لحظة من لحظات حياته ، ومع كل نفس من أنفاس صدره .

وأن انقطاع الوحى فى تلك الفترة لم يكن عن قلى وهجر من الّله سبحانه وتعالى له ، فهو الحبيب إلى ربه ، المجتبى إليه من خلقه . .

وفى توكيد الخبر بالقسم ، مزيد من فضل الله ورحمته ، للنبى الكريم ، ورفع لمنزلة النبىّ عند ربّه ، حتى لينزل منزلة الحبيب من حبيبه .

وقوله تعالى : . « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى » الآخرة ، خاتمة أمر النبي مع النبوة ، والأولى ، مبدأ أمره معها . .

أي أن آخرة أمر النبي مع رسالته ، خير من أولها . . فإذا بدأت رسالته بهذا العناء المتصل ، الذي واجهه من عناد قومه ، ومن تأتيهم عليه ، وتكذيبهم له ، وملاحقته هو والمؤمنون معه بالأذى ، والضر ، وبالحرب والقتال . فإن خاتمة هذه الرسالة ستكون نصرا مؤزّرا له ، وفتحا عظيما الدعوة ، وخزيا وإذ لالا للضالين المعاندين . .

(115/819)

قوله تعالى : « وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى » أي ولسوف يلقاك ربك بالعطايا والمنن ، حتى تقر عينك ، وينشرح صدرك ، وذلك بما ينزل عليك من آيات ربك ، وبما يحقق لدعوتك من نصر وتمكين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1601.1598 ﴾

(116/819)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالضُّحَى (1) ﴾

القسم لتأكيد الخبر ردّاً على زعم المشركين أن الوحي انقطع عن النبي صلى الله عليه وسلم حين رأوه لم يقم الليل بالقرآن بضع ليال .

فالتأكيد منصبُ على التعريض المعرض به لإِبطال دعوى المشركين .

فالتأكيد تعريض بالمشركين وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يتردد في وقوع ما يخبره

الله بوقوعه .

ومناسبة القسم بـ ﴿ الضحى والليل ﴾ أن الضحى وقتُ انبثاق نور الشمس فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به ، وأن الليل وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن ، وهو الوقت الذي كان يَسمع فيه المشركون قراءتَه من بيوتهم القريبة من بيته أو من المسجد الحرام .

ولذلك قُيد ﴿ الليل ﴾ بظَرف ﴿ إذا سجى ﴾ .

فلعل ذلك وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ﴿ قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً ﴾ [المزمل : 2 ، 3] .

والضحى تقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ والشمس وضحاها ﴾ [الشمس : 1] .

وكتب في المصحف ﴿ والضحى ﴾ بألف في صورة الياء مع أن أصل ألفه الواو لأنهم راعوا المناسبة مع أكثر الكلمات المختومة بألف في هذه السورة فإن أكثرها مُنقلبَة الألِف عن الياء ، ولأن الألف تجري فيها الإمالة في اللغات التي تُميل الألفَ التي من شأنها أن لا تُمال إذا وقعت مع ألفٍ تمال للمناسبة كما قال ابن مالك في "شرح كافيته" .

ويقال : سجا الليل سَجْواً بفتح فسكون ، وسُجُوا بضمتين وتشديد الواو ، إذا امتد وطال مدة ظلامه مثل سجو المرء بالغطاء ، إذا غطي به جميع جسده وهو واوي ورسم في المصحف بألف في صورة الياء للوجه المتقدم في كتابة ﴿ الضحى ﴾ .

وجملة : ﴿ ما ودعك ربك ﴾ الخ جواب القسم ، وجواب القسم إذا كان جملة منفية لم تقترن باللام .

والتوديع : تحيةُ من يريد السفر .

(117/819)

واستعير في الآية للمفارقة بعد الاتصال تشبيهاً بفراق المسافر في انقطاع الصلة حيث شبه انقطاع صلة الكلام بانقطاع صلة الإقامة ، والقرينة إسناد ذلك إلى الله الذي لا يتصل بالناس اتصالاً معهوداً .

وهذا نفي لأن يكون الله قطع عنه الوحي .

وقد عطف عليه : ﴿ وما قلى ﴾ للإتيان على إبطال مقالتي المشركين إذ قال بعضهم : ودَّعه ربه ، وقال بعضهم : قَلاه ربه ، يريدون التهكم .

وجملة : ﴿ وما قلى ﴾ عطف على جملة جواب القسم ولها حكمها .

والقليْ (بفتح القاف مع سكون اللام) والقِلَى (بكسر القاف مع فتح اللام) : البغض الشديد ، وسبب مقالة المشركين تقدم في صدر السورة .

والظاهر أن هذه السورة نزلت عقب فترة ثانية فتر فيها الوحي بعد الفترة التي نزلت إثرها

سورة المدثر ، فعن ابن عباس وابن جريج : "احتبس الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة عشر يوماً أو نحوها .

فقال المشركون : إن محمداً ودّعه ربه وقلاه ، فنزلت الآية" .

واحتباس الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم وقع مرتين:

أولاهما : قبل نزول سورة المدثر أو المزمل ، أي بعد نزول سورتين من القرآن أو ثلاث على الخلاف في الأسبق من سورتي المزمل والمدثر ، وتلك الفترة هي التي خشي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون قد انقطع عنه الوحي ، وهي التي رأى عقبها جبريل على كرسي بين السماء والأرض كما تقدم في تفسير سورة المدثر ، وقد قيل : إن مدة انقطاع الوحي في الفترة الأولى كانت أربعين يوماً ولم يشعر بها المشركون لأنها كانت في مبدإ نزول الوحي قبل أن يشيع الحديث بينهم فيه وقبل أن يقوم النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن ليلاً .

وثانيتهما : فترة بعد نزول نحو من ثمانِ سور ، أي السور التي نزلت بعد الفترة الأولى فتكون بعد تجمع عشر سور ، وبذلك تكون هذه السورة حادية عشرة فيتوافق ذلك مع عددها في ترتيب نزول السور .

والاختلاف في سبب نزول هذه السورة يدل على عدم وضوحه للرواة ، فالذي نظنه أن احتباس الوحي في هذه المرة كان لمدة نحو من اثني عشر يوماً وأنه ما كان إلا للرفق بالنبي صلى الله عليه وسلم كي تستَجِمَّ نفسه وتعتاد قوته تحمُّل أعباء الوحي إذ كانت الفترة الأولى أربعين يوماً ثم كانت الثانية اثني عشر يوماً أو نحوها ، فيكون نزول سورة الضحى هو النزول الثالث ، وفي المرة الثالثة يحصل الارتياض في الأمور الشاقة ولذلك يكثر الأمر بتكرر بعض الأعمال ثلاثاً ، وبهذا الوجه يجمع بين مختلف الأخبار في سبب نزول هذه السورة وسبب نزول سورة المدثر .

وحُذف مفعول ﴿ قلى ﴾ لدلالة ﴿ ودعك ﴾ عليه كقوله تعالى : ﴿ والذاكرين اللَّه كثيراً والذاكرات ﴾ [الأحزاب : 35] وهو إيجاز لفظيّ لظهور المحذوف ومثله قوله : ﴿ فآوى ﴾ [الضحى : 6] ، ف ﴿ هدى ﴾ [الضحى : 7] ﴿ فأغنى ﴾ [الضحى : 8] .

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4)

عطف على جملة : ﴿ والضحى ﴾ [الضحى : 1] فهو كلام مبتدأ به ، والجملة معطوفة على الجمل الابتدائية وليست معطوفة على جملة جواب القسم بل هي ابتدائية فلما نُفي القِلى بشّر بأن آخرته خير من أولاه ، وأن عاقبته أحسن من بدأته ، وأن الله خاتم

له بأفضل مما قد أعطاه في الدنيا وفي الآخرة .

وما في تعريف "الآخرة" و ﴿ الأولى ﴾ من التعميم يجعل معنى هذه الجملة في معنى التذييل الشامل لاستمرار الوحي وغير ذلك من الخير .

(119/819)

والآخرة : مؤنث الآخِر ، و ﴿ الأولى ﴾ : مؤنث الأوَّل ، وغلب لفظ الآخرة في اصطلاح القرآن على الحياة الآخرة وعلى الدار الآخرة كما غلب لفظ الأولى على حياة الناس التي قبل انخرام هذا العالم ، فيجوز أن يكون المراد هنا من كلا اللفظين كِلا معنييه فيفيد أن الحياة الآخرة خير له من هذه الحياة العاجلة تبشيراً له بالخيرات الأبدية ، ويفيد أن حالاته تجري على الانتقال من حالة إلى أحسن منها ، فيكون تأنيث الوصفين جارياً على حالتي التغليب وحالتي التوصيف ، ويكون التأنيث في هذا المعنى الثاني لمراعاة معنى الحالة .

ويومىء ذلك إلى أن عودة نزول الوحي عليه هذه المرة خير من العودة التي سبقت ، أي تكفل الله بأن لا ينقطع عنه نزول الوحي من بعد .

فاللام في "الآخرة" و ﴿ الأولى ﴾ لام الجنس ، أي كُلّ آجل أمره هو خير من عاجله في هذه الدنيا وفي الأخرى .

واللام في قوله : ﴿ لك ﴾ لام الاختصاص ، أي خير مختص بك وهو شامل لكل ما له تعلق بنفس النبي صلى الله عليه وسلم في ذاته وفي دِينه وفي أمته ، فهذا وعد من الله بأن ينشر دين الإِسلام وأن يمكِّن أمته من الخيرات التي يأملها النبي صلى الله عليه وسلم لهم .

وقد روى الطبراني والبيهقي في "دلائل النبوءة" عن ابن عباس قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عُرض عليّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي فسرني فأنزل الله تعالى : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5)

هو كذلك عطف على جملة القسم كلها وحرف الاستقبال لإفادة أن هذا العطاء الموعود به مستمر لا ينقطع كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ في سورة يوسف (98) وقوله : ﴿ ولسوف يرضى ﴾ في سورة الليل (21) .

وحذف المفعول الثاني ليعطيك ﴾ ليعمّ كل ما يرجوه صلى الله عليه وسلم من خير لنفسه ولأمته فكان مفاد هذه الجملة تعميم العطاء كما أفادت الجملة قبلها تعميم الأزمنة .

وجيء بفاء التعقيب في ﴿ فترضى ﴾ لإفادة كون العطاءِ عاجلَ النفع بحيث يحصل به رضى المعطَى عند العطاء فَلا يترقب أن يحصل نفعه بعد تَربص .

وتعريف ﴿ ربك ﴾ بالإضافة دون اسم الله العَلَم لما يؤذن به لفظ (رب) من الرأفة واللطف ، وللتوسل إلى إضافته إلى ضمير المخاطب لما في ذلك من الإِشعار بعنايته برسوله وتشريفه بإضافة رَب إلى ضميره .

وهو وعد واسع الشمول لما أعطيه النبي صلى الله عليه وسلم من النصر والظَفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة ، ودخول الناس في الدين أفواجاً وما فُتح على الخلفاء الراشدين ومَن بعدهم من أقطار الأرض شرقاً وغرباً .

واعلم أن اللام في ﴿ وللآخرة خير ﴾ [الضحى : 4] وفي ﴿ ولسوف يعطيك ﴾ جزَم صاحب "الكشاف" بأنه لام الابتداء وقدر مبتدأ محذوفاً .

والتقدير : ولأنت سوف يعطيك ربك .

وقال : إن لام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد وحيث تعين أن اللام لام الابتداء ولام الابتداء لا تدخل إلا على جملة من مبتدأ وخبر تعين تقدير المبتدأ .

واختار ابن الحاجب أن اللام في ﴿ ولسوف يعطيك ربك ﴾ لام التوكيد (يعني لام جواب القسم) .

ووافقه ابن هشام في "مغني اللبيب" وأشعر كلامه أن وجود حرف التنفيس مانع من لحاق

نون التَوكيد ولذلك تجب اللام في الجملة .

وأقول في كون وجود حرف التنفيس يوجب كون اللاّم لام جواب قسم محلّ نظر . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(121/819)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى ودع)

المادّة تدلُّ على التَّرْك والتَخْلِيَة .

وَدُعَ الرجلُ فهو وَدِيعٌ وَوادِعٌ ، أَى ساكنٌ ، مثل حَمُضَ فهو حامِضٌ ، يُقال : نالَ المكارِمَ وادعاً ، أَى من غير كُلْفَةٍ ومَشَقَّة .

وعليك بالمَوْدُوع أَى بالسَّكينة والوَقار .

ووَدَّعْتُ فلاناً تَوْدِيعاً من وَداع السَّلام .

والدَّعَة : الخَفْضُ والرَّاحة ، والهاءُ عِوَضٌ من الواو ، وقال :

*لا يمْعنَّك خفضَ العَيْشِ فى دَعَةٍ * نُزُوعُ نفْسٍ إِلى أَهْلٍ وأَوْطانِ*

*تَلْقَى بكُلِّ بلادٍ إنْ حَلَلْتَ بها * أَهْلاً بأَهْلٍ وجيرانًا بجيرانِ*

والوَداعُ : اسمٌ من التَّوْديع ، قال القطاميّ :

*قِفِى قَبْلَ التفرُّق يا ضُباعَا * ولا يَكُ مَوْقفٌ منكِ الوداعَا*

أَراد ولا يكُنْ منكِ مَوْقف الوَداعِ ، ولكن ليكُنْ مَوْقف غِبْطَةٍ وإقامة ، لأَنَّ موقفَ الوَدع يكون للفِراق ، ويكون مُنَغَّصًا بما يَتْلُوه من التَّبارِيحِ والشَّوْق .

وقولُهم : دَعْ ذَا ، أَى اتْرُكْه ، وأَصلهُ وَدَعَ يَدَعُ ، ومنه قولُ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : "دَعْ ما يَريبك" .

قال عَمْرُو بن مَعْدِيكرب :

*إذا لم تَسْتَطِعْ أَمرًا فدَعْهُ * وجاوِزْهُ إلى ما تَسْتَطيعُ*

قال اللغويون : أُميتَ ماضِيه ، لا يُقال : وَدَعَه إنَّما يُقال تَرَكَه ولا واجعٌ ولكن تارِكٌ .

قالوا : وربَّما [جاءَ] فى ضرورة الشّعر وَدَعَه وهو مَوْدُوع على أَصْلِه ، قال أَنَسُ بن زُنَيْم :

*لَيْتَ شِعْرِى عن خَلِيلِى ما الَّذى * غالَهُ فى الوَعْدِ حَتَّى وَدَعَه*

وقال سُوَيْدُ بن أَبى كاهِل اليَشْكُرِىّ يصفُ نَفْسه :

*وَرِثَ البِغْضَةَ عن آبائه * حافِظُ العَقْلِ لما كان اسْتَمَعْ*

*فَسَعَى مَسْعاتَهم فى قَوْمِهِ * ثمّ لم يَظْفَرْ ولا عَجْزًا وَدَعْ*

وقال آخر :

*وكانَ ما قَدَّمُوا لأَنْفُسِهِم * أَكْثَرَ نَفْعاً من الَّذِى وَدَعُوا *

(122/819)

وقد اختارَ النبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أَصلَ هذه اللغة فيما رَوَى عنه ابنُ عبّاسٍ رضى الله عنهما أَنَّه قرأَ : ﴿ ما وَدَعَك ربُّكَ وما قلى ﴾ بتخفيف الدَّال ، وكذلك قرأَ بهذه القِراءَة عُرْوة ومُقاتِل وأَبو حيْوَةَ ، وأَبو البَرَهْسَم وابنُ أَبِى عَيْلَة ويَزِيدُ النَّحْوىّ .

وقال صلَّى الله عليه وسلَّم : "لَيَنْتَهِيَنَّ أَقوامٌ عن وَدْعِهِم الجُمُعات أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ على قُلُوبهم ثمّ لَيكُونُنَّ من الغافِلين" ، وقرأَ الباقون ما وَدَّعك بالتشديد ، أَى ما تَركَك من اخْتارك ، ولا أَبْغَضَك منذ أَحَبَّك .

وفى الحديث : "إِذا لم يُنْكِرِ الناسُ المُنْكَرَ فقد تُوُدِّعَ منهم" أَى أُسْلِمُوا إِلى ما استحقُّوه من المنكر عليهم ، وتُرِكُوا [و] ما استَحَبُّوه ، من المَعاصى حتى يُكْثِرُوا منها فيَستوجِبُوا العقوبةَ .

وفى الحديث : "دَعْ داعِىَ اللَّبَنَ" أَى اترُكْ منه فى الضَرْع شيئًا يَسْتَنْزِلُ اللَّبَنَ .

ووادَعَ بَنِى فُلان : صالَحَهُم .

والتَّوْديع عند الرّحيل معروفٌ ، وهو تخليف المسافِرِ الناسَ خافِضين وادِعين ، وهم يُوَدّعُونَه إِذا سافَرَ تفاؤلاً بالدَّعَة التى يصير إِليها إِذا قَفَل ، أَى يتركونه وسَفَره ، قال الأَعشى :

*ودِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَ الرَكْبَ مُرْتَحِلْ * وهَل يُطِيقُ وَداعاً أَيُّها الرّجُلُ*

واسْتَوْدَعْتُه وَديعَةً : استَحْفَظْتُه إِياها قال :

*اسْتُودِعِ العِلْمَ قِرطَاسٌ فضيَّعَه * فبِئْسَ مستودَعُ العِلْم القَراطيسُ*

وقوله تعالى : ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ ومُسْتَوْدَعٌ ﴾ أَى مستودَعٌ فى الصلب فى وقيل فى الثَّرَى .

والمُسْتَوْدَعُ فى قول عبّاس بن عبد المطَّلب رضى الله عنه :

*مِنْ قَبْلِها طِبتَ فى الظِّلال وفى * مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ*

المكانُ الذى جُعِلَ فيه آدم وحوّاءُ عليهما السلام من الجَنَّة واستُودعاهُ ، وقيل : الرَّحِمُ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 186 . 189 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وعده بأنه لا يزال في كل لحظة يرقيه في مراقي العلا والشرف ، ذكره بما رقاه به قبل ذلك من حين توفي أبوه وهو حمل وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين ، فتم يتمه من الأبوين قبل بلوغه لئلا يكون عليه - كما قال جعفر الصادق - حق لمخلوق ، فقال مقرراً له : ﴿ ألم يجدك ﴾ أي يصادفك أي يفعل بك فعل من صادف آخر حال كونه ﴿ يتيماً فآوى ﴾ ولما كان يلزم من اليتم في الغالب عدم العلم لليتيم لتهاون الكافل ، ومن عدم العلم الضلال ، قال مبيناً أن يتمه وإهماله من الحمل على دينهم كان نعمة عظيمة عليه لأنه لم يكن على دين قومه في حين من الأحيان أصلاً : ﴿ ووجدك ﴾ أي صادفك ﴿ ضالاً ﴾ أي لا تعلم الشرائع ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ [الشورى : 52] فأطلق اللازم وهو الضلال على الملزوم ، والمسبب على السبب ، وهو عدم العلم ، فكنت لأجل ذلك لا تقدم على فعل من الأفعال لأنك لا تعلم الحكم فيه إلا ما علمت بالعقل الصحيح والفطرة السليمة المستقيمة من التوحيد وبعض توابعه ، وهذا هو التقوى كما تقدم في الفاتحة ، ولم يرد به حقيقته وإنما

أعراه من التعلق بشيء من الشرائع ونحوها بإعدام من يحمله على ذلك ليفرغه ذلك التأمل بنفسه فيوصله بعقله السديد إلى الاعتقاد الحق في الأصول والوقوف في الفروع

﴿ فهدى ﴾ أي فهداك هدى محيطاً بكل علم ، فعلمك بالوحي والإلهام والتوفيق للنظر ما لم تكن تعلم .

ولما كان العيال يمنعون من التفرغ لعلم أو غيره قال : ﴿ ووجدك ﴾ أي حال كونك ﴿ عائلاً ﴾ أي ذا عيال لا تقدر على التوسعة عليهم أو فقيراً ، قال ابن القطاع : عال الرجل : افتقر ، وأعال : كثر عياله .

﴿ فأغنى ﴾ بما جعل لك من ربح التجارة ثم من كسب الغنائم وقد أفهم ذلك أن الناس أربعة أقسام : منهم من وجد الدين والدنيا ، ومنهم من عدمهما ، ومنهم من وجد الدين لا وجد الدنيا ، ومنهم من وجد الدنيا لا الدين .

ولما ذكره بما أنعم عليه به من هذه النعم الثلاث أوصاه بما يفعل في ثلاث مقابلة لها ، فقال مسبباً عنه مقدماً معمول ما بعد الفاء عليها اهتماماً : ﴿ فأما اليتيم ﴾ أي هذا النوع ﴿ فلا تقهر ﴾ أي تغلبه على شيء فإنما أذقتك اليتم تأديباً بأحسن الآداب لتعرف ضعف

اليتيم وذله ، وفوق ذلك كفالته وهي خلافة عن الله لأن اليتيم لا كافل له إلا الله ، ولهذا قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أنا وكافل اليتيم كهاتين " - وأشار بالسبابة والوسطى .
ولما بدأ بما كان بداية له ، ثنى بما هو نهاية له من حيث كونه يصير رأس الخلق فيصير محط الرجال في كل سؤال من علم ومال ، فقال مقدماً له اهتماماً به إشارة إلى أنه جبر الخواطر واستئلاف الخلق من أعظم المقاصد في تمام الدين : ﴿ وأما السائل ﴾ أي الذي أحوجته العيلة أو غيرها إلى السؤال ﴿ فلا تنهر ﴾ أي تزجر زجراً مهيناً ، فقد علمت مضاضة العيلة ، بل أعطه ولو قليلاً ، أو رده رداً جميلاً ، وكذا السائل في العلم .

ولما ذكر له تفصيل ما يفعل في اليتيم والفقير والجاهل ، أمره بما يفعل في العلم الذي آتاه إياه إعلاماً بأنه الآلة التي يستعملها في الأمرين الماضيين وغيرهما لأنها أشرف أحوال الإنسان وهي أوفق الأمور لأن يكون مقطع السورة لتوافق مطلعها فقال : ﴿ وأما بنعمة ربك ﴾ أي الذي أحسن إليك بإصلاح جميع ما يهمك من العلم وغيره وبالهجرة ومبادئها عند تمام عدد آيها من السين وهي إحدى عشرة ﴿ فحدث ﴾ أي فاذكر النبوة وبلغ الرسالة فاذكر جميع نعمه عليك فإنها نعم على الخلق كافة ، ومنها إنقاذك بالهجرة من أيدي الكفرة وإعزازك

بالأنصار ، وتحديثك بها شكرها ، فإنك مرشد يحتاج الناس إلى الاقتداء بك ، ويجب عليهم أن يعرفوا لك ذلك ويتعرفوا مقدارك ليؤدوا حقك ، فحدثهم أني ما ودعتك ولا قليتك ، ومن قال ذلك فقد خاب وافترى ، واشرح لهم تفاصيل ذلك بما وهبتك من العلم الذي هو أضوأ من ضياء الضحى وقد رجع آخرها على أولها بالتحديث بهذا القسم والمقسم لأجله ، وما للملك الأعلى في ذلك من عميم فضله : ولقد امتثل ـ صلى الله عليه وسلم ـ وابتدأ هذا التحديث الذي يشرح الصدور ، ويملأ الأكوان من السرور ، والنعمة والحبور ، لأنه بأكبر النعم المزيلة لكل النقم بالتكبير كما ورد في قراءة ابن كثير وفي رواية السوسي عن أبي عمرو ، واختلف القراء في ابتدائه وانتهائه ولفظه ، فقال بعضهم : هو من أول الضحى ، وقال آخرون : من آخرها ، وقال غيرهم من أول الشرح ، فمن قال للأول لم يكبر آخر الناس ، ومن قال للآخر انتهى تكبيره بالتكبير في آخرها ، وسببه أن جبريل عليه الصلاة والسلام لما أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد فترة الوحي ، فتلا السورة عليه كبر مسروراً لما كان أحزنه من الفترة ومن قول المشركين : قلاه ربه ، وتحديثاً بالنعم التي حباه الله بها في هذه السورة له ولأمته امتثالاً لما أمر به واختلف عنهم في لفظه ، فمنهم من اقتصر على " الله أكبر " ومنهم من زاد التهليل

فقال : " لا إله إلا الله والله أكبر " وهذا هو المستعمل ، ومنهم من زاد " ولله الحمد " والراجح قول من قال : إنه لآخر الضحى إسناداً ومعنى ، لأنها وإن كانت هي السبب والعادة جارية بأن من دهمه أمر عظيم يكبر مع أوله ، لكن شغله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالإصغاء إلى ما يوحى إليه منعه من ذلك ، فلما ختمت السورة تفرغ له ، فكان ذلك الوقت كأنه ابتداء مفاجأة ذلك الأمر العظيم له ، وزاد ما في السورة من جلائل النعم المقتضية للتحميد وما في ذلك من بدائع الصنع الموجب للتهليل ، وقد علم بذلك سبب من ظنه في أولها ، وأما من ظنه لأول الشرح فكونه كان في آخر الضحى ، فإذا وصل بها " ألم نشرح " ألبس الحال ، وتعليق الأشياء بالأوائل هو الأمر المعتاد ، وحكمته مع ما مضى من سببه أن التهليل توحيده سبحانه وتعالى بالأمر ، وامتناع شريك يمنعه من شيء يريده من الوحي وغيره ، والتكبير تفريده له بالكبرياء تنزيهاً له عن شوب نقص يلم به من أن يتجدد له علم ما لم يكن ليكون ذلك سبباً لقطع من وصله بوحي أو غيره ، والتحميد إثبات التفرد بالكمال له على إسباغ نعمه ، وفي ذلك أن هذه السورة آذنت بأن القرآن أشرف على الختام ، لأن عادة الحكماء من المدبرين تخفيف المنازل في الأواخر على السائرين كتخفيف أول مرحلة رفقاً بالمقصرين ، فناسب الذكر بهذا عند الآخر لأن تذكر الانقضاء يهيج مثل ذلك عند السالك ، ولأن تقصير السور ربما أوهم شيئاً مما لا يليق ، فسن التنزيه بتكبيره سبحانه

وتعالى عن كل ما يوهم نقصاً ، وإثبات الكمال له بالتوحيد منبه على الحث على تدبر ما في هذه السورة من الجمع للمعاني على وجازتها وقصر آياتها وحلاوتها مع ما في ذلك من تخفيف التعليم ، والتدريب على الحفظ في المبادىء والتحبيب فيه والتهييم ، والتحميد على إتمام النعمة على غاية الإحكام من لدن حكيم عليم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 456.459 ﴾

(127/819)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

أن اتصاله بما تقدم هو أنه تعالى يقول : ألم يجدك يتيماً فقال الرسول : بلى يا رب ، فيقول : انظر (أ) كانت طاعاتك في ذلك الوقت أكرم أم الساعة ؟ فلا بد من أن يقال : بل الساعة فيقول الله : حين كنت صبياً ضعيفاً ما تركناك بل ربيناك ورقيناك إلى حيث صرت مشرفاً

على شرفات العرش وقلنا لك : لولاك ما خلقنا الأفلاك ، أتظن أنا بعد هذه الحالة نهجرك ونتركك .

المسألة الثانية :

ألم يجدك من الوجود الذي بمعنى العلم ، والمنصوبان مفعولا وجد والوجود من الله ، والمعنى ألم يعلمك الله يتيماً فآوى ، وذكروا في تفسير اليتيم أمرين الأول : أن عبد الله بن عبد المطلب فيما ذكره أهل الأخبار توفي وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به ، ثم ولد رسول الله فكان مع جده عبد المطلب ومع أمه آمنة ، فهلكت أمه آمنة وهو ابن ست سنين فكان مع جده ، ثم هلك جده بعد أمه بسنتين ورسول الله ابن ثمان سنين .

وكان عبد المطلب يوصي أبا طالب به لأن عبد الله وأبا طالب كانا من أم واحدة ، فكان أبو طالب هو الذي يكفل رسول الله بعد جده إلى أن بعثه الله للنبوة ، فقام بنصرته مدة مديدة ، ثم توفي أبو طالب بعد ذلك فلم يظهر على رسول الله يتم ألبتة فأذكره الله تعالى هذه النعمة ، روى أنه قال أبو طالب يوماً لأخيه العباس : ألا أخبرك عن محمد بما رأيت منه ؟ فقال : بلى فقال : إني ضممته إلي فكيف لا أفارقه ساعة من ليل ولا نهار ؛ ولا أأتمن عليه

أحداً حتى أني كنت أنومه في فراشي ، فأمرته ليلة أن يخلع ثيابه وينام معي ، فرأيت الكراهة في وجهه لكنه كره أن يخالفني ، وقال : يا عماه اصرف بوجهك عني حتى أخلع ثيابي إذ لا ينبغي لأحد أن ينظر إلى جسدي ، فتعجبت من قوله وصرفت بصري حتى دخل الفراش فلما دخلت معه الفراش إذا بيني وبينه ثوب والله ما أدخلته فراشي فإذا هو في غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غمس في المسك ، فجهدت لأنظر إلى جسده فما كنت أرى شيئاً وكثيراً ما كنت أفتقده من فراشي فإذا قمت لأطلبه ناداني ها أنا يا عم فارجع ، ولقد كنت كثيراً ما أسمع منه كلاماً يعجبني وذلك عند مضي الليل وكنا لا نسمي على الطعام والشراب ولا نحمده بعده ، وكان يقول في أول الطعام : بسم الله الأحد .

فإذا فرغ من طعامه قال : الحمد لله ، فتعجبت منه ، ثم لم أر منه كذبة ولا ضحكاً ولا جاهلية ولا وقف مع صبيان يلعبون .

واعلم أن العجائب المروية في حقه من حديث بحيرى الراهب وغيره مشهورة .

التفسير الثاني لليتيم : أنه من قولهم درة يتيمة ، والمعنى ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فآواك ؟ أي جعل لك من تأوي إليه وهو أبو طالب ، وقرىء فأوى وهو على معنيين : إما من أواه بمعنى آواه ، وإما من أوى له إذا رحمه ، وههنا سؤالان :

السؤال الأول : كيف يحسن من الجود أن يمن بنعمة ، فيقول : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَاوى ﴾ ؟ والذي يؤكد هذا السؤال أن الله تعالى حكى عن فرعون أنه قال : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ [الشعراء : 18] في معرض الذم لفرعون ، فما كان مذموماً من فرعون كيف يحسن من الله ؟ الجواب : أن ذلك يحسن إذا قصد بذلك أن يقوي قلبه ويعده بدوام النعمة ، وبهذا يظهر الفرق بين هذا الامتنان وبين امتنان فرعون ، لأن امتنان فرعون محبط ، لأن الغرض فما بالك لا تخدمني ، وامتنان الله بزيادة نعمه ، كأنه يقول : مالك تقطع عني رجاءك ألست شرعت في تربيتك ، أتظنني تاركاً لما صنعت ، بل لا بد وأن أتمم عليك وعلى أمتك النعمة ، كما قال : ﴿ وَلأُتِمَّ نِعْمَتِى ﴾ [البقرة : 150] أما علمت أن الحامل التي تسقط الولد قبل التمام معيبة ترد ، ولو أسقطت أو الرجل أسقط عنها بعلاج تجب الغرة وتستحق الذم ، فكيف يحسن ذلك من الحي القيوم ، فما أعظم الفرق بين مان هو الله ، وبين مان هو فرعون ، ونظيره ما قاله بعضهم : ﴿ ثلاثة رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] في تلك الأمة ، وفي أمة محمد : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثلاثة إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة : 7] فشتان بين أمة رابعهم كلبهم ، وبين أمة رابعهم ربهم .

السؤال الثاني : أنه تعالى منّ عليه بثلاثة أشياء ، ثم أمره بأن يذكر نعمة ربه ، فما وجه المناسبة بين هذه الأشياء ؟ الجواب : وجه المناسبة أن تقول : قضاء الدين واجب ، ثم الدين نوعان مالي وإنعامي والثاني : أقوى وجوباً ، لأن المالي قد يسقط بالإبراء والثاني : يتأكد بالإبراء ، والمالي يقضي مرة فينجو الإنسان منه والثاني : يجب عليك قضاؤه طول عمرك ، ثم إذا تعذر قضاء النعمة القليلة من منعم هو مملوك ، فكيف حال النعمة العظيمة من المنعم العظيم ، فكأن العبد يقول : إلهي أخرجتني من العدم إلى الوجود بشراً سوياً ، طاهر الظاهر نجس الباطن ، بشارة منك أن تستر على ذنوبي بستر عفوك ، كما سترت نجاستي بالجلد الظاهر ، فكيف يمكنني قضاء نعمتك التي لا حد لها ولا حصر ؟ فيقول تعالى الطريق إلى ذلك أن تفعل في حق عبيدي ما فعلته في حقك ، كنت يتيماً فآويتك فافعل في حق الأيتام ذلك ، وكنت ضالاً فهديتك فافعل في حق عبيدي ذلك ، وكنت عائلاً فأغنيتك فافعل في حق عبيدي ذلك ثم إن فعلت كل ذلك فاعلم أنك إنما فعلتها بتوفيقي لك ولطفي وإرشادي ، فكن أبداً ذاكراً لهذه النعم والألطاف .

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7)

فاعلم أن بعض الناس ذهب إلى أنه كان كافراً في أول الأمر ، ثم هداه الله وجعله نبياً ، قال الكلبي : ﴿ وجدك ضالاً ﴾ يعني كافراً في قوم ضلال فهداك للتوحيد ، وقال السدي : كان على دين قومه أربعين سنة ، وقال مجاهد : وجدك ضالاً عن الهدى لدينه واحتجوا على ذلك بآيات أخر منها قوله : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ [الشورى : 52] وقوله : ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ [يوسف : 3] وقوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] فهذا يقتضي صحة ذلك منه ، وإذا دلت هذه الآية على الصحة وجب حمل قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ ﴾ عليه ، وأما الجمهور من العلماء فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما كفر بالله لحظة واحدة ، ثم قالت المعتزلة : هذا غير جائز عقلاً لما فيه من التنفير ، وعند أصحابنا هذا غير ممتنع عقلاً لأنه جائز في العقول أن يكون الشخص كافراً فيرزقه الله الإيمان ويكرمه بالنبوة ، إلا أن الدليل السمعي قام على أن هذا الجائز لم يقع وهو قوله تعالى : ﴿ مَا ضَلَّ صاحبكم وَمَا غوى ﴾ [النجم : 2] ثم ذكروا في تفسير هذه الآية وجوهاً كثيرة أحدها : ما روي عن ابن عباس والحسن والضحاك وشهر بن حوشب : ووجدك ضالاًّ عن معالم النعمة وأحكام الشريعة غافلاً عنها فهداك إليها ، وهو المراد من قوله : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ [الشورى : 52] وقوله : ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ [يوسف : 3] وثانيها : ضل عن مرضعته حليمة

حين أرادت أن ترده إلى جده حتى دخلت إلى هبل وشكت ذلك إليه فتساقطت الأصنام ، وسمعت صوتاً يقول : إنما هلاكنا بيد هذا الصبي ، وفيه حكاية طويلة وثالثها : ما روي مرفوعاً أنه عليه الصلاة والسلام قال : " ضللت عن جدي عبد المطلب وأنا صبي ضائع ، كاد الجوع يقتلني ، فهداني الله " ذكره الضحاك ، وذكر تعلقه بأستار الكعبة ، وقوله :

يا رب رد ولدي محمدا . . اردده ربي واصطنع عندي يداً

فما زال يردد هذا عند البيت حتى أتاه أبو جهل على ناقة وبين يديه محمد وهو يقول : لا ندري ماذا نرى من ابنك ، فقال عبد المطلب ولم ؟ قال : إني أنخت الناقة وأركبته من خلفي فأبت الناقة أن تقوم ، فلما أركبته أمامي قامت الناقة ، كأن الناقة تقول : يا أحمق هو الإمام فكيف يقوم خلف المقتدى ! وقال ابن عباس : رده الله إلى جده بيد عدوه كما فعل بموسى حين حفظه على يد عدوه ورابعها : أنه عليه السلام لما خرج مع غلام خديجة ميسرة أخذ كافر بزمام بعيره حتى ضل ، فأنزل الله تعالى جبريل عليه السلام في صورة آدمي ، فهداه إلى القافلة ، وقيل : إن أبا طالب خرج به إلى الشأم فضل عن الطريق فهداه الله تعالى وخامسها : يقال : ضل الماء في اللبن إذا صار مغموراً ، فمعنى الآية كنت مغموراً

بين الكفار بمكة فقواك الله تعالى حتى أظهرت دينه وسادسها : العرب تسمي الشجرة الفريدة في الفلاة ضالة ، كأنه تعالى يقول : كانت تلك البلاد كالمفازة ليس فيها شجرة تحمل ثمر الإيمان بالله ومعرفته إلا أنت ، فأنت ، شجرة فريدة في مفازة الجهل فوجدتك ضالاً فهديت بك الخلق ، ونظيره قوله عليه السلام :

(133/819)

" الحكمة ضالة المؤمن " وسابعها : ووجدك ضالاً عن معرفة الله تعالى حين كنت طفلاً صبياً ، كما قال : ﴿ والله أَخْرَجَكُم مّن بُطُونِ أمهاتكم لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ [النحل : 78] فخلق فيك العقل والهداية والمعرفة ، والمراد من الضال الخالي عن العلم لا الموصوف بالاعتقاد الخطأ وثامنها : كنت ضالاً عن النبوة ما كنت تطمع في ذلك ولا خطر شيء من ذلك في قلبك ، فإن اليهود والنصارى كانوا يزعمون أن النبوة في بني إسرائيل فهديتك إلى النبوة التي ما كنت تطمع فيها ألبتة وتاسعها : أنه قد يخاطب السيد ، ويكون المراد قومه فقوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ ﴾ أي وجد قومك ضلالاً ، فهداهم بك وبشرعك وعاشرها : وجدك ضالاًّ عن الضالين منفرداً عنهم مجانباً لدينهم ، فكلما كان بعدك عنهم أشد كان ضلالهم أشد ، فهداك إلى أن اختلطت بهم ودعوتهم إلى الدين المبين الحادي عشر :

وجدك ضالاً عن الهجرة ، متحيراً في يد قريش متمنياً فراقهم وكان لا يمكنك الخروج بدون إذنه تعالى ، فلما أذن له ووافقه الصديق عليه وهداه إلى خيمة أم معبد ، وكان ما كان من حديث سراقه ، وظهور القوة في الدين كان ذلك المراد بقوله : ﴿ فهدى ﴾ ، الثاني عشر : ضالاًّ عن القبلة ، فإنه كان يتمنى أن تجعل الكعبة قبلة له وما كان يعرف أن ذلك هل يحصل له أم لا ، فهداه الله بقوله : ﴿ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة : 144] فكأنه سمى ذلك التحير بالضلال الثالث عشر : أنه حين ظهرها له جبريل عليه السلام في أول أمره ما كان يعرف أهو جبريل أم لا ، وكان يخافه خوفاً شديداً ، وربما أراد أن يلقي نفسه من الجبل فهداه الله حتى عرف أنه جبريل عليه السلام الرابع عشر : الضلال بمعنى المحبة كما في قوله : ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضلالك القديم ﴾ [يوسف : 95] أي محبتك ، ومعناه أنك محب فهديتك إلى الشرائع التي بها تتقرب إلى خدمة محبوبك الخامس عشر : ضالاًّ عن أمور الدنيا لا تعرف التجارة ونحوها ،

ثم هديتك حتى ربحت تجارتك ، وعظم ربحت حتى رغبت خديجة فيك ، والمعنى أنه ما كان لك وقوف على الدنيا ، وما كنت تعرف سوى الدين ، فهديتك إلى مصالح الدنيا بعد

ذلك السادس عشر : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا ﴾ أي ضائعاً في قومك ؛ كانوا يؤذونك ، ولا يرضون بك رعية ، فقوي أمرك وهداك إلى أن صرت آمراً والياً عليهم السابع عشر : كنت ضالاً ما كنت تهتدي على طريق السموات فهديتك إذ عرجت بك إلى السموات ليلة المعراج الثامن عشر : ووجدك ضالاًّ أي ناسياً لقوله تعالى :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ [البقرة : 282] فهديتك أي ذكرتك ، وذلك أنه ليلة المعراج نسي ما يجب أن يقال بسبب الهيبة ، فهداه الله تعالى إلى كيفية الثناء حتى قال : " لا أحصي ثناء عليك " التاسع عشر : أنه وإن كان عارفاً بالله بقلبه إلا أنه كان في الظاهر لا يظهر لهم خلافاً ، فعبر عن ذلك بالضلال العشرون : روى علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله برسالته ، فإني قلت ليلة لغلام من قريش ، كان يرعى معي بأعلى مكة ، لو حفظت لي غنمي حتى أدخل مكة ، فأسمر بها كما يسمر الشبان ، فخرجت أريد ذلك حتى أتيت أول دار من دور مكة ، فسمعت عزفاً بالدفوف والمزامير ، فقالوا فلان ابن فلان يزوج بفلانة ، فجلست أنظر إليهم وضرب الله على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس ، قال فجئت صاحبي ، فقال ما فعلت ؟ فقلت ما صنعت شيئاً ، ثم أخبرته الخبر ، قال : ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فضرب الله على أذني فما أيقظني إلا مس الشمس ، ثم ما

هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله تعالى برسالته " .

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8)

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(135/819)

العائل هو ذو العيلة ، وذكرنا ذلك عند قوله : ﴿ أَن لا تَعُولُوا ﴾ [النساء : 3] ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾ [التوبة : 28] ثم أطلق العائل على الفقير ، وإن لم يكن له عيال ، وههنا في تفسير العائل قولان :

(136/819)

الأول : وهو المشهور أن المراد هو الفقير ، ويدل عليه ما روى أنه في مصحف عبد الله : (ووجدك عديماً) وقرىء عيلاً كما قرىء سيحات (1) ،

ثم في كيفية الإغناء وجوه الأول : أن الله تعالى أغناه بتربية أبي طالب ، ولما اختلت أحوال

أبي طالب أغناه (الله) بمال خديجة ، ولما اختل ذلك أغناه (الله) بمال أبي بكر ، ولما اختل ذلك أمره بالهجرة وأغناه بإعانة الأنصار ، ثم أمره بالجهاد ، وأغناه بالغنائم ، وإن كان إنما حصل بعد نزول هذه السورة ، لكن لما كان ذلك معلوم الوقوع كان كالواقع ، روي أنه عليه السلام : " دخل على خديجة وهو مغموم ، فقالت له مالك ، فقال : الزمان زمان قحط فإن أنا بذلت المال ينفذ مالك فأستحي منك ، وإن لم أبذل أخاف الله ، فدعت قريشاً وفيهم الصديق ، قال الصديق : فأخرجت دنانير وصبتها حتى بلغت مبلغاً لم يقع بصري على من كان جالساً قدامي لكثرة المال ، ثم قالت : اشهدوا أن هذا المال ماله إن شاء فرقه ، وإن شاء أمسكه " الثاني : أغناه بأصحابه كانوا يعبدون الله سراً حتى قال عمر حين أسلم : أبرز أتعبد اللات جهراً ونعبد الله سراً ! فقال عليه السلام : " حتى تكثر الأصحاب ، " فقال حسبك الله وأنا فقال تعالى : ﴿ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتبعك مِنَ المؤمنين ﴾ [الأنفال : 64] فأغناه الله بمال أبي بكر ، وبهيبة عمر " الثالث : أغناك بالقناعة فصرت بحال يستوي عندك الحجر والذهب ، لا تجد في قلبك سوى ربك ، فربك غني عن الأشياء لا بها ، وأنت بقناعتك استغنيت عن الأشياء ، وإن الغنى الأعلى الغنى عن الشيء لا به ، ومن ذلك أنه عليه السلام خير بين الغنى والفقر ، فاختار الفقر الرابع : كنت عائلاً عن البراهين والحجج ، فأنزل الله عليك القرآن ، وعلمك ما لم تكن تعلم فأغناك .

القول الثاني في تفسير العائل : أنت كنت كثير العيال وهم الأمة ، فكفاك .

وقيل فأغناهم بك لأنهم فقراء بسبب جهلهم ، وأنت صاحب العلم ، فهداهم على يدك ،

وههنا سؤالات .

---

(1) هكذا في الأصل ولعله يعني قرئ : ووجدك عيلا تشديد لياء مع كسرها كما قرئ :

سيحات كذلك في قوله تعالى : سائحاتٍ [التحريم : 5] . والله أعلم الصاوي .

(137/819)

السؤال الأول : ما الحكمة في أنه تعالى اختار له اليتم ؟ قلنا فيه وجوه أحدها : أن يعرف

قدر اليتامى فيقوم بحقهم وصلاح أمرهم ، ومن ذلك كان يوسف عليه السلام لا يشبع .

فقيل له في ذلك : فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجياع وثانيها : ليكون اليتيم مشاركاً له في

الاسم فيكرم لأجل ذلك ، ومن ذلك قال عليه السلام : "إذا سميتم الولد محمداً فأكرموه ،

ووسعوا له في المجلس"

وثالثها : أن من كان له أب أو أم كان اعتماده عليهما ، فسلب عنه الولدان حتى لا يعتمد من

أول صباه إلى آخر عمره على أحد سوى الله ، فيصير في طفوليته متشبهاً بإبراهيم عليه

السلام في قوله : حسبي من سؤالي ، علمه بحالي ، وكجواب مريم : ﴿ أنى لَكِ هذا قَالَتْ

﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ﴾ [آل عمران : 37] .

ورابعها : أن العادة جارية بأن اليتيم لا تخفى عيوبه بل تظهر ، وربما زادوا على الموجود فاختار تعالى له اليتيم ، ليتأمل كل أحد في أحواله ، ثم لا يجدوا عليه عيباً فيتفقون على نزاهته ، فإذا اختاره الله للرسالة لم يجدوا عليه مطعناً وخامسها : جعله يتيماً ليعلم كل أحد أن فضيلته من الله ابتداء لأن الذي له أب ، فإن أباه يسعى في تعليمه وتأديبه

وسادسها : أن اليتم والفقر نقص في حق الخلق ، فلما صار محمد عليه الصلاة والسلام ، مع هذين الوصفين أكرم الخلق ، كان ذلك قلباً للعادة ، فكان من جنس المعجزات .

السؤال الثاني : ما الحكمة في أن الله ذكر هذه الأشياء ؟ الجواب : الحكمة أن لا ينسى نفسه فيقع في العجب .

السؤال الثالث : روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سألت ربي مسألة وددت أني لم أسألها ، قلت : اتخذت إبراهيم خليلاً ، وكلمت موسى تكليماً ، وسخرت مع داود الجبال ، وأعطيت سليمان كذا وكذا ، وأعطيت فلاناً كذا وكذا ، فقال : ألم أجدك يتيماً فآويتك ؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ قلت : بلى .

فقال : ألم أشرح لك صدرك ؟ قلت : بلى ، قال : ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت : بلى ! قال : ألم أصرف عنك وزرك ؟ قلت : بلى ، ألم أوتك مالم أوت نبياً قبلك وهي خواتيم سورة البقرة ؟ أم أتخذك خليلاً كما اتخذت إبراهيم خليلاً ؟ " فهل يصح هذا الحديث قلنا : طعن القاضي في هذا الخبر فقال : إن الأنبياء عليهم السلام لا يسألون مثل ذلك إلا عن إذن ، فكيف يصح أن يقع من الرسول مثل هذا السؤال .

ويكون منه تعالى ما يجري مجرى المعاتبة .

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9)

وقرىء فلا تكهر ، أي لا تعبس وجهك إليه ، والمعنى عامله بمثل ما عاملتك به ، ونظيره من وجه : ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : 77] ومنه قوله عليه السلام : " الله الله فيمن ليس له إلا الله " وروي : أنها نزلت حين صاح النبي صلى الله عليه وسلم على ولد خديجة ومنه حديث موسى عليه السلام حين : "قال : إلهي بم نلت ما نلت ؟ قال : أتذكر حين هربت منك السخلة ، فلما قدرت عليها قلت : أتعبت نفسك ثم حملتها ، فلهذا السبب جعلتك ولياً على الخلق ، فلما نال موسى عليه السلام النبوة بالإحسان إلى الشاة فكيف بالإحسان إلى اليتيم ، وإذا كان هذا العتاب بمجرد الصياح أو العبوسية في الوجه ، فكيف إذا أذله أو أكل ماله ، عن أنس عن النبي عليه الصلاة والسلام : " إذا بكى

اليتيم وقعت دموعه في كف الرحمن ، ويقول تعالى : من أبكى هذا اليتيم الذي واريت والده التراب ، من أسكته فله الجنة " .

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10)

(139/819)

يقال : نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره ، وفي المراد من السائل قولان : أحدهما : وهو اختيار الحسن أن المراد منه من يسأل العلم ونظيره من وجه : ﴿ عَبَسَ وتولى * أَن جَاءَهُ الأعمى ﴾ [عبس : 1 ، 2] وحينئذ يحصل الترتيب ، لأنه تعالى قال له أولاً : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوى * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فهدى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فأغنى ﴾ [الضحى : 6-8] ثم اعتبر هذا الترتيب ، فأوصاه برعاية حق اليتيم ، ثم برعاية حق من يسأله عن العلم والهداية ، ثم أوصاه بشكر نعم الله عليه والقول الثاني : أن المراد مطلق السائل ولقد عاتب الله رسوله في القرآن في شأن الفقراء في ثلاثة مواضع أحدها : أنه كان جالساً وحوله صناديد قريش ، إذ جاء ابن أم مكتوم الضرير ، فتخطى رقاب الناس حتى جلس بين يديه ، وقال : علمني مما علمك الله ، فشق ذلك عليه فعبس وجهه فنزل ﴿ عَبَسَ وتولى ﴾ [عبس : 1] ، والثاني : حين قالت له قريش : لو جعلت لنا مجلساً وللفقراء مجلساً آخر فهم

أن يفعل ذلك فنزل قوله : ﴿ واصبر نَفْسَكَ مَعَ الذين يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ [الكهف : 28]

والثالث : كان جالساً فجاءه عثمان بعذق من ثمر فوضعه بين يديه فأراد أن يأكل فوقف سائل بالباب ، فقال : رحم الله عبداً يرحمنا ، فأمر بدفعه إلى السائل فكره عثمان ذلك ، وأراد أن يأكله النبي عليه السلام فخرج واشتراه من السائل ، ثم رجع السائل ففعل ذلك ثلاث مرات ، وكان يعطيه النبي عليه السلام إلى أن قال له النبي صلى الله عليه وسلم : " أسائل أنت أم بائع ؟ " فنزل : ﴿ وَأَمَّا السائل فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ .

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

(140/819)

وفيه وجوه أحدها : قال مجاهد : تلك النعمة هي القرآن ، فإن القرآن أعظم ما أنعم الله به على محمد عليه السلام ، والتحديث به أن يقرأه ويقرىء غيره ويبين حقائقه لهم وثانيها : روي أيضاً عن مجاهد : أن تلك النعمة هي النبوة ، أي بلغ ما أنزل إليك من ربك وثالثها : إذا وفقك الله فراعيت حق اليتيم والسائل ، وذلك التوفيق نعمة من الله عليك فحدث بها ليقتدي بك غيرك ، ومنه ما روي عن الحسين بن علي عليه السلام أنه قال : إذا عملت خيراً فحدث إخوانك ليقتدوا بك ، إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء ، وظن أن غيره

يقتدي به ، ومن ذلك لما سئل أمير المؤمنين علي عليه السلام عن الصحابة فأثنى عليهم وذكر خصالهم ، فقالوا له : فحدثنا عن نفسك فقال : مهلاً ، فقد نهى الله عن التزكية فقيل له : أليس الله تعالى يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ فقال : فإني أحدث ، كنت إذا سئلت أعطيت وإذا سكت ابتديت ، وبين الجوانح علم جم فاسألوني ، فإن قيل : فما الحكمة في أن أخر الله تعالى حق نفسه عن حق اليتيم والعائل ؟ قلنا : فيه وجوه أحدها : كأنه يقول أنا غني وهما محتاجان وتقديم حق المحتاج أولى وثانيها : أنه وضع في حظهما الفعل ورضي لنفسه بالقول وثالثها : أن المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب في ذكر الله تعالى ، فجعل خاتمة هذه الطاعات تحدث القلب واللسان بنعم الله تعالى حتى تكون ختم الطاعات على ذكر الله ، واختار قوله : ﴿ فَحَدِّثْ ﴾ على قوله فخبر ، ليكون ذلك حديثاً عنده لا ينساه ، ويعيده مرة بعد أخرى ، والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 31 صـ 194 . 200 ﴾

(141/819)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَالضُّحَى (1) ﴾

تقدم تفسير ﴿ الضحى ﴾ بأنه سطوع الضوء وعظمه ، وقال قتادة : ﴿ الضحى ﴾ هنا ، النهار كله ، و﴿ سجى ﴾ معناه سكن ، واستقر ليلاً تاماً ، وقال بعض المفسرين ﴿ سجى ﴾ معناه أقبل ، وقال آخرون : معناه أدبر والأول أصح ، ومنه قول الشاعر : [الحارثي] : [الراجز]

يا حبذا القمراء والليل الساج . . . وطرق مثل ملاء النساج

ويقال بحر ساج أي ساكن ومنه قول الأعشى : [الطويل]

وما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم . . . وبحرك ساج لا يواري الدعامصا

(142/819)

وطرف ساج إذا كان ساكناً غير مضطرب النظر ، وقرأ جمهور الناس " ودّعك " بشد الدال من التوديع ، وقرأ عروة بن الزبير وابنه هشام " ودَعك " بتخفيف الدال من التوديع ، وقرأ عروة بن الزبير وأبنه هشام " ودَعك " بتخفيف الدال بمعنى ترك ، و﴿ قلى ﴾ معناه : أبغض . واختلف في سبب هذه الآية فقال ابن عباس وغيره : أبطأ الوحي مرة عن رسول

الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة مدة اختلفت في حدها الروايات حتى شق ذلك عليه فجاءت امرأة من الكفار هي أم جميل امرأة أبي لهب ، فقالت يا محمد : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فنزلت الآية بسبب ذلك . وقال ابن وهب عن رجال عن عروة بن الزبير أن خديجة قالت له : ما أرى الله إلا قد خلاك لإفراط جزعك لبطء الوحي عنك ، فنزل الآية بسبب ذلك ، وقال زيد بن أسلم : إنما احتبس عنه جبريل لجرو كلب كان في بيته ، وقوله تعالى : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ يحتمل أن يريد الدارين الدنيا والآخرة ، وهذا تأويل ابن إسحاق وغيره ، ويحتمل أن يريد حاليه في الدنيا قبل نزول السورة وبعدها فوعده الله تعالى على هذا التأويل بالنصر والظهور ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك ﴾ الآية ، قال جمهور الناس : ذلك في الآخرة ، وقال بعضهم من أهل البيت هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى وأحد من أمته في النار ، وروي أنه عليه السلام لما نزلت قال : " إذاً لا أرضى وأحد من أمتي في النار " ، وقال ابن عباس : رضاه أن لا يدخل أحد من أهل بيته في النار ، وقال ابن عباس أيضاً : رضاه أن الله تعالى وعده بألف قصر في الجنة بما يحتاج إليه من النعم والخدم ، وقال بعض العلماء رضاه في الدنيا بفتح مكة وغيره ، وفي مصحف ابن مسعود : " ولسيعطيك ربك فترضى " ، ثم وقفه تعالى على المراتب التي رجه عنها بإنعامه ويتمه ، كان فقد أبيه وكونه في كنف عمه أبي طالب ، وقيل لجعفر بن محمد الصادق لم يتم النبي عليه السلام

من أبويه ، فقال لئلا يكون عليه حق لمخلوق ، وقرأ الأشهب العقيلي " فأوى " بالقصر بمعنى رحم ، تقول أويت لفلان أي رحمته ، وقوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً ﴾ أي وجده إنعامه بالنبوة والرسالة على غير الطريقة التي هو عليها في نبوته ، وهذا قول الحسن والضحاك وفرقة ، والضلال يختلف ، فمنه القريب ومنه البعيد ، فالبعيد ضلال الكفار الذين يعبدون الأصنام ويحتجون لذلك ويعتبطون به ، وكان هذا الضلال الذي ذكره الله تعالى لنبيه عليه السلام أقرب ضلال وهو الكون واقفاً لا يميز المهيع لا أنه تمسك بطريق أحد بل كان يرتاد وينظر ، وقال السدي : أقام على أمر قومه أربعين سنة ، وقيل معنى ﴿ وجدك ضالاً ﴾ أي تنسب إلى الضلال ، وقال الكلبي ووجدك في قوم ضلال فكأنك واحد منهم .

قال القاضي أبو محمد : ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعبد صنماً قط ، ولكنه أكل ذبائحهم حسب حديث زيد بن عمرو في أسفل بارح وجرى على يسير من أمرهم وهو مع ذلك ينظر خطأ ما هم فيه ودفع من عرفات وخالفهم في أشياء كثيرة ، وقال ابن عباس هو ضلاله وهو صغير في شعاب مكة ، ثم رده الله تعالى إلى جده عبد المطلب ، وقيل هو ضلاله من حليمة مرضعته ، وقال الترمذي وعبد العزيز بن يحيى : ﴿ ضالاً ﴾ معناه

خامل الذكر لا يعرفك الناس فهداهم إليه ربك ، والصواب أنه ضلال من توقف لا يدري كما قال عز وجل : ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ [الشورى : 52] قال ثعلب قال أهل السنة : هو تزويجه بنته في الجاهلية ونحوه ، والعائل الفقير ، وقرأ اليماني " عيِّلاً " بشد الياء المكسورة ومنه قول الشاعر [أحيحة] : [الوافر]

وما يدري الفقير متى غناه . . . وما يدري الغني متى يعيل

(144/819)

وأعال : كثر عياله ، وعال : افتقر ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم عيلة ﴾ [التوبة : 28] وقوله تعالى : ﴿ فأغنى ﴾ قال مقاتل معناه رضاك بما أعطاك من الرزق ، وقيل فقيراً إليه فأغناك به ، والجمهور على أنه فقر المال وغناه ، والمعنى في النبي صلى الله عليه وسلم أنه أغني بالقناعة والصبر وحببا إليه فقر الحال وغناه ، وقيل أغني بالكفاف لتصرفه في مال خديجة ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم قط كثير المال ورفعه الله عن ذلك ، وقال : " ليس الغنى عن كثرة العرض ولكنه غنى النفس " . وكما عدد الله عليه هذه النعم الثلاث وصاه بثلاث وصايا في كل نعمة وصية مناسبة لها ، فبإزاء قوله ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ قوله ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ ، وبإزاء قوله ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ قوله

﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ ، هذا عليه قول من قال إن ﴿ السائل ﴾ هنا هو السائل عن العلم والدين وليس بسائل المال ، وهو قول أبي الدرداء والحسن وغيره ، وبإزاء قوله ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ قوله ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ ومن قال إن ﴿ السائل ﴾ هو سائل المحتاج وهو قول الفراء عن جماعة ، ومعنى ﴿ فلا تنهر ﴾ جعلها بإزاء قوله ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ ، وجعل قوله ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ بإزاء قوله ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ ، وقال إبراهيم بن أدهم نعم القول السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة ، ﴿ فلا تنهر ﴾ معناه : فرد رداً جميلاً إما بعطاء وإما بقول حسن ، وفي مصحف ابن مسعود " ووجدك عديماً فأغنى " ، وقرأ ابن مسعود والشعبي وإبراهيم التيمي ، " فأما اليتيم فلا تكهر " بالكاف ، قال الأخفش هي بمعنى القهر ، ومنه قول الأعرابي : وقاكم الله سطوة القادر وملكة الكاهر ، وقال أبو حاتم لا أظنها بمعنى القهر لأنه قد قال الأعرابي الذي بال في المسجد : فأكهرني النبي صلى الله عليه وسلم فإنها هي بمعنى الإشهار وأمره الله تعالى بالتحدث بالنعمة ، فقال مجاهد والكسائي : معناه : بث القرآن

وبلغ ما أرسلت به ، وقال آخرون بل هو عموم في جميع النعم ، وكان بعض الصالحين يقول : لقد أعطاني الله كذا وكذا ، ولقد صليت البارحة كذا وذكرت الله كذا ، فقيل له : إن مثلك لا يقول هذا ، فقال إن الله تعالى يقول : ﴿ وأما بنعمة ربك بحدث ﴾ ، وأنتم تقولون لا تحدث ،

وقال النبي صلى الله عليه وسلم (التحدث بالنعم شكر) ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم (من أسديت اليه نعمة فذكرها فقد شكرها ومن سترها فقد كفرها) ونصب " اليتيم " ب " تقهر " والتقدير مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم

نجز تفسيرها والحمد لله كثيرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(146/819)

وقال القرطبى :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) ﴾

عدد سبحانه مِنَنَه على نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً ﴾ لا أب لك قد مات أبوك .

﴿ فآوى ﴾ أي جعل لك مأوى تأوِي إليه عند عمك أبي طالب ، فكفلك .

وقيل لجعفر بن محمد الصادق : لمَ أُوتِمَ النبي صلى الله عليه وسلم من أبويه ؟ فقال : لئلا يكون لمخلوق عليه حق .

وعن مجاهد : هو من قول العرب : درّة يتيمة ؛ إذا لم يكن لها مِثل .

فمجاز الآية : ألم يجدك واحداً في شرفك لا نظير لك ، فآواك الله بأصحابٍ يحفظونك وَيَحُوطونك .

وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ (7)

أي غافلاً عما يراد بك من أمر النبوّة ، فهداك : أي أرشدك .

والضلال هنا بمعنى الغفلة ؛ كقوله جل ثناؤه : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [طه : 52] أي لا يغفل .

وقال في حق نبيه : ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ [يوسف : 3] .

وقال قوم : ﴿ ضَآلًّا ﴾ لم تكن تدري القرآن والشرائع ، فهداك الله إلى القرآن ، وشرائع الإسلام ؛ عن الضحاك وشهر بن حوشب وغيرهما .

وهو معنى قوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلَا الإيمان ﴾ [الشورى : 52] على ما بينا في سورة الشورى .

وقال قوم : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا ﴾ أي في قوم ضلال ، فهداهم الله بك .

هذا قول الكلبي والفرّاء .

وعن السدي نحوه ؛ أي ووجد قومك في ضلال ، فهداك إلى إرشادهم .

وقيل : "ووجدك ضالاً" عن الهجرة ، فهداك إليها .

وقيل : "ضالاً" أي ناسياً شأن الاستثناء حين سُئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح ، فأذكرك ؛ كما قال تعالى : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ [البقرة : 282] .

وقيل : ووجدك طالباً للقبلة فهداك إليها ؛ بيانه : ﴿ قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السمآء ﴾ [البقرة : 144] الآية .

ويكون الضلال بمعنى الطلب ؛ لأن الضال طالب .

(147/819)

وقيل : ووجدك متحيراً عن بيان ما نزل عليك ، فهداك إليه ؛ فيكون الضلال بمعنى التحير ؛ لأن الضال متحير .

وقيل : ووجدك ضائعاً في قومك ؛ فهداك إليه ؛ ويكون الضلال بمعنى الضياع .

وقيل : ووجدك محباً للهداية ، فهداك إليها ؛ ويكون الضلال بمعنى المحبة .

ومنه قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ تالله إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ القديم ﴾ [يوسف : 95] أي في محبتك .

قال الشاعر :

هذا الضلال أُشاب مني المفرِقا . . .

والعارضَيْنِ ولِم أكن متحققا

عجباً لعزةَ في اختيار قطيعتي . . .

بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقيل : "ضالا" في شِعاب مكة ، فهداك وردّك إلى جدّك عبد المطلب .

قال ابن عباس : ضل النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو صغير في شِعاب مكة ، فرآه أبو جهل منصرفاً عن أغنامه ، فردّه إلى جده عبد المطلب ؛ فمنّ الله عليه بذلك ، حين ردّه إلى جده على يدي عدوّه .

وقال سعيد بن جبير : خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب في سفر ، فأخذ إبليس بزمام الناقة في ليلة ظَلْماء ، فعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل عليه السلام ، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند ، وردّه إلى القافلة ؛ فمنّ الله عليه بذلك .

وقال كعب : إن حليمة لما قضت حق الرضاع ، جاءت برسول الله صلى الله عليه وسلم لتردّه على عبد المطلب ، فسمعت عند باب مكة : هنيئاً لك يا بطحاء مكة ، اليوم يرد إليك النور والدين والبهاء والجمال .

قالت : فوضعته لأُصلِح ثيابي ، فسمعت هدّة شديدة ، فالتفت فلم أره ، فقلت : مَعْشَرَ

الناس ، أين الصبيّ ؟ فقالوا : لم نر شيئاً ؛ فصحت : وامحمداه ! فإذا شيخ فانٍ يتوكأ على عصاه ، فقال : اذهبي إلى الصنم الأعظم ؛ فإن شاء أن يردّه عليك فعل .

ثم طاف الشيخ بالصنم ، وقبل رأسه وقال : يا رب ، لم تزل مِنتك على قريش ، وهذه السعدية تزعم أن ابنها قد ضل ، فردّه إن شئت .

(148/819)

فانكب (هُبَلُ) على وجهه ، وتساقطت الأصنام ، وقالت : إليك عنا أيها الشيخ ، فهلاكنا على يدي محمد .

فألقى الشيخ عصاه ، وارتعد وقال : إن لابنكِ رباً لا يضيعه ، فاطلبيه على مَهَل .

فانحشرت قريش إلى عبد المطلب ، وطلبوه في جميع مكة ، فلم يجدوه .

فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً ، وتضرع إلى الله أن يردّه ، وقال :

يا ربِّ رُدَّ ولدي محمدَا . . .

اردده ربي واتخذ عندي يدا

يا رب إنْ محمدٌ لم يُوجدا . . .

فشمل قومي كلهم تبدّدا

فسمعوا منادياً ينادي من السماء : معاشر الناس لا تضِجوا ، فإن لمحمد رباً لا يخذله ولا يضيعه ، وإن محمداً بوادي تِهامة ، عند شجرة السَّمُر .

فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل ، فإذا النبيّ صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة ، يلعب بالأغصان وبالورق .

وقيل : "ووجدك ضالاً" ليلة المِعراج ، حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق ، فهداك إلى ساق العرش .

وقال أبو بكر الورّاق وغيره : "ووجدك ضالاً" : تحب أبا طالب ، فهداك إلى محبة ربك .

وقال بسام بن عبد الله : "ووجدك ضالاً" بنفسك لا تدري من أنت ، فعرفك بنفسِك وحالك .

وقال الجنيدي : ووجدك متحيراً في بيان الكتاب ، فعلمك البيان ؛ بيانه : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] . . .

الآية .

﴿ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اختلفوا فِيهِ ﴾ [النحل : 64] .

وقال بعض المتكلمين : إذا وجدت العرب شجرة منفردة في فلاة من الأرض ، لا شجر معها ، سموها ضالة ، فيهتدي بها إلى الطريق ؛ فقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ ﴾ أي لا أحد على دينك ، وأنت وحيد ليس معك أحد ؛ فهَدَيتُ

بك الخلقَ إليّ .

قلت : هذه الأقوال كلها حِسان ، ثم منها ما هو معنويّ ، ومنها ما هو حِسيّ .

والقول الأخير أعجب إليّ ؛ لأنه يجمع الأقوال المعنوية .

(149/819)

وقال قوم : إنه كان على جملة ما كان القوم عليه ، لا يُظهر لهم خلافاً على ظاهر الحال ؛ فأما الشرك فلا يُظَنُّ به ؛ بل كان على مراسم القوم في الظاهر أربعين سنة .

وقال الكلبيّ والسدّي : هذا على ظاهره ؛ أي وجدك كافراً والقوم كفار فهداك .

وقد مضى هذا القول والردّ عليه في سورة "الشورى" .

وقيل : وجدك مغموراً بأهل الشرك ، فميزك عنهم .

يقال : ضل الماء في اللبن ؛ ومنه ﴿ أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ ﴾ [السجدة : 10] أي لحقنا بالتراب عند الدفن ، حتى كأنا لا نتميز من جملته .

وفي قراءة الحسن "ووجدك ضالٌّ فهدى" أي وجدك الضال فاهتدى بك ؛ وهذه قراءة على التفسير .

وقيل : "ووجدك ضالاً" لا يهتدي إليك قومك ، ولا يعرفون قدرك ؛ فهدى المسلمين إليك ،

حتى آمنوا بك .

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8)

أي فقيراً لا مال لك .

﴿ فأغنى ﴾ أي فأغناك بخديجة رضي الله عنها ؛ يقال : عال الرجل يعِيل عَيلة : إذا افتقر .

وقال أُحَيحة بن الجُلاح :

فما يَدْرِي الفقيرُ متى غِناهُ . . .

وما يدْرِي الغنِيّ متى يَعِيل

أي يفتقر .

وقال مقاتل : فرضَّاك بما أعطاك من الرزق .

وقال الكلبيّ : قنعك بالرزق .

وقال ابن عطاء : ووجدك فقير النفس ، فأغنى قلبك .

وقال الأخفش : وجدك ذا عيال ؛ دليله "فأغنى" .

ومنه قول جرير :

الله أنزلَ في الكتاب فريضةً . . .

لابن السبيل ولِلْفقير العائل

وقيل : وجدك فقيراً من الحُجَج والبراهين ، فأغناك بها .

وقيل : أغناك بما فتح لك من الفتوح ، وأفاءه عليك من أموال الكفار .

القشيرِي : وفي هذا نظر ؛ لأن السورة مكية ، وإنما فرض الجهاد بالمدينة .

وقراءة العامة "عائلاً" .

وقرأ ابن السميقع "عَيِّلا" بالتشديد ؛ مثل طيب وهين .

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9)

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ أي لا تَسَلَّطْ عليه بالظلم ، ادفع إليه حقه ، واذكر يتمك ؛ قاله الأخفش .

وقيل : هما لغتان بمعنى .

وعن مجاهد "فلا تقهر" فلا تَحْتَقِرْ .

وقرأ النخَعِيّ والأشهب العُقَيليّ "تَكْهر" بالكاف ، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود .

فعلى هذا يحتمل أن يكون نهياً عن قهره ، بظلمه وأخذ ماله .

وخص اليتيم لأنه لا ناصر له غير الله تعالى ؛ فغلَّظ في أمره ، بتغليظ العقوبة على ظالمه .

والعرب تعاقب بين الكاف والقاف .

النحاس : وهذا غلط ، إنما يقال كَهَره : إذا اشتدّ عليه وغَلَّظ .

وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمِي ، حين تكلم في الصلاة بردّ السلام ، قال : فبأبي هو وأمي ! ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ما كَهَرَني ، ولا ضربني ، ولا شتمني . . . الحديث .

وقيل : القهر الغلبة .

والكَهْر : الزجر .

الثانية : ودلت الآية على اللطف باليتيم ، وبِره والإحسان إليه ؛ حتى قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم .

وروِي عن أبي هريرة : " أن رجلاً شكا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه ؛ فقال : "إن أردت أن يلين ، فامسح رأس اليتيم ، وأطعم المسكين" " وفي الصحيح عن أبي هريرة : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أنا وكافل اليتيم له أو لغيره كهاتين" وأشار بالسبابة والوُسطى " ومن حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن ، فيقول الله تعالى لملائكته : يا ملائكتي ، من ذا

الذي أبكى هذا اليتيم الذي غيبت أباه في التراب ، فتقول الملائكة ربنا أنت أعلم ، فيقول الله تعالى لملائكته : يا ملائكتي ، اشهدوا أن من أَسْكَتَه وأرضاه ؟ أن أرضِيه يوم القيامة " فكان ابن عمر إذا رأى يتيماً مسح برأسه ، وأعطاه شيئاً .

(151/819)

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ضم يتيماً فكان في نفقته ، وكفاه مؤونته ، كان له حجاباً من النار يوم القيامة ، ومن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة " وقال أكثم بن صَيفِيّ : الأذلّاء أربعة : النمام ، والكذاب ، والمديون ، واليتيم .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ أي لا تزجره ؛ فهو نهي عن إغلاظ القول . ولكن رُدَّه ببذل يسير ، أو ردّ جميل ، واذكر فقرك ؛ قاله قتادة وغيره .

وروي عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لا يمنعن أحدكم السائلَ ، وأن يعطِيه إذا سأل ، ولو رأى في يده قُلْبين من ذهب "

وقال إبراهيم بن أدهم : نعم القوم السُّؤَّال : يحملون زادنا إلى الآخرة .

وقال إبراهيم النخعي : السائل يريد الآخرة ، يجيء إلى باب أحدكم فيقول : هل تبعثون إلى أهليكم بشيء .

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " رُدُّوا السائل ببذل يسير ، أو ردّ جميل ، فإنه يأتيكم من ليس من الإنس ولا من الجن ، ينظر كيف صنيعكم فيما خوّلكم الله " وقيل : المراد بالسائل هنا ، الذي يسأل عن الدِّين ؛ أي فلا تنهره بالغِلظة والجَفْوة ، وأجبه برفق ولين ؛ قاله سفيان .

قال ابن العربيّ : وأما السائل عن الدين فجوابه فرض على العالِم ، على الكفاية ؛ كإعطاء سائل البِرّ سواء .

وقد كان أبو الدرداء ينظر إلى أصحاب الحديث ، ويبسط رداءه لهم ، ويقول : مرحباً بأحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي حديث أبي هارون العَبْديّ ، عن أبي سعيد الخُدْرِي ، قال : كنا إذا أتينا أبا سعيد يقول : مَرْحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الناس لكم تَبَع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً " وفي رواية " يأتيكم رجال مِن قِبل المشرق " .

.

فذكره .

و"اليتيم" و"السائل" منصوبان بالفعل الذي بعده ؛ وحق المنصوب أن يكون بعد الفاء ، والتقدير : مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم ، ولا تنهر السائل .

وروي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " سألت ربي مسألة وددت أني لم أسألها : قلت : يا رب اتخذت إبراهيم خليلاً ، وكلمت موسى تكليما ، وسخرت مع داود الجبال يسبحن ، وأعطيت فلاناً كذا ؛ فقال عز وجل : ألم أجدك يتيماً فآويتك ؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أوتك ما لم أُوتِ أحداً قبلك : خواتيمَ سورة البقرة ، ألم أتخذك خليلاً ، كما اتخذت إبراهيم خليلاً ؟ قلت : بلى يا رب " .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي انشر ما أنعم الله عليك بالشكر والثناء .

والتحدث بنعم الله ، والاعتراف بها شكر .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد "وأما بنعمة ربك" قال بالقرآن .

وعنه قال : بالنبوّة ؛ أي بلغ ما أرسلت به .

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، والحكم عام له ولغيره .

وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما قال : إذا أصبت خيراً ، أو عملت خيراً ، فحدّث

به الثقة من إخوانك .

وعن عمرو بن ميمون قال : إذا لقي الرجل من إخوانه من يثق به ، يقول له : رزقني الله من الصلاة البارحة كذا وكذا .

وكان أبو فراس عبد الله بن غالب إذا أصبح يقول : لقد رزقني الله البارحة كذا ، قرأت كذا ، وصليت كذا ، وذكرت الله كذا ، وفعلت كذا .

فقلنا له : يا أبا فراس ، إن مثلك لا يقول هذا ! قال يقول الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ وتقولون أنتم : لا تَحَدَّث بنعمة الله ! ونحوه عن أيوب السخِتياني وأبي رجاء العُطارِدِيّ رضي الله عنهم .

(153/819)

وقال بكر بن عبد الله المَزُنيّ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أُعطِي خيراً فلم يُرَ عليه ، سمي بغيض الله ، معادياً لنعم الله " وروى الشعبيّ عن النعمان بن بشير قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من لم يشكر القليل ، لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس ، لم يشكر الله ، والتحدّث بالنعم شكر ، وتركه كفر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب "

وروى النسائي " عن مالك بن نضلة الجُشَمِيّ قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه

وسلم جالساً ، فرآني رَثَّ الثياب فقال : "ألك مال ؟" قلت : نعم ، يا رسول الله ، من كل المال .

قال : "إذا آتاك الله مالاً فلْيُرَ أثره عليك" "وروى أبو سعيد الخدريّ : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله جميل يحب الجمال ، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده " .

فصل : يكبّر القارىء في رواية البزيّ عن ابن كثير وقد رواه مجاهد عن ابن عباس ، عن أبيّ بن كعب : " عن النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا بلغ آخر "والضحى "كَبَّر بين كل سورة تكبيرة ، إلى أن يختم القرآن ، ولا يصل آخر السورة بتكبيره ؛ بل يفصل بينهما بسكتة ، وكأنّ المعنى في ذلك أن الوحي تأخر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أياماً ، فقال ناس من المشركين : قد ودعه صاحبه وقلاه ؛ فنزلت هذه السورة فقال : "الله أكبر" " قال مجاهد : قرأت على ابن عباس ، فأمرني به ، وأخبرني به عن أبيّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ولا يكبّر في قراءة الباقين ؛ لأنها ذرِيعة إلى الزيادة في القرآن .

قلت : القرآن ثبت نقلاً متواتراً سوره وآياته وحروفه ؛ لا زيادة فيه ولا نقصان ؛ فالتكبير على هذا ليس بقرآن .

فإذا كان بسم الله الرحمن الرحيم المكتوب في المصحف بخط المصحف ليس بقرآن ،

فكيف بالتكبير الذي هو ليس بمكتوب .

أما أَنه ثبت سنة بنقل الآحاد ، فاستحبه ابن كثير ، لا أنه أوجبه فخطأ من تركه .

(154/819)

ذكر الحاكم أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحافظ في كتاب "المستدرك" له على البخارِيّ ومسلم : حدثنا أبو يحيى محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن يزيد ، المقرىء الإمام بمكة ، في المسجد الحرام ، قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي بن زيد الصائغ ، قال : حدثنا أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزة : سمعت عكرمة بن سليمان يقول : قرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين ، فلما بلغت "والضحى" قال لي كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم ، فإني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت "والضحى" قال : كبر حتى تختم .

وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد ، وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك ، وأخبره ابن عباس أن أُبَيَّ بن كعب أمره بذلك ، وأخبره أُبَيّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بذلك .

هذا حديث صحيح ولم يخرجاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

وقال الثعالبى :

ثُمَّ وَقَفَ تَعَالَى نبيَّه على المراتبِ التي دَرَجه عَنْها بإنعَامِهِ فقال : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدكَ ضَالاًّ فهدى ﴾ اخْتَلَفَ الناسُ في تأويلِهِ ، والضلالُ يَخْتَلِفُ ، فمنه البعيدُ ومنه القريبُ ؛ فالبعيدُ ضلالُ الكفَّارِ ، وهذا قَدْ عَصَمَ اللَّهُ منه نَبِيَّه فَلَمْ يَعْبُد صلى الله عليه وسلم صَنَماً قط ، ولا تَابعَ الكفارَ على شيءٍ مما هم عليه من الباطلِ ، وإنما ضلالُه صلى الله عليه وسلم هو كَوْنُهُ واقفاً لا يَميزُ المَهْيَعَ ، بل يُدْبِرُ وَيَنْظُر ، وقال الترمذي وعبد العزيز بن يحيى : ﴿ ضَالاًّ ﴾ معناه : خاملَ الذِّكْرِ لا يعرفُك الناسُ ؛ فهداهُم إليكَ ربُّك ، والصوابُ أنه ضلالُ مَنْ توقَّفَ لا يدْرِي ، كما قال عز وجل : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ [الشورى : 52] وقال الثعلبي : قال بعض المتكلمين : إذا وجدَتِ العربُ شَجَرَةً مفردةً في فلاةٍ سَمَّوْها ضالةً فَيُهْتَدَى بها إلى الطريقِ ، أي : فَوَجَدْتُكَ وَحيداً ليس معك نبيٌّ غيرك فهديتُ بك الخلقَ إليَّ ، انتهى ، قال عياض : وقال الجنيد : المَعْنَى : وَوَجَدَكَ متحيّراً في بيانِ ما أُنْزِلَ إليكَ فَهَدَاكَ لبيانه ، لقوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر ﴾ [

النحل : 44] الآية ، قال عياض : ولا أعلمُ أحداً من المفسرينَ قَال فيها ضالاًّ عَنْ الإيمانِ ، وكذلك في قصةِ موسى عليه السلام قوله : ﴿ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 20] أي المخطئينَ ، وقال ابن عطاء : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ ﴾ أي : مُحِبًّا لمعرفِتي ، والضَّالُّ : المحِبُّ ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَفِى ضلالك القديم ﴾ [يوسف : 95] أي : محبَّتِكَ القديمةِ ، انتهى ، والعَائِلُ : الفقيرُ ﴿ فأغنى ﴾ أي : بالقناعَةِ والصَّبْرِ ، ثم وصَّاه تَعالى بثلاثِ وصَايَا ؛ بإزاءِ هذه النّعم الثلاثِ ، و ﴿ السائل ﴾ هنا قَالَ أبو الدرداء : هو السائلُ عن العِلْمِ ، وقيل : هو سائلُ المالِ ، وقال إبراهيم بن أدهم : نعم

(156/819)

القومُ السؤال يحملنا زادنا إلى الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال مجاهد وغيره : معناه بُثَّ القرآن وبَلِّغْ ما أُرسلْتَ بِه ، قال عياض : وهذا الأمرُ يَعمُّ الأمة ، انتهى ، وقال آخرونَ : بل هُوَ عُمُوم في جميعِ النّعم ، وفي «سُنَنِ أبي داودَ» عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أَعْطُوا الأَجيرَ حَقَّهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ ، وَأَعْطُوا السَّائِلَ ، وَإِنْ جَاءَ على فَرَسٍ " قال البغويُّ في «المصابيحِ» : هذا حديثٌ مُرْسَلٌ انتهى . انتهى . اهـ ﴿الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والضحى ﴾

هُوَ وقتُ ارتفاعِ الشمسِ وصدرُ النهارِ قالُوا : تخصيصُهُ بالإقسامِ بهِ لأنَّها الساعةُ التي كلَّم فيهَا مُوسَى عليهِ السلامُ وألقَى فيهَا السحرةُ سُجداً لقولِه تعالَى : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ وقيلَ : أريدَ بهِ النهارُ كمَا في قولِه تعالَى : ﴿ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ﴾ في مقابلةِ بياتاً ﴿ والليل ﴾ أيْ جنسِ الليلِ ﴿ إِذَا سجى ﴾ أيْ سكنَ أهلُه أو ركدَ ظلامُه من سَجَا البحرُ سَجْواً إذَا سكنَتْ أمواجُهُ ، وَنُقِلَ عن قتادةَ ومقاتلٍ وجعفرٍ الصَّادقِ أنَّ المرادَ بالضُّحَى هُوَ الضُّحى الذي كلَّمَ اللهُ تعالَى فيهِ مُوسَى عليهِ السلامُ وبالليلِ ليلةُ المعراجِ وقولُه تعالَى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ جوابُ القسمِ أيْ ما قطعكَ قطعَ المودعِ وقُرِىءَ بالتخفيفِ أيْ ما تركَكَ ﴿ وَمَا قلى ﴾ أيْ ومَا أبغضكَ وحذفُ المفعولِ إما للاستغناءِ عنْهُ بذكرِه من قبلُ أو للقصدِ إلى نفي صدورِ الفعلِ عنْهُ تعالَى بالكليةِ مع أنَّ فيهِ مراعاةً للفواصلِ . رُوِيَ أنَّ الوحيَ تأخرَ عن رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم أياماً لتركِه الاستثناءَ كما مرَّ في سُورةِ الكهفِ أو لزجرِه سائلاً ملحاً فقالَ المشركونَ : إنَّ محمداً ودعَهُ ربُّهُ وقلاهُ

فنزلتْ ردًّا عليهم وتَبْشيرا ً له عليهِ الصلاةُ والسلامُ بالكرامةِ الحاصلةِ والمترقبةِ كما يُشعِرُ به إيرادُ اسمِ الربِّ المنبىءِ عنِ التربيةِ والتبليغِ إلى الكمالِ معَ الإضافةِ إلى ضميرِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ وحيثُ تضمنَ ما سبقَ من نفي التوديعِ والقِلَى أنَّه تعالى يواصلُه بالوَحْي والكرامةِ في الدُّنيا بشرهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ بأنَّ مَا سيؤتيه في الآخرةِ أجلُّ وأعظمُ من ذلكَ فقيل : ﴿ وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ لما أنَّها باقيةٌ صافيةٌ عنِ الشوائبِ على الإطلاقِ وهذه فانيةٌ مشوبةٌ بالمضارِّ وما أُوتي عليهِ الصلاةُ والسلامُ من

(158/819)

شرفِ النبوةِ وإنْ كانَ مما لا يعادلُه شرفٌ ولا يُدانيهِ فَضلٌ لكنَّهُ لا يخلُو في الدُّنيا من بعضِ العوارضِ القادحةِ في تمشيةِ الأحكامِ معَ أنَّه عندَ مَا أعدَّ لهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ في الآخرةِ من السبقِ والتقدمِ على كافةِ الأنبياءِ والرسلِ يومَ الجمعِ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَاسُ لِرَبِّ العالمين ﴾ وكونُ أمتِه شهداءَ على سائرِ الأممِ ورفعُ درجاتِ المؤمنينَ وإعلاءُ مراتبهم بشفاعتِه وغيرُ ذلكَ من الكراماتِ السنيةِ التي لا تحيطُ بهَا العبارةُ بمنزلةِ بعضِ المبادي بالنسبةِ إلى المَطَالبِ وقيلَ : المرادُ بالآخرةِ عاقبةُ أمرِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ أيْ لنهايةُ أمركَ خيرٌ من بدايتِه لا تزالُ تتزايدُ قوةً وتتصاعدُ رفعةً .

وقولُه تعالَى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ عِدةٌ كريمةٌ شاملةٌ لمَا أعطاهُ اللهُ تعالَى في الدُّنيا من كمالِ النفسِ وعلومِ الأولينَ والآخرينَ وظهورِ الأمرِ وإعلاءِ الدينِ بالفتوحِ الواقعةِ في عصرِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ وفي أيامِ خلفائِه الراشدينَ وغيرِهم من الملوكِ الإسلاميةِ وفشُوِّ الدعوةِ والإسلامِ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها ولما ادخرَ لهُ من الكراماتِ التي لا يعلمُها إلا اللهُ تعالَى وقدْ أنبأَ ابنَ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما عن شمَّةٍ منهَا حيثُ قالَ لَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : "فِي الجنةِ ألفُ قصرٍ من لؤلؤٍ أبيضَ ترابُه المسكُ" واللامُ للابتداءِ دخلتِ الخبرَ لتأكيدِ مضمونِ الجُملةِ والمبتدأُ محذوفٌ تقديرُه ولأنتَ سوفَ يُعطيكَ الخ ، لا للقسمِ لأنَّها لا تدخلُ على المضارعِ إلاَّ معَ النونِ المؤكدةِ وجمعُها معَ سوفَ للدلالةِ على أنَّ الإعطاءَ كائنٌ لا محالةَ وإنْ تراخَى لحكمةٍ وقيلَ : هيَ للقسمِ وقاعدةُ التلازمِ بينَها وبينَ نونِ التأكيدِ قد استثْنَى النحاةُ منهَا صورتينِ إحداهُمَا أنْ يفصلَ بينَها وبينَ الفعلِ بحرفِ التنفيسِ كهذهِ الآيةِ وكقولِه : واللهِ لسأعطيكَ والثانيةُ أنْ يُفصلَ بينهما بمعمولِ الفعلِ كقولِه تعالَى : ﴿ لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وقالَ أبو عليَ الفارسيُّ : ليستْ هذهِ اللامُ هيَ التي في قولِكَ : إنَّ زيداً لقائمٌ بلْ هيَ التي في قولِكَ : لأقومَنَّ ونابتْ سوفَ عن إحدَى نونِي التأكيدِ فكأنَّه قيلَ : وليعطينكَ

وكذلكَ اللامُ في قولِه تعالَى : ﴿ وَلَلأَخِرَةُ ﴾ الخ ، وقولُه تعالَى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فاوى ﴾ تعديدٌ لِمَا أفاضَ عليه الصلاةُ والسلامُ من أولِ أمرِه إلى ذلكَ الوقتِ من فنونِ النعماءِ العظامِ ليستشهدَ بالحاضرِ الموجودِ على المترقبِ الموعودِ فيطمئنَّ قلبُه وينشرحَ صدرُهُ والهمزةُ لإنكارِ النفيِ وتقريرِ المنفيِ على أبلغِ وَجْهٍ

(160/819)

كأنَّه قيلَ : قد وجدكَ الخ ، والوجودُ بمعنى العلمِ ويتيماً مفعولُه الثَّانِي وقيلَ : بمعنى المصادقةِ ويتيماً حالٌ من مفعولِه . رُوِيَ أنَّ أباهُ ماتَ وهُوَ جنينٌ قد أتتْ عليهِ ستةُ أشهرٍ وماتتْ أمُّهُ وهوَ ابنُ ثمانِ سنينَ فكفلَهُ عمُّهُ أبو طالبٍ وعطفَه اللهُ عليه فأحسنَ تربيتَهُ وذلكَ إيواؤُهُ وقُرِىءَ فأَوَى وهُوَ إمَّا من أواهُ بمعنى آواهُ أو من أوَى لَهُ إذا رَحِمَهُ وقولُه تعالَى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ ﴾ عطفٌ على ما يقتضيهِ الإنكارُ السابقُ كمَا أشيرَ إليهِ أو على المضارعِ المنفيِّ بلمْ داخلٌ في حُكمِه كأنَّهُ قيلَ : أمَا وجدكَ يتيماً فآوى ووجدكَ غافلاً عنِ الشرائعِ التي لا تهتدِي إليهَا العقولُ كمَا في قولِه تعالَى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرى مَا الكتاب ﴾ وقيلَ : ضلَّ في صباهُ في بعضِ شعابِ مكةَ فردَّهُ أبو جهلٍ إلى عبدِ المطلبِ . وقيلَ : ضَلَّ مرةً أُخرَى وطلبُوه فلم يجدُوه فطافَ عبدُ المطلبِ بالكعبةِ سبعاً وتضرعَ إلى اللهِ تعالَى فسمعُوا منادياً ينادِي

من السماءِ : يا معشرَ الناسِ لا تضجُّوا فإنَّ لمحمدٍ ربًّا لا يخذلُهُ ولا يضيعُهُ وإنَّ محمداً بوادِي تهامةَ عندَ شجرِ السَّمُرِ فسارَ عبدُ المطلبِ وورقةُ بنُ نوفلٍ فإذَا النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ قائمٌ تحتَ شجرةٍ يلعبُ بالأغصانِ والأوراقِ.

وقيلَ : أضلتهُ مرضعتهُ حليمةُ عندَ بابِ مكةَ حينَ فطمتْهُ وجاءتْ بهِ لتردهُ على عبدِ المطلبِ. وقيلَ : ضَلَّ في طريقِ الشامِ حينَ خرجَ بهِ أبو طالبٍ. يُروى أنَّ إبليسَ أخذَ بزمامِ ناقتِهِ في ليلةٍ ظلماءَ فعدلَ بهِ عن الطريقِ فجاءَ جبريلُ عليهِ السلامُ فنفخَ نفخةً وقعَ منهَا إلى أرضِ الهندِ وردَّهُ إلى القافلةِ ﴿ فهدى ﴾ فهداكَ إلى مناهجِ الشرائعِ المنطويةِ في تضاعيفِ مَا أوحِي إليكَ من الكتابِ المبينِ وعلمكَ ما لم تكنْ تعلمُ أو أزالَ ضلالكَ عن جدكَ أو عمكَ.

(161/819)

﴿ ووَجدَكَ عَائِلاً ﴾ أيْ فقيرا وقُرِىءَ عَيْلاً وقُرِىءَ عديماً ﴿ فأغنى ﴾ فأغناكَ بمالِ خديجةَ أو بمالٍ حصلَ لكَ من ربحِ التجارةِ أو بمَا أفاءَ عليكَ من الغنائمِ قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ : "جُعِلَ رزقِي تحتَ ظلِّ رُمْحِي" وقيلَ : قنعكَ وأَغْنى قلبكَ.

﴿ فَأَمَّا اليتيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ فلا تغلبْهُ على مالِه وقالَ مجاهدٌ : لا تَحْتقرْ وقُرِىءَ فلاَ تَكْهَرْ أيْ

فلا تعبسْ في وجهه ﴿ وَأَمَّا السائل فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ فلا تزجُرْ ولَا تَغلُظْ لهُ القولَ بل رُدَّهُ ردًّا جميلاً قالَ أبراهيمُ بنُ أدهمَ : نعمَ القومُ السؤّالُ يحملونَ زادنا إلى الآخرةِ وقالَ إبراهيمُ النَّخَعِيُّ : السائلُ يريدُ الآخرةَ يجيءُ إلى بابِ أحدِكُم فيقولُ : أتبعثونَ إلى أهليكُم بشيءٍ ؟ وقيلَ : المرادُ بالسائلِ هاهنا الذي يسألُ عنِ الدينِ .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ بشكرِهَا وإشاعتِها وإظهارِ آثارِها وأحكامِها أريدَ بهَا ما أفاضَهُ الله تعالَى عليهِ عليهِ الصلاةُ والسلامُ من فنونِ النعمِ التي من جُملتِها النعمُ المعدودةُ الموجودةُ منهَا والموعودةُ والمَعْنى أنكَ كنتَ يتيماً وضالاًّ وعائلاً فآواكَ الله تعالَى وهداكَ وأغناكَ فمهمَا يكُنْ من شيءٍ فلا تنسَ حقوقَ نعمةِ الله تعالَى عليكَ في هذه الثلاثِ واقتدِ بالله تعالَى وأحسنْ كما أحسنَ الله إليكَ فتعطفَ على اليتيمِ فآوِه وترحمْ على السائلِ وتفقدهُ بمعروفكَ ولا تزجرهُ عن بابكَ وحدثْ بنعمةِ الله كُلِّها وحيثُ كانَ معظمُها نعمةَ النبوةِ فقدِ اندرجَ تحتَ الأمرِ هدايتُه عليهِ الصلاةُ والسلامُ للضلالِ وتعليمُه للشرائعِ والأحكامِ حسبمَا هداهُ الله عزَّ وجلّ وعلمَهُ من الكتابِ والحكمةِ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(162/819)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فاوى ﴾

تعديل لما أفاض عليه صلى الله عليه وسلم من أول أمره إلى وقت النزول من فنون النعماء العظام ليستشهد بالخاص الموجود على المترقب الموعود فيزداد قلبه الشريف وصدره الرحيب طمأنينة وسرورا ً وانشراحا ً وحبورا ً ولذا فصلت الجملة .

(163/819)

والهمزة لإنكار النفي وتقرير النفي على أبلغ وجه كأنه قيل قد وجدك الخ ووجدته على ما قال الرضي بمعنى أصبته على صفة ويراد بالوجود فيه العلم مجازا ً بعلاقة اللزوم وفي مفردات الراغب لوجود اضرب وجود بالحواس الظاهرة ووجود بالقوى الباطنة ووجود بالعقل وما نسب إلى الله تعالى من لوجود فبمعنى العلم المجرد إذ كان الله تعالى منزها ً عن الوصف بالجوارح والآلات وقد فسره بعضهم هنا بالعلم وجعل مفعوله الأول الضمير ومفعوله الثاني يتيما ً وبعضهم بالمصادفة وجعله متعديا ً لواحد ويتيما ً حالا ً وأنت تعلم أن المصادفة لا تصح في حقه تعالى لأنها ملاقاة ما لم يكن في علمه سبحانه وتقديره جل شأنه فلا بد من التجوز بها عن تعلق علمه عز وجل بذلك واليتم انقطاع الصبي عن أبيه قبل بلوغه

والإيواء ضم الشيء إلى آخر يقال آوى إليه فلاناً أي ضمه إلى نفسه أي ألم يعلمك طفلاً لا أبا لك فضمك إلى من قام بأمرك روي أن عبد المطلب بعث ابنه عبد الله أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتار تمراً من يثرب فتوفي ورسول الله صلى الله عليه وسلم جنين قد أتت عليه ستة أشهر فلما وضعته كان في حجر جده مع أمه فماتت وهو عليه الصلاة والسلام ابن ست سنين ولما بلغ عليه الصلاة والسلام ثماني سنين مات جده فكفله عمه الشفيق الشقيق أبو طالب بوصية من أبيه عبد المطلب وأحسن تربيته صلى الله عليه وسلم وفي "الكشاف" ماتت أمه عليه الصلاة والسلام وهو ابن ثماني سنين فكفله عمه وكان شديد الاعتناء بأمره إلى أن بعثه الله تعالى وكان يرى منه صلى الله عليه وسلم في صغره ما لم ير من صغير روي أنه قال يوماً لأخيه العباس ألا أخبرك عن محمد صلى الله عليه وسلم بما رأيت منه فقال بلى قال: إني ضممته إلي فكنت لا أفارقه ساعة من ليل ولا نهار ولم ائتمن عليه أحداً حتى أني كنت أنومه في فراشي فأمرته ليلة أن يخلع ثيابه وينام معي فرأيت الكراهية في وجهه وكره أن يخالفني فقال يا عماه اصرف وجهك عني

حتى أخلع ثيابي إني لا أحب أن تنظر إلى جسدي فتعجبت من قوله وصرفت بصري حتى دخل الفراش فلما دخلت معه الفراش إذا بيني وبينه ثوب والله ما أدخلته في فراشي فإذا هو في غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غمس في المسك فجهدت لأنظر إلى جسده فما كنت أرى شيئاً وكثيراً ما كنت أفقده من فراشي فإذا قمت لأطلبه ناداني ها أنا يا عم فارجع وكنت كثيراً ما أسمع منه كلاماً يعجبني وذلك عندما مضى بعض الليل وكنا لا نسمي على الطعام والشراب ولا نحمد وكان يقول في أول الطعام بسم الله الأحد فإذا فرغ من طعامه قال الحمد لله فكنت أعجب منه ولم أر منه كذبة ولا ضحكاً ولا جاهلية ولا وقف مع الصبيان وهم يعلبون وهذا لعمري يغض من فيض

.

في المهد يعرب عن سعادة جده . . .

أثر النجابة ساطع البرهان

وقيل المعنى ألم يجدك يتيماً أبتك المراضع فآواك من مرضعة تحنو عليك بأن رزقها بصحبتك الخير والبركة حتى أحبتك وتكفلتك والأول هو الظاهر وقيل غير ذلك مما ستعلمه بعد إن شاء الله تعالى ومن بدع التفاسير على ما قال الزمخشري أن يتيماً من قولهم درة يتيمة والمعنى ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فآواك والأولى عليه أن يقال ألم يجدك واحداً عديم النظير في الخليقة لم يحو مثلك صدف الإمكان فآواك إليه وجعلك في

حق اصطفائه وقرأ أبو الأشعث فأوى ثلاثياً فجوز أن يكون من أواه بمعنى آواه وأن يكون من أوى له أي رحمه ومصدره أيا واية وماوية وماوية وتحقيقه على ما قال الراغب أي رجع إليه بقلبه ومنه قوله

: أواني ولا كفران لله أية . . .

وقوله تعالى :

(165/819)

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فهدى ﴾ عطف على ما يقتضيه الإنكار السابق كما أشير إليه أو على المضارع المنفي بلم داخل في حكمه كأنه قيل أما وجدك يتيماً فآوى ووجدك غافلاً عن الشرائع التي لا تهتدي إليها العقول كما في قوله تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكتاب ﴾ [الشورى : 52] وقوله سبحانه : ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ [يوسف : 3] فهدك إلى مناهجها في تضاعيف ما أوحى إليك من الكتاب المبين وعلمك ما لم تكن تعلم وعلى هذا كما قال الواحدي أكثر المفسرين وهو اختيار الزجاج وروى سعيد بن المسيب أن صلى الله عليه وسلم سافر مع عمه أبي طالب إلى الشام فبينما هو راكب ناقة ذات ليلة ظلماء وهو نائم جاءه إبليس فأخذ بزمام الناقة فعدل به عن الطريق فجاءه جبريل عليه

الصلاة والسلام فنفخ إبليس نفخة وقع منها بالحبسة ورده إلى القافلة فما في الآية إشارة إلى ذلك على ما قيل وقيل إشارة إلى ما روي عن ابن عباس من أنه صلى الله عليه وسلم ضل وهو صغير عن جده في شعاب مكة فرآه أبو جهل منصرفاً من أغنامه فرده لجده وهو متعلق بأستار الكعبة يتضرع إلى الله تعالى في أن يرد إليه محمداً وذكر له أنه لما رآه أناخ الناقة وأركبه من خلفه فأبت أن تقوم فأركبه أمامه فقامت فكانت الناقة تقول يا أحمق هو الإمام فكيف يقوم خلف المقتدي وفي إرجاعه عليه الصلاة والسلام إلى أهله على يد أبي جهل وقد علم سبحانه منه أنه فرعونه يشبه إرجاع موسى عليه السلام إلى أمه على يد فرعون وقيل ضل عليه الصلاة والسلام مرة أخرى وطلبوه فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً وتضرع إلى الله تعالى فسمعوا منادياً ينادي من السماء يا معشر الناس لا تضجوا فإن لمحمد رباً لا يخذله ولا يضيعه وأن محمداً بوادي تهامة عند شجرة السمر فسار عبد المطلب وورقة بن نوفل فإذا النبي صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يلعب بالأغصان والأوراق وقيل أضلته مرضعته حليمة عند باب مكة حين فطمته

وجاءت به لترده على عبد المطلب فضالاً على هذه الروايات من ضل في طريقه إذا سلك طريقاً غير موصلة لمقصده وضعف حمل الآية على ذلك بأن مثله بالنسبة إلى ما تقدم لا يعد من نعم الله تعالى على مثل نبيه صلى الله عليه وسلم التي يمتن سبحانه بها عليه وقيل الضال الشجرة المنفردة في البيداء ليس حولها شجر والمراد أما وجدك وحدك ليس معك أحد فهدى الناس إليك ولم يتركك منفرداً وقال الجنيد قدس سره أي وجدك متحيراً في بيان الكتاب المنزل عليك فهداك لبيانه وفيه قرب ما من الأول وقال بعضهم وجدك غافلاً عن قدر نفسك فأطلعك على عظيم محلك وقيل وجدك ضالاً عن معنى محض المودة فسقاك كأساً من شراب القربة والمودة فهداك به إلى معرفته عز وجل وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه كنت ضالاً عن محبتي لك في الأزل فمننت عليك بمعرفتي وهو قريب من سابقه وقال الحريري أي وجدك متردداً في غوامض معاني المحبة فهداك لها وهو أيضاً كذلك وكل ذلك منزع صوفي ورأى أبو حيان في منامه أن الكلام على حذف مضاف والمعنى ووجد رهطك ضالاً فهدى بك وهو كما ترى في يقظتك وقوله تعالى :

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ على نمط سابقه والعائل المفتقر من عال يعيل عيلاً وعيلة

وعيولاً ومعيلاً افتقر أي وجدك عديم المقتنيات فأغناك بما حصل لك من ربح التجارة

وذلك في سفره صلى الله عليه وسلم مع ميسرة إلى الشام وبما وهبته لك خديجة رضي الله

تعالى عنها من المال وكانت ذا مال كثير فلما تزوجها عليه الصلاة والسلام وهبته جميعه له

صلى الله عليه وسلم لئلا يقول قائل ما يثقل على سمعه الشريف عليه الصلاة والسلام وبمال

أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وكان أيضاً ذا مال فأتى به كله رسول الله صلى الله

عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام ما تركت لعيالك فقال تركت الله تعالى ورسوله

صلى الله عليه وسلم وقيل بما أفاء عليك من الغنائم وفيه أن السورة مكية والغنائم إنما

كانت بعد الهجرة وقيل المراد فنعك وأغنى قلبك فإن غنى القلب هو الغنى وقد قيل من

عدم القناعة لم يفده المال غنى وقيل أغناك به عز وجل عما سواه وهذا الغنى بالافتقار إليه

تعالى وفي الحديث " اللهم أغنني بالافتقار إليك ولا تفقرني بالاستغناء عنك " وبهذا ألم

بعض الشعراء فقال

: ويعجبني فقري إليك ولم يكن . . .

ليعجبني لولا محبتك الفقر

وشاع حديث الفقر فخرى وحمل الفقر فيه على هذا المعنى وهو على ما قال ابن حجر

باطل موضوع وأشد منه وضعاً وبطلاناً ما يذكره بعض المتصوفة إذا تم الفقر فهو الله

سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا وقد خاضوا في بيان المراد به بما لا يدفع بشاعته بل لا يقتضي استقامته وقيل عائلاً أي ذا عيال من عال يعول عولاً وعيالة كثر عياله ويحتمل المعنيين قول جرير

: الله نزل في الكتاب فريضة . . .

لابن السبيل وللفقير العائل

(168/819)

ولعل الثاني فيه أظهر ورجح الأول في الآية بقراءة ابن مسعود عديماً وأنه عليه الصلاة والسلام لم يكن ذا عيال في أول أمره صلى الله عليه وسلم وقرأ اليماني عيلاً كسيد بشد الياء المكسورة هذا وذكر عصام الدين في هذه الآيات أنه يحتمل أن يراد باليتيم فاقد المعلم فإن الآباء ثلاثة من علمك ومن زوجك ومن ولدك ويناسبه حمل الضلال على الضلال عن العلم وحمل العيال أي على تفسير عائلاً بذا عيال على عيال الأمة الطالبة منه معرفة مصالح الدين مع احتايجه إلى المعرفة فأغناه الله تعالى بالوحي إليه عليه الصلاة والسلام ولا يخفى ما فيه وحذف المفعول في الأفعال الثلاثة لظهور المراد مع رعاية الفواصل وقيل ليدل على سعة الكرم والمراد آواك وآوى لك وبك وهداك ولك وبك وأغناك ولك وبك وظاهر الفاء مع

تلك الأفعال نأبى ذلك وأطال الإمام الكلام في الآيات وأتى فيها بغث وسمين ولولا خشية الملل لذكرنا ما فيه.

(169/819)

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ فلا تستذله كما قال ابن سلام وقريب منه قول مجاهد لا تحتقره وقال سفيان لا تظلمه بتضييع ماله وفي معناه ما قيل لا تغلبه على ماله ولعل التقييد لمراعاة الغالب والأولى حمل القهر على الغلبة والتذليل معاً بأن يراد به التسلط بما يؤدي أو باستعمال المشترك في معنييه على القول بجوازه وفي مفردات الراغب القهر الغلبة والتذليل معاً ويستعمل في كل واحد منهما وقرأ ابن مسعود والشعبي وإبراهيم التيمي فلا تكهر بالكاف بدل القاف ومعناه على ما في "البحر" فلا تقهر وفي تهذيب الأزهري الكهر القهر والكهر عبوس الوجه والكهر الشتم واختار بعضهم هنا أوسطها فالمعنى فلا تعبس في وجهه وهو نهي عن الشتم والقهر على ما سمعت من معناه من باب الأولى وأياً ما كان ففي الآية دلالة على الاعتناء بشأن اليتيم وعن ابن مسعود مرفوعاً من مسح على رأس يتيم كان له بكل شعرة تمر عليها يده نور يوم القيامة وعن عمر رضي الله تعالى عنه مرفوعاً أيضاً أن اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن فيقول الله تعالى لملائكته: يا ملائكتي من أبكى هذا اليتيم

الذي غيب أبوه في التراب فيقول الملائكة أنت أعلم فيقول الله تعالى : يا ملائكتي إني أشهدكم أن علي لمن أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة فكان عمر رضي الله تعالى عنه إذا رأى يتيماً مسح رأسه وأعطاه شيئاً ولم يصح في كيفية مسحه شيء والرواية عن ابن عباس في ذلك قد قيل فيها ما قيل وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : أنا وكافل اليتيم كهاتين إذا اتقى الله عز وجل وأشار بالسبابة والوسطى إلى غير ذلك من الأخبار .

(170/819)

﴿ وَأَمَّا السائل فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ أي فلا تزجره ولكن تفضل عليه بشيء أورده بقول جميل وأريد به عند جمع السائل المستجدي الطالب لشيء من الدنيا وتدل الآية على الاعتناء بشأنه أيضاً وعن إبراهيم ابن أدهم نعم القوم السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة وعن إبراهيم النخعي السائل يريد الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول أتبعثون إلى أهليكم بشيء وشاع حديث " للسائل حق وإن جاء على فرس " وقد قال فيه الإمام أحمد كما في تمييز الطيب من الخبيث لا أصل له وأخرجه أبو داود عن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما موقوفاً وسكت عنه وقال العراقي سنده جيد وتبعه غيره وقال ابن عبد البر أنه ليس بالقوي وعول كثير على ما قال الإمام أحمد وفي معناه احتمالان كل منهما يؤذن بالاهتمام بأمر السائل

وروي من طرق عن عائشة وغيرها لو صدق السائل ما أفلح من رده وهو أيضاً على ما قال ابن المديني لا أصله له وقال ابن عبد البر جميع أسانيده ليست بالقوية نعم أخرج الطبراني في الكبير عن أبي أمامة مرفوعاً ما يقرب منه وهو لولا أن المساكين يكذبون ما أفلح من ردهم ولم أقف على من تعقبه.

ثم النهي على النهر على ما قالوا إذا لم يلح في السؤال فإن ألح ولم ينفع الرد اللين فلا بأس بالزجر وقال أبو الدرداء والحسن وسفيان وغيرهم المراد بالسائل هنا السائل عن العلم والدين لا سائل المال ولعل النهي عن زجره على القول الأول يعلم بالأولى ويشهد للأولوية أنه لا وعيد على ترك إعطاء المستجدي لمن يجد ما يستجديه بخلاف ترك جواب سائل العلم لمن يعلم ففي الحديث من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار وسيأتي إن شاء الله تعالى ما قيل من أن الظاهر الثاني من القولين.

(171/819)

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ فإن التحدث بها شكر لها كما قال عمر بن عبد العزيز والحسن وقتادة والفضيل بن عياض وأخرج البخاري في الأدب وأبو داود والترمذي وحسنه وأبو يعلى وابن حبان والبيهقي والضياء عن جابر بن عبد الله مرفوعاً من أعطى

عطاء فوجد فليجز به فإن لم يجد فليثن به فمن أثنى به فقد شكره ومن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور ولذا استحب بعض السلف التحدث بما عمله من الخير إذا لم يرد به الرياء والافتخاء وعلم الاقتداء به بل بعض أهل البيت رضي الله تعالى عنهم حمل الآية على ذلك أخرج ابن أبي حاتم عن مقسم قال لقيت الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما فقلت أخبرني عن قول الله تعالى وأما بنعمة ربك فحدث فقال الرجل المؤمن يعمل عملاً صالحاً فيخبر به أهل بيته وأخرج ابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال فيها : إذا أصبت خيراً فحدث إخوانك والظاهر أن المراد بالنعمة ما أفاضه الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم من فنون النعم التي من جملتها ما تقدم وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد تفسيرها بالنبوة ورووا عنه أيضاً تفسيرها بالقرآن ووافقه في الأول محمد بن إسحاق وفي الثاني الكلبي وعليهما المراد بالتحديث التبليغ ولا يخفى أن كلا التفسيرين غير مناسب لما قبل وهذه الجمل الثلاث مرتبة على ما قبلها فقيل على اللف والنشر المشوش وحاصل المعنى أنك كنت يتيماً وضالاً وعائلاً فآواك وهداك وأغناك فمهما يكن من شيء فلا تنس نعمة الله تعالى عليك في هذه الثلاث واقتد بالله تعالى فتعطف على اليتيم وترحم على السائل فقد ذقت اليتم والفقر وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ ﴾ الخ في مقابلة قوله سبحانه : ﴿ وجدك ضالاً فهدى ﴾ [الضحى :

7] لعمومه وشموله لهدايته عليه الصلاة والسلا من الضلال بتعليم الشرائع وغير ذلك من النعم ولم يراع الترتيب لتقديم حقوق العباد على حقه عز وجل فإنه

(172/819)

سبحانه وتعالى غني عن العالمين وقيل لتقديم التخلية على التحلية أو للترقي أو لمراعاة الفواصل ونظر في كل ذلك وقال الطيبي : الظاهر أن المراد بالسائل طالب العلم لا المستجد وعليه لا مانع من كون التفصيل على الترتيب فيقال إنه تعالى ذكر أحواله صلى الله عليه وسلم على وفق الترتيب الخارجي بأن يراد بهدايته عليه الصلاة والسلام ما يعم توفيقه للنظر الصحيح في صباه فقد كان صلى الله عليه وسلم موفقاً لذلك ولذا لم يعبد عليه الصلاة والسلام صنماً أو يراد بإغنائه ما كان بعد البعثة ثم فصل سبحانه على ذلك الترتيب فجعل عدم قهر اليتيم في مقابلة إيوائه تعالى له عليه الصلاة والسلام في يتمه وعدم زجر السائل طالب العلم والمتعلم منه في مقابلة هدايته له والتحدث بالنعمة في مقابلة الغنى وإن كانت النعمة شاملة له ولغيره وآثر سبحانه فحدث على فخبر قيل ليكون ذكر النعمة منه عليه الصلاة والسلام حديثاً لا ينساه ويوجده ساعة غب ساعة والله تعالى أعلم وندب التكبير عند خاتمة هذه السورة الكريمة وكذا ما بعدها إلى آخر القرآن العظيم فقد

أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في "الشعب" من طريق أبي الحسن البزي المقري قال سمعت عكرمة بن سليمان يقول قرآت على إسماعيل بن قسطنطين فلما بلغت والضحى قال كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم فإني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت والضحى قال كبر حتى تختم وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك وأخبره أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أمره بذلك وأخبره أن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه أمره بذلك وأخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بذلك وكان ذلك منه عليه الصلاة والسلام فرحاً بنزول الوحي بعد تأخره وبطئه حتى قيل ما قيل هذا وعلى ذلك عمل الناس اليوم والحمد لله رب العالمين. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(173/819)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة:

﴿ وَالضُّحَى (1) ﴾

والمراد بالضحى هنا: النهار كله، لقوله: ﴿ والليل إِذَا سجى ﴾ فلما قابل الضحى بالليل دلّ على أن المراد به النهار كله لا بعضه.

وهو في الأصل اسم لوقت ارتفاع الشمس، كما تقدّم في قوله: ﴿ والشمس وضحاها ﴾

[الشمس: 1].

والظاهر أن المراد به الضحى من غير تعيين.

وقال قتادة، ومقاتل، وجعفر الصادق: إن المراد به الضحى الذي كلم الله فيه موسى، والمراد بقوله: ﴿ والليل إِذَا سجى ﴾ ليلة المعراج.

وقيل: المراد بالضحى هو الساعة التي خرّ فيها السحرة سجداً، كما في قوله: ﴿ وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ [طه: 59].

وقيل: المقسم به مضاف مقدّر، كما تقدّم في نظائره، أي: وربّ الضحى.

وقيل تقديره: وضحاوة الضحى، ولا وجه لهذا، فللّه سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه.

وقيل: الضحى نور الجنة، والليل ظلمة النار.

وقيل: الضحى نور قلوب العارفين، والليل سواد قلوب الكافرين.

﴿ والليل إِذَا سجى ﴾ أي: سكن، كذا قال قتادة، ومجاهد، وابن زيد، وعكرمة، وغيرهم: يقال: ليلة ساجية، أي: ساكنة، ويقال للعين إذا سكن طرفها ساجية، يقال: سجا الشيء يسجو سجواً: إذا سكن.

قال عطاء: سجا إذا غطي بالظلمة.

وروى ثعلب عن ابن الأعرابي: سجا امتدّ ظلامه.

وقال الأصمعي : سجو الليل تغطيته النهار ، مثل ما يسجى الرجل بالثوب .

وقال الحسن : غشي بظلامه .

وقال سعيد بن جبير : أقبل .

وقال مجاهد : أيضاً استوى ، والأوّل أولى ، وعليه جمهور المفسرين وأهل اللغة .

ومعنى سكونه : استقرار ظلامه واستواؤه ، فلا يزاد بعد ذلك .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ هذا جواب القسم ، أي : ما قطعك قطع المودّع .

قرأ الجمهور : ﴿ ما ودّعك ﴾ بتشديد الدال من التوديع ، وهو توديع المفارق .

وقرأ ابن عباس ، وعروة بن الزبير ، وابنه هاشم ، وابن أبي عبلة ، وأبو حيوة بتخفيفها ، من قولهم : ودعه أي : تركه ، ومنه قول الشاعر :

سل أميري ما الذي غيره . . . عن وصالي اليوم حتى ودّعه

والتوديع أبلغ في الودع ؛ لأن من ودّعك مفارقاً ، فقد بالغ في تركك .

قال المبرد : لا يكادون يقولون ودع ولا وذر لضعف الواو إذا قدّمت ، واستغنوا عنها بترك .

قال أبو عبيدة : ودّعك من التوديع ، كما يودّع المفارق .

وقال الزجاج: لم يقطع الوحي، وقد قدّمنا سبب نزول هذه الآية في فاتحة هذه السورة.

﴿ وَمَا قلى ﴾ القلي البغض.

يقال: قلاه يقليه قلاء.

قال الزجاج: وما أبغضك، وقال: ﴿ وما قلى ﴾، ولم يقل، وما قلاك لموافقة رؤوس الآي.

والمعنى: وما أبغضك، ومنه قول امرىء القيس:

ولست بمقليّ الخلال ولا قالي . . . ﴿ وَلَلأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الاولى ﴾ اللام جواب قسم محذوف، أي: الجنة خير لك من الدنيا، مع أنه صلى الله عليه وسلم قد أوتي في الدنيا من شرف النبوّة ما يصغر عنده كلّ شرف، ويتضاءل بالنسبة إليه كلّ مكرمة في الدنيا؛ ولكنها لما كانت الدنيا بأسرها مشوبة بالأكدار منغصة بالعوارض البشرية، وكانت الحياة فيها كأحلام نائم، أو كظل زائل لم تكن بالنسبة إلى الآخرة شيئًا؛ ولما كانت طريقاً إلى الآخرة، وسبباً لنيل ما أعدّه الله لعباده الصالحين من الخير العظيم بما يفعلونه فيها من الأعمال الموجبة للفوز بالجنة كان فيها خير في الجملة من هذه الحيثية.

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ هذه اللام قيل هي لام الابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة، والمبتدأ محذوف تقديره، ولأنت سوف يعطيك الخ، وليست

للقسم ؛ لأنها لا تدخل على المضارع إلاّ مع النون المؤكدة .

وقيل : هي للقسم .

(175/819)

قال أبو عليّ الفارسي : ليست هذه اللام هي التي في قولك : إن زيداً لقائم ، بل هي التي في قولك لأقومنّ ، ونابت " سوف " عن إحدى نوني التأكيد ، فكأنه قال : وليعطينك .

قيل المعنى : ولسوف يعطيك ربك الفتح في الدنيا والثواب في الآخرة ، فترضى .

وقيل : الحوض والشفاعة .

وقيل : ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك .

وقيل : غير ذلك .

والظاهر أنه سبحانه يعطيه ما يرضى به من خيري الدنيا والآخرة ، ومن أهمّ ذلك عنده ، وأقدمه لديه قبول شفاعته لأمته .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فاوى ﴾ هذا شروع في تعداد ما أفاضه الله سبحانه عليه من النعم ، أي : وجدك يتيماً لا أب لك ، ﴿ فآوى ﴾ أي : جعل لك مأوى تأوي إليه ، قرأ الجمهور : ﴿ فآوى ﴾ بألف بعد الهمزة رباعياً ، من آواه يؤويه ، وقرأ أبو الأشهب : (فأوى) ثلاثياً

، وهو إما بمعنى الرباعي ، أو هو من أوى له إذا رحمه .

وعن مجاهد معنى الآية : ألم يجدك واحداً في شرفك لا نظير لك ، فآواك الله بأصحاب يحفظونك ويحوطونك ، فجعل يتيماً من قولهم درّة يتيمة ، وهو بعيد جداً ، والهمزة لإنكار النفي ، وتقرير المنفيّ على أبلغ وجه ، فكأنه قال : قد وجدك يتيماً فآوى ، والوجود بمعنى العلم ، ويتيماً مفعوله الثاني .

وقيل : بمعنى المصادفة ، ويتيماً حال من مفعوله ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فهدى ﴾ معطوف على المضارع المنفي .

وقيل : هو معطوف على ما يقتضيه الكلام الذي قبله ، كما ذكرنا ، أي : قد وجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، والضلال هنا بمعنى الغفلة ، كما في قوله : ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّى وَلاَ يَنسَى ﴾ [طه : 52] وكما في قوله : ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ [يوسف : 3] والمعنى : أنه وجدك غافلاً عما يراد بك من أمر النبوّة ، واختار هذا الزجاج .

وقيل : معنى ضالاً لم تكن تدري القرآن ولا الشرائع ، فهداك لذلك .

وقال الكلبي ، والسديّ ، والفراء : وجدك في قوم ضلال ، فهداهم الله لك .

وقيل : وجدك طالباً للقبلة ، فهداك إليها ، كما في قوله : ﴿ قَدْ نرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السماء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة : 144] .

ويكون الضلال بمعنى الطلب .

وقيل : وجدك ضائعاً في قومك فهداك إليه ، ويكون الضلال بمعنى الضياع .

وقيل : وجدك محباً للهداية فهداك إليها ، ويكون الضلال بمعنى المحبة ، ومنه قول الشاعر :

عجباً لعزة في اختيار قطيعتي . . . بعد الضلال فحبلها قد أخلقا

وقيل : وجدك ضالاً في شعاب مكة ، فهداك ، أي : ردّك إلى جدّك عبد المطلب .

﴿ ووَجَدَكَ عَائِلاً فأغنى ﴾ أي : وجدك فقيراً لا مال لك فأغناك .

يقال : عال الرجل يعيل عيلة إذا افتقر ، ومنه قول أحيحة بن الجلاح :

فما يدري الفقير متى غناه . . . وما يدري الغنيّ متى يعيل

أي : يفتقر .

قال الكلبي : ﴿ فأغنى ﴾ : أي رضّاك بما أعطاك من الرزق ، واختار هذا الفراء ، قال : لأنه لم يكن غنياً من كثرة ، ولكن الله سبحانه رضاه بما آتاه ، وذلك حقيقة الغنى .

وقال الأخفش : عائلاً ذا عيال ، ومنه قول جرير :

الله أنزل في الكتاب فريضة . . . لابن السبيل ، وللفقير العائل

وقيل : فأغنى بما فتح لك من الفتوح .

وفيه نظر ؛ لأن السورة مكية .

وقيل : بمال خديجة بنت خويلد .

وقيل : وجدك فقيراً من الحجج والبراهين ، فأغناك بها .

قرأ الجمهور : ﴿ عائلاً ﴾ وقرأ محمد بن السميفع ، واليماني : (عيلاً) بكسر الياء المشدّدة كسيد .

ثم أوصاه سبحانه باليتامى والفقراء فقال : ﴿ فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ أي : لا تقهره بوجه من وجوه القهر كائناً ما كان .

قال مجاهد : لا تحقر اليتيم ، فقد كنت يتيماً .

قال الأخفش : لا تسلط عليه بالظلم ، ادفع إليه حقه ، واذكر يتمك .

(177/819)

قال الفراء ، والزجاج : لا تقهره على ماله ، فتذهب بحقه لضعفه ، وكذا كانت العرب تفعل في حقّ اليتامى تأخذ أموالهم ، وتظلمهم حقوقهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحسن إلى اليتيم ، ويبرّه ، ويوصي باليتامى .

قرأ الجمهور : ﴿ فلا تقهر ﴾ بالقاف ، وقرأ ابن مسعود ، والنخعي ، والشعبيّ ،

والأشهب العقيلي : (تكهر) بالكاف .

والعرب تعاقب بين القاف والكاف .

قال النحاس : إنما يقال كهره : إذا اشتدّ عليه وغلظ .

وقيل : القهر الغلبة ، والكهر الزجر .

قال أبو حيان : هي لغة يعني قراءة الكاف مثل قراءة الجمهور .

و ﴿ اليتيم ﴾ منصوب ب ﴿ تقهر ﴾ .

﴿ وَأَمَّا السائل فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ يقال : نهره وانتهره إذا استقبله بكلام يزجره ، فهو نهي عن زجر السائل والإغلاظ له ، ولكن يبذل له اليسير ، أو يردّه بالجميل .

قال الواحدي : قال المفسرون : يريد السائل على الباب ، يقول لا تنهره : إذا سألك فقد كنت فقيراً ، فإما أن تطعمه ، وإما أن تردّه ردّاً ليناً .

قال قتادة : معناه ردّ السائل برحمة ولين .

وقيل : المراد بالسائل الذي يسأل عن الدين ، فلا تنهره بالغلظة والجفوة ، وأجبه برفق ولين ، كذا قال سفيان ، و ﴿ السائل ﴾ منصوب ب ﴿ تنهر ﴾ ، والتقدير : مهما يكن من شيء ، فلا تقهر اليتيم ، ولا تنهر السائل .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أمره سبحانه بالتحدّث بنعم الله عليه ، وإظهارها للناس ، وإشهارها بينهم .

والظاهر النعمة على العموم من غير تخصيص بفرد من أفرادها ، أو نوع من أنواعها .

وقال مجاهد ، والكلبي : المراد بالنعمة هنا القرآن .

قال الكلبي : وكان القرآن أعظم ما أنعم الله به عليه ، فأمره أن يقرأه .

قال الفراء : وكان يقرؤه ويحدّث به .

وقال مجاهد أيضاً : المراد بالنعمة النبوّة التي أعطاه الله .

واختار هذا الزجاج فقال : أي : بلغ ما أرسلت به ، وحدّث بالنبوّة التي آتاك الله ، وهي أجلّ النعم .

(178/819)

وقال مقاتل : يعني : اشكر ما ذكر من النعمة عليك في هذه السورة من الهدي بعد الضلالة ، وجبر اليتم ، والإغناء بعد العيلة ، فاشكر هذه النعم .

والتحدّث بنعمة الله شكر ، والجارّ والمجرور متعلق بحدّث ، والفاء غير مانعة من تعلقه به ، وهذه النواهي لرسول الله صلى الله عليه وسلم هي نواه له ولأمته ؛ لأنهم أسوته ، فكل فرد من أفراد هذه الأمة منهيّ بكلّ فرد من أفراد هذه النواهي .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس : ﴿ والليل إِذَا سجى ﴾ قال : إذا أقبل .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه : ﴿ إِذَا سجى ﴾ قال : إذا ذهب ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ قال : ما تركك ﴿ وَمَا قلى ﴾ قال : ما أبغضك .

وأخرج الطبراني في الأوسط ، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عرض عليّ ما هو مفتوح لأمتي بعدي " فأنزل الله : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي ، وأبو نعيم عنه أيضاً قال : "عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو مفتوح على أمته من بعده ، فسرّ بذلك ، فأنزل الله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ فأعطاه في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم" .

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ قال : رضاه أن يدخل أمته كلهم الجنة .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال : من رضا محمد أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار .

وأخرج الخطيب في التلخيص من وجه آخر عنه أيضاً في الآية قال : لا يرضى محمد ، وأحد من أمته في النار ، ويدلّ على هذا ما أخرجه مسلم عن ابن عمرو : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تلا قول الله في إبراهيم : ﴿ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾ [إبراهيم : 36] وقول عيسى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : 118] الآية ، فرفع يديه ، وقال : " اللّهم أمتي أمتي ، وبكى " فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ، ولا نسوؤك .

وأخرج ابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح قال : قلت لأبي جعفر محمد بن عليّ بن الحسين أرأيت هذه الشفاعة التي يتحدّث بها أهل العراق أحقّ هي ؟ قال : إي والله .

حدّثني محمد بن الحنفية عن عليّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أشفع لأمتي حتى يناديني ربي أرضيت يا محمد ؟ فأقول : نعم يا رب رضيت " ثم أقبل عليّ فقال : إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية في كتاب الله ﴿ قُلْ يا عبادى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ [الزمر : 53] .

قلت : إنا لنقول ذلك ، قال : فكنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية في كتاب الله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ وهي الشفاعة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا " ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .

وأخرج العسكري في المواعظ ، وابن مردويه ، وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة ، وهي تطحن بالرّحى ، وعليها كساء من جلد الإبل ، فلما نظر إليها قال : " يا فاطمة تعجلي مرارة الدنيا بنعيم الآخرة " فأنزل الله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .

(180/819)

وأخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي ، وأبو نعيم ، وابن عساكر عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته ، قلت : قد كانت قبلي أنبياء منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحيي الموتى ، فقال تعالى : يا محمد ألم أجدك يتيماً ، فآويتك ؟ ألم أجدك ضالاً ، فهديتك ؟ ألم أجدك عائلاً ، فأغنيتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت بلى يا ربّ " وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ والضحى ﴾ على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"يمنّ عليّ ربي وأهل أن يمنّ ربي" وأخرج ابن مردويه عنه في قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فهدى ﴾ قال : وجدك بين الضالين ، فاستنقذك من ضلالتهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن بن عليّ في قوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قال : ما علمت من الخير .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه في الآية قال : إذا أصبت خيراً ، فحدّث إخوانك .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، والبيهقي في الشعب ، والخطيب في المتفق ، قال السيوطي بسند ضعيف عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر : " من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدّث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة "

وأخرج أبو داود ، والترمذي وحسنه ، وأبو يعلى ، وابن حبان ، والبيهقي ، والضياء عن جابر بن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره " وأخرج البخاري في الأدب ، وأبو داود ، والضياء عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أعطى عطاء فوجد ، فليجز به ، فإن لم يجد فليثن به .

فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوبي زور " وأخرج أحمد ، والطبراني في الأوسط ، والبيهقي عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أولى معروفاً فليكافىء به ، فإن لم يستطع فليذكره ، فإن من ذكره ، فقد شكره " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 456 . 460 ﴾

(182/819)

وقال الشيخ المراغى :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (6) ﴾

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

شرح المفردات

ضالا فهدى : أي غافلا عن الشرائع فهداك إلى مناهجها ، عائلا : أي فقيرا ، فلا تقهر : أي فلا تستذل ، فلا تنهر : أي فلا تزجر ، فحدّث : أي فأدّ الشكر لموليها

المعنى الجملي

بعد أن ذكر رضاه عن رسوله ، ووعده له أن يمنحه من المراتب والدرجات ما يرضيه ،

ويثلج قلبه – أردف ذلك بيان أن هذا ليس عجبا منه جل شأنه ، فقد أنعم عليه بالنعم الجليلة قبل أن يصير رسولا فكيف يتركه بعد أن أعده لرسالته ،

ثم نهاه عن أمرين : قهر اليتيم وزجر السائل ، لما لهما من أكبر الأثر فى التعاطف والتعاون فى المجتمع ، ولما فيهما من الشفقة بالضعفاء وذوى الحاجة ، ثم أمره بشكره على نعمه المتظاهرة عليه باستعمال كل منها فى موضعها وأداء حقها .

الإيضاح

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى) أي ألم تكن يتيما لا أب لك يعنى بتربيتك ، ويقوم بشئونك ، ويهتم بتنشئتك فما زال يحميك ويتعهدك برعايته ، ويجنبك أدناس الجاهلية وأوضارها حتى رقيت إلى ذروة الكمال الإنسانى .

وقد عاش النبي صلى اللّه عليه وسلم يتيما ، إذ توفى أبوه وهو فى بطن أمه ، فلما ولد عطف اللّه عليه قلب جده عبد المطلب ، فما زال يكفله خير كفالة حتى توفى والنبي صلى اللّه عليه وسلم يومئذ فى سن الثامنة ، فكفله عمه أبو طالب بوصية من عبد المطلب ، فكان به حفيّا ، شديد العناية بأمره ، وما زال يتعهده حتى كبر وترعرع ، حتى أرسله اللّه رسولا ، فقام يؤازره وينصره ، ويدفع عنه أذى قريش حتى مات ، فاستطاعت قريش أن تنال منه ، وتجرّأ عليه سفهاؤهم ، وسلطوا عليه غلمانهم ، حتى اضطروه إلى الهجرة .

ولو تدبر المنصف فى رعاية اللّه له ، وحياطته بحفظه وحسن تنشئته ، لوجد من ذلك العجب ، فلقد كان اليتيم وحده مدعاة إلى المضيعة وفساد الخلق ، لقلة من يحفل باليتيم ويحرص عليه ، وكان فى خلق أهل مكة وعاداتهم ما فيه الكفاية فى إضلاله لو أنه سار سيرتهم ، لكن عناية اللّه كانت ترعاه ، وتمنعه السير على نهجهم ، فكان الوفىّ الذي لا يمين ، والأمين الذي لا يخون ، والصّادق الذي لا يكذب ، والطاهر الذي لم يدنّس برجس الجاهلية .

(وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى) أي ووجدك حائرا مضطربا فى أمرك ، مع اعتقادك أن قومك ليسوا على بصيرة من أمرهم ، فعبادتهم باطلة ، ومعتقداتهم فاسدة ، وكان يفكر فى دين اليهودية ، ثم يرى اليهود أنفسهم ليسوا على حال خير من حال قومه ، إذ بدلوا دينهم ، وخالفوا ما كان عليه رسولهم ، فيبدو عليه الإعراض عنه ، ثم يفكر فى دين عيسى عليه الصلاة والسلام ، فيرى النصارى على حال شر من حال اليهود ، فيرجع عن التفكير فيه ، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يعرف ما حوته تلك الأديان من الأحكام والشرائع .

وأعظم أنواع حيرته ما كان يراه فى العرب أنفسهم من سخف فى العقائد ، وضعف فى

البصائر ، باستيلاء الأوهام عليهم وفساد أعمالهم ، وشؤمها فى أحوالهم ، بتفرق الكلمة ، وتفانيهم فى سفك الدماء ، والإشراف على الهلاك باستبعاد الغرباء لهم وتحكمهم فيهم فالحبشة والفرس من جانب ، والرومان من جانب آخر .

فما العمل فى تقويم عقائدهم ، وتخليصهم من تحكم العادات فيهم ؟ وأىّ الطرق ينبغى أن يسلك فى إيقاظهم من سباتهم ؟

وقصارى ذلك ، إنه كان فى قرارة نفسه يعتقد أن قومه قد ضلوا سواء السبيل ، وبدلوا دين أبيهم إبراهيم ، وكانت حال أهل الأديان الأخرى ليسنت خيرا من حالهم لكن الإله الحكيم لم يتركه ونفسه ، بل أنزل عليه الوحى يبين له أوضح السبل كما قال : « وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ » .

(وَوَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى) أي إنك كنت فقيرا لم يترك لك والدك من الميراث إلا ناقة وجارية ، فأغناك بما أجراه لك من الربح فى التجارة ، وبما وهبته لك خديجة من مالها .

وخلاصة ما تقدم - إن من آواك فى يتمك ، وهداك من ضلالك ، وأغناك من فقرك ، لا يتركك فى مستقبل أمرك .

وبعد أن بين نعمه السابقة طالبه بشكر هذه النعم وأداء حقها فقال :

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) أي لا تقهر اليتيم ولا تستذله ، بل ارفع نفسه بالأدب ، وهذّبه بمكارم الأخلاق ، ليكون عضوا نافعا فى جماعتك ، لا جرثومة فساد يتعدى أذاها إلى كل من يخالطها من أمتك .

ومن ذاق مرارة الضيق فى نفسه ، فما أجدره أن يستشعرها فى غيره ، وقد كان صلى اللّه عليه وسلم يتيما ، فباعد اللّه عنه ذل اليتيم فآواه ، فمن أولى منه بأن يكرم كل يتيم شكرا للّه على نعمته .

(وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) أي وأما المستجدى فلا تزجره ، ولكن تفضل عليه بشىء أو ردّه ردّا جميلا ، وقد يكون المراد من (السَّائِلَ) المسترشد وهو أيضا يطلب الرفق به وبيان ما أشكل عليه من الأمر .

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) أي أوسع فى البذل على الفقراء بمالك ، وأفض من نعمه الأخرى على طالبيها ، وليس المراد مجرد ذكر الثروة والإفاضة فى حديثها ، فإن ذلك ليس من كرم الأخلاق فى شىء .

وقد جرت عادة البخلاء أن يكتموا مالهم ، لتقوم لهم الحجة فى قبض أيديهم عن البذل ، ولا تجدهم إلا شاكين من القل أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل مما آتاهم اللّه من فضله ، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه وقد استفاضت الأحاديث بأنه صلى اللّه عليه وسلم كان كثير الإنفاق على الفقراء ، عظيم الرأفة بهم ، واسع الإحسان إليهم ، وكان يتصدق بكل ما يدخل فى ملكه ويبيت طاويا .

اللهم صل على محمد عبدك ورسولك الذي أوحيت إليه وأرضيته ، وشرحت صدره ، واجعلنا من الذين يقتفون آثاره ، ويتبعون سنته .

مقاصد السورة الكريمة

اشتملت هذه السورة على أربعة مقاصد :

(1) أن اللّه ما قلا رسوله ولا تركه .

(2) وعد رسوله بأنه سيكون فى مستأنف أمره خيرا من ماضيه .

(3) تذكيره بنعمه عليه فيما مضى وأنه سيواليها عليه .

(4) طلب الشكر منه على هذه النعم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 188.184 ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

وقوله تعالى : «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى ، وَوَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى»

هذا من بعض ما أعطى اللّه النبي ، فيما مضى ، ولسوف يعطيه أكثر وأكثر فيما يستقبل من الحياة . .

فإذا نظر النبي إلى نفسه ، من مولده إلى يومه هذا الذي لقيته فيه تلك الآيات. وجد أنه ولد يتيما ، فكفله اللّه ، وأنزله من جده عبد المطلب ، وعمه أبى طالب ، منزلة أعز الأبناء وأحبهم إلى آبائهم . . ثم إذا نظر مرة ثانية إلى شبابه ، وجد أنه كان قلق النفس ، منزعج الضمير ، مما كان يرى من الحياة الضالة التي يعيش فيها قومه ، ولم يكن يدرى كيف يجد لنفسه سكنا ، ولقلبه اطمئنانا وسط هذا الجوّ الخانق ، فهداه اللّه إلى الخلوة إلى نفسه فى غار حراء ، والابتعاد عن قومه ، والانقطاع إلى ربه متحنّثا متعبدا ، متأملا متفكرا . . وقد ظل هذا شأنه إلى أن جاءه وحي السماء ، فسكب السكينة فى قلبه ، والطمأنينة فى نفسه . . إنه صلوات اللّه وسلامه عليه ، كان يرى أن ما عليه قومه ليس مما يدين به عاقل ، أو تستقيم به حياة العقلاء ، ولم يكن يدرى. صلوات اللّه وسلامه عليه. كيف م

يغير من مسيرتهم الضالة ، ولا كيف يقيم هو نفسه هو على شريعة يبشّر بها فى الناس ، كما يقول سبحانه : « وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ . . » (52 : الشورى) ثم إذا أعاد النبي النظر إلى نفسه مرة ثالثة ، وجد أنه كان فقيرا عائلا ، أي كثير العيال ، فأغناه اللّه ، وسدّ حاجة عياله ، من مال زوجه ، وأم أبنائه ، السيدة خديجة رضى اللّه عنها . . وفى هذا ما يشير إلى فضل السيدة خديجة ، وإلى أنها نعمة من نعم اللّه على النبي . . هذا كله يراه النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - من نفسه ، ماضيا ، وحاضرا . .

قوله تعالى : « فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » . . هو تعقيب على هذا الإحسان الذي أفاضه اللّه وما سيفيضه على نبيه ، وأن من حق هذا الإحسان أن يقابل بالحمد والشكران للّه رب العالمين . . وقد صرف اللّه سبحانه وتعالى هذا الحمد ، وذلك الشكران إلى الضعفاء ، والمحتاجين من عباده ، فيكون حمده وشكره ، بالإحسان إليهم ، والرعاية لهم . . فلا نهر لليتيم ، ولا كسر لخاطره ، ولا ترك لمرارة اليتم تنعقد فى فمه . . وإن أولى الناس برعاية اليتيم ، وجبر خاطره ، من عرف

اليتم ، ثم كفله اللّه . . وإنه لا نهر أي لا زجر للسائل ، وهو من يقف موقف من يسأل ، عما هو محتاج إليه ، من طعام يسد به جوعه ، أو علم يغذى به عقله ، أو هدى يعرف به طريق الخلاص لروحه . .

فإن السائل ضعيف أمام المسئول ، ومن حقه على القوى أن يتلطف معه ،

ويرفق به . . إنه أشبه بالضالّ الذي لا يعرف الطريق ، والمسئول هو موضع أمله ، ومعقد رجائه ، فى أن يخرجه من هذا الضلال ، وأن يقيمه على الطريق المستقيم . .

وأولى الناس بهذا من عرف الحيرة ، ونشد وجه الهداية ، فأصابها وقدرها قدرها . .

وقوله تعالى : « وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » .

نعمة اللّه هنا ، هو القرآن الكريم ، وهو من أجلّ وأعظم ما أنعم اللّه به على النبي ، وهو نعمة عامة شاملة ، وإنه لمطلوب من النبي أن ينفق منها على الناس ، وأن يسعهم جميعا فيها . .

فهى نعمة سابغة ، لا تنفد على الإنفاق . فليحدّث النبي الناس بها ، وليكثر من هذا التحديث بها ، والإنفاق منها : « فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرى » (9 : الأعلى) . . « فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ » (45 : ق) . . « فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ » (21 : الغاشية)

. . فهذا التحديث بالقرآن ، هو التذكير به ، وفى التذكير به هدى ورحمة للناس ، حيث يجدون فى آياته شفاء الصدور ، وجلاء البصائر ، وروح النفوس . انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1601 . 1603 ﴾

(189/819)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) ﴾

استئناف مسوق مساق الدليل على تحقق الوعد ، أي هو وعد جار على سنن ما سبق من عناية الله بك من مبدإ نشأتك ولطفه في الشدائد باطراد بحيث لا يحتمل أن يكون ذلك من قبيل الصدف لأن شأن الصدف أن لا تتكرر فقد علم أن اطراد ذلك مراد لله تعالى .

والمقصود من هذا إيقاع اليقين في قلوب المشركين بأن ما وعده الله به محقق الوقوع قياساً على ما ذكره به من ملازمة لطفه به فيما مضى وهم لا يجهلون ذلك عسى أن يقلعوا عن العناد ويُسرعوا إلى الإيمان وإلا فإن ذلك مساءة تبقى في نفوسهم وأشباح رعب تخالج خواطرهم .

ويحصل مع هذا المقصود امتنان على النبي صلى الله عليه وسلم وتقوية لاطمئنان نفسه

بوعد الله تعالى إياه .

والاستفهام تقريري ، وفعل ﴿ يجدك ﴾ مضارع وجَد بمعنى ألفى وصادف ، وهوالذي يتعدى إلى مفعول واحد ومفعوله ضمير المخاطب .

و﴿ يتيماً ﴾ حال ، وكذلك ﴿ ضالاً ﴾ و ﴿ عائلاً ﴾ .

والكلام تمثيل لحالة تيسير المنافعِ للذي تعسرت عليه بحالة من وجَد شخصاً في شدة يتطلع إلى من يعينه أو يغيثه .

واليتيم : الصبي الذي مات أبوه وقد كان أبو النبي صلى الله عليه وسلم توفي وهو جنين أو في أول المدة من ولادته .

والإيواء : مصدر أوَى إلى البيت ، إذا رجع إليه ، فالإيواء : الإِرجاع إلى المسكن ، فهمزته الأولى همزة التعدية ، أي جعله آوياً ، وقد أطلق الإِيواء على الكفالة وكفاية الحاجة مجازاً أو استعارة ، فالمعنى أنشأك على كمال الإِدراك والاستقامة وكنتَ على تربية كاملة مع أن شأن الأيتام أن ينشأوا على نقائص لأنهم لا يجدون من يُعنى بتهذيبهم وتعهدِ أحوالهم الخُلقية .

وفي الحديث " أدبني ربي فأحسن تأديبي " فكان تكوين نفسه الزكية على الكمال خيراً من تربية الأبوين .

والضّلال : عدم الاهتداء إلى الطريق الموصل إلى مكان مقصود سواء سلك السائر طريقاً آخر يبلغ إلى غير المقصود أم وقف حائراً لا يعرف أيَّ طريق يسلك ، وهو المقصود هنا لأن المعنى : أنك كنت في حيرة من حال أهل الشرك من قومك فأراكه الله غير محمود وكرَّهه إليك ولا تدري ماذا تتبع من الحق ، فإن الله لما أنشأ رسوله صلى الله عليه وسلم على ما أراد من إعداده لتلقي الرسالة في الإبان ، أُلْهِمَه أن ما عليه قومه من الشرك خطأ وألقى في نفسه طلب الوصول إلى الحق ليتهيأ بذلك لقبول الرسالة عن الله تعالى .

وليس المراد بالضلال هنا اتباع الباطل ، فإن الأنبياء معصومون من الإشراك قبل النبوءة باتفاق علمائنا ، وإنما اختلفوا في عصمتهم من نوع الذنوب الفواحش التي لا تختلف الشرائع في كونها فواحش وبقطع النظر عن التنافي بين اعتبار الفعل فاحشة وبَيْن الخلوّ عن وجود شريعة قبل النبوءة ، فإن المحققين من أصحابنا نزهوهم عن ذلك والمعتزلة منعوا ذلك بناء على اعتبار دليل العقل كافياً في قبح الفواحش عَلَى إرسال كلامهم في ضابط دلالة العقل .

ولم يختلف أصحابنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم لم يصدر منه ما ينافي أصول الدين قبل رسالته ولم يزل علماؤنا يجعلون ما تواتر من حال استقامته ونزاهته عن الرذائل قبل نبوءته دليلاً من جملة الأدلة على رسالته ، بل قد شافَهَ القرآن به المشركين بقوله : ﴿ فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ [يونس : 16] وقوله : ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له

منكرون ﴾ [المؤمنون : 69] ، ولأنه لم يؤثر أن المشركين أفحموا النبي صلى الله عليه وسلم فيما أنكر عليهم من مساوي أعمالهم بأن يقولوا فقد كنت تفعل ذلك معنا .

(191/819)

والعائل : الذي لا مال له ، والفقر يسمى عَيْلَة ، قال تعالى : ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم اللّه من فضله إن شاء ﴾ [التوبة : 28] وقد أغناه الله غناءين : أعظمهما غنى القلب إذ ألقى في قلبه قلة الاهتمام بالدنيا ، وغنى المال حين ألهم خديجة مقارضته في تجارتها .

وحذفت مفاعيل ﴿ فآوى ﴾ ، ﴿ فهدى ﴾ ، ﴿ فأغنى ﴾ للعلم بها من ضمائر الخطاب قبلها ، وحذفها إيجاز ، وفيه رعاية على الفواصل .

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9)

الفاء الأولى فصيحة .

و(أما) تفيد شرطاً مقدراً تقديره : مهما يكن من شيء ، فكان مفادها مشعراً بشرط آخر مقدر هو الذي اجتلبت لأجله فاء الفصيحة ، وتقدير نظم الكلام إذ كنت تعلم ذلك وأقررت به فعليك بشكر ربك ، وبيّن له الشكر بقوله : ﴿ أمّا اليتيم فلا تقهر ﴾ الخ .

وقد جُعل الشكر هنا مناسباً للنعمة المشكور عليها وإنما اعتبر تقدير : إذا أردتَ الشكر ، لأن شكر النعمة تنساق إليه النفوس بدافع المروءة في عرف الناس ، وصُدر الكلام بـ (أما) التفصيلية لأنه تفصيل لمجمل الشكر على النعمة .

ولما كانت (أمَّا) بمعنى : ومهما يكن شيء ، قرن جوابها بالفاء .

واليتيم مفعول لفعل ﴿ فلا تقهر ﴾ .

وقدم للاهتمام بشأنه ولهذا القصد لم يؤت به مرفوعاً وقد حصل مع ذلك الوفاء باستعمال جواب (أما) أن يكون مفصولاً عن (أما) بشيء كراهية موالاة فاء الجواب لحرف الشرط .

ويظهر أنهم ما التزموا الفصل بين (أما) وجوابها بتقديم شيء من علائق الجواب إلا لإرادة الاهتمام بالمقدم لأن موقع (أما) لا يخلو عن اهتمام بالكلام اهتماماً يرتكز في بعض أجزاء الكلام ، فاجتلاب (أما) في الكلام أثر للاهتمام وهو يقتضي أن مثار الاهتمام بعض متعلِّقات الجملة ، فذلك هو الذي يعتنون بتقديمه وكذلك القول في تقديم ﴿ السائل ﴾ وتقديم ﴿ بنعمة ربك ﴾ على فعليهما .

وقد قوبلت النعم الثلاث المتفرع عليها هذا التفصيل بثلاثة أعمال تقابلها .

فيجوز أن يكون هذا التفصيل على طريقة اللف والنشر المرتب .

وذلك ما درج عليه الطيبي ، ويجري على تفسير سفيان بن عيينة ﴿ السائل ﴾ بالسائل عن الدين والهدى ، فقوله : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ مقابل لقوله : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ [الضحى : 6] لا محالة ، أي فكما آواك ربك وحفظك من عوارض النقص المعتاد لليُتم ، فكن أنت مُكرماً للأيتام رفيقاً بهم ، فجمع ذلك في النهي عن قهره ، لأن أهل الجاهلية كانوا يقهرون الأيتام ولأنه إذا نهى عن قهر اليتيم مع كثرة الأسباب لقهره لأن القهر قد يصدر من جراء القلق من مطالب حاجاته فإن فلتات اللسان سريعة الحصول كما قال تعالى : ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ [الإسراء : 23] وقال : ﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ [الإسراء : 28] .

والقهر : الغلبة والإذلال وهو المناسب هنا ، وتكون هذه المعاني بالفِعل كالدَّعّ والتحقير بالفعل وتكون بالقول قال تعالى : ﴿ وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ [النساء : 5] ، وتكون بالإِشارة مثل عُبوس الوجه ، فالقهر المنهي عنه هو القهر الذي لا يعامَل به غير اليتيم في مثل ذلك فأما القهر لأجل الاستصلاح كضرب التأديب فهو من حقوق التربية قال تعالى : ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ [البقرة : 220] .

وقوله : ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ مقابل قوله : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ [الضحى :

7] لأن الضلال يستعدي السؤال عن الطريق ، فالضال معتبر من نصف السائلين .

والسائل عن الطريق قد يتعرض لحماقة المسؤول كما قال كعب :

وقال كُل خليل كنت آمله:

لا أُلهِيَنّكَ أني عنك مشغول . . .

فجعل الله الشكر عن هدايته إلى طريق الخير أن يوسع باله للسائلين .

فلا يختص السائلُ بسائل العطاء بل يشمل كل سائل وأعظم تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بإرشاد المسترشدين ، وروي هذا التفسير عن سفيان بن عيينة .

(193/819)

روى الترمذي عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الناس لكم تبع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فإذا أتوكم فاستَوْصوا بهم خيراً " قال هارون العبدي : كنا إذا أتيْنا أبا سعيد يقول : مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم

والتعريف في ﴿ السائل ﴾ تعريف الجنس فيعم كل سائل ، أي عمّا يُسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن مثله .

ويكون النشر على ترتيب اللف .

فإن فسر ﴿ السائل ﴾ بسائل معروف كان مقابل قوله : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ [الضحى : 8] وكان من النشر المشوش ، أي المخالف لترتيب اللف ، وهو ما درج عليه "الكشاف" .

والنهر : الزجر بالقول مثل أن يقول : إليك عني .

ويستفاد من النهي عن القهر والنهر النهي عما هو أشد منهما في الأذى كالشتم والضرب والاستيلاء على المال وتركه محتاجاً وليس من النهر نهي السائل عن مخالفة آداب السؤال في الإِسلام .

وقوله : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ مقابل قوله : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ [الضحى : 8] .

فإن الإغناء نعمة فأمره الله أن يظهر نعمة الله عليه بالحديث عنها وإعلان شكرها .

وليس المراد بنعمة ربك نعمة خاصة وإنما أريد الجنس فيفيد عموماً في المقام الخطابي ، أي حدث ما أنعم الله به عليك من النعم ، فحصل في ذلك الأمر شكر نعمة الإِغناء ، وحصل الأمر بشكر جميع النعم لتكون الجملة تذييلاً جامعاً .

فإن جعل قوله : ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ مقابل قوله ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ على طريقة اللف والنشر المشوش كان قوله : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ مقابل قوله :

﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ [الضحى : 7] على طريقة اللف والنشر المشوش أيضاً .

وكان المراد بنعمة ربه نعمة الهداية إلى الدين الحق .

(194/819)

والتحديث : الإِخبار ، أي أخْبِر بما أنعم الله عليك اعترافاً بفضله ، وذلك من الشكر ،

والقول في تقديم المجرور وهو ﴿ بنعمة ربك ﴾ على متعلَّقه كالقول في تقديم ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر ﴾ .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم فمقتضى الأمر في المواضع الثلاثة أن تكون خاصة به ، وأصل الأمر الوجوب ، فيعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم واجب عليه ما أمر به ،

وأما مخاطبة أمته بذلك فتجري على أصل مساواة الأمة لنبيها فيما فرض عليه ما لم يدلّ دليل على الخصوصية ، فأما مساواة الأمة له في منع قهر اليتيم ونهر السائل فدلائله كثيرة مع ما يقتضيه أصل المساواة .

وأما مساواة الأمة له في الأمر بالتحدث بنعمة الله فإن نعم الله على نبيه صلى الله عليه وسلم شتّى منها ما لا مطمع لغيره من الأمة فيه مثل نعمة الرسالة ونعمة القرآن ونحو ذلك من مقتضيات الاصطفاء الأكبر ، ونعمة الرب في الآية مُجملة .

فنعم الله التي أنعم بها على نبيه صلى الله عليه وسلم كثيرة منها ما يجب تحديثه به وهو تبليغه الناس أنه رسول من الله وأن الله أوحى إليه وذلك داخل في تبليغ الرسالة وقد كان يُعلم الناسَ الإِسلام فيقول لمن يخاطبه أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله .

ومنها تعريفه الناس ما يجب له من البر والطاعة كقوله لمن قال له : " اعدل يا رسول الله فقال : أيأمنُني الله على وحيه ولا تأمنوني " ومنها ما يدخل التحديث به في واجب الشكر على النعمة فهذا وجوبه على النبي صلى الله عليه وسلم خالص من عُروض المعارض لأن النبي صلى الله عليه وسلم معصوم من عروض الرياء ولا يظن الناس به ذلك فوجوبه عليه ثابت .

وأما الأمة فقد يكون التحديث بالنعمة منهم محفوفاً برياء أو تفاخر .

وقد ينكسر له خاطر من هو غير واجد مثل النعمة المتحدث بها .

وهذا مجال للنظر في المعارضة بين المقتضي والمانع ، وطريقة الجمع بينهما إن أمكن أو الترجيح لأحدهما .

(195/819)

وفي "تفسير الفخر" : سئل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه عن الصحابة فأثنى عليهم فقالوا له : فحدثنا عن نفسك فقال : مهلاً فقد نهى الله عن التزكية ، فقيل له : أليس الله

تعالى يقول : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ فقال : فإني أُحدِّث كنتُ إذا سُئلتُ أعطيت .

وإذا سُكِت ابتديت ، وبين الجوانح علم جَم فاسألوني .

فمن العلماء من خَص النعمة في قوله : ﴿ بنعمة ربك ﴾ بنعمة القرآن ونعمة النبوءة وقاله مجاهد .

ومن العلماء من رأى وجوب التحدث بالنعمة .

رواه الطبري عن أبي نضرة .

وقال القرطبي : الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والحكم عام له ولغيره .

قال عياض في "الشفاء" : "وهذا خاص له عام لأمته" .

وعن عَمرو بن ميمون : إذا لقي الرجل من إخوانه من يثق به يقول له رزق الله من الصلاة البارحةَ كذا وكذا ، وعن عبد الله بن غالب : أنه كان إذا أصبح يقول : لقد رزقني الله البارحةَ كَذا ، قرأتُ كذا ، صليت كذا ، ذكرت الله كذا ، فقلنا له : يا أبا فراس إن مثلك لا يقول هذا ، قال : يقول الله تعالى : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ وتقولون أنتم : لا تحدث بنعمة الله .

وذكر ابن العربي عن أيوب قال : دخلت على أبي رجاء العطاردي فقال : لقد رزق الله البارحة : صليت كذا ، وسبحت كذا ، قال أيوب : فاحتملت ذلك لأبي رجاء .

وعن بعض السلف أن التحدث بالنعمة تكون للثقة من الإخوان ممن يثق به قال ابن العربي :

إن التحدث بالعمل يكون بإخلاص من النية عند أهل الثقة فإنه ربما خرج إلى الرياء وإسَاءة الظن بصاحبه .

وذكر الفخر والقرطبي عن الحسن بن علي : إذا أصبتَ خيراً أو عملتَ خيراً فحدث به الثقة من إخوانك .

قال الفخر : إلا أن هذا إنما يحسن إذا لم يتضمن رياء وظن أن غيره يقتدي به . انتهى .

اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(196/819)

فائدة

قال ابن القيم :

قال تعالى ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾

وفي هذا التحديث المأمور به قولان :

أحدهما : أنه ذكر النعمة والإخبار بها وقوله : أنعم الله علي بكذا وكذا قال مقاتل : يعني اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة : من جبر اليتيم والهدى بعد الضلال والإغناء

بعد العيلة والتحدث بنعمة الله شكر كما في حديث جابر مرفوعا : من صنع إليه معروف فليجز به فإن لم يجد ما يجزي به فليثن فإنه إذا أثنى عليه فقد شكره وإن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور

فذكر أقسام الخلق الثلاثة : شاكر النعمة المثني بها والجاحد لها والكاتم لها والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها فهو متحل بما لم يعطه وفي أثر آخر مرفوع : من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب والقول الثاني : أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية : هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته وتعليم الأمة قال مجاهد : هي النبوة قال الزجاج : أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك الله وقال الكلبي : هو القرآن أمره أن يقرأه والصواب : أنه يعم النوعين إذ كل منهما نعمة مأمور بشكرها والتحدث بها وإظهارها من شكرها قوله : وهو أيضا من سبل العامة يا ليت الشيخ صان كتابه عن هذا التعليل إذ جعل نصف الإسلام والإيمان من أضعف السبل

بل الشكر سبيل رسل الله وأنبيائه صلى الله عليهم وسلم أجمعين أخص خلقه وأقربهم إليه

ويا عجبا ! أي مقام أرفع من الشكر الذي يندرج فيه جميع مقامات الإيمان حتى المحبة

والرضى والتوكل وغيرها فإن الشكر لا يصح إلا بعد حصولها وتالله ليس لخواص أولياء

الله وأهل القرب منه سبيل أرفع من الشكر ولا أعلى ولكن الشيخ وأصحاب الفناء كلهم

يرون أن فوق هذا مقاما أجل منه وأعلى لأن الشكر عندهم يتضمن نوع دعوى وأنه شكر

الحق على إنعامه ففي الشاكر بقية من بقايا رسمه لم يتخلص عنها ويفرغ منها فلو فني عنها

بتحققه أن الحق سبحانه هو الذي شكر نفسه بنفسه وأن من لم يكن كيف يشكر من لم يزل

علم أن الشكر من منازل العامة ولو أن السلطان كسا عبدا من عبيده ثوبا من ثيابه فأخذ

يشكر السلطان على ذلك : لعد مخطئًا مسيئًا للأدب فإنه مدع بذلك مكافأة السلطان

بشكره فإن الشكر مكافأة والعبد أصغر قدرا من المكافأة والشهود للحقيقة يقتضي اتحاد

نسبة الأخذ والعطاء ورجوعها إلى وصف المعطي وقوته فالخاصة يسقط عندهم الشكر

بالشهود وفي حقهم ما هو أعلى منه هذا غاية تقرير كلامهم وكسوته أحسن عبارة لئلا

يتعدى عليهم بسوء التعبير الموجب للتنفير ونحن معنا العصمة النافعة : أن كل أحد غير

المعصوم

فمأخوذ من قوله ومتروك وكل سبيل لا يوافق سبيله فمهجور غير مسلوك . انتهى ا .

هـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 248 . 250 ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ﴾ .

هذه الآية الكريمة يوهم ظاهرها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ضالا قبل الوحي مع أن قوله تعالى ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ يدل على أنه صلى الله عليه وسلم فطر على هذا الدين الحنيف ومعلوم أنه لم يهوده أبواه ولم ينصراه ولم يمجساه بل لم يزل باقيا على الفطرة حتى بعثه الله رسولا ويدل لذلك ما ثبت من أن أول نزول الوحي كان وهو يتعبد في غار حراء فذلك التعبد قبل نزول الوحي دليل على البقاء على الفطرة.

والجواب أن معنى قوله: ﴿ ضَالاًّ فَهَدَى ﴾ أي غافلا عما تعلمه الآن من الشرائع وأسرار علوم الدين التي لا تعلم بالفطرة ولا بالعقل وإنما تعلم بالوحي فهداك إلى ذلك بما أوحى إليك فمعنى الضلال على هذا القول الذهاب من العلم ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ﴾ وقوله: ﴿ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى ﴾ .

وقوله: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ .

وقول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها

...بدلا أراها في الضلال تهيم

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ لأن المراد بالإيمان شرائع دين الإسلام وقوله: ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ .

وقوله: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ .

وقيل المراد بقوله ضالا .

ذهابه وهو صغير في شعاب مكة وقيل ذهابه في سفره إلى الشام والقول الأول هو الصحيح والله تعالى أعلم ونسبة العلم إلى الله أسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب ص 335.334 ﴾

(199/819)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالضُّحَى (1) ﴾

أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت سورة ﴿ الضحى ﴾ بمكة .

وأخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان من طريق أبي الحسن البزي المقري قال : سمعت عكرمة بن سليمان يقول : قرأت على اسماعيل بن قسطنطين ، فلما بلغت ﴿ والضحى ﴾ قال : كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم فإني قرأت على عبد الله بن كثير ، فلما بلغت ﴿ والضحى ﴾ قال : كبر حتى تختم وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك ، وأخبره مجاهد أن ابن عباس رضي الله عنهما أمره بذلك ، وأخبره ابن عباس أن أبيّ بن كعب أمره بذلك ، وأخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبره بذلك .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير والطبراني والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل عن جندب البجلي قال : اشتكى النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فأتته امرأة فقالت : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك لم تره قربك ليلتين أو ثلاثاً ، فأنزل الله ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى

﴾ .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن جندب رضي الله عنه قال : أبطأ جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال المشركون : قد ودع محمد فأنزل الله ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ .

وأخرج الطبراني عن جندب رضي الله عنه قال : احتبس جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم فقالت بعض بنات عمه : ما أرى صاحبك إلا قد قلاك . فنزلت : ﴿ والضحى ﴾ إلى ﴿ وما قلى ﴾ .

(200/819)

وأخرج الترمذي وصححه وابن أبي حاتم واللفظ له عن جندب قال : رمي رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر في أصبعه فقال : هل أنت إلا أصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت ، فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم فقالت له امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فنزلت ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ .

وأخرج الحاكم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : "لما نزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى ﴾ [المسد : 1] إلى ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ [المسد : 4] فقيل لامرأة

أبي لهب : إن محمداً قد هجاك . فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في الملأ ، فقالت : يا محمد علام تهوجوني ؟ قال : إني والله ما هجوتك ، ما هجاك إلا الله . فقالت : هل رأيتني أحمل حطباً أو رأيت في جيدي حبلاً من مسد ؟ ثم انطلقت . فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً لا ينزل عليه ، فأتته فقالت : ما أرى صاحبك إلا قد ودعك وقلاك ، فأنزل الله ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ " .

وأخرج ابن جرير عن عبد الله بن شداد رضي الله عنه أن خديجة قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أرى ربك إلا قد قلاك ، فأنزل الله ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عروة رضي الله عنه قال : أبطأ جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم فجزع جزعاً شديداً فقالت خديجة : أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك ، فنزلت ﴿ والضحى ﴾ إلى آخرها .

وأخرج الحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طريق عروة عن خديجة قالت : لما أبطأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي جزع من ذلك فقلت له مما رأيت من جزعه : لقد قلاك ربك مما يرى من جزعك ، فأنزل الله ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً ، فعير بذلك ، فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه ، فأنزل الله ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ يعني أقبل ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ .

وأخرج ابن جرير نحوه من مرسل قتادة والضحاك .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ والضحى ﴾ قال : ساعة من ساعات النهار ﴿ والليل إذا سجى ﴾ قال : سكن بالناس .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ والليل إذا سجى ﴾ قال : إذا استوى .

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن رضي الله عنه ﴿ إذا سجى ﴾ قال : إذا لبس الناس .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إذا سجى ﴾ قال : إذا أقبل .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه ﴿ والليل إذا سجى ﴾ قال : إذا أقبل فغطى كل شيء .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما

﴿ إذا سجى ﴾ قال : إذا ذهب ﴿ ما ودعك ربك ﴾ قال : ما تركك ﴿ وما قلى ﴾ قال : ما أبغضك .

(202/819)

وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده والطبراني وابن مردويه عن أم حفص عن أمها وكانت خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن جرواً دخل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل تحت السرير ، فمات ، فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحي ، فقال : يا خولة ما حدث في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ جبريل لا يأتيني . فقلت يا نبي الله ما أتى علينا يوم خير منا اليوم ، فأخذ برده فلبسه وخرج ، فقلت في نفسي : لو هيأت البيت وكنسته فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا بشيء ثقيل ، فلم أزل حتى بدا لي الجرو ميتاً فأخذته بيدي فألقيته خلف الدار فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ترعد لحيته ، وكان إذا نزل عليه أخذته الرعدة فقال : يا خولة دثريني فأنزل الله عليه ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ إلى قوله : ﴿ فترضى ﴾ " .

وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عرض علي ما هو مفتوح لأمتي بعدي فسرني ، فأنزل

الله ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم وعبد بن حميد وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي وابن مردويه وأبو نعيم كلاهما في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو مفتوح على أمته من بعده كفراً كفراً ، فسر بذلك ، فأنزل الله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ فأعطاه في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابه المسك ، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم .

وأخرج ابن جرير من طريق السدي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال : من رضا محمد أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال : رضاه أن تدخل أمته الجنة كلهم .

وأخرج الخطيب في تلخيص المتشابه من وجه آخر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال : لا يرضى محمد ، واحد من أمته في النار .

وأخرج مسلم عن ابن عمرو رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله في

إبراهيم ﴿ فمن تبعني فإنه مني ﴾ [إبراهيم : 36] وقول عيسى ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ [النساء : 118] الآية . فرفع يديه وقال : اللهم أمتي أمتي وبكى ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك " .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية من طريق حرب بن شريح رضي الله عنه قال : قلت لأبي جعفر محمد بن علي بن الحسين : أرأيت هذه الشفاعة التي يتحدث بها أهل العراق ، أحق هي ؟ قال : إي والله ، حدثني عمي محمد بن الحنفيه عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أشفع لأمتي حتى يناديني ربي أرضيت يا محمد ؟ فأقول : نعم يا رب رضيت " ثم أقبل علي فقال : إنكم تقولون يا معشر أهل العراق إن أرجى آية في كتاب الله

﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ [الزمر : 53] قلت : إنا لنقول ذلك . قال فكلنا أهل البيت نقول : إن أرجى آية في كتاب الله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وهي الشفاعة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه أنه سئل عن قوله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال : هي الشفاعة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ " .

وأخرج العسكري في المواعظ وابن مردويه وابن لال وابن النجار عن جابر بن عبد الله قال : " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من حملة الإِبل ، فلما نظر إليها قال : يا فاطمة تعجلي فتجرعي مرارة الدنيا لنعيم الآخرة غداً فأنزل الله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن عكرمة رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ قال العباس بن عبد المطلب : لا يدع الله نبيه فيكم إلا قليلاً لما هو خير له .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال : ذلك يوم القيامة هي الجنة .

وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل وابن عساكر من طريق موسى بن علي بن رباح عن أبيه رضي الله عنه قال : كنت عند مسلمة بن مخلد وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص ، فتمثل مسلمة ببيت من شعر أبي طالب ، فقال : لو أن أبا طالب رأى ما نحن فيه اليوم من نعمة الله وكرامته لعلم أن ابن أخيه سيد قد جاء بخير كثير ، فقال عبد الله : ويومئذ قد كان سيداً كريماً قد جاء بخير كثير ، فقال مسلمة : ألم يقل الله ﴿ ألم يجدك يتيماً

فآوى ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ فقال عبد الله : أما اليتيم فقد كان يتيماً من أبويه ، وأما العيلة فكل ما كان بأيدي العرب إلى القلة .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب رضي الله عنه قال : بعث عبد المطلب ابنه عبد الله يمتار له تمراً من يثرب فتوفي عبد الله وولدت آمنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان في حجر جده عبد المطلب .

(205/819)

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن مردويه وابن عساكر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته ، فقلت : قد كانت قبلي الأنبياء منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحيي الموتى ، فقال تعالى : يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويتك ؟ ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أضع عنك وزرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت : بلى يا رب " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سألت ربي شيئاً وددت أني لم أكن سألته ، قلت ؛ يا رب كل الأنبياء فذكر

سليمان بالريح وذكر موسى فأنزل الله ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ والضحى ﴾ على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يمن عليّ ربي وأهل أن يمن ربي " والله أعلم .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ قال : وجدك بين ضالين فاستنقذك من ضلالتهم .

أخرج ابن جرير عن سفيان ﴿ ووجدك عائلاً ﴾ قال : فقير وذكر أنها في مصحف ابن مسعود " ووجدك عديماً فآوى " .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحب عن الأعمش قال : قراءة ابن مسعود " ووجدك عديماً فأغنى " .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ قال : لا تحقره ، وذكر أن في مصحف عبد الله " فلا تكهر "

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ فلا تقهر ﴾ قال : فلا تظلم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ يقول : لا تظلمه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ قال : كن لليتيم كأب رحيم ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ قال : رد السائل برحمة ولين .

(206/819)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ قال : من جاء يسألك عن أمر دينه فلا تنهره والله أعلم .

أخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ قال : بالنبوّة التي أعطاك ربك .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ قال : بالقرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن مقسم قال : لقيت الحسن بن علي بن أبي طالب ، فصافحته ، فقال : التقابل مصافحة المؤمن . قلت أخبرني عن قوله : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ قال : الرجل المؤمن يعمل عملاً صالحاً فيخبر به أهل بيته . قلت أي الأجلين قضى موسى الأول أو الآخر ؟ قال : الآخر .

وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر عن الحسن بن علي في قوله : ﴿ وأما بنعمة ربك

فحدث ﷺ قال : إذا أصبت خيراً فحدث إخوانك .

وأخرج ابن جرير عن أبي نضرة قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعمة أن يحدث بها .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند والبيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف عن أنس بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر : " من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة " .

وأخرج ابن داود عن جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره ، ومن تحلى بما لم يعط فإنه كلابس ثوب زور " .

وأخرج أحمد وأبو داود عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أعطى عطاء فوجده فليخبر به ، فإن لم يجد فليثن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره " .

وأخرج أحمد والطبراني في الأوسط والبيهقي عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أولى معروفاً فليكافىء به فإن لم يستطع فليذكره ، فإن من ذكره فقد شكره " .

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أولى معروفاً فليكافىء به فإن لم يستطع فليذكره ، فإن من ذكره فقد شكره " .

وأخرج سعيد بن منصور عن عمر بن عبد العزيز قال : إن ذكر النعمة شكر .

وأخرج البيهقي عن الحسن قال : أكثر واذكر هذه النعمة فإن ذكرها شكر .

وأخرج البيهقي عن الجريري قال : كان يقال : إن تعداد النعم من الشكر .

وأخرج البيهقي عن يحيى بن سعيد قال : كان يقال : تعداد النعم من الشكر .

وأخرج عبد الرزاق والبيهقي عن قتادة قال : من شكر النعمة إفشاؤها .

وأخرج البيهقي عن فضيل بن عياض قال : كان يقال : من شكر النعمة أن يحدث بها .

وأخرج البيهقي عن ابن أبي الحواري قال : جلس فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلي الصباح يتذاكران النعم ، أنعم الله علينا في كذا ، أنعم الله علينا في كذا .

وأخرج الطبراني عن أبي الأسود الدؤلي وزاذان الكندي قالا : قلنا لعلي : حدثنا عن أصحابك . فذكر مناقبهم . قلنا : فحدثنا عن نفسك . قال : مهلاً نهى الله عن التزكية . فقال له رجل : فإن الله يقول ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ قال : فإني أحدث بنعمة ربي ،كنت والله إذا سألت أعطيت ، وإذا سكت ابتدئت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 546.539 ﴾

فصل

قال الإمام فخر الدين الرازى :

[قصة سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم]

[وفيها شبه]

[الأولى] تمسكوا بقوله تعالى (ووجدك ضالا فهدى) *

[الجواب] أن الضلال هو الذهاب والانصراف ولا بد من أمر يكون منصرفا عنه وهو غير مذكور ، والخبران بغير ما يوافق الدليل وهو أمور أربعة : [الأول] وجدك ضالا عن النبوة فهداك إليها ويؤكده قوله تعالى (ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان) *

[الثاني] وجدك ضالا عن المعيشة وطريق الكسب *

[الثالث] وجدك ضالا في زمان الصبى في بعض المفاوز *

[الرابع] وجدك ضالا أي مضلولا عنه في قوم لا يعرفون حقك فهداهم إلى معرفتك كما يقال : فلان ضال في قومه إذا كان مضلولا عنه *

[الشبهة الثانية] تمسكوا بقوله تعالى . (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى

ألقى الشيطان في أمنيته) قالوا : إن ظاهر الآية يدل على أن الشيطان ملق في قراءة الأنبياء ما يؤدى إلى الشبهة ، فإذا جوزنا ذلك ارتفع الوثوق ، روى أنه عليه الصلاة والسلام شق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به فتمنى في نفسه أن يأتيه من الله تعالى ما يقارب بينه وبين قومه ، وذلك لحرصه على إيمانهم ، فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش كثير أهله ، وأحب يومئذ أن لا يأتيه شئ من الله فينفروا عنه ، وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى (والنجم إذا هوى) فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى) ألقى الشيطان على لسانه ما كان يحدث به نفسه ويتمناه " تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى " فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءته فقرأ السورة كلها وسجد في آخرها فسجد المسلمون وسجد جميع من في المسجد

من المشركين . فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد ابن المغيرة وأبو أحيحة سعيد بن العاص ، فانهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين كبيرين فلما يستطيعا السجود ، وتفرقت قريش وقد سرهم ما

سمعوا وقالوا : قد ذكر محمد عليه الصلاة والسلام آلهتنا بأحسن الذكر . فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وقال : ما ذا صنعت ؟ تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله ، وقلت ما لم أقل لك ؟ ! فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله خوفا كثيرا فأنزل الله هذه الآية (1) *

---

(1) قال الحافظ ابن كثير في التفسير : قد ذكر كثير من المفسرين هنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من مهاجرة الحبشة ظنا منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها من وجه صحيح * وقال القسطلانى في شرح البخاري : وقد طعن في هذه القصة وسندها غير واحد من الائمة حتى قال ابن إسحق - وقد سئل عنها - هي من وضع الزنادقة ، وقال القاضى عياض : إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل . وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون عن الصحف كل صحيح وسقيم . ونقل عن أبى بكر بن العربي الامام المالكى : إن جميع ما ورد في هذه القصة لا أصل له ، قال القاضى : والذى ورد في الصحيح "أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ (والنجم) وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والانس" ثم قال : وقد قامت الحجة وأجمعت الامة على عصمته صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن هذه الرذيلة ، إما من (*)

تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله ، وهو كفر ، أو أن يتسود عليه الشيطان

ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي صلى الله عليه وسلم أن من القرآن ما ليس منه حتى يفهمه جبريل . وذلك كله ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم ، أو يقول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك من قبل نفسه عمدا – وذلك كفر – أو سهوا ، وهو معصوم من هذا كله ، وقد قررنا بالبراهين والاجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على لسانه أو قلبه لا عمدا ولا سهوا أو أن يشبه عليه ما يلقيه الملك بما يلقى الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل أو أن يتقول على الله ما لم ينزل لا عمدا ولا سهوا (*)

(210/819)

[الجواب] الذى يدل على أنه عليه السلام ما غير وما بدل وجوه خمسة :

[الأول] قوله تعالى (ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين)

[الثاني] (قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع الاما يوحى إلى) [الثالث] (وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفتري علينا غيره وإذا لا تخذوك خليلا ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلا) [الرابع] (كذلك لنثبت به فؤادك) [الخامس] قوله (سنقرئك فلا تنسى) وإذا ثبت ما ذكرناه فلنشرع في الجواب عن الشبهة فنقول :

التمنى : جاء في اللغة لامرين : [أحدهما] تمنى القلب *

[والثانى] التلاوة قال الله تعالى (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى) أي إلا قراءة لأن الأمي لا يعلم القرآن من المصحف

(211/819)

وإنما يعلمه قراءة ، وقال حسان (1) * تمنى كتاب الله أول ليلة * وآخرها لاقى حمام المقادر قيل : إنما سميت القراءة أمنية لان القارئ إذا انتهى إلى آية عذاب تمنى ان لا يبتلى به . وقيل : أخذ من التقدير لان التالى مقدر للحروف يذكرها شيئا فشيئا والتمنى التقدير ، منى الله خيرا أي قدره * إذا عرف ذلك فنقول : من المفسرين من حمل الآية على تمنى القلب ، والمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم متى تمنى بقلبه بعض ما يتمناه من الامور يوسوس الشيطان إليه بالباطل ويدعوه إلى ما لا ينبغى ، ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويأتيه بما يرشده إلى ترك الالتفات إلى وسوسته . وهذا ضعيف لأنه لو كان كذلك لم يكن ما يخطر بباله صلى الله عليه وسلم فتنة للكفار ، وذلك يبطله قوله تعالى (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم) الآية : فثبت ان المراد بالتمني القراءة * ثم اختلف الذاهبون إلى هذا التأويل على وجوه ستة : [الأول] أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلم

بذلك ولا تكلم الشيطان به أيضا ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لما قرأ سورة (والنجم إذا هوى) اشتبه الأمر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظ ما قرأه " تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى " وذلك على حسب ما جرت العادة من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال ، وهذا فاسد لوجوه ثلاثة : [الأول] ان التوهم في مثل ذلك إنما يصح فيها قد جرت العادة

---

(1) قال ذلك في رثاء عثمان بن عفان حين قتل مظلوما رضى الله عنه (*)

(212/819)

بسماعه ، فأما غير المسموع فلا يقع فيه ذلك

[الثاني] انه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض ، فان العادة مانعة من اتفاق الجمع العظيم في الساعة الواحدة على خيال فاسد في المحسوسات *

[الثالث] لو كان كذلك لم يكن ذلك مضافا إلى الشيطان *

[الوجه الثاني] أن يكون عليه الصلاة والسلام تكلم بذلك إما عامدا أو ساهيا . أما العمد فغير جائز . لأنه تخليط في الوحى . وذلك يوجب زوال الثقة عن كل ما جاء به *

[فإن قلت] لعله قد ذكر ذلك استفهاما على سبيل الانكار ؟ [قلت] هب أنه كذلك

لكن قراءته في أثناء قراءة القرآن مع كونه على ذلك الوزن توهم كونه منه ، فيعود المحذور المذكور . أما السهو فغير جائز أيضا لأنه لو جاز وقوع السهو ههنا لجاز في غيره وحينئذ ترتفع الثقة بالشرع . ولان الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الالفاظ مطابقة لوزن هذه السورة وطريقتها ومعناها . فانا نعلم بالضرورة أن واحدا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق فيه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها *

[الثالث] أن يكون الشيطان أجبر النبي صلى الله عليه وآله على التكلم وهذا أيضا فاسد لوجوه ثلاثة : (الأول) أن الشيطان لو قدر على ذلك لوجب في القياس أن يزل الشيطان ولجاز في اكثر منا يتكلم به الواحد منا ان يكون ذلك بإجبار الشيطان

[الثاني] أن الشيطان لو تمكن من إجبار النبي عليه الصلاة والسلام على ذلك لا رتفع الايمان عن الوحى

لقيام هذا الاحتمال [الثالث] قوله تعالى حاكيا عن الشيطان (وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم) الآية وقال تعالى (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا) الآيتان . وقال (إلا عبادك منهم المخلصين) فاعترف بأنه لا سبيل له عليهم [الرابع] أن يكون ذلك

الكلام كلام الشيطان وذلك بأن يلفظ بكلام من تلقاء نفسه في درج تلك التلاوة في بعض وقفاته ليظن أنه من جنس الكلام المسموع منه عليه السلام وهو غير ممتنع لأنه لا خلاف أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يسمع الشيطان من غير أن يرى صورته فإذا سمع كلامه في أثناء كلام آخر لم يبعد أن يظن السامعون كون ذينك الكلامين من ذلك الشخص المبصر ثم هذا لا يكون قادحا في النبوة لما لم يكن فعلا للنبى * ولقائل أن يقول : إذا جوز تم أن يتكلم الشيطان في أثناء كلام الرسول عليه الصلاة والسلام بما يشتبه على كل السامعين حتى يظنوه كلاما لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقى هذا الاحتمال في كل ما يتكلم به الرسول عليه الصلاة والسلام فتفضى إلى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع * (الجواب) * ان ذلك الاحتمال قائم ، ولكنه لو وقع لوجب في حكمة الله تعالى أن يشرح الحال فيه كما في هذه الواقعة ازالة للتلبيس * * (الخامس) * أن المتكلم بذلك بعض الكفرة ، فانه عليه الصلاة والسلام لما انتهى من قراءة هذه السورة إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته أنه يعيبها ، فقال بعض من حضر من الكفار :

" تلك الغرانيق العلا " فاشتبه على القوم ، لانهم كانوا يلغطون عند قراءته ويكثرون من الكلام طلبا لتغليطه واخفاء قراءته . وممكن أن يكون أيضا في الصلاة لانهم كانوا يقربون منه في حال الصلاة ويسمعون قراءته ويلغون فيها ، وقيل : انه عليه الصلاة والسلام كان إذا تلا القرآن على قريش توقف في فصول الآيات ، فألقى بعض الحاضرين ذلك الكلام في تلك الواقعات فتوهم القوم أنه من قراءته عليه الصلاة والسلام ثم أضاف الله ذلك إلى الشيطان لأنه بوسوسته حصل ، أو لأنه جعل ذلك المتكلم شيطانا * (السادس) * أن المراد بالغرانيق الملائكة وقد كان ذلك قرآنا منزلا في وصف الملائكة ، فلما توهم المشركون (1) أنه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته *

---

(1) قال القاضي أبو بكر بن العربي في احكام القرآن (ج 2 ص 168) قد بينا في السالف من كتابنا هذا وفى غير موضع عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم من الذنوب وحققنا القول فيما نسب إليهم من ذلك وعهدنا اليكم عهدا لن تجدوا له ردا : أن أحدا لا ينبغى أن يذكر الأنبياء إلا بما ذكره الله لا يزيد عليه . فان أخبارهم مروية وأحاديثهم منقولة بزيادات تولاها أحد رجلين : إما غبى عن مقدارهم ، وإما بدعى لا رأى له في برهم ووقارهم فيدس تحت المقال المطلق الدواهي ولا يراعى الادلة ولا النواهي - إلى أن قال : وهذا الروايات كلها ساقطة الاسانيد . إنما الصحيح منها ما روى عن عائشة أنها قالت : " لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتما من الوحى شيئا لكتم هذه الآية (وإذ تقول للذى أنعم الله

عليه) يعنى بالاسلام (وأنعمت عليه) يعنى بالعتق (أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه – إلى قوله : وكان أمر الله مفعولا) وأن رسول الله صلى الله عليه وآله لما تزوجها قالوا تزوج حليلة ابنه . فأنزل الله (ما كان محمد ابا أحد من رجالكم) الآية ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله تبناه وهو صغير فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد فأنزل الله تعالى (أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) الآية فلان مولى فلان وأخو فلان أخو فلان (هو أقسط عند الله) يعنى أنه أعدل عند الله تعالى " قال القاضى وما وراء هذه الرواية غير معتبر *

---

* (الشبهة الثالثة) * تمسكوا بقوله تعالى : (وإذ تقول للذى أنعم الله عليه) الآية ، روى أنه عليه الصلاة والسلام رأى زينب بنت جحش بعد ما زوجها من زيد فهويها . فلما حضر زيد لطلاقها أخفى في نفسه عزمه على نكاحها بعده لهواه لها فعاتبه عليه بقوله (وتخفى في نفسك ما الله مبديه) الآية (1) * * (الجواب) * من أربعة وجوه * (أحدها) * الذى يدل عليه أنه لم يصدر من الرسول في هذه الواقعة مذمة ، ولا عاتبه الله على شئ منه ، ولا ذكر أنه عصى وأخطأ . ولا ذكر استغفار النبي منه ، ولا أنه اعترف على نفسه مخطئا ،

وأنه لو صدر عنه زلة لوجد من ذلك

---

(1) وهذا من أبعد القول واحقه بالرد . إذ كيف يكون في حق الملائكة وهو يشير إلى اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ فقائل هذا لم يفكر حين قاله (*)

شئ كما في سائر الأنبياء عليهم السلام متى صدرت عنهم زلة أو ترك مندوب وجد منه ما ذكرناه * * (وثانيها) * أنه ذكر في القصة أنه ليس على النبي من حرج فيما فرض الله له ، وهذا تصريح بأنه لم يصدر منه ذنب البته * * (وثالثها) * أنه تعالى إنما زوجه إياها كيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواجهم أدعيائهم إذا قضوا منهن . وطرا ، ولم يقل : إني فعلت ذلك لاجل عشقك * * (ورابعها) * قوله تعالى (زوجناكها) ولو حصل في ذلك سوء لكان قدحا في الله تعالى . فثبت بهذه الوجوه أنه لم يصدر منه ذنب البتة في الواقعة * بقى قوله تعالى (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) فنقول : ذكر المحققون فيه وجوها اربعة : * (الأول) أن الله تعالى لما أراد نسخ ما كان في الجاهلية من تحريم أزواج الادعياء أوحى الله ان زيدا - وهو دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم - يطلق زوجته فتزوج أنت بها . فلما حضر زيد ليطلقها أشفق رسول الله صلى الله عليه واله وسلم من أنه لو طلقها للزمه

التزوج بها فيصير بذلك سببا لسوء كلام المنافقين فيه فقال له (أمسك عليك زوجك) واخفى في نفسه عزمه على نكاحها بعد طلاقه اياها وهذا التأويل هو المطابق لقوله تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) فتثبت أن العلة في أمره بنكاحها ما ذكرناه من نسخ السنة المتقدمة *

(217/819)

(الثاني) أن زيدا لما خاصم زوجته زينب، وهي ابنة عمة النبي عليه الصلاة والسلام وأشرف على طلاقها أخبر النبي صلى الله عليه وسلم انه طلقها زيد تزوجها من حيث إنها كانت ابنة عمته، وكان يحب ضمها إلى نفسه، كما يحب أحدنا ضم قراباته إليه حتى لا ينالهم ضرر، الا أنه لم يظهر ذلك خوفا من ألسنة المنافقين فالله تعالى عاتبه في التفات قلبه إلى الناس فقال (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) (1) * (الثالث) أن زيدا لما نكح زينب وجدها ذات جمال وعفة وقوة وعقل وحسن خدمة فبدا له أن ينزل عنها لينكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما رآها صالحة لصحبته خدمة له منه وقربة إلى الله تعالى بايثار رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه في حظ مباح. فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(1) فأخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم والناس بما كان يضمره من إيثار ضمها إلى نفسه ليكون ظاهر الأنبياء عليهم السلام وباطنهم سواء ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للانصار يوم فتح مكة وقد جاء عثمان بعبد الله بن سعد بن أبى سرح وسأله أن يرضى عنه وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك قد اهدر دمه وأمر بقتله فلما رأى عثمان استحى من رده وسكت طويلا ليقتله بعض المؤمنين فلم يفعل المؤمنون ذلك انتظارا منهم لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال للانصار : أما كان فيكم رجل يقوم إليه فيقتله فقال له عباد بن بشر يا رسول الله إن عينى في عينك انتظارا أن تومئ إلى فأقتله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأنبياء لا تكون لهم خيانة أعين والله أعلم (*)

وعرض عليه الأمر ولم يكن ذلك منكرا عنده عليه الصلاة والسلام غير ان زيدا تبناه النبي عليه الصلاة والسلام وكان التزوج بامرأته محرما في الجاهلية ، فعلم أنه لو نكحها أطالوا ألسنتهم فيه وكانوا على قرب عهد من السلام يحترزون عن مثل هذه الامور ، فامتنع النبي صلى الله عليه وآله عن نكاحها وقال له (أمسك عليك زوجك) مع ما في قلبه من الرضا

حذرا عما ذكرناه فنزلت هذه الآية (وتخفى في نفسك ما الله مبديه) يعنى من إضمار الرضى (وتخشى الناس) يعنى تستحى منهم أن يقولوا نكح زوجة ابنه (والله أحق أن تخشاه) في اظهار أمر غير ما تضمره * (الرابع) أن زينب طمعت في اول أمرها أن يتزوج بها رسول الله صلى الله عليه وآله فلما خطبها الرسول لزيد شق ذلك عليها وعلى أخيها وأمها ، حتى نزل قوله تعالى (ما كان لمؤمن ولا مؤمنة) الآية فعند ذلك انقادوا كرها ، فلما بنى بها زيد لم تساعده ونشزت عنه لاستحكام طمعها في رسول الله صلى الله عليه وسلم واستحقارها زيدا ، فشكاها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال (أمسك عليك زوجك) وأخفى في نفسه استحكام طمعها فيه ، لأنه عليه الصلاة والسلام لو ذكر ذلك لزيد لتنغصت عليه تلك النعمة ، ولقال المنافقون إنه إنما قال ذلك طمعا في تلك المرأة . فهذه وجوه سوى ما ذكره الطاعنون في انبياء الله تعالى ورسله وكلها محتمل * (فإن قلت) هب أن الأمر كذلك ، ولكن قوله تعالى : (وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) يدل على أن ذلك الاخفاء ما كان جائزا له * (قلت) أكثر ما فيه أنه أخفى ذلك إتقاءا لسوء كلام المنافقين

ولو أنه أظهره وتحمل سوء مقالتهم لكان أكثر ثوابا فيه ، فيرجع حاصله إلى ترك الأولى والافضل فليس ذلك من الذنب في شئ ، فأما الذين يذكرون من أنه عشقها فهو من باب الآحاد والاولى تنزيه منصب الأنبياء عن مثله لا سيما والقرآن لا يدل عليه البتة . ثم على تقدير الصحة ففيها روايتان : منهم من يقول بأنه عليه الصلاة والسلام لما رآها وعشقها حرمت على زيد . وهذا قطعا غير صحيح لأنه لو كان كذلك لكان أمره لزيد بامساكها أمرا بالزنا ولكان وصفه إياها بكونها زوجه كذبا وهذان الامران لا يليقان بالمسلمين فضلا عن أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ومنهم من لا يقول بحرمتها على زوجها . ولكن يقول يجب على الزوج تطليقها والنزول عنها ، وقالوا : والمعنى فيه امتحانا للزوج في إيمانه بتكليف النزول عن زوجته طلبا لرضى الله تعالى ورضى رسوله صلى الله عليه وسلم . وفيه أيضا ابتلاء النبي عليه الصلاة والسلام وتكليفه الحذر عن الاعين لان حفظ النظر أشق على النفس فقيل له ان لم تحفظ نظرك فربما أبصرت شيئا فاشتهيته لان الشهوة ليست مقدورة للبشر . وإذا اشتهيته وجب على الزوج طلاقها والنزول عنها فان أخبرته بذلك تعرضت لسوء المقالة وإن كتمته صرت خائنا في الوحى ، فلاجل الاحتراز عن هذه التوابع كان النبي صلى الله عليه وآله يبالغ في حفظ النظر وذلك من أشق التكاليف . فهذا ما قيل في هذا الباب ❊

(الشبهة الرابعة) تمسكوا بقوله تعالى : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض) الآيتان . والاستدلال من ثلاثة أوجه : (الأول) قوله تعالى : (ما كان لنبى أن يكون له أسرى) وذلك يقتضى أن يكون استبقاء الاسرى محرما * (الثاني) قوله : (تريدون عرض الدنيا) وذلك مذكور في معرض الذم (الثالث) قوله تعالى : (لو لا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) * (الجواب) الذى يدل على براءة منصب الأنبياء في هذه الواقعة عن كل ما لا ينبغى وجوه : (الأول) أنه إما أن يكون قد أوحى له في جواز الاسر وخطر إليه شئ ، أو ما أوحى إليه شئ فان كان قد أوحى إليه شئ لم يجز للنبى عليه الصلاة والسلام أن يستشير أصحابه فيه لان مع قيام النص وظهور الوحى لا يجوز الاشتغال بالاستشارة ، وإن لم يوح إليه شئ البتة لم يتوجه عليه ذنب البتة (الثاني) أن ذلك الحكم لو كان خطأ لامر الله تعالى بنقضه ، فكان يؤمر بقتل الاسرى ويرد ما أخذ منهم ، قلنا : لما لم يكن كذلك بل قال (فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) علمنا أنه لم يوجد الخطأ في ذلك الحكم البتة * (الثالث) أنه عليه الصلاة والسلام لم يشتغل بالاستغفار واللوم ، وذلك يدل على عدم الذنب على ما تقدم . وإذا قد بينا ذلك فنقول :

كما يأتي العتاب على ترك الواجب فقد يأتي أيضا على ترك الأولى والاولى في ذلك الوقت الاثخان وترك الفداء قطعا للاطماع وحسما للنزاع ، ولولا أن ذلك من باب الأولى لما فوض النبي صلى الله عليه وآله ذلك إلى الاصحاب ، وهذا هو العذر عن قوله (ما كان لنبى أن يكون له أسرى) فأما قوله (تريدون عرض الدنيا) فهو خطاب جمع فيصرف ذلك إلى القوم الذين رغبوا في المال (1) وأما قوله (لولا كتاب من الله) فمعناه لولا ما سبق من تحليل الغنائم لعذبتكم بسبب أخذكم هذا الفداء . وهذا غاية التقريع في تخطئتهم في أخذ الفداء من جهة التدبير * (فإن قلت) فان كان ذلك محللا لهم فما هذا التقريع البالغ ؟ (قلت) لان ذلك من باب الحروب ، وما كان من ذلك الباب فقد يقع الخطأ فيه من جهة التدبير ويقرع ذلك المخطئ ، وان كان غير مذنب * (الشبهة الخامسة) أنه لما استأذنه قوم في التخلف عن الخروج معه إلى الجهاد فأذن لهم فقال الله تعالى (عفا الله عنك لم أذنت لهم) والعفو لا يكون الا بعد الذنب ، فدل على أنه كان مذنبا *

---

(1) وهذا يدل على أن المعاتب في شأن الاسارى هو غير النبي صلى الله عليه وسلم بل يجب أن يكون سواه والقصة معروفة لان الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وآله بأن يأمر أصحابه بأن يثخنوا في قتل أعدائهم بقوله تعالى : (فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل

بنان) وبلغ النبي صلى الله عليه وآله ذلك إلى أصحابه فسهوا عن ذلك وأسروا يوم بدر جماعة من المشركين طمعا في الفداء فأنكر الله تعالى ذلك عليهم وبين ان الذى امر به سواه (*)

(222/819)

(الجواب) أن العفو يقتضى ترك المؤاخذة، وقوله (لم أذنت لهم) مؤاخذة. فلو أجرينا قوله تعالى (عفا الله عنك) على ظاهره لزمت المناقضة. فعلمنا أنه ليس المراد ذلك - ما جوابك عن كلامي - مثلا انما المراد التلطف في المخاطبة. كما يقال: أنت رحمك الله وغفر لك، وإن لم يكن هناك ذنب البتة، وأيضا فهذا من باب التدبير في الحرب. وقد بينا أن تارك الافضل فيه قد يقرع ويوبخ * (الشبهة السادسة) قوله تعالى (ووضعنا عنك وزرك) الآية صريح في الذنب * (جوابه) من وجوه (الأول) حمله على الوزر الذى كان قبل النبوة (الثاني) حمله على الصغيرة أو ترك الأولى (الثالث) أن الوزر في أصل اللغة هو الثقل. قال الله تعالى (حتى تضع الحرب أوزارها) أي أثقالها، وإنما سمى الذنب بالوزر لأنه يثقل كاسبه. فعلى هذا تسمية الذنب بالوزر مجاز آخر، وهو أنه عليه الصلاة والسلام كان في غم شديد لاصرار قومه على الشرك، وأنه كان هو وأصحابه فيما بينهم مستضعفين فلما

أعلا الله كلمته ، وعظم أمره فقد وضع وزره ، ويقوى هذا التأويل قوله (ورفعنا لك ذكرك فان مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا) فان العسر بالشدائد والغموم أشبه واليسر بازالة الهموم أشبه * (فإن قلت) إن هذه السورة مكية فما ذكرت من المعنى لا يليق بها (قلت) إن وعد الله حق ، فلما وعده الله بذلك في مكة فقد قوى قلبه وزالت كربته *

(223/819)

(الخامس) وهو أنه عليه الصلاة والسلام لا شك أنه بتقدير الاقدام على الذنب كان يتوب عنه ، فان الاصرار على الذنب منفى عنه بالاجماع والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . وإذا كان كذلك وجب علينا وعليهم تأويل هذه الآية * (الشبهة الثامنة) تمسكوا بقوله تعالى (عبس وتولى أن جاءه الاعمى) فعاتبه على إعراضه عن ابن أم مكتوم * (جوابه) لا نسلم أن هذا الخطاب متوجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام . لا يقال : إن أهل التفسير قالوا : الخطاب مع الرسول ، لانا نقول : هذه رواية الآحاد فلا تقبل في هذه المسألة ثم إنها معارضة بأمور : (الأول) أنه وصفه بالعبوس وليس هذا من صفات النبي صلى الله عليه وسلم في قرآن ولا خبر مع الاعداء والمعاندين فضلا عن المؤمنين والمسترشدين (الثاني) وصفه بأنه تصدى للاغنياء وتلهى عن الفقراء وذلك غير لائق باخلاقه * (الثالث) أنه لا

يجوز أن يقال للنبى (وما عليك ألا يزكى) فان هذا الاغراء يترك الحرص على ايمان قومه فلا يليق بمن بعث بالدعاء والتنبيه * سلمنا أن الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم لكن لا نسلم كونه ذنبا ، بيانه أنه تعالى وصف نبيه بحسن الخلق ، فقال (وإنك لعلى خلق عظيم)

(224/819)

(الشبهة السابعة) تمسكوا بقوله تعالى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك) قالوا : وهذا تصريح بالمغفرة (جوابه) انا نحمله على ما قبل النبوة أو على الصغائر . ولمن اباهما تأويلات * (الأول) أن المراد ما تقدم من ذنب أمتك وما تأخر ، فان الرجل المعتبر إذا أحسن بعض خدمه أو أساء فانه يقال له : أنت فعلت ذلك وإن لم يكن هو فاعله بنفسه البته (الثاني) إذا ترك الأولى قد يسمى ذنبا كما يقال : حسنات الابرار سيئات المقربين (الثالث) أن الذنب مصدر ، ويجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول (1) ، فكأن المراد ليغفر لاجلك وببركتك ما تقدم من ذنبهم في حقك وما تأخر * (الرابع) أن الغرض من هذه الآية علو درجة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك ، يحصل بقوله تعالى : لو كان لك ذنب لغفرته لك ، وإخراج القضية الجازمة إلى الشرطية جائز إذا دل سياق الكلام عليه ،

---

(1) ألا ترى انهم يقولون : أعجبني ضرب زيد عمرا إذا اضافوه إلى الفاعل ، واعجبنى

ضرب زيد عمرو إذا اضافوه إلى المفعول ومعنى المغفرة على هذا التأويل هي الازالة والفسخ والنسخ لاحكام اعدائه من المشركين عليه وذنوبهم إليه في منعهم اياه عن مكة وصدهم له عن المسجد الحرام ، وهذا التأويل يطابق ظاهر الكلام حتى تكون المغفرة غرضا في الفتح ووجها له والا فإذا اراد مغفرة ذنوبه لم يكن لقوله (انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) معنى معقول لان المغفرة للذنوب لا تعلق لها بالفتح وليست غرضا فيه ، والله أعلم *

(225/819)

(ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) فلما ظهر منه في بعض الاوقات النادرة خلافة عاتبه عليه عرفه أن ذلك غير مرضى منه فيكون ذلك من باب ترك الأولى ثم السبب في ذلك كما جاء في الخبر "أنه كان يتكلم مع بعض أشراف قريش ويستميله إلى الاسلام رجاء أن يعزبه الاسلام وقد كان من الحرص على إسلامهم بحيث قال الله تعالى : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) فحضره هذا الاعمى ولم يعرف كيفية الحال ، فسأل عن مسألة من خلال مكالمة النبي عليه الصلاة والسلام ذلك الرجل ، فاشتد ذلك عليه إذا كان ذلك قطعا للكلام وإفسادا لما كان

يحاوله من إسلام ذلك الرجل فأعرض عنه فنهاه الله تعالى عن ذلك ، وأمره بالاقبال على كل من أتاه من شريف ووضيع وغني وفقير بأن لا يخص بدعوته شريفا دون دني إذ الواجب عليه هو التبليغ إلى الكل وليس عليه من امتناع من امتنع عن قبول دعوته تبعة ولا عهدة *

(الشبهة التاسعة) قوله تعالى : (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) أي لا تطرد المؤمنين وطردهم كبيرة * (جوابه) ليس في الظاهر طردهم وإنما فيه النهي عن طردهم بل فيه الدلالة على أنه قال تعالى : (فتطردهم فتكون من الظالمين) ولو كان طردهم لقال فطردتهم . وحكمة النهي أن جمعا من الكفار طلبوا

(226/819)

منه طرد الفقراء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية لتكون حجة له عليه الصلاة والسلام عن قبول قولهم * (الشبهة العاشرة) قوله تعالى : (لقد تاب الله على النبي) والتوبة لابد أن تكون مسبوقة بذنب * (جوابه) التوبة - الرجوع - محمولة على الصغيرة أو ترك الأولى *

(الشبهة الحادية عشرة) قوله تعالى : (واستغفر لذنبك) وفي الحديث " وإني لاستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة " وهذا صريح * (جوابه) أنه محمول إما على الصغيرة أو ترك الأولى أو التواضع كما قررناه في قول آدم (ربنا ظلمنا أنفسنا) أو على التقدير ، والمعنى إذا

أذنبت فاستغفره كقوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) وليس يريد أن جميعهم مذنبون ، وإنما بعثهم على التوبة إذا أذنبوا * (الشبهة الثانية عشرة) قوله تعالى : (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك) الآية ظاهرها مشعر بأنه فعل ما لا يجوز * * (جوابه) * أن تحريم ما أحل الله ليس بذنب بدليل الطلاق والعتاق ، وأما العتاب فان النهى عن فعل ذلك لابتغاء مرضاة النساء أو ليكون زجرا لهن عن مطالبته مثل ذلك كما يقول القائل لغيره :

(227/819)

لم قبلت أمر فلان واقتديت به وهو دونك ، وآثرت رضاه وهو عبدك ، فليس هذا عتبا ذنب وإنما هو عتاب تشريف * (الشبهة الثالثة عشر) قوله تعالى : (يا أيها النبي اتق الله) (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك فان لم تفعل فما بلغت رسالته) فلو لم يوجد منه فعل المحظور والاخلال بالواجب لم يكن للامر والنهى فائدة * (جوابه) الأمر والنهى أحد أسباب العصمة فوجودهما لا يخل بها * (الشبهة الرابعة عشر) قوله تعالى : (لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين) فلو لم يصح ذلك منه لما خوطب به * (جوابه) من وجوه : (الأول) أن المراد أمته فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : " نزل

القرآن بإياك أعنى واسمعي يا جارة" ومثله قوله تعالى : (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) الآية فقوله : (فطلقوهن) يدل على أن الخطاب توجه إلى غيره * (الثاني) حمله على الشرك الخفى الذى هو الالتفات إلى غير الله تعالى * (الثالث) أنه شرح الحال بتقدير الوقوع كما في قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) *

(228/819)

(الشبهة الخامسة عشر) قوله تعالى : (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) والاستثناء يدل على جواز النسيان في الوحى * (جوابه) أن النسيان يجئ بمعنى الترك قال الله تعالى : (فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا) (كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) فقوله : (سنقرؤك فلا تنسى) أي فلا تترك منها شيئًا إلا ما شاء الله وهو المندوب أو المنسوخ * (الشبهة السادسة عشر) (فان كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين) قالوا فكان النبي صلى الله عليه وسلم في شك مما أوحى الله إليه ، وإلا فأى فائدة في أمره بالسؤال * (جوابه) القضية الشرطية لا تفيد إلا ترتيب الجواب على الشرط فأما أن الشرط حاصل أو لا فهو غير مستفاد فأما الرجوع إلى اليهود والنصارى فلوجهين : (الأول) أن نعت النبي

صلى الله عليه وسلم كان مندوبا في كتبهم مذكورا في التوراة والانجيل فكان يظهر بعضهم ذلك وإن كتمه الباقون ، وكان ذلك من أعظم الدلائل على صدقه ، فأمره الله تعالى بالرجوع وتعرف ما شهدت به الكتب السماوية من نعته وصفته ، ليكون أقوى معين له في إزالة الشبهة وتقوية العلم *

(229/819)

(الثاني) أن الله تعالى أمره أن يرجع إليهم في كيفية ثبوت نبوة سائر الأنبياء ، حتى يزول الوسواس في كونه نبيا لأنه امر أن يأتي بمثل ما أتى به من قبله من المعجزات * (جواب آخر) عن أصل الكلام ، وهو أن الخطاب وإن كان متوجها إلى النبي صلى الله عليه وآله يجوز أن لا يكون المراد منه هو * (الشبهة السابعة عشر) قوله تعالى (وإن كادوا ليفتنونك) الآيتان قالوا وكان معناه قارب فدل ذلك على أنه عليه السلام قارب الكذب ومال إليه * (جوابه) لعله قارب ذلك بحسب الطبيعة البشرية ، لا بحسب العقل والدين (فصل آخر) فيما تمسكوا به في إثبات الذنب لا لنبى معين (الشبهة الاولى) قوله تعالى (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم) فهذا يقتضى ثبوت الظلم لكل الناس والنبى صلى الله عليه وسلم من الناس فثبت الظلم له * (جوابه) إذا تمسكت بهذا العموم في إثبات الظلم فقوله تعالى (ألا لعنة الله على

الظالمين) يوجب جواز اللعن عليهم وجل منصب الأنبياء عنه * (فإن قلت) * بتخصيص العموم هناك قلت به ها هنا * *

(الشبهة الثانية) * قوله تعالى (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا) إلى آخر السورة قالوا : فلولا الخوف من وقوع تخليط الوحى من جهة الأنبياء لم يكن في الاستظهار بالرصد المرسل معهم فائدة *

---

* (جوابه) * يجوز أن بعثه الملائكة مع الأنبياء ليس للخوف من تغيير الأنبياء وتبديلهم لكن لمنع الشيطان من إيقاع تخليط في أداء الرسول ، كما قررناه في قوله تعالى (إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته) * * (الشبهة الثالثة) * تمسكوا بقوله تعالى (واتل عليهم نبأ الذى اتيناه آياتنا فانسلخ منها) الآية وزعموا أنها نزلت في نبى عزل عن نبوته * (جوابه) * ليس في الآية ما يدل على كون ذلك المذكور نبيا ، والاعتماد فيه على أخبار الآحاد غير جائز ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿عصمة الأنبياء صـ 92.115﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ والضحى ﴾

يعني : النهار كله ، ويقال : الضحى ساعة من ساعات النهار ، ويقال : الضحى حر الشمس ﴿ والليل إِذَا سجى ﴾ يعني : اسودّ وأظلم ، ويقال : إذا سكن بالناس ، ويقال : ﴿ والضحى والليل إِذَا سجى ﴾ يعني : عباده الذين يعبدونه في وقت الضحى وعباده الذين يعبدونه بالليل إذا أظلم ، ويقال : ﴿ والضحى ﴾ نور الجنة إذا تنور ﴿ والليل إِذَا سجى ﴾ يعني : ظلمة النار إذا أظلم ، ويقال : ﴿ والضحى ﴾ يعني : النور الذي في قلوب العارفين كهيئة النهار ، ﴿ والليل إِذَا سجى ﴾ يعني : السواد الذي في قلوب الكافرين ، كهيئة الليل .

وأقسم الله تعالى بهذه الأشياء ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ يعني : ما تركك ربك يا محمد صلى الله عليه وسلم ، منذ أوحى إليك ﴿ وَمَا قلى ﴾ يعني : ما أبغضك ربك ، وذلك أن مشركي قريش ، أرسلوا إلى يهود المدينة ، وسألوهم عن أمر محمد صلى الله عليه وسلم ، فقالت لهم اليهود : فاسألوه عن أصحاب الكهف ، وعن قصة ذي القرنين ، وعن الروح ، فإن أخبركم بقصة أهل الكهف ، وعن قصة ذي القرنين ، ولم يخبركم عن أمر الروح ،

فاعلموا أنه صادق .

فجاؤوه وسألوه فقال لهم : ارجعوا غداً حتى أخبركم ، ونسي أن يقول إن شاء الله ، فانقطع عنه جبريل خمسة عشرة يوماً في رواية الكلبي ، وفي رواية الضحاك ، أربعين يوماً .

فقال المشركون : قد ودّعه ربه وأبغضه ، فنزل فيهم ذلك .

وروى أسباط عن السدي قال : فأبطأ جبريل عليه السلام ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين ليلة ، حتى شكى ذلك إلى خديجة ، فقالت خديجة : لعل ربك قد قلاك أو نسيك ، فأتاه جبريل عليه السلام بهذه الآية ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الاولى ﴾ يعني : ما أعطاك الله في الآخرة ، خير لك مما أعطاك في الدنيا .

(232/819)

ويقال : معناه عز الآخرة ، خير من عز الدنيا ، لأن عز الدنيا يفنى ، وعز الآخرة يبقى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ يعني : يعطيك ثواب طاعتك ، حتى ترضى .

وسوف من الله تعالى واجب .

ويقال: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ ﴾ الحوض، والشفاعة حتى ترضى.

ثم ذكر له ما أنعم عليه في الدنيا وفي الآخرة.

فقال عز وجل: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوى ﴾ يعني: كنت يتيماً فضمك إلى عمك أبي طالب، فكفاك المؤنة حين كنت يتيماً ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ فكيف ودعك بعد ما أوحى إليك.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فهدى ﴾ يعني: وجدك جاهلاً بالنبوة، وبالحكمة وبالكتاب وقراءته، والدعوة إلى الإيمان، فهداك إلى هذه الأشياء.

وكقوله: ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب، ولا الإيمان ﴾ ويقال: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ ﴾ يعني: من بين قوم ضلال ﴿ فهدى ﴾ يعني: حفظك من أمرهم، وعن أخلاقهم.

ويقال: ووجدك بين قوم ضلال، فهداهم بك.

ثم قال عز وجل: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فأغنى ﴾ يعني: وجدك فقيراً بلا مال، فأغناك بمال خديجة.

ويقال: وجدك فقيراً عن القرآن والعلم، فأغناك يعني: أغنى قلبك، وأرضاك بما أعطاك.

ثم قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ يعني: لا تظلمه، وادفع إليه حقه.

ويقال: معناه واذكر يُتْمك، وارحم اليتيم.

وقال مجاهد: ﴿ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ يعني: فلا تقهره.

وروي عن ابن مسعود ، أنه كان يقرأ ﴿ فَأَمَّا اليتيم فلاَ ﴾ .

يعني : لا تعبس في وجهه .

وروي عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ ضَمَّ يَتِيماً وكَانَ مُحْسِناً فِي نَفَقَتِهِ ، كَانَ لَهُ حِجَاباً مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، وَمَنْ مَسَحَ بِرَأْسِهِ ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ حَسَنَةٌ" .

(233/819)

وقوله تعالى : ﴿ تَقْهَرْ وَأَمَّا السائل فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ يعني : لا تؤذه ولا تزجره ، ويقال : معناه واذكر فقرك ، ولا تزجر السائل ، ولا تنهره ورده ببذل يسير ، وبكلمة طيبة .

وفي الآية تنبيه لجميع الخلق ، لأن كل واحد من الناس كان فقيراً في الأصل ، فإذا أنعم الله عليه ، وجب أن يعرف حق الفقراء .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ يعني : بهذا القرآن ، فيعلم الناس .

وفي الآية تنبيه لجميع من يعلم القرآن ، أن يحتسب في تعليم غيره .

ويقال : معناه فحدث الناس بما آتاك الله من الكرامة ، ويقال : معناه اجهر بالقرآن في الصلاة .

وروى أبو سعيد الخدري ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ اللهَ تَعَالَى جَمِيلٌ ، يُحِبُّ الجَمَالَ ، ويُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ النِّعْمَةِ عَلَى عَبْدِهِ " ، يعني : يشكر بما أنعم الله تعالى عليه ، ويحدث به ، فيظهر على نفسه أثر النعمة ، والله أعلم بالصواب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 567 . 568 ﴾

(234/819)

وقال الثعلبى :

سورة الضحى

﴿ والضحى ﴾

قال المفسّرون : " سألت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذي القرنين وأصحاب الكهف وعن الروح ، فقال : سأخبركم غداً ولم يقل : إن شاء الله ، فاحتبس عنه الوحي " .

وقال زيد بن أسلم : " كان سبب احتباس جبرائيل (عليه السلام) كون جرو في بيته ، فلمّا نزل عليه جبرائيل عاتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على إبطائه ، فقال : يا محمد أما علمت أنّا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة "

واختلفوا في مدة احتباس الوحي عنه، فقال ابن جريج: اثني عشر يوماً، وقال ابن عباس: خمسة عشر يوماً، وقيل: خمسة وعشرين يوماً، وقال مقاتل: أربعين يوماً. قالوا: فقال المشركون: إنّ محمداً ودعّه ربّه وقلاه، ولو كان أمره من الله لتتابع عليه كما كان يفعل بمن قبله من الأنبياء. "وقال المسلمون: يا رسول الله أما ينزل عليك الوحي؟ فقال: "وكيف ينزل عليّ الوحي وأنتم لا تنقون براجمكم ولا تقلّمون أظفاركم"، فأنزل الله سبحانه جبرائيل (عليه السلام) بهذه السورة فقال النبي صلى الله عليه وسلم "يا جبرائيل ما جئت حتى اشتقت إليك"، فقال جبرائيل (عليه السلام): وأنا كنت إليك أشدّ شوقاً ولكني عبد مأمور وما ننزل إلاّ بأمر ربّك".

أخبرنا عبد الله بن حامد قال: أخبرنا محمد بن يعقوب قال: حدّثنا الحسن بن علي بن عفان قال: حدّثنا أبو أُسامة، عن سفيان، عن الأسود بن قيس، أنه سمع جندب بن سفيان يقول: "رمي النبي صلى الله عليه وسلم بحجر في إصبعه، فقال:

"هل أنتِ إلاّ إصبع دميتِ * وفي سبيل الله ما لقيتِ"

فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم [الليل] ، فقالت له امرأة : يا محمد ما أرى شيطانك إلاّ قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث ليال . وقيل : إنّ المرأة التي قالت ذلك أم جميل امرأة أبي لهب ، فأنزل الله سبحانه ﴿ والضحى ﴾ "يعني النهار كلّه ، دليله قوله ﴿ والليل إِذَا سجى ﴾ فقابله بالليل ، نظيره قوله ﴿ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف : 98] أي نهاراً ، وقال قتادة ومقاتل : يعني وقت الضحى ، وهي الساعة التي فيها ارتفاع الشمس ، واعتدال النهار من الحر والبرد في الشتاء والصيف ، وقيل : هي الساعة التي كلّم الله فيها موسى ، وقيل : هي الساعة التي أُلقي السحرة فيها سجّدا ، بيانه قوله سبحانه : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ الناس ضُحًى ﴾ [طه : 59] وقال أهل المعاني فيه وفي أمثاله : بإضمار الربّ مجازه : وربّ الضحى .

﴿ والليل إِذَا سجى ﴾ قال الحسن : أقبل بظلامه ، وهي رواية العوفي عن ابن عباس ، الوالبي عنه : إذا ذهب الضحّاك : غطّى كلّ شيء ، مجاهد وقتادة وابن زيد : سكن بالخلق واستقر ظلامه ، يقال : ليل ساج ، وبحر ساج إذا كان ساكناً ، قال الراجز :

يا حبذا القمراء والليل الساج . . . وطرق مثل ملاء النسَّاج

وقال أعشى بني ثعلبة :

فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمّكم . . . وبحرك ساج ما يواري الدّعامصا

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ أي ما تركك منذ اختارك ، ولا أبغضك منذ أحبّك ،

وهذا جواب القسم .

﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ﴾ من الثواب ، وقيل : من النصر والتمكن وكثرة المؤمنين ﴿ فترضى ﴾ .

(236/819)

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا ابو عبد الله محمد بن عامر السمرقندي قال : حدّثنا عمر بن بحر قال : حدّثنا عبد بن حميد ، عن قتيبة ، عن سفيان ، عن الأوزاعي ، عن إسماعيل بن عبد الله ، عن علي بن عبد الله بن عباس [عن أبيه] قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رأيت ما هو مفتوح على أمتي من بعدي كفراً كفراً " فسرّني ذلك ، فنزلت ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ " قال : أُعطي في الجنة ألف قصر من لؤلؤ ترابها المسك ، في كل قصر ما ينبغي له .

وأخبرني عقيل أن أبا الفرج ، أخبرهم عن ابن جرير قال : حدّثني عبّاد بن يعقوب قال : حدّثنا الحكم بن ظهر ، عن السدي ، عن ابن عباس : في قوله ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ قال : رضا محمد ان لا يدخل أحد من أهل بيته النار ، وقيل : هي الشفاعة في جميع المؤمنين .

أخبرنيه أبو عبد الله القنجوي قال : حدّثنا أبو علي المقري قال : حدّثنا محمد بن عمران بن أسد الموصلي قال : حدّثنا محمد بن أحمد المدادي قال : حدّثنا عمرو بن عاصم قال : حدّثنا حرب بن سريح البزاز قال : حدّثنا أبو جعفر محمد بن علي قال : حدّثني عمي محمد بن علي بن الحنفية ، عن أبيه علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أشفع لأمتي حتى يناديي ربي عزّ وجلّ : رضيت يا محمد ، فأقول : ربّ رضيت " ثم قال لي : إنّكم معشر أهل العراق تقولون : إن أرجى آية في القرآن ﴿ قُلْ يا عبادي الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ الله ﴾ [الزمر : 53] قلت : انا لنقول ذلك ، قال : ولكنّا أهل البيت نقول : إنّ أرجى آية في كتاب الله تعالى ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ وهي الشفاعة " .

(237/819)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدّثنا أبو عامر بن سعدان قال : حدّثنا أحمد بن صالح المصري ، قال : حدّثنا عبد الله بن وهب ، قال : أخبرني عمرو بن الحارث أن بكر بن سوادة حدّثه عن عبد الرحمن بن جبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص " أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله سبحانه في إبراهيم : ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي

وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : 36] وقول عيسى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العزيز الحكيم ﴾ [المائدة : 118] فرفع يديه ثم قال : " اللهمّ أُمّتي أُمّتي " وبكى .

فقال الله سبحانه : يا جبرائيل إذهب إلى محمد وربّك أعلم فاسأله ما يبكيك ؟ فأتاه جبرائيل ، فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله سبحانه : يا جبرائيل اذهب إلى محمد ، فقل : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك " .

ويروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمّا نزلت هذه الآية : " إذاً لا أرضى وواحد من أمتي في النار " .

وقال جعفر بن محمد : " دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله عنها وعليها كساء من جلد الإبل ، وهي تطحن بيدها ، وترضع ولدها ، فدمعت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا أبصرها ، فقال : " يا بنتاه تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة ، فقد أنزل الله عليّ : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ " .

ثم أخبر الله سبحانه ، عن حاله (عليه السلام) التي كان عليها قبل الوحي ، وذكّره نعمه ، فقال عزّ من قائل : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوى ﴾ .

أنبأني عبد الله بن حامد الأصبهاني قال : أخبرنا محمد بن عبد الله النيسابوري قال : حدّثنا محمد بن عيسى ، قال : حدّثنا أبو عمر الحوصي ، وأبو الربيع الزهراني ، عن حمّاد بن زيد ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته ، قلت : يا ربّ إنك آتيت سليمان بن داود ملكاً عظيماً ، وآتيت فلاناً كذا ، وآتيت فلاناً كذا ، قال : يا محمد ألمْ أجدك يتيماً فآويتك ؟ قلت : بلى أي رب ، قال : ألمْ أجدك ضالا فهديتك ؟ قلت : بلى يا رب ، قال : ألمْ أجدك عائلا فأغنيتك ؟ قلت : بلى أي رب " .

ومعنى الآية : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً ﴾ صغيراً فقيراً ضعيفاً حين مات أبواك ، ولم يخلفا لك مالا ، ولا مأوى ، فجعل لك مأوى تأوي إليه ، ومنزلا تنزله ، وضمّك إلى عمّك أبي طالب حتى أحسن تربيتك ، وكفاك المؤونة .

سمعت الاستاذ أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبا نصر منصور بن عبد الله الأصفهاني يقول : سمعت أبا القاسم الاسكندراني يقول : سمعت أبا جعفر الملطي يقول : سمعت أبي يقول : سمعت علي بن موسى الرضا يقول : سمعت أبي يقول : سئل جعفر بن محمد الصادق : لم أوتم النبي صلى الله عليه وسلم عن أبويه ؟ فقال : لئلاّ يكون عليه حق لمخلوق .

وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبا زكريا يحيى بن محمد بن عبد الله العنبري يحكي بإسناد له لا أحفظه ، عن عبد الوهاب بن مجاهد ، عن أبيه أنه قال في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى ﴾ : هو من أقوال العرب : درة يتيمة إذا لم يكن لها مثل وقد جاء في الشعر :

لا ولا درّة يتيمة بحر . . . تتلالا في جونة البياع

فمجاز الآية : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ ﴾ واحداً في شرفك ، وفضلك ، لا نظير لك ، فآواك إليه .

وقرأ أشهب العقيلي ﴿ فآوى ﴾ بالقصر : أي رحمك . تقول العرب : آويت لفلان اية ومأواة أي رحمته .

(239/819)

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالّاً ﴾ عما أنت عليه اليوم ، فهداك إلى الذي أنت عليه اليوم .

قال السدي : كان على أمر قومه أربعين عاماً ، وقال الكلبي : وجدك في قوم ضلال فهداك إلى التوحيد ، والنبوة ، وقيل : فهداهم بك ، وقال الحسن والضحّاك وشهر بن حوشب وابن كيسان : ووجدك ضالا عن معالم النبوة ، وأحكام الشريعة غافلا عنها ، فهداك إليها ، نظيره ودليله قوله سبحانه ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الغافلين ﴾ [يوسف : 3] وقوله

تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلَا الإيمان ﴾ [الشورى : 52] ، وقيل : ضالا في شعاب مكّة ، فهداك الى جدّك عبد المطلب ، وردّك إليه .

روى أبو الضحى ، عن ابن عباس قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضل ، وهو صبي صغير في شعاب مكّة ، فرآه أبو جهل ، منصرفاً من أغنامه ، فردّه إلى جدّه عبد المطلب ، فمنّ الله سبحانه عليه بذلك ، حين ردّه إلى جدّه على يدي عدوّه .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن عبدوس قال : حدّثنا عثمان بن سعيد قال : حدّثنا عمرو بن عوف قال : أخبرنا خالد ، عن داود بن أبي هند ، عن العباس بن عبد الرحمن ، عن بشر بن سعيد ، عن أبيه قال : حججت في الجاهلية ، فإذا أنا برجل يطوف بالبيت ، وهو يرتجز ، ويقول :

يا ربّ ردّ راكبي محمدا . . . ردّ إليّ واصطنع عندي يدا

فقلت : من هذا ؟ قيل : عبد المطلب بن هاشم ، ذهبت أبل له فأرسل ابن ابنه في طلبها ، ولم يرسله في حاجة قط إلّا جاء بها ، وقد احتبس عليه ، قال : فما برحتُ أنْ جاء النبي صلى الله عليه وسلم وجاء بالإبل ، فقال : يا بُنيّ لقد حزنت عليك حزناً لا يفارقني أبداً .

وفي حديث كعب الأحبار ، في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدء أمره أن حليمة لمّا قضت حق الرضاع ، جاءت برسول الله صلى الله عليه وسلم لتردّه إلى عبد المطلب ، قالت حليمة : فأقبلتُ أسير حتى أتيت الباب الأعظم من أبواب مكّة ، فسمعت منادياً ينادي : هنيئاً لكِ يا بطحاء مكة ، اليوم يرد عليك النور والدين والبهاء والجمال ، قالت : ثم وضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقضي حاجة وأصلح ثيابي ، فسمعت هدّة شديدة ، فالتفت فلم أره ، فقلت : معاشر الناس أين الصبي ؟ فقالوا : أي الصبيان ؟ قلت : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، الذي نضرّ الله به وجهي ، وأغنى عيلتي ، ربيّته حتى إذا أدركت فيه سروري وأملي أتيت به لأردّه ، وأخرج هذا من أمانتي ، اختلس من بين يدي قبل أن يمس قدمه الأرض ، واللات والعزى لئن لم أره لأرمينّ بنفسي من شاهق الجبل ، فلأقطعنّ إرباً إرباً .

قالوا : ما رأينا شيئاً ، فلمّا آيسوني وضعت يدي على أم رأسي ، وقلت : وامحمداه واولداه ، فأبكيت الجواري الأبكار لبكائي ، وضجّ الناس معي بالبكاء حرقةً لي ، فإذا أنا بشيخ كالفاني يتوكأ على عصا ، قال : مالك أيتها السعدية ؟

قلت : فقدت ابني محمداً ، فقال : لا تبكي أنا أدلّك على من يعلم علمه ، وإن شاء أن يردّه فعل ، قلت : فدتك نفسي ، ومن هو ؟ قال : الصنم الأعظم هبل .

قالت : فدخل وأنا أنظر ، فطاف بهبل وقبّل رأسه وناداه : يا سيداه ، لم تزل منتك على

قريش قديمة ، وهذه السعدية تزعم أن ابناً لها قد ضلّ ، فردّه إن شئت ، وأخرج هذه الوحشة عن بطحاء مكة ، فأنها تزعم أن ابنها محمداً قد ضلّ ، قال : فانكب هبل على وجهه ، وتساقطت الأصنام ، وقالت : إليك عنّا أيها الشيخ . إنما هلاكنا على يدي محمد .

قالت : فأقبل الشيخ أسمع لأسنانه اصطكاكاً ، ولركبته ارتعاداً ، وقد ألقى عكازته من يده وهو يقول : يا حليمة إن لابنك رباً لا يضيّعه فاطلبيه على مهل ، قالت : فخفت أن يبلغ الخبر عبد المطلب قبلي ، فقصدته فلمّا نظر اليّ ، قال : أسعد نزل بكِ أم نحوس ؟ ، قلت : بل النحس الأكبر ، ففهمها منّي ، وقال : لعلّ ابنك ضلّ منك ، قالت : قلت : نعم فظنَّ أن بعض قريش قد اغتاله ، فسلّ عبد المطلب سيفه لا يثبت له أحد من شدة غضبه ، ونادى بأعلى صوته : يا آل غالب ، يا آل غالب ، وكانت دعوتهم في الجاهلية فأجابته قريش بأجمعها ، وقالوا : ما قصتك ؟ ، قال : فُقد ابني محمد ، قالت قريش : اركب نركب معك ، فإنْ تسنّمت جبلا تسنماه معك ، وان خضت بحراً خضناه معك ، فركب وركبت قريش معه فأخذ على أعلى مكة وانحدر على أسفلها ، فلمّا أن لم ير شيئاً ترك الناس واتشح

وارتدى بآخر ، وأقبل الى البيت الحرام ، فطاف اسبوعاً ثم أنشأ يقول :

يا ربّ ردّ راكبي محمداً . . . ردّه ربي واتخذ عندي يدا

يا ربّ إنْ محمد لم يوجدا . . . مجمع قومي كلّهم مبدّدا

فسمعنا منادياً ينادي من الهواء : معاشر الناس لا تضجوا ، فان لمحمد ربّاً لا يخذله ولا يضيّعه ، قال عبد المطلب : يا أيها الهاتف ومن لنا به وأين هو ؟ ، قال بوادي تهامة عند شجرة اليمن .

فأقبل عبد المطلب راكباً متسلحاً ، فلمّا صار في بعض الطرق تلقّاه ورقة بن نوفل فصارا جميعاً يسيران ، فبينما هم كذلك إذ النبي صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة يجذب الأغصان ويعبث بالورق ، قال له عبد المطلب : من أنت يا غلام ؟

قال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، قال عبد المطلب : فدتك نفسي وأنا جدّك ، ثم حمله على قربوس سرجه وردّه إلى مكة واطمأنت قريش بعد ذلك .

(242/819)

وقال سعيد بن المسيب : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة ، فبينما هو راكب ذات ليلة ظلماء على ناقة إذ جاء إبليس ،

وأخذ بزمام الناقة فعدل به عن الطريق ، فجاء جبرائيل فنفخ إبليس نفخة وقع منها الى الحبشة وردّه الى القافلة ، فمنّ الله عليه بذلك " .

وقيل : وجدك ضالا ليلة المعراج حين انصرف عنك جبرائيل لا تعرف الطريق ، فهداك إلى ساق العرش .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثني ابن حبيش قال : قال بعض أهل الكلام في قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فهدى ﴾ : إن العرب إذا وجدت شجرة في فلاة من الأرض وحيدة ليس معها ثانية يسمونها : ضالة ، فيهتدون بها إلى الطريق .

قال : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلّاً فهدى ﴾ أي وحيداً ليس معك نبي غيرك فهديت بك الخلق إليّ ، وقال عبد العزيز بن يحيى ومحمد بن علي الترمذي : ووجدك خاملا لا تذكر ولا تُعرف من أنت ، فهداهم إليك حتى عرفوك ، وأعلمهم بما منّ به عليك .

قال بسام بن عبد الله : ووجدك ضالا نفسك لا تدري من أنت فعرّفك نفسك وحالك ، وقال أبو بكر الورّاق وغيره : ووجدك ضالا بحب أبي طالب فهداك إلى حبّه ، وغيره : وجدك محبّاً فهداك إلى محبوبك ، دليله قوله سبحانه ، إخباراً عن إخوة يوسف ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : 8] وقوله سبحانه : ﴿ تالله إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ القديم ﴾ [يوسف : 95] اي فرط الحب ليوسف .

وقيل : وجدناك ناسياً شأن الاستثناء حين سُئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين

والروح، دليله قوله ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا ﴾ [البقرة : 282] أي تنسى ، وقال سهل : وجد نفسك نفس الشهوة والطبع ، فغيّره إلى سبيل المعرفة والشرع ، قال جنيد : وجدك متحيراً في بيان الكتاب المنزل عليك فهداك لبيانه ، لقوله ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذكر لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ [النحل : 44] وقوله ﴿ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الذي اختلفوا فِيهِ ﴾ [النحل : 64] .

(243/819)

قال بندار بن الحسين : ليس قائما مقام الأستدلال فتعرفت إليك ، وأغنيتك بالمعرفة عن الشواهد والأدلة ، وقيل : وجدك طالباً لقبلتك ضالا عنها فهداك إليها .

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً ﴾ فقيراً عديماً فأغناك بمال خديجة ، ثم بالغنائم ، وقال مقاتل : فرضاك بما أعطاك من الرزق ، وقرأ ابن السميفع : وجدك عيّلا بتشديد الياء من غير ألف على وزن فيعل ، كقولك : طاب يطيب فهو طيّب . وعن ابن عطاء : وجدك فقير النفس ، وقيل : فقيراً إليه فأغناك به ، وقيل : غنياً بالمعرفة فقيراً عن أحكامها ، فأغناك بأحكام المعرفة حتى تم لك الغنى .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حبيش ، عن بعضهم أنه قال : وجدك عائلا تعول الخلق بالعلم فأغناك بالقرآن والعلم والحكمة ، وقال الأخفش : وجدك ذا عيال . دليله

قوله صلى الله عليه وسلم : " وابدأ بمن تعول " .

عن ابن عطاء : لم يكن معك كتاب ولا شريعة فأغناك بهما ، وقيل : وجدك عائلا عن الصحابة محتاجاً إليهم ، فأكثرنا لك الاخوان والأعوان ، وحذف الكاف من قوله فآوى واختيها لمشاكلة رؤوس الآي ، ولأن المعنى معروف .

﴿ فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ واذكر يتمك ، وقرأ النخعي والشعبي : فلا تكهر ، بالكاف ، وكذلك هو في مصحف عبد الله ، والعرب تعاقب بين القاف والكاف ، يدل عليه حديث معاوية بن الحكم الذي تكلّم في الصلاة قال : ما كهرني ، ولا ضربني .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن مالك قال : حدّثنا ابن حنبل قال : حدّثني أبي قال : حدّثنا إسحاق بن عيسى قال : حدّثنا مالك ، عن ثور بن زيد الدبلي قال : سمعت أبا الغيث يحدّث ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنّة إذا اتقى الله سبحانه" وأشار مالك بالسبابة والوسطى " .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن [يوسف] قال : حدّثنا الحسن بن علي بن نصر الطوسي قال : حدّثنا جعفر بن محمد بن الفضل برأس العين قال : حدّثنا إبراهيم بن زكريا

قال : حدّثنا الحسين بن أبي جعفر ، عن علي ، عن سعيد بن المسيب ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ اليتيم إذا بكى اهتز لبكائه عرش الرحمن ، فيقول الله سبحانه لملائكته : يا ملائكتي من أبكى هذا اليتيم الذي غيّب أباه في التراب ؟ فيقول الملائكة : ربنا أنت أعلم ، فيقول الله : يا ملايكتي فإني أشهدكم أنّ لمن أسكته وأرضاه أن أرضيه يوم القيامة " فكان عمر إذا رأى يتيماً مسح رأسه ، وأعطاه شيئاً " .

وأخبرني عبد الله بن حامد الأصفهاني ، حدّثنا صالح بن محمد قال : حدّثنا سليمان بن عمرو ، عن أبي حزم ، عن أنس بن مالك قال : من ضمّ يتيماً فكان في نفقته وكفاه مؤونته كان له حجاباً من النار يوم القيامة ، ومن مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة .

﴿ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ فلا تزجر لكن بدّل يسيراً ورُدَّ جميلا ، واذكر فقرك .

وأخبرنا عبد الله بن حامد فيما أجاز لي روايته عنه قال : أخبرنا إسماعيل بن إبراهيم الحلواني قال : حدّثنا العباس بن عبد الله قال : حدّثنا سعيد أبو عمرو البصري قال : حدّثنا سهل ابن أسلم العنبري ، عن الحسن في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ قال : أما انه ليس بالسائل الذي يأتيك لكن طالب العلم .

وأخبرني عبد الله بن حامد الأصفهاني قال : حدّثني العباس بن محمد بن قوهيال قال :

حدّثنا حاتم بن يونس قال : حدّثني عبيد بن نعيش قال : سمعت يحيى بن آدم يقول : وأمّا السائل فلا تنهر ، قال : إذا جاءك الطالب للعلم فلا تنهره .

(245/819)

وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو حذيفة قال : حدّثنا أبو عروبة قال : حدّثنا يحيى بن حكيم والحسين بن سلمة بن أبي كبشة قالا : حدّثنا أبو قتيبة قال : حدّثنا الحسن بن علي الهاشمي ، عن عبد الرحمن الأعرج ، عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا يمنعن أحدكم السائل أن يعطيه إذا سأل وأن رأى في يده قلبين من ذهب " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا عبد الله بن أحمد الكسائي قال : حدّثنا أحمد بن ثابت بن غياث قال : حدّثنا إبراهيم بن الشماس قال : حدّثنا أحمد بن أيوب الضبي ، عن إبراهيم بن أدهم قال : نعم القوم السُّؤّال ، يحملون زادنا إلى الآخرة .

وقال إبراهيم : السائل يريد الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول : هل توجهون إلى أهليكم بشيء .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف قال : حدّثنا الحسن بن علي بن زكريا القرشي قال : حدّثنا هدية بن خالد قال : حدّثنا صبان بن علي قال : حدّثنا طلحة

بن عمرو ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا رددت السائل ثلاثاً فلم يرجع فلا عليك أن تزبره " .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ يعني النبوّة ، عن مجاهد ابن أبي نجيح عنه قال : القرآن ، وإليه ذهب الكلبي . وحكم الآية [عام] في جميع الإنعام .

أخبرني الغنجوي قال : حدّثنا القطيعي قال : حدّثنا ابن حنبل قال : حدّثني ابو عمرو الأزدي قال : حدّثنا مسلم بن إبراهيم قال : حدّثنا نوح بن قيس قال : حدّثني نصر بن علي قال : كان عبد الله بن غالب إذا أصبح يقول : لقد رزقني الله البارحة خيراً ، قرأت كذا وصلّيت كذا ، وذكرت الله كذا وفعلت كذا ، فيقال له : يا أبا فراس إن مثلك لا يقول مثل هذا فيقول : الله سبحانه يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ وتقولان أنتم : لا تحدّث بنعمة ربك .

(246/819)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن مالك قال : حدّثنا شبر بن موسى قال : حدّثنا عبد الله ابن يزيد المقري قال : حدّثنا أبو معمر ، عن بكر بن عبد الله المزني أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أعطي خيراً فلم ير عليه سُمّي بغيض الله معادياً لنعمه " .

وأخبرنا الحسن قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن إسحاق قال : حدّثنا أبو القاسم بن منيع قال : حدّثنا منصور بن أبي مزاحم قال : حدّثنا وكيع ، عن أبي عبد الرحمن يعني القاسم بن وليد ، عن الشعبي ، عن النعمان بن بشير قال : " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : " من لم يشكر القليل ، ومن لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 222 . 231 ﴾

(247/819)

وقال الزمخشري :

سورة الضحى

مكية ، وآياتها 11 «نزلت بعد الفجر» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الضحى (93) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحى (1) وَاللَّيْلِ إِذا سَجى (2) ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى (3)

المراد بالضحى : وقت الضحى ، وهو صدر النهار حتى ترتفع الشمس وتلقى شعاعها .

وقيل :

إنما خص وقت الضحى بالقسم ، لأنها الساعة التي كلم فيها موسى عليه السلام ، وألقى فيها السحرة سجدا ، لقوله وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى وقيل : أريد بالضحى : النهار ، بيانه قوله أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى في مقابلة بَياتاً . سَجى سكن وركد ظلامه . وقيل : ليلة ساجية ساكنة الريح . وقيل معناه : سكون الناس والأصوات فيه . وسجا البحر : سكنت أمواجه .

وطرف ساج : ساكن فاتر ما وَدَّعَكَ جواب القسم . ومعناه : ما قطعك قطع المودع .

وقرئ بالتخفيف ، يعنى : ما تركك . قال :

(248/819)

وثمّ ودعنا آل عمرو وعامر فرائس أطراف المثقّفة السّمر «1»

والتوديع : مبالغة في الودع ، لأنّ من ودّعك مفارقا فقد بالغ في تركك . روى أنّ الوحى قد تأخر عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أياما . فقال المشركون : إنّ محمدا ودعه ربه وقلاه «2» .

وقيل : إنّ أم جميل امرأة أبى لهب قالت له : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك «3»

، فنزلت .

حذف الضمير من قَلى كحذفه من الذَّاكِراتِ في قوله وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ يريد : والذاكراته ونحوه : فَآوى . . . فَهَدى . . . فَأَغْنى وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف .

[سورة الضحى (93) : الآيات 4 إلى 5]

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى (5)

فإن قلت : كيف اتصل قوله وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى بما قبله ؟ قلت : لما كان في ضمن نفى التوديع والقلى : أنّ الله مواصلك بالوحي إليك «4» ، وأنك حبيب الله ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ولا نعمة أجل منه : أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل ، وهو السبق والتقدّم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمته على سائر الأمم ، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته ، وغير ذلك من الكرامات السنية وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى موعد شامل لما أعطاه في الدنيا من الفلج والظفر «5» بأعدائه يوم بدر ويوم فتح

---

(1) . ثم إشارة لمكان الحرب أو زمانها ، واختلف في «دع» بمعنى اترك ، هل ينصرف فيأتى منه الماضي والمصدر ، واسم الفاعل والمفعول . قال الجوهري : أميت ماضيه وغيره ، وربما جاء في الضرورة اه ، وهو المشهور ، ولكن حيث جاء في القرآن ما وَدَّعَكَ بالتخفيف . وفي الحديث «لينتهين قوم عن ودعهم الجماعات» أى تركهم .

وجاء اسم المفعول وغيره في الشعر ، فيجوز القول بقلة الاستعمال لا بالاماتة ، كما قاله بعض المتقدمين . والفرائس :

مفعول ثان ، وهو جمع فريسة : وهي صيد الأسد المفترس . والمثقفة : المقومة بالثقاف ، وهو آلة تقويم الرماح .

والسمرة : لون بين البياض والأدمة . وشبه الرماح بالأسود على طريق المكنية ، والفرائس تخييل ، والأقرب تشبيه آل عمر وآل عامر بالفرائس تشبيها بليغا لذكر الأطراف ، إلا أن يقال : إنها تجريد للمكنية ، لأنها تلائم الرماح .

(2) . أخرجه ابن مردويه من رواية العوفى عن ابن عباس في قوله ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى قال أبطأ عليه جبريل - الحديث» .

(3) . متفق عليه من حديث جندب بن عبد اللّه البجلي بلفظ «فجاءت امرأة فقالت يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك . فأنزل اللّه وَالضُّحى وفي المستدرك من حديث زيد بن أرقم «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم مكث أياما لا ينزل عليه . فأتته امرأة أبى لهب فقالت : يا محمد - فذكره نحوه . [. . . . .]

(4) . قال محمود : «إن قلت : كيف اتصل بما قبله ؟ وأجاب بأنه لما كان في ضمن التوديع وأقلى أن اللّه مواصلك بالوحي إليك . . . الخ» قال أحمد : وإخراج أهل الكبائر من النار

بشفاعته مضاف إلى ذلك .

(5) . قوله «من الفلج والظفر» الفلج : أى الظهور والفوز والقهر ، كما بقيده الصحاح . (ع)

(249/819)

مكة ، ودخول الناس في الدين أفواجا ، والغلبة على قريظة والنضير وإجلائهم ، وبث عساكره وسراياه في بلاد العرب ، وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة وأنهبهم من كنوز الأكاسرة ، وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام «1» ، وفشوّ الدعوة واستيلاء المسلمين ، ولما ادّخر له من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا اللّه . قال ابن عباس رضى اللّه عنهما : له في الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك . فإن قلت : ما هذه اللام الداخلة على سوف ؟ قلت : هي لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة ، والمبتدأ محذوف . تقديره : ولأنت سوف يعطيك ، كما ذكرنا في :

لا أقسم ، أن المعنى : لأنا أقسم ، وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم أو ابتداء ، فلام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التأكيد ، فبقى أن تكون لام ابتداء ، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة من المبتدإ والخبر ، فلا بد من تقدير مبتدإ وخبر ، وأن يكون أصله

:

ولأنت سوف يعطيك. فإن قلت: ما معنى الجمع بين حرفى التوكيد والتأخير؟ قلت: معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر، لما في التأخير من المصلحة.

[سورة الضحى (93): الآيات 6 إلى 8]

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى (7) وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى (8)

عدّد عليه نعمه وأياديه، وأنه لم يخله منها من أول تربيه وابتداء نشئه، ترشيحا لما أراد به، ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه، لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير والكرامة:

ولا يضيق صدره ولا يقل صبره. وأَلَمْ يَجِدْكَ من الوجود الذي بمعنى العلم: والمنصوبان مفعولا وجد. والمعنى: ألم تكن يتيما، وذلك أنّ أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر وماتت أمّه، وهو ابن ثمان سنين، فكفله عمه أبو طالب، وعطفه الله عليه فأحسن تربيته»

.

ومن بدع التفاسير: أنه من قولهم «درّة يتيمة» وأن المعنى: ألم يجدك واحدا في قريش عديم

---

(1). قوله «وتهيب الإسلام» أى: تخوف، كما في الصحاح، أى: تخوف الناس من أهل الإسلام. (ع)

(2) . لم أجد هذا . وقال السهيلي في الروض : أكثر العلماء على أنه عليه الصلاة والسلام توفى أبوه وهو في المهد ، كما ذكره الدولابى وغيره . وقال ابن سعد : لا يثبت أنه مات أبوه وهو حمل . ورواه الحاكم من طريق ابن إسحاق : حدثني مطلب بن عبد اللّه بن قيس بن مخرمة عن أبيه عن جده أنه ذكر ولادة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . فقال «توفى أبوه وأمه حلى به» وبذلك جزم ابن إسحاق . وأما سنه عند ما ماتت أمه . فجزم ابن إسحاق أنها ماتت وهو ابن ست سنين . وقال ابن حبيب : وهو ابن ثمان سنين . وأما كفالة عمه له فذكرها ابن إسحاق وغيره .

النظير فآواك . وقرئ : فأوى ، وهو على معنيين : إما من أواه بمعنى آواه . سمع بعض الرعاة يقول :

أين آوى هذه الموقسة «1» وإما من أوى له : إذا رحمه ضَالًّا معناه الضلال عن علم الشرائع وما طريقه السمع ، كقوله ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ . وقيل : ضل في صباه في بعض شعاب مكة ، فردّه أبو جهل إلى عبد المطلب . وقيل : أضلته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لتردّه على عبد المطلب . وقيل : ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب ،

فهداك : فعرفك القرآن والشرائع . أو فأزال ضلالك عن جدك وعمك . ومن قال : كان على أمر قومه أربعين سنة ، فإن أراد أنه كان على خلوهم عن العلوم السعية ، لنعم ، وإن أراد أنه كان على دينهم وكفرهم ، فمعاذ اللّه ، والأنبياء يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوّة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة ، فما بال الكفر والجهل بالصانع ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وكفى بالنبي نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر عائِلًا فقيرا . وقرئ : عيلا ، كما قرئ : سيحات . وعديما فَأَغْنى فأغناك بمال خديجة . أو بما أفاء عليك من الغنائم . قال عليه السلام : «جعل رزقي تحت ظل رمحي «2»» وقيل : قنعك وأغنى قلبك .

[سورة الضحى (93) : الآيات 9 إلى 11]

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

فَلا تَقْهَرْ فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه . وفي قراءة ابن مسعود : فلا تكبر : وهو أن يعبس في وجهه . وفلان ذو كهرورة : عابس الوجه . ومنه الحديث : فبأبى وأمى هو ، ما كهرنى «3» .

النهر ، والنهم : الزجر . عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «4» «إذا رددت السائل ثلاثا فلم يرجع ،

---

(1) . قوله «يقول أين آوى هذه الموقسة» الموقسة : الإبل الجربي ، من الوقس : وهو ابتداء الجرب اه من هامش ، والذي في الصحاح : يقال وقسه وقسا ، أى : قرفه ، وإن بالبعير

لوقسا : إذا قارفه شيء من الجرب ، فهو موقوس . (ع)

(2) . هذا طرف من حديث . وأخرجه البخاري تعليقا وأحمد وأبو داود وابن أبى شيبة وعبد بن حميد . وأبو يعلى والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث . عبد اللّه بن عمر . وفي النسائي عن أبى هريرة أخرجه البزار من رواية صدقة ابن عبد اللّه عن الأوزاعى عن يحيى عن أبى سلمة عن أبى هريرة . وقال : لم يتابع صدقة على هذا . وغيره يرويه عن الأوزاعى مرسلا . وله طريق أخرى في ترجمة أحمد بن محمود في تاريخ أصبهان لأبى نعيم بسنده إلى أنس .

وإسناده ساقط .

(3) . أخرجه مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمى في أثناء حديث .

(4) . أخرجه الدارقطني في الافراد من رواية الوليد بن الفضل عن عبد اللّه بن أبى حسين عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس به لكن قال «تزبره - بدل - وتنهره» والوليد اتهمه ابن حبان بالوضع لكن تابعه طلحة ابن عمرو عن عطاء أخرجه الثعلبي من طريق عقبة بن مجالد عن حبان بن على عن طلحة وهذا إسناد ضعيف .

وأخرجه ابن مردويه من رواية أحمد بن أبى طيبة عن حيان فقال : عن أبى هريرة - بدل ابن عباس . وله طريق أخرى . أخرجها عبد الغنى بن سعيد في إيضاح الاشكال من رواية وهب بن زمعة عن هشام بن وهب أبى البختري القاضي . وهو كذاب .

فلا عليك أن تزبره» «1» وقيل : أما إنه ليس بالسائل المستجدي ، ولكن طالب العلم : إذا جاء فلا تنهره . التحديث بنعمة الله : شكرها وإشاعتها . يريد : ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء وما عدا ذلك . وعن مجاهد : بالقرآن ، فحدث : أقرئه ، وبلغ ما أرسلت به .

وعن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول : رزقني الله البارحة خيرا : قرأت كذا وصليت كذا ، فإذا قيل له : يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا ؟ قال : يقول الله تعالى وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ وأنتم تقولون : لا تحدث بنعمة الله . وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد به اللطف ، وأن يقتدى به غيره ، وأمن على نفسه الفتنة . والستر أفضل . ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل الرياء والسمعة : لكفى به . وفي قراءة على رضى الله عنه : فخبر . والمعنى : أنك كنت يتيما ، وضالا ، وعائلا ، فآواك الله ، وهداك : وأغناك ، فمهما يكن من شيء وعلى ما خيلت فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث . واقتد بالله ، فتعطف على اليتيم وآوه ، فقد ذقت اليتم وهوانه ، ورأيت كيف فعل الله بك ، وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن بابك ، كما رحمك ربك فأغناك بعد الفقر ، وحدّث بنعمة

اللّه كلها ، ويدخل تحته هدايته الضلال ، وتعليمه الشرائع والقرآن ، مقتديا باللّه في أن هداه من الضلال .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة والضحى جعله اللّه فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها اللّه له بعدد كل يتيم وسائل» «2» . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 765. 769 ﴾

---

(1) . قوله «فلا عليك أن تزبره» تزبره : أى تزجره وتمنعه . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

(252/819)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ وَالضُّحَى ﴾

هو قَسَمٌ ، وفيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه أول ساعة من النهار إذا ترحلت الشمس ، قاله السدي .

الثاني : أنه صدر النهار ، قاله قتادة .

الثالث : هو طلوع الشمس ، قاله قطرب .

الرابع : هو ضوء النهار في اليوم كله ، مأخوذ من قولهم ضحى فلان الشمس ، إذا ظهر لها ، قاله مجاهد ، والاشتقاق لعلي بن عيسى .

﴿ والليلِ إذا سَجى ﴾ وهو قَسَم ثان ، وفيه خمسة تأويلات :

أحدها : إذا أقبل ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : إذا أظلم ، قاله ابن عباس .

الثالث : إذا استوى ، قاله مجاهد .

الرابع : إذا ذهب ، قاله ابن حنطلة عن ابن عباس .

الخامس : إذا سكن الخلق فيه ، قاله عكرمة وعطاء وابن زيد ، مأخوذ من قولهم سجى البحر إذا سكن ، وقال الراجز :

يا حبذا القمراءُ والليلِ الساج . . . وطُرُقٌ مِثْلُ ملاءِ النسّاج

﴿ ما ودَّعَكَ ربُّكَ وما قَلَى ﴾ اختلف في سبب نزولها ، فروى الأسود بن قيس عن جندب أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رُمي بحجر في إصبعه فدميت ، فقال :

هل أنت إلاّ أصبعٌ دَميتِ . . . وفي سبيل اللّه ما لَقِيتِ

قال فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم ، فقالت له امرأة يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فنزل عليه : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ . وروى هشام عن عروة عن أبيه قال : أبطأ جبريل عن النبي صلى الله عليه وسلم فجزع لذلك جزعاً شديداً ، قالت عائشة : فقال

كفار قريش: إنا نرى ربك قد قلاك، مما رأوا من جزعه، فنزلت: ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾، وروى ابن جريج أن جبريل لبث عن النبي صلى الله عليه وسلم اثنا عشرة ليلة فقال المشركون: لقد ودع محمداً ربُّه، فنزلت: ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾.

وفي "وَدَّعَكَ" قراءتان:

أحدهما: قراءة الجمهور ودّعك، بالتشديد، ومعناها: ما انقطع الوحي عنك توديعاً لك.

والثانية: بالتخفيف، ومعناها: ما تركك إعراضاً عنك.

"وما قلى" أي ما أبغضك، قال الأخطل:

المهْديات لمن هوين نسيئةً... والمحْسِنات لمن قَلَيْنَ مقيلاً

﴿ ولَلآخرةُ خيرلك مِنَ الأُولى ﴾ روى ابن عباس قال: عرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو مفتوح على أمته من بعده، فسُرّ بذلك، فأنزل الله تعالى: "وللآخرة خير لك من الأُولى" الآية.

وفي قوله ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ وجهان:

أحدهما : وللآخرة خير لك مما أعجبك في الدنيا ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أن مآلك في مرجعك إلى الله تعالى أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا ، قاله ابن شجرة .

﴿ ولسوف يُعْطيك ربُّك فَتَرْضَى ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : يعطيك من النصر في الدنيا ، وما يرضيك من إظهار الدين .

الثاني : يعطيك المنزلة في الآخرة ، وما يرضيك من الكرامة .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوَى ﴾ واليتيم بموت الأب ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أبويه وهو صغير ، فكفله جده عبد المطلب ، ثم مات فكفله عمه أبو طالب ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه أراد يتم الأبوة بموت من فقده من أبويه ، فعلى هذا في قوله تعالى " فآوى " وجهان :

أحدهما : أي جعل لك مأوى لتربيتك ، وقيّماً يحنو عليك ويكفلك وهو أبو طالب بعد موت عبد الله وعبد المطلب ، قاله مقاتل .

الثاني : أي جعل لك مأوى نفسك ، وأغناك عن كفالة أبي طالب ، قاله الكلبي .

والوجه الثاني : أنه أراد باليتيم الذي لا مثيل له ولا نظير ، من قولهم درة يتيمة ، إذا لم يكن لها مثيل ، فعلى هذا في قوله " فآوى " وجهان :

أحدهما : فآواك إلى نفسه واختصك برسالته .

الثاني : أن جعلك مأوى الأيتام بعد أن كنت يتيماً ، وكفيل الأنام بعد أن كنت مكفولاً ، تذكيراً بنعمه عليه ، وهو محتمل .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ فيه تسعة تأويلات :

أحدها : وجدك لا تعرف الحق فهداك إليه ، قاله ابن عيسى .

الثاني : ووجدك ضالاً عن النبوة فهداك إليها ، قاله الطبري .

الثالث : ووجد قومك في ضلال فهداك إلى إرشادهم ، وهذا معنى قول السدي .

الرابع : ووجدك ضالاً عن الهجرة فهداك إليها .

الخامس : ووجدك ناسياً فأذكرك ، كما قال تعالى : ﴿ أن تَضِل إحداهما ﴾ .

السادس : ووجدك طالباً القبلة فهداك إليها ، ويكون الضلال بمعنى الطلب ، لأن الضال طالب .

السابع : ووجدك متحيراً في بيان من نزل عليك فهداك إليه ، فيكون الضلال بمعنى التحير ، لأن الضال متحير .

الثامن : ووجدك ضائعاً في قومك فهداك إليه ، ويكون الضلال بمعنى الضياع ، لأن الضال ضائع .

التاسع : ووجدك محباً للهداية فهداك إليها ، ويكون الضلال بمعنى المحبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ أي في محبتك ، قال الشاعر :

هذا الضلال أشاب مِنّي المفرقا . . . والعارضَين ولم أكنْ مُتحقّقاً

عَجَباً لِعزّةَ في اختيارِ قطيعتي . . . بعد الضّلالِ فحبْلُها قد أخْلَقاً

وقرأ الحسن : ووجدكَ ضالٌّ فهُدِي ، أي وجدَكَ الضالُّ فاهتدى بك ، ﴿ ووجدَكَ عائلاً فأَغْنَى ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدها : وجدك ذا عيال فكفاك ، قاله الأخفش ، ومنه قول جرير :

الله أنْزَلَ في الكتابِ فَريضةً . . . لابن السبيل وللفقير العائلِ

الثاني : فقيراً فيسَّر لك ، قاله الفراء ، قال الشاعر :

وما يَدْري الفقيرُ متى غناه . . . وما يَدْري الغنيُّ متى يَعيلُ

أي متى يفتقر .

الثالث : أي وجدك فقيراً من الحُجج والبراهين ، فأغناك بها .

الرابع : ووجدك العائلُ الفقير فأغناه الله بك ، روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال بصوته الأعلى ثلاث مرات : "يَمُنّ ربي عليّ وهو أهلُ المَنّ"

﴿ فأمّا اليتيمَ فلا تَقْهَرْ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : فلا تحقر ، قاله مجاهد .

الثاني : فلا تظلم ، رواه سفيان .

الثالث : فلا تستذل ، حكاه ابن سلام .

الرابع : فلا تمنعه حقه الذي في يدك ، قاله الفراء .

الخامس : ما قاله قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم ، وهي في قراءة ابن مسعود : فلا تكْهَر ، قاله أبو الحجاج : الكهر الزجر .

(255/819)

روى أبو عمران الجوني عن أبي هريره أن رجلاً شكا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه ، فقال : " إن أردت أن يلين قلبك فامسح رأس اليتيم وأطْعِم المسكينَ "

﴿ وأَمّا السائلَ فلا تَنْهَر ﴾ في رده إن منعته ، ورُدّه برحمة ولين ، قاله قتادة .

الثاني : السائل عن الدين فلا تنهره بالغلظة والجفوة ، وأجبْهُ برفق ولين ، قاله سفيان .

﴿ وأمّا بِنَعْمِة ربِّكَ فحدّثْ ﴾ في هذه النعمة ثلاثة تأويلات :

أحدها : النبوة ، قاله ابن شجرة ، ويكون تأويل قوله فحدث أي ادعُ قومك .

الثاني : أنه القرآن ، قاله مجاهد ، ويكون قوله : فحدث أي فبلّغ أمتك .

الثالث : ما أصاب من خير أو شر ، قاله الحسن .

" فحدث " فيه على هذا وجهان :

أحدهما : فحدّث به الثقة من إخوانك ، قاله الحسن .

الثاني : فحدِّث به نفسك ، وندب إلى ذلك ليكون ذِكرها شكراً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 291 . 295 ﴾

(256/819)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَالضُّحَى (1) ﴾

وفي المراد "بالضحى" أربعة أقوال .

أحدها : ضوء النهار ، قاله مجاهد .

والثاني : صدر النهار ، قاله قتادة .

والثالث : أول ساعة من النهار إذا ترحّلت الشمس ، قاله السدي ، ومقاتل .

والرابع : النهار كُلّه ، قاله الفراء .

وفي معنى "سجى" خمسة أقوال.

أحدها: أظلم.

والثاني: ذهب، رويا عن ابن عباس.

والثالث: أقبل، قاله سعيد بن جبير.

والرابع: سكن، قاله عطاء، وعكرمة، وابن زيد.

فعلى هذا: في معنى "سكن" قولان.

أحدهما: استقر ظلامه.

قال الفراء: "سجى" بمعنى أظلم وركد في طوله.

كما يقال: بَحْرٌ سَاجٍ: ولَيْل سَاجٍ: إذا ركد وأظلم.

ومعنى: ركد: سكن.

قال أبو عبيدة، يقال: ليلة ساجية، وساكنة، وشاكرة.

قال الحادي:

يَا حَبَّذا القَمْرَاءُ والليلُ الساجْ . . .

وطُرُقٌ مِثْلُ مُلاءِ النّساجْ

قال ابن قتيبة: "سجى" بمعنى سكن، وذلك عند تناهي ظلامه وركوده.

والثاني: سكن الخلق فيه، ذكره الماوردي.

والخامس : امتد ظلامه ، قاله ابن الأعرابي .

قوله تعالى : ﴿ ما وَدَّعك ربك ﴾ وقرأ عمر بن الخطاب ، وأنس ، وعروة ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة ، وأبو حاتم عن يعقوب "مَا وَدَعَكَ" بتخفيف الدال .

وهذا جواب القسم .

قال أبو عبيدة : "ما وَدَّعك" من التوديع كما يودع المفارق ، و "مَا وَدَعَكَ" مخففة من ودعه يدعه ﴿ وما قلى ﴾ أي : أبغض .

قوله تعالى : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ قال عطاء ، خير لك من الدنيا .

وقال غيره : الذي لك في الآخرة أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك ﴾ في الآخرة من الخير ﴿ فترضى ﴾ بما تُعطَى .

قال علي والحسن : هو الشفاعة في أمته حتى يرضى .

قال ابن عباس : عُرِض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما يُفْتَح على أُمته من بعده كَفْرًا كَفْرًا ، فَسُرَّ بذلك ، فأنزل الله عز وجل : "وللآخرة خير لك من الأولى .

ولسوف يعطيك ربك فترضى " .

قوله تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ فيه قولان .

أحدهما : جعل لك مأوى ، إذا ضَمَّك إلى عمك أبي طالب ، فكفاك المؤونة ، قاله مقاتل .

والثاني : جعل لك مأوى لنفسك أغناك عن كفالة أبي طالب ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ فيه ستة أقوال .

أحدها : ضالاً عن معالم النبوة ، وأحكام الشريعة ، فهداك إليها ، قاله الجمهور ، منهم الحسن ، والضحاك .

والثاني : أنه ضَلَّ وهو صبي صغير في شعاب مكة ، فردَّه الله إلى جده عبد المطلب ، رواه أبو الضحى عن ابن عباس .

والثالث : أنه لما خرج مع ميسرة غلام خديجة أخذ إبليس بزمام ناقته ، فعدل به عن الطريق ، فجاء جبريل ، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى الحبشة ، ورده إلى القافلة ، فمنَّ الله عليه بذلك ، قاله سعيد بن المسيب .

والرابع : أن المعنى : ووجدك في قوم ضُلاَّل ، فهداك للتوحيد والنبوة ، قاله ابن السائب .

والخامس : ووجدك نِسْيَاً ، فهداك إلى الذِّكْر .

ومثله : ﴿ أن تَضِلَّ إحداهما فتذكّر إحداهما الأخرى ﴾ [البقرة : 282] ، قاله ثعلب .

والسادس : ووجدك خاملاً لا تُذْكَر ولا تُعْرَف ، فهدى الناس إليك حتى عرفوك ، قاله عبد العزيز بن يحيى ، ومحمد بن علي الترمذي .

قوله تعالى : ﴿ ووجدك عائلاً ﴾ قال أبو عبيدة : أي : ذا فقر .

وأنشد :

وَمَا يَدْرِي الفقيرُ مَتى غِنَاهُ . . .

وما يَدْرِي الغَنِيُّ مَتى يَعِيلُ

أي : يفتقر .

قال ابن قتيبة : العائل : الفقير ، كان له عيال ، أو لم يكن .

يقال : عال الرجل ، إذا افتقر .

وأعال : إذا كثر عياله .

قوله تعالى : ﴿ فأغنى ﴾ قولان .

أحدهما : رَضَّاك بما أعطاك من الرزق ، قاله ابن السائب ، واختاره الفراء .

وقال : لم يكن غناه عن كثرة المال ، ولكن الله رضَّاه بما آتاه .

والثاني : فأغناك بمال خديجة عن أبي طالب ، قاله جماعة من المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لا تحقر ، قاله مجاهد .

والثاني: لا تقهره على ماله، قاله الزجاج ﴿ وأما السائل ﴾ ففيه قولان.

أحدهما: سائل البِر، قاله الجمهور.

والمعنى: إذا جاءك السائل، فإما أن تعطيه، وإِما أن تردّه ردّاً ليناً.

ومعنى ﴿ فلا تنهر ﴾ لا تنهره، يقال: نهره وانتهره: إذا استقبله بكلام يزجره.

والثاني: أنه طالب العلم، قاله يحيى بن آدم في آخرين.

قوله تعالى: ﴿ وأما بنعمة ربِّك فحَدِّثْ ﴾ في النعمة ثلاثة أقوال.

أحدها: النُبُوَّة.

والثاني: القرآن، رويا عن مجاهد.

والثالث: أنها عامة في جميع الخيرات، وهذا قول مقاتل.

وقد روي عن مجاهد قال: قرأت على ابن عباس.

فلما بلغت "والضحى" قال: كبِّر إذا ختمت كل سورة حتى تختم.

وقد قرأتُ على أُبيِّ بن كعب فأمرني بذلك.

قال علي بن أحمد النيسابوري: ويقال: إن الأصل في ذلك أن الوحي لما فتر عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم، وقال المشركون: قد هجره شيطانه وودَعَه، اغتمّ لذلك، فلما نزل "والضحى" كبّر عند ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحاً بنزول الوحي، فاتخذه الناس سُنّةً. انتهى انتهى. اهـ ﴿زاد المسير حـ 9 صـ 154. 161﴾

(259/819)

وقال الخازن:

قوله: ﴿ والضّحى ﴾

اختلفوا في سبب نزول هذه السّورة على ثلاثة أقوال: القول الأول (ق) "عن جندب بن سفيان البجلي قال: اشتكى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت امرأة فقالت: يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك ليلتين أو ثلاثاً فأنزل الله: ﴿ والضّحى واللّيل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ "وأخرجه الترمذي عن جندب قال كنت مع النبي (صلى الله عليه وسلم) في غار فدميت أصبعه فقال النبي (صلى الله عليه وسلم):

هل أنت إلا أصبع دميت . . .

وفي سبيل الله ما لقيت

قال : فأبطأ عليه جبريل فقال المشركون قد ودع محمداً ربه .

﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ وقيل إن المرأة المذكورة في الحديث المتفق عليه هي أم جميل امرأة أبي لهب .

القول الثاني : قال المفسرون : سألت اليهود رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الرّوح ، وعن ذي القرنين ، وأصحاب الكهف ، فقال سأخبركم غداً ، ولم يقل إن شاء الله فاحتبس الوحي عليه .

القول الثالث : قال زيد بن أسلم : كان سبب احتباس الوحي ، وجبريل عنه أن جروا كان في بيته ، فلما نزل عليه عاتبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على إبطائه فقال إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة .

واختلفوا في مدة احتباس الوحي عنه ، فقيل اثنا عشر يوماً وقال ابن عباس : خمسة عشر يوماً ، وقيل أربعون يوماً فلما نزل جبريل قال النبي (صلى الله عليه وسلم) " يا جبريل ما جئت حتى اشتقت إليك " فقال جبريل : إني كنت إليك أشد شوقاً ، ولكني عبد مأمور .

ونزل ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ وأنزل الله هذه السّورة قوله : ﴿ والضحى ﴾ قيل أراد به النهار كله بدليل أنه قابله باللّيل كله في قوله ، ﴿ واللّيل إذا سجى ﴾ وقيل وقت الضحى وهي السّاعة التي فيها ارتفاع الشّمس واعتدال النهار في الحر والبرد في الصيف والشتاء .

﴿ والليل إذا سجى ﴾ قال ابن عباس أقبل بظلامه وعنه إذا ذهب وقيل معناه غطى كل شيء بظلامه ، وقيل معناه سكن فاستقر ظلامه فلا يزاد بعد ذلك ، وهذا قسم أقسم الله تعالى بالضحى والليل إذا سجى وجواب القسم قوله تعالى : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ أي ما تركك ربك منذ اختارك ولا أبغضك منذ أحبك ، وإنما قال قلى ولم يقل قلاك لموافقة رؤوس الآي ، وقيل معناه وما قلى أحداً من أصحابك ومن هو على دينك إلى يوم القيامة .

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ أي الذي أعطاك ربك في الآخرة خير لك وأعظم من الذي أعطاك في الدّنيا ، وروى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدّنيا " ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ قال ابن عباس هي الشفاعة في أمته حتى يرضى (م) عن عبد الله بن عمرو بن العاص " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) رفع يديه وقال : اللّهم أمتي أمتي وبكى فقال الله يا جبريل اذهب إلى محمد ، واسأله ما يبكيك ، وهو أعلم فأتى جبريل ، وسأله فأخبره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما قال وهو أعلم ، فقال الله يا جبريل اذهب

إلى محمد وقل له إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك " (ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال :

﴿ ألم يجدك يتيماً ﴾ أي صغيراً ﴿ فآوى ﴾ أي ألم يعلمك الله يتيماً من الوجود الذي هو بمعنى العلم ، والمعنى ألم يجدك يتيماً صغيراً حين مات أبوك ، ولم يخلف لك مالاً ، ولا مأوى فجعل لك مأوى تأوي إليه وضمك إلى عمك أبي طالب حتى أحسن تربيتك وكفاك المؤنة .

وذلك أن عبد الله مات ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) حمل فكفله جده عبد المطلب ، فلما مات عبد المطلب ، كفله عمه أبو طالب إلى أن قوي ، واشتد وتزوج خديجة ، وقيل هو من قولهم درة يتيمة ، والمعنى ألم يجدك واحداً في قريش عديم النّظير فآواك إليه وأيدك وشرفك بنبوته واصطفاك برسالته .

﴿ ووجدك ضالا ﴾ أي عما أنت عليه اليوم ﴿ فهدى ﴾ أي فهداك إلى توحيده ونبوته ، وقيل وجدك ضالاً عن معالم النّبوة وأحكام الشّريعة ، فهداك إليها وقال ابن عباس : إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضل في شعاب مكة وهو صبي صغير ، فرآه أبو جهل

منصرفاً من أغنامه ، فرده إلى جده عبد المطلب ، وقال سعيد بن المسيب : خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة غلام خديجة فبينما هو راكب ذات ليلة مظلمة إذ جاء إبليس فأخذ بزمام ناقته ، فعدل به عن الطريق فجاء جبريل عليه السّلام فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى الحبشة ، ورد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى القافلة فمنّ الله عليه بذلك ، وقيل وجدك ضالاً نفسك لا تدري من أنت فعرفك نفسك وحالك ، وقيل ووجدك بين أهل الضّلال فعصمك من ذلك وهداك إلى الإيمان وإلى إرشادهم ، وقيل الضلال هنا بمعنى الحيرة وذلك لأنه كان (صلى الله عليه وسلم) يخلو في غار حراء في طلب ما يتوجه به إلى ربه حتى هداه الله لدينه ، وقال الجنيد : ووجدك متحيراً في بيان ما أنزل الله إليك ، فهداك لبيانه فهذا ما قيل في هذه الآية ولا يلتفت إلى قول من قال إنه (صلى الله عليه وسلم) كان قبل النّبوة على ملة قومه ، فهداه الله إلى الإسلام لأن نبينا (صلى الله عليه وسلم) ، وكذلك الأنبياء قبله منذ ولدوا نشؤوا على التّوحيد ، والإيمان قبل النّبوة وبعدها ، وأنهم معصومون قبل النبوة من الجهل بصفات الله تعالى وتوحيده ويدل على ذلك أن قريشاً لما عابوا النبي (صلى الله عليه وسلم) ورموه بكل عيب سوى الشّرك وأمر الجاهلية فإنهم لم يجدوا لهم عليه سبيلاً إذ لو كان فيه لما سكتوا عنه ولنقل ذلك فبرأه الله تعالى من جميع ما قالوه فيه وعيروه به .

ويؤكد هذا ما روي في قصة بحير الرّاهب حين استحلف النبي (صلى الله عليه وسلم) باللاّت والعزى ، وذلك حين سافر مع عمه أبي طالب إلى الشام فرأى بحيرا علامة النّبوة فيه وهو صبي فاختبره بذلك فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) :

﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ أي لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيماً ، وقيل لا تقهره على ماله فتذهب به لضعفه ، وكذا كانت العرب في الجاهلية تفعل في أمر اليتامى يأخذون أموالهم ، ويظلمونهم حقوقهم روى البغوي بسنده عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه ثم قال : أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ويشير بأصبعيه " (خ) عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة ، والوسطى ، وفرج بينهما " ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ يعني السائل على الباب يقول لا تزجره إذا سألك فقد كنت فقيراً فإما أن تطعمه وإما أن ترده رداً ليناً برفق ولا تكهر بوجهك في وجهه وقال إبراهيم بن أدهم : نعم القوم السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة وقال إبراهيم النّخعي السّائل : يريدنا إلى الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول هل توجهون إلى أهليكم بشيء وقيل السائل هو طالب العلم فيجب إكرامه وإسعافه بمطلوبه ولا يعبس في وجهه ولا ينهر ولا يلقى بمكروه ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ قيل أراد

بالنّعمة النّبوة أي بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي أتاك الله ، وقيل النعمة هي القرآن أمره أن يقرأه ويقرئه غيره ، وقيل أشكره لما ذكره نعمه عليه في هذه السّورة من جبر اليتيم والهدى بعد الضّلالة والإغناء بعد العيلة والفقر أمره أن يشكره على إنعامه عليه ، والتّحدث بنعمة الله تعالى شكرها .

(263/819)

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " من أعطي عطاء فليجزه إن وجد فإن لم يجد فليثن عليه فإن من أثنى عليه فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور " أخرجه التّرمذي وله عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " من لا يشكر الناس لا يشكر الله " وله عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " الطّاعم الشّاكر بمنزلة الصّائم الصّابر " وروى البغوي بإسناد الثّعلبي عن النّعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على المنبر يقول " من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، والتّحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب " والسنة في قراءة أهل مكة أن يكبر من أول سورة الضّحى على رأس كل سورة حتى يختم القرآن

فيقول الله أكبر وسبب ذلك أن الوحي لما احتبس عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال المشركون : هجره شيطانه ، وودعه ، فاغتم النبي (صلى الله عليه وسلم) لذلك فلما نزلت والضّحى كبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فرحاً بنزول الوحي ، فاتخذوه سنة ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 257 . 262 ﴾

(264/819)

وقال النسفى :

سورة الضُّحَى

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ والضحى ﴾

المراد وقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس .

وإنما خص وقت الضحى بالقسم لأنها الساعة التي كلم الله فيها موسى عليه السلام وألقى فيها السحرة سجداً ، أو النهار كله لمقابلته بالليل في قوله ﴿ والليل إِذَا سجى ﴾ سكن ،

والمراد سكون الناس والأصوات فيه ، وجواب القسم ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ ما تركك منذ اختارك وما أبغضك منذ أحبك والتوديع مبالغة في الودع ، لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك ، روي أن الوحي تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً فقال المشركون : إن محمداً ودعه ربه وقلاه ، فنزلت .

وحذف الضمير من ﴿ قلى ﴾ كحذفه من الذاكرات في قوله : ﴿ والذاكرين الله كَثِيراً والذاكرات ﴾ [الأحزاب : 35] ، يريد والذاكراته ونحوه : ﴿ فاوى ﴾ ، ﴿ فهدى ﴾ ، ﴿ فأغنى ﴾ وهو اختصار لفظي لظهور المحذوف ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ أي ما أعد الله لك في الآخرة من المقام المحمود والحوض المورود والخير الموعود خير مما أعجبك في الدنيا ، وقيل : وجه اتصاله بما قبله أنه لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى أن الله مواصلك بالوحي إليك وأنك حبيب الله ، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ، أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك لتقدمه على الأنبياء وشهادة أمته على الأمم وغير ذلك .

(265/819)

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ ﴾ في الآخرة من الثواب ومقام الشفاعة وغير ذلك ﴿ فترضى ﴾ ولما نزلت قال صلى الله عليه وسلم " إذا لا أرضى قط وواحد من أمتي في النار "

واللام الداخلة على "سوف" لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة ، والمبتدأ محذوف تقديره : ولأنت سوف يعطيك ، ونحوه لأقسم فيمن قرأ كذلك لأن المعنى لأنا أقسم ، وهذا لأنها إن كانت لام قسم فلامه لا تدخل على المضارع إلا مع نون التوكيد فتعين أن تكون لام الابتداء ، ولامه لا تدخل إلا على المبتدأ والخبر فلا بد من تقدير مبتدأ وخبر كما ذكرنا ، كذا ذكره صاحب الكشاف .

وذكر صاحب الكشاف هي لام القسم ، واستغنى عن نون التوكيد لأن النون إنما تدخل ليؤذن أن اللام لام القسم لا لام الابتداء ، وقد علم أنه ليس للابتداء لدخولها على "سوف" لأن لام الابتداء لا تدخل على "سوف" ، وذكر أن الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير يؤذن بأن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر .

ثم عدد عليه نعمه من أول حاله ليقيس المترقب من فضل الله على ما سلف منه لئلا يتوقع إلا الحسنى وزيادة الخير ، ولا يضيق صدره ولا يقل صبره فقال ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً ﴾ وهو من الوجود الذي بمعنى العلم والمنصوبان مفعولاه ، والمعنى ألم تكن يتيماً حين مات أبواك ﴿ فاوى ﴾ أي فآواك إلى عمك أبي طالب وضمك إليه حتى كفلك ورباك ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ ﴾ أي غير عالم ولا واقف على معالم النبوة وأحكام الشريعة وما طريقة السمع ﴿ فهدى ﴾ فعرفك الشرائع والقرآن .

وقيل : ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب فرده إلى القافلة .

(266/819)

ولا يجوز أن يفهم به عدول عن حق ووقوع في غي فقد كان عليه الصلاة السلام من أول حاله إلى نزول الوحي عليه معصوماً من عبادة الأوثان وقاذورات أهل الفسق والعصيان ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً ﴾ فقيرا ﴿ فأغنى ﴾ فأغناك بمال خديجة أو بمال أفاء عليك من الغنائم ﴿ فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه ﴿ وَأَمَّا السائل فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ فلا تزجره فابذل قليلاً أو رد جميلاً .

وعن السدي : المراد طالب العلم إذا جاءك فلا تنهره ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبّكَ فَحَدّثْ ﴾ أي حدث بالنبوة التي آتاك الله وهي أجل النعم ، والصحيح أنها تعم جميع نعم الله عليه ويدخل تحته تعليم القرآن والشرائع والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 365.363 ﴾

(267/819)

وقال ابن جزى :

سورة الضُّحَى

﴿ والضحى ﴾

ذكر في الشمس وضحاها ﴿ والليل إِذَا سجى ﴾ فيه أربعة أقوال : أذ أقبل ، وإذا أدبر ، وإذا أظلم ، وإذا سكن أي استقر واستوى ، أو سكن فيه الناس والأصوات ، ومنه : ليلة ساجية إذا كانت ساكنة الريح ، وطرف ساج أو ساكن غير مضطرب النظر . وهذا أقرب في الاشتقاق وهو اختيار ابن عطية ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ بتشديد الدال من الوداع وقرئ بتخفيفها بمعنى : ما تركك والوداع مبالغة في الترك ﴿ وَمَا قلى ﴾ أي ما أبغضك ، وحذف ضمير المفعول من قلى وآوى وهدى وأغنى اختصاراً ، لظهور المعنى ولموافقة رؤوس الآي . وسبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبطأ عليه الوحي ، فقالت قريش : إن محمداً ودعه ربه وقلاه ، فنزلت الآية تكذيباً لهم وقيل : رمي عليه الصلاة والسلام بحجر في أصبعه فدميت فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم ، فقالت امرأة : ما أرى شيطان محمد إلا قد تركه فنزلت الآية ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ أي الدار الآخرة خير لك من الدنيا ، قال ابن عطية : ويحتمل أن يريد بالآخرة حاله بعد نزول هذه السورة ، ويريد بالأولى حالة نزولها ، وهذا بعيد والأول أظهر وأشهر .

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ روي " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما نزلت إذاً لا أرضي أن يبقى واحد من أمتي في النار " قال بعضهم : هذه أرجى آية في القرآن ، وقال ابن عباس : رضاه أن الله وعده بألف قصر في الجنة بما يحتاج إليه من النعم والخدم وقيل : رضاه في الدنيا بفتح مكة وغيره . والصحيح أنه وعد يعمُّ كل ما أعطاه الله في الآخرة ، وكل ما أعطاه في الدنيا من النصر والفتوح وكثرة المسلمين وغير ذلك ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ عدد الله نعمه عليه فيما مضى من عمره ، ليقيس عليه ما يستقبل فتطيب نفسه ، ويقوي رجاؤه ووجد في هذه المواضع تتعدى إلى مفعولين وهي بمعنى علم ؛ فالمعنى ألم تكن يتيماً فآواك . وذلك أن والده عليه السلام توفي وتركه في بطن أمه ، ثم ماتت أمه وهو ابن خمسة أعوام ، وقيل : ثمانية فكفله جدّه عبد المطلب ، ثم مات وتركه ابن اثني عشر عاماً فكفله عمه أبو طالب ، وقيل لجعفر الصادق : لم نشأ النبي صلى الله عليه وسلم يتيماً ؟ فقال : لئلا يكون عليه حق لمخلوق .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَى ﴾ فيه ستة أقوال : أحدها : وجدك ضالاً عن معرفة الشريعة فهداك إليها ، فالضلال عبارة عن التوقيف في أمر الدين حتى جاءه الحق من عند الله ، فهو كقوله : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ [الشورى : 52] وهذا هو الأظهر وهو الذي اختاره ابن عطية وغيره ومعناه أنه لم يكن يعرف تفصيل الشريعة وفروعها حتى بعثه الله ، ولكنه ما كفر بالله ولا أشرك به لأنه كان معصوماً من ذلك من قبل النبوة وبعدها . والثاني : وجدك في قوم ضلاّل ، فكأنك واحد منهم ، وإن لم تكن تعبد ما يعبدون ، وهذا قريب من الأول . والثالث : وجدك ضالاً عن الهجرة فهداك إليها ، وهذا ضعيف ، لأن السورة نزلت قبل الهجرة ، الرابع : وجد حامل الذكر لا تعرف فهدى الناس إليك وهداهم بك ، وهذا بعيد عن المعنى المقصود . الخامس : أنه من الضلال عن الطريق ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم ضلّ في بعض شعب مكة ، وهو صغير فردّه الله إلى جده ، وقيل : بل ضلّ من مرضعته حليمة فرده الله إليها ، وقيل : بل ضل في طريق الشام حين خرج إليها مع أبي طالب . السادس : أنه بمعنى الضلال من المحبة أي وجدك محباً لله فهداك إليه ومنه قول إخوة يوسف لأبيهم ، ﴿ تالله إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ القديم ﴾ [يوسف : 95] محبتك ليوسف ، وبهذا كان يقول شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فأغنى ﴾ العائل : الفقير يقال : عال الرجل فهو عائل إذا كان محتاجاً ، وأعال فهو معيل إذا كثر عياله وهذا الفقر والغنى هو في المال ، وغناؤه صلى الله عليه وسلم هو أن أعطاه الله

الكفاف ، وقيل : هو رضاه بما أعطاه الله ، وقيل : المعنى وجدك فقيراً إليه فأغناك به ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ أي لا تغلبه على ماله وحقه لأجل ضعفه أو لا تقهره بالمنع من مصالحه ووجوه القهر كثيرة والنهي يعمّ جميعها ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ النهر هو الانتهار والزجر ،

(270/819)

والنهي عنه أمر بالقول الحسن والدعاء للسائل كما قال تعالى :

﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ [الإسراء : 28] ويحتمل السائل أن يريد به سائل الطعام والمال ، وهذا هو الأظهر والسائل عن العلم والدين . وفي قوله تقهر وتنهر لزوم ما لا يلزم من التزام الهاء قبل الراء .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ قيل : معناه بثّ القرآن وبلغ الرسالة والصحيح أنه عموم جميع النعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " التحدث بالنعم شكر " ولذلك كان بعض السلف يقول : لقد أعطاني الله كذا ولقد صليت البارحة كذا ، وهذا إنما يجوز إذا كان على وجه الشكر أو ليقتدى به ، فأما على وجه الفخر والرياء فلا يجوز ، وانظر كيف ذكر الله في هذه السورة ثلاث نعم ، ثم ذكر في مقابلتها ثلاث وصايا فقابل قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ

يَتِيماً ﴾ بقوله : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ ، وقابل قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالّاً ﴾ بقوله : ﴿ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ ، على قول من قال إنه السائل عن العلم وقابله بقوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ على القول الآخر ، وقابل : قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فأغنى ﴾ بقوله : ﴿ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ على القول الأظهر ، وقابله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ على القول الآخر . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 204.205 ﴾

(271/819)

وقال البيضاوى :

سورة الضُّحَى

مكية . وآيها إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ والضحى ﴾

ووقت ارتفاع الشمس وتخصيصه لأن النهار يقوى فيه ، أو لأن فيه كلم موسى عليه الصلاة والسلام ربه وألقى السحرة سجداً ، أو النهار ويؤيده قوله تعالى : ﴿ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى ﴾ في مقابلة ﴿ بَيَاتًا ﴾ ﴿ والليل إِذَا سجى ﴾ سكن أهله أو ركد ظلامه من

سجا البحر سجواً إذا سكنت أمواجه ، وتقديم ﴿ اليل ﴾ في السورة المتقدمة باعتبار الأصل ، وتقديم النهار ها هنا باعتبار الشرف .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ ما قطعك قطع المودع ، وقرىء بالتخفيف بمعنى ما تركك وهو جواب القسم . ﴿ وَمَا قلى ﴾ وما أبغضك ، وحذف المفعول استغناء بذكره من قبل ومراعاة للفواصل . روي أن الوحي تأخر عنه أياماً لتركه الاستثناء كما مر في سورة "الكهف" ، أو لزجره سائلاً ملحاً ، أو لأن جرواً ميتاً كان تحت سريره أو لغيره فقال المشركون : إن محمداً ودعه ربه وقلاه فنزلت رداً عليهم .

﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ فإنها باقية خالصة عن الشوائب وهذه فانية مشوبة بالمضار ، كأنه لما بين أنه سبحانه وتعالى لا يزال يواصله بالوحي والكرامة في الدنيا وعد له ما هو أعلى وأجل من ذلك في الآخرة ، أو لنهاية أمرك خير من بدايته ، فإنه صلى الله عليه وسلم لا يزال يتصاعد في الرفعة والكمال .

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ وعد شامل لما أعطاه من كمال النفس وظهور الأمر وإعلاء الدين ، ولما ادخر له مما لا يعرف كنهه سواء ، واللام للابتلاء دخل الخبر بعد حذف المبتدأ والتقدير : ولأنت سوف يعطيك لا للقسم فإنها لا تدخل على المضارع إلا مع النون المؤكدة ، وجمعها مع سوف للدلالة على أن الإِعطاء كائن لا محالة وإن تأخر لحكمه .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَاوى ﴾ تعديد لما أنعم عليه تنبيهاً على أنه كما أحسن إليه فيما مضى يحسن إليه فيما يستقبل وأن تأخر . و﴿ يَجِدْكَ ﴾ من الوجود بمعنى العلم و﴿ يَتِيماً ﴾ مفعولك الثاني أو المصادقة و﴿ يَتِيماً ﴾ حال .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ ﴾ عن علم الحكم والأحكام . ﴿ فهدى ﴾ فعلمك بالوحي والإلهام والتوفيق للنظر . وقيل وجدك ضالاً في الطريق حين خرج بك أبو طالب إلى الشام أو حين فطمتك حليمة وجاءت بك لتردك إلى جدك ، فأزال ضلالك عن عمك أو جدك .

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً ﴾ فقيراً ذا عيال . ﴿ فأغنى ﴾ بما حصل لك من ربح التجارة .

﴿ فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ فلا تغلبه على ماله لضعفه ، وقرىء فلا تكهر أي فلا تعبس في وجهه .

﴿ وَأَمَّا السائل فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ فلا تزجره .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبّكَ فَحَدّثْ ﴾ فإن التحدث بها شكرها . وقيل المراد بالنعمة النبوة والتحديث بها تبليغها .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة والضحى جعله الله سبحانه وتعالى فيمن يرضى لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يشفع له وعشر حسنات ، يكتبها الله سبحانه وتعالى بعدد كل يتيم وسائل " . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ

﴿ 503.501

---

(1) حديث موضوع.

(273/819)

وقال أبو حيان :

سورة الضُّحَى

﴿ وَالضُّحَى (1) ﴾

وقرأ الجمهور ﴿ ما ودعك ﴾ بتشديد الدال ؛ وعروة بن الزبير وابنه هشام وأبو حيوة وأبو بحرية وابن أبي عبلة : بخفها ، أي ما تركك .

واستغنت العرب في فصيح كلامها بترك عن ودع ووذر ، وعن اسم فاعلهما بتارك ، وعن اسم مفعولهما بمتروك ، وعن مصدرهما بالترك ، وقد سمع ودع ووذر .

قال أبو الأسود :

ليت شعري عن خليلي ما الذي . . .

غاله في الحب حتى ودعه

وقال آخر :

وثم ودعنا آل عمرو وعامر . . .

فرائس أطراف المثقفة السمر

والتوديع مبالغة في الودع ، لأن من ودعك مفارقاً فقد بالغ في تركك .

﴿ وما قلى ﴾ : ما أبغضك ، واللغة الشهيرة في مضارع قلى يقلى ، وطيىء تعلى بفتح العين وحذف المفعول اختصاراً في ﴿ قلى ﴾ ، وفي ﴿ فآوى ﴾ وفي ﴿ فهدى ﴾ ، وفي ﴿ فأغنى ﴾ ، إذ يعلم أنه ضمير المخاطب ، وهو الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

قال ابن عباس وغيره : أبطأ الوحي مرة على الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو بمكة ، حتى شق ذلك عليه ، فقالت أم جميل ، امرأة أبي لهب : يا محمد ما أرى شيطانك إلا تركك ؟ فنزلت .

وقال زيد بن أسلم : إنما احتبس عنه جبريل عليه السلام لجرو كلب كان في بيته .

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ : يريد الدارين ، قاله ابن إسحاق وغيره .

ويحتمل أن يريد حالتيه قبل نزول السورة وبعدها ، وعده تعالى بالنصر والظفر ، قاله ابن عطية احتمالاً .

وقال الزمخشري : فإن قلت : كيف اتصل قوله : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ بما قبله ؟ قلت : لما كان في ضمن نفي التوديع والقلى أن الله مواصلك بالوحي إليك ، وأنك

حبيب الله ، ولا ترى كرامة أعظم من ذلك ، ولا نعمة أجل منه ، أخبره أن حاله في الآخرة أعظم من ذلك وأجل ، وهو السبق والتقدم على جميع أنبياء الله ورسله ، وشهادة أمته على سائر الأمم ، ورفع درجات المؤمنين وإعلاء مراتبهم بشفاعته .

﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ ، قال الجمهور : ذلك في الآخرة .

وقال ابن عباس : رضاه أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار .

وقال أيضاً : رضاه أنه وعده بألف قصر في الجنة بما تحتاج إليه من النعم والخدم .

وقيل : في الدنيا بفتح مكة وغيره ، والأولى أن هذا موعد شامل لما أعطاه في الدنيا من الظفر ، ولما ادخر له من الثواب .

واللام في ﴿ وللآخرة ﴾ لام ابتداء أكدت مضمون الجملة ، وكذا في ﴿ ولسوف ﴾ على إضمار مبتدأ ، أي ولأنت سوف يعطيك .

ولما وعده هذا الموعود الجليل ، ذكره بنعمه عليه في حال نشأته .

﴿ ألم يجدك ﴾ : يعلمك ، ﴿ يتيماً ﴾ : توفي أبوه عليه الصلاة والسلام وهو جنين ، أتت عليه ستة أشهر وماتت أمه عليه الصلاة والسلام وهو ابن ثماني سنين ، فكفله عمه أبو

طالب فأحسن تربيته .

وقيل لجعفر الصادق : لم يتم النبي (صلى الله عليه وسلم) من أبويه ؟ فقال : لئلا يكون عليه حق لمخلوق .

قال الزمخشري : ومن يدع التفاسير أنه من قولهم درّة يتيمة ، وأن المعنى : ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فآواك ، انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ فآوى ﴾ رباعياً ؛ وأبو الأشهب العقيلي : فأوى ثلاثياً ، بمعنى رحم .

تقول : أويت لفلان : أي رحمته ، ومنه قول الشاعر :

أراني ولا كفران لله أنه . . .

لنفسي قد طالبت غير منيل

﴿ ووجدك ضالاً ﴾ : لا يمكن حمله على الضلال الذي يقابله الهدى ، لأن الأنبياء معصومون من ذلك .

قال ابن عباس : هو ضلاله وهو في صغره في شعاب مكة ، ثم رده الله إلى جده عبد المطلب .

وقيل : ضلاله من حليمة مرضعته .

وقيل : ضل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب ، ولبعض المفسرين أقوال فيها بعض ما لا يجوز نسبته إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

ولقد رأيت في النوم أني أفكر في هذه الجملة فأقول على الفور : ﴿ ووجدك ﴾ ، أي وجد رهطك ، ﴿ ضالاً ﴾ ، فهداه بك .

ثم أقول : على حذف مضاف ، نحو : ﴿ وسئل القرية ﴾ وقرأ الجمهور : ﴿ عائلاً ﴾ : أي فقيراً .

قال جرير :

الله نزل في الكتاب فريضة . . .

لابن السبيل وللفقير العائل

(275/819)

كرر لاختلاف اللفظ .

وقرأ اليماني : عيّلاً ، كسيّدٍ ، بتشديد الياء المكسورة ، ومنه قول أجيحة بن الحلاج :

وما يدري الفقير متى غناه . . .

وما يدري الغني متى يعيل

عال : افتقر ، وأعال : كثر عياله .

قال مقاتل : ﴿ فأغنى ﴾ رضاك بما أعطاك من الرزق .

وقيل : أغناك بالقناعة والصبر .

وقيل : بالكفاف .

ولما عدد عليه هذه النعم الثلاث ، وصاه بثلاث كأنها مقابلة لها .

﴿ فلا تقهر ﴾ ، قال مجاهد : لا تحتقره .

وقال ابن سلام : لا تستزله .

وقال سفيان : لا تظلمه بتضييع ماله .

وقال الفراء : لا تمنعه حقه ، والقهر هو التسليط بما يؤذي .

وقرأ الجمهور : ﴿ تقهر ﴾ بالقاف ؛ وابن مسعود وإبراهيم التيمي : بالكاف بدل القاف ، وهي لغة بمعنى قراءة الجمهور .

﴿ وأما السائل ﴾ : ظاهره المستعطي ، ﴿ فلا تنهر ﴾ : أي تزجره ، لكن أعطه أو رده رداً جميلاً .

وقال قتادة : لا تغلظ عليه ، وهذه في مقابلة ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ ؛ فالسائل ، كما قلنا : المستعطي ، وقاله الفراء وجماعة .

وقال أبو الدرداء والحسن وغيرهما : السائل هنا : السائل عن العلم والدين ، لا سائل المال ، فيكون بإزاء ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ .

﴿ وأما بنعمة ربك فحدّث ﴾ ، قال مجاهد والكلبي : معناه بث القرآن وبلغ ما أرسلت

به .

وقال محمد بن إسحاق : هي النبوة .

وقال آخرون : هي عموم في جميع النعم .

وقال الزمخشري : التحديث بالنعم : شكرها وإشاعتها ، يريد ما ذكره من نعمة الإيواء والهداية والإغناء وما عدا ذلك ، انتهى .

(276/819)

ويظهر أنه لما تقدم ذكر الامتنان عليه بذكر الثلاثة ، أمره بثلاثة : فذكر اليتيم أولاً وهي البداية ، ثم ذكر السائل ثانياً وهو العائل ، وكان أشرف ما امتن به عليه هي الهداية ، فترقى من هذين إلى الأشرف وجعله مقطع السورة ، وإنما وسط ذلك عند ذكر الثلاثة ، لأنه بعد اليتيم هو زمان التكليف ، وهو عليه الصلاة والسلام معصوم من اقتراف ما لا يرضي الله عز وجل في القول والفعل والعقيدة ، فكان ذكر الامتنان بذلك على حسب الواقع بعد اليتيم وحالة التكليف ، وفي الآخر ترقى إلى الأشرف ، فهما مقصدان في الخطاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(277/819)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ وَالضُّحَى (1) ﴾

التفسير : الأكثرون على أن المراد بالضحى وقت الضحى وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس ويظهر سلطانها . وقيل : هو النهار كله لإقرانه بالليل في القسم وهو ضعيف ، لأن معنى سجى سكن واستقر ظلامه ، أو سكون الناس فيه فيكون الإسناد مجازياً . يقال : سجا البحر إذا سكنت أمواجه ، وطرف ساج أي ساكن فاتر . ولا ريب أن سجوّ الليل وقت استيلاء الظلام منه لا كله فهو بمنزلة الضحى من النهار . وههنا لطائف : الأولى : قدم ذكر الليل في السورة المتقدمة وعكس ههنا لانفراد كل منهما بفضيلة مخصوصة ، فالليل للراحة والنهار لانتظام أمر المعاش فقدّم هذا على ذلك تارة وبالعكس أخرى لئلا يخلو شيء من النوعين عن فضيلة التقديم . وأيضاً تلك سورة أبي بكر وقد سبقه كفر يشبه الليل في الظلمة ، وهذه سورة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يسبقه كفر طرفة عين ولا أقل من ذلك ، فبدأ النهار الذي هو يشابه الإيمان . فإن ذكرت الليل أولاً وهو أبو بكر ثم صعدت وجدت بعده النهار وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، وإن ذكرت الضحى أولاً وهو محمد صلى الله عليه وسلم ثم نزلت وجدت بعده الليل وهو أبو بكر من غير واسطة بينهما كما وقع في نفس الأمر ، وكما ثبت من قصة الغار . الثانية : ما الحكمة في تخصيص القسم في

أول هذه السورة بالضحى والليل ؟ والجواب لأن ساعات النهار كلما تنقص فإن ساعات الليل تزداد وبالعكس ، فلا تلك الزيادة للهوى ولا ذاك النقصان للقلى بلى للحكمة ، فكذا الرسالة وإنزال الوحي بحسب المصالح فمرة إنزال ومرة حبس لا عن الهوى ولا عن القلى .
وأما السبب في الأقسام نفسه فلأن الكفار لما ادّعوا أن ربه ودعه وقلاه وقد ثبت أن البينة على المدعي واليمين على من أنكر قال لهم : هاتوا الحجة فعجزوا فلزمه اليمين بأنه ما ودعه ربه وما قلاه . وفيه أن الليل والنهار لا يسلمان من الزيادة والنقصان فيكف تطمع أن تسلم عن الخلق ؟ وفيه أن الليل زمان الاستيحاش والنهار وقت الاجتماع والمعاش فكأنه

(278/819)

قال : استبشر فإن بعد الاستيحاش بسبب انقطاع الوحي يظهر ضحى نزول الوحي .
وفيه أن الضحى لما كان وقت موعد موسى لمعارضة السحرة كما قال ﴿ موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ [طه : 59] شرفه الله بأن أقسم به فعلم منه أن فضيلة الإنسان لا تضيع ثمرتها .

(279/819)

وفيه بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم أن الذي قلب قلوب السحرة حتى سجدوا يقلب قلوب أعدائك حتى يسلموا . وفيه أن الضحى وهو ساعة من النهار يوازي جميع الليل كما أن محمداً صلى الله عليه وسلم وأمته يوازي جميع الأنبياء وأممهم . وفيه أن النهار وقت السرور والاجتماع والليل وقت الغموم والوحشة ، ففي الاقتصار على ذكر الضحى إشارة إلى أن غموم الدنيا أدوم من سرورها . يروى أن الله تعالى حين خلق العرش أظلت غمامة سوداء عن يساره ونادت : ماذا أمطر ؟ فأجيبت أن أمطري الهموم والأحزان مائة سنة . ثم انكشف فأمرت مرة أخرى بذلك وهكذا إلى تمام ثلثمائة سنة ، ثم بعد ذلك أظلت عن يمين العرش غمامة بيضاء ونادت : ماذا أمطر ؟ فأجيبت أن أمطري السرور ساعة فلهذا السبب ترى الهموم دائمة والأفراح نادرة . وفي تقديم الضحى على الليل إشارة إلى أن الحياة أولى للمؤمن من الموت إلى أن تحصل كمالاته الممكنة له . وأيضاً إنه ذكر الضحى حتى لا يحصل اليأس من روحه ، ثم عقبه بالليل حتى لا يحصل الأمن من مكره . الثالثة : لا استعباد فيام يذكره الواعظ من تشبيه وجه محمد صلى الله عليه وسلم بالضحى وشعره بالليل . ومنهم من قال : الضحى ذكور أهل بيته ، والليل إناثهم . أو الضحى رسالته ، والليل زمان احتباس الوحي كما مرّ . ويحتمل أن يقال : الضحى نور علمه الذي به يعرف المستور من الغيوب والليل عفوه الذي به يستر جميع العيوب . أو الضحى إقبال الإسلام بعد أن كان

غريباً ، والليل إشارة إلى أنه سيعود غريباً . أو الضحى كمال العقل ، والليل وقت السكون في القبر . أو أراد أقسم بعلانيتك التي لا يرى عليها الخلق عيباً وبسرك الذي لا يعلم عليه عالم الغيب عيباً . قال المفسرون : أبطأ جبريل عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وسلم اثني عشر يوماً عن ابن جريج ، أو خمسة عشر عن الكلبي ، أو خمسة وعشرين يوماً عن ابن عباس ، أو أربعين عن السدّي ومقاتل . والسبب فيه أن اليهود سألوه عن ثلاث مسائل

كما مرّ في " الكهف " فقال : سأخبركم غداً ولم يقل " إن شاء الله " أو لأنّ جرواً للحسن والحسين كان في بيته أو لأنه كان فيهم من لا يقلم الأظفار ، فزعم المشركون أن ربه ودعه وقلاه . وروي أن أم جميل امرأة أبي لهب قالت له : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فنزلت السورة . والتوديع مبالغة في الوداع لأن من ودعك فقد بالغ في تركك . والقلى البغض وحذف المفعول من " قلاك " و " آواك " و " هداك " و " أغناك " للفاصلة مع دلالة قرينة الحال أو المقال . والذي يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم شكا إلى خديجة إن ربي ودعني وقلاني .

إن ثبت فمحمول على أنه أراد امتحان خديجة ليعلم بعد غورها في المعرفة والعلم كما روي أنها قالت : والذي بعثك بالحق ما أهداك الله بهذه الكرامة إلا وهو يريد أن يتمها لك . ثم زاده تشريفاً بقوله ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ يعني هذا التشريف وهو إعلام أن ما ألقاه الحساد فيما بينهم من التوديع والقلى بهت محض وإن كان تشريفاً عظيماً إلا أن الذي أعدّ لأجلك في الآخرة أشرف وأسنى . وعلى تقدير انقطاع الوحي لا يجوز أن يكون ذلك للعزل عن النبوة فإنه غير جائز لكنه يدل على قرب الوفاة المستتبعة للقرب من الله فلا يكون كما ظنه الأعداء . ويحتمل أن يراد : وللأحوال الآتية خير لك من الماضية فيكون وعداً بإتمام نوره وإعلاء أمره . وفي تخصيص الخطاب إشارة إلى أن في أمته من كانت الآخرة شر إليه إلا أن الله ستره عليهم ونظر قول موسى ﴿ إن معي ربي سهيدين ﴾ [الصافات : 99] لأنه كان في قومه من لم يكن لائقاً بهذا المنصب ، وحين لم يكن في الغار إلا نبي أو صدّيق قال نبينا صلى الله عليه وسلم ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾ [التوبة : 40] يروى أن موسى خرج للاستسقاء ومعه الألوف ثلاثة أيام فلم يجدوا الإجابة فسأل موسى عليه السلام عن سبب ذلك فقال : إن في قومك نماماً فقال موسى : من هو ؟ فقال الله تعالى : إني أبغضه فكيف أعمل عمله ؟ فما مضت مدة حتى نزل الوحي بأن ذلك النمام قد مات وهذه جنازته في الموضع الفلاني فذهب موسى إلى ذلك الموضع فإذا فيه سبعون من

الجنائز فهذا ستره على أعدائه فكيف على أوليائه . وههنا لطيفة وهي أنه تعالى ردّ ألوفاً من المطيعين لمذنب واحد ههنا يرحم ألوفاً من المذنبين لمطيع واحد ودليله قوله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ فلعله حين بين أن الآخرة خير له عقبه ببيان تلك الخيرية وهي رتبة الشفاعة . يروى عن علي رضي الله عنه أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم " إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار " وعن جعفر الصادق رضي الله عنه رضا جدّي

(282/819)

صلى الله عليه وسلم أن لا يدخل النار موّحد . وقال ابن عباس : هو ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك وفيها ما يليق بها ، واللام في و ﴿ لسوف ﴾ خالصة للتأكيد دون الحال كأنه قيل : الموعود كائن لا محالة وإن تأخر زمانه بحسب المصلحة . وقال جار الله : تقديره ولأنت سوف يعطيك لأن اللام لا تدخل على المضارع إلا مع نون التأكيد وفيه نظر . ثم عدد بعض نهمه التي أنعم بها عليه قبل إرساله وكأنه قال : ما تركناك وما قليناك قبل أن اخترناك واصطفيناك فتظن أنا بعد الرسالة نهجرك ونخذلك .

(283/819)

قال أهل الأخبار : إن عبد الله بن المطلب توفي وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به ، ثم ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان مع جده عبد المطلب ومع أمه آمنة ، فهلكت وهو ابن ست سنين فكان مع جده ، ثم هلك جده بعد سنتين فكفل أبو طالب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن ابتعثه الله للرسالة فقام بنصرته مدة مديدة ، وعطفه الله عليه فأحسن تربيته وذلك قوله " فآواك " أي جعل لك من تأوي إليه وهو أبو طالب . وفي تفسير تأويل الضلال قولان : الأول أنه الضلال عن الدين . فقال السدي والكلبي : كان على دين قومه أربعين سنة . الثاني وعليه الجمهور أنه ما كفر بالله طرفة عين والمراد عن معالم الشريعة الحنيفية كقوله ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ [الشورى : 52] وقيل : ضل في صباه في بعض شعاب مكة فأتى أبو جهل على ناقة محمد صلى الله عليه وسلم بين يديه وهو يقول : لا تدري ماذا نرى من ابنك . فقال عبد المطلب : ولم . قال : لأني أنخت الناقة وأركبته من خلفي فأبت الناقة أن تقوم فلما أركبته أمامي قامت الناقة فكانت الناقة تقول : يا أحمق هو الإمام فكيف يكون خلف المقتدي ؟ قال ابن عباس : ردّه الله إلى جده بيد عدوّه كما فعل بموسى حين رباه بيد عدوّه . وقيل : أضلته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لتردّه على عبد المطلب حتى دخلت هبل وشكت ذلك إليه فتساقطت الأصنام وسمعت صوتاً إنما هلاكنا بيد هذا الصبي . وروي

مرفوعاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : " ضللت عن جدي عبد المطلب وأنا صبي ضائع كاد الجوع يقتلني فهادني الله " يعني حديث أبي جهل المذكور . وقيل : ضالاً أي مغموراً بين الكفار من ضل الماء في اللبن . وقيل : مجاز في الإسناد والمعنى وجد قومك ضلالاً فهداهم بك . وقيل : كنت منفرداً عن اختلاط أهل الضلال فهداك إلى الاختلاط بهم وإلى دعوتهم . قيل : وعن الهجرة أو القبلة أو عن معرفة جبرائيل أول مرة ، أو عن أمور الدنيا أو عن طريق

السموات فهداك ليلة المعراج . وقيل : الضلال المحبة لفي ضلالك القديم فهداك إلى وجه الوصول إلى المحبوب والمراد بالسلوك . روي عن علي رضي الله عنه أنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد . قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو حفظت لي غنمتي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشبان . فلما أتيت أول دار من دور مكة سمعت الدفوف والمزامير فقالوا : فلان تزوّج بفلانة . فجلست أنظر إليهم فضرب الله على أذني فما أيقظني إلا مسّ الشمس .

ثم قلت ليلة أخرى مثل ذلك . فضرب الله على أذني فما أيقظني إلا مسّ الشمس . ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله برسالته . والعائل في الأصل كثير العيال ثم طلق على الفقير وإن لم يكن له عيال لأن الفقر من لوازم العول . أغناه الله بتربية أبي طالب أوّلاً ، ولما اختلت أحوال أبي طالب أغناه بمال خديجة . يروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل على خديجة وهو مغموم فقالت له : ما لك ؟ فقال : الزمان زمان قحط فإن أنا بذلت المال ينفذ مالك فأستحيي منك ، وإن أنا لم أبذل أخاف الله . فدعت قريشاً وفيهم الصدّيق . قال الصدّيق : فأخرجت دنانير حتى وصبتها أبلغت مبلغاً لم يقع بصري على من كان جالساً قدامي ثم قالت : اشهدوا أن هذا المال ماله إن شاء فرقه وإن شاء أمسكه . وأما في زمان الرسالة فأغناه لمال أبي بكر ثم أمره بالهجرة وأعانه بإعانة الأنصار حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين . ثم أغناه بما أفاء عليه من الغنائم . قال صلى الله عليه وسلم " جعل رزقي تحت ظل رمحي " وبعض هذه الأمور وإن كان بعد نزول السورة إلا أن معلوم الله كالواقع فيكون من قبيل الإخبار بالغيب وقد وقع فيكون معجزاً . وقيل : الغنى هو القناعة وغنى القلب كان صلى الله عليه وسلم يستوي عنده الحجر والذهب . قال أهل التحقيق :

الحكمة في يتم النبي صلى الله عليه وسلم أن يعرف قدر الأيتام فيقوم بأمرهم . وأن يكرم اليتيم المشارك له في الاسم كما قال صلى الله عليه وسلم " إذا سميتم الولد محمداً فأكرموه وسعوا له في المجلس " وفيه أنه لا يعتمد من أول عمره إلى آخره على أحد سوى الله فيحصل له فضيلة التوكل كما قال جده إبراهيم " حسبي من سؤالي علمه بحالي " . وفيه أن اليتيم منقصة ومذلة فإذا صار أكرم الخلق كان من جنس المعجزات . يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : " سألت ربي مسألة لوددت أني لم أسألها قلت : اتخذت إبراهيم خليلاً ، وكلمت موسى تكليماً ، وسخرت مع داود الجبال ، واعطيبت سليمان كذا وكذا .

(286/819)

يقال : ألم أجدك يتيماً فآويتك ، ألم أجدك ضالاً فهديتك ، ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ قلت : بلى . قال " ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ [الشرح : 1] إلى آخره ؟ قلت : بلى " أقول : إن صح إسناد هذا الحديث وجب حمله على الشكاية مع الله أن إلى الله لا من الله ، فإن الأول قد يتفق للعارفين في مقام الإنبساط والقبض دون الثاني . وحين أذكره الله تعالى نعمه حتى لا ينسى نفسه أوصاه بأن يتعامل مع الخلق مثل معاملة الله معه فقال ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ أي فلا تغلبه على ماله وحقه لضعف حاله .

وانتصب اليتيم بالفعل بعده . والفاء لتلازم ما بعدها لما قبلها . وقرئ " فلا تكهر " أي فلا تعبس في وجهه . يروى أنها نزلت حين صاح النبي صلى الله عليه وسلم على ولد خديجة . وإذا كان هذا العتاب لمجرد الصياح أو العبوس فكيف إذا آذاه أو أكل ماله . عن أنس مرفوعاً " إذا بكى التيم وقعت دموعه في كف الرحمن فيقول الله تعالى : من أبكى هذا التيم الذي واريتُ والده في التراب ؟ من أسكته فله الجنة " " ويروى أنه صلى الله عليه وسلم كان جالساً فجاءه عثمان بعذق من تمر فوضعه بين يديه فأراد أن يأكل فوقف سائل بالباب فقال : يرحم الله عبداً يرحمنا . فأمر بدفعه إلى السائل فكره عثمان ذلك وأراد أن يأكله النبي صلى الله عليه وسلم فخرج واشتراه من السائل ، ثم رجع السائل ففعل ذلك ثلاث مرات إلى أن قال النبي صلى الله عليه وسلم : أسائل أنت أم بائع " ؟ فنزل ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ أي فلا تزجر . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " إذا رددت السائل فلم يرجع فلا عليك أن تزجره " قال العلماء : أما إنه ليس بالسائل المستجدي ولكن طالب العلم إذا جاءك فلا تنهره . ثم أمره بأن يحدث الناس بما أنعم به عليه من الإيواء والهداية والإغناء وغيره . واعلم أنه تعالى نهاه عن شيئين وأمره بواحد ، نهاه عن قهر اليتيم جزاء لما

أنعم به عليه في قوله ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ ونهاه عن نهر السائل في مقابلة قوله ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ وأمره بتحديث نعمه ربه وهو في مقابلة قوله ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ فالأنسب أن يكون المراد به التبليغ وأداء الرسالة وتكميل الناقصين بالدعاء إلى الدين كما قال مجاهد . ولقد روعي في الترتيب نكتة لطيفة فقدّم في معرض المنة النعمة الدينية وهي الهداية على النعمة الدنيوية وهي الإغناء وإما في معرض الإرشاد فقدّم الإشفاق على الخلق ، وأخر التحديث ليكون أدخل في الاستمالة وأجلب للدواعي فإنه ما لم ينتظم أمر المعاش لم تفرغ الخواطر لقبول التكاليف والتزام

(288/819)

أمر المعاد . قال المحققون : التحديث بنعم الله تعالى جائز مطلقاً بل مندوب إليه إذا كان الغرض أن يقتدي غيره به أو أن يشيع شكر ربه بلسانه ، وإذا لم يأمن على نفسه الفتنة والإعجاب فالستر أفضل . قالوا : إنما أخر التحديث تقديماً لحظ الخلق على حظ نفسه لأنه غني وهم المحتاجون ولهذا رضي نفسه بالقول فقط ، ولأن الاستغراق في بحر الشكر ومعرفة المنعم غاية الغايات ونهاية الطاعات .

تنبيه : روي عن البزي أنه قال : قرأت على عكرمة بن سليمان قال : قرأت على إسماعيل

بن عبد الله بن قسطنطين فلما بلغت ﴿ والضحى ﴾ قال : كبر حتى تختم مع خاتمة كل سورة فإني قرأت على عبد الله بن كثير فأمرني بذلك ، وأخبرني ابن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك ، وأخبره مجاهد أنه قرأ على عبد الله بن عباس تسع عشرة ختمة فأمره بذلك في كلها ، وأخبر ابن عباس أنه قرأ على أبيّ بن كعب فأمره بذلك ، وأخبره أبيّ أنه قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره بذلك .

(289/819)

وروي عن الشافعي أنه رأى التكبير سنة في خاتمة ﴿ والضحى ﴾ إلى آخر القرآن . وهكذا روي عن قنبل . والسبب فيه أنه حين انقطع الوحي على ما سبق ذكره وأنزل السورة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر تصديقاً لما أتى به وتكذيباً للكفار . قال العلماء : لا نقول إنه لا بد لمن ختم أن يفعله ولكنه من فعل فقد أحسن ومن ترك فلا حرج . واختلفوا في لفظ التكبير وكان بعضهم يقول : الله أكبر لا غير . وآخرون يقولون : لا إله إلا الله والله أكبر فيهللون قبل التكبير . وأما كيفية الأداء فاعلم أن القارىء إذا وصل التكبير بآخر السورة فإن كان آخرها ساكناً كسره لالتقاء الساكنين فإن همزة الوصل من أول اسم الله تسقط في الدرج وذلك ثلاثة مواضع ﴿ فحدث ﴾ الله أكبر ﴿ فأرغب ﴾

[الشرح: 8] الله أكبر ﴿ واقترب ﴾ [العلق: 19] الله أكبر. وإن كان منوناً كسره
أيضاً سواء كان المنون مفتوحاً أو لا وهو ﴿ توابا ﴾ [النصر: 3] الله أكبر أو مضموماً
وهو ثلاثة ﴿ لخبير ﴾ [العاديات: 11] الله أكبر ﴿ حامية ﴾ [القارعة: 11] الله
أكبر وأحد الله أكبر ومكسوراً وهو أربعة ﴿ ممدة ﴾ [الهمزة: 9] الله أكبر و ﴿ مأكول
﴾ [الفيل: 5] الله أكبر و ﴿ خوف ﴾ [قريش: 4] الله أكبر و ﴿ مسد ﴾ [المسد
: 5] الله أكبر. وإن كان آخر السورة متحركاً غير منون تبقى الحركة بحالها فالمفتوح ثلاثة
﴿ الحاكمين ﴾ [التين: 8] الله أكبر و ﴿ الماعون ﴾ [الماعون: 7] الله أكبر و ﴿
حسد ﴾ [الفلق: 5] الله أكبر والمضموم ثلاثة ﴿ ربه ﴾ [البينة: 8] الله أكبر و ﴿
يره ﴾ [الزلزلة: 8] الله أكبر و ﴿ الأبتر ﴾ [الكوثر: 3] الله أكبر والمكسور خمسة ﴿
مطلع الفجر ﴾ [الفجر: 5] الله أكبر و ﴿ عن النعيم ﴾ [التكاثر: 8] الله أكبر و ﴿
بالصبر ﴾ [العصر: 3] الله أكبر ﴿ ولي دين ﴾ [الكافرون: 6] الله أكبر ﴿ والناس
﴾ [الناس: 6] الله أكبر والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ
520.514 ﴾

وقال الخطيب الشربيني :

سورة الضحى

مكية وهي إحدى عشرة آية وأربعون كلمة ومائة وسبعون حرفاً

ولما نزلت كبر النبيّ صلى الله عليه وسلم فسنّ التكبير آخرها وروى الأمر به خاتمتها وخاتمة كل سورة بعدها وهو الله أكبر أو لا إله إلا الله والله أكبر .

﴿ بسم الله ﴾ الملك ذي الجلال والإكرام ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ بنعمته الخاص والعام ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل ودّه بإتمام الإنعام .

وقوله تعالى : ﴿ والضحى ﴾ قسم ، وقد مرّ الكلام على ذلك وخصه بالقسم لأنها الساعة التي كلم فيها موسى عليه السلام وألقى السحرة فيها سجداً ، وهو صدر النهار كله بدليل أنه قابله بالليل في قوله تعالى:

﴿ والليل ﴾ ، أي : الذي به تمام الصلاح ﴿ إذا سجى ﴾ ، أي : سكن وركد ظلامه يقال ليلة ساجية ساكنة الريح وقيل : معناه سكون الناس والأصوات فيه ، وسجى البحر : سكنت أمواجه ، وطرف ساج فاتر .

وقال قتادة : أقسم بالضحى الذي كلم الله تعالى فيه موسى وبليلة المعراج التي عرج فيها النبيّ صلى الله عليه وسلم فإن قيل : ما الحكمة في أنه تعالى قدّم هنا الضحى وفي السورة التي قبلها الليل ؟

أجيب : بأنّ لكل منهما أثراً عظيماً في صلاح العالم .

ولليل فضيلة السبق لقوله تعالى : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ [الأنعام :]

وللنهار فضيلة النور فقدّم سبحانه هذا تارة وهذا أخرى ، كالركوع والسجود في قوله تعالى : ﴿ اركعوا واسجدوا ﴾ [الحج :]

وقوله تعالى : ﴿ واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ [آل عمران :]

أو أنه قدّم الليل في سورة أبي بكر لأنّ أبا بكر سبقه كفر ، وقدّم الضحى في سورة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه نور محض ولم يتقدّمه ذنب ، أو أنّ سورة الليل سورة أبي بكر وسورة الضحى سورة محمد صلى الله عليه وسلم ولم يجعل بينهما واسطة بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين أبي بكر رضي الله تعالى عنه .

فإن قيل : ما الحكمة في كونه تعالى ذكر الضحى ، وهو ساعة وذكر الليل بجملته ؟

(291/819)

أجيب : بأنّ في ذلك إشارة إلى أن ساعة من نهار توازن جميع الليل كما أن محمداً صلى الله عليه وسلم يوازن جميع الأنبياء عليهم السلام ، وأيضاً الضحى وقت السرور والليل وقت الوحشة ففيه إشارة إلى أنّ سرور الدنيا أقل من شرورها ، وأنّ هموم الدنيا أدوم من

سرورها ، فإنّ الضحى ساعة والليل ساعات .

ويروى أنّ الله تعالى لما خلق العرش أظلت عمامة سوداء ونادت ماذا أمطر ؟ فأجيبت : أن امطري السرور ساعة فلهذا ترى الهموم والأحزان دائمة والسرور قليلاً ونادراً ، وقدّم ذكر الضحى وأخر الليل ؛ لأنه يشبه الموت .

وقوله تعالى : ﴿ ما ودّعك ﴾ ، أي : تركك يا أشرف الرسل تركاً تحصل به فرقة كفرقة المودّع ، ولو على أحسن الوجوه الذي هو مراد المودع ﴿ ربك ﴾ ، أي : المحسن إليك جواب القسم ﴿ وما قلى ﴾ ، أي : وما أبغضك بغضاً ما ، وتركت الكاف لأنه رأس آية كقوله تعالى : ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾ (الأحزاب :)

أي الله .

تنبيه : اختلفوا في سبب نزول هذه الآية على ثلاثة أقوال أحدها ما روى البخاري عن جندب بن سفيان قال : "اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلتين أو ثلاثاً فجاءت أمّ جميل امرأة أبي لهب ، فقالت : يا محمد ، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث" فنزلت .

ثانيها : ما روى أبو عمرو قال : "أبطأ جبريل عليه السلام على النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى شق عليه فجاءه وهو واضع جبهته على الكعبة يدعو وأنزل عليه الآية" .

ثالثها : ما روي "أنّ خولة كانت تخدم النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : إنّ جرواً دخل البيت فدخل تحت السرير فمات فمكث النبيّ صلى الله عليه وسلم أياماً لا ينزل عليه الوحي ، فقال صلى الله عليه وسلم يا خولة ما حدث في بيتي إنّ جبريل عليه السلام لا يأتيني قالت خولة : فكنست فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا جرو ميت فأخذته فألقيته خلف الجدار فجاء نبيّ الله صلى الله عليه وسلم ترعد لحياه وكان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة ، فقال : يا خولة ، دثريني فأنزل الله تعالى هذه السورة .

ولما نزل جبريل عليه السلام سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن التأخير فقال : أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة" .

رابعها : ما روي "أنّ اليهود سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الروح وذي القرنين وأصحاب الكهف ؟ فقال صلى الله عليه وسلم سأخبركم غداً ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس عنه الوحي إلى أن نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ ولا تقولنّ لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ (الكهف :)

فأخبره بما سئل عنه ، وفي هذه القصة نزلت ﴿ ما ودّعك ربك ﴾ " واختلفوا في مدّة احتباس الوحي عنه . فقال ابن جرير : اثنا عشر يوماً . وقال ابن عباس : خمسة عشر يوماً . وقال مقاتل : أربعون يوماً . قالوا : وقال المشركون : إنّ محمداً ودّعه ربه وقلاه فأنزل

الله تعالى هذه السورة فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم "يا جبريل ما جئت حتى اشتقت إليك؟ فقال جبريل عليه السلام: إني كنت إليك أشدّ شوقاً ولكني عبد مأمور وأنزل الله تعالى: ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾" (مريم:)

﴿ وللآخرة ﴾ التي هي المقصود من الوجود بالذات لأنها باقية خاصة عن شوائب الكدر ﴿ خير لك ﴾، أي: لما فيها من الكرامات لك ﴿ من الأولى ﴾، أي: الدنيا الفانية التي لا سرور فيها خالص وقيد تعالى بقوله سبحانه: ﴿ لك ﴾ لأنها ليست خيراً لكل أحد.

(293/819)

قال البقاعي: إنّ الناس على أربعة أقسام: منهم من له الخير في الدارين وهم أهل الطاعة الأغنياء، ومنهم: من له الشرّ فيهما وهم الكفرة الفقراء، ومنهم من له صورة خير في الدنيا وشرّ في الآخرة وهم الكفرة الأغنياء، ومنهم من له صورة شرّ في الدنيا وخير في الآخرة وهم المؤمنون الفقراء. وروى البغوي بسنده عن ابن مسعود قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أهل البيت أختار الله لنا الآخرة على الدنيا".

﴿ ولسوف يعطيك ﴾، أي: بوعد لا خلف فيه وإن تأخر وقته بما أفهمته الأداة ﴿ ربك ﴾، أي: المحسن إليك بسائر النعم في الآخرة من الخيرات عطاء جزيلاً

﴿ فترضى ﴾ ، أي : به فقال صلى الله عليه وسلم "إذاً لا أرضى وواحد من أمّتي في النار" . وعن عبد الله بن عمرو بن العاص : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم رفع يديه وقال : "اللهمّ أمّتي أمّتي وبكى فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك في أمّتك ولا نسوءك" . وعن أبي هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : "لكل نبيّ دعوة مستجابة فتعجل كل نبيّ دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمّتي يوم القيامة فهي نائلة من مات لا يشرك بالله شيئاً" وعن عوف بن مالك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "أتاني آت من عند ربي يخبرني بين أن يدخل نصف أمّتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة ، فهي نائلة من مات لا يشرك بالله شيئاً" . وعن شريح قال : سمعت أبا جعفر محمد بن عليّ يقول : إنكم معشر أهل العراق تقولون أرجى آية في القرآن ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ (الزمر :)

(294/819)

وإنا أهل البيت نقول : أرجى آية في كتاب الله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وفي هذا موعد لما أعطاه الله تعالى في الدنيا من الفتح والظفر بأعدائه يوم بدر ويوم فتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجاً ، والغلبة على قريظة والنضير وإجلائهم وبث عساكره

وسراياه في بلاد العرب وما فتح على خلفائه الراشدين في أقطار الأرض من المدائن ، وهدم بأيديهم من ممالك الجبابرة ، وأنهبتهم من كنوز الأكاسرة وما قذف في قلوب أهل الشرق والغرب من الرعب وتهيب الإسلام وفشوّ الدعوة واستيلاء المسلمين .

ولما أعطاه في الآخرة من الثواب الذي لا يعلم كنهه إلا الله تعالى . قال ابن عباس : له الجنة ألف قصر من لؤلؤ أبيض ترابه المسك . فإن قيل : ما هذه اللام الداخلة على سوف ؟

أجيب : بأنها لام الابتداء المؤكدة لمضمون الجملة ، والمبتدأ محذوف تقديره : ولأنت سوف يعطيك ، وذلك أنها لا تخلو من أن تكون لام قسم ابتداء ، ولام الابتداء ، لا تدخل إلا على الجملة من المبتدأ والخبر فلا بدّ من تقدير مبتدأ وخبر ، وأن يكون أصله : ولأنت سوف يعطيك .

فإن قيل : ما معنى الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير ؟

أجيب : بأن معناه : أنّ العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة على أنه تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بالحال التي كان عليها .

فقال جل ذكره : ﴿ ألم يجدك ﴾ وهو استفهام تقرير ، أي : وجدك ﴿ يتيماً ﴾ وذلك أنّ أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر ، وقيل : مات قبل ولادته وماتت أمّه وهو ابن ثمان سنين . ﴿ فآوى ﴾ ، أي : بأن ضمك إلى عمك أبي طالب فأحسن تربيتك . وعن مجاهد : هو من قول العرب درة يتيمة إذا لم يكن لها نظير ، فالمعنى : ألم يجدك يتيماً واحداً في شرفك فآواك الله تعالى بأصحاب يحفظونك ويحوطونك . وهذا خلاف الظاهر من الآية ، ولهذا قال الزمخشري : ومن بدع التفاسير أنه من قولهم : درة يتيمة ، وأنّ المعنى : ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير فآواك . فإن قيل : كيف أنّ الله تعالى يمنّ بنعمه والمنّ بها لا يليق ، ولهذا ذمّ فرعون في قوله لموسى عليه السلام : ﴿ ألم نربك فينا وليداً ﴾ (الشعراء :)

؟

أجيب : بأنّ ذلك يحسن إذا قصد به تقوية قلبه ووعده بدوام النعمة ، فامتنان الله تعالى زيادة نعمة بخلاف امتنان الآدمي .

واختلفوا في قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ فأكثر المفسرين على أنه كان ضالاً عما هو عليه الآن من الشريعة فهداه الله تعالى إليها ، وقيل : الضلال بمعنى الغفلة كقوله تعالى : ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ (طه :) ، أي : لا يغفل . وقال تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ (يوسف :)

. وقال الضحاك : المعنى : لم تكن تدري القرآن وشرائع الإسلام فهداك إلى القرآن وشرائع الإسلام .

وقال السدي : وجدك ضالاً ، أي : في قوم ضلال فهداهم الله تعالى بك ، أو فهداك على إرشادهم . وقيل : وجدك ضالاً عن الهجرة فهداك إليها . وقيل : ناسياً شأن الاستثناء حين سئلت عن أصحاب الكهف وذي القرنين والروح فذكرك كقوله تعالى : ﴿ أن تضل إحداهما ﴾ (البقرة :)

. وقيل : وجدك طالباً للقبلة فهداك إليها . كقوله تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ (البقرة :)

(296/819)

الآية ، ويكون الضلال بمعنى الطلب لأنّ الضال طالب وقيل : وجدك ضائعاً في قومك فهداك إليهم ، ويكون الضلال . بمعنى المحبة كما قال تعالى : ﴿ تالله إنك لفي ضلالك القديم ﴾ (يوسف :) ، أي : محبتك . قال الشاعر :

*هذا الضلال أشاب مني المفرقا ** والعارضين ولم أكن متحققا *

*عجباً لعزة في اختيار قطيعتي ** بعد الضلال فحبلها قد أخلقا *

وروى الضحاك عن ابن عباس : أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ضل في شعاب مكة وهو صبي صغير فرآه أبو جهل منصرفاً من أغنامه فردّه إلى عبد المطلب . وقال سعيد بن المسيب : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب في قافلة ميسرة عبد خديجة ، فبينما هو راكب ذات ليلة مظلمة ناقة فجاء إبليس فأخذ بزمام الناقة فعدل بها عن الطريق فجاء جبريل عليه السلام فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الحبشة وردّه إلى القافلة ، فمنّ الله تعالى عليه بذلك وقيل : وجدك ضالاً نفسك لا تدري من أنت فعرفك نفسك وحالك . وقال كعب : إنّ حليمة لما قضت حق الرضاع جاءت برسول الله صلى الله عليه وسلم لتردّه على عبد المطلب فسمعت عند باب مكة هنيأ لك يا بطحاء مكة اليوم يرد إليك النور والبهاء والجمال قالت : فوضعته لأصلح شأني فسمعت هدّة شديدة فالتفت فلم أره ، فقلت : معشر الناس أين الصبي ؟ فقالوا : لم نر شيئاً فصحت وامحمداه فإذا شيخ فان يتوكأ على عصا ، فقال : اذهبي إلى الصنم الأعظم فإن شاء أن يرده إليك فعل ثم طاف الشيخ بالصنم وقبل رأسه ، وقال : يا رب لم تزل منتك على قريش وهذه السعدية تزعم أنّ ابنها قد ضلّ فردّه إن شئت فانكب على وجهه وتساقطت الأصنام ، وقالت إليك عنا أيها الشيخ فهلاكنا على يد محمد فألقى الشيخ عصاه وارتعد ، وقال : إنّ لابنك رباً لا يضيعه فاطلبيه على مهل فانحشرت قريش إلى عبد المطلب ، وطلبوه في جميع مكة فلم يجدوه فطاف عبد المطلب بالكعبة سبعاً وتضرّع إلى الله تعالى أن يرده ، وقال:

*يا رب ردّ ولدي محمداً ** اردده ربي واصطنع عندي يدا*

فسمعوا منادياً ينادي من السماء معاشر الناس لا تضجوا فإن لمحمد رباً لا يخذله ولا يضيعه وإنّ محمداً بوادي تهامة عند شجرة السمر فسار عبد المطلب هو وورقة بن نوفل فإذا النبيّ صلى الله عليه وسلم قائم تحت شجرة يلعب بالأغصان وبالورق . وفي رواية ما زال عبد المطلب يردّد البيت حتى أتاه أبو جهل على ناقة ومحمد صلى الله عليه وسلم بين يديه ، وهو يقول : ألا تدري ماذا جرى من ابنك فقال عبد المطلب : ولم؟ فقال : إني أنخت الناقة وأركبته خلفي فأبت الناقة أن تقوم فلما أركبته أمامي قامت الناقة . قال ابن عباس : ردّه الله تعالى إلى جده بيد عدوّه كما فعل موسى عليه السلام حين حفظه عند فرعون . وقيل : وجدك ضالاً ليلة المعراج حين انصرف عنك جبريل وأنت لا تعرف الطريق فهداك إلى ساق العرش . وقال بعض المتكلمين إذا وجدت العرب شجرة منفردة من الأرض لا شجرة معها سموها ضالة فيهدى بها إلى الطريق ، فقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وجدك ضالاً ﴾ ، أي : لا أحد على دينك بل أنت وحيد ليس معك أحد فهديت بك الخلق إليّ .

وقيل : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد غيره فقوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ ، أي : وجد قومك ضلالاً فهداهم بك ، وقيل : غير ذلك . قال الزمخشري : ومن قال : كان على أمر قومه أربعين سنة فإن أراد أنه كان على خلوّهم من العلوم السمعية فنعم ، وإن أراد أنه كان على كفرهم ودينهم فمعاذ الله والأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب أن يكونوا معصومين قبل النبوّة وبعدها من الكبائر والصغائر الشائنة ، فما بال الكفر والجهل بالصانع ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ، وكفى بالنبيّ نقيصة عند الكفار أن يسبق له كفر .

(298/819)

﴿ ووجدك عائلاً ﴾ ، أي : فقيراً ﴿ فأغنى ﴾ قال مقاتل : فرضاك بما أعطاك من الرزق واختاره الفراء ، وقال : لم يكن غني عن كثرة المال ولكن الله تعالى أرضاه بما أعطاه ، وذلك حقيقة الغني . قال صلى الله عليه وسلم "ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس" وقال صلى الله عليه وسلم "قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه" . وقيل : أغناك بمال خديجة وتربية أبي طالب ، ولما اختل ذلك أغناه بمال أبي بكر ولما اختل ذلك أمره بالجهاد وأغناه بالغنائم . روى الزمخشري : أنه صلى الله عليه وسلم قال : "جعل

رزقي تحت ظل رمحي" . وقال الرزاي : العائل ذو العيلة ثم أطلق على الفقير ، ويجوز أن يراد ووجدك ذا عيال لا تقدر على التوسعة عليهم فأغناك بما جعل لك من ربح التجارة ، ثم من كسب الغنائم .

وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته ، قلت : يا رب إنك آتيت سليمان بن داود ملكاً عظيماً ، وآتيت فلاناً كذا قال : يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويتك ، قلت : بلى يا رب . قال : ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ قلت : بلى يا رب ، قال : ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ قلت : بلى يا رب" . وفي رواية "ألم أشرح لك صدرك ووضعت عنك وزرك ؟ قلت بلى يا رب" .

(299/819)

ثم أوصاه باليتامى والمساكين والفقراء فقال تعالى : ﴿ فأمّا اليتيم ﴾ ، أي : هذا النوع ﴿ فلا تقهر ﴾ قال مجاهد : لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيماً . وقال الفراء : لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه كما كانت العرب تفعل في أموال اليتامى ، تأخذ أموالهم وتظلمهم حقوقهم . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم

يحسن إليه ، وشرّ بيت في المسلمين فيه يتيم يساء إليه ، ثم قال بإصبعيه : أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وهو يشير بإصبعيه" . اليتيم منصوب بتقهر ، وبه استدل ابن مالك على أنه لا يلزم من تقديم المعمول تقديم العامل ، ألا ترى أنّ اليتيم منصوب بالمجزوم وقد تقدّم على الجازم ، ولو تقدّم على لا ، لامتنع ؛ لأنّ المجزوم لا يتقدّم على جازمه كالمجرور لا يتقدّم على جاره وفي الآية دلالة على اللطف باليتيم وبره والإحسان إليه ، وقال صلى الله عليه وسلم "من ضمّ يتيماً وكان في نفقته وكفاه مؤنته كان له حجاباً من النار يوم القيامة" . وقال : "من مسح برأس يتيم كان له بكل شعرة حسنة" . وقال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم .

فإن قيل : ما الحكمة في أن الله تعالى اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم اليتم ؟

أجيب : بوجوه:

أحدها : أن يعرف حرارة اليتيم فيرفق باليتيم .

ثانيها : يشاركه في الاسم فيكرمه لأجل ذلك لقوله صلى الله عليه وسلم "إذا سميتم الولد محمداً فأكرموه ووسعوا له في المجلس" .

ثالثها : ليستند من أوّل عمره على الله تعالى فيشبه إبراهيم عليه السلام في قوله : حسبي من سؤالي علمه بحالي .

رابعها : أنّ اليتيم تظهر عيوبه فلما لم يجدوا عيباً لم يجدوا فيه مطعناً .

خامسها : جعله يتيماً ليعلم كل أحد أن فضيلته ابتداء من الله تعالى لا من تعليم ، لأن من له

أب فإنه يؤدّبه ويعلمه .

سادسها : اليتم والفقر نقص في العادة فكونه صلى الله عليه وسلم مع هذين الوصفين من أكرم الخلق كان ذلك قلباً للعادة فيكون معجزة .

﴿ وأما السائل ﴾ ، أي : الذي أحوجته العيلة أو غيرها إلى السؤال ﴿ فلا تنهر ﴾ ، أي : فلا تزجر ، يقال نهره وأنهره إذا زجره وأغلظ عليه القول ولكن ردّه رداً جميلاً قال إبراهيم بن أدهم : نعم القوم السؤال يحملون زادنا إلى الآخرة . وقال إبراهيم النخعي : السائل بريدنا إلى الآخرة يجيء إلى باب أحدكم فيقول : هل تبعثون إلى أهليكم بشيء . وقيل : المراد بالسائل هنا الذي يسأل عن الدين . وروى الزمخشري أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا رددت السائل ثلاثاً فلم يرجع فلا عليك أن تزبره" .

وقيل : أما أنه ليس السائل المستجدي ولكن طالب العلم إذا جاءك فلا تنهره .

﴿ وأما بنعمة ربك ﴾ ، أي : المحسن إليك بالنبوّة وغيرها ﴿ فحدّث ﴾ بها فإن التحدّث بها شكرها ، وإنما يجوز لغيره صلى الله عليه وسلم مثل هذا إذا قصد به اللطف وأن يقتدي به غيره وأمن على نفسه الفتنة والستر أفضل ولو لم يكن في الذكر إلا التشبه بأهل

الرياء والسمعة لكفي .

والمعنى : إنك كنت يتيماً وضالاً وعائلاً فآواك الله وهداك وأغناك ، فمهما يكن من شيء فلا تنس نعمة الله عليك في هذه الثلاث ، واقتد بالله فتعطف على اليتيم وآوه فقد ذقت اليتم وهوانه ورأيت كيف فعل الله تعالى بك ، وترحم على السائل وتفقده بمعروفك ولا تزجره عن بابك كما رحمك ربك فأغناك بعد الفقر ، وحدث بنعمة الله كلها . ويدخل تحت هدايته الضلال وتعليمه الشرائع ، والقرآن مقتد بالله تعالى في أن هداه من الضلالة .

(301/819)

وقال مجاهد : تلك النعمة هي القرآن ، والتحديث به أن يقرأ ويقرئ غيره . وعنه أيضاً : تلك النعمة هي النبوّة ، أي : بلغ ما أنزل إليك من ربك . وقيل : تلك النعمة هي أن وفقك الله سبحانه وتعالى فراعيت حق اليتيم والسائل فحدّث بها ليقتدي بك غيرك . وعن الحسن بن علي قال : إذا عملت خيراً فحدّث به إخوانك ليقتدوا بك إلا أن هذا لا يحسن إلا إذا لم يتضمن رياء وظن أنّ غيره يقتدي به كما علم مما مرّ . وروي "أنّ شخصاً كان جالساً عند النبيّ صلى الله عليه وسلم فرآه رث الثياب فقال له صلى الله عليه وسلم ألك مال؟ قال : نعم . فقال له صلى الله عليه وسلم إذا آتاك الله مالاً فلير أثره عليك" . وروي

أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الله جميل يحب الجمال" ويحب أن يرى أثر النعمة على عبده" . فإن قيل : ما الحكمة في أن الله تعالى أخر حق نفسه عن حق اليتيم والسائل ؟ أجيب : بكأنه يقول : أنا أغنى الأغنياء وهما محتاجان ، وحق المحتاج أولى بالتقديم وأختار قوله سبحانه وتعالى : فحدث على قوله تعالى فأخبر ليكون ذلك حديثاً عنه لا ينساه ويعيده مرّة بعد أخرى .

وقرأ ﴿ والضحى ﴾ ، ﴿ سجى ﴾ ، ﴿ قلى ﴾ ، ﴿ الأولى ﴾ ، ﴿ فترضى ﴾ ، ﴿ فآوى ﴾ ، ﴿ فهدى ﴾ ، ﴿ فأغنى ﴾ ، حمزة والكسائيّ بإمالة محضة لكن حمزة لم يمل سجى ، وأمال ورش وأبو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل ، والباقون بالفتح .

وروى أبيّ بن كعب "أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا بلغ الضحى كبر بين كل سورتين إلى أن يختم القرآن ، ويفصل بينهما بسكتة" . وكان المعنى : في ذلك "أنّ الوحي تأخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً فقال ناس من المشركين : قد ودعه صاحبه وقلاه فنزلت هذه السورة فقال صلى الله عليه وسلم الله أكبر" . قال مجاهد : قرأت على ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فأمرني به ، وأخبر أنه صلى الله عليه وسلم أمره به . وبعض القرّاء لا يكبر لأنّ ذلك ذريعة إلى الزيادة في القرآن .

وقال القرطبي : القرآن ثبت نقله بالتواتر سوره وآياته وحروفه بغير زيادة ولا نقصان فالتكبير ليس بقرآن . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري : إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ سورة والضحى جعله الله فيمن يرضى لمحمد أن يشفع له وعشر حسنات يكتبها الله له بعدد كل يتيم وسائل" حديث موضوع. انتهى انتهى . ا هـ ﴿السراج المنير حـ 8 صـ 370.361﴾

(303/819)

وقال القاسمى :

سورة الضحى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالضُّحَى ﴾

تقدم في سورة ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴾ تفسير الضحى بالضوء وارتفاع النهار ارتفاعاً عالياً .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ أي : اشتد ظلامه . وأصله من التسجية وهي التغطية ، لستره

بظلمته . كما في آية ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ﴾ [النبأ : 10] , ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ جواب القسم ، أي : ما تركك وما قطعك قطع المودّع .

قال الشهاب في " العناية " : فالتوديع مستعار استعارة تبعية للترك هنا ، وفيه من اللطف والتعظيم ما لا يخفى ؛ فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعزُّ مفارقته ، كما قال المتنبي :

~حشاشة نفس ودَّعت يوم ودَّعوا فلم أَدْرِ أي : الظاعِنَيْنِ أُشَيِّعُ

وقال في " شرح الشفاء " : الوداع له معنيان في اللغة : الترك وتشييع المسافر ، فإن فسر بالثاني هنا على طريق الاستعارة يكون فيه إيماء إلى أن الله لم يتركهُ أصلاً ، فإنه معهُ أينما كان . وإنما الترك لو تصور في جانبه ، ظاهر مع دلالته بهذا المعنى على الرجوع ؛ فالتوديع إنما يكون لمن يحب ويرجى عودهُ ، وإليه أشار الأرجاني بقوله :

~إذا رأيت الوداعَ فاصبرْ ولا يُهمنّك البعادُ

~وانتظر العَوْدَ عن قريبٍ فإن قلب الوداع عادُوا

فقوله :

﴿ وَمَا قَلَى ﴾ مؤكد له . قال : وهذا لم أر مَن ذكره مع غاية لطفه ، وكلهم فسروه بالمعنى الأول . ولما رأوا صيغة الفعل تفيد زيادة المعنى والمبالغة فيه ، فيقتضي الانقطاع التام ، قالوا : إن المبالغة في النفي لا في المنفيّ فتركه لحكم عليه ، لا لضرره بهجره ، أو لنفي القيد

والمقيد . وقرئ: ﴿ مَا وَدَعَكَ ﴾ بالتخفيف . وورد في الحديث < شر الناس من ودعه الناس اتقاء فحشه > . وورد في الشعر ، كقوله :

~فَكَانَ مَا قدّموا لأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ نفعاً من الذي وَدَعُوا

(304/819)

ولهذا قال في " المصباح " بهذا : اعلم أن قولهم في علم التصريف : أماتوا ماضي يدع ويذر خطأ ، وجعله استعارة من الوديعة تعسّف . انتهى .

وكذا قال في " المستوفى " : إنه كله ورد في كلام العرب ، ولا عبرة بكلام النحاة فيه ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، وإن كان نادرا . انتهى

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا قَلَى ﴾ أي : وما أبغضك . والقالي : المبغض . يعني ما هجرك عن بغض .

قال الشهاب : وحذف مفعول ﴿ قَلَى ﴾ اختصاراً للعلم به ، وليجري على نهج الفواصل التي بعده ، أو لئلا يخاطبهُ بما يدل على البغض .

تنبيه :

روى ابن جرير : عن ابن عباس < أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه القرآن أبطأ

عنه جبريل أياماً > فعُيِّر بذلك ؛ فقال المشركون : ودعهُ ربُّهُ وقلاهُ ؛ فأنزل اللهُ هذه الآية ، وفي رواية : أن قائل ذلك امرأة أبي لهب ، وفي أخرى أنها خديجة رضي الله عنها . ولا تنافي ، لاحتمال صدوره من الجميع ، إلا أن قول المشركين وقول خديجة – أن صح توجع وتحزن – وفي رواية إسماعيل مولى آل الزبير قال : فتر الوحي حتى شق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وأحزنه . فقال : < لقد خشيت أن يكون صاحبي قلاني > .

فجاء جبريل بسورة ﴿ والضحى ﴾ .

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ قال ابن جرير : أي : وللدار الآخرة وما أعد الله لك فيها ، خير لك من الدار الدنيا وما فيها . يقول : فلا تحزن على ما فاتك منها ، فإن الذي لك عند الله خير لك منها . وقال القاضي : أو : لنهاية أمرك خير من بدايته . فإنه صلى الله عليه وسلم لا يزال يتصاعد في الرفعة والكمال .

(305/819)

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ أي : يعطيك من فواضل نعمه في العقبى حتى ترضى ، وهذه عِدةٌ كريمة شاملة لما أعطاه الله تعالى في الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخرين ، وظهور الأمر وإعلاء الدين ، بالفتوح الواقعة في عصره عليه الصلاة والسلام ،

وفي أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من ملوك الإسلام ، وفشوّ دعوته في مشارق الأرض ومغاربها ، ولِما ادخر له من الكرامات التي لا يعلمها إلا الله تعالى . وبالجملة فهذه الآية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدارين ، حيث أجملهُ ووكلهُ إلى رضاهُ وهذا غاية الإحسان والإكرام .

تنبيه :

قال في "المواهب اللدنية" : وأما ما يغترُّ به الجهال من أنه < لا يرضى واحداً من أمته في النار > ، أو لا يَرضى أن يدخل أحد من أمته النار ، فهو من غرور الشيطان لهم ، ولعبه بهم ؛ فإنه صلوات الله عليه وسلامه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى ، وهو سبحانه وتعالى يُدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة ، وقد ولع الحشوية بتقوية أمثال هذه الآثار المفتراة تغريراً للجهال وتزييناً لموارد الضلال . ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾

قال أبو السعود : تعديد لما أفاض عليه من أول أمره إلى ذلك الوقت من فنون النعماء العظام ، ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود فيطمئن قلبهُ وينشرح صدره .

والهمزة لإنكار النفي وتقرير المنفيّ على أبلغ وجه ، كأنه قيل : قد وجدك إلخ . والوجود بمعنى العلم .

روي < أن أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر ، وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب وعطَّفه الله عليه فأحسن تربيته > وذلك إيواؤه ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى ﴾ أي : غافلاً عما أوحاه إليك من الهدى والفرقان ، فهداك إليه وجعلك إماماً له ، كما في آية ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴾ [الشورى : 52] .

قال الشهاب : فالضلال مستعار من : ضل في طريقه ، إذا سلك طريقاً غير موصلة لمقصده لعدم ما يوصلهُ للعلوم النافعة ، من طريق الاكتساب .

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً ﴾ أي : فقيراً ﴿ فَأَغْنَى ﴾ أي : فأغناك بمال خديجة الذي وهبتهُ إياهُ . أو بما حصل لك من ربح التجارة .

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ فلا تغلبهُ على ماله فتذهب بحقه ، استعطافاً منك له .

﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ قال ابن جرير : أي : وأما من سألك من ذي حاجة فلا تنهره ، ولكن أطعمه واقض له حاجته ، أي : لأن للسائل حقاً ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج : 24 - 25] .

وقد ذهب الحسن - فيما نقله الرازي - إلى أن المراد من السائل من يسأل العلم ، فيكون في

مقابلة قوله تعالى :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ وهكذا قال ابن كثير : أي : وكما كنت ضالاً فهداك الله ، فلا تنهر السائل في العلم المسترشد . قال الإمام : ويؤيد هذا المعنى ما ورد في أحوال الذين كانوا يسألونه عليه الصلاة والسلام بيان ما يشتبه عليهم ، فمنهم أهل الكتاب الممارون ، ومنهم الأعراب الجفاة . ومنه من كان يسأل عما لا يسال عنه الأنبياء ، فلا غرو أن يأمره الله بالرفق بهم ، وينهاه عن نهرهم ، كما عاتبهُ على التوليّ عن الأعمى السائل ، في سورة عبس . انتهى .

(307/819)

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي : بشكرها وإظهار آثارها فيرغب فيما لديه منها ، ويحرص على أن تصدر المحاويج عنها . وهذا هو سر الأمر بالتحدث بها . وفي الآية تنبيه على أدب عظيم وهو التصدي للتحدث بالنعمة وإشهارها ، حرصاً على التفضل والجود والتخلق بالكرم ، وفراراً من رذيلة الشح الذي رائده كتم النعمة والتمسكن والشكوى . قال الإمام : من عادة البخلاء أن يكتموا مالهم ، لتقوم لهم الحجة في قبض أيديهم عن البذل ، فلا تجدهم إلا شاكين من القل . أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل ما آتاهم الله من

فضله ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه . فلهذا صح أن يجعل التحديث بالنعمة كناية عن البذل وإطعام الفقراء وإعانة المحتاجين . فهذا من قوله :

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ أي : إنك لما عرفت بنفسك ما يكون فيه الفقير ، فأوسع في البذل على الفقراء . وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة ، فإن هذا من الفجفجة التي يتنزه عنها النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرف عنه في امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض ، ولكن الذي عرف منه أنه كان < ينفق ما عنده ويبيت طاوياً > .

وقد يقال : أن المراد من النعمة النبوة ، ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه الآية مقابلة لقوله :

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً ﴾ فتكون النعمة بمعنى الغنى ، ولو كانت بمعنى النبوة ، لكانت مقابلة لقوله :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالّاً ﴾ وقد علمت الحق في مقابله . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 418 . 423 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الضحى

وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2)

سورة الضحى

تعريف بسورة الضحى

هذه السورة بموضوعها , وتعبيرها , ومشاهدها , وظلالها وإيقاعها , لمسة من حنان . ونسمة من رحمة , وطائف من ود . ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع , وتنسم بالروح والرضى والأمل . وتسكب البرد والطمأنينة واليقين .

إنها كلها خالصة للنبي (صلى الله عليه وسلم) كلها نجاء له من ربه , وتسرية وتسلية وترويح وتطمين . كلها أنسام من الرحمة وأنداء من الود , وألطاف من القربى , وهدهدة للروح المتعب , والخاطر المقلق , والقلب الموجوع .

ورد في روايات كثيرة أن الوحي فتر عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأبطأ عليه جبريل - عليه السلام - فقال المشركون: ودع محمدا ربه ! فأنزل الله تعالى هذه السورة .

.

والوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله , كانت هي زاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مشقة الطريق . وسقياه في هجير الجحود . وروحه في لأواء التكذيب . وكان (صلى

الله عليه وسلم) يحيا بها في هذه الهاجرة المحرقة التي يعانيها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة . ويعانيها في المكر والكيد والأذى المصبوب على الدعوة , وعلى الإيمان , وعلى الهدى من طغاة المشركين .

فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد , وانحبس عنه الينبوع , واستوحش قلبه من الحبيب .

وبقي للهاجرة وحده . بلا زاد . وبلا ري . وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود .

وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه . .

عندئذ نزلت هذه السورة . نزل هذا الفيض من الود والحب والرحمة والإيناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين .

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

(ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى) . .

وما تركك ربك من قبل أبدا , وما قلاك من قبل قط , وما أخلاك من رحمته ورعايته وإيوائه

. .

(ألم يجدك يتيما فآوى ? ووجدك ضالا فهدى ? ووجدك عائلا فأغنى ?) . .

ألا تجد مصداق هذا في حياتك ? ألا تحس مس هذا في قلبك ? ألا ترى أثر هذا في واقعك

?

لا . لا . . (ما ودعك ربك وما قلى) . . وما انقطع عنك بره وما ينقطع أبدا .

. (وللآخرة خير لك من الأولى) . . وهناك ما هو أكثر وأوفى: (ولسوف يعطيك ربك

فترضى) !

ومع هذه الأنسام اللطيفة من حقيقة الأمر وروحه . . الأنسام اللطيفة في العبارة والإيقاع .

. وفي الإطار الكوني الذي وضعت فيه هذه الحقيقة:

(والضحى . والليل إذا سجى) . .

"لقد أطلق التعبير جوا من الحنان اللطيف , والرحمة الوديعة , والرضى الشامل , والشجى

الشفيف:

(ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى) . . (ألم يجدك يتيما فآوى ? ووجدك ضالا فهدى ? ووجدك عائلا فأغنى ?) .

. ذلك الحنان . وتلك الرحمة . وذاك الرضى . وهذا الشجى: تنسرب كلها من خلال النظم اللطيف العبارة , الرقيق اللفظ , ومن هذه الموسيقى السارية في التعبير . الموسيقى الرتيبة الحركات , الوئيدة الخطوات , الرقيقة الأصداء , الشجية الإيقاع . . فلما أراد إطارا لهذا الحنان اللطيف , ولهذه الرحمة الوديعة , ولهذا الرضى الشامل , ولهذا الشجي الشفيف , جعل الإطار من الضحى الرائق , ومن الليل الساجي . أصفى آنين من آونة الليل والنهار . وأشف آنين تسري فيهما التأملات . وتتصل الروح بالوجود وخالق الوجود . وتحس بعبادة الكون كله لمبدعه , وتوجهه لبارئه بالتسبيح والفرح والصفاء . وصورهما في اللفظ المناسب . فالليل هو (الليل إذا سجى) , لا الليل على إطلاقه بوحشته وظلامه . الليل الساجي الذي يرق ويسكن ويصفو , وتغشاه سحابة رقيقة من الشجى الشفيف , والتأمل الوديع . كجو اليتم والعيلة . ثم ينكشف ويجلي مع الضحى الرائق الصافي . . فتلتئم ألوان الصورة مع ألوان الإطار . ويتم التناسق والإتساق" .

إن هذا الإبداع في كمال الجمال ليدل على الصنعة . صنعة الله التي لا تماثلها صنعة , ولا يتلبس بها تقليد !

(والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك . وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى
ولسوف يعطيك ربك فترضى) . .

(311/819)

يقسم الله سبحانه – بهذين الآنين الرائقين الموحيين . فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس . ويوحي إلى القلب البشري بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل الحي , المتعاطف مع كل حي . فيعيش ذلك القلب في أنس من هذا الوجود , غير موحش ولا غريب فيه فريد . . وفي هذه السورة بالذات يكون لهذا الأنس وقعه . فظل الأنس هو المراد مده . وكأنما يوحي الله لرسوله (صلى الله عليه وسلم) منذ مطلع السورة , أن ربه أفاض من حوله الأنس في هذا الوجود , وأنه من ثم غير مجفو فيه ولا فريد !

وبعد هذا الإيحاء الكوني يجيء التوكيد المباشر :(ما ودعك ربك وما قلى) . . ما تركك ربك ولا جافاك – كما زعم من يريدون إيذاء روحك وإيجاع قلبك وإقلاق خاطرك . . وهو (ربك) وأنت عبده المنسوب إليه , المضاف إلى ربوبيته , وهو راعيك وكافلك . .

وما غاض معين فضله وفيض عطائه . فإن لك عنده في الآخرة من الحسنى خيرا مما يعطيك منها في الدنيا :(وللآخرة خير لك من الأولى) . . فهو الخير أولا وأخيرا . .

وإنه ليدخر لك ما يرضيك من التوفيق في دعوتك , وإزاحة العقبات من طريقك , وغلبة منهجك , وظهور حقك . . وهي الأمور التي كانت تشغل باله (صلى الله عليه وسلم) وهو يواجه العناد والتكذيب والأذى والكيد . . والشماتة . . (ولسوف يعطيك ربك فترضى) . .

ويمضي سياق السورة يذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما كان من شأن ربه معه منذ أول الطريق . ليستحضر في خاطره جميل صنع ربه به , ومودته له , وفيضه عليه , ويستمتع باستعادة مواقع الرحمة والود والإيناس الإلهي . وهو متاع فائق تحييه الذكرى على هذا النحو البديع:

(ألم يجدك يتيما فآوى ? ووجدك ضالا فهدى ? ووجدك عائلا فأغنى ?) . .

انظر في واقع حالك , وماضي حياتك . . هل ودعك ربك وهل قلاك - حتى قبل أن يعهد إليك بهذا الأمر ? - ألم تحط يتمك رعايته ? ألم تدرك حيرتك هدايته ? ألم يغمر فقرك عطاؤه ?

لقد ولدت يتيما فآواك إليه , وعطف عليك القلوب حتى قلب عمك أبي طالب وهو على غير دينك !

ولقد كنت فقيرا فأغنى الله نفسك بالقناعة , كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك [خديجة رضي الله عنها] عن أن تحس الفقر , أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء !

ثم لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد , منحرفة السلوك والأوضاع , فلم تطمئن روحك إليها . ولكنك لم تكن تجد لك طريقا واضحا مطمئنا . لا فيما عند الجاهلية ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا . . ثم هداك الله بالأمر الذي أوحي به إليك , وبالمنهج الذي يصلك به .

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هي المنة الكبرى , التي لا تعدلها منة ; وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق ; ومن التعب الذي لا يعدله تعب , ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعانيه في هذه الفترة , من انقطاع الوحي وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب . فجاءت هذه تذكره وتطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتيه !

وبمناسبة ما ذكره ربه بإيوائه من اليتم , وهدايته من الحيرة وإغنائه من العيلة . . يوجهه ويوجه المسلمين من ورائه إلى رعاية كل يتيم , وإلى كفاية كل سائل , وإلى التحدث بنعمة الله

الكبرى عليه, وفي أولها: الهداية إلى هذا الدين:

(فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث) . .

وهذه التوجيهات إلى إكرام اليتيم والنهي عن قهره وكسر خاطره وإذلاله, وإلى إغناء السائل مع الرفق به والكرامة, كانت - كما ذكرنا مرارا - من أهم إيحاءات الواقع في البيئة الجاحدة المتكالبة, التي لا ترعى حق ضعيف, غير قادر على حماية حقه بسيفه ! حيث رفع الإسلام هذه البيئة بشرعة الله إلى الحق والعدل, والتحرج والتقوى, والوقوف عند حدود الله, الذي يحرس حدوده ويغار عليها ويغضب للاعتداء على حقوق عباده الضعاف الذين لا يملكون قوة ولا سيفا يذودون به عن هذه الحقوق .

وأما التحدث بنعمة الله - وبخاصة نعمة الهدى والإيمان - فهو صورة من صور الشكر للمنعم . يكملها البر بعباده, وهو المظهر العملي للشكر, والحديث الصامت النافع الكريم . . انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3925 . 3928 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

سُورَةُ الضُّحَى

وَالضُّحَى (1)

تقدم معنى الضحى في السورة المتقدمة .

وقيل : المراد به هنا النهار كله ، كما في قوله : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القرى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف : 97 - 98] ، وقوله : ﴿ والليل إِذَا سجى ﴾ قيل : أقبل ، وقيل : شدة ظلامه ، وقيل : غطى ، وقيل : سكن .

واختار الشيخ رحمه الله علينا وعليه إملائه معنى : سكن .

واختار ابن جرير أنه سكن بأهله ، وثبت بظلامه ، قال كما يقال بحر ساج ، إذا كان ساكناً ، ومنه قول الأعشى :

فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم . . . وبحرك ساج ما يواري الدعامصا

وقول الراجز :

يا حبذا القمراء والليل الساج . . . وطرق مثل ملاء النساج

وأنشدهما القرطبي ، وذكر قول جرير :

ولقد رميتك يوم رحن بأعين . . . ينظرن من خلل الستور سواج

أقسم تعالى بالضحى والليل هنا فقط لمناسبتها للمقسم عليه ، لأنهما طرفا الزمن وظرف الحركة والسكون ، فإنه يقول له مؤانساً : ما ودعك ربك وما قلى ، لا في ليل ولا في نهار ، على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله .

وقوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ ، قرئ بالتشديد من توديع المفارق . وقرئ : ما ودعك ، بالتخفيف من الودع ، أي من الترك ، كما قال أبو الأسود :

ليت شعري عن خليل ما الذي . . . نما له في الحب حتى ودعه

أي تركوهم فرائس السيوف .

قال أبو حيان : والتوديع مبالغة في الودع ، لأن من ودعك مفارقاً ، فقد بالغ في تركك . اه .

والقراءة الأولى أشهر وأولى ، لأن استعمال ودع بمعنى ترك قليل .

قال القرطبي : وقال المبرد : لا يكادون يقولون : ودع ولا وذر ، لضعف الواو إذا قدمت واستغنوا عنها بترك ، ويدل على قول المبرد سقوط الواو في المضارع ، فتقول في مضارع : ودع يدع كيزن ويهب ويرث ، من المضارع : يذرهم ، والأمر : ذرهم . فترجحت قراءة

الجمهور بالتشديد من ودعك من التوديع .

وقد ذكرنا هذا الترجيح ، لأن ودع بمعنى فيها شدة وشبه جفوة وقطيعة ، وهذا لا يليق بمقام المصطفى صلى الله عليه وسلم عند ربه . أما الموادعة والوداع ، فقد يكون مع المودة والصلة ، كما يكون بين المحبين عند الافتراق ، فهو وإن وادعه بجسمه فإنه لم يوادعه بحبه وعطفه ، والسؤال عنه وهو ما يتناسب مع قوله تعالى : ﴿ وَمَا قلى ﴾ .

تنبيه

هنا ما ودعك بصيغة الماضي ، وهو كذلك للمستقبل ، بدليل الواقع وبدليل ﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ [الضحى : 4] ، لأنها تدل على مواصلة عناية الله به حتى يصل إلى الآخرة فيجدها خيراً له من الأولى ، فيكون ما بين ذلك كله في عناية ورعاية ربه .

وقد جاء في صلح الحديبية ، قال لعمر : أنا عبد الله ورسوله ، أي تحت رحمته وفي رعايته .

وقوله : وما قلى ، حذف كاف الخطاب لثبوتها فيما معها ، فدلت عليها هكذا ، قال المفسرون :

وقال بعضهم : تركت لرأس الآية ، والذي يظهر من لطيف الخطاب ورقيق الإيناس ومداخل اللطف ، أن الموادعة تشعر بالوفاء والود ، فأبرزت فيها كاف الخطاب ، أي لم تتأت موادعتك وأنت الحبيب ، والمصطفى المقرب .

أما قلى : ففيها معنى البغض ، فلم يناسب إبرازها في إبعاد قصده صلى الله عليه وسلم بشيء من هذا المعنى ، كما تقول لعزيز عليك : لقد أكرمتك ، وما أهنت لقد قربتك ، وما أبعدت كراهية أن تنطق بإهانته وكراهيته ، أو تصرح بها في حقه ، والقلى : يمد ويقصر هو البغض ، يمد إذا فتحت القاف ، ويقصر إذا كسرتها ، وهو واوي ويائي ، وذكر القرطبي ، قال : انشد ثعلب :

أيام أم الغمر لا نقلاها . . . ولو تشاء قبلت عَينا ها

(316/819)

وقال في كثير عزة :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة . . . لدينا ولا مقلية إن تقلت

فالأول قال : فقلاها من الواوي ، والثاني قال : مقلية من الياء ، وهما في اللسان شواهد :

وقد جاء في السيرة ما يشهد لهذا المعنى ويثبت دوام موالاته سبحانه لحبيبه وعنايته به وحفظه له بما كان بكاؤه به عمه ، وقد قال عمه في ذلك :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم . . . حتى أوسد في التراب دفينا

وذكر ابن هشام في رعاية عمه له ، أنه كان إذا جنَّ الليل وأرادوا أن يناموا ، تركه مع أولاده

يناموں ، حتى إذا أخذ كل مضجعه ، عمد عمه إلى واحد من أبنائه ، فأقامه وأتى بمحمد صلى الله عليه وسلم ينام موضعه ، وذهب بولده ينام مكان محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان هناك من يريد به سوءاً فرأى مكانه في أول الليل ، ثم جاء من يريده بسوء وقع السوء بابنه ، وسلم محمد صلى الله عليه وسلم ، كما فعل الصديق رضي الله عنه عند الخروج إلى الهجرة في طريقهما إلى الغار ، فكان رضي الله عنه تارة يمشي أمامه صلى الله عليه وسلم ، وتارة يمشي وراءه ، فسأله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : " أذكر الرصيد فأكون أمامك ، وأذكر الطلب فأكون وراءك ، فقال : أتريد لو كان سوء يكون بك يا أبا بكر ؟ قال : بلى ، فداك أبي وأمي يا رسول الله ، ثم قال : إن أهلك أهلك وحدي ، وإن تهلك تهلك معك الدعوة " فذاك عمه في جاهلية وليس على دينه صلى الله عليه وسلم ، وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4)

(317/819)

خير تأتي مصدراً كقوله : إن ترك خيراً أي مالاً كثيراً ، وتأتي أفعل تفضيل محذوفة الهمزة ، وهي هنا أفعل تفضيل بدليل ذكر المقابل ، وذكر حرف من ، مما يدل على أنه سبحانه

أعطاه في الدنيا خيرات كثيرة ، ولكن ما يكون له في الآخرة فهو خير وأفضل مما أعطاه في الدنيا ، ويوهم أن الآخرة خير له صلى الله عليه وسلم وحده من الأولى ، ولكن جاء النص على أنها خير للأبرار جميعاً ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران : 198] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان الخيرية للأبرار عند الله ، أي يوم القيامة بما أعد لهم ، كما في قوله : ﴿ إِنَّ الأبرار لَفِي نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار : 13] ، وقوله : ﴿ إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [الإنسان : 5] .

أما بيان الخيرية هنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبيان الخير في الدنيا أولاً ، ثم بيان الأفضل منه في الآخرة .

أما في الدنيا المدلول عليه بأفعل التفضيل ، أي لدلالته على اشتراك الأمرين في الوصف ، وزيادة أحدهما على الآخر ، فقد أشار إليه في هذه السورة والتي بعدها ، ففي هذه السورة قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى ﴾ [الضحى : 6] ، أي منذ ولادته ونشأته ، ولقد تعهده الله سبحانه من صغره فصانه عن دنس الشرك ، وطهّره وشق صدره ونقاه ، وكان رغم يتمه سيد شباب قريش ، حيث قال عمه عند خطبته خديجة لزواجه بها فقال : " فتى لا يعادله فتى من قريش ، حلماً وعقلاً وخلقاً ، إلا رجح عليه " .

وقوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فأغنى ﴾ [7-8] .

على ما سيأتي بيانه كله ، فهي نعم يعددها تعالى عليه ، وهي من أعظم خيرات الدنيا من صغره إلى شبابه وكبره ، ثم اصطفائه بالرسالة ، ثم حفظه من الناس ، ثم نصره على الأعداء ، وإظهار دينه وإعلاء كلمته .

(318/819)

ومن الناحية المعنوية ما جاء في السورة بعدها : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الانشراح: 1-4] .

أما خيرية الآخرة على الأولى ، فعلى حد قوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضحى : 5] ، وليس بعد الرضى مطلب ، وفي الجملة : فإن الأولى دار عمل وتكليف وجهاد ، والآخرة دار جزاء وثواب وإكرام ، فهي لا شك أفضل من الأولى .

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5)

جاء مؤكداً باللام وسوف ، وقال بعض العلماء : يعطيه في الدنيا من إتمام الدين وإعلاء كلمة الله ، والنصر من الأعداء .

والجمهور : أنه في الآخرة ، وهذا إن كان على سبيل الإجمال ، إلا أنه فصل في بعض المواضع ، فأعظمها ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ [

الإسراء : 79] .

وجاء في السنة بيان المقام المحمود وهو الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون ، كما في حديث الشفاعة العظمى حين يتخلى كل نبي ، ويقول : " نفسي نفسي ، حتى يصلوا إلى النّبي صلى الله عليه وسلم فيقول : أنا لها أنا لها " إلخ .

ومنها : الحوض المورود ، وما خصت به أمته غراً محجلين ، يردون عليه الحوض .

ومنها ، الوسيلة ، وهي منزلة رفيعة عالية لا تنبغي إلا لعبد واحد ، كما في الحديث : " إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا عليّ وسلوا الله لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلاّ لعبد واحد ، وأرجوا أن أكون أنا هو " .

وإذا كانت لعبد واحد فمن يستقدم عليها ، وإذا رجا ربه أن تكون له طلب من الأمة طلبها له ، فهومما يؤكد أنها له ، وإلاّ لما طلبها ولا ترجاها ، ولا أمر بطلبها له . وهو بلا شك أحق بها من جميع الخلق ، إذ الخلق أفضلهم الرسل ، وهو صلى الله عليه وسلم مقدم عليهم في الدنيا ، كما في الإسراء تقدم عليهم في الصلاة في بيت المقدس .

ومنها : الشفاعة في دخول الجنة كما في الحديث : " أنه صلى الله عليه وسلم أول من تفتح له الجنة ، وأن رضواناً خازن الجنة يقول له : أمرت ألا أفتح لأحد قبلك " .

ومنها : الشفاعة ، المتعددة حتى لا يبقى أحد من أمته في النار ، كما في الحديث : " لا أرضى وأحد من أمتي في النار " أسأل الله أن يرزقنا شفاعته ، ويوردنا حوضه . آمين .

وشفاعته الخاصة في الخاص في عمه أبي طالب ، فيخفف عنه بها ما كان فيه .

ومنها : شهادته على الرسل ، وشهادة أمته على الأمم وغير ذلك ، وهذه بلا شك عطايا من الله العزيز الحكيم لحبيبه وصفيه الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

تنبيه

اللام في ﴿ وَلَلآخِرَةُ ﴾ وفي ﴿ وَلَسَوْفَ ﴾ للتأكيد وليست للقسم ، وهي في الأول دخلت على المبتدأ ، وفي الثانية المبتدأ محذوف تقديره ، لأنت سوف يعطيك ربك فترضى . قاله أبو حيان وأبو السعود .

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6)

تقدم بيان معنى اليتيم عند قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ [الإنسان : 8] .

والرسول صلى الله عليه وسلم مات أبوه ، وهو حمل له ستة أشهر ، وماتت أمه وهي عائدة

من المدينة بالأبواء وعمره صلى الله عليه وسلم.

وقد قيل: إن يتمه لأنه لا يكون لأحد حق عليه، نقله أبو حيان.

والذي يظهر أن يتمه راجع إلى قوله ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾، أي ليتولى الله تعالى أمره من صغره، وتقدم معنى إيواء الله له، فكان يتمه لإبراز فضله، لأن يتيم الأمس أصبح سيد الغد، وكافل اليتامى.

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7)

الضلال: يكون حساً ومعنى، فالأول: كمن تاه في طريق يسلكه، والثاني: كمن ترك الحق فلم يتبعه. فقال قوم: المراد هنا هو الأول، كأن ضل في شعب من شعاب مكة، أو في طريقه إلى الشام. ونحو ذلك.

وقال آخرون: إنما هو عبارة عن عدم التعليم أولاً ثم منحه من العلم مما لم يكن يعلم، كقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: 52].

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، بحث هذه المسألة في عدة مواضع: أولاً في

سورة يوسف عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : 8] ، وساق شواهد الضلال لغة هناك .

وثانياً : في سورة الكهف عند قوله تعالى : ﴿ الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 104] .

وثالثاً : في سورة الشعراء عند قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَاْ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 20] .

وفي دفع إيهام الاضطراب أيضاً : وهذا كله يغني عن أي بحث آخر .

ومن الطريف ما ذكره أبو حيان عند هذه الآية ، حيث قال : ولقد رأيت في النوم ، أني أفكر في هذه الجملة ، فأقول على الفور : ووجدك : أي وجد رهطك ضالاً فهداه بك ، ثم أقول : على حذف مضاف ، نحو : واسأل القرية . اهـ .

وقد أورد النيسابوري هذا وجهاً في الآية ، وبهذه المناسبة أذكر منامين كنت رأيتهما ولم أرد ذكرهما حتى رأيت هذا لأبي حيان ، فاستأنست به لذكرهما ، وهما : الأول عندما وصلت إلى سورة ن عند قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4] ، ومن منهج الأضواء تفسير القرآن بالقرآن ، وأين حكمه وصفحه وصبره وكرمه وعطفه ورحمته ورأفته وجهاده وعبادته ، وكل ذلك مما جعلني أقف حائراً وأمكث عن الكتابة عدة أيام ، فرأيت الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في النوم ، كأننا في الجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة، وكأنه ليس في نشاطه العادي، فسألته ماذا عندك اليوم؟

فقال: عندي تفسير.

(321/819)

فقلت: أتدرس اليوم؟ قال: لا، فقلت: وما هذا الذي بيدك؟ لدفتر في يده، فقال: مذكرة تفسير، أي التي كان سيفسرها وهي مخطوطة، فقلت له: من أين في القرآن؟ فقال: من أول ن إلى آخر القرآن، فحرصت على أخذها لأكتب منها، ولم أتجرأ على طلبها صراحة، ولكن قلت له: إذا كنت لم تدرس اليوم فأعطنيها أبيضها وأجلدها لك، وآتيك بها غداً، فأعطانيها فانتبهت فرحاً بذلك وبدأت في الكتابة.

والمرة الثانية في سورة المطففين، لما كتبت على معنى التطفيف، ثم فكرت في التوعد الشديد عليه ما يتأتى فيه من شيء طفيف، حتى فكرت في أن له صلة بالربا، إذا ما بيع جنس بجنسه، فحصلت مغايرة في الكيل ووقع تفاضل، ولكني لم أجد من قال به، فرأيت فيما يرى النائم، أني مع الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، ولكن لم يتحدث معي في شيء من التفسير.

وبعد أن راح عني، فإذا بشخص لا أعرفه يقول: وأنا أسمع دون أن يوجه الحديث إليَّ إن في

التطفيف ربا ً، إذا بيع الحديد بحديد ، وكلمة أخرى في معناها نسيتها بعد أن انتبهت .

وقد ذكرت ذلك تأسيا ً بأبي حيان ، لما أجد فيه من إيناس ، والله أسأل أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ، وأن يهدينا سواء السبيل ، وعلى ما جاء في الرؤيا من مبشرات . وبالله تعالى التوفيق .

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8)

العائل : صاحب العيال ، وقيل : العائل الفقير : على أنه من لازم العيال الحاجة ، ولكن ليس بلازم ، ومقابلة عائلاً بأغنى ، تدل على أن معنى عائلاً أي فقيرا ً، ولذا قال الشاعر :

فما يدري الفَقسر متى غناه . . . ومَا يدري الغنى متى يعيل

وما تدري وإن ذمرت سقبا . . . لغيرك أم يكون لك الفَصيل

وهذا مما يذكره الله لنبيه صلى الله عليه وسلم من تعداد النعم عليه ، وأنه لم يودعه وما قلاه ، لقد كان فقيرا ً من المال فأغناه الله بمال عمه .

وقد قال عمه في خطبة نكاحه بخديجة : وإن كان في المال قلّ فما أحببتم من الصداق ، فعليّ ، ثم أغناه الله بمال خديجة ، حيث جعلت مالها تحت يده .

قال النيسابوري ما نصه : يروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل على خديجة وهو مغموم ، فقالت : مالك ؟ فقال : الزمان زمان قحط ، فإن أنا بذلت المال ينفد مالك ، فأستحي منك ، وإن أنا لم أبذل أخاف الله ، فدعت قريشاً وفيهم الصديق ، قال الصديق : فأخرجت دنانير حتى وضعتها ، بلغت مباناً لم يقع بصري على من كان جالساً قدامي ، ثم قالت : اشهدوا أن هذا المال ماله ، إن شاء فرّقه وإن شاء أمسكه .

فهذه القصة وإن لم يذكر سندها ، فليس بغريب على خديجة رضي الله عنه أن تفعل ذلك له صلى الله عليه وسلم ، وقد فعلت ما هو أعظم من ذلك ، حيث دخلت معه الشعب فتركت مالها ، واختارت مشاركته صلى الله عليه وسلم لما هو فيه من ضيق العيش ، حتى أكلوا ورق الشجر ، وأموالها طائلة في بيتها .

ثم كانت الهجرة وكانت مواساة الأنصار ، لقد قدم المدينة تاركاً ماله ومال خديجة ، حتى إن الصديق ليدفع ثمن المربد لبناء المسجد ، وكان بعد ذلك فيء بني النضير ، وكان يقضي الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، لا يوقد في بيته صلى الله عليه وسلم نار ، إنما هما الأسودان : التمر والماء .

ثم جاءت غنائم حنين ، فأعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، ورجع بدون شيء ، وجاء مال البحرين فأخذ العباس ما يطيق حمله ، وأخيراً توفي صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة في آصع من شعير .

وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فأغنى ﴾ ، يشير إلى هذا الموضع ، لأن أغنى تعبير بالفعل ، وهو يدل على التجدد والحدوث ، فقد كان صلى الله عليه وسلم من حيث المال حالاً فحالاً ، والواقع أن غناه صلى الله عليه وسلم كان قبل كل شيء ، هو غنى النفس والاستغناء عن الناس ، ويكفي أنه صلى الله عليه وسلم أجود الناس .

(323/819)

وكان إذا لقيه جبريل ودارسه القرآن كالريح المرسلة ، فكان صلى الله عليه وسلم القدوة في الحالتين ، في حالي الفقر والغنى ، إن ما قلَّ ماله صبر ، وإن كثر بذل وشكر .

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل

ومما يدل على عظم عطاء الله له مما فاق كل عطاء . قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المثاني والقرآن العظيم لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : 87-88] .

وقد اختلفوا في المقارنة بين الفقير الصابر والغني الشاكر ، ولكن الله تعالى قد جمع لرسوله صلى الله عليه وسلم كلا الأمرين ، ليرسم القدوة المثلى في الحالتين .

تنبيه

في الآية إشارة إلى أن الإيواء والهدى والغنى من الله لإسنادها هنا لله تعالى .

ولكن في السياق لطيفة دقيقة ، وهي معرض التقرير ، يأتي بكاف الخطاب : ألم يجدك يتيماً ، ألم يجدك ضالاً ، ألم يجدك عائلاً ، لتأكيد التقرير ، لم يسند اليتيم ولا الإضلال ولا الفقر لله ، مع أن كله من الله ، فهو الذي أوقع عليه اليتيم ، وهو سبحانه الذي منه كلما وجده عليه ، ذلك لما فيه من إيلام له ، فما يسنده لله ظاهراً ، ولما فيه من التقرير عليه أبرز ضمير الخطاب .

وفي تعداد النعم : فآوى ، فهدى ، فأغنى . أسند كله إلى ضمير المنعم ، ولم يبرز ضمير الخطاب .

قال المفسرون : لمراعاة رؤوس الآي والفواصل ، ولكن الذي يظهر والله تعالى أعلم : أنه لما كان فيه امتنان ، وأنها نعم مادية لم يبرز الضمير لئلا يثقل عليه المنة ، بينما أبرزه في : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الانشراح : 1-4] . لأنها نعم معنوية ، انفرد بها صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9)

مجيء الفاء هنا مشعر ، إما بتفريغ وهذا ضعيف ، وإما بإفصاح عن تعدد ، وقد ذكر الجمل بتقدير ، مهما يكن من شيء .

وقد ساق تعالى هنا ثلاث مسائل : الأولى معاملة الأيتام فقال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ، أي كما آواك والله فآوه ، وكما أكرمك فأكرمه .

وقالوا : قهر اليتيم أخذ ماله وظلمه .

وقيل : قرئ بالكاف " تكهر " ، فقالوا : هو بمعنى القهر إلاّ انه أشد .

وقيل : هو بمعنى عبوسة الوجه ، والمعنى أعم ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " اللَّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ومن العجز والكسل ، ومن الجبن والبخل ، ومن غلبة الدَّين وقهر الرجال " ، فالقهر أعم من ذلك .

وبالنظر في نصوص القرآن العديدة في شأن اليتيم ، والتي زادت على العشرين موضعاً ، فإنه يمكن تصنيفها إلى خمسة أبواب كلها تدور حول دفع المضار عنه ، وجلب المصالح له في ماله وفي نفسه ، فهذه أربعة ، وفي الحالة الزوجية ، وهي الخامسة . أما دفع المضار في ماله ، ففي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام : 152] ، جاءت مرتين في سورة الأنعام والأخرى في سورة الإسراء ، وفي كل من السورتين ضمن الوصايا العشر المعروفة في سورة الأنعام ، بدأت بقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الأنعام : 151] .

وذكر قتل الولد وقربان الفواحش وقتل النفس ثم مال اليتيم . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن .

ويلاحظ أن النهي منصب على مجرد الاقتراب من ماله إلاّ بالتي هي أحسن ، وقد بين تعالى التي هي أحسن بقوله : ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بالمعروف ﴾ [النساء : 6] .

(325/819)

وقد نص الفقهاء على أن من ولي مال اليتيم واستحق أجراً ، فله الأقل من أحد أمرين : إما نفقته في نفسه ، وإما أجرته على عمله ، أي إن كان العمل يستحق أجرة ألف ريال ، ونفقته يكفي لها خمسمائة أخذ نفقته فقط ، وإن كان العمل يكفيه أجرة مائة ريال ، ونفقته خمسمائة أخذ أجرته كائنة فقط ، حفظاً لماله .

ثم بعد النهي عن اقتراب مال اليتيم ذلك ، فقد تتطلع بعض النفوس إلى فوارق بسيطة من باب التحيل أو نحوه ، من استبدال شيء مكان شيء ، فيكون طريقاً ، لاستبدال طيب بخبيث ، فجاء قوله تعالى : ﴿ وَآتُواْ اليتامى أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَتَبَدَّلُواْ الخبيث بالطيب وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إلى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً ﴾ [النساء : 2] .

والحوب : أعظم الذنب ، ففيه النهي عن استبدال طيب ماله ، بخبيث مال الولي أو غيره حسداً له على ماله ، كما نهى عن خلط ماله مع مال غيره كوسيلة لأكله مع مال الغير ، وهذا منع للتحيل وسد الذريعة ، حفظاً لماله .

ثم يأتي الوعيد الشديد في صورة مفزعة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾ [النساء : 10] .

وقد اتفق العلماء : أن الآية شملت في النهي عن أكل أموال اليتامى كل ما فيه اتلاف أو تفويت سواء كان بأكل حقيقة أو باختلاس أو بإحراق أو إغراق ، وهو المعروف عند الأصوليين بالإلحاق بنفي الفراق ، إذ لا فرق في ضياع مال اليتيم عليه ، بين كونه بأكل أو إحراق بنار أو إغراق في ماء حتى الإهمال فيه ، فهو تفويت عليه وكل ذلك حفظاً لماله .

(326/819)

وأخيراً ، فإذا تم الحفاظ على ماله لم يقربه إلا بالتي هي أحسن ، ولم يبدله بغيره أقل منه ، ولم يخلطه بماله ليأكله عليه ، ولم يعتد عليه بأي اتلاف كان محفوظاً له ، إلى أن يذهب يتمه ويثبت رشده ، فيأتي قوله تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إِذَا بَلَغُواْ النكاح فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ

رُشْداً فادفعوا إِلَيهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَن يَكْبَرُواْ ﴾ [النساء: 6].

ثم أحاط دفع المال إليه بموجبات الحفظ بقوله في آخر الآية: ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء: 6]، أي حتى لا تكون مناكرة فيما بعد.

وفي الختام ينبه الله فيهم وازع مراقبة الله بقوله: ﴿ وكفى بالله حَسِيباً ﴾ [النساء: 6]، وفيه إشعار بأن أمواله تدفع إليه بعد محاسبة دقيقة فيما له وعليه.

ومهما يكن من دقة في الحساب، فالله سيحاسب عنه، وكفى بالله حسيباً، وهذا كله في حفظ ماله.

أما جلب المصالح، فإننا نجد فيها أولاً جله مع الوالدين، والأقربين، في عدة مواطن، منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ والأقربين واليتامى ﴾ [البقرة: 215].

ومنها قوله: إيراده في أنواع البر من الإيمان بالله وإنفاق المال ﴿ ولكن البر مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وَآتَى المال على حُبِّهِ ذَوِي القربى واليتامى والمساكين ﴾ [البقرة: 177]، إلى آخر الآية.

ومنها : هو ما أدخل في الموضوع حيث جعل له نصيباً في التركة في قوله : ﴿ وَإِذَا حَضَرَ القسمة أُوْلُوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم مِّنْهُ ﴾ [النساء : 8] ، بصرف النظر عن مباحث الآية من جهات أخرى ، ومرة أخرى يجعل لهم نصيباً فيما هو أعلى منزلة في قوله تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بالله ﴾ [الأنفال : 41] الاية .

وكذلك في سورة الحشر في قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَفَآءَ الله على رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القرى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [الحشر : 7] .

فجعلهم الله مع ذي القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد جعله الله في عموم وصف الأبرار ، وسبباً للوصول إلى أعلى درجات النعيم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأبرار يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ [الإنسان : 5] .

وذكر أفعالهم التي منها : أنهم يوفون بالنذر ثم بعدها : أنهم يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً .

وجعل أفعالهم التي منها : أنهم يوفون بالنذر ، ثم بعدها : أنهم يطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً .

وجعل هذا الإطعام اجتياز العقبة في قوله : ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة وَمَآ أَدْرَاكَ مَا العقبة فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 11-15] الآية .

ولقد وجدنا ما هو أعظم من ذلك ، وهو أن يسوق الله الخضر وموسى عليهما السلام ليقيما جداراً ليتيمين على كنز لهما حتى يبلغا أشدهما ، في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الجدار فَكَانَ لِغلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المدينة وَكَانَ تَحْتَهُ كنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف : 82] .

هذا هو الجانب المالي من دفع المضرة عنه في حفظه ماله ، ومن جانب جلب النفع إليه عن طريق المال .

أما الجانب النفسي فكالآتي :

أولاً : عدم مساءته في نفسه ، فمنها قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الذي يُكَذِّبُ بالدين فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ اليتيم وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ [الماعون : 1–3] .

ومنها قوله : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم وَلاَ تَحَاضُّونَ على طَعَامِ المسكين ﴾ [الفجر : 17–18] ، فقدم إكرامه إشارة له .

ثانيا : في الإحسان إليه ، منها قوله تعالى : ﴿ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ الله وبالوالدين إِحْسَاناً وَذِي

القربى واليتامى ﴾ [البقرة: 83]، فيحسن إليه كما يحسن لوالديه ولذي القربى.

ومنها سؤال، وجوابه من الله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ اليتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ والله يَعْلَمُ المفسد مِنَ المصلح ﴾ [البقرة: 220]، أي تعاملونهم كما تعاملون الإخوان، وهذا أعلى درجات الإحسان والمعروف، ولذا قال تعالى: ﴿ والله يَعْلَمُ المفسد مِنَ المصلح ﴾.

(329/819)

وفي تقديم ذكر المفسد على المصلح: إشعار لشدة التحذير من الإفساد في معاملته، ولأنه محل التحذير في موطن آخر جعلهم بمنزلة الأولاد في قوله: ﴿ وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا الله وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [النساء: 9].

أي حتى في مخاطبتهم إياهم لأنهم بمنزلة أولادهم، بل ربما كان لهم أولاد فما بعد أيتاماً من بعدهم، فكما يخشون على أولادهم إذا صاروا أيتاماً من بعدهم، فليحسنوا معاملة الأيتام في أيديهم وهذه غاية درجات العناية والرعاية.

تلك هي نصوص القرآن في حسن معاملة اليتيم وعدم الإساءة إليه، مما يفصل مجمل قوله: ﴿ فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ ﴾.

لا بكلمة سديدة ولا بحرمانه من شيء يحتاجه ، ولا بإتلاف ماله ، ولا بالتحيل على أكله وإضاعته ، ولا بشيء بالكلية ، لا في نفسه ولا في ماله .

والأحاديث من السنة على ذلك عديدة بالغة مبلغها في حقه ، وكان صلى الله عليه وسلم أرحم الناس به وأشفقهم عليه ، حتى قال : " أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين – يشير إلى السبابة والوسطى – وفرّج بينهما " رواه البخاري وأبو داود والترمذي .

وفي رواية أبي هريرة عند مسلم ومالك : "كافل اليتيم له أو لغيره " أي قريب له أو بعيد عنه .

وعن أحمد والطبراني مرفوعاً :

" من ضم يتيماً من بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه ، وجبت له الجنة " قال المنذري : رواه أحمد ، محتج بهم إلا علي بن زيد .

وعن بن ماجه عن أنه صلى الله عليه وسلم قال : " خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم ، يُحسن إليه . وشر بيت في المسلمين ، بيت فيه يتيم يُساء إليه " .

وجاء عند أبي داود ما هو أبعد من هذا وذلك ، حتى إن الأم لتعطل مصالحها من أجل أيتامها ، في قوله صلى الله عليه وسلم " أنا وامرأة سعفاء الخدين كهاتين يوم القيامة -وأومأ بيده- يزيد بن زريع- بفتح الزاي وإسكانم الباء- بالوسطى والسبابة امرأة آمت زوجها- بألف ممدودة وميم مفتوحة وتاء- أصبحت أيماً ، بوفاة زوجها- ذات منصب وجمال حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا " .

وجعله الله دواء لقساوة القلب ، كما روى أحمد ورجاله الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ان رجلاً شكا إلى رسول الله صلى الله عيله وسلم قسوة قلبه فقال : " امسح رأس اليتيم ، وأطعم المسكين " .

وهنا يتجلى سر لطيف في مثالية التشريع الإسلامي ، حيث يخاطب الله تعالى أفضل الخلق وأرحمهم ، وأرأفهم بعباد الله ، الموصوف بقوله تعالى : ﴿ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] ، وبقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4] ، ليكون مثالاً مثالياً في أمة قست قلوبها وغلظت طباعها ، فلا يرحمون ضعيفاً ، ولا يؤدون حقاً إلى من قوة يدينون لمبدأ " من عزَّ بزّ ، ومن غلب استلب " يفاخرون بالظلم ويتهاجون بالأمانة ، كما قال شاعرهم :

قبيلة لا يخفرون بذمة . . . ولا يظلمون الناس حبة خردل

ويقول حكيمهم :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه . . . يهدم ومن لم يظلم الناس يظلم

قوم يئدون بناتهم ، ويحرمون من الميراث نساءهم ، يأكلون التراث أكلاً لماً ، ويحبون المال حباً جماً ، فقلب مقاييسهم وعدل مفاهيمهم ، فألان قلوبهم ورقق طباعهم ، فلانوا مع هذا الضعيف وحفظوا حقه .

(331/819)

وحقيقة هذا التشريع الإلهي الحكيم منذ أربعة عشر قرناً تأتي فوق كل ما تتطلع إليه آمال الحضارات الإنسانية كلها ، مما يحقق كمال التكامل الاجتماعي بأبهى معانيه ، المنوه عنه في الآية الكريمة ﴿ وَلْيَخْشَ الذين لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾ [النساء : 9] ، فجعل كافل اليتيم اليوم ، إنما يعمل حتى فيما بعد لو ترك ذرية ضعافاً ، وعبَّر هنا عن الأيتام بلازمهم وهو الضعف إبرازاً لحاجة اليتيم إلى الإحسان ، بسبب ضعفه فيكونون موضع خوفهم عليهم لضعفهم ، فليعاملوا الأيتام تحت أيديهم ، كما يحبون أن يعامل غيرهم أيتامهم من بعدهم .

وهكذا تضع الآية أمامنا تكافلاً اجتماعياً في كفالة اليتيم ، بل إن اليتيم نفسه ، فإنه يتيم اليوم ورجل الغد ، فكما تحسن إليه يحسن هو إلى أيتامك من بعدك ، وكما تدين تدان ، فإن

كان خيراً كان الخير بالخير والبادئ أكرم ، وإن شراً كان بمثله والبادئ أظلم .

ومع هذا الحق المتبادل ، فإن الإسلام يحث عليه ويعني به ، ورغَّب في الإحسان إليه وأجزل المثوبة عليه ، وحذّر من الإساءة عليه ، وشدد العقوبة فيه .

وقد يكون فيما أوردناه إطالة ، ولكنه وفاءً بحق اليتيم أولاً ، وتأثر بكثرة ما يلاقيه اليتيم ثانياً .

تنبيه

ليس من باب الإساءة إلى اليتيم تأديبه والحزم معه ، بل ذلك من مصلحته كما قيل :

قس ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

وقوله :

﴿ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ [10] ، قالوا : السائل الفقير والمحتاج ، يسأل ما يسد حاجته وهو مقابل لقوله : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فأغنى ﴾ [الضحى : 8] ، أي فكما اغناك الله وبدون سؤال ، فإذا أتاك سائل فلا تنهره ، ولو في رد الجواب بالتي هي أحسن .

ومعلوم : أن الجواب بلطف ، قد يقوم مقام العطاء في إجابة السائل ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا لم يجد ما يعطيه للسائل يعده وعداً حسناً لحين ميسره ، أخذاً من قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ [الإسراء : 28] .

وقد أورد الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيتين عند هذه الآى في هذا المعنى ، هما قول الشاعر :

إن لم تكن ورق يوماً أجود بها . . . للسائلين فإني لين العود

لا يعدم السائلون الخير من خلقي . . . إما نوالي وإما حسن مردود

فليسعد النطق إن لم يسعد المال .

وقيل : السائل المستفسر عن مسائل الدين والمسترشد ، وقالوا هذا مقابل قوله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ﴾ [الضحى : 7] ، أي لا تنهر مستغنياً ولا مسترشداً ، كقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وتولى أَن جَآءَهُ الأعمى ﴾ [عبس : 1-2] .

وقد كان صلى الله عليه وسلم رحيماً شفيقاً على الجاهل حتى يتعلم ، كما في قصة الأعرابي الذي بال في المسجد حين صاح به الصحابة فقال لهم " لا تزرموه " إلى أن قال الأعرابي : اللهم ارحمني وارحم محمداً ولا ترحم منها أحداً أبداً " وكالآخر الذي جاء يضرب صدره وينتف شعره ويقول : " هلكت وأهلكت ، واقعت أهلي في رمضان ، حتى

كان من أمره أن أعطاه فرقاً من طعامه يكفّر به عن ذنبه ، فقال : اعلى فقر منا يا رسول الله ؟ فقال : " قم فأطعمه أهلك " .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يقف للمرأة في الطريق يصغي إليها حتى يضيق من معه وهو يصبر لها ولم ينهرها ، بل يجيبها على أسئلتها .

وقد حث صلى الله عليه وسلم على إكرام طلب العلم ، وبين أن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، وأن الحيتان في البحر لتستغفر له رضى بما يصنع .

وقوله : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [11] : النعمة كل ما أنعم الله به على العبد ، وهي كل ما ينعم به العبد من مال وعافية وهداية ونصرة من النعومة واللين ، فقيل : المراد بها المذكورات والتحدث بها شكرها عملياً من إيواء اليتيم كما آواه الله ، وإعطاء السائل كما أغناه الله ، وتعليم المسترشد كما علمه الله ، وهذا من شكر النعمة ، أي كما أنعم الله عليك ، فتنعّم انت على غيرك تأسياً بفعل الله معك .

وقيل : التحدث بنعمة الله هو التبليغ عن الله من آية وحديث ، والنعمة هنا عامة لتنكيرها وإضافتها ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل : 53] ، أي كل

نعمة ، ولكن الذي يظهر أنها في الوحي أظهر هو أولى بها ، أو هو أعظمها ، لقوله تعالى : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] ، فقال : نعمتي ، وهنا نعمة ربك . ولا يبعد عندي أن يكون صلى الله عليه وسلم إنما نحر مائة ناقة في حجة الوداع ، لما أنزل الله عليه هذه الآية ، ففعل شكراً لله على إتمام النعمة بإكمال الدين .

وقد قالوا في مناسبة هذه السورة بما قبلها : إن التي قبلها في الصديق ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى الذى يُؤْتِي مَالَهُ يتزكى وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تجزى إِلاَّ ابتغآء وَجْهِ رَبِّهِ الأعلى وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ [الليل : 17-21] ، وهنا في الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 3-5] ، مع الفارق الكبير في العطاء والخطاب .

والواقع أن مناسبات السور القصار ، أظهر من مناسبات الآي في السورة الواحدة ، كما بين هاتين السورتين والليل مع الضحى ، ثم ما بين الضحى وألم نشرح ، إنها تتمة النعم التي يعددها الله تعالى على رسوله .

وهكذا على ما ستأتي الإشارة إليه في محله إن شاء الله تعالى . أعلم علماً بأن بعض العلماء لم يعتبر تلك المناسبات .

ولكن ما كانت المناسبة فيه واضحة ، فلا ينبغي إغفاله ، وما كانت خفية لا ينبغي التكلف له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(335/819)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الضُّحَى

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾

قِيلَ : لَا تَقْهَرْهُ بِظُلْمِهِ وَأَخْذِ مَالِهِ .

وَخَصَّ الْيَتِيمَ ; لِأَنَّهُ لَا نَاصِرَ لَهُ غَيْرُ اللَّهِ ، فَغَلَّظَ فِي أَمْرِهِ لِتَغْلِيظِ الْعُقُوبَةِ عَلَى ظَالِمِهِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ اتَّقُوا ظُلْمَ مَنْ لَا نَاصِرَ لَهُ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ فِيهِ نَهْيٌ عَنْ إغْلَاظِ الْقَوْلِ لَهُ ; لِأَنَّ الِانْتِهَارَ هُوَ

الزَّجْرُ وَإِغْلَاظُ الْقَوْلِ ؛ وَقَدْ أَمَرَ فِي آيَةٍ أُخْرَى بِحُسْنِ الْقَوْلِ لَهُ ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّك تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا ﴾ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ قَدْ أُرِيدَ بِهِ جَمِيعُ الْمُكَلَّفِينَ .

آخِرُ السُّورَةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(336/819)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الضُّحَى

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالضُّحَى ﴾ : فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ : ﴿ الضُّحَى ﴾ : هُوَ ضَوْءُ النَّهَارِ حِينَ تُشْرِقُ الشَّمْسُ ، وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ ، يُقَالُ : ارْتَفَعَتْ الضُّحَى ، وَمَعْنَاهَا هُوَ الضَّوْءُ مُذَكَّرٌ ، وَتَصْغِيرُهُ ضُحَيًّا ، فَإِذَا فَتَحْت مَدَدْت ، قَالَ الشَّاعِرُ :

أُعَجِّلُهَا أَقْدُحِي الضَّحَاءَ ضُحًى وَهِيَ تُنَاصِي ذَوَائِبَ السَّلْمِ يَصِفُ أَنَّهُ نَامَ عَنْ إبِلٍ ، فَأَخَذَهَا ضُحًى قَبْلَ أَنْ تَبْلُغَ الضَّحَاءُ .

وَتَبَيَّنَ بِهَذَا أَنَّ الضَّحَاءَ بَعْدَ الضُّحَى، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَمَادَى إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ، فَفِي الْحَدِيثِ: ﴿ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدِمَ الْمَدِينَةَ حِينَ هَاجَرَ، وَقَدِ اشْتَدَّ الضَّحَاءُ، وَكَادَتِ الشَّمْسُ تَزُولُ ﴾.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا: وَفِيهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُمِيَ بِالْحَجَرِ فِي إِصْبَعِهِ فَدَمِيَتْ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ أَنْتِ إِلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتْ.

وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتْ.

قَالَ: فَمَكَثَ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا لَا يَقُومُ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ؛ مَا أَرَى شَيْطَانَكَ إِلَّا قَدْ تَرَكَكَ؛ فَنَزَلَتْ السُّورَةُ ﴾.

(337/819)

الثَّانِي: رَوَى جُنْدُبُ بْنُ سُفْيَانَ فِي الصَّحِيحِ قَالَ: ﴿ اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ ﴾.

وَفِي رِوَايَةٍ: مَا أَرَى صَاحِبَكَ إِلَّا أَبْطَأَكَ، فَنَزَلَتْ.

وَهَذَا أَصَحُّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ بَوَّبَ عَلَيْهِ الْبُخَارِيُّ فِي بَابِ " تَرْكُ الْقِيَامِ لِلْمَرِيضِ " وَأَدْخَلَ الْحَدِيثَ لِيَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ وُجُوبُ قِيَامِ اللَّيْلِ .

وَقَدْ قَدَّمْنَا الْقَوْلَ الْمُحَقَّقَ فِيهِ فِي سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ فَرْضًا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحْدَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ الْحَدِيثُ ﴿ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اشْتَكَى ، فَتَرَكَ الْقِيَامَ ﴾ صَحِيحٌ وَذِكْرُهُ فِيهِ : ﴿ هَلْ أَنْتِ إلَّا إصْبَعٌ دَمِيتْ .

وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيت ﴾ .

غَيْرُ صَحِيحٍ [وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ ﴾ أَسْقَطَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالْبُخَارِيُّ فِي كِتَابَيْهِمَا ، وَهُوَ صَحِيحٌ ، خَرَّجَهُ الْقَاضِي أَبُو إسْحَاقَ وَغَيْرُهُ مِنْ طَرِيقٍ صَحِيحَةٍ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي صَرِيحِ الصَّحِيحِ] .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ : فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ فِيهَا قَوْلَيْنِ : الْأَوَّلُ : وَأَمَّا السَّائِلَ [لِلْبِرِّ] فَلَا تَنْهَرْ أَيْ رُدَّهُ بِلِينٍ وَرَحْمَةٍ ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ .

الثَّانِي : سَائِلُ الدِّينِ لِلْبَيَانِ لَا تَنْهَرْهُ بِالْجَفْوَةِ وَالْغِلْظَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ أَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ سَائِلُ الْبِرِّ فَقَدْ قَدَّمْنَا وُجُوهَ السُّؤَالِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَكَيْفِيَّةَ الْعَمَلِ فِيهِ ، وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ، فَكَيْفَ بِالْأَذَى دُونَ الصَّدَقَةِ .

وَأَمَّا السَّائِلُ عَنْ الدِّينِ فَجَوَابُهُ فَرْضٌ عَلَى الْعَالِمِ عَلَى الْكِفَايَةِ كَإِعْطَاءِ سَائِلِ الْبِرِّ سَوَاءً ، وَقَدْ كَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَنْظُرُ إلَى أَصْحَابِ الْحَدِيثِ ، وَيَبْسُطُ رِدَاءَهُ لَهُمْ ، وَيَقُولُ : مَرْحَبًا بِأَحِبَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَفِي حَدِيثِ أَبِي هَارُونَ الْعَبْدِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : كُنَّا إذَا أَتَيْنَا أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ : مَرْحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : { إنَّ النَّاسَ لَكُمْ تَبَعٌ ، وَإِنَّ رِجَالًا يَأْتُونَكُمْ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ يَتَفَقَّهُونَ ، فَإِذَا أَتَوْكُمْ فَاسْتَوْصُوا بِهِمْ خَيْرًا } .

وَفِي رِوَايَةٍ : { يَأْتِيكُمْ رِجَالٌ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ } فَذَكَرَهُ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : { وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّك فَحَدِّثْ } : فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي قَوْله : [وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّك فَحَدِّثْ] ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهَا النُّبُوَّةُ .

الثَّانِي : أَنَّهَا الْقُرْآنُ .

الثَّالِثُ : إذَا أَصَبْت خَيْرًا أَوْ عَمِلْت خَيْرًا فَحَدِّثْ بِهِ الثِّقَةَ مِنْ إخْوَانِك ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ أَمَّا مَنْ قَالَ إِنَّهَا النُّبُوَّةُ فَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ، قَالَ: ﴿ جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، اقْرَأْ.

قَالَ: وَمَا أَقْرَأُ؟ قَالَ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فَقَالَ لِخَدِيجَةَ: يَا خَدِيجَةُ؛ مَا أُرَانِي إلَّا قَدْ عُرِضَ لِي.

فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاَللَّهِ، مَا كَانَ رَبُّكَ لِيَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ، وَمَا أَتَيْتَ فَاحِشَةً قَطُّ.

قَالَ: فَأَتَتْ خَدِيجَةُ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ؛ فَقَالَ وَرَقَةُ: إنْ تَكُونِي صَادِقَةً فَزَوْجُكِ نَبِيٌّ، وَلَيَلْقَيَنَّ مِنْ أُمَّتِهِ شِدَّةً، فَاحْتَبَسَ جِبْرِيلُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: يَا مُحَمَّدُ، مَا أَرَى رَبَّكَ إلَّا قَدْ قَلَاكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَالضُّحَى ﴾ ﴾ يَعْنِي السُّورَةَ.

فَهَذَا حَدِيثُهُ بِالنُّبُوَّةِ.

وَأَمَّا حَدِيثُهُ بِالْقُرْآنِ فَتَبْلِيغُهُ إيَّاهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَاتِمًا مِنْ الْوَحْيِ شَيْئًا لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾.

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا كَتَمَ شَيْئًا مِنْ الْوَحْيِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ ، وَاَللَّهُ يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إلَيْك مِنْ رَبِّك وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْت رِسَالَتَهُ ﴾ .

وَأَمَّا

تَحَدُّثُهُ بِعَمَلٍ فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ بِإِخْلَاصٍ مِنْ النِّيَّةِ عِنْدَ أَهْلِ الثِّقَةِ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا خَرَجَ إلَى الرِّيَاءِ ، وَأَسَاءَ الظَّنَّ بِسَامِعِهِ .

وَقَدْ رَوَى أَيُّوبُ ؛ قَالَ : دَخَلْت عَلَى أَبِي رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيِّ ، فَقَالَ : لَقَدْ رَزَقَ اللَّهُ الْبَارِحَةَ خَيْرًا ، صَلَّيْت كَذَا وَسَبَّحْت كَذَا .

قَالَ : قَالَ : أَيُّوبُ : فَاحْتَمَلْت ذَلِكَ لِأَبِي رَجَاءٍ .

وَمِنْ الْحَدِيثِ بِالنِّعْمَةِ إظْهَارُهَا بِالْمَلْبَسِ وَالْمَرْكَبِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ إذَا أَنْعَمَ عَلَى عَبْدٍ بِنِعْمَةٍ أَحَبَّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ ﴾ ؛ وَإِظْهَارُهَا بِالْمَلْبَسِ وَالْمَرْكَبِ .

وَإِظْهَارُهَا بِالْجَدِيدِ وَالْقَوِيِّ مِنْ الثِّيَابِ النَّقِيِّ ، وَلَيْسَ بِالْخَلَقِ الْوَسِخِ ، وَفِي الْمَرْكَبِ اقْتِنَاؤُهُ

لِلْجِهَادِ أَوْ لِسَبِيلِ الْحَلَالِ ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(341/819)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الضحى

وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2)

قوله : ﴿ سجى ﴾ : قيل : معناه سَكَن ، ومنه : سجا البحر يَسْجُو سَجْواً ، أي : سَكَنَتْ أمواجُه ، وطَرْفٌ ساجٍ ، أي : فاتر ، ومنه اسْتُعِير تَسْجِيَةُ الميتِ ، أي : تَغْطِيَتُه بالثوبِ ، قاله الراغب وقال الأعشى :

4589 وما ذَنْبُنا إنْ جاش بَحْرُ ابنِ عَمِّكُمْ . . . وبَحْرُكَ ساجٍ لا يُوارِي الدَّعامِصا

وقيل : سجا ، أي : أَدْبَرَ وقيل بعكسِه . وقال الفراء : " أظلم " . وقال ابن الأعرابي : " اشتدَّ ظلامُه " وقال الشاعر :

4590 يا حبَّذا القَمْراءُ والليلُ السَّاجْ . . . وطُرُقٌ مِثْلُ مُلاءِ النِّسَّاجْ

وهو من ذواتِ الواوِ ، وإنما أُميل لموافقةِ رؤوسِ الآيِ ، كالضُّحى فإنه من ذواتِ الواوِ ايضاً .

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3)

قوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ ﴾ : هذا هو الجوابُ . والعامَّةُ على تشديد الدالِ من التَّوْديع . [

وقرأ] عروة بن الزبير وابنه هشام وأبو حيوة وابن أبي عبلة بتخفيفِها مِنْ قولِهم : وَدَعَه ، أي

: تركه والمشهورُ في اللغةِ الاستغناءُ عن وَدَعَ ووَذَرَ واسمِ فاعِلهما واسمِ مفعولِهما

ومصدرِهما ب " تَرَكَ " وما تصرَّفَ منه ، وقد جاء وَدَعَ ووَذَرَ . قال الشاعر :

4591 سَلْ أميري ما الذي غَيَّرَهْ . . . عن وِصالي اليومَ حتى وَدَعَهْ

وقال الشاعر :

4592 وثُمَّ وَدَعْنا آلَ عمروٍ وعامرٍ . . . فرائِسَ أَطْرافِ المُثَقَّفةِ السُّمْرِ

قيل : والتوديعُ مبالغةٌ في الوَدْع ؛ لأنَ مَنْ وَدَّعك مفارقاً فقد بالغ في تَرْكِك .

قوله : ﴿ وَمَا قلى ﴾ أي : ما أَبْغَضَك ، قلاه يَقْلِيه بكسر العين في المضارع ، وطيِّىء تقول

: قلاه يقلاه بالفتح قال الشاعر :

4593 أيا مَنْ لَسْتُ أَنْساه . . . ولا واللَّهِ أَقْلاه

لكَ اللَّهُ على ذاكَ . . . لكَ اللَّهُ [لكَ اللَّهُ]

وحُذِفَ مفعولُ " قَلَى " مراعاةً للفواصلِ مع العِلْم به وكذا بعدَ " فآوى " وما بعدَه .

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4)

قوله : ﴿ وَلَلآخِرَةُ ﴾ : الظاهرُ في هذه اللامِ أنَّها جوابُ القسم ، وكذلك في " ولَسَوْفَ " أَقْسم تعالى على أربعةِ أشياءَ : اثنان منفيَّان وهما توديعُه وقِلاه ، واثنان مُثْبَتان مؤكَّدان ، وهما كونُ الآخرةِ خيراً له من الدنيا ، وأنه سوف يُعْطيه ما يُرضيه . وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : ما هذه اللامُ الداخلةُ على " سَوْف " ؟ قلت : هي لامُ الابتداءِ المؤكِّدةُ لمضمون الجملة ، والمبتدأُ محذوفٌ تقديرُه : ولأنت سَوْفَ يُعْطيك ، كما ذَكَرْنا في ﴿ لاَ أُقْسِمُ ﴾ [القيامة : 1] أن المعنى : لأَنا أُقْسِمُ . وذلك أنها لا تَخْلو : مِنْ أَنْ تكونَ لامَ قسمٍ أو ابتداء . فلامُ القسم لا تدخلُ على المضارعِ إلاَّ مع نونِ التوكيد ، فبقي أن تكونَ لامَ ابتداءِ ، ولامُ الابتداء لا تدخل إلاَّ على الجملة من المبتدأ والخبرِ فلا بُدَّ من تقدير [مبتدأ] وخبره ، وأصله : ولأنت سوف يعطيك " ونقل الشيخ عنه أنه قال : " وخُلِع من اللامِ دلالتُها على الحال " انتهى . وهذا الذي ردَّده الزمخشري يُختار منه أنها لامُ القسم .

قوله : " لا تَدْخُلُ على المضارعِ إلاَّ مع نونِ التوكيد " هذا استثنى النحاة منه صورتَيْن ، إحداهما : أَنْ لا يُفْصَلَ بينها وبين الفعل حرفُ تنفيسٍ كهذه الآيةِ ، كقولِك : واللَّهِ لَسَأُعْطيك . والثانية : أن لا يُفْصَلَ بينهما بمعمولِ الفعل كقولِه تعالى : ﴿ لإِلَى الله

تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران: 158] . ويَدُلُّ لِما قُلْتُه ما قال الفارسيُّ: "ليسَتْ هذه اللامُ هي التي في قولك: "إنَّ زيدا لَقائمٌ، بل هي التي في قولِك: "لأَقومَنَّ" ونابَتْ "سوفَ" عن إحدى نونَيْ التوكيدِ، فكأنه قال: ولَيُعْطِيَنَّك .

(343/819)

وقوله: "خُلِع منها دلالتُها على الحال" يعني أنَّ لامَ الابتداءِ الداخلةَ على المضارعِ تُخَلِّصُه للحال، وهنا لا يُمْكِنُ ذلك لأجلِ حَرْفِ التنفيس، فلذلك خُلِعَتِ الحاليةُ منها .

وقال الشيخ: "واللامُ في "ولَلآخرةُ" لامُ ابتداء وكَّدَتْ مضمونَ الجملةِ" ثم حكى بعضَ ما ذَكَرْتُه عن الزمخشري وأبي علي ثم قال: "ويجوز عندي أَنْ تكونَ اللامُ في "ولَلآخرةُ خيرٌ" وفي "ولَسَوْفَ يُعْطيك" اللامَ التي يُتَلَقَّى بها القسمُ، عَطَفَها على جوابِ القسم، وهو قولُه: ﴿ ما وَدَّعَكَ ﴾ فيكون قد أقسم على هذه الثلاثة" انتهى . فظاهرُه أنَّ اللامَ في "ولَلآخرةُ" لامُ ابتداء غيرُ مُتَلَقَّى بها القسمُ، بدليلِ قولِه ثانياً: "ويجوز عندي" ولا يظهرُ انقطاعُ هذه الجملةِ عن جواب القسم البتةَ، وكذلك في ﴿ ولَسَوْفَ ﴾ وتقديرُ الزمخشري مبتدأً بعدها لا يُنافي كونَها جواباً للقسم، وإنما مَنَعَ أن تكونَ جواباً داخلةً على المضارع لفظاً وتقديراً .

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6)

قوله : ﴿ فآوى ﴾ : العامَّة على " آوى " بألفٍ بعد الهمزة رباعياً ، مِنْ آواه يُؤْوِيه . وأبو الأشهب " فأوى " ثلاثياً . قال الزمخشري : " وهو على معنيين : إمَّا مِنْ " أواه " بمعنى آواه . سُمع بعضُ الرعاة يقول : " أين آوي هذه " ، وإمَّا مِنْ أوى له إذا رحمه " انتهى . وعلى الثاني قولُه :

4594- أراني - ولا كفرانَ لله - أيَّةً . . . لنفسي لقد طالَبْتُ غيرَ مُنيلِ

أي : رحمةً لنفسي . ووجهُ الدلالةِ مِنْ قولِه : " يقول : أين آوي هذه " ؟ أنه لو كان من الرباعي لقال : " أُؤْوي " بضم الهمزةِ الأولى وسكونِ الثانيةِ ؛ لأنه مضارعُ " آوى " مثل أَكْرَمَ ، وهذه الهمزةُ المضمومةُ هي حرفُ المضارعةِ ، والثانيةُ هي فاءُ الكلمةِ ، وأمَّا همزةُ أَفْعَلَ فمحذوفةٌ على القاعدةِ ، ولم تُبْدَلْ هذه الهمزةُ كما أُبْدِلَتْ في " أُوْمِنُ أنا " لئلا تثقلَ بالإِدغام ، ولذلك نصَّ القراءُ على أنَّ " تُؤْويه " من قوله " وفَصيلتِه التي تُؤْويه " لا يجوزُ إبْدالُها للثِّقَلِ .

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (8)

قوله : ﴿ عَآئِلاً ﴾ : أي : فقيراً . وهذه قراءةُ العامَّةِ . يقال : عال زيدٌ أي : افتقر . قال

جرير :

4595 اللهُ نَزَّلَ في الكتابِ فريضةً . . . لابنِ السبيل وللفقيرِ العائِلِ

وأعال : كَثُرَ عيالُه قال :

4596 وما يَدْري الفقيرُ متى غِناه . . . وما يَدْري الغَنِيُّ متى يُعيلُ

وقرأ اليماني "عَيِّلاً" بكسر الياء المشددة كسَيِّد .

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9)

(345/819)

قوله : ﴿ فَأَمَّا اليتيم ﴾ : منصوبٌ ب تَقْهَرْ . وبه استدل الشيخ ابن مالك - رحمه الله - على أنه لا يَلْزَمُ من تقديمِ المعمولِ تقديمُ العامل . ألا ترى أن "اليتيمَ" منصوبٌ بالمجزوم ، وقد تقدَّم على الجازمِ ، ولو قَدَّمْتَ "تَقْهَرْ" على "لا" لامتنع ؛ لأنَّ المجزومَ لا يتقدَّمُ على جازمِه ، كالمجرورِ لا يتقدَّمُ على جارِّه ، وتقدَّمَ ذلك في سورة هود عند قولِه تعالى : ﴿ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ﴾ [هود : 8] . وقراءةُ العامَّة "تَقْهَرْ" بالقاف من الغلبةِ . وابن مسعود والشعبي وإبراهيم التيمي بالكاف . يقال : كَهَرَ في وجهه ، أي : عَبَسَ . وفلان ذو كُهُوْرة ، أي عابسُ الوجه . ومنه الحديث "فبأبي وأمي هو ما كَهَرني" قاله

الزمخشري . وقال الشيخ : " وهي لغةٌ بمعنى قراءةِ الجمهور " انتهى . والكَهْرُ في الأصل : ارتفاعُ النهارِ مع شدَّةِ الحَرِّ

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

قوله : ﴿ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ ﴾ : متعلقٌ بـ حَدِّثْ ، والفاء غيرُ مانعةٍ من ذلك . وقد تقدَّم هذا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 11 صـ 35.41 ﴾

(346/819)

فصل فى منزلة الغنى العالي

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الغنى العالي

وهو نوعان: غنى بالله وغنى عن غير الله وهما حقيقة الفقر ولكن أرباب الطريق أفردوا للغنى منزلة قال صاحب المنازل رحمه الله باب الغني قال الله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ [الضحى: 8] وفي الآية ثلاثة أقوال أحدها : أنه أغناه من المال بعد فقره: وهذا قول أكثر المفسرين لأنه قابله بقوله عائلا والعائل: هو المحتاج ليس ذا العيلة فأغناه من المال والثاني: أنه أرضاه بما أعطاه وأغناه به عن سواه فهو غنى قلب ونفس لا غنى مال وهو

حقيقة الغنى والثالث: وهو الصحيح أنه يعم النوعين: نوعي الغنى فأغنى قلبه به وأغناه من المال ثم قال: الغنى اسم للملك التام يعني أن من كان مالكا من وجه دون وجه فليس بغني وعلى هذا: فلا يستحق اسم الغنى بالحقيقة إلا الله وكل ما سواه فقير إليه بالذات قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: غنى القلب وهو سلامته من السبب ومسالمته للحكم وخلاصه من الخصومة

(347/819)

حقيقة غني القلب: تعلقه بالله وحده وحقيقة فقره المذموم: تعلقه بغيره فإذا تعلق بالله حصلت له هذه الثلاثة التي ذكرها سلامته من السبب أي من التعلق به لا من القيام به والغني عند أهل الغفلة بالسبب ولذلك قلوبهم معلقة به وعند العارفين بالمسبب وكذلك الصناعة والقوة فهذه الثلاثة: هي جهات الغنى عند الناس وهي التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: إن الصدقة لا تحل لغني ولا لذي مرة سوى وفي رواية ولا لقوي مكتسب وهو غني بالشيء فصاحبها غني بها إذا سكنت نفسه إليها وإن كان سكونه إلى ربه: فهو غني به وكل ما سكنت النفس إليه فهي فقيرة إليه وأما مسالمة الحكم فعلى نوعين أحدهما: مسالمة الحكم الديني الأمري وهي معانقته وموافقته ضد محاربته والثاني:

مسالمة الحكم الكوني القدري الذي يجري عليه بغير اختباره ولا قدره له على دفعه وهو غير مأمور بدفعه وفي مسالمة الحكم نكتة لابد منها وهي تجريد إضافته ونسبته إلى من صدر عنه بحيث لا ينسبه إلى غيره وهذا يتضمن توحيد الربوبية في مسالمة الحكم الكوني وتوحيد الإلهية في مسألمة الحكم الديني وهما حقيقة إياك نعبد وإياك نستعين وأما الخلاص من الخصومة فإنما يحمد منه: الخلاص من الخصومة بنفسه لنفسه وأما إذا خاصم بالله ولله: فهذا من كمال العبودية وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في استفتاحه: اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت

فصل قال: الدرجة الثانية: غنى النفس وهو استقامتها على المرغوب

وسلامتها من الحظوظ وبراءتها من المراءاة جعل الشيخ: غنى النفس فوق غنى القلب ومعلوم: أن أمور القلب أكمل وأقوى من أمور النفس لكن في هذا الترتيب نكتة لطيفة وهي أن النفس من جند القلب ورعيته وهي من أشد جنده خلافا عليه وشقاقا له ومن قبلها تتشوش عليه المملكة ويدخل عليه الداخل فإذا حصل له كمال بالغنى: لم يتم له إلا بغناها أيضا فإنها متى كانت فقيرة عاد حكم فقرها عليه وتشوش عليه غناه فكان غناها تماما

لغناه وكمالا له وغناه أصلا بغناها فمنه يصل الغنى إليها ومنها يصل الفقر والضرر والعنت إليه إذا عرف هذا فالشيخ جعل غناها بثلاثة أشياء: استقامتها على المرغوب وهو الحق تعالى واستقامتها عليه: استدامة طلبه وقطع المنازل بالسير إليه الثاني: سلامتها من الحظوظ وهي تعلقاتها الظاهرة والباطنة بما سوى الله الثالث: براءتها من المراءاة وهي إرادة غير الله بشيء من أعمالها وأقوالها فمراءاتها دليل على شدة فقرها وتعلقها بالحظوظ من فقرها أيضا وعدم استقامتها على مطلوبها الحق أيضا: من فقرها وذلك يدل على أنها غير واجدة لله إذ لو وجدته لاستقامت على السير إليه ولقطعت تعلقاتها وحظوظها من غيره ولما أرادت بعملها غيره فلا تستقيم هذه الثلاثة إلا لمن قد ظفر بنفسه ووجد مطلوبه وما لم يجد ربه تعالى فلا استقامة له ولا سلامة لها من الحظوظ ولا براءة لها من الرياء

فصل قال: الدرجة الثالثة: الغنى بالحق وهو على ثلاث مراتب المرتبة

الأولى: شهود ذكره إياك والثانية: دوام مطالعة أوليته والثالثة: الفوز بوجوده أما شهود ذكره إياك فقد تقدم قريبا وأما مطالعة أوليته فهو سبقه للأشياء جميعا فهو الأول الذي ليس قبله

شيء قال بعضهم: ما رأيت شيئًا إلا وقد رأيت الله قبله فإن قلت: وأي غنى يحصل للقلب للقلب من مطالعة أولية الرب وسبقه لكل شيء ومعلوم أن هذا حاصل لكل أحد من غني أو فقير فما وجه الغنى الحاصل به قلت: إذا شهد القلب سبقه للأسباب وأنها كانت في حيز العدم وهو الذي كساها حلة الوجود فهي معدومة بالذات فقيرة إليه بالذات وهو الموجود بذاته والغني بذاته لا بغيره فليس الغنى في الحقيقة إلا به كما أنه ليس في الحقيقة إلا له فالغنى بغيره: عين الفقر فإنه غني بمعدوم فقير وفقير كيف يستغني بفقير مثله وأما الفوز بوجوده فإشارة القوم كلهم إلى هذا المعنى وهو نهاية سفرهم وفي الأثر الإلهي: ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء ومن لم يعلم معنى وجوده لله عز وجل والفوز به: فليحث على رأسه الرماد وليبك على نفسه والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 449. 452 ﴾

(350/819)

من لطائف الإمام القشيري فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الضحى

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " لا يشبهه كفو في ذاته وصفاته ، ولا يستفزه لهو في إثبات مصنوعاته ، ولا يعتريه سهو في علمه وحكمته ، ولا يعترضه لغو في قوله وكلمته .

فهو حكيم لا يلهو ، وعليم لا يسهو ، وحليم يثبت ويمحو ، فالصدق قوله ، والحق حكمه ، والخلق خلقه ، والملك ملكه .

قوله جل ذكره : ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ .

" والضحى " : ساعةٌ من النهار . أو النهار كل يُسَمّى ضُحًى . ويقال : أقسم بصلاة الضُّحى .

ويقال : الضحى الساعةُ التي كَلَّم فيها موسى عليه السلام .

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ أي : ليلة المعراج ، و " سجا " : أي سَكَن ، ويقال : هو عامٌّ في جِنْسِ الليل .

ويقال : " الضحى " وقت الشهود . ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ الذي قال : إنه ليُغَانّ على قلبي . .

ويقال : ﴿ الليل إذا سجا ﴾ حين ينزل اللَّهُ فيه إلى السماء الدنيا – على التأويل الذي يصحُّ في وصفه .

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ .

ما قَطَعَ عنك الوحيَ وما أبغضك .

وكان ذلك حين تأخَّر جبريلُ - عليه السلام - عنه أياماً ، فقال أهل مكة : إن محمداً قد قلاه ربُّه . ثم أنزل هذه السورة .

وقيل : احتبس عنه جبريل أربعين يوماً ، وقيل : اثني عشر يوماً ، وقيل : خمسة وعشرين يوماً .

ويقال : سبب احتباسه أن يهودياً سأله عن قصة ذي القرنين وأصحاب الكهف ، فوَعَدَ الجوابَ ولم يقل : إن شاء الله .

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ .

أي : ما يعطيك في الآخرة خيرٌ لَكَ مما يعطيك في الدنيا .

ويقال : ما أعطاك من الشفاعة والحوض ، وما يُلْبِسُك من لباس التوحيدِ - غداً - خيرٌ مما أعطاكَ اليومَ .

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ .

قيل : أفترضى بالعطاء عن المُعْطِي ؟ قال : لا .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ .

قيل: إلى عمّه أبي طالب.

ويقال: بل آواه إلى كَنَفِ ظِلّه، وربّاه بلطف رعايته.

ويقال: فآواكَ إلى بساطِ القربة بحيث انفردْتَ بمقامِك، فلم يُشارككْ فيه أحدٌ.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَى ﴾.

أي: ضللْتَ في شِعابِ مكة، فَهَدَى إليك عَمَّك أبا طالبٍ في حال صباك.

ويقال: "ضالاً" فينا متحيِّراً.. فهديناك بنا إلينا.

ويقال: "ضالاً" عن تفصيل الشرائع؛ فهديناك إليها بأن عرّفناك تفصيلها.

ويقال: فيما بين الأقوام ضلالٌ فهداهم بك.

وقيل: "ضالاً" للاستنشاء فهداك لذلك.

وقيل: "ضالاً" في محبتنا، فهديناك بنور القربة إلينا.

ويقال: "ضالاً" عن محبتي لك فعرّفتك أنّي أُحِبُّك.

ويقال: جاهلاً بمحلِّ شرفِكَ، فعرّفْتُك قَدْرَكَ.

ويقال: مستتراً في أهل مكة لا يعرفك أحدٌ فهديناهم إليك حتى عرفوك.

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَى ﴾.

في التفسر: فأغناكَ بمال خديجة.

ويقال : أغناك عن الإرداة والطلب بأن أرضاك بالفَقْد .

ويقال : أغناك بالنبوَّة والكتاب . ويقال : أغناك بالله .

ويقال : أغناك عن السؤال حينما أعطاك ابتداءً ؛ بلا سؤالٍ منك .

قوله جل ذكره : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ .

فلا تُخِفْه ، وارفقْ به ، وقرِّبْه .

﴿ وَأَمَّا السَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ .

أي : إمّا أن تُعْطِيَه . . أو تَرُدَّه برِفْقٍ ، أو وعدٍ .

ويقال : السائلُ عنَّا ، والسائلُ المتحيِّرُ فينا – لا تنهرهم ، فإنَّا نهديهم ، ونكشف مواضع سؤالهم عليهم . . فلاطِفْهم أنت في القول .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

فاشكُرْ ، وصَرِّحْ بإحسانه إليك ، وإنعامه عليك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 739 . 742 ﴾

(352/819)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الضحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحى (1) وَاللَّيْلِ إِذا سَجى (2) ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى (3)

الإعراب :

(والضحى) متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (إذا) ظرف في محلّ نصب مجرّد من الشرط متعلّق بفعل أقسم (ما) نافية في الموضعين . .

جملة : " (أقسم) بالضحى . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة.

وجملة : " سجي . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة : " ما ودّعك ربّك . . . " لا محلّ لها جواب القسم.

وجملة : " ما قلى . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

الصرف :

(2) سجي : فيه إعلال بالقلب ، أصله سجو - مضارعه يسجو - بمعنى سكن باب نصر ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا ، وكان حقّه أن يرسم بالألف الطويلة (سجا) ولكنّ رسم المصحف جاء بالياء غير المنقوطة (سجي) ليناسب قراءة الإمالة . .

(3) قلى : فيه إعلال بالقلب ، أصله قلو - مضارعه يقلو - باب نصر ، تحرّكت الواو بعد فتح قلبت ألفا وعلّة رسمه بالألف القصيرة كعلّة سجي . .

وجاء في المصباح : قليت الرجل أقليه باب ضرب إذا أبغضته ، ومن باب تعب لغة ، فالألف واويّة وائيّة بآن معا .

البلاغة

الاسناد المجازي : في قوله تعالى " وَاللَّيْلِ إِذا سَجى " .

أي سكن أهله ، على أنه من السجو وهو السكون مطلقا ، والاسناد مجازي حيث أسند السكون إلى الليل وهو لأهله .

الفوائد :

- سبب نزول السورة :

اختلف العلماء في سبب نزول هذه السورة على ثلاثة أقوال :

1 -

عن جندب بن سفيان البجلي قال : اشتكى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) ، فلم يقم ليلتين أو ثلاثا ، فجاءت امرأة فقالت : يا محمد ، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك ليلتين أو ثلاثا فأنزل اللّه عز وجل (والضحى والليل إذا سجي) . وأخرجه الترمذي عن جندب قال كنت مع النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) في غار ، فدميت أصبعه ، فقال النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) :

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل اللّه ما لقيت

قال : فأبطأ عليه جبريل ، فقال المشركون : قد ودّع محمد ، فأنزل اللّه عز وجل (ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى) .

وقيل : إن المرأة المذكورة في الحديث المتفق عليه ، هي أم جميل ، امرأة أبي لهب .

2 -

قال المفسرون : سألت اليهود رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) عن الروح ، وعن ذي القرنين وأصحاب الكهف ، فقال : سأخبركم غدا ، ولم يقل : إن شاء اللّه ، فاحتبس الوحي عليه ثم نزل .

3 -

قال زيد بن أسلم : كان سبب احتباس الوحي ، أن جروا كان في بيته ، فلما نزل عليه عاتبه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) على إبطائه ، فقال : إنا لا ندخل بيتا فيه كلب ولا

صورة.

واختلفوا في مدة احتباس الوحي عنه، فقيل: اثنا عشر يوما. وواضح أن الرواية الأولى أقوى في سبب النزول، وتتفق مع الواقع أكثر.

[سورة الضحى (93) : الآيات 4 إلى 5]

وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى (5)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (اللام) لام القسم في الموضعين (لك) متعلّق ب (خير) ، (من الأولى) متعلّق ب (خير) ..

جملة: " للآخرة خير ... " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم المتقدّم " 1 " .

وجملة: " سوف يعطيك ربّك ... " لا محلّ لها معطوفة على جواب القسم المتقدّم وجملة: " ترضى ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعطيك.

[سورة الضحى (93) : الآيات 6 إلى 8]

---

(1) في الآية (3) من السورة وأتي باللام لأنّ الكلام مثبت بعد منفيّ.

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى (7) وَوَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى (8)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التقريريّ (يتيما) مفعول به ثان منصوب (الفاء) عاطفة في المواضع الثلاثة، ومفعول (آوى) مقدّر، وكذلك مفعولا (هدى، أغنى) . . .

جملة: "لم يجدك . . ." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "آوى . . ." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "وجدك . . ." لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "هدى" لا محلّ لها معطوفة على جملة وجدك.

وجملة: "وجدك (الثانية)" لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: "أغنى" لا محلّ لها معطوفة على جملة وجدك (الثانية).

الصرف:

(8) عائلا: اسم فاعل من عال يعيل باب ضرب وزنه فاعل، وفيه قلب حرف العلّة همزة بعد ألف فاعل، أصله عايل أي فقير . .

البلاغة:

الاستعارة التصريحية: في قوله تعالى "وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى".

حيث شبه الشريعة بالهدي، وعدم وجودها بالضلال، وحذف المشبه وأبقى المشبه به

وهو الضلال .

[سورة الضحى (93) : الآيات 9 إلى 11]

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أمّا) حرف شرط وتفصيل (اليتيم) مفعول به مقدّم عامله (تقهر) ، (الفاء) رابطة لجواب أمّا (لا) ناهية جازمة (الواو) عاطفة في الموضعين (أمّا السائل فلا تنهر) مثل أمّا اليتيم فلا تقهر ، (بنعمة) متعلّق بـ (حدّث) ولا تمنع الفاء ذلك " 1 " . .

جملة : " جملة الشرط أمّا وجوابه " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر أي إذا

---

(1) لأن الفاء في حكم الزائدة ، أو لأنها متأخرة من تقدّم . [. . . . .]

(355/819)

كان حالك كذلك يتما وضلالا وفقرا فمهما يكن الأمر فلا تقهر اليتيم . . .

وجملتا الشرط وجوابا هما التاليتان معطوفتان على الجملة الأولى .

وجملة : " تقهر . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " تنهر . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " حدّث . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

الفوائد :

الإحسان إلى اليتيم والسائل :

في هاتين الآيتين توجيه رفيع ، وخلق كريم ، فهما تحضان رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) إلى ملاطفة اليتيم ، وعدم زجر السائل . وهذا الخطاب ليس لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) فحسب ، وإنما هو لكل مؤمن .

روى البغوي بسنده ، عن أبي هريرة رضي اللّه عنه ، عن النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) قال : خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشرّ بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه ، ثم قال : أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ، ويشير بأصبعيه .

و

عن سهل ابن سعد قال : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة الوسطى وفرج بينهما .

وأما عدم زجر السائل ، فتتحقق فيه أعلى معاني الإنسانية ، قال إبراهيم النخعي : السائل بريدنا إلى الآخرة ، يجيء إلى باب أحدكم فيقول : هو توجهون إلى أهليكم بشيء ؟ وقيل : السائل هو طالب العلم ، فيجب إكرامه وإسعافه بمطلوبه ، ولا يعبس في وجهه ، ولا ينهر

ولا يلقى بمكروه وعلى كل حال، فالسائل مهما كان نوع سؤاله، سواء سأل المال أم أي حاجة، أو سأل أن تدله على مكان، فإما أن تحقق له سؤاله إن أمكن، وإلا فقول معروف واعتذار. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 30 صـ 351. 355﴾

(356/819)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(93) سورة الضّحى

مكيّة وآياتها إحدى عشرة

[سورة الضحى (93): الآيات 1 إلى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحى (1) وَاللَّيْلِ إِذا سَجى (2) ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى (4)

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى (6) وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدى (7)

وَوَجَدَكَ عائِلاً فَأَغْنى (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (9)

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)

اللغة :

(سَجى) سكن وركد ظلامه وفي المختار : " وقد سجى الشيء من باب سما سكن ودام وقوله تعالى : والليل إذا سجى أي دام وسكن ومنه البحر الساجي وطرف ساج أي ساكن وسجّى الميت تسجية أي مدّ عليه ثوبا " قال الشاعر :

يا حبذا القمراء والليل الساج وطرق مثل ملاء النسّاج

والساج أيضا : الطيلسان الأخضر وجمعه سيجان ، وسيأتي مزيد منه في باب البلاغة .

(وَدَّعَكَ) قرأ العامة بتشديد الدال من التوديع وهو مبالغة في الودع لأن من ودعك مفارقا فقد بالغ في تركك ، روي أن الوحي تأخر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أياما فقال المشركون : إن محمدا ودعه ربه وقلاه وقيل إن أم جميل امرأة أبي لهب قالت له : يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك فنزلت ، وقرىء بالتخفيف من قولهم ودعه أي تركه . وقد اختلف في دع بمعنى اترك هل يتصرف فيأتي منه الماضي والمصدر واسم الفاعل واسم المفعول ؟ قال الجوهري : أميت ماضيه وقال غيره : ربما جاء في الضرورة وهو المشهور ولكن حيث جاء في القرآن ما ودعك وفي الحديث " لينتهين قوم عن ودعهم الجمعات أو ليختمن اللّه على قلوبهم ثم ليكوننّ من الغافلين " أي تركهم ، وجاء اسم المفعول وغيره في الشعر فيجوز القول بقلة الاستعمال لا بالإماتة وقال الشاعر :

ليت شعري عن خليلي ما الذي غاله في الحب حتى ودعه

(قَلى) أبغض وفي المصباح: "قليته قليا وقلوته قلوا من بابي ضرب وقتل وهو الإنضاج في المقلى وهي مفعل بالكسر وقد يقال مقلاة بالهاء اللحم وغيره مقلى بالياء ومقلو بالواو والفاعل قلّاء بالتشديد لأنه صنعة كالعطّار والنجّار وقليت الرجل أقليه من باب رمى قلى بالكسر والقصر وقد يمدّ إذا أبغضته ومن باب تعب لغة" وفي حديث عن عائشة أن رجلا استأذن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال: إيذنوا له فبئس رجل العشيرة فلما دخل ألان له القول فقالت عائشة: يا رسول اللّه قلت له الذي قلت فلما دخل ألنت له القول؟ فقال: يا عائشة إن شرّ الناس منزلة يوم القيامة من ودعه الناس- أو تركه الناس- اتّقاء فحشه.

وقال ابن خالويه: "يقال قلاه يقلاه بفتح الماضي والمستقبل وليس في كلام العرب فعل بفتح الماضي والمستقبل فيه مما ليس فيه حرف من حروف الحلق إلا قلى يقلى وجبى يجبى وسلى يسلى وأبى يأبى وغسى يغسى وركن يركن عن الشيباني وأما قوله قلوب البسر والسويق فبالواو والمصدر القلو وأما القلو فالحمار" ولعل رواية الشيباني

التي اعتمد عليها ابن خالويه مما انفرد به إذ لم يرد في جميع معاجم اللغة التي بأيدينا إلا ما أورده صاحب المصباح ونص عبارة التاج : على أن قليه في البغض كرضيه يرضاه وفي الحديث : " وجدت الناس أخبر تقله " بالهاء للسكت ولفظه لفظ الأمر ومعناه الناس أي من خبرهم أبغضهم والمعنى وجدت الناس مقولا فيهم هذا القول .

(358/819)

(فآوى) قرأ العامة آوى بألف بعد الهمزة رباعيا من آواه يؤويه ، وقرأ أبو الأشهب : فأوى ثلاثيا ، وفي المصباح : " أوى إلى منزله يأوي من باب ضرب أويا أقام وربما عدّي بنفسه فقيل أوى منزله والمأوى بفتح الواو لكل حيوان مسكنه وآويت زيدا بالمدّ في التعدّي ومنهم من يجعله مما يستعمل لازما ومتعديا فيقول : أويته وزان ضربته ومنهم من يستعمل الرباعي لازما أيضا وردّه جماعة " .

(عائِلًا) فقيرا وهي قراءة العامة ، يقال عال زيد من باب سار أي افتقر وأعال كثرت عياله وقرىء عيّلا بكسر الياء المشددة كسيّد وهذه المادة لها أصلان واوي ويائي ، أما الواوي فقد قال في القاموس فيه :

عال أي جار ومال عن الحق والميزان نقص وجار أو زاد يعول ويعيل وأمرهم اشتد وتفاقم

والشيء فلانا غلبه وثقل عليه وأهمّه والفريضة في الحساب زادت وارتفعت وعلتها أنا وأعلتها وعال فلان عولا وعيالة كثر عياله كأعول وأعيل وعياله عولا وعئولا وعيالة كفاهم ومانهم كأعالهم وعيّلهم وأعول رفع صوته بالبكاء والصياح كعوّل والاسم العول والعولة والعويل وعليه أدلّ وحمل كعوّل وفلان حرص كأعال وأعيل والقوس صوّتت وعيل عوله ثكلته أمه وصبري غلب فهو معول كعال فيهما وعيل ما هو عائله غلب ما هو غالبه يضرب لمن يعجب من كلامه ونحوه والعول كل ما عالك والمستعان به وقوت العيال وعوّل عليه معوّلا اتكل واعتمد والاسم كعنب وعيّلك ككيّس وكتاب من تتكفل بهم واويه يائية والجمع عالة" واستدرك شارحه فقال: "قال الصاغاني في التكملة: العيال جمع عيّل كجياد جمع جيد وهو من يلزم الإنفاق عليه ويكون اسما للواحد كما ذكره الحريري في مقاماته وذكره المطرزي في شرحه" .

(359/819)

وأما اليائي فقال صاحب القاموس: "عال يعيل عيلا وعيلة وعيولا ومعيلا افتقر فهو عائل والجمع عالة وعيّل وعيلى كسكرى والاسم العيلة والمعيل الأسد والنمر والذئب لأنه يعيل صيدا أي يلتمس وعالني الشيء عيلا ومعيلا أعوزني وفي مشيه تمايل واختال وتبختر

كتعيّل " إلى آخر ما جاء في هذه المادة.

الإعراب:

(وَالضُّحى وَاللَّيْلِ إِذا سَجى ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى) الواو حرف قسم وجر والضحى مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف والليل منسوق على الضحى وأجاز ابن هشام أن تكون الواو في والليل عاطفة أو قسمية قال " والصواب الأول وإلا لاحتاج كل إلى الجواب " وإذا ظرف لمجرد الظرفية متعلق بفعل القسم وقد تقدمت له نظائر وجملة سجى في محل جر بإضافة الظرف إليها وما حرف نفي وهو جواب القسم والجملة لا محل لها وودعك فعل ماض ومفعول به وربك فاعل، وما قلى عطف على ما ودعك (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى) الواو عاطفة واللام لام الابتداء وهي مؤكدة لمضمون الجملة

والآخرة مبتدأ وخير خير ولك متعلقان بخير ومن الأولى متعلقان بخير أيضا (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى) الواو عاطفة واللام للابتداء وهي مؤكدة لمضمون الجملة أيضا وجملة سوف يعطيك خبر لمبتدأ محذوف تقديره أنت وإنما لم تكن واو قسم لأنها لا تدخل

على المضارع إلا مع نون التوكيد فتعين أن تكون الابتداء ، ولام الابتداء لا تدخل إلا على الجملة المكوّنة من المبتدأ والخبر فتعين تقدير مبتدأ وأن يكون أصله ولأنت سوف يعطيك ربك فترضى ، ومن المفيد أن ننقل لك سؤالا للزمخشري وجوابه قال : " فإن قلت ما معنى الجمع بين حرفي التأكيد والتأخير ؟ قلت معناه أن العطاء كائن لا محالة وإن تأخر لما في التأخير من المصلحة " وسوف حرف استقبال ويعطيك ربك فعل مضارع مرفوع ومفعول مقدّم وفاعل مؤخر والفاء عاطفة وترضى فعل مضارع معطوف على يعطيك . وقيل اللام للقسم وأنه إذا حصل فصل بين اللام والفعل امتنعت النون وثبتت لام القسم (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى وَوَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى) كلام مستأنف مسوق لتعداد أياديه ونعمه عليه والغرض من تعدادها تقوية قلبه صلّى اللّه عليه وسلم وتشجيعه على السير في طريقه التي اختارها اللّه وهي طريق محمودة العواقب سليمة المغاب . والهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم ويجدك فعل مضارع مجزوم بلم وفاعله ضمير مستتر تقديره هو يعود على اللّه تعالى والكاف ضمير متصل في محل نصب مفعول به أول ويتيما مفعول به ثان والفاء حرف عطف وآوى عطف على قوله ألم يجدك أي وجدك ويجوز أن يكون الوجود بمعنى المصادفة لا بمعنى العلم فتكون الكاف مفعولا به ويتيما تعرب حالا من المفعول به .

وذلك أن أباه مات وهو جنين وقبل ولادته بشهرين وقيل بل بعد ولادته بشهرين وقيل بسبعة

أشهر وقيل بتسعة وقيل بثمانية وعشرين شهرا والمشهور الأول ، وتوفيت أمه وهو ابن أربع سنين وقيل خمس سنين وقيل ست

سنين وقيل سبع سنين وقيل ثمان سنين وقيل تسع سنين وقيل اثنتي عشرة سنة وشهر وعشرة أيام ، ومات جدّه وهو ابن ثمان وكان عبد المطلب قد وصّى أبا طالب به لأن عبد اللّه وأبا طالب من أم واحدة فكان أبو طالب هو الذي كفل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بعد جده إلى أن بعثه اللّه نبيا . ووجدك معطوف وضالا مفعول به ثان أو حال ، وأحسن ما قيل في معنى الضلال هو خلوّه من الشريعة فهداه بإنزالها إليه فالمراد بضلاله كونه من غير شريعة وليس المراد به الانحراف عن الحق والتعسف في مهامه الضلال ويؤيد هذا المعنى قوله " ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان " وهناك أقوال كثيرة أربت على العد ضربنا صفحا عنها ويرجع إليها في المطولات ، وسيأتي مزيد من معنى الضلال في باب البلاغة ، ووجدك عائلا فأغنى منسوق على ما تقدم مماثل له في إعرابه ، قال الفراء " لم يكن غناه عن كثرة المال ولكن اللّه تعالى أرضاه بما أعطاه وتلك حقيقة الغنى " . وفي الحديث " ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس " وقال صلّى اللّه عليه وسلم :

" جعل رزقي تحت ظل رمحي " ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾ الفاء الفصيحة وأما حرف شرط وتفصيل واليتيم مفعول به مقدم لتقهر والفاء رابطة لجواب الشرط ولا ناهية وتقهر فعل مضارع مجزوم بلا وفاعله مستتر تقديره أنت أي لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه وهذا تعليم سام أكده النبي بقوله : " خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه ، ثم قال بإصبعيه : أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين " ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ منسوق على ما قبله والأولى أن يكون السائل أعم من أن يسأل المال أو العلم ليوافق التفصيل التعديد ويطابقه ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ منسوق أيضا وبنعمة متعلقان بحدّث والفاء غير مانعة لأنها بمثابة الزائدة والنعمة أعمّ من أن تشمل الدين والغنى والإيواء وما أفاء عليه من الغنائم وأتاح له من النصر والتحدّث بها مندوب إليه لحفز الهمم ودفع النفوس إلى التأسّي والاقتداء ، وما أجمل ما يروى عنه صلّى اللّه عليه وسلم قال : " إن اللّه جميل يحب الجمال " ويحب أن يرى أثر النعمة على عبده ، وروي أن شخصا كان جالسا عند النبي صلّى اللّه عليه وسلم فرآه رثّ الثياب فقال له صلّى اللّه عليه وسلم : ألك مال ؟ قال : نعم فقال له صلّى اللّه عليه وسلم : " إذا آتاك اللّه

مالا فلير أثره عليك " وفي الحديث أيضا " إن رجلا سأله صلّى اللّه عليه وسلم فقال : يا رسول اللّه إني أعمل البرّ وأخفيه عن المخلوقين ثم يطلع عليه فهل لي في ذلك من أجر ؟ فقال : لك في ذلك أجران أجر السر وأجر العلانية " .

البلاغة :

(363/819)

1- في قوله : " والليل إذا سجى " مجاز عقلي حيث أسند السكون إلى الليل ، وقد تقدم في المجاز العقلي أنه إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له لعلاقة مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي ، ومن روائعه قول أبي الطيب في مديح كافور :

أبا المسك أرجو منك نصرا على العدا وآمل عزا يخضب البيض بالدم

ويوما يغيظ الحاسدين وحالة أقيم الشقا فيها مقام التنعم

فإسناد خضب السيوف بالدم إلى ضمير العز غير حقيقي لأن العز لا يخضب السيوف ولكنه سبب القوة وجمع الأبطال الذين يخضبون السيوف بالدم ففي العبارة مجاز عقلي علاقته السببية وفي الآية إسناد السجو إلى ضمير الليل غير حقيقي وإنما المراد أصحابه

فهم الذين يسكنون .

2- وفي قوله " ووجدك ضالا فهدى " استعارة تصريحية شبّه الشريعة بالهدى وعدم وجودها بالضلال وحذف المشبه وأبقى المشبه به

وهو الضلال من ضلّ في طريقه إذا سلك طريقا غير موصلة لمقصده والمقصد هنا العلوم النافعة التي تسمو بالعقل والروح معا .

3- وفي قوله " فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر " فن الالتزام أو لزوم ما لا يلزم فقد لزمت الهاء قبل الراء ، وفي هاتين الفاصلتين مع الالتزام تنكيت عجيب فإنه يقال : هل يجوز التبديل في القرينتين فتأتي كل واحدة مكان أختها ؟ فيقال لا يجوز ذلك لأن النكتة في ترجيح مجيئهما على ما جاءتا عليه أن اليتيم مأمور بأدبه وأقل ما يؤدب به الانتهار فلا يجوز أن ينهى عن انتهاره وإنما الذي ينهى عنه قهره وغلبته لانكساره باليتم وعدم ناصره فمن هاهنا ترجح مجيء كل قرينة على ما جاءت عليه ولم يجز التبديل . وأدرجه بعضهم في باب التخيير من فنون البلاغة وقد تقدمت الإشارة إليه .

4- وفي قوله " ولسوف يعطيك ربك فترضى " فن الحذف ، فقد حذف مفعول يعطيك الثاني تهويلا لأمره واستعظاما لشأنه ، وإن هذه المعطيات أجلّ من أن تذكر ، وأكبر من أن تدرج أي الشيء الكثير من توارد الوحي عليك بما فيه إرشاد لك ولقومك ومن ظهور دينك وعلو كلمتك وإسعاد قومك بما تشرع لهم وإعلائك وإعلائهم على الأمم في الدنيا والآخرة.

انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 513.506﴾

(365/819)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةَ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ المَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء العشرون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/820)

الجزء العشرون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الشرح)

(4/820)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الشرح)

(5/820)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الشرح

مقصودها تفصيل ما في آخر الضحى من النعمة ، وبيان ان المراد بالتحديث بها هو شكرها بالنصب في عبادة الله والرغبة إليه بتذكر إحسانه وعظيم رحمته بوصف الربوبية وامتنانه ، وعلى ذلك دل اسمها الشرح. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 460 ﴾

(6/820)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . ألم نشرح)

السّورة مكيّة.

وآياتها ثمانٍ.

وكلماتها ستّ وعشرون .

وحروفها مائة وخمسون .

وفواصل آياتها (بكا) .

وسمّيت لمفتتحها .

معظم مقصود السّورة : بيان شرح صدر المصطفى – صلَّى الله عليه وسلَّم – ورفعُ قدرِه وذكرِه ، وتبديل العسر من أَمره بيسره ، وأَمره بالطَّاعة فى انتظار أَجره ، والرّغبة إِلى الله – تعالى – والإِقبال على ذكره فى قوله : ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ .

السّورة محكمة .

المتشابه :

قوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ ليس بتكرار ؛ لأَنَّ المعنى : إِنَّ مع العسر الَّذى أَنت فيه من مقاساة الكفار يُسْراً عاجلاً ، إِنَّ مع العسر الَّذى أَنت فيه من الكفار يُسْراً آجلاً ، والعسر واحد واليسر اثنان .

وعن عمر – رضى الله عنه – لن يغلِب عُسْر يُسْرَيْن .

فضل السّورة

فيه الحديثان الضَّعيفان : مَنْ قرأَها فكأَنَّما جاءَنى وأَنا مغتَمّ ، ففَرّج عنى ، وقال : يا علىُّ

مَنْ قرأَها فكأَنَّما أَشبع فقراءَ أُمّتى ، وله بكل آية قرأَها حُلَّةٌ يومَ الحَشْر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 526 ﴾

(7/820)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سوره ألم نشرح

470 – مسألة :

قوله تعالى : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

ما فائدة تكراره ؟ .

جوابه :

أن اليسر الثاني غير "يسر" الأول ، بدليل تنكيره ، والعسر

الأول هو الثاني بدليل تعريفه باللام ، وفى الحديث : "لن

يغلب عسر يسرين" إشارة إلى ما ذكرناه . انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ

377 ﴾

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الشرح

سميت في معظم التفاسير وفي (صحيح البخاري) و (جامع الترمذي) (سورة أَلَمْ نشرح) ، وسميت في بعض التفاسير (سورة الشرح) ومثله في بعض المصاحف المشرقية تسمية بمصدر الفعل الواقع فيها من قوله تعالى : (ألم نشرح لك صدرك ((الشرح : 1) وفي بعض التفاسير تسميتها (سورة الانشراح) .

وهي مكية بالاتفاق .

وقد عُدّت الثانية عشرة في عداد نزول السور ، نزلت بعد سورة الضحى بالاتفاق وقبل سورة العصر .

وعن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان : (ألم نشرح من سورة الضحى) .

وكانا يقرءانهما بالركعة الواحدة لا يفصلان بينهما يعني في الصلاة المفروضة وهذا شذوذ مخالف لما اتفقت عليه الأمة من تسوير المصحف الإِمام .

وعدد آيها ثمان .

أغراضها

احتوت على ذكر عناية الله تعالى لرسوله (صلى الله عليه وسلم) بلطف الله له وإزالة الغم والحرج عنه، وتفسير ما عسر عليه، وتشريف قَدْره لينفس عنه، فمضمونها شبيه بأنه حجة على مضمون سورة الضحى تثبيتاً له بتذكيره سالف عنايته به وإنارة سبيل الحق وترفيع الدرجة ليعلم أن الذي ابتدأه بنعمته ما كان ليقطع عنه فضله، وكان ذلك بطريقة التقرير بماض يعمله النبي (صلى الله عليه وسلم)

واتبع ذلك بوعده بأنه كلما عرض له عسر فسيجد من أمره يسراً كدأب الله تعالى في معاملته فليتحملْ متاعب الرسالة ويرغب إلى الله عونه. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ 407.408﴾

(9/820)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الشرح

مكية وآياتها ثمان آيات

بين يدي السورة

* سورة الانشراح مكية ، وهي تتحدث عن مكانة الرسول الجليلة ، ومقامه الرفيع عند الله تعالى ، وقد تناولت الحديث عن نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) وذلك بشرح صدره بالإيمان ، وتنوير قلبه بالحكمة والعرفان ، وتطهيره من الذنوب والأوزار ، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عما يلقاه من أذى الكفار الفجار ، وتطييب خاطره الشريف بما منحه الله من الأنوار [ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك] ؟ الآيات .

* ثم تحدثت عن إعلاء منزلة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ورفع مقامه في الدنيا والآخرة ، حيث قرن اسمه ، باسم إله تعالى [ورفعنا لك ذكرك] الآيات .

* وتناولت السورة دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو بمكة يقاسي مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين ، فآنسه بقرب الفرج ، وقرب النصر على الأعداء [فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا] الآيات . وختمت بالتذكير للمصطفى (صلى الله عليه وسلم) بواجب التفرغ لعبادة الله ، بعد إنتهائه من تبليغ الرسالة ، شكرا لله على ما أولاه من النعم الجليلة [فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب] وهو ختام كريم ، لنبى عظيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 574 . 575 ﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الشرح

الشرح : البسط والتوسعة ، والعرب تطلق عظم الصدر وتريد به القوة وعظيم المنة والمسرة وانبساط النفس ، ويفخرون بذلك فى مدائحهم ، من قبل أن سعة الصدر تعطى الأحشاء فسحة للنمو والراحة ، وإذا تم ذلك للمرء كان ذهنه حاضرا لا يضيق ذرعا بأمر ، والوزر : الحمل الثقيل ، وأنقض : أي أثقل ، والظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض ، أي صوت خفى العسر : الفقر والضعف وجهالة الصديق وقوة العدو وإنكار الجميل ، فرغت : أي من عمل : فانصب : أي اتعب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 190.188 ﴾ . باختصار .

(11/820)

وقال الفراء :

سورة (الشرح)

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ . . . ﴾ .

نلين لك قلبك .

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ . . . ﴾ ، يقول: إثم الجاهلية ، وهى فى قراءة عبد الله: "وحللنا عنك وِقْرك" ، يقول: من الذنوب .

﴿ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ . . . ﴾ .

فى تفسير الكلبى: الذى أثقل ظهرك ، يعنى: الوِزر .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . . . ﴾ .

لا أُذكر إلاَّ ذُكِرتَ معى .

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً . . . ﴾ .

وفى قراءة عبد الله: مرةً واحدةً ليست بمكرورة . قال حدثنا الفراء ، وقال: وحدثنى حِبَّان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال: لا يغلب يسرين عسرٌ واحد .

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ. . . ﴾ .

إذا فرغت من صلاتك، فانصب إلى ربك فى الدعاء وارغب. قال الفراء: فانصب من النَّصَب.

حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء قال: قيس بن الربيع عن أبى حصين، قال: مرّ شريح برجلين يصطرعان، فقال: ليس بهذا أُمِرَ الفارغ، إنما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ ، فكأنه فى قول شريح: إذا فرغ الفارغ من الصلاة أو غيرها. انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 276.275 ﴾

(12/820)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة الانشراح «1»

1 - نَشْرَحْ: نفتح.

2 - و(الوزر) : الإثم في الجاهلية.

3 - أَنقَضَ ظَهْرَكَ : أثقله حتى سمع نقيضه ، أي صوته .

وهذا مثل .

7 - ، 8 - فَإِذا فَرَغْتَ من صلاتك : فَانْصَبْ . . . في الدعاء ، وأرغب إلى الله . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 460 ﴾

---

(1) هي مكية .

(13/820)

وقال الغزنوى :

[سورة الشرح]

3 أَنقَضَ ظَهْرَكَ : أثقله حتى سمع نقيضه «6» .

---

(6) أي : صوته كما في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 532 ، والمفردات للراغب :

504 ، وتفسير القرطبي : 20/ 106 .

وفي اللسان : 7/ 244 (نقض) : «والأصل فيه أن الظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض ،

أي : صوت خفي» . [. . . . .]

---

4 وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ: فهو ذكره مع ذكر اللّه تعالى.

5 فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً: قال ابن مسعود «1»: «لن يغلب عسر يسرين».

لأنّ النكرة إذا كرّرت فالثاني غير الأول «2».

7 فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ

: إذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الرّبّ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 883.882 ﴾

---

(1) هكذا ذكره الماوردي في تفسيره: 4/ 476، والزمخشري في الكشاف: 4/ 267.

موقوفا على ابن مسعود رضي اللّه عنه.

وأورده الحافظ في الكافي الشاف: 185، وعزا إخراجه إلى عبد الرازق عن ابن مسعود.

وروى هذا الأثر مرفوعا في تفسير عبد الرزاق: 624، وتفسير الطبري: 30/ 236، والمستدرك للحاكم: 2/ 528، كتاب التفسير: «تفسير سورة ألم نشرح».

(2) ينظر تفسير البغوي : 4/ 502 ، والكشاف : 4/ 267 ، وتفسير القرطبي : 20/ 107 ، والبحر المحيط : 8/ 488 .

(15/820)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الانشراح

عدد 12 - 49

نزلت في مكة بعد الضحى ، وقيل إنها نزلت متصلة بها ، ولم يفرق بينها بالبسملة وليس بشيء ، وهذا كالقول بأن سورة براءة نزلت متصلة بالأنفال وهو غير صحيح أيضا بل كل منها نزل على حدة ، وقد ثبت بالتواتر أن سور القرآن 114 سورة ، فإذا جعلنا هاتين السورتين متصلتين ينقص العدد ، وهو غير جائز وسنأتي على بيان هذا مفصلا في سورة قريش الآتية إذ قيل إنها نزلت متصلة بالفيل وفي سورة براءة في ج 3 ، وهي ثماني آيات ، ومثلها في العدد التكاثر والزلزلة والبينة والتين ، وسبع وعشرون كلمة ، ومائة وثلاثة أحرف ، ويوجد في القرآن سورة أخرى مبدوءة بما بدئت به وهي الفيل الآتية ، وسورة البينة بلم النافية دون همزة الاستفهام .

وتسمى سورة الشرح وألم نشرح أيضا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ .

قال تعالى : "أَلَمْ" استفهام تقريري لا يجاب إلا ببلى "نَشْرَحْ" نفسح ونشق "لَكَ" يا سيد الرسل "صَدْرَكَ 1 "كي يحوي عالم الغيب والشهادة نوعهما فيهما ، ولذلك صار لم يعقه التعلق بمصالح الخلق عن الاستغراق في شؤون الحق لما أودعنا فيه من العلوم والحكم حينما شقه أميننا جبريل فوسع هموم النبوة ودعوة الثقلين ، وأزلنا عنك الضيق والحرج لتكون لين الجانب لا يستفزّك الغضب ، وقد وقع له صلّى اللّه عليه وسلم الشرح فعلا ثلاث مرات .

مطلب شرح صدره الشريف :

المسألة الأولى عند ما كان عند ظئره حليمة ، فقد روى مسلم عن أنس رضي اللّه عنه أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرجه واستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه فقالوا إن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه ممتقع اللون وسألوه فقص عليهم ما ذكر أنس ، وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره .

والأخريان سنأتي على ذكرهما أول الإسراء الآتية خشية التكرار فراجعهما "وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ 2"

الذي سلف منك خطأ أو نسيانا أو سهوا ، أو ما تظنه مستوجب السؤال عندنا نظرا لعلو مقامك ورفعة شأنك وخفّفنا أعباء النبوة عليك لتقوم بها دون تكلف فرفعنا عنك ذلك التكليف "الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ 3" حمله وأوهى قولك رزؤه وحططنا عنك كل ما تراه ثقيلا مما شرعناه على من قبلك .

واعلم أنه إذا حمل هذا الوزر على حالته قبل النبوة فيكون المراد اهتمامه بأمور كان يفعلها قبل النبوة ، إذ لم يرد عليه شرح بتحريمها فلما حرمت عليه بنزول الوحي عدّها أوزارا أثقلت عليه وأشفق منها ، فوضعها اللّه عنه وغفرها له ، وإذا حمل ذلك على حالته بعد النبوة ، فيكون عبارة عن ترك الأفضل وما هو خلاف الأولى وما تركه أحسن من فعله على حد حسنات الأبرار سيئات المقربين .

قال تعالى "وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ 4" على سائر الأنبياء والمرسلين قبلك ، وقرناه بذكرنا .

روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أنه سأل جبريل عن هذه الآية قال : قال اللّه عز وجل إذا ذكرت ذكرت معي ، قال ابن عباس يريد الأذان والاقامة والخطب على المنابر .

فلو أن عبدا عبد اللّه وصدقه في كل شيء ولم يشهد أن محمدا رسول اللّه لم ينتفع بذلك بشيء ، وكان كافرا ، قال حسان رضي اللّه عنه :

أغر عليه للنبوة خاتم من اللّه مشهود يلوح ويشهد

وضمّ الإله اسم النبي لإسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجلّه فذو العرش محمود وهذا محمد

(17/820)

و قرن طاعته بطاعته فقال : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) الآية 59 من النساء ج 5 وكررها معنى ولفظا في الآية 17 من الأحزاب و14 من التوبة و31 و32 من آل عمران وكررها في الآية 80 من النساء في ج 3 وقرن خوفه بخوفه ، ورضاه برضاه ، ومحبته بمحبته ، وغضبه بغضبه ، وهكذا قد ذكره اللّه في كتب الأنبياء ، ولا يخفى أن حضرة الرسول إبّان بعثته كان مقلا مخفا من الأموال والمواشي وكانت قريش تعيره بالفقر حتى أنهم صاروا يقولون له عند ما يدعوهم إلى اللّه : إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالا ، فاغتم لذلك وظن إنما كذبه ت (11)

قومه لفراغ ذات يده ، وكان يحزن ويغتم لهذه الغاية لأنه منشرح الصدر بما هو فيه من فضل

ربه ويراه غنيا إذ لا هم له في الدنيا ولا في أهلها إلا بغية إيمانهم قال ابن الفارض :

وتعذيبكم عذب لديّ وجوركم عليّ بما يقضي الهوى لكم عدل

فعدد اللّه عليه نعمه في هذه السورة تسلية لجنابه الشريف عما خامره من الغم ووعده الغنى فقال "فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا 5" أي لا يحزنك قولهم فإن مع الشدة فرجا وإن لك مما تقاسيه مخرجا ، ثم كرر الوعد تأكيدا وتمكينا فقال "إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ" الذي أنت فيه "يُسْرًا 6" قريبا بإظهاري إياك عليهم وإعلاء كلمتك وتقدير النصر لك حتى تغلبهم وتغنم ما عندهم ، قال الحسن لما نزلت هذه الآية قال صلّى اللّه عليه وسلم : أبشروا فقد جاءكم اليسر لن يغلب عسر يسرين .

وذلك لأنه جل ذكره كرر العسر بلفظ المعرفة ، والمعرفة إذا كررت كانت غير الأولى ، وكرر اليسر بلفظ النكرة والنكرة إذا كررت كانت غير الأولى ، فصار يسران تجاه عسر واحد ولن يغلب الواحد الاثنين غالبا .

وإنما قال أبشروا إذ كان نزولها على أثر تعيير المشركين المسلمين بالفقر فلا شك أنه صلّى اللّه عليه وسلم انشرح صدره بما رأى من عطف ربه عليه فأقبل على عبادته فقال له ربه

"فَإِذَا فَرَغْتَ" من دعوة الخلق "فَانْصَبْ 7" لعبادة ربك ، وداوم عليها واجتهد فيها "وَإِلَى رَبِّكَ الذي أنعم عليك بما ذكر وما لم يذكر" "فَارْغَبْ 8" في إجابة دعائك ورفع مقامك عنده وإظهار كلمتك لديه ينصرك على أعدائك ، واجعل رغبتك في اللّه وإلى اللّه ومن اللّه وتضرّع اليه رغبة في جنته ورضاه ورهبة من ناره وعقابه ، ولا تخل وقتا من أوقاتك دون عمل يرضيه فكلما فرغت من عبادة أتعبت نفسك فيها فاتبعها بغيرها وابتهل اليه فهو لا يردك .

قال عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه إني لأكره أن أرى أحدكم سبهللا لا في عمل دنياه ولا في عمل آخرته ، السبهلل الذي لا شيء معه والعاطل الذي لا عمل له ومعناه الفارغ .

ولا غرو أن يكون قعود الرجل من غير شغل أو اشتغاله بما لا يعنيه من أمور دنياه ودينه من سفه الرأي وسخافة العقل

واستيلاء الغفلة .

أعاذنا اللّه من ذلك وحفظنا ووقانا ، ومن الخمول حمانا ، هذا ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به هذه السورة واللّه أعلم ، واستغفر اللّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم وصلى اللّه على سيدنا محمد وسلم وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين . انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 163.160 ﴾

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الانشراح مكية

لك ذكرك تام وكذا إن مع العسر يسرا وآخر السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(20/820)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الانشراح

مكية ثمان آيات ولا وقف من أولها إلى ذكرك فلا يوقف على صدرك لأنَّ ما بعده معطوف على ما قبله وداخل معه في اتساق الكلام الواقع عليه الاستفهام ومن وقف على صدرك لم يعرف إن لم يجعل المستقبل ماضياً وهل يوقف على يسرا الأول أو الثاني فمن قال على الأول قال لا يوقف على شيء من أول السورة إلى يسرا الأول لوجود الفاء يعني في الدنيا ثم قال إن مع العسر يسراً يعني في الآخرة لقوله في الحديث لن يغلب عسر يسرين والمراد باليسرين الفتوحات التي حصلت في حياته صلى الله عليه وسلم والثاني ما تيسر بعده زمن الخلفاء

ويؤيده ما في مصحف ابن مسعود من عدم التكرار والثاني مستأنف وعليه فهما يسران والعسر منكر فالثاني هو الأول واليسر الثاني غير الأول ومن قال الوقف على يسر الثاني قال لأنَّ إذا في جوابها الفاء فتضمنت معنى الشرط ومن قال الوقف على ذكرك ثم آخر السورة فمعناه التقديم والتأخير كأنَّه قال فإذا فرغت فانصب فإنَّ مع العسر يسراً انظر أبا العلاء الهمداني . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(21/820)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة ألم نشرح :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الخليل بن أسد النوشحاني قال حدثنا أبو العباس العروضي قال : سمعت أبا جعفر المنصور يقرأ : "أَلَمْ نَشْرَحَ لَكَ صَدْرَكَ1" .

قال ابن مجاهد : وهذا غير جائز أصلا ، وإنما ذكرته لتعرفه .

قال أبو الفتح ظاهر الأمر ومألوف الاستعمال ما ذكره ابن مجاهد ، غير أنه قد جاء2 مثل

هذا سواء في الشعر . قرأت على أبي علي في نوادر أبي زيد : [167ظ] .

من أي يومي من الموت أفر أيوم لم يقدر أم يوم قدر 3

قيل : أراد : لم يقدر ، بالنون الخفيفة ، وحذفها . وهذا عندنا غير جائز ، وذلك أن هذه النون للتوكيد ، والتوكيد أشبه شيء به الإسهاب والإطناب ، لا الإيجاز والاختصار . لكن فيه قول ذو صنعة ، وقد ذكرته في كتابي الموسوم بسر الصناعة4 .

---

1 سورة الشرح : 1 .

2 سقط "قد جاء" في ك .

3 انظر النوادر : 13 ، والخصائص : 3 : 94 .

4 انظر سر الصناعة 1 : 85 ، 86 والخصائص 3 : 95 ، وقد تكلف أبو الفتح في تخريج البيت كثيرا ، ولذا أغفلنا نقله . ويعزو الزمخشري في الكشاف "2 : 551" هذه القراءة إلى أبي جعفر المنصور ، ويقول عنها : لعله بين الحاء واشبعها في مخرجها ، فظن السامع أنه فتحها . ويقول أبو حيان في البحر "8 : 488" ولهذه القراءة تخريج أحسن من هذا كله ، وهو أنه لغة لبعض العرب حكاها اللحياني في نوادره ، وهي الجزم بلن والنصب بلم عكس المعروف عند الناس ، وأنشد قول عائشة بنت الأعجم تمدح المختار بن أبي عبيد .

قد كاد سمك الهدى ينهد قائمه حتى أتيح له المختار فانعمدا

قد كاد سمك الهدى ينهد قائمه ولم يشاور في أقدامه أحدا

(22/820)

وفي نوادر أبي زيد أيضا بيت آخر ، ويقال : إنه مصنوع ، وهو قوله :

اضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

فقالوا : أراد : اضربا ، بالنون الخفيفة ، وحذفها .

وقرأ أنس فيما رواه أبان عنه : "وحططنا عَنْكَ وِزْرَكَ2" ، قال : قلت يا أبا حمزة !

"ووضعنا" ، قال : وضعنا وحللنا وحططنا عنك وزرك سواء . إن جبريل أتى النبي

"صلى الله عليه وسلم" فقال : اقرأ على سبعة أحرف ، ما لم تخلط مغفرة بعذاب ، أو

عذابا بمغفرة .

قال أبو الفتح : قد سبقت مثل هذه الحكاية سواء عن أنس3 ، وهذا ونحوه هو الذي سوغ

انتشار هذه القراءات4 ، ونسأل الله توفيقا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 ص

366.365﴾

---

1 في النوادر "13" : قال أبو حاتم : أنشد الأخفش بيتا مصنوعا لطرفة ، وأنشد البيت

كما هنا . ويروى "بالسوط" مكان بالسيف . وقونس الفرس : ما بين أذنيه ، وقيل : مقدم رأسه . وانظر الخصائص 1 : 126 ، واللسان "قنس" ، والبيت في ديوان طرفة "195" من أبيات من الشعر المنسوب إليه .

2 سورة الشرح : 2 .

3 انظر الصفحة 336 من هذا الجزء .

4 أي مع ارتفاعها كلها إلى الرسول ، صلوات الله عليه .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الانشراح

مكية وآيها ثمان وقرأ الأزرق (وزرك) و (ذكرك) الآية 2 4 بترقيق الراء فيهما بخلف عنه والوجهان صحيحان عنه في جامع البيان وغيره

وقرأ (العسر) و (يسرا) الآية 5 6 بضم السين في الأربعة أبو جعفر . انتهى . ا هـ

﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة ألم نشرح "

وزرك ، ذكرك ، رقق الراء فيهما ورش .

" فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا " ضم السين في الكلمات الأربع أبو جعفر وأسكنها غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 354 ﴾

(25/820)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة ألم نشرح 94

مكية ونظيرتها في المدني الأول والكوفي والتين ولم يكن وإذا زلزلت وألهاكم

وفي المدني الأخير والمكي والتين ولم يكن وألهاكم وفي البصري والشامي والتين والقارعة وألهاكم

وكلمها سبع وعشرون كلمة

وحروفها مئة وثلاثة أحرف

وهي ثماني آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف ورؤوس الآي

صدرك

1 وزرك

2 ظهرك

3 ذكرك

4 يسرا

5 يسرا

6 فانصب

7 فارغب

8 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 278 ﴾

(26/820)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة ألم نشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

(العسر) في الموضعين واحد ، لأن الألف واللام توجب تكرير الأول ، وأما يسرا في الموضعين فاثنان ، لأن النكرة إذا أريد تكريرها جئ بضميرها أو بالألف واللام ، ومن هنا قيل " لن يغلب عسر يسرين " والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(27/820)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الانشراح

[سورة الشرح (94) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1)

"أَلَمْ نَشْرَحْ" الهمزة حرف استفهام وتقرير ومضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر "لَكَ" متعلقان بالفعل "صَدْرَكَ" مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها .

[سورة الشرح (94) : آية 2]

وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ (2)

"وَوَضَعْنا" ماض وفاعله "عَنْكَ" متعلقان بالفعل "وِزْرَكَ" مفعول به. والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة الشرح (94) : آية 3]

الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3)

"الَّذِي" اسم موصول صفة وزرك "أَنْقَضَ" ماض فاعله مستتر "ظَهْرَكَ" مفعول به والجملة صلة.

[سورة الشرح (94) : آية 4]

وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ (4)

"وَرَفَعْنا" ماض وفاعله "لَكَ" متعلقان بالفعل "ذِكْرَكَ" مفعول به. والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة الشرح (94) : آية 5]

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5)

"فَإِنَّ" الفاء حرف استئناف و"إن" حرف مشبه بالفعل "مَعَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر إن المقدم "الْعُسْرِ" مضاف إليه "يُسْراً" اسم إن المؤخر والجملة مستأنفة لا

محل لها .

[سورة الشرح (94) : آية 6]

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (6)

توكيد للآية السابقة .

[سورة الشرح (94) : آية 7]

فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7)

"فَإِذا" الفاء حرف استئناف "إذا" ظرفية شرطية غير جازمة "فَرَغْتَ" ماض وفاعله والجملة في محل جر بالإضافة "فَانْصَبْ" الفاء رابطة وأمر فاعله مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها وجملة إذا . . مستأنفة .

[سورة الشرح (94) : آية 8]

وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

"وَإِلى رَبِّكَ" جار ومجرور متعلقان بما بعدهما "فَارْغَبْ" الفاء زائدة وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 455﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةُ أَلَمْ نَشْرَحْ

ذكر فِيهَا حديثين

1506 - الحَدِيث الأول

عَن ابْن عَبَّاس وَابْن مَسْعُود لن يغلب عسر يسرين وَرُوِيَ مَرْفُوعا أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج ذَات يَوْم وَهُوَ يضْحك وَهُوَ يَقُول لن يغلب عسر يسرين

قلت رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أَنا معمر عَن أَيُّوب عَن الْحسن فِي قَوْله تَعَالَى إِن مَعَ الْعسر يسرا قَالَ خرج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا مَسْرُورا فَرحا وَهُوَ يضْحك وَهُوَ يَقُول لن يغلب عسر يسرين فَإِن مَعَ الْعسر يسرا إِن مَعَ الْعسر يسرا انْتَهَى

وَمن طَرِيق عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَسكت عَنهُ وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّمَانِينَ بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره أخبرنَا يُونُس بن عبد الْأَعْلَى ثَنَا أَبُو ثَوْر عَن معمر عَن الْحسن . . . فَذكره وَهُوَ مُرْسل

وَمَوْقُوف ابْن مَسْعُود رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق أَيْضا أخبرنَا جَعْفَر بن أبي سُلَيْمَان عَن مَيْمُون بن أبي

حَمْزَة عَن إِبْرَاهِيم النَّخعِيّ عَن ابْن مَسْعُود قَالَ لَو كَانَ الْعسر فِي جُحر ضَب لتَبعه الْيُسْر حَتَّى يَسْتَخْرِجهُ لن يغلب عسر يسرين انْتَهَى

وَمَوْقُوف ابْن عَبَّاس غَرِيب

(29/820)

وَفِيه مَوْقُوف عَلَى عمر رَوَاهُ مَالك فِي الْمُوَطَّأ فِي كتاب الْجِهَاد أَنا زيد بن أسلم عَن أَبِيه أَن عمر بن الْخطاب بلغه أَن أَبَا عُبَيْدَة حصر بِالشَّام وَقد تألب عَلَيْهِ الْقَوْم فَكتب إِلَيْهِ عمر سَلام عَلَيْك أما بعد فَإِنَّهُ مَا نزل بمُؤْمِن شدَّة إِلَّا جعل الله بعْدهَا فرجا وَلنْ يغلب عسر يسرين و يأيها الَّذين آمنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابطُوا إِلَى آخرهَا انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك قَالَ عَلَى شَرط مُسلم وَلم يخرجَاهُ

وَفِيه مَرْفُوع آخر رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره فَقَالَ حَدثنَا احْمَد بن مُحَمَّد ابْن السّري ثَنَا الْمُنْذر بن مُحَمَّد بن الْمُنْذر ثني أبي ثَنَا يَحْيَى بن مُحَمَّد بن هَانِئ عَن مُحَمَّد بن إِسْحَاق ثني الْحسن بن عَطِيَّة الْعَوْفِيّ عَن أَبِيه عَن جَابر بن عبد الله قَالَ لما نزلت فَإِن مَعَ الْعسر يسرا إِن مَعَ الْعسر يسرا قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابشروا لن يغلب عسر يسرين وَفِيه قصَّة

1507 - قَوْله

عَن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ إِنِّي لأكْره أَن أرى أحدكُم فَارغًا سَبَهْللا لَا فِي عمل دنيا وَلَا فِي عمل آخِرَة

قلت غَرِيب

ورُوِيَ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي بَاب كَلَام الصَّحَابَة وَأحمد فِي كتاب الزّهْد ثَنَا أَبُو مُعَاوِيَة عَن الْأَعْمَش عَن الْمسيب بن رَافع قَالَ قَالَ عبد الله بن مَسْعُود إِنِّي لأمقت الرجل أرَاهُ فَارغًا لَيْسَ فِي شَيْء من عمل دنيا وَلَا آخِرَة انْتَهَى

وَمن طَرِيق ابْن أبي شيبَة رَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة ابْن مَسْعُود وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَابْن الْمُبَارك فِي كتاب الزّهْد وَالرَّقَائِق وَالْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الزّهْد لَهُ

1508 - الحَدِيث الثَّانِي

(30/820)

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ من قَرَأَ أَلم نشرح فَكَأَنَّمَا جَاءَنِي وَأَنا مُغْتَم فَفرج عني

قلت رَوَاهُ الإِمَام أَبُو الْفَتْح سليم بن أَيُّوب الرَّازِيّ الْفَقِيه الشَّافِعِي فِي كتاب التَّرْغِيب أخبرنَا

أَبو الْعَبَّاس احْمَد بن إِبْرَاهِيم بن تركَان أَنا أَبو احْمَد الْقَاسِم بن أبي صَالح ثَنَا إِبْرَاهِيم بن الْحسن ثَنَا شَاذ بن الْفَيَّاض ثَنَا الْحسن بن أبي جَعْفَر عَن عَلّي بن زيد بن جدعَان عَن عَاصِم عَن زر قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ أَلَمْ نَشْرَحْ . . . إِلَى آخِره هَكَذَا وجدته مُرْسلا

وَرَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ مُسْندًا من طَرِيق أبي عوَانَة عَن عَاصِم بن بَهْدَلَة عَن زر ابْن حُبَيْش عَن عبد الله بن مَسْعُود قَالَ سَمِعت الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدُوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث عَلّي بن زيد عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ أَيْضا حَدثنَا أَحْمد بن مُحَمَّد بن زِيَاد ثَنَا أَبُو عمَارَة احْمَد بن مُحَمَّد ابْن الْمهْدي ثَنَا مُحَمَّد بن ضوء بن الصلصال بن الدلهمس ثني أبي أَن أَبَاهُ أعلمهُ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انْتهى انْتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار جـ 4 صـ 235 . 237﴾

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة ألم نشرح» (94)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«وِزْرَكَ» (2) إثمك . .

«إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً» (7) لجعل الرّجا أعظم من الخوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن ج 2 ص 303 ﴾

(32/820)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «الانشراح»

[سورة الشرح (94) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3)

وقوله سبحانه : أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ [1 ، 2 ، 3] وهذا القول مجاز واستعارة ، لأن النبي صلّى اللّه عليه وسلم لا يجوز أن ينتهى عظم ذنبه إلى حال إنقاض الظّهر ، وهو صوت تفعقع العظام من ثقل

(33/820)

الحمل . لأن هذا القول لا يكون إلا كناية عن الذنوب العظيمة ، والأفعال القبيحة . وذلك غير جائز على الأنبياء عليهم السلام ، فى قول من لا يجيز عليهم الصغائر ولا الكبائر ، وفى قول من يجيز عليهم الصغائر دون الكبائر . لأن اللّه سبحانه قد نزّههم عن موبقات الآثام ، ومسحقات «1» الأفعال ، إذ كانوا أمناء وحيه ، وألسنة أمره ونهيه ، وسفراءه إلى خلقه .

وقد استقصينا الكلام على ذلك فى باب مفرد من كتابنا الكبير .

فنقول : إن المراد هاهنا بوضع الوزر ليس على ما يظنه المخالفون من كونه كناية عن الذنب ، وإنما المراد به ما كان يعانيه النبي صلّى اللّه عليه وسلم من الأمور المستصعبة ، والمواقف المخطرة فى أداء الرسالة ، وتبليغ النذارة «2» ، وما كان يلاقيه عليه السلام من مضار قومه ، ويتلقّاه من مرامى أيدى معشره . وكلّ ذلك حرج فى صدره ، وثقل على ظهره .

فقرّره اللّه سبحانه بأنه أزال عنه تلك المخاوف كلها ، وحطّ عن ظهره تلك الأعباء بأسرها ، وأذاله من أعدائه ، وفضّله على أكفائه ، وقدّم ذكره على كل ذكر ، ورفع قدره على كل قدر ، حتى أمن بعد الخيفة ، واطمأنّ بعد القلقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 368.367 ﴾

---

(1) فى الأصل «و مستحقات» وهو تحريف من الناسخ . والأفعال المسحقة هى التي توجب السحق والهلاك

(2) أي الإنذار ، كالبشارة ، وهى تقديم البشرى .

(34/820)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الشرح

سورة الانشراح امتداد لسورة الضحى . والاستفهام الذى بدئت به تكملة للاستفهام المتتابع الذى ختمت به السورة السابقة . وشرح الصدر تم بما أفاء الله عليه من علم وأدب ، كما قال فى موضع آخر " وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان

فضل الله عليك عظيما " . لقد نشأ فى بيئة ممتدة الظلام ، بل إن العالم كله كان فاقد الرشد تعصف به وثنيات عفنة ، فعلام يعتمد ناشد الحق أو من أين يستمد ؟ إن متنه يكل من ثقل الحمل ، لولا أن الله اصطفى وأنعم " ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهرك . . " والتوحيد الذى جاء به محمد طراز نقى فريد لا تناقض فيه ولا وهم ، لا تجسيد ولا تعديد ! وقد تسأل: لماذا انضمت الشهادة لمحمد بالرسالة إلى الشهادة لله بالوحدانية ؟ إن التوحيد الذى يعلمه محمد ، هو الذى يعرفه النبيون كلهم أزلا وأبدا ولم يبلغوا غيره ، فمجيئه عن طريق محمد إشارة إلى أنه من مصدر مصون منزه ، ولذلك قال حسان بن ثابت وضم الإله اسم النبى إلى اسمه - إذا قال فى الخمس المؤذن: أشهد ! ! وهذا معنى " ورفعنا لك ذكرك " صحيح أن الناس فى أوروبا مثلا يكذبون محمدا ! ! وينسبونه إلى الادعاء ! وماذا تنتظر ممن يجحدون الألوهية ويحسبون الأفلاك تدور وحدها فى السماء ، أو أن الدماء تنطلق وحدها فى العروق ؟ ! إن الافتراء على الله فوق الافتراء على عباده ، ولذلك يقول الله لنبيه: " قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون " . ويوصى الله نبيه بالتجلد والمصابرة فى ملاقاة الكذابين مهما اشتد أذاهم ، فالمستقبل للحق ورجاله . " فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا " . وهذا التركيب يفيد . فى قواعد البلاغة . تعدد اليسر وانفراد العسر ،

ولذلك قالوا : لن يغلب عسر يسرين . ويوصيه مرة أخرى بالدأب على الجهاد والإقبال على الله . فإذا انتهى من واجب

(35/820)

نهض إلى غيره ، لا مكان فى حياته لفتور ! " فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب" . إن الدين الذى جاء به محمد إذا أخبر صدق ، وإذا حكم عدل . والعالم ـ لاسيما فى عصرنا ـ بحاجة إلى الصدق والعدل ، فإن الهراء والجور يطاردان الحق والعدل . "وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم" . والدعاة وراء إمامهم خاتم الأنبياء ينبغى أن يعوا ذلك . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 527.526﴾

(36/820)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(37/820)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة ألم نشرح

أقول: هي شديدة الاتصال بسورة الضحى ، لتناسبهما في الجمل ولهذا ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما قال الإمام: والذي دعاهم إلى ذلك هو: أن قوله: (أَلَم نشرح) كالعطف على: (أَلَم يجِدك يتيماً فآوى) في الضحى قلت: وفي حديث الإسراء أن الله تعالى قال: (يا محمد ، ألم أجدك يتيماً فآويت ، وضالاً فهديت ، وعائلاً فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت) الحديث أخرجه ابن أبي حاتم وفي هذا أو في دليل على اتصال السورتين معنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 152.153﴾

(38/820)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي جل أمره وتعالى جده ولا إله غيره فعظم ما له من إنعام (الرحمن) الذي أفاض جوده على سائر خلقه لأنه ذو الجلال والإكرام (الرحيم) الذي إلى أهل حضرته بخاص رحمته في مقامات الاختصاص إلى أعلى مقام .

ولما أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ آخر الضحى بالتحديث بنعمته التي أنعمها عليه فصلها في هذه السورة فقال مثبتاً لها في استفهام إنكاري مبالغة في إثباتها عند من ينكرها والتقرير بها مقدماً المنة بالشرح في صورته قبل الإعلام بالمغفرة كما فعل ذلك في سورة الفتح الذي هو نتيجة الشرح ، لتكون البشارة بالإكرام أولاً لافتاً القول إلى مظهر العظمة تعظيماً للشرح .

﴿ ألم نشرح ﴾ أي شرحاً يليق بعظمتنا ﴿ لك ﴾ أي خاصة .

(39/820)

ولما عين المشروح له ، فكان المشروح مبهماً ، فزاد تشوف النفس إليه ليكون أضخم له ، بينه ليكون بياناً بعد إبهام فيكون أعظم في التنويه به وأجل في التعريف بأمره فقال :

﴿ صدرك ﴾ أي نسره ونفرحه بالهجرة ، فإن هذه السورة مدنية عند ابن عباس ـ رضى

الله عنهما ـ ، ونجله ونعظمه ونخرج منه قلبك ونشقه ونغسله ونملأه إيماناً وحكمة ورأفة وعلماً ورحمة ، فانفسح جداً حتى وسع مناجاة الحق ودعوة الخلق ، فكان مع الحق بعظمته وارتفاعه ، ومع الخلق بفيض أنواره وشعاعه ، وقد كان هذا الشرع حقيقة مراراً ، وكان مجازاً أيضاً بإحلال جميع معانيه ، وكل ذلك على ما لا يدخل تحت الوصف لا يعبر لكم عنه بأثر من أنه شق بعظمتنا ، فالعلم الذي شق به معرفة الله والدار الآخرة والدين والدنيا ، والحمة التي درّت فيه هي وضع الشيء في محله ، وإعطاء كل ذي حق حقه ، وقرأ أبو جعفر المنصور بفتح جاء " نشرح " وخرجها ابن عطية على التأكيد بالنون الخفيفة ثم أبدل ألف من النون ، ثم حذف النون تخفيفاً ، وقال أبو حيان بأن اللحياني حكى في نوادره عن بعض العرب النصب بلم والجزم بلن ، وسره هنا أن الفتح في اللفظ مناسب غاية المناسب للشرح ، ووجه قراءة الجمهور أنه لما دل على الفتح بالشرح دل بالجزم على أنه مع ذلك رابط لما أودعه من الحكم ضابط له ، هاد بما فيه من رزانة العلم ، ووقار التقى والحلم ، قال ابن برجان : ففرق ما بين النبي والولي في ذلك أن النبي شرح صدره ظاهراً فأعلى ظاهراً ، والولي شرح ذلك منه باطناً فعلى به باطناً ، والكافر ضيق ذلك منه وأبقى بظلمته وحظوظ الشيطان منه فهو لا يستطيع قبول الهداية ولا الصعود في معارج العبرة إلا على مقدار ما يستطيع الصعود في السماء ﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ [الأنعام : 125] .

ولما كانت سعة الصدر بالعلم والحكمة هي الجمال باجتماع المحاسن ، وكان ذلك مع حمل ما يعني من أعظم النكد ، وكان الجمال بجمع المحاسن لا يكمل إلا إذا جمع إلى الجمال الجلال بانتفاء الرذائل ، وكان الاستفهام الإنكاري إذا اجتمع مع النفي صار إثباتاً ، لأنه نفي للنفي ، قال عاطفاً عليه ما لا يعطف إلا مع الإثبات ﴿ ووضعنا ﴾ أي حططنا وأسقطنا وأبطلنا حطاً لا رجعة له ولا فيه بوجه بما لنا من العظمة ، مجاوزاً ﴿ عنك وزرك ﴾ أي حملك الثقيل الذي لا يستطاع حمله ، ولذلك وصفه بقوله : ﴿ الذي أنقض ظهرك ﴾ أي جعله وهو عماد بدنك تصوت مفاصله من الثقل كما يصوت الرحل الجديد إذا لز بالحمل الثقيل ، وذلك هو ما دهمه عندما أمر بإنذار قومه ومفاجأتهم بما يكرهون عن عيب دينهم وتضليل آبائهم وتسفيه حلومهم في التدين بدين لا يرضاه أدنى العقلاء إذا تأمل شيئاً من تأمل مع التجرد من حظ النفس مع ما عندهم من الأنفة والحمية وإلقاء الأنفس في المهالك لأدنى غضب ، فقال :

" يا رب إذن يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة " فخفف سبحانه وتعالى عنه ذلك بما أظهر له من الكرامات وأيده به من المعجزات ، وضمن له من الحماية إلى أمور لا يحيط بها علماً إلا الذي

أيده بها ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة : 67] حتى خف ذلك عليه ، فصار أشفق أهله عليه يمنعه من بعض الإبلاغ ويمسك بثوبه لئلا يخرج إلى النار فيقول لهم ذلك فيحصل له ما يكره فيجذب نفسه منه ويخرج إليهم فيخبرهم كما وقع في أمر الإسراء وغيره ، وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : هو أن جبريل عليه الصلاة والسلام شق صدره فأخرج منه قلبه فشرحه وأخرج منه علقة سوداء فأنقاه وغسله ثم ملأه علماً وإيماناً وحكمة ، يعني فصار يحتمل ما لا يحتمله غيره ، وخف عليه ما يثقل على غيره ، ولا شك أن ذلك وزر لغوي ، وهو واضح ، وشرعي بالمال على تقدير ترك الامتثال اللازم للاستقلال ، وقد أعاذه الله من ذلك .

(41/820)

وقال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : معنى هذه السورة من معنى السورة قبلها ، وحاصل السورتين تعداد نعمه سبحانه وتعالى عليه ، فإن قلت : فلم فصلت سورة ألم نشرح ولم ينسق ذكر هذه النعم في سورة واحدة ، قلت : من المعهود في البشر فيمن عدد على ولده أو عبده نعماً أن يذكر له أولاً ما شاهد الحصور عليه منها بسببه مما يمكن أن يتعلق في بعضها بأن ذلك وقع جزاء لا ابتداء ، فإذا استوفى له ما قصده من هذا ، أتبعه بذكر نعم ابتدائية

قد كان ابتداؤه بها قبل وجوده كقول الأب مثلاً لابنه : ألم أختر لأجلك الأم والنفقة حيث استولدتك وأعددت من مصالحك كذا وكذا ، ونظير ما أشرنا إليه بقوله سبحانه لزكريا عليه الصلاة والسلام ﴿ ولم تك شيئاً ﴾ [مريم : 9] وقد قدم له ﴿ إنا نبشرك بيحيى ﴾ [مريم : 7] والية ﴿ إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾ وتوهم استبداد الكسبية في وجود الولد غير خافية في حق من قصر نظره ولم يوفق فابتدىء بذكرها ثم أعقب بما لا يمكن أن يتوهم فيه ذلك ، وهو قوله :

﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ﴾ [مريم : 9] وله نظائر من الكتب وعليه جاء ما ورد في هاتين السورتين - والله أعلم - انتهى .

(42/820)

ولما شرفه في نفسه بالكمال الجامع للجلال إلى الجلال ، وكان ذلك لا يصفو إلا مع الشرف عند الناس قال : ﴿ ورفعنا ﴾ أي بما لنا من العظمة والقدرة الباهرة ﴿ لك ﴾ أي خاصة رفعة تتلاشى عندها رفعة غيرك من الخلق كلهم ﴿ ذكرك ﴾ عند جميع العالمين العقلاء وغيرهم بالصدق والأمانة والحلم والرزانة ومكارم الأخلاق وطهارة الشيم وانتفاء شوائب النقص حتى ما كانت شهرتك عند قومك قبل النبوة إلا الأمين ، وكانوا يضربون المثل

بشمائلك الطاهرة ، وأوصافك الزاهرة الباهرة ، ثم بالنبوة ثم بالرسالة ثم بالهجرة ، وبأن جعلنا اسمك مقروناً باسمنا في كلمة التوحيد والإيمان والأذان والإقامة والتشهد والخطبة ، فلا أذكر إلا وذكرت معي ، ومن الكرامة الظفر على أعدائك والكرامة لأوليائك ، وجعل رضاك رضاي وطاعتك طاعتي ، وأمر ملائكتي بالصلاة عليك ، ومخاطبتي لك بالألقاب العلية والسمات المعزة المعلية من الرسول والنبي ، ونحو ذلك على حسب الأساليب ومناسبات التراكيب إلى غير ذلك من فضائل ومناقب وشمائل لا تضبط بالوصف ، قال الرازي : ثم جعل لأمته من ذلك أوفر الحظ ، قيل : يا رسول الله ، من أولياء الله ؟ قال : " الذين إذا ذُكروا ذُكر الله " وفي حديث : " الذين إذا رُؤُوا ذُكر الله " وقال : " خياركم من تذكر الله رؤيته ، ويزيد في علمكم منطقه ، ويزهدكم في الدنيا عمله " فمنتهى قسمة الثناء أن خلط ذكره بذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 460 . 463 ﴾

(43/820)

فصل

قال الفخر :

سورة الشرح

ثمان آيات مكية

يروى عن طاووس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم والذي دعاهما إلى ذلك هو أن قوله تعالى أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ كالعطف على قوله أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً وليس كذلك لأن الأول كان نزوله حال اغتمام الرسول (صلى الله عليه وسلم) من إيذاء الكفار فكانت حال محنة وضيق صدر والثاني يقتضي أن يكون حال النزول منشرح الصدر طيب القلب فأنى يجتمعان

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1)

استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار ، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه ، فكأنه قيل : شرحنا لك صدرك ، وفي شرح الصدر قولان :

الأول : ما روي أن جبريل عليه السلام أتاه وشق صدره وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي ثم ملأه علماً وإيماناً ووضعه في صدره .

واعلم أن القاضي طعن في هذه الرواية من وجوه :

أحدها : أن الرواية أن هذه الواقعة إنما وقعت في حال صغره عليه السلام وذلك من المعجزات ، فلا يجوز أن تتقدم نبوته وثانيها : أن تأثير الغسل في إزالة الأجسام ، والمعاصي ليست بأجسام فلا يكون للغسل فيها أثر ثالثها : أنه لا يصح أن يملأ القلب علماً ، بل الله

تعالى يخلق فيه العلوم والجواب : عن الأول : أن تقويم المعجز على زمان البعثة جائز عندنا ، وذلك هو المسمى بالإرهاص ، ومثله في حق الرسول عليه السلام كثير .

وأما الثاني والثالث : فلا يبعد أن يكون حصول ذلك الدم الأسود الذي غسلوه من قلب الرسول عليه السلام علامة للقلب الذي يميل إلى المعاصي ، ويحجم عن الطاعات ، فإذا أزالوه عنه كان ذلك علامة لكون صاحبه مواظباً على الطاعات محترزاً عن السيئات ، فكان ذلك كالعلامة للملائكة على كون صاحبه معصوماً ، وأيضاً فلأن الله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

والقول الثاني : إن المراد من شرح الصدر ما يرجع إلى المعرفة والطاعة ، ثم ذكروا فيه وجوهاً :

أحدها : أنه عليه السلام لما بعث إلى الجن والإنس فكان يضيق صدره عن منازعة الجن والإنس والبراءة من كل عابد ومعبود سوى الله ، فآتاه الله من آياته ما اتسع لكل ما حمله وصغره عنده كل شيء احتمله من المشاق ، وذلك بأن أخرج عن قلبه جميع الهموم وما ترك فيه إلا هذا الهم الواحد ، فما كان يخطر بباله هم النفقة والعيال ، ولا يبالي بما يتوجه إليه من

إيذائهم ، حتى صاروا في عينه دون الذباب لم يجبن خوفاً من وعيدهم ، ولم يمل إلى مالهم ، وبالجملة فشرح الصدر عبارة عن علمه بحقارة الدنيا وكمال الآخرة ، ونظيره قوله : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ [الأنعام : 125] وروي أنهم قالوا : يا رسول الله أينشرح الصدر ؟ قال : نعم ، قالوا : وما علامة ذلك ؟ قال : " التجافي عن الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإعداد للموت قبل نزوله " وتحقيق القول فيه أن صدق الإيمان بالله ووعده ووعيده يوجب للإنسان الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والاستعداد للموت وثانيها : أنه انفتح صدره حتى أنه كان يتسع لجميع المهمات لا يقلق ولا يضجر ولا يتغير ، بل هو في حالتي البؤس والفرح منشرح الصدر مشتغل بأداء ما كلف به ، والشرح التوسعة ، ومعناه الإراحة من الهموم ، والعرب تسمي الغم والهم ضيق صدر كقوله :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾ [الحجر : 97] وههنا سؤالات :

الأول : لم ذكر الصدر ولم يذكر القلب ؟

والجواب : لأن محل الوسوسة هو الصدر على ما قال : ﴿ يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ الناس ﴾ [

الناس : 5] فإزالة تلك الوسوسة وإبدالها بدواعي الخير هي الشرح ، فلا جرم خص ذلك الشرح بالصدر دون القلب ، وقال محمد بن علي الترمذي : القلب محل العقل والمعرفة ، وهو الذي يقصده الشيطان ، فالشيطان يجيء إلى الصدر الذي هو حصن القلب ، فإذا وجد مسلكاً أغار فيه ونزل جنده فيه ، وبث فيه من الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حيئنذ ولا يجد للطاعة لذة ولا للإسلام حلاوة ، وإذا طرد العدو في الابتداء منع وحصل الأمن ويزول الضيق وينشرح الصدر ويتيسر له القيام بأداء العبودية .

السؤال الثاني : لم قال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ولم يقل ألم نشرح صدرك ؟

والجواب : من وجهين

أحدهما : كأنه تعالى يقول لام بلام ، فأنت إنما تفعل جميع الطاعات لأجلي كما قال : ﴿ إلا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ، ﴿ أَقِمِ الصلاة لِذِكْرِى ﴾ [طه : 14] فأنا أيضاً جميع ما أفعله لأجلك

وثانيها : أن فيها تنبيهاً على أن منافع الرسالة عائدة إليه عليه السلام ، كأنه تعالى قال : إنما شرحنا صدرك لأجلك لا لأجلي .

السؤال الثالث : لم قال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ ولم يقل ألم أشرح ؟

والجواب : إن حملناه على نون التعظيم ، فالمعنى أن عظمة المنعم تدل على عظمة النعمة ، فدل ذلك على أن ذلك الشرح نعمة لا تصل العقول إلى كنه جلالتها ، وإن حملناه على نون

الجميع ، فالمعنى كأنه تعالى يقول : لم أشرحه وحدي بل أعملت فيه ملائكتي (1) ، فكنت ترى الملائكة حواليك وبين يديك حتى يقوي قلبك ، فأديت الرسالة وأنت قوي القلب ولحقتهم هيبة ، فلم يجيبوا لك جواباً ، فلو كنت ضيق القلب لضحكوا منك ، فسبحان من جعل قوة قلبك جبناً فيهم ، وانشراح صدرك ضيقاً فيهم .

---

(1) الراجح ـ والله أعلم ـ الوجه الأول ، وأما هذا القول ففى غاية البعد ، وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة النساء ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (166) ﴾ ، فكما أن شهادته تعالى تغنى عن شهادة غيره فكذلك شرحه لصدر حبيبه ومصطفاه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يغنى عن شرح من سواه . والله أعلم .

(46/820)

﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال المبرد : هذا محمول على معنى ألم نشرح لا على لفظه ، لأنك لا تقول ألم وضعنا ولكن

معنى ألم نشرح قد شرحنا ، فحمل الثاني على معنى الأول لا على ظاهر اللفظ ، لأنه لو كان معطوفاً على ظاهره لوجب أن يقال : ونضع عنك وزرك .

المسألة الثانية :

معنى الوزر ثقل الذنب ، وقد مر تفسيره عند قوله : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ ﴾ [الأنعام : 31] وهو كقوله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] .

وأما قوله : ﴿ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ فقال علماء اللغة : الأصل فيه أن الظهر إذا أثقل الحمل سمع له نقيض أي صوت خفي ، وهو صوت المحامل والرحال والأضلاع ، أو البعير إذا أثقله الحمل فهو مثل لما كان يثقل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من أوزاره .

المسألة الرابعة :

احتج بهذه الآية من أثبت المعصية للأنبياء عليهم السلام والجواب : عنه من وجهين الأول : أن الذين يجوزون الصغائر على الأنبياء عليهم السلام حملوا هذه الآية عليها ، لا يقال : إن قوله : ﴿ الذى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ يدل على كونه عظيماً .

فكيف يليق ذلك بالصغائر ، لأنا نقول : إنما وصف ذلك بإنقاض الظهر مع كونها مغفورة لشدة اغتمام النبي صلى الله عليه وسلم بوقوعه منه وتحسره مع ندمه عليه ، وأما إنما وصفه بذلك لأن تأثيره فيما يزول به من الثواب عظيم ، فيجوز لذلك ما ذكره الله تعالى .

هذا تقرير الكلام على قول المعتزلة وفيه إشكال، وهو أن العفو عن الصغيرة واجب على الله تعالى عند القاضي، والله تعالى ذكر هذه الآية في معرض الامتنان، ومن المعلوم أن الامتنان بفعل الواجب غير جائز الوجه الثاني: أن يحمل ذلك على غير الذنب، وفيه وجوه أحدها: قال قتادة: كانت للنبي صلى الله عليه وسلم ذنوب سلفت منه في الجاهلية قبل النبوة، وقد أثقلته فغفرها له وثانيها: أن المراد منه تخفيف أعباء النبوة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها وحفظ موجباتها والمحافظة على حقوقها، فسهل الله تعالى ذلك عليه، وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تيسرت له وثالثها: الوزر ما كان يكرهه من تغييرهم لسنة الخليل.

وكان لا يقدر على منعهم إلى أن قواه الله، وقال له: ﴿أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم﴾ [النحل: 123].

ورابعها: أنها ذنوب أمته صارت كالوزر عليه، ماذا يصنع في حقهم إلى أن قال: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعَذّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: 33] فأمنه من العذاب في العاجل، ووعد له الشفاعة في الآجل وخامسها: معناه عصمناك عن الوزر الذي ينقض ظهرك، لو كان ذلك الذنب حاصلاً، فسمى العصمة وضعاً مجازاً، فمن ذلك ما روي أنه حضر وليمة فيها دف ومزامير قبل البعثة ليسمع، فضرب الله على أذنه فلم يوقظه إلا حر الشمس من الغد

وسادسها : الوزر ما أصابه من الهيبة والفزع في أول ملاقاة جبريل عليه السلام ، حين أخذته الرعدة ، وكاد يرمي نفسه من الجبل ، ثم تقوى حتى ألفه وصار بحالة كاد يرمي بنفسه من الجبل لشدة اشتياقه وسابعها : الوزر ما كان يلحقه من الأذى والشتم حتى كاد ينقض ظهره وتأخذه الرعدة ، ثم قواه الله تعالى حتى صار بحيث كانوا يدمون وجهه ، و (هو) يقول :

(48/820)

" اللهم اهد قومي " وثامنها : لئن كان نزول السورة بعد موت أبي طالب وخديجة ، فلقد كان فراقهما عليه وزراً عظيماً ، فوضع عنه الوزر برفعه إلى السماء حتى لقيه كل ملك وحياة فارتفع له الذكر ، فلذلك قال : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ وتاسعها : أن المراد من الوزر والثقل الحيرة التي كانت له قبل البعثة ، وذلك أنه بكمال عقله لما نظر إلى عظيم نعم الله تعالى عليه ، حيث أخرجه من العدم إلى الوجود وأعطاه الحياة والعقل وأنواع النعم ، ثقل عليه نعم الله وكاد ينقض ظهره من الحياء ، لأنه عليه السلام كان يرى أن نعم الله عليه لا تنقطع ، وما كان يعرف أنه كيف كان يطيع ربه ، فلما جاءته النبوة والتكليف وعرف أنه كيف ينبغي له أن يطيع ربه ، فحينئذ قل حياؤه وسهلت عليه تلك الأحوال ، فإن اللئيم لا

يستحي من زيادة النعم بدون مقابلتها بالخدمة ، والإنسان الكريم النفس إذا كثر الإنعام عليه وهو لا يقابلها بنوع من أنواع الخدمة ، فإنه يثقل ذلك عليه جداً ، بحيث يميته الحياء ، فإذا كلفه المنعم بنوع خدمة سهل ذلك عليه وطاب قلبه .

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4)

(49/820)

واعلم أنه عام في كل ما ذكروه من النبوة ، وشهرته في الأرض والسموات ، اسمه مكتوب على العرش ، وأنه يذكر معه في الشهادة والتشهد ، وأنه تعالى ذكره في الكتب المتقدمة ، وانتشار ذكره في الآفاق ، وأنه ختمت به النبوة ، وأنه يذكر في الخطب والأذان ومفاتيح الرسائل ، وعند الختم وجعل ذكره في القرآن مقروناً بذكره : ﴿ واللهُ ورَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] ، ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ ﴾ [النساء : 13] و ﴿ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [النور : 54] ويناديه باسم الرسول والنبي ، حين ينادي غيره بالاسم يا موسى يا عيسى ، وأيضاً جعله في القلوب بحيث يستطيبون ذكره وهو معنى قوله تعالى : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ [مريم : 96] كأنه تعالى يقول : أملأ العالم من أتباعك كلهم يثنون عليك ويصلون عليك ويحفظون سنتك ، بل ما من فريضة من فرائض

الصلاة إلا ومعه سنة فهم يمتثلون في الفريضة أمري ، وفي السنة أمرك وجعلت طاعتك طاعتي وبيعتك بيعتي ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 80] ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ [الفتح : 10] لا تأنف السلاطين من أتباعك ، بل جراءة لأجهل الملوك أن ينصب خليفة من غير قبيلتك ، فالقراء يحفظون ألفاظ منشورك ، والمفسرون يفسرون معاني فرقانك ، والوعاظ يبلغون وعظك بل العلماء والسلاطين يصلون إلى خدمتك ، ويسلمون من وراء الباب عليك ، ويمسحون وجوههم بتراب روضتك ، ويرجون شفاعتك ، فشرفك باق إلى يوم القيامة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 6.3 ﴾

(50/820)

وقال القرطبى :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) ﴾

شرح الصدر : فتحه ؛ أي ألم نفتح صدرك للإسلام .

وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : ألم نُلين لك قلبك .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : " قالوا يا رسول الله ، أينشرح الصدر ؟ قال : "نعم

وينفسح" .

قالوا : يا رسول الله ، وهل لذلك علامة ؟ قال : "نعم التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاعتداد للموت ، قبل نزول الموت" " وقد مضى هذا المعنى في "الزمر" عند قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر : 22] .

وروي عن الحسن قال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ قال : مُلِىء حكماً وعلماً .

وفي الصحيح عن أنس بن مالك : عن مالك بن صعصعة رجلٍ من قومه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " فبينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول : أحد الثلاثة فأُتيت بطَسْت من ذهب ، فيها ماء زمزم ، فشرح صدري إلى كذا وكذا " قال قتادة قلت : ما يعني ؟ قال : إلى أسفل بطني ، قال : "فاستخرِج قلبي ، فغُسِل قلبي بماء زمزم ، ثم أعيد مكانه ، ثم حُشِي إيماناً وحِكمة " وفي الحديث قِصة .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " جاءني ملكان في صورة طائر ، معهما ماء وثلج ، فشرح أحدهما صدري ، وفتح الآخر بمنقاره فيه فغسله " وفي حديث آخر قال : " جاءني مَلَك فشق عن قلبي ، فاستخرج منه عذرة ، وقال : قلبك وكيع ، وعيناك بصيرتان ، وأذناك سميعتان ، أنت محمد رسول الله ، لسانك صادق ، ونفسك مطمئنة ، وخلقك قُثَم ، وأنت قيم " قال أهل اللغة : قوله : "وكيع أي يحفظ ما يوضع فيه .

يقال : سِقاء وكيع ؛ أي قوِي يحفظ ما يوضع فيه .

واستوكعتْ معِدته، أي قويت.

وقوله "قُثَم" أي جامع.

يقال: رجل قَثوم للخير؛ أي جامع له.

(51/820)

ومعنى "ألم نشرح" قد شرحنا؛ الدليل على ذلك قوله في النسْق عليه: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾، فهذا عطف على التأويل، لا على التنزيل؛ لأنه لو كان على التنزيل لقال: ونضع عنك وِزرك.

فدل هذا على أن معنى "ألم نشرح": قد شرحنا.

و"لم" جَحْد، وفي الاستفهام طرف من الجحد، وإذا وقع جحد، رجع إلى التحقيق؛ كقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ [التين: 8] ومعناه: الله أحكم الحاكمين.

وكذا ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: 36].

ومثله قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان:

ألستمْ خيرَ من ركب المطايا . . .

وأندى العالمين بطونَ راحِ

المعنى : أنتم كذا .

قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ ، أي حططنا عنك ذنبك .

وقرأ أنس "وحللنا ، وحَطَطْنَا" .

وقرأ ابن مسعود : "وحللنا عنك وِقْرك" .

هذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] .

قيل : الجميع كان قبل النبوّة .

والوِزْر : الذنب ؛ أي وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية ؛ لأنه كان صلى الله عليه وسلم في كثير من مذاهب قومه ، وإن لم يكن عبد صنماً ولا وثناً .

قال قتادة والحسن والضحاك : كانت للنبيّ صلى الله عليه وسلم ذنوب أثقلته ؛ فغفرها الله له .

﴿ الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي أثقله حتى سمع نقيضه ؛ أي صوته .

وأهل اللغة يقولون : أَنْقض الحِمل ظهر الناقة : إذا سمِعت له صريراً من شدة الحمل .

وكذلك سمعت نقيضَ الرّحل ؛ أي صريره .

قال جميل :

وحتى تداعتْ بالنقيض حِبالُه . . .

وهَمتْ بَوانِي زَوْرِه أن تَحَطَّمَا

"بَوانِي زورِه" : أي أصول صدره .

فالوِزر : الحِمل الثقيل .

قال المحاسبيّ : يعني ثِقل الوزر لو لم يعف الله عنه .

﴿ الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي أثقله وأوهنه .

قال : وإنما وصفت ذنوب الأنبياء بهذا الثقل ، مع كونها مغفورة ، لشدّة اهتمامهم بها ، وندمهم منها ، وتحسرهم عليها .

وقال السُّدّي : "ووضعنا عنك وزرك" أي وحططنا عنك ثِقلك .

وهي في قراءة عبد الله بن مسعود "وحططنا عنك وِقْرك" .

وقيل : أي حططنا عنك ثقل آثام الجاهلية .

قال الحسين بن الفضل : يعني الخطأ والسهو .

وقيل : ذنوب أمتك ، أضافها إليه لاشتغال قلبه بها .

وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدة : خففنا عنك أعباء النبوّة والقيام بها ، حتى لا تثقل

عليك .

وقيل ؛ كان في الابتداء يثقل عليه الوحي ، حتى كاد يرمي نفسه من شاهق الجبل ، إلى أن جاءه جبريل وأراه نفسه ؛ وأزيل عنه ما كان يخاف من تغير العقل .

وقيل : عصمناك عن احتمال الوِزر ، وحفِظناك قبل النبوّة في الأربعين من الأدناس ؛ حتى نزل عليك الوحي وأنت مطهر من الأدناس .

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4)

قال مجاهد : يعني بالتأذين .

وفيه يقول حسان بن ثابت :

أَغَرُّ عليه للنبوّة خاتَمٌ . . .

من الله مشهود يلوح ويُشْهدُ

وضمّ الإله اسم النبيّ إلى اسمه . . .

إذا قال في الخمس المؤذنُ أَشْهدُ

ورُوي عن الضحاك عن ابن عباس ، قال : يقول له لا ذُكِرتُ إلا ذُكِرتَ معي في الأذان ، والإقامة والتشهد ، ويوم الجمعة على المنابر ، ويوم الفطر ، ويوم الأضحى : وأيام التشريق ، ويوم عرفة ، وعند الجِمار ، وعلى الصفا والمروة ، وفي خطبة النكاح ، وفي مشارق الأرض ومغاربها .

ولو أن رجلاً عبد الله جل ثناؤه ، وصدّق بالجنة والنار وكل شيء ، ولم يشهد أن محمداً رسول الله ، لم ينتفع بشيء وكان كافراً .

وقيل : أي أعلينا ذكرك ، فذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك ، وأمرناهم بالبشارة بك ، ولا دِين إلا ودِينك يظهر عليه .

وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء ، وفي الأرض عند المؤمنين ، ونرفع في الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود ، وكرائم الدرجات . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(53/820)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

الشرح في الأصل الفسح والتوسعة وشاع استعماله في الإيضاح ومنه شرح الكتاب إذا أوضحه لما أن فسح الشيء وبسطه مستلزم لإظهار باطنه وما خفي منه وكذا شاع في سرور النفس حتى لو قيل أنه حقيقة عرفية فيه لم يبعد وذلك إذا تعلق بالقلب كان قيل شرح قلبه بكذا أي سره به لما أن القلب كالمنزل للنفس ويلزم عادة من فسح المنزل

وتوسعته سرور النازل فيه وكذا إذا تعلق بالصدر الذي هو محل القلب وربما يؤذن ذلك بسعة القلب لما أن العادة كالمطردة في أن توسعة ما حوالي المنزل إنما تكون إذا كان المنزل واسعاً فيوسع ما حواليه لتحصيل زيادة بهجة ونحوها فيه فينتقل منه إلى سرور النفس بالواسطة وقد يراد به إذا تعلق بالقلب أو الصدر أيضاً تكثير ما فيه من المعلومات فقيل يتخيل أنها تحتاج إلى فضاء تكون فيه وأن ذلك محل لها فمتى كانت كثيرة اقتضت أن يكون محلها واسعاً ليسعها وقد يراد بها تكثير ما في النفس من ذلك فقيل أيضاً بتخيل أن تكثير معلوماتها يستدعي توسيعها وتوسيعها يستدعي توسيع ذلك لتنزيله منزلة محلها وقد يراد به تأييد النفس بقوة قدسية وأنوار إلهية بحيث تكون ميداناً لمواكب المعلومات وسماء لكواكب الملكات وعرشاً لأنواع التجليات وفرشاً لسوائم الواردات فلا يشغله شأن عن شأن ويستوي لديه يكون وكائن وكان ووجه نسبته إلى الصدر على نحو ما مر وإرادة القلب من الصدر والنفس من القلب بعلاقة المحلية ونحوها مما لا تميل إليه النفس وإرادة كل مما ذكر بقرينة المقام والأنسب بمقام الامتنان هنا إرادة هذا المعنى الأخير وجوز غيره فالمعنى ألم نفسح صدرك حتى حوى عالمي الغيب والشهادة وجمع بين ملكتي الاستفادة والإفادة فما صدك الملابسة بالعلائق الجسمانية عن اقتباس أنوار الملكات الروحانية وما عاقك التعلق بمصالح الخلق عن الاستغراق في شؤون الحق وقيل المعنى ألم نزل همك وغمك بإطلاعك على حقائق الأمور وحقار الدنيا فهان عليك احتمال المكاره في الدعاء إلى الله

تعالى ونقل عن الجمهور أن المعنى ألم نفسحه بالحكمة ونوسعه بتيسيرنا لك نلقى ما يوحى إليك بعد ما كان يشق عليك وعن ابن عباس وجماعة أنه إشارة إلى شق صدره الشريف في صباه عليه الصلاة والسلام وقد وقع هذا الشق على ما في بعض الأخبار وهو عند مرضعته حليمة فقد روي عنها أنها قالت في شأنه عليه الصلاة والسلام لم نزل تعرف من الله تعالى الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته فكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً فقدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على بقائه عندنا لما نرى من بركته فقلنا لأمه لو تركتيه عندنا حتى يغلظ فإنا نخشى عليها وباء مكة فلم نزل بها حتى ردته معنا فرجعنا به فوالله إنه لبعد مقدمنا به بشهر أو ثلاثة مع أخيه من الرضاعة لفي بهم لنا خلف بيوتنا جاء أخوه يشتد فقال ذاك أخي القرشي قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه وشقا بطنه فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً لونه فاعتنقه أبوه وقال : أي بني ما شأنك قال جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني فشقا بطني ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم رداه كما كان فرجعنا به معنا فقال أبوه يا حليمة لقد خشيت أن يكون ابني قد أصيب فانطلقي فرديه إلى أهله قبل أن يظهر به ما

تخوفه قالت فاحتملناه إلى أمه فقالت ما ردكما به فقد كنتما حريصين عليه قلنا نخشى الاختلاف والأحداث فقالت ما ذالك بكما فأصدقاني شأنكما فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره فقالت أخشيتما عليه الشيطان لا والله ما للشيطان عليه سبيل وأنه لكائن لابني هذا شأن فدعاه عندكما وفي حديث لأبي يعلى وأبي نعيم وابن عساكر ما يدل على تكرر وقوع ذلك له عليه الصلاة والسلام وهو عند حليمة وقد وقع له صلى الله عليه وسلم أيضاً بعد بلوغه صلى الله عليه وسلم ففي "الدر المنثور" أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن أبي بن كعب أن أبا هريرة قال يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة

فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً وقال لقد سألت أبا هريرة أني لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهر إذا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل أهو هو فاستقبلاني بوجوه لم أرها بخلق قط وأرواح لم أجدها من خلق قط وثياب لم أجدها على أحد قط فأقبلا إلي يمشيان حتى إذا دنيا أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأخذهما مساً فقال أحدهما لصاحبه افلق صدره فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع فقال له أخرج الغل والحسد فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فقال له أدخل

الرأفة والرحمة فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة ثم حزا إبهام رجلي اليمنى وقال اغد وأسلم فرجعت أغدوا بها رأفة على الصغير ورحمة على الكبير والذي رأيته في شرح الهمزية لابن حجر المكي رواية هذا الخبر بلفظ آخر وفيه أني لفي صحراء واسعة ابن عشر حجج إذا أنا برجلين فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه أهو هو إلى آخر ما فيه فيكون الشق عليه قبل البلوغ أيضاً والله تعالى أعلم ثم إنه على الروايتين ليس نصاً على نفي وقوع شق قبله لجواز أن يكون الذي استشعر منه النبوة هو هذا لا ما قبله ووقع له عليه الصلاة والسلام أيضاً عند مجىء جبريل عليه السلام بالوحي في غار حراء وممن روى ذلك الطيالسي والحرث في مسنديهما وكذا أبو نعيم ولفظه أن جبريل وميكائيل عليهما السلام شقا صدره وغسلاه ثم قال

(56/820)

﴿ اقرأ باسم ربّكَ ﴾ [العلق : 1] الآيات ووقع أيضاً مرة أخرى تواترت بها الروايات خلافاً لمن أنكرها ليلة الإسراء به صلى الله عليه وسلم روى البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن قتادة قال حدثنا أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان فأتيت بطست من ذهب فيها ماء

زمزم فشرح صدري إلى كذا وكذا قال قتادة قلت يعني لأنس ما تعني قال : إلى أسفل بطني قال فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم ثم أعيد مكانه ثم حشي إيماناً وحكمة ثم أتى بدابة دون البغل وفوق الحمار البراق فانطلقت مع جبريل عليه السلام حتى أتينا السماء الدنيا الحديث وطعن القاضي عبد الجبار في ذلك بما حاصله أنه يلزم على وقوعه في الصغر وقبل النبوة تقدم المعجزة على النبوة وهو لا يجوز ووقوعه بعد النبوة وإن لم يلزم عليه ما ذكر إلا أن ما ذكر معه من حديث الغسل وإدخال الرأفة والرحمة وحشو الإيمان والحكمة يرد عليه أن الغسل مما لا أثر له في التكميل الروحاني وإنما هو لإزالة أمر جسماني وأنه لا يصح إدخال ما ذكر وحشوه فإنما هو شيء يخلقه الله تعالى في القلب وليس بشيء فإن تقدم الخارق على النبوة جائز عندنا ونسميه إرهاصاً والأخبار كثيرة في وقوعه له عليه الصلاة والسلام قبل النبوة والغسل بالماء كان لإزالة أمر جسماني ولا يبعد أن يكون إزالته وغسل المحل بماء مخصوص كماء زمزم على ما صح في بعض الروايات ولذا قال البلقيني : إنه أفضل من مكاء الكوثر موجباً لتبديل المزاج وهو مما له دخل في التكميل الروحاني ولذا يأمر المشايخ السالكين لديهم بالرياضة التي يحصل بها تبديل المزاج ويرشد إلى ذلك تغير أحوال النفس وأخلاقها صبا وكهولة وشيخوخة والمراد من إدخال الرأفة وحشو الإيمان مثلاً إدخال ما به يحصل كمال ذلك وكثيراً ما يسمى المسبب باسم السبب مجازاً ويحتمل أن يكون على حقيقته وتجسم المعاني جائز وقال العارف بن أبي جمرة كما

في "المواهب اللدنية" للعسقلاني ما حاصله: إن ما دل كلام النبي صلى الله عليه وسلم على جوهريته وجسميته من أعيان المخلوقات التي ليس للحواس إلى إدراكها سبيل هو كما دل عليه كلامه عليه الصلاة والسلام في نفس الأمر وأن الحكم من المتكلم أو نحوه عليها بالعرضية إنما هو باعتبار ما ظهر له بعقله وللعقل حد يقف عنده والحقيقة في الحقيقة ما دل عليه خبر الشارع المؤيد بالوحي الإلهي والنور القدسي المحلق بجناحيهما في جو الحقائق إلى حيث لا يسمع لنحلة العقل دندنة ولا للرواة عنه عنعنة فالإيمان والحكمة ونحوهما مما دل عليه كلام النبي صلى الله عليه وسلم على جوهريتها جواهر محسوسة لا معان وإن حسبها من حسبها كذلك انتهى والأمر فيه اعتقاداً وإنكاراً إليك ولا ألزمك الاعتقاد فما أريد أن أشق عليك وقال بعض الأجلة لعل ذلك من باب التمثيل إذ تمثيل المعاني قد وقع كثيراً كما مثل له عليه الصلاة والسلام الجنة والنار في عرض حائط مسجده الشريف وفائدته كشف المعنوي بالمحسوس وهو ميل إلى عدم الوقوع حقيقة وقد قال غير واحد جميع ما ورد من الشق وإخراج القلب وغيرهما يجب الإيمان به وإن كان خارقاً للعادة ولا يجوز تأويله لصلاحية القدرة له ومن زعم ذلك وقع في هوة المعتزلة في تأويلهم نصوص سؤال الملكين

وعذاب القبر ووزن الأعمال والصراط وغير ذلك بالتشهي وأما حكمة ذلك مع إمكان إيجاد ما ترتب عليه بدونه فقد أطالوا الكلام في بيانها في موضعه نعم حمل الشرح في الآية على ذلك الشق ضعيف عند المحققين والتعبير عن ثبوت الشرح بالاستفهام الإنكاري عن انتفائه للإيذان بأن ثبوته من الظهور بحيث لا يقدر أحد أن يجيب عنه بغير بلى وإسناد الفعل إلى ضمير العظمة للإيذان بعظمته وجلالة قدره وزيادة الجار والمجرور مع توسيطه بين الفعل ومفعوله للإيذان من أول الأمر بأن الشرح من منافعه عليه الصلاة والسلام ومصالحه مسارعة إلى إدخال المسرة في قلبه الشريف صلى الله عليه وسلم

(58/820)

وتشويقاً له عليه الصلاة والسلام إلى ما يعقبه ليتمكن عنده وقت وروده فضل تمكن وقرأ أبو جعفر المنصور ألم نشرح بفتح الحاء وخرجه ابن عطية وجماعة على أن الأصل ألم نشرحن بنون التأكيد الخفيفة فأبدل من النون ألفاً ثم حذفها تخفيفاً كما في قوله

: اضرب عنك الهموم طارقها . . .

ضربك بالسيف قونس الفرس

ولا يخفى أن الحذف هنا أضعف مما في البيت لأن ذلك في الأمر وهذا في النفي ولهذا روى

ابن جني في المنتفى عن أبي مجاهد أنه غير جائز أصلاً فنون التوكيد أشبه شيء به الإسهاب والإطناب لا الإيجاز والاختصار والبيت يقال أنه مصنوع والأولى في التمثيل ما أنشده أبو زيد في نوادره

: من أي يومي من الموت افر . . .

أيوم لم يقدر أم يوم قدر

وقال غير واحد لعل أبا جعفر بين الحاء وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحها وفي "البحر" أن لهذه القراءة تخريجاً أحسن مما ذكر وهو أن الفتح على لغة بعض العرب من النصب بلم فقد حكى اللحياني في نوادره أن منهم من ينصب بها ويجزم بلن عكس المعروف عند الناس وعلى ذلك قول عائشة بنت الأعجم تمدح المختار بن أبي عبيد

: في كل ما هم أمضى رأيه قدما . . .

ولم يشاور في الأمر الذي فعلا

وخرجها بعضهم على أن الفتح لمجاورة ما بعدها كالكسر في قراءة ﴿ الحمد لله ﴾ [الفاتحة : 2] بالجر وهو لا يتأتى في بيت عائشة ويتأتى فيما عداه مما مر وقوله تعالى :

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾

عطف على ما أشير إليه من مدلول الجملة السابقة كأنه قيل قد شرحنا لك صدرك ووضعنا الخ وعنك متعلق بوضعنا وتقديمه على المفعول الصريح لما مر من القصد إلى

تعجيل المسرة والتشويق إلى المؤخر ولما أن في وصفه نوع طول فتأخير الجار والمجرور عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم والوزر الحمل الثقيل أي وحططنا عنك حملك الثقيل .

(59/820)

﴿ الذى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي حمله على النقيض وهو صوت الانتقاض والانفكاك أعني الصرير ولا يختص بصوت المحامل والرجال بل يضاف إلى المفاصل فيقال نقيض المفاصل ويراد صوتها فنقيض الظهر ما يسمع من مفاصله من الصوت لثقل الحمل وعليه قول عباس بن مرداس

: وأنقض ظهري ما تطويت منهم . . .

وكنت عليهم مشفقاً متحنناً

(60/820)

وإسناد الانقاض للحمل إسناد للسبب الحامل مجازاً والمراد بالحمل المنقض هنا ما صدر منه صلى الله عليه وسلم قبل البعثة مما يشق عليه صلى الله عليه وسلم بعد أو غفلته عن

الشرائع ونحوها مما لا يدرك إلا بالوحي مع تطلبه صلى الله عليه وسلم له أو حيرته عليه الصلاة والسلام في بعض الأمور كأداء حق الرسالة أو الوحى ويلقيه فقد كان يثقل عليه صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره جداً أو ما كان يرى صلى الله عليه وسلم من ضلال قومه مع العجز عن إرشادهم لعدم طاعتهم له وإذعانهم للحق أو ما كان يرى من تعديهم في إيذائه عليه الصلاة والسلام أو همه عليه الصلاة والسلام من وقاة أبي طالب وخديجة بناء على نزول الصورة بعد وفاتهما ويراد بوضعه على الأول مغفرته وعلى الثاني إزالة غفلته عليه الصلاة والسلام عنه بتعليمه إياه بالوحي ونحوه على الثالث إزالة ما يؤدي للحيرة وعلى الرابع تيسيره له صلى الله عليه وسلم بتدربه واعتياده له وعلى الخامس توفيق بعضهم للإسلام كحمزة وعمر وغيرهما وعلى السادس تقويته صلى الله عليه وسلم على التحمل وعلى السابع إزالة ذلك برفعه إلى السماء حتى لقيه كل ملك ويحاه وفوزه بمشاهدة محبوبه الأعظم ومولاه عز وجل وأيًاً ما كان ففي الكلام استعارة تمثيلية والوضع ترشيح لها وليس فيه دليل لنا في العصمة كما لا يخفى واختار أبو حيان كون وضع الوزر كناية عن عصمته صلى الله عليه وسلم عن الذنوب وتطهيره من الأدناس عبر عن ذلك بالوضع على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك كما يقول القائل رفعت عنك مشقة الزيارة لمن لم يصدر منه زيارة على طريق المبالغة في انتفاء الزيارة منه له والتمثيل عليه بحاله على ما قيل وقيل المراد وزر أمتك وإنما أضيف إليه صلى الله عليه وسلم لاهتمامه بشأنه وتفكره في أمره والمراد بوضعه رفع

غائلته في الدنيا من العذاب الهاجل ما دام صلى الله عليه وسلم فيهم وما داموا يستغفرون

فقد قال سبحانه ﴿ وما كان الله ليعذبهم

(61/820)

وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ [الأنفال : 33] ولا يخفى بعد هذا

الوجه وقرأ أنس وحططنا وحللنا مكان وضعنا وقرأ ابن مسعود وحللنا عنك وقرك .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ بالنبوة وغيرها وأي رفع مثل أن قرن اسمه عليه الصلاة والسلام

باسمه عز وجل في كلمتي الشهادة وجعل طاعته طاعته وصلى عليه في ملائكته وأمر

المؤمنين بالصلاة عليه وخاطبه بالألقاب كيا أيها المدثر يا أيها المزمل يا أيها النبي يا أيها

الرسول وذكره سبحانه في كتب الأولين وأخذ على الأنبياء عليهم السلام وأممهم أن يؤمنوا به

صلى الله عليه وسلم وروي عن مجاهد وقتادة ومحمد بن كعب والضحاك والحسن

وغيرهم أنهم قالوا في ذلك لا أذكر إلا ذكرت معي وفيه حديث مرفوع أخرج أبو يعلى وابن

جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن أبي سعيد

الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " أتاني جبريل عليه السلام فقال إن ربك

يقول أتدري كيف رفعت ذكرك قلت الله تعالى أعلم قال إذا ذكرت ذكرت معي " وكان ذلك

من الاقتصار على ما هو أعظم قدراً من أفراد رفع الذكر ويشير إلى عظم قدره قول حسان

:

أ . . .

غر عليه للنبوة خاتم

من الله مشهود يلوح ويشهد . . .

وضم الاله اسم النبي إلى اسمه

إذا قال في الخمس المؤذن أشهد . . .

ولا يخفى لطف ذكر الرفع بعد الوضع والكلام في العطف وزيادة لك كالذي سلف . انتهى

انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(62/820)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(94) سورة الشرح

وتسمى سورة الانشراح نزولها : نزلت بمكة بعد سورة « الضحى » عدد آياتها : ثمان آيات

عدد كلماتها : ست وعشرون كلمة .

عدد حروفها : مائة وخمسون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

هذه السورة متمة لسورة « الضحى » قبلها ، فكلتاهما عرض لما أنعم اللّه به على النبي ، وتذكير له بهذه النعم ، وتوجيه له إلى ما ينبغى أن يؤديه لها من حقّ عليه . . وهكذا شأن كل نعمة ينعم اللّه بها على الإنسان ، لا تتم إلا بالشكر للمنعم ، وبالإنفاق منها على كل ذى حاجة إليها .

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الآيات : (8.1) [سورة الشرح (94) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ (4)

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (6) فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

التفسير:

«أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ» الاستفهام هنا تقريرى، يفيد توكيد الخبر الواقع عليه الاستفهام .. فهو خبر، ولذلك عطف عليه الخبر وهو قوله تعالى بعد ذلك: «وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ».

أي «شرحنا لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك» وشرح الصدر، هو إخلاؤه من وساوس الحيرة والقلق، وإجلاء خواطر الهمّ، والغم التي تعشش فيه .. وبهذا يتسع لبلابل الفرح والبهجة أن تصدح فى جنباته، وأن تغرد على أفنانه ..

وإنه ليس كالهمّ قبضا للصدور، وخنقا للأنفاس، وإظلاما للمشاعر، وتجميدا للعواطف ..

إن المهموم المكروب، مكظوم الصدر، مبهور الأنفاس .. على عكس الخلىّ من الهموم، المعافى من الآلام .. إن صدره منبسط يستقبل أنسام الحياة فيرتوى بها، وينتعش بأندائها العطرة، ثم يحسو منها كما يحسو الطير من جداول الربيع، تسيل من عيون الجبال! هذا هو ما نفهم من قوله تعالى: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ» أما ما يروى من أخبار شرح صدر الرسول الكريم، بما يشبه العملية الجراحية، على يد ملكين كريمين يقال إن اللّه سبحانه بعثهما لهذه المهمة، فشقّا صدر النبي، وفتحا قلبه، وغسلاه، وملآه حكمة وعلما، فهذا مما ينبغى مجاوزته، وعدم الوقوف طويلا عنده، إذ ليس هذا القلب الصنوبري من

اللحم والدم ، هو مستودع العلم والحكمة ، وعلى فرض أنه هو مستودع العلم والحكمة ، فإنه ما كانت قدرة اللّه تعالى بالتي تعالج هذا الأمر مع النبي على هذا الأسلوب

الذي توصل العلم الحديث إلى ما هو خير منه . . ولا ندرى كيف تحمل كتب التفسير والحديث مثل هذه الأخبار ، التي إذا وزنت بميزان العقل لم يكن لها وزن فى معايير الحقيقة والواقع ، الأمر الذي إذا وقف عليه غير الراسخين فى العلم ، أشاع الشك عندهم فى حقائق هذا الدين كلها ، وغطى دخان مثل هذه المقولات الساذجة الملفقة على حقائقه ، وحجب الرؤية الصحيحة عن كثير من الأبصار ! ! إن الأمر يحتاج إلى نظرة فاحصة من علماء المسلمين جميعا ، وإلى كلمة سواء بينهم فى هذه المرويات المتهافتة ، التي تضاف إلى الصفوة المختارة من صحابة رسول اللّه ، والذين اتخذ الوضّاع والمنافقون من مكانتهم فى نفوس المسلمين ، مدخلا يدخلون به عليهم ، ويروّجون عندهم هذا الزور من القول ، معزوّا إلى كبار صحابة رسول اللّه ، وإلى أعلام الإسلام ، ومصابيح هداه ! ! وفى القرآن الكريم أكثر من آية تدل على أن شرح الصدر ، هو تفتّحه للحياة ، وإقباله على معالجة أمورها ، فى رضا ، وشوق ، وإقبال . . وفى هذا يقول اللّه تعالى : « أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ

صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ » (22 : الزمر) ويقول سبحانه : « فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِي السَّماءِ » (125 : الأنعام) وعلى لسان موسى عليه السلام ، يقول اللّه تعالى : « رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي » (25 ـ 27 : طه) وشرح الصدر فى هذه المواضع كلها ، هو بمعنى استجابته للخير الذي يدعى إليه ، وتقبله له ، واتساعه للكثير منه . .

وضيقه ، هو عدم تقبله للخير ، واختناقه به ، كما يختنق الصدر بالروائح الخبيثة المنكرة !

فلم إذن يكون شرح اللّه سبحانه وتعالى لصدر رسول اللّه على هذه الصورة التي تشبه الملهاة ، أو المأساة ؟

(65/820)

وأكثر من هذا ، فإن قوله تعالى : « أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ » يقابله فى آية أخرى قوله تعالى : « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِما يَقُولُونَ » (97 : الحجر) فهل كان ضيق الصدر بعملية جراحية كعملية شرحه ؟ إن هذا من ذاك سواء بسواء ! وعلى أىّ ، فإنه إذا صحت هذه المرويات عن شق صدر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فإنه ينبغى ألا تحمل على

محاملها المادية الظاهرة ، بل ينبغى أن يلتمس لها وجه من التأويل تقبل عليه .

وقوله تعالى : « وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ . الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ . »

الوزر : الحمل الثقيل ، من الهموم ، ونحوها . .

ونقض الظهر : هو نوءه بالحمل الثقيل ، وانحناؤه تحته . .

وهنا سؤال : أكان النبي صلى اللّه عليه وسلم يحمل أثقالا على ظهره ، أم أنها أثقال المعاناة النفسية التي كان يعانيها من عناد قومه ، وخلافهم عليه ؟

وإذا كان اللّه سبحانه ، قد شرح صدر النبي هذا الشرح المادي الذي شق به صدره ، وفتح به قلبه. فهل فعل سبحانه مثل هذا بظهره ، فشدّ أعصابه ، وقوّى فقاره ؟ أليس هذا من ذاك ؟

وقوله تعالى : « وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ » أي أجرينا ذكرك الحسن على الألسنة ، وجعلنا لك ذكرا عاليا باقيا على الزمن . . فما آمن مؤمن باللّه إلا جعل الإيمان بنبوّتك من تمام إيمانه باللّه ، وإنه لا يؤمن باللّه من لم يؤمن بأنك رسول اللّه ، يقرن ذكرك بذكر اللّه .

فأىّ ذكر أعظم من هذا الذكر ؟ وأي قدر مثل هذا القدر لبشر غيرك ؟

وإنا إذ ننظر فى قوله تعالى فى سورة : « الضحى » :

«أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى ؟ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى ؟ وَوَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى ؟ » ثم ننظر فى قوله تعالى فى سورة « الانشراح » :

« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ؟ وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ ؟ » :

إذ ننظر فى هذه الآيات وتلك معا ، نجد تطابقا فى المعنى ، وتقريرا له . .

فهذا اليتيم الفقير ، يؤويه اللّه سبحانه ، ويرفع ذكره فى العالمين ، ويجرى الحديث الطيب عنه على كل لسان ، أبد الدهر . .

والعهد باليتم والفقر ، أن يقيما الإنسان فى أدنى درجة فى سلم المجتمع الإنسانى ، حيث يلّفه الخمول والضياع ، من مولده إلى مماته . .

وهذا الضال الذي استبدّت به الحيرة ، ورهقه البحث عن طريق الخلاص والنجاة ، قد هداه اللّه ، وجعله مصباح هدى للعالمين ، فوضع بذلك عن كاهله هذا العبء الثقيل الذي كان ينوء به ، من حيرته فى أمره وأمر الظلام المنعقد على قومه . . والعهد بالحائرين أن تعلق بهم الحيرة ، وأن تترك بصماتها الواضحة عليهم ، حتى بعد شفائهم مما كان قد ألمّ بهم من حيرة وقلق .

وهذا الفقير المعيل، وكان حسبه أن يجد الغنى الذي يسد مفاقره، ويشبع جوعه وجوع عياله. قد أغناه الله، وكفل له ولعياله لقمة العيش . . ثم لم يقف غناه عند هذا، بل شرح الله صدره، وأودع فيه مالا تتسع له كنوز الدنيا كلها، بما نزل عليه من آيات ربه، وبما أراه ربه من مقامه عنده، وبما بارك عليه فى أسرته التي تضم كل مسلم ومسلمة فى مشارق الأرض ومغاربها، يمدّها على

الزمن بهذا الغذاء الذي لا ينفد أبد الدهر، من ثمرات الإيمان، وزاد التقوى . .

فأى شرح للصدر، وأي غبطة ورضا ومسرة تعمر جوانبه، أكثر من هذا وأعظم، وأبقى ؟. انتهى. اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1604.1609 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) ﴾

استفهام تقريري على النفي .

والمقصود التقرير على إثبات المنفي كما تقدم غير مرة .

وهذا التقرير مقصود به التذكير لأجل أن يراعي هذه المنة عندما يخالجه ضيق صدر مما يلقاه من أذى قوم يريد صلاحَهم وإنقاذَهم من النار ورفعَ شأنهم بين الأمم ، ليدوم على دعوته العظيمة نَشيطاً غير ذي أسف ولا كَمَدٍ .

والشرح حقيقته : فصل أجزاء اللحم بعضِها عن بعض ، ومنه الشريحة للقطعة من اللحم ، والتشريح في الطب ، ويطلق على انفعال النفس بالرضى بالحال المتلبس بها .

وظاهر كلام "الأساس" أن هذا إطلاق حقيقي .

ولعله راعى كثرة الاستعمال ، أي هو من المجاز الذي يساوي الحقيقة لأن الظاهر أن الشرح الحقيقي خاص بشرح اللحم ، وأن إطلاق الشرح على رضى النفس بالحال أصله استعارة ناشئة عن إطلاق لفظ الضيق وما تصرف منه على الإحساس بالحزن والكمد قال تعالى : ﴿ وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز ﴾ [هود : 12] الآية .

فجعل إزالة ما في النفس من حزن مثل شرح اللحم وهذا الأنسب بقوله : ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ [الشرح : 5] .

وتقدم قوله : ﴿ قال رب اشرح لي صدري ﴾ في سورة طه (25) .

فالصدر مراد به الإِحساس الباطني الجامع لمعنى العقل والإدراك .

وشرح صدره كناية عن الإِنعام عليه بكل ما تطمح إليه نفسه الزكية من الكمالات وإعلامه برضى الله عنه وبشارته بما سيحصل للدّين الذّي جاء به من النصر .

هذا تفسير الآية بما يفيده نظمها واستقلالها عن المرويات الخارجية ، ففسرها ابن عباس بأن الله شرح قلبه بالإِسلام ، وعن الحسن قال : شرح صدره أن مُلِىءَ علماً وحكماً ، وقال سهل بن عبد الله التستري : شرح صدره بنور الرسالة ، وعلى هذا الوجه حمله كثير من المفسرين ونسبه ابن عطية إلى الجمهور .

ويجوز أن يجعل الشرح شرحاً بدنياً .

وروي عن ابن عباس أنه فسر به وهو ظاهر صنيع الترمذي إذ أخرج حديث شقّ الصدر الشريف في تفسير هذه السورة فتكون الآية إشارة إلى مرويات في شَق صدره صلى الله عليه وسلم شقّاً قُدُسياً ، وهو المروي بعض خبره في "الصحيحين" ، والمروي مطولاً في السيرة والمسانيد ، فوقع بعض الروايات في "الصحيحين" أنه كان في رؤيا النوم ورؤيا الأنبياء وحي ، وفي بعضها أنه كان يقظة وهو ظاهر ما في "البخاري" ، وفي "صحيح مسلم" أنه يقظة وبمرأى من غلمان أترابه ، وفي حديث مسلم عن أنس بن مالك أنه قال : رأيت أثر

الشق في جلد صدر النبي صلى الله عليه وسلم وفي بعض الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بين النائم واليقظان ، والرواياتُ مختلفة في زمانه ومكانه مع اتفاقها على أنه كان بمكة .

واختلاف الروايات حمل بعضَ أهل العلم على القول بأن شق صدره الشريف تكرر مرتين إلى أربع ، منها حين كان عند حليمة .

وفي حديث عبد الله بن أحمد بن حنبل أن الشق كان وعمُر النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين .

والذي في "الصحيح" عن أبي ذر أنه كان عند المعراج به إلى السماء ، ولعل بعضها كان رؤيا وبعضها حساً .

وليس في شيء من هذه الأخبار على اختلاف مراتبها ما يدل على أنه الشرح المراد في الآية ، وإذ قد كان ذاك الشق معجزة خارقة للعادة يجوز أن يكون مراداً وهو ما نحاه أبو بكر بن العربي في "الأحكام" ، وعليه يكون الصدر قد أطلق على حقيقته وهو الباطن الحاوي للقلب .

ومن العلماء فسر الصدر بالقلب حكاه عياض في "الشفا" ، يشير إلى ما جاء في خبرِ شق الصدر من إخراج قلبه وإزالة مقر الوسوسة منه ، وكلا المعنيين للشرح يفيد أنه إيقاع معنى عظيم لنفس النبي صلى الله عليه وسلم إمَّا مباشرة وإما باعتبار مغزاهُ كما لا يخفى .

واللام في قوله : ﴿ لك ﴾ لام التعليل ، وهو يفيد تكريماً للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن الله فعل ذلك لأجله .

(70/820)

وفي ذكر الجار والمجرور قبل ذكر المشروح سلوك طريقة الإبهام للتشويق فإنه لما ذُكر فعل ﴿ نشرح ﴾ عَلم السامع أن ثَمَّ مشروحاً ، فلما وقع قوله : ﴿ لك ﴾ قوي الإبهام فازداد التشويق ، لأن ﴿ لك ﴾ يفيد معنى شيئاً لأجلك فلما وقع بعده قوله : "صدره" تعين المشروح المترقَّب فتمكن في الذهن كمال تمكن ، وهذا ما أشار إليه في "الكشاف" وقفّي عليه صاحب "المفتاح" في مبحث الإطناب .

والوِزر : الحَرَج ، ووضْعه : حطّه عن حامله ، والكلام تمثيل لحال إزالة الشدائد والكروب بحال من يحط ثقلاً عن حامله ليريحه من عناء الثقل .

والمعنى : أن الله أزال عنه كل ما كان يتحرج منه من عادات أهل الجاهلية التي لا تلائم ما فَطر الله عليه نفسه من الزكاة والسمو ولا يجد بداً من مسايرتهم عليه فوضع عنه ذلك حين أوحى إليه بالرسالة ، وكذلك ما كان يجده في أول بعثته من ثقل الوحي فيسَّره الله عليه بقوله : ﴿ سنقرئك فلا تنسى ﴾ إلى قوله : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ [الأعلى : 6 8] .

و ﴿ أنقض ﴾ جعل الشيءَ ذا نقيض ، والنقيض صوت صرير المحمل والرحْل وصوتُ عظام المفاصل ، وفرقعةُ الأصابع ، وفعله القاصر من باب نصر ويعدّى بالهمزة .

وإسناد ﴿ أنقض ﴾ إلى الوزرِ مجاز عقلي ، وتعديته إلى الظهر تَبع لتشبيه المشقة بالحمل ، فالتركيب تمثيل لمتجشم المشاقِ الشديدة ، بالحَمولة المثقلة بالإِجمال تثقيلاً شديداً حتى يسمع لعظام ظهرها فرقعة وصرير .

وهو تمثيل بديع لأنه تشبيه مركب قابل لتفريق التشبيه على أجزائه .

ووصف الوزر بهذا الوصف تكميل للتمثيل بأنه وزر عظيم .

واعلم أن في قوله : ﴿ أنقض ظهرك ﴾ اتصالَ حرفي الضاد والظاء وهما متقاربا المخرج فربما يحصل من النطق بهما شيء من الثقل على اللسان ولكنه لا ينافي الفصاحة إذ لا يبلغ مبلغ ما يسمى بتنافر الكلماتِ بل مثله مغتفر في كلام الفصحاء .

(71/820)

والعرب فُصحاء الألسن فإذا اقتضى نظم الكلام ورود مثل هذين الحرفين المتقاربين لم يعبأ البليغ بما يعرض عند اجتماعهما من بعض الثقل ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ وسبحه ﴾ [الإنسان : 26] في اجتماع الحاء مع الهاء ، وذلك حيث لا يصح الإدغام .

وقد أوصى علماء التجويد بإظهار الضاد مع الظاء إذا تلاقيا كما في هذه الآية وقوله : ﴿ ويوم يعض الظالم ﴾ [الفرقان : 27] ولها نظائر في القرآن .

وهذه الآية هي المشتهرة ولم يزل الأيمة في المساجد يتوخون الحذر من إبدال أحد هذين الحرفين بالآخر للخلاف الواقع بين الفقهاء في بطلان صلاة اللحّان ومَن لا يحسن القراءة مطلقاً أو إذا كان عَامداً إذا كان فذاً وفي بطلان صلاة من خلفه أيضاً إذا كان اللاحن إماماً .

ورفع الذكر : جعل ذكره بين الناس بصفات الكمال ، وذلك بما نزل من القرآن ثناء عليه وكرامة .

وبإلهام الناس التحدث بما جبله الله عليه من المحامد منذ نشأته .

وعطفُ ﴿ ووضعنا ﴾ و ﴿ رفعنا ﴾ بصيغة المضي على فعل ﴿ نشرح ﴾ بصيغة المضارع لأن (لَم) قلبت زمن الحال إلى المضي فعُطف عليه الفعلان بصيغة المضي لأنهما داخلان في حيز التقرير فلما لم يقترن بهما حرف (لم) صيّر بهما إلى ما تفيده (لم) من معنى المضي .

والآية تشير إلى أحوال كان النبي صلى الله عليه وسلم في حرج منها أو من شأنه أن يكون في حرج ، وأن الله كشف عنه ما به من حرج منها أو هيّأ نفسه لعدم النوء بها .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمها كما أشعَر به إجمالها في الاستفهام التقريري المقتضي

علم المقرَّر بما قُرر عليه ، ولعلّ تفصيلها فيما سبق في سورة الضحى فلعلها كانت من أحوال كراهيته ما عليه أهل الجاهلية من نبذ توحيد الله ومن مساوي الأعمال .

(72/820)

وكان في حرج من كونه بينهم ولا يستطيع صرفهم عما هم فيه ولم يكن يترقب طريقها لأن يهديهم أو لم يصل إلى معرفة كنه الحق الذي يجب أن يكون قومه عليه ولم يطمع إلا في خويصة نفسه يودّ أن يجد لنفسه قبس نور يضيء له سبيل الحق مما كان باعثاً له على التفكر والخلوة والالتجاء إلى الله ، فكان يتحنث في غار حراء فلما انتشله الله من تلك الوحلة بما أكرمه به من الوحي كان ذلك شرحاً مما كان يضيق به صدره يومئذ ، فانجلى له النور ، وأمِر بإنقاذ قومه وقد يظنهم طلاَّب حق وأزكياء نفوس فلما قابلوا إرشاده بالإعراض ومُلاطفته لهم بالامتعاض ، حدث في صدره ضيق آخر أشار إلى مثل قوله تعالى : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ [الشعراء : 3] وذلك الذي لم يزل ينزل عليه في شأنه رَبْطُ جأشه بنحو قوله تعالى:

﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ [البقرة : 272] فكلما نزل عليه وحي من هذا أكسبه شرحاً لصدره ، وكان لحماية أبي طالب إياه وصده قريشاً عن أذاه

منفس عنه ، وأقوى مؤيد له لدعوته يَنشرح له صدره .

وكلما آمن أحد من الناس تزحزح بعض الضيق عن صدره ، وكانت شدة قريش على المؤمنين يضيق لها صدره فكلما خلُص بعض المؤمنين من أذى قريش بنحو عتق الصديق بلالاً وغيره ، وبما بشره الله من عاقبة النصر له وللمؤمنين تصريحاً وتعريضاً نحو قوله في السورة قبلها : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [الضحى : 5] فذلك من الشرح المراد هنا .

وجماع القول في ذلك أنَّ تجليات هذا الشرح عديدة وأنها سر بين الله تعالى وبين رسوله صلى الله عليه وسلم المخاطب بهذه الآية .

(73/820)

وأما وضع الوزر عنه فحاصل بأمرين : بهدايته إلى الحق التي أزالت حيرته بالتفكر في حال قومه وهو ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ ووجدك ضالاً فهدى ﴾ [الضحى : 7] وبكفايته مؤنة كُلف عيشه التي قد تشغله عما هو فيه من الأنس بالفكرة في صلاح نفسه ، وهو ما أشار إليه قوله : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ [الضحى : 8] .

ورفْع الذكر مجاز في إلهام الناس لأن يذكروه بخير ، وذلك بإيجاد أسباب تلك السمعة حتى

يتحدث بها الناس، استعير الرفع لحسن الذكر لأن الرفع جعل الشيء عالياً لا تناله جميع الأيدي ولا تدوسه الأرجل.

فقد فطر الله رسوله صلى الله عليه وسلم على مكارم يعزّ وجود نوعها ولم يبلغ أحد شأوَ ما بلغه منها حتى لُقب في قومه بالأمين.

وقد قيل إن قوله تعالى: ﴿ إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾ [التكوير: 19 21] مراد به النبي صلى الله عليه وسلم

ومن عظيم رفع ذكره أن اسمه مقترن باسم الله تعالى في كلمة الإِسلام وهي كلمة الشهادة.

وروي هذا التفسير عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي سعيد الخدري عند ابن حبان وأبي يعلى قال السيوطي: وإسناده حسن، وأخرجه عياض في "الشفاء" بدون سند.

والقول في ذكر كلمة ﴿ لك ﴾ مع ﴿ ورفعنا ﴾ كالقول في ذكر نظيرها مع قوله: ﴿ ألم نشرح ﴾.

وإنما لم يُذكر مع ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ بأن يقال: ووضعنا لك وزرك للاستغناء بقوله: ﴿ عنك ﴾ فإنه في إفادة الإِبهام ثم التفصيل مساوٍ لكلمة ﴿ لك ﴾، وهي في إفادة العناية به تساوي كلمة ﴿ لك ﴾، لأن فعل الوضع المعدَّى إلى الوزر يدل على أن الوضع عنه فكانت زيادة ﴿ عنك ﴾ إطناباً يشير إلى أن ذلك عناية به نظير قوله: ﴿ لك

﴿ الذي قبله ، فحصل بذكر ﴿ عنك ﴾ إيفاء إلى تعدية فعل ﴿ وضعنا ﴾ مع الإِيفاء بحق الإِبهام ثم البيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(74/820)

قوله تعالى ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر هذه المآثر الشريفة التي هي الكمال ، وكان الكمال لا يصفو إلا مع مساعدة الأقدار ، فإن الهمم إذا عظمت اتسعت مجالاتها ، فإذا حصل فيها تعطيل حصل فيها نكد حسبه ، بين أنه أزال عنه العوائق في عبارة دالة على أن سبب المنحة بهذه الكمالات هو ما كان -صلى الله عليه وسلم- فيه من الصبر على الأكدار ، وتجرع مرارات الأقدار ، فقال مؤكداً ترغيباً في حمل مثل ذلك رجاء في الإثابة بما يليق من هذه المعالي مبالغاً في الحث على تحمله بذكر المعية إشارة إلى تقارب الزمنين بحيث إنهما كانا كالمتلازمين مسبباً عما مضى ذكره من حاله من الضحى : ﴿ فإن ﴾ أي فعل بك سبحانه هذه الكمالات الكبار بسبب

أنه قضى في الأزل قضاء لا مرد له ولا معقب لشيء منه أن ﴿ مع العسر ﴾ أي هذا النوع خاصة ﴿ يسراً ﴾ أي عظيماً جداً يجلب به المصالح ويشرح به ما كان قيده من القرائح ، فإن أهل البلاء ما زالوا ينتظرون الرخاء علماً منهم بالفطرة الأولى التي فطر الناس عليها أنه المتفرد بالكمال ، وأنه الفاعل بالاختيار لنسمه الكوائن بأضدادها ، وقد أجرى سنته القديمة سبحانه وتعالى بأن الفرج مع الكرب ، فلما قاسى -صلى الله عليه وسلم- مما ذكر في الضحى من اليتم الشديد وضلال قومه العرب خاصة كلهم الذين ألهمه الله تعالى مخالفتهم في أصل الدين بتجنب الأوثان ، وفي فرعه بالوقوف مع الناس في الحج في عرفة موقف إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ومن العيلة ما لم يحمله أحد حتى كان بحيث يمتن سبحانه وتعالى عليه بإنقاذه منه في كتابه القديم وذكره الحكيم ، وكان مع تحمل ذلك قائماً بما يحق له من الصبر ويعلو إلى معالي الشكر " فيحمل " - كما قالت الصديقة الكبرى خديجة رضي الله تعالى عنها - " الكَلَّ ، ويقري الضيف ، ويصل الرحم ، ويعين على نوائب الحق " .

(75/820)

ثم حمل أعباء النبوة فكان يلقى من قومه من الأذى والكرب والبلاء ما لم يحمله غيره ، بشره الله تعالى بأنه ييسر له جميع ذلك ويلين قلوبهم فيظهر دينه على الدين كله ، ويغني أصحابه .

رضى الله عنه ـ م بعد عيلتهم ، ويكثرهم بعد قلتهم ، ويعزهم بعد ذلتهم ، ويصير هؤلاء المخالفون له أعظم الأعضاد ، وينقاد له المخالف أتم انقياد ، ويفتح له أكثر البلاد ، ليكون هذا العطاء في اليسر بحسب ما كان وقع من العسر ، فإنه قضى سبحانه وتعالى قضاء لا يرتد أنه يخالف بين الأحوال ، دليلاً قاطعاً على أنه تعالى وحده الفعال ، وأن فعله بالاختيار ، لا بالذات والإجبار .

(76/820)

ولما كان العسر مكروهاً إلى النفوس ، وكان لله سبحانه وتعالى فيه حكماً عظيمة ، وكانت الحكم لا تتراءى إلا للأفراد من العباد ، كرره سبحانه وتعالى على طريق الاستئناف لجواب من يقول : وهل بعده من عسر ؟ مؤكداً له ترغيباً في أمره ترقباً لما يتسبب عنه مبشراً بتكريره مع وحدة العسر وإن كان حمل كل واحد منهما على شيء غير ما قصد به الآخر ممكناً فقال : ﴿ إن مع العسر ﴾ أي المذكور فإنه معرفة ، والمعرفة إذا أعيدت معرفة كانت غير الأولى سواء أريد العهد أو الجنس ﴿ يسراً ﴾ أي آخر لدفع المضار والمكاره ، فإن النكرة إذا أعيدت نكرة احتمل أن تكون غير الأولى ، وقد قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إنها غيرُها " فقال الحسن البصري : إن الآية لما نزلت قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

" أتاكم اليسر لن يغلب عسر يسرين " وقد روى هذا من أوجه كثيرة ، وروى عبد الرزاق عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : " لو كان العسر في جحر ضب لتبعه اليسر حتى يخرجه " وللطبراني عنه - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " لو كان العسر في جحر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه " ثم قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الآية ، قال الحافظ نور الدين الهيثمي : وفيه أبو مالك النخعي وهو ضعيف ، ورواه الطبراني أيضاً في الأوسط والبزار عن أنس - رضى الله عنه - بنحوه ، قال الهيثمي : وفيه عائذ بن شريح وهو ضعيف ، وروى الفراء عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خرج ذات يوم وهو يضحك ويقول :

" لن يغلب عسر يسرين " وروى عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن الحسن به مرسلاً ، ومن طريقه أخرجه الحاكم والبيهقي في الشعب ورواه الطبري من طريق ابن ثور عن معمر ، ورواه ابن مردويه من طريق أخرى موصولاً وإسناده ضعيف ، وفي الباب عن عمر ذكره مالك في الموطإ عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر - رضى الله عنه - أنه بلغه أن أبا عبيدة - رضى الله عنه - حضر بالشام فكتب إليه كتاباً فيه " ولن يغلب عسر يسرين " ومن طريقه

رواه الحاكم ، قال ذلك شيخنا ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ، وقال : وهذا أصح طرقه – انتهى ، وهذا من جهة أن اليسر نكرة والعسر معرفة ، وقد اشتهر أن النكرة إذا أعيدت نكرة فالثاني غير الأول ، والمعرفة بالعكس ، قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في أول تلويحه في الكلام على المعرفة والنكرة : الكلام فيما إذا أعيد اللفظ الأول إما مع كيفيته من التنكير والتعريف أو بدونها ، وحينئذ يكون طريق التعريف هو اللام أو الإضافة ليصح إعادة المعرفة نكرة وبالعكس ، وتفصيل ذلك أن المذكور أولاً إما أن يكون نكرة أو معرفة ، وعلى التقديرين إما أن يعاد نكرة أو معرفة فيصير أربعة أقسام ، وحكمها أن ينظر إلى الثاني ، فإن كان نكرة فهو مغاير للأول ، وإلا لكان المناسب هو التعريف بناء على كونه معهوداً سابقاً بالذكر ، إن كان معرفة فهو الأول حملاً له على المعهود الذي هو الأصل في اللام والإضافة ، وذكر في الكشف أنه إذا أعيدت النكرة نكرة فالثاني مغاير للأول وإلا فعينه فإن المعرفة تستغرق الجنس ، والنكرة تتناول البعض ، فيكون داخلاً في الكل سواء قدم أو أخر ، وفيه نظر ، أما أولاً فلان التعريف لا يلزم أن تكون للاستغراق بل العهد هو الأصل ، وعند تقدم المعهود لا يلزم أن تكون النكرة عينه ، وأما ثانياً فلان معنى كون الثاني عين الأول أن يكون المراد به هو المراد بالأول ، والجزء بالنسبة إلى الكل ليس كذلك ، وأما ثالثاً فإن إعادة المعرفة نكرة مع

مغايرة الثاني للأول كثير في الكلام ، قال الله تعالى : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً ﴾ [الأنعام : 154] إلى قوله : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ [الأنعام : 155] وقال تعالى : " اهبطوا بعضكم لبعض عدو " [البقرة : 36] وقال تعالى : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ [الأنعام : 165] إلى غير ذلك ، وقال غيره : ﴿ أيسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ﴾ [النساء : 153] ومنه قول الشاعر :

إذا الناس ناس والزمان زمان . . .

فإن الثاني لو كان عين الأول لم يكن في الإخبار به فائدة – انتهى .

قال : واعلم أن المراد أن هذا هو الأصل عند الإطلاق وخلو المقام عن القرائن وإلا فقد تعاد النكرة مع عدم المغايرة كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ [الزخرف : 84] ﴿ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ﴾ [الأنعام : 37] ﴿ ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴾ [الروم : 54] يعني قوة الشباب ، ومنه باب التأكيد اللفظي ، وقد تعاد النكرة معرفة مع المغايرة كقوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ إلى قوله : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ [الأنعام : 156] وقال غيره : ﴿ فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير ﴾ [النساء : 128] المراد بالنكرة خاص وهو الصلح بين الزوجين ،

وبالمعرفة عام في كل صلح جائز ﴿ زدناهم عذاباً فوق العذاب ﴾ [النحل : 88] فإن الشيء لا يكون فوق نفسه - انتهى .

(79/820)

قال : وقد تعاد المعرفة معرفة مع المغايرة كقوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ﴾ [المائدة : 48] وقال غيره : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ﴾ [آل عمران : 26] الأول عام والثاني خاص ، ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ [الرحمن : 60] الأول العمل والثاني الثواب ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ﴾ [المائدة : 45] الأولى القاتلة والثانية المقتولة - انتهى ، قال : وقد تعاد المعرفة نكرة مع عدم المغايرة كقوله تعالى : ﴿ أنما إلهكم إله واحد ﴾ [الكهف : 110] ومثله كثير ، والمعرفة مثل النكرة في حالتي الإعادة معرفة والإعادة نكرة في أنها إن أعيدت معرفة كان الثاني هو الأول ، وإن أعيدت نكرة كان غيره ، ثم مثل بالآية التي هنا ، وقال : وهذا مبني على أن تنكير ﴿ يسراً ﴾ للتفخيم وتعريف العسر للعهد ، أي العسر الذي أنتم عليه أو الجنس أي الذي يعرفه كل أحد ، فيكون اليسر الثاني مغايراً للأول بخلاف العسر - انتهى .

وقال في الكشاف : وأما اليسر فمنكر متناول لبعض الجنس ، فإذا كان الكلام الثاني مستأنفاً عن منكر تناول بعضاً غير البعض الأول بغير الإشكال .

(80/820)

ولما علم من هذا أن المواد تكون بحسب الأوراد الشداد لما على الممدود من الشكر ، ولما علم للشاكر من الوعد بالمزيد ، قال مسبباً عما أعطاه من اليسر بعد ذلك العسر ندباً له إلى الشكر وإعلاماً بأنه لا ينفك عن تحمل أمر في الله : ﴿ فإذا فرغت ﴾ أي بما آتاك من اليسر يسر من جهادك الذي أنت فيه في وقت المخاطبة بهذا الكلام مما يوجب عسراً في المآل أو الحال ، وعقبه العسر في أي موضع كان لا سيما عند دخول الناس في الدين أفواجاً ، أو من العبادة الثقيلة العظيمة بسماع الوحي وتحمله ، أو من الغرض بالتيسير الذي بشرناك به ﴿ فانصب ﴾ أي بالغ في التعب بعبادة أخرى من التسبيح والاستغفار ، أو النفل لمن أولاك هذا المعروف ﴿ وإلى ربك ﴾ أي المحسن إليك بما ذكر في هاتين السورتين خاصة ﴿ فارغب ﴾ أي بالسؤال لأنه القادر وحده كما قدر على تربيتك فيما مضى وحده ، لأنه المختص بالعظمة ، فلا قدرة أصلاً إلا لمن يعطيه ما يريده منها ، والرغب شعار العبد دائماً في كل حال أي افعل ذلك ﴿ ألم نشرح لك صدرك ؟ ﴾ فقد اتصل هذا الآخر بالأول

اتصال المعلول بالعلة ، ولاءم ما بعدها بذلك أيضاً بعينه ملاءمة الشمس بالأهلة ، وآخر هذه السورة مشير إلى الاجتهاد في العبادة عند الفراغ من جهاد الكفار في جزيرة العرب بعد انقضاء ما يوازي عدد آي هذه السورة من السنين بعد الهجرة ، وهي ثمان ، رغبة في الأخرى التي هي خير من الأولى ، إشارة إلى قرب الأجل بما أشارت إليه سورة النصر - كما سيأتي إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 463. 467﴾

(81/820)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

وجه تعلق هذه الآية بما قبلها أن المشركين كانوا يعيرون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر ، ويقولون : إن كان غرضك من هذا الذي تدعيه طلب الغنى جمعنا لك مالاً حتى

تكون كأيسر أهل مكة ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سبق إلى وهمه أنهم إنما رغبوا عن الإسلام لكونه فقيراً حقيرًا عندهم ، فعدد الله تعالى عليه مننه في هذه السورة ، وقال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ [الشرح : 1 ، 2] أي ما كنت فيه من أمر الجاهلية ، ثم وعده بالغنى في الدنيا ليزيل عن قلبه ما حصل فيه من التأذي بسبب أنهم عيروه بالفقر ، والدليل عليه دخول الفاء في قوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ كأنه تعالى قال لا يحزنك ما يقول وما أنت فيه من القلة ، فإنه يحصل في الدنيا يسر كامل .

المسألة الثانية :

قال ابن عباس : يقول الله تعالى : خلقت عسراً واحداً بين يسرين ، فلن يغلب عسر يسرين ، وروى مقاتل عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : " لن يغلب عسر يسرين " وقرأ هذه الآية ، وفي تقرير هذا المعنى وجهان الأول : قال الفراء والزجاج : العسر مذكور بالألف واللام ، وليس هناك معهود سابق فينصرف إلى الحقيقة ، فيكون المراد بالعسر في اللفظين شيئاً واحداً .

وأما اليسر فإنه مذكور على سبيل التنكير ، فكان أحدهما غير الآخر ، وزيف الجرجاني هذا وقال : إذا قال الرجل : إن مع الفارس سيفاً ، إن مع الفارس سيفاً ، يلزم أن يكون هناك فارس واحد ومعه سيفان ، ومعلوم أن ذلك غير لازم من وضع العربية الوجه الثاني : أن تكون الجملة الثانية تكريراً للأولى ، كما كرر قوله : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المطففين : 10] ويكون الغرض تقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب ، كما يكرر المفرد في قولك : جاءني زيد زيد ، والمراد من اليسرين : يسر الدنيا وهو ما تيسر من استفتاح البلاد ، ويسر الآخرة وهو ثواب الجنة ، لقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الحسنيين ﴾ [التوبة : 52] وهما حسن الظفر وحسن الثواب ، فالمراد من قوله : "لن يغلب عسر يسرين" هذا ، وذلك لأن عمر الدنيا بالنسبة إلى يسر الدنيا ، ويسر الآخرة كالمغمور القليل ، وههنا سؤالان .

الأول : ما معنى التنكير في اليسر ؟ جوابه : التفخيم ، كأنه قيل : إن مع اليسر يسراً ، إن مع العسر يسراً عظيماً ، وأي يسر .

السؤال الثاني : اليسر لا يكون مع العسر ، لأنهما ضدان فلا يجتمعان الجواب : لما كان وقوع اليسر بعد العسر بزمان قليل ، كان مقطوعاً به فجعل كالمقارن له .

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7)

وجه تعلق هذا بما قبله أنه تعالى لما عدد عليه نعمه السالفة ، ووعدهم بالنعم الآتية ، لا جرم بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة ، فقال : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ أي فاتعب يقال : نصب ينصب ، قال قتادة والضحاك ومقاتل : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربك في الدعاء وارغب إليه في المسألة يعطك ، وقال الشعبي : إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك ، وقال مجاهد : إذا فرغت من أمر دنياك فانصب وصل ، وقال عبد الله : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل ، وقال الحسن : إذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة ، وقال علي بن أبي طلحة : إذا كنت صحيحاً فانصب ، يعني اجعل فراغك نصباً في العبادة يدل عليه ما روي أن شريحاً مر برجلين يتصارعان ، فقال : الفارغ ما أمر بهذا إنما قال الله : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ وبالجملة فالمعنى أن يواصل بين بعض العبادات وبعض ، وأن لا يخلي وقتاً من أوقاته منها ، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى .

وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

ففيه وجهان أحدهما : اجعل رغبتك إليه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه وثانيها : ارغب في سائر ما تلتمسه ديناً ودنيا ونصرة على الأعداء إلى ربك ، وقرىء فرغب أي رغب الناس إلى طلب ما عنده ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 8.6 ﴾

(84/820)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) ﴾

عدد الله على نبيه صلى الله عليه وسلم نعمه عليه في أن شرح صدره للنبوة وهيأه لها ، وذهب الجمهور إلى شرح الصدر المذكور هو تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقي ما يوحي إليه ، وقال ابن عباس وجماعة : هذه إشارة إلى شرحه بشق جبريل عنه في وقت صغره ، وفي وقت الإسراء إذ التشريح شق اللحم ، وقرأ أبو جعفر المنصور " ألم نشرحَ " بنصب الحاء على نحو قول الشاعر [طرفة] : [المنسرح]

أضرب عنك الهموم طارقها . . . ضربك بالسيف قونس الفرس

ومثله في نوادر أبي زيد : [الرجز]

من أي يومي من الموت أفر . . . أيوم لم يقدر أم يوم قدر

كأنه قال : " ألم نشرحن " ثم أبدل من النون ألفاً ثم حذفها تخفيفاً ، وهي قراءة مردودة ، و "

الوزر " الذي وضعه الله عنه هو عند بعض المتأولين الثقل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وحيرته قبل المبعث إذ كان يرى سوء ما قريش فيه من عبادة الأصنام . وكان لم يتجه له من الله تعالى أمر واضح ، فوضع الله تعالى عنه ذلك الثقل بنبوته وإرساله . وقال أبو عبيدة وغيره المعنى : خففنا عليك أثقال النبوة وأعناك على الناس ، وقال قتادة وابن زيد والحسن وجمهور من المفسرين : الوزر هنا ، الذنوب ، وأصله الثقل ، فشبهت الذنوب به ، وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ [الفتح : 2] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية قبل النبوة وزره صحبة قومه وأكله من ذبائحهم ونحو هذا ، وقال الضحاك : وفي كتاب النقاش حضوره مع قومه المشاهد التي لا يحبها الله تعالى .

(85/820)

قال القاضي أبو محمد : وهذه كلها ضمها المنشا كشهوده حرب الفجار ينبل على أعماله وقلبه ، وفي ذلك كله منيب إلى الصواب ، وأما عبادة الأصنام فلم يلتبس بها قط ، وقرأ أنس بن مالك " وحططنا عنك وزرك " ، وفي حرف ابن مسعود " وحللنا عنك وقرك " . وفي حرف أبي " وحططنا عنك وقرك " ، وذكر أبو عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم

صوب جميعها ، وقال المحاسبي : إنما وصفت ذنوب الأنبياء بالثقل ، وهي صغائر مغفورة لهمهم بها وتحسرهم عليها ، و﴿ أنقض ﴾ معناه جعله نقضاً ، أي هزيلاً معيباً من الثقل ، وقيل معناه أسمع له نقيضاً وهو الصوت ، وهو مثل نقيض السفن وكل ما حملته ثقلاً فإنه ينتقض تحته ، وقال عباس بن مرداس : [الطويل]

وأنقض ظهري ما تطوقت مضهم . . . وكنت عليهم مشفقاً متحننا

وقوله تعالى : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ معناه ، نوهنا باسمك ، وذهبنا به كل مذهب في الأرض ، وهذا ورسول الله بمكة ، وقال أبو سعيد الخدري والحسن ومجاهد وقتادة : معنى قوله ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ أي قرنا اسمك باسمنا في الأذان والخطب .

(86/820)

وروي في هذا الحديث إن الله تعالى قال إذا ذكرت معي

وهذا متجه الى ان الآية نزلت بمكة قديما

والأذان شرع بالمدينة ورفع الذكر نعمة على الرسول وكذلك هو جميل حسن للقائمين بأمور الناس وخمول الاسم والذكر حسن للمنفردين للعبادة وقد جعل الله تعالى النعم أقساما بحسب ما يصلح لشخص شخص وفي الحديث (إن الله تعالى يوقف عبدا يوم القيامة فيقول

له ألم أفعل بك كذا وكذا يعدد عليه نعمه ويقول في جملتها ألم أحمل ذكرك في الناس) والمعنى في هذا التعديد الذي على النبي صلى الله عليه وسلم أي يا محمد قد فعلنا بك جميع هذا فلا تكترث بأذى قريش

الشرح : (5 – 6) فإن مع العسر . . . . . فإن الذي فعل بك هذه النعم سيظفرك بهم وينصرك عليهم ثم قوى رجاءه بقوله " فإن مع العسر يسرا " أي ما تراه من الأذى فرج يأتي وكرر تعالى ذلك مبالغة وتثبيتا للخير فقال بعض الناس المعنى " إن مع العسر يسرا " في الدنيا وإن مع العسر يسرا في الآخرة وذهب كثير من العلماء الى ان مع كل عسر يسرين بهذه الآية من حيث العسر معروف للعهد واليسر منكر فالأول غير الثاني وقد روي في هذا التاويل حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لن يغلب عسر يسرين)

واما قول عمر به فنص في الموطأ في رسالته الى أبي عبيدة بن الجراح

وقرأ عيسى ويحيى بن وثاب وأبو جعفر (العسر واليسر) بضمتين وقرا ابن مسعود " فإن مع العسر يسرا " واحدا غير مكرر ثم امر تعالى نبيه إذا فرغ من شغل من أشغال النبوة والعبادة ان ينصب في آخر والنصب التعب فالمعنى ان يرأب على ما امر به ولا يفتر

الشرح: (7) فإذا فرغت فانصب وقال ابن عباس المعنى " فإذا فرغت " من فرضك " فانصب " في النفل عبادة لربك وقال ابن مسعود " فانصب " في قيام الليل وعن مجاهد ، " فإذا فرغت " من شغل دنياك " فانصب " في عبادة ربك وقيل المعنى إذا فرغت من الركعات فاجلس في التشهد وانصب في الدعاء وقال ابن عباس وقتادة معنى الكلام " فإذا فرغت " من العبادة " فانصب " في الدعاء

وقال الحسن بن أبي الحسن المعنى " فإذا فرغت " من الجهاد " فانصب " في العبادة ويعترض هذا التأويل بان الجهاد فرض بالمدينة وقرا أبو السمال (فرغت) بكسر الراء وهي لغة وقرا قوم (فانصب) بشد الباء وفتحها ومعناه إذا فرغت من الجهاد (فانصب) الى المدينة ذكرها النقاش منبها على انها خطأ وقرأ آخرون من الامامية (فانصب) بكسر الصاد بمعنى إذا فرغت من امر النبوة (فانصب) خليفة وهي قراءة شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم ومر شريح على رجلين يصطرعان وقال ليس بهذا امر الفراغ تلا هذه الآية

الشرح: (8) وإلى ربك فارغب وقوله تعالى " وإلى ربك فارغب " امر بالتوكل على الله تعالى وصرف وجه الرغبات اليه إلى سواه وقرأ ابن ابي عبلة (فرغب) بفتح الراء وشد الغين مكسورة

نجز تفسيرها والحمد لله على كل حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز ـ 5 ص ﴾

وقال القرطبى :

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) ﴾

أي إن مع الضَّيقة والشدّة يسراً ، أي سعة وغِنى .

ثم كرر فقال : ﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ ، فقال قوم : هذا التكرير تأكيد للكلام ؛ كما يقال : اِرمِ ارمِ ، اِعجَلْ اعجَلْ ؛ قال الله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : 3 4] .

ونظيره في تكرار الجواب : بَلى بَلى ، لا ، لا .

وذلك للإطناب والمبالغة ؛ قاله الفرّاء .

ومنه قول الشاعر :

هَممتُ بنفسِيَ بعضَ الهموم . . .

فأولَى لنفسي أولَى لها

وقال قوم : إن من عادة العرب إذا ذكروا اسماً معرّفاً ثم كرّروه ، فهو هو .

وإذا نكَّروه ثم كرّروه فهو غيره .

وهما اثنان ، ليكون أقوى للأمل ، وأبعث على الصبر ؛ قاله ثعلب .

وقال ابن عباس : يقول الله تعالى خلقت عُسْراً واحداً ، وخلقت يُسْرين ، ولن يغلِب عسر

يسرين .

وجاء في الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في هذه السورة أنه قال : " لن يغلِب عسر يسرين " وقال ابن مسعود : والذي نفسي بيده ، لو كان العسر في حَجَر ، لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ؛ ولن يغلب عسر يسرين .

وكتب أبو عبيدة بن الجرّاح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعاً من الروم ، وما يُتخوّف منهم ؛ فكتب إليه عمر رضي الله عنهما : أما بعد ، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من مَنزِل شِدّة ، يجعل الله بعده فرجاً ، وإنه لن يغلب عسر يسرين ، وإن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ اصبروا وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ واتقوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : 200] .

وقال قوم منهم الجُرْجانِيّ : هذا قول مدخول ؛ لأنه يجب على هذا التدريج إذا قال الرجل : إن مع الفارس سيفاً ، إن مع الفارس سيفاً ، أن يكون الفارس واحداً والسيف اثنان .

(89/820)

والصحيح أن يقال : إن الله بعث نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم مُقِلاًّ مُخِفًّا ، فعيره المشركون بفقره ، حتى قالوا له : نجمع لك مالاً ؛ فاغتم وظنّ أنهم كذبوه لفقره ؛ فعزّاه الله ،

وعدد نِعمه عليه ، ووعده الغنى بقوله : "فإنّ مع العسرِ يسرا" أي لا يحزنك ما عيروكَ به من الفقر ؛ فإن مع ذلك العسرِ يسرا عاجلاً ؛ أي في الدنيا .

فأنجز له ما وعده ؛ فلم يمت حتى فَتَح عليه الحجاز واليمن ، ووسَّع ذات يده ، حتى كان يعطى الرجل المائتين من الإبل ، ويهب الهبات السنية ، ويُعِدّ لأهله قوت سنة .

فهذا الفضل كله من أمر الدنيا ؛ وإن كان خاصاً بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقد يدخل فيه بعض أمته إن شاء الله تعالى .

ثم ابتدأ فضلاً آخراً من الآخرة وفيه تأسِية وتعزِية له صلى الله عليه وسلم ، فقال مبتدئاً :

﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ فهو شيء آخر .

والدليل على ابتدائه ، تعرّيه من فاء أو واو أو غيرها من حروف النَّسْق التي تدل على العطف .

فهذا وعد عام لجميع المؤمنين ، لا يخرج أحد منه ؛ أي إن مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسرا في الآخرة لا محالة .

وربما اجتمع يسر الدنيا ويسر الآخرة .

والذي في الخبر : "لن يغلب عسر يسرين" يعني العسر الواحد لن يغلبهما ، وإنما يغلب أحدهما إن غلب ، وهو يسر الدنيا ؛ فأما يسر الآخرة فكائن لا محالة ، ولن يغلبه شيء .

أو يقال : "إن مع العسر" وهو إخراج أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة "يسرا" ،

وهو دخوله يوم فتح مكة مع عشرة آلاف رجل، مع عِز وشرف.

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ قال ابن عباس وقتادة: فإذا فرغت من صلاتك ﴿ فانصب ﴾ أي بالغ في الدعاء وسله حاجتك.

وقال ابن مسعود: إذا فرغت من الفرائض فانصَبْ في قيام الليل.

وقال الكلبيّ: إذا فرغت من تبليغ الرسالة "فانصَب" أي استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات.

وقال الحسن وقتادة أيضاً: إذا فرغت من جهاد عدوك، فانصب لعبادة ربك.

وعن مجاهد: "فإذا فرغت" من دنياك، "فانصب" في صلاتك.

ونحوه عن الحسن.

وقال الجنيد: إذا فرغت من أمر الخلق، فاجتهد في عبادة الحق.

قال ابن العربي: "ومن المبتدعة من قرأ هذه الآية "فانْصِب" بكسر الصاد، والهمْزُ من أوله

، وقالوا : معناه : انصِب الإمام الذي تستخلفه .

وهذا باطل في القراءة ، باطل في المعنى ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يستخلف أحداً .

وقرأها بعض : الجهال "فانْصَبَّ" بتشديد الباء ، معناه : إذا فرغت من الجهاد ، فجِدَّ في الرجوع إلى بلدك .

وهذا باطل أيضاً قراءة ، لمخالفة الإجماع ، لكن معناه صحيح ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " السفر قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم نومَه وطعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نَهْمَته ، فليعجل الرجوع إلى أهله " وأشدّ الناس عذاباً وأسوأهم مباء ومآبا ، من أخذ معنى صحيحاً ، فركب عليه مِن قِبل نفسه قراءة أو حديثاً ، فيكون كاذباً على الله ، كاذباً على رسوله ؛ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا " .

قال المهدوِيّ : وروي عن أبي جعفر المنصور : أنه قرأ : ﴿ ألم نشرحَ لك صدرك ﴾ [الشرح : 1] بفتح الحاء ؛ وهو بعيد ، وقد يؤوّل على تقدير النون الخفيفة ، ثم أبدلت النون ألفاً في الوقف ، ثم حُمِل الوصل على الوقف ، ثم حذف الألف .

وأنشد عليه :

إضْربَ عنك الهمومَ طارِقَها . . .

ضربك بالسوط قَوْنَس الفَرسِ

أراد : اضرِبْن .

ورُوي عن أبي السَّمال "فإذا فرِغت" بكسر الراء ، وهي لغة فيه .

وقريء "فرغِّب" أي فرغب الناس إلى ما عنده .

الثانية : قال ابن العربيّ : " روي عن شُريح أنه مر بقوم يلعبون يوم عِيد ، فقال ما بهذا أمر الشارع .

وفيه نظر ، فإن الحَبَش كانوا يلعبون بالدّرق والحراب في المسجد يوم العيد ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم ينظر .

ودخل أبو بكر في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة رضي الله عنها وعندها جاريتان من جواري الأنصار تغنيانِ ؛ فقال أبو بكر : أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : "دعهما يا أبا بكر ، فإنه يوم عيد " وليس يلزم الدُّؤوب على العمل ، بل هو مكروه للخلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

وقال ابن كثير في الآيات السابقة :

تفسير سورة ألم نشرح

وهي مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) ﴾

يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يعني : أما شرحنا لك صدرك ، أي : نورناه وجعلناه فَسيحًا رحيبًا واسعًا كقوله : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسْلامِ ﴾ [الأنعام : 125] ، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شَرْعه فسيحا واسعًا سمحًا سهلا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق .

وقيل : المراد بقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ شرح صدره ليلة الإسراء ، كما تقدم من رواية مالك بن صعصعة وقد أورده الترمذي هاهنا . وهذا وإن كان واقعًا ، ولكن لا منافاة ، فإن من جملة شرح صدره الذي فُعِل بصدره ليلة الإسراء ، وما نشأ عنه من الشرح المعنوي أيضًا ، والله أعلم .

قال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثني محمد بن عبد الرحيم أبو يحيى البزاز حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن محمد بن أبي بن كعب ، حدثني أبي محمد بن معاذ ، عن معاذ ، عن محمد ، عن أبي بن كعب : أن أبا هريرة كان جريًّا على أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال : يا رسول الله ، ما أولُ ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال : "لقد سألتَ يا أبا هريرة ، إني لفي الصحراء ابنُ عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسي ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ [قال : نعم] فاستقبلاني بوجوه لم أرها [لخلق] قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط . فأقبلا إلي يمشيان ، حتى أخذ كل واحد منهما بعَضُدي ، لا أجد لأحدهما مسا ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه . فأضجعاني بلا قَصْر ولا هَصْر . فقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره . فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغِلّ والحَسَد . فأخرج شيئًا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذي أخرج شبهُ الفضة ، ثم هز

إبهام رجلي اليمنى فقال : اغدُ واسلم . فرجعت بها أغدو ، رقة على الصغير ، ورحمةً للكبير" (1) .

وقوله : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ بمعنى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ الإنقاض : الصوت . وقال غير واحد من السلف في قوله : ﴿ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي : أثقلك حمله .

وقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال مجاهد : لا أُذْكَرُ إلا ذُكِرتَ معي : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله .

وقال قتادة : رفع اللهُ ذكرَه في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا مُتشهد ولا صاحبُ صلاة إلا ينادي بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

قال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا عمرو بن الحارث ، عن دَرَاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أتاني جبريل فقال : إنّ ربي وربك يقول : كيف رفعت ذكرك ؟ قال : الله أعلم . قال : إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ معي" ، وكذا رواه ابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى ، به ورواه أبو يعلى من طريق ابن لَهِيعة ، عن دَرَّاج (2) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا أبو عُمر الحَوضي ، حدثنا حماد بن زيد ،

حدثنا عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سألت ربي مسألة وَدَدْتُ أني لم أكن سألته، قلت: قد كانت قبلي أنبياء، منهم من سخرت له الريح ومنهم من يحيي الموتى. قال: يا محمد، ألم أجدك يتيما فآويتك؟ قلت: بلى يا رب. قال: ألم أجدك ضالا فهديتك؟ قلت: بلى يا رب. قال: ألم أجدك عائلا فاغنيتك؟ قال: قلت: بلى يا رب. قال: ألم أشرح لك صدرك؟ ألم أرفع لك ذكرك؟ قلت: بلى يا رب" (3).

---

(1) زوائد المسند (139/5) وقال الهيثمي في المجمع (222/8): "رجاله ثقات وثقهم ابن حبان".

(2) تفسير الطبري (151/30).

(3) ورواه الحاكم في المستدرك (526/2) من طريق أحمد بن سلمة، عن عبد الله بن الجراح، عن حماد بن زيد به، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

وقال أبو نعيم في "دلائل النبوة": حدثنا أبو أحمد الغطريفي، حدثنا موسى بن سهل الجَوْني، حدثنا أحمد بن القاسم بن بَهْرام الهيتي، حدثنا نصر بن حماد، عن عثمان بن عطاء،

عن الزهري ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما فرغت مما أمرني الله به من أمر السموات والأرض قلت : يا رب ، إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرمته ، جعلت إبراهيم خليلا وموسى كليما ، وسخرت لداود الجبال ، ولسليمان الريح والشياطين ، وأحييت لعيسى الموتى ، فما جعلت لي ؟ قال : أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله ، أني لا أذكر إلا ذُكِرْتَ معي ، وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرءون القرآن ظاهرا ، ولم أعطها أمة ، وأعطيتك كنزا من كنوز عرشي : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" (1) .

---

(1) وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (288/6) ثم قال : "وهذا إسناد فيه غرابة ، ولكن أورد له شاهدا من طريق أبي القاسم بن منيع البغوي ، عن سليمان بن داود المهراني ، عن حماد بن زيد ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس مرفوعا بنحوه" .

(96/820)

وحكى البغوي ، عن ابن عباس ومجاهد : أن المراد بذلك : الأذان . يعني : ذكره فيه ، وأورد من شعر حسان بن ثابت :

أغَرّ عَلَيه للنبوة خَاتَم . . . مِنَ الله من نُور يَلوحُ وَيشْهَد . . .

وَضمَّ الإلهُ اسم النبي إلى اسمه . . . إذا قَال في الخَمْس المؤذنُ : أشهدُ . . .

وَشَقَّ لَهُ مِن اسمه ليُجلَّه . . . فَذُو العَرْش محمودٌ وهَذا مُحَمَّدُ (1)

وقال آخرون : رفع الله ذكره في الأولين والآخرين ، ونوه به ، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به ، وأن يأمروا أممهم بالإيمان به ، ثم شهر ذكره في أمته فلا يُذكر الله إلا ذُكر معه .

وما أحسن ما قال الصرصري ، رحمه الله :

لا يَصِحُّ الأذانُ في الفَرْضِ إلا . . . باسمِه العَذْب في الفم المرْضي . . .

وقال أيضًا :

[ألم تر أنَّا لا يَصِحُّ أذانُنا . . . ولا فَرْضُنا إنْ لم نُكَرِّره فيهما] . . .

وقوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجدُ اليسر ، ثم أكد هذا الخبر .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا حُميد بن حماد بن خوَار أبو الجهم ، حدثنا عائذ بن شُرَيح قال : سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبي صلى الله عليه وسلم جالسًا وحياله حجر ، فقال : "لو جاء العسر فدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه" ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ

الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ (2) .

ورواه أبو بكر البزار في مسنده عن محمد بن مَعْمَر ، عن حُميد بن حماد ، به ولفظه : "لو جاء العسر حتى يدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يخرجه" ثم قال : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ثم قال البزار : لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح (3) .

---

(1) معالم التنزيل للبغوي (464/8) .

(2) ورواه الحاكم في المستدرك (255/2) من طريق محمود بن غيلان به ، وقال الحاكم : "هذا حديث عجيب غير أن الشيخين لم يحتجا بعائذ بن شريح" . وقال الذهبي : "تفرد حميد بن حماد ، عن عائذ ، وحميد منكر الحديث كعائذ" .

(3) مسند البزار برقم (2288) "كشف الأستار" ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (3416) من طريق محمد بن معمر به .

قلت : وقد قال فيه أبو حاتم الرازي : في حديثه ضعف ، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة ، عن رجل ، عن عبد الله بن مسعود موقوفا .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا أبو قَطَن حدثنا المبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : كانوا يقولون : لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن الحسن قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم يومًا مسرورًا فرحًا وهو يضحك ، وهو يقول : "لن يَغْلِب عُسْر يسرين ، لن يغلب عسر يسرين ، فإن مع العسر يسرًا ، إن مع العسر يسرًا" .

وكذا رواه من حديث عوف الأعرابي ويونس بن عبيد ، عن الحسن مرسلا (1) .

وقال سعيد ، عن قتادة : ذُكِرَ لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر أصحابه بهذه الآية فقال : "لن يغلب عسر يسرين" .

ومعنى هذا : أن العسر معرف في الحالين ، فهو مفرد ، واليسر منكر فتعدد ؛ ولهذا قال : "لن يغلب عسر يسرين" ، يعني قوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ فالعسر الأول عين الثاني واليسر تعدد .

وقال الحسن بن سفيان : حدثنا يزيد بن صالح ، حدثنا خارجة ، عن عباد بن كثير ، عن أبي الزناد ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "نزل

المعونة من السماء على قدر المؤونة، ونزل الصبر على قدر المصيبة" (2).

ومما يروى عن الشافعي، رضي الله عنه، أنه قال:

صَبرا جَميلا ما أَقرَبَ الفَرجا . . . مَن رَاقَبَ اللهَ في الأمور نَجَا . . .

مَن صَدَقَ اللهَ لَم يَنَلْه أذَى . . . وَمَن رَجَاه يَكون حَيثُ رَجَا . . .

وقال ابن دُرَيد: أنشدني أبو حاتم السجستاني:

إذا اشتملت على اليأس القلوبُ . . . وضاق لما به الصدر الرحيبُ . . .

وأوطأت المكاره واطمأنت . . . وأرست في أماكنها الخطوبُ . . .

ولم تر لانكشاف الضر وجها . . . ولا أغنى بحيلته الأريبُ

---

(1) تفسير الطبري (151/30) ورواه عبد الرزاق في تفسيره (309/2) عن معمر، عن الحسن به مرسلا، وقد جاء موقوفا على ابن مسعود، رواه عبد الرزاق في تفسيره (309/2) من طريق ميمون عن إبراهيم النخعي عنه، وجاء مرفوعا عن جابر، رواه ابن مردويه في تفسيره، وقال الحافظ ابن حجر: "إسناده ضعيف".

(2) ورواه البزار في مسنده برقم (1506) "كشف الأستار" وابن عدي في الكامل (115/4) من طريق عبد العزيز الدراوردي عن طارق وعباد بن كثير، عن أبي الزناد به. وقال البزار: "لا نعلمه عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد". وقال ابن عدي: "وطارق بن

عمار يعرف بهذا الحديث" . والحديث معلول . انظر : العلل لابن أبي حاتم (126/2 ، 133) والكامل لابن عدي (238/6 ، 402 ، 37/2 ، 115/4) .

(99/820)

أتاك على قُنوط منك غَوثٌ . . . يمن به اللطيف المستجيبُ . . .

وكل الحادثات إذا تناهت . . . فموصول بها الفرج القريب . . .

وقال آخر :

وَلَرُب نازلة يضيق بها الفتى . . . ذرعا وعند الله منها المخرج . . .

كملت فلما استحكمت حلقاتها . . . فرجت وكان يظنها لا تفرج . . .

وقوله : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ أي : إذا فَرَغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها ، فانصب في العبادة ، وقم إليها نشيطا فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة . ومن هذا القبيل قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق على صحته : "لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان" (1) وقوله صلى الله عليه وسلم : "إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء ، فابدءوا بالعَشَاء" (2) .

قال مجاهد في هذه الآية : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة ، فانصب لربك ، وفي

رواية عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك ، وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل . وعن ابن عياض نحوه . وفي رواية عن ابن مسعود : ﴿ فَانْصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ يعني : في الدعاء .

وقال زيد بن أسلم ، والضحاك : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أي : من الجهاد ﴿ فَانْصَبْ ﴾ أي : في العبادة . ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ قال الثوري : اجعل نيتك ورغبتك إلى الله ، عز وجل .

آخر تفسير سورة "ألم نشرح" ولله الحمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 8 صـ 433.429 ﴾

---

(1) رواه مسلم في صحيحه برقم (560) من حديث عائشة ، رضي الله عنها .

(2) رواه البخاري في صحيحه برقم (5465) من حديث عائشة ، رضي الله عنها .

(100/820)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

لما كانَ الصدرُ محلاًّ لأحوالِ النفسِ ومخزناً لسرائرِها من العلومِ والإدراكاتِ والملكاتِ والإراداتِ وغيرِها عبرَ بشرحِه عن توسيعِ دائرةِ تصرفاتِها بتأييدِها بالقوةِ القدسيةِ وتحليتِها بالكمالاتِ الأُنسيةِ أيْ ألمْ نفسحْهُ حتَّى حوَى عالَمِيْ الغيبِ والشَّهادةِ وجمعَ بينَ مَلكَتَيْ الاستفادةِ والإفادةِ فمَا صدَّكَ الملابسةُ بالعلائقِ الجسمانيةِ عنِ اقتباسِ أنوارِ الملكاتِ الروحانيةِ ومَا عاقكَ التعلقُ بمصالحِ الخلقِ عن الاستغراقِ في شؤونِ الحَقِّ وقيل: أريدَ بهِ ما رُوِيَ (أنَّ جبريلَ أَتَى رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في صباهُ أو يومَ الميثاقِ فاستخرجَ قلبَهُ فغسلَهُ ثمَّ ملأهُ إيماناً وعلماً) ولعلَّه تمثيلٌ لما ذُكِرَ أو أُنموذجُ جُسمانيٌّ لمَّا سيظهرُ لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ من الكمالِ الرُّوحانيِّ والتعبيرُ عن ثبوتِ الشَّرحِ بالاستفهامِ الإنكاريِّ عنِ انتفائه للإيذانِ بأنَّ ثبوتَهُ منَ الظهورِ بحيثُ لا يقدرُ أحدٌ على أنْ يجيبَ عنْهُ بغيرِ بَلَى وزيادةُ الجارِّ والمجرورِ معَ توسيطِه بينَ الفعلِ ومفعولِه للإيذانِ من أولِ الأمرِ بأنَّ الشَّرحَ من منافعِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ ومصالحِه مسارعةً إلى إدخالِ المسرةِ في قلبِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ وتشويقاً لهُ إلى ما يعقبُهُ ليتمكَّنَ عندَهُ وقتَ ورودِهِ فضلَ تمكّنٍ وقولُه تعالى: ﴿ ووَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ عطفٌ على ما أُشيرَ إليهِ من مدلولِ الجملةِ السابقةِ كأنَّه قيل: قدْ شرحنَا صدركَ ووضعنَا الخ، وعنكَ متعلقٌ بوضعنَا وتقديمُهُ على المفعولِ الصريحِ معَ أنَّ حقَّه التأخرُ عنْهُ لما مرَّ آنفاً منَ القصدِ إلى تعجيلِ المسرةِ والتشويقِ إلى المؤخَّرِ ولما أنَّ في

وصفِه نوعَ طولٍ فتأخيرُ الجارّ والمجرورِ عنْهُ مخلٌّ بتجاوبِ أطرافِ النظمِ الكريمِ أيْ حططنَا عنكَ عِبأكَ الثقيلَ .

(101/820)

﴿ الذى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أيْ حملَهُ على النقيضِ وَهُوَ صوتُ الانقضاضِ والانفكاكَ كَمَا يُسْمَعُ منَ الرَّحلِ المُتداعِي إلى الانتقاضِ من ثقلِ الحملِ ، مُثّلَ بهِ حالُه عليهِ الصّلاةُ والسّلامُ ممّا كانَ يثقلُ عليهِ ويغمُّهُ من فرطاتِه قبلَ النبوةِ أو من عدمِ إحاطتِه بتفاصيلِ الأحكامِ والشرائعِ أو من تهالُكِه على إسلامِ المعاندينَ من قومِه وتلهفِه ووضعِه عنهُ مغفرتَهُ وتعليمِ الشرائعِ وتمهيدِ عُذرِه بعدَ أنْ بلَّغَ وبالغَ وقُرِىءَ وَحططنَا وَحللنَا مكانَ وضعنَا وقُرِىءَ (وحللنَا عنكَ وِقْرَكَ) .

(102/820)

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ بعنوانِ النبوةِ وأحكامِها أيَّ رفعٍ حيثُ قرنَ اسْمُهُ باسمِ الله تعالَى في كلمةِ الشهادةِ والأذانِ والإقامةِ وجُعلَ طاعتُه طاعتَه تعالَى وصلَّى عليهِ هُو وملائكتُه

وأمرَ المؤمنينَ بالصَّلاةِ عليهِ وسُمِّيَ رسولَ اللهِ ونبيَّ اللهِ ، والكلامُ في العطفِ وزيادةِ لكَ كالذي سلفَ وقولُه تعالَى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ العسرِ يُسْرًا ﴾ تقريرٌ لما قبلَهُ ووعدٌ كريمٌ بتيسيرِ كُلِّ عسيرٍ لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وللمؤمنينَ كأنَّه قيلَ : خوَّلناكَ ما خوَّلناكَ من جلائلِ النعمِ فكُنْ على ثقةٍ بفضلِ اللهِ تعالَى ولطفِه فإنَّ معَ العسرِ يسرًا كثيرًا وفي كلمةِ معَ إشعارٌ بغايةِ سرعةِ مجيءِ اليسرِ كأنَّه مقارنٌ للعسرِ ﴿ إِنَّ مَعَ العسرِ يُسْرًا ﴾ تكريرٌ للتأكيدِ أو عِدةٌ مستأنفةٌ بأنَّ العسرَ مشفوعٌ بيسرٍ آخرَ كثوابِ الآخرةِ كقولكَ : إنَّ للصائمِ فرحةً إن للصائمِ فرحةً أيَّ فرحةٍ عندَ الإفطارِ وفرحةً عندَ لقاءِ الربِّ وعليهِ قولُه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ : "لَنْ يغلبَ عسرٌ يسرينِ" فإنَّ المُعرَّفَ إذا أُعيدَ يكونُ الثاني عينَ الأولِ سواءً كانَ معهودًا أو جنسًا ، وأما المنكرُ فيحتملُ أنْ يُرادَ بالثانِي فردٌ مغايرٌ لمَا أُريدَ بالأولِ ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أيْ منَ التبليغِ وقيلَ : من الغزوِ ﴿ فانصب ﴾ فاجتهدْ في العبادةِ واتعبْ شكرًا لما أوليناكَ من النعمِ السالفةِ ووعدناكَ من الآلاءِ الآنفةِ وقيلَ : فإذَا فرغتَ من صلاتِك فاجتهدْ في الدُّعاءِ وقيلَ : إذَا فرغتَ من دنياكَ فانصبْ في صلاتِكَ ﴿ وإلى ربِّكَ ﴾ وَحْدَهُ ﴿ فارغب ﴾ بالسؤالِ ولاَ تسألْ غيرَهُ فإنَّه القادرُ على إسعافِكَ لا غيرُهُ وقُرِىءَ فرَغِّبْ أي فرَغِّبِ النَّاسَ إلى طلبِ ما عندَهُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

والفاء في قوله عز وجل : ﴿ فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ على ما في الكشاف فصيحة والكلام وعد له صلى الله عليه وسلم مسوق للتسلية والتنفيس قال كان المشركون يعيرون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالفقر والضيقة حتى سبق إلى ذهنه الشريف عليه الصلاة والسلام أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم فذكره سبحانه ما أنعم به عليه من جلائل النعم ثم قال تعالى شأنه إن مع العسر يسراً كأنه قال سبحانه خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله تعالى فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسرا وهو ظاهر في أن أل في العسر للعهد وأما التنوين في يسرا فللتفخيم كأنه قيل إن مع العسر يسراً عظيماً وأي يسر والمراد به ما تيسر لهم من الفتوح في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يسر الدنيا مطلقاً وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ يحتمل أن يكون تكريراً للجملة السابقة لتقرير معناها وفي النفوس وتمكينها في القلوب كما هو شأن التكرير ويحتمل أن يكون وعداً مستأنفاً وال والتنوين على

ما سبق بيد أن المراد باليسر هنا ما تيسر لهم في أيام الخلفاء أو يسر الآخرة واحتمال

الاستئناف هو الراجح لما علم من فضل التأسيس على التأكيد كيف وكلام الله تعالى

محمول على أبلغ الاحتمالين وأوفاهما والمقام كما تقدم مقام التسلية والتنفيس والاستئناف

نحوي وتجرده عن الواو أكثر من أن يحصى ولا يحتاج إلى بيان نكتة لأنه الأصل وقال عصام

الدين لا يبعد أن تكون نكتة الفصل كونه في صورة التكرير فاحفظه فإنه من البدائع وتعقب

بنحو ما ذكرنا وكان الظاهر على ما سمعت من المراد باليسر تعريفه إلا أنه أوثر التنكير

التفخيم وقد يقال إن فائدته الظهور في التأسيس لأن النكرة المعادة ظاهرها التغاير

والاشعار بالفرق بين العسر واليسر ويظهر مما ذكر وجه ما أخرجه عبد الرزاق وابن جرير

والحاكم والبيهقي عن الحسن قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فرحاً مسروراً

وهو يضحك ويقول لن يغلب عسر يسرين أن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا وأفاد بعض

الأجلة أن الكلام تقرير لما قبله وعدة له صلى الله عليه وسلم بتيسير كل عسير فالفاء قيل

سببية ودخلت على السبب وان تعارف دخولها على المسبب لتسبب ذكره عن ذكره

فإن ذكر أحدهما يستدعي ذكر الآخر وال في العسر للاستغراق فيدخل فيه سبب النزول

والتنوين في يسرا على ما سبق كأنه قيل فعلنا لك كذا وكذا لأن مع كل عسر كضيق الصدر

والوزر المنقض للظهر والخمول يسراً عظيماً كالشرح والوضع ورفع الذكر فلا تيأس من روح

الله تعالى إذا عراك ما يغمك وقال بعضهم الفاء للتفريع وهو من قبيل تفريع الحكم على الدليل

في صورة الاستدلال بالجزئي على الكلي وذلك كما تقول اما ترى إلى الإنسان والفرس والغنم كلها تحرك الفك الأسفل عند المضغ فاعلم بذلك إن كل حيوان

(105/820)

يفعل كذلك فتدبر وفي الجملة الثانية الاحتمالان السابقان والاستئناف أيضاً هو الراجح لما تقدم وعلى اتحاد العسر وتعديد اليسر يكون الحاصل من الجملتين إن مع كل عسر يسرين عظيمين والظاهر أن المراد بذينك اليسرين يسر دنيوي ويسر أخروي وقيل الظاهر أن الجملة الثانية تكرير للأولى وتأكيد لها فاليسر فيها عين اليسر في الأولى كما أن العسر كذلك والكلام نظير قولك أن مع الفارس رمحاً أن مع الفارس رمحاً وهو ظاهر وحدة الفارس والرمح ولن يغلب عسر يسرين ليس نصاً في الحمل على الاستئناف إذ يصح على التأكيد أيضاً بأن يكون مبنياً على كون التنوين في يسراً للتفخيم فحمل لقوة الرجاء على يسر الدارين وذلك يسران في الحقيقة ويشهد لذلك أنه ليس في مصحف ابن مسعود الجملة الثانية مع أنه جاء عنه أيضاً لن يغلب عسر يسرين وقيل يمكن أن يحمل الخبر على أنه لن يغلب فرد من أفراد العسر ذكر اليسر مرتين وتكريره في مقام الوعد وهو كما ترى والمشهور على جميع الأوجه أنه شبه التقارب بالتقارن فاستعير لفظ مع لمعنى بعد وذلك للمبالغة في معاقبة

اليسر العسر واتصاله به واستشكل أمر الاستغراق بأن من العسر ما لا يعقبه يسر دنيوي كالفقر والمرض الدائمين إلى الموت ولا أراك ترضى القول بأن الموت يسر دنيوي وإن من العسر ما لا يعقبه يسر أخروي أيضاً كعسر الكافر والجواب أن الحكم بالنسبة للمؤمنين كما يقتضيه مقام التسلية والتنفيس ويشعر به ما رواه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم قال كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يذكر له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم فكتب إليه عمر رضي الله تعالى عنه أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن شدة يجمل الله تعالى بعده فرجاً ولن يغلب عسر يسرين لا يحسم الاشكال إذ يبقى معه إن من عسر المؤمن ما لا يعقبه يسر دنيوي كما هو ظاهر بل منه ما لا يعقبه بسر أخروي أيضاً وذلك كعسر المؤمن الجازع فإنه لا يثاب عليه في الآخرة والظاهر من اليسر

الأخروي هو الثواب فيها على ذلك العسر وإرادة المؤمن الصابر يبقى معها إن من عسره أيضاً ما لا يعقبه اليسر الدنيوي وأجاب بعض على وجه التأكيد بأن الاستغراق عرفي ويكفي فيه أن العسر في الغالب يقبه يسر وعلى وجه التأسيس بهذا مع كون الحكم بالنسبة للمؤمن الصابر وآخر بأن الحكم مشروط بمشيئته تعالى وإن لم تذكر قيل ويشعر

بذلك ما أخرجه عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في الآية قال ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه الآية أصحابه فقال عليه الصلاة والسلام لن يغلب عسر ان شاء الله تعالى يسرين ويفهم من كلام بعض الأفاضل أنه يجوز على وجه التأكيد أن يكون مع على ظاهرها والتنوين في يسراً للنوعية ولا اشكال في الاستغراق إذ لا يخلو لمرة في حال العسر عن نوع من اليسر وأقله دفع ما هو أعظم مما أصابه عنه ويجوز أن يكون التنوين للتفخيم أيضاً ويكون اليسر العظيم المقارن للعسر هو دفع ذلك الأعظم وما من عسر إلا وعند الله تعالى أعظم منه وأعظم وأنه لا يأبى ذلك لن يغلب عسر يسرين اما لأن المعنى لن يغلب فرد من أفراد العسر ذكر اليسر مرتين في مقام التسلية أو لأن الآية أفادت ان مع العسر يسرا وقد علم أن بعده آخر على ما جرت به العادة الغالبة أو فهم من قوله تعالى

﴿ سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ [الطلاق : 7] إن كان نزوله متقدماً وذكر بعضم ان المعية على حقيقتها عند الخاصة على معنى ان كل ما فعل المحبوب محبوب كما يشير إليه قول الشيخ عمر بن الفارض قدس سره

.

وتعذيبكم عذب لدي وجوركم . . .

على بما يقضي الهوى لكم عدل

وقول الآخر ز

: برجا تم أزتوهرجه . . .

رسد جاي منت است كدنا وك جفا ست

وكر خنجر ستم . . .

(107/820)

وتسمية ذلك عسراً لأنه في نفسه وعند العامة كذلك لا بالنسبة إلى من أصابه من المحبين المستعذبين له والكل كما ترى ثم أنه يبعد إرادة المعية الحقيقية ما أخرجه البزار وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم والبيهقي في الشعب عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً وحياله حجر فقال عليه الصلاة والسلام لو جاء العسر فدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه فانزل الله تعالى إن مع العسر يسراً الخ ولفظ الطبراني وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن مع العسر يسرا وإرادة العهد اسلم من القيل والقال وكأن من اختاره اختاره لذلك مع الاستئناس له بسبب النزول لكن الذي يقتضيه الظواهر ومقاماتها الخطابية الاستغراق فإذا قيل به فلا بد من التقييد بكون من أصابه العسر واثقاً بالله تعالى حسن الرجاء به عز وجل منقطعاً إليه سبحانه أو بنحو ذلك من القيود فتدبر والله تعالى الميسر لكل ما يتعسر .

وقرأ ابن وثاب وأبو جعفر وعيسى العسر ويسرا في الموضعين بضم السين.

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أي من عبادة كتبليغ الوحي ﴿ فانصب ﴾ فاتعب في عبادة أخرى شكراً لما عددنا عليك من النعم السالفة ووعدناك من الآلاء الآنفة كأنه عز وجل لما عدد عليه ما عدد ووعده صلى الله عليه وسلم بما وعد بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة وإن لا يخلي وقتاً من أوقاته منها فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى.

(108/820)

﴿ وإلى رَبِّكَ ﴾ وحده ﴿ فارغب ﴾ فاحرص بالسؤال ولا تسأل غيره تعالى فإنه القادر على الاسعاف لا غيره عز وجل وأخرج ابن جرير وغيره من طرق عن ابن عباس أنه قال أي إذا فرغت من لصلاة فانصب في الدعاء وروي نحوه عن الضحاك وقتادة وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود أي إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل وعن الحسن أي إذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم نحوه وأخرج ابن نصر وجماعة عن مجاهد أي إذا فرغت من أسباب نفسك وفي لفظ من دنياك فصل وفي رواية أخرى عنه نحو ما روي عن ابن عباس والأنسب حمل الآية على ما تقدم وأما قول ابن عباس ومن معه فهو تخصيص لبعض العبادات فراغاً وشغلاً اما مثالاً لا أن اللفظ خاص

وهو الأظهر وكذا يقال فيما روي عن ابن مسعود واما لأن الصلاة أم العبادات البدنية والدعاء مخ العبادة فهما هما وقول الحسن فيه ما شاع من قوله صلى الله عليه وسلم " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " وهو قريب إلا أنه قيل عليه أن السورة مكية والأمر بالجهاد بعد الهجرة ولعله يقول بمدنيتها أو مدنية هذه الآية أو أنها مما تأخر حكمه عن نزوله كآيات أخر وقول مجاهد نظر فيه إلى أن الفراغ أكثر ما يستعمل في الخلو عن الأشغال الدنيوية كما في قوله صلى الله عليه وسلم " اغتنم فراغك قبل شغلك " وهو أضعف الأقوال لبعده عما يقتضيه السياق وتؤذن به الفاء وقال عصام الدين لا نسب ان يراد فإذا فرغت من يسر فانصب بعسر آخر طلبا لليسرين فإذا كنت كذلك فكن راغباً إلى ربك يعني لا تتحمل عسر الدنيا طمعاً في يسرين فيها بل تحمل عسر طلب الرب وقربه جل شأنه لليسرين انتهى ولعمري أنه خلاف ما يفهمه من لا سقم في ذهنه من اللفظ .

(109/820)

وأشعرت الآية بأن اللائق بحال العبد أن يستغرق أوقاته بالعبادة أو بأن يفرغ إلى العبادة بعد أن يفرغ من أمور دنياه على ما سمعت من قول مجاهد فيها وذكروا ان قعود الرجل فارغاً من غير شغل أو استغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه من سفه الرأي وسخافة العقل واستيلاء

الغفلة وعن عمر رضي الله تعالى عنه أني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سبهللا لا في عمل دنياه ولا في عمل آخرته وروي أن شريكاً مر برجلين يصطرعان فقال ما بهذا أمر الفارغ وقرأ أبو السمال فرغت بكسر الراء وهي لغة قال الزمخشري ليست بفصيحة وقرأ قوم فانصب بشد الباء مفتوحة من الانصباب والمراد فتوجه إلى عبادة أخرى كل التوجه ونسب إلى بعض الأمامية انه قرأ فانصب بكسر الصاد فقيل أي فإذا فرغت من النبوة فانصب عليا للإمامة وليس في الآية دليل على خصوصية المفعول فللسنى أن يقدره أبا بكر رضي الله تعالى عنه فإن احتج الإمامي بما وقع في غدير خم منع السني دلالته على ما ثبت عنده على النصب وصحته على ما يرويه الإمامي واحتج لما قدره بقوله صلى الله عليه وسلم

" مروا أبا بكر فليصل بالناس " وقال إنه أوفق بإذا فرغت لما أنه صدر منه عليه الصلاة والسلام في مرض وفاته قيل وفاته صلى الله عليه وسلم بخلاف ما كان في الغدير فإنه لا يظهر أن زمانه زمان فراغ من النبوة ظهور كون زمان الأمر كذلك وإن رجع وقال المراد فإذا فرغت من الحج فانصب علياً ورد عليه أمر مكية السورة مع ما لا يخفى وقال في الكشاف لو صح ذلك للرافضي لصح للناصبي أن يقرأ هكذا ويجعله أمراً بالنصب الذي هو بغض علي كرم الله تعالى وجهه وعداوته وفيه نظر ومن الناس من قدر المفعول خليفة والأمر فيه هين وقال ابن عطية أن هذه القراءة شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم وقرأ زيد بن علي

وابن أبي عبلة فرغب أمر من رغب بشد الغين أي فرغب الناس إلى طلب ما عنده عز

وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(110/820)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) ﴾

معنى شرح الصدر : فتحه بإذهاب ما يصدّ عن الإدراك .

والاستفهام إذا دخل على النفي قرّره ، فصار المعنى : قد شرحنا لك صدرك .

وإنما خصّ الصدر ؛ لأنه محل أحوال النفس من العلوم ، والإدراكات .

والمراد : الامتنان عليه صلى الله عليه وسلم بفتح صدره ، وتوسيعه حتى قام بما قال به من الدعوة ، وقدر على ما قدر عليه من حمل أعباء النبوّة ، وحفظ الوحي ، وقد مضى القول في هذا عند تفسير قوله : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ على نُورٍ مّن رَّبّهِ ﴾ [الزمر : 22] ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ معطوف على معنى ما تقدّم ، لا على لفظه ، أي : قد شرحنا لك صدرك ، ووضعنا .

..

الخ ، ومنه قول جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

ألستم خير من ركب المطايا . . . وأندى العالمين بطون راح

أي : أنتم خير من ركب المطايا ، وأندى .

. .

الخ .

قرأ الجمهور : ﴿ نشرح ﴾ بسكون الحاء بالجزم ، وقرأ أبو جعفر المنصور العباسي بفتحها .

قال الزمخشري : قالوا لعله بين الحاء ، وأشبعها في مخرجها ، فظنّ السامع أنه فتحها .

وقال ابن عطية : إن الأصل " ألم نشرحن " بالنون الخفيفة ، ثم إبدالها ألفاً ، ثم حذفها تخفيفاً ، كما أنشد أبو زيد :

من أي يوميَّ من الموت أفر . . . أيوم لم يقدّر أم يوم قدر

بفتح الراء من " لم يقدر " .

ومثله قوله :

اضرب عنك الهموم طارقها . . . ضربك بالسيف قونس الفرس

بفتح الباء من اضرب .

وهذا مبني على جواز توكيد المجزوم ب " لم " ، وهو قليل جداً كقوله :

يحسبه الجاهل ما لم يعلما . . . شيخا على كرسيه معمما

فقد تركبت هذه القراءة من ثلاثة أصول ، كلها ضعيفة : الأول توكيد المجزوم ب " لم " ، وهو ضعيف .

الثاني إبدالها ألفاً ، وهو خاص بالوقف ، فإجراء الوصل مجرى الوقف ضعيف .

(111/820)

والثالث : حذف الألف ، وهو ضعيف أيضاً ؛ لأنه خلاف الأصل ، وخرّجها بعضهم على لغة بعض العرب الذين ينصبون ب " لم " ويجزمون ب " لن " ، ومنه قول الشاعر :

في كل ما همّ أمضى رأيه قدما . . . ولم يشاور في إقدامه أحدا

بنصب الراء من " يشاور " ، وهذه اللغة لبعض العرب ما أظنها تصح .

وإن صحت ، فليست من اللغات المعتبرة ، فإنها جاءت بعكس ما عليه لغة العرب بأسرها .

وعلى كل حال ، فقراءة هذا الرجل مع شدّة جوره ، ومزيد ظلمه ، وكثرة جبروته ، وقلة علمه ليس بحقيقة بالاشتغال بها .

والوزر : الذنب ، أي وضعنا عنك ما كنت فيه من أمر الجاهلية .

قال الحسن ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل : المعنى حططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية ، وهذا كقوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] ثم وصف هذا الوزر فقال : ﴿ الذى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ .

قال المفسرون : أي أثقل ظهرك .

قال الزجاج : أثقله حتى سمع له نقيض ، أي : صوت ، وهذا مثل معناه : أنه لو كان حملاً يحمل لسمع نقيض ظهره ، وأهل اللغة يقولون : أنقض الحمل ظهر الناقة : إذا سمع له صرير ، ومنه قول جميل :

وحتى تداعت بالنقيض حباله . . . وهمت ثواني زوره أن تحطما

وقول العباس بن مرداس :

وأنقض ظهري ما تطويت منهم . . . وكنت عليهم مشفقا متحننا

قال قتادة : كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم ذنوب قد أثقلته ، فغفرها الله له ، وقوم يذهبون إلى أن هذا تخفيف أعباء النبوّة التي تثقل الظهر من القيام بأمرها سهل الله ذلك عليه حتى تيسرت له : وكذا قال أبو عبيدة وغيره .

وقرأ ابن مسعود : (وحللنا عنك وقرك) .

ثم ذكر سبحانه منته عليه وكرامته فقال : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ قال الحسن : وذلك أن الله لا يذكر في موضع إلاّ ذكر معه صلى الله عليه وسلم .

قال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ، ولا متشهد ، ولا صاحب صلاة إلاّ ينادي ، فيقول : أشهد أن لا إله إلاّ الله أشهد أن محمداً رسول الله .

قال مجاهد : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ يعني : بالتأذين .

وقيل المعنى : ذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبله ، وأمرناهم بالبشارة به .

وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء ، وعند المؤمنين في الأرض .

والظاهر أن هذا الرفع لذكره الذي امتنّ الله به عليه يتناول جميع هذه الأمور ، فكل واحد منها من أسباب رفع الذكر ، وكذلك أمره بالصلاة والسلام عليه ، وإخباره صلى الله عليه وسلم عن الله عزّ وجل أنّ من صلّى عليه ، واحدة صلى الله عليه بها عشراً ، وأمر الله بطاعته كقوله : ﴿ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [النساء : 59] وقوله : ﴿ وَمَا ءاتاكم الرسول فَخُذُوهُ وَمَا نهاكم عَنْهُ فانتهوا ﴾ [الحشر : 7] ، وقوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعونى يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ [آل عمران : 31] وغير ذلك .

وبالجملة فقد ملأ ذكره الجليل السموات والأرضين ، وجعل الله له من لسان الصدق ، والذكر الحسن ، والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من عباده ، ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن

يَشَاء واللهُ ذُو الفضل العظيم ﴾ [الحديد : 21] اللّهم صلّ وسلم عليه وعلى آله عدد ما صلى عليه المصلون بكل لسان في كل زمان ، وما أحسن قول حسان :

أغرّ عليه للنبوّة خاتم . . . من الله مشهور يلوح ، ويشهد

وضم الإله اسم النبيّ مع اسمه . . . إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله . . . فذو العرش محمود ، وهذا محمد

﴿ فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْرًا ﴾ أي : إن مع الضيقة سعة ، ومع الشدّة رخاء ، ومع الكرب فرج.

وفي هذا وعد منه سبحانه بأن كل عسير يتيسر ، وكل شديد يهون ، وكل صعب يلين .

(113/820)

ثم زاد سبحانه هذا الوعد تقريراً وتأكيداً ، فقال : مكرّراً له بلفظ ﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْرًا ﴾ أي : إن مع ذلك العسر المذكور سابقاً يسراً آخر لما تقرّر من أنه إذا أعيد المعرّف يكون الثاني عين الأوّل سواء كان المراد به الجنس أو العهد ، بخلاف المنكر إذا أعيد ، فإنه يراد بالثاني فرد مغاير لما أريد بالفرد الأوّل في الغالب ، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في معنى هذه الآية :

" لن يغلب عسر يسرين " قال الواحدي : وهذا قول النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والمفسرين على أن العسر واحد ، واليسر اثنان .

قال الزجاج : ذكر العسر مع الألف واللام ثم ثنى ذكره ، فصار المعنى : إن مع العسر يسرين .

قيل ، والتنكير في اليسر للتفخيم والتعظيم ، وهو في مصحف ابن مسعود غير مكرّر .

قرأ الجمهور بسكون السين في العسر ، واليسر في الموضعين .

وقرأ يحيى بن وثاب ، وأبو جعفر ، وعيسى بضمها في الجميع .

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصب ﴾ أي : إذا فرغت من صلاتك ، أو من التبليغ ، أو من الغزو ، فانصب ، أي : فاجتهد في الدعاء ، واطلب من الله حاجتك ، أو فانصب في العبادة .

والنصب : التعب .

يقال : نصب ينصب نصباً ، أي : تعب .

قال قتادة ، والضحاك ، ومقاتل ، والكلبي : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة ، فانصب إلى ربك في الدعاء ، وارغب إليه في المسألة يعطك ، وكذا قال مجاهد .

قال الشعبي : إذا فرغت من التشهد ، فادعو لدنياك وآخرتك ، وكذا قال الزهري .

وقال الكلبي أيضاً : إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب أي : استغفر لذنبك ، وللمؤمنين والمؤمنات .

وقال الحسن ، وقتادة : إذا فرغت من جهاد عدوّك ، فانصب لعبادة ربك .

وقال مجاهد أيضاً : إذا فرغت من دنياك ، فانصب في صلاتك ، ﴿ وإلى ربّكَ فارغب ﴾ قال الزجاج : أي : اجعل رغبتك إلى الله وحده .

قال عطاء : يريد أنه يضرع إليه راهباً من النار ، راغباً في الجنة .

(114/820)

والمعنى : أنه يرغب إليه سبحانه لا إلى غيره كائناً من كان ، فلا يطلب حاجاته إلاّ منه ، ولا يعوّل في جميع أموره إلاّ عليه .

قرأ الجمهور : ﴿ فارغب ﴾ وقرأ زيد بن عليّ ، وابن أبي عبلة : (فرغب) بتشديد الغين ، أي : فرغب الناس إلى الله ، وشوّقهم إلى ما عنده من الخير .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ قال : شرح الله صدره للإسلام .

وأخرج أبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الدلائل عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أتاني جبريل فقال : إن ربك يقول : تدري كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال :

إذا ذكرت ذكرت معي " وإسناد ابن جرير هكذا : حدّثني يونس أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد .

وأخرجه أبو يعلى من طريق ابن لهيعة عن دراج.

وأخرجه ابن أبي حاتم من طريق يونس بن عبد الأعلى به .

وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ الآية ، قال : لا يذكر الله إلاّ ذكر معه .

وأخرج البزار ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أنس قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم جالساً ، وحياله جحر ، فقال : " لو دخل العسر هذا الجحر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه " فأنزل الله : ﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ ﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْرا .

﴾ ولفظ الطبراني : "وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً * إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ " .

وأخرج ابن النجار عنه مرفوعاً نحوه .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عنه أيضاً مرفوعاً نحوه ، قال السيوطي ، وسنده ضعيف .

وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبي الدنيا في الصبر ، وابن المنذر ، والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود مرفوعاً : " لو كان العسر في جحر لتبعه اليسر حتى يدخل فيه ، فيخرجه ، ولن يغلب عسر يسرين إن الله يقول : ﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ " قال البزار : لا نعلم رواه عن أنس إلاّ عائذ بن شريح .

قال فيه أبو حاتم الرازي : في حديثه ضعف ، ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرّة عن رجل عن عبد الله بن مسعود .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، والحاكم ، والبيهقي عن الحسن قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فرحاً مسروراً وهو يضحك ، ويقول : " لن يغلب عسر يسرين ، ﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ " وهذا مرسل .

وروي نحوه مرفوعاً مرسلاً عن قتادة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فانصب ﴾ الآية قال : إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء ، واسأل الله ، وارغب إليه .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال الله لرسوله : إذا فرغت من الصلاة وتشهدت ، فانصب إلى ربك واسأله حاجتك .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر عن ابن مسعود : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصب ﴾ إلى الدعاء .

﴿ وإلى رَبِّكَ فارغب ﴾ في المسألة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصب ﴾ قال : إذا فرغت من الفرائض ، فانصب في قيام الليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 460 . 463 ﴾

(116/820)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً » .

العسر : الضيق ، والشدة . . واليسر : السعة والرخاء . .

وهكذا كان تدبير اللّه سبحانه وتعالى مع النبي الكريم ، بدأ أمره بالعسر والضيق ، ثم كانت عاقبة أمره إلى اليسر والسعة ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولى » ، وإنما الأمور بخواتيمها . . فما أجمل العافية بعد المرض ، وما أطيب الصحة بعد الاعتلال ، وما أهنأ الشبع بعد الجوع ، والرىّ بعد الظمأ ! ! وهكذا فى كل ما يسوء ويسر . . إذا جاءت المسرة بعد السوء ، عظم وقعها ، وجمل أثرها ، وعفّى على كل أثر للمساءة

والمضرة :

كأن الفتى لم يعر يوما إذا اكتسى ولم يك صعلوكا إذا ما تمولا !

وعكس هذا صحيح . . فإنه ما أثقل المرض بعد العافية ، والاعتلال بعد الصحة ، وما أقسى الجوع بعد الشبع ، والظمأ بعد الري . . وهكذا فى كل مساءة تعقب المسرة ، حيث يذهب بها كل شىء كان جميلا طيبا ، ثم لا يبقى إلا وجهها الكريه البغيض ، يؤلم ، ويورق ، ويعضنى . .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فالذين يمشون فى أول حياتهم على الشوك ، ويغسلون أجسادهم بعرق الكفاح والصبر ، يجنون أطيب الثمرات ، ويضعون أقدامهم على مواقع العزة والمجادة ،

ويتحلّون بحلل الكرامة والفخار . . أما الذين يستقبلون الحياة مستنيمين فى ظلها ، متجنبين الخواض فى غمراتها ، متخففين من حمل أعبائها وأثقالها ، فهيهات أن تسلمهم الحياة آخر الأمر إلى غير المهانة والضياع . .

تريدين إدراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من إبر النحل !

وهكذا الشأن فيما بين الدنيا والآخرة . . فمن حمل نفسه على المكروه فى الدنيا ، نزل منازل النعيم والرضوان فى الآخرة . . ومن وضع فمه فى ثدى الدنيا يرضع منها حتى يضع قدمه على طريق الآخرة . انقطع به مورد فطامه هناك ، وكان من الهالكين . .

وفى تكرار الآية ، بدون حرف عطف ، توكيد للخبر الذي ساقته ، وتقرير للحكم الذي قضت به . . « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً » .

يقول المفسّرون والبلاغيّون : إن المعرفة إذا كررت كانت هى هى ، وأن النكرة إذا كررت كان اللفظ الثاني غير الأول . . وهنا يقولون : إن كلمة « العسر » . وهى معرفة . هى عسر واحد بعينه فى الموضعين ، وأما كلمة « يسر » . وهى نكرة . فإنها يسر بعينه فى كل موضع ، ومن هنا قالوا « لن يغلب عسر يسرين » . يعنون بذلك أن العسر دائما يواجهه يسران ، وأنهما لا بد أن يقهراه ويغلباه ، ويأتون على هذا بحديث لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « لن يغلب عسر يسرين » .

هذا وجه يراه العلماء فى هذا التكرار . .

ووجه آخر ، نراه نحن . واللّه أعلم . وهو هذه المعيّة « مع » ، التي تحمل مع كل عسر يسرا مصاحبا له ، مندسّا فى كيانه . . « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً » . أي إن العسر . أىّ عسر . لا يلقى الإنسان إلا ومن محامله اليسر ، الذي يعمل على مقاومته ، ومصارعته حتى يقهره آخر الأمر ، ويتركه صريعا ، ليأخذ اليسر

مكانه، متمكنا، لا ينازعه عسر! هكذا الشدائد تتولّد منها دائما مواليد الخير، وتستنبت فى أرضها أطيب الثمرات، وأكرمها، وأهنؤها . .

وهناك سؤال: إذا كان مع العسر يسر، فهل العكس صحيح، وهو أن يكون مع اليسر عسر؟

وكلا . . فإن العسر رحمة من رحمة اللّه . . إنه من موارد الحق، والخير . .

وما كان كذلك كان صفوا من كل كدر، خالصا من كل سوء . . فاليسر لا يحمل فى كيانه أبدا شيئا ما يكدره . . إنه من العالم العلوي، أشبه بماء المطر، لا يخالطه شىء من الملح . . أما العسر فهو أشبه بالماء الملح، يحمل فى كيانه الماء العذب . .

اليسر جوهر، والعسر عرض! ومن هنا نجد مع كل عسر يسرا، ولا نجد مع كل يسر عسرا . . ومن هنا أيضا يلد العسر يسرا، ولا يلد اليسر إلا يسرا .

ومفهوم العسر واليسر هنا، هو المفهوم العالم المطلق لهما، لا المفهوم الذي يوزن بميزان شخصى، ويقوم على اعتبار فردى . . وهذا المفهوم المطلق ـ للعسر واليسر ـ إذا أمعنا النظر فيه، نجد أنه لا عسر أصلا، وأنه لا يدخل فى نظام الوجود العام، الذي ينتظم

الموجودات كلها، ويجعل منها جميعا نغما متسق الألحان . . «ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ» .

. (3 : الملك) وقوله تعالى : «فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ . وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ» .

هو تعقيب على قوله تعالى : «فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً» أي أنه إذا كان من شأن العسر أن يصحبه يسر، ومن شأن النّصب والتعب أن تعقبهما الراحة والرضا ، فجدير بك أيها النبي ـ كما هو جدير بكل إنسان ـ

(119/820)

أنك إذا فرغت من أي موقع من مواقع الكفاح، والجهاد ، فلا تركن إلى الراحة ، بل افتح جبهة جديدة للكفاح والجهاد ، فإنه بقدر ما يمتد بك هذا الطريق الشاق العسر ، بقدر ما تحصل من خير، وبقدر ما تبلغ من علو شأن ورفعة قدر . .

وقوله تعالى : «وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ» ـ إشارة إلى أن هذا الجهاد والكفاح، وما تحتمل فيه النفس من نصب وتعب ـ إنما يعطى هذا الثمر الطيب ، إذا كان متجهه إلى اللّه ، وكانت غايته مرضاة اللّه ، والرغبة فيما عنده . .

أما النصب والتعب فيما لا يراد به وجه اللّه ، والدار الآخرة، فهو عناء ، وبلاء .

إن النصب والتعب فى مغارس الحق والخير ، يزكو نباته ، ويطيب ثمره ، ويكثر خيره ، وأما النصب والتعب فى أودية التيه والضلال ، فذلك ما لا ينبت . إن كان له نبات . إلا الشوك والحسك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1609 . 1612 ﴾

(120/820)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) ﴾

الفاء فصيحة تفصح عن كلام مقدر يدل عليه الاستفهام التقريري هنا ، أي إذا علمت هذا وتقرر ، تعلَمُ أن اليسر مصاحب للعسر ، وإذ كان اليسر نقيض العسر كانت مصاحبةُ اليسر للعسر مقتضيةً نقضَ تأثير العسر ومبطلة لعمله ، فهو كناية رمزية عن إدراك العناية الإلهية به فيما سبق ، وتعريض بالوعد باستمرار ذلك في كل أحواله .

وسياق الكلام وعد للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن يُيَسر اللَّهُ له المصاعب كلّما عرضت له ، فاليسر لا يتخلف عن اللحاق بتلك المصاعب ، وذلك من خصائص كلمة ﴿ مع ﴾ الدالة على المصاحبة .

وكلمة ﴿ مع ﴾ هنا مستعملة في غير حقيقة معناها لأن العسر واليسر نقيضان

فمقارنتهما معاً مستحيلة ، فتعين أن المعيّة مستعارة لقرب حصول اليسر عقب حلول

العسر أو ظهور بوادره ، بقرينة استحالة المعنى الحقيقي للمعية .

وبذلك يندفع التعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى : ﴿ سيجعل اللَّه بعد عسر يسراً ﴾

في سورة الطلاق (7) .

فهذه الآية في عسر خاص يعرض للنبيء ، وآية سورة الطلاق عامة ، وللبعْدية فيها مراتب

متفاوتة .

فالتعريف في العسر ﴾ تعريف العهد ، أي العسر الذي عَهِدْتَه وعلمتَه وهو من قبيل ما

يسميه نحاة الكوفة بأن (ال) فيه عوض عن المضاف إليه نحو قوله تعالى : ﴿ فإن الجنة هي

المأوى ﴾ [النازعات : 41] أي فإن مع عُسرك يسراً ، فتكون السورة كلها مقصورة على

بيان كرامة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه تعالى .

وعد الله تعالى نبيئه صلى الله عليه وسلم بأن الله جعل الأمور العسرة عليه يسرة له وهو ما

سبق وعده له بقوله : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ [الأعلى : 8] .

وحرف ﴿ إنْ ﴾ للاهتمام بالخبر .

وإنما لم يستغن بها عن الفاء كما يقول الشيخ عبد القاهر : (إنّ) تغني غَناء فاء التسبب ،

لأن الفاء هنا أريد بها الفصيحة مع التسبب فلو اقتصر عَلى حرف (إنّ) لفات معنى الفصيحة.

(121/820)

وتنكير ﴿ يسراً ﴾ للتعظيم، أي مع العسر العارض لك تيسيرا عظيماً يغلب العسر ويجوز أن يكون هذا وعداً للنبيء صلى الله عليه وسلم ولأمته لأن ما يعرض له من عسر إنما يعرض له في شؤون دعوته للدين ولصالح المسلمين.

وروى ابن جرير عن يونس ومعمر عن الحَسَن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أبشروا أتاكم اليسر لن يغلب عسر يسرين" فاقتضى أن الآية غير خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم بل تعمّه وأمته.

وفي "الموطإ" "أن أبا عبيدة بن الجراح كتب إلى عمر بن الخطاب يَذْكُر له جموعاً من الروم وما يُتخوف منهم فكتب إليه عمر: "أما بعد فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجاً وإنه لن يغلب عسر يسرين".

وروى ابن أبي حاتم والبزار في "مُسنده" عن عائذِ بن شريح قال: سمعت أنس بن مالك

يقول : "كان النبي صلى الله عليه وسلم جالساً وحياله حَجَر ، فقال : لو جاء العسر فدخل هذا الحَجَر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيُخرجه فأنزل الله عز وجل : ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ .

قال البزار : لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح قال ابن كثير : وقد قال أبو حاتم الرازي : في حديث عائذ بن شريح ضعف .

وروى ابن جرير مثله عن ابن مسعود موقوفاً ، ويجوز أن تكون جملة : ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ معترضة بين جملة ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ [الشرح : 4] وجملة : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ [الشرح : 7] تنبيهاً على أن الله لطيف بعباده فقدر أن لا يخلو عسر من مخالطة يسر وأنه لولا ذلك لهلك الناس قال تعالى ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ [النحل : 61] .

وروي عن ابن عباس : يقول الله تعالى خلقت عسراً واحداً وخلقت يسرين ولن يغلب عسر يسرين اه .

والعسر : المشقة في تحصيل المرغوب والعملِ المقصود .

واليسر ضده وهو : سهولة تحصيل المرغوب وعدم التعب فيه .

وجملة : ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ مؤكدة لجملة : ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ وفائدة هذا التأكيد تحقيق اطراد هذا الوعد وتعميمه لأنه خبر عجيب .

ومن المفسرين من جعل اليسر في الجملة الأولى يسر الدنيا وفي الجملة الثانية يسر الآخرة وأسلوب الكلام العربي لا يساعد عليه لأنه متمحض لكون الثانية تأكيداً .

هذا وقول النبي صلى الله عليه وسلم "لن يغلب عسر يسرين" قد ارتبط لفظه ومعناه بهذه الآية .

وصُرح في بعض رواياته بأنه قرأ هذه الآية حينئذ وتضافر المفسّرون على انتزاع ذلك منها فوجب التعرض لذلك ، وشاع بين أهل العلم أن ذلك مستفاد من تعريف كلمة العسر وإعادتها معرفة ومن تنكير كلمة "يسر" وإعادتها منكّرة ، وقالوا : إن اللفظ النكرة إذا أعيد نكرة فالثاني غير الأول وإذا أعيد اللفظ معرفة فالثاني عين الأول كقوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول ﴾ [المزمل : 15 ، 16] .

وبناء كلامهم على قاعدة إعادة النكرة معرفة خطأ لأن تلك القاعدة في إعادة النكرة معرفة لا في إعادة المعرفة معرفة وهي خاصة بالتعريف بلام العهد دون لام الجنس ، وهي أيضاً في إعادة اللفظ في جملة أخرى والذي في الآية ليس بإعادة لفظ في كلام ثان بل هي تكرير للجملة الأولى ، فلا ينبغي الالتفات إلى هذا المأخذ ، وقد أبطله من قبل أبو علي الحسين

الجرجاني في كتاب "النظم" كما في "معالم التنزيل" .

وأبطله صاحب "الكشاف" أيضاً ، وجعل ابن هشام في "مغني اللبيب" تلك القاعدة خطأً .

والذي يظهر في تقرير معنى قوله : "لن يغلب عسر يسرين" أن جملة : ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ تأكيد لجملة ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ .

ومن المقرر أن المقصود من تأكيد الجملة في مثله هو تأكيد الحكم الذي تضمنه الخبر .

ولا شك أن الحكم المستفاد من هذه الجملة هو ثبوت التحاق اليسر بالعسر عند حصوله ، فكان التأكيد مفيداً ترجيح أثر اليسر على أثر العسر ، وذلك الترجيح عبر عنه بصيغة التثنية في قوله : "يسرين" ، فالتثنية هنا كناية رمزية عن التغلب والرجحان فإن التثنية قد يكنى بها عن التكرير المراد منه التكثير كما في قوله تعالى : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ [الملك : 4] أي ارجع البصر كثيراً لأن البصر لا ينقلب حسيراً من رَجعتين .

ومن ذلك قول العرب : لَبَّيْك ، وسَعْدَيك ، ودَوَاليك" والتكرير يستلزم قوة الشيء المكرر

فكانت القوة لازِم لازمِ التثنية وإذا تعددت اللوازم كانت الكناية رمزية .

وليس ذلك مستفاداً من تعريف ﴿ العسر ﴾ باللام ولا من تنكير "اليسر" وإعادته منكراً .

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7)

تفريع على ما تقرر من التذكير باللطف والعناية ووعده وبتيسير ما هو عسير عليه في طاعته التي أعظمها تبليغ الرسالة دون مَلَل ولا ضجر .

والفراغ : خلو باطن الظرف أو الإِناء لأن شأنه أن يظرف فيه .

وفعل فرغ يفيد أن فاعله كان مملوءاً بشيء ، وفراغ الإِنسان .

مجاز في إتمامه ما شأنه أن يعمله .

ولم يذكر هنا متعلق ﴿ فرغت ﴾ وسياق الكلام يقتضي أنه لازم أعمال يعلمها الرسول صلى الله عليه وسلم كما أن مساق السورة في تيسير مصاعب الدعوة وما يحف بها .

فالمعنى إذا أتممت عملاً من مهام الأعمال فأقبل على عمل آخر بحيث يعمر أوقاته كلها بالأعمال العظيمة .

ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند قفوله من إحدى غزواته : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " فالمقصود بالأمر هو ﴿ فانصب ﴾ .

وأما قوله : ﴿ فإذا فرغت ﴾ فتمهيد وإفادة لإِيلاءِ العمل بعملٍ آخر في تقرير الدين ونفع

الأمة .

وهذا من صيغ الدلالة على تعاقب الأعمال .

ومثله قول القائل : ما تأتيني من فلان صلة إلا أعقبْتها أخرى .

(124/820)

واختلفت أقوال المفسرين من السلف في تعيين المفروغ منه ، وإنما هو اختلاف في الأمثلة فحذفُ المتعلِق هنا لقصد العموم وهو عموم عرفي لنوع من الأعمال التي دل عليها السياق ليشمل كل متعلق عمله مما هو مهم كما علمت وهو أعلم بتقديم بعض الأعمال على بعض إذا لم يمكن اجتماع كثير منها بقدر الإِمكان كما أقر الله بأداء الصلاة مع الشغل بالجهاد بقوله : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك إلى قوله : كتاباً موقوتاً ﴾ في سورة النساء (102 ، 103) .

وهذا الحكم ينسحب على كل عمل ممكن من أعماله الخاصة به مثل قيام الليل والجهاد عند تقوي المسلمين وتدبير أمور الأمة .

وتقديم فإذا فرغت ﴾ على ﴿ فانصب ﴾ للاهتمام بتعليق العمل بوقت الفراغ من غيره لتعاقب الأعمال .

وهذه الآية من جوامع الكلم القرآنية لما احتوت عليه من كثرة المعاني .

وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

عُطِفَ على تفريع الأمر بالشكر على النعم أمر بطلب استمرار نعم الله تعالى عليه كما قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [إبراهيم : 7] .

والرغبة : طلب حصول ما هو محبوب وأصله أن يعدى إلى المطلوب منه بنفسه ويعدى إلى الشيء المطلوب بـ (في) .

ويقال : رغب عن كذا بمعنى صرَف رغبتَهُ عنه بأن رغب في غيره وجُعل منه قوله تعالى : ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾ [النساء : 127] بتقدير حرف الجر المحذوف قبل حرف (أنْ) هو حرف (عَن) .

وذلك تأويل عائشة أم المؤمنين كما تقدم في سورة النساء .

وأما تعدية فعل ﴿ فارغب ﴾ هنا بحرف ﴿ إلى ﴾ فلتضمينه معنى الإِقبال والتوجه تشبيهاً بسير السائر إلى من عنده حاجته كما قال تعالى عن إبراهيم : ﴿ وقال إني ذاهب إلى ربي ﴾ [الصافات : 99] .

وتقديم إلى ﴿ ربك ﴾ على ﴿ فارغب ﴾ لإِفادة الاختصاص ، أي إليه لا إلى غيره تكون رغبتك فإن صفة الرسالة أعظم صفات الخلق فلا يليق بصاحبها أن يرغب غير الله تعالى .

وحُذف مفعول "ارغب" ليعم كل ما يرغبه النبي صلى الله عليه وسلم وهل يرغب النبي إلا في الكمال النفساني وانتشار الدين ونصر المسلمين .

واعلم أن الفاء في قوله : ﴿ فانصب ﴾ [الشرح : 7] وقوله : ﴿ فارغب ﴾ رابطة للفعل لأن تقديم المعمول يتضمن معنى الاشتراط والتقييد فإن تقديم المعمول لما أفاد الاختصاص نشأ منه معنى الاشتراط ، وهو كثير في الكلام قال تعالى : ﴿ بل الله فاعبد ﴾ [الزمر : 66] وقال : ﴿ وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ﴾ [المدثر : 3 5] ، وفي تقديم المجرور قال تعالى : ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [المطففين : 26] وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمَن سأل منه أن يَخرج للجهاد : " أَلَكَ أبوان ؟ قال : نعم : فقال ففيهما فجاهد " .

بل قد يعامل معاملة الشرط في الإعراب كما روي قول النبي صلى الله عليه وسلم "كما تَكونُوا يُولَّ عليكم " بجزم الفعلين ، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ في سورة يونس (58) .

وذكر الطيبي عن "أمالي السيد " (يَعني ابنَ الشَجَري " أن اجتماع الفاء والواو هنا من

أعجب كلامهم لأن الفاء تعطف أو تدخل في الجواب وما أشبَهَ الجوابَ بالاسم الناقص ، أو في صلة الموصول الفعلية (لشبهها بالجواب) ، وهي هنا خارجة عما وضعت له ا ه.

ولا يبقى تعجب بعد ما قررناه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(126/820)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ قال : شرح الله صدره للإسلام.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ قال : ملىء حلماً وعلماً ﴿ ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ﴾ قال : الذي أثقل الحمل ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ قال : إذا ذكرتُ ذكرت معي.

وأخرج البيهقي في الدلائل عن إبراهيم بن طهمان قال : سألت سعداً عن قوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ فحدثني به عن قتادة عن أنس قال : شق بطنه من عند صدره إلى

أسفل بطنه فاستخرج من قلبه ، فغسل في طست من ذهب ، ثم ملئ إيماناً وحكمة ، ثم أعيد مكانه .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبيّ بن كعب أن أبا هريرة قال : يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوّة ؟ فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً وقال : " لقد سألت أبا هريرة إني لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهراً إذا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط وأرواح لم أجدها في خلق قط وثياب لم أجدها على أحد قط ، فأقبلا إليّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي لا أجد لأخذهما مسّاً فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه . فأضجعني بلا قصر ولا هصر ، فقال أحدهما : افلق صدره فخوّى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له : أخرج الغل والحسد . فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ، ثم نبذها ، فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الذي أخرج شبه الفضة ، ثم هز ابهام رجلي اليمنى . وقال : اغدوا سلم ، فرجعت بها أغدو بها رقة على الصغير ورحمة للكبير " .

وأخرج أحمد عن عتبة بن عبد السلمي " أن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟ قال : "كانت حاضنتي بنت سعد بن بكر " ."

أخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ قال : ذنبك ﴿ الذي أنقض ظهرك ﴾ قال : أثقل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن شريح بن عبيد الحضرمي ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ قال : وغفرنا لك ذنبك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : في قراءة عبد الله " وحللنا عنك وقرك " .

أخرج الشافعي في الرسالة وعبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن مجاهد في قوله : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ قال : لا أذكر إلا ذكرت معي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن قتادة ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ قال : رفع الله ذكره في الدنيا والأخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

وأخرج سعيد بن منصور وابن عساكر وابن المنذر عن محمد بن كعب في الآية قال : إذا ذكر الله ذكر معه أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ قال : إذا ذكرت ذكرت معي ولا تجوز خطبة ولا نكاح إلا بذكرك معي .

وأخرج ابن عساكر عن الحسن في قوله : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ قال : ألا ترى أن الله لا يذكر في موضع إلا ذكر معه نبيه .

وأخرج البيهقي في سننه عن الحسن ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ قال : إذا ذكر الله ذكر رسوله .

وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أتاني جبريل فقال : إن ربك يقول : تدري كيف رفعت ذكرك ؟ قلت : الله أعلم . قال : إذا ذكرت ذكرت معي " .

(128/820)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عدي بن ثابت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " سألت ربي مسألة وددت أني لم أكن سألته . قلت : أي رب اتخذت إبراهيم خليلاً ، وكلمت موسى تكليماً . قال : يا محمد ألم أجدك يتيماً فآويت ، وضالاً فهديت ، وعائلاً فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك فلا أذكر إلا ذكرت معي واتخذتك خليلاً ؟ " .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما فرغت من أمر السموات والأرض قلت يا رب : إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كرّمته ، اتخذت إبراهيم خليلاً ، وموسى كليماً ، وسخرت لداود الجبال ولسليمان الريح والشياطين ، وأحييت لعيسى الموتى ، فما جعلت لي ؟ قال : أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله ؟ أن لا أذكر إلا ذكرت معي ، وجعلت صدور أمتك أناجيل يقرؤون القرآن ظاهراً ، ولم أعطها أمة ، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي : لا حول ولا قوّة إلا بالله " .

وأخرج ابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ قال : لا يذكر الله إلا ذكرت معه .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ قال : اتبع العسر يسراً .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة في قوله : ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر بهذه الآية أصحابه فقال : " لن يغلب عسر يسرين " .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ابشروا أتاكم اليسر ، لن يغلب عسر يسرين " .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : " بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن ثلثمائة أو يزيدون ، علينا أبو عبيدة بن الجراح ، ليس معنا من الحمولة إلا ما نركب فزوّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم جرابين من تمر ، فقال بعضنا لبعض : قد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أين تريدون وقد علمتم ما معكم من الزاد ، فلو رجعتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألتموه أن يزوّدكم ، فرجعنا إليه ، فقال : إني قد عرفت الذي جئتم له ، ولو كان عندي غير الذي زوّدتكم لزوّدتكموه . فانصرفنا ، ونزلت ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسرا ﴾ فأرسل نبي الله إلى بعضنا ، فدعاه ، فقال : أبشروا فإن الله قد أوحى إليّ ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ وإن يغلب عسر يسرين " .

وأخرج البزار وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً وحياله حجر ، فقال : " لو جاء العسر فدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه ، فأنزل الله ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ ولفظ الطبراني : وتلا رسول الله صلى

الله عليه وسلم ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ " .

وأخرج ابن النجار من طريق حميد بن حماد عن عائذ عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قاعداً ببقيع الفرقد ، فنزل إلى حائط فقال : "يا معشر من حضر والله لو كانت العسر جاءت تدخل الحجر لجاءت اليسر حتى تخرجها ، فأنزل الله ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو كان العسر في حجر لدخل عليه اليسر حتى يخرجه ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ " .

(130/820)

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الصبر وابن المنذر والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : لو كان العسر في حجر لتبعه اليسر حتى يدخل عليه ليخرجه ، ولن يغلب عسر يسرين ، إن الله يقول : ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير والحاكم والبيهقي عن الحسن قال : خرج النبي صلى الله

عليه وسلم يوماً فرحاً مسروراً ، وهو يضحك ويقول : " لن يغلب عسر يسرين ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ﴾ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : كانوا يقولون لا يغلب عسر واحد يسرين اثنين .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس في قوله : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ الآية قال : إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء ، واسأل الله وارغب إليه .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ الآية ، قال : قال الله لرسوله : إذا فرغت من صلاتك وتشهدت فانصب إلى ربك واسأله حاجتك .

وأخرج ابن أبي الدنيا في الذكر عن ابن مسعود ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ إلى الدعاء ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ في المسألة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك قال : كان ابن مسعود يقول : أيما رجل أحدث في آخر صلاته ، فقد تمت صلاته ، وذلك قوله : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ قال : فراغك من الركوع والسجود ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ قال : في المسألة وأنت جالس .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ قال : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ فإذا فرغت

فانصب ﴾ قال : إذا جلست فاجتهد في الدعاء والمسألة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن نصر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ قال : إذا فرغت من أسباب نفسك فصل ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ قال : اجعل رغبتك إلى ربك .

(131/820)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ قال : إذا فرغت من صلاتك فانصب في الدعاء .

وأخرج عبد بن حميد وابن نصر عن الضحاك ﴿ فإذا فرغت ﴾ قال : من الصلاة المكتوبة ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ قال : في المسألة والدعاء .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب ﴾ قال : أمره إذا فرغ من الصلاة أن يرغب في الدعاء إلى ربه ، وقال الحسن : أمره إذا فرغ من غزوه أن يجتهد في العبادة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ قال : إذا فرغت من الجهاد فتعبد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 547 . 551 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

هو معطوف على قوله ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوى ﴾ [الضحى : 6] وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " سَأَلْتُ رَبِّي مَسْأَلَةً ، وَوَدَدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهَا قَطُّ ، فَقُلْتُ : اتَّخَذْتَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ، وَكَلَّمْتَ مُوسَى تَكْلِيماً .

فَقَالَ اللهُ تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فاوى ﴾ قُلْتُ : بَلَى قال : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى ﴾ [الضحى : 7] قُلْتُ : بَلَى قال ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فأغنى ﴾ [الضحى : 8] قُلْتُ : بَلَى .

قال ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ " الآية .

وروي عن بعض المتقدمين أنه قال : سورة التوبة والأنفال ، بمنزلة سورة واحدة ، وسورة ألم نشرح لك والضحى بمنزلة سورة واحدة ، وسورة لإيلاف قريش وألم تر كيف فعل ربك ، بمنزلة سورة واحدة .

قال ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يعني : ألم نوسع قلبك بالتوحيد والإيمان ، وهذا قول مقاتل .

وقال الكلبي : أتاه جبريل فشرح صدره ، حتى أبدى قلبه ، ثم جاء بدلو من ماء زمزم ، فغسله وأنقاه مما فيه ، ثم جاء بطشت من ذهب ، قد ملىء علماً وإيماناً ، فوضعه فيه .

ويقال الانشراح للعلم ، حتى علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان مؤمناً من وقت الميثاق ، فشق صدره على جهة المثل ، فيعبر به عنه .

ويقال ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ يعني : ألم نلين قلبك بقبول الوحي ، وحب الخيرات .

ويقال : معناه ، ألم نطهر لك قلبك ، حتى لا يؤذيك الوسواس ، كسائر الناس .

ويقال : معناه ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ يعني : نوسع لك قلبك بالعلم ، كقوله وعلمك مما لم تكن تعلم .

(133/820)

ثم قال : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ يعني : غفرنا لك ذنبك ، كقوله ﴿ لِّيَغْفِرَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] ويقال : غفرنا لك ذنبك ، وذلك بترك الاستثناء

ويقال : معنى ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ يعني : عصمناك من الذنوب ﴿ الذى أَنقَضَ

ظَهْرَكَ ﴾ لو لم يعصمك الله ، لأثقل ظهرك ، ويقال : معناه أخرجنا من قلبك الأخلاق السيئة ، وطبائع السوء ﴿ الذى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ يعني : التي لو لم ننزعها عن قلبك ، لأثقل عليك حمل النبوة والرسالة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ يعني : في التأذين والخطب ، حتى لا أذكر إلا وذكرت معي ، يعني : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في كل يوم خمس مرات ، في الأذان والإقامة .

قال تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ يعني : مع الشدة سعة ، يعني : بعد الشدة سعة في الدنيا .

ويقال : بعد شدة الدنيا سعة في الآخرة ، يعني : إذا احتمل المشقة في الدنيا ، ينال الجنة في الآخرة .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ على وجه التأكيد .

وروي عن ابن عباس ، أنه قال : لا يغلب العُسْرُ يُسْرَيْنِ .

وروى مبارك بن فضالة ، عن الحسن أنه قال : كانوا يقولون : لا يغلب عسرٌ واحد يُسْرَين ، فقال ابن مسعود رضي الله عنه : لو كان العسر في حُجر ، جاء اليسر حتى يدخل عليه ، لأنه قال تعالى ﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ ويقال : إن مع العسر وهو إخراج أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ يُسْراً ﴾ ، وهو دخوله يوم فتح مكة ، مع عشرة آلاف رجل في عز

وشرف.

ثم قال عز وجل: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فانصب ﴾ يعني: إذا فرغت من الجهاد، فاجتهد في العبادة ﴿ وإلى ربّكَ فارغب ﴾ يعني: اطلب المسألة إليه.

قال قتادة: فإذا فرغت من الصلاة، فانصب في الدعاء.

(134/820)

هكذا قال الضحاك، وقال مجاهد، ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من اشتغال نفسك ﴿ فانصب ﴾ يعني: فصَلِّ ويقال ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من الفرائض فانصب في الفضائل، فيقال ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من الصلاة، فانصب نفسك للدعاء والمسألة، ﴿ وإلى ربّكَ فارغب ﴾ يعني: إلى الله فارغب في الدعاء، برفع حوائجك إليه، والله أعلم وأحكم بالصواب.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 569. 570 ﴾

(135/820)

وقال الثعلبى :

سورة الشرح

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ألم نفتح ونوسّع ونليّن لك قلبك بالإيمان والنبوّة والعلم والحكمة .

﴿ وَوَضَعْنَا ﴾ وحططنا ﴿ عَنكَ وِزْرَكَ * الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أثقل ظهرك فأوهنه ، ومنه قيل للبعير إذا كان رجيع سفر قد أوهنه وأنضاه : نقض . وقال الفرّاء : كسر ظهرك حين سمع نقيضه : أي صوته ، قال الحسن وقتادة والضحّاك : يعني ما سلف منه في الجاهلية ، وقال الحسين بن الفضل : يعني الخطأ والسهو ، وقيل : ذنوب أُمتك فأضافها إليه لاشتغال قلبه بها وإهتمامه لها ، وقال عبد العزيز بن يحيى وأبو عبيدة : يعني خفّفنا عليك أعباء النبوة والقيام بأمرها ، وقيل : وعصمناك عن احتمال الوزر .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ أخبرنا عبد الخالق بقراءتي عليه قال : حدّثنا ابن جنب قال : حدّثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل قال : حدّثنا صفوان يعني ابن صالح الثقفي أبو عبد الملك قال : حدّثنا الوليد يعني ابن مسلم قال : حدّثني عبد الله بن لهيعة ، عن دراج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد الخدري ، " عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبرائيل عن هذه الآية ورفعنا لك ذكرك ، قال : " قال الله سبحانه : إذا ذكرتُ ، ذكرتَ معي " .

وحدّثنا أبو سعيد عبد الملك بن أبي عثمان الواعظ قال : حدّثنا إسماعيل بن أحمد

الجرجاني قال : أخبرنا عمران بن موسى قال : حدّثنا أبو معمر قال : حدّثنا عباد ، عن عوف ، عن الحسن في قوله ورفعنا لك ذكرك ، قال : إذا ذكرتُ ذكرتَ معي ، وقال قتادة : يرفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلاّ ينادي بها : أشهد ان لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله ، وقال مجاهد : يعني بالتأذين ، وفيه يقول حسان بن ثابت يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :

أغرّ عليه للنبوةِ خاتم . . . من الله مشهورٌ يلوح ويشهدُ

وضمَّ الإله اسم النبي الى اسمه . . . إذا قال في الخمس المؤذّنِ أشهد

(136/820)

وقال ابن عطاء : يعني جعلت تمام الإيمان بي بذكرك ، وقيل : ورفعنا لك ذكرك عند الملائكة في السماء ، وقيل : بأخذ ميثاقه على النبيين وإلزامهم الإيمان به والإقرار بفضله ، وقال ذو النون : همم الأنبياء تجول حول العرش وهمّة محمد صلى الله عليه وسلم فوق العرش ، لذلك قال : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ، فذكره ذكره ، ومفزع الخلق يوم القيامة إلى محمد صلى الله عليه وسلم كمفزعهم إلى الله ، لعلمهم بجاهه عنده .

﴿ فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْرًا ﴾ أي مع الشدّة التي أنت فيها من جهاد المشركين ، ومزاولة ما أنت

بسبيله يسراً ورخاءً بأن يظهرك عليهم ، حتى ينقادوا للحق الذي جئتهم به طوعاً وكرها .

﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْرًا ﴾ كرّره لتأكيد الوعد وتعظيم الرجاء ، وقيل : فإن مع العسر يسراً : في الدنيا ، إن مع العسر يسراً : في الآخرة .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال أخبرنا أحمد بن عبد الله قال : حدّثنا محمد بن عبد الله قال : حدّثنا عثمان قال : حدّثنا ابن عليّة ، عن يونس ، عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ابشروا فقد جاءكم اليسر لن يغلب عُسْرٌ يُسرَين " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا عمر بن الخطاب قال : حدّثنا علي بن مرداراد الخياط قال : حدّثنا قطن بن بشير قال : حدّثنا جعفر بن سليمان ، عن رجل ، عن إبراهيم النخعي قال : قال ابن مسعود : والذي نفسي بيده ، لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، إنّه لن يغلب عسرٌ يسرين ، إنّه لن يغلب عسر يسرين .

قال العلماء في معنى هذا الحديث : لأنه عرّف العسر ونكّر اليسر ، ومن عادة العرب إذا ذكرت اسماً معرفة ثم أعادته فهو هو ، وإذا نكّرته ثم كررته فهما اثنان ، وقال الحسن بن

يحيى بن نصر الجرجاني صاحب كتاب [النظم] وهو يكلم الناس في قوله (عليه السلام) : " لن يغلب عسر يسرين " فلم يحصل غير قولهم : إن العسر معرفة واليسر نكرة مكررة ، فوجب أن يكون [عسر] واحد ويسران ، وهذا قول مدخول [إذ] لا يجب على هذا التدريج إذا قال الرجل : إنّ مع الفارس سيفاً إنّ مع الفارس سيفاً أن يكون الفارس واحداً والسيف اثنين ، ولا يصح هذا في نظم العربية .

فمجاز قوله : " لن يغلب عسر يسرين " إن الله بعث نبيّه (عليه السلام) مقلاّ مخففاً فعيّره المشركون لفقره ، حتى قالوا أنجمع لك مالا ؟ فاغتمّ ، فظنّ أنهم كذّبوه لفقره ، فعزّاه الله سبحانه وتعالى وعدد عليه نعماءه ووعده الغنى فقال : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ إلى قوله ﴿ ذِكْرَكَ ﴾ ، فهذا ذكر امتنانه عليه ، ثم ابتدأ ما وعده من الغنى ليسلّبه مما خامر قلبه ، فقال ﴿ فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْرًا ﴾ ، والدليل عليه دخول الفاء في قوله (فإنّ) ولا يدخل الفاء أبداً إلاّ في عطف أو جواب .

ومجازه : لا يحزنك ما يقولون فان مع العسر يسراً في الدنيا عاجلا ، ثم أنجزه ما وعده وفتح عليه القرى العربية ، ووسّع ذات يده ، حتى يهب المائتين من الإبل ، ثم ابتدأ فضلا آخر من

الآخرة فقال تأسيةً له : ﴿ إِنَّ مَعَ العسرِ يُسْرًا ﴾ ، والدليل على ابتدائه تعرّيه من الفاء والواو وحروف النسق فهذا عام لجميع المؤمنين ، ومجازه : إنّ مع العسر في الدنيا للمؤمنين يسراً في الآخرة لا محالة ، فقوله : " لن يغلب عسر يسرين " أي لن يغلب عسر الدنيا اليسر الذي وعد الله المؤمنين في الدنيا ، واليسر الذي وعدهم في الآخرة ، إنما يُغلب أحدهما وهو يسر الدنيا ، فأمّا يسر الآخرة فدائم غير زايل ؛ اي لا يجمعهما في الغلبة ، كقوله (عليه السلام) : " شهرا عيد لا ينقصان "

اي لا يجتمعان في النقصان .

وقال أبو بكر الوراق : مع [أختها] بالدنيا جزاء الجنة ، قال القاسم : [بردا هذه السعادة من أسحار] الدنيا إلى رضوان العقبى ، وقراءة العامة بتخفيف السينين ، وقرأ أبو جعفر وعيسى ، بضمهما ، وفي حرف عبد الله : إنّ مع العسر يسراً ، مرة واحدة غير مكررة .

(139/820)

أخبرني أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد الرجاري وأبو الحسن علي بن محمد ابن محمد البغدادي قالا : حدّثنا محمد بن يعقوب الأصم قال : حدّثنا أحمد بن شيبان الرملي قال : حدّثنا عبد الله بن ميمون القداح قال : حدّثنا شهاب بن خراش ، عن عبد الملك بن

عمير ، " عن ابن عباس قال : أُهدي للنبي صلى الله عليه وسلم بغلة ، أهداها له كسرى فركبها بحبل من شعر ، ثم أردفني خلفه ، ثم سار بي مليّاً ، ثم التفت الي فقال لي : " يا غلام " ، قلت : لبيك يا رسول الله ، قال : " احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرّف الى الله في الرخاء يعرفك في الشدّة ، وإذا سألتَ فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد مضى القلم بما هو كائن ، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقضه الله لك ، لما قدروا عليه ، ولو جهدوا أن يضرّوك بما لم يكتبه الله عليك ما قدروا عليه ، فإن استطعت أن تعمل بالصبر مع اليقين فافعل ، فإنّ لم تستطع فاصبر ، فإنّ في الصبر على ما يُكره خيراً كثيراً ، واعلم أنّ مع الصبر النصر ، وأنّ مع الكرب الفرج و ﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ " .

وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمد بن الحسن النيسابوري يقول : سمعت أبا علي محمد ابن عامر البغدادي يقول : سمعت عبد العزيز بن يحيى يقول : سمعت عمي يقول : سمعت العتبي يقول : كنت ذات يوم في البادية بحالة من الغم فأُلقي في روعي بيت شعر فقلت :

أرى الموت لن أصبح ولاح . . . مغموماً له أروح

فلمّا جنّ الليل سمعت هاتفاً يهتف ، من الهواء :

ألا يا أيها المرءُ ال . . . ذي الهمُّ به برّح

وقد أنشد بيتاً لم . . . يزل في فكره يسنح

إذا اشتدّ بك العسر . . . ففكّرْ في ألمْ نشرح

فعسرٌ بين يسرين . . . إذا فكّرتها فافرح

قال : فحفظت الأبيات ، وفرّج الله غمّي .

وأنشدنا أبو القاسم الحبيبي قال : أنشدنا أبو محمد أحمد بن محمد بن إسحاق الجيزنجي قال

: أنشدنا إسحاق بن بهلول القاضي :

(140/820)

فلا تيأسْ وإن أُعسرت يوماً . . . فقد أُيسرت في دهر طويلِ

ولا تظننّ بربك ظنّ سوء . . . فإنّ الله أولى بالجميل

فإنّ العسرَ يتبعه يسارٌ . . . وقول الله أصدق كلِّ قيل

وأنشدني أبو القاسم الحبيبي قال : أنشدني محمد بن سليمان بن معاد الكرخي قال :

أنشدنا أبو بكر الأنباري :

إذا بلغ العسر مجهوده . . . فثق عند ذاك بيسر سريع

ألم تر نحس الشتاء القطيع . . . يتلوه سعد الربيع البديع

ولزيد بن محمد العلوي :

إن يكنْ نالك الزمان ببلوى . . . عظمت شدّةً عليك وجلّتْ

وتلتها قوارع باكيات . . . سئمت دونها الحياة وملّت

فاصطبر وانتظر بلوغ مداها . . . فالرزايا إذا توالت تولّت

وإذا أوهنت قواك وحلّت . . . كُشفتْ عنك جملة فتخلّت

وقال آخر :

إذا الحادثات بلغن المدى . . . وكادت تذوب لهنّ المهجْ

وحلّ البلاء وقلّ الرجاء . . . فعند التناهي يكون الفرجْ

وأنشدني أبو القاسم الحسن بن محمد السلوسي قال : أنشدني أبو الحسن عيسى بن زيد العقيلي النسابة قال : أنشدني سليمان بن أحمد الرقي :

توقع إذا ما عرتك الخطوب . . . سروراً (يسيّرها) عنك قسراً

ترى الله يخلف ميعاده . . . وقد قال : إنّ مع العسر يُسراً

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فانصب ﴾ قال ابن عباس : إذا فرغت من صلاتك فانصب إلى ربّك في الدعاء ، واسأله حاجتك وارغب اليه . ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك إلى ربّك . الضحّاك : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب إلى ربّك في الدعاء ، وأنت جالس قبل أن تسلم . قتادة : أمره أن يبالغ في دعائه إذا فرغ من صلاته . عن الحسن : إذا فرغت من جهاد عدوك ، فانصب في عبادة ربّك . عن زيد بن أسلم : إذا

فرغت من جهاد العرب وانقطع جهادهم ، فانصب لعبادة الله وإليه فارغب . عن منصور ، عن مجاهد : إذا فرغت من أمر الدنيا فانصب في عبادة ربّك وصلِّ .

(141/820)

وأخبرنا محمد بن عبوس قال : حدّثنا محمد بن يعقوب قال : حدّثنا محمد بن الحميم قال : حدّثني الفراء قال : حدّثني قيس بن الربيع ، عن أبي حصين قال : مرّ شريح برجلين يصطرعان فقال : ليس بهذا أُمر الفارغ ، إنما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فانصب * وإلى رِبّكَ فارغب ﴾ . قال الفراء : فكأنّه في قول شريح : إذا فرغ الفارغ من الصلاة أو غيرها .

وقوله ﴿ فانصب ﴾ من النصب ، وهو التعب والدأب في العمل ، وقيل : أمره بالقعود للتشهد إذا فرغ من الصلاة والانتصاب للدعاء . عن حيان ، عن الكلبي : إذا فرغت من تبليغ الرسالة ، فانصب : أي استغفر لذنبك وللمؤمنين . عن جنيد : فإذا فرغت من أمر الخلق ، فاجتهد في عبادة الحق . عن أبو العباس بن عطاء : فإذا فرغت من تبليغ الوحي ، فانصب في طلب الشفاعة .

﴿ وإلى رِبّكَ فارغب ﴾ في جميع أحوالك [لا] إلى سواه ، وقيل : إذا فرغت من أشغال

الدنيا ، ففرّغ قلبك لهموم العقبى . عن جعفر : اذكر ربّك على فراغ منك عن كل ما دونه ، وقيل : إذا فرغت من العبادة ، فانصب إلى الإعراض عنها مخافة ردّها عليك ، وإلى ربّك فارغب ، والاستغفار لعملك كالخجل المستحيي .

أخبرنا الشيخ أبو الفضل محمد بن جعفر الخزاعي المقري قال : حدّثنا أبو محمد عبد الله ابن محمد المزني قال : حدّثنا الوليد بن بيان ويحيى بن محمد بن صاعد ومحمد بن أحمد السطوي قال : حدّثنا ابن أبي برة قال : حدّثنا عكرمة بن سليمان قال : قرأت على إسماعيل بن عبد الله ، فلمّا بلغت إلى والضحى قال : كبّر حتى نختم مع خاتمة كل سورة ، فإني قرأت على شبل بن عباد وعلي بن عبد الله بن كثير ، فأمراني بذلك .

(142/820)

قال : وأخبرني عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد ، فأمره بذلك ، وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس ، فأمره بذلك وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أُبي بن كعب ، فأمره بذلك ، وأخبره أُبيّ بن كعب أنه قرأ على النبي (صلى الله عليه وآله) ، فأمره بذلك . انتهى .

ا هـ ﴿ الكشف والبيان جـ 10 صـ 232. 237 ﴾

(143/820)

وقال الزمخشرى :

سورة الشرح

مكية ، وآياتها 8 «نزلت بعد الضحى» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الشرح (94) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ (4)

استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار ، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه ، فكأنه قيل : شرحنا لك صدرك ، ولذلك عطف عليه : وضعنا : اعتبارا للمعنى . ومعنى : شرحنا صدرك :

فسحناه حتى وسع عموم النبوّة ودعوة الثقلين جميعا . أو حتى احتمل المكاره التي يتعرض «1» لك بها كفار قومك وغيرهم : أو فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم ، وأزلنا عنه الضيق والحرج الذي يكون مع العمى والجهل . وعن الحسن : مليء حكمة وعلما . وعن أبى جعفر المنصور أنه قرأ : ألم نشرح لك ، بفتح الحاء . وقالوا : لعله بين الحاء وأشبعها في مخرجها ، فظنّ السامع أنه فتحها ، والوزر الذي أنقض ظهره - أى حمله على النقيض وهو

صوت الانتقاض والانفكاك لثقله – مثل لما كان يثقل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويغمه من فرطاته قبل النبوّة. أو من جهله بالأحكام والشرائع. أو من تهالكه على إسلام أولى العناد من قومه وتلهفه. ووضعه عنه: أن غفر له، أو علم الشرائع، أو مهد عذره بعد ما بلغ وبلغ. وقرأ أنس:

وحللنا، وحططنا. وقرأ ابن مسعود: وحللنا عنك وقرك. ورفع ذكره: أن قرن بذكر اللّه في كلمة الشهادة والأذان والإقامة والتشهد والخطب، وفي غير موضع من القرآن وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ، وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وفي تسميته رسول اللّه ونبى اللّه، ومنه ذكره في كتب الأولين، والأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به. فإن قلت: أى فائدة في زيادة لك، والمعنى مستقل بدونه «2»؟ قلت: في زيادة لك ما في طريقة

---

(1). قوله «المكاره التي يتعرض لك» لعله تعرض بصيغة الماضي. (ع)

(2). قال محمود: «إن قلت ما قائدة لك مع أن الاضافة تغنى عنها... الخ»؟ قال أحمد: وقد تقدم عند الكلام على نظيرها في قوله: «قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمرى» قريب من هذا المعنى، واللّه أعلم.

الإبهام والإيضاح ، كأنه قيل : ألم نشرح لك ، ففهم أن ثم مشروحا ، ثم قيل : صدرك ، فأوضح ما علم مبهما ، وكذلك لَكَ ذِكْرَكَ وعَنْكَ وِزْرَكَ .

[سورة الشرح (94) : الآيات 5 إلى 6]

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (6)

فإن قلت : كيف تعلق قوله فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً بما قبله ؟ قلت : كان المشركون يعيرون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين بالفقر والضيقة ، حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم ، فذكره ما أنعم به عليه من جلائل النعم ثم قال :

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً كأنه قال : خوّلناك ما خولناك فلا تيأس من فضل اللّه ، فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسرا . فإن قلت : إِنَّ مَعَ للصحبة ، فما معنى اصطحاب اليسر والعسر ؟ قلت :

أراد أن اللّه يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب ، فقرّب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر ، زيادة في التسلية وتقوية القلوب . فإن قلت : ما معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضى اللّه عنهما : لن يغلب عسر يسرين «1» وقد روى مرفوعا أنه خرج صلى اللّه عليه وسلم ذات يوم وهو يضحك ويقول «لن يغلب عسر يسرين» «2» ؟

قلت : هذا عمل على الظاهر ، وبناء على قوّة الرجاء ، وأن موعد اللّه لا يحمل إلا على أو في ما يحتمله اللفظ وأبلغه ، والقول في أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريرا للأولى كما كرر قوله فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ لتقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب ، وكما يكرر المفرد في قولك : جاءني زيد زيد ، وأن تكون الأولى عدة بأنّ العسر مردوف بيسر لا محالة ، والثانية عدة مستأنفة بأنّ العسر متبوع بيسر ، فهما يسران على تقدير الاستئناف ، وإنما كان العسر واحدا لأنه لا يخلو ، إما أن يكون تعريفه للعهد وهو العسر الذي كانوا فيه ، فهو هو ، لأنّ حكمه حكم زيد في قولك :

إن مع زيد مالا ، إن مع زيد مالا . وإما أن يكون للجنس الذي يعلمه كل أحد فهو هو أيضا .

وأما اليسر فمنكر متناول لبعض الجنس ، فإذا كان الكلام الثاني متأنفا غير مكرر فقد تناول بعضا غير البعض الأوّل بغير إشكال . فإن قلت : فما المراد باليسرين ؟ قلت : يجوز أن يراد بهما

---

(1) . حديث ابن عباس : لم أجده . قلت : ذكره الفراء عن الكلبي عن ابن صالح عنه .

(2) . أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن الحسن به مرسلا . ومن طريقه أخرجه الحاكم والبيهقي في الشعب . ورواه الطبري من طريق أبى ثور عن معمر . وله طريق أخرى أخرجها ابن مردويه من رواية عطية عن جابر موصولا . وإسناده ضعيف . وفي الباب عن عمر رضى اللّه عنه ذكره مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم عن أبيه «أن عمر بن الخطاب

بلغه أن أبا عبيدة حضر بالشام فذكر القصة. وقال في الكتاب إليه: ولن يغلب عسر يسرين» ومن طريقه رواه الحاكم. وهذا أصح طرقه. [. . . . .]

(145/820)

ما تيسر لهم من الفتوح في أيام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وما تيسر لهم في أيام الخلفاء «1»، وأن يراد يسر الدنيا ويسر الآخرة، كقوله تعالى قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وهما حسنى الظفر وحسنى الثواب. فإن قلت فما معنى هذا التنكير؟ قلت : التفخيم، كأنه قيل إن مع العسر يسرا عظيما وأى يسر، وهو في مصحف ابن مسعود مرة واحدة. فإن قلت: فإذا ثبت في قراءته غير مكرر، فلم قال: والذي نفسي بيده، لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه، إنه لن يغلب عسر يسرين «2»؟ قلت: كأنه قصد باليسرين: ما في قوله يُسْراً من معنى التفخيم، فتأوله بيسر الدارين، وذلك يسران في الحقيقة.

[سورة الشرح (94) : الآيات 7 إلى 8]

فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

فإن قلت: فكيف تعلق قوله فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ بما قبله؟ قلت: لما عدد عليه نعمه

السالفة ووعده الآنفة ، بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة والنصب فيها ، وأن يواصل بين بعضها وبعض ، ويتابع ويحرص على أن لا يخلى وقتا من أوقاته منها . فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى . وعن ابن عباس : فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء . وعن الحسن : فإذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة . وعن مجاهد : فإذا فرغت من دنياك فانصب في صلاتك . وعن الشعبي : أنه رأى رجلا يشيل حجرا فقال : ليس بهذا أمر الفارغ ، وقعود الرجل فارغا من غير شغل أو اشتغاله بما لا يعنيه في دينه أو دنياه : من سفه الرأى وسخافة العقل واستيلاء الغفلة ، ولقد قال عمر رضى اللّه عنه : إنى لأكره أن أرى أحدكم فارغا سهلا لا في عمل دنيا ولا في عمل آخرة «3» . وقرأ أبو السمال : فرغت - بكسر الراء - وليست بفصيحة . ومن البدع : ما روى عن بعض الرافضة أنه قرأ فانصب بكسر الصاد ، أى فانصب عليا للإمامة ، ولو صح هذا للرافضى لصح الناصبي أن يقرأ هكذا ، ويجعله أمرا بالنصب «4» الذي هو بغض علىّ وعداوته وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ واجعل رغبتك إليه خصوصا ، ولا تسأل إلا فضله متوكلا عليه . وقرئ : فرغب أى : رغب الناس إلى طلب ما عنده .

عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ ألم نشرح ، فكأنما جاءني وأنا مغتم ففرج عنى» «5» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف ح 4 ص 772.770﴾

---

(1) . قوله «وما تيسر لهم في أيام الخلفاء» لعله : وما يتيسر ، بصيغة المضارع . (ع)

(2) . حديث ابن مسعود : أخرجه عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ميمون أبى حمزة عن ابراهيم عن ابن مسعود قال : «لو كان العسر في جحر ضب لتبعه اليسر حتى يستخرجه : لن يغلب عسر يسرين» .

(3) . لم أجده ، وقد روى أحمد وابن المبارك والبيهقي كلهم في الزهد وابن أبى شيبة من طريق المسيب بن رافع قال قال عبد اللّه بن مسعود «إنى لأمقت الرجل أراه فارغا ليس في شيء من عمل دنيا ولا آخرة» .

(4) . قوله «بالنصب» في الصحاح : نصبت لفلان نصبا : إذا عاديته . (ع)

(5) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبى بن كعب . ورواه سليم الزهري في البر عنه مرسلا .

(146/820)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

وهذا تقرير من الله تعالى لرسول صلى الله عليه وسلم عند انشراح صدره لما حمله من نبوّته .

وفي " نشرح " وجهان :

أحدهما : أي أزال همك منك حتى تخلو لما أُمِرت به .

الثاني : أي نفتح لك صدرك ليتسع لما حملته عنه فلا يضيق ، ومنه تشريح اللحم لأنه فتحه لتقديده .

وفيما شرح صدره ثلاثة أقاويل :

أحدها : الإسلام ، قاله ابن عباس .

الثاني : بأن ملىء حكمة وعلماً ، قاله الحسن .

الثالث : بما منّ عليه من الصبر والاحتمال ، قاله عطاء .

ويحتمل رابعاً : بحفظ القرآن وحقوق النبوّة .

﴿ ووَضَعْنا عنك وِزْرَكَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : وغفرنا لك ذنبك ، قاله مجاهد ، وقال قتادة : كان للنبي ذنوب أثقلته فغفرها الله تعالى له .

الثاني : وحططنا عنك ثقلك ، قاله السدي . وهي في قراءة ابن مسعود ، وحللنا عنك وِقرك .

الثالث : وحفظناك قبل النبوة في الأربعين من الأدناس حتى نزل عليك الوحيُ وأنت مطهر من الأدناس .

ويحتمل رابعاً : أي أسقطنا عنك تكليف ما لم تُطِقْه ، لأن الأنبياء وإن حملوا من أثقال النبوة على ما يعجز عنه غيرهم من الأمة فقد أعطوا من فضل القوة ما يستعينون به على ثقل النبوة ، فصار ما عجز عنه غيرهم ليس بمطاق .

﴿ الذي أنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي أثقل ظهرك ، قاله ابن زيد كما ينقض البعير من الحمل الثقيل حتى يصير نِقْضاً .

وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أثقل ظهره بالذنوب حتى غفرها .

الثاني : أثقل ظهره بالرسالة حتى بلّغها .

الثالث : أثقل ظهره بالنعم حتى شكرها .

﴿ ورَفَعْنا لك ذِكْرَكَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ورفعنا لك ذكرك بالنبوة ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : ورفعنا لك ذكرك في الآخرة كما رفعناه في الدنيا .

الثالث : أن تذكر معي إذا ذكرت ، روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أتاني جبريل عليه السلام فقال : إن الله تعالى يقول أتدري كيف رفعْت ذكرك ؟ فقال : الله أعلم ، فقال : إذا ذُكرت ذُكِرْتَ " قاله قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب يخطب ولا يتشهد ، ولا صاحب صلاة إلا ينادي :

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

﴿ فإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إن مع اجتهاد الدنيا خير الآخرة .

الثاني : إن مع الشدة رخاء ، ومع الصبر سعة ، ومع الشقاوة سعادة ، ومع الحزونة سهولة .

ويحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : أن مع العسر يسراً عند الله ليفعل منهما ما شاء .

الثاني : إن مع العسر في الدنيا يسراً في الآخرة .

الثالث : إن مع العسر لمن بُلي يسراً لمن صبر واحتسب بما يوفق له من القناعة أو بما يعطى من السعة .

قال ابن مسعود : والذي نفسي بيده لو كان العسر في حَجَرٍ لطلبه اليسر حتى يدخل عليه " ولن يغلب عسْرٌ يُسْرَين " .

وإنما كان العسر في الموضعين واحداً ، واليسر اثنين ، لدخول الألف واللام على العسر

وحذفها من اليسر .

وفي تكرار " مع العسر يسرا " وجهان : أحدهما : ما ذكرنا من إفراد العسر وتثنية اليسر ، ليكون أقوى للأمل وأبعث على الصبر ، قاله ثعلب .

الثاني : للإطناب والمبالغة ، كما قالوا في تكرار الجواب فيقال بلى بلى ، لا لا ، قاله الفراء وقال الشاعر :

هممتُ بنفسيَ بَعْضَ الهُموم . . . فأَوْلَى لنفْسِيَ أولى لها .

﴿ فإذا فَرَغتَ فانصَبْ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : فإذا فرغت من الفرائض فانصب من قيام الليل ، قاله ابن مسعود .

الثاني : فإذا فرغت من صلاتك فانصب في دعائك ، قاله الضحاك .

الثالث : فإذا فرغت من جهادك عدوك فانصب لعبادة ربك ، قاله الحسن وقتادة .

الرابع : فإذا فرغت من أمر دنياك فانصب في عمل آخرتك ، قاله مجاهد .

(148/820)

ويحتمل تأويلاً خامساً : فإذا فرغت من إبلاغ الرسالة فانصب لجهاد عدّوك .

﴿ وإلى ربِّكَ فارْغَبْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : فارغب إليه في دعائك قاله ابن مسعود .

الثاني : في معونتك .

الثالث : في إخلاص نيتك ، قاله مجاهد .

ويحتمل رابعاً : فارغب إليه في نصرك على أعدائك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 296 . 299 ﴾

(149/820)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صَدْرك ﴾

الشرح : الفتح بإذهاب ما يصد عن الإدراك .

والله تعالى فتح صدر نبيه للهدى والمعرفة بإذهاب الشواغل التي تصدر عن إدراك الحق .

ومعنى هذا الإستفهام : التقريرُ ، أي : قد فعلنا ذلك ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ أي : حَطَطْنَا عنك إِثْمَكَ الذي سَلَفَ في الجاهلية ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والفراء ، وابن قتيبة في آخرين .

وقال الزجاج : المعنى : أنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قال ابن قتيبة : وأصل الوِزْر : ما حمله الإنسان على ظهره ، فَشُبِّه بالحمل فجعل مكانه .

ومعنى ﴿ أنقض ظهرك ﴾ أثقله حتى سمع نقيضه ، أي : صوته .

وهذا مَثَلٌ ، يعني : أنه لو كان حملاً يحمل لَسُمِع نقيضُ الظهر منه .

وذهب قوم إلى أن المراد بهذا تخفيف أعباء النبوة التي يُثْقِلُ القيامُ بها الظُّهْرَ ، فَسَهَّلَ الله له ذلك حتى تيَسَّرَ عليه الأمر .

وممن ذهب إلى هذا عبد العزيز بن يحيى .

قوله تعالى : ﴿ ورفعنا لك ذِكْرَك ﴾ فيه خمسة أقوال .

أحدها : ما روى أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عن هذه الآية ، فقال : قال الله عز وجل : إذا ذُكِرْتُ [ذُكِرْتَ] معي .

قال قتادة : فليس خطيب ، ولا مُتَشَهِّدٌ ، ولا صاحب صلاة إلا يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وهذا قول الجمهور .

والثاني : رفعنا لك ذِكْرَك بالنبوة ، قاله يحيى بن سلام .

والثالث : رفعنا لك ذكرك في الآخرة كما رفعناه في الدنيا ، حكاه الماوردي .

والرابع : رفعنا لك ذكرك عند الملائكة في السماء .

والخامس : بأخذ الميثاق لك على الأنبياء ، وإلزامهم الإيمان بك ، والإقرار بفضلك ، حكاهما الثعلبي .

قوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ ضم سين "العُسُر" وسين "اليُسُر" أبو جعفر .

و"العسر" مذكور في الآيتين بلفظ التعريف .

(150/820)

و "اليُسر" مذكور بلفظ التنكير ، فدل على أن العسر واحد ، واليسر اثنان .

قال ابن مسعود ، وابن عباس في هذه [الآية] : لن يغلب عُسْر يسرين .

قال الفراء : العرب إذا ذَكَرَتْ نَكِرَةً ثم أعادتها بنكرة صارت اثنتين ، كقولك : إذا كسبت درهماً فأنفق درهماً ، فالثاني غير الأول ، وإذا أعادتها معرفة ، فهي كقولك : إذا كسبت درهماً فأنفق الدرهم ، فالثاني هو الأول .

ونحو هذا قال الزجاج : ذَكَرَ العُسْر بالألف واللام ، ثم ثَنَّى ذِكْرَه ، فصار المعنى : إن مع العسر يسرين .

وقال الحسين بن يحيى الجرجاني ويقال له : صاحب النظم : معنى الكلام : لا يحزنك ما يُعَيِّرك به المشركون من الفقر "فإن مع العسر يسراً" [عاجلاً في الدنيا ، فأنجزه بما وعده ، بما فتح عليه ، ثم ابتدأ فصلاً آخر فقال : "إن مع العسر يسراً"] والدليل على ابتدائه تَعرِّيه من الفاء والواو ، وهو وعد لجميع المؤمنين أن مع عسر المؤمنين يسراً في الآخرة ، فمعنى قولهم :

لن يغلب عسر يسرين : لن يغلب عسر الدنيا اليسر الذي وعده الله المؤمنين في الدنيا ، فاليسر الذي وعدهم في الآخرة ، إنما يغلب أحدهما ، وهو يسر الدنيا .

فأما يسر الآخرة ، فدائم لا ينقطع ، كقوله [صلى الله عليه وسلم] : " شهرا عيد لا ينقصان " أي لا يجتمعان في النقص .

وحكي عن العتبي قال : كنت ذات ليلة في البادية بحالة من الغَمِّ ، فأُلْقِيَ في رَوعي بيت من الشعر ، فقلت :

أَرَى المَوْتَ لِمَنْ أَصْبَ . . .

حَ مَغْمُوماً لَهُ أَرْوَحْ

فلما جن الليل سمعت هاتفاً يهتف :

أَلا يا أَيُّها المرءُ الْ . . .

لَذِي الهمُّ بِهِ بَرَّحْ

وَقَدْ أَنْشَدَ بَيْتاً لَمْ . . .

يَزَلْ فِي فِكْرِهِ يَسْنَحْ

إذا اشتَدَّ بكَ العُسْرُ . . .

فَفَكِّرْ في ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾

فَعُسْرٌ بَيْنَ يُسْرَيْنِ . . .

إِذا أَبصَرْتَهُ فَافْرَحْ

فحفظت الأبيات وفرّج الله غَمّي .

(151/820)

قوله تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ أي : فادأبْ في العمل ، وهو من النَّصْب ،

والنَّصب : التعبُ ، الدّؤوب في العمل .

وفي معنى الكلام خمس أقوال .

أحدها : فإذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل ، قاله ابن مسعود .

والثاني : فإذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، ومقاتل .

والثالث : فإذا فرغت من أمر دنياك فانصب في عمل آخرتك ، قاله مجاهد .

والرابع : فإذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك ، قاله الشعبي ، والزهري .

والخامس : إذا صح بدنك فاجعل صحتك نَصباً في العبادة ، ذكره علي ابن أبي طلحة ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ قال الزجاج : اجعل رغبتك إلى الله عز وجل وحده . انتهى .

اهـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 162. 167 ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾

استفهام بمعنى التّقرير ، أي قد فعلنا ذلك ومعنى الشرح الفتح بما يصده عن الإدراك والله تعالى فتح صدر نبيه (صلى الله عليه وسلم) للهدى ، والمعرفة بإذهاب الشّواغل التي تصده عن إدراك الحق ، وقيل معناه ألم نفتح قلبك ونوسعه ونلينه بالإيمان ، والموعظة ، والعلم ، والنبوة ، والحكمة ، وقيل هو شرح صدره في صغره (م) عن أنس " رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أتاه جبريل عليه السّلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ، فاستخرجه فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشّيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره فقالوا : إن محمداً قد قتل فاستقبلوه ، وهو ممتقع اللون .

قال أنس : وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره " ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ أي حططنا عنك وزرك الذي سلف منك في الجاهلية فهو كقوله ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ وقيل الخطأ والسّهو وقيل ذنوب أمتك فأضافها إليه لاشتغال قلبه بها ،

وقيل المراد بذلك ما أثقل ظهره من أعباء الرسالة حتى يبلغها لأن الوزر في اللغة الثقل تشبيهاً بوزر الجبل ، وقيل معناه عصمناك عن الوزر الذي ينقض ظهرك لو كان ذلك الوزر حاصلاً فسمى العصمة وضعاً مجازاً .

واعلم أن القول في عصمة الأنبياء قد تقدم مستوفى في سورة طه عند قوله تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ وعند قوله ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾

﴿ الذي أنقض ظهرك ﴾ أي أثقله وأوهنه حتى سمع له نقيض وهو الصوت الخفي الذي يسمع من المحمل ، أو الرحل فوق البعير ، فمن حمل الوزر على ما قبل النّبوة قال هو اهتمام النبي (صلى الله عليه وسلم) بأمور كان فعلها قبل نبوته إذ لم يرد عليه شرع بتحريمها ، فلما حرمت عليه بعد النبوة عدها أوزاراً وثقلت عليه وأشفق منها فوضعها الله عنه وغفرها له ومن حمل ذلك على ما بعد النبوة قال : هو ترك الأفضل لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وقوله : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ روى البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وسلم) " أنه سأل جبريل عن هذه الآية ، ورفعنا لك ذكرك قال : قال الله : إذا ذكرت ذكرت معي " قال ابن عباس : يريد الأذان ، والإقامة ،

والتّشهد ، والخطبة على المنابر ، فلو أن عبداً عبد الله وصدقه في كل شيء ، ولم يشهد أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم ينتفع من ذلك بشيء وكان كافراً ، وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدّنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله وقال الضحاك : لا تقبل صلاة إلا به ولا تجوز خطبة إلا به ، وقال مجاهد يريد التأذين وفيه يقول حسان بن ثابت :

أغر عليه للنبوة خاتم . . .

من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي مع اسمه . . .

إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله . . .

فذو العرش محمود وهذا محمد

وقيل رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النّبيين ، وإلزّامهم الإيمان به ، والإقرار بفضله ، وقيل رفع ذكره بأن قرن اسمه باسمه في قوله " محمد رسول الله " وفرض طاعته على الأمة بقوله : ﴿

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز ، ونحو ذلك مما جاء في القرآن وغيره من كتب الأنبياء ثم وعده باليسر ، والرخاء بعد الشّدة والعناء ، وذلك أنه كان في شدة بمكة فقال تعالى ﴿ فإن مع اليسر يسرا ﴾ أي مع الشدة التي أنت فيها من جهاد المشركين يسراً ورخاء بأن يظهرك عليهم حتى ينقادوا للحق الذي جئتهم به ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ وإنما كرره لتأكيد الوعد وتعظيم الرّجاء قال الحسن : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أبشروا فقد جاءكم اليسر لن يغلب عسر يسرين " وقال ابن مسعود : لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخله عليه ويخرجه إنه لن يغلب عسر يسرين قال المفسرون في معنى قوله لن يغلب عسر يسرين إن الله تعالى كرر لفظ العسر ، وذكره بلفظ المعرفة ، وكرر اليسر بلفظ النكرة ، ومن عادة العرب .

إذا ذكرت اسماً معرفاً ثم أعادته كان الثاني هو الأول وإذا ذكرت اسماً نكرة ثم أعادته كان الثاني غير الأول كقولك كسبت درهماً فأنفقت درهماً .

فالثاني غير الأول وإذا قلت كسبت درهماً ، فأنفقت الدرهم فالثاني هو الأول ، فالعسر في الآية مكرر بلفظ التعريف فكان عسراً واحداً ، واليسر مكرر بلفظ التنكير فكانا يسرين ،

فكأنه قال فإن مع العسر يسراً إن مع ذلك العسر يسراً آخر وزيف أبو علي الحسن بن يحيى الجرجاني صاحب النظم هذا القول ، وقال قد تكلم الناس في قوله لن يغلب عسر يسرين فلم يحصل منه غير قولهم إن العسر معرفة ، واليسر نكرة ، فوجب أن يكون عسر واحد ويسران وهو قول مدخول فيه إذا قال الرجل إن مع الفارس سيفاً إن مع الفارس سيفاً فهذا لا يوجب أن يكون الفارس واحداً والسيف اثنين فمجاز قوله لن يغلب عسر يسرين أن الله بعث نبيه (صلى الله عليه وسلم) وهو مقل مخف ، فكانت قريش تعيره بذلك حتى قالوا : إن كان بك طلب الغنى جمعنا لك مالاً حتى تكون كأيسر أهل مكة فاغتم النبي (صلى الله عليه وسلم) لذلك ، وظن أن قومه إنما كذبوه لفقره فعدد الله نعمه عليه في هذه السّورة ، ووعده الغنى ليسليه بذلك عما خامره من الغم .

فقال تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسرا ﴾ أي لا يحزنك الذي يقولون فإن مع العسر الذي في الدّنيا يسراً عاجلاً ، ثم انجز ما وعده وفتح عليه القرى القريبة ، ووسع ذات يده حتى كان يعطي المئين من الإبل ، ويهب الهبة السّنية ثم ابتدأ فضلاً آخر من أمور الآخرة فقال تعالى : ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ والدّليل على ابتدائه تعريه من الفاء والواو ، وهذا وعد لجميع

المؤمنين ، والمعنى أن مع العسر الذي في الدّنيا للمؤمن يسراً في الآخرة وربما اجتمع له اليسران يسر الدنيا وهو ما ذكره في الآية الأولى ويسر الآخرة وهو ما ذكره في الآية الثانية فقوله لن يغلب عسر يسرين أي إن عسر الدنيا لن يغلب اليسر الذي وعده الله للمؤمنين في الدنيا واليسر الذي وعدهم في الآخرة إنما يغلب أحدهما وهو يسر الدنيا فأما يسر الآخرة ، فدائم أبداً غير زائل ، أي لا يجتمعان في الغلبة فهو كقوله (صلى الله عليه وسلم) " شهرا عيد لا ينقصان " أي لا يجتمعان في النقص

قال القشيري : كنت يوماً في البادية بحالة من الغم فألقي في روعي بيت شعر فقالت :

أرى الموت لمن أصب . . .

ح مغموماً له أروح

فلما جن الليل سمعت هاتفاً يهتف في الهواء :

ألا يا أيها المرء ال . . .

ذي الهم به برح

وقد أنشد بيتاً لم . . .

يزل في فكره يسنح

إذا اشتد بك العسر فف . . .

كر في ألم نشرح

فعسر بين يسرين . . .

إذا أبصرته فافرح

(157/820)

قوله : ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ لما عدد الله على نبيه (صلى الله عليه وسلم) نعمه السالفة حثه على الشكر ، والاجتهاد في العبادة ، والنصب فيها وأن لا يخلي وقتاً من أوقاته منها ، فإذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى ، والنصب التعب قال ابن عباس : إذا فرغت من الصّلاة المكتوبة ، فانصب إلى ربك في الدعاء ، وارغب إليه في المسألة وقال ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض ، فانصب في قيام اللّيل ، وقيل إذا فرغت من التّشهد فادع لدنياك وآخرتك ، وقيل إذا فرغت من جهاد عدوك فانصب في عبادة ربك ، وقيل إذا فرغت من تبليغ الرّسالة فانصب في الاستغفار لك وللمؤمنين .

قال عمر بن الخطاب إني لأكره أن أرى أحدكم فارغاً سبهللاً لا في عمل دنياه ولا في عمل آخرته .

السبهلل الذي لا شيء معه ، وقيل السبهلل الباطل ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ أي تضرع

إليه راغباً في الجنة راهباً من النار ، وقيل اجعل رغبتك إلى الله تعالى في جميع أحوالك لا إلى أحد سواه والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 262. 265 ﴾

(158/820)

وقال النسفى :

سورة الشرح

مكية وهي ثمان آيات

بسم الله الرحمان الرحيم

﴿ ألم نشرح لك

صدرك ﴾ استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار فأفاد إثبات الشرح فكأنه قيل : شرحنا لك صدرك ، ولذا عطف عليه ﴿ وضعنا ﴾ اعتباراً للمعنى أي فسحناه بما أودعناه من العلوم والحكم حتى وسع هموم النبوة ودعوة الثقلين ، وأزلنا عنه الضيق والحرج الذي يكون مع العمى والجهل ، وعن الحسن : مليء حكمة وعلماً ﴿ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ وخففنا عنك أعباء النبوة والقيام بأمرها ، وقيل : هو زلة لا تعرف بعينها وهي ترك الأفضل مع إتيان الفاضل ، والأنبياء يعاتبون بمثلها ووضعه عنه أن غفر له ،

والوزر : الحمل الثقيل ﴿ الذى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أثقله حتى سمع نقيضه وهو صوت الانتقاض ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ورفع ذكره أن قرن ذكر الله في كلمة الشهادة والأذان والإقامة والخطب والتشهد وفي غير موضع من القرآن : ﴿ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرسول ﴾ [محمد : 33] [التغابن : 12] .

﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [النساء : 13] .

﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة : 62] .

وفي تسميته رسول الله ونبي الله ومنه ذكره في كتب الأولين .

وفائدة لك ما عرف في طريقة الإبهام والإيضاح لأنه يفهم بقوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ ﴾ أن ثم مشروحاً ، ثم أوضح بقوله ﴿ صَدْرَكَ ﴾ ما علم مبهماً وكذلك ﴿ لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ، و ﴿ عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ .

﴿ فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ أي إن مع الشدة التي أنت فيها من مقاساة بلاء المشركين يسراً بإظهاري إياك عليهم حتى تغلبهم .

وقيل : كان المشركون يعيرون رسول الله والمؤمنين بالفقر حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله ، فذكره ما أنعم به عليه من جلائل النعم .

ثم قال ﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْرا ً ﴾ كأنه قال : خولناك ما خولناك فلا تيأس من فضل الله فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسرا ً ، وجيء بلفظ "مع" لغاية مقاربة اليسر العسر زيادة في التسلية ولتقوية القلوب ، وإنما قال عليه السلام عند نزولها " لن يغلب عسر يسرين " لأن العسر أعيد معرفا ً فكان واحدا ً لأن المعرفة إذا أعيدت معرفة كانت الثانية عين الأولى ، واليسر أعيد نكرة والنكرة إذا أعيدت نكرة كانت الثانية غير الأولى ، فصار المعنى إن مع العسر يسرين .

قال أبو معاذ : يقال إن مع الأمير غلاما ً إن مع الأمير غلاما ً ، فالأمير واحد ومعه غلامان .

وإذا قال : إن مع أمير غلاما ً وإن مع الأمير الغلام ، فالأمير واحد والغلام واحد .

وإذا قيل : إن مع أمير غلاما ً وإن مع أمير غلاما ً فهما أميران وغلامان كذا في "شرح التأويلات" .

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فانصب ﴾ أي فإذا فرغت من دعوة الخلق فاجتهد في عبادة الرب ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : فإذا فرغت من صلاتك فاجتهد في الدعاء ، واختلف أنه قبل السلام أو بعده ، ووجه الاتصال بما قبله أنه لما عدد عليه نعمه السالفة ومواعيده الآتية بعثه على الشكر والاجتهاد في العبادة والنصب فيها ، وأن يواصل بين بعضها وبعض ولا يخلي وقتاً من أوقاته منها فإذا فرغ من عبادة ذنبها بأخرى ﴿ وإلى رَبِّكَ فارغب ﴾

واجعل رغبتك إليه خصوصاً ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ [إبراهيم : 11] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 365 . 366 ﴾

(160/820)

وقال ابن جزى :

سورة الشرح

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

هذا لصدره توقيف معناه إثبات شرح صدره صلى الله عليه وسلم وتعديد ما ذكر بعده من النعم ، وشرح صدره صلى الله عليه وسلم هو اتساعه لتحصيل العلم ، وتنويره بالحكمة ، والمعرفة ، وقيل هو شق جبريل لصدره في صغره ، أو في وقت الإسراء حين أخرج قلبه وغسله ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : الأول : قول الجمهور أن الوزر الذنوب . ووضعها هو غفرانها هو كقوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] وهذا على قول من جوّز صغائر الذنوب على الأنبياء ، أو على ذنوبه كانت قبل النبوّة ، الثاني : أن الوزر هو أثقال النبوة وتكاليفها ، ووضعها على هذا هو

إعانته عليها ، وتمهيد عذره بعد ما بلغ الرسالة ، الثالث : أن الوزر هو تحيره قبل النبوة ، إذ كان يرى أن قومه على اضلال ، ولم يأته من الله أمر واضح فوضعه على هذا هو بالنبوّة والهدى للشريعة ﴿ الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ عبارة عن ثقل الوزر المذكور وشدته عليه ، قال الحارث المحاسبي : إنما وصفت ذنوب الأنبياء بالثقل ، وهي صغائر مغفرة لهم لهمّهم بها وتحسرهم عليها ، فهي ثقيلة عندهم لشدة خوفهم من الله ، وهي خفيفة عند الله ، وهذا كما جاء في الأثر : "إن المؤمن يرى ذنوبه كالجبل يقع عليه ، والمنافق يرى ذنوبه تطير كالذبابة فوق أنفه" واشتقاق أنقض ظهرك من نقض البنيان وغيره ، أو من النقيض وهو الصوت فكأنه يسمع لظهره نقيض كنقيض ما يحمل عليه شيء ثقيل .

(161/820)

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ أي نوّهنا باسمك وجعلناه شهيراً في المشارق والمغارب ، وقيل : معناه اقتران ذكره بذكر الله في الأذان والخطبة والتشهد . وفي مواضع من القرآن ، وقد روي في هذا حديث أن الله قال له : إذا ذكرت ذكرت معي . فإن قيل : لم قال لك ذكرك ولك صدرك مع أن المعنى مستقل دون ذلك ؟ فالجواب أن قوله : لك يدل على الاعتناء به والاهتمام بأمره .

﴿ إِنَّ مَعَ العسرِ يُسْرًا ﴾ هذا وعد لما يُسّرَ بعد العسر ، وإنما ذكره بلفظ مع التي تقتضي المقاربة ليدل على قرب اليسر من العسر ، فإن قيل : ما وجه ارتباط هذا مع ما قبله ؟ فالجواب : أنه صلى الله عليه وسلم كان بمكة هو وأصحابه في عسر من إذاية الكفار ومن ضيق الحال ووعده الله باليسر ، وقد تقدم تعديد النعم تسلية وتأنيساً ، لتطيب نفسه ويقوي رجاؤه كأنه يقول : إن الذي أنعم عليك بهذه النعم سينصرك ويظهرك ويبدّل لك هذا العيسر بيسر قريب ، ولذلك كرر إن مع العسر يسرا مبالغة ، وقال صلى الله عليه وسلم : لن يغلب عسر يسرين وقد روي ذلك عن عمر وابن مسعود وتأويله أن العسر المذكور في هذه السورة واحد ، لأن الألف واللام للعهد كقولك : جاءني رجل فأكرمت الرجل . واليسر اثنان لتنكيره وقيل : إن اليسر الأول في الدنيا والثاني في الآخرة ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فانصب ﴾ هو من النصب بمعنى التعب ، والمعنى إذا فرغت من أمر فاجتهد في آخر ثم اختلف في تعيين الأمرين فقيل : إذا فرغت من الفرائض فانصب في النوافل وقيل : إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء . وقيل : إذا فرغت من شغل دنياك فانصب في عبادة رب ﴿ وإلى ربِّكَ فارغب ﴾ قدم الجار والجرور ليدل على الحصر أي لا ترغب إلا إلى ربك وحده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 205 . 206 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة الشرح

مكية . وآيها ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

ألم نفسحه حتى وسع مناجاة الحق ودعوة الخلق فكان غائباً حاضراً ، أو ألم نفسحه بما أودعنا فيه من الحكم وأزلنا عنه ضيق الجهل ، أو بما يسرنا لك تلقي الوحي بعد ما كان يشق عليك ، وقيل إنه إشارة إلى ما روي " أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صباه أو يوم الميثاق ، فاستخرج قلبه فغسله ثم ملأه إيماناً وعلماً " ولعله إشارة إلى نحو ما سبق ومعنى الاستفهام إنكار نفي الانشراح مبالغة في إثباته ولذلك عطف عليه .

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ عبأك الثقيل .

﴿ الذى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ الذي حمله على النقيض وهو صوت الرحل عند الانتقاض من ثقل الحمل وهو ما ثقل عليه من فرطاته قبل البعثة ، أو جهله بالحكم والأحكام أو حيرته ، أو تلقي الوحي أو ما كان يرى من ضلال قومه من العجز عن إرشادهم ، أو من إصرارهم

وتعديهم في إيذائه حين دعاهم إلى الإيمان .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ بالنبوة وغيرها ، وأي رفع مثل أن قرن اسمه باسمه تعالى في كلمتي الشهادة وجعل طاعته طاعته ، وصلى عليه في ملائكته وأمر المؤمنين بالصلاة عليه وخاطبه بالألقاب ، وإنما زاد ﴿ لَكَ ﴾ ليكون إبهاماً قبل إيضاح فيفيد المبالغة .

﴿ فَإِنَّ مَعَ العسر ﴾ كضيق الصدر والوزر المنقض للظهر وضلال القوم وإيذائهم . ﴿ يُسْراً ﴾ كالشرح والوضع والتوفيق للاهتداء والطاعة فلا تيأس من روح الله إذا عراك ما يغمك ، وتنكيره للتعظيم والمعنى بما في "إن" مع من المصاحبة المبالغة في معاقبة اليسر للعسر ، واتصاله به اتصال المتقاربين .

﴿ إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ تكرير للتأكيد أو استئناف وعده بأن ﴿ العسر ﴾ متبوع بيسر آخر كثواب الآخرة كقولك : إن للصائم فرحة ، إن للصائم فرحة أي فرحة عند الإفطار وفرحة عند لقاء الرب . وعليه قوله عليه الصلاة والسلام " لن يغلب عسر يسرين " فإن العسر معرف فلا يتعدد سواء كان للعهد أو للجنس ، واليسر منكر فيحتمل أن يراد بالثاني فرد يغاير ما أريد بالأول .

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من التبليغ . ﴿ فانصب ﴾ فاتعب في العبادة شكراً لما عددنا عليك من النعم السالفة ووعدناك من النعم الآتية . وقيل إذا فرغت من الغزو فانصب في العبادة ، أو ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من الصلاة فانصب بالدعاء .

﴿ وإلى رَبّكَ فارغب ﴾ بالسؤال ولا تسأل غيره فإنه القادر وحده على إسعافك ، وقرىء "فَرَغّبْ" أي فرغب الناس إلى طلب ثوابه .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة ألم نشرح فكأنما جاءني وأنا مغتم ففرج عني " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 504.506 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(164/820)

وقال أبو حيان :

سورة الشرح

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) ﴾

وقرأ الجمهور : ﴿ نشرح ﴾ بجزم الحاء لدخول الجازم .

وقرأ أبو جعفر : بفتحها ، وخرجه ابن عطية في كتابه على أنه ألم نشرحن ، فأبدل من النون

ألفاً ، ثم حذفها تخفيفاً ، فيكون مثل ما أنشده أبو زيد في نوادره من قول الراجز :

من أي يومي من الموت أفر . . .

أيوم لم يقدر أم يوم قدر

وقال الشاعر :

أضرب عنك الهموم طارقها . . .

ضربك بالسيف قونس الفرس

وقال : قراءة مرذولة .

وقال الزمخشري : وقد ذكرها عن أبي جعفر المنصور ، وقالوا : لعله بين الحاء ، وأشبعها في مخرجها فظن السامع أنه فتحها ، انتهى .

ولهذه القراءة تخريج أحسن من هذا كله ، وهو أنه لغة لبعض العرب حكاها اللحياني في نوادره ، وهي الجزم بلن والنصب بلم عكس المعروف عند الناس .

وأنشد قول عائشة بنت الأعجم تمدح المختار بن أبي عبيد ، وهو القائم بثأر الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما :

قد كان سمك الهدى ينهد قائمه . . .

حتى أتيح له المختار فانعمدا

في كل ما هم أمضى رأيه قدماً . . .

ولم يشاور في إقدامه أحدا

بنصب يشاور ، وهذا محتمل للتخريجين ، وهو أحسن مما تقدم .

﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ : كناية عن عصمته من الذنوب وتطهيره من الأدناس ، عبر

عن ذلك بالحط على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك ، كما يقول القائل : رفعت عنك مشقة

الزيارة ، لمن لم يصدر منه زيارة ، على طريق المبالغة في انتفاء الزيارة منه .

وقال أهل اللغة : أنقض الحمل ظهر الناقة ، إذا سمعت له صريراً من شدة الحمل ، وسمعت

نقيض المرجل : أي صريره .

قال عباس بن مرداس :

وأنقض ظهري ما تطويت منهم . . .

وكنت عليهم مشفقاً متحننا

وقال جميل :

وحتى تداعت بالنقيض حباله . . .

وهمت بواي زورة أن تحطها

والنقيض : صوت الانقضاض والانفكاك .

﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ : هو أن قرنه بذكره تعالى في كلمة الشهادة والأذان والإقامة والتشهد والخطب ، وفي غير موضع من القرآن ، وفي تسميته نبي الله ورسول الله ، وذكره في كتب الأولين ، والأخذ على الأنبياء وأممهم أن يؤمنوا به .

وقال حسان :

أغر عليه للنبوة خاتم . . .

من الله مشهور يلوح ويشهد

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه . . .

إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وتعديد هذه النعم عليه (صلى الله عليه وسلم) يقتضي أنه تعالى كما أحسن إليك بهذه المراتب ، فإنه يحسن إليك بظفرك على أعدائك وينصرك عليهم .

وكان الكفار أيضاً يعيرون المؤمنين بالفقر ، فذكره هذه النعم وقوى رجاءه بقوله : ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ : أي مع الضيق فرجاً .

ثم كرر ذلك مبالغة في حصول اليسر .

ولما كان اليسر يعتقب العسر من غير تطاول أزمان ، جعل كأنه معه ، وفي ذلك تبشيراً لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بحصول اليسر عاجلاً .

والظاهر أن التكرار للتوكيد ، كما قلنا .

وقيل : تكرر اليسر باعتبار المحل ، فيسر في الدنيا ويسر في الآخرة .

وقيل : مع كل عسر يسر ، إن من حيث أن العسر معرف بالعهد ، واليسر منكر ، فالأول غير الثاني .

وفي الحديث : " لن يغلب عسر يسرين " وضم سين العسر ويسراً فيهن ابن وثاب وأبو جعفر وعيسى ، وسكنهما الجمهور .

ولما عدد تعالى نعمه السابقة عليه (صلى الله عليه وسلم) ، ووعده بتيسير ما عسره ، أمره بأن يدأب في العبادة إذا فرغ من مثلها ولا يفتر .

وقال ابن مسعود : ﴿ فإذا فرغت ﴾ من فرضك ، ﴿ فانصب ﴾ في التنفل عبادة لربك .

وقال أيضاً : ﴿ فانصب ﴾ في قيام الليل .

وقال مجاهد : قال ﴿ فإذا فرغت ﴾ من شغل دنياك ، ﴿ فانصب ﴾ في عبادة ربك .

وقال ابن عباس وقتادة : ﴿ فإذا فرغت ﴾ من الصلاة ، ﴿ فانصب ﴾ في الدعاء .

وقال الحسن : ﴿ فإذا فرغت ﴾ من الجهاد ، ﴿ فانصب ﴾ في العبادة .

ويعترض قوله هذا بأن الجهاد فرض بالمدينة .

وقرأ الجمهور : ﴿ فرغت ﴾ بفتح الراء ؛ وأبو السمال : بكسرها ، وهي لغة .

قال الزمخشري : ليست بفصيحة .

وقرأ الجمهور : ﴿ فانصب ﴾ بسكون الباء خفيفة ، وقوم : بشدها مفتوحة من الأنصاب .

وقرأ آخرون من الإمامية : فانصب بكسر الصاد بمعنى : إذا فرغت من الرسالة فانصب خليفة .

قال ابن عطية : وهي قراءة شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم ، انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ فارغب ﴾ ، أمر من رغب ثلاثياً : أي اصرف وجه الرغبات إليه لا إلى سواه .

وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة : فرغت ، أمر من رغب بشد الغين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال العلامة نظام الدين النيسا بورى :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) ﴾

الوقوف ﴿ صدرك ﴾ ه لا ﴿ وزرك ﴾ ه لا ﴿ ظهرك ﴾ ه لا ﴿ ذكرك ﴾ ﴿ يسراً ﴾ ه ط ﴿ فانصب ﴾ ه لا ﴿ فارغب ﴾ ه.

التفسير : روي عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان : هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة فكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة من غير فصل بالبسملة . والذي دعاهما إلى ذلك ما رأيا من المناسبة في معرض تعديد النعم بين قوله ﴿ ألم يجدك يتيماً ﴾ [الضحى : 6] وبين قوله ﴿ ألم نشرح ﴾ وفيه ضعف ، لأن القرآن كله في حكم وكلام واحد فلو كان هذا القدر يوجب طرح البسملة من البين لزم ذلك في كل السور أو في أكثرها ، على أن الاستفهام الأول وارد بصيغة الغيبة ، والثاني بصيغة التكلم ، وهذا مما يوجب المباينة لا المناسبة . قال جار الله : استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار فأفاد إثبات الشرح وإيجابه فكأنه قيل : شرحنا لك صدرك ولذلك عطف عليه ﴿ وضعنا ﴾ اعتباراً للمعنى . قلت : اعتبار المعنى من جانب ﴿ وضعنا ﴾ أصوب وأنسب ليكون الكل داخلاً في الاستفهام الإنكاري كأنه قيل : ألم نشرح ولم نضع ولم نرفع ومثله ما مر في والضحى ألم يجدك يتيماً أو لم يجدك ضالاً . ونقول : معنى ﴿ ألم نشرح ﴾ أما شرحنا فيصح العطف عليه بهذا الاعتبار ليشمل الاستفهام مجموع الأفعال وهكذا في " والضحى

" . وفائدة العدول من المتكلم الواحد إلى الجمع إما تعظيم حال الشرح وإما الإعلام بتوسط الملك في ذلك الفعل كما روي أن جبرائيل أتاه وشق صدره وأخرج قلبه وغسله وأنقاه من المعاصي ثم ملأه علماً وإيماناً ووضعه في صدره . طعن القاضي فيه من جهة أن هذه الواقعة من قبيل الإعجاز فكيف يمكن تصديقها قبل النبوة ؟ ومن جهة أن الأمور المحسوسة لا يقاس بها الأمور المعنوية . وأجيب عن الأول بأن الإرهاص جائز عندنا ، وعن الثاني بأنه يفعل ما يشاء ، ولا يبعد أنه تعالى جعل ذلك الغسل والتنقية علامة تعرف الملائكة بها عصمته عن الخطايا . والأكثرون على أن الشرح أما معنوي وهو إما نقيض ضيق العطن بحيث لا يتأذى من كل مكروه وإيحاش يلحقه من كفار قومه فيتسع لأعباء الرسالة كلها ولا يتضجر من

علائق الدنيا بأسرها ، وإما خلاف الضلال والعمه حتى لا يرى إلا الحق ولا ينطق إلا بالحق ولا يفعل إلا للحق . قال المحققون : ليس للشيطان إلى القلب سبيل ولهذا لم يقل " ألم نشرح قلبك " وإنما يجيء الشيطان إلى الصدر الذي هو حصن القلب فيبث فيه هموم الدنيا والحرص على الزخارف فيضيق القلب حينئذ ولا يجد للطاعة لذة ولا للإيمان حلاوة ولا

على الإسلام طلاوة ، فإذا طرد العدو بذكر الله والإعراض عمّا لا يعينه حصل الأمن وانشرح الصدر وتيسر له القيام بأداء العبودية .

(169/820)

وفوائد إقحام لك دون أن يقتصر على قوله ﴿ ألم نشرح صدرك ﴾ ما مر في قوله ﴿ رب اشرح لي صدري ﴾ [طه : 25] من الإجمال ثم التفصيل ، ومن إرادة الاختصاص أو كونه أهم . قال أهل المعاني ومنهم جار الله : الوزر الذي أنقض ظهره أي أثقله مثل لما صدر عنه من بعض الصغائر قبل النبوة ولما جهله من الأحكام والشرائع ، أو لما كان تهالك عليه من إسلام أولي العناد فيغتم بسبب ذلك ، ووضعه عنه أن غفر له أو أنزل عليه الكتاب . أو قيل له : إن عليك إلا البلاغ لست عليهم بمصيطر . والأصل في الإنقاض أن الظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض أي صوت خفي كصوت المحامل والرحال وكل ما فيه انتقاض وانفكاك . وقيل : المراد بالوزر أعباء الرسالة وبوضعه تسهيل الله تعالى ذلك عليه ومن جملتها أنه كان يفزع في الأوائل حتى كاد يرمي بنفسه من الجبل فقوي وألف بالوحي حتى كاد يرمي بنفسه إذا فتر الوحي أو تأخر . وقيل : المراد إزالة الحيرة التي كانت له قبل البعث ، كان يريد أن يعبد ربه وما كانت نفسه تسكن إلى الشرائع المتقدمة لوقوع التحريف فيها .

ورفع ذكره أن قرن اسمه باسم الله في الشهادة والأذان والتشهد والخطب . وجاء ذكره في القرآن مقروناً بذكر الله في غير موضع ، وعلى سبيل التعظيم مثل النبي والرسول . ومن رفع الذكر أن جاء العته في الكتب السماوية كلها وأخذ على أمم الأنبياء كلهم أن يؤمنوا به . ثم إنهم كانوا يعيرون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر فقيل له : لا يحزنك قولهم ﴿ فإن مع العسر يسراً ﴾ أي بعد العسر الذي أنتم فيه يسر وأي يسر جعل الزمان القريب كالمتصل والمقارن زيادة في التسلية وقوة الرجاء . روى مقاتل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج ذات يوم وهو يضحك ويقول : لن يغلب عسر يسرين . فقال الفراء والزجاج : العسر مذكور بالألف واللام وليس هناك معهود سابق فينصرف إلى الحقيقة فيكون المراد بالعسر في الموضعين شيئاً واحداً ، وأما اليسر فإنه مذكور على سبيل

التنكير فكان أحدهما غير الآخر وزيفه الجرجاني بأنه من المعلوم أن القائل إذا قال : إنّ مع الفارس سيفاً إن مع الفارس سيفاً . لم يلزم منه أن يكون هناك فارس واحد معه سيفان . وأقول : إذا كان المراد بالعسر الجنس لا العهد لزم اتحاد العسر في الصورتين . وأما اليسر فمنكر فإن حمل الكلام الثاني على التكرار مثل ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ [الرحمن

: 13] ونحوه كان اليسران واحداً . وإن حمل على أنه جملة مستأنفة لزم أن يكون اليسر الثاني غير الأول وإلا كان تكراراً والمفروض خلافه . وإن كان المراد العسر المعهود فإن كان المعهود واحداً وكان الثاني تكرارا كان اليسران أيضاً واحداً ، وإن كان مستأنفاً كانا اثنين وإلا لزم خلاف المفروض ، وغن كان المعهود اثنين فالظاهر اختلاف اليسرين وإلا لزم أو حسن أن يعاد اليسر الثاني معرفاً بلام العهد فهو واحد والكلام الثاني تكرير للأول لتقريره في النفوس إلا أنه يحسن أن يجعل اليسر فيه مغايراً للأول لعدم لام العهد .

(171/820)

ولعل هذا معنى الحديث إن ثبت والله أعلم ورسوله . وإذا عرفت هذه الاحتمالات فإن لم يثبت صحة الحديث أمكن حمل الآية على جميعها ، وإن ثبت صحته وجب حملها على وجه يلزم منه اتحاد العسر واختلاف اليسر . وحينئذ يكون فيه قوة الرجاء ومزيد الاستظهار برحمة الكريم . وأما اليسران على تقدير اختلافهما فقيل : يسر الدنيا ويسر الآخرة أي إن مع العسر الذي أنتم فيه يسر العاجل إن مع العسر الذي أنتم فيه يسر الآجل . وقيل : ما تيسر لهم من الفتوح في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم في أيام الخلفاء الراشدين ، والأظهر الجنس ليكون وعداً عاماً لجميع المكلفين في كل عصر . وحين عدد

عليه النعم السابقة ووعده النعم اللاحقة من اليسر والظفر رتب عليه ﴿ فإذا فرغت فانصب ﴾ قال قتادة والضحاك ومقاتل : إذا فرغت من الصلاة المكتوبة فانصب أي اتعب للدعاء وأرغب إلى ربك في إنجاز المأمور لا إلى غير يعطك خير الدارين . وعن الشعبي : إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك . وعن مجاهد : إذا فرغت من أمور دنياك لما وعدناك من اليسر والظفر فانصب للعبادة والدعوة . وعن شريح أنه مر برجلين يتصارعان فقال : ما بهذا أمر الفارغ وقعود الرجل فارغاً من غير شغل قريب من العبث والاشتغال بما لا يعني ، فعلى العاقل أن لا يضيع أوقاته في الكسل والدعة ويقبل بجميع قواه على تحصيل ما ينفعه في الدارين والله تعالى عالم بحقائقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 521.523 ﴾

(172/820)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة ألم نشرح

مكية وهي ثمان آيات وتسع وعشرون كلمة ومائة وثلاثة أحرف .

﴿ بسم الله ﴾ الظاهر الباطن الملك العلام ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ المخلوقين بالإنعام

﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه بدار السلام .

وقوله تعالى : ﴿ ألم نشرح ﴾ استفهام تقرير ، أي : شرحنا بما يليق بعظمتنا ﴿ لك ﴾ يا أشرف الخلق ﴿ صدرك ﴾ بالنبوّة وغيرها حتى وسع مناجاتنا ودعوة الخلق ، أو فسحناه بما أودعنا فيه من الحكم والعلوم وأزلنا عنه الضيق والحرج الذي كان يكون معه العمى والجهل . وعن الحسن : ملىء حكمة وعلماً .

وقيل : إنه إشارة إلى ما روي أنّ جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم في صباه أو في يوم الميثاق فاستخرج قلبه فغسله ثم ملأه إيماناً وعلماً .

فإن قيل : لم قال تعالى صدرك ولم يقل قلبك ؟

أجيب : بأن محل الوسوسة هو الصدر كما قال تعالى : ﴿ يوسوس في صدور الناس ﴾

(الناس :)

وأبدلها بدواعي الخير فلذلك خص الشرح بالصدر دون القلب . وقال محمد بن علي الترمذي : القلب محل العقل والمعرفة ، والشيطان يجيء إلى الصدر الذي هو حصن القلب ، فإذا وجد مسلكاً أغار فيه وثبت جنده فيه وبث فيه الهموم والغموم والحرص فيضيق القلب حينئذ ولا يجد للطاعة لذة ولا للإسلام حلاوة ، فإذا طرد العدوّ في الابتداء حصل الأمن وانشرح الصدر . فإن قيل : لم قال تعالى : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ ولم يقل : ألم نشرح صدرك ؟

أجيب : بوجهين:

أحدهما : كأنه تعالى يقول لام بلام فأنت إنما تفعل جميع الطاعة لأجلي ، وأنا أيضاً جميع ما أفعله لأجلك .

ثانيهما : أنّ فيه تنبيهاً على أنّ منافع الرسالة عائدة إليك لأجلك لا لأجلنا .

واختلف في قوله تعالى : ﴿ ووضعنا ﴾ ، أي : بما لنا من العظمة ﴿عنك وزرك ﴾ فقال الحسن ومجاهد : حططنا عنك الذي سلف منك في الجاهلية وهو قوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ﴾ (الفتح :)

(173/820)

وقال الحسين بن الفضل : يعني الخطأ والسهو . وقيل : ذنوب أمتك ، وأضافها إليه لاشتغال قلبه بها .

﴿ الذي أنقض ﴾ ، أي : أثقل ﴿ ظهرك ﴾ قال أبو عبيدة : خففنا عنك أعباء النبوّة والقيام بها حتى لا تثقل عليك وقيل : كان في الابتداء يثقل عليه الوحي حتى يكاد يرمي نفسه من شاهق إلى أن جاءه جبريل عليه السلام ، وأزال عنه ما كان يخاف من تغير العقل وقيل : عصمناك من احتمال الوزر ، وحفظناك قبل النبوّة في الأربعين من الأدناس ، حتى

نزل عليك الوحي وأنت مطهر .

﴿ ورفعنا ﴾ ، أي : بما لنا من القدرة التامّة ﴿ لك ذكرك ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : يقول الله عز وجل : لا ذكرت إلا ذكرت معي في الأذان والإقامة والتشهد ، ويوم الجمعة على المنابر ، ويوم الفطر ، ويوم الأضحى ، ويوم عرفة ، وأيام التشريق ، وعند الجمار ، وعلى الصفا والمروة ، وفي خطبة النكاح ، ومشارق الأرض ومغاربها .

ولو أنّ رجلاً عبد الله تعالى ، وصدّق بالجنة والنار ، وكل شيء ولم يشهد أنّ محمداً رسول الله لم ينتفع بشيء ، وكان كافراً وقيل : أعلينا ذكرك فذكرناك في الكتب المنزلة على الأنبياء قبلك ، وأمرناهم بالبشارة بك ولا دين إلا ودينك يظهر عليه .

وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة في السماء وفي الأرض عند المؤمنين ، ونرفع في الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود وكرائم الدرجات . وقال الضحاك : لا تقبل صلاة إلا به ، ولا تجوز خطبة إلا به . وقال مجاهد : يعني التأذين . وفيه يقول حسان بن ثابت:

*أغرّ عليه للنبوّة خاتم ** من الله مشهور يلوح ويشهد *

*وضم الإله اسم النبيّ إلى اسمه ** إذا قال في الخمس المؤذن أشهد *

*وشق له من اسمه ليجله ** فذو العرش محمود وهذا محمد *

وقيل : رفع ذكره بأخذ ميثاقه على النبيين وإلزامهم الإيمان به والإقرار بفضله . وقيل : عام في كل ما ذكر ، وهذا أولى وكم من موضع في القرآن يذكر فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم من ذلك قوله تعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ (التوبة :)

. وقوله تعالى : ﴿ ومن يطيع الله ورسوله فقد فاز ﴾ (الأحزاب :)

. وقوله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ (المائدة :)

ولما كان المشركون يعيرونه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بالفقر والضيقة حتى سبق إلى وهمه أنهم رغبوا عن الإسلام لافتقار أهله واحتقارهم ، ذكره ما أنعم الله به عليه من جلائل النعم ، ثم وعده اليسر والرخاء بعد الشدّة فقال تعالى:

﴿ فإن مع العسر ﴾ ، أي : ضيق الصدر والوزر المنقض للظهر وضلال القوم وإيذائهم ﴿ يسراً ﴾ ، أي : كالشرح والوضع والتوفيق للاهتداء والطاعة فلا تيأس من روح الله إذا عراك ما يهمك ، فإن مع العسر الذي أنتم فيه يسراً . فإن قيل : إنّ مع للصحبة فما معنى اصطحاب العسر واليسر ؟

أجيب : بأن الله تعالى أراد أن يصيبهم بيسر بعد العسر الذي كانوا فيه بزمان قريب ، فقرب اليسر المترقب حتى جعله كالمقارن للعسر زيادة في التسلية وتقوية القلوب .

وقوله تعالى : ﴿ إنّ مع العسر ويسراً ﴾ استئناف وعد الله تعالى بأن العسر متبوع بيسر

آخر كثواب الآخرة ، كقولك : للصائم فرحة ، ثم فرحة ، أي : فرحة عند الإفطار وفرحة عند لقاء الرب ، ويجوز أن يراد باليسرين ما تيسر من الفتوح في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تيسر لهم أيام الخلفاء وقيل : تكرير .

(175/820)

فإن قيل : ما معنى قول ابن عباس رضي الله عنه وابن مسعود رضي الله عنهما : لن يغلب عسر يسرين ، وقد روي مرفوعاً أنه صلى الله عليه وسلم "خرج ذات يوم وهو يضحك ويقول : لن يغلب عسر يسرين" أجيب : بأن هذا حمل على الظاهر وبناء على قوّة الرجاء ، وأنّ موعد الله لا يحمل إلا على أوفى ما يحتمله اللفظ وأبلغه ، والقول عنه أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريراً للأولى كما كرر في قوله تعالى : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾

(المرسلات :)

لتقرير معناها في النفوس ، وتمكينها في القلوب ، وكما تكرر المفرد في قولك : زيد زيد . وأن تكون الأولى عدة بأن العسر مردف بيسر لا محالة ، والثانية عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر فهما يسران على تقدير الاستئناف .

وإنما كان العسر واحد لأنه لا يخلو إما أن يكون تعريفه للعهد ، وهو العسر الذي كانوا فيه فهو

هو ، لأنّ حكمه حكم زيد في قولك : إنّ مع زيد مالاً إنّ مع زيد مالاً ، وإما أن يكون للجنس الذي يعلمه كل أحد فهو هو أيضاً .

وأما اليسر فمنكر متناول لبعض الجنس ، فإذا كان الكلام الثاني مستأنفاً غير مكرر فقد تناول بعضاً غير البعض الأوّل بغير إشكال ، أو بأن لن يغلب عسر الدنيا اليسر الذي وعد الله المؤمنين فيها واليسر الذي وعدهم في الآخرة إنما يغلب أحدهما وهو يسر الدنيا فأما يسر الآخرة فدائم غير زائل ، أي : لا يجتمعان في الغلبة كقوله صلى الله عليه وسلم "شهرا عيد لا ينقصان" ، أي : لا يجتمعان في النقصان . فإن قيل : فما معنى التنكير ؟

أجيب : بأنه للتفخيم ، كأنه قيل : إنّ مع العسر يسراً عظيماً وأي يسر .

روى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لو كان العسر في جحر ضب لتبعه اليسر حتى يخرجه" . وللطبراني عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لو كان العسر في جحر لدخل اليسر حتى يخرجه" . ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية" .

ولما عدد تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم نعمه السابقة ووعده الآنفة حثه على الشكر والاجتهاد في العبادة بقوله تعالى:

﴿ فإذا فرغت ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : فرغت من صلاتك المكتوبة ﴿ فانصب ﴾ ، أي : انصب في الدعاء . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : فإذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل . وقال الشعبيّ : إذا فرغت من التشهد فادع لدنياك وآخرتك . وقال الحسن وزيد بن أسلم : إذا فرغت من جهاد عدوّك فانصب في عبادة ربك وصل . وقال ابن حيان عن الكلبيّ : إذا فرغت من تبليغ الرسالة فانصب ﴿ استغفر لذنبك وللمؤمنين ﴾ (محمد :)

. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إني أكره أن أرى أحدكم فارغاً لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة .

﴿ وإلى ربك ﴾ ، أي : المحسن إليك بفضائل النعم خصوصاً بما ذكر في هاتين السورتين ﴿ فارغب ﴾ ، أي : اجعل رغبتك إليه خصوصاً ، ولا تسأل إلا فضله متوكلاً عليه . وقيل : تضرع إليه راغباً في الجنة راهباً من النار عصمنا الله تعالى وأحبابنا منها بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشريّ أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ ألم نشرح

فكأنما جاءني وأنا مغتمّ ففرج عني" حديث موضوع. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 375.371 ﴾

(177/820)

وقال القاسمى :

سورة الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾

أي : ألم نوسعه بإلقاء ما يسره ُويقويه ، وإظهار ما خفي عليه من الحكم والأحكام ، وتأييده وعصمته ، حتى علم ما لم يعلم ، وصار مستقرّ الحكمة ووعاء حقائق الأنباء . والهمزة لإنكار النفي ، ونفي النفي إثبات ؛ ولذا عطف المثبت عليه .

وأصل الشرح بسط اللحم ونحوه ، مما فيه توسيع مستلزم لإظهار باطنه وما خفي منه . استعمل في القلب الشرح والسعة ، لأنه محل الإدراك لما يسرّ وضده ؛ فجعل إدراكه لما فيه مسرة يزيل ما يحزنه ، شرحاً وتوسيعاً ؛ وذلك لأنه بالإلهام ونحوه مما ينفس كربه ويزيل همهُ ، بظهور ما كان غائباً عنهُ وخفياً عليه ، مما فيه مسرتهُ ، كما يقال : شرح الكتاب ، إذا

وضحه . ثم استعمل في الصدر الذي هو محل القلب مبالغة فيه ؛ لأن اتساع الشيء يتبعه اتساع ظرفه ؛ ولذا تسمع الناس يسمون السرور بسطاً ، ثم سموا ضده ضيقاً وقبضاً ، وهو من المجاز المتفرع على الكناية بوسائط ، وبعد الشيوع زال الخفاء وارتفعت الوسائط ، هذا ما حققه الشهاب .

(178/820)

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ قال الشهاب : الوزر الحِمل الثقيل . ووضعه : إزالته عنه . لأنه إذا تعدى بـ : على كان بمعنى التحميل ، وإذا تعدى بـ : من كان بمعنى الإزالة . والإنقاض : حصول النقيض وهو صوت فقرات الظهر . وقيل : صوت الجمل أو الرحْل أو المركوب إذا ثقل عليه . فالإنقاض التثقيل في الحمل حتى يسمع له نقيض ، أو صوت ، كما قاله الأزهريّ . وقال ابن عرفة : هو إثقال يجعل ما حمل عليه نقضاً ، أي : مهزولاً ضعيفاً . وقد مثل بذلك حاله صلوات الله عليه مما كان يثقل عليه ويغمه من قلة المستجيبين لدعوته ، وضعف من سبق إلى الإيمان به ، وشيوع الشرك والضلال في جزيرة العرب ، وقوة أهلها . ووضعه عنه هو كثرة من آمن بعدُ ، ودخولهم في دين الله أفواجاً ، وقوة أتباعه وانمحاء الشرك والجاهلية من الجزيرة ، وذلُّ أهلها بعد العز ، وانقيادهم بعد

شدة الإباء . وقيل : الآية كناية عن عصمته وتطهيره من دنس الآثام كقوله :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] .

والوجه الأول أقوى ، وفي الآية – على كلٍّ – استعارة تمثيلية ، والوضع ترشيح لها .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ أي : بالنبوة وفرض الاعتراف برسالته وجعله شرطاً في قبول الإيمان وصحته . وقال قتادة : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وعن مجاهد : أي : لا أُذْكَرُ إلا ذكرتَ معي . قال الشهاب وهذا – أي : المأثور عن مجاهد – إن أخذ كلية خالف الواقع ؛ فإنه كم ذكر الله وحده ! وكم ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وحده ! وإن عيِّن موضعاً فهو ترجيح بلا مرجح ، وإن جعلت القضية مهملة ، فلا يخفى ما في الإهمال من الركاكة .

قال : وقد أمعنت فيه النظر فلم أر ما يثلج الصدر ، ويردّ السائل غير صفر ، حتى لاح لي أن الجواب الحق أن يقال : الذكر محمول على الذِّكر في مجامع العبادة ومشاهدها ؛ فإن ذكره صلى الله عليه وسلم مقرون بذكره فيها في الواقع في الصلوات والخطب ، فلا ترى مشهداً

من مشاهد الإسلام إلا وهو كذلك ، فلا ينفك ذكره صلى الله عليه وسلم عن ذكره تعالى في يوم من الأيام ، ولا ليلة من الليالي بل ولا في وقت من الأوقات المعتدّ بها ، فتتجه الكلية .

فإن قلت : من أين لك هذا التقييد ، فهل هو إلا ترجيح من غير مرجح ؟ قلت : المقام ناطق بهذا القيد ؛ فإن المراد التنويه بذكره صلى الله عليه وسلم وإشاعة قدره الدال على قُربه صلى الله عليه وسلم من ربه ، كقرب اسمه من اسمه ، وإنما يكون هذا بذكره في المحافل والمشاهد والجوامع والمساجد ، وأيُّ إشاعة أقوى من الآذان ؟ لا في الأسواق والطرق التي يطرح فيها كل ذكر .

ثم قال : واعلم أن تحقيق هذا المقام ما قالهُ الإمام الشافعيّ في أول " رسالته الجديدة " وبينهُ السبكيّ في تعليقه على الرسالة فقال رحمه الله تعالى :

قال الإمام رضي الله تعالى عنه ، عن مجاهد في تفسير الآية : لا أُذْكر إلا ذكِرت معي : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . قال الشافعي : يعني ذكره عند الإيمان بالله والأذان ، ويحتمل ذكرُه عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية .

قال السبكيّ : هذا الاحتمال من الشافعيّ جيد جداً ، وهو مبني على أن المراد بالذكر ، الذكر بالقلب ، وهو صحيح ، فعلى هذا يعم ؛ لأن الفاعل للطاعة أو الكافّ عن المعصية امتثالاً لأمر الله تعالى به ، ذاكراً للنبي صلى الله عليه وسلم بقلبه ؛ لأنه المبلغ لها عن الله ، هذا أعم من الذكر باللسان ، فإنه مقصور على الإسلام والأذان والتشهد والخطبة ونحوها . قال الشافعيّ : فلم تُمْسِ بنا نعمة ظهرت ولا بطنت ، نلنا بها حظاً في دِين أو دنيا ، أو رُفع عنا بها مكروه فيهما أو في واحد منهما ، إلا ومحمد صلى الله عليه وسلم سببها ؛ فعلم من هذا أنه إن أبقى العموم والحصر على ظاهره ، حمل الذكر القلبيّ فيشمل كل موطن من مواطن العبادة والطاعة ، فإن العاقل المؤمن إذا ذكر الله ، تذكر من دل على معرفته وهداهُ إلى طاعته ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قيل :

~فأنت باب الله أي : امرئ أتاهُ من غيرك لا يدخل ؟

ولك أن تقول : المراد برفع ذكره تشريفه صلى الله عليه وسلم بمقارنته لذكره في شعائر الدين الظاهرة ، وأولها كلمتا الشهادة ، وهما أساس الدِّين ثم الأذان والصلاة والخطب ، فالحصر إضافيّ . انتهى كلام الشهاب .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾

إشارة إلى أن الذي منحهُ – صلوات الله عليه – من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر ، بعد ضيق الأمر واستحكام حلقات الكرب في أول السير ، كان على ما جرت به سنتهُ تعالى في هذا النوع من الخليقة ، وهو أن مع العسر يسراً ؛ ولهذا وصل العبارة بالفاء التي لبيان السبب . وأل في ﴿ الْعُسْرِ ﴾ للاستغراق ولكنه استغرق بالمعهود عند المخاطبين من أفراده أو أنواعه ، فهو العسر الذي يعرض من الفقر والضعف وجهل الصديق وقوة العدوّ ، وقلة الوسائل إلى المطلوب ونحو ذلك مما هو معهود ومعروف ، فهذه الأنواع من العسر مهما اشتدت ، وكانت النفس حريصة على الخروج منها طالبة لكشف شدتها ، واستعملت من وسائل الفكر والنظر والعمل على ما من شأنه أن يعدّ لذلك في معروف العقل ، واعتصمت بعد ذلك بالتوكل على الله حتى لا تضعفها الخيبة لأول مرة ، ولا يفسخ عزيمتها ما تلاقيه عند الصدمة الأولى ؛ فلا ريب في أن النفس تخرج منها ظافرة . وقد كان هذا حال النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن ضيق الأمر عليه كان يحمله على الفكر والنظر ، حتى آتاه الله ما هو أكبر من ذلك ، وهو الوحي والنبوة ، ثم لم تكسر مقاومات قومه شيئاً من عزمه ، بل ما زال يلتمس الغنى في الفقر ، والقوة في الضعف ، حتى أوتي من ذلك ما زعزع أركان الأكاسرة والقياصرة وترك منه لأمته ما تمتعت به أعصاراً طوالاً . أفاده الإمام رحمه الله .

لطيفة :

تنكير ﴿ يُسْراً ﴾ للتعظيم ، والمراد يسر عظيم وهو يسر الدارين . وفي كلمة ﴿ مَعَ ﴾ إشعار بغاية سرعة مجيء اليسر ، كأنه مقارن للعسر ؛ فهو استعارة ، شبه التقارب بالتقارن ، فاستعير لفظ ﴿ مَعَ ﴾ لمعنى : بعد .

(182/820)

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ تكرير للتأكيد ، أو عِدةٌ مستأنفة بأن العسر مشفوع بيسر آخر كثواب الآخرة ، وعليه أثر : < لن يغلب عسر يسرين > فإن المعرف إذا أعيد يكون الثاني عين الأول ، سواء كان معهوداً أو جنساً ، وأما المنكّر فيحتمل أن يراد بالثاني فرد مغاير لما أريد بالأول .

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ أي : من عمل من أعمالك النافعة لك ولأمتك ﴿ فَانصَبْ ﴾ أي : خذ في عمل آخر واتعب فيه ، فإنك تجد لذة الراحة عقب النصب بما تجنيه من ثمرة العمل ، قاله الإمام .

﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ أي : في الدعوة إليه ، أي : لا ترغب إلا إلى ذاته ، دون ثواب أو غرض آخر ، لتكون دعوتك وهدايتك إليه ، قاله القاشاني .

وقال ابن جرير : اجعل نيتك ورغبتك إليه دون من سواه من خلقه ؛ إذ كان هؤلاء المشركون من قومك قد جعلوا رغبتهم في حاجاتهم إلى الآلهة والأنداد . والأظهر عندي - اعتماداً على ما صححناه من أن الآية مدنية وأنها من أواخر ما نزل - أن يكون معنى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ أي : فرغت من مقارعة المشركين ، وظفرت بأمنيتك منهم ، بمجيء نصر الله والفتح ، فانصب في العبادة والتسبيح والاستغفار ، شكراً لله على ما أنعم ، وأرغب إليه خاصة ابتغاءً لمرضاته ؛ فتكون الآيتان بمعنى سورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ثم رأيت ابن جرير نقل مثله عن ابن زيد عن أبيه قال : فإذا فرغت من الجهاد ، جهاد العرب وانقطع جهادهم ، فانصب لعبادة الله وإليه فارغب . وهو ظاهر . نعم لفظ الآية عام فيما أثرناه جميعهُ ، إلا أن السياق والنظائر - وهو أهم ما يرجع إليه - يؤيد ما قاله ابن زيد واعتمدناه . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 424.428 ﴾

(183/820)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الشرح

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (3)

سورة الشرح

تعريف بسورة الشرح

نزلت هذه السورة بعد سورة الضحى . وكأنها تكملة لها . فيها ظل العطف الندي .

وفيها روح المناجاة الحبيب . وفيها استحضار مظاهر العناية . واستعراض مواقع الرعاية

. وفيها البشرى باليسر والفرج . وفيها التوجيه إلى سر اليسر وحبل الاتصال الوثيق . .

(ألم نشرح لك صدرك ? ووضعنا عنك وزرك . الذي أنقض ظهرك ? ورفعنا لك ذكرك

?)

وهي توحي بأن هناك ضائقة كانت في روح الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأمر من أمور

هذه الدعوة التي كلفها , ومن العقبات الوعرة في طريقها ; ومن الكيد والمكر المضروب

حولها . . توحي بأن صدره (صلى الله عليه وسلم) كان مثقلا بهموم هذه الدعوة الثقيلة

, وأنه كان يحس العبء فادحا على كاهله . وأنه كان في حاجة إلى عون ومدد وزاد

ورصيد . .

ثم كانت هذه المناجاة الحلوة , وهذا الحديث الودود !

(ألم نشرح لك صدرك ?) . . ألم نشرح صدرك لهذه الدعوة ? ونيسر لك أمرها ? .

ونجعلها حبيبة لقلبك , ونشرع لك طريقها ? وننر لك الطريق حتى ترى نهايته السعيدة !

فتش في صدرك - ألا تجد فيه الروح والانشراح والإشراق والنور ? واستعد في حسك مذاق هذا العطاء , وقل: ألا تجد معه المتاع مع كل مشقة والراحة مع كل تعب , واليسر مع كل عسر , والرضى مع كل حرمان ?

(ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك) . . ووضعنا عنك عبئك الذي أثقل ظهرك حتى كاد يحطمه من ثقله . . وضعناه عنك بشرح صدرك له فخف وهان . وبتوفيقك وتيسيرك للدعوة ومداخل القلوب . وبالوحي الذي يكشف لك عن الحقيقة ويعينك على التسلل بها إلى النفوس في يسر وهوادة ولين .

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

(184/820)

ألا تجد ذلك في العبء الذي أنقض ظهرك ? ألا تجد عبئك خفيفا بعد أن شرحنا لك صدرك ?

(ورفعنا لك ذكرك) . . رفعناه في الملأ الأعلى , ورفعناه في الأرض , ورفعناه في هذا الوجود جميعا . . رفعناه فجعلنا اسمك مقرونا باسم الله كلما تحركت به الشفاه:

"لا إله إلا الله . محمد رسول الله" . . وليس بعد هذا رفع , وليس وراء هذا منزلة . وهو المقام الذي تفرد به (صلى الله عليه وسلم) دون سائر العالمين . .

ورفعنا لك ذكرك في اللوح المحفوظ , حين قدر الله أن تمر القرون , وتكر الأجيال , وملايين الشفاه في كل مكان تهتف بهذا الأسم الكريم , مع الصلاة والتسليم , والحب العميق العظيم .

ورفعنا لك ذكرك . وقد ارتبط بهذا المنهج الإلهي الرفيع . وكان مجرد الاختيار لهذا الأمر رفعة ذكر لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود . .

فأين تقع المشقة والتعب والضنى من هذا العطاء الذي يمسح على كل مشقة وكل عناء ؟

ومع هذا فإن الله يتلطف مع حبيبه المختار , ويسري عنه , ويؤنسه , ويطمئنه ويطلعه على اليسر الذي لا يفارقه:

(فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا) . .

إن العسر لا يخلو من يسر يصاحبه ويلازمه . وقد لازمه معك فعلا . فحينما ثقل العبء شرحنا لك صدرك , فخف حملك , الذي أنقض ظهرك . وكان اليسر مصاحبا للعسر , يرفع إصره , ويضع ثقله .

وإنه لأمر مؤكد يكرره بألفاظه:(فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا) . . وهذا التكرار يشي بأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان في عسرة وضيق ومشقة , اقتضت

هذه الملاحظة, وهذا التذكير, وهذا الاستحضار لمظاهر العناية, وهذا الاستعراض لمواقع الرعاية, وهذا التوكيد بكل ضروب التوكيد . . والأمر الذي يثقل على نفس محمد هكذا لا بد أنه كان أمرا عظيما . .

ثم يجيء التوجيه الكريم لمواقع التيسير, وأسباب الانشراح, ومستودع الري والزاد في الطريق الشاق الطويل:(فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب) . .

(185/820)

إن مع العسر يسرا . . فخذ في أسباب اليسر والتيسير . فإذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض, ومع شواغل الحياة . . إذا فرغت من هذا كله فتوجه بقلبك كله إذن إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتكد وتجهد . . العبادة والتجرد والتطلع والتوجه . .(وإلى ربك فارغب) . . إلى ربك وحده خاليا من كل شيء حتى من أمر الناس الذين تشتغل بدعوتهم . . إنه لا بد من الزاد للطريق . وهنا الزاد . ولا بد من العدة للجهاد . وهنا العدة . . وهنا ستجد يسرا مع كل عسر, وفرجا مع كل ضيق . . هذا هو الطريق !

وتنتهي هذه السورة كما انتهت سورة الضحى, وقد تركت في النفس شعورين ممتزجين:الشعور بعظمة الود الحبيب الجليل الذي ينسم على روح الرسول (صلى الله عليه

وسلم) من ربه الودود الرحيم . والشعور بالعطف على شخصه (صلى الله عليه وسلم) ونحن نكاد نلمس ما كان يساور قلبه الكريم في هذه الآونة التي اقتضت ذلك الود الجميل . إنها الدعوة . هذه الأمانة الثقيلة وهذا العبء الذي ينقض الظهر . وهي مع هذا وهذا مشرق النور الإلهي ومهبطه , ووصلة الفناء بالبقاء , والعدم بالوجود ! . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3929 . 3931 ﴾

(186/820)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سُورَةُ الشَّرْحِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1)

ذكر تعالى هنا ثلاث مسائل : شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر .

وهي وإن كانت مصدرة بالاستفهام ، فهو استفهام تقريري لتقرير الإثبات ، فقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ بمعنى شرحنا على المبدأ المعروف ، من أن نفي إثبات . وذلك لأن همزة الاستفهام وهي وهي فيها معنى دخلت على لم وهي للنفي ، فترافعا فبقي الفعل مثبتاً ، .

قالوا : ومثله قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : 36] . وقوله : ﴿ قَالَ

أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً ﴾ [الشعراء : 18] .

وعليه قول الشاعر :

ألستم خير من ركب المطايا . . . وأندى العالمين بطون راح

فتقرر بذلك أنه تعالى يعدد عليه نعمة العظمى ، وقد ذكرنا سابقاً ارتباط هذه السورة بالتي قبلها في تتمة نعم الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم .

وروى النيسابوري عن عطاء وعمر بن عبد العزيز : أنهما كانا يقولان : هذه السورة وسورة الضحى سورة واحدة ، وكانا يقرآنهما في الركعة الواحدة ، وما كانا يفصلان بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم والذي دعاهما إلى ذلك هو قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ كالعطف على قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ [الضحى : 6] ، ورد هذا الادعاء – أي من كونهما سورة واحدة – وعلى كل فإن هذا إذا لم يجعلهما سورة واحدة فإنه يجعلهما مرتبطتين . معاً في المعنى ، كما في الأنفال والتوبة .

واختلف في معنى شرح الصدر ، إلاَّ أنه لا منافاة فيما قالوا ، وكلها يكمل بعضها بعضاً .

فقيل : هو شق الصدر سواء كان مرة أو أكثر ، وغسله وملؤه إيماناً وحكمه ، كما في رواية مالك بن صعصعة في ليلة الإسراء ، ورواية أبي هريرة في غيرها .

وفيه كما في رواية أحمد : أنه شق صدره وأخرج منه الغل والحسد ، في شيء كهيئة العلقة ، وأدخلت الرأفة والرحمة .

وقيل : شرح الصدر ، إنما هو توسيعه للمعرفة والإيمان ومعرفة الحق ، وجعل قلبه وعاء للحكمة .

وفي البخاري عن ابن عباس " شرح الله صدره للإسلام " .

وعند ابن كثير : نورناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً ، كقوله ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ [الأنعام : 125] .

والذي يشهد له القرآن : أن الشرح هو الانشراح والارتياح . وهذه حالة نتيجة استقرار الإيمان والمعرفة والنور والحكمة . كما في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر : 22] ، فقوله : فهو على نور من ربه : بيان لشرح الصدر للإسلام .

كما أن ضيق الصدر ، دليل على الضلال ، كما في نفس الآية ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً ﴾ [الأنعام : 125] الآية .

وفي حاشية الشيخ زادة علي البيضاوي قال : لم يشرح صدر أحد من العالمين ، كما شرح صدره عليه السلام ، حتى وسع علوم الأولين والآخرين فقال : " أوتيت جوامع الكلم "

اهـ.

ومراده بعلوم الأولين والآخرين، ما جاء في القرآن من أخبار الأمم الماضية مع رسلهم وأخبار المعاد، وما بينه وبين ذلك مما علمه الله تعالى.

والذي يظهر والله تعالى أعلم: أن شرح الصدر الممتن به عليه صلى الله عليه وسلم، أوسع وأعم من ذلك، حتى إنه ليشمل صبره وصفحه وعفوه عن أعدائه، ومقابلته الإساءة بالإحسان، حتى إنه ليسع العدو، كما يسع الصديق.

كقصة عودته من ثقيف: أذا آذوه سفهاؤهم، حتى ضاق ملك الجبال بفعلهم، وقال له جبريل: إن ملك الجبال معي، إن أردت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل، فينشرح صدره إلى ما هو أبعد من ذلك، ولكأنهم لم يسيؤوا إليه فيقول: "اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون، إني لأرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله".

(188/820)

وتلك أعظم نعمة وأقوى عدة في تبليغ الدعوة وتحمل أعباء الرسالة، ولذا توجه نبي مسوى إلى ربه يطلبه إياها، لما كلف الذهاب إلى الطاغية فرعون كما في قوله تعالى: ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى قَالَ رَبِّ اشرح لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي

يَفْقَهُواْ قَوْلِي واجعل لِّي وَزِيرا ًمِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشدد بِهِ أَزْرِي ﴾ [طه : 24-31] إلى آخر السياق .

فذكر هنا من دواعي العون على أداء الرسالة أربعة عوامل : بدأها بشرح الصدر ، ثم تيسير الأمر ، وهذان عاملان ذاتيان ، ثم الوسيلة بينه وبين فرعون ، وهو اللسان في الإقناع ، ﴿ واحلل عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴾ [طه : 27-28] ، ثم العامل المادي أخيراً في المؤازرة ، ﴿ واجعل لِّي وَزِيرا ًمِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشدد بِهِ أَزْرِي ﴾ [طه : 29-31] ، فقدم شرح الصدر على هذا كله لأهميته ، لأنه به يقابل كل الصعاب ، ولذا قابل به ما جاء به السحرة من سحر عظيم وما قابلهم به فرعون من عنت أعظم .

وقد بين تعالى من دواعي انشراح الصدر وإنارته ، ما يكون من رفعة وحكمة وتيسير ، وقد يكون من هذا الباب مما يساعد عليه تلقي تلك التعاليم من الوحي ، كقوله تعالى : ﴿ خُذِ العفو وَأْمُرْ بالعرف وَأَعْرِضْ عَنِ الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199] ، وكقوله : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [آل عمران : 134] ، مما لا يتأتى إلا ممن شرح الله صدره .

ومما يعين الملازمة عليه على انشراح الصدر ، ورفعاً قد صبر على أذى المشركين بمكة ومخادعة المنافقين بالمدينة ، وتلقى كل ذلك بصدر رحب .

وفي هذا كما قدمنا توجيه لكل داعية إلى الله ، أن يكون رحب الصدر هادئ النفس متجملاً بالصبر .

(189/820)

وقوله : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ ، والوضع يكون للحط والتخفيف ، ويكون للحمل والتثقيل ، فإن عدي بعن كان للحط ، وإن عدي بعلى كان للحمل ، في قولهم : وضعت عنك : ووضعت عليك ، والوزر لغة الثقل .

ومنه : حتى تضع الحرب أوزارها ، أي ثقلها من سلاح ونحوه .

ومنه الوزير : المتحمل ثقل أميره وشغله ، وشرعاً الذنب كما في الحديث : " ومن سنّ سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزير من عمل بها إل يوم القيامة "

، وقد يتعاوران في التعبير كقوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً ﴾ [النحل : 25] ، وقوله مرة أخرى ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 13] .

وقد أفرد لفظ الوزر هنا وأطلق ، ولم يبين ما هو وما نوعه ، فاختلف فيه اختلافاً كثيراً .

فقيل : ما كان فيه من أمر الجاهلية ، وحفظه من مشاركته معهم ، فلم يلحقه شيء منه .

وقيل : ثقل تألمه مما كان عليه قومه ، ولم يستطع تغييره ، وشفقته صلى الله عليه وسلم بهم ،

أي كقوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ على آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بهذا الحديث أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6] ، أي أسفاً عليهم .

وقال أبو حيان : هو كناية عن عصمته صلى الله من الذنوب ، وتطهيره من الأرجاس .

وقال ابن جرير : وغفرنا لك ما سلف من ذنوبك ، وحططنا عنك ثقل أيام الجاهلية التي كنت فيها .

وقال ابن كثير : هو بمعنى ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ الله مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] .

فكلام أبي حيان : يدل على العصمة ، وكلام ابن جرير يدل على شيء في الجاهلية ، وكلام ابن كثير مجمل .

(190/820)

وفي هذا المجال مبحث عصمة النبياء عموماً ، وهو مبحث أصولي تحققه كتب الأصول لسلامة الدعوة ، وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحثه في سورة طه عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ وعصى ءَادَمُ رَبَّهُ فغوى ﴾ [طه : 121] ، وأورد كلام المعتزلة والشيعة والحشوية ، ومقياس ذلك ، عقلاً وشرعاً ، وفي سورة ص عند قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فاستغفر رَبَّهُ ﴾ [ص : 24] ، ونبه عندها على أن كل ما

يقال في داود عليه السلام حول هذا المعنى ، كله إسرائيليات لا تليق بمقام النبوة . اهـ .

أما في خصوصه صلى الله عليه وسلم ، فإنا نورد الآتي : إنه مهما يكن من شيء ، فإن عصمته صلى الله عليه وسلم من الكبائر والصغائر بعد البعثة يجب القطع بها ، لنص القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] ، لوجوب التأسي به وامتناع أن يكون فيه شيء من ذلك قطعاً .

أما قبل البعثة ، فالعصمة من الكبائر ايضاً ، يجب الجزم بها لأنه صلى الله كان في مقام التهيؤ للنبوة من صغره ، وقد شق صدره في سن الرضاع ، وأخرج منه حظ الشيطان ، ثم إنه لو كان قد وضع منه شيء لأخذوه عليه حين عارضوه في دعوته ، ولم يذكر من ذلك ولا شيء فلم يبق إلا القول في الصغائر ، فهي دائرة بين الجواز والمنع ، فإن كانت جائزة ووقعت ، فلا تمس مقامه صلى الله عليه وسلم لوقوعها قبل البعثة والتكليف ، وأنها قد غفرت وحط عنها ثقلها ، فإن لم تقع ولم تكن جائزة في حقه ، فهذا المطلوب .

وقد ساق الألوسي رحمه الله في تفسيره : أن عمه أبا طالب ، قال لأخيه العباس يوماً : " لقد ضمته إليّ وما فارقته ليلاً ولا نهاراً ولا ائتمنت عليه أحداً " ، وذكر قصة بنيه ومنامه

في وسط أولاده أول الليل ، ثم نقله أباه محل أحد أبنائه حفاظاً عليه ، ثم قال : " ولم أر منه كذبة ولا ضحكاً ولا جاهلية ، ولا وقف مع الصبيان وهم يلعبون " .

وذكرت كتب التفسير أنه صلى الله عليه وسلم أراد مرة في صغره أن يذهب لمحل عرس ليرى ما فيه ، فلما دنا منه أخذه النوم ولم يصح إلا على حر الشمس ، فصانه الله من رؤية أو سماع ، شيء من ذلك .

ومنه قصة مشاركته في بناء الكعبة حن تعرى ومنع منه حالاً ، وعلى المنع من وقوع شيء منه صلى الله عليه وسلم بقي الجواب على معنى الآية ، فيقال والله تعالى أعلم : إنه تكريم له صلى الله عليه وسلم كما جاء في أهل بدر ، قوله صلى الله عليه وسلم : " لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم " مع أنهم لن يفعلوا محرماً بذلك ، ولكنه تكريم لهم ورفع لمنزلتهم .

وقد كان صلى الله يتوب ويستغفر ويقوم الليل حتى تورَّمت قدماه ، وقال : " أفلا أكون عبداً شكوراً " .

فكان كل ذلك منه شكراً لله تعالى ، ورفعاً لدرجاته صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء : " النعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه " ، وهو حسنة من حسناته صلى الله عليه وسلم .

أو أنه صلى الله عليه وسلم كان يعتد على نفسه بالتقصير ، ويعتبر ذنباً يستثقله ويستغفر

منه، كما كان إذا خرج من الخلاء قال: "غفرانك".

ومعلوم أنه ليس من موجب للاستغفار، إلا ما قيل شعوره بترك الذكر في تلك الحالة، استوجب منه ذلك.

(192/820)

وقد استحسن العلماء قول الجنيد: حسنات الابرار سيئات المقربين، أو أن المراد مثل ما جاء في القرآن من بعض اجتهاداته صلى الله عليه وسلم، وفي سبيل الدعوة، فيرد اجتهاده فيعظم عليه كقصة ابن مكتوم، وعوتب فيه ﴿ عَبَسَ وتولى أَن جَآءَهُ الأعمى ﴾ [عبس: 1-2]، الآية، ونظيرها ولو كان بعد نزول هذه السورة، إلا أنه من باب واحد كقوله: ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: 43]، وقصة أسارى بدر، وقوله: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيْءٌ ﴾ [عمران: 128]، واجتهاده في إيمان عمه، حتى قيل له: ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: 56]، ونحو ذلك. فتحمل الآية عليه، أو أن الوزر بمعناه اللغوي، وهو ما كان يثقله من أعباء الدعوة، وتبليغ الرسالة، كما ذكر ابن كثير في سورة الإسراء عن الإمام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لما كان ليلة أُسري بي فأصبحت بمكة فظعت، وعرفت أن

الناس مكذّبي ، فقعدت معتزلاً حزيناً ، فمرَّ بي أبو جهل ، فجاء حتى جلس إليه ، فقال له كالمستهزئ : هل كان من شيء ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، وقصّ عليه الإسراء " .

ففيه التصريح بأنه صلى الله عليه وسلم فظع ، والفظاعة : ثقل وحزن ، والحزن : ثقل .

وتوقع تكذيبهم إياه اثقل على النفس من كل شيء . والله تعالى اعلم .

وقوله تعالى : ﴿ الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ ، أي ثقله مشعر بان للذنب ثقلاً على المؤمن ينوء به ، ولا يخففه إلا التوبة وحطه عنه .

وقوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ، لم يبين هنا بم ولا كيف له ذكره ، والرفع يكون حسياً ويكون معنوياً ، فاختلف في المراد به أيضاً .

فقيل : هو حسي في الأذان والإقامة ، وفي الخطب على المنابر وافتتاحيات الكلام في الأمور الهامة ، واستدلوا لذلك بالواقع فعلاً ، واستشهدوا بقول حسان رضي الله ، وهي أبيات في ديوانه من قصيدة دالية :

اغر عليه للنبوة خاتم . . . من الله مشهود يلوح ويشهد

وضم الأله اسم النَّبي إلى اسمه . . . إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وشق له من اسمه ليجله . . . فذو العرش محمود وهذا محمد

ومن رفع الذكر معنى أي من الرفعة ، ذكره صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء قبله ، حتى عرف للأمم الماضية قبل مجيئه .

وقد نص القرآن أن الله جعل الوحي ذكراً له ولقومه ، في قوله تعالى : ﴿ فاستمسك بالذي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾ [الزخرف : 43-44] ، ومعلوم أن ذكر قومه ذكر له ، كما قال الشاعر :

وكم أب قد علا بابن ذرى رتب . . . كما علت برسول الله عدنان

فتبين أن رفع ذكره صلى الله عليه وسلم ، إنما هو عن طريق الوحي سواء كان بنصوص من توجيه الخطاب إليه بمثل ﴿ يا أيها الرسول ﴾ [المائدة : 41] ، ﴿ يا أيها النبي ﴾ [الأنفال : 64] ، ﴿ يا أيها المدثر ﴾ [المدثر : 1] ، والتصريح باسمه في مقام الرسالة ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ ﴾ [الفتح : 29] ، أو كان في فروع التشريع ، كما تقدم في أذان وإقامة وتشهد وخطب وصلاة عليه صلى الله عليه وسلم . والله تعالى أعلم .

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

النصب : التعب بعد الاجتهاد ، كما في قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴾ [الغاشية : 2-3] .

وقد يكون النصب للدنيا أو للآخرة ، ولم يبين المراد بالنصب في أي شيء ، فاختلف فيه ، ولكنها أقوال متقاربة .

فقيل : في الدعاء بعد الفراغ من الصلاة .

(194/820)

وقيل : في النافلة من الفريضة ، والذي يشهد له القرآن ، أنه توجيه عام للأخذ بحظ الآخرة بعد الفراغ من عمل الدنيا ، كما مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء : 79] ، وقوله : ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ [المزمل : 6] أي لأنها وقت الفراغ من عمل النهار وفي سكون الليل : وقوله : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر : 1-3] ، فيكون وقته كله مشغولاً ، إما للدنيا وإما للدين .

وفي قوله : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ ، حل لمشكلة الفراغ التي شغلت العالم حيث لم تترك للمسلم فراغاً في وقته ، لأنه إما في عمل للدنيا ، وإما في عمل للآخرة .

وقد روي عن ابن عباس : " أنه مر على رجلين يتصارعان فقال لهما : ما بهذا أُمرنا بعد

فراغنا " .

وروي عن عمر أنه قال : " إني لأكره لأحدكم أن يكون خالياً سبهللا ، لا في عمل دنيا ولا دين " ولهذا لم يَشْكُ الصدر الأول فراغاً في الوقت .

ومما يشير إلى وضع الصدر الأول ، ما رواه مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه قال : قلت لعائشة رضي الله عنها –وأنا يومئذٍ حديث السن– : " أرأيت قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصفا والمروة مِن شَعَآئِرِ الله فَمَنْ حَجَّ البيت أَوِ اعتمر فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة : 158] ، فما على الرجل شيء ألا يطوف بهما ؟ فقالت عائشة : كلا لو كان كما تقول لكانت ، فلا جناح عليه الا يطوف بهما " .

فانظر رحمك الله وإياي ، فيم يفكر حديث السن ، وكيف يستشكل معاني القرآن ، فمثله لا يوجد عنده فراغ .

تنبيه

ذكر الأوسي في قوله تعالى : ﴿ فانصب ﴾ قراءة شاذة بكسر الصاد ، وأخذها الشيعة على الفراغ من النبوة ، ونصب علي إماماً ، وقال : ليس الأمر متعينا بعلي فالسُّني يمكن أن

يقول : فانصب أبا بكر ، فإن احتج الشيعي بما كان في غدير حم ، احتج السني بأن وقته لم يكن وقت الفراغ من النبوة .

يلي أن قوله صلى الله عليه وسلم : " مُروا أبا بكر فليصلّ بالناس " كان بعده ، وفي قرب فراغه صلى الله عليه وسلم من النبوة ، إذا كان في مرضه الذي مات فيه .

فإن احتج الشيعي بالفراغ من حجة الوداع ، رده السني بأن الآية قبل ذلك . انتهى .

وعلى كل إذا كان الشيعة يحتجون بها ، فيكفي ارد احتجاجهم انها شاذة ، وتتبع الشواذ قريب من التأويل المسمى باللعب عند علماء التفسير ، وهو صرف اللفظ عن ظاهره ، لا لقرينه صارفة ولا علاقة رابطة .

ومن اللعب في التأويل في هذه الآية ، كما يفعله بعض العوام : رأيت رجلاً عامياً عادياً ، قد لبس حلة كاملة من عمامة وثوب صقيل وحزام جميل مما يسمونه نصبة ، أي بدلة كاملة ، فقال له رجل : قد لبس حلة كاملة من عمامة وثوب صقيل وحزام جميل مما يسمونه نصبة ، أي بدلة كاملة ، فقال له رجل : ما هذه النصبة يا فلان ؟ فقال له : لما فرغت من عملي نصبت ، كما قال تعالى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فانصب ﴾ .

كما سمعت آخر يتوجع لقلة ما في يده ، ويقول لزميله : ألا تعرف لي شخصاً انصب عليه ، اي آخذ قرضة منه ، فقلت له : ولم تنصب عليه ؟ والنصب كذب وحرام . فقال : إذا لم يكن عند الإنسان شيء ، ويده خالية فلا بأس ، لأن الله قال : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فانصب

﴾ ، وهذا وأمثاله مما يتجرأ عليه العامة لجهلهم ، أو أصحاب الأهواء لنحلهم .

قوله تعالى ﴿ وإلى ربّكَ فارغب ﴾ .

(196/820)

التقديم هنا مشعر بالتخصيص وهو كقوله تعالى : ﴿ إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : 5] ، أي لا نعبد غيرك : وهكذا هنا لا ترغب إلى غيره سبحانه ، كأنه يقول : الذي أنعم عليك بكل ما تقدم ، هو الذي ترغب فيما عنده لا سواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 8 صـ ﴾

(197/820)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ أَلَمْ نَشْرَحْ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ .

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمَرْوَزِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ الْحَسَنِ ﴿ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ قَالَ : خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا وَهُوَ مَسْرُورٌ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ : لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَعْنِي أَنَّ الْعُسْرَ الْمَذْكُورَ بَدِيًّا هُوَ الْمُثَنَّى بِهِ آخِرًا ؛ لِأَنَّهُ مُعَرَّفٌ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ فَيَرْجِعُ إِلَى الْعَهْدِ الْمَذْكُورِ ، وَالْيُسْرُ الثَّانِي غَيْرُ الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّهُ مَنْكُورٌ ، وَلَوْ أَرَادَ الْأَوَّلَ لَعَرَّفَهُ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " إِذَا فَرَغْتَ مِنْ فَرْضِكَ فَانْصَبْ إِلَى مَا رَغَّبَكَ تَعَالَى فِيهِ مِنْ الْعَمَلِ " وَقَالَ الْحَسَنُ : " فَإِذَا فَرَغْتَ مِنْ جِهَادِ أَعْدَائِكَ فَانْصَبْ إِلَى رَبِّكَ فِي الْعِبَادَةِ " وَقَالَ قَتَادَةُ : " فَإِذَا فَرَغْتَ مِنْ صَلَاتِكَ فَانْصَبْ إِلَى رَبِّكَ فِي الدُّعَاءِ " .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " فَإِذَا فَرَغْتَ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكَ فَانْصَبْ إِلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ " .

وَهَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا مُحْتَمَلَةٌ ، وَالْوَجْهُ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَيْهَا كُلِّهَا فَيَكُونُ جَمِيعُهَا مُرَادًا ، وَإِنْ كَانَ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهِ جَمِيعُ الْمُكَلَّفِينَ .

آخِرُ السُّورَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(199/820)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الِانْشِرَاحِ

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَك صَدْرَك ﴾ : شَرْحُهُ حَقِيقَةٌ حِسِّيَّةٌ ، وَذَلِكَ حِينَ كَانَ عِنْدَ ظِئْرِهِ ، وَحِينَ أُسْرِيَ بِهِ ، وَشَرَحَهُ مَعْنًى حِينَ جَمَعَ لَهُ التَّوْحِيدَ فِي صَدْرِهِ وَالْقُرْآنَ ، وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَظِيمًا ، وَشَرَحَهُ حِينَ خَلَقَ لَهُ الْقَبُولَ لِكُلِّ مَا أُلْقِيَ إلَيْهِ وَالْعَمَلَ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ تَمَامُ الشَّرْحِ وَزَوَالُ التَّرَحِ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَك ذِكْرَك ﴾ : يَعْنِي قَرَنَّاهُ بِذِكْرِنَا فِي التَّوْحِيدِ وَالْأَذَانِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا فَرَغْت فَانْصَبْ ﴾ : فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى اتَّفَقَ الْمُوَحِّدُونَ وَالْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ : إذَا فَرَغْت مِنْ الصَّلَاةِ فَانْصَبْ لِلْأُخْرَى بِلَا فُتُورٍ وَلَا كَسَلٍ ، وَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي تَعْيِينِهِمَا عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ إذَا فَرَغْت مِنْ الْفَرَائِضِ فَتَأَهَّبْ لِقِيَامِ اللَّيْلِ .

الثَّانِي : إذَا فَرَغْت مِنْ الصَّلَاةِ فَانْصَبْ لِلدُّعَاءِ .

الثَّالِثُ : إذَا فَرَغْت مِنْ الْجِهَادِ فَاعْبُدْ رَبَّك .

الرَّابِعُ إذَا فَرَغْت مِنْ أَمْرِ دُنْيَاك فَانْصَبْ لِأَمْرِ آخِرَتِك .

(200/820)

وَمِنْ الْمُبْتَدِعَةِ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَانْصِبْ بِكَسْرِ الصَّادِ وَالْهَمْزِ فِي أَوَّلِهِ ، وَقَالُوا : مَعْنَاهُ أَنْصِبْ الْإِمَامَ الَّذِي يُسْتَخْلَفُ ؛ وَهَذَا بَاطِلٌ فِي الْقِرَاءَةِ ، بَاطِلٌ فِي الْمَعْنَى ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَسْتَخْلِفْ أَحَدًا .

وَقَرَأَهَا بَعْضُ الْجُهَّالِ فَانْصَبَّ بِتَشْدِيدِ الْبَاءِ مَعْنَاهُ إذَا فَرَغْت مِنْ الْغَزْوِ فَجُدَّ إلَى بَلَدِك .

وَهَذَا بَاطِلٌ أَيْضًا قِرَاءَةً لِمُخَالَفَةِ الْإِجْمَاعِ ، لَكِنَّ مَعْنَاهُ صَحِيحٌ ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنْ الْعَذَابِ ، يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ نَوْمَهُ وَطَعَامَهُ وَشَرَابَهُ ، فَإِذَا قَضَى

أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ فَلْيُعَجِّلْ الرُّجُوعَ إلَى أَهْلِهِ ﴾ .

وَأَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا وَأَسْوَأُهُمْ مَآبًا وَمَبَاءً مَنْ أَخَذَ مَعْنًى صَحِيحًا ، فَرَكَّبَ عَلَيْهِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ قِرَاءَةً أَوْ حَدِيثًا ، فَيَكُونُ كَاذِبًا عَلَى اللَّهِ ، كَاذِبًا عَلَى رَسُولِهِ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا .

أَمَّا أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ عَنْ شُرَيْحٍ أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ يَلْعَبُونَ يَوْمَ عِيدٍ ، فَقَالَ : مَا بِهَذَا أَمَرَ الشَّارِعُ .

وَفِيهِ نَظَرٌ ؛ فَإِنَّ ﴿ الْحَبَشَ كَانُوا يَلْعَبُونَ بِالدَّرَقِ وَالْحِرَابِ فِي الْمَسْجِدِ يَوْمَ الْعِيدِ ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْظُرُ ﴾ .

(201/820)

﴿ وَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ بَيْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَائِشَةَ وَعِنْدَهَا جَارِيَتَانِ مِنْ جَوَارِي الْأَنْصَارِ تُغَنِّيَانِ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَمِزْمَارَةُ الشَّيْطَانِ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ : دَعْهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ ، فَإِنَّهُ يَوْمُ عِيدٍ ﴾ .

وَلَيْسَ يَلْزَمُ الدُّءُوبَ عَلَى الْعَمَلِ ، بَلْ هُوَ مَكْرُوهٌ لِلْخَلْقِ ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الشرح

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1)

قوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ : الاستفهامُ إذا دخل على النفي قَرَّره ، فصار المعنى : قد شَرَحْنا ، ولذلك عَطَفَ عليه الماضي . ومثلُه ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ ﴾ [الشعراء : 18] . والعامَّةُ على جزمِ الحاء ب " لم " وقرأ أبو جعفر بفتحها . وقال الزمخشري : " وقالوا : لعلَّه بَيَّنَ الحاءَ وأشبعها في مَخْرَجِها ، فظنَّ السامعُ أنه فتحها " وقال ابن عطية : " إنَّ الأصلَ : ألم نَشْرَحَنْ " بالنونِ الخفيفةِ ، ثم أَبْدَلَها ألفاً ، ثم حَذَفَها تخفيفاً ، كما أنشد ابو زيد :

4597 مِنْ أيِّ يَوْمَيَّ من الموتِ أفِرّْ ... أيومَ لم يُقْدَرَ أم يومَ قُدِرْ

بفتح راء " لم يُقْدَرَ " وكقولِه :

4598 اضْرِبَ عنكَ الهمومَ طارِقَها ... ضَرْبَكَ بالسيفِ قَوْنَسَ الفَرَسِ

بفتح باء " اضربَ " انتهى . وهذا مبنيٌ على جوازِ توكيدِ المجزومِ ب لم ، وهو قليلٌ جداً ،

كقولِه :

4599 يَحْسَبُه الجاهلُ ما لم يَعْلما . . . شيخاً على كُرْسِيِّه مُعَمَّما

فتتركبُ هذه القراءةُ مِنْ ثلاثةِ أصولٍ كلُّها ضعيفةٌ ؛ لأنَّ توكيدَ المجزومِ ب " لم " ضعيفٌ ، وإبدالُها أَلِفاً إنما هو الوقفِ ، وإجراءُ الوصلِ مجرى / الوقفِ خِلافُ الأصلِ ، وحَذْفُ الألفِ ضعيفٌ ، لأنه خلافُ الأصلِ . وخَرَّجه الشيخُ على لغةٍ حكاها اللحيانيُّ في " نوادره " عن بعضِ العربِ وهو الجزمُ ب " لن " ، والنصبُ ب " لم " عكسَ المعروفِ عند الناس ، وجعله أَحْسَنَ مِمَّا تقدَّم . وأنشد قولَ عائشةَ بنتِ الأعجم تمدح المختار وهو القائمُ بطَلَبِ ثأرِ الحسين بن علي رضي الله عنهما :

4600 قد كاد سَمْكُ الهدى يُنْهَدُّ قائمُه . . . حتى أُتيح له المختارُ فانْعَمدا

في كلِّ ما هَمَّ أمضى رأيَه قُدُماً . . . ولم يُشاورَ في إقدامِه أحدا

(203/820)

بنَصْبِ راء " يُشاور " وجَعَله محتمِلاً للتخريجَيْنِ .

الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3)

قوله : ﴿ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ : أي : حَمَله على النقيضِ وهو صوتُ الانتقاضِ والانفكاكِ لِثقَلِه ، مَثَلٌ لما كان يُثْقِلُه صَلَّى الله عليه وسلَّم . قال أهل اللغة : أَنْقَضَ الحِمْلُ ظَهْرَ الناقةِ إذا سَمِعْتَ له صَرِيراً مِنْ شِدَّةِ الحِمْلِ . وسَمِعْتُ نقيضَ الرَّحْلِ ، أي : صريرَه . قال العباس ابن مرداس :

4601 وأَنْقَضَ ظهري ما تَطَوَّيْتَ منهمُ . . . وكنتُ عليهم مُشْفِقاً مُتَحَنِّناً

وقال جميل :

4602 وحتى تداعَتْ بالنَّقيضِ حِبالُه . . . .

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5)

قوله : ﴿ فَإِنَّ مَعَ العسرِ يُسْراً ﴾ : العامَّةُ على سكونِ السين في الكلم الأربع ، وابن وثاب وأبو جعفر وعيسى بضمِّها . وفيه خلافٌ . هل هو أصلٌ ، أو مثقلٌ من المسكَّن ؟

والألفُ واللامُ في " العُسر " الأولِ لتعريفِ الجنس ، وفي الثاني للعهدِ ؛ ولذلك رُوِيَ عن ابن عباس : " لن يُغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن " ورُوِي أيضاً مرفوعاً أنه عليه السلام خرج يضحك يقول : " لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ " والسببُ فيه : أنَّ العربَ إذا أَتَتْ باسمٍ ثم أعادَتْه مع الألفِ واللامِ كان هو الأولَ نحو : " جاء رجلٌ فأكرمْتُ الرجلَ " وكقوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ [المزمل : 1516] ولو أعادَتْه بغير ألفٍ ولامٍ

كان غيرَ الأول . فقوله : ﴿ إِنَّ مَعَ العسرِ يُسْرًا ﴾ لَمَّا أعاد العُسْرَ الثاني أعادَه بأل ، ولَمَّا كان اليُسْرُ الثاني غيرَ الأولِ لم يُعِدْه بأل .

(204/820)

وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ ما معنى قولِ ابن عباس ؟ وذكَرَ ما تقدَّم . قلت : هذه عَمَلٌ على الظاهرِ وبناءٌ على قوةِ الرجاءِ ، وأنَّ موعدَ اللَّهِ لا يُحْمل إلاَّ على أوفى ما يحتملُه اللفظُ وأَبْلَغُه ، والقولُ فيه أنه يحتمل أَنْ تكونَ الجملةُ الثانيةُ تكريراً للأولى ، كما كرَّر قولَه : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : 15] لتقريرِ معناها في النفوسِ وتمكينِها في القلوب ، وكما يُكَرَّر المفرد في قولك : " جاء زيدٌ زيدٌ " وأَنْ تكونَ الأولى عِدةً بأنَّ العُسْرَ مُرْدَفٌ بيُسْرٍ لا مَحَالَةَ ، والثانيةُ عِدةٌ مستأنفةٌ بأنَّ العُسْرَ متبوعٌ بيسر ، فهما يُسْران على تقديرِ الاستئناف ، وإنما كان العُسْرُ واحداً لأنه لا يخلو : إمَّا أَنْ يكونَ تعريفُه للعهدِ وهو العسرُ الذي كانوا فيه فهو هو ؛ لأنَّ حكمَه حكمُ " زيد " في قولك : " إنَّ مع زيد مالاً ، إنَّ مع زيد مالاً " وإمَّا أَنْ يكونَ للجنسِ الذي يَعْلَمُه كلُّ أحدٍ فهو هو أيضاً ، وأمَّا اليُسْرُ فمنكَّرٌ مُتَناوِلٌ لبعضِ الجنس ، وإذا كان الكلامُ الثاني مستأنفاً غيرَ مكررٍ فقد تناوَلَ بعضاً غيرَ البعضِ الأولِ بغيرِ إشكال " .

وقال أبو البقاء : " العُسْرُ في الموضعَيْنِ واحدٌ ؛ لأنَّ الألفَ واللامَ توجبُ تكريرَ الأول ، وأمَّا "يُسْراً " في الموضعَيْنِ فاثنانِ ، لأنَّ النكرةَ إذا أُريد تكريرُها جِيْءَ بضميرِها أو بالألفِ واللام ، ومن هنا قيل : " لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن " وقال الزمخشري أيضاً : " فإنْ قلتَ : إنَّ " مع " للصحبة ، فما معنى اصطحاب اليُسْرِ والعُسْرِ ؟ قلت : أراد أنَّ اللَّهَ تعالى يُصيبُهم بيُسرٍ بعد العُسْرِ الذي كانوا فيه بزمانٍ قريب ، فَقَرُبَ اليُسْرُ المترقَّبُ حتى جَعَله كأنَّه كالمقارِنِ للعُسْرِ ، زيادةً في التسلية وتقويةً للقلوب " وقال أيضاً : فإنْ قلتَ ما معنى هذا التنكير ؟ قلت : التفخيمُ كأنه قيل : إنَّ مع العُسْرِ يُسْرا عظيماً وأيَّ يُسْرٍ ؟ وهو في مُصحفِ ابن مسعودٍ مرةٌ واحدةٌ . فإنْ قلتَ : فإذا ثَبَتَ في قراءِته غيرَ مكررٍ فلِمَ قال : " والذي نفسي بيده لو كان العُسْرُ في جُحْرٍ لطَلَبه اليُسْرُ حتى يَدْخُلَ عليه ، لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن " قلت : "كأنه قَصَدَ باليُسْرين ما في قوله "يُسْراً " مِنْ معنى التفخيم ، فتأوَّله ب "يُسرِ الدارَيْن " وذلك يُسْران في الحقيقة " .

فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7)

قوله : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ : العامَّةُ على فتحِ الراءِ مِنْ " فَرَغْتَ " وهي الشهيرةُ ، وقرأها

أبو السَّمَّال مكسورةً ، وهي لُغَيَّةٌ قال الزمخشري : " ليسَتْ بالفصيحة " وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ فيكف تعلَّق قوله " فإذا فَرَغْتَ فانصَبْ " بما قبلَه ؟ قلتُ : لَمَّا عَدَّدَ نِعَمَه السَالفةَ ووعْدَه الآنفةَ بعثَهُ على الشكرِ والاجتهادِ في العبادة . عن ابن عباسٍ : فإذا فَرَغْتَ مِنْ صلاتِك فانصَبْ في الدعاء " .

(206/820)

والعامَّةُ على فتحِ الصادِ وسكونِ الباء أمراً من النَّصَب وقُرِئ بتشديدِ الباءِ مفتوحةً أَمْراً من الأَنْصباب ، وكذا قُرِئ بكسر الصاد ساكنةَ الباء أمراً من النَّصْب بسكون الصاد ، ولا أظن الأولى إلاَّ تصحيفاً ولا الثانيةَ إلاَّ تحريفاً فإنها تُروى عن الإمامية . وتفسيرُها : فإذا فَرَغْتَ مِنْ النبوَّةِ فانْصِبِ الخليفة . قال ابن عطية : " وهي قراءةٌ ضعيفةٌ شاذةٌ لم تَثْبُتْ عن عالمٍ " قال الزمخشري : " ومن البدعِ ما رُوِي عن بعضِ الرافضةِ أنه قرأ " فانصِبْ " أي : انْصِبْ عليّاً للإمامة ، ولو صَحَّ هذا للرافِضيِّ لصَحَّ للناصِبيِّ أن يَقْرأ هكذا ، ويجعلَه أمراً بالنَّصبْ الذي هو بُغْضُ عليٍّ رضي الله عنه وعداوتُه " .

وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

قوله : ﴿ فارغب ﴾ : مِنْ الرَّغْبة وقرأ زيد بن علي وابن أبي عبلة " فَرَغِّب " بتشديد

العين . أمراً مِنْ رَغَبَّة بالتشديدِ ، اي : فَرَغّبَ الناسَ إلى طلبِ ما عنده . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 11 صـ 43. 49 ﴾

(207/820)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى يسر)

/اليُسْرُ ضدّ العُسْر ، قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ﴾ ، أَى تسَهَّل .

ويَسرَ الأَمْرُ ويَسرُ وتيَسَّرَ واسْتَيْسَرَ .

ويَسَّرَه اللهُ تعالَى وياسَرَهُ : سَهَّلَهُ .

وفى الدُّعاءِ للحُبْلَى : أَيسرَتْ وأَذْكَرَتْ ، أَى يُسِّرَتْ عليها الوِلادَةُ ، وتيَسّر له الخُروج.

وتيَسَّرَ له فَتْحٌ جليل .

وخُذْ بمَيْسورِه ودَعْ معْسُورُهُ .

ويُسِرَ الأَمرُ كعُنِى ، فهو مَيْسُورٌ ، قال الله تعالى : ﴿ فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴾ .

وفَرَسٌ يَسَرٌ بفتحتين : لَيّنُ الانْقياد ، قال :

*إنِّى على تَحَفُّظِى ونَزْرى * أَعْسَرُ إنْ ما رَسْتَنِى بعُسْرِ*

ويَسرٌ لمنْ أَراد يُسْرى

وإنَّ قوائِم هذه الدّابَّة يَسَراتٌ ، أَى خِفاف ، قال كَعْب بنُ زُهَيْر :

*تَخْدِى على يَسَرات وهى لاحِقَةٌ * ذَوابلٌ وَقْعُهُنَّ الأَرْضَ تَحْلِيلُ*

وولادَةٌ يَسْرٌ .

ويَسَّرَه اللهُ فتَيَسَّر .

وفى الحديث : "إنّ هذا الدِّينَ يُسْرٌ" أَراد أَنّه سَهْلٌ سَمْحٌ قليل التّشديد .

وفى حديث آخر : "يَسّرِوُا ولا تُعَسِّرُوا" .

وفيه أَيضا : "مَنْ أَطاعَ الإِمامَ وياسَرَ الشَّريكَ" ، وفيه : "كَيْفَ تَرَكْتَ البِلاد ؟ فقالَ : تَيَسَّرَتْ" أَى أَخْصَبَت .

وفيه : "لنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْن" أَى أَنَّ العُسْر بين يُسْرَيْن ، إِمّا فَرَجٌ عاجلٌ فى الدّنيا ، وإِمّا ثوابٌ آجلٌ فى الآخرة .

وقيل : أَراد أَنَّ العُسْرَ الثانى هو الأَوّل لأَنه ذكره مُعرَّفاً باللَّام ، وذكر اليُسْرَين نكرتين وكانا اثنين ، تقول : كسبت دِرْهَماً ثمّ يقول : أَنفَقْت الدّرهم ، فالثانى هو الأَوّل المُكْتَسب .

وفى الحديث أَيضاً : "تَياسَرُوا فى الصَّداق" أَى تساهَلُوا فيه ولا تغالُوا .

وفيه : "اعْمَلُوا وسَدّدُوا وقارِبُوا ، فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له" .

وفيه : "وقد يُسِّرَ له طَهورٌ" ، أَى هُيِّئ ووُضع .

وفيه : "وقَدْ تَيَسَّرَ للقِتَال" : تَهَيّأ له واسْتَعَدّ .

وفى حديث علىّ رضى الله عنه : "اطْعَنُوا اليَسْرَ" بالفتح وسكون السّين وهو الطّعن حِذاءَ الوَجْه .

وقال أَيضاً : "الشّطْرَنج مَيْسِرُ العَجَم" شبّه اللَّعِبَ به بالمَيْسَر ، وهو القِمارُ بالقِداح .

وكلُّ شىءٍ فيه قِمارٌ فهو من المَيْسر حتى لعب الصِبيان بالجَوْز .

وكان عُمَرُ رضى الله عنه أَعْسَرَ أَيْسَرَ هكذا يُرْوى ، والصّواب "أَعْسَرَ يَسرَ" ، وهو الَّذى يعمل بِيَدَيْه جميعاً ويُسمَّى الأَضبط أَيضاً .

واليَسِيرُ يقال فى الشىءِ القليل .

وفى الشىءِ السّهل ، فعلى الأَوّل قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرا ﴾ ، وعلى الثَّانى قوله تعالى : ﴿ وكَانَ ذلك عَلَى اللَّهِ يَسِيرا ﴾ .

والمَيْسَرة واليَسارُ عِبارةٌ عن الغِنى ، قال تعالى : ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ ﴾ .

واليَسار : أُخْتُ اليَمِين ، واليِسارُ بالكسر لغة فيها ، وليس فى الكلام له نظير سِوى هِلالُ بن يِسار ، على أَنَّ الفتح لفة فيها .

وَيسَّرَت الغَنَم : كَثُرَ لَبَنُها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 385 ـ 387 ﴾

(209/820)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة ألم نشرح

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم عزيز عز من التجا إليه ، وجل من توكل عليه ، وفاز في الدنيا والعقبى من توسل به إليه ، فمن تقرب منه قربه ومن شكا إليه حقق له مطلبه ، ومن رفع قصته إليه قضى مأربه .

قولهجلّ ذكره : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ .

أَلَمْ نُوَسِّعْ قَلْبَكَ للإِسلام ؟ أَلم نُلَيِّنه للإِيمان ؟

ويقال ألم نوسع صدرك بنور الرسالة؟ ألم نوسّع صدرك لقَبُول ما نوردُ عليك.

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ .

أي: إثمْكَ قبل النبوّة.

ويقال: عصمناكَ عن ارتكاب الوزْر؛ فَوَضْعُه عنه بأنَّه لم يستوجبْه قطّ.

ويقال: خفضنا عنك أعباءَ النبوّة وجعلناكَ محمولاً لا متحمّلاً.

ويقال: قويناك على التحمُّل من الخَلْق، وقوّيناك لمشاهدتنا، وحفظنا عليك ما استحفظت، وحرسناكَ عن ملاحظة الخَلْقَ فيما شرّفناك به.

﴿ الذي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾: أثقله، ولولا حَمْلُنا عنك لكُسِرَ.

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

بذِكْرنا؛ فكما لا تَصِحّ كلمةُ الشهادة إلا بي، فإنها لا تَصِحُّ إلا بك.

ويقال: رفعنا لك ذكرك بقول الناس: محمد رسول الله!

ويقال: أثبتنا لك شرف الرسالة.

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ .

وفي الخبر: "لن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْن" ومعناه: أن العسر بالألف واللام في الموضعين للعهد – فهو واحد، واليُسْر مُنكَّرٌ في الموضعين فهما شيئان. والعُسْر الواحد: ما كان في الدنيا، واليسران: أحدهما في الدنيا في الخصب، وزوال البلاء، والثاني في الآخرة من الجزاء وإذاً

فعُسْرُ جميع المؤمنين واحد – هو ما نابهم من شدائد الدنيا ، ويُسْرُهم اثنان : اليومَ بالكَشْفِ والصَّرْفِ ، وغداً بالجزاء .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴾ .

(210/820)

فإذا فَرَغْتَ من الصلاة المفروضة عليك فانْصَبْ في الدعاء .

ويقال : فإذا فرغت من العبادة فانصب في الشفاعة .

ويقال : فإذا فرغت من عبادة نَفْسِك فانْصَبْ بقلبك .

﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ .

في جميع الأحوال .

ويقال : فإذا فرغت من تبليغ الرسالة فارغب في الشفاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 743.744 ﴾

(211/820)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الانشراح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ (4)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريريّ (لك) متعلّق بـ (نشرح) ، (عنك) متعلّق بـ (وضعنا) ، (الذي) موصول في محلّ نصب نعت لوزرك (لك) متعلّق بـ (رفعنا) .

جملة : " ألم نشرح . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " وضعنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة .

وجملة : " أنقض . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) وجملة : " رفعنا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة .

البلاغة :

الاستعارة التمثيلية : في قوله تعالى " وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ " .

حيث شبه حاله (صلّى اللّه عليه وسلّم) وهو ينوء تحت ما يتخيله وزرا - وليس بوزر - بحال من أتعبه الحمل الثقيل ، وبرح به الجهد والحر اللافح ، فهو يمشي مجهودا مكدورا ،

يكاد يسقط من ثقل ما ينوء بحمله. ووضع الوزر كناية عن عصمته (صلّى اللّه عليه وسلّم) عن الذنوب وتطهيره من الأدناس. عبّر عن ذلك بالوضع على سبيل المبالغة في انتفاء ذلك، كما يقول القائل: رفعت عنك مشقة الزيارة، لمن لم يصدر منه زيارة، على طريق المبالغة في انتفاء الزيارة منه.

[سورة الشرح (94) : الآيات 5 إلى 6]

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (6)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة (مع) ظرف منصوب متعلّق بخبر إنّ في الموضعين..

جملة: "إنّ مع العسر يسرا..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "إنّ مع العسر يسرا (الثانية)" لا محلّ لها استئنافيّة" 1 ".

الفوائد:

- لن يغلب عسر يسرين:

تكرر اليسر لتأكيد الوعد وتعظيم الرجاء،

---

(1) إنّ خلوّ (يسرا) الثاني من الضمير أو (ال) يجعله مغايرا لـ (يسرا) الأول، ومن هنا جاء مفهوم الاستئناف.

قال الحسن : لما نزلت هذه الآية قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : أبشروا فقد جاءكم اليسر ، لن يغلب عسر يسرين وقال ابن مسعود : لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر ، حتى يدخل عليه ويخرجه . إنه لن يغلب عسر يسرين .

قال المفسرون ، في معنى قوله : لن يغلب عسر يسرين : إن اللّه تعالى كرر لفظ العسر ، وذكره بلفظ المعرفة ، وكرر اليسر بلفظ النكرة . ومن عادة العرب ، إذا ذكرت اسما معرفا ، ثم أعادته ، كان الثاني هو الأول وإذا ذكرت اسما نكرة ، ثم أعادته ، كان الثاني غير الأول . وقال بعضهم ، إن مع العسر الذي في الدنيا للمؤمن يسرا في الآخرة . وربما اجتمع اليسران : يسر الدنيا وهو ما ذكره في الآية الأولى ، ويسر الآخرة وهو ما ذكره في الآية الثانية . فقوله : لن يغلب عسر يسرين ، أي إن عسر الدنيا لن يغلب اليسر الذي وعده اللّه المؤمنين في الدنيا واليسر الذي وعدهم في الآخرة ، وإنما يغلب أحدهما ، وهو يسر الدنيا . فأما يسر الآخرة ، فدائم أبدا غير زائل . قال القشيري كنت يوما في البادية ، بحالة من الغم ، فألقي في روعي بيت شعر فقلت :

أرى الموت لمن أصب - - - -ح مغموما له أروح

فلما جنّ الليل سمعت هاتفا يهتف في الهواء :

ألا يا أيها المرء الذي الهمّ به برّح وقد أنشد بيتا لم

يزل في فكره يسنح إذا اشتد بك العسر ففكر في ألم نشرح فعسر بين يسرين

إذا أبصرته فافرح

قال : فحفظت الأبيات ففرج اللّه عني .

[سورة الشرح (94) : الآيات 7 إلى 8]

فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة (الفاء) الثانية رابطة لجواب الشرط (الواو) عاطفة (إلى ربّك) متعلّق ب

(ارغب) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر .

جملة : " فرغت . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " انصب . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " ارغب . . . " جواب شرط مقدّر أي : إن دعتك الحاجة إلى مسألة فارغب إلى ربّك فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 356 . 359 ﴾

(214/820)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(94) سورة الشّرح

مكيّة وآياتها ثمان

[سورة الشرح (94) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ (4)

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (6) فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (7) وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)

اللغة :

(وِزْرَكَ) الوزر الذنب أو الحمل الثقيل وقد تقدم شرح هذه المادة .

(أَنْقَضَ) أثقل ، وفي المختار : " وأصل الإنقاض صوت مثل النقر " وقال أبو حيان : " وقال أهل اللغة : أنقض الحمل ظهر الناقة إذا سمعت له صريرا من شدّة الحمل وسمعت نقيض المرجل أي صريره ، قال عباس بن مرداس :

وانقض ظهري ما تطويت منهم وكنت عليهم مشفقا متحننا

وقال جميل :

وحتى تداعت بالنقيض حباله وهمت بوأي زورة أن تحطما "

والنقيض صوت الانقضاض والانفكاك .

وعبارة ابن خالويه : " والمصدر أنقض ينقض إنقاضا فهو منقض ومعناه أثقل ظهرك ، والعرب تقول : أنقضت الفراريج إذا صوّتت ، قال ذو الرمة :

كأن أصوات من إيغالهنّ بنا أواخر الميس إنقاض الفراريج

والنّقض الجمل المهزول وجمعه أنقاض " .

والميس شجر تتخذ منه الرحال والمراد به هنا الرحال ، وقد فصل ذو الرمة بين المضاف والمضاف إليه بالجار والمجرور .

(فَانْصَبْ) فاتعب في الدعاء وفي المختار " ونصب تعب وبابه طرب " وفيه أيضا " فرغ من الشغل من باب دخل وفراغا أيضا " وفيه أيضا : " رغب فيه أراده وبابه طرب ورغبة أيضا

وارتغب فيه مثله ورغب عنه لم يرده ويقال : رغبه فيه ترغيبا وأرغبه فيه أيضا " .

الإعراب :

(215/820)

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) الهمزة للاستفهام التقريري أي شرحنا ولذلك عطف عليه الماضي قال الراغب : " أصل الشرح بسط اللحم ونحوه يقال شرحت اللحم وشرّحته ومنه شرح الصدر وهو بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة اللّه وروح منه " ونشرح فعل مضارع مجزوم بلم وفاعله مستتر تقديره نحن ولك متعلقان بشرح وصدرك مفعول به ، قال ابن خالويه : " وهذه السورة أيضا مما عدّد اللّه تعالى نعمه على نبيّه صلّى اللّه عليه وسلم وذكره إياها فلما
أنزل اللّه تبارك وتعالى : " فمن يرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام " قال عبد اللّه بن مسعود : يا رسول اللّه أو يشرح الصدر ؟ قال : نعم بنور يدخله اللّه فيه قال : وما أمارة ذلك يا رسول اللّه ؟ قال : التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار القرار والاستعداد للموت قبل الفوت " وجاء في الحديث : " اذكروا الموت فإنكم لا تكونون في كثير إلا قلة ولا في قليل إلا كثرة " والمصدر شرح يشرح شرحا فهو شارح والمفعول به مشروح ويقال " شرح الرجل

الجارية إذا افتضّها " ولك متعلقان بنشرح وصدرك مفعول به ووضعنا معطوف على ألم نشرح وعنك متعلقان بوضعنا ووزرك مفعول به والذي نعت للوزر وجملة أنقض لا محل لها لأنها صلة الذي وظهرك مفعول به ، قال ابن خالويه : "يقال الظهر والمطا والجوز والمتن والمتنة والقرا كله الظهر قال عقبة بن سابق :

ومتنتان خظاتان كزحلوق من الهضب

ويقال للحم المتن الذّنوب ويقال لأسفل الظهر القطاة ويقال : إن فلانا من حمقه ورطاته ، لا يعرف لطاته من قطاته ، اللطاة الجبهة والقطاة أسفل الظهر " (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) عطف على ما تقدم ولك متعلقان برفعنا وذكرك مفعول به ، وفي تقديم الجار والمجرور هنا وفيما تقدم على المفعول به الصريح مع أن حقه التأخر عنه لتعجيل المسرّة والتشويق ، وعبارة ابن خالويه جميلة حيث يقول : " وكان مشركو العرب يقولون : إن محمدا صنبور أي فرد لا ولد له فإذا مات انقطع ذكره فقال اللّه تعالى : إن شانئك هو الأبتر أي مبغضك هو الأبتر الذي لا ولد له ولا ذكر فأما أنت يا محمد فذكرك مقرون بذكري إلى يوم القيامة إذا قال المؤذن أشهد أن لا إله إلا اللّه قال أشهد أن محمدا رسول اللّه " (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

الفاء عاطفة على كلام محذوف لا بدّ من تقديره والتقدير خوّلناك ما خوّلناك فلا يخامرك اليأس فإن مع العسر

يسرا ، وإن حرف مشبه بالفعل ومع العسر ظرف متعلق بمحذوف خبر مقدّم ويسرا اسمها المؤخر وقرن اليسر مع العسر زيادة في التسلية وتقوية القلب ، وإن مع العسر يسرا جملة مستأنفة لتقرير أن العسر متبوع بيسر والألف واللام في العسر لتعريف الجنس وفي الثاني للعهد ولذلك روي عن ابن عباس وابن مسعود رضي اللّه عنهما : " لن يغلب عسر يسرين " والسبب فيه أن العرب إذا أتت باسم ثم أعادته مع الألف واللام كان هو الأول نحو جاء رجل فأكرمت الرجل وكقوله تعالى كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول ولو أعدته بغير ألف ولام كان غير الأول فقوله إن مع العسر يسرا لما أعاد العسر الثاني أعاده بالألف واللام ولما كان اليسر الثاني غير الأول لم يعدو بالألف واللام .

وعبارة الزمخشري : " فإن قلت ما معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضي اللّه عنهما لن يغلب عسر يسرين وقد روي مرفوعا أنه خرج صلّى اللّه عليه وسلم ذات يوم وهو يضحك ويقول لن يغلب عسر يسرين ؟ قلت هذا حمل على الظاهر وبناء على قوة الرجاء وإن

موعد الله لا يحمل إلا على أوفي ما يحتمله اللفظ وأبلغه والقول فيه أنه يحتمل أن تكون الجملة الثانية تكريرا للأولى كما كرر قوله ويل يومئذ للمكذبين لتقرير معناها في النفوس وتمكينها في القلوب وكما يكرر المفرد في قولك جاءني زيد زيد ، وأن تكون الأولى عدة بأن العسر مردوف بيسر لا محالة والثانية عدة مستأنفة بأن العسر متبوع بيسر فهما يسران على تقدير الاستئناف وإنما كان العسر واحدا لأنه لا يخلو إما أن يكون تعريفه للعهد وهو العسر الذي كانوا فيه فهو هو لأن حكمه حكم زيد في قولك إن مع زيد مالا إن مع زيد مالا وإما أن يكون للجنس الذي يعلمه كل أحد فهو هو أيضا وأما اليسر فنكرة متناولة بعض الجنس وإذا كان الكلام الثاني مستأنفا غير مكرر فقد تناول بعضا غير البعض الأول بغير إشكال فإن قلت : فما المراد باليسرين ؟ قلت يجوز أن يراد بهما ما تيسر لهم من

الفتوح في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما تيسر لهم في أيام الخلفاء وأن يراد يسر الدنيا ويسر الآخرة كقوله تعالى : قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين وهما حسنى الظفر وحسنى الثواب فإن قلت ما معنى هذا التنكير ؟ قلت التفخيم كأنه قيل : إن مع العسر يسرا عظيما " .

وقال أبو البقاء : " العسر في الموضعين واحد لأن الألف واللام توجب تكرير الأول وأما يسرا في الموضعين فاثنان لأن النكرة إذا أريد تكريرها جيء بضميرها أو بالألف واللام ومن هنا قيل لن يغلب عسر يسرين " .

وعبارة ابن خالويه : " قال ابن عباس : لا يغلب عسر يسرين تفسير ذلك أن في ألم نشرح عسرا واحدا ويسرين وإن كان مكررا في اللفظ لأن العسر الثاني هو العسر الأول واليسر الثاني غير الأول لأنه نكرة والنكرة إذا أعيدت أعيدت بألف ولام كقولك جاءني رجل فأكرمت الرجل فلما ذكر اليسر مرتين ولم يدخل في الثاني ألفا ولاما علم أن الثاني غير الأول " . وقال ابن هشام في كتابه الممتع مغني اللبيب في الباب السادس من الكتاب في التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها " الرابع عشر قولهم إن النكرة إذا أعيدت نكرة كانت غير الأولى وإذا أعيدت معرفة أو أعيدت المعرفة معرفة أو نكرة كان الثاني عين الأولى ، وحملوا على ذلك ما روي : لن يغلب عسر يسرين ، قال الزجاج : ذكر العسر مع الألف واللام ثم ثنى ذكره فصار المعنى إن مع العسر يسرين . ويشهد للصورتين الأوليين أنك تقول : اشتريت فرسا ثم بعت فرسا فيكون الثاني غير الأول ولو قلت : ثم بعت الفرس لكان الثاني عين الأول وللرابع قول الحماسي :

صفحنا عن بني ذهل وقلنا القوم إخوان

عسى الأيام أن يرجعن قوما كالذي كانوا

ويشكل على ذلك أمور ثلاثة : أحدها أن الظاهر في آية ألم نشرح أن الجملة الثانية تكرار للأولى كما تقول : إن لزيد دارا إن لزيد دارا

(219/820)

وعلى هذا فالثانية عين الأولى والثاني : أن ابن مسعود قال : لو كان العسر في جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، إنه لن يغلب عسر يسرين ، مع أن الآية في قراءته وفي مصحفه مرة واحدة فدل على ما ادّعينا من التأكيد وعلى أنه لم يستفد تكرر اليسر من تكرره بل هو من غير ذلك كأن يكون فهمه مما في التنكير من التفخيم فتأوله بيسر الدارين ، والثالث : أن في التنزيل آيات تردّ هذه الأحكام الأربعة فيشكل على الأول قوله تعالى : اللّه الذي خلقكم من ضعف . الآية ، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ، واللّه إله واحد سبحانه وعلى الثاني قوله تعالى : فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ، فالصلح الأول خاص وهو الصلح بين الزوجين والثاني عام ولهذا يستدل بها على استحباب كل صلح جائز ومثله زدناهم عذابا فوق العذاب ، والشيء لا يكون فوق نفسه . . . . وعلى الرابع : يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم مائدة من السماء وقوله : " إذا الناس ناس والزمان زمان " فإن الثاني لو ساوى الأول في مفهومه لم يكن في الإخبار عنه فائدة وإنما هذا من باب

قوله : " أنا أبو النجم وشعري شعري " أي وشعري لم يتغير عن حالته ، فإن ادعي أن القاعدة فيهنّ إنما هي مستمرة مع عدم القرينة فأما إن وجدت قرينة فالتعويل عليها سهل " ثم أورد ابن هشام كلمة الزمخشري المذكورة آنفا .

و قال التفتازاني في التلويح : " واعلم أن المراد أن هذا هو الأصل عند الإطلاق وخلو المقام عن القرينة وإلا فقد تعاد النكرة نكرة مع عدم المغايرة كقوله تعالى : وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ، وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن اللّه قادر على أن ينزل آية ، اللّه الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا ، وشيبة يعني قوة الشباب ومنه باب التأكيد اللفظي ، وقد تعاد النكرة معرفة مع المغايرة كقوله تعالى : وهذا كتاب أنزلناه مبارك ، ثم قال أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين

من قبلنا وقد تعاد المعرفة نكرة مع عدم المغايرة كقوله تعالى : إنما إلهكم إله واحد ومثله في الكلام كثير كقولهم العلم علم كذا ودخلت الدار فرأيت دار كذا وكذا ومنه بيت الحماسي " . وبعد أن أوردنا أقوال الأئمة في هذه المسألة نلخصها لك تلخيصا مفيدا فنقول : 1- إن

الاسم إذا كرر مرتين فإن كانا نكرتين فالثاني غير الأول . 2- أو معرفتين أو الثاني فقط فهو عينه . 3- أو الأول معرفة والثاني نكرة ففيه قولان :

(221/820)

فالأول والثاني كالعسر واليسر في قوله تعالى " فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا " والثالث نحو فيها " مصباح المصباح " والرابع كقوله : صفحنا عن بني ذهل " البيتين " . وهذه القاعدة أغلبية كما دلّت عليه كلمات الأئمة الواردة آنفا . على أن ابن السبكي جلا هذا الإشكال بعبارة وقعت علينا وقوع الظمآن على القطر وهذا نصها : " الظاهر أن هذه القاعدة غير محررة لانتقاضها بأمثلة كثيرة منها في المعرفتين : " هل جزاء الإحسان إلا الإحسان " فإن الأول العمل والثاني الثواب وفي تعريف الثاني وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغني " فإن المراد بالثاني عموم الظن دون الأول وفي النكرتين " يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير " فإن الثاني هو الأول " . وبعد أن كتبنا ما تقدم وكدنا نقنع بحل ابن السبكي عنّ لنا تعليق على هذه الاعتراضات وهو : الظاهر أن هذه الآيات لا تخرج عن القاعدة عند التأمّل بها فإن اللام في الإحسان فيما يبدو للجنس لا للعهد كما قال ابن السبكي وحينئذ يكون في المعنى كالنكرة بخلاف آية العسر فإن أل فيها إما لمعهود ذهني

وهو ما حصل له صلّى اللّه عليه وسلم وللمسلمين من الشدة من الكفار أو للاستغراق كما يفيده الحديث وقد تقدم ذلك وكذا آية الظن لا نسلم فيها بأن الثاني غير الأول بل هو عين الأول قطعا إذ ليس كل ظن مذموما كيف وأحكام الشريعة ظنية وكذا آية الصلح لا مانع من أن يكون المراد بها الصلح المذكور وهو الذي بين الزوجين واستحسان الصلح في جميع الأمور

(222/820)

لا يكون مأخوذا من السنّة أو من الآية بطريق القياس بل لا يجوز القول بعموم الآية وإن كل صلح خير لأن ما أحلّ حراما من الصلح أو حرّم حلالا فهو ممنوع وكذا آية القتال ليس الثاني فيها عين الأول بلا شك لأن المراد بالقتال المسئول عنه هو القتال الذي وقع في سرية ابن الحضرمي سنة اثنتين من الهجرة لأنه سبب نزول الآية والمراد بالثاني جنس القتال لا ذاك القتال بعينه فتأمل هذا وخرج ما أشكل عليك. فإن قلت: فما تصنع بآية " وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله " ألا تراك قد أغفلت الكلام عليها؟ قلت: قال ابن السبكي نفسه: إن قوله إله في الآية بمعنى معبود والاسم المشتق إنما يقصد به ما تضمنه من الصفة فأنت إذا قلت: زيد ضارب عمرا وضارب بكرا لا يتخيل أن الثاني هو الأول وإن أخبر

بهما عن ذات واحدة فإن المذكور بالحقيقة إنما هو الضربان لا الضاربان ولا شك في أن الضريين مختلفان ، ونستنتج من هنا أن النكرتين في الآية لم يقصد منهما سوى الصفة وهي العبادة ولا شك في أن العبادتين متغايرتان فالنكرة الثانية غير الأولى باعتبار المقصود وإن وقعتا على ذات واحدة فلم تخرج الآية أيضا عن القاعدة (فَإِذا فَرَغْتَ فَانْصَبْ وَإِلى رَبِّكَ فَارْغَبْ) الفاء عاطفة على مقدّر يستحقه المقام ولك أن تجعلها استئنافية كأنها جواب لسؤال نشأ وهو ماذا بعد الشكر والعبادة والاجتهاد فيهما فقال فإذا فرغت أي من الصلاة وغيرها من أنواع العبادات وعن الحسن فإذا فرغت من الغزو فاجتهد في العبادة ولكن هذا يتعارض مع كون السورة مكية والأمر بالجهاد إنما كان بعد الهجرة فلعله تفسير ابن عباس الذاهب إلى أن السورة مدنيّة ، وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط متعلق بالجواب وجملة فرغت في محل جر بإضافة الظرف إليها والفاء رابطة وانصب فعل أمر وفاعل مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم

(223/820)

وإلى ربك متعلقان بارغب ولا تمنع الفاء من ذلك وارغب فعل أمر والجملة عطف على ما قبلها .

البلاغة :

في قوله تعالى : " ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك " استعارة تمثيلية المراد منها عصمته صلّى اللّه عليه وسلم من الوزر حيث لا وزر ، فشبّه حاله وهو ينوء تحت ما يتخيله وزرا وليس بوزر بحال من آداه الحمل الثقيل وبرح به الجهد والحر اللافح فهو يمشي مجهودا مكدورا يكاد يسقط من ثقل ما ينوء بحمله فوضع الوزر كناية عن عصمته وتطهيره صلّى اللّه عليه وسلم من دنس الأوزار ، ونقول في إجراء هذه الاستعارة شبّه حاله بحال من آده الحمل وكلله العرق وبرح به الجهد حتى إذا انحطّ عنه الحمل تنفس الصعداء وانزاحت عنه الكروب والأهوال بجامع أن كلا منهما مجهود مكروب مما يحمل يتبرم به ويتذمر منه ويربو أن ينحطّ عن كاهله ثم استعير التركيب الدال على حال المشبّه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية والقرينة حالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 514. 522﴾

(224/820)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وِيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والعشرون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/821)

الجزء الحادى والعشرون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة التّين)

(4/821)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة التين)

(5/821)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

(سورة التين)

مقصودها سر مقصود (ألم نشرح) وذلك هو إثبات القدرة الكاملة وهو المشار إليه باسمها ، فإن في خلق التين والزيتون من الغرائب ما يدل على ذلك ، وكذا فيما أشير إليه بذلك من النبوات ، وضم القسم إلى المقسم عليه وهو الإنسان ، الذي هو أعجب ما في الأكوان ، واضح في ذلك . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 468 ﴾

(6/821)

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والتين)

السّورة مكّيّة .

وآياتها ثمان .

وكلماتها أَربع وثلاثون .

وحروفها مائة وخمسون .

وفواصل آياتها (من) .

سمّيت لمفتتحها .

مقصود السّورة : القَسَم على حُسْنِ خِلْقة الإنسان ، ورجوع الكافر إِلى النيران ، وإِكرام المؤمنين بأَعظم المَثُوبات الحِسَان ، وبيان أَن الله حكيم وأَحكم فى قوله : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

المنسوخ فيها آية : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ ﴾ م آية السّيف ن .

المتشابهات :

قوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ، وقال فى البلد ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَد ﴾ لا مناقضة بينهما ؛ لأَنّ معناه عند كثير من المفسّرين : منتصِب القامة معتدِلها

، فيكون فى معنى أَحسن تقويم ، ولمراعاة الفواصل فى السّورتين جاءَ على ما جاءَ .

فضل السّورة

فيه حديثان ضعيفان : مَنْ قرأَها أَعطاه الله خَصْلَتَيْن : العافية واليقين ما دام فى دار الدّنيا ، وأَعطاه الله من الأَجر بعدد من قرأَ هذه السّورة وصام سنة ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَ ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ فكأَنَّما تصدّق بوزن جبل ذهباً فى سبيل الله ، وكتب الله له بكل آية قرأَها ستين حسنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 527.

528 ﴾

(7/821)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة التين

471 - مسألة :

قوله تعالى : (فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ)

تقدم جوابه في

السماء انشقت " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 377 ﴾

(8/821)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة التين

سميت في معظم كتب التفسير ومعظم المصاحف (سورة والتّين) بإثبات الواو تسمية بأول كلمة فيها . وسماها بعض المفسرين (سورة التين) بدون واو لأن فيها لفظ (التين) كما قالوا : (سورة البقرة) وبذلك عنونها الترمذي وبعض المصاحف .

وهي مكية عند أكثر العلماء ، قال ابن عطية : لا أعرف في ذلك خلافاً بين المفسرين ، ولم يذكرها في (الإتقان) في عداد السور المختلف فيها . وذكر القرطبي عن قتادة أنها مدنية ، ونسب أيضاً إلى ابن عباس ، والصحيح عن ابن عباس أنه قال : هي مكية .

وعُدّت الثامنة والعشرين في ترتيب نزول السور ، نزلت بعد سورة البروج وقبل سورة الإِيلاف .

وعدد آياتها ثمان .

أغراضها

احتوت هذه السورة على التنبيه بأن الله خلق الإنسان على الفطرة المستقيمة ليعلموا أنّ الإسلام هو الفطرة كما قال في الآية الأخرى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت اللَّه التي فطر الناس عليها ((الروم : 30) وأن ما يخالف أصوله بالأصالة أو بالتحريف فساد وضلال ، ومتّبعي ما يخالف الإسلام أهل ضلالة .

والتعريض بالوعيد للمكذبين بالإسلام .

والإشارة بالأمور المقسم بها إلى أطوار الشرائع الأربعة إيماءً إلى أن الإسلام جاء مصدقاً لها وأنها مشاركة أصولها لأصول دين الإسلام .

والتنويه بحسن جزاء الذين اتبعوا الإسلام في أصوله وفروعه .

وشملت الامتنان على الإنسان بخلقه على أحسن نظام في جثمانه ونفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 419 . 420 ﴾

وقال الشيخ الصابوني :

سورة التين

مكية وآياتها ثمان آيات

بين يدي السورة

* سورة التين مكية ، وهي تعالج موضوعين بارزين هما :

- الأول : تكريم الله جل وعلا للنوع البشري .

- الثاني : موضوع الإيمان بالحساب والجزآء .

* إبتدأت السورة بالقسم بالبقاع المقدسة ، والأماكن المشرفة ، التي خصها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على أنبيائه ورسله ، وهي " بيت المقدس " و " جبل الطور " " ومكة المكرمة " اقسم على أن الله تعالى كرم الإنسان ، فخلقه في أجمل صورة ، وابدع شكل ، وإذا لم يشكر نعمة ربه ، فسيرد إلى أسفل دركات الجحيم [والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين] .

* ووبخت الكافر على إنكاره للبعث والنشور ، بعد تلك الدلائل الباهرة التي تدل على قدرة رب العالمين ، في خلقه للإنسان في أحسن شكل ، وأجمل صورة [لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين] .

* وختمت ببيان عدل الله باثابة المؤمنين ، وعقاب الكافرين [فما يكذبك بعد بالدين ، أليس الل بأحكم الحاكمين] ؟ وفيها تقرير للجزاء ، وإثبات للمعاد ، بطريق التأكيد والتحقيق ، مع التوبيخ للكفرة المكذبين بيوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 577 ﴾

(11/821)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة التين

المراد بالتين كما قال الأستاذ الإمام هنا : عهد الإنسان الأول الذي كان يستظل فيه بورق التين حينما كان يسكن الجنة والمراد بالزيتون : عهد نوح عليه السلام وذريته حينما أرسل الطير فحمل إليه ورقة من شجر الزيتون ، فاستبشر وعلم بأن الطوفان انحسر عن الأرض ، وطور سينين : الجبل الذي كلّم اللّه تعالى موسى عنده ، والبلد الأمين : مكة التي كرمها اللّه بالكعبة ، والتقويم : جعل الشيء على ما ينبغى أن يكون عليه فى التأليف والتعديل يقال قوّمه تقويما : واستقام الشيء وتقوّم :

إذا جاء وفق التقويم ، وممنون : أي مقطوع ، والدّين : الجزاء بعد البعث . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 193 ﴾ . باختصار .

(12/821)

وقال الفراء :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . . . ﴾ .

قال ابن عباس: هو تينكم هذا وزيتونكم ، ويقال: إنهما جبلان بالشام ، وقال مرة أخرى: مسجدان بالشام ، أحدهما الذى كلّم الله تبارك وتعالى موسى صلى الله عليه وسلم عليه . قال الفراء: وسمعت [/ا] رجلا من أهل الشام وكان صاحب تفسير قال: التين جبال ما بين حلوان إلى همدان ، والزيتون: جبال الشام ، ﴿ وَطُورِ سِينِينَ . . . ﴾ : جبل .

﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ . . . ﴾ .

مكة ، يريد : الآمِن ، والعرب تقول للآمن . الأمين ، قال الشاعر :

ألم تعْلَى يا أسْمِ ويْحكِ أننى * حَلفتُ يمينا لا أخون أمينى ؟

يريد ؛ آمنى .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . . . ﴾ .

يقول: إنا لنبلغ بالآدمى أحسن تقويمه ، وهو اعتداله واستواء شبابه ، وهو أحسن ما يكون ، ثم نرده بعد ذلك إلى أرذل العمر ، وهو وإن كان واحدا ، فإنه يراد به نفعل ذا بكثير من الناس ، وقد تقول العرب: أَنْفَق ماله على فلان ، وإنما أنفق بعضه ، وهو كثير فى التنزيل ؛ من ذلك قوله فى أبى بكر: ﴿ الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴾ لم يُرد كل ماله ؛ إنما أراد بعضه .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾

ويقال: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . . . ﴾ .

(13/821)

إلى النار ؛ ثم استثنى فقال: ﴿ إِلاَّ الذين آمنوا ﴾ استثناء من الإنسان: لأنّ معنى الإنسان: الكثير . ومثله: ﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وهى فى قراءة عبد الله "أسفل السافلين" ، ولو كانت: أسفل سافل لكان صوابا ؛ لأنّ لفظ الإنسان . واحدٌ ، فقيل: "سافلين" على الجمع ؛ لأن الإنسان فى معنى جمع ، وأنت تقول: هذا أفضل قائم ،

ولا تقول: هذا أفضل قائمين ؛ لأنك تضمر لواحد ، فإذا كان الواحد غير مقصود له رجع اسمه بالتوحيد وبالجمع كقوله ﴿ والَّذِى جاءَ بالصّدْقِ وصَدّقَ بِهِ أُولَئكَ هُمُ الْمُتَّقُون ﴾ وقال فى عسق: ﴿ وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بمَا قَدّمَتْ أَيْدِيهِم فإنَّ الإنْسَانَ كَفُورٌ ﴾ فردّ الإنسان على جمع ، ورد تصبهم على الإنسان للذى أنبأتك به .

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدِّين ﴾

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ . . . ﴾ [/ب] .

يقول: فما الذى يكذبك بأن الناس يدانون بأعمالهم ، كأنه قال ، فمن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما تبين له من خلقنا الإنسان على ما وصفنا . انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 276 . 277 ﴾

(14/821)

وقال الأخفش :

سورة (التّين)

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾

قال ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ وواحدها "السِّينِينَة" .

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾

وقال ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ ﴾ فجعل ﴿ ما ﴾ للانسان. وفي هذا القول يجوز "ما جاءني زيد" في معنى "الذي جاءني زيد". انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 581 ﴾

(15/821)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة التين «1»

1 - التِّينِ وَالزَّيْتُونِ : جبلان بالشام، يقال لهما : «طور تينا ، وطور زيتا» بالسّريانية.

سمّيا بالتين والزيتون : لأنهما ينبتانهما.

3 - وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ يعني : مكة. يريد : الآمن.

5 ، 6 - ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ : إلى الهرم و«السافلون» هم : الأطفال والزّمني والهرمي. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا : فمن أدركه الهرم كان له مثل أجره، إذا كان يعمل.

وقال الحسن : «أَسْفَلَ سافِلِينَ : [في] النار».

غَيْرُ مَمْنُونٍ أي غير مقطوع. انتهى انتهى. اهـ ﴿تأويل مشكل القرآن ص 461﴾

---

(1) هي مكية.

(16/821)

وقال الغزنوى:

[سورة التّين]

1 وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ: جبلان «1». وعن ابن عباس «2»: «هو تينكم وزيتونكم».

2 سِينِينَ: الشّجرة الحسناء «3»، . . . .

---

(1) ذكره الفراء في معاني القرآن: 3/ 276، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 532، والزجاج في معانيه: 5/ 343.

ونقله البغوي في تفسيره: 4/ 504، عن عكرمة، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير: 9/ 169.

(2) نقله الفراء في معانيه: 3/ 376، والبغوي في تفسيره: 4/ 504، وابن الجوزي في زاد المسير: 9/ 168، والقرطبي في تفسيره: 20/ 110.

وأخرج الحاكم في المستدرك: 2/ 528 كتاب التفسير، «تفسير سورة التين»، عن ابن عباس رضي اللّه عنه قال: «الفاكهة التي يأكلها الناس». قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. واختار الطبري هذا القول في تفسيره: 30/ 240.

(3) ينظر تفسير الماوردي: 4/ 479، وزاد المسير: 9/ 170، وتفسير القرطبي: 20/ 112، والبحر المحيط: 8/ 490.

(17/821)

والسّين: الحسن «1»، وهي أقسام بمنازل الوحي.

4 فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ: أعدل خلق، وهي القامة المنتصبة وغيرها مكبة منكوسة.

5 أَسْفَلَ سافِلِينَ: في قراءة عبد الله «2» أسفل السّافلين، وهو ردّه إلى أرذل العمر «3».

6 غَيْرُ مَمْنُونٍ: [غير] «4» منقوص «5»، وهو كتابة ثواب الصّالحين بعد الوهن «6».

انتهى انتهى. ا هـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 883. 884﴾

---

(1) بلغة الحبشة كما في تفسير القرطبي: 30/ 240، وتفسير الفخر الرازي: 32/

.10

(2) هو عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه تعالى عنه، والقراءة منسوبة إليه في معاني القرآن للفراء:

3/ 277، والكشاف: 4/ 269، وتفسير القرطبي: 20/ 115، والبحر المحيط: 8/ 490.

(3) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 303، وتفسير الطبري: 30/ 244، وتفسير البغوي:

4/ 504.

(4) ما بين معقوفين عن «ج».

(5) تفسير الطبري: 30/ 348، وتفسير الفخر الرازي: 32/ 11، والمفردات للراغب: 474.

(6) ذكره الماوردي في تفسيره: 4/ 480.

وقال ملا حويش :

تفسير سورة التين

عدد 28 - 95

نزلت بمكة بعد البروج وهي ثمان آيات ، وأربع وثلاثون كلمة ، ومائة وخمسة أحرف ، لا يوجد سورة مبدوءة ولا مختومة بما بدأت وختمت به ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "وَالتِّينِ" أي الجبل الذي عليه دمشق المنبثق بأشجار التين من الفواكه الطيبة الخالصة من الشوائب المنقصة لا عجم فيها تشبه فواكه الجنة مغذ سريع الهضم طيب الرائحة مبارك في بقعة مباركة قال تعالى (وَنَجَّيْناهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بارَكْنا فِيها) الآية 71 من سورة الأنبياء في ج 2 "وَالزَّيْتُونِ 1" الجبل الذي عليه البيت المقدس المتفطر بأشجار الزيتون

(19/821)

المبارك لما فيه من أدم وغذاء ودهن يؤكل ويدخر ويستفاد به لا يحتاج شجره إلى خدمة بعد نباته يعيش ألوفا من السنين ، ترى أشجاره من بقايا الرومان في قضاء الزوية ويسمونه

بالروماني لأنه من غرسهم لا يسقط ورقه صيفا ولا شتاء نبت كريم في بقعة كريمة وقد سماه اللّه في كتابه شجرة مباركة في الآية 35 من سورة النور في ج 3 ، وما جرى عليه بعض المفسرين بأن القسم به نفس التين والزيتون لا يستقيم مع قوله تعالى "وَطُورِ سِينِينَ 2" الجبل الذي كلم اللّه عليه موسى عليه السلام وسطع عليه نور الإله ، ومكانه سيناء وسمي سينين لحسنه وبركته ، وكل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سينين وسيناء ، هذا والعطف يؤيد ما جرينا عليه وكذلك قوله "وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ 3" مكة حرسها اللّه حيث يأمن الناس فيها على أهلهم وأموالهم ونفوسهم حتى ان الرجل ليرى قاتل ابنه فلا يتعرض له فيها احتراما لشأنها ولهذا لقب بالأمين وإن تأويل التين بالشام والزيتون بالقدس يناسب ذكر ما بعدها من الطور ومكة وهو من تسميته المحل باسم الحال فيه ، ومناسبة المتعاطفات تدل دلالة صريحة على أن المراد بها الأماكن والأشجار ، ويؤيد هذا ما أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب أنهما مسجد أصحاب الكهف ومسجد إيلياء لأن الأول قريب من الشام ، والثاني قريب من القدس هذا وقد أقسم اللّه في هذه البقاع المقدسة لما فيها من البركات ولأنها معظمة بحد ذاتها ، راجع الآية الأولى من الإسراء والآية 31 من سورة القصص الآتيتين ، وجواب القسم "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ 4" شكلا وصورة ولونا وتسوية أعضاء واعتدال قامة مزينا بالعلم والحلم والعقل والفهم والنطق

والتمييز يأكل بيده جالسا وقائما ومتكئا وغيره مكبا على وجهه يأكل بفمه محروما من القوى التي ألمعنا إليها في الآية 4 من سورة الشمس المارة وقد متعه اللّه بما ذكر

آنفا في سن الشباب والكهولة والشيخوخة ، وقد سوى أصله من التراب ابداعا لا عن سابق مثل ولا من أصل آخر كالقردة كما يتقول به من لاخلاق له ولا إيمان "ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ 5" بعد ما كان عليه من الكمال

إلى أرذل العمر لما توقعه فيه من الهرم والضعف ونقص العقل والسمع والبصر والشم والشهوة وانقطاع صالح العمل بالعجز عن الصيام والصلاة بصورة كاملة ، هذا مصيره في الدنيا ، وأما في الآخرة فإذا كان غير شاكر ما متعناه به وجحد ما أنعمنا به عليه وكفر بنا وبرسولنا وكتابنا فنرده إلى أسفل دركة من جهنم ، وهكذا شأن كل كافر جحود "إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ 6" وافيا غير ناقص لأن المؤمن الصالح لا ينحرف غالبا فلا يرد إلى أرذل العمر ولا ينقطع عمله ويدوم عليه أجره وقد شاهدت كثيرا من العلماء العاملين تجاوزوا المائة سنة وهم على أحسن خطة كالشيخ حسين الأزهري مفتي دير الزور والشيخ بدر الدين الحسني مدرس دار الحديث بدمشق رحمهما اللّه وأتباعهما

كثير ، على أن الرجل الصالح إذا أصيب بشيء ما يمنعه من ذلك فيكتب له ثواب ما كان يعمله قبل ، قال ابن عباس هم نفر ردّوا إلى أرذل العمر على زمن رسول اللّه فانزل اللّه عذرهم وأخبرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم ، وإذا صح هذا فالسبب خاص والحكم عام وقال عكرمة ما يضرّ هذا الشيخ كبره إذا ختم اللّه له بأحسن ما كان يعمل ، وقال ابن عباس إن الذين آمنوا أي الذين قرأوا القرآن لم يردوا إلى أرذل العمر وهذا يؤيد ما ذكرنا آنفا قال تعالى : "فَما يُكَذِّبُكَ 7" أيها الإنسان ، وهذا التفات من المغيبة إلى الخطاب ، وهو من محسنات البيان ومقتضيات البديع "بَعْدُ" أي بعد البيان الذي ذكرناه لك "بِالدِّينِ" الحق والبعث بعد الموت والحساب والجزاء

(21/821)

و قد بينا لك البرهان القاطع والحجة الواضحة فما عليك إلا أن تصدق به وتعمل لأجله ليحكم لك بالحسنى من ربك الكريم القوي المتين "أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ 8" صنعا وتدبيرا وعدلا وإذا كان كذلك ، فكيف تتوهمون أنه لا يعيدكم بعد الموت وأن لا حساب ولا عقاب ولا جزاء ولا ثواب لا بل لا بد لكم من ذلك وأن اللّه سيحكم على كل بما يستحقه حكما عدلا وقضاء مبرما وهذا الاستفهام تقريري وجوابه بلى إنه أقضى

القاضين وإنه قادر على ما يريده .

جاء عن أبي هريرة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال من قرأ والتين فليقل وأنا على ذلك من الشاهدين ، أخرجه الترمذي وقال الشافعي رحمه اللّه ، يقولها حتى في الصلاة هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 229.232 ﴾

(22/821)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة التين

مكية أو مدنية

وجواب القسم لقد خلقنا الإنسان في احسن تقويم وهو كاف قاله أبو حاتم وليس بجيد للفصل بين المستثنى والمستثني منه وانما أجازه أبو حاتم أطول الكلام غير ممنون تام قاله أبو

حاتم وقال أبو عمرو فيه كاف بالدين وكذا آخر السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(23/821)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة والتين

مكية أو مدنية ولا وقف من أولها إلى تقويم فلا يوقف على الأمين لأنَّ لقد خلقنا جواب القسم فلا يفصل بين القسم وجوابه بالوقف

تقويم قال أبو حاتم (كاف) إن أراد بالإنسان جميع الناس وإن أراد به النبي صلى الله عليه وسلم وثم رددناه يعني أبا جهل كان الوقف على تقويم أكفى لا محالة

سافلين (جائز) إن عنى بالإنسان الكافر وأسفل سافلين الدرك من النار وليس بوقف إن جعل أسفل سافلين في معنى أرذل العمر و السافلون الهرمى والزمني لأنَّ المؤمن إذا ردَّ إلى أرذل العمر كتب له مثل ما كان يعمل في صحته وقوته

ممنون (تام) لانتقاله من الغيبة إلى الخطاب ومثله في التمام بالدين للابتداء بالاستفهام وكذا آخر السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(24/821)

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة الدمياطى :

سورة التين

مكية وآيها ثمان يوقف لحمزة على قوله تعالى في أحسن بأربعة أوجه الأول التحقيق بلا سكت الثاني مع السكت على حرف المد والثالث نقل حركة الهمزة ما قبلها بلا إدغام الرابع النقل مع الإدغام وأما بين بين فضعيف كما في النشر وهو من المتوسط بغيره المنفصل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(25/821)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

"سورة والتين"

رددناه ، أجر غير ، جلي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 354 ﴾

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة والتين 95

مكية وقد ذكر نظيرتها في جميع العدد

وكلمها أربع وثلاثون كلمة

وحروفها مئة وخمسون حرفا

وهي ثماني آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف ورؤوس الآي

والزيتون

1 سينين

2 الأمين

3 تقويم

4 سافلين

5 ممنون

6 بالدين

7 الحاكمين

8 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 279 ﴾

(27/821)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (سنين) هو لغة في سيناء ، وقد ذكر في المؤمنين .

قوله تعالى (في أحسن تقويم) هو في موضع الحال من الإنسان ، وأراد بالتقويم القوام ، لأن التقويم فعل وذاك وصف للخالق لا للمخلوق ، ويجوز أن يكون التقدير في أحسن قوام التقويم فحذف المضاف ، ويجوز أن تكون " في " زائدة أي قومناه أحسن تقويم .

قوله تعالى (أسفل) هو حال من المفعول ، ويجوز أن يكون نعتا لمكان محذوف .

قوله تعالى (فما يكذبك) " ما " استفهام على معنى الإنكار : أي ما الذى يحملك أيها

الإنسان على التكذيب بالبعث.

قوله تعالى (أليس الله بأحكم الحاكمين) أي هو أحكم الحاكمين سبحانه، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن جـ 2 صـ ﴾

(28/821)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة التين

[سورة التين (59) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1)

"وَالتِّينِ" جار ومجرور متعلقان بفعل قسم محذوف "وَالزَّيْتُونِ" معطوف على التين.

[سورة التين (95) : آية 2]

وَطُورِ سِينِينَ (2)

"وَطُورِ" معطوف على ما قبله "سِينِينَ" مضاف إليه.

[سورة التين (95) : آية 3]

وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)

"وَهذَا" اسم إشارة معطوف على ما قبله "الْبَلَدِ" بدل من اسم الإشارة "الْأَمِينِ" صفة البلد .

[سورة التين (95) : آية 4]

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)

"لَقَدْ" اللام واقعة في جواب القسم "قد" حرف تحقيق "خَلَقْنَا" ماض وفاعله "الْإِنْسانَ" مفعول به "فِي أَحْسَنِ" متعلقان بمحذوف حال "تَقْوِيمٍ" مضاف إليه والجملة جواب القسم .

[سورة التين (95) : آية 5]

ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (5)

"ثُمَّ" حرف عطف "رَدَدْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها . "أَسْفَلَ سافِلِينَ" حال مضاف إلى سافلين .

[سورة التين (95) : آية 6]

إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6)

"إِلَّا" حرف استثناء "الَّذِينَ" اسم موصول في محل نصب على الاستثناء "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "فَلَهُمْ" الفاء

حرف استئناف "لهم" خبر مقدم "أَجْرٌ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة لا محل لها "غَيْرُ" صفة مضافة إلى "مَمْنُونٍ".

[سورة التين (95) : آية 7]

فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7)

"فَما" الفاء الفصيحة "ما" اسم استفهام مبتدأ "يُكَذِّبُكَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر المبتدأ والجملة الاسمية جواب الشرط المقدر لا محل لها "بَعْدُ" ظرف زمان مبني على الضم "بِالدِّينِ" متعلقان بالفعل.

[سورة التين (95) : آية 8]

(29/821)

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ (8)

أَلَيْسَ اللَّهُ" الهمزة حرف استفهام وتقرير وماض ناقص ولفظ الجلالة اسمه "بِأَحْكَمِ" الباء حرف جر زائد وأحكم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس "الْحاكِمِينَ" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 ص 456﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة التِّين

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة أَحَادِيث

1509 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَنه أهدي لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طبق من تين فَأكل مِنْهُ وَقَالَ لأَصْحَابه كلوا فَلَو قلت إِن فَاكِهَة نزلت من الْجنَّة لَقلت هَذِه لِأَن فَاكِهَة الْجنَّة بِلَا عجم فَإِنَّهَا تقطع البواسير وَتَنْفَع من النقرس

قلت رَوَاهُ أَبُو نعيم الْحَافِظ فِي كتاب الطِّبّ لَهُ حَدثنَا أَبُو زرْعَة مُحَمَّد بن مُحَمَّد ابْن عبد الْوَهَّاب بن أبي عصمَة العكبري ثَنَا عبد الله بن الْحسن بن نصر الوَاسِطِيّ ثَنَا إِسْحَاق بن وهيب الوَاسِطِيّ ثَنَا أَحْمد بن نصر الْخُرَاسَانِي ثَنَا عبد الله بن مُحَمَّد الْكُوفِي ثَنَا عِيسَى بن يُونُس عَن الْأَوْزَاعِيّ عَن يَحْيَى بن أبي كثير عَن أبي سَلمَة عَن أبي ذَر قَالَ أهدي إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طبق من تين . . . إِلَى آخِره سَوَاء . . . ثمَّ رَوَاهُ بِهَذَا الْإِسْنَاد

عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا نَحوه سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي كِتَابه الْمُسَمّى بلفظ الْمَنَافِع فِي الطِّبّ من طَرِيق أبي بكر مُحَمَّد بن إِسْحَاق السّني ثَنَا الْقَاسِم بن أبي الْحسن الزيبري ثَنَا سهل بن إِبْرَاهِيم الوَاسِطِيّ عَن عِيسَى بن يُونُس عَن الْأَوْزَاعِيّ عَن يحيى بن أبي كثير قَالَ ثني الثِّقَة عَن أبي ذَر قَالَ أهدي إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره

1510 - الحَدِيث الثَّانِي

(31/821)

عَن معَاذ بن جبل أَنه مر بشجرة الزَّيْتُون فَأخذ مِنْهَا قضيبا وَاسْتَاك بِهِ وَقَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول نعم السِّوَاك الزَّيْتُون من الشَّجَرَة الْمُبَاركَة تطيب الْفَم وَتذهب بالْحُفرَة وسمعته يَقُول هِيَ سواكي وسواك الْأَنْبِيَاء من قبلي

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي كِتَابه مُسْند الشاميين وَفِي مُعْجَمه الْوسط حَدثنَا أَحْمد بن عَليّ الْأَبَّار ثَنَا مُعَلّل بن نفَيْل الْحَرَّانِي ثَنَا مُحَمَّد بن مُحصن عَن إِبْرَاهِيم ابْن أبي عبلة عَن عبد الله بن الديلمي عَن عبد الرَّحْمَن بن غنم عَن معَاذ بن جبل قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول نعم السِّوَاك الزَّيْتُون من الشَّجَرَة الْمُبَاركَة تطيب الْفَم وَتذهب بالْحفر

وسمعته يَقُول هِيَ سِوَاكِي وَسوَاك الْأَنبياء من قبلي انْتَهى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ تَفْسِيره عَن مُعَلل بن نفَيْل بِهِ

1511 - الحَدِيث الثَّالِث

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ إِذا قَرَأَهَا قَالَ بلَى وَأَنا عَلَى ذَلِك من الشَّاهِدين

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره أخبرنَا بشر بن معَاذ ثَنَا يزِيد بن هَارُون ثَنَا سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالَى أَلَيْسَ الله بِأَحْكَم الْحَاكِمين وَقَالَ ذكر لنا أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ إِذا قَرَأَهَا قَالَ بلَى وَأَنا عَلَى ذَلِك من الشَّاهِدين انْتَهى

وروى الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من حَدِيث يزِيد بن عِيَاض عَن إِسْمَاعِيل

(32/821)

ابْن أُمِيَّة عَن أبي اليسع عَن أبي هُرَيْرَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ إِذا قَرَأَ أَلَيْسَ ذَلِك بِقَادِر عَلَى أَن يحيي الْمَوْتَى قَالَ بلَى وَإِذا قَرَأَ أَلَيْسَ الله بِأَحْكَم الْحَاكِمين قَالَ بلَى انْتَهَى وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

1512 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة وَالتِّين أعطَاهُ الله خصلتَيْنِ الْعَافِيَة

وَالْيَقِين مَا دَامَ فِي دَار الدُّنْيَا فَإِذا مَاتَ أعطَاهُ الله من الْأجر بِعَدَد من قَرَأَهَا

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه

عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره إِلَّا

أَنه قَالَ بِعَدَد من قَرَأَهَا صِيَام يَوْم وَهَذِه الزِّيَادَة لم أَجدهَا فِي نسخ الْكَشَّاف

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ فِي آل عمرَان بِلَفْظ الثَّعْلَبِيّ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس بِلَفْظ الثَّعْلَبِيّ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 241. 243 ﴾

(33/821)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة والتّين» (95)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«وَطُورِ سِينِينَ» (2) جبل . .

«فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» (4) فى أحسن صورة . .

«أَسْفَلَ سافِلِينَ» (5) أي أرذل العمر وبدّل حالا بعد حال . .

«أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» (6) ليس فيه منّ ويجوز غير مقطوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 303﴾

(34/821)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة التين

" والتين والزيتون * وطور سينين * وهذا البلد الأمين " . أيمان أربع متتابعة على أن الله خلق الإنسان فى أحسن تقويم . والتين والزيتون ثمرات معروفة ويرى جماعة من العلماء أن الله أراد القسم بهذا الثمر ، ولو أقسم بغيره جاز ، فكل ما تنبت الأرض من دلائل القدرة . وهل أروع وأبرع من أن ينشق الطين عن طعم حلو ورائحة زكية ولون زاه ؟ ولعله مروى ومسمد بالأقذاء . من الذى أخرج من الحمأ المسنون هذه الثمرات الشهية ؟ إنه الله . ويرى المحققون أن القسم هو بمواطن الشرائع الأولى ، وهذا أوفق فى الجمع بينها . ويؤيده ما روى عن ابن عباس أن التين هو مسجد نوح الذى بناه على الجودى بعد انتهاء الطوفان .

وأن الزيتون هو المسجد الأقصى الذى بناه إبراهيم بعدما بنى الكعبة . وطور سنين مكان تجلى الله على موسى وتشريفه بالرسالة . والبلد الأمين مكة موطن الإسلام ومشرق أنواره . والمقسم عليه هو خلق الإنسان فى أحسن تقويم ! هل حسن التقويم صورته الحسنة وقامته المديدة ؟ لا ، ليس ذاك ما يشرف به الإنسان . وفى الحديث "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم " . قد يكون القوام الممشوق بعض ما امتاز به بنو آدم ، ولكن امتيازهم الأول ، ولعله أيضا الأخير ، هو ذكاء العقل واستقامة الفطرة . إن نفخة من روح الله الأعلى سرت فى أوصال الإنسان فجعلته كائنا خطير الشأن ، وفى تكوينه الأول إشارة إلى أنه يولد بالتوحيد ، والاستقامة ؟ ثم تعدو عليه البيئة الرديئة ، فإذا هو يميل ويعوج وينسى أصله الرفيع . وفى

(35/821)

الآية " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " . ولكن الناس عندما ينسون ربهم وتفسد فطرتهم ، يقترفون آثاما تقشعر منها الأبدان . لماذا توءد الطفلة ؟ لماذا تحرق الزوجة السليمة مع زوجها الذى سبقها بالموت ؟ لماذا يعذب سجين حتى

يهلك ؟ لماذا يكتم بعض الناس الحق ؟ لماذا يضن البخيل بالعطاء وهو مستغن عنه ؟ لماذا ننكر أن الله هو خالقنا ؟ هذه كلها سفالات يرتكس البشر فيها ، ويبتعدون بها عن فطرة الله . . إن الفطرة الجميلة تبقى مع الحفاظ على الصلاح والتقوى ، وتضيع إذا جف الإيمان .

وهذا معنى الآيات: " ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون " . مقطوع. " فما يكذبك بعد " أيها الإنسان " بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين " . لماذا ينكر البعض الإسلام ويحاربه ويصد عنه ؟ بأى فكر يفعل ذلك ؟ وقد تركت شعوب حكمة الحكيم واستبدلت بالإسلام شرائع مغموصة لا تثمر خيرا أبدا فيا عجبا ! جاء فى الحديث " من قرأ منكم " والتين والزيتون " فانتهى إلى قول " أليس الله بأحكم الحاكمين " ، فليقل : وأنا على ذلك من الشاهدين " . انتهى انتهى . اهـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 528. 529﴾

(36/821)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(37/821)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة التين

أقول: لما تقدم في سورة الشمس: (ونَفسٍ وما سواها) فصل في هذه السورة بقوله: (لَقد خلقنا الإِنسانَ في أَحسنِ تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) إلى آخره وأخرت هذه السورة لتقدم ما هو أنسب بالتقديم من السور الثلاث ، واتصالها بسورة البلد لقوله: (وهَذا البلدِ الأَمين) وأخرت لتقدم ما هو أولى بالمناسبة مع سورة الفجر

لطيفة

نقل الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندرى في لطائف المنن عن الشيخ أبي العباس المرسي ، قال قرأت مرة: (والتينِ والزيتونِ) إلى أن انتهيت إلى قوله: (لقَد خلقنا الإِنسانَ في أَحسنِ تقويم ثُم رددناهُ أَسفلَ سافلين) ففكرت في معنى هذه الآية ، فألهمني الله أن معناها : لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم روحاً وعقلاً ، ثم رددناه أسفل سافلين نفساً وهوى

قلت: فظهر من هذه المناسبة وضعها بعد (أَلم نشرح) فإن تلك أخبر فيها عن شرح صدر النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك يستدعي كمال عقله وروحه ، فكلاهما في القلب الذي محله الصدر ، وعن خلاصه من الوزر الذي ينشأ من النفس والهوى ، وهو معصوم منهما ،

وعن رفع الذكر ، حيث نزه مقامه عن كل موهِم فلما كانت هذه السورة في هذا العلم الفرد من الإنسان ، أعقبها بسورة مشتملة على بقية الأناسى ، وذكر ما خامرهم في متابعة النفس والهوى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 154.153 ﴾

(38/821)

قوله تعالى ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الملك الأعظم الذي لا نعبد إلا إياه (الرحمن) الذي عم بنعمته إيجاده وبيانه جميع خلقه أسفله وأعلاه وأدناه وأقصاه (الرحيم) الذي خص من بينهم أهل وده بما يرضاه ، وأردى من عداهم وأشقاه .

(39/821)

لما ذكر سبحانه وتعالى في تلك السورة أكمل خلقه وما كمله به ، وختمها بالأمر بتخصيصه سبحانه وتعالى بالرغبة إليه ، فكان (صلى الله عليه وسلم) يقوم حتى تورم قدماه ويبذل الجهد لمولاه في كل ما يرضاه ، ذكر في هذه أنه سبحانه وتعالى كما جعل ذاته أكمل ذوات المخلوقات خصه بأن جعل نوعه (صلى الله عليه وسلم) أكمل الأنواع وهو الإنسان ، وأصله أعظم الأصول هو إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) ، وبلده أفضل البلاد وهي مكة ، وأن من عاداه بمنابذة شرعه أسفل الخلق ، وأن له سبحانه وتعالى تمام القدرة ، وهو فاعل بالاختيار ، يعلي من يشاء ويسفل من يشاء ، فمنزلتها من آخر تلك منزلة العلة من المعلول ، وأقسم فيها بأشياء أشار بها إلى شرفها في أنفسها وفي عجيب صنعها وشرف البقاع التي يكون بها إيماء إلى ما شرفها به مما أظهر بها من الخير والبركات بسكنى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والصالحين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فكانت مهاجر إبراهيم ومولد عيسى وأكثر الأنبياء عليهم الصلاة والسام ومنشأهم ، وكان منها مظهر نبوة موسى ، ومظهر نبوة اسماعيل عليهما الصلاة والسلام وولده خاتم الأنبياء الكرام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، ومكان البيت الذي هو قوام للناس ، وهدى للعالمين ، إلى غير ذلك من الإشارات الظاهرات والدلالات الواضحات على تمام قدرته وفعله بالاختيار ، لأنه يعلي من يشاء من العقلاء وغيرهم من البقاع وغيرها على أحسن تقويم ، ويسفل من يشاء من ذلك كله إلى أسفل سافلين .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هذه سورة موضحة ومتممة للمقصود في السورتين قبلها ، فبان لك أن الصورة الإنسانية بظاهر الأمر – مما هي عليه من الترتيب والإتقان – قد كانت تقتضي الاتفاق بظاهر ارتباط الكمال بها من حيث إلها في أحسن تقويم ، والافتراق يبعد في الظاهر ، فكيف افترق الحكم واختلف السلوك ، فمن صاعد بالاستيضاح والإمتثال ، ونازل أسفل سافلين فضلا عن ترقي بعض درجات الكمال ، فإذا ليس يرقى من خص بمزية التقريب إلا لأنه نودي من قريب فأسرع في إجابة مناديه وأصاخ ، وما اعتل بحاديه فسل من واضحات السبيل ما رسم له ، وبنى على ما كتب له من ذلك عمله) ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) [السجدة : 13] فعلى العاقل المنصف في نفسه أن يعلم أن كلا ميسر لما خلق له فيضرع إلى خالقه في طلب الإخلاص " من وجد خيرا فليحمد الله " فأوضحت هذه السورة ان ما أعطى الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) وخصه به من ضروب الكرامات وابتدأه من عظيم الآلاء مما تضمنته السورتان إلى ما منحه من خير الدارين وما تضمنه . قسمه له سبحانه وتعالى أنه ما ودعه ولا قلاه من الملاطفة والتأنيس ودلائل الحب والتقريب – كل ذلك فضلا منه سبحانه وتعالى وإحسانا لا لعمل تقدم يستوجب ذلك أو

بعضه ، ولو تقدم عمل لم يقع إلا بمشيئته ، وتوفيقه وإرادته ، ولا يستوجب أحد عليه شيئًا ، وإنما هو فضله يؤتيه من يشاء ، فقال سبحانه وتعالى منبها على ما وقع الإيماء إلى بعضه (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم (ومع ذلك لا ينفعه وقوع صورته الظاهرة في عالم الشهادة على أكمل خلق ولأتم وضع بل إذا لم يصحبه توفيق وسبقته سعادة من خالقه ولم يجعل له نور يمشي به لم ير غير نفسه ولا عرف إلا أبناء جنسه ، فقصر نظره على أول ما شاهد ، ووقف عند ما عاين من غير اعتياد يحده إلى تحقق مآله وتبين جحاله أنه لم يكن شيئًا مذكورا ، فلما قصر وما أبصر اعتقد لنفسه الكمال ، وعمي عن المبتدأ والمآل ، فصار

(41/821)

أسفل سافلين حيث لم ينتفع بالآيات نظره ، ولا عرف حقيقة خبره (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه) [يس : 87 - 87]

ثم قال تعالى : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات (فهم الذين هداهم ربهم) بإيمانهم (فجروا بسببه من خلقه في أحسن تقويم ن واستوضحوا الصراط المستقيم ، واستبصروا فأبصروا ، ونظروات فاعتبروا . وقالوا : ربنا الله ثم استقاموا ، فلهم أجر غير ممنون -

انتهى .

ولما كان التين أحسن الفواكه تقويماً فيما ذكروا من فضيلته ، وهو مع كونه فاكهة شهية حلوة جداً – غذاء يقيم الصلب وقوت كالبر وسريع الهضم ، ودواء كثير النفع يولد دماً صالحاً وينفع الرئة والكلى ويلين الطبع ويحلل البلغم ويزل رمل المثانة ويفتح سدد الكبد والطحال ، فكان جامعاً لجميع منافع المتناولات من الغذاء والتفكه والتحلي والتداوي ، فهو كامل في مجموع ما هو فيه من لذة طعمه وكثرة نفعه ، وكونه كفاكهة الجنة بلا شائبة تعوق عن أكله من صنوان يتعب أو نوى يرمى ، مع أنه ينتفع به رطباً ويابساً ، وهو مع ذلك في سرعة فساده وسوء تغيره أسفلها رتبة وأردؤها مغبة ، فهو كالفطرة الأولى في مبدئه سهولة وحسناً وقبولاً لكل من الإصلاح والتغير ، كآخر الهرم عند نهايته في عظيم تغيره بحيث إنه لا ينتفع بشيء منه إذا تغير ، وغيره من الفواكه إذا فسد جانب منه بقي آخر فكان في هذا كالقسم للسافل من الإنسان أقسم الله تعالى به فقال : ﴿ والتين ﴾ بادئاً به لأن القسم المشار به إليه أكثر ، فالاهتمام به أكبر .

(42/821)

ولما كان الزيتون في عدم فساد يطرقه أو تغير يلحقه ، وفيه الدسومة والحرافة والمرارة ، وهو إدام ودواء مع تهيئه للنفع بكل حال في أكله بعد تزييته والتنوير بدهنه والادهان به لإزالة الشعث وتنعيم البشرة وتقوية العظم وشد العصب وغير ذلك من المنافع مع لدنه وما يتبع ذلك من فضائله الجمة كالمؤمن تلاه به فقال : ﴿ والزيتون ﴾ ولما كان مع ذلك مشاراً بهما إلى مواضع نباتهما وهي الأرض المقدسة من جميع بلاد الشام إيماء إلى من كان بها من الأنبياء والتابعين لهم بإحسان لا سيما إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي كانت مهاجره فأحياها الله تعالى بعباده وتردد الملائكة إليه بالوحي ومن بعده أولاده الذين طهرها الله بهم من الشرك وأنارها بهم بالتوحيد ، وختمهم بعيسى عليه الصلاة والسلام أحد أولي العزم المشرف بكونه من أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ، وكانت الكناية بالشجرتين عن البلد المراد به سكانه أبلغ من التصريح بالمراد من أول وهلة ، ساقه على هذا المنهج العزيز ، ولم يبق ممن لم يسكنها من أشرافهم إلا موسى وهارون وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، فأشار إلى الأولين بقوله معبراً بما يدل على أحسن التقويم لأن الطور الجبل ذو النبت من النجم والشجر المثمر وغيره : ﴿ وطور ﴾ أي جبل المكان المسمى بهذا الاسم .

ولما كان الكلام في التقويم ، كان المناسب له صورة جمع السلامة فقال تعالى : ﴿ سينين ﴾ أي وما كان بالجبل ذي النبت الحسن الذي كلم الله فيه موسى عليه الصلاة والسلام من لذيذ المناجاة وعجائب المواعدة وحكم الكلام مع أن فيه من الأشجار والأماكن ما يكنّ من الحر والبرد ، وفيه لخلوه وحسنه وعلوه جمع الخاطر للمتفرد وطمأنينة النفس للتخلي للعبادة والتحصن مما يخشى لعلوه وصعوبته ، وفيه ما يصلح للزرع من غير كلفة ، وفيه ما يأكله الناس والدواب مع الماء العذب والفناء الرحب والمنظر الأنيق ، وسنين وسيناء – اسم للموضع الذي هذا الجبل به ، وأشار سبحانه وتعالى إلى الأخيرين من أولاد إبراهيم عليه الصلاة والسلام ختاماً للقسم بأكمل المقسم به كما جعل المنزل عليه ذلك الذي هو ختام الرسل أكمل النوع المقسم لأجله ليكون في البدء بما يرد بعد حسن التقويم إلى الفساد والختم بما هو أشرف المذكورين بكل اعتبار طباق حاز أعلى الأسرار : ﴿ وهذا البلد ﴾ أي مكة ، صرح هنا بهذين المكانين ترشيحاً لأن المراد بالأولين مواضع نبتهما مع تلك الإشارة اللطيفة بذكر اسميهما إلى مناسبتهما للمقسم من أجله ﴿ الأمين ﴾ أي الذي يأمن فيه من حل به من البشر والطير والوحش ، فكان بذلك كالرجل الأمين الذي يأتمنه آخر على نفسه وما يعز عليه فيؤديه إليه ويوقره عليه ، وأمانته شاملة لكل ما يخشى حتى الفقر والعيلة والجوع وتغير الدين بعد تقرره مع أن به البيت الذي جعله الله هدى للعالمين وقياماً

للناس فهو مدار الدين والدنيا ، وكان به من الأسرار بالوحي وآثاره ما لم يكن في بلد من البلاد ، وذلك إشارة إلى أنه تعالى كما جعل النبي المبعوث منه في آخر الزمان في أحسن تقويم جعله في أحسن تقويم البلدان إذ كان آمنا من غير ملك مرهوب – والناس يتخطفون من حوله ، وهو محل الأنس بالناس كما أن الذي قبله محل الأنس بالانفراد ، وهو مجمع المرافق ومعدن المنافع ومحل ذوي الوجاهة ديناً ودنيا ،

(44/821)

ومحل الرفعة والمناصب مع ما حازه المكانان من تنزل الكتب السماوية وإشراق الأنوار الإلهية الدينية فيهما ، وفي ذلك تخويف لهم بأنهم إن لم يرجعوا عن غيهم أخافه إخافة لم يخفها بلداً من بلاد العرب فيكونون بذلك قد ردوا أسفل سافلين في البلد ، كما ردوا في الأخلاق بالشقاق واللداد .

ولما كان هذا القسم مع كونه جامعاً لبدائع المصنوعات التي هي لما ذكر من حكمها دالة على كمال علم خالقها وتمام قدرته جامعاً لأكثر الذين آمنوا ، وكان إبراهيم عليه الصلاة والسلام لكونه أباهم مذكراً مرتين بالأرض المقدسة من القدس ومكة ، فتوقع أكمل الخلق وأفطنهم المخاطب بهذا الذكر المقسم عليه علماً منه ببلوغ القسم إلى غايته واستوائه على

نهايته، أجيب بقوله تعالى محققاً : ﴿ لقد خلقنا ﴾ أي قدرنا وأوجدنا بما لنا من العظمة الباهرة والعزة الغالبة القاهرة ﴿ الإنسان ﴾ أي هذا النوع الذي جمع فيه الشهوة والعقل وفيه الأنس بنفسه ما ينسيه أكثر مهمه، ولهذا قالت الملائكة عليهم الصلاة والسلام

(45/821)

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ [البقرة : 30] لأنهم علموا أنه إذا جمع الغضب والشهوة إلى العقل جاءت المنازعة فيتولد الفساد من الشهوة والسفك من الغضب ﴿ في أحسن تقويم ﴾ أي كائن منا روحاً وعقلاً أو أعم من ذلك بما جعلنا له من حسن الخلق والخلق بما خص به من انتصاب القامة وحسن الصورة واجتماع خواص الكائنات ونظائر سائر الممكنات بعد ما شارك فيه غيره من السمع والبصرة والذوق واللمس والشم الجوارح التي هيأته لما خلق له حتى قيل إنه العالم الأصغر كما مضى بسط ذلك في سورة الشمس ثم ميزناه بما أودعناه فيه بما جعلناه عليه من الفطرة الأولى التي لا تبديل لها من الطبع الأول السليم الذي هيأناه به وقويناه بقدرتنا لقبول الحق، وبمثل ما قلته في حمل الآية على الفطرة الأولى قال الأصفهاني في تفسير ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾ [البقرة : 213] في البقرة، وقال ابن برجان هنا : مفطور على فطرة الإسلام الدين القيم، ثم لما منحناه به

من العقل المدرك القويم، فكما جعلنا له شكلاً يميزه عن سائر الحيوان منحناه عقلاً يهديه إلى العروج عن درك النيران إلى درج الجنان بالإيمان والأعمال الصالحة البالغة نهاية الإحسان، بدليل من فيه من الأنبياء الذين أكملهم محمد على جميعهم أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام والتابعين له بإحسان الذين ملؤوا الأرض علماً وحكمةً ونوراً، قال البغوي: خلقه سبحانه وتعالى مديد القامة يتناول مأكوله بيده مزيناً بالعقل والتمييز - انتهى، والعقل هو المقصود في الحقيقة من الإنسان لأن من أسمائه اللب، ومن المعلوم أن المقصود من كل شيء لبه وهو الشرع كما مضى في آخر النساء، والظاهر أن عقول الناس بحسب الخلق متقاربة وأنها إنما تفاوتت بحسب الجبلة فبعضهم جعل سبحانه وتعالى عنصره وجبلته في غاية الفساد فلا تزال جبلته تردي على عقله فيتناقص إلى أن يصير إلى أسوأ الأحوال، فكل ميسر لما خلق له، وبعضهم يصرف عقله بحسب

ما هيأه الله له إلى ما ينجيه، وبعضهم يصرفه لذلك إلى ما يرديه، لأنك تجد أعقل الناس في شيء وأعرفهم به أشدهم بلادة في شيء آخر، وأغباهم في شيء أذكاهم في شيء آخر - فاعتبر ذلك، وبذلك انتظم أمر الخلق في أمر معاشهم بالعلوم والصنائع والأحوال - والله

الهادي ، وهذه الآية تدل على أن الله سبحانه وتعالى منزه عن التركيب والصورة لأنه لو كان في شيء منهما لكان هو الأحسن لأن كل صفة يشترك فيها الخلق والحق فالمبالغة للحق كالعالم والأعلم والكريم والأكرم – قاله الأستاذ أبو القاسم القشيري في تفسيره ، وصيغة " أفعل " لا تدل على ما قاله الزنادقة ، وإن عزي ذلك إلى بعض الأكابر من قولهم : ليس في الإمكان أبدع مما كان ، لأن الدرجة الواحدة تتفاوت إلى ما لا يدخل تحت حصر كتفاوت أفراد الإنسان في صوره وألوانه ، وغير ذلك من أكوانه وبديع شأنه ، وقد بينت ذلك في تصنيف مفرد لهذه الكلمة سميته : تهديم الأركان من " ليس في الإمكان أبدع مما كان " ، وأوضحته غاية الإيضاح والبيان ، وجرت فيه فتن تصم الآذان ، ونصر الله الحق بموافقة الأعيان ، وقهر أهل الطغيان ، ثم أردفته بكتاب " دلالة البرهان على أن في الإمكان أبدع مما كان ثم شفيت الأسقام ، ودمغت الأخصام ، وخسأت الأوهام ، بالقول الفارق بين الصادق والمنافق ، وهو نحو ورقتين في غاية الإبداع في قطع النزاع ، ويمكن أن تكون صيغة أفعل مفيدة بالنسبة إلى شيء أراده الله بحيث إن نتفطن له نحن لأن من المجمع عليه عند أهل السنة وصرح به الأشعري وغيره في غير موضع من كتبهم أن الله تعالى لا تتناهى مقدوراته ، وممن صرح بما صرح به الأشعري وأكثر في الإمام حجة الإسلام الغزالي في كتبه الإحياء وغيره ولا سيما كتابه " تهافت الفلاسفة " وبين أن هذا من قواعدهم لنفيهم صفة

الإرادة وقولهم بأن فعله بالذات ، وبين فساد ذلك ، وأنه سبحانه وتعالى قادر على اختراع عالم آخر وثالث متفاوتة بالصغر والكبر ، وعلى كل

(47/821)

ممكن ، وعرف أن الممكن هو المقدور عليه ، وأنه يرجع إلى المقدور عليه أيضاً ممكن ، وعرف الممتنع بانه إثبات الشيء مع نفيه ، وإثبات الأخص مع نفي الأعم ، وإثبات الاثنين مع نفي الواحد ، وقال : وما لا يرجع إلى ذلك فهو ممكن ، فدخل فيه عالم أبدع من هذا العالم - والله الموفق لما يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 468.473 ﴾

(48/821)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) ﴾

اعلم أن الإشكال هو أن التين والزيتون ليسا من الأمور الشريفة ، فكيف يليق أن يقسم الله

تعالى بهما ؟ فلأجل هذا السؤال حصل فيه قولان :

الأول : أن المراد من التين والزيتون هذان الشيآن المشهوران ، قال ابن عباس : هو تينكم وزيتونكم هذا ، ثم ذكروا من خواص التين والزيتون أشياء .

أما التين فقالوا إنه غذاء وفاكهة ودواء ، أما كونه غذاء فالأطباء زعموا أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يمكث في المعدة يلين الطبع ويخرج الترشح ويقلل البلغم ويطهر الكليتين ويزيل ما في المثانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح مسام الكبد والطحال وهو خير الفواكه وأحمدها ، وروى أنه أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه ، ثم قال لأصحابه : "كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس" وعن علي بن موسى الرضا عليهما السلام : التين يزيل نكهة الفم ويطول الشعر وهو أمان من الفالج ، وأما كونه دواء ، فلأنه يتداوى به في إخراج فضول البدن .

واعلم أن لها بعدما ذكرنا خواص : أحدها : أن ظاهرها كباطنها ليست كالجوز ظاهره قشر ولا كالتمر باطنه قشر ، بل نقول : إن من الثمار ما يخبث ظاهره ويطيب باطنه ، كالجوز والبطيخ ومنه ما يطيب ظاهره دون باطنه كالتمر والإجاص .

أما التين فإنه طيب الظاهر والباطن وثانيها : أن الأشجار ثلاثة : شجرة تعد وتخلف وهي شجرة الخلاف ، وثانية تعد وتفي وهي التي تأتي بالنور أولاً بعده بالثمر كالتفاح وغيره ، وشجرة تبذل قبل الوعد ، وهي التين لأنها تخرج الثمرة قبل أن تعد بالورد ، بل لو غيرت العبارة لقلت هي شجرة تظهر المعنى قبل الدعوى ، بل لك أن تقول : إنها شجرة تخرج الثمرة قبل أن تلبس نفسها بورد أو بورق ، والتفاح والمشمش وغيرهما تبدأ بنفسها ، ثم بغيرها ، أما شجرة التين فإنها تهتم بغيرها قبل اهتمامها بنفسها ، فسائر الأشجار كأرباب المعاملة في قوله عليه السلام : " إبدأ بنفسك ثم بمن تعول " وشجرة التين كالمصطفى عليه السلام كان يبدأ بغيره فإن فضل صرفه إلى نفسه ، بل من الذين أثنى الله عليهم في قوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : 9] ، وثالثها : أن من خواص هذه الشجرة أن سائر الأشجار إذا اسقطت الثمرة من موضعها لم تعد في تلك السنة ، إلا التين فإنه يعيد البذر وربما سقط ثم يعود مرة أخرى ورابعها : أن التين في النوم رجل خير غني فمن نالها في المنام نال مالاً وسعة ، ومن أكلها رزقه الله أولاداً وخامسها : روى أن آدم عليه السلام لما عصى وفارقته ثيابه تستر بورق التين ، وروى أنه لما نزل وكان متزراً بورق التين استوحش فطاف الظباء حوله فاستأنس بها فأطعمها بعض ورق التين ، فرزقها الله الجمال صورة والملاحة معنى وغير دمها مسكاً ، فلما تفرقت الظباء إلى مساكنها رأى غيرها

عليها من الجمال ما أعجبها ، فلما كانت من الغد جاءت الظباء على أثر الأولى إلى آدم فأطعمها من الورق فغير الله حالها إلى الجمال دون المسك ، وذلك لأن الأولى جاءت لآدم لا إجل الطمع والطائفة الأخرى جاءت للطمع سراً وإلى آدم ظاهرة ، فلاجرم غير الظاهر دون الباطن ، وأما الزيتون فشجرته هي الشجرة المباركة فاكهة من وجه وإدام من وجه ودواء من وجه ،

(50/821)

وهي في أغلب البلاد لا تحتاج إلى تربية الناس ، ثم لا تقتصر منفعتها غذاء بدنك ، بل هي غذاء السراج أيضاً وتولدها في الجبال التي لا توجد فيها شيء من الدهنية ألبتة ، وقيل : من أخذ ورق الزيتون في المنام استمسك بالعروة الوثقى ، وقال مريض لابن سيرين : رأيت في المنام كأنه قيل لي : كل اللامين تشف ، فقال : كل الزيتون فإنه لا شرقية ولا غربية ، ثم قال المفسرون : التي والزيتون اسم لهذين المأكولين وفيهما هذه المنافع الجليلة ، فوجب إجراء اللفظ على الظاهر ، والجزم بأن الله تعالى أقسم بهما لما فيهما هذه المصالح والمنافع .

القول الثاني : أنه ليس المراد هاتين الثمرتين ، ثم ذكروا وجوهاً أحدها : قال ابن عباس : هما جبلان من الأرض المقدسة ، يقال لهما : بالسريانية طور تينا ، وطور زيتاً ، لأنهما منبتا

التين والزيتون ، فكأنه تعالى أقسم بمنابت الأنبياء ، فالجبل المختص بالتين لعيسى عليه السلام .

(51/821)

والزيتون الشام مبعث أكثر أنبياء بني إسرائيل ، والطور مبعث موسى عليه السلام ، والبلد الأمين مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فيكون المراد من القسم في الحقيقة تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم وثانيها : أن المراد من التين والزيتون مسجدان ، ثم قال ابن زيد : التين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس ، وقال آخرون : التين مسجد أصحاب أهل الكف ، والزيتون مسجد إيليا ، وعن ابن عباس التين مسجد نوح المبني على الجودي ، والزيتون مسجد بيت المقدس ، والقائلون بهذا القول إنما ذهبوا إليه لأن القسم بالمسجد أحسن لأنه موضع العبادة والطاعة ، فلما كانت هذه المساجد في هذه المواضع التي يكثر فيها التين والزيتون ، لا جرم اكتفى بذكر التين والزيتون وثالثها : المراد من التين والزيتون بلدان ، فقال كعب : التين دمشق والزيتون بيت المقدس ، وقال شهر بن حوشب : التين الكوفة ، والزيتون الشام ، وعن الربيع هما جبلان بين همدان وحلوان ، والقائلون بهذا القول ، إنما ذهبوا إليه لأن اليهود والنصارى والمسلمين ومشركي قريش كل واحد منهم

يعظم بلدة من هذه البلاد ، فالله تعالى أقسم بهذه البلاد بأسرها ، أو يقال : إن دمشق وبيت المقدس فيهما نعم الدنيا ، والطور ومكة فيهما نعم الدين .

(52/821)

أما قوله تعالى : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ فالمراد من الطور الجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه ، واختلفوا في سينين والأولى عند النحويين أن يكون سينين وسينا اسمين للمكان الذي حصل فيه الجبل أو أضيفا إلى ذلك المكان ، وأما المفسرون فقال ابن عباس في رواية عكرمة : الطور الجبل وسينين الحسن بلغة الحبشة ، وقال مجاهد : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ المبارك ، وقال الكلبي : هو الجبل المشجر ذو الشجر ، وقال مقاتل : كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسينا بلغة النبط قال الواحدي : والأولى أن يكون سينين اسماً للمكان الذي به الجبل ، ثم لذلك سمي سينين أو سيناً لحسنه أو لكونه مباركاً ، ولا يجوز أن يكون سينين نعتاً للطور لإضافته إليه .

أما قوله تعالى : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ فالمراد مكة والأمين : الآمن قال صاحب " الكشاف " : من أمن الرجل أمانة فهو أمين وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه ، ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل ، كما وصف

بالأمن في قوله : ﴿ حَرَمًا ءامِناً ﴾ [العنكبوت : 67] يعني ذا أمن ، وذكروا في كونه أميناً وجوهاً أحدها : أن الله تعالى حفظه عن الفيل على ما يأتيك شرحه إن شاء الله تعالى وثانيها : أنها تحفظ لك جميع الأشياء فمباح الدم عند الالتجاء إليها آمن من السباع والصيود تستفيد منها الحفظ عند الالتجاء إليها وثالثها : ما روى أن عمر كان يقبل الحجر ، ويقول : إنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ، فقال له علي عليه السلام : إما أنه يضر وينفع إن الله تعالى لما أخذ على ذرية آدم الميثاق كتبه في رق أبيض ، وكان لهذا الركن يومئذ لسان وشفتان وعينان ، فقال : افتح فاك فألقمه ذلك الرق وقال : تشهد لمن وافاك بالموافاة إلى يوم القيامة ، فقال عمر : لا أبقيت في قوم لست فيهم يا أبا الحسن .

(53/821)

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)

المراد من الإنسان هذه الماهية والتقويم تصبير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التألف والتعديل ، يقال : قومته تقويماً فاستقام وتقوم ، وذكروا في شرح ذلك الحسن وجوهاً أحدها : أنه تعالى خلق كل ذي روح مكباً على وجهه إلا الإنسان فإنه تعالى خلقه مديد القامة

يتناول ما كوله بيده وقال الأصم : في أكمل عقل وفهم وأدب وعلم وبيان ، والحاصل أن القول الأول راجع إلى الصورة الظاهرة ، والثاني إلى السيرة الباطنة ، وعن يحيى بن أكثم القاضي أنه فسر التقويم بحسن الصورة ، فإنه حكى أن ملك زمانه خلا بزوجته في ليلة مقمرة ، فقال : إن لم تكوني أحسن من القمر فأنت كذا ، فأفتى الكل بالحنث إلا يحيى بن أكثم فإنه قال : لا يحنث ، فقيل له : خالفت شيوخك ، فقال : الفتوى بالعلم ولقد أفتى من هو أعلم منا وهو الله تعالى فإنه يقوله : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وكان بعض الصالحين يقول : إلهنا أعطيتنا في الأولى أحسن الأشكال ، فأعطنا في الآخرة أحسن الفعال ، وهو العفو عن الذنوب ، والتجاوز عن العيوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 11.9 ﴾

(54/821)

وقال الآلوسى :

﴿ والتين والزيتون وَطُورِ سِينِينَ وهذا البلد الأمين ﴾

إقسام ببقاع مباركة شريفة على ما ذهب إليه كثير فأما البلد الأمين فمكة حماها الله تعالى بلا خلاف وجاء في حديث مرفوع وهو مكان البيت الذي هو هدى للعالمين ومولد رسول

الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه والأمين فعيل اما بمعنى فاعل أي الآمن من أمن الرجل بضم الميم أمانة فهو أمين وجاء أمان أيضاً كما جاء كريم وكرام ولم يسمع آمن اسم فاعل وسمع على معنى النسب كما في قوله تعالى ﴿ حرماً آمناً ﴾ [القصص : 57] بمعنى ذي أمن وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه ففيه تشبيه بالرجل الأمين وأما بمعنى مفعول أي المأمون من أمته أي لم يخفه ونسبته إلى البلد مجازية والمأمون حقيقة الناس أي لا تخاف غوائلهم فيه أو الكلام على الحذف والإيصال أي المأمون فيه من الغوائل .

(55/821)

واقحام اسم الإشارة للتعظيم وأما طور سينين فالجبل الذي كلم الله تعالى شأنه موسى عليه السلام عليه ويقال له طور سيناء بكسر السين والمد وبفتحها والمد وقد قرأ بالأول هنا بدل سينين عمر بن الخطاب وعبد الله وطلحة والحسن وبالثاني عمر أيضاً وزيد بن علي وطور سينين بفتح السين وهي لغة بكر وتميم وقد قرأ بها ابن أبي إسحاق وعمرو بن ميمون وأبو رجاء وفي البحر أنه لم يختلف في أنه جبل بالشام وتعقبه الشهاب بأنه خلاف المشهور فإن المعروف اليوم بطور سينا ما هو بقرب التيه بين مصر والعقبة وسينين قيل اسم للبقعة التي فيها الجبل أضيف إليه الطور ويعامل في الإعراب معاملة يبرون ونحوه فيعرب

بالواو والياء ويقر على الياء وتحرك النون بحركات الإعراب وقال الأخفش سينين جمع
بمعنى شجر واحد ته سينة فكأنه قيل طور الأشجار وأخرج ابن أبي حاتم وابن المنذر
وعبد بن حميد عن ابن عباس أنه قال سينين هو الحسن وأخرج عبد بن حميد نحوه عن
الضحاك وكذلك أخرج هو وجماعة عن عكرمة بزيادة بلسان الحبشة وأخرج هو أيضاً
وابن جرير وابن عساكر وغيرهما عن قتادة أنه قال سينين مبارك حسن ذو شجر
والإضافة على ما ذكر من إضافة الصفة إلى الموصوف واما التين والزيتون فروي جماعة عن
قتادة أن الأول منهما الجبل الذي عليه دمشق والثاني الجبل الذي عليه بيت المقدس ويقال
على ما أخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن أبي حبيب الحرث بن محمد للأول طور
تينا وللثاني طور زيتا وذلك لأنهما منبتا التين والزيتون وكان الكلام على هذا اما على
حذف مضاف أو على التجوز بأن يكون قد تجوز بالتين والزيتون عن منبتيهما وشاع ذلك
وأخرج عبد بن حميد عن أبي عبد الله الفارسي أن التين مسجد دمشق والزيتون بين
المقدس ولعل اطلاقهما عليهما لأن فيهما شجراً من جنسهما وعن كعب الأحبار أنهما
دمشق وإيلياء بلد بيت المقدس وكأن تسميتهما بذلك من تسمية المحل باسم الحال فيه
وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن محمد

بن كعب أنهما مسجد أصحاب الكهف ومسجد إيلياء وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس أنهما مسجد نوح عليه السلام الذي بني على الجودى وبيت المقدس وعن شهر بن حوشب أنهما الكوفة والشام وتعقب بأن الكوفة بلدة إسلامية مصرها سعد بن أبي وقاص في أيام أمير المؤمنين عمر رضي الله تعالى عنه ولعله أراد الأرض التي تسمى اليوم بالكوفة فقد كانت كما في القاموس وغيره منزل نوح عليه السلام وقال بعضهم إن الكوفة بلد كانت قبل لكنها خربت فجددت في أيام عمر رضي الله تعالى عنه وقيل هما جبال ما بين حلوان وهمدان وجبال الشام لأنهما منابتهما وأياً ما كان فالمتعاطفات متناسبة في أن المراد بها أماكن خصوصة وقيل المراد بهما الشجران المعروفان وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس أنه قال التين والزيتون الفاكهة التي يأكلها الناس وأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن مجاهد نحوه وحكاه في البحر أيضاً عن إبراهيم النخعي وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي وعكرمة والحسن وخصهما الله تعالى على هذا القول بالاقسام بهما من بين الثمار لاختصاصهما بخواص جليلة فإن التين فاكهة طيبة لا فضل لها وغذاء لطيف سريع الانهضام بل قيل إنه أصح الفواكه غذاء إذا أكل على الخلاء ولم يتبع بشيء وهو دواء كثير النفع يفتح السدد ويقوي الكبد ويذهب الطحال وعسر البول وهزال الكلى والخفقان والربو وعسر النفس والسعال وأوجاع الصدر وخشونة القصبة إلى

غير ذلك وعن علي الرضا بن موسى الكاظم على جدهما وعليهما السلام أنه يزيل نكهة الفم ويطول الشعر وهو أمان من الفالج وروي أبو ذر أنه أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس ولم أقف للمحدثين على شيء في هذا الحديث لكن قال داود الطبيب بعد سرد نبذة من خواص التين وفي نفعه من

(57/821)

البواسير حديث حسن وذكر أن نفعه من النقرس إذا دق مع دقيق الشعير أو القمح أو الحلبة وذكر أنه حينئذ ينفع من الأورام الغليظة وأوجاع المفاصل وله مفرداً ومركباً خواص أخرى كثيرة وكذا لشجرته كما لا يخفى على من راجع كتب الطب وما أشبه شجرته بمؤثر على نفسه وبكريم يفعل ولا يقول وأما الزيتون فهو ادام ودواء وفاكهة فيما قيل وقالوا إن المكلس منه لا شيء مثله في الهضم والتسمين وتقوية الأعضاء ويكفيه فضلاً دهنه الذي عم الاصطباح به في المساجد ونحوها مع ما فيه من المنافع كتحسين الألوان وتصفية الاخلاط وشد الأعصاب وكفتح السدد وإخراج الدود والإدرار وتفتيت الحصى واصلاح الكلي شرباً بالماء الحار كقلع البياض وتقوية البصرا كتحالا إلى غير ذلك وشجرته من الشجرة

المباركة المشهود لها في التنزيل وإذا تتبعت خواص أجزائها ظهر لك أنها أجدى من تفاريق العصا وعن معاذ بن جبل أنه مر بشجرة زيتون فأخذ منها سواكا فاستاك به وقال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول

(58/821)

" نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة " وسمعته عليه الصلاة والسلام يقول " هو سواكي وسواك الأنبياء عليهم السلام قبلي " وقال بعضهم أن تفسيرهما بما ذكر هو الصحيح وكان المراد عليه تين تلك الأماكن المقدسة وزيتونها والغرض من القسم بتلك الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة ويرجع إلى القسم بالأرض المباركة وبالبلد الأمين وفيه رمز إلى فضل البلد كما يشعر به كلام صاحب الكشاف وبين ذلك في الكشف بقوله وذلك أنه فصل بركتي الأرض المقدسة الدنيوية والدينية بذكر الشجرتين أو ثمرتيهما والطور الذي نودي منه موسى عليه السلام وناب المجموع مناب والأرض المباركة على سبيل الكناية فظهر التناسب في العطف على وجه بين إذ عطف البلد على مجموع الثلاثة لأنها كالفرد بهذا الاعتبار كأنه قيل والأرض التي باركنا فيها دينا ودنيا والبلد الآمن من دخله في الدارين وذلك بركة يتضاءل

دونها كل بركة يتضائل دونها كل بركة ويتضمن ذلك أن شرف تلك البقاع بمنجاة موسى عليه السلام ربه عز وجل أياماً معدودة وكم نوجيت في البلد الأمين ثم قال والحمل على الظاهر أريد المنابت أو الشجر أن يفوته المناسبة بين الأولين والبلد الأمين لأن مناسبة طور سينين للبلد غير مناسبته لهما والكلام مسوق للأول انتهى فتأمل فإنه دقيق وأياً ما كان فجواب القسم قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ الخ

(59/821)

وأريد بالانسان الجنس فهو شامل للمؤمن والكافر لا مخصوص بالثاني واستدل عليه بصحة الاستثناء وان الأصل فيه الاتصال وقوله تعالى : ﴿ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ في موضع الحال من الإنسان أي كائناً في تقويم أحسن تقويم والتقويم التثقيف والتعديل وهو فعل الله عز وجل فمعنى كون الإنسان كائناً في ذلك على ما قيل إنه ملتبس به نظير قولك فلان في رضا زيد بمعنى أنه مرضي عنه وقال الخفاجي هو مؤول بمعنى القوام أو المقوم وفيه مضاف مقدر أي قوام أحسن تقويم أو في زائدة وما بعدها في موضع المفعول المطلق وقد ناب فيه عن المصدر صفته والتقدير قومناه تقويماً أحسن تقويم والمراد بذلك جعله على أحسن ما يكون صورة

ومعنى فيشمل ماله من انتصاب القامة وحسن الصورة والإحساس وجودة العقل وغير ذلك ومن أمعن نظره في أمره وأجال فكره في دقائق ظاهره وسره رآه كما قال بعض الأجلة مجمع مجرى الغيب والشهادة ومطلع نيري فلكي الإفادة والاستفادة والنسخة الجامعة لما في رسائل إخوان الصفا وسائر المتون والشارح بسطور طروس العجائب الإلهية المودعة فيه لما كان وسيكون وظهر له صدق ما قيل ونسب لعلي كرم الله تعالى وجهه

: دواؤك فيك ولا تشعر . . .

وداؤك منك وما تبصر وتزعم انك جرم صغير

وفيك انطوى العالم الأكبر . . .

(60/821)

ومما يدل على أحسنية تقويمه إن الله تعالى رسم فيه من الصفات ما تذكره صفاته عز وجل وتدله عليها فجعله عالماً مريداً قادراً إلى غير ذلك وقال تعالى تخلقوا بأخلاق الله لئلا يتوهم ان ما للسيد على العبد حرام ويكفي في هذا الباب وهو القول الفصل إن الله تعالى خلقه بيديه وأمر سبحانه ملائكته عليهم السلام بالسجود له وهم المكرمون لديه وجاء إن الله تعالى خلق آدم على صورته وفي رواية على صورة الرحمن وهي تأبى احتمال عود الضمير

على آدم على معنى خلقه غير متنقل في الأطوار كينية ولكونه النسخة الجامعة قال يحيى بن معاذ الرازي من عرف نفسه فقد عرف ربه والناس يزعمونه حديثاً وليس كما قال النووي بثابت وعن يحيى بن أكثم وبعض الحنفية أنهما أفتيا من قال لزوجته إن لم تكوني أحسن من القمر فأنت طالق بعد وقوع الطلاق واستدلا بهذه الآية في قصة مشهورة وللشعراء في تفضيل معشوقهم على القمر ليلة تمه ما يضيق عنه نطاق الحصر والحق أن الفرق مثل الصبح ظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(61/821)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(95) سورة التين

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة « البروج » .

عدد آياتها : ثمانى آيات .

عدد كلماتها : أربع وثلاثون كلمة .

عدد حروفها : مائة وخمسون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة « الانشراح » بالدعوة إلى الكد والنصب ، فى الحياة الدنيا ، ليبنى الإنسان بذلك دار مقامه فى الآخرة ، ويعمرها بما يساق إليه فيها من نعيم اللّه ورضوانه .

(62/821)

وبدئت سورة « التين » بهذه الأقسام من اللّه سبحانه وتعالى ، لتقرير حقيقة الإنسان وتذكيره بوجوده ، وأن اللّه سبحانه خلقه فى أحسن تقويم ، وأودع فيه القوى التي تمكّن له من الاحتفاظ بهذه الصورة الكريمة ، وأن يبلغ أعلى المنازل عند اللّه ، ولكن ميل الإنسان إلى حب العاجلة ، قد أغراه باقتطاف الذات الدانية له من دنياه ، دون أن يلتفت إلى الآخرة ، أو يعمل لها ، فردّ إلى أسفل سافلين . . وقليل هم أولئك الذين عرفوا قدر أنفسهم ، فعلوا بها عن هذا الأفق الضيق ، ونظروا إلى ماوراء هذه الدنيا .

قوله تعالى : « وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ » اختلف فى معنى التين والزيتون ، وكثرت مقولات المفسرين فيهما ، ويروون عن ابن عباس أنه قال فيها : « هو تينكم الذي تأكلون ، وزيتونكم

(63/821)

الذي تعصرون منه الزيت ، قال تعالى : « وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ » (40 : المؤمنون) .

ويروى عن أبى ذرّ أنه أهدى إلى النبىّ صلى اللّه عليه وسلم سل من تين ، فقال : « كلوا » وأكل منه ، ثم قال : « لو قلت : إنّ فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عجم « 1 » ، فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النّقرس » .

. وقيل التين المسجد الحرام ، والزيتون المسجد الأقصى ، وقيل : هما جبلان بالشام . . وقيل كثير غير هذا .

ويرجّح القرطبي أنهما التين والزيتون على الحقيقة ، وقال : « لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل » ! .

ولكن إذا أخذنا بالقول بأن التين والزيتون هما هاتان الثمرتان . لا نجد جامعة بين التين والزيتون ، وبين طور سينين والبلد الأمين . . وعادة القرآن أنه لا يجمع بين الأقسام إلا إذا كانت بينها علاقة تشابه أو تضادّ ، وهنا لا نجد علاقة واضحة بين هاتين الفاكهتين ، وبين طور سينين والبلد الأمين ، اللهم إلا إذا قلنا : إن طور سيناء ينبت فيه التين والزيتون ، ويطيب ثمره ، فتكون العلاقة بينهما علاقة نسبة إلى المكان ، ويقوّى هذه النسبة أن القرآن الكريم أشار فى موضع آخر إلى منبت شجرة الزيتون ، وأن طور سيناء هو أطيب منبت

لها ، إذ يقول سبحانه : « وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ » .
(20 : المؤمنون) وقيل : إن التين والزيتون فاكهتان ، ولكن لم يقسم بهما هنا لفوائدهما ، بل لما يذكّران به من الحوادث العظيمة التي لها آثارها الباقية

---

(1) أي بلا نوى

.

(64/821)

وذلك أن اللّه سبحانه وتعالى أراد أن يذكّرنا بأربعة فصول من كتاب الإنسان الطويل ، من أول نشأته إلى مبعث النبي صلى اللّه عليه وسلم .

فالتين ، إشارة إلى عهد الإنسان الأول ، فإن آدم - كما تقول التوراة - كان يستظل فى الجنة بشجر التين ، وعند ما بدت له ولزوجه سوءاتهما طفقا يخصفان عليهما من ورق التّين . .
فهذا أول فصل من فصول حياة الإنسان . .

والزيتون ، إشارة إلى الفصل الثاني ، وهو عهد نوح ، وذلك أنه بعد أن فسد البشر ، وأهلك اللّه من أهلك بالطوفان ، ونجّى نوحا ومن معه فى السفينة ، واستقرت السفينة على اليابسة - نظر نوح - كما تقول التوراة - إلى ما حوله ، فرأى الحياة لا تزال تغطى وجه الأرض ،

فأرسل حمامة تأتى له بدليل على انحسار المياه عن وجه الأرض ، فجاءت إليه وفى فمها وريقات من شجر الزيتون ، فعرف أن المياه بدأت تظهر على وجه الأرض من جديد ! أما طور سينين ، فهو إشارة إلى الفصل الثالث من حياة الإنسان ، وهو ظهور الشريعة الموسوية ، وقد كانت تلك الشريعة دعوة لكثير من أنبياء اللّه ورسوله إلى عهد المسيح عليه السلام ، الذي كان خاتمة هذه الشريعة .

وأما البلد الأمين ـ وهو مكة ـ فقد كان مطلع الرسالة الخاتمة لما شرع اللّه للناس ، وبها يختم الفصل الأخير من حياة الإنسان على هذه الأرض . .

وهذه كلها أقوال متقاربة ، يمكن أن يؤخذ بأيّ منها ، أو بها جميعها .

[مسيرة الإنسان . . إلى أمام ، أم وراء ؟]

وقوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ

(65/821)

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » .

هو جواب القسم ، وهو المقسم عليه ، لتوكيده ، وتقريره بالقسم .

وفى توكيد هذا الخبر ، وهو خلق الإنسان فى أحسن تقويم ـ إشارة إلى كثير ممن تشهد

عليهم أفعالهم بأنهم ينكرون خلقهم القويم هذا ، ولا يعرفون قدره فينزلون إلى مرتبة الحيوان ، ويسلمون قياد وجودهم إلى شهواتهم البهيمية ، غير ملتفتين إلى ما أودع الخالق فيهم من عقل حمل أمانة أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها ، فضيع الإنسان هذه الأمانة ، ولاكها فى فمه كما تلوك البهيمة العشب . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » .

. فلقد ردّ الإنسان بهذه الغفلة عن وجوده الحقيقي ، إلى الوراء ، منكّسا فى خلقه ، حتى بلغ أدنى مراتب الحيوانية ، وصار وراء الحيوان الأعجم الذي تسيره طبيعته التي ركبت فيه ، على خلاف هذا الإنسان الذي غيّر فطرته ، وانتقل من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان ، فلم يصبح حيوانا ، ولم يعد إنسانا ! يقول الأستاذ الإمام محمد عبده عن الإنسان وخلقه فى أحسن تقويم ، ورده إلى أسفل سافلين : « وما أشبهه ـ أي الإنسان ـ فى حاله الأولى ـ بثمرة التين ، تؤكل كلها ، لا يرمى منها شيء . . والإنسان ـ أي فى حاله الأولى ـ كان صلاحا كله ، لم يشذّ عن الجماعة منه فرد ، تلك كانت أيام القناعة بما تيسر له من العيش ، وشدة الإحساس بحاجة كل فرد إلى الآخر فى تحصيله ، وفى دفع العوادي عن النفس . . تنّبهت الشهوات بعد ذلك وتخالفت الرغبات ، فنبت الحسد والحقد ، وتبعه التقاطع ، واستشرى الفساد بالأنفس ، حتى صارت الأمانة عند بعض الحيوان ، أفضل منها عند

الإنسان ، فانحطت بذلك نفسه عن مقامها الذي كان لها بمقتضى الفطرة ، وقد كان ذلك.
ولا يزال.حال أكثر

(66/821)

الناس . فهذا قوله : « ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » ! ونظرة الأستاذ الإمام هنا ، قائمة على أن الإنسان فى حال التذاجة والبدائية كان خيرا منه فى حال الحضارة والمدينة ، أو بمعنى آخر ، أنه كان فى حياة الغابة بين الحيوان ، لا يتكلف لحياته أكثر ممّا يتكلّف الحيوان ، حيث يأكل مما يأكل الحيوان ، ويسكن فى كهوف ، وأجحار كما يسكن الحيوان.كان فى هذه الحياة خيرا منه فى حياة المدن ، وما ولّد له عقله فيها من قوّى سخّر بها الطبيعة ، واستخرج منها كنوزها المودعة فى كيانها ، وأمسك بمفاتح أسرارها ، فاستضاء بالكهرباء ، واتخذ الهواء مركبا له ، بل وصعّد فى السماء حتى وضع قدميه على القمر ، وهو بسبيل أن يضع أقدامه على الكواكب الأخرى ! ! ولو صحّ هذا الذي يقوله الأستاذ الإمام ، لكان معناه أن الحياة الإنسانية تسير إلى الوراء ، وهذا ما لا تسير عليه الحياة ، ولا ما تقتضيه سنّة التطور فى الكائن الحىّ نفسه . . فالإنسان بدأ من طين ، ثم صار خلقا سويّا ، فى أطوار ينتقل فيها من أسفل إلى أعلى . . من التراب ، ثم النطفة ، ثم العلقة ، ثم

المضغة . . ثم . . ثم . . إلى أن يكون طفلا ، ثم غلاما ، ثم شابّا ، ثم رجلا . . كذلك الشأن فى عالم النبات . . البذرة ، ثم النّبتة ، ثم الشجرة ، ثم الدّوحة العظيمة . . وهكذا . . حتى فى عالم الجماد .

وإنه لأولى من هذا أن تكون هذه النظرة مقصورة على الأفراد فى أنواعها ، لا على الأنواع فى أفرادها ، بمعنى أن الأفراد تدور فى فلك محدود يكون لها فيه شروق وغروب ، وصعود وهبوط ، وازدهار وذبول ، ونضج وعطب . . أما الأنواع ـ مع ما يقع فى أفرادها من تحول وتبدّل ـ فهى سائرة إلى الأمام أبدا ، متطورة إلى ما هو أحسن وأكمل . . وشاهد

(67/821)

هذا الشرائع السماوية نفسها ، فما كملت شريعة السماء إلا فى الشريعة الإسلامية ، التي التقت مع الإنسان بعد هذه الدورات الطويلة الممتدة من مسيرة الحياة الإنسانية ـ فهذا هو معيار الإنسان ، ووزنه الذي يوزن به ! ودورة الإنسان هذه على هذه الأرض هى دورة جزئيّة فى فلك الوجود ، إذا غربت شمسه على هذه الأرض ، طلعت من جديد فى عالم آخر ، هو عالم الخلود ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1612 ـ 1618. ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) ﴾

ابتداء الكلام بالقَسَم المؤكد يؤذن بأهمية الغرض المسوق له الكلام ، وإطالةُ القَسَم تشويق إلى المُقْسَم عليه .

والتينُ ظاهرة الثمرة المشهورة بهذا الاسم ، وهي ثمرة يشبه شكلها شكل الكمثرى ذات قشر لونه أزرق إلى السواد ، تتفاوت أصنافه في قُتومَةِ قشره ، سهلة التقشير تحتوي على مثل وعاء أبيضَ في وسطه عَسل طيّبُ الرائحة مخلوط ببزور دقيقة مثل السِمسم الصغير ، وهي من أحسن الثمار صورة وطعماً وسهولة مضغ فحالتُها دالة على دقة صنع الله ومؤذنة بعلمه وقدرته ، فالقسم بها لأجل دلالتها على صفات إلهية كما يقسم بالاسم لدلالته على الذات ، مع الإِيذان بالمنة على الناس إذ خلَق لهم هذه الفاكهة التي تنبت في كل البلاد والتي هي سهلة النبات لا تحتاج إلى كثرة عمل وعلاج .

والزيتونُ أيضاً ظاهرة الثمرة المشهورة ذاتُ الزيت الذي يُعتصر منها فيطعمه الناس ويستصبحُون به .

والقَسَم بها كالقَسَم بالتين من حيث إنها دالّة على صفات الله ، مع الإِشارة إلى نعمة خلق هذه الثمرة النافعة الصالحة التي تكفي الناس حوائج طعامهم وإضاءتهم .

وعلى ظاهر الاسمين للتّين والزيتون حملهما جمع من المفسرين الأوّلين ابنُ عباس ومجاهد والحسن وعكرمةُ والنخعي وعطاء وجابر بن زيد ومقاتِل والكلبي وذلك لما في هاتين الثمرتين من المنافع للناس المقتضية الامتنان عليهم بأن خلقها الله لهم ، ولكن مناسبة ذكر هذيْن مع ﴿ طور سنين ﴾ ومع ﴿ البلد الأمين ﴾ تقتضي أن يكون لهما محمل أوفق بالمناسبة فروي عن ابن عباس أيضاً تفسير التين بأنه مَسجد نوح الذي بني على الجُودي بعد الطوفان .

ولعل تسمية هذا الجبل التين لكثرته فيه إذ قد تسمى الأرض باسم ما يكثر فيها من الشجر كقول امرىء القيس :

أَمَرْخٌ دِيارُهم أم عُشَرْ

وسمي بالتين موضع جاء في شعر النابغة يصف سحابَات بقوله :

صُهْب الظِّلال أتَيْنَ التينَ في عُرُضٍ

يَزجين غَيماً قَليلاً ماؤُه شَبِما . . .

والزيتون يطلق على الجبل الذي بُني عليه المسجد الأقصى لأنه ينبت الزيتون .

وروي هذا عن ابن عباس والضحاك وعبد الرحمن بن زيد وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب القرظِي .

ويجوز عندي أن يكون القَسَم بـ ﴿ التين والزيتون ﴾ معنياً بهما شجر ها تين الثمرتين ، أي اكتسب نوعاهما شرفاً من بين الأشجار يكون كثير منه نا بتاً في هذين المكانين المقدسين كما قال جرير :

أتذكرُ حين تصقِل عارضَيْها

بفرع بشامة سُقي البشام . . .

فدعا لنوع البشام بالسّقي لأجل عود بَشَامَةَ الحَبيبة .

وأما ﴿ طور سينين ﴾ فهو الجبل المعروف ب"طور سينا" .

والطور : الجبل بلغة النبَط وهم الكنعانيون ، وعرف هذا الجبل بـ ﴿ طور سينين ﴾ لوقوعه في صحراء "سينين" ، و"سينين" لغة في سِين وهي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين .

وقيل : سينين اسم الأشجار بالنبطية أو بالحبشية ، وقيل : معناه الحسن بلغة الحبشة .

وقد جاء تعريبه في العربية على صيغة تشبه صيغة جمع المذكر السالم وليس بجمع ، مجاز

في إعرابه أن يعرب مثل إعراب جمع المذكر بالواو نيابة عن الضمة، أو الياء نيابة عن الفتحة أو الكسرة، وأن يحكى على الياء مع تحريك نونه بحركات الإِعراب مثل: صِفِّين ويَبْرِين

وقد تقدم عند قوله تعالى:

﴿ والطور وكتاب مسطور ﴾ [الطور: 1، 2].

و﴿ البلد الأمين ﴾: مكة، سمي الأمين لأن من دخله كان آمناً، فالأمين فعيل بمعنى مُفعل مثل: "الداعي السمِيع" في بيت عمرو بن معديكرب، ويجوز أن يكون بمعنى مفعول على وجه الإِسناد المجازي، أي المأمون ساكنوه قال تعالى: ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ [قريش: 4].

والإشارة إليه للتعظيم ولأن نزول السورة في ذلك البلد فهو حاضر بمرأى ومسمع من المخاطبين نظير قوله: ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ [البلد: 1].

(70/821)

وعلى ما تقدم ذكره من المحملين الثانيين للتين والزيتون تتم المناسبة بين الأيمان وتكون إشارة إلى موارد أعظم الشرائع الواردة للبشر، فالتين إيماء إلى رسالة نوح وهي أول شريعة لِرسولٍ، والزيتون إيماء إلى شريعة إبراهيم فإنه بنى المسجد الأقصى كما ورد في الحديث وقد تقدم

في أول الإسراء ، و ﴿ طور سينين ﴾ إيماء إلى شريعة التوراة ، و ﴿ البلد الأمين ﴾ إيماء إلى مهبط شريعة الإِسلام ، ولم يقع إيماء إلى شريعة عيسى لأنها تكملة لشريعة التوراة .

وقد يكون الزيتون على تأويله بالمكان وبأنه المسجد الأقصى إيماء إلى مكان ظهور شريعة عيسى عليه السلام لأن المسجد الأقصى بناه سليمان عليه السلام فلم تنزل فيه شريعة قبل شريعة عيسى ويكون قوله : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ إيماء إلى شريعة إبراهيم وشريعة الإِسلام فإن الإِسلام جاء على أصول الحنيفية وبذلك يكون إيماءُ هذه الآية ما صرح به في قوله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ﴾ [الشورى : 13] ، وبذلك يكون ترتيب الإيماء إلى شرائع نوح وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام غير جار على ترتيب ظهورها فتوجيه مخالفة الترتيب الذكري للترتيب الخارجي أنه لمراعاة اقتران الاسمين المنقولين عن اسمي الثمرتين ، ومقارنة الاسمين الدالين على نوعين من أماكن الأرض ، ليتأتى مُحسن مراعاة النظير ومحسن التورية ، وليناسب ﴿ سينين ﴾ فواصل السورة .

وفي ابتداء السورة بالقَسَم بما يشمل إرادة مهابط أشهر الأديان الإلهية براعةُ استهلال لغرض السورة وهو أن الله خلق الإنسان في أحسن تقويم ، أي خلقه على الفطرة السليمة مدركاً لأدلة وجود الخالق ووحدانيته .

وفيه إيماء إلى أن ما خالف ذلك من النحل والملل قد حاد عن أصول شرائع الله كلها بقطع

النظر عن اختلافها في الفروع، ويكفي في تقوّم معنى براعة الاستهلال ما يلوح في المعنى من احتمال.

(71/821)

وجملة: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ مع ما عطف عليه هو جواب القسم.

والقَسم عليه يدل على أن التقويم تقويم خفي وأن الرد رد خفيّ يجب التدبر لإِدراكه كما سنبينه في قوله: ﴿ في أحسن تقويم ﴾.

فلذلك ناسب أن يحقق بالتوكيد بالقسم، لأن تصرفات معظم الناس في عقائدهم جارية على حالة تشبه حالة من ينكرون أنهم خُلقوا على الفطرة.

والخلق: تكوين وإيجاد لشيء، وخلق الله جميع الناس هو أنه خلق أصول الإِيجاد وأوجد الأصول الأولى في بدء الخليقة كما قال تعالى: ﴿ لما خلقت بيدي ﴾ [ص: 75] وخلق أسباب تولد الفروع من الأصول فتناسلت منها ذرياتهم كما قال: ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ [الأعراف: 11].

وتعريف ﴿ الإنسان ﴾ يجوز أن يكون تعريف الجنس، وهو التعريف الملحوظ فيه مجموع الماهية مع وجودها في الخارج في ضمن بعض أفرادها أو جميع أفرادها.

ويحمل على معنى : خلقنا جميع الناس في أحسن تقويم .

ويجوز أن يكون تعريف ﴿ الإنسان ﴾ تعريف الحقيقة نحو قولهم : الرجل خير من المرأة ، وقول امرىء القيس :

الحرب أول ما تكون فَتية

فلا يلاحظ فيه أفراد الجنس بل الملحوظ حالة الماهية في أصلها دون ما يعرض لأفرادها مما يغير بعض خصائصها .

ومنه التعريف الواقع في قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾ وقد تقدم في سورة المعارج (19) .

والتقويم : جعل الشيء في قَوام (بفتح القاف) ، أي عَدل وتسوية ، وحسن التقويم أكمله وأليقه بنوع الإنسان ، أي أحسن تقويم له ، وهذا يقتضي أنه تقويم خاص بالإنسان لا يشاركه فيه غيره من المخلوقات ، ويتضح ذلك في تعديل القوى الظاهرة والباطنة بحيث لا تكون إحدى قواه موقعة له فيما يفسده ، ولا يعوق بعض قواه البعضَ الآخر عن أداء وظيفته فإن غيره من جنسه كان دونه في التقويم .

وحرف ﴿ في ﴾ يفيد الظرفية المجازية المستعارة لمعنى التمكن والمِلك فهي مستعملة في معنى باء الملابسة أو لام الملك ، وإنما عدل عن أحد الحرفين الحقيقيين لهذا المعنى إلى حرف الظرفية لإفادة قوة الملابسة أو قوة الملك مع الإِيجاز ولولا الإِيجاز لكانت مساواة الكلام أن يقال : لقد خلقنا الإِنسان بتقويم مكين هُو أحسن تقويم .

فأفادت الآية أن الله كوّن الإِنسان تكويناً ذاتياً مُتناسباً ما خلق له نوعه من الإِعداد لنظامه وحضارته ، وليس تقويم صورة الإِنسان الظاهرة هو المعتبر عند الله تعالى ولا جديراً بأن يقسم عليه إذ لا أثر له في إصلاح النفس ، وإصلاح الغير ، والإِصلاح في الأرض ، ولأنه لو كان هو المراد لذهبت المناسبة التي في القَسَمْ بالتين والزيتون وطور سينين والبلدِ الأمين .

وإنما هو متمّم لتقويم النفس قال النبي صلى الله عليه وسلم "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم" فإن العقل أشرف ما خص به نوع الإنسان من بين الأنواع .

فالمرضيّ عند الله هو تقويم إدراك الإِنسان ونظره العقلي الصحيح لأن ذلك هو الذي تصدر عنه أعمال الجسد إذ الجسم آلة خادمة للعقل فلذلك كان هو المقصود من قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ .

وأما خلق جسد الإِنسان في أحسن تقويم فلا ارتباط له بمقصد السورة ويظهر هذا كمال الظهور في قوله : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ فإنه لو حمل الرد أسفل سافلين على مصير الإِنسان في أرذل العمر إلى نقائص قوته كما فسر به كثير من المفسرين لكان نبوّه عن غرض السورة أشد ، وليس ذلك مما يقع فيه تردد السامعين حتى يحتاج إلى تأكيده بالقسم ويدل لذلك قوله بعده : ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ [التين : 6] لأن الإِيمان أثر التقويم لعقل الإنسان الذي يلهمه السير في أعماله على الطريق الأقوم ، ومعاملةِ بني نوعه السالمين من عدائه معاملة الخير معهم على حسب توافقهم معه في الحق فذلك هو الأصل في تكوين الإِنسان إذا سلم من عوارض عائقة من بعض ذلك مما يعرض له وهو جنين ؛ إما من عاهة تلحقهِ لمرض أحد الأبوين ، أو لفساد هيكله من سقطة أو صدمة في حمله ، وما يعرض له بعد الولادة من داء معضل يعرض له يترك فيه اختلال مزاجه فيحرف شيئاً من فطرته كحماقة السوداويين والسُّكريين أو خبال المختبلين ، ومما يدخله على نفسه من مساوي العادات كشرب المسكرات وتناول المخدرات مما يورثه على طولٍ انثلامَ تعقله أو خَوَرَ عزيمته .

والذي نأخذه من هذه الآية أنَّ الإنسان مخلوق على حالة الفطرة الإنسانية التي فطر الله النوع ليتصف بآثارها ، وهي الفطرة الإنسانية الكاملة في إدراكه إدراكاً مستقيماً مما يتأدى من المحسوسات الصادقة ، أي الموافقة لحقائق الأشياء الثابتة في نفس الأمر ، بسبب سلامة ما تؤديه الحواس السليمة ، وما يتلقاه العقل السليم من ذلك ويتصرف فيه بالتحليل والتركيب المنتظمين ، بحيث لو جانبتْه التلقينات الضالة والعوائد الذميمة والطبائع المنحرفة والتفكير الضار ، أو لو تسلطت عليه تسلطاً ما فاستطاع دفاعها عنه بدلائل الحق والصواب ، لجَرى في جميع شؤونه على الاستقامة ، ولما صدرت منه إلا الأفعال الصالحة ولكنه قد يتعثر في ذيول اغتراره ويُرخي العنان لهواه وشهوته ، فترمي به في الضلالات ، أو يتغلب عليه دعاة الضلال بعامل التخويف أو الإطماع فيتابعهم طوعاً أو كرهاً ، ثم لا يلبث أن يستحكم فيه ما تقلده فيعتاده وينسى الصواب والرشد .

ويفسر هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم " ما من مولود إلا يولد على الفطرة ثم يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه " الحديث ؛ ذلك أن أبويه هما أول من يتولى تأديبه وتثقيفه وهما أكثر الناس ملازمة له في صباه ، فهما اللذان يُلقيان في نفسه الأفكار الأولى ، فإذا سلم من تضليل أبويه فقد سار بفطرته شوطاً ثم هو بعد ذلك عُرضة لعديد من المؤثرات فيه ، إنْ خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ ، واقتصر النبي صلى الله عليه وسلم على الأبوين لأنهما أقوى أسباب الزج في ضلالتهما ، وأشد إلحاحاً على ولدهما .

ولم يعرج المفسرون قديماً وحديثاً على تفسير التقويم بهذا المعنى العظيم فقصروا التقويم على حسن الصورة.

وروي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والكلبي وإبراهيم وأبي العالية، أو على استقامة القامة.

وروي عن ابن عباس، أو على الشباب والجلادة، وروي عن عكرمة وابن عباس.

(75/821)

ولا يلائم مقصد السورة إلا أن يتأول بأن ذلك ذكر نعمة على الإنسان عكس الإنسان شكرها فكفر بالمنعم فرد أسفل سافلين، سوى ما حكاه ابن عطية عن الثعلبي عن أبي بكر بن طاهر أنه قال: "تقويم الإنسان عقله وإدراكه اللذان زيّناه بالتمييز" ولفظه عند القرطبي قريب من هذا مع زيادة يتناول مأكوله بيده وما حكاه الفخر عن الأصم أن ﴿أحسن تقويم﴾ أكمل عقل وفهم وأدب وعلم وبيان".

وتفيد الآية أن الإنسان مفطور على الخير وأن في جبلته جلب النفع والصلاح لنفسه وكراهة ما يظنّه باطلاً أو هلاكاً، ومحبة الخير والحسن من الأفعال لذلك تراه يسر بالعدل والإنصاف، وينصح بما يراه مجلبة لخير غيره، ويغيث الملهوف ويعامل بالحسنى، ويغار على

المستضعفين ، ويشمئزّ من الظلم ما دام مجرداً عن رَوْم نفع يجلبه لنفسه أو إرضاء شهوة يريد قضاءها أو إشفاء غضب يجيش بصدره ، تلك العوارض التي تحول بينه وبين فطرته زمناً ، ويهش إلى كلام الوعّاظ والحكماء والصالحين ويكرمهم ويعظمهم ويودّ طول بقائهم .

فإذا ساورْته الشهوة السيئة فزينت له ارتكاب المفاسد ولم يستطع ردها عن نفسه انصرف إلى سوء الأعمال ، وثقْل عليه نصح الناصحين ، ووعظُ الواعظين على مراتب في كراهية ذلك بمقدار تحكم الهوى في عقله .

ولهذا كان الأصل في الناس الخيرَ والعدالة والرشد وحسن النية عند جمهور من الفقهاء والمحدِّثين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(76/821)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

هذه الآية الكريمة توهم أن الإنسان ينكر أن ربه خلقه, لما تقرر في المعاني من أن خالي الذهن من التردد والإنكار لا يؤكّد له الكلام ، ويسمّى ذلك ابتدائيا , والمتردد يحسن التوكيد له

بمؤكد واحد ويسمى طلبيا ، والمنكر يجب التوكيد له بحسب إنكاره ويسمى إنكاريا ، والله تعالى في هذه الآية أكّد إخباره بأنه خلق الإنسان في أحسن تقويم بأربعة أقسام وباللام وبقد , فهي ستة تأكيدات, وهذا التوكيد يوهم أن الإنسان منكر لأن ربه خلقه ، وقد جاءت آية أخرى صريحة في أن الكفار يقرّون بأن الله هو خالقهم وهي قوله: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ .

والجواب من وجهين:

الأول: هو ما حرره علماء البلاغة من أن المقر إذا ظهرت عليه أمارة الإنكار جعل كالمنكر ، فأكد له الخبر كقول حجل بن نضلة:

جاء شقيق عارضا رمحه

إنّ بني عمك فيهم رماح

فشقيق لا ينكر أنّ في بني عمه رماحا , ولكن مجيئه عارضا رمحه أي جاعلا عرضه جهتهم من غير التفات أمارة أنه يعتقد أن لا رمح فيهم فأكد له الخبر .

(77/821)

فإذا حققت ذلك فاعلم أن الكفار لما أنكروا البعث ظهرت عليهم أمارة إنكار الإيجاد الأول ؛ لأن من أقر بالأول لزمه الإقرار بالثاني ؛ لأن الإعادة أيسر من البدء فأكد لهم الإيجاد الأول ، ويوضّح هذا أن الله بيّن أنه المقصود بقوله: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ أي ما يحملك أيها الإنسان على التكذيب بالبعث والجزاء بعد علمك أن الله أوجدك أوّلا ، فمن أوجدك أوّلا قادر على أن يوجدك ثانيا كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ الآية ، وقال: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ الآية ، وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ﴾ والآيات بمثل هذه كثيرة ، ولذا ذكر تعالى أن من أنكر البعث فقد نسي إيجاده الأول بقوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ , وبقوله: ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ .

وقال البعض: معنى ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ : فمن يقدر على تكذيبك يا نبي الله بالثواب والعقاب بعد ما تبين له أنا خلقنا الإنسان على ما وصفنا ، وهو في دلالته على ما ذكرنا كالأوّل, فظهرت النكتة في جعل الابتدائي كالإنكاري .

الوجه الثاني: أن القسم شامل لقوله: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أي إلى النار، وهم لا يصدّقون بالنار بدليل قوله تعالى ﴿ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ وهذا الوجه في معنى قوله: ﴿ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أصح من القول بأن معناه الهرم والرد إلى أرذل العمر لكون قوله: ﴿ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أظهر في الأول من الثاني، وإذا كان القسم شاملا للإنكاري فلا إشكال؛ لأن التوكيد منصبّ على ذلك الإنكاري، والعلم عند الله تعالى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 336. 338 ﴾

(79/821)

قوله تعالى ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى:

ولما كان الإنسان مع هذه المحاسن قد سلط الله سبحانه وتعالى عليه شهوات وهيأ طبعه

لرذائل وأخلاق دنيئات ، وأهوية وحظوظ للأنفس مميلات ، وكان أكثر الخلق بها هالكاً لتبين قدرة الله سبحانه وتعالى ، لم يستثن بل حكم على الجنس كله بها كما حكم عليه بالتقويم ، فقال تعالى دالاً بأداة التراخي على أن اعوجاجه بعد ذلك العقل الرصين والذهن الصافي المستنير في غاية البعد لولا القدرة الباهرة والقوة القاسرة القاهرة : ﴿ ثم رددناه ﴾ أي بما لنا من القدرة الكاملة والعلم الشامل ، فعطل منافع ما خلقناه له فضيع نفسه وفوّت أساب سعادته ونكسناه نحن في خلقه ، فصار بالأمرين في خلقه وخلقه نفساً وهوى أو أعم من ذلك بالنكس ﴿ أسفل سافلين ﴾ أي إلى ما تحت رتبة الجمادات المستقذرات ، فصار يعمل الأعمال السيئات المقتضية بعد حسن الجمع لغاية الشتات ، أما رده في خلقه فبأن سلطنا عليه الشهوات التي ركبناها في النفوس ، وجعلناها داعية إلى كل بؤس ، فغلبت على عقله فأعمته حتى أوردته الموارد ، وأوقعته في المهاوي والمعاطب ، حتى أنه ليركب كثيراً من أموره وهو قاطع بأنه باطل شنيع ، لا يقدم على مثله عاقل ، فصار يعبد من دون الله ما هو دون البشر بل ومطلق الحيوان مما لا ضر فيه ولا نفع ، وصار يركب الظلم والعدوان والإفك والبهتان ، وما لا يحصى بالعد من أنواع الفواحش والعصيان ، ويظلم أبناء جنسه وغيرهم ، ويجتهد في الفجور ، ويتصرف بما لا يشك هو في أنه لا يقره عليه من له أدنى نظر ممن يلزمه أمره ويعنيه شأنه ، فصار بذلك أحط رتبة من البهائم بل من أدنى الحشرات المستقذرات لأنها وإن كانت لها شهوات إلا أنها ليس لها عقل تغطيه بها

وتطمس نوره بظلامها ، فلا تنسب إلى أنها فوّتت شيئاً لعدم تكليفها لعدم العقل الموجب للشرف ، وأما هو فاستعمل ما خلقناه له من الآلات ، وما فضلناه به من الكمالات ، في غير ما خلقناه له فاستحق العذاب المهين ، ثم يموت من غير مجازاة على شيء

(80/821)

من ذلك أو على كثير منه ، فلا بد في الحكمة حينئذ من بعثه ، وله بعد البعث عند ربه على ذلك عذاب مقيم ، وأما في خلقه فبالهرم حتى صار بعد تلك القوى ضعيفاً ، وبعد ذلك العز ذليلاً مهيناً ، وبعد ذلك العلم الغزير والفكر المنير لا يعلم شيئاً ، وصار يستقذره وينكره من كان يألفه ويستعطره ، وقال ابن برجان : أما رده في طريق الديانة فبالكفر والتكذيب ، وأما فيما سبيله الجزاء فبالمسخ في دار البرزخ وتحويل صورته إلى ما غلب عليه خلقته وعمله في الدنيا من الدواب والهوام والبهائم ، وفي الآخرة تزرق عيناه ويشوه خلقه ، وقال الإمام أبو العباس الأقليشي في شرح " المقدم المؤخر " من شرحه للأسماء الحسنى : إن الله تعالى خلقه .

أي الإنسان – أولاً في أحسن تقويم ، ثم ركبه في هذا الجسم الذي يجذبه إلى أسفل سافلين ، فإن قدم عقله على هواه صعد إلى أعلى عليين ، وكان من المقربين المقدمين ، وإن قدم هواه

هبط إلى إدراك الجحيم ، وكان من المبعدين المؤخرين .

ولما حكم بهذا الرد على جميع النوع إشارة إلى كثرة المتصف به منهم ، وكان الصالح قليلاً جداً ، جعله محط الاستثناء فقال : ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ أي بالله ورسله فكانوا من ذوي البصائر والمعارف ، فغلبنا بلطفنا عقولهم بما دعت إليه وأعانت عليه الفطرة الأولى على شهواتهم ، وحميناهم من أرذل العمر ، فكانوا كلما زدناهم سناً زدنا أنوار عقولهم ونقصنا نار شهواتهم بما أضعفنا من إحكام طبائعهم وتعلقهم بهذا العالم ، وأحكمنا من مدارك أنوار الحق وإشراقاته منهم ، وأعظمنا من قوى أرواحهم .

(81/821)

ولما كان الإنسان قد يدعي الإيمان كاذباً قال : ﴿ وعملوا ﴾ أي تصديقاً لدعواهم الإيمان ﴿ الصالحات ﴾ أي من محاسن الأعمال من الأقوال والأفعال ثابتة الأركان على أساس الإيمان ، محكمة بما آتيناهم من العلم غاية الإحكام ، متقنة غاية الإتقان ، فإنا حفظناهم - وقليل ما هم - بما كملناهم به وشرفناهم على جميع الحيوانات وسائر من سواهم فلم نمكن منهم الشهوات ولا غيرها ، وأقمناهم على ما اقتضاه منهاج العقل ، فتبعوا الرسل بسبب إبقائنا لهم على الفطرة الأولى في أحسن تقويم ، لم يدنس محياها بشهوة ولا حظ ولا هوى ،

فسهل انقيادهم ، فأداهم ذلك إلى العدل والنصفة والإحسان ، وجميع مكارم الأخلاق ومعالي الأمور ، ولم يزيغوا عن منهاج الرسل في قول ولا عمل ، فالآية كما ترى من الاحتباك : حذف أولاً بما أفهمته الآية عمل السيئات ، وثانياً الإبقاء على أصل الخلق في أحسن تقويم على الفطرة الأولى ، ليكون نظمها في الأصل ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ بعمل السيئات فله على ذلك عذاب مهين ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ فإنا أبقيناهم على الفطرة الأولى في أحسن تقويم .

ولما كان السياق لمدح المؤمنين ، حسن أن يعد أعمالهم التي تفضل عليهم بها سبباً كما منّ عليهم به من الثواب فقال : ﴿ فلهم ﴾ أي فتسبب عن ذلك أن كان لهم في الدارين على ما وفقوا له مما يرضيه سبحانه وتعالى ﴿ أجر ﴾ أي عظيم جداً وهو مع ذلك ﴿ غير ممنون ﴾ أي مقطوع أو يمن عليهم به حتى في حالة المرض والهرم لكونهم سعوا في مرضاة الله سبحانه وتعالى وعزموا عزماً صادقاً أنهم لا ينقصون من أعمال البر ذرة ولو عاشوا مدى الدهر ، وذلك الأجر جزاء لأعمالهم فضلاً منه بالأصل والفرع حتى أنهم إذا عجزوا بالهرم كتب لهم أجر ما كانوا يعملون في حال الصحة ، ولمن تابع هواه في السفول عذاب عظيم لأنه رد أسفل سافلين .

ولما ثبت بهذا أنه لا يجوز في الحكمة تركهم بغير جزاء مع ما يشاهد من ظلم بعضهم لبعض معاندة لما يقتضيه قويم العقل الذي لا شك فيه ، فكان ذلك بحيث لا يرضاه أحد منهم ولا يقر مخلوق عبيداً في ملكه على مثله بأن يبغي بعضهم على بعض فيهملهم بل لا بد أن يحجز بينهم أو يأخذ للمظلوم من الظالم ، ولو كان ذلك المالك أقل الناس وأجهلهم فكيف إن كان عاقلاً فكيف إن كان حاكماً فكيف إن كان لا يخاف أحداً فكيف إن كان عدلاً مقسطاً قد ثبتت إحاطة علمه وقدرته سبحانه وتعالى ، حسن كل الحسن أن يكون ذلك سبباً للإنكار على من يظن أن الله يهمل عباده من الحكم بينهم لمجازاة كل من المطيع والعاصي بما عمل مع ما ترى من ظلم بعضهم لبعض ، وأن الظالم قد يموت قبل القصاص ، فقال مسبباً عن الوعد بما أفصح به الكتاب من إثابة المؤمنين الذي طالما بغى عليهم الظلمة ، وانتقصهم حقوقهم الفسقة ، والوعيد بما أفهمه الخطاب لعتاب المجرمين الذين طالما بغوا على غيرهم : ﴿ فما ﴾ أي فتسبب عن إقامة الدليل على تمام القدرة وعلى بغي العبيد بعضهم على بعض أنه يقال لك تصديقاً لك فيما أخبرت به من أن الله سبحانه وتعالى يبعث الخلائق بعد موتهم ليجازي كلاًّ بما عمل وإنكاراً على من كذبك : ما ﴿ يكذبك ﴾ أي أيّ شيء ينسبك إلى الكذب يا أشرف الخلق وأكملهم نفساً وأتقاهم عرضاً وأطهرهم خلقاً وخلقاً ، وعبر ب " ما " إشارة إلى أن الكذب بهذا مع هذا الدليل القطعي الذي تضمنته هذه

السورة في عداد ما لا يعقل بل دونه ﴿ بعد ﴾ أي بعد مشاهدة بغي بعض الناس على بعض استعمالاً لحال النكس ، وأعراه من الجار إشارة إلى أن من آمن قبل الغرغرة واتصل إيمانه ذلك بموته كان ممن له أجر غير ممنون ﴿ بالدين ﴾ أي الجزاء لكل أحد بما يستحقه على سبيل العدل والإنصاف لأجل تلك الأعمال التي غلبت فيها الحظوظ على العقول ، فوقع بها من الظلم والأذى ما لا يسع عاقلاً من العباد أن يحسن عنده ترك فاعلها من غير جزاء حتى

(83/821)

كان أكثر أفعال العباد ظلماً ، ومن شأن الملوك الإنصاف بين عبيدهم ورعاياهم ، فكيف بالله سبحانه وتعالى الذي شرع لعباده ذلك ، وقد ثبت بما له من هذا الخلق العظيم ، على هذا النظام المحكم والمنهاج الأقوم أنه الحكيم ، الذي لا حكيم غيره ، العليم الذي لا عليم سواه .

(84/821)

ولما صح أن تارك الظالم بغير انتقام والمحسن بلا إكرام ليس على منهاج العدل الذي شرعه الله تعالى ، حسن جداً تكرير الإنكار بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أليس الله ﴾ أي على ما له من صفات الكمال ، وأكده بالجار في قوله : ﴿ بأحكم الحاكمين ﴾ أي حتى يدع الخلق يهلك بعضهم بعضاً من غير جزاء ، فيكون خلقهم عبثاً ، بل هو أحكم الحاكمين علماً وقدرة وعدلاً وحكمة بما شوهد من إبداعه الخلق ومفاوتته بينهم ، وجعل الإنسان من بينهم على أحسن تقويم ، فلا بد أن يقيم الجزاء ويضع الموازين القسط ليوم القيامة فيظهر عدله وحكمته وفضله ، وهذا الآخر هو أولها قسماً من جهة النبوات التي ظهر بها حكمه وحكمته ، ومقسماً عليه من حيث إن الخلق في أحسن تقويم يقتضي العدل لا محالة ، والرد أسفل سافلين يتقاضى الحكم حتماً لأجل ما يقع من الظلم والتشاجر بين من استمر على الفطرة القويمة ومن رد لأسفل سافلين ، وقد اشتملت هذه السورة على وجازتها على جميع مقاصد التوراة إجمالاً ، وزادت الدلالة على الآخرة ، وذلك أن قسمها هو قوله في التوراة " أتانا ربنا من سيناء وشرق بنا من جبل ساعر ، وظهر لنا من جبال فاران " والخلق في أحسن تقويم هو خلق آدم عليه الصلاة والسلام المذكور في أولها وخلق زوجه وما يحتاجان إليه من السماء والأرض ، وخلق الأصفياء من أولادهما وما جاؤوا به من الخير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات هو ما فيها من الشرائع والأحكام ، وقوله بعد ما تقدم من المعبر بالمقسم عنه " معه ربوات الأطهار عن يمينه أعطاهم وحببهم إلى الشعوب ، وبارك

على جميع أطهاره " والرد أسفل سافلين هو ما ذكر أولها من العصاة من قابيل ومن بعده إلى آخرها ، على ما أشار إليه من عصيان بني إسرائيل الموجب للعنهم ، فقد اكتفت بأول التوراة وآخرها وأوسطها ، وابتدأ بآخرها لأنه في النبوات ، وهي أهم المهم لأنها المنجية من شر قطاع الطريق ، وآخرها أدل ما فيها على النبوات لا سيما الثلاث العظام – المشار إليه بقسم هذه السورة – والله سبحانه وتعالى أعلم بالغيب . انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 473. 477 ﴾

(85/821)

فصل

قال الفخر :

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) ﴾

ففيه وجهان : الأول : قال ابن عباس : يريد أرذل العمر ، وهو مثل قوله : يرد إلى أرذل العمر ، قال ابن قتيبة : السافلون هم الضعفاء والزمنى ، ومن لا يستطيع حيلة ولا يجد سبيلاً ، يقال : سفل يسفل فهو سافل وهم سافلون ، كما يقال : علا يعلو فهو عال وهم عالون ، أراد أن الهرم يخرف ويضعف سمعه وبصره وعقله وتقل حيلته ويعجز عن عمل الصالحات ،

فيكون أسفل الجميع ، وقال الفراء : ولو كانت أسفل سافل لكان صواباً ، لأن لفظ الإنسان واحد ، وأنت تقول : هذا أفضل قائم ولا تقول : أفضل قائمين ، إلا أنه قيل : سافلين على الجمع لأن الإنسان في معنى جمع فهو كقوله : ﴿ والذى جَاء بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ المتقون ﴾ [الزمر : 33] وقال : ﴿ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ ﴾ [الشورى : 48] .

والقول الثاني : ما ذكره مجاهد والحسن ثم رددناه إلى النار ، قال علي عليه السلام : وضع أبواب جهنم بعضها أسفل من بعض فيبدأ بالأسفل فيملأ وهو أسفل سافلين ، وعلى هذا التقدير فالمعنى ثم رددناه إلى أسفل سافلين إلى النار .

أما قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فاعلم أن هذا الاستثناء على القول الأول منقطع ، والمعنى ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب دائم على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله أياهم بالشيخوخة والهرم ، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة وعلى تخاذل نهوضهم ، وأما على القول الثاني فالاستثناء متصل ظاهر الاتصال .

أما قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ففيه قولان : أحدهما : غير منقوص ولا مقطوع وثانيهما : أجر غير ممنون أي لا يمن به عليهم ، واعلم أن كل ذلك من صفات الثواب ، لأنه

يجب أن يكون غير منقطع وأن لا يكون منغصاً بالمنة .

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7)

(86/821)

وفيه سؤالان :

الأولى : من المخاطب بقوله : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ ؟ الجواب فيه قولان : أحدهما : أنه خطاب للإنسان على طريقة الالتفات ، والمراد من قوله : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ أن كل من أخبر عن الواقع بأنه لا يقع فهو كاذب ، والمعنى فما الذي يلجئك إلى هذا الكذب والثاني : وهو اختيار الفراء أنه خطاب مع محمد صلى الله عليه وسلم ، والمعنى فمن يكذبك يا أيها الرسول بعد ظهور هذه الدلائل بالدين .

السؤال الثاني : ما وجه التعجب ؟ الجواب : أن خلق الإنسان من النطفة وتقويمه بشراً سوياً وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي ، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر دليل واضح على قدرة الخالق على الحشر والنشر ، فمن شاهد هذه الحالة ثم بقي مصراً على إنكار الحشر فلا شيء أعجب منه .

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

ذكروا في تفسيره وجهين أحدهما : أن هذا تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان ثم رده إلى أرذل العمر ، يقول الله تعالى : أليس الذي فعل ذلك بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً ، وإذا ثبتت القدرة والحكمة بهذه الدلالة صح القول بإمكان الحشر ووقوعه ، أما الإمكان فبالنظر إلى القدرة ، وأما الوقوع فبالنظر إلى الحكمة لأن عدم ذلك يقدح في الحكمة ، كما قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السماء والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا باطلا ذلك ظَنُّ الذين كَفَرُواْ ﴾ [ص : 27] .

والثاني : أن هذا تنبيه من الله تعالى لنبيه عليه السلام بأنه يحكم بينه وبين خصومه يوم القيامة بالعدل .

المسألة الثانية :

(87/821)

قال القاضي : هذه الآية من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا يفعل القبيح ولا يخلق أفعال العباد مع ما فيها من السفه والظلم ، فإنه لو كان الفاعل لأفعال العباد هو الله تعالى لكان كل سفه وكل أمر بسفه وكل ترغيب في سفه فهو من الله تعالى ومن كان كذلك فهو أسفه السفهاء ،

كما أنه لا حكمة ولا أمر بالحكمة ولا ترغيب في الحكمة إلا من الله تعالى ، ومن كان كذلك فهو أحكم الحكماء ، ولما ثبت في حقه تعالى الأمران لم يكن وصفه بأنه أحكم الحكماء أولى من وصفه بأنه أسفه السفهاء .

ولما امتنع هذا الوصف في حقه تعالى علمنا أنه ليس خالقاً لأفعال العباد والجواب : المعارضة بالعلم والداعي ، ثم نقول : السفيه من قامت السفاهة به لا من خلق السفاهة ، كما أن المتحرك والساكن من قامت الحركة والسكون به لا من خلقهما ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 13.11 ﴾

(88/821)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) ﴾

اختلف الناس في معنى ﴿ التين والزيتون ﴾ اللذين أقسم الله تعالى بهما ، فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم وعطاء وجابر بن زيد ومقاتل : هو ﴿ التين ﴾ الذي

يؤكل ﴿ والزيتون ﴾ الذي يعصر ، وأكل النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه تيناً أهدي إليه ، فقال : " لو قلت إن فاكهة أنزلت من الجنة لقلت هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عجم ، فكلوا فإنه يقطع البواسير وينفع من النقرس " ، وقال عليه السلام : " نعم السواك سواك الزيتون ومن الشجرة المباركة هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي " ، وقال كعب وعكرمة : القسم بمنابتها ، وذلك أن ﴿ التين ﴾ ينبت بدمشق ، ﴿ والزيتون ﴾ ينبت بإيلياء فأقسم الله تعالى بالأرضين ، وقال قتادة : هما جبلان بالشام ، على أحدهما دمشق ، وعلى الآخر بيت المقدس ، وقال ابن زيد : ﴿ التين ﴾ مسجد دمشق ، ﴿ والزيتون ﴾ مسجد إلياء ، وقال ابن عباس وغيره : ﴿ التين ﴾ مسجد نوح ﴿ والزيتون ﴾ مسجد إبراهيم ، وقيل ﴿ التين والزيتون وطور سينين ﴾ ، ثلاثة مساجد بالشام ، وقال محمد بن كعب القرظي : ﴿ التين ﴾ مسجد أصحاب الكهف ، و﴿ الزيتون ﴾ مسجد إيلياء ، وأما ﴿ طور سينين ﴾ ، فلم يختلف أنه جبل بالشام كلم الله عليه موسى ، ومنه نودي ، وفيه مسجد موسى فهو الطور ، واختلف في قوله ﴿ سينين ﴾ ، فقال مجاهد وعكرمة : معناه حسن مبارك ، وقيل معناه ذو الشجر ، وقرأ الجمهور بكسر السين "سِينين" ، وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو رجاء بفتح السين وهي لغة بكر وتميم "سَينين" ، وقرأ عمر بن الخطاب وطلحة والحسن وابن مسعود : "سِيناء" بكسر السين ، وقرأ أيضاً عمر بن الخطاب : "سَيناء" بالفتح ، و﴿ البلد الأمين ﴾ مكة بلا خلاف ، وقيل معنى ﴿

سينين ﴾ : المبارك ، وقيل معنى ﴿ سينين ﴾ : شجر واحدتها سينية ، قاله الأخفش سعيد بن مسعدة و" أمين " : فعيل من الأمن بمعنى آمن أي آمن من فيه ومن دخله وما فيه من طير وحيوان ، والقسم واقع على قوله تعالى : ﴿ لقد

(89/821)

خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ ينبغي له ، ولا يدفع هذا أن يكون غيره من المخلوقات كالشمس وغيرها أحسن تقويماً منه بالمناسبة ، وقال بعض العلماء بالعموم أي ﴿ الإنسان ﴾ أحسن المخلوقات تقويماً ، ولم ير قوم الحنث على من حلف بالطلاق أن زوجته أحسن من الشمس ، واحتجوا بهذه الآية ، واختلف الناس في تقويم الإنسان ما هو؟ فقال النخعي ومجاهد وقتادة : حسن صورته وحواسه ، وقال بعضهم : هو انتصاب قامته ، وقال أبو بكر بن طاهر في كتاب الثعلبي : هو عقله وإدراكه اللذان زيناه بالتمييز ، وقال عكرمة : هو الشباب والقوة ، والصواب أن جميع هذا هو حسن التقويم إلا قول عكرمة ، إذا قوله يفضل فيه بعض الحيوان ، و﴿ الإنسان ﴾ هنا اسم الجنس ، وتقدير الكلام في تقويم ﴿ أحسن تقويم ﴾ ، لأن ﴿ أحسن ﴾ صفة لا بد أن تجري على موصوف ، واختلف الناس في معنى قوله تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ ، فقال عكرمة وقتادة والضحاك

والنخعي : معناه بالهرم وذهول العقل وتفلت الفكر حتى يصير لا يعلم شيئاً ، أنا إن المؤمن مرفوع عنه القلم ، والاستثناء على هذا منقطع وهذا قول حسن وليس المعنى أن كل إنسان يعتريه هذا بل في الجنس من يعتريه ذلك وهذه عبرة منصوبة ، وقرأ ابن مسعود : " السافلين " بالألف واللام ، ثم أخبر أن ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وإن نال بعضهم هذا في الدنيا ﴿ فلهم ﴾ في الآخرة ﴿ أجر غير ممنون ﴾ ، وقال الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد وأبو العالية : المعنى ﴿ رددناه أسفل سافلين ﴾ في النار على كفره ثم استثنى ﴿ الذين آمنوا ﴾ استثناء منفصلاً ، فهم على هذا ليس فيهم من يرد أسفل سافلين في النار على كفره ، وفي حديث عن أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(90/821)

" إذا بلغ المؤمن خمسين سنة خفف الله تعالى حسابه ، فإذا بلغ ستين رزقه الإنابة ، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء ، فإذا بلغ الثمانين كتبت حسناته وتجاوز الله عن سيئاته ، فإذا بلغ تسعين غفرت ذنوبه وشفع في أهل بيته وكان أسير الله في أرضه ، فإذا بلغ مائة ولم يعمل شيئاً كتب الله له ما كان يعمل في صحته ولم تكتب عليه سيئة . " وفي حديث " إن المؤمن إذا رد إلى أرذل العمر كتب الله له خير ما كان يعمله في قوته ، وذلك أجر غير ممنون . " و ﴿

ممنون ﴾ معناه : محسوب مصرِّد يمن عليهم ، قاله مجاهد وغيره ، وقال كثير من المفسرين معناه مقطوع من قولهم حبل منين ، أي ضعيف منقطع ، واختلف في المخاطب بقوله تعالى : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ فقال قتادة والفراء والأخفش : هو محمد عليه السلام ، قال الله له : فماذا الذي يكذبك فيما تخبر به من الجزاء والبعث وهو الدين بعد هذه العبر التي ويجب النظر فيها صحة ما قلت ، ويحتمل أن يكون " الدين " على هذا التأويل جميع دينه وشرعه ، وقال جمهور من المتأولين : المخاطب الإنسان الكافر ، أي ما الذي يجعلك كذاباً بالدين ، تجعل له أنداداً ، وتزعم أن لا بعث بعد هذه الدلائل ، وقال منصور قلت لمجاهد : قوله تعالى : ﴿ فما يكذبك ﴾ يريد به النبي صلى الله عليه وسلم قال معاذ الله يعني به الشاك ، ثم وقف تعالى جميع خلقه على أنه ﴿ أحكم الحاكمين ﴾ على جهة التقرير ، وروي عن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه السورة قال : " بلى وأنا على ذلك من الشاهدين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(91/821)

وقال القرطبى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون ﴾ قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخَعِيّ وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي : هو تينكم الذي تأكلون ، وزيتونكم الذي تعصِرون منه الزيت ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بالدهن وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴾ [المؤمنون : 20] .

وقال أبو ذرّ : " أُهدِي للنبيّ صلى الله عليه وسلم سَلُّ تين ؛ فقال : "كلوا" وأكل منه .

ثم قال : "لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة ، لقلت هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عَجَم ، فكلوها فإنها تقطع البواسِير ، وتنفع من النقْرِس" " .

" وعن معاذ : أنه استاك بقضيب زيتون ، وقال سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "نِعم السواك الزيتون ! من الشجرة المباركة ، يطيب الفم ، ويذهب بالحَفَر ، وهي سِواكي وسواك الأنبياء مِن قبلي" " .

وروي عن ابن عباس أيضاً : التين : مسجِد نوح عليه السلام الذي بُني على الجوديّ ، والزيتون : مسجد بيت المقدس .

وقال الضحاك : التين : المسجد الحرام ، والزيتون المسجد الأقصى .

ابن زيد : التين : مسجد دمشق ، والزيتون : مسجد بيت المقدس .

قتادة : التين : الجبل الذي عليه دمشق : والزيتون : الجبل الذي عليه بيت المقدس .

وقال محمد بن كعب : التين : مسجد أصحاب الكهف ، والزيتون : مسجد إيلياء .

وقال كعبُ الأحبارِ وقتادة أيضاً وعكرمة وابن زيد : التين : دمشق ، والزيتون : بيت المقدس .

وهذا اختيار الطبريّ .

وقال الفراء : سمعت رجلاً من أهل الشام يقول : التين : جبال ما بين حُلْوان إلى هَمَذان ، والزيتون : جبال الشام .

وقيل : هما جبلان بالشام ، يقال لهما طور زيتا وطورِ تينا (بالسريانية) سميا بذلك لأنهما ينبتانِهما .

وكذا روى أبو مكِين عن عكرمة ، قال : التين والزيتون : جبلان بالشام .

وقال النابغة :

. . .

(92/821)

أَتَيْنَ التّيْنَ عَنْ عُرُضٍ . . .

وهذا اسم موضع .

ويجوز أن يكون ذلك على حذف مضاف ؛ أي ومنابت التين والزيتون .

ولكن لا دليل على ذلك من ظاهر التنزيل ، ولا من قول من لا يجوز خلافه ؛ قاله النحاس .

الثانية : أصح هذه الأقوال الأوّل ؛ لأنه الحقيقة ، ولا يُعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا بدليل .

وإنما أقسم الله بالتين ، لأنه كان سِتر آدم في الجنة ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ [الأعراف : 22] وكان ورق التين .

وقيل : أقسم به ليبين وجه المِنة العظمى فيه ؛ فإنه جميل المنظر ، طيب المخبَر ، نَشِر الرائحة ، سهل الجَنْى ، على قدر المضغة .

وقد أحسن القائل فيه :

انظر إلى التين في الغصون ضُحًى . . .

ممزق الجِلد مائل العُنُقِ

كأنه ربّ نِعمةٍ سُلبت . . .

فعاد بعد الجديد في الخَلَق

أصغر ما في النهود أكبره . . .

لَكِنْ يُنَادَى عليه في الطرقِ

وقال آخر :

التين يعدِل عندي كل فاكهة . . .

إذا انثنى مائلاً في غصنه الزاهي

مُخَمَّش الوجه قد سالت حلاوته . . .

كأنه راكع مِن خشية اللَّهِ

وأقسم بالزيتون لأنه مَثَّل به إبراهيم في قوله تعالى : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ [النور : 35] .

وهو أكثر أُدُم أهل الشام والمغرب ؛ يصطبِغون به ، ويستعملونه في طبيخهم ، ويستصبحون به ، ويداوَى به أدواء الجوف والقروح والجراحات ، وفيه منافع كثيرة .

وقال عليه السلام : "كلوا الزيت وادّهِنوا به فإنه من شجرة مباركة" وقد مضى في سورة "المؤمنون" القول فيه .

الثالثة : قال ابن العربيّ ولامتنان الباريء سبحانه ، وتعظيم المِنة في التين ، وأنه مُقْتات مدّخر فلذلك قلنا بوجوب الزكاة فيه .

وإنما فرّ كثير من العلماء من التصريح بوجوب الزكاة فيه ، تِقية جور الولاة ؛ فإنهم يتحاملون في الأموال الزكاتية ، فيأخذونها مغرماً ، حَسْب ما أنذر به الصادق صلى الله عليه وسلم .

فكره العلماء أن يجعلوا لهم سبيلاً إلى مال آخر يتشططون فيه ، ولكن ينبغي للمرء أن يَخْرج عن نعمة ربه ، بأداء حقه .

وقد قال الشافعي لهذه العِلة وغيرها : لا زكاة في الزيتون .

والصحيح وجوب الزكاة فيهما .

وَطُورِ سِينِينَ (2)

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد "وطور" قال : جبل .

"سِينِين" قال : مبارك (بالسريانية) .

وعن عكرمة عن ابن عباس قال : "طور" جبل ، و"سينين" حسن .

وقال قتادة : سينين هو المبارك الحسن .

وعن عكرمة قال : الجبل الذي نادى الله جل ثناؤه منه موسى عليه السلام .

وقال مقاتل والكلبيّ : "سِينِين" كل جبل فيه شجر مثمِر ، فهو سِينين وسِيناء ؛ بلغة النّبَط .

وعن عمرو بن ميمون قال : صليت مع عمر بن الخطاب العشاء بمكة ، فقرأ "وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ .

وَطُورِ سِينِاء .

وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ" قال: وهكذا هي في قراءة عبد الله؛ ورفع صوته تعظيماً للبيت.

وقرأ في الركعة الثانية: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ [الفيل: 1] و ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش: 1] جمع بينهما.

ذكره ابن الأنباريّ.

النحاس: وفي قراءة عبد الله "سِيناء" (بكسر السين)، وفي حديث عمرو بن ميمون عن عُمر (بفتح السين).

وقال الأخفش: "طُور" جبل.

و"سِينِينَ" شجر، واحدته "سِينِينِيَّة" وقال أبو عليّ: "سِينِين" فِعليل، فكررت اللام التي هي نون فيه، كما كررت في زِحليل: للمكان الزلق، وكِرديدة: للقطعة من التمر، وخِنذِيد: للطويل.

ولم ينصرف "سينين" كما لم ينصرف سِيناء؛ لأنه جعل اسماً لبقعة أو أرض، ولو جعِل اسماً للمكان أو للمنزل أو اسم مذكر لانصرف؛ لأنك سميت مذكراً بمذكر.

وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام والأرض المقدّسة، وقد بارك الله فيهما؛ كما قال: ﴿ إلى المسجد الأقصى الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء: 1].

وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)

يعني مكة.

سماه أميناً لأنه آمن ؛ كما قال : ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾ [العنكبوت : 67] فالأمين :

بمعنى الآمن ؛ قاله الفرّاء وغيره .

قال الشاعر :

أَلَمْ تَعلَمِي يا أَسْمُ وَيْحَكِ أَنَّنِي . . .

حَلَفْتُ يَمِيناً لا أَخُونُ أَمِينِي

يعني : آمني .

وبهذا احتج من قال : إنه أراد بالتين دمشق ، وبالزيتون بيت المقدِس .

فأقسم الله بجبل دِمَشْق ، لأنه مأوى عيسى عليه السلام ، وبجبل بيت المقدس ، لأنه مَقام

الأنبياء عليه السلام ، وبمكة لأنها أَثَر إبراهيم ودار محمد صلى الله عليهما وسلم .

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ هذا جواب القسم ، وأراد بالإنسان :

الكافر .

قيل : هو الوليد بن المُغيرة .

وقيل : كَلَدَة بن أَسيد .

فعلى هذا نزلت في مُنكري البعث .

وقيل : المراد بالإنسان آدم وذريته .

﴿ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وهو اعتداله واستواء شبابه ؛ كذا قال عامة المفسرين .

وهو أحسن ما يكون ؛ لأنه خلق كل شيء مُنْكَباً على وجهه ، وخلقه هو مستوياً ، وله لسان ذَلِق ، ويد وأصابع يقبض بها .

وقال أبو بكر بن طاهر : مزينا بالعقل ، مؤدِّيا للأمر ، مَهْدِيًّا بالتمييز ، مديد القامة ؛ يتناول مأكوله بيده .

ابن العربيّ : "ليس لله تعالى خلق أحسنُ من الإنسان ، فإن الله خلقه حياً عالِما ، قادراً مريداً متكلماً ، سميعاً بصيراً ، مدبراً حكيما .

وهذه صفات الرب سبحانه ، وعنها عبّر بعض العلماء ، ووقع البيان بقوله : " إن الله خلق آدم على صُورته " يعني على صفاته التي قدمنا ذكرها .

وفي رواية " على صورة الرحمن " ومن أين تكون للرحمن صورة متشخصة ، فلم يبق إلا أن تكون معاني " .

وقد أخبرنا المبارك بن عبد الجبار الأزديّ قال : أخبرنا القاضي أبو القاسم عليّ بن أبي علي القاضي المحسِّن عن أبيه قال : كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حباً شديداً فقال لها يوماً : أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر ؛ فنهضت واحتجبت عنه ، وقالت : طلقتني ! .

وبات بليلة عظيمة ، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور ، فأخبره الخبر ، وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً ؛ فاستحضر الفقهاء واستفتاهم .

فقال جميع من حضر : قد طلقت ؛ إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة ، فإنه كان ساكتاً .

فقال له المنصور : ما لك لا تتكلم ؟ فقال له الرجل : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ والتين والزيتون * وَطُورِ سِينِينَ * وهذا البلد الأمين * لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .

يا أمير المؤمنين ، فالإنسان أحسن الأشياء ، ولا شيء أحسن منه .

فقال المنصور لعيسى بن موسى : الأمر كما قال الرجل ، فأقبلْ على زوجتك .

وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل : أن أطيعي زوجك ولا تعصيه ، فما طلقك .

فهذا يدلك على أنّ الإنسان أحسن خلق الله باطناً وظاهراً ، جمال هيئة ، وبديع تركيب :

الرأس بما فيه، والصدر بما جمعه، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه، واليدان وما بطشتاه، والرجلان وما احتملتاه.

ولذلك قالت الفلاسفة: إنه العالَم الأصغر؛ إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أي إلى أرذل العمر، وهو الهَرَم بعد الشباب، والضعف بعد القوّة، حتى يصير كالصبيّ في الحال الأوّل؛ قاله الضحاك والكلبيّ وغيرهما.

وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ إلى النار، يعني الكافر، وقاله أبو العالية.

(96/821)

وقيل: لما وصفه الله بتلك الصفات الجليلة التي ركّب الإنسان عليها، طغى وعلا، حتى قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأعلى ﴾ [النازعات: 24] وحين علم الله هذا من عبده، وقضاؤه صادر من عنده، رَدَّه أسفل سافلين؛ بأن جعله مملوءاً قذراً، مشحوناً نجاسة، وأخرجها على ظاهره إخراجاً منكراً، على وجه الاختيار تارة، وعلى وجه الغَلَبة أخرى، حتى إذا شاهد ذلك من أمره، رجع إلى قدره.

وقرأ عبد الله "أسفلَ السَّافِلِينَ" .

وقال : "أسفل سافِلِين" على الجمع ؛ لأن الإنسان في معنى جمع ، ولو قال : أسفل سافلٍ جاز ؛ لأن لفظ الإنسان واحد .

وتقول : هذا أفضل قائم .

ولا تقول أفضل قائمين ؛ لأنك تضمر لواحد ، فإن كان الواحد غير مُضْمَر له ، رجع اسمه بالتوحيد والجمع ؛ كقوله تعالى : ﴿ والذي جَآءَ بالصدق وَصَدَّقَ بِهِ أولئك هُمُ المتقون ﴾ [الزمر : 33] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الإنسان مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ [الشورى : 48] .

وقد قيل : إن معنى ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أي رددناه إلى الضلال ؛ كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [العصر : 2-3] أي إلا هؤلاء ، فلا يردون إلى ذلك .

والاستثناء على قول من قال "أسفلَ سافلينَ" : النار ، متصل .

ومن قال : إنه الهرَم فهو منقطع .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾

فإنَّه تكتب لهم حسناتهم ، وتُمْحَى عنهم سيئاتهم ؛ قاله ابن عباس .

قال : وهم الذين أدركهم الكِبَر ، لا يؤاخَذون بما عملوه في كِبرهم .

وروى الضحاك عنه قال : إذا كان العبد في شبابه كثير الصلاة كثير الصيام والصدقة ، ثم ضَعُف عما كان يعمل في شبابه ؛ أجرى الله عز وجل له ما كان يعمل في شبابه .

(97/821)

وفي حديث قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا سافَرَ العبدُ أو مَرِض كتبَ اللَّهُ له مثل ما كان يَعمَل مُقيماً صحيحاً " وقيل : ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فإنه لا يَخْرف ولا يَهْرَم ، ولا يذهب عقل من كان عالماً عاملاً به .

وعن عاصم الأحول عن عكرمة قال : من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر .

وروي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " طُوبَى لمن طال عمره وحسن عمله " وروي : إن العبد المؤمن إذا مات أمر الله مَلَكيه أن يتعبدا على قبره إلى يوم القيامة ، ويكتب له ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال الضحاك : أجر بغير عمل .

وقيل مقطوع .

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7)

قيل : الخطاب للكافر ؛ توبيخاً وإلزاماً للحجة .

أي إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم ، وأنه يردّك إلى أرذل العمر ، وينقلك من حال إلى حال ؛ فما يحملك على أن تُكَذِّب بالبعث والجزاء ، وقد أخبرك محمد صلى الله عليه وسلم به ؟ وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم أي اسْتيقِنْ مع ما جاءك من الله عز وجل ، أنه أحكم الحاكمين .

رُوِي معناه عن قتادة .

وقال قتادة أيضاً والفرّاء : المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين .

واختاره الطبريّ .

كأنه قال : فمن يقدر على ذلك ؛ أي على تكذيبك بالثواب والعقاب ، بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان والدِّين والجزاء .

قال الشاعر :

دِنَّا تميماً كما كانتْ أوائلُنا . . .

دانَتْ أوائلَهمْ في سالف الزمنِ

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8)

أي أتقن الحاكمين صنعاً في كل ما خلق .

وقيل : ﴿ بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ قضاء بالحق ، وعدلاً بين الخلق .

وفيه تقدير لمن اعترف من الكفار بصانع قديم .

وألف الاستفهام إذا دخلت على النفي وفي الكلام معنى التوقيف صار إيجاباً ؛ كما قال :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا . . .

(98/821)

وقيل : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدين * أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ : منسوخة بآية السيف .

وقيل : هي ثابتة ؛ لأنه لا تنافي بينهما .

وكان ابن عباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما إذا قرأا ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ قالا : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين ؛ فيختار ذلك .

والله أعلم .

ورواه الترمذي عن أبي هريرة قال : من قرأ سورة "والتين والزيتون" فقرأ ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين .

والله أعلم . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(99/821)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والتين والزيتون ﴾

هما هذا التينُ وهذا الزيتونُ خصَّهُما اللهُ سبحانَهُ من بينِ الثمارِ بالإقسامِ بهما لاختصاصِهما بخواصَّ جليلةٍ فإنَّ التينَ فاكهةٌ طيبةٌ لا فُضلَ لهُ وغذاءٌ لطيفٌ سريعُ الهضمِ ودواءٌ كثيرُ النفعِ يلينُ الطبعَ ويحللُ البلغمَ ويطهرُ الكليتينِ ويزيلُ ما في المثانةِ من الرملِ ويسمن البدنَ ويفتحُ سددَ الكبدِ والطِّحالِ . وروَى أبو ذرٍ رضيَ اللهُ عنْهُ أنَّه أهدَى للنبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ سلٌّ من تينٍ فأكلَ منْهُ وقالَ لأصحابه : "كُلوا فلَو قلتُ إن فاكهةً نزلتْ من الجنةِ لقلتُ هذا لأنَّ فاكهةَ الجنَّةِ بلا عجمَ فكلُوهَا فإنَّها تقطعُ البواسيرَ وتنفعُ منَ النِقرسِ" وعَنْ عليِّ بنِ مُوسى الرِّضَا التينُ يزيلُ نكهةَ الفمِ ويطولُ الشعرَ وهُوَ أمانٌ منَ الفالجِ وأما الزيتونُ فهو فاكهةٌ وإدامٌ ودواءٌ ولو لم يكنْ له سِوى اختصاصِه بدهنٍ كثيرِ المنافعِ معَ حصولِه في بقاعٍ لا دهنيةَ فيهَا لكَفى به فضلاً وشجرتُه هيَ الشجرةُ المباركةُ المشهودُ لهَا في التنزيلِ . ومرَّ معاذُ بنُ جبلٍ رضيَ اللهُ عنْهُ بشجرةِ الزيتونِ فأخذَ منها قضيباً واستاكَ بهِ وقالَ : سمعتُ النبيَّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ يقولُ : "نعمَ السواكُ الزيتونُ من الشجرةِ المباركةِ يطيبُ الفمَ ويذهبُ بالحفرةِ" وسمعتُه يقولُ : "هوَ سواكِي وسواكُ الأنبياءِ قبلِي" وقيلَ : هما جبلانِ من الأرضِ المقدسةِ يقالُ لهما بالسريانيةِ : طُورتينَا وطورزيتَا لأنهمَا منبتَا التينِ

والزيتونِ وقيل : التينُ جبالٌ ما بينَ حلوانَ وهمدانَ والزيتونُ جبالُ الشامِ لأنهمَا منابتَهما كأنه قيلَ : ومنابتِ التينِ والزيتونِ وَقالَ قَتَادَةُ : التينُ الجبلُ الذي عليهِ دمشقُ والزيتونُ الجبلُ الذي عليهِ بيتُ المقدسِ وقال عكرمةُ وَابنُ زيدِ : التينُ دمشقُ والزيتونُ بيتُ المقدسِ وهو اختيارُ الطبريِّ وقالَ محمدُ بنُ كعبٍ : التينُ مسجدُ أصحابِ الكهفِ

(100/821)

والزيتونُ مسجدُ إيليا وعن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا : التينُ مسجدُ نوحٍ عليهِ السلامُ الذي بناهُ على الجُودِيِّ والزيتونُ مسجدُ بيتِ المقدسِ وقالَ الضحَّاكُ : التينُ المسجدُ الحرامُ والزيتونُ المسجدُ الأَقْصى ، والصحيحُ هُوَ الأولُ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا : هو تينُكُم الذي تأكلونَ وزيتونُكم الذي تعصِرونَ منْهُ الزيتَ وبه قالَ مجاهدٌ وعكرمةُ وإبراهيمُ النخعيُّ وعطاءٌ وجابرٌ وزيدٌ ومقاتلٌ والكلبيُّ ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ هو الجبلُ الذي ناجَى عليهِ موسى ربَّهُ وسينينَ وسيناءُ علمانِ للموضعِ الذي هُوَ فيهِ ولذلكَ أضيفَ إليهمَا وسينونَ كبيرونَ في جوازِ الإعرابِ بالواوِ والياءِ والإقرارِ على الياءِ وتحريكِ النونِ بالحركاتِ الإعرابيةِ .

﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ أيْ الآمنِ من أمنَ الرجلُ أمانةً فهوأمينٌ وهُوَ مكةُ شرَّفَها اللهُ تعَالَى

وأمانتُها أنَّها تحفظُ من دخلَها كما يحفظُ الأمينُ ما يؤتمنُ عليهِ ويجوزُ أنْ يكونَ فعيلاً بمَعْنى مفعولٍ من أمنَهُ لأنَّه مأمونُ الغوائلِ كما وصفَ بالآمنِ في قولِه تعالَى : ﴿ حَرَماً ءامِناً ﴾ بمَعْنى ذِي أمنٍ ووجْهُ الإقسامِ بها تيكَ البقاعِ المباركةِ المشحونةِ ببركاتِ الدُّنيا والدِّينِ غنيٌّ عن الشّرحِ والتبيينِ .

(101/821)

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ أيْ جنسُ الإنسانِ ﴿ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ أيْ كائناً في أحسنِ ما يكونُ من التقويمِ والتعديلِ صورةً ومَعْنى حيثُ برأه الله تعالَى مستويَ القامةِ متناسبَ الأعضاءِ متصفاً بالحياةِ والعلمِ والقدرةِ والإرادةِ والتكلمِ والسمعِ والبصرِ وغيرِ ذلكَ منَ الصفاتِ التي هيَ مِنْ أنموذجاتٍ منَ الصفاتِ السبحانيةِ وآثارٌ لهَا وقدْ عبرَ بعضُ العلماءِ عنْ ذلكَ بقولِه : خلقَ آدمَ علَى صورتِه وفي روايةٍ على صورةِ الرحمنِ وبَنى عليهِ تحقيقَ مَعْنى قولِه : "مَنْ عرفَ نفسَهُ فقدْ عرفَ ربَّه" وقالَ : إنَّ النفسَ الإنسانيةَ مجردةٌ ليستْ حالّةً في البدنِ ولا خارجةً عنْهُ متعلقةً بهِ تعلقَ التدبيرِ والتصرفِ تستعملُه كيفمَا شاءتْ فإذَا أرادتْ فعلاً من الأفاعيلِ الجُسمانيةِ تلقيهِ إلى مَا في القلبِ منَ الروحِ الحُيوانيِّ الذي هُوَ أعدلُ الأرواحِ وأصفاهَا وأقربُها منهَا وأقواهَا مناسبةً إلى عالمِ المجرداتِ إلقاءً روحانياً وهو

يلقيهِ بواسطةِ ما في الشرايينِ منَ الأرواحِ إلى الدماغِ الذي هُو منبتُ الأعصابِ التي فيهَا القُوَى المحركةُ للإنسانِ فعندَ ذلكَ يحركُ منَ الأعضاءِ ما يليقُ بذلكَ الفعلِ من مباديهِ البعيدةِ والقريبةِ فيصدرُ عنْهُ ذلكَ بهذهِ الطريقةِ فمَنْ عرفَ نفسَهُ على هذهِ الكيفيةِ من صفاتِها وأفعالِها تسنَّى لهُ أنْ يترقَّى إلى معارجِ معرفةِ ربِّ العزةِ عزَّ سلطانُهُ ويطلعُ على أنَّه سبحانَهُ منزهٌ عنْ كونِه داخلاً في العالمِ أو خارجاً عنْهُ يفعلُ فيهِ ما يشاءُ ويحكمُ ما يريدُ بواسطةِ ما رتبَهُ فيهِ منَ الملائكةِ الذينَ يستدلُّ على شؤونِهم بما ذكرَ منَ الأرواحِ والقُوى المرتبةِ في العالمِ الإنسانيِّ الذي هُوَ نسخةٌ للعالمِ الأكبرِ وأنموذجٌ منْهُ وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ أيْ جعلنَاهُ من أهلِ النَّارِ الذينَ هُم أقبحُ من كُلِّ قبيحٍ وأسفلُ من

(102/821)

كُلِّ سافلٍ لعدمِ جريانِه على موجبِ ما خلقناهُ عليهِ منَ الصفاتِ التي لو عملَ بمقتضاها لكانَ في أعلَى عليينَ وقيل : رددناهُ إلى أرذلِ العمرِ وهُو الهرمُ بعدَ الشبابِ والضعفُ بعدَ القوةِ كقولِه تعالَى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الخلق ﴾ وأياً ما كانَ فأسفلُ سافلينَ إمَّا حالٌ منَ المفعولِ أيْ رددناهُ حالَ كونِه أسفلَ سافلينَ أو صفةٌ لمكانٍ محذوفٍ أيْ رددناهُ مكاناً أسفلَ سافلينَ والأولُ أظهرُ وقُرِىءَ أسفلَ السافلينَ .

وقولُه تعالَى : ﴿ إِلَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾

على الأولِ استثناءٌ متصلٌ منْ ضميرِ رددناهُ فإنَّه فِي معْنَى الجمعِ وعلى الثاني منقطعٌ أيْ لكنْ الذينَ كانُوا صالحينَ منْ الهرْمَى ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ غيرُ منقطعٍ عَلى طاعتِهم وصبرِهم على ابتلاءِ الله تعالَى بالشيخوخةِ والهرمِ وعَلى مقاساةِ المشاقِّ والقيامِ بالعبادةِ على تخاذلِ نهوضِهم أو غيرِ ممنونٍ بِه عليهمْ وهذِه الجملةُ على الأولِ مقررةٌ لمَا يفيدُهُ الاستثناءُ منْ خروجِ المؤمنينَ عنْ حكمِ الردِّ ومبنيةٌ لكيفيةِ حالِهم والخطابُ فِي قولِه تعالَى : ﴿ فَمَا يُكَذّبُكَ بَعْدُ بالدين ﴾ للرسولِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ أيْ فأيُّ شيءٍ يكذبكَ دلالةً أو نطقاً بالجزاءِ بعدَ ظهورِ هذهِ الدلائلِ الناطقةِ بهِ ، وقيلَ : ما بمعنَى منْ ، وقيل : الخطابُ للإنسانِ على طريقِ الالتفاتِ لتشديدِ التوبيخِ والتبكيتِ أيْ فَما يجعلكَ كاذباً بسببِ الدينِ وأنكارِه بعدَ هذهِ الدلائلِ والمَعنى أنَّ خلقَ الإنسانِ منْ نطفةٍ وتقويمَهُ بشراً سوياً وتحويلَهُ منْ حالٍ إلى حالٍ كمالاً ونقصاناً من أوضحِ الدلائلِ على قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على البعثِ والجزاءِ فأيُّ شيءٍ يضطرك بعدَ هذَا الدليلِ القاطعِ إلى أنْ تكونَ كاذباً بسببِ تكذيبهِ أيُّها الإنسانُ ؟

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ ﴾ أي أليسَ الذي فعلَ ما ذكرَ بأحكمِ الحاكمينَ صنعاً وتدبيراً حتَّى يتوهَم عدمُ الإعادةِ والجزاءِ وحيثُ استحالَ عدمُ كونِهِ أحكمَ الحاكمينَ تعينَ الإعادةُ والجزاءُ فالجملةُ تقريرٌ لما قبلَها ، وقيلَ : الحكمُ بمعْنَى القضاءِ فهي وعيدٌ للكفارِ وأنَّه يحكمُ عليهم بما يستحقونَهُ منَ العذابِ .

عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : "أنَّه كانَ إذَا قَرَأها يقولُ بَلَى وأنَا عَلى ذلكَ منَ الشاهدينَ " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

وثم في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ للتراخي الزماني أو الرتبى والرد إما بمعنى الجعل فينصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر كما في قوله

: فرد شعورهن السود بيضا . . .

ورد وجوههن البيض سودا

فاسفل مفعول ثان له هنا والمعنى ثم جعلناه من أهل النار الذين هم أقبح من كل قبيح وأسفل من كل سافل خلقاً وتركيباً لعدم جريه على موجب ما خلقناه عليه من الصفات وجوز أن يكون المراد بالرد تغيير الحال فهو متعد لواحد وأسفل حال من المفعول أي رددناه حال كونه أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقة وهم أصحاب النار وأن يكون الرد بمعناه المعروف وأسفل منصوب بنزع الخافض وجعل الأسفل عليه صفة لمكان وأريد بالسافلين الامكنة السافلة أي رددناه إلى مكان أسفل الأمكنة السافلة وهو جهنم أو الدرك الأسفل من النار ويعكر على هذا جمعها جمع العقلاء وكونه للفاصلة أو التنزيل منزلة العقلاء ليس مما يهتش له ولعل الأولى على ذلك ان يراد إلى أسفل من سفل من أهل الدركات وقال عكرمة والضحاك والنخفي وقتادة في رواية المراد بذلك رده إلى الهرم وضعف القوى الظاهرة والباطنة أي ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل في حسن الصورة والشكل حيث نكسناه في خلقه فقوس ظهره بعد اعتداله وابيض شعره بعد سواده وقوته ضعف وشهامته خرف والآية على هذا نظير قوله تعالى ﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ [النحل : 70] وقوله سبحانه ﴿ ومن نعمره ننكسه في الخلق ﴾ [يس : 68] وهو باعتبار الجنس فلا يلزم أن يكون كل الإنسان كذلك وفي إعراب أسفل قيل الأوجه السابقة والأوجه منه غير خفي ثم المتبادر من السياق الإشارة إلى حال الكافر يوم القيامة وانه

يكون على أقبح صورة وأبشعها بعد ان كان على أحسن صورة وأبدعها لعدم شكره تلك النعمة وعمله بموجبها وإرادة ما ذكر لا يلائمه ومن هنا قيل إنه خلاف الظاهر والظاهر ما لاءم ذلك كما هو المروى عن الحسن ومجاهد وأبي العالية وابن زيد وقتادة أيضاً وقرأ عبد الله السافلين مقروناً بال وقوله تعالى :

(106/821)

﴿ إِلَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ على ما تقدم استثناء متصل من ضمير ﴿ رددناه ﴾ العائد على الإنسان فإنه في معنى الجمع فالمؤمنون لا يردون أسفل سافلين يوم القيامة ولا تقبح صورهم بلا يزدادون بهجة إلى بهجتهم وحسناً إلى حسنهم وقوله تعالى :

﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم مقرر لما يفيده الاستثناء من خروجهم عن حكم الرد ومبين لكيفية حالهم وعلى الأخير الاستثناء منقطع والموصول مبتدأ وجملة لهم أجر خبره والفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط والكلام على معنى الاستدراك كأنه قيل لكن الذين آمنوا لهم أجر الخ وهو لدفع ما يتوهم من أن التساوي في أرذل العمر يقتضي التساوي في غيره فلا يرد أنه كيف يكون منقطعاً والمؤمنون داخلون في المردودين إلى أرذل العمر غير مخالفين لغيرهم في الحكم وقال بعض المحققين الانقطاع لأنه لم

يقصد إخراجهم من الحكم وهو مدار الاتصال والانقطاع كما صرح به في الأصول لا الخروج والدخول فلا تغفل وحمل غير واحد هؤلاء المؤمنين على الصالحين من الهرمي كأنه قيل لكن الذين كانوا صالحين من الهرمي لهم ثواب دائم غير منقطع أو غير ممنون به عليهم لصبرهم على ما ابتلوا به من الهرم والشيخوخة المانعين إياهم عن انلهوض لإداء وظائفهم من العبادة أخرج أحمد والبخاري وابن حبان عن أبي موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا مرض العبد أو سافر كتب الله تعالى له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً" وفي رواية عنه ثم قرأ صلى الله عليه وسلم فلهم أجر غير ممنون أخرج الطبراني عن شداد بن أوس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "إن الله تبارك وتعالى يقول إذا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً فحمدني على ما ابتليته فإنه يقوم من مضجعه كيوم ولدته أمه من الخطايا ويقول الرب عز وجل أني أنا قيدت عبدي هذا وابتليته فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل ذلك وهو صحيح وأخرج

ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في الآية إذا كبر العبد وضعف عن العمل كتب له أجر ما كان يعمل في شبيبته" ومن الناس من حملهم على قراء القرآن وجعل الاستثناء متصلاً

مخرجا لهم عن حكم الرد إلى أرذل العمر بناء على ما أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن الحبر قال من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر وذلك قوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا قال إلا الذين قرؤوا القرآن وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة نحوه وفيه أنه لا ينزل تلك المنزلة يعني الهرم كي لا يعلم من بعد علم شيئاً أحد من قراء القرآن ولا يخفى أن تخصيص الذين آمنوا بما خصص به خلاف الظاهر وفي كون أحد من القراء لا يرد إلى أرذل العمر توقف فليتتبع والخطاب في قوله تعالى :

(108/821)

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدين ﴾ عند الجمهور للإنسان على طريقة الالتفات لتشديد التوبيخ والتبكيت والفاء لتفريع التوبيخ عن البيان السابق والباء للسببية والمراد بالدين الجزاء بعد البعث أي فما يجعلك كاذباً بسبب الجزاء وإنكاره بعد هذا الدليل والمعنى أن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه على وجه يبهر الأذهان ويضيق عنه نطاق البيان أو هذا مع تحويله من حال إلى حال من أوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل على البعث والجزاء فأي شيء يضطرك أيها الإنسان بعد هذا الدليل القاطع إلى أن تكون كاذباً بسبب تكذيبه فإن كل مكذب بالحق فهو كاذب وقال قتادة والأخفش والفراء الخطاب للرسول صلى الله عليه

وسلم أي فأي شيء يكذبك بالجزاء بعد ظهور دليله وهو من باب الإلهاب والتعريض بالمكذبين أي أنه لا يكذبك شيء ما بعد هذا البيان بالجزاء لا كهؤلاء الذين لا يبالون بآيات الله تعالى ولا يرفعون بها رأساً فالاستفهام لنفي التكذيب وإفادة أنه عليه الصلاة والسلام لاستمرار الدلائل وتعاضدها مستمر على ما هو عليه من عدم التكذيب وفيه من اللطف ما ليس في الأول وجوز على هذا الوجه كون الباء بمعنى في وكونها للسببية وتقدير مضاف عليهما والمعنى أن أي شيء ينسبك إلى الكذب في أخبارك بالجزاء أو بسبب إخبارك به بعد هذا الدليل وكونها صلة التكذيب والدين بمعناه والمعنى أي شيء يجعلك مكذباً بدين الإسلام وروى هذا عن مجاهد وقتادة والاستفهام على ما سمعت وجوز كون الدين بمعناه على الوجه الأول أيضاً وبعض من ذهب إلى كون الخطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم جعل ما بمعنى من لان المعنى عليه أظهر وضعف بأنه خلاف المعروف في ما فلا ينبغي ارتكابه مع صحة بقائها على المعروف فيها .

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ ﴾

أي أليس الذي فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين صنعاً وتديراً حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء وحيث استحال عدم كونه سبحانه أحكم الحاكمين تعين الإعادة والجزاء والجملة تقرير لما قبلها وقيل الحكم بمعنى القضاء فهي وعيد للكفار وأنه عز وجل يحكم عليهم بما هم أهله من العذاب وأياً ما كان فالاستفهام على ما قيل تقرير بما بعد النفي ويدل على ذلك ما أخرجه الترمذي وأبو داود وابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قرأ منكم ﴿ والتين والزيتون ﴾ فانتهى إلى قوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ فليقل ﴿ بلى وَأَنَاْ على ذلكم مّنَ الشاهدين ﴾ وجاء في بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا أتى على هذه الآية سبحانك فبلى وقد تقدم ما يتعلق بهذا في تفسير سورة ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ القيامة ﴾ فتذكر " . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(110/821)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) ﴾

قال أكثر المفسرين : هو التين الذي يأكله الناس ﴿ والزيتون ﴾ الذي يعصرون منه الزيت ،

وإنما أقسم بالتين ؛ لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص ، وفيها أعظم عبرة لدلالتها على من هيأها لذلك ، وجعلها على مقدار اللقمة .

قال كثير من أهل الطب : إن التين أنفع الفواكه للبدن ، وأكثرها غذاء ، وذكروا له فوائد ، كما في كتب المفردات والمركبات ، وأما الزيتون ، فإنه يعصر منه الزيت الذي هو إدام غالب البلدان ودهنهم ، ويدخل في كثير من الأدوية .

وقال الضحاك : التين المسجد الحرام ، والزيتون المسجد الأقصى .

وقال ابن زيد : التين مسجد دمشق ، والزيتون مسجد بيت المقدس ؛ وقال قتادة : التين الجبل الذي عليه دمشق ، والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس .

وقال عكرمة ، وكعب الأحبار : التين دمشق ، والزيتون بيت المقدس .

وليت شعري ما الحامل لهؤلاء الأئمة على العدول عن المعنى الحقيقي في اللغة العربية ، والعدول إلى هذه التفسيرات البعيدة عن المعنى ، المبنية على خيالات لا ترجع إلى عقل ولا نقل .

وأعجب من هذا اختيار ابن جرير للآخر منها مع طول باعه في علم الرواية والدراية .

قال الفراء : سمعت رجلاً يقول : التين جبال حلوان إلى همدان ، والزيتون جبال الشام .

قلت : هب أنك سمعت هذا الرجل ، فكان ماذا ؟ فليس بمثل هذا تثبت اللغة ، ولا هو نقل عن الشارع .

وقال محمد بن كعب : التين مسجد أصحاب الكهف ، والزيتون مسجد إيلياء .

وقيل : إنه على حذف مضاف ، أي : ومنابت التين والزيتون .

قال النحاس : لا دليل على هذا من ظاهر التنزيل ، ولا من قول من لا يجوِّز خلافه .

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى اسمه الطور ، ومعنى ﴿ سينين ﴾ : المبارك الحسن بلغة الحبشة قاله قتادة .

وقال مجاهد : هو المبارك بالسريانية .

(111/821)

وقال مجاهد ، والكلبي : ﴿ سينين ﴾ كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين ، وسيناء بلغة النبط .

قال الأخفش : طور جبل ، وسينين شجر ، واحدته سينة .

قال أبو علي الفارسي : سينين ، فعليل ، فكرّرت اللام التي هي نون فيه ، ولم ينصرف سينين ، كما لم ينصرف سيناء ؛ لأنه جعل اسماً للبقعة .

وإنما أقسم بهذا الجبل ؛ لأنه بالشام ، وهي الأرض المقدسة ، كما في قوله : ﴿ إلى المسجد الأقصى الذى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء : 1] وأعظم بركة حلت به ، ووقعت عليه

تكليم الله لموسى عليه .

قرأ الجمهور : ﴿ سينين ﴾ بكسر السين .

وقرأ ابن إسحاق ، وعمرو بن ميمون ، وأبو رجاء بفتحها ، وهي لغة بكر وتميم .

وقرأ عمر بن الخطاب ، وابن مسعود ، والحسن ، وطلحة : (سيناء) بالكسر والمدّ .

﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ يعني : مكة ، سماه أميناً ؛ لأنه آمن ، كما قال : ﴿ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا ﴾ [العنكبوت : 67] .

يقال أمن الرجل أمانة فهو أمين .

قال الفراء وغيره : الأمين بمعنى الآمن ، ويجوز أن يكون ، فعيلاً بمعنى مفعول من أمنه ؛ لأنه مأمون الغوائل .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ هذا جواب القسم ، أي : خلقنا جنس الإنسان كائناً في أحسن تقويم وتعديل .

قال الواحدي : قال المفسرون : إن الله خلق كل ذي روح مكباً على وجهه إلاّ الإنسان ، خلقه مديد القامة يتناول مأكوله بيده ، ومعنى التقويم : التعديل .

يقال : قوّمته ، فاستقام .

قال القرطبي : هو اعتداله واستواء شأنه ، كذا قال عامة المفسرين .

قال ابن العربي : ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حياً عالماً قادراً

مريداً متكلماً سميعاً بصيراً مدبراً حكيماً ، وهذه صفات الرب سبحانه ، وعليها حمل بعض العلماء قوله صلى الله عليه وسلم : "إن الله خلق آدم على صورته" يعني : على صفاته التي تقدم ذكرها .

(112/821)

قلت : وينبغي أن يضم إلى كلامه هذا قوله سبحانه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : 11] وقوله : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه : 110] ومن أراد أن يقف على حقيقة ما اشتمل عليه الإنسان من بديع الخلق ، وعجيب الصنع ، فلينظر في كتاب : (العبر والاعتبار) للجاحظ ، وفي الكتاب الذي عقده النيسابوري على قوله : ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] وهو في مجلدين ضخمين .

﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ أي : رددناه إلى أرذل العمر ، وهو الهرم ، والضعف بعد الشباب والقوّة ، حتى يصير كالصبيّ ، فيخرف وينقص عقله ، كذا قال جماعة من المفسرين .

قال الواحدي : والسافلون هم : الضعفاء ، والزمناء ، والأطفال ، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً .

وقال مجاهد ، وأبو العالية ، والحسن : المعنى ثم رددنا الكافر إلى النار ، وذلك أن النار درجات بعضها أسفل من بعض ، فالكافر يرد إلى أسفل الدرجات السافلة ، ولا ينافي هذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّ المنافقين فِى الدرك الأسفل مِنَ النار ﴾ [النساء : 145] فلا مانع من كون الكفار ، والمنافقين مجتمعين في ذلك الدرك الأسفل ، وقوله : ﴿ أَسْفَلَ سافلين ﴾ إما حال من المفعول ، أي : رددناه حال كونه أسفل سافلين ، أو صفة لمقدر محذوف ، أي : مكاناً أسفل سافلين ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ هذا الاستثناء على القول الأوّل منقطع ، أي لكن الذين آمنوا إلخ ، ووجهه أن الهرم والردّ إلى أرذل العمر يصاب به المؤمن ، كما يصاب به الكافر ، فلا يكون لاستثناء المؤمنين على وجه الاتصال معنى .

(113/821)

وعلى القول الثاني يكون الاستثناء متصلاً من ضمير ﴿ رددناه ﴾ ، فإنه في معنى الجمع ، أي : رددنا الإنسان أسفل سافلين من النار ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [العصر : 3] ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي : غير مقطوع ، أي : فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعاتهم ؛ فهذه الجملة على القول الأوّل مبينة لكيفية حال المؤمنين ، وعلى القول الثاني مقرّرة لما يفيده الاستثناء من خروج المؤمنين عن حكم الردّ ، وقال : أسفل

سافلين على الجمع ؛ لأن الإنسان في معنى الجمع ، ولو قال : أسفل سافل لجاز ؛ لأن الإنسان باعتبار اللفظ واحد .

وقيل : معنى رددناه أسفل سافلين : رددناه إلى الضلال ، كما قال : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [العصر : 2 ، 3] أي : إلاّ هؤلاء ، فلا يردّون إلى ذلك .

﴿ فَمَا يُكَذّبُكَ بَعْدُ بالدين ﴾ الخطاب للإنسان الكافر ، والاستفهام للتقريع والتوبيخ ، وإلزام الحجة ، أي : إذا عرفت أيها الإنسان أن الله خلقك في أحسن تقويم ، وأنه يردّك أسفل سافلين ، فما يحملك على أن تكذب بالبعث والجزاء ؟ وقيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، أي : أيّ شيء يكذبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل الناطقة ، فاستيقن مع ما جاءك من الله أنه أحكم الحاكمين .

قال الفراء ، والأخفش : المعنى فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا البيان بالدين ، كأنه قال : من يقدر على ذلك ؟ أي : على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما ظهر من قدرتنا على خلق الإنسان ما ظهر ، واختار هذا ابن جرير .

والدين الجزاء ، ومنه قول الشاعر :

دنّا تميما كما كانت أوائلنا . . . دانت أوائلهم من سالف الزمن

وقال الآخر :

ولما صرّح الشر . . . فأمسى وهو عريان

ولم يبق سوى العدوا . . . ن دنّاهم كما دانوا

(114/821)

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الحَاكِمِينَ ﴾ أي : أليس الذي فعل ما فعل مما ذكرنا بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً ؟ حتى تتوهم عدم الإعادة والجزاء .

وفيه وعيد شديد للكفار .

ومعنى : أحكم الحاكمين : أتقن الحاكمين في كل ما يخلق .

وقيل : أحكم الحاكمين قضاء وعدلاً .

والاستفهام إذا دخل على النفي صار الكلام إيجاباً ، كما تقدّم تفسير قوله : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : 1] .

وقد أخرج الخطيب ، وابن عساكر قال السيوطي بسند فيه مجهول عن الزهري عن أنس قال : لما أنزلت سورة ﴿ التين والزيتون ﴾ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرح فرحاً شديداً حتى تبين لنا شدّة فرحه ، فسألنا ابن عباس عن تفسيرها فقال : التين بلاد الشام . والزيتون بلاد فلسطين .

وطور سيناء الذي كلم الله عليه موسى ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ : مكة ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ محمداً ﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ : عبدة اللات والعزّى : ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدين * أَلَيْسَ الله بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ إذ بعثك فيهم نبياً ، وجمعك على التقوى يا محمد ، ومثل هذا التفسير من ابن عباس لا تقوم به حجة لما تقدّم من كون في إسناده ذلك المجهول .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ والتين والزيتون ﴾ قال : مسجد نوح الذي بني على الجوديّ ، والزيتون قال : بيت المقدس : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ قال : مسجد الطور .

(115/821)

﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ قال : مكة ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ يقول : يردّ إلى أرذل العمر ، كبر حتى ذهب عقله ، هم نفر كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سفهت عقولهم ، فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم .

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدين ﴾ يقول: بحكم الله.

وأخرج ابن مردويه عنه نحوه.

وأخرج ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه عنه أيضاً ﴿ والتين والزيتون ﴾ قال: الفاكهة التي يأكلها الناس ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ قال: الطور الجبل.

والسينين المبارك.

وأخرج عبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عنه أيضاً قال: سينين هو الحسن.

وأخرج سعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه عنه أيضاً: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ قال: في أعدل خلق: ﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ يقول: إلى أرذل العمر: ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ يعني غير منقوص.

يقول فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر، وكان يعمل في شبابه عملاً صالحاً كتب له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه، ولم يضرّه ما عمل في كبره، ولم تكتب عليه الخطايا التي يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر.

وأخرج الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس قال: من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر، وذلك قوله: ﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين * إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ قال: لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئًا.

وأخرج ابن أبي حاتم عنه ﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ يقول : إلى الكبر وضعفه ، فإذا كبر وضعف عن العمل ، كتب له مثل أجر ما كان يعمل في شبيبته .

وأخرج أحمد ، والبخاري ، وغيرهما عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا مرض العبد ، أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً "

وأخرج الترمذي ، وابن مردويه عن أبي هريرة مرفوعاً : " من قرأ ﴿ والتين والزيتون ﴾ فقرأ : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين "

وأخرج ابن مردويه عن جابر مرفوعاً : " إذا قرأت ﴿ والتين والزيتون ﴾ فقرأت : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ فقل بلى " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ قال : سبحانك اللّهم فبلى . انتهى .

اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 464 . 467 ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

أما قوله تعالى : « ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ » . فهذا حكم على الإنسان فى أفراده ، لا فى نوعه ، فالإنسان . كفرد . يولد . فى أىّ زمن من أزمان الحياة الإنسانية « فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ » بما أودع الخالق فيه من عقل مبصر ، وفطرة سليمة ، ثم إن كثيرا من الناس يطفئون نور عقولهم بأيديهم ، ويغتالون فطرتهم بشهواتهم ، فيفسدون وجودهم الإنسانىّ ويردّون إلى عالم الحيوان ، وقليل منهم يحتفظون بوجودهم الإنسانىّ . عقلا وفطرة . فيكونون شاهدا قائما على أن الإنسان . فى كل زمن هو خليفة اللّه فى هذه الأرض ، وهو سيّد ما عليها من مخلوقات ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » .

. فهؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، هم الإنسان ، وهؤلاء هم الإنسان الذي يتناول من ربّه أجره الإنسان كاملا فى الدنيا والآخرة ، وإنه لأجر يتكافأ مع هذا الخلق العظيم الذي خلق عليه فى أحسن تقويم ، لا يناله غيره من عالم الأحياء . . إنه أجر مقدّر بقدره محسوب بشرف خلقه . . أما من نزلوا عن هذا القدر وتخلّوا عن هذا الشرف ، فلهم الأجر الذي هم أهله : « يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ » وهل للأنعام إلا أن تسمّن ، وتذبح ، ثم تكون وقودا للبطون الجائعة ؟ .

إن الوجود فى تطور ، وفى نماء ، وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى :

«يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ» .

. (1 : فاطر) . . وإن نظرة فى تاريخ الإنسانية لترينا أن الإنسان فى أول ظهوره على هذا الكوكب الأرضى ، كان أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان ، يسكن الغابات والكهوف ، ويعيش عاريا أو شبه عار ، لا يستره إلا ورق الشجر أو نحوه ، كما لا تزال شواهد من هذا قائمة فى البيئات المتخلّفة ، كما فى الزنوج ، والهنود الحمر . .

فهذا الإنسان البدائى كان ـ ولا يزال ـ محكوما بغرائزه الحيوانية . .

أما هذا الإنسان الذي شهد عهد النبوّات ، فهو وليد حياة متطورة ، قطع الإنسان مسيرتها فى مئات الألوف من السنين ، حتى أصبح أهلا لأن يخاطب من السماء ، وأن تناط به التكاليف الشرعية ، وأن يكون محلّا للحساب ، والثواب ، والعقاب .

والنظرة التي ينظر بها إلى الإنسان على أن أمسه خير من يومه ، ويومه خير من غده ، وأنه سائر فى طريق يتدلّى به سلّما سلّما من السماء إلى الأرض . هذه النظرة خاطئة من وجوه :

فأولا : أنها نظرة محصورة فى الوجود الذاتي للإنسان . . فالإنسان فى نظرته إلى نفسه يرى

أن واقعه الذي يعيش فيه ، غير محقّق لرضاه عنه ، أيا كان هذا الوجود ، وأيّا كان حظّه مما لم يظفر به غيره . . إنه يتطلع دائما إلى ما هو أفضل . .

وثانيا : وتأسيسا على هذا ، أن عدم رضا الإنسان عن واقعه ، وتطلعه إلى المستقبل الذي لا يجد فيه ما يرضيه. هذا التطلع. يشرف به على عالم مجهول ، لا يدرى ما سيطلع عليه منه ، فلا يجد إلا الماضي الذي يعيش فى ذكرياته ، وإنه حين ينظر إلى هذا الماضي لا يذكر منه إلّا ما كان موضع مسرّته ورضاه . . أما ما يسوءه منه فإنه يختفى من حياته ، ولهذا كان الحنين إلى الماضي رغبة منبعثة من صدور كل إنسان .

(119/821)

وثالثا : وتأسيسا على هذا أيضا. كان هذا الإحساس الذي يجده الإنسان دائما من تقديس الماضي وتمجيده ، وأنه بقدر ما يبعد الزمن فى أغوار الماضي ، بقدر تعدّد ما يلبس من أثواب التقديس والتمجيد .

فالحياة بخير ، والإنسانية فى طريقها من الأرض إلى السماء ، وليست فى هبوط من السماء إلى الأرض ! ! قوله تعالى : «فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ

» .

الدّين هنا ، هو ما يدين به الإنسان لخالقه الذي خلقه فى أحسن تقويم ، وهو الاحتفاظ بهذه المنزلة العالية التي له فى عالم المخلوقات ، بما له من عقل مبصر ، ونظرة سليمة .

والمراد بالتكذيب ، هو إنكار هذا العقل ، وعدم الإصغاء إليه .

والتخلّي عن هذه الفطرة ، وتعطيل وظيفتها .

والاستفهام إنكارى ، بكشف عن حال أولئك الذين خرجوا عن إنسانيتهم تلك ، وتحوّلوا إلى دنيا الحيوان ، بلا عقل ، ولا قلب ! ! وقوله تعالى : «أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ» هو إنكار بعد إنكار ، لمن زهدوا فيما أودع الخالق فيهم من آياته ، فردّوها ، وعرّوا أنفسهم منها ، كأنهم لا يرضون بما زيّنهم اللّه به ، وكأنهم يرون أن ما صنع اللّه بهم ليس على التمام والكمال ، فهم يزهدون فيه ، ويطلبون لأنفسهم ما هو أحكم وأكمل ! ! فالتكذيب بالدين لا يكون من إنسان عاقل رشيد ، وإنما يكون ممن سفه نفسه وجهل قدره ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1618. 1620﴾

(120/821)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾

معطوفة على جملة : ﴿ خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ فهي في حيّز القَسَم .

وضمير الغائب في قوله : ﴿ رددناه ﴾ عائد إلى الإِنسان فيجري فيه الوجهان المتقدمان من التعريف .

و ﴿ ثم ﴾ لإفادة التراخي الرُّتْبي كما هو شأنها في عطف الجمل ، لأن الرد أسفل سافلين بعد خلقه محوطاً بأحسن تقويم عجيب لما فيه من انقلاب ما جُبل عليه ، وتغييرُ الحالة الموجودة أعجب من إيجاد حالة لم تكن ، ولأنّ هذه الجملة هي المقصود من الكلام لتحقيق أن الذين حادوا عن الفطرة صاروا أسفل سافلين .

والمعنى : ولقد صيرناه أسفل سافلين ، أو جعلناه في أسفل سافلين .

والرد حقيقته إرجاع ما أخذ من شخص أو نُقل من موضع إلى ما كان عنده ، ويطلق الرد مجازاً على تصيير الشيء بحالة غير الحالة التي كانت له مجازاً مرسلاً بعلاقة الإطلاق عن التقييد كما هنا .

و ﴿ أسفل ﴾ : اسم تفضيل ، أي أشدّ سفالة ، وأضيف إلى ﴿ سافلين ﴾ ، أي الموصوفين بالسفالة .

فالمراد : أسفل سافلين في الاعتقاد بخالقه بقرينة قوله : ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ [التين : 6] .

وحقيقة السفالة : انخفاض المكان ، وتطلق مجازاً شائعاً على الخسة والحقارة في النفس ،

فالأسفل الأشد سفالة من غيره في نوعه .

والسافلون : هم سفلة الاعتقاد ، والإِشراك أُسفل الاعتقاد فيكون ﴿ أسفل سافلين ﴾ مفعولاً ثانياً ل ﴿ رددناه ﴾ لأنه أجري مجرى أخوات صار .

والمعنى : أن الإِنسان أخذ بغير ما فطر عليه من التقويم وهو الإِيمان بإله واحد وما يقتضيه ذلك من تقواه ومراقبته فصار أسفل سافلين ، وهل أسفل مُمن يعتقد إلهية الحجارة والحيوانِ الأبكم مِن بقر أو تماسيح أو ثعابين أو من شجر السَّمُر ، أو مَن يحسب الزمان إلها ويسميه الدهر ، أو من يجحد وجود الصانع وهو يشاهد مصنوعاته ويحس بوجود نفسه قال تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : 21] .

(121/821)

فإن ملت إلى جانب الأخلاق رأيت الإِنسان يبلغ به انحطاطه إلى حضيض التسفل ، فمِن مَلَق إذا طمِع ، ومن شُحّ إذا شجع ، ومن جزع إذا خاف ، ومن هلع ، فكم من نفوس جُعلت قرابين للآلهة ، ومن أطفال موءودة ، ومن أزواج مقذوفة في النار مع الأموات من أزواجهن ، فهل بعد مثل هذا من تسفل في الأخلاق وأفن الرأي .

وإسناد الرد إلى الله تعالى إسناد مجازي لأنه يكوّن الأسبابَ العالية ونظامَ تفاعلها وتقابلها

في الأسباب الفرعية ، حتى تصل إلى الأسباب المباشرة على نحو إسناد مدّ وقبض الظل إليه تعالى في قوله : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ إلى قوله : ﴿ ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ [الفرقان : 45 ، 46] وعلى نحو الإِسناد في قول الناس : بنَى الأمير مدينةَ كذا .

ويجوز أن يكون ﴿ أسفل سافلين ﴾ ظرفاً ، أي مكاناً أسفلَ مَا يسكنه السافلون ، فإضافة ﴿ أسفل ﴾ إلى ﴿ سافلين ﴾ من إضافة الظرف إلى الحالِّ فيه ، وينتصب ﴿ أسفل ﴾ بـ ﴿ رددناه ﴾ انتصاب الظرف أو على نزع الخافض ، أي إلى أسفل سافلين ، وذلك هو دار العذاب كقوله : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ [النساء : 145] فالرد مستعار لمعنى الجعل في مكان يستحقه ، وإسناد الرد إلى الله تعالى على هذا الوجه حقيقي .

وأحسب أن قوله تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ انتزَع منه مالك رحمه الله ما ذكره عياض في "المدارك" قال : قال ابن أبي أويس : قال مالك : أقبلَ عليَّ يوماً ربيعة فقال لي : مَن السَّفلة يا مالك ؟ قلت : الذي يأكل بدينه ، قال لي : فمن سفلة السفلة ؟ قلت : الذي يأكل غيرُه بدينه .

فقال : (زِهْ) وصدَرني (أي ضرب على صدرِي يعني استحساناً) .

وأنَّ المشركين كانوا أسفل سافلين لأنهم ضلّلهم كبراؤهم وأيمتهم فسوّلوا لهم عبادة الأصنام

لينالوا قيادتهم .

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6)

(122/821)

استثناء متصل من عموم الإنسان فلما أخبر عن الإنسان بأنه ردّ أسفل سافلين ثم استثني من عمومه الذين آمنوا بقي غير المؤمنين في أسفل سافلين .

والمعنى : أن الذين آمنوا بعد أن ردوا أسفل سافلين أيام الإشراك صاروا بالإيمان إلى الفطرة التي فطر الله الإنسان عليها فراجعوا أصلهم إلى أحسن تقويم .

وعُطف ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ لأن عمل الصالحات من أحسن التقويم بعد مجيء الشريعة لأنها تزيد الفطرة رسوخاً وينسحب الإيمان على الأخلاق فيردها إلى فضلها ثم يهديها إلى زيادة الفضائل من أحاسنها ، وفي الحديث : "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" .

فكان عطف ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ للثناء على المؤمنين بأن إيمانهم باعث لهم على العمل الصالح وذلك حال المؤمنين حين نزول السورة فهذا العطف عطف صفة كاشفة .

وليس لانقطاع الاستثناء هنا احتمال لأن وجود الفاء في قوله : ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ يأباه كل الإباية .

وفُرِّع على معنى الاستثناء وهو أنهم ليسوا ممن يرد أسفل سافلين الإِخبارُ بأن لهم أجراً عظيماً لأن الاستثناء أفاد أنهم ليسوا بأسفل سافلين فأريد زيادة البيان لفضلهم وما أعد لهم.

وتنوين ﴿ أجر ﴾ للتعظيم.

والممنون: الذي يُمنّ على المأجور به، أي لهم أجر لا يشوبه كدر، ولا كدر أن يمنّ على الذي يعطاه بقول: هذا أجرك، أو هذا عطاؤك، فالممنون مَفْعول مَنّ عليه، ويجوز أن يكون مفعولاً من مَنَّ الحبلَ، إذا قطعه فهو منين، أي مقطوع أو موشك على التقطع.

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7)

تفريع على جميع ما ذكر من تقويم خلق الإنسان ثم رده أسفل سافلين، لأن ما بعد الفاء من الكلام مسبّب عن البيان الذي قبل الفاء، أي فقد بان لك أن غير الذين آمنوا هم الذين رُدُّوا إلى أسفل سافلين، فمن يكذب منهم بالدين الحق بعد هذا البيان.

(123/821)

و (مَا) يَجوز أن تكون استفهامية، والاستفهام توبيخي، والخطاب للإِنسان المذكور في قوله: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ [التين: 4] فإنه بعد أن استثني منه

الذين آمنوا بقي الإِنسان المكذب .

وضمير الخطاب التفات ، ومقتضى الظاهر أن يقال : فما يكذبه .

ونكتة الالتفات هنا أنه أصرح في مواجهة الإِنسان المكذب بالتوبيخ .

ومعنى ﴿ يكذبك ﴾ يَجعلك مُكذباً ، أي لا عذر لك في تكذيبك بالدين .

ومتعلق التكذيب : إمَّا محذوف لظهوره ، أي يجعلك مكذّباً بالرسول صلى الله عليه وسلم وأمّا المجرور بالباء ، أي يجعلك مكذباً بدين الإِسلام ، أو مكذباً بالجزاء إن حمل الدين على معنى الجزاء وجملة : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ مستأنفة للتهديد والوعيد .

و﴿ الدين ﴾ يجوز أن يكون بمعنى الملة والشريعة ، كقوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] وقوله : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً ﴾ [آل عمران : 85] .

وعليه تكون الباء للسببية ، أي فمن يكذبك بعد هذا بسبب ما جئتَ به من الدين فالله يحكم فيه .

ومعنى ﴿ يكذبك ﴾ : ينسبك للكذب بسبب ما جئت به من الدين أو ما أنذرت به من الجزاء ، وأسلوب هذا التركيب مؤذن بأنهم لم يكونوا ينسبون النبي صلى الله عليه وسلم إلى الكذب قبل أن يجيئهم بهذا الدين .

ويجوز أن يكون "الدين" بمعنى الجزاء في الآخرة كقوله : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ [الفاتحة : 4

] وقوله : ﴿ يصلونها يوم الدين ﴾ [الانفطار : 15] وتكون الباء صلة (يكذب) كقوله : ﴿ وكذب به قومك وهو الحق ﴾ [الأنعام : 66] وقوله : ﴿ قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ﴾ [الأنعام : 57] .

(124/821)

ويجوز أن تكون (ما) موصولة وما صدْقُها المكذب ، فهي بمعنى (مَن) ، وهي في محل مبتدإ ، والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والضمير المستتر في ﴿ يكذبك ﴾ عائد إلى (مَا) وهو الرابط للصلة بالموصول ، والباء للسببية ، أي ينسبك إلى الكذب بسبب ما جئت به من الإِسلام أو من إثبات البعث والجزاء .

وحذف ما أضيف إليه ﴿ بعدُ ﴾ فبنيت بعدُ على الضم والتقدير : بعدَ تبيُّن الحق أو بعد تبيُّن ما ارتضاه لنفسه من أسفل سافلين .

وجملة : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ يجوز أن تكون خبراً عن (ما) والرابط محذوف تقديره : بأحكم الحاكمين فيه .

ويجوز أن تكون الجملة دليلاً على الخبر المخبر به عن (مَا) الموصولة وحُذف إيجازاً اكتفاء بذكر ما هو كالعلة له فالتقدير فالذي يكذبك بالدين يتولى الله الانتصاف منه أليس الله

بأحكم الحاكمين .

والاستفهام تقريري .

و"أحكم" يجوز أن يكون مأخوداً من الحكم ، أي أقضى القضاة ، ومعنى التفضيل أن حكمه أسد وأنفذ .

ويجوز أن يكون مشتقاً من الحكمة .

والمعنى : أنه أقوى الحاكمين حِكمةً في قضائه بحيث لا يخالط حكمه تفريط في شيء من المصلحة ونَوْطِ الخبر بذي وصف يؤذن بمراعاة خصائص المعنى المشتقّ منه الوصفُ فلما أخبر عن الله بأنه أفضل الذين يحكمون ، عُلم أن الله يفوق قضاؤه كل قضاء في خصائص القضاء وكمالاته ، وهي : إصابة الحق ، وقطع دابر الباطل ، وإلزام كل من يقضي عليه بالامتثال لقضائه والدخول تحت حكمه .

روى الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قرأ منكم ﴿ والتين والزيتون ﴾ [التين : 1] فانتهى إلى قوله : ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قال : أنزلت سورة ﴿ والتين ﴾ بمكة .

وأخرج مالك وابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن البراء بن عازب قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم في سفر ، فصلى العشاء ، فقرأ في إحدى الركعتين ب ﴿ والتين والزيتون ﴾ ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد في مسنده والطبراني عن عبد الله بن يزيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ في المغرب ب ﴿ والتين والزيتون ﴾ .

وأخرج الخطيب عن البراء بن عازب قال : صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المغرب فقرأ ﴿ والتين والزيتون ﴾ .

وأخرج ابن قانع وابن السكن والشيرازي في الألقاب عن زرعة بن خليفة قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم من اليمامة ، فعرض علينا الإسلام ، فأسلمنا ، فلما صلينا الغداة قرأ ب ﴿ والتين والزيتون ﴾ و ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ .

أخرج الخطيب وابن عساكر بسند فيه مجهول عن الزهري عن أنس قال : لما نزلت سورة ﴿ والتين ﴾ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرح بها فرحاً شديداً حتى تبين لنا شدة فرحه ، فسألنا ابن عباس عن تفسيرها فقال : التين بلاد الشام ، والزيتون بلاد فلسطين ﴿ وطور سينين ﴾ الذي كلم الله موسى عليه ، ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ مكة ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في أحسن تقويم ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ عبدة اللات والعزى ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﴿ فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ إذا بعثك فيهم نبياً وجمعك على التقوى يا محمد .

(126/821)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ والتين ﴾ قال : مسجد نوح الذي بني بأعلى الجودي ﴿ والزيتون ﴾ قال : بيت المقدس ﴿ وطور سينين ﴾ قال : مسجد الطور ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ قال : مكة ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ يقول : يرد إلى أرذل العمر ، كبر حتى ذهب عقله ، هم نفر كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسئل رسول الله صلى الله عليه

وسلم حين تسفهت عقولهم، فأنزل الله عذرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ يقول: بحكم الله.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ والتين والزيتون ﴾ قال: هما المسجدان مسجد الحرام ومسجد الأقصى، حيث أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وطور سينين ﴾ الجبل الذي صعده موسى ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ مكة ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في أحسن تقويم ﴾ قال: في انتصاب لم يخلق منكبًا على وجهه ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ قال: أرذل العمر.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر عن قتادة في قوله: ﴿ والتين ﴾ قال: التين الجبل الذي عليه دمشق ﴿ والزيتون ﴾ الذي عليه بيت المقدس ﴿ وطور سينين ﴾ قال: جبل بالشام مبارك حسن ذو شجر ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ قال: مكة ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في أحسن تقويم ﴾ قال: وقع القسم ههنا ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ قال: جهنم ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ يقول: استيقن فقد جاءك من الله البيان.

وأخرج عبد بن حميد عن أبي عبد الله قال: ﴿ التين ﴾ مسجد دمشق ﴿ والزيتون ﴾ بيت المقدس ﴿ وطور سينين ﴾ جبل موسى ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ البلد الحرام.

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال: ﴿ التين ﴾ مسجد

أصحاب الكهف ﴿ والزيتون ﴾ مسجد إيليا ﴿ وطور سينين ﴾ مسجد الطور ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ مكة .

(127/821)

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك ﴿ والتين والزيتون ﴾ مسجدان بالشام ﴿ وطور سينين ﴾ قال : الطور الجبل وسينين الحسن .

وأخرج ابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر عن كعب الأحبار في قوله : ﴿ والتين ﴾ الآية ، قال : ﴿ التين ﴾ دمشق ﴿ والزيتون ﴾ بيت المقدس ﴿ وطور سينين ﴾ الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ﴿ والبلد الأمين ﴾ مكة .

وأخرج سعيد بن منصور عن أبي حبيب الحارث بن محمد قال : أربعة جبال مقدسة بين يدي الله تعالى : طور زيتا وطور سينا وطور تينا وطور تيما . وهو قول الله : ﴿ والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين ﴾ فأما طور زيتا فبيت المقدس ، وأما طور سينا فالطور ، وأما طور تينا فدمشق ، وأما طور تيما فمكة .

وأخرج ابن المنذر عن زيد بن ميسرة مثله . وفيه وطور سينا حيث كلم الله موسى .

وأخرج ابن عساكر عن الحكم ﴿ والتين ﴾ دمشق ﴿ والزيتون ﴾ فلسطين ﴿ وهذا

البلد الأمين ﴾ مكة.

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن ابن عباس ﴿ والتين والزيتون ﴾ قال: الفاكهة التي يأكلها الناس ﴿ وطور سينين ﴾ قال: الطور الجبل وسينين المبارك.

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ والتين والزيتون ﴾ قال: الفاكهة التي يأكل الناس ﴿ وطور سينين ﴾ قال: الطور الجبل وسينين المبارك ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ قال: مكة ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في أحسن تقويم ﴾ قال: في أحسن صورة ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ قال: في النار ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال: إلا من آمن ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ قال: غير محسوب.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله: ﴿ وطور سينين ﴾ قال: هو الحسن.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ سينين ﴾ هو الحسن بلسان الحبشة.

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع في قوله : ﴿ والتين والزيتون وطور سينين ﴾ قال : الجبل الذي عليه التين والزيتون .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله " أن خزيمة بن ثابت ، وليس بالأنصاري سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن البلد الأمين فقال : مكة " .

وأخرج عبد بن حميد وابن الأنباري في المصاحف عن عمرو بن ميمون قال : صليت خلف عمر بن الخطاب المغرب فقرأ في الركعة الأولى : " والتين والزيتون وطور سينا " قال : وهكذا هي قراءة عبد الله وقرأ في الركعة الثانية ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ [الفيل : 1] ﴿ ولئلاف قريش ﴾ [قريش : 1] جمع بينهما ، ورفع صورته ، فقدرت أنه رفع صورته تعظيماً للبيت .

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ قال : في أعدل خلق ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ يقول : إلى أرذل العمر ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ غير منقوص يقول : فإذا بلغ المؤمن أرذل العمر ، وكان يعمل في شبابه عملاً صالحاً كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه ، ولم يضره ما عمل في كبره ، ولم يكتب عليه الخطايا التي يعمل بعد ما يبلغ أرذل العمر .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ قال : خلق كل

شيء منكباً على وجهه إلا الإِنسان ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ إلى أرذل العمر ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ الآية قال : فأيما رجل كان يعمل عملاً صالحاً وهو قويّ شاب فعجز عنه جرى له أجر ذلك العمل حتى يموت .

(129/821)

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ والتين ﴾ قال : هو هذا التين ﴿ والزيتون ﴾ قال : هو هذا الزيتون ﴿ وطور سينين ﴾ قال : الطور الجبل وسينين هو الحسن بالحبشة ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ قال : مكة ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في أحسن تقويم ﴾ قال : شباب وشدة ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ قال : رد إلى أرذل العمر ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ قال : يوفيه الله أجره وعمله فلا يؤاخذه إذا رد إلى أرذل العمر ، وفي لفظ ، قال : من رد منهم إلى أرذل العمر جرى له من الأجر مثل ما كان يعمل في صحته وشبابه ، فذلك الأجر غير ممنون ، قال : ولا يمن به عليهم .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن ﴿ والتين والزيتون ﴾ قال : تينكم هذا الذي تأكلون وزيتونكم هذا الذي تعصرون ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في أحسن تقويم ﴾ قال : في أحسن

صورة ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ قال : في نار جهنم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي العالية في قوله : ﴿ لقد خلقنا الإِنسان في أحسن تقويم ﴾ يقول : في أحسن صورة ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ قال : في النار في شر صورة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن إبراهيم ﴿ قد خلقنا الإِنسان في أحسن تقويم ﴾ قال : في أحسن صورة ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ قال : إلى أرذل العمر ، فإذا بلغوا ذلك كتب لهم من العمل مثل ما كانوا يعملون في الصحة .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : عز وجل ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ قال : هذا الكافر من الشباب إلى الكبر ومن الكبر إلى النار . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت علي بن أبي طالب وهو يقول :

فأضحوا لدى دار الجحيم بمعزل . . . عن الشعث والعدوان في أسفل السفل

وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ قال : إلى أرذل العمر .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس قال : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر وذلك قوله : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : إلا الذين قرؤوا القرآن .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة قال : كان يقال من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر ، ثم قرأ ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : لا يكون حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ قال : الهرم لم يجعل فيه قوّة ما كان ﴿ لكي لا يعلم بعد علم شيئاً ﴾ [النحل : 70] قال : ولا ينزل تلك المنزلة أحد قرأ القرآن ، وذلك قوله : ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ الآية . قال : هم أصحاب القرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ يقول : إلى الكبر وضعفه فإذا ضعف وكبر عن العمل كتب له مثل أجر ما كان يعمل في شبيبته .

وأخرج ابن مردويه عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان العبد على طريقة من الخير فمرض أو سافر كتب الله له مثل ما كان يعمل ، ثم قرأ ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ " .

وأخرج البخاري عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مرض

العبد أو سافر كتب الله له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقيماً " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ قال : " غير ممنون ما يكتب لهم صاحب اليمين فإن عمل خيراً كتب له صاحب اليمين ، وإن ضعف عن ذلك كتب له صاحب اليمين ، وأمسك صاحب الشمال ، فلم يكتب سيئة ، ومن قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً " .

(131/821)

وأخرج ابن عساكر عن مكحول قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مرض العبد يقال لصاحب الشمال : ارفع عنه القلم ، ويقال لصاحب اليمين : اكتب له أحسن ما كان يعمل ، فإني أعلم به وأنا قيدته " .

وأخرج الطبراني عن شداد بن أوس : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا ابتليت عبداً من عبادي مؤمناً فحمدني على ما ابتليته ، فإنه يقوم من مضجعه كيوم ولدته أمه من الخطايا ، ويقول الرب عز وجل : إني أنا قيدته وابتليته فأجروا له ما كنتم تجرون له قبل ذلك وهو صحيح " .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن منصور قال: قلت لمجاهد ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ و ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾ [الماعون: 1] عنى به النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: معاذ الله إنما عني به الإنسان.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ قال: ذكر لنا أن نبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: "بلى وأنا على ذلك من الشاهدين".

وأخرج عبد بن حميد عن صالح أبي الخليل قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتى على هذه الآية ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ يقول: "سبحانك فبلى"".

وأخرج الترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة يرويه: "من قرأ ﴿ والتين والزيتون ﴾ فقرأ ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل بلى وأنا على ذلك من الشاهدين".

وأخرج ابن مردويه عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا قرأت ﴿ والتين والزيتون ﴾ فقرأت ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فقل بلى".

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس أنه كان إذا قرأ "﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ قال: سبحانك اللهم فبلى. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 552.

559 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون ﴾

وهما مسجدان بالشام ، ويقال : هما جبلان بالشام ﴿ التين ﴾ جبل بيت المقدس ﴿ والتين والزيتون ﴾ جبل بدمشق وقال قتادة : ﴿ التين ﴾ الجبل الذي عليه دمشق ﴿ والتين والزيتون ﴾ الجبل الذي عليه بيت المقدس .

ويقال : ﴿ التين ﴾ الذي يؤكل .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه قال : تينكم وزيتونكم هذا .

وقال مجاهد : هو الذي يؤكل ، وهو قول سعيد بن جبير ، والشعبي .

ثم قال : ﴿ والزيتون وَطُورِ سِينِينَ ﴾ يعني : الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى ، صلوات الله على نبينا وعليه ويقال ﴿ الطور ﴾ اسم الجبل ﴿ سِينِينَ ﴾ يعني : ذا شجر .

ويقال : التين معناه علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ﴿ والزيتون ﴾ فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضي الله تعالى عنها ، ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ هما الحسن والحسين سيدا الشهداء في دار الدنيا ، وهذا لا يصح في اللغة ﴿ وهذا البلد الامين

﴾ يعني: مكة أمين من أن يهاج فيها، من دخل فيها.

ويقال: ﴿ الامين ﴾ لجميع الحيوان الذي لا يجري عليه القلم.

ثم قال عز وجل: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ يعني: في أحسن صورة، لأنه يمشي مستوياً، وليس منكوساً، وله لسان ذلق، ويد وأصابع يقبض بها.

قال بعضهم: نزلت في شأن الوليد بن المغيرة، وقال بعضهم نزلت في كلدة بن أسيد، وقال بعضهم هذا عام.

﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ يعني: رددناه بعد القوة والشباب، والحسن إلى الضعف والهرم، يعني: يصير كالصبي في الحال الأولى، يعني: رددناه إلى أرذل العمر.

ويقال: رددناه.

يعني: الفاجر والكافر بعد موته، إلى أسفل السافلين في النار.

(133/821)

ثم قال عز وجل: ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني: صدقوا بوحدانية الله تعالى، وعملوا الصالحات ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ يعني: غير منقوص، وذلك أن المؤمن إذا عمل في حالة شبابه، وقوته وحياته، فإذا مرض أو هرم، أو مات، فإنه يكتب

له حسناته، كما كان يعمل في حال شبابه وقوته، إلى يوم القيامة ويقال: ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ يعني: غير مقطوع ويقال: ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ يعني: لا يُمَنُّ عليه.

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إِنَّ الْمُؤْمِنُ إِذَا مَاتَ، صَعِدَ مَلَكَاهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَقُولاَنِ: إِنَّ عَبْدَكَ فُلاَنًا قَدْ مَاتَ، فَأْذَنْ لَنَا حَتَّى نَعْبُدَكَ عَلَى السَّمَاءِ، فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: إِنَّ سَمَاوَاتِي مَمْلُوْءَةٌ بِمَلاَئِكَتِي، وَلَكِنْ اذْهَبَا إِلَى قَبْرِهِ، فَاكْتُبَا لَهُ حَسَنَاتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ يعني: أيها الإنسان ما الذي حملك، بعدما خلقك الله تعالى في أحسن تقويم، حتى كذبت بيوم الدين والقضاء ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ يعني: بأعدل العادلين، يعمل بالعدل مع الكفار، ومع المؤمنين بالفضل.

وقال مقاتل: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ يعني: فما يكذبك أيها الإنسان، بعد بيان الصورة الحسنة، والشباب والهرم بالحساب، لا تغتر في صورتك وشبابك، فهو قادر على أن يبعثك.

ويقال: معنى قوله ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: 3] يعني: لا يحزن ولا يذهب عقله، من كان عالماً عاملاً به.

وروي عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "طُوبَى لِمَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ". والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 571.572 ﴾

وقال الثعلبى :

سورة التين

﴿ والتين والزيتون ﴾

قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وإبراهيم وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي : هو تينكم هذا الذي تأكلون ، وزيتونكم هذا الذي تعصرون منه الزيت .

أخبرني الحسين قال : حدّثنا السُني قال : وجدت في كتاب أبي : حدّثنا القاسم بن أبي الحسين الزبيدي قال : حدّثنا سهل بن إبراهيم الواسطي ، عن عيسى بن يونس ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير قال : حدّثني الثقة عن أبي ذر قال : " أُهدي للنبيّ صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه : "كلوا ، ثم قال : لو قلت : إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت : هذه ، لأنّ فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير ، وتنفع من النقرس " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا يوسف بن أحمد أبو يعقوب قال : حدّثنا العباس بن أحمد بن علي قال : حدّثنا معلل بن نقيل الحداني قال : حدّثنا محمد بن محصن ، عن إبراهيم بن أبي عبلة ، عن عبد الله بن الديلمي ، "عن عبد الرحمن بن غنم قال : سافرت مع معاذ بن جبل ، [فكان يمرّ] بشجرة الزيتون فيأخذ منها القضيب

فيستاك به ويقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [يقول] نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة ، يطيّب الفم ، ويذهب بالحفر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " هي مسواكي ومسواك الأنبياء قبلي " .

وقال كعب الأحبار وقتادة وابن زيد وعبد الرحمن بن غنيم : التين : مسجد دمشق ، والزيتون : بيت المقدس . عن الضحّاك : هما مسجدان بالشام . عن محمد بن كعب : التين : مسجد أصحاب الكهف ، والزيتون : مسجد إيليا ، ومجازه على هذا التأويل : منابت التين والزيتون . أبو مكين ، عن عكرمة : جبلان . عن عطية ، عن ابن عباس : التين : مسجد نوح الذي [بناه] على الجودي ، والزيتون : بيت المقدس . عن نهشل ، عن الضحّاك : التين : المسجد الحرام .

والزيتون : المسجد الأقصى .

(135/821)

وسمعت محمد بن عبدوس يقول : سمعت محمد بن الحميم يقول : سمعت الفرّاء يقول : سمعت رجلا من أهل الشام وكان صاحب تفسير قال : التين : جبال ما بين حلوان إلى همدان ، والزيتون : جبال الشام .

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ يعني جبل موسى ، قال عكرمة : السينين : الجسر بلغة الحبشة .

الحكم والنضر عنه : كلّ جبل ينبت فهو طور سينين ، كما ينبت في السهل كذلك ينبت في الجبل ، وعن مجاهد : الطور الجبل ، وسينين : المبارك . وعن قتادة : المبارك الحسن . عن مقاتل : كل جبل فيه شجرة مثمرة فهو سينين وسينا وهو بلغة النبط . عن الكلبي : يعني الجبل المشجر . عن شهر بن حوشب : التين : الكوفة ، والزيتون : الشام ، وطور سينين : جبل فيه ألوان الأشجار .

قال عبد الله بن عمر : أربعة أجبال مقدّسة بين يدي الله سبحانه ، طور تينا وطور زيتا وطور سينا وطور يتمانا ، فأما طور تينا فدمشق ، وأما طور زيتا فبيت المقدس ، وأما طور سينا فهو الذي كان عليه موسى ، وأما طور يتمانا فمكة .

أخبرنا أبو سفيان الحسين بن محمد بن عبد الله المقري قال : حدّثنا البغوي ببغداد قال : حدّثنا ابن أبي شيبة قال : حدّثنا يعقوب بن إبراهيم قال : حدّثنا وكيع عن أبيه وسفيان ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو قال : سمعت عمر بن الخطاب يقرأ بمكة في المغرب : والتين والزيتون وطور سيناء ، قال : فظننت أنه إنما يقرؤها ليعلم حرمة البلد .

﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ الآمن ، يعني مكة ، وأنشد الفرّاء :

ألم تعلمي يا أسم ويحك أنني . . . حلفت يميناً لا أخون أميني

يريد آمني .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ أعدل قامة وأحسن صورة ، وذلك أنه خلق كل شي منكبّاً على وجهه إلاّ الإنسان . وقال أبو بكر بن ظاهر : مزيناً بالعقل ، مؤدّباً بالأمر ، مهذّباً بالتمييز ، مديد القامة ، يتناول مأكوله بيده .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ يعني إلى أرذل العمر ، ينقص عمره ويضعف بدنه ويذهب عقله .

(136/821)

قال ابن عباس : [إنّ] نفراً ردوا إلى أرذل العمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عذرهم وأخبر أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم .

قال عكرمة : لم يضرّ هذا الشيخ الهرم كبره إذا ختم الله تعالى له بأحسن ما كان يعمل . قال أهل المعاني : السافلون : الضعفى والهرمى والزمنى ، فقوله (أسفل سافلين) نكرة تعمّ الجنس ، كما تقول : فلان أكرم قائم ، فإذا عرّفت قلت : القائمين .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا محمد بن عبد الله بن مهران قال : حدّثنا جعفر بن محمد الفراي قال : حدّثنا قتيبة بن سعيد قال : حدّثنا خالد الزيات قال : حدّثنا داوّد ابو سليمان ، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمّر بن حزم الأنصاري ، عن أنس قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم " المولود حتى يبلغ الحنث ما عمل من حسنة كتبت لوالديه ، فإن عمل سيئة لم تكتب عليه ، ولا على والديه ، فإذا بلغ الحنث وجرى عليه القلم ، أمر الله الملكين اللذين معه يحفظانه ويسدّدانه ، فإذا بلغ أربعين سنة في الإسلام آمنه الله سبحانه من البلايا الثلاث : من الجنون والجذام والبرص ، فإذا بلغ خمسين خفف الله حسابه ، فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه فيما يحب ، فإذا بلغ سبعين أحبه أهل السماء ، فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته ، فإذا بلغ تسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفّعه في أهل بيته ، وكان اسمه أسير الله في الأرض ، فإذا بلغ أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، كتب الله سبحانه له مثل ما كان يعمل في صحته من الخير ، وإن عمل سيئة لم تكتب عليه " .

وقال الحسن ومجاهد وقتادة : يعني ثم رددناه الى النار . وقال أبو العالية : يعني إلى النار في شر صورة ، في صورة خنزير .

(137/821)

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن عبد الله قال : حدّثنا محمد بن عبد الله قال : حدّثنا أحمد بن حواس قال : حدّثنا أبو الأحوص ، عن أبي إسحاق ، عن هبيرة ،

عن علي قال : أبواب جهنم بعضها أسفل من بعض ، فيبدأ بالأسفل فيُملأ ، فهي أسفل السافلين ، وفي مصحف عبد الله ، (أسفل السافلين) بالألف . ثم استثنى فقال ﴿ إِلَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني ثم رددناه أسفل سافلين ، فزالت عقولهم وانقطعت أعمالهم ، فلا تثبت لهم حسنة ﴿ إِلَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ منهم ، فأنه يكتب لهم في حال هرمهم وخرفهم مثل الذي كانوا يعملونه في حال شبابهم وصحتهم وقوّتهم ، فذلك قوله سبحانه ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قال الضحّاك : أجر بغير عمل ، ثم قال : إلزاماً للحجة وتوبيخاً للكافر .

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ أيها الإنسان بعد هذه الحجة والبرهان ﴿ بالدين ﴾ بالحساب والجزاء .

﴿ أَلَيْسَ الله بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ قال قتادة : " بلغنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال : " بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 238 . 241 ﴾

(138/821)

وقال الزمخشري :

سورة التين

مكية ، وآياتها 8 [نزلت بعد البروج] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التين (95) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)

ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6) فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ (8)

أقسم بهما لأنهما عجيبان من بين أصناف الأشجار المثمرة ، وروى أنه أهدى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه : «كلوا ، فلو قلت إنّ فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه ، لأنّ فاكهة الجنة بلا عجم ، فكلوها . فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس» «1» ومرّ معاذ بن جبل بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيبا واستاك به وقال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة «2»» وسمعته يقول «هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي» وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : هو تينكم هذا وزيتونكم . وقيل : جبلان من الأرض

المقدّسة يقال لهما بالسريانية : طور تينا وطور زيتا ، لأنهما منبتا التين والزيتون . وقيل «التين» جبال ما بين حلوان وهمدان . و«الزيتون» جبال الشام ، لأنها منابتهما ، كأنه قيل : ومنابت التين والزيتون . وأضيف الطور : وهو الجبل ، إلى سينين : وهي البقعة . ونحو سينون : يبرون ، في جواز الإعراب بالواو والياء ، والإقرار على الياء ، وتحريك النون بحركات الإعراب . وللبلد : مكة حماها الله . والأمين : من أمن الرجل أمانة فهو أمين . وقيل : أمان ، كما قيل : كرام في كريم . وأمانته : أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه . ويجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعول ، من أمنه لأنه مأمون الغوائل ،

---

(1) . أخرجه أبو نعيم في الطب . والثعلبي من حديث أبى ذر . وفي إسناده من لا يعرف .

(2) . أخرجه الطبراني في الأوسط والثعلبي من حديث معاذ بن جبل ، وإسناده واه .

(139/821)

كما وصف بالأمن في قوله تعالى حَرَمًا آمِنًا بمعنى : ذى أمن . ومعى القسم بهذه الأشياء . الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والصالحين ، فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ومنشؤه . والطور : المكان الذي نودي منه موسى . ومكة : مكان البيت الذي هو هدى للعالمين ، ومولد رسول اللّه صلى

اللّه عليه وسلم ومبعثه فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية لأعضائه. ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية: أن رددناه أسفل من سفل خلقا وتركيبا، يعنى: أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقة، وهم أصحاب النار أو أسفل من سفل من أهل الدركات. أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل في حسن الصورة والشكل: حيث نكسناه في خلقه، فقوّس ظهره بعد اعتداله، وابيض شعره بعد سواده، وتشنن «1» جلده وكان بضا، وكلّ سمعه وبصره وكانا حديدين، وتغير كل شيء منه: فمشيه دليف «2»، وصوته خفات، وقوته ضعف، وشهامته خرف «3» وقرأ عبد اللّه:

أسفل السافلين. فإن قلت: فكيف الاستثناء على المذهبين؟ قلت: هو على الأول متصل ظاهر الاتصال، وعلى الثاني منقطع. يعنى: ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى فلهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء اللّه بالشيخوخة والهرم، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم. فإن قلت: فَما يُكَذِّبُكَ من المخاطب به؟ قلت: هو خطاب للإنسان على طريقة الالتفات، أى: فما يجعلك كاذبا بسبب الدين وإنكاره بعد هذا الدليل، يعنى أنك تكذب إذا كذبت بالجزاء، لأنّ كل مكذب بالحق فهو كاذب، فأىّ شيء يضطرك إلى أن تكون كاذبا بسبب تكذيب الجزاء. والباء مثلها في قوله تعالى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ والمعنى: أنّ خلق الإنسان من

نطفة ، وتقويمه بشرا سويا وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي ، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر : لا ترى دليلا أوضح منه على قدرة الخالق ، وأن من قدر من الإنسان على هذا كله : لم يعجز عن إعادته ، فما سبب تكذيبك أيها الإنسان بالجزاء بعد هذا الدليل القاطع . وقيل : الخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ وعيد للكفار ، وأنه يحكم عليهم بما هم

---

(1) . قوله «و تشنن جلده» في الصحاح التشنن : التشيخ واليبس في جلد الإنسان ، والضاضة : رقة الجلد ورخوصته . (ع)

(2) . قوله «فمشبه دليف» أى مشى رويد متقارب الخطو . (ع)

(3) . قوله «و شهامته خوف» لعله : خوف . (ع)

(140/821)

أهله . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه كان إذا قرأها قال : «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين» «1» .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة والتين أعطاه اللّه خصلتين : العافية واليقين ما دام في دار الدنيا ، وإذا مات أعطاه اللّه من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة»

«2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 773.775 ﴾

---

(1) . أخرجه الحاكم عن أبى هريرة بالإسناد المتقدم في القيامة ورواه الطبري من رواية

سعيد عن قتادة قال :

ذكر لنا – فذكره .

(2) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

(141/821)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ والتّينِ والزَّيْتُونِ ﴾

هما قَسَمان ، وفيهما ثمانية تأويلات :

أحدها : أنهما التين والزيتون المأكولان ، قاله الحسن وعكرمة ومجاهد .

الثاني : أن التين دمشق ، والزيتون بيت المقدس ، قاله كعب الأحبار وابن زيد .

الرابع : أن التين مسجد دمشق ، والزيتون مسجد بيت المقدس ، قاله الحارث وابن زيد .

الخامس : الجبل الذي عليه التين ، والجبل الذي عليه الزيتون ، قاله ابن قتيبة ، وهما جبلان بالشام يقال لأحدهما طور زيتا ، وللآخر طور تيناً ، وهو تأويل الربيع .

وحكى ابن الأنباري أنهما جبلان بين حلوان وهمدان ، وهو بعيد .

السادس : أن التين مسجد أصحاب الكهف ، والزيتون مسجد ايليا ، قاله محمد بن كعب .

السابع : أن التين مسجد نوح عليه السلام الذي بني على الجودي ، والزيتون مسجد بيت المقدس ، قاله ابن عباس .

الثامن : أنه أراد بهما نعم الله تعالى على عباده التي منها التين والزيتون ، لأن التين طعام ، والزيتون إدام .

﴿ وطورِ سِينينَ ﴾ وهو قَسَم ثالث وفيه قولان :

أحدهما : أنه جبل بالشام ، قاله قتادة .

الثاني : أنه الجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام ، قاله كعب الأحبار .

وفي قوله " سينين " أربعة أوجه :

أحدها : أنه الحسن بلغة الحبشة ، ونطقت به العرب ، قاله الحسن وعكرمة .

الثاني : أنه المبارك ، قاله قتادة .

الثالث : أنه اسم البحر ، حكاه ابن شجرة .

الرابع : أنه اسم للشجر الذي حوله ، قاله عطية .

﴿ وهذا البلدِ الأَمينِ ﴾ يعني بالبلد مكة وحرمها ، وفي الأمين وجهان :

أحدهما : الآمن أهله من سبي أو قتل ، لأن العرب كانت تكف عنه في الجاهلية أن تسبي فيه أحداً أو تسفك فيه دماً .

الثاني : يعني المأمون على ما أودعه الله تعالى فيه من معالم الدين ، وهذا قَسَم رابع .

﴿ لقد خَلَقْنا الإنسانَ ﴾ وفي المراد بالإنسان ها هنا قولان :

أحدهما : أنه أراد عموم الناس ، وذكر الإنسان على وجه التكثير لأنه وصفه بما يعم لجميع الناس .

الثاني : أنه أراد إنساناً بعينه عناه بهذه الصفة ، وإن كان صفة الناس .

واختلف فيمن أراده الله تعالى ، على خمسة أوجه :

أحدها : أنه عنى كلدة بن أسيد ، قاله ابن عباس .

الثاني : أبا جهل ، قاله مقاتل .

الخامس : أنه عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي قوله ﴿ في أَحْسَنِ تقْويمٍ ﴾ أربعة أقاويل :

أحدها : في أعدل خلق ، قاله ابن عباس .

الثاني : في أحسن صورة ، قاله أبو العالية .

الثالث : في شباب وقوة ، قاله عكرمة .

الرابع : منتصب القامة ، لأن سائر الحيوان مُنْكَبٌّ غير الإنسان ، فإنه منتصب ، وهو مروي عن ابن عباس .

ويحتمل خامساً : أي في أكمل عقل ، لأن تقويم الإنسان بعقله ، وعلى هذا وقع القَسَم .

﴿ ثم رددْناه أسْفَلَ سافِلينَ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : إلى الهرم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، قاله الضحاك والكلبي ، ويكون أسفل بمعنى بعد التمام .

الثاني : بعد الكفر ، قاله مجاهد وأبو العالية ، ويكون أسفل السافلين محمولاً على الدرك الأسفل من النار .

ويحتمل ثالثاً : إلى ضعف التمييز بعد قوّته .

﴿ فلهم أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنونٍ ﴾ فيه ستة أوجه :

أحدها : غير منقوص ، قاله ابن عباس ، وقال الشاعر :

يا عين جودي بدمع غير ممنون . . . .

الثاني : غير محسوب ، قاله مجاهد .

الثالث : غير مكدر بالمنّ والأذى ، قاله الحسن .

الرابع : غير مقطوع ، قاله ابن عيسى .

الخامس : أجر بغير عمل ، قاله الضحاك .

وحكي أن من بلغ الهرم كتب له أجر ما عجز عنه من العمل الصالح .

السادس : أن لا يضر كل أحد منهم ما عمله في كبره ، قاله ابن مسعود .

﴿ فما يُكذِّبُكَ بَعْدُ بالدِّينِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : حكم الله تعالى ، قاله ابن عباس .

الثاني : الجزاء ، ومنه قول الشاعر :

دِنّا تميماً كما كانت أوائلنا . . . دانَتْ أوائلهم في سالفِ الزّمَنِ

(143/821)

﴿ أليْسَ اللهُ بأحْكَمِ الحاكِمينَ ﴾ وهذا تقرير لمن اعترف من الكفار بصانع قديم ، وفيه وجهان :

أحدهما : بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيراً ، قاله ابن عيسى .

الثاني : أحكم الحاكمين قضاء بالحق وعدلاً بين الخلق وفيه مضمر محذوف ، وتقديره : فِلمَ ينكرون مع هذه الحال البعث والجزاء .

وكان عليّ رضي الله عنه إذا قرأ ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ قال : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ، ونختار ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 300 . 303 ﴾

(144/821)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون ﴾

فيهما سبعة أقوال .

أحدها : أنه التين المعروف ، والزيتون المعروف ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وعطاء ، ومجاهد ، وعكرمة ، وجابر بن زيد ، وإبراهيم .

وذكر بعض المفسرين أنه إنما أقسم بالتين لأنها فاكهة مُخَلَّصة من شائب التنغيص ، وهو يدل على قدرة من هيَّأه على تلك الصفة .

وجعل الواحدة منه على مقدار اللقمة ، وإنما أقسم بالزيتون لكثرة الانتفاع به .

والثاني : أن التين : مسجد نوح عليه السلام الذي بنى على الجودي .

والزيتون : بيت المقدس ، رواه عطية عن ابن عباس .

والثالث : التين المسجد الحرام ، والزيتون : المسجد الأقصى ، قاله الضحاك .

والرابع : التين : مسجد دمشق ، والزيتون : بيت المقدس ، قاله كعب ، وقتادة ، وابن زيد .

والخامس : أنهما جبلان ، قاله عكرمة في رواية .

وروي عن قتادة قال : التين : الجبل الذي عليه دمشق ، والزيتون : الجبل الذي عليه بيت المقدس .

والسادس : أن التين : مسجد أصحاب الكهف ، والزيتون : مسجد إيلياء ، قاله القرظي .

والسابع : أن التين : جبال ما بين حلوان إلى همذان ، والزيتون : جبال بالشام ، حكاه الفراء .

فأما ﴿ طور سينين ﴾ فالطور : جبل وفيه قولان .

أحدهما : أنه الجبل الذي كلم الله موسى عليه ، قاله كعب الأحبار في الأكثرين .

والثاني : أنه جبل بالشام ، قاله قتادة .

فأما "سينين" فهو لغة في سيناء .

وقد قرأ علي ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو العالية ، وأبو مجلز و"طور سَيناء" ممدودة مهموزة ، مفتوحة السين .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو حيوة "وطورِ سيناء" مثلهم إلا أنهم كسروا السين .

وقرأ أبو رجاء، والجحدري "سينين" كما في المصحف، لكنهما فتحا السين.

وقال ابن الأنباري: "سينين" هو سيناء.

واختلفوا في معناه، فقيل: معناه: الحسن.

وقيل: المبارك.

وقيل: إنه اسم للشجر الذي حوله.

(145/821)

وقد شرحنا هذا في سورة [المؤمنين: 20] قال الزجاج: وقد قرىء هاهنا "وطور سَيْناء" وهو أشبه لقوله تعالى ﴿ وشجرةً تخرج من طُورِ سيناء ﴾ [المؤمنون: 20].

وقال مقاتل: كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين، وسيناء بلغة النبط.

قوله تعالى: ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ يعني: مكة يأمن فيه الخائف في الجاهلية، والإسلام

قال الفراء: ومعنى "الأمين" الآمن.

والعرب تقول للأمين: آمن.

قال الشاعر:

أَلَمْ تَعْلَمي يا أَسْمَ وَيْحَكِ أَنَّني . . .

حَلَفْتُ يَمِيناً لا أَخُونُ أَمِينِي

يريد آمني.

قوله تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان ﴾ هذا جواب القسم.

وفي المراد بالإنسان هاهنا خمسة أقوال.

أحدها: أنه كَلَدَة بن أسيد، قاله ابن عباس.

والثاني: الوليد بن المغيرة، قاله عطاء.

والثالث: أبو جهل بن هشام.

والرابع: عتبة، وشيبة، حكاهما الماوردي.

والخامس: أنه اسم جنس، وهذا مذهب كثير من المفسرين، وهو معنى قول مقاتل.

قوله تعالى: ﴿ في أحسن تقويم ﴾ فيه أربعة أقوال.

أحدها: في أعدل خلق.

والثاني: منتصب القامة، رويا عن ابن عباس.

والثالث: في أحسن صورة، قاله أبو العالية.

والرابع: في شباب وقوة، قاله عكرمة ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ فيه قولان.

أحدهما: إلى أرذل العُمُر، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال عكرمة، وإبراهيم، وقتادة.

وقال الضحاك : إلى الهرم بعد الشباب ، والضعف بعد القوَّة ، والسافلون : هم الضعفاء ، والزَّمنى ، والأطفال ، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعاً .

قال الفراء : وإنما قال : "سافلين" على الجمع ، لأن الإنسان في معنى جمع .

تقول : هذا أفضل قائم ، ولا تقول : قائمين ، لأنك تريد واحداً ، فإذا لم ترد واحداً ذكرته بالتوحيد وبالجمع .

والثاني : إلى النار ، قاله الحسن ، وأبو العالية ، ومجاهد .

والمعنى : إنا نفعل هذا بكثير من الناس .

(146/821)

تقول العرب : أنفق فلان ماله على فلان ، وإنما أنفق بعضه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ الذي يؤتي ماله يتزكى ﴾ [الليل : 18] لم يُرِدْ كُلَّ ماله .

ثم استثنى من الإنسان فقال تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ لأن معنى الإنسان الكثير .

وللمفسرين في معنى الاستثناء قولان :

أحدهما : إلا الذين آمنوا ، فإنهم لا يُرَدُّون إلى الخَرَف وأَرْذَل العُمُر وإن عُمِّروا طويلاً ، وهذا على القول الأول .

قال ابن عباس : من قرأ القرآن لم يُرَدَّ إلى أرذل العمر .

وقال النخعي : إذا بلغ المؤمن من الكِبَر ما يعجز عن العمل كُتِبَ له ما كان يعمل ، وهو قوله تعالى : ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ وقال ابن قتيبة : المعنى : إلا الذين آمنوا في وقت القوَّة والقدرة ، فإنهم حال الكِبَر غير منقوصين وإن عجزوا عن الطاعات ، لأن الله تعالى علم أنهم لو لم يسلبهم القوَّة لم ينقطعوا عن أفعال الخير ، فهو يجري لهم أجر ذلك .

والثاني : إلا الذين آمنوا ، فإنهم لا يُرَدُّون إلى النار .

وهذا على القول الثاني .

وقد شرحنا معنى "الممنون" في "ن" [آية : 3] .

قوله تعالى : ﴿ فما يكذِّبك بعد بالدين ﴾ فيه قولان .

أحدهما : فما يكذِّبك أيها الإنسان بعد هذه الحجة "بالدِّين" أي : ما الذي يجعلك مكذِّباً بالجزاء ؟ ! وهذا توبيخ للكافر ، وهو معنى قول مقاتل .

وزعم أنها نزلت في عدي بن ربيعة .

والثاني : فمن يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب بعد ما تبين له خلقُنا الإنسان على ما وصفنا ، قاله الفراء .

فأما "الدِّين" فهو الجزاء .

والمشار بذكره إلى البعث ، كأنه استدل بتقليب الأحوال على البعث .

قوله تعالى ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ أي : بأقضى القاضين .

قال مقاتل : يحكم بينك وبين مكذِّبيك .

وذكر بعض المفسرين : أن معنى هذه الآية تسليته في تركهم والإعراض عنهم .

ثم نسخ هذا المعنى بآية السيف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 168 . 174 ﴾

(147/821)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ والتين والزيتون ﴾

قال ابن عباس : هو تينكم الذي تأكلون وزيتونكم الذي تعصرون منه الزيت ، قيل إنما خص التين بالقسم لأنه فاكهة مخلصة من شوائب التّنغيص ، وفيه غذاء ويشبه فواكه الجنة لكونه بلا عجم .

(148/821)

ومن خواصه أنه طعام لطيف سريع الهضم لا يمكث في المعدة يخرج بطريق الرشح ويلين الطبيعة ، ويقلل البلغم وأما الزيتون فإنه من شجرة مباركة فيه إدام ودهن يؤكل ويستصبح به وشجرته في أغلب البلاد ولا يحتاج إلى خدمة وتربية وينبت في الجبال التي ليست فيها دهنية ويمكث في الأرض ألوفاً من السنين ، فلما كان فيهما من المنافع ، والمصالح الدّالة على قدرة خالقهما لا جرم أقسم الله بهما ، وقيل هما جبلان فالتين الجبل الذي عليه دمشق والزيتون الجبل الذي عليه بيت المقدس ، واسمهما بالسريانية طور تيناً وطور زيتاً لأنهما ينبتان التين والزيتون ، وقيل هما مسجدان فالتين مسجد دمشق والزيتون مسجد بيت المقدس ، وإنما حسن القسم بهما لأنهما موضع الطاعة ، وقيل التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد إيلياء ، وقيل التين مسجد نوح الذي بناه على الجودى والزيتون مسجد بيت المقدس ﴿ وطور سينين ﴾ يعني الجبل الذي كلم الله موسى عليه الصّلاة والسّلام وسينين اسم للمكان الذي فيه الجبل سمي سينين وسيناء لحسنه ولكونه مباركاً وكل جبل فيه أشجار مثمرة يسمى سينين وسيناء ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ يعني الآمن ، وهو مكة حرسها الله تعالى لأنه الحرم الذي يأمن فيه الناس في الجاهلية والإسلام لا ينفر صيده ولا يعضد شجره ، ولا تلتقط لقطته إلا لمنشد وهذه أقسام أقسم الله بها لما فيها من المنافع والبركة وجواب القسم قوله تعالى ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ يعني في أعدل قامة ، وأحسن صورة ، وذلك أنه تعالى خلق كل حيوان منكباً على وجهه يأكل بفيه

إلا الإنسان فإنه خلقه مديد القامة حسن الصورة يتناول مأكوله بيده مزيناً بالعلم ، والفهم ، والعقل ، والتّمييز ، والمنطق .

(149/821)

﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ يعني إلى الهرم وأرذل العمر فيضعف بدنه وينقص عقله والسّافلون هم الضّعفاء ، والزمنى والأطفال والشّيخ الكبير أسفل من هؤلاء جميعاً لأنه لا يستطيع حيلة ، ولا يهتدي سبيلاً لضعف بدنه وسمعه وبصره وعقله ، وقيل ثم رددناه إلى النّار لأنها دركات بعضها أسفل من بعض ثم استثنى .

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات ﴾ فإنهم لا يردون إلى النار أو إلى أسفل سافلين وعلى القول الأول يكون الاستثناء منقطعاً ، والمعنى ثم رددناه أسفل سافلين فزال عقله وانقطع عمله فلا تكتب له حسنة لكن الذين آمنوا وعملوا الصّالحات ولازموا عليها إلى أيام الشيخوخة والهرم والضّعف ، فإنه يكتب لهم بعد الهرم والخرف مثل الذي كانوا يعملون في حالة الشّباب والصّحة وقال ابن عباس : هم نفر ردوا إلى أرذل العمر على زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) فأنزل الله عذرهم وأخبرهم أن لهم أجرهم الذي عملوا قبل أن تذهب عقولهم فعلى هذا القول السبب خاص وحكمه عام قال عكرمة ما يضر هذا

الشيخ كبره إذا ختم الله له بأحسن ما كان يعمل وروي عن ابن عباس : قال إلا الذين قرؤوا القرآن وقال : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ يعني غير مقطوع لأنه يكتب له بصالح ما كان يعمل قال الضّحاك : أجر بغير عمل ثم قال الزاماً للحجة .

(150/821)

﴿ فما يكذبك ﴾ يعني يا أيها الإنسان وهو خطاب على طريق الالتفات ﴿ بعد ﴾ أي بعد هذه الحجة والبرهان ﴿ بالدين ﴾ أي بالحساب والجزاء ، والمعنى فما الذي يلجئك أيها الناس إلى هذا الكذب ألا تتفكر في صورتك وشبابك ، ومبدأ خلقك ، وهرمك ، فتعتبر وتقول أن الذي فعل ذلك قادر على أن يبعثني ويحاسبني ، فما الذي يكذبك بالمجازاة ، وقيل هو خطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) والمعنى فمن يكذبك أيها الرّسول بعد ظهور هذه الدّلائل ، والبراهين ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ أي بأقضى القاضين يحكم بينكم وبين أهل التكذيب يوم القيامة عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من قرأ والتين والزيتون ، فقرأ أليس الله بأحكم الحاكمين ، فليقل بلى وأنا على ذلك من الشّاهدين " أخرجه الترمذي وعن البراء " أن النبي

(صلى الله عليه وسلم) كان في سفر فصلى العشاء الأخيرة فقرأ في إحدى الركعتين بالتين والزيتون فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه (صلى الله عليه وسلم) " والله تعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير الخازن حـ 7 صـ 265. 267﴾

(151/821)

وقال النسفى :

سورة التِّين

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ والتين والزيتون ﴾

أقسم بهما لأنهما عجيبان من بين الأشجار المثمرة، روي أنه أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه : "كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس" وقال : " نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة" وقال : " هي سواكي وسواك الأنبياء قبلي " وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هو تينكم هذا

وزيتونكم هذا ، وقيل : هما جبلان بالشام منبتاهما ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ أضيف الطور

وهو الجبل إلى سينين وهي البقعة ونحو سينون يبرون في جواز الإعراب بالواو والياء

والإقرار على الياء وتحريك النون بحركات الإعراب ﴿ وهذا البلد ﴾ يعني مكة ﴿

الأمين ﴾ من أمن الرجل أمانة فهو أمين ، وأمانته أنه يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما

يؤتمن عليه .

ومعنى القسم بهذه الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر فيها من الخير والبركة

بسكنى الأنبياء والأولياء ، فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ومنشؤه ،

والطور : المكان الذي نودي منه موسى ، ومكة مكان البيت الذي هو هدى للعالمين ومولد

نبينا ومبعثه صلوات الله عليهم أجمعين .

أو الأولان قسم بمهبط الوحي على عيسى ، والثالث على موسى ، والرابع على محمد

عليهم السلام .

(152/821)

وجواب القسم ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ وهو جنس ﴿ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ في أحسن

تعديل لشكله وصورته وتسوية أعضائه ﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ أي ثم كان عاقبة

أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية أن رددناه أسفل من سفل خلقاً وتركيباً يعني أقبح من قبح صورة وهم أصحاب النار ، أو أسفل من أهل الدركات ، أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل في حسن الصورة والشكل حيث نكسناه في خلقه فقوس ظهره بعد اعتداله ، وابيض شعره بعد سواده ، وتشنّن جلده وكلّ سمعه وبصره ، وتغير كل شيء منه ، فمشيه دليف ، وصوته خفات ، وقوته ضعف ، وشهامته خرف ﴿ إِلَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ودخل الفاء هنا دون سورة الانشقاق للجمع بين اللغتين ، والاستثناء على الأول متصل ، وعلى الثاني منقطع أي ولكن الذين كانوا صالحين من الهرمى والزمنى فلهم ثواب غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على الابتلاء بالشيخوخة والهرم ، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة .

والخطاب في ﴿ فَمَا يُكَذّبُكَ بَعْدُ بالدين ﴾ للإنسان على طريقة الالتفات أي فما سبب تكذيبك بعد هذا البيان القاطع والبرهان الساطع بالجزاء ؟ والمعنى أن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشراً سوياً وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوى ، ثم تنكيسه إلى أن يبلغ أرذل العمر لا ترى دليلاً أوضح منه على قدرة الخالق ، وأن من قدر على خلق الإنسان وعلى هذا كله لم يعجز عن إعادته ، فما سبب تكذيبك بالجزاء ؟ أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي فمن ينسبك إلى الكذب بعد هذا الدليل ؟ ف "ما" بمعنى "من"

﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما هم أهله وهو من الحكم والقضاء والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 366. 367 ﴾

(153/821)

وقال ابن جزى :

سورة التِّين

﴿ والتّين والزيتون ﴾

فيها قولان : الأول أنه التين الذي يؤكل والزيتون الذي يعصر أقسم الله بهما لفضيلتهما على سائر الثمار . روي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل مع أصحابه تيناً فقال : لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عَجم فكلوه فإنه يقطع البواسير وينفع من النقرس " وقال صلى الله عليه وسلم : نعم السواك الزيتون فإنه من الشجرة المباركة هي سواكي وسواك الأنبياء من قبلي . القول الثاني : أنهما موضعان ثم اختلف فيهما فقيل هما جبلان بالشام أحدهما : بدمشق ينبت فيه التين والآخر بإيلياء ينبت فيه الزيتون فكأنه قال ومنابت التين والزيتون وقيل التين مسجد دمشق والزيتون

مسجد بيت المقدس ، وقيل التين مسجد نوح والزيتون مسجد إبراهيم ، والأظهر أنهما الموضعان من الشام وهما اللذان كان فيهما مولد عيسى ومسكنه ، وذلك أن الله ذكر بعد هذا الطور الذي كلم عليه موسى والبلد الذي بعث منه محمد صلى الله عليه وسلم فتكون الآية نظير ما في التوراة : " أن الله تعالى جاء من طور سيناء وطلع من ساعد وهو موضع عيسى وظهر من جبال باران " وهي مكة وأقسم الله بهذه المواضع التي ذكر في التوراة لشرفها بالأنبياء المذكورين ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ هو الجبل الذي كلم عليه موسى وهو بالشام ، وأضافه الله إلى سينين ومعنى سينين مبارك فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وقيل : معناه ذو الشجر واحدها سينة ، قاله الأخفش وقال الزمخشري : ويجوز أن يعرب إعراب الجمع المذكر بالواو والياء وأن يلزم الياء وتحريك النون بحركات الإعراب ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ هو مكة باتفاق والأمين من الأمانة أو من الأمن لقوله : ﴿ اجعل هذا بَلَداً آمِناً ﴾ [البقرة : 126] .

(154/821)

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ فيه قولان : أحدهما أن أحسن التقويم هو حسن الصورة وكمال العقل والشباب والقوة وأسفل سافلين الضعف والهرم والخوف فهو

كقوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخلق ﴾ [يس : 68] وقوله : ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ [الروم : 54] وقوله ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ بعد هذا غير متصل بما قبله ، والاستثناء على هذا القول منقطع بمعنى لكن لأنه خارج عن معنى الكلام الأول .

والآخر أن حسن التقويم : الفطرة على الإيمان وأسفل سافلين الكفر أو تشويه الصورة في النار ، والاستثناء على هذا متصل ، لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يردوا أسفل سافلين ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قد ذكر ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدين ﴾ فيه قولان : أحدهما : أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والدين شريعته ، والمعنى أي شيء يكذبك الدين بعد هذه الدلائل التي تشهد بصحة نبوّتك ؟ والآخر أنه خطاب للإنسان الكافر ، والدين على هذا الشريعة أو الجزاء الأخروي ومعنى يكذبك على هذا يجعلك كاذباً ، لأن من أنكر فهو كاذب والمعنى أي شيء يجعلك كاذباً بسبب كفرك بالدين بعد أن علمت أن الله خلقك في أحسن تقويم ، ثم ردّك أسفل سافلين ، ولا شك أنه يقدر على بعثك كما قدر على هذا ، فلأي شيء تكذب بالبعث و الجزاء ؟ ولا شك أنه يقدر على بعثك كما قدر على هذا ، فلأي شيء تكذب بالعبث والجزاء ؟ ﴿ أَلَيْسَ الله بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ ؟ تقرير ووعيد للكفار بأن يحكم عليهم بما يستحقون ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأها قال : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 207.206 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة التّين

مختلف فيها . وآيها ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والتّين والزيتون ﴾

خصهما من الثمار بالقسم لأن التين فاكهة طيبة لا فصل له وغذاء لطيف سريع الهضم ، ودواء كثير النفع فإنه يلين الطبع ويحلل البلغم ويطهر الكليتين ، ويزيل رمل المثانة ويفتح سدد الكبد والطحال ، ويسمن البدن وفي الحديث " أنه يقطع البواسير وينفع من النقرس " . والزيتون فاكهة وإدام ودواء وله دهن لطيف كثير المنافع ، مع أنه قد ينبت حيث لا دهنية فيه كالجبال ، وقيل المراد بهما جبلان من الأرض المقدسة أو مسجدا دمشق وبيت المقدس ، أو البلدان .

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ يعني الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه الصلاة والسلام ربه و ﴿ سِينِينَ ﴾ و ﴿ سَيْنَاء ﴾ اسمان للموضع الذي هو فيه .

﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ أي الآمن من أمن الرجل أمانة فهو أمين ، أو المأمون فيه يأمن فيه من دخله والمراد به مكة .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان ﴾ يريد به الجنس . ﴿ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ تعديل بأن خص بانتصاب القامة وحسن الصورة واستجماع خواص الكائنات ونظائر سائر الممكنات .

﴿ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ بأن جعلناه من أهل النار أو إلى أسفل سافلين وهو النار . وقيل هو أرذل العمر فيكون قوله :

﴿ إِلاَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ استثناء منقطعاً . ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ لا ينقطع أولاً يمن به عليهم ، وهو على الأولى حكم مرتب على الاستثناء مقرر له .

﴿ فَمَا يُكَذّبُكَ ﴾ أي فأي شيء يكذبك يا محمد دلالة أو نطقاً . ﴿ بَعْدُ بالدين ﴾ بالجزاء بعد ظهور هذه الدلائل وقيل "ما" بمعنى من . وقيل الخطاب للإنسان على الالتفات . والمعنى فما الذي يحملك على هذا الكذب .

(156/821)

﴿ أَلَيْسَ الله بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ تحقيق لما سبق . والمعنى أليس الذي فعل ذلك من الخلق والرد ﴿ بِأَحْكَمِ الحاكمين ﴾ صنعاً وتدبيراً ومن كان كذلك كان قادراً على

الإِعادة والجزاء على ما مر مراراً .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة والتين أعطاه الله العافية واليقين ما دام حياً ، فإذا مات أعطاه الله من الأجر بعدد من قرأ هذه السورة " . (1) انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 507. 508 ﴾

---

(1) حديث موضوع.

(157/821)

وقال أبو حيان :

سورة التّين

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) ﴾

أقسم تعالى بما أقسم به أنه خلقه مهيأ لقبول الحق ، ثم نقله كما أراد إلى الحالة السافلة .

والظاهر أن التين والزيتون هما المشهوران بهذا الاسم ، وفي الحديث : " مدح التين وأنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس " ، وقال تعالى : ﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء ﴾ قاله ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والنخعي وعطاء بن أبي رباح وجابر بن زيد ومقاتل والكلبي .

وقال كعب وعكرمة : أقسم تعالى بمنابتهما ، فإن التين ينبت كثيراً بدمشق ، والزيتون بإيليا ، فأقسم بالأرضين .

وقال قتادة : هما جبلان بالشام ، على أحدهما دمشق وعلى الآخر بيت المقدس ، انتهى .

وفي شعر النابغة ذكر التين وشرح بأنه جبل مستطيل .

قال النابغة :

صهب الظلال أبين التين عن عرض . . .

يزجين غيماً قليلاً ماؤه شبها

وقيل : هما مسجدان ، واضطربوا في مواضعهما اضطراباً كثيراً ضربنا عن ذلك صفحاً .

ولم يختلف في طور سيناء أنه جبل بالشام ، وهو الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه .

ومعنى ﴿ سينين ﴾ : ذو الشجر .

وقال عكرمة : حسن مبارك .

وقرأ الجمهور : ﴿ سينين ﴾ ؛ وابن أبي إسحاق وعمرو بن ميمون وأبو رجاء : بفتح السين ، وهي لغة بكر وتميم .

قال الزمخشري : ونحو سينون يبرون في جواز الإعراب بالواو والياء ، والإقرار على الياء

تحريك النون بحركات الإعراب ، انتهى .

وقرأ عمر بن الخطاب وعبد الله وطلحة والحسن : سيناء بكسر السين والمد ؛ وعمر أيضاً وزيد بن علي : بفتحها والمد ، وهو لفظ سرياني اختلفت بها لغات العرب .

وقال الأخفش : سينين : شجر واحده سينينة .

﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ : هو مكة ، وأمين للمبالغة ، أي آمن من فيه ومن دخله وما فيه من طير وحيوان ، أو من أمن الرجل بضم الميم أمانة فهو أمين ، وأمانته حفظه من دخله ولا ما فيه من طير وحيوان ، أو من أمن الرجل بضم الميم أمانة فهو أمين ، كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه .

(158/821)

ويجوز أن يكون بمعنى مفعول من أمنه لأنه مأمون الغوائل .

كما وصف بالآمن في قوله : ﴿ حرماً آمناً ﴾ بمعنى ذي أمن .

ومعنى القسم بهذه الأشياء إبانة شرفها وما ظهر فيها من الخير بسكنى الأنبياء والصالحين .

فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم عليه السلام ومولد عيسى ومنشأه ، والطور هو

المكان الذي نودي عليه موسى عليه السلام ، ومكة مكان مولد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومبعثه ومكان البيت الذي هو هدى للعالمين .

﴿ في أحسن تقويم ﴾ ، قال النخعي ومجاهد وقتادة : حسن صورته وحواسه .

وقيل : انتصاب قامته .

وقال أبو بكر بن طاهر : عقله وإدراكه زيناه بالتمييز .

وقال عكرمة : شبابه وقوته ، والأولى العموم في كل ما هو أحسن .

والإنسان هنا اسم جنس ، وأحسن صفة لمحذوف ، أي في تقويم أحسن .

﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ ، قال عكرمة والضحاك والنخعي : بالهرم وذهول العقل وتغلب الكبر حتى يصير لا يعلم شيئاً .

أما المؤمن فمرفوع عنه القلم والاستثناء على هذا منقطع ، وليس المعنى أن كل إنسان يعتريه هذا ، بل في الجنس من يعتريه ذلك .

وقال الحسن ومجاهد وأبو العالية وابن زيد وقتادة أيضاً : ﴿ أسفل سافلين ﴾ في النار على كفره ، ثم استثنى استثناء متصلاً .

وقرأ الجمهور : سافلين منكراً ؛ وعبد الله : السافلين معرفاً بالألف واللام .

وأخذ الزمخشري أقوال السلف وحسنها ببلاغته وانتقاء ألفاظه فقال : في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية أعضائه ، ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة

القويمة السوية ، إذ رددناه أسفل من سفل خلقاً وتركيباً ، يعني أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقة ، وهم أصحاب النار .

وأسفل من سفل من أهل الدركات .

(159/821)

أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل في حسن الصورة والشكل ، حيث نكسناه في خلقه ، فقوس ظهره بعد اعتداله ، وابيض شعره بعد سواده ، وتشنن جلده وكان بضاً ، وكلّ سمعه وبصره وكانا حديدين ، وتغير كل شيء فيه ، فمشيه دلف ، وصوته خفات ، وقوته ضعف ، وشهامته خرف ، .

انتهى ، وفيه تكثير .

وعلى أن ذلك الرد هو إلى الهرم ، فالمعنى : ولكن الصالحين من الهرمي لهم ثواب دائم غير منقطع على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله بالشيخوخة والهرم .

وفي الحديث : " إذا بلغ مائة ولم يعمل كتب له مثل ما كان يعمل في صحته ولم تكتب عليه سيئة " ، وفيه أيضاً : " أن المؤمن إذا رد لأرذل العمر كتب له ما كان يعمل في قوته " ، وذلك أجر غير ممنون وممنوع مقطوع ، أي محسوب يمن به عليهم .

والخطاب في ﴿ فما يكذبك ﴾ للإنسان الكافر ، قاله الجمهور ، أي ما الذي يكذبك ، أي يجعلك مكذباً بالدين تجعل لله أنداداً وتزعم أن لا بعث بعد هذه الدلائل ؟ وقال قتادة والأخفش والفراء : قال الله لرسوله (صلى الله عليه وسلم) : فإذا الذي يكذبك فيما تخبر به من الجزاء والبعث وهو الدين بعد هذه العبرة التي توجب النظر فيها صحة ما قلت .

﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ : وعيد للكفار وإخبار بعدله تعالى . انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(160/821)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) ﴾

الوقوف : ﴿ والزيتون ﴾ ه لا ﴿ سينين ﴾ ه لا ﴿ الأمين ﴾ ه لا ﴿ تقويم ﴾ ه ز للعطف ﴿ سافلين ﴾ ه ط بناء على أن المراد بالرد هو الخذلان إلى الكفر ، ولو حمل إلى الرد إلى أرذل العمر لأن الاستثناء منقطع جاز الوقف عند قوم ﴿ ممنون ﴾ ه ط ﴿ بالدين ﴾ ه ط ﴿ الحاكمين ﴾ ه .

التفسير : إن التين والزيتون كيف أقسم الله بهما من بين سائر المخلوقات الشريفة ؟ للمفسرين فيه قولان : فعن ابن عباس : هو تينكم وزيتونكم هذان من خواص التين أنه غذاء فاكهة ودواء لأنه طعام لطيف سريع الهضم ما بين الطبع ، ويخرج بطريق الرشح ويقلل البغلم ويطهر الكليتين ويزيل ما في المثانة من الرمل ويسمن البدن ويفتح مسام الكبد والطحال . وروي أنه أهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه " كلوا فلو قلت : إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت : هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوه فإنه يقطع البواسير وينفع من النقرس " وعن علي بن موسى الرضا رضي الله عنه : التين يزيل نكهة الفم ويطول الشعر وهو أمان من الفالج . ومن خواصه أن ظاهره كباطنه ماله قشر ولا نواة له وأنها شجرة تظهر المعنى قبل الدعوى تأتي بالثمرة ثم بالنور خلاف المشمش واللوز . ونحوهما ، وسائر الأشجار كأرباب المعاملات في قوله صلى الله عليه وسلم " ابدأ بنفسك ثم بمن تعول " لأنها تلبس نفسها أولاً بورد أو ورق ثم تظهر ثمرتها ، وشجرة التين كالمصطفى صلى الله عليه وسلم كان يبدأ بغير ثم يبدأ بنفسه كما قال ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ [الحشر : 9] وإنها تعود ثمرتها في العام مرة أخرى ، وإنها في المنام

رجل خير وغنى فمن رآها نال خيراً وسعة ، ومن أكلها رزقه الله أولاداً . ويروى أن آدم عليه السلام تستر بورقها حين نزع عنه ثيابه فلما نزل وكان مستوراً بورق التين استوحش فطاف الظباء حوله فاستأنس بها فأطعمها بعض ورق التين فرزقها الله الجمال والملاحة صورة ، والمسك وطيبة معنى ، وحين تفرقت الظباء ورأى غيرهن منها ما أعجبها جاءت من الغد على أثرهن فأطعمها من الورق فغير الله حالها إلى الجمال والملاحة دون طيب المسك ، وذلك أن الطائفة الأولى جاءت إلى آدم لا لأجل الطمع ، والطائفة الثانية جاءت للطمع سراً وإلى آدم ظاهراً ، فلا جرم غير ظاهرها دون

(162/821)

باطنها . وأما الزيتون فإنه من الشجرة المباركة وهو فاكهة من وجه ودواء من وجه كما تقدم وصفه في سورة النوّر . قال مريض لابن سيرين : رأيت في المنام كأنه قيل لي كل اللاءين تشفى فقال : كل الزيتون فإنه لا شرقية ولا غربية . وقيل : من أخذ ورق الزيتون في النوم استمسك بالعروة والوثقى .

(163/821)

فهذه المصالح والمنافع هي التي جوزت الإقسام بهما . القول الثاني : إنه ليس المراد بهما هذه الثمرة ثم اختلفوا . فعن ابن عباس في رواية : هما جبلان في الأرض المقدسة يقال لهما طور تينا وطور زيتا لأنهما منبتا التين والزيتون . وهما منشأ عيسى ومبعثه ومبعث أكثر أنبياء بني إسرائيل ، كما أن طور سينين مبعث موسى ، والبلد الأمين مبعث محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن زيد : التين مسجد دمشق ، والزيتون مسجد بيت المقدس . وقيل : التين مسجد الكهف ، والزيتون مسجد إيليا . وعن ابن عباس أيضاً : التين مسجد نوح على الجودي ، والزيتون مسجد بيت المقدس ، وعن كعب : أن التين دمشق ، والزيتون بيت المقدس . عن شهر بن حوشب : التين الكوفة والزيتون الشأم . وعن الربيع : هما جبلان من بين همذان وحلوان ، وأما طور سينين فالطور جبل موسى عليه السلام وسينين الحسن بلغة الحبشة . وقال مجاهد : المبارك وقال الكلبي ومقاتل : كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسينا بلغة النبط . قال الواحدي : الأولى أن يكون سينين اسماً للمكان الذي فيه الطور سمي بذلك لحسنه أو لبركته ، ثم أضيف إليه الطور للبيان . لإضافته إليه وسميت مكة أميناً لأنه يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين وما يؤتمن عليه ، ويجوز أن يكون " فعيلاً " بمعنى " مفعولاً " لأنه مأمون الغوائل كما جعله آمناً لكونه إذا أمن أقول : من المعلوم أن الإقسام ينبغي في باب البلاغة أن يكون مناسباً وكذا القسم والمقسم عليه ، وكان الله سبحانه

أقسم بالمراتب الأربع التي للنفس الإنسانية من العقل الهيولاني والعقل بالملكة والعقل بالفعل والعقل المستفاد إن الإنسان خلق في أحسن تقويم وهو كونه مستعداً للوصول إلى المرتبة الرابعة في العلم والعمل ، ثم إذا لم يجتهد في الوصول إلى كماله اللائق به فكأنه رد إلى أسفل سافلين الطبيعة ، وإنما عبر عن العقل الهيولاني بالتين لضعف شجرته ، ولأنه زمان الصبا واللهو والالتذاذ والاشتغال بالأمور

(164/821)

التي لا طائل تحتها ولا درك فيها بخلاف زمان العقل بالملكة لقوة المعقولات فيها لكونه بحيث يطلب للأشياء حقائق ومعاني ، وهي بمنزلة الزيت ، وفي زمان العقل بالفعل يكون قد ازدادت المعاني رسوخاً حتى صارت كالجبل المبارك ، وفي آخر المراتب اجتمعت عنده صور الحقائق دفعة بمنزلة المدينة الفاضلة ، ولعلنا قد كتبنا في هذا المعنى رسالة مفردة فلنقتصر في التفسير على هذا القدر من التأويل . ثم إن أكثر المفسرين قالوا : معنى ﴿ في أحسن تقويم ﴾ في أحسن تعديل شكلاً وانتصاباً . وقال الأصم : في أكمل عقل وفهم وبيان . والأولون قالوا : لو حلف إنسان أن زوجته أحسن من القمر لم يحنث لأنه تعالى أعلم بخلقه ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ وكان بعض الصالحين يقول : إلهنا أعطيتنا

في الأول أحسن الأشكال فأعطنا في الآخرة أحسن الخصال وهو العفو عن الذنوب والتجاوز عن العيوب.

(165/821)

ومعنى ﴿ أسفل سافلين ﴾ قال ابن عباس: أرذل العمر ومثله قول ابن قتيبة: السافلون هم الضعفاء والزمنى ومن لا يستطيع حيلة ولا يجد سبيلاً. قال الفراء: لو قيل "أسفل سافل" حملاً على لفظ الإنسان كان صواباً أيضاً. وقال مجاهد والحسن: هو النار ومثله ما قال علي رضي الله عنه: أبواب جهنم بعضها أسفل من بعض ويبدأ بالأسفل فيملأ. وعلى هذا القول تقدير الكلام رددناه إلى أسفل سافلين أي في أسفل سافلين ﴿ إلا الذين ﴾ الآية. أي الذين استكملوا بحسب القوتين النظرية والعلمية فلهم ثواب دائم غير منقطع. إما بسبب صبرهم على ما ابتوا به من الشيخوخة والهرم والمواظبة على الطاعات بقدر الإمكان مع ضعف البنية وفتور الآلات. او بواسطة حصول الكمالات لهم. فهذا الاستثناء على القول الأول منقطع بمعنى لكن. وعلى الثاني متصل. ولا يبعد أن يكون أيضاً متصلاً والمعنى. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات في حال الاستطاعة فلهم ثواب جزيل في حالة الشيخوخة والضعف وإن لم يقدروا على مثل تلك الأعمال. فكأنهم لم يردوا

إلى أسفل من سفل . ثم خاطب الإنسان بقوله ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ يعني فأي شيء يلجئك بعد هذه البيانات إلى أن تكون كاذباً بسبب تكذيب الجزاء ، لأن كل مكذب بالحق فهو كذاب ، ولا ريب أن خلق الإنسان من نطفة إلى أن يصير كاملاً في الخلق والخلق ، ثم تنكيسه إلى حال تخاذل القوى وتقويس الظهر وابيضاض الشعر وتناثره أوضح دليل على قدرة الصانع وحده ، ومن قدر على هذا كله لم يعجز عن إعادة مخلوقه بعد تفرق أجزائه .

هذا بالنظر إلى القدرة ، وأما بالنظر إلى الحكمة والعدالة فإيصال الجزاء إلى المحسن والمسيء والفرق بين الصنفين واجب . وأشار إلى هذا الدليل بقوله ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فأمر المعاد بالنظر إلى القدرة ممكن الوقوع وبالنظر إلى الحكمة والعدل واجب الوقوع . وقال الفراء : الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمعنى : فمن يكذبك بالجزاء أيها الرسول

بعد ظهور هذه الدلائل ؟ قالت المعتزلة : قوله ﴿ في أحسن تقويم ﴾ دليل على أنه تعالى لا يفعل القبيح ولا يفعل أفعال العباد في ما فيها من السفه والظلم ، ولو خلق ذلك لكان هو أولى بأن يدعى سفيهاً وظالماً . وأجيب بأن خلق السفه لا يلزم منه الاتصاف بالسفه كما أن

إيجاد الحركة لا يلزم منه الاتصاف بالحركة . ويمكن أن يقال : نحن لا ندعي لزوم الاتصاف به ولكن ندعي أن خلق السفه نفسه نوع سفه . والجواب الصحيح بعد المعارضة بالعلم والداعي أن يعارض بقوله ﴿ ثم رددناه ﴾ فإنه دليل على أنه أضاف الشيء إلى ذاته . " عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأ السورة قال : بلى وأنا بذلك من الشاهدين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 524 . 527 ﴾

(167/821)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة التين والزيتون

مكية وقال ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة مدنية وهي ثمان آيات وأربع وثلاثون كلمة ومائة وخمسون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الذي له الملك كله ﴿ الرحمن ﴾ الذي وسع الخلائق عدله ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه بتوفيقه فظهر عليهم جوده وفضله .

وقوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون ﴾ قسم وتقدّم نظائر ذلك أقسم بهما لأنهما عجيبتان من بين أصناف الأشجار المثمرة ، روي أنه "أهدي للنبيّ صلى الله عليه وسلم طبق من تين

فأكل منه ، وقال لأصحابه : كلوا فلو قلت : إنّ فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه" لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير ، وتنفع من النقرس ومرّ معاذ بن جبل بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيباً واستاك به وقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيب الفم ويذهب بالحفرة" . وسمعته يقول : "هي سواكي وسواك الأنبياء من قبلي" . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : هو تينكم هذا الذي تأكلون وزيتونكم هذا الذي تعصرون منه الزيت . وقال عكرمة : هما جبلان من الأرض المقدّسة يقال لهما بالسريانية طور تيناً وطور زيتاً ؛ لأنهما منبتا التين والزيتون .

وقيل : التين جبال ما بين حلوان وهمدان ، والزيتون جبال الشام لأنها منابتهما ، كأنه قيل : ومنابت التين والزيتون . وقال محمد بن كعب : التين مسجد أصحاب الكهف والزيتون مسجد إيليا . وقال الضحاك : مسجدان بالشام . وقال ابن زيد : التين مسجد دمشق ، والزيتون مسجد بيت المقدس ، وحسن القسم بهما لأنهما موضع الطاعة . وقيل : التين مسجد نوح عليه السلام الذي بناه على الجودي ، والزيتون مسجد بيت المقدس .

﴿ وطور سينين ﴾ ، أي : الجبل الذي ناجى عليه موسى عليه السلام ربه عز وجل ، وسينين وسيناء اسمان للموضع الذي هو فيه فأضيف الجبل إلى المكان الذي هو فيه .

وقال مقاتل والكلبيّ : سينين كل جبل فيه شجر مثمر فهو سينين وسيناء بلغة النبط ولم ينصرف سينين كما لا ينصرف سيناء لأنه جعل اسماً للبقعة أو الأرض ، ولو جعل اسماً للمكان أو للمنزل ، أو اسم مذكر لانصرف لأنك سميت مذكراً بمذكر وإنما أقسم بهذا الجبل لأنه بالشام وهي الأرض المقدّسة ، وقد بارك فيها قال الله تعالى : ﴿ إلى المسجد القصى الذي باركنا حوله ﴾ (الإسراء :)

ولا يجوز أن يكون سينين نعتاً للطور لإضافته إليه .

﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ ، أي : الآمن ، من أمن الرجل أمانة فهو أمين ، وهي مكة حرسها الله تعالى ؛ لأنها الحرم الذي يأمن الناس فيه في الجاهلية والإسلام ، لا ينفر صيده ولا يعضد ورقه ، أي : شجره ، ولا تلتقط لقطته إلا لمنشد أو المأمون فيه يأمن فيه من دخله .

قال الزمخشريّ : ومعنى القسم بهذه الأشياء الإبانة عن شرف البقاع المباركة وما ظهر منها من الخير والبركة بسكنى الأنبياء والصالحين فمنبت التين والزيتون مهاجر إبراهيم عليه السلام ، ومولد عيسى عليه السلام ومنشؤه والطور المكان الذي نودي منه موسى عليه السلام ، ومكة البيت الذي هو هدى للعالمين ومولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه اه .

وقوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا ﴾ ، أي : قدّرنا وأوجدنا بما لنا من العظمة والقدرة التامّة ﴿ الإنسان ﴾ جواب القسم والمراد بالإنسان : الجنس الذي جمع فيه الشهوة والعقل ، وفيه من الإنس بنفسه ما ينسيه أكثر مهمه الشامل لآدم عليه السلام وذريته . وقيل : نزلت في منكري البعث . وقيل : في الوليد بن المغيرة وقيل : كلدة بن أسيد . وقوله تعالى : ﴿ في أحسن تقويم ﴾ صفة لمحذوف ، أي : في تقويم أحسن تقويم . وقال أبو البقاء : في أحسن تقويم في موضع الحال من الإنسان ، وأراد بالتقويم القوام لأن التقويم فعل وذاك وصف للخالق لا للمخلوق ، ويجوز أن يكون التقدير في أحسن قوام التقويم فحذف المضاف ، ويجوز أن تكون في زائدة ، أي : قومناه أحسن تقويم اه .

وأحسن تقويم أعدله لأنه تعالى خلق كل شيء منكباً على وجهه وخلق الإنسان مستوياً ، وله لسان ذلق ويد وأصابع يقبض بها . قال ابن العربي : ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإنّ الله تعالى خلقه حياً عالماً قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً مدبراً حكيماً وهذه صفات الله تعالى وعبر عنها بعض العلماء ، ووقع البيان بقوله : "إن الله تعالى خلق آدم على صورته" يعني : على صفاته المتقدّم ذكرها .

وفي رواية على صورة الرحمن ومن أين يكون للرحمن صورة شخصية فلم تكن إلا معاني .

وروي أنّ عيسى بن يوسف الهاشميّ كان يحب زوجته حباً شديداً ، فقال لها يوماً : أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر فنهضت واحتجبت عنه ، وقالت : طلقتني فبات بليلة عظيمة فلما أصبح غدا إلى دار المنصور فأخبره الخبر ، فاستحضر الفقهاء واستشارهم ، فقال جميع من حضر قد طلقت إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة فإنه كان ساكتاً ، فقال له المنصور : ما لك لا تتكلم ، فقال الرجل : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ والتين والزيتون ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ يا أمير المؤمنين فالإنسان أحسن الأشياء ، ولا شيء أحسن منه ، فقال المنصور لعيسى : الأمر كما قال الرجل فأقبل على زوجتك ، فأرسل المنصور إليها أطيعي زوجك فما طلقك .

وهذا يدل على أنّ الإنسان أحسن خلق الله تعالى ولذلك قيل : إنه العالم الأصغر إذ كل ما في المخلوقات اجتمع فيه .

﴿ ثم رددناه ﴾ أي : بعض أفراده بما لنا من القدرة الكاملة ﴿ أسفل سافلين ﴾ أي : إلى الهرم وأرذل العمر فيضعف بدنه وينقص عقله ، والسافلون هم الضعفاء والزمنى والأطفال

، والشيخ الكبير أسفل من هؤلاء جميعاً لأنه لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً ، فقوس ظهره بعد اعتداله ، وأبيض شعره بعد اسوداده ، وكل بصره وسمعه وكانا حديدين ، وتغير كل شيء منه فمشيه دليف وصوته خفات وقوّته ضعف وشهامته خرف . وقيل : ثم رددناه إلى النار لأنها دركات بعضها أسفل من بعض .

(171/821)

فقوله تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا ﴾ أي : تصديقاً لدعواهم الإيمان ﴿ الصالحات ﴾ أي : الطاعات استثناء متصل على الثاني على أنّ المعنى : رددناه أسفل من سفل خلقاً وتركيباً يعني : أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقة ، وهم أهل النار وأسفل من سفل من أهل الدركات . فالاتصال على هذا واضح ، وعلى الأوّل منقطع ، أي : لكن الذين كانوا صالحين من الهرمى ﴿ فلهم ﴾ أي : فتسبب عن ذلك أن كان لهم ﴿ أجر غير ممنون ﴾ أي : ثواب دائم غير منقطع على طاعاتهم وصبرهم على ابتلاء الله تعالى لهم بالشيخوخة والهرم وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة على تخاذل نهوضهم وفي الحديث : "إذا بلغ المؤمن من الكبر ما يعجز عن العمل كتب له ما كان يعمل" . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إلا الذين قرؤوا القرآن ، وقال : من قرأ القرآن لم يردّ إلى أرذل العمر . ثم قال

تعالى إلزاماً للحجة:

﴿ فما يكذبك ﴾ أي: أيها الإنسان الكافر ﴿ بعد ﴾ أي: بعد ما ذكر من خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشراً سوياً وتدريجه في مراتب الزيادة إلى أن يستوي ويكمل ويصير في أحسن تقويم، ثم يردّ إلى أرذل العمر الدال على القدرة على البعث، فيقول: إنّ الذي فعل ذلك قادر على أن يبعثني ويحاسبني فما سبب تكذيبك أيها الإنسان ﴿ بالدين ﴾ أي: الجزاء بعد هذا الدليل القاطع. وقيل: الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى هذا يكون المعنى: فما الذي يكذبك فيما تخبر به من الجزاء أو البعث بعد هذه العبر التي يوجب النظر فيها صحة ما قلت

(172/821)

وقوله تعالى: ﴿ أليس الله ﴾ أي: الملك الأعظم على ما له من صفات الكمال ﴿ بأحكم الحاكمين ﴾ أي: بأقضى القاضين. وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما هم أهله. وفي الحديث: "من قرأ التين إلى آخرها فليقل: بلى وأنا على ذلك من الشاهدين". وقول البيضاوي تبعاً للزمخشريّ: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة والتين أعطاه الله تعالى خصلتين العافية واليقين ما دام في دار الدنيا وإذا مات أعطاه الله من الأجر

بعدد من قرأ هذه السورة" حديث موضوع. انتهى انتهى. ا هـ ﴿السراج المنير حـ 8 صـ 379.376﴾

(173/821)

وقال القاسمى :

سورة التين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ [1 - 3]

اعلم أن المفسرين لم يختلفوا في أن البلد الأمين مكة المشرفة ، الآمن أهلها أن يحارَبوا كما قال الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] ، وأما المقسمات بها قبل ، ففيها أقوال للسلف لاحتمال موادها لكل منها ، فعن مجاهد والحسن وغيرهما أن التين الذي يؤكل ، و ﴿ الزَّيْتُونَ ﴾ الذي يعصر . قالوا : وخصهما لكثرة فوائدهما وعظم منافعهما . وعن قتادة التين الجبل الذي عليه دمشق ، و الزيتون الذي عليه بيت المقدس . وعن كعب وابن زيد : التين مسجد دمشق و الزيتون بيت

المقدس . فظهر أنهما الشجران المعلومان أو جبلان أو مسجدان . وصوب ابن جرير الأول منها ، وعبارته : والصواب من القول في ذلك عندنا ، قول من قال ﴿ التِّين ﴾ : هو التين الذي يؤكل ، و ﴿ الزَّيْتُون ﴾ هو : الزيتون الذي يعصر منه الزيت ؛ لأن ذلك هو المعروف عند العرب . ولا يعرف جبل يسمى تيناً ولا جبل يقال له : زيتون ، إلا أن يقول قائل : أقسم ربنا جل ثناؤه بالتين والزيتون ، والمراد من الكلام ، القسم بمنابت التين ومنابت الزيتون ، فيكون ذلك مذهباً وإن لم يكن على صحة ذلك أنه كذلك ، دلالة في ظاهر التنزيل ولا من قول من لا يجوِّز خلافهُ ، لأن دمشق بها منابت التين ، وبيت المقدس منابت الزيتون . انتهى كلامه . وفيه نظر ، لأن من حفظ حجة على من لم يحفظ . كيف وجبل الزيتون هو من جبال فلسطين ، معروف ذلك عند علماء أهل الكتاب والمؤلفين في تقويم البلاد . قال صاحب " الذخيرة " في تعداد جبال فلسطين : ويتصل بجبال إسرائيل جبل الزيتون . قال : وقد دعي كذلك لكثرة الزيتون فيه ، وهو قريب المسافة من أورشليم ، وفيه صعد المسيح لكي يرتفع إلى السماء . انتهى .

ويسمى أيضاً طور زيتاً إلى الآن ، على أن فيما صوبهُ ابن جرير ، تبقى المناسبة بينهما وبين طور سينين والبلد الأمين وحكمة جمعهما معهما في نسق واحد – غير مفهومة ، كما قاله الإمام . فالأرجح أنهما موضعان أو موضع واحد معظم ، ويكون المقسم به ثلاثة مواضع مقدسة .

قال ابن كثير : وقال بعض الأئمة : هذه محَالّ ثلاثة بعث الله من كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار :

فالأول محل التين والزيتون وهو بيت المقدس الذي بعث الله فيه عيسى ابن مريم عليهما السلام .

والثاني : طور سينين ، وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران .

والثالث : مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً ، وهو الذي أرسل فيه محمد صلى الله عليه وسلم وفي التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء : يعني الذي كلم الله عليه موسى . وأشرق من ساعير : يعني جبل بيت المقدس الذي بعث الله عنه عيسى . واستعلن من جبال فاران : يعني جبال مكة التي أرسل الله منها محمداً صلى الله عليه وسلم . فذكرهم مخبراً عنهم على الترتيب الوجوديّ بحسب ترتيبهم في الزمان . ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأشرف منه ، ثم بالأشرف منهما . انتهى كلام ابن كثير .

ومرادهُ ببعض الأئمة ، شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية عليه الرحمة والرضوان ؛ فإنه ذكر ذلك في كتابه " الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح " ونحن ننقلها زيادة في إيضاح المقام ، واهتماماً بتحقيقه ، قال رحمه الله فصل شهادة الكتب المتقدمة بنبوته صلى الله عليه وسلم : وذلك مثل قوله في التوراة ما قد ترجم بالعربية : جاء الله من طور سيناء .

وبعضهم يقول في الترجمة : تجلى الله من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال فاران . قال كثير من العلماء – واللفظ لأبي محمد بن قتيبة – : ليس بهذا خفاء على من تدبره ، ولا غموض ؛ لأن مجيء الله من طور سيناء ، إنزاله التوراة على موسى بطور سيناء ، كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا . وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير ، إنزاله على المسيح الإنجيل . وكان المسيح من ساعير أرض الجليل بقرية تدعى ناصرة ، وباسمها تسمى من اتبعهُ نصارى . وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح ، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران ، إنزاله القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم في جبال فاران ، وهي جبال مكة .

قال : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة . فإن ادعوا أنها غير مكة – وليس ينكر ذلك من تحريفهم وإفكهم – قلنا أليس في التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران ؟ وقلنا : دلُّونا على الموضع الذي استعلن الله منه واسمهُ فاران ،

والنبيّ الذي أنزل عليه كتاباً بعد المسيح ، أو ليس استعلن وعلن بمعنى واحد وهما : ظهر وانكشف . فهل تعلمون ديناً ظهر ظهور الإسلام وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوّه ؟ .

وقال أبو هاشم بن ظفر : ساعير جبل بالشام ، منهُ ظهرت نبوة المسيح عليه السلام .

(176/821)

قلت : وبجانب بيت لحم – القرية التي ولد فيها المسيح – قرية تسمى إلى اليوم ساعير . ولها جبال تسمى جبال ساعير ، وعلى هذا فيكون ذكر الثلاثة الجبال : جبل حراء الذي ليس حول مكة جبل أعلى منه ، وفيه كان أول نزول الوحي على النبيّ صلى الله عليه وسلم وحوله من الجبال جبال كثيرة . وذلك المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم . وفيه كان ابتداء نزول القرآن . والبرية التي بين مكة وطور سينا تسمى برية فاران ، ولا يمكن أحداً أن يدعي أنه بعد المسيح نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ولا بعث نبيّ ؛ فعلم أن ليس المراد باستعلانه من جبال فاران ، إلا إرسال محمد صلى الله عليه وسلم . وهو سبحانهُ ذكر هذا في التوراة على الترتيب الزمانيّ فذكر إنزال التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن ، وهذه الكتب نور الله وهداه ، وقال في الأول : جاء أو ظهر . وفي الثاني : أشرق . وفي الثالث : استعلن

. وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر أو ما هو أظهر من ذلك . ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس زاد به النور والهدى . وأما نزول القرآن فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء .

ولهذا قال : واستعلن من جبال فاران ، فإن محمداُ صلى الله عليه وسلم ظهر به نور الشمس إذا استعلنت في مشارق الأرض ومغاربها ؛ ولهذا سماهُ الله سراجاً منيراً ، وسمى الشمس سراجاً وهاجاً ، والخلق محتاجون إلى السراج المنير ، أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج ، فإن الوهاج يحتاجون إليه في وقت دون وقت ، بل قد يتضررون به بعض الأوقات . وأما السراج المنير فيحتاجون إليه في كل وقت ، وكل مكان ، ليلاً ونهاراً ، سراً وعلانيةً . وقد قال صلى الله عليه وسلم : < زُويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها > . وهذه الأماكن الثلاثة ، أقسم الله بها في القرآن في قوله : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ فأقسم بالتين والزيتون ، وهو الأرض المقدسة

(177/821)

التي ينبت فيها ذلك ، ومنها بعث المسيح وأنزل عليه فيها الإنجيل ، وأقسم بطور سيناء وهو الجبل الذي كلم الله موسى وناداهُ فيه من واديه الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ،

وأقسم بهذا البلد الأمين وهو مكة الذي أسكن إبراهيم ابنه إسماعيل وأمهُ هاجر فيه .

وهو الذي جعله الله حرماً آمناً ويتخطف الناس من حوله ، وجعله آمناً خلقاً وأمراً قدراً وشرعاً .

ثم قال ابن تيمية : فقوله تعالى : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ إقسام منه بالأمكنة الشريفة المعظمة الثلاثة التي ظهر فيها نوره وهداهُ ، وأنزل فيها كتبه الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن . كما ذكر الثلاثة في التوراة بقوله : جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران .

ولما كان ما في التوراة خبراً عنها ، أخبر بها على ترتيبها الزماني ، فقدم الأسبق فالأسبق وأما في القرآن ، فإنه أقسم بها تعظيماً لشأنها ؛ وذلك تعظيم لقدرته سبحانه وآياته وكتبه ورسله ، فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة ، فختمها بأعلى الدرجات ، فأقسم أولاً بالتين والزيتون ، ثم بطور سينين ، ثم بمكة ؛ لأن أشرف الكتب الثلاثة القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل ، وكذلك الأنبياء فأقسم بها على وجه التدريج كما في قوله :

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا * فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا * فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات : 1 – 4] ، فأقسم بطبقات المخلوقات طبقة بعد طبقة ، فأقسم بالرياح الذاريات ثم بالسحاب الحاملات للمطر فإنها فوق الرياح ، ثم بالجاريات يسراً ، وقد قيل : إنها السفن ، ولكن الأنسب أن تكون هي الكواكب المذكورة في قوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ [التكوير : 15 – 16] ، فسماها جوارٍ كما سمى الفلك جواري في قوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴾ [الشورى : 32] ، والكواكب فوق السحاب ثم قال : ﴿ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ [الذاريات : 4] ، وهي الملائكة التي هي أعلى درجة من هذا كله .

واستظهر بعض المعاصرين أن قوله تعالى : ﴿ وَالتِّينِ ﴾ يعني به شجرة بوذا مؤسس الديانة البوذية ، التي تحرفت كثيراً عن أصلها الحقيقي ؛ لأن تعاليم بوذا لم تكتب في زمنه وإنما رويت كالأحاديث بالروايات الشفهية ، ثم كتبت بعد ذلك حينما ارتقى أتباعها .

ثم قال : والراجح عندنا ، بل المحقق إذا صح تفسيرنا لهذه الآية أنه كان نبياً صادقاً ويسمى : سكياموتي ، أو جوناما ، وكان في أول أمره يأوي إلى شجرة تين عظيمة وتحتها نزل عليه الوحي ، وأرسله الله رسولاً ، فجاءه الشيطان ليفتنه هناك فلم ينجح معه . ولهذه الشجرة شهرة كبيرة عند البوذيين ، وتسمى عندهم : التينة المقدسة ، وبلغتهم : أجابالا .

قال : ففي هذه الآية ذكر الله تعالى أعظم أديان البشر الأربعة الموحاة منه تعالى لهدايتهم

ونفعهم في دينهم ودنياهم ، فالقسم فيها كالتمهيد لقوله بعده : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ إلى آخر السورة .

(179/821)

قال : ولا يزال أهل الأديان الأربعة هم أعظم أمم الأرض وأكثرهم عدداً وأرقاهم .

والترتيب في ذكرها في الآية هو باعتبار درجة صحتها بالنسبة لأصولها الأولى ، فبدأ تعالى بالقسم بالبوذية لأنها أقل درجة في الصحة وأشد الأديان تحريفاً عن أصلها ، كما يبدأ الْإِنْسَانُ بالقسم بالشيء الصغير ، ثم يرتقي للتأكيد إلى ما هو أعلى ، ثم النصرانية وهي أقل من البوذية تحريفاً ، ثم اليهودية وهو أصح من النصرانية ، ثم الإسلامية وهو أصحها جميعاً وأبعدها عن التحريف والتبديل ، بل إن أصولها : الكتاب والسنة العملية المتواترة ، لم يقع فيها تحريف مطلقاً . ومن محاسن هذه الآية الشريفة غير ذلك ، ذكر ديني الفضل : البوذية والمسيحية أولاً ، ثم ديني العدل : اليهودية والإسلامية ثانياً ؛ للإشارة إلى الحكمة بتربية الفضل والمسامحة مع الناس أولاً . ثم تربية الشدة والعدل . وكذلك بدأ الإسلام باللين والعفو ثم بالشدة والعقاب . ولا يخفى على الباحثين التشابه العظيم بين بوذا وعيسى ودينهما ، وكذلك التشابه بين موسى ومحمد ودينهما ؛ فلذا جُمع الأولان معاً والآخران

كذلك ، وقدم البوذية على المسيحية لقدم الأولى ، كما قدم الموسوية على المحمدية لهذا السبب بعينه . ومن محاسن الآية أيضاً الرمز والإشارة إلى ديني الرحمة بالفاكهة والثمرة ، وإلى ديني العدل بالجبل والبلدة الجبلية : مكة ، وهي البلد الأمين . ومن التناسب البديع بين ألفاظ الآية أن التين والزيتون ينبتان كثيراً في أودية الجبال ، كما في جبل الزيتون بالشام وطور سيناء ، وهما مشهوران بها . فهذه الآية قسم بأول مهابط الوحي ، وأكرم أماكن التجلي الإلهي على أنبيائه الأربعة ، الذين بقيت شرائعهم للآن ، وأرسلهم الله لهداية الناس الذين خلقهم في أحسن تقويم . انتهى بحروفه . والله أعلم .

لطيفة :

(180/821)

لم ينصرف ﴿ سِينِينَ ﴾ كما لا ينصرف سيناء ؛ لأنه جعل اسماً للبقعة أو الأرض ، فهو علم أعجميّ . ولو جعل اسماً للمكان أو المنزل أو اسماً لمذكر لانصرف ، لأنك سميت به مذكراً . وقرأ العامة : ﴿ سِينِينَ ﴾ بكسر السين ، وقرأ بعض السلف بفتحها ، وآخرون : سيناء بالكسر والفتح ممدوداً . قال السمين : وهذه لغات اختلف في هذا الإسم السريانيّ ، على عادة العرب في تلاعبها بالأسماء الأعجمية .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾

أي : في أحسن تعديل خلقاً وشكلاً ، صورةً ومعنًى ، قال الشهاب : الظرف في موضع الحال من الْإِنْسَانْ ، والتقويم فعل الله ، فهو بمعنى القوام أو المقوم ، أو فيه مضاف مقدر ، أي : قوام أحسن تقويم ، أو ﴿ فِي ﴾ زائدة والتقدير : قومناهُ أحسن تقويم .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أي : جعلناه أسفل من سفل ، وهم أصحاب النار لعدم جريانه على موجب ما خلقناهُ عليه من الصفات التي لو عمل بمقتضاها لكان في أعلى عليين ، فـ : رد بمعنى جعل التي تنصب مفعولين . قال الشهاب : و السافلين العصاة وغيرهم ، وأسفل سافل للمتعدد والمتفاوت . و ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي الزماني أو هو رتبي . وجوز نصب ﴿ أَسْفَلِ ﴾ بنزع الخافض صفة لمحذوف ، أي : إلى مكان أسفل سافلين ، أي : محل النار ، أو النار بمعنى جهنم . وهذا ما قاله مجاهد حيث قال : في النار ، وفي رواية : إلى النار ، والسافلين على هذا الأمكنة السافلة ، وهي دركاتها . وجمعها للعقلاء للفاصلة ، أو للتنزيل منزلة العقلاء . كذا قالوا . ولو أريد بهم أهل النار والدركات ، لأنهم أسفل السفل كالأول ، لكان أولى .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي : غير مقطوع أو غير منقوص أو غير محسوب أو غير ممنون به عليهم . والاستثناء متصل من ضمير ﴿ رَدَدْنَاه ﴾ فإنه في معنى الجمع ، لأن المكنيّ عنهُ وهو الْإِنْسَانْ ، في معنى الجنس .

هذا وقد اعتمد ابن جرير في تأويل الآية ، ما روي عن ابن عباس من أن المعنى : ثم رددناه على أرذل العمر . وأن من كان يعمل بطاعة الله في شبيبته كلها ، ثم كبر حتى ذهب عقله ، كتب له مثل عمله الصالح الذي كان يعمل في شبيبته ، ولم يؤاخذ بشيء مما عمل في كبره وذهاب عقله ، من أجل أنهُ مؤمن وكان يطيع الله في شبيبته .

وعبارة ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصحة ، وأشبهها بتأويل الآية ، قول من قال معناه : ثم رددناه أي : إلى أرذل العمر إلى عمر الخرفى الذين ذهبت عقولهم من الهرم والكبر ، فهو في أسفل من سفل في إدبار العمر ، وذهاب العقل .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ في حال صحتهم وشبابهم ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ بعد هرمهم ، كهيئة ما كان لهم من ذلك على أعمالهم ، في حال ما كانوا يعملون وهم أقوياء على العمل .

قال : وإنما قلنا : هذا القول أولى بالصواب في ذلك ، لأن الله تعالى ذِكره أخبر عن خلقه ابن آدم وتصريفه في الأحوال ، احتجاجاً بذلك على منكري قدرته على البعث بعد الموت ، ألا ترى أنه يقول : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ يعني بعد هذه الحجج ، ومحال أن يحتج على قوم كانوا منكرين معنى من المعاني بما كانوا له منكرين ، وإنما الحجة على كل قوم بما لا يقدرون على دفعه مما يعاينونه ويحسونه ، أو يقرون به وإن لم يكونوا له محسين . وإذ كان ذلك كذلك ، وكان القوم للنار التي كان الله يتوعدهم بها في الآخرة منكرين ، وكانوا أهل الهرم والخرف من بعد الشباب والجَلَد شاهدين ، علم أنه إنما احتج عليهم بما كانوا له معاينين من تصريفه خلقه ونقله إياهم من حال التقويم الحسن ، والشباب والجلد إلى الهرم والضعف وفناء العمر وحدوث الخرف . انتهى كلامه .

وعليه فيكون الاستثناء منقطعاً ، استدراكاً لدفع ما يتوهم من أن التساوي في أرذل العمر يقتضي التساوي في غيره ، ويكون الدين حينئذ مبتدأ ، والفاء داخلة في خبره . وأما على الوجه الأول ، فالفاء للتفريع ، ومدخولها جملة مترتبة عليه ، ومؤكدة له .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ خطاب للإنسان على طريق الالتفات ، لتشديد التوبيخ والتبكيت ، أي : فما يحملك على التكذيب بالدين ، أي الجزاء بعد البعث ، وإنكاره بعد هذه الدلائل .

والمعنى : أن خلق الْإِنْسَانْ من نطفة وتقويمه بشراً سوياً ، وتحويله من حال إلى حال ، كمالاً ونقصاناً ، من أوضح الدلائل على قدرة الله عز وجل على البعث ، والجزاء فأي شيء تضطرك إلى التكذيب به ؟ وجوز أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، ومعنى ﴿ يُكَذِّبُكَ ﴾ إما ينسبك إلى الكذب ، كفسقته إذا قلت له : إنه فاسق ، والباء في ﴿ بِالدِّينِ ﴾ بمعنى في ، أي : يكذبك في إخبارك به ، أو سببية أي : بسبب إخبارك به وإثباته ، أو المعنى ما يجعلك مكذباً بالدين ، على أن الباء صلتهُ . وهو من باب الإلهاب والتعريض بالمكذبين ، والمعنى : إنه لا يكذبك شيء ما بعد هذا البيان بالدين ، لا كهؤلاء الذين لا يبالون بآيات الله ولا يرفعون لها رأساً . والاستفهام للإنكار والتعجب .

واستصوب ابن جرير : قول من قال : ما بمعنى من ، أي : فمن يكذبك يا محمد بعد الذي جاءك من هذا البيان من الله بالدين .

قال الشهاب : ﴿ فَمَا ﴾ استفهام عمن يعقل ، وفيه نظر ، لأنه خلاف المعروف ، فلا يرتكب مع صحة بقائها على أصلها ، كما بيناهُ لك . والداعي لارتكاب هذا أن المعنى

عليه أظهر إذا كان المخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه إنكار توبيخيّ للمكذبين له صلى الله عليه وسلم بعد ما ظهر لهم من دلائل صدقه وصحة مدعاه ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ أي : بأحكم من حكم في أحكامه . قال أبو السعود : أي : أليس الذي فعل ما ذكر بأحكم الحاكمين صنعاً وتدبيرا ، حتى يتوهم عدم الإعادة والجزاء ، وحيث استحال عدم كونه أحكم الحاكمين ، تعين الإعادة والجزاء . فالجملة تقريراً لما قبلها . وقيل : الحكم بمعنى القضاء ، فهي وعيد للكفار وأنه يحكم عليهم بما يستحقونه من العذاب . و أحكم من الحكم أو الحكمة . قيل : والثاني أظهر . وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قرأها قال : < بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين > . أرسله قتادة ، ورفعه أبو هريرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 437.429 ﴾

(185/821)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة التين

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)

سورة التين

تعريف بسورة التين

الحقيقة الرئيسية التي تعرضها هذه السورة هي حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها , واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان , والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها .

وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان .

ويقسم الله - سبحانه - على هذه الحقيقة بالتين والزيتون , وطور سينين , وهذا البلد الأمين , وهذا القسم على ما عهدنا في كثير من سور هذا الجزء - هو الإطار الذي تعرض فيه تلك الحقيقة . وقد رأينا في السور المماثلة أن الإطار يتناسق مع الحقيقة التي تعرض فيه تناسقا دقيقا .

وطور سينين هو الطور الذي نودي موسى - عليه السلام - من جانبه . والبلد الأمين هو مكة بيت الله الحرام . . وعلاقتهما بأمر الدين والإيمان واضحة . . فأما التين والزيتون فلا يتضح فيهما هذا الظل فيما يبدو لنا .

وقد كثرت الأقوال المأثورة في التين والزيتون . . قيل: إن التين إشارة إلى طور تينا بجوار دمشق .

وقيل: هو إشارة إلى شجرة التين التي راح آدم وزوجه يخصفان من ورقها على سوآتهما في الجنة التي كانا فيها قبل هبوطهما إلى هذه الحياة الدنيا . وقيل: هو منبت التين في الجبل الذي

استوت عليه سفينة نوح – عليه السلام .

وقيل في الزيتون: إنه إشارة إلى طور زينا في بيت المقدس . وقيل: هو إشارة إلى بيت المقدس نفسه . وقيل: هو إشارة إلى غصن الزيتون الذي عادت به الحمامة التي أطلقها نوح عليه السلام – من السفينة – لترتاد حالة الطوفان . فلما عادت ومعها هذا الغصن عرف أن الأرض انكشفت وأنبتت !

وقيل: بل التين والزيتون هما هذان الأكلان الذان نعرفهما بحقيقتهما . وليس هناك رمز لشيء وراءهما . .

(186/821)

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6)

أو أنهما هما رمز لمنبتهما من الأرض . . .

وشجرة الزيتون إشير إليها في القرآن في موضع آخر بجوار الطور: فقال: (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين) . . كما ورد ذكر الزيتون: (وزيتونا ونخلا) . .

فأما "التين" فذكره يرد في هذا الموضع لأول مرة وللمرة الوحيدة في القرآن كله .

ومن ثم فإننا لا نملك أن نجزم بشيء في هذا الأمر . وكل ما نملك أن نقوله - اعتمادا على نظائر هذا الإطار في السور القرآنية -: إن الأقرب أن يكون ذكر التين والزيتون إشارة إلى أماكن أو ذكريات ذات علاقة بالدين والإيمان . أو ذات علاقة بنشأة الإنسان في أحسن تقويم [وربما كان ذلك في الجنة التي بدأ فيها حياته] . . كي تلتئم هذه الإشارة مع الحقيقة الرئيسية البارزة في السورة ; ويتناسق الإطار مع الحقيقة الموضوعة في داخله . على طريقة القرآن . . . .

فأما الحقيقة الداخلية في السورة فهي هذه: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) . .

ومنها تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء في أحسن تقويم . والله - سبحانه - أحسن كل شيء خلقه . فتخصيص الإنسان هنا وفي مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب , وحسن التقويم , وحسن التعديل . . فيه فضل عناية بهذا المخلوق .

وإن عناية الله بأمر هذا المخلوق - على ما به من ضعف وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد - لتشير إلى أن له شأنا عند الله , ووزنا في نظام هذا الوجود . وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق , سواء في تكوينه الجثماني البالغ الدقة والتعقيد , أم في تكوينه العقلي الفريد , أم في تكوينه الروحي العجيب .

والتركيز في هذا المقام على خصائصه الروحية . فهي التي تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها . إذ أنه من الواضح أن خلقته البدنية لا تنتكس إلى أسفل سافلين .

وفي هذه الخصائص الروحية يتجلى تفوق التكوين الإنساني . فهو مهيأ لأن يبلغ من الرفعة مدى يفوق مقام الملائكة المقربين . كما تشهد بذلك قصة المعراج . . حيث وقف جبريل - عليه السلام - عند مقام , وارتفع محمد بن عبد الله - الإنسان - إلى المقام الأسنى .

بينما هذا الإنسان مهيأ - حين ينتكس - لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط : (ثم رددناه أسفل سافلين) . . حيث تصبح البهائم أرفع منه وأقوم , لاستقامتها على فطرتها , وإلهامها تسبيح ربها , وأداء وظيفتها في الأرض على هدى . بينما هو المخلوق في أحسن تقويم , يجحد ربه , ويرتكس مع هواه , إلى درك لا تملك البهيمة أن ترتكس إليه .

(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) . . فطرة واستعدادا . . (ثم رددناه أسفل سافلين) . . حين ينحرف بهذه الفطرة عن الخط الذي هداه الله إليه , وبينه له , وتركه ليختار أحد النجدين .

(إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . . فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة , ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح , ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها , حتى ينتهوا بها إلى

حياة الكمال في دار الكمال . (فلهم أجر غير ممنون) دائم غير مقطوع .

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8)

فأما الذين يرتكسون بفطرتهم إلى أسفل سافلين , فيظلون ينحدرون بها في المنحدر , حتى تستقر في الدرك الأسفل . هناك في جهنم , حيث تهدر آدميتهم , ويتمحضون للسفول !

(188/821)

فهذه وتلك نهايتان طبيعيتان لنقطة البدء . . إما استقامة على الفطرة القويمة , وتكميل لها بالإيمان , ورفع لها بالعمل الصالح . . فهي واصلة في النهاية إلى كمالها المقدر في حياة النعيم . . وإما انحراف عن الفطرة القويمة , واندفاع مع النكسة , وانقطاع عن النفخة الإلهية . . فهي واصلة في النهاية إلى دركها المقرر في حياة الجحيم .

ومن ثم تتجلى قيمة الإيمان في حياة الإنسان . . إنه المرتقى الذي تصل فيه الفطرة القويمة إلى غاية كمالها . إنه الحبل الممدود بين الفطرة وبارئها . إنه النور الذي يكشف لها مواقع خطاها في المرتقى الصاعد إلى حياة الخالدين المكرمين .

وحين ينقطع هذا الحبل , وحين ينطفئ هذا النور , فالنتيجة الحتمية هي الارتكاس في المنحدر الهابط إلى أسفل سافلين , والانتهاء إلى إهدار الآدمية كلية , حين يتمحض الطين

في الكائن البشري , فإذا هو وقود النار مع الحجارة سواء بسواء !

وفي ظل هذه الحقيقة ينادى "الإنسان":

(فما يكذبك بعد بالدين ؟ أليس الله بأحكم الحاكمين ؟) . .

فما يكذبك بالدين بعد هذه الحقيقة ؟ وبعد إدراك قيمة الإيمان في حياة البشرية ؟ وبعد تبين مصير الذين لا يؤمنون , ولا يهتدون بهذا النور , ولا يمسكون بحبل الله المتين ؟

(أليس الله بأحكم الحاكمين ؟) . . أليس الله بأعدل العادلين حين يحكم في أمر الخلق على هذا النحو ؟ أو . . أليست حكمة الله بالغة في هذا الحكم على المؤمنين وغير المؤمنين ؟ والعدل واضح . والحكمة بارزة . . ومن ثم ورد في الحديث المرفوع عن أبي هريرة: " فإذا قرأ أحدكم (والتين والزيتون) فأتى آخرها : (أليس الله بأحكم الحاكمين ؟) . . فليقل . . بلى وأنا على ذلك من الشاهدين " . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3932 ـ 3934 ﴾

(189/821)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سُورَةُ التِّينِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1)

التين هو الثمرة المعروفة التي لا عجم لها ولا قشرة ، والزيتون هو كذلك الثمرة التي منها الزيت ، وطور سينين هو جبل الطور الذي ناجى موسى عند ربه ، والبلد الأمين هو مكة المكرمة ، والواو للقسم .

وقد اختلف في المراد بالمقسم به في الأول ، والثاني التين والزيتون ، واتفقوا عليه في الثالث والرابع على ما سيأتي .

أما التين والزيتون ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما " أنهما الثمرتان المعروفتان " وهو قول عكرمة والحسن ومجاهد . كلهم يقول : التين : تينكم الذي تأكلون ، والزيتون : زيتونكم الذي تعصرون .

وعن كعب : التين : مسجد دمشق ، والزيتون بيت المقدس . وكذا عن قتادة . وأرادوا منابت التين والزيتون بقرينة الطور والبلد الأمين ، على أن منبت التين والزيتون لعيسى ، وطور سنين لموسى ، والبلد الأمين لمحمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن حمل التين والزيتون على منابتهما لا دليل عليه ، فالأولى إبقاؤهما على أصلهما ، ويشهد لذلك الآتي :

أولاً التين : قالوا : إنه أشبه ما يكون من الثمار بثمر الجنة ، إذ لا عجم له ولا قشر ، وجاء عنه في السنة " أنه صلى الله عليه وسلم أهدى له طبق فيه تين ، فأكل منه ثم قال لأصحابه

: " فلو قلت : إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه ، لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوه ، فإنه يقطع البواسير وينفع من النقرس " ، ذكره النيسابوري ولم يذكر من خرجه .

وذكره ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد ، قائلاً : ويذكر عن أبي الدرداء " أهدى إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم طبق من تين " وساق النص المتقدم . ثم قال : وفي ثبوت هذا نظر .

وقد ذكر المفسرون وابن القيم وصاحب القاموس : للتين خواص ، وقالوا : إنها مما تجعله محلاً للقسم به ، وجزم ابن القيم : أنه المراد في السورة .

(190/821)

ومما ذكروا من خواصه ، قالوا : إنه يجلو رمل الكلى والمثانة ويؤمن من السموم ، وينفع خشونة الحلق والصدر وقصبة الرئة ، ويغسل الكبد والطحال ، وينقي الخلط البلغمي من المعدة ، ويغذي البدن غذاء جيداً ، ويابسه يغذي وينفع العصب .

وقال جالينوس : إذا أكل مع الجوز والسذاب ، قبل أخذ السم القاتل نفع ، وحفظ من الضر ، وينفع السعال المزمن ويدر البول ويسكن العطش الكائن عن البلغم المالح ، ولأكله على الريق منفعة عجيبة .

وقال ابن القيم : لما لم يكن بأرض الحجاز والمدينة ، لم يأت له ذكر في السنة ، ولكن قد أقسم

الله به في كتابه ، لكثرة منافعه وفوائده .

والصحيح : أن المقسم به هو التين المعروف . اه .

وكما قال ابن القيم رحمه الله : لم يذكر في السنة لعدم وجوده بالحجاز والمدينة ، فكذلك لم يأت ذكره في القرآن قط إلاَّ في هذا الموضع ، ولم يكن من منابت الحجاز والمدينة لمنافاة جوه لجوها ، وهو وإن وجد أخيراً إلاَّ أنه لا يجود فيها جودته في غيرها .

فترجح أن المراد بالتين هو هذا المأكول ، كما جاء عمن سمينا : ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن .

أما الزيتون ، فقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في المقدمة ، أن من أنواع البيان إذا اختلف في المعنى المراد ، وكان مجيء أحد المعنيين أو المعاني المحتملة أكثر في القرآن ، فإنه يكون أولى بحمل اللفظ عليه .

(191/821)

وقد جاء ذكر الزيتون في القرآن عدة مرات مقصوداً به تلك الشجرة المباركة ، فذكر في ضمن الأشجار خاصة في قوله تعالى من سورة الأنعام ﴿ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ والزيتون والرمان ﴾ [الأنعام : 99] – إلى قوله – ﴿ إِنَّ فِي ذلكم لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام :

99] ، وسماها بذاتها في قوله تعالى من سورة المؤمنين ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنبُتُ بالدهن وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴾ [المؤمنون : 20] ، وذكرها مع النخل والزرع في عبس في قوله تعالى : ﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ﴾ [عبس : 27-29] ، وذكر من أخص خصائص الأشجار ، في قوله في سورة النور في المثل العظيم المضروب ﴿ الله نُورُ السماوات والأرض مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ المصباح فِي زُجَاجَةٍ الزجاجة كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يضياء وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ على نُورٍ ﴾ [النور : 35] . فوصفها بالبركة ووصف زيتها بأنه يكاد يضيء ، ولو لم تمسسه نار ، واختيارها لهذا المثل العظيم ، يجعلها أهلاً لهذا القسم العظيم هنا .

أما طور سينين : فأكثرهم على أنه جبل الطور ، الذي ناجى الله موسى عنده ، كما جاء في عدة مواطن ، وذكر الطور فيها للتكريم وللقسم فمن ذكره للتكريم قوله تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطور الأيمن ﴾ [مريم : 52] ، ومن ذكره للقسم به قوله تعالى : ﴿ والطور وَكِتَابٍ مُّسْطُورٍ ﴾ [الطور : 1-2] .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الطور قوله ، وقد أقسم الله بالطور في قوله تعالى : ﴿ والتين والزيتون وَطُورِ سِينِينَ ﴾ ا ه .

أما البلد الأمين فهو مكة لقوله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً ﴾ [آل عمران : 97] ، فالأمين بمعنى الأمن ، أي من الأعداء ، أن يحاربوا أهله أو يغزوهم ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاس مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] ، والأمين بمعنى أمن جاء في قول الشاعر :

ألم تعلمي يا أسم ويحك أنني . . . حلفت يميناً لا أخون أميني

يريد : آمني .

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)

وهذا هو المقسم عليه ، والتقويم التعديل كما في قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّماً ﴾ [الكهف : 1-2] ، وأحسن تقويم شامل لخلق الإنسان حساً ومعنى أي شكلاً وصورة وإنسانية ، وكلها من آيات القدرة ودلالة البعث .

وروى عن علي رضي الله عنه :

دواؤك منك ولا تشعر . . . وداؤك منك ولا تبصر

وتزعم أنك جرم صغير . . . وفيك انطوى العالم الكبير

وقد بين تعالى خلقه ابتداء من نطفة فعلقة إلى آخره في أكثر من موضع ، كما في قوله : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يمنى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فسوى فَجَعَلَ مِنْهُ الزوجين الذكر والأنثى أَلَيْسَ

ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَن يُحْيِيَ الموتى ﴾ [القيامة : 37-40] .

وكذلك في هذه السورة التنبيه على البعث بقوله : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدين ﴾ [التين : 7] .

أما الجانب المعنوي فهو الجانب الإنساني ، وهو المتقدم في قوله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ [الشمس : 7] ، على ما قدمنا هناك ، من أن النفس البشرية هي مناط التكليف ، وهو الجانب الذي به كان الإنسان إنساناً ، وبهما كان خلقه في أحسن تقويم ، ونال بذلك أعلى درجات التكريم : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء : 70] .

(193/821)

والإنسان وإن كان لفظاً مفرداً إلاّ أنه للجنس بدلالة قوله : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ [التين : 5-6] ، وهذا مثل ما في سورة ﴿ والعصر إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [العصر : 1-3] ، فباستثناء الجمع منه ، علم أن المراد به الجنس .

والتأكيد بالقسم المتقدم على خلق الإنسان في أحسن تقويم ، يشعر أن المخاطب منكر لذلك ، مع أن هذا أمر ملموس محسوس ، لا ينكره إنسان .

وقد أجاب الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب على ذلك : بأن غير المنكر إذا ظهرت عليه علامات الإنكار ، عوامل معاملة المنكر ، كقول الشاعر :

جاء شقيق عارضاً رمحه . . . وإن بني عمك فيهم رماح

وإمارات الإنكار على المخاطبين ، إنما هي عدم إيمانهم بالعبث ، لأن العاقل لو تأمل خلق الإنسان ، لعرف منه أن القادر على خلقه في هذه السورة ، قادر على بعثه .

وهذه المسألة أفردها الشيخ في سورة الجاثية بتنبيه على قوله تعالى : ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية : 4] ، وتكرر هذا البحث في عدة مواضع ، وأصرح دلالة على هذا المعنى ما جاء في آخر يس ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحيِي العظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : 78-79] .

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5)

قيل : رد إلى الكبر والهرم وضعف الجسم والعقل .

إن الثمانين وبلغتها . . . قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الخلق ﴾ [يس : 68] .

وذكر الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذا القول ، وساق معه قوله : ﴿ اللهُ الذي خَلَقَكُمْ مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً ﴾ [الروم : 54] ، وساق آية التين هذه ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ [التين : 5] ، وقال : على أحد التفسيرين ، وقوله : ﴿ وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ [الحج : 5] ، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس رواه ابن جرير .

وقيل : رد إلى النار بسبب كفره ، وهذا مروي عن مجاهد والحسن .

وقد رجح ابن جرير المعنى الأول ، وهو كما ترى ، ما يشهد له القرآن في النصوص التي قدمنا ، واستدل لهذا الوجه من نفس السورة . وذلك لأن الله تعالى قال في آخرها ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بالدين ﴾ [التين : 7] ، أي بعد هذه الحجج الواضحة ، وهي بدء خلق الإنسان وتطوره إلى أحسن أمره ، ثم رده إلى أحط درجات العجز أسفل سافلين ، وهذا هو المشاهد لهم ، يحتج به عليهم .

أما رده إلى النار فأمر لم يشهده ولو يؤمنوا به ، فلا يصلح أن يكون دليلاً يقيمه عليهم ، لأن من شأن الدليل أن ينتقل من المعلوم إلى المجهول والبعث هو موضع إنكارهم ، فلا يحتج عليهم لإثبات ما ينكرونه بما ينكرونه ، وهذا الذي ذهب إليه واضح .

ومما يشهد لهذا الوجه : أن حالة الإنسان هذه في نشأته من نطفة ، فعلقة ، فطفلاً ، فغلاماً ، فشيخاً ، فهرم ، وعجز . جاء مثلها في النبات وكلاهما من دلائل البعث ، كما في قوله : ﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ [الحديد : 20] – إلى قوله – ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخرة عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ الله وَرِضْوَانٌ ﴾ [الحديد : 20] ، وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأرض ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لذكرى لأُوْلِي الألباب ﴾ [الزمر : 21] .

فكذلك الإنسان ، لأنه كالنبات سواء كما قال تعالى : ﴿ والله أَنبَتَكُمْ مِّنَ الأرض نَبَاتاً ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ [نوح : 17–18] .

ويكون الاستثناء إلا الذين آمنوا فإنهم لا يصلون إلى حالة الخوف وأرذل العمر ، لأن المؤمن مهما طال عمره ، فهو في طاعة ، وفي ذكر الله فهو كامل العقل ، وقد تواتر عند العامة والخاصة أن حافظ كتاب الله المداوم على تلاوته ، لا يصاب بالخوف ولا الهذيان .

وقد شاهدنا شيخ القراء بالمدينة المنورة للشيخ حسين الشاعر ، لا زال على قيد الحياة

عند كتابة هذه الأسطر تجاوز المائة بكثير ، وهو لا يزال يقرئ تلاميذه القرآن ، ويعلمهم القراءات العشر ، وقد يسمع لأكثر من شخص يقرءون في أكثر من موضع وهو يضبط على الجميع .

وقد روى الشوكاني مثله ، عن ابن عباس أنه قال ، ذلك .

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6)

أي غير مقطوع أو غير ممنون به عليهم .

(196/821)

وعلى الأول : فالأجر هو الثواب ، إما بدوام أعمالهم لكمال عقولهم ، وإما بأن الله يأمر الملائكة أن تكتب لهم من الأجر ما كانوا يعملونه في حال فوتهم من صيام وقيام ، وتصدق من كسبهم ونحو ذلك ، للأحاديث في حق المريض والمسافر ، فيظل ثواب أعمالهم مستمراً عليهم غير مقطوع .

وعلى الثاني : فيكون الجر هو النعيم في الجنة يعطونه ولا يمنّ به عليهم ، ولا يقطع عنهم كما قال تعالى : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وِظِلُّهَا تِلْكَ عقبى الذين اتقوا ﴾ [الرعد : 35] .

تنبيه

وهنا وجهة نظر من وجهين : وجه خاص وآخر عام .

أما الخاص : فإن كلمة رددناه ، فالرد يشعر إلى رد لأمر سابق ، والأمر السابق هو حلق الإنسان في أحسن تقويم ، وأحسن تقويم شامل لشكله ومعناه ، أي جسمه وإنسانيته ، فرده إلى أسفل سافلين ، يكون بعدم الإيمان كالحيوان بل هو في تلك الحالة أسفل دركاً من الحيوان ، وأشرس من الوحش ، فلا إيمان يحكمه ولا إنسانية تهذبه ، فيكون طاغية جباراً يعيث في الأرض فساداً ، وعليه يكون الاستثناء ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فبإيمانهم وعملهم الصالحات يترفعون عن السفالة ، ويرتفعون إلى الأعلى فلهم أجر غير ممنون .

والوجهة العامة وهي الشاملة لموضوع السورة من أولها ابتداء من التين والزيتون وما معه في القسم إلى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين : 4-6] الآية .

(197/821)

فإنه إن صح ما جاء في قصة آدم في قوله : ﴿ فَأَكَلاَ مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة ﴾ [طه : 121] . روى المفسرون أن آدم لما بدت له

سوأته ذهب إلى أشجار الجنة ليأخذ من الورق ليستر نفسه ، وكلما جاء شجرة زجرته ولم تعطه ، حتى مرّ بشجرة التين فأعطته ، فأخلفها الله الثمرة مرتين في السنة ، وكافأها بجعل ثمرتها باطنها كظاهرها لا قشر لها ولا عجم .

وقد روى الشوكاني في أنها شجرة التين التي أخذ منها الورق . فقال : وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : " لما أسكن الله آدم الجنة كساه سربالاً من الظفر ، فلما أصاب الخطيئة سلبه السربال فبقي في أطراف أصابعه " .

قال : وأخرج الفريابي وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن ابن عباس قال : "كان لباس آدم وحواء كالظفر – وذكر الأثر – وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة" قال : ينزعان ورق التين ، فيجعلانه على سوأتهما .

وبهذا النقل يكون ذكر التين هنا مع خلق الإنسان في أحسن تقويم ، ثم رده أسفل سافلين إلاَّ الذين آمنوا سر لطيف جداً ، وهو إشعار الإنسان الآن ، أن جنس الإنسان كله بالإنسان الأول أبي البشر ، وقد خلقه الله في أحسن حالة حساً ومعنى ، حتى رفعه إلى منزلة إسجاد الملائكة وله وسكناه الجنة ، فهي أعلى منزلة التكريم ، وله فيها أنه لا يجوع ولا يعرى ولا يظمأ وكان ما كان ، فدلاهما بغرور وانتقلا من أعلى عليين إلى أسفل سافلين ، فنزل إلى الأرض يحرث ويزرع ويحصد ويطحن ويعجن ويخبز ، حتى يجد لقمة العيش ، فهذا خلق

الإنسان في أحسن تقويم ورده أسفل سافلين .

وهذا شأن أهل الأرض جميعاً ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون ، برجوعهم إلى الجنة كما رجع إليها آدم بالتوبة ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، ثم اجتباه ربه ، فتاب عليه وهدى .

(198/821)

وإن في ذكر البلد الأمين لترشيح لهذا المعنى ، لأن الله جعل الحرم لأهل مكة أمناً كصورة الآمن في الجنة ، فإن امتثلوا وأطاعوا نعموا بهذا الأمن ، وإن تمردوا وعصوا ، فيخرجون منها ويحرمون أمنها .

وهكذا تكون السورة ربطاً بين الماضي والحاضر ، وانطلاقاً من الحاضر إلى المستقبل ، فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين . فيما فعل بآدم وفيما يفعل بأولئك ، حيث أنعم عليهم بالأمن والعيش الرغد ، وإرسالك إليهم وفيما يفعل لمن آمن أو بمن يكفر ، اللّهم بلى .

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7)

فالدين هو الجزاء كما في سورة الفاتحة ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] والخطاب قيل

للرسول صلى الله عليه وسلم .

وأن ما في قوله : فما هي بمعنى من أي ، فمن الذي يكذبك بعد هذا البيان ، بمجيء الجزاء والحساب ليلقى كل جزاء عمله .

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8)

السؤال كما تقدم في ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ [الشرح : 1] ، أي للإثبات ، وهو سبحانه وتعالى بلا شك أحكم الحاكمين ، كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأها قال : " اللهم بلى "كما سيأتي .

وأحكم الحاكمين ، قيل : أفعل تفضيل من الحكم أي أعدل الحاكمين ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ [الكهف : 49] .

وقيل : من الحكمة ، أي في الصنع والإتقان والخلق ، فيكون اللفظ مشتركاً ، ولا يبعد أن يكون من المعنيين معاً ، وإن كان هو في الحكم أظهر ، لأن الحكيم من الحكمة يجمع على الحكماء .

فعلى القول بالأمرين : يكون من استعمال المشترك في معنييه معاً ، وهو هنا لا تعارض بل هما متلازمان ، لأن الحكيم لا بد أن يعدل ، والعادل لا بد أن يكون حكيماً يضع الأمور في مواضعها .

وقد بين تعالى هذا المعنى في عدة مواطن كقوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات كالمفسدين فِي الأرض أَمْ نَجْعَلُ المتقين كالفجار ﴾ [ص : 28] ، الجواب : لا ، وكقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أَن نَّجْعَلَهُمْ كالذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : 21] ، وفي قوله ﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ بيان لعدم عدالتهم في الحكم ، وبعده عن الحكمة .

ومعلوم أن عدم التسوية بينهم في مماتهم أنه بالبعث والجزاء ، فهو سبحانه أحكم الحاكمين في صنعه وخلقه . خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وأعدل الحكام في حكمه لم يسوّ بين المحسن والمسيء .

وقد اتفق المفسرون على رواية الترمذي لحديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً : " من قرأ والتين والزيتون ، فقرأ أليس الله لأحكم الحاكمين ، فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين " .

ومثله عن جابر مرفوعاً ، وعن ابن عباس قوله : " سبحانك اللهم ، فبلى " والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ التِّينِ

[فِيهَا خَمْسُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ : قِيلَ : هُوَ حَقِيقَةٌ .

وَقِيلَ : عَبَّرَ بِهِ عَنْ دِمَشْقَ أَوْ جَبَلِهَا ، أَوْ مَسْجِدِهَا ، وَلَا يُعْدَلُ عَنْ الْحَقِيقَةِ إلَى الْمَجَازِ إلَّا بِدَلِيلٍ .

وَإِنَّمَا أَقْسَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِالتِّينِ لِيُبَيِّنَ فِيهِ [وَجْهَ] الْمِنَّةِ الْعُظْمَى ، فَإِنَّهُ جَمِيلُ الْمَنْظَرِ ، طَيِّبُ الْمَخْبَرِ ، نَشِرُ الرَّائِحَةِ ، سَهْلُ الْجَنْيِ ، عَلَى قَدْرِ الْمُضْغَةِ ، وَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ فِيهِ : انْظُرْ إلَى التِّينِ فِي الْغُصُونِ ضُحًى مُمَزَّقَ الْجِلْدِ مَائِلَ الْعُنُقِ كَأَنَّهُ رَبُّ نِعْمَةٍ سُلِبَتْ فَعَادَ بَعْدَ الْجَدِيدِ فِي الْخَلَقِ أَصْغَرُ مَا فِي النُّهُودِ أَكْبَرُهُ لَكِنْ يُنَادَى عَلَيْهِ فِي الطُّرُقِ وَلِامْتِنَانِ الْبَارِي سُبْحَانَهُ ، وَتَعْظِيمِ النِّعْمَةِ فِيهِ ، فَإِنَّهُ مُقْتَاتٌ مُدَّخَرٌ ، فَلِذَلِكَ قُلْنَا بِوُجُوبِ الزَّكَاةِ فِيهِ .

وَإِنَّمَا فَرَّ كَثِيرٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ مِنْ التَّصْرِيحِ بِوُجُوبِ الزَّكَاةِ فِيهِ تَقِيَّةَ جَوْرِ الْوُلَاةِ ، فَإِنَّهُمْ يَتَحَامَلُونَ فِي الْأَمْوَالِ الزَّكَائِيَّةِ ، فَيَأْخُذُونَهَا مَغْرَمًا ، حَسْبَمَا أَنْذَرَ بِهِ الصَّادِقُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَرِهَ الْعُلَمَاءُ أَنْ يَجْعَلُوا لَهُمْ سَبِيلًا إلَى مَالٍ آخَرَ يَتَشَطَّطُونَ فِيهِ .

وَلَكِنْ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يُخْرِجَ عَنْ نِعْمَةِ رَبِّهِ بِأَدَاءِ حَقِّهِ .

وَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ أَوْ غَيْرِهَا : لَا زَكَاةَ فِي الزَّيْتُونِ .

وَالصَّحِيحُ وُجُوبُ الزَّكَاةِ فِيهِمَا .

(201/821)

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ : [يَعْنِي مَكَّةَ لِمَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ الْأَمْنِ حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي آلِ عِمْرَانَ وَالْعَنْكَبُوتِ وَغَيْرِهِمَا] ، وَبِهَذَا احْتَجَّ مَنْ قَالَ : إنَّهُ أَرَادَ بِالتِّينِ دِمَشْقَ ، وَبِالزَّيْتُونِ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ، فَأَقْسَمَ اللَّهُ بِجَبَلِ دِمَشْقَ ؛ لِأَنَّهُ مَأْوَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبِجَبَلِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ؛ لِأَنَّهُ مَقَامُ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ ، وَبِمَكَّةَ ؛ لِأَنَّهُ أَثَرُ إبْرَاهِيمَ وَدَارُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ : قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : لَيْسَ لِلَّهِ تَعَالَى خَلْقٌ هُوَ أَحْسَنُ مِنْ الْإِنْسَانِ ، فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ حَيًّا عَالِمًا ، قَادِرًا ، مُرِيدًا ، مُتَكَلِّمًا ، سَمِيعًا ، بَصِيرًا ، مُدَبِّرًا ، حَكِيمًا ، وَهَذِهِ صِفَاتُ الرَّبِّ ، وَعَنْهَا عَبَّرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ ، وَوَقَعَ الْبَيَانُ بِقَوْلِهِ : ﴿ إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ ﴾ ، يَعْنِي عَلَى صِفَاتِهِ الَّتِي قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا .

وَفِي رِوَايَةٍ عَلَى صُورَةِ الرَّحْمَنِ .

وَمِنْ أَيْنَ تَكُونُ لِلرَّجُلِ صِفَةٌ مُشَخَّصَةٌ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَعَانِيَ ، وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى الْحَدِيثِ فِي مَوْضِعِهِ بِمَا فِيهِ بَيَانُهُ .

(202/821)

وَقَدْ أَخْبَرَنَا الْمُبَارَكُ بْنُ عَبْدِ الْجَبَّارِ الْأَزْدِيُّ ، أَخْبَرَنَا الْقَاضِي أَبُو الْقَاسِمِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي عَلِيٍّ الْقَاضِي الْمُحْسِنُ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : كَانَ عِيسَى بْنُ مُوسَى الْهَاشِمِيُّ يُحِبُّ زَوْجَهُ حُبًّا شَدِيدًا قَالَ لَهَا يَوْمًا : أَنْتِ طَالِقٌ ثَلَاثًا إِنْ لَمْ تَكُونِي أَحْسَنَ مِنْ الْقَمَرِ ، فَنَهَضَتْ وَاحْتَجَبَتْ عَنْهُ ، وَقَالَتْ : طَلَّقْتَنِي .

وَبَاتَ بِلَيْلَةٍ عَظِيمَةٍ .

وَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى دَارِ الْمَنْصُورِ ، فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ [وَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنْ تَمَّ عَلَيَّ طَلَاقُهَا تَصَلَّفَتْ نَفْسِي غَمًّا ، وَكَانَ الْمَوْتُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ الْحَيَاةِ] ؛ وَأَظْهَرَ لِلْمَنْصُورِ جَزَعًا عَظِيمًا ، فَاسْتَحْضَرَ الْفُقَهَاءَ ، وَاسْتَفْتَاهُمْ ، فَقَالَ جَمِيعُ مَنْ حَضَرَ : قَدْ طَلُقَتْ ، إلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ ، فَإِنَّهُ كَانَ سَاكِتًا ، فَقَالَ لَهُ الْمَنْصُورُ : مَالَك لَا تَتَكَلَّمُ ؟

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، الْإِنْسَانُ أَحْسَنُ الْأَشْيَاءِ ، وَلَا شَيْءَ أَحْسَنُ مِنْهُ [فَقَالَ الْمَنْصُورُ لِعِيسَى بْنِ مُوسَى : الْأَمْرُ كَمَا قَالَ ؛ فَأَقْبِلْ عَلَى زَوْجِكَ] ، فَأَرْسَلَ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ إِلَى زَوْجِهِ أَنْ أَطِيعِي زَوْجَكِ ، وَلَا تَعْصِيهِ ، فَمَا طَلَّقَكِ .

(203/821)

فَهَذَا يَدُلُّكَ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ أَحْسَنُ خَلْقِ اللَّهِ بَاطِنًا وَ [هُوَ أَحْسَنُ خَلْقِ اللَّهِ] ظَاهِرًا جَمَالَ هَيْئَةٍ ، وَبَدِيعَ تَرْكِيبٍ : الرَّأْسُ بِمَا فِيهِ ، وَالصَّدْرُ بِمَا جَمَعَهُ ، وَالْبَطْنُ بِمَا حَوَاهُ ، وَالْفَرْجُ وَمَا طَوَاهُ ، وَالْيَدَانِ وَمَا بَطَشَتَاهُ ، وَالرِّجْلَانِ وَمَا احْتَمَلَتَاهُ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَتْ الْفَلَاسِفَةُ : إنَّهُ الْعَالَمُ الْأَصْغَرُ ؛ إذْ كُلُّ مَا فِي الْمَخْلُوقَاتِ أُجْمِعَ فِيهِ هَذَا عَلَى الْجُمْلَةِ وَكَيْفَ عَلَى التَّفْصِيلِ ، بِتَنَاسُبِ الْمَحَاسِنِ ، فَهُوَ أَحْسَنُ مِنْ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ بِالْعَيْنَيْنِ جَمِيعًا .

وَقَدْ بَيَّنَّا الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ ، وَبِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي رُكِّبَ عَلَيْهَا الْإِنْسَانُ اسْتَوْلَى عَلَى جَمَاعَةِ الْكُفْرَانِ ، وَغَلَبَ عَلَى طَائِفَةِ الطُّغْيَانِ ، حَتَّى قَالَ : أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ، وَحِينَ عَلِمَ اللَّهُ هَذَا مِنْ عَبْدِهِ ، وَقَضَاؤُهُ صَادِرٌ مِنْ عِنْدِهِ ، رَدَّهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ وَهِيَ : الْآيَةُ الرَّابِعَةُ بِأَنْ جَعَلَهُ مَمْلُوءًا قَذَرًا ، مَشْحُونًا نَجَاسَةً ، وَأَخْرَجَهَا عَلَى ظَاهِرِهِ

إِخْرَاجًا مُنْكَرًا عَلَى وَجْهِ الِاخْتِيَارِ تَارَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْغَلَبَةِ أُخْرَى، حَتَّى إِذَا شَاهَدَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِهِ رَجَعَ إِلَى قَدْرِهِ.

(204/821)

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْله تَعَالَى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾: قَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿ إذَا قَرَأَ أَحَدُكُمْ: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ فَلْيَقُلْ: بَلَى، وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنْ الشَّاهِدِينَ ﴾.

وَمِنْ رِوَايَةِ غَيْرِهِ: ﴿ إذَا قَرَأَ أَحَدُكُمْ أَوْ سَمِعَ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى فَلْيَقُلْ: بَلَى ﴾.

وَهَذِهِ أَخْبَارٌ ضَعِيفَةٌ، أَمَا إنَّ ذَلِكَ يَتَعَيَّنُ فِي الِاعْتِقَادِ لِأَجْلِ مَا يَلْزَمُ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ مِنْ الِانْقِيَادِ.

وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: ﴿ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَتَمَةَ، فَصَلَّى فِيهَا بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾، وَهُوَ صَحِيحٌ.

وَفِي الْبُخَارِيِّ: سَمِعْت الْبَرَاءَ يَقُولُ: ﴿ إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي سَفَرٍ، فَقَرَأَ فِي إحْدَى الرَّكْعَتَيْنِ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾، فَفَسَّرَ الْمَعْنَى الَّذِي أَوْجَبَ قِرَاءَتَهَا مَعَ

قَصْرِهَا فِي صَلَاةِ الْعِشَاءِ وَهُوَ السَّفَرُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(205/821)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة التين

وَطُورِ سِينِينَ (2)

قوله : ﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ : الطُّور جَبَلٌ . وسينين : اسم مكانٍ فأُضيف الجبل للمكان الذي هو به . قال الزمخشري : " ونحو سِينون بَيْرُوْن في جواز الإِعرابِ بالواو والياء والإِقرارِ على الياءِ وتحريكِ النونِ بحركات الإِعراب " وقال أبو البقاء : " هو لغةٌ في سَيْناء " انتهى . وقرأ العامَّة بكسرِ السين . وابنُ أبي إسحاق وعمرو بن ميمون وأبو رجاءٍ بفتحها ، وهي لغة بكرٍ وتميم . وقرأ عمر بن الخطاب وعبد الله والحسن وطلحة " سِيْناءَ " بالكسر ، والمد ، وعمرُ أيضاً وزيدُ بن علي بفتحِها والمدّ ، وقد ذُكرا في المؤمنين ، وهذه لغاتٌ اختلفَتْ في هذا الاسمِ السُّرْيانيِّ على عادةِ العرب في تلاعُبها بالأسماء الأعجمية .

وقال الأخفش: "سينين شجرٌ، الواحدة سِيْنِية" وهو غريبٌ جداً غيرُ معروفٍ عن أهلِ التفسير.

وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3)

قوله: ﴿ الأمين ﴾: هذا فَعِيل للمبالغةِ، أي: آمِنَ مَنْ فيه، ومَنْ دخله مِنْ إنسِيّ وطيرٍ وحيوانٍ، ويجوزُ أَنْ يكونَ مِنْ أَمُنَ الرجل بضمِ الميم أمانةً فهو أمينٌ، وأمانتُه. حِفْظُه مَنْ دَخَله كما يَحْفَظُ الأمينُ ما يُؤْتَمَنُ عليه. ويجوزُ أَنْ يكونَ بمعنى مَفْعول، مِنْ أَمِنَة لأنه مأمونُ الغَوائل.

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)

قوله: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ﴾: هذا هو المُقْسَمُ عليه.

(206/821)

قوله: ﴿ في أَحْسَنِ تَقْوِيم ﴾ صفةٌ لمحذوفٍ، أي: في تقويمٍ أحسنِ تقويم. وقال أبو البقاء: في أحسنِ تقويمٍ في موضع الحالِ من "الإنسان" وأراد بالتقويم القَوام لأنَّ التقويمَ فِعْلٌ وذاك وَصْفٌ للخالقِ لا للمخلوقِ. ويجوزُ أَنْ يكونَ التقديرُ: في أحسنِ قَوامِ التقويم، فحُذِف المضافُ. ويجوزُ أَنْ تكونَ "في" زائدةً، اي: "قَوَّمْناه أحسنَ تقويم" انتهى، ولا حاجةَ

إلى هذه التكلُّفاتِ

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5)

قوله : ﴿ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ : يجوز فيه وجهان ، أحدهما : أنه حالٌ من المفعول . والثاني : أنه صفةٌ لمكانٍ محذوفٍ ، أي : مكاناً أسفلَ سافِلين وقرأ عبد الله " السَّافِلين " معرَّفاً .

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6)

قوله : ﴿ إلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ : فيه وجهان أحدُهما : أنه متصلٌ على أنَّ المعنى : رَدَدْناه أسفلَ مِنْ سِفْلٍ خلْقاً وتركيباً يعني : أقبحَ مِنْ خَلْقِه وأَشْوَهَه صورةً ، وهم أهلُ النار فالاتصالُ على هذا واضحٌ ، والثاني : أنه منقطعٌ على أنَّ المعنى : ثم رَدَدْناه بعد ذلك التقويم والتحسينِ أسفَلَ مِنْ سِفْلٍ في أحسنِ الصورةِ والشكلِ حيث نَكَّسْناه في خلْقِه فقوَّسَ ظهرُه وضَعُفَ بصرُه وسَمْعُه . والمعنى : ولكن الذين كانوا صالحين مِنْ الهرمى فلهم ثوابٌ دائمٌ ، قاله الزمخشري ملخصاً .

فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7)

قوله : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ : " ما " استفهاميةٌ في محلِّ رفع بالابتداء . والخبرُ الفعلُ بعدها ، والمخاطَبُ الإِنسانُ على طريقةِ الالتفاتِ وقيل : المخاطَبُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فعلى الأول يكون المعنى : فما يجعلك كاذباً بسبب الدِّين وإنكارِه بعد هذا الدليل ، يعني أنك تُكَذِّب إذا كَذَّبْتَ بالجزاءِ ؛ لأنَّ كلَّ مكذِّب بالحق فهو كاذبٌ فأيُّ شيءٍ يَضْطَرُّكَ إلى أن تكون كاذباً بسبب الجزاءِ والباءُ مِثْلُها في قولِه تعالى : ﴿ على الذين يَتَوَلَّوْنَهُ والذين هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : 100] . وعلى الثاني يكون المعنى : فماذا الذي يُكَذِّبُك فيما تُخْبِرُ به مِنْ الجزاء والبعث وهو الدِّين بعد هذه العِبَرِ التي يُوْجِبُ النظرُ فيها صحةَ ما قلتَ؟ قاله الفراء والأخفش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 11 صـ 51.

53﴾

(208/821)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الأسفل)

قد ورد فى القرآن على ثلاثة أَوجهٍ :

الأَوّل : بمعنى أَدْون ، فى مقابل الفَوْق : ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ ، ﴿ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ﴾ .

الثانى : بمعنى الخسران لأَهل العقوبة : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾ أَى الأَخسرين فى العقوبة .

الثالث : بمعنى الأَرذل : ﴿ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ : أَرذل الأَرذلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 158 ﴾

(209/821)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة التين

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

اسم الله يدل على جلال من لم يزل ، ويخبر عن جمال من لم يزل ، يتنبه على إقبال من لم يزل ، يشير إلى إفضال من لم يزل ن فالعارف شهد جلاله فطاش ، والصفي شهد جماله فعاش ن والولي شهد إقباله فارتاش ن والمريد يشهد إفضاله فلا يطلب مع كفايته المعاش .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ .

أقسم بالتين لما به من عظيم المِنّةِ على الخَلْقِ حيث لم يجعل فيه النّوى ، وخَلَّصه من شائب التنغيص ، وجعله على مقدار اللُّقْمة لتكمل به اللذّة . وجعل في " الزيتون " من المنافع مثل الاستصباح والتأدُّم والاصطباغ به .

﴿ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ .

الجبل الذي كَلَّمَ اللهُ موسى عليه . ولموضعِ قَدَمِ الأحباب حُرْمةٌ .

﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ .

يعني : مكة ، ولهذا البلد شرف كبير ، فهي بلدُ الحبيب ، وفيها البيت ؛ ولبيتِ الحبيبِ وبَلَدِ الحبيبِ قَدْرٌ ومنزلة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ .

في اعتدال قامته ، وحُسْنِ تركيب أعضائه . هذا يدل على أنّ الحقّ - سبحانه - ليس له صورة ولا هيئة ؛ لأن كلَّ صفةٍ اشتراك فيها الخَلْقُ والحقُّ فالمبالغةُ للحقّ . . كالعلم ، فالأعلمُ اللَّهُ ، والقدرة : فالأقدرُ اللَّهُ فلو اشترك الخَلْقُ والخالقُ في التركيب والصورة لكانَ الأحسن في الصورة اللَّهُ . . . فلمّا قال : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ . عُلِمَ أَنَّ الحقّ - سبحانه - مُنَزَّةٌ عن التقويم وعن الصورة .

قوله جلّ ذكره: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ .

أي: إلى أراذل العمر وهو حال الخَرَفِ والهَرَم.

(210/821)

ويقال: ﴿ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ : إلى النار والهاوية في أقبح صورة؛ فيكون أوّلُ الآيةِ عامّاً وآخرها خاصًّا بالكفّار.. كما أنّ التأويلَ الأولَ - الذي هو حال الهَرَم - خاصٌّ في البعض؛ إذ ليس كلُّ الناسِ يبلغون حالَ الهَرَم.

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

أي: غير منقوص.

ويقال: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أي: إلى حال الشقاوة والكفر إلاّ المؤمنين.

قوله جلّ ذكره: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ .

أيها الأنسانُ.. مع كل هذا البرهان والبيان؟

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ . انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 746.745﴾

(211/821)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة التّين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)

ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (5)

الإعراب :

(والتين) متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (هذا) اسم إشارة في محلّ جرّ معطوف على التين ، (البلد) بدل من اسم الإشارة - أو عطف بيان عليه - مجرور (اللام) لام القسم (قد) حرف تحقيق (في أحسن) متعلّق بحال من الإنسان (ثم) للعطف (أسفل) حال منصوبة من ضمير الغائب (في رددناه) " 1 " . .

---

(1) أو هو ظرف منصوب متعلّق بـ (رددناه) بحذف موصوف أي مكانا أسفل .

جملة: " (أقسم) بالتين... " لا محلّ لها ابتدائيّة.

وجملة: " خلقنا... " لا محلّ لها جواب القسم.

وجملة: " رددناه... " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم.

الصرف:

(1) التين: اسم علم لجبل بعينه في الشام، أو اسم الفاكهة المعروفة اسم جنس، وزنه فعل بكسر فسكون.

(الزيتون)، اسم علم لجبل بعينه في الشام، أو اسم الفاكهة المعروفة اسم جنس، وزنه فعلون بفتح فسكون.

(2) سينين: اسم علم لجبل بعينه في مصر، قيل معناه المبارك، وزنه فعليل بكسر الفاء وسكون العين.

(4) تقويم: مصدر قياسيّ للرباعيّ قوّم، وزنه تفعيل، معناه التعديل والاستقامة.

[سورة التين (95): آية 6]

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6)

الإعراب:

(إلّا) للاستثناء " 1 "، (الذين) موصول في محلّ نصب مستثنى "

، (الفاء) زائدة (لهم) متعلّق بخبر مقدم للمبتدأ (أجر)، (غير) نعت لأجر مرفوع.

جملة: "آمنوا ... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "عملوا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

وجملة: "لهم أجر ... " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

---

(1) أو بمعنى لكن.

(2) والنصب على الاستثناء المتّصل أو المنقطع بحسب الآراء المختلفة في تفسير الآية الكريمة.. وهو مبتدأ إن كان (إلّا) بمعنى لكن خبره جملة لهم أجر بزيادة الفاء.

[سورة التين (95) : آية 7]

فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة (ما) اسم استفهام للإنكار في محلّ رفع مبتدأ (بعد) ظرف مبني على الضمّ في محلّ نصب متعلّق بـ (يكذّبك) " 1 "، (بالدين) متعلّق بـ (يكذّبك).

جملة: "ما يكذّبك ... " لا محلّ لها استئنافيّة.

البلاغة

الالتفات: في قوله تعالى " فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ " .

خطاب للإنسان على طريقة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، لتشديد التوبيخ والتبكيت،

أي فما يجعلك كاذبا بسبب الجزاء وإنكاره بعد هذا الدليل.

[سورة التين (95) : آية 8]

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ (8)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التقريريّ (أحكم) مجرور لفظا منصوب محلا خبر ليس.

جملة: " أليس الله بأحكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(أحكم)، اسم التفضيل من الثلاثيّ حكم بمعنى قضى، وزنه أفعل.

---

(1) انقطع الظرف عن الإضافة لفظا لا معنى فبني على الضمّ، وأصل الكلام: ما يكذّبك بعد ذكر خلق الإنسان وردّه . . .

الفوائد :

- ذكر ما لا يتعلق من حروف الجر :

يستثني من قولنا : "لا بد لحرف الجر من متعلق " الحرف الزائد كالباء ومن في قوله تعالى (وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً) (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ) ، وذلك لأن معنى التعلق الارتباط المعنوي ، والأصل أن أفعالا قصرت عن الوصول إلى الأسماء فأعينت على ذلك بحروف الجر . والزائد إنما دخل في الكلام تقوية له وتوكيدا ، ولم يدخل للربط . وقول الحوفي إن الباء في قوله تعالى (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) متعلقة وهم ، نعم يصح في اللام المقوية أن يقال إنها متعلقة بالعامل المقوي ، كقوله تعالى (مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ) و(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ) و(إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ) لأن التحقيق أنها ليست زائدة محضة ، لما تخيل في العامل من الضعف الذي نزله منزلة القاصر ، ولا معدية محضة لاطراد صحة إسقاطها ، فلها منزلة بين المنزلتين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 360 . 363 ﴾

(215/821)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(95) سورة التّين

مكيّة وآياتها ثمان

[سورة التين (95) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)

ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ (5) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6) فَما يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحاكِمِينَ (8)

الإعراب:

)

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ) الواو حرف قسم وجر والتين مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف والزيتون نسق أيضا وطور سينين نسق أيضا وقد تقدم القول فيه ونقول هنا أن الطور وهو الجبل أضيف إلى سينين وهي البقعة المباركة فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة ويجوز أن يعرف إعراب جمع المذكر السالم ويجوز أن تلزمه الياء في جميع الأحوال وتحرّك النون بحركات الإعراب ولم ينصرف سينين كما لا ينصرف سيناء لأنه جعل اسما للبقعة

أو الأرض فهو علم أعجمي ولو جعل اسما للمكان أو المنزل لانصرف لأنك سمّيت به مذكرا وقرأ عمر بن الخطاب وعبيد الله والحسن وطلحة سيناء بالكسر والمد وعمر أيضا وزيد بن علي بفتحها والمدّ وقد ذكر في سورة " المؤمنون " وهذه لغات اختلفت في هذا الاسم السرياني على عادة العرب في تلاعبها بالأسماء الأعجمية ، هذا وقد أقسم اللّه تعالى بالتين والزيتون لأنهما عجيبان من بين أصناف الأشجار المثمرة وفي الكشاف " أنه أهدي إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه : كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير وتنفع من النقرس " ومرّ معاذ بن جبل بشجرة الزيتون فأخذ منها قضيبا واستاك به وقال : سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقول : نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة يطيّب الفم ويذهب بالحفرة " وقال الجاحظ في كتاب الحيوان : " والتين والزيتون دمشق وفلسطين " والخلاف حول ذلك كثير وإن أردت المزيد فارجع إلى المطولات (وَهذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ) نسق على ما قبله والبلد بدل من اسم الإشارة والأمين نعت والمراد به مكة سمّيت أمينا لأن من دخلها كان آمنا قبل الإسلام ، أما سمعت قوله تعالى " أ ولم يروا أنّا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم " فأما في الإسلام فمن أصاب حدّا ثم أوى إلى الحرم يقام عليه الحدّ إن كان من أهله وإن لم يكن من أهله لم يشار ولم يبايع وضيّق عليه حتى يخرج من

الحرم ثم يقام عليه الحدّ (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) اللام جواب القسم وقد حرف تحقيق وخلقنا فعل وفاعل والإنسان مفعول به وفي أحسن متعلقان بمحذوف حال من الإنسان وتقويم مضاف إليه ، وعبارة الزمخشري في هذا الصدد طريفة جدا وهي من الإنشاء العالي لذلك اقتبسناها : " في أحسن تقويم : في أحسن تعديل لشكله وصورته وتسوية

لأعضائه ثم كان عاقبة أمره حين لم يشكر نعمة تلك الخلقة الحسنة القويمة السوية أن رددناه أسفل من سفل خلقا وتركيبا يعني أقبح من قبح صورة وأشوهه خلقة وهم أصحاب النار أو أسفل من سفل من أهل الدركات أو ثم رددناه بعد ذلك التقويم والتحسين أسفل من سفل حيث نكسناه في خلقه فتقوّس ظهره بعد اعتداله وابيضّ شعره بعد سواده وتشنّن جلده وكان بضّا وكلّ سمعه وبصره وكانا حديدين وتغير منه كل شيء فمشيه دليف وصوته خفات وقوته ضعف وشهامته خرف " ومن العجيب أن يقول أبو حيان : " وقد أخذ الزمخشري أقوال السلف وحسنها ببلاغته وانتقاء ألفاظه " وبعد أن يورد عبارته بنصها يقول : " وهذا فيه تكثير " (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ

سافِلِينَ) ثم حرف عطف للترتيب مع التراخي ورددناه فعل ماض وفاعل ومفعول به وأسفل سافلين حال من المفعول واختار آخرون أن يكون صفة لمكان محذوف أي مكانا أسفل سافلين فهو ظرف مكان ولا أدري لم غاب عن بال المعربين أنه مفعول ثان لرددناه لأن ردّ تنصب مفعولين قال تعالى: "لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفّارا حسدا" فالكاف والميم مفعول أول وكفّارا مفعول ثان وحسدا مفعول لأجله لا سيما وقد استوفت شرطها في نصب المفعولين وهو أن تكون بمعنى رجع قال:

فردّ شعورهنّ السود بيضا وردّ شعورهنّ البيض سودا

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) إلا أداة استثناء والذين في محل نصب على الاستثناء المتصل إذا اعتبرنا المعنى الأول الذي أورده الزمخشري أو على الاستثناء المنقطع إذا اعتبرنا المعنى الثاني وعندئذ تكون إلا بمعنى لكن والذين مبتدأ خبره جملة فلهم أجر، وجملة آمنوا لا محل لها لأنها صلة الذين وعملوا الصالحات عطف على الصلة داخل في حيّزها والفاء رابطة لما في الموصول من معنى الشرط ولهم خبر مقدّم وأجر مبتدأ مؤخر وغير ممنون نعت لأجر

أي غير مقطوع ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ الفاء الفصيحة أي إن علمت هذا أيها الإنسان فما يكذبك ، وما اسم استفهام إنكاري في محل رفع مبتدأ وجملة يكذبك خبر ، وسيأتي سر هذا الالتفات في باب البلاغة ، وبعد ظرف مبني على الضم لانقطاعه عن الإضافة لفظا لا معنى أي بعد هذه العبر والعظات وظهور هذه الدلائل الدالة على وجوب الإيمان ويجوز أن يكون الخطاب للنبي فتكون ما بمعنى من والمعنى فمن يكذبك أيها الرسول بما جئت به ، والهمزة للاستفهام التقريري وليس فعل ماض ناقص والله اسمها والباء حرف جر زائد وأحكم الحاكمين مجرور لفظا منصوب محلا على أنه خبر ليس .

البلاغة :

في قوله : " فما يكذبك بعد بالدين " التفات من الغيبة إلى الخطاب لما سبق من قوله لقد خلقنا الإنسان والسرّ فيه تشديد الإنكار على الإنسان بمشافهته بالخطاب كأنه قيل له : فأيّ شيء يضطرك إلى أن تكون كاذبا بعد هذه الدلائل بسبب تكذيب الجزاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 523 ـ 526﴾

(219/821)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربيّة المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والعشرون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/822)

الجزء الثانى والعشرون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة العلق)

(4/822)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة العلق)

(5/822)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة العلق

وتسمى اقرأ .

مقصودها الأمر لا سيما للمقصود بالتفضيل في سورة التين بعبادة من له الخلق والأمر ،

شكرا لأحسانه واجتنابا لكفرانه ن طمعا في جنانه وخوفا من نيرانه ، لما ثبت أنه يدين العباد يوم المعاد ، وكل من اسميها دال على ذلك لأن المربي يجب شكره ، ويحرم غاية التحريم كفره ، على أن " اقرأ " يشير إلى الأمر ، " والعلق " يشير غلى الخلق ، و " اقرأ " يدل على البداية وهي العبادة بالمطابقة ، وعلى النهاية وهي النمجاة يوم الدين باللازم ، والعلق يدل على كل من النهاية ثم البداية بالالتزام ، لأن من عرف أنه مخلوق من دم عرف أن خالقه قادر على إعادته من تراب ، فإن التراب أقبل للحياة من الدم ، ومن صدق بالإعادة عمل لها ، وخص العلق لأنه مركب الحياة ، ولذلك سمي نفسا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 478 ﴾

(6/822)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . اقرأ باسم ربك)

(304/1)

السّورة مكِّيّة .

وآياتها ثمان عشرة فى الشَّامى، وتسع عشرة فى العراقى، وعشرون فى الحجازى.

وكلماتها اثنتان وتسعون.

وحروفها مائتان وثمانون والمختلف فيها آيتان: (العلق) ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾.

معظم مقصود السّورة: ابتداءٌ فى جميع الأُمور باسما لخالق الربّ - تعالى - جلَّت عظمته، والمِنَّة على الخَلْق بتعليم الكتابة، والحكمة، والشكايةُ من أَهل الضَّلالة، وتهديد أَهل الكفر والمعصية، وتخويف الأَجانب بالعقوبة، وبشارة السّاجدين بالقُرْبة، فى قوله: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾.

السّورة محكمة.

المتشابهات:

قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وبعده: ﴿اقْرَأْ وَرَبّكَ﴾ وكذلك: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ وبعده: ﴿خَلَقَ﴾ ومثله ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ و ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾؛ لأَنَّ قوله: ﴿اقْرَأْ﴾ مطلق فقيّده بالثَّانى و ﴿وَالَّذِي خَلَقَ﴾ عام، فخصّه بما بعده: و ﴿عَلَّمَ﴾ مبهم فقال: ﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ تفسيراً له.

فضل السّورة:

فيه من الأَحاديث الواهية حديث أُبىّ: مَنْ قرأَ سورة (اقرأ) فكأَنَّما قرأَ المُفَصَّل كلَّه، وحديث علىّ: يا علىّ مَنْ قرأَها أَعطاه الله ثواب المجاهدين وله بكلّ آية قرأَها مدينةٌ، وله

بكلّ حرف نورٌ على الصّراطِ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 529.
530 ﴾

(7/822)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة اقرأ

472 – مسألة :

قوله تعالى : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)

لم كرر (خَلَقَ) .

جوابه :

أن خلق الأول : عام في كل مخلوق ، والثاني : خاص

بالإنسان ، وخصه لبعد ما بين أول أحواله وآخرها .

وقد تقدم تقديم "الخلق على "التعليم " في سورة "الرحمن" . والله أعلم. انتهى. ا هـ

﴿كشف المعاني صـ 377. 378 ﴾

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة العلق

اشتهرت تسمية هذه السورة في عهد الصحابة والتابعين باسم (سورة اقرأ باسم ربك) .

روي في (المستدرك) عن عائشة : (أول سورة نزلت من القرآن اقرأ باسم ربك) فأخبرت عن السورة ب) اقرأ باسم ربك ((العلق : 1) . وروي ذلك عن أبي سلمة بن عبد الرحمن وأبي رجاء العطاردي ومجاهد والزهري ، وبذلك عنونها الترمذي .

وسميت في المصاحف ومعظم التفاسير (سورة العلق) لوقوع لفظ (العلق) في أوائلها ، وكذلك سميت في بعض كتب التفسير .

وعنونها البخاري : (سورة اقرأ باسم ربك الذي خلق) .

وتسمى : (سورة اقرأ) ، وسماها الكواشي في (التخليص) (سورة اقرأ والعَلَق) .

وعنونها ابن عطية وأبو بكر بن العربي : (سورة القَلَم) وهذا اسم سميت به : (سورة ن والقَلَم) ولكن الذين جعلوا اسم هذه السورة (سورة القلم) يسمون الأخرى (سورة ن) .

ولم يذكرها في (الإِتقان) في عداد السور ذات أكثر من اسم .

وهي مكية باتفاق .

وهي أول سورة نزلت في القرآن كما ثبت في الأحاديث الصحيحة الواضحة ، ونزل أولها بغار حراء على النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو مجاور فيه في رمضان ليلة سبع عشرة منه من سنة أربعين بعد الفيل إلى قوله : (علم الإنسان ما لم يعلم ((العلق : 5) . ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة عن عائشة . وفيه حديث عن أبي موسى الأشعري وهو الذي قاله أكثر المفسرين من السلف والخلف .

(9/822)

وعن جابر أول سورة المدثر ، وتؤول بأن كلامه نص أن سورة المدثر أول سورة نزلت بعد فترة الوحي كما في (الإِتقان) كما أن سورة الضحى نزلت بعد فترة الوحي الثانية .

وعدد آيها في عدّ أهل المدينة ومكة عشرون ، وفي عدّ أهل الشام ثمان عشرة ، وفي عد أهل الكوفة والبصرة تسع عشرة .

أغراضها

تلقين محمد (صلى الله عليه وسلم) الكلام القرآني وتلاوته إذ كان لا يعرف التلاوة من قبْل

.

والإِيماءُ إلى أن علمه بذلك ميسر لأن الله الذي ألهم البشر العلم بالكتابة قادر على تعليم من يشاء ابتداء .

وإيماء إلى أن أمته ستصير إلى معرفة القراءة والكتابة والعلم .

وتوجيهه إلى النظر في خلق الله الموجودات وخاصة خلقه الإِنسان خلقاً عجيباً مستخرجاً من علقة فذلك مبدأ النظر .

وتهديدُ من كذَّب النبي (صلى الله عليه وسلم) وتعرض ليصده عن الصلاة والدعوة إلى الهدى والتقوى .

وإعلام النبي (صلى الله عليه وسلم) أن الله عالمٌ بأمر من يناوؤنه وأنه قامعهم وناصر رسوله .

وتثبيتُ الرسول على ما جاءه من الحق والصلاة والتقرب إلى الله .

وأن لا يَعْبأ بقوة أعدائه لأن قوة الله تقهرهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ 434.433﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة العلق

مكية وآياتها تسعة عشرة آية

يين يدي السورة

* سورة العلق وتسمي (سورة إقرأ) مكية وهي تعالج القضايا الآتية :

أولا : موضوع بدء نزول الوحي على خاتم الأنبياء محمد (صلى الله عليه وسلم) .

ثانيا : موضوع طغيان الإنسان بالمال ، وتمرده على أوامر الله جل وعلا ثالثا : قصة الشقي "أبي جهل" ونهيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، عن الصلاة وما نزل في حقه

* إبتدات السورة ببيان فضل الله على رسوله الكريم ، بإنزاله هذا القران "المعجزة الخالدة" عليه ، وتذكيره بأول النعماء ، وهو يتعبد ربه بغار حراء ، حيث تنزل عليه الوحي بآيات الذكر الحكيم [إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . إقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم] . ثم تحدثت عن طغيان الإنسان في هذه الحياة بالقوة والثراء ، وتمرده على أوامر الله ، بسبب نعمة الغنى ، وكأن الواجب عليه أن يشكر ربه على أفضاله ، لا أن يجحد النعماء ، وذكرته بالعودة إلى ربه لينال الجزآء [كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رأه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى

* ثم تناولت قصة الشقى "أبي جهل" فرعون هذه الأمة ، الذي كان يتوعد الرسول (

صلى الله عليه وسلم) ويتهدده ، وينهاه عن الصلاه ، انتصارا للأوثان والأصنام [أرايت الذي ينهى 5عبدا إذا صلى] الآيات .

*وختمت السورة بوعيد ذلك الشقي الكافر ، بأشد العقاب إن إستمر على ضلاله وطغيانه ، كما أمرت الرسول الكريم ، بعدم الإصغاء إلى وعيد ذلك المجرم الأثيم [كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية] إلى ختام السورة الكريمة [كلا لا تطعه واسجد واقترب .

* وقد بدأت السورة بالدعوة إلى القراءة والتعلم ، وختمت بالصلاة والعبادة ، ليقترن العلم بالعمل ، ويتناسق البدء مع الختام ، في أروع صور البيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 580 .581 ﴾

(11/822)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة العلق

المراد بالإنسان : أي فرد من هذا النوع ، يطغى : أي يتكبر ويتمرد : استغنى :

أي صار ذا مال وأعوان يغنى بهما ، والرجعى والمرجع والرجوع : المصير والعودة ، أرأيت

: أي أخبرني والمراد من الاستخبار إنكار الحال المستخبر عنها وتقبيحها على نحو ما جاء

في قوله تعالى : " أَرَأَيتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ؟ " والسفع : الجذب بشدة والناصية : شعر

الجبهة والمراد بذلك القهر والإذلال بأشد أنواع العذاب ، والنادي :

المكان الذي يجتمع فيه القوم ، ولا يسمى ناديا حتى يكون فيه أهله قال زهير :

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

والزبانية : واحدهم زبنية (بكسر فسكون) وزبنى (بالكسر) ، والمراد بهم الملائكة الذين

أقامهم اللّه على تعذيب العصاة من خلقه ، وسمّوا زبانية لأنهم يزبنون الكفار في النار أي

يدفعونهم ويسوقونهم إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 201 .

205 ﴾ . باختصار .

(12/822)

وقال الفراء :

سورة (العلق)

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . . . ﴾ .

هذا أول ما أنزل على النبى صلى الله عليه من القرآن .

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . . . ﴾ .

قيل: من علق ، وإنما هى علقةٌ ، لأنّ الإنسان فى معنى جمع ، فذهب بالعلق إلى الجمع لمشاكلة رءوس الآيات .

﴿ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى . . . ﴾ .

ولم يقل: أن رأى نفسه ؛ والعرب إذا أوقعت فعلا يكتفى باسم واحد على أنفسها ، أو أوقعته من غيرها على نفسه جعلوا موضع المكنى نفسه ، فيقولون: قتلتَ نفسك ، ولا يقولون: قتلتَك قتلته ، ويقولون: قتل نفسَه ، وقتلتُ نفسى ، فإذا كان الفعل يريد : اسما وخبرا طرحوا النفس فقالوا : متى تراك خارجاً ، ومتى نظنك خارجاً ؟ وقوله عز وجل: ﴿ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ من ذلك .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى . . . ﴾ .

نزلَت فى أبى جهل: كان يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مصلاّه ، فيؤذيه وينهاه ، فقال الله تبارك وتعالى ، ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى ﴾ ؟ يعنى النبى صلى الله

عليه وسلم .

﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾

ثم قال جل وعز: ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى . . . ﴾ .

وفيه عربية ، مثله من الكلام لو قيل: أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلّى وهو كاذب متولٍّ عن الذكر؟ أى: فما أعجب من ذا .

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى * كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾

ثم قال: وَيْلَهُ ! ، ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى . . . ﴾ .

يعنى: أبا جهل ، ثم قال: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ . . . ﴾ .

(13/822)

ناصيته: مقدم رأسه ، أى: لَنَهْصرنها ، لنأخذن بها لَنُقْمِئَنَّه ولنذلّنه ، ويقال: لنأخذن بالناصية إلى النار ، كما قالّ جل وعز ، ﴿ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِى والأَقْدَامِ ﴾ ، فيُلقَون فى النار ، ويقال: لنسوّدَنَّ وجهه ، فكفَتِ الناصية من الوجه ؛ لأنها فىّ مقدّم الوجه .

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ * نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ . . . نَاصِيَةٍ . . . ﴾ .

على التكرير ، كما قال: ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ، صِرَاطِ اللَّهِ﴾ المعرفة تُرد على النكرة بالتكرير ، والنكرة على المعرفة ، ومن نصب (ناصيةً) جعله فعلا للمعرفة وهى جائزة فى القراءة.

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . . . سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . . . ﴾ .

فهم أقوى وهم يعملون بالأيدى والأرجل ، والناقة قد تزْبِن الحالب وتركضه برجلها .

وقال الكسائى: بأَخَرة واحد الزبانية زِبْنِىٌّ

وكان قبل ذلك يقول: لم أسمع لها بواحد ، ولست أدرى أقياسًا منه أو سماعاً . وفى قراءة عبد الله: "كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنْتَهِ لأَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ" ، وفيها : "فَلْيَدْعُ إِلَىَّ نَادِيَه فَسَأَدْعُو الزَّبَانِيَةَ" .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . . . ﴾ قومه.

والعرب تقول: النادى يشهدون عليك ، والمجلس ، يجعلون: النادىَ ، والمجلس ، والمشهد ، والشاهد ـ القوم قوم الرجل ، قال الشاعر:

لهمْ مجلِسٌ صُهْبُ السِّبَالِ أذِلّةٌ * سواسيةٌ أحرارُها وعبيدُها

أى: هم سواء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 278 . 280 ﴾

وقال الأخفش :

سورة (العلق)

﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴾

قال ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴾ ثم قال ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ [13] فجعلها بدلا منها وجعل الخبر ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ [14] .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾

وقال ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ ﴿ سَنَدْعُ [185 ب] الزَّبَانِيَةَ ﴾ فـ﴿ نَادِيَهُ ﴾ ها هنا عشيرته وانما هم اهل النادي والنادي مكانه ومجلسه . واما ﴿ الزَّبَانِيَةَ ﴾ فقال بعضهم: واحدها "الزَبانِي" وقال بعضهم: "الزَابِن" سمعت "الزابِنَ" من عيسى بن عمر . وقال بعضهم "الزِبْنية" . والعرب لا تكاد تعرف هذا وتجعله من الجمع الذي لا واحد له مثل "أَبابِيل" تقول: "جاءَتْ إِبِلي أبابِيل" أي: فِرَقاً . وهذا يجيء في معنى التكثير مثل "عَبادِيد" و"شَعارِير" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 581 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة العلق «1»

6 - ، 7 - [إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى] أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى أي يطغي أن رأى نفسه استغنى .

8 - الرُّجْعى

: المرجع .

15 - لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ أي لنأخذنّ بها . يقال : اسفع بيده ، أي خذ بيده .

17 - فَلْيَدْعُ نادِيَهُ : أهل ناديه ، أي ينتصر بهم . و«النادي» :

المجلس . يريد : قومه .

18 - سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ قال قتادة : هم : الشّرط ، في كلام العرب» .

وقال غيره : «وهو من «الزّبن» مأخوذ . و«الزبن» : الدفع . كأنهم يدفعون أهل النار

إليها . واحدهم : «زبنية» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن ص 462 ﴾

---

(1) هي مكية . [. . . . .]

وقال الغزنوى:

[سورة العلق]

7 أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى: أن رأى نفسه، مثل: رأيتني وظننتني «1».

[107/ ب] 15 لَنَسْفَعاً/ بِالنَّاصِيَةِ: يجرن بناصيته إلى النّار «2». وقيل: معناه تسويد الوجه، والسّفعة: السّواد. وفي الحديث «3»: «أنا وسفعاء الخدين

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء: 3/ 278، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 533، وتفسير البغوي: 4/ 507، والكشاف: 4/ 271.

(2) ذكره الزجاج في معانيه: 5/ 345، وقال: «يقال: سفعت بالشيء: إذا أقبضت عليه وجذبته جذبا شديدا».

وانظر تفسير البغوي: 4/ 508، وزاد المسير: 9/ 179، واللسان: 8/ 158 (سفع).

(3) أخرجه الإمام أحمد في مسنده: 6/ 29، وأبو داود في سننه: 5/ 356 حديث رقم (5145).

كتاب الأدب، باب «في فضل من عال يتيما» عن عوف بن مالك الأشجعي مرفوعا.

[.....]

كهاتين» ، وضمّ إصبعيه ، أي : التي بدّل بياض وجهها سوادا إقامة على ولدها بعد وفاة زوجها «1» .

16 ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ ، المعنيّ [بها] «2» النّفس ، وخص موضع النّاصية لأنّه أول ما يبدو من الوجه «3» ، كما قال تبارك وتعالى «4» : سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ، وكسرها على البدل ، ويجوز بدل النكرة من المعرفة «5» .

17 فَلْيَدْعُ نادِيَهُ : أهل ناديه «6» .

و«الزّبانية» «7» : العظام الخلق ، الشّداد البطش «8» . وفي حديث معاوية «9» : «ربّما زبنت النّاقة فكسرت أنف حالبها» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 884 . 885 ﴾

---

(1) ينظر غريب الحديث لابن الجوزي : 1/ 484 ، والنهاية لابن الأثير : 2/ 374 .

(2) في الأصل : «به» ، والمثبت في النص عن «ج» .

(3) تفسير الطبري : 30/ 255 ، وتفسير الماوردي : 4/ 486 .

(4) سورة القلم : آية : 16 .

(5) لأن النكرة هنا موصوفة.

ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 304، وإعراب القرآن للنحاس: 5/ 263، والكشاف:

4/ 272، والتبيان للعكبري: 2/ 1295.

(6) والنادي: المجلس، كما في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 533، وتفسير الطبري:

30/ 355، ومعاني القرآن للزجاج: 5/ 346، واللسان: 15/ 317 (ندي).

(7) في قوله تعالى: سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ [آية: 18].

(8) وهم ملائكة العذاب.

ينظر معاني القرآن للزجاج: 5/ 346، وتفسير الماوردي: 4/ 486، وتفسير ابن كثير: 8/ 460.

(9) أورده ابن الجوزي في غريب الحديث: 1/ 431، وابن الأثير في النهاية: 2/ 295.

قال ابن الأثير: يقال للناقة إذا كان من عادتها أن تدفع حالبها عن حلبها: زبون.

وقال ملا حويش :

تفسير سورة العلق

وتسمى سورة التعليم و(اقرأ) أيضا

عدد 1 (نزولا) - 96 (في ترتيب المصحف) وهي تسع عشرة آية واثنتان وسبعون كلمة ومائتان وثمانون حرفا لا ناسخ ولا منسوخ فيها ولا يوجد في القرآن سورة بدئت أو ختمت بما بدئت أو ختمت به ، وقد نزلت في غار حراء بمكة يوم الجمعة في 17 رمضان سنة 41 أو 27 رمضان سنة 41 من ميلاده صلّى اللّه عليه وسلم ومثلها في عدد آياتها سورتا الأعلى والانفطار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : «اقْرَأْ» يا محمد ما أوحيته إليك على لسان رسولي جبريل من القرآن الذي أردنا إنزاله عليك لتتلوه على أمتك ، مبتدأ «بِاسْمِ رَبِّكَ» الذي رباك وأنعم عليك به واختارك لإرشاد عباده ، وهذا أول أمر أمره به ربه بأن يذكر اسمه تيمّنا به ثم يقرأ ما يوحيه إليه تأدبا لحضرته الكريمة وتعريفا لعنوان الربوبية المنبئة عن حال التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق به شيئا فشيئا ، وبإضافة الضمير إليه تعالى اشعار بتبليغه عليه السلام الغاية القصوى من الكمالات البشرية بإنزال هذا القرآن عليه ، ثم وصف ذاته جلت وعظمت بقوله «الَّذِي

خَلَقَ 1» كل شيء وبدأ خلقه من لا شيء وصور جميع خلقه على غير مثال سابق باسمه البديع الذي «خَلَقَ الْإِنْسانَ» الذي هو أشرف المخلوقات وأبدع المصنوعات الذي منه تقتبس المكونات البشرية وبه تقوم المكونات الإلهية، قال علي كرّم اللّه وجهه:

دواؤك فيك ولا تشعر وداؤك منك ولا تبصر

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

(19/822)

مطلب معنى العلق وفضل الإنسان

هذا وان اللّه تعالى يعلّم خلقه بأن هذا المخلوق العظيم خلقه «مِنْ عَلَقٍ 2» يريد بذلك بني آدم كلهم، أما آدم عليه السلام فقد خلقه من تراب لأن العلق هو الدم الذي تجمد عن ولوج الحيوان الذي يطلق عليه لفظ علق أيضا، وهذا بيان لكمال قدرته بإظهار ما بين حالتي الإنسان الأولى والأخرى من التباين.

وقد ذكّر اللّه نبيه بأول نعمة فائضة عليه منه وهي الخلق لأنه أقدم الدلائل الدالة على وجوده، وجاء علق بلفظ الجمع لان (أل) فيه للاستغراق لتشمل جميع أفراد الإنسان.

هذا ومن فسر الإنسان بآدم قال إن أل فيه للجنس الصادق بالواحد والقدر، وعليه يكون

المعنى أصل الإنسان وجنسه آدم عليه السلام ، وليس بشيء ، لأن اللّه تعالى صرح في كتابه بآيات متعددة بأنه خلقه من الطين ومن التراب هذا .

وفي قوله اقرأ إشارة إلى أنه تعالى خلق الإنسان للقراءة كما خلقه للعبادة لأنه ذكر الخلق بعد الأمر بالقراءة كما في قوله جل قوله (خَلَقَ الْإِنْسانَ) الآية 4 من سورة الرحمن في ج 3 بعد قوله (الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ) تنبيه لهذا ، وانظر لقوله عز قوله (وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الآية 56 من الذاريات في ج 2 وذلك لأن القراءة أصل العبادة كيف لا وفيها البعد عن الجهل المفني للأمم ، وما فازت أمة إلا بقدر علومها ومعارفها الدينية والدنيوية ، ولهذا كرر تعالى الأمر لحبيبه بقوله «اقْرَأْ» لنفسك ولغيرك فتعلّم وعلّم ، ثم مهد له جل شأنه ما بينه من العذر إلى جبريل عليه السلام حين ضمّه وقال له اقرأ فقال ما أنا بقارئ على النحو المار ذكره في المطلب الثاني عشر ، وازاحه عنه بقوله «وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ 3» الذي لا يوازيه كريم ، الذي منّ عليك بالرسالة من غير طلب ، يمنّ عليك بالقراءة من غير تعليم ، كيف لا وهو «الَّذِي عَلَّمَ» بفضله وكرمه وعطفه ولطفه أنواع العلوم وفهّم القارئ الكتابة «بِالْقَلَمِ 4» لمعرفة الأمور الغائبة وحفظ الحاضرة والمستقبلة وضبطها وتدوينها ، واثبات علوم الأولين وسيرهم والاطلاع على منافعها

لئلا يتطرق إليها الضياع والنّسيان ، إذ لو بقيت في الصدور دون تدوين لنسيت وضاعت الفائدة منها ، والكريم هو الذي يعطي لا لغرض ولا لعوض وهو اللّه الذي «عَلَّمَ الْإِنْسانَ» انواع العلوم وهداه إلى معرفة الحقائق الكلية والجزئية الجلية والخفية «ما لَمْ يَعْلَمْ 5» من المكونات الأرضية والسماوية مما لم يخطر بباله ولا يتصوره بخياله ، فقد علّم آدم الأسماء كلها كما سيأتي في الآية 30 من سورة البقرة في ج 3 ، وعلم محمدا علوم الأولين والآخرين مع انه أمي ، وفيه دلالة على كمال كرمه جلّ كرمه بأنه علم عباده مالا تحيط به عقولهم عفوا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم .

مطلب ما رئي نوما لا يعد قرآنا ، وأصل الكتابة بفوائدها :

انتهت الآيات الخمس التي نزلت دفعة واحدة أول الوحي فينبغي لمن يريد حفظ القرآن أن يحفظه خمسا خمسا فهو أعون على حفظه كله لأن الرسول قد حفظها حال نزولها ، وما قاله بعض المفسرين من أنه تلقى هذه الآيات الخمس من الملك في سنة من النوم ثم تلقاها يقظة لا طائل تحته ولا قيمة له بل ولا صحة له ، والحديث في هذا رواه الطبراني عن ابن الزبير موقوفا وهو يقابل ما جاء في الصحيحين على فرض صحته لأن الصحيح ما جاء في الصحيحين بأنه تلقاها حال اليقظة نهارا كما أثبتناه آنفا في المطلب الثاني عشر ، لأن ما يراه الرسول في النوم لا يسمى قرآنا ، وسيأتي لهذا البحث صلة في تفسير سورة الكوثر

الآتية فراجعها .

قال قتاده : لولا القلم لم يقم دين ولم يصلح عبش لأن الكلام عبارة عن هواء فإذا لم يقيد ضاع ، وفيه قيل :

العلم صيد والكتابة قيده قيد صيودك بالحبال الموثقه

وليعلم أنه لو لم يكن على دقيق حكمته تعالى ولطيف تدبيره دليل إلا القلم والخط به لكفى ، قالوا الكتابة قديمة في غير العرب وأول من نقلها من الحيرة إلى الحجاز حرب بن أمية أخذها من أسلم بن زيد ، وأخذها أسلم من مرار بن مرّة ،

فقد أخرج بن الأنباري في كتاب الكلمة عن عبد اللّه بن فروخ قال : قلت لابن عباس يا معشر قريش أخبروني عن هذا الكتاب العربي هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث اللّه فيكم محمدا تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق مثل الألف واللام والنون ؟ قال نعم ، قلت ممن أخذتموه ؟ قال من حرب بن أمية ، قلت وممن أخذه حرب ؟ قال من عبد اللّه بن جدعان ، قلت وممن أخذه عبد اللّه بن جدعان ؟

قال من أهل الأنبار ، قلت وممن أخذه أهل الأنبار ؟ قال من طارئ طرأ عليهم من أهل اليمن

، قلت وممن أخذه ذلك الطارئ ؟ قال من الخلّجان بن القسم كاتب الوحي لنبي اللّه هود عليه السلام وهو الذي يقول :

أفي كل عام سنة تحدثونها ورأي على غير الطريق يعبّر

وللموت خير من حياة تسبئنا بها جرهم فيمن يسبّ وحمير

هذا وأول من اشتهر بالكتابة من الأصحاب أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي بن كعب وزيد بن ثابت رضي اللّه عنهم .

واعلم ان أصول كتابات الأمم اثنا عشر : 1- السريانية ، 2- العبرانية ، 3- الحميرية ، 4- الفارسية ، 5- اليونانية ، 6- الرومية ، 7- القبطية ، 8- البربرية ، 9- بالهندية ، 10- الأندلسية ، 11- الصينية ، 12- العربية ، ولها فروع كثيرة ، هذا ، وبعد هذه الآيات الخمس بتسع سنين وعشرة أشهر نزل قوله تعالى ردّا لغلو أبي جهل وتمرده وبغيه «كلّآ» حقا «إِنَّ الْإِنْسانَ» جنسه إذا تكاثرت .

عليه النعم «ليطغى 6» على غيره ويستكبر ويتجاوز الحد في المعاصي واتباع الهوى ولا يشكرها «أَنْ رَآهُ» أي ان راى نفسه «استغنى 7» وكثر ماله وولده فيأنف ويترفّع على غيره في المأكل والمشرب والملبس والركب والمسكن والترف وكان نزولها وما بعدها لآخر السورة بعد فرض الصلاة ، بدليل النهي فيها عنها ، وقد ألحقت بالآيات الخمس الأول على الصورة التي ذكرناها في مطلب جمع القرآن فراجعها .

مطلب سبب عدم انفراد الآيات عن سورها :

وهكذا فإنا نشير إلى الآيات التي لم تنزل مع سورها ونبين محالها ، لأنا إذا أفردناها على حدة يتبعض نظام القرآن وهو منزه عن التبعيض ويتغير نسق السور وهو منهي عنه شرعا لأن ترتيبه توقيفي كما بيناه هناك ، ولهذا السبب لم نفرد الآيات التي نزلت منفردة عن سورها بل نثبتها في سورها ونكتفي بإلماع إليها ، هذا وان الصلاة فرضت ليلة الإسراء في 27 رجب سنة 51 من ميلاده الشريف في السنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة بثلاث سنين .

وسبب نزولها في أبي جهل أنه كان قبل بعثة الرسول فقيرا ثم أصاب مالا كثيرا ، فزاد في عناده وتجبره ، وفي معتاده كله ، فوبخه اللّه تعالى في هذه الآية ، ونبهه بأن يشكر نعمته ويعمل لآخرته ، لأن ما يعمله للدنيا فان والعاقل من يعمل لآخرته ، لأن اللّه تعالى يقول : «إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى 8»

في العقبى الباقية ، وهناك ترى أنت وغيرك عاقبة الأمر .

وفيها تهديد وتحذير من القهور والبغي ، وتنبيه بأن النعم يجب أن تقابل بالتواضع والشكر

طلبا لدوامها وتأدية لحق المنعم بها ، قال تعالى : تعجبا أي يعجب اللّه الناس من حال أبي جهل «أَ رَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى 9 عَبْداً» نون للتنكير تعظيما له ، لأن المراد به حضرة الرسول «إِذا صَلَّى 10» لربه ، أخبرنا أيها العاقل هل يفعل ذلك أحد ؟ لأن الرؤية إذا كانت للعلم أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها سواء كانت بصرية أو قلبية ، قال محمد بن أحمد الجزي في تفسيره التسهيل : إن فعل أراه للعلم ، بدليل عمل الفعل بالفجر لأن فعل أراه للخير ، لا يعمل بضمير المتكلم وهو كذلك ، وتقدير الجواب ، ألم يعلم بأن اللّه يطلع عليه فيعاقبه ، لأن المنهي على رشد وهدى من ربه ،

ولهذا قال جل قوله : «أَ رَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى 11» ، فهل له أن يمنعه من ذلك ؟ أما يخشى عقاب اللّه «أو» يزعم هذا الخبيث أنه «أَمَرَ بِالتَّقْوى 12» التي أساسها التوحيد والإخلاص ، وملاكها الخوف والرجاء ، وهي الجامعة لكل خير ، المانعة من كل شر .

كلا .

بل أمر فيما

يأمر به من عبادة الأوثان وانكار البعث كما يعتقد «أَ رَأَيتَ» يا سيد الرسل «إِنْ كَذَّبَ» هذا الناهي بما أنزل عليك «وَتَوَلَّى 13» عن الإيمان بك وبربك، أخبرني يا حبيبي هل كان أو يكون أعجب من هذا، وأقل عقلا، «أَلَمْ يَعْلَمْ» هذا المكذب «بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى 12» طغيانه، وانه قادر على أخذه حالا فيجازيه أو يمهله فيعاقبه في الآخرة على اجترائه هذا.

واعلم أن حكم هذه الآيات عام، وأن ما فيها من الوعيد يتناول كل من ينهى عن شيء من العبادات والأعمال الصالحة.

ولا يلزم منها منع المولى عبده، والرجل زوجته عن قيام الليل وصوم التطوع والاعتكاف وصلاة الجمعة، لأن ذلك استيفاء لمصلحة السيد والزوج.

ولا يلزم ايضا جواز المنع من الصلاة في الأرض المغصوبة وعلى الثوب المغصوب لعموم اللفظ لا لخصوص السبب.

روى البخاري عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لئن رأيت محمدا يصلي عند البيت لأطأن على عنقه، فبلغ ذلك رسول اللّه فقال: لو فعل لأخذته الملائكة، زاد الترمذي عيانا.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل نعم، قال:

واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وهو يصلي ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا

وهو ينكص على عقبه ويتقي بيديه ، فقيل له مالك ؟ قال : ان بيني وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة ! فقال صلّى اللّه عليه وسلم : لو دنا لا ختطفته الملائكة عضوا عضوا .

وأنزل اللّه الآيات من كلّا إلى آخر السورة .

هذا ، وقول الحسن إن المنهي سلمان الفارسي والناهي أمية بن خلف ، لا يصح ، لأن سلمان أسلم في المدينة بعد الهجرة بلا خلاف ، وهذه الآيات نزلت بمكة بلا خلاف أيضا ، وما قيل إن الصلاة المنهي عنها كانت بجماعة ، وكان أبو بكر وعلي يصليان مع النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وإن أبا طالب قال لابنه جعفر : صل جناح ابن عمك بعيد عن الثبوت أيضا ، لأن أبا طالب مات في السنة العاشرة من البعثة ، وتلته خديجة بعد ثلاثة أيام قبل فرض الصلاة وقبل وقوع الإسراء ، وقد فرضت الصلاة كما مر آنفا ، ولو كان أبو طالب حيا لما تجرا أبو جهل

(24/822)

على ما تكلم به ، لأنه صلّى اللّه عليه وسلم لم ير الجفاء من قومه إلا بعد موته ، قال تعالى : «كلّا» لا يعلم أبو جهل رؤية اللّه لعمله القبيح الذي يقوم به عنادا وعتوا وتكذيبا لحضرة الرسول ، وعزتي وجلالي «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ» عن إيذاء الرسول ولم يرجع عما هو عليه

«لَنَسْفَعاً» لناخذنّه ونجذبه «بِالنَّاصِيَةِ 15» ونقذفنه بالنار والسفع أخذ الشيء وجذبه بشدّة وكتب نسفعا بالألف اعتبارا بحال الوقف، ويجوز في غير القرآن كتابته بالنون كسائر الأفعال المتصل بها نون التوكيد الخفيفة وعليه قوله:

يحسب الجاهل ما لم يعلما شيخا على كرسيه معمّما

فلم تكتب بالنون للروى، والروى كحال الوقف.

والسفع والصفع الضرب على الرقبة، واللطم الضرب على الوجه، واللكم الضرب بمجموع اليد ومثله الوكز، راجع الآية 15 من سورة القصص الآتية «ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ 16» أي صاحبها موصوف بهذه الصفات الخسيسة، ويشمل هذا كل من يعمل عمل أبي جهل، قال ابن عباس: لما نهى أبو جهل حضرة الرسول عن الصلاة انتهره، فقال: أتنهرني واللّه لأملأن عليك هذا الوادي خيلا جردا ورجالا مردا وإنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني.

فأنزل اللّه جل شأنه ما به يتحداه فقال: «فَلْيَدْعُ نادِيَهُ 17» اي أهل ناديه من اطلاق المحل وإرادة الحال فيه مثل «وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ» الآية 82 من سورة يوسف في ج 2، أي فليدع أهله وعشيرته ومن يضمه مجلسه.

مطلب معرفة بعض الألفاظ.

واعلم أن المجلس لا يسمى مجلسا إلا وفيه ناس وإلا فهو بيت، كما لا تسمى المائدة مائدة إلا وعليها الطعام وإلا فهي خوان، والكأس لا تسمى كأسا إلا وفيها الشراب وإلا فهي

زجاجة ، والقلم لا يسمى قلما إلا وهو مبري وإلا فهو قصبة ، هذا ، ويطلق الأخذ بالناصية على الأخذ بمقدم شعر الرأس ، قال عمرو بن معديكرب :

قوم إذا كثر الصياح رأيتهم ما بين ملجم مهره أو سافع

(25/822)

ثم هدده بقوله : «سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ 18» إذا دعوت قومك ، ومن في ناديك على رسولنا .

والزبانية الملائكة الغلاظ الشداد ، الموكلون بدفع أهل النار ، وسيأتي وصفهم في تفسير الآية 30 من سورة المدثر ، والآية 23 من سورة التكوير الآتيتين ، والآية 7 من سورة التحريم في ج 3) فيدفعونك معهم ويزجونك في النار ، والزّبن الدفع بشدة اهانة للمدفوع ، إذ لا يتركونهم يدخلون على هينتهم ، وهو لفظ خاص بالأعوان : كالشرطة والدرك والحوذية وما شابههم ، ويطلق على كل من اشتد بطشه وإن لم يكن من أعوان السلطان والولاة وفيه قيل :

مطاعم في القصوى مطاعين في الوغى زبانية غلب عظام حلومها

وقال جرير :

لهم مجلس مهب السبال ادلة سواسية امراؤها وعبيدها

وقال زهير :

وفيهم مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل

وقال ابن عباس : واللّه لو دعا ناديه لأخذته زبانية اللّه ، أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح ، ثم كرر اللّه عليه الردع والزجر بقوله : «كلا» تحقيرا لشأنه ، وتثبيتا وتأييدا لنبيه المخاطب بقوله عز قوله : «لا تُطِعْهُ» في ترك الصلاة ولا تلتفت إلى ما تفوّه به ، ودم على ما أنت عليه من العبادة ، فإنا حافظوك منه وكافوك شره وناصروك عليه ، «وَاسْجُدْ» لعظمتي وكبريائي يا حبيبي «وَاقْتَرِبْ 19» من جلالي وبهائي بكثرة الصلاة ذات الركوع والسجود ، ولا تكترث بذلك الخبيث واستمر على خلافه .

مطلب الحكم الشرعي في سجود التلاوة الحكم الشرعي : وجوب السجود عند تلاوة كل سجدة من سجدات القرآن الأربع عشرة فورا امتثالا لأمر اللّه ، ويسن عند تلاوة آية السجدة آخر سورة الحج في ج 3 خروجا من الخلاف ، وتجب على السامع ولو من وراء جدار ولو بسماعها

من المذياع «الراديو» لأن المسموع منه – معين لا يكون بتسجيلا – صوت القارئ نفسه لا صداه ، ولذلك لا يجب لسماعها من الصندوق «فوتوغراف» لأنه صدى الصوت نفسه كما يسمع من الدار والجبل كما أوضحه الفقهاء .

وهي سجدة واحدة يسبح فيها تسبيحات سجود الصلاة ويسن أن يزيد عليها (سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته ، اللهم اكتب لي بها أجرا ، وضع عني بها وزرا ، واجعلها لي عندك ذخرا ، وتقبلها مني كما تقبلتها من نبيك داود عليه السلام) .

وإذا كان عند التلاوة أو السماع غير متوضئ فليقل «سَمِعْنا وَأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» ، الآية 285 من البقرة ج 3 ، ثم يقضيها بعد ، فإذا سمعها وهو في الصلاة نواها في ركوعه أو سجوده .

روى مسلم عن أبي هريرة : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم قال : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء ، أي في السجود ، وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال : سجدنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم في (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) و(إِذَا السَّماءُ انْشَقَّتْ) ، وجاء في صحيح مسلم من حديث لثوبان مرفوعا : عليك بكثرة السجود ، فإنه لا تسجد للّه سجدة إلا ورفعك بها درجة وحط عنك بها خطيئة .

ولهذا البحث صلة في سجدة سورة مريم الآتية .

واعلم انه إذا لم يرد بالصلاة هذه المبينة في الآية 17 المارة الصلاة المفروضة على فرض نزول هذه الآية قبل فرض الصلاة على النبي وأمته فيكون المراد بها في هذه الآية وما بعدها من السور الآتية إلى نزول سورة الإسراء صلاة الركعتين التي فرضها اللّه تعالى عليه خاصة وتابعه بعض من أسلم معه عليها تطوعا ، إلا أن القول المعتمد ان المراد بها الصلاة المفروضة على القول بأنها نزلت بعد فرض الصلاة كما علمت مما ذكرناه آنفا وقول القائل يتجه في غير هذه الآية من الآيات الأخر الوارد فيها لفظ الصلاة النازلة قبل فرضها اتفاقا .

هذا ، واللّه أعلم .

واستغفر اللّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 66.74 ﴾

(27/822)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة العلق

مكية

الذي خلق تام من علق علم بالقلم كاف ما لم يعلم تام استغنى حسن وقال أبو عمرو تام الرجعي إذا صلى كاف وكذا بالتقوى بان الله يرى تام بالناصية كاف قاله أبو حاتم ولا أستحسنه وان كان جائز لما فيه من الفصل بين البدل والمبدل منه خاطئة كاف الزبانية تام وكذا آخر السورة. انتهى انتهى. اهـ ﴿المقصد صـ﴾

(28/822)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني:

سورة العلق

مكية

الذي خلق (كاف) إن جعل خلق الثاني مستأنفاً وليس بوقف إن جعل تفسير الخلق الأوَّل لكونه مبهماً

من علق (تام) والمراد بالإنسان الأول الجنس وبالثاني آدم عليه السلام والثالث أبو جهل قبحه الله

الأكرم وصله أولى لأنَّ ما بعده صفته كأنه قال وهو الذي علم بالقلم

وبالقلم (كاف)

ما لم يعلم (تام) ولا يوقف على كلا إذا لم يتقدم عليها هنا ما يزجر عنه لأنَّها بمعنى حقاً فيبتدأ بها ومن جعلها قسماً لا يوقف عليها لأنَّ ما بعدها جواب لها قاله ابن الأنباري وردَّ عليه بأنَّ أن لا تكسر بعد حقاً ولا بعدما هو بمعناها قاله العبادي قال الخليل و سيبويه يوقف عليها

ليطغى ليس بوقف لأنَّ موضعها نصب بما قبلها

استغنى (تام) للابتداء بإن ومثله الرجعى للابتداء بالاستفهام

إذا صلى (كاف)

الهدى ليس بوقف للعطف بعده بأو

بالتقوى (كاف)

وتولى ليس بوقف لأنَّ ما بعده في معنى الجواب لما قبله قاله العبادي

يرى (تام) بالناصية ليس بوقف لأنَّ ناصية الثاني بدل من الناصية الأولى بدل نكرة من معرفة وساغ ذلك لأنَّها وصفت والبصريون لا يشترطون ذلك

خاطئة (كاف) ومثله ناديه وكذا الزبانية

لا تطعه (حسن)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة الدمياطى :

سورة العلق

مكية وآيها ثمان عشرة دمشقي وتسع عشرة عراقي وعشرون حجازي خلافها آيتان ينهى تركها شامي لئن لم ينته حجازي مشبه الفاصلة موضعان ناصبة كاذبة عكسه ناديه وأبدل همزة (اقرأ) معا أبو جعفر وحده كوقف حمزة وهشام بخلفه وأمال رؤوس آيها التسعة من ليطغى إلى يرى حمزة والكسائي وخلف وافقهم في يرى أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري وقلل الكل الأزرق وجها واحدا وحينئذ يرقق لام صلى كذلك وافقه أبو عمرو على تقليل غير يرى بخلفه

واختلف في ( ) أن رآه (الآية 7 فقنبل من رواية ابن شنبوذ وابن مجاهد وأكثر الرواة عنه بقصر الهمزة بلا ألف وافقه ابن محيصن والباقون بالمد وهو رواية الزينبي عن قنبل وتغليظ ابن مجاهد لقنبل في رواية القصر رده الناس عليه والذي ارتضاه في النشر أنه إن أخذ عن قنبل بغير طريق ابن مجاهد والزينبي كابن شنبوذ وأبي ربيعة وغيرهما فبالقصر وجها واحدا بلا ريب وإن أخذ عنه بطريق الزينبي فبالمد كالجماعة وجها واحد وإن أخذ بطريق ابن مجاهد فبالوجهين وهما صحيحان عنه في الكافي وتلخيص ابن بليمة وغيرهما

قال أعني صاحب النشر ولا شك أن القصر أثبت وأصح عنه من طريق الأداء والمد أقوى من طريق النص والأداء أخذ من طريقيه جمعا بين النص والأداء ومن زعم أن ابن مجاهد لم يأخذ بالقصر فقد أبعد في الغاية وخالف في الرواية وقد وجه الحذف بأن بعض العرب يحذف لام مضارع رأى تخفيفا ومنه قولهم أصاب الناس جهد ولو تر أهل مكة بل قيل إنها لغة عامة وحيث صحت الرواية به وجب قبوله وتقدم الكلام على إمالة حرفي رآه ومر نظيره في الأنبياء وهو وإذا رآك لاتصاله بمضمر كما هنا

(30/822)

وقرأ أرأيت بتسهيل الثانية نافع وأبو جعفر زاد الأزرق إبدالها ألفا مع المد للساكنين وحذفها الكسائي وأثبتها محققة الباقون ويوقف على سندع بحذف الواو للكل للرسم وما في الأصل من القطع ليعقوب بالواو ومن الخلاف لقنبل سبق رده في سورة الشورى عند الكلام على ويمح الله

المرسوم اتفق على كتابة سندع بحذف الواو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر ص ﴾

(31/822)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة العلق "

" اقرأ معا " أبدل الهمز فيها مطلقا أبو جعفر وعند الوقف فقط حمزة .

" رآه " قرأ قنبل بخلف عنه بقصر الهمزة أي من غير ألف بعدها والوجه الثاني له المد كالباقين والوجهان عنه صحيحان مقروء بهما من طريق الحرز وما حكاه الإمام الشاطبي من أن ابن مجاهد لم يأخذ بالقصر رده العلماء وأهل الأداء بثبوت القصر عن ابن مجاهد وغيره عن قنبل ، قال صاحب النشر : ولا شك أن القصر ثبت عن قنبل من طريق الأداء والمد أقوى من طريق النص وبهما آخذ من طريقه جمعا بين النص والأداء ، انتهى . ولا يخفى ما فيه من ثلاثة البدل لورش .

" أرأيت " الثلاثة قرأ المدنيان بتسهيل الهمزة الثانية بين بين ولورش إبدالها ألفا مع المد المشبع غير أن هذا الوجه لا يأتى إلا حال الوصل فقط كما ذكرنا ذلك غير مرة وقرأ الكسائي بحذف الهمزة المذكورة ولحمزة في الوقف عليه تسهيلها بين بين فقط .

" كاذبة خاطئة " قرأ أبو جعفر بإخفاء التنوين في الخاء مع الغنة وبإبدال الهمزة ياء خالصة في الحالين وكذلك حمزة إن وقف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 354 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة العلق

قوله تعالى ﴿ أن رآه استغنى ﴾ يقرأ بفتح الراء وكسر الهمزة وبكسرهما معا وبفتحهما معا وقد ذكرت علل ذلك قبل وروى قنبل هذا الحرف عن ابن كثير رأه بفتح الراء والهمزة والقصر على وزن رعه قال ابن مجاهد لا وجه له لانه حذف لام الفعل التي كانت مبدله من الياء وقال بعض اهل النظر احسن احوال ابن كثير ان يكون قرأ هذا الحرف بتقديم الالف التي بعد الهمزة وتأخير الهمزة الى والقيمة موضع الالف ثم خفف الهمزة فحذف الالف لالتقاء الساكنين فبقي راه بألف ساكنة غير مهموزة الا ان الناقل لذلك عنه لم يضبط لفظه به هذه لغة مشهورة للعرب يقولون في رءاني راءني في سأني ساءني قال شاعر هذه اللغة

أو وليد معلل راء رؤيا

فهو يهذي بما رأى في المنام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 373 .

374 ﴾

وقال ابن زنجلة :

96 - سورة العلق

إن الإنسن ليطغى أن رءاه استغنى 6 , 7

قرأ ابن كثير في رواية القواس أن رأه على وزن رعه وقرأ الباقون أن رآه والأصل رأيه على

وزن رعيه فصارت الياء التي هي لام الفعل ألفا لانفتاح ما قبلها فصار رآه

قال مجاهد رواية القواس غلط لأنه حذف لام الفعل التي كانت ألفا مبدلة من الياء

وقال غيره يجوز أن يكون حذف لام الفعل كما حذف من قولهم أصاب الناس جهد ولو تر

أهل مكة فلذلك حذف من الماضي كما حذف المستقبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة

القراءات صـ 767 ﴾

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة العلق 96

مكية وقد ذكر نظيرتها في جميع العدد على اختلافها

وكلمها اثنتان وسبعون كلمة ككلم الأعلى

وحروفها مئتان وثمانون حرفا

وهي ثماني عشرة آية في الشامي وتسع عشرة في الكوفي والبصري وعشرون في المدنيين والمكي

اختلافها آيتان (﴿ لئن لم ينته ﴾) عدها المدنيان والمكي ولم يعدها الباقون (﴿ أرأيت الذي ينهى ﴾) لم يعدها الشامي وعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل موضع واحد وهو قوله عز وجل (﴿ ناصية كاذبة ﴾) ورؤوس الآي

خلق

1 علق

2 الأكرم

3 بالقلم

4 يعلم

5 ليطغى

6 استغنى

7 الرجعى

8 ينهى

9 صلى

10 الهدى

11 بالتقوى

12 وتولى

13 يرى

14 لئن لم ينته

* بالناصية

16 خاطئة

17 نادية

18 الزبانية

19 واقترب

20 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 280 ﴾

(35/822)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (اقرأ باسم ربك) قيل الباء زائدة كقول الشاعر * لايقرآن السور * وقيل دخلت لتنبه على البداية باسمه في كل شئ كما قال تعالى " بسم الله الرحمن الرحيم " فعلى هذا يجوز أن يكون حالا: أي اقرأ مبتدئا باسم ربك.

قوله تعالى (أن رآه) هو مفعول له: أي يطغى لذلك، والرؤية هنا بمعنى العلم ف (استغنى) مفعول ثان.

قوله تعالى (لنسفعا) إذا وقف على هذه النون أبدل منها ألف لسكونها وانفتاح ما قبلها ، و (ناصية) بدل من الناصية، وحسن إبدال النكرة من المعرفة لما

نعتت النكرة.

قوله تعالى (فليدع ناديه) أي أهل ناديه.

وزبانية فعالية من الزبن: وهو الدفع. انتهى انتهى. اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ

﴾

(36/822)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة العلق

[سورة العلق (96): آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)

"اقْرَأْ" أمر فاعله مستتر "بِاسْمِ" الباء زائدة "اسم" مفعول به "رَبِّكَ" مضاف إليه "الَّذِي" صفة ربك "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة وجملة اقرأ.. ابتدائية لا محل لها.

[سورة العلق (96): آية 2]

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (2)

"خَلَقَ" بدل من سابقه فاعله مستتر "الْإِنْسانَ" مفعول به "مِنْ عَلَقٍ" متعلقان بالفعل.

[سورة العلق (96) : آية 3]

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3)

"اقْرَأْ" أمر فاعله مستتر والجملة مؤكدة لسابقتها "وَ" الواو حالية "وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ" مبتدأ وخبره والجملة حال.

[سورة العلق (96) : آية 4]

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)

"الَّذِي" صفة ثانية لربك "عَلَّمَ" ماض والفاعل مستتر "بِالْقَلَمِ" متعلقان بالفعل والجملة الفعلية صلة.

[سورة العلق (96) : آية 5]

عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (5)

"عَلَّمَ" ماض فاعله مستتر وهو بدل من سابقه "الْإِنْسانَ" مفعول به أول "ما" مفعول به ثان "لَمْ يَعْلَمْ" مضارع مجزوم بلم والجملة صلة ما.

[سورة العلق (96) : آية 6]

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى (6)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر "إِنَّ الْإِنْسانَ" إن واسمها "لَيَطْغى" اللام المزحلقة ومضارع فاعله

مستتر والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة العلق (96) : آية 7]

أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى (7)

"أَنْ رَآهُ" أن حرف مصدري ونصب وماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن والفعل في محل نصب مفعول لأجله "اسْتَغْنى" ماض فاعله مستتر والجملة مفعول به ثان .

[سورة العلق (96) : آية 8]

إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى (8)

"إِنَّ"

حرف مشبه بالفعل "إِلى رَبِّكَ"

خبر إن المقدم "الرُّجْعى"

اسمها المؤخر والجملة مستأنفة .

[سورة العلق (96) : آية 9]

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى (9)

"أَرَأَيْتَ" الهمزة حرف استفهام وماض وفاعله "الَّذِي" مفعول به "يَنْهى" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة.

[سورة العلق (96) : آية 10]

عَبْداً إِذا صَلَّى (10)

"عَبْداً" مفعول به "إِذا" ظرف زمان "صَلَّى" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة.

[سورة العلق (96) : آية 11]

أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى (11)

"أَرَأَيْتَ" الهمزة حرف استفهام وماض وفاعله "إِنْ" حرف شرط جازم "كانَ" ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط واسمه مستتر "عَلَى الْهُدى" متعلقان بمحذوف خبر كان والجملة ابتدائية لا محل لها.

[سورة العلق (96) : آية 12]

أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى (12)

"أَوْ" حرف عطف "أَمَرَ" ماض فاعله مستتر "بِالتَّقْوى" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة

على ما قبلها .

[سورة العلق (96) : آية 13]

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13)

"أَرَأَيْتَ" الهمزة حرف استفهام وماض وفاعله "إِنْ" حرف شرط جازم "كَذَّبَ" ماض فاعله مستتر "وَتَوَلَّى" معطوف على كذب والجملة ابتدائية لا محل لها .

[سورة العلق (96) : آية 14]

أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى (14)

"أَلَمْ يَعْلَمْ" ألم الهمزة حرف استفهام وتقرير ومضارع مجزوم بلم "بِأَنَّ اللَّهَ" الباء حرف جر زائد وأن واسمها "يَرى" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي يعلم .

[سورة العلق (96) : آية 15]

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (15)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر "لَئِنْ" اللام، موطئة للقسم وإن حرف شرط جازم "لَمْ يَنْتَهِ" مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة "لَنَسْفَعاً" اللام واقعة في جواب القسم ومضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة والفاعل مستتر "بِالنَّاصِيَةِ" متعلقان بالفعل والجملة جواب القسم لا محل لها وجملة لم ينته ابتدائية لا محل لها.

[سورة العلق (96) : آية 16]

ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (16)

"ناصِيَةٍ" بدل من الناصية "كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ" صفتان.

[سورة العلق (96) : آية 17]

فَلْيَدْعُ نادِيَهُ (17)

"فَلْيَدْعُ" الفاء الفصيحة ومضارع مجزوم بلام الأمر وعلامة جزمه حذف حرف العلة والفاعل مستتر "نادِيَهُ" مفعول به والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها.

[سورة العلق (96) : آية 18]

سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ (18)

"سَنَدْعُ" السين للاستقبال ومضارع مرفوع بضمة مقدرة على الواو المحذوفة قراءة والفاعل مستتر "الزَّبانِيَةَ" مفعول به. والجملة مستأنفة لا محل لها.

[سورة العلق (96) : آية 19]

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر "لا تُطِعْهُ" مضارع مجزوم بلا الناهية والهاء مفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية مستأنفة "وَاسْجُدْ" فعل أمر فاعله مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها "وَاقْتَرِبْ" معطوف على اسجد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 458.457﴾

(39/822)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة العلق

ذكر فِيهَا سِتَّة أَحَادِيث

1513 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن أَبَا جهل قَالَ لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتزعم أَن من اسْتغْنى طغى فَاجْعَلْ لنا جبال مَكَّة ذَهَبا وَفِضة لَعَلَّنَا نَأْخُذ مِنْهَا فَنَطْغى فَندع ديننا وَنتبع دينك فَنزل جبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ إِن شِئْت فعلنَا ذَلِك ثمَّ إِن لم يُؤمنُوا فعلنَا بهم مَا فعلنَا بِأَصْحَاب الْمَائِدَة

فكف عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام عَن الدُّعَاء إبْقَاء عَلَيْهِم

1514 - الحَدِيث الثَّانِي

رُوِيَ أَن أَبَا جهل قَالَ لقريش هَل يعفر مُحَمَّد وَجهه بَين أظْهركُم قَالُوا نعم قَالَ فَوالَّذي يحلف بِهِ لَئِن رَأَيْته لأطأن عُنُقه فَجَاءَهُ ثمَّ نكص على عَقِبَيْهِ فَقَالُوا مَا لَك يَا أَبَا الحكم قَالَ إِن بيني وَبَينه لخندقا من نَار وهولا وأجنحة

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي صفة الْقِيَامَة من حَدِيث أبي حَازِم عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ أَبُو جهل هَل يعفر مُحَمَّد وَجهه بَين أظْهركُم قَالُوا نعم

قَالَ وَاللات والعزى لَئِن رَأَيْته يفعل ذَلِك لأطأن على رقبته أَو لأعفرن وَجهه فِي التُّرَاب قَالَ فَأتى رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَهُوَ يُصَلِّي زعم ليطأ على رقبته قَالَ فَمَا فجئهم إِلَّا وَهُوَ ينكص على عَقِبَيْهِ ويتقي بيدَيْهِ فَقيل لَهُ مَا لَك قَالَ إِن بيني وَبَينه لخندقا من نَار وهولا وأجنحة فَقَالَ النَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم لَو دنا مني لاختطفته الْمَلَائِكَة عضوا عضوا قَالَ وَأنزل الله تَعَالَى كلا إِن الْإِنْسَان ليطغى إِلَى آخرهَا انْتهى

1515 - الحَدِيث الثَّالِث

رُوِيَ أَن أَبَا جهل مر بِرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَ أَلم أَنهك فَأَغْلَظ لَهُ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَتُهَدِّدُنِي وَأَنا أَكثر أهل الْوَادي نَادِيًا فَنزلت فَليدع نَادِيَة الْآيَة

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ بتغيير يسير من حَدِيث أبي خَالِد الْأَحْمَر سُلَيْمَان ابْن حبَان ثَنا دَاوُد بن أبي هِنْد عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فجَاء أَبُو جهل فَقَالَ ألم أَنهك عَن هَذَا فنهره النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَبُو جهل إِنَّه ليعلم مَا بهَا نَاد أَكثر مني فَأنْزل الله تَعَالَى فَليدع نَادِيه الْآيَة قَالَ ابْن عَبَّاس وَالله لَو دَعَا نَادِيَة لَأَخَذته زَبَانِيَة الله انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح غَرِيب انْتهى

رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة

وَرَوَاهُ احْمَد وَابْن أبي شيبَة وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره . . . فَذكره بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء زَاد عَلَيْهِ قَول ابْن عَبَّاس أَيْضا وَكَذَلِكَ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره عَن عَليّ بن مسْهر عَن دَاوُد بن أبي هِنْد بِلَفْظ الْمُصَنّف سَوَاء

1516 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَو دَعَا نَادِيه لَأَخَذته الزَّبَانِيَة عيَانًا

قلت رَوَاهُ النَّسَائِيّ من طَرِيق عبد الرَّزَّاق أَنا معمر عَن عبد الْكَرِيم الْجَزرِي عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله تَعَالَى سَندع الزَّبَانِيَة قَالَ قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَو فعل أَبُو جهل لَأَخَذَته الْمَلَائِكَة عيَانًا انْتهى وَتقدم هَذَا من قَول ابْن عَبَّاس

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من طرق بِلَفْظ النَّسَائِيّ سَوَاء

1517 - الحَدِيث الْخَامِس

فِي الحَدِيث اقْربْ مَا يكون العَبْد من ربه إِذا سجد

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي الصَّلَاة من حَدِيث أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اقْربْ مَا يكون العَبْد من ربه وَهُوَ سَاجد فَأَكْثرُوا الدُّعَاء انْتَهَى

1518 - الحَدِيث السَّادِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ من قَرَأَ سُورَة العلق أعطي من الْأجر كَأَنَّمَا قَرَأَ الْمفصل كُله

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن عَمْرو ثَنا يُوسُف بن عَطِيَّة ثَنا هَارُون بن كثير

عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَرَأَ اقْرَأ باسم رَبك . . . إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 247. 250 ﴾

(42/822)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة اقرأ باسم ربّك» (96)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ» (1) مجازه : اقرأ اسم ربك . .

«الرُّجْعى »

(8) المرجع «1» والرجوع . .

«لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ» (15) لنأخذن بالناصية ويقال : سفعت بيده أخذت «2» بيده ،

والرجل يسفع برجل طروقته «3» بالناصية معروفة، ثم قال.

«ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ» (16) بدل فجرّها..

«فَلْيَدْعُ نادِيَهُ» (17) أهل مجلسه..

«الزَّبانِيَةَ» (18) واحدهم زبنيّة وكل متمرّد من إنس أو جانّ يقال:

فلان زبنية عفرّية. انتهى انتهى. اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 304﴾

---

(1). - 4 «الرجعى المرجع»: نقله البخاري بقوله: وقال معمر...، وقال ابن حجر كذا لابى ذر وسقط لغيره «وقال معمر» فصار كأنه من قول مجاهد والاول هو الصواب وهو كلام أبى عبيدة فى كتاب المجاز ولفظه إلى ذلك الرجعى قال المرجع والرجوع (فتح الباري 8/ 549).

(2). - 5 - 6 «ولنسعفن... أخذت» الذي ورد فى الفروق: نقله البخاري وأشار إليه ابن حجر بانه قول أبى عبيدة أيضا وروى لفظه أيضا (فتح الباري (8/ 549).

(3). - 6 «طروقته»: كل امرأة طروقة زوجها وكل امرأة طروقة فحلها (اللسان)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة العلق

(44/822)

كان النبى صلى الله عليه وسلم يذهب إلى غار حراء بين الحين والحين ، يخلو بنفسه بعيدا عن لغط الجاهلية ويرسل النظر عميقا فى آفاق الكون مستشعرا اليقين والخشوع أمام مبدع هذا الملكوت . إنه يزدرى الأصنام وعبادتها ، ويكره ما قام فى ظلها من مراسم وتقاليد ، ولكنه لا يدرى أكثر من هذا ! ! حتى فجأه صوت غريب " اقرأ . . . " قال ما أنا بقارئ ! وتكرر الصوت والرد . ثم استمع إلى تمام الأمر " اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم " .

هذه الآيات الخمس هى أول ما نزل على قلب الرسول من قرآن ، ثم نزلت بقايا السورة بعد ذلك . إن الذى خلق الإنسان من علقة ، قادر على أن يجعل الأمى عالما . ومحمد ما تطلع إلى وحى أو رسالة ، فقد بوغت بما كان ، فلما استيقن من اصطفاء الله له شرع يبنى الأمة الجديدة كما فعل من قبل إبراهيم وموسى . والباحث النزيه فى سيرته وفى كتابه وفى

جهاده يدرك أن محمدا بلغ المدى وزاد ، ويوقن بأن العالم لم يعرف إماما يدانيه فى شمائله وفضائله . وبعد فترة نزلت الآيات "كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجعى" . إن الحاجة قد تذل إنسانا ، لكن لماذا يطغى إذا اغتنى ؟ حسبه أن يعتدل فلا يصغر ولا يكبر . بيد أن كثيرا من الناس إذا أثرى احتقر الآخرين وتمرد على الحق ! حساب أولئك فى الآخرة ! وذكرت السورة الكافر الذى يكذب بآيات ربه وينهى عن الصلاة والطهارة "أرأيت الذي ينهى * عبدا إذا صلى * أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى . . . " . وفى سورة المدثر ، ذكرت هذه الصفات وزيادة "ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين" . على هذا دارت المعركة بين محمد وخصومه بضعة عشر عاما فى مكة . . وستبقى دائرة إلى يوم الدين ، لأن

(45/822)

جماهير الكافرين ترفض الصلاة والزكاة . إنها تمارى فى وجود الله وفى لقائه وفى الاستماع إلى أمره ونهيه . والإسلام بخاصة موضع السخط ، لأنه لا يهادن فى وجوب السمع والطاعة "أرأيت إن كذب وتولى * ألم يعلم بأن الله يرى" . وستنشب المعركة حتما بين

فريقين: أحدهما مرتبط بالحلال والحرام والحق والواجب. والآخر يرى الإنسان سيد نفسه ، وليس لأحد عليه سلطان توجيه ! ! "كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية" . السفع القبض على المرء مع جذبه من ناصيته على نحو لا يستطيع معه الإفلات. "ناصية كاذبة خاطئة" . وقد سمع رؤساء مكة هذا التحدى ولم يصنعوا شيئًا . انتهى انتهى. ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 530. 531 ﴾

(46/822)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(47/822)

"فصل"

قال السيوطى :

سورة العلق

أقول: لما تقدم في سورة التين بيان خلق الإنسان في أحسن تقويم ، بين هنا أنه تعالى: (خَلَقَ

الإِنسانَ مِن عَلَق) وذلك ظاهر الاتصال فالأول بيان العلة الصورية، وهذا بيان العلة المادية. انتهى انتهى. ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 154﴾

(48/822)

قوله تعالى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

سورة العلق

وتسمى اقرأ.

مقصودها الأمر لا سيما للمقصود بالتفضيل في سورة التين بعبادة من له الخلق والأمر، شكرا لأحسانه واجتنابا لكفرانه، طمعا في جنانه وخوفا من نيرانه، لما ثبت أنه يدين العباد يوم المعاد، وكل من اسميها دال على ذلك لأن المربي يجب شكره، ويحرم غاية التحريم كفره، على أن "اقرأ" يشير إلى الأمر، "والعلق" يشير غلى الخلق، و"اقرأ" يدل على البداية وهي العبادة بالمطابقة، وعلى النهاية وهي النمجاة يوم الدين باللازم، والعلق

يدل على كل من النهاية ثم البداية بالالتزام ، لأن من عرف أنه مخلوق من دم عرف أن خالقه قادر على إعادته من تراب ، فإن التراب أقبل للحياة من الدم ، ومن صدق بالإعادة عمل لها ، وخص العلق لأنه مركب الحياة ، ولذلك سمي نفسا

(بسم الله) الذي له صفات الكمال فاستحق التفرد بالإلهية (الرحمن) الذي عمت نعمته فاستوج بالشكر من سائر البرية (الرحيم) الذي وفق من شاء من خواصه لما أنالهم به المواهب السنية والعطايا الوفية .

(49/822)

لما أمره سبحانه وتعالى في الضحى بالتحديث بنعمته ، وذكره بمجامعها في ﴿ ألم نشرح ﴾ فأنتج ذلك إفراده بما أمره به في ختمها من تخصيصه بالرغبة إليه ، فدل في الزيتون على أنه أهل لذلك لتمام قدرته الذي يلزم منه أنه لا قدرة لغيره إلا به ، فأنتج ذلك تمام الحكمة فأثمر قطعاً البعث للجزاء فتشوف السامع إلى ما يوجب حسن الجزاء في ذلك اليوم وبأيّ وسيلة يقف بين يدي الملك الأعلى في يوم الجمع الأكبر من خصال الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فأرشد إلى ذلك في هذه السورة ، فقال بادئاً بالتعريف بالعلم الأصلي ذاكراً أصل من خلقه سبحانه وتعالى في أحسن تقويم وبعض أطواره الحسنة والقبيحة تعجيباً من تمام قدرته

سبحانه وتعالى وتنبيهاً على تعرفها وإنعام النظر فيها ، وقدم الفعل العامل في الجار والمجرور هنا لأنه أوقع في النفس لكونها أول ما نزل فكان الأمر بالقراءة أهم : ﴿ اقرأ ﴾ وحذف مفعوله إشارة إلى انه لا قراءة إلا بما أمره به ، وهي الجمع الأعظم ، فالمعنى : أوجد القراءة لما لا مقروء غيره ، وهو القرآن الجامع لكل خير ، وأفصح له بأنه لا يقدر على ذلك إلا مبعونة الله الذي أدبه فأحسن تأديبه ، ورباه فأحسن تربيته ، فقال ما أرشد المعنى إلى أن تقديره : حال كونك مفتتحاً القراءة ﴿ باسم ربك ﴾ أي بأن تبسمل ، أو مستعيناً بالمحسن إليك لما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى بما خصك به في ﴿ ألم نشرح ﴾ أو بذكر اسمه ، والمراد على هذا بالاسم الصفات العلى ، وعبر به لأنه يلزم من حسن الاسم حسن مدلوله ، ومن تعظيم الاسم تعظيم المسمى وجميع ما يتصف به وينسب إليه ، قالوا : وهذا يدل على أن القراءة لا تكون تامة إلا بالتسمية ، ولكونه في سياق الأمر بالطاعة الداعي إليها تذكر النعم لم يذكر الاسم الأعظم الجامع ، وذكر صفة الإحسان بالتربية الجامع لما عداه وتأنيساً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكونه أول ما نزل حين حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بنفسه يتعبد بربه في

غار حراء ، فجاءه جبرائيل عليه الصلاة والسلام بخمس آيات من أول هذه السورة إلى قوله "ما لم يعلم" ولهذا السر ساقه مساق البسملة بعبارة هي أكثر تأنيساً في أول الأمر وأبسط منها ، فأشار إلى الاسم الأعظم بما في مجموع الكلام من صفات الكمال ، وأشار إلى عموم منة الرحمن بصفة الخلق المشار إلى تعميمها بحذف المفعول ، وإلى خصوص صفة الرحيم بالأكرمية التي من شأنها بلوغ النهاية ، وذلك لا يكون بدون إفاضة العمل بما يرضي ، فيكون سبباً للكرامة الدائمة ، وبالتعليم الذي من شأنه أن يهدي إلى الرضوان ، وأشار إلى الاستعاذة بالأمر بالقرآن لما أفهمه قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ [الإسراء : 45] - أي من شياطين الإنس والجن - ﴿ حجاباً مستوراً ﴾ [الإسراء : 45] وقوله تعالى :

﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : 98] .

ولما خصه تشريفاً بإضافة هذا الوصف الشريف إليه ، وصفه على جهة العموم بالخلق والأمر إعلاماً بأن له التدبير والتأثير ، وبدأ بالخلق لأنه محسوس بالعين ، فهو أعلق بالفهم ، وأقرب إلى التصور ، وأدل على الوجود وعظيم القدرة وكمال الحكمة ، فكانت البداءة به في هذه السورة التي هي أول ما نزل أنسب الأمور لأن أول الواجبات معرفة الله ، وهي بالنظر إلى أفعاله في غاية الوضوح فقال : ﴿ الذي خلق ﴾ وحذف مفعوله إشارة إلى أنه له

هذا الوصف وهو التقدير والإيجاد على وفق التقدير الآن وفيما يكون ، فكل شيء يدخل في الوجود فهو من صنعه ومتردد بين إذنه ومنعه وضره ونفعه .

(51/822)

ولما كان الحيوان أكمل المخلوقات ، وكان الإنسان أكمل الحيوان وزبدة مخضه ، ولباب حقيقته وسر محضه ، وأدل على تمام القدرة لكونه جامعاً لجميع ما في الأكوان ، فكان خلقه أبدع من خلق غيره ، فكان لذلك أدل على كمال الصانع وعلى وجوب إفراده بالعبادة ، خصه فقال : ﴿ خلق الإنسان ﴾ أي هذا الجنس الذي من شأنه الأنس بنفسه وما رأى ما أخلاقه وحسه ، وما ألفه من أبناء جنسه .

ولما كانت العرب تأكل الدم ، وكان الله تعالى قد حرمه لأنه أصل الإنسان وغيره من الحيوان وهو مركب الحياة ، فإذا أكل تطبع آكله بخلق ما هو دمه ، قال معرفاً بأنه سبحانه وتعالى بنى هذه الدار على حكمة الأسباب مع قدرته على الإيجاد من غير تطوير في تسبيب : ﴿ من علق ﴾ أي خلق هذا النوع من هذا الشيء وهو دم شديد الحمرة جامد غليظ ، جمع علقة ، وكذا الطين الذي يعلق باليد يسمى علقاً ، وهم مقرّون بخلق الآدمي من الأمرين كليهما ، فالآية من أدلة إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه على استعمال المشترك في

معنييه ، ولعله عبر به ليعم الطين فيكون – مع ما فيه من الإشارة إلى بديع الصنعة – إشارة إلى حرمة أكل ما هو أصلنا من الدم والتراب قبل أن يستحيل ، فإذا استحال وصف بالحلال لأن الاستحالات لها مدخل في الإحلالات في النكاح وغيره ، واحمرار النطفة ليس استحالة لأنها كانت حمراء قبل قصر الشهوة لها ، وربما ضعفت الشهوة عن قصرها فنزلت حمراء ، فإذا تحول الدم لحماً صار إلى جنس ما يحل ، وكذا إذا تحول التراب بمخالطة الماء تمراً أو حباً حل .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما قال الله سبحانه وتعالى لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ فما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ [التين : 7 – 8] وكان معنى ذلك : أيّ شيء حمل عل هذا بعد وضوح الأمر لك وبيانه وقد نزهه سبحانه وتعالى عن التكذيب بالحساب وأعلى قدره عن ذلك ، ولكن سبيل مثل هذا إذا ورد كسبيل قوله تعالى :

(52/822)

﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ [الزمر : 65] وبابه ، وحكم هذا القبيل واضح في حق من تعدى إليه الخطاب وقصد بالحقيقة به من أمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حيث

عدم عصمتهم وإمكان تطرق الشكوك والشبهة إليهم ، فتقدير الكلام : أيّ شيء يمكن فيه أن يحملكم على التوقف أو التكذيب بأمر الحساب ، وقد وضح لكم ما يرفع الريب ويزيل الإشكال ، ألم تعلموا أن ربكم أحكم الحاكمين ؟ أفيليق به وهو العليم الخبير أن يجعل اختلاف أحوالكم في الشكوك بعد خلقكم في أحسن تقويم ؟ أفيحسن أن يفعل ذلك عبثاً ؟ وقد قال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ [ص : 27 – ولكن قراءتنا – وما خلقنا السماء – لا بالجمع] فلما قرر سبحانه العبيد على أنه أحكم الحاكمين مع ما تقدم ذلك من موجب نفي الاسترابة في نوع الحق إذا اعتبر ونظر ، ووقعت في الترتيب سورة العلق مشيرة إلى ما به يقع الشفاء ، ومنه يعلم الابتداء والانتهاء ، وهو كتابه المبين ، الذي جعله الله تعالى تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمحسنين ، فأمر بقراءته ليتدبروا آياته فقال ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ مستعيناً به فسوف يتضح سبيلك وينتهج دليلك ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾ [الفرقان : 1] وأيضاً فإنه تعالى أعلم عباده بخلقه الإنسان في أحسن تقويم ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [التين : 5] وحصل منه على ما قدم بيانه افتراق الطرفين وتباين القائلين ، كل ذلك بسابق حكمته وإرادته ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ وقد بين سبحانه لنا أقصى غاية ينالها أكرم خلقه وأجل عباده لديه من الصنف الإنساني ، وذلك فيما أوضحت السورتان قبل من حال نبينا المصطفى . صلى الله عليه وسلم . وجليل وعده

الكريم له في قوله ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [الضحى : 5] وفضل حال ابتداء ﴿ ألم نشرح ﴾ على تقدم سؤال ﴿ رب اشرح ﴾ [طه : 25] إلى ما أشارت إليه آي السورتين من خصائصه الجليلة ، وذلك أعلى مقام يناله أحد

(53/822)

ممن ذكر ، فوقع تعقيب – ذلك بسورة تضمنت الإشارة إلى حال من جعل في الظرف الآخر من الجنس الإنساني ، وذلك حال من أشير إليه من لدن قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ إلى قوله : ﴿ كلا لا تطعه ﴾ ليظهر تفاوت المنزلتين وتباين ما بين الحالتين ، وهي العادة المطردة في الكتب ، ولم يقع صريح التعريف هنا كما وقع في الظرف الآخرة ليطابق المقصود ، ولعل بعض من لم يتفطن يعترض هنا بأن هذه السورة من أول ما أنزل فكيف يستقيم مرادك من ادعاء ترتيبها على ما تأخر عنها نزولاً ، فنقول له : وأين غاب اعتراضك في عدة سور مما تقدم بل في معظم ذلك ، وإلا فليست سورة البقرة من المدني ، ومقتضى تأليفنا هذا بناء ما بعدها من السور على الترتيب الحاصل في مصحف الجماعة إنما هو عليها وفيها بعد من المكي ما لا يحصى ، فإنما غاب عنك نسيان ما قدمناه في الخطبة من أن ترتيب السور ما هي عليه راجع إلى فعله عليه الصلاة والسلام أكان ذلك

بتوقيف منه أو باجتهاد الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م على ما قدمناه ، فارجع بصرك ، وأعد في الخطبة نظرك ، والله يوفقنا إلى اعتبار بيناته وتدبر آياته ، ويحملنا في ذلك على ما يقربنا إليه بمنه وفضله – انتهى .

(54/822)

ولما أتم سبحانه ما أراد من أمر الخلق وهو الإيجاد بالأسباب بالتدريج ، أخذ في التنبيه على عالم الأمر وهو الإبداع من غير أسباب ، فقال مكرراً للأمر بالقراءة تنبيهاً على عظم شأنها وتأنيساً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومسكناً لروعه ومعلماً أن من جاءه الأمر من قبله ليس كأربابهم : ﴿ اقرأ ﴾ ولما كان قد قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند هذا الأمر إخباراً بالواقع كما يقول لسان الحال لو لم ينطق بلسان المقال : ما أنا بقارىء ، فكان التقدير : فربك الذي رباك فأحسن تربيتك وأدبك فأحسن تأديبك أمرك بالقراءة وهو قادر على جعلك قارئاً ، عطف عليه قوله : ﴿ وربك ﴾ أي يكون التقدير : والحال أن الذي خصك بالإحسان الجم ﴿ الأكرم ﴾ أي الذي له الكمال الأعظم مطلقاً من جهة الذات ومن جهة الصفات ومن جهة الأفعال ، فلا يلحقه نقص في شيء من الأشياء أصلاً لأن حقيقته البعيد عن اللوم الجامع لمساوىء الأخلاق ، فهو الجامع لمعالي الأخلاق ، وليس غيره يتصف بذلك

، فهو يعطيك ما لا يدخل تحت الحصر ، وأشار إلى أن من ذلك أنه يفيض على أمته الأمية من العلم والحظ ما لم يفضه على أمة قبلها على قصر أعمارهم ، فقال مشيراً إلى العلم التعليم ، مشعراً بوصفه سبحانه بالمنح بالعلم إلى ترتيب الحكم بالأكرمية على هذا الوصف الناقل للإنسان من الحال العقلي السافل إلى هذا الحال العالي الكامل ﴿ الذي علّم ﴾ أي بعد الحلم عن معاجلتهم بالعذاب والعقاب جوداً منه من غير مانع من خوف عاقبة ولا رجاء منفعة ﴿ بالقلم ﴾ أي الكتابة به .

(55/822)

ولما نبه بذلك على ما في الكتابة من المنافع التي لا يحيط بها غيره سبحانه وتعالى ، لأنها انبنت عليها استقامة أمور الدنيا والدين في الدنيا والآخرة ، وهي كافية في الدلالة على دقيق حكمته تعالى ولطيف تدبيره ، زاد ذلك عظمة على وجه يعم غيره فقال :

﴿ علّم ﴾ أي العلم الضروري والنظري ﴿ الإنسان ﴾ أي الذي من شأنه الأنس بما هو فيه لا ينتقل إلى غيره بل ينساه إن لم يلهمه ربه إياه ﴿ ما لم يعلم ﴾ أي بلطفه وحكمته لينتظم به حاله في دينه من الكتاب والسنة ودنياه من المعاملات والصنائع ، فيفيض عليه من علمه اللدني الذي لا سبب له ظاهر ما يعرف به ترتيب المقدمات بالحدود والوسطى ، فيعلم

النتائج ، وما يعرف به الحدسيات ، وذلك بعد خلق القوى ونصب الدلائل وإنزال الآيات ، ولو كان ذلك بالأسباب فقط لتساوى الناس في مدة التعليم وفي أصل المعلوم كما تساووا في مدة الحمل وأصل الإنسانية ، وقد ذكر سبحانه مبدأ الإنسان ومنتهاه بنقله من أخس الحالات إلى أعلاها تقريراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميته ، قال الملوي : ولو كان شيء من العطاء والنعم أشرف من العلم لذكره عقب صفة الأكرمية – انتهى ، وفي ذلك إشارة إلى مزيد كرم العلماء بالتعليم ، وفي الآية الإشارة إلى مطالعة عالمي الخلق والأمر ، قال الرازي ، وفي كل من العالمين خصوص وعموم – انتهى ، فالمعنى أنه يعلمك أيها النبي الكريم وإن كنت أمياً لا تعلم الآن شيئاً كما علم بالقلم من لم يكن يعلم ، فتكون أنت – بما أشارت إليه صفة الأكرمية على ما أنت فيه من الأمية – أعلم من أهل الأقلام – وأعلى من كل مقام سام . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 478. 482﴾

(56/822)

فصل

قال الفخر :

سورة العلق

تسع عشرة آية مكية

زعم المفسرون أن هذه السورة أول ما نزل من القرآن وقال آخرون الفاتحة أول ما نزل ثم

سورة العلق

﴿ اقرأ باسم ربّكَ ﴾

اعلم أن في الباء من قوله : ﴿ باسم ربّكَ ﴾ قولين : أحدهما : قال أبو عبيدة : الباء زائدة ، والمعنى : اقرأ اسم ربك ، كما قال الأخطل :

هن الحرائر لا ربات أخمرة . . سود المحاجر لا يقرأن بالسور

ومعنى اقرأ اسم ربك ، أي أذكر اسمه ، وهذا القول ضعيف لوجوه أحدها : أنه لو كان معناه اذكر اسم ربك ما حسن منه أن يقول : ما أنا بقارىء ، أي لا أذكر اسم ربي وثانيها : أن هذا الأمر لا يليق بالرسول ، لأنه ما كان له شغل سوى ذكر الله ، فكيف يأمره بأن يشتغل بما كان مشغولاً به أبداً وثالثها : أن فيه تضييع الباء من غير فائدة .

القول الثاني : أن المراد من قوله : ﴿ اقرأ ﴾ أي اقرأ القرآن ، إذ القراءة لا تستعمل إلا فيه قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قرأناه فاتبع قُرْءانَهُ ﴾ [القيامة : 18] وقال : ﴿ وَقُرْءانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ

عَلَى الناس على مُكْثٍ ﴾ [الإسراء : 106] وقوله : ﴿ باسم ربِّكَ ﴾ يحتمل وجوهاً أحدها : أن يكون محل باسم ربك النصب على الحال فيكون التقدير : اقرأ القرآن مفتتحاً باسم ربك أي قل : باسم الله ثم اقرأ ، وفي هذا دلالة على أنه يجب قراءة التسمية في ابتداء كل سورة كما أنزل الله تعالى وأمر به ، وفي هذه الآية رد على من لا يرى ذلك واجباً ولا يبتدىء بها وثانيها : أن يكون المعنى اقرأ القرآن مستعيناً باسم ربك كأنه يجعل الاسم آلة فيما يحاوله من أمر الدين والدنيا ، نظيره كتبت بالقلم ، وتحقيقه أنه لما قال له : ﴿ اقرأ ﴾ فقال له : لست بقارىء ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ ﴾ أي استعن باسم ربك واتخذه آلة في تحصيل هذا الذي عسر عليك وثالثها : أن قوله : ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ ﴾ أي اجعل هذا الفعل لله وافعله لأجله كما تقول : بنيت هذه الدار باسم الأمير وصنعت هذا الكتاب باسم الوزير ولأجله ، فإن العبادة إذا صارت لله تعالى ، فكيف يجترىء الشيطان أن يتصرف فيما هو لله تعالى ؟ فإن قيل : كيف يستمر هذا التأويل في قولك : قبل الأكل بسم الله ، وكذا قبل كل فعل مباح ؟ قلنا : فيه وجهان أحدهما : أن ذلك إضافة مجازية كما تضيف ضيعتك إلى بعض الكبار لتدفع بذلك ظلم الظلمة ، كذا تضيف فعلك إلى الله ليقطع الشيطان طمعه عن مشاركتك ، فقد روى أن من لم يذكر اسم الله شاركه الشيطان في ذلك الطعام والثاني : أنه ربما استعان بذلك المباح على التقوى على طاعة الله فيصير

المباح طاعة فيصح ذلك التأويل فيه .

أما قوله : ﴿ رَبِّكَ ﴾ ففيه سؤالان :

(58/822)

أحدها : وهو أن الرب من صفات الفعل ، والله من أسماء الذات وأسماء الذات أشرف من أسماء الفعل ، ولأنا قد دللنا بالوجوه الكثيرة على أن اسم الله أشرف من اسم الرب ، ثم إنه تعالى قال ههنا : ﴿ باسم رَبّكَ ﴾ ولم يقل : اقرأ باسم الله كما قال في التسمية المعروفة : بسم الله الرحمن الرحيم وجوابه : أنه أمر بالعبادة ، وبصفات الذات ، وهو لا يستوجب شيئاً ، وإنما يستوجب العبادة بصفات الفعل ، فكان ذلك أبلغ في الحث على الطاعة ، ولأن هذه السورة كانت من أوائل ما نزل على ما كان الرسول عليه السلام قد فزع فاستماله ليزول الفزع ، فقال : هو الذي رباك فكيف يفزعك ؟ فأفاد هذا الحرف معنيين أحدهما : ربيتك فلزمك القضاء فلا تتكاسل والثاني : أن الشروع ملزم للاتمام ، وقد ربيتك منذ كذا فكيف أضيعك ، أي حين كنت علقاً لم أدع تربيتك فبعد أن صرت خلقاً نفيساً موحداً عارفاً بي كيف أضيعك ؟ .

السؤال الثاني : ما الحكمة في أنه أضاف ذاته إليه ، فقال : ﴿ باسم رَبّكَ ﴾ ؟ الجواب :

تارة يضيف ذاته إليه بالربوبية كما ههنا ، وتارة يضيفه إلى نفسه بالعبودية ، أسرى بعبده ، نظيره قوله عليه السلام : " علي مني وأنا منه "كأنه تعالى يقول : هو لي وأنا له ، يقرره قوله تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 80] أو نقول : إضافة ذاته إلى عبده أحسن من إضافة العبد إليه ، إذ قد علم في الشاهد أن من له إبنان ينفعه أكبرهما دون الأصغر ، يقول : هو ابني فحسب لما أنه ينال منه المنفعة ، فيقول الرب تعالى : المنفعة تصل مني إليك ، ولم تصل منك إلى خدمة ولا طاعة إلى الآن ، فأقول : أنا لك ولا أقول أنت لي ، ثم إذا أتيت بما طلبته منك من طاعة أو توبة أضفتك إلى نفسي فقلت : أنزل على عبده ﴿ قُلْ ياعبادى الذين أَسْرَفُواْ ﴾ [الزمر : 53] .

(59/822)

السؤال الثالث : لم ذكر عقيب قوله : ﴿ رَبِّكَ ﴾ قوله : ﴿ الذى خَلَقَ ﴾ ؟ الجواب : كأن العبد يقول : ما الدليل على أنك ربي ؟ فيقول : لأنك كنت بذاتك وصفاتك معدوماً . ثم صرت موجوداً فلابد لك في ذاتك وصفاتك من خالق ، وهذا الخلق والإيجاد تربية فدل ذلك على أني ربك وأنت مربوبي .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)

أما قوله تعالى : ﴿ الذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تفسير هذه الآية ثلاثة أوجه أحدها : أن يكون قوله : ﴿ الذى خَلَقَ ﴾ لا يقدر له مفعول ، ويكون المعنى أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه والثاني : أن يقدر له مفعول ويكون المعنى أنه الذي خلق كل شيء ، فيتناول كل مخلوق ، لأنه مطلق ، فليس حمله على البعض أولى من حمله على الباقي ، كقولنا : الله أكبر ، أي من كل شيء ، ثم قوله بعد ذلك : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين جملة المخلوقات ، إما لأن التنزيل إليه أو لأنه أشرف ما على وجه الأرض والثالث : أن يكون قوله : ﴿ اقرأ باسم رَبّكَ الذى خَلَقَ ﴾ مبهماً ثم فسره بقوله : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ﴾ تفخيماً لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته .

المسألة الثانية :

احتج الأصحاب بهذه الآية على أنه لا خالق غير الله تعالى ، قالوا : لأنه سبحانه جعل الخالقية صفة مميزة لذات الله تعالى عن سائر الذوات ، وكل صفة هذا شأنها فإنه يستحيل وقوع الشركة فيها ، قالوا : وبهذا الطريق عرفنا أن خاصية الإلهية هي القدرة على الاختراع ومما يؤكد ذلك أن فرعون لما طلب حقيقة الإله ، فقال : ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ [الشعراء : 23] قال موسى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءابَائِكُمُ الأولين ﴾ [الشعراء : 26]

والربوبية إشارة إلى الخالقية التي ذكرها ههنا ، وكل ذلك يدل على قولنا .

المسألة الثالثة :

(60/822)

اتفق المتكلمون على أن أول الواجبات معرفة الله تعالى ، أو النظر في معرفة الله أو القصد إلى ذلك النظر على الاختلاف المشهور فيما بينهم ، ثم إن الحكيم سبحانه لما أراد أن يبعثه رسولاً إلى المشركين ، لو قال له : اقرأ باسم ربك الذي لا شريك له ، لأبوا أن يقبلوا ذلك منه ، لكنه تعالى قدم ذلك مقدمة تلجئهم إلى الاعتراف به كما يحكى إن زفر لما بعثه أبو حنيفة إلى البصرة لتقرير مذهبه ، فلما ذكر أبو حنيفة زيفوه ولم يلتفتوا إليه ، فرجع إلى أبي حنيفة . وأخبره بذلك ، فقال إنك لم تعرف طريق التبليغ ، لكن ارجع إليهم ، واذكر في المسألة أقاويل أئمتهم ثم بين ضعفها ، ثم قل بعد ذلك : ههنا قول آخر ، واذكر قولي وحجتي ، فإذا تمكن ذلك في قلبهم ، فقل : هذا قول أبي حنيفة لأنهم حينئذ يستحيون فلا يردون ، فكذا ههنا أن الحق سبحانه يقول : إن هؤلاء عباد الأوثان ، فلو أثنيت علي وأعرضت عن الأوثان لأبوا ذلك ، لكن اذكر لهم أنهم هم الذين خلقوا من العلقة فلا يمكنهم إنكاره ، ثم قل : ولا بد للفعل من فاعل فلا يمكنهم أن يضيفوا ذلك إلى الوثن لعلمهم بأنهم نحتوه ، فبهذا التدريج

يقرون بأني أنا المستحق للثناء دون الأوثان، كما قال تعالى:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [الزخرف: 87] ثم لما صارت الإلهية موقوفة على الخالقية وحصل القطع بأن من لم يخلق لم يكن إلهاً، فلهذا قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: 17] ودلت الآية على أن القول بالطبع باطل، لأن المؤثر فيه إن كان حادثاً افتقر إلى مؤثر آخر، وإن كان قديماً فإما أن يكون موجباً أو قادراً، فإن كان موجباً لزم أن يقارنه الأثر فلم يبق إلا أنه مختار وهو عالم لأن التغير حصل على الترتيب الموافق للمصلحة.

المسألة الرابعة:

(61/822)

إنما قال: ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ على الجمع لأن الإنسان في معنى الجمع، كقوله: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر: 2].

أما قوله تعالى:

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)

ففيه مسائل:

المسألة الأولى :

قال بعضهم : اقرأ أولاً لنفسك ، والثاني للتبليغ أو الأول للتعلم من جبريل والثاني للتعليم أو اقرأ في صلاتك ، والثاني خارج صلاتك .

المسألة الثانية :

الكرم إفادة ما ينبغي لا لعوض ، فمن يهب السكين ممن يقتل به نفسه فهو ليس بكريم ، ومن أعطى ثم طلب عوضاً فهو ليس بكريم ، وليس يجب أن يكون العوض عيناً بل المدح والثواب والتخلص عن المذمة كله عوض ، ولهذا قال أصحابنا : إنه تعالى يستحيل أن يفعل فعلاً لغرض لأنه لو فعل فعلاً لغرض لكان حصول ذلك الغرض أولى له من لا حصوله ، فحينئذ يستفيد بفعل ذلك الشيء حصول تلك الأولوية ، ولو لم يفعل ذلك الفعل لما كان يحصل له تلك الأولوية ، فيكون ناقصاً بذاته مستكملاً بغيره وذلك محال ، ثم ذكروا في بيان أكرميته تعالى وجوهاً أحدها : أنه كم من كريم يحلم وقت الجناية ، لكنه لا يبقى إحسانه على الوجه الذي كان قبل الجناية ، وهو تعالى أكرم لأنه يزيد بإحسانه بعد الجناية ، ومنه قول القائل :

متى زدت تقصيراً تزد لي تفضلاً . كأني بالتقصير أستوجب الفضلا

وثانيها : إنك كريم لكن ربك أكرم وكيف لا وكل كريم ينال بكرمه نفعاً إما مدحاً أو ثواباً أو يدفع ضرراً .

أما أنا فالأكرم إذ لا أفعله إلا لمحض الكرم وثالثها : أنه الأكرم لأن له الابتداء في كل كرم وإحسان وكرمه غير مشوب بالتقصير ورابعها : يحتمل أن يكون هذا حثاً على القراءة أي هذا الأكرم لأنه يجازيك بكل حرف عشراً أو حثاً على الإخلاص ، أي لا تقرأ لطمع ولكن لأجلي ودع عليّ أمرك فأنا أكرم من أن لا أعطيك ما لا يخطر ببالك ، ويحتمل أن المعنى تجرد لدعوة الخلق ولا تخف أحداً فأنا أكرم من أن آمرك بهذا التكليف الشاق ثم لا أنصرك .

المسألة الثالثة :

أنه سبحانه وصف نفسه بأنه : خلق الإنسان من علق وثانياً بأنه علقة وهي بالقلم ، ولا مناسبة في الظاهر بين الأمرين ، لكن التحقيق أن أول أحوال الإنسان كونه علقة وهي أخس الأشياء وآخر أمره هو صيرورته عالماً بحقائق الأشياء ، وهو أشرف مراتب المخلوقات فكأنه تعالى يقول : انتقلت من أخس المراتب إلى أعلى المراتب فلا بد لك من مدبر مقدر ينقلك من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشريفة ، ثم فيه تنبيه على أن العلم أشرف الصفات الإنسانية ، كأنه تعالى يقول : الإيجاد والإحياء والإقدار والرزق كرم وربوبية ، أما

الأكرم هو الذي أعطاك العلم لأن العلم هو النهاية في الشرف .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ باسم ربّكَ الذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ﴾ إشارة إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة ، وقوله : ﴿ الذى عَلَّمَ بالقلم ﴾ إشارة إلى الأحكام المكتوبة التي لا سبيل إلى معرفتها إلا بالسمع ، فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية والثاني إلى النبوة ، وقدم الأول على الثاني تنبيهاً على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية .

المسألة الخامسة :

(63/822)

في قوله : ﴿ عَلَّمَ بالقلم ﴾ وجهان أحدهما : أن المراد من القلم الكتابة التي تعرف بها الأمور الغائبة ، وجعل القلم كناية عنها والثاني : أن المراد علم الإنسان الكتاب بالقلم وكلا القولين متقارب ، إذ المراد التنبيه على فضيلة الكتابة ، يروى أن سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام ، فقال : ريح لا يبقى ، قال : فما قيده ، قال : الكتابة ، فالقلم صياد يصيد العلوم يبكي ويضحك ، بركوعه تسجد الأنام ، وبحركته تبقى العلوم على مر الليالي

والأيام ، نظيره قول زكريا : ﴿إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا﴾ [مريم : 3] أخفى وأسمع فكذا القلم لا ينطق ثم يسمع الشرق والغرب ، فسبحانه من قادر بسوادها جعل الدين منوراً ، كما أنه جعلك بالسواد مبصراً ، فالقلم قوام الإنسان والإنسان قوام العين ، ولا تقل القلم نائب اللسان ، فإن القلم ينوب عن اللسان واللسان لا ينوب عن القلم ، التراب طهور ، ولو إلى عشر حجج ، والقلم بدل (عن اللسان) ولو (بعث) إلى المشرق والمغرب . (1)

أما قوله تعالى :

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)

فيحتمل أن يكون المراد علمه بالقلم وعلمه أيضاً غير ذلك ولم يذكر واو النسق ، وقد يجري مثل هذا في الكلام تقول : أكرمتك أحسنت إليك ملكتك الأموال وليتك الولايات ، ويحتمل أن يكون المراد من اللفظين واحداً ويكون المعنى : علم الإنسان بالقلم ما لم يعلمه ، فيكون قوله : ﴿عَلَّمَ الإنسان ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ بياناً لقوله : ﴿عَلَّمَ بالقلم﴾ [العلق : 4] . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 18.14﴾

---

(1) هذه العبارة كما هي في الأصل ، وهي مضطربة ، قوله التراب طهور إلخ أي إنه يغني عن الماء في التيمم به ، وما بين الأقواس المعكفة لزيادة الإيضاح ، وهو يقصد إلى أن المقارنة بين الماء والتراب كالمقارنة بين القلم واللسان والله أعلم .

وقال القرطبى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) ﴾

هذه السورة أوّل ما نزل من القرآن ؛ في قول معظم المفسرين .

نزل بها جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو قائم على حِراء ، فعلمه خمسَ آيات من هذه السورة .

وقيل : إن أوّل ما نزل ﴿ يا أيها المدثر ﴾ ، قاله جابر بن عبد الله ؛ وقد تقدم .

وقيل : فاتحة الكتاب أوّل ما نزل ؛ قاله أبو مَيْسَرة الهَمْداني .

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : أوّل ما نزل من القرآن ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام : 151] والصحيح الأوّل .

قالت عائشة : أوّل ما بُدِىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصادقة ؛ فجاءه الملك فقال : ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ * اقرأ وَرَبُّكَ الأكرم ﴾ .

خرجه البخاريّ .

وفي الصحيحين عنها قالت : " أوّل ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوَحْي الرؤيا الصادقة في النوم ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مِثل فَلَق الصبح ، ثم حُبِّب إليه الخَلاء ، فكان يخلو بغار حِراءٍ ، يتحنث فيه الليالي ذواتِ العدد ، قبل أَنْ يَرْجع إلى أَهْلِهِ ويتزوّد لذلك ؛ ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها ؛ حتى فجئه الحقّ وهو في غار حِراء ، فجاءه الملك ، فقال : "اقرأ" : فقال : ما أنا بقارئ قال فأخذني فغطني ، حتى بلغ مني الجهدُ ثم أرسلني" ، فقال : "اقرأ" فقلت : "ما أنا بقارئ" .

(65/822)

فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني" فقال : ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ * اقرأ وَرَبُّكَ الأكرم * الذى عَلَّمَ بالقلم * عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ الحديث بكماله" وقال أبو رجاء العُطارِديّ : وكان أبو موسى الأشعريّ يطوف علينا في هذا المسجد : مسجدِ البصرة ، فيُقْعِدنا حِلَقاً ، فيقرِئنا القرآن ؛ فكأني أنظر إليه بين ثوبين له أبيضين ، وعنه أخذت هذه السورة : ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ ﴾ .

وكانت أوّل سورة أنزلها الله على محمد صلى الله عليه وسلم .

وروتْ عائشة رضي الله عنها أنها أوّل سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعدها ﴿ ن والقلم ﴾ [القلم : 1] ، ثم بعدها ﴿ يا أيها المدثر ﴾ [المدثر : 1] ثم بعدها "والضحى" ذكره الماوردِيّ.

وعن الزُّهرِيّ : "أول ما نزل سورة : ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ ﴾ إلى قوله ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، فحزِن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل يعلو شواهِق الجبال ، فأتاه جبريل فقال له : "إنك نبيُّ الله" فرجع إلى خديجة وقال : "دَثّروني وصُبُّوا عليّ ماء بارداً" فنزل ﴿ يا أيها المدثر " ومعنى ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ ﴾ أي اقرأ ما أنزل إليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك ، وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كل سورة .

فمحل الباء من "باسم ربك" النصب على الحال .

وقيل : الباء بمعنى على ، أي اقرأ على اسم ربك .

يقال : فعل كذا باسم الله ، وعلى اسم الله .

وعلى هذا فالمقروء محذوف ، أي اقرأ القرآن ، وافتتحه باسم الله .

وقال قوم : اسم ربك هو القرآن ، فهو يقول : ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ ﴾ أي اسمَ ربك ، والباء زائدة ؛ كقوله تعالى : ﴿ تَنبُتُ بالدهن ﴾ [المؤمنون : 20] ، وكما قال :

سُودُ المَحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ . . .

أراد : لا يقرأن السور .

وقيل : معنى "اقرأ باسم ربك" أي اذكر اسمه .

أمره أن يبتدىء القراءة باسم الله .

(66/822)

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ يعني ابن آدم .

﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ أي من دمٍ ؛ جمع عَلقة ، والعلقة الدّم الجامد ؛ وإذا جرى فهو المسفوح.

وقال : "مِنْ عَلَق" فذكره بلفظ الجمع ؛ لأنه أراد بالإنسان الجمع ، وكلهمْ خُلِقوا من عَلَق بعد النطفة .

والعَلَقة : قطعة من دمٍ رَطْب ، سميت بذلك لأنها تعلَق لرطوبتها بما تَمُر عليه ، فإذا جفت لم تكن عَلَقة .

قال الشاعر :

تركناه يَخِر على يديه . . .

يمج عليهما عَلَق الوَتِين

وخَصّ الإنسانَ بالذكر تشريفاً له .

وقيل : أراد أن يبين قدرَ نعمته عليه ، بأن خلقه من علقة مَهينة ، حتى صار بشراً سَوِيًّا ،

وعاقلاً مميزاً .

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3)

قوله تعالى : ﴿ اقرأ ﴾ تأكيد ، وتم الكلام ، ثم استأنف فقال : ﴿ وَرَبُّكَ الأكرم ﴾ أي الكريم .

وقال الكلبيّ : يعني الحليم عن جهل العباد ، فلم يُعَجِّل بعقوبتهم .

والأوّل أشبه بالمعنى ، لأنه لما ذكر ما تقدّم من نعمه ، دلّ بها على كرمه .

وقيل : "إقرأ وربك" أي اقرأ يا محمد وربك يعينك ويفهمك ، وإن كنت غير القارىء .

و"الأكرم" بمعنى المتجاوز عن جهل العباد .

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ الذى عَلَّمَ بالقلم ﴾ يعني الخط والكتابة ؛ أي علم الإنسان الخط بالقلم .

ورَوى سعيد عن قتادة قال : القلم نعمة من الله تعالى عظيمة ، لولا ذلك لم يقم دِين ، ولم يصلُح عيش .

فدل على كمال كرمه سبحانه ، بأنه عَلَّم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبَّه على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة ، التي لا يحيط بها إلا هو .

وما دُوِّنت العلوم ، ولا قيِّدت الحِكم ، ولا ضبطت أخبار الأوّلين ومقالاتهم ، ولا كتبُ الله المُنْزَلة إلا بالكتابة ؛ ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا .

وسُمِّي قلماً لأنه يُقْلَم ؛ أي يقطع ، ومنه تقليم الظفر .

(67/822)

وقال بعض الشعراء المُحْدَثِين يصف القلم :

فكأنه والحِبْرُ يخضِبُ رأسَهُ . . .

شيخٌ لوصل خرِيدةٍ يَتَصَنَّعُ

لِمَ لا أُلاحظه بعين جَلالة . . .

وبه إلى الله الصحائفُ ترفعُ

"وعن عبد الله بن عمر قال : يا رسول الله ، أأكتب ما أسمع منك من الحديث ؟ قال : "نعم فاكتب ، فإن الله عَلَّم بالقلم" " وروى مجاهد عن ابن عمر قال : خلق الله عز وجل أربعة أشياء بيده ، ثم قال لسائر الحيوان : كن فكان : القلم ، والعَرْش ، وجنة عَدْن ، وآدم عليه السلام .

وفيمن علمه بالقلم ثلاثة أقاويل : أحدها : أنه آدم عليه السلام ؛ لأنه أوّل من كتب ، قاله

كعب الأحبار .

الثاني : أنه إدريس ، وهو أول من كتب .

قاله الضحاك .

الثالث : أنه أدخل كل من كتب بالقلم ؛ لأنه ما عَلِم إلا بتعليم الله سبحانه ، وجمع بذلك نعمته عليه في خَلْقه ، وبين نعمته عليه في تعليمه ؛ استكمالاً للنعمة عليه .

الثانية : صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هُريرة ، قال : " لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : "إن رحمتي تغلِب غضبي" " وثبت عنه عليه السلام أنه قال : " أوّل ما خلق الله : القلم ، فقال له اكتب ، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة ، فهو عنده في الذكر فوق عرشه " وفي الصحيح من حديث ابن مسعود : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة ، بعث الله إليها ملكاً فصوّرها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ، ثم يقول ، يا رب ، أذكر أم أنثى ؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب المَلَك ثم يقول : يا رب أَجَلَه ، فيقول ربك ما شاء ، ويكتب الملك ، ثم يقول يا رب رزقه ، ليقضي ربك ما شاء ، ويكتب المَلَك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده ، فلا يزيد على ما أُمر ولا ينقص ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ [الانفطار : 10 11] "

(68/822)

قال علماؤنا : فالأقلام في الأصل ثلاثة : القلم الأوّل : الذي خلقه الله بيده ، وأمره أن يكتب .

والقلم الثاني : أقلام الملائكة ، جعلها الله بأيديهم يكتبون بها المقادير والكوائن والأعمال .

والقلم الثالث : أقلام الناس ، جعلها الله بأيديهم ، يكتبون بها كلامهم ، ويصلون بها مآربهم .

وفي الكتابة فضائل جمة .

والكتابة من جملة البيان ، والبيان مما اختص به الآدميّ .

الثالثة : قال علماؤنا : كانت العرب أقل الخلق معرفة بالكتاب ، وأقل العرب معرفة به المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ صُرِف عن علمه ، ليكون ذلك أثبت لمعجزته ، وأقوى في حجته ، وقد مضى هذا مبيناً في سورة "العنكبوت" .

وروى حَمَّاد بن سَلَمة عن الزبير بن عبد السلام ، عن أيوب بن عبد الله الفهري ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تُسْكِنوا نساءكم الغُرف ، ولا تعلموهن الكتابة" قال علماؤنا : وإنما حذرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك ، لأن في إسكانهن الغُرَف تطلعاً إلى الرجل ؛ وليس في ذلك تحصين لهنّ ولا تستر .

وذلك أنهنّ لا يملكن أنفسهنّ حتى يشرفن على الرجل ؛ فتَحدثَ الفتنة والبلاء ؛ فحذرهم

أن يجعلوا لهن غُرَفاً ذريعة إلى الفتنة.

وهو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس للنساء خيرٌ لهنّ من ألا يراهنّ الرجال، ولا يرين الرجال" وذلك أنها خُلقت من الرجل، فنهْمتُها في الرجل، والرجل خلقت فيه الشهوة، وجُعلت سكناً له، فغير مأمون كل واحد منهما في صاحبه.

وكذلك تعليم الكتابة ربما كانت سبباً للفتنة، وذلك إذا عُلِّمَتِ الكتابة كتبت إلى من تَهوَى.

والكتابة عين من العيون، بها يبصر الشاهد الغائب، والخط هو آثار يده.

وفي ذلك تعبير عن الضمير بما لا ينطلق به اللسان، فهو أبلغ من اللسان.

فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينقطع عنهنّ أسباب الفتنة؛ تحصيناً لهنّ، وطهارة لقلوبهنّ.

(69/822)

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)

قيل: "الإنسان" هنا آدم عليه السلام.

علمه أسماء كل شيء؛ حسب ما جاء به القرآن في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا

﴾ [البقرة: 31].

فلم يبق شيء إلا وعلّم سبحانه آدمَ اسمَه بكل لغة، وذكره آدم للملائكة كما عُلّمه.

وبذلك ظهر فضله، وتبيّن قدره، وثبتت نبوّته، وقامت حجة الله على الملائكة وحجتُه، وامتثلت الملائكة الأمر لِمَا رأت من شرف الحال، ورأت من جلال القدرة، وسمعت من عظيم الأمر.

ثم توارثت ذلك ذريته خلفاً بعد سلف، وتناقلوه قوماً عن قوم.

وقد مضى هذا في سورة "البقرة" مستوفًى والحمد لله.

وقيل: "الإنسان" هنا الرسول محمد صلى الله عليه وسلم؛ دليله قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ [النساء: 113].

وعلى هذا فالمراد بـ"علّمك" المستقبل؛ فإن هذا من أوائل ما نزل.

وقيل: هو عام لقوله تعالى: ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ [النحل: 78]. انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(70/822)

وقال ابن كثير :

تفسير سورة اقرأ

وهي أول شيء نزل من القرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهري ، عن عُرْوَة ، عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح . ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه - وهو : التعبد - الليالي ذواتَ العدد ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فَتُزَوِّد لمثلها حتى فَجَأه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فقلت : ما أنا بقارئ" . قال : "فأخذني فَغَطَّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ. فَغَطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ. فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ قال : فرجع بها تَرجُف بَوادره حتى دخل على خديجة فقال : "زملوني زملوني" . فزملوه

حتى ذهب عنه الرَّوْع. فقال: يا خديجة، ما لي: فأخبرها الخبر وقال: "قد خشيت علي". فقالت له: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدُق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقة بن نوفل بن أَسَد بن عبد العُزى ابن قُصي - وهو ابن عم خديجة، أخي أبيها، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيرًا قد عَميَ - فقالت خديجة: أيّ ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابنَ أخي، ما ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى ليتني فيها جَذَعا أكونُ حيا حين يخرجك قومك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوَمخرجيَّ هُم؟".

فقال ورقة:

(71/822)

نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي، وإن يُدركني يومك أنصُرْكَ نصرًا مُؤزرًا. [ثم لم ينشَب وَرَقة أن تُوُفِّي، وفَتَر الوحي فترة حتى حَزن رسول الله صلى الله عليه وسلم -

فيما بلغنا – حزنًا غدا منه مرارا كي يَتَردى من رءوس شَوَاهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه ، تبدى له

(72/822)

جبريل فقال : يا محمد ، إنك رسولُ الله حقاً . فيسكن بذلك جأشه ، وتَقَرُّ نفسه فيرجع . فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة الجبل تَبَدى له جبريل ، فقال له مثل ذلك .

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري (1) وقد تكلمنا على هذا الحديث من جهة سنده ومتنه ومعانيه في أول شرحنا للبخاري مستقصى ، فمن أراده فهو هناك محرر ، ولله الحمد والمنة .

فأول شيء [نزل]من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات وهُنَّ أول رحمة رَحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم . وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كَرَمه تعالى أن عَلّم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان ، وتارة يكون في اللسان ، وتارة يكون في الكتابة بالبنان ، ذهني ولفظي ورسمي ، والرسمي يستلزمهما من غير عكس ،

فلهذا قال : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ وفي الأثر : قيدوا العلم بالكتابة (2) . وفيه أيضا : "من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يكن [يعلم] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 8 صـ 436 .437 ﴾

---

(1) المسند (232/6) وصحيح البخاري برقم (3 ، 4 ، 4953 ، 6982 ، 4955 ، 3392) وصحيح مسلم برقم (160) .

(4) جاء عن عمر - رضي الله عنه - موقوفا ، رواه الحاكم في المستدرك (106/1) وابن أبي شيبة في المصنف (49/9) والدارمي في السنن برقم (503) . وعن أنس موقوفا ، رواه الحاكم في المستدرك (106/1) والرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص368) ، وجاء مرفوعا من حديث أنس ، رواه الخطيب في تقييد العلم (ص 70) والرامهرمزي في المحدث الفاصل (ص 368) . ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، رواه الحاكم في المستدرك (106/1) وابن عبد البر في جمع بيان العلم (73/1) والموقوف أصح .

وقال الآلوسى :

﴿ اقْرَأْ ﴾

أي ما يوحى إليك من القرآن فالمفعول مقدر بقرينة المقام كما قيل وليس الفعل منزلاً منزلة اللازم ولا أن مفعوله قوله تعالى : ﴿ باسم رَبّكَ ﴾ على الباء زائدة كما قال أبو عبيدة وزعم أن المعنى ﴿ اذكر رَبَّكَ ﴾ بل هي أصلية ومعناها الملابسة وهي متعلقة بما عندها أو بمحذوف وقع حالاً كما روى عن قتادة والمعنى ﴿ اقرأ ﴾ مبتدئاً أو مفتتحاً ﴿ باسم رَبّكَ ﴾ أي قل ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ ثم اقرأ وهو ظاهر في أنه لو افتتح بغير اسمه عز وجل لم يكن ممتثلاً واستدل بذلك على أن البسملة جزء من كل سورة وفيه بحث وكذا الاستدلال به على أنها ليس من القرآن للمقابلة إذ لقائل أن يقول إنها تخصص القرآن المقدر مفعولاً بغيرها وبعضهم استدل على أنها ليست بقرآن في أوائل السور بأنها لم تذكر فيما صح من أخبار بدء الوحي الحاكية لكيفية هذه الآيات كذا أفاده النووي عليه الرحمة ثم قال وجواب المثبتين أنها لم تنزل أولاً بل نزلت في وقت آخر كما نزل باقي السورة كذلك وهذا خلاف ما أخرج الواحدي عن عكرمة والحسن أنهما قالا أول ما نزل من القرآن ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾ [الفاتحة : 1] وأول سورة ﴿ اقرأ ﴾ وكذا خلاف ما أخرجه ابن جرير وغيره من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال أول ما نزل جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم قال يا محمد استعذ ثم قل ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾ وقد عد

القول بأنها أول ما نزل أحد الأقوال في تعيين أول منزل من القرآن وقال الجلال السيوطي إن هذا القول لا يعد عندي قولاً برأسه فإنه من ضرورة نزول السورة نزول البسملة معها فهي أول آية نزلت على الإطلاق وفيه منع ظاهر كما لا يخفى وجوز كون الباء للاستعانة متعلقة بما عندها أو بمحذوف وقع حالاً ورجحت الملابسة بلاسمتها عن إيها كون اسمه تعالى آلة لغيره وقد تقدم ما يتعلق بذلك أول الكتاب ثم إنه ليس في الأمر المذكور تكليف بما لا يطاق سواء دل الأمر على الفور أم لا

(74/822)

لأنه صلى الله عليه وسلم علم أن ما أوحي قرآن فهو المكلف بقراءته عليه الصلاة والسلام ولا محذوف في كون ﴿ اقرأ ﴾ الخ مأموراً بقراءته لصدق المأمور بقراءته عليه وهذا كما تقول لشخص اسمع ما أقول لك فإنه مأمور بسماع هذا اللفظ أيضاً وقد ذكر جمع من الأصوليين أن هذا بيان للمأمور به في قول جبريل عليه السلام ﴿ اقرأ ﴾ المذكور في حديث بدء الوحي المتفق عليه قال الآمدي عند ذكر أدلة جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب الذي ذهب إليه جماعة من الحنفية وغيرهم ومن الأدلة ما روى أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ اقرأ ﴾ قال وما اقرأ كرر عليه ثلاث مرات ثم

قال له ﴿ اقرأ باسم ربّكَ الذى خَلَقَ ﴾ فاخر بيان ما أمره به أولاً مع إجماله إلى ما بعد ثلاث مرات من أمر جبريل عليه السلام وسؤال النبي صلى الله عليه وسلم مع إمكان بيانه أولاً وذلك دليل جواز التأخير إلى آخر ما قال سؤالاً وجواباً لا يتعلق بهما غرضنا ولا يخفى أن كون هذا بياناً للمراد على الوجه الذي ذكرناه ظاهر وكونه كذلك بجعل ﴿ اقرأ باسم ربّكَ ﴾ إلى آخر ما نزل أو ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الحاكمين اقرأ ﴾ الخ ما ادعاه الجلال معمولاً لاقرأ المكرر في كلام جبريل عليه السلام مما لا أظن أن أصولياً يقول به ومثله كونه كذلك بحمل الآية على ما سمعت عن أبي عبيدة وأما بناء الاستدلال على ما في بعض الآثار من أن جبريل عليه السلام جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بحراء بنمط من ديباج مكتوب فيه ﴿ اقرأ باسم ربّكَ ﴾ إلى

(75/822)

﴿ ما لم يعلم ﴾ [العلق : 1-5] فقال له اقرأ فقال عليه الصلاة والسلام ما أنا بقارىء قال ﴿ اقرأ باسم ربّكَ ﴾ بأن يكون ﴿ اقرأ ﴾ الخ بياناً وتلاوة من جبريل عليه السلام لما في النمط المنزل لعدم العلم بما فيه وإن كان مشاهداً منزلة المجمل الغير المعلوم فلا يخفى حاله فتأمل ثم أن في كلام الآمدي من حيث رواية الخبر ما فيه فلا تغفل والتعرض لعنوان الربوبية

المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشياً مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم للإشعار بتبليغه عليه الصلاة والسلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية بإنزال الوحي المتواتر ووصف الرب بقوله تعالى : ﴿ الذى خَلَقَ ﴾ لتذكيره عليه الصلاة والسلام أول النعماء الفائضة عليه صلى الله عليه وسلم منه سبحانه مع ما في ذلك من التنبيه على قدرته تعالى على تعليم القراءة بالطف وجه وقيل لتأكيد عدم إرادة غيره تعالى من الرب فإن العرب كانت تسمى الأصنام أربابا لكنهم لا ينسبون الخلق إليها والفعل إما منزل منزلة اللازم أي الذي له الخلق أو مقدر مفعوله عاما أي الذي خلق كل شيء والأول يفيد العموم أيضاً فعلى الوجهين يكون وجه تخصيص الإنسان بالذكر في قوله تعالى :

(76/822)

﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ إنه أشرف المخلوقات وفيه من بدائع الصنع والتدبير ما فيه فهو أدل على وجوب العبادة المقصودة من القراءة مع أن التنزيل إليه ويجوز أن يراد خلق الإنسان إلا أنه لم يذكر أولاً وذكر ثانياً قصداً لتفخيمه بالإبهام ثم التفسير وعن الزمخشري أن المناسب أن يراد خلق الإنسان بعد الأمر بقرارة القرآن تنبيهاً على أنه تعالى خلقه للقراءة والدراية كما أن ذكر خلق الإنسان عقيب تعليم القرآن أول سورة الرحمن لنحو ذلك وقوله تعالى : ﴿ مِنْ

عَلَقٍ ﴾ أي دم جامد لبيان كمال قدرته تعالى بإظهار ما بين حالتيه الأولى والآخرة من التباين البين وأتى به دالاً على الجمع لأن الإنسان مراد به الجنس فهو في معنى الجمع فأتى بما خلق منه كذلك ليطابقه مع ما في ذلك من رعاية الفواصل ولعله على ما قيل السر في تخصيص هذا الطور من بين سائر أطوار الفطرة الإنسانية مع كون النطفة والترب أدل على كمال القدرة لكونهما أبعد منه بالنسبة إلى الإنسانية وفي "البحر" لم يذكر سبحانه مادة الأصل يعني آدم عليه السلام وهو التراب لأن خلقه من ذلك لم يكن متقرراً عند الكفار فذكر مادة الفرع وخلقه منها وترك مادة أصل الخلقة تقريباً لأفهامهم وهو على ما فيه لا يحسم مادة السؤال وقيل خص هذا الطور تذكيراً له عليه الصلاة والسلام لما وقع من شرح الصدر قبل النبوة وإخراج العلق منه ليتهيأ تهيئاً تاماً لما يكون له بعد فكأنه قيل الذي خلق الإنسان من جنس ما أخرجه من صدرك الشريف ليهيئك بذل لمثل ما يلقى إليك الآن وبهذا تقوى مناسبة هذه السورة لسورة الشرح قبلها أتم مناسبة لا سيما على تفسير الشرح بالشق فتدبره ومن الناس من زعم أن المراد بالإنسان آدم عليه السلام وأن المعنى خلق آدم من طين يعلق باليد وهو مما لا تعلق به يد القبول ولما كان خلق الإنسان أول النعم الفائضة عليه منه تعالى وأقدم الدلائل الدالة على وجوده عز وجل وكمال قدرته وعلمه وحكمته سبحانه وصف ذاته

تعالى بذلك أولاً ليستشهد عليه الصلاة والسلام به على تمكينه تعالى له من القراءة ثم كرر جل وعلا الأمر بقوله تعالى :

﴿ اقرأ ﴾ أي افعل ما أمرت به تأكيداً للإيجاب وتمهيداً لما يعقبه من قوله تعالى ﴿ وَرَبُّكَ الأكرم ﴾ الخ فإنه كلام مستأنف وأراد لإزاحة ما بينه صلى الله عليه وسلم من العذر بقوله عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام حين قال له "اقرأ ما أنا بقارىء" يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ وأنا أمي فقيل وربك الذي أمرك بالقراءة مفتتحاً ومبتدأ باسمه الأكرم.

﴿ الذى عَلَّمَكُمُ بالقلم ﴾ أي علم ما علم بواسطة القلم لا لغرض فهو صفة لا يشاركه تعالى في إطلاقها أحد فافعل للمبالغة وجوز أن لا يكون ﴿ اقرأ ﴾ هذا تأكيداً للأول وإنما ذكر ليوصل به ما يزيح العذر فجملة ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ [العلق : 3] الخ في موضع الحال من الضمير المستتر فيه وقوله تعالى :

﴿ عَلَّمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ بدل اشتمال من ﴿ علم بالقلم ﴾ [العلق : 4] أي علمه به وبدونه من الأمور الكلية والجزئية والجلية والخفية ما لم يخطر بباله وفي حذف المفعول أولاً وإيراده بعنوان عدم المعلومية ثانياً من الدلالة على كمال قدرته تعالى وكما لكرمه عز وجل والإشعار بأنه تعالى يعلمه عليه الصلاة والسلام من العلوم ما لا يحيط به العقول ما لا يخفى قاله في "الإرشاد" وقدر بعضهم مفعول علم الخط وجعل بالقلم متعلقاً به وأيد بقراءة ابن الزبير الذي علم الخط بالقلم حيث صرح فيها بذلك وقال الجبائي أن ﴿ اقرأ ﴾ الأول أمر بالقراءة لنفسه وقيل مطلقاً والثاني أمر بالقراءة للتبليغ وقيل في الصلاة المشار إليها فيما بعد وجملة ﴿ ورَبُّكَ ﴾ الخ تحتمل الحالية والاستئنافية وحاصل المعنى على إرادة القراءة للتبلغي في قول بلغ قوملك ﴿ ورَبُّكَ الاكرم ﴾ الذي يثيبك على عملك بما يقتضيه كرمه ويقويك على حفظ القرآن لتبلغه وأولى الأوجه وأظهرها التأكيد وأبعد بعضهم جداً فزعم أن بسم في البسملة متعلق باقرأ الأول و ﴿ باسم ربّكَ ﴾ متعلق باقرأ الثاني ليفيد التقديم اختصاص اسم الله تعالى بالابتداء وجوز أيضاً أن يبقى باسم الله على ما هو المشهور فيه و ﴿ اقرأ ﴾ أمر باحداث القراءة ﴿ إِنَّ ربَّكَ ﴾ متعلق باقرأ الثاني لذلك ولا يخفى أن الظاهر تعلق ﴿ باسم ربّكَ ﴾ بما عنده وتقديم الفعل ههنا أوقع لأن السورة المذكورة على ما سبق من التصحيح أول سورة نزلت فالقراءة فيها أهم نظراً للمقام وقيل أنه لو سلم كون غيرها نازلاً قبلها لا يضر في حسن تقديم الفعل لأن المعنى كما سمعت عن قتادة اقرأ مفتتحاً

﴿ باسم ربِّكَ ﴾ أي قل ﴿ باسم الله ﴾ ثم اقرأ فلو افتتح بغير البسملة لم يكن ممتثلاً فضلاً عن أن يفتتح بما يضادها من أسماء الأصنام ولو قدم الجار أفاد معنى آخر وهو أن المطلوب عند القراءة أن يكون الافتتاح باسم الله تعالى لا باسم الأصنام ولا

(79/822)

تكون القراءة في نفسها مطلوبة لما علم أن مقتضى التقديم أن يكون أصل الفعل مسلماً على ما هو عليه من زمان طلباً كان أو خبراً وأجاب من علق الجار بالثاني بأن مطلوبية القراءة في نفسها استفيدت من اقرأ الأول فلا تغفل والظاهر أن المعلم بالقلم غير معين وقيل هو كل نبي كتب وقال الضحاك هو إدريس عليه السلام وهو من خط وقال كعب هو آدم عليه السلام وهو أول من كتب وقد نسبوا لآدم وإدريس عليهما السلام نقوشاً مخصوصة في كتابة حروف الهجاء والذي يغلب على الظن عدم صحة ذلك وقد أدمج سبحانه وتعالى التنبيه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة ونيل الرتب الفخيمة ولولاه لم يقم دين ولم يصلح عيش ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره سبحانه دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به وقد قيل فيه :

لعاب الأفاعي القاتلات لعباه . . .

وأرى الجني اشتارته أيد عواسل

ومما نسبه الزمخشري في ذلك لبعضهم وعنى على ما قيل نفسه :

ورواقم رقش كمثل إراقم . . .

قطف الخطى نيالة أقصى المدى

سود القوائم ما يجد مسيرها . . .

إلا إذا لعبت بها بيض المدى

ولهم في هذا الباب كلام فصل يضيق عنه الكتاب وظاهر الآثار أن الكتابة في الأمم غير العرب قديمة وفيهم حادثة لا سيما في أهل الحجاز وذكر غير واحد أن الكتابة نقلت إليهم من أهل الحيرة وأنهم أخذوها من أهل الأنبار وذكر الكلبي والهيثم بن عدي أن الناقل للخط العربي من العراق إلى الحجاز حرب بن أمية وكان قد قدم الحيرة فعاد إلى مكة به وأنه قيل لابنه أبي سفيان ممن أخذ أبوك هذا الخط فقال من أسلم بن أسدرة وقال سألت أسلم ممن أخذت هذا الخط فقال من واضعه مرامر بن مرة وقيل كان لحمير كتابة يسمونها المسند منفصلة غير متصلة وكان لها شان عندهم فلا يتعاطاها إلا من أذن له في تعلمها وأصناف

الكتابة كثيرة وزعم بعضهم أن جل كتابات الأمم اثنا عشر صنفاً العربية والحميرية والفارسية والعبرانية واليونانية والرومية والقبطية والبربرية والأندلسية والهندية والصينية والسريانية ولعل هذا إن صح باعتبار الأصول وإلا فالفروع توشك أن لا يحصيها قلم كما لا يخفى والله تعالى أعلم ولم ير بعض العلماء من الأدب وصف غيره تعالى بالأكرم كما يفعله كثير من الناس في رسائلهم فيكتبون إلى فلان الأكرم ومع هذا يعدونه وصفاً نازلاً ويستهجنونه بالنسبة للملوك ونحوهم من الأكابر وقد يصفون به اليهودي والنصراني ونحوهما مع أنه تعالى يقول ﴿ وربك الأكرم ﴾ [العلق : 3] فعلى العبد أن يراعي الأدب مع مولاه شاكراً كرمه الذي أولاه . انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(81/822)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(96) سورة العلق

نزولها : مكية . . أول ما نزل من القرآن الكريم .

عدد آياتها : تسع عشرة آية .

عدد كلماتها : اثنتان وتسعون كلمة .

عدد حروفها : مائتان وثمانون حرفا .

مناسبتها لما قبلها كانت سورة « التين » مواجهة للإنسان فى خلقه القويم ، الجليل ، الذي خلقه اللّه عليه ، وأن هذا الإنسان إذا استطاع أن يحتفظ بهذا الخلق الكريم ، كان فى أعلى عليين . . أما إذا لم يحسن سياسة هذا الخلق ، ولم يحسن تدبيره فإنه يهوى إلى أسفل سافلين .

وتبدا سورة « العلق » بهذه الواجهة مع الإنسان فى أعلى منازله ، وأكرم وأشرف صورة له ، وهو رسول اللّه « محمد » صلوات اللّه وسلامه عليه ، مدعوّا من ربه إلى أكمل كمالات الإنسان ، وأكرم ما يتناسب مع كماله وشرفه ، وهو القراءة ، التي هى مجلى العقل ، ومنارة هديه ورشده .

وبهذا تكون المناسبة جامعة بين السورتين ، ختاما ، وبدءا .

(82/822)

قوله تعالى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ » .

يكاد إجماع العلماء والمفسرين ينعقد على أن هذه الآيات الخمس ، هى أول ما نزل من

القرآن الكريم ، وأول ما استفتحت به الرسالة المحمدية .

وقد نزل بها جبريل على النبىّ وهو يتعبد فى غار حراء ، وقد فجئه الوحى بقوله

(83/822)

تعالى : « اقرأ » .

ففى الصحيحين عن السيدة عائشة ، رضى اللّه عنها ، قالت : « أول ما بدىء به رسول اللّه - صلى اللّه عليه وسلم - من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبّب إليه الخلاء فكان يخلوا بغار حار ، يتحنث فيه الليالى ذوات العدد ، قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزود لمثل ذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجئه الحق ، وهو فى غار حراء ، فجاء الملك ، فقال : « اقرأ » فقال : « ما أنا بقارئ » قال فأخذنى فغطّنى « 1 » حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : « اقرأ » فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ » .

هذه هى الآيات الخمس الأولى ، التي استفتح بها كتاب اللّه الذي نزل على النبىّ . .

والنبىّ ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ أمّى ، لا يقرأ ، وأمره بالقراءة ، إنما هو قراءة من هذا الكتاب السماوي ، الذي يقرأ منه جبريل ، فيقرىء النبىّ منه . . فهى قراءة متابعة لقارئ السماء ، جبريل ، من كتاب اللّه .

وقوله الملك لنبى : « اقرأ » هو دعوة إلى قراءة من كتاب ، والنبي صلوات اللّه وسلامه عليه ، لا يقرأ ، ثم إنه ليس هناك كتاب يقرؤه لو كان قارئا . .

ولهذا كان ردّ النبي : « ما أنا بقاري » ! . . وقد تكرر هذا الموقف بين

(1) صمنى إليه ضما شديدا .

(84/822)

جبريل ، وبين النبي ثلاث مرات : « اقرأ » .

. « ما أنا بقاري ! » أي لا أعرف القراءة . .

وفى هذا تنويه بشأن القراءة . وأنها السبيل إلى المعرفة والعلم . .

ثم إن الأمية ، وإن كانت حائلة بين المرء وبين أن يقرأ فى كتاب ، فإنها لا تحول بينه وبين العلم والمعرفة ، فهناك كتاب الوجود ، الذي يقرأ الإنسان آياته بالنظر المتأمل فيه ، والبصيرة النافذة إلى أسراره ، وعجائبه . . ثم هناك التلقي عن أهل العلم ، ممن يقرءون ويدرسون

. . فليكن الإنسان قارئا أبدا ، على أي حال من أحواله ، قارئا بنفسه ، أو قارئا متابعا لغيره .

أما أمية النبي الكريم ، فهى أمية مباركة ، قد فتحت عليه خزائن علم اللّه ، إذ بعث اللّه سبحانه وتعالى إليه رسولا من عنده يقرأ عليه كتاب اللّه ، ويملأ قلبه هدى ونورا منه . .

ولهذا كان النبي قارئا ، فقرأ حين أقرأه جبريل : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ » .

وقوله تعالى : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ » أي اقرأ بأمر ربك ، أي أن جبريل يقول : هذا الأمر الذي آمرك به ليس بأمرى ، وإنما هو بأمر ربك ، الذي يدعوك إلى أن تقرأ ما أقرئك إياه ، من كتاب ربك . . وهذا مثل قوله تعالى : « وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ » (27 : الكهف) . وقوله تعالى : « فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » (18 : القيامة) .

وقوله تعالى : « الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ » . هو بيان لقدرة اللّه سبحانه وتعالى ، وأنه هو الخالق وحده لا شريك له ، وأنه هو الذي بقدرته

خلق الإنسان ، هذا الخلق السوىّ « من علق » أي من دم لزج ، متجمد .

فالذى خلق الإنسان من هذا العلق ، وسوّاه على هذا الخلق ، لا يقف به عند هذا الحد ، بل هو سبحانه ، بالغ به منازل الكمال ، بما يفتح له من أبواب العلم والمعرفة . .

وقوله تعالى : « اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ » أي خذ ما أعطاك ربك من علم ، وما دعاك إليه من معرفة ، فإن ربك كريم واسع العطاء ، لا ينفد عطاؤه.

فقوله تعالى : « وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ » .جملة خبرية ، تقع موقع الحال من فاعل « اقرأ » وهو النبي صلى اللّه عليه وسلم ، أي اقرأ مستيقنا أن ربك هو الأكرم . . أي ذو الفضل العظيم ، والكرم الذي لا حدود له . .

وفى تعريف طرفى الجملة الخبرية ، ما يفيد القصر ، أي قصر صفة الكرم على اللّه وحده . .

وقوله تعالى : « الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ » .

. أي ومن كرمه سبحانه أنه جعل من القلم الذي هو قطعة جامدة من الحطب ، أو الخشب ، أداة للعلم والمعرفة ، ففتح به على الإنسان أبواب العلوم والمعارف ، وجعل من ثماره هذه الكتب التي حفظت ثمار العقول ، فكانت ميراثا للعلماء ، يرثها الخلف عن السلف ، وينميها ويثمرها العلماء جيلا بعد جيل . . وبهذا تعلم الإنسان ما لم يكن يعلم ، وبعلمه هذا المستفاد من سلفه ، فتح أبوابا جديدة من العلم يتلقاها عنه من بعده ، ويفعل فعله ، بما

يفتح من أبواب جديدة للعلم . . وهكذا تتسع معارف الإنسان ، ويزداد علمه على مدى الأجيال . .

وهذا يعنى أن الإنسانية متطورة ، وسائرة نحو الأمام ، بما تتوارث أجيالها من ثمار العقول ، التي يتركها السلف للخلف ، جيلا بعد جيل . .

وهكذا يذهب الناس ، كأجساد ، وتبقى غراس عقولهم ، وثمار أفكارهم . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1621.1626 ﴾

(86/822)

وقال ابن عاشور :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) ﴾

هذا أول ما أوحي به من القرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم لما ثبت عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم مما سيأتي قريباً .

وافتتاح السورة بكلمة ﴿ اقرأ ﴾ إيذان بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيكون قارئاً ، أي تالياً كتاباً بعد أن لم يكن قد تلا كتاباً قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ﴾ [العنكبوت : 48] ، أي من قبل نزول القرآن ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه

وسلم لجبريل حين قال له اقرأ : " ما أنا بقارىء " .

وفي هذا الافتتاح براعة استهلال للقرآن .

وقوله تعالى : ﴿ اقرأ ﴾ أمر بالقراءة ، والقراءة نطق بكلام معيَّن مكتوبٍ أو محفوظٍ على ظهر قلب .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ باللَّه من الشيطان الرجيم ﴾ في سورة النحل (98) .

والأمر بالقراءة مستعمل في حقيقته من الطلب لتحصيل فعل في الحال أو الاستقبال ، فالمطلوب بقوله : ﴿ اقرأ ﴾ أن يفعل القراءة في الحال أو المستقبل القريب من الحال ، أي أن يقول مَا سَيُمْلَى عليه ، والقرينة على أنه أمر بقراءة في المستقبل القريب أنه لم يتقدم إملاء كلام عليه محفوظ فتطلب منه قراءته ، ولا سُلمت إليه صحيفة فتطلب منه قراءتها ، فهو كما يقول المُعلم للتلميذ : اكتب ، فيتأهب لكتابة ما سيمليه عليه .

وفي حديث "الصحيحين" عن عائشة رضي الله عنها قولها فيه : " حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ .

قال : فقلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرْسَلَني فقال : اقرأ .

فقلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطّني الثانيةَ حتى بلغ مني الجَهد ثم أرسلني فقال : اقرأ

فقلت : ما أنا بقارىء فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجَهد ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ إلى ﴿ ما لم يعلم ﴾ .

(87/822)

فهذا الحديث روته عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لقولها قال : " فقلت : ما أنا بقارىء " .

وجميع ما ذكرته فيه مما روته عنه لا محالة وقد قالت فيه : "فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده" أي فرجع بالآيات التي أُمليَتْ عليه ، أي رجع متلبساً بها ، أي بوعيها .

وهو يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقى ما أوحي إليه .

وقرأه حينئذٍ ويزيد ذلك إيضاحاً قولها في الحديث : "فانطلقت به خديجة إلى ورقة بن نوفل فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك" ، أي اسمع القول الذي أوحي إليه وهذا ينبىء بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قيل له بعد الفطة الثالثة : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ الآيات الخمس قد قرأها ساعتئذٍ كما أمره الله ورجع من غار حراء إلى بيته يقرؤها وعلى هذا الوجه يكون قول المَلك له في المرات الثلاث ﴿ اقرأ ﴾ إعادة للفّظ

المنزل من الله إعادة تكرير للاستئناس بالقراءة التي لم يتعلمها من قبل .

ولم يُذكر لفعل ﴿ اقرأ ﴾ مفعول ، إما لأنه نزل منزلة اللازم وأن المقصود أوجد القراءة ، وإما لظهور المقروء من المقام ، وتقديره : اقرأ ما سنلقيه إليك من القرآن .

وقوله ﴿ باسم ربك ﴾ فيه وجوه:

أولها : أن يكون افتتاح كلام بعد جملة ﴿ اقرأ ﴾ وهو أول المقروء ، أي قل : باسم الله ، فتكون الباء للاستعانة فيجوز تعلقه بمحذوف تقديره : ابتدىء ويجوز أن يتعلق بـ ﴿ اقرأ ﴾ الثاني فيكون تقديمه على معموله للاهتمام بشأن اسم الله .

ومعنى الاستعانة باسم الله ذكر اسمه عند هذه القراءة ، وإقحامُ كلمة (اسم) لأن الاستعانة بذكر اسمه تعالى لا بذاته كما تقدم في الكلام على البسملة ، وهذا الوجه يقتضي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ باسم الله ﴾ حين تلقَّى هذه الجملة .

(88/822)

الثاني : أن تكون الباء للمصاحبة ويكون المجرور في موضع الحال من ضمير ﴿ اقرأ ﴾ الثاني مقدّماً على عامله للاختصاص ، أي اقرأ ما سيوحَى إليك مصاحباً قراءتَك (اسمَ ربك) .

فالمصاحبة مصاحبة الفهم والملاحظة لجلاله ، ويكون هذا إثباتاً لوحدانية الله بالإلهية وإبطالاً للنداء باسم الأصنام الذي كان يفعله المشركون يقولون : باسم اللاتتِ ، باسم العزى ، كما تقدم في البسملة .

فهذا أول ما جاء من قواعد الإسلام قد افتتح به أول الوَحي .

الثالث : أن تكون الباء بمعنى (على) كقوله تعالى : ﴿ من إن تأمنه بقنطار ﴾ [آل عمران : 75] ، أي على قنطار .

والمعنى : اقرأ على اسم ربك ، أي على إذنه ، أي أن المَلَك جاءك على اسم ربك ، أي مرسلاً من ربك ، فذكر (اسْم) على هذا متعين .

وعدل عن اسم الله العَلم إلى صفة ﴿ ربك ﴾ لما يؤذن وصف الرب من الرأفة بالمربوب والعناية به ، مع ما يتأتى بذكره من إضافته إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم إضافة مؤذنة بأنه المنفرد بربوبيته عنده رداً على الذين جعلوا لأنفسهم أرباباً من دون الله فكانت هذه الآية أصلاً للتوحيد في الإسلام .

وجيء في وصف الربّ بطريق الموصول ﴿ الذي خلق ﴾ ولأن في ذلك استدلالاً على انفراد الله بالإلهية لأن هذا القرآن سيُتلى على المشركين لما تفيده الموصولية من الإيماء إى علة الخبر ، وإذا كانت علة الإقبال على ذكر اسم الرب هي أنه خالق دل ذلك على بطلان الإقبال على ذكر غيره الذي ليس بخالق ، فالمشركون كانوا يقبلون على اسم اللات واسم

العزى ، وكونُ الله هو الخالق يعترفون به قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ [لقمان : 25] فلما كان المقام مقام ابتداء كتاب الإسلام دين التوحيد كان مقتضياً لذكر أدلّ الأوصاف على وحدانيته .

6

(89/822)

وجملة ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ يجوز أن تكون بدلاً من جملة ﴿ الذي خلق ﴾ بدل مفصَّل من مُجْمل إن لم يقدر له مفعول ، أو بدل بعض إن قُدِّر له مفعول عام ، وسُلك طريق الإبدال لما فيه من الإجمال ابتداءً لإقامة الاستدلال على افتقار المخلوقات كلها إليه تعالى لأن المقام مقام الشروع في تأسيس ملة الإسلام .

ففي الإجمال إحضار للدليل مع الاختصار مع ما فيه من إفادة التعميم ثم يكون التفصيل بعد ذلك لزيادة تقرير الدليل .

ويجوز أن تكون بياناً من ﴿ الذي خلق ﴾ إذا قُدر لفعل ﴿ خلق ﴾ الأول مفعول دل عليه بيانه فيكون تقدير الكلام : اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق .

وعدم ذكر مفعول لفعل ﴿ خلق ﴾ يجوز أن يكون لتنزيل الفعل منزلة اللازم ، أي الذي هو

الخالق وأن يكون حذف المفعول لإرادة العموم ، أي خلق كل المخلوقات ، وأن يكون تقديره : الذي خلق الإنسان اعتماداً على ما يرد بعده من قوله ﴿ خلق الإنسان ﴾ ، فهذه معانٍ في الآية .

وخص خلق الإنسان بالذكر من بين بقية المخلوقات لأنه المطَّرد في مقام الاستدلال إذ لا يَغفُل أحد من الناس عن نفسه ولا يخلو من أن يخطر له خاطر البحث عن الذي خلقه وأوجده ولذلك قال تعالى : ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [الذاريات : 21] .

وفيه تعريض بتحميق المشركين الذين ضلوا عن توحيد الله تعالى مع أن دليل الوحدانية قائم في أنفسهم .

وفي قوله : ﴿ من علق ﴾ إشارة إلى ما ينطوي في أصل خَلْق الإنسان من بديع الأطوار والصفات التي جعلته سلطانَ هذا العالم الأرضي .

والعلق : اسم جمع عَلَقَة وهي قطعة قَدْرُ الأنملة من الدم الغليظ الجامد الباقي رطْباً لم يجفّ ، سمي بذلك تشبيهاً لها بدودةٍ صغيرة تسمَّى علقة ، وهي حمراء داكنة تكون في المياه الحلوة ، تمتص الدم من الحيوان إذا علق خرطومها بجلده وقد تدخل إلى فم الدابة وخاصة الخيل والبغال فتعلق بلهاته ولا يُتفطن لها .

ومعنى: ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ أن نطفة الذكر ونطفة المرأة بعد الاختلاط ومضي مدة كافيَة تصيران علقةً فإذا صارت علقة فقد أخذت في أطوار التكوّن، فجُعلت العلقة مبدأ الخلق ولم تُجعل النطفة مبدأ الخلق لأن النطفة اشتهرت في ماء الرجل فلو لم تخالطه نطفة المرأة لم تصر العلقة فلا يتخلق الجنين وفيه إشارة إلى أن خلق الإنسان من علق ثم مصيره إلى كمال أشده هو خلق ينطوي على قوى كامنة وقابليات عظيمة أقصاها قابلية العلم والكتابة.

ومن إعجاز القرآن العلمي ذكر العلقة لأن الثابت في العلم الآن أن الإِنسان يتخلق من بويضة دقيقة جداً لا ترى إلا بالمرآة المكبِّرة أضعافاً تكون في مبدإ ظهورها كروية الشكل سابحة في دم حيض المرأة فلا تقبل التخلق حتى تخالطها نطفة الرجل فتمتزج معها فتأخذ في التخلق إذا لم يَعُقْها عائق كما قال تعالى:

﴿ مخلقة وغير مخلقة ﴾ [الحج: 5]، فإذا أخذت في التخلق والنمو امتد تكورها قليلاً فشابهت العلقة التي في الماء مشابَهة تامة في دقة الجسم وتلونها بلون الدم الذي هي سابحة فيه وفي كونها سابحة في سائل كما تسبح العلقة، وقد تقدم هذا في سورة غافر وأشرت إليه في المقدمة العاشرة.

ومعنى حرف ﴿ مِن ﴾ الابتداء.

وفعل ﴿ اقرأ ﴾ الثاني تأكيد ل ﴿ اقرأ ﴾ الأول للاهتمام بهذا الأمر .

﴿ اقرأ وَرَبُّكَ ﴾ ﴿ الأكرم * الذى عَلَّمَ بالقلم * عَلَّمَ الإنسان مَا ﴾ .

جملة معطوفة على جملة : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ فلها حكم الاستئناف ، و ﴿ ربك ﴾ مبتدأ وخبره إما ﴿ الذي علم بالقلم ﴾ وإما جملة : ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

وهذا الاستئناف بياني .

فإذا نظرتَ إلى الآية مستقلة عما تضمنه حديث عائشة في وصف سبب نزولها كان الاستئناف ناشئاً عن سؤال يجيش في خاطر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقول : كيف أقرأ وأنا لا أحسن القراءة والكتابة ، فأجيب بأن الذي علم القراءة بواسطة القلم ، أي بواسطة الكتابة يعلمك ما لم تعلم .

(91/822)

وإذا قرنت بين الآية وبين الحديث المذكور كان الاستئناف جواباً عن قوله لجبريل : " ما أنا بقارىء " فالمعنى : لا عجب في أن تقرأ وإن لم تكن من قبل عالماً بالقراءة إذ العلم بالقراءة يحصل بوسائل أخرى مثل الإِملاء والتلقين والإِلهام وقد علم الله آدم الأسماء ولم يكن آدم قارئاً .

ومقتضى الظاهر : وعَلَّم بالقلم .

فعُدل عن الإِضمار لتأكيد ما يشعر به ﴿ ربّك ﴾ من العناية المستفادة من قوله : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وأن هذه القراءة شأن من شؤون الرب اختص بها عبدَه إتماماً لنعمة الربوبية عليه .

وليجري على لفظ الرب وصفُ الأكرم .

ووصف ﴿ الأكرم ﴾ مصوغ للدلالة على قوة الاتصاف بالكرم وليس مصوغاً للمفاضلة فهو مسلوب المفاضلة .

والكرم : التفضل بعطاء ما ينفع المعطَى ، ونعم الله عظيمة لا تُحصى ابتداء من نعمة الإِيجاد ، وكيفية الخلق ، والإِمداد .

وقد جمعت هذه الآيات الخمسُ من أول السورة أصول الصفات الإلهية فوَصفُ الرب يتضمن الوجود والوحدانية ، ووصف ﴿ الذي خلق ﴾ ووصف ﴿ الذي علم بالقلم ﴾ يقتضيان صفات الأفعال ، مع ما فيه من الاستدلال القريب على ثبوت ما أُشير إليه من الصفات بما تقتضيه الموصولية من الإِيماء إلى وجه بناء الخبر الذي يذكر معها .

ووصف ﴿ الأكرم ﴾ يتضمن صفات الكمال والتنزيه عن النقائص .

ومفعولا ﴿ علم بالقلم ﴾ محذوفان دل عليهما قوله : ﴿ بالقلم ﴾ وتقديره : علّم الكاتبين أو علّم ناساً الكتابة ، وكان العرب يعظمون علم الكتابة ويعدونها من خصائص

أهل الكتّاب كما قال أبو حية النُّميري :

كما خُطّ الكتّابُ بكفّ يَوماً

يَهُودِيَ يقارِب أو يُزيل . . .

ويتفاخر من يعرف الكتابة بعِلمه وقال الشاعر :

تعلّمْتُ بَاجَاد وآل

مُرَامِرٍ وسوّدت أثوابي ولستُ بكاتب . . .

(92/822)

وذُكر أن ظهور الخط في العرب أول ما كان عند أهل الأنبار ، وأدخل الكتابة إلى الحجاز حربُ بن أمية تعلمه من أسْلم بن سدرة وتعلمه أسلم من مُرامِر بن مُرة وكان الخط سابقاً عند حمير باليمن ويسمى المُسْنَد .

وتخصيص هذه الصلة بالذكر وجعلُها معترضة بين المبتدإ والخبر للإيماء إلى إزالة ما خطر ببال النبي صلى الله عليه وسلم من تعذر القراءة عليه لأنه لا يعلم الكتابة فكيف القراءةُ إذْ قال للملك : "ما أنا بقارىء" ثلاث مرات ، لأن قوله : " ما أنا بقارىء " اعتذار عن تعذر امتثال أمره بقوله : ﴿ اقرأ ﴾ ؛ فالمعنى أن الذي علّم الناس الكتابة بالقلم والقراءة قادر

على أن يعلمك القراءة وأنت لا تعلم الكتابة .

والقلم : شَظيّة من قصب ترقق وتثقّف وتبرى بالسكينِ لتكون ملساء بين الأصابع ويجعلُ طرفها مشقوقاً شقاً في طول نصف الأنملة ، فإذا بلّ ذلك الطرف بسائل المداد يخُط به على الورق وشبهه ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ في سورة آل عمران (44) .

وجملة : علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ خبر عن قوله : ﴿ وربك الأكرم ﴾ وما بينهما اعتراض .

وتعريف ﴿ الإنسان ﴾ يجوز أن يكون تعريف الجنس فيكون ارتقاء في الإِعلام بما قدره الله تعالى من تعليم الإِنسان بتعميم التعليم بعد تخصيص التعليم بالقلم .

وقد حصلتْ من ذكر التعليم بالقلم والتعليم الأعم إشارة إلى ما يتلقاه الإنسان من التعاليم سواء كان بالدرس أم بمطالعة الكتب وأن تحصيل العلوم يعتمد أموراً ثلاثة:

أحدها : الأخذ عن الغير بالمراجعة ، والمطالعة ، وطريقهما الكتابة وقراءة الكتب فإن بالكتابة أمكن للأمم تدوين آراء علماء البشر ونقلها إلى الأقطار النائية وفي الأجيال الجائية .

والثاني : التلقي من الأفواه بالدرس والإِملاء .

والثالث : ما تتقدح به العقول من المستنبطات والمخترعات .

وهذان داخلان تحت قوله تعالى : ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ .

(93/822)

وفي ذلك اطمئنان لنفس النبي صلى الله عليه وسلم بأن عدم معرفته الكتابة لا يحول دون قراءته لأن الله علّم الإنسان ما لم يعلم ، فالذي علّم القراءة لأصحاب المعرفة بالكتابة قادر على أن يعلمك القراءة دون سبق معرفة بالكتابة .

وأشعر قوله : ﴿ ما لم يعلم ﴾ أن العلم مسبوق بالجهل فكل علم يحصل فهو علم ما لم يكن يُعلَم من قبل ، أي فلا يُؤْيِسَنَّك من أن تصير عالماً بالقرآن والشريعة أنك لا تعرف قراءة ما يكتب بالقلم .

وفي الآية إشارة إلى الاهتمام بعلم الكتابة وبأن الله يريد أن يُكتَب للنبيء صلى الله عليه وسلم ما ينزل عليه من القرآن فمن أجل ذلك اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً للوحي من مبدإ بعثته .

وفي الاقتصار على أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقراءة ثم إخباره بأن الله علّم الإنسان بالقلم إيماء إلى استمرار صفة الأمية للنبيء صلى الله عليه وسلم لأنّها وصف

مكمِّل لإعجاز القرآن قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ [العنكبوت : 48] .

وهذه آخر الخمس الآيات التي هي أول ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(94/822)

قوله تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى (7) إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الدم أكثر الأخلاط وأشدها هيجاناً ، فإن مرضه لا يشبهه شيء من أمراض بقية الأخلاط ، وكان مع ذلك سريع البرء إن أصيب علاجه وعولج بأمر قاهر أقوى منه ، وكان العلم قرين الغنى في الأغلب ، وكان زلة العالم تفوق زلة غيره ، قال معرفاً بعد التعريف بالإلهيات بأمر النفس مبيناً لقسم الإنسان المردود أسفل سافلين مقرراً لحاله ، ورادعاً له

عن ضلاله : ﴿ كلا ﴾ أي ارتدع أيها العالم عن الطغيان إن نلت الغنى حقاً ﴿ إن الإنسان ﴾ أي هذا النوع الذي هو نوعك ومن شأنه الأنس بنفسه والنظر في عطفه ﴿ ليطغى ﴾ أي من شأنه - إلا من عصمه الله سبحانه - أن يزيد على الحد الذي لا ينبغي له مجاوزته كما يزيد الخلط الدموي ، وأكده لما لأكثر الخلق من التكذيب به فإنه لا طاغي يقر بأنه طغى ﴿ أن ﴾ أي لأجل أن ﴿ رآه ﴾ أي علم الإنسان نفسه علماً وجدانياً ﴿ استغنى ﴾ أي وجد له الغنى ، هذا هو الطبع الغالب في الإنسان متى استغنى عن شيء عمي عن مواضع افتقاره ، فتغيرت أحواله معه ، وتجاوز فيه ما ينبغي له الوقوف عنده " ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب " ومن كان مفتقراً إلى شيء كان منطاعاً له كما في حديث آخر أهل النار خروجاً منها يقسم لربه أنه لا يسأل غير ما طلبه ، فإذا أعطيته واستغنى به سأل غيره حتى يدخل دار القرار ، ولعله نبه بهذا على أن هذه الأمة المحتاجة ستفتح لها خزائن الأرض فيطغيها الغنى كما أطغى من قبلها وإن كانوا هم ينكرون ذلك كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين بشرهم بالفتوحات وقال : " إنه يغدى على أحدكم بصفحة ويراح عليه بأخرى ثم قال لهم : أنتم اليوم خير أم يومئذ ، فقالوا : بل يومئذ ، نتفرغ لعبادة ربنا ، فقال : بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن يبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان

قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم "

أو كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ . .

(95/822)

ولما كان لا دواء لذلك مثل تذكر الجزاء ، قال معرفاً أن الإنسان لا يزال مفتقراً إلى مولاه في حياته ومماته وغناه وفقره ، محذراً له سوء حالاته مؤكداً لأجل إنكارهم ذلك : ﴿ إن إلى ربك ﴾ أي المحسن إليك بالرسالة التي رفع بها ذكرك ، لا إلى غيره من التراب ونحوه ﴿ الرجعى ﴾ أي الرجوع الأعظم الثابت الذي لا محيد عنه ، أما في الدنيا فلا محيد عن الإقرار به ، فإنه لا يقدر أحد على شيء إلا بتقديره ، وأما في الآخرة فبما أثبت في برهانه في سورة التين ، فيحاسب الناس بأعمالهم ، ويجازي كل أحد بما يستحق من ثواب أو عقاب ، ففيه وعيد للطاغي وتحقير - لغنى ينقطع .

ولما أخبر بطغيانه وعجل بذكر دوائه لأن المبادرة بالدواء لئلا يتحكم الداء واجبة ، دل على طغيانه مخوفاً من عواقب الرجعى في أسلوب التقرير لأنه أوقع في النفس وأروع للّب لأن أبا جهل قال : " لئن رأيت محمداً يعفر وجهه لأفضخن رأسه بصخرة ، فجاء ليفعل ما زعم فنكص على عقبيه ويبست يداه على حجره فسئل عما دهاه ، فقال : إن بيني وبينه لهولاً

وأجنحة ، وفي رواية : لخندقاً من النار ، وفي رواية : لفحلاً من الإبل ، فما رأيت مثله ، ولو دنوت منه لأكلني " وأصل الحديث في صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضى الله عنه - ، فقال : ﴿ أرءيت ﴾ تقدم في الأنعام أن هذا الفعل إذا لم يكن بصرياً كان بمعنى أخبر ، فالمعنى : أخبرني هل علمت بقلبك علماً هو في الجلاء كرؤية بصرك ﴿ الذي ينهى ﴾ أي على سبيل التجديد والاستمرار .

(96/822)

ولما كان أفحش ما يكون صد العبد عن خدمة سيده ، قال معبراً بالعبودية منكراً للمبالغة في تقبيح النهي والدلالة على كمال العبودية : ﴿ عبداً ﴾ أي من العبيد ﴿ إذا صلّى ﴾ أي خدم سيده الذي لا يقدر أحد أن ينكر سيادته بإيقاع الصلاة التي هي وصلته به ، وهي أعظم أنواع العبادة لأنها مع كونها أقرب وصلة إلى الحق انقطاع وتجرد بالكلية عن الخلق ، فكان نهيه له عن ذلك نهياً عن أداء الحق لأهله حسداً أو بغياً ، فكان دالاًّ على أن من طبع أهل كل زمان عداوة أهل الفضل وصدهم عن الخير لئلا يختصوا بالكمال .

ولما كان هذا أمراً خارجاً عن الحد في الطغيان ، وكان السؤال إنما هو عن رؤية حاله في نهيه العبد عن الصلاة ، لا عن رؤية ذاته ، فتشوف السامع إلى معرفة ذلك الحال ، كرر

التقرير بزيادة التعجيب من حاله والتحذير ، فقال مكرراً العامل زيادة في التأكيد وبياناً لأن هذا في الحقيقة أول السؤال عن الحال : ﴿ أرءيت ﴾ أي أخبرني عن حاله ﴿ إن كان ﴾ أي هذا الناهي ، وعبر بأداة الاستعلاء إشارة إلى أنه في غاية الثبات والتمكن فقال : ﴿ على الهدى ﴾ أي الكامل في الهداية فكف عن نهي هذا المصلي عن خدمة مولاه الذي هو معترف بسيادته وإن ادعى كذباً أن له شريكاً كما أنه لا ينهى عن السجود للأصنام .

ولما ذكر ما لعله يكون عليه في تكميل نفسه ، ذكر ما لعله يعانيه من إنجاء غيره فقال : ﴿ أو أمر ﴾ أي ذلك الناهي ﴿ بالتقوى ﴾ أي التي هي عماد الدين ، وهي عمارة الباطن بالنور الناشئة عن الهدى ، وعمارة الظاهرة لذلك ، المترشحة من عمارة الباطن ، الموجب لذلك ، فأمر هذا المصلي بملازمة خدمة سيده المجمع على سيادته ، ولا شك في توحيده بالربوبية بالإقبال على ما يرضيه من أفعال العبادة ، ليكون ذلك وقاية لفاعل من سخطه فيأمن الهلاك ، والجواب محذوف تقديره : ألم يكن خيراً له فليتدبر كل أمر من أموره فلا يقدم عليه حتى يعلم بالدليل أنه هدى وتقوى .

ولما كان التقدير حتماً كما هدى إليه السياق ما قدرته من جواب السؤالين ، بنى عليه قوله زيادة في التوبيخ والتعجيب والتقريع استفهاماً عن حال لهذا الناهي مناف للحال الأول معيداً الفعل إيضاحاً لذلك : ﴿ أرءيت ﴾ أي أخبرني أيها السامع ولا تستعجل ﴿ إن كذب ﴾ أي أوقع هذا الناهي التكذيب بأن المصلي على الهدى بخدمة سيده المتفق على سيادته ، فكان بذلك مرتكباً للضلال الذي لا شك في كونه ضلالاً ، ولا يدعو إليه إلا الهدى .

ولما كان المكذب قد لا يترك من كذبه ، أشار إلى أن حال هذا على غير ذلك فقال :

﴿ وتولى ﴾ أي وكلف فطرته الأولى بعد معالجتها الإعراض عن قبول الأمر بالتقوى ، وذلك التولي إخراب الباطن بالأخلاق السيئة الناشئة عن التكذيب وإخراب الظاهر بالأعمال القبيحة الناشئة عن التكذيب ، والجواب محذوف تقديره : ألم يكن ذلك التولي والتكذيب شراً له لأن التكذيب والتولي من غير دليل شر محض ، فكيف إذا كان الدليل قائماً على ضدهما .

ولما عجب من حالته البعيدة عن العقل مع نفسه ومع أبناء جنسه ، أنكر عليه معجباً من كونه يعلم أنه ليس بيده شيء ، المنتج لأنه مراقب وحاله مضبوط غاية الضبط وينسى ذلك ، فقال ذاكراً مفعول " أرءيت " الثاني وهو لا يكون إلا جملة استفهامية : ﴿ألم يعلم﴾ أي يقع له علم يوماً من الأيام ﴿بأن الله﴾ أي وهو الملك الأعلى ﴿يرى﴾ أي له صفتا البصر والعلم على الإطلاق ، فهو يعلم كل معلوم ويبصر كل مبصر ، ومن كان له ذلك كان جديراً بأن يهلك من يراه على الضلال والإضلال وينصر من يطيع أمره على كل من يعاديه ، وإنما جاء هذا الاستفهام الإنكاري على هذا الوجه لأنهم يعترفون بكل ما أنكر عليهم فيه ويلزمهم بما يفعلون من عداوة النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يكونوا منكرين له ، وذلك هو عين التناقض الذي لا أشنع عندهم منه ، هذا ويمكن ، وهو أحسن ، أن تنزل الآية على الاحتباك فيقال : لما كان السؤال عن حال الناهي لأن الرؤية علميه لا بصرية ، فتشوف السامع إلى معرفتها ، وكان للناهي حالان : طاعة ومعصية ، بدأ بالأولى لشرفها على الأسلوب الماضي في التقرير على سبيل التعجيب فقال : " أرءيت " أي أخبرني " إن كان " الناهي ثابتاً في نهيه هذا متمكناً " على الهدى " أي الكامل " أو " كان قد " أمر " في ذلك الأمر أو في أمر ما من عبادة الأوثان وغيرها " بالتقوى " وحذف جواب السؤال عن هذا الحال لدلالة جواب الحال الثاني عليه ، وهو ألم يعلم بأن الله يرى كل ما يصح أن يرى ، فينهى عنه إن كان مكروهاً ولا يقر عليه ويحاسب به ليزن هذا الناهي أفعاله بما شرعه سبحانه

من الدليل العقلي والسمعي فيعلم أهي مما يرضيه ليقره عليه كما يقر سائر ما يرضيه أو يسخطه فيمنعه منه .

(99/822)

ولما ذكر ما يمكن أن يكون عليه حال الناهي من السداد ، ذكر ما يمكن أن يكون عليه من الفساد ، فقال مقرراً معجباً معيداً العامل لزيادة التعجيب على النمط الأول : " أرأيت إن كذب " أي هذا الناهي بالحق في وقت النهي – ولما كان لا يلزم من التكذيب التولي قال : " وتولى " أي عن الدين بنهيه هذا ، فكان على الضلال والهوى متمكناً في ذلك بحيث إنه لا يصدر عنه فعل إلا فاسداً " ألم يعلم بأن الله يرى " فيحاسب نفسه بما أرشد إليه سبحانه من البراهين فيعلم أن ما هو عليه من الرشد إن كان الله يقره عليه ويمكنه منه أو الغواية إن كان ينهاه عنه ولا يقره عليه ، كما فعل بهذا الذي أقسم : ليرضخن رأس هذا المصلي ، وأقدم عليه بصخرته وهو عند نفسه في غاية القدرة على ذلك بزعمه فمنعه الله منه ورده عنه فرجع على عقبيه خاسئاً ظاهراً عليه الجبن والرعب وغيرهما مما يتحاماه الرجال ، ويأنف منه الضراغمة الأبطال ، والاحتباك هنا بطلب " أرءيت " جملة ليس هو من التنازع لأنه يستدعي إضماراً والجمل لا تضمر ، إنما هو من باب الحذف لدليل ، فحذف الكون

على الضلال ثانياً لدلالة الكون على الهدى عليه أولاً ، وحذف " ألم يعلم بأن الله يرى " أولاً لدلالة ذكره آخراً عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 482.486 ﴾

(100/822)

فصل

قال الفخر :

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أكثر المفسرين على أن المراد من الإنسان ههنا إنسان واحد وهو أبو جهل ، ثم منهم من قال : نزلت السورة من ههنا إلى آخرها في أبي جهل .

وقيل : نزلت من قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الذى ينهى * عَبْداً ﴾ [العلق : 9] إلى آخر السورة في أبي جهل .

قال ابن عباس : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فجاء أبو جهل ، فقال : ألم أنهك عن هذا ؟ فزجره النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو جهل : والله إنك لتعلم أني أكثر أهل

الوادي نادياً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزبانية ﴾ [العلق : 17 ، 18] قال ابن عباس : والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله ، فكأنه تعالى لما عرفه أنه مخلوق من علق فلا يليق به التكبر ، فهو عند ذلك ازداد طغياناً وتعززاً بماله ورياسته في مكة .

ويروى أنه قال : ليس بمكة أكرم مني .

ولعله لعنه الله قال ذلك رداً لقوله : ﴿ وَرَبُّكَ الأكرم ﴾ [العلق : 3] ثم القائلون بهذا القول منهم من زعم أنه ليست هذه السورة من أوائل ما نزل .

(101/822)

ومنهم من قال : يحتمل أن يكون خمس آيات من أول السورة نزلت أولاً ، ثم نزلت البقية بعد ذلك في شأن أبي جهل ، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بضم ذلك إلى أول السورة ، لأن تأليف الآيات إنما كان بأمر الله تعالى ، ألا ترى أن قوله تعالى : ﴿ واتقوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ﴾ [البقرة : 281] آخر ما نزل عند المفسرين ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل القول الثاني : أن المراد من الإنسان المذكور في هذه الآية جملة الإنسان ، والقول الأول وإن كان أظهر بحسب الروايات ، إلا أن هذا القول أقرب بحسب الظاهر ، لأنه تعالى بين أن الله سبحانه مع أنه خلقه من علقة ، وأنعم عليه بالنعم التي قدمنا ذكرها ، إذ أغناه ، وزاد

في النعمة عليه فإنه يطغى ويتجاوز الحد في المعاصي واتباع هوى النفس ، وذلك وعيد وزجر عن هذه الطريقة ، ثم إنه تعالى أكد هذا الزجر بقوله : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرجعى ﴾ [العلق : 8] أي إلى حيث لا مالك سواه ، فتقع المحاسبة على ما كان منه من العمل والمؤاخذة بحسب ذلك .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ فيه وجوه أحدها : أنه ردع وزجر لمن كفر بنعمة الله بطغيانه ، وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه وثانيها : قال مقاتل : كلا لا يعلم الإنسان إن الله هو الذي خلقه من العلقة وعلمه بعد الجهل ، وذلك لأنه عند صيرورته غنياً يطغى ويتكبر ، ويصير مستغرق القلب في حب الدنيا فلا يتفكر في هذه الأحوال ولا يتأمل فيها وثالثها : ذكر الجرجاني صاحب " النظم " أن كلا ههنا بمعنى حقاً لأنه ليس قبله ولا بعده شيء تكون ﴿ كَلاَّ ﴾ رداً له ، وهذا كما قالوه في :

﴿ كَلاَّ والقمر ﴾ [المدثر : 32] فإنهم زعموا أنه بمعنى : أي والقمر .

المسألة الثالثة :

الطغيان هو التكبر والتمرد ، وتحقيق الكلام في هذه الآية أن الله تعالى لما ذكر في مقدمة السورة دلائل ظاهرة على التوحيد والقدرة والحكمة بحيث يبعد من العاقل أن لا يطلع عليها ولا يقف على حقائقها .

أتبعها بما هو السبب الأصلي في الغفلة عنها وهو حب الدنيا والاشتغال بالمال والجاه والثروة والقدرة ، فإنه لا سبب لعمى القلب في الحقيقة إلا ذلك .

فإن قيل : إن فرعون ادعى الربوبية ، فقال الله تعالى في حقه : ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ [طه : 24] وههنا ذكر في أبي جهل : ﴿ ليطغى ﴾ فأكده بهذه اللام ، فما السبب في هذه الزيادة ؟ قلنا : فيه وجوه أحدها : أنه قال لموسى : ﴿ اذهب إلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طغى ﴾ وذلك قبل أن يلقاه موسى ، وقبل أن يعرض عليه الأدلة ، وقبل أن يدعي الربوبية .

وأما ههنا فإنه تعالى ذكر هذه الآية تسلية لرسوله حين رد عليه أقبح الرد وثانيها : أن فرعون مع كمال سلطته ما كان يزيد كفره على القول ، وما كان ليتعرض لقتل موسى عليها السلام ولا لإيذائه .

وأما أبو جهل فهو مع قلة جاهه كان يقصد قتل النبي صلى الله عليه وسلم وإيذاءه وثالثها : أن فرعون أحسن إلى موسى أولاً ، وقال آخراً : ﴿ ءامَنتُ ﴾ [يونس : 90] .

وأما أبو جهل فكان يحسد النبي في صباه ، وقال في آخر رمقه : بلغوا عني محمداً أني أموت

ولا أحد أبغض إلي منه ورابعها : أنهما وإن كانا رسولين لكن الحبيب في مقابلة الكليم كاليد في مقابلة العين ، والعاقل يصون عينه فوق ما يصون يده ، بل يصون عينه باليد ، فلهذا السبب كانت المبالغة ههنا أكثر .

أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7)

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال الأخفش : لأن رآه فحذف اللام ، كما يقال : أنكم لتطغون أن رأيتم غناكم .

المسألة الثانية :

قال الفراء إنما قال : ﴿ أَن رَّءاهُ ﴾ ولم يقل : رأى نفسه كما يقال : قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي تستدعي اسماً وخبراً نحو الظن والحسبان ، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس فنقول : رأيتني وظننتني وحسبتني فقوله : ﴿ أَن رَّءاهُ استغنى ﴾ من هذا الباب .

المسألة الثالثة :

في قوله : ﴿ استغنى ﴾ وجهان : أحدهما : استغنى بماله عن ربه ، والمراد من الآية ليس

هو الأول ، لأن الإنسان قد ينال الثروة فلا يزيد إلا تواضعاً كسليمان عليه السلام ، فإنه كان يجالس المساكين ويقول : "مسكين جالس مسكيناً" وعبد الرحمن بن عوف ما طغى مع كثرة أمواله ، بل العاقل يعلم أنه عند الغنى يكون أكثر حاجة إلى الله تعالى منه حال فقره ، لأنه في حال فقره لا يتمنى إلا سلامة نفسه ، وأما حال الغنى فإنه يتمنى سلامة نفسه وماله ومماليكه ، وفي الآية وجه ثالث : (1) وهو أن سين ﴿ استغنى ﴾ سين الطالب والمعنى أن الإنسان رأى أن نفسه إنما نالت الغنى لأنها طلبته وبذلت الجهد في الطلب فنالت الثروة والغنى بسبب ذلك الجهد ، لا أنه نالها بإعطاء الله وتوفيقه ، وهذا جهل وحمق فكم من باذل وسعه في الحرص والطلب وهو يموت جوعاً ، ثم ترى أكثر الأغنياء في الآخرة يصيرون مدبرين خائفين ، يريهم الله أن ذلك الغنى ما كان بفعلهم وقوتهم .

المسألة الرابعة :

أول السورة يدل على مدح العلم وآخرها على مذمة المال ، وكفى بذلك مرغباً في الدين والعلم ومنفراً عن الدنيا والمال .

إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

هذا الكلام واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان تهديداً له وتحذيراً من عاقبة الطغيان .

(1) لم يذكر الوجه الثاني كما ترى ولعله سقط من الناسخ . [. . . . .]

(104/822)

المسألة الثانية :

﴿ الرجعى ﴾ المرجع والرجوع وهي بأجمعها مصادر ، يقال : رجع إليه رجوعاً ومرجعاً ورجعى على وزن فعلى ، وفي معنى الآية وجهان : أحدهما : أنه يرى ثواب طاعته وعقاب تمرده وتكبره وطغيانه ، ونظيره قوله : ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الله غافلا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأبصار ﴾ [إبراهيم : 42] وهذه الموعظة لا تؤثر إلا في قلب من له قدم صدق ، أما الجاهل فيغضب ولا يعتقد إلا الفرح العاجل والقول الثاني : أنه تعالى يرده ويرجعه إلى النقصان والفقر والموت ، كما رده من النقصان إلى الكمال ، حيث نقله من الجمادية إلى الحياة ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن الذل إلى العز ، فما هذا التعزز والقوة .

المسألة الثالثة :

روي أن أبا جهل قال للرسول عليه الصلاة والسلام : أتزعم أن من استغنى طغى ، فاجعل لنا جبال مكة ذهباً وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى ، فندع ديننا ونتبع دينك ، فنزل جبريل وقال : إن شئت فعلنا ذلك ، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم مثل ما فعلنا بأصحاب المائدة ،

فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم.

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّى (10)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

روي عن أبي جهل لعنه الله أنه قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: فوالذي يحلف به لئن رأيته لأطأن عنقه، ثم إنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة فنكص على عقبيه، فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً شديداً.

وعن الحسن أن أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة.

واعلم أن ظاهر الآية أن المراد في هذه الآية هو الإنسان المتقدم ذكره، فلذلك قالوا: إنه ورد في أبي جهل، وذكروا ما كان منه من التوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام حين رآه يصلي، ولا يمتنع أن يكون نزولها في أبي جهل، ثم يعم في الكل، لكن ما بعده يقتضي أنه في رجل بعينه.

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ أَرَأَيتَ ﴾ خطاب مع الرسول على سبيل التعجب ، ووجه التعجب فيه أمور أحدها : أنه عليه السلام قال : اللهم أعز الإسلام إما بأبي جهل بن هشام أو بعمر ، فكأنه تعالى قال له : كنت تظن أنه يعز به الإسلام ، أمثله يعز به الإسلام ، وهو : ينهى عبداً إذا صلى وثانيها : أنه كان يلقب بأبي الحكم ، فكأنه تعالى يقول : كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه ، أيوصف بالحكمة من يمنع عن طاعة الرحمن ويسجد للأوثان ! وثالثها : أن ذلك الأحمق يأمر وينهى ، ويعتقد أنه يجب على الغير طاعته ، مع أنه ليس بخالق ولا رب ، ثم إنه ينهى عن طاعة الرب والخالق ، ألا يكون هذا غاية الحماقة .

المسألة الثالثة :

قال : ﴿ ينهى عَبْداً ﴾ ولم يقل : ينهاك ، وفيه فوائد أحدها : أن التنكير في عبداً يدل على كونه كاملاً في العبودية ، كأنه يقول : إنه عبد لا يفي العالم بشرح بيانه وصفة إخلاصه في عبوديته يروى : في هذا المعنى أن يهودياً من فصحاء اليهود جاء إلى عمر في أيام خلافته فقال : أخبرني عن أخلاق رسولكم ، فقال عمر : اطلبه من بلال فهو أعلم به مني .

ثم إن بلالاً دله على فاطمة ثم فاطمة دلته على علي عليه السلام ، فلما سأل علياً عنه قال : صف لي متاع الدنيا حتى أصف لك أخلاقه ، فقال الرجل : هذا لا يتيسر لي ، فقال علي : عجزت عن وصف متاع الدنيا وقد شهد الله على قلته حيث قال : ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدنيا قَلِيلٌ ﴾ [النساء : 77] فكيف أصف أخلاق النبي وقد شهد الله تعالى بأنه عظيم حيث قال : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4] فكأنه تعالى قال : ينهى أشد الخلق عبودية عن العبودية وذلك عين الجهل والحمق وثانيها : أن هذا أبلغ في الذم لأن المعنى أن هذا دأبه وعادته فينهى كل من يرى وثالثها : أن هذا تخويف لكل من نهى عن الصلاة ، روى عن علي عليه السلام أنه رأى في المصلى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد ، فقال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك ، فقيل له : ألا تنهاهم ؟ فقال : أخشى أن أدخل تحت قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الذى ينهى * عَبْداً إِذَا صلى ﴾ فلم يصرح بالنهي عن الصلاة ، وأخذ أبو حنيفة منه هذا الأدب الجميل حيث قال له أبو يوسف : أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع : اللهم اغفر لي ؟ قال : يقول ربنا لك الحمد ويسجد ولم يصرح بالنهي ورابعها : أيظن أبو جهل أنه لو لم يسجد محمد لي لا أجد ساجداً غيره ، إن محمد عبد واحد ، ولي من الملائكة المقربين ما لا يحصيهم إلا أنا وهم دائماً في الصلاة والتسبيح وخامسها : أنه تفخيم لشأن النبي عليه السلام يقول : إنه مع التنكير معرف ، نظيره الكناية في سورة القدر حملت على القرآن ولم يسبق له ذكر

﴿ أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : 1] ﴿ أُنزَلَ على عَبْدِهِ ﴾ [الكهف : 1] ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عبدُ الله ﴾ [الجن : 19] .

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(107/822)

قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ خطاب لمن ؟ فيه وجهان الأول : أنه خطاب للنبي عليه السلام ، والدليل عليه أن الأول وهو قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الذى ينهى * عَبْداً ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم والثالث وهو قوله : ﴿ أَرَءيْتَ إِن كَذَّبَ وتولى ﴾ [العلق : 13] للنبي عليه الصلاة والسلام فلو جعلنا الوسط لغير النبي لخرج الكلام عن النظم الحسن ، يقول الله تعالى يا محمد : أرأيت إن كان هذا الكافر ، ولم يقل : لو كان إشارة إلى المستقبل كأنه يقول : أرأيت إن صار على الهدى ، واشتغل بأمر نفسه ، أما كان يليق به ذلك إذ هو رجل عاقل ذو ثروة ، فلو اختار الدين والهدى والأمر بالتقوى ، أما كان ذلك خيراً له من الكفر بالله والنهي عن خدمته وطاعته ، كأنه تعالى يقول : تلهف عليه كيف فوت على نفسه المراتب العالية وقنع

بالمراتب الدنيئة.

القول الثاني: أنه خطاب للكافر، لأن الله تعالى كالمشاهد للظالم والمظلوم، وكالمولى الذي قام بين يديه عبدان، وكالحاكم الذي حضر عنده المدعي، والمدعى عليه فخاطب هذا مرة، وهذا مرة.

فلما قال للنبي: ﴿ أَرَأَيتَ الذى ينهى * عَبْداً إِذَا صلى ﴾ [العلق: 9] التفت بعد ذلك إلى الكافر، فقال: أرأيت يا كافر إن كانت صلاته هدى ودعاؤه إلى الله أمراً بالتقوى أتنهاه مع ذلك.

المسألة الثانية:

ههنا سؤال وهو أن المذكور في أول الآية.

هو الصلاة وهو قوله: ﴿ أَرَأَيتَ الذى ينهى * عَبْداً إِذَا صلى ﴾ والمذكور ههنا أمران، وهو قوله: ﴿ أَرَءيْتَ إِن كَانَ على الهدى ﴾ في فعل الصلاة، فلم ضم إليه شيئاً ثانياً، وهو قوله: ﴿ أَوْ أَمَرَ بالتقوى ﴾ ؟ جوابه: من وجوه أحدها: أن الذي شق على أبي جهل من أفعال الرسول عليه الصلاة والسلام هو هذان الأمران الصلاة والدعاء إلى الله، فلا جرم

ذكرهما ههنا وثانيها : أن النبي عليه الصلاة والسلام كان لا يوجد إلا في أحد أمرين ، إما في إصلاح نفسه ، وذلك بفعل الصلاة أو في إصلاح غيره ، وذلك بالأمر بالتقوى وثالثها : أنه عليه السلام كان في صلاته على الهدى وآمراً بالتقوى ، لأن كل من رآه وهو في الصلاة كان يرق قلبه .

فيميل إلى الإيمان ، فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل ، وهو أقوى من الدعوة بلسان القول .

أَرَأَيتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13)

وفيه قولان .

القول الأول : أنه خطاب مع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك لأن الدلائل التي ذكرها في أول هذه السورة جلية ظاهرة ، وكل أحد يعلم ببديهة عقله ، أن منع العبد من خدمة مولاه فعل باطل وسفه ظاهر ، فإذن كل من كذب بتلك الدلائل وتولى عن خدمة مولاه بل منع غيره عن خدمة مولاه يعلم بعقله السليم أنه على الباطل ، وأنه لا يفعل ذلك إلا عناداً ، فلهذا قال تعالى لرسوله : أرأيت يا محمد إن كذب هذا الكافر بتلك الدلائل الواضحة ، وتولى عن خدمة خالقه ، ألم يعلم بعقله أن الله يرى منه هذه الأعمال القبيحة ويعلمها ، أفلا يزجره ذلك عن هذه الأعمال القبيحة والثاني : أنه خطاب للكافر ، والمعنى إن كان يا كافر محمد كاذباً أو متولياً ، ألا يعلم بأن الله يرى حتى ينتهي بل احتاج إلى نهيك .

أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14)

ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(109/822)

المقصود من الآية التهديد بالحشر والنشر ، والمعنى أنه تعالى عالم بجميع المعلومات حكيم لا يهمل ، عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فلا بد وأن يوصل جزاء كل أحد إليه بتمامه فيكون هذا تخويفاً شديداً للعصاة ، وترغيباً عظيماً لأهل الطاعة .

المسألة الثانية :

هذه الآية وإن نزلت في حق أبي جهل فكل من نهى من طاعة الله فهو شريك أبي جهل في هذا الوعيد ، ولا يرد عليه المنع من الصلاة في الدار المغصوبة والأوقات المكروهة ، لأن المنهي عنه غير الصلاة وهو المعصية ، ولا يرد المولى بمنع عبده عن قيام الليل وصوم التطوع وزوجته عن الاعتكاف ، لأن ذلك لاستيفاء مصلحته بإذن ربه لا بغضاً لعبادة ربه . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 18 . 23﴾

(110/822)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَلَّاۤ إِنَّ الإِنسان ليطغى ﴾ إلى آخر السورة .

قيل : إنه نزل في أبي جهل .

وقيل : نزلت السورة كلها في أبي جهل ؛ نهى النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ؛ فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يصلي في المسجد ويقرأ باسم الرب .

وعلى هذا فليست السورة من أوائل ما نزل .

ويجوز أن يكون خمس آيات من أوّلها أوّل ما نزلت ، ثم نزلت البقية في شأن أبي جهل ، وأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بضم ذلك إلى أوّل السورة ؛ لأن تأليف السور جرى بأمر من الله .

ألا ترى أن قوله تعالى : ﴿ واتقوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ﴾ [البقرة : 281] آخرُ ما نزل ، ثم هو مضموم إلى ما نزل قبله بزمان طويل .

و"كَلَّا" بمعنى حَقًّا ؛ إذ ليس قبله شيء .

والإنسان هنا أبو جهل .

والطغيان : مجاوزة الحد في العصيان .

﴿ أَن رَّآهُ ﴾ أي لأن رأى نفسه استغنى ؛ أي صار ذا مال وثروة .

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه ، قال : " لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون ، أتاه أبو جهل فقال : يا محمد تزعم أنه من استغنى طغى ؛ فاجعل لنا جبال مكة ذهباً ، لعلنا نأخذ منها ، فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك .

قال فأتاه جبريل عليه السلام فقال : "يا محمد خيِّرهم في ذلك فإن شاؤوا فعلنا بهم ما أرادوه : فإن لم يسلموا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة" فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القوم لا يقبلون ذلك ؛ فكفَّ عنهم إبقاء عليهم " وقيل : "أَن رَآه اسْتَغنَى" بالعشيرة والأنصار والأعوان .

وحذف اللام من قوله "أن رآه" كما يقال : إنكم لَتَطْغَوَن إن رأيتم غِناكم .

وقال الفراء : لم يقل رأى نفسه ، كما قيل قتل نفسه ؛ لأن رأى من الأفعال التي تريد اسماً وخبراً ، نحو الظن والحِسبان ، فلا يقتصر فيه على مفعول واحد .

والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول : رأيتني وحسبتني ، ومتى تراك خارجاً ، ومتى تظنك خارجاً .

وقرأ مجاهد وحميد وقنبل عن ابن كثير "أن رأهُ اسْتَغنَى" بقصر الهمزة.

الباقون "رآه" بمدّها، وهو الاختيار.

إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8)

أي مرجع مَن هذا وصْفُه، فنجازيه.

والرجعى والمرجع والرجوع: مصادر؛ يقال: رجع إليه رجوعاً ومَرْجعاً، ورُجْعَى؛ على وزن فُعَلى.

قوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ الذي ينهى ﴾ وهو أبو جهل ﴿ عَبْداً ﴾ وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

فإن أبا جهل قال: إنْ رأيت محمداً يصلِّي لأَطأَنّ على عنقه؛ قاله أبو هُريرة.

فأنزل الله هذه الآيات تعجباً منه.

وقيل: في الكلام حذف؛ والمعنى: أَمِنَ هذا الناهي عن الصلاة من العقوبة.

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12)

أي أرأيت يا أبا جهل إن كان محمد على هذه الصفة، أليس ناهيه عن التقوى والصلاة هالكاً؟!

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14)

يعني أبا جهل كذّب بكتاب الله عز وجل، وأَعْرض عن الإيمان.

وقال الفرّاء : المعنى ﴿ أَرَأَيتَ الذي ينهى * عَبْداً إِذا صلى ﴾ وهو على الهدى ، وآمر بالتقوى ، والناهي مكذِّب متولّ عن الذكر ؛ أي فما أعجب هذا ثم يقول : وَيْله ! ألم يعلم أبو جهل بأن الله يرى ؛ أي يراه ويعلم فعله ؛ فهو تقرير وتوبيخ .

وقيل : كل واحد من "أرأيت" بدل من الأوّل .

و ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهِ يرى ﴾ الخبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(112/822)

وقال الثعالبى :

وقوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى ﴾ إِلَى آخرِ السورة

نَزَلَتْ في أَبي جَهْلٍ ، وذلكَ أنَّه طغى لِغنَاهُ وكثْرةِ مَنْ يَغْشَى نَادِيه ، فَنَاصَبَ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ونَهَاهُ عَنِ الصلاةِ في المسجدِ ، وقال : لَئِنْ رأيتُ محمداً يسجُدُ عند الكعبةِ لأَطأَنَّ عنقه ، فيُرْوَى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم رَدَّ عليه القولَ وانْتَهَرَهُ ، وعبارةُ الداووديّ : فَتَهَدَّدَهُ النبي صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ أبو جهل : أَتُهَدّدُني ؟ أما واللَّه إني لأَكْثَرُ أَهْلِ الوادِي نَادِياً فَنَزَلَتْ الآيةُ ، انتهى .

و﴿ كَلاَّ ﴾ ردٌّ على أبي جهلٍ ، ويتَّجه أَنْ تَكُونَ بمعنى : حقًّا ، والضميرُ في ﴿ رَّءَاهُ ﴾

للإنسانِ المذكورِ ، كأنَّه قال : أن رأى نفسه غَنِيًّا وهِي رُؤْيَةٌ قَلْبِيَّةٌ ؛ ولذلك جاز أن يَعْمَلَ فعلُ الفاعِلِ في نفسِه ؛ كما تقول : وجَدْتُنِي وَظَنَنْتُنِي ، ثم حقَّرَ تعالى غِنَى هذا الإنسانِ وحالَه بقولِه : ﴿ إنَّ إلى ربِّكَ الرجعى ﴾ أي : بالحَشْرِ والبعثِ يومَ القيامةِ ، وفي هذا الخبرِ وعيدٌ للطاغينَ من الناسِ ، ثم صرَّح بذكْرِ النَّاهِي لمحمدٍ عليه السلام ، ولا خِلافَ أن الناهِيَ أبو جهلٍ ، وأن العَبْدَ المصلِّيَ هو محمدٌ عليه السلام .

(113/822)

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بأَنَّ اللهَ يرى ﴾ إكمالٌ للتوبيخِ والوعيدِ بحسْبِ التوقيفاتِ الثَّلاثِ ، يَصْلُحُ مَعَ كلِّ واحدٍ منها ، * ت * : وفي قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بأَنَّ اللهَ يرى ﴾ مَا يُثِيرُ الهِمَمَ الرَّاكِدَةَ ، ويُسِيلُ العيونَ الجَامِدَةَ ، ويَبْعَثُ على الحياءِ والمراقبةِ ، قال الغزالي : اعلمْ أَنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ على ضميرِكَ ، ومشرفٌ على ظاهِرِكَ وباطنِكَ ، فَتَأَدَّبْ أيها المسكينُ ظَاهِراً وباطِناً بين يديه سبحانه ؛ واجتهدْ أن لا يَرَاكَ حيثُ نَهَاكَ وَلاَ يَفْقِدُكَ حَيْثُ أَمَرَكَ ، ولا تَدَعْ عَنْكَ التفكرَ في قُرْبِ الأجلِ ، وحلولِ الموتِ القاطعِ للأملِ ، وخروجِ الأمرِ من الاختيارِ ، وحصولِ الحَسْرَةِ والنَّدَامةِ بطُولِ الاغترارِ ، انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لمن كفر من جنس الإنسان بنعمة الله تعالى عليه بطغيانه وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه وذلك لأن مفتتح السورة إلى هذا المقطع يدل على عظيم منته تعالى على الإنسان فإذا قيل كلا كان ردعاً للإنسان الذي قابل تلك النعم الجلائل بالكفران والطغيان وكذلك التعليل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى ﴾ أي ليتجاوز والحد في المعصية واتباع هوى النفس ويستكبر على ربه عز وجل وقال الكلبي أي ليرتفع عن منزلة إلى منزلة في اللباس والعطام وغيرهما وليس بذاك وقدر بعضهم بعد قوله تعالى : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : 5] ليشكر تلك النعم الجليلة فطغى وكفر كلا وقيل كلا بمعنى حقاً لعدم ما يتوجه إليه الردع والزجر ظاهراً فقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الإنسان ﴾ الخ بيان لما أريد إحقاقه وهذا إلى آخر السورة قيل نزل في أبي جهل بعد زمان من نزول الآيات السابقة وهو الظاهر ومع نزوله في ذلك اللعين المراد بالإنسان الجنس وقوله سبحانه :

﴿ أَن رَّءاهُ استغنى ﴾ مفعول من أجله أي يطغى لأن رأى نفسه مستغنياً على أن جملة استغنى مفعول ثان لرأى لأنه بمعنى علم ولذلك ساغ كون فاعله ومفعوله ضميري واحد

نحو علمتني فقد قالوا إن ذلك لا يكون في غير أفعال القلوب وفقد وعدم وذهب جماعة إلى أن رأي البصرية قد تعطى حكم القلبية في ذلك وجعلوا منه قول عائشة لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام إلا الاسودان وأنشدوا

: ولقد أراني للرماح دريئة. . .

من عن يميني تارة وأمامي

(115/822)

فإذا جعلت رأي هنا بصرية فالجملة في موضع الحال وتعليل طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء كما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزق لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِى الأرض ﴾ [الشورى : 27] للايذان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد على الأول ومجرد رؤيته ظاهر الحال من غير روية وتأمل في حقيقته على الثاني وعلى الوجهين المراد بالاستغناء الغني بالمال أعني مقابل الفقر المعروف وقيل المراد أن رأى نفسه مستغنياً عن ربه سبحانه بعشيرته وأمواله وقوته وهو خلاف الظاهر ويبعده ظاهر ما روى أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أتزعم أن من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة ذهباً وفضة لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك فنزل جبريل عليه السلام فقال إن شئت

فعلنا ذلك ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء ابقاء عليهم وقرأ قنبل بخلاف عنه أن رأه بحذف الألف التي بعد الهمزة وهي لام الفعل وروى ذلك عنه ابن مجاهد وغلطه فيه وقال إن ذلك حذف لا يجوز وفي "البحر" ينبغي أن لا يغلطه بل يتطلب له وجهاً وقد حذفت الألف في نحو من هذا قال :

وصاني العجاج فيمن وصني . . .

يريد وصاني فحذف الألف وهي لام الفعل وقد حذفت في مضارع رأى في قولهم أصاب الناس جهد لوتر أهل مكة وهو حذف لا ينقاس لكن إذا صحت الرواية وجب القبول فالقراآت جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها وقوله تعالى :

(116/822)

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ تهديد للطاغي وتحذير له من عاقبة الطغيان والخطاب قيل للإنسان والالتفات للتشديد في التهديد وجوز أن يكون الخطاب لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم والمراد أيضاً تهديد الطاغي وتحذيره ولعله الأظهر نظراً إلى الخطابات قبله والرجعى مصدر بمعنى الرجوع كالبشرى والألف فيها للتأنيث وتقديم الجار والمجرور عليه للقصر أي أن إلى ربك رجوع الكل بالموت والبعث لا إلى غيره سبحانه استقلالاً أو اشتراكاً

فترى حينئذ عاقبة الطغيان وفي هذه الآيات على ما قيل ادماج التنبيه على مذمة المال كما أن في الآيات الأول إدماج التنبيه على مدح العلم وكفى ذلك مرغباً في الدين والعلم ومنفراً عن الدنيا والمال وقوله تعالى :

(117/822)

﴿ أَرَأَيتَ الذى ينهى عَبْداً إِذَا صلى ﴾ ذكر لبعض آثار الطغيان ووعيد عليها ولم يختلف المفسرون كما قال ابن عطية في أن العبد المصلي هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والناهي هو اللعين أبو جهل فقد أخرج أحمد ومسلم والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة أن أبا جهل حلف باللات والعزى لئن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ليطأن على رقبته وليعفرن وجهه فأتى رسول الله عليه الصلاة والسلام وهو يصلي ليفعل فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه فقيل له مالك فقال إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً وأنزل الله تعالى ﴿ كلا أن الإنسان ﴾ [العلق : 6] إلى آخر السورة وقول الحسن هو أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة لا يكاد يصح لأنه لا خلاف في أن إسلام سلمان رضي الله تعالى عنه كان بالمدينة بعد الهجرة كما أنه لا خلاف في أن السورة مكية

نعم حكم الآية عام فإن كان ما حكي عن أمية واقعاً فحكمها شامل له والصلاة التي أشارت إليها الآية كانت على ما حكى أبو حيان صلاة الظهر وحكي أيضاً أنها كانت تصلي جماعة وهي أول جماعة أقيمت في الإسلام وأنه كان معه عليه الصلاة والسلام أبو بكر وعلي رضي الله تعالى عنهما فمر أبو طالب ومعه ابنه جعفر فقال له يا بني صل جناح ابن عمك وانصرف مسروراً وأنشأ يقول :

إن علياً وجعفراً ثقتي . . .

عند ملم الزمال والكرب

والله لا أخذ النبي ولا . . .

يخذله من يكون من حسبي

لا تخذلا وانصرا ابن عمكما . . .

أخي لأمي من بينهم وأبي

وفي هذا نظر لأن الصلاة فرضت ليلة الإسراء بلا خلاف وادعى ابن حزم الإجماع على أنه كان قبل الهجرة بسنة وجزم ابن فارس بأنه كان قبلها بسنة وثلاثة أشهر وقال السدي بسنة

وخمسة أشهر وموت أبي طالب كان قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين لأنه كان قبل وفاة خديجة بثلاثة وقيل بخمسة أيام وكانت وفاتها بعد البعثة بعشر سنين على الصحيح فأبو طالب على هذا لم يدرك فرضية الصلاة نعم حكى القاضي عياض عن الزهري ورجحه النووي والقرطبي أن الإسراء كان بعد البعث بخمس سنين لكن قيل عليه ما قيل فليراجع والنهي قيل بمعنى المنع وعبر به إشارة إلى عدم اقتدار اللعين على غير ذلك وفي بعض الأخبار ما ظاهره أنه حصل منه نهي لفظي فقد أخرج أحمد والترمذي وصححه وغيرهما عن ابن عباس قال "كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فجاء أبو جهل فقال ألم أنهك عن هذا ألم أنهك عن هذا " الحديث والتعبير بما يفيد الاستقبال لاستحضار الصورة الماضية لنوع غرابة والرؤية قيل قلبية وكذا في قوله تعالى :

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ والمفعول الأول للأول الموصول وللثاني والثالث محذوف وهو ضمير يعود عليه أو اسم إشارة يشار به إليه والمفعول الثاني للثالث قوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يَرَى ﴾ والأولان متوجهان إليه أيضاً وهو مقدر عندهما وترك إظهاره اختصاراً ونظير ذلك أخبرني عن زيد ان وفدت عليه أخبرني عنه أن استخبرته أخبرني

عنه إن توسلت إليه اما يوجب حقي وليس ذلك من التنازع لأن الجمل لا يصح إضمارها وإنما هو من الطلب المعنوي والحذف في غير التنازع وجواب الشرط في الجملتين محذوف لدلالة ألم يعلم عليه ويقدر حسبما تقتضيه الصناعة وقيل يدل عليه أرأيت مراداً به ما سيذكر قريباً إن شاء الله تعالى ويقدر كذلك والكلام عليه أيضاً نظير ما مر آنفاً والضمائر المستترة في ﴿ كان ﴾ وما بعد من الأفعال للناهي والمراد من أرأيت أخبرني فإن الرؤية لما كانت سبباً للعلم أجري الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها والاستفهام الواقع موقع المفعول الثاني هو متعلق الاستخبار هنا وهذا الإجراء على ما يفهم من كلام بعض الأئمة يكون مع الرؤية البصرية والرؤية القلبية وللنحاة فيه قولان والخطاب في الكل على ما اختاره جمع لكل من يصلح أن يكون مخاطباً ممن له مسكة وقيل للإنسان كالخطاب في ﴿ إلى ربك ﴾ [العلق : 8] وتنوين ﴿ عبداً ﴾ على ما هو ظاهر كلام البعض للتنكير وتقييد النهي بالظرف يشعر بأن النهي عن الصلاة حال التلبس بها وفصل بين الجمل للاعتناء بأمر التشنيع والوعيد حيث أشعر أن كل جملة مقصودة على حيالها فشنع سبحانه على الناهي أولاً بنهيه عن الصلاة وأوعد عليه مطلقاً بقوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ الذى ﴾ [العلق : 9] الخ أي أخبرني يا من له أدنى تمييز أو أيها الإنسان عمن ينهى عن الصلاة بعض عباد الله تعالى ألم يعلم بأن الله تعالى يرى ويطلع فيجازيه على ذلك النهي وشنع سبحانه عليه ثانياً بنهيه عن ذلك وأوعده عليه أيضاً على تقدير أنه على زعمه على هدى ورشد في نفس

النهي أو أنه أمر بواسطته بالتقوى لأن النهي عن الشيء أمر بضده أو مستلزم له فقال تعالى شأنه : ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ ﴾ [العلق : 11

(120/822)

] الخ أي أخبرني عن ذلك الناهي ألم يعلم أن الله يطلع فيجازيه إن كان على هدى ورشد في نفس النهي أو كان أمراً بواسطته بالتقوى كما يزعم وشنع جل شأنه عليه ثالثاً بذلك وأوعده عليه أيضاً على تقدير أنه في نفس الأمر وفيما يقوله تعالى مكذباً بحقية الصلاة متولياً عنها معرضاً عن فعلها بقوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ ﴾ [العلق : 13] الخ أي أخبرني عن ذلك الناهي ألم يعلم بأن الله تعالى يطلع على أحواله إن كذب بحقية ما نهى عنه وأعرض عن فعله على ما نقول نحن والحاصل أنه تعالى شنع وأوعد على النهي عن الصلاة بدون تعرض لحال الناهي الزعمي أو الحقيقي ثم شنع وأوعد جل وعلا عليه مع التعرض لحاله الزعمي ثم شنع عز وجل وأوعد عليه مع التعرض لحاله الحقيقي وهذا كالترقي في التشنيع والجمهور على عدم تقييد ما في حيز الشرطيتين بما ذكرنا حيث قالوا إن كان على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى أو كان أمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يزعم وأكان مكذباً للحق ومتولياً عن الصواب كما نقول وذكر أن

الشرط الثاني تكرار للأول لأن معنى الأول أنه ليس على الهدى وأوضح بأن إدخال حرف الشرط في الأول لإرخاء العنان صورة والتهكم حقيقة إذ لا يكون في النهي عن عبادته تعالى والأمر بعبادة الأصنام هدى البتة وفي الثاني لذلك والتهكم على عكس الأول إذ لا شك أنه مكذب متول فما لهما إلى واحد وقيل إن الرؤية في الجملة الأولى بصرية فلا تحتاج إلى مفعول ثان وفي الثانية والثالثة قلبية والمفعول الأول على ما تقدم والمفعول الثاني سد مسده الجملة الشرطية بجوابها وهو في الأخيرة ﴿ أَلَمْ يَعْلَم ﴾ الخ المذكور وفيما قبلها محذوف دل هو عليه ولم تعطف الأخيرة على ما قبلها للإيذان باستقلالها بالوقوع في نفس الأمر وباستتباع الوعيد الذي ينطق به الجواب وأما ما قبلها فأمر الشرط فيه ليس إلا لتوسيع الدائرة وهو السر في تجريده عن

(121/822)

الجواب والإحالة به على جواب الشرطية بعده والخطاب في الكل لمن يصلح له والتنوين في عبداً لتفخيمه عليه الصلاة والسلام واستعظام النهي وتأكيد التعجيب منه والمعنى أخبرني عن ذلك الناهي إن كان على الهدى فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى الخ ما ذكر آنفاً ألم يعلم أن الله يرى ويطلع على أحواله فيجازيه بها حتى اجترأ على ما فعل وقيل إن

أرأيت في الجمل الثلاث من الرؤية القلبية والمفعول الأول للأولى الموصول ومفعولها الثاني الجملة الشرطية الأولى بجوابها المحذوف اكتفاءً عنه بجواب الشرطية الثانية إذ علم من ضرورة التقابل وأرأيت الثانية تكراراً للأولى وأرأيت الثالثة ومفعولها الأول محذوف للقرينة مستقلة لأنها تقابل الأولى للتقابل بين الشرطين يعني قوله تعالى: ﴿ إِن كَانَ ﴾ الخ وقوله سبحانه: ﴿ أَن كَذَّبَ ﴾ الخ وفي الإتيان بالجملة الأخيرة من دون العطف ترشيح للكلام المبكت وتنبيه على حقية الشرط ولهذا صرح بجوابه ليتمحض وعيداً والخطاب على ما تقدم أولاً والكلام من قبيل الكلام المنصف وإرخاءً لعنان ولذا قيل عبداً ولم يقل نبياً مجتبى فكأنه قيل أخبرني يا من له أدنى تمييز عن حال هذا الذي ينهى بعض عباد الله تعالى فضلاً عن النبي المجتبى عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى أو كان آمراً بالتقوى فيما يأمر به من عبادة الأصنام كما يزعم وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح كما تقول: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم ﴾ الخ وقيل أرأيت في الجملتين الثانية والثالثة تكرار للأولى والشرطيتان بجوابهما سادتان مسد المفعول الثاني للأولى و ﴿ أَلَمْ يَعْلَم ﴾ الخ جواب الشرط الثاني وجواب الأول محذوف لدلالته عليه ولم يقل أو ﴿ أَن كَذَّبَ ﴾ الخ لأنه ليس بقسيم لما قبله على ما قيل والمعنى على نحو ما سمعت وأورد على جميع هذه الأقوال إن في تجويز الإتيان بالاستفهام في جزاء الشرط من غير الفاء وإن صرح له

الزمخشري في كشافه وارتضاه الرضي واستشهد له بقوله تعالى :

﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾ [الأنعام : 47] بحثاً لأن ظاهر نقل الزمخشري نفسه في المفصل ونقل غيره وجوب الفاء إذا كان الجزاء جملة إنشائية والاستفهام وإن لم يبق على الحقيقة لم يخرج على ما في "الكشف" من الإنشاء وقال أبو حيان إن وقوع جملة الاستفهام جواباً للشرط بغير فاء لا أعلم أحد أجازه بل نصوا على وجوب الفاء في كل ما اقتضى طلباً بوجه ما ولا يجوز حذفها إلا في ضرورة أو شعر وقال الدماميني في شرح التسهيل إن جعل هل يهلك جزاء مشكل لعدم اقترانه بالفاء والاقتران بها في مثل ذلك واجب واعترض أيضاً جعل الجملة الشرطية في موضع المفعول الثاني لا رأيت بأن مفعولها الثاني لا يكون إلا جملة استفهامية كما نص عليه أبو حيان وجماعة أو قسمية كما في "الإرشاد" وقال الخفاجي إن جعل الشرطية في موقع المفعول

والجملة الاستفهامية في موقع جواب الشرط إما على ظاهره أو على أنهما لدلالتهما على ذلك جعلا كأنهما كذلك لسدهما مسد المفعول والجواب وبما ذكر صرح الرضي والدماميني في شرح التسهيل في باب اسم الإشارة فما قيل من أن المفعول الثاني لا رأيت لا يكون إلا جملة استفهامية مخالف لما صرحوا بأنه مختار سيبويه فلا يلتفت إليه ولم يجعلوا فيما ذكر الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولا للكافر الناهي لأن السياق مقتض لخروج الناهي والمنهي عن مورد الخطاب واستظهر في "البحر" جعله للنبي صلى الله عليه وسلم وجوز غيره جعله للكافر والمراد تصوير الحال بعنوان كلي وهو كما ترى وقيل الضميران في أن كان وأمر للعبد المصلي والضمائر في كذب وتولى ويعلم للذي ينهى وحاصل المعنى على ما قال الفراء أرأيت الذي ينهى عبداً يصلي والمنهي على الهدى وأمر بالتقوى والناهي مكذب متول فما أعجب من ذا والظاهر أن جواب الشرط عليه محذوف وهو فما أعجب من ذا بقرينة أرأيت فإنه يفيد التعجب والرؤية فيه قيل علمية والمفعول الثاني محذوف

(124/822)

نحو هذا الجواب وقيل بصرية و ﴿ أَلَمْ يَعْلَم ﴾ الخ جملة مستأنفة لتقرير ما قبلها وتأكيده وأو تقسيمية بمعنى الواو وقيل الخطاب في أرأيت الثانية للكافر وفي الثانية للنبي صلى الله عليه

وسلم فهو عز وجل كالحاكم الذي حضر الخصمان يخاطب هذا مرة والآخر أخرى وكأنه سبحانه قال يا كافر أخبرني إن كانت صلاته هدى ودعاؤه إلى الله تعالى أمر بالتقوى أتنهاه وأخبرني أيها الرسول إن كان الناهي مكذباً بالحق متولياً عن الدين الصحيح ألم يعلم بأن الله تعالى يجازيه وسكت هذا القائل عن الخطاب في أرأيت الأول فقيل لكل من يصلح له وقيل للإنسان وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم كالخطاب في الثالث وقوله أتنهاه يحتمل أنه جعله مفعولاً لرأيت ويحتمل أنه جواب الشرط وأو كما في سابقه ولعل ذكر الأمر بالتقوى في الجملة الثانية لأن النهي على ما قيل كان عن الصلاة والأمر بها وكان الظاهر عليه أن يذكر في الجملة الأولى أيضاً بأن يقال أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى أو أمر بالتقوى لكنه حذف اكتفاء بذكره في الثانية واقتصر على ذكر الصلاة ولم يعكس لأن الأمر بالتقوى دعوة قولية والصلاة دعوة فعلية والفعل أقوى من القول وإنما كانت دعوة وأمراً لأن المقتدى به إذا فعل فعلاً كان في قوة قوله افعلوا هذا وقيل المذكور أولاً ليس النهي عن الصلاة بل النهي حين الصلاة وهو محتمل أن يكون لها أو لغيرها وعامة أحوال الصلاة لما انحصرت في تكميل أنفس المصلي بالعبادة وتكميل غيره بالدعوة فنهيه في تلك الحالة يكون عن الصلاة والدعوة معاً فلذا ذكر في الجملة الثانية انتهى فلا تغفل وجوز الإمام كون الخطاب في الكل له عليه الصلاة والسلام وقال في بيان معنى ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ ﴾ الخ أرأيت إن صار على الهدى واشتغل بأمر

نفسه أما كان يليق به ذلك إذ هو رجل عاقل ذو ثروة فلو اختار الرأي الصائب والاهتداء والأمر بالتقوى أما كان ذلك خيراً له من الكفر بالله تعالى والنهي عن خدمته سبحانه

(125/822)

وطاعته عز وجل كأنه تعالى يقول تلهف عليه كيف فوت على نفسه المراتب العلية وقنع بالمراتب الردية واعتبر عصام الدين هذه الجملة توبيخاً على تفويت ما ينفع وما بعدها توبيخاً على كسب ما يضر فقال إن قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ الذى ﴾ الخ استشهاد لطغيان الإنسان إن رآه مستغنياً والرؤية بمعنى الإبصار أي أشاهدت الذي ينهى عبداً إذا صلى وعرفت طغيان الإنسان المستغني وأنه لا يكفي بكفرانه ويتجاوز إلى تكليف العبد الذي أرسل للمنع عن الكفران بالكفران وقوله سبحانه : ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ ﴾ الخ توبيخ له على فوت ما لا يعلم كنهه بفوت الهدى والأمر بالتقوى يعني أعلمت أنه على أي فوز إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى وقوله عز وجل : ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ ﴾ الخ توبيخ له بما كسب من استحقاق العذاب والبعد عن رب الأرباب أي أعلمت أنه على أي عقوبة ومؤاخذة وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم ﴾ الخ تهديد ووعيد شديد بعد التوبيخ على كسب حال الشقي وفوت حال السعيد انتهى وهو كما ترى فتأمل جميع ما تقدم والله تعالى بمراده أعلم ثم إن

الآية وإن نزلت في أبي جهل عليه اللعنة لكن كل من نهى عن الصلاة ومنع منها فهو شريكه في الوعيد ولا يلزم على ذلك المنع عن النهي عن الصلاة في الدار المغصوبة والأوقات المكروهة لأن المنهي عنه في الحقيقة ليس عن الصلاة نفسها بل عن وصفها المقارن ولشدة الاحتياط تحاشي بعضهم عن النهي مطلقاً فروي عن أمير المؤمنين كرم الله تعالى وجهه أنه رأى في المصلي أقواماً يصلون قبل صلاة العيد فقال ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فقيل له رضي الله تعالى عنه ألا تنهاهم فقا لرضي الله تعالى عنه أخشي أن أدخل تحت وعيد قوله تعالى: ﴿ أَرَأَيْتَ الذى ينهى عَبْداً إِذَا صلى ﴾ وفي رواية لا أحب أن أنهي عبداً إذا صلى ولكن أحدثهم بما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سلك نحو هذا المسلك أبو حنيفة عليه الرحمة فقد روي أن

(126/822)

أبا يوسف قال له أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع اللهم اغفر لي فقال يقول ربنا لك الحمد ويسجد ولم يصرح بالنهي ويقاس على النهي عن الصلاة النهي عن غيرها من أنواع العبادة ولا فرق بين النهي القالي والنهي الحالي ومنه أن يشغل المرء المرء عن ذلك وقد ابتلي به كثير من الناس. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

وقوله تعالى : « كَلَّا . إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى » .

هو رد على سؤال وارد على قوله تعالى : « عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ » . .

ومع أن هذه الآية وما بعدها ، قد نزلت بعد خمس الآيات التي افتتحت بها السورة بزمن ممتد ، إلا أن المناسبة جامعة بينها وبين ما قبلها ، وهذا هو السر فى سردها فى سياقها

. . فقد قلنا : إن قوله تعالى : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى » . هو رد على سؤال وارد على قوله تعالى : « عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ » .

. والسؤال هو : هل أدّى الإنسان حق هذه النعمة التي أنعمها اللّه عليه ؟ وهل كان له من علمه هذا الذي تعلمه ، نفع له ، وللناس معه ؟ والجواب على هذا : « كلّا » .

. فإن هذا العلم الذي فتح على الناس وجوه المنافع ، وملأ أيديهم من ثمرات الحياة ، بما مكن لهم به من الأرض ، وما سخر لهم من قوى الطبيعة . هذا العلم ، قد فتنهم سلطانه ، وأغرى بعضهم ببعض ، فاتخذوا منه سلاحا للبغى والعدوان ، والتسلط والقهر . . وبهذا طغى الإنسان ، وتجبر وظلم ، حين رأى نفسه بمنقطع عن الناس ، مستغنيا عنهم بجاهه وسلطانه

. .

وهذا مما لا يعيب العلم ، ولا ينقص من قدره . . فإنه وإن يكن استحدث به الإنسان كثيرا من أدوات الإهلاك والتدمير ، فلقد استنبط منه ما لا يحصى من النعم الجليلة التي كشفت للإنسان عن فضل اللّه وإحسانه على الناس ، كما أقام من آيات اللّه شواهد ناطقة تشهد بجلاله ، وعظمته ، وحكمته ، وتضع الناس وجها لوجه أمام أسرار هذا الكون ، وما تنطوى عليه تلك الأسرار من سعة علم اللّه ، وعظمة جلاله وقدرته . .

وفرق كبير بين الإنسان البدائى ، وبين رجل العلم فى العصر الحديث ، فى

موقفهما إزاء الوجود ، وفى نظرتهما إلى عظمة اللّه وقدرته . . فالبدائى ينظر إلى عوالم الوجود بنظر شارد تائه ، لا يبعد كثيرا عن نظر بعض الحيوانات أمام مشرق الشمس أو مغربها . . أما رجل العصر الحديث فإنه ينفذ بنظره إلى أعماق بعيدة فى الموجودات ، حيث يطلع على أسرار لا نهاية لها ، يروعه جلالها ، ويبهره نظامها وإحكامها . .

وشتان بين الإنسان البدائى الذي خاف الطبيعة وظواهرها ، فعبدها ، وتخاضع بين يديها ، وبين الرجل العصرى ، الذي أمسك بزمام الطبيعة ، وسخرها لخدمته ، ونظر إليها نظرة

السيد المالك لها . . ثم كان عليه بعد هذا أن يبحث عن السيد المالك له هو ، ولهذا الوجود كلّه . . وهو لا بد مستدل بعقله على خالق هذا الوجود وسيده ، وذلك هو الإيمان الذي لا زيغ معه ولا ضلال . .

ولعل هذا يفسر لنا كثرة الأنبياء والرسل فى الأزمان السالفة . . ثم قلّتهم شيئًا فشيئًا كلما تقدم الزمن ، وتقدم معه العقل الإنسانى ، الذي يقوم مقام الرسول فى الدعوة إلى الّله ، والهداية إليه . ، ثم انقطاع الرسل والأنبياء بخاتم سيد الرسل ونبى الأنبياء ، محمد رسول الّله ، بعد أن بلغت الإنسانية رشدها . .

وقوله تعالى : « إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعى » .

هو تهديد لهذا الإنسان الذي جحد نعمة الّله عليه ، واتخذ منها أسلحة يحارب بها الفضيلة ، ويقطع بها ما أمر الّله به أن يوصل . . إن هذا الإنسان راجع إلى ربه يوما ، وسيلقى جزاء بغيه وعدوانه . .

وقوله تعالى : « أَرَأَيتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى » . .

وهذه صورة لهذا الإنسان الذي طغى ، حين رأى نفسه ذا قوة وسلطان . .

إنه لا يؤمن باللّه ، ولا يقف موقف الأولياء منه ، بل إنه ليحارب المؤمنين باللّه ، ويحول بينهم وبين أداء ما للّه سبحانه وتعالى عليهم من حق . . فجرم هذا الطاغية جرم مضاعف . . فلا هو يؤمن باللّه ، ولا يؤدى حق ربه عليه ، ولا يدع المؤمنين يؤدّون حق ربهم عليهم . .

والاستفهام هنا تعجب من الأمر المستفهم عنه ، وتشنيع على فاعله ، ودعوة الناس إلى ضبطه وهو قائم على هذا المنكر ، متلبس به ! ! وفى جعل فاصلة الآية الفعل : « ينهى » وفى قطع الفعل « ينهى » عن معموله ، وهو « عبدا إذا صلى » . فى هذا تشنيع على طغيان هذا الطاغية فإذا . .

استمع مستمع إلى قوله تعالى : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى » . وقع فى تفكيره لأول وهلة ، أن هذا الإنسان إنما ينهى عن منكر ، لأن هذا هو شأن ما ينهى عنه . . فإذا فاجأه الخبر بأن ما ينهى عنه هذا الآثم ، إنما هو الصلاة والولاء للّه رب العالمين اشتد إنكاره له ، وتضاعفت جريمته عنده . .

والنهى هنا بمعنى المنع ، لأن الذي يملك النهى عن فعل الشيء ، يملك منع المنهىّ عن فعله ، إذ النهى فى حقيقته لا يكون إلا من ذى سلطان متمكن ممن ينهاه ، ويقدر على منعه مما نهاه عنه .

وفى قوله تعالى : « عبدا » . إشارة إلى أن هذا المنهي عن الصلاة ، هو فى مقام العبودية والولاء لربه . . فهو عبد ، ولكنه سيد الأسياد جميعا فى هذه الدنيا ، إذ كان عبد اللّه

رب العالمين . .

وقوله تعالى : «أَرَأَيتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى . أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى ؟ » «أرأيت» هنا ، استفهام إنكارى ، بمعنى ماذا ترى من حال هذا الأثيم

(130/822)

الذي ينهى عبدا عن الصلاة ، ويحول بينه وبينها ؟ ثم أرأيت لو أنه كان فى موقف آخر غير هذا الموقف ، فكان قائما على طريق الهدى ، مؤمنا بربه ، مواليا له ، آمرا بالبر والتقوى بدلا من نهيه عن البر والتقوى ؟ فاىّ حاليه كان خيرا له وأهدى سبيلا ؟ أحال الضلال ، والعمى ، والصد عن سبيل اللّه ، أم حال الاستقامة والهدى والدعوة إلى اللّه ؟ وشتان بين الظلام والنور ، والشر والخير ، والكفر والإيمان ! وقوله تعالى :

«أَرَأَيتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى» .

أي ثم ماذا ترى من حال هذا الضال ، وقد أبى أن يكون على الهدى أو يأمر بالتقوى ، بل كذب بآيات اللّه ، وتولى معرضا عمن دعاه إلى اللّه ، ورفع لعينيه مصابيح الهدى ؟ فأى إنسان هذا ؟ وبأى نظر ينظر ، وبأى عقل يفكر ويميز بين الخير والشر ؟ «أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى» ؟ أسفه نفسه حتى أنكر أن لهذا الوجود إلها قائما عليه ، يعلم خائنة الأعين وما

تخفى الصدور ؟ ألا يخاف بأس اللّه ؟ ألا يخشى عقابه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 16 صـ 1626.1629 ﴾

(131/822)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) ﴾

استئناف ابتدائي لظهور أنه في غرض لا اتصال له بالكلام الذي قبله .

وحرف ﴿ كلاّ ﴾ ردع وإبطال ، وليس في الجملة التي قبله ما يحتمل الإبطال والردع ، فوجود ﴿ كلا ﴾ في أول الجملة دليل على أن المقصود بالردع هو ما تضمنه قوله : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ الآية .

وحقُّ ﴿ كلاّ ﴾ أن تقع بعد كلام لإبطاله والزجر عن مضمونه ، فوقوعها هنا في أول الكلام يقتضي أن معنى الكلام الآتي بعدها حقيق بالإبطال وبردع قائله ، فابتدىء الكلام بحرف الردع للإبطال ، ومن هذا القبيل أن يفتتح الكلام بحرف نفي ليس بعده ما يصلح لأن يَلي الحرف كما في قول امرىء القيس:

فلا وأبيكِ ابْنة العَامِر

يّ لا يدَّعي القومُ أنّي أفِرّ

رَوى مسلم عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : "قال أبو جهل : هل يَعْفِرُ محمد وجهه (أي يسجد في الصلاة) بين أظهركم ؟ فقيل : نعم ، فقال : واللاتتِ والعزى لئن رأيتُه يفعل ذلك لأطَأنَّ على رقبته فأتَى رسولَ الله وهو يصلي زعَمِ ليطأ على رقبته فما فجأهم منه إلا وهو يَنْكص على عقبيه ويتّقي بيده .

فقيل له : ما لك يا أبا الحَكم ؟ قال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهَوْلاً وأجنحة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو دَنا مني لاختطفته الملائكة عُضْواً عضواً قال : فأنزل الله ، لا ندري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه : ﴿ إن الإنسان ليطغى ﴾ الآيات أ هـ .

وقال الطبري : ذكر أن آية ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ وما بعدها نزلت في أبي جهل بن هشام وذلك أنه قال فيما بلغنا : لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن رقبته .

فجعل الطبري ما أنزل في أبي جهل مبدوءاً بقوله : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ .

ووجه الجمع بين الروايتين : أن النازل في أبي جهل بعضه مقصود وهو ما أوّله ﴿ أرأيت الذي ينهى ﴾ الخ ، وبعضه تمهيد وتوطئة وهو : ﴿ إن الإنسان ليطغى ﴾ إلى ﴿ الرجعى ﴾ .

واختلفوا في أن هذه الآيات إلى آخر السورة نزلت عقب الخمس الآيات الماضية وجعلوا مما يناكده ذِكر الصلاة فيها .

وفيما روي في سبب نزولها من قول أبي جهل بناءً على أن الصلاة فُرضت ليلة الإِسراء وكانَ الإِسراء بعد البعثة بسنين ، فقال بعضهم : إنها نزلت بعد الآيات الخمس الأولى من هذه السورة ، ونزل بينهن قرآن آخر ثم نزلت هذه الآيات ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإلحاقها ، وقال بعض آخر : ليست هذه السورة أول ما أنزل من القرآن .

وأنا لا أرى مناكدة تفضي إلى هذه الحيرة والذي يستخلص من مختلف الروايات في بدء الوحي وما عَقبه من الحوادث أن الوحي فتَر بعد نزول الآيات الخمس الأوائل من هذه السورة وتلك الفترة الأولى التي ذكرناها في أول سورة الضحى ، وهناك فترة للوحي هذه ذكرها ابن إسحاق بعد أن ذكر ابتداء نزول القرآن وذلك يؤذن بأنها حصلت عقب نزول الآيات الخمس الأول ولكن أقوالهم اختلفت في مدة الفترة .

وقال السهيلي : كانت المدة سنتين ، وفيه بعد .

وليس تحديد مدتها بالأمر المهم ولكن الذي يهم هو أنا نوقن بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان في مدة فترة الوحي يرى جبريل ويتلقى منه وحياً ليس من القرآن .

وقال السهيلي في "الروض الأُنف" : ذكر الحربي أن الصلاة قبل الإِسراء كانت صلاة قبل

غروب الشمس (أي العصر) وصلاة قبل طلوعها (أي الصبح) ، وقال يحيى بن سلام مثله ، وقال : كان الإِسراء وفرض الصلوات الخمس قبل الهجرة بعام أ هـ .

فالوجه أن تكون الصلاة التي كان يصليها النبي صلى الله عليه وسلم صلاة غير الصلوات الخمس بل كانت هيئة غير مضبوطة بكيفية وفيها سجود لقول الله تعالى : ﴿ واسجد واقترب ﴾ [العلق : 19] يؤديها في المسجد الحرام أو غيره بمرأى من المشركين فعظم ذلك على أبي جهل ونهاه عنها .

(133/822)

فالوجه أن تكون هذه الآيات إلى بقية السورة قد نزلت بعد فترة قصيرة من نزول أول السورة حدثت فيها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفشا فيها خبر بدء الوحي ونزول القرآن ، جرياً على أن الأصل في الآيات المتعاقبة في القراءة أن تكون قد تعاقبت في النزول إلا ما ثبت تأخره بدليل بيِّن ، وجرياً على الصحيح الذي لا ينبغي الالتفات إلى خلافه من أن هذه السورة هي أول سورة نزلت .

فموقع قوله : ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ موقع المقدمة لما يَرد بعده من قوله : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ إلى قوله : ﴿ لا تطعه ﴾ [العلق : 19] لأن

مضمونه كلمة شاملة لمضمون : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ إلى قوله : ﴿ فليدع ناديه ﴾ [العلق : 17] .

والمعنى : أن ما قاله أبو جهل ناشىء عن طغيانه بسبب غناه كشأن الإِنسان .

والتعريف في ﴿ الإنسان ﴾ للجنس ، أي من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحسّ من نفسه الاستغناء ، واللام مفيدة الاستغراق العرفي ، أي أغلب الناس في ذلك الزمان إلا من عصمه خُلقه أو دينه .

وتأكيد الخبر بحرف التأكيد ولام الابتداء لقصد زيادة تحقيقه لغرابته حتى كأنه مما يتوقع أن يشك السامع فيه .

والطغيان : التعاظم والكبر .

والاستغناء : شدة الغنى ، فالسين والتاء فيه للمبالغة في حصول الفعل مثل استجاب واستقر .

و﴿ وَأَنْ رآه ﴾ متعلق ب"يطغى" بحذف لام التعليل لأن حذف الجار مع (أَنْ) كثير شائع ، والتقدير : إنّ الإِنسان ليطغى لرؤيته نفسه مستغنياً .

وعلة هذا الخُلق أن الاستغناء تحدث صاحبَه نفسُه بأنه غير محتاج إلى غيره وأن غيره محتاج فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقاً حيث لا وازع يزعه من دين أو تفكير صحيح فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف

بأسهم لأن له ما يدفع به الاعتداء من لأمةِ سلاحٍ وخدمٍ وأعوان وعُفاة ومنتفعين بماله من شركاء وعمال وأُجراء فهو في عزة عند نفسه .

(134/822)

فقد بينت هذه الآية حقيقةً نفسية عظيمة من الأخلاق وعلم النفس .

ونبهت على الحذر من تغلغلها في النفس .

وضمير ﴿ رآه ﴾ المستتر المرفوع على الفاعلية وضميرُه البارز المنصوب على المفعولية كلاهما عائد إلى الإنسان ، أي أن رأى نفسه استغنى .

ولا يجتمع ضميران متحدا المعاد : أحدهما فاعل ، والآخر مفعول في كلام العرب ، إلا إذا كان العامل من باب ظن وأخواتها كما في هذه الآية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قال أرأيتك هذا الذي كرمت عليَّ ﴾ في سورة الإسراء (62) .

قال الفراء : والعرب تطرح النفس من هذا الجنس (أي جنس أفعال الظن والحسبان) تقول : رأيتُني وحسبتُني ، ومتى تَراكَ خارجاً ، ومتى تظنُك خارجاً ، وألحقت (رأى) البصرية بـ (رأى) القلبية عند كثير من النحاة كما في قول قطري بن الفجاءة :

فلقد أراني للرِّمَاح دَرِيئة

من عن يميني مرة وأمامي . . .

ومن النادر قول النّمر بن تَوْلَب :

قد بتُّ أحْرُسُنِي وَحْدِي ويَمْنَعُنِي

صوتُ السباع به يضبَحْنَ والهامِ . . .

وقرأ الجميع أن رآه ﴿ بألف بعد الهمزة ، وروى ابن مجاهد عن قنبل أنه قرأه عن ابن كثير "رأه" بدون ألف بعد الهمزة ، قال ابن مجاهد : هذا غلط ولا يعبأ بكلام ابن مجاهد بعد أن جزم بأنه رواه عن قنبل ، لكن هذا لم يروه غير ابن مجاهد عن قنبل فيكون وجهاً غريباً عن قنبل .

وأُلحق بهذه الأفعال : فعل فقَدَ وفعل عَدِم إذا استعملا في الدعاء نحو قول القائل : فقَدْتُني وعَدِمْتُني .

وجملة : ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ معترضة بين المقدمة والمقصد والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم أي مرجع الطاغي إلى الله ، وهذا موعظة وتهديد على سبيل التعريض لمن يسمعه من الطغاة ، وتعليم للنبيء صلى الله عليه وسلم وتثبيت له ، أي لا يحزنك طغيان

الطاغي فإن مرجعه إليّ، ومرجع الطاغي إلى العذاب قال تعالى: ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مئاباً ﴾ [النبأ: 21، 22] وهي موعظة للطاغي بأن غناه لا يدفع عنه الموت، والموت: رجوع إلى الله كقوله: ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ [الانشقاق: 6].

وفيه معنى آخر وهو أن استغناءه غير حقيقي لأنه مفتقر إلى الله في أهم أموره ولا يدري ماذا يصيِّره إليه ربُّه من العواقب فلا يَزْدَهِ بغنًى زائف في هذه الحياة فيكون: ﴿ الرجعى ﴾ مستعملاً في مجازه، وهو الاحتياج إلى المرجوع إليه، وتأكيد الخبر بـ (إن) مراعى فيه المعنى التعريضي لأن معظم الطغاة ينسون هذه الحقيقة بحيث يُنزَّلون منزلة من ينكرها.

و ﴿ الرجعى ﴾: بضم الراء مصدر رجع على زنة فُعلى مثل البُشرى.

وتقديم ﴿ إلى ربك ﴾ على ﴿ الرجعى ﴾ للاهتمام بذلك.

وجملة: ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ إلى آخرها هي المقصود من الردع الذي أفاده حرف ﴿ كلاّ ﴾، فهذه الجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً متصلاً باستئناف جملة: ﴿ إن الإنسان ليطغى ﴾.

و ﴿ الذي ينهى ﴾ اتفقوا على أنه أريد به أبو جهل إذ قال قولاً يريد به نهي النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي في المسجد الحرام فقال في ناديه: لئن رأيت محمداً يصلي في الكعبة لأطَأنَّ على عنقه.

فإنه أراد بقوله ذلك أن يبلُغ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فهو تهديد يتضمن النهي عن أن يصلي في المسجد الحرام ولم يروَ أنه نهاه مشافهة .

و﴿ أرأيت ﴾ كلمة تعجيب من حالٍ ، تُقال للذي يُعْلَم أنه رأى حالاً عجيبة .

(136/822)

والرؤية علمية ، أي أعلمت الذي ينهى عبداً والمستفهم عنه هو ذلك العلم ، والمفعول الثاني ل"رأيت" محذوف دل عليه قوله في آخر الجمل ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ [العلق : 14] .

والاستفهام مستعمل في التعجيب لأن الحالة العجيبة من شأنها أن يستفهم عن وقوعها استفهام تحقيق وتثبيت لِنَبئها إذ لا يكاد يصدق به ، فاستعمال الاستفهام في التعجيب مجاز مرسل في التركيب .

ومجيء الاستفهام في التعجيب كثير نحو ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ [الغاشية : 1] .

والرؤية علمية ، والمعنى : أعجب ما حصل لك من العلم قال الذي ينهى عبداً إذا صلى .

ويجوز أن تكون الرؤية بصرية لأنها حكاية أمر وقع في الخارج والخطاب في ﴿ أرأيت ﴾ لغير معيّن .

والمراد بالعبد النبي صلى الله عليه وسلم وإطلاق العبد هنا على معنى الواحد من عباد الله أيّ شَخْصٍ كما في قوله تعالى: ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾ [الإسراء: 5]، أي رجالاً.

وعدل عن التعبير عنه بضمير الخطاب لأن التعجيب من نفس النهي عن الصلاة بقطع النظر عن خصوصية المصلّي.

فشموله لنهيه عن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم أوقع، وصيغة المضارع في قوله: ﴿ ينهى ﴾ لاستحضار الحالة العجيبة وإلا فإن نهيه قد مضى.

والمنهي عنه محذوف يغني عنه تعليق الظرف بفعل ﴿ ينهى ﴾ أي نهاه عن صلاته.

أَرَأَيتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12)

تعجيب آخر من حالٍ مفروض وقوعه، أي أتظنه ينهى أيضاً عبداً مُتمكناً من الهدى فتَعْجَبَ من نهيه.

والتقدير: أرأيته إن كان العبد على الهدى أينهاه عن الهدى، أو إن كان العبد آمراً بالتقوى أينهاه عن ذلك.

والمعنى: أن ذلك هو الظن به فيعجّب المخاطب من ذلك لأن من ينهى عن الصلاة وهي قربةٌ إلى الله فقد نهى عن الهدى، ويوشك أن ينهى عن أن يأمر أحدٌ بالتقوى.

وجواب الشرط محذوف وأتى بحرف الشرط الذي الغالب فيه عدم الجزم بوقوع فعل الشرط مُجاراة لحال الذي ينهى عبداً .

والرؤية هنا علمية ، وحُذف مفعولا فعل الرؤية اختصاراً لدلالة ﴿ الذي ينهى ﴾ [العلق : 9] على المفعول الأول ودلالة ﴿ ينهى ﴾ على المفعول الثاني في الجملة قبلها .

و﴿ على ﴾ للاستعلاء المجازي وهو شدّة التمكن من الهُدى بحيث يشبه تمكنَ المستعِلي على المكان كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [لقمان : 5] .

فالضميرَانِ المستَتَران في فعلَي ﴿ كان على الهدى أو أمر بالتقوى ﴾ عائدان إلى ﴿ عبداً ﴾ وإن كانت الضمائر الحافّة به عائدة إلى ﴿ الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ [العلق : 9 ، 10] فإن السياق يرد كل ضمير إلى معاده كما في قول عباس بن مرداس :

عُدنا ولولا نَحْنُ أَحدقَ جمعُهم

بالمسلمين وأحرَزوا ما جَمَّعوا . . .

والمفعول الثاني لفعل "رأيتَ" محذوف دل عليه قوله : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ [العلق : 14] أو دل عليه قوله : ﴿ ينهى ﴾ المتقدم .

والتقدير : أرأيته .

وجواب : ﴿ إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ﴾ محذوف تقديره : أينهاه أيضاً .

وفُصِلت جملة : ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ لوقوعها موقع التكرير لأن فيها تكريرَ التَّعجيب من أحوال عديدة لشخص واحد .

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13)

جملة مستأنفة للتهديد والوعيد على التكذيب والتولي ، أي إذا كذب بما يُدعى إليه وتولى أتظنه غيرَ عالم بأن الله مطلع عليه .

فالمفعول الأول ل "رأيتَ" محذوف وهو ضمير عائد إلى ﴿ الذي ينهى ﴾ [العلق : 9] والتقدير : أرأيتَه إن كذب . . .

إلى آخره .

وجواب ﴿ إن كذب وتولى ﴾ هو ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ كذا قدر صاحب "الكشاف" ، ولم يعتبر وجوب اقتران جملة جواب الشرط بالفاء إذا كانت الجملة استفهامية .

وصرح الرضي باختيار عدم اشتراط الاقتران بالفاء ونظَّره بقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾ [الأنعام : 47] فأما قول

جمهور النحاة والزمخشري في "المفصَّل" فهو وجوب الاقتران بالفاء ، وعلى قولهم يتعين تقدير جَواب الشرط بما يدل عليه : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ والتقدير : إن كذب وتولى فالله عالم به ، كناية عن توعده ، وتكون جملة : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ مستأنفة لإِنكار جهل المكذب بأن الله سيعاقبه ، والشرطُ وجوابه سادّان مسدّ المفعول الثاني .

وكني بأن الله يرى عن الوعيد بالعقاب .

وضمن فعل ﴿ يعلم ﴾ معنى يوقنْ فلذلك عُدي بالباء .

وعلق فعل ﴿ أرأيت ﴾ هنا عن العمل لوجود الاستفهام في قوله : ﴿ ألم يعلم ﴾ .

والاستفهام إنكاري ، أي كان حقه أن يعلم ذلك ويقي نفسه العقاب .

وفي قوله : ﴿ إن كذب وتولى ﴾ إيذان للنبيء صلى الله عليه وسلم بأن أبا جهل سيكذبه حين يدعوه إلى الإِسلام وسيتولى ، ووعْد بأن الله ينتصف له منه .

وضمير ﴿ كذب وتولى ﴾ عائد إلى ﴿ الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ [العلق : 9 ، 10] ، وقرينة المقام ترجِّع الضمائر إلى مراجعها المختلفة .

وحذف مفعول ﴿ كذب ﴾ لدلالة ما قبله عليه .

والتقدير : إن كذبه ، أي العبدَ الذي صلى ، وبذلك انتظمت الجمل الثلاث في نسبة معانيها إلى الذي ينهَى عبداً إذا صلى وإلى العبد الذي صلى ، واندفعت عنك ترددات عرضت في التفاسير .

وحُذف مفعول ﴿ يرى ﴾ ليعمّ كل موجود ، والمراد بالرؤية المسندة إلى الله تعالى تعلق علمه بالمحسوسات .

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16)

﴿ يرى ﴾ .

أكّد الردع الأول بحرف الردع الثاني في آخر الجملة وهو المَوْقع الحقيق لحرف الردع إذْ كان تقديم نظيره في أول الجملة ، لما دعا إليه لمقام من التشويق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(139/822)

فصل فى منزلة الحياء

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الحياء

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ [العلق : 14] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء : 1] وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : 1 وفي الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم: مر برجل وهو يعظ أخاه في الحياء فقال: "دعه فإن الحياء من الإيمان"

وفيهما عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الحياء لا يأتي إلا بخير" وفيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أو بضع وستون شعبة فأفضلها: قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان" وفيهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه وفى الصحيح عنه: إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: "إذا لم تستح فاصنع ما شئت" وفي هذا قولان

أحدهما: أنه أمر تهديد ومعناه الخبر أي من لم يستح صنع ما شاء

والثاني: أنه أمر إباحة أي انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله فإن كان مما لا يستحيى منه فافعله والأول أصح وهو قول الأكثرين وفي الترمذي مرفوعا: "استحيوا من الله حق الحياء قالوا: إنا نستحيي يا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس ذلكم ولكن من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى وليحفظ البطن وما حوى وليذكر الموت والبلى ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء"

فصل والحياء من الحياة ومنه الحيا للمطر لكن هو مقصور وعلى حسب

حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء وقلة الحياء من موت القلب والروح فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم قال الجنيد رحمه الله: الحياء رؤية الآلاء ورؤية التقصير فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق

ومن كلام بعض الحكماء: أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيي منه وعمارة القلب: بالهيبة والحياء فإذا ذهبا من القلب لم يبق فيه خير وقال ذو النون: الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك والحب ينطق والحياء يسكت والخوف يقلق وقال السري: إن الحياء والأنس يطرقان القلب فإن وجدا فيه الزهد والورع وإلا رحلا وفي أثر إلهي يقول الله عز وجل: ابن آدم إنك ما استحييت مني أنسيت الناس عيوبك وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ومحوت من أم الكتاب زلاتك وإلا ناقشتك الحساب يوم القيامة وفي أثر آخر: أوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه الصلاة والسلام: عظ نفسك فإن اتعظت وإلا فاستحي مني: أن تعظ الناس وقال الفضيل بن عياض: خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب وجمود العين وقلة الحياء والرغبة في الدنيا وطول الأمل وفي أثر إلهي ما أنصفني عبدي يدعوني فأستحيي أن أرده ويعصيني ولا يستحيي مني وقال يحيى بن معاذ: من استحيى من الله مطيعا استحيى الله منه وهو مذنب

وهذا الكلام يحتاج إلى شرح ومعنا: أن من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستح خجل: فإنه إذا واقع ذنبا استحيى الله عز وجل من نظره إليه في تلك الحال لكرامته عليه فيستحيي أن يرى من وليه ومن يكرم عليه: ما يشينه عنده وفي الشاهد شاهد بذلك فإن الرجل إذا اطلع على أخص الناس به وأحبهم إليه وأقربهم منه من صاحب أو ولد أو من يحبه وهو

يخونه فإنه يلحقه من ذلك الاطلاع عليه حياء عجيب حتى كأنه هو الجاني وهذا غاية الكرم وقد قيل: إن سبب هذا الحياء: إنه يمثل نفسه في حال طاعته كأنه يعصي الله عز وجل فيستحيي منه في تلك الحال ولهذا شرع الاستغفار عقيب الأعمال الصالحة والقرب التي يتقرب بها العبد إلى الله عز وجل وقيل: إنه يمثل نفسه خائنا فيلحقه الحياء كما إذا شاهد رجلا مضروبا وهو صديق له أو من أحصر على المنبر عن الكلام فإنه يخجل أيضا تمثيلا لنفسه بتلك الحال وهذا قد يقع ولكن حياء من اطلع على محبوبه وهو يخونه ليس من هذا فإنه لو اطلع على غيره ممن هو فارغ البال منه لم يلحقه هذا الحياء ولا قريب منه وإنما يلحقه مقته وسقوطه من عينه وإنما سببه والله أعلم شدة تعلق قلبه ونفسه به فينزل الوهم

فعله بمنزلة فعله هو ولا سيما إن قدر حصول المكاشفة بينهما فإن عند حصولها يهيج خلق الحياء منه تكرما فعند تقديرها ينبعث ذلك الحياء هذا في حق الشاهد وأما حياء الرب تعالى من عبده: فذاك نوع آخر لا تدركه الأفهام ولا تكيفه العقول فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال فإنه تبارك وتعالى حيي كريم يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام وكان يحيى بن معاذ يقول: سبحان من يذنب عبده ويستحيى هو وفي أثر: من استحيى من الله استحيى الله منه وقد قسم الحياء على عشرة أوجه: حياء جناية وحياء تقصير وحياء إجلال وحياء كرم وحياء حشمة وحياء استصغار للنفس واحتقار لها وحياء محبة وحياء عبودية وحياء شرف وعزة وحياء المستحيي من نفسه

فاما حياء الجناية: فمنه حياء آدم عليه السلام لما فر هاربا في الجنة قال الله تعالى: أفرارا مني يا آدم قال: لا يا رب بل حياء منك وحياء التقصير: كحياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك ! ما عبدناك حق عبادتك وحياء الإجلال: هو حياء المعرفة وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه وحياء

الكرم: كحياء النبيمن القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب وطولوا الجلوس عنده فقام

واستحيى أن يقول لهم: انصرفوا وحياء الحشمة: كحياء علي بن طالب رضى الله عنه أن

يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلمعن المذي لمكان ابنته منه وحياء الاستحقار

واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه احتقار الشأن

نفسه واستصغارا لها وفي أثر إسرائيلي إن موسى عليه السلام قال: يارب إنه لتعرض لى

الحاجة من الدنيا فأستحيي أن أسألك هي يا رب فقال الله تعالى: سلنى حتى ملح

عجينتك وعلف شاتك وقد يكون لهذا النوع سببان أحدهما: استحقار السائل نفسه

واستعظام ذنوبه وخطاياه والثاني: استعظام مسؤله وأما حياء المحبة: فهو حياء المحب من

محبوبه حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه وأحس به في وجهه ولا

يدرى ما سببه وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاته محبوبه ومناجاته له روعة شديدة ومنه

قولهم: جمال رائع وسبب هذا الحياء والروعة مما لا يعرفه أكثر الناس

ولا ريب أن للمحبة سلطانا قاهرا للقلب أعظم من سلطان من يقهر البدن فأين من يقهر

قلبك وروحك إلى من يقهر بدنك ولذلك تعجبت الملوك والجبابرة من قهرهم للخلق

وقهر المحبوب لهم وذلهم له فإذا فاجأ المحبوب محبه ورآه بغتة: أحس القلب بهجوم سلطانه عليه فاعتراه روعة وخوف وسألنا يوما شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه عن هذه المسألة فذكرت أنا هذا الجواب فتبسم ولم يقل شيئا وأما الحياء الذي يعتريه منه وإن كان قادرا عليه كأمته وزوجته فسببه والله أعلم أن هذا السلطان لما زال خوفه عن القلب بقيت هيبته واحتشامه فتولد منها الحياء وأما حصول ذلك له في غيبة المحبوب: فظاهر لاستيلائه على قلبه فوهمه يغالطه عليه ويكابره حتى كأنه معه

وأما حياء العبودية: فهو حياء ممتزج من محبة وخوف ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده وأن قدره أعلى وأجل منها فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محالة وأما حياء الشرف والعزة فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان فإنه يستحي مع بذله حياء شرف نفس وعزة وهذا له سببان أحدهما: هذا والثاني: استحياؤه من الآخذ حتى كأنه هو الآخذ السائل حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه وهذا يدخل في حياء التلوم لأنه يستحيي من خجلة الآخذ وأما حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص وقناعتها بالدون فيجد نفسه مستحيا من نفسه حتى كأن له نفسين يستحيي بإحداهما من الأخرى وهذا أكمل ما يكون من الحياء فإن العبد إذا

استحيى من نفسه فهو بأن يستحيي من غيره أجدر

فصل قال صاحب المنازل: الحياء: من أول مدارج أهل الخصوص يتولد

من تعظيم منوط بود إنما جعل الحياء من أول مدارج أهل الخصوص: لما فيه من ملاحظة حضور من يستحيي منه وأول سلوك أهل الخصوص: أن يروا الحق سبحانه حاضرا معهم وعليه بناء سلوكهم وقوله: إنه يتولد من تعظيم منوط بود يعني: أن الحياء حالة حاصلة من امتزاج التعظيم بالمودة فإذا اقترنا تولد بينهما الحياء والجنيد يقول: إن تولده من مشاهدة النعم ورؤية التقصير ومنهم من يقول: تولده من شعور القلب بما يستحيي منه فيتولد من هذا الشعور والنفرة حالة تسمى الحياء ولا تنافي بين هذه الأقوال فإن للحياء عدة أسباب قد تقدم ذكرها فكل أشار إلى بعضها والله أعلم

فصل قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق إليه فيجذبه إلى تحمل هذه المجاهدة ويحمله على استقباح الجناية ويسكته عن الشكوى يعني: أن العبد متى علم أن الرب تعالى ناظر إليه أورثه هذا العلم حياء منه يجذبه إلى احتمال أعباء الطاعة مثل العبد إذا عمل الشغل بين يدي سيده فإنه يكون

نشيطا فيه محتملا لأعبائه ولا سيما مع الإحسان من سيده إليه ومحبته لسيده بخلاف ما إذا كان غائبا عن سيده والرب تعالى لا يغيب نظره عن عبده ولكن يغيب نظر القلب والتفاته إلى نظره سبحانه إلى العبيد فإن القلب إذا

غاب نظره وقل التفاته إلى نظر الله تبارك وتعالى إليه: تولد من ذلك قلة الحياء والقحة وكذلك يحمله على استقباح جنايته وهذا الاستقباح الحاصل بالحياء قدر زائد على استقباح ملاحظة الوعيد وهو فوقه

وأرفع منه درجة: الاستقباح الحاصل عن المحبة فاستقباح المحب أتم من استقباح الخائف ولذلك فإن هذا الحياء يكف العبد أن يشتكي لغير الله فيكون قد شكا الله إلى خلقه ولا يمنع الشكوى إليه سبحانه فإن الشكوى إليه سبحانه فقر وذلة وفاقة وعبودية فالحياء منه فى مثل ذلك لا ينافيها

فصل قال: الدرجة الثانية: حياء يتولد من النظر في علم القرب

فيدعوه إلى ركوب المحبة ويربطه بروح الأنس ويكره إليه ملابسة الخلق النظر في علم القرب: تحقق القلب بالمعية الخاصة مع الله فإن المعية نوعان: عامة وهى: معية العلم والإحاطة

كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾ [الحديد: 4] وقوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ﴾ [المجادلة: 7] وخاصة: وهي معية القرب كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: 128] وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: 153] وقوله: ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69] فهذه معية قرب تتضمن الموالاة والنصر والحفظ وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد لكن هذه مصاحبة اطلاع وإحاطة وهذه مصاحبة موالاة ونصر وإعانة ف مع في لغة العرب تفيد الصحبة اللائقة لا تشعر بامتزاج ولا اختلاط ولا مجاورة ولا مجانبة فمن ظن شيئا من هذا فمن سوء فهمه أتي

وأما القرب: فلا يقع في القرآن إلا خاصا وهو نوعان: قربه من داعيه بالإجابة وقربه من عابده بالإثابة فالأول: كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: 186] ولهذا نزلت جوابا للصحابة رضي الله عنهم وقد سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه فأنزل الله تعالى هذه الآية والثاني: قوله: أقرب ما يكون العبد من ربه: وهو ساجد وأقرب ما يكون الرب

من عبده: في جوف الليل فهذا قربه من أهل طاعته وفى الصحيح: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كنا مع النبيفي سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير فقال: يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إن الذي تدعونه سميع قريب أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته فهذا قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه واستواءه على عرشه بل يجامعه ويلازمه فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ولكنه نوع آخر والعبد في الشاهد يجد روحه قريبة جدا من محبوب بينه وبينه مفاوز تتقطع فيها أعناق المطي ويجده أقرب إليه من جليسه كما قيل

ألا رب من يدنو ويزعم أنه . . . يحبك والنائي أحب وأقرب

وأهل السنة أولياء رسول الله صلى الله عليه وسلم وورثته وأحباؤه الذين هو عندهم أولى بهم من أنفسهم وأحب إليهم منها: يجدون نفوسهم أقرب إليه وهم في الأقطار النائية عنه من جيران حجرته في المدينة والمحبون المشتاقون للكعبة والبيت الحرام يجدون قلوبهم وأرواحهم أقرب إليها من جيرانها ومن

حولها هذا مع عدم تأتي القرب منها فكيف بمن يقرب من خلقه كيف يشاء وهو مستو على عرشه وأهل الذوق لا يلتفتون فى: ذلك إلى شبهة معطل بعيد من الله خلى من محبته ومعرفته والقصد: أن هذا القرب يدعو صاحبه إلى ركوب المحبة وكلما ازداد حبا ازداد قربا فالمحبة بين قربين: قرب قبلها وقرب بعدها وبين معرفتين: معرفة قبلها حملت عليها ودعت إليها ودلت عليها ومعرفة بعدها هي من نتائجها وآثارها

وأما ربطه بروح الأنس: فهو تعلق قلبه بروح الأنس بالله تعلقا لازما لا يفارقه بل يجعل بين القلب والأنس رابطة لازمة ولا ريب أن هذا يكره إليه ملابسة الخلق بل يجد الوحشة في ملابستهم بقدر أنسه بربه وقرة عينه بحبه وقربه منه فإنه ليس مع الله غيره فإن لابسهم لابسهم برسمه دون سره وروحه وقلبه فقلبه وروحه في ملأ وبدنه ورسمه في ملأ

فصل قال: الدرجة الثالثة: حياء يتولد من شهود الحضرة وهي التي لا تشوبها هيبة ولا تقارنها تفرقة ولا يوقف لها على غاية شهود الحضرة: انجذاب الروح والقلب من الكائنات وعكوفه على رب البريات فهو في حضرة قربه مشاهدا لها وإذا وصل القلب إليها غشيته الهيبة وزالت عنه التفرقة إذ ما مع الله سواه فلا يخطر بباله في تلك الحال سوى الله وحده وهذا مقام الجمعية وأما قوله: ولا يوقف لها على غاية فيعني أن كل من وصل إلى مطلوبه وظفر به: وصل إلى الغاية إلا صاحب هذا المشهد فإنه لا يقف بحضرة

الربوبية على غاية فإن ذلك مستحيل بل إذا شهد تلك الروابى ووقف على تلك الربوع وعاين الحضرة التى هي غاية

(148/822)

الغايات شارف أمرا لا غاية له ولا نهاية والغايات والنهايات كلها إليه تنتهي ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ [النجم: 42] فانتهت إليه الغايات والنهايات وليس له سبحانه غاية ولا نهاية: لا في وجوده ولا في مزيد جوده إذ هو الأول الذي ليس قبله شيء و الآخر الذي ليس بعده شيء ولا نهاية وحمده وعطائهبل كلما ازداد له العبد شكرا زاده فضلا وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده مثوبة وكلما ازداد منه قربا لاح له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك وهكذا أبدا لا يقف على غاية ولا نهاية ولهذا جاء: إن أهل الجنة في مزيد دائم بلا انتهاء فإن نعيمهم متصل ممن لا نهاية لفضله ولا لعطائه ولا لمزيده ولا لأوصافه فتبارك الله ذو الجلال والإكرام إن هذا لرزقنا ماله من نفاد [ص: 54] ياعبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته: ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مدارج السالكين جـ 2 صـ 258. 268 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والعشرون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والعشرون بعد الثمانمائة

من الآية ﴿ 15 ﴾ من (سورة العلق)

وحتى الآية ﴿ 19 ﴾ آخر السورة

(4/823)

قوله تعالى ﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان هذا الخبيث معرضاً عن هذا العلم الذي هو معترف به كله ، وإنما كان إعراضه لما عنده من الحظوظ والشهوات الموقعة له - بحكم الرد أسفل سافلين - إلى رتبة البهائم ، أتى بأعظم أدوات الردع فقال : ﴿ كلا ﴾ أي ليس عنده علم بشيء من ذلك لسفول رتبته عن رتبة البهائم ولا في يده شيء من الأشياء ، فهو لا يقدر على شيء مما رامه من الأذى ، فليرتدع عن تعاطي ذلك لأنه لا يضر إلا نفسه .

ولما كان نفي العلم عنه يوهم أنه في عداد الغافلين الذي لا ملامة عليهم ، بين أن انتفاء العلم

عنه ليس عن غفلة يعذر صاحبها ، إنما هو عن تهاون بالخير ورضى بالعمى والتقليد ، فهو من قسم الضال الذي فرط في استعمال القوة العلمية المذكور في الفاتحة ، فاستأنف الإخبار عنه في جواب من يقول : فما يفعل به ؟ معبراً بأداة الشك إقامة له ولغيره في محل الرجاء لانتهائه إبقاء للتكليف ومؤكداً لأنهم منكرون : ﴿ لئن لم ينته ﴾ أي يفتعل هذا الناهي لهذا العبد المطيع فيقف ويكف عما هو فيه من نهيه وتكذيبه وتوليه .

ولما كان الحال غير محتاج إلى أكثر من التأكد لإيقاع الفعل ، عبر بالحقيقة ولم ينقلها إشارة إلى أن هذا الناهي أقل من أن يحتاج فيه إلى فعل شديد ، بل أقل نفحة من العذاب تكفي في إهلاكه ، وما كان أصل التأكيد إلاّ تطيباً لقلوب الأولياء وتكذيباً للأعداء فقال :

﴿ لنسفعاً ﴾ أي والله لنأخذن ونقبضن قبضاً وأخذاً بشدة وعنف مع الجر والاجتذاب واللطم والدفع والغيظ أخذ من يعض مأخوذه ويذله ويسود وجهه ويقذره ﴿ بالناصية ﴾ أي بالشعر الذي في مقدم رأسه وهو أشرف ما فيه ، والعرب لا تأنف من شيء أنفتهم من أخذ الناصية ، وإذا انتهكت حرمة الأشرف فما بالك بغيره ، واستغنى بتعريف العهد عن الإضافة .

ولما كان من المعلوم أن من صار في القبضة على هذه الهيئة المهينة المزرية فهو هالك ، اغتنى به عن أن يقول : ولنسحبنه بها على وجهه إلى النار ، ووصفها بما يدل على ذلك فقال مبدلاً لأن البدل وصف بما قربه من المعرفة : ﴿ ناصية ﴾ أي عظيمة القبح ﴿ كاذبة ﴾ أي متعمدة للكذب ﴿ خاطئة ﴾ فهي صادر عنها الذنب من الكذب وغيره من غير تعمد ، فأغلب أحوالها على غير صواب تارة عن عمد وتارة عن غير عمد ، وما ذاك إلا لسوء جبلة صاحبها حتى كاد لا يصدر عنه فعل سديد ، ووصفها بما هو لصاحبها على الإسناد المجازي مبالغة في تكذيبه في أنه لا يقدر على منع المهتدي أو إذلاله أو شيء من أذاه إلا إن أذن له صاحب الأمر كله فيما يكون سبباً لزيادة رفعته ، وفي العدول عن الحقيقة ، كأن يقال : ناصية كاذب خاطىء ، بالإضافة إلى هذا المجاز ، من الجزالة والفخامة والجلالة ما لا يخفى .

ولما كان هذا هو غاية الإهانة ، وكان الكفار إنما يقصدون بأعراضهم الشماخة والأنفة والعز عن أن يكونوا أتباعاً أذناباً ، وإنما عزهم بقومهم ، وأقرب من يعتز به الإنسان أهل ناديه ، وهم القوم الذين يجتمعون نهاراً ليحدث بعضهم بعضاً ويستروح بعضهم إلى بعضهم لما عندهم من التصافي لأنهم لا يتركون أشغالهم نهاراً ويجتمعون لذلك إلا عن ذلك ، قال تعالى مسبباً عن أخذه على هذا الوجه المزري : ﴿ فليدع ﴾ أي دعاء استغاثة ﴿ ناديه ﴾ أي القوم الذين كانوا يجتمعون معه نهاراً يتحدثون في مكان ينادي فيه بعضهم بعضاً من أنصاره

وعشيرته ليخلصوه مما هو فيه ، والذي نزلت فيه هو أبو جهل ، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- : أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً .

(6/823)

ولما كان كأنه قيل : فلو دعا ناديه يكون ماذا ؟ قال : ﴿ سندع ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ الزبانية ﴾ أي الأعوان الموكلين بالنار ليجروه إليها ، وهم في الأصل الشرط ، الواحد زبنية كهبرية ، من الزبن وهو الدفع أو زبني على النسبة ، أصلها زباني والتاء عوض عن الياء ، وهم كل من عظم خلقه ، واشتد بطشه ، وقد اجتمعت المصاحف العثمانية على حذف الواو من هذا الفعل خطأ ، ولا موجب لحذفه من العربية لفظاً ، وكأن المعنى في ذلك - والله أعلم - أن لا يظن أنهم دعوا لرفعة لهم في ذواتهم يستعان بهم بسببها لأن معنى الواو عند الربانيين العلو والرفعة ، إشارة إلى أنهم لا قوة لهم إلا بالقوي العزيز ، أو يقال : إن الحذف دال على تشبيه الفعل بالأمر ليدل على أن هذا الدعاء أمر لا بد من إيقاع مضمونه ، ومن إجابة المدعوين إلى ما دعوا إليه ، وأن ذلك كله يكون على غاية الإحكام ، والاتساق بين خطه ومعناه والانتظام ، لا سيما مع التأكيد بالسين ، الدال على تحتم الاتحاد والتمكين ، أو يكون المعنى : إنا ندعوهم بأيسر دعاء وأسهل أمر ، فيكون منهم ما لا يطاق ولا يستطاع

دفاعه بوجه ، فكيف لو أكدنا دعوتهم وقوينا عزمتهم .

ولما كان الذي تقدم نهي الناهي للمصلي والسفع بناصيته إن لم ينته وأمره بدعاء ناديه ، وكان الحكم في الأول أنه لا يجيبه إلى ترك الصلاة ، وفي الثاني أن الناهي لا ينتهي عن عصيانه بالتهديد وأنه لا يفيده دعاء ناديه ، فالكل منفي ، حسن كل الحسن الإتيان بأداة الردع فقال : ﴿ كلا ﴾ أي لا يقدر على دعاء ناديه ولا ينتهي عن أذاه للمطيع بالتهديد فليرتدع عن كل من ذلك .

ولما كان كأنه قيل : فما أفعل ؟ قال معرفاً أن من علم أن طبع الزمان وأهله الفساد ، وجب عليه الإقبال على شأنه والإعراض عن سائر العباد ﴿ لا تطعه ﴾ أي في نهيه لك عن الطاعة بالصلاة أو غيرها .

(7/823)

ولما كان نهيه عن الصلاة التي هي عماد الدين ، وكانت الصلاة يعبر عنها بالسجود لأنه - مع أنه جزؤها - هو أشرفها ، وهو أيضاً يطلق على مطلق العبادة ، قال تعالى مشيراً إلى النصر له .صلى الله عليه وسلم. ولأتباعه على كل من يمنعهم عبادته : ﴿ واسجد ﴾ أي دم على صلاتك وخضوعك بنفسك وجدد ذلك في كل وقت .

ولما كان السجود أقرب مقرب للعبد إلى الله قال : ﴿ واقترب ﴾ أي اجتهد بسرك في بلوغ درجة القرب إلى ربك والتحبب إليه بكل عبادة لا سيما الصلاة فإنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وقد شرح هذا المقام كما تقدم في الفاتحة قوله. صلى الله عليه وسلم. " أعوذ بعفوك من عقوبتك " فإن هذه الجملة أفادت - كما قال الإمام الغزالي في كتاب الشكر - مشاهدة أفعال الله فقط ، فكأنه لم ير إلا الله وأفعاله ، فاستعاذ بفعله من فعله ، قال : ثم اقترب ففني في مشاهدة الأحوال ، وترقى إلى مصادر الأفعال ، وهي الصفات ، فقال : " أعوذ برضاك من سخطك " وهما صفتان ، ثم رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقترب وترقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال " وأعوذ بك منك " فراراً منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ، ولكنه رأى نفسه فاراً منه إليه ومستعيذاً ومثنياً ففني عن مشاهدة نفسه إذا رأى ذلك نقصاناً فاقترب فقال " أنت كما أثنيت على نفسك لا أحصي ثناء عليك " فقوله : " لا أحصي " خبر عن - فناء نفسه وخروجه عن مشاهدتها ، وقوله : " أنت كما أثنيت " بيان أنه المثني والمثنى عليه ، وأن الكل منه بدأ وإليه يعود ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، فكان أول مقامه نهاية مقامات الموحدين وهو

أن لا يرى إلا الله وأفعاله فيستعيذ بفعل من فعل ، فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يرقى من مرتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بعداً بالإضافة إلى الثانية ، فكان يستغفر الله من الأولى ، ويرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه ، وإليه الإشارة بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة " فكان ذلك لترقيه إلى سبيعن مقاماً بعضها بعد نقصاً لنقص أوائلها وإن كان مجاوزاً أقصى غايات مقامات الخلق ، ولكن كان نقصاناً بالإضافة

(9/823)

إلى أواخرها ، فكان استغفاره لذلك .

ولما قالت عائشة ـ رضى الله عنه ـا : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فما هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد ؟ قال : " أفلا أكون عبداً شكوراً " معناه : أفلا أكون طالباً للمزيد في المقامات ، فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى ﴿ ولئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ [إبراهيم : 7] انتهى .

وهو على ما ترى من النفاسة فمن أكثر من الدعاء في سجوده فقمن أن يستجاب له ،

والصلاة لا تكون إلا بالقراءة فإذا فعلت ذلك احتجبت عن الأغيار بحجاب منيع ، فازددت صفاء وصنت حالك عن الغير – كما يرشد إليه ما في صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام " ينبغي للعاقل أن يكون حافظاً للسانه عارفاً بزمانه مقبلاً على شأنه – والله أعلم " فقد رجع آخرها إلى الأول ، على أحسن وجه وأجمل وأكمل – والله الهادي .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 486.489 ﴾

(10/823)

فصل

قال الفخر :

﴿ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ وفيه وجوه أحدها : أنه ردع لأبي جهل ومنع له عن نهيه عن عبادة الله تعالى وأمره بعبادة اللات وثانيها : كلا لن يصل أبو جهل إلى ما يقول إنه يقتل محمداً أو يطأ عنقه ، بل تلميذ محمد هو الذي يقتله ويطأ صدره وثالثها : قال مقاتل : كلا لا يعلم أن الله يرى وإن كان يعلم لكن إذا كان لا ينتفع بما يعلم فكأنه لا يعلم .

ثم قال تعالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أي عما هو فيه : ﴿ لَنَسْفَعاً بالناصية نَاصِيَةٍ كاذبة

خَاطِئَةٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ لَنَسْفَعاً ﴾ وجوه أحدها : لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار ، والسفع القبض على الشيء ، وجذبه بشدة ، وهو كقوله : ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصى والأقدام ﴾ [الرحمن : 41] وثانيها : السفع الضرب ، أي لنلطمن وجهه وثالثها : لنسودن وجهه ، قال الخليل : تقول للشيء إذا لفحته النار لفحاً يسيراً يغير لون البشرة قد سفعته النار ، قال : والسفع ثلاثة أحجار يوضع عليها القدر سميت بذلك لسوادها ، قال : والسفعة سواد في الخدين .

وبالجملة فتسويد الوجهعلامة الإذلال والإهانة ورابعها : لنسمنه قال ابن عباس في قوله : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ [القلم : 16] إنه أبو جهل خامسها : لنذلنه .

المسألة الثانية :

قرىء لنسفعن بالنون المشددة ، أي الفاعل لهذا الفعل هو الله والملائكة ، كما قال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مولاه وَجِبْرِيلُ وصالح الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التحريم : 4] وقرأ ابن مسعود لأسعفن ، أي يقول الله تعالى يا محمد .

أنا الذي أتولى إهانته ، نظيره : ﴿ هُوَ الذى أَيَّدَكَ ﴾ [الأنفال : 62] ، ﴿ هُوَ الذى أَنزَلَ

السكينة﴾ [الفتح: 4].

المسألة الثالثة:

(11/823)

هذا السفع يحتمل أن يكون المراد منه إلى النار في الآخرة وأن يكون المراد منه في الدنيا، وهذا أيضاً على وجوه أحدها: ما روي أن أبا جهل لما قال: إن رأيته يصلي لأطأن عنقه، فأنزل الله هذه السورة، وأمره جبريل عليه السلام بأن يقرأ على أبي جهل ويخر لله ساجداً في آخرها ففعل، فعدا إليه أبو جهل ليطأ عنقه، فلما دنا منه نكص على عقبيه راجعاً، فقيل له مالك؟ قال: إن بيني وبينه فحلاً فاغراً فاه لو مشيت إليه لالتقمني، وقيل: كان جبريل وميكائيل عليهما السلام على كتفيه في صورة الأسد والثاني: أن يكون المراد يوم بدر فيكون ذلك بشارة بأنه تعالى يمكن المسلمين من ناصيته حتى يجرونه إلى القتل إذا عاد إلى النهي، فلما عاد لا جرم مكنهم الله تعالى من ناصيته يوم بدر، روى أنه لما نزلت سورة الرحمن علم القرآن قال عليه السلام: لأصحابه من يقرؤها منكم على رؤساء قريش، فتثاقلوا مخافة أذيتهم، فقام ابن مسعود وقال: أنا يا رسول الله، فأجلسه عليه السلام، ثم قال: من يقرؤها عليهم فلم يقم إلا ابن مسعود، ثم ثالثاً كذلك إلى أن أذن له، وكان عليه

السلام يبقى عليه لما كان يعلم من ضعفه وصغر جثته ، ثم إنه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة ، فافتتح قراءة السورة ، فقام أبو جهل فلطمه فشق أذنه وأدماه ، فانصرف وعيناه تدمع ، فلما رآه النبي عليه السلام رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً ، فإذا جبريل عليه السلام يجيء ضاحكاً مستبشراً ، فقال : يا جبريل تضحك وابن مسعود يبكي ! فقال : ستعلم ، فلما ظهر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في المجاهدين ، فأخذ يطالع القتلى .

(12/823)

فإذا أبو جهل ، مصروع يخور ، فخاف أن تكون به قوة فيؤذيه فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه ، ولعل هذا معنى قوله : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الخرطوم ﴾ [القلم : 16] ثم لما عرف عجزه ولم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه فارتقى إليه بحيلة ، فلما رآه أبو جهل قال : يا رويعي الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً ، فقال ابن مسعود : الإسلام يعلو ولا يعلى عليه ، فقال أبو جهل : بلغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إلي منه في حياتي ولا أبغض إلي منه في حال مماتي ، فروى أنه عليه السلام لما سمع ذلك قال : " فرعوني أشد من فرعون موسى فإنه قال ﴿ ءامَنتُ ﴾ وهو قد زاد عتواً " ثم قال لابن مسعود : اقطع رأسي

بسيفي هذا لأنه أحد وأقطع ، فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله ، ولعل الحكيم سبحانه إنما خلقه ضعيفاً لأجل أن لا يقوى على الحمل لوجوه : أحدها : أنه كلب والكلب يجر والثاني : لشق الأذن فيقتص الأذن بالأذن والثالث : لتحقيق الوعيد المذكور بقوله : ﴿ لَنَسْفَعاً بالناصية ﴾ فتجر تلك الرأس على مقدمها ، ثم إن ابن مسعود لما لم يطقه شق أذنه وجعل الخيط فيه وجعل يجره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل بين يديه يضحك ، ويقول : يا محمد أذن بأذن لكن الرأس ههنا مع الأذن ، فهذا ما روي في مقتل أبي جهل نقلته معنى لا لفظاً ، الخاطىء معنى قوله : ﴿ لَنَسْفَعاً بالناصية ﴾ .

المسألة الرابعة :

الناصية شعر الجبهة وقد يسمى مكان الشعر الناصية ، ثم إنه تعالى كنى ههنا عن الوجه والرأس بالناصية ، ولعل السبب فيه أن أبا جهل كان شديد الاهتمام بترجيل تلك الناصية وتطييبها ، وربما كان يهتم أيضاً بتسويدها فأخبره الله تعالى أنه يسودها مع الوجه .

المسألة الخامسة :

أنه تعالى عرف الناصية بحرف التعريف كأنه تعالى يقول : الناصية المعروفة عندكم ذاتها لكنها مجهولة عندكم صفاتها ناصية وأي ناصية كاذبة قولاً خاطئة فعلاً ، وإنما وصف بالكذب لأنه كان كاذباً على الله تعالى في أنه لم يرسل محمداً وكاذباً على رسوله في أنه ساحر أو كذاب أو ليس بنبي ، وقيل : كذبه أنه قال : أنا أكثر أهل هذا الوادي نادياً ، ووصف الناصية بأنها خاطئة لأن صاحبها متمرد على الله تعالى قال الله تعالى :

﴿ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الخاطئون ﴾ [الحاقة : 37] والفرق بين الخاطىء والمخطىء أن الخاطىء معاقب مؤاخذ والمخطىء غير مؤاخذ ، ووصف الناصية بالخاطئة الكاذبة كما وصف الوجوه بأنها ناظرة في قوله تعالى : ﴿ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 23] .

المسألة السادسة :

﴿ نَاصِيَةٍ ﴾ بدل من الناصية ، وجاز إبدالها من المعرفة وهي نكرة ، لأنها وصفت فاستقلت بفائدة .

المسألة السابعة :

قرىء ناصية بالرفع والتقدير هي ناصية ، وناصية بالنصب وكلاهما على الشتم ، واعلم أن الرسول عليه السلام لما أغلظ في القول لأبي جهل وتلا عليه هذه الآيات ، قال : يا محمد بمن تهددني وأني لأكثر هذا الوادي نادياً ، فافتخر بجماعته الذين كانوا يأكلون حطامه ، فنزل قوله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزبانية ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قد مر تفسير النادي عند قوله : ﴿ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ المنكر ﴾ [العنكبوت : 29] قال أبو عبيدة : ناديه أي أهل مجلسه ، وبالجملة فالمراد من النادي أهل النادي ، ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله ، وسمي نادياً لأن القوم يندون إليه نداً وندوة ، ومنه دار الندوة بمكة ، وكانوا يجتمعون فيها للتشاور ، وقيل : سمي نادياً لأنه مجلس الندى والجود ، ذكر ذلك على سبيل التهكم أي : اجمع أهل الكرم والدفاع في زعمك لينصروك .

المسألة الثانية :

(14/823)

قال أبو عبيدة والمبرد : واحد الزبانية زبنية وأصله من زبنية إذا دفعته وهو متمرد من إنس أو جن ، ومثله في المعنى والتقدير عفرية يقال : فلان زبنية عفرية ، وقال الأخفش : قال بعضهم واحده الزباني ، وقال آخرون : الزابن ، وقال آخرون : هذا من الجمع الذي لا واحد له من لفظه في لغة الغرب مثل أبابيل وعباديد وبالجملة فالمراد ملائكة العذاب ، ولا شك أنهم مخصوصون بقوة شديدة .

وقال مقاتل : هم خزنة جهنم أرجلهم في الأرض ورؤسهم في السماء ، وقال قتادة : الزبانية

هم الشرط في كلام العرب وهم الملائكة الغلاظ الشداد ، وملائكة النار سموا الزبانية لأنهم يزبنون الكفار أي يدفعونهم في جهنم .

المسألة الثالثة :

في الآية قولان : الأول : أي فليفعل ما ذكره من أنه يدعو أنصاره ويستعين بهم في مباطلة محمد ، فإنه لو فعل ذلك فنحن ندعو الزبانية الذين لا طاقة لناديه وقومه بهم ، قال ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته الزبانية من ساعته معاينة ، وقيل : هذا إخبار من الله تعالى بأنه يجر في الدنيا كالكلب وقد فعل به ذلك يوم بدر ، وقيل : بل هذا إخبار بأن الزبانية يجرونه في الآخرة إلى النار القول الثاني : أن في الآية تقديماً وتأخيراً أي لنسفعاً بالناصية وسندع الزبانية في الآخرة ، فليدع هو ناديه حينئذ فليمنعوه .

المسألة الرابعة :

الفاء في قوله : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ تدل على المعجز ، لأن هذا يكون تحريضاً للكافر على دعوة ناديه وقومه ، ومتى فعل الكافر ذلك ترتب عليه دعوة الزبانية ، فلما لم يجترىء الكافر على ذلك دل على ظهور معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم .

المسألة الخامسة :

قرىء : ﴿ ستدعى ﴾ على المجهول ، وهذه السين ليست للشك (1) فإن عسى من الله واجب الوقوع ، وخصوصاً عند بشارة الرسول صلى الله عليه وسلم بأن ينتقم له من

عدوه ، ولعل فائدة السين هو المراد من قوله عليه السلام : " لأنصرنك ولو بعد حين " .

---

(1) السين من معانيها التأكيد للوعد والوعيد ، نحو قوله تعالى : فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ونحو سأنتقم منك ، ولم أقل على أنها للشك ولعل الإمام أراد التأكيد بنفي مقابله وهو الشك . لأن أبا جهل كان شاكا في الآخرة .

(15/823)

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)

ثم قال : ﴿ كَلاَّ ﴾ وهو ردع لأبي جهل ، وقيل : معناه لن يصل إلى ما يتصلف به من أنه يدعو ناديه ولئن دعاهم لن ينفعوه ولن ينصروه ، وهو أذل وأحقر من أن يقاومك ، ويحتمل : لن ينال ما يتمنى من طاعتك له حين نهاك عن الصلاة ، وقيل معناه : ألا لا تطعه .

ثم قال : ﴿ لاَ تُطِعْهُ ﴾ وهو كقوله : ﴿ فَلاَ تُطِعِ المكذبين ﴾ [القلم : 8] ،

﴿ واسجد ﴾ وعند أكثر أهل التأويل أراد به صل وتوفر على عبادة الله تعالى فعلاً وإبلاغاً ، وليقل فكرك في هذا العدو فإن الله مقويك وناصرك ، وقال بعضهم : بل المراد الخضوع ، وقال آخرون : بل المراد نفس السجود في الصلاة .

ثم قال : ﴿ واقترب ﴾ والمراد وابتغ بسجودك قرب المنزلة من ربك ، وفي الحديث : "

أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد " وقال بعضهم المراد : اسجد يا محمد ، واقترب يا أبا جهل منه حتى تبصر ما ينالك من أخذ الزبانية إياك ، فكأنه تعالى أمره بالسجود ليزداد غيظ الكافر ، كقوله : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار ﴾ [الفتح : 29] والسبب الموجب لازدياد الغيظ هو أن الكفار كان يمنعه من القيام ، فيكون غيظه وغضبه عند مشاهدة السجود أتم ، ثم قال عند ذلك : واقترب منه يا أبا جهل وضع قدمك عليه ، فإن الرجل ساجد مشغول بنفسه ، وهذا تهكم به واستحقار لشأنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 23. 26 ﴾

(16/823)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) ﴾

في صحيح البخاري في حديث عائشة رضي الله عنها ، قال : أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه التحنث في غار حراء ، فكان يخلو فيه فيتحنث فيه الليالي ذوات

العدد ثم ينصرف حتى جاءه الملك وهو في غار حراء ، فقال له : ﴿ اقرأ ﴾ ، فقال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني ثم كذلك ثلاث مرات ، فقال له في الثالثة : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ﴾ إلى قوله ﴿ ما لم يعلم ﴾ ، قال فرجع بها رسول ترجف بوادره الحديث بطوله ، ومعنى هذه الآية ، ﴿ اقرأ ﴾ هذا القرآن ﴿ باسم ربك ﴾ ، أي ابدأ فعلك بذكر اسم ربك ، كما قال : ﴿ اركبوا فيها بسم الله ﴾ [هود : 41] هذا وجه . ووجه آخر في كتاب الثعلبي أن المعنى : ﴿ اقرأ ﴾ في أول كل سورة ، وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم ووجه آخر أن يكون المقروء الذي أمر بقراءته هو ﴿ باسم ربك الذي خلق ﴾ ، كأنه قال له : ﴿ اقرأ ﴾ هذا اللفظ ، ولما ذكر الرب وكانت العرب في الجاهلية تسمي الأصنام أرباباً جاءه بالصفة التي لا شركة للأصنام فيها ، وهي قوله تعالى : ﴿ الذي خلق ﴾ ، ثم مثل لهم من المخلوقات ما لا مدافعة فيه ، وما يجده كل مفطور في نفسه ، فقال : ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ ، وخلقه الإنسان من أعظم العبر حتى أنه ليس في المخلوقات التي لدينا أكثر عبراً منه في عقله وإدراكه ورباطات بدنه وعظامه ، والعلق جمع علقة ، وهي القطعة اليسيرة من الدم ، و ﴿ الإنسان ﴾ هنا : اسم الجنس ، ويمشي الذهن معه إلى جميع الحيوان ، وليست الإشارة إلى آدم ، لأنه مخلوق من طين ، ولم يكن ذلك متقرراً عند الكفار المخاطبين بهذه الآية ، فلذلك ترك أصل الخلقة وسيق لهم الفرع الذي هم به مقرون تقريباً لأفهامهم ، ثم قال تعالى : ﴿ اقرأ وربك الأكرم

﴿ على جهة التأنيس ، كأنه يقول : امض لما أمرت به وربك ليس كهذه الأرباب ، بل هو الأكرم الذي

(17/823)

لا يلحقه نقص ، فهو ينصرك ويظهرك ، ثم عدد تعالى نعمة الكتاب ﴿ بالقلم ﴾ على الناس وهي موضع عبرة وأعظم منفعة في المخاطبات وتخليد المعارف ، وقوله تعالى : ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ قيل : المراد محمد عليه السلام ، وقيل : اسم الجنس وهو الأظهر ، وعدد نعمته اكتساب المعارف بعد جهله بها ، وقوله تعالى : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ الآية نزلت بعد مدة من شأن أبي طهل بن هشام ، وذلك أنه طغى لغناه ولكثرة من يغشى ناديه من الناس ، فناصب رسول الله صلى الله عليه وسلم العداوة ونهاه عن الصلاة في المسجد ، ويروى أنه قال : لئن رأيت محمداً يسجد عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فيروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رد عليه القول وانتهره وتوعده ، فقال أبو جهل : أيتوعدني ، وما والي بالوادي أعظم ندياً مني ، ويروى أيضاً أنه جاء النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فهمَّ بأن يصل إليه ويمنعه من الصلاة ، ثم كع عنه وانصرف ، فقيل له : ما هذا ؟

فقال: لقد اعترض بيني وبينه خندق من نار، وهول وأجنحة، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

(18/823)

" لو دنا مني لأخذته الملائكة عياناً " فهذه السورة من قوله: ﴿ كلا ﴾ إلى آخرها نزلت في أبي جهل، و﴿ كلا ﴾: هي رد على أقوال أبي جهل وأفعاله، ويتجه أن تكون بمعنى: حقاً، فهي تثبيت لما بعدها من القول والطغيان: تجاوز الحدود الجميلة، والغني: مطغ إلا من عصم الله والضمير في ﴿ رآه ﴾ للإنسان المذكور، كأنه قال: أن رأى نفسه غنياً، وهي رؤية قلب تقرب من العلم، ولذلك جاز أن يعمل فعل الفاعل في نفسه، كما تقول: وجدتني وظننتني ولا يجوز أن تقول: ضربتني، وقرأ الجمهور: " أن رآه "، بالمد على وزن رعاه، واختلفوا في الإمالة وتركها، وقرأ ابن كثير من طريق قنبل: " أن رأه "، على وزن رعه، على حذف لام الفعل وذلك تخفيف، ثم حقر غنى هذا الإنسان وما له بقوله: ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ أي الحشر والبعث يوم القيامة، و﴿ الرجعى ﴾: مصدر كالرجوع، وهو على وزن: العقبى ونحوه، وفي هذا الخبر: وعيد للطاغين من الناس، ثم صرح بذكر الناهي لمحمد عليه السلام، ولم يختلف أحد من المفسرين في أن الناهي: أبو

جهل ، وأن العبد المصلي محمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله تعالى : ﴿ أرأيت ﴾ توقيف وهو فعل لا يتعدى إلى مفعولين على حد الرؤية من العلم بل يقتصر به ، وقوله تعالى : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ إكمال للتوبيخ والوعيد بحسب التوقيفات الثلاث يصلح مع كل واحد منهما فجاء بها في نسق ثم جاء بالوعيد الكافي لجميعها اختصاراً واقتضاباً ، ومع كل تقرير من الثلاثة تكمله مقدرة تتسع العبارات فيها ، وقوله : ﴿ ألم يعلم ﴾ دال عليها مغن ، وقوله تعالى : ﴿ إن كان ﴾ يعني العبد المصلي ، وقوله : ﴿ إن كذب وتولى ﴾ ، يعني الإنسان الذي ينهى ، ونسب الرؤية إلى الله تعالى بمعنى يدرك أعمال الجميع بإدراك : سماه رؤية ، والله منزه عن الجارحة وغير ذلك من المماثلات المحدثات ، ثم توعد تعالى إن لم ينته بأن يؤخذ بناصيته فيجر إلى جهنم ذليلاً ، تقول

(19/823)

العرب : سفعت بيدي ناصية الفرس ، والرجل إذا جذبتها مذللاً له ، قال عمرو بن معد يكرب : [الكامل]

قوم إذا سمعوا الصياح رأيتهم . . . ما بين ملجم مهره أو سافع

فالآية على نحو قوله : ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ [الرحمن : 41] وقال بعض

العلماء بالتفسير : ﴿ لنسفعاً ﴾ معناه : لنحرقن من قولهم سفعته النار إذا أحرقته ، واكتفى بذكر الناصية لدلالتها على الوجه ، وجاء ﴿ لنسفعاً ﴾ في خط المصحف بألف بدل النون ، وقرأ أبو عمرو في رواية هارون : "لنسفعن" مثقلة النون ، وفي مصحف ابن مسعود : "لأسفعن بالناصية ناصية كاذبة فاجرة" ، وقرأ أبو حيوة : "ناصيةً كاذبةً خاطئةً" بالنصب في الثلاثة ، وروي عن الكسائي أنه قرأ بالرفع فيها كلها ، والناصية مقدم شعر الرأس ، ثم أبدل النكرة من المعرفة في قوله : ﴿ ناصية كاذبة ﴾ ووصفها بالكذب والخطإ من حيث صفة لصاحبها ، كما تقول : يد سارقة ، وقوله : ﴿ فليدع نادية ﴾ إشارة إلى قول أبي جهل ، وما بالوادي أكثر نادياً مني ، والنادي والندى المجلس ومنه دار الندوة ومنه قول زهير : [الكامل]

(20/823)

(وفيهم مقامات حسان وجوههم

وأندية ينتابها القول والفعل)

ومنه قول الأعرابية سيد ناديه وثمال عافية

العلق : (18 - 19) سندع الزبانية و "الزبانية" ملائكة العذاب واحدهم زبنية وقال

الكسائي زبني وقال عيسى بن عمر والأخفش زابن وهم الذين يدفعون الناس في النار والزبن الدفع ومنه حرب زبون أي تدفع الناس عن نفسها ومنه قول الشاعر

(ومستعجب مما يرى من أناتنا

ولو زبنته الحرب لم يترمرم) الطويل

ومنه قول عتبة بن أبي سفيان وقد زبنتنا الحرب وزبناها فنحن بنوها وهي امنا ومنه قول الشاعر

(عدتني عن زيارتك الأعادي

وحالت بيننا حرب زبون) الوافر

وحذف الواو من " سندع " في خط المصحف اختصارا وتخفيفا والمعنى " سندع الزبانية " لعذاب هذا الذي يدعو ناديه وقرا ابن مسعود (فليدع الى ناديه) ثم قال تعالى لمحمد عليه السلام " كلا " ردا على قول هذا الكافر وأفعاله " لا تطعه " أي لا تلتفت الى نهيه وكلامه واسجد لربك واقترب اليه بسجودك وبالطاعة والأعمال الصالحة وفي الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قال (أقرب ما يكون العبد من ربه اذا سجد فأكثروا من الدعاء في السجود فقمين ان يستجاب لكم)

وقال مجاهد ثم قال الم تسمعوا " واسجد واقترب " وروي ابن وهب عن جماعة من اهل العلم ان قوله تعالى " واسجد " خطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وان " اقترب " خطاب

لأبي جهل أي إن كنت تجترىء حتى ترى كيف تهلك وهذه السورة فيها سجدة عند جماعة من اهل العلم منهم في مذهب مالك ابن وهب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(21/823)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾

أي أبو جهل عن أذاك يا محمد .

﴿ لَنَسْفَعاً ﴾ أي لنأخذن ﴿ بالناصية ﴾ فلنذلنه .

وقيل : لنأخذن بناصيته يوم القيامة ، وتُطْوَى مع قدميه ، ويطرح في النار ، كما قال تعالى :

﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام ﴾ [الرحمن : 41] .

فالآية وإن كانت في أبي جهل فهي عِظة للناس ، وتهديد لمن يمتنع أو يمنع غيره عن الطاعة .

وأهل اللغة يقولون : سفَعْتَ بالشيء : إذا قبضت عليه وجذبته جذباً شديداً .

ويقال : سَفَعَ بناصية فرسه .

قال :

قَوْمٌ إذا كَثُر الصياح رأيتهمْ . . .

مِنْ بينِ مُلْجِم مُهْرِه أو سافِعِ

وقيل : هو مأخوذ من سَفَعَتْه النار والشمس : إذا غيرت وجهه إلى حال تسويد ؛ كما قال :

أثافِيَّ سُفعاً في مُعَرَّس مِرْجَلٍ . . .

ونُؤْيٌ كجِذم الحوض أَثْلَمَ خاشِع

والناصية : شعر مقدّم الرأس .

وقد يعبر بها عن جملة الإنسان ؛ كما يقال : هذه ناصية مباركة ؛ إشارة إلى جميع الإنسان .

وخص الناصية بالذكر على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته أخذوا بناصيته .

وقال المبرّد : السَّفْع : الجذب بشدّة ؛ أي لَنَجُرَّن بناصيته إلى النار .

وقيل : السَّفْع الضرب ؛ أي لنلطُمَنّ وجهه .

وكله متقارب المعنى .

أي يجمع عليه الضرب عند الأخذ ؛ ثم يجرّ إلى جهنم .

ثم قال على البدل : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ أي ناصية أبي جهل كاذبة في قولها ، خاطئةٍ في فعلها .

والخاطىء معاقب مأخوذ .

والمخطىء غير مأخوذ .

ووصف الناصيةِ بالكاذبة الخاطئة ، كوصفِ الوجوه بالنظر في قوله تعالى : ﴿ إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 23] .

وقيل : أي صاحبها كاذب خاطىء ؛ كما يقال : نهاره صائم ، وليله قائم ؛ أي هو صائم في نهاره ، ثم قائم في ليله .

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ أي أهل مجلسه وعشيرته ، فليستنصر بهم .

(22/823)

﴿ سَنَدْعُو الزبانية ﴾ أي الملائكة الغِلاظ الشداد عن ابن عباس وغيره واحدهم زِبْنِيّ ؛ قاله الكسائي .

وقال الأخفش : زابن .

أبو عبيدة : زِبْنِية .

وقيل : زَبَانِيّ .

وقيل : هو اسم للجمع ؛ كالأبابيل والعباديد .

وقال قتادة : هم الشُّرَط في كلام العرب .

وهو مأخوذ من الزَّبْن وهو الدفع ؛ ومنه المُزابنة في البيع .

وقيل : إنما سموا الزبانية لأنهم يعملون بأرجلهم ، كما يعملون بأيديهم ؛ حكاه أبو الليث السَّمَرْقندِيّ رحمه الله قال : ورُوي في الخبر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة ، وبلغ إلى قوله تعالى : ﴿ لَنَسْفَعاً بالناصية ﴾ قال أبو جهل : أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربّك .

فقال الله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُو الزبانية ﴾ .

فلما سمع ذِكر الزبانية رجع فزِعاً ؛ فقيل له : خَشِيت منه ! قال لا ! ولكن رأيت عنده فارساً يُهدّدني بالزَّبانية ، فما أدري ما الزبانية ، ومال إليّ الفارس ، فخشِيت منه أن يأكلني .

وفي الأخبار أن الزبانية رؤوسهم في السماء وأرجلهم في الأرض ، فهم يدفعون الكفار في جهنم .

وقيل : إنهم أعظم الملائكة خَلْقاً ، وأشدّهم بطشاً .

والعرب تطلِق هذا الاسم على من اشتدّ بطشه .

قال الشاعر :

مَطاعيمُ في القُصْوَى مطاعينَ في الوَغَى . . .

زَبانيةٌ غُلْبٌ عِظامٌ حلومُها

وعن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ سَنَدْعُو الزبانية ﴾ قال : " قال أبو جهل : لئن رأيت

محمداً يصلي لأطأنّ على عنقه .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لو فعل لأخذته الملائكة عِياناً" " قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(23/823)

وروَى عِكرمة عن ابن عباس قال : مر أبو جهل على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يصلِّي عند المقام ، فقال : ألم أنهك عن هذا يا محمد ! فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال أبو جهل : بأيّ شيء تهدّدني يا محمد ! والله إني لأكثر أهل الوادي هذا نادياً ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُو الزبانية ﴾ .

قال ابن عباس : والله لو دعا نادِيَه لأخذته زبانية العذاب من ساعته .

أخرجه الترمذي بمعناه ، وقال : حسن غريب صحيح .

والنادي في كلام العرب : المجلس الذي ينتدِي فيه القوم ؛ أي يجتمعون ، والمراد أهل النادي ؛ كما قال جرير :

لهم مَجلِسٌ صُهْبُ السِّبالِ أذِلّةٌ . . .

وقال زهير :

وفيهمْ مَقاماتٌ حِسان وُجُوههم . . .

وقال آخر :

واسْتبَّ بعدكَ يا كُلَيبُ المجلِسُ . . .

وقد ناديت الرجل أنادِيه إذا جالسته .

قال زهير :

وجارُ البيتِ والرجلُ المنادِي . . .

أمام الحي عَقْدُهما سَواءُ

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)

﴿ كَلاَّ ﴾ أي ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل .

﴿ لاَ تُطِعْهُ ﴾ أي فيما دعاك إليه من ترك الصلاة .

﴿ واسجد ﴾ أي صل لله ﴿ واقترب ﴾ أي تقرّب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة .

وقيل : المعنى : إذا سجدت فاقترب من الله بالدعاء .

روى عطاء عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أقرب ما يكون العبد من ربه ، وأحبه إليه ، جَبْهَتُه في الأرض ساجداً لله " .

قال علماؤنا : وإنما (كان) ذلك لأنها نهاية العبودية والذلة ؛ ولله غاية العِزة ، وله العزة التي لا مقدار لها ؛ فكلما بَعُدْت من صفته ، قربت مِن جنته ، ودنوت من جواره في داره .

وفي الحديث الصحيح : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " أمّا الركوع فعظموا فيه الرب . وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء ، فإنه قِمَن أن يُسْتجاب لكُم " ولقد أحسن من قال :

وإذا تذللتِ الرقاب تواضُعاً . . .

(24/823)

منا إليك فعِزُّها في ذلُّها

وقال زيد بن أسلم : اسجد أنت يا محمد مصلياً ، واقترب أنت يا أبا جهل من النار .

قوله تعالى : ﴿ واسجد ﴾ هذا من السجود .

يحتمل أن يكون بمعنى السجود في الصلاة ، ويحتمل أن يكون سجود التلاوة في هذه السورة .

قال ابن العربيّ : "والظاهر أنه سجود الصلاة" لقوله تعالى : ﴿ أَرَأَيتَ الذي ينهى * عَبْداً إِذَا صلى ﴾ إلى قوله ﴿ كَلاّ لاَ تُطِعْهُ واسجد واقترب ﴾ ، لولا ما ثبت في الصحيح من رواية مسلم وغيره من الأئمة عن أبي هريرة أنه قال : سجدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ﴿ إِذَا السمآء انشقت ﴾ [الإنشقاق : 1] ، وفي ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ ﴾ [العلق : 1] سجدتين ، فكان هذا نصاً على أن المراد سجود التلاوة .

وقد رَوى ابن وهب، عن حماد بن زيد ، عن عاصم بن بَهْدلة، عن زِرّ بن حُبَيش، عن علّي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: عزائم السجود أربع: "ألم" و"حام. تنزيل من الرحمن الرحيم" و"النجم" و"اقرأ باسم ربك".

وقال ابن العربيّ: "وهذا إن صح يلزم عليه السجود الثاني من سورة "الحج"، وإن كان مقترناً بالركوع؛ لأنه يكون معناه اركعوا في موضع الركوع، واسجدوا في موضع السجود".

وقد قال ابن نافع ومطرِّف: وكان مالك يسجد في خاصة نفسه بخاتمة هذه السورة من "اقرأ باسم ربك" وابن وهب يراها من العزائم.

قلت: وقد روينا من حديث مالك بن أنس عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن نافع عن ابن عمر قال: "لما أنزل الله تعالى ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمُعاذ: "اكتبها يا معاذ" فأخذ معاذ اللوح والقلم والنون وهي الدواة فكتبها معاذ؛ فلما بلغ ﴿ كَلّا لا تُطِعْهُ واسجد واقترب ﴾ سجد اللوح، وسجد القلم، وسجدت النون، وهم يقولون: اللهم ارفع به ذِكراً، اللهم احْطُطْ به وِزراً، اللهم اغفر به ذنباً.

قال معاذ : سجدت ، وأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسجد " .

ختمت السورة .

والحمد لله على ما فتح ومنح وأعطى .

وله الحمد والمِنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(26/823)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ اقرأ ﴾

أيْ مَا يوحَى إليكَ فإنَّ الأمرَ بالقراءةِ يقتَضي المقروءَ قطعاً وحيثُ لَمْ يُعينَ وجبَ أنْ يكونَ ذلكَ ما يتصلُ بالأمرِ حتماً سواءً كانتِ السورةُ أولَ ما نزلَ أوْ لاَ والأقربُ أنَّ هذا إلى قولِه تعالى : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ أولُ ما نزلَ عليه عليهِ الصلاةُ السَّلامُ كما ينطقُ بهِ حديثُ الزُّهريِّ المشهورُ وقولِه تعالى : ﴿ باسم رَبّكَ ﴾ متعلقٌ بمضمرٍ هُو حالٌ من ضميرِ الفاعلِ أي اقرأْ ملتبساً باسمِه تعالى أيْ مُبتدئاً بهِ لتتحقق مقارنتُه لجميعِ أجزاءِ المقروءِ والتعرضُ لعُنْوانِ الربوبيةِ المنبئةِ عنِ التربيةِ والتبليغِ إلى الكمالِ اللائقِ شيئاً فشيئاً معَ الإضافةِ إلى ضميرِه عليهِ السَّلامُ للإشعارِ بتبليغِه عليهِ السَّلامُ إلى الغايةِ القاصيةِ منَ الكمالاتِ البشريةِ بإنزالِ

الوَحيِ المتواترِ ووصفُ الربِّ بقولِه تعالَى : ﴿ الذى خَلَقَ ﴾ لتذكيرِ أولِ النعماءِ الفائضةِ عليهِ ، عليهِ الصلاةُ والسلامُ منهُ تعالى والتنبيهِ على أنَّ مَنْ قدرَ عَلَى خلقِ الإنسانِ على ما هُو عليهِ من الحياةِ وما يتبعها منَ الكمالاتِ العلميةِ والعمليةِ منْ مادةٍ لم تشمَّ رائحةَ الحياةِ فضلاً عن سائرِ الكمالاتِ قادرٌ على تعليمِ القراءةِ للحيِّ العالمِ المتكلمِ أي الذي أنشأَ الخلقَ واستأثرَ بهِ أوْ خلَقَ كُلَّ شيءٍ وقولُه تعالى :

(27/823)

﴿ خَلَقَ الإنسانَ ﴾ عَلى الأولِ تخصيصُ لخلقِ الإنسانِ بالذكرِ من بينِ سائرِ المخلوقاتِ لاستقلالِه ببدائعِ الصنعِ والتدبيرِ وعَلى الثاني إفرادٌ للإنسانِ منْ بينِ سائرِ المخلوقاتِ بالبيانِ وتفخيمٌ لشأنِه إذْ هُوَ أشرفُهم وإليهِ التنزيلُ وهُو المأمورُ بالقراءةِ ويجوزُ أنْ يُرادَ بالفعلِ الأولِ أيضاً خلقُ الإنسانِ ويقصدُ بتجريدِه عن المفعولِ الإبهامُ ثمَّ التفسيرُ رَوماً لتفخيمِ فطرتِه وقولُه تعالى : ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ أي دمٍ جامدٍ لبيانِ كمالِ قُدرتِه تعالى بإظهارِ مَا بينَ حالتِه الأُولى والآخرةِ من التباينِ البينِ وإيرادُه بلفظِ الجمعِ بناءً على أنَّ الإنسانَ في مَعْنى الجمعِ لمراعاةِ الفواصلِ ولعلَّه هو السرُّ في تخصيصِه بالذكرِ منْ بينِ سائرِ أطوارِ الفطرةِ الإنسانيةِ معَ كونِ النطفةِ والترابِ أدلَّ منْهُ عَلَى كمالِ القُدرةِ لكونِهما أبعدَ منْهُ بالنسبةِ إلى الإنسانيةِ ولَمّا

كان خلقُ الإنسانِ أو النعمُ الفائضة عليه عليهِ الصَّلاةُ والسلامُ مِنْهُ تعالى أقدمَ الدلائلِ الدالةِ على وجودِه عزَّ وجل وكمالِ قُدرتِه وعلمِه وحكمتِه ووصفَ ذاتَه تعالى بذلكَ أولاً ليستشهدَ عليه السلامُ بِهِ على تمكينِه تعالى له منَ القراءةِ ثم كررَ الأمرَ بقولِه تعالى: ﴿ اقرأ ﴾ أي افعلْ ما أُمرتَ به تأكيداً للإيجابِ وتمهيداً لما يعقبُه منْ قولِه تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ الأكرم ﴾ الخ، فأنَّه كلامٌ مستأنفٌ واردٌ لإزاحةِ ما بينَهُ عليه السَّلامُ منَ العُذرِ بقولِه عليهِ السَّلامُ: "مَا أنَا بقارِىءٍ" يريدُ أنَّ القراءةَ شأنُ منْ يكتبُ ويقرأُ وأنَا أُميٌّ فقيلَ لَهُ: وربُّكَ الذي أمركَ بالقراءةِ مبتدئاً باسمِه هو الأكرمُ.

﴿ الذى عَلَّمَ بالقلم ﴾ أي علمَ ما علمَ بواسطةِ القلمِ لا غيرِه فمَا علَّمَ القارىءَ بواسطةِ الكتابةِ والقلمِ يعلمكَ بدونِهما وقولُه تعالَى:

(28/823)

﴿ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ بدلُ اشتمالٍ منْ عَلَّمَ بالقلمِ أي علَّمه بِهِ وبدونه منَ الأمورِ الكليةِ والجزئيةِ والجليةِ والخفيةِ ما لَمْ يخطرُ ببالِه وفي حذفِ المفعولِ أولاً وإيرادِه بعنوانِ عدمِ المعلوميةِ ثانياً من الدلالةِ على كمالِ قُدرتِه تعالى وكمالِ كرَمِه والإشعارِ بأنَّه تعالى يعلمُه من العلومِ مَّا لا تحيطُ بِه العقولُ مَا لا يخفى ﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ لمن كفرَ بنعمةِ الله تعالى بطغيانِه وإن

لم يسبقْ ذكرُهُ للمبالغةِ في الزجرِ وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى ﴾ أيْ ليجاوزُ الحدَّ ويستكبرُ عَلى ربِّه بيانٌ للمردوعِ والمردوعِ عَنْهُ قيلَ : هَذا إلى آخرِ السورةِ نزلَ في أبي جهلٍ بعدَ زمانٍ وهو الظاهرُ وقولُه تعالَى : ﴿ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ مفعولٌ لهُ أي يطغى لأنْ رأى نفسَهُ مستغنياً عَلى أنَّ استغنى مفعولٌ ثانٍ لرأى لأنه بمَعْنى علمَ ولذلكَ ساغَ كونُ فاعِله ومفعولِه ضميرَيْ واحدٍ كَمَا في علمتني وإن جوَّزَهُ بعضُهم في الرؤيةِ البصريةِ أيضاً وجعلَ منْ ذلك عائشةَ رضيَ اللهُ عَنْها : "لقد رأيتُنا معَ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وما لَنا طعامٌ إلاَّ الأسودانِ" وتعليلُ طُغيانه برؤيتِه لا بنفسِ الاستغناءِ كَمَا ينبىءُ عَنْه قولُه تعالَى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الأرض ﴾ للإيذانِ بأنَّ مدارَ طُغيانِه عملهُ الفاسدُ . رُويَ أنَّ أبا جهلٍ قالَ لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم : أتزعمُ أنَّ منِ استغنى طغَى فاجعلْ لَنا جبالَ مكةَ فضةً وذهباً لعلنَا نأخذُ منْهَا فنطغَى فندعَ ديننَا ونتبعَ دينكَ فنزلَ عليهِ جبريلُ عليهِ السَّلامُ فقالَ : إن شئْتَ فعلنَا ذلكَ ثُمَّ إنْ لَمْ يُؤمنوا فعلنَا بهمْ مَا فعلنَا بأصحابِ المائدةِ فكفَّ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم عن الدُّعاءِ إبقاءً عليهمْ .

وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّ إلى ربّكَ الرجعى ﴾ تهديدٌ للطاغي وتحذيرٌ لَهُ عنْ عاقبةِ الطغيانِ والالتفاتُ للتشديدِ في التهديدِ والرُّجعى مصدرٌ بمعنَى الرُّجوعِ كالبشرى ، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ عليهِ أيْ إنَّ إلى مالكِ أمركِ رجوعَ الكُلِّ بالموتِ والبعثِ لا إلى غيرِه استقلالاً ولا اشتراكاً فسترى حينئذٍ عاقبةَ طُغيانِكَ وقولُه تعالَى :

(30/823)

﴿ أَرَءَيْتَ الذى ينهى * عَبْداً إِذَا صلى ﴾ تقبيحٌ وتشنيعٌ لحالِه وتعجيبٌ منهَا وإيذانٌ بأنَّها منَ الشناعةِ والغرابةِ بحيثُ يجبُ أنْ يراهَا كُلُّ منْ يتأتى منْهُ الرؤيةُ ويقضي منهَا العجبَ . رُوي أن أبَا جهلٍ قالَ في ملأٍ من طُغاةِ قريشٍ لِئنْ رأيتُ محمداً يُصلي لأطأنَّ عنقَهُ فرآهُ عليهِ السَّلامُ في الصَّلاةِ فجاءَهُ ثمَّ نكصَ عَلى عقبيهِ فقالُوا : ما لكَ؟ قالَ : إنَّ بيني وبينهُ لخندقاً منْ نارٍ وهولاً وأجنحةً فنزلتْ ولفظُ العبدِ وتنكيرُه لتفخيمه عليهِ السَّلامُ واستعظامِ النَّهي وتأكيدِ التعجبِ منْهُ والرؤيةُ هَهُنا بصريةٌ وَأمَّا مَا فِي قولِه تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ على الهدى * أَوْ أَمَرَ بالتقوى ﴾ ومَا في قولِه تعالَى : ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وتولى ﴾ فقلبيةٌ معناهُ أخبرني فإنَّ الرؤيةَ لما كانتْ سبباً للإخبارِ عنِ المرئي أجرى الاستفهامُ عنْهَا مجرى الاستخبارِ عنْ متعلَّقها والخطابُ لكلِّ منْ صلحَ للخطابِ ، ونظمُ الأمرِ والتكذيبِ والتولِّي

في سلكِ الشرطِ المترددِ بينَ الوقوعِ وعدمِه ليسَ باعتبارِ نفسَ الأفعالِ المذكورةِ منْ حيثُ صدورُها عن الفاعلِ فإنّ ذلكَ ليسَ في حيزِ الترددِ أصلاً بلْ باعتبارِ أوصافها التي هِيَ كونُها أمراً بالتقوى وتكذيباً وتولياً كمَا في قولُه تعالَى : ﴿ قُلْ أَرَءيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ الله ثُمَّ كَفَرْتُمْ ﴾ كمَا مرَّ والمفعولُ الأولُ لأرأيتَ محذوفٌ وهو ضميرٌ يعودُ إلى الموصولِ أو اسمُ إشارةٍ يُشارُ بهِ إليهِ ومفعولُه الثاني سدَّ مسدَّهُ الجملةُ الشرطيةُ بجوابها المحذوفِ فإنَّ المفعولَ الثاني لأرأيتَ لا يكونُ إلا جملةً استفهاميةً أو قسميةً والمعنَى أخبرني ذلكَ الناهي إن كانَ على الهُدى فيمَا ينهي عَنْهُ منْ عبادةِ الله تعالى أوْ آمراً بالتَّقوى فيمَا يأمرُ بِهِ من عبادةِ الأوثانِ كما يعتقدُه أوْ مكذباً للحقِّ مُعرضاً عن

(31/823)

الصَّوابِ كَما نقولُ نحنُ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ الله يرى ﴾ أيْ يطلعُ على أحوالِه فيجازيَهُ بِهَا حتَّى اجترأَ على ما فعلَ وإنَّما أفردَ التكذيبَ والتولِّي بشرطيةٍ مستقلةٍ مقرونةٍ بالجوابِ مصدرةٍ باستخبارٍ مستأنفٍ ولم ينظمَا في سلكِ الشرطِ الأولِ بعطفهما على كانَ للإيذانِ باستقلالهما بالوقوعِ في نفسِ الأمرِ واستتباعِ الوعيدِ الذي ينطقُ بهِ الجوابُ ، وأما القسمُ الأولُ فأمرٌ مستحيلٌ قد ذُكرَ في حيزِ الشرطِ لتوسيعِ الدائرةِ وهو السرُّ في تجريدِ الشرطيةِ

الأولى عنِ الجوابِ والإحالةِ بهِ على جوابِ الثانيةِ هَذا وقد قيلَ: أرأيتَ الأولُ بمعنى أخبرني مفعولُه الأولُ الموصولُ ومفعولُه الثاني الشرطيةُ الأولى بجوابها المحذوفِ لدلالةِ جوابِ الشرطيةِ الثانيةِ عليه وأرأيتَ في الموضعينِ تكريرٌ للتأكيدِ ومعناهُ أخبرني عمَّنْ ينهى بعضَ عبادِ اللهِ عن صلاته إنْ كانَ ذلكَ النَّاهي علَى طريقةٍ سديدةٍ فيما ينهى عنْ عبادةِ اللهِ تعالى أوْ كانَ آمراً بالمعروفِ والتَّقوى فيما يأمرُ بهِ من عبادةِ الأوثانِ كما يعتقدُهُ وكذلكَ إنْ كانَ على التكذيبِ للحقِّ والتولِّي عنِ الدينِ الصحيحِ كما نقولُ نحنُ ألمْ يعلمْ بأنَّ اللهَ يرى ويطلعُ على أحوالِه منْ هُداهُ وضلالِه فيجازيَهُ علَى حسبِ ذلكَ فتأملْ وقيلَ: المَعْنى أرأيتَ الَّذي يَنْهى عبْداً يُصلي والمُنهيُّ عنِ الهُدى آمرٌ بالتَّقوى والنَّاهي مكذبٌ مُتولي فما أعجبَ من ذَا، وقيلَ: الخطابُ الثاني للكافرِ فإنَّه تعالَى كالحاكمِ الذي حضرهُ الخصمانِ يخاطبُ هذا مرةً والآخرَ أُخرى وكأنَّه قالَ: يا كافرُ أخبرني إنْ كانَ صلاتُه هُدى ودُعاؤُه إلى الله تعالى أمراً بالتَّقوى أتنهاهُ.

وقيلَ: هُو أميةُ بنُ خلفٍ كانَ ينْهى سلمانَ عنِ الصَّلاةِ.

﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ للناهي اللعينِ وخسوءٌ لَهُ واللامُ في قولِه تعالَى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ موطئةٌ للقسمِ أي واللهِ لئِن لَمْ ينتِه عَمَّا هُو عليهِ ولمْ ينزجرْ ﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾ لنأخذنَّ بناصيتِه ولنسحبنّهُ بِهَا إلى النّارِ والسفعُ القبضُ على الشيءِ وجذبُه بعنفٍ وشدةٍ وقُرِىءَ لنسفعنَّ بالنونِ المشددةِ وقُرِىءَ لأسفعنَّ وكَتبتُه في المصحفِ بالألفِ عَلى حكمِ الوقفِ والاكتفاءُ بلامِ العهدِ عنِ الإضافةِ لظهورِ أنَّ المرادَ ناصيةُ المذكورِ ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ بدلٌ منَ الناصيةِ وإنَّما جازَ إبدالُها منَ المعرفةِ وهي نكرةٌ لوصفِها وقُرِئَتْ بالرفعِ على هِيَ ناصيةٌ وبالنصبِ وكلاهُما على الذمِّ والشتمِ ووصفُها بالكذبِ والخطإِ على الإسنادِ المجازيِّ وهُمَا لصاحبِها وفيهِ من الجزالةِ مَا ليسَ في قولِه ناصيةُ كاذبٍ خاطىءٍ ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ أيْ أهلَ ناديهِ ليعينوهُ وهُو المجلسُ الَّذي ينتدي فيه القومُ أي يجتمعونَ . رُوي أنَّ أبَا جهلٍ مرَّ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهُو يُصلي فقالَ ألم أنهكَ فأغلظَ لَهُ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقالَ : أتهددني وأنا أكثرُ أهلِ الوادي نادياً فنزلتْ : ﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ ليجروه إلى النّارِ والزبانيةُ الشرطُ ، الواحدُ زِبْنيةٌ كعفريةٍ من الزّبنِ وهُوَ الدّفْعُ وقيلَ : زِبَنِي وكأنَّه نسبَ إلى الزبنِ ثُمَّ غير كأمْسى وأصلُها زَبَاني فقيلَ : زبانيةٌ بتعويضِ التاءِ عنِ الياءِ والمرادُ ملائكةُ العذابِ وعنِ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم : " لَوْ دَعا ناديه لأخذتْهُ الزبانيةُ عياناً "

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)

(33/823)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ بعدَ ردعٍ وزجرٌ إثرَ زجرٍ ﴿ لاَ تُطِعْهُ ﴾ أيْ دُم عَلى مَا أنت َعليهِ منْ معاصاتِه ﴿ واسجد ﴾ وواظبْ عَلى سجودِك وصلاتك غيرَ مكترثٍ به ﴿ واقترب ﴾ وتقربْ بذلك إلى ربِّكَ وفي الحديثِ أقربُ ما يكونُ العبدُ إلى ربِّه إذَا سجدَ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(34/823)

وقال الآلوسى :

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للناهي اللعين وزجر له واللام في قوله تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ موطئة للقسم أي والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿ لَنَسْفَعاً بالناصية ﴾ أي لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار يوم القيامة والسفع قال المبرد الجذب بشدة وسفع بناصية فرسه جذب قال عمرو بن معد يكرب

: قوم إذ كثر الصياح رأيتهم . . .

ما بين ملجم مهره أو سافع

(35/823)

وقال مؤرج السفع الأخذ بلغة قريش والناصية شعر الجبهة وتطلق على مكان الشعر وأل فيها للعهد واكتفى بها عن الإضافة وهو معنى كونها عوضاً عن المضاف إليه في مثله والكلام كناية عن سحبه إلى النار وقول أبي حيان أنه عبر بالناصية عن جميع الشخص لا يخفى ما فيه وقيل المراد لنسحبنه على وجهه في الدنيا يوم بدر وفيه بشارة بأنه تعالى يمكن المسلمين من ناصيته حتى يجروه إن لم ينته وقد فعل عز وجل فقد روي أنه لما نزلت سورة الرحمن قال صلى الله عليه وسلم : " من يقرؤها على رؤساء قريش فقام ابن مسعود وقال : أنا يا رسول الله فلم يأذن له عليه الصلاة والسلام لضعفه وصغر جثته حتى قالها ثلاثاً وفي كل مرة كان ابن مسعود يقول أنا يا رسول الله فأذن له صلى الله عليه وسلم فأتاهم وهم مجتمعون حول الكعبة فشرع في القراءة فقام أبو جهل فلطمه وشق أذنه وأدماه فرجع وعيناه تدمعان فنزل جبريل عليه السلام ضاحكاً فقال له صلى الله عليه وسلم في ذلك فقال عليه السلام ستعلم فلما كان يوم بدر قال عليه الصلاة والسلام التمسوا أبا جهل في القتلى فرآه ابن

مسعود مصروعاً يخور فارتقى على صدره ففتح عينه فعرفه فقال لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم فقال ابن مسعود : الإسلام يعلو ولا يعلى عليه فعالج قطع رأسه فقال اللعين دونك فاقطعه بسيفي فقطعه ولم يقدر على حمله فشق أذنه وجعل فيها خيطاً وجعل يجره حتى جاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء جبريل عليه السلام يضحك ويقول يا رسول أذن بأذن والرأس زيادة " وكأن تخصيص الناصية بالذكر لأن اللعين كان شديد الاهتمام بترجيلها وتطييبها أو لأن السفع بها غاية الإذلال عند العرب إذ لا يكون إلا مع مزيد التمكن والاستيلاء ولأن عادتهم ذلك في البهائم وقرأ محبوب وهارون كلاهما عن أبي عمرو لنسفعن بالنون الشديدة وقرأ ابن مسعود لأسفعن كذلك مع إسناد الفعل إلى ضمير المتكلم وحده وكتبت النون الخفيفة في قراءة الجمهور ألفاً

اعتباراً بحال الوقف فإنه يوقف عليها بالألف تشبيهاً لها بالتنوين وقاعدة الكتابة مبنية على حال الوقف والابتداء ومن ذلك قوله

: ومهما تشأ منه فزارة تمنعا . . .

وقوله

: يحسبه الجاهل ما لم يعلما . . .

وقوله تعالى :

﴿ نَاصِيَةٍ ﴾ بدل من ﴿ الناصية ﴾ وجاز إبدالها عن المعرفة وهي نكرة لأنها وصفت بقوله سبحانه : ﴿ كاذبة خَاطِئَةٍ ﴾ فاستقلت بالإفادة وقد ذكر البصريون أنه يشترط لإبدال النكرة من المعرفة الإفادة لا غير ومذهب الكوفيين أنها تبدل منها شرطين اتحاد اللفظ ووصف النكرة وليشمل بظاهره كل ناصية هذه صفتها وهذا مما يتأتى على سائر المذاهب ووصف الناصية بما ذكر مع أنه صفة صاحبها للمبالغة حيث يدل على وصفه بالكذب والخطأ بطريق الأولى ويفيد أنه لشدة كذبه وخطئه كأن كل جزء من أجزائه يكذب ويخطأ وهو كقوله تعالى ﴿ تصف ألسنتهم الكذب ﴾ [النحل : 62] وقولهم وجهها يصف الجمال فالإسناد مجازي من إسناد ما للكل إلى الجزء وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وزيد بن علي ناصية كاذبة خاطئة بنصب الثلاثة على الشتم والكسائي في رواية يرفعها أي هي ناصية الخ .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ النادي المجلس الذي ينتدي فيه القوم أي يجتمعون للحديث ويجمع على أندية والكلام على تقدير المضاف أي فليدع أهل ناديه أو الإسناد فيه مجازى أو أطلق اسم المحل على من حل فيه ومثله في هذا المجلس ونحوه كما قال جرير أو ذو الرمة

: لهم مجلس صهب السبال أذلة . . .

سواسية أحرارها وعبيدها

وقال زهير

: وفيهم مقامات حسان وجوههم . . .

وأندية ينتابها القول والفعل

وهذا إشارة إلى ما صح من أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فقال ألم أنهك فأغاظ عليه الصلاة والسلام له فقال أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً والأمر على ما في "البحر" للتعجيز والإشارة إلى أنه لا يقدر على شيء .

(37/823)

﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ أي ملائكة العذاب ليجروه إلى النار وهو في الأصل الشرط أي أعوان الولاة واختلف فيه فقيل جمع لا واحد له من لفظه كعباديد وقال أبو عبيد واحده زبنية بكسر فسكون كعفرية وقال الكسائي واحدة زبني بالكسر كأنه نسب إلى الزبن بالفتح وهو الدفع ثم غير للنسب وكسر أوله كأنسي وأصل الجمع زباني فقيل زبانية بحذف إحدى ياميه وتعويض التاء عنها وقال عيسى بن عمر والأخفش واحده زابن والعرب قد تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه وإن لم يكن من أعوان الولاة ومنه قوله

: مطاعم في القصوى مطاعين في الوغى . . .

زبانية غلب عظام حلومها

وسمى ملائكة العذاب بذلك لدفعهم من يعذبونه إلى النار وهذا الدعاء في الدنيا بناءً على ما روي من أنه لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عياناً والظاهر أن سندع مرفوع لتجرده عن الناصب والجازم ورسم في المصاحف بدون واو لاتباع الرسم للفظ فإنها محذوفة فيه عن الوصل لالتقاء الساكنين أو لمشاكلة فليدع وقيل إنه مجزوم في جواب الأمر وفيه نظر وقرأ ابن أبي عبلة سيدعي الزبانية بالبناء للمفعول ورفع الزبانية .

(38/823)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لذلك اللعين بعد ردع وزجر له أثر زجر ﴿ لاَ تُطِعْهُ ﴾ أي دم على ما أنت عليه من معاصاته ﴿ واسجد ﴾ وواظب غير مكترث به على سجودك وهو على ظاهره أو مجاز عن الصلاة ﴿ اقترب ﴾ وتقرب بذلك إلى ربك وفي "صحيح مسلم" وغيره من حديث أبي هريرة مرفوعاً أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء وفي "الصحيح" وغيره أيضاً من حديث ثوبان مرفوعاً عليك بكثرة السجود فإنه لا تسجد لله تعالى سجدة إلا رفعك الله تعالى بها درجة وحط عنك بها خطيئة ولهذه

الأخبار ونحوها ذهب غير واحد إلى أن السجود أفضل أركان الصلاة ومن الغريب أن العز بن عبد السلام من أجلة أئمة الشافعية قال بوجوب الدعاء فيه وفي "البحر" ثبت في "الصحيحين" أنه عليه الصلاة والسلام سجد في ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ [الانشقاق : 1] وفي هذه السورة وهي من العزائم عند علي كرم الله تعالى وجهه وكان مالك يسجد فيها في خاصة نفسه والله تعالى الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(39/823)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) ﴾

قرأ الجمهور : ﴿ اقرأ ﴾ بسكون الهمزة أمراً من القراءة .

وقرأ عاصم في رواية عنه بفتح الراء ، وكأنه قلب الهمزة ألفاً ثم حذفها للأمر .

والأمر بالقراءة يقتضي مقروءاً ، فالتقدير : اقرأ ما يوحى إليك ، أو ما نزل عليك ، أو ما أمرت بقراءته ، وقوله : ﴿ باسم رَبّكَ ﴾ متعلق بمحذوف هو حال ، أي : اقرأ ملتبساً باسم ربك ، أو مبتدئاً باسم ربك ، أو مفتتحاً ، ويجوز أن تكون الباء زائدة ، والتقدير : اقرأ اسم ربك كقول الشاعر :

سود المحاجر لا يقرأن بالسور . . . قاله أبو عبيدة .

وقال أيضاً : الاسم صلة ، أي : اذكر ربك .

وقيل الباء بمعنى على ، أي : اقرأ على اسم ربك ، يقال افعل كذا بسم الله ، وعلى اسم الله قاله الأخفش .

وقيل : الباء للاستعانة ، أي : مستعيناً باسم ربك ، ووصف الربّ بقوله : ﴿ الذى خَلَقَ ﴾ لتذكير النعمة لأن الخلق هو أعظم النعم ، وعليه يترتب سائر النعم .

قال الكلبي : يعني الخلائق .

﴿ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ﴾ يعني : بني آدم .

والعلقة الدم الجامد ، وإذا جرى فهو المسفوح .

وقال : ﴿ من علق ﴾ بجمع علق ؛ لأن المراد بالإنسان الجنس .

والمعنى : خلق جنس الإنسان من جنس العلق ، وإذا كان المراد بقوله : ﴿ الذى خَلَقَ ﴾ كل المخلوقات ، فيكون تخصيص الإنسان بالذكر تشريفاً له لما فيه من بديع الخلق ، وعجيب الصنع ، وإذا كان المراد بالذي خلق الذي خلق الإنسان فيكون الثاني تفسيراً للأول .

والنكتة ما في الإبهام ، ثم التفسير من التفات الذهن وتطلعه إلى معرفة ما أبهم أوّلاً ، ثم فسرّ ثانياً .

ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير، فقال: ﴿ اقرأ وَرَبُّكَ الأكرم ﴾ أي: افعل ما أمرت به من القراءة، وجملة: ﴿ وَرَبُّكَ الأكرم ﴾ مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به صلى الله عليه وسلم من قوله: " ما أنا بقارىء " يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ وهو أميّ.

(40/823)

فقيل له: اقرأ، وربك الذي أمرك بالقراءة هو الأكرم.

قال الكلبي: يعني الحليم عن جهل العباد، فلم يعجل بعقوبتهم.

وقيل: إنه أمره بالقراءة أوّلاً لنفسه، ثم أمره بالقراءة ثانياً للتبليغ، فلا يكون من باب التأكيد، والأوّل أولى.

﴿ الذى عَلَّمَ بالقلم ﴾ أي: علم الإنسان الخط بالقلم.

فكان بواسطة ذلك يقدر على أن يعلم كل مكتوب.

قال الزجاج: علم الإنسان الكتابة بالقلم.

قال قتادة: القلم نعمة من الله عزّ وجلّ عظيمة، لولا ذلك لم يقم دين، ولم يصلح عيش.

فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلاّ هو، وما دوّنت العلوم

، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأوّلين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلاّ بالكتابة ، ولولا هي ما استقامت أمور الدين ، ولا أمور الدنيا ، وسمي قلماً لأنه يقلم أي : يقطع .

﴿ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ هذه الجملة بدل اشتمال من التي قبلها ، أي : علمه بالقلم من الأمور الكلية والجزئية ما لم يعلم به منها .

قيل : المراد بالإنسان هنا آدم كما في قوله : ﴿ وَعَلَّمَ ءادَمَ الأسماء كُلَّهَا ﴾ [البقرة : 31] .

وقيل : الإنسان هنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والأولى حمل الإنسان على العموم ، والمعنى : أن من علمه الله سبحانه من هذا الجنس بواسطة القلم فقد علمه ما لم يعلم .

وقوله : ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وزجر لمن كفر نعم الله عليه بسبب طغيانه وإن لم يتقدم له ذكر .

ومعنى ﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى ﴾ أنه يجاوز الحد ، ويستكبر عل ربه .

وقيل : المراد بالإنسان هنا أبو جهل ، وهو المراد بهذا ، وما بعده إلى آخر السورة ، وأنه تأخر نزول هذا وما بعده عن الخمس الآيات المذكورة في أوّل هذه السورة .

وقيل : ﴿ كَلاَّ ﴾ هنا بمعنى حقاً قاله الجرجاني ، وعلل ذلك بأنه ليس قبله ولا بعده شيء يكون "كلا" ردّاً له ، وقوله : ﴿ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ علة ليطغى ، أي ليطغى أن رأى نفسه مستغنياً ، والرؤية هنا بمعنى العلم ، ولو كانت البصرية لامتنع الجمع بين الضميرين في فعلها لشيء واحد لأن ذلك من خواص باب علم ، ونحوه .

قال الفرّاء : لم يقل رأى نفسه كما قيل قتل نفسه لأن رأى من الأفعال التي تريد اسماً وخبراً نحو الظنّ والحسبان فلا يقتصر فيه على مفعول واحد ، والعرب تطرح النفس من هذا الجنس تقول : رأيتني وحسبتني ، ومتى تراك خارجاً ، ومتى تظنك خارجاً .

قيل : والمراد هنا أنه استغنى بالعشيرة والأنصار والأموال .

قرأ الجمهور : ﴿ أن رآه ﴾ بمد الهمزة .

وقرأ قنبل عن ابن كثير بقصرها .

قال مقاتل : كان أبو جهل إذا أصاب مالاً زاد في ثيابه ، ومركبه ، وطعامه ، وشرابه ، فذلك طغيانه .

وكذا قال الكلبي .

ثم هدد سبحانه وخوّف ، فقال : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرجعى ﴾ أي .

المرجع ، والرجعى والمرجع والرجوع مصادر .

يقال : رجع إليه مرجعاً ورجوعاً ورجعى .

وتقدّم الجار والمجرور للقصر ، أي : الرجعى إليه سبحانه لا إلى غيره .

﴿ أَرَأَيْتَ الذى ينهى * عَبْداً إِذَا صلى ﴾ قال المفسرون : الذي ينهي أبو جهل ، والمراد بالعبد محمد ، وفيه تقبيح لصنعه ، وتشنيع لفعله حتى كأنه بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية .

﴿ أَرَءيْتَ إِن كَانَ على الهدى ﴾ يعني : العبد المنهيّ إذا صلى ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ أَوْ أَمَرَ بالتقوى ﴾ أي : بالإخلاص والتوحيد ، والعمل الصالح الذي تتقي به النار .

﴿ أَرَءيْتَ إِن كَذَّبَ وتولى ﴾ يعني أبا جهل ، كذب بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتولى عن الإيمان .

(42/823)

وقوله : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ في الثلاثة المواضع بمعنى أخبرني ؛ لأن الرؤية لما كانت سبباً للإخبار عن المرئي أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستفهام عن متعلقها ، والخطاب لكل من يصلح له .

وقد ذكر هنا : ﴿ أرأيت ﴾ ثلاث مرات ، وصرح بعد الثالثة منها .

بجملة استفهامية ، فتكون في موضع المفعول الثاني لها ، ومفعولها الأوّل محذوف ، وهو ضمير يعود على ﴿ الذي ينهى ﴾ الواقع مفعولاً أوّل ل ﴿ أرأيت ﴾ الأولى ، ومفعول ﴿ أرأيت ﴾ الأولى الثاني محذوف ، وهو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد ﴿ أرأيت ﴾ الثانية .

وأما ﴿ أرأيت ﴾ الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أوّل ، ولا ثاني ، حذف الأوّل لدلالة مفعول ﴿ أرأيت ﴾ الثالثة عليه فقد حذف الثاني من الأولى ، والأول من الثالثة ، والاثنان من الثانية ، وليس طلب كل من رأيت للجملة الاستفهامية على سبيل التنازع ؛ لأنه يستدعي إضماراً ، والجمل لا تضمر ، إنما تضمر المفردات ، وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة ، وأما جواب الشرط المذكور مع ﴿ أرأيت ﴾ في الموضعين الآخرين .

فهو محذوف تقديره : إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يرى ﴾ ، وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني .

ومعنى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يرى ﴾ أي : يطلع على أحواله ، فيجازيه بها ، فكيف اجترأ على ما اجترأ عليه ؟ والاستفهام للتقريع والتوبيخ .

وقيل : ﴿ أرأيت ﴾ الأولى مفعولها الأوّل الموصول ، ومفعولها الثاني الشرطية الأولى بجوابها المحذوف المدلول عليه بالمذكور .

و﴿ أرأيت ﴾ في الموضعين تكرير للتأكيد .

وقيل كل واحدة من ﴿ أرأيت ﴾ بدل من الأولى .

و: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللهَ يرى ﴾ الخبر .

(43/823)

قوله ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للناهي ، واللام في قوله : ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ هي الموطئة للقسم ، أي : والله لئن لم ينته عما هو عليه ولم ينزجر ﴿ لَنَسْفَعاً بالناصية ﴾ السفع الجذب الشديد ، والمعنى : لنأخذنّ بناصيته ، ولنجرّنه إلى النار .

وهذا كقوله : ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصى والاقدام ﴾ [الرحمن : 41] ويقال سفعت الشيء : إذا قبضته وجذبته .

. ويقال : سفع بناصية فرسه .

قال الراغب : السفع الأخذ بسفعة الفرس ، أي : بسواد ناصيته ، وباعتبار السواد : قيل : به سفعة غضب اعتباراً بما يعلو من اللون الدخاني وجه من اشتدّ به الغضب ، وقيل للصقر أسفع لما فيه من لمع السواد ، وامرأة سفعاء اللون انتهى .

وقيل : هو مأخوذ من سفع النار والشمس : إذا غيرت وجهه إلى سواد .

ومنه قول الشاعر :

أثاقيّ سفعاً في معرّس مرجل . . . وقوله : ﴿ نَاصِيَةٍ ﴾ بدل من الناصية .

وإنما أبدل النكرة من المعرفة لوصفها بقوله : ﴿ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ وهذا على مذهب الكوفيين فإنهم لا يجيزون إبدال النكرة من المعرفة إلا شرط وصفها .

وأما على مذهب البصريين ، فيجوز إبدال النكرة من المعرفة ، وأنشدوا :

فلا وأبيك خير منك إني . . . ليؤذيني التحمحم والصهيل

قرأ الجمهور بجرّ : ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ والوجه ما ذكرنا .

وقرأ الكسائي في رواية عنه برفعها على إضمار مبتدأ ، أي : هي ناصية ، وقرأ أبو حيوة ، وابن أبي عبلة ، وزيد بن عليّ بنصبها على الذمّ .

قال مقاتل : أخبر عنه بأنه فاجر خاطىء ، فقال : ناصية كاذبة خاطئة ، تأويلها : صاحبها كاذب خاطىء .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ أي : أهل ناديه .

والنادي : المجلس الذي يجلس فيه القوم ، ويجتمعون فيه من الأهل والعشيرة .

والمعنى : ليدع عشيرته وأهله ليعينوه وينصروه ، ومنه قول الشاعر :

واستبّ بعدك يا كليب المجلس . . . أي : أهله .

قيل : إن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتهدّدني وأنا أكثر الوادي نادياً ؟ فنزلت : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزبانية ﴾ أي : الملائكة الغلاظ الشداد ، كذا قال الزجاج.

قال الكسائي ، والأخفش وعيسى بن عمر : واحدهم زابن .

وقال أبو عبيدة : زبنية .

وقيل : زباني .

وقيل : هو اسم للجمع لا واحد له من لفظه كعباديد وأبابيل .

وقال قتادة : هم الشرط في كلام العرب ، وأصل الزبن الدفع ، ومنه قول الشاعر :

ومستعجب مما يرى من أناتنا . . . ولو زبنته الحرب لم يترمرم

والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتدّ بطشه ، ومنه قول الشاعر :

مطاعيم في القصوى مطاعين في الوغى . . . زبانية غلب عظام حلومها

قرأ الجمهور : ﴿ سندع ﴾ بالنون ، ولم ترسم الواو ، كما في قوله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الداع ﴾ [القمر : 6] وقرأ ابن أبي عبلة : (سيدعى) على البناء للمفعول ، ورفع الزبانية على النيابة .

ثم كرّر الردع والزجر فقال : ﴿ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ ﴾ أي : لا تطعه فيما دعاك إليه من ترك

الصلاة : ﴿ واسجد ﴾ أي : صلّ لله غير مكترث به ، ولا مبال بنهيه : ﴿ واقترب ﴾ أي : تقرّب إليه سبحانه بالطاعة والعبادة .

وقيل المعنى : إذا سجدت اقترب من الله بالدعاء .

وقال زيد بن أسلم : واسجد أنت يا محمد ، واقترب أنت يا أبا جهل من النار .

والأوّل أولى .

والسجود هذا الظاهر أن المراد به الصلاة ، وقيل سجود التلاوة ، ويدلّ على هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من السجود عند تلاوة هذه الآية ، كما سيأتي إن شاء الله .

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وأبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن شداد قال : "أتى جبريل محمداً صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اقرأ .

فقال : وما أقرأ ؟ فضمه ثم قال : يا محمد اقرأ ، قال : وما أقرأ ؟ قال : ﴿ اقرأ باسم رَبّكَ الذى خَلَقَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ " .

وفي الصحيحين : وغيرهما من حديث عائشة فجاءه الملك ، فقال : اقرأ ، فقال : " قلت ما أنا بقارىء ، " قال : " فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني " فقال : اقرأ ،

فقلت : " ما أنا بقارئ ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني " فقال : اقرأ ، فقلت : " ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ منى الجهد " فقال : ﴿ اقرأ باسم ربّكَ الذى خلَقَ * خلَقَ الإنسان مِنْ علَقٍ * اقرأ وربُّكَ الأكرم * الذى علَّمَ بالقلم ﴾ الآية .

وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، والبخاري ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأنّ عنقه ، فبلغ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " لو فعل لأخذته الملائكة عياناً " وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي وصححه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي عنه قال : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلي ، فجاء أبو جهل فقال : ألم أنهك عن هذا ؟ إنك لتعلم أن ما بها رجل أكثر نادياً مني . فأنزل الله : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزبانية ﴾ فجاء النبيّ صلى الله عليه وسلم يصلي ، فقيل : ما يمنعك ؟ فقال : قد اسودّ ما بيني وبينه" .

قال ابن عباس : والله لو تحرّك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه .

وأخرج أحمد ، ومسلم ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم ، قال : واللات والعزّى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأنّ على رقبته ، ولأعفرن وجهه في التراب فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليطأنّ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلاّ وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيده ، فقيل له مالك ؟ فقال : إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً " قال : وأنزل الله : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّءاهُ استغنى ﴾ إلى آخر السورة .

يعني أبا جهل ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ يعني قومه .

﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ يعني الملائكة ، وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ الذى ينهى * عبداً إِذَا صلى ﴾ قال : أبو جهل بن هشام حين رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسلى على ظهره وهو ساجد لله عزّ وجلّ .

وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ لَنَسْفَعاً ﴾ قال : لنأخذن .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ قال : ناصره .

وقد قدّمنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يسجد في : ﴿ إِذَا السماء انشقت ﴾ [

الإنشقاق : 1] وفي : ﴿ اقرأ باسم ربّكَ الذى خَلَقَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 471.467 ﴾

(47/823)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بالناصية ﴾ .

أعقب الردع بالوعيد على فعله إذا لم يرتدع وينته عنه .

واللام موطئة للقسم ، وجملة "لنسفَعَنْ" جواب القسم ، وأما جواب الشرط فمحذوف دل عليه جواب القَسَم .

والسفْع : القبض الشديد بجَذْب .

والناصية مقدَّم شعر الرأس ، والأخذ من الناصية أخذ من لا يُترك له تَمَكُّن من الانفلات فهو كناية عن أخذه إلى العذاب ، وفيه إذلال لأنهم كانوا لا يقبضون على شعر رأس أحد إلاّ لضربه أو جرّه .

وأكدَ ذلك السفع بالباء المزيدة الداخلة على المفعول لتأكيد اللصوق .

والنون نون التوكيد الخفيفة التي يكثر دخولها في القسم المثبَت ، وكتبت في المصحف ألِفاً

رعياً للنطق لها في الوقف لأن أواخر الكِلم أكثر ما ترسم على مراعاة النطق في الوقف .

والتعريف في "الناصية" للعهد التقديري ، أي بناصيته ، أي ناصية الذي ينهى عبداً إذا صلى وهذه اللام هي التي يسميها نحاة الكوفة عوضاً عن المضاف إليه .

وهي تسمية حسنة وإن أباها البصريون فقدروا في مثله متعلّقاً لمدخول اللام .

و﴿ ناصية ﴾ بدل من الناصية وتنكيرها لاعتبار الجنس ، أي هي من جنس ناصية كاذبة خاطئة .

و﴿ خاطئة ﴾ اسم فاعل من خَطِىء من باب عَلِم ، إذا فعل خطيئَة ، أيْ ذنْباً ، ووصفُ الناصية بالكاذبة والخاطئة مجاز عقلي .

والمراد : كاذب صاحبُها خاطِىء صاحبها ، أي آثم .

ومُحَسِّن هذا المجاز أنّ فيه تخييلاً بأن الكذب والخِطءَ بَاديان من ناصيته فكانت الناصية جديرة بالسفع .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19) ﴾

تفريع على الوعد .

ومناسبة ذلك ما رواه الترمذي والنسائي عن ابن عباس قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام فمر به أبو جهل فقال : يا محمد ألم أنهك عن هذا ، وتوعَّده ، فأغلظ له رسول الله ، فقال أبو جهل : يا محمد بأي شيء تهددني ؟ أما والله إني لأكثر أهل هذا الوادي نادياً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فليدع ناديه سندع الزبانية ﴾ يعني أن أبا جهل أراد بقوله ذلك تهديدَ النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يغري عليه أهل نادِيه .

والنادي : اسم للمكان الذي يَجتمع فيه القوم .

يقال : ندَا القومُ نَدْواً ، إذ اجتَمعوا .

والنَّدوة (بفتح النون) الجماعة ، ويقال : نَادٍ ونَدِيّ ، ولا يطلق هذا الاسمُ على المكان إلا إذا كان القوم مجتمعين فيه فإذا تفرقوا عنه فليس بنادٍ ، ويقال النادي لمجلس القوم نهاراً ، فأما مجلسهم في الليل فيسمى المسامر قال تعالى : ﴿ سامراً تهجرون ﴾ [المؤمنون : 67] .

واتخذ قُصي لندوة قريش داراً تسمى دار الندوة حَوْل المسجد الحرام وجعلها لتشاورهم ومهماتهم وفيها يُعقد على الأزواج ، وفيها تدرَّع الجواري ، أي يلبسونهن الدروع ، أي الأقمصة إعلاناً بأنهن قاربْن سِن البلوغ ، وهذه الدار كانت اشترتها الخيزران زوجة المنصور أبي جعفر وأدخلتْها في ساحة المسجد الحرام ، وأُدخل بعضها في المسجد الحرام في زيادة عبد الملك بن مروان وبعضها في زيادة أبي جعفر المنصور ، فبقيت بقيتُها بيتاً

مستقلاً ونزل به المهدي سنة 160 في مدة خلافة المعتضد بالله العباسي لما زاد في المسجد الحرام جعل مكان دار الندوة مسجداً متصلاً بالمسجد الحرام فاستمر كذلك ثم هدم وأدخلت مساحته في مساحة المسجد الحرام في الزيادة التي زادها الملك سعود بن عبد العزيز ملك الحجاز ونجد سنة 1379 .

ويطلق النادي على الذين ينتدون فيه وهو معنى قول أبي جهل : إني لأكثر أهل هذا الوادي نَادياً ، أي نَاساً يجلسون إليّ يريد أنه رئيس يصمد إليه ، وهو المعني هنا .

(49/823)

وإطلاق النادي على أهله نظير إطلاق القرية على أهلها في قوله تعالى : ﴿ واسأل القرية ﴾ [يوسف : 82] ونظير إطلاق المجلس على أهله في قول ذي الرمة :

لهم مجلسٌ صُهْب السِّبال أذلةٌ

سَوَاسة أحرارُها وعبيدُها . . .

وإطلاق المقامة على أهلها في قول زهير :

وفيهم مقامات حسان وجوههم

وأندية ينتابها القول والفعل . . .

أي أصحاب مقامات حسان وجوههم .

وإطلاق المجمع على أهله في قول لبيد :

إنّا إذا ألتقت المجامع لم يزل

منّا لِزاز عظيمة جسامها . . .

الأبيات الأربعة .

ولام الأمر في ﴿ فليدع ناديه ﴾ للتعجيز لأن أبا جهل هدّد النبي صلى الله عليه وسلم بكثرة أنصاره وهم أهل ناديه فردّ الله عليه بأن أمره بدعوة ناديه فإنه إن دعاهم ليسطُوا على النبي صلى الله عليه وسلم دعا الله ملائكة فأهلكوه .

وهذه الآية معجزة خاصة من معجزات القرآن فإنه تحدى أبا جهل بهذا وقد سمع أبو جهل القرآن وسمعه أنصاره فلم يقدم أحد منهم على السطو على الرسول صلى الله عليه وسلم مع أن الكلام يلهب حميته .

وإضافة النادي إلى ضميره لأنه رئيسهم ويجتمعون إليه قالت أعرابية : "سيدُ ناديه ، وَثِمَالُ عافيهْ" .

وقوله : ﴿ سندع الزبانية ﴾ جواب الأمر التعجيزي ، أي فإن دعا نادَيه دعوْنا لهم الزبانية ففعل ﴿ سندع ﴾ مجزوم في جواب الأمر ، ولذلك كتب في المصحف بدون واو وحرف الاستقبال لتأكيد الفعل .

والزبانية : بفتح الزاي وتخفيف التحتية جمع زباني بفتح الزاي وبتحتية مشددة ، أو جمع زِبْنيَة بكسر الزاي فموحدة ساكنة فنون مكسورة فتحتية مخففة ، أو جمع زِبْنِيّ بكسر فسكون فتحتية مشددة .

وقيل : هو اسم جمع لا واحد له من لفظه مثل أبابيل وعَبَاديد .

وهذا الاسم مشتق من الزبن وهو الدفع بشِدة يقال : ناقة زَبُون إذا كانت تركُل من يحلبُها ، وحرب زبون يدفع بعضها بعضاً بتكرر القتال .

فالزبانية الذين يزبنون الناس ، أي يدفعونهم بشدة .

(50/823)

والمراد بهم ملائكة العذاب ويطلق الزبانية على أعوان الشُّرطة .

و﴿ كَلاّ ﴾ ردع لإبطال ما تضمنه قوله : ﴿ فليدع ناديه ﴾ ، أي وليس بفاعل ، وهذا تأكيد للتحدّي والتعجيز .

وكتب ﴿ سندع ﴾ في المصحف بدون واو بعد العين مراعاة لحالة الوصل ، لأنها ليست محل وقف ولا فاصلة .

﴿ كَلاّ لا تُطِعْهُ واسجد ﴾ .

هذا فذلكة للكلام المتقدم من قوله : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ [العلق : 9 ، 10] ، أي لا تترك صلاتك في المسجد الحرام ولا تخش منه .

وأطلقت الطاعة على الحذر الباعث على الطاعة على طريق المجاز المرسل ، والمعنى : لا تخفه ولا تحذره فإنه لا يَضرك .

وأكد قوله : ﴿ لا تطعه ﴾ بجملة ﴿ واسجد ﴾ اهتماماً بالصلاة .

وعطف عليه ﴿ واقترب ﴾ للتنويه بما في الصلاة من مرضاة الله تعالى بحيث جعل المصلّي مقترباً من الله تعالى .

والاقتراب : افتعال من القرب ، عبر بصيغة الافتعال لما فيها من معنى التكلف والتطلب ، أي اجتهد في القرب إلى الله بالصلاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(51/823)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى: ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ الآية ،

أسند الكذب في هذه الآية الكريمة إلى ناصية هذا الكافر وهي مقدّم شعر رأسه مع أنه

أسنده في آيات كثيرة إلى غير الناصية كقوله: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ والجواب ظاهر: وهو أنه هنا أطلق الناصية وأراد صاحبها على عادة العرب في إطلاق البعض وإرادة الكل, وهو كثير في كلام العرب وفي القرآن ، فمن أمثلته في القرآن هذه الآية الكريمة ، وقوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ , وقوله: ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ يعني بما قدمتم ، ومن ذلك تسمية العرب الرقيب عينا . وقوله: ﴿ خَاطِئَةٍ ﴾ لا يعارضه قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ﴾ ؛ لأنّ الخاطئ هو فاعل الخطيئة أو الخطء بكسر الخاء ، وكلاهما الذنب كما بيّنه قوله تعالى: ﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ , وقوله: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾ فالخاطئ المذنب عمدا ، والمخطئ من صدر منه الفعل من غير قصد فهو معذور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 339 ﴾

(52/823)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : أول ما نزل من القرآن بمكة ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس وابن الأنباري في المصاحف والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن أبي موسى الأشعري قال : كانت ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ أول سورة أنزلت على محمد .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن شهاب : حدثني محمد بن عباد بن جعفر المخزومي أنه سمع بعض علمائهم يقول : كان أول ما أنزل الله على نبيه ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ إلى ﴿ ما لم يعلم ﴾ فقالوا : هذا صدرها الذي أنزل يوم حراء ، ثم أنزل الله آخرها بعد ذلك ما شاء الله .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وصححه عن عائشة قالت : أول ما نزل من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ .

(53/823)

وأخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه والبيهقي من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم

المؤمنين أنها قالت : " أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال ﴿ اقرأ ﴾ قال : قلت : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ﴾ الآية ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني . فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى – ابن عم خديجة – وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له روقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله

صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى ، يا ليتني أكون فيها جذعاً ، يا ليتني أكون فيها حياً إذ يخرجك قومك . فقال

(54/823)

رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مخرجي هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي "

قال ابن شهاب : وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : " بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه ، فرجعت ، فقلت : زملوني . فأنزل الله ﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ﴾ [المدثر : 1 ، 2 ، 3 ، 4 ، 5] فحمي الوحي وتتابع " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال : أول سورة نزلت على محمد ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال: أول ما نزل من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ثم (ن والقلم).

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: أول شيء أنزل من القرآن خمس آيات ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ إلى قوله: ﴿ ما لم يعلم ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبيد بن عمير قال: أول ما نزل من القرآن ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ ثم (ن).

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن عائشة قالت: كان أول ما نزل عليه بعد ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ (ن والقلم) و(يا أيها المدثر) (والضحى).

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن الزهري وعمرو بن دينار أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بحراء إذا أتاه ملك بنمط من ديباج فيه مكتوب ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ إلى ﴿ ما لم يعلم ﴾.

وأخرج الحاكم من طريق عمرو بن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بحراء إذا أتاه ملك بنمط من ديباج فيه مكتوب ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ إلى ﴿ ما لم يعلم ﴾.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو نعيم في الدلائل عن عبد الله بن شداد قال : " أتى جبريل محمداً صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اقرأ . قال : وما أقرأ ؟ فضمه ، ثم قال يا محمد : اقرأ ؟ قال : وما أقرأ ؟ قال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ حتى بلغ ﴿ ما لم يعلم ﴾ فجاء إلى خديجة فقال : يا خديجة ما أراه إلا قد عرض لي . قالت : كلا والله ما كان ربك يفعل ذلك بك ، وما أتيت فاحشة قط . فأتت خديجة ورقة ، فأخبرته الخبر . قال : لئن كنت صادقة إن زوجك لنبي ، وليلقين من أمته شدة ، ولئن أدركته لأؤمنن به . قال : ثم أبطأ عليه جبريل فقالت خديجة : ما أرى ربك إلا قد قلاك . فأنزل الله ﴿ والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى ﴾ " .

(56/823)

وأخرج ابن مردويه عن عائشة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتكف هو وخديجة شهراً فوافق ذلك رمضان فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع السلام عليكم . قالت : فظننت أنه فجأة الجن . فقال : ابشروا فإن السلام خير ، ثم رأى يوماً آخر جبريل على الشمس له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب . قال : فهبت منه فانطلق يريد أهله فإذا هو بجبريل بينه وبين الباب . قال : فكلمني حتى أنست منه ثم وعدني موعداً فجئت

لموعده واحتبس عليّ جبريل فلما أراد أن يرجع إذا هو به وبميكائيل ، فهبط جبريل إلى الأرض وميكائيل بين السماء والأرض ، فأخذني جبريل فصلقني لحلاوة القفا وشق عن بطني فأخرج منه ما شاء الله ثم غسله في طست من ذهب ثم أعاد فيه ثم كفأني كما يكفأ الإِناء ، ثم ختم في ظهري حتى وجدت مس الخاتم ثم قال لي : اقرأ باسم ربك الذي خلق ولم أقرأ كتاباً قط فأخذ بحلقي حتى أجهشت بالبكاء ، ثم قال لي : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ إلى قوله : ﴿ ما لم يعلم ﴾ قال : فما نسيت شيئاً بعده . ثم وزنني جبريل برجل فوازنته ، ثم وزنني بأخر فوازنته ، ثم وزنني بمائة . فقال ميكائيل : تبعته أمته ورب الكعبة . قال : ثم جئت إلى منزلي فلم يلقني حجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، حتى دخلت على خديجة ، فقالت : السلام عليك يا رسول الله " .

(57/823)

وأخرج الطبراني عن ثوبان قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم أعز الإِسلام بعمر بن الخطاب . وقد ضرب أخته أول الليل وهي تقرأ ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ حتى ظن أنه قتلها ، ثم قام من السحر فسمع صوتها تقرأ ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فقال : والله ما هذا بشعر ولا همهمة . فذهب حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم

فوجد بلالاً على الباب ، فدفع الباب . فقال بلال : من هذا ؟ فقال عمر بن الخطاب : فقال : حتى أستأذن لك على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال بلال : يا رسول الله عمر بالباب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن يرد الله بعمر خيراً أدخله في الدين . فقال لبلال : افتح ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بضبعيه فهزه فقال : ما الذي تريد ؟ وما الذي جئت له ؟ فقال له عمر : اعرض عليّ الذي تدعو إليه . قال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، فأسلم عمر مكانه وقال : اخرج ".

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ الذي علم بالقلم ﴾ قال : القلم نعمة من الله عظيمة ، لولا القلم لم يقم دين ، ولم يصلح عيش وفي قوله : ﴿ علم الإِنسان ما لم يعلم ﴾ قال : الخط .

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : منهومان لا يشبعان : صاحب علم وصاحب دنيا ، ولا يستويان ، فأما صاحب العلم فيزداد رضا الرحمن ثم قرأ ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر : 28] وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان ثم قرأ ﴿ إن الإِنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ والله أعلم .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد والبخاري وابن جرير وابن مردويه وابن المنذر وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل " عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند

الكعبة لأطأن عنقه . فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : " لو فعل لأخذته الملائكة عياناً " " .

(58/823)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه ، وابن المنذر وابن جرير والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ، فجاء أبو جهل فقال : ألم أنهك عن هذا ؟ ألم أنهك عن هذا ؟ فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فزبره ، فقال أبو جهل : إنك لتعلم ما بها رجل أكثر نادياً مني ، فأنزل الله ﴿ فليدع ناديه سندع الزبانية ﴾ قال ابن عباس : والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله .

وأخرج ابن جرير والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن عاد محمد يصلي عند المقام لأقتلنه ، فأنزل الله ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ حتى بلغ هذه الآية ﴿ لنسفعن بالناصية ناصية كاذبة خاطئة فليدع ناديه سندع الزبانية ﴾ فجاء النبي صلى الله عليه وسلم يصلي فقيل : ما يمنعك ؟ فقال : قد اسودّ ما بيني وبينه . قال ابن عباس : والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه .

وأخرج البزار والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن العباس بن

عبد المطلب قال : كنت يوماً في المسجد فأقبل أبو جهل فقال : إن لله عليّ إن رأيت محمداً ساجداً أن أطأ على رقبته . فخرجت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى دخلت عليه ، فأخبرته بقول أبي جهل . فخرج غضبان حتى جاء المسجد ، فعجل أن يدخل الباب فاقتحم الحائط . فقلت هذا يوم شرّ فا تزرت ثم تبعته ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ فلما بلغ شأن أبي جهل ﴿ كلا إن الإِنسان ليطغى ﴾ قال إنسان لأبي جهل : يا أبا الحكم هذا محمد .

فقال أبو جهل : ألا ترون ما أرى ؟ والله لقد سد أفق السماء عليّ . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر السورة سجد .

(59/823)

وأخرج أحمد ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي " عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه إلا بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . فقال : واللات والعزى لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه في التراب . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليطأ على رقبته . قال : فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، فقيل له : ما لك ؟ قال : إن بيني وبينه خندقاً من نار

وهؤلاء أجنحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً " قال : وأنزل الله ﴿ كلا إن الإِنسان ليطغى ﴾ إلى آخر السورة يعني أبا جهل ﴿ فليدع ناديه ﴾ يعني قومه ﴿ سندع الزبانية ﴾ يعني الملائكة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ قال أبو جهل بن هشام : حيث رمى رسول الله بالسلا على ظهره وهو ساجد لله عز وجل .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ قال : نزلت في عدوّ الله أبي جهل ، وذلك أنه قال : لئن رأيت محمداً يصلي لأطأن على عنقه ، فأنزل الله ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ﴾ قال : محمداً ﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾ يعني بذلك أبا جهل ﴿ فليدع ناديه ﴾ قال : قومه وحيه ﴿ سندع الزبانية ﴾ قال : الزبانية في كلام العرب الشرط .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ قال : أبو جهل نهى محمداً إذا صلى ﴿ فليدع ناديه ﴾ قال : عشيرته ﴿ سندع الزبانية ﴾ قال : الملائكة .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ لنسفعن ﴾ قال : لنأخذن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة مثله .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس وابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الحرث قال : الزبانية أرجلهم في الأرض ورؤوسهم في السماء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم قال ﴿ واسجد ﴾ أنت يا محمد ﴿ واقترب ﴾ أنت يا أبا جهل يتوعده .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن المنذر عن مجاهد قال : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ألا تسمعونه يقول ﴿ واسجد واقترب ﴾ .

وأخرج ابن سعد عن عثمان بن أبي العاصي قال : آخر كلام كلمني به رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ استعملني على الطائف أن قال : " خفف الصلاة عن الناس حتى وقت اقرأ باسم ربك الذي خلق وأشباهها من القرآن " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 566.560 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تبارك وتعالى : ﴿ اقرأ باسم ربّكَ الذى خَلَقَ ﴾

يقول : اقرأ القرآن بأمر ربك ، وهذه أول سورة نزلت من القرآن ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما بلغ أربعين سنة ، كان يسمع صوتاً يناديه يا محمد ، ولا يرى شخصه ، وكان يخشى على نفسه الجنون ، حتى رأى جبريل عليه السلام يوماً في صورته ، فغشي عليه ، فحمل إلى بيت خديجة .

فقالوا لها تزوجت مجنوناً ، فلما أفاق أخبر بذلك خديجة ، فجاءت إلى ورقة بن نوفل ، وكان يقرأ الإنجيل ويفسره .

ثم جاءت إلى عداس ، وكان راهباً ، فقال لها : إن له نبأ وشأناً ، يظهر أمره .

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم يوماً إلى الوادي ، فجاء جبريل عليه السلام بهذه السورة ، وأمره بأن يتوضأ ويصلي ركعتين ، فلما رجع أعلم بذلك خديجة ، وعلمها الصلاة وذلك قوله : ﴿ > يا أَيُّهَا الذين ءَامَنُواْ قوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا الناس والحجارة عَلَيْهَا ملائكة غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ الله مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6] يعني : علموهم وأدبوهم .

وروى معمر عن الزهري أنه قال : أخبرني عروة عن عائشة ، رضي الله عنها ، أنها قالت :

أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي ، الرؤيا الصالحة الصادقة ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

ثم حُبِّب الخلاءُ إليه .

يعني : العزلة وكان يأتي حراء ، ويمكث هناك ، ثم يرجع إلى خديجة .

فجاءه الملك ، وهو على حراء فقال له : اقرأ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني ثانية ، حتى بلغ مني الجهد .

ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال : ﴿ اقرأ باسم ربّكَ الذى خَلَقَ خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ اقرأ وَربُّكَ الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فرجع ترجف بوادره ، وقد أخذته الرّعدة ، حتى دخل على خديجة ، فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فذلك قوله : ﴿ اقرأ باسم ربّكَ ﴾ يعني : اقرأ بعون الله ووحيه إليك ، ويقال معناه ﴿ اقرأ باسم ربّكَ ﴾ كقوله : ﴿ واذكر ربَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف : 24] يعني : اذكر ربك الذي خلق الخلائق .

ثم قال عز وجل : ﴿ خَلَقَ الإِنسانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ يعني : ابن آدم من دم عبيط ، وقال في آية أخرى : ﴿ <أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [المرسلات : 20] وقال في آية أخرى : ﴿ < يا أَيُّهَا الناس إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ البعث فَإِنَّا خلقناكم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الارحام مَا نَشَآءُ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إلى أَرْذَلِ العمر لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأرض هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المآء اهتزت وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾

[الحج : 5] وهذه الآيات يصدّق بعضها بعضاً ، لأن أول الخلق من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة .

كما بين الجملة في موضع آخر .

(63/823)

ثم قال عز وجل : ﴿ اقرأ وَرَبُّكَ الأكرم ﴾ يعني : اقرأ يا محمد صلى الله عليه وسلم وربك يعينك ويفهمك ، وإن كنت غير قارىء ﴿ الأكرم ﴾ يعني : ربك المتجاوز عن جهل العباد ، ويقال : ﴿ اقرأ ﴾ وقد تم الكلام ، ثم استأنف فقال ﴿ وَرَبُّكَ الأكرم ﴾ يعني : الكريم

ويقال الأكرم يعني: المكرم الذي يكرم من يشاء بالإسلام.

ثم قال: ﴿ الذى عَلَّمَكُمُ بالقلم ﴾ علم الكتابة، والخط بالقلم ﴿ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ يعني: علم آدم عليه السلام أسماء كل شيء، يعني: ألهمه ويقال ﴿ عَلَّمَ الإنسان ﴾ يعني: محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ يعني: القرآن كقوله ﴿ >وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ولكن جعلناه نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لتهدى إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: 52] ويقال: علم الإنسان ما لم يعلم، يعني: علم بني آدم ما لم يعلموا كقوله: ﴿ >والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أمهاتكم لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والابصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: 78].

ثم قال عز وجل: ﴿ كَلاَّ ﴾ يعني: حقاً ﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى ﴾ يعني: الكافر ليعصي الله.

ويقال: يرفع منزلة نفسه ﴿ أَن رَّءاهُ استغنى ﴾ يعني: إن رأى نفسه مستغنياً عن الله تعالى، مثل أبي جهل وأصحابه، ومثل فرعون حيث ادعى الربوبية.

قال أبو الليث رحمه الله: حدثنا أبو جعفر بن عوف، عن الأعمش، عن القاسم قال: قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: منهومان لا يشبعان، طالب العلم وطالب الدنيا، ولا

يستويان أما طالب العلم ، فيزداد رضا الله وأما طالب الدنيا ، فيزداد في الطغيان ثم قال :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ .

(64/823)

ثم قال : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴾ يعني : المرجع إلى الله تعالى يوم القيامة ، ويقال : معناه رجوع الخلائق كلهم بعد الموت إلى الله تعالى ، فيحاسبون ويجازون ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير .

قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان إذا صلى في المسجد ، رفع صوته بالقراءة ، فلغطوا ورموه بالحجارة ، فخفض صوته في الصلاتين الظهر والعصر ، إذا حضروا .

وأما صلاة المغرب ، اشتغلوا بالعشاء وصلاة العشاء ناموا ، وصلاة الفجر لم يقوموا ، فرفع في هذا ، فصار سنة إلى اليوم فنزل ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ ويقال : إن أبا جهل بن هشام قال : لئن رأيت محمداً صلى الله عليه وسلم يصلي ، لأطأن عنقه فنزل ﴿ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾ يعني : ألم تر أن هذا الكافر ، ينهى عبد الله عن الصلاة ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم قال: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴾ يعني: محمداً صلى الله عليه وسلم، إن كان على الإسلام ﴿ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ يعني: التوحيد.

ثم قال: ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ يعني: ﴿ أَن كَذَّبَ ﴾ بالتوحيد ﴿ وتولى ﴾ عن الإسلام ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ أفعاله فيجازيه، وهذا جواب لجميع ما تقدم من قوله ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ ويقال في الآية إضمار وهو قوله: ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى ﴾ يعني: بهذا الذي يصنع، ويؤذي محمداً صلى الله عليه وسلم، أليس هو على ضلالة، أليس هو قد نهى عن الصلاة والخيرات ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴾ يعني: أرأيت أيها الناهي، إن كان المصلي على الهدى ﴿ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ يعني: بالتوحيد، واجتناب المعاصي، فينهاه عن ذلك.

(65/823)

ثم قال: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ يعني: حقاً لئن لم يمتنع أبو جهل، عن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتب، ولم يسلم قبل الموت ﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾ يعني: لنأخذ به بالناصية أخذاً شديداً، يعني: يؤخذ بنواصيه يوم القيامة، ويطوى مع قدميه، ويطرح في النار.

فنزلت الآية في شأن أبي جهل، وهي عظة لجميع الناس، وتهديد لمن يمنع عن الخير، وعن الطاعة.

ثم قال عز وجل: ﴿ نَاصِيَةٍ كاذبة خَاطِئَةٍ ﴾ جعل الكاذبة صفة الناصية، وإنما أراد صاحب الناصية، يعني: ناصية كاذبة على الله تعالى، خاطئة يعني: مشركة.

وقال مجاهد: الذي يجحد، ويأكل رزق الله تعالى، ويعبد غيره.

ثم قال عز وجل: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ يعني: قل يا محمد صلى الله عليه وسلم، فليدع أهل مجلسه، وأصحابه الكفرة حتى ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ يعني: الملائكة، هم ملائكة العذاب، غلاظ شداد، والزبانية أخذ من الزَّبن، وهو الدفع وإنما سمّوا الزبانية، لأنهم يدفعون الكفار إلى النار.

ويقال: إنما سموا زبانية، لأنهم يعملون بأرجلهم، كما يعملون بأيديهم.

وروي في الخبر، أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ بهذه السورة، وبلغ إلى قوله لنسفعاً بالناصية، قال أبو جهل: أنا أدعو قومي، حتى يمنعوا عني ربك.

قال الله تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ فلما سمع ذكر الزبانية، رجع فزعاً.

فقيل له: خشيت منه، قال: ولكن رأيت عنده فارساً فهددني بالزبانية، فلا أدري ما الزبانية، ومال إلى الفارس، فخشيت أن يأكلني.

وروى عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، هدد أبا جهل فقال: لِمَ

تهددني ؟ فوالله علمتَ أني أكثر أهل الوادي نادياً ، لئن دعوتُ ، يعني : أهل مجلسي منعوني عن ربك ، فنزل ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : لو دعا ناديه ، أخذته الزبانية .

(66/823)

ثم قال : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ ﴾ يعني : حقاً لا تطعه في ترك الصلاة يا محمد ﴿ واسجد ﴾ يعني : صل لله تبارك وتعالى ﴿ واقترب ﴾ يعني : صل واقترب إلى ربك ، بالأعمال الصالحة .

وروى ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، ألا يرى إلى قوله ﴿ واسجد واقترب ﴾ يعني : اقترب إلى ربك بالسجود ، واعلم أن السجود أربعة أحرف ، السين سرعة المطيعين والجيم جهد العابدين والدال دوام المجتهدين والهاء هداية العارفين ويقال السين سرور العارفين ، الجيم جمال العابدين ، والدال دولة المطيعين ، والهاء هبة الصديقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 573 . 576 ﴾

(67/823)

وقال الثعلبى :

سورة العلق

﴿ اقرأ باسم ربّكَ الذي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ﴾

أي الدم ، واحدتها علقة ، وإنما جمع ولفظ الإنسان واحد ، لأنه في معنى الجمع ، وهذه أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن ، وأول ما نزل منها خمس آيات من أولها إلى قوله ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، وعلى هذا أكثر العلماء .

أخبرنا محمد بن عبد الله بن حمدون وعبد الله بن حامد قال : أخبرنا ابن الشرقي قال : حدّثنا محمد بن يحيى قال : حدّثنا عبدالرزاق ، عن معمر ، عن الزهري قال : أخبرني عروة عن عائشة أنها قالت : " أوّل ما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبّب [الله] إليه الخلاء ، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد [في] الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزوده بمثلها ، حتى فجأه الحق ، وهو في غار حراء .

قال : فجاءه الملك وقال : اقرأ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقلت له : ما أنا بقارئ قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ فقلت : ما أنا

بقاري ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربّك الذي خلق ، حتى بلغ ، ما لم يعلم " .

فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : زمّلوني زمّلوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال : " يا خديجة مالي ؟ " وأخبرها الخبر وقال : قد خشيت عليّ ؟ قالت له : كلاّ ابشر ، فوالله لا يحزنك الله ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتُقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

(68/823)

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي بن قصي ، وهو ابن عم خديجة ، وكان امرأً تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت خديجة : أي ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة بن نوفل : يا بن أخي ما ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذي أُنزل على موسى ، يا ليتني فيها جذع ، ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أومخرجي هم ؟ " ، فقال ورقة : نعم لم يأت رجل قط بما جئتَ به إلاّ عُودي وأُوذيَ ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزّراً ، ثم لم ينشب

ورقة ان توفي وفتر الوحي فترة ، حتى حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً كي يتردّى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلّما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منها تبدّى له جبرائيل (عليه السلام) فقال : يا محمد إنك رسول الله حقاً ، فيسكن بذلك جأشه وتقر نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا بمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تبدّى له جبرائيل فقال له مثل ذلك " .

قال الزهري : أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن ، عن جابر بن عبد الله قال : " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يحدّث عن فترة الوحي فقال في حديثه : " فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء فرفعت رأسي ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسيّ بين السماء والأرض ، فجثيت منه رعباً ، فرجعت فقلت : زمّلوني ، زمّلوني ، فدثّروني "

وأنزل الله سبحانه ﴿ يا أيها المدثر ﴾ [المدثر : 1] إلى قوله سبحانه ﴿ والرجز فاهجر ﴾ [المدثر : 5] . قبل : أن تفرض للصلاة ، وهي الأوثان ، ثم كان ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن بعد اقرأ والمدثر ، ﴿ ن والقلم ﴾ [القلم : 1] إلى قوله : ﴿ وَإِنَّكَ لعلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : 4] ، ثم ﴿ والضحى ﴾ [الضحى : 1] .

أخبرني عقيل أن أبا الفرج أخبرهم ، عن ابن جرير قال : حدّثنا ابن أبي الشوارب قال : حدّثنا عبد الواحد قال : حدّثنا سليمان الشيباني قال : حدّثنا عبد الله بن شداد قال : "نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ ﴾ ، ثم أبطأ عليه جبرائيل ، فقالت له خديجة : ما أرى إلاّ قد قلاك ، فأنزل الله سبحانه ﴿ والضحى * والليل إذا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 1-3] " .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا مكي قال : حدّثنا عبد الرحمن بن بشير قال : حدّثنا سفيان ، عن محمد بن إسحاق ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : إن أول سورة نزلت ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ ﴾ .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن جعفر قال : حدّثنا علي بن حرب قال : حدّثنا أبو عامر العقدي ، عن قرّه بن خالد ، عن أبي رجاء العطاردي قال : كان أبو موسى يُقرئُنا القرآن في هذا المسجد فنقعد له حلقاً حلقاً ، كأني أنظرُ إليه الآن في ثوبين أبيضين ، فعنه أخذتُ هذه السورة : ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ الذي خَلَقَ ﴾ .

وقال : كانت أول سورة نزلت على رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فاتحة الكتاب .

أخبرنا محمد بن حمدويه وعبد اللّه بن حامد قالا : حدّثنا محمد قال : حدّثنا أحمد بن عبد الجبار قال : حدّثنا يونس بن بكير عن يونس بن عمرو عن أبيه عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل "أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : "إني إذا خلوت وحدي

سمعتُ نداءً وقد واللّه خشيتُ أن يكون هذا أمراً " .

فقالت : معاذ اللّه ، ما كان اللّه عزّ وجلّ ليفعل بك ذاك ، فواللّه إنّك لتؤدّي الأمانة وتصل الرحم وتصدّق الحديث .

(70/823)

فلمّا دخل أبو بكر رضي الله عنه وليس رسول اللّه صلى الله عليه وسلم [في الدار] ثم ذكرت خديجة له وقالت : يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة بن نوفل ، فلمّا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده وقال : انطلق بنا إلى ورقة ، فقال : " من أخبرك ؟ " فقال : خديجة . فانطلقا إليه فقصّ عليه فقال : " إذا خلوت وحدي سمعت نداءً خلفي : يا محمد يا محمد فأنطلق هارباً في الأرض " .

فقال له : لا تفعل ، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني فأخبرني ، فلمّا خلا ناداه يا محمد قل : ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ * الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 1-2] حتّى بلغ ﴿ وَلاَ الضاآلين ﴾ [الفاتحة : 7] قل : لا إله إلاّ اللّه ، فأتى ورقة فذكر ذلك له ، فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر فأنا أشهد أنّك الذي بشّر به ابن مريم ، وأنّك على مثل ناموس موسى ، وأنّك نبي مرسل ، وأنّك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ، ولئن أدركني ذلك

لأجاهدنّ معك، فلمّا توفي ورقة قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: "لقد رأيت القس في الجنة، عليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدّقني"

يعني ورقة، قالوا: وقال ورقة:

فإن يك حقاً يا خديجة فاعلمي ... حديثك إيّانا فأحمد مرسلُ

وجبريل يأتيه وميكال معْهما ... من اللّه وحيٌ يشرح الصدر منزل

يفوز به من فاز عزٌّ لدينه ... ويشقى به الغاوي الشقيّ المضلل

فريقان منهم فرقة في جنانه ... وأُخرى بأغلال الجحيم تغلغل

﴿ اقرأ وَرَبُّكَ الأكرم ﴾ قال الكلبي: يعني الحليم عن جهل العبادة ولا يعجل عليهم بالعقوبة

﴿ الذى عَلَّمَ بالقلم ﴾ يعني الخط والكتاب.

(71/823)

أخبرني ابن فنجويه قال: حدّثنا ابن شيبة قال: حدّثنا ابن ماهان قال: حدّثنا محمد بن أيوب بن هشام المزني قال: حدّثنا أبو الحسن عاصم بن علي بن عاصم وعبد اللّه بن عاصم الجماني قالا: حدّثنا محمد بن راشد عن مسلم بن موسى قال: أخبرني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن عبد اللّه بن عمر بن العاص قال: "قلت: يا نبي اللّه أكتب ما

أسمع منك من الحديث ؟ قال : " نعم ، فاكتب فإنّ اللّه علّم بالقلم " .

﴿ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ من البيان والعمل ، قال قتادة : العلم نعمة من اللّه ، لولا العلم لم يقم دين ولم يصلح عيش ﴿ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ من أنواع الهدى والبيان . وقيل : علّم آدم الأسماء كلّها ، وقيل : الإنسان ها هنا محمد صلى الله عليه وسلم بيانه ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ [النساء : 113] .

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى ﴾ ليتجاوز حدّه ويستكبر على ربّه ﴿ أَن رَّآهُ استغنى ﴾ قال الكلبي : يرتفع من منزلة إلى منزلة في اللباس والطعام وغيرهما ، وكان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يقول : " أعوذ بك من فقر يُنسي ومن غنى يُطغي " .

﴿ إِنَّ إلى رَبِّكَ الرجعى ﴾ المرجع في الآخرة ﴿ أَرَأَيْتَ الذي ينهى ﴾ ﴿ عَبْداً إِذَا صلى ﴾ نزلت في أبي جهل - لعنه الله - نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الصلاة حتى فرضت عليه .

أخبرنا عبد اللّه بن حامد فقال : أخبرنا أحمد بن عبد اللّه قال : حدّثنا محمد بن عبد اللّه ابن يعقوب بن إبراهيم الدورقي قال : حدّثنا معمر بن سليمان عن أبيه قال : حدّثنا نعيم بن أبي مهند عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : " قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟

قالوا : نعم ، قال : فو الذي يحلف به لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن رقبته .

قال فما [فجأهم] منه إلاّ يتقي بيديه وينكص على عقبيه ، قال : فقالوا له : ما ذاك يا أبا الحكم ؟ قال : إن بيني وبينه خندقاً من نار وهؤلاً وأجنحة ، [فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً] " فأنزل اللّه سبحانه ﴿ أَرَأَيْتَ الذي ينهى * عَبْداً إِذَا صلى * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ على الهدى * أَوْ أَمَرَ بالتقوى * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ ﴾ أبو جهل لعنه اللّه ﴿ وتولى * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللّه يرى * كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بالناصية ﴾ لنأخذن بمقدم رأسه فلَنُذِلَّنّهُ ، ثم قال على البدل : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ .

قال ابن عباس : لمّا نهى أبو جهل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن الصلاة انتهرهُ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وقال أبو جهل : أتُهدّدني ؟ فواللّه لأملأن عليك إن شِئت هذا خيلا جرداً أو رجالا مرداً ، فأنزل اللّه سبحانه ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ أي قومه ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لأخذته الزبانية عياناً " .

﴿ كَلاَّ لاَ تُطِعْهُ واسجد واقترب ﴾ وصلّ واقترب من اللّه سبحانه وتعالى . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 242 . 246 ﴾

وقال الزمخشرى :

سورة العلق

مكية ، وآياتها 19 [وهي أول ما نزل من القرآن] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة العلق (96) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)

عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (5)

عن ابن عباس ومجاهد : هي أول سورة نزلت «وأكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم . محل بِاسْمِ رَبِّكَ النصب على الحال ، أى : اقرأ مفتتحا باسم ربك قل بسم اللّه ، ثم اقرأ . فإن قلت : كيف قال خَلَقَ فلم يذكر له مفعولا ، ثم قال خَلَقَ الْإِنْسانَ ؟ قلت : هو على وجهين : إما أن لا يقدر له مفعول وأن يراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه . وإما أن يقدر ويراد خلق كل شيء ، فيتناول كل مخلوق ، لأنه

مطلق ، فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض . وقوله : خَلَقَ الْإِنْسانَ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق ، لأن التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض . ويجوز أن يراد : الذي خلق الإنسان ، كما قال الرَّحْمنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسانَ فقيل : الَّذِي خَلَقَ مبهما ، ثم فسره بقوله خَلَقَ الْإِنْسانَ تفخيما لخلق الإنسان . ودلالة على عجيب فطرته . فإن قلت : لم قال مِنْ عَلَقٍ على الجمع ، وإنما خلق من علقة ، كقوله مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ؟ قلت : لأن

(74/823)

الإنسان في معنى الجمع ، كقوله إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ . الْأَكْرَمُ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم ، ينعم على عباده النعم التي لا تحصى ، ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر ، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم ، فما لكرمه غاية ولا أمد ، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم ، حيث قال : الأكرم الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو ، وما دونت العلوم ولا قيدت

الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب اللّه المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة اللّه ولطيف تدبيره ودليل إلا أمر القلم والخط ، لكفى به . ولبعضهم في صفة القلم :

ورواقم رقش كمثل أراقم قطف الخطا نيّالة أقصى المدى

سود القوائم ما يجدّ مسيرها إلّا إذا لعبت بها بيض المدى «1»

---

(1) . للزمخشري رحمه اللّه تعالى في صفة الأقلام ، وكان حقه أن يذكر في حرف الدال ، لأن حروف الإطلاق وهي الألف والواو والياء الساكنات غير معتبرة في هذه الأبواب ، وإنما أخرناه ليكون جزاء للأقلام على عملها كما أن الأجير يوفى أجره بعد تمام عمله . والرواقم : جمع راقمة صفة للأقلام ، وهو مجرور برب المقدرة . وخبره قوله : كمثل أراقم . أو قطف الخطى ، والأظهر أن الخبر قوله : ما يجد مسيرها . وإسناد الرقم إليها مجاز عقلى ، لأنها آلته . والرقش : جمع أرقش . أو رقشاء : الحية المنقوشة الظهر . والأراقم – جمع أرقم الشعبان الذي فيه سواد وبياض . والقطف : جمع أقطف : وهو الذي يقارب بين خطاه . والخطى : جمع خطوة بالضم . والمدى ، بالفتح : يطلق على المسافة وعلى غايتها . والسود : جمع أسود أو سوداء . والقوائم : الأرجل . والجد بمعنى الاجتهاد أو ضد الهزل . والبيض : جمع بيضاء . والمدى ، بالضم : جمع مدية ، وهي الشفرة ، ثم إنه شبه انتقاش الأقلام بانتقاش الحيات ، فاستعار له الرقش على سبيل الاستعارة التصريحية

، وشبهها بالأراقم بجامع التلون والامتداد يمينا وشمالا وانشقاق لسان كل شعبتين وإلقائه اللعاب ، فالجامع مركب حسي . وقيل : إنه من قبيل تشبيه المركب المحسوس بالمركب المحسوس بجامع الهيئات التي تقع عليها الحركة . وكرر أداة التشبيه التوكيد ، ثم شبهها بالدواب السائرة على طريق المكنية ، بجامع التلون والتردد ، والذهاب والإياب ، والتوصل بكل إلى المراد ، وإثبات القطف والخطو والقوائم : تخييل . وقيل : يجوز أن هذا من قبيل تشبيه المركب بالمركب أيضا ، وهي وإن كان سيرها قليلا : تبلغ صاحبها مراده ، وإن كان بعيدا فنسبة النيل إليها مجاز عقلي ، لأنها آلته .

وشبه المراد المعقول بالمقصد المحسوس ، وهو آخر المسافة بجامع الاحتياج في إدراك كل إلى أسباب ، فأقصى المدى : استعارة تصريحية : وهي ترشيح لتلك المكنية ، وقوائم الأقلام : ما دق وطال من أطرافها ، وهي سود دائما ، وإثبات الجد للمسير مبالغة كجد جده .

وشبه المدى بما يصح منه اللعب على سبيل المكنية ، وإثبات اللعب تخييل هذا بيانه .

وفيه من البديع بين الرواقم والأراقم شبه الاشتقاق ، وبين «قطف الخطى» «و نيالة أقصى المدى» شبه التضاد ، وبين السود والبيض ، وبين الجد واللعب : طباق التضاد ، وبين المسير ولعب المدى : شبه التضاد بحسب الظاهر ، لأن المدى تبطل سير الحيوان إذا لعبت بقوائمه ، لكنه مناسب للأقلام . وبين المدى والمدى : الجناس المحرق ، وهذا مما يدل على

أن المصنف رحمه اللّه وعمه برضاه : كان من مفلقى سحرة البيان ، الحائزين قصيات السبقى في هذا الميدان .

(75/823)

وقرأ ابن الزبير : علم الخط بالقلم .

[سورة العلق (96) : الآيات 6 إلى 19]

كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى (7) إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى (9) عَبْداً إِذا صَلَّى (10)

أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى (14) كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (15)

ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ (18) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)

كَلَّا ردع لمن كفر بنعمة اللّه عليه بطغيانه ، وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه أَنْ رَآهُ أن رأى نفسه . يقال في أفعال القلوب : رأيتنى وعلمتني ، وذلك بعض خصائصها . ومعنى الرؤية : العلم ، ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين . واسْتَغْنى هو المفعول

الثاني إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى

واقع على طريقة الالتفات إلى الإنسان، تهديدا له وتحذيرا من عاقبة الطغيان. والرجعى: مصدر كالبشرى بمعنى الرجوع. وقيل: نزلت في أبى جهل، وكذلك أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى وروى أنه قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: أتزعم أن من استغنى طغى، فاجعل لنا جبال مكة فضة وذهبا، لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك، فنزل جبريل فقال: إن شئت فعلنا ذلك، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة، فكف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الدعاة إبقاء عليهم «1». وروى عنه لعنه اللّه أنه قال: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فو الذي يحلف به، لئن رأيته توطأت عنقه، فجاءه ثم نكص على عقبيه، فقالوا له: مالك يا أبا الحكم، فقال: إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة، فنزلت أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى ومعناه: أخبرنى عمن ينهى بعض عباد اللّه عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة اللّه. أو كان آمرا بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد، وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدين الصحيح، كما نقول نحن أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى

---

(1). لم أجده. قلت: وآخره تقدم في الاسراء بغير هذا السياق. [.....]

ويطلع على أحواله من هداه وضلاله ، فيجازيه على حسب ذلك . وهذا وعيد . فإن

قلت :

ما متعلق أرأيت ؟ قلت : الذي ينهى مع الجملة الشرطية ، وهما في موضع المفعولين . فإن

قلت :

فأين جواب الشرط ؟ قلت : هو محذوف ، تقديره : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ، ألم يعلم بأن اللّه يرى . وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني . فإن قلت : فكيف صح أن يكون أَلَمْ يَعْلَمْ جوابا للشرط ؟ قلت : كما صح في قولك : إن أكرمتك أتكرمني ؟ وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه ؟ فإن قلت : فما أرأيت الثانية وتوسطها بين مفعول

أرأيت ؟

قلت : هي زائدة مكرّرة للتوكيد . وعن الحسن أنه أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة كَلَّا ردع لأبى جهل وخسوء له عن نهيه عن عبادة اللّه تعالى وأمره بعبادة اللات ، ثم قال لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ عما هو فيه لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار .

والسفع : القبض على الشيء وجذبه بشدّة . قال عمرو بن معديكرب :

قوم إذا يقع الصّريخ رأيتهم من بين ملجم مهره أو سافع «1»

وقرئ: لنسفعنّ، بالنون المشدّدة. وقرأ ابن مسعود، لأسفعا. وكتبتها في المصحف بالألف على حكم الوقف، ولما علم أنها ناصية المذكور: اكتفى بلام العهد عن الإضافة ناصِيَةٍ بدل من الناصية، وجاز بدلها عن المعرفة، وهي نكرة، لأنها وصفت فاستقلت بفائدة. وقرئ: ناصية، على: هي ناصية. وناصية بالنصب. وكلاهما على الشتم. ووصفها بالكذب والخطأ على الإسناد المجازى. وهما في الحقيقة لصاحبها. وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك: ناصية كاذب خاطئ. والنادي: المجلس الذي ينتدى فيه القوم. أى يجتمعون. والمراد: أهل النادي. كما قال جرير:

لهم مجلس صهب السّبال أذلّة «2»

---

(1). لحميد بن ثور الهلالي الصحابي، أى: هم قوم إذا نفع الصريخ، أى: ارتفع الصياح للحرب أسرعوا إليها فتراهم دائرين بين ملجم مهره وسافع، أى: قابض بناصية مهره، ويجذبه إليه بسرعة. ومن زائدة، ولو كانت في الإثبات. وأو بمعنى الواو. ويروى: إذا يقع بالياء، أى: يحصل. ويروى: إذا هتف، أى: صاح، فيكون كجد جده. ويجوز أن الصريخ بمعنى الصارخ. ويروى: إذا سمعوا الصريخ فهو مفعول. ويروى: ما بين ملجم. وهذا مما يؤيد أن «من» في تلك الرواية زائدة.

(2) لهم مجلس صهب السبال أذلة على من يعاديهم أشداء فاعلم

يقول : لهم مجلس يجتمعون فيه . أو لهم قوم مجتمعون جالسون ، ولا ترى ذلك إلا في الرؤساء الأشراف . وصهب للسبال : صفة لمرجع الضمير في لهم على الأول ، وصفة لمجلس على الثاني ، لأنه بمعنى الجالسين . والصهبة : حمرة ترهق السواد . والصهب : جمع أصهب . والسال : طرف الشارب جانب الفم ، وتلك الصهبة من خواص الروم ، وهو كناية عن الغلظة والشدة ، وأذلة : أي فيما بينهم أشداء على من يعاديهم . وقدم المعمول للحصر ، فاعلم ذلك وتيقنه فهو حق . ويروى بدل الشطر الثاني :

سواسية أحرارها وعبيدها

وسواسية كطواعية جمع سواء على غير قياس . وقيل : اسم جمع بمعنى مستوين . يعنى : أنهم مستوون في الشرف وكمال الأخلاق ، ولولا مقام المدح لكان من قبيل التوجيه ، لاحتماله لوجه الذم أيضا . وأما إن قرئ بالكسر والتشديد ، فهو منسوب السواس وهو التمرين على حسن السير ، يعنى أن جميعهم رؤساء ، ولكن الأول أوجه . ومنه الحديث : «الناس سواسية لا فضل لعربي على عجمى إلا بالتقوى» كما في ترجمة شرح القاموس .

وقال زهير :

وفيهم مقامات حسان وجوههم

والمقامة : المجلس . روى أن أبا جهل من برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يصلى فقال : ألم أنهك ؟ فأغلظ له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال : أتهدّدنى وأنا أكثر أهل الوادي ناديا «1» ، فنزلت . وقرأ ابن أبى عبلة : سيدعى الزبانية ، على البغاء للمفعول ، والزبانية في كلام العرب : الشرط ، الواحد : زبنية ، كعفرية ، من الزبن : وهو الدفع . وقيل : زبنى ، وكأنه نسب إلى الزبن ، ثم غير للنسب ، كقولهم أمسى ، وأصله : زبانى ، فقيل . زبانية على التعويض ، والمراد : ملائكة العذاب . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عيانا «2»» كَلَّا ردع لأبى جهل لا تُطِعْهُ أى اثبت على ما أنت عليه من عصيانه ، كقوله فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ . وَاسْجُدْ ودم على سجودك ، يريد : الصلاة وَاقْتَرِبْ وتقرّب إلى ربك . وفي الحديث : «أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد» «3» .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، «من قرأ سورة العلق أعطى من الأجر كأنما قرأ المفصل كله «4»» . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 775 . 779﴾

---

(1) . أخرجه الطبري وابن مردويه بهذا وأتم منه . وهو عند الترمذي والنسائي والحاكم وأحمد وابن أبى شيبة والبزار كلهم من رواية أبى خالد الأحمر عن داود بن أبى هند عن

عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما . قلت :

وأصله في صحيح البخاري .

(2) . أخرجه البخاري والنسائي من رواية معمر عن عبد الكريم الحريري عن عكرمة عن ابن عباس به . وهو الذي قبله من قول ابن عباس رضى الله عنهما .

(3) . أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة بلفظ «وهو ساجد» .

(4) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبى بن كعب .

(78/823)

وقال الماوردى :

قوله : ﴿ اقرأ باسْمِ ربِّك الذي خَلَقَ ﴾

روي عن عبيد بن عمير قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم أول ما أتاه بنمط فغطّه فقال : اقرأ ، فقال : والله ما أنا بقارىء ، فغطّه ثم قال : اقرأ ، فقال : والله ما أنا بقارىء فغطّه غطاً شديداً ثم قال : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خَلَقَ ﴾ أي استفتح قراءتك باسم ربك الذي خلق وإنما قال الذي خلق لأن قريشاً كانت تعبد آلهة ليس فيهم خالق غيره تعالى ، فميّز نفسه بذلك ليزول عنه الالتباس .

روت عائشة رضي الله عنها أنها أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بعدها " نون والقلم " ثم بعدها " يا أيها المدثر " ثم بعدها " والضحى " .

﴿ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ﴾ يريد بالإنسان جنس الناس كلهم ، خلقوا من علق بعد النطفة ، والعلق جمع علقة ، والعلقة قطعة من دم رطب سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه ، فإذا جفت لم تكن علقة ، قال الشاعر :

تركْناه يخرُّ على يديْه . . . يَمُجُّ عليهما عَلَقَ الوتين

ويحتمل مراده بذلك وجهين :

أحدهما : أن يبين قدر نعمته على الإنسان بأن خلقه من علقة مهيئة حتى صار بشراً سوياً وعاقلاً متميزاً .

الثاني : أنه كما نقل الإنسان من حال إلى حال حتى استكمل ، كذلك نقلك من الجهالة إلى النبوة حتى تستكمل محلها .

﴿ اقْرأ وربُّكَ الأكْرَمُ ﴾ أي الكريم .

ويحتمل ثانياً : اقرأ بأن ربك هو الأكرم ، لأنه لما ذكر ما تقدم من نعمه دل بها على نعمة كرمه . قال إبراهيم بن عيسى اليشكري : من كرمه أن يرزق عبده وهو يعبد غيره .

﴿ الذي علّمَ بالقَلَمِ ﴾ أي عَلّم الكاتب أن يكتب بالقلم ، وسمي قلماً لأنى يقلم أي يقطع ، ومنه تقليم الظفر .

وروى مجاهد عن ابن عمر قال : خلق الله تعالى أربعة أشياء بيده ثم قال لسائر الخلق : كن ، فكان ، القلم والعرش وجنة عدن وآدم .

وفيمن علمه بالقلم ثلاثة أقاويل :

(79/823)

أحدها : أنه أراد آدم عليه السلام ، لأنه أول من كتب ، قاله كعب الأحبار .

الثاني : إدريس وهو أول من كتب ، قاله الضحاك .

الثالث : أنه أراد كل من كتب بالقلم لأنه ما علم إلا بتعليم الله له ، وجمع بذلك بين نعمته تعالى عليه في خلقه وبين نعمته تعالى عليه في تعليمه استكمالاً للنعمة عليه .

﴿ علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعْلَمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الخط بالقلم ، قاله قتادة وابن زيد .

الثاني : علمه كل صنعه علمها فتعلم ، قاله ابن شجرة .

ويحتمل ثالثاً : علمه من حاله في ابتداء خلقه ما يستدل به على خلقه وأن ينقله من بعد على إرادته .

﴿ كلا إنّ الإنسانَ لَيطْغَى ﴾ في "كلا" ها هنا وجهان :

أحدهما : أنه ردّ وتكذيب ، قاله الفراء .

الثاني : أنه بمعنى إلا ، وكذلك ﴿ كلا سوف يعلمون ﴾ ، قاله أبو حاتم السجستاني .

وفي قوله " ليطغى " أربعة أوجه :

الثاني : ليبطر ، قاله الكلبي .

الثالث : ليرتفع من منزلة إلى منزلة ، قاله السدي .

الرابع : ليتجاوزه قدره ، ومنه قوله تعالى ﴿ إنّا لما طَغَى الماءُ ﴾ قاله ابن شجرة .

﴿ أَن رآه اسْتَغْنَى ﴾ أي عن ربه ، قاله ابن عباس .

ويحتمل ثانياً : استغنى بماله وثروته ، وقال الكلبي : نزلت في أبي جهل .

﴿ إنّ إلى ربِّك الرُّجْعَى ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : المنتهى ، قاله الضحاك .

الثاني : المرجع في القيامة .

ويحتمل ثالثاً : يرجعه الله إلى النقصان بعد الكمال ، وإلى الموت بعد الحياة .

(80/823)

﴿ أَرَأَيْتَ الذي يَنْهى عَبْداً إذا صَلَّى ﴾ نزلت في أبي جهل ، روى أبو هريرة أن أبا جهل قال : واللات والعزّى لئن رأيت محمداً يصلّي بين أظهركم لأطأن رقبته ولأعفرن وجهه في التراب ، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليطأ رقبته ، فما فجأه منه إلا وهو ينكص ، أي يرجع على عقبيه ، فقيل له : ما لك ؟ فقال : إن بيني وبينه خندقاً من نار وهواء وأجنحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً " .

وروى الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنّ لكل أمة فرعون ، وفرعون هذه الأمة أبو جهل " .

وكانت الصلاة التي قصد فيها أبو جهل رسول الله صلاة الظهر . وحكى جعفر بن محمد أن أول صلاة جماعة جمعت في الإسلام ، يوشك أن تكون التي أنكرها أبو جهل ، صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عليّ رضي الله عنه فمرّ به أبو طالب ومعه ابنه جعفر فقال : صل جناح ابن عمك ، وانصرف مسروراً يقول :

إنَّ علياً وجعفرا ثقتي . . . عند مُلِمّ الزمان والكُرَبِ

والله لا أخذل النبيّ ولا . . . يخذله من كان ذا حَسَبِ

لا تخذلا وانصرا ابن عمكما . . . أخي لأمي من بنيهم وأبي

فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك .

﴿ أرأيتَ إن كان على الهُدَى أو أمَرَ بالتّقْوَى ﴾ فيه قولان :

أحدهما : يعني أبا جهل ، ويكون فيه إضمار ، وتقديره : ألم يكن خيراً له . الثاني : هو النبي صلى الله عليه وسلم كان على الهدى في نفسه ، وأمر بالتقوى في طاعة ربه . وفي قوله " أرأيتَ " احتمال الوجهين :

أحدهما : أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : خطاب عام له ولأمته ، والمراد به على الوجهين هدايته ، ويكون في الكلام محذوف ، وتقديره : هكذا كان يفعل به .

﴿ أرأَيتَ إن كَذّبَ وَتَوَلّى ﴾ يعني أبا جهل ، وفيه وجهان :

أحدهما : كذب بالله وتولى عن طاعته .

الثاني : كذب بالقرآن وتولى عن الإيمان .

(81/823)

ويحتمل ثالثاً : كذب بالرسول وتولى عن القبول .

﴿ ألم يَعْلَمْ بأنّ اللهَ يرَى ﴾ يعني أبا جهل ، وفيه وجهان :

أحدهما : ألم تعلم يا محمد أن الله يرى أبا جهل ؟

الثاني : ألم تعلم يا أبا جهل أن الله يراك ؟

وفيه وجهان :

أحدهما : يرى عمله ويسمع قوله .

الثاني : يراك في صلاتك حين نهاك أبو جهل عنها .

ويحتمل ثالثاً : يرى ما همّ به أبو جهل فلا يمكنه من رسوله .

﴿ كلا لئن لم يَنْتَهِ لنسفعاً بالنّاصِيةِ ﴾ يعني أبا جهل ، وفيه وجهان :

أحدهما : يعني لنأخذن بناصيته ، قاله ابن عباس ، وهو عند العرب أبلغ في الاستذلال والهوان ، ومنه قول الخنساء :

جززنا نواصي فرسانهم . . . وكانوا يظنّون أنْ لن تُجَزَّا

الثاني : معناه تسويد الوجوه وتشويه الخلقة بالسفعة السوداء ، مأخوذ من قولهم قد سفعته النار أو الشمس إذا غيرت وجهه إلى حالة تشويه ، وقال الشاعر :

أثافِيَّ سُفْعاً مُعَرَّس مِرجلٍ . . . ونُؤْياً كَجِذم الحوضِ لم يَتَثَلَّمِ

والناصية شعر مقدم الرأس ، وقد يعبّر بها عن جملة الإنسان ، كما يقال هذه ناصية مباركة إشارة إلى جميع الإنسان .

ثم قال : ﴿ ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ ﴾ يعني ناصية أبي جهل كاذبة في قولها ، خاطئة في فعلها .

﴿ فلْيَدْعُ نادِيَهُ ﴾ يعني أبا جهل ، والنادي مجلس أهل الندى والجود ومعنى " فليدع نادية " أي فليدع أهل ناديه من عشيرة أو نصير .

﴿ سَنَدْعُ الزّبَانِية ﴾ والزبانية هم الملائكة من خزنة جهنم ، وهم أعظم الملائكة خلقاً وأشدهم بطشاً ، والعرب تطلق هذا الإسم على من اشتد بطشه ، قال الشاعر :

مَطاعيمُ في القُصْوى مَطاعينُ في الوَغى . . . زبانية غُلْبٌ عِظَامٌ حُلومها

﴿ كلا لا تُطِعْهُ ﴾ قال أبو هريرة : كلا لا تطع أبا جهل في أمره .

ويحتمل نهيه عن طاعته وجهين :

أحدهما : لا تقبل قوله إن دارك ولا رأيه إن قاربك .

(82/823)

الثاني : لا تجبه عن قوله ، ولا تقابله على فعله ، ومنه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " اللهم لا تطع فينا مسافراً " أي لا تجب دعاءه لأن المسافر يدعو بانقطاع المطر فلو أجيبت دعوته لهلك الناس .

﴿ واسْجُدْ واقْتَرِبْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : اسجد أنت يا محمد مصلياً ، واقترب أنت يا أبا جهل من النار ، قاله زيد بن

أسلم .

الثاني : اسجد أنت يا محمد في صلاتك لتقرب من ربك ، فإن أقرب ما يكون العبد إلى الله تعالى إذا سجد له .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : أنزل في أبي جهل أربع وثمانون آية ، وأنزل في الوليد بن المغيرة مائة وأربع آيات ، وأنزل في النضر بن الحارث اثنتان وثلاثون آية .

(83/823)

وإذا كانت هذه أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الأكثرين فقد روي في ترتيب السور بمكة والمدينة أحاديث ، أوفاها ما رواه آدم ابن أبي أناس عن أبي شيبة شعيب بن زريق عن عطاء الخراساني قال : بلغنا أن هذا ما نزل من القرآن بمكة والمدينة الأول فالأول ، فكان أول ما نزل فيما بلغنا : " اقرأ باسم ربك " ثم " ن والقلم ، المزمل ، المدثر ، تبّت ، إذا الشمس كورت ، سبّح اسم ربك ، الليل ، الفجر ، الضحى ، ألم نشرح ، العصر ، العاديات ، الكوثر ، ألهاكم ، أرأيت ، الكافرون ، الفيل ، الفلق ، الإخلاص ، النجم ، عبس ، القدر ، والشمس ، البروج ، التين ، لإيلاف ، القارعة ، القيامة ، الهُمزة ، المرسلات ، ق ، البلد ، الطارق ، القمر ، ص ، الأعراف ، قل أوحى ، يس ، الفرقان ،

الملائكة ، مريم ، طه ، الواقعة ، الشعراء ، النمل ، القصص ، بنو إسرائيل ، يونس ، هود ، يوسف ، الحجر ، الأنعام ، الصافات ، لقمان ، سبأ ، الزمر ، المؤمن ، حم السجدة ، عسق ، الزخرف ، الدخان ، الجاثية ، الأحقاف ، الذاريات ، الغاشية ، الكهف ، النحل ، نوح ، إبراهيم ، الأنبياء ، قد أفلح ، السجدة ، الطور ، الملك ، الحاقة ، سأل سائل ، النبأ ، النازعات ، الانفطار ، الانشقاق ، الروم ، العنكبوت ، المطففين .

فهذه خمس وثمانون سورة نزلت بمكة .

وكان فيما نزل بالمدينة البقرة ، ثم الأنفال ، آل عمران ، الأحزاب ، الممتحنة ، النساء ، الزلزلة ، الحديد ، سورة محمد ، الرعد ، الرحمن ، هل أتى ، الطلاق ، لم يكن ، الحشر ، النصر ، النور ، الحج ، المنافقون ، المجادلة ، الحجرات ، التحريم ، الجمعة ، الصف ، الفتح ، المائدة ، براءة .

فهذه سبع وعشرون سورة نزلت بالمدينة .

ولم تكن الفاتحة والله أعلم ضمن ما ذكره ، وقد اختلف الناس في نزول السور اختلافاً كثيراً ، لكن وجدت هذا الحديث أوفى وأشفى فذكرته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 6 صـ 304 . 310﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) ﴾

قوله تعالى : ﴿ اقرأ ﴾ قرأ أبو جعفر بتخفيف الهمزة في الحرفين .

قال أبو عبيدة : المعنى : ﴿ إِقرأ باسم ربك ﴾ والباء زائدة .

وقال المفسرون : المعنى : اذكر اسمه مستفتحاً به قراءتك .

وإنما قال تعالى : ﴿ الذي خلق ﴾ لأن الكفار كانوا يعلمون أنه الخالق دون أصنامهم .

والإنسان هاهنا : ابن آدم .

والعلق : جمع علقة ، وقد بَيَّنَّاها في سورة "الحج" قال الفراء : لما كان الإنسان في معنى الجمع جمع العلق مع مشاكلة رؤوس الآيات .

قوله تعالى : ﴿ اقرأ ﴾ تقرير للتأكيد .

ثم استأنف فقال تعالى : ﴿ وربُّك الأكرم ﴾ قال الخطابي : الأكرم : الذي لا يوازيه كرم ، ولا يعادله في الكرم نظير .

وقد يكون الأكرم بمعنى الكريم ، كما جاء الأَعَزُّ والأطول بمعنى العزيز والطويل .

وقد سبق تفسير الكريم .

قوله تعالى : ﴿ الذي علم بالقلم ﴾ أي : علم الإنسان الكتابة بالقلم ﴿ علم الإنسان ما لم

يعلم ﴾ من الخط، والصنائع، وغير ذلك.

وقيل: المراد بالإنسان هاهنا: محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿ كلا ﴾ أي: حقاً.

وقال مقاتل: ﴿ كَلاَّ ﴾ لا يعلم أن الله علمه.

ثم استأنف فقال تعالى: ﴿ إن الإنسان ليطغى ﴾ يعني: أبا جهل.

وكان إذا أصاب مالاً أَشر وبَطِرَ في ثيابه، ومراكبه، وطعامه ﴿ أن رآه استغنى ﴾ قال

ابن قتيبة: أي: أن رأى نفسه استغنى.

و"الرُّجْعى" المرجع.

قوله تعالى: "أرأيت الذي ينهى" معنى: أرأيت: تعجيبه المخاطب، وإنما كررها للتأكيد

والتعجيب.

والمراد بالناهي هاهنا: أبو جهل.

قال أبو هريرة: قال أبو جهل هل يعفِّر محمَّدٌ وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم.

قال: فبالذي يحلف به لئن رأيتُه لأَطَأَنَّ على رقبته.

فقيل له: ها هو ذاك يصلي.

فانطلق لِيَطَأَ على رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتّقي بيديه، فأتَوْه فقالوا: مالك يا أبا الحكم؟ فقال: إن بيني وبينه خندقاً من نار، وهولاً وأَجْنِحَةً.

وقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً "، فأنزل الله تعالى ﴿ أرأيت الذي ينهى ﴾ إلى آخر السورة.

وقال ابن عباس: كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي، فجاء أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا؟! فانصرف إليه النبي صلى الله عليه وسلم فَزَبَرَه، فقال أبو جهل: والله إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني، فأنزل الله تعالى: ﴿ فليدع ناديه سندع الزبانية ﴾ قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله.

قال المفسرون: والمراد بالعبد هاهنا: محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: كانت الصلاة صلاة الظهر.

قوله تعالى: ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ يعني المنهي وهو النبي صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى: ﴿ أرأيتَ إن كذّب وتولّى ﴾ يعني: الناهي، وهو أبو جهل، قال الفراء: والمعنى: أرأيتَ الذي ينهى عبداً إذا صلى، وهو كاذب مُتَوَلٍّ عن الذِّكْر، فأي شيء أعجب من هذا؟! وقال ابن الأنباري: تقديره: أرأيته مصيباً.

قوله تعالى : ﴿ ألم يعلم ﴾ يعني أبا جهل ﴿ بأنَّ الله يرى ﴾ ذلك فيجازيه ﴿ كلا ﴾ أي : لا يعلم ذلك ﴿ لئن لم ينته ﴾ عن تكذيب محمد وشتمه وإيذائه ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ السفع : الأخذ ، والناصية : مُقَدَّم الرأس .

قال أبو عبيدة : يقال : سفعتُ بيده ، أي أخذتُ بها .

وقال الزجاج : يقال سفعتُ الشيءَ : إذا قبضتَ عليه وجذبته جذباً شديداً .

والمعنى : لَنَجُرَّنَّ ناصيته إلى النار .

قوله تعالى : ﴿ ناصيةٍ ﴾ قال أبو عبيدة : هي بدل ، فلذلك جرَّها .

(86/823)

قال الزجاج : والمعنى : بناصية صاحبُها كاذبٌ خاطئٌ ، كما يقال : نهارُه صائم ، وليله قائم ، أي : هو صائم في نهاره ، قائم في ليله ﴿ فليَدْعُ ناديه ﴾ أي : أهل ناديه ، وهم أهل مجلسه فليستنصرهم ﴿ سَنَدْعُ الزَّبانية ﴾ قال عطاء : هم الملائكة الغِلاظ الشّداد .

وقال مقاتل : هم خَزَنَةُ جهنم .

وقال قتادة : الزَّبانية في كلام العرب : الشُّرَط .

قال الفراء : كان الكسائي يقول : لم أسمع للزَّبانية بواحد ، ثم قال بأَخَرة : واحد الزبانية :

زِبْنيٌّ ، فلا أدري أقياساً منه أو سماعاً .

وقال أبو عبيدة : واحد الزبانية : زِبْنِيَة وهو كل متمرِّد من إنس ، أو جان .

يقال : فلان زِبْنِيَة عِفْرِيَة .

قال ابن قتيبة : وهو مَأْخوذٌ من الزَّبْن ، وهو الدَّفْع ، كأنهم يدفعون أهل النار إليها .

قال ابن دريد : الزَّبْن الدفع .

يقال : ناقة زبون : إذا زَبَنَتْ حالبها ، ودفعته برجلها .

وتَزَابَنَ القوم : تدارؤوا .

واشتقاق الزبانية من الزَّبْن .

والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أي : ليس الأمر على ما عليه أبو جهل ﴿ لا تُطعْهُ ﴾ في ترك الصلاة ﴿ واسجد ﴾ أي : صَلِّ لله ﴿ واقترب ﴾ إليه بالطاعة ، وهذا قول الجمهور أن قوله تعالى ﴿ واقترب ﴾ خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

وقد قيل : إنه خطاب لأبي جهل .

ثم فيه قولان .

أحدهما : أن المعنى : اسجد أنت يا محمد ، واقترب أنت يا أبا جهل من النَّار ، قاله زيد بن أسلم .

والثاني : واقترب يا أبا جهل تَهَدّدًا له ، رواه أبو سليمان الدمشقي عن بعض القُدَماء .

وهذا يشرحه حديث أبي هريرة الذي قدّمناه .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 175. 180 ﴾

(87/823)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾

قيل الباء زائدة مجازه اقرأ اسم ربك ، والمعنى اذكر اسم ربك أمر أن يبتدىء القراءة باسم الله تأديباً ، وقيل الباء على أصلها والمعنى اقرأ القرآن مفتتحاً باسم ربك أي قل بسم الله ، ثم اقرأ فعلى هذا يكون في الآية دليل على استحباب البداءة بالتسمية في أول القراءة ، وقيل معناه اقرأ القرآن مستعيناً باسم ربك على ما تتحمله من النبوة وأعباء الرّسالة ﴿ الذي خلق ﴾ يعني جميع الخلائق وقيل الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه وقيل الذي خلق كل شيء .

﴿ خلق الإنسان ﴾ يعني آدم وإنما خص الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات لأنه

أشرفها ، وأحسنها خلقه ﴿ من علق ﴾ جمع علقة ولما كان الإنسان اسم جنس في معنى الجمع جمع العلق ولمشاكله رؤوس الآي أيضاً ﴿ اقرأ ﴾ كرره تأكيداً وقيل الأول اقرأ في نفسك ، والثاني اقرأ للتبليغ وتعليم أمتك ثم استأنف .

(88/823)

فقال تعالى : ﴿ وربك الأكرم ﴾ يعني الذي لا يوازيه كريم ولا يعادله في الكرم نظير وقد يكون الأكرم بمعنى الكريم كما جاء الأعز بمعنى العزيز ، وغاية الكريم إعطاؤه الشيء من غير طلب العوض ، فمن طلب العوض فليس بكريم ، وليس المراد أن يكون العوض عيناً بل المدح والثّواب عوض والله سبحانه وجلّ جلاله وتعالى علاؤه وشأنه يتعالى عن طلب العوض ويستحيل ذلك في وصفه لأنه أكرم الأكرمين ، وقيل الأكرم هو الذي له الابتداء في كل كرم وإحسان وقيل هو الحليم عن جهل العباد فلا يعجل عليهم بالعقوبة ، وقيل يحتمل أن يكون هذا حثاً على القراءة ، والمعنى اقرأ وربك الأكرم لأنه يجزي بكل حرف عشر حسنات ﴿ الذي علم بالقلم ﴾ أي الخط والكتابة التي بها تعرف الأمور الغائبة وفيه تنبيه على فضل الكتابة لما فيها من المنافع العظيمة لأن بالكتابة ضبطت العلوم ، ودونت الحكم وبها عرفت أخبار الماضين ، وأحوالهم وسيرهم ومقالاتهم ولولا الكتابة ما استقام أمر

الدين والدنيا قال قتادة : القلم نعمة من الله عظيمة .

لولا القلم لم يقم دين ولم يصلح عيش ، فسأل بعضهم عن الكلام ، فقال ريح لا يبقى قيل له فما قيده قال الكتابة لأن القلم ينوب عن اللّسان ولا ينوب اللّسان عنه ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ قيل يحتمل أن يكون المراد علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ، فيكون المراد من ذلك معنى واحداً ، وقيل علمه من أنواع العلم ، والهداية ، والبيان ، ما لم يكن يعلم ، وقيل علم آدم الأسماء كلها ، وقيل المراد بالإنسان هنا محمد (صلى الله عليه وسلم) .

(89/823)

قوله عزّ وجلّ : ﴿ كلا ﴾ أي حقاً ﴿ إن الإنسان ليطغى ﴾ أي يتجاوز الحد ، ويستكبر على ربه ﴿ أن ﴾ أي لأن ﴿ رآه استغنى ﴾ أي رأى نفسه غنياً وقيل يرتفع عن منزلته إلى منزلة أخرى في اللّباس والطعام وغير ذلك ، نزلت في أبي جهل وكان قد أصاب مالاً فزاد في ثيابه ومركبه وطعامه فذلك طغيانه ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ أي المرجع في الآخرة وفيه تهديد ، وتحذير لهذا الإنسان من عاقبة الطغيان ، ثم هو عام لكل طاغ متكبر .

﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ نزلت في أبي جهل وذلك أنه نهى النبي (صلى الله

عليه وسلم) عن الصّلاة (م) عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ، فقيل نعم فقال واللاّت والعزّى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته ، ولأعفرن وجهه في التراب قال فأتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يصلي ليطأ على رقبته قال فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، فقيل له ما لك قال إن بيني وبينه خندقاً من نار وهولاً وأجنحة فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) " لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً " فأنزل الله هذه الآية ، لا أدري في حديث أبي هريرة أو شيء بلغه كلا إن الإنسان ليطغى إلى قوله كلا لا تطعه قال : وأمره بما أمره به زاد في رواية ، فليدع ناديه يعني قومه (خ) عن ابن عباس قال قال أبو جهل لئن رأيت محمداً يصلي عند البيت لأطأن على عنقه .

(90/823)

فبلغ ذلك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : " لو فعله لأخذته الملائكة " زاد التّرمذي عياناً ومعنى أرأيت تعجباً للمخاطب وهو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفائدة التنكير في قوله عبداً تدل على أنه كامل العبودية ، والمعنى أرأيت الذي ينهى أشد الخلق عبودية عن العبودية ، وهذا دأبه وعادته ، وقيل إن هذا الوعيد يلزم لكل من ينهى عن

الصلاة عن طاعة الله تعالى ، ولا يلزم منه عدم جواز المنع من الصّلاة في الدّار المغصوبة ، وفي الأوقات المكروهة لأنه قد ورد النهي عن ذلك في الأحاديث الصّحيحة ، ولا يلزم من ذلك أيضاً عدم جواز منع المولى عبده ، والرجل زوجته عن قيام الليل ، وصوم التّطوع والاعتكاف لأن ذلك استيفاء مصلحة إلا أن يأذن فيه المولى أو الزوج ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ يعني العبد المنهي وهو النبي (صلى الله عليه وسلم) ﴿ أو أمر بالتقوى ﴾ يعني في الإخلاص والوحيد ﴿ أرأيت إن كذب ﴾ يعني أبا جهل ﴿ وتولى ﴾ أي عن الإيمان وتقدير نظم الآية أرأيت الذي ينهي عبداً إذا صلى وهو على الهدى آمر بالتّقوى والنّاهي مكذب متول عن الإيمان أي أعجب من هذا ﴿ ألم يعلم ﴾ يعني أبا جهل ﴿ بأن الله يرى ﴾ يعني يرى ذلك الفعل فيجازيه به ، وفيه وعيد شديد وتهديد عظيم ﴿ كلا ﴾ أي لا يعلم ذلك أبو جهل ﴿ لئن لم ينته ﴾ يعني عن إيذاء محمد (صلى الله عليه وسلم) وعن تكذيبه ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ أي لنأخذن بناصيته فلنجرنه إلى النّار ، يقال سفعت بالشيء إذا أخذته وجذبته جذباً شديداً والناصية شعر مقدم الرأس والسفع الضرب أي لنضربن وجهه في النار ، ولنسودن وجهه ولنذلنه ثم قال على البدل ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ أي صاحبها كاذب خاطىء .

قال ابن عباس: لما نهى أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة انتهره رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أبو جهل: أتنتهرني فوالله لأملأن عليك هذا الوادي إن شئت خيلاً جرداً ، ورجالاً مرداً وعن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فجاءه أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا ؟ فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فزبره فقال أبو جهل إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني فأنزل الله تعالى ﴿ فليدع ناديه سندع الزبانية ﴾ قال ابن عباس: والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله أخرجه الترّمذي ، وقال حديث حسن غريب صحيح ، ومعنى فليدع ناديه أي عشيرته وقومه فلينتصر بهم ، وأصل النادي المجلس الذي يجمع الناس ، ولا يسمى نادياً ما لم يكن فيه أهله ﴿ سندع الزبانية ﴾ يعني الملائكة الغلاظ الشداد قال ابن عباس: يريد زبانية جهنم سموا بذلك لأنهم يدفعون أهل النّار إليها بشدة مأخوذ من الزّبن وهو الدفع ﴿ كلا ﴾ أي ليس الأمر على ما هو عليه أبو جهل ﴿ لا تطعه ﴾ أي في ترك الصّلاة ﴿ واسجد ﴾ يعني صل لله ﴿ واقترب ﴾ أي من الله (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء " وهذه السّجدة من عزائم سجود التّلاوة عند الشّافعي فيسن للقارىء ، والمستمع أن يسجد عند قراءتها يدل عليه ما روي " عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال " سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم في اقرأ باسم ربك وإذا السماء انشقت " " أخرجه مسلم والله سبحانه وتعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 267. 271 ﴾

(92/823)

وقال النسفى :

سورة العلق

مكية وهي تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

عن ابن عباس ومجاهد : هي أول سورة نزلت.

والجمهور على أن الفاتحة أول ما نزل ثم سورة القلم ﴿ اقرأ باسم رَبّكَ الذى خَلَقَ ﴾ محل ﴿ باسم رَبّكَ ﴾ النصب على الحال أي اقرأ مفتتحاً باسم ربك كأنه قيل : قل باسم الله ثم اقرأ الذي خلق.

ولم يذكر الخلق مفعولاً لأن المعنى الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه، أو تقديره خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق لأنه مطلق فليس بعض المخلوقات بتقديره أولى من بعض.

وقوله ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ تخصيص للإنسان بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لشرفه ولأن التنزيل إليه ، ويجوز أن يراد الذي خلق الإنسان إلا أنه ذكر مبهماً ثم مفسراً تفخيماً لخلقه ودلالة على عجيب فطرته ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ وإنما جمع ولم يقل من علقة لأن الإنسان في معنى الجمع ﴿ اقرأ وَرَبُّكَ الأكرم ﴾ الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كريم ينعم على عباده النعم ويحلم عنهم ، فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه ، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال ﴿ الذى عَلَّمَ ﴾ الكتابة ﴿ بالقلم عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة ، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه ﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى ﴾ نزلت في أبي جهل إلى آخر السورة ﴿ أَن رَّءاهُ ﴾ أن رأى نفسه .

يقال في أفعال القلوب : رأيتني وعلمتني ، ومعنى الرؤية العلم ولو كانت بمعنى الإبصار لامتنع في فعلها الجمع بين الضميرين ﴿ استغنى ﴾ هو المفعول الثاني ﴿ إِنَّ إلى رَبِّكَ الرجعى ﴾ تهديد للإنسان من عاقبة الطغيان على طريق الالتفات .

والرجعى مصدر بمعنى الرجوع أي إن رجوعك إلى ربك فيجازيك على طغيانك ﴿ أَرَءيْتَ الذى ينهى عَبْداً إِذَا صلى ﴾ أي أرأيت أبا جهل ينهى محمداً عن الصلاة ﴿ أَرَءيْتَ إِن كَانَ على الهدى ﴾ أي إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ﴿ أَوْ أَمَرَ بالتقوى ﴾ أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد ﴿ أَرَءيْتَ إِن كَذَّبَ وتولى ﴾ أرأيت إن كان ذلك الناهي مكذباً بالحق متولياً عنه كما نقول نحن ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ الله يرى ﴾ ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب حاله ، وهذا وعيد وقوله ﴿ الذى ينهى ﴾ مع الجملة الشرطية مفعولا ﴿ أَرَأَيتَ ﴾ وجواب الشرط محذوف تقديره : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ألم يعلم بأن الله يرى ؟ وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني وهذا كقولك : إن أكرمتك أتكرمني ؟ و ﴿ أَرَأَيتَ ﴾ الثانية مكررة زائدة للتوكيد .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لأبي جهل عن نهيه عن عبادة الله وأمره بعبادة الأصنام .

ثم قال ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ عما هو فيه ﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾ لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار ، والسفع : القبض على الشيء وجذبه بشدة ، وكتبها في المصحف بالألف على حكم الوقف ، واكتفى بلام العهد عن الإضافة للعلم بأنها ناصية المذكور ﴿ نَاصِيَةٍ ﴾ بدل من ﴿ الناصية ﴾ لأنها وصفت بالكذب والخطأ بقوله ﴿ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ عن الإسناد المجازي وهما لصاحبها حقيقة وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك "ناصية كذاب خاطىء" ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ النادي المجلس الذي يجتمع فيه القوم ، والمراد أهل النادي .

روي أن أبا جهل مر بالنبي عليه السلام وهو يصلي فقال : ألم أنهك فأغلظ له رسول الله عليه السلام فقال : أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً فنزل .

والزبانية لغة الشرط الواحد زبنية من الزبن وهو الدفع ، والمراد ملائكة العذاب وعنه عليه السلام " لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عياناً " ﴿ كَلَّا ﴾ ردع لأبي جهل ﴿ لَا تُطِعْهُ ﴾ أي اثبت على ما أنت عليه من عصيانه كقوله ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [القلم : 8] ﴿ واسجد ﴾ ودم على سجودك يريد الصلاة ﴿ واقترب ﴾ وتقرب إلى ربك بالسجود فإن أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد كذا الحديث والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفي جـ 4 صـ 368 . 369 ﴾

وقال ابن جزى :

سورة العلق

﴿ اقرأ باسم ربّك ﴾

فيه وجهان : أحدهما : أن معناه اقرأ القرآن مفتتحاً باسم ربك ، أو متبركاً باسم ربك ، وموضع باسم ربك نصب على الحال ولذا كان تقديره : مفتتحاً ، فيحتمل أن يريد ابتدأ القراءة بقول : بسم الله الرحمن الرحيم أو يريد الابتداء باسم الله مطلقاً ، والوجه الثاني أن معناه اقرأ هذا اللفظ وهو باسم ربك الذي خلق فيكون باسم ربك مفعولاً وهو المقروء ﴿ الذي خَلَقَ ﴾ حذف المفعول لقصد العموم كأنه قال : الذي خلق كل شيء ، ثم خصص خلقة الإنسان لما فيه من العجائب والعبر ، ويحتمل أنه أراد الذي خلق الإنسان كما قال : ﴿ الرحمن * عَلَّمَ القرآن * خَلَقَ الإنسان ﴾ [الرحمن : 13] ثم فسره بقوله ﴿ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ﴾ والعلق جمع علقة ، وهي النطفة من الدم والمراد بالإنسان هنا جنس بني آدم ، ولذلك جمع العلق لما أراد الجماعة ولم يدخل آدم في الإنسان هنا لأنه لم يخلق من علقة وإنما خلق من طين ﴿ اقرأ وَرَبُّكَ الأكرم ﴾ كر الأمر بالقراءة تأكيداً والواو للحال

والمقصود تأنيس النبي صلى الله عليه وسلم كأنه يقول : أفعل ما أمرت به فإن ربك كريم . وصيغة أفعل للمبالغة ﴿ الذى عَلَّمَ بالقلم ﴾ هذا تفسير للأكرم فدل على أن نعمة التعليم أكبر نعمة ، وخص من التعليمات الكتابة بالقلم لما فيها من تخليد العلوم ومصالح الدين والدنيا ، وقرأ ابن الزبير : علم الخط بالقلم ﴿ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ يحتمل أن يريد بهذا التعليم لكل شيء على الاطلاق ، وقيل : لأن الإنسان هنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، والأظهر أنه جنس الإنسان على العموم .

(96/823)

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى ﴾ نزل هذا وما بعده إلى آخر السورة في أبي جهل بعد نزول صدرها بمدة ، وذلك أنه كان يغطى بكثرة ماله ويبالغ في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلا هنا يحتمل أن تكون زجراً لأبي جهل أو بمعنى حقاً أو استفتاحاً ﴿ أَن رَّآهُ استغنى ﴾ في موضع المفعول من أجله ، أي يطغى من أجل غناه . والرؤية هنا بمعنى العلم ، بدليل إعمال الفعل في الضمير ، ولا يكون ذلك إلا في أفعال القلوب ، والمعنى رأى نفسه استغنى واستغنى هو المفعول الثاني ﴿ إِنَّ إلى رَبِّكَ الرجعى ﴾ هذا تهديد لأبي جهل وأمثاله ﴿ أَرَأَيْتَ الذي ينهى * عَبْداً إِذَا صلى ﴾ اتفق المفسرون أن العبد الذي صلى هو سيدنا

محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن الذي نهاه أبو جهل لعنه الله ، وسبب الآية " أن أبا جهل جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي في المسجد الحرام فهم أن يصل إليه ويمنعه من الصلاة " وروي أنه قال : " لئن رأيته يصلي ، لأطأنّ عنقه ، فجاءه وهو يصلي ثم انصرف عنه مرعوباً فقيل له : ما هذا ؟ فقال : لقد اعترض بيني وبينه خندق من نار وهول وأجنحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً " .

(97/823)

﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الهدى * أَوْ أَمَرَ بالتقوى ﴾ أرأيت في الموضوع الذي قبله والذي بعده بمعنى : أخبرني ؛ فكأنه سؤال يفتقر إلى جواب وفيها معنى التعجيب والتوقيف والخطاب فيها يحتمل أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو لكل مخاطب من غير تعيين ، وهي تتعدى إلى مفعولين وجاءت بعدها إن الشرطة في موضعين وهما قوله : ﴿ إِن كَانَ على الهدى ﴾ وقوله ﴿ إِن كَذَّبَ وتولى ﴾ فيحتاج إلى كلام في مفعولي أرأيت في المواضع الثلاثة ، وفي جواب الشرطين وفي الضمائر المتصلة بهذه الأفعال ، وهي إن كان على الهدى ، وأمر بالتقوى وكذب وتولى ، على من تعود هذه الضمائر ؟ فقال الزمخشري : إن قوله الذي

ينهى هو المفعول الأول لقوله : أرأيت الأولى وأن الجملة الشرطية بعد ذلك في موضع المفعول الثاني ، وكررت أرأيت بعد ذلك للتأكيد فهو زائدة لا تحتاج إلى مفعول وإن قوله : ألم يعلم بأن الله يرى هو جواب قوله : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى للذي نهى عن الصلاة وهو أبو جهل ، وكذلك الضمير في قوله إن كذب وتولى وتقديره الكلام على هذا : أخبرني عن الذي ينهى عبداً إذا صلى ، إن كان هذا الناهي على الهدى أو كذب وتولى ؟ ألم يعلم بأن الله يرى جميع أحواله من هداه وضلاله وتكذيبه ونهيه عن الصلاة وغير ذلك ؟ فمقصود الآية تهديد له وزجر وإعلام بأن الله يراه .

وخالفه ابن عطية في الضمائر فقال : إن الضمير في قوله : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى للعبد الذي صلى ، وأن الضمير في قوله : إن كذب وتولى للذي نهى عن الصلاة ، وخالفه أيضاً في جعله أرأيت الثانية مكررة للتأكيد وقال : إنها في المواضع الثلاثة توقيف وأن جوابه في المواضع الثلاثة قوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّه يرى ﴾ يصلح مع كل مع واحد منها ، ولكنه جاء في آخر الكلام اختصاراً .

وخالفهما أيضاً الغزنوي في الجواب فقال : إن جواب قوله : إن كان على الهدى محذوف فقال : إن تقديره إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أليس هو على الحق واتباعه واجب ، والضمير على هذا يعود على العبد الذي صلى وفاقاً لابن عطية .

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بالناصية ﴾ أوعد أبا جهل إن لم ينته عن كفره وطغيانه أن يؤخذ بناصيته فيلقى في النار ، والناصية مقدم الرأس فهو كقوله : ﴿ فَيُؤْخَذُ بالنواصي والأقدام ﴾ [الرحمن : 41] والسفع هنا الجذب والقبض على الشيء ، وقيل : هو الإحراق من قولك سفعته النار وأكد لنسفعن باللام والنون الخفيفة ، وكتبت في المصحف بالألف مراعاة للوقف ، ويظهر لي أن هذا الوعيد نفذ عليه يوم بدر حين قتل وأخذ بناصيته فجرّ إلى القليب ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ أبدل ناصية من الناصية ، ووصفها بالكذب والخطيئة تجوزاً ، والكاذب الخاطئ في الحقيقة صاحبها ، والخاطئ الذي يفعل الذنب معتمداً ، والمخطئ الذي يفعله بغير قصد ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ النادي والنّدي المجلس الذي يجتمع فيه الناس ، وكان أبو جهل قد قال : أيتوعدني محمد فوالله ما بالوادي أعظم نادياً مني ، فنزلت الآية تهديداً وتعجيزاً له ، والمعنى : فليدع أهل ناديه لنصرته إن قدروا على ذلك ، ثم أوعده بأن يدعو له زبانية جهنم ، وهم الملائكة الموكلون بالعذاب ، الزبانية في اللغة واحدهم زبنية ، وقيل : زبني وفي الحديث " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو دعا نادية لأخذته الزبانية عياناً " ﴿ واسجد واقترب ﴾ أي تقرب إلى الله بالسجود كما

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد " فاجتهدوا في الدعاء وهذا موضع سجدة عند الشافعي وليست عند مالك من عزائم السجود . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 208 . 210 ﴾

(99/823)

وقال البيضاوى :

سورة العلق

مكية . وآيها تسع عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقرأ باسم رَبّكَ ﴾

أي اقرأ القرآن مفتتحاً باسمه سبحانه وتعالى . أو مستعيناً به . ﴿ الذى خَلَقَ ﴾ أي الذي له الخلق أو الذي خلق كل شيء ، ثم أفرد ما هو أشرف وأظهر صنعاً وتدبيراً وأدل على وجوب العبادة المقصودة من القراءة فقال :

﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ أو الذي ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ فأبهم أولاً ثم فسر تفخيماً لخلقه ودلالة على عجيب فطرته . ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ جمعه على ﴿ الإنسان ﴾ في معنى الجمع

ولما كان أول الواجبات معرفة الله سبحانه وتعالى نزل أولاً ما يدل على وجوده وفرط قدرته وكمال حكمته .

﴿ اقرأ ﴾ تكرير للمبالغة ، أو الأول مطلق والثاني للتبليغ أو في الصلاة ولعله لما قيل له : ﴿ اقرأ باسم ربّكَ ﴾ فقال : " ما أنا بقارىء " فقيل له اقرأ : ﴿ وَربُّكَ الأكرم ﴾ الزائد في الكرم على كل كريم فإنه سبحانه وتعالى ينعم بلا عوض ويحلم من غير تخوف ، بل هو الكريم وحده على الحقيقة .

﴿ الذى عَلَّمَ بالقلم ﴾ أي الخط بالقلم ، وقد قرىء به لتقيد به العلوم ويعلم به البعيد .

﴿ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ بخلق القوى ونصب الدلائل وإنزال الآيات فيعلمك القراءة وإن لم تكن قارئاً ، وقد عدد سبحانه وتعالى مبدأ أمر الإنسان ومنتهاه إظهاراً لما أنعم عليه ، من أن نقله من أخس المراتب إلى أعلاها تقريراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميته ، وأشار أولاً إلى ما يدل على معرفته عقلاً ثم نبه على ما يدل عليها سمعاً .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله بطغيانه وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه . ﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى ﴾ .

﴿ أَن رَّءَاهُ استغنى ﴾ أن رأى نفسه ، واستغنى مفعوله الثاني لأنه بمعنى علم ولذلك جاز أن يكون فاعله ومفعوله ضميرين لواحد .

﴿ إِنَّ إِلى ربِّكَ الرجعى ﴾ الخطاب للإنسان على الالتفات تهديداً وتحذيراً من عاقبة الطغيان، و﴿ الرجعى ﴾ مصدر كالبشرى.

(100/823)

﴿ أَرَأَيْتَ الذى ينهى عَبْداً إِذَا صلى ﴾ نزلت في أبي جهل قال لو رأيت محمداً ساجداً لوطئت عنقه، فجاءه ثم نكص على عقبيه فقيل له مالك، فقال إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة. فنزلت ولفظ العبد وتنكيره للمبالغة في تقبيح النهي والدلالة على كمال عبودية المنهي.

﴿ أَرَءيْتَ إِن كَانَ على الهدى أَوْ أَمَرَ بالتقوى ﴾ أرأيت تكرير للأول وكذا الذي في قوله: ﴿ أَرَءيْتَ إِن كَذَّبَ وتولى أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ الله يرى ﴾ والشرطية مفعوله الثاني وجواب الشرط محذوف دل عليه جواب الشرط الثاني الواقع موقع القسيم له. والمعنى أخبرني عمن ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هدى فيما ينهى عنه، أو آمراً ﴿ بالتقوى ﴾ فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقده، أو إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الصواب كما تقول، ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ الله يرى ﴾ ويطلع على أحواله من هداه وضلاله.

وقيل المعنى ﴿ أَرَأَيْتَ الذى ينهى عَبْداً ﴾ يصلي والمنهي على الهدى آمراً بالتقوى ، والناهي مكذب متولٍ فما أعجب من ذا . وقيل الخطاب في الثانية مع الكافر فإنه سبحانه وتعالى كالحاكم الذي حضره الخصمان يخاطب هذا مرة والآخر أخرى ، وكأنه قال يا كافر أخبرني إن كان صلاته هدى ودعاؤه إلى الله سبحانه وتعالى أمراً بالتقوى أتنهاه ، ولعله ذكر الأمر بالتقوى في التعجب والتوبيخ ولم يتعرض له في النهي لأن النهي كان عن الصلاة والأمر بالتقوى ، فاقتصر على ذكر الصلاة لأنه دعوة بالفعل أو لأن نهي العبد إذا صلى يحتمل أن يكون لها ولغيرها ، وعامة أحوالها محصورة في تكميل نفسه بالعبادة وغيره بالدعوة .

(101/823)

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع للناهي . ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ عما هو فيه . ﴿ لَنَسْفَعاً بالناصية ﴾ لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار ، والسفع القبض على الشيء وجذبه بشدة ، وقرىء "لَنَسْفَعَنَّ" بنون مشددة و"لأسفعن" ، وكتابته في المصحف بالألف على حكم الوقف والاكتفاء باللام عن الإضافة للعلم بأن المراد ناصية المذكور .

﴿ نَاصِيَةٍ كاذبة خَاطِئَةٍ ﴾ بدل من الناصية وإنما جاز لوصفها ، وقرئت بالرفع على هي ناصية والنصب على الذم ووصفها بالكذب والخطأ ، وهما لصاحبها على الإسناد

المجازي للمبالغة .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ أي أهل ناديه ليعينوه وهو المجلس الذي ينتدي فيه القوم . روي أنا أبا جهل لعنه الله مر برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فقال : ألم أنهك ، فاغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي ناديا فنزلت " ﴿ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ ليجروه إلى النار وهو في الأصل الشرط واحدها زبنية كعفرية من الزبن وهو الدفع ، أو زبني على النسب وأصلها زباني والتاء معوضة عن الياء .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع أيضاً للناهي . ﴿ لاَ تُطِعْهُ ﴾ أي أثبت أنت على طاعتك . ﴿ واسجد ﴾ داوم على سجودك . ﴿ واقترب ﴾ وتقرب إلى ربك وفي الحديث " أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد "

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة العلق أعطي من الأجر كأنما قرأ المفصل كله " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 509. 512 ﴾

---

(1) حديث موضوع.

وقال أبو حيان :

سورة العلق

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) ﴾

وقرأ الجمهور : ﴿ اقرأ ﴾ بهمزة ساكنة ؛ والأعشى ، عن أبي بكر ، عن عاصم : بحذفها ، كأنه على قول من يبدل الهمزة بمناسب حركتها فيقول : قرأ يقرا ، كسعى يسعى .

فلما أمر منه قيل : اقر بحذف الألف ، كما تقول : اسع ، والظاهر تعلق الباء باقرأ وتكون للاستعانة ، ومفعول اقرأ محذوف ، أي اقرأ ما يوحى إليك .

وقيل : ﴿ باسم ربك ﴾ هو المفعول وهو المأمور بقراءته ، كما تقول : اقرأ الحمد لله .

وقيل : المعنى اقرأ في أول كل سورة ، وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم .

وقال الأخفش : الباء بمعنى على ، أي اقرأ على اسم الله ، كما قالوا في قوله : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله ﴾ أي على اسم الله .

وقيل : المعنى اقرأ القرآن مبتدئاً باسم ربك .

وقال الزمخشري : محل باسم ربك النصب على الحال ، أي اقرأ مفتتحاً باسم ربك ، قل بسم الله ثم اقرأ ، انتهى .

وهذا قاله قتادة .

المعنى : اقرأ ما أنزل عليك من القرآن مفتتحاً باسم ربك .

وقال أبو عبيدة : الباء صلة ، والمعنى اذكر ربك .

وقال أيضاً : الاسم صلة ، والمعنى اقرأ بعون ربك وتوفيقه .

وجاء باسم ربك ، ولم يأت بلفظ الجلالة لما في لفظ الرب من معنى الذي رباك ونظر في مصلحتك .

وجاء الخطاب ليدل على الاختصاص والتأنيس ، أي ليس لك رب غيره .

ثم جاء بصفة الخالق ، وهو المنشىء للعالم لما كانت العرب تسمي الأصنام أرباباً .

أتى بالصفة التي لا يمكن شركة الأصنام فيها ، ولم يذكر متعلق الخلق أولاً ، فالمعنى أنه قصد إلى استبداده بالخلق ، فاقتصر أو حذف ، إذ معناه خلق كل شيء .

ثم ذكر خلق الإنسان ، وخصه من بين المخلوقات لكونه هو المنزل إليه ، وهو أشرف .

قال الزمخشري : أشرف ما على الأرض ، وفيه دسيسة أن الملك أشرف .

(103/823)

وقال : ويجوز أن يراد الذي خلق الإنسان ، كما قال : ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان ﴾ فقيل : الذي خلق مبهماً ، ثم فسره بقوله : خلق تفخيماً لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته ، انتهى .

والإنسان هنا اسم جنس ، والعلق جمع علقة ، فلذلك جاء من علق ، وإنما ذكر من خلق من علق لأنهم مقرون به ، ولم يذكر أصلهم آدم ، لأنه ليس متقرراً عند الكفار فيسبق الفرع ، وترك أصل الخلقة تقريباً لأفهامهم .

ثم جاء الأمر ثانياً تأنيساً له ، كأنه قيل : امض لما أمرت به ، وربك ليس مثل هذه الأرباب ، بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص .

والأكرم صفة تدل على المبالغة في الكرم ، إذ كرمه يزيد على كل كرم ينعم بالنعم التي لا تحصى ، ويحلم على الجاني ، ويقبل التوبة ، ويتجاوز عن السيئة .

وليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم حيث قال : ﴿ الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ ، فدل على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا ، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، ونبه على أفضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو .

وما دونت العلوم ، ولا قيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ولا مقالاتهم ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا ، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره دليل إلا أمر الخط والقلم لكفى به .

ولبعضهم في الأقلام :

ورواقم رقش كمثل أراقم . . .

قطف الخطا نيالة أقصى المدى

سود القوائم ما يجد مسيرها . . .

إلا إذا لعبت بها بيض المدى

انتهى .

من كلام الزمخشري .

ومن غريب ما رأينا تسمية النصارى بهذه الصفة التي هي صفة لله تعالى : الأكرم ، والرشيد ، وفخر السعداء ، وسعيد السعداء ، والشيخ الرشيد ، فيا لها مخزية على من يدعوهم بها .

يجدون عقباها يوم عرض الأقوال والأفعال ، ومفعولا علم محذوفان ، إذ المقصود إسناد التعليم إلى الله تعالى .

(104/823)

وقدر بعضهم ﴿ الذي علم ﴾ الخط ، ﴿ بالقلم ﴾ : وهي قراءة تعزى لابن الزبير ، وهي عندي على سبيل التفسير ، لا على أنها قرآن لمخالفتها سواد المصحف .

والظاهر أن المعلم كل من كتب بالقلم .

وقال الضحاك : إدريس ، وقيل : آدم لأنه أول من كتب .

والإنسان في قوله : ﴿ علم الإنسان ﴾ ، الظاهر أنه اسم الجنس ، عدد عليه اكتساب العلوم بعد الجهل بها .

وقيل : الرسول عليه الصلاة والسلام .

﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ﴾ : نزلت بعد مدة في أبي جهل ، ناصب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) العداوة ، ونهاه عن الصلاة في المسجد ؛ فروي أنه قال : لئن رأيت محمداً يسجد عند الكعبة لأطأن على عنقه .

فيروى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رد عليه وانتهره وتوعده ، فقال أبو جهل : أيتوعدني محمد ! والله ما بالوادي أعظم نادياً مني .

ويروى أنه همّ أن يمنعه من الصلاة ، فكف عنه .

﴿ كلا ﴾ : ردع لمن كفر بنعمة الله عليه بطغيانه ، وإن لم يتقدم ذكره لدلالة الكلام عليه ، ﴿ إن الإنسان ليطغى ﴾ : أي يجاوز الحد ، ﴿ أن رآه استغنى ﴾ : الفاعل ضمير الإنسان ، وضمير المفعول عائد عليه أيضاً ، ورأى هنا من رؤية القلب ، يجوز أن يتحد فيها الضميران متصلين فتقول : رأيتني صديقك ، وفقد وعدم بخلاف غيرها ، فلا يجوز : زيد ضربه ، وهما ضميرا زيد .

وقرأ الجمهور : ﴿ أن رآه ﴾ بألف بعد الهمزة ، وهي لام الفعل ؛ وقيل : بخلاف عنه

بحذف الألف ، وهي رواية ابن مجاهد عنه ، قال : وهو غلط لا يجوز ، وينبغي أن لا يغلطه ، بل يتطلب له وجهاً ، وقد حذفت الألف في نحو من هذا ، قال :

وصاني العجاج فيما وصني . . .

يريد : وصاني ، فحذف الألف ، وهي لام الفعل ، وقد حذفت في مضارع رأى في قولهم : أصاب الناس جهد ولو تر أهل مكة ، وهو حذف لا ينقاس ؛ لكن إذا صحت الرواية به وجب قبوله ، والقراءات جاءت على لغة العرب قياسها وشاذها .

(105/823)

﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ : أي الرجوع ، مصدر على وزن فعلى ، الألف فيه للتأنيث ، وفيه وعيد للطاغي المستغني ، وتحقير لما هو فيه من حيث ما آله إلى البعث والحساب والجزاء على طغيانه .

﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ : تقدم أنه أبو جهل .

قال ابن عطية : ولم يختلف أحد من المفسرين أن الناهي أبو جهل ، وأن العبد المصلي وهو محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، انتهى .

وفي الكشاف ، وقال الحسن : هو أمية بن خلف ، كان ينهى سلمان عن الصلاة .

وقال التبريزي : المراد بالصلاة هنا صلاة الظهر .

قيل : هي أول جماعة أقيمت في الإسلام ، كان معه أبو بكر وعليّ وجماعة من السابقين ، فمرّ به أبو طالب ومعه ابنه جعفر ، فقال له : صل جناح ابن عمك وانصرف مسروراً ، وأنشأ أبو طالب يقول :

إن علياً وجعفراً ثقتي . . .

عند ملم الزمان والكرب

والله لا أخذل النبي ولا . . .

يخذله من يكون من حسبي

لا تخذلا وانصرا ابن عمكما . . .

أخي لأمّي من بينهم وأبي

ففرح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بذلك .

والخطاب في ﴿ أرأيت ﴾ الظاهر أنه للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وكذا ﴿ أرأيت ﴾ الثاني ، والتناسق في الضمائر هو الذي يقتضيه النظم .

وقيل : ﴿ أرأيت ﴾ خطاب للكافر التفت إلى الكافر فقال : أرأيت يا كافر ، إن كانت صلاته هدى ودعاء إلى الله وأمراً بالتقوى ، أتنهاه مع ذلك ؟ والضمير في ﴿ إن كان ﴾ ، وفي ﴿ إن كذب ﴾ عائد على الناهي .

قال الزمخشري : ومعناه أخبرني عن من ينهى بعض عباد الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ، وكان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد ، وكذلك إن كان على التكذيب للحق والتولي عن الدّين الصحيح ، كما نقول نحن .

﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ ، ويطلع على أحواله من هداة وضلالة ، فيجازيه على حسب ذلك ، وهذا وعيد ، انتهى .

(106/823)

وقال ابن عطية : الضمير في ﴿ إن كان على الهدى ﴾ عائد على المصلي ، وقاله الفراء وغيره .

قال الفراء : المعنى ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ ، وهو على الهدى وأمر بالتقوى ، والناهي مكذب متول عن الذكر ، أي فما أعجب هذا ألم يعلم أبو جهل بأن الله تعالى يراه ويعلم فعله ؟ فهذا تقرير وتوبيخ ، انتهى .

وقال : من جعل الضمير في ﴿ إن كان ﴾ عائداً على المصلي ، إنما ضم إلى فعل الصلاة الأمر بالتقوى ، لأن أبا جهل كان يشق عليه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمران :

الصلاة والدعاء إلى الله تعالى ، ولأنه كان (صلى الله عليه وسلم) لا يوجد إلا في أمرين : إصلاح نفسه بفعل الصلاة ، وإصلاح غيره بالأمر بالتقوى .

وقال ابن عطية : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ : إكمال التوبيخ والوعيد بحسب التوفيقات الثلاثة يصلح مع كل واحد منها ، يجاء بها في نسق .

ثم جاء بالوعيد الكافي بجميعها اختصاراً واقتضاباً ، ومع كل تقرير تكلمة مقدرة تتسع العبارات فيها ، وألم يعلم دال عليها مغن .

وقال الزمخشري : فإن قلت : ما متعلق ﴿ أرأيت ﴾ ؟ قلت : ﴿ الذي ينهى ﴾ مع الجملة الشرطية ، وهما في موضع المفعولين .

فإن قلت : فأين جواب الشرط ؟ قلت : هو محذوف تقديره : ﴿ إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ﴾ ، ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ ، وإنما حذف لدلالة ذكره في جواب الشرط الثاني .

فإن قلت : فكيف صح أن يكون ﴿ ألم يعلم ﴾ جواباً للشرط ؟ قلت : كما صح في قولك : إن أكرمتك أتكرمني ؟ وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه ؟ فإن قلت : فما ﴿ أرأيت ﴾ الثانية وتوسطها بين مفعولي ﴿ أرأيت ﴾ ؟ قلت : هي زائدة مكررة للتوكيد ، انتهى .

وقد تكلمنا على أحكام ﴿ أرأيت ﴾ بمعنى أخبرني في غير موضع منها التي في سورة الأنعام ، وأشبعنا الكلام عليها في شرح التسهيل .

(107/823)

وما قرره الزمخشري هنا ليس بجار على ما قررناه ، فمن ذلك أنه ادعى أن جملة الشرط في موضع المفعول الواحد ، والموصول هو الآخر ، وعندنا أن المفعول الثاني لا يكون إلا جملة استفهامية ، كقوله : ﴿ أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلاً وأكدى أعنده علم الغيب ﴾ ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً أطلع الغيب ﴾ ﴿ أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه ﴾ وهو كثير في القرآن ، فتخرج هذه الآية على ذلك القانون ، ويجعل مفعول ﴿ أرأيت ﴾ الأولى هو الموصول ، وجاء بعده ﴿ أرأيت ﴾ ، وهي تطلب مفعولين ، وأرأيت الثانية كذلك ؛ فمفعول ﴿ أرأيت ﴾ الثانية والثالثة محذوف يعود على ﴿ الذي ينهى ﴾ فيهما ، أو على ﴿ عبداً ﴾ في الثانية ، وعلى ﴿ الذي ينهى ﴾ في الثالثة على الاختلاف السابق في عود الضمير ، والجملة الاستفهامية توالى عليها ثلاثة طوالب ، فنقول : حذف المفعول الثاني لأرأيت ، وهو جملة الاستفهام الدال عليه الاستفهام المتأخر لدلالته عليه .

حذف مفعول أرأيت الأخير لدلالة مفعول أرأيت الأولى عليه .

وحذفا معاً لأرأيت الثانية لدلالة الأول على مفعولها الأول ، ولدلالة الآخر لأرأيت الثالثة على مفعولها الآخر .

وهؤلاء الطوالب ليس طلبها على طريق التنازع ، لأن الجمل لا يصح إضمارها ، وإنما ذلك من باب الحذف في غير التنازع .

وأما تجويز الزمخشري وقوع جملة الاستفهام جواباً للشرط بغير فاء ، فلا أعلم أحداً أجازه ، بل نصوا على وجوب الفاء في كل ما اقتضى طلباً بوجه مّا ، ولا يجوز حذفها إلا إن كان في ضرورة شعر .

﴿ كلا ﴾ : ردع لأبي جهل ومن في طبقته عن نهي عباد الله عن عبادة الله .

﴿ لئن لم ينته ﴾ عن ما هو فيه ، وعيد شديد ﴿ لنسفعاً ﴾ : أي لنأخذن ، ﴿ بالناصية ﴾ : وعبر بها عن جميع الشخص ، أي سحباً إلى النار لقوله : ﴿ فيؤخذ بالنواصي والأقدام ﴾ واكتفى بتعريف العهد عن الإضافة ، إذ علم أنها ناصية الناهي .

وقرأ الجمهور : بالنون الخفيفة ، وكتبت بالألف باعتبار الوقف ، إذ الوقف عليها بإبدالها ألفاً ، وكثر ذلك حتى صارت روياً ، فكتبت ألفاً كقوله :

ومهما تشأ منه فزارة تمنعا . . .

وقال آخر :

يحسبه الجاهل ما لم يعلما . . .

ومحبوب وهارون ، كلاهما عن أبي عمرو : بالنون الشديدة .

وقيل : هو مأخوذ من سفعته النار والشمس ، إذا غيرت وجهه إلى حال شديد .

وقال التبريزي : قيل : أراد لنسودن وجهه من السفعة وهي السواد ، وكفت من الوجه لأنها في مقدمة .

وقرأ الجمهور : ﴿ ناصية . . .

خاطئة ﴾ ، بجر الثلاثة على أن ناصية بدل نكرة من معرفة .

قال الزمخشري : لأنها وصفت فاستقبلت بفائدة ، انتهى .

وليس شرطاً في إبدال النكرة من المعرفة أن توصف عند البصريين خلافاً لمن شرط ذلك من غيرهم ، ولا أن يكون من لفظ الأول أيضاً خلافاً لزاعمه .

وقرأ أبو حيوة وابن أبي عبلة وزيد بن علي : بنصب الثلاثة على الشتم ؛ والكسائي في رواية : برفعها ، أي هي ناصبة كاذبة خاطئة ، وصفها بالكذب والخطأ مجازاً ، والحقيقة

صاحبها ، وذلك أحرى من أن يضاف فيقال : ناصية كاذب خاطىء ، لأنها هي المحدث عنها في قوله : ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ .

﴿ فليدع ناديه ﴾ : إشارة إلى قول أبي جهل : وما بالوادي أكبر نادياً مني ، والمراد أهل النادي .

وقال جرير :

لهم مجلس صهب السبال أذلة . . .

أي أهل مجلس ، ولذلك وصف بقوله : صهب السبال أذلة ، وهو أمر تعجبي ، أي لا يقدره الله على ذلك ، لو دعا ناديه لأخذته الملائكة عياناً .

وقرأ الجمهور : ﴿ سندع ﴾ بالنون مبنياً للفاعل ، وكتبت بغير واو لأنها تسقط في الوصل لالتقاء الساكنين .

وقرأ ابن أبي عبلة : سيدعى مبنياً للمفعول الزبانيه رفع .

﴿ كلا ﴾ : ردع لأبي جهل ، ورد عليه في : ﴿ لا تطعه ﴾ : أي لا تلتفت إلى نهيه وكلامه .

﴿ واسجد ﴾ : أمر له بالسجود ، والمعنى : دم على صلاتك ، وعبّر عن الصلاة بأفضل الأوصاف التي يكون العبد فيها أقرب إلى الله تعالى ، ﴿ واقترب ﴾ : وتقرّب إلى ربك .

وثبت في الصحيحين سجود رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وفي هذه السورة ، وهي من العزائم عند علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وكان مالك يسجد فيها في خاصية نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(110/823)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) ﴾

القراءات : ﴿ اقرأ ﴾ بالألف : الأوقية والأعشى وحمزة في الوقف ﴿ رآه ﴾ ممالة مكسورة الراء : حمزة وعلي وخلف ويحيى وعباس والخزار وابن مجاهد وأبو عون عن قنبل والنقاش عن ابن ذكوان . وقرأ أبو عمرو غير عباس والنجاري عن ورش بفتح الراء وكسر الهمزة . روى ابن مجاهد وأبو عون غير قنبل مفتوحة الراء مقصورة على وزن " رعه " .

الوقوف : ﴿ الذي خلق ﴾ ه ج لاتباع صلة بلا عطف فإن الجملة الثانية مفسرة للأولى المبهمة ، ولو جعل المعنى الذي خلق كل شيء ثم خص خلق الإنسان ازداد الوقف حسناً ﴿ علق ﴾ ه ج لأن ﴿ اقرأ ﴾ يصلح مستأنفاً وتكراراً للأول ﴿ الأكرم ﴾ ه لا ﴿ بالقلم ﴾ ه لا ﴿ يعلم ﴾ ه لا ﴿ ليطغى ﴾ ه لا ﴿ استغنى ﴾ ه ط ﴿ الرجعى ﴾ ه ط ﴿ ينهى ﴾ ه لا ﴿ صلى ﴾ ه ط ﴿ الهدى ﴾ ه لا ﴿ بالتقوى ﴾ ه ط ﴿ وتولى ﴾ ه ط ﴿ يرى ﴾ ه لا ﴿ خاطئة ﴾ ه لا ﴿ ناديه ﴾ ه لا ﴿ الزبانية ﴾ ه لا ﴿ كلا ﴾ ط على الردع ﴿ واقترب ﴾ ه .

(111/823)

التفسير : وقد مر في أوائل الكتاب أن أكثر المفسرين زعموا أن هذه السورة أول ما نزل من السماء . وفي الباء وجهان : الأول إنها زائدة وزيف بأنه خلاف الأصل وبأن معناه حينئذ : اذكر اسم ربك فلا يحسن من النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول : ما أنا بقارىء كما جاء في الحديث ، وبأنه كتحصيل الحاصل لأنه لم يكن له شغل سوى ذكر الله . والثاني وهو الأصح أنه نصب على الحال أي اقرأ القرآن مفتتحاً أو متلبساً باسم ربك وهو لغو . والباء للآلة وقد مر وجهه في تفسير البسملة . وكذا وجه من جعله متعلقاً ب ﴿ قرأ ﴾ الثانية

أي استعن باسم ربك واتخذه آلة في تحصيل هذا الذي عسر عليك . وقيل : هي بمعنى اللام أي اجعل هذا الفعل واقعاً لله كقولك " بنيت الدار باسم الأمير " . " وصنفت الكتاب باسم الوزير " . فالعبادة صارت لله تعالى لم يكن للشيطان فيها نصيب . وفي تخصيص الرب بالذكر في هذا الموضع معنيان : أحدهما ربيتك فلزمك القضاء والشكر فلا تتكاسل . والثاني أن الشروع ملزم للإتمام وقد ربيتك منذ كذا فكيف أضيعك بعد هذا فلا تفزع . ثم دل على كونه رباً بقوله ﴿ الذي خلق ﴾ أطلق الخلق أولاً ليتناول كل المخلوقات ، ثم خص الإنسان بالذكر لشرفه أو لعجيب فطرته ، أو لأن سوق الآية لأجله . ويجوز أن يكون الأول متروك المفعول إشارة إلى أنه لا خالق سواه ولا يتصف بهذا الاسم غيره ، وحينئذ يستدل به على إبطال مذهب المعتزلة في أن العبد خالق أفعال نفسه . قال أهل العلم : إن الحكيم إذا أراد أمر استعمل فيه التدريج كما يحكى أن زفر حين بعثه أبو حنيفة إلى البصرة لتقرير مذهبه لم يلتفتوا إلى قوله وأبوا عن قبوله ، فرجع إلى أبي حنيفة وأخبره بذلك فقال : إنك لم تعرف طريق التبليغ لكن ارجع إليهم واذكر في المسألة أقاويل المتهم ثم بين ضعفها ثم قل بعد ذلك ههنا قول آخر واذكر قولي وحجتي ، فإذا تمكن ذلك في قلبهم قل هذا قول أبي حنيفة فإنهم يقبلونه حينئذ .

والمقصود من الحكاية أن الله تعالى كان يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم هؤلاء عبدة الأوثان والفطام من المألوف شديد ، فلو خالفتهم أول مرة وصرحت عن محض الحق أبوا أن يقبلوه فاذكر لهم أولاً أنّهم المخلوقون من العلقة فلا يمكنهم الإنكار ، ثم قل ولا بد للفعل من فاعل فلا يمكنهم أن يضيفوا ذلك إلى الوثن لعلمهم بأنهم نحتوه ، فإذا تأملوا أنصفوا أن من لم يخلق لم يكن إلهاً ، والعلق جمع العلقة وإنما لم يقل علقة لأن الإنسان في معنى الجمع وفي تكرار اقرأ وجوه : اقرأ لنفسك ثم اقرأ للتبليغ أو اقرأ في خارج صلاتك ، أو الأول للتعلم والثاني للتعليم وهذا قريب من الأول . والأوجه أن يراد بالأول أوجد القراءة ويكون قوله ﴿ باسم ربك ﴾ متعلقاً ب ﴿ اقرأ ﴾ الثاني كما مر في تفسير البسملة ، قلت : ويمكن أن يكون الأول إشارة إلى كونه قارئاً بالقوة ولهذا رتب عليه خلق الإنسان من علق ، والثاني إشارة إلى كونه قارئاً بالفعل ولهذا وصف نفسه بالأكرمية ورتب عليه تعليم الخط والعلم . وفضائل الخط كثيرة حتى مدح بالرسائل والأشعار وكفاك في مدحه أنه تعالى حين عدد على الإنسان نعمة الخلق والتسوية وتعديل الأعضاء الظاهرة والباطنة وصف نفسه بالكرم قائلاً ﴿ ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك ﴾ [الانفطار : 6] وحيث من عليه بالخط والتعليم مدح ذاته بالأكرمية فقال متعرضاً ﴿ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ﴾ أي علم الإنسان بواسطة القلم أو علمه الكتابة بالقلم . يروى أن سليمان عليه السلام سأل

عفريتاً عن الكلام فقال : ريح لا يبقى . قال : فما قيده ؟ قال : الكتابة فإن القلم صياد يصيد العلوم يبكي تارةً ويضحك بركوعه يسجد الأنام وبحركته تبقى العلوم على ممر الليالي والأيام ، وقوله ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ يجوز أن يكون بياناً للأول أي علمه بالقلم كقول القائل " أحسنت إليك ملكتك الأموال وليتك الولايات . " ويحتمل أن يراد علم بالقلم وعلمه أيضاً غير ذلك . وفي

الآية إشارة إلى إثبات العلوم السمعية الموقوفة على النقل والكتابة بل إلى إثبات النبوة كما أن أول السورة يدل على الأوصاف الإلهية . قوله سبحانه ﴿ كلا ﴾ ذكر بعض العلماء أنه بمعنى حقاً لأنه ليس قبله ولا بعده شيء يتوجه إليه الردع . وقال صاحب الكشاف : إنه ردع لمن كفر بنعمة الله عليه وطغى وهذا معلوم من سياق الكلام وإن لم يذكر .

وقال مقاتل : كلا لا يعلم الإنسان أنه خلق من علقة وصار عالماً بعد أن كان جاهلاً وذلك لاستغراقه في حب المال والجاه فلا يتأمل في هذه الأحوال . ومعنى ﴿ أن رآه ﴾ لأن رأى نفسه فحذف حرف الجر على القياس ، وحذف النفس لخاصية فعل القلب وهي جواز الجمع بين ضميري الفاعل والمفعول فيه . وأكثر المفسرين على أن المراد بالإنسان ههنا إنسان واحد هو أبو جهل . ومنهم من يقول : خمس آيات من أول هذه السورة نزلت أولاً ثم نزل باقيها في أبي جهل بعد ذلك بزمان فضم إليها وقيل : نزلت فيه من قوله ﴿ أرأيت الذي ينهى ﴾ إلى آخر السورة والإنسان عام فإن قيل : لم قال في حق فرعون ﴿ إنه طغى ﴾ [النازعات : 17] وفي حق أبي جهل ﴿ ليطغى ﴾ قلنا : إنما أخبر بذلك عن فرعون قبل أن يلقاه موسى وقبل أن يعرض عليه الأدلة ، وأما هذه الآية فنزلت تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم حين رد أبو جهل عليه أقبح الرد . وأيضاً إن فرعون مع كامل سلطنته ما كان يؤذي موسى إلا بالقول وأبو جهل مع قلة جاهه كان يقصد قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وفرعون كان قد أحسن إلى موسى أولاً وقال آخراً ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ﴾ [يونس : 9] وأما أبو جهل فكان يحسد النبي صلى الله عليه وسلم في صباه وقال في آخر عمره : بلغوا عني محمداً أني أموت ولا أجد أبغض إليّ منه . وأيضاً إنهما وإن كانا رسولين لكن الحبيب في مقابلة الكليم كاليد في مقابلة العين ، والعاقل يصوم عينه فوق ما يصون يده بل يصون عينه باليد فلهذا كانت المبالغة ههنا أكثر . واعلم أن المال ليس سبباً

للطغيان على الإطلاق ولهذا ذهب جم غفير إلى أن الإنسان في الآية مخصوص وكيف لا وإنه لم يزد سليمان عليه السلام إلا تواضعاً وعبودية . روي أنه كان يجالس المساكين ويقول : مسكين جالس مسكيناً . وكان عبد الرحمن بن عوف من كبار الصحابة كثير المال ، وقال صلى الله عليه وسلم " نعم المال الصالح للرجل الصالح " ولو أنصف

(115/823)

العال وتأمل وجد نفسه في حال الغنى أشد افتقاراً إلى الله لأن الفقير لا يتمنى إلا سلامة نفسه والغني يتمنى سلامة نفسه وماله وأهله وجاهه : وقيل : السين في ﴿ استغنى ﴾ للطلب والمعنى أن الإنسان قد ينسى فضل الرب وعنايته في حالة أن رآه طلب الغنى فنال المنى بسبب الجهد والكد فينسب ذلك إلى كفاءته لا إلى عناية الله ، ولم يدر أنه كم من باذل وسعة في الحرص والطلب لم يحصل إلا على خفي حنين ، وأنه تعالى قد يرجع الغني آخر الأمر إلى حالة الفقر ليتحقق أن ذلك الغني لم يكن بفعله وكسبه ، وإنما ذلك بحول الله وقوته .

(116/823)

وههنا نكتة وهي أن أول السورة دل على فضيلة العلم وبعدها دل على مذمة المال فكفى ذلك مرغباً في العلم ومنفراً عن الدنيا . وفي قوله ﴿ إن إلى ربك ﴾ يا إنسان ﴿ الرجعى ﴾ أي الرجوع وعيد وتذكير كأنه قيل : مصيرك إلى الله وإلى حيث لا يدفع عنك المال والكسب فما هذه الحيلة والعصيان والكبر والطغيان ؟ يروى أن أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتزعم أن من استغنى طغى فاعل لنا جبال مكة فضة وذهباً لعلنا نأخذ منها فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك فنزل جبرائيل فقال : يقول الله إن شئت فعلنا ذلك ، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا ذلك ، ثم إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء عليهم . وروي أن أبا جهل لعنه الله قال : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم قال : فوالذي يحلف به لئن رأيته توطأت عنقه فجاءه ، وهو صلى الله عليه وسلم في الصلاة ثم نكص على عقبيه فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟ فقال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار فنزلت ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ أي أخبرني عمن ينهي بعض عباد الله وهذا خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم على وجه التعجب ، وفيه أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : " اللهم أعز الإسلام بعمر أو بأبي جهل بن هشام " ، وكأنه تعالى قال له : يا محمد كنت تظن أنه يعز به الإسلام وهو ينهى عن الصلاة التي هي أول أركان الإسلام وكان يلقب بأبي الحكم فقيل له : كيف يليق به هذا اللقب وهو ينهى العبد عن خدمة ربه ويأمر بعبادة الجماد ؟

وفي تنكير العبد دلالة على التفخيم كأنه قال : هو عبد لا يكتنه كنه إخلاصه في العبودية ولا يوصف شرح أخلاقه بالكلية . يروى أن يهودياً من فصحاء اليهود جاء إلى عمر في أيام خلافته وقال : أخبرني عن أخلاق رسولكم . فقال عمر : اطلب من بلال فهو أعلم به مني . ثم إن بلالاً دل على فاطمة عليها السلام وهي دلته على علي رضي الله عنه .

(117/823)

فلما سأل علياً رضي الله عنه قال : صف لي متاع الدنيا حتى أصف لك أخلاقه . فقال اليهودي : هذا لا يتيسر لي فقال علي رضي الله عنه : عجزت عن وصف الدنيا وقد حكم الله بقلته حيث قال ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ [النساء : 77] فكيف أصف أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وقد شهد الله بأنه عظيم في قوله ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [القلم : 4] والحاصل أنه سبحانه كأنه قال : ما أجهل من ينهى أشد الخلق عبودية عن الصلاة ، والنهي عن الصلاة مذموم عند العقلاء .

(118/823)

"يروى أن علياً رضي الله عنه رأى في المصلى أقواماً يصلون قبل صلاة العيد فقال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فقيل له : ألا تنهاهم ؟ فقال : أخشى أن أدخل تحت قوله ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ " فلم يصرح بالنهي . وأخذ أبو حنيفة منه هذا الأدب الجميل حين قاله له أبو يوسف : أيقول المصلي حين يرفع رأسه من الركوع : اللهم اغفر لي ؟ فقال : يقول ربنا لك الحمد ويسجد ولم يصرح بالنهي عن الدعاء . ويحتمل أن يراد بالتنكير الوحدة كأنه قيل : أيظن أبو جهل أنه لو لم يسجد محمد لي وهو عبد واحد لا أجد ساجداً غيره ولي من الملائكة المقربين ما لا يحصيه إلا الله . وفيه تفخيم شأن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان من شهرته بالعبودية لا يحتاج إلى سبق الذكر كقوله ﴿ أسرى بعبده ﴾ [الإسراء : 1] ﴿ أنزل على عبده ﴾ [الفرقان ﴾ وعن الحسن أن الناهي أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة . وأما الخطاب في قوله ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ فالأكثرون على أنه للنبي صلى الله عليه وسلم أيضاً ليكون على نسق واحد . وقال في الكشاف : معناه أخبرني أن ذلك الناهي إن كان على طريق سديد فيما ينهى عنه من عبادة الله تعالى . أو كان آمراً بالتقى فيما يأمر به من عبادة الأوثان كما يعتقد . أو كان على سيرة التكذيب والتولي عن الدين الصحيح كما نقول نحن ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ ويطلع على أحواله من هداه أو ضلاله فيجازيه على ذلك وهو وعيد . فقوله ﴿ الذي ينهى ﴾ مفعول أول ل ﴿ أرأيت ﴾ الأول و ﴿ أرأيت ﴾ الثاني مكرر

للتأكيد ولطول الكلام ، وقوله ﴿ إن كان على الهدى ﴾ مع ما عطف عليه مفعول ثانٍ له ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه جواب الشرط الثاني وهو قوله ﴿ ألم يعلم ﴾ ويجوز أن يكون ﴿ أرأيت ﴾ الثالث أيضاً مكرراً والجواب بالحقيقة هو ما تدل عليه هذه الجملة الاستفهامية كأنه قيل : إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أو كذب وتولى فإن الله مجازيه .

وقيل : إن

(119/823)

جواب الشرط الأول شيء آخر يدل عليه سياق الكلام والمراد : أرأيت إن صار هذا الكافر على حالة الهدى أو أمر بالتقوى بدل النهي عن عبادة الله ، أما كان يليق به ذلك إذ هو رجل عاقل ذو ثروة . ففيه تعجيب من حاله أنه كيف فوت على نفسه مراتب الكمال والإكمال واختار بدلها طريقي الضلال والإضلال . وقيل : الخطاب في ﴿ أرأيت ﴾ الثاني للكافر كأن الظالم والمظلوم عبدان قاما بين يدي مولاهما أو هما اللذان حضرا عند الحاكم أحدهما المدعي والآخر المبدعى عليه ، فيخاطب هذا مرة وهذا مرة ، فلما قال للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ التفت إلى الكافر وقال : أرأيت يا كافر إن كان صلاته هدى ودعاؤه إلى الدين أمراً بالتقوى أتنهاه مع ذلك ؟

ثم إن كان الخطاب في ﴿ أرأيت ﴾ الثالث للنبي صلى الله عليه وسلم فالمعنى : أرأيت يا محمد إن كذب هذا الكافر بتلك الدلائل الواضحة وتولى عن خدمة خالقه ألم يعلم بعقله أن الله يرى منه هذه الأعمال القبيحة حتى يصير زاجراً عنها ؟ وإن كان الخطاب للكافر فالمراد إن كان محمد كاذباً أو متوالياً ألا يعلم أن خالقه يراه حتى ينتهي فلا يحتاج إلى نهيك ؟ قالت العلماء : هذه الآية وإن نزلت في حق أبي جهل إلا أن كل من ينهى عن طاعة الله فهو شريك في وعيد أبي جهل ولا يرد عليه المنع عن الصلاة في الدار المغصوبة وفي الأوقات المكروهة ومنع المولى عبده عن قيام الليل وصلاة التطوع وزوجته عن الاعتكاف ، لأن ذلك لاستيفاء مصالح أخرى بإذن الله وحده ، ثم ردع أبا جهل عن نهيه أو عن عدم علمه بإحاطة الله بجميع الكائنات أو عن عزمه على أن يقتل محمداً أو يطأ رقبته ، فإن تلميذ محمد صلى الله عليه وسلم هو الذي يقتله ويطأ صدره ، والسفع القبض على الشيء وجذبه بشدة ومنه سفع النار للفحها كأنها تأخذ من الجسد بياضه وطراوته .

وقد كتب ﴿ لنسفعا ﴾ في المصحف بالألف على حكم الوقف لأن النون الخفيفة المؤكدة يوقف عليه بالألف ، واللام في قوله ﴿ بالناصية ﴾ للعهد والمراد لنأخذن بناصيته

ولنسحبنه بها إلى النار ثم إن هذا السفع إما أن يكون إلى نار الآخرة وهو ظاهر ، وإما أن يكون في الدنيا كما روي أنه عاد إلى النهي فمكن الله المسلمين يوم بدر حتى جروه بالناصية . يحكى أنه لما نزلت سورة الرحمن قال النبي صلى الله عليه وسلم : من يقرأوها على رؤساء قريش ؟ فتثاقل القوم مخافة أذيتهم فقام ابن مسعود فقال : أنا . فأجلسه النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يعلم من صعفه ثم قال : من يقرأوها عليهم ؟ فلم يقم إلا ابن مسعود فأجلسه ثم قال في الثالثة كذلك فلم يقم إلا هو فأذن له ، فحين دخل عليهم وكانوا مجتمعين حول الكعبة قرأ السورة فقام أبو جهل فلطمه فانشق أذنه فأدماه فانصرف وعينه تدمع ، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم رق قلبه وأطرق رأسه مغموماً فإذا جبرائيل جاء ضاحكاً مستبشراً فقال : يا جبرائيل تضحك وابن مسعود يبكي ، فقال : ستعلم فلما كان يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في الجهاد فقال صلى الله عليه وسلم : خذ رمحك والتمس في الجرحى من كان به رمق فاقتله فإنك تنال ثواب المجاهدين . فأخذ يطالع القتلى فإذا أبو جهل مصروع فخاف أن يكون به قوة فيؤذيه فوضع الرمح على منخره من بعيد فطعنه .

ولعل هذا معنى قوله ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ [القلم : 15] ثم لما عرف عجزه لم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه فارتقى إليه بحيلة ، فلما رآه أبو جهل قال : يا رويعي الغنم لقد ارتقيت مرتقى صعباً . فقال ابن مسعود : الإسلام يعلو ولا يعلى عليه . ثم قال أبو جهل : بلغ صاحبك أنه لم يكن أحد أبغض إليّ منه في حال حياتي ولا أحد أبغض إليّ منه في حال مماتي فروي أنه صلى الله عليه وسلم لما سمع ذلك قال : فرعوني أشد من فرعون موسى عليه السلام فإنه قال " آمنت " وهو قد زاد عتواً . ثم قال لابن مسعود : اقطع رأسي بسيفي هذا لأنه أحد وأقطع . فلما قطع رأسه لم يقدر على حمله . قال أهل العلم : ولعل الحكيم سبحانه إنما خلقه ضعيفاً لأجل أن لا يقوى على الحمل لوجوه منها : أنه كلب والكلب يجر . والثاني ليشق أذنه فتقتص الأذن بالأذن . والثالث تحقق الوعد المذكور في قوله ﴿ لنسفعا ﴾ فإن ابن مسعود لما لم يطقه شق أذنه وجعل الخيط فيه وجعل يجره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبرائيل عليه السلام بين يديه يضحك ويقول : يا محمد أذن بأذن لكن الرأس ههنا مع لأذن . والناصية شعر الجبهة ، وقد يسمى مكان الشعر ناصية ، وقد كنى ههنا عن الوجه والرأس بالناصية قالوا : السبب فيه أن أبا جهل كان مهتماً بترجيل الناصية وتطييبها فلقاه الله تقيض المقصود حين أعرض عن حكم المعبود . ثم وصف الناصية بأنها ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ كذب صاحبها وخطأه حين سمى النبي صلى الله عليه وسلم الصادق ساحراً كذاباً ، أو حين زعم أنه أكثر أهل

الوادي نادياً ، والخاطئ أفظع من المخطئ ولهذا قال ﴿ لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ [الحاقة : 37] فالخاطئ معاقب مأخوذ والمخطئ لا يكون مأخوذاً ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . وقوله ﴿ ناصية ﴾ بدل الكل من الأول ، ووجه حسنها كونها موصوفة كما علم من قواعد النحو . يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أغلظ في القول لأبي جهل وتلا عليه هذه الآيات قال

(122/823)

: يا محمد بمن تهددني وإني أكثر هذا الوادي نادياً أي أهل مجلس ، لأملأن عليك هذا الوادي خيلاً جرداً ورجالاً مرداً فزاد الله في تهديده قائلاً ﴿ فليدع ناديه سندع الزبانية ﴾ والزباني كل متمرد من جن وإنس ومثله " زبنية " بتخفيف الياء كعفريت وعفرية وأصله من الزبن الدفع ، ولعل كسر الزاي لتغيير النسب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : لو دعا نادية لأخذته الزبانية عياناً . قال مقاتل : هم خزنة جهنم أرجلهم في الأرض ورؤوسهم في السماء . قال قتادة : الزبانية الشرط بلغة العرب أي الحرس ، وقيل : هي جمع لا واحد له . ثم ردع أبا جهل عن قبائح أحواله وأفعاله بقوله ﴿ كلا ﴾ وشجع النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ﴿ لا تطعه ﴾ ثم قال ﴿ واسجد واقترب ﴾ أي دم على سجودك

وتقرب به إلى ربك ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " أقرب ما يكون العبد إلى ربه إذا سجد " وقيل : صل وتوفر على عبادة الله فعلاً وإبلاغاً . وقيل : اسجد يا محمد واقترب يا أبا جهل وضع قدمك عليه فإن الرجل ساجد مشغول بنفسه وهذا تهكم به وتعريض بأن الله سبحانه وتعالى عاصم نبيه وحافظه والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 528.534 ﴾

(123/823)

وقال الخطيب الشربيني :

سورة العلق

مكية وهي عشرون آية واثنتان وسبعون كلمة ومائتان وسبعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي له صفة الكمال المستحق للإلهية ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم جوده سائر البرية ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل طاعته بألطافه السنية .

عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد : أنّ أوّل سورة نزلت من القرآن .

(124/823)

﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ وأوّل ما نزل خمس آيات من أولها إلى قوله تعالى : ﴿ ما لم يعلم ﴾

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أنها قالت : "أوّل ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة" ولمسلم "الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ، وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق" . وفي رواية "حتى فجاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال له : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، . قلت : ما أنا بقارئ ، . قال : فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، . قلت : ما أنا بقارئ ، . قال : فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني ، فقال : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ حتى بلغ ﴿ ما لم يعلم ﴾ فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة : لقد خشيت على نفسي ، فقالت له خديجة : كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصر في

الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله تعالى أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل على موسى يا ليتني أكون فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجيّ هم ؟ فقال : نعم ،

لم يأت رجل قط بمثل

ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي وفتر الوحي" زاد البخاري قال : "وفتر الوحي حتى حزن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حزناً غدا منه مراراً حتى يتردّى من رؤوس شواهق الجبال ، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل عليه السلام فقال له : يا محمد إنك لرسول الله حقاً فيسكن لذلك جأشه ، وتقرّ نفسه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا مثل ذلك ، فإذا وافى بذروة جبل تبدى له جبريل فقال له : مثل ذلك" . ففي الحديث دليل

صحيح على أن سورة اقرأ أوّل ما نزل من القرآن ، وفيه ردّ على من قال : إنّ المدثر أول ما نزل من القرآن ، وعلى من قال : إنّ الفاتحة أوّل ما نزل ثم سورة القلم . وفي هذا الحديث من مراسيل الصحابة ، ومرسل الصحابي حجة عند جميع العلماء إلا ما انفرد به الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني . وإنما ابتدئ صلى الله عليه وسلم بالرؤيا لئلا يفجأه الملك فيأتيه بصريح النبوّة بغتة فلا تحملها القوى البشرية ، فبدئ بأوائل علامة النبوّة توطئة للوحي .

تنبيه : محل ﴿ باسم ربك ﴾ النصب على الحال ، أي : اقرأ مفتتحاً باسم ربك أو مستعيناً به ، قل : بسم الله ثم اقرأ . وقال أبو عبيدة : مجازه اقرأ اسم ربك ، يعني : أنّ الباء زائدة ، والمعنى : اذكر اسمه ، أمر أن يبتدئ القراءة باسم الله تعالى تأديباً . وقيل : الباء بمعنى على ، أي : أقرأ على اسم ربك كما في قوله تعالى : ﴿ وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها ﴾ (هود :)

قاله الأخفش . فإن قيل : كيف قدم هذا الفعل على الجارر وقدر مؤخراً في بسم الله الرحمن الرحيم ، أي : على سبيل الأولوية كما في ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ (الفاتحة :) ولأنه تعالى مقدم ذاتاً لأنه قديم واجب الوجود لذاته فيقدم ذكراً ؟

أجيب : بأن هذا في ابتداء القراءة وتعليمها لما مرّ أنها أول سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم باعتبار هذا العارض ، وإن كان ذكر الله تعالى أهم في نفسه . وذكرت أجوبة غير هذا في مقدّمتي على البسلمة والحمدلة

وقوله تعالى : ﴿ الذي خلق ﴾ يجوز أن لا يقدّر له مفعول ، ويراد أنه الذي حصل منه الخلق واستأثر به لا خالق سواه وأن يقدّر له مفعول ويراد خلق كل شيء فيتناول كل مخلوق لأنه مطلق فليس بعض المخلوقات أولى بتقديره من بعض .

وقوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان ﴾ أي : هذا الجنس الذي من شأنه الإنس بنفسه ، وما رأى من أخلاقه وحسنه وما ألفه من أبناء جنسه تخصيص بالذكر من بين ما يتناوله الخلق لأنّ التنزيل إليه وهو أشرف ما على الأرض ويجوز أن يراد الذي خلق الإنسان كما قال الله تعالى : ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان ﴾ (الرحمن : .)

فقيل : الذي خلق مبهماً ، ثم فسره بقوله : ﴿ خلق الإنسان ﴾ تفخيماً لخلق الإنسان ودلالة على عجيب فطرته وقوله تعالى : ﴿ من علق ﴾ جمع علقة وهي الدم الجامد ، فإذا جرى فهو المسفوح ولما كان الإنسان اسم جنس في معنى الجمع جمع العلق ، ولمشاكلة رؤس الآي أيضاً

وقوله تعالى : ﴿ اقرأ ﴾ تكرير للمبالغة ، أو الأول مطلق والثاني للتبليغ ، أو في الصلاة قال البيضاوي : ولعله لما قيل له : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ قال ما أنا بقارئ فقيل له اقرأ :

﴿ وربك الأكرم ﴾ أي: الزائد في الكرم على كل كريم، فإنه ينعم على عباده النعم التي لا تحصى، ويحلم عنهم ولا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه، وركوبهم المناهي في إطراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم، فما لكرمه غاية ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكرّم بإفادة الفوائد العلمية تكرّم حيث قال الأكرم:

﴿ الذي علم ﴾ أي: بعد الحلم عن معاجلتهم بالعقاب جوداً منه تعالى من غير مانع من خوف عاقبة، ولا رجاء منفعة ﴿ بالقلم ﴾ أي: الخط بالقلم.

(127/823)

﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ فدل على كمال كرمه بأنه علّم عباده ما لم يعلموه، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم، ولا ضبطت أخبار الأوّلين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق حكمة الله تعالى ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط لكفى به. ولبعضهم في صفة القلم:

*وروا قم رقش كمثل أراقم ** قطف الخطا نيالة أقصى المدى*

*سود القوائم ما يجدّ مسيرها ** إلا إذا لعبت بها بيض المدى*

وقال قتادة : القلم نعمة من الله تعالى ، ولولا ذلك لم يقم دين ولم يصلح عيش فدل على كمال كرمه تعالى . وروى عبد الله بن عمر قال : "قلت : يا رسول الله أكتب ما أسمع منك من الحديث قال : نعم فاكتب فإنّ الله تعالى علم بالقلم" . ويروى أنّ سليمان عليه السلام سأل عفريتاً عن الكلام فقال : ريح لا يبقى ، . فقال : فما قيده ؟ قال : الكتابة . وعن عمر قال : خلق الله تعالى أربعة أشياء بيده ، ثم قال تعالى لسائر الحيوان : كن فكان ، وهي القلم والعرش وجنة عدن وآدم عليه السلام .

وفيمن علم بالقلم ثلاثة أقوال : أحدها : قال كعب : أوّل من كتب بالقلم آدم عليه الصلاة والسلام . ثانيها : قال الضحاك : إدريس عليه السلام . ثالثها : أنه جميع من كتب بالقلم لأنه ما علم إلا بتعليم الله تعالى .

وقال القرطبي : الأقلام ثلاثة في الأصل : القلم الأوّل : الذي خلقه الله تعالى بيده وأمره أن يكتب في اللوح المحفوظ ، والثاني : قلم الملائكة الذي يكتبون به المقادير والكوائن ، والثالث : أقلام الناس يكتبون بها كلامهم ويصلون بها إلى مآربهم . وعن ابن مسعود قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تسكنوا نساءكم الغرف ولا تعلموهنّ الكتابة" . قال بعض العلماء : وإنما حذرهم صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، لأنّ في إسكانهنّ الغرف تطلعاً إلى الرجال وليس في ذلك تحصين لهنّ ولا تستر ، وذلك أنهنّ لا يملكن أنفسهنّ حين يشرفن على الرجال فتحدث الفتنة فحذر من ذلك ، وكذلك تعليم الكتابة ربما كان سبباً للفتنة لأنها قد تكتب لمن تهوى ، والكتابة عين من العيون بها يبصر الشاهد الغائب ، والخط إشارة اليد وفيها تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان ، فهي أبلغ من اللسان فأحب صلى الله عليه وسلم أن يقطع عن المرأة أسباب الفتنة تحصيناً لها .

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردع لمن كفر بنعمة الله تعالى بطغيانه ، وإن لم يذكره لدلالة الكلام عليه ، فإنه تعالى قد عدّ مبدأ أمر الإنسان ومنتهاه إظهاراً لما أنعم عليه من أن نقله من أحسن المراتب إلى أعلاها تقريراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميته ، ﴿ إن الإنسان ﴾ أي : هذا النوع الذي من شأنه الأنس بنفسه والنظر في عطفه ﴿ ليطغى ﴾ أي : من شأنه إلا من عصمه الله تعالى أن يزيد على الحدّ الذي لا ينبغي له مجاوزته .

﴿ أن رآه ﴾ أي : رأى نفسه ﴿ استغنى ﴾ أي : وجد له الغنى بالمال وقيل : أن يرتفع عن منزلته في اللباس والطعام وغير ذلك . نزلت في أبي جهل كان إذا زاد ماله زاد في ثيابه ومركبه وطعامه فذلك طغيانه . وعن ابن عباس رضي الله عنهما لما نزلت هذه الآية وسمع بها المشركون أتاه أبو جهل ، فقال : يا محمد أتزعم أنّ من استغنى طغى فاجعل لنا جبال مكة ذهباً لعلنا نأخذ فنطغى فندع ديننا ونتبع دينك ، قال : فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد خيرهم في ذلك فإن شاؤوا فعلنا بهم ما أرادوا ، فإن لم يفعلوا فعلنا بهم كما فعلنا بأصحاب المائدة ، فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إبقاء لهم . وقيل : ﴿ أن رآه استغنى ﴾ بالعشيرة والأنصار والأعوان ، وحذف اللام من قوله تعالى : ﴿ أن رآه ﴾ كما يقال إنكم لتطغون أن رأيتم غناكم ، فرأى علمية واستغنى مفعول ثان ، وأن رأى مفعول له .

﴿ إنَّ إلى ربك ﴾ أي : المحسن إليك بالرسالة التي رفع بها ذكرك لا إلى غيره ﴿ الرجعى ﴾ مصدر كالبشرى بمعنى الرجوع ، ففي ذلك تخويف للإنسان بأن يجازي العاصي بما يستحقه .

وقوله تعالى : ﴿ أرأيت ﴾ في مواضعها الثلاث للتعجب ﴿ الذي ينهى ﴾ أي : على سبيل التجدد والاستمرار وهو أبو جهل .

﴿ عبداً ﴾ أي : من العبيد وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ إذا صلى ﴾ أي : خدم سيده الذي لا يقدر أحد أن ينكر سيادته بإيقاع الصلاة التي هي أعظم العبادات . نزلت في أبي جهل وذلك أنه نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الصلاة . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟ فقالوا : نعم . فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته ، ولأعفرنّ وجهه في التراب ، . قال : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ليطأ على رقبته فنكص على عقبيه وهو يتقي بيده ، فقيل : له : مالك ؟ ، فقال : إن بيني وبينه خندقاً من النار وهولاً وأجنحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً فأنزل الله تعالى هذه الآية" . وفي رواية "لو فعله لأخذته الملائكة" زاد الترمذي : "عياناً" . وعن الحسن أنه أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة وفائدة التنكير في قوله تعالى : ﴿ عبداً ﴾ الدلالة على أنه كامل العبودية ، كأنه قيل : ينهى أشدّ الخلق عبودية عن العبادة وهذا عين الجهل .

وقيل : إن هذا الوعيد يلزم كل من ينهى عن الصلاة عن طاعة الله تعالى ولا يدخل في ذلك المنع من الصلاة في الدار المغصوبة ، وفي الأوقات المكروهة لأنه قد ورد النهي عن ذلك في الأحاديث الصحيحة ولا يدخل أيضاً منع السيد عبده والرجل زوجته عن صوم التطوع

وقيام الليل والاعتكاف، لأنّ ذلك مصلحة إلا أن يأذن فيه السيد والزوج.

﴿ أرأيت إن كان ﴾ أي: المنهي وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ على الهدى ﴾ وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء، وعن ورش إبدالها ألفاً، وأسقطها الكسائي، والباقون بالتحقيق

وقوله تعالى: ﴿ أو أمر بالتقوى ﴾ أي: بالإخلاص والتوحيد للتقسيم.

تنبيه: قوله تعالى: ﴿ أرأيت ﴾ تكرير للأوّل وكذا الذي في قوله:

﴿ أرأيت إن كذب ﴾ وهو أبو جهل ﴿ وتولى ﴾ عن الإيمان.

(131/823)

﴿ ألم يعلم ﴾ أي: يقع له علم يوماً من الأيام ﴿ بأن الله ﴾ الذي له صفات الكمال ﴿ يرى ﴾ ويطلع على أحواله من هداه وضلاله فيجازيه على حسب ذلك، أي: أعجب منه يا مخاطب في نهيه عن الصلاة من حيث إنّ المنهي على الهدى آمر بالتقوى وفي وجه التعجب وجوه:

أحدها: إنه صلى الله عليه وسلم قال "اللهمّ أعز الإسلام إمّا بأبي جهل وإمّا بعمر بن الخطاب" وهو ينهى عبداً إذا صلى.

الثاني : إنه يلقب بأبي الحكم فقيل : أيلقب بهذا وهو ينهى عن الصلاة فيتعجب منه ، ومن حيث أن الناهي مكذب متول عن الإيمان .

الثالث : إنه كان يأمر وينهى ويعتقد وجوب طاعته ثم إنه ينهى عن طاعة الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردع للناهي ﴿ لئن لم ينته ﴾ أي : عما هو فيه واللام لام قسم ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ أي : لنأخذن بناصيته ولنسحبنه بها إلى النار والسفع القبض على الشيء وجذبه بشدّة . قال عمرو بن معديكرب:

*قوم إذا نقع الصريخ رأيتهم ** ما بين ملجم مهره أو سافع*

والنقع الصوت . ولما علم أنها ناصية المذكور اكتفى باللام عن الإضافة ، والآية وإن كانت في أبي جهل فهي عظة للناس وتهديد لمن يمنع غيره عن طاعة الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ ناصية ﴾ بدل من الناصية قال الزمخشري : وجاز بدلها عن المعرفة وهي نكرة لأنها وصفت ، أي : ب﴿ كاذبة خاطئة ﴾ واستقلت بفائدة واعترض عليه بأنّ هذا مذهب الكوفيين فإنهم لا يجيزون إبدال نكرة من معرفة إلا بشرط وصفها ، أو كونها بلفظ الأوّل ومذهب البصريين لا يشترط شيء ، والمعنى : لنأخذن بناصية أبي جهل الكاذبة في قولها الخاطئة في فعلها ، والخاطئ معاقب مأخوذ والمخطئ غير مأخوذ ووصفت الناصية بالكاذبة الخاطئة كوصف الوجوه في قوله تعالى : ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ (القيامة :)

وإنما وصفت الناصية بالكاذبة لأنه كان يكذب على الله تعالى في أنه لم يرسل محمداً صلى الله عليه وسلم وعلى رسوله في أنه ساحر وليس بنبي ووصفت بأنها خاطئة لأنّ صاحبها تمرّد على الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ (الحاقة :) فهما في الحقيقة لصاحبها وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطىء .

وروي أنّ أبا جهل مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي فقال : ألم أنهك فأغلظ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أتنهرني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً ، فوالله لأملأنّ عليك هذا الوادي إن شئت خيلاً جرداً ورجالاً مرداً فأنزل الله تعالى:

﴿ فليدع ﴾ أي : دعاء استغاثة ﴿ ناديه ﴾ أي : أهل ناديه ليعينوه فهو على حذف مضاف ، لأنّ النادي هو المجلس الذي ينتدى فيه القوم قال تعالى : ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ (العنكبوت :)

أي : يتحدّثون فيه أو على التجوّز لأنه مشتمل على الناس كقوله تعالى : ﴿ واسأل

القرية﴾ (يوسف :)

ولا يسمى المكان نادياً حتى يكون فيه أهله ، والمعنى فليدع عشيرته فلينتصر بهم .

(133/823)

﴿سندع﴾ أي : بوعد لا خلف فيه ﴿الزبانية﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد زبانية جهنم سموا بها لأنهم يدفعون أهل النار إليها بشدّة ، جمع زبني مأخوذ من الزبن وهو الدفع . وقال الزمخشري : الزبانية في كلام العرب الشُّرط الواحد زبنية . وقال الزجاج : هم الملائكة الغلاظ الشداد . قال ابن عباس رضي الله عنهما : لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله تعالى . وروي "أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه السورة وبلغ إلى قوله تعالى : ﴿لنسفعاً بالناصية﴾ قال : أبو جهل : أنا أدعو قومي حتى يمنعوا عني ربك" . قال الله تعالى : ﴿فليدع ناديه سندع الزبانية﴾ فلما ذكر الزبانية رجع فزعاً ، فقيل : له : خشيت منه ؟ قال : لا ولكن رأيت عنده فارساً وهدّدني بالزبانية فلا أدري الزبانية ، ومال إليّ الفارس فخشيت منه أن يأكلني . قال ابن عباس رضي الله عنهما : والله لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته" .

وقوله تعالى : ﴿كلا﴾ ردع لأبي جهل ، أي : ليس الأمر على ما يظنه أبو جهل ﴿ولا

تطعه ﴾ أي : فيما دعاك إليه من ترك الصلاة كقوله تعالى : ﴿ ولا تطع المكذبين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واسجد ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى السجود في الصلاة ، وأن يكون سجود التلاوة في هذه السورة ، ويدل لهذا ما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : سجدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ (الانشقاق :)

(134/823)

وفي ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ سجدتين ، وهذا نص أن المراد سجود التلاوة ، ويدل للأوّل قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ كلا لا تطعه واسجد ﴾ أي : ودم على سجودك . قال الزمخشري : يريد الصلاة لأنه لا يرى سجود التلاوة في المفصل والحديث عليه . ﴿ واقترب ﴾ أي : وتقرّب إلى ربك بطاعته وبالدعاء إليه . قال صلى الله عليه وسلم "أما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن ـ أي : فحقيق ـ أن يستجاب لكم" . "وكان صلى الله عليه وسلم يكثر في سجوده من البكاء والتضرّع حتى قالت عائشة رضي الله عنها : قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء في السجود ؟ وما هذا الجهد الشديد ؟

قال : أفلا أكون عبداً شكوراً" . وفي رواية : "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء" . وقرأ ليطغى ، واستغنى ، إذا صلى ، على الهدى ، بالتقوى ، وتولى حمزة والكسائي جميع ذلك بالإمالة محضة ، وورش وأبو عمرو بين بين والفتح عن ورش قليل ، والباقون بالفتح . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة العلق أعطي من الأجر كأنما قرأ المفصل كله" حديث موضوع . انتهى .

ا هـ ﴿السراج المنير حـ 8 صـ 380.388﴾

(135/823)

وقال القاسمى :

سورة العلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

أي : اقرأ ما يوحى إليك من القرآن ملتبساً باسمه تعالى ، أي : مبتدئاً به لتتحقق مقارنته لجميع أجزاء المقروء . قال أبو السعود : والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية ، والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام ، وللإشعار

بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية ، بإنزال الوحي المتواتر .

ووصف الرب بقوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ لتذكير أول النعماء الفائضة عليه صلى الله عليه وسلم منه تعالى . والتنبيه على أن من قدر على خلق الْإِنْسَانْ على ما هو عليه من الحياة ، وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية ، من مادة لم تشم رائحة الحياة فضلاً عن سائر الكمالات ، قادر على تعليم القراءة للحي العالم المتكلم ، أي : الذي أنشأ الخلق واستأثر به أو خلق كل شيء .

وقال الإمام : ترى من سياق الرواية التي قدمناها أن المتبادر من معنى الآية الأولى : كن قارئاً باسم الله من قبيل الأمر التكويني . فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئاً ولا كاتباً ؛ ولذلك كرر القول مرارا : < ما أنا بقارئ > . وبعد ذلك جاء الأمر الإلهي بأن يكون قارئاً وإن لم يكن كاتباً ، فإنهُ سينزل عليه كتاب يقرؤه وإن كان لا يكتبه . ولذلك وصف الرب بالذي خلق ، أي : الذي أوجد الكائنات التي لا يحيط بها الوصف ، قادر أن يوجد فيك القراءة وإن لم يسبق لك تعلمها ؛ لأنك لم تكن تدري ما الكتاب . فكأن الله يقول : كن قارئاً بقدرتي وبإرادتي . وإنما عبر بالاسم ، لأنه كما سبق في سورة سبّح ، دال على ما تعرف به الذات ، وخلق القراءة يلفتك إلى الذات وصفاتها جميعاً ، لأن القراءة علم في نفس حية ؛ فهي تخط ببالك من الله وجودهُ وعلمه وقدرته وإرادته .

أما إذا حملنا الأمر على التكليف وقلنا : إن المعنى أنك مأمور إذا قرأت أن تقرأ باسم الله – وهو خلاف المتبادر – فيكون معنى ذلك : إذا قرأت فاقرأ دائماً على أن تكون قراءتك عملاً تنفذه لله لا لغيره ، فلو فرض أنهُ قرأ وجعل قراءتهُ لله لا لأحد سواه ولم يذكر الاسم ، فهو قارئ باسم الله ، وإنما طلبت التسمية باللسان لتكون منبهة للضمير في بداية كل عمل ، إلى أن يرجع إلى الله في ذلك العمل . ويلاحظ أنه يعمل لاسمه لا لاسم غيره سبحانه . انتهى . وهو جيد .

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ أي : دم جامد ، وهي حالة الجنين في الأيام الأولى لخلقه ، وتخصيص خلق الْإِنْسَانْ بالذكر من بين سائر المخلوقات ، لاستقلاله ببدائع الصنع والتدبير وتفخيماً لشأنه ؛ إذ هو أشرفها وإليه التنزيل . وهو المأمور بالقراءة وإنما قال : ﴿ عَلَّقَ ﴾ دون علقة كما في الآية الأخرى ، لرعاية الفواصل ، ولأن ﴿ الْإِنْسَانْ ﴾ مراد به الجنس . فهو في معنى الجمع ؛ فلذا جمع ما خلق منه ليطابقه . وخص العلق دون غيره من التارات ، لأنه أدل على كمال القدر ، من المضغة ، مع استلزامه لما تقدمهُ ، ومع رعاية الفواصل .

قال الإمام : أي : ومن كان قادراً على أن يخلق من الدم الجامد إنساناً ، وهو الحيّ الناطق الذي يسود بعلمه على سائر المخلوقات الأرضية ، ويسخرها لخدمته ، يقدر أن يجعل من الْإِنْسَانْ الكامل مثل النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً ، وإن لم يسبق له تعلم القراءة . وجاء بهذه الآية بعد سابقتها ، ليزيد المعنى تأكيداً ، كأنه يقول لمن كرر القول أنه ليس بقارئ : أيقن أنك قد صرت قارئاً بإذن ربك الذي أوجد الكائنات ، وما القراءة إلا واحدة منها .

والذي أنشأ الْإِنْسَانْ خلقاً كاملاً من دم جامد لا شكل فيه ولا صورة . وإنما القراءة صفة عارضة على ذلك الْإِنْسَانْ الكامل ، فهي أولى بسهولة الإيجاد ، ولما كانت القراءة من الملكات التي لا تكسبها النفس إلا بالتكرار ، والتعوّد على ما جرت به العادة في الناس ، ناب تكرار الأمر الإلهي عن تكرار المقروء ، في تصييرها ملكة للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ فلهذا كرر الأمر بقوله : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ وجملة ﴿ وَرَبُّكَ ﴾ إلخ استئنافية لبيان أن الله أكرم من كل من يرتجي منه الإعطاء ، فيسيرٌ عليه أن يفيض عليك هذه النعمة ، نعمة القراءة من بحر كرمه . ثم أراد أن يزيده اطمئناناً بهذه الموهبة الجديدة ، فوصف مانحها بأنه ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ أي : أفهم الناس بواسطة القلم كما أفهمهم بواسطة اللسان .

والقلم آلة جامدة لا حياة فيها ، ولا من شأنها في ذاتها الإفهام ؛ فالذي جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان ، ألا يجعل منك قارئاً مبيّناً وتالياً معلماً وأنت إنسان كامل ؟ ثم أراد أن يقطع الشبهة من نفسه ، ويبعد عنه استغراب أن يقرأ ولم يكن قارئاً ، فقال :

﴿ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ أي : أن الذي صدر أمرهُ بأن تكون قارئاً ، وأوجد فيك ملكة القراءة والتلاوة ، وسيبلغك فيها مبلغاً لم يبلغهُ سواك ، هو الذي علم الْإِنْسَانْ جميع ما هو متمتع به من العلم

(138/823)

، وكان في بدء خلقه لا يعلم شيئاً ، فهل يستغرب من هذا المعلِّم الذي ابتدأ العلم للإنسان ولم يكن سبق له علم بالمرة ، أن يعلمك القراءة وعندك كثير من العلوم سواها ونفسك مستعدة بها لقبول غيرها ؟ انتهى .

تنبيهات :

(139/823)

الأول : قال الإمام ابن القيم في " مفتاح دار السعادة " في مباحث عجائب الْإِنْسَانْ وما خلقه من الحكم : ثم تأمل نعمة الله على الْإِنْسَانْ بالبيانين : البيان النطقي والبيان الخطي ، وقد اعتد بهما سبحانه في جملة ما اعتد به من نعمة على العبد ، فقال في أول سورة أنزلت على

رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه، فذكر أولاً عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي، ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الْإِنْسَانْ لأنه موضع العبرة. والآية فيه عظيمة، ومن شهوده عما فيه محض تعداد النعم. وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقة. وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها. أما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهين، وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقة؛ فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة، ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده؛ إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف، وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم، إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم؛ فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع، كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان؛ فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجلّ النعم، والتعليم

به – وإن كان مما يخلص إليه الْإِنْسَانْ بالفطنة والحيلة – فإن الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله إياه، وزيادة في خلقه وفضله . فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإنه علمه فتعلّم كما أنه علمه الكلام فتكلم، هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخطّ به، ومن هيأ ذهنهُ لقبول هذا التعلم دون سائر الحيوانات، ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه، ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد؛ فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم؛ فقف وقفة في حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد، ووضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر، وجوابات المسائل . فمن الذي أجرى فلك المعاني على قلبك، ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشاً عجيباً، معناهُ أعجب من صورته، فتقضي به مآربك وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسلهُ إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك، ويترجم عنك، ويتكلم على لسانك ويقوم مقام

رسولك ، ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسلهُ ، سوى من علم بالقلم عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ؟ والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة : مرتبة الوجود الذهني والوجود اللفظي والوجود الرسمي ، فقد دل التعليم بالقلم أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب .

(141/823)

ودل قوله : ﴿ خَلَقَ ﴾ على أنه يعطي الوجود العيني . فدلت هذه الآيات – مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها – على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقاً وتعليماً . وذكر من صفاته ها هنا اسم ﴿ الْأَكْرَمُ ﴾ الذي هو فيه كل خير وكل كمال ، فله كل كمال وصفاً ، ومنه كل خير فعلاً . فهو ﴿ الْأَكْرَمُ ﴾ في ذاته وأوصافه وأفعاله ، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه ، لا من حاجة دعتهُ إلى ذلك ، وهو الغني الحميد .

الثاني : قال الإمام : لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحي بهذه الآيات الباهرات . فإن لم يهتد المسلمون بهذا الهدى ، ولم ينبههم النظر فيه إلى النهوض إلى تمزيق تلك الحجب التي حجبت عن أبصارهم نور العلم ، وكسر تلك الأبواب التي غلقها عليهم رؤساؤهم وحبسوهم بها

في ظلمات من الجهل ، وإن لم يسترشدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين ، ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع ، فلا أرشدهم الله ابداً .

الثالث : قال الرازي : في قوله : ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ إشارة إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال القدرة والحكمة والعلم والرحمة . وفي قوله : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ إشارة إلى الأحكام المكتوبة التي لا سبيل على معرفتها إلا بالسمع ، فالأول كأنه إشارة إلى معرفة الربوبية . والثاني إلى النبوّة . وقدم الأول على الثاني تنبيهاً على أن معرفة الربوبية غنية عن النبوة ، وأما النبوة فإنها محتاجة إلى معرفة الربوبية . وقوله تعالى :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ [6 - 8]

(142/823)

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾ أي : حقاً أن الْإِنْسَان ليتجاوز حده ويستكبر على ربه ، أن رأى نفسه استغنت . ف ﴿ كَلَّا ﴾ بمعنى حقاً لعدم ما يتوجه إليه الردع ظاهراً ، لتأخر نزول هذا عما قبله - على ما تقدم في المأثور - أو هو ردع لمن كفر بنعمة الله بطغيانه وإن لم يذكر ، لدلالة الكلام عليه . فإن مفتتح السورة إلى هذا المقطع يدل على عظيم منته تعالى على الْإِنْسَان فإذا قيل :

﴿ كَلَّا ﴾ يكون ردعاً للإنسان ، ينعم عليه ربه بتسوية خلقه وتعليمه ما لم يكن يعلم ، وإنعامه بما لا كفء له ، ثم يكفر بربه الذي فعل به ذلك ويطغى عليه أن رآه استغنى .

قال الكرخي ، ومذهب أبي حيان أن كلا بمعنى ألا الاستفتاحية ، وصوبه ابن هشام بكسر همزة إن بعدها كما بعد حرف التنبيه . وفي " الكواشي " : يجوز في كلا أن تكون تنبيهاً ، فيقف على ما قبلها . وردعاً ، فيقف عليها .

تنبيه :

دلت الآية على قاعدة عظيمة في باب التموّل المحمود ، قررها الحكماء المصلحون ، وهو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير . قالوا : لأن إفراط الثروة مهلكة للأخلاق الحميدة في الْإِنْسَاْن ، كما نطقت به الآية الكريمة .

قال بعض الحكماء : التحول لأجل الحاجات وبقدرها ، محمود بثلاثة شروط ، وإلا كان حرص التمول من أقبح الخصال :

الشرط الأول : أن يكون إحراز المال بوجه مشروع حلال ، أي : إحرازه من بذل الطبيعة أو بالمعارضة أو في مقابل عمل .

والشرط الثاني : أن لا يكون في التمول تضييق على حاجات الغير ، كاحتكار الضروريات ، أو مزاحمة الصناع والعمال الضعفاء ، أو التغلب على المباحات ، مثل امتلاك الأراضي

التي جعلها خالقها ممرحاً لكافة مخلوقاته . وهي أمهم ترضعهم لبن جهازاتها وتغذيهم بثمراتها وتؤويهم في حضن أجزائها .

(143/823)

الشرط الثالث : لجواز التمول هو أن لا يتجاوز المال قدر الحاجة بكثير ، وإلا فسدت الأخلاق . ولذلك حرمت الشرائع السماوية كلها ، والحكمة السياسية والأخلاقية والعمرانية أكل الربا ؛ وذلك لقصد حفظ التساوي والتقارب بين الناس في القوة المالية ؛ لأن الربا كسب بدون مقابل ماديّ ، ففيه معنى الغضب ، وبدون عمل ، ففيه الألفة على البطالة المفسدة للأخلاق ، وبدون تعرض لخسائر طبيعية كالتجارة والزراعة والأملاك . دع أن بالربا تربو الثروات ، فيختل التساوي بين الناس ، كما تقدم بيانه في أواخر سورة البقرة .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ أي : المرجع في الآخرة . قال أبو السعود : تهديد للطاغي وتحذير له من عاقبة الطاغين . والالتفات للتشديد في التهديد ، و ﴿ الرُّجْعَى ﴾ مصدر بمعنى الرجوع . وتقديم الظرف لقصره عليه ، أي : أن إلى مالك أمرك رجوع الكل بالموت والبعث ، لا إلى غيره ، استقلالاً ولا اشتراكاً ، فسترى حينئذ عاقبة طغيانك .

وقد جوز كون الخطاب للرسول صلوات الله عليه، والتهديد والتحذير بحاله .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْداً إِذَا صَلَّى ﴾

أي : يمنعه عن الصلاة . وعبر بالنهي إشارة إلى عدم اقتداره على غير ذلك .

قال ابن عطية : لم يختلف المفسرون في أن الناهي أبو جهل والعبد المصلي النبيُّ صلى الله عليه وسلم . كما روي في الصحيحين، ولفظ البخاري عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : < لو فعله لأخذته الملائكة > .

(144/823)

وفي الآية تقبيح وتشنيع لحال ذاك الكافر، وتعجيب منها وإيذان بأنها من الشناعة والغرابة بحيث يجب أن يراها كل من يتأتى منه الرؤية ويقضي منها العجب . ولفظ العبد وتنكيره، لتفخيمه عليه السلام، واستعظام النهي وتأكيد التعجب منه . وقيل : إنه من إرخاء العنان في الكلام المنصف، إذ قال : ﴿ يَنْهَى ﴾ ينهى ولم يقل : يؤذي، و : ﴿ عَبْداً ﴾ دون : نبياً، والرؤية هاهنا بصرية، وفيما بعدها قلبية . معناه : أخبرني . فإن الرؤية لما كانت سبباً للإخبار عن المرئي، أجرى الاستفهام عنها مجرى الاستخبار عن متعلقها .

قاله أبو السعود .

وقال الإمام : كلمة أرأيت صارت تستعمل في معنى أخبرني ، على أنها لا يقصد بها في مثل هذه الآية الاستخبار الحقيقيّ ، ولكن يقصد بها إنكار المستخبر عنها وتقبيحها . فكأنه يقول : ما أسخف عقل هذا الذي يطغى به الكبر فينهى عبداً من عبيد الله عن صلاته ، خصوصاً وهو في حالة أدائها .

وقوله : ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ أي : أرأيت إن كان ذلك الناهي على طريقة سديدة فيما ينهى عنه من عبادة الله ، أو كان آمراً بالمعروف والتقوى فيما يأمر به من عبادة الأوثان ، كما يعتقد ؟ وجواب الشرط محذوف دل عليه ما بعده ، أي : ألم يعلم بأن الله يرى . وعليه فالضمائر كلها لـ : ﴿ الَّذِي يَنْهَى ﴾ وجوز عود الضمير المستتر في ﴿ كَانَ ﴾ للعبد المصلي . وكذا في ﴿ أَمَرَ ﴾ أي : أرايت الذي ينهى عبداً يصلي ؟ والمنهيّ على الهدى آمر بالتقوى . والنهي مكذب متول ، فما أعجب من هذا !

وذهب الإمام رحمه الله ، في تأويل الآية إلى معنى آخر ، وعبارته : أما قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴾ فمعناه أخبرني عن حاله إن كان ذلك الطاغي على الهدى وعلى صراط الحق ، أو أمر بالتقوى مكان نهيه عن الصلاة ، أفما كان ذلك خيراً له وأفضل ؟

وقوله : ﴿ أَرَأَيْتَ أَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ أي : نبئني عن حاله إن كذب بما جاء به النبيون ، وتولى أي : أعرض عن العمل الطيب ، أفلا يخشى أن تحل به قارعة ويصيبه من عذاب الله ما لا قبل له باحتماله ؟ فجواب كل من الشرطين محذوف كما رأيت في تفسير المعنى وهو من الإيجاز المحمود ، بعد ما دل على المحذوف بقوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ أي : أجهل أن الله يطلع على أمره ؟ فإن كان تقياً على الهدى أحسن جزاءه ، وإن كذب وتولى لم يفلت من عقوبته ، ثم إن ما يطيل به المفسرون في المفعول الثاني لفعل ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ الأولى ومفعوليها في الثانية والثالثة ، فهو مما لا معنى له ؟ لأن القرآن قدوة في التعبير ، وقد استعملها بمفعول واحد وبلا مفعول أصلاً بمعنى أخبرني . والجملة المستخبر عن مضمونها ، تسد مسد المفاعيل . انتهى كلامه رحمه الله .

﴿ كَلَّا ﴾

ردع عن النهي عن الصلاة ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ أي : عن هذا الطغيان ، وعن النهي عن الصلاة ، وعن التكذيب والتولي ﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾ أي : لنأخذن بناصيته ، ولنسحبنه بها إلى النار . والسفع : القبض على الشيء وجذبه بشدة . والأخذ بالناصية هنا مَثَلٌ في القهر والإذلال والتعذيب والنكال .

وقوله تعالى : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ بدل من الناصية ، ولم يقتصر على إحدى

الجملتين ، لأن ذكر الأولى للتنصيص على أنها ناصية الناهي والثانية لتوصف بما يدل على علة السفع وشموله لكل من وجد فيه ذلك . ووصفها بالكذب والخطأ ، وهما لصاحبها ، على الإسناد المجازي ، للمبالغة لأنها تدل على وصفه بالكذب بطريق الأولى ، ولأنه لشدة كذبه كان كل جزء من أجزائه يكذب . وكذا حال الخطأ ، وهو كقوله :

(146/823)

﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾ [النحل : 62] ، و : وجهها يصف الجمال ، والتجوز بإسناد ما للكل إلى الجزء ، كما يسند إلى الجزئيّ في قوله : بنو فلان قتلوا قتيلاً ، والقاتل أحدهم .

لطيفة :

قال في " البحر " : كتبت نون ﴿ لَنَسْفَعاً ﴾ بالألف باعتبار الموقف عليها بإبدالها ألفاً .

وقال السمين : الوقف على هذه النون بالألف تشبيهاً لها بالتنوين ، وتكتب هنا ألفاً اتباعاً للوقف لأن قاعدة الرسم مبينة على حال الوقف والابتداء .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَه ﴾ أي : أهل مجلسه ، ليمنع المصلين ويؤذي أهل الحق الصادقين ، اتكالاً على قوتهم وغفلة عن قهر الحق وسخطه . والجملة إما بتقدير مضاف ، أو على الإسناد

المجازي من إطلاق اسم المحل على من حلّ فيه . والنادي المجلس الذي ينتدي فيه القوم ، أي : يجتمعون .

﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ أي : زبانية العذاب من جنوده تعالى فيهلكونه في الدنيا ، أو يردونه في النار في الآخرة وهو صاغر . ولم يرسم ﴿ سَنَدْعُ ﴾ بالواو في المصاحف باتباع الرسم للفظ ، أو لمشاكلة قوله ﴿ فَلْيَدْعُ ﴾ وقيل : إنه مجزوم في جواب الأمر ، وفيه نظر .

﴿ كَلَّا ﴾ ردع للناهي بعد ردع ، وزجر إثر زجر ﴿ لَا تُطِعْهُ ﴾ أي : لا تطع ذاك الطاغي إذا نهاك عن عبادة ربك . قال الزمخشري : أي : اثبت على ما أنت عليه من عصيانه كقوله ﴿ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [القلم : 8] ، ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ أي : صل لربك وتقرب منه بالعبادة وتحبب إليه بالطاعة . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً : < أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد . فأكثروا من الدعاء > .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن الآيات نزلت في أبي جهل ، على ما صح في الأخبار ، قال الإمام : ولا مانع من أن يكون في الآيات إشارة إليه ، ولكنها عامة في كل وقت وزمن كما ترى . والخطاب فيها موجه إلى من يخاطب لا إلى شخص النبي صلى الله عليه وسلم . والله أعلم .

الثاني : قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري " : إنما شدد الأمر – أمر الوعيد – في حق أبي جهل ولم يقع مثل ذلك لعقبة بن أبي معيط ، حيث طرح سَلَى الجزور على ظهره صلى الله عليه وسلم وهو يصلي – لأنهما وإن اشتركا في مطلق الأذية حال صلاته لكن زاد أبو جهل بالتهديد وبدعوة أهل طاعته ، وبوطء العنق الشريف . وفي ذلك من المبالغة ما اقتضى تعجيل العقوبة له ، لو فعل ذلك . وقد عوقب عقبه بدعائه صلى الله عليه وسلم وعلى من شاركه في فعله ، فقتلوا يوم بدر ، كأبي جهل .

الثالث : قال الإمام : ذكر الصلاة في السورة لا يدل على أن بقيتها نزل بعد فرض الصلاة ، فقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه صلاة قبل أن تفرض الصلوات الخمس المعروفة .

الرابع : قال في " اللباب " : سجدة هذه السورة من عزائم سجود التلاوة عند الشافعيّ . فيسنّ للقارئ والمستمع أن يسجد عند قراءتها . يدل عليه ما روي عن أبي هريرة قال : < سجدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ ﴾ > أخرجه مسلم في صحيحه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 438.447 ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة العلق

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)

سورة العلق

تعريف بسورة العلق

مطلع هذه السورة هو أول ما نزل من القرآن باتفاق . والروايات التي تذكر نزول غيرها ابتداء ليست وثيقة . قال الإمام أحمد :حدثنا عبد الرزاق , حدثنا معمر بن الزهري , عن عروة , عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

"أول ما بدئ به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم , فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء . وكان يخلو بغار

حراء فيتحنث فيه – وهو التعبد – الليالي ذوات العدد , قبل أن ينزع إلى أهله , ويتزود إلى ذلك . ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها . حتى جاءه الحق وهو في غار حراء . فجاءه الملك , فقال:اقرأ . قال:ما أنا بقارئ , قال:فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد . ثم أرسلني فقال:اقرأ . فقلت:ما أنا بقارئ , فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد , ثم أرسلني فقال:اقرأ . فقلت:ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثالثة , ثم قال:(اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) . . فرجع بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ترجف بوادره , حتى دخل على خديجة , فقال" زملوني زملوني " فزملوه حتى ذهب عنه الروع ,فقال:يا خديجة مالي ؟ وأخبرها الخبر . وقال:" قد خشيت على نفسي " فقالت له:كلا . أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا . إنك لتصل الرحم , وتصدق الحديث , وتحمل الكل , وتقري الضيف , وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي , وهو ابن عم خديجة أخي أبيها . وكان امرأ قد تنصر في الجاهلية . كان يكتب الكتاب العربي , وكتب العبرانية من الإنجيل – ما شاء الله أن يكتب – وكان شيخا كبيرا قد عمي . فقالت خديجة:أي ابن عم , اسمع من ابن أخيك , فقال ورقة:ابن أخي , ما ترى ؟ فأخبره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما رأى . فقال ورقة:هذا الناموس الذي أنزل على موسى . ليتني فيها جذع , ليتني أكون حيا حين

يخرجك قومك . فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أو مخرجي هم ؟ " فقال ورقة: نعم . لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي , وإن أدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم ينشب ورقة أن توفي

(150/823)

. . . الخ" . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري . .

وروى الطبري - بإسناده - عن عبد الله بن الزبير . قال:

"قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : فجاءني - وأنا نائم - بنمط من ديباج فيه كتاب . فقال: اقرأ . فقلت: ما اقرأ . فغتني حتى ظننت أنه الموت . ثم أرسلني فقال: اقرأ . فقلت: ماذا أقرأ ؟ وما أقول ذلك إلا افتداء من أن يعود إلي بمثل ما صنع بي . قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق . . . إلى قوله: علم الإنسان ما لم يعلم قال: فقرأته . ثم انتهى , ثم انصرف عني . وهببت من نومي , وكأنما كتب في قلبي كتابا . قال: ولم يكن من خلق الله أبغض علي من شاعر أو مجنون . كنت لا أطيق أن أنظر إليهما , قال: قلت: إن الأبعد - يعني نفسه - لشاعر أو مجنون ! لا تحدث بها عني قريش أبدا ! لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها فلأستريحن ! قال: فخرجت أريد ذلك . حتى إذا

كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول:يا محمد . أنت رسول الله وأنا جبريل

. قال فرفعت رأسي إلى السماء , فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء

يقول:يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال:فوقفت أنظر إليه , وشغلني ذلك عما

أردت , فما أتقدم وما أتأخر , وجعلت أصرف وجهي عنه في أفاق السماء , فلا أنظر في

ناحية منها إلا رأيته كذلك , فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي , ولا أرجع ورائي , حتى بعثت

خديجة رسلها في طلبي , حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني . . ثم

انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي . . . " . .

وقد رواه ابن إسحاق مطولا عن وهب بن كيسان عن عبيد أيضا . .

وقفت هنا أمام هذا الحادث الذي طالما قرأناه في كتب السيرة وفي كتب التفسير , ثم مررنا

به وتركناه , أو تلبثنا عنده قليلا ثم جاوزناه !

إنه حادث ضخم . ضخم جدا . ضخم إلى غير حد . ومهما حاولنا اليوم أن نحيط

بضخامته , فإن جوانب كثيرة منه ستظل خارج تصورنا !

إنه حادث ضخم بحقيقته . وضخم بدلالته . وضخم بآثاره في حياة البشرية جميعا . . وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد - بغير مبالغة - هي أعظم لحظة مرت بهذه الأرض في تاريخها الطويل .

ما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة ?

حقيقته أن الله جل جلاله , العظيم الجبار القهار المتكبر , مالك الملك كله , قد تكرم - في عليائه - فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان , القابعة في ركن من أركان الكون لا يكاد يرى اسمه الأرض . وكرم هذه الخلقية باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي , ومستودع حكمته , ومهبط كلماته , وممثل قدره الذي يريده - سبحانه - بهذه الخليقة .

وهذه حقيقة كبيرة . كبيرة إلى غير حد . تتكشف جوانب من عظمتها حين يتصور الإنسان - قدر طاقته - حقيقة الألوهية المطلقة الأزلية الباقية . ويتصور في ظلها حقيقة العبودية المحدودة الحادثة الفانية . ثم يستشعر وقع هذه العناية الربانية بهذا المخلوق الإنساني ; ويتذوق حلاوة هذا الشعور ; ويتلقاه بالخشوع والشكر والفرح والابتهال . . وهو يتصور كلمات الله , تتجاوب بها جنبات الوجود كله , منزلة لهذا الإنسان في ذلك الركن المنزوي من أركان الوجود الضئيلة !

وما دلالة هذا الحادث ?

دلالته - في جانب الله سبحانه - أنه ذو الفضل الواسع , والرحمة السابغة , الكريم الودود

المنان . يفيض من عطائه ورحمته بلا سبب ولا علة , سوى أن الفيض والعطاء بعض صفاته الذاتية الكريمة .

ودلالته - في جانب الإنسان - أن الله - سبحانه - قد أكرمه كرامة لا يكاد يتصورها , ولا يملك أن يشكرها . وأن هذه وحدها لا ينهض لها شكره ولو قضى عمره راكعا ساجدا .

. هذه . . أن يذكره الله , ويلتفت إليه , ويصله به , ويختار من جنسه رسولا يوحي إليه بكلماته . وأن تصبح الأرض . . مسكنه . . مهبطا لهذه الكلمات التي تتجاوب بها جنبات الوجود في خشوع وابتهال .

(152/823)

فأما آثار هذا الحادث الهائل في حياة البشرية كلها فقد بدأت منذ اللحظة الأولى . بدأت في تحويل خط التاريخ , منذ أن بدأت في تحويل خط الضمير الإنساني . . منذ أن تحددت الجهة التي يتطلع إليها الإنسان ويتلقى عنها تصوراته وقيمه وموازينه . . إنها ليست الأرض وليس الهوى . . إنما هي السماء والوحي الإلهي .

ومنذ هذه اللحظة عاش أهل الأرض الذين استقرت في أرواحهم هذه الحقيقة . . في كنف الله ورعايته المباشرة الظاهرة . عاشوا يتطلعون إلى الله مباشرة في كل أمرهم . كبيره

وصغيره . يحسون ويتحركون تحت عين الله . ويتوقعون أن تمتد يده - سبحانه - فتنقل خطاهم في الطريق خطوة خطوة . تردهم عن الخطأ وتقودهم إلى الصواب . . وفي كل ليلة كانوا يبيتون في ارتقاب أن يتنزل عليهم من الله وحي يحدثهم بما في نفوسهم , ويفصل في مشكلاتهم , ويقول لهم: خذوا هذا ودعوا ذاك !

ولقد كانت فترة عجيبة حقا . فترة الثلاثة والعشرين عاما التالية , التي استمرت فيها هذه الصلة الظاهرة المباشرة بين البشر والملأ الأعلى . فترة لا يتصور حقيقتها إلا الذين عاشوها . وأحسوها . وشهدوا بدأها ونهايتها . وذاقوا حلاوة هذا الاتصال . وأحسوا يد الله تنقل خطاهم في الطريق . ورأوا من أين بدأوا وإلى أين انتهوا . . وهي مسافة هائلة لا تقاس بأي مقياس من مقاييس الأرض . مسافة في الضمير لا تعدلها مسافة في الكون الظاهر , ولا يماثلها بعد بين الأجرام والعوالم ! المسافة بين التلقي من الأرض والتلقي من السماء . بين الاستمداد من الهوى والاستمداد من الوحي بين الجاهلية والإسلام . بين البشرية والربانية , وهي أبعد مما بين الأرض والسماء في عالم الأجرام !

وكانوا يعرفون مذاقها . ويدركون حلاوتها . ويشعرون بقيمتها , ويحسون وقع فقدانها حينما انتقل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الرفيق الأعلى , وانقطعت هذه الفترة العجيبة التي لا يكاد العقل يتصورها لولا أنها وقعت حقا .

عن أنس – رضي الله عنه – قال: قال أبو بكر لعمر – رضي الله عنهما – بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) انطلق بنا إلى أم أيمن – رضي الله عنها – نزورها كما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يزورها . فلما أتيا إليها بكت . فقالا لها: ما يبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ قالت: بلى , وإني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء . فهيجتهما على البكاء , فجعلا يبكيان معها . . . [أخرجه مسلم]

. . .

ولقد ظلت آثار هذه الفترة تعمل في حياة البشر منذ تلك اللحظة إلى هذه اللحظة , وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

لقد ولد الإنسان من جديد باستمداد قيمه من السماء لا من الأرض , واستمداد شريعته من الوحي لا من الهوى .

لقد تحول خط التاريخ كما لم يتحول من قبل قط , وكما لم يتحول من بعد أيضا . وكان هذا الحدث هو مفرق الطريق . وقامت المعالم في الأرض واضحة عالية لا يطمسها الزمان , ولا تطمسها الأحداث . وقام في الضمير الإنساني تصور للوجود وللحياة وللقيم لم يسبق أن اتضح بمثل هذه الصورة , ولم يجيء بعده تصور في مثل شموله ونصاعته وطلاقته من

اعتبارات الأرض جميعا , مع واقعيته وملاءمته للحياة الإنسانية . ولقد استقرت قواعد هذا المنهج الإلهي في الأرض ! وتبينت خطوطه ومعالمه . (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة) . . لا غموض ولا إبهام . إنما هو الضلال عن علم , والانحراف عن عمد , والالتواء عن قصد !

(154/823)

إنه الحادث الفذ في تلك اللحظة الفريدة . الحادث الكوني الذي ابتدأ به عهد في هذه الأرض وانتهى عهد . والذي كان فرقانا في تاريخ البشر لا في تاريخ أمة ولا جيل . والذي سجلته جنبات الوجود كله وهي تتجاوب به , وسجله الضمير الإنساني . وبقي أن يتلفت هذا الضمير اليوم على تلك الذكرى العظيمة ولا ينساها . وأن يذكر دائما أنه ميلاد جديد للإنسانية لم يشهده إلا مرة واحدة في الزمان . . .

ذلك شأن المقطع الأول من السورة . فأما بقيتها فواضح أنها نزلت فيما بعد . فهي تشير إلى مواقف وحوادث في السيرة لم تجيء إلا متأخرة , بعد تكليف الرسول (صلى الله عليه وسلم) إبلاغ الدعوة , والجهر بالعبادة , وقيام المشركين بالمعارضة . وذلك ما يشير إليه قوله تعالى في السورة:(أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ?) . . . الخ

ولكن هناك تناسقا كاملا بين أجزاء السورة , وتسلسلا في ترتيب الحقائق التي تضمنتها بعد هذا المطلع المتقدم . يجعل من السورة كلها وحدة منسقة متماسكة . .

(اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) . .

إنها السورة الأولى من هذا القرآن , فهي تبدأ باسم الله . وتوجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) أول ما توجه , في أول لحظة من لحظات اتصاله بالملأ الأعلى , وفي أول خطوة من خطواته في طريق الدعوة التي اختير لها . . توجهه إلى أن يقرأ باسم الله: (اقرأ باسم ربك) . .

وتبدأ من صفات الرب بالصفة التي بها الخلق والبدء : (الذي خلق) .

ثم تخصص:خلق الإنسان ومبدأه:(خلق الإنسان من علق) . . من تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى (7)

بالرحم . من ذلك المنشأ الصغير الساذج التكوين . فتدل على كرم الخالق فوق ما تدل على قدرته . فمن كرمه رفع هذا العلق إلى درجة الإنسان الذي يعلم فيتعلم: (اقرأ وربك الأكرم , الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم) . .

وإنها لنقلة بعيدة جدا بين المنشأ والمصير . ولكن الله قادر . ولكن الله كريم . ومن ثم كانت هذه النقلة التي تدير الرؤوس !

وإلى جانب هذه الحقيقة تبرز حقيقة التعليم . . تعليم الرب للإنسان (بالقلم) . . . لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرا في حياة الإنسان . . ولم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن ونعرفه في حياة البشرية . ولكن الله - سبحانه - كان يعلم قيمة القلم , فيشير إليه هذه الإشارة في أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية . في أول سورة من سور القرآن الكريم . . هذا مع أن الرسول الذي جاء بها لم يكن كاتبا بالقلم , وما كان ليبرز هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى لو كان هو الذي يقول هذا القرآن . لولا أنه الوحي , ولولا أنها الرسالة !

ثم تبرز مصدر التعليم . . إن مصدره هو الله . منه يستمد الإنسان كل ما علم , وكل ما يعلم . وكل ما يفتح له من أسرار هذا الوجود , ومن أسرار هذه الحياة , ومن أسرار نفسه . فهو من هناك . من ذلك المصدر الواحد , الذي ليس هناك سواه .

وبهذا المقطع الواحد الذي نزل في اللحظة الأولى من اتصال الرسول (صلى الله عليه وسلم

) بالملأ الأعلى , بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيماني العريضة . .

كل أمر . كل حركة . كل خطوة . كل عمل . باسم الله . وعلى اسم الله . باسم الله تبدأ . وباسم الله تسير . وإلى الله تتجه . وإليه تصير .

والله هو الذي خلق . وهو الذي علم . فمنه البدء والنشأة , ومنه التعليم والمعرفة . .

والإنسان يتعلم ما يتعلم , ويعلم ما يعلم . . فمصدر هذا كله هو الله الذي خلق والذي علم . .(علم الإنسان ما لم يعلم) . .

(156/823)

وهذه الحقيقة القرآنية الأولى , التي تلقاها قلب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في اللحظة الأولى هي التي ظلت تصرف شعوره , وتصرف لسانه , وتصرف عمله واتجاهه , بعد ذلك طوال حياته . بوصفها قاعدة الإيمان الأولى .

قال الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن قيم الجوزية في كتابه: "زاد المعاد في هدى خير العباد" يلخص هدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذكر الله:

"كان النبي (صلى الله عليه وسلم) أكمل الخلق ذكرا لله عز وجل . بل كان كلامه كله في ذكر الله وما والاه . وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة ذكرا منه لله , وإخباره عن أسماء الرب

وصفاته وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده ذكرا منه له , وثناؤه عليه بآلائه وتمجيده وتحميده وتسبيحه ذكرا منه له , وسؤاله ودعاؤه إياه ورغبته ورهبته ذكرا منه له . وسكوته وصمته ذكرا منه له بقلبه . فكان ذاكرا لله في كل أحيانه وعلى جميع أحواله . وكان ذكره لله يجري مع أنفاسه قائما وقاعدا وعلى جنبه , وفي مشيته وركوبه , وسيره ونزوله , وظعنه وإقامته .

"وكان إذا استيقظ قال:الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . وقالت عائشة كان إذا هب من الليل كبر عشرا , وهلل عشرا , ثم قال:اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة عشرا , ثم يستفتح الصلاة . وقالت أيضا :كان إذا استيقظ من الليل قال:لا إله إلا أنت سبحانك . اللهم أستغفرك لذنبي وأسألك رحمتك . اللهم زدني علما , ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة , إنك أنت الوهاب " ذكرها أبو داود . وأخبر أن من استيقظ من الليل فقال:"لا إله إلا الله وحده , لا شريك له , له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير , الحمد لله وسبحان الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ثم قال:اللهم اغفر لي , أو دعاء آخر استجيب له . فإن توضأ وصلى قبلت صلاته "ذكره البخاري" .

وقال ابن عباس عنه (صلى الله عليه وسلم) ليلة مبيته عنده: إنه لما استيقظ رفع رأسه للسماء , وقال العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران . . (إن في خلق السماوات والأرض . . . الخ) ثم قال . . " اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والآرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت الحق , ووعدك الحق , وقولك الحق , ولقاؤك حق , والجنة حق , والنار حق , والنبيون حق , ومحمد حق , والساعة حق . اللهم لك أسلمت , وبك آمنت , وعليك توكلت , وإليك أنبت , وبك خاصمت , وإليك حاكمت , فاغفر لي ما قدمت وما أخرت , وما أسررت وما أعلنت . أنت إلهي لا إله إلا أنت , ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم " .

"وقد قالت عائشة – رضي الله عنها – كان إذا قام من الليل قال: " اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل , فاطر السماوات والأرض , عالم الغيب والشهادة , أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون , اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك , إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم " . وربما قالت: كان يفتتح صلاته بذلك .

"وكان إذا أوتر ختم وتره بعد فراغه بقوله: سبحان الله القدوس [ثلاثا] ويمد بالثالثة صوته .

"وكان إذا خرج من بيته يقول: بسم الله توكلت على الله , اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو

أضل , أو أزل , أو أظلم أو أظلم , أو أجهل , أو يجهل علي " [حديث صحيح] .

"وقال (صلى الله عليه وسلم) من قال إذا خرج من بيته بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له: هديت وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان " [حديث حسن]

.

"وقال ابن عباس عنه – ليلة مبيته عنده –: إنه خرج إلى صلاة الفجر وهو يقول: اللهم اجعل في قلبي نورا , واجعل في لساني نورا , واجعل في سمعي نورا , واجعل في بصري نورا , واجعل من خلفي نورا , ومن أمامي نورا , واجعل من فوقي نورا , واجعل من تحتي نورا , اللهم أعظم لي نورا " .

"وقال فضل بن مرزوق عن عطية العوفي , عن أبي سعيد الخدري: قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ما خرج رجل من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك , وبحق ممشاي إليك , فإني لم أخرج بطرا ولا أشرا ولا رياء ولا سمعة , وإنما خرجت اتقاء سخطك , وابتغاء مرضاتك , أسألك أن تنقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي , فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . إلا وكل الله به سبعين ألف ملك يستغفرون له , وأقبل

الله عليه بوجهه حتى يقضي صلاته " .

وذكر أبو داود عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه كان إذا دخل المسجد قال أعوذ با لله العظيم , وبوجهه الكريم , وسلطانه القديم , من الشيطان الرجيم . فإذا قال ذلك قال الشيطان: حفظ مني سائر اليوم" .

وقال (صلى الله عليه وسلم) : "إذا دخل أحدكم المسجد فليصل وليسلم على النبي (صلى الله عليه وسلم) وليقل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك , فإذا خرج فليقل: اللهم إني أسألك من فضلك " . . " وذكر عنه أنه كان إذا دخل المسجد صلى على محمد وآله وسلم , ثم يقول: اللهم اغفر لي ذنوبي , وافتح لي أبواب رحمتك " . فإذا خرج صلى على محمد وآله وسلم , ثم يقول: اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي باب فضلك .

"وكان إذا صلى الصبح جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس يذكر الله عز وجل . وكان يقول إذا أصبح: اللهم بك أصبحنا , وبك أمسينا , وبك نحيا , وبك نموت , وإليك النشور . " [حديث صحيح] . " وكان يقول: "أصبحنا وأصبح الملك لله , والحمد لله , ولا إله إلا الله وحده لا شريك له , له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . رب أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده , وأعوذ بك من شر هذا اليوم , وشر ما بعده ; رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر , رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر . وإذا أمسى قال: أمسينا وأمسى الملك لله . . "الخ [ذكره مسلم] .

"وقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه – مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت . قال: قل: اللهم فاطر السماوات والأرض , عالم الغيب والشهادة , رب كل شيء مليكه ومالكه . أشهد أن لا إله إلا أنت , أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه , وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم . قال: قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك " [حديث صحيح] . "ثم ذكر أحاديث كثيرة في هذا الباب" .

. . . "وكان (صلى الله عليه وسلم) إذا استجد ثوبا سماه باسمه عمامة أو قميصا أو رداء . ثم يقول: " اللهم لك الحمد , أنت كسوتنيه , أسألك خيره وخير ما صنع له , وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له " . [حديث صحيح] .

"ويذكر عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يقول إذا انقلب إلى بيته: " الحمد لله الذي كفاني وآواني , والحمد لله الذي أطعمني وسقاني , والحمد لله الذي من علي . أسألك أن تجيرني من النار " .

"وثبت عنه في الصحيحين أنه كان يقول عند دخوله الخلاء: " اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث " .

وكان إذا خرج من الخلاء قال: " غفرانك " ويذكر عنه أنه كان يقول: " الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني " [ذكره ابن ماجة] .

"وثبت عنه أنه وضع يده في الإناء الذي فيه الماء , ثم قال للصحابة: " توضأوا باسم الله " .

"ويذكر عنه أنه كان يقول "عند رؤية الهلال" : " اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان , والسلامة والإسلام , ربي وربك الله " [قال الترمذي حديث حسن] .

"وكان إذا وضع يده في الطعام قال: باسم الله . ويأمر الآكل بالتسمية ويقول: إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى , فإن نسي أن يذكر اسم الله في أوله فليقل: باسم الله في أوله وآخره " [حديث صحيح] .

وهكذا كانت حياته كلها (صلى الله عليه وسلم) بدقائقها متأثرة بهذا التوجيه الإلهي الذي تلقاه في اللحظة الأولى . وقام به تصوره الإيماني على قاعدته الأصيلة العريقة . .

ولقد كان من مقتضيات تلك الحقيقة: حقيقة أن الله هو الذي خلق . وهو الذي علم . وهو الذي أكرم . أن يعرف الإنسان . ويشكر . ولكن الذي حدث كان غير هذا , وهذا الانحراف هو الذي يتحدث عنه المقطع الثاني للسورة:

(كلا ! إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى) . .

إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى (12) أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (14) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (15)

إن الذي أعطاه فأغناه هو الله . كما أنه هو الذي خلقه وأكرمه وعلمه . ولكن الإنسان في عمومه - لا يستثني إلا من يعصمه إيمانه - لا يشكر حين يعطى فيستغني ; ولا يعرف مصدر النعمة التي أغنته , وهو المصدر الذي أعطاه خلقه وأعطاه علمه . . ثم أعطاه رزقه . . ثم هو يطغى ويفجر , ويبغي ويتكبر , من حيث كان ينبغي أن يعرف ثم يشكر .

وحين تبرز صورة الإنسان الطاغي الذي نسي نشأته وأبطره الغنى , يجيء التعقيب بالتهديد الملفوف: (إن إلى ربك الرجعى) فأين يذهب هذا الذي طغى واستغنى ?

وفي الوقت ذاته تبرز قاعدة أخرى من قواعد التصور الإيماني . قاعدة الرجعة إلى الله . الرجعة إليه في كل شيء وفي كل أمر , وفي كل نية , وفي كل حركة , فليس هناك مرجع سواه . إليه يرجع الصالح والطالح . والطائع والعاصي . والمحق والمبطل . والخير والشرير . والغني والفقير . . وإليه يرجع هذا الذي يطغى أن رآه استغنى . ألا إلى الله تصير الأمور . ومنه النشأة وإليه المصير . .

وهكذا تجتمع في المقطعين أطراف التصور الإيماني . . الخلق والنشأة . والتكريم والتعليم . . ثم . . الرجعة والمآب لله وحده بلا شريك: (إن إلى ربك الرجعى) . .

(161/823)

ثم يمضي المقطع الثالث في السورة القصيرة يعرض صورة من صور الطغيان: صورة مستنكرة يعجب منها , ويفظع وقوعها في أسلوب قرآني فريد .

(أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ? أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ? أرأيت إن كذب وتولى ? ألم يعلم بأن الله يرى ?) .

والتشنيع والتعجيب واضح في طريقة التعبير , التي تعذر مجاراتها في لغة الكتابة . ولا تؤدى إلا في أسلوب الخطاب الحي . الذي يعبر باللمسات المتقطعة في خفة وسرعة !

(أرأيت) ? أرأيت هذا الأمر المستنكر ? أرأيته يقع ? (أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ?) .

أرأيت حين تضم شناعة إلى شناعة ? وتضاف بشاعة إلى بشاعة ? أرأيت إن كان هذا الذي يصلي ويتعرض له من ينهاه عن صلاته . . إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ? ثم ينهاه من ينهاه . مع أنه على الهدى , آمر بالتقوى ? . أرأيت إن أضاف إلى الفعلة المستنكرة

فعلة أخرى أشد نكرا ؟ (أرأيت إن كذب وتولى ؟) .

هنا يجيء التهديد الملفوف كما جاء في نهاية المقطع الماضي: (ألم يعلم بأن الله يرى ؟) يرى تكذيبه وتوليه . ويرى نهيه للعبد المؤمن إذا صلى , وهو على الهدى , آمر بالتقوى . يرى . وللرؤية ما بعدها ! (ألم يعلم بأن الله يرى !) .

وأمام مشهد الطغيان الذي يقف في وجه الدعوة وفي وجه الإيمان , وفي وجه الطاعة , يجيء التهديد الحاسم الرادع الأخير , مكشوفا في هذه المرة لا ملفوفا : كلا . لئن لم ينته لنسفعا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانية .

إنه تهديد في إبانه . في اللفظ الشديد العنيف: (كلا . لئن لم ينته لنسفعا بالناصية) .

نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَه (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)

هكذا (لنسفعن) بهذا اللفظ الشديد المصور بجرسه لمعناه . والسفع: الأخذ بعنف . والناصية: الجبهة . أعلى مكان يرفعه الطاغية المتكبر . مقدم الرأس المتشامخ: إنها ناصية تستحق السفع والصرع: (ناصية كاذبة خاطئة) ! وإنها للحظة سفع وصرع . فقد

يخطر له أن يدعو من يعتز بهم من أهله وصحبه:(فليدع ناديه)أما نحن فإننا (سندع الزبانية)الشداد الغلاظ . . والمعركة إذن معروفة المصير !

وفي ضوء هذا المصير المتخيل الرعيب . . تختم السورة بتوجيه المؤمن الطائع إلى الإصرار والثبات على إيمانه وطاعته . .

(كلا . لا تطعه , واسجد , واقترب .)

كلا ! لا تطع هذا الطاغي الذي ينهى عن الصلاة والدعوة . واسجد لربك واقترب منه بالطاعة والعبادة . ودع هذا الطاغي . الناهي دعه للزبانية !

ولقد وردت بعض الروايات الصحيحة بأن السورة - عدا المقطع الأول منها - قد نزلت في أبي جهل إذ مر برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يصلي عند المقام . فقال [يا محمد . ألم أنهك عن هذا ؟ وتوعده . فأغلظ له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وانتهره . .] ولعلها هي التي أخذ فيها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بخناقه وقال له: أولى لك ثم أولى فقال:يا محمد بأي شي تهددني ? أما والله إني لأكثر هذا الوادي ناديا , فأنزل الله:(فليدع ناديه . . .)وقال ابن عباس لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته . ولكن دلالة السورة عامة في كل مؤمن طائع عابد داع إلى الله . وكل طاغ باغ ينهى عن الصلاة , ويتوعد على الطاعة , ويختال بالقوة . . والتوجيه الرباني الأخير:(كلا لا تطعه واسجد واقترب) . .

وهكذا تتناسق مقاطع السورة كلها وتتكامل إيقاعاتها . . . . انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3935. 3943 ﴾

(163/823)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سُورَةُ الْعَلَقِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)

في هذه الآيات الخمس تسع مسائل مرتبط بعضها ببعض ارتباط السبب بالمسبب ، والعام بالخاص ، والدليل بالمدلول عليه ، وكلها من منهج هذا الكتاب المبارك . وفي الواقع أنها كلها مسائل أساسية بالغة الأهمية عظيمة الدلالة .

وقد قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية : إنها وأمثالها من السور التي فيها العجائب ، وذلك لما جاء فيها من التأسيس لافتتاحية تلك الرسالة العظيمة ، ولا تستطيع إيفاءها حقها عجزاً وقصوراً .

وقد كتب فيها شيخ الإسلام ابن تيمية بأسلوبه مائتين وعشرين صفحة متتالية ، وفصلاً آخر في مباحث تتصل بها ، ولو أوردنا كل ما يسعنا مما تحتمله ، لكان خروجاً عن موضوع

الكتاب ، ولذا فإنا نقصر القول على ما يتصل بموضوعه ، إلا ما جرى القلم به مما لا يمكن تركه ، وبالله تعالى التوفيق .

أما المسائل التسع التي ذكرت هنا ، فإنا نوردها لنتقيد بها وهي :

أولاً : الأمر بالقراءة ، يوجه لنبي أمي .

والثانية : كون القراءة هذه باسم الرب سبحانه مضافاً للمخاطب صلى الله عليه وسلم باسم ربك .

الثالثة : وصف للرب الذي خلق بدلاً من اسم الله ، واسم الذي يحيي ويميت أو غير ذلك .

الرابعة : خلق الإنسان بخصوصه ، بعد عموم خلق وإطلاقه .

الخامسة : خلق الإنسان من علق ، ولم يذكر ما قبل العلقة من نطفة أو خلق آدم من تراب .

السادسة : إعادة الأمر بالقراءة مع وربك الأكرم ، بدلاً من أي صفى أخرى ، وبدلاً من الذي خلق المتقدم ذكره .

الثامنة : التعليم بالقلم .

التاسعة : تعليم الإنسان ما لم يعلم .

لما كانت هذه السورة هي أول سورة نزلت من القرآن ، وكانت تلك الآيات الخمس أول ما نزل منها على الصحيح ، فهي بحق افتتاحية الوحي ، فكانت موضع عناية المفسرين وغيرهم ، والكلام على ذلك مستفيض في كتب التفسير والحديث والسيرة ، فلا موجب لإيراده هنا . ولكن نورد الكلام على ما ذكرنا من موضوع الكتاب إن شاء الله .

أما المسألة الأولى : قوله تعالى : ﴿ اقرأ ﴾ ، فالقراءة لغة الإظهار ، والإبراز ، كما قيل في وصف الناقة : لم تقرأ جنيناً ، أي لم تنتج .

وتقدم للشيخ بيان هذا المعنى لغة وتوجيه الأمر بالقراءة إلى نبي أمي لا تعارض فيه ، لأن القراءة تكون من مكتوب وتكون من متلو ، وهنا من متلو يتلوه عليه جبريل عليه السلام ، وهذا إبراز للمعجزة أكثر ، لأن الأمي بالأمس صار معلماً اليوم . وقد أشار السياق إلى نوعي القراءة هذين ، حيث جمع القراءة مع التعليم بالقلم .

وفي وقله تعالى : ﴿ اقرأ ﴾ بدء للنبوة وإشعار بالرسالة ، لأنه يقرأ كلام غيره .

وقوله تعالى : ﴿ باسم ربِّكَ ﴾ ، تؤكد لهذا الإشعار ، أي ليس من عندك ولا من عند جبريل الذي يقرئك .

وقد قدمنا الرد على كونه صلى الله عليه وسلم لم يكتب ولا يقرأ مكتوباً ، من أنه صيانة للرسالة ، كما أنه لم يكن يقول الشعر وما ينبغي له ، إذاً لارتاب المبطلون .

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ المبطلون ﴾ [العنكبوت: 48] الآية. وذلك عند قوله تعالى: ﴿ هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ [الجمعة: 2].

وهنا لم يبين ما يقرؤه ولكن مجيئ سورة القدر بعدها بمثابة لما يقرؤه وهي: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر: 1]، وجاء بيان ما أنزل في سورة الدخان ﴿ حم والكتاب المبين إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان: 1-3].

(165/823)

وللشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان لذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ [النساء: 113]، فكأنه في قوة اقرأ ما يوحي إليك من ربك، والمراد به هو القرآن بالإجماع.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ باسم رَبِّكَ ﴾، أي اقرأ باسم ربك منشئاً ومبتدئاً القراءة باسم ربك، وقد تكلم ربك، وأنت مبلغ عن ربك على حد قوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهوى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يوحى ﴾ [النجم: 3-4].

وقوله: ﴿ مَّا عَلَى الرسول إِلَّا البلاغ ﴾ [المائدة: 99]، أي عن الله تعالى.

وكقوله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [النساء : 64] .

ونظير هذا في الأعراف الحاضرة خطاب الحكم ، أو ما يسمى خطاب العرش ، حينما يقول ملقيه باسم الملك ، أو باسم الأمة ، أو باسم الشعب ، على حسب نظام الدولة ، أي باسم السلطة التي منها مصدر التشريع والتوجيه السياسي .

وهنا باسم الله ، باسم ربك ، وصفة ربك هنا لها مدلول الربوبية الذي ينبه العبد إلى ما أولاه الله إياه من التربية والرعاية والعناية ، إذ الرب يفعل لعبده ما يصلحه ، ومن كمال إصلاحه أن يرسل إليه من يقرأ عليه وحيه بمجري الدنيا والآخرة ، وفي إضافته إلى المخاطب إيناس له .

المسألة الثالثة : وصف الرب بالذي خلق مع إطلاق الوصف ، وذلك لأن صفة الخلق هي أقرب الصفات إلى معنى الربوبية ، ولأنها أجمع الصفات للتعريف بالله تعالى لخلقه ، وهي الصفة التي يسلمون بها ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السماوات والأرض لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [لقمان : 25] .

ولأن كل مخلوق لا بد له من خالق ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ [الطور : 35] ، وقد أطلق صفة الخلق عن ذكر مخلوق ليعم ويشمل الوجود كله ، خالق كل شيء في قوله : ﴿ ذلكم الله رَبُّكُمْ لا إله إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فاعبدوه وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 102] .

﴿ الله خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الزمر : 62] .

﴿ هُوَ الله الخالق البارىء المصور ﴾ [الحشر : 24] .

وتلك المسائل الثلاث : هي الأصول في الرسالة وما بعدها دلالة عليها ، فالأمر بالقراءة تكليف لتحمل الوحي ، وباسم ربك بيان لجهة التكليف ، والذي خلق تدليل لتلك الجهة ، أي الرسالة والرسول والمرسل مع الدليل المجمل . ولا شك أن المرسل إليهم لم يؤمنوا ولا بواحدة منها ، فكان لا بد من إقامة الأدلة على ثبوتها بالتفصيل .

ولما كانت جهة المرسل هي الأساس وهي المصدر ، كان التدليل عليها أولاً ، فجاء التفصيل في شأنها بما يسلمون به ويسلمونه في أنفسهم ، وهي المسألة الرابعة .

والخامسة : خلق الإنسان من علق ، وهذا تفصيل بعد إجمال ببيان للبعض من الكل فالإنسان بعض مما خلق ، وذكره من ذكر العام بعد الخاص أولاً ، ومن إلزامهم بما يسلمون به ثم لانتقالهم مما يعلمون ، ويقرون به إلى ما لا يعلمون وينكرون .

وفي ذكر الإنسان بعد عموم الخلق تكريم له ، كذكر الروح بعد عموم الملائكة ، تنزل الملائكة

والروح فيها ونحوه ، والإنسان هنا الجنس بدليل الجمع في علق جمع علقة ، ولأنه أوضح دلالة عنده ، ليستدل بنفسه من نفسه كما سيأتي .

وقوله : ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ، وهو جمع علقة ، وهي القطعة من الدم ، كالعرق أو الخيط بيان على قدرته تعالى ، وذلك لأنهم يشاهدون ذلك أحياناً فيما تلقى به الرحم ، ويعلمون أنه مبدأ خلقة الإنسان .

(167/823)

فالقادر على إيجاد إنسان في أحسن تقويم من هذه العلقة ، قادر على جعلك قارئاً وإن لم تكن تعلم القراءة من قبل ، كما أوجد الإنسان من تلك العلقة ولم يكن موجوداً من قبل ، ولأن الذي يتعهد تلك العلقة حتى تكتمل إنساناً يتعهدها بالرسالة .

وقد يكون في اختيار الإنسان بالذات وبخصوصه لتفصيل مرحلة وجوده ، أن غيره من المخلوقات لم تعلم مبادئ خلقتها كعلمهم بالإنسان ، ولأن الإنسان قد مر ذكره في السورة قبلها ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين : 4] ، فبين أنه من هذه العلقة كان في أحسن تقويم ، ومن حسن تقويم إنزال الكتاب القيم .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن المقام هنا مقام دلالة على وجود الله ، فبدأ بما يعرفونه

ويسلمون به لله، ولم يبدأ من النطفة أو التراب، لأن خلق آدم من تراب لم يشاهدوه، ولأن النطفة ليست بلازم لها خلق الإنسان، فقد تقذف في غبر رحم كالملتحم، وقد تكون فيه، ولا تكون مخلقة. اه.

وهذا في ذاته وجيه، ولكن لا يبعد أن يقال: إن السورة في مستهل الوحي وبدايته، فهي كالذي يقول: إذا كنت بدأت بالوحي إليه ولم يكن من قبل، ولم يوجد منه شيء بالنسبة إليك، فليس هو بأكثر من إيجاد الإنسان من علقة، بعد أن لم يكن شيئاً.

وعليه يقال: لقد تركت مرحلة النطفة مقابل مرحلة من الوحي، قد تركت أيضاً وهي فترة الرؤيا الصالحة، كما في الصحيحين "أنه صلى الله عليه وسلم كان أول ما بدئ به الوحي الرؤيا الصالحة، يراها فتأتي كفلق الصبح" فكان ذلك إرهاصاً للنبوة وتمهيداً لها لمدة ستة أشهر، ولذا قال صلى الله عليه وسلم: "الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح، أو ترى له جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة" وهي نسبة نصف السنة من ثلاث وعشرين مدة الوحي، ولكن الرؤيا الصالحة قد يراها الرجل الصالح، ومثل ذلك تماماً فترة النطفة، فقد تكون النطفة ولا يكون الإنسان، كما تكون الرؤيا ولا تكون النبوة، أما العلقة فلا تكون إلا

في رحم وقرار مكين ، ومن ثم يأتي الإنسان مخلقاً كاملاً ، أو غير مخلق على ما يقدر له .

فلما كانت فترة النطفة ليست بلازمة لخلق الإنسان ، وكان مثلها فترة الرؤية ليست لازمة للنبوة ترك كل منها مقابل الآخر ، ويبدأ الدليل بما هو الواقع المسلم على أن الله تعالى هو الخالق ، والخالق للإنسان من علقة ، فكان فيه إقامة الدليل من ذاتية المستدل ، فالدليل هو خلق الإنسان ، والمستدل به هو الإنسان نفسه ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : 21] ، فيستدل لنفسه من نفسه على قدرة خالقه سبحانه .

(169/823)

وإذا تم بهذا الاستدلال على قدرة الرب الخالق ، كان بعده إقامة الدليل على صحة النبوة ورسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فجاءت المسألة السادسة وهي إعادة القراءة في قوله : ﴿ اقرأ وَرَبُّكَ الأَكرم ﴾ ، إذ أقام الدليل على أنك مرسل من الله تبلّغ عنه وتقرأ باسمه ، فاعلم أن تلك القراءة وهذا الوحي من ربك الأكرم ، والأكرم قالوا : هو الذي يعطي بدون مقابل ، ولا انتظار مقابل ، والواقع أن مجيء الوصف هنا بالأكرم بدلاً من أي صفة أخرى ، لما في هذه الصفة من تلاؤم للسياق ، ما لا يناسب مكانها غيرها لعظم العطاء وجزيل المنة .

فأولاً : رحمة الخليقة بهذه القراءة التي ربطت العباد بربهم . وكفى .

وثانياً : نعمة الخلق والإيجاد ، فهما نعمتان متكاملتان : الإيجاد من العدم بالخلق ، والإيجاد الثاني من الجهل إلى العلم ، ولا يكون هذا كله إلاّ من الرب الأكرم سبحانه .

ثم تأتي المسألة الثامنة : وهي من الدلالة على النبوة والرسالة ، وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، سواء كان الوقف على : اقرأ ، وابتداء الكلام : وربك الأكرم الذي علم بالقلم . أو الوقف على الأكرم وابتداء الكلام .

الذي علم بالقلم ، لأن من يعلم الجاهل بالقلم ، يعلّم غيره بدون القلم بجامع التعليم بعد الجهل . فالقادر على هذا قادر على ذلك .

والتاسعة : بيان لهذا الإجمال حيث لم يبين ما الذي علمه بالقلم . فقال : ﴿ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ، وهذا مشاهد ملموس في أشخاصهم ﴿ والله أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ [النحل : 78] .

فالله الذي علم الإنسان ما لم يعلم ، وكل ما تعلمه الإنسان فهو من الله تعلمونهن مما علمكم الله ، وهل الرسالة والنبوة إلا تعليم الرسول ما لم يكن يعلم ؟ وبهذا تم إقامة الدليل على صحة النبوة ، أي الرسالة والرسول والمرسل ، وهي أسس الدعوة والبعثة الجديدة .

وقد اشتهر عند الناس أنه نبئ " باقرأ " وأرسل " بالمدثر " ولكن في نفس هذه السورة معنى الرسالة ، لما قدمنا من أن القراءة باسم ربك ، عار بأنه مرسل من ربه إلى من يقرأ عليهم ، ففيها إثبات الرسالة من أول بدء الوحي .

تنبيه

في قوله تعالى : ﴿ الذى عَلَّمَ بالقلم ﴾ ، مبحث التعليم ومورد سؤال ، وهو إذا كان تعالى تمدح بأنه علّم بالقلم وأنه علّم الإنسان ما لم يعلم ، فكان فيه الإشادة بشأن القلم ، حيث الله تعالى قد علم به ، وهذا أعلى مراتب الشرف مع أنه سبحانه قادر على التعليم بدون القلم ، ثم أورده في معرض التكريم في قوله : ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : 1-2] ، وعظم المقسم عليه وهو نعمة الله على رسوله صلى الله عليه وسلم بالوحي ، يدل على عظم المقسم به ، وهو القلم وما يسطرون به من كتابة الوحي وغيره .

وقد ذكر القلم في السنة أنواعاً متفاوتة ، وكلها بالغة الأهمية .

منها : أولها وأعلاها : القلم الذي كتب ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، والوارد في الحديث " أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب " الحديث .

فعلى رواية الرفع ، يكون هو أول المخلوقات ثم جرى بالقدر كله ، وبما قدر وجوده كله .

ثانيها : القلم الذي يكتب مقادير العام في ليلة القدر من كل سنة ، المشار إليه بقوله : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان : 4] .

ثالثها : القلم الذي يكتب به الملك في الرحم ما يخص العبد من رزق وعمل .

ثالثها : القلم الذي بأيدي الكرام الكاتبين المنوه عنه بقوله تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : 18] ، أي بالكتابة كما في قوله : ﴿ كِرَاماً كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : 11-12] ، إذا قلنا إن الكتابة في ذلك تستلزم قلماً ، كما هو الظاهر .

(171/823)

رابعاً : القلم الذي بأيدي الناس يكتبون به ما يعلمهم الله ، ومن أهمها أقلام كتاب الوحي ، الذين كانوا يكتبون الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتابة سليمان لبلقيس .

وقوله تعالى : ﴿ الذى عَلَّمَ بالقلم ﴾ ، شامل لهذا كله ، إذا كان هذا كله شأن القلم وعظم أمره ، وعظيم المنة له على الأمة ، بلى وعلى الخليقة كلها .

وقد افتتحت الرسالة بالقراءة والكتابة ، فلماذا لم يكن النَّبي صلى الله عليه وسلم الذي أعلن عن هذا الفضل كله للقلم ! لم يكن هو كاتباً به ، ولا من أهله بل هو أمي لا يقرأ ولا

يكتب، كما في قوله: ﴿ هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ الجمعة: 2].

والجواب: أنا أشرنا أولاً إلى ناحية منه، وهي أنه أكمل للمعجزة، حيث أصبح النَّبي الأمي معلماً كما قال تعالى: ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكتاب والحكمة ﴾ [آل عمران: 164].

وثانياً: لم يكن هذا النَّبي الأمي مُغْفِلاً شأن القلم، بل عنى به كل العناية، وأولها وأعظمها أنه اتخذ كتّاباً للوحي يكتبون ما يوحى إليه بين يديه، مع أنه يحفظه ويضبطه، وتعهد الله له بحفظه وبضبطه في قوله تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى إِلاَّ مَا شَآءَ الله ﴾ [الأعلى: 6-7]، حتى الذي ينساه يعوضه الله بخير منه أو مثله، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة: 106]، ووعد الله تعالى بحفظه في قوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

ومع ذلك، فقد كان يأمر بكتابة هذا المحفوظ وكان له عدة كتّاب، وهذا غاية في العناية بالقلم.

(172/823)

وذكر ابن القيم من الكتاب الخلفاء الأربعة ، ومعهم تتمة سبعة عشر شخصاً ، ثم لم يقتصر صلى الله عليه وسلم في عنايته بالقلم والتعليم به عند كتابة الوحي ، بل جعل التعليم به أعم ، كما جاء خبر عبد الله بن سعيد بن العاص " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يعلِّم الناس الكتابة بالمدينة ، وكان كاتباً محسناً " ذكره صاحب الترتيبات الإدارية عن ابن عبد البر في الاستيعاب .

وفي سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال : " علّمت ناساً من أهل الصفة الكتابة والقرآن " .

وقد كانت دعوته صلى الله عليه وسلم ، الملوك إلى الإسلام بالكتابة كما هو معلوم .

وأبعد من ذلك ، ما جاء في قصة أسارى بدر ، حيث كان يفادي بالمال من يقدر على الفداء ، ومن لم يقدر . وكان يعرف الكتابة مفاداته أن يعلِّم عشرة من الغلمان الكتابة ، فكثرت الكتابة في المدينة بعد ذلك .

وكان ممن تعلم : زيد بن ثابت وغيره .

فإذا كان المسلمون وهم في بادئ أمرهم وأحوج ما يكون إلى المال والسلاح ، بل واسترقاق الأسارى فيقدمون تعليم الغلمان الكتابة على ذلك كله ، ليدل على أمرين :

أولهما : شدة وزيادة العناية بالتعليم .

وثانيهما : جواز تعليم الكافر للمسلم ما لا تعلق له بالدين ، كما يوجد الآن من الأمور

الصناعية، في الهندسة، والطب، والزراعة، والقتال، ونحو ذلك.

وقد كثر المتعلمون بسبب ذلك، حتى كان عدد كتاب الوحي اثنين وأربعين رجلاً ثم كان انتشار الكتابة مع الإسلام، وجاء النص على الكتابة في توثيق الدين في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُّسَمًّى فاكتبوه ﴾ [البقرة: 282] الآية، وهي أطول آية في كتاب الله تعالى رسمت فيهم كتابة العدل الحديثة كلها.

وإذا كان هذا شأن القلم وتعلمه، فقد وقع الكلام في تعليمه للنساء على أنهن شقائق الرجال في التكليف والعلم، فهل كن كذلك في تعلم الكتابة أم لا؟

مبحث تعليم النساء الكتابة

(173/823)

وقع الخلاف بسبب نصين في المسألة:

الأول: حديث الشفاء بنت عبد الله قالت: "دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عند حفصة، فقال لي: "ألا تعلمين هذه رقبة النملة كما علمتيها الكتابة؟" رواه المجد في المنتقى عن أحمد وأبي داود وقال بعده: وهو دليل على جواز تعلم النساء الكتابة.

والثاني : حديث عائشة رواه الحاكم وصححه البيهقي مرفوعاً :

" لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتابة – يعني النساء – وعلموهن الغزل وسور النور "

قال الشوكاني في نيل الأوطار ، على حديث المنتقى وحديث الفساد ، أعني تعليم الكتابة والقراءة .

أما تعليم العلم فليس محل خلاف ، والواقع أن هذه المسألة واضحة المعالم ، إذا نظرت كالآتي :

أولاً : لا شك أن العلم من حيث هو خير من الجهل ، والعلم قسمان : علم سماع وتلقي ، وهذه سيرة زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعائشة كانت القدوة الحنة في ذلك في فقه الكتاب والسنة ، وكم استدركت على الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وهذا مشهور ومعلوم .

والثاني : علم تحصيل بالقراءة والكتابة ، وهذا يدور مع تحقق المصلحة من عدمها ، فمن رأى أن تعليمهن مفسدة منعه ، كما روي عن علي رضي الله عنه : أنه مرَّ على رجل يعلم امرأة الكتابة فقال : لا تزد الشر شراً .

وروي عن بعض الحكماء : أنه رأى امرأة تتعلم الكتابة ، فقال : أفعى تسقى سماً ،

وانشدوا الآتي :

ما للنساء وللكتا . . . بة والعمالة والخطابة

هذا لنا ولهن منا . . . أن يبتن على جنابه

ومثله ما قاله المنفلوطي :

يا قوم لم تخلق بنات الورى . . . للدرس والطرس وقال وقيل

لنا علوم ولها غيرها . . . فعلّموها كيف نشر الغسيل

والثوب والإبرة في كفها . . . طرس عليه كل خط جميل

وهذا نظر إلى تعلميهن وموقفهن من زاوية واحدة . كما قال الشاعر الآخر :

كتب القتل والقتال علينا . . . وعلى الغانيات جر الذيول

مع أننا وجدنا في تاريخ المرأة نسوة شاركن في القتال ، حتى عائشة رضي الله عنها كانت تسقي الماء ، وأم سلمة تداوي الجرحى ، إذ لا يؤخذ قول كل منهما على عمومه .

قال صاحب التراتيب الإدارية : أورد القلنشدي أن جماعة من النساء كن يكتبن ، ولم ير أن أحداً من السلف أنكر عليهم . اه . ومن المعلوم رواية "كريمة" لصحيح البخاري ، وهي من الرواية المعتبرة عن المحدثين ، فقد رأيت بنفسي وأنا مدرس بالأحساء نسخة لسنن أبي داود عند آل المبارك وعليها تعليق لأخت صلاح الدين الأيوبي ، وذكر صاحب التراتيب

الإدارية قوله : وقد ثبت عن كثير من نساء أهل الصحراء الإفريقية خصوصاً شنقيط : شنجط ، أي شنقيط ، وهي المعروفة الآن بموريتانيا ، وتيتبكتو ، وقبيلة كنت العجب ، حتى جاء أن الشيخ المختار الكنتي الشهير ، ختم مختصر خليل للرجال ، وختمته زوجته في جهة أخرى للنساء . أه.

ومما يؤيد ما ذكره أننا ونحن في بعثة الجامعة الإسلامية لإفريقيا ، سمعنا ونحن في مدينة أطار وهي على مقربة من مدينة شنجيط المذكورة ، سمعنا من كبار أهلها أنه كان يوجد بها سابقاً مائتا فتاة يحفظن المدونة كاملة .

وقد سمعت في الآونة الأخيرة ، أنه كانت توجد امرأة تدريس في المسجد النبوي ، الحديث ، والسيرة ، واللغة العربية وهي شنقيطية .

ويجب أن تكون النظرة لهذه المسألة على ضوء واقع الحياة اليوم وفي كل يوم ، وقد أصبح تعليم المرأة من متطلبات الحياة ، ولكن المشكلة تكمن في منهج تعليمها ، وكيفية تلقيها العلم .

فكان من اللازم أن يكون منهج تعليمها قاصراً على النواحي التي يحسن أن تعمل فيها كالتعليم والطب وكفى .

أما كيفية تعليمها ، فإن مشكلتها إنما جاءت من الاختلاط في مدرجات الجامعات ، وفصول الدراسة في الثانويات في فترة المراهقة ، وقلة المراقبة ، وفي هذا يكمن الخطر منها وعليها في آن واحد ، فإذا كان لا بد من تعليمها ، فلا بد أيضاً من المنهج الذي يحقق الغاية منه ويتضمن السلامة فيه ، والتوفيق من الله سبحانه .

أما ما يخشى عليها من الاتصال عن طريق الكتابة ، فقد وجد ما هو أقرب وأسرع منها لمن شاءت وهو الهاتف في البيوت ، فإنه في متناول المتعلمة والجاهلة . والمدار في ذلك كله على الحصانة التربوية والمتانة الدينية والقوة الأخلاقية .

أما ما يخشى عليها من الاتصال عن طريق الكتابة ، فقد وجد ما هو أقرب وأسرع منها لمن شاءت وهو الهاتف في البيوت ، فإنه في متناول المتعلمة والجاهلة . والمدار في ذلك كله على الحصانة التربوية والمتانة الدينية والقوة الأخلاقية .

وقد أوردت هذا المبحث استطراداً لبيان وجهة النظر في المسألة ، اقتباساً من قوله تعالى : ﴿ الذى عَلَّمَ بالقلم ﴾ ، وبالله التوفيق .

مسألة

بيان أولية الكتابة عامة والعربية خاصة ، وأول من خط بالقلم على الأرض :

جاء في المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية المطبوع سنة 1304 ه ما نصه

: وإنما أصول الكتابة اثني عشر على ما قاله ابن خلكان ، وتبعه كثير من المؤلفين ،
كالدميري في حياة الحيوان ، والحلبي في السيرة وغيرهما . قال : إن جميع كتابات الأمم من
سكان المشرق والمغرب اثنتي عشرة كتابة ، خمس منها ذهب من يعرفها وبطل استعمالها
وهي : الحميرية ، والقبطية ، والبربرية ، والأندلسية ، واليونانية ، وثلاث منها فقد من
يعرفها في بلاد الإسلام ومستعمله في بلادها ، وهي السريانية والفارسية والعبرانية
والعربية . اه . كلامه باختصار وفيه ما فيه .

(176/823)

قال : والحميرية : هي خط أهل اليمن قوم هود وهم عاد الأولى ، وهي عاد إرم ، وكانت
كتابتهم تسمى المسند الحميري ، وكانت حروفها كلها منفصلة ، وكانوا يمنعون العامة من
تعلمها فلا يتعاطاها أحد إلا بإذنهم ، حتى جاءت دولة الإسلام ، وليس بجميع اليمن من
يكتب ويقرأ .

وقال المقريزي في الخطط : القلم المسند ، هو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد . اه .
والمعروف الآن أن الحروف المستعملة في الكتابة في العالم كله بصرف النظر عن اللغات
المنطوق بها هي ثلاثة فقط ، الخط العربي بحروف ألف باء وبها لغات الشرق . والحروف

اللاتينية وبها لغات أوروبا والحروف الصينية .

أما اللغات ، وهي فوق ألفي لغة " والأمهرية بحرف قريب من اللاتيني " .

أما أولية الكتابة العربية ، فقال صاحب المطالع النصرية : فقد اختلفت الروايات فيها ، كما قاله الحافظ السيوطي في الأوائل .

وكذا في المزهر في النوع الثاني والأربعين ، قال : إنه يرى آدم عليه السلام أول من كتب بالقلم ، وأن الكتابات كلها من وضعه ، كان قد كتبها في طين وطبخه ، يعني أحرقه ودفنه قبل موته بثلاثمائة سنة ، وبعد الطوفان وجد كل قوم كتاباً فتعلموه ، وكانت اثنى عشر كتاباً ، فتعلموه بإلهام إلهي .

وقيل : إن أول من خط بالعربي إسماعيل عليه السلام . اه .

وقد أطال السيوطي في المزهر الكلام في هذه المسألة ، نقلاً عن ابن فارس الشدبامي .

وعن العسكري عن الأوائل في ذلك أقوال ، فقيل إسماعيل ، وقيل : مرار بن مرة ، وهما من أهل الأنبار ، وفي ذلك يقول الشاعر :

كتبت أبا جاد وخطى مرامر . . . وسورت سربالي ولست بكاتب

وقيل : أول من وضعه أبجد ، وهوز وحطي ، وكلمن ، وصعفص ، وقرشت ، وكانوا ملوكاً فسمي الهجاء بأسمائهم .

وذكر عن الحافظ أبي طاهر السلفي بسنده عن الشعبي قال : أول من كتب بالعربية حرب بن أمية بن عبد شمس ، تعلّم من أهل الحيرة ، وتعلم أهل الحيرة من أهل الأنبار .

(177/823)

وقال أبو بكر بن أبي داود في كتاب المصاحف : حدثنا عبد الله بن محمد الزهري حدثنا سفيان عن مجالد عن الشعبي قال : سألنا المهاجرين من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : تعلمنا من أهل الحيرة ، وسألنا أهل الحيرة : من أين تعلمتم الكتابة ؟ قالوا : من أهل الأنبار ، ثم قال ابن فارس : والذي نقوله إن : الخط توفيقي ، وذلك لظاهر قوله تعالى : ﴿ الذى عَلَّمَ بالقلم عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

وقوله : ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : 1] .

وإذا كان هذا فليس ببعيد ، أن يوقف الله آدم أو غيره من الأنبياء عليهم السلام على الكتابة ، فأما أن يكون شيئاً مخترعاً اخترعه من تلقاء نفسه ، فهذا شيء لا نعلم صحته إلاَّ من خبر صحيح .

قال السيوطي : قلت يؤيد ما قاله من التوقيف ، ما أخرجه ابن شقة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : " أول كتاب أنزله الله من السماء أبا جاد " .

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي ذر ، أن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال : " أول من خط بالقلم إدريس عليه السلام " اه .

وقد أطال النقول في ذلك مما يرجع إلى الأول ، وليس فيه نقل صحيح يقطع به .

وقد أوردنا هذه النبذة بخصوص كلام ابن فارس ، من أن تعليم الكتابة أمر توفيقي ، وما استدل به السيوطي من أول كتاب أنزله الله في السماء ، فإن في القرآن ما يشهد لإمكان ذلك ، وهو أن الله تعالى أنزل الصحف لموسى مكتوبة .

وفي الحديث " إن الله كتب الألواح لموسى بيده ، وغرس جنة عدن بيده " .

وإذا كان موسى تلقى ألواحاً مكتوبة ، فلا بد أن تكون الكتابة معلومة له قبل إنزالها ، وإلاَّ لما عرفها .

أما المشهور في الأحرف التي نكتب بها الآن ، فكما قال السيوطي في المزهر ، ونقله عنه صاحب المطالع المصرية ما نصه :

المشهور عند أهل العلم ما رواه ابن الكلبي عن عوانة ، قال : أول من كتب بخطنا هذا .

وهو الجزم مرامر بن مرة ، وأسلم بن سدرة ، وعامر بن حدرة . كما في القاموس . وهم من عرب طيء تعلموه من كتاب الوحي لسيدنا هود عليه السلام ، ثم علّموه اهل الأنبار ، ومنهم انتشرت الكتابة في العراق والحيرة وغيرها ، فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، وكانت له صحبة بحرب بن أمية فتعلم حرب منه ، ثم سافر معه بشر إلى مكة فتزوج الصهباء بنت حرب أخت أبي سفيان . فتعلم منه جماعة من أهل مكة .

فبهذا كثر من يكتب بمكة من قريش قبيل الإسلام .

ولذا قال رجل كندي من أهل دومة الجندل ، يمن على قريش بذلك :

لا تجحدوا نعماء بشر عليكم . . . فقد كان مَيمون النقيبة أزهرا

أتاكم بخط الجزم حتى حفظتموا . . . من المال ما قد كان شتى مبعثرا

وأتقنتموا ما كان بالمال مهملا . . . وطأمنتموا ما كان منه مبقرا

فأجريتم الأقلام عوداً وبدأة . . . وضاهيتم كتاب كسرى وقيصرا

وأغنيتم عن مسند إلى حميرا . . . وما زبرت في الصحف أقلام حميرا

قال : وكذلك ذكر النووي في شرح مسلم نقل عن الفراء ، أنه قال : إنما كتبوا الربا في المصحف بالواو ، لأن أهل الحجاز تعلموا الخط من أهل الحيرة ، ولغتهم الربوا ، فعلموهم صورة الخط على لغتهم . ا ه .

تنبيه آخر

قوله تعالى : ﴿ الذى عَلَّمَ بالقلم ﴾ ، لا يمنع تعليمه تعالى بغير القلم ، كما في قصة الخضر مع موسى عليه السلام في قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾ [الكهف : 65] .

وكما في حديث " نفث في روعي أنه لن تموت نفس ، حتى تستكمل رزقها وأجلها " الحديث .

وكما في حديث الرقية بالفاتحة لمن لدغته العقرب في قصة السرية المعروفة ، فلما سأله صلى الله عليه وسلم " وما يدريك أنها رقية ؟ قال : شيء في نفث روعي " .

(179/823)

وحديث علي لما سئل " هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم ؟ قال : لا ، إلا فهماً يؤتيه الله من شاء في كتابه . وما في هذه الصحيفة " .

وقوله : واتقوا الله ويعلمكم الله . نسال الله علم ما لم نعلم ، والعمل بما نعلم . وبالله التوفيق .

كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (6) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7)

ظاهر هذه الآية أن الاستغناء موجب للطغيان عند الإنسان ، ولفظ الإنسان هنا عام ،

ولكن وجدنا بعض الإنسان يستغني ولا يطغى ، فيكون هذا من العام المخصوص ، ومخصصه إما من نفس الآية أو من خارج عنها ، ففي نفس الآية ما يفيده قوله تعالى : ﴿ أَن رَّآهُ استغنى ﴾ ، أي إن رأي الإنسان نفسه ، وقد يكون رأياً واهماً ويكون الحقيقة خلاف ذلك ، ومع ذلك يطغى ، فلا يكون الاستغناء هو سبب الطغيان .

ولذا جاء في السنة : ذك العائل المتكبر ، لأنه مع فقره يرى نفسه استغنى ، فهو معنى في نفسه لا بسبب غناه .

أما من خارج الآية ، فقد دل على هذا المعنى ، قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طغى وَآثَرَ الحياة الدنيا فَإِنَّ الجحيم هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 37-39] ، فإيثار الحياة الدنيا هو موجب الطغيان ، وكما في قوله تعالى : ﴿ الذى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الحطمة ﴾ [الهمزة : 2-4] الآية .

ومفهومه : أن من لم يؤثر الحياة الدنيا ، ولم يحسب أن ماله أخلده ، لن يطغيه ماله ولا غناه ، كما جاء في قصة النفر الثلاثة الأعمى والأبرص والأقرع من بني إسرائيل .

وقد نص القرآن على أوسع من غنى في الدنيا في نبي الله سليمان ، آتاه الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، ومع هذا قال : ﴿ فَقَالَ إني أَحْبَبْتُ حُبَّ الخير عَن ذِكْرِ ربي حتى تَوَارَتْ بالحجاب رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بالسوق والأعناق ﴾ [ص : 32-33] الآية .

وقصة الصحابي الموجودة في الموطأ : لما شغل ببستانه في الصلاة ، حين رأى الطائر لا يجد فرجة من الأغصان ، ينفذ منه ، فجاء إلى النّبي وقال : " يا رسول الله : إني فتنت ببستاني في صلاتي ، فهو في سبيل الله " فعرفنا أن الغني وحده ليس موجباً للطغيان ، ولكن إذا صحبه إيثار الحياة الدنيا على الآخرة ، وقد يكون طغيان النفس من لوازمها لو لم يكن غنى . إن النفس لأمارة بالسوء . وأنه لا يقي منه إلا التهذيب بالدين كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرزقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْاْ فِي الأَرض ولكن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الشورى : 27] الآية .

وقد ذكر عن فرعون تحقيق ذلك حين قال : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وهذه الأنهار تَجْرِي مِن تحتيا أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الزخرف : 51] ، وكذلك قال قارون ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ على عِلْمٍ عنديا ﴾ [القصص : 78] ، وقال : ثالث الثلاثة من بني إسرائيل " إنما ورثته كابراً عن كابر بخلاف المسلم " إلى آخره . فلا يزيده غناه إلا تواضعاً وشكراً للنعمة ، كما قال نبي الله سليمان ﴿ قَالَ هذا مِن فَضْلِ رَبِّي ليبلونيا أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : 40] ، وقد نص في نفس السورة أنه شكر الله ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ

عَلَيَّ وعلى وَالِديَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصالحين ﴾ [النمل : 19] .

(181/823)

وفي العموم قوله : ﴿ حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذريتيا إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ المسلمين ﴾ [الأحقاف : 15] .

وقد كان في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحاب المال الوفير فلم يزدهم إلا قرباً لله ، كعثمان بن عفان رضي الله عنه ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأمثالهم ، وفي الآية ربط لطيف بأول السورة ، إذا كان حلق الإنسان من علق ، وهي أحوج ما يكون إلى لطف الله وعنايته ورحمته في رحم أمه ، فإذا بها مضغة ثم عظام ، ثم تكسى لحماً ، ثم تنشأ خلقاً آخر ، ثم يأتي إلى الدنيا طفلاً رضيعاً لا يملك إلا البكاء ، فيجري الله له نهرين من لبن أمه ، ثم ينبت له الأسنان ، ويفتق له الأمعاء ، ثم يشب ويصير غلاماً يافعاً ، فإذا ما ابتلاه ربه بشيء من المال أو العافية ، فإذا هو ينسى كل ما تقدم ، وينسى حتى ربه ويطغى ويتجاوز حده حتى مع الله خالقه ورازقه ، كما رد عليه تعالى بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ

مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحيِي العظام وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الذي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس: 77-79] الآية.

ومما في الآية من لطف التعبير قوله تعالى: ﴿ أَن رَّآهُ استغنى ﴾، أي أن الطغيان الذي وقع فيه عن وهم، تراءى له، أنه استغنى سواء بماله أو بقوته. لأن حقيقة المال ولو كان جبالاً، ليس له منه إلاَّ ما أكل ولبس وأنفق.

وهل يستطيع أن يأكل لقمة واحدة إلا بنعمة العافية، فإذا مرض فماذا ينفعه ماله، وإذا أكلها وهل يستفيد منها إلا بنعمة من الله عليه.

(182/823)

ومن هذه الآية أخذ بعض الناس، أن الغني الشاكر أعظم من الفقير الصابر، لأن الغني موجب للطغيان.

وقد قال بعض الناس: الصبر على العافية، أشد من الصبر على الحاجة.

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16)

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب: أسند الكذب إلى الناصية، وفي مواضع أخرى أسنده إلى غير الناصية، كقوله: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الكذب

الذين لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وأولئك هُمُ الكاذبون ﴾ [النحل : 105] .

وذكر الجواب بأنه أطلق الناصية وأراد صاحبها على أسلوب لإطلاق البعض وإيراد الكل ، وذكر الشواهد عليه من القرآن كقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : 1] .

والذي ينبغي التنبيه عليه من جهة البلاغة : أن البعض الذي يطلق ويراد به الكل ، لا بد في هذا البعض من مزيد مزية للمعنى المساق فيه الكلام .

فمثلاً هنا ذم الكذب وأخذ الكاذب بكبه ، فجاء ذكر الناصية وهي مقدم شعر الرأس ، لأنها أشد نكارة على صاحبها ونكالاً به ، إذ الصدق يرفع الرأس والكذب ينكسه ذلة وخزياً .

فكانت هي هنا أنسب من اليد أو غيرها ، بينما في أبي لهب تطاول بماله ، والغرض مذمة ماله وكسبه الذي تطاول به ، واليد هي جارحة الكسب ، وآلة التصرف في المال ، فكانت اليد أولى فيه من الناصية .

وهكذا كما يقولون : بث الأمير عيونه : يريدون جواسيس له ، لأن العين من الإنسان أهم ما فيه لمهمته تلك . ولم يقولوا : بث أرجله ولا رؤوساً ولا أيد ، لأنها كلها ليست كالعين في ذلك .

ومن هذا القبيل ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات : 8] ، ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ [الفجر : 27] .

(183/823)

لأن القلب هو مصدر الخوف والنفس هي محط الطمأنينة ، على أن النفس جزء من الإنسان ، وهكذا ، ومنه الآتي ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ واسجد واقترب ﴾ [العلق : 19] ، أطلق السجود وأراد الصلاة ، لأن السجود أخص صفاتها .

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)

ربط بين السجود والاقتراب من الله كما قال : ﴿ وَمِنَ الليل فاسجد لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ [الإنسان : 26] وقوله : في وصف أصحابه رضي الله عنهم : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً ﴾ [الفتح : 29] ، فقوله : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ الله وَرِضْوَاناً ﴾ [الفتح : 29] ، في معنى يتقربون إليه يبين قوله : ﴿ واسجد واقترب ﴾ وهذا مما يدل لأول وهلة أن الصلاة أعظم قربة إلى الله ، حيث وجه إليها الرسول صلى الله عليه وسلم من أول الأمر ، كما بين تعالى في قوله : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] .

وقال صلى الله عليه وسلم : " أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد " . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

(184/823)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْعَلَقِ

[فِيهَا خَمْسُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ : فِيهَا مَسْأَلَةٌ وَاحِدَةٌ .

الْقَوْلُ : فِي أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ ، وَفِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : هَذِهِ السُّورَةُ ؛ قَالَتْهُ عَائِشَةُ ، وَابْنُ عَبَّاسٍ ، وَابْنُ الزُّبَيْرِ ، وَغَيْرُهُمْ .

الثَّانِي : أَنَّهُ نَزَلَ ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ؛ قَالَهُ جَابِرٌ .

الثَّالِثُ : قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ .

الرَّابِعُ قَالَ أَبُو مَيْسَرَةَ الْهَمْدَانِيُّ : أَوَّلُ مَا نَزَلَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ .

والصَّحيحُ مَا رواهُ الْأَئمّةُ واللَّفْظُ للْبُخاريّ عَنْ عائشَةَ رضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ؛ قَالَتْ : ﴿ كَانَ أَوّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إلَيْهِ الْخَلَاءُ ، فَكَانَ يَخْلُو بغَارِ حِرَاءَ ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ .

(185/823)

وَالتَّحَنُّثُ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إلَى أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ بِمِثْلِ ذَلِكَ ، حَتَّى فَجِئَهُ الْوَحْيُ ، وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اقْرَأْ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجُهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفُؤَادُهُ يَرْجُفُ ؛ حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ ، فَقَالَ : زَمِّلُونِي ، فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ : أَيْ خَدِيجَةُ ، مَا لِي ؟ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي .

فَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ : كَلَّا ، أَبْشِرْ .

فَوَاَللَّهِ لَا يُخْزِيك اللَّهُ أَبَدًا ، فَوَاَللَّهِ إنَّك لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ،

وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ .

فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ أَخُو أَبِيهَا ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ ، وَيَكْتُبُ الْإِنْجِيلَ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ ، فَقَالَتْ خَدِيجَةُ : يَا ابْنَ عَمِّ ، اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ .

(186/823)

قَالَ وَرَقَةُ : يَا ابْنَ أَخِي ، مَاذَا تَرَى ؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى .

فَقَالَ وَرَقَةُ : هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى ، لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ، قَالَ وَرَقَةُ : نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا أُوذِيَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ حَيًّا أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا .

ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ ، وَفَتَرَ الْوَحْيُ فَتْرَةً ، حَتَّى حَزِنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﷺ .

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ شِهَابٍ : فَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ

قَالَ : ﴿ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ قَالَ فِي حَدِيثِهِ : بَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْت صَوْتًا ، فَرَفَعْت رَأْسِي ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي قَدْ جَاءَنِي بِحِرَاءَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَفَزِعْت مِنْهُ ، فَرَجَعْت فَقُلْت : زَمِّلُونِي ، دَثِّرُونِي ، فَدَثَّرُوهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّك فَكَبِّرْ وَثِيَابَك فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ﴾ .

قَالَ أَبُو سَلَمَةَ : وَهِيَ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ الْجَاهِلِيَّةُ تَعْبُدُهَا

، ثُمَّ تَتَابَعَ الْوَحْيُ .

(187/823)

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ : فِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ مِنْ الْعَلَقِ ، وَأَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ عَلَقَةً لَيْسَ بِإِنْسَانٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ : فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى الْأَقْلَامُ فِي الْأَصْلِ ثَلَاثَةٌ : الْقَلَمُ الْأَوَّلُ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ : ﴿ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ ، فَقَالَ لَهُ : اُكْتُبْ ، فَكَتَبَ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ إلَى يَوْمِ السَّاعَةِ ، فَهُوَ عِنْدَهُ فِي الذِّكْرِ فَوْقَ عَرْشِهِ ﴾ .

الْقَلَمُ الثَّانِي : مَا جعَل اللَّهُ بِأَيْدِي الْمَلَائِكَةِ يَكْتُبُونَ بِهِ الْمَقَادِيرَ وَالْكَوَائِنَ وَالْأَعْمَالَ ، وَذَلِكَ قَوْلُه تَعَالَى : ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ خَلَقَ اللَّهُ لَهُمُ الْأَقْلَامَ ، وَعَلَّمَهُمُ الْكِتَابَ بِهَا .

(188/823)

الْقَلَمُ الثَّالِثُ أَقْلَامُ النَّاسِ ، جعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِأَيْدِيهِمْ يَكْتُبُونَ بِهَا كَلَامَهُمْ ، وَيَصِلُونَ بِهَا إِلَى مَآرِبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَخْرَجَ الْخَلْقَ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَخَلَقَ لَهُمُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالنُّطْقَ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ قَانُونِ التَّأْوِيلِ ، ثُمَّ رَزَقَهُمْ مَعْرِفَةَ الْعِبَادَةِ بِاللِّسَانِ عَلَى ثَمَانِيَةٍ وَعِشْرِينَ [وَجْهًا ، وَقِيلَ] حَرْفًا يَضْطَرِبُ بِهَا اللِّسَانُ بَيْنَ الْحَنَكِ وَالْأَسْنَانِ فَيَتَقَطَّعُ الصَّوْتُ تَقْطِيعًا يَثْبُتُ عَنْهُ مُقَطَّعَاتُهُ عَلَى نِظَامٍ مُتَّسِقٍ قُرِنَتْ بِهِ مَعَارِفُ فِي أَفْرَادِهَا وَفِي تَأْلِيفِهَا ، وَأَلْقَى إِلَى الْعَبْدِ مَعْرِفَةَ أَدَائِهَا ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ .

ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ الْيَدَ وَالْقُدْرَةَ ، وَرَزَقَهُ الْعِلْمَ [وَالرُّتْبَةَ] ، وَصَوَّرَ لَهُ حُرُوفًا تُعَادِلُ لَهُ الصُّوَرَ الْمَحْسُوسَةَ فِي إظْهَارِ الْمَعْنَى الْمَنْقُولِ فِي النُّطْقِ ، فَيُقَابِلُ هَذَا مَكْتُوبًا ذَلِكَ الْمَلْفُوظَ ، وَيُقَابِلُ الْمَلْفُوظُ مَا تَرَتَّبَ فِي الْقَلْبِ ، وَيَكُونُ الْكُلُّ سَوَاءً ، وَيَحْصُلُ بِهِ الْعِلْمُ ، ﴿ هَذَا خَلْقُ

اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ جَعَلَ اللَّهُ هَذَا كُلَّهُ مُرَتَّبًا لِلْخَلْقِ ، وَنِظَامًا لِلْآدَمِيِّينَ ،

(189/823)

وَيَسَّرَهُ فِيهِمْ ؛ فَكَانَ أَقَلَّ الْخَلْقِ بِهِ مَعْرِفَةً الْعَرَبُ ، وَأَقَلَّ الْعَرَبِ بِهِ مَعْرِفَةً [الْحِجَازِيُّونَ ، وَأَعْدَمُ الْحِجَازِيِّينَ بِهِ مَعْرِفَةً] الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [صَرَفَهُ] عَنْ عِلْمِهِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَثْبَتَ لِمُعْجِزَتِهِ ، وَأَقْوَى فِي حُجَّتِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ تَقْطِيعٌ فِي الْأَصْوَاتِ عَلَى نِظَامٍ يُعَبِّرُ عَمَّا فِي النَّفْسِ ، وَلَهُمْ صُورَةٌ فِي الْخَطِّ تُعَبِّرُ عَمَّا يَجْرِي بِهِ اللِّسَانُ ، وَفِي اخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى رَبِّكُمْ الْقَادِرِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْحَاكِمِ ؛ وَأُمُّ اللُّغَاتِ وَأَشْرَفُهَا الْعَرَبِيَّةُ ، لِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ إيجَازِ اللَّفْظِ ، وَبُلُوغِ الْمَعْنَى ، وَتَصْرِيفِ الْأَفْعَالِ وَفَاعِلِيهَا وَمَفْعُولِيهَا ، كُلُّهَا عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ ، الْحُرُوفُ وَاحِدَةٌ ، وَالْأَبْنِيَةُ فِي التَّرْتِيبِ مُخْتَلِفَةٌ ، وَهَذِهِ قُدْرَةٌ وَسِيعَةٌ وَآيَةٌ بَدِيعَةٌ .

(190/823)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ لِكُلِّ أُمَّةٍ حُرُوفٌ مُصَوَّرَةٌ بِالْقَلَمِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى الْمُوَافَقَةِ لِمَا فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ الْكَلِمِ، عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِ لُغَاتِهِمْ، مِنْ عِبْرَانِيٍّ، وَيُونَانِيٍّ، وَفَارِسِيٍّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ اللُّغَاتِ أَوْ عَرَبِيٍّ؛ وَهُوَ أَشْرَفُهَا، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِمَّا عَلَّمَ اللَّهُ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَسْبَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾؛ فَلَمْ يَبْقَ شَيْءٌ إلَّا وَعَلَّمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ آدَمَ اسْمَهُ بِكُلِّ لُغَةٍ، وَذَكَرَهُ آدَم لِلْمَلَائِكَةِ كَمَا عُلِّمَهُ، وَبِذَلِكَ ظَهَرَ فَضْلُهُ، وَعَظُمَ قَدْرُهُ، وَتَبَيَّنَ عِلْمُهُ، وَثَبَتَتْ نُبُوَّتُهُ، وَقَامَتْ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، وَحُجَّتُهُ، وَامْتَثَلَتْ الْمَلَائِكَةُ لَمَّا رَأَتْ مِنْ شَرَفِ الْحَالِ، وَرَأَتْ مِنْ جَلَالِ الْقُدْرَةِ، وَسَمِعَتْ مِنْ عَظِيمِ الْأَمْرِ، ثُمَّ تَوَارَثَتْ ذَلِكَ ذُرِّيَّتُهُ خَلَفًا بَعْدَ سَلَفٍ، وَتَنَاقَلُوهُ قَوْمًا عَنْ قَوْمٍ، تَحْفَظُهُ أُمَّةٌ

وَتُضَيِّعُهُ أُخْرَى، وَالْبَارِئُ سُبْحَانَهُ يَضْبِطُ عَلَى الْخَلْقِ بِالْوَحْيِ مِنْهُ مَا شَاءَ عَلَى مَنْ شَاءَ مِنْ الْأُمَمِ عَلَى مَقَادِيرِهَا وَمَجْرَى حُكْمِهِ فِيهَا، حَتَّى جَاءَ إسْمَاعِيلُ بْنُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْ جِيرَتِهِ جُرْهُمًا، وَزَوَّجُوهُ فِيهِمْ، وَاسْتَقَرَّ بِالْحَرَمِ، فَنَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ فَعَلَّمَهُ الْعَرَبِيَّةَ غَضَّةً طَرِيَّةً، وَأَلْقَاهَا إلَيْهِ صَحِيحَةً فَصِيحَةً سَوِيَّةً، وَاسْتَطْرَبَ عَلَى الْأَعْقَابِ فِي الْأَحْقَابِ إلَى أَنْ وَصَلْنَا إلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَرُفَ وَشَرُفَتْ

بِالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَأُوتِيَ جَوَامِعَ الْكَلَامِ، وَظَهَرَتْ حِكْمَتُهُ وَحُكْمُهُ، وَأَشْرَقَ عَلَى الْآفَاقِ فَهْمُهُ وَعِلْمُهُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ.

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ قَالَ أَبُو الْمُنْذِرِ هِشَامُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنُ السَّائِبِ الْكَلْبِيُّ: أَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الْخَطَّ نَفَرٌ مِنْ طَيِّئٍ، وَهُمْ صُوَارُ بْنُ مُرَّةَ؛ وَيُقَالُ مِرَارُ بْنُ مُرَّةَ، وَأَسْلَمُ بْنُ سُدْرَةَ، وَعَامِرُ بْنُ خُدْرَةَ فَسَارُوا إلَى مَكَّةَ، فَتَعَلَّمَهُ مِنْهُمْ شَيْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ، وَهِشَامُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، ثُمَّ أَتَوْا الْأَنْبَارَ فَتَعَلَّمَهُ نَفَرٌ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَتَوْا الْحِيرَةَ، فَعَلَّمُوهُ جَمَاعَةً، مِنْهُمْ: سُفْيَانُ بْنُ مُجَاشِعِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دَارِمٍ، وَوَلَدُهُ، يُسَمَّوْنَ بِالْكُوفَةِ بَنِي الْكَاتِبِ.

(192/823)

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: الْكَلْبِيُّ مُتَّهَمٌ لَا يُؤَثَّرُ نَقْلُهُ، وَلَا يَصِحُّ مَا ذَكَرَهُ بِلَفْظِهِ مِنْ طَرِيقٍ يُعَوَّلُ عَلَيْهَا أَنَّ اللَّهَ عَلَّمَ الْخَطَّ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَنَقَلَهُ الْكَافَّةُ فَالْكَافَّةُ حَتَّى انْتَهَى إلَى الْعَرَبِ عَنْ غَيْرِهِمْ مِنْ الْأُمَمِ، فَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إنَّ أَوَّلَ مَنْ نَقَلَ الْخَطَّ إلَى بِلَادِ الْعَرَبِ فُلَانٌ.

وَأَمَّا أَنْ يُقَالَ: أَوَّلُ مَنْ وَضَعَ الْخَطَّ فُلَانٌ، فَالْخَطُّ لَيْسَ بِمَوْضُوعٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مَنْقُولٌ، وَقَدْ كَانَ قَبْلَ طَيِّئٍ بِمَا لَا يُحْصَى مِنْ السِّنِينَ عَدَدًا، فَأَمَّا وَضْعُهُ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ كَعْبٍ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ كَتَبَ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ وَالسُّرْيَانِيَّ وَالْمُسْنَدَ ، وَهُوَ كِتَابُ حِمْيَرَ ، كَتَبَهُ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَوَضَعَهَا فِي الطِّينِ وَطَبَخَهَا فَلَمَّا أَصَابَ الْأَرْضَ الْغَرَقُ ، وَانْجَلَى ، وَخَلَقَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ خَلْقٍ وَجَدَتْ كُلُّ أُمَّةٍ كِتَابَهَا ، فَأَصَابَ إِسْمَاعِيلُ كِتَابَ الْعَرَبِ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ وَضَعَ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ إِسْمَاعِيلُ عَلَى لَفْظِهِ وَمَنْطِقِهِ كِتَابًا وَاحِدًا ، مِثْلَ الْأُصُولِ فَتَعَرَّفَهُ وَلَدُهُ مِنْ بَعْدِهِ وَرُوِيَ عَنْ عُرْوَةَ : أَوَّلُ مَا وَضَعَ أَبْجَدِ هَوَّزْ حُطِّي كَلَمُنْ سعفص قَرَشَتْ ، وَأُسْنِدَ إِلَى عَمْرٍو .

(193/823)

وَهَذِهِ كُلُّهَا رِوَايَاتٌ ضَعِيفَةٌ لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِيهَا ، وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّ الْقَوْلَ فِي ذَلِكَ خَوْضٌ فِيمَا لَا يُعْتَمَدُ ، وَلَا يَتَعَلَّقُ عَلَيْهِ حُكْمٌ ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ فَائِدَةٌ شَرْعِيَّةٌ ، وَإِنَّمَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ لِيَعْلَمَ الطَّالِبُ مَا جَرَى ، وَيَفْهَمَ مِنْ ذَلِكَ الْأَوْلَى بِالدِّينِ وَالْأَحْرَى .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ إِسْمَاعِيلَ إِنَّمَا تَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْ جُرْهُمٍ ، حَسْبَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، فِي الْحَدِيثِ الطَّوِيلِ لِقِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَذَكَرَهُ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿

فَكَانَتْ كَذَلِكَ هَاجَرُ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمٍ مُقْبِلِينَ مِنْ طُرُقِ كَدَاءٍ أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمٍ ، نَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَلَيْهِمَا فَقَالُوا : إنَّ هَذَا الطَّائِرَ يَدُورُ عَلَى مَاءٍ لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا أَوْ جَرِيَّيْنِ فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا .

قَالَ وَأُمُّ إسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ الْمَاءِ ، فَقَالُوا : أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَك ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، وَلَكِنْ لَا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ .

قَالُوا : نَعَمْ .

(194/823)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَالَتْ ذَلِكَ أُمُّ إسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُحِبُّ الْإِنْسَ ، فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إلَى أَهْلِيهِمْ ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ ، حَتَّى إذَا كَانُوا بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ ، وَشَبَّ الْغُلَامُ ، وَتَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ ﴾ وَسَاقَ الْحَدِيثَ .

الْآيَةُ الرَّابِعَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَرَأَيْت الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إذَا صَلَّى ﴾ : فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى ثَبَتَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ لَمَّا قَالَ أَبُو جَهْلٍ : لَئِنْ

رَأَيت مُحَمَّدًا لَأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِه .

فَقَالَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْ فَعَلَ لَأَخَذَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عِيَانًا ﴾ خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ .

وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاس قَالَ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي ، فَجَاءَ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ : أَلَمْ أَنْهَك عَنْ هَذَا ؟ أَلَمْ أَنْهَك عَنْ هَذَا ؟ فَانْصَرَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَزَبَرَهُ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : إنَّك لَتَعْلَمُ مَا بِهَا نَادٍ أَكْثَرَ مِنِّي ، فَنَزَلَتْ : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَاَللَّهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ اللَّهِ ﴾ .

(195/823)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ تَعَلَّقَ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ فِي مَسَائِلَ مِنْهَا : لَوْ رَأَى الْمَاءَ وَهُوَ فِي أَثْنَاءِ الصَّلَاةِ [مُتَيَمِّمًا] ؛ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَغَيْرُهُ : يَقْطَعُ الصَّلَاةَ ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَمَادَى عَلَيْهَا .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّهُ يَدْخُلُ فِي الذَّمِّ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَرَأَيْت الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إذَا صَلَّى ﴾ .

وَهَذَا غَيْرُ لَازِمٍ ؛ لِأَنَّ الْخِلَافَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ هَلْ يَكُونُ فِي صَلَاةٍ إذَا رَأَى الْمَاءَ فَلَا يَتَنَاوَلُهُ الذَّمُّ إلَّا إذَا كَانَتْ الصَّلَاةُ بَاقِيَةً ، وَنَحْنُ قُلْنَا لَهُمْ : إذَا أَمَرْتُمُوهُ بِقَطْعِهَا بِرُؤْيَةِ الْمَاءِ فَقَدْ دَخَلْتُمْ فِي الْعُمُومِ الْمَذْمُومِ .

قَالُوا : لَا نَدْخُلُ ؛ لِأَنَّا نَرْفَعُ الطَّهَارَةَ بِالتُّرَابِ بِمُعَارِضِهَا وَهُوَ رُؤْيَةُ الْمَاءِ .

قُلْنَا : لَا تَكُونُ رُؤْيَةُ الْمَاءِ مُعَارِضَةً لِلطَّهَارَةِ بِالتُّرَابِ ، إلَّا إذَا كَانَتْ الْقُدْرَةُ عَلَى اسْتِعْمَالِ الْمَاءِ مُقَارِنَةً لِلرُّؤْيَةِ ، وَلَا قُدْرَةَ مَعَ الصَّلَاةِ ، وَلَا تَبْطُلُ الطَّهَارَةُ إلَّا بِرُؤْيَةٍ مَعَ قُدْرَةٍ ، فَمَانِعٌ فَبَقِيَتْ الصَّلَاةُ بِحَالِهَا .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَبَيَّنَّا أَنَّ الْمَسْأَلَةَ قَطْعِيَّةٌ ؛ لِأَنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِحُدُوثِ الْعَالَمِ .

(196/823)

الْآيَةُ الْخَامِسَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ : فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ : ﴿ وَاسْجُدْ ﴾ فِيهَا طَرِيقَةُ الْقُرْبَةِ ، فَهُوَ يَتَأَكَّدُ عَلَى الْوُجُوبِ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ، لَكِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سُجُودَ الصَّلَاةِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ سُجُودَ التِّلَاوَةِ .

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ سُجُودُ الصَّلَاةِ ، لِقَوْلِهِ : ﴿ أَرَأَيْت الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إذَا صَلَّى ﴾ إلَى قَوْلِهِ : (كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) ، لَوْلَا مَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ رِوَايَةِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَئِمَّةِ عَنْ ﴿ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ قَالَ : سَجَدْت مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي : ﴿ إذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ وَفِي : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك الَّذِي خَلَقَ ﴾ سَجْدَتَيْنِ ﴾ ، فَكَانَ هَذَا نَصًّا عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ سُجُودُ التِّلَاوَةِ .

وَقَدْ رَوَى ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: عَزَائِمُ السُّجُودِ أَرْبَعٌ: ﴿ الم تَنْزِيلُ ﴾ و ﴿ حم تَنْزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ و ﴿ وَالنَّجْمِ ﴾ و ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّك ﴾ .

وَهَذَا إنْ صَحَّ يَلْزَمُهُ عَلَيْهِ السُّجُودُ الثَّانِي مِنْ سُورَةِ الْحَجِّ، وَإِنْ كَانَ مُقْتَرِنًا بِالرُّكُوعِ، لِأَنَّهُ يَكُونُ مَعْنَاهُ ارْكَعُوا [فِي مَوْضِعِ الرُّكُوعِ]، وَاسْجُدُوا فِي مَوْضِعِ السُّجُودِ.

(197/823)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ: ﴿ وَاقْتَرِبْ ﴾ : الْمَعْنَى اكْتَسِبْ الْقُرْبَ مِنْ رَبِّك فِي السُّجُودِ فَإِنَّهُ أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ فِي سُجُودِهِ؛ لِأَنَّهَا نِهَايَةُ الْعُبُودِيَّةِ وَالذِّلَّةِ لِلَّهِ، وَلِلَّهِ غَايَةُ الْعِزَّةِ، وَلَهُ الْعِزَّةُ الَّتِي لَا مِقْدَارَ لَهَا، فَلَمَّا بَعُدْت مِنْ صِفَتِهِ قَرُبْت مِنْ جَنَّتِهِ، وَدَنَوْت مِنْ جِوَارِهِ فِي دَارِهِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿ أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ، وَأَمَّا

السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ فِي الدُّعَاءِ؛ فَإِنَّهُ قَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ .

وَقَدْ قَالَ ابْنُ نَافِعٍ ، وَمُطَرِّفٌ : وَكَانَ مَالِكٌ يَسْجُدُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِخَاتِمَةِ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَابْنُ وَهْبٍ يَرَاهَا مِنْ الْعَزَائِمِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(198/823)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة العلق

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1)

قوله : ﴿ اقرأ ﴾ : العامَّةُ على سكونِ الهمزةِ أمراً مِنْ القراءةِ . وقرأ عاصم في روايةِ الأعشى براءٍ مفتوحةٍ ، وكأنه قَلَبَ الهمزةَ ألفاً كقولِهم : قرا يَقْرا نحو : سعَى يَسْعى ، فلمَّا أَمَرَ منه حَذَفَ الألفَ على حَدِّ حَذْفِها مِنْ اسْعَ ، وهذا كقول زهير :

4603 . . . . وإلاَّ يُبْدَ بالظُّلْمِ يُظْلَمِ

وقد تقدَّمَ تحريرُه .

قوله : ﴿ باسم ربِّك ﴾ : يجوزُ فيه أوجهٌ ، أحدُها : أَنْ تكونَ الباءُ للحال ، أي : اقرأ مُفْتتحاً باسمِ ربِّك ، قل باسم الله ، ثم اقرأْ ، قاله الزمخشري . الثاني : انَّ الباءَ مزيدةٌ

والتقدير : اقرأ اسمَ ربِّك ، كقولِه :

4604 . . . . سُوْدُ المَحاجِرِ لا يَقْرَأْنَ بالسُّوَرِ

وقيل : الاسمُ صلةٌ ، أي : اذكُرْ ربَّك ، قالهما ابو عبيدة . الثالث : أنَّ الباءَ للاستعانةِ والمفعولُ محذوفٌ تقديرُه : اقرَأْ ما يوحى إليك مُسْتعيناً باسمِ ربِّك . الرابع : أنها بمعنى " على " ، أي : اقرأ على اسمِ ربِّك كما في قولِه : ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ ﴾ [هود : 41] قاله الأخفش ، وقد تَقَدَّم أولَ هذا الموضوع : كيف قَدَّمَ هذا الفعلَ على الجارِّ وقدَّرَ متأخراً في بسم الله الرحمن الرحيم وتخريجُ الناسِ له ، فأغنى عن إعادَتِه .

قوله : ﴿ الذي خَلَقَ خَلَقَ الإنسان ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ " خَلَقَ " الثاني تفسيراً ل " خَلَقَ " الأول يعني انه أَبْهمه أولاً ، ثم فَسَّره ثانياً بَخَلْقِ الإنسانِ تفخيماً لَخَلْقِ الإنسانِ . ويجوزُ أَنْ يكونَ حَذَفَ المفعولَ مِنْ الأولِ ، تقديرُه : خَلَقَ كلَّ شيءٍ لأنَّه مُطْلَقٌ فيتناوَلُ كُلَّ مخلوق .

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)

(199/823)

وقوله : ﴿ خَلَقَ الإنسان ﴾ : تخصيصٌ له بالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ ما يتناوَلُه الخَلْقُ ؛ لأنَّ التنزيلَ إليه . ويجوزُ أَنْ يكونَ تأكيداً لفظياً ، فيكونُ قد أكَّد الصلةَ وحدَها ، كقولك : " الذي قام قام

زيدٌ " والمرادُ بالإنسانِ الجنسُ ولذلك قال : ﴿ مِنْ عَلَقٍ ﴾ جمعَ عَلَقة ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مخلوقٌ مِنْ عَلَقَةٍ كما في الآية الآخرى .

الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)

وقوله : ﴿ الذى عَلَّمَ بالقلم عَلَّمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ : قريبٌ مِنْ قولِه : " خَلَق ، خلَق الإنسانَ " فلكَ أَنْ تُعيدَ فيه ما تقدَّم .

أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (7)

قوله : ﴿ أَن رَّآهُ ﴾ : " أنْ " مفعولٌ له ، أي : لرؤيتِه نفسَه مُسْتَغْنياً . وتعدى الفعلُ هنا إلى ضميرَيْه المتصلَيْن ؛ لأنَّ هذا مِنْ خواصِّ هذا البابِ . قال الزمخشري : " ومعنى الرؤيةِ العِلْمُ لو كانَتْ بمعنى الإِبصارِ لامتنع في فِعْلِها الجمعُ بين الضميرَيْن ، و " استغنى " هو المفعول الثاني " . قلت : والمسألةُ فيها خلافٌ : ذهب جماعةٌ إلى أنَّ " رأى " البَصَرية تُعْطي حُكْمَ العِلْمِّيَة ، وجَعَل مِنْ ذلك قولَ عائشةَ - رضي اللَّهُ عنها - " لقد رَأَيْتُنا مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعامٌ إلاَّ الأَسْوَدان " وأنشد :

4605 ولقد أَراني للرِّماحِ دَرِيْئَةً . . . مِنْ عَنْ يمين تارةً وأَمامي

وتقدَّم تحقيقُه . وقرأ قنبل بخلافٍ عنه " رَأَه " دونَ ألفٍ بعد الهمزة وهو مقصورٌ مِنْ " رآه " في قراءةِ العامَّةِ ، ولا شكَّ أنَّ الحَذْفَ في مثلِه جاء قليلاً كقولِهم : " اصابَ الناسَ جَهْدٌ ، ولو تَرَ أهلَ مكةَ " بحَذْفِ لامِ " ترى " وقولِ الآخرِ :

(200/823)

4606 وَصَّانِي العَجَّاجُ فيما وَصَّني . . . يريد : وصَّاني ولَمّا روى ابن مجاهد هذه القراءةَ عن قنبل وقال : " قرأتُ بها عليه " نَسَبه فيها إلى الغلط . ولا يَنْبغي ذلك لأنه إذا ثبتَتْ قراءةٌ ولها وجهٌ وإنْ كان غيرُه أشهرَ منه فلا يَنْبغي أنْ يُقْدِمَ على تَغْليطِه .

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9)

قوله : { أَرَأَيْتَ الذي } : قد تقدَّم لك الكلامُ على هذا الحرفِ مُسْتوفى ، وللزمخشريِّ هنا كلامٌ رأَيْتُ ذِكْرَه لخصوصيَّةٍ تَتَعَلَّقُ به قال : " فإن قلتَ : ما متعلِّقُ " أَرَأَيْت " ؟ قلت : " الذي يَنْهى " مع الجملةِ الشرطيةِ وهما في موضعِ المفعولَيْن . فإن قلت : فأين جوابُ الشرط ؟ قلت : هو محذوفٌ تقديرُه : إنْ كان على الهدى أو أمرَ بالتقوى ألم يعلَمْ بأنَّ اللَّهَ يرى ، وإنما حُذِفَ لدلالةِ ذِكْرِه في جوابِ الشرطِ الثاني . فإنْ قلتَ : كيف صَحَّ أَنْ يكونَ " ألم يعلَمْ " جواباً للشرطِ ؟ قلت : كما صَحَّ في قولِك : إنْ أَكْرَمْتُك أتكرِمُني ، وإن أَحْسَنَ إليك زيدٌ هل تُحْسِنُ إليه ؟ فإنْ قلتَ : فما أَرَأَيْتَ الثانيةَ وتوسُّطُها بين معفولَيْ " أَرَأَيْتَ " ؟ قلت : هي زائدةٌ مكررةٌ للتوكيد " قلت : وإذ قد تَعَرَّضَ للكلامِ في هذه الآية فلْنَجُرِ معه :

(201/823)

أعلَمْ أَنّ " ارأَيتَ " - كما عَلِمْتَ - لا يكونُ مفعولُها الثاني إلاّ جملةً استفهاميةً كقوله : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ﴾ [يونس : 50] إلى آخرِها . ومثلُه كثيرٌ، وهنا " أرأَيتَ " ثلاثَ مراتٍ، وقد صَرّحَ بعد الثالثةِ منها بجملةٍ استفهاميةٍ فتكونُ في موضعِ المفعولِ الثاني لها ، ومعفولُها الأول محذوفٌ، وهو ضميرٌ يعودُ على " الذي ينهى " الواقعِ مفعولاً أول ل " أَرأَيتَ " الأولى ، ومفعولُ " أَرأَيتَ " الأولى الذي هو الثاني محذوفٌ، وهو جملةٌ استفهاميةٌ ، كالجملةِ الواقعةِ بعد " أَرَأَيتَ " الثالثةِ وأمّا " أرأَيتَ " الثانية فلم يُذْكَرْ لها مفعولٌ لا أول ولا ثانٍ ، حُذِفَ الأول لدلالة المفعولِ مِنْ " أَرأَيتَ " الأولى عليه ، وحُذف الثاني لدلالة مفعولِ " أَرَأَيتَ " الثالثةِ عليه ، فقد حُذِف الثاني مِنْ الأولى ، والأول من الثالثةِ ، والاثنان مِنْ الثانيةِ . وليس طَلَبُ كلٍ مِنْ " أَرَأَيتَ " للجملةِ الاسميةِ على سبيلِ التنازعِ لأنه يَسْتدعي إضماراً ، والجمل لا تُضْمَرُ، إنما تُضْمَرُ المفردات ، وإنما ذلك مِنْ بابِ الحَذْفِ للدلالةِ . وأمّا الكلامُ على الشرطِ مع " أَرأَيتَ " هذه فقد عرَفْتَه ممّا في الأنعام في تُطيل الكلامَ بإعادتِه . وتجويزُ الزمخشريِّ وقوعَ جوابِ الشرط استفهاماً بنفسِه لا يجوزُ، بل نَصُّوا على وجوبِ ذِكْرِ الفاءِ في مثله ، وإن وَرَدَ شيءٌ فهو ضرورةٌ .

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15)

قوله : ﴿ لَنَسْفَعاً ﴾ : الوقفُ على هذه النونِ بالألفِ ، تشبيهاً لها بالتنوين ، وكذلك

يُحْذَفُ بعد الضمة والكسرة وقفاً . وتكتب ههنا ألفاً إتباعاً للوقف . ورُوِي عن أبي عمروٍ "لَنَسْفَعَنَّ" بالنونِ الثقيلةِ . والسَّفْعُ : الأَخْذُ والقَبْضُ على الشيءِ بشدةٍ وجَذْبه .

وقال عمرو بن معد يكرب :

(202/823)

4607 قومٌ إذا سَمِعُوا الصَّريخَ رَأَيْتَهُمْ . . . ما بين مُلْجِمِ مُهْرِه أو سافعِ

وقيل : هو الأَخْذُ بلغةِ قريشٍ . وقال الراغب : "السَّفْعُ : الأخْذُ بسُفْعِه الفرَس ، أي : بسَوادِ ناصيتِه ، وباعتبار السوادِ قيل للأثاثيّ : "سُفْعٌ" وبه سُفْعَةُ غَضَبٍ ، اعتباراً بما يَعْلُو من اللون الدُّخاني وَجْهَ مَنْ اشتدَّ به الغضبُ ، وقيل : للصَّقْر : "أَسْفَعُ" لِما فيه مِنْ لَمْع السَّوادِ ، وامرأةٌ سَفْعاءُ اللونِ" انتهى . وفي الحديث : "فقامَتِ امرأةٌ سَفْعاءُ الخَدَّيْن" .

نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16)

قوله : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ ﴾ : بدلٌ من الناصية بدل نُكرةٍ من معرفةٍ . قال الزمخشري : "وجاز بَدَلُها عن المعرفةِ وهي نكرةٌ لأنَّها وُصِفَتْ فاسْتَقَلَّتْ بفائدةٍ" قلت : هذا مذهبُ الكوفيين لا يُجيزون إبدال نكرةٍ مِنْ غيرها إلاَّ بشرط وَصْفِها أو كونِها بلفظِ الأول ، ومذهبُ البصريين لا يَشْتَرِطُ شيئاً ، وأنشدوا :

4608 فلا وأبيك خيرٍ منك إنّي . . . لَيُوْذِيْني التَّحَمْحُمُ والصَّهيلُ

وقرأ أبو حيوة وابنُ أبي عبلة وزيدُ بن علي بنصبِ " ناصيةً كاذبةً خاطئةً " على الشتم .

وقرأ الكسائي في روايةٍ بالرفع على إضمارِ : هي ناصية : ونَسَبَ الكَذِبَ والخَطَأَ إليها

مجازاً . والألفُ واللامُ في الناصية قيل : عِوَضٌ من الإِضافةِ ، أي : بناصيتِه . وقيل :

الضميرُ محذوفٌ ، أي : الناصية منه .

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17)

قوله : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ : إمَّا أَنْ يكون حَذْفِ مضاف ، أي : أهلَ نادِيه أو على التجوُّزِ في

نداءِ النادي لاشتمالِه على الناس كقوله : ﴿ وَسْئَلِ القرية ﴾ [يوسف : 82] .

والنادي والنَّدِيُّ : المَجْلِسُ المُتَّخَذُ للحديث . قال زهير :

4609 وفيهم مَقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهُمْ . . . وأَنْدِيَةٌ يَنْتابُها القولُ والفِعْلُ

(203/823)

وقالت أعرابية : " هو سَيِّدُ ناديه وثمالُ عافية " .

سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18)

قوله : ﴿ الزبانية ﴾ : قال الزمخشري : " الزَّبانية في كلامِ العربِ : الشُّرَطُ ، الواحد زِبْنِيَة

كعِفْرِية ، مِنْ الزَّبْن وهو الدفعُ . وقيل : زِبْنيّ وكأنه نُسِبَ إلى الزَّبْن ، ثم غُيِّر للنَّسَبِ ، كقولهم : إمْسيّ وأصلُه زَبانيّ فقيل : زبانِيَة على التعويض " وقال عيسى بن عمر والأخفش : " واحدُهم زابِن : وقيل : لا واحدَ له مِنْ لفظِه كعَباديد وشماطيط " والحاصل أُنَّ المادةَ تَدُلُّ على الدَّفْعِ قال :

4610 مطاعيمُ في القُصْوى مطاعينُ في الوَغى . . . زبانيَةٌ غُلْبٌ عِظامٌ حُلُومُها

وقال آخر :

4611 ومُسْتَعْجِبٍ مِمَّا يرى مِنْ أناتِنا . . . ولو زَبَنَتْه الحَرْبُ لم يَتَرَمْرَمِ

وقال عتبة : " وقد زَبَنَتْنا الحربُ وزبَنَّاها " ومنه الزُّبون لأنَّه يُدْفع مِنْ بائعٍ إلى آخر . وقرأ العامَّة " سَنَدْعُ " بنونِ العظمة ولم تُرْسَمْ بالواو ، وقد تقدَّم نظيرُه نحو : "يَدْعُ الداعِ" . وقرأ ابنُ أبي عبلة " سيدعى الزبانية " مبنيا للمعفولِ ورَفْعُ الزَّبانية لقيامِها مقامَ الفاعل . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 11 صـ 62.55﴾

(204/823)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى السجود)

وأصله التَّطامن والتذّلل.

وجُعِل ذلك عبارة عن التذّلل لله وعبادته، وهو عامّ فى الإِنسان، والحيوانات، والجمادات، وذلك ضربان:

سجود باختيار، وليس ذلك إِلَّا للإِنسان، وبه يَستحق الثَّواب، قال تعالى: ﴿ فَاسْجُدُواْ لِلَّهِ وَاعْبُدُواْ ﴾ أَى تذلَّلوا له.

وسجود بتسخير، وهو للإِنسان، والحيوانات، والنباتات، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ ، فهو الدّلالة الصّامتة والنّاطقة المنبّهة على كونها مخلوقة، وأَنَّها خَلْق فاعلٍ حكيم.

وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ينطوى على النّوعين من السجود بالتسخير والاختيار.

وقوله: ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ ، وهو على سبيل التسخير.

وقوله: ﴿ اسْجُدُواْ لآدَمَ ﴾ قيل: أُمِروا بأَن يتَّخذوه قِبلة، وقيل: أُمروا بالتذّلل له، والقيام بمصالحه ومصالح أَولاده، فأْتَمَرُوا إِلَّا إِبليس.

وقوله: ﴿ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً ﴾ أَى رُكَّعاً، وقيل: متذلِّلين منقادين.

وقيل: إِنَّ السّجود على سبيل الخدمة فى ذلك الوقت كان جائزًا.

وعلى وجهه سَجّاده : أَى أثر السّجود .

وبَسَط سَجّادته ومِسْجَدته ، وبعض العرب يَضُمّ السّين .

وشجر ساجد وسواجد ، وشجرة ساجدة : مائلة .

والسّفينة تسجد للرّياح / وتميل بمَيْلها .

وفلان ساجد المنخر : إِذا كان ذليلا خاضعاً .

وسجد البعيرُ وأَسجد : طأْطأَ رأْسه لراكبه .

قال :

وقلن له أَسجِدْ لليلَى فأَسجدا

وكان كسرى يسجد للطّالع ، وهو السّهم الّذِى يجاوز الهَدَف من أَعلاه ، وكانوا يعُدّونه كالمُقَرْطِس ، والمعنى أَنَّهُ كان يسلّم لراميه ويستسلم .

(205/823)

الأَزهرى : معناه : أَنّه كان يخفض رأسه إِذا شخص سهمُه وارتفع عن الرّمِيّة ليتقوّم السّهمُ فيصيبُ الدّارة .

قيل : ورد السّجود فى القرآن على خمسة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى الصّلاة : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ ﴾ ، أَى يصلّى .

الثانى : ساجدين بمعنى الأَنبياءِ : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ أَى فى أَصلاب الآباءِ من الأَنبياءِ .

الثالث : بمعنى الخضوع والانقياد : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ أَى يخضعان .

الرابع : بمعنى الرّكوع : ﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ ، أَى ركَّعاً .

الخامس : بمعنى سجود الصّلاة : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 3 صـ 188 . 190 ﴾

(206/823)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة العلق

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة سماعها يوجب أحد أمرين : " إما صحوا وإما صحوا لمن سمعها بشاهد العلم فيستبصر بواضح برهانه ، أو محوا لمن سمعها بشاهد المعرفة لأنه يتحير في جلال

سلطانه.

قوله جلّ ذكره: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ .

هذه السورة من أَوّلِ ما نَزَل على المصطفى صلى الله عليه وسلم لمّا تعرّض له جبريل في الهواء، ونَزَل عليه فقال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ . فالناسُ كلُّهم مريدون - وهو صلى الله عليه وسلم كان مُرَاداً . فاستقبل الأمر بقوله: "ما أنا بقارئ، فقال له: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فقال له: "اقرأ كما أقول لك: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ "

أي خلقهم على ما هم به.

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ .

العَلَق جمع عَلَقَة؛ كشجَرٍ وشجرة. . (والعَلَقَةُ الدمُ الجامد فإذا جرى فهو المسفوح).

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴾ .

"الأكرم": أي الكريم.

ويقال: الأكرم من كلِّ كريم.

﴿ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

علَّمهم ما لم يعلموا: الضروريَّ، والكسبيَّ.

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ .

أي: يتجاوز حدَّه إذا رأى في نفسه أنه استغنى؛ لأنه يَعْمَى عن مواضع افتقاره. ولم يقل:

إن استغنى بل قال : ﴿ أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَى ﴾ فإذا لم يكن مُعْجَباً بنفسه ، وكان مشاهداً لمحلِّ افتقاره - لم يكن طاغياً .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ .

أي : الرجوع يوم القيامة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَرَءَيْتَ الَّذِى يَنْهَى عِبْداً إِذَا صَلَّى ﴾ .

أليس لو لم يفعل هذا كان خيراً له ؟ ففي الآية هذا الإضمار .

﴿ أَرَأَيتَ إِن كانَ على الهدى أَوْ أَمَرَ بالتقوى ﴾ .

(207/823)

لكان خيراً له ؟

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ . كذَّب بالدِّين . وتولَّى عن الهداية .

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴾ .

أي : ما الذي يستحقُّه مَنْ هذه صفته ؟

والتخويفُ برؤية الله تنبيه على المراقبة - ومَنْ لم يَبْلُغْ حالَ المراقبة لم يَرْتَق منه إلى حال المشاهدة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ .

لَنأخُذَنّ بناصيته (وهي شَعْرُ مُقَدَّم الرأس) أَخْذَ إذلال . ومعناه لَنُسَوّدَنّ وَجْهَه .

وقوله : ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ بدلٌ من قوله : ﴿ لَنَسْفَعَا بِالنَّاصِيَةِ ﴾ .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴾ .

فليدعُ أهلَ ناديه وأهل مجلسه ، وسندعو الزبانيةَ ونأمرهم بإهلاكه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ .

أي : اقتربْ من شهود الربوبية بقلبك ، وقِفْ على بِساط العبودية بنَفْسك . ويقال :

فاسجُدْ بنفسِك ، واقترِبْ بسرِّك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 749.747 ﴾

(208/823)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة العلق " 1 "

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2)

الإعراب :

(باسم) متعلّق بحال من فاعل اقرأ أي متلبسا باسم ، أو مبتدئا باسم . . (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت لربّك (من علق) متعلّق بـ (خلق) الثاني .

جملة : " اقرأ . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " خلق (الأولى) " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " خلق (الثانية) " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 2 " .

---

(1) أو سورة القلم ، أو سورة اقرأ .

(2) أو بدل من جملة الصلة إذا قدّر مفعول الخلق بـ (كلّ شيء) ثمّ خصّص بخلق الإنسان .

(209/823)

الفوائد :

- بداية الوحي :

قال أكثر المفسرين : هذه السورة أول سورة نزلت من القرآن الكريم ، وأول ما نزل خمس آيات من أولها ، إلى قوله (ما لَمْ يَعْلَمْ) . عن عائشة أم المؤمنين ، رضي اللّه عنها أنها قالت :

أول ما بدئ به رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) من الوحي الرؤيا الصالحة : (وفي مسلم) الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، يتحنث فيه (وهو التعبد الليالي ذوات العدد) قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزوّد لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها ، حتى جاءه الوحي . وفي رواية : فجأه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال :

(210/823)

ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) . فرجع بها رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) ترجف بوادره ، حتى دخل على خديجة ، فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، ثم قال لخديجة : أي خديجة مالي ؟ وأخبرها الخبر ، قال : خشيت على نفسي .

قالت له خديجة : كلا ، أبشر ، فو اللّه لا يخزيك اللّه أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق

الحديث ، وتحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة ، حتى أتت به ورقة بن نوفل ، وهو ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء اللّه أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمي ، فقالت له خديجة : أي ابن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ما ذا ترى ؟ فأخبره رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) خبره ، فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزّل اللّه على موسى ، يا ليتني فيها جذعا إذ

يخرجك قومك . فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) أو مخرجيّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلّا عودي ، وإن يدركني يومك حيا أنصرك نصرا مؤزرا . ثم لم يلبث ورقة أن توفي ، وفتر الوحي . زاد البخاري ، قال : وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) - فيما بلغنا - حزنا غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهق ، فكلما أوفى بذروة جبل تبدي له جبريل فقال : يا محمد ، إنك رسول اللّه ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقر عينه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فقال له جبريل مثل ذلك .

[سورة العلق (96) : الآيات 3 إلى 5]

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (5)

الإعراب :

(الواو) حاليّة (الذي) في محلّ رفع نعت للأكرم " 1 " ، (بالقلم) متعلّق بـ (علّم) و(الباء) للاستعانة " 2 " .

جملة : " اقرأ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة للتوكيد .

وجملة : " ربّك الأكرم " في محلّ نصب حال من فاعل اقرأ .

وجملة : " علّم بالقلم " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " علّم الإنسان " لا محلّ لها بدل من (علّم بالقلم) .

وجملة : " لم يعلم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) " 3 " .

---

(1) يجوز أن يكون خبرا ثانيا للمبتدأ ربّك . . أو هو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو والجملة استئناف بيانيّ .

(2) يجوز تعليق الجارّ بالمفعول الثاني المقدّر أي علّم الإنسان الكتابة بالقلم .

(3) أو في محلّ نصب نعت لـ (ما) النكرة الموصوفة .

الصرف :

(3) الأكرم : هو بصيغة اسم التفضيل وزنه أفعل ولكنّه في المعنى مبالغة الكرم أي كرمه يزيد على كل كرم .

[سورة العلق (96) : الآيات 6 إلى 7]

كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى (7)

الإعراب :

(كلّا) حرف ردع وزجر " 1 " ، (اللام) المزحلقة للتوكيد ، (أن) حرف مصدريّ ، والضمير في (رآه) يعود على الإنسان أي رأى نفسه .

والمصدر المؤوّل (أن رآه . .) في محلّ جرّ بلام محذوفة متعلّق بـ (يطغى) أي لرؤية نفسه مستغنيا .

جملة : " إنّ الإنسان ليطغى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يطغى . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة: "رآه... "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "استغنى "في محلّ نصب مفعول به ثان للرؤية القلبيّة.

الصرف:

(7) رآه: المدّة فيه من همزة وألف ساكنة وهما عين الكلمة ولأمها، ولمّا جاء ضمير الغائب أدغمت الألفان ووضعت المدّة فوقها لتوسّطها العارض، والأصل رأى.

[سورة العلق (96): آية 8]

إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى (8)

الإعراب:

(إلى ربّك) متعلّق بخبر إنّ (الرجعى) اسم إنّ منصوب،

---

(1) وهي للتنبيه عند بعضهم، وبمعنى حقا عند بعضهم الآخر.

وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف.

جملة: "إنّ إلى ربّك الرجعى... "لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(الرجعى) مصدر سماعيّ للثلاثي رجع، وزنه فعلى بضم فسكون.. وهناك الرجوع والمرجع بكسر الجيم.

[سورة العلق (96) : الآيات 9 إلى 10]

أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى (9) عَبْداً إِذا صَلَّى (10)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التعجّبيّ "1"، (عبدا) مفعول به منصوب عامله ينهى (إذا) ظرف مجرّد من الشرط في محلّ نصب متعلّق ب (ينهى)..

جملة: "أرأيت..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ينهى..." لا محلّ لها صلة الموصول (الذي).

وجملة: "صلّى" في محلّ جرّ مضاف إليه.

[سورة العلق (96) : الآيات 11 إلى 12]

أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى (12)

الإعراب:

---

(1) وذلك في المواضع الثلاثة الآتية، و(أرأيت) بمعنى أخبرني، والمفعول الثاني محذوف دلّ عليه جملة: ألم يعلم.. الآتية، وقد تكون الرؤية بصريّة فلا تأويل.

(كان) ماض ناقص في محلّ جزم فعل الشرط (على الهدى) متعلّق بخبر كان (أو) للعطف

(بالتقوى) متعلّق بـ (أمر) جملة: "أرأيت . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "إن كان على الهدى . . . "لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: "أمر "لا محلّ لها معطوفة على جملة كان . . وجواب الشرط

محذوف دلّ عليه معنى التعجّب المتقدّم، أو معنى الاستفهام في قوله: ألم يعلم بأنّ اللّه يرى

. . .

[سورة العلق (96) : الآيات 13 إلى 14]

أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى (14)

الإعراب:

مفعول (رأيت) محذوف دلّ عليه (الذي ينهى . .) "1"،

(كذّب) في محلّ جزم فعل الشرط ومثله (تولّى)، (الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ . .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يرى) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (يعلم).

جملة: "أرأيت . . . "لا محلّ لها استئنافيّة "2".

وجملة: "كذّب... "لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: "تولّى... "لا محلّ لها معطوفة على جملة كذّب.

وجملة: "ألم يعلم... "في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل الرؤية.

وجملة: "يرى... "في محلّ رفع خبر أنّ.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه المفعول الثاني، أي: إن كذّب وتولّى فهل يعلم هذا الناهي أنّ اللّه يراه.

---

(1) في الآية (9) من السورة.

(2) وقد أعرب الزمخشريّ الآيات الآنفة إعرابا آخر نلخّصه في ما يلي نقلا عن الجمل:

(216/823)

"أ رأيت الأول مفعوله الأول الموصول، و(رأيت) الثاني زائد للتوكيد، وجملة الشرط وجوابه في حيّز الثاني هي المفعول الثاني لـ (رأيت) الأول، والمفعول الأول لـ (رأيت) الثالث محذوف تقديره أ رأيته، وجملة الشرط الثاني وجوابه - وهو جملة الاستفهام أ لم يعلم.. - هي المفعول الثاني لـ (رأيت) الثالث.. وصحّ ذلك كما صحّ في قولك: إن أكرمتك أ تكرمني؟ "اهـ. [.....]

[سورة العلق (96): الآيات 15 إلى 18]

كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (15) ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ (18)

الإعراب:

(كلّا) حرف ردع وزجر (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (اللام) لام القسم (نسفعن) مضارع مبني على الفتح في محلّ رفع، و(النون) نون التوكيد الخفيفة (بالناصية) متعلّق بـ (نسفعن)، و(الباء) للاستعانة (ناصية) بدل من الناصية المعرفة (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام الأمر (السين) للاستقبال (ندع) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الواو المحذوفة رسما لمناسبة قراءة الوصل، والفاعل نحن للتعظيم.

جملة: "إن لم ينته..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "نسفعن..." لا محلّ لها جواب القسم.. وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم.

وجملة: "ليدع..." في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي: إن كان قادرا على دفع العذاب فليدع ناديه.

وجملة: "سندع الزبانية..." لا محلّ لها تعليليّة.

الصرف:

(15) ينته: إعلال بالحذف لمناسبة الجزم، أصله ينتهي، وزنه يفتع.

(17) ناديه : اسم للمجلس الذي يجتمع فيه القوم ، وزنه فاعل .

(18) سندع : حذف منه حرف العلّة – لام الفعل – من رسم المصحف بسبب قراءة الوصل .

(217/823)

(الزبانية) ، جمع زبنية ، بكسر أوّله وسكون ثانيه وكسر ثالثة وتخفيف الياء ، وهو من الزبن أي الدفع أو هو جمع زبنيّ على النسب وأصله زبانيّ بتشديد الياء ثمّ جاءت التاء عوضا من الياء . . وجاء في القاموس : الزبنية كهبرية ، متمرّد الجنّ والإنس والشديد والشرطيّ ، جمعه زبانية أو واحدها زبنيّ .

البلاغة

الإسناد المجازي : في قوله تعالى " نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ " .

حيث وصف الناصية بما ذكر ، مع أنه صفة صاحبها للمبالغة ، حيث يدل على وصفه بالكذب والخطأ بطريق الأولى ، ويفيد أنه لشدة كذبه وخطئه ، كأن كل جزء من أجزائه يكذب ويخطئ ، وهو كقوله تعالى : " تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ " وقولهم : وجهها يصف الجمال . فالإسناد مجازي ، من إسناد ما للكل إلى الجزء .

المجاز المرسل : في قوله تعالى " فَلْيَدْعُ نادِيَهُ " .

أي فليدع أهل النادي ، فالنادي لا يدعى ، وإنما يدعى أهله ، فأطلق المحل وأريد الحال ، فالمجاز مرسل علاقته المحلية ، والنادي هو المجلس الذي ينتدي فيه القوم ، أي يجتمعون للحديث .

[سورة العلق (96) : آية 19]

كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)

الإعراب :

(لا) ناهية جازمة (الواو) عاطفة في الموضعين . .

جملة : " لا تطعه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اسجد . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " اقترب . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الصرف :

(تطعه) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم أصله تطيعه مرفوعا ، فلمّا جزم سكّنت العين فالتقى ساكنان ، التقى ساكنان الياء والعين ، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين ، وزنه تفله .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 364 . 372 ﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(96) سورة العلق

مكيّة وآياتها تسع عشرة

[سورة العلق (96) : الآيات 1 إلى 19]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)

عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (5) كَلاَّ إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى (6) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى (7) إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى (8) أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى (9)

عَبْداً إِذا صَلَّى (10) أَرَأَيْتَ إِنْ كانَ عَلَى الْهُدى (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوى (12) أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (13) أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى (14)

كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ (15) ناصِيَةٍ كاذِبَةٍ خاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ (18) كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (19)

اللغة:

(العلق) : الدم وهو اسم جنس جمعي وأطلق المفسرون عليه الجمع إما تسمحا وهو جمع

لغوي وفي المصباح : " والعلق المني فينتقل طورا بعد طور فيصير دما غليظا متجمدا ثم ينتقل طورا آخر فيصير لحما وهو المضغة " وعبارة القاموس " العلق محركة الدم عامة أو الشديد الحمرة أو الغليظ أو الجامد القطعة منه بهاء وكل ما علق والطين الذي يعلق باليد والخصومة والمحبة اللازمتان وذو علق جبل لبني أسد لهم فيه يوم على ربيعة بن مالك ودويبة في الماء تمتص الدم " إلى آخر ما جاء في هذه المادة المطوّلة .

(لَنَسْفَعاً) السفع : الأخذ والقبض على الشيء وجذبه بشدة وفي المختار : " سفع بناصيته أي أخذ ومنه قوله تعالى : لنسفعا بالناصية وسفعته النار والسموم إذا لفحته لفحا يسيرا فغيرت لون البشرة وبابهما قطع " .

(219/823)

(الزَّبانِيَةَ) : الملائكة الغلاظ الشداد واحدها زبنية بكسر أوله وسكون ثانيه وكسر ثالثه وتخفيف الياء من الزبن وهو الدفع أو زبني على النسب وأصله زباني بتشديد الواو فالتاء عوض عن الواو وفي المختار " وأحد الزبانية زبان أو زابان قال الأخفش واحدهم زباني وقال بعضهم زابي وقال بعضهم زبنية مثل عفرية " وفي القاموس : " والزبنية كهبرية متمرد الجن والإنس والشديد والشرطي والجمع زبانية أو واحدها زبّني " .

الإعراب :

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنسانَ مِنْ عَلَقٍ) اقرأ فعل

أمر مبني على السكون وفاعله مستتر تقديره أنت وباسم متعلق بمحذوف حال من ضمير

الفاعل أي مفتتحا ، وأعربها ابن خالويه زائدة تابعا في ذلك لأبي عبيدة قال : الباء زائدة

والمعنى اقرأ اسم ربك كما قال سبّح اسم ربك وأنشد : "سود المحاجر لا يقرأن بالسور"

والمعنى على زيادة الباء أي لا يقرأن السور ، وقد تقدم بحث زيادة الباء وعبارة أبي البقاء "

قوله تعالى باسم ربك قيل الباء زائدة كقول الشاعر : "سود المحاجر لا يقرأن بالسور" وقيل

دخلت لتنبّه على البداية باسمه في كل شيء كما قال تعالى بسم اللّه الرحمن الرحيم فعلى

هذا يجوز أن يكون حالا أي مبتدئا باسم ربك .

(220/823)

والذي نعت للرب وهو في محل جر وجملة خلق لا محل لها لأنها صلة الذي والضمير فيه

يعود على الذي وخلق الإنسان بدل منه ويجوز أن يكون تأكيدا لفظيا فيكون قد أكد الصلة

وحدها والإنسان مفعول به ومن علق متعلقان بخلق (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)

اقرأ فعل أمر تأكيد لاقرأ الأول والواو استئنافية ويجوز أن تكون للحال وربك مبتدأ والأكرم

خبره وهذا ما رأيناه وأعربها ابن خالويه نعتا فتكون جملة علّم الإنسان هي الخبر ، والأول أولى ، والذي خبر ثان وأعربها ابن خالويه نعتا ثانيا ولسنا نرى هذا الرأي ، وجملة علّم صلة وفاعل علم مستتر يعود على اللّه ومفعولاه محذوفان أي علّم الإنسان الخط بالقلم وبالقلم متعلقان بعلم والواقع أنها متعلقة بالخط (عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ) جملة علّم الإنسان تأكيد لعلم الأولى أو بدل أو خبر كما تقدم والإنسان مفعول به أول وما اسم موصول مفعول به ثان وجملة لم يعلم صلة ما والعائد محذوف أي لم يعلمه (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغى) كلا ردع وزجر لمن كفر بنعمة اللّه عليه بطغيانه وإن واسمها واللام المزحلقة وجملة يطغى خبر إن ولا أدري لم تهرب المعربون من الردع وهو أوضح من كل ما قدّروه وإليه ذهب الزمخشري أما الجلال فإنه تبع الكسائي فجعلها بمعنى حقا قال الكرخي " قوله- أي الجلال-

(221/823)

حقا هو مذهب الكسائي ومن تبعه لأنه ليس قبله ولا بعده شيء يكون كلا ردا له كما قالوا : كلا والقمر فإنهم قالوا معناه إي والقمر ومذهب أبي حيان أنها بمعنى ألا الاستفتاحية وصوّبه ابن هشام لكسر همزة إن بعدها أي لكونه مظنة جملة كما بعد حرف التنبيه نحو ألا إنهم هم المفسدون ولو كانت بمعنى حقا لما كسرت إن بعدها لكونها مظنة مفرد ، أما

الكواشي فأجاز في كلا أن تكون تنبيها فيقف على ما قبلها وردعا فيقف عليها ، أما ابن خالويه فقد لفّق تلفيقا عجيبا مضحكا قال :

"كلا يبتدأ به ها هنا لأنه بمعنى نعم حقا وليس ردا " وهذا كلام لا مفهوم له ، والحق أن كلا حرف ردع وزجر كما قال سيبويه وقال الزجّاج كلا ردع وتنبيه وذلك قولك كلا لمن قال لك شيئًا تنكره نحو فلان يبغضك وشبّهه أي ارتدع عن هذا وتنبه عن الخطأ فيه قال اللّه تعالى بعد قوله :

ربي أهانن كلا أي ليس الأمر كذلك لأنه قد يوسع في الدنيا على من لا يكرمه من الكفار وقد يضيق على الأنبياء والصالحين للاستصلاح (أَنْ رَآهُ اسْتَغْنى) أن حرف مصدري ونصب وهي مع مدخولها في تأويل مصدر مفعول لأجله ورآه فعل ماض والفاعل هو والهاء مفعول به أول وجملة استغنى مفعول به ثان والهاء تعود على الإنسان ومعناه أن رأى نفسه ،

وعبارة ابن خالويه جيدة قال : فإن قيل لك : فهل يجوز أن تقول زيد ضربه والهاء لزيد ؟ فقل ذلك غير جائز إنما الصواب ضرب زيد نفسه لأن الفاعل بالكلية لا يكون مفعولا بالكلية وإنما جاز ذلك في أن رآه لأنه من أفعال الشك والعلم نحو ظننتني فإذا ثنّيت هذا الحرف قلت إن الإنسانين ليطغيان أن رأياهما استغنيا وكلا إن الأناسي ليطغون أن رأوهم استغنوا وتقول للمرأة إذا خاطبتها كلا إنك لتطغين أن رأيتك استغنيت وكلا إنكما لتطغيان أن رأيتما كما استغنيتما وكلا إنكنّ لتطغين أن رأيتنّكنّ استغنيتنّ " (إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعى)

(222/823)

كلام مستأنف مسوق لمخاطبة الإنسان الطاغي بطريق الالتفات وإن حرف مشبه بالفعل وإلى

ربك خبر إنّ المقدم والرجعى اسمها المؤخر (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهى عَبْداً إِذا صَلَّى) روى مسلم

عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم فقيل نعم فقال واللات

والعزّى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنّ على رقبته ولأعفرنّ وجهه في التراب، قال: فأتى رسول

اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وهو يصلي ليطأ على رقبته قال فما فجئهم منه إلا وهو ينكص

على عقبه ويتقي بيديه فقيل له ما لك؟ قال إن بيني وبينه خندقا من نار وهولا وأجنحة

فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلم لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا.

(223/823)

أرأيت: تقدم القول أنها إذا كانت بمعنى أخبرني كما هنا فإنها تتعدى إلى مفعولين ثانيهما

جملة استفهامية وقد تقدم هذا غير مرة وهنا قد ذكرت ثلاث مرات وقد صرح بعد الثالثة

منها بجملة استفهامية فتكون في موضع المفعول الثاني لها ومفعولها الأول محذوف وهو ضمير يعود على الذي ينهى عبدا الواقع مفعولا أول لأرأيت الأولى وأما أرأيت الأولى فمفعولها الأول الذي ومفعولها الثاني محذوف وهو جملة استفهامية كالجملة الواقعة بعد أرأيت الثالثة وأما أرأيت الثانية فلم يذكر لها مفعول لا أول ولا ثان فحذف الأول لدلالة المفعول الأول من أرأيت الأولى عليه وحذف الثاني لدلالة مفعول أرأيت الثالثة فقد حذف الثاني من أرأيت الأولى والأول من الثالثة والاثنان من الثالثة وليس ذلك من باب التنازع لأن التنازع يستدعي إضمارا والجمل لا تضمر إنما تضمر المفردات وإنما ذلك من باب الحذف للدلالة وجملة ينهى صلة لا محل لها وعبدا مفعول ينهى وإذا ظرف لما يستقبل من الزمن لمجرد الظرفية متعلق بنهي (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى) أرأيت الهمزة للاستفهام ورأيت فعل وفاعل ومعناه أخبرني وإن شرطية وكان فعل ماض ناقص وهو في محل جزم فعل الشرط وسيأتي الكلام على الجواب واسمها مستتر تقديره هو وعلى الهدى خبره وأو حرف عطف وأمر فعل ماض وفاعله هو عطف على كان على الهدى وبالتقوى متعلقان بأمر (أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) أرأيت :

أخبرني ، وإن شرطية وكذب فعل ماض في محل جزم فعل الشرط وتولى عطف على كذب وسيأتي الكلام على الجواب أيضا ، والهمزة للاستفهام للتقرير والتعجب ولم حرف نفي وقلب وجزم ويعلم فعل مضارع مجزوم بلم والباء حرف جر زائد وأن واسمها وجملة يرى خبرها وأن وما بعدها سدّت مسدّ مفعولي يعلم ، أما جواب الشرط الذي في حيز الثانية والثالثة فمحذوف يدل عليه الجملة الاستفهامية والتقدير إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أفلم يعلم ذلك الناهي بأن اللّه يرى وتقديره في الثالثة إن كذب وتولى أفلم يعلم بأن اللّه يرى أي على تقدير الفاء . ونحا الزمخشري في إعراب هذه الآيات نحوا آخر ننقله لك لننقل بعده ردّ أبي حيان فترى كيف يشتجر الخلاف حول الإعراب وفي ذلك مصقلة للعقل ومجلاة له وملخص إعراب الزمخشري : إن أرأيت الأولى مفعولها الموصول وإن الثانية زائدة مكررة لتوكيد الأولى وإن المفعول الثاني للأولى هو جملة الشرط الذي في حيّز الثانية مع جوابه المحذوف الذي يقدّر جملة استفهامية وهي التي صرح بها في حيّز الثالثة وإن مفعول الثالثة الأول محذوف تقديره أرأيته وجملة الشرط الذي بعدها وجوابه وهو جملة الاستفهام المصرّح بها سادّة مسدّ المفعول الثاني ، وقال في تقرير هذا الإعراب : " فإن قلت كيف صحّ أن يكون ألم يعلم جوابا للشرط قلت كما صحّ في قولك : إن أكرمتك أتكرمني وإن أحسن إليك زيد هل تحسن إليه ؟ " . وسخر أبو حيان من هذا الإعراب وقال : " وما قرره الزمخشري هنا ليس بجار على ما قررناه فمن ذلك أنه ادّعى أن جملة الشرط في موضع

المفعول الواحد والموصول هو الآخر وعندنا أن المفعول الثاني لا يكون إلا جملة استفهامية كقوله :

أفرأيت الذي تولى وأعطى قليلا وأكدى أعنده علم الغيب ، أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال : لأوتين مالا وولدا أطلع الغيب ، أفرأيتم ما تمنون

أأنتم تخلقونه ، وهو كثير في القرآن فتخريج هذه الآية على ذلك القانون ، ويجعل مفعول أرأيت الأولى هو الموصول وجاء بعده أرأيت وهي تطلب مفعولين وأ رأيت الثانية كذلك فمفعول أرأيت الثانية والثالثة محذوف يعود على الذي ينهى فيهما أو على عبدا في الثانية وعلى الذي ينهى في الثالثة على الاختلاف السابق في عود الضمير ، والجملة الاستفهامية توالى عليها ثلاثة طوالب فنقول حذف المفعول الثاني لأرأيت وهو جملة الاستفهام الدّال عليه الاستفهام المتأخر لدلالته وحذف مفعول أرأيت الأخير لدلالة مفعول أرأيت الأولى عليه وحذفا معا لأرأيت الثانية لدلالة الأولى على مفعولها ولدلالة الآخر لأرأيت الثالثة على مفعولها الآخر ، وهؤلاء الطوالب ليس على طريق التنازع لأن الجمل لا يصحّ إضمارها فإنما ذلك من باب الحذف في غير التنازع ، وأما تجويز الزمخشري وقوع جملة

الاستفهام جوابا للشرط بغير فاء فلا أعلم أحدا أجازه بل نصّوا على وجوب الفاء في كل ما اقتضى طلبا بوجه ما ولا يجوز حذفها إلا إن كان في ضرورة شعر " أما ابن خالويه فقد كان إعرابه مضحكا للغاية لأنه نسي أو تناسى أن هنالك مفاعيل محذوفة أو جوابا للشرط واكتفى باللفظ الظاهر وما أبعد هذا عن الإعراب لا سيما في مثل هذه الآيات (كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) كلا ردع وزجر لأبي جهل واللام موطئة للقسم لأنها داخلة على أداة شرط للإيذان بأن الجواب بعدها مبني على قسم قبلها لا على الشرط ومن ثم تسمى اللام المؤذنة أو الموطئة لأنها وطأت الجواب للقسم أي مهّدته له وإن شرطية ولم حرف نفي وقلب وجزم وينته فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة ، ولنسفعا اللام جواب القسم جريا على القاعدة المقررة من اجتماع قسم وشرط ونسفعا فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة وكتبت بالألف في المصحف على حكم

الوقف والفاعل مستتر تقديره

نحن وبالناصية متعلقان بنسفعا وناصية بدل من الناصية وجاز إبدالها من المعرفة وهي نكرة لأنها وصفت والبصريون لا يشترطون في البدل المطابقة وقرىء بالرفع على تقدير هي وبالنصب على الذم وكاذبة وخاطئة نعتان ، وسيأتي معنى وصفها بالكذب والخطأ في باب البلاغة (فَلْيَدْعُ نادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبانِيَةَ كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) الفاء الفصيحة أي إن استمر في غلوائه وإن أصرّ على المعاندة والمكابرة فليدع ، واللام لام الأمر ويدع فعل مضارع مجزوم بلام الأمر وعلامة الجزم حذف الواو والفاعل مستتر تقديره هو ، وسيأتي معنى دعوة النادي في باب البلاغة ، والسين حرف استقبال وندعو فعل مضارع مرفوع ، وقد أسقطت الواو من المصحف في كل واو ساكنة استقبلتها اللام الساكنة ، والزبانية مفعول به وكلا تأكيد للردع والزجر لأبي جهل ولا ناهية وتطعه فعل مضارع مجزوم بلا والفاعل مستتر تقديره أنت والهاء مفعول به واسجد فعل أمر واقترب عطف على واسجد .

البلاغة :

1- في قوله : " ناصية كاذبة خاطئة " مجاز عقلي فقد وصف الناصية بالكذب والخطأ والحقيقة صاحبها وذلك أبلغ من أن يضاف فيقال ناصية كاذب خاطى لأنها هي المحدّث عنها .

2- وفي قوله " فليدع ناديه " مجاز مرسل والمراد أهل النادي ، فالنادي لا يدعى وإنما

يدعى أهله فأطلق المحل وأريد الحال فالمجاز مرسل علاقته المحلية والنادي هو المجلس الذي ينتدي فيه القوم ولا يسمى المكان ناديا حتى يكون فيه أهله ، وفي المصباح : " ندا القوم ندوا من باب غزا اجتمعوا ومنه اشتق النادي وهو مجلس القوم للتحدّث " وفي

(227/823)

المختار : " وناداه جالسه في النادي وتنادوا تجالسوا في النادي والندي على فعيل مجلس القوم ومتحدّثهم وكذا الندوة والنادي والمنتدى فإن تفرق القوم عنه فليس بندي ومنه سمّيت دار الندوة التي بناها قصيّ بمكة لأنهم كانوا يندون فيها أي يجتمعون للمشاورة " وكان أبو جهل قد قال للنبي صلّى اللّه عليه وسلم لما انتهره حيث نهاه عن الصلاة لقد علمت ما بها أي مكة رجل أكثر ناديا مني لأملأن عليك هذا الوادي إن شئت خيلا جردا ورجالا مردا .

الفوائد :

1- زيادة الباء في مفعول علم : تطّرد زيادة الباء في مفعول عرفت ونحوه وتقلّ في مفعول ما يتعدى لاثنين ولكنها بعد علم تكاد تكون مطّردة ، قال عمرو بن كلثوم :

وقد علم القبائل من معد إذا قبب بأبطحها بنينا

بأنّا المطعمون إذا قدرنا وأنّا المهلكون إذا ابتلينا

2- هل يتطابق البدل والمبدل منه تعريفا وتنكيرا : قال الزمخشري في المفصل : " وليس بمشروط أن يتطابق البدل والمبدل منه تعريفا وتنكيرا بل لك أن تبدل أيّ النوعين شئت من الآخر ، قال اللّه عزّ وجلّ :

" اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم " وقال : " بالناصية ناصية كاذبة خاطئة " خلا أنه لا يحسن إبدال النكرة من المعرفة إلا موصوفة كناصبة " أما بدل النكرة من النكرة فمثاله قوله تعالى : " إن للمتقين مفازا حدائق وأعنابا " فقوله مفازا نكرة وقد أبدل من النكرة وهو حدائق ومثله قول الشاعر :

وكنت كذي رجلين رجل صحيحة ورجل رمى فيها الزمان فشلّت

فأبدل قوله رجل صحيحة من قوله رجلين وكلاهما نكرة ومثال بدل المعرفة من النكرة قولك مررت برجل زيد قال اللّه تعالى " وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم صراط اللّه " فالثاني معرفة بالإضافة وقد أبدله من الأول وهو نكرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه جـ 10 صـ 536.527 ﴾

(228/823)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الْعَلَقِ

وَقَالَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

فَصْلٌ :

فِي بَيَانِ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ بَيَانُ أُصُولِ الدِّينِ وَهِيَ الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ الدَّالَّةُ عَلَى ثُبُوتِ الصَّانِعِ وَتَوْحِيدِهِ وَصِدْقِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى الْمَعَادِ إمْكَانًا وَوُقُوعًا . وَقَدْ ذَكَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ هَذَا الْأَصْلَ غَيْرَ مَرَّةٍ وَأَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ وَالسَّمْعِيَّةَ الَّتِي يَهْتَدِي بِهَا النَّاسُ إلَى دِينِهِمْ وَمَا فِيهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَنَّ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا أُصُولًا تُخَالِفُ بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ هِيَ أُصُولُ دِينِهِمْ لَا أُصُولُ دِينِهِ . وَهِيَ بَاطِلَةٌ عَقْلًا وَسَمْعًا كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . وَبَيَّنَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْعِلْمِ وَالدِّينِ قَاصِرُونَ أَوْ مُقَصِّرُونَ فِي مَعْرِفَةِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ

الدَّلَائِلِ السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ . فَطَائِفَةٌ قَدْ ابْتَدَعَتْ أُصُولًا تُخَالِفُ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ هَذَا وَهَذَا . وَطَائِفَةٌ رَأَتْ أَنَّ ذَلِكَ بِدْعَةٌ فَأَعْرَضَتْ عَنْهُ وَصَارُوا يَنْتَسِبُونَ إلَى السُّنَّةِ لِسَلَامَتِهِمْ مِنْ

بِدْعَةِ أُولَئِكَ . وَلَكِنْ هُمْ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَتَّبِعُوا السُّنَّةَ عَلَى وَجْهِهَا وَلَا قَامُوا بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ الدَّلَائِلِ السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ . بَلْ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ مِنْ السَّمْعِيَّاتِ مِمَّا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ رَبِّهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ غَايَتُهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِلَفْظِهِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ لِمَا أَخْبَرَ بِهِ . بَلْ قَدْ يَقُولُونَ مَعَ هَذَا إنَّهُ نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَعْنَى مَا أَخْبَرَ بِهِ لِأَنَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ هُوَ تَأْوِيلُ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ . وَأَمَّا الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ فَقَدْ لَا يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُ أَتَى بِالْأُصُولِ الْعَقْلِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى مَا يُخْبِرُ بِهِ كَالْأَدِلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُقِرُّ بِأَنَّهُ جَاءَ بِهَذَا مُجْمَلًا وَلَا يَعْرِفُ أَدِلَّتَهُ . بَلْ قَدْ يَظُنُّ أَنَّ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ كَالِاسْتِدْلَالِ بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ عَلَى حُدُوثِ جَوَاهِرِهِ هُوَ دَلِيلُ الرَّسُولِ . وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ فِي ذَلِكَ مَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْلَمَ بِالْعَقْلِ كَالْمَعَادِ وَحُسْنِ التَّوْحِيدِ وَالْعَدْلِ وَالصِّدْقِ وَقُبْحِ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ

(230/823)

وَالْكَذِبِ . وَالْقُرْآنُ يُبَيِّنُ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ الدَّالَّةَ عَلَى ذَلِكَ . وَيُنْكِرُ عَلَى مَنْ لَمْ يَسْتَدِلَّ بِهَا . وَيُبَيِّنُ أَنَّهُ بِالْعَقْلِ يُعْرَفُ الْمَعَادُ وَحُسْنُ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ وَحُسْنُ شُكْرِهِ وَقُبْحُ الشِّرْكِ وَكُفْرِ نِعَمِهِ كَمَا قَدْ بَسَطْت الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ . وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَكُونُ هَذَا فِي فِطْرَتِهِ وَهُوَ يُنْكِرُ تَحْسِينَ الْعَقْلِ وَتَقْبِيحَهُ إذَا صَنَّفَ فِي أُصُولِ الدِّينِ عَلَى طَرِيقَةِ النُّفَاةِ الْجَبْرِيَّةِ

أَتْبَاعِ جَهْمٍ . وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي عَامَّةِ مَا يَقُولُهُ الْمُبْطِلُونَ يَقُولُونَ بِفِطْرَتِهِمْ مَا يُنَاقِضُ مَا يَقُولُونَهُ فِي اعْتِقَادِهِمْ الْبِدْعِيِّ . وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنُ الْجَدِّ الْأَعْلَى أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا الْفَرَجِ ابْنَ الْجَوْزِيِّ يُنْشِدُ فِي مَجْلِسِ وَعْظِهِ الْبَيْتَيْنِ الْمَعْرُوفَيْنِ :

هَبْ الْبَعْثَ لَمْ تَأْتِنَا رُسُلُهُ ** وَجَاحِمَةُ النَّارِ لَمْ تُضْرَمْ

أَلَيْسَ مِنْ الْوَاجِبِ الْمُسْتَحَقِّ ** حَيَاءُ الْعِبَادِ مِنْ الْمُنْعِمِ ؟

فَقَدْ صَرَّحَ فِي هَذَا بِأَنَّهُ مِنْ الْوَاجِبِ الْمُسْتَحَقِّ حَيَاءُ الْخَلْقِ مِنْ الْخَالِقِ الْمُنْعِمِ . وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِأَنَّ شُكْرَهُ وَاجِبٌ مُسْتَحَقٌّ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ وَعِيدٌ وَلَا

(231/823)

رِسَالَةٌ أَخْبَرَتْ بِجَزَاءِ . وَهُوَ يُبَيِّنُ ثُبُوتَ الْوُجُوبِ وَالِاسْتِحْقَاقِ وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُ لَا عَذَابَ . وَهَذَا فِيهِ نِزَاعٌ قَدْ ذَكَرْنَاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَّا أَنَّ هَذَا هُوَ الصَّحِيحُ . وَنَتِيجَةُ فِعْلِ الْمَنْهِيِّ انْخِفَاضُ الْمَنْزِلَةِ وَسَلْبُ كَثِيرٍ مِنْ النِّعَمِ الَّتِي كَانَ فِيهَا وَإِنْ كَانَ لَا يُعَاقَبُ بِالضَّرَرِ . وَبُيِّنَ أَنَّ الْوُجُوبَ وَالِاسْتِحْقَاقَ يُعْلَمُ بِالْبَدِيهَةِ . فَتَارِكُ الْوَاجِبِ وَفَاعِلُ الْقَبِيحِ وَإِنْ لَمْ يُعَذَّبْ بِالْآلَامِ كَالنَّارِ فَيُسْلَبُ مِنْ النِّعَمِ وَأَسْبَابِهِ مَا يَكُونُ جَزَاءَهُ . وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النِّعْمَةَ بَلْ كَفَرَهَا أَنْ يَسْلُبَهَا . فَالشُّكْرُ قَيْدُ النِّعَمِ وَهُوَ مُوجِبٌ لِلْمَزِيدِ . وَالْكُفْرُ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ

مُوجِبٌ لِلْعَذَابِ وَقَبْلَ ذَلِكَ يُنْقِصُ النِّعْمَةَ وَلَا يَزِيدُ . مَعَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إرْسَالِ رَسُولٍ يَسْتَحِقُّ مَعَهُ النَّعِيمَ أَوْ الْعَذَابَ فَإِنَّهُ مَا ثَمَّ دَارٌ إلَّا الْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ . قَالَ تَعَالَى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ﴿ إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوَاضِعَ .

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ بَيَانَ هَذِهِ الْأُصُولِ وَقَعَ فِي أَوَّلِ مَا أُنْزِلَ مِنْ الْقُرْآنِ . فَإِنَّ أَوَّلَ مَا أُنْزِلَ مِنْ الْقُرْآنِ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ عِنْدَ جَمَاهِيرِ

(232/823)

الْعُلَمَاءِ . وَقَدْ قِيلَ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ جَابِرٍ . وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ . فَإِنَّ مَا فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ يُبَيِّنُ أَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ نَزَلَتْ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ وَأَنَّ " الْمُدَّثِّرَ " نَزَلَتْ بَعْدُ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي . فَإِنَّ قَوْلَهُ ﴿ اقْرَأْ ﴾ أَمْرٌ بِالْقِرَاءَةِ لَا بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَبِذَلِكَ صَارَ نَبِيًّا . وَقَوْلُهُ ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ أَمْرٌ بِالْإِنْذَارِ وَبِذَلِكَ صَارَ رَسُولًا مُنْذِرًا . فَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ . فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ . ثُمَّ حُبِّبَ إلَيْهِ الْخَلَاءُ فَكَانَ يَأْتِي

غَارَ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لِذَلِكَ . ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ . فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ : اقْرَأْ . قَالَ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ . قَالَ : فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ .

(233/823)

فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ . فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ . فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خويلد فَقَالَ : " زَمِّلُونِي . زَمِّلُونِي " فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ . فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي . فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : كَلَّا وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتَقْرِي الضَّيْفَ وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ

الْعُزَّى ابْنِ عَمِّ خَدِيجَةَ . وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرِيَّ فَيَكْتُبُ مِنْ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ . فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيك . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى ؟ . فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَبَرَ مَا رَأَى . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى . يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إذْ يُخْرِجُك قَوْمُك . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ . قَالَ : نَعَمْ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْت بِهِ إلَّا عُودِيَ . وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُك أَنْصُرْك نَصْرًا مُؤَزَّرًا . » ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ . قَالَ ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ سَمِعْت أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ أَخْبَرَنِي جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ

عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ : ﴿ فَبَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْت صَوْتًا فَرَفَعْت بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءِ قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَجِئْت حَتَّى هَوَيْت إلَى الْأَرْضِ . فَجِئْت أَهْلِي فَقُلْت : زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُونِي . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ﴾ . فَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ " الْمُدَّثِّرَ " نَزَلَتْ بَعْدَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ وَأَنَّ ذَلِكَ كَانَ بَعْدَ أَنْ عَايَنَ الْمَلَكَ الَّذِي جَاءَهُ بِحِرَاءِ أَوَّلًا . فَكَانَ قَدْ رَأَى الْمَلَكَ مَرَّتَيْنِ . وَهَذَا يُفَسِّرُ حَدِيثَ جَابِرٍ الَّذِي رُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ آخَرَ كَمَا أَخْرَجَاهُ مِنْ حَدِيثِ ﴿ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ : سَأَلْت أَبَا سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ . قَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ . قُلْت : يَقُولُونَ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . فَقَالَ أَبُو سَلَمَةَ : سَأَلْت جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ ذَلِكَ وَقُلْت لَهُ مِثْلَ مَا قُلْت فَقَالَ جَابِرٌ : لَا أُحَدِّثُك إلَّا مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : جَاوَرْت بِحِرَاءِ ؛ فَلَمَّا قَضَيْت جِوَارِي هَبَطْت فَنُودِيت فَنَظَرْت عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا وَنَظَرْت عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا وَنَظَرْت أَمَامِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا وَنَظَرْت خَلْفِي فَلَمْ أَرَ شَيْئًا . فَرَفَعْت رَأْسِي فَرَأَيْت شَيْئًا . فَأَتَيْت خَدِيجَةَ فَقُلْت دَثِّرُونِي وَصُبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا فَدَثَّرُونِي وَصَبُّوا عَلَيَّ مَاءً بَارِدًا .

قَالَ : فَنَزَلَتْ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ ﴿ ﴾ . فَهَذَا الْحَدِيثُ يُوَافِقُ الْمُتَقَدِّمَ وَإِنَّ " الْمُدَّثِّرَ " نَزَلَتْ بَعْدَ أَنْ هَبَطَ مِنْ الْجَبَلِ وَهُوَ يَمْشِي وَبَعْدَ أَنْ نَادَاهُ الْمَلَكُ حِينَئِذٍ . وَقَدْ بَيَّنَ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى أَنَّ هَذَا الْمَلَكَ هُوَ الَّذِي جَاءَهُ بِحِرَاءِ وَقَدْ بَيَّنَتْ عَائِشَةُ أَنَّ ﴿ اقْرَأْ ﴾ نَزَلَتْ حِينَئِذٍ فِي غَارِ حِرَاءٍ . لَكِنْ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلِمَ أَنَّ ﴿ اقْرَأْ ﴾ نَزَلَتْ حِينَئِذٍ بَلْ عَلِمَ أَنَّهُ رَأَى الْمَلَكَ قَبْلَ ذَلِكَ وَقَدْ يَرَاهُ وَلَا يَسْمَعُ مِنْهُ . لَكِنَّ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ زِيَادَةَ عِلْمٍ وَهُوَ أَمْرُهُ بِقِرَاءَةِ ﴿ اقْرَأْ ﴾ . وَفِي حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ أَنَّهُ سَمَّى هَذَا " فَتْرَةَ الْوَحْيِ " وَكَذَلِكَ فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ " فَتْرَةُ الْوَحْيِ " . فَقَدْ يَكُونُ الزُّهْرِيُّ رَوَى حَدِيثَ جَابِرٍ بِالْمَعْنَى وَسَمَّى مَا بَيْنَ الرُّؤْيَتَيْنِ " فَتْرَةَ الْوَحْيِ " كَمَا بَيَّنَتْهُ عَائِشَةُ ؛ وَإِلَّا فَإِنْ كَانَ جَابِرٌ سَمَّاهُ " فَتْرَةَ الْوَحْيِ " فَكَيْفَ يَقُولُ إنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَكُنْ نَزَلَ ؟ . وَبِكُلِّ حَالٍ فَالزُّهْرِيُّ عِنْدَهُ حَدِيثُ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ ؛ وَحَدِيثُ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ جَابِرٍ ؛ وَهُوَ أَوْسَعُ عِلْمًا وَأَحْفَظُ مِنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ لَوْ اخْتَلَفَا . لَكِنْ يَحْيَى ذَكَرَ أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا سَلَمَةَ عَنْ الْأُولَى فَأَخْبَرَ جَابِرٌ بِعِلْمِهِ وَلَمْ يَكُنْ عَلِمَ مَا نَزَلَ قَبْلَ ذَلِكَ وَعَائِشَةُ أَثْبَتَتْ وَبَيَّنَتْ .

وَالْآيَاتُ آيَاتُ " اقْرَأْ " و " الْمُدَّثِّرُ " تُبَيِّنُ ذَلِكَ وَالْحَدِيثَانِ مُتَصَادِقَانِ مَعَ الْقُرْآنِ وَمَعَ دَلَالَةِ الْعَقْلِ عَلَى أَنَّ هَذَا التَّرْتِيبَ هُوَ الْمُنَاسِبُ . وَإِذَا كَانَ أَوَّلُ مَا أُنْزِلَ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فَفِي الْآيَةِ الْأُولَى إثْبَاتُ الْخَالِقِ تَعَالَى وَكَذَلِكَ فِي الثَّانِيَةِ . وَفِيهَا وَفِي الثَّانِيَةِ الدَّلَالَةُ عَلَى إمْكَانِ النُّبُوَّةِ وَعَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . أَمَّا الْأُولَى فَإِنَّهُ قَالَ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ . فَذَكَرَ الْخَلْقَ مُطْلَقًا ثُمَّ خَصَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ أَنَّهُ خَلَقَهُ مِنْ عَلَقٍ . وَهَذَا أَمْرٌ مَعْلُومٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ كُلُّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَحْدُثُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ وَأَنَّهُ يَكُونُ مِنْ عَلَقٍ . وَهَؤُلَاءِ بَنُو آدَمَ . وَقَوْلُهُ الْإِنْسَانُ هُوَ اسْمُ جِنْسٍ يَتَنَاوَلُ جَمِيعَ النَّاسِ وَلَمْ يَدْخُلْ فِيهِ آدَمُ الَّذِي خُلِقَ مِنْ طِينٍ . فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِهَذِهِ الْآيَةِ بَيَانُ الدَّلِيلِ عَلَى الْخَالِقِ تَعَالَى وَالِاسْتِدْلَالُ إنَّمَا يَكُونُ بِمُقَدِّمَاتِ

يَعْلَمُهَا الْمُسْتَدِلُّ . وَالْمَقْصُودُ بَيَانُ دَلَالَةِ النَّاسِ وَهِدَايَتِهِمْ وَهُمْ كُلُّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ النَّاسَ يُخْلَقُونَ مِنْ الْعَلَقِ . فَأَمَّا خَلْقُ آدَمَ مِنْ طِينٍ فَذَاكَ إنَّمَا عُلِمَ بِخَبَرِ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ بِدَلَائِلَ أُخَرَ . وَلِهَذَا يُنْكِرُهُ طَائِفَةٌ مِنْ الْكُفَّارِ الدَّهْرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ الَّذِينَ لَا يُقِرُّونَ بِالنُّبُوَّاتِ . وَهَذَا بِخِلَافِ

ذِكْرِ خَلْقِهِ فِي غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ . فَإِنَّ ذَاكَ ذِكْرُهُ لِمَا يُثْبِتُ النُّبُوَّةَ وَهَذِهِ السُّورَةُ أَوَّلُ مَا نَزَلَ وَبِهَا تَثْبُتُ النُّبُوَّةُ فَلَمْ يَذْكُرْ فِيهَا مَا عُلِمَ بِالْخَبَرِ بَلْ ذَكَرَ فِيهَا الدَّلِيلَ الْمَعْلُومَ بِالْعَقْلِ وَالْمُشَاهَدَةِ وَالْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ لِمَنْ لَمْ يَرَ الْعَلَقَ . وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ الْعَلَقِ وَهُوَ جَمْعُ " عَلَقَةٍ " وَهِيَ الْقِطْعَةُ الصَّغِيرَةُ مِنْ الدَّمِ لِأَنَّ مَا قَبْلَ ذَلِكَ كَانَ نُطْفَةً وَالنُّطْفَةُ قَدْ تَسْقُطُ فِي غَيْرِ الرَّحِمِ كَمَا يَحْتَلِمُ الْإِنْسَانُ وَقَدْ تَسْقُطُ فِي الرَّحِمِ ثُمَّ يَرْمِيهَا الرَّحِمُ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ عَلَقَةً . فَقَدْ صَارَ مَبْدَأً لِخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَعُلِمَ أَنَّهَا صَارَتْ عَلَقَةً لِيُخْلَقَ مِنْهَا الْإِنْسَانُ . وَقَدْ قَالَ فِي سُورَةِ الْقِيَامَةِ ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴾ ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ

(239/823)

عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ فَهُنَا ذَكَرَ هَذَا عَلَى إمْكَانِ النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي تَكُونُ مِنْ التُّرَابِ . وَلِهَذَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ فَفِي الْقِيَامَةِ اسْتَدَلَّ بِخَلْقِهِ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِنَّهُ مَعْلُومٌ لِجَمِيعِ الْخَلْقِ وَفِي الْحَجِّ ذَكَرَ خَلْقَهُ مِنْ تُرَابٍ فَإِنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِالْأَدِلَّةِ الْقَطْعِيَّةِ . وَذِكْرُ أَوَّلِ الْخَلْقِ أَدَلُّ عَلَى إمْكَانِ الْإِعَادَةِ . وَأَمَّا هُنَا فَالْمَقْصُودُ ذِكْرُ مَا يَدُلُّ عَلَى الْخَالِقِ تَعَالَى ابْتِدَاءً فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ

مِنْ عَلَقٍ وَهُوَ مِنْ الْعَلَقَةِ الدَّمِ يَصِيرُ مُضْغَةً وَهُوَ قِطْعَةُ لَحْمٍ كَاللَّحْمِ الَّذِي يُمْضَغُ بِالْفَمِ ثُمَّ تَخَلَّقَ فَتُصُوِّرَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ فَإِنَّ الرَّحِمَ قَدْ يَقْذِفُهَا غَيْرَ مُخَلَّقَةٍ . فَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَبْدَأَ خَلْقِهِمْ وَيَرَوْنَ ذَلِكَ بِأَعْيُنِهِمْ . وَهَذَا الدَّلِيلُ وَهُوَ خَلْقُ الْإِنْسَانِ مِنْ عَلَقٍ يَشْتَرِكُ فِيهِ جَمِيعُ النَّاسِ . فَإِنَّ النَّاسَ هُمْ الْمُسْتَدِلُّونَ وَهُمْ أَنْفُسُهُمْ الدَّلِيلُ وَالْبُرْهَانُ وَالْآيَةُ . فَالْإِنْسَانُ هُوَ الدَّلِيلُ وَهُوَ الْمُسْتَدِلُّ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ وَقَالَ ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ . وَهَذَا كَمَا قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ .

(240/823)

وَهُوَ دَلِيلٌ يَعْلَمُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَذْكُرُهُ كُلَّمَا تَذَكَّرَ فِي نَفْسِهِ وَفِيمَنْ يَرَاهُ مِنْ بَنِي جِنْسِهِ . فَيَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ . وَكَذَلِكَ قَالَ زَكَرِيَّا لَمَّا تَعَجَّبَ مِنْ حُصُولِ وَلَدٍ عَلَى الْكِبَرِ فَقَالَ ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ " إنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْهِ " كَمَا قَالَ فِي الْمَبْدَأِ وَالْمُعَادِ ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ . وقال سُبْحَانَهُ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ بَعْدَ أَنْ قَالَ ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . فَأَطْلَقَ الْخَلْقَ الَّذِي يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَخْلُوقٍ ثُمَّ عَيَّنَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ فَكَانَ كُلُّ مَا يُعْلَمُ حُدُوثُهُ دَاخِلًا فِي قَوْلِهِ ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . وذكر بَعْدَ الْخَلْقِ التَّعْلِيمَ الَّذِي هُوَ التَّعْلِيمُ بِالْقَلَمِ وَتَعْلِيمُ الْإِنْسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ . فَخَصَّ هَذَا التَّعْلِيمَ الَّذِي يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى إمْكَانِ النُّبُوَّةِ . وَلَمْ يَقُلْ هُنَا " هُدَى " فَيَذْكُرُ الْهُدَى الْعَامَّ الْمُتَنَاوِلَ لِلْإِنْسَانِ

(241/823)

وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ ﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ وَكَمَا قَالَ مُوسَى ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ لِأَنَّ هَذَا التَّعْلِيمَ الْخَاصَّ يَسْتَلْزِمُ الْهُدَى الْعَامَّ وَلَا يَنْعَكِسُ . وَهَذَا أَقْرَبُ إلَى إثْبَاتِ النُّبُوَّةِ فَإِنَّ النُّبُوَّةَ نَوْعٌ مِنْ التَّعْلِيمِ . وَلَيْسَ جَعْلُ الْإِنْسَانِ نَبِيًّا بِأَعْظَمَ مِنْ جَعْلِهِ الْعَلَقَةَ إنْسَانًا حَيًّا عَالِمًا نَاطِقًا سَمِيعًا بَصِيرًا مُتَكَلِّمًا قَدْ عَلِمَ أَنْوَاعَ الْمَعَارِفِ ؛ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ إعَادَتِهِ . وَالْقَادِرُ عَلَى الْمَبْدَأِ كَيْفَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمُعَادِ ؟ وَالْقَادِرُ

عَلَى هَذَا التَّعْلِيمِ كَيْفَ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَاكَ التَّعْلِيمِ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَلَا يُحِيطُ أَحَدٌ مِنْ عِلْمِهِ إلَّا بِمَا شَاءَ ؟ وَقَالَ سُبْحَانَهُ أَوَّلًا ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ فَأَطْلَقَ التَّعْلِيمَ وَالْمُعَلِّمَ فَلَمْ يَخُصَّ نَوْعًا مِنْ الْمُعَلِّمِينَ . فَيَتَنَاوَلُ تَعْلِيمَ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ كَمَا تَنَاوَلَ الْخَلْقَ لَهُمْ كُلِّهِمْ . وَذَكَرَ التَّعْلِيمَ بِالْقَلَمِ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي تَعْلِيمَ الْخَطِّ وَالْخَطُّ يُطَابِقُ اللَّفْظَ وَهُوَ الْبَيَانُ وَالْكَلَامُ . ثُمَّ اللَّفْظُ يَدُلُّ عَلَى الْمَعَانِي الْمَعْقُولَةِ الَّتِي فِي الْقَلْبِ فَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ عِلْمٍ فِي الْقُلُوبِ . وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ حَقِيقَةٌ فِي نَفْسِهِ ثَابِتَةٌ فِي الْخَارِجِ عَنْ الذِّهْنِ ثُمَّ

يَتَصَوَّرُهُ الذِّهْنُ وَالْقَلْبُ ثُمَّ يُعَبِّرُ عَنْهُ اللِّسَانُ ثُمَّ يَخُطُّهُ الْقَلَمُ . فَلَهُ وُجُودٌ عَيْنِيٌّ وَذِهْنِيٌّ وَلَفْظِيٌّ وَرَسْمِيٌّ وُجُودٌ فِي الْأَعْيَانِ وَالْأَذْهَانِ وَاللِّسَانِ وَالْبَنَانِ . لَكِنَّ الْأَوَّلَ هُوَ هُوَ وَأَمَّا الثَّلَاثُ فَإِنَّهَا مِثَالٌ مُطَابِقٌ لَهُ . فَالْأَوَّلُ هُوَ الْمَخْلُوقُ وَالثَّلَاثَةُ مُعَلَّمَةٌ . فَذَكَرَ الْخَلْقَ وَالتَّعْلِيمَ لِيَتَنَاوَلَ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ فَقَالَ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الْمَاهِيَّاتِ هَلْ هِيَ مَجْعُولَةٌ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ مَاهِيَّةُ كُلِّ شَيْءٍ زَائِدَةٌ عَلَى وُجُودِهِ ؟ كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَ الصَّوَابَ فِي ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَيْسَ إلَّا مَا يُتَصَوَّرُ

فِي الذِّهْنِ وَيُوجَدُ فِي الْخَارِجِ . فَإِنْ أُرِيدَ الْمَاهِيَّةَ مَا يُتَصَوَّرُ فِي الذِّهْنِ . وَبِالْوُجُودِ مَا فِي الْخَارِجِ أَوْ بِالْعَكْسِ فَالْمَاهِيَّةُ غَيْرُ الْوُجُودِ إذَا كَانَ مَا فِي الْأَعْيَانِ مُغَايِرًا لِمَا فِي الْأَذْهَانِ . وَإِنْ أُرِيدَ بِالْمَاهِيَّةِ مَا فِي الذِّهْنِ أَوْ الْخَارِجِ أَوْ كِلَاهُمَا وَكَذَلِكَ بِالْوُجُودِ فَاَلَّذِي فِي الْخَارِجِ مِنْ الْوُجُودِ هُوَ الْمَاهِيَّةُ الْمَوْجُودَةُ فِي الْخَارِجِ وَكَذَلِكَ مَا فِي الذِّهْنِ مِنْ هَذَا هُوَ هَذَا لَيْسَ فِي الْخَارِجِ شَيْئَانِ .

(243/823)

وَهُوَ سُبْحَانَهُ عَلِمَ مَا فِي الْأَذْهَانِ وَخَلَقَ مَا فِي الْأَعْيَانِ وَكِلَاهُمَا مَجْعُولٌ لَهُ . لَكِنَّ الَّذِي فِي الْخَارِجِ جَعَلَهُ جَعْلًا خَلْقِيًّا . وَاَلَّذِي فِي الذِّهْنِ جَعَلَهُ جَعْلًا تَعْلِيمِيًّا . فَهُوَ الَّذِي ﴿ خَلَقَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ وَهُوَ ﴿ الْأَكْرَمُ ﴾ ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . وَقَوْلُهُ ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ يَدْخُلُ فِيهِ تَعْلِيمُ الْمَلَائِكَةِ الْكَاتِبِينَ وَيَدْخُلُ فِيهِ تَعْلِيمُ كُتُبِ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ . فَعَلَّمَ بِالْقَلَمِ أَنْ يَكْتُبَ كَلَامَهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ كَالتَّوْرَاةِ وَالْقُرْآنِ بَلْ هُوَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ لِمُوسَى . وَكَوْنُ مُحَمَّدٍ كَانَ نَبِيًّا أُمِّيًّا هُوَ مِنْ تَمَامِ كَوْنِ مَا أَتَى بِهِ مُعْجِزًا خَارِقًا لِلْعَادَةِ وَمِنْ تَمَامِ بَيَانِ أَنَّ تَعْلِيمَهُ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ تَعْلِيمٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ فَغَيْرُهُ يَعْلَمُ مَا كَتَبَهُ غَيْرُهُ وَهُوَ

عِلْمُ النَّاسِ مَا يَكْتُبُونَهُ وَعَلَّمَهُ اللَّهُ ذَلِكَ بِمَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ . وَهَذَا الْكَلَامُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ هُوَ آيَةٌ وَبُرْهَانٌ عَلَى نُبُوَّتِهِ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ . ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿

(244/823)

فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ
مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

فَصْلٌ :

وَقَدْ بَسَطْنَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ طُرُقَ النَّاسِ فِي إِثْبَاتِ الصَّانِعِ وَالنُّبُوَّةِ وَأَنَّ كُلَّ طَرِيقٍ تَتَضَمَّنُ مَا يُخَالِفُ السُّنَّةَ فَإِنَّهَا بَاطِلَةٌ فِي الْعَقْلِ كَمَا هِيَ مُخَالِفَةٌ لِلشَّرْعِ . وَالطَّرِيقُ الْمَشْهُورَةُ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ هُوَ الِاسْتِدْلَالُ بِحُدُوثِ الْأَعْرَاضِ عَلَى حُدُوثِ الْأَجْسَامِ . وَقَدْ بَيَّنَّا الْكَلَامَ عَلَى هَذِهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَأَنَّهَا مُخَالِفَةٌ لِلشَّرْعِ وَالْعَقْلِ . وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّهَا بِدْعَةٌ فِي

الشَّرْعِ لَكِنْ لَا يَعْلَمُ فَسَادَهَا فِي الْعَقْلِ . وَبَعْضُهُمْ يَظُنُّ أَنَّهَا صَحِيحَةٌ فِي الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ وَأَنَّهَا طَرِيقَةُ إبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَقَدْ بُيِّنَ فَسَادُ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ طَائِفَةً مِنْ النُّظَّارِ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ أَرَادُوا

(245/823)

سُلُوكَ سَبِيلِ السُّنَّةِ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ إلَّا هَذِهِ الطَّرِيقُ . فَاسْتَدَلُّوا بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ لَكِنْ لَمْ يَجْعَلُوا خَلْقَهُ دَلِيلًا كَمَا فِي الْآيَةِ ؛ بَلْ جَعَلُوهُ مُسْتَدَلًّا عَلَيْهِ . وَظَنُّوا أَنَّهُ يُعْرَفُ بِالْبَدِيهَةِ وَالْحِسِّ حُدُوثُ أَعْرَاضِ النُّطْفَةِ . وَأَمَّا جَوَاهِرُهَا فَاعْتَقَدُوا أَنَّ الْأَجْسَامَ كُلَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ وَأَنَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ إنَّمَا هُوَ إحْدَاثُ أَعْرَاضٍ فِي تِلْكَ الْجَوَاهِرِ بِجَمْعِهَا وَتَفْرِيقِهَا لَيْسَ هُوَ إحْدَاثَ عَيْنٍ . فَصَارُوا يُرِيدُونَ أَنْ يَسْتَدِلُّوا عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ . ثُمَّ إذَا ثَبَتَ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ قَالُوا : إنَّ لَهُ خَالِقًا . وَاسْتَدَلُّوا عَلَى أَنَّهُ مَخْلُوقٌ بِدَلِيلِ الْأَعْرَاضِ وَأَنَّ النُّطْفَةَ وَالْعَلَقَةَ وَالْمُضْغَةَ لَا تَنْفَكُّ مِنْ أَعْرَاضٍ حَادِثَةٍ . إذْ كَانَ عِنْدَهُمْ جَوَاهِرُ تُجْمَعُ تَارَةً وَتُفَرَّقُ أُخْرَى فَلَا تَخْلُو عَنْ اجْتِمَاعٍ وَافْتِرَاقٍ وَهُمَا حَادِثَانِ . فَلَمْ يَخْلُ الْإِنْسَانُ عَنْ الْحَوَادِثِ وَمَا لَمْ يَخْلُ مِنْ الْحَوَادِثِ فَهُوَ حَادِثٌ لِامْتِنَاعِ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا . وَهَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي سَلَكَهَا الْأَشْعَرِيُّ فِي " اللُّمَعِ فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْبِدَعِ " وَشَرَحَهُ

أَصْحَابُهُ شُرُوحًا كَثِيرَةً . وَكَذَلِكَ فِي " رِسَالَتِهِ إلَى أَهْلِ الثَّغْرِ " . وَذَكَرَ قَوْله تَعَالَى ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ ﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ

(246/823)

نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ فَاسْتَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ مَخْلُوقٌ بِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الَّتِي لَا تَخْلُو مِنْ اجْتِمَاعٍ وَافْتِرَاقٍ فَلَمْ تَخْلُ مِنْ الْحَوَادِثِ فَهِيَ حَادِثَةٌ . وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ هِيَ مُقْتَضِيَةٌ مِنْ كَوْنِ الْأَجْسَامِ كُلِّهَا كَذَلِكَ . وَتِلْكَ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْمَشْهُورَةُ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد كَمَا ذَكَرَهَا الْقَاضِي وَابْنُ عَقِيلٍ وَغَيْرُهُمَا . وَذَكَرَهَا أَبُو الْمَعَالِي الْجُوَيْنِي وَصَاحِبُ " التَّتِمَّةِ " وَغَيْرُهُمَا . وَذَكَرَهَا أَبُو الْوَلِيدِ الباجي وَأَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرُهُمَا . وَذَكَرَهَا أَبُو مَنْصُورٍ الماتريدي وَالصَّابُونِيِّ . وَغَيْرُهُمَا . لَكِنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اسْتَدَلُّوا بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ فَرَضُوا ذَلِكَ فِي الْإِنْسَانِ ظَنًّا أَنَّ هَذِهِ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ . وَطَوَّلُوا فِي ذَلِكَ وَدَقَّقُوا حَتَّى اسْتَدَلُّوا عَلَى كَوْنِ عَيْنِ الْإِنْسَانِ وَجَوَاهِرِهِ مَخْلُوقَةً لِظَنِّهِمْ أَنَّ الْمَعْلُومَ بِالْحِسِّ وَبَدِيهَةِ الْعَقْلِ إنَّمَا هُوَ حُدُوثُ أَعْرَاضٍ لَا حُدُوثُ جَوَاهِرَ . وَزَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَا

يُحْدِثُهُ اللَّهُ مِنْ السَّحَابِ وَالْمَطَرِ وَالزَّرْعِ وَالثَّمَرِ وَالْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ فَإِنَّمَا يُحْدِثُ فِيهِ أَعْرَاضًا وَهِيَ جَمْعُ الْجَوَاهِرِ الَّتِي كَانَتْ مَوْجُودَةً وَتَفْرِيقُهَا .

وَزَعَمُوا أَنَّ أَحَدًا لَا يَعْلَمُ حُدُوثَ غَيْرِهِ مِنْ الْأَعْيَانِ بِالْمُشَاهَدَةِ وَلَا بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَإِنَّمَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إذَا اسْتَدَلَّ كَمَا اسْتَدَلُّوا . فَقَالُوا : هَذِهِ أَعْرَاضٌ حَادِثَةٌ فِي جَوَاهِرَ وَتِلْكَ الْجَوَاهِرُ لَمْ تَخْلُ مِنْ الْأَعْرَاضِ لِامْتِنَاعِ خُلُوِّ الْجَوَاهِرِ مِنْ الْأَعْرَاضِ . ثُمَّ قَالُوا : وَمَا لَمْ يَخْلُ مِنْ الْحَوَادِثِ فَهُوَ حَادِثٌ . وَهَذَا بَنَوْهُ عَلَى أَنَّ الْأَجْسَامَ مُرَكَّبَةٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ الْقِسْمَةَ وَقَالُوا : إنَّ الْأَجْسَامَ لَا يَسْتَحِيلُ بَعْضُهَا إلَى بَعْضٍ . وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ مِنْ السَّلَفِ وَأَنْوَاعِ الْعُلَمَاءِ وَأَكْثَرِ النُّظَّارِ يُخَالِفُونَ هَؤُلَاءِ فِيمَا يُثْبِتُونَ مِنْ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَيُثْبِتُونَ اسْتِحَالَةَ الْأَجْسَامِ بَعْضِهَا إلَى بَعْضٍ وَيَقُولُونَ بِأَنَّ الرَّبَّ لَا يَزَالُ يُحْدِثُ الْأَعْيَانَ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْقُرْآنُ . وَلِهَذَا كَانَتْ هَذِهِ الطَّرِيقُ بَاطِلَةً عَقْلًا وَشَرْعًا وَهِيَ مُكَابَرَةٌ لِلْعَقْلِ . فَإِنَّ كَوْنَ الْإِنْسَانِ مَخْلُوقًا مُحْدَثًا كَائِنًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ لِجَمِيعِ النَّاسِ . وَكُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ حَدَثَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ وَأَنَّ عَيْنَهُ حَدَثَتْ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾

(248/823)

لَيس هَذا مِمَّا يُستَدلُّ عَلَيهِ فَإِنَّهُ أَبين وأَوْضَح مِمَّا يُسْتَدلُّ بِهِ عَلَيهِ لوْ كان صَحِيحًا . فَكَيْفَ إذا كَانَ بَاطِلًا . وَقوْلُهُمْ : إنَّ الْحادِث أَعْرَاضٌ فقط وإِنَّهُ مُركَّبٌ مِنْ الْجواهِرِ الْفَرْدَةِ قَوْلانِ بَاطِلانِ لا يُعْلَمُ صِحَّتُهُمَا . بَلْ يُعْلمُ بُطْلانُهُمَا . ويُعْلَمُ حُدُوثُ جوْهَرِ الْإِنْسانِ وغَيْرِهِ مِنْ الْمادَّةِ الَّتي خُلِقَ مِنْهَا وهِيَ الْعَلَقُ كَمَا قَالَ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ . وكَوْنُهُ مُركَّبًا مِنْ جَوَاهِرَ فرْدَةٍ لَيْسَ صَحِيحًا . ولَوْ كانَ صَحِيحًا لَمْ يَكُنْ مَعْلُومًا إلَّا بِأَدِلَّةٍ دَقِيقَةٍ لَا تَكُونُ هِيَ أَصْلَ الدِّينِ الَّذِي هُوَ مُقَدِّمَاتٌ أَوَّلِيَّةٌ . فَإِنَّ تِلْكَ الْمُقَدِّمَاتِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ بَيِّنَةً أَوَّلِيَّةً مَعْلُومَةً بِالْبَدِيهَةِ . فَطَرِيقُهُمْ تَضَمَّنَ جَحْدَ الْمَعْلُومِ وَهُوَ حُدُوثُ الْأَعْيَانِ الْحَادِثَةِ وَهَذَا مَعْلُومٌ لِلْخَلْقِ ؛ وَإِثْبَاتُ مَا لَيْسَ بِمَعْلُومِ بَلْ هُوَ بَاطِلٌ ؛ وَأَنَّ الْأَحْدَاثَ لَهَا إنَّمَا هُوَ جَمْعٌ وَتَفْرِيقٌ لِلْجَوَاهِرِ وَأَنَّهُ إحْدَاثُ أَعْرَاضٍ فَقَطْ . وَلِهَذَا كَانَ اسْتِدْلَالُهُمْ بِطَرِيقَةِ الْجَوَاهِرِ وَالْأَعْرَاضِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مِمَّا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ وَبَيَّنُوا أَنَّهُمْ مُبْتَدِعُونَ فِي ذَلِكَ بَلْ

(249/823)

بَيَّنُوا ضَلَالَهُمْ شَرْعًا وَعَقْلًا كَمَا بُسِطَ كَلَامُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ عَلَيْهِمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ إذْ هُوَ كَثِيرٌ . فَالْقُرْآنُ اسْتَدَلَّ بِمَا هُوَ مَعْلُومٌ لِلْخَلْقِ مِنْ أَنَّهُ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ . وَهَؤُلَاءِ جَاءُوا إلَى هَذَا الْمَعْلُومِ فَزَعَمُوا أَنَّهُ غَيْرُ مَعْلُومٍ بَلْ هُوَ مَشْكُوكٌ فِيهِ . ثُمَّ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ الدَّلِيلَ الَّذِي بِهِ يَصِيرُ مَعْلُومًا . فَذَكَرُوا دَلِيلًا بَاطِلًا لَا يَدُلُّ عَلَى حُدُوثِهِ بَلْ يُظَنُّ أَنَّهُ دَلِيلٌ وَهُوَ شُبْهَةٌ وَلَهَا لَوَازِمُ فَاسِدَةٌ . فَأَنْكَرُوا الْمَعْلُومَ بِالْعَقْلِ ثُمَّ الشَّرْعِ وَادَّعَوْا طَرِيقًا مَعْلُومَةً بِالْعَقْلِ وَهِيَ بَاطِلَةٌ فِي الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ . فَضَاهَوْا الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ . وَكَذَلِكَ فِي إثْبَاتِ النُّبُوَّاتِ وَإِمْكَانِهَا وَفِي إثْبَاتِ الْمَعَادِ وَإِمْكَانِهِ عَدَلُوا عَنْ الطَّرِيقِ الْهَادِيَةِ الَّتِي تُوجِبُ الْعِلْمَ الْيَقِينِيَّ الَّتِي هَدَى اللَّهُ بِهَا عِبَادَهُ إلَى طَرِيقٍ تُورِثُ الشَّكَّ وَالشُّبْهَةَ وَالْحَيْرَةَ . وَلِهَذَا قِيلَ : غَايَةُ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُبْتَدِعِينَ الشَّكُّ وَغَايَةُ الصُّوفِيَّةِ الْمُبْتَدِعِينَ الشَّطْحُ . ثُمَّ لَهَا لَوَازِمُ بَاطِلَةٌ مُخَالِفَةٌ لِلْعَقْلِ وَالشَّرْعِ فَأَلْزَمُوا لَوَازِمَهَا الَّتِي أَوْجَبَتْ لَهُمْ السَّفْسَطَةَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ وَالْقَرْمَطَةَ فِي السَّمْعِيَّاتِ . وَتَكَلَّمُوا

فِي دَلَائِلِ النُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ وَدَلَائِلِ الرُّبُوبِيَّةِ بِأُمُورِ وَزَعَمُوا أَنَّهَا أَدِلَّةٌ وَهِيَ عِنْدَ التَّحْقِيقِ لَيْسَتْ بِأَدِلَّةِ . وَلِهَذَا يَطْعَنُ بَعْضُهُمْ فِي أَدِلَّةِ بَعْضٍ . وَإِذَا اسْتَدَلُّوا بِدَلِيلِ صَحِيحٍ فَهُوَ مُطَابِقٌ لِمَا

جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ إِنْ تَنَوَّعَتْ الْعِبَارَاتُ . وَلِهَذَا قَدْ يَسْتَدِلُّ بَعْضُهُمْ بِدَلِيلٍ إمَّا صَحِيحٌ وَإِمَّا غَيْرُ صَحِيحٍ فَيَطْعَنُ فِيهِ آخَرُ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ يَذْكُرُ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ وَيَكُونُ الَّذِي يَذْكُرُهُ دُونَ مَا ذَكَرَهُ ذَاكَ . وَهَذَا يُصِيبُهُمْ كَثِيرًا فِي الْحُدُودِ يَطْعَنُ هَؤُلَاءِ فِي حَدِّ هَؤُلَاءِ وَيَذْكُرُونَ حَدًّا مِثْلَهُ أَوْ دُونَهُ . وَتَكُونُ الْحُدُودُ كُلُّهَا مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ وَهِيَ صَحِيحَةٌ إذَا أُرِيدَ بِهَا التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْمَحْدُودِ وَغَيْرِهِ . وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّ الْحُدُودَ تُفِيدُ تَصْوِيرَ مَاهِيَّةِ الْمَحْدُودِ كَمَا يَقُولُهُ أَهْلُ الْمَنْطِقِ فَهَؤُلَاءِ غالطون ضالون كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَإِنَّمَا الْحَدُّ مُعَرِّفٌ لِلْمَحْدُودِ وَدَلِيلٌ عَلَيْهِ بِمَنْزِلَةِ الِاسْمِ لَكِنَّهُ يُفَصِّلُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الِاسْمُ بِالْإِجْمَالِ . فَهُوَ نَوْعٌ مِنْ الْأَدِلَّةِ كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . إذْ الْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ الطَّرِيقِ الْمُفِيدِ لِلْعِلْمِ وَالْيَقِينِ كَالَّتِي بَيَّنَهَا الْقُرْآنُ وَبَيْنَ مَا لَيْسَ كَذَلِكَ مِنْ طُرُقِ أَهْلِ الْبِدَعِ الْبَاطِلَةِ شَرْعًا وَعَقْلًا .

فَصْلٌ :

وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ بَنَوْا أَصْلَ دِينِهِمْ عَلَى طَرِيقَةِ الْأَعْرَاضِ وَالِاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى حُدُوثِ الْأَجْسَامِ اضْطَرَبُوا كَثِيرًا كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعَ . وَلَا بُدَّ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِلشَّرْعِ الْمُنَزَّلِ مِنْ

السَّمَاءِ إِلَى أَنْ يُخَالِفَ أَيْضًا صَرِيحَ الْعَقْلِ وَيُكَابِرَ: فَيَكُونُ مِمَّنْ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَعْقِلُ. فَإِنَّ الْقَوْلَ لَهُ لَوَازِمُ فَإِذَا كَانَ بَاطِلًا فَقَدْ يَسْتَلْزِمُ أُمُورًا بَاطِلَةً ظَاهِرَةَ الْبُطْلَانِ. وَصَاحِبُهُ يُرِيدُ إثْبَاتَ تِلْكَ اللَّوَازِمِ فَيُظْهِرُ مُخَالَفَتَهُ لِلْحِسِّ وَالْعَقْلِ. كَالَّذِينَ أَثْبَتُوا الْجَوَاهِرَ الْمُنْفَرِدَةَ وَقَالُوا إنَّ الْحَرَكَاتِ فِي نَفْسِهَا لَا تَنْقَسِمُ إلَى سَرِيعٍ وَبَطِيءٍ إذْ كَانَتْ الْحَرَكَةُ عِنْدَهُمْ مُنْقَسِمَةً كَانْقِسَامِ الْمُتَحَرِّكِ وَكَذَلِكَ الزَّمَانُ وَأَجْزَاءُ الزَّمَانِ. وَالْحَرَكَةُ وَالْمُتَحَرِّكُ عِنْدَهُمْ وَاحِدٌ لَا يَنْقَسِمُ فَإِذَا كَانَ الْمُتَحَرِّكَانِ سَوَاءً وَحَرَكَةُ أَحَدِهِمَا أَسْرَعَ قَالُوا: إنَّمَا ذَاكَ لِتَخَلُّلِ السَّكَنَاتِ. وَادَّعَوْا أَنَّ الرَّحَا وَالدُّولَابَ وَكُلَّ مُسْتَدِيرٍ إذَا تَحَرَّكَ فَإِنَّ زَمَانَ حَرَكَةِ الْمُحِيطِ وَالطَّوْقِ الصَّغِيرِ وَاحِدٌ مَعَ كَثْرَةِ أَجْزَاءِ الْمُحِيطِ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ حَرَكَتُهَا أَكْثَرَ فَيَكُونُ زَمَنُهَا أَكْثَرَ وَلَيْسَ هُوَ بِأَكْثَرَ؛

(252/823)

فَادَّعَوْا أَنَّهَا تَنْفَكُّ ثُمَّ تَتَّصِلُ. وَهَذِهِ مُكَابَرَةٌ مِنْ جِنْسِ "طَفْرَةِ النَّظَّامِ". وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالُوا بِأَنَّ الْعَرَضَ لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ خَالَفُوا الْحِسَّ وَمَا يَعْلَمُهُ الْعُقَلَاءُ بِضَرُورَةِ عُقُولِهِمْ. فَإِنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّ لَوْنَ جَسَدِهِ الَّذِي كَانَ لَحْظَةً هُوَ هَذَا اللَّوْنُ. وَكَذَلِكَ لَوْنُ السَّمَاءِ وَالْجِبَالِ وَالْخَشَبِ وَالْوَرَقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَمِمَّا أَلْجَأَهُمْ إلَى هَذَا ظَنُّهُمْ أَنَّهُمَا لَوْ كَانَا بَاقِيَيْنِ لَمْ يُمْكِنْ

إِعْدَامُهُمَا . فَإِنَّهُمْ حَارُوا فِي إِفْنَاءِ اللَّهِ الْأَشْيَاءَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُفْنِيَهَا كَمَا حَارُوا فِي إِحْدَاثِهَا . وَحَيْرَتُهُمْ فِي الْإِفْنَاءِ أَظْهَرُ . هَذَا يَقُولُ : يَخْلُقُ فَنَاءً لَا فِي مَحَلٍّ فَيَكُونُ ضِدًّا لَهَا فَتَفْنَى بِضِدِّهَا . وَهَذَا يَقُولُ : يَقْطَعُ عَنْهَا الْأَعْرَاضَ مُطْلَقًا أَوْ الْبَقَاءَ الَّذِي لَا تَبْقَى إِلَّا بِهِ فَيَكُونُ فَنَاؤُهَا لِفَوَاتِ شَرْطِهَا . وَمِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ ظَنُّهُمْ أَوْ ظَنُّ مَنْ ظَنَّ مِنْهُمْ أَنَّ الْحَوَادِثَ لَا تَحْتَاجُ إِلَى اللَّهِ إِلَّا حَالَ إِحْدَاثِهَا لَا حَالَ بَقَائِهَا وَقَدْ قَالُوا إِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى إِفْنَائِهَا . فَتَكَلَّفُوا هَذِهِ الْأَقْوَالَ الْبَاطِلَةَ . وَهَؤُلَاءِ لَا يَحْتَجُّونَ عَلَى بَقَاءِ الرَّبِّ بِافْتِقَارِ الْعَالَمِ إِلَيْهِ بَلْ بِأَنَّهُ قَدِيمٌ وَمَا وَجَبَ قِدَمُهُ امْتَنَعَ عَدَمُهُ . وَإِلَّا فَالْبَاقِي حَالَ بَقَائِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى الرَّبِّ عِنْدَهُمْ .

وَهَؤُلَاءِ شَرٌّ مِنْ الَّذِينَ سَأَلُوا مُوسَى : هَلْ يَنَامُ رَبُّك ؟ فَضَرَبَ اللَّهُ لَهُمْ الْمَثَلَ بِالْقَارُورَتَيْنِ لَمَّا أَرِقَ مُوسَى لَيَالِيَ ثُمَّ أَمَرَهُ بِإِمْسَاكِ الْقَارُورَتَيْنِ فَلَمَّا أَمْسَكَهُمَا غَلَبَهُ النَّوْمُ فَتَكَسَّرَتَا . فَبَيَّنَ اللَّهُ لَهُ لَوْ أَخَذَتْهُ سِنَةٌ أَوْ نَوْمٌ لَتَدَكْدَكَ الْعَالَمُ . وَعَلَى رَأْيِ هَؤُلَاءِ لَوْ أَخَذَتْهُ سِنَةٌ أَوْ نَوْمٌ لَمْ يَعْدَمْ الْبَاقِي . لَكِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى إِحْدَاثِ الْأَعْرَاضِ مُتَوَالِيَةً لِأَنَّ الْعَرَضَ عِنْدَهُ لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ . فَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ يَقُولُ : إِذْ لَوْ أَخَذَتْهُ سِنَةٌ أَوْ نَوْمٌ لَمْ تَحْدُثْ الْأَعْرَاضُ الَّتِي تَبْقَى بِهَا الْأَجْسَامُ لَا لِأَنَّ الْأَجْسَامَ فِي نَفْسِهَا مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ فِي حَالِ بَقَائِهَا عِنْدَهُ . وَكَذَلِكَ

يَقُولُونَ: إِنَّ الْإِرَادَةَ لَا تَتَعَلَّقُ بِالْقَدِيمِ وَلَا بِالْبَاقِي. وَكَذَلِكَ الْقُدْرَةُ عِنْدَهُمْ لَا تَتَعَلَّقُ بِالْبَاقِي وَلَا الْعَجْزُ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ عَجْزًا عَنِ الْبَاقِي وَالْقَدِيمِ عِنْدَهُمْ. لِأَنَّ الْعَجْزَ عِنْدَهُمْ إِنَّمَا يَكُونُ عَجْزًا عَمَّا تَصِحُّ الْقُدْرَةُ عَلَيْهِ. وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: عِلَّةُ الِافْتِقَارِ إِلَى الْخَالِقِ مُجَرَّدُ الْحُدُوثِ. وَآخَرُونَ مِنَ الْمُتَفَلْسِفَةِ يَقُولُونَ: هُوَ مُجَرَّدُ الْإِمْكَانِ وَيَدَّعُونَ أَنَّ الْقَدِيمَ الْأَزَلِيَّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ هُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى الصَّانِعِ. فَهَذَا يَدَّعِي أَنَّ الْبَاقِيَ الْمُحْدَثَ لَا يَفْتَقِرُ وَهَذَا يَدَّعِي أَنَّ الْبَاقِيَ الْقَدِيمَ يَفْتَقِرُ. وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ

(254/823)

فَاسِدٌ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعَ. وَالْحَقُّ أَنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ حَادِثٌ وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ دَائِمًا. وَهُوَ يُبْقِيهِ وَيَعْدِمُهُ كَمَا يُنْشِئُهُ وَيُحْدِثُهُ كَمَا يُحْدِثُ الْحَوَادِثَ مِنَ التُّرَابِ وَغَيْرِهِ ثُمَّ يُفْنِيهَا وَيُحِيلُهَا إِلَى التُّرَابِ وَغَيْرِهِ. وَهَؤُلَاءِ ادَّعَى كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ يَعْدَمُ ثُمَّ يُعَادُ. وَبَعْضُهُمْ قَالَ: هَذَا مُمْكِنٌ لَكِنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَبَرِ وَالْخَبَرُ لَمْ يَتَعَرَّضْ لِذَلِكَ بِنَفْيٍ وَلَا إِثْبَاتٍ. وَهَذَا هُوَ الْمَعَادُ عِنْدَهُمْ. وَهَذَا لَمْ يَأْتِ بِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ وَلَا دَلَّ عَلَيْهِ عَقْلٌ. بَلْ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ يُبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ يُحِيلُ الْعَالَمَ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ كَمَا يَشُقُّ السَّمَاءَ وَيَجْعَلُ الْجِبَالَ كَالْعِهْنِ وَيُكَوِّرُ الشَّمْسَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ لَمْ يُخْبِرْ أَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ تَعْدَمُ

ثُمَّ تُعَادُ . ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إِنَّهَا تَعْدَمُ بَعْدَ ذَلِكَ لِامْتِنَاعِ وُجُودِ حَوَادِثَ لَا آخِرَ لَهَا كَمَا تَقُولُهُ الْجَهْمِيَّةُ . وَهَذَا مِمَّا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِمْ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ كَمَا قَدْ ذُكِرَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَهَؤُلَاءِ إنَّمَا قَالُوا هَذَا طَرْدًا لِقَوْلِهِمْ بِامْتِنَاعِ دَوَامِ جِنْسِ الْحَوَادِثِ وَقَالُوا : مَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لَهُ ابْتِدَاءٌ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لَهُ انْتِهَاءٌ كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا وَبُيِّنَ فَسَادُ هَذَا الْأَصْلِ .

فَصْلٌ :

(255/823)

وَهُوَ سُبْحَانَهُ تَارَةً يَذْكُرُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مُجْمَلًا وَتَارَةً يَذْكُرُهُ مُفَصَّلًا كَقَوْلِهِ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ ﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ﴾ ﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ﴾ ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ . ثُمَّ ذَكَرَ الْمَعَادَيْنِ الْأَصْغَرَ وَالْأَكْبَرَ فَقَالَ ﴿ ثُمَّ إنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ إنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : لِمَ دَخَلَتْ لَامُ التَّوْكِيدِ فِي الْمَوْتِ وَهُوَ مُشَاهَدٌ وَلَمْ تَدْخُلْ فِي الْبَعْثِ وَهُوَ غَيْبٌ فَيَحْتَاجُ إلَى التَّوْكِيدِ ؟ وَذَلِكَ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَالْبَعْثِ هُوَ الْإِخْبَارُ بِالْجَزَاءِ وَالْمَعَادِ وَأَوَّلُ ذَلِكَ هُوَ الْمَوْتُ . فَنَبَّهَ عَلَى الْإِيمَانِ

بِالْمُعَادِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ . وَهُوَ إِنَّمَا قَالَ " تُبْعَثُونَ " فَقَطْ وَلَمْ يَقُلْ " تُجَازُونَ " لَكِنْ قَدْ عُلِمَ أَنَّ الْبَعْثَ لِلْجَزَاءِ . وَأَيْضًا فَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى قَهْرِ الْإِنْسَانِ وَإِذْلَالِهِ يَقُولُ : بَعْدَ هَذَا

(256/823)

كُلِّهِ إنَّك تَمُوتُ فَتُرَدُّ إلَى أَسْفَلَ سَافِلِينَ إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَمَا قَالَ ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ ﴿ إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ . وَهَذَا الرَّدُّ هُوَ بِالْمَوْتِ . فَإِنَّهُ يَصِيرُ فِي أَسْفَلَ سَافِلِينَ إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَمَا قَالَ ﴿ كَلَّا إنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ وَقَالَ ﴿ إنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ . وَفِي قَوْلِهِ ﴿ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ قَوْلَانِ . قِيلَ : الْهَرَمُ . وَقِيلَ : الْعَذَابُ بَعْدَ الْمَوْتِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ قَطْعًا . فَإِنَّهُ جَعَلَهُ فِي أَسْفَلَ سَافِلِينَ إلَّا الْمُؤْمِنِينَ . وَالنَّاسُ نَوْعَانِ : فَالْكَافِرُ بَعْدَ الْمَوْتِ يُعَذَّبُ فِي أَسْفَلَ سَافِلِينَ وَالْمُؤْمِنُ فِي عِلِّيِّينَ . وَأَمَّا الْقَوْلُ الْأَوَّلُ فَفِيهِ نَظَرٌ . فَإِنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ سِوَى الْمُؤْمِنِينَ يَهْرَمُ فَيُرَدُّ إلَى أَسْفَلَ سَافِلِينَ . بَلْ كَثِيرٌ مِنْ الْكُفَّارِ يَمُوتُ قَبْلَ الْهَرَمِ وَكَثِيرٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ يَهْرَمُ وَإِنْ كَانَ حَالُ الْمُؤْمِنِ فِي الْهَرَمِ أَحْسَنَ حَالًا مِنْ الْكَافِرِ فَكَذَلِكَ فِي الشَّبَابِ حَالُ

الْمُؤْمِنِ أَحْسَنُ مِنْ حَالِ الْكَافِرِ فَجُعِلَ الرَّدُّ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ فِي آخِرِ الْعُمُرِ وَتَخْصِيصُهُ بِالْكُفَّارِ ضَعِيفٌ . وَلِهَذَا قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الِاسْتِثْنَاءَ مُنْقَطِعٌ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ وَهُوَ أَيْضًا

ضَعِيفٌ . فَإِنَّ الْمُنْقَطِعَ لَا يَكُونُ فِي الْمُوجَبِ وَلَوْ جَازَ هَذَا لَجَازَ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَدَّعِيَ فِي أَيِّ اسْتِثْنَاءٍ شَاءَ أَنَّهُ مُنْقَطِعٌ . وَأَيْضًا فَالْمُنْقَطِعُ لَا يَكُونُ الثَّانِي مِنْهُ بَعْضَ الْأَوَّلِ وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْضُ نَوْعِ الْإِنْسَانِ . وَقَدْ فَسَّرَ ذَلِكَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ بِأَنَّ الْمُؤْمِنَ يُكْتَبُ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُهُ إذَا عَجَزَ . قَالَ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِي : إذَا بَلَغَ الْمُؤْمِنُ مِنْ الْكِبَرِ مَا يَعْجِزُ عَنْ الْعَمَلِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ . وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : الْمَعْنَى ﴿ إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فِي وَقْتِ الْقُوَّةِ وَالْقُدْرَةِ فَإِنَّهُمْ فِي حَالِ الْكِبَرِ غَيْرُ مَنْقُوصِينَ وَإِنْ عَجَزُوا عَنْ الطَّاعَاتِ . فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ لَوْ لَمْ يَسْلُبْهُمْ الْقُوَّةَ لَمْ يَنْقَطِعُوا عَنْ أَفْعَالِ الْخَيْرِ فَهُوَ يُجْرِي لَهُمْ أَجْرُ ذَلِكَ . فَيُقَالُ : وَهَذَا أَيْضًا ثَابِتٌ فِي حَالِ الشَّبَابِ إذَا عَجَزَ الشَّابُّ لِمَرَضِ أَوْ سَفَرٍ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ ﴿ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إذَا مَرِضَ الْعَبْدُ أَوْ سَافَرَ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ مِنْ الْعَمَلِ مَا كَانَ يَعْمَلُ وَهُوَ صَحِيحٌ مُقِيمٌ ﴾ . وَفَسَّرَهُ بَعْضُهُمْ بِمَا رُوِيَ

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ إلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ . فَيُقَالُ : هَذَا مَخْصُوصٌ بِقَارِئِ الْقُرْآنِ وَالْآيَةُ اسْتَثْنَتْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ قَرَءُوا الْقُرْآنَ أَوْ لَمْ

(258/823)

يَقْرَءُوهُ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا ﴾ . وَأَيْضًا فَيُقَالُ : هَرَمُ الْحَيَوَانِ لَيْسَ مَخْصُوصًا بِالْإِنْسَانِ بَلْ غَيْرُهُ مِنْ الْحَيَوَانِ إذَا كَبِرَ هَرِمَ . وَأَيْضًا فَالشَّيْخُ وَإِنْ ضَعُفَ بَدَنُهُ فَعَقْلُهُ أَقْوَى مِنْ عَقْلِ الشَّابِّ . وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ يَنْقُصُ بَعْضُ قُوَاهُ فَلَيْسَ هَذَا رَدًّا إلَى أَسْفَلَ سَافِلِينَ . فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ إنَّمَا يَصِفُ الْهَرَمَ بِالضَّعْفِ كَقَوْلِهِ ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ فَهُوَ يُعِيدُهُ إلَى حَالِ الضَّعْفِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الطِّفْلَ لَيْسَ هُوَ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ فَالشَّيْخُ كَذَلِكَ وَأَوْلَى . وَإِنَّمَا فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ مَنْ يَكُونُ فِي سِجِّينٍ لَا فِي عِلِّيِّينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ إنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ . وَمِمَّا يُبَيِّنُ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ . فَإِنَّهُ يَقْتَضِي ارْتِبَاطَ هَذَا بِمَا قَبْلَهُ لِذِكْرِهِ بِحَرْفِ

الْفَاءِ . وَلَوْ كَانَ الْمَذْكُورُ إِنَّمَا هُوَ رَدُّهُ إِلَى الْهَرَمِ دُونَ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَعَرُّضٌ لِلدِّينِ وَالْجَزَاءِ بِخِلَافِ

(259/823)

مَا إِذَا كَانَ الْمَذْكُورُ أَنَّهُ بَعْدَ الْمَوْتِ يُرَدُّ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ الْمُصْلِحِ . فَإِنَّ هَذَا يَتَضَمَّنُ الْخَبَرَ بِأَنَّ اللَّهَ يَدِينُ الْعِبَادَ بَعْدَ الْمَوْتِ فَيُكْرِمُ الْمُؤْمِنِينَ وَيُهِينُ الْكَافِرِينَ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ بِأَقْسَامٍ عَظِيمَةٍ بِالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ . وَهِيَ الْمَوَاضِعُ الَّتِي جَاءَ مِنْهَا مُحَمَّدٌ وَالْمَسِيحُ وَمُوسَى وَأَرْسَلَ اللَّهُ بِهَا هَؤُلَاءِ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ . وَهَذَا الْإِقْسَامُ لَا يَكُونُ عَلَى مُجَرَّدِ الْهَرَمِ الَّذِي يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ بَلْ عَلَى الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ الَّتِي تُؤَكَّدُ بِالْأَقْسَامِ . فَإِنَّ إقْسَامَ اللَّهِ هُوَ عَلَى أَنْبَاءِ الْغَيْبِ . وَفِي نَفْسِ الْمُقْسَمِ بِهِ وَهُوَ إرْسَالُ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ تَحْقِيقٌ لِلْمُقْسَمِ عَلَيْهِ وَهُوَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ بَعْدَ الْمَوْتِ لِأَنَّ الرُّسُلَ أَخْبَرُوا بِهِ . وَهُوَ يَتَضَمَّنُ أَيْضًا الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا كَإِهْلَاكِ مَنْ أَهْلَكَهُمْ مِنْ الْكُفَّارِ . فَإِنَّهُ رَدَّهُمْ إلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ بِهَلَاكِهِمْ فِي الدُّنْيَا . وَهُوَ تَنْبِيهٌ عَلَى زَوَالِ النِّعَمِ إذَا حَصَلَتْ الْمَعَاصِي كَمَنْ رُدَّ فِي الدُّنْيَا إلَى أَسْفَلِ جَزَاءٍ عَلَى ذُنُوبِهِ .

(260/823)

وَقَوْلُهُ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ أَيْ بِالْجَزَاءِ يَتَنَاوَلُ جَزَاءَهُ عَلَى الْأَعْمَالِ فِي الدُّنْيَا وَالْبَرْزَخِ وَالْآخِرَةِ . إذْ كَانَ قَدْ أَقْسَمَ بِأَمَاكِنِ هَؤُلَاءِ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ أُرْسِلُوا بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ مُبَشِّرِينَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ مُنْذِرِينَ لِأَهْلِ الْكُفْرِ . وَقَدْ أَقْسَمَ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ بَعْدَ أَنْ جُعِلَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ إنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا كَانَ لَهُ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ وَإِلَّا كَانَ فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ . فَتَضَمَّنَتْ السُّورَةُ بَيَانَ مَا بُعِثَ بِهِ هَؤُلَاءِ الرُّسُلُ الَّذِينَ أَقْسَمَ بِأَمَاكِنِهِمْ . وَالْإِقْسَامُ بِمَوَاضِعِ مِحَنِهِمْ تَعْظِيمٌ لَهُمْ . فَإِنَّ مَوْضِعَ الْإِنْسَانِ إذَا عَظُمَ لِأَجْلِهِ كَانَ هُوَ أَحَقَّ بِالتَّعْظِيمِ . وَلِهَذَا يُقَالُ فِي الْمُكَاتَبَاتِ " إلَى الْمَجْلِسِ وَالْمَقَرِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ السَّامِي وَالْعَالِي " وَيُذْكَرُ بِخُضُوعٍ لَهُ وَتَعْظِيمٍ وَالْمُرَادُ صَاحِبُهُ . فَلَمَّا قَالَ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ دُلَّ عَلَى أَنَّ مَا تَقَدَّمَ قَدْ بُيِّنَ فِيهِ مَا يَمْنَعُ التَّكْذِيبَ بِالدِّينِ . وَفِي قَوْلِهِ ﴿ يُكَذِّبُكَ ﴾ قَوْلَانِ . قِيلَ : هُوَ خِطَابٌ لِلْإِنْسَانِ كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَمُقَاتِلٌ وَلَمْ يَذْكُرْ الْبَغَوِيّ غَيْرَهُ . قَالَ عِكْرِمَةُ يَقُولُ : فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي فَعَلْت بِك .

وَعَنْ مُقَاتِلٍ :

فَمَا الَّذِي يَجْعَلُك مُكَذِّبًا بِالْجَزَاءِ وَزَعَمَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ . وَالثَّانِي أَنَّهُ خِطَابٌ لِلرَّسُولِ وَهَذَا أَظْهَرُ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ إنَّمَا ذُكِرَ مُخْبِرًا عَنْهُ لَمْ يُخَاطَبْ . وَالرَّسُولُ هُوَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالْخِطَابُ فِي هَذِهِ السُّوَرِ لَهُ كَقَوْلِهِ ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ . وَالْإِنْسَانُ إذَا خُوطِبَ قِيلَ لَهُ ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إنَّكَ كَادِحٌ إلَى رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ . وَأَيْضًا فَبِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِلْإِنْسَانِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ خِطَابًا لِلْجِنْسِ كَقَوْلِهِ ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إنَّكَ كَادِحٌ ﴾ وَعَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ إنَّمَا هُوَ خِطَابٌ لِلْكَافِرِ خَاصَّةً الْمُكَذِّبِ بِالدِّينِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ قَوْلَهُ ﴿ يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ أَيْ يَجْعَلُك كَاذِبًا هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ . فَإِنَّ اسْتِعْمَالَ "كَذَّبَ غَيْرَهُ أَيْ نَسَبَهُ إلَى الْكَذِبِ وَجَعَلَهُ كَاذِبًا " مَشْهُورٌ وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ هَذَا . وَحَيْثُ ذَكَرَ اللَّهُ تَكْذِيبَ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ أَوْ التَّكْذِيبَ بِالْحَقِّ وَنَحْوَ ذَلِكَ فَهَذَا مُرَادُهُ .

لَكِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِيهَا غُمُوضٌ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ قَالَ ﴿ يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ . فَذَكَرَ الْمُكَذِّبَ بِالدِّينِ فَذَكَرَ الْمُكَذَّبَ وَالْمُكَذَّبُ بِهِ جَمِيعًا . وَهَذَا قَلِيلٌ جَاءَ نَظِيرُهُ فِي قَوْلِهِ ﴿ فَقَدْ

كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ فَأَمَّا أَكْثَرُ الْمَوَاضِعِ فَإِنَّمَا يَذْكُرُ أَحَدَهُمَا إمَّا الْمُكَذَّبُ كَقَوْلِهِ ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ وَإِمَّا الْمُكَذَّبُ بِهِ كَقَوْلِهِ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ﴾ . وَأَمَّا الْجَمْعُ بَيْنَ ذِكْرِ الْمُكَذَّبِ وَالْمُكَذَّبِ بِهِ فَقَلِيلٌ . وَمِنْ هُنَا اشْتَبَهَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى مَنْ جَعَلَ الْخِطَابَ فِيهَا لِلْإِنْسَانِ وَفَسَّرَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ فَمَا يَجْعَلُك مُكَذِّبًا . وَعِبَارَةُ آخَرِينَ : فَمَا يَجْعَلُك كَذَّابًا . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : وَقَالَ جُمْهُورٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ : الْمُخَاطَبُ الْإِنْسَانُ الْكَافِرُ أَيْ مَا الَّذِي يَجْعَلُك كَذَّابًا بِالدِّينِ تَجْعَلُ لِلَّهِ أَنْدَادًا وَتَزْعُمُ أَنْ لَا بَعْثَ بَعْدَ هَذِهِ الدَّلَائِلِ ؟ . (قُلْت وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ غَيْرُ مَعْرُوفٍ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ أَنْ يَقُولَ "كَذَّبَك أَيْ جَعَلَك مُكَذِّبًا " بَلْ "كَذَّبَك : جَعَلَك كَذَّابًا " . وَإِذَا قِيلَ " جَعَلَك كَذَّابًا " أَيْ كَاذِبًا فِيمَا يُخْبِرُ بِهِ كَمَا جَعَلَ الْكُفَّارُ الرُّسُلَ كَاذِبِينَ فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ فَكَذَّبُوهُمْ وَهَذَا يَقُولُ :

جَعَلَك كَاذِبًا بِالدِّينِ فَجَعَلَ كَذِبَهُ أَنَّهُ أَشْرَكَ وَأَنَّهُ أَنْكَرَ الْمَعَادَ وَهَذَا ضِدُّ الَّذِي يُنْكِرُ . ذَاكَ جَعَلَهُ مُكَذِّبًا بِالدِّينِ وَهَذَا جَعَلَهُ كَاذِبًا بِالدِّينِ . وَالْأَوَّلُ فَاسِدٌ مِنْ جِهَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالثَّانِي فَاسِدٌ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى . فَإِنَّ الدِّينَ هُوَ الْجَزَاءُ الَّذِي كَذَّبَ بِهِ الْكَافِرُ . وَالْكَافِرُ كَذَّبَ بِهِ لَمْ يُكَذِّبْ هُوَ بِهِ . وَأَيْضًا فَلَا يُعْرَفُ فِي الْمُخْبِرِ أَنْ يُقَالَ "كَذَبْت بِهِ " بَلْ يُقَالُ "كَذَّبْته " .

وَأَيضًا فَالْمَعْرُوفُ فِي "كَذِبِهِ" أَيْ نَسَبَهُ إِلَى الْكَذِبِ لَا أَنَّهُ جَعَلَ الْكَذِبَ فِيهِ . فَهَذَا كُلُّهُ تَكَلُّفٌ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ بَلْ الْمَعْرُوفُ خِلَافُهُ . وَهُوَ لَمْ يَقُلْ " فَمَا يُكَذِّبُكَ " وَلَا قَالَ " فَمَا كَذَّبَكَ " . وَلِهَذَا كَانَ عُلَمَاءُ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : وَاخْتُلِفَ فِي الْمُخَاطَبِ بِقَوْلِهِ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ فَقَالَ قتادة وَالْفَرَّاءُ وَالْأَخْفَشُ : هُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ اللَّهُ لَهُ : " فَمَا الَّذِي يُكَذِّبُكَ فِيمَا تُخْبِرُ بِهِ مِنْ الْجَزَاءِ وَالْبَعْثِ وَهُوَ الدِّينُ بَعْدَ هَذِهِ الْعِبْرَةِ الَّتِي يُوجِبُ النَّظَرُ فِيهَا صِحَّةَ مَا قُلْت " ؟ . قَالَ : وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ جَمِيعَ شَرْعِهِ وَدِينِهِ .

(264/823)

قُلْت : وَعَلَى أَنَّ الْمُخَاطَبَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَعْنَى قَوْلَانِ أَحَدُهُمَا قَوْلُ قتادة قَالَ : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ أَيْ اسْتَيْقِنْ فَقَدْ جَاءَكَ الْبَيَانُ مِنْ اللَّهِ . وَهَكَذَا رَوَاهُ عَنْهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِإِسْنَادٍ ثَابِتٍ . وَكَذَلِكَ ذَكَرَهُ المهدوي : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ أَيْ اسْتَيْقِنْ مَعَ مَا جَاءَكَ مِنْ اللَّهِ أَنَّهُ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ . فَالْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : مَعْنَاهُ عَنْ قتادة . قَالَ : وَقِيلَ الْمَعْنَى : فَمَا يُكَذِّبُكَ أَيُّهَا الشَّاكُّ يَعْنِي الْكُفَّارَ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ ؟ أَيُّ شَيْءٍ يَحْمِلُك عَلَى ذَلِكَ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَك مِنْ قُدْرَتِهِ ؟ قَالَ وَقَالَ الْفَرَّاءُ :

فَمَنْ يُكَذِّبُكَ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ ؟ وَهُوَ اخْتِيَارُ الطبري . (قُلْت : هَذَا الْقَوْلُ الْمَنْقُولُ عَنْ قتادة هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ نُفُورَ مُجَاهِدٍ عَنْ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا رَوَى النَّاسُ وَمِنْهُمْ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : عَنْ الثَّوْرِيِّ : عَنْ مَنْصُورٍ قَالَ قُلْت لِمُجَاهِدِ : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ عَنَى بِهِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ عَنَى بِهِ الْإِنْسَانَ . وَقَدْ أَحْسَنَ مُجَاهِدٌ فِي تَنْزِيهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُقَالَ لَهُ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ أَيْ اسْتَيْقِنْ وَلَا تُكَذِّبْ . فَإِنَّهُ لَوْ قِيلَ لَهُ " لَا تُكَذِّبْ "

لَكَانَ هَذَا مِنْ جِنْسِ أَمْرِهِ بِالْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى وَنَهْيِهِ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ . وَأَمَّا إذَا قِيلَ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ فَهُوَ لَمْ يُكَذِّبْ بِالدِّينِ بَلْ هُوَ الَّذِي أَخْبَرَ بِالدِّينِ وَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ ﴿ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ فَكَيْفَ يُقَالُ لَهُ . ﴿ مَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ ؟ فَهَذَا الْقَوْلُ فَاسِدٌ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَاللَّفْظُ الَّذِي رَأَيْته مَنْقُولًا بِالْإِسْنَادِ عَنْ قتادة لَيْسَ صَرِيحًا فِيهِ بَلْ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ بِهِ خِطَابَ الْإِنْسَانِ . فَإِنَّهُ قَالَ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ قَالَ : " اسْتَيْقِنْ فَقَدْ جَاءَك الْبَيَانُ " . وَكُلُّ إنْسَانٍ مُخَاطَبٌ بِهَذَا . فَإِنْ كَانَ قتادة أَرَادَ هَذَا فَالْمَعْنَى صَحِيحٌ . لَكِنْ هُمْ حَكَوْا عَنْهُ أَنَّ هَذَا خِطَابٌ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَعَلَى هذَا فَهَذَا الْمَعْنَى بَاطِلٌ . فَلَا يُقَالُ لِلرَّسُولِ " فَأَيُّ شَيْءٍ يَجْعَلُك مُكَذِّبًا بِالدِّينِ ؟ " وَإِنْ ارْتَأَتْ بِهِ النَّفْسُ لِأَنَّ هَذَا فِيهِ دَلَائِلُ تَدُلُّ عَلَى فَسَادِهِ . وَلِهَذَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ مُجَاهِدٌ . وَالصَّوَابُ مَا قَالَهُ الْفَرَّاءُ وَالْأَخْفَشُ وَغَيْرُهُمَا . وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ الْعُلَمَاءِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَكَذَلِكَ ذَكَرَهُ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ عَنْ الْفَرَّاءِ فَقَالَ : إنَّهُ خِطَابٌ

(266/823)

لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمَعْنَى : فَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى تَكْذِيبِك بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ عَلَى مَا وَصَفْنَا قَالَهُ الْفَرَّاءُ . قَالَ : وَأَمَّا " الدِّينُ " فَهُوَ الْجَزَاءُ . (قُلْت : وَكَذَلِكَ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ النَّضِرِ بْنِ عَرَبِيٍّ : ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ أَيْ بِالْحِسَابِ . وَمِنْ تَفْسِيرِ العوفي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَيْ بِحُكْمِ اللَّهِ . قُلْت : قَالَ " بِحُكْمِ اللَّهِ " لِقَوْلِهِ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَحْكُمُ بَيْنَ الْمُصَدِّقِ بِالدِّينِ وَالْمُكَذِّبِ بِهِ . وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ (فَمَا وَصْفٌ لِلْأَشْخَاصِ . وَلَمْ يَقُلْ " فَمَنْ " لِأَنَّ " مَا " يُرَادُ بِهِ الصِّفَاتُ دُونَ الْأَعْيَانِ وَهُوَ الْمَقْصُودُ كَقَوْلِهِ ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا

﴾ . كَأَنَّهُ قِيلَ : فَمَا الْمُكَذِّبُ بِالدِّينِ بَعْدَ هَذَا ؟ أَيْ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ وَنَعْتُهُ هُوَ جَاهِلٌ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِيمَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ مِنْ هَذَا النَّبَإِ الْعَظِيمِ . وَقَوْلُهُ (بَعْدُ قَدْ قِيلَ إِنَّهُ " بَعْدَ مَا ذَكَرَ مِنْ دَلَائِلِ الدِّينِ "

(267/823)

وَقَدْ يُقَالُ : لَمْ يَذْكُرْ إلَّا الْإِخْبَارَ بِهِ . وَأَنَّ النَّاسَ نَوْعَانِ : فِي أَسْفَلِ سَافِلِينَ وَنَوْعٌ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ؟ فَقَدْ ذَكَرَ الْبِشَارَةَ وَالنِّذَارَةَ وَالرُّسُلُ بُعِثُوا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ . فَمَنْ كَذَّبَكَ بَعْدَ هَذَا فَحُكْمُهُ إلَى اللَّهِ أَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ وَأَنْتَ قَدْ بَلَّغْتَ مَا وَجَبَ عَلَيْك تَبْلِيغُهُ . وَقَوْلُهُ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ ﴾ لَيْسَ نَفْيًا لِلتَّكْذِيبِ فَقَدْ وَقَعَ . بَلْ قَدْ يُقَالُ إنَّهُ تَعَجُّبٌ مِنْهُ كَمَا قَالَ ﴿ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وَقَدْ يُقَالُ إنَّ هَذَا تَحْقِيرٌ لِشَأْنِهِ وَتَصْغِيرٌ لِقَدْرِهِ لِجَهْلِهِ وَظُلْمِهِ كَمَا يُقَالُ " مَنْ فُلَانٌ ؟ " و " مَنْ يَقُولُ هَذَا إلَّا جَاهِلٌ ؟ " . لَكِنَّهُ ذَكَرَهُ بِصِيغَةِ " مَا " فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى صِفَتِهِ وَهِيَ الْمَقْصُودَةُ إذْ لَا غَرَضَ فِي عَيْنِهِ . كَأَنَّهُ قِيلَ " فَأَيُّ صِنْفٍ وَأَيُّ جَاهِلٍ يُكَذِّبُك بَعْدُ بِالدِّينِ ؟ فَإِنَّهُ مِنْ الَّذِينَ يُرَدُّونَ إلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ " وَقَوْلُهُ ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْحَاكِمُ بَيْنَ الْمُكَذِّبِ بِالدِّينِ وَالْمُؤْمِنِ بِهِ . وَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَالْقُرْآنُ لَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ . وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيَّنَ مُرَادَهُ بَيَانًا أَحْكَمَهُ لَكِنَّ الِاشْتِبَاهَ يَقَعُ عَلَى مَنْ لَمْ يَرْسَخْ فِي عِلْمِ الدَّلَائِلِ الدَّالَّةِ . فَإِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ وَغَيْرَهَا فِيهَا عَجَائِبُ لَا تَنْقَضِي . مِنْهَا أَنَّ قَوْلَهُ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ ذَكَرَ فِيهِ الرَّسُولَ الْمُكَذَّبَ وَالدِّينَ الْمُكَذَّبَ بِهِ جَمِيعًا . فَإِنَّ السُّورَةَ تَضَمَّنَتْ الْأَمْرَيْنِ . تَضَمَّنَتْ الْإِقْسَامَ بِأَمَاكِنِ الرُّسُلِ الْمُبَيِّنَةِ لِعَظَمَتِهِمْ وَمَا أُتُوا بِهِ مِنْ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ الْمُوجِبَةِ لِلْإِيمَانِ . وَهُمْ قَدْ أَخْبَرُوا بِالْمَعَادِ الْمَذْكُورِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ . وَقَدْ أَقْسَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ كَمَا يُقْسِمُ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَكَمَا أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يُقْسِمَ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ . فَلَمَّا تَضَمَّنَتْ هَذَا وَهَذَا ذَكَرَ نَوْعَيْ التَّكْذِيبِ فَقَالَ ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ لَا ذَنْبَ لَهُ فِي ذَلِكَ وَالْقُرْآنُ مُرَادُهُ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ هَذَا الرَّدَّ جَزَاءٌ عَلَى ذُنُوبِهِ . وَلِهَذَا قَالَ ﴿ إلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ ﴾ كَمَا قَالَ ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ لَكِنَّ هُنَا ذَكَرَ الْخُسْرَ فَقَطْ فَوَصَفَ الْمُسْتَثْنِينَ بِأَنَّهُمْ تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ مَعَ الْإِيمَانِ وَالصَّلَاحِ . وَهُنَاكَ ذَكَرَ أَسْفَلَ سَافِلِينَ وَهُوَ الْعَذَابُ وَالْمُؤْمِنُ الْمُصْلِحُ لَا يُعَذَّبُ وَإِنْ كَانَ قَدْ ضَيَّعَ أُمُورًا خَسِرَهَا لَوْ حَفِظَهَا لَكَانَ رَابِحًا غَيْرَ خَاسِرٍ . وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَذْكُرُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا . وَتَارَةً يَذْكُرُ إحْيَاءَهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ وَهُوَ كَقَوْلِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ فَإِنَّ خَلْقَ الْحَيَاةِ وَلَوَازِمِهَا وَمَلْزُومَاتِهَا أَعْظَمُ وَأَدَلُّ عَلَى الْقُدْرَةِ وَالنِّعْمَةِ وَالْحِكْمَةِ .

فَصْلٌ :

قَوْلُهُ ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . سَمَّى وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِالْكَرَمِ وَبِأَنَّهُ الْأَكْرَمُ بَعْدَ إخْبَارِهِ أَنَّهُ خَلَقَ لِيَتَبَيَّنَ أَنَّهُ يُنْعِمُ عَلَى الْمَخْلُوقِينَ وَيُوصِلُهُمْ إلَى الْغَايَاتِ الْمَحْمُودَةِ كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴾ ﴿

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ وَكَمَا قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ وَكَمَا قَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ فَالْخَلْقُ يَتَضَمَّنُ الِابْتِدَاءَ وَالْكَرَمُ تَضَمَّنَ الِانْتِهَاءَ كَمَا قَالَ فِي أُمِّ الْقُرْآنِ ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وَلَفْظُ الْكَرَمِ لَفْظٌ جَامِعٌ لِلْمَحَاسِنِ وَالْمَحَامِدِ . لَا يُرَادُ بِهِ مُجَرَّدُ الْإِعْطَاءِ بَلْ الْإِعْطَاءُ مِنْ تَمَامِ مَعْنَاهُ فَإِنَّ الْإِحْسَانَ إلَى الْغَيْرِ تَمَامُ الْمَحَاسِنِ . وَالْكَرَمُ كَثْرَةُ الْخَيْرِ وَيُسْرَتُهُ . وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ فَإِنَّمَا الْكَرْمُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ ﴾ .

(271/823)

وَهُمْ سَمَّوْا الْعِنَبَ " الْكَرْمَ " لِأَنَّهُ أَنْفَعُ الْفَوَاكِهِ يُؤْكَلُ رَطْبًا وَيَابِسًا وَيُعْصَرُ فَيُتَّخَذُ مِنْهُ أَنْوَاعٌ . وَهُوَ أَعَمُّ وُجُودًا مِنْ النَّخْلِ يُوجَدُ فِي عَامَّةِ الْبِلَادِ وَالنَّخْلُ لَا يَكُونُ إلَّا فِي الْبِلَادِ الْحَارَّةِ . وَلِهَذَا قَالَ فِي رِزْقِ الْإِنْسَانِ ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إلَى طَعَامِهِ ﴾ ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴾ ﴿ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴾ ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴾ ﴿ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴾ ﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴾ ﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴾ ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ فَقَدَّمَ الْعِنَبَ . وَقَالَ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ ﴿ إنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴾ وَمَعَ

هذا نهى النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَسْمِيَتِهِ بِالْكَرْمِ وَقَالَ : ﴿ الْكَرْمُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ ﴾ . فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَكْثَرُ وَلَا أَعْظَمُ خَيْرًا مِنْ قَلْبِ الْمُؤْمِنِ . وَالشَّيْءُ الْحَسَنُ الْمَحْمُودُ يُوصَفُ بِالْكَرْمِ . قَالَ تَعَالَى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ . قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : مِنْ كُلِّ جِنْسٍ حَسَنٍ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الزَّوْجُ النَّوْعُ وَالْكَرِيمُ الْمَحْمُودُ . وَقَالَ غَيْرُهُمَا ﴿ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صِنْفٌ وَضَرْبٌ ﴿ كَرِيمٌ ﴾ حَسَنٌ مِنْ النَّبَاتِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ . يُقَالُ : " نَخْلَةٌ كَرِيمَةٌ " إذَا طَابَ حَمْلُهَا و " نَاقَةٌ كَرِيمَةٌ " إذَا كَثُرَ لَبَنُهَا .

(272/823)

وَعَنْ الشَّعْبِيِّ : النَّاسُ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ فَمَنْ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَهُوَ كَرِيمٌ وَمَنْ دَخَلَ النَّارَ فَهُوَ لَئِيمٌ . وَالْقُرْآنُ قَدْ دَلَّ عَلَى أَنَّ النَّاسَ فِيهِمْ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ يُكْرِمُهُ وَفِيهِمْ مَنْ يُهِينُهُ . قَالَ تَعَالَى ﴿ إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ : ﴿ وَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ ﴾ . وَكَرَائِمُ الْأَمْوَالِ : الَّتِي تَكْرُمُ عَلَى أَصْحَابِهَا لِحَاجَتِهِمْ إلَيْهَا وَانْتِفَاعِهِمْ بِهَا مِنْ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِهَا . وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ الْأَكْرَمُ بِصِيغَةِ التَّفْضِيلِ وَالتَّعْرِيفِ لَهَا . فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ الْأَكْرَمُ وَحْدَهُ بِخِلَافِ مَا لَوْ قَالَ " وَرَبُّكَ أَكْرَمُ "

. فَإِنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى الْحَصْرِ وَقَوْلُهُ ﴿ الْأَكْرَمُ ﴾ يَدُلُّ عَلَى الْحَصْرِ . وَلَمْ يَقُلْ " الْأَكْرَمُ مِنْ كَذَا " بَلْ أَطْلَقَ الِاسْمَ لِيُبَيِّنَ أَنَّهُ الْأَكْرَمُ مُطْلَقًا غَيْرَ مُقَيَّدٍ . فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِغَايَةِ الْكَرَمِ الَّذِي لَا شَيْءَ فَوْقَهُ وَلَا نَقْصَ فِيهِ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : ثُمَّ قَالَ لَهُ تَعَالَى ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ عَلَى

(273/823)

جِهَةِ التَّأْنِيسِ كَأَنَّهُ يَقُولُ : امْضِ لِمَا أُمِرْتَ بِهِ وَرَبُّكَ لَيْسَ كَهَذِهِ الْأَرْبَابِ بَلْ هُوَ الْأَكْرَمُ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُ نَقْصٌ فَهُوَ يَنْصُرُكَ وَيُظْهِرُكَ . قُلْت وَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : " لَا يَهْدِيَنَّ أَحَدُكُمْ لِلَّهِ مَا يَسْتَحْيِي أَنْ يُهْدِيَهُ لِكَرِيمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ الْكُرَمَاءِ " . أَيْ هُوَ أَحَقُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِالْإِكْرَامِ إذْ كَانَ أَكْرَمَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِأَنْ يُجَلَّ وَلِأَنْ يُكْرَمَ . وَالْإِجْلَالُ يَتَضَمَّنُ التَّعْظِيمَ وَالْإِكْرَامُ يَتَضَمَّنُ الْحَمْدَ وَالْمَحَبَّةَ . وَهَذَا كَمَا قِيلَ فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِ : إنَّهُ رُزِقَ حَلَاوَةً وَمَهَابَةً . وَفِي حَدِيثِ هِنْدِ بْنِ أَبِي هَالَةَ فِي صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ رَآهُ بَدِيهَةً هَابَهُ وَمَنْ خَالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ ﴾ وَهَذَا لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ . وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَصِفُونَهُ بِالْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْحِكْمَةِ وَالرَّحْمَةِ . وَهُمْ الَّذِينَ يَعْبُدُونَهُ وَيَحْمَدُونَهُ وَأَنَّهُ

يَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِأَنْ يُعْبَدَ دُونَ مَا سِوَاهُ وَالْعِبَادَةُ تَتَضَمَّنُ غَايَةَ الذُّلِّ وَغَايَةَ الْحُبِّ .

(274/823)

وَأَنَّ الْمُنْكِرِينَ لِكَوْنِهِ يُحِبُّ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ كَمَا أَنَّ قَوْلَهُمْ إنَّهُ يَفْعَلُ بِلَا حِكْمَةٍ وَلَا رَحْمَةٍ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَا يُحْمَدُ . فَهُمْ إنَّمَا يَصِفُونَهُ بِالْقُدْرَةِ وَالْقَهْرِ . وَهَذَا إنَّمَا يَقْتَضِي الْإِجْلَالَ فَقَطْ لَا يَقْتَضِي الْإِكْرَامَ وَالْمَحَبَّةَ وَالْحَمْدَ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْأَكْرَمُ . قَالَ تَعَالَى ﴿ إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ ﴿ إنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴾ ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ ﴿ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴾ وَقَالَ شُعَيْبٌ ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إلَيْهِ إنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ وَفِي أَوَّلِ مَا نَزَّلَ وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ وَبِأَنَّهُ الْأَكْرَمُ . وَالْجَهْمِيَّةُ لَيْسَ عِنْدَهُمْ إلَّا كَوْنُهُ خَالِقًا مَعَ تَقْصِيرِهِمْ فِي إثْبَاتِ كَوْنِهِ خَالِقًا لَا يَصِفُونَهُ بِالْكَرَمِ وَلَا الرَّحْمَةِ وَلَا الْحِكْمَةِ . وَإِنْ أَطْلَقُوا أَلْفَاظَهَا فَلَا يَعْنُونَ بِهَا مَعْنَاهَا بَلْ يُطْلِقُونَهَا لِأَجْلِ مَجِيئِهَا فِي الْقُرْآنِ ثُمَّ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ وَيُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . فَتَارَةً يَقُولُونَ : الْحِكْمَةُ هِيَ الْقُدْرَةُ وَتَارَةً يَقُولُونَ : هِيَ الْمَشِيئَةُ وَتَارَةً يَقُولُونَ : هِيَ الْعِلْمُ .
وَأَنَّ الْحِكْمَةَ وَإِنْ تَضَمَّنَتْ ذَلِكَ وَاسْتَلْزَمَتْهُ فَهِيَ أَمْرٌ زَائِدٌ

(275/823)

عَلَى ذَلِكَ . فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ كَانَ قَادِرًا أَوْ مُرِيدًا كَانَ حَكِيمًا ؛ وَلَا كُلُّ مَنْ كَانَ لَهُ عِلْمٌ يَكُونُ حَكِيمًا حَتَّى يَكُونَ عَامِلًا بِعِلْمِهِ . قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ وَغَيْرُهُ : الْحِكْمَةُ هِيَ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ بِهِ وَهِيَ أَيْضًا : الْقَوْلُ الصَّوَابُ . فَتَتَنَاوَلُ الْقَوْلَ السَّدِيدَ وَالْعَمَلَ الْمُسْتَقِيمَ الصَّالِحَ . وَالرَّبُّ تَعَالَى أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَأَحْكَمُ الْحُكَمَاءِ . وَالْإِحْكَامُ الَّذِي فِي مَخْلُوقَاتِهِ دَلِيلٌ عَلَى عِلْمِهِ . وَهُمْ مَعَ سَائِرِ الطَّوَائِفِ يَسْتَدِلُّونَ بِالْإِحْكَامِ عَلَى الْعِلْمِ وَإِنَّمَا يَدُلُّ إذَا كَانَ الْفَاعِلُ حَكِيمًا يَفْعَلُ لِحِكْمَةِ . وَهُمْ يَقُولُونَ إنَّهُ لَا يَفْعَلُ لِحِكْمَةِ وَإِنَّمَا يَفْعَلُ بِمَشِيئَةِ تَخُصُّ أَحَدَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ بِلَا سَبَبٍ يُوجِبُ التَّخْصِيصَ . وَهَذَا مُنَاقِضٌ لِلْحِكْمَةِ بَلْ هَذَا سَفَهٌ . وَهُوَ قَدْ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ إنَّمَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِالْحَقِّ وَأَنَّهُ

(276/823)

لَمْ يَخْلُقْهُمَا بَاطِلًا وَأَنَّ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا . وَقَالَ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ وَقَالَ ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أَيْ مُهْمَلًا لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى . وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إنْكَارٍ عَلَى مَنْ جَوَّزَ ذَلِكَ عَلَى الرَّبِّ . وَالْجَهْمِيَّةُ الْمُجْبِرَةُ تُجَوِّزُ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَلَا تُنَزِّهُهُ عَنْ فِعْلٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَفْعَالِ . وَلَا تَنْعَتُهُ بِلَوَازِمِ كَرَمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ فَيُعْلَمُ أَنَّهُ يَفْعَلُ مَا هُوَ اللَّائِقُ بِذَلِكَ وَلَا يَفْعَلُ مَا يُضَادُّ ذَلِكَ . بَلْ تُجَوِّزُ كُلَّ مَقْدُورٍ أَنْ يَكُونَ وَأَنْ لَا يَكُونَ وَإِنَّمَا يَجْزِمُ بِأَحَدِهِمَا لِأَجْلِ خَبَرٍ سَمْعِيٍّ أَوْ عَادَةٍ مُطَّرِدَةٍ مَعَ تَنَاقُضِهِمْ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِالْخَبَرِ أَخْبَارِ الرُّسُلِ وَعَادَاتِ الرَّبِّ . كَمَا بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ مِثْلِ الْكَلَامِ عَلَى مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَعَلَى إرْسَالِ الرُّسُلِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَعَلَى الْمَعَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِأَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ الصَّادِرَةِ عَنْ مَشِيئَتِهِ . فَإِنَّهَا صَادِرَةٌ عَنْ حِكْمَتِهِ وَعَنْ رَحْمَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ مُسْتَلْزِمَةٌ لِهَذَا وَهَذَا لَا يَشَاءُ إلَّا مَشِيئَةً مُتَضَمِّنَةً لِلْحِكْمَةِ وَهُوَ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا ﴾ .

فَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يُقِرُّونَ بِأَنَّهُ الْأَكْرَمُ . وَالْإِرَادَةُ الَّتِي يُثْبِتُونَهَا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهَا سَمْعٌ وَلَا عَقْلٌ . فَإِنَّهُ لَا تُعْرَفُ إرَادَةٌ تُرَجِّحُ مُرَادًا عَلَى مُرَادٍ بِلَا سَبَبٍ يَقْتَضِي التَّرْجِيحَ . وَمَنْ قَالَ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ " إنَّ الْقَادِرَ يُرَجِّحُ أَحَدَ مَقْدُورَيْهِ عَلَى الْآخَرِ بِلَا مُرَجِّحٍ " فَهُوَ مُكَابِرٌ . وَتَمْثِيلُهُمْ ذَلِكَ بِالْجَائِعِ إذَا أَخَذَ أَحَدَ الرَّغِيفَيْنِ وَالْهَارِبِ إذَا سَلَكَ أَحَدَ الطَّرِيقَيْنِ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ . فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَقَعُ إلَّا مَعَ رُجْحَانِ أَحَدِهِمَا إمَّا لِكَوْنِهِ أَيْسَرَ فِي الْقُدْرَةِ وَإِمَّا لِأَنَّهُ الَّذِي خَطَرَ بِبَالِهِ وَتَصَوَّرَهُ أَوْ ظَنَّ أَنَّهُ أَنْفَعُ . فَلَا بُدَّ مِنْ رُجْحَانِ أَحَدِهِمَا بِنَوْعِ مَا إمَّا مِنْ جِهَةِ الْقُدْرَةِ وَإِمَّا مِنْ جِهَةِ التَّصَوُّرِ وَالشُّعُورِ . وَحِينَئِذٍ يُرَجِّحُ إرَادَتَهُ وَالْآخَرُ لَمْ يُرِدْهُ . فَكَيْفَ يُقَالُ إنَّ إرَادَتَهُ رَجَّحَتْ أَحَدَهُمَا بِلَا مُرَجِّحٍ ؟ أَوْ أَنَّهُ رَجَّحَ إرَادَةَ هَذَا عَلَى إرَادَةِ ذَاكَ بِلَا مُرَجِّحٍ ؟ وَهَذَا مُمْتَنِعٌ يُعْرَفُ امْتِنَاعُهُ مَنْ تَصَوَّرَهُ حَقَّ التَّصَوُّرِ . وَلَكِنْ لَمَّا تَكَلَّمُوا فِي مَبْدَأِ الْخَلْقِ بِكَلَامِ ابْتَدَعُوهُ خَالَفُوا بِهِ الشَّرْعَ وَالْعَقْلَ احْتَاجُوا إلَى هَذِهِ الْمُكَابَرَةِ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَبِذَلِكَ تَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ الْفَلَاسِفَةُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى . فَلَا لِلْإِسْلَامِ نَصَرُوا وَلَا لِلْفَلَاسِفَةِ كَسَرُوا .

وَمَعْلُومٌ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَنَّ الْقَادِرَ إذَا لَمْ يَكُنْ مُرِيدًا لِلْفِعْلِ وَلَا فَاعِلًا ثُمَّ صَارَ مُرِيدًا فَاعِلًا فَلَا بُدَّ مِنْ حُدُوثِ أَمْرٍ اقْتَضَى ذَلِكَ . وَالْكَلَامُ هُنَا فِي مَقَامَيْنِ . أَحَدُهُمَا فِي جِنْسِ الْفِعْلِ وَالْقَوْلِ هَلْ صَارَ فَاعِلًا مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَتِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ أَوْ مَا زَالَ فَاعِلًا مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَتِهِ . وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَسَائِلِ الْكَلَامِ وَالْأَفْعَالِ فِي مَسْأَلَةِ الْقُرْآنِ وَحُدُوثِ الْعَالَمِ . وَالثَّانِي إرَادَةُ الشَّيْءِ الْمُعَيَّنِ وَفِعْلُهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إنَّمَا أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ إذَا أَرَادَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَلِلنَّاسِ فِيهَا أَقْوَالٌ . قِيلَ : الْإِرَادَةُ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَإِنَّمَا يَتَجَدَّدُ تَعَلُّقُهَا بِالْمُرَادِ

وَنِسْبَتُهَا إِلَى الْجَمِيعِ وَاحِدَةٌ وَلَكِنْ مِنْ خَوَاصِّ الْإِرَادَةِ أَنَّهَا تُخَصِّصُ بِلَا مُخَصِّصٍ . فَهَذَا قَوْلُ ابْنِ كِلَابٍ وَالْأَشْعَرِيِّ . وَمَنْ تَابَعَهُمَا . وَكَثِيرٌ مِنْ الْعُقَلَاءِ يَقُولُ : إنَّ هَذَا فَسَادُهُ مَعْلُومٌ بِالِاضْطِرَارِ حَتَّى قَالَ أَبُو الْبَرَكَاتِ : لَيْسَ فِي الْعُقَلَاءِ مَنْ قَالَ بِهَذَا . وَمَا عُلِمَ أَنَّهُ قَوْلُ طَائِفَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالْكَلَامِ . وَبُطْلَانُهُ مِنْ جِهَاتٍ : مِنْ جِهَةِ جَعْلِ إرَادَةِ هَذَا غَيْرَ إرَادَةِ ذَاكَ وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُ جَعَلَ الْإِرَادَةَ تُخَصِّصُ لِذَاتِهَا . وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ عِنْدَ وُجُودِ الْحَوَادِثِ شَيْئًا حَدَثَ حَتَّى تَخَصَّصَ أَوْ لَا تَخَصَّصَ . بَلْ تَجَدَّدَتْ نِسْبَةٌ عَدَمِيَّةٌ لَيْسَتْ وُجُودًا وَهَذَا لَيْسَ بِشَيْءِ فَلَمْ يَتَجَدَّدْ شَيْءٌ . فَصَارَتْ الْحَوَادِثُ تَحْدُثُ وَتَتَخَصَّصُ بِلَا سَبَبٍ حَادِثٍ وَلَا مُخَصِّصٍ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : قَوْلُ مَنْ يَقُولُ بِإِرَادَةِ وَاحِدَةٍ قَدِيمَةٍ مِثْلُ هَؤُلَاءِ لَكِنْ يَقُولُ : تَحْدُثُ عِنْدَ تَجَدُّدِ الْأَفْعَالِ إرَادَاتٍ فِي ذَاتِهِ بِتِلْكَ الْمَشِيئَةِ الْقَدِيمَةِ كَمَا تَقُولُهُ الكَرَّامِيَة وَغَيْرُهُمْ . وَهَؤُلَاءِ أَقْرَبُ مِنْ حَيْثُ أَثْبَتُوا إرَادَاتِ الْأَفْعَالِ . وَلَكِنْ يَلْزَمُهُمْ مَا لَزِمَ أُولَئِكَ مِنْ حَيْثُ أَثْبَتُوا حَوَادِثَ بِلَا سَبَبٍ حَادِثٍ وَتَخْصِيصَاتٍ بِلَا مُخَصِّصٍ وَجَعَلُوا تِلْكَ الْإِرَادَةَ وَاحِدَةً تَتَعَلَّقُ بِجَمِيعِ الْإِرَادَاتِ الْحَادِثَةِ

وجعلوها أيضا تخصص لذاتها ولم يجعلوا عند وجود الإرادات الحادثة شيئًا حدث حتى تخصص تلك الإرادات الحدوث . والقول الثالث قول الجهمية والمعتزلة الذين ينفون قيام الإرادة به . ثم إما أن يقولوا بنفي الإرادة أو يفسرونها بنفس الأمر والفعل أو يقولوا بحدوث إرادة لا في محل كقول البصريين . وكل هذه الأقوال قد علم أيضا فسادها .

والقول الرابع : أنه لم يزل مريدا بإرادات متعاقبة . فنوع الإرادة قديم وأما إرادة الشيء المعين فإنما يريده في وقته . وهو سبحانه يقدر الأشياء ويكتبها ثم بعد ذلك يخلقها . فهو إذا قدرها علم ما سيفعله وأراد فعله في الوقت المستقبل لكن لم يرد فعله في تلك الحال فإذا جاء وقته أراد فعله فالأول عزم والثاني قصد . وهل يجوز وصفه بالعزم فيه قولان . أحدهما المنع كقول القاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى ؛ والثاني الجواز وهو أصح . فقد قرأ جماعة من السلف ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ بالضم . وفي الحديث

الصحيح من حديث أم سلمة : ﴿ ثم عزم الله لي ﴾ . وكذلك في خطبة مسلم : ﴿ فعزم لي ﴾ . وسواء سمي " عزما " أو لم يسم فهو سبحانه إذا قدرها علم أنه سيفعلها

فِي وَقْتِهَا وَأَرَادَ أَنْ يَفْعَلَهَا فِي وَقْتِهَا . فَإِذَا جَاءَ الْوَقْتُ فَلَا بُدَّ مِنْ إرَادَةِ الْفِعْلِ الْمُعَيَّنِ وَنَفْسِ الْفِعْلِ وَلَا بُدَّ مِنْ عِلْمِهِ بِمَا يَفْعَلُهُ . ثُمَّ الْكَلَامُ فِي عِلْمِهِ بِمَا يَفْعَلُهُ هَلْ هُوَ الْعِلْمُ الْمُتَقَدِّمُ بِمَا سَيَفْعَلُهُ وَعِلْمُهُ بِأَنْ قَدْ فَعَلَهُ هَلْ هُوَ الْأَوَّلُ فِيهِ قَوْلَانِ مَعْرُوفَانِ . وَالْعَقْلُ وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْرٌ زَائِدٌ كَمَا قَالَ ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ فِي بِضْعَةَ عَشَرَ مَوْضِعًا وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إلَّا لِنَرَى . وَحِينَئِذٍ فَإِرَادَةُ الْمُعَيَّنِ تَتَرَجَّحُ لِعِلْمِهِ بِمَا فِي الْمُعَيَّنِ مِنْ الْمَعْنَى الْمُرَجِّحِ لِإِرَادَتِهِ . فَالْإِرَادَةُ تَتْبَعُ الْعِلْمَ . وَكَوْنُ ذَلِكَ الْمُعَيَّنِ مُتَّصِفًا بِتِلْكَ الصِّفَاتِ الْمُرَجِّحَةِ إنَّمَا هُوَ فِي الْعِلْمِ وَالتَّصَوُّرِ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ شَيْءٌ . وَمِنْ هُنَا غَلِطَ مَنْ قَالَ " الْمَعْدُومُ شَيْءٌ " حَيْثُ أَثْبَتُوا ذَلِكَ الْمُرَادَ فِي الْخَارِجِ . وَمَنْ لَمْ يُثْبِتْهُ شَيْئًا فِي الْعِلْمِ أَوْ كَانَ لَيْسَ عِنْدَهُ إلَّا إرَادَةٌ

وَاحِدَةٌ وَعِلْمٌ وَاحِدٌ لَيْسَ لِلْمَعْلُومَاتِ وَالْمُرَادَاتِ صُورَةٌ عِلْمِيَّةٌ عِنْدَ هَؤُلَاءِ . فَهَؤُلَاءِ نَفَوْا كَوْنَهُ شَيْئًا فِي الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَأُولَئِكَ أَثْبَتُوا كَوْنَهُ شَيْئًا فِي الْخَارِجِ . وَتِلْكَ الصُّورَةُ الْعِلْمِيَّةُ الْإِرَادِيَّةُ حَدَثَتْ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ . وَهِيَ حَادِثَةٌ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ كَمَا يُحْدِثُ الْحَوَادِثَ الْمُنْفَصِلَةَ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ . فَيُقَدِّرُ مَا يَفْعَلُهُ ثُمَّ يَفْعَلُهُ . فَتَخْصِيصُهَا بِصِفَةٍ دُونَ صِفَةٍ وَقَدْرٍ دُونَ قَدْرٍ هُوَ لِلْأُمُورِ الْمُقْتَضِيَةِ لِذَلِكَ فِي نَفْسِهِ . فَلَا يُرِيدُ إلَّا مَا تَقْتَضِي نَفْسُهُ إرَادَتَهُ

بِمَعْنَى يَقْتَضِي ذَلِكَ وَلَا يُرَجِّحُ مُرَادًا عَلَى مُرَادٍ إلَّا لِذَلِكَ . وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَجِّحَ شَيْئًا لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ قَادِرًا . فَإِنَّهُ كَانَ قَادِرًا قَبْلَ إرَادَتِهِ وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى غَيْرِهِ . فَتَخْصِيصُ هَذَا بِالْإِرَادَةِ لَا يَكُونُ بِالْقُدْرَةِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ وَلَا يَجُوزُ أَيْضًا أَنْ تَكُونَ الْإِرَادَةُ تُخَصِّصُ مِثْلًا عَلَى مِثْلٍ بِلَا مُخَصِّصٍ . بَلْ إنَّمَا يُرِيدُ الْمُرِيدُ أَحَدَ الشَّيْئَيْنِ دُونَ الْآخَرِ لِمَعْنَى فِي الْمُرِيدِ وَالْمُرَادِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْمُرِيدُ إلَى ذَلِكَ أَمْيَلَ وَأَنْ يَكُونَ فِي الْمُرَادِ مَا أَوْجَبَ رُجْحَانَ ذَلِكَ الْمَيْلِ .

(283/823)

وَالْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ تُثْبِتُ الْقَدَرَ وَتَقْدِيرَ الْأُمُورِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهَا وَأَنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ يُثْبِتُ الْعِلْمَ وَالْإِرَادَةَ لِكُلِّ مَا سَيَكُونُ وَيُزِيلُ إشْكَالَاتٍ كَثِيرَةً ضَلَّ بِسَبَبِهَا طَوَائِفُ فِي هَذَا الْمَكَانِ فِي مَسَائِلِ الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ . فَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ كَمَا ذَكَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ قَالَ : { الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاَللَّهِ . وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَبِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ . وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ } وَقَدْ تَبَرَّأَ ابْنُ عُمَرَ وَغَيْرُهُ مِنْ الصَّحَابَةِ مِنْ الْمُكَذِّبِينَ بِالْقَدَرِ . وَمَعَ هَذَا فَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَغَيْرِهِمْ لَا تُثْبِتُ الْقَدَرَ إلَّا عِلْمًا أَزَلِيًّا وَإِرَادَةً أَزَلِيَّةً فَقَطْ . وَإِذَا أَثْبَتُوا الْكِتَابَةَ قَالُوا إنَّهَا كِتَابَةٌ لِبَعْضِ ذَاكَ . وَأَمَّا مَنْ يَقُولُ إنَّهُ قَدَّرَهَا حِينَئِذٍ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ قَدَّرَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ فَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

(284/823)

وَهُوَ كَقَوْلِهِ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ إنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴾ ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . وَالْكِتَابُ فِي نَفْسِهِ لَا يَكُونُ أَزَلِيًّا . وَفِي حَدِيثٍ رَوَاهُ حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ الْأَشْعَثِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجَرْمِيِّ عَنْ أَبِي قِلَابَةَ عَنْ أَبِي الْأَشْعَثِ الصَّنْعَانِيِّ عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفَيْ سَنَةٍ أُنْزِلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ ﴾ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ غَرِيبٌ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ مِنْ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا . وَكَثِيرٌ مِنْ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَالْكَلَامِ يُوجَدُ

فِيهَا الْأَقْوَالُ الْمُبْتَدَعَةُ دُونَ الْقَوْلِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ . فَالشَّهْرَسْتَانِي مَعَ تَصْنِيفِهِ فِي الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ يَذْكُرُ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ

(285/823)

وَالْإِرَادَةِ وَغَيْرِهِمَا أَقْوَالًا لَيْسَ فِيهَا الْقَوْلُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِنْ كَانَ بَعْضُهَا أَقْرَبَ .

وَقَبْلَهُ أَبُو الْحَسَنِ كِتَابُهُ فِي اخْتِلَافِ الْمُصَلِّينَ مِنْ أَجْمَعِ الْكُتُبِ وَقَدْ اسْتَقْصَى فِيهِ أَقَاوِيلَ أَهْلِ الْبِدَعِ . وَلَمَّا ذَكَرَ قَوْلَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ ذَكَرَهُ مُجْمَلًا غَيْرَ مُفَصَّلٍ . وَتَصَرَّفَ فِي بَعْضِهِ فَذَكَرَهُ بِمَا اعْتَقَدَهُ هُوَ أَنَّهُ قَوْلُهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مَنْقُولًا عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ .

وَأَقْرَبُ الْأَقْوَالِ إلَيْهِ قَوْلُ ابْنِ كِلَابٍ . فَأَمَّا ابْنُ كِلَابٍ فَقَوْلُهُ مَشُوبٌ بِقَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ وَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ قَوْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَقَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ وَكَذَلِكَ مَذْهَبُ الْأَشْعَرِيِّ فِي الصِّفَاتِ . وَأَمَّا فِي الْقَدَرِ وَالْإِيمَانِ فَقَوْلُهُ قَوْلُ جَهْمٍ . وَأَمَّا مَا حَكَاهُ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَقَالَ " وَبِكُلِّ مَا ذَكَرْنَا مِنْ قَوْلِهِمْ نَقُولُ وَإِلَيْهِ نَذْهَبُ " فَهُوَ أَقْرَبُ مَا ذَكَرَهُ . وَبَعْضُهُ ذَكَرَهُ عَنْهُمْ عَلَى وَجْهِهِ وَبَعْضُهُ تَصَرَّفَ فِيهِ وَخَلَطَهُ بِمَا هُوَ مِنْ أَقْوَالِ جَهْمٍ فِي الصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ إذْ كَانَ هُوَ نَفْسُهُ يَعْتَقِدُ صِحَّةَ تِلْكَ الْأُصُولِ . وَهُوَ يُحِبُّ الِانْتِصَارَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَمُوَافَقَتَهُمْ فَأَرَادَ أَنْ

يَجْمَعُ بَيْنَ مَا رَآهُ مِنْ رَأْيِ أُولَئِكَ وَبَيْنَ مَا نَقَلَهُ عَنْ هَؤُلَاءِ . وَلِهَذَا يَقُولُ فِيهِ طَائِفَةٌ إنَّهُ خَرَجَ مِنْ التَّصْرِيحِ إلَى التَّمْوِيهِ . كَمَا يَقُولُهُ طَائِفَةٌ : إنَّهُمْ الْجَهْمِيَّةُ الْإِنَاثُ وَأُولَئِكَ الْجَهْمِيَّةُ الذُّكُورُ .

وَأَتْبَاعُهُ الَّذِينَ عَرَفُوا رَأْيَهُ فِي تِلْكَ الْأُصُولِ وَوَافَقُوهُ أَظْهَرُوا مِنْ مُخَالَفَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ مَا هُوَ لَازِمٌ لِقَوْلِهِمْ وَلَمْ يَهَابُوا أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَيُعَظِّمُوا وَيَعْتَقِدُوا صِحَّةَ مَذَاهِبِهِمْ كَمَا كَانَ هُوَ يَرَى ذَلِكَ . وَالطَّائِفَتَانِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَهْمِيَّةِ يَقُولُونَ إنَّهُ تَنَاقُضٌ لَكِنَّ السُّنِّيَّ يَحْمَدُ مُوَافَقَتَهُ لِأَهْلِ الْحَدِيثِ وَيَذُمُّ مُوَافَقَتَهُ لِلجهمية والجهمي يَذُمُّ مُوَافَقَتَهُ لِأَهْلِ الْحَدِيثِ وَيَحْمَدُ مُوَافَقَتَهُ لِلجهمية . وَلِهَذَا كَانَ مُتَأَخِّرُو أَصْحَابِهِ كَأَبِي الْمَعَالِي وَنَحْوِهِ أَظْهَرَ تَجَهُّمًا وَتَعْطِيلًا مِنْ مُتَقَدِّمِيهِمْ . وَهِيَ مَوَاضِعُ دَقِيقَةٌ يَغْفِرُ اللَّهُ لِمَنْ أَخْطَأَ فِيهَا بَعْدَ اجْتِهَادِهِ . لَكِنَّ الصَّوَابَ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ فَلَا يَكُونُ الْحَقُّ فِي خِلَافِ ذَلِكَ قَطُّ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَمِنْ أَعْظَمِ الْأُصُولِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ جِدًّا وَكَذَلِكَ الْأَحَادِيثُ وَسَائِرُ كُتُبِ اللَّهِ وَكَلَامِ السَّلَفِ وَعَلَيْهَا تَدُلُّ

الْمَعْقُولَاتُ الصَّرِيحَةُ هُوَ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ الِاخْتِيَارِيَّةِ مِثْلُ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ كَلَامًا يَقُومُ بِذَاتِهِ وَكَذَلِكَ يَقُومُ بِذَاتِهِ فِعْلُهُ الَّذِي يَفْعَلُهُ بِمَشِيئَتِهِ . فَإِثْبَاتُ هَذَا الْأَصْلِ يَمْنَعُ ضُلَّالَ الطَّوَائِفِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِهِ وَالْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ مَمْلُوءٌ وَكَلَامُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ مَمْلُوءٌ مِنْ إِثْبَاتِهِ . فَالْحَقُّ الْمَحْضُ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا يَكُونُ الْحَقُّ فِي خِلَافِ ذَلِكَ . لَكِنَّ الْهُدَى التَّامَّ يَحْصُلُ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ وَتَصَوُّرِهِ . فَإِنَّ الِاخْتِلَافَ تَارَةً يَنْشَأُ مِنْ سُوءِ الْفَهْمِ وَنَقْصِ الْعِلْمِ وَتَارَةً مِنْ سُوءِ الْقَصْدِ . وَالنَّاسُ يَخْتَلِفُونَ فِي الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ فِي تَعَدُّدِ ذَلِكَ وَإِيجَادِهِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَا يَقُومُ بِالنَّفْسِ مِنْ إرَادَةِ الْأُمُورِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ فِيهِ . الْعِلْمُ بِهَذَا هُوَ الْعِلْمُ بِهَذَا وَلَا إرَادَةُ هَذَا هُوَ إرَادَةُ هَذَا . فَإِنَّ هَذَا مُكَابَرَةٌ وَعِنَادٌ . وَلَيْسَ تَمْيِيزُ الْعِلْمِ عَنْ الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ عَنْ الْإِرَادَةِ تَمْيِيزًا مَعَ انْفِصَالِ أَحَدِهِمَا عَنْ الْآخَرِ . بَلْ نَفْسُ الصِّفَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ كَالْعِلْمِ

وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ إذَا قَامَتْ بِمَحَلٍّ وَاحِدٍ لَمْ يَنْفَصِلْ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ بَلْ مَحَلُّ هَذَا هُوَ مَحَلُّ هَذَا كَالطَّعْمِ وَاللَّوْنِ وَالرَّائِحَةِ الْقَائِمَةِ بِالْأُتْرُجَّةِ الْوَاحِدَةِ وَأَمْثَالِهَا مِنْ الْفَاكِهَةِ وَغَيْرِهَا . فَإِذَا

قِيلَ " هِيَ عُلُومٌ وَإِرَادَاتٌ " لَمْ يَنْفَصِلْ هَذَا عَنْ هَذَا بِفَصْلٍ حِسِّيٍّ بَلْ هُوَ نَوْعٌ وَاحِدٌ قَائِمٌ بِالنَّفْسِ . وَإِذَا عَلِمَ هَذَا بَعْدَ عِلْمِهِ بِذَلِكَ فَقَدْ زَادَ هَذَا النَّوْعُ وَكَثُرَ وَإِنْ شِئْت قُلْت : عَظُمَ . فَلَا يَزِيدُ فِيهِ زِيَادَةَ الْكَمِّيَّةِ عَنْ زِيَادَةِ الْكَيْفِيَّةِ . بَلْ يُقَالُ " عِلْمٌ كَثِيرٌ وَعِلْمٌ عَظِيمٌ " بِأَنْ تَكُونَ الْعَظَمَةُ تَرْجِعُ إلَى قُوَّتِهِ وَشَرَفِ مَعْلُومِهِ . وَنَحْوُ ذَلِكَ . كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ : ﴿ أَتَدْرِي أَيَّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَك أَعْظَمُ ؟ قَالَ : ﴿ اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ . فَقَالَ : لِيَهْنِك الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ ﴾ وَكَتَبَ سَلْمَانُ إلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ : لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُك وَوَلَدُك وَلَكِنَّ الْخَيْرَ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُك وَيَعْظُمَ حِلْمُك . وَانْضِمَامُ الْعِلْمِ إلَى الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ إلَى الْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ إلَى الْقُدْرَةِ هُوَ شَبِيهٌ بِانْضِمَامِ الْأَجْسَامِ الْمُتَّصِلَةِ كَالْمَاءِ إذَا زِيدَ فِيهِ مَاءٌ فَإِنَّهُ يَكْثُرُ قَدْرُهُ . لَكِنْ هُوَ كَمٌّ مُتَّصِلٌ لَا مُنْفَصِلٌ بِخِلَافِ الدَّرَاهِمِ .

فَإِذَا قِيلَ " تَعَدَّدَتْ الْعُلُومُ وَالْإِرَادَاتُ " فَهُوَ إخْبَارٌ عَنْ كَثْرَةِ قَدْرِهَا وَأَنَّهَا أَكْثَرُ وَأَعْظَمُ مِمَّا كَانَتْ لَا أَنَّ هُنَاكَ مَعْدُودَاتٍ مُنْفَصِلَةٍ كَمَا قَدْ يَفْهَمُ بَعْضُ النَّاسِ . وَلِهَذَا كَانَ الْعِلْمُ اسْمَ جِنْسٍ . فَلَا يَكَادُ يُجْمَعُ فِي الْقُرْآنِ بَلْ يُقَالُ ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ فَيَذْكُرُ الْجِنْسَ . وَكَذَلِكَ الْمَاءُ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرُ مِيَاهٍ بَلْ إنَّمَا يَذْكُرُ جِنْسَ الْمَاءِ : ﴿

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَالْعِلْمُ يُشَبَّهُ بِالْمَاءِ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا . . . الْحَدِيثَ ﴾ . وَقَدْ قَالَ : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ . وما خَلَقَهُ الرَّبُّ تَعَالَى فَإِنَّهُ يَرَاهُ وَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ عِبَادِهِ . وَالْمَعْدُومُ لَا يُرَى بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ . والسالمية كَأَبِي طَالِبٍ الْمَكِّيِّ وَغَيْرِهِ لَمْ يَقُولُوا : إنَّهُ يُرَى قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَإِنَّمَا قَالُوا : يَرَاهُ الرَّبُّ فِي نَفْسِهِ وَإِنْ كَانَ هُوَ مَعْدُومًا فِي ذَاتِ الشَّيْءِ الْمَعْدُومِ . فَهُمْ يَجْعَلُونَ الرُّؤْيَةَ لِمَا يَقُومُ بِنَفْسِ الْعَالِمِ مِنْ صُورَتِهِ الْعِلْمِيَّةِ .

(290/823)

مَا هُوَ عَدَمٌ مَحْضٌ . وَهُمْ وَإِنْ كَانُوا غَلِطُوا فِي بَعْضِ مَا قَالُوهُ فَلَمْ يَقُولُوا : إنَّ الْعَدَمَ الْمَحْضَ الَّذِي لَيْسَ بِشَيْءٍ يُرَى فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ . وَفِي الْحَقِيقَةِ إذَا رُئِيَ شَيْءٌ فَإِنَّمَا رُئِيَ مِثَالُهُ الْعِلْمِيُّ لَا عَيْنُهُ . وَأَبُو الشَّيْخِ الْأَصبهاني لَمَّا ذُكِرَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ أَمَرَ بِالْإِمْسَاكِ عَنْهَا . فَقَبْلَ أَنْ يُوجَدَ لَمْ يَكُنْ يُرَى وَبَعْدَ أَنْ يُعْدَمَ لَا يُرَى وَإِنَّمَا يُرَى حَالَ وُجُودِهِ . وَهَذَا هُوَ الْكَمَالُ فِي الرُّؤْيَةِ . وَكَذَلِكَ سَمْعُ أَصْوَاتِ الْعِبَادِ هُوَ عِنْدَ وُجُودِهَا لَا بَعْدَ فَنَائِهَا . وَلَا قَبْلَ حُدُوثِهَا . قَالَ تَعَالَى ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ وَقَالَ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ

خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

فَصْلٌ :

الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ اللَّهُ تَعَالَى هُدًى وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ . فَإِنَّهُ كَمَا أَرْسَلَهُ بِالْعِلْمِ وَالْهُدَى وَالْبَرَاهِينِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ فَإِنَّهُ أَرْسَلَهُ بِالْإِحْسَانِ إلَى النَّاسِ وَالرَّحْمَةِ لَهُمْ بِلَا عِوَضٍ وَبِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ

وَاحْتِمَالِهِ . فَبَعَثَهُ بِالْعِلْمِ وَالْكَرَمِ وَالْحِلْمِ عَلِيمٌ هَادٍ كَرِيمٌ مُحْسِنٌ حَلِيمٌ صَفُوحٌ . قَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وَنَظَائِرُهُ كَثِيرَةٌ . وَقَالَ ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ . وَقَالَ ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إنْ أَجْرِيَ إلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ . وَقَالَ ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ . فَهُوَ يُعَلِّمُ وَيَهْدِي وَيُصْلِحُ الْقُلُوبَ وَيَدُلُّهَا عَلَى صَلَاحِهَا فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ بِلَا عِوَضٍ . وَهَذَا نَعْتُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ كُلٌّ يَقُولُ ﴿ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ . وَلِهَذَا قَالَ صَاحِبُ يس ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ . وَهَذِهِ سَبِيلُ مَنْ اتَّبَعَهُ كَمَا قَالَ ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ .

(292/823)

وَأَمَّا الْمُخَالِفُونَ لَهُمْ فَقَدْ قَالَ عَنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَيْهِمْ مَعَ بِدْعَةٍ ﴿ إنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . فَهَؤُلَاءِ أَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ وَمَنَعُوهُمْ سَبِيلَ اللَّهِ ضِدَّ الرَّسُولِ فَكَيْفَ بِمَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُشْرِكِينَ وَالسَّحَرَةِ وَالْكُهَّانِ ؟ فَهُمْ أَوْكَلُ لِأَمْوَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ وَأَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَالَ ﴿ إنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ ﴾ فَلَيْسَ كُلُّهُمْ كَذَلِكَ ؛ بَلْ قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ . وَقَدْ قَالَ فِي وَصْفِ الرَّسُولِ ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ .

وَفِيهَا قِرَاءَتَانِ ، فَمَنْ قَرَأَ (بِظَنِينٍ) أَيْ مَا هُوَ بِمُتَّهَمٍ عَلَى الْغَيْبِ بَلْ هُوَ صَادِقٌ أَمِينٌ فِيمَا

يُخْبِرُ بِهِ . وَمَنْ قَرَأَ (بِضَنِينٍ أَيْ مَا هُوَ بِبَخِيلٍ لَا يَبْذُلُهُ إلَّا بِعِوَضِ كَالَّذِينَ يَطْلُبُونَ الْعِوَضَ عَلَى مَا يَعْلَمُونَهُ . فَوَصَفَهُ بِأَنَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ فَلَا يَكْذِبُ وَلَا يَكْتُمُ . وَقَدْ وَصَفَ أَهْلَ الْكِتَابِ بِأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَأَنَّهُمْ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا .

(293/823)

وَمَعَ هَذَا وَهَذَا قَدْ أَمَدَّهُ بِالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ . وَجَعَلَهُ كَذَلِكَ يُعْطِيهِمْ مَا هُمْ مُحْتَاجُونَ إلَيْهِ غَايَةَ الْحَاجَةِ بِلَا عِوَضٍ وَهُمْ يَكْرَهُونَهُ وَيُؤْذُونَهُ عَلَيْهِ . وَهَذَا أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي يَبْذُلُ الدَّوَاءَ النَّافِعَ لِلْمَرْضَى وَيَسْقِيهِمْ إيَّاهُ بِلَا عِوَضٍ وَهُمْ يُؤْذُونَهُ كَمَا يَصْنَعُ الْأَبُ الشَّفِيقُ . وَهُوَ أَبُو الْمُؤْمِنِينَ . وَكَذَلِكَ نَعَتَ أُمَّتَهُ بِقَوْلِهِ ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : كُنْتُمْ خَيْرَ النَّاسِ لِلنَّاسِ تَأْتُونَ بِهِمْ فِي السَّلَاسِلِ حَتَّى تُدْخِلُوهُمْ الْجَنَّةَ . فَيُجَاهِدُونَ يَبْذُلُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لِمَنْفَعَةِ الْخَلْقِ وَصَلَاحِهِمْ وَهُمْ يَكْرَهُونَ ذَلِكَ لِجَهْلِهِمْ كَمَا قَالَ أَحْمَد فِي خُطْبَتِهِ : " الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي كُلِّ زَمَانِ فَتْرَةٍ مِنْ الرُّسُلِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إلَى الْهُدَى وَيَصْبِرُونَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى يُحْيُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ الْمَوْتَى وَيُبَصِّرُونَ بِنُورِ اللَّهِ أَهْلَ الْعَمَى . فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ لِإِبْلِيسَ قَدْ أَحْيَوْهُ وَكَمْ مِنْ ضَالٍّ تَائِهٍ قَدْ هَدَوْهُ فَمَا أَحْسَنَ أَثَرَهُمْ عَلَى النَّاسِ وَأَقْبَحَ أَثَرَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ " إلَى آخِرِ كَلَامِهِ . فَهَذَا هَذَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا كَثِيرًا

طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَجْزِي النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ

فَهُوَ يُنْعِمُ عَلَى الرَّسُولِ بِإِنْعَامِهِ جَزَاءً عَلَى إحْسَانِهِمْ وَالْجَمِيعُ مِنْهُ . فَهُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْجَوَادُ الْكَرِيمُ الْحَنَّانُ الْمَنَّانُ لَهُ النِّعْمَةُ وَلَهُ الْفَضْلُ وَلَهُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ وَلَهُ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا . وَهُوَ يُحِبُّ الْبَصَرَ النَّافِذَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ وَيُحِبُّ الْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّهَوَاتِ . وَقَدْ قِيلَ أَيْضًا : وَقَدْ يُحِبُّ الشَّجَاعَةَ وَلَوْ عَلَى قَتْلِ الْحَيَّاتِ وَيُحِبُّ السَّمَاحَةَ وَلَوْ بِكَفٍّ مِنْ تَمَرَاتٍ . وَالْقُرْآنُ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَيُحِبُّ الصَّابِرِينَ . وَهَذَا هُوَ الْكَرَمُ وَالشَّجَاعَةُ .

فَصْلٌ :

وَقَوْلُهُ ﴿ الْأَكْرَمُ ﴾ يَقْتَضِي اتِّصَافَهُ بِالْكَرَمِ فِي نَفْسِهِ وَأَنَّهُ الْأَكْرَمُ وَأَنَّهُ مُحْسِنٌ إلَى عِبَادِهِ فَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِلْحَمْدِ لِمَحَاسِنِهِ وَإِحْسَانِهِ . وَقَوْلُهُ ﴿ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ . فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ . قِيلَ : أَهْلُ أَنْ يُجَلَّ وَأَنْ يُكْرَمَ . كَمَا يُقَالُ إنَّهُ ﴿ أَهْلُ التَّقْوَى ﴾ أَيْ الْمُسْتَحِقُّ لِأَنْ

يُتَّقى . وقِيل : أَهْلٌ أَنْ يُجلَّ فِي نَفْسِهِ وأَنْ يُكْرِمَ أَهْلَ وِلَايَتِهِ وَطَاعَتِهِ . وقِيل : أَهْلٌ أَنْ يُجلَّ فِي نفْسِهِ وأَهْلٌ أَنْ يُكْرِمَ . ذَكَرَ الخطابي الِاحْتِمَالَاتِ الثَّلَاثةِ وَنقل ابْنُ الْجوْزِيّ كَلَامَهُ فَقَال : قَال أَبو سُلَيْمَان الخطابي : الْجَلَال مَصْدَرُ الْجَلِيل يُقَال : جَلِيل بَيِّنَ الْجَلَالَةِ وَالْجَلَال وَالْإِكْرَام مَصْدَرُ أَكْرَمَ يُكْرِمُ إِكْرَامًا . والْمَعْنَى أَنَّهُ يُكْرِمُ أَهْلَ وِلَايَتِهِ وطَاعَتِهِ وأَنَّ اللَّهَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُجلَّ وَيُكْرَمَ ولَا يُجْحَدَ ولَا يُكْفَرَ بِهِ قال : وَيُحْتَمَل أَنْ يكُونَ الْمَعْنَى : يُكْرِمُ أَهْلَ وِلَايَتِهِ ويَرْفَعُ دَرَجَاتِهِمْ . (قُلْت : وهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ البغوي فَقَال : ﴿ ذُو الْجَلَال ﴾ الْعَظْمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْإِكْرَام يُكْرِمُ أَنْبِيَاءَهُ وأَوْلِيَاءَهُ بِلُطْفِهِ مَعَ جَلَالِهِ وعَظَمَتِهِ . قَال الخطابي : وَقَدْ يُحْتَمَل أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ وَهُوَ الْجَلَال مُضَافًا إِلَى اللَّهِ بِمَعْنَى الصِّفَةِ لَهُ وَالْآخَرُ مُضَافًا إِلَى الْعَبْدِ بِمَعْنَى الْفِعْل كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ فَانْصَرَفَ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ الْمَغْفِرَةُ وَالْآخَرُ إِلَى الْعِبَادِ وَهِيَ التَّقْوَى . قُلْت : الْقَوْلُ الْأَوَّلُ هُوَ أَقْرَبُهَا إِلَى الْمُرَادِ مَعَ أَنَّ الْجَلَال هُنَا

لَيْسَ مَصْدَرَ جَلَّ جَلَالًا بَلْ هُوَ اسْمُ مَصْدَرِ أَجَلَّ إجْلَالًا . كَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّ مِنْ إجْلَالِ اللَّهِ إكْرَامُ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَلَا الْجَافِي عَنْهُ وَإِكْرَامِ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ ﴾ . فَجَعَلَ إكْرَامَ هَؤُلَاءِ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ أَيْ مِنْ إجْلَالِ اللَّهِ كَمَا قَالَ ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ . وَكَمَا يُقَالُ : كَلَّمَهُ كَلَامًا وَأَعْطَاهُ عَطَاءً وَالْكَلَامُ وَالْعَطَاءُ اسْمُ مَصْدَرِ التَّكْلِيمِ وَالْإِعْطَاءِ . وَالْجَلَالُ قُرِنَ بِالْإِكْرَامِ وَهُوَ مَصْدَرُ الْمُتَعَدِّي فَكَذَلِكَ الْإِكْرَامُ . وَمِنْ كَلَامِ السَّلَفِ : " أَجِلُّوا اللَّهَ أَنْ تَقُولُوا كَذَا " . وَفِي حَدِيثِ مُوسَى : يَا رَبِّ إنِّي أَكُونُ عَلَى الْحَالِ الَّتِي أُجِلُّك أَنْ أَذْكُرَك عَلَيْهَا . قَالَ : " اُذْكُرْنِي عَلَى كُلِّ حَالٍ " . وَإِذَا كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْإِجْلَالِ وَالْإِكْرَامِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُتَّصِفًا فِي نَفْسِهِ بِمَا يُوجِبُ ذَلِكَ كَمَا إذَا قَالَ : الْإِلَهُ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِأَنْ يُؤَلَّهَ أَيْ يُعْبَدُ كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُسْتَحِقًّا لِمَا يُوجِبُ ذَلِكَ . وَإِذَا قِيلَ ﴿ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى ﴾ كَانَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُتَّصِفًا بِمَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُتَّقَى . وَمِنْهُ ﴿ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنْ الرُّكُوعِ بَعْدَ

مَا يَقُولُ رَبَّنَا وَلَك الْحَمْدُ : مِلْءَ السَّمَوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ وَمِلْءَ مَا بَيْنَهُمَا وَمِلْءَ مَا شِئْت مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ أَحَقُّ مَا قَالَ الْعَبْدُ وَكُلُّنَا لَك عَبْدٌ . اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْت

وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْت وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْك الْجَدُّ ﴾ . أَيْ هُوَ مُسْتَحِقٌّ لِأَنْ يُثْنَى عَلَيْهِ وَتُمَجَّدُ نَفْسُهُ . وَالْعِبَادُ لَا يُحْصُونَ ثَنَاءً عَلَيْهِ وَهُوَ كَمَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ كَذَلِكَ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُجَلَّ وَأَنْ يُكْرَمَ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُجِلُّ نَفْسَهُ وَيُكْرِمُ نَفْسَهُ . وَالْعِبَادُ لَا يُحْصُونَ إجْلَالَهُ وَإِكْرَامَهُ . وَالْإِجْلَالُ مِنْ جِنْسِ التَّعْظِيمِ وَالْإِكْرَامُ مِنْ جِنْسِ الْحُبِّ وَالْحَمْدِ وَهَذَا كَقَوْلِهِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ . فَلَهُ الْإِجْلَالُ وَالْمُلْكُ وَلَهُ الْإِكْرَامُ وَالْحَمْدُ . وَالصَّلَاةُ مَبْنَاهَا عَلَى التَّسْبِيحِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالتَّحْمِيدِ وَالتَّوْحِيدِ فِي الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ وَالتَّكْبِيرِ فِي الِانْتِقَالَاتِ كَمَا قَالَ جَابِرٌ ﴿ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكُنَّا إذَا عَلَوْنَا كَبَّرْنَا وَإِذَا هَبَطْنَا سَبَّحْنَا فَوُضِعَتْ الصَّلَاةُ عَلَى ذَلِكَ ﴾ رَوَاهُ أَبُو دَاوُد . وَفِي الرُّكُوعِ يَقُولُ " سُبْحَانَ رَبِّي الْعَظِيمِ " . وَقَالَ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنِّي نُهِيت أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا . أَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِيهِ فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ ﴾ . وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ حَمِدَ فَقَالَ ﴿ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَك الْحَمْدُ ﴾ . فَيَحْمَدُهُ فِي هَذَا الْقِيَامِ كَمَا يَحْمَدُهُ فِي الْقِيَامِ الْأَوَّلِ إذَا قَرَأَ أُمَّ الْقُرْآنِ . فَالتَّحْمِيدُ وَالتَّوْحِيدُ مُقَدَّمٌ عَلَى مُجَرَّدِ

التَّعْظِيمِ . وَلِهَذَا اشْتَمَلَتْ الْفَاتِحَةُ عَلَى هَذَا أَوَّلُهَا تَحْمِيدٌ وَأَوْسَطُهَا تَمْجِيدٌ . ثُمَّ فِي الرُّكُوعِ تَعْظِيمُ الرَّبِّ . وَفِي الْقِيَامِ يَحْمَدُهُ وَيُثْنِي عَلَيْهِ وَيُمَجِّدُهُ . فَدَلَّ عَلَى أَنَّ التَّعْظِيمَ الْمُجَرَّدَ تَابِعٌ لِكَوْنِهِ مَحْمُودًا وَكَوْنِهِ مَعْبُودًا . فَإِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُحْمَدَ وَيُعْبَدَ وَلَا بُدَّ مَعَ ذَلِكَ مِنْ التَّعْظِيمِ فَإِنَّ التَّعْظِيمَ لَازِمٌ لِذَلِكَ . وَأَمَّا التَّعْظِيمُ فَقَدْ يَتَجَرَّدُ عَلَى الْحَمْدِ وَالْعِبَادَةِ عَلَى أَصْلِ الْجَهْمِيَّةِ . فَلَيْسَ ذَلِكَ بِمَأْمُورِ بِهِ وَلَا يَصِيرُ الْعَبْدُ بِهِ لَا مُؤْمِنًا وَلَا عَابِدًا وَلَا مُطِيعًا . وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الْخَطِيبِ الرَّازِي يَجْعَلُ الْجَلَالَ لِلصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ وَالْإِكْرَامَ لِلصِّفَاتِ الثُّبُوتِيَّةِ فَيُسَمِّي هَذِهِ "صِفَاتِ الْجَلَالِ" وَهَذِهِ "صِفَاتِ الْإِكْرَامِ" وَهَذَا اصْطِلَاحٌ لَهُ وَلَيْسَ الْمُرَادُ هَذَا فِي قَوْلِهِ

(299/823)

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ . وقوله : ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ وَهُوَ فِي مُصْحَفِ أَهْلِ الشَّامِ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ فَالِاسْمُ نَفْسُهُ يُذْوَى بِالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ . وَفِي سَائِرِ الْمَصَاحِفِ وَفِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ ﴿ ذِي الْجَلَالِ ﴾ فَيَكُونُ الْمُسَمَّى نَفْسَهُ . وَفِي الْأُولَى ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ . فَالْمُذْوَى وَجْهُهُ سُبْحَانَهُ وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ أَنَّهُ هُوَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ .

فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ وَجْهُهُ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ كَانَ هَذَا تَنْبِيهًا كَمَا أَنَّ اسْمَهُ إِذَا كَانَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ كَانَ تَنْبِيهًا عَلَى الْمُسَمَّى . وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُجَلَّ وَيُكْرَمَ . فَإِنَّ الِاسْمَ نَفْسَهُ يُسَبَّحُ وَيُذْكَرُ وَيُرَادُ بِذَلِكَ الْمُسَمَّى وَالِاسْمُ نَفْسُهُ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا لَا إكْرَامًا وَلَا غَيْرَهُ . وَلِهَذَا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ إضَافَةُ شَيْءٍ مِنْ الْأَفْعَالِ وَالنِّعَمِ إلَى الِاسْمِ . وَلَكِنْ يُقَالُ : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ﴾ وَنَحْوُ ذَلِكَ . فَإِنَّ اسْمَ اللَّهِ مُبَارَكٌ تُنَالُ مَعَهُ الْبَرَكَةُ وَالْعَبْدُ يُسَبِّحُ اسْمَ رَبِّهِ الْأَعْلَى فَيَقُولُ " سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى " ﴿ وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ ﴿ سَبِّحِ اسْمَ

(300/823)

رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قَالَ : اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ ؛ فَقَالُوا سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى ﴾ . فَكَذَلِكَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَقُولُ " سُبْحَانَ اسْمِ رَبِّي الْأَعْلَى " . لَكِنَّ قَوْلَهُ " سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى " هُوَ تَسْبِيحٌ لِاسْمِهِ يُرَادُ بِهِ تَسْبِيحُ الْمُسَمَّى لَا يُرَادُ بِهِ تَسْبِيحُ مُجَرَّدِ الِاسْمِ كَقَوْلِهِ ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ . فَالدَّاعِي يَقُولُ "يَا اللَّهُ" "يَا رَحْمَنُ" وَمُرَادُهُ الْمُسَمَّى . وَقَوْلُهُ ﴿ أَيًّا مَا ﴾ أَيَّ الِاسْمَيْنِ تَدْعُو وَدُعَاءُ الِاسْمِ هُوَ دُعَاءُ مُسَمَّاهُ .

وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَهُ مَنْ قَالَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ : إنَّ الِاسْمَ هُوَ الْمُسَمَّى . أَرَادُوا بِهِ أَنَّ الِاسْمَ إذَا دُعِيَ وَذُكِرَ يُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى . فَإِذَا قَالَ الْمُصَلِّي " اللَّهُ أَكْبَرُ " فَقَدْ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ وَمُرَادُهُ الْمُسَمَّى . لَمْ يُرِيدُوا بِهِ أَنَّ نَفْسَ اللَّفْظِ هُوَ الذَّاتُ الْمَوْجُودَةُ فِي الْخَارِجِ . فَإِنَّ فَسَادَ هَذَا لَا يَخْفَى عَلَى مَنْ تَصَوَّرَهُ وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ كَانَ مَنْ قَالَ " نَارًا " احْتَرَقَ لِسَانُهُ . وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْجَلَالَ وَالْإِكْرَامَ مِثْلُ الْمُلْكِ وَالْحَمْدِ كَالْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ . وَهَذَا يَكُونُ فِي الصِّفَاتِ الثُّبُوتِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ . فَإِنَّ كُلَّ سَلْبٍ فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ

(301/823)

لِلثُّبُوتِ . وَأَمَّا السَّلْبُ الْمَحْضُ فَلَا مَدْحَ فِيهِ . وَهَذَا مِمَّا يَظْهَرُ بِهِ فَسَادُ قَوْلِ مَنْ جَعَلَ أَحَدَهُمَا لِلسَّلْبِ وَالْآخَرَ لِلْإِثْبَاتِ لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ يُنْكِرُونَ مَحَبَّتَهُ وَلَا يُثْبِتُونَ لَهُ صِفَاتٍ تُوجِبُ الْمَحَبَّةَ وَالْحَمْدَ . بَلْ إنَّمَا يُثْبِتُونَ مَا يُوجِبُ الْقَهْرَ كَالْقُدْرَةِ . فَهَؤُلَاءِ آمَنُوا بِبَعْضِ وَكَفَرُوا بِبَعْضِ وَأَلْحَدُوا فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ بِقَدْرِ مَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ الْحَقِّ كَمَا بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

فَصْلٌ :

قَوْله تَعَالَى فِي أَوَّلِ مَا أُنْزِلَ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ

﴾ . ذَكَرَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِالْإِضَافَةِ الَّتِي تُوجِبُ التَّعْرِيفَ وَأَنَّهُ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ إذْ الرَّبُّ تَعَالَى مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَبْدِ بِدُونِ الِاسْتِدْلَالِ بِكَوْنِهِ خَلَقَ . وَأَنَّ الْمَخْلُوقَ مَعَ أَنَّهُ دَلِيلٌ وَأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْخَالِقِ لَكِنْ هُوَ مَعْرُوفٌ فِي الْفِطْرَةِ قَبْلَ هَذَا الِاسْتِدْلَالِ ؛ وَمَعْرِفَتُهُ فِطْرِيَّةٌ مَغْرُوزَةٌ فِي الْفِطْرَةِ ؛ ضَرُورِيَّةٌ بَدِيهِيَّةٌ أَوَّلِيَّةٌ . وَقَوْلُهُ ﴿ اقْرَأْ ﴾ وَإِنْ كَانَ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلًا ، فَهُوَ

(302/823)

خِطَابٌ لِكُلِّ أَحَدٍ سَوَاءٌ كَانَ قَوْلُهُ ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ هُوَ خِطَابٌ لِلْإِنْسَانِ مُطْلَقًا وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلُ مَنْ سَمِعَ هَذَا الْخِطَابَ أَوْ مِنْ النَّوْعِ أَوْ هُوَ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُصُوصًا كَمَا قَدْ قِيلَ فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ . مِثْلُ قَوْلِهِ ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ قِيلَ خِطَابٌ لَهُ وَقِيلَ خِطَابٌ لِلْجِنْسِ ؛ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . فَإِنَّهُ وَإِنْ قِيلَ إنَّهُ خِطَابٌ لَهُ فَقَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ مَا خُوطِبَ بِهِ مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ فَالْأُمَّةُ مُخَاطَبَةٌ بِهِ مَا لَمْ يَقُمْ دَلِيلُ التَّخْصِيصِ . وَبِهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ حَتَّى قَالَ كَثِيرٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ : الْخِطَابُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادُ بِهِ غَيْرُهُ . أَيْ هُمْ الَّذِينَ أُرِيدَ

مِنْهُمْ أَنْ يَسْأَلُوا لِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الشَّكِّ وَهُوَ لَمْ يُرِدْ مِنْهُ السُّؤَالَ إِذْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَكٌّ . وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ هُوَ مُخَاطَبًا وَمُرَادًا بِالْخِطَابِ بَلْ هَذَا صَرِيحُ اللَّفْظِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْخِطَابَ لَمْ يَتَنَاوَلْهُ . وَلَأَنَّ لَيْسَ فِي الْخِطَابِ أَنَّهُ أُمِرَ بِالسُّؤَالِ مُطْلَقًا بَلْ أُمِرَ بِهِ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ شَكٌّ وَهَذَا لَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ شَكٌّ . وَلَا أَنَّهُ أُمِرَ بِهِ

مُطْلَقًا بَلْ أُمِرَ بِهِ إِنْ كَانَ هَذَا مَوْجُودًا وَالْحُكْمُ الْمُعَلَّقُ بِشَرْطٍ عُدِمَ عِنْدَ عَدَمِهِ . وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ وَفِي قَوْلِهِ ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ : إِنَّ الْخِطَابَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُرَادَ بِهِ غَيْرُهُ . أَيْ غَيْرُهُ قَدْ يَكُونُ مُمْتَرِيًا وَمُطِيعًا لِأُولَئِكَ فَنُهِيَ وَهُوَ لَا يَكُونُ مُمْتَرِيًا وَلَا مُطِيعًا لَهُمْ . وَلَكِنْ بِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَهُوَ أَيْضًا مُخَاطَبٌ بِهَذَا وَهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْ هَذَا . فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ نَهَاهُ عَمَّا حَرَّمَهُ مِنَ الشِّرْكِ وَالْقَوْلِ عَلَيْهِ بِلَا عِلْمٍ وَالظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ .

وَبِنَهْيِ اللَّهِ لَهُ عَنْ ذَلِكَ وَطَاعَتِهِ لِلَّهِ فِي هَذَا اسْتَحَقَّ عَظِيمَ الثَّوَابِ وَلَوْلَا النَّهْيُ وَالطَّاعَةُ لَمَا اسْتَحَقَّ ذَلِكَ . وَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمَأْمُورُ الْمَنْهِيُّ مِمَّنْ يُشَكُّ فِي طَاعَتِهِ وَيَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْصِيَ الرَّبَّ أَوْ يَعْصِيَهُ مُطْلَقًا وَلَا يُطِيعَهُ . بَلْ اللَّهُ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ يُطِيعُونَهُ وَيَأْمُرُ

الْأَنْبِيَاءَ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ يُطِيعُونَهُ وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُونَ كُلُّ مَا أَطَاعُوهُ فِيهِ قَدْ أَمَرَهُمْ بِهِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُمْ يُطِيعُونَهُ .

(304/823)

وَلَا يُقَالُ : لَا يَحْتَاجُ إلَى الْأَمْرِ بَلْ بِالْأَمْرِ صَارَ مُطِيعًا مُسْتَحِقًّا لِعَظِيمِ الثَّوَابِ . وَلَكِنَّ النَّهْيَ يَقْتَضِي قُدْرَتَهُ عَلَى الْمَنْهِيِّ عَنْهُ وَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَفَعَلَهُ لِيُثَابَ عَلَى ذَلِكَ إذَا تَرَكَهُ . وَقَدْ يَقْتَضِي قِيَامَ السَّبَبِ الدَّاعِي إلَى فِعْلِهِ فَيُنْهَى عَنْهُ فَإِنَّهُ بِالنَّهْيِ وَإِعَانَةِ اللَّهِ لَهُ عَلَى الِامْتِثَالِ يَمْتَنِعُ مِمَّا نُهِيَ عَنْهُ إذَا قَامَ السَّبَبُ الدَّاعِي لَهُ إلَيْهِ . وَكَذَلِكَ قَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ ﴿ سَلْ بَنِي إسْرَائِيلَ ﴾ إنَّهُ أَمْرٌ لِلرَّسُولِ وَالْمُرَادُ بِهِ هُوَ وَالْمُؤْمِنُونَ ؛ وَقِيلَ هُوَ أَمْرٌ لِكُلِّ مُكَلَّفٍ . فَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ﴿ اقْرَأْ ﴾ كَقَوْلِهِ فِي آخِرِهَا ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ هَذَا مُتَنَاوِلٌ لِجَمِيعِ الْأُمَّةِ . وَقَوْلُهُ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إلَّا قَلِيلًا ﴾ فَإِنَّهُ كَانَ خِطَابًا لِلْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ لَمَّا أُمِرَ بِتَبْلِيغِ مَا أُنْزِلَ إلَيْهِ مِنْ الْإِنْذَارِ . وَهَذَا فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ . فَوَاجِبٌ عَلَى الْأُمَّةِ أَنْ يُبَلِّغُوا مَا أُنْزِلَ إلَيْهِ وَيُنْذِرُوا كَمَا أَنْذَرَ .

قَالَ تَعَالَى ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ

(305/823)

يَحْذَرُونَ ﴾ وَالْجِنُّ لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ ﴿ وَلَّوْا إلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَكُلُّ إنْسَانٍ فِي قَلْبِهِ مَعْرِفَةٌ بِرَبِّهِ . فَإِذَا قِيلَ لَهُ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ عَرَفَ رَبَّهُ الَّذِي هُوَ مَأْمُورٌ أَنْ يَقْرَأَ بِاسْمِهِ كَمَا يَعْرِفُ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ وَالْمَخْلُوقُ يَسْتَلْزِمُ الْخَالِقَ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ . وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَ أَنَّ الْإِقْرَارَ وَالِاعْتِرَافَ بِالْخَالِقِ فِطْرِيٌّ ضَرُورِيٌّ فِي نُفُوسِ النَّاسِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ قَدْ يَحْصُلُ لَهُ مَا يُفْسِدُ فِطْرَتَهُ حَتَّى يَحْتَاجَ إلَى نَظَرٍ تَحْصُلُ لَهُ بِهِ الْمَعْرِفَةُ . وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ النَّاسِ وَعَلَيْهِ حُذَّاقُ النُّظَّارِ أَنَّ الْمَعْرِفَةَ تَارَةً تَحْصُلُ بِالضَّرُورَةِ وَتَارَةً بِالنَّظَرِ كَمَا اعْتَرَفَ بِذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ . وَهَذِهِ الْآيَةُ أَيْضًا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ النَّظَرُ أَوَّلَ وَاجِبٍ بَلْ أَوَّلُ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ لَمْ يَقُلْ " اُنْظُرْ وَاسْتَدِلَّ حَتَّى تَعْرِفَ الْخَالِقَ " وَكَذَلِكَ هُوَ أَوَّلُ مَا بَلَّغَ هَذِهِ السُّورَةَ . فَكَانَ الْمُبَلَّغُونَ مُخَاطَبِينَ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ وَلَمْ يُؤْمَرُوا فِيهَا بِالنَّظَرِ

وَالِاسْتِدْلَالِ . وَقَدْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ إِلَى أَنَّ اعْتِرَافَ النَّفْسِ بِالْخَالِقِ وَإِثْبَاتَهَا لَهُ لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِالنَّظَرِ .

(306/823)

ثُمَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ جَعَلُوا ذَلِكَ نَظَرًا مَخْصُوصًا وَهُوَ النَّظَرُ فِي الْأَعْرَاضِ وَأَنَّهَا لَازِمَةٌ لِلْأَجْسَامِ فَيَمْتَنِعُ وُجُودُ الْأَجْسَامِ بِدُونِهَا . قَالُوا : وَمَا لَا يَخْلُو عَنِ الْحَوَادِثِ أَوْ مَا لَا يَسْبِقُ الْحَوَادِثَ فَهُوَ حَادِثٌ . ثُمَّ مِنْهُمْ مَنِ اعْتَقَدَ أَنَّ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةَ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا بَلْ ضَرُورِيَّةٌ وَلَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الْحَادِثِ الْمُعَيَّنِ وَالْمَحْدُودِ وَبَيْنَ الْجِنْسِ الْمُتَّصِلِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ إِمَّا لِظَنِّهِ أَنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ أَوْ لِعَدَمِ خُطُورِهِ بِقَلْبِهِ . لَكِنْ وَإِنْ قِيلَ هُوَ مُمْتَنِعٌ فَلَيْسَ الْعِلْمُ بِذَلِكَ بَدِيهِيًّا . وَإِنَّمَا الْعِلْمُ الْبَدِيهِيُّ أَنَّ الْحَادِثَ الَّذِي لَهُ مَبْدَأٌ مَحْدُودٌ كَالْحَادِثِ . وَالْحَوَادِثُ الْمُقَدَّرَةُ مِنْ حِينٍ مَحْدُودٍ فَتِلْكَ مَا لَا يَسْبِقُهَا فَهُوَ حَادِثٌ . وَمَا لَا يَخْلُو مِنْهَا لَمْ يَسْبِقْهَا فَهُوَ حَادِثٌ . فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَسْبِقْهَا كَانَ مَعَهَا أَوْ مُتَأَخِّرًا عَنْهَا . وَعَلَى التَّقْدِيرَيْنِ فَهُوَ حَادِثٌ . وَأَمَّا إِذَا قُدِّرَ حَوَادِثُ دَائِمَةٌ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ فَهَذَا إِمَّا أَنْ يُقَالَ هُوَ مُمْكِنٌ وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ هُوَ مُمْتَنِعٌ . لَكِنَّ الْعِلْمَ بِامْتِنَاعِهِ يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ وَلَمْ تَعْلَمْ طَائِفَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنَ الْعُقَلَاءِ قَالُوا : إِنَّ الْعِلْمَ بِامْتِنَاعِ هَذَا بَدِيهِيٌّ ضَرُورِيٌّ وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى دَلِيلٍ .

بَلْ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ لَا يَتَصَوَّرُ هَذَا تَصَوُّرًا تَامًّا . بَلْ مَتَى تَصَوَّرَ الْحَادِثَ قَدَّرَ فِي ذِهْنِهِ مَبْدَأً ثُمَّ يَتَقَدَّمُ فِي ذِهْنِهِ شَيْءٌ قَبْلَ ذَلِكَ ثُمَّ شَيْءٌ قَبْلَ ذَلِكَ لَكِنْ إلَى غَايَاتٍ مَحْدُودَةٍ بِحَسَبِ تَقْدِيرِ ذِهْنِهِ ؛ كَمَا يُقَدِّرُ الذِّهْنُ عَدَدًا بَعْدَ عَدَدٍ . وَلَكِنْ كُلُّ مَا يُقَدِّرُهُ الذِّهْنُ فَهُوَ مُنْتَهٍ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ إذَا قِيلَ لَهُ " الْأَزَلُ " أَوْ " كَانَ هَذَا مَوْجُودًا فِي الْأَزَلِ " تَصَوَّرَ ذَلِكَ . وَهَذَا غَلَطٌ بَلْ " الْأَزَلُ " مَا لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ كَمَا أَنَّ " الْأَبَدَ " لَيْسَ لَهُ آخِرٌ وَكُلُّ مَا يُومِئُ إلَيْهِ الذِّهْنُ مِنْ غَايَةٍ ف " الْأَزَلُ " وَرَاءَهَا وَهَذَا لِبَسْطِهِ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَالُوا : مَعْرِفَةُ الرَّبِّ لَا تَحْصُلُ إلَّا بِالنَّظَرِ ثُمَّ قَالُوا : لَا تَحْصُلُ إلَّا بِهَذَا النَّظَرِ هُمْ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ الْجَهْمِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ . وَقَدْ اتَّفَقَ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ وَغَيْرِهِمْ عَلَى خَطَأِ هَؤُلَاءِ فِي إيجَابِهِمْ هَذَا النَّظَرَ الْمُعَيَّنَ وَفِي دَعْوَاهُمْ أَنَّ الْمَعْرِفَةَ مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِ . إذْ قَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَمْ يُوجِبْ هَذَا عَلَى الْأُمَّةِ وَلَا أَمَرَهُمْ بِهِ بَلْ وَلَا سَلَكَهُ هُوَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ فِي تَحْصِيلِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ . ثُمَّ هَذَا النَّظَرُ هَذَا الدَّلِيلُ لِلنَّاسِ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ .

قِيلَ : إنَّهُ وَاجِبٌ وَإِنَّ الْمَعْرِفَةَ مَوْقُوفَةٌ عَلَيْهِ كَمَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ . وَقِيلَ : بَلْ يُمْكِنُ حُصُولُ الْمَعْرِفَةِ بِدُونِهِ لَكِنَّهُ طَرِيقٌ آخَرُ إلَى الْمَعْرِفَةِ . وَهَذَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ مِمَّنْ يَقُولُ بِصِحَّةِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ لَكِنْ لَا يُوجِبُهَا كالخطابي وَالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَأَبِي جَعْفَرٍ السمناني قَاضِي الْمَوْصِلِ شَيْخِ أَبِي الْوَلِيدِ الباجي وَكَانَ يَقُولُ : إيجَابُ النَّظَرِ بَقِيَّةٌ بَقِيَتْ عَلَى الشَّيْخِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ مِنْ الِاعْتِزَالِ . وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُوجِبُونَ هَذَا النَّظَرَ . وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُوجِبُ النَّظَرَ مُطْلَقًا كالسمناني وَابْنِ حَزْمٍ وَغَيْرِهِمَا . وَمِنْهُمْ مَنْ يُوجِبُهُ فِي الْجُمْلَةِ كالخطابي وَأَبِي الْفَرَجِ المقدسي . وَالْقَاضِي أَبُو يَعْلَى يَقُولُ بِهَذَا تَارَةً وَبِهَذَا تَارَةً بَلْ وَيَقُولُ تَارَةً بِإِيجَابِ النَّظَرِ الْمُعَيَّنِ كَمَا يَقُولُهُ أَبُو الْمَعَالِي وَغَيْرُهُ . ثُمَّ مِنْ الْمُوجِبِينَ لِلنَّظَرِ مَنْ يَقُولُ : هُوَ أَوَّلُ الْوَاجِبَاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : بَلْ الْمَعْرِفَةُ الْوَاجِبَةُ بِهِ وَهُوَ نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ . كَمَا أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ : أَوَّلُ الْوَاجِبَاتِ الْقَصْدُ إلَى النَّظَرِ كَعِبَارَةِ أَبِي الْمَعَالِي . وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ قَالَ : بَلْ الشَّكُّ الْمُتَقَدِّمُ كَمَا قَالَهُ أَبُو هَاشِمٍ . وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَغَيْرِهَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ .

وَبَيَّنَ أَنَّهَا كُلَّهَا غَلَطٌ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ بَلْ وَبَاطِلَةٌ فِي الْعَقْلِ أَيْضًا . وَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى ذَلِكَ . فَإِنَّ أَوَّلَ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ هُوَ مَا أَمَرَ بِهِ فِي قَوْلِهِ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . وَالَّذِينَ قَالُوا : الْمَعْرِفَةُ لَا تَحْصُلُ إلَّا بِالنَّظَرِ قَالُوا : لَوْ حَصَلَتْ بِغَيْرِهِ لَسَقَطَ التَّكْلِيفُ بِهَا كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ وَغَيْرُهُ . فَيُقَالُ لَهُمْ : وَلَيْسَ فِيمَا قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِ الرُّسُلِ أَنَّ مِنْهُمْ أَحَدًا أَوْجَبَهَا بَلْ هِيَ حَاصِلَةٌ عِنْدَ الْأُمَمِ جَمِيعِهِمْ .

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الرُّسُلِ افْتَتَحُوا دَعْوَتَهُمْ بِالْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ نُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ . وَقَوْمُهُمْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِالْخَالِقِ لَكِنْ كَانُوا مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ غَيْرَهُ كَمَا كَانَتْ الْعَرَبُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَمِنْ الْكُفَّارِ مَنْ أَظْهَرَ جُحُودَ الْخَالِقِ كَفِرْعَوْنَ حَيْثُ قَالَ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إلَى إلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ

الْكَاذِبِينَ ﴾ وَقَالَ ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ وَقَالَ لِمُوسَى ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ وَقَالَ ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ ﴿

أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ . ومع هذا فموسى أمره الله أن يقول ما ذكره الله في القرآن قال ﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴾ ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ ﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ﴾ ﴿ وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ ﴿ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ . قال فرعون إنكارا وجحدا ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ قال موسى ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ ﴿ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ الآيات .

وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ سُؤَالَ فِرْعَوْنَ ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ هُوَ سُؤَالٌ عَنْ مَاهِيَّةِ الرَّبِّ كَالَّذِي يَسْأَلُ عَنْ حُدُودِ الْأَشْيَاءِ فَيَقُولُ " مَا الْإِنْسَانُ ؟ مَا الْمَلَكُ ؟ مَا الْجِنِّيُّ ؟ " وَنَحْوُ ذَلِكَ . قَالُوا : وَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لِلْمَسْئُولِ عَنْهُ مَاهِيَّةٌ عَدَلَ مُوسَى عَنْ الْجَوَابِ إلَى بَيَانِ مَا يُعْرَفُ بِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وَهَذَا قَوْلٌ قَالَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ وَهُوَ بَاطِلٌ . فَإِنَّ فِرْعَوْنَ إنَّمَا اسْتَفْهَمَ اسْتِفْهَامَ إنْكَارٍ وَجَحْدٍ لَمْ يَسْأَلْ عَنْ مَاهِيَّةِ رَبٍّ أَقَرَّ بِثُبُوتِهِ بَلْ كَانَ مُنْكِرًا لَهُ جَاحِدًا . وَلِهَذَا قَالَ فِي تَمَامِ الْكَلَامِ ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ . فَاسْتِفْهَامُهُ كَانَ إنْكَارًا وَجَحْدًا يَقُولُ : لَيْسَ لِلْعَالَمِينَ رَبٌّ يُرْسِلُك فَمَنْ هُوَ هَذَا ؟ إنْكَارًا لَهُ . فَبَيَّنَ مُوسَى أَنَّهُ مَعْرُوفٌ عِنْدَهُ وَعِنْدَ الْحَاضِرِينَ وَأَنَّ آيَاتِهِ ظَاهِرَةٌ بَيِّنَةٌ لَا يُمْكِنُ مَعَهَا جَحْدُهُ . وَأَنَّكُمْ إنَّمَا تَجْحَدُونَ بِأَلْسِنَتِكُمْ مَا تَعْرِفُونَهُ بِقُلُوبِكُمْ كَمَا قَالَ مُوسَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ لِفِرْعَوْنَ ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

وَلَمْ يَقُلْ فِرْعَوْنُ " وَمَنْ رَبُّ الْعَالَمِينَ " فَإِنَّ " مَنْ " سُؤَالٌ عَنْ عَيْنِهِ يَسْأَلُ بِهَا مَنْ عَرَفَ جِنْسَ الْمَسْئُولِ عَنْهُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَقَدْ شَكَّ فِي عَيْنِهِ كَمَا يُقَالُ لِرَسُولٍ عَرَفَ أَنَّهُ جَاءَ مِنْ عِنْدِ إنْسَانٍ " مَنْ أَرْسَلَك ؟ " . وَأَمَّا " مَا ؟ " فَهِيَ سُؤَالٌ عَنْ الْوَصْفِ . يَقُولُ : أَيُّ شَيْءٍ هُوَ هَذَا ؟ وَمَا هُوَ هَذَا الَّذِي سَمَّيْته " رَبَّ الْعَالَمِينَ " ؟ قَالَ ذَلِكَ مُنْكِرًا لَهُ جَاحِدًا . فَلَمَّا سَأَلَ جَحْدًا أَجَابَهُ مُوسَى بِأَنَّهُ أَعْرَفُ مِنْ أَنْ يُنْكَرَ وَأَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُشَكَّ فِيهِ وَيُرْتَابَ . فَقَالَ ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ . وَلَمْ يَقُلْ " مُوقِنِينَ بِكَذَا وَكَذَا " بَلْ أَطْلَقَ فَأَيُّ يَقِينٍ كَانَ لَكُمْ بِشَيْءِ مِنْ الْأَشْيَاءِ فَأَوَّلُ الْيَقِينِ الْيَقِينُ بِهَذَا الرَّبِّ كَمَا قَالَتْ الرُّسُلُ لِقَوْمِهِمْ ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ . وَإِنْ قُلْتُمْ : لَا يَقِينَ لَنَا بِشَيْءِ مِنْ الْأَشْيَاءِ بَلْ سَلَبْنَا كُلَّ عِلْمٍ فَهَذِهِ دَعْوَى السَّفْسَطَةِ الْعَامَّةِ وَمُدَّعِيهَا كَاذِبٌ ظَاهِرُ الْكَذِبِ . فَإِنَّ الْعُلُومَ مِنْ لَوَازِمِ كُلِّ إنْسَانٍ فَكُلُّ إنْسَانٍ عَاقِلٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ عِلْمٍ . وَلِهَذَا

قِيلَ فِي حَدِّ " الْعَقْلِ " : إنَّهُ عُلُومٌ ضَرُورِيَّةٌ وَهِيَ الَّتِي لَا يَخْلُو مِنْهَا عَاقِلٌ . فَلَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ ﴿ إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ وَهَذَا مِنْ افْتِرَاءِ الْمُكَذِّبِينَ عَلَى الرَّسُولِ لَمَّا خَرَجُوا عَنْ عَادَاتِهِمْ الَّتِي هِيَ مَحْمُودَةٌ عِنْدَهُمْ نَسَبُوهُمْ إلَى الْجُنُونِ . وَلَمَّا كَانُوا مُظْهِرِينَ

لِلْجَحْدِ بِالْخَالِقِ أَوْ لِلِاسْتِرَابَةِ وَالشَّكِّ فِيهِ هَذِهِ حَالُ عَامَّتِهِمْ وَدِينِهِمْ وَهَذَا عِنْدَهُمْ دِينٌ حَسَنٌ وَإِنَّمَا إلَهُهُمْ الَّذِي يُطِيعُونَهُ فِرْعَوْنُ قَالَ ﴿ إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ . فَبَيَّنَ لَهُ مُوسَى أَنَّكُمْ الَّذِينَ سُلِبْتُمْ الْعَقْلَ النَّافِعَ وَأَنْتُمْ أَحَقُّ بِهَذَا الْوَصْفِ فَقَالَ ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ . فَإِنَّ الْعَقْلَ مُسْتَلْزِمٌ لِعُلُومِ ضَرُورِيَّةٍ يَقِينِيَّةٍ وَأَعْظَمُهَا فِي الْفِطْرَةِ الْإِقْرَارُ بِالْخَالِقِ . فَلَمَّا ذَكَرَ أَوَّلًا أَنَّ مَنْ أَيْقَنَ بِشَيْءِ فَهُوَ مُوقِنٌ بِهِ وَالْيَقِينُ بِشَيْءِ هُوَ مِنْ لَوَازِمِ الْعَقْلِ بَيَّنَ ثَانِيًا أَنَّ الْإِقْرَارَ بِهِ مِنْ لَوَازِمِ الْعَقْلِ . وَلَكِنَّ الْمَحْمُودَ هُوَ الْعِلْمُ النَّافِعُ الَّذِي يَعْمَلُ بِهِ صَاحِبُهُ فَإِنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ صَاحِبُهُ قِيلَ : إنَّهُ لَيْسَ لَهُ عَقْلٌ . وَيُقَالُ أَيْضًا لِمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ مَا أَيْقَنَ بِهِ :

(314/823)

إنَّهُ لَيْسَ لَهُ يَقِينٌ . فَإِنَّ الْيَقِينَ أَيْضًا يُرَادُ بِهِ الْعِلْمُ الْمُسْتَقِرُّ فِي الْقَلْبِ وَيُرَادُ بِهِ الْعَمَلُ بِهَذَا الْعِلْمِ . فَلَا يُطْلَقُ " الْمُوقِنُ " إلَّا عَلَى مَنْ اسْتَقَرَّ فِي قَلْبِهِ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ . وَقَوْمُ فِرْعَوْنَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ اتِّبَاعٌ لِمَا عَرَفُوهُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَقْلٌ وَلَا يَقِينٌ . وَكَلَامُ مُوسَى يَقْتَضِي الْأَمْرَيْنِ : إنْ كَانَ لَك يَقِينٌ فَقَدْ عَرَفْته وَإِنْ كَانَ لَك عَقْلٌ فَقَدْ عَرَفْته . وَإِنْ ادَّعَيْت أَنَّهُ لَا يَقِينَ لَك وَلَا عَقْلَ لَك فَكَذَلِكَ قَوْمُك فَهَذَا إقْرَارٌ مِنْكُمْ بِسَلْبِكُمْ خَاصِّيَّةَ الْإِنْسَانِ . وَمَنْ يَكُونُ هَكَذَا لَا يَصْلُحُ لَهُ

مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ دَعْوَى الْإِلَهِيَّةِ . مَعَ أَنَّ هَذَا بَاطِلٌ مِنْكُمْ فَإِنَّكُمْ مُوقِنُونَ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ . وَلَكُمْ عَقْلٌ تَعْرِفُونَهُ بِهِ وَلَكِنَّ هَوَاكُمْ يَصُدُّكُمْ عَنْ اتِّبَاعِ مُوجَبِ الْعَقْلِ وَهُوَ إرَادَةُ الْعُلُوِّ فِي الْأَرْضِ وَالْفَسَادِ . فَأَنْتُمْ لَا عَقْلَ لَكُمْ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ كَمَا قَالَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى عَنْ الْكُفَّارِ ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إنْ هُمْ إلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ . قَالَ تَعَالَى عَنْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

(315/823)

فَاسِقِينَ ﴾ وَالْخَفِيفُ هُوَ السَّفِيهُ الَّذِي لَا يَعْمَلُ بِعِلْمِهِ بَلْ يَتَّبِعُ هَوَاهُ وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُ لَيْسَ فِي الرُّسُلِ مَنْ قَالَ أَوَّلَ مَا دَعَا قَوْمَهُ : إنَّكُمْ مَأْمُورُونَ بِطَلَبِ مَعْرِفَةِ الْخَالِقِ فَانْظُرُوا وَاسْتَدِلُّوا حَتَّى تَعْرِفُوهُ . فَلَمْ يُكَلِّفُوا أَوَّلًا بِنَفْسِ الْمَعْرِفَةِ وَلَا بِالْأَدِلَّةِ الْمُوَصِّلَةِ إلَى الْمَعْرِفَةِ إذْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ تَعْرِفُهُ وَتُقِرُّ بِهِ وَكُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ لَكِنْ عَرَضَ لِلْفِطْرَةِ مَا غَيَّرَهَا وَالْإِنْسَانُ إذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ مَا فِي فِطْرَتِهِ . وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ فِي خِطَابِهِ لِمُوسَى ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ﴾ مَا فِي فِطْرَتِهِ مِنْ الْعِلْمِ الَّذِي بِهِ يَعْرِفُ رَبَّهُ وَيَعْرِفُ إنْعَامَهُ

عَلَيْهِ وَإِحْسَانَهُ إلَيْهِ وَافْتِقَارَهُ إلَيْهِ فَذَلِكَ يَدْعُوهُ إلَى الْإِيمَانِ ﴿ أَوْ يَخْشَى ﴾ مَا يُنْذِرُهُ بِهِ مِنْ الْعَذَابِ فَذَلِكَ أَيْضًا يَدْعُوهُ إلَى الْإِيمَانِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ ادْعُ إلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ . فَالْحِكْمَةُ تَعْرِيفُ الْحَقِّ فَيَقْبَلُهَا مَنْ قَبِلَ الْحَقَّ بِلَا مُنَازَعَةٍ . وَمَنْ نَازَعَهُ هَوَاهُ وُعِظَ بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ . فَالْعِلْمُ بِالْحَقِّ يَدْعُو صَاحِبَهُ إلَى اتِّبَاعِهِ . فَإِنَّ الْحَقَّ مَحْبُوبٌ فِي الْفِطْرَةِ . وَهُوَ أَحَبُّ إلَيْهَا . وَأَجَلُّ فِيهَا وَأَلَذُّ عِنْدَهَا مِنْ الْبَاطِلِ الَّذِي لَا حَقِيقَةَ لَهُ فَإِنَّ الْفِطْرَةَ لَا تُحِبُّ ذَاكَ .

(316/823)

فَإِنْ لَمْ يَدْعُهُ الْحَقُّ وَالْعِلْمُ بِهِ خُوِّفَ عَاقِبَةَ الْجُحُودِ وَالْعِصْيَانِ وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْعَذَابِ فَالنَّفْسُ تَخَافُ الْعَذَابَ بِالضَّرُورَةِ . فَكُلُّ حَيٍّ يَهْرُبُ مِمَّا يُؤْذِيهِ بِخِلَافِ النَّافِعِ . فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّبِعُ هَوَاهُ فَيَتَّبِعُ الْأَدْنَى دُونَ الْأَعْلَى . كَمَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُكَذِّبُ بِمَا خُوِّفَ بِهِ أَوْ يَتَغَافَلُ عَنْهُ حَتَّى يَفْعَلَ مَا يَهْوَاهُ . فَإِنَّهُ إذَا صَدَّقَ بِهِ وَاسْتَحْضَرَهُ لَمْ يَبْعَثْ نَفْسَهُ إلَى هَوَاهَا بَلْ لَا بُدَّ مِنْ نَوْعٍ مِنْ الْغَفْلَةِ وَالْجَهْلِ حَتَّى يَتْبَعَهُ . وَلِهَذَا كَانَ كُلُّ عَاصٍ لِلَّهِ جَاهِلًا كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ . إذْ الْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الرَّبَّ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ وَأَنَّ الْفِطْرَةَ مُقِرَّةٌ بِهِ . وَعَلَى ذَلِكَ دَلَّ قَوْلُهُ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ

مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ الْآيَةَ كَمَا قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُ الرُّسُلِ ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ ﴾ هُوَ نَفْيٌ أَيْ لَيْسَ فِي اللَّهِ شَكٌّ . وَهُوَ اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ يَتَضَمَّنُ تَقْرِيرَ الْأُمَمِ عَلَى مَا هُمْ مُقِرُّونَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فَهَذَا اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ .

فَإِنَّ حَرْفَ الِاسْتِفْهَامِ إذَا دَخَلَ عَلَى حَرْفِ النَّفْيِ كَانَ تَقْرِيرًا كَقَوْلِهِ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴾ ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ . بِخِلَافِ اسْتِفْهَامِ فِرْعَوْنَ فَإِنَّهُ اسْتِفْهَامُ إنْكَارٍ لَا تَقْرِيرٍ إذْ لَيْسَ هُنَاكَ إلَّا أَدَاةُ الِاسْتِفْهَامِ فَقَطْ وَدَلَّ سِيَاقُ الْكَلَامِ عَلَى أَنَّهُ إنْكَارٌ .

فَإِنْ قِيلَ : إذَا كَانَتْ مَعْرِفَتُهُ وَالْإِقْرَارُ بِهِ ثَابِتًا فِي كُلِّ فِطْرَةٍ فَكَيْفَ يُنْكِرُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ النُّظَّارِ نُظَّارِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ وَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ عَلَى الْمَطَالِبِ الْإِلَهِيَّةِ ؟ فَيُقَالُ أَوَّلًا : أَوَّلُ مَنْ عُرِفَ فِي الْإِسْلَامِ بِإِنْكَارِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ هُمْ أَهْلُ الْكَلَامِ الَّذِي اتَّفَقَ السَّلَفُ عَلَى ذَمِّهِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ . وَهُمْ عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ مِنْ أَضَلِّ الطَّوَائِفِ وَأَجْهَلِهِمْ . وَلَكِنْ انْتَشَرَ كَثِيرٌ مِنْ أُصُولِهِمْ فِي الْمُتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ يُوَافِقُونَ السَّلَفَ عَلَى كَثِيرٍ

مِمَّا خَالَفَهُمْ فِيهِ سَلَفُهُمْ الْجَهْمِيَّة . فَصَارَ بَعْضُ النَّاسِ يَظُنُّ أَنَّ هَذَا قَوْلٌ صَدَرَ فِي الْأَصْلِ عَنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَلَيْس كَذَلِكَ إنَّمَا صَدَرَ أَوَّلًا عَمَّنْ ذَمَّهُ أَئِمَّةُ الدِّينِ وَعُلَمَاءُ الْمُسْلِمِينَ .

الثَّانِي : أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَقُومُ بِنَفْسِهِ مِنْ الْعُلُومِ وَالْإِرَادَاتِ وَغَيْرِهَا مِنْ الصِّفَاتِ مَا لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ فَإِنَّ قِيَامَ الصِّفَةِ بِالنَّفْسِ غَيْرُ

(318/823)

شُعُورِ صَاحِبِهَا بِأَنَّهَا قَامَتْ بِهِ . فَوُجُودُ الشَّيْءِ فِي الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ غَيْرُ عِلْمِ الْإِنْسَانِ بِهِ . وَهَذَا كَصِفَاتِ بَدَنِهِ فَإِنَّ مِنْهَا مَا لَا يَرَاهُ كَوَجْهِهِ وَقَفَاهُ . وَمِنْهَا مَا يَرَاهُ إذَا تَعَمَّدَ النَّظَرَ إلَيْهِ كَبَطْنِهِ وَفَخِذِهِ وَعَضُدَيْهِ . وَقَدْ يَكُونُ بِهِمَا آثَارٌ مِنْ خِيلَانٍ وَغَيْرِ خِيلَانٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَحْوَالِ وَهُوَ لَمْ يَرَهُ وَلَمْ يَعْرِفْهُ لَكِنْ لَوْ تَعَمَّدَ رُؤْيَتَهُ لَرَآهُ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ رُؤْيَةَ ذَلِكَ لِعَارِضٍ عَرَضَ لِبَصَرِهِ مِنْ الْعَشَى أَوْ الْعَمَى أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ . كَذَلِكَ صِفَاتُ نَفْسِهِ قَدْ يَعْرِفُ بَعْضَهَا وَبَعْضُهَا لَا يَعْرِفُهُ . لَكِنْ لَوْ تَعَمَّدَ تَأَمُّلَ حَالِ نَفْسِهِ لَعَرَفَهُ . وَمِنْهَا مَا لَا يَعْرِفُهُ وَلَوْ تَأَمَّلَ لِفَسَادِ بَصِيرَتِهِ وَمَا عَرَضَ لَهَا . وَاَلَّذِي يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ الْأَفْعَالَ الِاخْتِيَارِيَّةَ لَا تُتَصَوَّرُ إلَّا بِإِرَادَةِ تَقُومُ بِنَفْسِ الْإِنْسَانِ . وَكُلُّ مَنْ فَعَلَ فِعْلًا اخْتِيَارِيًّا وَهُوَ يَعْرِفُهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يُرِيدَهُ كَاَلَّذِي يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَلْبَسُ وَهُوَ يَعْرِفُ أَنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُرِيدَهُ . فَالْفِعْلُ الِاخْتِيَارِيُّ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ

بِغَيْرِ إرَادَةٍ . وَإِذَا تَصَوَّرَ الْفِعْلَ الَّذِي يَفْعَلُهُ وَقَدْ فَعَلَهُ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُرِيدًا لَهُ وَقَدْ تَصَوَّرَهُ . وَإِذَا كَانَ مُرِيدًا لَهُ وَقَدْ تَصَوَّرَهُ امْتَنَعَ أَنْ لَا يُرِيدَ مَا تَصَوَّرَهُ وَفَعَلَهُ .

فَالْإِنْسَانُ إذَا قَامَ إلَى صَلَاةٍ يَعْلَمُ أَنَّهَا الظُّهْرُ فَمِنْ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يُصَلِّيَ الظُّهْرَ وَهُوَ يَعْلَمُ هَذَا لَمْ يَنْسَهُ وَلَا يُرِيدُ صَلَاةَ الظُّهْرِ . وَكَذَلِكَ الصِّيَامُ إذَا تَصَوَّرَ أَنَّ غَدًا مِنْ رَمَضَانَ وَهُوَ مُرِيدٌ لِصَوْمِ رَمَضَانَ امْتَنَعَ أَنْ لَا يَنْوِيَ صَوْمَهُ . وَكَذَلِكَ إذَا أَهَلَّ بِالْحَجِّ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مُهِلٌّ بِهِ امْتَنَعَ أَنْ لَا يَكُونَ مُرِيدًا لِلْحَجِّ . وَكَذَلِكَ الْوُضُوءُ إذَا عَلِمَ أَنَّهُ يَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ امْتَنَعَ أَنْ لَا يَكُونَ مُرِيدًا لِلْوُضُوءِ . وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ نَجِدُ خَلْقًا كَثِيرًا مِنْ الْعُلَمَاءِ دَعْ الْعَامَّيَّةَ يَسْتَدْعُونَ النِّيَّةَ بِأَلْفَاظِ يَقُولُونَهَا وَيَتَكَلَّفُونَ أَلْفَاظًا وَيَشُكُّونَ فِي وُجُودِهَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وَيَخْرُجُونَ إلَى ضَرْبٍ مِنْ الْوَسْوَسَةِ الَّتِي يُشْبِهُ أَصْحَابُهَا الْمَجَانِينَ . وَالنِّيَّةُ هِيَ الْإِرَادَةُ . وَهِيَ الْقَصْدُ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي نُفُوسِهِمْ لِوُجُودِهَا فِي نَفْسِ كُلِّ مَنْ يُصَلِّي فِي ذَلِكَ الْمَسْجِدِ وَالْجَامِعِ وَمَنْ تَوَضَّأَ فِي تِلْكَ الْمَطْهَرَةِ . أُولَئِكَ يَعْلَمُونَ هَذَا مِنْ نُفُوسِهِمْ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ وَسْوَاسٌ وَهَؤُلَاءِ ظَنُّوا أَنَّ النِّيَّةَ لَمْ تَكُنْ فِي قُلُوبِهِمْ يَطْلُبُونَ حُصُولَهَا مِنْ قُلُوبِهِمْ .

وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ التَّلَفُّظَ بِهَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَإِنَّمَا الْفَرْضُ وُجُودُ الْإِرَادَةِ فِي الْقَلْبِ . وَهِيَ مَوْجُودَةٌ وَمَعَ هَذَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مَوْجُودَةً . وَإِذَا قِيلَ لِأَحَدِهِمْ " النِّيَّةُ حَاصِلَةٌ فِي قَلْبِك " لَمْ يَقْبَلْ لِمَا قَامَ بِهِ مِنْ الِاعْتِقَادِ الْفَاسِدِ الْمُنَاقِضِ لِفِطْرَتِهِ . وَكَذَلِكَ حُبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَوْجُودٌ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ لَا يُمْكِنُهُ دَفْعُ ذَلِكَ مِنْ قَلْبِهِ إذَا كَانَ مُؤْمِنًا . وَتَظْهَرُ عَلَامَاتُ حُبِّهِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ إذَا أَخَذَ أَحَدٌ يَسُبُّ الرَّسُولَ وَيَطْعَنُ عَلَيْهِ أَوْ يَسُبُّ اللَّهَ وَيَذْكُرُهُ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ . فَالْمُؤْمِنُ يَغْضَبُ لِذَلِكَ أَعْظَمَ مِمَّا يَغْضَبُ لَوْ سَبَّ أَبُوهُ وَأُمُّهُ . وَمَعَ هَذَا فَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالرَّأْيِ أَنْكَرُوا مَحَبَّةَ اللَّهِ وَقَالُوا : يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ مُحِبًّا أَوْ مَحْبُوبًا وَجَعَلُوا هَذَا مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَقَالُوا : خِلَافًا لِلْحُلُولِيَّةِ كَأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ بِأَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إلَّا الْحُلُولِيَّةُ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا دِينُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَهْلِ الْإِيمَانِ أَجْمَعِينَ . وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ كَمَا قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي مَوَاضِعَ . فَهَذِهِ الْمَحَبَّةُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَوْجُودَةٌ فِي قُلُوبِ أَكْثَرِ الْمُنْكِرِينَ لَهَا بَلْ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ وَإِنْ أَنْكَرَهَا لِشُبْهَةٍ عَرَضَتْ لَهُ .

وهكذا المعرفة موجودة في قلوب هؤلاء . فإن هؤلاء الذين أنكروا محبته هم الذين قالوا : معرفته لا تحصل إلا بالنظر فأنكروا ما في فطرهم وقلوبهم من معرفته ومحبته . ثم قد يكون ذلك الإنكار سببا إلى امتناع معرفة ذلك في نفوسهم وقد يزول عن قلب أحدهم ما كان فيه من المعرفة والمحبة فإن الفطرة قد تفسد فقد تزول وقد تكون موجودة ولا ترى ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ . وقد قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ﴾ . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : ﴿ كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ﴾ . ثم يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ . والفطرة تستلزم معرفة الله ومحبته وتخصيصه بأنه أحب الأشياء

إلى العبد وهو التوحيد . وهذا معنى قول "لا إله إلا الله" كما جاء مفسرا : ﴿ كل مولود يولد على هذه الملة ﴾ وروي ﴿ على ملة الإسلام ﴾ . وفي صحيح مسلم عن عياض

بْن حِمار أنّ النبيّ صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ قال: يقولُ اللَّهُ تعالى: ﴿ إنّي خَلَقْتُ عِبادي حُنَفاءَ فاجْتالَتْهُمْ الشّيَاطِينُ وحرّمتْ عليهم ما أحْلَلْتُ لَهُمْ وأمَرْتُهُمْ أنْ يُشْرِكُوا بي ما لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطانًا ﴾ . فأخبرَ أنَّهُ خلَقَهُمْ حُنَفاءَ وذلكَ يَتَضمّنُ معْرفةَ الربّ ومحبّتَهُ وتوْحِيدَهُ . فَهذِهِ الثَّلاثةُ تضمّنَتْها الْحنيفيّةُ وهِي معْنى قوْلِ "لا إلهَ إلَّا اللَّهُ" . فإنَّ في هذِهِ الْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي هِيَ ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ فِيها إثْباتُ معْرفتِهِ والْإقْرارِ بِهِ . وفِيها إثْباتُ محبّتِهِ فإنَّ الْإلهَ هُوَ الْمأْلُوهُ الّذي يسْتحِقُّ أنْ يكُونَ مأْلُوهًا ؛ وهَذا أعْظَمُ ما يكُونُ مِنْ الْمحبّةِ . وفِيها أنَّهُ لا إلهَ إلَّا هُوَ . ففِيها الْمعْرفةُ والْمحبّةُ والتَّوْحِيدُ . وكُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ وهِي الْحنيفيّةُ الَّتِي خلَقَهُمْ عَلَيْها . ولَكِنَّ أبواهُ يُفْسِدانِ ذلِكَ فيُهَوِّدانِهِ ويُنَصِّرانِهِ ويُمَجِّسانِهِ ويُشْرِكانِهِ .

(323/823)

كذَلِكَ يُجهِّمانِهِ فيَجْعلانِهِ مُنْكرًا لِما فِي قلْبِهِ مِنْ معْرفةِ الرّبّ ومحبّتِهِ وتوْحِيدِهِ . ثُمَّ الْمعْرفةُ يَطْلُبُها بالدّلِيلِ والْمحبّةُ يُنْكِرُها بالْكُلّيّةِ . والتَّوْحِيدُ الْمُتضمّنُ للْمحبّةِ يُنْكِرُهُ مَنْ لا يعْرِفُهُ وإنَّما ثبت تَوْحِيدُ الْخلْقِ والْمُشْرِكُونَ كانُوا يُقِرُّونَ بِهذا التَّوْحِيدِ وهذا الشّرْكُ . فهُما يُشْرِكانِهِ ويُهَوِّدانِهِ ويُنَصِّرانِهِ ويُمَجِّسانِهِ . وقدْ بُسِطَ الْكَلامُ عَلَى هذا الْحدِيثِ وأقْوالُ

النَّاس فِيهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِع . وَأَيْضًا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَخْفَى عَلَيْهِ كَثِيرٌ مِنْ أَحْوَالِ نَفْسِهِ فَلَا يَشْعُرُ بِهَا أَنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَكُونُ فِي نَفْسِهِ حُبُّ الرِّيَاسَةِ كَامِنٌ لَا يَشْعُرُ بِهِ بَلْ إنَّهُ مُخْلِصٌ فِي عِبَادَتِهِ وَقَدْ خَفِيَتْ عَلَيْهِ عُيُوبُهُ . وَكَلَامُ النَّاسِ فِي هَذَا كَثِيرٌ مَشْهُورٌ . وَلِهَذَا سُمِّيَتْ هَذِهِ " الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ " . قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ : يَا بَقَايَا الْعَرَبِ إنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الرِّيَاءُ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ . قِيلَ لِأَبِي دَاوُد السجستاني : مَا الشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ ؟ قَالَ : حُبُّ الرِّيَاسَةِ . فَهِيَ خَفِيَّةٌ تَخْفَى عَلَى النَّاسِ وَكَثِيرًا مَا تَخْفَى عَلَى صَاحِبِهَا . بَلْ كَذَلِكَ حُبُّ الْمَالِ وَالصُّورَةِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يُحِبُّ ذَلِكَ وَلَا يَدْرِي . بَلْ نَفْسُهُ سَاكِنَةٌ مَا دَامَ ذَلِكَ مَوْجُودًا فَإِذَا فَقَدَهُ ظَهَرَ مِنْ

(324/823)

جَزَعِ نَفْسِهِ وَتَلَفِهَا مَا دَلَّ عَلَى الْمَحَبَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ . وَالْحُبُّ مُسْتَلْزِمٌ لِلشُّعُورِ فَهَذَا شُعُورٌ مِنْ النَّفْسِ بِأُمُورِ وَجَبَ لَهَا . وَالْإِنْسَانُ قَدْ يَخْفَى ذَلِكَ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ لَا سِيَّمَا وَالشَّيْطَانُ يُغَطِّي عَلَى الْإِنْسَانِ أُمُورًا . وَذُنُوبُهُ أَيْضًا تَبْقَى رَيْنًا عَلَى قَلْبِهِ قَالَ تَعَالَى ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿ كَلَّا إنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴾ . وَفِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ عَنْ الْقَعْقَاعِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ . فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ . فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴾ . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَمِنْهُ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . وَقَالَ ﴿ إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ . فَالْمُتَّقُونَ إذَا أَصَابَهُمْ هَذَا الطَّيْفُ الَّذِي يَطِيفُ بِقُلُوبِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ مَا عَلِمُوهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَيَزُولُ الطَّيْفُ وَيُبْصِرُونَ الْحَقَّ الَّذِي كَانَ مَعْلُومًا وَلَكِنَّ الطَّيْفَ يَمْنَعُهُمْ عَنْ رُؤْيَتِهِ . قَالَ تَعَالَى ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ . فَإِخْوَانُ

(325/823)

الشَّيَاطِينِ تَمُدُّهُمْ الشَّيَاطِينُ فِي غَيِّهِمْ " ﴿ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ لَا تَقْصُرُ الشَّيَاطِينُ عَنْ الْمَدَدِ وَالْإِمْدَادِ وَلَا الْإِنْسُ عَنْ الْغَيِّ . فَلَا يُبْصِرُونَ مَعَ ذَلِكَ الْغَيِّ مَا هُوَ مَعْلُومٌ لَهُمْ مُسْتَقِرٌّ فِي فِطَرِهِمْ لَكِنَّهُمْ يَنْسَوْنَهُ . وَلِهَذَا كَانَتْ الرُّسُلُ إنَّمَا تَأْتِي بِتَذْكِيرِ الْفِطْرَةِ مَا هُوَ مَعْلُومٌ لَهَا وَتَقْوِيَتِهِ وَإِمْدَادِهِ وَنَفْيِ الْمُغَيِّرِ لِلْفِطْرَةِ . فَالرُّسُلُ بُعِثُوا بِتَقْرِيرِ الْفِطْرَةِ وَتَكْمِيلِهَا لَا بِتَغْيِيرِ الْفِطْرَةِ وَتَحْوِيلِهَا . وَالْكَمَالُ يَحْصُلُ بِالْفِطْرَةِ الْمُكَمَّلَةِ بِالشِّرْعَةِ الْمُنَزَّلَةِ .

فَصْلٌ :

وَهَذَا النِّسْيَانُ نِسْيَانُ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ وَلِمَا فِي نَفْسِهِ حَصَلَ بِنِسْيَانِهِ لِرَبِّهِ وَلِمَا أُنْزَلَهُ . قَالَ تَعَالَى ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى فِي حَقِّ الْمُنَافِقِينَ ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ . وَقَالَ ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ . وَقَوْلُهُ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ يَقْتَضِي أَنَّ نِسْيَانَ اللَّهِ كَانَ سَبَبًا لِنِسْيَانِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَمَّا نَسُوا اللَّهَ عَاقَبَهُمْ بِأَنْ أَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ .

وَنِسْيَانُهُمْ أَنْفُسَهُمْ يَتَضَمَّنُ إعْرَاضَهُمْ وَغَفْلَتَهُمْ وَعَدَمَ مَعْرِفَتِهِمْ بِمَا كَانُوا عَارِفِينَ بِهِ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ حَالِ أَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنَّهُ يَقْتَضِي تَرْكَهُمْ لِمَصَالِحِ أَنْفُسِهِمْ . فَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ لَا يَذْكُرُونَ أَنْفُسَهُمْ ذِكْرًا يَنْفَعُهَا وَيُصْلِحُهَا وَأَنَّهُمْ لَوْ ذَكَرُوا اللَّهَ لَذَكَرُوا أَنْفُسَهُمْ . وَهَذَا عَكْسُ مَا يُقَالُ " مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ " . وَبَعْضُ النَّاسِ يَرْوِي هَذَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ هَذَا مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا هُوَ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ وَلَا يُعْرَفُ لَهُ إسْنَادٌ . وَلَكِنْ يُرْوَى فِي بَعْضِ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ إنْ صَحَّ " يَا إنْسَانُ اعْرِفْ نَفْسَك تَعْرِفْ

رَبِّك " . وَهَذَا الْكَلَامُ سَوَاءٌ كَانَ مَعْنَاهُ صَحِيحًا أَوْ فَاسِدًا لَا يُمْكِنُ الِاحْتِجَاجُ بِلَفْظِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ عَنْ قَائِلٍ مَعْصُومٍ . لَكِنْ إنْ فُسِّرَ بِمَعْنَى صَحِيحٍ عُرِفَ صِحَّةُ ذَلِكَ الْمَعْنَى سَوَاءٌ دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا اللَّفْظُ أَوْ لَمْ يَدُلَّ . وَإِنَّمَا الْقَوْلُ الثَّابِتُ مَا فِي الْقُرْآنِ وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ . فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نِسْيَانَ الرَّبِّ مُوجِبٌ لِنِسْيَانِ النَّفْسِ . وَحِينَئِذٍ فَمَنْ ذَكَرَ اللَّهَ وَلَمْ يَنْسَهُ يَكُونُ ذَاكِرًا لِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ لَوْ

(327/823)

كَانَ نَاسِيًا لَهَا سَوَاءٌ ذَكَرَ اللَّهَ أَوْ نَسِيَهُ لَمْ يَكُنْ نِسْيَانُهَا مُسَبَّبًا عَنْ نِسْيَانِ الرَّبِّ . فَلَمَّا دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ نِسْيَانَ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ مُسَبَّبٌ عَنْ نِسْيَانِهِ لِرَبِّهِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الذَّاكِرَ لِرَبِّهِ لَا يَحْصُلُ لَهُ هَذَا النِّسْيَانُ لِنَفْسِهِ . وَالذِّكْرُ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ مَا قَدْ عَلِمَهُ . فَمَنْ ذَكَرَ مَا يَعْلَمُهُ مِنْ رَبِّهِ ذَكَرَ مَا يَعْلَمُهُ مِنْ نَفْسِهِ . وَهُوَ قَدْ وُلِدَ عَلَى الْفِطْرَةِ الَّتِي تَقْتَضِي أَنَّهُ يَعْرِفُ رَبَّهُ وَيُحِبُّهُ وَيُوَحِّدُهُ . فَإِذَا لَمْ يَنْسَ رَبَّهُ الَّذِي عَرَفَهُ بَلْ ذَكَرَهُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَقْتَضِي مَحَبَّتَهُ وَمَعْرِفَتَهُ وَتَوْحِيدَهُ ذَكَرَ نَفْسَهُ فَأَبْصَرَ مَا كَانَ فِيهَا قَبْلُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَحَبَّتِهِ وَتَوْحِيدِهِ . وَأَهْلُ الْبِدَعِ الْجَهْمِيَّةِ وَنَحْوُهُمْ لَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ الذِّكْرَ الْمَشْرُوعَ الَّذِي كَانَ فِي الْفِطْرَةِ وَجَاءَتْ بِهِ الشِّرْعَةُ الَّذِي يَتَضَمَّنُ مَعْرِفَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ وَتَوْحِيدَهُ نَسُوا اللَّهَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ . فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ مِنْ

هَذَا الْوَجْهِ فَنَسُوا مَا كَانَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ الْعِلْمِ الْفِطْرِيِّ وَالْمَحَبَّةِ الْفِطْرِيَّةِ وَالتَّوْحِيدِ الْفِطْرِيِّ . وَقَدْ قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ : ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أَيْ تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ ﴿ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ أَيْ حُظُوظَ أَنْفُسِهِمْ حَيْثُ لَمْ يُقَدِّمُوا لَهَا خَيْرًا هَذَا لَفْظُ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ الْبَغَوِي . وَلَفْظُ آخَرِينَ مِنْهُمْ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : حِينَ لَمْ يَعْمَلُوا بِطَاعَتِهِ . وَكِلَاهُمَا قَالَ : ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أَيْ تَرَكُوا

(328/823)

أَمْرَ اللَّهِ .

وَمِثْلُ هَذَا التَّفْسِيرِ يَقَعُ كَثِيرًا فِي كَلَامِ مَنْ يَأْتِي بِمُجْمَلِ مِنْ الْقَوْلِ يُبَيِّنُ مَعْنًى دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَلَا يُفَسِّرُهَا بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ التَّفْسِيرِ . فَإِنَّ قَوْلَهُمْ " تَرَكُوا أَمْرَ اللَّهِ " . هُوَ تَرْكُهُمْ لِلْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ فَصَارَ الْأَوَّلُ هُوَ الثَّانِي . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ . فَهُنَا شَيْئَانِ : نِسْيَانُهُمْ لِلَّهِ ثُمَّ نِسْيَانُهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ الَّذِي عُوقِبُوا بِهِ . فَإِنْ قِيلَ : هَذَا الثَّانِي هُوَ الْأَوَّلُ لَكِنَّهُ تَفْصِيلُ مُجْمَلٍ كَقَوْلِهِ ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ وَهَذَا هُوَ هَذَا ؛ قِيلَ : هُوَ لَمْ يَقُلْ " نَسُوا اللَّهَ فَنَسُوا حَظَّ أَنْفُسِهِمْ " حَتَّى يُقَالَ : هَذَا هُوَ هَذَا بَلْ قَالَ ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ ﴾ فَثَمَّ إنْسَاءٌ مِنْهُ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَلَوْ كَانَ

هَذَا هُوَ الْأَوَّلَ لَكَانَ قَدْ ذَكَرَ مَا يَعْذِرُهُمْ بِهِ لَا مَا يُعَاقِبُهُمْ بِهِ . فَلَوْ كَانَ الثَّانِي هُوَ الْأَوَّلَ لَكَانَ : ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أَيْ تَرَكُوا الْعَمَلَ بِطَاعَتِهِ فَهُوَ الَّذِي أَنْسَاهُمْ ذَلِكَ . وَمَعْلُومٌ فَسَادُ هَذَا الْكَلَامِ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَلَوْ قِيلَ : ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أَيْ نَسُوا أَمْرَهُ ﴿ فَأَنْسَاهُمْ ﴾ الْعَمَلَ بِطَاعَتِهِ أَيْ تَذَكُّرَهَا لَكَانَ أَقْرَبَ وَيَكُونُ النِّسْيَانُ الْأَوَّلُ عَلَى بَابِهِ . فَإِنَّ مَنْ نَسِيَ نَفْسَ أَمْرِ اللَّهِ لَمْ يُطِعْهُ .

(329/823)

وَلَكِنَّ هُمْ فَسَّرُوا نِسْيَانَ اللَّهِ بِتَرْكِ أَمْرِهِ . وَأَمْرُهُ الَّذِي هُوَ كَلَامُهُ لَيْسَ مَقْدُورًا لَهُمْ حَتَّى يَتْرُكُوهُ إنَّمَا يَتْرُكُونَ الْعَمَلَ بِهِ فَالْأَمْرُ بِمَعْنَى الْمَأْمُورِ بِهِ . إلَّا أَنْ يُقَالَ : مُرَادُهُمْ بِتَرْكِ أَمْرِهِ هُوَ تَرْكُ الْإِيمَانِ بِهِ . فَلَمَّا تَرَكُوا الْإِيمَانَ أَعْقَبَهُمْ بِتَرْكِ الْعَمَلِ . وَهَذَا أَيْضًا ضَعِيفٌ فَإِنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي تَرَكُوهُ إنْ كَانَ هُوَ تَرْكَ التَّصْدِيقِ فَقَطْ فَكَفَى بِهَذَا كُفْرًا وَذَنْبًا . فَلَا تُجْعَلُ الْعُقُوبَةُ تَرْكَ الْعَمَلِ بِهِ بَلْ هَذَا أَشَدُّ . وَإِنْ كَانَ الْمُرَادُ بِتَرْكِ الْإِيمَانِ تَرْكَ الْإِيمَانِ تَصْدِيقًا وَعَمَلًا فَهَذَا هُوَ تَرْكُ الطَّاعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَهَؤُلَاءِ أُتُوا مِنْ حَيْثُ أَرَادُوا أَنْ يُفَسِّرُوا نِسْيَانَ الْعَبْدِ بِمَا قِيلَ فِي نِسْيَانِ الرَّبِّ وَذَاكَ قَدْ فُسِّرَ بِالتَّرْكِ . فَفَسَّرُوا هَذَا بِالتَّرْكِ . وَهَذَا لَيْسَ بِجَيِّدِ فَإِنَّ النِّسْيَانَ الْمُنَاقِضَ لِلذِّكْرِ جَائِزٌ عَلَى الْعَبْدِ بِلَا رَيْبٍ . وَالْإِنْسَانُ يُعْرِضُ عَمَّا أُمِرَ بِهِ حَتَّى يَنْسَاهُ فَلَا يَذْكُرُهُ . فَلَا يَحْتَاجُ أَنْ يَجْعَلَ نِسْيَانَهُ تَرْكًا مَعَ اسْتِحْضَارٍ وَعِلْمٍ . وَأَمَّا الرَّبُّ تَعَالَى فَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يُنَاقِضُ

صِفَاتِ كَمَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَفِي تَفْسِيرِ نِسْيَانِهِ الْكُفَّارَ بِمُجَرَّدِ التَّرْكِ نَظَرٌ . ثُمَّ هَذَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾

أَيْ تَرَكْتَ الْعَمَلَ بِهَا . وَهُنَا قَالَ ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ وَلَا يُقَالُ فِي حَقِّ اللَّهِ " تَرَكُوهُ " .

فَصْلٌ :

قَوْلُهُ ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ بَيَانٌ لِتَعْرِيفِهِ بِمَا قَدْ عُرِفَ مِنْ الْخَلْقِ عُمُومًا وَخَلْقِ الْإِنْسَانِ خُصُوصًا وَإِنَّ هَذَا مِمَّا تَعْرِفُ بِهِ الْفِطْرَةُ كَمَا تَقَدَّمَ . ثُمَّ إذَا عَرَفَ أَنَّهُ الْخَالِقُ فَمِنْ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الْخَالِقَ لَا يَكُونُ إلَّا قَادِرًا . بَلْ كُلُّ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ فَاعِلٌ لَا يَكُونُ إلَّا بِقُوَّةِ وَقُدْرَةٍ حَتَّى أَفْعَالُ الْجَمَادَاتِ . كَهُبُوطِ الْحَجَرِ وَالْمَاءِ وَحَرَكَةِ النَّارِ هُوَ بِقُوَّةِ فِيهَا . وَكَذَلِكَ حَرَكَةُ النَّبَاتِ هِيَ بِقُوَّةِ فِيهِ . وَكَذَلِكَ فِعْلُ كُلِّ حَيٍّ مِنْ الدَّوَابِّ وَغَيْرِهَا هُوَ بِقُوَّةِ فِيهَا . وَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ وَغَيْرُهُ . وَالْخَلْقُ أَعْظَمُ الْأَفْعَالِ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلَّا اللَّهُ . فَالْقُدْرَةُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ قُدْرَةٍ وَلَيْسَ لَهَا نَظِيرٌ مِنْ قُدَرِ الْمَخْلُوقِينَ . وَأَيْضًا فَالتَّعْلِيمُ بِالْقَلَمِ يَسْتَلْزِمُ الْقُدْرَةَ . فَكُلٌّ مِنْ الْخَلْقِ وَالتَّعْلِيمِ يَسْتَلْزِمُ الْقُدْرَةَ .

وكذلك كلٌّ منهما يستلزم العلم . فإن المعلم لغيره يجب أن يكون هو عالمًا بما علّمه إياه وإلّا فمن الممتنع أن يُعلِّم غيره ما لا يعلمه هو . فمن علّم كلَّ شيءٍ الإنسان وغيره ما لم يعلم أولى أن يكون عالمًا بما علّمه . والخلق أيضا يستلزم العلم كما قال تعالى ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ . وذلك من جهة أن الخلق يستلزم الإرادة . فإن فعل الشيء على صفة مخصوصة ومقدار مخصوص دون ما هو خلاف ذلك لا يكون إلا بإرادة تخصص هذا عن ذاك . والإرادة تستلزم العلم . فلا يريد المريد إلا ما شعر به وتصوّر في نفسه والإرادة بدون الشعور ممتنعة . وأيضا فنفس الخلق خلق الإنسان هو فعل لهذا الإنسان الذي هو من عجائب المخلوقات . وفيه من الإحكام والإتقان ما قد بهر العقول . والفعل المحكم المتقن لا يكون إلا من عالم بما فعل . وهذا معلوم بالضرورة . فالخلق يدل على العلم من هذا الوجه ومن هذا الوجه . وقد قال في سورة الملك ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ . وهو بيان ما في المخلوقات من لطف الحكمة التي تتضمن إيصال الأمور إلى غاياتها بألطف الوجوه كما قال يوسف عليه السلام ﴿ إن ربي لطيف لما

يَشَاءُ ﴾ . وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِالْغَايَةِ الْمَقْصُودَةِ وَالْعِلْمَ بِالطَّرِيقِ الْمُوَصِّلِ . وَكَذَلِكَ الْخِبْرَةُ . وَبَسْطُ هَذَا يَطُولُ إِذْ الْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى مَا فِي الْآيَاتِ الَّتِي هِيَ أَوَّلُ مَا أُنْزِلَ . ثُمَّ إِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَالِمٌ فَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ كَوْنَهُ حَيًّا . وَكَذَلِكَ الْإِرَادَةُ تَسْتَلْزِمُ الْحَيَاةَ . وَالْحَيُّ إِذَا لَمْ يَكُنْ سَمِيعًا بَصِيرًا مُتَكَلِّمًا كَانَ مُتَّصِفًا بِضِدِّ ذَلِكَ مِنْ الْعَمَى وَالصَّمَمِ وَالْخَرَسِ وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّ الرَّبِّ تَعَالَى . فَيَجِبُ أَنْ يَتَّصِفَ بِكَوْنِهِ سَمِيعًا بَصِيرًا مُتَكَلِّمًا . وَالْإِرَادَةُ إمَّا أَنْ تَكُونَ لِغَايَةٍ حَكِيمَةٍ أَوْ لَا . فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لِغَايَةٍ حَكِيمَةٍ كَانَتْ سَفَهًا وَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ حَكِيمًا . وَهُوَ إمَّا أَنْ يَقْصِدَ نَفْعَ الْخَلْقِ وَالْإِحْسَانَ إلَيْهِمْ أَوْ يَقْصِدَ مُجَرَّدَ ضَرَرِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ أَوْ لَا يَقْصِدَ وَاحِدًا مِنْهُمَا بَلْ يُرِيدُ مَا يُرِيدُ سَوَاءٌ كَانَ كَذَا وَكَذَا . وَالثَّانِي شِرِّيرٌ ظَالِمٌ يَتَنَزَّهُ الرَّبُّ عَنْهُ وَالثَّالِثُ سَفِيهٌ عَابِثٌ . فَتَعَيَّنَ أَنَّهُ تَعَالَى رَحِيمٌ كَمَا أَنَّهُ حَكِيمٌ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعَ .

فَصْلٌ :

(333/823)

إثْبَاتُ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ طُرُقٌ . أَحَدُهَا مَا نَبَّهْنَا عَلَيْهِ مِنْ أَنَّ الْفِعْلَ مُسْتَلْزِمٌ لِلْقُدْرَةِ وَلِغَيْرِهَا . فَمِنْ النُّظَّارِ مَنْ يُثْبِتُ أَوَّلًا الْقُدْرَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُثْبِتُ أَوَّلًا الْعِلْمَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُثْبِتُ أَوَّلًا الْإِرَادَةَ .

وَهَذِهِ طُرُقٌ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ . وَهَذِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَيْهَا بِجِنْسِ الْفِعْلِ وَهِيَ طَرِيقَةُ مَنْ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ مَفْعُولٍ وَمَفْعُولٍ كَجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ . وَهَؤُلَاءِ لَا يُثْبِتُونَ حِكْمَةً وَلَا رَحْمَةً إذْ كَانَ جِنْسُ الْفِعْلِ لَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ . لَكِنْ هُمْ أَثْبَتُوا بِالْفِعْلِ الْمُحْكَمِ الْمُتْقَنِ الْعِلْمَ . وَكَذَلِكَ تَثْبُتُ بِالْفِعْلِ النَّافِعِ الرَّحْمَةُ وَبِالْغَايَاتِ الْمَحْمُودَةِ الْحِكْمَةُ . وَلَكِنَّ هُمْ مُتَنَاقِضُونَ فِي الِاسْتِدْلَالِ بِالْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ عَلَى الْعِلْمِ إذْ كَانَ ذَلِكَ إنَّمَا يَدُلُّ إذَا كَانَ فَاعِلًا لِغَايَةٍ يَقْصِدُهَا . وَهُمْ يَقُولُونَ إنَّهُ يَفْعَلُ لَا لِحِكْمَةٍ ثُمَّ يَسْتَدِلُّونَ بِالْإِحْكَامِ عَلَى الْعِلْمِ وَهُوَ تَنَاقُضٌ . كَمَا تَنَاقَضُوا فِي الْمُعْجِزَاتِ حَيْثُ جَعَلُوهَا دَالَّةً عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ إمَّا

لِلْعِلْمِ الضَّرُورِيِّ بِذَلِكَ ؛ وَإِمَّا لِكَوْنِهِ لَوْ لَمْ تَدُلَّ لَزِمَ الْعَجْزُ . وَهِيَ إنَّمَا تَدُلُّ إذَا كَانَ الْفَاعِلُ يَقْصِدُ إظْهَارَهَا لِيَدُلَّ بِهَا عَلَى صِدْقِ الْأَنْبِيَاءِ . فَإِذَا قَالُوا إنَّهُ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا لِشَيْءِ تَنَاقَضُوا

.

(334/823)

وَأَمَّا الطَّرِيقُ الْأُخْرَى فِي إثْبَاتِ الصِّفَاتِ وَهِيَ : الِاسْتِدْلَالُ بِالْأَثَرِ عَلَى الْمُؤَثِّرِ وَأَنَّ مَنْ فَعَلَ الْكَامِلَ فَهُوَ أَحَقُّ بِالْكَمَالِ . وَالثَّالِثَةُ طَرِيقَةُ قِيَاسِ الْأَوْلَى وَهِيَ التَّرْجِيحُ وَالتَّفْضِيلُ وَهُوَ أَنَّ الْكَمَالَ إذَا ثَبَتَ لِلْمُحْدَثِ الْمُمْكِنِ الْمَخْلُوقِ فَهُوَ لِلْوَاجِبِ الْقَدِيمِ الْخَالِقِ أَوْلَى . وَالْقُرْآنُ

يَسْتَدِلُّ بِهَذِهِ وَهَذِهِ وَهَذِهِ . فَالِاسْتِدْلَالُ بِالْأَثَرِ عَلَى الْمُؤَثِّرِ أَكْمَلُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً . ﴾ وَهَكَذَا كُلُّ مَا فِي الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ قُوَّةٍ وَشِدَّةٍ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَقْوَى وَأَشَدُّ وَمَا فِيهَا مِنْ عِلْمٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَعْلَمُ وَمَا فِيهَا مِنْ عِلْمٍ وَحَيَاةٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَوْلَى بِالْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ .

(335/823)

وَهَذِهِ طَرِيقَةٌ يُقِرُّ بِهَا عَامَّةُ الْعُقَلَاءِ حَتَّى الْفَلَاسِفَةُ يَقُولُونَ : كُلُّ كَمَالٍ فِي الْمَعْلُولِ فَهُوَ مِنْ الْعِلَّةِ . وَأَمَّا الِاسْتِدْلَالُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى فَكَقَوْلِهِ ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ وَمِثْلُ قَوْلِهِ : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ لَا نَقْصَ فِيهِ يَثْبُتُ لِلْمُحْدَثِ الْمَخْلُوقِ الْمُمْكِنِ فَهُوَ لِلْقَدِيمِ الْوَاجِبِ الْخَالِقِ أَوْلَى مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ أَحَقُّ بِالْكَمَالِ لِأَنَّهُ أَفْضَلُ . وَذَاكَ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ هُوَ جَعَلَهُ كَامِلًا وَأَعْطَاهُ تِلْكَ الصِّفَاتِ .

وَاسْمُهُ " الْعَلِيُّ " يُفَسَّرُ بِهَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ يُفَسَّرُ بِأَنَّهُ أَعْلَى مِنْ غَيْرِهِ قَدْرًا فَهُوَ أَحَقُّ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ؛ وَيُفَسَّرُ بِأَنَّهُ الْعَالِي عَلَيْهِمْ بِالْقَهْرِ وَالْغَلَبَةِ فَيَعُودُ إلَى أَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ الْمَقْدُورُونَ . وَهَذَا يَتَضَمَّنُ كَوْنَهُ خَالِقًا لَهُمْ وَرَبًّا لَهُمْ . وَكِلَاهُمَا يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ نَفْسَهُ فَوْقَ كُلِّ

شَيْءٍ فَلَا شَيْءَ فَوْقَهُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ . وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ ﴾

(336/823)

فَلَا يَكُونُ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ وَلَا فَوْقَهُ وَلَا دُونَهُ كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَثْنَى بِهِ عَلَى رَبِّهِ . وَإِلَّا فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ تَحْتَ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ كَانَ ذَلِكَ نَقْصًا وَكَانَ ذَلِكَ أَعْلَى مِنْهُ . وَإِنْ قِيلَ : إنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ كَانَ ذَلِكَ تَعْطِيلًا لَهُ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْ هَذَا . وَهَذَا هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى مَعَ أَنَّ لَفْظَ " الْعَلِيِّ " و " الْعُلُوِّ " لَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي الْقُرْآنِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ إلَّا فِي هَذَا وَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِذَيْنِك لَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي مُجَرَّدِ الْقُدْرَةِ وَلَا فِي مُجَرَّدِ الْفَضِيلَةِ . وَلَفْظُ " الْعُلُوِّ " يَتَضَمَّنُ الِاسْتِعْلَاءَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ الْأَفْعَالِ إذَا عُدِّيَ بِحَرْفِ الِاسْتِعْلَاءِ دَلَّ عَلَى الْعُلُوِّ كَقَوْلِهِ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّهِ عَلَى الْعَرْشِ . وَالسَّلَفُ فَسَّرُوا " الِاسْتِوَاءَ " بِمَا يَتَضَمَّنُ الِارْتِفَاعَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي قَوْلِهِ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى ﴾ قَالَ : ارْتَفَعَ . وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ بِأَسَانِيدِهِمْ رَوَاهُ

مِنْ حَدِيثِ آدَمَ بْنِ أَبِي إِيَاسٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَنْ أَبِي الرَّبِيعِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى ﴾ قَالَ : ارْتَفَعَ .

(337/823)

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ : وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِهِ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ عَلَا عَلَى الْعَرْشِ . وَلَكِنْ يُقَالُ : " عَلَا عَلَى كَذَا " و " عَلَا عَنْ كَذَا " وَهَذَا الثَّانِي جَاءَ فِي الْقُرْآنِ فِي مَوَاضِعَ لَكِنْ بِلَفْظِ " تَعَالَى " كَقَوْلِهِ ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ ذِكْرِ أَنَّهُ خَلَقَ وَأَنَّهُ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ يَدُلُّ عَلَى هَاتَيْنِ الطَّرِيقَتَيْنِ مِنْ إثْبَاتِ الصِّفَاتِ كَمَا دَلَّنَا عَلَى الطَّرِيقَةِ الْأُولَى طَرِيقَةِ الِاسْتِدْلَالِ بِالْفِعْلِ . فَإِنَّ قَوْلَهُ ﴿ الْأَكْرَمُ ﴾ يَقْتَضِي أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ فِي الْكَرَمِ وَالْكَرَمُ اسْمٌ جَامِعٌ لِجَمِيعِ الْمَحَاسِنِ . فَيَقْتَضِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ وَالْمَحَامِدِ هِيَ صِفَاتُ الْكَمَالِ فَيَقْتَضِي أَنَّهُ أَحَقُّ بِالْإِحْسَانِ إلَى الْخَلْقِ وَالرَّحْمَةِ وَأَحَقُّ بِالْحِكْمَةِ وَأَحَقُّ بِالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ خَلَقَ ﴾ . فَإِنَّ الْخَالِقَ قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ مُسْتَغْنٍ بِنَفْسِهِ وَاجِبُ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ قَيُّومٌ . وَمَعْلُومٌ

أَنَّهُ أَحَقُّ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ مِنْ الْمَخْلُوقِ الْمُحْدِثُ الْمُمْكِنُ . فَهَذَا مِنْ جِهَةِ قِيَاسِ الْأَوْلَى . وَمِنْ جِهَةِ الْأَثَرِ فَإِنَّ الْخَالِقَ لِغَيْرِهِ

(338/823)

الَّذِي جَعَلَهُ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا سَمِيعًا بَصِيرًا هُوَ أَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ حَيًّا عَالِمًا قَدِيرًا سَمِيعًا بَصِيرًا . و ﴿ الْأَكْرَمُ ﴾ ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . فَجَعَلَهُ عَلِيمًا وَالْعَلِيمُ لَا يَكُونُ إلَّا حَيًّا . وَكَرَّمَهُ أَيْضًا أَنْ يَكُونَ قَدِيرًا سَمِيعًا بَصِيرًا . وَالْأَكْرَمُ الَّذِي جَعَلَ غَيْرَهُ عَلِيمًا هُوَ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ عَلِيمًا . وَكَذَلِكَ فِي سَائِرِ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْمَحَامِدِ . فَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِالْمَخْلُوقِ الْخَاصِّ وَالْأَوَّلُ اسْتِدْلَالٌ بِجِنْسِ الْخَلْقِ . وَلِهَذَا دَلَّ هَذَا عَلَى ثُبُوتِ الصِّفَاتِ بِالضَّرُورَةِ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَكَذَلِكَ طَرِيقَةُ التَّفْضِيلِ وَالْأَوْلَى وَأَنْ يَكُونَ الرَّبُّ أَوْلَى بِالْكَمَالِ مِنْ الْمَخْلُوقِ . وَهَذِهِ الطُّرُقُ لِظُهُورِهَا يَسْلُكُهَا غَيْرُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ وَغَيْرِهِمْ كَالنَّصَارَى فَإِنَّهُمْ أَثْبَتُوا أَنَّ اللَّهَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ حَتَّى يَتَكَلَّمَ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ لَكِنْ سَمَّوْهُ " جَوْهَرًا " وَضَلُّوا فِي جَعَلِ الصِّفَاتِ ثَلَاثَةً وَهِيَ الْأَقَانِيمُ . فَقَالُوا : وَجَدْنَا الْأَشْيَاءَ تَنْقَسِمُ إلَى جَوْهَرٍ وَغَيْرِ جَوْهَرٍ وَالْجَوْهَرُ أَعْلَى النَّوْعَيْنِ فَقُلْنَا : هُوَ جَوْهَرٌ . ثُمَّ وَجَدْنَا الْجَوْهَرَ

يَنْقَسِمُ إِلَى حَيٍّ وَغَيْرِ حَيٍّ وَوَجَدْنَا الْحَيَّ أَكْمَلَ فَقُلْنَا : هُوَ حَيٌّ . وَوَجَدْنَا الْحَيَّ يَنْقَسِمُ إِلَى نَاطِقٍ وَغَيْرِ نَاطِقٍ فَقُلْنَا : هُوَ نَاطِقٌ .

(339/823)

وَكَذَلِكَ يُقَالُ لَهُمْ فِي سَائِرِ صِفَاتِ الْكَمَالِ : إِنَّ الْأَشْيَاءَ تَنْقَسِمُ إِلَى قَادِرٍ وَغَيْرِ قَادِرٍ وَالْقَادِرُ أَكْمَلُ . وَقَدْ بُسِطَ مَا فِي كَلَامِهِمْ مِنْ صَوَابٍ وَخَطَأٍ فِي الْكِتَابِ الَّذِي سَمَّيْنَاهُ " الْجَوَابُ الصَّحِيحُ لِمَنْ بَدَّلَ دِينَ الْمَسِيحِ " . وَالْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى دَلَالَةِ هَذِهِ الْآيَةِ وَهَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي هِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ عَلَى أُصُولِ الدِّينِ .

وَقَوْلُهُ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى تَعْلِيمِ الْإِنْسَانِ مَا قَدْ عَلَّمَهُ مَعَ كَوْنِ جِنْسِ الْإِنْسَانِ فِيهِ أَنْوَاعٌ مِنْ النَّقْصِ . فَإِذَا كَانَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ التَّعْلِيمِ فَقُدْرَتُهُ عَلَى تَعْلِيمِ الْأَنْبِيَاءِ مَا عَلَّمَهُمْ أَوْلَى وَأَحْرَى . وَذَلِكَ يَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ مِنْ النَّاسِ . فَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ الْآيَاتُ عَلَى جَمِيعِ الْأُصُولِ الْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّ إمْكَانَ النُّبُوَّاتِ هُوَ آخِرُ مَا يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ . وَأَمَّا وُجُودُ الْأَنْبِيَاءِ وَآيَاتُهُمْ فَيُعْلَمُ بِالسَّمْعِ الْمُتَوَاتِرِ مَعَ أَنَّ قَوْلَهُ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ يَدْخُلُ فِيهِ إثْبَاتُ تَعْلِيمِهِ لِلْأَنْبِيَاءِ مَا عَلَّمَهُمْ فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى الْإِمْكَانِ وَالْوُقُوعِ .

(340/823)

وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مَوَاضِعَ أَنَّ تَنْزِيهَهُ يَرْجِعُ إلَى أَصْلَيْنِ . تَنْزِيهُهُ عَنْ النَّقْصِ الْمُنَاقِضِ لِكَمَالِهِ . فَمَا دَلَّ عَلَى ثُبُوتِ الْكَمَالِ لَهُ فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى تَنَزُّهِهِ عَنْ النَّقْصِ الْمُنَاقِضِ لِكَمَالِهِ . وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ تَنَزُّهَهُ عَنْ النَّقْصِ مَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ بِخِلَافِ مَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ إنَّ ذَلِكَ لَا يُعْلَمُ إلَّا بِالسَّمْعِ . وَقَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّ الطُّرُقَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي سَلَكُوهَا مِنْ الِاسْتِدْلَالِ بِالْإِعْرَاضِ عَلَى حُدُوثِ الْأَجْسَامِ لَا تَدُلُّ عَلَى إثْبَاتِهِ وَلَا عَلَى إثْبَاتِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَلَا عَلَى تَنَزُّهِهِ عَنْ شَيْءٍ مِنْ النَّقَائِصِ . فَلَيْسَ عِنْدَ الْقَوْمِ مَا يُحِيلُونَ بِهِ عَنْهُ شَيْئًا مِنْ النَّقَائِصِ . وَهُمْ مُعْتَرِفُونَ بِأَنَّ الْأَفْعَالَ يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ بِخِلَافِ الصِّفَاتِ . لَكِنَّ طَرِيقَهُمْ فِي الصِّفَاتِ فَاسِدٌ مُتَنَاقِضٌ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . الثَّانِي : أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ . وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ بِإِثْبَاتِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ بِإِثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَتَنْزِيهِهِ عَنْ التَّمْثِيلِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

فَصْلٌ :

(341/823)

وَقَوْلُه ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وَقَوْلُه ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ يَدُلُّ عَلَى إِثْبَاتِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ . فَالْخَلْقُ فِعْلُهُ وَالتَّعْلِيمُ يَتَنَاوَلُ تَعْلِيمَ مَا أَنْزَلَهُ كَمَا قَالَ ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿ بِالْقَلَمِ ﴾ يَتَنَاوَلُ تَعْلِيمَ كَلَامِهِ الَّذِي يُكْتَبُ بِالْقَلَمِ . وَنُزُولُهُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ الَّتِي أُنْزِلَ فِيهَا كَلَامُهُ وَعَلَّمَ نَبِيَّهُ كَلَامَهُ الَّذِي يُكْتَبُ بِالْقَلَمِ دَلِيلٌ عَلَى شُمُولِ الْآيَةِ لِذَلِكَ فَإِنَّ سَبَبَ اللَّفْظِ الْمُطْلَقِ وَالْعَامِّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُنْدَرِجًا فِيهِ . وَإِذَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ خَلَقَ وَتَكَلَّمَ . وَقَدْ قَالَ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ . وَمَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ وَبِالْخِطَابِ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْمَخْلُوقَ غَيْرُ خَلْقِ الرَّبِّ لَهُ وَكَذَلِكَ خَلْقُهُ لِغَيْرِهِ . وَالَّذِينَ نَازَعُوا فِي ذَلِكَ إِنَّمَا نَازَعُوا لِشُبْهَةٍ عَرَضَتْ لَهُمْ كَمَا قَدْ ذُكِرَ بَعْدَ هَذَا وَفِي مَوَاضِعَ . وَإِلَّا فَهُمْ لَا يَتَنَازَعُونَ أَنَّ " خَلَقَ " فِعْلٌ لَهُ مَصْدَرٌ يُقَالُ : خَلَقَ يَخْلُقُ خَلْقًا . وَالْإِنْسَانُ مَفْعُولُ الْمَصْدَرِ " الْمَخْلُوقُ " لَيْسَ هُوَ الْمَصْدَرُ .

(342/823)

وَلَكِنْ قَدْ يُطْلَقُ لَفْظُ الْمَصْدَرِ عَلَى الْمَفْعُولِ كَمَا يُقَالُ " دِرْهَمٌ ضَرْبُ الْأَمِيرِ " . وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ وَالْمُرَادُ هُنَاكَ : هَذَا مَخْلُوقُ اللَّهِ . وَلَيْسَ الْكَلَامُ فِي لَفْظِ " خَلْقُ "

الْمُرَادُ بِهِ " الْمَخْلُوق " بَلْ فِي لَفْظِ " الْخَلْق " الْمُرَادِ بِهِ " الْفِعْل " الَّذِي يُسَمَّى الْمَصْدَرُ كَمَا يُقَالُ : خَلَقَ يَخْلُقُ خَلْقًا وَكَقَوْلِهِ ﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ وَإِذَا كَانَ الْخَلْقُ فِعْلَهُ فَهُوَ بِمَشِيئَتِهِ إذْ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ فِعْلُهُ بِغَيْرِ مَشِيئَةٍ . وَمَا كَانَ بِالْمَشِيئَةِ امْتَنَعَ قِدَمُ عَيْنِهِ بَلْ يَجُوزُ قِدَمُ نَوْعِهِ . وَإِذَا كَانَ الْخَلْقُ لِلْحَادِثِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُؤَثِّرٍ تَامٍّ أَوْجَبَ حُدُوثَهُ لَزِمَ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِمَا يَقُومُ بِهِ مِنْ الْأُمُورِ الِاخْتِيَارِيَّةِ لَكِنْ إنْ يَثْبُتْ أَنَّهُ كَانَ قَبْلَ هَذَا الْمَخْلُوقِ مَخْلُوقٌ آخَرُ ثَبَتَ أَنَّهُ مُتَّصِفٌ بِخَلْقٍ بَعْدَ خَلْقٍ .

وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ هُوَ مُتَكَلِّمٌ بِمَشِيئَتِهِ . وَيَمْتَنِعُ أَنْ لَا يَكُونَ مُتَكَلِّمًا ثُمَّ يَصِيرُ مُتَكَلِّمًا لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ سَلْبٌ لِكَمَالِهِ وَالْكَلَامُ صِفَةُ كَمَالٍ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ يَمْتَنِعُ حُدُوثُ ذَلِكَ . فَإِنَّ مَنْ لَا يَكُونُ مُتَكَلِّمًا يَمْتَنِعُ

أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ مُتَكَلِّمًا وَمَنْ لَا يَكُونُ عَالِمًا يَمْتَنِعُ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ عَالِمًا وَمَنْ لَا يَكُونُ حَيًّا يَمْتَنِعُ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ حَيًّا . فَهَذِهِ الصِّفَاتُ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ . وَكَذَلِكَ مَنْ لَا يَكُونُ خَالِقًا يَمْتَنِعُ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ خَالِقًا . فَإِنَّهُ إذَا لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَخْلُقَ فَجَعْلُهُ نَفْسَهُ خَالِقَةً أَعْظَمُ ؛

فَيكُونُ هَذَا مُمْتَنِعًا بِطَرِيقِ الْأَوْلَى فَإِنَّ جَعْلَ نَفْسِهِ خَالِقَةً يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ الْمَخْلُوقِ . وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ قَادِرًا عَلَى جَعْلِ الْإِنْسَانِ فَاعِلًا كَانَ هُوَ الْخَالِقُ لِمَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ . فَلَوْ جَعَلَ نَفْسَهُ خَالِقَةً كَانَ هُوَ الْخَالِقُ لِمَا جَعَلَهَا تَخْلُقُهُ . فَإِذَا فُرِضَ أَنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ خَالِقًا فِي الْأَزَلِ امْتَنَعَ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ خَالِقَةً بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ . وَيَلْزَمُ مِنْ الْقَوْلِ بِامْتِنَاعِ الْفِعْلِ عَلَيْهِ فِي الْأَزَلِ امْتِنَاعُهُ دَائِمًا . وَقَدْ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ خَلَقَ . فَعُلِمَ أَنَّهُ مَا زَالَ قَادِرًا عَلَى الْخَلْقِ مَا زَالَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَخْلُقَ وَمَا زَالَ الْخَلْقُ مُمْكِنًا مَقْدُورًا . وَهَذَا يُبْطِلُ أَصْلَ الْجَهْمِيَّةِ . بَلْ وَإِذَا كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ فَالْمُوجِبُ لَهُ لَيْسَ شَيْئًا بَائِنًا مِنْ خَارِجٍ بَلْ هُوَ مِنْ نَفْسِهِ . فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَجْعَلَ نَفْسَهُ مُرِيدَةً بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ فَيَلْزَمُ أَنَّهُ مَا زَالَ مُرِيدًا قَادِرًا . وَإِذَا حَصَلَتْ الْقُدْرَةُ وَالْإِرَادَةُ وَجَبَ وُجُودُ الْمَقْدُورِ .

(344/823)

وَأَهْلُ الْكَلَامِ الَّذِينَ يُنَازِعُونَ فِي هَذَا يَقُولُونَ لَمْ يَزَلْ قَادِرًا عَلَى مَا سَيَكُونُ . فَيُقَالُ لَهُمْ : الْقُدْرَةُ لَا تَكُونُ إلَّا مَعَ إمْكَانِ الْمَقْدُورِ إذَا كَانَتْ الْقُدْرَةُ دَائِمَةً ؛ فَهَلْ كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَفْعَلَ الْمَقْدُورَ دَائِمًا ؟ وَهُمْ يَقُولُونَ : لَا بَلْ الْإِمْكَانُ إمْكَانُ الْفِعْلِ حَادِثٌ . وَهَذَا يُنَاقِضُ إثْبَاتَ الْقُدْرَةِ وَإِنْ قَالُوا : بَلْ الْإِمْكَانُ حَاصِلٌ تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ الْفِعْلُ مُمْكِنًا فَثَبَتَ إمْكَانُ وُجُودِ مَا لَا

يَتَنَاهى مِنْ مَقْدُورِ الرَّبِّ . وَحِينَئِذٍ ؛ فَإِذَا كَانَ لَمْ يَزَلْ قَادِرًا وَالْفِعْلُ مُمْكِنًا وَهَذَا الْمُمْكِنُ قَدْ وُجِدَ فَمَا لَا يَزَالُ فَالْمُوجِبُ لِوُجُودِ جِنْسِ الْمَقْدُورِ كَالْإِرَادَةِ مَثَلًا إمَّا أَنْ يَكُونَ وُجُودُهَا فِي الْأَزَلِ مُمْتَنِعًا فَيَلْزَمُ امْتِنَاعُ الْفِعْلِ وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ مُمْكِنٌ . وَأَيْضًا إذَا كَانَ وُجُودُهَا مُمْتَنِعًا لَمْ يَزَلْ مُمْتَنِعًا لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ هُنَاكَ يَجْعَلُهَا مُمْكِنَةً فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ مَوْجُودَةً . وَمَعْلُومٌ أَنَّ وُجُودَهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِبٍ . وَإِذَا كَانَ وُجُودُهَا فِي الْأَزَلِ مُمْكِنًا فَوُجُودُ هَذَا الْمُمْكِنِ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَى غَيْرِ ذَاتِهِ وَذَاتُهُ كَافِيَةٌ فِي حُصُولِهِ . فَيَلْزَمُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُرِيدًا . وَهَكَذَا فِي جَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ مَتَى ثَبَتَ إمْكَانُهَا فِي الْأَزَلِ لَزِمَ

وُجُودُهَا فِي الْأَزَلِ . فَإِنَّهَا لَوْ لَمْ تُوجَدْ لَكَانَتْ مُمْتَنِعَةً إذْ لَيْسَ فِي الْأَزَلِ شَيْءٌ سِوَى نَفْسِهِ يُوجِبُ وُجُودَهَا . فَإِذَا كَانَتْ مُمْكِنَةً وَالْمُقْتَضِي التَّامُّ لَهَا نَفْسُهُ لَزِمَ وُجُوبُهَا فِي الْأَزَلِ . وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ حَيًّا عَلِيمًا قَدِيرًا مُرِيدًا مُتَكَلِّمًا فَاعِلًا إذْ لَا مُقْتَضِيَ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ إلَّا ذَاتُهُ وَذَاتُهُ وَحْدَهَا كَافِيَةٌ فِي ذَلِكَ . فَيَلْزَمُ قِدَمُ النَّوْعِ وَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إذَا شَاءَ لَكِنَّ أَفْرَادَ النَّوْعِ تَحْصُلُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ وَالْحِكْمَةِ . وَلِهَذَا قَدْ بُيِّنَ فِي مَوَاضِعَ أَنَّهُ لَيْسَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مُمْكِنٌ يَسْتَوِي طَرَفَا وُجُودِهِ وَعَدَمِهِ بَلْ إمَّا أَنْ يَحْصُلَ

الْمُقْتَضِي لِوُجُودِهِ فَيَجِبُ أَوْ لَا يَحْصُلُ فَيَمْتَنِعُ . فَمَا اتَّصَفَ بِهِ الرَّبُّ فَاتِّصَافُهُ بِهِ وَاجِبٌ وَمَا لَمْ يَتَّصِفْ بِهِ فَاتِّصَافُهُ بِهِ مُمْتَنِعٌ . وَمَا شَاءَ كَانَ وَوَجَبَ وُجُودُهُ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَامْتَنَعَ وُجُودُهُ . فَالْمُمْكِنُ مَعَ مُرَجِّحِهِ التَّامِّ وَاجِبٌ وَبِدُونِهِ مُمْتَنِعٌ . فَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ وَفِي قَوْلِهِ ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ دَلَالَةٌ عَلَى ثُبُوتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَهُ وَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِهَا . وَأَقْوَالُ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ . وَبِهَذَا فَسَّرُوا قَوْلَهُ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ

(346/823)

عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ وَنَحْوَهُ كَمَا ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ عِدَّةِ طُرُقٍ لَمَّا قِيلَ لَهُ : قَوْلُهُ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ ﴾ كَأَنَّهُ كَانَ شَيْءٌ ثُمَّ مَضَى ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ سَمَّى نَفْسَهُ بِذَلِكَ وَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ . هَذَا لَفْظُ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ أَبِي مُعَاوِيَةَ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ الْمِنْهَالِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَذَلِكَ كَانَ وَلَمْ يَزَلْ . وَمِنْ رِوَايَةِ عَمْرِو بْنِ أَبِي قَيْسٍ عَنْ مُطَرِّفٍ عَنْ الْمِنْهَالِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . قَالَ : أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ : سَمِعْت اللَّهَ يَقُولُ ﴿ وَكَانَ اللَّهُ ﴾ كَأَنَّهُ شَيْءٌ كَانَ ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَمَّا قَوْلُهُ ﴿ كَانَ ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ وَ ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ

وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ . وَمِنْ رِوَايَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مغرا عَنْ مُجَمِّعِ بْنِ يَحْيَى عَنْ عَمِّهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . قَالَ قَالَ يَهُودِيٌّ : إنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا فَكَيْفَ هُوَ الْيَوْمَ ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إنَّهُ كَانَ فِي نَفْسِهِ . عَزِيزًا حَكِيمًا . وَهَذِهِ أَقْوَالُ ابْنِ عَبَّاسٍ تُبَيِّنُ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِخَبَرِ "كَانَ" وَلَا

(347/823)

يَزَالُ كَذَلِكَ وَأَنَّ ذَلِكَ حَصَلَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ . فَلَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا فِي نَفْسِهِ إذَا كَانَ مِنْ لَوَازِمِ نَفْسِهِ وَلِهَذَا لَا يَزَالُ لِأَنَّهُ مِنْ نَفْسِهِ . وَقَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ : لَمْ يَزَلْ اللَّهُ عَالِمًا مُتَكَلِّمًا غَفُورًا . وَقَالَ أَيْضًا : لَمْ يَزَلْ اللَّهُ مُتَكَلِّمًا إذَا شَاءَ .

فَصْلٌ :

وَكَمَا أَنَّهُ أَوَّلُ آيَةٍ نَزَلَتْ مِنْ الْقُرْآنِ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فَأَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ لَكِنْ مَبْسُوطًا دَلَالَةً أَتَمَّ مِنْ هَذَا . وَهِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ : يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَعَك أَعْظَمُ ؟ فَقَالَ : ﴿ اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ فَقَالَ : ليهنك الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ ﴾ . وَهُنَا

افْتَتَحَهَا بِقَوْلِهِ ﴿ اللَّهِ ﴾ وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ وَرَبِّكَ ﴾ وَلِهَذَا افْتَتَحَ بِهِ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ فَقَالَ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(348/823)

وَقَالَ ﴿ اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ إذَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ قَدْ اتَّخَذُوا إلَهًا غَيْرَهُ وَإِنْ قَالُوا بِأَنَّهُ الْخَالِقُ . فَفِي قَوْلِهِ ﴿ خَلَقَ ﴾ لَمْ يَذْكُرْ نَفْيَ خَالِقٍ آخَرَ إذْ كَانَ ذَلِكَ مَعْلُومًا . فَلَمْ يُثْبِتْ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ خَالِقًا آخَرَ مُطْلَقًا خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ وَغَيْرَهُ بِخِلَافِ الْإِلَهِيَّةِ . قَالَ تَعَالَى ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إنَّمَا هُوَ إلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إذًا لَابْتَغَوْا إلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ . فَابْتَغَوْا مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى وَلَمْ يُثْبِتُوا مَعَهُ خَالِقًا آخَرَ . فَقَالَ فِي أَعْظَمِ الْآيَاتِ ﴿ اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ . ذَكَرَهُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنْ الْقُرْآنِ كُلُّ مَوْضِعٍ فِيهِ أَحَدُ أُصُولِ الدِّينِ الثَّلَاثَةِ وَهِيَ التَّوْحِيدُ وَالرُّسُلُ وَالْآخِرَةُ . هَذِهِ الَّتِي بَعَثَ بِهَا جَمِيعَ الْمُرْسَلِينَ وَأَخْبَرَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ

بِهَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ .

(349/823)

فَقَالَ هُنَا ﴿ اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ قَرَنَهَا بِأَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ . وَزَادَ فِي آلِ عِمْرَانَ ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ﴿ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ وَهَذَا إيمَانٌ بِالْكُتُبِ وَالرُّسُلِ . وَقَالَ فِي طه : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ .

فَصْلٌ :

وَمِنْ أَعْظَمِ الْأُصُولِ مَعْرِفَةُ الْإِنْسَانِ بِمَا نَعَتَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ كَقَوْلِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ و " الْخَلْقُ " مَذْكُورٌ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ مِنْ الْأَفْعَالِ . وَهُوَ نَوْعَانِ . فِعْلٌ مُتَعَدٍّ إلَى مَفْعُولٍ بِهِ مِثْلُ " خَلَقَ " فَإِنَّهُ يَقْتَضِي مَخْلُوقًا وَكَذَلِكَ " رَزَقَ " كَقَوْلِهِ ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ

هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . وَكَذَلِكَ الْهُدَى وَالْإِضْلَالُ وَالتَّعْلِيمُ وَالْبَعْثُ وَالْإِرْسَالُ وَالتَّكْلِيمُ . وَكَذَلِكَ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ وَقَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ وَهَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ جِدًّا .

وَالْأَفْعَالُ اللَّازِمَةُ كَقَوْلِهِ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ . فَأَمَّا النَّوْعُ الْأَوَّلُ فَالْمُسْلِمُونَ مُتَّفِقُونَ عَلَى إضَافَتِهِ إلَى اللَّهِ وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ لَيْسَ ذَلِكَ صِفَةً لِشَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ . لَكِنْ هَلْ قَامَ بِهِ فِعْلٌ هُوَ الْخَلْقُ أَوْ الْفِعْلُ هُوَ الْمَفْعُولُ وَالْخَلْقُ هُوَ الْمَخْلُوقُ ؟ وَهَذَا فِيهِ قَوْلَانِ لِمَنْ يُثْبِتُ اتِّصَافَهُ بِالصِّفَاتِ . فَأَمَّا

مَنْ يَنْفِي الصِّفَاتِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ فَهُمْ يَنْفُونَ قِيَامَ الْفِعْلِ بِهِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى . لَكِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُ الْخَلْقَ غَيْرَ الْمَخْلُوقِ وَيَجْعَلُ الْخَلْقَ إمَّا مَعْنًى قَامَ بِالْمَخْلُوقِ أَوْ الْمَعَانِي الْمُتَسَلْسِلَةِ كَمَا يَقُولُهُ مَعْمَرُ بْنُ عَبَّادٍ ؛ أَوْ يَجْعَلُ الْخَلْقَ قَائِمًا لَا فِي مَحَلٍّ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : إنَّهُ قَوْلُ "كُنْ" لَا فِي مَحَلٍّ وَقَوْلِ الْبَصْرِيِّينَ : إنَّهُ إرَادَةٌ لَا فِي مَحَلٍّ . وَهَذَا فِرَارٌ مِنْهُمْ عَنْ قِيَامِ الْحَوَادِثِ بِهِ مَعَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَلْتَزِمُ ذَلِكَ كَمَا الْتَزَمَهُ أَبُو الْحُسَيْنِ وَغَيْرُهُ . وَالْجُمْهُورُ الْمُثْبِتُونَ لِلصِّفَاتِ هُمْ فِي الْأَفْعَالِ عَلَى قَوْلَيْنِ . مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : لَا يَقُومُ بِهِ فِعْلٌ وَإِنَّمَا الْفِعْلُ هُوَ الْمَفْعُولُ وَهَذَا قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ الْأَشْعَرِيُّ وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَغَيْرِ أَصْحَابِهِ كَابْنِ عَقِيلٍ وَغَيْرِهِ وَهُوَ أَوَّلُ قَوْلَيْ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى . وَهَؤُلَاءِ يُقَسِّمُونَ الصِّفَاتِ إلَى ذَاتِيَّةٍ وَمَعْنَوِيَّةٍ وَفِعْلِيَّةٍ . وَهَذَا تَقْسِيمٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ . فَإِنَّ الْأَفْعَالَ عِنْدَهُمْ لَا تَقُومُ بِهِ فَلَا يَتَّصِفُ بِهَا . لَكِنْ يُخْبَرُ عَنْهُ بِهَا . وَهَذَا التَّقْسِيمُ يُنَاسِبُ قَوْلَ مَنْ قَالَ : الصِّفَاتُ هِيَ الْأَخْبَارُ الَّتِي

يُخْبَرُ بِهَا عَنْهُ لَا مَعَانِي تَقُومُ بِهِ كَمَا تَقُولُ ذَلِكَ الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ . فَهَؤُلَاءِ إذَا قَالُوا : الصِّفَاتُ تَنْقَسِمُ إلَى ذَاتِيَّةٍ وَفِعْلِيَّةٍ أَرَادُوا بِذَلِكَ مَا يُخْبَرُ بِهِ عَنْهُ مِنْ الْكَلَامِ تَارَةً يَكُونُ خَبَرًا عَنْ ذَاتِهِ

وَتَارَةً عَنْ الْمَخْلُوقَاتِ لَيْس عِنْدَهُمْ صِفَاتٌ تَقُومُ بِهِ . فَمَنْ فَسَّرَ الصِّفَاتِ بِهَذَا أَمْكَنَهُ أَنْ يَجْعَلَهَا ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ ذَاتِيَّةً وَمَعْنَوِيَّةً وَفِعْلِيَّةً . وَأَمَّا مَنْ كَانَ مُرَادُهُ بِالصِّفَاتِ مَا يَقُومُ بِهِ فَهَذَا التَّقْسِيمُ لَا يَصْلُحُ عَلَى أَصْلِهِمْ وَلَكِنْ أَخَذُوا التَّقْسِيمَ عَنْ أُولَئِكَ وَهُمْ مُخَالِفُونَ لَهُمْ فِي الْمُرَادِ بِالصِّفَاتِ . وَهَذَا التَّقْسِيمُ مَوْجُودٌ فِي كَلَامِ أَبِي الْحَسَنِ وَمَنْ وَافَقَهُ كَالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَأَبِي الْمَعَالِي والباجي وَغَيْرِهِمْ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّهُ تَقُومُ بِهِ الْأَفْعَالُ . وَهَذَا قَوْلُ السَّلَفِ وَجُمْهُورِ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ . ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ " خَلْقِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ " أَنَّ هَذَا إجْمَاعُ الْعُلَمَاءِ خَالِقٌ وَخَلْقٌ وَمَخْلُوقٌ . وَذَكَرَهُ البغوي قَوْلَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَذَكَرَهُ أَبُو نَصْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ الكلاباذي فِي كِتَابِ " التَّعَرُّفِ بِمَذَاهِبِ التَّصَوُّفِ " أَنَّهُ قَوْلُ الصُّوفِيَّةِ . وَهُوَ قَوْلُ الْحَنَفِيَّةِ مَشْهُورٌ عِنْدَهُمْ يُسَمُّونَهُ

(353/823)

" التَّكْوِينُ " وَهُوَ قَوْلُ الكَرَّامِيَة والهشامية وَنَحْوِهِمَا وَهُوَ قَوْلُ الْقُدَمَاءِ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد . وَهُوَ آخِرُ قَوْلَيْ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى . ثُمَّ إذَا قِيلَ : الْخَلْقُ غَيْرُ الْمَخْلُوقِ وَإِنَّهُ قَائِمٌ بِالرَّبِّ فَهَلْ هُوَ خَلْقٌ قَدِيمٌ لَازِمٌ لِذَاتِ الرَّبِّ مَعَ حُدُوثِ الْمَخْلُوقَاتِ كَمَا يَقُولُهُ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرُهُمْ ؟ أَوْ هُوَ خَلْقٌ حَادِثٌ بِذَاتِهِ حَدَثَ لَمَّا حَدَثَ جِنْسُ

الْمَخْلُوقَاتِ ؟ أَمْ خَلْقٌ بَعْدَ خَلْقٍ ؟ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ . وَهَذَا أَوْ هَذَا هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَجُمْهُورُهُمْ . وَهُوَ قَوْلُ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنْ الْكَرَّامِيَة والهشامية وَغَيْرِهِمْ . فَمَنْ قَالَ " إنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ كَلَامًا يَقُومُ بِذَاتِهِ يُمْكِنُهُ أَنْ يَقُولَ : إنَّهُ يَفْعَلُ بِاخْتِيَارِهِ وَمَشِيئَتِهِ فِعْلًا يَقُومُ بِذَاتِهِ " . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ بِقِيَامِ الْأُمُورِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِذَاتِهِ مِنْهُمْ مَنْ يُصَحِّحُ دَلِيلَ الْأَعْرَاضِ وَالِاسْتِدْلَالَ بِهِ عَلَى حُدُوثِ الْأَجْسَامِ كَالْكَرَّامِيَة وَمُتَأَخِّرِي الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالْحَنْبَلِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ . وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُصَحِّحُهُ كَأَئِمَّةِ السَّلَفِ وَأَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ . وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَالْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِمْ

(354/823)

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ يُعَبَّرُ عَنْهَا بِـ " مَسْأَلَةِ التَّأْثِيرِ " هَلْ هُوَ أَمْرٌ وُجُودِيٌّ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ التَّأْثِيرُ زَائِدٌ عَلَى الْمُؤَثِّرِ وَالْأَثَرِ أَمْ لَا ؟ وَكَلَامُ الرَّازِي فِي ذَلِكَ مُخْتَلِفٌ كَمَا قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ . وَعُمْدَةُ الَّذِينَ قَالُوا : إنَّ الْخَلْقَ هُوَ الْمَخْلُوقُ وَالتَّأْثِيرَ هُوَ وُجُودُ الْأَثَرِ لَمْ يُثْبِتُوا زَائِدًا أَنْ قَالُوا : لَوْ كَانَ الْخَلْقُ وَالتَّأْثِيرُ زَائِدًا عَلَى ذَاتِ الْمَخْلُوقِ وَالْأَثَرِ لَكَانَ إمَّا أَنْ يَقُومَ بِمَحَلِّ أَوْ لَا وَالثَّانِي بَاطِلٌ فَإِنَّ الْمَعَانِيَ لَا تَقُومُ بِأَنْفُسِهَا . وَهَذَا رَدٌّ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ قَالُوا : يَقُومُ بِنَفْسِهِ . قَالُوا : وَإِذَا قَامَ بِمَحَلِّ فَإِمَّا أَنْ يَقُومَ بِالْخَالِقِ أَوْ بِغَيْرِهِ وَالثَّانِي بَاطِلٌ لِأَنَّهُ لَوْ قَامَ بِغَيْرِهِ

لَكَانَ ذَلِكَ الْغَيْرُ هُوَ الْخَالِقَ لَا هُوَ . وَهَذَا رَدٌّ عَلَى طَائِفَةٍ ثَانِيَةٍ يَقُولُونَ : إِنَّهُ يَقُومُ بِالْمَخْلُوقِ . وَإِذَا قَامَ بِالْخَالِقِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدِيمًا أَوْ مُحْدَثًا وَلَوْ كَانَ قَدِيمًا لَلَزِمَ قِدَمُ الْمَخْلُوقِ فَإِنَّ الْخَلْقَ وَالْمَخْلُوقَ مُتَلَازِمَانِ . فَوُجُودُ خَلْقٍ بِلَا مَخْلُوقٍ مُمْتَنِعٌ وَكَذَلِكَ وُجُودُ تَأْثِيرٍ بِلَا أَثَرٍ . وَإِنْ كَانَ مُحْدَثًا فَهُوَ بَاطِلٌ لِوَجْهَيْنِ . أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يَلْزَمُ قِيَامُ الْحَوَادِثِ بِهِ . وَالثَّانِي أَنَّ ذَلِكَ الْخَلْقَ الْحَادِثَ يَفْتَقِرُ إِلَى خَلْقٍ آخَرَ وَيَلْزَمُ التَّسَلْسُلُ وَمَعْمَرُ بْنُ عَبَّادٍ الْتَزَمَ التَّسَلْسُلَ وَجَعَلَ لِلْخَلْقِ خَلْقًا وَلِلْخَلْقِ خَلْقًا

(355/823)

لَكِنْ لَا فِي ذَاتِ اللَّهِ وَجَعَلَ ذَلِكَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ . فَهَذِهِ عُمْدَةُ هَؤُلَاءِ . وَكُلُّ طَائِفَةٍ تُخَالِفُهُمْ مَنَعَتْ مُقَدِّمَةً مِنْ مُقَدِّمَاتِ دَلِيلِهِمْ . فَمَنْ جَوَّزَ أَنْ يَقُومَ بِنَفْسِهِ أَوْ بِالْمَخْلُوقِ مَنَعَ تِينِكَ الْمُقَدِّمَتَيْنِ . وَأَمَّا الْجُمْهُورُ فَكُلٌّ أَجَابَ بِحَسَبِ قَوْلِهِ . مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : بَلْ الْخَلْقُ وَالتَّكْوِينُ قَدِيمٌ كَمَا أَنَّ الْإِرَادَةَ عِنْدَكُمْ قَدِيمَةٌ . وَمَعَ الْقَوْلِ بِقِدَمِهَا لَمْ يَلْزَمْ تَقَدُّمُ الْمُرَادِ كَذَلِكَ الْخَلْقُ وَالتَّكْوِينُ قَدِيمٌ وَلَا يَلْزَمُ تَقَدُّمُ الْمَخْلُوقِ . وَهَذَا لَازِمٌ لِلْكِلَابِيَّةِ مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ لَا جَوَابَ لَهُمْ عَنْهُ . لَكِنْ لَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ قِدَمِ إرَادَةٍ مُعَيَّنَةٍ بَلْ نَفْيُ قِدَمِ الْإِرَادَةِ كَمَا يَقُولُهُ الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ . أَوْ يَقُولُ بِقِدَمِ نَوْعِ الْإِرَادَةِ كَمَا يَقُولُهُ أَئِمَّةُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ

وَالْمُتَكَلِّمِينَ وَغَيْرِهِمْ . لَكِنَّ صَاحِبَ هَذَا الْقَوْلِ يُقَالُ لَهُ : التَّكْوِينُ الْقَدِيمُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ بِمَشِيئَتِهِ وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ بِمَشِيئَتِهِ . فَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ مَشِيئَتِهِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ قَدْ خَلَقَ الْخَلْقَ بِلَا مَشِيئَتِهِ . وَإِنْ كَانَ بِمَشِيئَتِهِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْقَدِيمُ مُرَادًا وَهَذَا بَاطِلٌ . وَلَوْ صَحَّ لَأَمْكَنَ كَوْنُ الْعَالَمِ قَدِيمًا مَعَ كَوْنِهِ مَخْلُوقًا

(356/823)

بِخَلْقٍ قَدِيمٍ بِإِرَادَةٍ قَدِيمَةٍ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا بَاطِلٌ . وَلِهَذَا كَانَ كُلُّ مَنْ قَالَ " الْقُرْآنُ قَدِيمٌ " يَقُولُونَ : تَكَلَّمَ بِغَيْرِ مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ . فَالْمَفْعُولُ الْمُرَادُ لَا يَكُونُ إلَّا حَادِثًا وَكَذَلِكَ الْفِعْلُ الْمُرَادُ لَا يَكُونُ إلَّا حَادِثًا . وَأَيْضًا فَهَؤُلَاءِ الْمُنَازِعُونَ لَهُمْ يَقُولُونَ : الْإِرَادَةُ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْمُرَادِ وَالْخَلْقُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَخْلُوقِ . وَمَا ذُكِرَ حُجَّةٌ عَلَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ . فَإِنَّ الْإِرَادَةَ وَالْخَلْقَ مِنْ الْأُمُورِ الْإِضَافِيَّةِ وَثُبُوتُ إرَادَةٍ بِلَا مُرَادٍ وَخَلْقٌ بِلَا مَخْلُوقٍ مُمْتَنِعٌ . لَكِنَّ الْمُنَازِعَ يَقُولُ : تُوجَدُ الْإِرَادَةُ وَالْخَلْقُ وَيَتَأَخَّرُ الْمُرَادُ الْمَخْلُوقُ فَيُقَالُ لِهَؤُلَاءِ تَقُولُونَ : تُوجَدُ الْإِرَادَةُ أَوْ الْخَلْقُ مَعَ الْإِرَادَةِ وَلَا يُوجَدُ لَا الْمُرَادُ وَلَا الْمَخْلُوقُ . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا لَا يَتَنَاهَى مِنْ تَقْدِيرِ الْأَوْقَاتِ يُوجَدُ الْمُرَادُ الْمَخْلُوقُ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ . وَهَذَا مَعْلُومُ الْبُطْلَانِ فِي بِدَايَةِ الْعُقُولِ . فَإِنَّ الْإِرَادَةَ أَوْ الْخَلْقَ كَانَ مَوْجُودًا مَعَ الْقُدْرَةِ . فَإِنْ كَانَ هَذَا مُؤَثِّرًا تَامًّا اسْتَلْزَمَ وُجُودَ الْأَثَرِ وَلَزِمَ وُجُودُ

الْأَثَرِ عِنْدَ وُجُودِ الْمُؤَثِّرِ التَّامِّ . فَإِنَّ الْأَثَرَ " مُمْكِنٌ " وَالْمُمْكِنُ يَجِبُ وُجُودُهُ عِنْدَ وُجُودِ الْمُرَجِّحِ

(357/823)

التَّامِّ إذْ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ كَانَ جَائِزًا بَعْدَ وُجُودِ الْمُرَجِّحِ يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ وَحِينَئِذٍ فَيَفْتَقِرُ إلَى مُرَجِّحٍ . وَهَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّسَلْسُلَ . وَلَا يَنْقَطِعُ التَّسَلْسُلُ إلَّا إذَا وُجِدَ الْمُرَجِّحُ التَّامُّ الْمُوجِبُ .

وَهُنَا تَنَازَعَ النَّاسُ فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِثْلُ مُحَمَّدِ بْنِ الْهَيْصَمِ الكرامي وَمَحْمُودٍ الْخَوَارِزْمِيِّ يَكُونُ الْمُمْكِنُ أَوْلَى بِالْوُقُوعِ لَكِنْ لَا يَنْتَهِي إلَى حَدِّ الْوُجُوبِ . وَقَالَ أَكْثَرُ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ : بَلْ لَا يَصِيرُ أَوْلَى وَلَكِنَّ الْقَادِرَ أَوْ الْقَادِرَ الْمُرِيدَ يُرَجِّحُ أَحَدَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ بِلَا مُرَجِّحٍ . وَآخَرُونَ عَرَفُوا أَنَّ هَذَا لَازِمٌ فَاعْتَرَفُوا بِأَنَّهُ عِنْدَ وُجُودِ الْمُرَجِّحِ التَّامِّ يَجِبُ وُجُودُ الْأَثَرِ وَعِنْدَ الدَّاعِي التَّامِّ مَعَ الْقُدْرَةِ يَجِبُ وُجُودُ الْفِعْلِ كَمَا اعْتَرَفَ بِذَلِكَ أَبُو الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيُّ وَالرَّازِي والطوسي وَغَيْرُهُمْ . وَكَثِيرٌ مِنْ قُدَمَاءِ الْمُتَكَلِّمِينَ يَقُولُونَ بِالْإِرَادَةِ الْمُوجِبَةِ وَأَنَّ الْإِرَادَةَ تَسْتَلْزِمُ وُجُودَ الْمُرَادِ . والمتفلسفة أَوْرَدُوا هَذَا عَلَى الْمُتَكَلِّمِينَ لَكِنْ بِأَنَّ الْأَثَرَ يُقَارِنُ وُجُودَ التَّأْثِيرِ فَيَكُونُ مَعَهُ بِالزَّمَنِ . وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ لَا يَعْرِفُ إلَّا هَذَا الْقَوْلَ وَذَاكَ الْقَوْلُ

كالرَّازي وَغيْره فيبْقوْن حيَارى فِي هَذا الْأَصْل الْعَظِيم الَّذي هُوَ من أَعْظَم أُصُول الْعِلْم وَالدّين وَالْكَلَام . وَقد بسطْنا الْكَلَام على هَذا فِي غير مَوْضِع وَبينا أَن قولا ثَالِثا هُوَ الصَّوَاب الَّذي عَلَيْهِ أَئِمَّة الْعلم . وَهُوَ أَن التَّأْثِير التَّام يسْتَلْزم وجود الْأَثر عَقِبه لَا مَعَه فِي الزَّمَان وَلَا متراخيا عَنهُ . فَمن قَالَ بالتراخي من أهل الْكَلَام فقد غلط وَمن قَالَ بالاقتران كالمتفلسفة فهم أعظم غَلطا . ويلزم قَوْلهم من المحالات مَا قد بَيناهُ فِي مَوَاضِع . وَأما هَذا القَوْل فعلَيْهِ يدل السّمع وَالْعقل . قَالَ الله تَعَالَى ﴿ إِنَّمَا أمره إِذا أَرَادَ شَيْئا أَن يَقُول لَهُ كن فَيكون ﴾ . وَالْعُقَلَاء يَقُولُونَ " قطعته فَانْقَطع وكسرته فانكسر " و " طلق الْمَرْأَة فطلقت وَأعْتق العَبْد فَعتق " . فَالْعِتْق وَالطَّلَاق يقعان عقب الْإِعْتَاق وَالتَّطْلِيق لَا يتراخى الْأَثر وَلَا يُقَارن . وَكَذَلِكَ الانكسار والانقطاع مَعَ الْقطع وَالْكَسْر . وَهَذا مِمَّا يبين أَنه إِذا وجد الْخلق لزم وجود الْمَخْلُوق عقبه كَمَا يُقَال : كون الله الشَّيْء فتكون . فتكونه عقب تكوين الله لَا مَعَ التكوين وَلَا متراخيا .

وَكَذَلِكَ الْإِرَادَةُ التَّامَّةُ مَعَ الْقُدْرَةِ تَسْتَلْزِمُ وُجُودَ الْمُرَادِ الْمَقْدُورِ . فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ فَيُوجَدُ الْخَلْقُ بِإِرَادَتِهِ وَقُدْرَتِهِ . ثُمَّ الْخَلْقُ يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ الْمَخْلُوقِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْخَلْقُ حَادِثًا بِسَبَبٍ آخَرَ يَكُونُ هَذَا عَقِبَهُ . فَإِنَّمَا فِي ذَلِكَ وُجُودُ الْأَثَرِ عَقِبَ الْمُؤَثِّرِ التَّامِّ وَالتَّسَلْسُلِ فِي الْآثَارِ . وَكِلَاهُمَا حَقٌّ وَاللَّهُ أَعْلَمُ . وَأَمَّا الْمَخْلُوقُ فَلَا يَكُونُ إلَّا بَائِنًا عَنْهُ لَا يَقُومُ بِهِ مَخْلُوقٌ . بَلْ نَفْسُ الْإِرَادَةِ مَعَ الْقُدْرَةِ تَقْتَضِي وُجُودَ الْخَلْقِ كَمَا تَقْتَضِي وُجُودَ الْكَلَامِ . وَلَا يَفْتَقِرُ الْخَلْقُ إلَى خَلْقٍ آخَرَ بَلْ يَفْتَقِرُ إلَى مَا بِهِ يَحْصُلُ وَهُوَ الْإِرَادَةُ الْمُتَقَدِّمَةُ . وَإِذَا خَلَقَ شَيْئًا أَرَادَ خَلْقَ شَيْءٍ آخَرَ وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . وَمَنْ قَالَ : إنَّ الْخَلْقَ حَادِثٌ كَالْهِشَامِيَّةِ وَالْكَرَّامِيَّةِ قَالَ : نَحْنُ نَقُولُ بِقِيَامِ الْحَوَادِثِ . وَلَا دَلِيلَ عَلَى بُطْلَانِ ذَلِكَ . بَلْ الْعَقْلُ وَالنَّقْلُ وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ يَدُلُّ عَلَى تَحْقِيقِ ذَلِكَ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ .

وَلَا يُمْكِنُ الْقَوْلُ بِأَنَّ اللَّهَ يُدَبِّرُ هَذَا الْعَالَمَ إلَّا بِذَلِكَ كَمَا اعْتَرَفَ بِذَلِكَ أَقْرَبُ الْفَلَاسِفَةِ إلَى الْحَقِّ كَأَبِي الْبَرَكَاتِ صَاحِبِ " الْمُعْتَبَرِ " وَغَيْرِهِ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : يَلْزَمُ أَنَّ لِلْخَلْقِ خَلْقًا آخَرَ فَقَدْ أَجَابَهُمْ مَنْ يَلْتَزِمُ ذَلِكَ كَالْكَرَّامِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ بِأَنَّكُمْ تَقُولُونَ : إنَّ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُنْفَصِلَةَ تَحْدُثُ بِلَا حُدُوثِ سَبَبٍ أَصْلًا . وَحِينَئِذٍ فَالْقَوْلُ بِحُدُوثِ الْخَلْقِ الَّذِي تَحْصُلُ بِهِ

الْمَخْلُوقَاتُ بِلَا حُدُوثِ سَبَبٍ أَقْرَبُ إِلَى الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ . وَهَذَا جَوَابٌ لَازِمٌ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ تَقْدِيرِ قِيَامِ الْأُمُورِ الِاخْتِيَارِيَّةِ . وَالْكَرَّامِيَّةُ يُسَمُّونَ مَا قَامَ بِهِ " حَادِثًا " وَلَا يُسَمُّونَهُ " مُحْدَثًا " كَالْكَلَامِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ الْقُرْآنُ أَوْ غَيْرُهُ يَقُولُونَ : هُوَ حَادِثٌ وَيَمْنَعُونَ أَنْ يُقَالَ : هُوَ مُحْدَثٌ لِأَنَّ " الْحَادِثَ " يَحْدُثُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ كـ " الْفِعْلِ " . وَأَمَّا " الْمُحْدَثُ " فَيَفْتَقِرُ إِلَى إِحْدَاثٍ فَيَلْزَمُ أَنْ يَقُومَ بِذَاتِهِ إِحْدَاثُ غَيْرِ الْمُحْدَثِ وَذَلِكَ الْإِحْدَاثُ يَفْتَقِرُ إِلَى إِحْدَاثٍ فَيَلْزَمُ التَّسَلْسُلُ . وَأَمَّا غَيْرُ الْكَرَّامِيَّةِ مِنْ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ وَالْكَلَامِ فَيُسَمُّونَ ذَلِكَ " مُحْدَثًا " كَمَا قَالَ ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾

(361/823)

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ . ﴿ إنَّ اللَّهَ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ وَإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ ﴾ . وَالَّذِي أَحْدَثَهُ هُوَ النَّهْيُ عَنْ تَكَلُّمِهِمْ فِي الصَّلَاةِ . وَقَوْلُهُمْ " إنَّ الْمُحْدَثَ يَفْتَقِرُ إلَى إحْدَاثٍ وَهَلُمَّ جَرًّا " هَذَا يَسْتَلْزِمُ التَّسَلْسُلَ فِي الْآثَارِ مِثْلُ كَوْنِهِ مُتَكَلِّمًا بِكَلَامِ بَعْدَ كَلَامٍ وَكَلِمَاتُ اللَّهِ لَا نِهَايَةَ لَهَا وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إذَا شَاءَ . وَهَذَا قَوْلُ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ النَّقْلُ وَالْعَقْلُ . وَكَذَلِكَ أَفْعَالُهُ فَإِنَّ الْفِعْلَ وَالْكَلَامَ صِفَةُ كَمَالٍ . فَإِنَّ مَنْ يَتَكَلَّمُ أَكْمَلُ مِمَّنْ لَا يَتَكَلَّمُ وَمَنْ يَخْلُقُ أَكْمَلُ

مِمَّنْ لَا يَخْلُقُ . قَالَ تَعَالَى ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ . وَحِينَئِذٍ فَهُوَ مَا زَالَ مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ مَنْعُوتًا بِنُعُوتِ الْإِكْرَامِ وَالْجَلَالِ . وَبِهَذَا تَزُولُ أَنْوَاعُ الْإِشْكَالِ وَيُعْلَمُ أَنَّ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَنْ اللَّهِ مِنْ أَصْدَقِ الْأَقْوَالِ وَأَنَّ دَلَائِلَ الْعُقُولِ لَا تَدُلُّ إلَّا عَلَى مَا يُوَافِقُ أَخْبَارَ الرَّسُولِ . وَلَكِنْ نَشَأَ الْغَلَطُ مِنْ جَهْلِ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ

(362/823)

وَسُلُوكِهِمْ أَدِلَّةً بِرَأْيِهِمْ ظَنُّوهَا عَقْلِيَّةً وَهِيَ جَهْلِيَةٌ . فَغَلِطُوا فِي الدَّلَائِلِ السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ فَاخْتَلَفُوا ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ . وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي مَوَاضِعَ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ وَالْأَفْعَالِ وَذُكِرَ مَا تَيَسَّرَ مِنْ كَلَامِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ فِي هَذَا الْأَصْلِ وَالْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى مَآخِذِ الْأَقْوَالِ . وَهَذَا الْمَوْضِعُ مِمَّا بَيَّنَهُ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ كَالْإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ . فَتَكَلَّمَ فِي " الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ " عَلَى قَوْلِهِ ﴿ إنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ . وَبَيَّنَ أَنَّ " الْجَعْلَ " مِنْ اللَّهِ قَدْ يَكُونُ " خَلْقًا " كَقَوْلِهِ ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ وَقَدْ يَكُونُ " فِعْلًا لَيْسَ بِخَلْقٍ " وَقَوْلِهِ ﴿ إنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ مِنْ هَذَا الْبَابِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْخَلْقَ وَنَحْوَهُ مِنْ الْأَفْعَالِ الَّتِي لَيْسَتْ خَلْقًا مِثْلَ تَكَلُّمِهِ بِالْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ وَتَكَلُّمِهِ لِمُوسَى وَغَيْرِهِ وَمِثْلَ النُّزُولِ وَالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَهَذِهِ إنَّمَا تَكُونُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ

وبأفعال أخر تقوم بذاته ليست خلقا . وبهذا يجيب البخاري وغيره من أئمة السنة للكرامية إذا قالوا : " المحدث لا بد له من إحداث ؟ " فيقول : " نعم وذلك الإحداث

(363/823)

فعل ليس بخلق " و " التسلسل " نلتزمه . فإن التسلسل الممتنع هو وجود المتسلسلات في آن واحد ؛ كوجود خالق للخالق وخالق للخالق أو للخلق خلق وللخلق خلق في آن واحد . وهذا ممتنع من وجوه . منها وجود ما لا يتناهى في آن واحد وهذا ممتنع مطلقا . ومنها أن كل ما ذكر يكون " محدثا " لا " ممكنا " وليس فيها موجود بنفسه ينقطع به التسلسل وإذا كان أولى بالامتناع . بخلاف ما إذا قيل " كان قبل هذا الكلام كلام وقبل هذا الفعل فعل " جائز عند أكثر العقلاء أئمة السنة وأئمة الفلاسفة وغيرهم . فإذا قيل " هذا الكلام المحدث أحدثه في نفسه " كان هذا معقولا . وهو مثل قولنا " تكلم به " . وهو معنى قوله ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا ﴾ أي تكلمنا به عربيا وأنزلناه عربيا . وكذلك فسره السلف كإسحاق بن راهويه وذكره عن مجاهد قال : ﴿ جعلناه قرآنا عربيا ﴾ قلناه عربيا ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره عن إسحاق بن راهويه قال : ذكر لنا عن مجاهد وغيره من التابعين ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا ﴾ إنا قلناه ووصفناه . وذكره

عَنْ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ عَنْ الأشجعي عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ فِي قَوْلِهِ ﴿ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ بَيَّنَّاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا . وَالْإِنْسَانُ يُفَرِّقُ بَيْنَ تَكَلُّمِهِ وَتَحَرُّكِهِ فِي نَفْسِهِ وَبَيْنَ تَحْرِيكِهِ لِغَيْرِهِ . وَقَدْ احْتَجَّ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَة وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ بِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ بِـ " كُنْ " . فَلَوْ كَانَتْ " كُنْ " مَخْلُوقَةً لَزِمَ أَنْ يَكُونَ خَلَقَ مَخْلُوقًا بِمَخْلُوقِ فَيَلْزَمُ التَّسَلْسُلُ الْبَاطِلُ . وَذَلِكَ أَنَّهُ إذَا لَمْ يَخْلُقْ إلَّا بِـ " كُنْ " فَلَوْ كَانَتْ " كُنْ " مَخْلُوقَةً لَزِمَ أَنْ لَا يَخْلُقَ شَيْئًا . وَهُوَ الدَّوْرُ الْمُمْتَنِعُ . فَإِنَّهُ لَا يَخْلُقُ شَيْئًا حَتَّى يَقُولَ " كُنْ " وَلَا يَقُولُ " كُنْ " حَتَّى يَخْلُقَهَا فَلَا يَخْلُقُ شَيْئًا . وَهَذَا تَسَلْسُلٌ فِي أَصْلِ التَّأْثِيرِ وَالْفِعْلِ مِثْلُ أَنْ يُقَالَ : لَا يَفْعَلُ حَتَّى يَفْعَلَ فَيَلْزَمُ أَنْ لَا يَفْعَلَ ؛ وَلَا يَخْلُقُ حَتَّى يَخْلُقَ فَيَلْزَمُ أَنْ لَا يَخْلُقَ . وَأَمَّا إذَا قِيلَ : قَالَ " كُنْ " وَقَبْلَ " كُنْ " " كُنْ " وَقَبْلَ " كُنْ " " كُنْ " فَهَذَا لَيْسَ بِمُمْتَنِعِ . فَإِنَّ هَذَا تَسَلْسُلٌ فِي آحَادِ التَّأْثِيرِ لَا فِي جِنْسِهِ . كَمَا أَنَّهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ يَقُولُ " كُنْ " بَعْدَ " كُنْ " وَيَخْلُقُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ إلَى غَيْرِ نِهَايَةٍ .

فَالْمَخْلُوقَاتُ التَّامَّةُ يَخْلُقُهَا بِخَلْقِهِ وَخَلْقُهُ فِعْلُهُ الْقَائِمُ بِهِ وَذَلِكَ إنَّمَا يَكُونُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ .

وَإِذَا قِيلَ: هَذَا الْفِعْلُ الْقَائِمُ بِهِ يَفْتَقِرُ إلَى فِعْلٍ آخَرَ يَكُونُ هُوَ الْمُؤَثِّرَ فِي وُجُودِهِ غَيْرُ الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ مُجَرَّدُ ذَلِكَ كَافِيًا كَفَى فِي وُجُودِ الْمَخْلُوقِ فَلَمَّا كَانَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ خَلْقٍ فَهَذَا الْخَلْقُ أَمْرٌ حَادِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ فِعْلٌ قَائِمٌ بِهِ. فَالْمُؤَثِّرُ التَّامُّ فِيهِ يَكُونُ مُسْتَلْزِمًا لَهُ مُسْتَعْقِبًا لَهُ كَالْمُؤَثِّرِ التَّامِّ فِي وُجُودِ الْكَلَامِ الْحَادِثِ بِذَاتِهِ. وَالْمُتَكَلِّمُ مِنْ النَّاسِ إذَا تَكَلَّمَ فَوُجُودُ الْكَلَامِ لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ مَسْبُوقٌ بِفِعْلِ آخَرَ. فَلَا بُدَّ مِنْ حَرَكَةٍ تَسْتَعْقِبُ وُجُودَ الْحُرُوفِ الَّتِي هِيَ الْكَلَامُ. فَتِلْكَ الْحَرَكَةُ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُ الْكَلَامَ عَرَبِيًّا أَوْ عَجَمِيًّا وَهُوَ فِعْلٌ يَقُومُ بِالْفَاعِلِ. وَذَلِكَ الْجَعْلُ الْحَادِثُ حَدَثَ بِمُؤَثِّرٍ تَامٍّ قَبْلَهُ أَيْضًا. وَذَاتُ الرَّبِّ هِيَ الْمُقْتَضِيَةُ لِذَلِكَ كُلِّهِ. فَهِيَ تَقْتَضِي الثَّانِي بِشَرْطِ انْقِضَاءِ الْأَوَّلِ لَا مَعَهُ. وَاقْتِضَاؤُهَا لِلثَّانِي فِعْلٌ يَقُومُ بِهَا بَعْدَ الْأَوَّلِ. وَهِيَ مُقْتَضِيَةٌ لِهَذَا التَّأْثِيرِ وَهَذَا التَّأْثِيرِ. ثُمَّ هَذَا التَّأْثِيرِ وَكُلُّ تَأْثِيرٍ هُوَ مُسَبَّبٌ عَمَّا قَبْلَهُ وَشَرْطٌ لِمَا بَعْدَهُ. وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مَخْلُوقٌ وَإِنْ كَانَتْ " حَادِثَةً ".

وَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: أَنَا أُسَمِّي هَذَا " خَلْقًا " كَانَ نِزَاعُهُ لَفْظِيًّا وَقِيلَ لَهُ: الَّذِينَ قَالُوا " الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ " لَمْ يَكُنْ مُرَادُهُمْ هَذَا وَلَا رَدَّ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ هَذَا. إنَّمَا رَدُّوا قَوْلَ مَنْ جَعَلَهُ مَخْلُوقًا بَائِنًا

عَنْ اللَّهِ كَمَا قَالَ

الْإِمَامُ أَحْمَد : كَلَامُ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ لَيْسَ بَائِنًا عَنْهُ . وَقَالُوا : الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ . قَالَ أَحْمَد : مِنْهُ بَدَأَ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ لَمْ يَبْدَأْ مِنْ مَخْلُوقٍ كَمَا قَالَ مَنْ قَالَ : إنَّهُ مَخْلُوقٌ . قَالَ تَعَالَى ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ . وَلِهَذَا لَا يَقُولُ أَحَدٌ إنَّهُ خَلَقَ نُزُولَهُ وَاسْتِوَاءَهُ وَمَجِيئَهُ . وَكَذَلِكَ تَكْلِيمُهُ لِمُوسَى وَنِدَاؤُهُ لَهُ نَادَاهُ وَكَلَّمَهُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ . وَالتَّكْلِيمُ فِعْلٌ قَامَ بِذَاتِهِ وَلَيْسَ هُوَ الْخَلْقُ كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ إذَا تَكَلَّمَ فَقَدْ فَعَلَ كَلَامًا وَأَحْدَثَ كَلَامًا وَلَكِنْ فِي نَفْسِهِ لَا مُبَايِنًا لَهُ . وَلِهَذَا كَانَ الْكَلَامُ صِفَةَ فِعْلٍ وَهُوَ صِفَةُ ذَاتٍ أَيْضًا عَلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ . وَمَنْ قَالَ إنَّهُ مَخْلُوقٌ يَقُولُ : إنَّهُ صِفَةُ فِعْلٍ وَيُجْعَلُ الْفِعْلُ بَائِنًا عَنْهُ وَالْكَلَامُ بَائِنًا عَنْهُ . وَمَنْ قَالَ صِفَةُ ذَاتٍ يَقُولُ : إنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِلَا مَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ . وَمَذْهَبُ السَّلَفِ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَكَلَامُهُ قَائِمٌ بِهِ . فَهُوَ صِفَةُ

(367/823)

ذَاتٍ وَصِفَةُ فِعْلٍ . وَلَكِنَّ الْفِعْلَ هُنَا لَيْسَ هُوَ الْخَلْقُ بَلْ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد : الْجَعْلُ جَعْلَانِ جَعْلٌ هُوَ خَلْقٌ وَجَعْلٌ لَيْسَ بِخَلْقِ . وَهَذَا كُلُّهُ يَسْتَلْزِمُ قِيَامَ الْأَفْعَالِ بِذَاتِهِ وَأَنَّهَا تَنْقَسِمُ إلَى قِسْمَيْنِ أَفْعَالٌ مُتَعَدِّيَةٌ كَالْخَلْقِ وَأَفْعَالٌ لَازِمَةٌ كَالتَّكَلُّمِ وَالنُّزُولِ . وَالسَّلَفُ يُثْبِتُونَ

النَّوْعَيْنِ هَذَا وَغَيْرُهُ . وَأَمَّا جَعْلُ الْقُرْآنِ عَرَبِيًّا وَإِنْ كَانَ مُتَعَدِّيًا فِي صِنَاعَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَعْنَى أَنَّهُ نَصَبَ مَفْعُولًا فَفِي " الْكَلَامِ " الْفِعْلُ الَّذِي هُوَ " التَّكَلُّمُ " مُتَّصِلًا بِالْمَفْعُولِ الَّذِي هُوَ " الْكَلَامُ " كِلَاهُمَا قَائِمٌ بِالْمُتَكَلِّمِ . وَلِهَذَا قَدْ يُرَادُ بِالْمَفْعُولِ الْمَصْدَرُ . إذَا قُلْت " قَالَ قَوْلًا حَسَنًا " فَقَدْ يُرَادُ بِـ " الْقَوْلِ " الْمَصْدَرُ فَقَطْ وَقَدْ يُرَادُ بِهِ " الْكَلَامُ " فَقَطْ فَيَكُونُ الْمَفْعُولَ وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الْمَجْمُوعُ فَيَكُونُ مَفْعُولًا بِهِ وَمَصْدَرًا . وَكَذَلِكَ " الْقُرْآنُ " هُوَ فِي الْأَصْلِ " قَرَأَ قُرْآنًا " وَهُوَ الْفِعْلُ وَالْحَرَكَةُ ثُمَّ سُمِّيَ الْكَلَامُ الْمَقْرُوءُ " قُرْآنًا " . قَالَ تَعَالَى فِي الْأَوَّلِ ﴿ إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ وَقَالَ فِي الثَّانِي ﴿ إنَّ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ .

وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبُيِّنَ أَنَّ التِّلَاوَةَ وَالْقِرَاءَةَ فِي

(368/823)

الْأَصْلِ مَصْدَرُ " تَلَا تِلَاوَةً وَقَرَأَ قِرَاءَةً كَالْقُرْآنِ " لَكِنْ يُسَمَّى بِهِ الْكَلَامُ كَمَا يُسَمَّى بِالْقُرْآنِ . وَحِينَئِذٍ فَتَكُونُ الْقِرَاءَةُ هِيَ الْمَقْرُوءَ وَالتِّلَاوَةُ هِيَ الْمَتْلُوَّ . وَقَدْ يُرَادُ بِالتِّلَاوَةِ وَالْقِرَاءَةِ الْمَصْدَرُ الَّذِي هُوَ الْفِعْلُ فَلَا تَكُونُ الْقِرَاءَةُ وَالتِّلَاوَةُ هِيَ الْمَقْرُوءَ الْمَتْلُوَّ بَلْ تَكُونُ مُسْتَلْزِمَةً لَهُ . وَقَدْ يُرَادُ بِالتِّلَاوَةِ وَالْقِرَاءَةِ مَجْمُوعُ الْأَمْرَيْنِ فَلَا تَكُونُ هِيَ الْمَتْلُوَّ لِأَنَّ فِيهَا الْفِعْلَ وَلَا تَكُونُ مُبَايِنَةً مُغَايِرَةً لِلْمَتْلُوِّ لِأَنَّ الْمَتْلُوَّ جُزْؤُهَا . هَذَا إذَا أُرِيدَ بِالْقِرَاءَةِ وَالْمَقْرُوءِ شَيْءٌ وَاحِدٌ مُعَيَّنٌ مِثْلُ

قِرَاءَةِ الرَّبِّ وَمَقْرُوئِهِ أَوْ قِرَاءَةِ الْعَبْدِ وَمَقْرُوئِهِ . وَأَمَّا إِذَا أُرِيدَ بِالْقِرَاءَةِ قِرَاءَةُ الْعَبْدِ وَهِيَ حَرَكَتُهُ وَبِالْمَقْرُوءِ صِفَةُ الرَّبِّ فَلَا رَيْبَ أَنَّ حَرَكَةَ الْعَبْدِ لَيْسَتْ صِفَةَ الرَّبِّ . وَلَكِنْ هَذَا تَكَلُّفٌ . بَلْ قِرَاءَةُ الْعَبْدِ مَقْرُوءُهُ كَمَقْرُوئِهِ . وَقِرَاءَتُهُ لِلْقُرْآنِ إِذَا عَنَى بِهَا نَفْسَ الْقُرْآنِ فَهِيَ مَقْرُوءُهُ . وَإِنْ عَنَى بِهَا حَرَكَتَهُ فَلَيْسَتْ مَقْرُوءَهُ . وَإِنْ عَنَى بِهَا الْأَمْرَانِ فَلَا يُطْلَقُ أَحَدُهُمَا . وَلِهَذَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى السُّنَّةِ مَنْ يَقُولُ : الْقِرَاءَةُ هِيَ الْمَقْرُوءُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : الْقِرَاءَةُ غَيْرُ الْمَقْرُوءِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُطْلِقُ وَاحِدًا

مِنْهُمَا وَلِكُلِّ قَوْلٍ وَجْهٌ مِنْ الصَّوَابِ عِنْدَ التَّصَوُّرِ التَّامِّ وَالْإِنْصَافِ . وَلَيْسَ فِيهَا قَوْلٌ يُحِيطُ بِالصَّوَابِ بَلْ كُلُّ قَوْلٍ فِيهِ صَوَابٌ مِنْ وَجْهٍ وَقَدْ يَكُونُ خَطَأً مِنْ وَجْهٍ آخَرَ . وَالْبُخَارِيُّ إنَّمَا يُثْبِتُ خَلْقَ أَفْعَالِ الْعِبَادِ حَرَكَاتِهِمْ وَأَصْوَاتِهِمْ . وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ هِيَ فِعْلُ الْعَبْدِ يُؤْمَرُ بِهِ وَيُنْهَى عَنْهُ . وَأَمَّا الْكَلَامُ نَفْسُهُ فَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ . وَلَمْ يَقُلْ الْبُخَارِيُّ إنَّ لَفْظَ الْعَبْدِ مَخْلُوقٌ وَلَا غَيْرَ مَخْلُوقٍ كَمَا نَهَى أَحْمَد عَنْ هَذَا وَهَذَا . وَاَلَّذِي قَالَ الْبُخَارِيُّ إنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَصِفَاتِهِمْ لَمْ يَقُلْ أَحْمَد وَلَا غَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ إنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَإِنْ سَكَتُوا عَنْهُ لِظُهُورِ أَمْرِهِ وَلِكَوْنِهِمْ كَانُوا يَقْصِدُونَ الرَّدَّ عَلَى الْجَهْمِيَّة . وَاَلَّذِي قَالَ أَحْمَد إنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ

لَا صِفَةُ الْعِبَادِ لَمْ يَقُلْ الْبُخَارِيُّ إنَّهُ مَخْلُوقٌ . وَلَكِنَّ أَحْمَد كَانَ مَقْصُودُهُ الرَّدَّ عَلَى مَنْ يَجْعَلُ كَلَامَ اللَّهِ مَخْلُوقًا إذَا بَلَّغَ عَنْ اللَّهِ وَالْبُخَارِيّ كَانَ مَقْصُودُهُ الرَّدَّ عَلَى مَنْ يَقُولُ : أَفْعَالُ الْعِبَادِ وَأَصْوَاتُهُمْ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ . وَكِلَا الْقَصْدَيْنِ صَحِيحٌ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهُمَا . وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ ابْنُ قُتَيْبَةَ فِي

مَسْأَلَةِ اللَّفْظِ وَلَكِنَّ الْمُنْحَرِفُونَ إلَى أَحَدِ الطَّرَفَيْنِ يُنْكِرُونَ عَلَى الْآخَرِ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ .

فَصْلٌ :

(370/823)

وَأَمَّا الْأَفْعَالُ اللَّازِمَةُ كَالِاسْتِوَاءِ وَالْمَجِيءِ فَالنَّاسُ مُتَنَازِعُونَ فِي نَفْسِ إثْبَاتِهَا . لِأَنَّ هَذِهِ لَيْسَ فِيهَا مَفْعُولٌ مَوْجُودٌ يَعْلَمُونَهُ حَتَّى يَسْتَدِلُّوا بِثُبُوتِ الْمَخْلُوقِ عَلَى الْخَلْقِ وَإِنَّمَا عُرِفَتْ بِالْخَبَرِ . فَالْأَصْلُ فِيهَا الْخَبَرُ لَا الْعَقْلُ . وَلِهَذَا كَانَ الَّذِينَ يَنْفُونَ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةَ يَنْفُونَهَا مِمَّنْ يَقُولُ " الْخَلْقُ غَيْرُ الْمَخْلُوقِ " . وَمِمَّنْ يَقُولُ " الْخَلْقُ هُوَ الْمَخْلُوقُ " وَمَنْ يُثْبِتُ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةَ مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ يُثْبِتُهَا .

وَاَلَّذِينَ أَثْبَتُوا الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةَ لَهُمْ فِي هَذِهِ قَوْلَانِ :

مِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهَا مِنْ جِنْسِ الْفِعْلِ الْمُتَعَدِّي بِجَعْلِهَا أُمُورًا حَادِثَةً فِي غَيْرِهَا . وَهَذَا قَوْلُ

الْأَشْعَرِيِّ وَأَئِمَّةِ أَصْحَابِهِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ كَالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَابْنِ الزَّاغُونِي وَابْنِ عَقِيلٍ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَقْوَالِهِ . فَالْأَشْعَرِيُّ يَقُولُ : الِاسْتِوَاءُ فِعْلٌ فَعَلَهُ فِي الْعَرْشِ فَصَارَ بِهِ

(371/823)

مُسْتَوِيًا عَلَى الْعَرْشِ . وَكَذَلِكَ يَقُولُ فِي الْإِتْيَانِ وَالنُّزُولِ . وَيَقُولُ : هَذِهِ الْأَفْعَالُ لَيْسَتْ مِنْ خَصَائِصِ الْأَجْسَامِ بَلْ تُوصَفُ بِهَا الْأَجْسَامُ وَالْأَعْرَاضُ فَيُقَالُ " جَاءَتْ الْحُمَّى وَجَاءَ الْبَرْدُ وَجَاءَ الْحَرُّ " وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَهَذَا أَيْضًا قَوْلُ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَغَيْرِهِمَا . وَحَمَلُوا مَا رُوِيَ عَنْ السَّلَفِ كَالْأَوْزَاعِي وَغَيْرِهِ أَنَّهُمْ قَالُوا فِي النُّزُولِ : يَفْعَلُ اللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ بِذَاتِهِ كَمَا حَكَاهُ الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ عَنْ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَكَمَا حَكَوْهُ عَنْ الْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ كَمَا ذُكِرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كُتُبِهِ . وَلَكِنْ عِنْدَهُمْ هَذَا مِنْ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ . وَهَذَا قَوْلُ البيهقي وَطَائِفَةٍ وَهُوَ أَوَّلُ قَوْلَيْ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى . وَكُلُّ مَنْ قَالَ إنَّ الرَّبَّ لَا تَقُومُ بِهِ الصِّفَاتُ الِاخْتِيَارِيَّةُ فَإِنَّهُ يَنْفِي أَنْ يَقُومَ بِهِ فِعْلٌ شَاءَهُ سَوَاءٌ كَانَ لَازِمًا أَوْ مُتَعَدِّيًا . لَكِنْ مَنْ أَثْبَتَ مِنْ هَؤُلَاءِ فِعْلًا قَدِيمًا كَمَنْ يَقُولُ بِالتَّكْوِينِ وَبِهَذَا فَإِنَّهُ يَقُولُ : ذَلِكَ الْقَدِيمُ قَامَ بِهِ بِغَيْرِ مَشِيئَتِهِ كَمَا يَقُولُونَ فِي إرَادَتِهِ الْقَدِيمَةِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي أَنَّهَا كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ أَفْعَالٌ تَقُومُ بِذَاتِهِ بِمَشِيئَتِهِ

وَاخْتِيَارِهِ كَمَا قَالُوا مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْأَفْعَالِ الْمُتَعَدِّيَةِ . وَهَذَا قَوْلُ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَالتَّصَوُّفِ . وَكَثِيرٍ مِنْ أَصْنَافِ أَهْلِ الْكَلَامِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَعَلَى هَذَا يَنْبَنِي نِزَاعُهُمْ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَمَنْ نَفَى هَذِهِ الْأَفْعَالَ يَتَأَوَّلُ إتْيَانَهُ بِإِتْيَانِ أَمْرِهِ أَوْ بَأْسِهِ وَالِاسْتِوَاءَ عَلَى الْعَرْشِ بِجَعْلِهِ الْقُدْرَةَ وَالِاسْتِيلَاءَ أَوْ بِجَعْلِهِ عُلُوَّ الْقَدْرِ . فَإِنَّ الِاسْتِوَاءَ لِلنَّاسِ فِيهِ قَوْلَانِ هَلْ هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْفِعْلِ أَوْ الذَّاتِ عَلَى قَوْلَيْنِ . وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّهُ صِفَةُ ذَاتٍ يَتَأَوَّلُونَهُ بِأَنَّهُ قَدَرَ عَلَى الْعَرْشِ . وَهُوَ مَا زَالَ قَادِرًا وَمَا زَالَ عَالِيَ الْقَدْرِ ؛ فَلِهَذَا ظَهَرَ ضَعْفُ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ وُجُوهٍ . مِنْهَا قَوْلُهُ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ اسْتَوَى بِحَرْفِ " ثُمَّ " .

وَمِنْهَا أَنَّهُ عَطَفَ فِعْلًا عَلَى فِعْلٍ فَقَالَ : خَلَقَ ثُمَّ اسْتَوَى . وَمِنْهَا أَنَّ مَا ذَكَرُوهُ لَا فَرْقَ فِيهِ بَيْنَ الْعَرْشِ وَغَيْرِهِ . وَإِذَا قِيلَ إنَّ الْعَرْشَ أَعْظَمُ الْمَخْلُوقَاتِ فَهَذَا لَا يَنْفِي ثُبُوتَ ذَلِكَ لِغَيْرِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ . لَمَّا ذَكَرَ رُبُوبِيَّتَهُ لِلْعَرْشِ لِعَظَمَتِهِ وَالرُّبُوبِيَّةُ عَامَّةٌ جَازَ أَنْ يُقَالَ " رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ " وَيُقَالُ ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ وَالِاسْتِوَاءُ مُخْتَصٌّ بِالْعَرْشِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ أَنَّهُ مُسْتَوْلٍ مُقْتَدِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا . فَلَوْ كَانَ اسْتِوَاؤُهُ عَلَى الْعَرْشِ هُوَ قُدْرَتَهُ عَلَيْهِ جَازَ أَنْ يُقَالَ : عَلَى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا . وَهَذَا مِمَّا احْتَجَّ بِهِ طَوَائِفُ مِنْهُمْ الْأَشْعَرِيُّ . قَالَ : فِي إجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ الِاسْتِوَاءَ مُخْتَصٌّ بِالْعَرْشِ دَلِيلٌ عَلَى فَسَادِ هَذَا الْقَوْلِ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ مَا زَالَ مُقْتَدِرًا عَلَيْهِ مِنْ حِينِ خَلَقَهُ . وَمِنْهَا كَوْنُ لَفْظِ " الِاسْتِوَاءِ " فِي لُغَةِ الْعَرَبِ يُقَالُ عَلَى الْقُدْرَةِ أَوْ عُلُوِّ الْقَدْرِ مَمْنُوعٌ عِنْدَهُمْ . وَالِاسْتِعْمَالُ الْمَوْجُودُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ يَمْنَعُ هَذَا كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ . وَتَكَلَّمَ عَلَى الْبَيْتِ الَّذِي يَحْتَجُّونَ بِهِ :

ثُمَّ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ ** مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ صَحِيحًا لَمْ يَكُنْ فِيهِ حُجَّةٌ . فَإِنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا : اسْتَوَى عُمَرُ عَلَى الْعِرَاقِ لَمَّا فَتَحَهَا وَلَا اسْتَوَى عُثْمَانُ عَلَى خُرَاسَانَ وَلَا اسْتَوَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْيَمَنِ . وَإِنَّمَا قِيلَ هَذَا الْبَيْتُ إنْ صَحَّ فِي بِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ لَمَّا دَخَلَ الْعِرَاقَ وَاسْتَوَى عَلَى كُرْسِيِّ مُلْكِهَا . فَقِيلَ هَذَا كَمَا يُقَالُ : جَلَسَ عَلَى سَرِيرِ الْمُلْكِ أَوْ تَخْتِ الْمُلْكِ وَيُقَالُ : قَعَدَ عَلَى الْمُلْكِ وَالْمُرَادُ هَذَا . وَأَيْضًا فَالْآيَاتُ الْكَثِيرَةُ وَالْأَحَادِيثُ الْكَثِيرَةُ وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعَ . وَأَمَّا الَّذِينَ قَالُوا : الِاسْتِوَاءُ صِفَةُ فِعْلٍ فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ قَوْلَانِ هُنَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ هَلْ هُوَ فِعْلٌ بَائِنٌ عَنْهُ لِأَنَّ الْفِعْلَ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ أَمْ فِعْلٌ قَائِمٌ بِهِ يَحْصُلُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ . الْأَوَّلُ قَوْلُ ابْنِ كِلَابٍ وَمَنْ اتَّبَعَهُ كَالْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ . وَهُوَ قَوْلُ الْقَاضِي وَابْنِ عَقِيلٍ وَابْنِ الزَّاغُونِي وَغَيْرِهِمْ .

وَالثَّانِي قَوْلُ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ وَكَثِيرٍ مِنْ طَوَائِفِ الْكَلَامِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَلِهَذَا صَارَ لِلنَّاسِ فِيمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ الِاسْتِوَاءِ وَالْمَجِيءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ سِتَّةُ أَقْوَالٍ . طَائِفَةٌ يَقُولُونَ : تَجْرِي عَلَى ظَاهِرِهَا وَيَجْعَلُونَ إتْيَانَهُ مِنْ جِنْسِ إتْيَانِ الْمَخْلُوقِ وَنُزُولَهُ مِنْ جِنْسِ نُزُولِهِمْ . وَهَؤُلَاءِ الْمُشَبِّهَةُ الْمُمَثِّلَةُ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ : إذَا نَزَلَ خَلَا مِنْهُ الْعَرْشُ فَلَمْ يَبْقَ فَوْقَ الْعَرْشِ .

وَطَائِفَةٌ يَقُولُونَ : بَلْ النُّصُوصُ عَلَى ظَاهِرِهَا اللَّائِقِ بِهِ كَمَا فِي سَائِرِ مَا وُصِفَ بِهِ فِي نَفْسِهِ وَهُوَ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ . وَيَقُولُونَ : نَزَلَ نُزُولًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكَذَلِكَ يَأْتِي إتْيَانًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ . وَهُوَ عِنْدَهُمْ يَنْزِلُ وَيَأْتِي وَلَمْ يَزَلْ عَالِيًا وَهُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ كَمَا قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ : هُوَ فَوْقَ الْعَرْشِ يَقْرُبُ مِنْ خَلْقِهِ كَيْفَ شَاءَ . وَقَالَ إسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْه : يَنْزِلُ وَلَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنْ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ فِي رِسَالَتِهِ إلَى مُسَدَّدٍ . وَتَفْسِيرُ النُّزُولِ بِفِعْلِ يَقُومُ بِذَاتِهِ هُوَ قَوْلُ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَهُوَ الَّذِي حَكَاهُ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ عَنْهُمْ وَهُوَ قَوْلُ عَامَّةِ الْقُدَمَاءِ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَقَدْ صَرَّحَ بِهِ ابْنُ حَامِدٍ وَغَيْرُهُ .

وَالْأَوَّلُ نَفْيُ قِيَامِ الْأُمُورِ الِاخْتِيَارِيَّةِ هُوَ قَوْلُ التَّمِيمِيِّ مُوَافَقَةً مِنْهُ لِابْنِ كِلَابٍ وَهُوَ قَوْلُ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَأَتْبَاعِهِ . وَطَائِفَتَانِ يَقُولَانِ : بَلْ لَا يَنْزِلُ وَلَا يَأْتِي كَمَا تَقَدَّمَ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَتَأَوَّلُ ذَلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ يُفَوِّضُ مَعْنَاهُ . وَطَائِفَتَانِ وَاقِفَتَانِ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : مَا نَدْرِي مَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَزِيدُ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ . وَعَامَّةُ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى السُّنَّةِ وَأَتْبَاعُ السَّلَفِ يُبْطِلُونَ تَأْوِيلَ مَنْ تَأَوَّلَ ذَلِكَ بِمَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُسْتَوِي الْآتِي لَكِنْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَرُدُّ التَّأْوِيلَ الْبَاطِلَ وَيَقُولُ : مَا

أَعرِفُ مُرَادَ اللَّهِ بهذَا . ومِنْهُمْ مَن يَقول : هذَا مِمَّا نُهِيَ عَنْ تَفْسِيرِهِ أَوْ مِمَّا يُكْتَمُ تَفْسِيرُهُ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَرِّرُهُ كَمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ وَالْآثَارُ الْكَثِيرَةُ عَنْ السَّلَفِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ . قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ البغوي الْحُسَيْنُ بْنُ مَسْعُودٍ الْفَرَّاءُ الْمُلَقَّبُ بِـ مُحْيِي السُّنَّةِ فِي تَفْسِيرِهِ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَكْثَرُ مُفَسِّرِي السَّلَفِ : أَيْ ارْتَفَعَ إلَى السَّمَاءِ . وَقَالَ الْفَرَّاءُ وَابْنُ كيسان

(377/823)

وَجَمَاعَةٌ مِنْ النَّحْوِيِّينَ : أَيْ أَقْبَلَ عَلَى خَلْقِ السَّمَاءِ . وَقِيلَ : قَصَدَ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي تَفْسِيرِهِ . قَالَ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ ﴾ أَيْ عَمَدَ إلَى خَلْقِهَا .

وَكَذَلِكَ هُوَ يُرَجِّحُ قَوْلَ مَنْ يُفَسِّرُ الْإِتْيَانَ بِإِتْيَانِ أَمْرِهِ وَقَوْلَ مَنْ يَتَأَوَّلُ الِاسْتِوَاءَ . وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي كُتُبٍ أُخْرَى وَوَافَقَ بَعْضَ أَقْوَالِ ابْنِ عَقِيلٍ . قَالَ : ابْنُ عَقِيلٍ لَهُ فِي هَذَا الْبَابِ أَقْوَالٌ مُخْتَلِفَةٌ وَتَصَانِيفُ يَخْتَلِفُ فِيهَا رَأْيُهُ وَاجْتِهَادُهُ . وَقَالَ البغوي فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ : قَالَ الْكَلْبِيُّ وَمُقَاتِلٌ : اسْتَقَرَّ . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : صَعِدَ . وَأَوَّلَتْ الْمُعْتَزِلَةُ الِاسْتِوَاءَ بِالِاسْتِيلَاءِ . وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَيَقُولُونَ : الِاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ صِفَةٌ لِلَّهِ بِلَا كَيْفٍ يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ الْإِيمَانُ بِهِ وَيَكِلُ الْعِلْمَ فِيهِ إلَى اللَّهِ . وَسَأَلَ رَجُلٌ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ عَنْ قَوْلِهِ

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ كَيْفَ اسْتَوَى ؟ فَأَطْرَقَ مَالِكٌ رَأْسَهُ مَلِيًّا وَعَلَاهُ الرُّحَضَاءُ ثُمَّ قَالَ . الِاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ وَمَا أُرَاكَ إلَّا ضَالًّا . ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ .

(378/823)

قَالَ : رُوِيَ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِي وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَتْ فِي الصِّفَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ : أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ . وَقَالَ فِي قَوْلِهِ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ الْأَوْلَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِيمَا شَاكَلَهَا أَنْ يُؤْمِنَ الْإِنْسَانُ بِظَاهِرِهَا وَيَكِلَ عِلْمَهَا إلَى اللَّهِ وَيَعْتَقِدَ أَنَّ اللَّهَ مُنَزَّهٌ عَنْ سِمَاتِ الْحَدَثِ . عَلَى ذَلِكَ مَضَتْ أَئِمَّةُ السَّلَفِ وَعُلَمَاءُ السُّنَّةِ . قَالَ الْكَلْبِيُّ : هَذَا مِنَ الْمَكْتُومِ الَّذِي لَا يُفَسَّرُ . (قُلْت : وَقَدْ حُكِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى ﴾ اسْتَقَرَّ . فَفَسَّرَ ذَاكَ وَجَعَلَ هَذَا مِنَ الْمَكْتُومِ الَّذِي لَا يُفَسَّرُ . لِأَنَّ ذَاكَ فِيهِ وَصْفُهُ بِأَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَهَذَا فِيهِ إتْيَانُهُ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ . قَالَ الْبَغَوِي : وَكَانَ مَكْحُولٌ وَالزُّهْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِي وَمَالِكٌ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَاللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ وَأَحْمَد وَإِسْحَاقُ يَقُولُونَ فِيهِ وَفِي أَمْثَالِهِ : أَمِرُّوهَا كَمَا جَاءَتْ بِلَا كَيْفٍ . قَالَ سُفْيَانُ

بْنُ عُيَيْنَةَ : كُلُّ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ فَتَفْسِيرُهُ قِرَاءَتُهُ وَالسُّكُوتُ عَنْهُ ؛ لَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يُفَسِّرَهُ إلَّا اللَّهُ وَرَسُولُهُ .

(379/823)

وَهَذِهِ الْآيَةُ أَغْمَضُ مِنْ آيَةِ الِاسْتِوَاءِ . وَلِهَذَا كَانَ أَبُو الْفَرَجِ يَمِيلُ إلَى تَأْوِيلِ هَذَا وَيُنْكِرُ قَوْلَ مَنْ تَأَوَّلَ الِاسْتِوَاءَ بِالِاسْتِيلَاءِ . قَالَ فِي تَفْسِيرِهِ قَالَ الْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَد : " الْعَرْشُ " السَّرِيرُ وَكُلُّ سَرِيرٍ لِلْمُلْكِ يُسَمَّى " عَرْشًا " وَقَلَّمَا يُجْمَعُ الْعَرْشُ إلَّا فِي الِاضْطِرَارِ . قُلْت : وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أَبِي رَوْقٍ عَنْ الضَّحَّاكِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : يُسَمَّى " عَرْشًا " لِارْتِفَاعِهِ . قُلْت : وَالِاشْتِقَاقُ يَشْهَدُ لِهَذَا كَقَوْلِهِ ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ . وَقَوْلِ سَعْدٍ : وَهَذَا كَافِرٌ بِالْعَرْشِ . وَمَقْعَدُ الْمَلِكِ يَكُونُ أَعْلَى مِنْ غَيْرِهِ . فَهَذَا بِالنِّسْبَةِ إلَى غَيْرِهِ عَالٍ عَلَيْهِ وَبِالنِّسْبَةِ إلَى مَا فَوْقَهُ هُوَ دُونَهُ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَعْلَى الْجَنَّةِ وَأَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَسَقْفُهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ﴾ . فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْعَرْشَ أَعْلَى الْمَخْلُوقَاتِ كَمَا بُسِطَ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ . قَالَ أَبُو الْفَرَجِ : وَاعْلَمْ أَنَّ ذِكْرَ الْعَرْشِ مَشْهُورٌ عِنْدَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ . قَالَ أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ :

مَجّدُوا اللّهَ فَهُوَ لِلمَجْدِ أَهْلٌ * * رَبُّنَا فِي السَّمَاءِ أَمْسَى كَبِيرًا

بِالْبِنَاءِ الْأَعْلَى الّذِي سَبَقَ النّا * * س وَسَوّى فَوْقَ السّمَاءِ سَرِيرًا

شَرْجَعًا لَا يَنَالُهُ بَصَرُ الْعَيْـ * * ـن تَرَى دُونَهُ الْمَلَائِكُ صُوَرًا

(380/823)

قُلْت : يُرِيدُ أَنَّهُ ذَكَرَهُ مِنْ الْعَرَبِ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا أَخَذَهُ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . فَإِنَّ أُمَيَّةَ وَنَحْوَهُ إنَّمَا أَخَذَ هَذَا عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَإِلَّا فَالْمُشْرِكُونَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ هَذَا . قَالَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيّ وَقَالَ كَعْبٌ : إنَّ السَّمَوَاتِ فِي الْعَرْشِ كَقِنْدِيلٍ مُعَلَّقٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . قَالَ : وَإِجْمَاعُ السَّلَفِ مُنْعَقِدٌ عَلَى أَنْ لَا يَزِيدُوا عَلَى قِرَاءَةِ الْآيَةِ . وَقَدْ شَذَّ قَوْمٌ فَقَالُوا : الْعَرْشُ بِمَعْنَى الْمُلْكِ وَهُوَ عُدُولٌ عَنْ الْحَقِيقَةِ إلَى التَّجَوُّزِ مَعَ مُخَالَفَةِ الْأَثَرِ . أَلَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَهُ ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ أَفَتَرَاهُ كَانَ الْمُلْكُ عَلَى الْمَاءِ ؟ . قَالَ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : اسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوْلَى وَيَسْتَدِلُّ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

حَتَّى اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ * * مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مِهْرَاقِ

وَقَالَ الشَّاعِرُ أَيْضًا :

قَدْ قُلْنَا اسْتَوَيَا بِفَضْلِهِمَا جَمِيعًا * * عَلَى عَرْشِ الْمُلُوكِ بِغَيْرِ زُورِ

قَالَ: وَهُوَ مُنْكَرٌ عِنْدَ اللُّغَوِيِّينَ. قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: إنَّ الْعَرَبَ لَا تَعْلَمُ اسْتَوَى بِمَعْنَى اسْتَوْلَى وَمَنْ قَالَ ذَلِكَ فَقَدْ أَعْظَمَ. قَالَ: وَإِنَّمَا يُقَالُ " اسْتَوْلَى فُلَانٌ عَلَى كَذَا " إذَا كَانَ بَعِيدًا عَنْهُ غَيْرَ مُتَمَكِّنٍ ثُمَّ تَمَكَّنَ مِنْهُ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُسْتَوْلِيًا عَلَى الْأَشْيَاءِ. وَالْبَيْتَانِ لَا يُعْرَفُ قَائِلُهُمَا كَذَا قَالَ ابْنُ فَارِسٍ اللُّغَوِيُّ. وَلَوْ صَحَّا لَمْ يَكُنْ حُجَّةً فِيهِمَا لِمَا بَيَّنَّا مِنْ اسْتِيلَاءِ مَنْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَوْلِيًا نَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْ تَعْطِيلِ الْمَلَاحِدَةِ وَتَشْبِيهِ الْمُجَسِّمَةِ. قُلْت: فَقَدْ تَأَوَّلَ قَوْلَهُ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ ﴾. وَأَنْكَرَ تَأْوِيلَ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾. وَهُوَ فِي لَفْظِ " الْإِتْيَانِ " قَدْ ذَكَرَ الْقَوْلَيْنِ فَقَالَ: قَوْلُهُ ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ ﴾ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنْ السَّلَفِ يُمْسِكُونَ عَنْ مِثْلِ هَذَا. وَقَدْ ذَكَرَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى عَنْ أَحْمَد أَنَّهُ قَالَ: الْمُرَادُ بِهِ قُدْرَتُهُ وَأَمْرُهُ. قَالَ: وَقَدْ بَيَّنَهُ فِي قَوْلِهِ ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾. قُلْت: هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ الْقَاضِي وَغَيْرُهُ أَنَّ حَنْبَلًا نَقَلَهُ عَنْ

أَحْمَد فِي كِتَاب " الْمِحْنَة " أَنَّهُ قَال ذَلِكَ فِي الْمُنَاظَرَة لَهُمْ يَوْمَ الْمِحْنَة لَمَّا احْتَجُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ " تَجِيءُ الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ " قَالُوا : وَالْمَجِيءُ لَا يَكُونُ إلَّا لِمَخْلُوق . فَعَارَضَهُمْ أَحْمَد بِقَوْلِهِ ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ ﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ ﴾ وَقَال : الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ " تَجِيءُ الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ " : ثَوَابُهُمَا كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ ﴾ أَمْرُهُ وَقُدْرَتُهُ . وَقَدْ اخْتَلَفَ أَصْحَابُ أَحْمَد فِيمَا نَقَلَهُ حَنْبَلٌ . فَإِنَّهُ لَا رَيْبَ أَنَّهُ خِلَافُ النُّصُوصِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْ أَحْمَد فِي مَنْعِهِ مِنْ تَأْوِيلِ هَذَا وَتَأْوِيلِ النُّزُولِ وَالِاسْتِوَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأَفْعَالِ . وَلَهُمْ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ . قِيلَ : إنَّ هَذَا غَلَطٌ مِنْ حَنْبَلٍ انْفَرَدَ بِهِ دُونَ الَّذِينَ ذَكَرُوا عَنْهُ الْمُنَاظَرَةَ مِثْلَ صَالِحٍ وَعَبْدِ اللَّهِ والمروذي وَغَيْرِهِمْ . فَإِنَّهُمْ لَمْ يَذْكُرُوا هَذَا وَحَنْبَلٌ يَنْفَرِدُ بِرِوَايَاتِ يُغَلِّطُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ كَالْخَلَّالِ وَصَاحِبِهِ . قَالَ أَبُو إسْحَاقَ ابْنُ شاقلا : هَذَا غَلَطٌ مِنْ حَنْبَلٍ لَا شَكَّ فِيهِ . وَكَذَلِكَ نُقِلَ عَنْ مَالِكٍ رِوَايَةٌ أَنَّهُ تَأَوَّلَ " يَنْزِلُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا " أَنَّهُ يَنْزِلُ أَمْرُهُ . لَكِنَّ هَذَا مِنْ رِوَايَةِ حَبِيبٍ كَاتِبِهِ وَهُوَ كَذَّابٌ بِاتِّفَاقِهِمْ . وَقَدْ رُوِيَتْ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ لَكِنَّ الْإِسْنَادَ مَجْهُولٌ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد : هَذَا قَالَهُ إلْزَامًا لِلْخَصْمِ

عَلَى مَذْهَبِهِ لِأَنَّهُمْ فِي يَوْمِ الْمِحْنَةِ لَمَّا احْتَجُّوا عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ " تَأْتِي الْبَقَرَةُ وَآلُ عِمْرَانَ " أَجَابَهُمْ بِأَنَّ مَعْنَاهُ : يَأْتِي ثَوَابُ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ كَقَوْلِهِ ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ ﴾ أَيْ أَمْرُهُ وَقُدْرَتُهُ عَلَى تَأْوِيلِهِمْ لَا أَنَّهُ يَقُولُ بِذَلِكَ . فَإِنَّ مَذْهَبَهُ تَرْكُ التَّأْوِيلِ . وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ : أَنَّهُمْ جَعَلُوا هَذَا رِوَايَةً عَنْ أَحْمَد وَقَدْ يَخْتَلِفُ كَلَامُ الْأَئِمَّةِ فِي مَسَائِلَ مِثْلِ هَذِهِ لَكِنَّ الصَّحِيحَ الْمَشْهُورَ عَنْهُ رَدُّ التَّأْوِيلِ . وَقَدْ ذَكَرَ الرِّوَايَتَيْنِ ابْنُ الزاغوني وَغَيْرُهُ وَذَكَرَ أَنَّ تَرْكَ التَّأْوِيلِ هِيَ الرِّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ الْمَعْمُولُ عَلَيْهَا عِنْدَ عَامَّةِ الْمَشَايِخِ مِنْ أَصْحَابِنَا . وَرِوَايَةُ التَّأْوِيلِ فَسَّرَ ذَلِكَ بِالْعَمْدِ وَالْقَصْدِ لَمْ يُفَسِّرْهُ بِالْأَمْرِ وَالْقُدْرَةِ كَمَا فَسَّرُوا ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ ﴾ . فَعَلَى هَذَا فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ إذَا قِيلَ بِهِ وَجْهَانِ . وَابْنُ الزاغوني وَالْقَاضِي أَبُو يَعْلَى وَنَحْوُهُمَا وَإِنْ كَانُوا يَقُولُونَ بِإِمْرَارِ الْمَجِيءِ وَالْإِتْيَانِ عَلَى ظَاهِرِهِ فَقَوْلُهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ ابْنِ كُلَّابٍ وَالْأَشْعَرِيِّ . فَإِنَّهُ أَيْضًا يَمْنَعُ تَأْوِيلَ النُّزُولِ وَالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ وَيَجْعَلُهُ مِنْ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ وَيَقُولُ : إنَّ هَذِهِ الْأَفْعَالَ لَا تَسْتَلْزِمُ الْأَجْسَامَ بَلْ يُوصَفُ بِهَا غَيْرُ الْأَجْسَامِ . وَكَلَامُ ابْنِ الزاغوني فِي هَذَا

النَّوْعِ وَفِي اسْتِوَاءِ الرَّبِّ عَلَى الْعَرْشِ هُوَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِ أَبِي الْحَسَنِ نَفْسِهِ . هَذَا قَوْلُهُمْ فِي الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ الْوَارِدَةِ فِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ .

وَأَمَّا عُلُوُّ الرَّبِّ نَفْسِهِ فَوْقَ الْعَالَمِ فَعِنْدَ ابْنِ كِلَابٍ أَنَّهُ مَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ كَقَوْلِ أَكْثَرِ الْمُثْبِتَةِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الخطابي وَابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ وَغَيْرُهُمَا . وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ الزَّاغُونِي وَهُوَ آخِرُ قَوْلَيْ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَكَانَ الْقَاضِي أَوَّلًا يَقُولُ بِقَوْلِ الْأَشْعَرِيِّ : إنَّهُ مِنْ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ . وَهَذَا قَوْلُ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَالْبَيْهَقِي وَنَحْوِهِمَا .

وَأَمَّا أَبُو الْمَعَالِي الجُوَيْنِي وَأَتْبَاعُهُ فَهَؤُلَاءِ خَالَفُوا الْأَشْعَرِيَّ وَقُدَمَاءَ أَصْحَابِهِ فِي الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ فَلَمْ يُثْبِتُوهَا . لَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ نَفَاهَا فَتَأَوَّلَ الِاسْتِوَاءَ بِالِاسْتِيلَاءِ وَهَذَا أَوَّلُ قَوْلَيْ أَبِي الْمَعَالِي ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ تَوَقَّفَ فِي إثْبَاتِهَا وَنَفْيِهَا كالرَّازِي والآمدي . وَآخِرُ قَوْلَيْ أَبِي الْمَعَالِي الْمَنْعُ مِنْ تَأْوِيلِ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ وَذَكَرَ أَنَّ هَذَا إجْمَاعُ السَّلَفِ وَأَنَّ التَّأْوِيلَ لَوْ كَانَ مُسَوَّغًا أَوْ مَحْتُومًا لَكَانَ اهْتِمَامُهُمْ بِهِ أَعْظَمَ مِنْ اهْتِمَامِهِمْ بِغَيْرِهِ . فَاسْتَدَلَّ بِإِجْمَاعِهِمْ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ التَّأْوِيلُ وَجَعَلَ الْوَقْفَ التَّامَّ عَلَى

قَوْلِهِ ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ . ذَكَرَ ذَلِكَ فِي " النِّظَامِيَّةِ فِي الْأَرْكَانِ الْإِسْلَامِيَّةِ " .

وَهَذِهِ طَرِيقَةُ عَامَّةِ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى السُّنَّةِ يَرَوْنَ التَّأْوِيلَ مُخَالِفًا لِطَرِيقَةِ السَّلَفِ . وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَذُكِرَ لَفْظُ " التَّأْوِيلِ " وَمَا فِيهِ مِنْ الْإِجْمَالِ وَالْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِ ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وَأَنَّ كِلَا الْقَوْلَيْنِ حَقٌّ . فَمَنْ قَالَ : لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ فَأَرَادَ بِهِ مَا يُؤَوَّلُ إلَيْهِ الْكَلَامُ مِنْ الْحَقَائِقِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إلَّا اللَّهُ . وَمَنْ قَالَ : إنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ فَالْمُرَادُ بِهِ تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ الَّذِي بَيَّنَهُ الرَّسُولُ وَالصَّحَابَةُ . وَإِنَّمَا الْخِلَافُ فِي لَفْظِ " التَّأْوِيلِ " عَلَى الْمَعْنَى الْمَرْجُوحِ وَأَنَّهُ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ دُونَ الرَّاجِحِ دَلِيلٌ يَقْتَرِنُ بِهِ . فَهَذَا اصْطِلَاحٌ مُتَأَخِّرٌ وَهُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي أَنْكَرَهُ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ تَأْوِيلَاتُ أَهْلِ الْبِدَعِ . وَكَذَلِكَ يَقُولُ أَحْمَد فِي " رَدِّهِ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ " : الَّذِينَ تَأَوَّلُوا الْقُرْآنَ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ . وَقَدْ تَكَلَّمَ أَحْمَد عَلَى مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَفَسَّرَهُ كُلَّهُ .

وَمِنْهُ تَفْسِيرٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عِنْدَ السَّلَفِ وَمِنْهُ تَفْسِيرٌ مُخْتَلَفٌ فِيهِ . وَقَدْ ذَكَرَ الْجَدُّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ فِي تَفْسِيرِهِ مِنْ جِنْسِ مَا ذَكَرَهُ البغوي لَا مِنْ جِنْسِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فَقَالَ : أَمَّا الْإِتْيَانُ الْمَنْسُوبُ إلَى اللَّهِ فَلَا يَخْتَلِفُ قَوْلُ أَئِمَّةِ السَّلَفِ كمكحول وَالزُّهْرِيِّ . وَالْأَوْزَاعِي

وَابْنِ الْمُبَارَكِ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَأَتْبَاعِهِمْ أَنَّهُ يُمَرُّ كَمَا جَاءَ . وَكَذَلِكَ مَا شَاكَلَ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ أَوْ وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ كَأَحَادِيثِ النُّزُولِ وَنَحْوِهَا . وَهِيَ طَرِيقَةُ السَّلَامَةِ وَمَنْهَجُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِظَاهِرِهَا وَيَكِلُونَ عِلْمَهَا إلَى اللَّهِ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنَزَّهٌ عَنْ سِمَاتِ الْحَدَثِ . عَلَى ذَلِكَ مَضَتْ الْأَئِمَّةُ خَلَفًا بَعْدَ سَلَفٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ . وَقَالَ ابْنُ السَّائِبِ فِي قَوْلِهِ ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ ﴾ : هَذَا مِنْ الْمَكْتُومِ الَّذِي لَا يُفَسَّرُ وَذَكَرَ مَا يُشْبِهُ كَلَامَ الخطابي فِي هَذَا . فَإِنْ قِيلَ "كَيْفَ يَقَعُ الْإِيمَانُ بِمَا لَا يُحِيطُ مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِهِ عِلْمًا بِحَقِيقَتِهِ ؟ " فَالْجَوَابُ : كَمَا يَصِحُّ الْإِيمَانُ بِاَللَّهِ

وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالنَّارِ وَالْجَنَّةِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّا لَا نُحِيطُ عِلْمًا بِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى جِهَةِ التَّفْصِيلِ وَإِنَّمَا كُلِّفْنَا الْإِيمَانَ بِذَلِكَ فِي الْجُمْلَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّا لَا نَعْرِفُ عِدَّةً مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَكَثِيرًا مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَلَا نُحِيطُ بِصِفَاتِهِمْ ثُمَّ لَا يَقْدَحُ ذَلِكَ فِي إيمَانِنَا بِهِمْ ؟ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صِفَةِ الْجَنَّةِ : ﴿ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَعْدَدْت لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴾ . (قُلْت : لَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِبُ

الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ وَإِنْ كَانَ الشَّخْصُ لَمْ يَفْقَهْ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا قَالَ وَلَا فَهِمَ مِنْ الْكَلَامِ شَيْئًا فَضْلًا عَنْ الْعَرَبِ . فَلَا يُشْتَرَطُ فِي الْإِيمَانِ الْمُجْمَلِ الْعِلْمُ بِمَعْنَى كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ ؛ هَذَا لَا رَيْبَ فِيهِ . فَكُلُّ مَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ الْقُرْآنِ وَلَمْ يَعْرِفْ مَعْنَاهَا وَجَبَ عَلَيْهِ الْإِيمَانُ بِهَا وَأَنْ يَكِلَ عِلْمَهَا إلَى اللَّهِ فَيَقُولُ " اللَّهُ أَعْلَمُ " . وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ . فَمَا زَالَ كَثِيرٌ مِنْ الصَّحَابَةِ يَمُرُّ بِآيَةِ وَلَفْظٍ لَا يَفْهَمُهُ فَيُؤْمِنُ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَاهُ . لَكِنْ هَلْ يَكُونُ فِي الْقُرْآنِ مَا لَا يَفْهَمُهُ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ . بَلْ وَلَا الرَّسُولُ عِنْدَ مَنْ يَجْعَلُ التَّأْوِيلَ هُوَ " مَعْنَى الْآيَةِ " وَيَقُولُ : إنَّهُ لَا

(388/823)

يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ ؟ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ فِي الْقُرْآنِ كَلَامٌ لَا يَفْهَمُهُ لَا الرَّسُولُ وَلَا أَحَدٌ مِنْ الْأُمَّةِ بَلْ وَلَا جِبْرِيلُ . هَذَا هُوَ الَّذِي يَلْزَمُ عَلَى قَوْلِ مَنْ يَجْعَلُ مَعَانِيَ هَذِهِ الْآيَاتِ لَا يَفْهَمُهُ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ . وَلَيْسَ هَذَا بِمَنْزِلَةِ مَا ذُكِرَ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ . وَالْجَنَّةِ . فَإِنَّا قَدْ فَهِمْنَا الْكَلَامَ الَّذِي خُوطِبْنَا بِهِ وَأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هُنَاكَ نَعِيمًا لَا نَعْلَمُهُ . وَهَذَا خِطَابٌ مَفْهُومٌ وَفِيهِ إخْبَارُنَا أَنَّ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ مَا لَا نَعْلَمُهُ . وَهَذَا حَقٌّ كَقَوْلِهِ ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلَّا هُوَ ﴾ وَقَوْلِهِ لَمَّا سَأَلُوهُ عَنْ الرُّوحِ ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلَّا قَلِيلًا ﴾ . فَهَذَا فِيهِ إخْبَارُنَا بِأَنَّ لِلَّهِ مَخْلُوقَاتٍ لَا

نَعْلَمُهَا أَوْ نَعْلَمُ جِنْسَهُمْ وَلَا نَعْلَمُ قَدْرَهُمْ أَوْ نَعْلَمُ بَعْضَ صِفَاتِهِمْ دُونَ بَعْضٍ . وَكُلُّ هَذَا حَقٌّ لَكِنْ لَيْسَ فِيهِ أَنَّ الْخِطَابَ الْمُنَزَّلَ الَّذِي أُمِرْنَا بِتَدَبُّرِهِ لَا يُفْقَهُ وَلَا يُفْهَمُ مَعْنَاهُ لَا الرَّسُولُ وَلَا الْمُؤْمِنُونَ . فَهَذَا هُوَ الْمُنْكَرُ الَّذِي أَنْكَرَهُ الْعُلَمَاءُ . فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ ﴿ إنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وَقَالَ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ وَقَالَ ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ﴾ وَقَالَ ﴿ حَتَّى إذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ . وَفَرَّقَ بَيْنَ مَا لَمْ يُخْبِرْ بِهِ أَوْ أَخْبَرَنَا بِبَعْضِ

صِفَاتِهِ دُونَ بَعْضٍ فَمَا

لَمْ يُخْبِرْ بِهِ لَا يَضُرُّنَا أَنْ لَا نَعْلَمَهُ وَبَيْنَ مَا أَخْبَرَنَا بِهِ وَهُوَ الْكَلَامُ الْعَرَبِيُّ الَّذِي جَعَلَ هُدًى وَشِفَاءً لِلنَّاسِ . وَقَالَ الْحَسَنُ : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةً إلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْلَمَ فِيمَا أُنْزِلَتْ وَمَا عَنَى بِهَا . فَكَيْفَ يَكُونُ فِي مِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ مَا لَا يَفْهَمُهُ أَحَدٌ قَطُّ ؟ . وَفَرْقٌ بَيْنَ أَنْ يُقَالَ " الرَّبُّ

هُوَ الَّذِي يَأْتِي إتْيَانًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ " أَوْ يُقَالُ " مَا نَدْرِي هَلْ هُوَ الَّذِي يَأْتِي أَوْ أَمْرُهُ " . فَكَثِيرٌ مِنْ لَا يَجْزِمُ بِأَحَدِهِمَا بَلْ يَقُولُ : اُسْكُتْ فَالسُّكُوتُ أَسْلَمُ . وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ فَالسُّكُوتُ لَهُ أَسْلَمُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ ﴾ . لَكِنَّ هُوَ يَقُولُ : إنَّ الرَّسُولَ وَجَمِيعَ الْأُمَّةِ كَانُوا كَذَلِكَ لَا يَدْرُونَ هَلْ الْمُرَادُ بِهِ هَذَا أَوْ هَذَا وَلَا الرَّسُولُ كَانَ يَعْرِفُ ذَلِكَ . فَقَائِلُ هَذَا مُبْطِلٌ مُتَكَلِّمٌ بِمَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ . وَكَانَ يَسَعُهُ أَنْ يَسْكُتَ عَنْ هَذَا لَا يَجْزِمُ بِأَنَّ الرَّسُولَ وَالْأَئِمَّةَ كُلَّهُمْ جُهَّالٌ يَجِبُ عَلَيْهِمْ السُّكُوتُ كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِ . ثُمَّ إنَّ هَذَا خِلَافُ الْوَاقِعِ . فَأَحَادِيثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَلَامُ السَّلَفِ فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ وَنَظَائِرُهَا كَثِيرٌ مَشْهُورٌ . لَكِنْ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ وَدَعُوا مَا يُنْكِرُونَ . أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ " . وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : " مَا

مِنْ

رَجُلٍ يُحَدِّثُ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إلَّا كَانَ فِتْنَةً لِبَعْضِهِمْ " . وَإِذَا قَالَ : بَلْ كَانَ مِنْ السَّلَفِ مَنْ يَجْزِمُ بِأَنَّ الْمُرَادَ هُوَ إتْيَانُهُ نَفْسُهُ فَهَذَا جَزْمٌ بِأَنَّهُمْ عَرَفُوا مَعْنَاهَا وَبُطْلَانَ الْقَوْلِ

الْآخر لَمْ يكونوا ساكِتِين حيارى . ولَا ريْب أَنّ مقْدوره ومأْموره ممّا يأْتي أيضا ولَكِنْ هو يأْتي كما أَخْبر عنْ نفْسه إتْيانا يليق بجلاله . فإذا قيل : لا نعْلم كيْفيّة الاسْتواء كان هذا صحيحا . وإذا كان الْخطاب والْكلام ممّا لا يفْهم أحدٌ معْناه لا الرّسول ولا جبْريل ولا الْمؤْمنون لَمْ يكنْ ممّا يتدبّر ويعْقل . بل مثْل هذا عبثٌ واللّه منزّهٌ عنْ الْعبث . ثمّ هذا يلْزمهمْ في الْأحاديث مثْل قوْله : ﴿ ينْزل ربّنا كل ليْلةٍ إلى السّماء ﴾ . أفكان الرّسول يقول هذا الْحديث ونحْوه وهو لا يفْقه ما يقول ولا يفْهم له معْنًى ؟ سبْحان اللّه هذا بهْتانٌ عظيمٌ وقدْحٌ في الرّسول وتسْليط للْملْحدين . إذا قيل إنّ نفْس الْكلام الّذي جاء به قدْ كان لا يفْهم معْناه قالوا : فغيْره من الْعلوم الْعقْليّة أوْلى أنْ لا يفْهم معْناه . والْكلام إنّما هو في صفات الرّبّ فإذا قيل إنّ ما أُنْزل عليْه منْ

صفات الرّبّ لمْ يكنْ هو ولا غيْره يفْهمه وهو كلام أُمّيٍّ عربيٍّ ينْزل عليْه قيل : فالْمعاني الْمعْقولة في الْأمور الْإلهيّة أوْلى أنْ لا يكون يفْهمها . وحينئذٍ فهذا الْباب لمْ يكنْ موْجودًا في رسالته ولا يؤْخذ منْ جهته لا منْ جهة السّمْع ولا منْ جهة الْعقْل . قالت الْملاحدة : فيؤْخذ منْ طريق غيْره . فإذا قال لهمْ هؤلاء : هذا غيْر ممْكنٍ لأحدٍ منعوا ذلك وقالوا : إنّما في

الْقُرْآنِ أَنَّ ذَلِكَ الْخِطَابَ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهُ إلَّا اللَّهُ . لَكِنْ مِنْ أَيْنَ لَكُمْ أَنَّ الْأُمُورَ الْإِلَهِيَّةَ لَا تُعْلَمُ بِالْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي يَقْصُرُ عَنْهَا الْبَيَانُ بِمُجَرَّدِ الْخِطَابِ وَالْخَبَرِ ؟ وَالْمَلَاحِدَةُ يَقُولُونَ : إنَّ الرُّسُلَ خَاطَبَتْ بِالتَّخْيِيلِ وَأَهْلُ الْكَلَامِ يَقُولُونَ : بِالتَّأْوِيلِ وَهَؤُلَاءِ الظَّاهِرِيَّةُ يَقُولُونَ : بِالتَّجْهِيلِ . وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى خَطَأِ الطَّوَائِفِ الثَّلَاثِ وَبُيِّنَ أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ أَتَى بِغَايَةِ الْعِلْمِ وَالْبَيَانِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَحَدًا مِنْ الْبَشَرِ أَنْ يَأْتِيَ بِأَكْمَلِ مِمَّا جَاءَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا . فَأَكْمَلُ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ تَفَاوُتًا عَظِيمًا . وَقَوْلُ ابْنِ السَّائِبِ : إنَّ هَذَا مِنْ الْمَكْتُومِ الَّذِي لَا يُفَسَّرُ يَقْتَضِي أَنَّ لَهُ تَفْسِيرًا يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ وَيَكْتُمُونَهُ .

(393/823)

وَهَذَا عَلَى وَجْهَيْنِ . إمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ يُكْتَمُ شَيْءٌ مِمَّا بَيَّنَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ جَمِيعِ النَّاسِ فَهَذَا مِنْ الْكِتْمَانِ الْمُجَرَّدِ الَّذِي ذَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ . وَهَذِهِ حَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ . وَعَابَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا بَيَّنَهُ لِلنَّاسِ مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ . وَقَالَ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ . وَهَذِهِ حَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي كِتْمَانِ مَا فِي كِتَابِهِمْ مِنْ الْأَلْفَاظِ يَتَأَوَّلُهَا بَعْضُهُمْ وَيَجْعَلُهَا بَعْضُهُمْ مُتَشَابِهًا . وَهِيَ دَلَائِلُ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَغَيْرِ ذَلِكَ . فَإِنَّ أَلْفَاظَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَسَائِرِ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ

وَهِيَ بِضْعٌ وَعِشْرُونَ كِتَابًا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يُمْكِنُهُمْ جَحْدُ أَلْفَاظِهَا لَكِنْ يُحَرِّفُونَهَا بِالتَّأْوِيلِ الْبَاطِلِ وَيَكْتُمُونَ مَعَانِيَهَا الصَّحِيحَةَ عَنْ عَامَّتِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ . فمن جعل أَهْلَ الْقُرْآنِ كذلك وأَمرهم أَنْ يكونوا فيه أُمِّيِّينَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا تلاوةً فقد أَمرهم بنظيرِ مَا ذمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ أَهْلَ الْكِتَابِ . وَصَبِيغُ بْنُ عسيل التَّمِيمِيُّ إنَّمَا ضَرَبَهُ عُمَرُ لِأَنَّهُ قصد باتِّبَاعِ الْمُتَشَابِهِ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ . وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَابَهُمْ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ لِأَنَّهُمْ

جَمَعُوا شَيْئَيْنِ سُوءَ الْقَصْدِ وَالْجَهْلِ . فَهُمْ لَا يَفْهَمُونَ مَعْنَاهُ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضِ لِيُوقِعُوا بِذَلِكَ الشُّبْهَةَ وَالشَّكَّ . وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّاهُمْ اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ . فَهَذَا فِعْلُ مَنْ يُعَارِضُ النُّصُوصَ بَعْضَهَا بِبَعْضِ لِيُوقِعَ الْفِتْنَةَ وَهِيَ الشَّكُّ وَالرَّيْبُ فِي الْقُلُوبِ كَمَا رُوِيَ أَنَّهُ ﴿ خَرَجَ عَلَى الْقَوْمِ وَهُمْ يَتَجَادَلُونَ فِي الْقَدَرِ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ كَذَا ؟ وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ كَذَا ؟ فَكَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ ثُمَّ قَالَ : أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضَهُ بِبَعْضِ ؟ اُنْظُرُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ فَافْعَلُوهُ ﴾ .

فَكُلُّ مَنْ اتَّبَعَ الْمُتَشَابِهَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ فَهُوَ مَذْمُومٌ . وَهُوَ حَالُ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُشَكِّكَ النَّاسَ فِيمَا عَلِمُوهُ لِكَوْنِهِ وَإِيَّاهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا مَا تَوَهَّمُوا أَنَّهُ يُعَارِضُهُ . هَذَا أَصْلُ الْفِتْنَةِ أَنْ يُتْرَكَ الْمَعْلُومُ لِغَيْرِ مَعْلُومٍ كَالسَّفْسَطَةِ الَّتِي تُورِثُ شُبَهًا يَقْدَحُ بِهَا فِيمَا عُلِمَ وَتُيُقِّنَ . فَهَذِهِ حَالُ مَنْ يُفْسِدُ قُلُوبَ النَّاسِ وَعُقُولَهُمْ بِإِفْسَادِ مَا فِيهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ أَصْلِ الْهُدَى فَإِذَا شَكَّكَهُمْ فِيمَا عَلِمُوهُ بَقُوا حَيَارَى .

وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَتَى بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى

(395/823)

صِدْقِهِ وَالْقُرْآنُ فِيهِ الْآيَاتُ الْمُحْكَمَاتُ اللَّاتِي هِيَ أُمُّ الْكِتَابِ قَدْ عَلِمَ مَعْنَاهَا وَعَلِمَ أَنَّهَا حَقٌّ وَبِذَلِكَ يَهْتَدِي الْخَلْقُ وَيَنْتَفِعُونَ . فَمَنْ اتَّبَعَ الْمُتَشَابِهَ ابْتَغَى الْفِتْنَةَ وَابْتَغَى تَأْوِيلَهُ وَالْأَوَّلُ قَصْدُهُمْ فِيهِ فَاسِدٌ وَالثَّانِي لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهِ بَلْ يَتَكَلَّمُونَ فِي تَأْوِيلِهِ بِمَا يُفْسِدُ مَعْنَاهُ إذْ كَانُوا لَيْسُوا مِنْ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ . وَإِنَّمَا الرَّاسِخُ فِي الْعِلْمِ الَّذِي رَسَخَ فِي الْعِلْمِ بِمَعْنَى الْمُحْكَمِ وَصَارَ ثَابِتًا فِيهِ لَا يَشُكُّ وَلَا يَرْتَابُ فِيهِ بِمَا يُعَارِضُهُ مِنْ الْمُتَشَابِهِ بَلْ هُوَ مُؤْمِنٌ بِهِ قَدْ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ . وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَرْسَخْ فِي ذَلِكَ بَلْ إذَا عَارَضَهُ الْمُتَشَابِهُ شَكَّ فِيهِ فَهَذَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْمُتَشَابِهِ مَا يُنَاقِضُ الْمُحْكَمَ فَلَا يَعْلَمُ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ إذْ لَمْ يَرْسَخْ فِي الْعِلْمِ بِالْمُحْكَمِ

. وَهُوَ يَبْتَغِي الْفِتْنَةَ فِي هَذَا وَهَذَا . فَهَذَا يُعَاقَبُ عُقُوبَةً تَرْدَعُهُ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ بِصَبِيغِ .
وَأَمَّا مَنْ قَصْدُهُ الْهُدَى وَالْحَقُّ فَلَيْسَ مِنْ هَؤُلَاءِ . وَقَدْ كَانَ عُمَرُ يَسْأَلُ وَيُسْأَلُ عَنْ مَعَانِي الْآيَاتِ الدَّقِيقَةِ وَقَدْ سَأَلَ أَصْحَابَهُ عَنْ قَوْلِهِ ﴿ إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فَذَكَرُوا ظَاهِرَ لَفْظِهَا . وَلَمَّا فَسَّرَهَا ابْنُ عَبَّاسٍ بِأَنَّهَا إعْلَامُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقُرْبِ وَفَاتِهِ قَالَ : مَا أَعْلَمُ مِنْهَا إلَّا مَا تَعْلَمُ .

(396/823)

وَهَذَا بَاطِنُ الْآيَةِ الْمُوَافِقُ لِظَاهِرِهَا . فَإِنَّهُ لَمَّا أُمِرَ بِالِاسْتِغْفَارِ عِنْدَ ظُهُورِ الدِّينِ وَالِاسْتِغْفَارُ يُؤْمَرُ بِهِ عِنْدَ خِتَامِ الْأَعْمَالِ وَبِظُهُورِ الدِّينِ حَصَلَ مَقْصُودُ الرِّسَالَةِ عَلِمُوا أَنَّهُ إعْلَامٌ بِقُرْبِ الْأَجَلِ مَعَ أُمُورٍ أُخَرَ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ . وَالِاسْتِدْلَالُ عَلَى الشَّيْءِ بِمَلْزُومَاتِهِ . وَالشَّيْءُ قَدْ يَكُونُ لَهُ لَازِمٌ وَلِلَازِمِهِ لَازِمٌ وَهَلُمَّ جَرًّا . فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ أَفْطَنَ بِمَعْرِفَةِ اللَّوَازِمِ مِنْ غَيْرِهِ يَسْتَدِلُّ بِالْمَلْزُومِ عَلَى اللَّازِمِ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ لَا يَتَصَوَّرُ اللَّازِمَ وَلَوْ تَصَوَّرَهُ لَمْ يَعْرِفْ الْمَلْزُومَ بَلْ يَقُولُ : يَجُوزُ أَنْ يَلْزَمَ وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَلْزَمَ ؛ وَيُحْتَمَلُ وَيُحْتَمَلُ . وَتَرَدُّدُ الِاحْتِمَالِ هُوَ مِنْ عَدَمِ الْعِلْمِ وَإِلَّا فَالْوَاقِعُ هُوَ أَحَدُ أَمْرَيْنِ . فَحَيْثُ كَانَ احْتِمَالٌ بِلَا تَرْجِيحٍ كَانَ لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِالْوَاقِعِ وَخَفَاءِ دَلِيلِهِ وَغَيْرُهُ قَدْ يَعْلَمُ ذَلِكَ وَيَعْلَمُ دَلِيلَهُ . وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ مَا لَا يَعْلَمُهُ هُوَ لَا

يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ كَانَ مِنْ جَهْلِهِ . فَلَا يَنْفِي عَنْ النَّاسِ إلَّا مَا عَلِمَ انْتِفَاؤُهُ عَنْهُمْ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ أَعْلَمُ مِنْهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْأَمْرُ إلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعَ . ثُمَّ إنَّهُمْ يَقُولُونَ : الْمَأْثُورُ عَنْ السَّلَفِ هُوَ السُّكُوتُ عَنْ الْخَوْضِ فِي

(397/823)

تَأْوِيلِ ذَلِكَ وَالْمَصِيرُ إلَى الْإِيمَانِ بِظَاهِرِهِ وَالْوُقُوفُ عَنْ تَفْسِيرِهِ لِأَنَّا قَدْ نُهِينَا أَنْ نَقُولَ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِرَأْيِنَا وَلَمْ يُنَبِّهْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى حَقِيقَةِ مَعْنَى ذَلِكَ . فَيُقَالُ : أَمَّا كَوْنُ الرَّجُلِ يَسْكُتُ عَمَّا لَا يَعْلَمُ فَهَذَا مِمَّا يُؤْمَرُ بِهِ كُلُّ أَحَدٍ . لَكِنَّ هَذَا الْكَلَامَ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ لَمْ يَعْلَمُوا مَعْنَى الْآيَةِ وَتَفْسِيرَهَا وَتَأْوِيلَهَا . وَإِذَا كَانَ لَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُمْ فَمَضْمُونُهُ عَدَمُ عِلْمِهِمْ بِذَلِكَ وَهُوَ كَلَامُ شَاكٍّ لَا يَعْلَمُ مَا أُرِيدَ بِالْآيَةِ . ثُمَّ إذَا ذَكَرَ لَهُمْ بَعْضَ التَّأْوِيلَاتِ كَتَأْوِيلِ مَنْ يُفَسِّرُهُ بِإِتْيَانِ أَمْرِهِ وَقُدْرَتِهِ أَبْطَلُوا ذَلِكَ بِأَنَّ هَذَا يُسْقِطُ فَائِدَةَ التَّخْصِيصِ . وَهَذَا نَفْيٌ لِلتَّأْوِيلِ وَإِبْطَالٌ لَهُ . فَإِذَا قَالُوا مَعَ ذَلِكَ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ ﴾ أَثْبَتُوا تَأْوِيلًا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَهُمْ يَنْفُونَ جِنْسَ التَّأْوِيلِ . وَنَقُولُ مَا الْحَامِلُ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ الْبَعِيدِ ؟ وَقَدْ أَمْكَنَ بِدُونِهِ أَنْ نُثْبِتَ إتْيَانًا وَمَجِيئًا لَا يُعْقَلُ كَمَا يَلِيقُ بِهِ كَمَا أَثْبَتْنَا ذَاتًا لَهَا حَقِيقَةٌ لَا تُعْقَلُ وَصِفَاتٍ مِنْ سَمْعٍ وَبَصَرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ لَا تُعْقَلُ .

وَلِأَنَّهُ إذَا جَازَ تَأْوِيلُ هَذَا وَأَنْ نُقَدِّرَ مُضْمَرًا مَحْذُوفًا مِنْ قُدْرَةٍ أَوْ عَذَابٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَمَا مَنَعَكُمْ مِنْ تَأْوِيلِ قَوْلِهِ "تَرَوْنَ رَبَّكُمْ" كَذَلِكَ ؟ .

(398/823)

وَهَذَا كَلَامٌ فِي إبْطَالِ التَّأْوِيلِ وَحَمْلِ اللَّفْظِ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُهُ عَلَى مَا يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ . فَإِذَا قِيلَ مَعَ هَذَا : إنَّ لَهُ تَأْوِيلًا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَأُرِيدَ بِالتَّأْوِيلِ هَذَا الْجِنْسُ كَانَ تَنَاقُضًا . كَيْفَ يَنْفِي جِنْسَ التَّأْوِيلِ وَيُثْبِتُ لَهُ تَأْوِيلًا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ . فَعُلِمَ أَنَّ التَّأْوِيلَ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ لَا يُنَاقِضُ حَمْلَهُ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ بَلْ هُوَ أَمْرٌ آخَرُ يُحَقِّقُ هَذَا وَيُوَافِقُهُ لَا يُنَاقِضُهُ وَيُخَالِفُهُ كَمَا قَالَ مَالِكٌ : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَمْكَنَ أَنَّ مِنْ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَعْلَمُ مِنْ مَعْنَى الْآيَةِ مَا يُوَافِقُ الْقُرْآنَ لَمْ يَعْلَمْهُ غَيْرُهُ وَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ تَفْسِيرِهَا . وَهُوَ مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ كَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ مَجِيءُ اللَّهِ قَطْعًا لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ لِكَثْرَةِ مَا دَلَّ عِنْدَهُ عَلَى ذَلِكَ . وَيَعْلَمُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى يَأْتِي إتْيَانًا تَكُونُ الْمَخْلُوقَاتُ مُحِيطَةً بِهِ وَهُوَ تَحْتَهَا . فَإِنَّ هَذَا مُنَاقِضٌ لِكَوْنِهِ الْعَلِيَّ الْأَعْلَى . وَالْجَدُّ الْأَعْلَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ جَرَى فِي تَفْسِيرِهِ عَلَى مَا ذَكَرَ مِنْ الطَّرِيقَةِ . وَهَذِهِ عَادَتُهُ وَعَادَاتُ غَيْرِهِ .

وَذَكَرَ كَلَامَ ابْنِ الزَّاغُونِي فَقَالَ قَالَ الشَّيْخُ عَلِيُّ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ الزَّاغُونِي : وَقَدْ اخْتَلَفَ كَلَامُ إمَامِنَا أَحْمَد فِي هَذَا الْمَجِيءِ هَلْ يُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِهِ وَهَلْ يَدْخُلُ التَّأْوِيلُ ؟ عَلَى رِوَايَتَيْنِ . إحْدَاهُمَا أَنَّهُ يُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِهِ مِنْ مَجِيءِ ذَاتِهِ . فَعَلَى هَذَا يَقُولُ : لَا يَدْخُلُ التَّأْوِيلُ إلَّا أَنَّهُ لَا يَجِبُ أَنْ يُحْمَلَ مَجِيئُهُ بِذَاتِهِ إلَّا عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ . وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ لَا يُحْمَلُ إثْبَاتُ مَجِيءٍ هُوَ زَوَالٌ وَانْتِقَالٌ يُوجِبُ فَرَاغَ مَكَانٍ وَشَغْلَ آخَرَ مِنْ جِهَةِ أَنَّ هَذَا يُعْرَفُ بِالْجِنْسِ فِي حَقِّ الْمُحْدِثِ الَّذِي يَقْصُرُ عَنْ اسْتِيعَابِ الْمَوَاضِعِ وَالْمَوَاطِنِ لِأَنَّهَا أَكْبَرُ مِنْهُ وَأَعْظَمُ يَفْتَقِرُ مَجِيئُهُ إلَيْهَا إلَى الِانْتِقَالِ عَمَّا قَرُبَ إلَى مَا بَعُدَ . وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّ الْبَارِي تَعَالَى لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَعْظَمَ مِنْهُ وَلَا يَحْتَاجُ فِي مَجِيئِهِ إلَى انْتِقَالٍ وَزَوَالٍ لِأَنَّ دَاعِيَ ذَلِكَ وَمُوجِبَهُ لَا يُوجَدُ فِي حَقِّهِ . فَأَثْبَتْنَا الْمَجِيءَ صِفَةً لَهُ وَمَنَعْنَا مَا يُتَوَهَّمُ فِي حَقِّهِ مَا يَلْزَمُ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِينَ لِاخْتِلَافِهِمَا فِي الْحَاجَةِ إلَى ذَلِكَ . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ . وَمِثْلُهُ الْحَدِيثُ الْمَشْهُورُ الَّذِي رَوَاهُ عَامَّةُ الصَّحَابَةِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ يَنْزِلُ اللَّهُ إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ

اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ﴾ . فَنَحْنُ نُثْبِتُ وَصْفَهُ بِالنُّزُولِ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا بِالْحَدِيثِ وَلَا نَتَأَوَّلُ مَا ذَكَرُوهُ وَلَا نُلْحِقُهُ بِنُزُولِ الْآدَمِيِّينَ الَّذِي هُوَ زَوَالٌ وَانْتِقَالٌ مِنْ عُلُوٍّ إلَى أَسْفَلَ بَلْ نُسَلِّمُ لِلنَّقْلِ كَمَا وَرَدَ وَنَدْفَعُ التَّشْبِيهَ لِعَدَمِ مُوجِبِهِ . وَنَمْنَعُ مِنْ التَّأْوِيلِ لِارْتِفَاعِ نِسْبَتِهِ . قَالَ : وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ هِيَ الْمَشْهُورَةُ وَالْمَعْمُولُ عَلَيْهَا عِنْدَ عَامَّةِ الْمَشَايِخِ مِنْ أَصْحَابِنَا . (قُلْت : أَمَّا كَوْنُ إتْيَانِهِ وَمَجِيئِهِ وَنُزُولِهِ لَيْسَ مِثْلَ إتْيَانِ الْمَخْلُوقِ وَمَجِيئِهِ وَنُزُولِهِ فَهَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ وَمَنْ لَهُ عَقْلٌ . فَإِنَّ الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالَ تَتْبَعُ الذَّاتَ الْمُتَّصِفَةَ الْفَاعِلَةَ . فَإِذَا كَانَتْ ذَاتُهُ مُبَايِنَةً لِسَائِرِ الذَّوَاتِ لَيْسَتْ مِثْلَهَا لَزِمَ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ صِفَاتُهُ مُبَايِنَةً لِسَائِرِ الصِّفَاتِ لَيْسَتْ مِثْلَهَا . وَنِسْبَةُ صِفَاتِهِ إلَى ذَاتِهِ كَنِسْبَةِ صِفَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ إلَى ذَاتِهِ . وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى الْعَظِيمُ فَهُوَ أَعْلَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . فَلَا يَكُونُ نُزُولُهُ وَإِتْيَانُهُ بِحَيْثُ تَكُونُ الْمَخْلُوقَاتُ تُحِيطُ بِهِ أَوْ تَكُونُ أَعْظَمَ مِنْهُ وَأَكْبَرَ هَذَا مُمْتَنِعٌ . وَأَمَّا لَفْظُ " الزَّوَالِ " و " الِانْتِقَالِ " فَهَذَا اللَّفْظُ مُجْمَلٌ وَلِهَذَا كَانَ

أَهْلُ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ فِيهِ عَلَى أَقْوَالٍ . فَعُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدارمي وَغَيْرُهُ أَنْكَرُوا عَلَى الْجَهْمِيَّةِ قَوْلَهُمْ : إنَّهُ لَا يَتَحَرَّكُ وَذَكَرُوا أَثَرًا أَنَّهُ لَا يَزُولُ وَفَسَّرُوا الزَّوَالَ بِالْحَرَكَةِ . فَبَيَّنَ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ أَنَّ ذَلِكَ الْأَثَرَ إنْ كَانَ صَحِيحًا لَمْ يَكُنْ حُجَّةً لَهُمْ لِأَنَّهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ذَكَرُوا عَنْ ثَابِتٍ : دَائِمٌ بَاقٍ لَا يَزُولُ عَمَّا يَسْتَحِقُّهُ كَمَا قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ . لَا يَزُولُ عَنْ مَكَانَتِهِ . قُلْت : وَالْكَلْبِيُّ بِنَفْسِهِ الَّذِي رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ هُوَ يَقُولُ : ﴿ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ اسْتَقَرَّ وَيَقُولُ : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ ﴾ صَعِدَ إلَى السَّمَاءِ . وَأَمَّا " الِانْتِقَالُ " فَابْنُ حَامِدٍ وَطَائِفَةٌ يَقُولُونَ : يَنْزِلُ بِحَرَكَةِ وَانْتِقَالٍ . وَآخَرُونَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ كَالتَّمِيمِيِّ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد أَنْكَرُوا هَذَا وَقَالُوا : بَلْ يَنْزِلُ بِلَا حَرَكَةٍ وَانْتِقَالٍ . وَطَائِفَةٌ ثَالِثَةٌ كَابْنِ بَطَّةَ وَغَيْرِهِ يَقِفُونَ فِي هَذَا . وَقَدْ ذَكَرَ الْأَقْوَالَ الثَّلَاثَةَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى فِي كِتَابِ " اخْتِلَافِ الرِّوَايَتَيْنِ وَالْوَجْهَيْنِ وَنَفْيِ اللَّفْظِ بِمُجْمَلِهِ " . وَالْأَحْسَنُ فِي هَذَا الْبَابِ مُرَاعَاةُ أَلْفَاظِ النُّصُوصِ فَيُثْبِتُ مَا

أَثْبَتَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِاللَّفْظِ الَّذِي أَثْبَتَهُ وَيَنْفِي مَا نَفَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ كَمَا نَفَاهُ . وَهُوَ أَنْ يُثْبِتَ النُّزُولَ وَالْإِتْيَانَ وَالْمَجِيءَ ؛ وَيَنْفِي الْمِثْلَ وَالسَّمِيَّ وَالْكُفْؤَ وَالنِّدَّ . وَبِهَذَا يَحْتَجُّ الْبُخَارِيُّ

وَغَيْرُهُ عَلَى نَفْيِ الْمِثْلِ . يُقَالُ : يَنْزِلُ نُزُولًا لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ نَزَلَ نُزُولًا لَا يُمَاثِلُ نُزُولَ الْمَخْلُوقِينَ نُزُولًا يَخْتَصُّ بِهِ كَمَا أَنَّهُ فِي ذَلِكَ وَفِي سَائِرِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي ذَلِكَ . وَهُوَ مُنَزَّهٌ أَنْ يَكُونَ نُزُولُهُ كَنُزُولِ الْمَخْلُوقِينَ وَحَرَكَتِهِمْ وَانْتِقَالِهِمْ وَزَوَالِهِمْ مُطْلَقًا لَا نُزُولَ الْآدَمِيِّينَ وَلَا غَيْرِهِمْ . فَالْمَخْلُوقُ إذَا نَزَلَ مِنْ عُلْوٍ إلَى سُفْلٍ زَالَ وَصْفُهُ بِالْعُلُوِّ وَتَبَدَّلَ إلَى وَصْفِهِ بِالسُّفُولِ وَصَارَ غَيْرُهُ أَعْلَى مِنْهُ . وَالرَّبُّ تَعَالَى لَا يَكُونُ شَيْءٌ أَعْلَى مِنْهُ قَطُّ بَلْ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى وَلَا يَزَالُ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى مَعَ أَنَّهُ يَقْرُبُ إلَى عِبَادِهِ وَيَدْنُو مِنْهُمْ وَيَنْزِلُ إلَى حَيْثُ شَاءَ وَيَأْتِي كَمَا شَاءَ . وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِي عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ . فَهَذَا وَإِنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهِ غَيْرُهُ فَلِعَجْزِ الْمَخْلُوقِ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا . كَمَا يَعْجِزُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ وَالظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ .

(403/823)

وَلِهَذَا قِيلَ لِأَبِي سَعِيدٍ الْخَرَّازِ بِمَ عَرَفْت اللَّهَ ؟ قَالَ : " بِالْجَمْعِ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ " . وَأَرَادَ أَنَّهُ يَجْتَمِعُ لَهُ مَا يَتَنَاقَضُ فِي حَقِّ الْخَلْقِ كَمَا اجْتَمَعَ لَهُ أَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَغَيْرِهَا مِنْ الْأَعْيَانِ وَالْأَفْعَالِ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ الْخُبْثِ وَأَنَّهُ عَدْلٌ حَكِيمٌ رَحِيمٌ . وَأَنَّهُ يُمَكِّنُ مَنْ مَكَّنَهُ مِنْ عِبَادِهِ مِنْ الْمَعَاصِي مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى مَنْعِهِمْ وَهُوَ فِي ذَلِكَ حَكِيمٌ عَادِلٌ . فَإِنَّهُ

أَعْلَمُ الْأَعْلَمِينَ وَأَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ وَخَيْرُ الْفَاتِحِينَ ؛ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ . فَأَنْ لَا يُحِيطُوا عِلْمًا بِمَا هُوَ أَعْظَمُ فِي ذَلِكَ أَوْلَى وَأَحْرَى . وَقَدْ سَأَلُوا عَنْ الرُّوحِ فَقِيلَ لَهُمْ ﴿ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ أَنَّ الْخَضِرَ قَالَ لِمُوسَى لَمَّا نَقَرَ عُصْفُورٌ فِي الْبَحْرِ : مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَمَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ ﴾ . فَالَّذِي يُنْفَى عَنْهُ وَيُنَزَّهُ عَنْهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُنَاقِضًا لِمَا عُلِمَ مِنْ صِفَاتِهِ الْكَامِلَةِ فَهَذَا يُنْفَى عَنْهُ جِنْسُهُ كَمَا قَالَ : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ . فَجِنْسُ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ وَالْمَوْتِ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا " إنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ كَمَا يَلِيقُ بِشَأْنِهِ " لِأَنَّ هَذَا الْجِنْسَ يُوجِبُ نَقْصًا فِي كَمَالِهِ .

(404/823)

وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : هُوَ يَكُونُ فِي السُّفْلِ لَا فِي الْعُلُوِّ وَهُوَ سُفُولٌ يَلِيقُ بِجَلَالِهِ . فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى لَا يَكُونُ قَطُّ إلَّا عَالِيًا وَالسُّفُولُ نَقْصٌ هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ . وَقَوْلُهُ " وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ " لَا يَقْتَضِي السُّفُولَ إلَّا عِنْدَ جَاهِلٍ لَا يَعْلَمُ حَقِيقَةَ الْعُلُوِّ وَالسُّفُولِ فَيَظُنُّ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَمَا فِيهَا قَدْ تَكُونُ تَحْتَ الْأَرْضِ إمَّا بِاللَّيْلِ وَإِمَّا بِالنَّهَارِ . وَهَذَا غَلَطٌ

كَمَنْ يَظُنُّ أَنَّ مَا فِي السَّمَاءِ مِنْ الْمَشْرِقِ يَكُونُ تَحْتَ مَا فِيهَا مِمَّا فِي الْمَغْرِبِ . فَهَذَا أَيْضًا غَلَطٌ . بَلْ السَّمَاءُ لَا تَكُونُ قَطُّ إلَّا عَالِيَةً عَلَى الْأَرْضِ وَإِنْ كَانَ الْفُلْكُ مُسْتَدِيرًا مُحِيطًا بِالْأَرْضِ فَهُوَ الْعَالِي عَلَى الْأَرْضِ عُلُوًّا حَقِيقِيًّا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ . وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوَاضِعَ .

وَالنَّوْعُ الثَّانِي : أَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يُمَاثِلَهُ شَيْءٌ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ فَالْأَلْفَاظُ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فِي الْإِثْبَاتِ تُثْبَتُ وَاَلَّتِي جَاءَتْ بِالنَّفْيِ تُنْفَى . وَالْأَلْفَاظُ الْمُجْمَلَةُ كَلَفْظِ " الْحَرَكَةِ " و " النُّزُولِ " و " الِانْتِقَالِ " يَجِبُ أَنْ يُقَالَ فِيهَا : إنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقِينَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لَا يُمَاثِلُ الْمَخْلُوقَ لَا فِي نُزُولٍ وَلَا فِي حَرَكَةٍ وَلَا انْتِقَالٍ وَلَا زَوَالٍ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ . وَأَمَّا إثْبَاتُ هَذَا الْجِنْسِ كَلَفْظِ " النُّزُولِ " أَوْ نَفْيُهُ

(405/823)

مُطْلَقًا كَلَفْظِ " النَّوْمِ " و " الْمَوْتِ " فَقَدْ يَسْلُكُ كِلَاهُمَا طَائِفَةٌ تَنْتَسِبُ إلَى السُّنَّةِ . وَالْمُثْبِتَةُ يَقُولُونَ : تُثْبِتُ حَرَكَةً أَوْ حَرَكَةً وَانْتِقَالًا أَوْ حَرَكَةً وَزَوَالًا تَلِيقُ بِهِ كَالنُّزُولِ وَالْإِتْيَانِ اللَّائِقِ بِهِ . وَالنُّفَاةُ يَقُولُونَ : بَلْ هَذَا الْجِنْسُ يَجِبُ نَفْيُهُ . ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَنْفِي جِنْسَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُومَ بِهِ شَيْءٌ مِنْ الْأَحْوَالِ الْمُتَجَدِّدَةِ . وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْكُلَّابِيَة وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَى السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ . وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَنْفِي فِي ذَلِكَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ النَّصُّ وَلَا

يَنْفِي هَذَا الْجِنْسَ مُطْلَقًا بِمَا ذَكَرُوهُ مِنْ أَنَّهُ لَا تَقُومُ بِهِ الْحَوَادِثُ لِمَا قَدْ عُلِمَ بِالْآيَاتِ وَالسُّنَّةِ وَالْعَقْلِ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَأَنَّهُ يُحِبُّ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إذَا اتَّبَعَ رَسُولَهُ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْمَعَانِي الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ . بَلْ يَنْفِي مَا نَاقَضَ صِفَاتِ كَمَالِهِ وَيَنْفِي مُمَاثَلَةَ مَخْلُوقٍ لَهُ . فَهَذَانِ هُمَا اللَّذَانِ يَجِبُ نَفْيُهُمَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَكَذَلِكَ إذَا قَالَ الْقَائِلُ : اللَّهُ يَجِبُ تَنْزِيهُهُ عَنْ سِمَاتِ الْحَدَثِ أَوْ

عَلَامَاتِ الْحَدَثِ أَوْ كُلِّ مَا أَوْجَبَ نَقْصًا وَحُدُوثًا فَالرَّبُّ مُنَزَّهٌ عَنْهُ فَهَذَا كَلَامٌ حَقٌّ مَعْلُومٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . لَكِنَّ الشَّأْنَ فِيمَا تَقُولُ النَّافِيَةُ . إنَّهُ مِنْ سِمَاتِ الْحَدَثِ وَآخَرُونَ يُنَازِعُونَهُمْ . لَا سِيَّمَا وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ تُنَاقِضُ قَوْلَهُمْ قَالَتْ الْجَهْمِيَّةُ : إنَّ قِيَامَ الصِّفَاتِ بِهِ . أَوْ قِيَامَ الصِّفَاتِ الِاخْتِيَارِيَّةِ هُوَ مِنْ سِمَاتِ الْحَدَثِ . وَهَذَا بَاطِلٌ عِنْدَ السَّلَفِ وَأَئِمَّةِ السُّنَّةِ بَلْ وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ بَلْ مَا ذَكَرُوهُ يَقْتَضِي حُدُوثَ كُلِّ شَيْءٍ . فَإِنَّهُ مَا مِنْ مَوْجُودٍ إلَّا وَلَهُ صِفَاتٌ تَقُومُ بِهِ وَتَقُومُ بِهِ أَحْوَالٌ تَحْصُلُ بِالْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ . فَإِنْ كَانَ هَذَا مُسْتَلْزِمًا لِلْحُدُوثِ لَزِمَ حُدُوثُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنْ لَا يَكُونَ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ قَدِيمٌ . وَهَذَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعَ أَيْضًا . وَسِمَاتُ الْحَدَثِ الَّتِي تَسْتَلْزِمُ الْحُدُوثَ مِثْلُ افْتِقَارٍ إلَى الْغَيْرِ . فَكُلُّ مَا افْتَقَرَ إلَى غَيْرِهِ فَإِنَّهُ

مُحْدَثٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ . وَالرَّبُّ مُنَزَّهٌ عَنْ الْحَاجَةِ إلَى مَا سِوَاهُ بِكُلِّ وَجْهٍ . وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ مُحْتَاجٌ إلَى الْعَرْشِ أَوْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ فَهُوَ جَاهِلٌ ضَالٌّ . بَلْ هُوَ الْغَنِيُّ بِنَفْسِهِ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ . وَهُوَ الصَّمَدُ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ يَصْمُدُ إلَيْهِ مُحْتَاجًا إلَيْهِ ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾

(407/823)

وَمِنْ سِمَاتِ الْحَدَثِ النَّقَائِصُ كَالْجَهْلِ وَالْعَمَى وَالصَّمَمِ وَالْبَكَمِ فَإِنَّ كُلَّ مَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إلَّا مُحْدَثًا لِأَنَّ الْقَدِيمَ الْأَزَلِيَّ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ لِأَنَّ الْقَدِيمَ الْأَزَلِيَّ مُتَّصِفٌ بِنَقِيضِ هَذِهِ الصِّفَاتِ وَصِفَاتُ الْكَمَالِ لَازِمَةٌ لَهُ . وَاللَّازِمُ يَمْتَنِعُ زَوَالُهُ إلَّا بِزَوَالِ الْمَلْزُومِ . وَالذَّاتُ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ وَاجِبَةٌ بِنَفْسِهَا غَنِيَّةٌ عَمَّا سِوَاهَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهَا الْعَدَمُ وَالْفَنَاءُ بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ .

فَيَسْتَحِيلُ عَدَمُ لَوَازِمِهَا فَيَسْتَحِيلُ اتِّصَافُهَا بِنَقِيضِ تِلْكَ اللَّوَازِمِ . فَلَا يُوصَفُ بِنَقِيضِهَا إلَّا الْمُحْدَثُ فَهِيَ مِنْ سِمَاتِ الْحَدَثِ الْمُسْتَلْزِمَةِ لِحُدُوثِ مَا اتَّصَفَ بِهَا . وَهَذَا يَدْخُلُ فِي قَوْلِ الْقَائِلِ "كُلُّ مَا اسْتَلْزَمَ حُدُوثًا أَوْ نَقْصًا فَالرَّبُّ مُنَزَّهٌ عَنْهُ" . وَالنَّقْصُ الْمُنَاقِضُ لِصِفَاتِ كَمَالِهِ مُسْتَلْزِمٌ لِحُدُوثِ الْمُتَّصِفِ بِهِ وَالْحُدُوثُ مُسْتَلْزِمٌ لِلنَّقْصِ اللَّازِمِ لِلْمَخْلُوقِ . فَإِنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ فَهُوَ يَفْتَقِرُ إلَى غَيْرِهِ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ لَا يَعْلَمُ إلَّا مَا عَلِمَ وَلَا يَقْدِرُ إلَّا مَا أَقْدَرَ وَهُوَ

مُحَاطٌ بِهِ مَقْدُورٌ عَلَيْهِ . فَهَذِهِ النَّقَائِصُ اللَّازِمَةُ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ هِيَ مَلْزُومَةٌ لِلْحُدُوثِ حَيْثُ كَانَ حُدُوثٌ كَانَتْ . وَالْحُدُوثُ أَيْضًا مَلْزُومٌ لَهَا فَحَيْثُ كَانَ مُحْدَثٌ كَانَتْ هَذِهِ النَّقَائِصُ . فَقَوْلُنَا " مَا اسْتَلْزَمَ نَقْصًا أَوْ حُدُوثًا فَالرَّبُّ مُنَزَّهٌ عَنْهُ " حَقٌّ .

(408/823)

وَالْحُدُوثُ وَالنَّقْصُ اللَّازِمُ لِلْمَخْلُوقِ مُتَلَازِمَانِ . وَالرَّبُّ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلٍّ مِنْهُمَا مِنْ جِهَتَيْنِ مِنْ جِهَةِ امْتِنَاعِهِ فِي نَفْسِهِ وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْآخَرِ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ فِي نَفْسِهِ . فَكُلٌّ مِنْهُمَا دَلِيلٌ وَمَدْلُولٌ عَلَيْهِ بِاعْتِبَارَيْنِ عَلَى أَنَّ الرَّبَّ مُنَزَّهٌ عَنْهُ وَعَنْ مَدْلُولِهِ الَّذِي هُوَ لَازِمُهُ . وَالْحَاجَةُ إلَى الْغَيْرِ وَالْفَقْرُ إلَيْهِ مِمَّا يَسْتَلْزِمُ الْحُدُوثَ وَالنَّقْصَ اللَّازِمَ لِلْمَخْلُوقِ . وَقَوْلِي " اللَّازِمَ " لِيَعُمَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقِينَ وَإِلَّا فَمِنْ النَّقَائِصِ مَا يَتَّصِفُ بِهَا بَعْضُ الْمَخْلُوقِينَ دُونَ بَعْضٍ . فَتِلْكَ لَيْسَتْ لَازِمَةً لِكُلِّ مَخْلُوقٍ . وَالرَّبُّ مُنَزَّهٌ عَنْهَا أَيْضًا لَكِنْ إذَا نُزِّهَ عَنْ النَّقْصِ اللَّازِمِ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ فَعَنْ مَا يَخْتَصُّ بِهِ بَعْضُ الْمَخْلُوقِينَ أَوْلَى وَأَحْرَى . فَإِنَّهُ إذَا كَانَ مَخْلُوقٌ يُنَزَّهُ عَنْ نَقْصٍ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِتَنْزِيهِهِ عَنْهُ . وَهَذِهِ طَرِيقَةُ " الْأَوْلَى " كَمَا دَلَّ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي جَوَابِ " الْمَسَائِلِ التدمرية " الْمُلَقَّبِ بِـ " تَحْقِيقِ الْإِثْبَاتِ لِلْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَبَيَانِ حَقِيقَةِ الْجَمْعِ بَيْنَ الْقَدَرِ وَالشَّرْعِ " أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الِاكْتِفَاءُ فِيمَا يُنَزَّهُ الرَّبُّ عَنْهُ عَلَى عَدَمِ وُرُودِ السَّمْعِ

وَالْخَبَرِ بِهِ فَيُقَالُ : كُلُّ مَا وَرَدَ بِهِ الْخَبَرُ أَثْبَتْنَاهُ وَمَا لَمْ يَرِدْ بِهِ لَمْ نُثْبِتْهُ بَلْ نَنْفِيهِ وَتَكُونُ عُمْدَتُنَا فِي النَّفْيِ عَلَى عَدَمِ الْخَبَرِ .

(409/823)

بَلْ هَذَا غَلَطٌ لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ عَدَمَ الْخَبَرِ هُوَ عَدَمُ دَلِيلٍ مُعَيَّنٍ وَالدَّلِيلُ لَا يَنْعَكِسُ فَلَا يَلْزَمُ إذَا لَمْ يُخْبِرْ هُوَ بِالشَّيْءِ أَنْ يَكُونَ مُنْتَفِيًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . وَلِلَّهِ أَسْمَاءٌ سَمَّى بِهَا نَفْسَهُ وَاسْتَأْثَرَ بِهَا فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ . فَكَمَا لَا يَجُوزُ الْإِثْبَاتُ إلَّا بِدَلِيلِ لَا يَجُوزُ النَّفْيُ إلَّا بِدَلِيلِ . وَلَكِنْ إذَا لَمْ يَرِدْ بِهِ الْخَبَرُ وَلَمْ يَعْلَمْ ثُبُوتَهُ يَسْكُتُ عَنْهُ فَلَا يَتَكَلَّمُ فِي اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ . الثَّانِي : أَنَّ أَشْيَاءَ لَمْ يَرِدْ الْخَبَرُ بِتَنْزِيهِهِ عَنْهَا وَلَا بِأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْهَا لَكِنْ دَلَّ الْخَبَرُ عَلَى اتِّصَافِهِ بِنَقَائِضِهَا فَعُلِمَ انْتِفَاؤُهَا . فَالْأَصْلُ أَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ كُلِّ مَا يُنَاقِضُ صِفَاتِ كَمَالِهِ وَهَذَا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ السَّمْعُ وَالْعَقْلُ . وَمَا لَمْ يَرِدْ بِهِ الْخَبَرُ إنْ عُلِمَ انْتِفَاؤُهُ نَفَيْنَاهُ وَإِلَّا سَكَتْنَا عَنْهُ . فَلَا نُثْبِتُ إلَّا بِعِلْمِ وَلَا نَنْفِي إلَّا بِعِلْمِ . وَنَفْيُ الشَّيْءِ مِنْ الصِّفَاتِ وَغَيْرِهَا كَنَفْيِ دَلِيلِهِ طَرِيقَةُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالْخَبَرِ . وَهِيَ غَلَطٌ إلَّا إذَا كَانَ الدَّلِيلُ لَازِمًا لَهُ . فَإِذَا عُدِمَ اللَّازِمُ عُدِمَ الْمَلْزُومُ . وَأَمَّا جِنْسُ الدَّلِيلِ فَيَجِبُ فِيهِ الطَّرْدُ لَا الْعَكْسُ . فَيَلْزَمُ مِنْ وُجُودِ الدَّلِيلِ وُجُودُ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ وَلَا يَنْعَكِسُ .

فَالْأَقْسَامُ ثَلَاثَةٌ . مَا عُلِمَ ثُبُوتُهُ أُثْبِتَ وَمَا عُلِمَ انْتِفَاؤُهُ نُفِيَ وَمَا لَمْ يُعْلَمْ نَفْيُهُ وَلَا إثْبَاتُهُ سُكِتَ عَنْهُ . هَذَا هُوَ الْوَاجِبُ . وَالسُّكُوتُ عَنْ الشَّيْءِ غَيْرِ الْجَزْمِ بِنَفْيِهِ أَوْ ثُبُوتِهِ . وَمَنْ لَمْ يُثْبِتْ مَا أَثْبَتَهُ إلَّا بِالْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي أَثْبَتَهَا وَإِذَا تَكَلَّمَ بِغَيْرِهَا اسْتَفْسَرَ وَاسْتَفْصَلَ فَإِنْ وَافَقَ الْمَعْنَى الَّذِي أَثْبَتَهُ الشَّرْعُ أَثْبَتَهُ بِاللَّفْظِ الشَّرْعِيِّ فَقَدْ اعْتَصَمَ بِالشَّرْعِ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَهَذِهِ سَبِيلُ مَنْ اعْتَصَمَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى .

لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ تُعْرَفَ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ إسْنَادًا وَمَتْنًا . فَالْقُرْآنُ مَعْلُومٌ ثُبُوتُ أَلْفَاظِهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ وُجُوهُ دَلَالَتِهِ . وَالسُّنَّةُ يَنْبَغِي مَعْرِفَةُ مَا ثَبَتَ مِنْهَا وَمَا عُلِمَ أَنَّهُ كَذِبٌ . فَإِنَّ طَائِفَةً مِمَّنْ انْتَسَبَ إلَى السُّنَّةِ وَعَظَّمَ السُّنَّةَ وَالشَّرْعَ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ اعْتَصَمُوا فِي هَذَا الْبَابِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ جَمَعُوا أَحَادِيثَ وَرَدَتْ فِي الصِّفَاتِ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ مَعْلُومٌ أَنَّهُ كَذِبٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ إلَى الْكَذِبِ أَقْرَبُ وَمِنْهَا مَا هُوَ إلَى الصِّحَّةِ أَقْرَبُ وَمِنْهَا مُتَرَدِّدٌ . وَجَعَلُوا تِلْكَ الْأَحَادِيثَ عَقَائِدَ وَصَنَّفُوا مُصَنَّفَاتٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُكَفِّرُ مَنْ يُخَالِفُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْأَحَادِيثُ .

وَبِإِزَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُكَذِّبِينَ بِجِنْسِ الْحَدِيثِ وَمَنْ يَقُولُ عَنْ أَخْبَارِ

الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهَا : هَذِهِ أَخْبَارُ آحَادٍ لَا تُفِيدُ الْعِلْمَ . وَأَبْلَغُ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ : دَلَالَةُ الْقُرْآنِ لَفْظِيَّةٌ سَمْعِيَّةٌ وَالدَّلَالَةُ السَّمْعِيَّةُ اللَّفْظِيَّةُ لَا تُفِيدُ الْيَقِينَ . وَيَجْعَلُونَ الْعُمْدَةَ عَلَى مَا يَدَّعُونَهُ مِنْ الْعَقْلِيَّاتِ وَهِيَ بَاطِلَةٌ فَاسِدَةٌ مِنْهَا مَا يُعْلَمُ بُطْلَانُهُ وَكَذِبُهُ . وَهَؤُلَاءِ أَيْضًا قَدْ يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ أُولَئِكَ . وَكِلَا الطَّرِيقَيْنِ بَاطِلٌ وَلَوْ لَمْ يُكَفِّرْ مُخَالِفَهُ . فَإِذَا كَفَّرَ مُخَالِفَهُ صَارَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ الَّذِينَ يَبْتَدِعُونَ بِدْعَةً وَيُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهَا كَمَا فَعَلَتْ الْخَوَارِجُ وَغَيْرُهُمْ . وَقَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ أَنَّ الْأَدِلَّةَ الَّتِي تُوجِبُ الْعِلْمَ لَا تَتَنَاقَضُ قَطُّ . وَلَا يُنَاقِضُ الدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ الَّذِي يُفِيدُ الْعِلْمَ لِلدَّلِيلِ السَّمْعِيِّ الَّذِي يُفِيدُ الْعِلْمَ قَطُّ كَمَا قَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي كِتَابِ " دَرْءِ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ " . وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ قَدْ ذَكَرَ بَعْضَهَا الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى فِي كِتَابِ " إبْطَالِ التَّأْوِيلِ " مِثْلَ مَا ذَكَرَ فِي حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ حَدِيثًا طَوِيلًا عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ ﴿ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ ﴾ . وَطَائِفَةٌ مِمَّنْ يَقُولُ بِأَنَّهُ رَأَى رَبَّهُ بِعَيْنِهِ يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ لِمَا

ظَنُّوا أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ صَحِيحَةٌ كَمَا فَعَلَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ شُكْرٍ فَإِنَّهُ سَرِيعٌ إلَى تَكْفِيرِ مَنْ يُخَالِفُهُ فِيمَا يَدَّعِيهِ مِنْ السُّنَّةِ وَقَدْ يَكُونُ مُخْطِئًا فِيهِ . إمَّا لِاحْتِجَاجِهِ بِأَحَادِيثَ ضَعِيفَةٍ أَوْ بِأَحَادِيثَ صَحِيحَةٍ لَكِنْ لَا تَدُلُّ عَلَى مَقْصُودِهِ . وَمَا أَصَابَ فِيهِ مِنْ السُّنَّةِ لَا يَجُوزُ تَكْفِيرُ كُلِّ مَنْ خَالَفَ فِيهِ . فَلَيْسَ كُلُّ مُخْطِئٍ كَافِرًا لَا سِيَّمَا فِي الْمَسَائِلِ الدَّقِيقَةِ الَّتِي كَثُرَ فِيهَا نِزَاعُ الْأُمَّةِ كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ . وَكَذَلِكَ أَبُو عَلِيٍّ الْأَهْوَازِيُّ لَهُ مُصَنَّفٌ فِي الصِّفَاتِ قَدْ جَمَعَ فِيهِ الْغَثَّ وَالسَّمِينَ . وَكَذَلِكَ مَا يَجْمَعُهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ منده مَعَ أَنَّهُ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ حَدِيثًا لَكِنْ يَرْوِي شَيْئًا كَثِيرًا مِنْ الْأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ وَلَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالضَّعِيفِ . وَرُبَّمَا جَمَعَ بَابًا وَكُلُّ أَحَادِيثِهِ ضَعِيفَةٌ كَأَحَادِيثِ أَكْلِ الطِّينِ وَغَيْرِهَا . وَهُوَ يَرْوِي عَنْ أَبِي عَلِيٍّ الْأَهْوَازِيِّ . وَقَدْ وَقَعَ مَا رَوَاهُ مِنْ الْغَرَائِبِ الْمَوْضُوعَةِ إلَى حَسَنِ بْنِ عَدِيٍّ فَبَنَى عَلَى ذَلِكَ عَقَائِدَ بَاطِلَةً وَادَّعَى أَنَّ اللَّهَ يُرَى فِي الدُّنْيَا عِيَانًا . ثُمَّ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِهَذَا مِنْ أَتْبَاعِهِ يُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ . وَهَذَا كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْبِدَعِ كَمَا فَعَلَتْ الْخَوَارِجُ . وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَلِيفَةَ الْمَشْهُورُ الَّذِي يَرْوِي عَنْ

عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ الْمَقْدِسِيِّ فِي " مُخْتَارِهِ " . وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ تَرُدُّهُ لِاضْطِرَابِهِ كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ الْإِسْمَاعِيلِيُّ وَابْنُ الْجَوْزِيِّ وَغَيْرُهُمْ . لَكِنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ السُّنَّةِ قَبِلُوهُ . وَفِيهِ قَالَ : ﴿ إنَّ عَرْشَهُ أَوْ كُرْسِيَّهُ وَسِعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَإِنَّهُ يَجْلِسُ عَلَيْهِ فَمَا يَفْضُلُ مِنْهُ قَدْرُ أَرْبَعَةِ أَصَابِعَ أَوْ فَمَا يَفْضُلُ مِنْهُ إلَّا قَدْرُ أَرْبَعَةِ أَصَابِعَ وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ الْجَدِيدِ بِرَاكِبِهِ ﴾ . وَلَفْظُ " الْأَطِيطِ " قَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي السُّنَنِ . وَابْنُ عَسَاكِرَ عَمِلَ فِيهِ جُزْءًا وَجَعَلَ عُمْدَةَ الطَّعْنِ فِي ابْنِ إسْحَاقَ . وَالْحَدِيثُ قَدْ رَوَاهُ عُلَمَاءُ السُّنَّةِ كَأَحْمَدَ وَأَبِي دَاوُد وَغَيْرِهِمَا وَلَيْسَ فِيهِ إلَّا مَا لَهُ شَاهِدٌ مِنْ رِوَايَةٍ أُخْرَى . وَلَفْظُ " الْأَطِيطِ " قَدْ جَاءَ فِي غَيْرِهِ . وَحَدِيثُ ابْنِ خَلِيفَةَ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَد وَغَيْرُهُ مُخْتَصَرًا وَذَكَرَ أَنَّهُ حَدَّثَ بِهِ وَكِيعٌ . لَكِنْ كَثِيرٌ مِمَّنْ رَوَاهُ رَوَوْهُ بِقَوْلِهِ ﴿ إنَّهُ مَا يَفْضُلُ مِنْهُ إلَّا أَرْبَعُ أَصَابِعَ ﴾ فَجَعَلَ الْعَرْشَ يَفْضُلُ مِنْهُ أَرْبَعُ أَصَابِعَ . وَاعْتَقَدَ الْقَاضِي وَابْنُ

الزَّاغُونِي وَنَحْوُهُمَا صِحَّةَ هَذَا اللَّفْظِ فَأَمَرُّوهُ وَتَكَلَّمُوا عَلَى مَعْنَاهُ بِأَنَّ ذَلِكَ الْقَدْرَ لَا يَحْصُلُ عَلَيْهِ الِاسْتِوَاءُ . وَذَكَرَ عَنْ ابْنِ العايذ أَنَّهُ قَالَ : هُوَ مَوْضِعُ جُلُوسِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ . وَالْحَدِيثُ قَدْ رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ الطبري فِي تَفْسِيرِهِ وَغَيْرُهُ وَلَفْظُهُ : ﴿ وَإِنَّهُ لَيَجْلِسُ عَلَيْهِ فَمَا يَفْضُلُ مِنْهُ قَدْرُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ ﴾ بِالنَّفْيِ . فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْحَدِيثِ إِلَّا اخْتِلَافُ الرِّوَايَتَيْنِ هَذِهِ تَنْفِي مَا أَثْبَتَتْ هَذِهِ . وَلَا يُمْكِنُ مَعَ ذَلِكَ الْجَزْمُ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ الْإِثْبَاتَ وَأَنَّهُ يَفْضُلُ مِنْ الْعَرْشِ أَرْبَعُ أَصَابِعَ لَا يَسْتَوِي عَلَيْهَا الرَّبُّ . وَهَذَا مَعْنًى غَرِيبٌ لَيْسَ لَهُ قَطُّ شَاهِدٌ فِي شَيْءٍ مِنْ الرِّوَايَاتِ . بَلْ هُوَ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ أَعْظَمَ مِنْ الرَّبِّ وَأَكْبَرَ . وَهَذَا بَاطِلٌ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَلِلْعَقْلِ . وَيَقْتَضِي أَيْضًا أَنَّهُ إنَّمَا عَرَفَ عَظَمَةَ الرَّبِّ بِتَعْظِيمِ الْعَرْشِ الْمَخْلُوقِ وَقَدْ جَعَلَ الْعَرْشَ أَعْظَمَ مِنْهُ . فَمَا عَظَّمَ الرَّبَّ إلَّا بِالْمُقَايَسَةِ بِمَخْلُوقِ وَهُوَ أَعْظَمُ مِنْ الرَّبِّ . وَهَذَا مَعْنًى فَاسِدٌ مُخَالِفٌ لِمَا عُلِمَ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْعَقْلِ . فَإِنَّ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ فِي ذَلِكَ أَنْ يُبَيِّنَ عَظَمَةَ الرَّبِّ فَإِنَّهُ أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَمُ عَظَمَتَهُ . فَيَذْكُرُ عَظَمَةَ الْمَخْلُوقَاتِ وَيُبَيِّنُ أَنَّ الرَّبَّ أَعْظَمُ مِنْهَا .

كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ الَّذِي فِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد وَالتِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِمَا حَدِيثِ الْأَطِيطِ لَمَّا قَالَ الْأَعْرَابِيُّ : ﴿ إنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاَللَّهِ عَلَيْك وَنَسْتَشْفِعُ بِك عَلَى اللَّهِ تَعَالَى فَسَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ : وَيْحَك أَتَدْرِي مَا تَقُولُ

؟ أَتَدْرِي مَا اللَّهُ ؟ شَأْنُ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ . إنَّ عَرْشَهُ عَلَى سَمَوَاتِهِ هَكَذَا وَقَالَ بِيَدِهِ مِثْلَ الْقُبَّةِ وَإِنَّهُ لَيَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ الْجَدِيدِ بِرَاكِبِهِ ﴾ . فَبَيَّنَ عَظَمَةَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ فَوْقَ السَّمَوَاتِ مِثْلَ الْقُبَّةِ . ثُمَّ بَيَّنَ تَصَاغُرَهُ لِعَظَمَةِ اللَّهِ وَأَنَّهُ يَئِطُّ بِهِ أَطِيطَ الرَّحْلِ الْجَدِيدِ بِرَاكِبِهِ . فَهَذَا فِيهِ تَعْظِيمُ الْعَرْشِ وَفِيهِ أَنَّ الرَّبَّ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ . كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاَللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي ﴾ . وَقَالَ : ﴿ لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ . مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ . وَهَذَا وَغَيْرُهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الصَّوَابَ فِي رِوَايَةِ النَّفْيِ وَأَنَّهُ ذَكَرَ عَظَمَةَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَ هَذِهِ الْعَظَمَةِ فَالرَّبُّ مُسْتَوٍ عَلَيْهِ كُلِّهِ لَا يَفْضُلُ مِنْهُ قَدْرُ أَرْبَعَةِ أَصَابِعَ . وَهَذِهِ غَايَةُ مَا يُقَدَّرُ بِهِ فِي الْمِسَاحَةِ مِنْ أَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ كَمَا يُقَدَّرُ فِي الْمِيزَانِ قَدْرُهُ فَيُقَالُ : مَا فِي السَّمَاءِ قَدْرُ كَفٍّ سَحَابًا . فَإِنَّ

(416/823)

النَّاسَ يُقَدِّرُونَ الْمَمْسُوحَ بِالْبَاعِ وَالذِّرَاعِ وَأَصْغَرُ مَا عِنْدَهُمْ الْكَفُّ . فَإِذَا أَرَادُوا نَفْيَ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ قَدَّرُوا بِهِ فَقَالُوا : مَا فِي السَّمَاءِ قَدْرُ كَفٍّ سَحَابًا كَمَا يَقُولُونَ فِي النَّفْيِ الْعَامِّ ﴿ إنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ وَ ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾

وَنحو ذلك . فبيّن الرّسول أنّه لا يفضل من العرش شيءٌ ولا هذا القدر اليسير الّذي هو أيسر ما يقدّر به وهو أربع أصابع . وهذا معنًى صحيحٌ موافقٌ للغة العرب وموافقٌ لما دلّ عليه الكتاب والسّنّة موافقٌ لطريقة بيان الرّسول له شواهد . فهو الّذي يجزم بأنّه في الحديث . ومن قال " ما يفضل إلّا مقدار أربع أصابع " فما فهموا هذا المعنى فظنّوا أنّه استثنى فاستثنوا فغلطوا . وإنّما هو توكيدٌ للنّفي وتحقيقٌ للنّفي العامّ . وإلّا فأيّ حكمةٍ في كون العرش يبقى منه قدر أربع أصابع خاليةٍ وتلك الأصابع أصابع من النّاس والمفهوم من هذا أصابع الإنسان . فما بال هذا القدر اليسير لم يستو الرّبّ عليه ؟ والعرش صغيرٌ في عظمة اللّه تعالى . وقد جاء حديثٌ رواه ابن أبي حاتمٍ في قوله ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ لمعناه شواهد تدلّ على هذا . فينبغي أن نعتبر الحديث فنطابق بين الكتاب والسّنّة . فهذا هذا واللّه أعلم .

قال حدّثنا أبو زرعة ثنا منجاب بن الحارث أنبأ بشر بن عمارة عن أبي روقٍ عن عطيّة العوفي عن أبي سعيدٍ الخدري عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في قوله تعالى ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ﴾ قال : ﴿ لو أنّ الجنّ والإنس والشّياطين والملائكة

مُنْذُ خُلِقُوا إِلَى أَنْ فَنُوا صُفُّوا صَفًّا وَاحِدًا مَا أَحَاطُوا بِاللَّهِ أَبَدًا ﴾ . وَهَذَا لَهُ شَوَاهِدُ مِثْلُ مَا فِي الصِّحَاحِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ فِي يَدِ الرَّحْمَنِ إلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعَرْشَ لَا يَبْلُغُ هَذَا فَإِنَّ لَهُ حَمَلَةً وَلَهُ حَوْلٌ . قَالَ تَعَالَى ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ . وَهَذَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ فِي " مَسْأَلَةِ الْإِحَاطَةِ " وَغَيْرِهَا وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

فَصْلٌ :

فَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَ الْأُصُولَ الْمُوصِلَةَ إلَى الْحَقِّ

(418/823)

أَحْسَنَ بَيَانٍ وَبَيَّنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا وَوَحْدَانِيَّتِهِ عَلَى أَحْسَنِ وَجْهٍ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعَ . وَأَمَّا أَهْلُ الْبِدَعِ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ وَنَحْوِهِمْ فَهُمْ لَمْ يُثْبِتُوا الْحَقَّ بَلْ أَصَّلُوا أُصُولًا تُنَاقِضُ الْحَقَّ . فَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا وَلَمْ يَدُلُّوا عَلَى الْحَقِّ حَتَّى أَصَّلُوا أُصُولًا تُنَاقِضُ الْحَقَّ وَرَأَوْا أَنَّهَا تُنَاقِضُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدَّمُوهَا عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ . ثُمَّ تَارَةً يَقُولُونَ : الرَّسُولُ

جَاءَ بِالتَّخْيِيلِ وَتَارَةً يَقُولُونَ : جَاءَ بِالتَّأْوِيلِ وَتَارَةً يَقُولُونَ : جَاءَ بِالتَّجْهِيلِ . فَالْفَلَاسِفَةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ أَحْيَانًا يَقُولُونَ : خَاطَبَ الْجُمْهُورَ بِالتَّخْيِيلِ لَمْ يَقْصِدْ إخْبَارَهُمْ بِالْأَمْرِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ بَلْ أَخْبَرَهُمْ بِخِلَافِ مَا الْأَمْرُ عَلَيْهِ لِيَتَخَيَّلُوا مَا يَنْفَعُهُمْ . وَهَذَا قَوْلُ مَنْ يَعْرِفُ بِأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الْحَقَّ كَابْنِ سِينَا وَأَمْثَالِهِ وَيَقُولُونَ : الَّذِي فَعَلَهُ مِنْ التَّخْيِيلِ غَايَةُ مَا يُمْكِنُ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : لَمْ يَعْرِفْ الْحَقَّ بَلْ تَخَيَّلَ وَخَيَّلَ كَمَا يَقُولُهُ الْفَارَابِي وَأَمْثَالُهُ . وَيَجْعَلُونَ الْفَيْلَسُوفَ أَفْضَلَ مِنْ النَّبِيِّ وَيَجْعَلُونَ النُّبُوَّةَ مِنْ جِنْسِ الْمَنَامَاتِ .

(419/823)

وَأَمَّا أَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَيَقُولُونَ : بَلْ لَمْ يَقْصِدْ أَنْ يُخْبِرَ إلَّا بِالْحَقِّ لَكِنْ بِعِبَارَاتِ لَا تَدُلُّ وَحْدَهَا عَلَيْهِ بَلْ تَحْتَاجُ إلَى التَّأْوِيلِ لِيَبْعَثَ الْهِمَمَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ بِالنَّظَرِ وَالْعَقْلِ وَيَبْعَثَهَا عَلَى تَأْوِيلِ كَلَامِهِ لِيُعْظِمَ أَجْرَهَا . وَالْمَلَاحِدَةُ يَسْلُكُونَ مَسْلَكَ التَّأْوِيلِ وَيَفْتَحُونَ بَابَ الْقَرْمَطَةِ . وَهَؤُلَاءِ يُجَوِّزُونَ التَّأْوِيلَ مَعَ الْخَاصَّةِ . وَأَمَّا أَهْلُ التَّخْيِيلِ فَيَقُولُونَ : الْخَاصَّةُ قَدْ عَرَفُوا أَنَّ مُرَادَهُ التَّخْيِيلُ لِلْعَامَّةِ فَالتَّأْوِيلُ مُمْتَنِعٌ . وَالْفَرِيقَانِ يَسْلُكُونَ مَسْلَكَ إلْجَامِ الْعَوَامِّ عَنْ التَّأْوِيلِ لَكِنَّ أُولَئِكَ يَقُولُونَ : لَهَا تَأْوِيلٌ يَفْهَمُهُ الْخَاصَّةُ . وَهِيَ طَرِيقَةُ الْغَزَالِيِّ فِي " الْإِلْجَامِ " . اسْتَقْبَحَ أَنْ يُقَالَ : كَذَبُوا لِلْمَصْلَحَةِ . وَهُوَ أَيْضًا لَا يَرَى تَأْوِيلَ الْأَعْمَالِ كَالْقَرَامِطَةِ بَلْ تَأْوِيلَ الْخَبَرِ عَنْ

الْمَلَائِكَةِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ . وَكَذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ تَرَى التَّأْوِيلَ فِي ذَلِكَ . وَهَذَا مُخَالِفٌ لِطَرِيقَةِ أَهْلِ التَّخْيِيلِ . وَقَدْ ذَكَرَ الْغَزَالِيُّ هَذَا عَنْهُمْ فِي " الْإِحْيَاءِ " لَمَّا ذَكَرَ إسْرَافَهُمْ فِي التَّأْوِيلِ وَذَكَرَهُ فِي مَوَاضِعَ كَمَا حَكَى كَلَامَهُ فِي " السَّبْعِينِيَّةِ " وَغَيْرِهَا .

(420/823)

وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ الَّذِينَ يَقُولُونَ : هَذَا لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهُ إلَّا اللَّهُ أَوْ لَهُ تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ ظَاهِرَهُ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ . فَهَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الرَّسُولَ وَغَيْرَهُ غَيْرَ عَالِمِينَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ . فَلَا يُسَوِّغُونَ التَّأْوِيلَ لِأَنَّ الْعِلْمَ بِالْمُرَادِ عِنْدَهُمْ مُمْتَنِعٌ . وَلَا يَسْتَجِيزُونَ الْقَوْلَ بِطَرِيقَةِ التَّخْيِيلِ لِمَا فِيهَا مِنْ التَّصْرِيحِ بِكَذِبِ الرَّسُولِ . بَلْ يَقُولُونَ : خُوطِبُوا بِمَا لَا يَفْهَمُونَهُ لِيُثَابُوا عَلَى تِلَاوَتِهِ وَالْإِيمَانِ بِأَلْفَاظِهِ وَإِنْ لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَاهُ . يَجْعَلُونَ ذَلِكَ تَعَبُّدًا مَحْضًا عَلَى رَأْيِ الْمُجْبِرَةِ الَّذِينَ يُجَوِّزُونَ التَّعَبُّدَ بِمَا لَا نَفْعَ فِيهِ لِلْعَامِلِ بَلْ يُؤْجَرُ عَلَيْهِ . وَالْكَلَامُ عَلَى هَؤُلَاءِ وَفَسَادِ قَوْلِهِمْ مَذْكُورٌ فِي مَوَاضِعَ .

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الَّذِي دَعَاهُمْ إلَى ذَلِكَ ظَنُّهُمْ أَنَّ الْمَعْقُولَ يُنَاقِضُ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ ظَاهِرُ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ . وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى رَدِّ هَذَا فِي مَوَاضِعَ وَبَيَّنَ أَنَّ الْعَقْلَ لَا يُنَاقِضُ السَّمْعَ وَأَنَّ مَا نَاقَضَهُ فَهُوَ فَاسِدٌ . وَبَيَّنَ بَعْدَ هَذَا أَنَّ الْعَقْلَ مُوَافِقٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ شَاهِدٌ لَهُ وَمُصَدِّقٌ لَهُ . لَا يُقَالُ : إنَّهُ غَيْرُ مُعَارِضٍ فَقَطْ بَلْ هُوَ مُوَافِقٌ

مُصَدِّقٌ فَأُولَئِكَ كَانُوا يَقُولُونَ : هُوَ مُكَذِّبٌ مُنَاقِضٌ . بَيَّنَ أَوَّلًا أَنَّهُ لَا يُكَذِّبُ وَلَا يُنَاقِضُ ثُمَّ بَيَّنَ ثَانِيًا أَنَّهُ مُصَدِّقٌ مُوَافِقٌ .

وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَيُبَيِّنُ أَنَّ كَلَامَهُمُ الَّذِي يُعَارِضُونَ بِهِ الرَّسُولَ بَاطِلٌ لَا تَعَارُضَ فِيهِ . وَلَا يَكْفِي كَوْنُهُ بَاطِلًا لَا يُعَارِضُ بَلْ هُوَ أَيْضًا مُخَالِفٌ لِصَرِيحِ الْعَقْلِ . فَهُمْ كَانُوا يَدَّعُونَ أَنَّ الْعَقْلَ يُنَاقِضُ النَّقْلَ . فَيُبَيِّنُ أَرْبَعَ مَقَامَاتٍ : أَنَّ الْعَقْلَ لَا يُنَاقِضُهُ . ثُمَّ يُبَيِّنُ أَنَّ الْعَقْلَ يُوَافِقُهُ . وَيُبَيِّنُ أَنَّ عَقْلِيَّاتِهِمْ الَّتِي عَارَضُوا بِهَا النَّقْلَ بَاطِلَةٌ . وَيُبَيِّنُ أَيْضًا أَنَّ الْعَقْلَ الصَّرِيحَ يُخَالِفُهُمْ . ثُمَّ لَا يَكْفِي أَنَّ الْعَقْلَ يُبْطِلُ مَا عَارَضُوا بِهِ الرَّسُولَ بَلْ يُبَيِّنُ أَنَّ مَا جَعَلُوهُ دَلِيلًا عَلَى إثْبَاتِ الصَّانِعِ إنَّمَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِهِ . فَهُمْ أَقَامُوا حُجَّةً تَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الصَّانِعِ وَإِنْ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يُثْبِتُونَ بِهَا الصَّانِعَ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ كَلَامَهُمْ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُمْ أَثْبَتُوا بِهِ الصَّانِعَ إنَّمَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ الصَّانِعِ وَتَعْطِيلِهِ . فَلَا يَكْفِي فِيهِ أَنَّهُ بَاطِلٌ لَمْ يَدُلَّ عَلَى الْحَقِّ ؛ بَلْ دَلَّ عَلَى الْبَاطِلِ الَّذِي يَعْلَمُونَ هُمْ وَسَائِرُ الْعُقَلَاءِ أَنَّهُ بَاطِلٌ . وَلِهَذَا كَانَ يُقَالُ فِي أُصُولِهِمْ " تَرْتِيبُ الْأُصُولِ فِي تَكْذِيبِ الرَّسُولِ " وَيُقَالُ أَيْضًا هِيَ " تَرْتِيبُ الْأُصُولِ فِي مُخَالَفَةِ الرَّسُولِ وَالْمَعْقُولِ " . جَعَلُوهَا أُصُولًا لِلْعِلْمِ بِالْخَالِقِ وَهِيَ

أُصُولٌ تُنَاقِضُ الْعِلْمَ بِهِ . فَلَا يَتِمُّ الْعِلْمُ بِالْخَالِقِ إِلَّا مَعَ اعْتِقَادِ نَقِيضِهَا . وَفَرْقٌ بَيْنَ الْأَصْلِ وَالدَّلِيلِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلْعِلْمِ بِالرَّبِّ وَبَيْنَ الْمُنَاقِضِ الْمُعَارِضِ

(422/823)

لِلْعِلْمِ بِالرَّبِّ .

فَالْمُتَفَلْسِفَةُ يَقُولُونَ إِنَّهُمْ أَثْبَتُوا وَاجِبَ الْوُجُودِ . وَهُمْ لَمْ يُثْبِتُوهُ بَلْ كَلَامُهُمْ يَقْتَضِي أَنَّهُ مُمْتَنِعُ الْوُجُودِ . وَالْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ يَقُولُونَ إِنَّهُمْ أَثْبَتُوا الْقَدِيمَ الْمُحْدِثَ لِلْحَوَادِثِ وَهُمْ لَمْ يُثْبِتُوهُ بَلْ كَلَامُهُمْ يَقْتَضِي أَنَّهُ مَا ثَمَّ قَدِيمٌ أَصْلًا . وَكَذَلِكَ الْأَشْعَرِيَّةُ وَالْكَرَّامِيَةُ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ يَقُولُ إِنَّهُ أَثْبَتَ الْعِلْمَ بِالْخَالِقِ فَهُمْ لَمْ يُثْبِتُوهُ لَكِنَّ كَلَامَهُمْ يَقْتَضِي أَنَّهُ مَا ثَمَّ خَالِقٌ . وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الثَّلَاثَةُ هِيَ الَّتِي يُظْهِرُهَا هَؤُلَاءِ وَاجِبُ الْوُجُودِ وَالْقَدِيمُ وَالصَّانِعُ أَوْ الْخَالِقُ وَنَحْوُ ذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّهُ مِنْ الْمَعْلُومِ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْوُجُودِ مِنْ مَوْجُودٍ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ قَدِيمٍ أَزَلِيٍّ مُحْدِثٍ لِلْحَوَادِثِ . فَإِذَا كَانَ هَذَا مَعْلُومًا بِالْفِطْرَةِ وَالضَّرُورَةِ وَالْبَرَاهِينِ الْيَقِينِيَّةِ وَكَانَتْ أُصُولُهُمْ الَّتِي عَارَضُوا بِهَا الرَّسُولَ تُنَاقِضُ هَذَا دَلَّ عَلَى فَسَادِهَا جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا . وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي مَوَاضِعَ أَنَّ الْإِقْرَارَ بِالصَّانِعِ فِطْرِيٌّ ضَرُورِيٌّ مَعَ كَثْرَةِ دَلَائِلِهِ وَبَرَاهِينِهِ . وَنَقُولُ

هُنَا : لَا رَيْبَ أَنَّا نَشْهَدُ الْحَوَادِثَ كَحُدُوثِ السَّحَابِ وَالْمَطَرِ وَالزَّرْعِ وَالشَّجَرِ وَالشَّمْسِ وَحُدُوثِ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْحَيَوَانِ

وَحُدُوثِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَمَعْلُومٌ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ أَنَّ الْمُحْدَثَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ وَأَنَّهُ يَمْتَنِعُ تَسَلْسُلُ الْمُحْدَثَاتِ بِأَنْ يَكُونَ لِلْمُحْدَثِ مُحْدِثٌ وَلِلْمُحْدَثِ مُحْدِثٌ إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ . وَهَذَا يُسَمَّى تَسَلْسُلَ الْمُؤَثِّرَاتِ وَالْعِلَلِ وَالْفَاعِلِيَّةِ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعَ وَذَكَرَ مَا أُورِدَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِشْكَالَاتِ . حَتَّى ذَكَرَ كَلَامَ الْآمِدِيِّ وَالْأَبْهَرِيِّ مَعَ كَلَامِ الرَّازِيِّ وَغَيْرِهِمْ . مَعَ أَنَّ هَذَا بَدِيهِيٌّ ضَرُورِيٌّ فِي الْعُقُولِ وَتِلْكَ الْخَوَاطِرُ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ . وَلِهَذَا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَبْدَ إِذَا خَطَرَ لَهُ ذَلِكَ أَنْ يَسْتَعِيذَ بِاللَّهِ مِنْهُ وَيَنْتَهِيَ عَنْهُ . فَقَالَ : ﴿ يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ : مَنْ خَلَقَ كَذَا ؟ مَنْ خَلَقَ كَذَا ؟ فَيَقُولُ : اللَّهُ . فَيَقُولُ : فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ ؟ فَإِذَا وَجَدَ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ ﴾ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُحْدَثَ الْوَاحِدَ لَا يَحْدُثُ إِلَّا بِمُحْدِثٍ . فَإِذَا كَثُرَتِ الْحَوَادِثُ وَتَسَلْسَلَتْ كَانَ احْتِيَاجُهَا إِلَى الْمُحْدِثِ أَوْلَى . وَكُلُّهَا مُحْدَثَاتٌ فَكُلُّهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى مُحْدِثٍ . وَذَلِكَ لَا يَزُولُ إِلَّا بِمُحْدِثٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ بَلْ هُوَ قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ بِنَفْسِهِ سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى . وَإِذَا قِيلَ : إِنَّ الْمَوْجُودَ إِمَّا قَدِيمٌ وَإِمَّا مُحْدَثٌ وَالْمُحْدَثُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ قَدِيمٍ فَيَلْزَمُ وُجُودُ الْقَدِيمِ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ كَانَ بُرْهَانًا صَحِيحًا .

(424/823)

وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ : إِمَّا مُمْكِنٌ وَإِمَّا وَاجِبٌ وَبُيِّنَ الْمُمْكِنُ بِأَنَّهُ الْمُحْدَثُ كَانَ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ . وَأَمَّا إِذَا فُسِّرَ الْمُمْكِنُ بِمَا يَتَنَاوَلُ الْقَدِيمَ كَمَا فَعَلَ ابْنُ سِينَا وَأَتْبَاعُهُ كَالرَّازِي كَانَ هَذَا بَاطِلًا . فَإِنَّهُ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ لَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ الْمُمْكِنِ الْمُفْتَقِرِ إِلَى الْوَاجِبِ ابْتِدَاءً وَالدَّلِيلُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِإِثْبَاتِ هَذَا ابْتِدَاءً . وَإِنَّمَا يُمْكِنُ ذَلِكَ فِي أَنَّ الْمُحْدَثَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ . فَإِنَّ هَذَا تُشْهَدُ أَفْرَادُهُ وَتُعْلَمُ بِالْعَقْلِ كُلِّيَّاتُهُ . وَأَمَّا إِثْبَاتُ قَدِيمٍ أَزَلِيٍّ مُمْكِنٍ فَهَذَا مِمَّا اتَّفَقَ الْعُقَلَاءُ عَلَى امْتِنَاعِهِ . وَابْنُ سِينَا وَأَتْبَاعُهُ وَافَقُوا عَلَى امْتِنَاعِهِ كَمَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَنْطِقِ تَبَعًا لِسَلَفِهِمْ ؛ لَكِنْ تَنَاقَضُوا أَوَّلًا . فَسَلَفُهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ : الْمُمْكِنُ الْعَامِّيُّ وَالْخَاصِّيُّ الَّذِي يُمْكِنُ وُجُودُهُ وَعَدَمُهُ لَا يَكُونُ إِلَّا حَادِثًا لَا يَكُونُ ضَرُورِيًّا وَكُلُّ مَا كَانَ قَدِيمًا أَزَلِيًّا فَهُوَ ضَرُورِيٌّ عِنْدَهُمْ . وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ : الْمَوْجُودُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ مَخْلُوقًا وَالْمَخْلُوقُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَوْجُودٍ غَيْرِ مَخْلُوقٍ فَثَبَتَ وُجُودُ الْمَوْجُودِ الَّذِي لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ .

وكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : الْمَوْجُودُ إمَّا غَنِيٌّ عَنْ غَيْرِهِ وَإِمَّا فَقِيرٌ إلَى غَيْرِهِ وَالْفَقِيرُ الْمُحْتَاجُ إلَى غَيْرِهِ لَا تَزُولُ حَاجَتُهُ وَفَقْرُهُ إلَّا بِغِنًى عَنْ غَيْرِهِ

(425/823)

فَيَلْزَمُ وُجُودُ الْغِنَى عَنْ غَيْرِهِ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : الْحَيُّ إمَّا حَيٌّ بِنَفْسِهِ وَإِمَّا حَيٌّ حَيَاتُهُ مِنْ غَيْرِهِ وَمَا كَانَتْ حَيَاتُهُ مِنْ غَيْرِهِ فَذَلِكَ الْغَيْرُ أَوْلَى بِالْحَيَاةِ فَيَكُونُ حَيًّا بِنَفْسِهِ فَثَبَتَ وُجُودُ الْحَيِّ بِنَفْسِهِ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : الْعَالِمُ إمَّا عَالِمٌ بِنَفْسِهِ وَإِمَّا عَالِمٌ عَلَّمَهُ غَيْرُهُ وَمَنْ عَلَّمَ غَيْرَهُ فَهُوَ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ عَالِمًا وَإِذَا لَمْ يَتَعَلَّمْ مِنْ غَيْرِهِ كَانَ عَالِمًا بِنَفْسِهِ فَثَبَتَ وُجُودُ الْعَالِمِ بِنَفْسِهِ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ الْحَاصِرَيْنِ فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ سِوَى هَذَيْنِ التَّقْدِيرَيْنِ وَالْقِسْمَيْنِ . فَإِذَا كَانَ لَا يُمْكِنُ إلَّا أَحَدُهُمَا وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ الْعَالِمُ بِنَفْسِهِ مَوْجُودٌ وَالْحَيُّ بِنَفْسِهِ مَوْجُودٌ وَالْغَنِيُّ بِنَفْسِهِ مَوْجُودٌ وَالْقَدِيمُ الْوَاجِبُ بِنَفْسِهِ مَوْجُودٌ لَزِمَ وُجُودُهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَامْتِنَاعُ عَدَمِهِ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . وَهُوَ الْمَطْلُوبُ . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : الْقَادِرُ إمَّا قَادِرٌ بِنَفْسِهِ وَإِمَّا قَادِرٌ قَدَّرَهُ غَيْرُهُ وَمَنْ أَقْدَرَ غَيْرَهُ فَهُوَ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ قَادِرًا . وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قُدْرَتُهُ مِنْ غَيْرِهِ كَانَتْ قُدْرَتُهُ مِنْ لَوَازِمِ نَفْسِهِ فَثَبَتَ وُجُودُ الْقَادِرِ بِنَفْسِهِ الَّذِي قُدْرَتُهُ مِنْ لَوَازِمِ نَفْسِهِ وَعِلْمُهُ مِنْ لَوَازِمِ نَفْسِهِ وَحَيَاتُهُ مِنْ لَوَازِمِ نَفْسِهِ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ .

وَكَذَلِكَ الْحَكِيمُ إمَّا أَنْ يَكُونَ حَكِيمًا بِنَفْسِهِ وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ حِكْمَتُهُ مِنْ غَيْرِهِ . وَمَنْ جَعَلَ غَيْرَهُ حَكِيمًا فَهُوَ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ حَكِيمًا فَيَلْزَمُ وُجُودُ الْحَكِيمِ بِنَفْسِهِ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : الرَّحِيمُ إمَّا أَنْ تَكُونَ رَحْمَتُهُ مِنْ نَفْسِهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ جَعَلَهُ رَحِيمًا . وَمَنْ جَعَلَ غَيْرَهُ رَحِيمًا فَهُوَ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ رَحِيمًا وَتَكُونَ رَحْمَتُهُ مِنْ لَوَازِمِ نَفْسِهِ فَثَبَتَ وُجُودُ الرَّحِيمِ بِنَفْسِهِ الَّذِي رَحْمَتُهُ مِنْ لَوَازِمِ نَفْسِهِ عَلَى التَّقْدِيرَيْنِ . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : الْكَرِيمُ الْمُحْسِنُ إمَّا أَنْ يَكُونَ كَرَمُهُ وَإِحْسَانُهُ مِنْ نَفْسِهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ غَيْرِهِ . وَمَنْ جَعَلَ غَيْرَهُ كَرِيمًا مُحْسِنًا فَهُوَ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ كَرِيمًا مُحْسِنًا وَذَلِكَ مِنْ لَوَازِمِ نَفْسِهِ .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ رَأَى امْرَأَةً مِنْ السَّبْيِ إذَا رَأَتْ طِفْلًا أَرْضَعَتْهُ رَحْمَةً لَهُ فَقَالَ : أَتَرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟ قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ : لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا ﴾ . فَبَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ أَرْحَمِ الْوَالِدَاتِ بِوَلَدِهَا . فَإِنَّهُ مَنْ جَعَلَهَا رَحِيمَةً أَرْحَمُ مِنْهَا . وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﴿ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ وَقَوْلُنَا " اللَّهُ أَكْبَرُ "

فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . وَخَيْرُ الْغَافِرِينَ وَخَيْرُ الْفَاتِحِينَ وَخَيْرُ النَّاصِرِينَ وَأَحْسَنُ الْخَالِقِينَ وَهُوَ نِعْمَ الْوَكِيلِ وَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرِ . وَهَذَا يَقْتَضِي حَمْدًا مُطْلَقًا عَلَى ذَلِكَ وَأَنَّهُ كَافِي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ يَتَوَلَّى عَبْدَهُ تَوَلِّيًا حَسَنًا وَيَنْصُرُهُ نَصْرًا عَزِيزًا . وَذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّهُ أَفْضَلُ وَأَكْمَلُ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُنَا " اللَّهُ أَكْبَرُ " . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : الْمُتَكَلِّمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ إمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَكَلِّمًا سَمِيعًا بَصِيرًا بِنَفْسِهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ جَعَلَهُ سَمِيعًا بَصِيرًا مُتَكَلِّمًا . وَمَنْ جَعَلَ غَيْرَهُ مُتَكَلِّمًا سَمِيعًا بَصِيرًا فَهُوَ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مُتَكَلِّمًا سَمِيعًا بَصِيرًا وَإِلَّا كَانَ الْمَفْعُولُ أَكْمَلَ مِنْ الْفَاعِلِ فَإِنَّ هَذِهِ صِفَاتُ كَمَالٍ . وَكَذَلِكَ يُقَالُ : الْعَادِلُ إمَّا أَنْ يَكُونَ عَادِلًا بِنَفْسِهِ وَالصَّادِقُ إمَّا أَنْ يَكُونَ صَادِقًا بِنَفْسِهِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ جَعَلَهُ صَادِقًا عَادِلًا . وَمَنْ جَعَلَ غَيْرَهُ صَادِقًا عَادِلًا فَهُوَ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ صَادِقًا عَادِلًا . فَهَذِهِ كُلُّهَا طُرُقٌ صَحِيحَةٌ بَيِّنَةٌ . فَإِنْ قِيلَ : يُعَارِضُ هَذَا بِأَنْ يُقَالَ : مَنْ جَعَلَ غَيْرَهُ ظَالِمًا أَوْ كَاذِبًا فَهُوَ أَيْضًا ظَالِمٌ كَاذِبٌ وَأَهْلُ السُّنَّةِ يَقُولُونَ إنَّهُ جَعَلَ غَيْرَهُ كَذَلِكَ

وَلَيْسَ هُوَ كَذَلِكَ سُبْحَانَهُ قِيلَ : هَذَا بَاطِلٌ مِنْ وَجْهَيْنِ . أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ جَعَلَ غَيْرَهُ عَلَى صِفَةٍ أَيِّ صِفَةٍ كَانَتْ كَانَ مُتَّصِفًا بِهَا بَلْ مَنْ جَعَلَ غَيْرَهُ عَلَى صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَهُوَ أَوْلَى بِاتِّصَافِهِ بِصِفَةِ الْكَمَالِ مِنْ مَفْعُولِهِ . وَأَمَّا صِفَاتُ النَّقْصِ فَلَا يَلْزَمُ إذَا جَعَلَ الْجَاعِلُ غَيْرَهُ نَاقِصًا أَنْ يَكُونَ هُوَ نَاقِصًا . فَالْقَادِرُ يَقْدِرُ أَنْ يُعْجِزَ غَيْرَهُ وَلَا يَكُونُ عَاجِزًا . وَالْحَيُّ يُمْكِنُهُ أَنْ يَقْتُلَ غَيْرَهُ وَيُمِيتَهُ وَلَا يَكُونُ مَيِّتًا . وَالْعَالِمُ يُمْكِنُهُ أَنْ يُجَهِّلَ غَيْرَهُ وَلَا يَكُونُ جَاهِلًا . وَالسَّمِيعُ وَالْبَصِيرُ وَالنَّاطِقُ يُمْكِنُهُ أَنْ يُعْمِيَ غَيْرَهُ وَيُصِمَّهُ وَيُخْرِسَهُ وَلَا يَكُونُ هُوَ كَذَلِكَ . فَلَا يَلْزَمُ حِينَئِذٍ أَنَّ مَنْ جَعَلَ غَيْرَهُ ظَالِمًا وَكَاذِبًا أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا وَظَالِمًا لِأَنَّ هَذِهِ صِفَةُ نَقْصٍ . فَإِنْ قِيلَ : الْكَاذِبُ وَالظَّالِمُ قَدْ يُلْزِمُ غَيْرَهُ بِالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ أَحْيَانًا قِيلَ : هُوَ لَمْ يَجْعَلْهُ صَادِقًا وَعَالِمًا وَإِنَّمَا أَمَرَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ فَعَلَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ . وَلَمْ نَقُلْ : كُلُّ مَنْ أَمَرَ غَيْرَهُ بِشَيْءٍ كَانَ مُتَّصِفًا بِمَا أَمَرَ بِهِ غَيْرَهُ . الثَّانِي : أَنَّ الظُّلْمَ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ إضَافِيٌّ فَمَنْ أَمَرَ غَيْرَهُ أَنْ يَقْتُلَ شَخْصًا

(429/823)

فَقَتَلَهُ هَذَا الْقَاتِلُ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ يَعْلَمُهُ كَانَ ظَالِمًا وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الْآمِرُ إنَّمَا أَمَرَهُ بِهِ لِكَوْنِهِ قَدْ قَتَلَ أَبَاهُ وَالْمَأْمُورُ لَمْ يَفْعَلْهُ لِذَلِكَ . فَلَوْ فَعَلَهُ بِطَرِيقِ النِّيَابَةِ لَمْ يَكُنْ ظَالِمًا . فَإِنْ كَانَ لَهُ مَعَهُ غَرَضٌ

فَقَتَلَهُ ظُلْمًا وَلَكِنَّ الْآمِرَ كَانَ مُسْتَحِقًّا لِقَتْلِهِ . وَكَذَلِكَ مَنْ أَمَرَ غَيْرَهُ بِمَا هُوَ كَذِبٌ مِنْ الْمَأْمُورِ كَأَمْرِ يُوسُفَ لِلْمُؤَذِّنِ أَنْ يَقُولَ ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَصَدَ . إنَّكُمْ لَسَارِقُونَ يُوسُفَ مِنْ أَبِيهِ وَهُوَ صَادِقٌ فِي هَذَا . وَالْمَأْمُورُ قَصَدَ : إنَّكُمْ لَسَارِقُونَ الصُّوَاعَ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُمْ سَرَقُوهُ فَلَمْ يَكُنْ مُتَعَمِّدًا لِلْكَذِبِ وَإِنْ كَانَ خَبَرُهُ كَذِبًا . وَالرَّبُّ تَعَالَى لَا تُقَاسُ أَفْعَالُهُ بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ . فَهُوَ يَخْلُقُ جَمِيعَ مَا يَخْلُقُهُ لِحِكْمَةٍ وَمَصْلَحَةٍ وَإِنْ كَانَ بَعْضُ مَا خَلَقَهُ فِيهِ قُبْحٌ كَمَا يَخْلُقُ الْأَعْيَانَ الْخَبِيثَةَ كَالنَّجَاسَاتِ وَكَالشَّيَاطِينِ لِحِكْمَةٍ رَاجِحَةٍ . وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ دَلَائِلَ إثْبَاتِ الرَّبِّ كَثِيرَةٌ جِدًّا . وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْمَعْقُولَ يُعَارِضُ خَبَرَ الرَّسُولِ الَّذِينَ يَقُولُونَ إنَّهُمْ أَثْبَتُوا وَاجِبَ الْوُجُودِ أَوْ الْقَدِيمَ أَوْ الصَّانِعَ هُمْ لَمْ يُثْبِتُوهُ بَلْ حُجَجُهُمْ تَقْتَضِي نَفْيَهُ وَتَعْطِيلَهُ فَهُمْ نَافُونَ لَهُ . لَا مُثْبِتُونَ لَهُ . وَحُجَجُهُمْ بَاطِلَةٌ .

فِي الْعَقْلِ لَا صَحِيحَةٌ فِي الْعَقْلِ . وَالْمَعْرِفَةُ بِاَللَّهِ لَيْسَتْ مَوْقُوفَةً عَلَى أُصُولِهِمْ . بَلْ تَمَامُ الْمَعْرِفَةِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْعِلْمِ بِفَسَادِ أُصُولِهِمْ وَإِنْ سَمَّوْهَا " أُصُولَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ " فَهِيَ " أُصُولُ الْجَهْلِ وَأُصُولُ دِينِ الشَّيْطَانِ لَا دِينِ الرَّحْمَنِ " . وَحَقِيقَةُ كَلَامِهِمْ " تَرْتِيبُ الْأُصُولِ فِي

مُخَالَفَةِ الرَّسُولِ وَالْمَعْقُولِ " كَمَا قَالَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ . فَمَنْ خَالَفَ الرَّسُولَ فَقَدْ خَالَفَ السَّمْعَ وَالْعَقْلَ خَالَفَ الْأَدِلَّةَ السَّمْعِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ . أَمَّا الْقَائِلُونَ بِوَاجِبِ الْوُجُودِ فَقَدْ بَيَّنَّا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُمْ لَمْ يُقِيمُوا دَلِيلًا عَلَى وَاجِبِ الْوُجُودِ . وَأَنَّ الرَّازِيَّ لَمَّا تَبِعَ ابْنَ سِينَا لَمْ يَكُنْ فِي كُتُبِهِ إِثْبَاتُ وَاجِبِ الْوُجُودِ . فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا وُجُودَهُ مَوْقُوفًا عَلَى إِثْبَاتِ " الْمُمْكِنِ " الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ الْقَدِيمُ . فَمَا بَقِيَ يُمْكِنُ إِثْبَاتُ وَاجِبِ الْوُجُودِ عَلَى طَرِيقِهِمْ إِلَّا بِإِثْبَاتِ مُمْكِنٍ قَدِيمٍ وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي بَدِيهَةِ الْعَقْلِ وَاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ . فَكَانَ طَرِيقُهُمْ مَوْقُوفًا عَلَى مُقَدِّمَةٍ بَاطِلَةٍ فِي صَرِيحِ الْعَقْلِ . وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُقَلَاءُ عَلَى بُطْلَانِهَا فَبَطَلَ دَلِيلُهُمْ . وَلِهَذَا كَانَ كَلَامُهُمْ فِي " الْمُمْكِنِ " مُضْطَرِبًا غَايَةَ الِاضْطِرَابِ . وَلَكِنْ أَمْكَنَهُمْ أَنْ يَسْتَدِلُّوا عَلَى أَنَّ الْمُحْدَثَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ قَدِيمٍ وَهُوَ

(431/823)

وَاجِبُ الْوُجُودِ . وَلَكِنْ قَدْ أَثْبَتُوا قَدِيمًا لَيْسَ بِوَاجِبِ الْوُجُودِ . فَصَارَ مَا أَثْبَتُوهُ مِنْ الْقَدِيمِ يُنَاقِضُ أَنْ يَكُونَ هُوَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إذْ أَثْبَتُوا قَدِيمًا يَنْقَسِمُ إلَى وَاجِبٍ وَإِلَى غَيْرِ وَاجِبٍ . وَأَيْضًا فَالْوَاجِبُ الَّذِي أَثْبَتُوهُ قَالُوا : إنَّهُ يَمْتَنِعُ اتِّصَافُهُ بِصِفَةٍ ثُبُوتِيَّةٍ . وَهَذَا مُمْتَنِعُ الْوُجُوبِ لَا مُمْكِنُ الْوُجُوبِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ وَاجِبَ الْوُجُودِ كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ وَبَيَّنَ أَنَّ

الْوَاجِبَ الَّذِي يَدَّعُونَهُ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَا يَكُونُ لَا صِفَةً وَلَا مَوْصُوفًا أَلْبَتَّةَ . وَهَذَا إِنَّمَا يَتَخَيَّلُ فِي الْأَذْهَانِ لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الْأَعْيَانِ . وَالْوَاجِبُ إِذَا فُسِّرَ بِمُبْدِعِ الْمُمْكِنَاتِ فَهُوَ حَقٌّ وَهُوَ اسْمٌ لِلذَّاتِ الْمُتَّصِفَةِ بِصِفَاتِهَا . وَإِذَا فُسِّرَ بِالْمَوْجُودِ بِنَفْسِهِ الَّذِي لَا فَاعِلَ لَهُ فَالذَّاتُ وَاجِبَةٌ وَالصِّفَاتُ وَاجِبَةٌ . وَإِذَا فُسِّرَ بِمَا لَا فَاعِلَ لَهُ وَلَا مُحْدِثَ فَالذَّاتُ وَاجِبَةٌ وَالصِّفَاتُ لَيْسَتْ وَاجِبَةً . وَإِذَا فُسِّرَ بِمَا لَيْسَ صِفَةً وَلَا مَوْصُوفًا فَهَذَا بَاطِلٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ . بَلْ هُوَ مُمْتَنِعُ الْوُجُودِ لَا مُمْكِنَ الْوُجُودِ وَلَا وَاجِبَ الْوُجُودِ . وَكُلَّمَا أَمْعَنُوا فِي تَجْرِيدِهِ عَنْ الصِّفَاتِ كَانُوا أَشَدَّ إيغَالًا فِي التَّعْطِيلِ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعَ . وَأَمَّا الَّذِينَ قَالُوا إنَّهُمْ أَثْبَتُوا الْقَدِيمَ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ والكَرَّامِيةِ الَّذِينَ اسْتَدَلُّوا بِحُدُوثِ الْأَعْرَاضِ

(432/823)

وَلُزُومِهَا لِلْأَجْسَامِ وَامْتِنَاعِ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا عَلَى حُدُوثِ الْأَجْسَامِ فَهَؤُلَاءِ لَمْ يُثْبِتُوا الصَّانِعَ لِمَا عُرِفَ مِنْ فَسَادِ هَذَا الدَّلِيلِ حَيْثُ ادَّعَوْا امْتِنَاعَ كَوْنِ الرَّبِّ مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَتِهِ أَوْ فَعَّالًا لِمَا يَشَاءُ . بَلْ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ امْتِنَاعُ كَوْنِهِ لَمْ يَزَلْ قَادِرًا . وَأَدِلَّتُهُمْ عَلَى هَذَا الِامْتِنَاعِ قَدْ ذُكِرَتْ مُسْتَوْفَاةً فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَذُكِرَ كَلَامُهُمْ هُمْ فِي بَيَانِ بُطْلَانِهَا . وَأَمَّا كَوْنُهُمْ عَطَّلُوا

الْخَالِقَ فَلِأَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ أَنَّ مَنْ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَتِهِ فَهُوَ مُحْدَثٌ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ مُحْدَثًا لَا قَدِيمًا . بَلْ حَقِيقَةُ أَصْلِهِمْ أَنَّ مَا قَامَتْ بِهِ الصِّفَاتُ وَالْأَفْعَالُ فَهُوَ مُحْدَثٌ وَكُلُّ مَوْجُودٍ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَوْجُودٍ مُحْدَثًا . وَلِهَذَا صَرَّحَ أَئِمَّةُ هَذَا الطَّرِيقِ الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ بِنَفْيِ صِفَاتِ الرَّبِّ وَبِنَفْيِ قِيَامِ الْأَفْعَالِ وَسَائِرِ الْأُمُورِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِذَاتِهِ إذْ هَذَا مُوجَبُ دَلِيلِهِمْ . وَهَذِهِ الصِّفَاتُ لَازِمَةٌ لَهُ وَنَفْيُ اللَّازِمِ يَقْتَضِي نَفْيَ الْمَلْزُومِ . فَكَانَ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ نَفْيَ الرَّبِّ وَتَعْطِيلَهُ . وَهُمْ يُسَمُّونَ الصِّفَاتِ أَعْرَاضًا وَالْأَفْعَالَ وَنَحْوَهَا حَوَادِثَ . فَقَالُوا الرَّبُّ يُنَزَّهُ عَنْ أَنْ تَقُومَ بِهِ الْأَعْرَاضُ وَالْحَوَادِثُ . فَإِنَّ ذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا . قَالُوا : وَقَدْ أَقَمْنَا الدَّلِيلَ عَلَى حُدُوثِ كُلِّ جِسْمٍ . فَإِنَّ

الْجِسْمَ لَا يَنْفَكُّ مِنْ الْأَعْرَاضِ الْمُحْدَثَةِ وَلَا يَسْبِقُهَا وَمَا لَمْ يَنْفَكَّ عَنْ الْحَوَادِثِ وَلَمْ يَسْبِقْهَا فَهُوَ حَادِثٌ . وَقَدْ قَامَتْ الْأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ عَلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ وَأَنَّ الرَّبَّ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إذَا شَاءَ فَيَلْزَمُ عَلَى قَوْلِهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ الْحَوَادِثَ وَلَمْ يَنْفَكَّ عَنْهَا . وَيَجِبُ عَلَى قَوْلِهِمْ كَوْنُهُ حَادِثًا . فَالْأَصْلُ الَّذِي أَثْبَتُوا بِهِ الْقَدِيمَ هُوَ نَفْسُهُ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَيْسَ بِقَدِيمِ وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ قَدِيمٌ . كَمَا أَنَّ أُولَئِكَ أَصْلُهُمْ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَيْسَ بِوَاجِبِ بِذَاتِهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ

وَاجِبٌ بِذَاتِهِ . وَالطَّرِيقُ الَّتِي قَالُوا بِهَا يَثْبُتُ الصَّانِعُ مُنَاقِضَةٌ لِإِثْبَاتِ الصَّانِعِ . وَإِذَا قَالُوا : لَا يُمْكِنُ الْعِلْمُ بِالصَّانِعِ إِلَّا بِهَا كَانَ الْحَقُّ أَنْ يُقَالَ : بَلْ لَا يُمْكِنُ تَمَامُ الْعِلْمِ بِالصَّانِعِ إِلَّا مَعَ الْعِلْمِ بِفَسَادِهَا . وَلِهَذَا كَانَ كُلُّ مَنْ أَقَرَّ بِصِحَّتِهَا قَدْ كَذَّبَ بَعْضَ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ مِمَّا هُوَ مِنْ لَوَازِمِ الرَّبِّ وَنَفْيُ اللَّازِمِ يَقْتَضِي نَفْيَ الْمَلْزُومِ . وَالَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ بِهِ عَلَى حُدُوثِ الْأَجْسَامِ مِنْ جِنْسِ مَا زَعَمَ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ بِهِ عَلَى إِمْكَانِ الْأَجْسَامِ . وَكُلٌّ مِنْهُمَا بَاطِلٌ .

(434/823)

وَمُقْتَضَاهُ حُدُوثُ كُلِّ مَوْجُودٍ وَإِمْكَانُ كُلِّ مَوْجُودٍ وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ قَدِيمٌ وَلَا وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ . فَأُصُولُهُمْ تُنَاقِضُ مَطْلُوبَهُمْ . وَهِيَ طَرِيقَةٌ مُضِلَّةٌ لَا هَادِيَةٌ . لَكِنْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ .

وَأَمَّا الَّذِينَ يَقُولُونَ : نُثْبِتُ الصَّانِعَ وَالْخَالِقَ وَيَقُولُونَ : إنَّا نَسْلُكُ غَيْرَ هَذِهِ الطَّرِيقِ كَالِاسْتِدْلَالِ بِحُدُوثِ الصِّفَاتِ عَلَى الرَّبِّ . فَإِنَّ هَذِهِ تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ احْتِيَاجٍ إلَى مَا الْتَزَمَهُ أُولَئِكَ . وَالرَّازِي قَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الطَّرِيقَ . وَأَمَّا الْأَشْعَرِيُّ نَفْسُهُ فَلَمْ يَسْتَدِلَّ بِهَا . بَلْ " فِي اللُّمَعِ " و "

رِسَالَتِهِ " إلَى الثَّغْرِ اسْتَدَلَّ بِالْحَوَادِثِ عَلَى حُدُوثِ مَا قَامَتْ بِهِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي النُّطْفَةِ بِنَاءً عَلَى امْتِنَاعِ حَوَادِثَ لَا أَوَّلَ لَهَا . ثُمَّ جَعَلَ حُدُوثَ تِلْكَ الْجَوَاهِرِ الَّتِي ذَكَرَ أَنَّهُ دَلَّ عَلَى حُدُوثِهَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى ثُبُوتِ الصَّانِعِ . وَهَذِهِ الطَّرِيقُ بَاطِلَةٌ كَمَا قَدْ بُيِّنَ . وَأَمَّا تِلْكَ فَهِيَ صَحِيحَةٌ لَكِنْ أَفْسَدُوهَا مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِمْ جَعَلُوا

(435/823)

الْحَوَادِثَ الْمَشْهُودَ لَهُمْ حُدُوثُهَا هِيَ الْأَعْرَاضُ فَقَطْ كَمَا قَدْ بَيَّنَّا هَذَا فِي مَوَاضِعَ . ثُمَّ يُقَالُ : هَؤُلَاءِ يُثْبِتُونَ خَالِقًا لَا خَلْقَ لَهُ . وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي بِدَايَةِ الْعُقُولِ ؟ فَلَمْ يُثْبِتُوا خَالِقًا . وَالْكَرَّامِيَة وَإِنْ كَانُوا يَقُولُونَ : الْخَلْقُ غَيْرُ الْمَخْلُوقِ فَهُمْ يَقُولُونَ بِحُدُوثِ الْخَلْقِ بِلَا سَبَبٍ يُوجِبُ حُدُوثَهُ . وَهَذَا أَيْضًا مُمْتَنِعٌ . فَمَا أَثْبَتُوا خَالِقًا . وَأَيْضًا فَهَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : الْمُوجِبُ لِلتَّخْصِيصِ بِحُدُوثِ مَا حَدَثَ دُونَ غَيْرِهِ هُوَ إرَادَةٌ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ . فالكَرَّامِيَة يَقُولُونَ : هِيَ الْمُخَصِّصُ لِمَا قَامَ بِهِ وَمَا خَلَقَهُ . وَهَؤُلَاءِ عِنْدَهُمْ لَمْ يَقُمْ بِهِ شَيْءٌ يَكُونُ مُرَادًا بَلْ يَقُولُونَ : هِيَ الْمُخَصِّصُ لِمَا حَدَثَ . وَالطَّائِفَتَانِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ يَقُولُونَ : تِلْكَ الْإِرَادَةُ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ لَمْ تَزَلْ عَلَى نَعْتٍ وَاحِدٍ ثُمَّ وُجِدَتْ الْحَوَادِثُ بِلَا سَبَبٍ أَصْلًا . وَيَقُولُونَ : مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُخَصِّصَ مِثْلًا عَلَى مِثْلٍ وَمِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَتَقَدَّمَ عَلَى الْمُرَادِ تَقَدُّمًا لَا أَوَّلَ لَهُ . فَوَصَفُوا

الْإِرَادَةَ بِثَلَاثِ صِفَاتٍ بَاطِلَةٍ يُعْلَمُ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَنَّ الْإِرَادَةَ لَا تَكُونُ هَكَذَا وَهِيَ الْمُقْتَضِيَةُ لِلْخَلْقِ وَالْحُدُوثِ فَإِذَا أُثْبِتَتْ فَلَا خَلْقَ وَلَا حُدُوثَ .

(436/823)

وَكَذَلِكَ الْقُدْرَةُ الَّتِي أَثْبَتُوهَا وَصَفُوهَا بِمَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ قُدْرَةً . وَهِيَ شَرْطٌ فِي الْخَلْقِ . فَإِذَا نَفَوْا شَرْطَ الْخَلْقِ انْتَفَى الْخَلْقُ فَلَمْ يَبْقَ خَالِقًا . فَالَّذِي وَصَفُوا بِهِ الْخَالِقَ يُنَاقِضُ كَوْنَهُ خَالِقًا لَيْسَ بِلَازِمِ لِكَوْنِهِ خَالِقًا . وَهُمْ جَعَلُوهُ لَازِمًا لَا مُنَاقِضًا . أَمَّا الْإِرَادَةُ فَذَكَرُوا لَهَا ثَلَاثَةَ لَوَازِمَ وَالثَّلَاثَةُ تُنَاقِضُ الْإِرَادَةَ . قَالُوا إنَّهَا تَكُونُ وَلَا مُرَادَ لَهَا بَلْ لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ ثُمَّ حَدَثَ مُرَادُهَا مِنْ غَيْرِ تَحَوُّلِ حَالِهَا . وَهَذَا مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِبَدِيهَةِ الْعَقْلِ . فَإِنَّ الْفَاعِلَ إذَا أَرَادَ أَنْ يَفْعَلَ فَالْمُتَقَدِّمُ كَانَ عَزْمًا عَلَى الْفِعْلِ وَقَصْدًا لَهُ فِي الزَّمَنِ الْمُسْتَقْبَلِ لَمْ يَكُنْ إرَادَةً لِلْفِعْلِ فِي الْحَالِ . بَلْ إذَا فَعَلَ فَلَا بُدَّ مِنْ إرَادَةِ الْفِعْلِ فِي الْحَالِ . وَلِهَذَا يُقَالُ : الْمَاضِي عَزْمٌ وَالْمُقَارِنُ قَصْدٌ . فَوُجُودُ الْفِعْلِ بِمُجَرَّدِ عَزْمٍ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَجَدَّدَ قَصْدٌ مِنْ الْفَاعِلِ مُمْتَنِعٌ . فَكَانَ حُصُولُ الْمَخْلُوقَاتِ بِهَذِهِ الْإِرَادَةِ مُمْتَنِعًا لَوْ قُدِّرَ إمْكَانُ حُدُوثِ الْحَوَادِثِ بِلَا سَبَبٍ فَكَيْفَ وَذَاكَ أَيْضًا مُمْتَنِعٌ فِي نَفْسِهِ ؟ فَصَارَ الِامْتِنَاعُ مِنْ جِهَةِ الْإِرَادَةِ وَمِنْ جِهَةِ تَعَيَّنَتْ بِمَا هُوَ مُمْتَنِعٌ فِي نَفْسِهِ . الثَّانِي قَوْلُهُمْ إنَّ الْإِرَادَةَ تُرَجِّحُ مِثْلًا عَلَى مِثْلٍ : فَهَذَا مُكَابَرَةٌ بَلْ لَا تَكُونُ الْإِرَادَةُ إلَّا لِمَا

تَرَجَّحَ وُجُودُهُ عَلَى عَدَمِهِ عِنْدَ الْفَاعِلِ . إمَّا لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ أَفْضَلُ أَوْ لِكَوْنِ مَحَبَّتِهِ لَهُ أَقْوَى .

وَهُوَ

(437/823)

إنَّمَا يَتَرَجَّحُ فِي الْعِلْمِ لِكَوْنِ

(438/823)

عَاقِبَتِهِ أَفْضَلَ . فَلَا يَفْعَلُ أَحَدٌ شَيْئًا بِإِرَادَتِهِ إلَّا لِكَوْنِهِ يُحِبُّ الْمُرَادَ أَوْ يُحِبُّ مَا يَئُولُ إلَيْهِ الْمُرَادُ بِحَيْثُ يَكُونُ وُجُودُ ذَلِكَ الْمُرَادِ أَحَبَّ إلَيْهِ مِنْ عَدَمِهِ لَا يَكُونُ وُجُودُهُ وَعَدَمُهُ عِنْدَهُ سَوَاءً . الثَّالِثُ أَنَّ الْإِرَادَةَ الْجَازِمَةَ يَتَخَلَّفُ عَنْهَا مُرَادُهَا مَعَ الْقُدْرَةِ : فَهَذَا أَيْضًا بَاطِلٌ . بَلْ مَتَى حَصَلَتْ الْقُدْرَةُ التَّامَّةُ وَالْإِرَادَةُ الْجَازِمَةُ وَجَبَ وُجُودُ الْمَقْدُورِ وَحَيْثُ لَا يَجِبُ فَإِنَّمَا هُوَ لِنَقْصِ الْقُدْرَةِ أَوْ لِعَدَمِ الْإِرَادَةِ التَّامَّةِ . وَالرَّبُّ تَعَالَى مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ . وَهُوَ يُخْبِرُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ لَفَعَلَ أُمُورًا لَمْ يَفْعَلْهَا كَمَا قَالَ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا

﴾ . فَبَيَّنَ أَنَّهُ لَوْ شَاءَ ذَلِكَ لَكَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ . لَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَشَأْهُ إِذْ كَانَ عَدَمُ مَشِيئَتِهِ أَرْجَحَ فِي الْحِكْمَةِ مَعَ كَوْنِهِ قَادِرًا عَلَيْهِ لَوْ شَاءَهُ . وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى مَا يَذْكُرُونَهُ فِي الْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ هُمْ وَغَيْرُهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَأَنَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَقُولُ : إِنَّمَا يَقْدِرُ عَلَى الْأُمُورِ الْمُبَايِنَةِ لَهُ دُونَ الْأَفْعَالِ الْقَائِمَةِ بِنَفْسِهِ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ الْمُعْتَزِلَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : بَلْ يَقْدِرُ عَلَى مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ الْأَفْعَالِ وَعَلَى مَا هُوَ

بَايِنٌ عَنْهُ كَمَا يُحْكَى عَنْ الْكَرَّامِيَّةِ .

وَالصَّوَابُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالْعَقْلُ أَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى هَذَا وَهَذَا قَالَ تَعَالَى ﴿ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴾ وَقَالَ ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ وَقَالَ ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ أَكْثَرُ مِنْ النَّوْعِ الْآخَرِ . فَإِنَّ مَا قَالَهُ الْكَرَّامِيَّةُ وَالْهِشَامِيَّةُ أَقْرَبُ إِلَى الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ مِمَّا قَالَتْ الْجَهْمِيَّةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ وَإِنْ كَانَ فِيمَا حَكَوْهُ عَنْهُمْ خَطَأٌ مِنْ جِهَةِ نَفْيِهِمْ الْقُدْرَةَ عَلَى الْأُمُورِ الْمُبَايِنَةِ . وَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ﴿ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي مَسْعُودٍ لَمَّا رَآهُ يَضْرِبُ غُلَامَهُ : لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْك مِنْك عَلَى هَذَا ﴾ . وَفِي الْقُرْآنِ ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾ ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ ﴾ . وَبَسْطُ هَذَا لَهُ مَوَاضِعُ أُخَرُ . فَجَمِيعُ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ لَازِمٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ . وَكُلُّ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ فَهُوَ لَازِمٌ . وَإِذَا قَدَّرَ عَدَمَهُ لَزِمَ عَدَمُ الْمَلْزُومِ . فَنَفْيُ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ مُسْتَلْزِمٌ لِلتَّعْطِيلِ . لَكِنْ مِنْ ذَلِكَ مَا يَظْهَرُ بِالْعَقْلِ مَعَ تَفَاوُتِ النَّاسِ فِي الْعَقْلِ وَمِنْهُ

(440/823)

مَا يَكْفِي فِيهِ مُجَرَّدُ خَبَرِ الرَّسُولِ . فَإِنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ فَهُوَ حَقٌّ . وَكُلُّ مَا أَثْبَتَ لِلرَّبِّ فَهُوَ لَازِمُ الثُّبُوتِ وَمَا انْتَفَى عَنْهُ فَهُوَ لَازِمُ الِانْتِفَاءِ فَإِذَا قَدَّرَ عَدَمَ اللَّازِمِ لَزِمَ عَدَمُ الْمَلْزُومِ . لَكِنَّ هَذَا كُلَّهُ لَازِمُ الْمَذْهَبِ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِهِ . وَلَازِمُ الْمَذْهَبِ لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَذْهَبًا بَلْ أَكْثَرُ النَّاسِ يَقُولُونَ أَقْوَالًا وَلَا يَلْتَزِمُونَ لَوَازِمَهَا . فَلَا يَلْزَمُ إذَا قَالَ الْقَائِلُ مَا يَسْتَلْزِمُ التَّعْطِيلَ أَنْ يَكُونَ مُعْتَقِدًا لِلتَّعْطِيلِ . بَلْ يَكُونُ مُعْتَقِدًا لِلْإِثْبَاتِ وَلَكِنْ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ اللُّزُومَ . وَأَيْضًا فَإِذَا كَانَتْ أُصُولُهُمْ الَّتِي بَنَوْا عَلَيْهَا إثْبَاتَ الصَّانِعِ بَاطِلَةً لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَكُونُوا هُمْ غَيْرَ مُقِرِّينَ بِالصَّانِعِ

وَإِنْ كَانَ هَذَا لَازِمًا مِنْ قَوْلِهِمْ . إذَا قَالُوا : إنَّهُ لَا يُعْرَفُ إلَّا بِهَذِهِ الطَّرِيقِ وَقَدْ ظَهَرَ فَسَادُهُ لَزِمَ أَنْ لَا يُعْرَفَ . لَكِنَّ هَذَا اللُّزُومَ يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ هَذَا النَّفْيِ وَلَا يَلْزَمُ أَنْ لَا يَكُونُوا هُمْ مُقِرِّينَ بِالصَّانِعِ لِمَا قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّ الْإِقْرَارَ بِالصَّانِعِ وَمَعْرِفَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ وَتَوْحِيدَهُ فِطْرِيٌّ يَكُونُ ثَابِتًا فِي قَلْبِ الْإِنْسَانِ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ لَيْسَ فِي قَلْبِهِ . وَلِهَذَا كَانَ عَامَّةُ هَؤُلَاءِ مُقِرِّينَ بِالصَّانِعِ مُعْتَرِفِينَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَسْلُكُوا هَذِهِ الطَّرِيقَ النَّظَرِيَّةَ سَوَاءٌ كَانَتْ صَحِيحَةً أَوْ بَاطِلَةً . وَهَذَا

أَمْرٌ يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ . فَعُلِمَ أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِ سُلُوكِ هَذِهِ الطَّرِيقِ عَدَمُ الْمَعْرِفَةِ . وَقَدْ اعْتَرَفَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ بِذَلِكَ كَمَا قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَوَاضِعَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إنَّ الطَّرِيقَ النَّظَرِيَّةَ الَّتِي يَسْلُكُهَا زَادَتْهُ بَصِيرَةً وَعِلْمًا . كَمَا يَقُولُهُ ابْنُ حَزْمٍ وَغَيْرُهُ . وَهُوَ سَلَكَ طَرِيقَةَ الْأَعْرَاضِ . وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَقُولُ : إنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَ لَمْ تُفِدْهُمْ إلَّا شَكًّا وَرَيْبًا وَفِطْرَةُ هَؤُلَاءِ أَصَحُّ فَإِنَّهَا طُرُقٌ فَاسِدَةٌ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : لَمْ يَحْصُلْ لِي بِهَا شَيْءٌ لَا عِلْمَ وَلَا شَكَّ . وَذَلِكَ أَنَّهَا لَمْ تُحَصِّلْ لَهُ عِلْمًا وَلَا سَلَّمَهَا فَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ صِحَّتُهَا وَلَا فَسَادُهَا . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ لَا يَفْهَمُ مُرَادَهُمْ بِهَا . وَأَكْثَرُ أَتْبَاعِهِمْ لَا يَفْهَمُونَهَا بَلْ يَتَّبِعُونَهُمْ تَقْلِيدًا وَإِحْسَانًا لِلظَّنِّ بِهِمْ .

فَصْلٌ :

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّا لَا نَقُولُ إنَّ الشَّيْءَ لَا يُعْرَفُ إلَّا بِإِثْبَاتِ جَمِيعِ لَوَازِمِهِ . هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ بَلْ قَدْ تُعْرَفُ عَامَّةُ الْأَشْيَاءِ وَكَثِيرٌ

(442/823)

مِنْ لَوَازِمِهَا لَا تُعْرَفُ وَقَدْ يَعْلَمُ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ الرَّبَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ كَثِيرًا مِنْ لَوَازِمِ الْقُدْرَةِ وَالْمَشِيئَةِ . لَكِنَّ أَهْلَ الِاسْتِقَامَةِ كَمَا لَا يَعْرِفُونَ اللَّوَازِمَ فَلَا يَنْفُونَهَا فَإِنَّ نَفْيَهَا خَطَأٌ . وَأَمَّا عَدَمُ الْعِلْمِ بِهَا كُلِّهَا فَهَذَا لَازِمٌ لِجَمِيعِ النَّاسِ فَسُبْحَانَ مَنْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا . وَمَا سِوَاهُ ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ وَهُوَ سُبْحَانَهُ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ بَيَانُ أَنَّ الْمُخَالِفِينَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَوْ فِي كَلِمَةٍ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِي قَوْلِهِمْ مِنْ الْخَطَأِ بِحَسَبِ ذَلِكَ . وَأَنَّ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ وَالسَّمْعِيَّةَ الْمَنْقُولَةَ عَنْ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ تُوَافِقُ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُنَاقِضُ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ الْبِدَعِ الْمُخَالِفُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَإِذَا قَالُوا : إنَّ الْعَقْلَ يُخَالِفُ النَّقْلَ أَخْطَئُوا فِي خَمْسَةِ أُصُولٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ الْعَقْلَ الصَّرِيحَ لَا يُنَاقِضُهُ . الثَّانِي : أَنَّهُ يُوَافِقُهُ الثَّالِثُ : أَنَّ مَا يَدْعُونَهُ مِنْ الْعَقْلِ الْمُعَارِضِ لَيْسَ بِصَحِيحِ . الرَّابِعُ : أَنَّ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ الْمَعْقُولِ الْمُعَارِضِ هُوَ الْمُعَارِضُ لِلْمَعْقُولِ

الصَّرِيحِ . الْخَامِسُ : أَنَّ مَا أَثْبَتُوا بِهِ الْأُصُولَ كَمَعْرِفَةِ الْبَارِي وَصِفَاتِهِ لَا يُثْبِتُهَا بَلْ يُنَاقِضُ إثْبَاتَهَا .

(443/823)

فَصْلٌ :

وَذَلِكَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ هُوَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ . فَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ اللَّهِ فَاَللَّهُ أَخْبَرَ بِهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُخْبِرُ بِعِلْمِهِ يَمْتَنِعُ أَنْ يُخْبِرَ بِنَقِيضِ عِلْمِهِ وَمَا أَمَرَ بِهِ فَهُوَ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ وَاَللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . قَالَ تَعَالَى ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ . قَالَ الزَّجَّاجُ : أَنْزَلَهُ وَفِيهِ عِلْمُهُ . وَقَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ : أَنْزَلَهُ مِنْ عِلْمِهِ . وَهَكَذَا ذَكَرَ غَيْرُهُمَا . وَهَذَا الْمَعْنَى مَأْثُورٌ عَنْ السَّلَفِ كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ قَالَ : أَقْرَأَنِي أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقُرْآنَ . وَكَانَ إذَا أَقْرَأَ أَحَدَنَا الْقُرْآنَ قَالَ : قَدْ أَخَذْت عِلْمَ اللَّهِ فَلَيْسَ أَحَدٌ

الْيَوْمَ أَفْضَل مِنْك إلَّا بِعَمَل ثُمَّ يَقْرَأُ ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاَللَّهِ شَهِيدًا ﴾ . وَكَذَلِكَ قَالُوا فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ قَالُوا : أَنْزَلَهُ وَفِيهِ عِلْمُهُ .

(444/823)

قُلْت : الْبَاءُ قَدْ يَكُونُ لِلْمُصَاحَبَةِ كَمَا تَقُولُ : جَاءَ بِأَسْيَادِهِ وَأَوْلَادِهِ . فَقَدْ أَنْزَلَهُ مُتَضَمِّنًا لِعِلْمِهِ مُسْتَصْحِبًا لِعِلْمِهِ . فَمَا فِيهِ مِنْ الْخَبَرِ هُوَ خَبَرٌ بِعِلْمِ اللَّهِ . وَمَا فِيهِ مِنْ الْأَمْرِ فَهُوَ أَمْرٌ بِعِلْمِ اللَّهِ بِخِلَافِ الْكَلَامِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ . فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ كَذِبًا وَظُلْمًا كَقُرْآنِ مُسَيْلِمَةَ وَقَدْ يَكُونُ صِدْقًا لَكِنَّ إنَّمَا فِيهِ عِلْمُ الْمَخْلُوقِ الَّذِي قَالَهُ فَقَطْ لَمْ يَدُلَّ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى إلَّا مِنْ جِهَةِ اللُّزُومِ . وَهُوَ أَنَّ الْحَقَّ يَعْلَمُهُ اللَّهُ . وَأَمَّا الْقُرْآنُ فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ لِعِلْمِ اللَّهِ ابْتِدَاءً : فَإِنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِهِ لَا بِعِلْمِ غَيْرِهِ وَلَا هُوَ كَلَامٌ بِلَا عِلْمٍ . وَإِذَا كَانَ قَدْ أُنْزِلَ بِعِلْمِهِ فَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّهُ حَقٌّ مِنْ اللَّهِ وَيَقْتَضِي أَنَّ الرَّسُولَ رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ الَّذِي بَيَّنَ فِيهِ عِلْمَهُ . قَالَ الزَّجَّاجُ : " الشَّاهِدُ " الْمُبَيِّنُ لِمَا شَهِدَ بِهِ وَاَللَّهُ يُبَيِّنُ ذَلِكَ وَيَعْلَمُ مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ حَقٌّ . (قُلْت : قَوْلُهُ ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ ﴾ شَهَادَتُهُ هُوَ بَيَانُهُ وَإِظْهَارُهُ دَلَالَتُهُ وَإِخْبَارُهُ . فَالْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ الَّتِي بَيَّنَ بِهَا صِدْقَ الرَّسُولِ تَدُلُّ عَلَيْهِ وَمِنْهَا الْقُرْآنُ هُوَ شَهَادَةٌ بِالْقَوْلِ . وَهُوَ فِي نَفْسِهِ آيَةٌ وَمُعْجِزَةٌ تَدُلُّ

عَلَى الصِّدْقِ كَمَا تَدُلُّ سَائِرُ الْآيَاتِ وَالْآيَاتُ كُلُّهَا شَهَادَةٌ مِنْ اللَّهِ كَشَهَادَةِ بِالْقَوْلِ وَقَدْ تَكُونُ أَبْلَغَ . وَلِهَذَا ذَكَرَ هَذَا فِي سُورَةِ هُودٍ لَمَّا تَحَدَّاهُمْ بِالْإِتْيَانِ بِالْمِثْلِ

(445/823)

فَقَالَ

﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . فَإِنَّ عَجْزَ . أُولَئِكَ عَنْ الْمُعَارَضَةِ دَلَّ عَلَى عَجْزِ غَيْرِهِمْ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَتَبَيَّنَ أَنَّ جَمِيعَ الْخَلْقِ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ وَأَنَّهُ آيَةٌ بَيِّنَةٌ تَدُلُّ عَلَى الرِّسَالَةِ وَعَلَى التَّوْحِيدِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إلَيْك ﴾ . بَعْدَ قَوْلِهِ ﴿ إنَّا أَوْحَيْنَا إلَيْك ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ مِنْ الْكُفَّارِ مَنْ قَالَ : لَا نَشْهَدُ لِمُحَمَّدِ بِالرِّسَالَةِ فَقَالَ تَعَالَى ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إلَيْك ﴾ وَأَحْسَنُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَمَّا قَالَ ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ نَفَى حُجَّةَ الْخَلْقِ عَلَى الْخَالِقِ فَقَالَ : لَكِنْ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى الْخَلْقِ قَائِمَةٌ بِشَهَادَتِهِ بِالرِّسَالَةِ فَإِنَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إلَيْك أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ فَمَا لِلْخَلْقِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَلْ لَهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ . وَهُوَ الَّذِي هَدَى عِبَادَهُ بِمَا أَنْزَلَهُ . وَعَلَى

مَا تَقَدَّمَ فَقَوْلُهُ ﴿ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ أَيْ فِيهِ عِلْمُهُ بِمَا كَانَ وَسَيَكُونُ وَمَا أَخْبَرَ بِهِ وَهُوَ أَيْضًا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ . فَإِنَّهُ إذَا أَخْبَرَ بِالْغَيْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ دَلَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَهُ بِهِ

(446/823)

كَقَوْلِهِ ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ ﴿ إلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ الْآيَةَ وَقَدْ قِيلَ : أَنْزَلَهُ وَهُوَ عَالِمٌ بِهِ وَبِكَ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطبري فِي آيَةِ النِّسَاءِ : أَنْزَلَهُ إلَيْك بِعِلْمِ مِنْهُ أَنَّك خِيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ . وَذَكَرَ الزَّجَّاجُ فِي آيَةِ هُودٍ قَوْلَيْنِ أَحَدُهُمَا : أَنْزَلَهُ وَهُوَ عَالِمٌ بِإِنْزَالِهِ وَعَالِمٌ أَنَّهُ حَقٌّ مِنْ عِنْدِهِ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ أَنْزَلَهُ بِمَا أَخْبَرَ فِيهِ مِنْ الْغُيُوبِ وَدَلَّ عَلَى مَا سَيَكُونُ وَمَا سَلَفَ . (قُلْت : هَذَا الْوَجْهُ هُوَ الَّذِي تَقَدَّمَ . وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَهُوَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ ابْنِ جَرِيرٍ . فَإِنَّهُ عَالِمٌ بِهِ وَبِمَنْ أَنْزَلَ إلَيْهِ وَعَالِمٌ بِأَنَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ أَهْلٌ لِمَا اصْطَفَاهُ اللَّهُ لَهُ وَيَكُونُ هَذَا كَقَوْلِهِ ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ وَقَوْلِ مَنْ قَالَ ﴿ إنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ أَيْ عَلَى عِلْمٍ مِنْ اللَّهِ بِاسْتِحْقَاقِي . (قُلْت وَهَذَا الْوَجْهُ يَدْخُلُ فِي مَعْنَى الْأَوَّلِ فَإِنَّهُ إذَا نَزَلَ الْكَلَامُ بِعِلْمِ الرَّبِّ تَضَمَّنَ أَنَّ كُلَّ مَا فِيهِ فَهُوَ مِنْ عِلْمِهِ وَفِيهِ الْإِخْبَارُ بِحَالِهِ وَحَالِ الرَّسُولِ . وَهَذَا الْوَجْهُ هُوَ الصَّوَابُ . وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ غَيْرَهُ

.

وَالْأَوَّلُ وَإِنْ كَانَ مَعْنَاهُ صَحِيحًا فَهُوَ جُزْءٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ . وَأَمَّا كَوْنُ الثَّانِي هُوَ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ فَغَلَطٌ لِأَنَّ كَوْنَ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ الشَّيْءَ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَحْمُودٌ وَلَا مَذْمُومٌ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . فَلَا يَقُولُ أَحَدٌ إنَّهُ أَنْزَلَهُ وَهُوَ لَا يَعْلَمُهُ . لَكِنْ قَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ أُنْزِلَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ أَيْ وَلَيْسَ فِيهِ عِلْمُهُ وَأَنَّهُ مِنْ تَنْزِيلِ الشَّيْطَانِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ ﴿ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ وَالشَّيَاطِينُ هُوَ يُرْسِلُهُمْ وَيُنْزِلُهُمْ لَكِنَّ الْكَلَامَ الَّذِي يَأْتُونَ بِهِ لَيْسَ مُنَزَّلًا مِنْهُ ؛ وَلَا هُوَ مُنَزَّلٌ بِعِلْمِ اللَّهِ بَلْ مُنَزَّلٌ بِمَا تَقُولُهُ الشَّيَاطِينُ مِنْ كَذِبٍ وَغَيْرِهِ . وَلِهَذَا هُوَ سُبْحَانَهُ إذَا ذَكَرَ نُزُولَ الْقُرْآنِ قَيَّدَهُ بِأَنَّ نُزُولَهُ مِنْهُ كَقَوْلِهِ ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ وَهَذَا مِمَّا اسْتَدَلَّ بِهِ الْإِمَامُ أَحْمَد وَغَيْرُهُ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقِ خَلَقَهُ فِي مَحَلٍّ غَيْرِهِ فَإِنَّهُ كَانَ يَكُونُ مُنَزَّلًا مِنْ ذَلِكَ الْمَحَلِّ لَا مِنْ اللَّهِ . وَقَالَ إنَّهُ نَزَلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَإِنَّهُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ وَعِلْمُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ .

وَقَالَ أَحْمَد : كَلَامُ اللَّهِ مِنْ اللَّهِ لَيْسَ شَيْئًا مِنْهُ . وَلِهَذَا قَالَ السَّلَفُ : الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ . فَقَالُوا : مِنْهُ بَدَأَ لَمْ يَبْدَأْ مِنْ غَيْرِهِ كَمَا تَقُولُهُ الْجَهْمِيَّة . يَقُولُونَ : بَدَأَ مِنْ الْمَحَلِّ الَّذِي خُلِقَ فِيهِ . وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوَاضِعَ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ إذَا كَانَ فِيهِ عِلْمُهُ فَهُوَ حَقٌّ وَالْكَلَامُ الَّذِي يُعَارِضُهُ بِهِ خِلَافُ عِلْمِ اللَّهِ فَهُوَ بَاطِلٌ كَالشِّرْكِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

فَصْلٌ :

وَهَذَا الَّذِي ذَكَرْته مِنْ أَنَّهُ يَجِبُ الرُّجُوعُ فِي أُصُولِ الدِّينِ إلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَمَا بَيَّنْته مِنْ أَنَّ الْكِتَابَ بَيَّنَ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي بِهَا تُعْرَفُ الْمَطَالِبُ الْإِلَهِيَّةُ وَبَيَّنَ مَا يَدُلُّ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ فِي كُلِّ مَا يَقُولُهُ هُوَ يُظْهِرُ الْحَقَّ بِأَدِلَّتِهِ السَّمْعِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ . وَبَيَّنَ أَنَّ لَفْظَ " الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ " قَدْ صَارَ لَفْظًا مُجْمَلًا . فَكُلُّ مَنْ

وَضَعَ شَيْئًا بِرَأْيِهِ سَمَّاهُ " عَقْلِيَّاتٍ " وَالْآخَرُ يُبَيِّنُ خَطَأَهُ فِيمَا قَالَهُ وَيَدَّعِي الْعَقْلَ أَيْضًا وَيَذْكُرُ أَشْيَاءَ أُخَرَ تَكُونُ أَيْضًا خَطَأً كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعَ . وَهُوَ نَظِيرُ مَنْ يَحْتَجُّ فِي السَّمْعِ بِأَحَادِيثَ ضَعِيفَةٍ أَوْ مَوْضُوعَةٍ أَوْ نُصُوصٍ ثَابِتَةٍ لَكِنْ لَا تَدُلُّ عَلَى مَطْلُوبِهِ . وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يَجْعَلُ دَلَالَةَ الْقُرْآنِ وَالْأَحَادِيثِ مِنْ جِهَةِ الْخَبَرِ الْمُجَرَّدِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ ذَلِكَ لَا يُوجِبُ الْعِلْمَ إلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِصِدْقِ الْمُخْبِرِ . فَلِهَذَا يَضْطَرُّونَ إلَى أَنْ يَجْعَلُوا الْعُلُومَ الْعَقْلِيَّةَ أَصْلًا كَمَا يَفْعَلُ أَبُو الْمَعَالِي وَأَبُو حَامِدٍ وَالرَّازِي وَغَيْرُهُمْ . وَأَئِمَّةُ الْمُتَكَلِّمِينَ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ بَيَّنَ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ كَمَا يَذْكُرُ ذَلِكَ الْأَشْعَرِيُّ وَغَيْرُهُ وَعَبْدُ الْجَبَّارِ بْنُ أَحْمَد وَغَيْرُهُ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ . ثُمَّ هَؤُلَاءِ قَدْ يَذْكُرُونَ أَدِلَّةً يَجْعَلُونَهَا أَدِلَّةَ الْقُرْآنِ وَلَا تَكُونُ هِيَ إيَّاهَا كَمَا فَعَلَ الْأَشْعَرِيُّ فِي " اللُّمَعِ " وَغَيْرِهِ حَيْثُ احْتَجَّ بِخَلْقِ الْإِنْسَانِ وَذَكَرَ قَوْلَهُ ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾ ﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ . لَكِنْ هُوَ ظَنَّ أَنَّ النُّطْفَةَ فِيهَا جَوَاهِرُ بَاقِيَةٌ وَأَنَّ نَقْلَهَا فِي

الْأَعْرَاضِ يَدُلُّ عَلَى حُدُوثِهَا . فَاسْتَدَلَّ عَلَى حُدُوثِ جَوَاهِرِ النُّطْفَةِ . وَلَيْسَتْ هَذِهِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ وَلَا جُمْهُورِ الْعُقَلَاءِ . بَلْ يَعْرِفُونَ أَنَّ النُّطْفَةَ حَادِثَةٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ مُسْتَحِيلَةً عَنْ دَمِ الْإِنْسَانِ ؛ وَهِيَ مُسْتَحِيلَةٌ إلَى الْمُضْغَةِ وَأَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ هَذَا الْجَوْهَرَ الثَّانِيَ مِنْ الْمَادَّةِ

الْأُولى بِالِاسْتِحَالَةِ وَبِعَدَمِ الْمَادَّةِ الْأُولى لَا تَبْقَى جَوَاهِرُهَا بِأَعْيَانِهَا دَائِمًا كَمَا تَقَدَّمَ . فَالنُّظَّارُ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ . مِنْهُمْ مَنْ يُعْرِضُ عَنْ دَلَائِلِهِ الْعَقْلِيَّةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُقِرُّ بِهَا لَكِنْ يَغْلَطُ فِي فَهْمِهَا وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْرِفُهَا عَلَى وَجْهِهَا كَمَا أَنَّهُمْ ثَلَاثُ طَبَقَاتٍ فِي دَلَالَتِهِ الْخَبَرِيَّةِ . مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ لَمْ يَدُلَّ عَلَى الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى غَيْرِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ . وَالْأَشْعَرِيُّ وَأَمْثَالُهُ بَرْزَخٌ بَيْنَ السَّلَفِ وَالْجَهْمِيَّةِ . أَخَذُوا مِنْ هَؤُلَاءِ كَلَامًا صَحِيحًا وَمِنْ هَؤُلَاءِ أُصُولًا عَقْلِيَّةً ظَنُّوهَا صَحِيحَةً وَهِيَ فَاسِدَةٌ . فَمِنْ النَّاسِ مَنْ مَالَ إلَيْهِ مِنْ الْجِهَةِ السَّلَفِيَّةِ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ مَالَ إلَيْهِ مِنْ الْجِهَةِ الْبِدْعِيَّةِ الْجَهْمِيَّةِ كَأَبِي الْمَعَالِي وَأَتْبَاعِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ كَأَئِمَّةِ أَصْحَابِهِمْ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعَ .

إذْ الْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ جَعْلَ الْقُرْآنِ إمَامًا يُؤْتَمُّ بِهِ فِي أُصُولِ الدِّينِ

وَفُرُوعِهِ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ . وَهُوَ طَرِيقَةُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ . فَلَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ يَقْبَلُونَ مِنْ أَحَدٍ قَطُّ أَنْ يُعَارِضَ الْقُرْآنَ بِمَعْقُولِ أَوْ رَأْيٍ يُقَدِّمُهُ عَلَى الْقُرْآنِ . وَلَكِنْ إذَا عَرَضَ لِلْإِنْسَانِ إشْكَالٌ سَأَلَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الصَّوَابُ . وَلِهَذَا صَنَّفَ الْإِمَامُ أَحْمَد

كِتَابًا فِي " الرَّدِّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ فِيمَا شَكَّتْ فِيهِ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَتَأَوَّلَتْهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ " . وَلِهَذَا كَانَ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَغَيْرُهُمْ يَرْجِعُونَ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ إلَى الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ لَا إلَى رَأْيِ أَحَدٍ وَلَا مَعْقُولِهِ وَلَا قِيَاسِهِ . قَالَ الأوزاعي : كُنَّا وَالتَّابِعُونَ مُتَوَافِرُونَ نَقُولُ : إنَّ اللَّهَ فَوْقَ عَرْشِهِ وَنُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنْ صِفَاتِهِ . وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ : لَا يُوصَفُ اللَّهُ إلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ لَا يَتَجَاوَزُ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ فِي خُطْبَةِ " الرِّسَالَةِ " : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هُوَ كَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ " وَفَوْقَ مَا يَصِفُهُ بِهِ خَلْقُهُ . وَقَالَ مَالِكٌ : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ

(452/823)

وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ . وَكَانَ يَكْرَهُ مَا أُحْدِثَ مِنْ الْكَلَامِ . وَرُوِيَ عَنْهُ وَعَنْ أَبِي يُوسُفَ : مَنْ طَلَبَ الدِّينَ بِالْكَلَامِ تَزَنْدَقَ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنِّعَالِ وَيُطَافُ بِهِمْ فِي الْأَسْوَاقِ وَيُقَالُ : هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ . وَقَالَ : لَقَدْ اطَّلَعْت مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ عَلَى شَيْءٍ مَا كُنْت أَظُنُّهُ وَلَأَنْ يُبْتَلَى الْعَبْدُ بِكُلِّ ذَنْبٍ مَا خَلَا الشِّرْكَ بِاَللَّهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يُبْتَلَى بِالْكَلَامِ . وَقَدْ بَسَطَ تَفْسِيرَ كَلَامِهِ وَكَلَامِ غَيْرِهِ فِي مَوَاضِعَ وَبَيَّنَ أَنَّ مُرَادَهُمْ بِالْكَلَامِ هُوَ كَلَامُ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِي نَفَوْا بِهِ الصِّفَاتِ وَزَعَمُوا أَنَّهُمْ

يُثْبِتُونَ بِهِ حُدُوثَ الْعَالَمِ وَهِيَ طَرِيقَةُ الْأَعْرَاضِ . وَقَالَ أَحْمَد أَيْضًا : عُلَمَاءُ الْكَلَامِ زَنَادِقَةٌ وَمَا ارْتَدَى أَحَدٌ بِالْكَلَامِ فَأَفْلَحَ . وَكَلَامُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ الماجشون مَبْسُوطٌ فِي هَذَا . وَذَكَرَ أَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ قَالَ : لَا يَنْبَغِي لِأَحَدِ أَنْ يَنْطِقَ فِي اللَّهِ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِهِ وَلَكِنَّهُ يَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : أَتَانَا مِنْ خُرَاسَانَ ضَيْفَانِ كِلَاهُمَا ضَالَّانِ الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُشَبِّهَةُ .

(453/823)

وَعَنْ أَبِي عِصْمَةَ قَالَ : سَأَلْت أَبَا حَنِيفَةَ : مِنْ أَهْلِ الْجَمَاعَةِ ؟ قَالَ . مَنْ فَضَّلَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَحَبَّ عَلِيًّا وَعُثْمَانَ وَلَمْ يُحَرِّمْ نَبِيذَ الْجَرِّ وَلَمْ يُكَفِّرْ أَحَدًا بِذَنْبِ وَرَأَى الْمَسْحَ عَلَى الْخُفَّيْنِ وَآمَنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ مِنْ اللَّهِ وَلَمْ يَنْطِقْ فِي اللَّهِ بِشَيْءٍ . وَرَوَى خَالِدُ بْنُ صَبِيحٍ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ قَالَ : الْجَمَاعَةُ سَبْعَةُ أَشْيَاءَ : أَنْ يُفَضِّلَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَأَنْ يُحِبَّ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَأَنْ يُصَلِّيَ عَلَى مَنْ . مَاتَ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبِ وَأَنْ لَا يَنْطِقَ فِي اللَّهِ شَيْئًا . قُلْت : قَوْلُهُ فِي هَاتَيْنِ الرِّوَايَتَيْنِ "لَا يَنْطِقُ فِي اللَّهِ شَيْئًا " قَدْ بَيَّنَهُ فِي رِوَايَةِ أَبِي يُوسُفَ وَهُوَ "أَنْ لَا يَنْطِقَ فِي اللَّهِ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِهِ وَلَكِنَّهُ يَصِفُهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ " . فَهَذَا ذَمٌّ مِنْ الْأَئِمَّةِ لِكُلِّ مَنْ يَتَكَلَّمُ فِي صِفَاتِ الرَّبِّ بِغَيْرِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ . فَكَيْفَ بِالَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْكِتَابَ

وَالسُّنَّةَ لَا يُفِيدُ عِلْمًا وَيُقَدِّمُونَ رَأْيَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَعَ فَسَادِهِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ وَرَوَى هُشَامٌ عَنْ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَبِي يُوسُفَ وَهُوَ قَوْلُ مُحَمَّدٍ قَالُوا : السُّنَّةُ الَّتِي عَلَيْهَا أَمْرُ النَّاسِ أَنْ لَا يُكَفِّرَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ وَيَخْرُجَ مِنْ الْإِسْلَامِ وَلَا يَشُكَّ فِي الدِّينِ يَقُولُ الرَّجُلُ : لَا أَدْرِي أَمُؤْمِنٌ أَنَا أَوْ كَافِرٌ وَلَا يَقُولُ بِالْقَدَرِ وَلَا يَخْرُجُ

عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالسَّيْفِ وَيُقَدِّمُ مَنْ يُقَدِّمُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُفَضِّلُ مَنْ فُضِّلَ . وَذَكَرُوا عَنْ أَبِي يُوسُفَ أَنَّهُ قَالَ : مَذْهَبُ أَهْلِ الْجَمَاعَةِ عِنْدَنَا وَمَا أَدْرَكْنَا عَلَيْهِ جَمَاعَةَ أَهْلِ الْفِقْهِ مِمَّنْ لَمْ يَأْخُذْ مِنْ الْبِدَعِ وَالْأَهْوَاءِ أَنْ لَا يَشْتُمَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَلَا يَذْكُرُ فِيهِمْ عَيْبًا وَلَا يَذْكُرُ مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ فَيُحَرِّفَ الْقُلُوبَ عَنْهُمْ وَأَنْ لَا يَشُكَّ بِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ وَأَنْ لَا يُكَفِّرَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ مِمَّنْ يُقِرُّ بِالْإِسْلَامِ وَيُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَلَا يُخْرِجُهُ مِنْ الْإِيمَانِ بِمَعْصِيَةٍ إنْ كَانَتْ فِيهِ ؛ وَلَا يَقُولُ بِقَوْلِ أَهْلِ الْقَدَرِ وَلَا يُخَاصِمُ فِي الدِّينِ فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْبِدَعِ . فَهَذَا قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ . وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدِ أَنْ يَقُولَ فِي هَذَا كَيْفَ وَلِمَ ؟ وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُخْبِرَ السَّائِلَ عَنْ هَذَا إلَّا بِالنَّهْيِ لَهُ عَنْ الْمَسْأَلَةِ وَتَرْكِ الْمُجَالَسَةِ وَالْمَشْيِ مَعَهُ إنْ عَادَ . وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ أَنْ يُخَالِطَ

أَحدًا مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ حَتَّى يُصَاحِبَهُ وَيَكُونَ خَاصَّتَهُ مَخَافَةَ أَنْ يَسْتَزِلَّهُ أَوْ يَسْتَزِلَّ غَيْرَهُ بِصُحْبَةِ هَذَا . قَالَ : وَالْخُصُومَةُ فِي الدِّينِ بِدْعَةٌ وَمَا يَنْقُضُ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِدْعَةٌ مُحْدَثَةٌ . لَوْ كَانَتْ فَضْلًا لَسَبَقَ إلَيْهَا أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَتْبَاعُهُمْ فَهُمْ كَانُوا

(455/823)

عَلَيْهَا أَقْوَى وَلَهَا أَبْصَرُ . وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ وَلَمْ يَأْمُرْهُ بِالْجِدَالِ . وَلَوْ شَاءَ لَأَنْزَلَ حُجَجًا وَقَالَ لَهُ : قُلْ كَذَا وَكَذَا . وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ : دَعُوا قَوْلَ أَصْحَابِ الْخُصُومَاتِ وَأَهْلِ الْبِدَعِ فِي الْأَهْوَاءِ مِنْ الْمُرْجِئَةِ وَالرَّافِضَةِ وَالزَّيْدِيَّةِ وَالْمُشَبِّهَةِ وَالشِّيعَةِ وَالْخَوَارِجِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّة . قَالُوا : وَرُوِيَ عَنْ مُحَمَّدٍ قَالَ : أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ أَفْضَلُ مِنْ عَلِيٍّ . قُلْت مَا ذَكَرَ أَبُو يُوسُفَ فِي أَمْرِ الْجِدَالِ هُوَ يُشْبِهُ كَلَامَ كَثِيرٍ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ يُشْبِهُ كَلَامَ الْإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ . وَفِيهِ بَسْطٌ وَتَفْصِيلٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ . وَلِهَذَا كَانَ بِشْرُ بْنُ الْوَلِيدِ صَاحِبُ أَبِي يُوسُفَ يُحِبُّ أَحْمَد وَيَمِيلُ إلَيْهِ . فَإِنَّ أَبَا يُوسُفَ كَانَ أَمْيَلَ إلَى الْحَدِيثِ مِنْ غَيْرِهِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ .

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

فَصْلٌ :

(456/823)

السُّوَرُ الْقِصَارُ فِي أَوَاخِرِ الْمُصْحَفِ مُتَنَاسِبَةٌ . فَسُورَةُ (اقْرَأْ هِيَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ ؛ وَلِهَذَا افْتُتِحَتْ بِالْأَمْرِ بِالْقِرَاءَةِ وَخُتِمَتْ بِالْأَمْرِ بِالسُّجُودِ وَوُسِّطَتْ بِالصَّلَاةِ الَّتِي أَفْضَلُ أَقْوَالِهَا وَأَوَّلُهَا بَعْدَ التَّحْرِيمِ هُوَ الْقِرَاءَةُ وَأَفْضَلُ أَفْعَالِهَا وَآخِرُهَا قَبْلَ التَّحْلِيلِ هُوَ السُّجُودُ ؛ وَلِهَذَا لَمَّا أُمِرَ بِأَنْ يَقْرَأَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ بَعْدَهَا الْمُدَّثِّرُ لِأَجْلِ التَّبْلِيغِ فَقِيلَ لَهُ : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ فَبِالْأُولَى صَارَ نَبِيًّا وَبِالثَّانِيَةِ صَارَ رَسُولًا ؛ وَلِهَذَا خُوطِبَ بِالْمُدَّثِّرِ وَهُوَ الْمُتَدَفِّئُ مِنْ بَرْدِ الرُّعْبِ وَالْفَزَعِ الْحَاصِلِ بِعَظَمَةِ مَا دَهَمَهُ لَمَّا رَجَعَ إلَى خَدِيجَةَ تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ وَقَالَ دَثِّرُونِي دَثِّرُونِي فَكَأَنَّهُ نُهِيَ عَنْ الِاسْتِدْفَاءِ وَأُمِرَ بِالْقِيَامِ لِلْإِنْذَارِ كَمَا خُوطِبَ فِي (الْمُزَّمِّلِ) وَهُوَ الْمُتَلَفِّفُ لِلنَّوْمِ لَمَّا أُمِرَ بِالْقِيَامِ إلَى الصَّلَاةِ فَلَمَّا أُمِرَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِالْقِرَاءَةِ ذَكَرَ فِي الَّتِي تَلِيهَا نُزُولَ الْقُرْآنِ لَيْلَةَ الْقَدْرِ وَذَكَرَ فِيهَا تَنَزُّلَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ وَفِي (الْمَعَارِجِ) عُرُوجَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ وَفِي (النَّبَأِ) قِيَامَ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ . فَذَكَرَ الصُّعُودَ وَالنُّزُولَ وَالْقِيَامَ ثُمَّ

(457/823)

فِي الَّتِي تَلِيهَا تِلَاوَتَهُ عَلَى الْمُنْذَرِينَ حَيْثُ قَالَ: ﴿ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ . فَهَذِهِ السُّوَرُ الثَّلَاثُ مُنْتَظِمَةٌ لِلْقُرْآنِ أَمْرًا بِهِ وَذِكْرًا لِنُزُولِهِ وَلِتِلَاوَةِ الرَّسُولِ لَهُ عَلَى الْمُنْذَرِينَ ثُمَّ سُورَةُ (الزَّلْزَلَةِ) وَ (الْعَادِيَاتِ) وَ (الْقَارِعَةِ) وَ (التَّكَاثُرِ) مُتَضَمِّنَةٌ لِذِكْرِ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا فِيهِ مِنْ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْ الْقُرْآنِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قِيلَ هُوَ النَّبَأُ الْعَظِيمُ . ثُمَّ سُورَةُ (الْعَصْرِ) وَ (الْهُمَزَةِ) وَ (الْفِيلِ) وَ (لِإِيلَافِ) وَ (أَرَأَيْت) وَ (الْكَوْثَرِ) وَ (الْكَافِرُونَ) وَ (النَّصْرِ) وَ (تَبَّتْ) مُتَضَمِّنَةٌ لِذِكْرِ الْأَعْمَالِ حَسَنِهَا وَسَيِّئِهَا وَإِنْ كَانَ لِكُلِّ سُورَةٍ خَاصَّةٌ . وَأَمَّا سُورَةُ (الْإِخْلَاصِ وَ (الْمُعَوِّذَتَانِ فَفِي الْإِخْلَاصِ الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ وَفِي الْمُعَوِّذَتَيْنِ دُعَاءُ الْعَبْدِ رَبَّهُ لِيُعِيذَهُ وَالثَّنَاءُ مَقْرُونٌ بِالدُّعَاءِ كَمَا قَرَنَ بَيْنَهُمَا فِي أُمِّ الْقُرْآنِ الْمَقْسُومَةِ بَيْنَ الرَّبِّ وَالْعَبْدِ: نِصْفُهَا ثَنَاءٌ لِلرَّبِّ وَنِصْفُهَا دُعَاءٌ لِلْعَبْدِ وَالْمُنَاسَبَةُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ؛ فَإِنَّ أَوَّلَ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ الْإِيمَانُ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ الرِّسَالَةِ وَهُوَ الْقُرْآنُ ثُمَّ الْإِيمَانُ بِمَقْصُودِ ذَلِكَ وَغَايَتِهِ وَهُوَ مَا يَنْتَهِي الْأَمْرُ إلَيْهِ مِنْ النَّعِيمِ وَالْعَذَابِ: وَهُوَ الْجَزَاءُ ثُمَّ مَعْرِفَةُ طَرِيقِ الْمَقْصُودِ وَسَبَبِهِ وَهُوَ الْأَعْمَالُ: خَيْرُهَا لِيَفْعَلَ وَشَرُّهَا لِيَتْرُكَ .

ثُمَّ خَتَمَ الْمُصْحَفَ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ وَهُوَ ذِكْرُ اللَّهِ وَدُعَاؤُهُ كَمَا بُنِيَتْ عَلَيْهِ أُمُّ الْقُرْآنِ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الْإِنْسَانِ الْمَعْنَوِيَّةَ هُوَ الْمَنْطِقُ وَالْمَنْطِقُ قِسْمَانِ: خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ وَأَفْضَلُ الْخَبَرِ وَأَنْفَعُهُ وَأَوْجَبُهُ مَا كَانَ خَبَرًا عَنْ اللَّهِ كَنِصْفِ الْفَاتِحَةِ وَسُورَةِ الْإِخْلَاصِ وَأَفْضَلُ الْإِنْشَاءِ الَّذِي هُوَ الطَّلَبُ وَأَنْفَعُهُ وَأَوْجَبُهُ مَا كَانَ طَلَبًا مِنْ اللَّهِ كَالنِّصْفِ الثَّانِي مِنْ الْفَاتِحَةِ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ. انتهى

انتهى. اهـ ﴿مجموع الفتاوى حـ 16صـ 251. 479﴾

(459/823)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب: الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ المَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى. رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَوَلَةُ الإِمَارَاتِ العَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الرابع والعشرون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/824)

الجزء الرابع والعشرون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة القدر)

(4/824)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة القدر)

(5/824)

"فصل فى مقصود السورة الكريمة"

قال البقاعى :

سورة القدر

مقصودها تفصيل الأمر الذي هو أحد قسمي ما ضمنه مقصود "اقرأ" وعلى ذلك دل اسمها لأن الليلة فضلت به ، فهو من إطلاق المسبب على السبب ، وهو دليل لمن يقول باعتبار تفضيل الأوقات لأجل ما كان فيها ، كما قال ذلك اليهودي في اليوم الذي نزل فيه قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) [المائدة : 3] وأفرده الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه على ذلك وأعلمه أنه صار لنا عيدين : عيدا من جهة كونه يوم عرفة ، وعيدا من جهة كونه يوم جمعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 490﴾

(6/824)

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . إنا أنزلناه)

السّورة مكيّة عند بعض المفسّرين ، مدنية عند الأَكثرين .

آياتها ستّ فى عدّ الشام ، وخمس عند الباقين ؛ وكلماتها ثلاثون .

وحروفها مائة واثنتا عشرة .

المختلف فيها آية (القدر) الثالث .

فواصل آياتها على الرّاءِ .

سمّيت سورة القَدْر ؛ لتكرُّر ذكره فيها .

معظم مقصود السورة : بيان شرف ليلة القدر فى نصِّ القرآن ، ونزول الملائكة المقرّبين من عند الرحمن ، واتصال سلامهم طوال اللّيل على أَهل الإِيمان ، فى قوله : ﴿ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

السّورة محكمة .

المتشابهات :

قوله تعالى : إِنا أَنزلناه فى ليلة القدر (وبعده : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾) ثم قال : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ فصرّح به ، وكان حقّه الكناية ؛ رفعاً لمنزلتها ؛ فإِنَّ الاسم قد يُذكر بالصّريح فى موضع الكناية ؛ تعظيماً وتخويفاً .

كما قال الشّاعر :

*لا أَرى الموتَ يسبق الموتَ شىءٌ * نغّص الموتُ ذا الغنى والفقيرا*

فصرّح باسم الموت ثلاث مرّات ؛ تخويفاً .

وهو من أَبيات كتاب سيبويه .

فضل السّورة

فيه أَحاديث ضعيفة : عن أُبىّ مَنْ قرأَها أُعطِىَ من الأَجر كمن صام رمضان ، وأَحيا ليلة القدر .

وقال جعفر : من قرأَها فى ليلة نادى منادٍ : استأْنِفِ العمل فقد غفر الله لك ، وقال : يا علىّ : من قرأَها فتح الله فى قبره بابين من الجنَّة ، وله بكلّ آية قرأَها ثواب مَن صلَّى بين الرّكن والمقام أَلف ركعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 531. 532 ﴾

(7/824)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة التكاثر

473 - مسأَلة :

قوله تعالى : (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) ؟

تقدم الكلام عليها وعلى تكرارها في سورة النبأ .

474 – مسألة : –

قوله تعالى : (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

وقد قال تعالى في مواضع متعددة الإذن في المباحات كقوله تعالى : (كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ) و

(كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ) (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ)

ما فائدة السؤال عما أباحه ؟ .

جوابه :

أن المراد : لتسألن عن شكر النعيم ، فحذف المضاف للعلم به ، لأن الشكر واجب أو أنهم

يسألون عن نعيمهم من أين حصلوه

وآثروه على طاعة الله تعالى .

475 – مسألة :

قوله تعالى : (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) وفيه توكيد الخبر وقال

تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ) . الآيتين

جوابه :

تقدم في سورة الأنبياء . وقيل : هو خطاب للمشركين خاصة ، والمراد رؤية دخول وحلول

فيها ، وهو عين اليقين . وقيل : هو الخطاب للناس كقوله تعالى : (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا) فالمؤمن ناج منها والكافر داخل فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 378. 379﴾

(8/824)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة القدر

سميت هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة (سورة القَدْر) وسماها ابن عطية في (تفسيره) وأبو بكر الجصّاص في (أحكام القرآن) (سورة ليلة القدر) .

وهي مكية في قول الجمهور وهو قول جابر بن زيد ويُروى عن ابن عباس . وعن ابن عباس أيضاً والضحاك أنها مدنية ونسبه القرطبي إلى الأكثر . وقال الواقدي : هي أول سورة نزلت بالمدينة ويرجحه أن المتبادر أنها تتضمن الترغيب في إحياء ليلة القدر وإنما كان ذلك بعد فرض رمضان بعدَ الهجرة .

وقد عدها جابر بن زيد الخامسة والعشرين في ترتيب نزول السور ، نزلت بعد سورة عبس

وقبل سورة الشمس ، فأما قول من قالوا إنها مدنية فيقتضي أن تكون نزلت بعد المطففين وقبل البقرة .

وآياتها خمس في العدد المدني والبصري والكوفي ، وستّ في العدّ المكي والشامي .

أغراضها

التنويه بفضل القرآن وعظمتِه بإسناد إنزاله إلى الله تعالى . . .

والردُّ على الذين جحدوا أن يكون القرآن منزلاً من الله تعالى .

ورفع شأن الوقت الذي أنزل فيه ونزول الملائكة في ليلةِ إنزاله .

وتفضيلُ الليلة التي توافق ليلةَ إنزاله من كل عام .

ويستتبع ذلك تحريض المسلمين على تحيّن ليلة القدر بالقيام والتصدق . انتهى . ا هـ

﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ 455. 456﴾

(9/824)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة القدر

مكية وآياتها خمس آيات

بين يدي السورة

* سورة القدر مكية ، وقد تحدثت عن بدء نزول القرآن العظيم ، وعن فضل ليلة القدر ، على سائر الأيام والشهور ، لا فيها من الأنوار والتجليات القدسية ، والنفحات الربانية ، التي يفيضها الباري جل وعلا على عباده المؤمنين ، تكريما لنزول القران المبين ، كما تحدثت عن نزول الملائكة الأبرار حتى طلوع الفجر ، فيا لها من ليلة عظيمة القدر ، هي خير عند الها من ألف شهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 584 ﴾

(10/824)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة القدر

القدر : العظمة والشرف ، من قولهم لفلان قدر عند فلان : أي منزلة وشرف ، تنزل الملائكة : أي تنزل وتتجلى للنفس الطاهرة التي هيأها اللّه لقبول تجليها ، وهى نفس النبي الكريم ، سلام : أي أمن من كل أذى وشر ، مطلع الفجر : أي وقت طلوعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 206 ﴾

قال الفراء :

سورة (القدر)

﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . . . ﴾ .

كل ما كان فى القرآن من قوله : "وما أدراك" فقد أدراه ، وما كان من قوله : "وما يدريك" فلم يدره .

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾

وقوله عَزّ وَجَلّ : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ . . . ﴾ .

[/ب] يقول : العمل فى ليلة القدر خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . وليلة- القدر- فيما ذكر حِبّان عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس فى كل شهر رمضان .

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا . . . ﴾ .

يقال : إن جبريل صلى الله عليه وسلم ينزل ومعه الملائكة ، فلا يَلْقَون مؤمنا ولا مؤمنة إلا

سلّموا عليه ، [حدثنا أبو العباس قال : حدثنا محمد] قال : حدثنا الفراء قال : حدثنى أبو بكر بن عياش عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أنه كان يقرأ : ﴿ مِنْ كُلِّ امرىءٍ سَلَامٌ ﴾ فهذا موافق لتفسير الكلبى ، ولم يقرأ به أحد غيرُ ابن عباس .

وقول العوام : انقطع عند قوله : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ ، ثم استأنف فقال : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ و (المطِلع) كسره يحيى بن وثاب وحدهَ ، وقرأه العوام بفتح اللام (مطلَع) .

وقول العوام أقوى فى قياس العربية ؛ لأن المطلَع بالفتح هو : الطلوع ، والمطِلع : المشرق ، والموضع الذى تطلع منه إلاَّ أن العرب يقولون : طلعت الشمسُ مطِلعا فيكسرون . وهم يريدون : المصدر ، كما تقول : أكرمتك كرامةً ، فتجتزىء بالاسم من المصدر . وكذلك قولك : أعطيتك عطاء اجتزى فيه بالاسم من المصدر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 280. 281 ﴾

(12/824)

وقال الأخفش :

سورة (القدر)

﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾

قال ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ أي: هِي سلامٌ، يريد: مُسَلَّمَة.

وقال ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ يريد: الطلوع. والمصدر ها هنا لا يبنى الا على "مَفْعَل".

انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن/ للأخفش حـ 2 صـ 581﴾

(13/824)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة القدر

«1»

1 - و2 - و3 - لَيْلَةِ الْقَدْرِ: ليلة الحكم. كأنه يقدّر فيها الأشياء.

خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ليس فيها ليلة القدر.

4 - مِنْ كُلِّ أَمْرٍ أي لكل امر.

5 - سَلَامٌ هِيَ... أي خير هي حتى يطلع الفجر. انتهى انتهى. اهـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 463﴾

---

(1) مدنية في أكثر الأقوال.

(14/824)

وقال الغزنوى:

[سورة القدر]

1 الْقَدْرِ: تقدير أمور السّنة «1» ، وأخفيت ليلته ليستكثر من العبادة

---

(1) ينظر تفسير الطبري: 30/ 258، وتفسير الماوردي: 4/ 490، وتفسير البغوي: 4/ 509.

(15/824)

ولا يستند إلى واحدة.

3 خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ: خالية عنها «1» .

4 وَالرُّوحُ: أشرف الملائكة «2» .

مِنْ كُلِّ أَمْرٍ: أمر يقضى فيها.

5 سَلامٌ: أي: هي سلام الملائكة إلى أن يطلع الفجر «3» . انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى

القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 885. 886 ﴾

---

(1) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 534، وأخرجه الطبري في تفسيره: 30/ 259 عن قتادة.

وانظر هذا القول في معاني القرآن للزجاج: 5/ 347، وتفسير الماوردي: 4/ 491، وتفسير القرطبي: 20/ 131.

(2) نقل الماوردي هذا القول في تفسيره: 4/ 491، عن مقاتل، وأكثر المفسرين على أنه جبريل عليه السلام.

ينظر زاد المسير: 9/ 193، وتفسير الفخر الرازي: 32/ 34، وتفسير القرطبي: 20/ 133.

(3) نقله الماوردي في تفسيره: 4/ 492 عن الكلبي، وذكره الفخر الرازي في تفسيره: 22/ 36 دون عزو.

وقال ملاحويش:

تفسير سورة القدر

عدد 25 - 97

نزلت بمكة بعد عبس ، وهي خمس آيات وثلاثون كلمة ، ومائة واثنتان وعشرون حرفا ، ويوجد في القرآن سورتا الكوثر ونوح بدأتا بما بدأت به هذه السورة ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ" أي القرآن العظيم وعود الضمير إلى غير مذكور جائز إذا كان معلوما كما هنا ، وقدمنا البحث في هذا عند الآية 10 من سورة النجم المارة وفي التعبير بضمير الغائب مع عدم تقدم ذكره تعظيما له وتفخيما بعلو شأنه باعتباره كأنه حاضر عند كل أحد ، وكان هذا الإنزال جملة واحدة في اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا "فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ 1" العظيمة عند اللّه وسميت بذلك ، لأن الآجال والأرزاق والأحكام والأمور كلها مما يكون في السنة التي هي فيها إلى مثلها من السنة الأخرى يقدرها فيها أي يظهر تقديرها وما يقع فيها إلى الملائكة ويأمرهم بإنفاذه وإلا فهو جل جلاله عالم فيها قبل في الأزل قيل للحسين ابن الفضيل أليس قد قدر اللّه المقادير قبل خلق السموات والأرض قال نعم قال فما معنى ليلة القدر ؟ قال : سوق المقادير إلى المواقيت وتنفيذ القضاء والقدر .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : قال صلّى اللّه عليه وسلم من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ، وهي ليلة سبع وعشرين من رمضان كما تقدم في بحث

نزول القرآن في المقدمة ، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضلها وتعيينها أعرضنا عن إثباتها لمعلوميتها وقد استدل العلماء على كونها ليلة السابع والعشرين بان كلماتها إلى كلمة هي سبع وعشرون وبعضهم بحروفها إي حروف كلمة ليلة القدر المكرمة فيها ثلاث مرات لأنها أيضا سبع وعشرون حرفا ولكل وجهة ، ثم أشار اللّه تعالى منوها بتعظيمها بقوله "وَمَا أَدْرَاكَ"

(17/824)

يا سيد المرسلين "ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ 2" استفهام على سبيل التعظيم والتبجيل والتفخيم والتكريم تنويها بفضلها أي لن تبلغ درايتك أيها الإنسان الكامل ما هي لما قدر فيها الإله لعباده من الخير والفضل

وقد جاء في الحديث من أدرك أي من رأى ليلة القدر فليقل اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني ، وروى البخاري ومسلم عن عائشة قالت كان رسول اللّه يجاور العشر الأواخر من رمضان ويقول تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان .

(18/824)

وروى مسلم عن رزين بن حبيش قال سمعت أبي بن كعب يقول (وقيل له إن عبد اللّه ابن مسعود يقول من قام السنة فقد أصاب ليلة القدر) قال أبي واللّه الذي لا إله إلا هو إنها لفي رمضان يحلف ولا يتسنى فو اللّه اني لأعلم أي ليلة هي ، هي الليلة التي أمرنا رسول اللّه بقيامها وهي ليلة سبع وعشرين وامارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها لا شعاع لها وهذا أصح ما ورد فيها قالوا والحكمة في اخفائها احياء الليالي الكثيرة لمن يريدها حرصا على أن يخطىء بها كما أخفيت الصلاة الوسطى للمحافظة على سائر الصلوات وأخفيت ساعة الإجابة يوم الجمعة ليستغرق أبعد نهارها بالدعاء أملا بمصادفتها ليسأل ربه ما يسأله فيها وليعلم أن رضاء اللّه تعالى في الطاعات لترغيب الإنسان بفعلها ليثيبه عليها وان غضب اللّه في المعاصي ليرهب الناس فيجتنبوها ليرضى عليهم قال تعالى "لَيْلَةُ الْقَدْرِ" يكون العمل فيها "خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ 3" خالية منها ليقوموها فيحصل لهم الاجر المترتب على إحيائها وسبب نزولها ما قاله ابن عباس ذكر لرسول اللّه رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل اللّه الف شهر فتعجب وتمنى ذلك لأمته فقال يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعمارا وأقلها أعمالا فأعطاه اللّه تبارك وتعالى ليلة القدر ، فقال ليلة القدر خير من الألف شهر التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل اللّه لك ولأمتك إلى يوم القيامة وهي عبارة عن ثلاث وثمانين سنة واربعة أشهر ، فالعمل الصالح ليلة القدر يعدل

هذه المدة كلها وما جاء بأن هذه السورة وسورة الكوثر نزلتا حين رأى رسول اللّه بني امية
على منبره فساءه ذلك فهو غير
صحيح والحديث الوارد فيه قال عنه المزني انه منكر والدليل على عدم صحته ان هاتين
السورتين مكيتان ولم يكن بمكة منبر قبل الهجرة ولا قبل الفتح ، وانما اتخذ المنبر بالمدينة بعد
نزولهما بسنين كثيرة ، ثم بين اللّه تعالى

(19/824)

سبب ارتفاع فضلها بقوله "تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ" جبريل عليه السلام أو نوع من الملائكة
تدعى بهذا الاسم ، وهم ذوات مخلوقة خفية من عالم القوى التي عجز البشر عن ادراكهم
وهي تتجسد وتتشكل عند الاقتضاء ، وان الإيمان بهم فرض و
كذلك الجان كما سيأتي في الآية 37 من سورة عمّ من ج 2 ، ينزلون إلى سماء الدنيا "فِيها"
في ليلة القدر وهذا النزول يكون "بِإِذْنِ رَبِّهِمْ" وقيد بالإذن تعظيما لأمر تنزلهم والا لا يكون
الا بإذنه قال تعالى "وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ" الآية 67 من سورة مريم الآتية وإشارة لرغبتهم
في أهل الأرض واشتياقهم لرؤية ثواب طاعتهم واستماع حنين الذاكرين وأنين العاصين منهم
وقد جاء في الحديث القدسي : لأنين المؤمنين أحب إلى من زجل المسبحين "مِنْ كُلِّ أَمْرٍ 4"

أي أن نزولهم لأجل كل أمر يتعلق به التقدير في تلك السنة من قضاء اللّه وقدره وهذه الليلة المباركة "سَلامٌ هِيَ" على أولياء الله وأهل طاعته من كل ما يخافون ويرهبون .

لما كانت الملائكة رأت أفعال الجن وافسادهم في الأرض وقالوا لربهم حينما قال لهم "إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . . .

أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها" الآية 30 من البقرة من ج 3 ، وظهر لهم الأمر بخلاف ما قالوه نزلوا باستيذان من اللّه إلى أهل الأرض ليسلموا عليهم ويعتذروا منهم ويستغفروا لهم جاء في الحديث الذي رواه أنس أن رسول الله قال إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كيكبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل ويكون هذا دأبهم "حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ 5" من ليلتها ، فعلى الراغب بذلك أن يقوم تلك الليلة المباركة ليحظى بما من قدر له فيها الثواب العظيم المعلق على القيام فيها فأين الطالبون لنفحات اللّه أني الراغبون لعطائه هذا واللّه أعلم .

(20/824)

هذا ، واستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 218. 220 ﴾

(21/824)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة القدر

مكية أو مدنية

في ليلة القدر كاف ما ليلة القدر تام وقال أبو عمرو كابي حاتم كاف من ألف شهر حسن

وقال أبو عمرو كاف من كل أمر كاف آخر السورة تام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ

﴾

(22/824)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة القدر

مكيَّة أو مدنية

في ليلة القدر (كاف)

ما ليلة القدر (تام)

شهر (كاف) ومثله من كل أمر والمعنى تنزل الملائكة بكل أمر يكون في تلك السنة وما قيل عن ابن عباس من أنَّ الوقف سلام ويبتدئ هي على أنَّها خبر مبتدأ محذوف والإشارة بذلك إلى أنَّها ليلة السابع والعشرين لأنَّ لفظة هي سابعة وعشرون من كلم هذه السورة وكأنَّه قال ليلة القدر الموافقة في العدد لفظة هي من كلم هذه السورة لا ينبغي أن يعتقد صحته لأنَّه الغاز وتغيير لنظم أفصح الكلام وارتفع سلام خبراً مقدماً وهي مبتدأ مؤخراً وسلام مبتدأ وهي فاعل به عند الأخفش لأنَّه لا يشترط الاعتماد في عمل الوصف وبعضهم يجعل الكلام تمَّ على بإذن ربهم ويعلق من كل أمر بما بعده ومنهم من قال الوقف عند من أجاز تعداد الأخبار سلام هي أي من كل أمر هي سلام حتى مطلع الفجر أي تمتد إلى طلوع الفجر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(23/824)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة القدر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "مِنْ كُلِّ امْرِئٍ سَلامٌ[1]" - ابن عباس وعكرمة والكلبي .

قال أبو الفتح : أنكر أبو حاتم هذه القراءة ، على أنه حكى عن ابن عباس أنه قال : يعني الملائكة ، قال : ولا أدري ما هذا المذهب ؟ قال : وإنما هو : "تنزل الملائكة فيها كل أمر" ، كقوله "تعالى" : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ[2] ﴾ . و ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ ، فتم الكلام ، فقال : "سلام" ، أي : هي سلام إلى أن يطلع الفجر .

وقال قطرب : معناه هي سلام من كل أمر وامرئ ، ويلزم على قول قطرب أن يقال : فكيف جاز أن يقدم معمول المصدر الذي هو "سلام" عليه وقد عرفنا امتناع جواز تقديم صلة الموصول أو شيء منها عليه ؟

والجواب أن "سلاما" في الأصل - لعمري - مصدر ، فأما هنا هو موضوع موضع اسم الفاعل الذي هو سالمة ، أو المفعول الذي هو مسلمة ، فكأنه قال : من كل امرئ سالمة[3] هي ، أو مسلمة[4] هي ، أي : سالمة ، فهذا طريق هذا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 367 ﴾

---

1 سورة القدر : 4 ، 5 .

2 سورة الدخان : 4 .

3 فيكون "السلام" حينئذ مصدر سلم.

4 وتكون "السلام" حينئذ اسم مصدر لسلم المضعف.

(24/824)

وقال العلامة الدمياطى:

سورة القدر

مدنية وقيل مكية وآيها خمس مدني وعراقي وست مكي وشامي خلافها آية ليلة القدر الثالث مكي وشامي وأمال أدراك أبو عمرو وابن ذكوان وأبو بكر بخلفهما وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق

وقرأ () شهر تنزل (الآية 3 4 بتشديد التاء وصلا البزي بخلفه ولا يجوز كسر التنوين في شهر بل يجمع بين سكونه وسكون التاء كما تقدم وفيه عسر

واختلف في (مطلع) لآية 5 فالكسائي وخلف عن نفسه بكسر اللام وافقهما الأعمش وابن محيصن بخلفه والباقون بفتحها وهو القياس والكسر سماع وهما مصدران أو المكسور اسم مكان وغلظ الأزرق لامها في أصح الوجهين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر ص ﴾

(25/824)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

"سورة القدر"

أنزلناه ، خير ، جلي .

" شهر تنزل " قرأ البزي بتشديد التاء وصلا وتخفيفها ابتداء وغيره بتخفيفها في الحالين .

" مطلع "كسر اللام الكسائي وخلف في اختياره وفتحها الباقون وغلظها ورش . انتهى

انتهى . اهـ ﴿البدور الزاهرة صـ 354﴾

(26/824)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة القدر

قوله تعالى ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾

اجمع القراء على فتح اللام الا الكسائي فإنه قرأها بالكسر فالحجة لمن فتح انه اراد بذلك المصدر ومعناه حتى طلوع الفجر والحجة لمن كسر انه اراد الاسم او الموضع وقد شرح فيما تقدم بأبين من هذا وحتى ها هنا بمعنى الى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 374 ﴾

(27/824)

وقال ابن زنجلة :

97 - سورة القدر

سلام هي حتى مطلع الفجر 5

قرأ الكسائي حتى مطلع الفجر بكسر اللام وقرأ الباقون مطلع بفتح اللام يعني طلوع الفجر وهو المصدر من طلعت الشمس مطلعا وطلوعا والمعنى سلام هي حتى طلوعه وإلى وقت طلوعه

وكل ما كان على فعل يفعل مثل قتل يقتل وطلع يطلع فالمصدر والمكان على مفعل بفتح العين نحو المقتل والمدخل وقد جاء مثل المطلع والمنبت على غير الفعل

وحجة الكسائي أن المطلع يكون الموضع الذي تطلع فيه ويكون بمعنى المصدر قال

الكسائي من كسر اللام فإنه من طلع يطلع ومات يطلع قال وقد مات من لغات العرب كثير وأعلم أن كل ما كان من فعل يفعل بكسر العين فالموضع منه المفعل والمصدر منه مفعل تقول جلس يجلس مجلسا والموضع المجلس وكذلك يطلع يطل مطلعا والمطلع اسم الموضع قال الفراء من كسر اللام فإنه وضع الاسم موضع المصدر كما تقول أكرمتك كرامة وأعطيتك عطاء فيجتزأ بالاسم من الموضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 768 ﴾

(28/824)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة القدر 97

مدنية هذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقال قتادة هي مدنية وكذا حكى كريب أنه وجدها في كتاب ابن عباس ونظيرتها في المدنيين الفيل وقريش وتبت والفلق وفي الكوفي والبصري الفيل وتبت والفلق وفي المدني والشامي أرأيت والكافرون

وكلمها ثلاثون كلمة

وحروفها مئة واثنا عشر حرفا

وهي ست آيات في المكي والشامي وخمس في عدد الباقين

اختلافها آية ﴿ ليلة القدر ﴾ الثالث عدها المكي والشامي ولم يعدها الباقون

ورؤوس الآي

ليلة القدر

1 ما ليلة القدر

2 ألف شهر

3 أمر

4 الفجر

5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 281 ﴾

(29/824)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الهاء في (أنزلناه) للقرآن العظيم ، ولم يجر له ذكر هنا .

قوله تعالى (والروح) يجوز أن يكون مبتدأ ، و (فيها) الخبر ، وأن يكون معطوفا على الفاعل ، وفيها ظرف أو حال .

قوله تعالى (بإذن ربهم) يجوز أن تتعلق الباء بتنزل ، وأن يكون حالا ، قوله تعالى (سلام هي) في سلام وجهان : أحدهما هي بمعنى مسلمة : أي تسلم الملائكة على المؤمنين ، أو يسلم بعضهم على بعض .

والثانى هي بمعنى سلامة أو تسليم ، فعلى الأول هي مبتدأ ، وسلام خبر مقدم ، و (حتى) متعلقة بسلام : أي الملائكة مسلمة إلى مطلع الفجر ، ويجوز أن يرتفع هي بسلام على قول الأخفش ، وعلى القول الثاني ليلة القدر ذات تسليم : أي ذات سلامة إلى طلوع الفجر ، وفيه التقديران

الأولان ، ويجوز أن يتعلق حتى بتنزل ، ومطلع الفجر بكسر اللام وفتحها لغتان وقيل الفتح أقيس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(30/824)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة القدر

[سورة القدر (97) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1)

"إِنَّا" إن واسمها "أَنْزَلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية ابتدائية لا محل لها "فِي لَيْلَةِ" متعلقان بالفعل "الْقَدْرِ" مضاف إليه.

[سورة القدر (97) : آية 2]

وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2)

"وَما" الواو حرف استئناف "وَما" اسم استفهام مبتدأ "أَدْراكَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر ما والجملة الاسمية مستأنفة "ما لَيْلَةُ" مبتدأ وخبره "الْقَدْرِ" مضاف إليه والجملة الاسمية سدت مسد مفعول أدراك الثاني.

[سورة القدر (97) : آية 3]

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)

"لَيْلَةُ الْقَدْرِ" مبتدأ مضاف إلى القدر "خَيْرٌ" خبر والجملة مستأنفة لا محل لها "مِنْ أَلْفِ" متعلقان بخير "شَهْرٍ" مضاف إليه.

[سورة القدر (97) : آية 4]

تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)

"تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ" مضارع وفاعله والجملة مستأنفة "وَالرُّوحُ" معطوف على الملائكة "فِيها" متعلقان بالفعل "بِإِذْنِ" متعلقان بالفعل أيضا "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "مِنْ كُلِّ" متعلقان بالفعل "أَمْرٍ" مضاف إليه.

[سورة القدر (97) : آية 5]

سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

"سَلامٌ هِيَ" خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "حَتَّى مَطْلَعِ" متعلقان بسلام "الْفَجْرِ" مضاف إليه. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 459﴾

(31/824)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَةُ الْقَدْرِ

ذكر فِيهَا حديثان

1519 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذكر رجلا من بني إِسْرَائِيل لبس السِّلَاح فِي سَبِيل الله ألف شهر فَعجب الْمُؤْمنُونَ من ذَلِك وتقاصرت إِلَيْهِم أَعْمَالهم فأعطوا لَيْلَة خيرا من مُدَّة ذَلِك الْغَازِي يَعْنِي لَيْلَة الْقدر

قلت رَوَاهُ ابْن أبي حَاتِم والثعلبي فِي تفسيريهما والواحدي فِي أَسبَاب النُّزُول من حَدِيث مُسلم بن خَالِد الزنْجِي عَن ابْن أبي نجيح عَن مُجَاهِد أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ذكر رجلا من بني إِسْرَائِيل لبس السِّلَاح فِي سَبِيل الله تَعَالَى ألف شهر قَالَ فَعجب الْمُسلمُونَ من ذَلِك فَأنْزل الله تَعَالَى إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَة الْقدر وَمَا أَدْرَاك مَا لَيْلَة الْقدر لَيْلَة الْقدر خير من ألف شهر الَّذِي لبس السِّلَاح فِيهَا فِي سَبِيل الله تَعَالَى انْتَهَى وَهُوَ مُرْسل

1520 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْقدر أعطي من الْأجر كمن صَامَ رَمَضَان وَأَحْيَا لَيْلَة الْقدر

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث عبد الله بن روح الْمَدَائِنِي ثَنَا شَبابَة بن سوار ثَنَا مخلد بن عبد الْوَاحِد عَن عَلّي بن زيد عَن زر بن حُبَيْش

عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 253. 254 ﴾

(32/824)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

سورة القدر

قوله تعالى : (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) ، الآية/ 3 :

ليس فيها ليلة القدر ، وإنما فضيلة الزمان بكثرة ما يقع فيه من الفضائل ، وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر .

واختلفت الروايات عن النبي عليه الصلاة والسلام في ليلة القدر ، ولا دليل في الآية على التعيين ، وليس في الشرع قاطع على التعيين ، ولذلك إذا قال لامرأته أنت طالق ليلة القدر لا تطلق حتى يمضي حول ، لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك ، ولم يثبت اختصاصها بوقت ، فلا يتيقن وقوع الطلاق إلا بمضي حول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 431 ﴾

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة القدر» (97) «1»

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ» (4 - 5) من كل ملك وتفسير الكلبي : وقرأ ابن عباس من كل امرئ سلام أي من كل ملك ، قال : ينزل جبريل صلى اللّه عليه فيجىء كل مؤمن ومؤمنة «2» ومن قرأ «من أمر» انقطع الكلام : ينزلون بكل أمر ثم بدأ فقال «سَلامٌ هِيَ» . انتهى .

اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 305﴾

---

(1) . - 2 «إنا أنزلناه . . . وأوكد» الذي ورد فى الفروق : رواه البخاري عن معمر فذكره ابن حجر قائلا : هو قول أبى عبيدة ووقع فى رواية أبى نعيم فى المستخرج نسبته إليه قال قال معمر وهو اسم أبى عبيدة كما تقدم غير مرة وقوله ليكون أثبت وأوكد قال ابن التين النجاة يقولون إنه للتعظيم بقوله المعظم عن نفسه ويقال (فتح الباري 8/ 557) .

(2) . - 3 - 5 «تفسير . . . مؤمنة» : قال الطبري (30/ 144 : حدثت عن يحيى

بن زياد الفراء حدثنا أبو بكر بن عياش عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس أنه كان يقرأ من كل امرئ سلام وهذه القراءة من قرأها وجه معنى من كل امرئ كل ملك كان معناه عنده تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل ملك يسلم على المؤمنين والمؤمنات ولا أرى القراءة بها جائزة لاجماع الحجة من القراء على خلافها وإنها خلاف لما فى مصاحف المسلمين وذلك أنه ليس فى مصحف من مصحف المسلمين فى قوله امرئ . . . إلخ.

[. . . . . .]

(34/824)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة القدر

بدأ نزول القرآن فى ليلة مشهودة يعرفها المسلمون بليلة القدر ، أى الشرف والرفعة . وقد اختلفوا فى تحديد هذه الليلة ، والجمهور على أنها تقع فى العشر الأواخر من شهر رمضان . ولما كان طلوع الهلال وأفوله متفاوتا طول السنة القمرية ، فمن الصعب القول بأنها تلزم وقتا واحدا ، وعلى من يحبون قيام الليلة أن يتهجدوا الثلث الأخير أو النصف الأخير

من الشهر الطيب ! ولاشك أن نزول ! القرآن مناسبة جديرة بالحفاوة والعبادة والدعاء .

فإن القرآن من كلام الله الذى اختتم به الوحى ، وتمت به النعمة ، ودخل به العرب التاريخ بعدما حملوا رسالته وصانوها من التحريف . وغزارة الخير النازل فى هذه الليلة يبدو فى قوله تعالى " وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر " . وصدق القائل : رب عمر طال بالرفعة لا بالسنوات وقطيرات زمان ملأت كأس حياة " تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر " . وهذه العبارة كقوله جل شأنه فى سورة الدخان " فيها يفرق كل أمر حكيم * أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين " . إن القرآن حوى كل ما يحتاج إليه النشاط الإنسانى من سداد وهدى . ولا مقنع للعقل إلا فى آياته ، ولا مصدر لليقين إلا فى بيناته . وإذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها ، فإن أى قارئ يستطيع الموازنة بين القرآن وبين كل ما انتسب من كتب إلى السماء ، ثم ليقل رأيه : أيها أعظم دلالة على الله وتأسيسا لتقواه ! والليلة التى نزل فيها القرآن ليلة سلام ، والسلام غايتنا نحن المسلمين ، بيد أننا نتساءل ما الموقف عندما يقول المشركون للموحدين لا مكان لكم هنا ؟ ! " وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا . . " . لابد من العدل قبل السلام . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 532 ﴾

(36/824)

"فصل"

قال السيوطى :

سورة القدر

قال الخطابي : لما اجتمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على القرآن ، ووضعوا سورة القدر عقب العلق ، استدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية في قوله : (إِنّا أَنزلناهُ في ليلةِ القدر) الإشارة إلى قوله (اقرأ) قال القاضي أبو بكر بن العربي وهذا بديع جداً . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 154﴾

(37/824)

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي جل أمره وتنزه ذاته (الرحمن) الذي عمت رحمته فبدعت صفاته (الرحيم) الذي خص أهل التوحيد بإتمام النعمة فاختصت بهم جناته .

(38/824)

لما ذكر الله سبحانه وتعالى كتابه في هذا الذكر العربي المعجز ، ذكر إنزاله مستحضراً في كل قلب ، كان ذلك مغنياً عن إعادته بصريح اسمه ، فكان متى أضمره علمه المخاطب بما في السياق من القرائن الدالة عليه ، وبما له في القلب من العظمة وفي الذهن من الحضور لا سيما في هذه السورة لافتتاح العلق بالأمر بقراءته ، وختمها بالصلاة التي هي أعظم أركانها ، فكانت دلالتها عليه دلالة هي في غاية الوضوح ، فكان كأنه قال : واقترب بقراءة القرآن في الصلاة ، فكان إضماره أدل على العظمة الباهرة من إظهاره ، لدلالة الإضمار على أنه ما

تم شيء ينزل غيره فهو بحيث لا يحتاج إلى التصريح به ، قال مفخماً له بأمور : إضماره ، وإسناد إنزاله إليه ، وجعل ذلك في مظهر العظمة ، وتعظيم وقت إنزاله المتضمن لعظمة البلد الذي أنزل فيه – على قول الأكثر ، والنبي الذي أنزل عليه ، مؤكداً لأجل ما لهم من الإنكار ، ﴿إنا ﴾ أي لما لنا من العظمة ﴿أنزلناه ﴾ أي هذا الذكر كله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا مرتباً هذا الترتيب الذي جمع الله الأمة المعصومة عليه ، وهو الموجود الآن ، وكذا كان إنزال أول نجم منه ، وهو أول السورة الماضية إنزالاً مصدقاً لأن عظمته من عظمتنا بما له من الإعجاز في نظمه ، ومن تضاؤل القوى عن الإحاطة بعلمه ، وأول ما أنزل منه صدرها إلى خمس آيات منها آخرها " ما لم يعلم " على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو مجاور في هذا الشهر الشريف بجبل حراء من جبال مكة المشرفة ، ثم صار ينزل مفرقاً بحسب الوقائع حتى تم في ثلاث وعشرين سنة ، وكلما نزل منه نجم يأمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بترتيبه في سورته عن أمر الله تعالى حتى تم في السور على ما هو عليه الآن ما هو عليه في بيت العزة .

ولما عظمه بما ذكر ، زاده عظماً بالوقت الذي اختار إنزاله فيه ليكون طالعه سعيداً لما كان أثره حميداً فقال : ﴿ في ليلة القدر ﴾ أي الليلة التي لها قدر عظيم وشرف كبير ، والأعمال فيها ذات قدر وشرف ، فكانت بذلك كأنها مختصة بالقدر فلا قدر لغيرها .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : ورد تعريفاً بإنزال ما تقدم الأمر بقراءته لما قدمت الإشارة إلى عظيم أمر الكتب ، وأن السلوك إليه سبحانه إنما هو من ذلك الباب ، أعلم سبحانه وتعالى بليلة إنزاله وعرفنا بقدرها لنعتمدها في مظان دعائنا وتعلق رجائنا ونبحث في الاجتهاد في العمل لعلنا نوافقها وهي كالساعة في يوم الجمعة في إبهام أمرها مع جليل قدرها ومن قبيل الصلاة الوسطى ، ولله سبحانه في إخفاء ذلك أعظم رحمة ، وكان في التعريف بعظيم قدر هذه الليلة التعريف بجلالة المنزل فيها ، فصارت سورة القدر من تمام ما تقدم ووضح اتصالها - انتهى .

ولما علم من السياق تعظيمها بعظمة ما أنزل فيها وبالتعبير عنها بهذا ، قال مؤكداً لذلك التعظيم حثاً على الاجتهاد في إحيائها لأن للإنسان من الكسل والتداعي إلى البطالة ما يزهده في ذلك : ﴿ وما أدراك ﴾ أي وأي شيء أعلمك وأنت شديد التفحص ﴿ ما ليلة القدر ﴾ أي لم تبلغ درايتك وأنت أعلم الناس غاية فضلها ومنتهى عليّ قدرها على ما لك من سعة العلم وإحاطة الفكر وعظيم المواهب .

ولما ثبتت عظمتها بالتنبيه على أنها أهل لأن يسأل عن خصائصها ، قال مستأنفاً : ﴿ ليلة القدر ﴾ أي التي خصصناها بإنزالنا له فيها ﴿ خير من ألف شهر ﴾ أي خالية عنها أو العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وذلك ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، قالوا : وهي مدة ملك بني أمية سواء ، وتسميتها بذلك لشرفها ولعظيم قدرها ، أو لأنه يفصل فيها من أم الكتاب مقادير الأمور ، فيكتب فيها عن الله حكم ما يكون من تلك الليلة إلى مثلها من العام المقبل ، من قولهم : قدر الله على هذا الأمر يقدره قدراً ، أي قضاه ، وهي الليلة المرادة في سورة الدخان بقوله تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ [الدخان : 4] وذكر الألف إما للمبالغة بنهاية مراتب العدد ليكون أبلغ من السبعين في تعظيمها أو لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر شخصاً من مؤمني بني إسرائيل لبس السلاح مجاهداً في سبيل الله ألف شهر ، فعجب المؤمنون منه فتقاصرت إليهم أعمالهم ، فأعطاهم الله سبحانه وتعالى ليلة من قامها كان خيراً من ذلك ، وأبهمها في العشر الأخير من شهر رمضان في قول الجمهور على ما صح من الأحاديث ليجتهدوا في إدراكها كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة والصلاة الوسطى في الخمس ، واسمه الأعظم في الأسماء ، ورضاه في سائر الطاعات ليرغبوا في جميعها ، وسخطه في المعاصي لينتهوا عن جميعها ، وقيام الساعة في الأوقات ليجتهدوا في كل لحظة حذراً من قيامها ،

والسر في ذلك أن النفيس لا يوصل إليه إلا باجتهاد عظيم إظهاراً لنفاسته وإعظاماً للرغبة فيه وإيذاناً بالسرور به ، لكن جعل السورة ثلاثين كلمة سواء يرجح أنهم السابعة والعشرون التي وازاها قوله هي - كما نقل عن أبي بكر الوراق .

(41/824)

ولما عظمها ، ذكر وجه العظم ليكون إعلاماً بعد إبهام وهو أوقع في النفس فقال مستأنفاً : ﴿ تنزل ﴾ أي تنزلاً متدرجاً هو أصلاً على غاية ما يكون من الخفة والسرعة بما أشار إليه حذف التاء ﴿ الملائكة ﴾ أي هذ النوع العظيم الذي هو خير كله ﴿ والروح ﴾ أي جبريل عليه الصلاة والسلام ، خصه بياناً لفضله أو هو مع أشراف الملائكة أو هو خلق أكبر من الملائكة أو هو أمر تسكن إليه نفوس العارفين ويحصل به اليمن والبركة ﴿ فيها ﴾ وأشار إلى خفاء ذلك التنزل بإسقاط تاء التنزل مع ما تقدم من الإشارات ، ودل على زيادة البركة في ذلك التنزل وعظيم طاعة الملائكة بقوله : ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي بعلم المحسن إليهم المربي لهم وتمكينه ، وتنزلهم إلى الأرض أو السماء الدنيا أو تقربهم من المؤمنين ، مبتدىء تنزلهم ﴿ من كل أمر ﴾ أي الأمور الكلية التي يفرقون فيها بإذن الله تفاصيل الأمور التي يريدها سبحانه في ذلك العام في أوقاتها من تلك الليلة إلى مثلها من العام المقبل ، أو من أجل تقدير

كل شيء يكون في تلك السنة ، وعبر عن الشيء بالأمر إعلاماً بأنهم لا يفعلون شيئاً إلاّ بأمره .

(42/824)

ولما ذكر سبحانه هذه الفضائل ، كانت النتيجة أنها متصفة بالسلامة التامة كاتصاف الجنة -التي هي سببها - بها ، فكان ذلك أدل على عظمتها فقال تعالى : ﴿ سلام ﴾ أي عظيم جداً ﴿ هي ﴾ أي ما هي إلا سلامة وخير ليس فيها شر ، ولا يزال ذلك السلام والبركة فيها ﴿ حتى ﴾ أي إلى ﴿ مطلع الفجر ﴾ أي طلوعه ووقت طلوعه وموضع طلوعه ، لا يكون فيه شر كما في غير ليلتها ، فلا تطلع الشمس في صبيحتها بين قرني الشيطان إن شاء الله تعالى ، وذلك سر قراءة الكسائي بالكسر - والله أعلم ، واختير التعبير ب " حتى " دون " إلى " ليفهم أن لما بعدها حكم ما قبلها ، فيكون المطلع في حكم الليلة ، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن جبريل عليه الصلاة والسلام ينزل ليلة القدر في كوكبة من الملائكة ومعه لواء أخضر يركزه فوق الكعبة ، ثم يفرق الملائكة في الناس حتى يسلموا على كل قائم وقاعد وذاكر وراكع وساجد إلى أن يطلع الفجر ، فمن تأمل هذه السورة علم منه ما للقرآن من العظمة فأقبل عليه بكليته يتلوه حق تلاوته كما أمر في سورة " اقرأ " فأمن من

غير شك من هول يوم الدين المذكور في التين ، ومن تلاوته بحقه تعظيم ليلة القدر لما ذكر من شرفها ، وذلك جاز إلى الحرص عليها في كل السنة ، فإن لم يكن ففي كل رمضان ، فإن لم يكن ففي جميع ليالي العشر الأخيرة منه ، ليكون له من الأعمال بسبب فضلها ومضاعفة العمل فيها ما لا يحصيه إلى الله تعالى بحيث إنه ربما يكون خيراً من عمل من اجتهد فيما قبلنا ألف سنة ، ورجوع آخرها بكون هذا التنزل في ليلة القدر على أولها في غاية الوضوح لأن أعظم السلام فيها نزول القرآن ، ولعل كونها ثلاثين كلمة إشارة إلى إن خلافة النبوة التي هي ثلاثون سنة بعد موت النبي -صلى الله عليه وسلم- التي آخرها يوم نزل أمير المؤمنين الحسن بن علي -رضى الله عنهما- فيه عن الخلافة لمعاوية -رضى الله عنه- في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين هي كليلة القدر في الزمان

(43/824)

، وما بعدها كليالي العام فيه الفاضل وغيره ، وتلك المدة كانت لخمسة خلفاء أشارت إليهم حروف الكلمة الأخير منها ، فالألف لأبي بكر -رضى الله عنه- وهي في غاية المناسبة له ، فإن الربانيين قالوا : هو اسم للقائم المحيط الأعلى الغائب عن مقامه لكنها الحاضر معه وجوداً كالروح ، وكذا كان -رضى الله عنه- حاضراً مع الأمة بوجوده وهو

غائب عنهم بتوجهه ، وجميع قلبه إنما هو مع الله عز وجل ، واللام لعمر . رضى الله عنه . وهي شديدة المناسبة له فإنها صلة بين باطن الألف وظاهر الميم الذي هو لمحمد . صلى الله عليه وسلم . لأنه للتمام ، وكذلك فعل – وصل بين السيرتين وصلاً تاماً بحيث وصل ضعف الصديق في بدنه وقوته في أمر الله بقوة رسول الله . صلى الله عليه وسلم . حتى انتظم به الأمر انتظاماً لا مزيد عليه ، والفاء لعثمان رضي الله تعالى عنه وهو إشارة لبدء خلوص منته لتنقل بمزيد أو نقص ، وآيته الفطرة الأولى ، وآيتها المحسوسة اللبن أول خروجه إذا أصابه أقل شيء من الهواء الممدود غيّره ، وكذلك الفطرة إذا أصابها أقل شيء من الهوى المقصود غيّرها ، وكذا كان حاله رضي الله تعالى عنه ، حصلت له آفات الإحسان إلى أقاربه الذي قاده إليه قويم فطرته حتى حصلت له الآفات الكبار . رضى الله عنه . ، والجيم لعلي . رضى الله عنه . وهو إشارة إلى الجمع ، والإجمال الذي يحصل عنده عنا وهو أنسب الأمور له رضي الله تعالى عنه فإنه حصل به الجمع بعد الافتراق العظيم بقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله تعالى عنه شهيداً مظلوماً ، وحصل به الإجمال لكن لم يتم التفصيل بسبب ما حصل من العناد ، والراء إشارة إلى الحسن رضي الله تعالى عنه وهي تطوير وتصيير وتربية ، وهي لكل مرب مثل زوج المرأة وسيد العبد ، ولذلك فعل . رضى الله عنه . لما رأى الملك يهلك بقتل المسلمين رباه بنزوله عن الأمر لمعاوية ، فكان كالسيد أذن لعبده وربي أمره

به ، وقد سماه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيداً ـ رضى الله عنهم أجمعين ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 490 ـ 494 ﴾

(44/824)

فصل

قال الدكتور محمد أبو شهبة :

5- سبب نزول عليه أثر العصبية السياسية :

ومن ذلك : ما يذكره بعض المفسرين في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ، قال السيوطي في "الدر المنثور" : أخرج الترمذي ، وضعفه ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن يوسف بن مازن الرؤاسي ، قال : قام رجل إلى الحسين بن علي ، بعدما بايع معاوية ، فقال : سودت وجوه المؤمنين ، فقال : لا تؤنبني رحمك الله ؛ فإن النبي رأى بني أمية على منبره ، فساءه ذلك فنزلت : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ، ونزلت : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، ﴾ يملكها بنو أمية ، يا محمد ، وقد حكم عليه ابن الجوزي بالوضع ، وقال فيه ابن كثير : إنه منكر جدا ، وحكم ببطلان هذا التأويل أيضًا ابن جرير في

تفسيره ، حيث قال بعدما ذكر هذا الحديث ضمن أقوال ذكرها ، قال : وأشبه الأقوال بظاهر التنزيل من قال : عمل في ليلة القدر خير من عمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وأما الأقوال الأخر ، فمعانٍ باطلة لا دلالة عليها من خبر ولا عقل ، ولا هي موجودة في التنزيل1 ، وهذا الحديث معناه غير صحيح ، فإن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه استقل بالملك حين سلم إليه الحسن سنة 40هـ ، واستمر ملكهم إلى سنة 132هـ ، لم يخرج ملكهم إلا الحرمان ، والأهواز ، مدة ابن

---

1 تفسير الطبري ج30 ص 167 .

(45/824)

الزبير وهي تسع سنين ، وخروج بعض الجهات عن ملكهم في هذه المدة لا يكون مبررا لإنقاصها من ملكهم ، فمدتهم إذاً : اثنان وتسعون عاما ، وهي أكثر من الألف ، ولو سلمنا إنقاص مدة ابن الزبير ، فمدتهم لا توافق الألف وإن كانت تقرب منها فالحديث المزعوم كيفما حملناه فمعناه غير صحيح ، مع أن لوائح الوضع ظاهرة عليه ، والترمذي قال فيه : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث القاسم ، وهو ثقة ، وشيخه مجهول ، والبلاء غالبا من المجاهيل ، ومما يوهن الحديث ويدل على وضعه أنه سيق لذم دولة بني أمية ، ولو أريد

ذلك لم يكن بهذا السياق ، فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم ، وأيضا : فإن ليلة القدر شريفة ، والسورة الكريمة نزلت لبيان شرفها ، فكيف تمدح بتفضيلها على أيام بني أمية ، وهي مذمومة بمقتضى هذا الحديث ، فالحديث لا يعطي ما أراده الواضع من ذم أيامهم ، كما يعارض ما دلت عليه السورة من شرف هذه الليلة ، مما لا ينبغي أن يختلف فيه اثنان وقديما قيل :

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا . انتهى . ا هـ ﴿

الإسرائيليات والموضوعات صـ 329.330 ﴾

(46/824)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

أجمع المفسرون على أن المراد : إنا أنزلنا القرآن في ليلة القدر ، ولكنه تعالى ترك التصريح

بالذكر ، لأن هذا التركيب يدل على عظم القرآن من ثلاثة أوجه أحدها : أنه أسند إنزاله إليه وجعله مختصاً به دون غيره والثاني : أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر .

شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التصريح ، ألا ترى أنه في السورة المتقدمة لم يذكر اسم أبي جهل ولم يخف على أحد لاشتهاره ، وقوله : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ [الواقعة : 83] لم يذكر الموت لشهرته ، فكذا ههنا والثالث : تعظيم الوقت الذي أنزل فيه .

المسألة الثانية :

أنه تعالى قال في بعض المواضع : ﴿ إِنّى ﴾ كقوله : ﴿ إِنّي جَاعِلٌ فِى الأرض خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : 30] وفي بعض المواضع ﴿ إِنَّا ﴾ كقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ . ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر ﴾ [الحجر : 9] ، ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً ﴾ [نوح : 1] ، ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ [الكوثر : 1] .

واعلم أن قوله : ﴿ إِنَّا ﴾ تارة يراد به التعظيم ، وحمله على الجمع محال لأن الدلائل دلت على وحدة الصانع ، ولأنه لو كان في الآلهة كثرة لانحطت رتبة كل واحد منهم عن الإلهية ، لأنه لو كان كل واحد منهم قادراً على الكمال لاستغنى بكل واحد منهم عن كل واحد منهم ، وكونه مستغنى عنه نقص في حقه فيكون الكل ناقصاً ، وإن لم يكن كل واحد منهم قادراً على الكمال كان ناقصاً ، فعلمنا أن قوله : ﴿ إِنَّا ﴾ محمول على التعظيم لا على

الجمع .

المسألة الثالثة :

(47/824)

إن قيل : ما معنى إنه أنزل في ليلة القدر ، مع العلم بأنه أنزل نجوماً ؟ قلنا فيه وجوه : أحدهما : قال الشعبي : ابتداء بإنزاله ليلة القدر لأن البعث كان في رمضان والثاني : قال ابن عباس : أنزل إلى سماء الدنيا جملة ليلة القدر ، ثم إلى الأرض نجوماً ، كما قال : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بمواقع النجوم ﴾ [الواقعة : 75] وقد ذكرنا هذه المسألة في قوله : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذى أُنزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة : 185] لا يقال : فعلى هذا القول لم يقل : أنزلناه إلى السماء ؟ لأن إطلاقه يوهم الإنزال إلى الأرض ، لأنا نقول : إن إنزاله إلى السماء كإنزاله إلى الأرض ، لأنه لم يكن ليشرع في أمر ثم لا يتمه ، وهو كغائب جاء إلى نواحي البلد يقال : جاء فلان ، أو يقال الغرض من تقريبه وإنزاله إلى سماء الدنيا أن يشوقهم إلى نزوله كمن يسمع الخبر بمجيء منشور لوالده أو أمه ، فإنه يزداد شوقه إلى مطالعته كما قال :

وأبرح ما يكون الشوق يوماً . . إذا دنت الديار من الديار

وهذا لأن السماء كالمشترك بيننا وبين الملائكة ، فهي لهم مسكن ولنا سقف وزينة ، كما

قال : ﴿ وَجَعَلْنَا السماء سَقْفاً ﴾ [الأنبياء : 32] فإنزاله القرآن هناك كإنزاله ههنا

والوجه الثالث في الجواب : أن التقدير أنزلنا هذا الذكر : في ليلة القدر أي في فضيلة ليلة القدر وبيان شرفها .

المسألة الرابعة :

(48/824)

القدر مصدر قدرت أقدر قدراً ، والمراد به ما يمضيه الله من الأمور ، قال : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْء خلقناه بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : 49] والقدر ، والقدر واحد إلا أنه بالتسكين مصدر وبالفتح اسم ، قال الواحدي : القدر في اللغة بمعنى التقدير ، وهو جعل الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان ، واختلفوا في أنه لم سميت هذه الليلة ليلة القدر ، على وجوه أحدهما : أنها ليلة تقدير الأمور والأحكام ، قال عطاء ، عن ابن عباس : أن الله قدر ما يكون في كل تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة إلى مثل هذه الليلة من السنة الآتية ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان : 4] واعلم أن تقدير الله لا يحدث في تلك الليلة ، فإنه تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض في الأزل ، بل المراد إظهار تلك الليلة المقادير للملائكة في تلك الليلة بأن يكتبها في اللوح المحفوظ ، وهذا

القول اختيار عامة العلماء الثاني : نقل عن الزهري أنه قال : ليلة القدر ليلة العظمة والشرف من قولهم لفلان قدر عند فلان ، أي منزلة وشرف ، ويدل عليه قوله : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : 3] ثم هذا يحتمل وجهين أحدهما : أن يرجع ذلك إلى الفاعل أي من أتى فيها بالطاعات صار ذا قدر وشرف وثانيهما : إلى الفعل أي الطاعات لها في تلك الليلة قدر زائد وشرف زائد ، وعن أبي بكر الوراق سميت : ليلة القدر لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر ، على لسان ملك ذي قدر ، على أمة لها قدر ، ولعل الله تعالى إنما ذكر لفظة القدر في هذه السورة ثلاث مرات لهذا السبب .

والقول الثالث : ليلة القدر ، أي الضيق فإن الأرض تضيق عن الملائكة .

المسألة الخامسة :

أنه تعالى أخفى هذه الليلة لوجوه أحدها : أنه تعالى أخفاها ، كما أخفى سائر الأشياء ، فإنه أخفى رضاه في الطاعات ، حتى يرغبوا في الكل ، وأخفى الإجابة في الدعاء ليبالغوا في كل الدعوات ، وأخفى الاسم الأعظم ليعظموا كل الأسماء ، وأخفى في الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل ، وأخفى قبول التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسام التوبة ،

وأخفى وقت الموت ليخاف المكلف ، فكذا أخفى هذه الليلة ليعظموا جميع ليالي رمضان وثانيها : كأنه تعالى يقول : لو عينت ليلة القدر ، وأنا عالم بتجاسركم على المعصية ، فربما دعتك الشهوة في تلك الليلة إلى المعصية ، فوقعت في الذنب ، فكانت معصيتك مع علمك أشد من معصيتك لا مع علمك ، فلهذا السبب أخفيتها عليك ، روي أنه عليه السلام دخل المسجد فرأى نائماً ، فقال : يا علي نبهه ليتوضأ ، فأيقظه علي ، ثم قال علي : يا رسول الله إنك سباق إلى الخيرات ، فلم لم تنبهه ؟ قال : لأن رده عليك ليس بكفر ، ففعلت ذلك لتخف جنايته لو أبى ، فإذا كان هذا رحمة الرسول ، فقس عليه رحمة الرب تعالى ، فكأنه تعالى يقول : إذا علمت ليلة القدر فإن أطعت فيها اكتسبت ثواب ألف شهر ، وإن عصيت فيها اكتسب عقاب ألف شهر ، ودفع العقاب أولى من جلب الثواب وثالثها : أني أخفيت هذه الليلة حتى يجتهد المكلف في طلبها ، فيكتسب ثواب الاجتهاد ورابعها : أن العبد إذا لم يتيقن ليلة القدر ، فإنه يجتهد في الطاعة في جميع ليالي رمضان ، على رجاء أنه ربما كانت هذه الليلة هي ليلة القدر ، فيباهي الله تعالى بهم ملائكته ، يقول : كنتم تقولون فيهم يفسدون ويسفكون الدماء .

فهذا جده واجتهاده في الليلة المظنونة ، فكيف لو جعلتها معلومة له ! فحينئذ يظهر سر قوله : ﴿ إِنِي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 30] .

المسألة السادسة :

اختلفوا في أن هذه الليلة هل تستتبع اليوم ؟ قال الشعبي : نعم يومها كليلتها ، ولعل الوجه فيه أن ذكر الليالي يستتبع الأيام ، ومنه إذا نذر اعتكاف ليلتين الزمناه بيوميهما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً ﴾ أي اليوم يخلف ليلته وبالضد .

المسألة السابعة :

هذه الليلة هل هي باقية ؟ قال الخليل : من قال إن فضلها لنزول القرآن فيها يقول انقطعت وكانت مرة ، والجمهور على أنها باقية ، وعلى هذا هل هي مختصة برمضان أم لا ؟ روى عن ابن مسعود أنه قال : من يقم الحول يصبها ، وفسرها عكرمة بليلة البراءة في قوله : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةٍ مباركة ﴾ [الدخان : 3] والجمهور على أنها مختصة برمضان واحتجوا عليه بقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذى أُنزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة : 185] وقال : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ فوجب أن تكون ليلة القدر في رمضان لئلا يلزم التناقض ، وعلى هذا القول اختلفوا في تعيينها على ثمانية أقوال ، فقال ابن رزين : ليلة القدر هي الليلة الأولى من رمضان ، وقال الحسن البصري : السابعة عشرة ، وعن أنس مرفوعاً التاسعة عشرة ، وقال محمد بن إسحق : الحادية والعشرون .

وعن ابن عباس الثالثة والعشرون ، وقال ابن مسعود : الرابعة والعشرون ، وقال أبو ذر الغفاري : الخامسة والعشرون ، وقال أبي بن كعب وجماعة من الصحابة : السابعة والعشرون ، وقال بعضهم : التاسعة والعشرون .

(51/824)

أما الذين قالوا : إنها الليلة الأولى (فقد) قالوا : روى وهب أن صحف إبراهيم أنزلت في الليلة الأولى من رمضان والتوراة لست ليال مضين من رمضان بعد صحف إبراهيم بسبعمائة سنة ، وأنزل الزبور على داود لثنتي عشرة ليلة خلت من رمضان بعد التوراة بخمسمائة عام وأنزل الإنجيل على عيسى لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان بعد الزبور بستمائة عام وعشرين عاماً ، وكان القرآن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم في كل ليلة قدر من السنة إلى السنة كان جبريل عليه السلام ينزل به من بيت العزة من السماء السابعة إلى سماء الدنيا ، فأنزل الله تعالى القرآن في عشرين شهراً في عشرين سنة ، فلما كان هذا الشهر هو الشهر الذي حصلت فيه هذه الخيرات العظيمة ، لا جرم كان في غاية الشرف والقدر والرتبة فكانت الليلة الأولى منه ليلة القدر ، وأما الحسن البصري فإنه قال : هي ليلة سبعة عشر ، لأنها ليلة كانت صبيحتها وقعة بدر ، وأما التاسعة عشرة فقد روى أنس

فيها خبراً ، وأما ليلة السابع والعشرين فقد مال الشافعي إليه لحديث الماء والطين ، والذي عليه المعظم أنها ليلة السابع والعشرين ، وذكروا فيه أمارات ضعيفة أحدها : حديث ابن عباس أن السورة ثلاثون كلمة ، وقوله : ﴿ هِيَ ﴾ هي السابعة والعشرون منها وثانيها : روي أن عمر سأل الصحابة ثم قال لابن عباس : غص يا غواص فقال زيد بن ثابت : أحضرت أولاد المهاجرين وما أحضرت أولادنا .

فقال عمر : لعلك تقول : إن هذا غلام ، ولكن عنده ما ليس عندكم .

(52/824)

فقال ابن عباس : أحب الأعداد إلى الله تعالى الوتر أحب الوتر إليه السبعة ، فذكر السموات السبع والأرضين السبع والأسبوع ودركات النار وعدد الطواف والأعضاء السبعة ، فدل على أنها السابعة والعشرون وثالثها : نقل أيضاً عن ابن عباس ، أنه قال : ﴿ لَيْلَةِ القدر ﴾ تسعة أحرف ، وهو مذكور ثلاث مرات فتكون السابعة والعشرين ورابعها : أنه كان لعثمان بن أبي العاص غلام ، فقال : يا مولاي إن البحر يعذب ماؤه ليلة من الشهر ، قال : إذا كانت تلك الليلة ، فأعلمني فإذا هي السابعة والعشرون من رمضان .

وأما من قال : إنها الليلة الأخيرة قال : لأنها هي الليلة التي تتم فيها طاعات هذا الشهر ، بل

أول رمضان كآدم وآخره كمحمد ، ولذلك روي في الحديث " يعتق في آخر رمضان بعدد ما أعتق من أول الشهر " بل الليلة الأولى كمن ولد له ذكر ، فهي ليلة شكر ، والأخيرة ليلة الفراق ، كمن مات له ولد ، فهي ليلة صبر ، وقد علمت فرق ما بين الصبر والشكر .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2)

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر ﴾ يعني ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها ، ثم إنه تعالى بين فضيلتها من ثلاثة أوجه :

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)

الأول : قوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تفسير الآية وجوه أحدها : أن العبادة فيها خير من ألف شهر ليس فيها هذه الليلة ، لأنه كالمستحيل أن يقال إنها : ﴿ خَيْرٌ مّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ فيها هذه الليلة ، وإنما كان كذلك لما يزيد الله فيها من المنافع والأرزاق وأنواع الخير وثانيها : قال مجاهد : كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد حتى يمسي فعل ذلك ألف شهر ، فتعجب رسول الله

صلى الله عليه وسلم والمسلمون من ذلك ، فأنزل الله هذه الآية ، أي ليلة القدر لأمتك خير من ألف شهر لذلك الإسرائيلي الذي حمل السلاح ألف شهر وثالثها : قال مالك بن أنس : أُري رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعمار الناس ، فاستقصر أعمار أمته ، وخاف أن لا يبلغوا من الأعمال مثل ما بلغه سائر الأمم ، فأعطاه الله ليلة القدر وهي خير من ألف شهر لسائر الأمم ورابعها : روى القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن ، قال : قلت للحسن بن علي عليه السلام يا مسود وجوه المؤمنين عمدت إلى هذا الرجل فبايعت له يعني معاوية ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى في منامه بني أمية يطؤن منبره واحداً بعد واحد ، وفي رواية ينزون على منبره نزو القردة ، فشق ذلك عليه فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ إلى قوله : ﴿ خَيْرٌ مّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يعني ملك بني أمية قال القاسم فحسبنا ملك بني أمية ، فإذا هو ألف شهر .

طعن القاضي في هذه الوجوه فقال : ما ذكر من ألف شهر في أيام بني أمية بعيد ، لأنه تعالى لا يذكر فضلها بذكر ألف شهر مذمومة ، وأيام بني أمية كانت مذمومة .

واعلم أن هذا الطعن ضعيف ، وذلك لأن أيام بني أمية كانت أياماً عظيمة بحسب السعادات الدنيوية ، فلا يمتنع أن يقول الله تعالى إني : أعطيتك ليلة هي في السعادات الدينية أفضل من تلك السعادات الدنيوية .

المسألة الثانية :

هذه الآية فيها بشارة عظيمة وفيها تهديد عظيم ، أما البشارة فهي أنه تعالى ذكر أن هذه الليلة خير ، ولم يبين قدر الخيرية ، وهذا كقوله عليه السلام لمبارزة علي عليه السلام مع عمرو بن عبد ود (العامري) " أفضل من عمل أمتي إلى يوم القيامة " فلم يقل مثل عمله بل قال : أفضل كأنه يقول : حسبك هذا من الوزن والباقي جزاف .

واعلم أن من أحياها فكأنما عبد الله تعالى نيفاً وثمانين سنة ، ومن أحياها كل سنة فكأنه رزق أعماراً كثيرة ، ومن أحيا الشهر لينالها بيقين فكأنه أحيا ثلاثين قدراً ، يروى أنه يجاء يوم القيامة بالإسرائيلي الذي عبد الله أربعمائة سنة ، ويجاء برجل من هذه الأمة ، وقد عبد الله أربعين سنة فيكون ثوابه أكثر ، فيقول الإسرائيلي : أنت العدل ، وأرى ثوابه أكثر ، فيقول : إنكم كنتم تخافون العقوبة المعجلة فتعبدون ، وأمة محمد كانوا آمنين لقوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال : 33] ثم إنهم كانوا يعبدون ، فلهذا السبب كانت عبادتهم أكثر ثواباً ، وأما التهديد فهو أنه تعالى توعد صاحب الكبيرة بالدخول في النار ، وأن إحياء مائة ليلة من القدر لا يخلصه عن ذلك العذاب المستحق

بتطفيف حبة واحدة ، فلهذا فيه إشارة إلى تعظيم حال الذنب والمعصية .

المسألة الثالثة :

(55/824)

لقائل أن يقول : صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أجرك على قدر نصبك " ومن المعلوم أن الطاعة في ألف شهر أشق من الطاعة في ليلة واحدة ، فكيف يعقل استواؤهما ؟ والجواب : من وجوه : أحدها : أن الفعل الواحد قد يختلف حاله في الحسن والقبح بسبب اختلاف الوجوه المنضمة إليه ، ألا ترى أن صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفذ بكذا درجة ، مع أن الصورة قد تنتقض فإن المسبوق سقطت عنه ركعة واحدة ، وأيضاً فأنت تقول لمن يرجم : إنه إنما يرجم إنه زان فهو قول حسن ، ولو قلته للنصراني فقذف يوجب التعزيز ، ولو قلته للمحصن فهو يوجب الحد ، فقد اختلفت الأحكام في هذه المواضع ، مع أن الصورة واحدة في الكل ، بل لو قلته في حق عائشة كان كفراً ، ولذلك قال : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيّناً وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ ﴾ وذلك لأن هذا طعن في حق عائشة التي كانت رحلة في العلم ، لقوله عليه السلام : " خذوا ثلثي دينكم من هذه الحميراء " وطعن في صفوان مع أنه كان رجلاً بدرياً ، وطعن في كافة المؤمنين لأنها أم المؤمنين ، وللولد حق

المطالبة بقذف الأم وإن كان كافراً ، بل طعن في النبي الذي كان أشد خلق الله غيره ، بل طعن في حكمة الله إذ لا يجوز أن يتركه حتى يتزوج بامرأة زانية ، ثم القائل بقوله : هذا زان ، فقد ظن أن هذه اللفظة سهلة مع أنها أثقل من الجبال ، فقد ثبت بهذا أن الأفعال تختلف آثارها في الثواب والعقاب لاختلاف وجوهها ، فلا يبعد أن تكون الطاعة القليلة في الصورة مساوية في الثواب للطاعات الكثيرة والوجه الثاني : في الجواب أن مقصود الحكيم سبحانه أن يجر الخلق إلى الطاعات فتارة يجعل ثمن الطاعة ضعفين ، فقال : ﴿ فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ [الشرح : 5 ، 6] ومرة عشراً ، ومرة سبعمائة ، وتارة بحسب الأزمنة ، وتارة بحسب الأمكنة ، والمقصود الأصلي من الكل جر المكلف إلى الطاعة وصرفه عن الاشتغال بالدنيا ، فتارة يرجح

(56/824)

البيت وزمزم على سائر البلاد ، وتارة يفضل رمضان على سائر الشهور ، وتارة يفضل الجمعة على سائر الأيام ، وتارة يفضل ليلة القدر على سائر الليالي ، والمقصود ما ذكرناه الوجه الثاني : من فضائل هذه الليلة .

قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن نظر الملائكة على الأرواح ، ونظر البشر على الأشباح ، ثم إن الملائكة لما رأوا روحك محلاً للصفات الذميمة من الشهوة والغضب ما قبلوك .

فقالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويفسك الدماء ، وأبواك لما رأوا قبح صورتك في أول الأمر حين كنت منياً وعلقة ما قبلوك أيضاً ، بل أظهروا النفرة ، واستقذروا ذلك المني والعلقة ، وغسلوا ثيابهم عنه ، ثم كم احتالوا للإسقاط والإبطال ، ثم إنه تعالى لما أعطاك الصورة الحسنة فالأبوان لما رأوا تلك الصورة الحسنة قبلوك ومالوا إليك ، فكذا الملائكة لما رأوا في روحك الصورة الحسنة وهي معرفة الله وطاعته أحبوك فنزلوا إليك معتذرين عما قالوه أولاً ، فهذا هو المراد من قوله : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ فإذا نزلوا إليك رأوا روحك في ظلمة ليل البدن ، وظلمة القوى الجسمانية فحينئذ يعتذرون عما تقدم : ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ .

المسألة الثانية :

أن قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ يقتضي ظاهره نزول كل الملائكة ، ثم الملائكة لهم كثرة عظيمة لا تحتمل كلهم الأرض ، فلهذا السبب اختلفوا فقال بعضهم : إنها تنزل بأسرها إلى السماء الدنيا ، فإن قيل الإشكال بعد باق لأن السماء مملوءة بحيث لا يوجد فيها موضع إهاب إلا وفيه ملك ، فكيف تسع الجميع سماء واحدة ؟ قلنا : يقضي بعموم الكتاب على

خبر الواحد ، كيف والمروي إنهم ينزلون فوجاً فوجاً فمن نازل وصاعد كأهل الحج فإنهم على كثرتهم يدخلون الكعبة بالكلية لكن الناس بين داخل وخارج ، ولهذا السبب مدت إلى غاية طلوع الفجر فلذلك ذكر بلفظ : ﴿ تُنَزَّلُ ﴾ الذي يفيد المرة بعد المرة .

(57/824)

والقول الثاني : وهو اختيار الأكثرين أنهم ينزلون إلى الأرض وهو الأوجه ، لأن الغرض هو الترغيب في إحياء هذه الليلة ، ولأنه دلت الأحاديث على أن الملائكة ينزلون في سائر الأيام إلى مجالس الذكر والدين ، فلأن يحصل ذلك في هذه الليلة مع علو شأنها أولى ، ولأن النزول المطلق لا يفيد إلا النزول من السماء إلى الأرض ، ثم اختلف من قال : ينزلون إلى الأرض على وجوه : أحدها : قال بعضهم : ينزلون ليروا عبادة البشر وحدهم واجتهادهم في الطاعة وثانيها : أن الملائكة قالوا : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم : 64] فهذا يدل على أنهم كانوا مأمورين بذلك النزول فلا يدل على غاية المحبة .

وأما هذه الآية وهو قوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ فإنها تدل على أنهم استأذنوا أولاً فأذنوا ، وذلك يدل على غاية المحبة ، لأنهم كانوا يرغبون إلينا ويتمنون لقاءنا .

لكن كانوا ينتظرون الإذن ، فإن قيل قوله : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصافون ﴾ [الصافات : 165]

ينافي قوله : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ قلنا نصرف الحالتين إلى زمانين مختلفين وثالثها : أنه تعالى وعد في الآخرة أن الملائكة :

(58/824)

﴿ يَدْخُلونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سلام عَلَيْكُمُ ﴾ [الرعد : 23 ، 24] فهنا في الدنيا إن اشتغلت بعبادتي نزلت الملائكة عليك حتى يدخلوا عليك للتسلم والزيارة ، روى عن علي عليه السلام : " أنهم ينزلون ليسلموا علينا وليشفعوا لنا فمن أصابته التسليمة غفر له ذنبه " ورابعها : أن الله تعالى جعل فضيلة هذه الليلة في الاشتغال بطاعته في الأرض فهم ينزلون إلى الأرض لتصير طاعاتهم أكثر ثواباً ، كما أن الرجل يذهب إلى مكة لتصير طاعته هناك أكثر ثواباً ، وكل ذلك ترغيب للإنسان في الطاعة وخامسها : أن الإنسان يأتي بالطاعات والخيرات عند حضور الأكابر من العلماء والزهاد أحسن مما يكون في الخلوة ، فالله تعالى أنزل الملائكة المقربين حتى أن المكلف يعلم أنه إنما يأتي بالطاعات في حضور أولئك العلماء العباد الزهاد فيكون أتم وعن النقصان أبعد وسادسها : أن من الناس من خص لفظ الملائكة ببعض فرق الملائكة ، عن كعب أن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة مما يلي الجنة ، فهي على حد هواء الدنيا وهواء الآخرة ، وساقها في الجنة

وأغصانها تحت الكرسي فيها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله يعبدون الله ومقام جبريل في وسطها ، ليس فيها ملك إلا وقد أعطى الرأفة والرحمة للمؤمنين ينزلون مع جبريل ليلة القدر ، فلا تبقى بقعة من الأرض إلا وعليها ملك ساجد أو قائم يدعو للمؤمنين والمؤمنات ، وجبريل لا يدع أحداً من الناس إلا صافحهم ، وعلامة ذلك من اقشعر جلده ورق قلبه ودمعت عيناه ، فإن ذلك من مصافحة جبريل عليه السلام ، من قال فيها ثلاث مرات : لا إله إلا الله غفر له بواحدة ، ونجاه من النار بواحدة ، وأدخله الجنة بواحدة ، وأول من يصعد جبريل حتى يصير أمام الشمس فيبسط جناحين أخضرين لا ينشرهما إلا تلك الساعة من تلك الليلة ثم يدعو ملكاً ملكاً ، فيصعد الكل ويجتمع نور الملائكة ونور جناح جبريل عليه السلام ، فيقيم جبريل ومن معه من الملائكة بين الشمس

وسماء الدنيا يومهم ذلك مشغولين بالدعاء والرحمة والاستغفار للمؤمنين ، ولمن صام رمضان احتساباً ، فإذا أمسوا دخلوا سماء الدنيا فيجلسون حلقاً حلقاً فتجمع إليهم ملائكة السماء فيسألونهم عن رجل رجل وعن امرأة امرأة ، حتى يقولوا : ما فعل فلان وكيف وجدتموه ؟ فيقولون : وجدناه عام أول متعبداً ، وفي هذا العام مبتدعاً ، وفلان كان

عام أول مبتدعاً ، وهذا العام متعبداً ، فيكفون عن الدعاء للأول ، ويشتغلون بالدعاء للثاني ، ووجدنا فلاناً تالياً ، وفلاناً راكعاً ، وفلاناً ساجداً ، فهم كذلك يومهم وليلتهم حتى يصعدوا السماء الثانية وهكذا يفعلون في كل سماء حتى ينتهوا إلى السدرة .

فتقول لهم السدرة : يا سكاني حدثوني عن الناس فإن لي عليكم حقاً ، وإني أحب من أحب الله ، فذكر كعب أنهم يعدون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ثم يصل ذلك الخبر إلى الجنة ، فتقول الجنة : اللهم عجلهم إلي ، والملائكة ، وأهل السدرة يقولون : آمين آمين ، إذا عرفت هذا فنقول ، كلما كان الجمع أعظم ، كان نزول الرحمة هناك أكثر ، ولذلك فإن أعظم الجموع في موثق الحج ، لا جرم كان نزول الرحمة هناك أكثر ، فكذا في ليلة القدر يحصل مجمع الملائكة المقربين ، فلا جرم كان نزل الرحمة أكثر .

المسألة الثالثة :

ذكروا في الروح أقوالاً أحدها : أنه ملك عظيم ، لو التقم السموات والأرضين كان ذلك له لقمة واحدة وثانيها : طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا ليلة القدر ، كالزهاد الذين لا نراهم إلا يوم العيد وثالثها : خلق من خلق الله يأكلون ويلبسون ليسوا من الملائكة ، ولا من

الإنس ، ولعلهم خدم أهل الجنة ورابعها : يحتمل أنه عيسى عليه السلام لأنه اسمه ، ثم إنه ينزل في موافقة الملائك ليطلع على أمة محمد وخامسها : أنه القرآن : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : 52] وسادسها : الرحمة قرىء : ﴿ لا تيأسوا من روح الله ﴾ [يوسف : 87] بالرفع كأنه تعالى ، يقول : الملائكة ينزلون رحمتي تنزل في أثرهم فيجدون سعادة الدنيا وسعادة الآخرة وسابعها : الروح أشرف الملائكة وثامنها : عن أبي نجيح الروح هم الحفظة والكرام الكاتبون فصاحب اليمين يكتب إتيانه بالواجب ، وصاحب الشمال يكتب تركه للقبيح ، والأصح أن الروح ههنا جبريل .

وتخصيصه بالذكر لزيادة شرفه كأنه تعالى يقول الملائكة في كفة والروح في كفة .

(61/824)

أما قوله تعالى : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ فقد ذكرنا أن هذا يدل على أنهم كانوا مشتاقين إلينا ، فإن قيل : كيف يرغبون إلينا مع علمهم بكثرة معاصينا ؟ قلنا : إنهم لا يقفون على تفصيل المعاصي روي أنهم يطالعون اللوح ، فيرون فيه طاعة المكلف مفصلة ، فإذا وصلوا إلى معاصيه أرخى الستر فلا ترونها ، فحينئذ يقول : سبحان من أظهر الجميل ، وستر على القبيح ، ثم قد ذكرنا فوائد في نزولهم ونذكر الآن فوائد أخرى وحاصلها أنهم يرون في

الأرض من أنواع الطاعات أشياء ما رأوها في عالم السموات أحدها : أن الأغنياء يجيئون بالطعام من بيوتهم فيجعلونه ضيافة للفقراء والفقراء يأكلون طعام الأغنياء ويعبدون الله ، وهذا نوع من الطاعة لا يوجد في السموات وثانيها : أنهم يسمعون أنين العصاة وهذا لا يوجد في السموات وثالثها : أنه تعالى قال : "لأنين المذنبين أحب إلي من زجل المسبحين" فقالوا : تعالوا نذهب إلى الأرض فنسمع صوتاً هو أحب إلى ربنا من صوت تسبيحنا ، وكيف لا يكون أحب وزجل المسبحين إظهار لكمال حال المطيعين ، وأنين العصاة إظهار لغفارية رب الأرض والسموات (وهذه هي المسألة الأولى) .

المسألة الثانية :

هذه الآية دالة على عصمة الملائكة ونظيرها قوله : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [مريم : 64] وقوله : ﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بالقول ﴾ [الأنبياء : 27] وفيها دقيقة وهي أنه تعالى لم يقل : مأذونين بل قال : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ وهو إشارة إلى أنهم لا يتصرفون تصرفاً ما إلا بإذنه ، ومن ذلك قول الرجل لامرأته إن خرجت إلا بإذني ، فإنه يعتبر الإذن في كل خرجة .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ رَبِّهِمْ ﴾ يفيد تعظيماً للملائكة وتحقيراً للعصاة ، كأنه تعالى قال : كانوا لي فكنت لهم ، ونظيره في حقنا : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ وقال لمحمد عليه السلام : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ ونظيره ما روي أن داود لما مرض مرض الموت قال : إلهي كن لسليمان كما كنت لي ، فنزل الوحي وقال : قل لسليمان فليكن لي كما كنت لي ، وروي عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه فقد الضيف أياماً فخرج بالسفرة ليلتمس ضيفاً فإذا بخيمة ، فنادى أتريدون الضيف ؟ فقيل : نعم ، فقال للمضيف : أيوجد عندك إدام لبن أو عسل ؟ فرفع الرجل صخرتين فضرب إحداهما بالأخرى فانشقا فخرج من إحداهما اللبن ومن الأخرى العسل ، فتعجب إبراهيم وقال : إلهي أنا خليلك ولم أجد مثل ذلك الإكرام ، فماله ؟ فنزل الوحي يا خليلي كان لنا فكنا له .

(63/824)

أما قوله تعالى : ﴿ مّن كُلّ أَمْرٍ ﴾ فمعناه تنزل الملائكة والروح فيها من أجل كل أمر ، والمعنى أن كل واحد منهم إنما نزل لمهم آخر ، ثم ذكروا فيه وجوهاً أحدها : أنهم كانوا في أشغال كثيرة فبعضهم للركوع وبعضهم للسجود ، وبعضهم بالدعاء ، وكذا القول في التفكر والتعليم ، وإبلاغ الوحي ، وبعضهم لإدراك فضيلة الليلة أو ليسلموا على المؤمنين وثانيها :

وهو قول الأكثرين من أجل كل أمر قدر في تلك السنة من خير أو شر ، وفيه إشارة إلى أن نزولهم إنما كان عبادة ، فكأنهم قالوا : ما نزلنا إلى الأرض لهوى أنفسنا ، لكن لأجل كل أمر فيه مصلحة المكلفين ، وعم لفظ الأمر ليعم خير الدنيا والآخرة بياناً منه أنهم ينزلون بما هو صلاح المكلف في دينه ودنياه كأن السائل يقول : من أين جئت ؟ فيقول : مالك وهذا الفضول ، ولكن قل : لأي أمر جئت لأنه حظك وثالثها : قرأ بعضهم : ﴿ مِن كُلّ امرىء ﴾ أي من أجل كل إنسان ، وروي أنهم لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه ، قيل : أليس أنه قد روي أنه تقسم الآجال والأرزاق ليلة النصف من شعبان ، والآن تقولون : إن ذلك يكون ليلة القدر ؟ قلنا : عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله يقدر المقادير في ليلة البراءة ، فإذا كان ليلة القدر يسلمها إلى أربابها " وقيل : يقدر ليلة البراءة الآجال والأرزاق ، وليلة القدر يقدر الأمور التي فيها الخير والبركة والسلامة ، وقيل : يقدر في ليلة القدر ما يتعلق به إعزاز الدين ، وما فيه النفع العظيم للمسلمين ، وأما ليلة البراءة فيكتب فيها أسماء من يموت ويسلم إلى ملك الموت .

سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

الوجه الثالث : من فضائل هذه الليلة .

قوله تعالى : ﴿ سلام هِىَ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله سلام وجوه أحدها : أن ليلة القدر ، إلى طلوع الفجر سلام أي تسلم الملائكة على المطيعين ، وذلك لأن الملائكة ينزلون فوجاً فوجاً من ابتداء الليل إلى طلوع الفجر فترادف النزول لكثرة السلام وثانيها : وصفت الليلة بأنها سلام ، ثم يجب أن لا يستحقر هذا السلام لأن سبعة من الملائكة سلموا على الخليل في قصة العجل الحنيذ ، فازداد فرحه بذلك على فرحه بملك الدنيا ، بل الخليل لما سلم الملائكة عليه صار نار نمروذ عليه برداً وسلاما أفلا تصير ناره تعالى ببركة تسليم الملائكة علينا برداً وسلاماً لكن ضيافة الخليل لهم كانت عجلاً مشوياً وهم يريدون منا قلباً مشوياً ، بل فيه دقيقة ، وهي إظهار فضل هذه الأمة ، فإن هناك الملائكة ، نزلوا على الخليل ، وههنا نزلوا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم وثالثها : أنه سلام من الشرور والآفات ، أي سلامة وهذا كما يقال : إنما فلان حج وغزو أي هو أبداً مشغول بهما ، ومثله : "فإنما هي إقبال وإدبار" .

وقالوا تنزل الملائكة والروح في ليلة القدر بالخيرات والسعادات ولا ينزل فيها من تقدير المضار شيء فما ينزل في هذه الليلة فهو سلام ، أي سلامة ونفع وخير ورابعها : قال أبو مسلم : سلام أي الليلة سالمة عن الرياح والأذى والصواعق إلى ما شابه ذلك وخامسها :

سلام لا يستطيع الشيطان فيها سوءاً وسادسها : أن الوقف عند قوله : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ سلام ﴾ فيتصل السلام بما قبله ومعناه أن تقدير الخير والبركة والسلامة يدوم إلى طلوع الفجر ، وهذا الوجه ضعيف وسابعها : أنها من أولها إلى مطلع الفجر سالمة في أن العبادة في كل واحد من أجزائها خير من ألف شهر ليست كسائر الليالي في أنه يستحب للفرض الثلث الأول وللعبادة النصف وللدعاء السحر بل هي متساوية الأوقات والأجزاء وثامنها : سلام هي ، أي جنة هي لأن من أسماء الجنة دار السلام أي الجنة المصوغة من السلامة .

المسألة الثانية :

(65/824)

المطلع الطلوع يقال : طلع الفجر طلوعاً ومطلعاً ، والمعنى أنه يدوم ذلك السلام إلى طلوع الفجر ، ومن قرأ بكسر اللام فهو اسم لوقت الطلوع وكذا مكان الطلوع مطلع قاله الزجاج : أما أبو عبيدة والفراء وغيرهما فإنهم اختاروا فتح اللام لأنه بمعنى المصدر ، وقالوا : الكسر اسم نحو المشرق ولا معنى لاسم موضع الطلوع ههنا بل إن حمل على ما ذكره الزجاج من اسم وقت الطلوع صح ، قال أبو علي : ويمكن حمله على المصدر أيضاً ، لأن من المصادر التي ينبغي أن تكون على المفعل ما قد كسر كقولهم علاء المكبر والمعجز ، قوله :

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ المحيض ﴾ [البقرة : 222] فكذلك كسر المطلع جاء شاذاً عما عليه بابه .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 27 . 36 ﴾

(66/824)

وقال السمرقندى

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾

يعني : أنزلنا القرآن الكريم جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، من اللوح المحفوظ في ليلة القدر ، يعني : في ليلة القضاء ، وإنما سميت ليلة القدر ، لأن الله تعالى ، يقدر في تلك الليلة ما يكون من السنة القابلة ، من أمر الموت والأجل ، والرزق .

وغيره ويسلمه إلى مدبرات الأمور ، وهم أربعة من الملائكة إسرافيل وجبريل ، وميكائيل وملك الموت عليهم السلام .

وفي آية أخرى ﴿ فِى لَيْلَةٍ مباركة ﴾ [الدخان : 3] وإنما سميت ليلة مباركة ، يعني : ليلة القدر ، لأنه ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر ﴾ تعظيماً لها ، فقال : ﴿ لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يعني : العمل في ليلة القدر ، خير من العمل في ألف شهر ، ليس فيها ليلة القدر ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان جالساً بين أصحابه ، يحدث بأن رجلاً كان من بني إسرائيل ، لبس السلاح ألف شهر ، وصام ولم يضع السلاح ، حتى مات . فعظم ذلك على أصحابه فنزلت ﴿ لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يعني : العمل فيها وثوابه ، أفضل من لبس السلاح ، وصيام ألف شهر ليس فيها ليلة القدر .

وروي في خبر آخر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أَرَى أَعْمَالُ النَّاسِ" ، فكأنه تقاصر أعمار أمته ، أن لم يبلغوا من العمل مثل الذي بلغ غيرهم في طول العمر ، فأعطاه الله تعالى في الجنة ليلة القدر ، خيراً من ألف شهر .

فقيل : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي ليلة هي ؟ قال : "الْتَمِسُوهَا فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ" .

ثم قال عز وجل : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا ﴾ يعني : تتنزل الملائكة من كل سماء ، ومن سدرة المنتهى ، وهو مسكن جبريل على وسطها عليه السلام ، فينزلون إلى الأرض ، ويدعون الخلق ، ويؤمنون بدعائهم ، إلى وقت طلوع الفجر .

وذلك قوله : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا ﴾ يعني : جبريل معهم وذكر في الخبر ، أن جبريل عليه السلام ، وقف على سطح الكعبة ، ونشر جناحيه .

أحدهما يبلغ المشرق ، والآخر يبلغ المغرب .

وقال بعضهم : "الروح" خلق يشبه الملائكة ، وجهه يشبه وجه بني آدم عليه السلام .

وقال بعضهم : هو ما قال الله تعالى ﴿ >وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الروح قُلِ الروح مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّن العلم إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء : 85] وقال مجاهد ما نزل ملك إلا ومعه روح ، ولهم أيد وأرجل ، وهم موكلون على الملائكة ، كما أن الملائكة موكلون على بني آدم .

ثم قال عز وجل : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ يعني : ينزلون بأمر ربهم ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ سلام ﴾ يعني : تلك الليلة من كل أمر سلام ، يعني : من كل آفة سلامة ، يعني : في هذه الليلة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويقال سلام يعني : لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها شراً .

وقال القتبي : إن (من) توضع موضع (الباء) ، يعني : بكل أمر سلام أي : خير ﴿ هِىَ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ وقال مجاهد : يعني : كل أمر سلام ، وسلام من أن يحدث فيها أذًى ، أو يستطيع الشيطان أن يعمل فيها .

ويقال : معناه ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ وقد تم الكلام .

يعني : ينزلون فيها من كل أمر من الرخصة ، وكل أمر قدره الله تعالى ، في تلك الليلة إلى قابل .

ثم استأنف فقال : ﴿ سلام هِىَ ﴾ يعني : سلام وبركة ، وخير كلها ﴿ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ .

وروي عن ابن عباس رضي الله ، عنهما ، أنه قرأ من كل أمر سلام ، يعني : الملائكة يسلمون على كل امرىء .

وقرأ الكسائي ﴿ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ بكسر اللام ، والباقون بنصب اللام .

فمن قرأ بالكسر ، جعله اسماً لوقت الطلوع ، ومن قرأ بالنصب جعله مصدراً .

يعني : يطلع طلوعاً ، والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿بحر العلوم حـ 3 صـ 577 ـ 578﴾

(68/824)

وقال الثعلبى :

سورة القدر

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾

يعني القرآن كناية عن غير مذكور ، جملةً واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، فوضعناه في بيت العزّة وأملاه جبرئيل على السَّفَرة ثم كان يُنزله جبرئيل على محمد (

عليهما السلام) بنحو ما كان ، من أوّله إلى آخره بثلاث وعشرين سنة ، ثم عجّب نبيّه (عليه السلام) فقال : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر ﴾ .

والكلام في ليلة القدر على خمسة أبواب :

الباب الأوّل : في مأخذ هذا الاسم ومعناه ، واختلف العلماء ، فقال أكثرهم : هي ليلة الحكم والفصل يقضي اللّه فيها قضاء السنة ، وهو مصدر من قولهم : قدر اللّه الشيء قَدْراً وقَدَراً لغتان كالنَّهْر والنَّهَر والشَّعْر والشَّعَر ، وقدَّرهُ تقديراً له بمعنى واحد ، قالوا : وهي الليلة التي قال اللّه سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان : 3-4] وإنّما سُمّيت ليلة القدر مباركة ؛ لأن اللّه سبحانه يُنزل فيها الخير والبركة والمغفرة .

وروى أبو الضحى عن ابن عباس أن اللّه عزّ وجلّ يقضي الأقضية في ليلة النصف من شعبان ويُسلمها إلى أربابها في ليلة القدر .

روي أنه تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلاّ الكاهن أو الساحر أو مدمن خمر أو عاق لوالديه أو مصرّ على الزنا أو [مشاحن] أو قاطع رحم .

وقيل للحسين بن الفضل : أليس قد قدّر اللّه سبحانه المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض ؟ قال : نعم ، قال : فما معنى ليلة القدر ؟ قال : سَوقُ المقادير إلى المواقيت وتنفيذ القضاء المقدّر .

أخبرني عقيل أن أبا الفرج أخبرهم عن ابن جُبير قال : حدّثنا ابن حميد قال : حدّثنا مهران عن سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير قال : يؤْذن للحُجاج في ليلة القدر فيكتبون بأسمائهم وأسماء آبائهم ، فلا يُغادر منهم أحد ولا يزاد ولا ينقصُ منهم .

وقال الزهري : هي ليلة العظمة والشرف ، من قول الناس لفلان عند الأمير قدْر أي جاه ومنزلة ، يقال : قدرت فلاناً أي عظّمتهُ قال اللّه سبحانه : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام : 91] أي ما عظّموا اللّه حق عظمتِهِ وقال أبو بكر الورّاق : سُمّيتْ بذلك لأنّ من لم يكن ذا قدر وخطر يصيرُ في هذه الليلة ذا قدر إذا أدركها وأحياها .

وقيل : إنّ كل عمل صالح يؤخذ فيها من المؤمن فيكون ذا قدر وقيمة عند اللّه لكونه مقبولا فيها .

وقيل : لأنّه أُنزل كتابٌ ذو قدر على رسول ذي قدر لأجل أُمّة ذاتِ قدر ، وقال سهل بن عبد اللّه : لأنّ اللّه سبحانه يقدّر الرحمة فيها على عباده المؤمنين .

وقيل : لأنه يُنزّل فيها إلى الأرض ملائكة أُولو قدر وذوو خطر .

وقال الخليل بن أحمد : سُمّيت بذلك لأنّ الأرض تضيق فيها بالملائكة من قوله : ﴿ وَيَقْدِرُ

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : 7] .

الباب الثاني : اختلاف العلماء في وقتها ، وأي ليلة هي ، وذكر اختلاف الصحابة فيها .

فقال بعضهم : إنّما كانت على عهد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ثم رفعت .

(70/824)

أخبرني عبد اللّه بن حامد إجازة قال : أخبرنا محمد بن الحسين بن الحسن قال : حدّثنا أحمد بن يوسف قال : حدّثنا عبد الله قال : أخبرنا سفيان عن الأوزاعي عن مرشد أو عن أبي مرشد قال : "كنتُ جالساً مع أبي ذرّ عند خُمرة الوسطى فسُئل عن ليلة القدر فقال : كنت أسأل الناس عنها رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : قلت : يا رسول اللّه ليلة القدر هل هي تكون على عهد الأنبياء (عليهم السلام) ، فإذا مضوا رفعت ؟ قال : " لا ، بل هي إلى يوم القيامة " .

وأخبرنا عبد اللّه بن حاطب قال : أخبرنا محمد بن عامر السمرقندي قال : أخبرنا عمر بن الحسين قال : حدّثنا عبد بن حميد عن روح بن عبادة قال : حدّثنا ابن جريج قال : أخبرني داود ابن أبي عاصم عن عبد اللّه بن عيسى مولى معاوية قال : قلت لأبي هريرة زعموا أنّ

ليلة القدر قد رفعتْ قال : كذب من قال ذلك ، قال : قلت هي في كلّ شهر رمضان استقبله ؟ قال : نعم .

وقال بعضهم : هي في ليالي السنة كلّها ، وإنّ من علّق طلاق امرأته أو عتق عبده ليلة القدر لم يقع الطلاق ولم ينفذ العتاق إلى مضي سنة من يوم حلف ، وهي إحدى الروايات عن ابن مسعود قال : من يُقِم الحول كلّه يصبْها .

قال : فبلغ ذلك عبد اللّه بن عمر ، فقال : يرحم اللّه أبا عبد الرحمن أما إنه عِلِمَ أنها في شهر مضان ؟ ولكن أراد أن لا يتّكل الناس ، وإلى هذا ذهب أبو حنيفة أنها في جميع السنة ، وحُكي عنه أيضاً أنّه قال : رفعت ليلة القدر ، وروي عن ابن مسعود أيضاً أنه قال : إذا كانت السنة في ليلة كانت العام المقبل في ليلة أُخرى ، والجمهور من أهل العلم على أنها في شهر رمضان في كل عام .

أخبرنا عبد اللّه بن حامد قال : أخبرنا محمد بن عامر قال : أخبرنا عمر بن يحيى قال : حدّثنا عبد بن حميد عن عبيد اللّه بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن أبي عمير أنه سئل عن ليلة القدر : أفي كل رمضان هي ؟ قال : نعم .

(71/824)

وأخبرنا عقيل أن المعافى أخبرهم عن محمد بن جرير قال : حدّثني يعقوب قال : حدّثنا ابن عليّة قال : حدّثنا ابن ربيعة بن كلثوم قال : قال رجل للحسين وأنا أسمع : أرأيت ليلة القدر أفي كل رمضان هي ؟ قال : " نعم والله الذي لا إله إلاّ هو إنها لفي كلّ رمضان ، وإنّها ليلة يفرق فيها كلّ أمر حكيم ، فيها يقضى كلّ أجل وعمل ، ورزق وخلق إلى مثلها " .

واختلفوا في أول ليلة هي منها ، فقال أنور بن العقيلي : هي أول ليلة من شهر رمضان ، وقال الحسن : هي ليلة سبع عشرة ، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر .

والصحيح أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان ، وإليه ذهب الشافعي رضي الله عنه ، يدلّ عليه ما أخبرنا أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد الشيباني قال : أخبرنا عبد اللّه بن مسلم ، قال : حدّثنا يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب ، وقال : أخبرني يونس بن يزيد عن ابن شهاب عن ابن مسلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : " أُريتُ ليلة القدر ثم أيقظني بعض أهلي فنسيتها ، فالتمسوها في العشر الغوابر " .

وأخبرنا أبو بكر العباسي قال : أخبرنا أبو الحسن المحفوظي قال : حدّثنا عبد اللّه بن قاسم قال : حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان وشعبة وإسرائيل عن ابن إسحاق عن هُبيرة عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوقظ أهله في العشرة الأواخر من رمضان .

وأخبرنا أبو محمد المخلَّدي وعبد اللّه بن حامد قال: أخبرنا مكي قال: حدّثنا عمار بن رجاء قال: حدّثنا أحمد بن أبي طيبة عن عنبسة بن الأزهر عن أبي إسحاق عن الأسود بن يزيد قال: سمعت عليّاً رضي الله عنه يقول: "كان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر الأواخر من رمضان دأب وأدأبَ أهله".

فدلَّت هذهِ الأخبار على أن ليلة القدر في العشر الأواخر من شهر رمضان.

(72/824)

ثم اختلفوا في أي ليلة فيها فقال أبو سعيد الخدري: هي الليلة الحادية والعشرون، واحتجّ في ذلك بما أخبرنا أبو نعيم الأزهري قال: حدّثنا أبو عوانة سنة ست عشرة وثلاثمائة، قال: أخبرنا المزني قال: قال الشافعي: وأخبرنا أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن أحمد المطوعي، وأبو علي السيوري، وأبو عبد اللّه محمد بن عبد الله المصيبي قالوا: حدّثنا أبو العباس الأصمّ قال: أخبرنا الشافعي قال: أخبرنا مالك عن ابن الهاد عن محمد بن إبراهيم التيمي عن أبي سلمة، عن أبي سعيد الخدري قال: "كان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الوسط من شهر رمضان، فلمّا كانت [ليلة] أحدى وعشرين وهي التي كان يخرج في صبيحتها من اعتكافه قال صلى الله عليه وسلم "من كان اعتكف معي

فليعتكف العشر الأواخر ، فإني رأيت هذه الليلة ثم أُنسيتها وقال وأريتني أسجد في ماء وطين فالتمسوها في العشر الأواخر ، والتمسوها في كل وتر " فأمطرت السماء في تلك الليلة وكان المسجد على عريش فوكف المسجد " .

قال أبو سعيد [فأبصرت عيناي] رسول اللّه صلى الله عليه وسلم انصرف ، علينا وعلى جبهته وأنفه أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين .

وقال بعضهم هي الليلة الثالثة والعشرون منها .

أخبرنا عبد اللّه بن حامد قال : أخبرنا عبد اللّه بن محمد الهمداني قال : أخبرنا الحسين بن عبد الأعلى قال : أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن نافع عن ابن عمر قال : " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول اللّه إني رأيتُ في النوم كأن ليلة القدر سابعة تبقى ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : " أرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين ، من كان منكم يريد أن يقوم من الشهر شيئاً فليقم ليلة ثلاث وعشرين " .

قال معمر : كان أيوب يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمسّ طيباً .

وأخبرنا عبد اللّه بن حامد قال: أخبرنا مكّي قال: حدّثنا أحمد بن حفص قال: حدّثني أبي قال: حدّثني إبراهيم عن عبّاد وهو ابن إسحاق عن الزهري عن ضمرة بن عبد اللّه بن أنيس عن أبيه قال: "كنت في مجلس من بني سلمة وأنا أصغرهم فقالوا: من يسأل لنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر؟ وذلك صبيحة إحدى وعشرين من رمضان، قال: فخرجت فوافيت مع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم صلاة المغرب ثم نمت بباب بيته فمرّ بي فقال: "ادخل" فدخلت فأُتيَ بعشائه فرأيتني أكفّ عنه من قلته، فلمّا فرغ قال: "ناولني نعلي" فقام وقمت معه فقال: كان لك حاجة؟ فقلت: أرسلني إليك رهط من بني سلمة يسألونك عن ليلة القدر فقال: "كم الليلة؟" فقلت: اثنان وعشرون، فقال: "هي الليلة" ثم رجع فقال: "أو الثالثة" يُريد ليلة ثلاث وعشرين".

قال أخبرني ابن فنجويه قال: حدّثنا طفران قال: حدّثنا الحسن بن إسماعيل المحاملي قال: حدّثنا يعقوب الدورقي قال: حدّثنا عبد اللّه بن إدريس قال: سمعت عاصم بن كليب يروي عن أبيه عن خاله قال: "قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم: "إني رأيت ليلة القدر ثم أُنسِيتُها ورأيت مسيح الضلالة [فخرجت إليكم لأُبيّنها] فرأيت رجلين يتلاحيان فحجزتُ بينهما فأنسيتهما وسأشدو لكم منها شدواً، فأمّا ليلة القدر فاطلبوها في العشر الأواخر وتراً، وأمّا مسيح الضلالة فرجل أجلى الجبهة، ممسوح العين اليسرى، عريض النحر، فيه دمامة كأنّه فلان بن عبد العزى أو عبد العزى بن فلان".

قال : فذكرت هذا الحديث لابن عباس قال : وما عجبك ؟ سأل عمر بن الخطاب أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وكان يسألني معهم مع الأكابر منهم ويقول لي : لا تتكلم حتى يتكلّموا ، فقال : علمتم أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : " ليلة القدر اطلبوها في العشر الأواخر وتراً " ففي أي الوتر ترون ؟

(74/824)

قال : فأكثر القوم في الوتر ، فقال : مالك لا تكلّم ابن عباس ؟ قال : قلت : إن شئت تكلّمت ، قال : عن رأيك أسألك ؟ قال : قلت : رأيت اللّه سبحانه أكثر ذكر السبع ، وذكر السماوات سبعاً ، والأرضين والطواف سبعة ، والجمار سبعة ، وما شاء اللّه من ذلك ، خلق الإنسان من سبعة ، وجعل رزقه من سبعة .

قال : قلت : خلق الإنسان ، فقال : فكلّما ذكرت عرفت ، فما قولك خلق الإنسان من سبعة وجعل رزقه من سبعة ؟ قال : قلت : ﴿ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلاَلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [المؤمنون : 12-13] إلى قوله : ﴿ خَلْقاً آخَرَ ﴾ [المؤمنون : 14] .

ثم قرأت ﴿ أَنَّا صَبَبْنَا المآء صَبّاً ﴾ [عبس : 25] إلى قوله سبحانه : ﴿ وَأَبّاً ﴾ [

عبس : 31] والأبّ ما أنبتت الأرض ممّا لا تأكله الناس ، فما أراها إلاّ ليلة ثلاث وعشرين لسبع بقين ، فقال عمر : غلبتموني أن تأتوا بما جاء به هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه .

وأخبرنا عبد اللّه بن حامد عن صالح بن محمد قال : حدّثنا إبراهيم بن محمد عن مسلم الأعور عن مجاهد عن ابن عباس أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له : أخبرني برأيك في ليلة القدر ، قال : فقلت : إن اللّه سبحانه وتر يحب الوتر ، السماوات سبع ، والأرضون سبع ، وترزق من سبع ، وتخرج من سبع ، ولا أراها إلاّ في سبع بقين من رمضان ، فقال عمر : وافق رأيي رأيك ، ثم ضرب منكبي وقال : ما أنت بأقل القوم علماً .

وقال زيد بن ثابت وبلال : هي ليلة أربع وعشرين ، ودليلهما ما أخبرناه عبد اللّه بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن أبي سعيد قال : حدّثنا علي بن حرب قال : حدّثنا محمد بن معاوية قال : حدّثنا بن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن يزيد بن عبد اللّه عن الضابحي عن بلال قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : " ليلة القدر ليلة أربع وعشرين " .

وقيل : هي الليلة الخامسة والعشرون ، يدلّ عليها ما أخبرنا محمد بن عبد الله الحافظ في آخرين قالوا : حدّثنا محمد بن يعقوب قال : حدّثنا بحر بن نصر قال : فرأى علي ابن وهب أخبرك خبر أحد منهم مالك بن أنس عن حميد الطويل عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " التمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة " .

وقال قوم : هي الليلة السابعة والعشرون ، وإليه ذهب علي وأُبي وعائشة ومعاوية ، يدل عليه ما أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدوس قال : أخبرنا أبو أحمد حمزة بن العباس ببغداد قال : حدّثنا أحمد بن الوليد الفحام قال : حدّثنا مسوّد بن عامر شاذان قال : أخبرنا شعبة قال : عبد الله بن دينار أخبرني قال : سمعت ابن عمر يحدّث عن النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر قال :

" من كان متحرّياً فليتحرّها في ليلة سبع وعشرين " .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قراءةً عليه قال : أخبرنا محمد بن جعفر قال : حدّثنا الحسن بن علي بن عفّان قال : حدّثنا عمرو العنقري قال : حدّثنا سفيان عن عاصم عن زر بن حبيش قال : أتينا بن مسعود فسألناه عن ليلة القدر فقال : من يقم الحول يصبها ، فقال : يرحم الله أبا عبد الرحمن قد علم أنها في شهر رمضان وأنها في ليلة تسع وعشرين قال : فقال لنا أبا المنذر : إني قد علمت ذلك فقال : بالآية التي أنبأنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فحفظنا وعددنا ، قال : فوالله فإنها لفي ما تستثني ، قال : فقلنا : أبا المنذر ما

الآية؟ قال: تطلع الشمس عندئذ كأنها طست ليس لها شعاع.

وروي عن أُبيّ بن كعب أيضاً أنّه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم بأُذنيَّ وإلاّ فصمتا أنّه قال: "ليلة القدر ليلة سبع وعشرين".

(76/824)

وقال بعض الصحابة: "قام بنا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ليلة الثالث والعشرين ثلث الليل، فلمّا كانت ليلة الخامس والعشرين قام بنا نصف الليل، فلمّا كانت الليلة السابعة والعشرون قام بنا الليل كلّه".

وقال أبو بكر الورّاق: إنّ اللّه سبحانه وتعالى قسّم كلمات هذه السورة على ليالي شهر رمضان، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال: ﴿ هِيَ ﴾.

وقال بعضهم: هي ليلة التاسع والعشرين، وروي عن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: "ليلة القدر ليلة السابع والعشرين أو التاسع والعشرين وإن الملائكة في تلك الليلة بعدد الحصى".

وأخبرنا عبد اللّه بن حامد قال: أخبرنا مكّي قال: حدّثنا محمد بن سعيد القطان قال: حدّثنا عيينة بن عبد الرحمن قال: حدّثني أبي قال: ذكرت ليلة القدر عند أبي بكرة فقال

: ما أنا بطالبها بعد شيء سمعته من رسول الّله صلى الله عليه وسلم إلاّ في العشر الأواخر ، سمعت رسول الّله صلى الله عليه وسلم يقول : " التمسوها في العشر الأواخر في تسع بقين ، أو سبع بقين ، أو خمس بقين أو ثلاث بقين أو آخر ليلة " وكان أبو بكرة إذا دخل شهر رمضان ظلّ يُصلي في سائر السنة ، فإذا دخل العشر اجتهد .

وفي الجملة ، أخفى الّله علم هذه الليلة على الأُمّة ليجتهدوا في العبادة ليالي رمضان طمعاً في إدراكها كما أخفى الصلاة الوسطى في الصلوات ، واسمه الأعظم في الأسماء ، وساعة الإجابة في ساعات الجمعة ، وغضبه في المعاصي ، ورضاه في الطاعات ، وقيام الساعة في الأوقات ، رحمةً منه وحكمة ، والّله أعلم .

الباب الثالث : في علامتها وأماراتها

أخبرنا أبو عمر الفراتي قال : أخبرنا أبو نصر السرخسي قال : حدّثنا محمد بن الفضل قال : حدّثنا إبراهيم بن يوسف قال : حدّثنا النضر عن أشعث عن الحسين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في ليلة القدر :

" من أماراتها أنها ليلة بلجة سمحة ، لا حارة ولا باردة ، تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع " .

وقال حميد بن عمر : كنت ليلة السابع والعشرين في البحر فأخذت من مائه فوجدته سلِساً .

الباب الرابع : في فضائلها وخصائصها .

حدّثنا أبو بكر محمد بن أحمد الجهني بها قال : أخبرنا أبو بكر أحمد بن سليمان بن الحسن ببغداد قال : حدّثنا أحمد بن محمد بن عيسى قال : حدّثنا محمد بن كثير عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي (عليه السلام) قال : " من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " .

وفي الحديث : " إن الشيطان لا يخرج في هذه الليلة حتى يُضيء فجرها ، ولا يستطيع أن يصيب فيها أحد بخبل أو داء أو ضرب من ضروب الفساد ، ولا ينفذ فيها سحر ساحر " .

وروي عن ابن عباس أن النبي (عليه السلام) قال : " إذا كانت ليلة القدر ينزل الملائكة الذين هم سكّان سدرة المنتهى ، ومنهم جبريل ، فينزل جبريل ومعه ألوية ينصب لواءً منها على قبري ، ولواءً منها على بيت المقدس ، ولواءً في المسجد الحرام ، ولواءً على طور سيناء ، ولا يدع فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلاّ سلّم عليه إلاّ مُدمن الخمر وآكل الخنزير والمتضمخ

بالزعفران " .

الباب الخامس : في آدابها وفيما يستحب فيها .

حدّثنا أبو بكر بن عبدوس قال : حدّثنا محمد بن يعقوب قال : حدّثنا الحسين بن مكرم قال : حدّثنا يزيد بن هارون قال : أخبرنا كُهمس عن عبد اللّه بن بُريدة " أنّ عائشة قالت للنبي صلى الله عليه وسلم إنْ وافت ليلة القدر فما أقول ؟ قال : " قولي : اللّهمّ إنّك عفوٌّ تحب العفو فاعف عنّي " .

وروى شريح بن هانئ عن عائشة قالت : لو عرفت أيّ ليلة القدر ما سألت اللّه فيها إلاّ العافية .

(78/824)

وأخبرنا أبو عمر الفراتي قال : أخبرنا محمد بن إسحاق بن سهل قال : حدّثنا سعيد بن عيسى قال : حدّثنا فارس بن عمر قال : حدّثنا صالح قال : حدّثنا العمري عن عاصم بن عبيد اللّه عن عبد اللّه بن عامر بن ربيعة أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من صلّى المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر [في جماعة] فقد أخذ حظه من ليلة القدر " .

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ أخبرنا أبو عمر الفراتي قال : أخبرنا أبو موسى قال :

أخبرنا موسى بن عبد الله : قال : حدّثنا أبو مصعب عن ملك أنه سمع من يثق به أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم أُري أعمار الناس تقاصر أعمار أُمّته ألاّ يبلغوا من الأعمال مثل الذي يبلغ غيره في طول العمر ، فأعطاه اللّه سبحانه : ﴿ لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

واختلفوا في الحكمة الموجبة لهذا العدد ، فأخبرني الحسين قال : حدّثنا الكندي قال : حدّثنا عبد الرحمن بن حاتم قال : قرئ على [يونس] بن عبد الأعلى : أخبرنا ابن وهبة قال : حدّثنا مسلمة عن علي بن لهيعة قال : " ذكر رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يوماً أربعة من بني إسرائيل عبدوا اللّه ثمانين عاماً ، لم يعصوه طرفة عين فذكر : أيّوب ، وزكريّا ، وحزقيل ابن العجوز ، ويوشع بن نون قال : فعجب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك وأتاه جبريل فقال : " يا محمد عجبت أُمّتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوا اللّه طرفة عين " ، فقال : " أنزل اللّه تعالى عليك خيراً من ذلك " ، ثم قرأ عليه : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ لأن هذا أفضل مما عجبت أنت وأُمّتك " قال : فسرّ بذلك النبي صلى الله عليه وسلم والناس معه " .

وأخبرنا أبو عمرو الفراتي قال: أخبرنا محمد بن إسحاق قال: حدّثنا سعيد بن عيسى قال: حدّثنا فارس بن عمرو قال: حدّثنا صالح قال: حدّثنا مسلم بن خالد بن أبي نجح أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل اللّه ألف شهر قال: فعجب المسلمون من ذلك فأنزل اللّه سبحانه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقدر * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقدر * لَيْلَةُ الْقدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ الذي لبس ذلك الرجل السلاح في سبيل اللّه.

ويقال: إنّ ذلك الرجل كان شمشون (عليه السلام)، وكانت قصته على ما ذكر وهب بن منبه أنّه كان رجلا مسلماً وكانت أُمّه قد جعلته نذيراً، وكان من أهل قرية من قرى الروم كانوا يعبدون الأصنام، وكان منزله منها على أميال غير كثيرة، فكان يغزوهم وحده، ويجاهدهم في اللّه فيصيب منهم وفيهم حاجته، ويقتل ويسبي ويصيب الأموال، وكان إذا لقيهم لقيهم بلحي بعير لا يلقاهم بغيره، فإذا قاتلوه وقاتلهم وتعب وعطش انفجر له من الحجر الذي في اللحي ماء عذب فيشرب منه حتى يروى.

وكان قد أُعطي قوّة في البطش، وكان لا يوثقه حديد ولا غيره، فكان كذلك، فجاهدهم في اللّه، يصيب منهم حاجته لا يقدرون منه على شيء حتى قالوا: لن تأتوه إلاّ من قبل امرأته، فدخلوا على امرأته فجعلوا لها جعلا فقالت: نعم، أنا أوثقه لكم فأعطوها حبلا

وثيقاً ، وقالوا لها : إذا نام فأوثقي يده إلى عنقه حتى نأتيه فنأخذه ، فلمّا نام أوثقت يده إلى عنقه بذلك الحبل ، فلما هبُّ جذبه بيده فوقع من عنقه .

(80/824)

فقال لها : لم فعلت ذلك ؟ فقالت : أُجرّب بها قوتك ، ما رأيت مثلك ، فأرسلتْ إليهم : إني قد ربطته بالحبل فلم أُغنِ شيئاً ، فأرسلوا إليها بجامعة من حديد ، وقالوا : إذا نام فاجعليها في عنقه ، فلمّا نام جعلتها في عنقه ، فلمّا هبَّ جذبها فوقعت من يده وعنقه ، فقال لها : لم فعلت هذا ؟ قالت : أجرّب بها قوتك ، ما رأيت مثلك في الدنيا يا شمشون ، أما في الأرض شيء يغلبك ؟ قال : إلاّ شيء واحد ، قالت : وما هو ؟ قال لها : ها أنا لمخبرك به ، فلم تزل تسأله عن ذلك وكان ذا شعر كثير ، فقال لها : ويحك إنّ أُمّي كانت جعلتني نذيراً فلا يغلبني شيء أبداً ، ولا يضبطني إلاّ شعري ، فلمّا نام أوثقت يده إلى عنقه بشعر رأسه ، فأوثقه ذلك وبعثت إلى القوم .

فجاؤا فأخذوه فجدعوا أنفه وانفذوا أُذنيه وفقأوا عينيه ، ووقفوا بين ظهراني المدينة ، وكانت مدينة ذات أساطين ، وكان ملكهم قد أشرف عليها بالناس لينظروا إلى شمشون وما يُصنع به ، فدعا شمشون ربّه حين مثلوا ووقفوه أن يسلّطه عليهم ، فأمر أن يأخذ

بعمودين من عمد المدينة التي عليها الملك والناس الذين معه فاجتذبهما جميعاً فجذبهما ، فردّ اللّه تعالى إليه بصره وما أصابوا من جسده ، ووقعت المئذنة بالملك ومن عليها من الناس ، فهلكوا فيها هدما .

وقيل : هو أن الرجل فيما مضى كان لا يستحق أن يقال له : عابد ، حتى يعبد اللّه ألف شهر وهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، فجعل اللّه سبحانه لأمّة محمد (عليه السلام) ليلةً خيراً من ألف شهر كانوا يعبدون فيها .

وقال أبو بكر الورّاق : كان ملك سليمان خمسمائة شهر وملك ذي القرنين خمسمائة شهر ، فيحتمل أن يكون معنى الآية : ليلة القدر خير لمن أدركها مما ملكه سليمان وذو القرنين (عليهما السلام) .

(81/824)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا عبد اللّه بن محمد بن الأشقر قال : حدّثنا زيد بن أخرم قال : حدّثنا أبو داود قال : حدّثنا علقمة بن الفضل عن يوسف بن مازن الراسبي قال : قام رجل إلى الحسن بن علي فقال : سوّدت وجوه المؤمنين ، عمدت إلى هذا الرجل فبايعته يعني معاوية فقال : " لا تؤنّبني [رحمك الله فإن] رسول اللّه صلى الله

عليه وسلم قد أُري بني أُميّة يخطبون على منبره رجلاً رجلاً فساءه ذلك فنزلت ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر ﴾ [الكوثر : 1] ونزلت ﴿ إِنَّآ أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر * لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ تملكه بنو أُميّة .

قال القاسم : اللّهمّ فحسبنا ملك بني أُميّة فإذا هو ألف شهر لا يزيد ولا ينقص " .

وقال المفسّرون : عمل صالح في ليلة القدر خيرٌ من عمل ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وروى الربيع عن أبي العالية قال : ليلة القدر خيرٌ من عمر ألف شهر ، وقال مجاهد : سلام الملائكة والروح عليك تلك الليلة خير من سلام الخلق عليك ألف شهر فذلك [قوله سبحانه ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ .

قرأ طلحة بن مصرف تَنزِلُ خفيفة ، من النزول ، والروح يعني جبرئيل في قول أكثر المفسّرين يدلّ عليه ما روى قتادة عن أنس أن رسول اللّه (عليه السلام) قال : " إذا كان ليله القدر نزل جبرئيل في كبكبة من الملائكة يصلّون ويسلّمون على كلّ عبد قائم أو قاعد يذكر اللّه سبحانه " .

وقال كعب ومقاتل بن حيان : الروح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلاّ تلك الليلة ، ينزلون من لدن غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

وقال الواقدي : هو مَلَك عظيم [من أعظم الملائكة خلقاً] يخلق من الملائكة .

﴿ فِيهَا ﴾ أي في ليلة القدر ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قدّره الله سبحانه وقضاه في تلك السنة إلى قابل، لقوله سبحانه في الرعد: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: 11] أي بأمر الله.

وقد أخبرنا محمد بن عبدوس قال: حدّثنا محمد بن يعقوب قال: أخبرنا محمد بن الجهم قال: حدّثنا يحيى بن زياد الفرّاء قال: حدّثني أبو بكر بن عباس عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنّه كان يقرأ من كل امرئ سلام، ورويت هذه القراءة أيضاً عن علي بن أبي طالب وعكرمة، ولها وجهان:

أحدهما: إنّه وجّه معناه إلى الملك أي من كلّ ملك سلام.

والثاني: أن يكون من بمعنى على تقديره: على كل امرئ من المسلمين سلام من الملائكة كقوله سبحانه: ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ ﴾ [الأنبياء: 77] أي على القوم، والقراءة الصحيحة ما عليه العامة؛ لاجماع الحجّة من القراءة عليها ولموافقتها خطّ المصاحف؛ لأنه ليس فيها ياء.

وقوله: ﴿ سَلَامٌ ﴾ تمام الكلام عند قوله: ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ ثم ابتدأ فقال سبحانه: ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ أي ليلة القدر سلام وخير كلّها ليس فيها شر.

قال الضّحاك: لا يقدر الله سبحانه في تلك الليلة إلاّ السلامة، فأمّا في الليالي الأُخر فيقضي

اللّه تعالى فيهنّ البلاء والسلامة ، قال مجاهد : هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أن يحدث فيها أذى .

وقال الشعبي ومنصور بن زاذان : هو تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ، يمرون على كلّ مؤمن ويقولون : السلام عليك يا مؤمن .

(83/824)

﴿ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ حتى حرف غاية ، مجازها إلى مطلع الفجر . قرأ يحيى بن وثاب والأعمش والكسائي وخلف بكسر اللام ، غيرهم بفتحه وهو الاختيار ؛ لأن المطلع بفتح اللام بمعنى الطلوع يقال : طلعت الشمس طلوعاً ومطلعاً ، فأمّا المطلع بكسر اللام فإنّه موضع الطلوع ، ولا معنى للاسم في هذا الموضع ، إنّما هو لمعنى المصدر ، واللّه أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشف والبيان حـ 10 صـ 247 . 258﴾

(84/824)

وقال الزمخشري :

سورة القدر

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها 5 [نزلت بعد عبس] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القدر (97) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)

سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

عظم القرآن من ثلاثة أوجه : أحدها : أن أسند إنزاله إليه وجعله مختصا به دون غيره : والثاني . أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه ، والثالث : الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه . روى أنه أنزل جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . وأملاه جبريل على السفرة ، ثم كان ينزله على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نجوما في ثلاث وعشرين سنة . وعن الشعبي : المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر واختلفوا في وقتها فأكثرهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها ، وأكثر القول أنها السابعة منها ، ولعل الداعي إلى إخفائها أن يحيى من يريدها الليالي الكثيرة :

طلبا لموافقتها ، فتكثر عبادته ويتضاعف ثوابه ، وأن لا يتكل الناس عند إظهارها على إصابة الفضل فيها فيفرطوا في غيرها . ومعنى ليلة القدر : ليلة تقدير الأمور وقضائها ، من قوله تعالى فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ وقيل سميت بذلك لخطرها وشرفها على سائر الليالي وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ يعنى : ولم تبلغ درايتك غاية فضلها ومنتهى علو قدرها ، ثم بين ذلك بأنها خير من ألف شهر ، وسبب ارتقاء فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من المصالح الدينية التي ذكرها :

من تنزل الملائكة والروح ، وفصل كل أمر حكيم ، وذكر في تخصيص هذه المدّة أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح في سبيل اللّه ألف شهر ، فعجب المؤمنون من ذلك ، وتقاصرت إليهم أعمالهم ، فأعطوا ليلة هي خير من مدّة ذلك الغازي «1» . وقيل : إنّ الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد اللّه ألف شهر ، فأعطوا

---

(1) . أخرجه ابن أبى حاتم وغيره من طريق ابن خالد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد به مرسلا دون قوله «و تقاصرت إليهم أعمالهم» .

ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد تَنَزَّلُ إلى السماء الدنيا ، وقيل : إلى الأرض وَالرُّوحُ جبريل . وقيل : خلق من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة مِنْ كُلِّ أَمْرٍ أي تتنزل من أجل كل أمر قضاه اللّه لتلك السنة إلى قابل . وقرئ : من كل امرئ ، أي : من أجل كل إنسان . قيل : لا يلقون مؤمنا ولا مؤمنة إلا سلموا عليه في تلك الليلة سَلامٌ هِيَ ما هي إلا سلامة ، أي : لا يقدر اللّه فيها إلا السلامة والخير ، ويقضى في غيرها بلاء وسلامة . أو : ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلمون على المؤمنين . وقرئ : مطلع ، بفتح اللام وكسرها .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة القدر أعطى من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر «1»» . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 780. 781﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بسندهم إلى أبى بن كعب .

(86/824)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : يعني جبريل ، أنزله الله في ليلة القدر بما نزل به من الوحي .

الثاني : يعني القرآن ؛ وفيه قولان :

أحدهما : ما روى ابن عباس قال : نزل القرآن في رمضان وفي ليلة القدر في ليلة مباركة جملة واحدة من عند الله تعالى في اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا ، فنجمته السفرة على جبريل في عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة ، وكان ينزل على مواقع النجوم أرسالاً في الشهور والأيام .

القول الثاني : أن الله تعالى ابتدأ بإنزاله في ليلة القدر ، قاله الشعبي .

واختلف في ليلة القدر مع اتفاقهم أنها في العشر الأواخر من رمضان ، وأنها في وتر العشر أوجد ، إلا ابن عمر فإنه زعم أنها في الشهر كله .

فذهب الشافعي رحمه الله إلى أنها في إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين لحديث أبي سعيد الخدري ، وذهب أبيّ بن كعب وابن عباس إلى أنها في ليلة سبع وعشرين .

واختلف في الدليل ، فاستدل أبيّ بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من علامتها أن تصبح الشمس لا شعاع لها " ، قال : وقد رأيت ذلك في صبيحة سبع وعشرين ، واستدل ابن عباس بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سورة القدر ثلاثون كلمة فهي في قوله " سلام " و " هي " الكلمة السابعة والعشرون ، فدل أنها فيها .

وقال آخرون : هي في ليلة أربع وعشرين للخبر المروي في تنزيل الصحف ، وقال آخرون : إن الله تعالى ينقلها في كل عام من ليلة إلى أخرى ليكون الناس في جميع العشر مجتهدين ، ولرؤيتها متوقعين .

وفي تسميتها ليلة القدر أربعة أوجه :

أحدها : لأن الله تعالى قدر فيها إنزال القرآن .

الثاني : لأن الله تعالى يقدر فيها أمور السنة ، أي يقضيها ، وهو معنى قول مجاهد .

الثالث : لعظم قدرها وجلالة خطرها ، من قولهم رجل له قدر ، ذكره ابن عيسى .

الرابع : لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً وثواباً جزيلاً .

﴿ وما أدْراكَ ما لَيْلَةُ القَدْرِ ﴾ تنبيهاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم على فضلها ، وحثّاً على العمل فيها ، قال الشعبي : وليلتها كيومها ، ويومها كليلتها .

قال الفراء : كل ما في القرآن من قوله تعالى : " وما أدراك " فقد أدراه ، وما كان من قوله " وما يدريك " فلم يدره .

قال الضحاك : لا يقدر الله في ليلة القدر إلا السعادة والنعم ، ويقدر في غيرها البلايا والنقم

، وقال عكرمة : كان ابن عباس يسمي ليلة القدر ليلة التعظيم ، وليلة النصف من شعبان ليلة البراءة ، وليلتي العيدين ليلة الجائزة .

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ فيه ستة أقاويل :

أحدها : ليلة القدر خير من عمر ألف شهر ، قاله الربيع .

الثاني : أن العمل في ليلة القدر خير من العمل في غيرها ألف شهر ، قاله مجاهد .

الثالث : أن ليلة القدر خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، قاله قتادة .

الرابع : أنه كان رجل في بني إسرائيل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد العدوّ حتى يمسي ، ففعل ذلك ألف شهر ، فأخبر الله تعالى أن قيام ليلة القدر خير من عمل ذلك الرجل ألف شهر ، رواه ابن أبي نجيح ومجاهد .

الخامس : أن ملك سليمان كان خمسمائة شهر ، وملك ذي القرنين كان خمسمائة شهر ، فصار ملكهما ألف شهر ، فجعل العمل في ليلة القدر خيراً من زمان ملكهما .

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ قال أبو هريرة : الملائكة في ليلة القدر في الأرض أكثر من عدد الحصى .

وفي " الروح " ها هنا أربعة أقاويل :

أحدها : جبريل عليه السلام ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : حفظة الملائكة ، قاله ابن أبي نجيح .

الثالث : أنهم أشرف الملائكة وأقربهم من الله ، قاله مقاتل .

الرابع : أنهم جند من الله من غير الملائكة ، رواه مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً .

(88/824)

ويحتمل إن لم يثبت فيه نص قولاً خامساً : أن الروح والرحمة تنزل بها الملائكة على أهلها ، دليله قوله تعالى : ﴿ ينزّل الملائكة بالرُّوح من أمْره على من يشَاءُ من عباده ﴾ أي بالرحمة .

﴿ بإذْن ربّهِم ﴾ يعني بأمر ربهم .

﴿ مِن كل أمْرٍ ﴾ يعني يُقضى في تلك الليلة من رزق وأجل إلى مثلها من العام القابل .

وقرأ ابن عباس : من كل امرئ ، فتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل فيها مع الملائكة فيسلمون على كل امرئ مسلم .

﴿ سلامٌ هي حتى مطلع الفَجْر ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : أن ليلة القدر هي ليلة سالمة من كل شر ، لا يحدث فيها حدث ولا يرسل فيها شيطان ، قاله مجاهد .

الثاني : أن ليلة القدر هي سلام وخير وبركة ، قاله قتادة .

الثالث : أن الملائكة تسلم على المؤمنين في ليلة القدر إلى مطلع الفجر ، قاله الكلبي . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 311.314 ﴾

(89/824)

وقال ابن عطية :

سورة الْقَدْرِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) ﴾

(90/824)

الضمير في ﴿ أنزلناه ﴾ للقرآن وإن لم يتقدم ذكره لدلالة المعنى عليه ، فقال ابن عباس وغيره : أنزله الله تعالى ﴿ ليلة القدر ﴾ إلى السماء الدنيا جملة ، ثم نجمه على محمد صلى الله عليه وسلم في عشرين سنة ، وقال الشعبي وغيره : ﴿ إنا ﴾ ابتدأنا إنزال هذا القرآن إليك ﴿ في ليلة القدر ﴾ ، وقد روي أن نزول الملك في حراء كان في العشر الأواخر من رمضان ، فيستقيم هذا التأويل وقد روي أنه قد نزل في الرابع عشر من رمضان ، فلا

يستقيم هذا التأويل إلا على قول من يقول إن ليلة القدر تستدير الشهر كله ولا تختص بالعشر الأواخر ، وهو قول ضعيف ، حديث النبي صلى الله عليه وسلم يرده في قوله : " فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان " وقال جماعة من المتأولين معنى قوله : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ إنا أنزلنا هذه السورة في شأن ليلة القدر وفي فضلها ، وإذا كانت السورة من القرآن جاء الضمير للقرآن تفخيماً وتحسيناً ، فقوله تعالى : ﴿ في ليلة ﴾ هو قول عمر بن الخطاب : لقد خشيت أن ينزل في قرآن ليلة نزول سورة الفتح ، ونحو قول عائشة في حديث الإفك : لأنا أحقر في نفسي من أن ينزل في قرآن ، و﴿ ليلة القدر ﴾ : هي ليلة خصها الله تعالى بفضل عظيم وجعلها أفضل ﴿ من ألف شهر ﴾ ، لا ليلة قدر فيها ، وقاله مجاهد وغيره ، وخصت هذه الأمة بهذه الفضيلة لما رأى محمد عليه السلام أعمال أمته فتقاصرها ، وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ ليلة القدر عبارة عن تفخيم لها ، ثم أدراه تعالى بعد قوله : ﴿ ليلة القدر خير ﴾ ، قال ابن عيينة في صحيح البخاري ما كان في القرآن : ﴿ وما أدراك ﴾ فقد أعلمه ، وما قال : " وما يدريك " فإنه لم يعلم ، وذكر ابن عباس وقتادة وغيره : أنها سميت ليلة القدر ، لأن الله تعالى يقدر فيها الآجال والأرزاق وحوادث العالم كلها ويدفع ذلك إلى الملائكة لتمتثله ، وقد روي مثل هذا في ليلة النصف من شعبان ، ولهذا ظواهر من كتاب الله عز وجل

على نحو قوله تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ [الدخان : 4] ، وأما الصحة المقطوع بها فغير موجودة ، وقال الزهري معناه : ليلة القدر العظيم والشرف الشأن ، من قولك : رجل له قدر ، وقال أبو بكر الوراق : سميت ليلة القدر لأنها تسب من أحياها قدراً عظيماً لم يكن من قبل ، وترده عظيماً عند الله تعالى ، وقيل سميت بذلك لأن كل العمل فيها له قدر خطير ، وليلة القدر مستديرة في أوتار العشر الأواخر من رمضان ، هذا هو الصحيح المعول عليه ، وهي في الأوتار بحسب الكمال والنقصان في الشهر ، فينبغي لمرتقبها أن يرتقبها من ليلة عشرين في كل ليلة إلى آخر الشهر ، لأن الأوتار مع كمال الشهر ، ليست الأوتار مع نقصانه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(92/824)

" الثالثة تبقى لخامسة تبقى ، لسابعة تبقى " ، وقال : " التمسوها في الثالثة والخامسة والسابعة والتاسعة " ، وقال مالك : يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين ، وقال ابن حبيب : يريد مالك إذا كان الشهر ناقصاً ، فظاهر هذا أنه عليه السلام احتاط في كمال شهر ونقصانه ، وهذا لا تتحصل معه الليلة إلا بعمارة العشر كله ، وروي عن أبي حنيفة وقوم :

أن ليلة القدر رفعت ، وهذا قول مردود ، وإنما رفع تعيينها ، وقال ابن مسعود : من يقم السنة كلها يصبها ، وقال أبو رزين هي أول ليلة من شهر رمضان ، وقال الحسن : هي ليلة سبع عشرة ، وهي التي كانت في صبيحتها وقعة بدر ، وقال كثير من العلماء : هي ليلة ثلاثة وعشرين ، وهي رواية عبد الله بن أنيس الجهني ، وقاله ابن عباس ، وقال أيضاً وهو وجماعة من الصحابة : هي ليلة سبع وعشرين ، واستدل ابن عباس على قوله بأن الإنسان خلق من سبع وجعل رزقه في سبع ، واستحسن ذلك عمر رضي الله عنه ، وقال زيد بن ثابت وبلال : هي ليلة أربع عشرين ، وقال بعض العلماء : أخفاها الله تعالى عن عباده ليجدوا في العمل ولا يتكلوا على فضلها ويقصروا في غيرها ، ثم عظم تعالى أمر ليلة القدر على نحو قوله : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : 2] وغير ذلك ، ثم أخبر أنها أفضل لمن عمل فيها عملاً ﴿ من ألف شهر ﴾ ، وهي ثمانون سنة وثلاثة أعوام وثلث عام .

وروي عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أنه قال حين عوتب في تسليمه الأمر لمعاوية : إن الله تعالى أرى نبيه في المنام بني أمية ينزون على منبره نزو القردة ، فاهتم لذلك فأعطاه الله ليلة القدر ، وهي خير من مدة ملك بني أمية ، وأعلمه أنهم يملكون الناس هذا القدر من الزمان .

قال القاضي أبو محمد : ثم كشف الغيب أن كان من سنة الجماعة إلى قتل مروان الجعدي هذا القدر من الزمان بعينه مع أن القول يعارضه أنه قد ملك بنو أمية في غرب الأرض مدة غير هذه ، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : " من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " و ﴿ الروح ﴾ هو جبريل وقيل : هم صنف حفظة الملائكة وقوله تعالى : ﴿ بإذن ربهم من كل أمر ﴾ اختلف الناس في معناه ، فمن قال إن في هذه الليلة تقدر الأمور للملائكة قال : إن هذا التنزل لذلك ، و ﴿ من ﴾ لابتداء الغاية أي نزولهم من أجل هذه الأمور المقدرة وسببها ، ويجيء ﴿ سلام ﴾ خبراً بنداء مستأنفاً أي سلام هذه الليلة إلى أول يومها ، وهذا قول نافع المقرىء والفراء وأبي العالية ، وقال بعضهم ﴿ من ﴾ بمعنى الباء أي بكل أمر ، ومن لم يقل بقدر الأمور في تلك الليلة قال معنى الآية ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم ﴾ بالرحمة والغفران والفواضل ، ثم جعل قوله ﴿ من كل أمر ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ سلام هي ﴾ أي من كل مخوف ينبغي أن يسلم منه فهي سلام ، وقال مجاهد : لا يصيب أحداً فيها داء ، وقال الشعبي ومنصور : ﴿ سلام ﴾ بمعنى التحية أي تسلم الملائكة على المؤمنين ، وقرأ ابن عباس وعكرمة والكلبي : " من كل امرىء " أي يسلم فيها من كل امرىء سوء ، فهذا على أن سلاماً بمعنى سلامة ، وروي عنه أن سلاماً بمعنى تحية ، " وكل امرىء " يراد بهم الملائكة أي من كل ملك تحية على المؤمنين ،

وهذا للعاملين فيها بالعبادة ، وذهب من يقول بانتهاء الكلام في قوله : ﴿ سلام ﴾ إلى أن قوله ﴿ هي ﴾ إنما هذا إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين من الشهر ، إذ هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات السورة ، وذكر هذا الغرض ابن بكير وأبو بكر الوراق والنقاش عن ابن عباس ، وقرأ جمهور السبعة : " حتى مطلَع الفجر " بفتح اللام ، وقرأ الكسائي والأعمش وأبو رجاء وابن محيصن وطلحة : " حتى مطلِع "

بكسر اللام ، فقيل هما بمعنى مصدران في لغة بني تميم ، وقيل الفتح المصدر والكسر موضع الطلوع عند أهل الحجاز ، والقراءة بالتفح أوجه على هذا القول ، والأخرى تتخرج على تجوز كان الوقت ينحصر في ذلك الموضع ويتم فيه ، ويتجه الكسر على وجه آخر ، وهو أنه قد شذ من هذه المصادر ما كسر كالمعجزة ، وقولهم علاه المكبر بفتح الميم وكسر الباء ، ومنه المحيض فيجري المطلع مصدراً مجرى ما شذ ، وفي حرف أبيّ بن كعب رضي الله عنه : " سلام هي إلى مطلع الفجر " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه ﴾

يعني : القرآن ﴿ في ليلة القدر ﴾ وذلك أنه أنزل جملةً في تلك الليلة إلى بيت العِزَّة ، وهو بيت في السماء الدنيا .

وقد ذكرنا هذا الحديث في أول كتابنا .

والهاء في "إنا أنزلناه" كناية عن غير مذكور .

وقال الزجاج : قد جرى ذكره في قوله تعالى ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ [الدخان : 3] .

فأما ﴿ ليلة القدر ﴾ ففي تسميتها بذلك خمسة أقوال .

أحدها : أن القَدْرَ : العظمةُ ، من قولك : لفلان قَدْر ، قاله الزهري .

ويشهد له قوله تعالى : ﴿ وما قَدَرُوا اللهَ حق قَدْرِه ﴾ [الأنعام : 91] و [الزمر : 67] .

والثاني : أنه من الضيق ، أي : هي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين ينزلون ، قاله الخليل بن أحمد ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عليه رِزْقُه ﴾ [الطلاق : 7] .

والثالث : أن القَدْرَ : الحُكم كأن الأشياء تقَدَّرُ فيها ، قاله ابن قتيبة .

والرابع : لأن من لم يكن له قَدْر صار بمراعاتها ذا قَدْر ، قاله أبو بكر الورّاق .

والخامس : لأنه نزل فيها كتاب ذُو قدر ، وتنزل فيها رحمة ذات قَدْر ، وملائكةٌ ذوُو قَدْر ، حكاه شيخنا علي بن عبيد الله .

فصل

واختلف العلماء هل ليلة القدر باقية ، أم كانت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم خاصة؟ والصحيح بقاؤها .

وهل هي في جميع السنة ، أم في رمضان؟

فيه قولان .

أحدهما : في رمضان ، قاله الجمهور .

والثاني : في جميع السنة ، قاله ابن مسعود .

واختلف القائلون بأنها في شهر رمضان هل تختص ببعضه دون بعض؟ على قولين :

أحدهما : أنها في العشر الأواخر ، قاله الجمهور ، وأكثر الأحاديث الصحيحة تدل عليه .

وقد روى البخاري في أفراده من حديث ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " التمسوها في العشر الأواخر من رمضان ، في تاسعةٍ تبقى ، أو سابعة تبقى ، أو في خامسة تبقى " وفي حديث أبي بَكْرَة قال : ما أنا بملتمسها لشيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلاَ في العشر الأواخر ، فإني سمعته يقول : " التمسوها في تسع يبقين ، أو سبع يبقين ، أو خمس يبقين ، أو ثلاث يبقين ، أو آخر ليلة " .

والقول الثاني : أنها في جميع رمضان ، قاله الحسن البصري .

واختلف القائلون بأنها في العشر الأواخر هل تختص ليالي الوتر دون الشفع ؟ على قولين .

أحدهما : أنها تختص الأفراد ، قاله الجمهور .

والأحاديث الصحاح كلها تدل عليه .

وقد أخرج البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ابتغوها في العشر الأواخر في الوتر منها " .

والثاني : أنها تكون في الشفع كما تكون في الوتر ، قاله الحسن .

وروي عن الحسن ومالك بن أنس قالا : هي ليلة ثماني عشرة .

واختلف القائلون بأنها في الأفراد في أخص الليالي بها على خمسة أقوال .

أحدها : أن الأخص بها ليلة إحدَى وعشرين .

فروى البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث أبي سعيد الخدري قال : اعتكف

رسول الله صلى الله عليه وسلم العشر الوسط ، واعتكفنا معه ، فلما أصبحنا صبيحة عشرين رجع ، ورجعنا معه ، وأُرِيَ ليلةَ القدر ، ثم أُنسيها ، فقال : " إني رأيتُ ليلة القدر ، ثم أُنسيتها وأُراني أسجد في ماء وطين ، فمن اعتكف فليرجع إلى مُعتَكفه ، وهاجت علينا السماء آخر تلك العشية ، وكان سَقْفُ المسجد عريشاً من جريد ، فوكف [المسجد] فوالذي هو أكرمه ، وأنزل عليه الكتاب لَرَأَيْتُه يصلي ، بدأ المغرب ليلة إحدى وعشرين ، وإن جبهته وأرنبة أنفه لفي الماء والطين " وهذا مذهب الشافعي .

والثاني : أن الأخص بها ليلة ثلاث وعشرين .

(97/824)

روى أبو هريرة " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ليلة ثلاث وعشرين : "اطلبوها الليلة" " .

وروى ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : " من كان منكم يريد أن يقوم من الشهر شيئاً فليقم ليلة ثلاث وعشرين " .

وروى مسلم في أفراده من " حديث عبد الله بن أُنَيْس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أُرِيتُ ليلةَ القدر ثم أُنسيتُها ، وأُراني صُبْحَهَا أسجد في ماء وطين .

قال : فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين ، فصلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه " قال : وكان عبد الله بن أُنَيْس يقول ليلة ثلاث وعشرين .

والثالث : ليلة خمس وعشرين ، روى هذا المعنى أبو بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والرابع : ليلة سبع وعشرين ، روى مسلم في أفراده من حديث ابن عمر ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : من كان متحرياً فليتحرها ليلة سبع وعشرين ، يعني : ليلة القدر ، وهذا مذهب عليٍّ وأُبَيٍّ بن كعب .

وكان أُبَيٌّ يحلف لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين ، وبه قال ابن عباس ، وعائشة ، ومعاوية ، واختاره أحمد رضي الله عنه .

وروي عن ابن عباس : أنه استدل على ذلك بشيئين .

أحدهما : أنه قال : إن الله تعالى خلق الإنسان على سبعة أصناف ، يشير إلى قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ﴾ [المؤمنين : 12] الآيات .

ثم جعل رزقه في سبعة أصناف يشير إلى قوله تعالى : ﴿ أنا صببنا الماء صباً ﴾ [عبس : 25] ثم تصلى الجمعة على رأس سبعة أيام ، وجعل السموات سبعاً ، والأرضين سبعاً ، والمثاني سبعاً ، فلا أرى ليلة القدر إلا ليلة السابعة [وعشرين] .

والثاني : أنه قال : قوله تعالى ﴿ سلام ﴾ هي الكلمة السابعة والعشرون ، فدل على أنها

كذلك .

واحتج بعضهم فقال : ليلة القدر كُرِّرت في هذه السورة ثلاث مرات ، وهي تسعة أحرف ، والتسعة إذا كُرِّرت ثلاثاً فهي سبع وعشرون ، وهذا تنبيه على ذلك .

(98/824)

والقول الخامس : أن الأولى طلبها في أول ليلة من رمضان ، قاله أبو رزين العقيلي .

وروى أيوب عن أبي قُلابة أنه قال : ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر .

فأما الحكمة في إخفائها فليتحقق اجتهاد العباد في ليالي رمضان طَمَعاً منهم في إدراكها ، كما أخفى ساعة الجمعة ، وساعة الليل ، واسمه الأعظم ، والصلاة الوسطى ، والوليَّ في الناس .

قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ هذا على سبيل التعظيم والتشوق إلى خيرها .

قوله تعالى : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ قال مجاهد : قيامها والعمل فيها خير من قيام ألف شهر وصيامها ليس فيها ليلة القدر ، وهذا قول قتادة ، واختيار الفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج ، وروى عطاء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم ذُكِرَ له رجل

من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر ، فعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك ، وتمنَّى أن يكون ذلك في أمته ، فأعطاه الله ليلة القدر ، وقال هي خير من ألف شهر التي حمل فيها الاسرائيلي السلاح في سبيل الله .

وذكر بعض المفسرين أنه كان الرجل فيما مضى لا يستحق أن يقال له : عابد حتى يعبد الله ألف شهر كانوا يعبدون فيها .

قوله تعالى : ﴿ تنزَّل الملائكة ﴾ قال أبو هريرة : الملائكة ليلة القدر في الأرض أكثر من عدد الحصى .

وفي الروح ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه جبريل ، قاله الأكثرون .

وفي حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة يصلُّون ويسلِّمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عز وجل " .

والثاني : أن الروح : طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشمس إلى طلوع الفجر ، قاله كعب ، ومقاتل بن حيان .

والثالث : أنه ملَك عظيم يفي بخلق من الملائكة ، قاله الواقدي .

قوله تعالى : ﴿ فيها ﴾ أي : في ليلة القدر ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي : بما أمر به وقضاه ﴿ من كل أمر ﴾ قال ابن قتيبة : أي : بكل أمر .

قال المفسرون : يتنزَّلون بكل أمر قضاه الله في تلك السنة إلى قابل .

وقرأ ابن عمر ، وابن عباس ، وأبو العالية ، وأبو عمران الجوني "من كل امرِئٍ" بكسر الراء وبعدها همزة مكسورة منوَّنة ، وبوصل اللام من غير همز ، ولهذه القراءة وجهان .

أحدهما : من كل مَلَك سلام .

والثاني : أن تكون "من" بمعنى "على" تقديره : على كل أمر من المسلمين سلام من الملائكة ، كقوله تعالى : ﴿ ونصرناه من القوم الذين كذبوا ﴾ [الأنبياء : 77] والقراءة الموافقة لخط المصحف هي الصواب .

ويكون تمام الكلام عند قوله تعالى :

"من كل أمر" ثم ابتدأ فقال تعالى : ﴿ سلام هي ﴾ أي : ليلة القدر سلام .

وفي معنى السلام قولان .

أحدهما : أنه لا يحدث فيها داءٌ ، ولا يُرسَل فيها شيطان ، قاله مجاهد .

والثاني : أن معنى السلام : الخير والبركة ، قاله قتادة .

وكان بعض العلماء يقول : الوقف على "سلام" على معنى تنزّل الملائكة بالسلام .

قوله تعالى : ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة "مطلَع" بفتح اللام .

وقرأ الكسائي بكسرها .

قال الفراء : والفتح أقوى في قياس العربية ، لأن المطلَع بالفتح : الطلوع ، وبالكسر : الموضع الذي يطلع منه ، إلا أن العرب تقول : طلعت الشمس مطلِعاً ، بالكسر ، وهم يريدون المصدر ، كما تقول : أكرمتك كرامة ، فتجتزِئ بالاسم عن المصدر .

وقد شرحنا هذا المعنى في "الكهف" عند قوله تعالى : ﴿ مطلع الشمس ﴾ [آية : 9] شرحاً كافياً ، ولله الحمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 181.194 ﴾

(100/824)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ إنا أنزلناه ﴾

يعني القرآن كناية عن غير مذكور ﴿ في ليلة القدر ﴾ وذلك أن الله تعالى أنزل القرآن العظيم جملة واحدة من اللّوح المحفوظ إلى السّماء الدّنيا ليلة القدر فوضعه في بيت العزة ، ثم نزل به جبريل عليه السّلام على النبي (صلى الله عليه وسلم) نجوماً متفرقة في مدة ثلاث وعشرين

سنة ، فكان ينزل بحسب الوقائع ، والحاجة إليه ، وقيل إنما أنزله إلى السّماء الدّنيا لشرف الملائكة بذلك ولأنها كالمشترك بيننا وبين الملائكة ، فهي لهم سكن ولنا سقف وزينة وسميت ليلة القدر لأن فيها تقدير الأمور ، والأحكام ، والأرزاق ، والآجال ، وما يكون في تلك السنة إلى مثل هذه اللّيلة من السّنة المقبلة يقدر الله ذلك في بلاده وعباده ، ومعنى هذا أن الله يظهر ذلك لملائكته ويأمرهم بفعل ما هو من وظيفتهم بأن يكتب لهم ما قدره في تلك السنة ويعرفهم إيّاه ، وليس المراد منه أن يحدثه في تلك اللّيلة لأن الله تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السّموات والأرض في الأزل ، قيل للحسين بن الفضل أليس قد قدر الله المقادير قبل أن يخلق السّموات والأرض قال : نعم قيل له فما معنى ليلة القدر قال سوق المقادير إلى المواقيت وتنفيذ القضاء المقدر ، وقيل سميت ليلة القدر لعظم قدرها وشرفها على اللّيالي من قولهم لفلان قدر عند الأمير ، أي منزلة وجاه ، وقيل سميت بذلك لأن العمل الصّالح يكون فيها ذا قدر عند الله لكونه مقبولاً ، وقيل سميت بذلك لأن الأرض تضيق بالملائكة فيها .

(فصل في فضل ليلة القدر وما ورد فيها)

(ق) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " ، واختلف العلماء في وقتها فقال بعضهم إنها كانت على عهد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم رفعت لقوله (صلى الله عليه وسلم) حين تلاحى الرجلان " إني خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت وعسى أن يكون خيراً لكم " وهذا غلط ممن قال بهذا القول لأن آخر الحديث يرد عليهم فإنه (صلى الله عليه وسلم) قال في آخره " فالتمسوها في العشر الأواخر في التاسعة والسابعة والخامسة " ، فلو كان المراد رفع وجودها لم يأمر بالتماسها وعامة الصّحابة والعلماء فمن بعدهم على أنها باقية إلى يوم القيامة ، روي عن عبد الله بن خنيس مولى معاوية قال قلت لأبي هريرة زعموا أن ليلة القدر رفعت قال كذب من قال ذلك قلت هي في كل شهر رمضان استقبله قال نعم .

ومن قال ببقائها ووجودها اختلفوا في محلها ، فقيل هي متنقلة تكون في سنة في ليلة وفي سنة أخرى في ليلة أخرى هكذا أبداً قالوا : وبهذا يجمع بين الأحاديث الواردة في أوقاتها المختلفة وقال : مالك والثّوري وأحمد ، وإسحاق وأبو ثور ، إنها تنتقل في العشر الأواخر من رمضان ، وقيل بل تنتقل في رمضان كله ، وقيل إنها في ليلة معينة لا تنتقل عنها أبداً في جميع السنين لا تفارقها ، فعلى هذا هي في ليلة من السّنة كلها وهو قول ابن مسعود وأبي

حنيفة ، وصاحبيه وروي عن ابن مسعود أنه قال : من يقم الحول يصبها فبلغ ذلك عبد الله بن عمر فقال يرحم الله أبا عبد الرحمن .

(102/824)

أما إنه علم أنها في شهر رمضان ولكن أراد أن لا يتكل الناس وقال جمهور العلماء : إنها في شهر رمضان ، واختلفوا في تلك الليلة فقال أبو رزين العقيلي : في أول ليلة من شهر رمضان ، وقيل هي ليلة سبعة عشر وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدر يحكى هذا عن زيد بن أرقم وابن مسعود أيضاً ، والحسن والصّحيح الذي عليه الأكثرون أنها في العشر الأواخر من رمضان والله سبحانه وتعالى أعلم .

(ذكر الأحاديث الواردة في ذلك)

(103/824)

(ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يجاور العشر الأواخر من رمضان ويقول تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان " (

م) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " أريت ليلة القدر ثم أيقظني بعض أهلي فنسيتها فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان " وذهب الشّافعي إلى أنها ليلة إحدى وعشرين (ق) عن أبي هريرة أن أبا سعيد قال " اعتكفنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) العشر الأواسط فلما كانت صبيحة عشرين نقلنا متاعنا فأتانا النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال من كان اعتكف فليرجع إلى معتكفه ، وأنا رأيت هذه الليلة ، ورأيتني أسجد في ماء وطين ، فلما رجع إلى معتكفه هاجت السماء فمطرنا فوالذي بعثه بالحق لقد هاجت السماء من آخر ذلك اليوم ، وكان المسجد على عريش ، ولقد رأيت على أنفه وأرنبته أثر الماء والطين " ، وفي رواية نحوه إلا أنه قال " حتى إذا كانت ليلة أحدى وعشرين وهي اللّيلة التي يخرج من صبيحتها من اعتكافه قال من اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر " وورد في فضل ليلة القدر اثنان وعشرون حديثاً عن عبد الله بن أنيس قال : "كنت في مجلس لبني سلمة وأنا أصغرهم فقالوا من يسأل لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن ليلة القدر وذلك في صبيحة إحدى وعشرين من رمضان فخرجت فوافيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقلت أرسلني إليك رهط من بني سلمة يسألونك عن ليلة القدر ، فقال كم اللّيلة فقلت اثنتان وعشرون فقال هي اللّيلة ، ثم رجع فقال أو القابلة يريد ثلاثاً وعشرين "

أخرجه أبو داود .

وذهب جماعة من الصّحابة وغيرهم أن ليلة القدر ليلة ثلاث وعشرين ومال إليه الشّافعي أيضاً (خ) عن الصّنابحي ، أنه سأل رجلاً هل سمعت في ليلة القدر شيئاً قال ، أخبرني بلال مؤذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنها في أول السبع من العشر الأواخر ، وهذا اللفظ مختصر عن عبد الله بن أنيس قال : " قلت يا رسول الله إن لي بادية أكون فيها وأنا أصلي فيها بحمد الله فمرني بليلة أنزلها إلى هذا المسجد ، فقال انزل ليلة ثلاث وعشرين قيل لابنه كيف كان أبوك يصنع قال : كان يدخل المسجد إذا صلى العصر فلا يخرج إلا لحاجة حتى يصلي الصبح ، فإذا صلى الصبح وجد دابته على باب المسجد فجلس عليها ولحق بباديته " أخرجه أبو داود ولمسلم عنه أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " أريت ليلة القدر ثم أنسيتها وأراني أسجد صبيحتها في ماء وطين " قال فمطرنا ليلة ثلاث وعشرين فصلى بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وانصرف وإن أثر الماء والطين على جبهته وأنفه ، ويحكى عن بلال وابن عباس والحسن أنها ليلة أربع وعشرين (خ) عن ابن عباس قال التمسوها في أربع وعشرين ، وقيل في ليلة خمس وعشرين دليله قوله (صلى الله عليه وسلم) " تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر

من رمضان " ، وقيل هي ليلة سبع وعشرين يحكى ذلك عن جماعة من الصحابة منهم أبي بن كعب وابن عباس وإليه ذهب أحمد (م) عن زر بن حبيش قال سمعت أبي بن كعب يقول وقيل له إن عبد الله بن مسعود يقول من قام السنة أصاب ليلة القدر قال أبيّ : والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي رمضان يحلف ، ولا يستثني ، فوالله إني لأعلم أي ليلة هي هي الليلة التي أمرنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بقيامها ، وهي ليلة سبع وعشرين وأمارتها أن تطلع الشّمس من صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها عن معاوية عن النبي (صلى الله عليه وسلم) " في ليلة القدر ، قال ليلة سبع وعشرين " أخرجه أبو داود ، وقيل هي ليلة تسع

(105/824)

وعشرين دليله قوله " تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان " وقيل هي ليلة آخر الشهر ، عن ابن عمر قال : " سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن ليلة القدر وأنا أسمع ، فقال هي في كل رمضان " أخرجه أبو داود قال ويروى موقوفاً عليه .

(ذكر ليال مشتركة)

عن ابن مسعود قال : قال لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ليلة القدر

قوله عزّ وجلّ : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ أي شيء يبلغ درايتك قدرها ومبلغ فضلها ، وهذا على سبيل التعظيم لها ، والتّشويق إلى خيرها ثم ذكر فضلها من ثلاثة أوجه :

فقال تعالى : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ قال ابن عباس : ذكر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) رجل من بني إسرائيل حمل السّلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر ، فعجب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لذلك ، وتمنى ذلك لأمته فقال : يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً ، وأقلها أعمالاً ، فأعطاه الله تبارك وتعالى ليلة القدر ، فقال ليلة القدر خير من ألف شهر التي حمل فيها الإسرائيلي السّلاح في سبيل الله لك ولأمتك إلى يوم القيامة ، وعن مالك أنه سمع من يثق به من أهل العلم أن النّبي (صلى الله عليه وسلم) أرى أعمار الناس قبله ، أو ما شاء الله من ذلك ، فكأنه تقاصر أعمار أمته أي لا يبلغوا من العمل مثل الذي يبلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر خير من ألف شهر أخرجه مالك في الموطأ قال المفسرون : معناه العمل الصّالح في ليلة القدر خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وإنما كان كذلك لما يريد الله تعالى فيها من المنافع والأرزاق وأنواع الخير والبركة .

الوجه الثاني : من فضلها قوله عزّ وجلّ : ﴿ تنزل الملائكة ﴾ يعني إلى الأرض وسبب هذا أنهم لما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وظهر أن الأمر بخلاف ما قالوه وتبين حال المؤمنين وما هم عليه من الطاعة ، والعبادة ، والجد ، والاجتهاد نزلوا إليهم ليسلموا عليها ويعتذروا مما قالوه ، ويستغفروا لهم لما يرون من تقصير قد يقع من بعضهم ﴿ والروح ﴾ يعني جبريل عليه الصّلاة والسّلام قاله أكثر المفسرين : وفي حديث أنس عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " إذا كانت ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة يصلون ، ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله عزّ وجلّ " ذكره ابن الجوزي ، وقيل إن الرّوح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا في تلك الليلة ﴿ فيها ﴾ أي في ليلة القدر ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي بأمر ربهم ﴿ من كل أمر ﴾ أي بكل أمر من الخير والبركة ، وقيل بكل ما أمر به وقضاه من كل أمر .

الوجه الثالث : من فضلها قوله تعالى : ﴿ سلام ﴾ أي سلام على أولياء الله وأهل طاعته قال الشّعبي : هو تسليم الملائكة في ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ، وقيل الملائكة ينزلون فيها كلما لقوا مؤمناً أو مؤمنة يسلمون عليه من ربه عزّ وجلّ ، وقيل تم الكلام عند قوله ﴿ من كل أمر ﴾ ثم ابتدأ فقال تعالى : ﴿ سلام هي ﴾ يعني القدر سلامة وخير ليس فيها شر ، وقيل لا يقدر الله في تلك اللّيلة ولا يقضي إلا السلامة ، وقيل إن ليلة القدر سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو يحدث فيها

أذى ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ أي أن ذلك السّلام أو السّلامة تدوم إلى مطلع الفجر ، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 271 . 277 ﴾

(107/824)

وقال النسفى :

سورة الْقَدْرِ

مكية وقيل مدنية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾

عظم القرآن حيث أسند إنزاله إليه دون غيره .

وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للاستغناء عن التنبيه عليه ورفع مقدار الوقت الذي أنزله فيه .

روي أنه أنزل جملة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم كان ينزله جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاث وعشرين سنة .

ومعنى ليلة القدر ليلة تقدير الأمور وقضائها .

والقدر بمعنى التقدير ، أو سميت بذلك لشرفها على سائر الليالي وهي ليلة السابع والعشرين من رمضان ، كذا روى أبو حنيفة رحمه الله عن عاصم عن ذرّ أن أبيّ بن كعب كان يحلف على ليلة القدر أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان وعليه الجمهور .

ولعل الداعي إلى إخفائها أن يحيى من يريدها الليالي الكثيرة طلباً لموافقتها ، وهذا كإخفاء الصلاة الوسطى ، واسمه الأعظم ، وساعة الإجابة في الجمعة ، ورضاه في الطاعات ، وغضبه في المعاصي .

وفي الحديث : " من أدركها يقول اللهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعف عني " ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر ﴾ أي لم تبلغ درايتك غاية فضلها .

ثم بين له ذلك بقوله ﴿ لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ليس فيها ليلة القدر .

وسبب ارتفاع فضلها إلى هذه الغاية ما يوجد فيها من تنزل الملائكة والروح وفصل كل أمر حكيم .

وذكر في تخصيص هذه المدة أن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر فعجب المؤمنون من ذلك وتقاصرت إليهم أعمالهم فأعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ إلى السماء الدنيا أو إلى الأرض ﴿ والروح ﴾ جبريل أو خلق من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة أو الرحمة ﴿ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي تنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل وعليه وقف ﴿ سلام هِىَ ﴾ ما هي إلا سلامة خبر ومبتدأ أي لا يقدّر الله فيها إلا السلامة والخير ويقضي في غيرها بلاء وسلامة ، أو ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلمون على المؤمنين .

قيل : لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه في تلك الليلة ﴿ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ أي إلى وقت طلوع الفجر .

بكسر اللام : علي وخلف ، وقد حرم من السلام الذين كفروا والله أعلم . انتهى انتهى ا . هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 370 ﴾

(109/824)

وقال ابن جزى :

سورة القَدْرِ

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾

الضمير في أنزلناه للقرآن ، دل على ذلك سياق الكلام ، وفي ذلك تعظيم للقرآن من ثلاثة أوجه : أحدها أنه ذكر ضميره دون اسمه الظاهر دلالة على شهرته والاستغناء عن تسميته ، الثاني أنه اختار لإنزاله أفضل الأوقات ، والثالث أن الله أسند إنزاله إلى نفسه وفي كيفية إنزاله في ليلة القدر قولان : أحدهما أنه ابتدأ إنزاله فيها ، والآخر : أنه أنزل القرآن فيها جملة واحدة إلى السماء ثم نزل به جبريل إلى الأرض بطول عشرين سنة وقيل : المعنى أنزلناه في شأن ليلة القدرة وذكرها ، وهذا ضعيف . وسميت ليلة القدر من تقدير الأمور فيها أو من القدْر بمعنى الشرف ، ويترجح الأول بقوله : فيها يفرق كل أمر حكيم ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر ﴾ هذا تعظيم لها ، قال بعضهم : كل ما قال فيه ما أدراك فقد علمه النبي صلى الله عليه وسلم وما قال فيه ما يدريك فإنه لا يعلمه ﴿ لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ معناه أن من قامها كتب الله له أجر العبادة في ألف شهر ، قال بعضهم : يعني في ألف شهرة ليس فيها ليلة القدر ، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " وسبب الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر رجلاً ممن تقدم عبد الله ألف شهر ، فعجب المسلمون من ذلك ورأوا

أن أعمارهم تنقص عن ذلك ، فأعطاهم الله ليلة القدر وجعلها خيراً من العبادة في تلك المدة الطويلة .

(110/824)

وروي أن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما عوتب حتى بايع معاوية فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في المنام بني أمية ينزون على منبره نزو القردة ، وأعلمه أنهم يملكون أمر الناس ألف شهر ، فاهتم لذلك ، فأعطاه الله ليلة القدر وهي خير من ملك بني إمية ألف شهر ، ثم كشف الغيب أنه كان من بيعة الحسن لمعاوية إلى قتل مروان الجعدي آخر ملوك بني أمية بالمشرق ألف شهر ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ الروح هنا جبريل عليه السلام ، وقيل : صنف من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة وتنزّلهم هو إلى الأرض ، وقيل : إلى السماء الدنيا وهو تعظيم لليلة القدر ورحمة للمؤمنين القائمين فيها ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ هذا متعلق بما قبله ، والمعنى أن الملائكة ينزلون ليلة القدر من أجل كل أمر ، يقضي الله في ذلك العام . فإنه روي أن الله يعلم الملائكة بكل ما يكون في ذلك العام من الآجال والأرزاق وغير ذلك ، ليمتثلوا ذلك في العام كله ، وقيل : على هذا المعنى أن من

بمعنى الباء أي ينزلون بكل أمر ، وهذا ضعيف وقيل : إن المجرور يتعلق بعده والمعنى أنها سلام من كل أمر أي سلامة من الآفات ، قال مجاهد : لا يصيب أحد فيها داء .

(111/824)

والأظهر أن الكلام تمّ عند قوله : من كل أمر . ثم ابتدأ قوله : سلام هي ، واختلف في معنى سلام ؟ فقيل ؛ إنه من السلام ، وقيل : إنه من التحية ، لأن الملائكة يسلمون على المؤمنين القائمين فيها ، وكذلك اختلف في إعرابه ؛ فقيل : سلام هي مبتدأ وخبر وهذا يصح سواء جعلناه متصلاً مع ما قبله أو منقطعاً عنه ، وقيل : سلام خبر مبتدأ مضمر تقديره : أمرها سلام أو : القول فيها سلام . وهي مبتدأ خبره حتى مطلع الفجر أي هي دائمة إلى طلوع الفجر ، ويختلف الوقف باختلاف الإعراب ، وقال ابن عباس : إن قوله هي إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين ، لأن هذه الكلمة هي السابعة والعشرين من كلمات السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 210 . 211﴾

(112/824)

وقال البيضاوى :

سورة الْقَدْرِ

مختلف فيها . وآيها خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾

الضمير للقرآن فخمه بإضماره من غير ذكر شهادة له بالنباهة المغنية عن التصريح كما عظمه بأن أسند نزله إليه ، وعظم الوقت الذي أنزل فيه بقوله :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ وإنزاله فيها بأن ابتدأ بإنزاله فيها ، أو أنزله جملة من اللوح إلى السماء الدنيا على السفرة ، ثم كان جبريل عليه الصلاة والسلام ينزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوماً في ثلاث وعشرين سنة . وقيل المعنى ﴿ أنزلناه ﴾ في فضلها وهي في أوتار العشر الأخير في رمضان ، ولعلها السابعة منها . والداعي إلى إخفائها أن يُحيي من يريدها ليالي كثيرة ، وتسميتها بذلك لشرفها أو لتقدير الأمور فيها لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ وذكر الألف إما للتكثير ، "أو لما روي أنه عليه الصلاة والسلام ذكر إسرائيلياً يلبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ، فعجب المؤمنون وتقاصرت إليهم أعمالهم ، فأعطوا ليلة القدر هي خير من مدة ذلك الغازي" ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ بيان لما له فُضِّلَتْ على ألف

شهر وتنزلهم إلى الأرض، أو إلى السماء الدنيا أو تقربهم إلى المؤمنين. ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ من أجل كل قدر في تلك السنة، وقرىء "من كل امرىء" أي من أجل كل إنسان.

﴿ سلام هِىَ ﴾ ما هي إلا سلامة أي لا يقدر الله فيها إلا السلامة، ويقضي في غيرها السلامة والبلاء، أو ما هي إلا سلام لكثرة ما يسلمون فيها على المؤمنين. ﴿ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ أي وقت مطلعه أي طلوعه. وقرأ الكسائي بالكسر على أنه كالمرجع أو اسم زمان على غير قياس كالمشرق.

عن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة القدر أعطي من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر". (1) انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 513. 514﴾

---

(1) حديث موضوع.

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ ﴾

يعني القرآن وإن لم يجرِ له ذِكر في هذه السورة ؛ لأن المعنى معلوم ، والقرآن كله كالسورة الواحدة .

وقد قال : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة : 185] وقال : ﴿ حم* والكتاب المبين * إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان : 31] ، يريد : في ليلة القدر .

وقال الشعبِي : المعنى إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر .

وقيل : بل نزل به جبريل عليه السلام جملة واحدة في ليلة القدر ، من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ، إلى بيت العزة ، وأملاه جبريل على السَّفَرة ، ثم كان جبريل ينزله على النبيّ صلى الله عليه وسلم نُجوماً نجوماً .

وكان بين أوّله وآخره ثلاث وعشرون سنة ؛ قاله ابن عباس ، وقد تقدّم في سورة "البقرة" .

وحكى الماوَرْدِيّ عن ابن عباس قال : نزل القرآن في شهر رمضان ، وفي ليلة القدر ، في ليلة مباركة ، جملة واحدة من عند الله ، من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا ؛ فنجّمته السفرة الكرام الكاتبون على جبريل عشرين سنة ، ونجمه جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم عشرين سنة .

قال ابن العَرَبيّ : "وهذا باطل ؛ ليس بين جبريل وبين الله واسطة ، ولا بين جبريل ومحمد

عليهما السلام واسطة" .

قوله تعالى : ﴿ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ قال مجاهد : في ليلة الحكم .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر ﴾ قال : ليلة الحكم .

والمعنى ليلة التقدير ؛ سميت بذلك لأن الله تعالى يقدّر فيها ما يشاء من أمره ، إلى مثلها من السنة القابلة ؛ من أمر الموت والأجل والرزق وغيره .

ويسلمه إلى مدبِّرات الأمور ، وهم أربعة من الملائكة : إسرافيل ، وميكائيل ، وعزرائيل ، وجبريل ؛ عليهم السلام .

وعن ابن عباس قال : يُكْتَب من أم الكتاب ما يكون في السنة من رزق ومطر وحياة وموت ، حتَّى الحاجّ .

(115/824)

قال عكرمة : يُكتب حاجّ بيت الله تعالى في ليلة القدر بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ما يُغادَر منهم أحد ، ولا يُزاد فيهم .

وقاله سعيد بن جبير .

وقد مضى في أوّل سورة "الدخان" هذا المعنى .

وعن ابن عباس أيضاً : أن الله تعالى يقضي الأقضية في ليلة نصف شعبان ، ويُسْلمها إلى أربابها في ليلة القدر .

وقيل : إنما سميت بذلك لعِظَمِها وقَدْرها وشرفها ؛ من قولهم : لفلان قَدْر ؛ أي شرف ومنزلة .

قاله الزُّهْرِيّ وغيره .

وقيل : سُمِّيت بذلك لأن للطاعات فيها قَدْراً عظيماً ، وثواباً جزيلاً .

وقال أبو بكر الوراق : سميت بذلك لأن من لم يكن له قدر ولا خطر يصير في هذه الليلة ذا قدر إذا أحياها .

وقيل : سميت بذلك لأنه أنزل فيها كتاباً ذا قدر ، على رسول ذي قدر ، على أمة ذات قدر .

وقيل : لأنه ينزل فيها ملائكة ذوو قدر وخَطَر .

وقيل : لأن الله تعالى ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة .

وقال سهل : سميت بذلك لأن الله تعالى قدّر فيها الرحمة على المؤمنين .

وقال الخليل : لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : 7] أي ضُيِّق .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)

قال الفراء : كل ما في القرآن من قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ ﴾ فقد أدراه .

وما كان من قوله : "وما يُدْرِيكَ" فلم يُدْرِه .

وقاله سفيان ، وقد تقدم .

﴿ لَيْلَةُ الْقدرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ بيَّن فضلها وعظمها .

وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل .

وفي تلك الليلة يقسم الخير الكثير الذي لا يوجد مثله في ألف شهر .

والله أعلم .

وقال كثير من المفسرين : أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر .

وقال أبو العالية : ليلة القدر خير من ألف شهر لا تكون فيه ليلة القدر .

(116/824)

وقيل : عَنى بألف شهر جميع الدهر ؛ لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [البقرة : 96] يعني جميع الدهر .

وقيل : إن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر ، ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر ؛ فجعل الله تعالى لأمة محمد صلى الله عليه وسلم عبادة ليلة خيراً من

ألف شهر كانوا يعبدونها .

وقال أبو بكر الوراق : كان ملك سليمان خمسمائة شهر ، وملك ذي القرنين خمسمائة شهر فصار ملكهما ألف شهر ؛ فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما .

وقال ابن مسعود : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ؛ فعجِب المسلمون من ذلك ؛ فنزلت ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ الآية .

﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ، التي لبِس فيها الرجل سلاحه في سبيل الله .

ونحوه عن ابن عباس .

وهب بن منبه : إن ذلك الرجل كان مسلماً ، وإن أمّه جعلته نذراً لله ، وكان من قرية قوم يعبدون الأصنام ، وكان سكن قريباً منها ؛ فجعل يغزوهم وحده ، ويقتل ويسبي ويجاهد ، وكان لا يلقاهم إلا بلَحيَيْ بعير ، وكان إذا قاتلهم وقاتلوه وعطِش ، انفجر له من اللَّحيين ماء عذب ، فيشرب منه ، وكان قد أُعطِي قوّة في البطش ، لا يوجعه حديد ولا غيره : وكان اسمه شَمْسُون .

وقال كعب الأحبار : كان رجلاً مِلكاً في بني إسرائيل ، فعل خَصْلة واحدة ، فأوحى الله إلى نَبيّ زمانهم : قل لفلان يتمنى .

فقال : يا رب أتمنى أن أجاهد بمالي وولدي ونفسي ؛ فرزقه الله ألف ولد ، فكان يجهز

الولد بماله في عسكر ، ويخرجه مجاهداً في سبيل الله ، فيقوم شهراً ويقتل ذلك الولد ، ثم يجهز آخر في عسكر ، فكان كل ولد يقتل في الشهر ، والمِلك مع ذلك قائم الليلِ ، صائم النهار ؛ فقتِل الألف ولَد في ألف شهر ، ثم تقدم فقاتل فقتِل .

فقال الناس : لا أحد يدرك منزلة هذا الملك ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ من شهور ذلك الملك ، في القيام والصيام والجهاد بالمال والنفسِ والأولاد في سبيل الله .

وقال عليّ وعروة : " ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أربعة من بني إسرائيل ، فقال : "عَبَدوا الله ثمانينَ سنة ، لم يَعصُوه طرفة عين" ؛ فذكر أيوب وزكريا ، وحِزقيل بن العجوز ويُوشَع بن نون ؛ فعجِب أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم من ذلك .

فأتاه جبريل فقال : يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة لم يعصوا الله طرفة عين ، فقد أنزل الله عليك خيراً من ذلك ؛ ثم قرأ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ . فسُرّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم " وقال مالك في الموطّأ من رواية ابن القاسم وغيره : سمعت من أثق به يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرِي أعمار الأمم قبله

، فكأنه تقاصر أعمار أمّته ألا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر ؛ فأعطاه الله تعالى ليلة القدر ، وجعلها خيراً من ألف شهر .

وفي الترمذيّ عن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُرِي بني أمية على منبره ، فساءه ذلك ؛ فنزلت ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر ﴾ [الكوثر : 1] " ، يعني نهراً في الجنة .

ونزلت ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر * لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يملكها بعدك بنو أمية .

قال القاسم بن الفضل الحُدّاني : فعدَدْناها ، فإذا هي ألف شهر ، لا تزيد يوماً ، ولا تنقص يوماً .

قال : حديث غريب .

قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾

أي تهبط من كل سماء ، ومن سِدرة المنتهى ؛ ومسكن جبريل على وسطها .

فينزلون إلى الأرض ويؤمِّنون على دعاء الناس ، إلى وقت طلوع الفجر ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ .

﴿ والروح فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ أي جبريل عليه السلام.

وحكى القُشَيرِيّ: أن الرُّوح صِنف من الملائكة، جُعِلوا حفظَة على سائرهم، وأن الملائكة لا يرونهم، كما لا نرى نحن الملائكة.

وقال مقاتل: هم أشرف الملائكة وأقربهم من الله تعالى.

وقيل: إنهم جند من جند الله عز وجل من غير الملائكة.

رواه مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً؛ ذكره الماوَرْدِيّ وحكى القشيريّ: قيل هم صِنف من خلق الله يأكلون الطعام، ولهم أيدٍ وأرجل؛ وليسوا ملائكة.

وقيل: "الرُّوح" خلق عظيم يقوم صفاً، والملائكة كلهم صفاً.

وقيل: "الرُّوح" الرحمة ينزل بها جبريل عليه السلام مع الملائكة في هذه الليلة على أهلها؛ دليله ﴿ يُنَزِّلُ الملائكة بالروح مِنْ أَمْرِهِ على مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [النحل: 2]، أي بالرحمة.

﴿ فِيهَا ﴾ أي في ليلة القدر.

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ أي بأمره.

﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾: أُمِرَ بكل أمر قدّرَه الله وقضاه في تلك السنة إلى قابل؛ قاله ابن عباس؛ كقوله تعالى: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله ﴾ [الرعد: 11] أي بأمر الله.

وقراءة العامة "تَنَزَّلُ" بفتح التاء ؛ إلاّ أن البزي شدّد التاء .

وقرأ طلحة بن مُصرِّف وابن السَّميقَع ، بضم التاء على الفعل المجهول .

وقرأ عليّ وابن عباس وعِكرمة والكلبي "مِنْ كُلِّ امْرِىء" .

وروي عن ابن عباس أن معناه : من كل مَلَك ؛ وتأوّلها الكلبيّ على أن جبريل ينزل فيها مع الملائكة ، فيسلمون على كل امرىء مسلم .

"فمِن" بمعنى على .

وعن أنس قال : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إذا كانَ ليلةَ القَدرِ نزلَ جبريلُ في كَبْكبة من الملائكة ، يُصلُّون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى "

سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

قيل : إن تمام الكلام ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ ثم قال ﴿ سَلَامٌ ﴾ .

رِوي ذلك عن نافع وغيره ؛ أي ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شر فيها .

(119/824)

﴿ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ أي إلى طلوع الفجر .

قال الضحاك : لا يقدّر الله في تلك الليلة إلا السلامة ، وفي سائر الليالي يقضي بالبلايا

والسلامة .

وقيل : أي هي سلام ؛ أي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن ومؤمنة .

وكذا قال مجاهد : هي ليلة سالمة ، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى .

وروي مرفوعاً .

وقال الشعبيّ : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد ، من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ؛ يمرون على كل مؤمن ، ويقولون : السلام عليك أيها المؤمن .

وقيل : يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض فيها .

وقال قتادة : ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ : خير هي .

﴿ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ أي إلى مطلع الفجر .

وقرأ الكسائي وابن مُحَيصِن "مَطلِع" بكسر اللام ، الباقون بالفتح .

والفتح والكسر : لغتان في المصدر .

والفتح الأصل في فَعَل يَفعُل ؛ نحو المقتل والمخرج.

والكسر على أنه مما شذ عن قياسه ؛ نحو المشرِق والمغرِب والمنبِت والمسكِن والمنسِك والمحشِر والمسقِط والمجزِر .

حكى في ذلك كله الفتح والكسر ؛ على أن يُراد به المصدر لا الاسم .

وهنا ثلاث مسائل :

الأولى : في تعيين ليلة القدر ؛ وقد اختلف العلماء في ذلك .

والذي عليه المُعْظَم أنها ليلة سبع وعشرين ؛ لحديث زِرّ بن حُبَيْش قال : قلت لأبيّ بن كعب : إن أخاك عبد الله بن مسعود يقول : من يَقِم الحَول يصِب ليلة القدر .

فقال : يغفِر الله لأبي عبد الرحمن ! لقد عَلِم أنها في العشر الأواخر من رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين ؛ ولكنه أراد ألا يتكل الناس ؛ ثم حلف لا يستثني : أنها ليلة سبع وعشرين .

قال قلت : بأيّ شيء تقول ذلك يا أبا المنذر ؟ قال : بالآية التي أخبرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو بالعلامة أن الشمس تطلع يومئذٍ لا شعاع لها .

قال الترمذيّ : حديث حسن صحيح .

وخرجه مسلم .

وقيل : هي في شهر رمضان دون سائر العام ؛ قاله أبو هريرة وغيره .

وقيل : هي في ليالي السنة كلها .

(120/824)

فمن علق طلاق امرأته أو عتق عبده بليلة القدر ، لم يقع العِتق والطلاق إلا بعد مضِي سنة من يوم حلف .

لأنه لا يجوز إيقاع الطلاق بالشك ، ولم يثبت اختصاصها بوقت ؛ فلا ينبغي وقوع الطلاق إلا بمضي حول ، وكذلك العِتق ؛ وما كان مِثله من يمين أو غيره .

وقال ابن مسعود : من يَقُمِ الحول يصِبها ؛ فبلغ ذلك ابن عمر ، فقال : يرحم الله أبا عبد الرحمن ! أما إنه عَلِم أنها في العشر الأواخر من شهر رمضان ، ولكنه أراد ألا يتكل الناس .

وإلى هذا القول ذهب أبو حنيفة أنها في جميع السنة .

وقيل عنه : إنها رُفِعَتْ يعني ليلة القدر وأنها إنما كانت مرة واحدة ؛ والصحيح أنها باقية .

وروي عن ابن مسعود أيضاً : أنها إذا كانت في يوم من هذه السنة ، كانت في العام المقبل في يوم آخر .

والجمهور على أنها في كل عام من رمضان .

ثم قيل : إنها الليلة الأولى من الشهر ؛ قاله أبو رَزِين العُقَيلي .

وقال الحسن وابن إسحاق وعبد الله بن الزُّبير : هي ليلة سبع عشرة من رمضان ، وهي الليلة التي كانت صبيحتها وقعة بدْر .

كأنهم نزعوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنْزَلْنَا على عَبْدِنَا يَوْمَ الفرقان يَوْمَ التقى الجمعان ﴾ [الأنفال : 41] ، وكان ذلك ليلة سبع عشرة ، وقيل هي ليلة التاسع عشر .

والصحيح المشهور : أنها في العشر الأواخر من رمضان ؛ وهو قول مالك والشافعيّ والأوزاعيّ وأبي ثور وأحمد .

ثم قال قوم : هي ليلة الحادي والعشرين .

ومال إليه الشافعيّ رضي الله عنه ، لحديث الماء والطين ورواه أبو سعيد الخُدْرِيّ ، خرجه مالك وغيره .

وقيل ليلة الثالث والعشرين ؛ لما رواه ابن عمر : " أن رجلاً قال : يا رسول الله إني رأيت ليلة القدر في سابعة تبقى .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أَرى رؤياكم قد تواطأت على ثلاث وعشرين ، فمن أراد أن يقوم من الشهر شيئاً فليقَم ليلة ثلاث وعشرين" " قال معمر : فكان أيوب يغتسل ليلة ثلاث وعشرين ويمس طِيباً .

وفي صحيح مسلم :

(121/824)

أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إني رأيت أني أسجد في صبيحتها في ماء وطين " قال عبد الله بن أنيس : فرأيته في صبيحة ليلة ثلاث وعشرين في الماء والطين ، كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : ليلة خمس وعشرين ؛ لحديث أبي سعيد الخدرِيّ : أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال : " التمسوها في العشر الأواخر في تاسعة تبقى ، في سابعة تبقى ، في خامسة تبقى " رواه مسلم ، قال مالك : يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين ، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين ، والخامسة ليلة خمس وعشرين .

وقيل : ليلة سبع وعشرين .

وقد مضى دليله ، وهو قول عليّ رضي الله عنه وعائشة ومعاوية وأبيّ بن كعب .

وروى ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من كان متحرياً ليلة القدر ، فليتحرّها ليلة سبع وعشرين " وقال أبيّ بن كعب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ليلة القدر ليلة سبع وعشرين " وقال أبو بكر الوراق : إن الله تعالى قسم ليالي هذا الشهر شهر رمضان على كلمات هذه السورة ، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال : هي .

وأيضاً فإن ليلة القدر كُرر ذكرها ثلاث مرات ، وهي تسعة أحرف ، فتجيء سبعاً وعشرين .

وقيل ؛ هي ليلة تسع وعشرين ؛ لما رُوِي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليلة القدر التاسعة والعشرون أو السابعة والعشرون وأن الملائكة في تلك الليلة بعدد الحصى " وقد قيل : إنها في الأشفاع .

قال الحسن : ارتقبت الشمس ليلة أربع وعشرين عشرين سنة ، فرأيتها تطلع بيضاء لا

شعاع لها .

يعني من كثرة الأنوار في تلك الليلة .

وقيل إنها مستورة في جميع السنة ؛ ليجتهد المرء في إحياء جميع الليالي .

(122/824)

وقيل : أخفاها في جميع شهر رمضان ، ليجتهدوا في العمل والعبادة ليالي شهر رمضان ، طمعاً في إدراكها ؛ كما أخفى الصلاة الوسطى في الصلوات ، واسمه الأعظم في أسمائه الحسنى ، وساعة الإجابة في ساعات الجمعة وساعات الليل ، وغضبه في المعاصي ، ورضاه في الطاعات ، وقيام الساعة في الأوقات ، والعبد الصالح بين العباد ؛ رحمة منه وحكمة .

الثانية : في علاماتها : منها أن الشمس تطلع في صبيحتها بيضاء لا شعاع لها .

وقال الحسن : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر : "إن من أماراتها : أنها ليلة سَمْحَة بَلْجَة ، لا حارّة ولا باردة ، تطلع الشمس صبيحتها ليس لها شعاع" وقال عبيد بن عمير : كنت ليلة السابع والعشرين في البحر ، فأخذت من مائه ، فوجدته عذباً سِلساً .

الثالثة : في فضائلها .

وحسبك بقوله تعالى : ﴿ لَيْلَةُ القدرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا ﴾ .

وفي الصحيحين :

" مَنْ قام ليلة القَدْر إيمانا واحتسابا غفر اللَّهُ له ما تَقَدَّم من ذَنْبه " رواه أبو هريرة .

وقال ابن عباس :

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إذا كان ليلة القَدْرِ ، تَنَزَّلَ الملائكةُ الَّذينَ هم سُكان سِدرة المُنْتَهى ، منهمْ جبريلُ ، ومعهم أَلْوِيةٌ يُنْصَبُ منها لواءٌ على قبري ، ولواء على بيت المقدس ، ولواء على المسجد الحرام ، ولواء على طُور سَيْناء ، ولا تَدَعُ فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلاّ تُسَلِّم عليه ، إلا مُدْمِن الخمر ، وآكِلَ الخِنزيرِ ، والمُتَضَمِّخ بالزعفران " وفي الحديث :

" إن الشيطانَ لا يخرجُ في هذه الليلة حتّى يُضيءَ فجرها ، ولا يستطيعُ أن يصيب فيها أحداً بخَبْل ولا شيء من الفساد ، ولا ينفذ فيها سحر ساحر " وقال الشعبيّ : وليلُها كيومها ، ويومها كليلها .

وقال الفرّاء : لا يقدّر اللَّهُ في ليلة القَدْر إلا السعادة والنعم ، ويقدّرِ في غيرها البلايا والنقم ؛

وقد تقدّم عن الضحاك .

ومثله لا يقال من جهة الرأي ، فهو مرفوع .

والله أعلم .

وقال سعيد بن المسيب في الموطأ : (مَنْ شهِد العشاءَ من ليلة القدْر ، فقد أخذ بحظّه منها

) ، ومثله لا يُدْرك بالرأي .

وقد رَوَى عُبَيد الله بن عامر بن ربيعة :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة

القدر في جماعة فقد أخذ بحظه من ليلة القدر " ذكره الثعلبي في تفسيره .

: " وقالت عائشة رضي الله عنها : قلت : يا رسول الله إن وافقتُ ليلةَ القدْرِ فما أقول ؟

قال : "قُولِي اللهم إنك عفوٌّ تُحِبّ العفوَ فاعفُ عنِّي" " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير

القرطبى حـ 20 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

تفسير سورة القدر

وهي مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) ﴾

يخبر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر ، وهي الليلة المباركة التي قال الله ، عز وجل : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ [الدخان : 3] وهي ليلة القدر ، وهي من شهر رمضان ، كما قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ [البقرة : 185] .

قال ابن عباس وغيره : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العِزّة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم قال تعالى مُعَظّما لشأن ليلة القدر ، التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها ، فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾

قال أبو عيسى الترمذي عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا أبو داود الطيالسي ، حدثنا القاسم بن الفضل الحُدّاني عن يوسف بن سعد قال : قام رجل إلى الحسن بن علي بعد ما بايع معاوية فقال : سَوّدتَ وجوهَ المؤمنين – أو : يا مسود وجوه المؤمنين – فقال : لا تؤنبني ، رحمك الله ؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم أري بني أمية على منبره ، فساءه ذلك ، فنزلت : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ يا محمد ، يعني نهرًا في الجنة ، ونزلت : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يملكها بعدك بنو أمية يا محمد . قال القاسم : فعددنا فإذا هي ألف شهر ، لا تزيد يومًا ولا تنقص يومًا (1) .

ثم قال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث القاسم بن الفضل ، وهو ثقة وثقه يحيى القطان وابن مهدي . قال : وشيخه يوسف بن سعد – ويقال : يوسف بن مازن – رجل مجهول ، ولا نعرف هذا الحديث ، على هذا اللفظ إلا من هذا الوجه .

وقد روى هذا الحديث الحاكم في مستدركه ، من طريق القاسم بن الفضل ، عن يوسف بن

---

(1) سنن الترمذي برقم (3350) .

مازن، به (1) وقول الترمذي: إن يوسف هذا مجهول - فيه نظر؛ فإنه قد روى عنه جماعة، منهم: حماد بن سلمة، وخالد الحذاء، ويونس بن عبيد. وقال فيه يحيى بن معين: هو مشهور، وفي رواية عن ابن معين [قال] هو ثقة. ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل، عن عيسى بن مازن، كذا قال، وهذا يقتضي اضطرابًا في هذا الحديث، والله أعلم. ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جدًا، قال شيخنا الإمام الحافظ الحجة أبو الحجاج المزّي: هو حديث منكر.

قلت: وقول القاسم بن الفضل الحُدّاني إنه حسب مُدّة بني أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يومًا ولا تنقص، ليس بصحيح؛ فإنّ معاويةَ بن أبي سفيان، رضي الله عنه، استقل بالملك حين سَلّم إليه الحسن بن علي الإمرة سنةَ أربعين، واجتمعت البيعة لمعاوية، وسمي ذلك عام الجماعة، ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها، لم تخرج عنهم إلا مدة دولة عبد الله بن الزبير في الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريبًا من تسع سنين، لكن لم تَزُل يدهم عن الإمرة بالكلية، بل عن بعض البلاد، إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة، وذلك أزيد من ألف شهر، فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر، وكأن القاسم بن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير، وعلى هذا فتقارب ما قاله الصحة في الحساب، والله أعلم.

ومما يدلّ على ضَعف هذا الحديث أنّه سِيقَ لذم دولة بني أمية ، ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق ؛ فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذم أيامهم ، فإنّ ليلة القدر شريفة جدًا ، والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة القدر ، فكيف تُمدح بتفضيلها على أيام بني أمية التي هي مذمومة ، بمقتضى هذا الحديث ، وهل هذا إلا كما قال القائل :

أَلَم تَرَ أنّ السيف ينقُصُ قَدْرُه . . . إذا قِيل إنّ السيف أمضَى مِن العَصَا . . .

(1) المستدرك (170/3) ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (509/6) .

(127/824)

وقال آخر :

إذا أنت فَضَّلت امرأ ذا بَرَاعَة . . . عَلى نَاقص كَانَ المديحُ مِنَ النَّقص . . .

ثم الذي يفهم من ولاية الألف شهر المذكورة في الآية هي أيام بني أمية ، والسورة مكية ، فكيف يحال على ألف شهر هي دولة بني أمية ، ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها ؟ ! والمنبر إنما صنع بالمدينة بعد مدة من الهجرة ، فهذا كله مما يدل على ضعف هذا الحديث ونكارته ، والله أعلم (1) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا مسلم – يعني ابن

خالد – عن ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد: أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا من بني إسرائيل لَبس السلاح في

---

(1) وانظر: البداية والنهاية (6/243، 244) فقد توسع أيضا في الكلام على هذا الحديث.

(128/824)

سبيل الله ألف شهر، قال: فعَجب المسلمون من ذلك، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ التي لبس ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر (1).

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا حَكَّام بن سلم، عن المثنى بن الصباح، عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل (2).

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس، أخبرنا ابن وهب، حدثني مسلمة بن عُلَيّ، عن علي بن عروة قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما أربعة من بني إسرائيل، عبدوا الله

ثمانين عامًا ، لم يَعْصوه طرفة عين : فذكر أيوب ، وزكريا ، وحزْقيل بن العجوز ، ويوشع بن نون - قال : فعجب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك ، فأتاه جبريل فقال : يا محمد ، عَجِبَتْ أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة ، لم يَعْصُوه طرفة عين ؛ فقد أنزل الله خيرًا من ذلك . فقرأ عليه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك . قال : فَسُرَّ بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس معه (3) .

وقال سفيان الثوري : بَلَغني عن مجاهد : ليلةُ القدر خير من ألف شهر . قال : عَمَلها ، صيامها وقيامها خير من ألف شهر . رواه ابن جرير .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا ابن أبي زائدة ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ، ليس في تلك الشهور ليلة القدر . وهكذا قال قتادة بن دعامة ، والشافعي ، وغير واحد .

---

(1) ورواه الثعلبي في تفسيره والواحدي في أسباب النزول كما في تخريج الكشاف للزيلعي (253/4) من طريق مسلم بن خالد ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد به مرسلا .

(2) تفسير الطبري (167/30) .

(3) وذكره السيوطي في الدر المنثور (569/8) وعزاه لابن أبي حاتم .

وقال عمرو بن قيس الملائي : عمل فيها خير من عمل ألف شهر .

وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر - وليس فيها ليلة القدر - هو اختيارُ ابن جرير . وهو الصواب لا ما عداه ، وهو كقوله صلى الله عليه وسلم : "رِباط ليلة في سبيل الله خَيْر من ألف ليلة فيما سواه من المنازل" . رواه أحمد (1) وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة ، ونية صالحة : "أنه يُكتَبُ له عمل سنة ، أجر صيامها وقيامها" إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا أيوب ، عن أبي قِلابَة ، عن أبي هُريرة قال : لما حضر رمضان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قد جاءكم شهر رمضان ، شهر مبارك ، افترض الله

(1) المسند (62/1) من حديث عثمان ، رضي الله عنه .

عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حُرم خيرَها فقد حُرم" .

ورواه النسائي ، من حديث أيوب ، به (1) .

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر ، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تَقَدَّم من ذنبه" (2) .

وقوله : ﴿ تَنزلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي : يكثر تَنزلُ الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحِلَق الذكر ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له .

وأما الروح فقيل : المراد به هاهنا جبريل ، عليه السلام ، فيكون من باب عطف الخاص على العام . وقيل : هم ضرب من الملائكة . كما تقدم في سورة "النبأ" . والله أعلم .

وقوله : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ قال مجاهد : سلام هي من كل أمر .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا عيسى بن يونس ، حدثنا الأعمش ، عن مجاهد في قوله : ﴿ سَلامٌ هِيَ ﴾ قال : هي سالمة ، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا أو يعمل فيها أذى .

وقال قتادة وغيره : تقضى فيها الأمور ، وتقدر الآجال والأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ فِيهَا

يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾

وقوله : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ قال سعيد بن منصور : حدثنا هُشَيْم ، عن أبي إسحاق ، عن الشعبي في قوله تعالى : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ قال : تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد ، حتى يطلع الفجر .

وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه كان يقرأ : "من كل امرئ سلام هي حتى مطلع الفجر" .

---

(1) المسند (230/2) وسنن النسائي (129/4) .

(2) صحيح البخاري برقم (1901) وصحيح مسلم برقم (760) .

(131/824)

وروى البيهقي في كتابه "فضائل الأوقات" عن عليٍّ أثرًا غريبًا في نزول الملائكة ، ومرورهم على المصلين ليلة القدر ، وحصول البركة للمصلين .

وروى ابن أبي حاتم عن كعب الأحبار أثرًا غريبًا عجيبًا مطولا جدًا ، في تنزل الملائكة من سدرة المنتهى صحبة جبريل ، عليه السلام ، إلى الأرض ، ودعائهم للمؤمنين والمؤمنات (1) .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا عمران - يعني القطان - عن قتادة ، عن أبي ميمونة ، عن

أبي هُريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في ليلة القدر : "إنها ليلة سابعة – أو : تاسعة – وعشرين ، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى" (2) .

---

(4) سيأتي إيراد الأثر عند تفسير آخر السورة .

(5) مسند الطيالسي برقم (2545) .

(132/824)

وقال الأعمش ، عن المِنهَال ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى في قوله : ﴿ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلامٌ ﴾ قال : لا يحدث فيها أمر .

وقال قتادة وابن زيد في قوله : ﴿ سَلامٌ هِيَ ﴾ يعني هي خير كلها ، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر . ويؤيد هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد :

حدثنا حَيْوَة بن شُرَيح ، حدثنا بَقيَّة ، حدثني بَحير بن سعد ، عن خالد بن مَعْدَان ، عن عبادة بن الصامت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ليلة القدر في العشر البواقي ، من قامهن ابتغاء حسبتهن ، فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهي ليلة وتر : تسع أو سبع ، أو خامسة ، أو ثالثة ، أو آخر ليلة" . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أمارة ليلة القدر أنها صافية بَلْجَة ، كأن فيها قمرًا ساطعًا ، ساكنة سجية ، لا برد

فيها ولا حر ، ولا يحل لكوكب يُرمَى به فيها حتى تصبح . وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية ، ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر ، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ" (1) .

وهذا إسناد حسن ، وفي المتن غرابة ، وفي بعض ألفاظه نكارة .

وقال أبو داود الطيالسي ، حدثنا زَمْعَة ، عن سلمة بن وَهْرام ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في ليلة القدر : "ليلة سمحة طلقة ، لا حارة ولا باردة ، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء" (2) .

وروى ابن أبي عاصم النبيل بإسناده عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إني رأيت ليلة القدر فأنسيتها ، وهي في العشر الأواخر ، من لياليها ليلة طلقة بلجة ، لا حارة ولا باردة ، كأن فيها قمرًا ، لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها" (3) .

فصل

اختلف العلماء : هل كانت ليلة القدر في الأمم السالفة ، أو هي من خصائص هذه الأمة ؟ على قولين :

---

(1) المسند (324/5) .

(2) مسند الطيالسي برقم (2680) وفيه : "صفيقة" بدل : "ضعيفة" .

(3) عزاه إليه صاحب الكنز (540/8) برقم (24069) ولم أقع عليه في السنة ،

ورواه ابن خزيمة في صحيحه برقم (2190) من طريق عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن أبي الزبير، عن جابر بنحوه.

(133/824)

قال أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري: حدثنا مالك: أنه بلغه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُري أعمار الناس قبله - أو: ما شاء الله من ذلك - فكأنه تقاصر أعمار أمته ألا يبلغوا من العمل الذي بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيرا من ألف شهر (1) وقد أسند من وجه آخر.

---

(1) الموطأ برواية الزهري برقم (889).

(134/824)

وهذا الذي قاله مالك يقتضي تخصيص هذه الأمة بليلة القدر، وقد نقله صاحب "العُدّة" أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء، فالله أعلم. وحكى الخطابي عليه الإجماع [ونقله الرافعي جازمًا به عن المذهب] والذي دل عليه الحديث أنها كانت في الأمم الماضين كما

هي في أمتنا .

قال أحمد بن حنبل : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن عكرمة بن عمار : حدثني أبو زُمَيل سِمَاك الحَنَفي : حدثني مالك بن مَرْثَد بن عبد الله ، حدثني مَرْثَد قال : سألت أبا ذر قلت : كيف سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها ، قلت : يا رسول الله ، أخبرني عن ليلة القدر ، أفي رمضان هي أو في غيره ؟ قال : "بل هي في رمضان" . قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا ، فإذا قبضوا رفعت ؟ أم هي إلى يوم القيامة ؟ قال : "بل هي إلى يوم القيامة" . قلت : في أي رمضان هي ؟ قال : "التمسوها في العشر الأول ، والعشر الأواخر" . ثم حَدّثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وحَدّث ، ثم اهتبلت غفلته قلت : في أي العشرين هي ؟ قال : "ابتغوها في العشر الأواخر ، لا تسألني عن شيء بعدها" . ثم حدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اهتبلت غفلته فقلت : يا رسول الله ، أقسمت عليك بحقي عليك لَمَا أخبرتني في أي العشر هي ؟ فغضب علي غضبًا لم يغضب مثله منذ صحبته ، وقال : "التمسوها في السبع الأواخر ، لا تسألني عن شيء بعدها" .

ورواه النسائي عن الفلاس ، عن يحيى بن سعيد القطان ، به (1) .

---

(1) المسند (171/5) وسنن النسائي الكبرى برقم (3427) .

ففيه دلالة على ما ذكرناه ، وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة في كل سنة [بعد النبي صلى الله عليه وسلم] لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية ، على ما فهموه من الحديث الذي سنورده بعدُ من قوله ، عليه السلام : "فرفعت ، وعسى أن يكون خيرًا لكم" ؛ لأن المراد رفعُ عِلْم وقتها عينًا . وفيه دلالة على أنها ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر الشهور ، لا كما رُوي عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة ، من أنها توجد في جميع السنة ، وترجى في جميع الشهور على السواء .

وقد ترجم أبو داود في سننه على هذا فقال : "باب بيان أن ليلة القدر في كل رمضان" : حدثنا حُمَيد بن زَنْجُويه النسائي أخبرنا سعيد بن أبي مريم ، حدثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير ، حدثني موسى بن عقبة ، عن أبي إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن عبد الله بن عمر قال : سُئِل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أسمع عن ليلة القدر ، فقال : "هي في كل رمضان" (1) .

وهذا إسناد رجاله ثقات إلا أن أبا داود قال : رواه شعبة وسفيان عن أبي إسحاق فأوقفاه .

وقد حكي عن أبي حنيفة، رحمه الله، رواية أنها ترجى في جميع شهر رمضان. وهو وجه [حكاه] الغزالي، واستغربه الرافعي جدًا.

---

(1) سنن أبي داود برقم (1387).

(136/824)

فصل

ثم قد قيل: إنها في أول ليلة من شهر رمضان، يحكى هذا عن أبي رَزِين. وقيل: إنها تقع ليلة سبع عشرة. وروى فيه أبو داود حديثًا مرفوعًا عن ابن مسعود. وروي موقوفًا عليه، وعلى زيد بن أرقم، وعثمان بن أبي العاص.

وهو قول عن محمد بن إدريس الشافعي، ويحكى عن الحسن البصري. ووجهوه بأنها ليلة بدر، وكانت ليلة جمعة هي السابعة عشر من شهر رمضان، وفي صبيحتها كانت وقعة بدر، وهو اليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانِ ﴾ [الأنفال: 41].

وقيل: ليلة تسع عشرة، يحكى عن علي وابن مسعود أيضًا، رضي الله عنهما..

وقيل: ليلة إحدى وعشرين؛ لحديث أبي سعيد الخدري قال: اعتكف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم [في] العشر الأوَل من رمضان واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي

تطلب أمامك . فاعتكف العشر الأوسط فاعتكفنا معه ، فأتاه جبريل فقال : [إن] الذي تطلب أمامك . ثم قام النبي صلى الله عليه وسلم خطيبًا صبيحة عشرين من رمضان ، فقال : "من كان اعتكف معي فليرجع ، فإني رأيت ليلة القدر ، وإني أنسيتها ، وإنها في العشر الأواخر وفي وِتْر ، وإني رأيت كأني أسجد في طين وماء" . وكان سقف المسجد جريدًا من النخل ، وما نَرى في السماء شيئًا ، فجاءت قَزَعَة فَمُطرنا ، فصلى بنا النبي صلى الله عليه وسلم حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديق رؤياه . وفي لفظ : "في صبح إحدى وعشرين" أخرجاه في الصحيحين (1) .

قال الشافعي : وهذا الحديث أصح الروايات .

وقيل : ليلة ثلاث وعشرين ؛ لحديث عبد الله بن أنيس في "صحيح مسلم" (2) وهو قريب السياق من رواية أبي سعيد ، فالله أعلم .

---

(1) صحيح مسلم برقم (1167) .

(2) صحيح مسلم برقم (1168) .

وقيل : ليلة أربع وعشرين ، قال أبو داود الطيالسي : حدثنا حماد بن سلمة ، عن الجُرَيري ، عن أبي نَضْرَة ، عن أبي سعيد ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ليلة القدر ليلة أربع وعشرين" (1) إسناده رجاله ثقات .

وقال أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن يزيد بن أبي حَبِيب ، عن أبي الخير ، عن الصنابجي ، عن بلال قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليلة القدر ليلة أربع وعشرين" (2) .

---

(1) مسند الطيالسي برقم (2167) .

(2) المسند (12/6) .

(138/824)

ابن لهيعة ضعيف . وقد خالفه ما رواه البخاري عن أصبغ ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، بن يزيد بن أبي حبيب ، عن أبي الخير ، عن أبي عبد الله الصنابجي قال : أخبرني بلال - مؤذنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنها أول السبع من العشر الأواخر ، فهذا الموقوف أصح ، والله أعلم . وهكذا رُوي عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وجابر ، والحسن ، وقتادة ، وعبد الله بن وهب : أنها ليلة أربع وعشرين . وقد تقدم في سورة

"البقرة" حديث واثلة بن الأسقع مرفوعًا : "إن القرآن أنزل ليلة أربع وعشرين" .

وقيل : تكون ليلة خمس وعشرين ؛ لما رواه البخاري ، عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "التمسوها في العشر الأواخر من رمضان ، في تاسعة تبقى ، في سابعة تبقى ، في خامسة تبقى" . فَسَّره كثيرون بليالي الأوتار ، وهو أظهر وأشهر . وحمله آخرون على الأشفاع كما رواه مسلم عن أبي سعيد ، أنه حمله على ذلك . والله أعلم .

وقيل : إنها تكون ليلة سبع وعشرين ؛ لما رواه مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنها ليلة سبع وعشرين" .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان : سمعت عبدة وعاصمًا ، عن زِرّ : سألت أبيّ بن كعب قلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول : من يُقِم الحَوَل يُصبْ ليلة القدر . قال : يرحمه الله ، لقد علم أنها في شهر رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين . ثم حلف . قلت : وكيف تعلمون ذلك ؟ قال : بالعلامة - أو : بالآية - التي أخبرنا بها ، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها ، أعني الشمس (1) .

---

(1) المسند (130/5) .

وقد رواه مسلم من طريق سفيان بن عيينة وشعبة والأوزاعي ، عن عبدة ، عن زرِّ ، عن أبي ، فذكره ، وفيه : فقال : والله الذي لا إله إلا هو ، إنها لفي رمضان - يحلف ما يستثني - والله إني لأعلم أي ليلة القدر هي التي أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيامها ، هي ليلة سبع وعشرين ، وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها (1) .

وفي الباب عن معاوية ، وابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهم (2) عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنها ليلة سبع وعشرين . وهو قول طائفة من السلف ، وهو الجَادّة من مذهب أحمد بن حنبل ، رحمه الله ، وهو رواية عن أبي حنيفة أيضًا . وقد حُكِيَ عن بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن ، من قوله : ﴿ هِيَ ﴾ لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السورة ، والله أعلم .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم الدَّبري ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا مَعْمَر ، عن قتادة وعاصم : أنهما سمعا عكرمة يقول : قال ابن عباس : دعا عمر بن الخطاب

---

(1) صحيح مسلم برقم (762) .

(2) وانظر هذه الأحاديث وغيرها في : الدر المنثور للسيوطي (8/570 - 580) .

(140/824)

أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فسألهم عن ليلة القدر ، فأجمعوا على أنها في العشر الأواخر . قال ابن عباس : فقلت لعمر : إني لأعلم - أو : إني لأظن - أي ليلة القدر هي ؟ فقال عمر : أي ليلة هي ؟ [فقلت] سابعة تمضي - أو : سابعة تبقى - من العشر الأواخر . فقال عمر : ومن أين علمت ذلك ؟ قال ابن عباس : فقلت : خلق الله سبع سموات ، وسبع أرضين ، وسبعة أيام ، وإن الشهر يدور على سبع ، وخلق الإنسان من سبع ، ويأكل من سبع ، ويسجد على سبع ، والطواف بالبيت سبع ، ورمي الجمار سبع . . .لأشياء ذكرها . فقال عمر : لقد فطنت لأمر ما فطنا له . وكان قتادة يَزيد عن ابن عباس في قوله : ويأكل من سبع ، قال : هو قول الله تعالى : ﴿ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا [وَقَضْبًا] ﴾ الآية [عبس : 27 ، 28] (1) .

وهذا إسناد جيد قوي ، ونصٌ غريب جدًا ، والله أعلم .

وقيل : إنها تكون في ليلة تسع وعشرين . قال أحمد بن حنبل :

حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا سعيد بن سلمة، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عُمرَ بن عبد الرحمن، عن عبادة بن الصامت: أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "في رمضان، فالتمسوها في العشر الأواخر، فإنها في وتْر إحدى وعشرين، أو ثلاث وعشرين، أو خمس وعشرين، أو سبع وعشرين، [أو تسع وعشرين] أو في آخر ليلة" (2).

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود -وهو: أبو داود الطيالسي- حدثنا عمران القطان، عن قتادة، عن أبي ميمونة عن أبي هريرة. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في ليلة القدر: "إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين، وإن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى" (3).

تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به.

---

(1) المعجم الكبير (322/10).

(2) المسند (321/5).

(3) المسند (519/2).

وقيل: إنها تكون في آخر ليلة، لما تقدم من هذا الحديث آنفًا ولما رواه الترمذي والنسائي، من حديث عُيَينة بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي بكرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "في تسع يبقين، أو سبع يبقين، أو خمس يبقين، أو ثلاث، أو آخر ليلة". يعني: التمسوا ليلة القدر (1).

---

(1) سنن الترمذي برقم (794) وسنن النسائي الكبرى برقم (3404).

وقال الترمذي: حسن صحيح. وفي المسند من طريق أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر: "إنها آخر ليلة" (1).

فصل

قال [الإمام] الشافعي في هذه الروايات: صدرت من النبي صلى الله عليه وسلم جوابًا للسائل إذ قيل له: ألتمس ليلة القدر في الليلة الفلانية؟ يقول: "نعم". وإنما ليلة القدر ليلة مُعَيَّنة: لا تنتقل. نقله الترمذي عنه بمعناه. وروي عن أبي قِلاَبَة أنه قال: ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر (2).

وهذا الذي حكاه عن أبي قلابة نص عليه مالك، والثوري، وأحمد بن حنبل، وإسحاق

بن راهويه ، وأبو ثور ، والمزني ، وأبو بكر بن خُزَيمة ، وغيرهم . وهو محكي عن الشافعي - نقله القاضي عنه ، وهو الأشبه - والله أعلم .

وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت في الصحيحين ، عن عبد الله بن عُمر : أن رجالا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر من رمضان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان مُتحريها فَلْيَتَحرها في السبع الأواخر" (3) .

وفيها أيضًا عن عائشة ، رضي الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "تَحَرَّوْا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان" (4) ولفظه للبخاري .

ويحتج للشافعي أنها لا تنتقل ، وأنها معينة من الشهر ، بما رواه البخاري في صحيحه ، عن عبادة بن الصامت قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبرنا بليلة القدر ، فَتَلاحى رجلان من المسلمين ، فقال : "خرجت لأخبركم بليلة القدر ، فتلاحى فلان وفلان ، فرفعت ، وعسى أن يكون خيرًا لكم ، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة" (5) .

---

(1) لم أقع عليه في المسند ، وقد ذكره السيوطي في الدر المنثور (572/8) وعزاه لأحمد ، ولعلي أستدركه فيما بعد .

(2) سنن الترمذي (159/3) .

(3) صحيح البخاري برقم (2015) وصحيح مسلم برقم (1165) .

(4) صحيح البخاري برقم (2017) وصحيح مسلم برقم (1169) .

(5) صحيح البخاري برقم (2023) .

وجه الدلالة منه : أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين ، لما حصل لهم العلم بعينها في كل سنة ، إذا لو كانت تنتقل لما علموا تَعيُّنها إلا ذلك العام فقط ، اللهم إلا أن يقال : إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط .

وقوله : "فتلاحى فلان وفلان فرفعت" : فيه استئناس لما يقال : إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع ، وكما جاء في الحديث : "إن العبد ليُحرَم الرزقَ بالذّنب يُصِيبه" .

وقوله : "فرفعت" أي : رفع علم تَعينها لكم ، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود ، كما يقوله

جهلة الشيعة ؛ لأنه قد قال بعد هذا : "فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة" .

وقوله : "وعسى أن يكون خيرًا لكم" يعني : عدم تعيينها لكم ، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طُلابها في ابتغائها في جميع محال رجائها ، فكان أكثر للعبادة ، بخلاف ما إذا علموا عينها فإنها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط . وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميع الشهر في ابتغائها ، ويكون الاجتهاد في العشر الأواخر أكثر . ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله ، عز وجل . ثم اعتكف أزواجهُ من بعده . أخرجاه من حديث عائشة (1) .

ولهما عن ابن عمر : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأواخر من رمضان (2) .

وقالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وشد المئزر . أخرجاه (3) .

ولمسلم عنها كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيره (4) .

وهذا معنى قولها : "وشد المئزر" . وقيل : المراد بذلك : اعتزال النساء . ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين ، لما رواه الإمام أحمد :

حدثنا سُرَيج ، حدثنا أبو مَعْشَر ، عن هشام بن عُرْوَة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : كان

رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بقي عشر من رمضان شَدّ مئزره ، واعتزل نساءه .

انفرد به أحمد (5) .

وقد حكي عن مالك ، رحمه الله ، أن جميع ليالي العشر في تطلب ليلة القدر على السواء ، لا يترجح منها ليلة على أخرى : رأيته في شرح الرافعي ، رحمه الله .

والمستحب الإكثار من الدعاء في جميع الأوقات ، وفي شهر رمضان أكثر ، وفي العشر الأخير منه ، ثم في أوتاره أكثر . والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء : "اللهم ، إنك عَفُوٌّ تحب العفو ، فاعف عني" ؛ لما رواه الإمام أحمد :

---

(1) صحيح البخاري برقم (2026) وصحيح مسلم برقم (1172) .

(2) صحيح البخاري برقم (2025) وصحيح مسلم برقم (1171) .

(3) صحيح البخاري برقم (2024) وصحيح مسلم برقم (1174) .

(4) صحيح مسلم برقم (1175) .

(5) المسند (66/6) .

حدثنا يزيد - هو ابن هارون - حدثنا الجريري - وهو سعيد بن إياس - عن عبد الله بن بُريدة، أن عائشة قالت: يا رسول الله، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو؟ قال: "قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو، فاعف عني" (1).

(1) المسند (182/6).

(146/824)

وقد رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجة، من طريق كَهْمَس بن الحسن، عن عبد الله بن بريدة، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمْتُ أي ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: "قولي: اللهم، إنك عَفُوٌ تحب العفو، فاعف عني" (1).

وهذا لفظ الترمذي، ثم قال: "هذا حديث حسن صحيح". وأخرجه الحاكم في مستدركه، وقال: "هذا صحيح على شرط الشيخين" (2) ورواه النسائي أيضًا من طريق سفيان الثوري، عن علقمة بن مَرْثد، عن سليمان بن بُرَيدة عن عائشة قالت: يا رسول الله، أرأيَت إن وافقتُ ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: "قولي: اللهم إنك عَفُوٌ تحب العفو، فاعف عني" (3).

ذكر أثر غريب ونبأ عجيب، يتعلق بليلة القدر، رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم، عند

تفسير هذه السورة الكريمة فقال :

---

(1) سنن الترمذي برقم (3513) وسنن النسائي الكبرى برقم (11688) وسنن ابن ماجة برقم (3850) .

(2) المستدرك (531/1) .

(3) سنن النسائي الكبرى برقم (10713) .

(147/824)

حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن أبي زياد القَطواني ، حدثنا سيار بن حاتم ، حدثنا موسى بن سعيد -يعني الراسبي -عن هلال أبي جبلة ، عن أبي عبد السلام ، عن أبيه ، عن كعب أنه قال : إن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة ، مما يلي الجنة ، فهي على حَدّ هواء الدنيا وهواء الآخرة ، عُلوها في الجنة ، وعروقها وأغصانها من تحت الكرسي ، فيها ملائكة لا يعلم عدّتهم إلا الله ، عز وجل ، يعبدون الله ، عز وجل ، على أغصانها في كل موضع شعرة منها ملك . ومقام جبريل ، عليه السلام ، في وسطها ، فينادي الله جبريل أن ينزل في كل ليلة قَدْر مع الملائكة الذين يسكنون سدرة المنتهى ، وليس فيهم ملك إلا قد أعطى الرأفة والرحمة للمؤمنين ، فينزلون على جبريل في ليلة القدر ، حين تغرب الشمس ،

فلا تبقى بقعة في ليلة القدر إلا وعليها ملك ، إما ساجد وإما قائم ، يدعو للمؤمنين والمؤمنات ، إلا أن تكون كنيسة أو بيعة ، أو بيت نار أو وثن ، أو بعض أماكنكم التي تطرحون فيها الخبَث ، أو بيت فيه سكران ، أو بيت فيه مُسكر ، أو بيت فيه وثن منصوب ، أو بيت فيه جرس مُعلّق ، أو مبولة ، أو مكان فيه كساحة البيت ، فلا يزالون ليلتهم تلك يدعون للمؤمنين والمؤمنات ، وجبريل لا يدع أحدًا من المؤمنين إلا صافحه ، وعلامة ذلك مَن اقشعر جلدهُ ورقّ قلبه ودَمعَت عيناه ، فإن ذلك من مصافحة جبريل .

وذكر كعب أنه من قال في ليلة القدر : "لا إله إلا الله" ، ثلاث مرات ، غَفَرَ الله له بواحدة ، ونجا من النار بواحدة ، وأدخله الجنة بواحدة . فقلنا لكعب الأحبار : يا أبا إسحاق ، صادقًا ؟ فقال كعب وهل يقول : "لا إله إلا الله" في ليلة القدر إلا كل صادق ؟ والذي نفسي بيده ، إن ليلة القدر لتثقل على الكافر والمنافق ، حتى كأنها على ظهره جبل ، فلا تزال الملائكة هكذا حتى يطلع الفجر . فأول من يصعد جبريل حتى يكون في وجه الأفق الأعلى من الشمس ، فيبسط جناحيه -

وله جناحان أخضران ، لا ينشرهما إلا في تلك الساعة – فتصير الشمس لا شعاع لها ، ثم يدعو مَلَكًا فيصعد ، فيجتمع نور الملائكة ونور جناحي جبريل ، فلا تزال الشمس يومها ذلك متحيرة ، فيقيم جبريل ومن معه بين الأرض وبين السماء الدنيا يومهم ذلك ، في دعاء ورحمة واستغفار للمؤمنين والمؤمنات ، ولمن صام رمضان احتسابًا ، ودعاء لمن حَدث نفسه إن عاش إلى قابل صام رمضان لله . فإذا أمسوا دخلوا السماء الدنيا ، فيجلسون حلقًا [حلقا] فتجتمع إليهم ملائكة سماء الدنيا ، فيسألونهم عن رجل رجل ، وعن امرأة امرأة فيحدثونهم حتى يقولوا : ماذا فعل فلان ؟ وكيف وجدتموه العامَ ؟ فيقولون : وجدنا فلانا عام أول في هذه الليلة متعبدًا ووجدناه العام مبتدعًا ، ووجدنا فلانا مبتدعًا ووجدناه العام عابدًا قال : فيكفون عن الاستغفار لذلك ، ويقبلون على الاستغفار لهذا ، ويقولون : وجدنا فلانا وفلانا يذكران الله ، ووجدنا فلانًا راكعًا ، وفلانًا ساجدًا ، ووجدناه تاليا لكتاب الله . قال : فهم كذلك يومهم وليلتهم ، حتى يصعدون إلى السماء الثانية ، ففي كل سماء يوم وليلة ، حتى ينتهوا مكانهم من سدرة المنتهى ، فتقول لهم سدرة المنتهى : يا سكاني ، حدثوني عن الناس وسموهم لي . فإن لي عليكم حقًا ، وإني أحبُّ من أحبَّ الله . فذكر كعب الأحبار أنهم يَعدُون لها ، ويحكون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم . ثم تقبل الجنة على السدرة فتقول : أخبرني بما أخبرك سكانك من الملائكة . فتخبرها ، قال : فتقول الجنة : رحمة الله على فلان ، ورحمة الله على فلانة ،

اللهم عجِّلهم إليَّ ، فيبلغ جبريل مكانه قبلهم ، فيلهمه الله فيقول : وجدت فلانًا ساجدًا فاغفر له . فيغفر له ، فيسمعُ جبريل جميعَ حملة العرش فيقولون : رحمة الله على فلان ، ورحمة الله على فلانة ، ومغفرته لفلان ، ويقول يا رب ، وجدت عبدك فلانًا الذي وجدته عام أول على السُنَّة

والعبادة ، ووجدته العام قد أحدث حدثًا وتولى عما أمر به . فيقول الله : يا جبريل ، إن تاب فأعتبني قبل أن يموت بثلاث ساعات غفرت له . فيقول جبريل : لك الحمد إلهي ، أنت أرحم من جميع خلقك ، وأنت أرحم بعبادك من عبادك بأنفسهم ، قال : فيرتج العرش وما حوله ، والحجب والسموات ومن فيهن ، تقول : الحمد لله الرحيم ، الحمد لله الرحيم .

قال : وذكر كعب أنه من صام رمضان وهو يحدث نفسه إذا أفطر بعد رمضان ألا يعصي الله ، دخل الجنة بغير مسألة ولا حساب .

آخر تفسير سورة "ليلة القدر" [ولله الحمد والمنة] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 8 صـ 441.453 ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ،

والضمير عائد على ما دل عليه المعنى ، وهو ضمير القرآن .

قال ابن عباس وغيره : أنزله الله تعالى ليلة القدر إلى سماء الدنيا جملة ، ثم نجمه على محمد (صلى الله عليه وسلم) في عشرين سنة .

وقال الشعبي وغيره : إنا ابتدأنا إنزال هذا القرآن إليك في ليلة القدر .

وروي أن نزول الملك في حراء كان في العشر الأواخر من رمضان .

وقيل المعنى : إنا أنزلنا هذه السورة في شأن ليلة القدر وفضلها .

ولما كانت السورة من القرآن ، جاء الضمير للقرآن تفخيماً وتحسيناً ، فليست ليلة القدر ظرفاً للنزول ، بل على نحو قول عمر رضي الله تعالى عنه : لقد خشيت أن ينزل فيّ قرآن .

وقول عائشة : لأنا أحقر في نفسي من أن ينزل فيّ قرآن .

وقال الزمخشري : عظم من القرآن من إسناد إنزاله إلى مختصاً به ، ومن مجيئه بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه ، وبالرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه .

انتهى ، وفيه بعض تلخيص .

وسميت ليلة القدر ، لأنه تقدر فيها الآجال والأرزاق وحوادث العالم كلها وتدفع إلى الملائكة لتمتثله ، قاله ابن عباس وقتادة وغيرهما .

وقال الزهري : معناه ليلة القدر العظيم والشرف ، وعظم الشأن من قولك : رجل له قدر .

وقال أبو بكر الوراق : سميت بذلك لأنها تكسب من أحياها قدراً عظيماً لم يكن له قبل ، وترده عظيماً عند الله تعالى .

وقيل : سميت بذلك لأن كل العمل فيها له قدر وخطر .

وقيل : لأنه أنزل فيها كتاباً ذا قدر ، على رسول ذي قدر ، لأمة ذات قدر .

وقيل : لأنه ينزل فيها ملائكة ذات قدر وخطر .

وقيل : لأنه قدر فيها الرحمة على المؤمنين .

وقال الخليل : لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة ، كقوله : ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ أي ضيق .

وقد اختلف السلف والخلف في تعيين وقتها اختلافاً متعارضاً جداً ، وبعضهم قال : رفعت ، والذي يدل عليه الحديث أنها لم ترفع ، وأن العشر الأخير تكون فيه ، وأنها في

أوتاره، كما قال عليه الصلاة والسلام: " التمسوها في الثالثة والخامسة والسابعة والتاسعة

" وفي الصحيح: " من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " .

﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ : تفخيم لشأنها، أي لم تبلغ درايتك غاية فضلها، ثم بين له

ذلك .

قال سفيان بن عيينة: ما كان في القرآن ﴿ وما أدراك ﴾ ، فقد أعلمه، وما قال: وما

يدريك، فإنه لم يعلمه .

قيل: وأخفاها الله تعالى عن عباده ليجدوا في العمل ولا يتكلوا على فضلها ويقصروا في

غيرها .

والظاهر أن ﴿ ألف شهر ﴾ يراد به حقيقة العدد، وهي ثمانون سنة وثلاثة أعوام .

والحسن: في ليلة القدر أفضل من العمل في هذه الشهور، والمراد: ﴿ خير من ألف شهر

﴾ عار من ليلة القدر، وعلى هذا أكثر المفسرين .

وقال أبو العالية: ﴿ خير من ألف شهر ﴾ : رمضان لا يكون فيها ليلة القدر .

وقيل: المعنى خير من الدهر كله، لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء كلها، قال تعالى

: ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ يعني جميع الدهر .

وعوتب الحسن بن عليّ على تسليمه الأمر لمعاوية فقال: إن الله تعالى أرى في المنام نبيه (

صلى الله عليه وسلم) بني أمية ينزون على مقبرة نزو القردة، فاهتم لذلك، فأعطاه الله

تعالى ليلة القدر ، وهي خير من مدة ملوك بني أمية ، وأعلمه أنهم يملكون هذا القدر من الزمان .

قال القاسم بن الفضل الجذامي : فعددنا ذلك فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً .

وخرج قريباً من معناه الترمذي وقال : حديث غريب ، انتهى .

(152/824)

وقيل : آخر ملوكهم مروان الجعدي في آخر هذا القدر من الزمان ، ولا يعارض هذا تملك بني أمية في جزيرة الأندلس مدة غير هذه ، لأنهم كانوا في بعض أطراف الأرض وآخر عمارة العرب ، بحيث كان في إقليم العرب إذ ذاك ملوك كثيرون غيرهم .

وذكر أيضاً في تخصيص هذه المدة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر ، فعجب المؤمنون من ذلك وتقاصرت أعمالهم ، فأعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي .

وقيل : إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر ، فأعطوا ليلة ، إن أحيوها ، كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد .

وقال أبو بكر الوراق : ملك كل من سليمان وذي القرنين خمسمائة سنة ، فصار ألف شهر ،

فجعل الله العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما .

﴿ تنزل الملائكة والروح ﴾ : تقدم الخلاف في الروح ، أهو جبريل ، أم رحمة ينزل بها ، أم ملك غيره ، أم أشرف الملائكة ، أم جند من غيرهم ، أم حفظة على غيرهم من الملائكة ؟ والتنزل إما إلى الأرض ، وإما إلى سماء الدنيا .

﴿ بإذن ربهم ﴾ : متعلق بتنزل ﴿ من كل أمر ﴾ : متعلق بتنزل ومن للسبب ، أي تتنزل من أجل كل أمر قضاه الله لتلك السنة إلى قابل .

﴿ وسلام ﴾ : مستأنف خبر للمبتدأ الذي هو هي ، أي هي سلام إلى أول يومها ، قاله أبو العالية ونافع المقري والفراء ، وهذا على قول من قال : إن تنزلهم التقدير : الأمور لهم .

وقال أبو حاتم : من بمعنى الباء ، أي بكل أمر ؛ وابن عباس وعكرمة والكلبي : من كل امرىء ، أي من أجل كل إنسان .

وقيل : يراد بكل امرىء الملائكة ، أي من كل ملك تحية على المؤمنين العاملين بالعبادة .

وأنكر هذا القول أبو حاتم .

﴿ سلام هي ﴾ : أي هي سلام ، جعلها سلاماً لكثرة السلام فيها .

قيل : لا يلقون مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلموا عليه في تلك الليلة .

وقال منصور والشعبي : سلام بمعنى التحية ، أي تسلم الملائكة على المؤمنين .

ومن قال : تنزلهم ليس لتقدير الأمور في تلك السنة ، جعل الكلام تاماً عند قوله : ﴿ بإذن ربهم ﴾ .

وقال : ﴿ من كل أمر ﴾ متعلق بقوله : ﴿ سلام هي ﴾ ، أي من كل أمر مخوف ينبغي أن يسلم منه هي سلام .

وقال مجاهد : لا يصيب أحداً فيها داء .

وقال صاحب اللوامح : وقيل معناه هي سلام من كل أمر ، وأمري سالمة أو مسلمة منه ، ولا يجوز أن يكون سلام بهذه اللفظة الظاهرة التي هي المصدر عاملاً فيما قبله لامتناع تقدم معمول المصدر على المصدر .

كما أن الصلة كذلك لا يجوز تقديمها على الموصول ، انتهى .

وعن ابن عباس : تم الكلام عند قوله : ﴿ سلام ﴾ ، ولفظة ﴿ هي ﴾ إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين من الشهر ، إذ هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات هذه السورة ، انتهى .

ولا يصح مثل هذا عن ابن عباس ، وإنما هذا من باب اللغز المنزه عنه كلام الله تعالى .

وقرأ الجمهور : ﴿ مطلع ﴾ بفتح اللام ؛ وأبو رجاء والأعمش وابن وثاب وطلحة وابن

محيصن والكسائي وأبو عمرو : بخلاف عنه بكسرها ، فقيل : هما مصدران في لغة بني تميم .

وقيل : المصدر بالفتح ، وموضع الطلوع بالكسر عند أهل الحجاز . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(154/824)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) ﴾

القراءات ﴿ شهر تنزل ﴾ بتشديد التاء : البزي وابن فليح ﴿ مطلع ﴾ بكسر اللام : علي وخلف .

الوقوف ﴿ في ليلة القدر ﴾ ه ج للنفي والاستفهام والوصل أولى لاتصال المبالغة في التعظيم به ﴿ ما ليلة القدر ﴾ ه ط لأن ما بعدها مبتدأ ﴿ شهر ﴾ ه ط لأن ما بعده مستأنف ﴿ ربهم ﴾ ج لاحتمال تعلق ﴿ من كل ﴾ بقوله ﴿ تنزل ﴾ ولاحتمال تعلقه بقوله ﴿ سلام ﴾ أي هي من كل عقوبة سلام أو من كل واحد من الملائكة سلام من المؤمنين قاله ابن عباس : وعلى هذا يوقف على ﴿ أمر ﴾ ويوقف على ﴿ سلام ﴾ وقيل : لا يوقف

على ﴿ سلام ﴾ أيضاً والتقدير : هي سلام من كل أمر حتى مطلع ﴿ الفجر ﴾ ه .

التفسير : الضمير في ﴿ أنا أنزلناه ﴾ للقرآن إما لأن القرآن كله في حكم سورة واحدة وإما لشهرته ومن نباهة شأنه كأنه مستغن عن التصريح بذكره ، وقد عظم القرآن في الآية من وجوه أخر هي إسناد إنزاله إلى نفسه دون غيره كجبرائيل مثلاً ، وصيغة الجمع الدالة على عظم رتبة المنزل ، إذ هو واحد في نفسه نقلاً وعقلاً والرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه وهو ليلة القدر . وههنا مسائل الأولى : كيف حكم بأنه أنزل في هذه الليلة مع أنه أنزل نجوماً في نيف وعشرين سنة ؟ والجواب كما مر في البقرة في قوله ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ [البقرة : 185] أي أنزل فيها من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا جملة ثم منها إلى الأرض نجوماً ، ووجه حسن المجاز أنه إذا أنزل إلى السماء الدنيا فقد شارف النزول إلى الأرض فيكون من فوائد التشويق كما قيل :

وأبرح ما يكون الشوق يوماً . . . إذا دنت الخيام من الخيام

وقال الشعبي : ابتدىء بإنزاله في هذه الليلة لأن المبعث كان في رمضان . وقيل : أراد إنا أنزلنا القرآن يعني هذه السورة في فضل ليلة القدر والقدر بمعنى التقدير . قال عطاء عن ابن

عباس : إن الله تعالى قدر كل ما يكون في تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة إلى مثل هذه الليلة من السنة الآتية نظيره قوله ﴿ فيما يفرق كل أمر حكيم ﴾ [الدخان : 4] في أحد الوجوه والمراد إظهار تلك المقادير للملائكة في تلك الليلة فإن المقادير من الأزل إلى الأبد ثابتة في اللوح المحفوظ ، وهذا قول أكثر العلماء . ونقل عن الزهري أنه قال : ليلة القدر يعني ليلة الشرف والعظمة من قولهم " لفلان قدر عند فلان " أي منزلة وخطر ، ويؤيد هذا التأويل قوله ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ ثم هذا الشرف ما أن يرجع إلى الفاعل أي من أتى فيها بالطاعة صار ذا قدر وشرف . وإما أن يرجع إلى الفعل لأن الطاعة فيها أكثر ثواباً وقبولاً .

(156/824)

يروى أنه صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فرأى نائماً فقال : يا علي نبهه ليتوضأ فأيقظه علي ثم قال : يا رسول الله إنك سابق إلى الخيرات فلم نبهته بنفسك ؟ فقال : لأن رده على كفر ورده عليك ليس بكفر ففعلت ذلك لتخف جنايته لورد . فإذا كان هذا رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم فقس عليه رحمة الله تعالى عليه وكأنه سبحانه يقول : إذا عرفت ليلة القدر فإن أطعت فيها اكتسبت ثواب ألف شهر ، وإن عصيت فيها اكتسبت عقاب ألف

شهر ، ورفع العقاب أولى من جلب الثواب ، فالإشفاق أن لا يعرفها المكلف بعينها لئلا يكون بالمعصية فيها خاطئاً متعمداً . وأيضاً إذا اجتهد في طلب ليلة القدر بإحياء الليالي المظنونة باهى الله تعالى ملائكته ويقول : كنتم تقولون فيهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فهذا جدهم في الأمر المظنون ، فكيف لو جعلتها معلومة لهم فهنالك يظهر سر قوله ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [البقرة : 30] الخامسة معنى كونها خيراً من ألف شهر أن العبادة فيها خير من ألف شهر ليس فيها هذه الليلة ، وذلك لما فيها من الخيرات والبركات وتقدير الأرزاق والمنافع الدينية والدنيوية . وقال مجاهد : كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ثم يجاهد حتى يمسي ، فعل ذلك ألف شهر ، فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون من ذلك فأنزل الله تعالى السورة فأعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي ويؤيده ما روي عن مالك ابن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أري أعمار الناس فاستقصر أعمار أمته وخاف أن لا يبلغوا من الأعمال مثل ما بلغه سائر الأمم ، فأعطاه الله ليلة هي خير من ألف شهر لسائر الأمم . وقيل : إن الرجل فيما مضى ما كان يستحق اسم العابد حتى يعبد الله ألف شهر . وذكر القاسم بن فضل عن عيسى بن مازن قال : قلت للحسن بن علي رضي الله عنه : يا مسود وجوه المؤمنين عمدت إلى هذا الرجل فبايعته . يعني معاوية فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أري في

منامه بني أمية يطؤن منبره واحداً بعد واحد وفي رواية ينزون على منبره نزو القردة ، فشق ذلك عليه فأنزل الله تعالى ﴿ إنا أنزلناه ﴾ إلى قوله ﴿ خير من ألف شهر ﴾ يعني ملك بني أمية . قال القاسم : فحسبنا ملك بني أمية فإذا هو ألف شهر لا يزيد ولا ينقص ، وزيف بأن أيامهم كانت مذمومة فكيف تذكر في مقام التعظيم ؟ وأجيب بأنها كانت أياماً عظيمة بحسب السعادات الدنيوية فلا يمتنع أن يقول الله تعالى أعطيتك ليلة هي في السعادات الدينية أفضل من تلك الأيام في بابها .

(158/824)

وعن كعب : إن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة وساقها في الجنة وأغصانها تحت الكرسي ، فيها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله ، ومقام جبرائيل في وسطها ليس فيها ملك إلا وقد أعطي الرأفة والرحمة للمؤمنين ، ينزلون مع جبرائيل ليلة القدر فلا يبقى بقعة في الأرض إلا وعليها ملك ساجد أو قائم يدعو للمؤمنين والمؤمنات ، وجبرائيل لا يدع أحداً من الناس إلا صافحهم ، وعلامة ذلك أن يقشعر جلده ويرق قلبه وتدمع عيناه ، من قال فيها لا إله إلا الله ثلاث مرات غفر له بواحدة ونجاه من النار بواحد وأدخله الجنة بواحدة ،

وأول من يصعد جبرائيل حتى يصير أمام الشمس فيبسط جناحين أخضرين لا ينشرهما إلا تلك الساعة من يوم تلك الليلة ثم يدعو ملكاً ملكاً فيصعد الكل فيجتمع نور الملائكة ونور جناح جبرائيل فيقيم جبرائيل ومن معه من الملائكة بين الشمس وسماء الدنيا يومهم ذلك مشتغلين بالدعاء والرحمة والاستغفار للمؤمنين ، ولمن صام رمضان احتساباً ، فيسألونهم عن رجل رجل وعن امرأة امرأة حتى يقولوا : ما فعل فلان كيف وجدتموه ؟ فيقولون : وجدناه عام أول مبتدعاً وفي هذا العام متعبداً وفي بعضهم بالعكس ، فيدعون للأول دون الآخر . ووجدنا فلاناً تالياً وفلاناً راكعاً وفلاناً ساجداً ، فهم كذلك يومهم وليلتهم حتى يصعدوا إلى السماء الثانية ، وهكذا يفعلون في كل سماء حتى ينتهوا إلى السدرة المنتهى ، فتقول لهم السدرة : يا سكاني حدثوني عن الناس فإن لي عليكم حقاً وإني أحب من أحب الله . وتقول الجنة : عجلهم اللهم إليّ ، والملائكة وأهل السدرة يقولون : آمين . وإنما نزول الملائكة على فضيلة هذه الليلة لأن الجماعة كلما كانت أكثر كان نزول الرحمة أوفر والطاعة في حضور الملائكة الذين هم العلماء بالله والعباد له تكون أدخل في الإخلاص وأجلب لأسباب القبول . أما الروح فالأظهر أنه جبرائيل ، خص بالذكر لزيادة شرفه . وقيل : ملك يقوم صفاً والملائكة كلهم صفاً ، وقيل : طائفة من

الملائكة لا يراهم غيرهم إلا في هذه الليلة . وقيل : خلق من خلق الله يأكلون ويلبسون ليسوا من الملائكة ولا من الإنس ولعلهم خدم أهل الجنة . وقيل : عيسى عليه السلام ينزل في جماعة من الملائكة ليطالع أمة محمد صلى الله عليه وسلم وقيل : القرآن ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ [الشورى : 52] وقيل : الرحمة . وقيل : هم كرام الكاتبين . يروى أنهم يطالعون اللوح فيرون فيه طاعة المكلفين مفصلة فإذا وصلوا إلى معاصيهم أرخى الستر فلا يرونها فحينئذ يقولون : سبحان من أظهر الجميل وستر القبيح ، ويشتاقون إلى لقائهم فينزلون لذلك . ومن فوائد نزولهم أنهم يرون في الأرض من أنواع الطاعات ما لم يروها في سكان السموات ويسمعون أنين العصاة الذي هو أحب إلى الله من زجل المسبحين فيقولون : تعالوا نسمع صوتاً هو أحب إلى ربنا من تسبيحنا . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 535.541 ﴾

(160/824)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة القدر

مدنية في قول أكثر المفسرين ، وحكى الماوردي عكسه ، وذكر الواحدي أنها أوّل سورة نزلت بالمدينة وهي خمس آيات وثلاثون كلمة ومائة واثنتا عشر حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الملك الأعظم الذي لا يعبد إلا إياه ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ بجوده جميع خلقه أقصاه وأدناه ﴿ الرحيم ﴾ الذي قرّب أهل طاعته وأبعد من عداهم وأشقاه .

وقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه ﴾ أي : بما لنا من العظمة ، أي : القرآن فيه تعظيم له من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه أسند إنزاله إليه وجعله مختصاً به دون غيره .

والثاني : أنه جاء بضميره دون اسمه الظاهر شهادة له بالنباهة والاستغناء عن التنبيه عليه .

والثالث : الرفع من مقدار الوقت الذي أنزل فيه ، وهو قوله تعالى : ﴿ في ليلة القدر ﴾ .

(161/824)

﴿ وما أدراك ﴾ أي : أعلمك يا أشرف الخلق ﴿ ما ليلة القدر ﴾ فإن في ذلك تعظيماً لشأنها . روي أنه أنزله جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وأملاه جبريل عليه السلام على السفرة ، ثم كان ينزله على رسول الله صلى الله عليه وسلم

نجوماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحاجة إليه . وحكى الماوردي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه نزل في شهر رمضان وفي ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السفرة الكرام الكاتبين في السماء الدنيا فنجمته السفرة على جبريل عليه السلام عشرين سنة ، ونجمه جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم عشرين سنة . قال ابن العربي : وهذا باطل ليس بين جبريل وبين الله تعالى واسطة ، ولا بين جبريل وبين محمد صلى الله عليه وسلم واسطة ، وعن الشعبي : إنا ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر . وقيل : المعنى أنزل في شأنها وفضلها فليست ظرفاً ، وإنما هو كقول عمر رضي الله عنه : خشيت أن ينزل فيّ قرآن . وقول عائشة رضي الله عنها لأنا أحقر في شأني أن ينزل فيّ قرآن . وسميت ليلة القدر لأن الله تعالى يقدّر فيها ما يشاء من أمره إلى السنة القابلة من أمر الموت والأجل والرزق وغيره ، ويسلمه إلى مدبرات الأمور من الملائكة ، وهم إسرافيل وميكائيل وعزرائيل وجبرائيل عليهم السلام ، كقوله تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ (الدخان :)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أن الله تعالى يقضي الأقضية في ليلة نصف شعبان ، ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر ، وهذا يصلح أن يكون جمعاً بين القولين في قوله تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ فإنه قيل فيها : إنها ليلة النصف من شعبان وقيل : ليلة

القدر وحينئذ لا خلاف، وقيل: سميت بذلك لتضيقها بالملائكة. قال الخليل: لأن الأرض تضيق فيها الملائكة كقوله تعالى: ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾ (الطلاق:)

(162/824)

وقيل: سميت بذلك لعظمها وشرفها وقدرها من قولهم: لفلان قدر، أي: شرف ومنزلة قاله الأزهري وغيره. وقيل: سميت بذلك لأن للطاعة قدراً عظيماً وثواباً جزيلاً. وقيل: لأنه أنزل فيها كتاباً ذا قدر على رسول ذي قدر، ومعنى أنّ الله تعالى يقدر الآجال: أنه يظهر ذلك لملائكته ويأمرهم بفعل ما هو من سعتهم بأن يكتب لهم ما قدّره في تلك السنة، ويعرّفهم إياه، وليس المراد أنه يحدث في تلك الليلة لأن الله تعالى قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض في الأزل قيل: للحسين بن الفضل: أليس قد قدر الله تعالى المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض، قال نعم، قيل له: فما معنى ليلة القدر، قال: سوق المقادير إلى المواقيت، وتنفيذ القضاء المقدّر.

واختلفوا هل هي باقية أو لا؟ فقيل: إنها كانت مرّة ثم انقطعت، وقيل: إنها رفعت بعد النبي صلى الله عليه وسلم والصحيح أنها باقية إلى يوم القيامة. وروي عن عبد الله بن محسن مولى معاوية قال: قلت لأبي بكر: زعموا أن ليلة القدر قد رفعت، قال: كذب من

قال ذلك ، قلت : هي في كل شهر رمضان أستقبله ، قال : نعم . وعن سعيد بن المسيب أنه سئل عن ليلة القدر أهي شيء كان فذهب ، أم هي في كل عام ، فقال : بل هي لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ما بقي منهم اثنان ، واستدل من قال برفعها بقوله صلى الله عليه وسلم حين تلاحى الرجلان : "إني خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم" وهذا غفلة من هذا القائل ففي آخر الحديث "فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة" فلو كان المراد رفع وجودها لم يأمر بالتماسها .

واختلفوا في وقتها فأكثر أهل العلم أنها مختصة برمضان ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ (البقرة :)

وقال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ . فوجب أن لا تكون ليلة القدر إلا في رمضان لئلا يلزم التناقض . وروي عن أبي بن كعب أنه قال : والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي رمضان حلف بذلك ثلاث مرات ، وعن ابن عمر قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أسمع عن ليلة القدر فقال : "هي في كل رمضان" وقيل : هي دائرة في جميع السنة

لا تختص برمضان حتى لو علق طلاق امرأته أو عتق عبده بليلة القدر لا يقع ما لم تنقض سنة من حين حلف ، يروى ذلك عن أبي حنيفة . وعن ابن مسعود أنه قال : من أراد أن يعرف ليلة القدر فلينظر إلى غرة رمضان ، أي : إلى أوّله فإن كان يوم الأحد فليلة القدر ليلة تسع وعشرين ، وإن كان يوم الإثنين فليلة القدر إحدى وعشرين ، وإن كان يوم الثلاثاء فليلة سبع وعشرين ، وإن كان يوم الأربعاء فليلة تسعة عشر ، وإن كان يوم الخميس فليلة خمس وعشرين ، وإن كان ليلة الجمعة فليلة سبعة عشر ، وإن كان يوم السبت فليلة ثلاث وعشرين . وعلى القول الأول هل هي في كل زمان أو في العشر الأخير قولان : أحدهما : أنها في كل شهره .

(164/824)

واختلفوا في ، أي : ليلة منه فقال ابن رزين : هي الليلة الأولى من رمضان ، وقال الحسن البصري : السابعة عشر ، وقال أنس : التاسعة عشر ، وقال محمد بن إسحاق : الحادية والعشرون ، وقال ابن عباس : الثالثة والعشرون ، وقال أبيّ بن كعب : السابعة والعشرون . وقيل : التاسعة والعشرون ، وقيل : ليلة الثلاثين ، وكل استدل على قوله بما يطول الكلام عليه . والقول الثاني وهو ما عليه الأكثرون أنها مختصة بالعشر الأخير منه ،

واستدل لذلك بأشياء منها : ما روى عبادة بن الصامت "أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر فقال : في رمضان فالتمسوها في العشر الأواخر" . ومنها : ما روي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "فالتمسوها في العشر الأواخر من رمضان" . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها" . وعنها قالت "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر شدّ مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله" .

واختلفوا في أنها أي : ليلة من العشر ، هل في ليلة من ليالي العشر كله ، أو في أوتاره فقط ، وهل تلزم ليلة بعينها ، أو تنتقل في جميعه أقوال . والذي عليه الأكثر أنها في جميعه ، ولكن أرجاها أوتاره وأرجى الأوتار عند إمامنا الشافعي رضي الله عنه ليلة الحادي والعشرين أو الثالث والعشرين يدل للأوّل خبر الصحيحين وللثاني خبر مسلم وأنها تلزم عنده ليلة بعينها . وقال المزني صاحب الشافعي وابن خزيمة : أنها متنقلة في ليالي العشر جمعاً بين الأحاديث ، قال النووي : وهو قويّ . وقال في مجموعه أنه الظاهر المختار وخصها بعض العلماء بأوتار العشر الأواخر ، وبعضهم بأشفاعه .

وقال ابن عباس وأبيّ : هي ليلة سبع وعشرين وهو مذهب أكثر أهل العلم ، واستنبط ذلك بعضهم من أنّ ليلة القدر ذكرت ثلاث مرّات ، وهي تسعة أحرف ، وإذا ضربت تسعة في ثلاثة تكن سبعة وعشرين ، وبعضهم استنبط ذلك من عدد كلمات السورة ، وقال : إنها ثلاثون كلمة وفاقاً ، وقوله تعالى : ﴿ هي ﴾ السابع والعشرون ، وهي كناية عن هذه الليلة فبان أنها ليلة السابع والعشرين ، وهو استنباط لطيف وليس بدليل كما قيل : وفيها نحو الثلاثين قولاً وبضع وعشرون حديثاً وأفردت بالتصنيف ، وفيما ذكرناه كفاية .

وذكروا للسبب في إخفائها عن الناس وجوهاً :

أحدها : أنه تعالى أخفاها ليعظموا جميع السنة على القول بأنها فيها ، أو جميع رمضان على القول به ، أو جميع العشر الأخير على القول به ، كما أخفى رضاه في الطاعات ليرغبوا في كلها ، وأخفى غضبه في المعاصي ليحذروها كلها ، وأخفى وليه من المسلمين ليعظموهم كلهم ، وأخفى الإجابة في الدعاء ليبالغوا في الدعوات ، وأخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة ليجتهدوا في العبادة في جميع الأوقات المنهيّ عنها طمعاً في إدراكها ، وأخفى الاسم الأعظم ليعظموا كل أسمائه تعالى ، وأخفى الصلاة الوسطى ليحافظوا على الكل ، وأخفى التوبة ليواظب المكلف على جميع أقسامها ، وأخفى قيام الساعة ليكونوا على وجل من قيامها بغتة .

ثانيها : أن العبد إذا لم يتيقن ليلة القدر واجتهد في الطاعة رجاء أن يدركها فيباهي الله

تعالى به ملائكته، ويقول: تقولون فيهم يفسدون ويسفكون الدماء وهذا جدّه واجتهاده في الليلة المظنونة، فكيف لو جعلتها معلومة فحينئذ يظهر أني أعلم ما لا تعلمون. ثالثها: ليجتهدوا في طلبها والتماسها فينالوا بذلك أجر المجتهدين في العبادة، بخلاف ما لو عينت في ليلة بعينها لحصل الاقتصار عليها ففاتت العبادة في غيرها.

(166/824)

ثم ذكر الله تعالى فضلها من ثلاثة أوجه: أحدها: ما ذكره بقوله سبحانه: ﴿ليلة القدر﴾ أي: التي خصصناها بإنزالنا فيها ﴿خير من ألف شهر﴾ ليس فيها ليلة القدر فالعمل الصالح فيها خير منه في ألف شهر ليست فيها ليلة قدر. وعن ابن عباس رضي الله عنهما "ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك وتمنى ذلك لأمّته، فقال: يا رب، جعلت أمتي أقصر الأمم أعمارا وأقلها أعمالاً، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، فقال تعالى: ﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾ التي حمل فيها الإسرائيلي السلاح في سبيل الله لك ولأمتك إلى يوم القيامة"، أي: فهي من خصائص هذه الأمة.

(167/824)

وعن مالك أنه سمع من يثق به من أهل العلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أري أعمار الناس قبله فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل الذي يبلغ غيرهم ، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر التي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . وقيل : إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له : عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر ، فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد ، وهي أفضل ليالي السنة ، ويدخل في ذلك ليلة الإسراء فهي أفضل منها إن لم تكن ليلة الإسراء ليلة القدر ، كما قيل : إن الإسراء كان في رمضان ، وإنما كان كذلك لما يريد الله تعالى فيها من المنافع فيكتب فيها جميع خير السنة وشرّها ورزقها وأجلها وبلائها ورخائها ومعاشها إلى مثلها من السنة ، ولا يشكل ذلك بما قيل : إن الآجال من شعبان إلى شعبان حتى أن الرجل لينكح ويولد له وقد خرج اسمه في الموتى ، لما ورد أنّ الله تعالى يأمر بنسخ ما يكون في السنة من الآجال والأمراض والأرزاق ونحوها في ليلة النصف من شعبان ، فإذا كان ليلة القدر فيسلمها إلى أربابها . وقيل : يقدّر في ليلة النصف من شعبان الآجال والأمراض ، وفي ليلة القدر الأمور التي فيها الخير والبركة والسلامة .

الوجه الثاني : من فضائلها ما ذكره الله تعالى في قوله جلّ ذكره .

﴿ تنزل ﴾ أي : تنزلاً متدرجاً متواصلاً على غاية ما يكون من الخفة والسرعة بما أشار إليه حذف التاء ﴿ الملائكة ﴾ أي : إلى الأرض . روي أنه إذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة وهم سكان سدرة المنتهى ﴿ والروح ﴾ أي : جبريل عليه السلام ﴿ فيها ﴾ أي : في الليلة ومعه أربعة ألوية فينصب لواء على قبر النبيّ صلى الله عليه وسلم ولواء على ظهر بيت المقدس ، ولواء على ظهر المسجد الحرام ، ولواء على ظهر سيناء ، ولا يدع بيتاً فيه مؤمن ولا مؤمنة إلا دخله وسلم عليهم ، يقول : يا مؤمن ويا مؤمنة السلام يقرئك السلام إلا على مدمن خمر ، وقاطع رحم ، وآكل لحم خنزير . وعن أنس أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا كان ليلة القدر نزل جبريل عليه السلام في كبكبة من الملائكة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم ، أو قاعد يذكر الله تعالى" . وهذا يدل على أن الملائكة كلهم لا ينزلون ، وظاهر الآية نزول الجميع وجمع بين ذلك بما روي أنهم ينزلون فوجاً فوجاً كما أنّ أهل الحج يدخلون الكعبة فوجاً بعد فوج ، وإن كانت لا تسعهم دفعة واحدة كما أن الأرض لا تسع الملائكة دفعة واحدة ، ولذلك ذكر بلفظ تنزل الذي يقتضي المرّة بعد المرّة ، أي : ينزل فوج ويصعد فوج والله أعلم بذلك .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن الملائكة في تلك الليلة أكثر من عدد الحصى ، وقال بعضهم : الروح ملك تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة وله ألف رأس أعظم من الدنيا ، وفي كل رأس ألف وجه ، وفي كل وجه ألف فم ، وفي كل فم ألف لسان يسبح الله تعالى بكل لسان ألف نوع من التسبيح والتحميد والتمجيد ، ولكل لسان لغة لا تشبه لغة أخرى . فإذا فتح أفواهه بالتسبيح خرّت ملائكة السموات السبع سجداً مخافة أن تحرقهم أنوار أفواهه ، وإنما يسبح الله تعالى غدوة وعشية فينزل في ليلة القدر لشرفها وعلوّ شأنها فيستغفر للصائمين والصائمات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بتلك الأفواه كلها إلى طلوع الفجر .

(169/824)

وعن عليّ أنه صلى الله عليه وسلم قال : "رأيت ليلة أسري بي ملكاً رجلاه جاوزت من الأرض السابعة السفلى ، ورأسه من السماء السابعة العليا ، ومن لدن رأسه إلى قدميه وجوه وأجنحة في كل وجه فم ولسان يسبح الرحمن تسبيحاً لا يسبحه العضو الآخر ، ولو أمره الله تعالى أن يلتقم السموات السبع والأرضين السبع لقمة واحدة ، كما يلتقم أحدكم اللقمة لأطاق ذلك ، ثم لم تكن تلك في فيه إلا كلقمة أحدكم في فيه ، ولو سمع أهل الدنيا

صوته بالتسبيح لصعقوا ، ما بين شحمة أذنه إلى منكبه خفقان الطير السريع سبعة آلاف سنة ، وهو رأس الملائكة" . وقيل : الروح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا في تلك الليلة ينزلون من لدن غروب الشمس إلى طلوع الفجر . ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي : بأمر المحسن إليهم المربي لهم ﴿ من كل أمر ﴾ أي : قضاه الله تعالى فيها لتلك السنة إلى قابل ، وتقدّم الجمع بينها وبين ليلة النصف من شعبان ، ومن سببية بمعنى الباء .

الوجه الثالث : فضائلها ما ذكره تعالى بقوله سبحانه :

﴿ سلام ﴾ أي : عظيم جدّاً ، وهو خبر مقدّم والمبتدأ . ﴿ هي ﴾ جعلت سلاماً لكثرة السلام فيها من الملائكة لا يمرّون بمؤمن ولا مؤمنة إلا سلمت عليه وستمرّون على ذلك من غروب الشمس ﴿ حتى ﴾ أي : إلى ﴿ مطلع الفجر ﴾ أي : وقت مطلعه ، أي : طلوعه . وقرأ الكسائي بكسر اللام على أنه كالمرجع ، واسم زمان على غير قياس كالمشرق ، والباقون بفتحها .

ومن فضائلها أنّ من قامها غفرت له ذنوبه ففي الصحيحين : "من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه" . قال النووي في "شرح مسلم" : ولا ينال فضلها إلا من أطلعه الله تعالى عليها فلو قامها إنسان ولم يشعر بها لم ينل فضلها . قال الأذرعي وكلام المتولي ينازعه حيث قال : يستحب التعبد في كل ليالي العشر حتى يحوز الفضيلة على اليقين اه .

(170/824)

وهذا أولى نعم حال من أطلق أكمل إذا قام بوظائفها . وعن أبي هريرة مرفوعاً "من صلى العشاء الأخيرة في جماعة من رمضان فقد أدرك ليلة القدر" ، أي : أخذ حظاً منها .

ويسنّ لمن رآها أن يكتمها ، ويسنّ أن يكثر الدعاء والتعبد في ليالي رمضان وأن يكون من دعائه : "اللهمّ إنك عفوّ كريم تحب العفو فاعف عني" .

ومن علاماتها أنّ الشمس تطلع صبيحتها لا شعاع لها ، رواه مسلم عن أبيّ بن كعب وعن ابن مسعود : قال : "إنّ الشمس تطلع كل يوم بين قرني شيطان إلا صبيحة ليلة القدر فإنها تطلع يومئذ بيضاء ليس لها شعاع" . فإن قيل : لا فائدة في هذه العلامة فإنها قد انقضت . أجيب : بأنه يستحب أن يجتهد في ليلتها ويبقى يعرفها كما مرّ عن الشافعي أنها تلزم ليلة واحدة . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة القدر أعطى من الأجر كمن صام رمضان وأحيا ليلة القدر" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿السراج المنير حـ 8 صـ 389. 396﴾

(171/824)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾

تنويهٌ بشأنِ القرآنِ الكريمِ وإجلالٌ لمحلِه بإضمارِه المُؤذنِ بغايةِ نباهتِه المغنيةِ عن التصريحِ بهِ كأنهُ حاضرٌ فِي جميعِ الأذهانِ وبإسنادِ إنزالِه إلى نونِ العظمةِ المنبىءِ عنْ كمالِ العنايةِ بهِ وتفخيمُ وقتِ إنزالِه بقولِه تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر ﴾ لما فيهِ منَ الدلالةِ عَلى أنَّ علوِّ قدرِها خارجٌ عنْ دائرةِ درايةِ الخَلْقِ لا يدريَها ولاَ يدريَها إلاَّ علاَّمُ الغيوبِ كمَا يُشعِرُ بهِ قولُه تعالَى : ﴿ لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ فإنهُ بيانٌ إجماليٌّ لشأنِها إثرَ تشويقِه عليهِ السلامُ إلى درايتِها فإنَّ ذلكَ معربٌ عنِ الوعدِ بإدرائِها وقدْ مرَّ بيانُ كيفيةِ إعرابِ الجملتينِ وفي إظهارِ ليلةِ القدرِ في الموضعينِ منْ تأكيدِ التفخيمِ مَا لا يخفى والمرادُ بإنزالِه فيها إمَّا إنزالُ كُلّه إلى السماءِ الدُّنيا كَما رُوي أنَّه أُنزل جملةً واحدةً في ليلةِ القدرِ من اللوحِ المحفوظِ إلى السماءِ الدُّنيا وأملاهُ جبريلُ عليهِ السلامُ على السَّفرةِ ثمَّ كانَ ينزلهُ على النبيِّ عليهِ السَّلامُ نجوماً في ثلاثِ وعشرينَ سنةً وإمَّا ابتداءُ إنزالِه فيها كما نُقلَ عن الشَّعبيِّ . وقيلَ : المَعْنى أنزلناهُ في شأنِ ليلةِ القدرِ وفضلِها كما في قولِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُ : خشيتُ أن ينزلَ فيَّ قرآنَ ، وقولِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : لأنَا أحقرُ في نفسي منْ أن ينزلَ فيَّ قرآن فالأنسبُ أن يجعلَ الضميرُ حينئذٍ للسورةِ التي هيَ جزءٌ من القرآنِ لا للكُلّ واختلفوا في وقتِها فأكثرهم على أنها في شهرِ رمضانَ في العشرِ الأواخرِ في أوتارِها وأكثرُ الأقوالِ أنها السابعةُ منها ولعلَّ

السرِّ في إخفائها تعريضُ مَنْ يريدُها للثوابِ الكثيرِ بإحياءِ الليالي الكثيرةِ رجاءً لموافقتها وتسميتُها بذلكَ إمَّا لتقديرِ الأمورِ وقضائها فيها لقولِه تعالى : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ

(172/824)

حَكِيمٍ ﴾ أو لخطرِها وشرفِها على سائرِ الليالي وتخصيصُ الألفِ بالذكرِ إمَّا للتكثيرِ أوْ لمَا رُوِي أنه عليهِ السَّلامُ ذكرَ رجلاً من بني إسرائيل لبسَ السلاحَ في سبيلِ اللهِ ألفَ شهرٍ فعجبَ المؤمنونَ منه وتقاصرتْ إليهم أعمالهم فأعطوا ليلةً هيَ خيرٌ منْ مدةِ ذلكَ الغازي وقيلَ : إنَّ الرجلَ فيما مضَى ما كانَ يقالُ لهُ عابدٌ حتَّى يعبدَ اللهَ تعالى ألفَ شهرٍ فأعطوا ليلةً إنْ أحيوْها كانُوا أحقَّ بأنْ يُسمَّوا عابدينَ من أولئكَ العبادِ ، وقيلَ : أُرِيَ النبيُّ عليهِ السَّلامُ أعمارَ الأممِ كافةً فاستقصرَ أعمارَ أمتِه فخافَ أنْ لا يبلغوا من العملِ مثلَ ما بلغَ غيرهم في طولِ العمرِ فأعطاهُ اللهُ ليلةَ القدرِ وجعلها خيراً منْ ألفِ شهرٍ لسائرِ الأممِ ، وقيلَ : كانَ ملكُ سليمانَ خمسمائةَ شهرٍ وملكُ ذي القرنينِ خمسمائةَ شهرٍ فجعلَ اللهُ تعالَى العملَ في هذهِ الليلةِ لمنْ أدركها خيراً منْ مُلكِهما .

وقولُه تعالَى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكةُ والروحُ فِيهَا ﴾

(173/824)

استئنافٌ مبينٌ لمناطِ فضلِها على تلكَ المدةِ المتطاولةِ وقد سبقَ في سورةِ النبأ ما قيلَ في شأنِ الروحِ علَى التفصيلِ وقيلَ: هم خلقٌ منَ الملائكةِ لا يراهُم الملائكةُ إلا تلكَ الليلةَ أيْ تنزلُ الملائكةُ والروحُ في تلكَ الليلةِ منْ كلِّ سماءٍ إلى الأرضِ أوْ إلى السماءِ الدُّنيا ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ متعلقٌ بتنزل أوْ بمحذوفٍ هُو حالٌ من فاعِله أيْ ملتبسينَ بإذنِ ربهم أيْ بأمرِه ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي من أجلِ كلِّ أمرٍ قضاهُ الله عزَّ وجلَّ لتلكَ السنةِ إلى قابلٍ كقولِه تعالَى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ وقُرِىءَ منْ كُلِّ امرىءٍ أيْ منْ أجلِ كل إنسانٍ، قيلَ: لا يلقونَ فيها مؤمناً مؤمنةً إلا سلمُوا عليهِ ﴿ سلامٌ هِىَ ﴾ أيْ مَا هيَ إلا سلامةٌ أيْ لا يقدرُ الله تعالى إلا السلامةَ والخيرَ وأمَّا في غيرِها فيقضي سلامةً وبلاءً أوْ ما هيَ إلا سلامٌ لكثرةِ ما يسلمونَ فيها على المؤمنينَ ﴿ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ أيْ وقتِ طلوعِه وقرىءَ بالكسرِ على أنهُ مصدرٌ كالمرجعِ أو اسمُ زمانٍ على غيرِ قياسٍ كالمشرقِ وحتَّى متعلقةٌ بتنزلُ على أنها غايةٌ لحكمِ التنزلِ أي لمكثِهِمْ في محلِ تنزلِهم أو لنفسِ تنزلهم بأنْ لا ينقطعَ تنزلُهم فوجاً بعدَ فوجٍ إلى طلوعِ الفجرِ، وقيلَ: متعلقةٌ بسلامٍ بناءً على أنَّ الفصلَ بينَ المصدرِ ومعمولِه بالمبتدأ مغتفرٌ في الجارِّ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾

الضمير عند الجمهور للقرآن وادعى الإمام فيه إجماع المفسرين وكأنه لم يعتد بقول من قال منهم برجوعه لجبريل عليه السلام أو غيره لضعفه قالوا في التعبير عنه بضمير الغائب مع عدم تقدم ذكره تعظيم له أي تعظيم لما أنه يشعر بأنه لعلو شأنه كأنه حاضر عند كل أحد فهو في قوة المذكور وكذا في إسناد إنزاله إلى نون العظمة مرتين وتأكيد الجملة وأشار الزمخشري إلى إفادة الجملة اختصاص الإنزال به سبحانه بناء على أنها من باب أنا سعيت في حاجتك مما قدم فيه الفاعل المعنوي على الفعل وتعقب بأن ما ذكروه في الضمير المنفصل دون المتصل كما في اسم أن هنا نعم الاختصاص يفهم من سياق الكلام وفيه أنهم لم يصرحوا باشتراط ما ذكر وكذا في تفخيم وقت إنزاله بقوله تعالى :

﴿ ومَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر ﴾ لما فيه من الدلالة على أن علوها خارج عن دائرة دراية الخلق لا يعلم ذلك ولا يعلم به إلا علام الغيوب كما يشعر به قوله سبحانه :

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ فإن بيان إجمالي لشأنها أثر تشويقه عليه الصلاة والسلام إلى درايتها فإن ذلك معرب عن الوعد بإدرائها وعن سفيان بن عيينية أن كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿ مَا أَدْرَاكَ ﴾ [الحاقة: 3] أعلم الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم وما فيه من قوله سبحانه ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ ﴾ [الأحزاب: 63] لم يعلمه عز وجل به وقد مر بيان كيفية إعراب الجملتين وفي إظهار ليلة القدر في الموضعين من تأكيد التعظيم والتفخيم ما لا يخفى والمراد بإنزاله فيها إنزاله كله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا فقد صح عن ابن عباس أنه قال أنزل القرآن في ليلة القدر جملة واحدة إلى السماء الدنيا وكان بمواقع النجوم وكان الله تعالى ينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه في أر بعض وفي رواية بدل وكان بمواقع الخ ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة وفي رواية أخرى عنه أيضاً أنزل القرآن جملة واحدة حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا ونزل به جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بجواب كلام العباد وأعمالهم وفي أخرى أنه أنزل في رمضان ليلة القدر جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام وكون النزول بعد في عشرين سنة قول لهم وقال بعضهم وهو الأشهر في ثلاث وعشرين وقال آخر في خمس وعشرين وهذا للخلاف في مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعث وقال الشعبي المراد ابتدأنا بإنزاله فيها والمشهور أن أول ما نزل من الآيات ﴿ اقرأ ﴾ وأنه كان نزولها بحراء نهاراً نعم في "البحر" روى أن نزول الملك في حراء كان في العشر الأواخر

من رمضان فإن صح وكان المراد كان ليلاً فذاك وإلا فظاهر كلام الشعبي غير مستقيم اللهم إلا أن يقال أنه أراد ابتداء إنزاله إلى السماء الدنيا فيها ولا يلزم أن يتحد ذلك وابتداى إنزاله عليه صلى الله عليه وسلم في الزمان ثم أن في أنزلناه على ما ذكر تجوزاً

(176/824)

في الإسناد لأنه أسند فيه ما للجزء إلى الكل أو مجازاً الطرف أو تضميناً وفي المراد إنزاله من اللوح إلى السماء الدنيا مفرقاً في ليالي قدر على أن المراد بليلة الجنس فقد قيل إن القرآن أنزل إلى السماء الدنيا في عشرين ليلة قدر أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين وكان ينزل في كل ليلة ما يقدر الله تعالى إنزاله في كل السنة ثم ينزله سبحانه منجماً في جميع السنة وهذا القول ذكره الإمام احتمالاً ونقله القرطبي كما قال ابن كثير عن مقاتل لكنه مما لا يعود عليه والصحيح المعتمد عليه كما قال ابن حجر في "شرح البخاري" أنه أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا بل حكى بعضهم الإجماع عليه نعم لا يبعد القول بأن السفرة هناك نجموه لجبريل عليه السلام في الليالي المذكورة وأجاب السيد عيسى الصفوي بأنه لا محذور في ذلك بناء على جواز مثل أتكلم مخبراً به عن التكلم بقولك أتكلم وفي ذلك اختلاف بين الدواني وغيره ذكره في رسالته التي ألفها في الجواب عن مسألة الحذر

الأصم أو يقال يرجع الضمير للقرآن باعتبار جملته وقطع النظر عن أجزائه فيخبره عن الجملة بأنا أنزلنا وإن كان من جملته إنا أنزلناه المندرج في حملته من غير نظير له بخصوصه وقد ذكروا أن الجزء من حيث هو مستقل مغاير له من حيث هو في ضمن الكل وفي الاتقان عن أبي شامة فإن قلت إنا أنزلنا إن لم يكن من جملة القرآن الذي نزل جملة فما نزل جملة وإن كان من الجملة فما وجه هذه العبارة قلت لها وجهان أحدهما أن يكون المعنى إنا حكمنا بإنزاله في ليلة القدر وقضينا به وقدرناه في الأزل والثاني أن لفظ أنزلناه ماض ومعناه على الاستقبال أي تنزله جملة في ليلة القدر انتهى ولم يظهر لي في كلا وجهيه رحمه الله تعالى شامة حسن فأجل في ذلك نظراً فلعلك ترى وقيل المعنى إنا أنزلناه في فضل ليلة القدر أو في شأنها وحقها فالكلام على تقدير مضاف أو الظرفية مجازية كما في قول عمر رضي الله

(177/824)

تعالى عنه خشيت أن ينزل في قرآن وقول عائشة رضي الله تعالى عنها لأنا أحقر في نفسي من أن ينزل في قرآن وجعل بعضهم في في ذلك للسببية والضمير قيل للقرآن بالمعنى الدائر بين الكل والجزء وقيل بمعنى السورة ولا يأباه كون أنا أنزلناه فيها لما مر آنفاً فلا حاجة إلى أن يقال المراد بها ما عدا ﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ في ليلة القدر وقيل يجوز أن يراد به المجموع لاشتماله على

ذلك وأياً ما كان فحمل الآية على هذا المعنى غير معول عليه وإنما المعول عليه ما تقدم والمراد بالإنزال إظهار القرآن من عالم الغيب إلى عالم الشهادة أو إثباته لدى السفرة هناك أو نحو ذلك مما لا يشكل نسبته إلى القرآن واختلفوا في تلك الليلة فقيل أنها رفعت لخبر في ذلك وهو كما قال الكرماني غلط لأن آخر الخبر يرده والمراد رفع تعيينها فيه وعكرمة أنها ليلة النصف من شعبان وهو قول شاذ غريب كما في "تحفة المحتاج" وظاهر ما هنا مع ظاهر قوله تعالى:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذى أُنزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة: 185] يرده وعن ابن مسعود أنها تنتقل في ليالي السنة فتكون في كل سنة في ليلة ونسبه النووي إلى أبي حنيفة وصاحبيه والأكثرون على أنها في شهر رمضان فعن ابن رزين أنها الليلة الأولى منه وعن الحسن البصري السابعة عشر لأن وقعة بدر كانت في صبيحتها وحكى عن زيد بن أرقم وابن مسعود أيضاً وعن أنس مرفوعاً التاسعة عشر وحكى موقوفاً على ابن مسعود أيضاً وعن محمد بن إسحاق الحادية والعشرون لما في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري أنه عليه الصلاة والسلام قال

" قد رأيت هذه الليلة يعني ليلة القدر ثم نسيتها وقد رأيتني أسجد من صبيحتها في ماء وطين قال أبو سعيد فمطرت السماء من تلك الليلة فوكف المسجد فأبصرت عيناي رسول الله وعلى جبهته وأنفه أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين " وفي "مسلم" " من صبيحة ثلاث وعشرين " ومنه مع ما قبله مال الشافعي عليه الرحمة إلى أنها الليلة الحادية أو الثالثة والعشرون وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن عبد الله بن أنيس أنه سئل عن ليلة القدر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " التمسوها الليلة " وتلك الليلة ليلة ثلاث وعشرين وأخرج أحمد وأبو داود وابن جرير وغيرهم عن بلال قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ليلة القدر ليلة أربع وعشرين " وفي الاتقان وغيره أنها الليلة التي أنزل فيها القرآن وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي ذر أنه سئل عن ليلة القدر فقال كان عمر وحذيفة وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يشكون أنها ليلة سبع وعشرين وأخرج ابن نصر وابن جرير في تهذيبه عن معاوية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " التمسوا ليلة القدر في آخر ليلة من رمضان " وفي رواية أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً أنها آخر ليلة وقيل هي في العشر الأوسط تنتقل فيه وقيل في أوتاره وقيل في أشفاعه وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من شهر رمضان " وفي حديث أخرجه أحمد وجماعة عن عبادة بن الصامت مرفوعاً وحديثين أخرجهما ابن جرير وغيره عن جابر بن

سمرة وعن عبد الله بن جابر كذلك ما يدل على ما ذكر أيضاً بل الأخبار الصحيحة الدالة عليه كثيرة وبالجملة الأقوال فيها مختلفة جداً إلا أن الأكثرين على أنها في العشر الأواخر لكثرة الأحاديث الصحيحة في ذلك وأكثرهم على أنها في أوتارها لذلك أيضاً وكثير منهم ذهب إلى أنها الليلة السابعة من تلك الأوتار وصح من رواية الإمام

(179/824)

أحمد ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن حبان وغيرهم أن زرد بن حبيش سأل أبي بن كعب عنها فحلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين فقال له بم تقول ذلك يا أبا المنذر فقال بالآية والعلامة التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنها تصبح من ذلك اليوم تطلع الشمس ليس لها شعاع وبعض الأخبار عن ابن عباس ظاهرة في ذلك وفي بعضها الاستئناس له بما يدل على جلالة شأن السبعة التي قالوا فيها إنها عدد تام من كون السموات سبعاً والأرضين سبعاً والأيام سبعاً والجمار سبعاً والطواف بالبيت سبعاً والسجود على سبع إلى غير ذلك مما ذكره لما علمت من الأخبار الصحيحة المتظافرة وهو زمان ضعف البدن وفيه يزيد أجر العمل ووقت قوة الاستعداد للتجليات لمزيد التصفية وأنها في الأوتار أرجى للأحاديث أيضاً مع أن الله تعالى وتر يحب الوتر وقال ابن حجر

الهيثمي اختار جمع أنها لا تلزم ليلة بعينها من العشر الأواخر بل تنتقل في لياليه فعاماً أو أعواماً تكون وتراً إحدى أو ثلاثاً أو غيرهما وعاماً أو أعواماً تكون شفعاً اثنتين أو أربعاً أو غيرهما قالوا ولا تجتمع الأحاديث المتعارضة فيها إلا بذلك وكلام الشافعي رضي الله تعالى عنه في الجمع بين الأحاديث يقتضيه انتهى ولا يخفى أن الجمع بين الأحاديث يقتضيه انتهى ولا يخفى أن الجمع بذلك بين الأحاديث المتعارضة فيها مطلقاً مما لا يتسنى وإنما يتسنى الجمع بذلك بين الأحاديث المتعارضة فيها بالنظر إلى العشر وقيل في الجمع مطلقاً إنها تنتقل وما صح من التعيين في الجملة أو على التحقيق محمول على ليلة قدر في شهر رمضان مخصوص بأن يكون قد علم صلى الله عليه وسلم أنها في أول شهر رمضان فرض ليلة كذا فقال عليه الصلاة والسلام هي ليلة كذا أي في هذا الشهر رمضان المخصوص وعلم عليه الصلاة والسلام أنها في شهر رمضان بعده ليلة كذا غير تلك الليلة التي ذكرها قبل فقال صلى الله عليه وسلم هي ليلة كذا وعلم صلى الله عليه وسلم أنها

في آخر في العشر الأخير منه فقال هي في العشر الأخير أي من هذا الشهر المخصوص وهكذا وهو كما ترى وعلى القول بانتقالها ادعى بعضهم أنه إذا كان أول الشهر ليلة كذا

فهي الليلة السابعة والعشرون وإن كانت ليلة كذا فهي الليلة الحادية والعشرون إلى آخر ما قال وقد ذكرناه مع نظمه في الطراز المذهب وليس في ذلك ما يقوم حجة على الغير وفي بعض الأخبار ذكر علامات لها ففي حديث الإمام أحمد والبيهقي وغيرهما عن عبادة بن الصامت من إماراتها أنها ليلة بلجة صافية ساكنة لا حارة ولا باردة كأن فيها قمراً ساطعاً لا يرمى فيها بنجم حتى الصباح وأخرج نحواً منه ابن جرير في تهذيبه وابن مردويه عن جابر بن عبد الله مرفوعاً وحمل ذلك إن صح على ليلة قدر من شهر رمضان مخصوص كالمتعين لعدم إطراده ولا أغلبيته فيما يظهر والحكمة في إخفائها أن يجتهد من يطلبها في العبادة في غيرها ليصادفها كأن يحيى ليالي شهر رمضان كلها كما كان دأب السلف وللإمام في هذا المقام كلام يجل مثله عن التكلم بمثله ولعمري لقدسها فيه سهواً بيناً وأتى فيه بما يوشك أن يدل على جهله ومعنى ليلة القدر ليلة التقدير وسميت بذلك لما روى عن ابن عباس وغيره أنه يقدر فيها ويقضي ما يكون في تلك السنة من مطر ورزق وأحياء وإماتة إلى السنة القابلة والمراد إظهار تقديره تعالى ذلك للملائكة عليهم السلام المأمورين بالحوادث الكونية وإلا فتقديره تعالى جميع الأشياء أزلي قبل خلق السموات والأرض لكن قال بعض الأجلة كون التقدير في هذه الليلة يشكل عليه قول كثير أنه ليلة النصف من شعبان وهي المراد بالليلة المباركة التي قال الله تعالى فيها فيها

﴿ يفرق كل أمر حكيم ﴾ [الدخان : 4] وأجاب بأن ههنا ثلاثة أشياء الأول نفس تقدير الأمور أي تعيين مقاديرها وأوقاتها وذلك في الأكل والثاني إظهار تلك المقادير للملائكة عليهم السلام بأن تكتب في اللوح المحفوظ وذلك في ليلة النصف من شعبان والثالث إثبات تلك المقادير في نسخ وتسليمها إلى أربابها من المدبرات فتدفع نسخة الأرزاق والنباتات والأمطار إلى ميكائيل عليه السلام ونسخة الحروب والرياح والجنود والزلازل والصواعق والخسف إلى جبريل عليه السلام ونسخة الأعمال إلى إسرافيل عليه السلام ونسخة المصائب إلى ملك الموت وذلك في ليلة القدر وقيل يقدر في ليلة النصف الآجال والأرزاق وفي ليلة القدر الأمور التي فيها الخير والبركة والسلامة وقلي يقدر في هذه ما يتعلق به إعزاز الدين وما فيه النفع العظيم للمسلمين وفي ليلة النصف يكتب أسماء من يموت ويسلم إلى ملك الموت والله تعالى أعلم بحقيقة الحال وقال الزهري المعنى ليلة العظمة والشرف من قولهم رجل له قدر عند فلان أي منزلة وشرف وسميت بذلك لأن من أتى بفعل الطاعات فيها صار ذا قدر وشرف عند الله عز وجل أو لأن الطاعات لها فيها ذلك وقيل لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر بواسطة ملك ذي قدر على رسول ذي قدر لأمة ذات قدر وقيل لأنه يتنزل فيها ملائكة ذوات قدر وقال الخليل بن أحمد المعنى ليلة الضيق من ﴿ قدر عليه رزقه ﴾ [الطلاق : 7] ضيق وسميت بذلك لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة

عليهم السلام وخيريتها من ألف شهر باعتبار العبادة عند الأكثرين على معنى أن العبادة فيها خير من العبادة في ألف شهر ولا يعلم مقدار خيريتها منها إلا هو سبحانه وتعالى وهذا تفضل منه تعالى وله عز وجل أن يخص ما شاء بما شاء ورب عمل قليل خير من عمل كثير ولا ينافي هذا قاعدة أن كل ما كثر وشق كان أفضل لخبر مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله تعالى عنها

" أجرك على قدر نصبك " لأنها أغلبية على ما قال غير واحد ولا شك أن العمل القليل قد يفضل الكثير باعتبار الزمان وباعتبار المكان وباعتبار كيفية الأداء كصلاة واحدة أديت بجماعة فإنها تعدل خمساً وعشرين مرة صلاة مثلها أديت على الانفراد إلى غير ذلك نعم هذه الأفضلية قد تعقل في بعض وقد لا كما فيما نحن فيه ولا حجر على الله عز وجل ولا يعلم ما عنده سبحانه إلا هو جل شأنه وتخصيص الألف بالذكر قيل إما للتكثير كما في قوله تعالى : ﴿ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [البقرة : 96] وكثيراً ما يراد بالاعداد ذلك وفي "البحر" حكاية أن المعنى عليه خير من الدهر كله أو لما أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في "سننه" عن مجاهد أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر رجلاً من بني

إسرائيل ليس السلاح في سبيل الله تعالى ألف شهر فعجب المسلمون من ذلك وتقاصرت إليهم أعمالهم فانزل الله تعالى السورة وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن عروة قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله تعالى ثمانين عاماً لم يعصوه طرفة عين فذكر أيوب وزكريا وحزقيل بن العجوز ويوشع بن نون فعجب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك فأتاه جبريل عليه السلام فقال يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة فقد أنزل الله تعالى عليك خيراً من ذلك فقرأ عليه ﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ الخ ثم قال هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك منه فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل إن الرجل فيما مضى ما كان يقال له عابد حتى يعبد الله تعالى ألف شهر فأعطوا ليلة إن أحيوها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد وقال أبو بكر الوراق كان ملك كل من سليمان وذي القرنين خمسمائة شهر فجعل الله تعالى العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما وفي هذا نظر لأن إن أريد بذي القرنين الأول فهو على القول به قد ملك أكثر من ذلك بكثير

وإن أريد به الثاني أعني قاتل داراً فهو قد ملك أقل من ذلك بكثير وقيل أرى صلى الله عليه وسلم أعمار الأمم كافة فاستقصر أعمار أمته فخاف عليه الصلاة والسلام أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله تعالى ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم وذكره الإمام مالك في الموطأ وقد سمعت ما يدل على أن الألف إشارة إلى ملك بني أمية وكان على ما قال القاسم بن الفضل ألف شهر لا يزيد يوم ولا ينقص يوم على ما قيل ثمانين سنة وهي ألف شهر تقريباً لأنها ثلاثة وثمانون سنة وأربعة أشهر ولا يعكر عل ذلك ملكهم في جزيرة الأندلس بعد لأنه ملك يسير في بعض أطراف الأرض وآخر عمارة العرب ولذا لم يعد من ملك منهم هناك من خلفائهم وقالوا بانقراضهم بهلاك مروان الحمار وطعن القاضي عبد الجبار في كون الآية إشارة لما ذكر بأن أيام بني أمية كانت مذمومة أي باعتبار الغالب فيبعد أن يقال في شأن تلك الليلة أنها خير من ألف شهر مذمومة

.

ألم تر أن السيف ينقص قدره . . .

إذا قيل إن السيف خير من العصا

وأجيب بأن تلك الأيام كانت عظيمة بحسب السعادات الدنيوية فلا يبعد أن يقول الله تعالى أعطيتك ليلة في السعادات الدينية أفضل من تلك في السعادات الدنيوية فلا تبقى فائدة واختلف في أن تلك الليلة تستتبع يومها أم لا فقال الشعبي نعم يومها مثلها وقيل لعل الوجه فيه إن ذكر الليالي يستتبع الأيام ومنه إذا نذر اعتكاف ليلتين لزمتاه بيوميهما والكثير لا لكن قيل يسن الاجتهاد في يومها كما يسن فيها ولذا جاء في وصفها أن الشمس تطلع صبيحتها وليس لها شعاع كما تقدم أي لعظم أنوار الملائكة الصاعدين والنازلين فيها فإنه لا فائدة فيه سوى معرفة يومها ولا فائدة فيها لو لم يسن الاجتهاد فيه ومنع بأنه يجوز أن تكون الفائدة معرفتها نفسها ليجتهد فيها من قابل بناء على أنها لا تنتقل وظاهر الآية أنها أفضل من ليلة الجمعة والمسألة خلافية وأكثر الأئمة على أنها أفضل منها للآية ولأن الله تعالى أنزل فيها القرآن وهو هو ولم ينزله في غيرها ولأنه سبحانه أمر بطلبها فعن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿ وابتغوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: 187] ليلة القدر ولأنه عز وجل جعلها ليلة الفرق والحكم فقال جل شأنه ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ [الدخان: 4] وسماها جل وعلا ليلة القدر أي التقدير ولما روى عن كعب أنه قال إن الله تعالى اختار الساعات فاختار ساعات أوقات الصلاة واختار الأيام فاختار يوم الجمعة واختار الشهور فاختار شهر رمضان واختار الليالي فاختار ليلة القدر فهي أفضل ليلة في أفضل شهر ولأن النبي صلى الله عليه وسلم حث على العمل فيها فقد صح " من قام ليلة القدر إيماناً

واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " وفي رواية " وما تأخر " ونهى عليه الصلاة والسلام أن يخص ليلة الجمعة بقيام ويومها بصيام ولأنه سبحانه وتعالى أخفاها ولم يعينها كما أخفى سبحانه أعظم أسمائه عز وجل وكما أخفى جل شأنه أفضل الصلوات وهي الصلاة الوسطى إلى غير ذلك وذهب أكثر

(185/824)

الحنابلة كأبي الحسن الجزري وعبد الله بن بطة وأبي حفص البرمكي وغيرهم إلى أن ليلة الجمعة أفضل لما أخرج مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(186/824)

" يغفر الله تعالى ليلة الجمعة لأهل الإسلام أجمعين " وهذه فضيلة لم تجيء لغيرها ونحوه ما روى عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من ليلة جمعة إلا وينظر الله تعالى إلى خلقه ثلاث مرات فيغفر لمن لا يشرك بالله تعالى شيئاً " ولأنه روى ابن بشكوال

في كتابه القربة إلى رب العالمين بسنده إلى عمر رضي الله تعالى عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال " اكثروا الصلاة علي في الليلة الغراء واليوم الأزهر ليلة الجمعة ويوم الجمعة " والغرة من الشيء خياره ولأنه قد روى كثيرون منهم الإمام أحمد أن يومها سيد الأيام وأعظمها وأعظم عند الله تعالى من يوم الفطر ويوم الأضحى وصحح ابن حبان خبر لا تطلع الشمس ولا تغرب على يوم أفضل من يوم الجمعة فهي لذلك سيدة الليالي وأعظمها وأفضلها ولأنها معينة مشهودة يشهدها الخاص والعام من ذكر وأنثى وصغير وكبير وبصير وضرير وتصل بركتها إلى الأحياء والأموات وليلة القدر غير معينة فلا ينتفع بها إلا قليل إلى غير ذلك وأجاب هؤلاء عن الآية بأنه لما أريد فيها أنها خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر كما قال قتادة وغيره فليرد أيضاً أنها خير من ألف شهر ليس فيها ليلة جمعة ويدل للأمرين أن أكثر أسباب النزول السابقة تدل على أن المراد بالشهور شهور من تقدمنا وهي ليس فيها ليلة قدر ولا ليلة جمعة وعن سائر المستندات بأن بعضها معارض وبعضها لا يدل على أكثر من فضلها وهو ما لم ينكره أحد والأولون أجابوا عن مستنداتهم بنحو ما أجابوا وللتعارض قال أحمد بن الحسين بن يعقوب بن قاسم المقري من الحنابلة أن القولين في المسألة قولان شائعان بين الأصحاب ولكل دلائل تدل على صوابيته فلا ينبغي لأحد أن يطلق الخطا على قائل كل منهما وأنت بعد التأمل في أدلة الطرفين والوقوف على أحوالها يتعين عندك أفضلية

ليلة القدر وتعين ليلة الجمعة وههنا قول متوسط بين القولين حكى القاضي أبو يعلى أن أبا الحسن التميمي من الحنابلة

(187/824)

أيضاً كان يقول ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن أفضل من ليلة الجمعة لما حصل فيها من الخير الكثير الذي لم يحصل في غيرها فأما أمثالها من ليالي القدر فليلة الجمعة أفضل منها وقيل نظيره في ليلة المعراج مع ليلة الجمعة ونحوها ثم إن ظاهر كلام بعض الحنفية كصاحب الجوهرة أن ليلة النحر أفضل من ليلة القدر وسائر ليالي السنة ويرد عليه ظاهر الآية أيضاً ولعله يجيب بنحو ما سبق آنفاً ونقل الطحطاوي عليه الرحمة في "حواشي الدر المختار" عن بعض الشافعية أن أفضل الليالي ليلة مولده عليه الصلاة والسلام ثم ليلة القدر ثم ليلة الإسراء والمعراج ثم ليلة عرفة ثم ليلة الجمعة ثم ليلة النصف من شعبان ثم ليلة العيد وأنا لا أرى أن له ما يعول عليه في ذلك والله تعالى أعلم وما أشير إليه من كونها من خصائص هذه الأمة هو الذي يقتضيه أكثر الأخبار الواردة في سبب النزول وصرح به الهيثمي وغيره وقال القسطلاني أنه معترض بحديث أبي ذر عند النسائي حيث قال فيه يا رسول الله أتكون مع الأنبياء فإذا ماتوا رفعت قال بل هي باقية ثم ذكر أن عمدة القائلين بذلك الخبر الذي قدمناه

في سبب النزول من رؤيته صلى الله عليه وسلم تقاصر أعمار أمته عن أعمار الأمم وتعقبه بقوله هذا محتمل للتأويل فلا يدفع الصريح في حديث أبي ذر كما قاله الحافظان ابن كثير في "تفسيره" وابن حجر في فتح الباري انتهى والحق الأول والصراحة في حيز المنع وقد أخرج الديلمي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إن الله تعالى وهب لأمتي ليلة القدر لم يعطها من كان قبلهم" فتأمل ولا تغفل وقوله تعالى:

﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا ﴾

(188/824)

استئناف مبين لمناط فضلها على تلك المدة المديدة فضمير فيها لليلة وزعم بعضهم أن الجملة صفة لألف شهر والضمير لها وليس بشيء وجوز بعضهم كون الضمير للملائكة على أن الروح مبتدأ لا معطوف على الملائكة وفيها خبره لا متعلق بتنزل والجملة حال من الملائكة وهو خلاف الظاهر والروح عند الجمهور هو جبريل عليه السلام وخص بالذكر لزيادة شرفه مع أنه النازل بالذكر وقيل ملك عظيم لو التقم السموات والأرض كان ذلك له لقمة واحدة وذكر في التيسير من وصفه ما يبهر العقول والله تعالى أعلم بصحة الخبر وقال كعب ومقاتل الروح طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة كالزهاد الذين لا

تراهم إلا يوم العيد أو الجمعة وقيل حفظة على الملائكة كالملائكة الحفظة علينا وقيل خلق من خلق الله تعالى يأكلون ويلبسون ليسوا من الملائكة ولا من الانس ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ [النحل : 8] ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ [المدثر : 31] ولعلهم على ما قيل خدم أهل الجنة وقيل هو عيسى عليه السلام ينزل لمطالعة هذه الأمة وليزور النبي صلى الله عليه وسلم وقيل أرواح المؤمنين ينزلون لزيارة أهليهم وقيل الرحمة كما قرئ ﴿ لا تيأسوا من روح الله ﴾ [يوسف : 78] بالضم وعلى الأول المعول والظاهر الذي تشهد له الأخبار أن التنزل إلى الأرض فقيل إن ذلك لما ذكر الله تعالى بعد وسيأتي إن شاء الله تعالى لكلام فيه وقيل ينزلون إليها للتسليم على المؤمنين وقيل لأن الله تعالى جعل فضيلة هذه الليلة في الاستغال بطاعته في الأرض فهم ينزلون إليها لتصير طاعاتهم أكثر ثوابا كما أن الرجل منا يذهب إلى مكة لتصير طاعته كذلك فيكون المقصود من الأخبار بذلك ترغيب الإنسان في الطاعة وقال عصام الدين يحتمل أن يكون تنزلهم لإدراكها إذ ليس في السماء ليل والجملة حينئذ مقررة لما سبق لا مبينة لمناط الفضل وفيه نظر لا يخفى وقيل غير ذلك مما سنشير إليه إن شاء الله تعالى وقيل المراد تنزلهم

إلى السماء الدنيا وهو خلاف المتبادر وأنزل منه بكثير كون المراد بتنزلهم تنزلهم عن مراتبهم العلية من الاشتغال بالله تعالى والاستغراق بمطالعة جلاله عز وجل ليسلموا على المؤمنين واستظهر أن المراد بالملائكة عليهم السلام جميعهم واستشكل بأن لهم كثرة عظيمة لا تتحملها الأرض وكذا السماء الدنيا لأنها قبل نزولهم مملوءة اطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك ساجد أو راكع أو قائم وأجيب بأنهم ينزلون فوجاً فوجاً فمن نازل وصاعد كالحجاج فإنهم على كثرتهم يدخلون الكعبة مثلاً بأسرهم لكن لا على وجه الاجتماع بل هم بين داخل وخارج وفي التعبير بتنزل المفيد للتدريج دون نزل رمز إليه وقيل إنهم لكونهم أنواراً لا تزاحم بينهم فالنور إذا ملأ حجرة مثلاً لا يمنع من إدخال ألف نور عليه وهو كما ترى ومن الناس من خص الملائكة ببعض فرقهم وهم سكان سدرة المنتهى أو بعض منهم وفي الغنية للقطب الرباني الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال إذا كان ليلة القدر يأمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن ينزل إلى الأرض ومعه سكان سدرة المنتهى سبعون ألف ملك ومعهم الوية من نور فإذا هبطوا إلى الأرض ركز جبريل عليه السلام لواءه والملائكة عليهم السلام ألويتهم في أربعة مواطن عند الكعبة وقبر النبي صلى الله عليه وسلم ومسجد بيت المقدس ومسجد طور سيناء ثم يقول جبريل عليه السلام تفرقوا فيتفرقون ولا يبقى دار ولا حجر ولا بيت ولا سفينة فيها مؤمن أو مؤمنة إلا دخلته الملائكة عليهم السلام إلا بيتاً فيه كلب أو خنزير أو

خمر أو جنب من حرام أو صورة تماثيل فيسبحون ويقدسون ويهللون ويستغفرون لأمة محمد صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان وقت الفجر ثم يصعدون إلى السماء فيستقبلهم سكان سماء الدنيا فيقولون لهم من أين أقبلتم فيقولون كنا في الدنيا لأن الليلة لية القدر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيقول سكان السماء الدنيا

(190/824)

ما فعل الله تعالى بحوائج أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيقول جبريل عليه السلام أن الله تعالى غفر لصالحهم وشفعهم في طالحهم فترفع ملائكة سماء الدنيا أصواتهم بالتسبيح والتقديس والثناء على رب العالمين شكراً لما أعطى الله تعالى هذه الأمة من المغفرة والرضوان ثم تشيعهم ملائكة السماء الدنيا إلى الثانية كذلك وهكذا إلى السابعة ثم يقول جبريل عليه السلام يا سكان السموات ارجعوا فيرجع ملائكة كل سماء إلى مواضعهم فإذا وصلوا إلى سدرة المنتهى يقول لهم سكانها أين كنتم فيجيبونهم مثل ما أجابوا أهل السموات فيرفع سكان سدرة المنتهى أصواتهم بالتسبيح والتهليل والثناء فتسمع جنة المأوى ثم جنة النعيم وجنة عدن والفردوس ويسمع عشر الرحمن فيرفع العرش صوته بالتسبيح والتهليل والثناء على رب العالمين شكراً لما أعطى هذه الأمة ويقول إلهي بلغني

عنك إنك غفرت البارحة لصالحي أمة محمد صلى الله عليه وسلم وشفعت صالحها في طالحها فيقول الله عز وجل : ﴿ صَدَقْتَ ﴾ ولأمة محمد عليه الصلاة والسلام عندي من الكرامة ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وفي رواية عن كعب نزول جميع ملائكة سدة المنتهى مع جبريل عليهم السلام ولا يعلم عددهم إلا الله تعالى وأن جبريل عليه السلام لا يدع أحداً من الناس إلا صافحه وفي رواية لا يدع مؤمناً ولا مؤمنة إلا سلم عليه إلا مد من الخمر وآكل لحم الخنزير والمتضمخ بالزعفران وأن علامة مصافحته عليه السلام اقشعرار الجلد ورقة القلب ودمع العينين وروى في نزوله مع الملائكة عليهم السلام وعروجه معهم غير ذلك وقد ذكر بعضاً من ذلك الإمام وغيره ونسأل الله تعالى صحة الأخبار وذكر بعضهم أن جبريل عليه السلام يقسم تلك الليلة ما ينزل من رحمة الله تعالى حتى يستغرق أحياء المؤمنين فيقول يا رب بقي من الرحمة كثيراً فما أصنع به فيقول الله عز وجل قسم على أموات أمة محمد صلى الله عليه وسلم فيقسم حتى يستغرقهم فيقول يا رب

بقي من الرحمة كثير فما أصنع به فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾

فيقسمه عليهم فمن أصابه منهم شيء من تلك الرحمة مات على الايمان ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾

متعلق بتنزل أو بمحذوف هو حال من فاعله أي ملتبسين بإذن ربهم أي بأمره عز وجل

والتقييد بذلك لتعظيم أمر تنزلهم وقيل الإشارة إلى أنهم يرغبون في أهل الأرض من المؤمنين

ويشتاقون إليهم فيستأذنون فيؤذن لهم وفيه نوع ترغيب في الاجتهاد في الطاعة واستشكل

أمر هذه الرغبة مع كثرة المعاصي وأجيب بأنهم غير واقفين على تفاصيلها أو لم يعتبروها

مانعة من ذلك لأنهم يرون من أنواع الطاعات ما لا يرونه في السماء أو ليسمعوا أنين العصاة

التائبين ففي

" الحديث القدسي لأنين المذنبين أحب إلى من زجل المسبحين " أو ليجتمعوا مع من بينه

وبينهم مناسبة من الصديقين أداء لمراسم المحبة فإن أرواح الصديقين المتجردة عن جلابيب

الأبدان لم تزل تزور الملائكة عليهم السلام في مواضعهم بعروجها إليهم فناسب أن تزورهم

الملائكة عليهم السلام في زواياهم وإن اقتضى ذلك الاجتماع مع غيرهم ممن ليسوا كذلك

فإنه أمر تبعي .

ولأجل عين ألف عين تكرم . . .

﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي من أجل كل أمر تعلق به التقدير في تلك السنة إلى قابل وأظهره سبحانه وتعالى لهم قاله غير واحد من بمعنى اللام التعليلية متعلقة بتنزل قال عصام الدين فإن قلت المقدرات لا تفعل في تلك الليلة بل في تمام السنة فلماذا تنزل الملائكة عليهم السلام فيها لأجل تلك الأمور قلت لعل تنزلهم لتعيين انفاذ تلك الأمور لهم وتنزلهم لأجل كل أمر ليس على معنى تنزل كل واحد لأجل كل أمر ولا تنزل كل واحد لأمر بل على معنى تنزل الجميع لأجل جميع الأمور حتى يكون في الكلام تقسيم العلل على المعلولات انتهى وأقول يمكن أن يكون تنزلهم لإعداد القوابل لقبول ما أمروا به وأشار بما ذكره من التقسيم إلى أنه يجوز أن يكون نزول الواحد منهم لعدة أمور وقولهم ﴿ مِنْ أَجْلِ كُلِّ أَمْرٍ ﴾ الخ قد تقدم ما فيه من البحث فتذكر وقال أبو حاتم من بمعنى الباء أي تنزل بكل أمر فقيل أي من الخير والبركة وقيل من الخير والشر وجعلت الباء عليه للسببية فيرجع المعنى إلى نحو ما مر ومنهم من جعلها للملابسة والمراد بملابستهم له ملابستهم للأمر به فكأنه قيل تنزل الملائكة وهم مأمورون بكل أمر يكون في السنة وكونهم يتنزلون وهم كذلك يستدعي فعلهم جميع ما أمروا به في تلك الليلة والظاهر على ما قالوا أن المراد بالملائكة المدبرات إذ يرهم لا تعلق له في الأمور التي تعلق بها التقدير ليتنزلوا لأجلها على المعنى السابق وهو خلاف ما تدل عليه الآثار من عدم اختصاصهم بالمدبرات فتدبر وكأنه لذلك قيل إن من كل أمر متعلق بقوله

تعالى :

سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

(193/824)

﴿ سلام ﴾ وهو مصدر بمعنى السلامة خبر مقدم وقوله تعالى : ﴿ هِيَ ﴾ مبتدأ أي هي سلام من كل أمر مخوف وتعلقه بذلك على التوسع في الظرف وإلا فمعمول المصدر لا يتقدم عليه في المشهور وقيل هو متعلق بمحذوف مقدم يفسره المذكور ومن وقف على كلام العلامة التفتازاني في أوائل شرح التلخيص في مثل ذلك استغنى عما ذكر وقيل ﴿ من كل أمر ﴾ [القدرة : 4] متعلق بتنزل لكن على معنى تنزل إلى الأرض منفصلة من كل أمر لها في السماء وتاركة له وفيه إشارة إلى مزيد الاهتمام بالتنزل إلى الأرض وفيه من البعد ما فيه وتقديم الخبر للحصر كما في تميم أنا والإخبار بالمصدر للمبالغة أي ما هي إلا سالمة جداً حتى كأنها عين السلامة قال الضحاك في معنى ذلك أنه تعالى لا يقدر ولا يقضي فيها إلا السلامة قيل أي لا ينفذ تقديره تعالى ويتعلق قضاؤه إلا بذلك وحاصله لا يوجد إلا ذلك وقال مجاهد : إنها سالمة من الشيطان وأذاه وروي أن الشيطان لا يخرج في ليلة القدر حتى يضيء فجرها ولا يستطيع أن يصيب فيها أحداً بخبل أو داء أو ضرب من ضروب الفساد

ولا ينفذ فيها سحر ساحر ولعل ما يصدر من المعاصي على هذا من النفس الأمارة بالسوء لا بواسطة الشيطان واستشكل كلام الضحاك بناءً على ما قيل فيه بأنه لا تخلوا ليلة من الشر والأمر المخوف ولا موجد إلا الله عز وجل فلعله أراد ما تقدم نقله غير بعيد من أن الله تعالى إنما يقدر في هذه الليلة السلامة والخير أي لا يظهر سبحانه للملائكة عليهم السلام إلا تقديره عز وجل ذلك وقيل ما هي إلا سلامة على نحو ما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا رحمة والمراد أنها سبب تام للسلامة والنجاة من المهالك يوم القيامة حيث إن من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وقيل السلام مصدر بمعنى التسليم أي ما هي إلا تسليم لكثرة التسليم والمسلمين من الملائكة على المؤمنين فيها وروي ذلك عن الشعبي ومنصور وجعلها عين التسليم للمبالغة أيضاً وقوله

(194/824)

تعالى: ﴿ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ غاية تبين تعميم السلامة أو التسليم كل الليلة فالجار متعلق بسلام ومطلع اسم زمان وقد صرحوا أنه من يفعل ويفعل بفتح العين وضمها على مفعل مفتوح العين وجوز كونه مصدرا ميمياً بمعنى الطلوع ويحتاج إلى تقدير مضاف قبله هو وقت أو ما في معناه لتتحد الغاية والمغيا فيكونان من جنس واحد وصح تعلق الجار بذلك

مع الفصل لأنه ليس بمصدر نظراً للحقيقة وأفاد الطبرسي وغيره أنه لا بد من تأويله بسالمة أو مسلمة ليصح التعلق أما لو أبقى على مصدريته فلا يصح للزوم الفصل بين الصلة والموصول وذهب بعضهم إلى أن الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ مغتفر وجوز أن تتعلق الغاية بتنزل على معنى أنه لا ينقطع تنزلهم فوجاً بعد فوج إلى وقت طلوع الفجر وتعقب بأنه تعسف لأن سلام هي أجنبي وليس باعتراض فلا يحسن الفصل به وجعله حالاً من الضمير المجرور في قوله تعالى ﴿ فيها ﴾ أي ذات سلامة أو سلام لا يخفى حاله وقيل يجوز أن يكون الوقف على سلام وهو خبر لمحذوف و

(195/824)

﴿ من كل أمر ﴾ [القدر : 4] متعلق به وهي مبتدأ وحتى مطلع الفجر خبره ولم يجوز ذلك الطيبي والطبرسي وغيرهما قالوا لعدم الفائدة بالإخبار عنها بأنها حتى مطلع الفجر إذ كل ليلة بهذه الصفة وأجيب بأنه لما أخبر عنها بأنها خير من ألف شهر وفهم أنها مخالفة لسائر الليالي في الصفة وكان ذلك مظنة توهم أن ذاتها في المقدار مغايرة لذوات الليالي فيه أيضاً دفع ذلك بقوله تعالى : ﴿ هِىَ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ أي لم تخالف سائر الليالي في ذلك وإن خالفتها في الفضل والخيرية وقرأ ابن عباس وعكرمة والكلبي من كل امرىء بهمز في

آخره أي تنزل من أجل كل إنسان أي من أجل ما يتعلق به مما قدر في تلك الليلة ويرجع إلى نحو ما تقدم أو من أجل مصلحته من الاستغفار له ونحوه على أن المراد بذلك كل امرئ مؤمن على ما قيل وقيل الجار متعلق بسلام والمراد بكل امرئ الملائكة عليهم السلام أي سلام وتحية هي على المؤمنين من كل ملك وأنكر كما قال ابن جني هذه القراءة أبو حاتم وقرأ أبو رجاء والأعمش وابن وثاب وطلحة وابن محيصن والكسائي وأبو عمرو بخلاف عنه مطلع بكسر اللام على أنه مصدر كالمرجع ويقدر مضاف كما سمعت أو اسم زمان على غير قياس كالمشرق فإن مفعلاً بالكسر قياس يفعل مكسور العين وفي "البحر" قيل مطلع ومطلع بالفتح والكسر مصدران في لغة تميم وقيل المصدر بالفتح وموضع الطلوع بالكسر عند أهل الحجاز انتهى وإرادة الموضع ههنا لا موضع لها كما لا يخفى هذا واعلم أنه يسن الدعاء في هذه الليلة المباركة وهي أحد أوقات الإجابة وأخرج الإمام أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وغيرهم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت قلت يا رسول الله إن وافقت ليلة القدر فما أقول قال " قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني " ويجتهد فيها بأنواع العبادات من صلاة وغيرها وقال سفيان الثوري الدعاء في تلك الليلة أحب من الصلاة ثم أفاد أنه إذا قرأ أو دعا كان حسناً وكان صلى الله عليه

وسلم يجتهد في ليالي شهر رمضان ويقرأ فيها قراءة مرتلة لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا تعوذ وذكر ابن رجب أن الأكمل الجمع بين الصلاة والقراءة والدعاء والتفكر وقد كان عليه الصلاة والسلام يفعل ذلك كله لا سيما في العشر الأواخر ويحصل قيامها على ما قال البعض بصلاة التراويح وأخرج البيهقي عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(197/824)

" من صلى المغرب وعشاء ل في جماعة حتى ينقضي شهر رمضان فقد أصاب من ليلة القدر بحظ وافر " وأخرج مالك وابن أبي شيبة وابن زنجويه والبيهقي عن سعيد بن المسيب قال من شهد العشاء ليلة القدر في جماعة فقد أخذ بحظه منها وفي تحفة المحتاج لابن حجر الهيتمي عليه الرحمة يسن لرائيها كتمها ولا ينال فضلها أي كماله إلا من أطلعه الله تعالى عليها انتهى والظاهر أنه عنى برؤيتها رؤية ما يحصل به العلم له بها مما خصت به من الأنوار وتنزل الملائكة عليهم السلام أو نحواً من الكشف المفيد للعلم مما لا يعرف حقيقته إلا أهله وهو كالنص في أنها يراها من شاء الله تعالى من عباده وقال أبو حفص بن شاهين على

ما حكاه ابن رجب أن الله تعالى لم يكشفها لأحد من الأولين والآخرين ولا النبيين والمرسلين في يوم ولا ليلة إلا نبينا صلى الله عليه وسلم فإنه لما أنزلها عليه وعرفه قدرها أراه عليه الصلاة والسلام إياها في منامه وعرفه في أي ليلة تكون فأصبح عالماً بها وأراد أن يخبر بها الناس لسروره فتلاحى بين يديه رجلان فأنسيها صلى الله عليه وسلم أصلاً فأمروا بذلك ليلتمس فضلها في الليالي المسماة انتهى وحديث أنه صلى الله عليه وسلم رآها ونسيها قد رواه الإمام مالك والإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم وهو مما لا تردد في صحته لكن في دلالته على أنه لم يعلم عليه الصلاة والسلام بها ولم يرها بعد ولا يراها أحد من أمته صلى الله عليه وسلم أبداً تردداً ولعل الأمر بالتماسه في العشر الأواخر مثلاً يشير إلى رجاء رؤيتها فيها إذ ما لا يرجى في زمان أو مكان لا يحسن أن يؤمر أحد بالتماسها فيه عادة وفي بعض الأخبار ما يدل على أن رؤيتها مناماً وقعت لغيره صلى الله عليه وسلم ففي "صحيح مسلم" وغيره عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رجالاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أرى رؤياكم قد

تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر " وحكي نحو قول ابن شاهين عن غيره أيضاً وغلط ففي "شرح الصحيح" للنووي اعلم أن ليلة القدر موجودة وأنها ترى ويتحققها من شاء الله تعالى من بني آدم كل سنة في رمضان كما تظاهرت عليه الأحاديث وأخبار الصالحين بها ورؤيتهم لها أكثر من أن تحصى وأما قول القاضي عياض عن المهلب بن أبي صفرة لا يمكن رؤيتها حقيقة فغلط فاحش نبهت عليه لئلا يغتر به انتهى بقي في الكلام على هذه الليلة بحث مهم وهو أنه على قول المعتبرين لاختلاف المطالع يلزم القول بتعددها في رمضان وكونها وتراً من لياليه عند قوم وشفعاً عند آخرين فلا يصح إطلاق القول بأحدهما وكذا لا يصح إطلاق القول بأنها ليلة كذا كليلة السابع والعشرين أو الحاديث والعشرين مثلاً من الشهر على ذلك أيضاً بل لا يصح إطلاق القول بأن وقت التقدير وتنزل الملائكة ليلة فالليلة عند قوم نهار في الجهة المسامتة لاقدامهم وهي قد تكون مسكونة ولو بواسطة سفينة تمر فيها وربما يكون زمان الليل عند قوم بعضه ليلاً وبعضه نهاراً عند آخرين كاهل بعض العروض البعيدة عن خط الاستواء بل قد تنقضي أشهر بليل ونهار على قوم ولم ينقض يوم واحد في بعض العروض بل لا يصح أيضاً إطلاق القول بأنها في رمضان وأنها الليلة الأولى أو الأخيرة منه إذ الشهر دخولاً وخروجاً مختلف بالنسبة إلى سكان البسيطة وأجاب بعض بالتزام أن ما أطلق من القول فيها ليس على إطلاقه فيكون القول بوتريتها بالنسبة إلى قوم وبشفعيتها بالنسبة إلى آخرين وهكذا القول بأنها ليلة كذا من الشهر

وبالتزام أنها ليلة بالنسبة إلى قوم نهار بالنسبة إلى آخرين وأن التعبير بالليلة لرعاية مكان المنزل عليه القرآن عليه الصلاة والسلام وغالب المؤمنين به فإن ما هو سمت اقدامهم مما ليلهم نهاره لم يعمر بالمسلمين بل لا يكاد يعمر بهم حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها وقال: إنها حيث كانت نهاراً عند

(199/824)

قوم لا يبعد أن يعطي الله تعالى أجرها من اجتهد من غيرهم في ليلة ذلك النهار وأن يعطي سبحانه ذلك أيضاً من اجتهد منهم ليلاً وهي عندهم نهار وعلى نحو هذا يقال في الصور التي ذكرت في البحث وأدعى أن هذا نوع من الجمع بين الأحاديث المتعارضة وأن في قولهم يسن الاجتهاد في يومها رمز إما لشيء من ذلك وهو كما ترى وأجاب آخر بما يستحي القلم من ذكره ويرى تركه هو الحري بقدره وسمعت من بعض أحبابي أن الشيخ إسماعيل العجلوني عليه الرحمة تعرض فيما شرح من "صحيح البخاري" لشيء من هذا البحث والجواب عنه ولم أقف عليه وعندي أن البحث قوي والأمر مما لا مجال لعقلي فيه ومثل ليلة القدر فيما ذكر وقت نزوله سبحانه وتعالى إلى السماء الدنيا من الليل كما صحت به الأخبار وكذا ساعة الإجابة من يوم الجمعة إلى أمثال أخر وللشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى

كلام طويل في الأول لم يحضرني منه الآن ما يروي الغليل ولغيره كابن حجر كلام مختصر في الثاني وهو مشهور وربما يقال أنها لكل قوم ليلتهم وإن اختلفت دخولاً وخروجاً بالنسبة إلى آفاقهم كسائر لياليهم فتدخل الليلة مطلقاً في بغداد مثلاً عند غروب الشمس فيها وبعد نصف ساعة منه تدخل في إسلامبول مثلاً وذلك أول وقت الغروب فيها وهكذا والخروج على عكس ذلك فكان الليلة راكب يسير إلى جهة فيصل إلى كل منزل في وقت ويلتزم أن تنزل الملائكة حسب سيرها ولا يبعد أن يتنزل عند كل قوم ما شاء الله تعالى منهم عند أول دخولها عندهم ويعرجون عند مطلع فجرها عندهم أيضاً أو يبقى المتنزل منهم هناك إلى أن تنقضي الليلة في جميع المعمورة فيعرجون معاً عند انقضائها ويلتزم القول بتعدد التقدير حسب السير أيضاً بأن يقدر الله تعالى في أي جزء شاء سبحانه منها بالنسبة إلى من هي عندهم أموراً تتعلق بهم ومناط الفضل لكل قوم تحققها بالنسبة إليهم وقيامهم فيها ومثل هذه الليلة فيما ذكر سائر أوقات العبادة كوقت الظهر والعصر وغيرهما وهذا غاية ما

يخطر بالبال فيما يتعلق بهذا الإشكار وأمر ما يعكر عليه من أخبار الآحاد سهل على أن الكثير منها في صحته مقال فتأمل في ذاك والله عز وجل يتولى هداك ثم إن ليلة القدر عند

السادة الصوفية ليلة يختص فيها السالك بتجل خاص يعرف به قدره ورتبته بالنسبة إلى محبوبه وهي وقت ابتداء وصول السالك إلى عين الجمع ومقام البالغين في المعرفة وما ألطف قول الشيخ عمر بن الفارض قدس سره

: وكل الليالي ليلة القدر إن دنت . . .

كما كل أيام اللقا يوم جمعة

هذا والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(201/824)

وقال الشوكانى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) ﴾

الضمير في : ﴿ أنزلناه ﴾ للقرآن ، وإن لم يتقدّم له ذكر .

أنزل جملة واحدة في ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، وكان ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم نجوماً على حسب الحاجة ، وكان بين نزول أوّله وآخره على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث وعشرون سنة ، وفي آية أخرى : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةٍ

مباركة ﴾ [الدخان : 3] وهي : ليلة القدر ؛ وفي آية أخرى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذى أُنزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة : 185] وليلة القدر في شهر رمضان .

قال مجاهد : في ليلة القدر ليلة الحكم .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر ﴾ ليلة الحكم ، قيل سميت ليلة القدر لأن الله سبحانه يقدّر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة .

وقيل : إنها سميت بذلك لعظيم قدرها وشرفها ، من قولهم : لفلان قدر ، أي : شرف ومنزلة ، كذا قال الزهري .

وقيل : سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً ، وثواباً جزيلاً .

وقال الخليل : سميت ليلة القدر ؛ لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة ، كقوله : ﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ ﴾ [الطلاق : 7] أي ضيق .

وقد اختلف في تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولاً ، قد ذكرناها بأدلتها ، وبينا الراجح منها في شرحنا للمنتقى .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر ﴾ هذا الاستفهام فيه تفخيم لشأنها حتى كأنها خارجة عن دراية الخلق لا يدري بها إلاّ الله سبحانه .

قال سفيان : كلّ ما في القرآن من قوله : وما أدراك ، فقد أدراه ، وكلّ ما فيه ﴿ وما يدريك ﴾ [عبس : 3] ، فلم يدره ، وكذا قال الفراء .

والمعنى : أيّ شيء تجعله دارياً بها ؟ وقد قدّمنا الكلام في إعراب هذه الجملة في قوله ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحاقة ﴾ [الحاقة : 3] ثم قال : ﴿ لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ قال كثير من المفسرين ، أي : العمل فيها خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر .

واختار هذا الفراء ، والزجاج ، ولك أن الأوقات إنما يفضل بعضها على بعض بما يكون فيها من الخير والنفع .

فلما جعل الله الخير الكثير في ليلة كانت خيراً من ألف شهر لا يكون فيها من الخير والبركة ما في هذه الليلة .

وقيل : أراد بقوله ألف شهر جميع الدهر ؛ لأن العرب تذكر الألف في كثير من الأشياء على طريق المبالغة .

وقيل : وجه ذكر الألف الشهر أن العابد كان فيما مضى لا يسمى عابداً حتى يعبد الله ألف شهر ، وذلك ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر ، فجعل الله سبحانه لأمة محمد عبادة ليلة خيراً من عبادة ألف شهر كانوا يعبدونها .

وقيل : إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى أعمار أمته قصيرة ، فخاف أن لا يبلغوا من العمل

مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر ، فأعطاه الله ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم .

وقيل : غير ذلك مما لا طائل تحته .

وجملة : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ مستأنفة مبينة لوجه فضلها موضحة للعلة التي صارت بها خيراً من ألف شهر .

وقوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ يتعلق ب ﴿ تنزل ﴾ ، أو بمحذوف ، هو حال ، أي : ملتبسين بإذن ربهم ، والإذن الأمر ، ومعنى ﴿ تنزل ﴾ : تهبط من السماوات إلى الأرض .

والروح هو جبريل عند جمهور المفسرين ، أي : تنزل الملائكة ومعهم جبريل ، ووجه ذكره بعد دخوله في الملائكة التعظيم له والتشريف لشأنه .

وقيل الرّوح صنف من الملائكة هم أشرافهم .

وقيل هم جند من جنود الله من غير الملائكة .

وقيل : الروح الرحمة ، وقد تقدّم الخلاف في الروح عند قوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الروح والملائكة صَفّاً ﴾ [النبأ : 38] .

قرأ الجمهور : ﴿ تنزل ﴾ بفتح التاء ، وقرأ طلحة بن مصرف ، وابن السميفع بضمها على البناء للمفعول ، وقوله : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي : من أجل كلّ أمر من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة .

وقيل : إن ﴿ من ﴾ بمعنى اللام ، أي : لكلّ أمر .

وقيل : هي بمعنى الباء ، أي : بكلّ أمر ، قرأ الجمهور : ﴿ أمر ﴾ وهو واحد الأمور ، وقرأ عليّ ، وابن عباس ، وعكرمة ، والكلبي : (امرىء) مذكر امرأة ، أي : من أجل كلّ إنسان ، وتأولها الكلبي على أن جبريل ينزل مع الملائكة ، فيسلمون على كلّ إنسان ، فمن على هذا بمعنى على ، والأوّل أولى .

وقد تمّ الكلام عند قوله من كلّ أمر ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ سلام هِيَ ﴾ أي : ما هي إلاّ سلامة وخير كلها لا شرّ فيها .

وقيل : هي ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان في مؤمن أو مؤمنة .

قال مجاهد : هي ليلة سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ولا أذى .

وقال الشعبي : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر يمرّون على كلّ مؤمن ويقولون السلام عليك أيها المؤمن .

وقيل : يعني سلام الملائكة بعضهم على بعض .

قال عطاء : يريد سلام على أولياء الله ، وأهل طاعته : ﴿ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ أي :

حتى وقت طلوعه .

قرأ الجمهور : ﴿ مطلع ﴾ بفتح اللام .

وقرأ الكسائي ، وابن محيصن بكسرها .

فقيل : هما لغتان في المصدر ، والفتح أكثر نحو المخرج والمقتل .

وقيل : بالفتح اسم مكان ، وبالكسر المصدر .

وقيل : العكس ، و " حتى " متعلقة بتنزل على أنها غاية لحكم التنزل ، أي : لمكثهم في محل تنزلهم بأن لا ينقطع تنزلهم فوجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر .

وقيل متعلقة ب ﴿ سلام ﴾ بناءً على أن الفصل بين المصدر ، ومعموله بالمبتدأ مغتفر .

وقد أخرج ابن الضريس ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّآ أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ قال : أنزل القرآن في ليلة القدر حتى وضع في بيت العزّة في السماء الدنيا ، ثم جعل جبريل ينزل على محمد بجواب كلام العباد وأعمالهم .

وأخرج عبد بن حميد عن أنس قال : العمل في ليلة القدر ، والصدقة ، والصلاة ، والزكاة

أفضل من ألف شهر .

وأخرج الترمذي وضعفه ، وابن جرير ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أري بني أمية على منبره ، فساءه ذلك ، فنزلت : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ [الكوثر : 1] يا محمد .

يعني نهراً في الجنة ، ونزلت : ﴿ إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر * لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يملكها بعدك بنو أمية .

قال القاسم : فعددنا فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً ، ولا تنقص يوماً ، والمراد بالقاسم هو القاسم بن الفضل المذكور في إسناده .

قال الترمذي : إن يوسف هذا مجهول ، يعني يوسف بن سعد الذي رواه عن الحسن بن عليّ .

قال ابن كثير : فيه نظر ، فإنه قد روى عنه جماعة : منهم حماد بن سلمة ، وخالد الحذاء ، ويونس بن عبيد .

وقال فيه يحيى بن معين هو مشهور .

وفي رواية عن ابن معين قال : هو ثقة ، ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن .

قال ابن كثير ، ثمّ هذا الحديث على كلّ تقدير منكر جداً .

قال المزي : هو حديث منكر ، وقول القاسم بن الفضل إنه حسب مدة بني أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد ، ولا تنقص ليس بصحيح ، فإن جملة مدّتهم من عند أن استقلّ بالملك معاوية ، وهي سنة أربعين إلى أن سلبهم الملك بنو العباس ، وهي سنة اثنين وثلاثين ومائة مجموعها اثنتان وتسعون سنة .

(205/824)

وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس نحو ما روي عن الحسن بن عليّ .

وأخرج الخطيب عن سعيد بن المسيب مرفوعاً مرسلاً نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ سلام ﴾ قال : في تلك الليلة تصفد مردة الشياطين ، وتغلّ عفاريت الجنّ ، وتفتح فيها أبواب السماء كلها ، ويقبل الله فيها التوبة لكلّ تائب ، فلذا قال : ﴿ سلام هِىَ حتى مَطْلَعِ الفجر ﴾ قال : وذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر ، والأحاديث في فضل ليلة القدر كثيرة ، وليس هذا موضع بسطها ، وكذلك الأحاديث في تعيينها ، والاختلاف في ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 471 . 473 ﴾

(206/824)

وقال صاحب روح البيان:

تفسير سورة القدر

خمس أو ست آيات مكية وقيل مدنية

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾

النون للعظمة أو للدلالة على الذات مع الصفات والأسماء والضمير للقرآن لأن شهرته تقوم مقام تصريحه اسمه وإرجاع الضمير إليه فكأنه حاضر في جميع الأذهان وعظمه بأن أسند إنزاله إلى جنابه مع أن نزوله إنما يكون بواسطة الملك وهو جبرائيل على طريقة القصر بتقديم الفاعل المعنوي إلا أنه اكتفى بذكر الأصل عن ذكر التبع قال في بعض التفاسير إنا أنزلناه مبتدأ أو خبر في الأصل بمعنى نحن أنزلناه فأدخل أن للتحقيق فاختير اتصال الضمير للتخفيف ومعنى صيغة الماضي إنا حكمنا بإنزاله في ليلة القدر وقضينا به وقدرناه في الأزل ثم إن الإنزال يستعمل في الدفعى والقرآن لم ينزل جملة واحدة بل أنزل منجماً مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة وهذه السورة من جملة ما أنزل ووابه أن المراد أن جبرائيل نزل به جملة واحدة في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا وأملاه على السفرة أي الملائكة الكاتبين في تلك السماء ثم كان ينزل على النبي عليه السلام منجماً على حسب المصالح وكان ابتداء تنزيله أيضاً في تلك الليلة وفيه إشارة إلى أن بيت العزة أشرف المقامات

السماوية بعد اللوح المحفوظ لنزول القرآن منه إليه ولذلك قيل بفضل السماء الأولى على أخواتها لأنها مقر الوحي الرباني وقيل لشرف المكان بالمكين وكل منهما وجه فإن السلطان إنما ينزل على أنزه مكان ولو فرضنا نزوله على مسبخة لكفى نزوله هناك شرفاً لها فالمكان الشريف يزداد شرفاً بالمكين الشريف كما سبق في سورة البلد ففي نزول القرآن بالتدريج إشارة إلى تعظيم الجناب المحمدي كما تدخل الهدايا شيئاً بعد شيء على أيدي الخدام تعظيماً للمهدي إليه بعد التسوية بينه وبين موسى عليهم السلام بإنزاله جملة إلى بيت العزة وفي التدريج أيضاً تسهيل للحفظ وتثبيت لفؤاده كما قال تعالى وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لتثبت به فؤادك وكلام الله

(207/824)

المنزل قسمان القرآن والخبر القدسي لأن جبرائيل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ومن هنا جاز رواية السنة بالمعنى لأن جبرائل أداها بالمعنى ولم تجز القراءة المعنى لأن جبرائيل أداها باللفظ والسر في ذلك التعبد بلفظه والإعجاز به فإنه لا يقدر أحد أن يأتي بدله بما يشتمل عليه من الإعجاز لفظاً ومن الأسرار معنى فكيف يقوم لفظ الغير ومعناه مقام حرف القرآن ومعناه ثم إن اللوح المحفوظ قلب هذا التعين

ولكن قلب الإنسان ألطف منه لأنه زبدته وأشرفه لأن القرآن نزل به الروح الأمين على قلب النبي المختار وهنا سؤال وهو الملائكة بأسرهم صعقوا ليلة نزول القرآن من حضرة اللوح المحفوظ إلى حضرة بيت العزة فما وجهه والجواب أن محمداً صلى الله عليه وسلّم عندهم من أشراط القيامة والقرآن كتابه فنزوله دل على قيام الساعة فصعقوا هيبة منه وإجلالاً لكلامه وحضرة وعده ووعيده وفي بعض الأخبار إن الله تعالى إذا تكلم بالرحمة تكلم بالفارسية والمراد بالفارسية لسان غير العرب سريانياً كان أو عبرانياً وإذا تكلم بالعذاب تكلم بالعربية فلما سمعوا العربية المحمدية ظنوا أنه عقاب فصعقوا وسيأتي معنى القدر ثم القرآن كلامه القديم أنزله في شهر رمضان كما قال تعالى شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن وهذا هو البيان الأول ولم ندر نهاراً أنزل فيه أم ليلاً فقال تعالى : [الرحمن : 44-4]
﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ وهذا هو البيان الثاني ولم ندراي ليلة هي فقال تعالى : إنا أنزلناه في ليلة القدر فهذا هو البيان الثالث الذي هو غاية البيان فالصحيح أن الليلة التي يفرق فيها في كل أمرح كيم وينسخ فيها أمر السنة وتدبير الأحكام إلى مثلها هي ليلة القدر ولتقدير الأمور فيها سميت ليلة القدر ويشهد التنزيل لما ذكرنا إذ في أول الآية إنا أنزلناه في ليلة باركة

ثم وصفها فقال فيها يفرق كل أمر حكيم والقرآن إنما نزل في ليلة القدر فكانت هذه الآية بهذا الوصف في هذه الليلة مواطئة لقوله تعالى : إنا أنزلناه في ليلة القدر كذا في قوت القلوب للشيخ أبي طالب المكي قدس سره فإن قلت ما الحكمة في إنزال القرآن ليلاً قلت لأن أكثر الكرامات ونزول النفحات والإسراء إلى السموات يكون بالليل والليل من الجنة لأنها محل الاستراحة والنهار من النار لأن فيه المعاش والتعب والنهار حظ اللباس والفراق والليل حظ الفراش والوصال وعبادة الليل أفضل من عبادة النهار لأن قلب

الإنسان فيه أجمع والمقصود هو حضور القلب قال بعض العارفين : أعمل التوحيد في النهار والاسم في الليل حتى تكون جامعاً بين الطريقتين الجلوتية بالجيم والخلوتية ويكون التوحيد والاسم جناحين لك وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ أي وأي شيء أعلمك يا محمد ما هي أي إنك لا تعل كنهها لأن علو قدرها خارج عن دائرة دراية اللخق لا يدريها ولا يدريها الإعلام الغيوب وهو تعظيم للوقت الذي أنزل فيه ونم عض فضائل ذلك الوقت إنه يرتفع سؤال القبر عمن مات فيه وكذا في سائر الأوقات الفاضلة ومن ذلك العيد ثم مقتضى الكرم أن لا يسأل بعده أيضاً وقد وقع تجلى الأفعال لسيد الأنبياء عليه السلام في رجب ليلة الجمعة الأولى بين

العشاءين فلذا استحب صلاة الرغائب وقتئذٍ وتحلى الصفات في نصف شعبان فلذا استحب صلاة البراءة بعد العشاء قبل الوتر وتجلى الذات في ليلة القدر ولذلك استحب صلاة القدر فيها كما سيجيء ولما كان هذا معرباً عن الوعد بإدرائها قال ﴿ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ قيامها والعبادة فيها ﴿ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ أي من صيامها وقيامها ليس فيها ليلة القدر حتى لا يلزم تفضيل الشيء على نفسه فخير هنا للتفضيل أي أفضل وأعظم قدراً وأكثر أجراً من تلك المدة وهي ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر وفي الحديث من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه

وما تأخر ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كما في "كشف الأسرار" قال الخطابي : قوله إيماناً واحتساباً أي بنية وعزيمة وهو أن يصومه على التصديق والرغبة في ثوابه طيبة به نفسه غير كاره له ولا مستثقل لصايمه ولا مستطيل لأيامه لكن يغتنم طول أيامه لعظم الثواب ، وقال البغوي : قوله احتساباً أي طلباً لوجه الله وثوابه يقال فلان يحتسب الأخبار أي يطلبها كذا في الترغيب والترهيب والمراد بالقيام صلاة التراويح ، وقال بعضهم : المراد مطلق الصلاة الحاصل بها قيام الليل قوله غفر له ما تقدم من

ذنبه قيل المراد الصائر وزاد بعضهم ويخفف من الكبائر إذا لم يصادف صغيرة وقوله وما تأخر هو كناية عن حفظهم من الكبائر بعد ذلك أو معناه أن ذنوبهم تقع مغفورة كذا في "شرح الترغيب" المسمى بفتح القريب وقال سعيد بن المسيب من شهد المغرب والعشاء في جماعة فقد أخذ حظه من ليلة القدر كما في "الكواشي" ثم أن نهار ليلة القدر مثل ليلة القدر في الخير وفيه إشارة إلى أن ليلة القدر للعارفين خير من ألف شهر للعابدين لأن خزائنه تعالى مملوءة من العبادات ولا قدر إلا للفناء وأهله وللشهود وأصحابه واختلفوا في وقتها فأكثرهم على أنها في شهر رمضان في العشر الأواخر في أوتارها لقوله عليه السلام : "التمسوها في العشر الأواخر من رمضان ، فاطلبوها في كل وتر" وإنما جعلت في الشعر الأخير الذي ه ومظنة ضعف الصائم وفتوره في العبادة لتجدد جده في العبادة رجاء إدراكها وجعلت في الوتر لأن الله وتر يحب الوتر ويتجلى في الوتر على ما هو مقتضى الذات ادْية وأكثر الأقوال إنها السابعة لأمارات وأخبار تدل على ذلك أحدها حديث ابن عباس رضي الله عنهما السورة ثلاثون كلمة وقوله هي السابعة والعشرون منها ومنها ، ما قال ابن عباس : أيضاً للة القدر تسعة أحرف وهو مذكور في هذه السورة ثلاث مرات فتكون السابعة والعشرين ومنها إنه كان لعثمان بن أبي العاص

غلام فقال يا مولاي إن البحر يعذب ماؤه ليلة من الشهر ، قال : إذا كانت تلك الليلة فاعلمني فإذا هي السابعة والعشرون من رمضان ومن قال إنها هي الليلة الأخيرة من رمضان استدل بقوله عليه السلام إن الله تعالى في كل ليلة من شهر رمضان عند الإفطار يعتق ألف ألف عتيق من النار كلهم استوجبوا العذاب فإذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق الله في تلك الليلة بعدد من أعتق من أول الشهر إلى آخره ولأن الليلة الأولى كمن ولد له ذكر فهي ليلة شكر والليلة الأخيرة ليلة الفراق كمن مات له ولد فهي ليلة صبر وفرق بين الشكر والصبر فإن الشاكر مع المزيد كقوله تعالى :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ والصابر مع الله لقوله تعالى : إن الله مع الصابرين وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت سألت النبي عليه السلام لو وافقتها ماذا أقول قال قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني وعنها أيضاً لو أدركتها ما سألت الله إلا العافية وفيه إشارة إلى ما قال عليه السلام : اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة في الدين والدنيا والآخرة ولعل السر في إخفائها تحريض من يريدها لثواب الكثير بإحياء الليالي الكثيرة رجاء لموافقتها .

ونظيره إخفاء ساعة الإجابة في يوم الجمعة والصلاة الوسطى في الخمس واسمه الأعظم في الأسماء ورضاه في الطاعات حتى يرغبوا في الكل وغضبه في المعاصي ليحتزوا عن الكل

ووليه فيما بين الناس حتى يعظموا الكل .

والمستجاب من الدعوات في سائرها ليدعوه بكلها .

(212/824)

ووقت الموت ليكون المكلف على احتياط في جميع الأوقات وتسميتها بليلة القدر إما لتقدير الأمور وقضائها فيها لقوله تعالى : فيها يفرق كل أمر حكيم أي : إظهار تقديرها للملائكة ، بأن تكتبها في اللوح المحفوظ وإلا فالتقدير نفسه أزلي فالقدر بمعنى التقدير وهو جعل الشي على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسبما اقتضت الحكمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، إن الله قدر فيها كل ما يكون في تلك السنة من مطر ورزق وإحياء وإماتة وغيرها إلى مثل هذه الليلة من السنة الآتية فيسلمه إلى مدبرات الأمور من لملائكة فيدفع نسخة الأرزاق والنباتات والأمطار إلى ميكائيل ونسخة الحروب والرياح والزلازل والصواعق والخسف إلى جبرائيل ونسخة الأعمال إلى إسرافيل ونسخة المصائب إلى ملك الموت .

فكم من فتى يمسى ويصبح آمنا

وقد نسجت اكفانه وهو لا يدري

وكم من شيوخ ترتجى طول عمرهم

وقد رهقت أجسادهم ظلمة القبر

وكم من عروس زينوها لزوجها

وقد قبضت أرواحهم ليلة الدر

(213/824)

يقال إن مكيائيل هو الأمين على الأرزاق والأغذية المحسوسة ويقابله منك الكبد فهو الذي يعطى الغذاء لجميع البدن وكذلك إسرافيل يغذى الأشباح بالأرواح ويقابله منك الدماغ وجبرائيل يغذى الأرواح بالعلوم والمعارف ويقابله منك العقل وكل محدث لا بد له من غذاء فغذاء الجسم بالتأليف والعقل بالعلوم الضرورية والروح القدسي أيضاً متعطش ولا يرتوى إلا بالعلوم الإلهية هذا وإما لخطرها وشرفها على سائر الليالي فالقدر بمعنى المنزلة والشرف إما باعتبار العامل على معنى أن من أتى بالطاعة فيها صار ذا قدر وشرف وإما باعتبار نفس العمل على معنى أن الساطعة الواقعة في تلك الليلة لها قدر وشرف زائد وعن أبي بكر الوراق رحمه الله ، سميت ليلة القدر لأنه نزل فيها كتاب ذو قدر على لسان ملك

ذي القدر لأمة لها قدر ولعله تعالى إنما ذكر لفظ القدر في هذه السورة ثلاث مرات لهذا السبب ، وقال الخليل رحمه الله : سميت ليلة القدر أي ليلة الضيق لأن الأرض

تضيق فيها بالملائكة فالقدر بمعنى الضيق ، كما في قوله تعالى : ومن قدر عليه رزقه وتخصيص الألف بالذكر إما للتكثير لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء كلها ولا تريد حقيقتها أو لما روى أنه عليه السلام ، ذكر رجلاً من بني إسرائيل اسمه شمسون لبس السلاح في سبيل الله ، ألف شهر فتعجب المؤنون منه وتقاصرت إليهم أعمالهم بأعطوا ليلة هي خير من مدة ذلك الغازي وقيل إن الرجل فيما مضى كا نلايقال له عابد حتى يعبد الله ألف شهر فأعطوا ليلة أن أحيها كانوا أحق بأن يسموا عابدين من أولئك العباد وقيل : رأى النبي عليه السلام ، أعمار الأمم كافة فاستقصر أعمار أمته فخاف أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر وجعلنا خيراً من ألف شهر لسائر الأمم وقيل : كان ملك سليمان عليه السلام ، خمسمائة شهر وملك ذي القرنين خمسمائة شهر فجعل الله العمل في هذه الليلة لمن أدركها خيراً من ملكهما وروى عن الحسن بن علي بن أبي طالب أنه قال حين عوتب في تسليمه الأمر لمعاوية إن الله أرى نبيه عليه السلام ، في المنام بني

أمية ينزون على منبره نزو القردة أي يثبون فاغتم لذلك فأعطاه الله ليلة القدر وهي خير له ولذريته ولأهل بيته من ألف شهر وهي مدة ملك بني أمية وأعلمه إنهم يملكون أمر الناس هذا القدر من الزمان ثم كشف الغيب إن كان من سنة الجماعة إلى قتل مروان الجعدي آخر ملوكهم هذا القدر من الزمان بعينه كما في فتح الرحمن ودل كلام الله تعالى على ثبوت ليلة القدر فمن قال إن فضلها كان لنزول القرآن يقول انقطعت فكانت مرة والجمهور على إنها باقية آتية في كل سنة فضلاً من الله ورحمة على عباده غير مختصة برمضان عند البعض وهو قول الامام أبي حنيفة رحمه الله ، وحضرة الشيخ الأكبر قدس سره الأطهر حتى لو علق أحد طلاق امرأته أو عتق عبده بليلة القدر فإنه لا يحكم به إلا بأن يتم الحول وعند الأكثرين مختصة به وكان عليه السلام ،

(215/824)

إذا دخل العشر شد مزره وأحيى ليله وأيقظ أهله وكان الصالحون يصلون في ليلة من العشر ركعتين بنية قيام ليلة القدر وعن بعض الأكابر من قرأ كل ليلة عشر آيات على تلك النية لم يحرم بركتها وثوابها قال الامام أبو الليث رحمه الله : أقل صلاة ليلة القدر ركعتان وأكثرها ألف ركعة وأوسطها مائة ركعة وأوسط القراءة في كل ركعة أن يقرأ بعد الفاتحة إنا أنزلناه

مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات ، ويسلم على كل ركعتين ويصلى على النبي عليه السلام بعد التسليم ويقوم حتى يتم ما أراد من مائة أو أقل أو أكثر ويكفي في فضل صلاتها ما بين الله من جلالة قدرها وما أخبر به الرسول عليه السلام من فضيلة قيامها وصلاة التطوع بالجماعة جائزة من غير كراهة لو صلوا بغير تداع وهو الأذان والإقامة كما في الفرائض صرح بذلك كثير من العلماء قال شرح النقاية وغيره وفي المحيط لا يكره الاقتداء بالامام في النوافل مطلقاً نحو القدر والرغائب وليلة النصف من شعبان ونحو ذلك لأن ما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن فلا تلتفت إلى قول من لا مذاق لهم من الطاعنين فإنهم بمنزلة العنين لا يعرفون ذوق المناجاة وحلاوة الطاعات وفضيلة الأوقات .

(216/824)

تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ استئناف مبني لماله فضلت على ألف شهر وأصل ينزل تتنزل بتاءين والظاهر أن المراد كلهم للإطلاق وقد سبق معنى الروح في سورة النبأ ، وقال بعضهم : إنه ملك لو التقم السموات والأرضين كانت له لقمة واحدة أو هو ملك رأسه تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة وله ألف رأس كل رأس أعظم من الدنيا وفي كل رأس ألف وجه وفي كل وجه ألف فم وفي كل فم ألف لسان يسبح الله بكل لسان ألف نوع من التسبيح

والتحميد والتمجيد لكل لسان لغة لا تشبه الأخرى فإذا فتح أفواهه بالتسبيح خر كل ملائكة السموات سجداً مخافة أن يحرقهم نور أفواهه وإنما يسبح الله غدوة وعشية فينزل تلك الليلة فيستغفر للصائمين والصائمات من أمة محمد عليه السلام بتلك الأفواه كلها إلى طلوع الفجر أو هو طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا ليلة القدر كالزهاد الذين لا نراهم إلا يوم العيد أو هو عيسى عليه السلام ، لأنه اسمه ينزل في موافقة الملائكة ليطالع أمة محمد عليه السلام .

وفي الحديث لأنا أكرم على الله من أن يدعني في الأرض أكثر من ثلاث وكان الثلاث عشر مرات ثلاثين لأن الحسين رضي الله عن ، قتل في رأس الثلاثين سنة فغضب على أهل الأرض وعرج به إلى عليين وقد رآه بعض الصالحين في النوم فقال يا رسول الله بأبي أنت وأمي إما ترى فتن أمتك فقال زادهم الله فتنة قتلوا الحسين ولم يحفظوني ولم يراعوا حقي فيه وعلى كل تقدير فالمعنى تنزل الملائكة والروح في تلك الليلة من كل سماء إلى الأرض وهو الأظهر لأن الملائكة إذا نزلت في سائر الأيام إلى مجلس الذكر فلأن ينزلوا في تلك الليلة مع علو شأنها أولى أو إلى السماء الدنيا قالوا ينزلون فوجاً فوجاً فمن نازل ومن صاعد كأهل الحج فإنهم على

كثرتهم يدخلون الكعبة ومواضع النسك بأسرهم لكن الناس بين داخل وخارج ولهذا السبب مدت إلى غاية طلوع الفجر وذكر لفظ تنزل المفيد للتدريج وبه يندفع ما يرد أن الملائكة لهم كثرة عظيمة لا تحتملها الأرض وكذا السماء على أن شأن الأرواح غير شأن الأجسام والملائكة وإن كان لهم أجسام لطيفة يقال لهم : الأرواح ، وقال بعضهم : النازلون هم سكان سدرة المنتهى ، وفيها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله ومقام جبرائيل في وسطها ولا يدخلون أي الملائكة النازلون الكنائس وبيوت الأصنام والأماكن التي فيها الكلب والتصاوير والخبائث وفي بيوت فيها خمر أو مدمن خمر أو قطاع رحم أو جنب أو آكل لحم خنزيراً ومتضمخ بالزعفران وغير ذلك ،

ويعدى بالباء كما في تاج المصادر وقال في "القاموس" التضمخ لطخ الجسد بالطيب حتى كأنه يقطر قوله الروح معطوف على الملائكة والضمير لليلة القدر والجار متعلق بتنزل ويجوز أن يكون والروح فيها جملة اسمية في موقع الحال من فاعل تنزل والضمير للملائكة والأول هو لوجه لعدم احتياجه إلى ضمير فيها ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ أي بأمره متعلق بتنزل وهو بدل

على أنهم كانوا يرغبون إلينا ويشتاقون فيستأذن فيؤذن في النزول إلينا لهم فإن قيل كيف يرغبوا إلينا مع علمهم بكثرة ذنوبنا قلنا لا يقفون على تفصيل المعاصي روى أنهم يطالعون اللوح فيرون فيه طاعة المكلف مفصلة فإذا وصلوا إلى معاصيه أرخى الستر فلا يرونه فحينئذٍ يقولون سبحان من أظهر الجميل وستر القبيح ولأنهم يرون في الأرض من أنواع الطاعات أشياء ما رأوها في عالم السموات كأطعام الطعام وأنين العصاة وفي الحديث القدسي : "لأنين المذنبين أحب إلى من زجل المسبحين فيقولون تعالوا نذهب إلى الأرض فنسمع صوتاً هو أحب إلى ربنا من صوت تسبيحنا وكيف لا يكون أحب وزجل المبحين إظهار لكمال حال المطيعين وأنين العصاة إظهار لغافرية رب العالمين.

(219/824)

﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ متعلق بتنزل أيضاً أي من أجل كل أمر قدر في تلك السنة من خير أو شر أو بكل أمر من الخير والبركة كقوله تعالى : [الرعد : 11-5]

﴿ يَحْفَظُونَه مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي بأمر الله قيل يقسم جبرائيل في تلك الليلة بقية الرحمة في دار الحرب على من علم الله أنه يموت مسلماً فبتلك الرحمة التي قسمت عليهم ليلة القدر يسلمون ويموتون مسلمينفإن قيل المقدرات لا تفعل في تلك الليلة بل في تمام السنة فلما ذا

تنزيل الملائكة فيها لأجل تلك الأمور قيل لعل تنزلهم لتعين انفاذ تلك الأمور وتنزلهم لأجل كل أمر ليس تنزل كل واحد لأجل كل أمر بل ينزل الجميع لأجل جميع الأمور حتى يكون في الكلام تقسيم العلل على المعلولات سلام هي ﴾ تقديم الخبر لأفادة احصر مثل تميمي أنا أي ما هي إلا سلامة أي لا يحدث فيها داء ولا شيء من الشرور والآفات كالرياح والصواعق ونحو ذلك مما يخاف منه بل كل ما ينزل في هذه الليلة إنما هو سلامة ونفع وخير ولا يستطيع الشيطن فيها سوأ ولا ينفذ فيها سحر ساحر والليلة ليست نفس السلامة بل ظرف لها ومع ذلك وصفت بالسلامة للمبالغة في اشتمالها عليها وعلم منه أنه يقضى في غير ليلة القدر كل من السلامة والبلا يعني يتعلق قضاء الله بهما أو ما هي الإسلام لكثرة ما يسلمون فيها على المؤمنين ومن إصابته التسليمة غفر له ذنبه وفي الحديث : "ينزل جبرائيل ليلة القدر في كبكبة من الملائكة" أي : جماعة متضامة يصلون ويسلمون على كل عبد قائم أو قاعد بذكر الله ﴿ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ أي وقت طلوعه قدر المضاف لتكون الغاية من جنس المغيا فمطلع بفتح اللام مصدر ميمي ومن قرأ بكسر اللام جعله اسما لوقت الطلوع أي اسم زمان وحتى متعلقة بتنزل على أنها غاية لحكم التنزل أيلمكثهم في تنزلهم أو لنفس تنزلهم بأن لا ينقطع تنزلهم فوجاً بعد فوج إلى طلوع الفجر .

وقال بعضهم : ليلة القدر من غروب الشمس إلى طلوع الفجر سلام ، أي يسلم فيها الملائكة على الطميعين إلى وقت طلوع الفجر ثم يصعدون إلى السماء فحتى متعلقة بسلام قالها علامة ليلة القدر إنها ليلة لا حارة ولا باردة وتطلع الشمس صبيحتها لإشعاع لها لأن الملائكة تصعد عند طلوع الشمس إلى السماء فيمنع صعودها انتشار شعاعها لكثرة الملائكة أو لأنها لا تطلع في هذه الليلة بين قرني الشيطان فإنها على ما جاء بعض الأحاديث تطلع كل يوم بين قرني الشيطان ويزيد الشيطان في بث شعاعها وتزيين طلوعها ليزيد في غرور الكافرين ويحسن في أعين الساجدين وقد سبق أنه يعذب الماء الملح تلك الليلة وإما النور الذي يرى ليلة القدر فهو نور أجنحة الملائكة أو نور جنة عدن تفتح أبوابها ليلة القدر أو نور لواء الحمد أو نور أسرار العارفين رفع الله الحجب عن أسرارهم حتى يرى الخلق ضياءها وشعاعها وهو المناسب لحقيقة ليلة القدر فإن حقيقتها عبارة عن انكشاف الملكوت لقلب العارف فإذا تنول الباطن بنور الملكوت انعكس منه إلى الظاهر وفي الحديث من قرأ سورة القدر أعطي ثواب من صام رمضان وأحيى ليلة القدر . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح البيان حـ 10 صـ 576.583 ﴾

وقال القاسمي :

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾

أي : أنزلنا القرآن على قلب خاتم النبيين ، بمعنى ابتدأنا إنزاله في ليلة القدر . وقد وصفت بالمباركة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان : 3] ، وكانت في رمضان ، لقوله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة : 185] .

قال الإمام : سميت ليلة القدر ، إما بمعنى ليلة التقدير ؛ لأن الله تعالى ابتدأ فيها تقدير دِينه وتحديد الخطة لنبيه في دعوة الناس إلى ما ينقذهم مما كانوا فيه ، أو بمعنى العظمة والشرف ، من قولهم : فلان له قدر ، أي : له شرف وعظمة ؛ لأن الله قد أعلى فيها منزلة نبيه وشرّفه وعظّمه بالرسالة ، وقد جاء بما فيه الإشارة ، بل التصريح ، بأنها ليلة جليلة ؛ بجلالة ما وقع

فيها من إنزال القرآن . فقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ أي : وما الذي يعلمك مبلغ شأنها ونباهة أمرها .

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ فكرر ذكرها ثلاث مرات . ثم أتى بالاستفهام الدالّ على أن شرفها ليس مما تسهل إحاطة العلم به ، ثم قال : إنها خير من ألف شهر لأنه قد مضى على الأمم آلاف من الشهور وهو يختبطون في ظلمات الضلال ؛ فليلة يسطع فيها نور الهدى خير من ألف شهر من شهورهم الأولى . ولك أن تقف في التفضيل عند النص ، وتفوض الأمر ، في تحديد ما فضلت عليه الليلة بألف شهر ، إلى الله تعالى ؛ فهو الذي يعلم سبب ذلك ولم يبينه لنا ، ولك أن تجري الكلام على عادتهم في التخاطب . وذلك في الكتاب كثير ، ومنه الاستفهام الواقع في هذه السور ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ فإنه جار على عادتهم في الخطاب ، وإلا فالعليم الخبير لا يقع منه أن يستفهم عن شيء . فيكون التحديد بالألف لا مفهوم له ، بل الغرض منه التكثير ، وإن أقل عدد تفضله هو ألف شهر . ثم إن درجات فضلها على هذا العدد غير محصورة . فإذا قلت : إخفاء الصدقة خير من إظهارها ، لم تعين درجة الأفضلية ، وهي درجات فوق درجات وقد جاء في الكتاب في

واقعة واحدة، هي واقعة بدر أن الله أمد المؤمنين بألف من الملائكة، أو بثلاثة آلاف، أو بخمسة آلاف، كما تراه في الأنفال وآل عمران؛ فالعدد هناك لا مفهوم له، كما هو ظاهر.

فهي ليلة خير من الدهر إن شاء الله، ثم استأنف لبيان بعض مزاياها فقال: ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ يخبر جل شأنه أن أول عهد للنبي صلى الله عليه وسلم بشهود الملائكة كان في تلك الليلة، تنزلت من عالمها الروحانيّ الذي لا يحدهُ حد ولا يحيط به مقدار، حتى تمثلت لبصره صلى الله عليه وسلم، والروح هو الذي يتمثل له مبلغاً للوحي، وهو الذي سمّي في القرآن بجبريل. وإنما تظهر الملائكة والروح ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: إنما تتجلى الملائكة على النفس الكاملة، بعد أن هيأها الله لقبول تجليها. وليست تتجلى الملائكة

(223/824)

لجميع النفوس كما هو معلوم، فذلك فضل الله يختص به من يشاء. واختصاصه هو إذنه ومشيئته. ثم إن هذه الإذن مبدؤه الأوامر والأحكام؛ لأن الله يجلي الملائكة على النفوس، لإيحاء ما يريده منها. ولهذا قال: ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أي: أن الله يظهر الملائكة والروح لرسله عند كل أمر يريد إبلاغه إلى عباده، فيكون الإذن مبتدئاً من الأمر على هذا المعنى

. والأمر ها هنا هو الأمر في قوله :

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان : 4 – 5] ، فالكلام في الرسالة والأوامر والأحكام ، لا في شيء سواها ؛ ولهذا قال بعضهم : إن من ها هنا بمعنى الباء ، أي : بكل أمر . ولا حاجة إليه لما قلنا . وإنما عبر بالمضارع في قوله :

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ وقوله : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ مع أن المعنى ماض ، لأن الحديث عن مبدأ نزول القرآن لوجهين :

الأول : لاستحضار الماضي لعظمته على نحو ما في قوله : ﴿ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ ﴾ [البقرة : 214] ، فإن المضارع بعد الماضي يزيد الأمر تصويراً .

والثاني : لأن مبدأ النزول كان فيها ، ولكن بقية الكتاب وما فيه من تفصيل الأوامر والأحكام كان فيما بعد ، فكأنه يشير إلى أن ما ابتدأ فيها يستمر في مستقبل الزمان حتى يكمل الدين . وقوله تعالى :

﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ أي : أنها كانت ليلة سالمة من كل شر وأذى .

والإخبار عنها بالسلام نفسه – وهو الأمن والسلامة – للمبالغة في أنه لم يَشُبْها كدر ، بل فرّج الله فيها عن نبيه كل كربة وفتح له فيها سبل الهداية ، فأناله بذلك ما كان يتطلع إليها الأيامَ والشهور الطوال .

تنبيهات :

الأول : قدمنا أن ليلة القدر التي ابتدأ فيها نزول القرآن كانت في رمضان لآية ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ ولا إجماع في تعيين تلك الليلة ، بل في صحيح البخاري : أنها < رفعت > . أي : رفع العلم بتعيينها . وفي رواية فيه : < نسيتها أو أنسيتها > ، من قوله صلوات الله عليه . ولذا رغب في قيام رمضان كله رجاء موافقتها في ليلة منه . نعم الأقوى رواية أنها في < العشر الأخير من رمضان > لما كان من اهتمامه صلى الله عليه وسلم بالاعتكاف فيه وإحياء ليله وإيقاظ أهله . وقد ذهب ابن مسعود والشعبي والحسن وقتادة إلى أنها ليلة أربع وعشرين ، قال ابن حجر : وحجتهم حديث واثلة : أن القرآن نزل لأربع وعشرين من رمضان . وقد اضطربت أقوال السلف فيها - صحابةً ومن بعدهم - حتى أنافت على أربعين قولاً .

قال الإمام : ثم الأخبار الصحيحة متضافرة على أنه في شهر رمضان ، ولا نعيّنها من بين لياليه . فقد اختلف فيها الروايات اختلافاً عظيماً ، وكتاب الله لم يعينها ، وما ورد في الأحاديث من ذكرها ، إنما قصد به حث المؤمنين على إحيائها بالعبادة ؛ شكراً لله تعالى على ما هداهم بهذا الدين الذي ابتدأ الله إفاضته فيهم ، في أثنائها . ولهم أن يعبدوا الله فيها أفراداً وجماعات ، فمن رجح عنده خبر في ليلة أحياها ، ومن أراد أن يوافقها على التحقيق ، فعليه أن يشكر الله بالفراغ إليه بالعبادات في الشهر كله . وهذا هو السر في عدم تعيينها . وتشير إليه آية البقرة فإنها تجعل الشهر كله ظرفاً لنزول القرآن ، ليذكر المؤمنون نعمة الله عليهم فيه ؛ فهي ليلة عبادة وخشوع ، وتذكر لنعمة الحق والدين . فلا تكون ليلة زهو ولهو تتخذ فيها مساجد الله مضامير للرياء ، يتسابق إليها المنافقون ويحدث أنفسهم بالبعد عنها المخلصون ، كما جرى عليه عمل المسلمين في هذه الأيام ، فإن كل ما حفظوه من ليلة القدر هو أن تكون لهم فيها ساعة سمر يتحدثون فيها بما لا ينظر الله إليه ، ويسمعون شيئاً من كتاب الله لا ينظرون فيه ولا يعتبرون بمعانيه ، بل إن أصغوا إليه فإنما يصغون لنغمة تاليه ، ثم يسمعون من الأقوال ما لم يصح خبره ، ولم يحمد في الآخرين ولا الأولين أثره ، ولهم خيالات في ليلة القدر لا تليق بعقول الأطفال ، فضلاً عن الراشدين من الرجال . انتهى .

وقال الطبريّ : إخفاء ليلة القدر دليل على كذب من زعم أنه يظهر في تلك الليلة للعيون ما لا

يظهر في سائر السنة ؛ إذ لو كان ذلك حقاً ، لم يخف على كل من قام ليالي السنة ، فضلاً عن ليالي رمضان .

(226/824)

الثاني : حكى الحافظ ابن جحر في " فتح الباري " قولاً عن بعض العلماء ، أن ليلة القدر خاصة بسنة واحدة وقعت في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ، ولعل مستنده ما صحّ أنها < رفعت > . وقد قدمنا معناه ؛ ولذا ذهب الجمهور إلى خلافه . وعندي أن لا تنافي ؛ لأن المراد بالأول هو ليلة نزول القرآن وما كان فيها من التجليّ الخاص التي انفردت به ، وبالثاني أن ما يوافق تلك الليلة من رمضان كل عام ، هي ليلة فيها مزية على غيرها ، بفضل اختصت به دون غيرها . وهذا هو السرّ في قيام رمضان والتماسها في العشر الأواخر منه . أعني إحياء ما ماثلها من الليالي تبركاً وتيمناً وشكراً لله تعالى على تلك النعمة والهداية ، فالقائم في ليالي العشر الأخير ، أو في رمضان ، مصادف البتة لما ماثل تلك الليلة ؛ لأنها منه قطعاً . وقد باين الإسلام في تفضيل بعض الأوقات بتشريع اتخاذها موسماً للعبادة ما ابتدعه رؤساء الأديان الأخَر في تذكاراتهم وجعلها أعياداً ، تصرف ساعاتها للبطالة والزينة واللهو ، مما ينافي حكمة ذكراها ؛ فتأمّل الفرق واحمد الله على اتباع الحق .

الثالث : قال الإمام : ما يقوله الكثير من الناس من أن الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة النصف من شعبان ، وأن الأمور التي تفرق فيها هي الأرزاق والأعمار ، وكذلك ما يقولونه من مثل ذلك في ليلة القدر ، فهو من الجراءة على الكلام في الغيب بغير حجة قاطعة ، وليس من الجائز لنا أن نعتقد بشيء من ذلك ، ما لم يرد به خبر متواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ومثل ذلك لم يرد ؛ لاضطراب الروايات ، وضعف أغلبها ، وكذبِ الكثير منها . ومثلها لا يصح الأخذ به في باب العقائد . ومثل ذلك يقال في بيت العِزّة ، ونزول القرآن فيه جملة واحدة في تلك الليلة ، فإنه لا يجوز أن يدخل في عقائد الدين ، لعدم تواتر خبره عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز لنا الأخذ بالظن في عقيدة مثل هذه ، وإلا كنا من الذين ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ﴾ [الأنعام : 116] نعوذ بالله . وقد وقع المسلمون في هذه المصيبة ، مصيبة الخلط بين ما يصح الاعتقاد به من غيب الله ويُعدّ من عقائد الدين ، وبين ما يظن به للعمل على فضيلة من الفضائل ، فاحذر أن تقع فيها مثلهم ، انتهى كلامه رحمه الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 448.

452 ﴾

وقال الشيخ المراغى :

سورة القدر

هى مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة عبس .

ومناسبتها لما قبلها - أن فى تلك أمر الرسول صلى اللّه عليه وسلم بأن يقرأ القرآن باسم ربه الذي خلق ، واسم الذي علم الإنسان ما لم يعلم ، وفى هذه ذكر القرآن ونزوله وبيان فضله ، وأنه من عند ربه ذى العظمة والسلطان ، العليم بمصالح الناس وبما يسعدهم فى دينهم ودنياهم ، وأنه أنزله فى ليلة لها من الجلال والكمال ما قصته السورة الكريمة .

[سورة القدر (97) : الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) ﴾

شرح المفردات

القدر : العظمة والشرف ، من قولهم لفلان قدر عند فلان : أي منزلة وشرف ، تنزل الملائكة : أي تنزل وتتجلى للنفس الطاهرة التي هيأها اللّه لقبول تجليها ، وهى نفس النبي

الكريم ، سلام : أي أمن من كل أذى وشر ، مطلع الفجر : أي وقت طلوعه .

تقدمة تبين ميقات هذه الليلة

أشار الكتاب الكريم إلى زمان نزول القرآن على رسوله صلى اللّه عليه وسلم فى أربعة مواضع من كتابه الكريم ، والقرآن يفسر بعضه بعضا .

(1) فى سورة القدر : «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» .

(2) فى سورة الدخان : «حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ . فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» .

(229/824)

---

(3) فى سورة البقرة : «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقَانِ» .

(4) فى سورة الأنفال : «وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا يَوْمَ الْفُرْقانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعانِ ، وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

فآية القدر صريحة فى أن إنزال القرآن كان فى ليلة القدر ، وآية الدخان تؤكد ذلك وتبين أن النزول كان فى ليلة مباركة ، وآية البقرة ترشد إلى أن نزول القرآن كان فى شهر رمضان ، وآية الأنفال تدل على أن إنزال القرآن على رسوله كان فى ليلة اليوم المماثل ليوم التقاء الجمعين فى غزوة بدر ، التي فرق اللّه فيها بين الحق والباطل ، ونصر حزب الرحمن على حزب الشيطان ، ومن ذلك يتضح أن هذه الليلة هى ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من شهر رمضان .

الإيضاح

(إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) أي إنا بدأنا ننزل الكتاب الكريم فى ليلة الشرف ، ثم أنزلناه بعد ذلك منجما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الحوادث التي كانت تدعو إلى نزول شىء منه ، تبيانا لما أشكل من الفتوى فيها ، أو عبرة

بما يقص فيه من قصص وزواجر ، ولا شك أن البشر كان فى حاجة إلى دستور يبين لهم ما التبس عليهم من أمر دينهم ودنياهم ، ويوضح لهم أمر النشأة الأولى وأمر النشأة الآخرة ، لأنهم كانوا أعجز من أن يفهموا مصالحهم الحقة حتى يسنّوا لأنفسهم من النظم ما يغنيهم عن

الدين والتدين ، وحوادث الكون التي نراها رأى العين كفيلة بأن تبين وجه الحق فى ذلك ، فإن الناس من بدء الخليقة يبدئون ويعيدون. ويصححون ويراجعون فى قوانينهم الوضعية ، ثم يستبين لهم بعد قليل من الزمن أنها لا تكفى لهدى المجتمع والأخذ بيده إلى موضع الرشاد ، وتمنعه من الوقوع فى مهاوى الزلل ، ومن ثم قيل : لا غنى للبشر عن دين ولا عن وازع روحى يضع لهم مقاييس الأشياء وقيمها بعد أن أبان لهم العلم وصفها وخواصها ، كما لا غنى له عن الاعتقاد فى قوة غيبية يلجأ إليها حين يظلم عليه ليل الشك ، وتختلط عليه صروف الحياة وألوان مآسيها ا ه.

ثم أشار إلى أن فضلها لا يحيط به إلا هو فقال :

(وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ ؟) أي ولم تبلغ درايتك وعلمك غاية فضلها ، ومنتهى علوّ قدرها .

وفى هذا إيماء إلى أن شرفها مما لا يحيط به علم العلماء ، وإنما يعلمه علام الغيوب الذي خلق العوالم وأنشأها من العدم .

ثم أوضح مقدار فضلها فقال :

(لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ) لأن ليلة يسطع فيها نور الهدى وتكون فاتحة التشريع الجديد الذي أنزل لخير البشر ، ويكون فيها وضع الحجر الأساسى لهذا الدين الذي هو آخر الأديان

الصالح لهم فى كل زمان ومكان ، هى خير من ألف شهر من شهورهم التي كانوا يتخبطون فيها فى ظلام الشرك وضلال الوثنية ، حيارى لا يهتدون إلى غاية ، ولا يقفون عند حد .

(231/824)

وقد يكون التحديد بالألف جاريا على ما يستعملونه فى تخاطبهم من إرادة الكثرة منه ، لا إرادة العدد المعين ، كما جاء فى قوله : « يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ » .

واللّه تعالى يفضل ما شاء من زمان ومكان لمعنى من المعاني التي تدعو إلى التفضيل ، وله الحكمة البالغة .

وأي عظمة أعلى من عظمة ليلة يبتدئ فيها نزول هذا النور والهداية للناس بعد أن مضت على قومه صلى اللّه عليه وسلم حقب متتابعة وهم فى ضلال الوثنية .

وأىّ شرف أرفع من شرف ليلة سطع فيها بدر المعارف الإلهية على قلب رسوله صلى اللّه عليه وسلم رحمة بعباده ، يبشرهم وينذرهم ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم ، ويجعل منهم أمة تحرر الناس من استعباد القياصرة ، وجبروت الأكاسرة ، ويجمعهم بعد الفرقة ، ويلمّ شعثهم بعد الشتات .

فحقّ على المسلمين أن يتخذوا هذه الليلة عيدا لهم ، إذ فيها بدأ نزول ذلك الدستور

السماوي ، الذي وجه المسلمين تلك الوجهة الصالحة النافعة ، ويجددوا العهد أمام ربهم بحياطته بأنفسهم وأموالهم ، شكرا له على نعمه ، ورجاء مثوبته .

ثم ذكر سبحانه بعض مزايا هذه الليلة المباركة فقال :

(تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ) أي تنزلت الملائكة من عالمها الروحاني حتى تمثلت لبصره صلى اللّه عليه وسلم ، وتمثّل له الروح (جبريل) مبلّغا للوحى ، وهذا التجلي على النفس الكاملة كان بإذن ربهم بعد أن هيأه لقبوله ليبلغ عباده ما فيه الخير والبركة لهم .

ونزول الملائكة إلى الأرض شأن من شئونه تعالى ، لا نبحث عن كيفيته ، فنحن نؤمن به دون أن نحاول معرفة تفاصيله وأسراره ، فما عرف العالم بعد علمه المادي بشتى وسائله إلا النذر اليسير من الأكوان كما قال تعالى : « وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

والخلاصة - إن هذه الليلة عيد للمسلمين لنزول القرآن فيها ، وليلة شكر على الإحسان والإنعام بذلك ، تشاركهم فيها الملائكة بما يشعر بعظمتها ، ويشعر بفضل الإنسان وقد استخلفه اللّه فى الأرض .

(سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) أي هذه الليلة التي حفّها الخير بنزول القرآن، وشهود ملائكة الرحمن، ليلة كلها سلامة وأمن، وكلها خير وبركة، من مبدئها إلى نهايتها ففيها فرّج الله الكرب عن نبيه، وفتح له سبل الهداية والإرشاد.

وصل وسلم ربّنا على محمد الذي أكرمته بإنزال الدستور الشامل لخير البشر إلى يوم القيامة. انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير المراغى حـ 30 صـ 206. 210﴾

(233/824)

وقال الشيخ: دروزة:

سورة القدر

في السورة تنويه بليلة القدر وتقرير إنزال القرآن فيها. وبعض الروايات تذكر أنها مدنية «1». غير أن جميع التراتيب المروية تسلكها في عداد السور المكية.

وأسلوبها ووضعها في المصحف بعد سورة العلق قد يؤيدان مكيتها وتبكيرها في النزول.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القدر (97): الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ

(3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)

سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5) .

(1) القدر : الشأن والنباهة . وفي آية سورة الأنعام هذه : وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ [91]

أي ما عظموه تعظيما يتناسب مع قدره العظيم .

(2) وما أدراك : جملة تنبيهية لخطورة الأمر المذكور وقد تكرر ورودها في معرض التنبيه

للأمور الخطيرة .

(3) جمهور المفسرين على أن هذا الاسم ينصرف إلى جبريل أحد عظماء الملائكة أو

عظيمهم .

احتوت الآيات تقريرا تذكيريا بإنزال القرآن في ليلة القدر ، وتنبيها تنويهيا

---

(1) انظر الإتقان للسيوطي ج 1 ص 14 .

الجزء الثاني الحديث 9

بهذه الليلة وعظم شأنها وخيرها وشمولها ببركة اللّه وسلامه ، وتنزل الملائكة والروح فيها بأوامره وتبليغاته . والآيات لم تذكر القرآن غير أن جمهور المفسرين على أن ضمير الغائب في «أنزلناه» عائد إليه ، وروح الآية تلهم ذلك كما أن آيات سورة الدخان هذه : حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) تؤيد ذلك .

تعليقات على ما روي في صدد نزول السورة ومدى جملة خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ وصلتها بدولة بني أمية

ولقد روى المفسرون «1» أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ذكر يوما رجلا من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل اللّه ألف شهر فعجب المسلمون فأنزل اللّه السورة . كما رووا أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ذكر يوما أربعة من بني إسرائيل عبدوا اللّه ثمانين عاما لم يعصوه طرفة عين فعجب المسلمون فأتاه جبريل فقال يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر فقد أنزل اللّه خيرا من ذلك ثم قرأ عليه السورة .

وهذه الروايات لم ترد في كتب الأحاديث الصحيحة . والذي يتبادر لنا استئناسا من بكور نزول السورة وترتيبها في المصحف بعد سورة العلق أنها نزلت بعد قليل من آيات سورة العلق الخمس الأولى للتنويه بحادث نزول أول وحي قرآني .

ولقد أورد المفسرون حديثا رواه الترمذي عن القاسم بن الفضل الحداني عن يوسف بن سعد قال : «قام رجل إلى الحسن بن علي بعد ما بايع معاوية فقال سوّدت وجوه المؤمنين أو

يا مسوّد وجوه المؤمنين فقال لا تؤنّبني رحمك اللّه فإنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أري بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ (1) الكوثر يا محمد يعني نهرا في الجنّة ونزلت: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ

---

(1) انظر كتب تفسير الطبري والبغوي وابن كثير والخازن.

(235/824)

الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)، يملكها بعدك بنو أمية يا محمد. قال القاسم فعددناها فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوما ولا تنقص» «1». ولقد علق الطبري على هذا بقوله إنها دعاو باطلة لا دلالة عليها من خبر وعقل. وذكر ابن كثير أن الترمذي وصف حديثه بالغريب وقال إنه لا يعرف إلّا عن طريق القاسم. ووصفه ابن كثير بأنه منكر جدا وقال إن شيخنا الإمام الحافظ الحجة أبو الحجاج المزي قال عنه إنه منكر. ونبه على عدم انطباق مدة بني أمية على الألف شهر لأنها أكثر من ذلك بنحو تسع سنين. وفي هذا إظهار لكذب القاسم راوي الحديث في قوله إننا حسبناها فلم تزد ولم تنقص يوما. وقال ابن كثير فيما قاله إن السورة مكية ولم يكن للنبي منبر في مكة.

والذي نعتقده أن الرواية من روايات الشيعة التي يخترعونها لتأييد مقالاتهم على ما نبهنا

عليه في مناسبة سابقة مهما كان بين ما يروونه وبين فحوى العبارة القرآنية وسياقها مفارقة. وهذا يظهر قويا في هذه الرواية. ورواية الترمذي للرواية ليس من شأنها أن تجعلنا نتوقف في ذلك فاحتمال التدليس في ذلك وارد دائما.

ولعل ما قاله ابن كثير من أنه لم يكن في مكة منبر هو الذي جعل رواة الشيعة يروون رواية مدنية السورة لأن روايتهم تتسق بهذه الرواية.

ولقد قال الطبري إن أشبه الأقوال بظاهر التنزيل في معنى جملة لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) من قال: «عمل في ليلة القدر خير من عمل ألف شهر ليس فيها ليلة القدر» وروي عن مجاهد قولا جاء فيه أن معناها هو أن قيامها والعمل فيها خير من ألف شهر. ومع ما في هذا القول وذاك من وجاهة وصواب فإننا لا نزال نرجح أن الجملة قد جاءت بقصد التوكيد على ما في ليلة القدر من خير وبركة على سبيل التنويه والتعظيم بحدث الحادث العظيم الذي كان فيها، والله أعلم.

---

(1) انظر تفسيرها في الطبري وابن كثير ونص الحديث من ابن كثير. وقد أورده أيضا مؤلف التاج عزوا إلى الترمذي انظر التاج 4 ص 263.

تعليق على روايات نزول القرآن جملة واحدة

ولقد أورد المفسرون في سياق هذه السورة روايات وأقوالا تتضمن فيما تتضمنه أن القرآن أنزل دفعة واحدة إلى سماء الدنيا ثم أخذ ينزل منجّما أي مفرقا ، وأن ما عنته هذه السورة هو هذا حيث قصدت جميع القرآن «1» . ولقد أورد ابن كثير في سياق تفسير آية البقرة [185] عن الإمام أحمد حديثا رواه عن واثلة أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «أنزلت صحف إبراهيم في أول رمضان والتوراة لست خلت منه والإنجيل لثلاث عشرة خلت منه» . وأورد حديثا آخر رواه جابر بن عبد اللّه فيه زيادة عن الزبور وتعديل لوقت الإنجيل حيث جاء فيه : «إن الزبور نزل لثنتي عشرة خلت من رمضان والإنجيل لثماني عشرة خلت منه» . والمتبادر أن الأحاديث بسبيل ذكر نزول هذه الكتب في هذه الأوقات دفعة واحدة . والأحاديث لم ترد في الكتب الخمسة ، ولقد روى بعضهم عن الشعبي أن الآية الأولى من سورة القدر تعني «إنّا ابتدأنا بإنزاله في ليلة القدر» «2» . والنفس تطمئن بقول الشعبي هذا ، وبأن هذا السورة وآيات سورة الدخان التي أوردناها آنفا وآية سورة البقرة هذه :

شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ [185] قد عنت بدء نزول القرآن ، وبأن سورة القدر قد احتوت تنويها بعظم حادث بدء نزول القرآن وجلالة قدره ، وبخطورة الليلة التي شرّف اللّه قدرها ، بحدوث هذا الحادث العظيم فيها .

أما إنزال القرآن جميعه دفعة واحدة إلى سماء الدنيا فليس عليه دليل من القرآن أو من الحديث الصحيح . ولا يبدو له حكمة كما لا يبدو أنه منسجم مع طبيعة الأشياء حيث احتوت معظم فصول القرآن صور السيرة النبوية المتنوعة في مكة أولا ثم في المدينة وكثيرا ما كانت تنزل في مناسبات

---

(1) انظر تفسيرها في تفسير الطبري والنيسابوري وابن كثير والبغوي والطبرسي والزمخشري .

(2) انظر تفسير السورة في تفسير الزمخشري والطبرسي أيضا وانظر تفسير آية شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن من البقرة في تفسير المنار وانظر الإتقان للسيوطي ج 1 ص 42 وانظر كتابنا القرآن المجيد ص 281 وما بعدها .

أحداثها ، وهذا الذي قلناه ينطبق على رواية قتادة التي أوردها الطبري بالنسبة للكتب السماوية الأخرى .

تعليق على ليلة القدر

ولقد أورد المفسرون ورواة الأحاديث أحاديث عديدة في صدد تعيين ليلة القدر . منها

حديث رواه الشيخان والترمذي عن عائشة أيضا قالت : «كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يجاور في العشر الأواخر من رمضان ويقول تحرّوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» «1» . وحديث رواه الخمسة إلّا الترمذي جاء فيه : «قال ابن عمر إن رجالا من أصحاب النبي أروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر فمن كان متحرّيها فليتحرّها في السبع الأواخر» «2» . وحديث رواه الشيخان والترمذي عن عائشة قالت : «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأخير من رمضان» «3» .

وحديث رواه الخمسة إلّا البخاري عن زرّ بن حبيش قال : «سألت أبيّ بن كعب فقلت إن أخاك ابن مسعود يقول من يقم الحول يصب ليلة القدر فقال رحمه اللّه أراد ألا يتكل الناس. أما إنّه قد علم أنها في رمضان وأنها في العشر الأواخر وأنها ليلة سبع وعشرين ثم حلف لا يستثني أنّها ليلة سبع وعشرين فقلت بأيّ شيء تقول ذلك يا أبا المنذر قال بالعلامة أو بالآية التي أخبرنا رسول اللّه أنها تطلع يومئذ لا شعاع لها» «4» . وحديث عن معاوية بن أبي سفيان رواه أبو داود وأحمد قال : «قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ليلة القدر ليلة سبع وعشرين» «5» .

---

(1) التاج 2 ص 73 - 76 ومعنى يجاور : يعتكف في المسجد .

(2) المصدر نفسه .

(3) المصدر نفسه. [.....]

(4) المصدر نفسه ص 77 - 78 وهناك أحاديث عديدة أخرى أوردها ابن كثير في وقتها لم ترد في كتب الصحاح ومنها ما يذكر غير الأوقات المذكورة في الأحاديث التي أوردناها والواردة في كتب الصحاح فاكتفينا بذلك لأنها هي المشهورة والوثيقة معا.

(5) المصدر نفسه.

ولما كانت آية البقرة تنصّ على نزول القرآن في شهر رمضان وآية القدر تنص على نزوله في ليلة القدر فيمكن أن يقال إن حادث أول وحي قرآني قد وقع في إحدى الليالي العشر الأخيرة من رمضان أو ليلة السابع والعشرين منه على التخصيص.

والتنويه القرآني بهذه الليلة قوي. وهي جديرة به لأن الحادث الذي وقع فيها أعظم حادث في تاريخ الإسلام. وإليه يرجع كل حادث فيه. وكل ذكرى من ذكرياته، وكل خير وبركة من خيراته وبركاته، وهو الجدير بأن يكون تاريخه موضع تنويه وإشادة وتكريم واحتفاء في كل جيل من أجيال الإسلام، بل في كل جيل من أجيال البشر وفي كل مكان من الأرض. فالنبوة المحمدية التي بدأت به هي نبوة الخلود والبشرية جمعاء. والقرآن الذي بدئ بإنزاله على

النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في هذه الليلة هو كتاب اللّه الخالد الذي فيه رحمة وهدى وشفاء لجميع الناس في كل مكان وزمان ، والذي احتوى ما فيه الكفاية لرجع أمور الدين والدنيا إلى نصابها الحق ولإقامة إخاء عام بين البشر . ونظام اجتماعي وسياسي واقتصادي مرتكز على قواعد الحق والعدل والحرية والمساواة والكرامة وهذا التاريخ هو التاريخ الوحيد المعروف في مثله من تاريخ الأنبياء وكتبهم . والقرآن هو الكتاب الوحيد الذي بقي في أيدي الناس كما بلغه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم سليما تاما فوق كل مظنة . ومحمد صلّى اللّه عليه وسلّم هو النبي الوحيد الذي لم يدر حول وجوده وشخصيته وتاريخه ما دار حول غيره من الشكوك والأقوال .

وفيما احتوته السورة من الإشارة إلى نزول الملائكة وعلى رأسهم عظيمهم في هذه الليلة بأوامر اللّه وبركاته وشمولها بالسلام والتجليات الربانية قصد إلى بيان عظمة شأنها ورفعة قدرها أولا ، ودعوة ضمنية إلى المسلمين إلى إحيائها في كل عام اقتداء بالملائكة وتحصيلا للبركة الربانية فيها وتكريما للذكرى المقدسة التي انطوت فيها .

ولقد أثرت بعض الأحاديث عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في خير هذه الليلة وبركتها ، والحث على تحريها وإحيائها منها حديث رواه الخمسة عن أبي هريرة قال : «قال

النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدّم من ذنبه» «1». وحديث رواه الخمسة عن عائشة قالت: «كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم إذا دخل العشر شدّ مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله». ولفظ الترمذي: «كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها» «2». وهذا متصل من دون ريب بالذكرى الجليلة. ومن الغريب أن يغفل المسلمون عن المعنى العظيم لهذه الذكرى وأن ينتهوا من أمرها إلى المعاني والأهداف المادية الخاصة فيما يدعون اللّه به كما هو السائد في الأوساط الإسلامية منذ قرون طويلة.

وقد يكون هنا مجال للتساؤل عما إذا كانت تسمية «ليلة القدر» هي تسمية قرآنية ونعتية طارئة، القصد منها التنويه والحفاوة والتذكير بعظمة شأن الحادث الذي كان فيها، أم أنها كانت معروفة قبل نزول القرآن. ولم نطلع على قول وثيق يساعد على النفي أو الإثبات.

غير أن في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي اللّه عنها والذي أوردناه في سياق تفسير سورة العلق أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يخلو بغار حراء فيتحنّث أي يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، وأن الوحي نزل عليه هنا ما يمكن أن يكون دلالة ما إلى ما كان من معنى خطير لليالي ذوات العديد قبل البعثة. وما دام أن الوحي نزل عليه في إحدى هذه الليالي فمن الجائز أن تكون الليالي ذوات العدد هي الليالي العشر الأخيرة من

رمضان أو أن هذه الليالي العشر منها . ولقد ذكرت الروايات «3» أن التحنث في شهر رمضان كان معروفا وممارسا في أوساط مكة المتقية المتعبدة حيث يسوّغ هذا أن يقال إن الليالي ذوات العدد كانت من الأمور المعروفة في هذه الأوساط أيضا . ولقد صارت ليلة القدر علما على ليلة بعينها ، ووردت بمعنى هذه العلمية أحاديث عديدة مما مرت نصوصها ، ولقد ورد في سورة الدخان هذه الآيات : إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) حيث يفيد هذا أن اللّه عز وجل قد جرت

---

(1) التاج ج 2 ص 73 - 74 .

(2) المصدر نفسه .

(3) تاريخ الطبري ج 2 ص 48 .

عادته على قضاء الأمور الخطيرة المحكمة في ليلة القدر . ففي كل هذا كما يتبادر لنا قرائن أو شبه قرائن على أن تسمية ليلة القدر ليست تسمية طارئة ونعتية أو تنويهية وحسب ، وأنها قد كان لها في أذهان بعض الأوساط المكية خطورة ما دينية الصفة .

تعليق على كلمة الروح

وبمناسبة ورود تعبير «الروح» نقول إن هذه الكلمة قد وردت في القرآن كثير في سياق الإشارة إلى هبة نسمة الحياة لآدم والمسيح والناس مضافة إلى اللّه عز وجل كما في آيات سورة الحجر هذه: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) وفي سورة الأنبياء هذه: وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (91) وفي آيات سورة السجدة هذه: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (9). وقد وردت الكلمة أيضا في صدد الإشارة إلى وحي اللّه وأوامره، وإلى الملك الذي كان ينزل بالقرآن على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كما جاء في آية سورة النحل هذه: يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (2) وفي آية غافر هذه: رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ (15) وآيات سورة الشعراء هذه موصوفا بالأمين: وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194). ووردت مطلقة بما يفيد أنها عظيم الملائكة كما جاء في آية سورة النبأ هذه: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَقالَ صَواباً (38) ووردت مضافة إلى القدس في سياق تنزيل القرآن كما جاء في آية

سورة النحل هذه : قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) ووردت في آيات عديدة مضافة إلى القدس في صدد تأييد المسيح عليه السلام كما ترى في هذا المثال : وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ البقرة [87] والمتبادر أن المقصود من الكلمة هنا على ما تلهمه روح العبارة هو عظيم الملائكة . وفي سورة التحريم آية تلهم أن عظيم الملائكة هو جبريل وهي : إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (4) ولما كانت آيات النحل نعتت الملك الذي ينزل بالوحي القرآني بالروح ولما جاء في آية في سورة البقرة أن الذي ينزل بهذا الوحي هو جبريل وهي : قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97) فيكون المقصود من الكلمة هنا هو جبريل عظيم الملائكة على ما هو المتبادر . وجمهور المفسرين على أن تسمية جبريل بروح القدس هي على اعتبار أنه روحاني الخلقة بدون تولد من أب وأم وأنه مطهر من الرجس والله تعالى أعلم .

ولما كان أمر الملائكة وحقيقتهم وأعمالهم من المسائل الغيبة الواجب الإيمان بها لأن القرآن

قد قررها كما قلنا قبل فالواجب الإيمان بما جاء في صددهم في الآية دون تخمين وتزيد مع ذكر كون ذلك بسبيل التنويه بعظم شأن الليلة للحادث العظيم الذي كان فيها .

وندع التعليق على ما ورد في الآيات التي أوردناها في معرض التمثيل والتي تنسب الروح إلى اللّه عز وجل وتذكر نفخه بروحه في آدم ومريم والإنسان عامة إلى تفسير هذه الآيات في سورها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التفسير الحديث حـ 2 صـ 129 . 137﴾

(242/824)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(97) سورة القدر

نزولها : مكية ، وقيل مدنية . . نزلت بعد سورة « عبس » .

عدد آياتها : خمس آيات .

عدد كلماتها : ثلاثون كلمة .

عدد حروفها : مائة واثنا عشر حرفا .

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة « العلق » بقوله تعالى : « كَلَّا لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ » وجاءت بعد ذلك

سورة القدر ، وفيها تنويه بشأن هذا القرآن الذي أنزل على النبي ، والذي هداه ربه ، وملأ قلبه إيمانا ويقينا بعظمته وجلاله . . وبهذا الإيمان الوثيق يتجه النبي إلى ربه لا يخشى وعيدا ، ولا يرهب تهديدا . .

بسم اللّه الرحمن الرّحيم

الآيات : (1 .5) [سورة القدر (97) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)
سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

قوله تعالى : «إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» . .

الضمير فى «أنزلناه» يعود إلى القرآن الكريم ، وهو وإن لم يجر له ذكر سابق فى السورة ، إلا أنه مذكور بما له من إشعاع يملأ الوجود . . فإذا نزل شىء من عند اللّه ، فهو هذا القرآن ، أو فيض من فيض هذا القرآن . .

وليلة القدر ، هى الليلة المباركة ، التي أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله :

« إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (3 ـ 6 : الدخان) . وهى ليلة من ليالى رمضان ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ » .

(185 : البقرة) ومعنى « أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ » أي ابتدأنا إنزاله فى ليلة القدر ، وهى الليلة التي افتتح فيها الوحى ، واتصل فيها جبريل بالنبي ، قائلا له : « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » .

وقد اختلف فى أي ليلة من ليالى رمضان ليلة القدر ، وأصح الأقوال أنها فى العشر الأواخر من رمضان . . واختلف كذلك أي ليلة هى فى الليالى العشر ، وأصح الأقوال كذلك أنها فى الليالى الفردية ، أي فى الليلة الحادية والعشرين ، أو الثالثة والعشرين ، أو الخامسة والعشرين أو السابعة والعشرين أو التاسعة والعشرين . . وأصح الأقوال هنا أنها الليلة السابعة والعشرون ، أي الليلة السابعة من العشر الأواخر من رمضان . . وهذا ما يروى عن ابن عباس من أنه « م 103 التفسير القرآنى ج 30 »

قال : « هى سابعة تمضى أو سابعة تبقى من العشر الأواخر من رمضان ، وقد سئل فى هذا فقال : نظرت فى كتاب الله فرأيت أن الله سبحانه قد جعل خلق الإنسان فى سبع ، فقال تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً ، فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً . ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ » (14.12 : المؤمنون) ورأيت أن الله سبحانه وتعالى جعل رزقه فى سبع ، فقال تعالى : أَنْبَتْنا فِيها حَبًّا وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً وَحَدائِقَ غُلْباً وَفاكِهَةً وَأَبًّا مَتاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعامِكُمْ »

(32.27 : عبس) ورأيت أن الله خلق سبع سموات ، وسبع أرضين ، وسبعة أيام » . .

هذا وقد استظهر بعضهم أنها الليلة السابعة والعشرون ، وذلك بأن عدد كلمات السورة من أولها إلى قوله تعالى : « هى » سبع وعشرون كلمة . .

وهذا يعنى أن كل كلمة تعدل ليلة من ليالى رمضان ، حتى إذا كانت ليلة القدر جاءت الإشارة إليها بقوله تعالى : « هى » أي هى هنا عند الكلمة السابعة والعشرين ، أو الليلة السابعة والعشرين . .

وفى محاولة تحديد هذه الليلة تكلف ، لا تدعو إليه الحاجة ، فهى ليلة من ليالى رمضان ، وكفى ، ولو أراد سبحانه وتعالى بيانها لبينها ، وإنما أراد سبحانه إشاعتها فى ليالى الشهر

المبارك كله ، ليجتهد المؤمنون فى إحياء ليالى الشهر جميعه ! . .

وسميت ليلة « القدر » بهذا الاسم ، لأنها ذات شأن عظيم ، وقدر جليل ، لأنها الليلة التي نزل فيها القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ،

(245/824)

إنها الليلة التي توزن فيها أقدار الناس حسب قربهم وبعدهم من كتاب اللّه ، ويفرق فيها بين المحقّين والمبطلين . .

وقد أشار إليها اللّه سبحانه وتعالى فى سورة أخرى بقوله : « فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ »

أي يبين فيها حكم اللّه فيما هو حلال أو حرام ، وحق أو باطل ، وهدى أو ضلال ، وذلك بما نزل فيها من آيات اللّه . .

وقوله تعالى : « وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ » ؟

تنويه بشأن هذه الليلة ، وتفخيم لقدرها ، وأنها ليلة لا يدرى أحد كنه ، عظمتها ، ولا حدود قدرها . .

قوله تعالى : « لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ » .

اختلف فى تحديد المفاضلة بين هذه الليلة وبين الألف شهر . . وقد تواردت على هذا

مقولات وأخبار شتى . .

ونقول ـ والله أعلم ـ إنه ليس المراد من ذكر الألف شهر وزن هذه الليلة بهذا العدد من الأيام والليالى والسنين ، وأنها ترجح عليها فى ميزانها ، وإنما المراد هو تفخيم هذه الليلة وتعظيمها ، وأن ذكر هذا العدد ليس إلا دلالة على عظم شأنها ، إذ كان عدد الألف هو أقصى ما تعرفه العرب من عقود العدد .

عشرة ، ومائة ، وألف ، ومضاعفاتها .

وإذن فهى ليلة لا حدود لفضلها ، ولا عدل لها من أيام الزمن ولياليه ، وإن بلغت ما بلغت عدّا .

وقدر هذه الليلة ، إنما هو ـ كما قلنا ـ فى أنها كانت الظرف الذي نزل فيه القرآن ، والوعاء الذي حمل هذه الرحمة العامة إلى الإنسانية كلها . . إنها الليلة

الولد التي بزغت فيها شمس الهدى ، على حين أنه قد تمضى مئات وألوف من الليالى عقيما لا تلد شيئا ينتفع به ، ولا تطلع على الناس ببارقة من خير يتلقونه منها : . .

إن شأن هذه الليلة فى الليالى ، شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإنسانية . .

إنه. صلوات اللّه وسلامه عليه. واحد الإنسانية، ومجدها وشرفها، وهى واحدة ليالى الزمن، ومجده، وشرفه . . فكان التقاؤها بالنبي على رأس الأربعين من عمره. وقد توجه ربه بتاج النبوة. كان، التقاء جمع بين الزمن مختصرا فى ليلة، وبين الإنسانية مختصرة فى إنسان، هو رسول اللّه . .

وكان ذلك قدرا مقدورا من اللّه العزيز الحكيم.

وقوله تعالى: « تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ » أي يتنزل فيها جبريل عليه السلام، الذي هو مختص بتبليغ الوحى، والاتصال بالنبيّ . . أما الملائكة الذين يحفون به، فهم وفد اللّه معه لحمل هذه الرحمة إلى رسول اللّه، وإلى عباد اللّه . . وهم إنما يتنزلون بأمر اللّه كما يقول سبحانه: « وَما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » (64 : مريم) فجبريل لم يكن ينزل وحده بالوحى، وإنما كان ينزل فى كوكبة عظيمة من الملائكة تشريفا وتكريما، لما يحمل إلى رسول اللّه من آيات اللّه . .

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده:

« وإنما عبر بالمضارع فى قوله تعالى: « تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ » وقوله: « فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ » . مع أن المعنى ماض، لأن الحديث عن مبدإ نزول الوحى. لوجهين:

الأول : لاستحضار الماضي ، ولعظمته على نحو ما فى قوله تعالى : « وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ » (214 : البقرة) . . فإن المضارع بعد الماضي يزيد الأمر تصويرا . .

والثاني : لأن مبدأ النزول كان فيها ، ولكن بقية الكتاب ، وما فيه من تفصيل الأوامر والأحكام.كان فيما بعد . . فكأنه يشير إلى أن ما ابتدأ فيها يستمر فى مستقبل الزمان ، حتى يكمل الدين » ! ! وقوله تعالى : « من كل أمر » أي تتنزل الملائكة حاملة من كل أمر من أوامر اللّه ، ومن أحكامه ، ما يأذن اللّه لها به ، كما تقضى بذلك حكمته . .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (5.4 : الدخان) .

وقوله تعالى : « سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » .

أي أنها ليلة ولد فيها الأمن والسلام . . من بدئها إلى ختامها . . فهى ليلة القرآن . . والقرآن من مبدئه إلى ختامه سلام وأمن كلّه ، ورسالة القرآن هى « الإسلام » الذي هو السلام ، والنجاة ، لمن طلب السلامة والنجاة . ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1632.1637 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) ﴾

اشتملت هذه الآية على تنويه عظيم بالقرآن فافتتحت بحرف (إِنَّ) وبالإِخبار عنها بالجملة الفعلية ، وكلاهما من طرق التأكيد والتقوّي .

ويفيد هذا التقديم قصراً وهو قصر قلب للرد على المشركين الذي نفوا أن يكون القرآن منزلاً من الله تعالى .

وفي ضمير العظمة وإسناد الإِنزال إليه تشريف عظيم للقرآن .

وفي الإِتيان بضمير القرآن دون الاسم الظاهر إيماء إلى أنه حاضر في أذهان المسلمين لشدة إقبالهم عليه فكون الضمير دون سبق معاد إيماء إلى شهرته بينهم .

فيجوز أن يراد به القرآنُ كلُّه فيكون فعل : "أنزلنا" مستعملاً في ابتداء الإِنزال لأن الذي أُنزل في تلك الليلة خمس الآيات الأول من سورة العلق ثم فتر الوحي ثم عاد إنزاله منجماً ولم يكمل إنزال القرآن إلا بعد نيف وعشرين سنة ، ولكن لما كان جميع القرآن مقرراً في علم الله تعالى مقدارُه وأنه ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم منجّماً حتى يتم ، كان إنزاله بإنزال الآيات الأُول منه لأن ما ألحق بالشيء يعد بمنزلة أوله فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم " صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه " الحديث فاتفق العلماء على أن الصلاة

فيما أُلحق بالمسجد النبوي لها ذلك الفضل ، وأن الطواف في زيادات المسجد الحرام يصحّ كلما اتّسع المسجد .

ومن تسديد ترتيب المصحف أن وضعت سورة القدر عقب سورة العلق مع أنها أقلّ عددَ آياتٍ من سورة البينة وسُورٍ بعدها ، كأنه إماء إلى أن الضمير في ﴿ أنزلناه ﴾ يعود إلى القرآن الذي ابتدىء نزوله بسورة العلق .

ويجوز أن يكون الضمير عائداً على المقدار الذي أنزل في تلك الليلة وهو الآياتُ الخمسُ من سورة العلق فإن كل جزء من القرآن يسمى قرآناً ، وعلى كلا الوجهين فالتعبير بالمضي في فعل ﴿ أنزلناه ﴾ لا مجاز فيه .

وقيل : أطلق ضمير القرآن على بعضه مجازاً بعلاقة البعضية .

والآية صريحة في أن الآيات الأول من القرآن نزلت ليلاً وهو الذي يقتضيه حديث بَدْء الوحي في "الصحيحين" لقول عائشة فيه : "فكان يتحنث في غار حراء الليالِيَ ذواتِ العَدَد" فكان تعبده ليلاً ، ويظهر أن يكون الملك قد نزل عليه أثر فراغه من تعبده ، وأما قول عائشة : "فرجع بها رسول الله يرجف فُؤاده" فمعناه أنه خرج من غار حراء إثر الفجر بعد

انقضاء تلقينه الآيات الخمس إذ يكون نزولها عليه في آخر تلك الليلة وذلك أفضل أوقات الليل كما قال تعالى : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران : 17] .

وليلة القدر : اسم جعله الله لِلَّيلة التي ابتدىء فيها نزول القرآن .

ويظهر أن أول تسميتها بهذا الاسم كان في هذه الآية ولم تكن معروفة عند المسلمين وبذلك يكون ذكرها بهذا الاسم تشويقاً لمعرفتها ولذلك عقب بقوله :

﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ [القدر : 2] .

والقَدْر الذي عُرفت الليلة بالإضافة إليه هو بمعنى الشرفِ والفضل كما قال تعالى في سورة الدخان (3) : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ أي ليلة القدر والشرف عند الله تعالى مما أعطاها من البركة فتلك ليلة جعل الله لها شرفاً فجعلها مظهراً لما سبق به علمه فجعلها مبدأ الوحي إلى النبي .

والتعريف في القدر ﴾ تعريف الجنس .

ولم يقل : في ليلةِ قدرٍ ، بالتنكير لأنه قُصد جعل هذا المركب بمنزلة العَلَم لتلك الليلة كالعلَم بالغلبة ، لأن تعريف المضاف إليه باللام مع تعريف المضاف بالإضافة أوْغَلُ في جعل ذلك المركب لَقَباً لاجتماع تعريفين فيه .

وقد ثبت أن ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان قال تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ [البقرة : 185] .

ولا شك أن المسلمين كانوا يعلمون ذلك إذ كان نزول هذه السورة قبل نزول سورة البقرة بسنين إن كانت السورة مكية أو بمُدة أقل من ذلك إن كانت السورة مدنية ، فليلة القدر المرادة هنا كانت في رمضان وتأيد ذلك بالأخبار الصحيحة من كونها من ليالي رمضان في كل سنة .

وأكثر الروايات أن الليلة التي أنزل فيها القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم كانت ليلةَ سَبْع عشرة من رمضان .

وسيأتي في تفسير الآيات عقب هذه الكلامُ في هل ليلة ذات عدد متماثل في جميع الأعوام أو تختلف في السنين ؟ وفي هل تقع في واحدة من جميع ليالي رمضان أو لا تخرج عن العشر الأواخر منه ؟ وهل هي مخصوصة بليلة وترٍ كما كانت أول مرّة أوْ لا تختص بذلك ؟

والمقصود من تشريف الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها تشريف آخر للقرآن بتشريف زمان ظهوره ، تنبيهاً على أنه تعالى اختار لابتداء إنزاله وقتاً شريفاً مباركاً لأن عظم قدر الفعل يقتضي أن يُختار لإِيقاعه فَضْل الأوقات والأمكنة ، فاختيار فضللِ الأوقات لابتداء إنزاله ينبىء عن علوّ قدره عند الله تعالى كقوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ [الواقعة :

79] على الوجهين في المراد من المطهرين .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2)

تنويه بطريق الإِبهام المراد به أن إدراك كنهها ليس بالسهل لما ينطوي عليه من الفضائل الجمّة .

وكلمة (ما أدراك ما كذا) كلمة تقال في تفخيم الشيء وتعظيمه ، والمعنى : أيُّ شيء يُعرِّفك ما هي ليلة القدر ، أي يعسر على شيءٍ أن يعرِّفك مقدارَها ، وقد تقدمت غير مرة منها ، قوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ في سورة الانفطار (17) قريباً .

والواو واو الحال .

(251/824)

وأعيد اسم لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ الذي سَبَق قريباً في قوله : ﴿ في ليلة القدر ﴾ [القدر : 1] على خلافِ مقتضى الظاهر لأن مقتضى الظاهر الإِضمارُ ، فقُصِد الاهتمامُ بتعيينها ، فحصل تعظيم ليلة القدر صريحاً ، وحصلت كناية عن تعظيم ما أُنزل فيها وأن الله اختار إنزاله فيها ليتطابق الشرفان .

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)

بيان أول لشيء من الإبهام الذي في قوله : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ [القدر : 2]
مثل البيان في قوله : ﴿ وما أدراك ما العقبة فك رقبة أو إطعام ﴾ [البلد : 12 ، 14]
الآية .

فلذلك فصلت الجملة لأنها استئناف بياني ، أو لأنها كعطف البيان .

وتفضيلها بالخَيْر على ألف شهر .

إنما هو بتضعيف فضل ما يحصل فيها من الأعمال الصالحة واستجابة الدعاء ووفرة ثواب الصدقات والبركة للأمة فيها ، لأن تفاضل الأيام لا يكون بمقادير أزمنتها ولا بما يحدث فيها من حَر أو برد ، أو مطر ، ولا بطولها أو بقصرها ، فإن تلك الأحوال غير معتدّ بها عند الله تعالى ولكن الله يعبأ بما يحصل من الصلاح للناس أفراداً وجماعات وما يعين على الحق والخير ونشر الدين .

وقد قال في فضل الناس : ﴿ إن أكرمكم عند اللَّه أتقاكم ﴾ [الحجرات : 13] فكذلك فضل الأزمان إنما يقاس بما يحصل فيها لأنها ظروف للأعمال وليست لها صفات ذاتية يمكن أن تتفاضل بها كتفاضل الناس ففضلها بما أعدّه الله لها من التفضيل كتفضيل ثلث الليل الأخير للقربات وعدد الألف يظهر أنه مستعمل في وفرة التكثير كقوله : "واحد كألف" وعليه جاء قوله تعالى : ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ﴾ [البقرة : 96] وإنما جعل تمييز عدد الكثرة هنا بالشهر للرعي على الفاصلة التي هي بحرف الراء .

وفي "الموطإ" : "قال مالك إنه سمع من يثق به من أهل العلم يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أري أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك فكأنه تقاصر أعمارَ أمته أن لا يبلغوا من العمَل مثل ما بلغ غيرهم في طول العُمر فأعطاه الله ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ أ هـ .

وإظهار لفظ ﴿ لَيْلَةُ القدر ﴾ في مقام الإضمار للاهتمام ، وقد تكرر هذا اللفظ ثلاث مرات والمرات الثلاث ينتهي عندها التكرير غالباً كقوله تعالى : ﴿ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ﴾ [آل عمران : 78] .

وقول عديّ :

لا أرى الموتَ يسبق الموتَ شيءٌ . . .

نَغَّص الموتُ ذا الغنى والفقيرا

ومما ينبغي التنبه له ما وقع في "جامع الترمذي" بسنده إلى القاسم بن الفضل الحُدَّاني عن يوسف بن سَعد قال : "قام رجل إلى الحسن بن علي بعدما بايع معاوية فقال : سَوَّدتَ وجوهَ المؤمنين ، أوْ يا مُسوِّد وجوهِ المؤمنين فقال : لا تؤنبني رَحمك الله فإن النبي صلى الله عليه

وسلم أري بني أمية على منبره فساءه ذلك فنزلت : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ [الكوثر : 1] يا محمّد يعني نهراً في الجنة ، ونزلت : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ [القدر : 1 3] يملكها بنو أمية يا محمدُ قال القاسم : فعددناها فإذا هي ألف شهر لا يَزِيدُ يومٌ ولا ينقص" .

قال أبو عيسى الترمذي ، هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

آ وقد قيل عن القاسم بن الفضل عن يوسف بن مازِن نعرفه والقاسم بن الفضل ثقة ويُوسف بن سَعْد رجل مجهول أ هـ .

قال ابن كثير في "تفسيره" ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل عن عيسى بن مازن كذا قال ، وعيسى بن مازن غير معروف ، وهذا يقتضي اضطراباً في هذا الحديث ، أي لاضطرابهم في الذي يروي عنه القاسم بن الفضل ، وعلى كل احتمال فهو مجهول .

(253/824)

وأقول : وأيضاً ليس في سنده ما يفيد أن يوسف بن سعد سمع ذلك من الحسن رضي الله عنه .

وفي "تفسير الطبري" عن عيسى بن مازن أنه قال : قلت للحسن : يا مسود وجوه المؤمنين

إلى آخر الحديث .

وعيسى بن مازن غير معروف أصلاً فإذا فرضنا توثيق يوسف بن سعد فليس في روايته ما يقتضي أنه سمعه بل يجوز أن يكون أراد ذكر قصة تُروى عن الحسن .

واتفق حذاق العلماء على أنه حديث منكر صرح بذلك ابن كثير وذكره عن شيخه المزي ، وأقول : هو مختل المعنى وسمات الوضع لائحة عليه وهو من وضع أهل النحَل المخالفةِ للجماعة فالاحتجاجُ به لا يليق أن يصدر مثله عن الحسن مع فرط علمه وفطنته ، وأَيّة ملازمة بين ما زعموه من رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين دفع الحسن التأنيب عن نفسه ، ولا شك أن هذا الخبر من وضع دُعاة العباسيين على أنه مخالف للواقع لأن المدة التي بين تسليم الحسن الخلافة إلى معاوية وبين بيعة السفاح وهو أول خلفاء العباسية ألف شهر واثنان وتسعون شهراً أو أكثر بشهر أو بشهرين فما نُسب إلى القاسم الحُدَّاني من قوله : فعددناها فوجدناها الخ كذب لا محالة .

والحاصل أن هذا الخبر الذي أخرجه الترمذي منكر كما قاله المِزّي .

قال ابن عرفة وفي قوله : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ المحسن المسمّى تَشابه الأطراف وهو إعادة لفظ القافية في الجملة التي تليها كقوله تعالى : ﴿ كمشكاة فيها مصباح المصباحُ في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري ﴾ [النور : 35] أ هـ .

يريد بالقافية ما يشمل القرينة في الأسجاع والفواصلَ في الآي ، ومثاله في الشعر قول ليلى

الأخيلية :

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة . . .

تتبع أقصى دائها فشفاها

شفاها من الداء العضال الذي بها . . .

غلامٌ إذا هز القناة سقاها الخ

تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)

(254/824)

إذا ضُم هذا البيان الثاني لما في قوله : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ [القدر : 2] من الإِبهام التفخيمي حصل منهما ما يدل دلالةً بيّنة على أن الله جعل مثل هذه الفضيلة لكل ليلة من ليالي الأعوام تقع في مثل الليلة من شهر نزول القرآن كرامةً للقرآن ، ولمن أنزل عليه ، وللدِّين الذي نزل فيه ، وللأمة التي تتبعه ، ألا ترى أن معظم السورة كان لذكر فضائل ليلة القدر فما هو إلا للتحريض على تطلب العمل الصالح فيها ، فإن كونها خيراً من ألف شهر أومأ إلى ذلك وبينته الأخبار الصحيحة .

والتعبير بالفعل المضارع في قوله : ﴿ تنزل الملائكة ﴾ مؤذن بأن هذا التنزل متكرر في

المستقبل بعد نزول هذه السورة .

وذِكر نهايتها بطلوع الفجر لا أثرَ له في بيان فضلها فتعين أنه إدماج للتعريف بمنتهاهَا ليحرص الناسُ على كثرة العمل فيها قبل انتهائها .

لا جرم أن ليلة القدر التي ابتدىء فيها نزول القرآن قد انقضت قبل أن يشعر بها أحد عدا محمد صلى الله عليه وسلم إذْ كان قد تحنث فيها ، وأنزل عليه أول القرآن آخرها ، وانقلب إلى أهله في صبيحتها ، فلولا إرادة التعريف بفضل الليالي الموافقة لها في كل السنوات لاقتُصر على بيان فضل تلك الليلة الأولى ولما كانت حاجة إلى تَنزّل الملائكة فيها ، ولا إلى تعيين منتهاها .

وهذا تعليم للمسلمين أن يَعظموا أيام فضلهم الديني وأيام نَعم الله عليهم ، وهو مماثل لما شرع الله لموسى من تفضيل بعض أيام السنين التي توافق أياماً حصلت فيها نعم عظمى من الله على موسى قال تعالى : ﴿ وذكرهم بأيام اللَّه ﴾ [إبراهيم : 5] فينبغي أن تعد ليلة القدر عيد نزول القرآن .

وحكمة إخفاء تعيينها إرادةُ أن يكرر المسلمون حسناتهم في ليال كثيرة توخياً لمصادفة ليلة القدر كما أُخفيت ساعة الإِجابة يوم الجمعة .

هذا محصّل ما أفاده القرآن في فضل ليلة القدر من كل عام ولم يبين أنها أيّةُ ليلة ، ولا من أي شهر ، وقد قال تعالى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ [البقرة : 185] فتبين أن ليلة القدر الأولى هي من ليالي شهر رمضان لا محالة ، فبنا أن نتطلب تعيين ليلة القدر الأولى التي ابتدِىء إنزال القرآن فيها لنطلب تعيين ما يماثلها من ليالي رمضان في جميع السّنين ، وتعيين صفة المماثلة ، والمماثلة تكون في صفات مختلفة فلا جائز أن تُماثلها في اسم يومها نحو الثلاثاء أو الأربعاء ، ولا في الفصل من شتاءٍ أو صيف أو نحو ذلك مما ليس من الأحوال المعتبرة في الدين ، فعلينا أن نتطلب جهة من جهات المماثلة لها في اعتبار الدين وما يرضي الله .

وقد اختُلف في تعيين المماثلة اختلافاً كثيراً وأصح ما يعتمد في ذلك : أنها من ليالي شهر رمضان من كل سنة وأنها من ليالي الوتر كما دل عليه الحديث الصحيح :

" تحروا ليلة القدر في الوتر في العشر الأواخر من رمضان " .

والوتر : أفضل الأعداد عند الله كما دل عليه حديث : " إن الله وِتر يحب الوتر " .

وأنّها ليست ليلة معينة مطّردة في كل السنين بل هي متنقلة في الأعوام ، وأنها في رمضان وإلى هذا ذهب مالك والشافعي وأحمد وأكثر أهل العلم قال ابن رشيد : وهو أصح الأقاويل وأوْلاها بالصواب .

وعلَى أنها متنقلة في الأعوام فأكثر أهل العلم على أنها لا تخرج عن شهر رمضان .

والجمهور على أنها لا تخرج عن العشر الأواخر منه ، وقال جماعة : لا تخرج عن العَشْر الأوَاسط ، والعَشْر الأواخر .

وتأوّلوا ما ورد من الآثار ضبطها على إرادة الغالب أو إرادة عام بعينه .

ولم يرد في تعيينها شيء صريح يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم لأن ما ورد في ذلك من الأخبار محتمل لأن يكون أراد به تعيينها في خصوص السنة التي أخبر عنها وذلك مبسوط في كتب السنة فلا نطيل به ، وقد أتى ابن كثير منه بكثير .

(256/824)

وحفظت عن الشيخ محي الدين بن العربي أنه ضبط تعيينها باختلاف السنين بأبيات ذكر في البيت الأخير منها قوله :

وضابطها بالقول ليلة جمعةٍ

توافيك بعد النصفْ في ليلة وتر . . .

حفظناها عن بعض مُعلمينا ولم أقف عليها .

وجربنا علامة ضوء الشمس في صبيحتها فلم تتخلف .

وأصل ﴿ تنزل ﴾ تتنزل فحذفت إحدى التاءَيْن اختصاراً .

وظاهر أن تنزل الملائكة إلى الأرض .

ونزول الملائكة إلى الأرض لأجل البركات التي تحفهم .

و ﴿ الروح ﴾ : هو جبريل ، أي ينزل جبريل في الملائكة .

ومعنى ﴿ بإذن ربهم ﴾ أن هذا التنزل كرامة أكْرم الله بها المسلمين بأن أنزل لهم في تلك الليلة جماعات من ملائكته وفيهم أشرفهم وكان نزول جبريل في تلك الليلة ليعود عليها من الفضل مثل الذي حصل في مماثلتها الأولى ليلة نزوله بالوحي في غار حِراء .

وفي هذا أصل لإِقامة المواكب لإِحياء ذكرى أيام مجد الإِسلام وفضله وأن من كان له عمل في أصل تلك الذكرى ينبغي أن لا يخلو عنه موكب البهجة بتذكارها .

وقوله : ﴿ بإذن ربهم ﴾ متعلق بـ ﴿ تنزل ﴾ إما بمعنى السببية ، أي يتنزلون بسبب إذن ربهم لهم في النزول فالإِذن بمعنى المصدر ، وإما بمعنى المصاحبة ، أي مصاحبين لما أذِن به ربهم ، فالإِذن بمعنى المأذون به من إطلاق المصدر على المفعول نحو : ﴿ هذا خَلْق الله ﴾ [لقمان : 11] .

و ﴿ مِن ﴾ في قوله ﴿ من كل أمر ﴾ يجوز أن تكون بيانية تبين الإِذن من قوله : ﴿ بإذن ربهم ﴾ ، أي بإذن ربهم الذي هو في كل أمر .

ويجوز أن تكون بمعنى الباء ، أي تتنزل بكل أمر مِثل ما في قوله تعالى : ﴿ يحفظونه من أمر

الله ﴾

[الرعد : 11] أي بأمر الله، وهذا إذا جعلت باء ﴿ بإذن ربهم ﴾ سببية، ويجوز أن تكون للتعليل، أي من أجل كل أمر أراد الله قضاءه بتسخيرهم.

(257/824)

و﴿ كل ﴾ مستعملة في معنى الكثرة للأهمية، أي في أمور كثيرة عظيمة كقوله تعالى : ﴿ ولو جاءتهم كل آية ﴾ [يونس : 97] وقوله : ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر ﴾ [الحج : 27] وقوله : ﴿ واضربوا منهم كل بنان ﴾ [الأنفال : 12].

وقول النابغة :

بها كلُّ ذيَّال وخنساءَ تَرْعوي

إلى كل رَجَّاف من الرمل فارد . . .

وقد بينا ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ في سورة الحج (27).

وتنوين أمر ﴾ للتعظيم، أي بأنواع الثواب على الأعمال في تلك الليلة.

وهذا الأمر غير الأمر الذي في قوله تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ [الدخان : 4] مع أن ﴿ أمراً من عندنا ﴾ في سورة الدخان (5) متحدة مع اختلاف شؤونها، فإن لها

شؤوناً عديدة .

ويجوز أن يكون هو الأمر المذكور هنا فيكون هنا مطلقاً وفي آية الدخان مقيداً .

واعلم أن موقع قوله : تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ إلى قوله : ﴿ من كل أمر ﴾ ، من جملة : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ [القدر : 3] موقع الاستئناف البياني أو موقع بدل الاشتمال فلمراعاة هذا الموقع فصلت الجملة عن التي قبلها ولم تعطف عليها مع أنهما مشتركتان في كون كل واحدة منهما تفيد بياناً لجملة : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ [القدر : 2] ، فأوثرت مراعاةُ موقعها الاستئنافي أو البدلي على مراعاة اشتراكهما في كونها بياناً لجملة : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ لأن هذا البيان لا يفوت السامع عند إيرادها في صورة البيان أو البدل بخلاف ما لو عطفت على التي قبلها بالواو لفوات الإِشارة إلى أن تنزل الملائكة فيها من أحوال خيريتها .

وجملة : ﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾ بيان لمضمون ﴿ من كل أمر ﴾ وهو كالاحتراس لأنّ تنزّل الملائكة يكون للخير ويكون للشر لعقاب مكذبي الرسل قال تعالى : ﴿ ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين ﴾ [الحجر : 8] وقال : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾ [الفرقان : 22] .

وجُمع بين إنزالهم للخير والشر في قوله : ﴿ إذ يُوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق ﴾ [الأنفال : 12] الآية ، فأخبر هنا أن تنزل الملائكة ليلة القدر لتنفيذ أمر الخير للمسلمين الذين صاموا رمضان وقاموا ليلة القدر ، فهذه بشارة .

والسلام : مصدر أو اسم مصدر معناه السلامة قال تعالى : ﴿ قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ [الأنبياء : 69] .

ويطلق السلام على التحية والمِدحة ، وفسر السلام بالخَيْر ، والمعنيان حاصلان في هذه الآية ، فالسلامة تشمل كل خير لأن الخيْر سلامة من الشر ومن الأذى ، فيشمل السلامُ الغفرانَ وإجزال الثواب واستجابة الدعاء بخير الدنيا والآخرة .

والسلام بمعنى التحية والقول الحسن مراد به ثناء الملائكة على أهل ليلة القدر كدأبهم مع أهل الجنة فيما حكاه قوله تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾

[الرعد : 23 ، 24] .

وتنكير ﴿ سلام ﴾ للتعظيم .

وأخبر عن الليلة بأنها سلام للمبالغة لأنه إخبار بالمصدر .

وتقديم المسند وهو ﴿ سلام ﴾ على المسند إليه لإِفادة الاختصاص، أي ما هي إلا سلام.

والقصر ادعائي لعدم الاعتداد بما يحصل فيها لغير الصائمين القائمين، ثم يجوز أن يكون ﴿ سلام هي ﴾ مراداً به الإِخبار فقط، ويجوز أن يراد بالمصدر الأمرُ، والتقدير: سلِّمُوا سلاماً، فالمصدر بدل من الفعل وعدل عن نصبه إلى الرفع ليفيد التمكن مثل قوله تعالى: ﴿ قالوا سلاماً قال سلام ﴾ [الذاريات: 25].

والمعنى: اجعلوها سلاماً بينكم، أي لا نزاع ولا خصام.

ويشير إليه ما في الحديث الصحيح: " خرجتُ لأخبِرَكم بليلة القدر فتلاحَى رجلان فرُفِعَتْ وعسى أن يكون خيرا لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة ".

و﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ غاية لما قبله من قوله: ﴿ تنزل الملائكة ﴾ إلى ﴿ سلام هي ﴾.

والمقصود من الغاية إفادة أن جميع أحيان تلك الليلة معمورة بنزول الملائكة والسلامة، فالغاية هنا مؤكدة لمدلول ﴿ ليلة ﴾ [القدر: 1] لأن الليلة قد تطلق على بعض أجزائها

كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم " من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه " أي من قام بعضها ، فقد قال سعيد بن المسيب : من شهد العشاء من ليلة القدر فقد أخذ بحَظه منها .

يريد شهدها في جماعة كما يقتضيه فعل شهد ، فإن شهود الجماعة من أفضل الأعمال الصالحة .

وجيء بحرف ﴿ حتى ﴾ لإدخال الغاية لبيان أن ليلة القدر تمتد بعد مطلع الفجر بحيث أن صلاة الفجر تعتبر واقعة في تلك الليلة لئلا يتوهم أن نهايتها كنهاية الفِطر بآخر جزء من الليل ، وهذا توسعة من الله في امتداد الليلة إلى ما بعد طلوع الفجر .

ويستفاد من غاية تَنَزُّلِ الملائكة فيها ، أن تلك غاية الليلة وغاية لما فيها من الأعمال الصالحة التابعة لكونها خيراً من ألف شهر ، وغاية السلام فيها .

وقرأ الجمهور : ﴿ مطلع ﴾ بفتح اللام على أنه مصدر ميمي ، أي طلوع الفجر ، أي ظهوره .

وقرأه الكسائي وخَلف بكسر اللام على معنى زمان طلوع الفجر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾

لا تعارض بينه وبين قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ ؛ لأنّ الليلة المباركة هي ليلة القدر وهي من رمضان بنصّ قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ فما يزعمه كثير من العلماء من أن الليلة المباركة ليلة النصف من شعبان تردّه هذه النصوص القرآنية والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 340 ﴾

(261/824)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة القدر

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

سورة القدر

تعريف بسورة القدر

الحديث في هذه السورة عن تلك الليلة الموعودة المشهودة التي سجلها الوجود كله في فرح وغبطة وابتهال . ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى . ليلة بدء نزول هذا القرآن على قلب محمد (صلى الله عليه وسلم) ليلة ذلك الحدث العظيم الذي لم تشهد الأرض مثله في عظمته, وفي دلالته, وفي آثاره في حياة البشرية جميعا . العظمة التي لا يحيط بها الإدراك البشري: (إنا أنزلناه في ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر ?) . . (ليلة القدر خير من ألف شهر) . .

والنصوص القرآنية التي تذكر هذا الحدث تكاد ترف وتنير . بل هي تفيض بالنور الهادئ الساري الرائق الودود . نور الله المشرق في قرآنه: (إنا أنزلناه في ليلة القدر) ونور الملائكة والروح وهم في غدوهم ورواحهم طوال الليلة بين الأرض والملأ الأعلى:

(تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) . . ونور الفجر الذي تعرضه النصوص متناسقا مع نور الوحي ونور الملائكة, وروح السلام المرفرف على الوجود وعلى الأرواح السارية في هذا الوجود: (سلام هي حتى مطلع الفجر) .

والليلة التي تتحدث عنها السورة هي الليلة التي جاء ذكرها في سورة الدخان : (إنا أنزلناه في ليلة مباركة , إنا كنا منذرين , فيها يفرق كل أمر حكيم . أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم) . . والمعروف أنها ليلة من ليالي رمضان , كما ورد في سورة البقرة : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن , هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) . . أي التي بدأ فيها نزول القرآن على قلب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليبلغه إلى الناس . وفي رواية ابن إسحاق أن أول الوحي بمطلع سورة العلق كان في شهر رمضان , ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتحنث في غار حراء .

وقد ورد في تعيين هذه الليلة آثار كثيرة . بعضها يعين الليلة السابعة والعشرين من رمضان . وبعضها يعين الليلة الواحدة والعشرين . وبعضها يعينها ليلة من الليالي العشر الأخيرة . وبعضها يطلقها في رمضان كله . فهي ليلة من ليالي رمضان على كل حال في أرجح الآثار . واسمها : (ليلة القدر) . . قد يكون معناه التقدير والتدبير . وقد يكون معناه القيمة والمقام . وكلاهما يتفق مع ذلك الحدث الكوني العظيم . حدث القرآن والوحي والرسالة . . وليس أعظم منه ولا أقوم في أحداث هذا الوجود . وليس أدل منه كذلك على التقدير والتدبير في حياة العبيد . وهي خير من ألف شهر . والعدد لا يفيد التحديد . في مثل هذه المواضع من القرآن . إنما هو يفيد التكثير . والليلة خير من آلاف الشهور في حياة

البشر . فكم من آلاف الشهور وآلاف السنين قد انقضت دون أن تترك في الحياة بعض ما تركته هذه الليلة المباركة السعيدة من آثار وتحولات .

(263/824)

والليلة من العظمة بحيث تفوق حقيقتها حدود الإدراك البشري : (وما أدراك ما ليلة القدر ?) وذلك بدون حاجة إلى التعلق بالأساطير التي شاعت حول هذه الليلة في أوهام العامة . فهي ليلة عظيمة باختيار الله لها لبدء تنزيل هذا القرآن . وإفاضة هذا النور على الوجود كله , وإسباغ السلام الذي فاض من روح الله على الضمير البشري والحياة الإنسانية , وبما تضمنه هذا القرآن من عقيدة وتصور وشريعة وآداب تشيع السلام في الأرض والضمير . وتنزيل الملائكة وجبريل - عليه السلام - خاصة , بإذن ربهم , ومعهم هذا القرآن - باعتبار جنسه الذي نزل في هذه الليلة - وانتشارهم فيما بين السماء والأرض في هذا المهرجان الكوني , الذي تصوره كلمات السورة تصويرا عجيبا . .

وحين ننظر اليوم من وراء الأجيال المتطاولة إلى تلك الليلة المجيدة السعيدة , ونتصور ذلك المهرجان العجيب الذي شهدته الأرض في هذه الليلة , ونتدبر حقيقة الأمر الذي تم فيها , ونتملى آثاره المتطاولة في مراحل الزمان , وفي واقع الأرض , وفي تصورات القلوب والعقول .

. فإننا نرى أمرا عظيما حقا . وندرك طرفا من مغزى هذه الإشارة القرآنية إلى تلك الليلة

: (وما أدراك ما ليلة القدر ?) . .

ولقد فرق فيها من كل أمر حكيم . وقد وضعت فيها من قيم وأسس وموازين . وقد قررت فيها من أقدار أكبر من أقدار الأفراد . أقدار أمم ودول وشعوب . بل أكثر وأعظم . . أقدار حقائق وأوضاع وقلوب !

ولقد تغفل البشرية - لجهالتها ونكد طالعها - عن قدر ليلة القدر . وعن حقيقة ذلك الحدث , وعظمة هذا الأمر . وهي منذ أن جهلت هذا وأغفلته فقدت أسعد وأجمل آلاء الله عليها , وخسرت السعادة والسلام الحقيقي - سلام الضمير وسلام البيت وسلام المجتمع - الذي وهبها إياه الإسلام . ولم يعوضها عما فقدت ما فتح عليها من أبواب كل شيء من المادة والحضارة والعمارة . فهي شقية , شقية على الرغم من فيض الإنتاج وتوافر وسائل المعاش !

لقد انطفأ النور الجميل الذي أشرق في روحها مرة , وانطمست الفرحة الوضيئة التي رفت بها وانطلقت إلى الملأ الأعلى . وغاب السلام الذي فاض على الأرواح والقلوب . فلم

يعوضها شيء عن فرحة الروح ونور السماء وطلاقة الرفرفة إلى عليين . .

ونحن - المؤمنين - مأمورون أن لا ننسى ولا نغفل هذه الذكرى ; وقد جعل لنا نبينا (صلى الله عليه وسلم) سبيلا هينا لينا لاستحياء هذه الذكرى في أرواحنا لتظل موصولة بها أبدا , موصولة كذلك بالحدث الكوني الذي كان فيها . . وذلك فيما حثنا عليه من قيام هذه الليلة من كل عام , ومن تحريها والتطلع إليها في الليالي العشر الأخيرة من رمضان . . في الصحيحين : " تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان " . . وفي الصحيحين كذلك : " من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه " . .

والإسلام ليس شكليات ظاهرية . ومن ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في القيام في هذه الليلة أن يكون "إيمانا واحتسابا" . . وذلك ليكون هذا القيام استحياء للمعاني الكبيرة التي اشتملت عليها هذه الليلة "إيمانا" وليكون تجردا لله وخلوصا "واحتسابا" . . ومن ثم تنبض في القلب حقيقة معينة بهذا القيام . ترتبط بذلك المعنى الذي نزل به القرآن .

والمنهج الإسلامي في التربية يربط بين العبادة وحقائق العقيدة في الضمير , ويجعل العبادة وسيلة لاستحياء هذه الحقائق وإيضاحها وتثبيتها في صورة حية تتخلل المشاعر ولا تقف عند حدود التفكير .

وقد ثبت أن هذا المنهج وحده هو أصلح المناهج لإحياء هذه الحقائق ومنحها الحركة في

عالم الضمير وعالم السلوك . وأن الإدراك النظري وحده لهذه الحقائق بدون مساندة العبادة , وعن غير طريقها , لا يقر هذه الحقائق , ولا يحركها حركة دافعة في حياة الفرد ولا في حياة الجماعة . .

(265/824)

وهذا الربط بين ذكرى ليلة القدر وبين القيام فيها إيمانا واحتسابا , هو طرف من هذا المنهج الإسلامي الناجح القويم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3944 . 3946 ﴾

(266/824)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سورة القدر

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1)

الضمير في أنزلناه للقرآن قطعاً .

وحكى الألوسي عليه الإجماع ، وقال : ما يفيد أن هناك قولاً ضعيفاً لا يعتبر من أنه

لجبريل .

وما قاله عن الضعف لهذا القول ، يشهد له السياق ، وهو قوله تعالى : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة والروح فِيهَا ﴾ [القدر : 4] .

والمشهور : أن الروح هنا هو جبريل عليه السلام ، فيكون الضمير في أنزلنا لغيره ، وجيء بضمير الغيبة ، تعظيماً لشأن القرآن ، وإشعاراً بعلو قدره .

وقد يقال : ذكر سورة القدر قبلها مشعرة به في قوله : ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ ﴾ [العلق : 1] ، ثم جاءت ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ ﴾ [القدر : 1] ، أي القرآن المقروء ، والضمير المتصل في إنا أنزلناه مستعمل للجمع وللتعظيم ، ومثلها نحن ، وقد اجتمعا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] ، والمراد بهما هنا التعظيم قطعاً لاستحالة التعدد أو إرادة معنى الجمع .

فقد صرح في موضع آخر باللفظ الصريح في قوله تعالى : ﴿ الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ ﴾ [الزمر : 23] ، والمراد به القرآن قطعاً ، فدل على أن المراد بتلك الضمائر تعظيم الله تعالى .

وقد يشعر بذلك المعنى وبالاختصاص تقديم الضمير المتصل إنا ، وهذا المقام مقام تعظيم واختصاص لله تعالى سبحانه ، ومثله ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر ﴾ [الكوثر : 1] ، وقوله : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحاً ﴾ [نوح : 1] ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ﴾ [ق : 43] ، وإنزال

القرآن منه عظمى .

وقد دل تعظيم المنة وتعظيم الله سبحانه في قوله : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيدبروا آيَاتِهِ ﴾ [ص : 29] ، فقال : كتاب أنزلناه بضمير التعظيم ، ثم قال في وصف الكتاب : مبارك .

(267/824)

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه التنصيص على أنه للتعظيم عند الكلام على آية ص هذه ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ [ص : 29] .

والواقع أنه جاءت الضمائر بالنسبة إلى الله تعالى بصيغ الجمع للتعظيم وبصيغ الإفراد ، فمن صيغ الجمع ما تقدم ، ومن صيغ الإفراد قوله : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : 30] ، وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ [ص : 71] ، وقوله : ﴿ إني أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 30] .

ويلاحظ في صيغ الإفراد : أنها في مواضع التعظيم والإجلال ، كالأول في مقام خلق البشر من طين ، ولا يقدر عليه إلا الله .

والثاني : في مقام أنه يعلم ما لا تعلمه الملائكة ، وهذا لا يكون إلا لله سبحانه ، فسواء جيء

بضمير بصيغة الجمع أو بالإفراد ، ففيها كلها تعظيم لله سبحانه وتعالى سواء بنصها ، وأصل الوضع أو بالقرينة في السياق .

ثم اختلف في المُنزِل ليلة القدر ، هل هو الكل أو البعض ؟

فقيل : وهو رأي الجمهور أنه أوائل تلك السورة فقط أي بداية الوحي بالقرآن ، وهو مروي عن ابن عباس ، قال : " ثم تتالى نزول الوحي ، بعد ذلك وكان بين أوله وآخره عشرون سنة " .

وقيل : المنزل في تلك الليلة ، هو جميع القرآن جملة واحدة ، وكله إلى سماء الدنيا ، ثم صار ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منجماً حسب الوقائع .

وهذا الأخير هو رأي الجمهور كما قدمنا ، وقد اختاره الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة : 185] ، وحكاه الألوسي وحكى عليه الإجماع .

(268/824)

وعن ابن حجر في فتح الباري ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول يجمع فيه بين القولين الأخيرين ، وهو أنه لا منافاة بين القولين ، ويمكن الجمع بينهما ، بأن يكون نزل جملة إلى سماء

الدنيا في ليلة القدر ، وبدء نزول أوله ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ ﴾ [العلق : 1] ، في ليلة القدر .

وقد أثير حول هذه المسألة جدال ونقاش كلامي حول كيفية نزول القرآن ، وأدخلوا فيها القول بخلق القرآن ، وأن جبريل نقله من اللوح المحفوظ ، وأن الله لم يتكلم به ، عند نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد سئل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله عن ذلك ، وكتب جوابه وطبع ، فكان كافياً . وقد نقل فيه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية ، وبين أن الله تعالى تكلم به عند وحيه ، ورد على كل شبهة في ذلك .

والواقع أنه لا تعارض كما تقدم ، بين كوه في اللوح المحفوظ ونزوله إلى السماء الدنيا جملة ، ونزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً ، لأن كونه في اللوح المحفوظ ، فإن اللوح فيه كل ما هو كائن وما سيكون إلى يوم القيامة ، ومن جملة ذلك القرآن الذي سينزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم .

ونزوله جملة إلى سماء الدنيا ، فهو بمثالة نقل جزء مما في اللوح وهو جملة القرآن ، فأصبح القرآن موجوداً في كل من اللوح المحفوظ كغيره مما هو فيه ، وموجوداً في سماء الدنيا ثم ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم منجماً .

ومعلوم أنه الآن هو أيضاً موجود في اللوح المحفوظ ، لم يخل منه اللوح ، وقد يستدل لإنزاله جملة ثم تنزيله منجماً بقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9] لأن نزل

بالتضعيف تدل على التكرار كقوله : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكة ﴾ [القدر : 4] ، أي في كل ليلة قدر .

وقد جاء ﴿ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ، فتدل على الجملة .

وقد بينت السنة تفصيل تنزيله مفرقاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة وغيره أن النّبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله : كأنه سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ، حتى إذا فزع عن قلوبهم . قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ، وهو العلي الكبير " الحديث في صحيح البخاري .

وفي أبي داود وغيره " إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان " .

وعلى هذا يكون القرآن موجوداً في اللوح المحفوظ حينما جرى القلم بما هو كائن وما سيكون ، ثم جرى نقله إلى سماء الدنيا جملة في ليلة القدر ، ثم نزل منجماً في عشرين سنة .

وكلما أراد الله إنزال شيء منه تكلم سبحانه بما أراد أن ينزله ، فيسمعه جبريل عليه السلام

عن الله تعالى . ولا منافاة بين تلك الحالات الثلاث . والله تعالى أعلم .

وقد قدمنا الكلام على صور كيفية نزول وتلقي الرسول صلى الله عليه وسلم للوحي .

وقيل : معنى ﴿ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القدر ﴾ ، أي أنزلنا القرآن في شأن ليلة القدر تعظيماً لها ، فلم تكن ظرفاً على هذا الوجه .

والواقع : أن هذا القول وإن كان من حيث الأسلوب ممكناً إلا أن ما بعده يغني عنه ، لأن عظام ليلة القدر وبيان منزلتها قد نزل فيها قرآن فعلاً ، وهو ما بعدها مباشرة في قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : 2-3] ، إلى آخر السورة .

وعليه ، فيكون أول السورة في شأن إنزال القرآن وبيان ظرف إنزاله ، وآخر السورة في ليلة القدر وبيان منزلتها .

وقد ذكرت ليلة القدر مبهمة ، ولكن جاء في القرآن ما يعين الشهر التي هي فيه ، وهو شهر رمضان لقوله تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن ﴾ [البقرة : 185] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الدخان بيان ذلك ، وأنها الليلة التي فيها يبرم كل أمر حكيم ، وليست ليلة النصف من شعبان كما يزعم بعض الناس .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان الحكمة من إنزاله مفرقاً عند قوله تعالى :

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيدبروا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو الألباب ﴾ [ص : 29] .

لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3)

القدر : الرفعة ، والقدر : بمعنى المقدار .

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في مذكرة الإملاء ووجه تسميتها ليلة القدر فيه وجهان :

أحدهما : أن معنى القدر الشرف والرفعة ، كما تقول العرب : فلان ذو قدر ، أي رفعة وشرف .

الوجع الثاني : أنها سميت ليلة القدر ، لأن الله تعالى يقدر فيها وقائع السنة ، ويدل لهذا التفسير الأخير قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِّنْ عِنْدِنَآ ﴾ [الدخان : 3-5] .

وهذا المعنى قد ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الدخان من الأضواء .

والواقع أن في السورة ما يدل للوجه وهو القدر والرفعة ، وهو قوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر لَيْلَةُ القدر خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : 2-3] .

فالتساؤل بهذا الأسلوب للتعظيم كقوله : ﴿ القارعة مَا القارعة وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة ﴾ [القارعة : 1-3] ، وقوله : ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ ، فيه النص صراحة على علو قدرها ورفعتها ، إذ أنها تعدل في الزمن فوق ثلاث وثمانين سنة ، أي فوق متوسط أعمار هذه الأمة .

وأيضاً كونها اختصت بإنزال القرآن فيها ، وبتنزل الملائكة والروح فيها ، وبكونها سلاماً هي حتى مطلع الفجر ، لفيه الكفاية بما لم تختص وتشاركها في ليلة القدر من ليالي السنة .

(271/824)

وعليه : فلا مانع من أن تكون سميت بليلة القدر ، لكونها محلاً لتقدير الأمور في كل سنة ، وأنها بهذا وبغيره علا قدرها وعظم شأنها ، والله تعالى أعلم ، تذكير بنعمة كبرى .

إذا كانت أعمال العبد تتضاعف في تلك الليلة ، حتى تكون خيراً من ألف شهر ، كما في هذا النص الكريم . فإذا صادفها العبد في المسجد النبوي يصلي ، وصلاة فيه بألف صلاة ، فكم تكون النعمة وعظم المنة ، من المنعم المتفضل سبحانه ، إنه لمما يعلي الهمة ويعظم الرغبة .

وقد اقتصرت على ذكر المسجد النبوي دون المسجد الحرام ، مع زيادة المضاعفة فيه ، لأن

بعض المفسرين قال بمضاعفة السيئة فيها .

كذلك أي أن المعصية في ليلة القدر كالمعصية في ألف شهر ، والمسجد الحرام يحاسب فيه العبد على مجرد الإرادة ، فيكون الخطر أعظم ، وفي المدينة أسلم .

ولعل مما يؤيد ذلك أن ليالي القدر كلها ، كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وقد أثبتها أهل السنة كافة ، وادعت الشيعة نسخها ورفعها كلية ، وهذا لا يلتفت إليه لصحة النصوص وشبه المتواترة .

تنبيه

لم يأت تحديد لتلك الليلة من أي رمضان تكون ، وقد أكثر العلماء في ذلك القول وإيراد النصوص .

فالأقوال منها على أعن ما يكون ، من أنها في عموم السنة ، وهذا لم يأت بجديد ، وهو عن ابن مسعود وإنما أراد الاجتهاد . ومنها : أنها في عموم رمضان ، وهذا حسب عموم نص القرآن .

ومنها : أنها في العشر الأواخر منه ، وهذا أخص من الذي قبله .

ومنها : أنها في الوتر من العشر الأواخر ، وهذا أخص من الذي قبله .

ومنها : أنها في آحاد الوتر من العشر الأواخر .

فقيل : في إحدى وعشرين .

وقيل : ثلاث وعشرين .

وقيل : خمس وعشرين .

وقيل : سبع وعشرين .

وقيل : تسع وعشرين .

زقيل : آخر ليلة من رمضان على التعيين ، وفي كل ليلة من ذلك نصوص .

(272/824)

ولكن أشهرها وأكثرها وأصحها ، ما جاء في سبع وعشرين ، وإحدى وعشرين ، ولا حاجة إلى سرد النصوص الواردة في كل ذلك ، فم يبق كتاب من كتب التفسير إلا ذكرها ، ولا سيما ابن كثير والقرطبي .

تنبيه

إذا كانت كل النصوص التي وردت في الوتر من العشر الأواخر صحيحه ، فإنه لا يبعد أن تكون ليلة القدر دائرة بينها ، وليست بلازمة في ليلة منها ولا تخرج عنها ، فقد تكون في سنة هي ليلة إحدى وعشرين ، بينما في سنة أخرى ليلة خمس أو سبع وعشرين ، وفي أخرى ليلة ثلاث أو تسع وعشرين ، وهكذا . والله تعالى أعلم .

وقد حكى هذا الوجه ابن كثير عن مالك والشافعي وأحمد وغيرهم ، وقال : وهو الأشبه

، والله تعالى أعلم .

وقد قيل : إنه صلى الله عليه وسلم قد أنسيها ، لتجتهد الأمة في الشهر كله أو في العشر كلها

، ومما يؤكد أنها في العشر الأواخر اعتكافه صلى الله عليه وسلم ، التماساً لليلة القدر .

وقد جاء في فضلها ما استفاضت به كتب الحديث والتفسير ، ويكفي فيها نص القرآن

الكريم .

وفي هذه الليلة مباحث عديدة يطول تتبعها ، منها ما يذكر من أماراتها .

ومنها : محاولة البعض استخراجها من القرآن .

ومنها : عرقتهم بحكم بني أمية ، وليس على شيء من ذلك نص يمكن التعويل عليه ، لذا لا

حاجة إلى إيراده ، اللَّهم إلا ما جاء في بعض أمارات نهارها صبيحتها ، حيث جاء التنويه

عن شيء منه في الحديث " ورأيتني أسجد صبيحتها في ماء وطين " .

فذكروا من علامات يومها أن تطلع الشمس بيضاء ، وقالوا : لأن أنوار الملائكة عند

صعودها ، تتلاقى مع أشعة الشمس فتحدث فيها بياض الضوء ، وهذا مروي عن أُبَيٍّ في

صحيح مسلم .

ومنها : اعتدال هوائها وجوّها ونحو ذلك ، ومما يمكن أن يكون له صلة بالسورة ذاتها ، ما حكاه ابن كثير أن بعض السلف ، أراد استخراجها من كتاب الله في نفس السورة ، فقال : إن كلمة هي في قوله : ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ [القدر : 5] ، تقع السابعة والعشرين من عد كلماتها ، فتكون ليلة سبع وعشرين .

وقيل أيضا : إن حروف كلمة ليلة القدر تسعة أحرف ، وقد تكررت ثلاث مرات ، فيكون مجموعها سبعة وعشرين حرفاً ، فتكون ليلة سبع وعشرين .

ولعل أصوب ما يقال : هو ما قدمنا من أنها تتصل في ليالي الوتر من العشر الأواخر ، ولا تخرج عنها . والله تعالى أعلم .

تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)

قيل : الروح هو جبريل ، كما في قوله : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾ [الأنبياء : 91] ، ويكون فيها أي في جماعة الملائكة ، أو معطوف على الملائكة من عطف الخاص على العام .

وقيل : إن الروح نوع من الملائكة مستقل ، ويكون فيها ظرف للنزول أي في تلك الليلة .

قوله تعالى : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ .

الأمر يكون واحد الأمور وواحد الأوامر ، والذي يظهر أنه شامل لهما معاً ، لأن الأمر من

الأمور لا يكون إلا بأمر من الأوامر ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] .

ويشهد له ما جاء في شأنها في سورة الدخان ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ﴾ [الدخان : 4-5] .

والذي يفرق من الأمر ، هو أحد الأمور . حيث يفصل بين الخير والشر والضر والنفع إلى آخره ، ثم قال : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [الدخان : 8] ، كما أشار إليه السياق : ﴿ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا ﴾ [الدخان : 5] ، فكل أمر من الأمور يقتضي أمراً من الأوامر ، وهذا يمكن أن يكون من الألفاظ المشتركة المستعملة في معنييها ، والله تعالى أعلم .

(274/824)

سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

قيل : سلام ، هي أن الملائكة تسلم على كل مؤمن لقيته .

وقيل : سلام ، عي أي كل أمر فيها هو سلام ، ولا يصاب أحد فيها بسوء ، وعلى كل فلا تعارض بين القولين ، فالأول جزء من الثاني ، لأن الثاني يجعلها ظرفاً لكل خير ، وينفي عنها كل شر ، ومن الخير العظيم ، سلام الملائكة على المؤمنين .

لطيفة

كون إنزال القرآن هنا في الليل دون النهار ، مشعر بفضل اختصاص الليل .

وقد أشار القرآن والسنة إلى نظائره ، فمن القرآن قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الذي أسرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً ﴾ [الإسراء : 1] ، ومنه قوله : ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : 79] ، ﴿ وَمِنَ الليل فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السجود ﴾ [ق : 40] ، ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ الليل هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ [المزمل : 6] ، وقوله : ﴿ كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ الليل مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : 17] .

ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان ثلث الليل الآخر ، ينزل ربنا إلى سماء الدنيا " الحديث .

وهذا يدل على ان الليل أخص بالنفحات الإلهية ، وبتجليات الرب سبحانه لعباده ، وذلك لخلو القلب وانقطاع الشواغل وسكون الليل ، ورهبته أقوى على استحضار القلب وصفائه . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

من فوائد الشيخ محمود غريب فى السورة الكريمة

قصة القرآن الكريم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وسلام على النبيّ

المصطفى

أما بعد

نعيش اليوم مع قصة القرآن الكريم . .

وتبدأ القصة بالمرحلة الأولى . . .

وأعني بها المرحلة التي قضاها القرآن في الملأ الأعلى قبل أن ينزل على رسول الله

صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسلّم

فالقرآن قديم لأنه كلام الله

وقد أودعه الله في خزينة الأسرار

-في اللوح المحفوظ-

يوم خلق السّموات والأرض وظل القرآن هناك

تنتظر الدنيا على شوق . . . . . الإنسان العظيم الذي سينزل عليه

حتى بعث النبيّ الكريم . . .

صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسلّم

كما تحبه وترضاه آمين

وهذه المرحلة هي التي عنتها النصوص القرآنية الآتية

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ . إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

الواقعة 75 – 80

والله تعالى عندما يقسم على كرم القرآن بمواقع النجوم

فهذا القسم يحكي

دقة تنظيم النجوم في السّماء كما يحكي دقة تنظيم الآيات في القرآن . . .

إنه لقرآن كريم

لأن الذي نزل من عنده كريم

ونزل على نبيّ كريم

ونزل بدين كريم

كما أنه كريم لأنه يجود على كل سائل ويعطي كل قاصد . . .

في كتاب مكنون

هذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ

قال تعالى :

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾

البروج 21 - 22

وظل القرآن في لوح محفوظ

لا يصل إليه سوى الملائكة المطّهّرون

وهم الذين عناهم الله بهذا الوصف العظيم

لا يمسه إلا المطهرون . .

وقد أكدت هذا القول سورة عبس

قال تعالى

في وصف الملائكة الذين تصل أيديهم الطاهرة إلى القرآن في اللوح المحفوظ . . .

(276/824)

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَاء ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ .

بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾

عبس 11- 16

ولعل هذا هو السر

في أن الرسول الكريم أخبر أن قارئ القرآن المتقن لقرآته مع السّفرة الكرام البررة . . .

وهذا البيان القرآني يبطل دعوى المشركين التي يقولون فيها

أن محّمدا يعلمه شيطان . . .

صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسلّم

حاشا لله تعالى

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ . فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾

التكوير 25 - 26

وذلك لأن الشّياطين لا تمس اللوح المحفوظ . . .

ثمّ لأنّ الشّياطين لا تستهدف الإصلاح . . . والقرآن كله إصلاح . . .

قال تعالى

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾

الشعراء 210 - 212

ولعل هذا ((اطلاع الملائكة على اللوح المحفوظ)) هو الذي أعلم الملائكة

أن بني آدم سيسفكون الدماء ويفسدون في الأرض

مما جعلهم يتساءلون

- بحثا عن سر الخلافة وليس اعتراضا على الله -

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا

وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ

وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

البقرة 30

وأقول (بحثا عن السر وليس اعتراضا على الله)

لأن الملائكة لا يسبقون الله بإعلان رأيهم

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ

يَعْمَلُونَ ﴾

الأنبياء 26 - 27

هكذا كان القرآن في الملأ الأعلى إلى أن نزل على النبي العظيم . . .

صلّ يا ربّ عليه وآله وبارك وسلّم

كما تحبه وترضاه آمين

فلما بدأ نزوله على النبيّ - المرحلة الثانية - من القصة

نزل القرآن بكل ما له من خصائص . . .

فهو في كتاب مكنون

لا يصل إليه الفساد

ولا يؤثر فيه الزمن

قال تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

الحجر 9

لا يمسه إلا المطّهّرون . . .

فلا يجوز لغير المتوضئ لمسه إلا بغلاف

وهذا الحكم أسسته السّنة المطّهّرة

حتى يبقى للقرآن في المرحلة الثانية

خصائص المرحلة الأولى كاملة

وظل القرآن في الأرض يعلم ويربي

ويقود مسيرة الدنيا كاملة . . .

يحكم فيطاع

ويأمر فتلبي النفوس

وينهى فتنزجر الضمائر

إلى أن جاءت المرحلة الثالثة . . .

وفيها ظهر طراز من الناس يحكم على القرآن برأيه

ويهاجمه بهواه ويحمله نتيجة جهله المشين بلا حياء

يناقش الشاب فيقول لي :

إن القرآن لا يصلح لركب الحياة الآن

وأرفق به واسأله :

هل قرأت القرآن مرّة واحدة ؟ ؟ ؟

فأعلم أنه لم يفتحه في يوم من الأيام ! ! !

كيف يحكم على القرآن من لم يدرسه أو حتى يقرأه ؟ ؟

أو يقول أحدهم

إن القرآن قد أدى رسالته في الزمن الماضي وسلّم للعلم قيادة الحياة

واسأل : – لو أن قرآنا نزل اليوم ماذا يقول ؟ ؟ ؟ ؟

هل سيقول اعبدوا الله تعالى أو يأمر بالكفر به ؟ ؟

هل سيأمر بمعروف أو بمنكر ؟ ؟

هل سيأمر بالتعاون بين طبقات الأمة أم لا ؟ ؟

إن كان من عند الله تعالى فلابد سيأمر بالخير والخير موجود في القرآن القديم . . . .

فماذا يفعل القرآن الجديد ؟ ؟

وأي تعارض بين القرآن والعلم حتى يتصور بعض الناس أنهما يتنازعان القيادة . . . . . .

ألم يأمر الإسلام بالعلم ويكرّم العلماء ؟ ؟

إنّ العلم مفتاح الكون . . . . والكون آية على عظمة الله تعالى

فأي تعارض بين كون الله تعالى وكتابه

ويجب أن يعلم القارئ الكريم أن

لكل أمة ثقافة توجّه فكرها وتمجد تراثها

هذه الثقافة تختلف فيها الأمة مع الأمم الأخرى

لأن لكل أمة تراثها وثقافتها

وهي مع ذلك تشترك مع الأمم الأخرى في الحقائق العلمية

فالعلم مشترك بين الجميع

لا تختلف فيه أمة مع الأخرى

فأي تعارض بين الثقافة الإسلامية والتسابق العلمي

فلنأخذ العلم من كل مكان ولنقدس ديننا العظيم

هذه قصة القرآن في مراحله الثلاثة

أوضحها لك

حتى لا نخطئ فهم القرآن . ﴿ حتى لا نخطئ فهم القرآن للشيخ محمود غريب ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس وعائشة مثله .

وأخرج ابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه

والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ قال : أنزل القرآن

في ليلة القدر جملة واحدة من الذكر الذي عند رب العزة حتى وضع في بيت العزة في السماء الدنيا ثم جعل جبريل ينزل على محمد بجراء بجواب كلام العباد وأعمالهم .

وأخرج عبد بن حميد عن الربيع بن أنس ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ قال : أنزل الله القرآن جملة في ليلة القدر كله ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ يقول : خير من عمل ألف شهر .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن مجاهد ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ قال : ليلة الحكم .

وأخرج عبد بن حميد عن أنس قال : العمل في ليلة القدر والصدقة والصلاة والزكاة أفضل من ألف شهر .

وأخرج ابن جرير عن عمرو بن قيس الملائي في قوله : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ قال : عمل فيها خير من عمل في ألف شهر .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ قال : خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر وفي قوله : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ قال : يقضي فيها ما يكون في

السنة إلى مثلها ﴿ سلام هي ﴾ قال: إنما هي بركة كلها وخير ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ يقول: إلى مطلع الفجر.

(280/824)

وأخرج مالك في الموطأ والبيهقي في شعب الإيمان عنه أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أري أعمال الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر خيراً من ألف شهر.

وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد العدوّ بالنهار حتى يمسي، ففعل ذلك ألف شهر فأنزل الله ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل ألف شهر.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن مجاهد أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر رجلاً من بني إسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك، فأنزل الله ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ التي لبس فيها ذلك الرجل السلاح في سبيل الله ألف شهر.

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي بن عروة قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً

أربعة من بني إسرائيل عبدوا الله ثمانين عاماً لم يعصوه طرفه عين ، فذكر أيوب وزكريا وحزقيل بن العجوز ويوشع بن نون ، فعجب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك فأتاه جبريل ، فقال : يا محمد عجبت أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة ، فقد أنزل الله خيراً من ذلك ، فقرأ عليه ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ هذا أفضل مما عجبت أنت وأمتك ، فسر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس معه .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن ابن عباس قال : رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بني أمية على منبره ، فساءه ذلك فأوحى الله إليه إنما هو ملك يصيبونه ، ونزلت ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ .

(281/824)

وأخرج الخطيب عن ابن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أرأيت بني أمية يصعدون منبري ، فشق ذلك عليّ فأنزل الله ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ " .

وأخرج الترمذي وضعفه وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن يوسف بن مازن الرؤاسي قال : قام رجل إلى الحسن بن علي بعدما بايع معاوية فقال : سوّدت وجوه

المؤمنين ، فقال : لا تؤنبني رحمك الله ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بني أمية يخطبون على منبره فساءه ذلك ، فنزلت ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ [الكوثر : 1] يا محمد يعني نهراً في الجنة ونزلت ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ يملكها بعدك بنو أمية ، يا محمد : قال القاسم : فعددنا فإذا هي ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن مجاهد في قوله : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ قال : ليلة الحكم ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ قال : ليلة الحكم .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر ومحمد بن نصر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ قال : خير من ألف شهر عملها أو صيامها وقيامها وليس في تلك الشهور ليلة القدر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال : ما أعلم ليوم فضلاً على يوم ولا ليلة إلا ليلة القدر فإنها خير من ألف شهر .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك في قوله : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ قال : الروح جبريل ﴿ من كل أمر سلام ﴾ قال : لا يحل لكوكب أن يرجم به فيها حتى يصبح .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن مجاهد في قوله : ﴿ سلام هي ﴾ قال : سالمة لا يستطيع

الشيطان أن يعمل فيها سوءاً أو يعمل فيها أذى .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ من كل أمر سلام ﴾ .

(282/824)

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن منصور بن زاذان قال : ﴿ تنزل الملائكة ﴾ من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر يمرون على كل مؤمن يقولون : السلام عليك يا مؤمن .

وأخرج ابن المنذر عن الحسن في قوله : ﴿ سلام ﴾ قال : إذا كان ليلة القدر لم تزل الملائكة تخفق بأجنحتها بالسلام من الله والرحمة من لدن صلاة المغرب إلى طلوع الفجر .

وأخرج محمد بن نصر وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ سلام ﴾ قال : تلك الليلة تصعد مردة الجن والشياطين وعفاريت الجن ، وتفتح فيها أبواب السماء كلها ، ويقبل الله فيها التوبة لكل تائب ، فلذا قال : ﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾ قال : وذلك من غروب الشمس إلى أن يطلع الفجر .

وأخرج محمد بن نصر عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن ليلة القدر أهي شيء كان فذهب أم هي في كل عام ؟ فقال : بل هي لأمة محمد ما بقي منهم اثنان .

وأخرج الديلمي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله وهب لأمتي ليلة

القدر ولم يعطها من كان قبلهم " .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن مكانس مولى معاوية قال : قلت لأبي هريرة : زعموا أن ليلة القدر قد رفعت ، قال : كذب من قال ذلك . قلت : هي في كل رمضان أستقبله ؟ قال : نعم . قلت : زعموا أن الساعة التي في الجمعة لا يدعو فيها مسلم إلا استجيب له قد رفعت . قال : كذب من قال ذلك ، قلت : هي في كل جمعة استقبلها ؟ قال : نعم .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن مردويه عن ابن عمر أنه سئل عن ليلة القدر أفي كل رمضان ؟ ولفظ ابن مردويه : أفي رمضان هي ؟ قال : نعم ، ألم تسمع إلى قول الله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ وقوله : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ [البقرة : 185] .

وأخرج أبو داود والطبراني عن ابن عمر قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا أسمع عن ليلة القدر فقال : هي في كل رمضان " .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التمسوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير ومحمد بن نصر وابن مردويه " اطلبوا ليلة القدر في العشر الأواخر " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الفلتان بن عاصم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني رأيت ليلة القدر ثم نسيتها ، فاطلبوها في العشر الأواخر وتراً " .

وأخرج ابن جرير من طريق أبي ظبيان عن ابن عباس أنهم كانوا قعوداً في المجلس حين أقبل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً حتى فزعنا لسرعته ، فلما انتهى إلينا ثم سلم قال : " جئت إليكم مسرعاً لكيما أخبركم بليلة القدر فنسيتها فيما بيني وبينكم ، ولكن التمسوها في العشر الأواخر " .

وأخرج أحمد وابن جرير ومحمد بن نصر والبيهقي وابن مردويه عن عبادة بن الصامت أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر فقال : " في رمضان في العشر الأواخر فإنها في ليلة وتر في إحدى وعشرين ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ، أو سبع وعشرين ، أو تسع وعشرين ، أو آخر ليلة من رمضان من قامها إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن أماراتها أنها ليلة بلجة صافية ساكنة ساجية لا حارة ولا باردة ، كأن فيها قمراً ساطعاً ، ولا يحل لنجم أن يرمى به تلك الليلة حتى الصباح ، ومن أماراتها أن

الشمس تطلع صبيحتها لا شعاع لها ، مستوية ، كأنها القمر ليلة البدر ، وحرم الله على الشيطان أن يخرج معها يومئذ " .

وأخرج ابن جرير في تهذيبه وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم " إني كنت رأيت هذه الليلة وهي في العشر الأواخر في الوتر ، وهي ليلة طلقة بلجة لا حارة ولا باردة ، كان فيها قمراً لا يخرج شيطانها حتى يضيء فجرها " .

(284/824)

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر قال : قد كنت علمتها ثم اختلست مني ، وإنها في رمضان ، فاطلبوها في تسع يبقين أو سبع يبقين أو ثلاث يبقين ، وآية ذلك أن الشمس تطلع ليس لها شعاع ، ومن قام السنة سقط عليها " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن زنجوية وابن نصر عن أبي عقرب الأسدي قال : أتينا ابن مسعود في داره فسمعناه يقول : صدق الله ورسوله ، فسألته ، فأخبرنا أن ليلة القدر في السبع من النصف الأخير ، وذلك أن الشمس تطلع يومئذ بيضاء لا شعاع لها ، فنظرت إلى السماء فإذا هي كما حدثت فكبرت .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير من طريق الأسود عن عبد الله قال : تحروا ليلة القدر ليلة سبع تبقى تحروها لتسع تبقى تحروها لإِحدى عشرة تبقى صبيحة بدر فإن الشمس تطلع كل يوم بين قرني شيطان إلا صبيحة ليلة القدر فإنها تطلع يومئذ بيضاء ليس لها شعاع .

وأخرج ابن زنجوية وابن مردويه بسند صحيح عن أبي هريرة قال : " ذكرنا ليلة القدر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم بقي من الشهر ؟ قلنا : مضت اثنتان وعشرون وبقي ثمان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مضت اثنتان وعشرون وبقيت سبع التمسوها الليلة الشهر تسع وعشرون " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك عن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : " التمسوا ليلة القدر في أول ليلة من رمضان ، وفي تسعة ، وفي إحدى عشرة ، وفي أحدى وعشرين ، وفي آخر ليلة من رمضان " .

وأخرج أحمد عن أبي هريرة " عن النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر " إنها آخر ليلة " .

وأخرج محمد بن نصر عن معاوية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التمسوا ليلة القدر آخر ليلة من رمضان " .

وأخرج محمد بن نصر عن أبي ذر قال : " قلت يا رسول الله : أخبرني عن ليلة القدر أي شيء تكون في زمان الأنبياء ينزل عليهم فيها الوحي فإذا قبضوا رفعت أم هي إلى يوم القيامة ؟ قال : بل هي إلى يوم القيامة . قلت يا رسول الله : في أي رمضان هي ؟ قال : التمسوها في العشر الأول وفي العشر الأواخر . قال : ثم حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدث فاهتبلت غفلته فقلت : يا رسول الله أقسمت عليك تخبرني أو لما أخبرتني في أي العشر هي فغضب عليّ غضباً ما غضب عليّ مثله لا قبله ولا بعده فقال : إن الله لو شاء لأطلعكم عليها التمسوها في السبع الأواخر لا تسألني عن شيء بعدها " .

وأخرج البخاري وابن مردويه والبيهقي عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تحروا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من رمضان " .

وأخرج مالك وابن أبي شيبة والطيالسي وأحمد والبخاري ومسلم وابن ماجة وابن جرير والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف العشر الأوسط من شهر رمضان ، فاعتكف عاماً حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهي الليلة التي يخرج من اعتكافه فقال : من اعتكف معي فليعتكف العشر الأواخر وقد رأيت هذه الليلة ثم أنسيتها ، وقد رأيتني أسجد من صبيحتها في ماء وطين ، فالتمسوها في العشر الأواخر ، والتمسوها في كل وتر . قال أبو سعيد : فمطرت السماء من تلك الليلة

، وكان المسجد على عريش ، فوكف المسجد . قال أبو سعيد : فأبصرت عيناي رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى جبهته وأنفه أثر الماء والطين من صبيحة إحدى وعشرين " .

وأخرج مالك وابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وابن زنجويه والطحاوي والبيهقي عن عبد الله بن أنيس أنه سئل عن ليلة القدر فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " التمسوها الليلة وتلك الليلة ليلة ثلاث وعشرين " .

(286/824)

وأخرج مالك والبيهقي عن أبي النضر مولى عمر بن عبد الله بن أنيس الجهني قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إني رجل شاسع الدار فمرني بليلة أنزلها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنزل ليلة ثلاث وعشرين من رمضان " .

وأخرج البيهقي عن الزهري قال : قلت لضمرة بن عبد الله بن أنيس ، ما قال النبي صلى الله عليه وسلم لأبيك ليلة القدر ؟ قال : " كان أبي صاحب بادية ، قال : فقلت يا رسول الله مرني بليلة أنزل فيها ؟ قال : " انزل ليلة ثلاث وعشرين " . قال : فلما تولى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اطلبوها في العشر الأواخر " " .

وأخرج مالك والبخاري ومسلم والبيهقي عن ابن عمر أن رجالاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رأوا ليلة القدر في السبع الأواخر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والبخاري والبيهقي عن عبادة بن الصامت قال : خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم وهو يريد أن يخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين قال : " خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فلان وفلان فرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة " .

وأخرج الطيالسي والبيهقي عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وهو يريد أن يخبر أصحابه بليلة القدر فتلاحى رجلان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خرجت وأنا أريد أن أخبركم بليلة القدر فتلاحى رجالن فاختلجت مني فاطلبوها في العشر الأواخر في تاسعة تبقى أو سابعة تبقى أو خامسة تبقى " .

وأخرج البخاري وأبو داود وابن جرير والبيهقي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " التمسوها في العشر الأواخر من رمضان في تاسعة تبقى وفي سابعة تبقى وفي خامسة تبقى " .

وأخرج أحمد عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " التمسوها في العشر الأواخر في تاسعة وسابعة وخامسة " .

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي عن عبد الرحمن بن جوشن قال : ذكرت ليلة القدر عند أبي بكرة فقال : أما أنا فلست بملتمسها إلا في العشر الأواخر بعد حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

" التمسوها في العشر الأواخر لتاسعة تبقى أو سابعة تبقى أو ثالثة تبقى أو آخر ليلة " فكان أبو بكرة رضي الله عنه يصلي في عشرين من رمضان كما كان يصلي في سائر السنة فإذا دخل العشر اجتهد .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والبيهقي من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التمسوها في العشر الأواخر من رمضان فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة " قلت يا أبا سعيد إنكم أعلم بالعدد منا . قال : أجل ، قلت : ما التاسعة والسابعة والخامسة ؟ قال : إذا مضت واحدة وعشرون فالتي تليها التاسعة ، وإذا مضى الثلاث والعشرون ، فالتي تليها السابعة ، وإذا مضى خمس وعشرون فالتي تليها الخامسة .

وأخرج الطيالسي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليلة القدر أربع وعشرون " .

وأخرج أحمد والطحاوي ومحمد بن نصر وابن جرير والطبراني وأبو داود وابن مردويه عن بلال رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليلة القدر ليلة أربع وعشرين " .

وأخرج ابن سعد ومحمد بن نصر وابن جرير عن عبد الرحمن بن عسلة الصنابحي رضي الله عنه قال : ما فاتني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بخمس ليال توفي وأنا بالجحفة ، فقدمت على أصحابه متوافرين فسألت بلالاً رضي الله عنه عن ليلة القدر فقال : ليلة ثلاث وعشرين .

وأخرج محمد بن نصر عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " التمسوا ليلة القدر في أربع وعشرين " .

وأخرج الطيالسي وابن زنجويه وابن حبان والبيهقي عن أبي ذر رضي الله عنه قال : " صمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يقم بنا شيئاً من الشهر حتى إذا كانت ليلة

أربع وعشرين السابع مما يبقى صلى بنا حتى كاد أن يذهب ثلث الليل ، فلما كانت ليلة خمس وعشرين لم يصل بنا ، فلما كانت ليلة ست وعشرين السابع مما بقي صلى بنا حتى كاد أن يتأطر الليل ، فقلت يا رسول الله : لو نفلتنا بقية ليلتنا فقال : لا ، إن الرجل إذا صلى مع الإِمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة ، فلما كانت ليلة سبع وعشرين لم يصل بنا ، فلما كانت ليلة ثمان وعشرين جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمع له الناس فصلى بنا حتى كاد أن يفوتنا الفلاح ، ثم لم يصل بنا شيئاً من الشهر " ، والفلاح السحور .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن زنجويه وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير وابن حبان وابن مردويه والبيهقي عن زر بن حبيش قال :

" سألت أبيّ بن كعب عن ليلة القدر قلت : إن أخاك عبد الله بن مسعود يقول : من يقم الحول يصب ليلة القدر ، فحلف لا يستثني أنها ليلة سبع وعشرين . قلت : بم تقول ذلك أبا المنذر ؟ قال : بالآية والعلامة التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها تصبح من ذلك اليوم تطلع الشمس ليس لها شعاع " . ولفظ ابن حبان : " بيضاء لا شعاع لها كأنها طست " " .

وأخرج محمد بن نصر وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي من طريق عاصم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان عمر رضي الله عنه يدعوني مع أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ويقول : لا تتكلم حتى يتكلموا ، فدعاهم فسألهم فقال : أرأيتم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر : " التمسوها في العشر الأواخر وتراً أي ليلة ترونها ؟ " فقال بعضهم : ليلة إحدى وعشرين ، وقال بعضهم : ليلة ثلاث ، وقال بعضهم : ليلة خمس ، وقال بعضهم : ليلة سبع . فقالوا : وأنا ساكت . فقال : ما لك لا تتكلم ؟ فقلت : إنك أمرتني أن لا أتكلم حتى يتكلموا . فقال : ما أرسلت إليك إلا لتكلم فقال : إني سمعت الله يذكر السبع فذكر سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، وخلق الإنسان من سبع ، ونبت الأرض سبع . فقال عمر رضي الله عنه : هذا أخبرتني بما أعلم أرأيت ما لا أعلم ؟ فذلك نبت الأرض سبع . قلت : قال الله عز وجل ﴿ شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً ﴾ [عبس : 26] قال : فالحدائق غلباً الحيطان من النخل والشجر ﴿ وفاكهة وأبا ﴾ فالأب ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب والأنعام ولا تأكله الناس . فقال عمر رضي الله عنه لأصحابه : أعجزتم أن تقولوا كما قال هذا الغلام الذي لم يجتمع شؤون رأسه ، والله إني لأرى القول كما قلت ، وقد أمرتك أن لا تتكلم معهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن راهويه ومحمد بن نصر والطبراني والبيهقي من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : دعا عمر رضي الله عنه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألهم عن ليلة القدر فاجتمعوا أنها في العشر الأواخر ، فقلت لعمر : إني لأعلم وإني لأظن أي ليلة هي ، قال : وأي ليلة هي ؟ قال : سابعة تبقى من العشر الأواخر قال عمر رضي الله عنه : ومن أين علمت ذلك قلت : خلق الله سبع سموات وسبع أرضين وسبع أيام وإن الدهر يدور في سبع وخلق الإِنسان من سبع ، ويأكل من سبع ، ويسجد على سبعة أعضاء ، والطواف بالبيت سبع ، والجمار سبع لأشياء ذكرها .

فقال عمر رضي الله عنه ، لقد فطنت لأمر ما فطنا له ، وكان قتادة يزيد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ويأكل من سبع . قال : هو قول الله تعالى : ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً ﴾ الآية .

(291/824)

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدني ابن عباس رضي الله عنهما ، وكان ناس من أصحاب النبي

صلى الله عليه وسلم ، فكأنهم وجدوا في أنفسهم فقال : لأريتكم اليوم منه شيئاً تعرفون فضله فسألهم عن هذه السورة ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ [النصر : 1] فقالوا : أمر نبينا صلى الله عليه وسلم إذا رأى مسارعة الناس في الإسلام ودخولهم فيه أن يحمد الله ويستغفره ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا ابن عباس ما لك لا تتكلم ؟ فقال : أعلمه متى يموت . قال : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ﴾ فهي آيتك من الموت فقال عمر رضي الله عنه : صدق والذي نفس عمر بيده ما أعلم منها إلا ما علمت . قال : وسألهم عن ليلة القدر فأكثروا فيها فقالوا : كنا نرى أنها في العشر الأوسط ، ثم بلغنا أنها في العشر الأواخر ، فأكثروا فيها ، فقال بعضهم : ليلة إحدى وعشرين ، وقال بعضهم : ثلاث وعشرين ، وقال بعضهم : سبع وعشرين . فقال له عمر رضي الله عنه ما لك يا ابن عباس لا تتكلم ؟ قال : الله أعلم . قال : قد نعلم أن الله أعلم ، ولكني إنما أسألك عن علمك ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الله وتر يحب الوتر خلق سبع سموات ، وجعل عدد الأيام سبعاً ، وجعل الطواف بالبيت سبعاً ، والسعي بين الصفا والمروة سبعاً ، ورمي الجمار سبعاً ، وخلق الإنسان من سبع ، وجعل رزقه من سبع . قال : كيف خلق الإنسان من سبع وجعل رزقه من سبع فقد فهمت من هذا شيئاً لم أفهمه ؟ قال : قول الله : ﴿ لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ [المؤمنون : 12] إلى قوله : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [المؤمنون : 14] ثم ذكر رزقه فقال : ﴿ إنا

صببنا الماء صباً ﴾ [عبس : 26] إلى قوله : ﴿ وفاكهة وأباً ﴾ [عبس : 31]
فالأبّ ما أنبتت الأرض للأنعام والسبعة رزق لبني آدم قال : لا أراها والله أعلم إلا لثلاث

(292/824)

يمضين وسبع يبقين .

وأخرج أبو نعيم في الحلية من طريق محمد بن كعب القرظي رضي الله عنه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جلس في رهط من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين فذكروا ليلة القدر ، فتكلم منهم من سمع فيها بشيء مما سمع ، فتراجع القوم فيها الكلام ، فقال عمر رضي الله عنه ، ما لك يا ابن عباس صامت لا تتكلم ؟ تكلم ولا يمنعك الحداثة . قال ابن عباس رضي الله عنهما : فقلت يا أمير المؤمنين : إن الله تعالى وتر يحب الوتر فجعل أيام الدنيا تدور على سبع ، وخلق الإنسان من سبع ، وجعل فوقنا سموات سبعاً ، وخلق تحتنا أرضين سبعاً ، وأعطى من المثاني سبعاً ، ونهى في كتابه عن نكاح الأقربين عن سبع ، وقسم الميراث في كتابه على سبع ، ونقع في السجود من أجسادنا على سبع ، وطاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكعبة سبعاً وبين الصفا والمروة سبعاً ، ورمى الجمار سبع لإقامة ذكر الله في كتابه فأراها

في السبع الأواخر من شهر رمضان ، والله أعلم ، قال : فتعب عمر رضي الله عنه وقال : وما وافقني فيها أحد إلا هذا الغلام الذي لم يسر شؤون رأسه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" التمسوها في العشر الأواخر " ثم قال : " يا هؤلاء من يؤدي في هذا كأداء ابن عباس " .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التمسوا ليلة القدر ليلة سبع وعشرين " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن زر رضي الله عنه أنه سئل عن ليلة القدر فقال : كان عمر وحذيفة وناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يشكون أنها ليلة سبع وعشرين .

وأخرج ابن نصر وابن جرير في تهذيبه عن معاوية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التمسوا ليلة القدر في آخر ليلة " .

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أتيت وأنا نائم في رمضان فقيل لي : إن الليلة ليلة القدر ، فقمت وأنا ناعس ،

فتعلقت ببعض أطناب فسطاط رسول الله الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، فنظرت في الليلة فإذا هي ليلة ثلاث وعشرين قال : فقال ابن عباس : إن الشيطان يطلع مع الشمس كل يوم إلا ليلة القدر ، وذلك أنها تطلع يومئذ بيضاء لا شعاع لها .

وأخرج محمد بن نصر والحاكم وصححه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قمنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رمضان ليلة ثلاث وعشرين إلى ثلث الليل ، ثم قمنا معه ليلة خمس وعشرين إلى نصف الليل ، ثم قمنا معه ليلة سبع وعشرين حتى ظننت أنا لا ندرك الفلاح ، وأنتم تسمون السحور ، وأنت تقولون ليلة سابعة ثلاث عشر ، ونحن نقول ليلة سابعة سبع وعشرين أفنحن أصوب أم أنتم ؟

وأخرج محمد بن نصر عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " التمسوا ليلة القدر في العشر الباقيات من شهر رمضان في الخامسة والسابعة والتاسعة " .

وأخرج البخاري في تاريخه عن ابن عمر رضي الله عنه : سأل عمر رضي الله عنه أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر فقال ابن عباس رضي الله عنهما : إن ربي يحب السبع ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ [الحجر : 87] قال البخاري في إسناده نظر .

وأخرج الطيالسي وأحمد وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله

عليه وسلم قال في ليلة القدر : " إنها ليلة سابعة أو تاسعة وعشرين ، وإن الملائكة في تلك الليلة في الأرض أكثر من عدد الحصى " .

وأخرج محمد بن نصر من طريق أبي ميمون عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إنها السابعة وتاسعة والملائكة معها أكثر من عدد نجوم السماء ، وزعم أنها في قوله : أبي هريرة رضي الله عنه ليلة أربع وعشرين .

(294/824)

وأخرج محمد بن نصر وابن جرير والطبراني والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله إني شيخ كبير يشق عليّ القيام فمرني بليلة لعل الله أن يوفقني فيها لليلة القدر ، قال : " عليك بالسابعة " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن منيع والبخاري في تاريخه والطبراني وأبو الشيخ والبيهقي عن حوّة العبدي قال : سئل زيد بن أرقم رضي الله عنه عن ليلة القدر فقال : ليلة سبع عشرة ما تشك ولا تستثن ، وقال : ليلة نزل القرآن ويوم الفرقان يوم التقى الجمعان .

وأخرج الحرث بن أبي أسامة عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال : هي الليلة التي لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في يومها أهل بدر ، يقول الله ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم

الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ [الأنفال : 41] قال جعفر رضي الله عنه : بلغني أنها ليلة ست عشرة أو سبع عشرة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة ومحمد بن نصر والطبراني وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : التمسوا ليلة القدر لسبع عشرة خلت من رمضان ، فإنها صبيحة يوم بدر التي قال الله : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ وفي إحدى وعشرين وفي ثلاث وعشرين فإنها لا تكون إلا في وتر .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اطلبوها ليلة سبع عشرة من رمضان وليلة إحدى وعشرين وليلة ثلاث وعشرين " ثم سكت .

وأخرج الطحاوي عن عبد الله بن أنيس رضي الله عنه أنه " سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة القدر فقال : " تحروها في النصف الأخير " ثم عاد فسأله فقال : " إلى ثلاث وعشرين " " .

وأخرج أحمد ومحمد بن نصر عن معاذ بن جبل رضي الله عنه

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ليلة القدر فقال : " هي في العشر الأواخر أو في الثالثة أو في الخامسة " " .

وأخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اطلبو ليلة القدر في العشر الأواخر في تسع يبقين وسبع يبقين وخمس يبقين وثلاث يبقين " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة عن أبي قلابة رضي الله عنه قال : ليلة القدر تنتقل في العشر الأواخر في كل وتر .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحرث بن هشام قال : ليلة القدر ليلة سبع عشرة ليلة جمعة .

وأخرج أبو الشيخ عن عمرو بن حويرث قال : إنما أرى أن ليلة القدر لسبع عشرة ، ليلة الفرقان .

وأخرج محمد بن نصر والطبراني عن خارجة بن زيد رضي الله عنه بن ثابت عن أبيه أنه كان يحيي ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان وليلة سبع وعشرين ولا كإحياء ليلة سبع عشرة ، فقيل له : كيف تحيي ليلة سبع عشرة ؟ قال : إن فيها نزل القرآن وفي صبيحتها فرق بين الحق والباطل .

وأخرج محمد بن نصر عن ابن مسعود رضي الله عنه في ليلة القدر : تحروها لاحدى عشرة يبقين صبيحتها يوم بدر لتسع يبقين ولسبع يبقين فإن الشمس تطلع كل يوم بين قرني الشيطان

إلا صبيحة ليلة القدر فإنها تطلع ليس لها شعاع .

وأخرج الطيالسي ومحمد بن نصر والبيهقي وضعفه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في ليلة القدر : " ليلة سمحة طلقة لا حارة ولا باردة تصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليلة القدر ليلة بلجة سمحة تطلع شمسها ليس لها شعاع " .

وأخرج ابن جرير في تهذيبه عن أبي قلابة رضي الله عنه قال : ليلة القدر تجول في ليالي العشر كلها .

وأخرج البخاري ومسلم والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قام ليلة القدر إيمانا ً غفر له ما تقدم من ذنبه " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الشهر أيقظ أهله ورفع مئزره .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله يجتهد في العشر

اجتهاداً لا يجتهد في غيره .

وأخرج البيهقي عن عليّ بن أبي طالب قال : أنا والله حرضت عمر على القيام في شهر رمضان قيل : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أخبرته أن في السماء السابعة حظيرة يقال لها حظيرة القدس فيها ملائكة يقال لهم الروح ، وفي لفظ الروحانيون ، فإذا كان ليلة القدر استأذنوا ربهم في النزول إلى الدنيا فيأذن لهم فلا يمرون على مسجد يصلى فيه ولا يستقبلون أحداً في طريق إلا دعوا له فأصابه منهم بركة .

فقال له عمر : يا أبا الحسن فنحرض الناس على الصلاة حتى تصيبهم البركة ، فأمر الناس بالقيام .

وأخرج البيهقي عن أنس بن مالك قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من صلى المغرب والعشاء في جماعة حتى ينقضي شهر رمضان فقد أصاب من ليلة القدر بحظ والفر " .

وأخرج ابن خزيمة والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلى العشاء الأخيرة في جماعة في رمضان فقد أدرك ليلة القدر " .

وأخرج ابن زنجويه عن ابن عمرو قال : من صلى العشاء الأخيرة في جماعة في رمضان أصاب ليلة القدر .

وأخرج مالك وابن أبي شيبة وابن زنجويه والبيهقي عن سعيد بن المسيب قال : من شهد

العشاء ليلة القدر في جماعة فقد أخذ بحظه منها .

وأخرج البيهقي عن عليّ قال : من صلى العشاء كل ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ فقد قامه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عامر قال : يومها كليلتها وليلتها كيومها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن بن الحر قال : بلغني أن العمل في يوم القدر كالعمل في ليلتها .

(297/824)

وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجة ومحمد بن نصر والبيهقي عن عائشة قالت : " قلت يا رسول الله : إن وافقت ليلة القدر فما أقول ؟ قال : قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعفُ عني " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومحمد بن نصر والبيهقي عن عائشة قالت : لو عرفت أي ليلة القدر ما سألت الله فيها إلا العافية .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عائشة قالت : لو علمت أي ليلة القدر كان أكثر دعائي فيها أسأل الله العفو والعافية .

وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي يحيى بن أبي مرة قال : طفت ليلة السابع والعشرين من

شهر رمضان فرأيت الملائكة تطوف في الهواجر إلى البيت .

وأخرج البيهقي من طريق الأوزاعي عن عبدة بن أبي لبابة قال : ذقت ماء البحر ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان فإذا هو عذب .

وأخرج البيهقي عن أيوب بن خالد قال : كنت في البحر فأجنبت ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان فاغتسلت من ماء البحر فوجدته عذباً فراتاً .

وأخرج ابن زنجويه ومحمد بن نصر عن كعب الأحبار قال : نجد هذه الليلة في الكتب حطوطاً تحط الذنوب يريد ليلة القدر .

وأخرج البيهقي عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا كان ليلة القدر نزل جبريل في كبكبة من الملائكة يصلون على كل عبد قائم أو قاعد يذكر الله تعالى ، فإذا كان يوم عيدهم باهى بهم الملائكة فقال : يا ملائكتي ما جزاء أجير وفى عمله ؟ قالوا : ربنا جزاؤه أن يؤتى أجره . قال : يا ملائكتي عبيدي وإمائي قضوا فريضتي عليهم ثم خرجوا يعجون إليّ بالدعاء وعزتي وجلالي وكرمي وعلوي وارتفاع مكاني لأجيبنهم ، فيقول : ارجعوا فقد غفرت لكم وبدلت سيئاتكم حسنات فيرجعون مغفوراً لهم " .

وأخرج الزجاجي في أماليه عن علي بن أبي طالب قال : إذا أتى أحدكم الحاجة فليبكر في طلبها يوم الخميس ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اللهم بارك لأمتي في بكورها يوم الخميس " وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران ، و ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ وأم الكتاب ، فإن فيهن قضاء حوائج الدنيا والآخرة .

وأخرج أحمد والترمذي ومحمد بن نصر والطبراني عن عليّ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بتسع سور في ثلاث ركعات ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ و ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ و ﴿ إذا زلزلت الأرض ﴾ في ركعة وفي الثانية ﴿ والعصر ﴾ و ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ و ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ وفي الثالثة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وأخرج محمد بن نصر عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ عدلت بربع القرآن ومن قرأ ﴿ إذا زلزلت ﴾ عدلت بنصف القرآن و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ تعدل ربع القرآن و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 567.584 ﴾

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

قِيلَ : إنَّمَا هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، وَذَلِكَ لِمَا يُقْسَمُ فِيهَا مِنْ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ الَّذِي لَا يَكُونُ مِثْلُهُ فِي أَلْفِ شَهْرٍ ، فَكَانَتْ أَفْضَلَ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ لِهَذَا الْمَعْنَى .

وَإِنَّمَا وَجْهُ تَفْضِيلِ الْأَوْقَاتِ وَالْأَمَاكِنِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ لِمَا يَكُونُ فِيهَا مِنْ الْخَيْرِ الْجَزِيلِ وَالنَّفْعِ الْكَثِيرِ .

وَاخْتَلَفَتْ الرِّوَايَاتُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ مَتَى تَكُونُ ، وَاخْتَلَفَتْ الصَّحَابَةُ فِيهَا ، فَرُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهَا لَيْلَةُ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ ﴾ رَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ .

وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ وَاطْلُبُوهَا فِي كُلِّ وِتْرٍ ﴾ .

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَيْلَةُ تِسْعَ عَشْرَةَ مِنْ رَمَضَانَ وَلَيْلَةُ إحْدَى وَعِشْرِينَ وَلَيْلَةُ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ ﴾ .

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ تَحَرَّوْا لَيْلَةَ الْقَدْرِ فِي السَّبْعِ

الْأَوَاخِر .

وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ : فِي سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ﴾ .

(300/824)

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ الْبَصْرِيُّ قَالَ : أَخْبَرَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ زَنْجَوَيْهِ النَّسَائِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ : أَخْبَرَنَا مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : ﴿ سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أَسْمَعُ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، فَقَالَ : هِيَ فِي كُلِّ رَمَضَانَ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ وَمُسَدَّدٌ قَالَا : حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ قَالَ : " قُلْتُ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ : أَخْبِرْنِي عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ فَإِنَّ صَاحِبَنَا - يَعْنِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ - سُئِلَ عَنْهَا فَقَالَ : مَنْ يَقُمْ الْحَوْلَ يُصِبْهَا ؛ فَقَالَ رَحِمَ اللَّهُ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَاَللَّهِ لَقَدْ عَلِمَ أَنَّهَا فِي رَمَضَانَ وَلَكِنْ كَرِهَ أَنْ يَتَّكِلُوا ، وَاَللَّهِ إنَّهَا فِي رَمَضَانَ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ " .

(301/824)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هَذِهِ الْأَخْبَارُ كُلُّهَا جَائِزٌ أَنْ تَكُونَ صَحِيحَةً ، فَتَكُونُ فِي سَنَةٍ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي وَفِي سَنَةٍ أُخْرَى فِي غَيْرِهَا وَفِي سَنَةٍ أُخْرَى فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ وَفِي سَنَةٍ فِي الْعَشْرِ الْأَوْسَطِ وَفِي سَنَةٍ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ وَفِي سَنَةٍ فِي غَيْرِ رَمَضَانَ ، وَلَمْ يَقُلْ ابْنُ مَسْعُودٍ : " مَنْ يَقُمْ الْحَوْلَ يُصِبْهَا " إلَّا مِنْ طَرِيقِ التَّوْقِيفِ ؛ إذْ لَا يُعْلَمُ ذَلِكَ إلَّا بِوَحْيٍ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى إلَى نَبِيِّهِ ، فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ غَيْرُ مَخْصُوصَةٍ بِشَهْرٍ مِنْ السَّنَةِ وَأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ فِي سَائِرِ السَّنَةِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ قَالَ لِامْرَأَتِهِ : أَنْتِ طَالِقٌ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ : إنَّهَا لَا تَطْلُقُ حَتَّى يَمْضِيَ حَوْلٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ إيقَاعُ الطَّلَاقِ بِالشَّكِّ ، وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِوَقْتٍ فَلَا يَحْصُلُ الْيَقِينُ بِوُقُوعِ الطَّلَاقِ بِمُضِيِّ حَوْلٍ .

آخِرُ السُّورَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(302/824)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْقَدْرِ

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ : فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَدْ بَيَّنَّا فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ وَقِسْمِ الْأَفْعَالِ مِنْ الْأَمَدِ الْأَقْصَى مَعْنَى النُّزُولِ فِي الْقُرْآنِ ، وَأَنَّ الْمَلَكَ عَلِمَهُ فِي الْعُلُوِّ وَأَنْهَاهُ فِي السُّفْلِ ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالنُّزُولِ مَجَازًا فِي الْمَعْنَى عَنْ الْحِسِّ إلَى الْعَقْلِ ؛ إذْ الْمَحْسُوسُ هُوَ الْأَوَّلُ ، وَالْمَعْقُولُ هُوَ الرُّتَبُ عَلَيْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي تَمْيِيزِ الْمُنَزَّلِ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ ، وَإِنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ لَهُ ذِكْرٌ ، وَلَكِنَّهُ وَقَعَ لِلْمُخَاطَبِينَ بِهِ الْعِلْمُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ وَمِنْهُ كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِيهِ : ﴿ حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ ﴿ فِي لَيْلَةِ ﴾ قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ لَيْلًا إلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا مِنْ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ فِي رَمَضَانَ ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ ، وَأَنْزَلَهُ مِنْ الشَّهْرِ فِي اللَّيْلَةِ الْمُبَارَكَةِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ : ﴿ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ قِيلَ : لَيْلَةُ الشَّرَفِ وَالْفَضْلِ .

وَقِيلَ : لَيْلَةُ التَّدْبِيرِ وَالتَّقْدِيرِ .

وَهُوَ أَقْرَبُ لِقَوْلِهِ : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ وَيَدْخُلُ فِيهِ الشَّرَفُ وَالرِّفْعَةُ .

وَمِنْ شَرَفِهَا نُزُولُ الْقُرْآنِ فِيهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جُمْلَةً ، وَمِنْ شَرَفِهَا بَرَكَتُهَا وَسَلَامَتُهَا الَّتِي يَأْتِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بَيَانُهَا .

وَمَعْنَى التَّقْدِيرِ وَالتَّدْبِيرِ فِيهَا أَنَّ اللَّهَ قَدْ دَبَّرَ الْحَوَادِثَ وَالْكَوَائِنَ قَبْلَ خَلْقِهَا بِغَيْرِ مُدَّةٍ ، وَقَدَّرَ الْمَقَادِيرَ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ ، وَعَلِمَ الْأَشْيَاءَ قَبْلَ حُدُوثِهَا بِغَيْرِ أَمَدٍ ؛ وَمِنْ جَهَالَةِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا : إِنَّ السَّفَرَةَ أَلْقَتْهُ إِلَى جِبْرِيلَ فِي عِشْرِينَ لَيْلَةً وَأَلْقَاهُ جِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي عِشْرِينَ سَنَةً .

وَهَذَا بَاطِلٌ لَيْسَ بَيْنَ جِبْرِيلَ وَبَيْنَ [اللَّهِ وَاسِطَةٌ .

وَلَا بَيْنَ جِبْرِيلَ وَمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَاسِطَةٌ] .

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : فَيُحْدِثُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي رَمَضَانَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ كُلَّ شَيْءٍ يَكُونُ فِي السَّنَةِ مِنْ الْأَرْزَاقِ وَالْمَصَائِبِ ، وَمَا يُقَسَّمُ مِنْ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ ، وَالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ، وَالْمَطَرِ وَالرِّزْقِ ، حَتَّى يَكْتُبَ فُلَانٌ يَحُجُّ فِي الْعَامِ ، وَيَكْتُبَ ذَلِكَ فِي أُمِّ الْكِتَابِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : يَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ إلَّا السَّعَادَةَ وَالشَّقَاوَةَ ، وَالْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ، فَقَدْ فَرَغَ مِنْ ذَلِكَ ، وَنَسَخَ لِمَلَكِ الْمَوْتِ مَنْ يَمُوتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إلَى مِثْلِهَا ، فَتَجِدُ الرَّجُلَ يَنْكِحُ النِّسَاءَ ، وَيَغْرِسُ الْغُرُوسَ ، وَاسْمُهُ فِي الْأَمْوَاتِ مَكْتُوبٌ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ : فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ هِبَتِهَا لِهَذِهِ الْأُمَّةِ وَالْمِنَّةِ عَلَيْهِمْ ، وَفِي ذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُ فَضْلٌ مِنْ رَبِّك .

الثَّانِي أَنَّهُ ﴿ ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا أَرْبَعَةً مِنْ بَنِي إسْرَائِيلَ ، فَقَالَ : عَبَدُوا اللَّهَ ثَمَانِينَ عَامًا لَمْ يَعْصُوهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، فَذَكَرَ أَيُّوبَ وَزَكَرِيَّا ، وَحِزْقِيلَ بْنَ الْعَجُوزِ ، وَيُوشَعَ بْنَ نُونٍ ، فَعَجِبَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، عَجِبَتْ أُمَّتُك مِنْ عِبَادَةِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ ثَمَانِينَ سَنَةً لَمْ يَعْصُوا اللَّهَ طَرْفَةَ عَيْنٍ ، فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْك خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ إنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ وَهَذَا أَفْضَلُ مِمَّا عَجِبْت أَنْتَ وَأُمَّتُك مِنْهُ .

قَالَ : فَسُرَّ بِذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ .

الثَّالِثُ : قَالَ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ الْقَاسِمِ وَغَيْرِهِ عَنْهُ : سَمِعْت مَنْ أَثِقُ بِهِ يَقُولُ : ﴿ إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيَ أَعْمَارَ الْأُمَمِ قَبْلَهُ ، فَكَأَنَّهُ تَقَاصَرَ أَعْمَارَ أُمَّتِهِ أَلَّا يَبْلُغُوا مِنْ الْعَمَلِ مِثْلَ مَا بَلَغَ غَيْرُهُمْ فِي طُولِ الْعُمُرِ ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ، وَجَعَلَهَا خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

(305/824)

قَالَ الْقَاضِي : وَالصَّحِيحُ هُوَ الْأَوَّلُ : أَنَّ ذَلِكَ فَضْلٌ مِنْ اللَّهِ ، وَلَقَدْ أُعْطِيت أُمَّةُ مُحَمَّدٍ مِنْ الْفَضْلِ مَا لَمْ تُعْطَهُ أُمَّةٌ فِي طُولِ عُمُرِهَا ، فَأَوَّلُهَا أَنْ كُتِبَ لَهَا خَمْسُونَ صَلَاةً بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ ، وَكُتِبَ لَهَا صَوْمُ سَنَةٍ بِشَهْرِ رَمَضَانَ ، بَلْ صَوْمُ سَنَةٍ بِثَلَاثِينَ سَنَةً فِي رِوَايَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَحَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي الصَّحِيحِ ، وَطُهِّرَ مَالُهَا بِرُبْعِ الْعُشْرِ ، وَأُعْطِيَتْ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ يَعْنِي عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، وَكُتِبَ لَهَا أَنَّ مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ لَيْلَةً ، وَمَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ لَيْلَةٍ .

فَهَذِهِ لَيْلَةٌ وَنِصْفٌ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ؛ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ تَعْدَادُهُ .

وَمِنْ أَفْضَلِ مَا أُعْطُوا لَيْلَةُ الْقَدْرِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ؛ وَهَذَا فَضْلٌ [لَا يُوَازِيهِ فَضْلٌ] ، وَمِنَّةٌ لَا يُقَابِلُهَا شُكْرٌ .

(306/824)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ رُوِيَ فِيهَا قَوْلٌ رَابِعٌ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ مَحْمُودَ بْنَ غَيْلَانَ حَدَّثَهُ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ بْنُ الْفَضْلِ الْحُدَّانِيُّ عَنْ يُوسُفَ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: ﴿ قَامَ رَجُلٌ إلَى الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بَعْدَمَا بَايَعَ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ: سَوَّدْت وُجُوهَ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ يَا مُسَوِّدَ وُجُوهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: لَا تُؤَنِّبْنِي رَحِمَك اللَّهُ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيَ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى مِنْبَرِهِ، فَسَاءَهُ ذَلِكَ، فَنَزَلَتْ: ﴿ إنَّا أَعْطَيْنَاك الْكَوْثَرَ ﴾ يَعْنِي نَهْرًا فِي الْجَنَّةِ، وَنَزَلَتْ: ﴿ إنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاك مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ يَمْلِكُهَا بَنُو أُمَيَّةَ يَا مُحَمَّدُ، قَالَ الْقَاسِمُ: فَعَدَدْنَاهَا فَإِذَا هِيَ أَلْفٌ لَا تَزِيدُ يَوْمًا وَلَا تَنْقُصُ يَوْمًا ﴾.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي قَوْلِ الْمُفَسِّرِينَ؛ لِأَنَّهَا [لَا يَصِحُّ أَنْ] تَكُونَ خَيْرًا مِنْ نَفْسِهَا، وَتَرَكَّبَ عَلَى هَذَا قَوْلُ النُّحَاةِ: إنَّهُ لَا يَجُوزُ: زَيْدٌ أَفْضَلُ إخْوَتِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ الْإِخْوَةِ، يُرِيدُونَ وَلَا [يَجُوزُ أَنْ] يَكُونَ الشَّيْءُ أَفْضَلَ مِنْ نَفْسِهِ.

وَهَذَا تَدْقِيقٌ لَا يَئُولُ إلَى تَحْقِيقٍ.

أَمَّا لَيْلَةُ الْقَدْرِ فَإِنَّهَا خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ، فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، فَيَكُونُ الْعَمَلُ فِيهَا خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ هِيَ مِنْ جُمْلَتِهَا ، فَإِذَا عَمَّرَ الرَّجُلُ بَعْدَ الْبُلُوغِ عَامًا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِلَيْلَةِ الْقَدْرِ أَلْفَ شَهْرٍ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، وَلَا يَكْتُبُ لَهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ ، وَأَلْفَ شَهْرٍ زَائِدًا عَلَيْهَا ، وَرَكِّبْ عَلَى هَذَا بَقِيَّةَ الْأَعْوَامِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : زَيْدٌ أَفْضَلُ إِخْوَتِهِ فَهَذَا تَجَوُّزٌ جَائِزٌ ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ قَدْ سَحَبَتْ عَلَى هَذَا الْغَرَضِ ذَيْلَ الْغَلَطِ ، وَأَجْرَتْهُ عَلَى مَسَاقِ الْجَوَازِ فِي النُّطْقِ ، فَإِنَّهَا تَقُولُ الِاثْنَانِ نِصْفُ الْأَرْبَعَةِ ؛ تَتَجَوَّزُ بِذَلِكَ ، لِأَنَّ الِاثْنَيْنِ مِنْ الْأَرْبَعَةِ .

وَتَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِي نِسْبَتِهَا لِشَيْءٍ تَرَكَّبَ مِثْلُهُ ، وَفِي قَوْلِهِمْ : الْوَاحِدُ ثُلُثُ الثَّلَاثَةِ شَيْءٌ تَرَكَّبَ مِثْلَيْهِ ، وَهَكَذَا إِلَى آخِرِ النَّسَبِ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تَتَحَاشَ عَنْ هَذَا الْمَذْهَبِ ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ مَنْظُومٌ ، وَالْمَعْنَى مَفْهُومٌ ؛ وَوَجْهُ الْمَجَازِ فِيهِ ظَاهِرٌ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ : فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ سَلَامٌ هِيَ ﴾ ، فَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ ، وَذَكَرَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ هَاهُنَا ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ إنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ سَلَامَةٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، لَا يَحْدُثُ فِيهَا حَدَثٌ ، وَلَا يُرْسَلُ فِيهَا شَيْطَانٌ .

الثَّانِي إنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ هِيَ كُلُّهَا خَيْرٌ وَبَرَكَةٌ .

الثَّالِثُ إنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتُسَلِّمُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ ، وَقَتَادَةُ .

وَذَلِكَ كُلُّهُ صَحِيحٌ فِيهَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِنْ الْعُمُومِ فِي الْإِثْبَاتِ إذَا كَانَ مَصْدَرًا أَوْ مَعْنًى يَحْتَمِلُهُ اللَّفْظُ ؛ بِخِلَافِ الْأَشْخَاصِ وَالْأَعْلَامِ ، فَإِنَّهَا لَا تَحْتَمِلُ الْعُمُومَ بِالْإِثْبَاتِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْمُلْجِئَةِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : " هِيَ " نَزَعَ بِذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ إلَى أَنَّهَا فِي لَيْلَةِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ عَدُّوا حُرُوفَ السُّورَةِ ، فَلَمَّا بَلَغُوا إلَى قَوْلِهِمْ : (هِيَ) وَجَدُوهَا سَبْعَةً وَعِشْرِينَ حَرْفًا ، فَحَكَمُوا عَلَيْهِ بِهَا ، وَهُوَ أَمْرٌ بَيِّنٌ ، وَعَلَى النَّظَرِ بَعْدَ التَّفَطُّنِ لَهُ هَيِّنٌ ، وَلَا يَهْتَدِي لَهُ إلَّا مَنْ كَانَ صَادِقَ الْفِكْرِ ، شَدِيدَ الْعِبْرَةِ ، وَقَدْ أَشْبَعْت الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي كِتَابِ شَرْحِ الصَّحِيحَيْنِ .

وَلُبَابُهُ اللَّائِقُ بِالْأَحْكَامِ أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِي تَحْرِيرِهَا عَلَى ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَوْلًا : الْأَوَّلُ أَنَّهَا فِي الْعَامِ كُلِّهِ .

سُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ؛ فَقَالَ : مَنْ يَقُمْ الْحَوْلَ يُصِبْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ .

الثَّانِي أَنَّهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ دُونَ سَائِرِ شُهُورِ الْعَامِ؛ قَالَهُ سَائِرُ الْأَئِمَّةِ عَدَا مَا سَمَّيْنَاهُ.

الثَّالِثُ: أَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعَ عَشْرَةَ مِنْ الشَّهْرِ؛ قَالَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ.

الرَّابِعُ أَنَّهَا لَيْلَةُ إحْدَى وَعِشْرِينَ.

الْخَامِسُ أَنَّهَا لَيْلَةُ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ.

(309/824)

السَّادِسُ أَنَّهَا لَيْلَةُ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ.

السَّابِعُ أَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ.

الثَّامِنُ أَنَّهَا لَيْلَةُ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ.

التَّاسِعُ أَنَّهَا فِي الْأَشْفَاعِ لِلْأَفْرَادِ الْخَمْسَةِ؛ فَإِذَا أَضَفْتَهَا إلَى الثَّمَانِيَةِ الْأَقْوَالِ اجْتَمَعَ فِيهَا ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَوْلًا، أُصُولُهَا هَذِهِ التِّسْعَةُ الَّتِي أَشَرْنَا إلَيْهَا.

تَوْجِيهُ الْأَقْوَالِ وَأَدِلَّتُهَا: أَمَّا قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ إنَّهَا فِي الْعَامِ كُلِّهِ، فَنَزَعَ إلَى أَنَّهَا مَوْجُودَةٌ شَرْعًا، مُخْبَرٌ عَنْهَا قَطْعًا وَلَمْ يَتَعَيَّنْ لِتَوْقِيتِهَا دَلِيلٌ، فَبَقِيَتْ مُتَرَقَّبَةً فِي الزَّمَانِ كُلِّهِ، وَقَدْ رَآهُ ابْنُ مَسْعُودٍ مَعَ فِقْهِهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ بِهِ.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إنَّهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فَلِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْتَكَفَ الْعَشْرَ

الأول

يطلبها ، واعتكف العشر الأواخر ﴾ ، ولو كانت مخصصة بجزء منه ما تقلب في جميعه يطلبها فيه .

وأما من قال : إنها ليلة سبع عشرة فإن عبد الله بن الزبير نزع بقوله تعالى : ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ وكان ذلك ليلة سبع عشرة .

وأما قول من قال : إنها إحدى وعشرين فمعوله على حديث أبي سعيد الخدري قال : ﴿ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاوز العشر التي في أول الشهر ، ثم اعتكف العشر الأواسط في قبة تركية على سدتها حصير ، ثم قال : إني أوتيت ، وقيل لي : إنها في العشر الأواخر ، وإني رأيتها ليلة وتر ، وكأني أسجد صبيحتها في ماء وطين .

فأصبح من ليلة إحدى وعشرين ، وقد صلى الصبح ، فمطرت السماء ، ووكف المسجد ؛ فخرج حين فرغ من صلاة الصبح ، وجبينه وأرنبة أنفه فيهما أثر الطين والماء ﴾ .

وأما من قال : إنها ليلة ثلاثة وعشرين فلوجهين : أحدهما ﴿ أن عبد الله بن أنيس قال للنبي صلى الله عليه وسلم : مرني بليلة أنزل فيها إليك .

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : انْزِلْ لَيْلَةَ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ ﴾ .

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : إِنِّي رَأَيْت أَنِّي أَسْجُدُ فِي صَبِيحَتِهَا فِي مَاءٍ وَطِينٍ .

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُنَيْسٍ : فَرَأَيْته فِي صَبِيحَةِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَجَدَ فِي الْمَاءِ وَالطِّينِ ، كَمَا أَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهَا لَيْلَةُ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ ؛ فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : الْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ

(311/824)

الْأَوَاخِرِ فِي تَاسِعَةٍ تَبْقَى فِي سَابِعَةٍ تَبْقَى ، وَفِي خَامِسَةٍ تَبْقَى ﴾ ، زَادَ النَّسَائِيّ عَلَى مُسْلِمٍ ﴿ أَوْ ثُلُثِ آخِرِ لَيْلَةٍ ﴾ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ فَاحْتَجَّ بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي مُسْلِمٍ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ، ﴿ قَالَ زِرُّ بْنُ حُبَيْشٍ : سَأَلْت أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ ، فَقُلْت : إنَّ أَخَاك ابْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ : مَنْ يَقُمْ الْحَوْلَ يُصِبْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ .

فَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : أَرَادَ أَلَّا يَتَّكِلَ النَّاسُ ، أَمَّا إنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ ، وَأَنَّهَا فِي

الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، وَأَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ، ثُمَّ حَلَفَ لَا يَسْتَثْنِي أَنَّهَا لَيْلَةُ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ.

فَقُلْتُ: بِأَيِّ شَيْءٍ تَقُولُ ذَلِكَ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ؟ فَقَالَ: بِالْعَلَامَةِ الَّتِي أَخْبَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي الشَّمْسِ مِنْ صَبِيحَتِهَا أَنَّهَا تَطْلُعُ يَوْمَئِذٍ لَا شُعَاعَ لَهَا ﴾.

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَيْلَةُ تِسْعٍ وَعِشْرِينَ فَنَزَعَ بِحَدِيثِ النَّسَائِيِّ الْمُتَقَدِّمِ.

(312/824)

وَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّهَا فِي الْأَشْفَاعِ فَنَزَعَ بِالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: ﴿ اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَشْرَ الْأَوَاسِطَ مِنْ رَمَضَانَ، يَلْتَمِسُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ قَبْلَ أَنْ تُبَانَ لَهُ، فَلَمَّا انْقَضَيْنَ أَمَرَ بِالْبِنَاءِ فَقُوِّضَ، ثُمَّ أُبِينَتْ لَهُ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، فَأَمَرَ بِالْبِنَاءِ فَأُعِيدَ، ثُمَّ خَرَجَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّهُ كَانَتْ أُبِينَتْ لِي لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَإِنِّي خَرَجْتُ لِأُخْبِرَكُمْ بِهَا، فَجَاءَ رَجُلَانِ يَخْتَصِمَانِ مَعَهُمَا الشَّيْطَانُ، فَنَسِيتُهَا، فَالْتَمِسُوهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، الْتَمِسُوهَا فِي التَّاسِعَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالْخَامِسَةِ ﴾.

قَالَ أَبُو نَضْرَةَ رَاوِي الْحَدِيثِ: قُلْتُ لِأَبِي سَعِيدٍ: إِنَّكُمْ أَعْلَمُ بِالْعَدَدِ مِنَّا.

قَالَ: أَجَلْ، نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْكُمْ.

قَالَ: فَقُلْت: فَمَا التَّاسِعَةُ وَالسَّابِعَةُ وَالْخَامِسَةُ؟ قَالَ: إذَا مَضَتْ وَاحِدَةٌ وَعِشْرُونَ فَالَّتِي تَلِيهَا اثْنَتَانِ وَعِشْرُونَ فَهِيَ التَّاسِعَةُ، وَإِذَا مَضَتْ ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ فَالَّتِي تَلِيهَا السَّابِعَةُ، وَإِذَا مَضَتْ خَمْسٌ وَعِشْرُونَ فَالَّتِي تَلِيهَا وَهِيَ الْخَامِسَةُ.

(313/824)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي الصَّحِيحِ فِيهَا وَتَرْجِيحِ سُبُلِ النَّظَرِ الْمُوصِلَةِ إلَى الْحَقِّ مِنْهَا: وَذَلِكَ أَنَّا نَقُولُ: إنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ: ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ فَأَفَادَ هَذَا بِمُطْلَقِهِ، لَوْ لَمْ يَكُنْ كَلَامٌ سِوَاهُ أَنَّهَا فِي الْعَامِ كُلِّهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ إنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ فَأَنْبَأَنَا أَنَّهُ أَنْزَلَهُ فِي لَيْلَةٍ مِنْ الْعَامِ.

فَقُلْنَا: مَنْ يَقُمْ الْحَوْلَ يُصِبْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، ثُمَّ نَظَرْنَا إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ ﴾ فَأَفَادَنَا ذَلِكَ أَنَّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ هِيَ لَيْلَةٌ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ؛ لِإِخْبَارِ اللَّهِ أَنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ فِيهَا، فَقُلْنَا: مَنْ يَقُمْ شَهْرَ رَمَضَانَ يُصِبْ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَقَدْ طَلَبَهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَوَّلِهِ وَفِي أَوْسَطِهِ وَفِي آخِرِهِ رَجَاءَ الْحُصُولِ.

وَقَالَ: ﴿ مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ﴾؛ وَلَمْ يَعُمَّهُ بِالطَّلَبِ لِمَا كَانَ يَظُنُّهُ مِنْ التَّخْصِيصِ، وَرَجَاءَ أَلَّا يَشُقَّ عَلَى أُمَّتِهِ، ثُمَّ أَنْبَأَهُ اللَّهُ بِهَا، فَخَرَجَ لِيُخْبِرَ بِهَا

فَأُنْسِيهَا لِشُغْلِهِ مَعَ الْمُتَخَاصِمَيْنِ ، لَكِنْ بَقِيَ لَهُ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي كَانَ أُخْبِرَ بِهِ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ ، ثُمَّ أَخْبَرَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ .

(314/824)

[وَتَوَاطَأَتْ رِوَايَاتُ الصَّحَابَةِ عَلَى أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ] ، كَمَا قَالَ هُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقْتَضَتْ رُؤْيَاهُ أَنَّهَا فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ فِي لَيْلَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ .

[وَمِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُنَيْسٍ أَنَّهَا لَيْلَةُ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ] ؛ ثُمَّ أَنْبَأَ عَنْهَا بِعَلَامَةٍ ، وَهِيَ طُلُوعُ الشَّمْسِ بَيْضَاءَ لَا شُعَاعَ لَهَا يَعْنِي مِنْ كَثْرَةِ الْأَنْوَارِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، فَوَجَدَ ذَلِكَ الصَّحَابَةُ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ، وَلَمْ نَصْلُحْ لِرُؤْيَةِ ذَلِكَ النُّورِ لِكَثْرَةِ ظُلْمَةِ الذُّنُوبِ ، فَإِنْ رَآهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُذْنِبِينَ فَحُجَّةٌ عَلَيْهِ إِنْ مَاتَ وَنِقْمَةٌ مِنْهُ إِنْ بَقِيَ كَمَا كَانَ ، ثُمَّ خَصَّ السَّبْعَ الْأَوَاخِرَ مِنْ جُمْلَةِ الشَّهْرِ ، فَحَثَّ عَلَى الْتِمَاسِهَا فِيهَا ، ثُمَّ وَجَدْنَاهَا بِالرُّؤْيَا الْحَقِّ لَيْلَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ فِي عَامٍ ، ثُمَّ وَجَدْنَاهَا بِالرُّؤْيَا الصِّدْقِ فِي لَيْلَةِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ فِي عَامٍ ، ثُمَّ وَجَدْنَاهَا بِالْعَلَامَةِ الْحَقِّ لَيْلَةَ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ؛ فَعَلِمْنَا أَنَّهَا تَنْتَقِلُ فِي الْأَعْوَامِ ، لِتَعُمَّ بَرَكَتُهَا مِنَ الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ جَمِيعَ الْأَيَّامِ ، وَخَبَّأَهَا عَنِ التَّعْيِينِ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَبْرَكَ عَلَى الْأُمَّةِ فِي الْقِيَامِ فِي طَلَبِهَا شَهْرًا أَوْ أَيَّامًا ،

فَيَحْصُلُ مَعَ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ثَوَابُ غَيْرِهَا ، كَمَا خَبَّأَ الْكَبَائِرَ فِي الذُّنُوبِ وَسَاعَةَ الْجُمُعَةِ فِي الْيَوْمِ حَسْبَمَا قَدَّمْنَاهُ .

(315/824)

فَهَذِهِ سُبُلُ النَّظَرِ الْمُجْتَمِعَةِ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ أَجْمَعُ ، فَتَبَصَّرُوهَا لَمَمًا ، وَاسْلُكُوهَا أُمَمًا إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ مَنْ قَالَ لِزَوْجَتِهِ : أَنْتِ طَالِقٌ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَلِلْعُلَمَاءِ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ لَا تَطْلُقُ حَتَّى يَتِمَّ الْعَامُ مِنْ أَوَّلِ يَمِينِهِ ، لِأَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ لَيْلَةُ الْقَدْرِ فِي الْعَامِ ، فَلَا يَبْطُلُ [يَقِينُ] النِّكَاحِ بِالشَّكِّ فِي الطَّلَاقِ إجْمَاعًا مِنْ أَكْثَرِ الْأَئِمَّةِ .

الثَّانِي إذَا كَانَ آخِرُ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ طَلُقَتْ ؛ لِأَنَّهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ كَمَا ثَبَتَ فِي الْآثَارِ ؛ وَلَا يَتَعَيَّنُ تَعْيِينُهَا إلَّا بِدُخُولِ سَبْعٍ وَعِشْرِينَ ، فَلَا يَقَعُ يَقِينُ الْفِرَاقِ الَّذِي يَرْتَفِعُ بِهِ يَقِينُ النِّكَاحِ إلَّا حِينَئِذٍ .

الثَّالِثُ : أَنَّهَا تَطْلُقُ فِي حِينِ قَوْلِهِ ذَلِكَ قَالَهُ مَالِكٌ وَلَيْسَ مَبْنِيًّا عَلَى الطَّلَاقِ بِالشَّكِّ ؛ فَإِنَّ مَالِكًا لَمْ يُطَلِّقْ قَطُّ بِشَكٍّ ، وَلَا يَرْفَعُ الشَّكُّ عِنْدَهُ الْيَقِينَ بِحَالٍ .

وَقَدْ جَهِلَ ذَلِكَ عُلَمَاؤُنَا ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ وَشَرْحِ الْحَدِيثِ ، وَإِنَّمَا تَطْلُقُ عِنْدَ

مَالِكٍ بِأَنَّ مَنْ عَلَّقَ طَلَاقَ زَوْجَتِهِ عَلَى أَجَلٍ آتٍ لَا مَحَالَةَ فَإِنَّهَا تَطْلُقُ الْآنَ ؛ لِأَنَّ الْفُرُوجَ لَا تَقْبَلُ تَأْقِيتًا ؛ وَلِذَلِكَ أَبْطَلَ الْعُلَمَاءُ نِكَاحَ الْمُتْعَةِ .

(316/824)

وَهَذَا بِمَنْزِلَةِ مَا إذَا قَالَ لِزَوْجَتِهِ : أَنْتِ طَالِقٌ فِي شَهْرٍ قَبْلَ مَا بَعْدَ قَبْلِهِ رَمَضَانَ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي جُزْءٍ مُنْفَرِدٍ ، وَهَذَا الْقَدْرُ يَكْفِي هَاهُنَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(317/824)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة القدر

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1)

قوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ ﴾ : أي : القرآن ، أُضْمِرَ للعْلمِ به . و " في ليلةِ القَدْر " يجوزُ أَنْ يكونَ

ظرفاً للإنزالِ . وفي التفسير : أنه أُنْزَلَه إلى السماءِ الدنيا في هذه الليلةِ . ثم نَزَلَ مُنَجَّماً إلى الأرض في عشرين سنة . وقيل : المعنى : أُنْزَل في شأنها وفَضْلِها . فليسَتْ ظرفاً ، وإنما هو كقولِ عُمَرَ : " خَشِيْتُ أَنْ يَنْزِلَ فيَّ قرآنٌ " وقولِ عائشة : " لأنَا أَحْقَرُ في نفسي أَنْ يَنْزِلَ فيَّ قرآنٌ " وسُمِّيَتْ ليلةَ القَدْرِ : إمَّا لتقديرِ الأمور فيها ، وإمَّا لضِيقِها بالملائكةِ .

تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)

قوله : ﴿ والروح فِيهَا ﴾ : يجوز أَنْ يرتفعَ " الرُّوحُ " بالابتداءِ ، والجارُّ بعده الخبرُ ، وأن يرتفعَ بالفاعليةِ عطفاً على الملائكةِ ، و " فيها " متعلِّقٌ ب " تَنَزَّلُ "

قوله : ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ : يجوزُ أَنْ يتعلَّقَ ب " تَنَزَّلُ " وأَنْ يتعلَّقَ بمحذوفٍ على أنَّه حالٌ من المرفوع ب " تَنَزَّلُ " أي ملتبساً بإذنِ ربِّهم .

(318/824)

قوله : ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ يجوزُ في " مِنْ " وجهان ، أحدهما : أنها بمعنى اللام . ويتعلَّقُ ب " تَنَزَّلُ " ، أي : تَنَزَّلُ مِنْ أجلِ كلِّ أمرٍ قُضي إلى العامِ القابل : والثاني : أنَّها بمعنى الباء ، أي : تنزَّلُ بكلِّ أمرٍ ، فهي للتعدية ، قاله أبو حاتم . وقرأ العامَّةُ " أَمْرٍ " واحدُ الأمور . وابن عباس وعكرمة والكلبي " امْرِئٍ " مُذكَّرُ امرأة ، أي : مِنْ أجلِ كلِّ إنسانٍ . وقيل : مِنْ أجل

كلِّ مَلَكٍ، وهو بعيدٌ . وقيل: "مِنْ كلِّ أَمْرٍ" ليس متعلقاً ب "تَنَزَّلُ" إنما هو متعلِّقٌ بما بعده ، أي: هي سلامٌ مِنْ كلِّ أمرٍ مَخُوفٍ، وهذا لا يتمُّ على ظاهرِه لأنَّ "سَلامٌ" مصدرٌ لا يتقدَّم عليه معمولُه، وإنما المرادُ أنَّه متعلِّقٌ بمحذوفٍ يَدُلُّ عليه هذا المصدرُ .

سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

قوله تعالى: ﴿ سَلاَمٌ هِيَ ﴾ فيه وجهان، أحدُهما: أنَّ "هي" ضميرُ الملائكة، و "سلام" بمعنى التسليم، أي: الملائكة ذاتُ تَسْليمٍ على المؤمنين . وفي التفسير: أنهم يُسَلِّمون تلك الليلةَ على كلِّ مؤمنٍ ومؤمنة بالتحية . والثاني: أنها ضميرُ ليلةِ القَدْرِ، وسلامٌ بمعنى سَلامة، أي: ليلةُ القَدْرِ ذاتُ سلامةٍ مَنْ شيءٍ مَخُوفٍ . ويجوزُ على كلٍ من التقديرَيْن أَنْ يرتفعَ "سلامٌ" على أنه خبرٌ مقدمٌ، و "هي" مبتدأٌ مؤخرٌ، وهذا هو المشهورُ ، وأنْ يرتفع بالابتداء و "هي" فاعلٌ به عند الأخفشِ، لأنه لا يَشْتَرِطُ الاعتمادَ في عَمَلِ الوصفِ . وقد تقدَّمَ أَنْ بعضهم يجعلُ الكلامُ تامّاً على قولِه ﴿ بإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ ويُعَلِّقُ "مِنْ كلِّ أمرٍ" بما بعدَه، وتقدَّمَ تأويلُه .

وقال أبو الفضل : " وقيل : معناه : هي سلامٌ مِنْ كلِّ أمرٍ أو امرئٍ، أي : سالمةٌ أو مُسَلَّمَةٌ منه . ولا يجوزُ أَنْ يكونَ " سلامٌ " - هذه اللفظةُ الظاهرةُ التي هي المصدر - عاملاً فيما قبله لامتناع تقدُّمِ معمولِ المصدرِ على المصدرِ، كما أنَّ الصلةَ كذلك، لا يجوزُ تقديمُها على الموصول " انتهى . وقد تقدَّم أنَّ معنى ذلك عند هذا القائلِ أَنْ تتعلَّقَ بمحذوفٍ مَدْلولٍ عليه ب " سَلام " فهو تفسيرُ معنًى لا تفسيرُ إعرابٍ . وما يروى عن ابنِ عباس أنَّ الكلامَ تَمَّ على قولِه تعالى ﴿ سلامٌ ﴾ ويُبْتدأ ب " هي " على أنَّها خبرُ مبتدأ، والإِشارةُ ب " ذلك " إلى أنها ليلةُ السابعِ والعشرين، لأن لفظةَ " هي " سابعةٌ وعشرون مِنْ كَلِمِ هذه السورةِ، وكأنَّه قيل : ليلةُ القدرِ الموافقةُ في العددِ لفظةَ " هي " مِنْ كَلِمِ هذه السورةِ، فلا ينبغي أن يُعْتَقَدَ صحتُه لأنه إلغازٌ وتبتيرٌ لنَظْمِ فصيحِ الكلامِ .

قوله : ﴿ هِيَ حتى مَطْلَعِ ﴾ متعلِّقٌ ب " تَنَزَّلُ " أو ب " سَلامٌ " وفيه إشكالٌ للفَصْلِ بين المصدرِ ومعمولِه بالمبتدأ، إلاَّ أَنْ يُتَوَسَّعَ في الجارِّ . وفي التفسير : أنهم لا يزالون يُحَيُّون الناس المؤمنين حتى يَطْلُعَ الفجرُ . وقرأ الكسائي " مَطْلِع " بكسر اللام، والباقون بفتحها، والفتح هو القِياسُ والكسرُ سماعٌ، وله أخواتٌ يُحْفَظُ فيها الكسرُ مِمَّا ضُمَّ مضارعُه أو فُتِح نحو : المَشْرِق والمَجْزِر . وهل هما مصدران أو المفتوحُ مصدرٌ والمكسور مكانٌ؟ خِلافٌ . وعلى كلِّ تقديرٍ فالقياسُ في المَفْعَل مطلقاً مِمَّا ضُمَّتْ عينُ مضارعِه أو فُتِحَتْ فَتْحُ العينِ،

وإنما يقعُ الفرقُ في المكسور العينِ الصحيح نحو: يَضْرِب. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الدر المصون حـ 11 صـ 66.63﴾

(320/824)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة:

سورة القدر

قوله جل ذكره: (بسم الله الرحمن الرحيم)

"بسم الله" كلمة تحضر قلوب العلماء لتأمل الشواهد، وتسكر قولب العارفين إذا وردوا المشاهد، فهؤلاء أحضرهم فبصرهم، وعلى استدلالهم نصرهم.

وهؤلاء بشراب محابه أسكرهم، وفي شهود جلاله حيرهم.

قوله جلّ ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

في ليلةٍ قدَّرَ فيها الرحمةَ لأوليائه، في ليلةٍ يجد فيها العابدون قَدْرَ نفوسِهم، ويشهد فيها العارفون قَدْرَ معبودهم.. وشتان بين وجودِ قَدْرٍ وشهودِ قَدْرٍ! فلهؤلاء وجودُ قَدْرٍ ولكن قدر أنفسهم، ولهؤلاء شهود قدرٍ ولكن قدر معبودهم.

﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ .

استفهامٌ على جهة التفخيم لشأن تلك الليلة .

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ .

أي : هي خيرٌ من ألف شهر ليست فيها ليلة القدر . هي ليلةٌ قصيرةٌ على الأحباب لأنهم فيها في مسامرةٍ وخطاب . . كما قيل :

يا ليلة من ليالي الدهرِ . . . قابلت فيها بَدْرَها ببَدْرِ

ولم تكن عن شَفَقٍ وفَجْرٍ . . . حتى تولّت وهي بَكْرُ الدهرِ

قوله جلّ ذكره : ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلاَمٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

﴿ وَالرُّوحُ فِيهَا ﴾ : قيل جبريل . وقيل : مَلَكٌ عظيم .

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ : أي بأمر ربهم .

﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلاَمٌ ﴾ : أي مع كل مأمورٍ منهم سلامي عَلَى أوليائي .

﴿ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ : أي هي باقية إلى أن يطلع الفجر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 750 ـ 751 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة القدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)

سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

الإعراب :

(الضمير) في (أنزلناه) يعود على القرآن الكريم وإن لم يتقدّم له ذكر أخذا من إسناد إنزاله إليه تعالى (في ليلة) متعلّق بـ (أنزلناه) . .

جملة : " إنّا أنزلناه . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة.

وجملة : " أنزلناه . . . " في محلّ رفع خبر إنّ.

2 - 5 (الواو) اعتراضيّة (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ في الموضعين . .

خبر الأول جملة أدراك ، وخبر الثاني (ليلة) " 1 " ، (ليلة) الثاني مبتدأ مرفوع خبره (خير) (من ألف) متعلّق بـ (خير) ، (تنزّل) مضارع مرفوع حذفت منه إحدى التاءين (فيها) متعلّق بـ (تنزّل) ، (بإذن) متعلّق بـ (تنزّل) " 2 " ، (من كلّ) متعلّق بـ (تنزّل) " 3 " و(من)

للسببيّة (سلام) خبر مقدم مرفوع للمبتدأ المؤخّر (هي) " 4 " ، (حتّى مطلع) جارّ ومجرور متعلّق بـ (سلام) " 5 " .

وجملة : " ما أدراك . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " أدراك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) .

وجملة : " ما ليلة . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل أدراك .

وجملة : " ليلة القدر خير . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تنزّل الملائكة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر .

وجملة : " سلام هي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(1) القدر : اسم علم لليلة بعينها من العشر الأواخر من رمضان ، والأصل هو مصدر بمعنى التقدير أو بمعنى الشرف أو بمعنى الحكم ، وزنه فعل بفتح فسكون . . وانظر الآية (91) من سورة الأنعام .

(5) مطلع : مصدر ميميّ من الثلاثيّ طلع ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين .

---

(1) يجوز أن يكون (ما) الثاني خبرا مقدّما و(ليلة) مبتدأ مؤخّر .

(2) أو متعلّق بحال من فاعل تنزّل أي متلبّسين .

(3) أي لأجل كلّ أمر . . أو متعلّق بحال من فاعل تنزّل أي مهيّئين من أجل كلّ أمر .

(4) قد يكون ضمير الليلة ، وقد يكون ضمير الملائكة ، وتفسّر الآية بحسب كلّ من

(5) أو متعلّق بـ (تنزّل) .

(322/824)

الفوائد :

- فضل ليلة القدر :

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) (من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدّم من ذنبه) .

وهي في كل رمضان إلى يوم القيامة ، كما أجمع العلماء . وقيل : إنها في العشر الأواخر ، ولا سيما الوتر منها . وبعض العلماء قال بأنها تقع في ليلة ثابتة لا تتعداها وقال آخرون : هي متنقلة ، فتقع في كل سنة موقعا يختلف عن السنة السابقة .

عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : قلت يا رسول اللّه ، إن علمت ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال قولي : اللهم إنك عفو كريم ، تحب العفو فاعف عني أخرجه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح . وأمارتها أن تطلع الشمس ، من صبيحة يومها ، بيضاء لا شعاع لها ، لأن الملائكة تسد الفضاء بأجنحتها في تلك الليلة ، فلا تسمح لنور الشمس أن

يسطع كعادته.

وهي ليلة، العبادة فيها ترجح عبادة ألف شهر.

قال ابن عباس: ذكر لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) رجل من بني إسرائيل، حمل السلاح على عاتقه في سبيل اللّه ألف شهر، فعجب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) لذلك، وتمنى ذلك لأمته، فقال: يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعمارا، وأقلها أعمالا فأعطاه اللّه تبارك وتعالى ليلة القدر، فقال تعالى: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ}.

قال البغوي: وبالجملة، أبهم اللّه تعالى هذه الليلة على الأمة، ليجتهدوا في العبادة ليالي شهر رمضان، طمعا في إدراكها، كما أخفى ساعة الإجابة في يوم الجمعة، وأخفى الصلاة الوسطى في الصلوات الخمس، واسمه الأعظم في القرآن في أسمائه، ورضاه في الطاعات، ليرغبوا في جميعها، وسخطه في المعاصي، لينتهوا عن جميعها. انتهى انتهى. اهـ

﴿الجدول حـ 30 صـ 373.375﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(97) سورة القدر

مكيّة وآياتها خمس

[سورة القدر (97) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (4)

سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)

الإعراب :

(إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ) إن واسمها وجملة أنزلناه خبرها أي نجوما متفرقة بحسب الوقائع والحاجة الماسّة إليه في مدى ثلاث وعشرين سنة وفي إضمار القرآن وإن لم يتقدم له ذكر شهادة له بالتشريف وأسنده إليه تعالى وجعله مختصّا به دون غيره ورفع مدة الوقت الذي أنزل فيه فهذه ثلاثة أوجه لتعظيم القرآن ، وفي ليلة القدر متعلقان بأنزلناه ، وسيأتي الكلام عليها في باب الفوائد ، والواو حرف عطف وما اسم استفهام في محل رفع

مبتدأ وجملة أدراك خبر وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وليلة القدر خبر ما والجملة المعلقة بالاستفهام سدّت مسدّ مفعول أدراك الثاني (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ)

(325/824)

ليلة القدر مبتدأ وخير خبر ومن ألف شهر متعلقان بخير والجملة مستأنفة كأنها جواب لسؤال نشأ عن تفخيم ليلة القدر تقديره وما فضائلها (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ) استئناف ثان مسوق للإجابة عن السؤال نفسه وتنزل فعل مضارع مرفوع أصله تتنزل والملائكة فاعل والروح نسق على الملائكة ، وإنما أفرد جبريل بالذكر تنويها بفضله على حدّ قوله تعالى فيها فاكهة ونخل ورمان والنخل والرمان من الفاكهة وفيها متعلقان بتنزل ولك أن تعلقه بمحذوف حال من الملائكة أي ملتبسين وبإذن ربهم متعلقان بتنزل ومن كل أمر أي من أجل كل أمر قضاه اللّه لتلك السنة متعلق بتنزل (سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) سلام خبر مقدّم وهي مبتدأ مؤخر وحتى حرف غاية وجر ومطلع الفجر مجرور بحتى والجار والمجرور متعلقان بسلام وفيه إشكال وهو الفصل بين المصدر ومعموله بالمبتدأ والجواب أن الظروف والجار والمجرور يتوسع فيها ما لا يتوسع في غيرها والأحسن كما قال الخطيب أن يتعلقا بمحذوف قدّره الخطيب يستمرون على التسليم من غروب الشمس

حتى مطلع الفجر .

الفوائد :

قال القرطبي : ليلة القدر سلامة وخير كلها لا شرّ فيها حتى مطلع الفجر وقد شاء اللّه إخفاءها أن يحيي مريدها الليالي الكثيرة فتكثر عبادته ويتضاعف ثوابه وأن لا يتكل الناس عند إظهارها على إصابة الفضل فيها فيفرطوا في غيرها " وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ومن صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه رواه البخاري ومسلم وقوله إيمانا واحتسابا أي نيّة وعزيمة وهو أن

يصومه على التصديق والرغبة في ثوابه طيبة به نفسه غير كاره له ولا مستثقل لصيامه ولا مستطيل لأيامه لكن يغتنم طول أيامه لعظم الثواب فالاحتساب من الحسب كالاعتداد من العد وإنما قيل لمن ينوي بعمله وجه اللّه احتسبه لأن له حينئذ أن يعتدّ بعمله فجعل في حال مباشرة الفعل كأنه معتدّ به . وقال البغوي : قوله احتسابا : أي طلبا لوجه اللّه تعالى وثوابه ويقال فلان يحتسب الأخبار ويتحسبها أي يتطلبها . هذا ومن أراد التوسّع فعليه

بالمطولات ففيها من أخبار هذه الليلة وفضائلها ما تضيق به الصحائف والأجلاد . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 537 . 539﴾

(327/824)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والعشرون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/825)

الجزء الخامس والعشرون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة البينة)

(4/825)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة البينة)

(5/825)

" فصل في مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعي :

سورة البينة

سورة الإعلام بأن هذا الكتاب القيم من علو مقداره وجليل آثاره أنه كما أنه لقوم نور وهدى فهو لآخرين وقر وعمى ، فيقود إلى الجنة دار الأبرار ، ويسوق إلا النار دار الأشقياء الفجار ، وعلى ذلك دل كل من اسمائها " الذين كفروا " " والمنفكين " بتأمل الآية في انقسام الناس إلى أهل الشقاوة وأهل السعادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 495 ﴾

(6/825)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . لم يكن الذين كفروا)

السّورة مكّيّة .

آياتها فى عدّ البصرى سبع ، وعند الباقين ثمان .

وكلماتها أَربع وسبعون .

وحروفها ثلاثمائة وتسع وتسعون .

المختلف فيها آية : ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ .

فواصل آياتها على الهاءِ .

ولها اسمان : سورة المنفكّين : لقوله : ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ ﴾ ، وسرة القيِّمة ؛ لقوله :

﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : بيان تمرّد أَهل الكتاب ، والخبرُ من صحة أَحكام القرآن ، وذكر وظيفة الخَلْق فى خدمة الرحمن ، والإِشادة بخير البرِيّة من الإِنسان ، وجزاء كلّ أَحد منهم بحسب الطَّاعة والعصيان ، وبيان أَن موعود الخائفين من الله الرّضا والرضوان ، فى قوله :

﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .

السّورة (محكَّمة .

والمتشابه فيها إِعادة البينة ، والبرية ، وقد سبق) .

فضل السّورة :

صحّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلَّم أَنه قال لأُبىّ بن كعب : يا أُبىّ إِنّ الله أَمرنى أَن أَقرأَ عليك ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قال أُبىّ : وسمّانى ؟ ! .

قال : نعم ، فبكى أُبىّ من الفرح .

وفيها أَحاديث ضعيفة ، منها : لو يعلم الناس ما فى ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ لعطَّلوا الأَهل ، والمال ، وتعلَّموها .

فقال رجل من خُزَاعة : ما فيها من الأَجر يا رسول الله ؟ فقال : لا يقرؤها منافق أَبداً ولا

عبدٌ فى قلبه شك فى الله ، والله إِن الملائكة المقربين ليقرءونها منذ خلق الله السموات [والأَرض] لا يَفْتُرون من قراءِتها .

وما من عبدٍ يقرؤها بليل إِلا بعث الله ملائكة يحفظونه فى دينه ودنياه ، ويَدْعون الله له بالمغفرةِ والرّحمة .

(7/825)

فإِن قرأَها نهاراً أُعطِى من الثواب مثل ما أَضاءَ عليه النَّهار ، وأَظلم عليه الليلُ ، فقال رجل : زدنا من هذا الحديث ، فذكر سُوَرًا أُخرى قد بيّناها ، وحديث على : يا علىّ مَنْ قرأَ (لم يكن) شهد له أَلف مَلَك بالجَنَّة ، وله بكلّ آية قرأَها مثلُ ثواب رجل أَطعم أَلْف مَرِيض شهوتهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 533.534﴾

(8/825)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة البينة

وردت تسمية هذه السورة في كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) (لم يكن الذين كفروا) .

روَى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لأبي بن كعب : (إن الله أمرني أن أقرأ عليك : (لم يكن الذين كفروا (قال : وسمّاني لك ؟ قال : نعم . فبكى) فقوله : أن أقرأ عليك) لم يكن الذين كفروا (واضحٌ أنه أراد السورة كلها فسماها بأول جملة فيها ، وسميت هذه السورة في معظم كتب التفسير وكتب السنة سورة) لم يكن (بالاقتصار على أول كلمة منها ، وهذا الاسم هو المشهور في تونس بين أبناء الكتاتيب .

وسميت في أكثر المصاحف (سورة القيّمة) وكذلك في بعض التفاسير . وسميت في بعض المصاحف (سورة البيّنة) .

وذكر في (الإتقان) أنها سميت في مصحف أبيّ (سورة أهل الكتاب) ، أي لقوله تعالى : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ((البينة : 1) ، وسميت سورة (البرية) وسميت (سورة الانفكاك) . فهذه ستة أسماء .

واختلف في أنها مكية أو مدنية قال ابن عطية : الأشهر أنها مكية وهو قول جمهور المفسرين . وعن ابن الزبير وعطاء بن يسار هي مدنية .

وعكس القرطبي فنسب القول بأنها مدنية إلى الجمهور وابن عباس والقول بأنها مكية إلى

يحيى بن سلام . وأخرج ابن كثير عن أحمد بن حنبل بسنده إلى أبي حبّة البدري قال : (لما نزلت : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب (إلى آخرها قال جبريل : يا رسول الله إن الله يأمرك أن تُقرئْها أبيّا) الحديث ، أي وأبيٌّ من أهل المدينة . وجزم البغوي وابن كثير بأنها مدنية ، وهو الأظهر لكثرة ما فيها من تخطئة

(9/825)

أهل الكتاب ولحديث أبي حبة البدري ، وقد عدها جابر بن زيد في عداد السور المدنية . قال ابن عطية : إن النبي (صلى الله عليه وسلم) إنما دُفع إلى مناقضة أهل الكتاب بالمدينة .

وقد عدت المائة وإحدى في ترتيب النزول نزلت بعد سورة الطلاق وقبل سورة الحشر ، فتكون نزلت قبل غزوة بني النضير ، وكانت غزوة النضير سنة أربع في ربيع الأول فنزول هذه السورة آخر سنة ثلاث أو أول سنة أربع .

وعدد آياتها ثمان عند الجمهور ، وعدها أهل البصرة تسع آيات .

أغراضها

توبيخُ المشركين وأهللِ الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسول (صلى الله عليه وسلم)

والتعجيب من تناقض حالهم إذ هم ينتظرون أن تأتيهم البينة فلما أتتهم البينة كفروا بها .

وتكذيبُهم في ادعائهم أن الله أوجب عليهم التمسك بالأديان التي هم عليها .

ووعيدهم بعذاب الآخرة .

والتسجيل عليهم بأنهم شر البرية .

والثناءُ على الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

ووعدهم بالنعيم الأبدي ورضَى الله عنهم وإعطائه إياهم ما يرضيهم .

وتخلل ذلك تنويه بالقرآن وفضله على غيره باشتماله على ما في الكتب الإلاهية التي جاء بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) من قبل وما فيه من فضل وزيادة . انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 467 . 468 ﴾

(10/825)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة البينة

مدنية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

*سورة البينة وتسمى [سورة لم يكن] مدنية ، وهي تعالج القضايا الآتية :

1- موقف أهل الكتاب من رسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

2- موضوع إخلاص العبادة لله جل وعلا .

3- مصير كل من السعداء والأشقياء في الآخرة .

4- تحدثت السورة الكريمة عن موقف اليهود والنصارى ، من دعوة النبى (صلى الله عليه وسلم) بعد أن كانوا ينتظرون قدومه ، فلما جاءهم بالنور والضياء كانوا أول من كذب برسالته [لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . .] الآيات .

* ثم تحدثت السورة عن عنصر هام من عناصر الإيمان ، وهو " إخلاص العبادة " لله العلي الكبير ، الذي أمر به جميع أهل الأديان ، لإفراده جل وعلا بالذكر ، والقصد ، والتوجه في جميع الأقوال والأفعال والأعمال ، خالصة لوجهه الكريم [وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة . .] الآيات .

* كما تحدثت عن مصير أهل الإجرام - شر البرية - من كفرة أهل الكتاب والمشركين ، وخلودهم في نار الجحيم ، وعن مصير المؤمنين ، أصحاب المنازل العالية - خير البرية - وخلودهم في جنات النعيم ، مع النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، جزاء طاعتهم وإخلاصهم لرب العالمين [إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم

خالدين فيا أولئك هم شر البرية إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . .

] الآيات إلى نهاية السورة الكريمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 586 ﴾

(11/825)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة البينة

أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، المشركون : عبدة الأوثان والأصنام من العرب وغيرهم ، منفكين : أي مفارقين ما هم عليه ، والبينة : الحجة الواضحة ، والمراد بها النبي صلى اللّه عليه وسلم ، والصحف : واحدها صحيفة : وهى ما يكتب فيه ، مطهرة : أي مبرأة من الزور والضلال ، والقيمة : المستقيمة التي لا عوج فيها لاشتمالها على الحق ، والبينة : الثابتة الدليل ، والإخلاص : أن يأتى بالعمل خالصا له تعالى ، لا يشرك به سواه ، الدين : العبادة ، وإخلاص الدين للّه : تنقيته من أدران الشرك ، حنفاء : واحدهم حنيف ، وهو فى الأصل المائل المنحرف والمراد به المنحرف عن الزيغ إلى إسلام الوجه للّه ، والبرية :

الخليقة، خشى اللّه: أي خاف عقابه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 212.211 ﴾

(12/825)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة البينة «1»

1 - مُنْفَكِّينَ: زائلين. يقال. ما أنفكّ في كذا، أي لا أزال.

3 - كُتُبٌ قَيِّمَةٌ: عادلة. وقال الإمام ابن قتيبة:

انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 464 ﴾

---

(1) مدنية عند الجمهور.

(13/825)

وقال الفراء:

سورة (البينة)

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾

قوله عز وجل: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ... ﴾.

يعنى: النبى صلى الله عليه وسلم، وهى فى قراءة عبد الله: "لَمْ يَكُنِ الْمُشْرِكُون وأَهْلُ الْكِتَابِ مُنْفَكِّين". فقد اختلف التفسير، فقيل: لم يكونوا منفكين منتهين حتى [١/] تأتيهم البينة.

يعنى: بعثه محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن: وقال آخرون: لم يكونوا تاركين لصفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابهم: أنه نبىٌّ حتى ظهر، تفرقوا واختلفوا، ويصدّق ذلك.

﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾

وقوله عزّ وجَل: ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ... ﴾.

نكرة استؤنف على البينة، وهى معرفة، كما قال: ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ، فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ وهى فى قراءة أُبى: "رَسُولاً مِنَ الله" بالنصب على الانقطاع من البيّنة.

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ... ﴾.

وقد يكون الانفكاك على جهةِ يُزال، ويكون على الانفكاك الذى تعرفه، فإذا كنت على

جهةَ يَزال فلا بد لها من فعل ، وأن يكون معها جحد ، فتقول ، ما انفككت أذكرك ، تريد : ما زلت أذكرك ، فإِذا كانت على غير معنى : يزال ، قلت : قد انفككت منك ، وانفك الشيء من الشيء ، فيكون بلا جحد ، وبلا فعل ، وقد قال ذو الرمة :

قلائص لا تنفك إِلاَّ مُناخة * على الخسف أو ترمى بلدا قفراً

فلم يدخل فيها إلا (إِلاَّ) وهو ينوى بها التمام وخلاف : يزال ، لأنك لا تقول : ما زلت إلا قائماً .

(14/825)

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ . . . ﴾ .

العرب تجعل اللام فى موضع (أن) فى الأمر والإرادة كثيراً ؛ من ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُم ﴾ ، و ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا ﴾ . وقال فى الأمر فى غير موضع من التنزيل ، ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وهى فى قراءة عبد الله ، "وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ" وفى قراءة عبد الله : "ذلك الدين القيمة" وفى قراءتنا "وَذَلِكَ دِينُ

الْقَيِّمَةِ" وهو [/ب] مما يضاف إلى نفسه لاختلاف لفظيه. وقد فسر فى غير موضع.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾

وقوله جل وعز: ﴿ أُوْلَائِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ... ﴾.

البرية غير مهموز، إلا أن بعض أهل الحجاز همزها؛ كأنه أخذها من قول الله جل وعز برأكم، وبرأ الخلق، ومن لم يهمزها فقد تكون من هذا المعنى. ثم اجتمعوا على ترك همزها كما اجتمعوا على: يَرَى وتَرى ونرى. وإن أَخِذتْ من البَرَى كانت غير مهموزة، والبرى: التراب سمعت العرب تقول: بفيه البرى، وحمّى خيبرى، وشرُّ ما يرى [فإنه خيسرى].

انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 281. 282 ﴾

(15/825)

وقال الغزنوى:

[سورة البينة]

1 مُنْفَكِّينَ: منتهين عن الشّرك.

3 قَيِّمَةٌ: قائمة على سنن الحق.

6 الْبَرِيَّةِ : «فعيلة» من «برأ اللّه الخلق» ، أو من «البرى» وهو التراب أو من بريت القلم : قدّرت قطعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 886 ﴾

(16/825)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة البينة

عدد 14 - 100 و98

نزلت بالمدينة بعد سورة الطّلاق .

وهي ثمان آيات وأربع وتسعون كلمة ، وثلاثمائة وتسعة وتسعون حرفا .

لا ناسخ ولا منسوخ فيها وتسمى سورة : لم يكن ولا يوجد سورة مبدوءة بما بدئت به ولا بما ختمت فيه ، ومثلها في عدد الآي الانشراح والتين والزلزلة والتكاثر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "لَمْ يَكُنِ" فعل مضارع من كان التي ترفع الاسم وتنصب الخبر ومعناه الدّوام والاستمرار بمعنى لا يزال لأنه من طائفة ما زال وما فتىء وما دام اللاتي تلازم النّفي أي لا يزال "الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ" أي ليسوا من اليهود القائلين بالبداء وأن عزيرا ابن اللّه ،

ولا النصارى القائلين إن اللّه هو المسيح أو المسيح ابن اللّه أو ثالث ثلاثة منفكين عن كفرهم هذا "وَ" من "الْمُشْرِكِينَ" أناس لم يكونوا أيضا "مُنْفَكِّينَ" عن شركهم وكلمة منفكين هذه واقعة خبر ليكن واسمها الّذين المارة بصدد (الْآيَة) أي غير تاركين ولا زائلين عنه ، بل لم يبرح الأولون ملازمين على الكفر بذلك والآخرون على عبادة الأوثان وإنكار البعث "حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ"

(17/825)

---

(1) الواضحة على إبطال معتقدهم ذلك ، وهذه البينة "رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ" وهو محمد صلّى اللّه عليه وسلم "يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً" (2) عما يلوكه كفرة أهل الكتابين والمشركون "فِيها" في هذه الصّحف المقدسة "كُتُبٌ" مكتوبات "قَيِّمَةٌ" (3) عادلة مستقيمة ناطقة بالحق ، وإنما سمي عليه السّلام بيّنة هنا لإتيانه بالقرآن العظيم الذي هو أبين من جميع الكتب والصّحف السّماوية ، وقد أوضح وأبان ما فيها وأراد بالصحف القرآن العظيم لأنه مسطور عند اللّه على صحف جليلة في لوحه المكنون العالي ، وأراد بالكتب كتب الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام ، لأن معناها كله مندرج في القرآن الكريم لاشتماله على معنى جميع ما أنزله على الرسل قبله ، فصارت كأنها فيه ، قال تعالى (إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ

الْأُولى صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى) الآية الأخيرة من سورة الأعلى في ج 1 ويأتي لفظ كتب بمعنى مكتوبات أي أحكام عظيمات قاسطة مدونة فيها .

(18/825)

قال تعالى "وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ" أي ما كان اختلاف اليهود والنّصارى وتفرق آرائهم في أمر محمد عليه الصّلاة والسّلام ورسالته وكتابه "إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ" (4) في كتبهم وظهر لهم ظهور نار على علم وتوضح لديهم أنه نبي آخر الزمان الموصوف في كتبهم والذي أخذ عليهم العهد بالإيمان به من قبل أنبيائهم ، وكانوا قبل ظهوره مجمعين على تصديقه حتى انهم يستنصرون به كما مر في الآية 90 من سورة البقرة ويستسقون باسمه ويقولون لا ننفك على ما نحن عليه من الدّين ولا نترك شيئا منه حتى يبعث النبي الموعود به على لسان الرّسل المكتوب منه في التوراة والإنجيل ، فلما بعث صلّى اللّه عليه وسلم تفرقت كلمتهم واختلفوا عليه ، فمنهم من آمن به بتوفيق اللّه إياه ، ومنهم من كفر به بخذلانه له ، وكذلك المشركون لتوغلهم في حب الدّنيا وزخارفها وحرصهم على بقاء الرّياسة لهم فيها ، وصار الأمر على العكس بأن كان تفرقهم وبقاؤهم على ما هم عليه واختلافهم بمجيء الرّسول الذي كانوا ينتظرونه .

ونظير قولهم هذا قول الفاسق الفقير لمن يعطيه لا أنفك عما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقني اللّه الغني فإذا أغناه ازداد فسقا فيقول واعظه لم تكن منفكا عن الفسق حتى توصر وما غمست رأسك بالفسق إلّا بعد اليسار ، فيذكره ما كان يقوله قبلا توبيخا

(19/825)

له وإلزاما للحجة عليه ، وهؤلاء حكى اللّه عنهم أولا بأنهم لم يزالوا على كفرهم حتى تأتيهم البينة الموجودة في كتبهم ، ثم أخبر اللّه جل شأنه عن الواقع بقوله (وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) فيكون المعنى أن الذي وقع منهم قبل بعثة الرّسول مخالف لما ادعوه بعد مجيئه ، فلا مناقضة بين الآية الأولى القائلة لم يكن الّذين كفروا من الفريقين منفكين عما هم عليه من الكفر حتى يأتيهم الرّسول وحتى في الآية لانتهاء الغاية ، فتقضي أنهم انفكوا عن كفرهم عند إتيانه وهو خلاف الواقع (ولا في الآية الثانية) لأنها تفيد أنه لم يحصل التفرق إلّا بعد مجيئه على ما أوضحناه لك آنفا فلا مناقضة من حيث الظّاهر ولا من حيث المعنى البتة .

قال الواحدي هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظما وتفسيرا .

وهذا الذي جرينا عليه أحسن الأقوال في هاتين الآيتين ، ولا يستقيم النظم الكريم على

خلافه، ولا يصح معناه إلّا به، واللّه أعلم، وهو ولي التوفيق قال تعالى "وَما أُمِرُوا" هؤلاء الكفار قبل بعثة الرّسول محمد عليه السّلام وبعدها "إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ" وحده "مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ" متبرئين من الشرك والرّياء قلبا وقالبا لسانا ونية.

مطلب المراد بالإخلاص وأهل الكتابين والمشركين وغزوة بن النّضير وسبب إسكان اليهود في الحجاز:

والمراد بالإخلاص هنا هو أن يأتي المكلف بالشيء الحسن لحسنه، والواجب لوجوبه، وينتهي عن القبيح لقبحه والسّيء لسوئه، ويفعل كما أمر اللّه رغبة فيه، وينتهي عن كلّ ما نهاه كراهية فيه وطاعة للّه تعالى.

روى مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إن اللّه لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم.

(20/825)

لأن الإسلام اللّساني لا قيمة له، والمعوّل على ما في القلب عند اللّه القائل (إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ) الآية 38 من سورة ق ج 1 والقائل أيضا (إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ) الآية 22 من سورة الرّعد المارة.

وجاء عنه صلّى اللّه عليه وسلم في حديث صحيح طويل : التقوى هاهنا - كررها ثلاثا - مشيرا إلى صدره الشّريف أي ليست التقوى بشقشقة اللّسان ، ولا بالأعمال الظّاهرة ، بل
بالإخلاص راجع الآية 28 من سورة البقرة تجد بحثا وافيا في التقوى قد لا تجده في غيرها .

(21/825)

ثم وصف اللّه تعالى المخلصين بكونهم "حُنَفاءَ" حالة كونهم في عبادتهم مائلين عن كلّ الأديان الباطلة إلى الدّين الحق دين الإسلام ، مؤمنين بجميع الرسل والكتب السّماوية "وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ" المفروضتين عليهم "وَذلِكَ" أي عبادة اللّه والإخلاص فيها ودعمها بإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة هو "دِينُ الْقَيِّمَةِ" (5) الملة المستقيمة العادلة القاسطة كما يريده ربّ هذا الدّين السّوي "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ" المشار إليهما أول هذه السورة الّذين انفكوا عن هذا الدّين القويم دين محمد صلّى اللّه عليه وسلم واختلفوا فيه وتفرقوا بعد ما جاءهم به وتلى عليهم كتاب اللّه الذي أنزله عليه في هذه الدّنيا ولم يتبعوه يكونون في الآخرة "فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ" (6) وانما قدم كفرة أهل الكتاب لأن جنايتهم في الكفر أعظم من المشركين الكافرين في الأصل ،

إذ لا يعلمون شيئًا عن محمد ورسالته ، لأن رسولهم إسماعيل تقادم عهده فلم يبلغهم عنه شيء من أمر الدّين ، ولم يترك لهم كتابا يعملون به ، ولم يرسل لهم رسولا بعده ، أما أهل الكتابين فيعلمون ذلك بإخبار رسلهم المتابعة وبيان كتبهم ، حتى أنهم كانوا يستفتحون به قبل بعثته صلّى اللّه عليه وسلم كما أشرنا إليه في الآية 89 من سورة البقرة المارة ، وكانوا يقرون نبوته ، فلما جاءهم كذبوه وجحدوه وأنكروا ما كانوا يذكرون عنه ويذكّرون به ، وبدل أن يؤمنوا به فقد ازدادوا كفرا وصدوا غيرهم عن الإيمان به ، عتوا وعنادا ترجيحا لحطام الدّنيا على نعيم الآخرة .

(22/825)

هذا والمشركون وإن كان جرم اشراكهم أعظم كفرا من كفر أهل الكتاب ، لأن الشّرك أعظم أنواع الكفر ، إلا أنهم لم يعرفوا ما يعرفهم أهل الكتابين من أمر الرّسول محمد ، لأنهم جهلة لما ذكرنا آنفا ، وعدم وجود شيء من آثار النّبوة عندهم وكونهم أميين لم يتعلموا ، وهذا فقد أذل اللّه هذين الفريقين وأخزاهم في الدّنيا والآخرة "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ" (7) عند اللّه في الدّنيا والآخرة ، ويكون "جَزاؤُهُمْ" في الدنيا الذكر الجميل والسّمعة الحسنة ، وفي الآخرة "عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ

خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ"

رضوا به أن يكون ربا لهم ومدبرا لأمورهم ، ورضوا عنه بما يقضي عليهم ويدبر لهم "ذلِكَ" الجزاء المبارك الطّيب الحسن يكون "لِمَنْ خَشِيَ عليهم رَبَّهُ" (8) في الدّنيا عن علم وإدراك ويقين ، لأن خشية اللّه هي الأساس المتين المانعة عن كل ما لا يرضيه ، راجع الآية 28 من سورة فاطر في ج 1 ، روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال قال النّبي صلّى اللّه عليه وسلم لأبي بن كعب إن اللّه أمرني أن أقرأ عليك (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا) السورة قال أبي وسماني يا رسول اللّه ؟

قال نعم ، فبكى فرحا وسرورا وخشية وإجلالا للّه تعالى .

وفي رواية البخاري زيادة وقد ذكرت عند رب العالمين ؟ قال نعم ، فذكر أن فاضت عيناه .

(23/825)

ففي هذا الحديث بشارة عظيمة في فضل أبي بن كعب رضي اللّه عنه ، وإعلام بمعرفته لقراءة كتاب اللّه كما يريده اللّه ، وهي منقبة خص بها لم يشاركه فيها أحد من الأصحاب ، وإيماء إلى أن هذه السّورة التي اختارها اللّه بأن يقرأها رسوله على أبي جامعة معانيها

لأصول وفروع وقواعد تتعلق بأمر الدّين والدّنيا ، خطوات جليلات ومهمات عظيمات ، على قلة مبانيها .

واعلم أن الحكمة من قراءتها من قبل النّبي صلّى اللّه عليه وسلم على أبي هو في الحقيقة تعليمه ألفاظها وكيفية النّطق بها ووزن كلماتها ، ليأخذها النّاس عنه كما تلقاها من حضرة الرّسول لأنه هو أحد القراءة المشهورين الّذين يؤخذ عنهم القرآن وإيذان للناس بلزوم فعله ولو ممن هو دونهم بالفضل ، لأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها ، وإعلام باحترام حملة القرآن ومعلميه وتعظيمهم .

هذا واللّه أعلم .

واستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم .

وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم تسليما كثيرا والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿بيان المعاني حـ 6 صـ 84. 88﴾

(24/825)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة لم يكن

مكية أو مدنية

تأتيهم البينة كاف إن رفع ما بعده خبر المبتدأ محذوف وليس بوقف إن رفع بدلا من البينة كتب وكذا جاءتهم البينة كتب قيمة تام وكذا جاءتهم البينة ويؤتوا الزكاة جائز دين القيمة تام وكذا شر البرية وخير البرية وقال أبو عمرو فيهما كاف خالدين أبدا صالح ورضوا عنه كاف وقال أبو عمرو كابي حاتم آخر السورة تام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿المقصد صـ ﴾

(25/825)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة البيِّنة

مكية أو مدنية ولا وقف من أوَّلها إلى البينة لاتصال الكلام بعضه ببعض فلا يوقف على الكتاب ولا على المشركين لأنَّ منفكين منصوب خبر يكن ولا على منفكين لأنَّ ما بعده متصل به

البيِّنة (كاف) إنَّ رفع رسول خبر مبتدأ محذوف وليس بوقف إنَّ رفع بدلاً من البينة أمَّا بدل اشتمال أو بدل كل من كل على سبيل المبالغة جعل الرسول نفس البينة أو على حذف

مضاف أي بينة رسول

مطهرة (جائز)

قيمة (تام) ومثله البينة ولا وقف من قوله وما أمروا إلى الزكاة فلا يوقف على له الدين ولا على حنفاء لأنَّ قوله ويقيموا الصلاة موضعه نصب بالعطف على ليعبدوا أو حذف النون علامة للنصب فكأنَّه قال إلاَّ ليعبدوا وليقيموا

الزكاة (حسن)

القيمة (تام) ولا يوقف على جهنم لأنَّ خالدين حال من الضمير المستكن في الخبر وخبر أن قوله في نار جهنم

فيها (حسن) وليس بوقف إن جعل أولئك خبراً ثانياً عند من أجاز تعداد الخبر أو نعتاً لأنَّ النعت والمنعوت كالشيء الواحد وحينئذ يكون حكم على الكفار بأمرين بالخلود في النار وأنهم شر البرية

وشر البرية (تام) ولا يوقف على وعملوا الصالحات لأنَّ الجملة بعده خبر إن

خير البرية (تام)

جنات عدن (حسن) إن لم يجعل تجري خبراً ثانياً وإلا فلا وقف ومثله في عدم الوقف إن جعل نعتاً ولا يوقف على الأنهار لأنَّ خالدين حال مما قبله

أبداً (حسن) ومثله ورضوا عنه وقال أبو عمرو تام

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(26/825)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة لم يكن :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال عامر بن عبد الواحد : سمعت إماما لأهل مكة يقرأ : "أُولَئِكَ هُمْ خِيَارُ الْبَرِيَّةِ1 " .

قال أبو الفتح : يجوز أن يكون خيار ، جمع خير ، فيكسر فيعل على فعال ، كما كسر فاعل على فعال ، نحو صائم وصيام ، وقائم وقيام ، ونظيره كيس ، وكياس .

ويجوز أن يكون جمع خائر ، كقولك : خرت الرجل فهو مخير ، وأنا خائر له ، فيكون على هذا أيضا كقائم وقيام .

ويجوز أن يكون جمع خير الذي هو ضد الشر ، كقولك : هذا الرجل مجبول من خير ، ومطين2 من عقل .

ويجوز وجه غير هذه ، وهو أن يكون جمع خير من قولك : هذا خير من هذا وأصله أفعل : أخير ، فيكسر على فعال . فقد جاء تكسير أفعل فعالا ، قالوا : أبخل وبخال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 368 ﴾

---

1 سورة البينة : 7 .

2 مطين : مخلوق ، ومجبول ، فمن معاني الطين الخلقة والجبلة .

(27/825)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة لم يكن

مدنية وآيها ثمان حجازي وكوفي وتسع بصري وشامي خلافها آية له الدين بصري وشامي مشبه الفاصلة موضعان المشركين معا وأمال جاءتهم ابن ذكوان وهشام بخلفه وحمزة وخلف وعن الحسنمخلصين) الآية 5 بفتح اللام ونصب الدين حينئذ على إسقاط الجار فيه وأبدل همز البرية معا ياء مع التشديد كلهم إلا نافعا وابن ذكوان ومر في الهمز المفرد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(28/825)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة البينة "

" تأتيهم " أمروا ، الصلاة ، ويؤتوا ، خير ، لمن خشي ، كله جلي .

" البرية " معا قرأ نافع وابن ذكوان بياء ساكنة بعد الراء وبعد الياء همزة مفتوحة وحينئذ يكون المد متصلا وكل فيه على أصله والباقون بياء مشددة مفتوحة بعد الراء بقلب الهمزة ياء وإدغام الياء قبلها فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 355 ﴾

(29/825)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة القيمة

قوله تعالى ﴿ خير البرية ﴾ و ﴿ شر البرية ﴾ يقرآن بتحقيق الهمز والتعويض منه مع

التليين فالحجة لمن حقق الهمز انه اخذه من برأ الله الخلق ودليله قوله ﴿ هو الله الخالق البارئ ﴾ والحجة لمن ترك الهمز وشدد انه اراد الهمز فحذفه وعوض التشديد منه او يكون اخذ ذلك من البرى وهو التراب كما قيل

بفيك من سار الى القوم البرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 374 ﴾

(30/825)

وقال ابن زنجلة :

97 – سورة القيمة البينة

هم شر البرية هم خير البرية 7 , 6

قرأ نافع وابن عامر خير البريئة وشر البريئة بالهمز وحجتهما أنه من برأ الله الخلق يبرؤهم برءا والله البارئ والخلق يبرؤون و البريئة فعيلة بمعنى مفعولة كقولك قتيل بمعنى مقتول وقرأ الباقون خير البرية بغير همز وهو من برأ الله الخلق إلا أنهم خففوا الهمزة لكثرة الاستعمال يقولون هذا خير البرية وشر البرية وإن كان الأصل الهمز . انتهى . ا هـ

﴿ حجة القراءات صـ 769 ﴾

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة القيمة 98

مدنية وقد ذكر نظيرتها في غير البصري والشامي ونظيرتها فيهما إذا زلزلت والهمزة

وكلمها أربع وتسعون كلمة

وحروفها ثلاث مئة وستة وتسعون حرفا

وهي تسع آيات في البصري والشامي بخلاف عنه وثمان في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ مخلصين له الدين ﴾) عدها البصري والشامي على خلاف عنه في ذلك ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل موضعان وهما قوله عز وجل (﴿ المشركين ﴾) في الموضعين ما ورؤوس الآي

البينة

1 مطهرة

2 قيمة

3 البينة

4 القيمة

5 البرية

6 البرية

7 ربه

8 . انتهى انتهى . اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 282﴾

(32/825)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة البرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (والمشركين) هو معطوف على أهل ، و (منفكين) خبر كان ومن أهل حال من الفاعل في كفروا .

قوله تعالى (رسول) هو بدل من البينة أو خبر مبتدأ محذوف ، و (من الله) يجوز أن يكون صفة لرسول أو متعلقا به ، و (يتلو) حال من الضمير في الجار أو صفة لرسول ، ويجوز أن يكون من الله حالا من صحف : أي يتلو صحفا مطهرة منزلة من الله ، و (فيها كتب) الجملة نعت لصحف ، و (مخلصين) حال من الضمير في يعبدوا ، و (حنفاء) حال أخرى ، أو حال من الضمير في مخلصين .

قوله تعالى (دين القيمة) أي الملة أو الأمة القيمة .

قوله تعالى (في نار جهنم) هو خبر إن ، و (خالدين فيها) حال من الضمير في الخبر ، و (البرية) غير مهموز في اللغة الشائعة ، وأصلها الهمز من برأ الله الخلق : أي ابتدأه ، وهى فعلية بمعنى مفعولة ، وهى صفة غالبة لأنها لا يذكر معها الموصوف ، وقيل من لم يهمزها أخذها من البرى وهو التراب ، وقد همزها قوم على الأصل .

قوله تعالى (خالدين فيها) هو حال ، والعامل فيه محذوف تقديره : ادخلوها خالدين ، أو أعطوها ، ولا يكون حالا من الضمير المجرور في " جزاؤهم " لأنك لو قلت ذلك لفصلت بين المصدر ومعموله بالخبر ، وقد أجازه قوم واعتلوا له بأن المصدر هنا ليس في تقدير أن والفعل : وفيه بعد .

فأما عند ربهم ، فيجوز أن يكون ظرفا لجزاؤهم ، وأن يكون حالا منه ، و (أبدا) ظرف زمان ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة البينة

[سورة البينة (98) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1)

"لَمْ يَكُنِ" مضارع ناقص مجزوم بلم "الَّذِينَ" اسم يكن والجملة ابتدائية لا محل لها "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ أَهْلِ" متعلقان بمحذوف حال "الْكِتابِ" مضاف إليه "وَالْمُشْرِكِينَ" معطوف على أهل "مُنْفَكِّينَ" خبر يكن "حَتَّى" حرف غاية وجر "تَأْتِيَهُمُ" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والهاء مفعول به "الْبَيِّنَةُ" فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان بمنفكين.

[سورة البينة (98) : آية 2]

رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (2)

"رَسُولٌ" بدل من البينة "مِنَ اللَّهِ" متعلقان برسول "يَتْلُوا" مضارع فاعله مستتر "صُحُفاً"

مفعول به "مُطَهَّرَةً" صفة والجملة صفة رسول .

[سورة البينة (98) : آية 3]

فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3)

"فِيها" الجار ومجرور خبر مقدم "كُتُبٌ" مبتدأ مؤخر "قَيِّمَةٌ" صفة والجملة صفة صحفا .

[سورة البينة (98) : آية 4]

وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4)

"وَما" الواو حرف استئناف "ما" نافية "تَفَرَّقَ الَّذِينَ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة لا محل لها .

"أُوتُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل "الْكِتابَ" مفعول به والجملة صلة "إِلَّا" حرف حصر "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بتفرق "ما جاءَتْهُمُ" ما مصدرية وماض ومفعوله "الْبَيِّنَةُ" فاعل والمصدر المؤول من ما والفعل في محل جر بالإضافة .

[سورة البينة (98) : آية 5]

وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)

"وَما" الواو حالية "ما" نافية "أُمِرُوا" ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة حال "إِلَّا" حرف حصر "لِيَعْبُدُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل والمصدر المؤول من أن والفعل في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بأمروا "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به "مُخْلِصِينَ" حال "لَهُ" متعلقان بما قبلهما "الدِّينَ" مفعول به لاسم الفاعل مخلصين "حُنَفاءَ" حال ثانية "وَيُقِيمُوا" معطوف على يعبدوا منصوب مثله "الصَّلاةَ" مفعول به "وَيُؤْتُوا" معطوف على يعبدوا أيضا منصوب مثله "الزَّكاةَ" مفعول به "وَذلِكَ دِينُ" مبتدأ وخبره "الْقَيِّمَةِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة البينة (98) : آية 6]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ أَهْلِ" متعلقان بمحذوف حال "الْكِتابِ" مضاف إليه "وَالْمُشْرِكِينَ" معطوف على ما قبله "فِي نارِ" خبر إن وجملة إن الذين .. مستأنفة لا محل لها . "جَهَنَّمَ" مضاف إليه "خالِدِينَ" حال "فِيها" متعلقان بما قبلهما "أُولئِكَ" مبتدأ "هُمْ" ضمير فصل "شَرُّ الْبَرِيَّةِ" خبر المبتدأ مضاف إلى البرية والجملة

الاسمية مستأنفة لا محل لها .

[سورة البينة (98) : آية 7]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7)

(35/825)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "أُولئِكَ" مبتدأ "هُمْ" ضمير فصل "خَيْرُ الْبَرِيَّةِ" خبر المبتدأ مضاف إلى البرية والجملة الاسمية خبر إن وجملة إن الذين . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة البينة (98) : آية 8]

جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)

"جَزاؤُهُمْ" مبتدأ "عِنْدَ" ظرف مكان "رَبِّهِمْ" مضاف إليه "جَنَّاتُ عَدْنٍ" خبر مضاف إلى عدن ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "تَجْرِي" مضارع مرفوع "مِنْ تَحْتِهَا" متعلقان بالفعل "الْأَنْهارُ" فاعل والجملة الفعلية صفة "خالِدِينَ" حال "فِيها" متعلقان بخالدين "أَبَداً" ظرف زمان "رَضِيَ اللَّهُ" ماض وفاعله "عَنْهُمْ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة لا محل

لها . "وَرَضُوا عَنْهُ" معطوف على ما قبله "ذِلِكَ" مبتدأ "لِمَنْ" متعلقان بمحذوف خبر والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "خَشِيَ رَبَّهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة من لا محل لها . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 460. 461﴾

(36/825)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة لم يكن

حَدِيث وَاحِد

1521 - عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة لم يكن كَانَ يَوْم الْقِيَامَة من خير الْبَرِيَّة مسَاء وَمَقِيلا

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من طَرِيق ابْن أبي دَاوُد ثَنَا مُحَمَّد بن عَاصِم ثَنَا شَبَابَة ابْن سوار ثَنَا مخلد بن عبد الْوَاحِد بِالسَّنَدِ الَّذِي قبله وَبِهَذَا الْمَتْن

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان وَقَالَ فِي الأول مسَاء وَمَقِيلا وَفِي

الثَّانِي سَاكِنا ومَقِيلا

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيرِه الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس وَقَالَ مُسَافِرًا وَمُقِيمًا وَهَذَا اخْتِلَاف. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 257﴾

(37/825)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

ومن سورة البينة :

قوله تعالى : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) ، الآية/ 5 :

يدل على وجوب النية في العبادات ، لأن الإخلاص عمل القلب ، وهو أن يريد وجه اللّه تعالى بالعمل ، ولا يراد غيره به أصلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 431﴾

(38/825)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة البينة

هذه السورة فسرها التاريخ العام . فالناظر فى خريطة العالم خلال القرن السادس الميلادى . يرى أن الشمال الإفريقى وغرب آسيا كانا مليئين بالنصارى يحكمهم الرومان ، وأن ما وراء ذلك من أرض الله الواسعة كان مليئا بالمشركين حتى الهند والصين . . فلما جاء القرن السابع ، تغيرت الدنيا ، وما انتهى هذا القرن حتى كانت أقطار المغرب كلها ووادى النيل والأناضول والشام واليمن تفور بالإسلام ، ويتعالى الأذان فى القارتين القديمتين ! إن النصارى المخلصين استقبلوا الإسلام بترحاب ودخلوا فيه برغبة ، ورأوا فى نبوة محمد تحقيق ما رأوه فى كتبهم . وقد صور الإسلام هذا فى سورة الإسراء "إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا " . كما جاء فى سورة الرعد " والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب " . وفى سورة العنكبوت " وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به " ، يعنى من مشركى العرب ! ! والواقع التاريخى يؤكد أن امتداد الإسلام كان عظيما على الرقعة

المسيحية ، وأن توقفه بعد ذلك يعود لظروف داخلية لا مكان هنا لشرحها . وكما دخل النصارى فى الإسلام دخل المجوس والبوذيون ووثنيون كثير . كيف تم هذا ؟ إنه أثر القرآن الكريم ! " لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين " - تاركى عقائدهم الأولى - " حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفا مطهرة * فيها كتب قيمة " . والقرآن قدير على تكرار تاريخه إذا وجد من يعرضه فطرة وفكرا وحضارة وطهارة ، وهى صفات

تنقص مسلمى اليوم ! ! ومع ذلك فمن الناس من يعرف الحق ، ولكن يقدم عليه مصلحته وهواه . ومن أهل الكتاب القدامى والجدد من يبيع دينه بعرض من الدنيا ، ومنهم من قتل الأنبياء ، وعذب المصلحين وطاردهم حيث ظهروا . ونحن نتابع تواريخ رجال الدين - من كل ملة - فنجد المآسى . " وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة " . ويظهر أن استنارة العقل لا تستلزم استنارة القلب ، وأن الله قد يعذر أصحاب فكر محدود ولكنه لا يعذر أصحاب هوى غالب ونية مغشوشة ! ومن حراس الشعائر

الدينية من يستعبدهم الشح المطاع والأثرة الجامحة، والله أعلم بسرائر الناس" والله يعلم المفسد من المصلح". وهو يقول فى هذه السورة "إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية". ولست أخاف من الله أن يظلم أحدا.. فهذا مستحيل! إنما أخاف من الله ألا يقبل توبة وأن يحبس فضله. وهذا الخوف الأخير مردود، لأنه غافر الذنب وقابل التوب، وما يهلك على الله إلا هالك.. وقد ختمت السورة بوعد حسن للمؤمنين الصالحين على شرط أن يراقبوا الله ويصطبغوا بخشيته. "إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه". إن الجيل الذى غير العالم قديما كان نموذجا حيا للقرآن، كان إذا دخل بلدا أسرعت إليه العدالة والرحمة، ووجد الضعفاء فى كنفه الكرامة والقوة! أما الآن فإن دار الإسلام لها شأن آخر.. انتهى انتهى. اهـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 533. 534﴾

(40/825)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة لم يكن

أقول : هذه السورة واقعة موقع العلة لما قبلها ، كأنه لما قال سبحانه : (إِنَّا أَنزلناهُ) قيل : لم أنزل ؟ فقيل لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم ، حتى تأتيهم البينة ، وهو رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة وذلك هو المنزل وقد ثبتت الأحاديث بأنه كان في هذه السورة قرآن نُسخ رسمه وهو : إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو أن لابن آدم واديا لابتغى إليه الثاني ، ولو أن له الثاني لابتغى إليه الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب وبذلك تشتد المناسبة بين هذه السورة وبين ما قبلها ، حيث ذكر هناك إنزال القرآن ، وهنا إنزال المال ، وتكون السورتان تعليلاً لما تضمنته سورة اقرأ ، لأن أولها ذكر العلم ، وفي أثنائها ذكر المال فكأنه قيل : إنا لم ننزل المال للطغيان والاستطالة والفخر ، بل ليستعان به على تقوانا ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة . انتهى انتهى . اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 155﴾

(42/825)

قوله تعالى ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي له العلو المطلق فلا يخرج شيء عن مراده (الرحيم) الذي عم بنعمة إيجاده وبيانه جميع عباده (الرحيم) الذي خص أهل وداده بالأعمال الصالحة المتكلفة بإنجاء العامل بها وإسعاده.

(43/825)

لما أخبر سبحانه وتعالى أن الليلة الشريفة التي صانها بنوع خفاء في تنزل من يتنزل فيها وفي تعيينها لا تزال قائمة على ما لها من تلك الصفة حتى يأتي الفجر الذي يحصل به غاية البيان ، أخبر أن أهل الأديان سواء كان لها أصل من الحق أم لا لم يصح في العادة الجارية على حكمة الأسباب في دار الأسباب أن يتحولوا عما هم فيه إلا بسبب عظيم يكون بيانه أعظم من بيان الفجر ، وهو القرآن المذكور في القدر والرسول المنزل عليه ذلك فقال : ﴿ لم يكن ﴾ أي في مطلق الزمان الماضي والحال والاستقبال كوناً هو كالجبلة والطبع ، وهذا يدل على ما كانوا عليه قبل ذلك من أنهم يبدلون ما هم عليه من الكفر أو الإيمان بكفر أو بدعة ثم لا يثبتون عليه لأن ذلك ليس في جبلاتهم ، وإنما هو خاطر عارض كما هو محكيّ عن سيرتهم من بعد موسى عليه الصلاة والسلام لما كانت تسوسهم الأنبياء عليهم السلام كما دل على بعض ذلك قوله تعالى : ﴿ فعموا وصموا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وصموا ﴾ [المائدة : 71] وكذا المشركون كانوا يبدلون دين إسماعيل عليه الصلاة والسلام ولا ينفصلون عنه بالكلية ، وتارة يعبدون الأصنام ، وتارة الملائكة ، وأخرى الجن ، ولم يكونوا يثبتون على حالة واحدة ثباتاً كلياً مثل ثباتهم على الإسلام بعد مجيء البينة ونسيانهم أمور الجاهلية بالكلية حتى نسوا الميسر ، فلم يكن أحد من أولادهم يعرف كيفيته وكذا السائبة وما معها وغيرها ذلك من خرافاتهم ﴿ الذين كفروا ﴾ أي سواء كانوا عريقين في الكفر أم لا .

ولما كان العالم أولى باتباع الحق وأشد جرماً عند فعل ما يقتضي اللوم ، بدأ بقوله : ﴿ من أهل الكتاب ﴾ أي من اليهود والنصارى الذين كان أصل دينهم حقاً ، فألحدوا فيه بالتبديل والتحريف والاعوجاج في صفات الله تعالى ، ثم نسخه الله تعالى بما شرع من مخالفته في الفروع وموافقته في الأصول فكذبوا ﴿ والمشركين ﴾ أي بعبادة الأصنام والنار والشمس ونحو ذلك ممن هم عريقون في دين لم يكن له أصل في الحق بأن لم يكن لهم كتاب ﴿ منفكين ﴾ أي منفصلين زائلين عما كانوا عليه من دينهم انفكاكاً يزيلهم عنه بالكلية بحيث لا يبقى لهم به علقة ، ويثبتون على ذلك الانفكاك ، وأصل الفك الفتح والانفصال لما كان ملتحماً ، من فك الكتاب والختم والعظم - إذا زايل ما كان ملتصقاً ومتصلاً به ، أو عما في أنفسهم من ظن اتباع الحق إذا جاءهم الرسول المبشر به بما كان أهل الكتاب يستفتحون به والمشركون يقسمون بالله جهد أيمانهم ﴿ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ [فاطر : 42] فيصيروا بذلك أحزاباً وفرقاً ﴿ حتى ﴾ أي إلى أن ﴿ تأتيهم ﴾ عبر بالمضارع لتجدد البيان في كل وقت بتجدد الرسالة والتلاوة ﴿ البينة ﴾ أي الآية التي هي في البيان كالفجر المنير الذي لا يزداد بالتمادي إلا ظهوراً وضياء ونوراً ، وذلك هو الرسول وما معه

من الآيات التي أعظمها الكتاب سواء كان التوراة أو الإنجيل أو الزبور أو الفرقان ، ولذلك أبدل منها قوله : ﴿ رسول ﴾ أي عظيم جداً ، وزاد عظمته بقوله واصفاً له : ﴿ من الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ﴿ يتلوا ﴾ أي يقرأ قراءة متواترة ذلك الرسول بعد تعليمنا له ﴿ صحفاً ﴾ جمع صحيفة وهي القرطاس والمراد ما فيها ، عبر بها عنه لشدة المواصلة ﴿ مطهرة ﴾ أي هي في غاية الطهارة والنظافة والنزاهة من كل قذر بما جعلنا لها من البعد من الأدناس بأن الباطل من الشرك بالأوثان وغيرها من كل زيغ لا يأتيها من بين يديها ولا من خلفها وأنها لا يمسها إلا المطهرون ، وقراءته وإن كان

(45/825)

أمياً لمثل ما فيها قراءة لها .

ولما عظمه بأن وصف صحفه التي هي محل المكتوب بالطهارة ، بين سبب ذلك فقال :

﴿ فيها ﴾ أي تلك الصحف ﴿ كتب ﴾ جمع كتاب أي علوم هي لنفاستها حقيقة بأن تكتب ﴿ قيمة ﴾ أي هي في غاية الاستقامة لنطقها بالحق الذي لا مرية فيه ليس فيها شرك ولا عوج بنوع من الأنواع ، فإذا أتتهم هذه البينة انفكوا وانفكاكهم أنهم كانوا مجتمعين قبل هذا ، أهل الكتاب يؤمنون بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما عندهم من البشائر

الصريحة به ، والمشركون يقولون : لئن جاءنا نذير لنكونن أهدى من إحدى الأمم ، ويقولون : نحن نعرف الحق لأهله ولا ندفعه بوجه ، فلما جاءهم النبي -صلى الله عليه وسلم- بما لا شبهة فيه تفرقوا ، فبعضهم آمن وبعضهم كفر .

(46/825)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هي من كمال ما تقدمها لأنه لما أمره عليه الصلاة والسلام بقراءة كتابه الذي به اتضحت سبيله وقامت حجته ، وأتبع ذلك بالتعريف بليلة إنزاله وتعظيمها بتعظيم ما أهلت له مما أنزل فيها ، أتبع ذلك بتعريفه -صلى الله عليه وسلم- بأن هذا الكتاب هو الذي كانت اليهود تستفتح به على مشركي العرب وتعظم أمره وأمر الآتي به ، حتى إذا حصل ذلك مشاهداً لهم كانوا هم أول كافر به ، فقال تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة – إلى قوله : وذلك دين القيمة ﴾ وفي التعريف بهذا تأكيد ما تقدم بيانه مما يثمر الخوف وينهج بإذن الله التسليم والتبرؤ من ادعاء حول أو قوة ، فإن هؤلاء قد كانوا قدم إليهم في أمر الكتاب والآتي به يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، وقد كانوا إليهم في أمر الكتاب والآتي به يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، وقد كانوا يؤملون الانتصار به عليه الصلاة

والسلام من أعدائهم ويستفتحون بكتابه ، فرحم الله من لم يكن عنده علم منه كأبي بكر وعمر وأنظارهما ـ رضى الله عنه ـ م أجمعين ، وحرم هؤلاء الذين قد كانوا على بصيرة من أمره وجعلهم بكفرهم شر البرية ، ورضي عن الآخرين ورضوا عنه ، وأسكنهم في جواره ومنحهم الفوز الأكبر والحياة الأبدية وإن كانوا قبل بعثه عليه الصلاة والسلام على جهالة وعمى ، فلم يضرهم إذا قد سبق لهم في الأزل " أولئك هم خير البرية " انتهى .

(47/825)

ولما كان التقدير : فإذا أتتهم انفكوا ، فلقد تفرق المشركون بعد إتيانك وأنت البينة العظمى إليهم إلى مهتد وضال ، والضال إلى مجاهر ومساتر ، وكذا أهل الكتاب ، ثم ما اجتمع العرب على الهدى إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، عطف على هذا الذي أفهمه السياق قوله معلماً بزيادة القبح في وقوع الذنب من العالم بإفرادهم بالتصريح عن المشركين : ﴿ وما تفرق ﴾ أي الآن وفيما مضى من الزمان تفرقاً عظيماً ﴿ الذين ﴾ ولما كانوا في حال هي أليق بالإعراض ، بنى للمفعول قوله : ﴿ أوتوا الكتاب ﴾ أي عما كانوا عليه من الإطباق على الضلال أو الوعد باتباع الحق المنتظر في محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكذا كان فعلهم في عيسى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل ، فاستمر بعضهم على الضلال وبالغ في

نقض العهد والعناد ، ووفى بعض بالوعد فاهتدى ، وكان تفرقهم لم يعد تفرقاً إلا زمناً يسيراً ، ثم اجتمعوا فلم يؤمن منهم من يعد خلافته لباقيهم تفرقاً لكونه قليلاً من كثير ، فلذلك أدخل الجارّ فقال : ﴿ إلا من بعد ﴾ وكان ذلك الزمن اليسير هو بإسلام من أسلم من قبائل العرب الذين كانوا قد أطبقوا على النصرانية من تنوخ وغسان وعاملة وبكر بن وائل وعبد القيس ونحوهم وكذا من كان تهود من قبائل اليمن وأسلم ، ثم أطبق اليهود والنصارى على الضلال فلم يسلم منه إلى من لا يعد لقلته مفرقاً لهم ﴿ ما ﴾ أي الزمن الذي ﴿ جاءتهم ﴾ فيه أو مجيء ﴿ البينة ﴾ فكان حالهم كما قال سبحانه ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة : 89] وقد كان مجيء البينة يقتضي اجتماعهم على الحق ، لا تفرقهم فيه ، وكأنه أشار إلى المشركين بالعاطف ولم يصرح بذكرهم لأنهم كانوا عكس أهل الكتاب لم يتفرقوا إلا زمناً يسيراً في أول الأمر ، فكان الضال منهم أكثر ، ثم أطبقوا على الهدى لما لهم من قويم الطبع ومعتدل المزاج ، فدل ذلك على غاية العوج لأهل الكتاب لأنهم كانوا لما عندهم من العلم

أولى من المشركين بالاجتماع على الهدى ، ودل ذلك على أن وقوع اللدد والعناد من العالم أكثر ، وحصوله الآفة لهم من قوة ما لطباعهم من كدر النقص بتربيته وتنمية بالمعاصي من أكل السحت من الربا وغيره من الكبائر والتسويف بالتوبة ، فألفت ذلك أبدانهم فأشربته قلوبهم حتى تراكم ظلامها ، وتكاثف رينها وغمامها ، فلما دعوا لم يكن عندهم شيء من نور تكون لهم به قابلية الانقياد للدعاء .

ولما كان حال من ضل على علم أشنع ، زاد في فضيحتهم فقال : ﴿ وما ﴾ أي فعلوا ذلك والحال أنهم ما .

(49/825)

ولما كان المقصود بروز الأمر المطاع ، لا تعيين الآمر ، قال بعد وصف الصحف بأنه ثبت أنها قيمة بانياً للمفعول : ﴿ أمروا ﴾ أي وقع أمرهم بما أمروا به ممن إذا أطلق الأمر لم يستحق أن ينصرف إلا إليه ، في تلك الكتب التي وجب ثبوت اتباعها وأذعنوا له ﴿ إلا ليعبدوا ﴾ أي لأجل أن يعبدوا ﴿ الله ﴾ أي الإله الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد غيره بأن يوجدوا عبادته ويجددوها في كل وقت ، والعبادة امتثال أمر الله تعالى كما أمر على الوجه المأمور به من أجل أنه آمر ، مع المبادرة بغاية الحب والخضوع والتعظيم ، وذلك مع الاقتصاد

لئلا يمل الإنسان فيخل أو يحصل له الإعجاب فتفسد عبادته ، حال كونهم ﴿ مخلصين ﴾ أي ثابتاً غاية الثبات إخلاصهم ﴿ له الدين ﴾ بحيث لا يكون فيه شوب شيء مما يكدره من شرك جلي ولا خفي بأن يكون الامتثال لكونه أمر لرضاه لا لشي من نفع ولا دفع ، ويكون ذلك على الصواب ، فإن كثيراً من العاملين يكون مخلصاً ، ويكون بناؤه بغير أساس صالح ، فلا ينفعه بل يكون وبالاً عليه ، فإنه ضيع الأصل كالرهبان وكذا كثير ممن يعتقد ولاية شخص وهو لا يعرف أن يميز بين الولي والعدو والمكرم والمستدرج ، وحقيقة الإخلاص بأنه إفراد الحق في الطاعة بالقصد مع نسيان الخلق في الأعمال والتوصل إليه بالتوقي من ملاحظتهم مع التنقي عن مطالعة النفس برؤية العبد نفسه عبداً مأموراً لا يريد ثواباً ، جاعلاً كل شيء وسيلة إلى الله ، وعلامته عدم رؤية العمل ، ويعرف ذلك بالخوف وعدم الالتفات إلى طلب الثواب ، وبالحياء منه لكونه يرى أنه ما قام بحق السيد على ما ينبغي كما قال تعالى : ﴿ يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ [المؤمنون : 60] قال القشيري : ويقال : الإخلاص تصفية العمل من الخلل ، وقال الرازي : الإخلاص النية الصافية لأن النية دائمة ، والعمل ينقطع ، والعمل يحتاج إلى النية ، والنية لا تحتاج إلى العمل ، ولأجل ما أفهمه التعبير بالاسم من التمكن

والثبات أكده بقوله : ﴿ حنفاء ﴾ أي في غاية الميل مع الدليل إلى القوم بحيث لا يكون عندهم اعوجاج أصلاً ، بل مهما حصل أدنى زيغ عرضوه على الدليل فمالوا معه بما لهم من الحنف فقادهم إلى الصلاح فصاروا في غاية الاستقامة ، وتلك هي العبادة الإحسانية ، وأصل الحنف في اللغة : الميل ، قال الملوي : وخصه العرف بالميل إلى الخير ، ولذا سمي الأحنف بن قيس لميل في رجليه إلى داخل من جهة القدام إلى الوراء ، وسموا الميل إلى الشر إلحاداً ، فالحنيف المطلق الذي يكون متبرئاً عن أصول الملل الخمس : اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين ، وعن فروعها من جميع النحل إلى الاعتقادات الحقة ، وعن توابعها من الخطايا والسيئات إلى العمل الصالح وهو مقام التقى ، وعن المكروهات إلى المستحبات وهو المقام الأول من الورع ، وعن الفضول شفقة على خلق الله وهو ما لا يعني إلى الذي يعني ، وهو المقام الثاني من الورع ، وعما يجر إلى الفضول وهو مقام الزهد ، فالآية جامعة لمقامي الإخلاص الناظر أحدهما إلى الحق ، والثاني إلى الخلق ، فالإخلاص لمقام المشتغل بالمصفى له لأنه إفراد الحق بالقصد في الطاعة ، والخوف لمقام المشتغل بالمصفى منه لأنه الميل عن سائر المخلوقات إلى الله تعالى وإلى ما يرضيه .

ولما ذكر أصل الدين ، أتبعه الفروع ، فبدأ بأعظمها الذي هو مجمع الدين وموضع التجرد

عن العوائق فقال : ﴿ ويقيموا ﴾ أي يعدلوا من غير اعوجاج ما ، بجميع الشرائط والأركان والحدود ﴿ الصلاة ﴾ لتصير بذلك أهلاً لأن تقوم بنفسها ، وهي التعظيم لأمر الله تعالى .

(51/825)

ولما ذكر صلة الخالق ، أتبعها وصلة الخلائق فقال : ﴿ ويؤتوا الزكاة ﴾ أي بأن يحضروها لمستحقيها شفقة على خلق الله إعانة على الدين ، ولكنهم حرفوا ذلك وبدلوه بطباعهم المعوجة ، وتدخل الزكاة عند أهل الله في كل ما رزق الله من عقل وسمع وبصر ولسان ويد ورجل ووجاهة وغير ذلك - كما هو واضح من قوله تعالى : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة : 3 - والأنفال : - 3] .

ولما كان هذا ديناً حسناً بيناً فضلوا عنه على ما عندهم من الأدلة ، زاد في توبيخهم بمدحه فقال : ﴿ وذلك ﴾ أي والحال أن هذا الموصوف من العبادة على الوجه المذكور الذي هو في غاية العلو والخير ﴿ دين القيمة ﴾ أي الملة أو النفوس أو الكتب التي لا عوج فيها ، وهو على الأول من إضافة الموصوف إلى الصفة ، وعن الخليل أنه قال : هو جمع قيم ، والقيم والقائم واحد ، والمعنى دين القائمين لله تعالى بالتوحيد ، ودل على ما قدرته في أمر

المشركين بذكرهم في نتيجة ما مضى في قوله مؤكداً لأجل إنكارهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 495.500 ﴾

(52/825)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) ﴾

اعلم أن في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال الواحدي في كتاب البسيط : هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً ، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء ، ثم إنه رحمه الله تعالى لم يلخص كيفية الإشكال فيها وأنا أقول : وجه الإشكال أن تقدير الآية : لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول ، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عن ماذا لكنه معلوم ، إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه ، فصار التقدير : لم يكن الذين كفروا منفكين ، عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول ، ثم إن كلمة حتى لانتهاء الغاية فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن

كفرهم عند إتيان الرسول ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول عليه السلام ، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية مناقضة في الظاهر ، هذا منتهى الإشكال فيما أظن والجواب : عنه من وجوه أولها : وأحسنها الوجه الذي لخصه صاحب الكشاف .

وهو أن الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأوثان ، كانوا يقولون قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم : لا ننفك عما نحن عليه من ديننا ، ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل .

(53/825)

وهو محمد عليه السلام ، فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ، ثم قال : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ يعني أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول ، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول ، ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه : لست أمتنع مما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقني الله الغنى ، فلما رزقه الله الغنى ازداد فسقاً فيقول واعظه : لم تكن منفكاً عن الفسق حتى توسر ، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار بذكره ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً ،

وحاصل هذا الجواب يرجع إلى حرف واحد ، وهو أن قوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مُنفَكّينَ ﴾ عن كفرهم : ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ﴾ مذكورة حكاية عنهم ، وقوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ هو إخبار عن الواقع ، والمعنى أن الذي وقع كان على خلاف ما ادعوا وثانيها : أن تقدير الآية ، لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة .

وعلى هذا التقدير يزول الإشكال هكذا ذكره القاضي إلا أن تفسير لفظة حتى بهذا ليس من اللغة في شيء وثالثها : أنا لا نحمل قوله : ﴿ مُنفَكّينَ ﴾ على الكفر بل على كونهم منفكين عن ذكر محمد بالمناقب والفضائل والمعنى لم يكن الذين كفروا منفكين عن ذكر محمد بالمناقب والفضائل حتى تأتيهم البينة قال ابن عرفة : أي حتى أتتهم ، فاللفظ لفظ المضارع ومعناه الماضي ، وهو كقوله تعالى :

(54/825)

﴿ مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ [البقرة : 102] أي ما تلت ، والمعنى أنهم ما كانوا منفكين عن ذكر مناقبه ، ثم لما جاءهم محمد تفرقوا فيه ، وقال كل واحد فيه قولاً آخر ردياً ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ [

البقرة: 89] والقول المختار في هذه الآية هو الأول، وفي الآية وجه رابع وهو أنه تعالى حكم على الكفار أنهم ما كانوا منفكين عن كفرهم إلى وقت مجيء الرسول، وكلمة حتى تقتضي أن يكون الحال بعد ذلك، بخلاف ما كان قبل ذلك، والأمر هكذا كان لأن ذلك المجموع ما بقوا على الكفر بل تفرقوا فمنهم من صار مؤمناً، ومنهم من صار كافراً، ولما لم يبق حال أولئك الجمع بعد مجيء الرسول كما كان قبل مجيئه، كفى ذلك في العمل بمدلول لفظ حتى، وفيها وجه خامس: وهو أن الكفار كانوا قبل مبعث الرسول منفكين عن التردد في كفرهم بل كانوا جازمين به معتقدين حقيقته، ثم زال ذلك الجزم بعد مبعث الرسول، بل بقوا شاكين متحيرين في ذلك الدين وفي سائر الأديان، ونظيره قوله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: 213] والمعنى أن الدين الذي كانوا عليه صار كأنه اختلط بلحمهم ودمهم فاليهودي كان جازماً في يهوديته وكذا النصراني وعابد الوثن، فلما بعث محمد عليه الصلاة والسلام: اضطربت الخواطر والأفكار وتشكك كل أحد في دينه ومذهبه ومقالته، وقوله: ﴿مُنفَكِّينَ﴾ مشعر بهذا لأن انفكاك الشيء عن الشيء هو انفصاله عنه، فمعناه أن قلوبهم ما خلت عن تلك العقائد وما انفصلت عن الجزم بصحتها، ثم إن بعد المبعث لم يبق الأمر على تلك الحالة.

المسألة الثانية:

الكفار كانوا جنسين أحدهما : أهل الكتاب كفرق اليهود والنصارى وكانوا كفاراً بإحداثهم في دينهم ما كفروا به كقولهم : ﴿ عُزَيْرٌ ابن الله ﴾ [التوبة : 30] و : ﴿ المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : 30] وتحريفهم كتاب الله ودينه والثاني : المشركون الذين كانوا لا ينسبون إلى كتاب ، فذكر الله تعالى الجنسين بقوله : ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ على الإجمال ثم أردف ذلك الإجمال بالتفضل ، وهو قوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين ﴾ وههنا سؤالان :

السؤال الأول : تقدير الآية : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين فهذا يقتضي أن أهل الكتاب منهم كافر ومنهم ليس بكافر ، وهذا حق ، وأن المشركين منهم كافر ومنهم ليس بكافر ، ومعلوم أن هذا ليس بحق والجواب : من وجوه أحدها : كلمة من ههنا ليست للتبعيض بل للتبيين كقوله : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] وثانيها : أن الذين كفروا بمحمد عليه الصلاة والسلام ، بعضهم من أهل الكتاب ، وبعضهم من المشركين ، فإدخال كلمة من لهذا السبب وثالثها : أن يكون قوله : ﴿ والمشركين ﴾ أيضاً وصفاً لأهل الكتاب ، وذلك لأن النصارى مثلثة واليهود عامتهم مشبهة ، وهذا كله شرك ، وقد يقول القائل : جاءني العقلاء والظرفاء يريد بذلك قوماً بأعيانهم يصفهم بالأمرين .

وقال تعالى : ﴿ الركعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عَنِ المنكر والحافظون

لِحُدُودِ اللهِ ﴾ [التوبة : 112] وهذا وصف لطائفة واحدة ، وفي القرآن من هذا الباب كثير ، وهو أن ينعت قوم بنعوت شتى ، يعطف بعضها على بعض بواو العطف ويكون الكل وصفاً لموصوف واحد .

(56/825)

السؤال الثاني : المجوس هل يدخلون في أهل الكتاب ؟ قلنا : ذكر بعض العلماء أنهم داخلون في أهل الكتاب لقوله عليه السلام : " سنوا بهم سنة أهل الكتاب " وأنكره الآخرون قال : لأنه تعالى إنما ذكر من الكفار من كان في بلاد العرب ، وهم اليهود والنصارى ، قال تعالى حكاية عنهم : ﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ الكتاب على طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ [الأنعام : 156] والطائفتان هم اليهود والنصارى .

السؤال الثالث : ما الفائدة في تقديم أهل الكتاب في الكفر على المشركين ؟ حيث قال : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين ﴾ ؟ الجواب : أن الواو لا تفيد الترتيب ، ومع هذا ففيه فوائد أحدها : أن السورة مدنية فكان أهل الكتاب هم المقصودون بالذكر وثانيها : أنهم كانوا علماء بالكتب فكانت قدرتهم على معرفة صدق محمد أتم ، فكان إصرارهم على الكفر أقبح وثالثها : أنهم لكونهم علماء يقتدي غيرهم بهم فكان كفرهم

أصلاً لكفر غيرهم ، فلهذا قدموا في الذكر ورابعها : أنهم لكونهم علماء أشرف من غيرهم فقدموا في الذكر .

السؤال الرابع : لم قال ﴿ من أهل الكتاب ﴾ ، ولم يقل من اليهود والنصارى ؟ الجواب : لأن قوله : ﴿ مّنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ يدل على كونهم علماء ، وذلك يقتضي إما مزيد تعظيم ، فلا جرم ذكروا بهذا اللقب دون اليهود والنصارى ، أو لأن كونه عالماً يقتضي مزيد قبح في كفره ، فذكروا بهذا الوصف تنبيهاً على تلك الزيادة من العقاب .

المسألة الثانية :

(57/825)

هذه الآية فيها أحكام تتعلق بالشرع أحدها : أنه تعالى فسر قوله : ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ بأهل الكتاب وبالمشركين ، فهذا يقتضي كون الكل واحداً في الكفر ، فمن ذلك قال العلماء : الكفر كله ملة واحدة ، فالمشرك يرث اليهودي وبالعكس والثاني : أن العطف أوجب المغايرة ، فلذلك نقول : الذمي ليس بمشرك ، وقال عليه السلام : " غيرنا كحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم " فأثبت التفرقة بين الكتابي والمشرك الثالث : نبه بذكر أهل الكتاب أنه لا يجوز الاغترار بأهل العلم إذ قد حدث في أهل القرآن مثل ما حدث في الأمم الماضية .

المسألة الرابعة :

قال القفال : الانفكاك هو انفراج الشيء عن الشيء وأصله من الفك وهو الفتح والزوال ، ومنه فككت الكتاب إذا أزلت ختمه ففتحته ، ومنه فكاك الرهن وهو زوال الإنغلاق الذي كان عليه ألا ترى أن ضد قوله : انفك الرهن ، ومنه فكاك الأسير وفكه ، فثبت أن انفكاك الشيء عن الشيء هو أن يزيله بعد التحامه به ، كالعظم إذا انفك من مفصله ، والمعنى أنهم متشبثون بدينهم تشبثاً قوياً لا يزيلونه إلا عند مجيء البينة ، أما البينة فهي الحجة الظاهرة التي بها يتميز الحق من الباطل فهي من البيان أو البينونة لأنها تبين الحق من الباطل ، وفي المراد من البينة في هذه الآية أقوال :

الأول : أنها هي الرسول ، ثم ذكروا في أنه لم سمي الرسول بالبينة وجوهاً الأول : أن ذاته كانت بينة على نبوته ، وذلك لأنه عليه السلام كان في نهاية الجد في تقرير النبوة والرسالة ، ومن كان كذاباً متصنعاً فإنه لا يتأتى منه ذلك الجد المتناهي ، فلم يبق إلا أن يكون صادقاً أو معتوهاً والثاني : معلوم البطلان لأنه كان في غاية كمال العقل ، فلم يبق إلا أنه كان صادقاً الثالث : أن مجموع الأخلاق الحاصلة فيه كان بالغاً إلى حد كمال الإعجاز ، والجاحظ قرر

هذا المعنى ، والغزالي رحمه الله نصره في كتاب المنقذ ، فإذاً لهذين الوجهين سمي هو في نفسه بأنه بينة الرابع : أن معجزاته عليه الصلاة والسلام كانت في غاية الظهور وكانت أيضاً في غاية الكثرة فلاجتماع هذين الأمرين جعل كأنه عليه السلام في نفسه بينة وحجة ، ولذلك سماه الله تعالى : سراجاً منيراً .

واحتج القائلون بأن المراد من البينة هو الرسول بقوله تعالى بعد هذه الآية : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللهِ ﴾ فهو رفع على البدل من البينة ، وقرأ عبد الله : ﴿ رَسُولاً ﴾ حال من البينة قالوا : والألف واللام في قوله : ﴿ البينة ﴾ للتعريف أي هو الذي سبق ذكره في التوراة والإنجيل على لسان موسى وعيسى ، أو يقال : إنها للتفخيم أي هو : ﴿ البينة ﴾ التي لا مزيد عليها أو البينة كل البينة لأن التعريف قد يكون للتفخيم وكذا التنكير وقد جمعهما الله ههنا في حق الرسول عليه السلام فبدأ بالتعريف وهو لفظ البينة ثم ثنى بالتنكير فقال : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللهِ ﴾ أي هو رسول ، وأي رسول ، ونظيره ما ذكره الله تعالى في الثناء على نفسه فقال : ﴿ ذُو العرش المجيد ﴾ [البروج : 15] ثم قال : ﴿ فَعَّالٌ ﴾ [البروج : 16] فنكر بعد التعريف .

القول الثاني : أن المراد من البينة مطلق الرسل وهو قول أبي مسلم قال : المراد من قوله : ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ أي حتى تأتيهم رسل من ملائكة الله تتلوا عليهم صحفاً مطهرة وهو كقوله : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ﴾ [النساء : 153] وكقوله : ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة ﴾ [المدثر : 52].

القول الثالث : وهو قتادة وابن زيد : البينة هي القرآن ونظيره قوله : ﴿ أو لم تأتيهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ [طه : 133] ثم قوله بعد ذلك : ﴿ رسول من الله ﴾ لا بد فيه من مضاف محذوف والتقدير : وتلك البينة وحي : ﴿ رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ﴾.

أما قوله تعالى : ﴿ يتلو صحفا مطهرة * فيها كتب قيمة ﴾ فاعلم أن الصحف جمع صحيفة وهي ظرف للمكتوب ، وفي : المطهرة وجوه : أحدها : مطهرة عن الباطل وهي كقوله : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ [فصلت : 42] وقوله : ﴿ مرفوعة مطهرة ﴾ [عبس : 14] ، وثانيها : مطهرة عن الذكر القبيح فإن القرآن يذكر بأحسن الذكر ويثني عليه أحسن الثناء وثالثها : أن يقال : مطهرة أي ينبغي أن لا يمسها إلا المطهرون ، كقوله تعالى : ﴿ في كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون ﴾ [الواقعة : 78 ، 79].

واعلم أن المطهرة وإن جرت نعتاً للصحف في الظاهر فهي نعت لما في الصحف وهو القرآن وقوله : ﴿ كتب ﴾ فيه قولان : ﴿ أَحَدُهُمَا ﴾ المراد من الكتب الآيات المكتوبة في الصحف والثاني : قال صاحب النظم : الكتب قد يكون بمعنى الحكم : ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ ﴾ [المجادلة : 21] ومنه حديث العسيف : " لأقضين بينكما بكتاب الله " أي بحكم الله فيحتمل أن يكون المراد من قوله : ﴿ كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أي أحكام قيمة أما القيمة ففيها قولان الأول : قال الزجاج : مستقيمة لا عوج فيها تبين الحق من الباطل من قام يقوم كالسيد والميت ، وهو كقولهم : قام الدليل على كذا إذا ظهر واستقام الثاني : أن تكون القيمة بمعنى القائمة أي هي قائمة مستقلة بالحجة والدلالة ، من قولهم قام فلان بالأمر يقوم به إذا أجراه على وجهه ، ومنه يقال للقائم بأمر القوم القيم ، فإن قيل : كيف نسب تلاوة الصحف المطهرة إلى الرسول مع أنه كان أمياً ؟ قلنا : إذا تلا مثلاً المسطور في تلك الصحف كان تالياً ما فيها وقد جاء في كتاب منسوب إلى جعفر الصادق أنه عليه السلام كان يقرأ من الكتاب ، وإن كان لا يكتب ، ولعل هذا كان من معجزاته صلى الله عليه وسلم .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ ففيه مسائل .

المسألة الأولى :

في هذه الآية سؤال ، وهو أنه تعالى ذكر في أول السورة ، أهل الكتاب والمشركين ، وهنا ذكر أهل الكتاب فقط ، فما السبب فيه ؟ وجوابه : من وجوه أحدها : أن المشركين لم يقروا على دينهم فمن آمن فهو المراد ومن لم يؤمن قتل ، بخلاف أهل الكتاب الذين يقرون على كفرهم ببذل الجزية وثانيها : أن أهل الكتاب كانوا عالمين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسبب أنهم وجدوها في كتبهم ، فإذا وصفوا بالتفرق مع العلم كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف .

المسألة الثانية :

(61/825)

قال الجبائي : هذه الآية تبطل قول القدرية الذين قالوا : إن الناس تفرقوا في الشقاوة والسعادة في أصلاب الآباء قبل أن تأتيهم البينة والجواب : أن هذا ركيك لأن المراد منه أن علم الله بذلك وإرادته له حاصل في الأزل ، أما ظهوره من المكلف فإنما وقع بعد الحالة المخصوصة .

المسألة الثالثة :

قالوا : هذه الآية دالة على أن الكفر والتفرق فعلمهم لا أنه مقدر عليهم لأنه قال : ﴿ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ ، ثم قال : ﴿ أوتوا الكتاب ﴾ أي أن الله وملائكته آتاهم ذلك فالخير والتوفيق مضاف إلى الله ، والشر والتفرق والكفر مضاف إليهم .

المسألة الرابعة :

المقصود من هذه الآية تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم أي لا يغمنك تفرقهم فليس ذلك لقصور في الحجة بل لعنادهم ، فسلفهم هكذا كانوا لم يتفرقوا في السبت وعبادة العجل : إلا من بعد ما جاءتهم البينة فهي عادة قديمة لهم .

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله : وما أمروا وجهان : أحدهما : أن يكون المراد : ﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي ، فيكون المراد أنهم كانوا مأمورين بذلك إلا أنه تعالى لما أتبعه

بقوله : ﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ علمنا أن ذلك الحكم كما أنه كان مشروعاً في حقهم فهو مشروع في حقنا وثانيها : أن يكون المراد : وما أمر أهل الكتاب على لسان محمد صلى الله عليه وسلم إلا بهذه الأشياء ، وهذا أولى لثلاثة أوجه : أحدها : أن الآية على هذا التقدير تفيد شرعاً جديداً وحمل كلام الله على ما يكون أكثر فائدة أولى وثانيها : وهو أن ذكر محمد عليه السلام قد مر ههنا وهو قوله : ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ﴾ [البينة : 1] وذكر سائر الأنبياء عليهم السلام لم يتقدم وثالثها : أنه تعالى ختم الآية بقوله : ﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ فحكم بكون ما هو متعلق هذه الآية ديناً قيماً فوجب أن يكون شرعاً في حقنا سواء قلنا : بأنه شرع من قبلنا أو شرع جديد يكون هذا بياناً لشرع محمد عليه الصلاة والسلام وهذا قول مقاتل .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله ﴾ دقيقة وهي أن هذه اللام لام الغرض ، فلا يمكن حمله على ظاهره لأن كل من فعل فعلاً لغرض فهو ناقص لذاته مستكمل بذلك الغرض ، فلو فعل الله فعلاً لكان ناقصاً لذاته مستكملاً بالغير وهو محال ، لأن ذلك الغرض إن كان قديماً لزم من قدمه قدم الفعل ، وإن كان محدثاً افتقر إلى غرض آخر فلزم التسلسل وهو محال ولأنه إن عجز عن تحصيل ذلك الغرض إلا بتلك الواسطة فهو عاجز ، وإن كان قادراً عليه كان توسيط تلك الواسطة عبثاً ، فثبت أنه لا يمكن حمله على ظاهره فلا بد فيه من التأويل .

ثم قال الفراء : العرب تجعل اللام في موضع أن في الأمر والإرادة كثيراً ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [النساء : 26] ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا ﴾ [الصف : 8] وقال في الأمر : ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ ﴾ [الأنعام : 71] وهي في قراءة عبد الله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ أن يعبدوا الله ﴾ فثبت أن المراد : وما أمروا إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين .

والإخلاص عبارة عن النية الخالصة ، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة ، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلا بد وأن يكون منوياً ، ثم قالت الشافعية : الوضوء مأمور به في قوله تعالى : ﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ [المائدة : 6] ودلت هذه الآية على أن كل مأمور يجب أن يكون منوياً ، فيلزم من مجموع الآيتين وجوب كون الوضوء منوياً ، وأما المعتزلة فإنهم يوجبون تعليل أفعال الله وأحكامه بالأغراض ، لا جرم أجروا الآية على ظاهرها فقالوا معنى الآية : وما أمروا بشيء إلا لأجل أن يعبدوا الله ، والإستدلال على هذا القول أيضاً قوي ، لأن التقدير وما أمروا بشيء إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين في ذلك الشيء ، وهذا أيضاً يقتضي اعتبار النية في جميع المأمورات .

فإن قيل : النظر في معرفة الله مأمور به ويستحيل اعتبار النية فيه .

لأن النية لا يمكن اعتبارها إلا بعد المعرفة، فما كان قبل المعرفة لا يمكن اعتبار النية فيه.

قلنا: هب أنه خص عموم الآية في هذه الصورة بحكم الدليل العقلي الذي ذكرتم فيبقى في الباقي حجة.

المسألة الثالثة:

(64/825)

قوله: ﴿أُمِرُواْ﴾ مذكور بلفظ ما لم يسم فاعله وهو: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام﴾ [البقرة: 183] ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص﴾ [البقرة: 178] قالوا: فيه وجوه أحدها: كأنه تعالى يقول العبادة شاقة ولا أريد مشقتك إرادة أصلية بل إرادتي لعبادتك كإرادة الوالدة لحجامتك، ولهذا لما آل الأمر إلى الرحمة قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ على نَفْسِهِ الرحمة﴾ [الأنعام: 54]، ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمان﴾ [المجادلة: 22] وذكر في الواقعات إذا أراد الأب من ابنه عملاً يقول له أولاً: ينبغي أن تفعل هذا ولا يأمره صريحاً، لأنه ربما يرد عليه فتعظم جنايته، فههنا أيضاً لم يصرح بالأمر لتخف جناية الراد وثانيها: أنا على القول بالحسن والقبح العقليين، نقول: كأنه تعالى يقول: لست أنا الآمر للعبادة فقط، بل عقلك أيضاً يأمرك لأن النهاية في التعظيم لمن أوصل إليك (أن) نهاية الإنعام واجبة في العقول.

المسألة الرابعة :

اللام في قوله : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ ﴾ تدل على مذهب أهل السنة حيث قالوا : العبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة ، أو إلى البعد عن عقاب النار ، بل لأجل أنك عبد وهو رب ، فلو لم يحصل في الدين ثواب ولا عقاب ألبتة ، ثم أمرك بالعبادة . وجبت لمحض العبودية ، وفيها أيضاً إشارة إلى أنه من عبد الله للثواب والعقاب ، فالمعبود في الحقيقة هو الثواب والعقاب ، والحق واسطة ، ونعم ما قيل : من آثر العرفان للعرفان فقد قال : بالثاني (1) ومن آثر العرفان لا للعرفان ، بل للمعروف ، فقد خاض لجة الوصول .

---

(1) قوله بالثاني لا معنى له ، ولعلها مصحفة عن الفاني .

(65/825)

المسألة الخامسة :

العبادة هي التذلل ، ومنه طريق معبد أي مذلل ، ومن زعم أنها الطاعة فقد أخطأ ، لأن جماعة عبدوا الملائكة والمسيح والأصنام ، وما أطاعوهم ولكن في الشرع صارت اسماً لكل طاعة الله ، أديت له على وجه التذلل والنهاية في التعظيم ، واعلم أن العبادة بهذا المعنى لا يستحقها إلا من يكون واحداً في ذاته وصفاته الذاتية ، والفعلية ، فإن كان مثل لم

يجز أن يصرف إليه النهاية في التعظيم ، ثم نقول : لا بد في كون الفعل عبادة من شيئين أحدهما : غاية التعظيم ، ولذلك قلنا : إن صلاة الصبي ليست بعبادة ، لأنه لا يعرف عظمة الله ، فلا يكون فعله في غاية التعظيم والثاني : أن يكون مأموراً به ، ففعل اليهودي ليس بعبادة ، وإن تضمن نهاية التعظيم ، لأنه غير مأمور به ، والنكتة الوعظية فيه ، أن فعل الصبي ليس بعبادة لفقد التعظيم وفعل اليهودي ليس بعبادة لفقد الأمر ، فكيف يكون ركوعك الناقص عبادة ولا أمر ولا تعظيم ؟ .

المسألة السادسة :

(66/825)

الإخلاص هو أن يأتي بالفعل خالصاً لداعية واحدة ، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل ، والنكت الوعظية فيه من وجوه أحدها : كأنه تعالى يقول عبدي لا تسع في إكثار الطاعة بل في إخلاصها لأني ما بذلت كل مقدوري لك حتى أطلب منك كل مقدورك ، بل بذلت لك البعض ، فأطلب منك البعض نصفاً من العشرين ، وشاة من الأربعين ، لكن القدر الذي فعلته لم أرد بفعله سواك ، فلا ترد بطاعتك سواي ، فلا تستثن من طاعتك لنفسك فضلاً من أن تستثنيه لغيرك ، فمن ذلك المباح الذي يوجد منك في

الصلاة كالحكة والتنحنح فهو حظ استثنيته لنفسك فانتفى الإخلاص ، وأما الإلتفات المكروه فذا حظ الشيطان وثانيها : كأنه تعالى قال : يا عقل أنت حكيم لا تميل إلى الجهل والسفه وأنا حكيم لا أفعل ذلك ألبتة ، فإذاً لا تريد إلا ما أريد ولا أريد إلا ما تريد ، ثم إنه سبحانه ملك العالمين والعقل ملك لهذا البدن ، فكأنه تعالى بفضله قال : الملك لا يخدم الملك لكن (لكي) نصطلح أجعل جميع ما أفعله لأجلك : ﴿ هُوَ الذى خَلَقَ لَكُم ما فِي الأرض جَمِيعاً ﴾ [البقرة : 29] فاجعل أنت أيضاً جميع ما تفعله لأجلي : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [البينة : 5] .

واعلم أن قوله : ﴿ مُخْلِصِينَ ﴾ نصب على الحال فهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه ، والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه ، والواجب لوجوبه ، فيأتي بالفعل لوجهه مخلصاً لربه ، لا يريد رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر ، بل قالوا : لا يجعل طلب الجنة مقصوداً ولا النجاة عن النار مطلوباً وإن كان لا بد من ذلك ، وفي التوراة : ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غير وجهي فكثيره قليل .

وقالوا من الإخلاص أن لا يزيد في العبادات عبادة أخرى لأجل الغير ، مثل الواجب من الأضحية شاة ، فإذا ذبحت إثنتين واحدة لله وواحدة للأمير لم يجز لأنه شرك ، وإن زدت في الخشوع ، لأن الناس يرونه لم يجز ، فهذا إذا خلطت بالعبادة عبادة أخرى ، فكيف ولو خلطت بها محظوراً مثل أن تتقدم على إمامك ، بل لا يجوز دفع الزكاة إلى الوالدين والمولودين ولا إلى العبيد ولا الإماء لأنه لم يخلص ، فإذا طلبت بذلك سرور والدك أو ولدك يزول الإخلاص ، فكيف إذا طلبت مسرة شهوتك كيف يبقى الإخلاص ؟ وقد اختلفت ألفاظ السلف في معنى قوله : ﴿ مُخْلِصِينَ ﴾ قال بعضهم : مقرين له بالعبادة ، وقال آخرون : قاصدين بقلوبهم رضا الله في العبادة ، وقال الزجاج : أي يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره ، ويدل على هذا قوله :

﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إلها واحدا ﴾ [التوبة : 21] .

أما قوله تعالى : ﴿ حُنَفَاء وَيُقِيمُواْ الصلاة وَيُؤْتُواْ الزكواة ﴾ ففيه أقوال :

الأول : قال مجاهد : متبعين دين إبراهيم عليه السلام ، ولذلك قال : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتبع مِلَّةَ إبراهيم حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ المشركين ﴾ [النحل : 123] وهذا التفسير فيه

لطيفة كأنه سبحانه لما علم أن التقليد مستول على الطباع لم يستجز منعه عن التقليد بالكلية ولم يستجز التعويل على التقليد أيضاً بالكلية ، فلا جرم ذكر قوماً أجمع الخلق بالكلية على تزكيتهم ، وهو إبراهيم ومن معه ، فقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إبراهيم والذين مَعَهُ ﴾ [الممتحنة : 4] فكأنه تعالى قال : إن كنت تقلد أحداً في دينك ، فكن مقلداً إبراهيم ، حيث تبرأ من الأصنام وهذا غير عجيب فإنه قد تبرأ من نفسه حين سلمها إلى النيران ، ومن ماحين بذله للضيفان ، ومن ولده حين بذله للقربان ، بل روى أنه سمع سبوح قدوس فاستطابه ، ولم ير شخصاً فاستعاده ، فقال : أما بغير أجر فلا ، فبذل كل ما ملكه فظهر له جبريل عليه السلام ، وقال : حق لك حيث سماك خليلاً فخذ مالك ، فإن القائل : كنت أنا ، بل انقطع إلى الله حتى عن جبريل حين قال : أما إليك فلا ، فالحق سبحانه كأنه يقول : إن كنت عابداً فاعبد كعبادته ، فإذا لم تترك الحلال وأبواب السلاطين ، أما تترك الحرام وموافقة الشياطين ، فإن لم تقدر على متابعة إبراهيم ، فاجتهد في متابعة ولده الصبي ، كيف إنقاد لحكم ربه مع صغره ، فمد عنقه لحكم الرؤيا ، وإن كنت دون الرجل فاتبع الموسوم بنقصان العقل ، وهو أم الذبيح ، كيف تجرعت تلك الغصة ، ثم إن المرأة الحرة نصف الرجل فإن الإثنتين يقومان مقام الرجل الواحد في الشهادة والإراث ، والرقيقة نصف الحرة بدليل أن للحرة ليلتين من القسم فهاجر كانت ربع الرجل ، ثم انظر كيف أطاعت ربها فتحملت المحنة في ولادها ثم صبرت حين تركها الخليل وحيدة فريدة في

جبال مكة بلا ماء ولا زاد وانصرف ، لا يكلمها ولا يعطف عليها ، قالت آلله أمرك بهذا ؟ فأومأ

(69/825)

برأسه نعم ، فرضيت بذلك وصبرت على تلك المشاق .

والقول الثاني : المراد من قوله : ﴿ حُنَفَاء ﴾ أي مستقيمين والحنف هو الاستقامة ، وإنما سمي مائل القدم أحنف على سبيل التفاؤل ، كقولنا : للأعمى بصير وللمهلكة مفازة ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا ﴾ [فصلت : 30] ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] .

والقول الثالث : قال ابن عباس رضي الله عنهما حجاجاً ، وذلك لأنه ذكر العباد أولاً ثم قال : ﴿ حُنَفَاء ﴾ وإنما قدم الحج على الصلاة لأن في الحج صلاة وإنفاق مال الرابع : قال أبو قلابة الحنيف الذي آمن بجميع الرسل ولم يستثن أحداً منهم ، فمن لم يؤمن بأفضل الأنبياء كيف يكون حنيفاً الخامس : حنفاء أي جامعين لكل الدين إذ الحنيفية كل الدين ، قال عليه السلام :

" بعث بالحنيفية السهلة السمحة " السادس : قال قتادة : هي الختان وتحريم نكاح المحارم

أي مختونين محرمين لنكاح الأم والمحارم ، فقوله : ﴿ حُنَفَاء ﴾ إشارة إلى النفي ، ثم أردفه بالإثبات ، وهو قوله : ﴿ وَيُقِيمُواْ الصلاة ﴾ السابع : قال أبو مسلم : أصله من الحنف في الرجل ، وهو إدبار إبهامها عن أخواتها حتى يقبل على إبهام الأخرى ، فيكون الحنيف هو الذي يعدل عن الأديان كلها إلى الإسلام الثامن : قال الربيع بن أنس : الحنيف الذي يستقبل القبلة بصلاته ، وإنما قال ذلك لأنه عند التكبير يقول : وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وأما الكلام في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فقد مر مرارا كثيرة ، ثم قال :

﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(70/825)

قال المبرد والزجاج : ذلك دين الملة القيمة ، فالقيمة نعت لموصوف محذوف ، والمراد من القيمة إما المستقيمة أو القائمة ، وقد ذكرنا هذين القولين في قوله : ﴿ كُتُبٌ قَيّمَةٌ ﴾ وقال الفراء : هذا من إضافة النعت إلى المنعوت ، كقوله : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ [الواقعة : 95] والهاء للمبالغة كما في قوله : ﴿ كُتُبٌ قَيّمَةٌ ﴾ .

المسألة الثانية :

في هذه الآية لطائف إحداها : أن الكمال في كل شيء إنما يحصل إذا حصل الأصل والفرع معاً ، فقوم أطنبوا في الأعمال من غير إحكام الأصول ، وهم اليهود والنصارى والمجوس ، فإنهم ربما أتعبوا أنفسهم في الطاعات ، ولكنهم ما حصلوا الدين الحق ، وقوم حصلوا الأصول وأهملوا الفروع ، وهم المرجئة الذين قالوا : لا يضر الذنب مع الإيمان ، والله تعالى خطأ الفريقين في هذه الآية ، وبين أنه لا بد من العلم والإخلاص في قوله : ﴿ مُخْلِصِينَ ﴾ ومن العمل في قوله : ﴿ وَيُقِيمُوا۟ الصلاة وَيُؤْتُوا۟ الزكواة ﴾ ثم قال : ﴿ وذلك ﴾ المجموع كله هو ﴿ دِينُ القيمة ﴾ أي البينة المستقيمة المعتدلة ، فكما أن مجموع الأعضاء بدن واحد كذا هو المجموع دين واحد فقلب دينك الاعتقاد ووجهه الصلاة ولسانه الواصف لحقيقته الزكاة لأن باللسان يظهر قدر فضلك وبالصدقة يظهر قدر دينك ، ثم إن القيم من يقوم بمصالح من يعجز عن إقامة مصالح نفسه فكأنه سبحانه يقول : القائم بتحصيل مصالحك عاجلاً وآجلاً هو هذا المجموع ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ دِينًا قِيَمًا ﴾ [الأنعام : 161] وقوله في القرآن : ﴿ قَيِّما لِّيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا ﴾ [الكهف : 2] لأن القرآن هو القيم بالإرشاد إلى الحق ، ويؤيده قوله عليه السلام : " من كان في عمل الله كان الله في عمله "

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : "يا دنيا من خدمك فاستخدميه ، ومن خدمني فاخدميه" ، وثانيها : أن المحسنين في أفعالهم هم مثل الحق سبحانه وذلك بالإحسان إلى عبيده والملائكة ، وذلك بأنهم اشتغلوا بالتسبيح ، لخالقهم فالإحسان من الله لا من الملائكة ، والتعظيم والعبودية من الملائكة لا من الله ، ثم إن الإنسان إذا حضر عرصة القيامة فيقول الله مباهياً بهم : ملائكتي هؤلاء أمثالكم سبحوا وهللوا ، بل في بعض الأفعال أمثالي أحسنوا وتصدقوا ، ثم إني أكرمكم يا ملائكتي بمجرد ما أتيتم به من العبودية وأنتم تعظموني بمجرد ما فعلت من

(72/825)

الإحسان ، فأنتم صبرتم على أحد الأمرين ؛ أقاموا الصلاة أتوا بالعبودية وآتوا الزكاة أتوا بالإحسان ، فأنتم صبرتم على أحد الأمرين وهم صبروا على الأمرين ، فتتعجب الملائكة منهم وينصبون إليهم النظارة ، فلهذا قال :

﴿ والملائكة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مّن كُلّ بَابٍ * سلام عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد : 23 ، 24] أفلا يكون هذا الدين قيماً وثالثها : أن الدين كالنفس فحياة الدين بالمعرفة ثم النفس العالمة بلا قدرة كالزمن العاجز ، والقادرة بلا علم مجنونة فإذا اجتمع العلم والقدرة كانت

النفس كاملة فكذا الصلاة للدين كالعلم والزكاة كالقدرة، فإذا اجتمعتا سمي الدين قيمة

ورابعها: وهو فائدة الترتيب أن الحكيم تعالى أمر رسوله أن يدعوهم إلى أسهل شيء، وهو القول والاعتقاد فقال: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ ثم لما أجابوه زاده، فسألهم الصلاة التي بعد أدائها تبقى النفس سالمة كما كانت، ثم لما أجابوه وأراد منهم الصدقة وعلم أنها تشق عليهم قال: "لا زكاة في مال يحول عليه الحول" ثم لما ذكر الكل قال: ﴿وَذَلِكَ دِينُ القيمة﴾ .

المسألة الثالثة:

احتج من قال: الإيمان عبادة عن مجموع القول والاعتقاد والعمل بهذه الآية، فقال: مجموع القول والفعل والعمل هو الدين والدين هو الإسلام والإسلام هو الإيمان فإذاً مجموع القول والفعل والعمل هو الإيمان، لأنه تعالى ذكر في هذه الآية مجموع الثلاثة.

(73/825)

ثم قال: ﴿وَذَلِكَ دِينُ القيمة﴾ أي وذلك المذكور هو دين القيمة وإنما قلنا: إن الدين هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدّينَ عِندَ الله الإسلام﴾ [آل عمران: 19] وإنما قلنا: إن الإسلام هو الإيمان لوجهين الأول: أن الإيمان لو كان غير الإسلام لما كان مقبولاً عند الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 85] لكن

الإيمان بالإجماع مقبول عند الله ، فهو إذاً عين الإسلام والثاني : قوله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ [الذاريات : 35 ، 36] فاستثناء المسلم من المؤمن ، يدل على أن الإسلام يصدق عليه ، وإذا ثبتت هذه المقدمات ، ظهر أن مجموع هذه الثلاثة أعني القول والفعل والعمل هو الإيمان ، وحينئذ يبطل قول من قال : الإيمان اسم لمجرد المعرفة ، أو لمجرد الإقرار أو لهما معاً والجواب : لم لا يجوز أن تكون الإشارة بقوله : ﴿ وَذَلِكَ ﴾ إلى الإخلاص فقط ؟ والدليل عليه أنا على هذا التقدير لا نحتاج إلى الإضمار أولى ، وأنتم تحتاجون إلى الإضمار ، فتقولون : المراد وذلك المذكور ، ولا شك أن عدم الإضمار أولى ، سلمنا أن قوله : ﴿ وَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى مجموع ما تقدم لكنه يدل على أن ذلك المجموع هو الدين القيم ، فلم قلتم : إن ذلك المجموع هو الدين ، وذلك لأن الدين غير ، والدين القيم ، فالدين هو الدين الكامل المستقبل بنفسه ، وذلك إنما يكون إذا كان الدين حاصلاً ، وكانت آثاره ونتائجه معه حاصلة أيضاً ، وهي الصلاة والزكاة ، وإذا لم يوجد هذا المجموع ، لم يكن الدين القيم حاصلاً ، لكن لم قلتم : إن أصل الدين لا يكون حاصلاً والنزاع ما وقع إلا فيه ؟ والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 46.37 ﴾

(74/825)

وقال ابن عطية :

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) ﴾

وفي حرف أبي بن كعب : " ما كان الذين " ، وفي حرف ابن مسعود : " لم يكن المشركين وأهل الكتاب منفكين " وقوله تعالى : ﴿ منفكين ﴾ معناه منفصلين متفرقين ، تقول انفك الشيء عن الشيء إذا انفصل عنه ، وما انفك التي هي من أخوات كان لا مدخل بها في هذه الآية ، ونفى في هذه الآية أن تكون هذه الصنيعة منفكة ، واختلف الناس عماذا ، فقال مجاهد وغيره : لم يكونوا ﴿ منفكين ﴾ عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة ، وأوقع المستقبل موضع الماضي في ﴿ تأتيهم ﴾ ، لأن باقي الآية وعظمها لم يرده بعد ، وقال الفراء وغيره : لم يكونوا ﴿ منفكين ﴾ عن معرفة صحة نبوة محمد عليه السلام ، والتوكف لأمره حتى جاءتهم البينة تفرقوا عند ذلك ، وذهب بعض النحويين إلى هذا النفي المتقدم مع ﴿ منفكين ﴾ يجعلها تلك التي هي مع كان ، ويرى التقدير في خبرها عارفين أمر محمد أو نحو هذا ، ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى ، وذلك أن يكون المراد لم يكن هؤلاء القوم ﴿ منفكين ﴾ من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم حتى يبعث إليهم رسولاً منذراً تقوم عليهم به الحجة ، وتتم على من آمن النعمة ، فكأنه قال : ما كانوا ليتركوا سدى وبهذا المعنى نظائر في كتاب الله تعالى ، وقرأ بعض الناس : " والمشركون " بالرفع ، وقرأ

الجمهور : " والمشركين " بالخفض ومعناهما بين ، و﴿ البينة ﴾ معناه : القصة البينة

والجلية ، والمراد محمد عليه السلام ، وقرأ الجمهور : " رسولُ الله " بالرفع وقرأ أبي : "

رسولاً " بالنصب على الحال ، والصحف المطهرة : القرآن في صحفه ، قاله الضحاك

وقتادة ، وقال الحسن والصحف المطهرة في السماء ، وقوله عز وجل : ﴿ فيها كتب قيمة

﴾ فيه حذف مضاف تقديره فيها أحكام كتب وقيمة : معناه قائمة معتدلة آخذة للناس

بالعدل وهو بناء مبالغة ، فإلى ﴿ قيمة ﴾ هو ذكر من آمن من الطائفتين ، ثم ذكر تعالى

مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من بني إسرائيل من أنهم لم يتفرقوا في أمر

محمد إلا من بعد ما رأوا الآيات الواضحة ، وكانوا من قبل مصفقين على نبوته وصفته ،

فلما جاء من العرب حسدوه ، وقرأ جمهور الناس : " مخلِصين " بكسر اللام ، وقرأ الحسن

بن أبي الحسن : " مخلَصين " بفتح اللام ، وكأن ﴿ الدين ﴾ على هذه القراءة منصوب ب

﴿ بعد ﴾ أو بمعنى يدل عليه على أنه كالظرف أو الحال ، وفي هذا نظر ، وقيل لعيسى

عليه السلام : من المخلص لله ؟ قال الذي يعمل العمل لله ولا يحب أن يحمده الناس عليه ،

و﴿ حنفاء ﴾ : جمع حنيف وهو المستقيم المائل إلى طرق الخير ، قال ابن جبير : لا

تسمي العرب حنيفاً إلا من حج واختتن، وقال ابن عباس: ﴿ حنفاء ﴾ : حجاجاً مسلمين، و ﴿ حنفاء ﴾ نصب على الحال، وكون ﴿ الصلاة ﴾ مع ﴿ الزكاة ﴾ في هذه الآية مع ذكر بني إسرائيل إنما دفع لمناقضة أهل الكتاب بالمدينة، وقرأ الجمهور: " وذلك دين القيمة " على معنى الجماعة القيمة أو الفرقة القيمة، وقال محمد بن الأشعث الطالقاني: هنا الكتب التي جرى ذكرها ، وقرأ بعض الناس: " وذلك الدين القيمة " ، فالهاء في " القيمة " على هذه القراءة كعلامة ونسابة، ويتجه ذلك أيضاً على أن يجعل ﴿ الدين ﴾ بمنزلة الملة. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(76/825)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ ﴾

كذا قراءة العامة، وخَطُّ المصحف.

وقرأ ابن مسعود "لَمْ يَكُنِ المُشْرِكونَ وأَهْلُ الكِتابِ مُنْفَكِّينَ" وهذه قراءة على التفسير.

قال ابن العربيّ : " وهي جائزة في مَعرِض البيان ، لا في مَعْرِض التلاوة؛ فقد قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم في رواية الصحيح " فَطَلِّقُوهنّ لِقبْل عِدّتهن " [الطلاق : 1] وهو تفسير؛

فإنّ التلاوة : هو ما كان في خطّ المصحف" .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ يعني اليهود والنصارى .

﴿ والمشركين ﴾ في موضع جر عطفاً على "أهل الكتاب" .

قال ابن عباس : "أهلُ الكتابِ" : اليهود الذين كانوا بيثرِب ، وهم قُرَيظة والنَّضِير وبنو قَيْنُقاع .

والمشركون : الذين كانوا بمكة وحولها ، والمدينة والذين حولها ؛ وهم مشركو قريش .

﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ أي منتهين عن كفرهم ، مائلين عنه .

﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ ﴾ أي أتتهم البينة ؛ أي محمد صلى الله عليه وسلم .

وقيل : الانتهاء بلوغ الغاية ؛ أي لم يكونوا ليبلغوا نهاية أعمارهم فيموتوا ، حتى تأتيهم البينة . فالانفكاك على هذا بمعنى الانتهاء .

وقيل : ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ زائلين ؛ أي لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول .

والعرب تقول : ما انفككتُ أفعل كذا : أي ما زلت .

وما انفك فلان قائماً : أي ما زال قائماً .

وأصل الفكّ : الفتح ؛ ومنه فك الكتاب ، وفَكُّ الخَلخال ، وفك السالم .

قال طَرَفة :

فآليتُ لا ينفَكُّ كَشْحِي بطانةً . . .

لِعَضْبٍ رقيق الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّدِ

وقال ذو الرمة :

حَرَاجِيجُ ما تَنْفَكُّ إلاَّ مُناخةً . . .

على الخَسْفِ أَوْ نَرْمِي بها بَلداً قفرا

يريد : ما تنفك مناخة ؛ فزاد "إلاَّ" .

وقيل : "مُنفَكِّين" : بارحين ؛ أي لم يكونوا ليبرحوا ويفارقوا الدنيا ، حتى تأتيهُمُ البينةُ .

(77/825)

وقال ابن كيسان : أي لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتابهم ، حتى بُعِث ؛ فلما بُعث حسدوه وجحدوه .

وهو كقوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمْ مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ [البقرة : 89] .

ولهذا قال : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ . . .

الآية .

وعلى هذا فقوله : ﴿ والمشركين ﴾ أي ما كانوا يسيئون القول في محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى بُعِث ؛ فإنهم كانوا يسمونه الأمين ، حتى أتتهم البينة على لسانه ، وبُعث إليهم

، فحينئذٍ عادَوْه .

وقال بعض اللغويين : ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ : هالكين ؛ من قولهم : أُنْفَكَ صَلاَ المرأةِ عند الولادة ؛

وهو أن ينفصل ، فلا يلتئم فتهلك .

المعنى : لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم ، بإرسال الرسل وإنزال

الكتب .

وقال قوم في المشركين : إنهم من أهل الكتاب ؛ فمن اليهود من قال : عُزيرٌ ابن الله .

ومن النصارى من قال : عيسى هو الله .

ومنهم من قال : هو ابنه .

ومنهم من قال : ثالث ثلاثة .

وقيل : أهل الكتاب كانوا مؤمنين ، ثم كفروا بعد أنبيائهم .

والمشركون وُلِدوا على الفِطرة ، فكفروا حين بلغوا .

فلهذا قال : ﴿ والمشركين ﴾ .

وقيل : المشركون وصف أهل الكتاب أيضاً ، لأنهم لم ينتفعوا بكتابهم ، وتركوا التوحيد .

فالنصارى مُثَلِّثة ، وعامة اليهود مُشَبِّهة ؛ والكُل شِركٌ .

وهو كقولك : جاءني العقلاء والظرفاء ؛ وأنت تريد أقواماً بأعيانهم ، تصفهم بالأمرين .

فالمعنى : من أهل الكتاب المشركين .

وقيل : إن الكفر هنا هو الكفر بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي لم يكن الذين كفروا بمحمد من اليهود والنصارى ، الذين هم أهل الكتاب ، ولم يكن المشركون الذين هم عَبَدَةُ الأوثان من العرب وغيرهم وهم الذين ليس لهم كتاب مُنْفَكّين .

قال القشيرِيّ : وفيه بعد ؛ لأن الظاهر من قوله : ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة * رَسُولٌ مِّنَ الله ﴾ أن هذا الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم .

(78/825)

فيبعد أن يُقال : لم يكن الذين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم منفكين حتى يأتيهم محمد ؛ إلا أن يقال : أراد : لم يكن الذين كفروا الآن بمحمد وإن كانوا من قبل مُعَظّمين له ، بمنتهين عن هذا الكفر ، إلى أن يبعث الله محمداً إليهم ، ويبيّن لهم الآيات ؛ فحينئذٍ يؤمن قوم .

وقرأ الأعمش وإبراهيم "والمشركُونَ" رفعاً ، عطفاً على "الذين والقراءة الأولى أبين ؛ لأن الرفع يصير فيه الصنفان كأنهم من غير أهل الكتاب .

وفي حرف أبيّ : "فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكين" .

وفي مصحف ابن مسعود : "لم يكنِ المشركون وأهلُ الكتابِ منفكّين" .

وقد تقدم .

﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ﴾ قيل حتى أتتهم .

والبَيِّنة : محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ رَسُولٌ مِّنَ الله ﴾ أي بعيث من الله جل ثناؤه .

قال الزَّجَّاج : "رسول" رفع على البدل من "البينة" .

وقال الفراء : أي هي رسول من الله ، أو هو رسول من الله ؛ لأن البينة قد تذكر فيقال : بينتي فلان .

وفي حرف أُبيّ وابن مسعود "رَسُولاً" بالنصب على القطع .

﴿ يَتْلُو ﴾ أي يقرأ .

يقال : تلا يتلو تلاوة .

﴿ صُحُفاً ﴾ جمع صحيفة ، وهي ظرف المكتوب .

﴿ مُّطَهَّرَةً ﴾ قال ابن عباس : من الزور ، والشك ، والنفاق ، والضلالة .

وقال قتادة : من الباطل .

وقيل : من الكذب ، والشُّبُهات ، والكفر ؛ والمعنى واحد .

أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب ؛ ويدل عليه أنه كان يتلو عن ظهر قلبه ، لا عن كتاب ؛ لأنه كان أمّيا ، لا يكتب ولا يقرأ .

و﴿ مُّطَهَّرَةً ﴾ : من نعت الصحف ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ فَي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ *

مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ [عبس : 13 14] ، فالمطهرة نعت للصحف في الظاهر ، وهي نعت لما في الصحف من القرآن .

وقيل : "مطهرة" أي ينبغي ألا يَمَسَّها إلا المطهرون ؛ كما قال في سورة "الواقعة" حسب ما تقدّم بيانه .

(79/825)

وقيل : الصحف المطهرة : هي التي عند الله في أمّ الكتاب ، الذي منه نُسِخ ما أنزل على الأنبياء من الكتب ؛ كما قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : 21 22] .

قال الحسن : يعني الصحف المطهرة في السماء .

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أي مستقيمة مستوية محكمة ؛ من قول العرب : قام يقوم : إذا استوى وصح .

وقال بعض أهل العلم : الصحف هي الكتب ؛ فكيف قال في صحف فيها كُتُب ؟

فالجواب : أن الكتب هنا : بمعنى الأحكام ؛ قال الله عز وجل : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ ﴾ [المجادلة : 21] بمعنى حكم .

وقال صلى الله عليه وسلم : " والله لأقضِين بينكما بكتاب الله " ثم قضى بالرجم ، وليس ذِكر الرجم مسطوراً في الكتاب ؛ فالمعنى لأقضين بينكما بحكم الله تعالى .

وقال الشاعر :

وما الولاءُ بالبلاءِ فمِلْتُمُ . . .

وما ذاكَ قال اللَّهُ إذ هو يَكْتُبُ

وقيل : الكتب القيمة : هي القرآن ؛ فجعله كتباً لأنه يشتمل على أنواع من البيان .

(80/825)

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾

أي من اليهود والنصارى .

خصّ أهل الكتاب بالتفريق دون غيرهم ، وإن كانوا مجموعين مع الكافرين ؛ لأنهمْ مظنون بهم عِلم ؛ فإذا تفرّقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف .

﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة ﴾ أي أتتهم البينة الواضحة .

والمعنِيّ به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أي القرآن موافقاً لما في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته .

وذلك أنهم كانوا مجتمعين على نبوّته ؛ فلما بعِث جحدوا نبوّته وتفرّقوا ، فمنهم من كفر : بغياً وحسداً ، ومنهم من آمن ؛ كقوله تعالى : ﴿ وَمَا تفرقوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : 14] .

وقيل : "البينة" : البيان الذي في كتبهم أنه نبي مرسل .

قال العلماء : مِن أوّل السورة إلى قوله "قَيِّمَةٌ" : حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين .

وقوله : "وما تفرق" : حكمه فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجج .

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ وَمَا آمروا ﴾ أي وما أمِر هؤلاء الكفار في التوراة والإنجيل ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ الله ﴾ أي ليوحدوه .

واللام في "لِيعبدوا" بمعنى "أن" ؛ كقوله : ﴿ يُرِيدُ الله لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [النساء : 26] أي أن يبين .

و ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ الله ﴾ [الصف : 8] .

و ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ [الأنعام : 71] .

وفي حرف عبد الله : "وما أُمِروا إلاَّ أَنْ يَعبدوا اللهَ" .

﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي العبادة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ قُلْ إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ [الزمر : 11] .

(81/825)

وفي هذا دليل على وجُوب النية في العبادات ؛ فإن الإخلاص مِن عمل القلب ، وهو الذي يراد به وجه الله تعالى لا غيره .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها ، إلى دين الإسلام ، وكان ابن عباس يقول : حُنفاء : على دِين إبراهيم عليه السلام .

وقيل : الحَنِيف : من اختتن وحج ؛ قاله سعيد بن جبير .

قال أهل اللغة : وأصله أنه تَحَنَّفَ إلى الإسلام ؛ أي مال إليه .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُواْ الصلاة ﴾ أي بحدودها في أوقاتها .

﴿ وَيُؤْتُواْ الزكاة ﴾ أي يُعطوها عند محلها .

﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ أي ذلك الدين الذي أُمِروا به دين القَيِّمة ؛ أي الدين المستقيم .

وقال الزجاج : أي ذلك دِين المِلَّة المستقيمة .

و"القَيِّمة" : نعت لموصوف محذوف .

أو يقال : دِين الأمة القَيِّمة بالحق ؛ أي القائمة بالحقّ .

وفي حرف عبد الله "وذلك الدين القَيِّم" .

قال الخليل : "القَيِّمة" جمع القيم ، والقيم والقائم : واحد .

وقال الفراء : أضاف الدين إلى القيمة وهو نعته ، لاختلاف اللفظين .

وعنه أيضاً : هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة .

وقيل : الهاء راجعة إلى الملة أو الشريعة .

وقال محمد بن الأشعث الطالقاني : "القَيِّمة" هاهنا : الكتب التي جرى ذكرها ، والدين مضاف إليها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(82/825)

وقال الآلوسى :

﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾

أي اليهود والنصارى وإيرادهم بذلك العنوان قيل لإعظام شناعة كفرهم وقيل للإشعار بعلة ما نسب إليهم من الوعد باتباع الحق فإن مناط ذلك وجدانهم له في كتابهم وهو مبني على

وجه يأتي إن شاء الله تعالى في الآية بعد وإيراد الصلة فعلاً لما أن كفرهم حادث بعد أنبيائهم عليهم السلام بالآحاد في صفات الله عز وجل ومن للتبعيض كما قال علم الهدى الشيخ أبو منصور الماتريدي في التأويلات لا للتبيين لأن منهم من لم يكفر بعد نبيه وكان على الاعتقاد الحق حتى توفاه الله تعالى وعد من ذلك الملكانية من النصارى فقيل أنهم كانوا على الحق قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتبيين يقتضي كفر جميعهم قبل البعث والظاهر خلافه وأيد إرادة التبعيض بما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من أن المراد بأهل الكتاب اليهود الذين كانوا بأطراف المدينة من بني قريظة والنضير وبني قينقاع وقال بعض لا نسلم أن التبيين يقتضي كفر جميعهم قبل البعث لجواز أن يكون التعبير عنهم بالذين كفروا باعتبار حالهم بعد البعثة كأنه قيل لم يكن هؤلاء الكفرة وبينوا بأهل الكتاب ﴿ والمشركين ﴾ وهم من اعتقدوا لله سبحانه شريكاً صنماً أو غيره وخصهم بعض بعبدة الأصنام لأن مشركي العرب الذين بمكة والمدينة وما حولهما كانوا كذلك وهم المقصودون هنا على ما روي عن الحبر وأياً ما كان فالعطف على أهل الكتاب ولا يلزم على التبعيض أن لا يكون بعضهم كافرين ليجب العدول عنه للتبيين لأنهم بعض من المجموع كما أفاده بعض الأجلة واحتمال أن يراد بالمشركين أهل الكتاب وشركهم لقولهم المسيح ابن الله وعزير ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً والعطف لمغايرة العنوان ليس بشيء وقرىء والمشركون بالرفع عطفاً على الموصول وحمل قراءة الجمهور على ذلك واعتبار أن الجر للجوار لا يخفى

حاله والجار والمجرور في موضع الحال من ضمير كفروا وقوله تعالى : ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ خبر يكن والانفكاك في الأصل افتراق

(83/825)

الأمور الملتحمة بنوع مزايلة وأريد به المفارقة لما كانوا عليه مما ستعرفه إن شاء الله تعالى فالوصف اسم فاعل من انفك التامة دون الناقصة الداخلة على المبتدأ والخبر وزعم بعض النحاة أنه وصف منها والخبر محذوف أي واعدين اتباع الحق أو نحوه وتعقب مع كونه خلاف الظاهر بأن خبر كان وأخواتها لا يجوز حذفه في السعة لا اقتصاراً ولا اختصاراً وحين ليس مجيراً أي في الدنيا ضرورة وقوله تعالى : ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ﴾ متعلق بمنفكين والبينة صفة بمعنى اسم الفاعل أي المبين للحق أو هي بمعناها المعروف وهو الحجة المثبتة للمدعي ويراد بها المعجز وعلى الوجهين فقوله تعالى :

﴿ رَسُولٍ ﴾ بدل منها بدل كل من كل أو خبر لمقدر أي هي رسول وتنوينه للتفخيم والمراد به نبينا صلى الله عليه وسلم وقوله سبحانه : ﴿ مِنَ الله ﴾ في موضع الصفة له مفيد للفخامة ازضافية فهو مؤكد لما أفاده التنوين من الفخامة الذاتية وقوله تعالى : ﴿ يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾ صفة أخرى له أو حال من الضمير في صفته الأولى كما أن قوله سبحانه

:

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ صفة ثانية لصحفاً أو حال من الضمير في صفتها الأولى أعني ﴿ مطهرة ﴾ ويجوز أن يكون الصفة أو الحال هنا الجار والمجرور فقط وكتب مرتفعاً على الفاعلية وإطلاق البينة عليه عليه الصلاة والسلام على المعنى الأول ظاهر وعلى المعنى الأخير باعتبار أن أخلاقه وصفاته صلى الله عليه وسلم كانت بالغة حد الإعجاز كما قال الغزالي في "المنقذ من الضلال" وأشار إليه البوصيري بقوله

: كفاك بالعلم في الأمي معجزة . . .

في الجاهلية والتأديب في اليتم

(84/825)

ويعلم منه حكمة جعله عليه الصلاة والسلام يتيماً أو باعتبار كثرة معجزاته صلى الله عليه وسلم غير ما ذكر وظهورها وجوز أن يراد بالبينة القرآن لأنه مبين للحق أو معجز مثبت للمدعي وروي ذلك عن قتادة وابن زيد و ﴿ رسول ﴾ عليه قيل بدل اشتمال أو بدل كل من كل أيضاً بتقدير مضاف أي بينة أو وحي أو معجز أو كتاب رسول أو هو خبر مبتدأ مقدر أي هي رسول ويقدر معه مضاف كما سمعت وجوز أن يكون رسول مبتدأ لوصفه

وخبره جملة ﴿ يَتْلُواْ ﴾ الخ وجملة المبتدأ وخبره مفسرة للبينة وقيل اعتراض لمدحها وقيل صفة لها مراداً بها القرآن ويراد بالصحف المطهرة البينة وقد وضعت موضع ضميرها فكانت الرابط وقرأ أبي وعبد الله رسولاً بالنصب على الحالية من البينة والصحف جمع صحيفة وكذا الصحاف القراطيس التي يكتب فيها وأصلها المبسوط من الشيء والمراد بتطهيرها تنزيهها عن الباطل على سبيل الاستعارة المصرحة ويجوز أن يكون في الكلام استعارة مكنية أو تطهير من يمسها على التجوز في النسبة فكأنه قيل صحفاً لا يمسها إلا المطهرون والمراد بالكتب المكتوبات وبالقيمة المستقيمة واستقامتها نطقها بالحق وفي التيسير هي كتب الأنبياء عليهم السلام والقرآن مصدق لها فكأنها فيه ووصفه عليه الصلاة والسلام بتلاوة الصحف المذكورة بناءً على المشهور من أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقرأ الكتاب كما أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يكتب من باب التجوز في النسبة إلى المفعول لأنه صلى الله عليه وسلم لما قرأ ما فيها فكأنه قرأها وقيل على تقدير مضاف أي مثل صحف وقيل في ضمير يتلو استعارة مكنية بتشبيهه عليه الصلاة والسلام لتلاوته مثل ما فيها بتاليها أو الصحف مجاز عما فيها بعلاقة الحلول ففي ضمير فيها استخدام لعوده على الصحف بالمعنى الحقيقي وقيل المراد بالرسول جبريل عليه السلام وبالصحف صحف الملائكة عليهم السلام المنتسخة من اللوح المحفوظ وبتطهيرها ما سبق والمراد بتلاوته عليه الصلاة

(85/825)

والسلام إياها ظاهر وجعلها مجازاً عن وحيه إياها غير وجيه والأولى حمل الرسول على النبي صلى الله عليه وسلم وهو المروى عن ابن عباس ومقاتل وغيرهما وقد اختلفوا في المعنى المراد بالآية اختلافاً كثيراً حتى قال الواحدي في كتاب البسيط أنها من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً وبين ذلك بناءً على أن الكفر وصف لكل من الفريقين قبل البعثة بأن الظاهر أن المعنى لم يكن الذين كفروا من الفريقين منفكين عما هم عليه من الكفر حتى يأتيهم الرسول صلى الله عليه وسلم وحتى لانتهاء الغاية فتقتضي أنهم انفكوا عن كفرهم عند إتيان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو خلاف الواقع ويناقضه قوله تعالى:

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾

(86/825)

فإنه ظاهر في أن كفرهم قد زاد عند ذلك فقال جار الله كان الكفار من الفريقين يقولون قبل المبعث لا ننفك عما نحن فيه من ديننا حتى يبعث الله تعالى النبي الموعود الذي هو مكتوب

في التوراة والإنجيل وهو محمد صلى الله عليه وسلم فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال سبحانه: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ﴾ الخ يعني أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول ثم ما فرقهم عن الحق وأقرهم على الكفر إلا مجيئه ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه لست بمنفك مما أنا فيه حتى يرزقني الله تعالى الغنى فيرزقه الله عز وجل ذلك فيزداد فسقاً فيقول واعظه لم تكن منفكاً عن الفسق حتى توسر وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار يذكره ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً وحاصله أن الأول من باب الحكاية لزعمهم وقوله سبحانه: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ﴾ الخ إلزام عليهم حكى الله تعالى كلامهم على سبيل التوبيخ والتعيير فقال هذا هو الثمرة وظاهره أنه أراد بتفرقهم تفرقهم عن الحق وحمل على الثبات على الكفر والباطل لاستلزامه إياه وعدم التعرض للمشركين في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ﴾ الخ لعلم حالهم من حال الذين أوتوا الكتاب بالأولى روقيل وهو قريب من ذاك من وجه وفيه إيضاح له من وجه أي لم يكونوا منفكين عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق والإيمان بالرسول المبعوث في آخر الزمان إلى أن أتاهم ما جعلوه ميقاتاً للاجتماع والاتفاق فجعلوه ميقاتاً للانفكاك والافتراق كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ﴾ الخ وفي التعبير بمنفكين إشارة إلى وكادة وعدهم وهو من أهل الكتاب مشهور حتى أنهم كانوا يستفتحون ويقولون اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان ويقولون لأعدائهم من المشركين قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل

عاد وإرم ومن المشركين لعله وقع من متأخريهم بعد ما شاع من أهل الكتاب واعتقدوا صحته مما

(87/825)

شاهدوا مثلاً من بعض من يوثق به بينهم من قومهم كزيد بن عمرو بن نفيل فقد كان يتطلب نبياً من العرب ويقول قد أظل زمانه وأنه من قريش بل من بني هاشم بل من بني عبد المطلب ويشهد لذلك أنهم قبيل بعثته عليه الصلاة والسلام سمي منهم غير واحد ولده بمحمد رجاء أن يكون النبي المبعوث ﴿ والله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ [الأنعام : 124] والتعبير عن إتيانه بصيغة المضارع باعتبار حال المحكي لا باعتبار حال الحكاية كما في قوله تعالى :

(88/825)

﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ [الأنعام : 102] أي تلت وقوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ﴾ الخ كلام مسوق لمزيد التشنيع على أهل الكتاب خاصة ببيان أن ما نسب إليهم من

الانفكاك لم يكن لاشتباه في الأمر بل بعد وضوح الحق وتبين الحال وانقطاع الأعذار بالكلية وهو السر في وصفهم بإيتاء الكتاب المنبىء عن كمال تمكنهم من مطالعته والإحاطة بما في تضاعيفه من الأحكام والأخبار التي من جملتها ما يتعلق بالنبي عليه الصلاة والسلام وصحة بعثته بعد ذكرهم فيما سبق بما هو جار مجرى اسم الجنس للطائفتين ولما كان هؤلاء والمشركون باعتبار اتفاقهم على الرأي المذكور في حكم فريق واحد عبر عما صدر منهم عقيب الاتفاق عند الإخبار بوقوعه بالانفكاك وعند بيان كيفية وقوعه بالتفرق اعتبار الاستقلال كل من فريقي أهل الكتاب وإيذاناً بأن انفكاكهم عن الرأي المذكور ليس بطريق الاتفاق على رأي آخر بل بطريق الاختلاف القديم وتعقب التقريران بأنه ليس في الكلام ما يدل على أنه حكاية ولا على إرادة منفكين عن الوعد باتباع الحق وقال القاضي عبد الجبار المعنى لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة وتعقبه الإمام بأن فتسير لفظ حتى بما ذكر ليس من اللغة في شيء ولعله أراد أن المراد استمرار النفي وإن في الكلام حذفاً أي لم يكونوا منفكين عن كفرهم في وقت من الأوقات حتى وقت أن تأتيهم البينة إلا أنه عبر بما ذكر لأنه أخصر وفيه أيضاً ما لا يخفى وقيل المعنى لم يكونوا منفكين عن ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمناقب والفضائل إلى أن أتاهم فحينئذٍ تفرقوا فيه وقال كل منهم فيه عليه الصلاة والسلام قولاً زوراً وتعقب بأنه لا دلالة على إرادة ما قدر متعلق الانفكاك وقيل المعنى لم يكونوا منفكين عن كفرهم إلى وقت مجيء الرسول صلى الله عليه

وسلم فلما جاءهم تفرقوا فمنهم من آمن ومنهم من أصر على كفره ويكفي ذلك في العمل بموجب حتى وتعقب بأن ظاهر وما تفرق الخ

(89/825)

ذم لجميعهم وتشنيع عليهم ويؤيده قوله سبحانه بعد : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ [البينة : 6] الخ ويبعد ذلك على حمل التفرق على إيمان بعض وإصرار بعض وقيل المعنى لم يكونوا منفكين عن كفرهم بأن يترددوا فيه بل كانوا جازمين به معتقدين حقيته إلى أن أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فعند ذلك اضطربت خواطرهم وأفكارهم وتشكك كل في دينه ومقالته وفيه ما لا يخفى وقيل معنى منفكين هالكين من قولهم انفك صلا المرأة عند الولادة وهو أن ينفصل فلا يلتئم والمعنى لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب وقريب منه معنى ما قيل لم يكونوا منفكين عن الحياة بأن يموتوا ويهلكوا حتى تأتيهم البينة وهو كما ترى وقيل المراد أنهم لم ينفكوا عن دينهم حقيقة إلى مجيء الرسول التالي للصحف المبينة نسخة وبطلانه ولما جاء وتبين ذلك انفكوا عنه حقيقة وإن بقوا عليه صورة وفيه ما فيه وقال أبو حيان الظاهر أن المعنى لم يكونوا منفكين أي منفصلاً بعضهم عن بعض بل كان كل منهم مقراً الآخر على ما هو عليه مما

اختاره لنفسه هذا من اعتقاده بشريعته وهذا من اعتقاده بأصنامه وحاصله أنه اتصلت مودتهم واجتمعت كلمتهم إلى أن أتتهم البينة وما تفرق الذين أوتوا أي من المشركين وانفصل بعضهم من بعض فقال كل ما يدل عنده على صحة قوله إلا من بعد ما جاءتهم البينة وكان يقتضي عند مجيئها أن يجتمعوا على اتباعها ولا يخفى أن قوله : ﴿ بَلْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُمْ ﴾ الخ في حيز المنع وأيضاً حمل وما تفرق على ما حمله عليه غير ظاهر

وقال ابن عطية ههنا وجه بارع المعنى وذلك أن يكون المراد لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره سبحانه حتى يبعث عز وجل إليهم رسولاً منذراً يقيم تعالى عليهم به الحجة ويتم على من آمن به النعمة فكأنه قال ما كانوا ليتركوا سدى ولهذا نظائر في كتاب الله جل جلاله هذا ما ظفرنا به سؤالاً

(90/825)

وجواباً وجرحاً وتعديلاً ثم إني أقول ما تقدم في تقرير الإشكال مبني على مذهب القائلين بمفهوم الغاية وهم أكثر الفقهاء وجماعة من المتكلمين كالقاضي أبي بكر والقاضي عبد الجبار وأبي الحسين البصري وغيرهم دون مذهب الغير القائلين به وهم أصحاب الإمام أبي حنيفة وجماعة من الفقهاء والمتكلمين واختاره الآمدي واستدل عليه بما استدل ورد ما

يعارضه من أدلة المخالف وعليه يمكن أن يقال إنه سبحانه وتعالى بين أولاً حال الذين كفروا من الفريقين إلى وقت إتيان الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله عز وجل :

(91/825)

﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين مُنفَكّينَ ﴾ [البينة : 1] أي عما هم عليه من الدين حسب اعتقادهم فيه إلى أن يأتيهم الرسول ولما لم يتعرض في ذلك على ذلك المذهب لحالهم بعد إتيان الرسول عليه الصلاة والسلام بينه سبحانه بقوله جل وعلا : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ الخ أي وما تفرقوا فعرف بعض منهم الحق وآمن وعرفه بعض آخر منهم وعاند فلم يؤمن في وقت من الأوقات إلا من بعد ما جاءتهم البينة وطوى سبحانه ذكر حال المشركين لعلمه بالأولى من حالهم ثم إنه تعالى ذكر بعد حال كل من الفريقين المؤمن والكافر وماله في الآخرة بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾ [البينة : 6] الخ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البينة : 7] الخ والذي أميل إليه مما تقدم كون الانفكاك عن الوعد باتباع الحق ولعل القرينة على اعتباره حالية ويحتمل نحواً آخر من التوجيه وذلك بأن يجعل الكلام من باب الأعمال فيقال إن منفكين يقتضي متعلقاً هو المنفك عنه وتأتيهم يقتضي فاعلاً وليس في الكلام سوى البينة فكل منهما يقتضيه فاعمل فيه

تأتيهم وحذف معمول منفكين لدلالته عليه فكأنه قيل لم يكن الذين كفروا من الفريقين منفكين عن البينة حتى تأتيهم البينة وحيث كان المراد بالبينة الرسول كان الكلام في قوة لم يكونوا منفكين عن الرسول حتى يأتيهم ويراد بعدم الانفكاك عن الرسول حيث لم يكن موجوداً إذ ذاك عدم الانفكاك عن ذكره والوعد باتباعه ويكون باقي الكلام في الآية على نحو ما سبق على تقدير إرادة منفكين عما كانوا عليه من الوعد باتباع الحق وإن شئت قلت في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ﴾ الخ أنه على معنى وما تفرق الذين أوتوا الكتاب عن الرسول ما انفكوا عنه بالإصرار على الكفر إلا من بعد ما جاءهم فتأمل جميع ما أتيناك به والله تعالى أعلم بأسرار كتابه وقوله تعالى :

(92/825)

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ جملة حالية مفيدة لغاية قبح ما فعلوا والمراد بالأمر مطلق التكليف ومتعلقه محذوف واللام للتعليل والكلام في تعليل أفعاله تعالى شهير والاستثناء مفرغ من أعم العلل أي والحال أنهم ما كلفوا في كتابهم بما كلفوا به لشيء من الأشياء إلا لأجل عبادة الله تعالى وقال الفراء العرب تجعل اللام موضع أن في الأمر ك ﴿ أمرنا لنسلم ﴾ [الأنعام : 71] وكذا في الإرادة ك ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ [النساء : 26] فهي

هنا بمعنى أن أي إلا بأن يعبدوا الله وأيد بقراءة عبد الله إلا أن يعبدوا فيكون عبادة الله تعالى هي المأمور بها والأمر على ظاهره والأول هو الأظهر وعليه قال علم الهدى أبو منصور الماتريدي هذه الآية علم منها معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: 56] أي إلا لآمرهم بالعبادة فيعلم المطيع من العاصي وهو كما قال الشهاب كلام حسن دقيق ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي جاعلين دينهم خالصاً له تعالى فلا يشركون به عز وجل فالدين مفعول لمخلصين وجوز أن يكون نصباً على إسقاط الخافض ومفعول مخلصين محذوف أي جاعلين أنفسهم خالصة له تعالى في الدين وقرأ الحسن مخلصين بفتح اللام وحينئذٍ يتعين هذا الوجه في الدين ولا يتسنى الأول نعم جوز أن يكون نصباً على المصدر والعامل ليعبدوا أي ليدينوا الله تعالى بالعبادة الدين ﴿ حُنَفَاء ﴾ أي مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام وفيه من تأكيد الإخلاص ما فيه فالحنف الميل إلى الاستقامة وسمي مائل الرجل إلى الاعوجاج أحنف للتفاؤل أو مجاز مرسل بمرتبتين وعن ابن عباس تفسير حنفاء هنا بحجاجا وعن قتادة بمختنين محرمين لنكاح الأم والمحارم وعن أبي قلابة بمؤمنين بجميع الرسل عليهم السلام وعن مجاهد بمتبعين دين إبراهيم عليه السلام وعن الربيع بن أنس بمستقبلين القبلة بالصلاة وعن بعض بجامعين كل الدين وحال الأقوال لا

يخفى ﴿ وَيُقِيمُوا۟ الصلاة وَيُؤْتُوا۟ الزكاة ﴾ إن أريد بهما ما في شريعتهم من الصلاة والزكاة فالأمر بهما ظاهر وإن أريد ما في شريعتنا فمعنى أمرهم بهما في كتابهم أن أمرهم باتباع شريعتنا أمر لهم بجميع أحكامها التي هما من جملتها ﴿ وَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما ذكر من عباد الله تعالى بالإخلاص وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وما فيه من البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته في الشرف ﴿ دِينُ القيمة ﴾ أي الكتب القيمة فأل للعهد إشارة إلى ما تقدم في قوله تعالى : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيّمَةٌ ﴾ [البينة : 3] وإليه ذهب محمد بن الأشعث الطالقاني وقال الزجاج أي الأمة القيمة أي المستقيمة وقال غير واحد أي الملة القيمة والتغاير الاعتباري بين الدين والملة يصحح الإضافة وبعضهم لم يقدر موصوفاً ويجعل القيمة بمعنى الملة وقيل أي الحجج القيمة وقرأ عبد الله رضي الله تعالى عنه الدين القيمة فقيل التأنيث على تأويل الدين بالملة وقيل الهاء للمبالغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(94/825)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(98) سورة البيّنة

نزولها : مدنية. وقيل مكية. نزلت بعد سورة الطلاق عدد آياتها : ثماني آيات.

عدد كلماتها : أربع وسبعون كلمة.

عدد حروفها : ثلاثمائة وتسعة وتسعون حرفا.

مناسبتها لما قبلها

كانت سورة « القدر » التي سبقت هذه السورة تنويها بالليلة المباركة التي نزل فيها القرآن الكريم، فنالت بشرف نزوله فيها هذا القدر العظيم الذي ارتفعت به على الليالى جميعا.. فالتنويه بليلة القدر هو. فى الواقع. تنويه بالقرآن الكريم، وأن الاتصال به يكسب الشرف ويعلى القدر للأزمان والأمكنة والأشخاص.

وسورة « البيّنة » تحدّث عن هذا القرآن، وعن رسول اللّه الحامل لهذا القرآن، وموقف الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، من القرآن، والرسول الداعي إلى اللّه بالقرآن..

ومن هنا كان الجمع بين السورتين قائما على هذا الترابط القوىّ، الذي يجعل منهما وحدة واحدة.

بسم اللّه الرحمن الرّحيم

الآيات : (1 . 8) [سورة البينة (98) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ
لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (2) فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4)

وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)

(95/825)

قوله تعالى : « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً » .

« من » فى قوله تعالى : « مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ » بيانية ، وفيها معنى التبعيض أيضا ، إذ ليس كلّ أهل الكتاب كافرين ، بل هم كما يقول اللّه تعالى : « مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفاسِقُونَ »

(110 : آل عمران) .

فالمراد بالذين كفروا هنا ليس الكافرين على إطلاقهم ، وإنما هم الكافرون من أهل الكتاب

.اليهود والنصارى.وهم بعض من أهل الكتاب ، أو معظم أهل الكتاب .

والمشركون ، هم مشركو العرب ، وعلى رأسهم مشركو قريش .

(96/825)

ومعنى الانفكاك فى قوله تعالى : « منفكّين » هو حلّ تلك الرابطة الوثيقة التي جمعت بينهم جميعا على الكفر والضلال .

فالذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون ، على سواء فى الضلال ، وفى البعد عن مواقع الحق . . فهم وإن اختلفوا دينا ومعتقدا ، وجنسا وموطنا ـ على سواء فى الضلال وفساد المعتقد ، وهم لهذا كيان واحد ، وقبيل واحد ، ينتسبون إلى أب واحد ، هو الكفر والضلال .

أما الكافرون من أهل الكتاب ، فقد كان كفرهم بما غيّروا ، وبدّلوا من شرع اللّه ، وبما تأوّلوا من كتب اللّه التي بين أيديهم ، فحرّفوا الكلم عن مواضعه ، وقالوا عن اللّه سبحانه ما لم يقله .

وأما المشركون، فقد اغتال جهلهم وضلالهم كل معانى الحق، التي تركها فيهم أنبياؤهم الأولون، كهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، عليهم السلام . .

فانتهى بهم الأمر إلى الشرك بالله، وعبادة الأصنام من دون الله.

ومجمل معنى الآية الكريمة: أن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون لن تنحلّ منهم هذه الرابطة الوثيقة التي جمعت بينهم على الكفر والضلال، حتى تأتيهم البينة . . فإذا أتتهم البينة تقطع ما بينهم، وانحلت وحدتهم، وأخذ كلّ الطريق الذي يختاره . .

و«البينة» هى ما أشار إليها قوله تعالى: «رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً» فالرسول صلوات الله وسلامه عليه ـ هو «البينة»، أي البيان المبين، الذي يبين طريق الحقّ بما يتلو من آيات الله على الناس . .

وفى جعل الرسول هو البينة ـ مع أن البينة هى آيات الله ـ إشارة إلى أن الرسول الكريم، هو فى ذاته بينة، وهو آية من آيات الله، فى كماله، وأدبه، وعظمة خلقه، حتى لقد كان كثير من المشركين يلقون النبي لأول مرة فيؤمنون

به، قبل أن يستمعوا إلى آيات الله منه، وقبل أن يشهدوا وجه الإعجاز فيها . .

وأنه ليكفى أن يقول لهم إنه رسول الله، فيقرءون آيات الصدق فى وجهه وفى وقع كلماته على آذانهم . . وقد آمن المؤمنون الأولون، ولم يكن قد نزل من القرآن قدر يعرفون منه أحكام الدين، ومبادئه، وأخلاقياته . . بل إن إيمانهم كان استجابة لما دعاهم إليه رسول الله، لأنه لا يدعو. كما عرفوه وخبروه. إلا إلى خير وحق.

والصحف المطهرة، هى آيات القرآن الكريم، التي يتلوها الرسول الكريم، كما أوحاها إليه ربه، وكما تلقاها من رسول الوحى، على ما هى عليه فى صحف اللوح المحفوظ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: «كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ، فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ، فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرامٍ بَرَرَةٍ» (11.16 : عبس).

وطهارة هذه الصحف، هو نقاء آياتها، وصفاؤها، من كل سوء . . فهى حق خالص، وكمال مطلق . . «إِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ، لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».
(42 : فصلت).

وقوله تعالى: «فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ».

والكتب القيمة التي فى هذه الصحف، هى الكتب التي نزلت على أنبياء الله ورسله، كصحف إبراهيم وموسى . . كما يقول سبحانه: «إِنَّ هذا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولى،

صُحُفِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى » (19.18 : الأعلى) .

فالقرآن الكريم جمع ما تفرق فيما أنزل اللّه من كتب على أنبيائه ، فكان به تمام دين اللّه ، الذي هو الإسلام ، كما يقول سبحانه : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ » (19 : آل عمران) .

(98/825)

وكون الصحف تحوى فى كيانها الكتب ، مع أن العكس هو الصحيح ، كما هو فى معهودنا ، إشارة إلى أن صحف القرآن ، هى بالنسبة إلى الكتب السماوية السابقة ، كتب . . وأن الصحيفة ، أو مجموعة الصحف منه تعادل كتابا من تلك الكتب إذ جمعت فى كلماتها المعجزة ما تفرق فى هذه الكتب .

وفى هذا ما يدل على قدر هذا القرآن العظيم ، وأنه كان لهذا جديرا أن ينزل فى ليلة القدر ، التي هى ليلة الزمن كله ، كما أن هذا الكتاب هو شرع اللّه كله .

وقوله تعالى : « وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ » .

الخطاب هنا إلى أهل الكتاب جميعا ، لا إلى الذين كفروا منهم . . فأهل الكتاب جميعا ، هم فى هذا المقام فى مواجهة البينة . . وقد اختلف موقفهم منها ، فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر . . وهنا تفرق أمرهم ، وأخلى الذين آمنوا منهم مكانهم فيهم . .

والسؤال هنا :

ألم يكن أهل الكتاب متفرقين قبل أن يأتيهم رسول الله ، ويدعوهم إلى الإيمان بالله ؟

ألم يكن منهم مؤمنون وكافرون ، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى : «لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . . » ؟ . ألم يكن هذا الإخبار عنهم بهذا الوصف ، قبل أن تأتيهم البينة ؟ فما تأويل هذا ؟

نقول ـ والله أعلم ـ إن أهل الكتاب ، وإن كان فيهم المؤمنون الذين استقاموا على شريعة الله ، كما جاءهم بها أنبياؤهم ، غير متبعين ما دخل عليهم من تبديل وتحريف ـ إلا أن هؤلاء المؤمنين ، هم فى مواجهة الشريعة الإسلامية

غير مؤمنين ، إذا لم يصلوا إيمانهم هذا ، بالإيمان بدين الله (الإسلام) الذي كمل به الدين . .

فالمؤمنون حقّا من أهل الكتاب ، لا يجدون فى الإيمان بالإسلام حجازا يحجز بينهم وبينه ، إذ كان دينهم بعضا من هذا الدين ، وبعض الشيء ينجذب إلى كله ، ولا يأخذ طريقا غير طريقه ! فأهل الكتاب جميعا ـ المؤمنون منهم والكافرون ـ على سواء فى مواجهة الدين الإسلامى ، كلّهم مدعوون إلى الإيمان به ، فمن لم يؤمن به فهو كافر .

وأهل الكتاب ، إذ دعوا إلى الإيمان بدين اللّه ، تفرقوا ، فآمن قليل منهم ، وكفر كثير . .

وهذا ما يشير إليه سبحانه وتعالى فى قوله : « الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » (121 : البقرة) وبقوله سبحانه : « الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ، وَإِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ » (52 - 53 :

القصص) .

وأما المشركون ، فقد انفكوا ، وانفصلوا عن الكافرين من أهل الكتاب ، بعد أن جاءتهم البينة إذ أنهم آمنوا باللّه ، ودخلوا فى دين اللّه جميعا ، بعد أن تلبثوا على طريق العناد والضلال ! وقوله تعالى : « وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ » .

أي أن أهل الكتاب الذين دعوا إلى الإيمان بشريعة الإسلام ، لم يدعوا إلى أمر لا يعرفونه ، ولم يؤمروا بأمر لم تأمرهم به شريعتهم التي هم بها يؤمنون . .

إنهم ما أمروا إلا ليعبدوا اللّه مخلصين له الدين ، لا يعبدون إلها غيره « حنفاء »

أي مائلين عن أي طريق غير طريق اللّه . . وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة .

فهذا هو شرع الله ، وتلك أحكام شريعته لكل المؤمنين بشرائع السماء . . إنها جميعا تقوم على هذه الأصول الثابتة :

وأولها الإيمان باللّه وحده ، إيمانا خالصا من كل شرك ، مبرأ من كل ما لا يجعل للّه سبحانه وتعالى التفرد بالخلق والأمر .

ثم إقام الصلاة ، التي هى مظهر الولاء للّه ، وآية الخضوع لجلاله وعظمته . .

ثم إيتاء الزكاة ، التي هى أثر من آثار الإيمان باللّه ، الذي من شأنه أن يقيم المؤمنين باللّه على التوادّ والتراحم ، والتعاطف فيما بينهم ، كما يقيمهم الولاء للّه ، والخضوع لجلاله وعظمته ، كيانا واحدا فى محراب الصلاة له . .

وإذا كان هذا هو ما تدعو إليه الشرائع السماوية جميعا ، وإذا كان هذا ما تدعو إليه شريعة الإسلام . فإن الذي يفرق بين هذه الشرائع وبين شريعة الإسلام ، هو جائر عن طريق الحق ، معتد على حدود الله . . إذ كانت شرائع الله كلها . سابقها ولاحقها . حرم اللّه وحدوده التي حدها لعباده : « وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

. ولهذا كانت دعوة الإسلام قائمة على الإيمان بشرائع اللّه كلها ، وبرسل اللّه كلهم : « قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ . لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

» (136 : البقرة) قوله تعالى : « وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ » . .

أي الدين القيم ، أي المستقيم ، أو دين الملة أو الأمة المستقيمة على الحق القائمة بالقسط.

فكل من خرج على هذا الدين فهو على غير دين اللّه ، كما يقول

(101/825)

سبحانه : « إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ » (159 : الأنعام)

ومن معانى « الدّين » هنا ، دين اللّه ، وهو الإسلام . .

والقيّمة : مذكّر القيّم ، بمعنى المستقيم ، كما يقول تعالى : « ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » (36 : التوبة) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1638.1645 ﴾

(102/825)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) ﴾

استصعب في كلام المفسرين تحصيل المعنى المستفاد من هذه الآيات الأربع من أول هذه

السورة تحصيلاً ينتزع من لفظها ونظمها ، فذكر الفخر عن الواحدي في "التفسير البسيط" له أنه قال : هذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً وقد تخبط فيها الكبار من العلماء .

قال الفخر : "ثم إنه لم يلخص كيفية الإشكال فيها .

وأنا أقول : وجه الإشكال أن تقدير الآية : لم يكن الذين كفروا منفكين حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول صلى الله عليه وسلم ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عماذا لكنه معلوم إذ المراد هو الكفر والشرك اللذيْن كانوا عليهما فصار التقدير : لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرسول صلى الله عليه وسلم ثم إن كلمة ﴿ حتى ﴾ لانتهاء الغاية فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال بعد ذلك : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ [البينة : 4] وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم فحينئذ حصل بين الآية الأولى والآية الثانية مناقضة في الظاهر" انتهى ا . هـ كلام الفخر .

يريد أن الظاهر أن قوله: ﴿ رسول من الله ﴾ بدل من ﴿ البينة ﴾ وأن متعلِّق ﴿ منفكين ﴾ حُذف لدلالة الكلام عليه لأنهم لما أجريت عليهم صلة الذين كفروا دل ذلك على أن المراد لم يكونوا منفكين على كفرهم، وأن حرف الغاية يقتضي أن إتيان البينة المفسّرة بـ﴿ رسول من اللَّه ﴾ هي نهاية انعدام انفكاكهم عن كفرهم، أي فعند إتيان البينة يكونون منفكين عن كفرهم فكيف مع أن الله يقول: ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ [البينة: 4] فإن تفرقهم راجع إلى تفرقهم عن الإِسلام وهو ازدياد في الكفر إذ به تكثر شبه الضلال التي تبعث على التفرق في دينهم مع اتفاقهم في أصل الكفر، وهذا الأخير بناء على اعتبار قوله تعالى: ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ [البينة: 4] الخ كلاماً متصلاً بإعراضهم عن الإِسلام وذلك الذي درج عليه المفسرون ولنا في ذلك كلام سيأتي.

ومما لم يذكره الفخر من وجه الإِشكال: أن المشاهدة دلت على أن الذين كفروا لم ينفكوا عن الكفر في زمن مَّا، وأن نصب المضارع بعد ﴿ حتى ﴾ ينادي على أنه منصوب بـ(أنْ) مضمرة بعد ﴿ حتى ﴾ فيقتضي أنّ إتيان البينة مستقبل وذلك لا يستقيم فإن البينة فسرت بـ﴿ رسول من اللَّه ﴾ وإتيانُ الرسول وقع قبل نزول هذه الآيات بسنين وهم مستمرون على ما هم عليه: هؤلاء على كفرهم، وهؤلاء على شركهم.

وإذ قد تقرر وجه الإِشكال وكان مظنوناً أنه ملحوظ للمفسرين إجمالاً أو تفصيلاً فقد تعين

أن هذا الكلام ليس وارداً على ما يتبادر من ظاهره في مفرداته أو تركيبه ، فوجب صرفه عن ظاهره ، إما بصرف تركيب الخَبر عن ظاهر الإِخبار وهو إفادة المخاطَب النسبة الخبرية التي تضمنها التركيب ، بأن يُصرف الخبر إلى أنه مستعمل في معنى مجازي للتركيب .

وإمّا بصرف بعض مفرداته التي اشتمل عليها التركيب عن ظاهر معناها إلى معنى مجازٍ أو كناية .

فمن المفسرين من سلك طريقة صرف الخبر عن ظاهره .

(104/825)

ومنهم من أبقوا الخبر على ظاهر استعماله وسلكوا طريقة صرف بعض كلماته عن ظاهر معانيها وهؤلاء منهم من تأول لفظ ﴿ منفكين ﴾ ومنهم من تأول معنى ﴿ حتى ﴾ ومنهم من تأول ﴿ رسول ﴾ ، وبعضهم جوز في ﴿ البينة ﴾ وجهين .

وقد تعددت أقوال المفسرين فبلغت بضعَة عشر قولاً ذكر الآلوسي أكثرها وذكر القرطبي مُعظمها غيرَ معزُو ، وتداخل بعض ما ذكره الآلوسي وزاد أحدهما ما لم يذكره الآخر .

ومراجع تأويل الآية تؤَوَل إلى خمسة :

الأول : تأويل الجملة بأسرها بأن يُؤوّل الخبر إلى معنى التوبيخ والتعجيب ، وإلى هذا ذهب

الفراء ونفطويه والزمخشري .

الثاني : تأويل معنى ﴿ منفكين ﴾ بمعنى الخروج عن إمهال الله إياهم ومصيرهم إلى مؤاخذتهم ، وهو لابن عطية .

الثالث : تأويل متعلِّق ﴿ منفكين ﴾ بأنه عن الكفر وهو لعبد الجَبَّار ، أو عن الاتفاق على الكفر وهو للفخر وأبي حيّان .

أو منفكين عن الشهادة للرسول صلى الله عليه وسلم بالصدق قبل بعثته وهو لابن كيسان عبد الرحمن الملقب بالأصم ، أو منفكين عن الحياة ، أي هالكين ، وعُزي إلى بعض اللغويين .

الرابع : تأويل ﴿ حتى ﴾ أنها بمعنى (إنْ) الاتصالية .

والتقدير : وإن جاءتهم البينة .

الخامس : تأويل ﴿ رسول ﴾ بأنه رسول من الملائكة يتلو عليهم صحفاً من عند الله فهو في معنى قوله تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء ﴾ [النساء : 153] وعزاه الفخر إلى أبي مسلم وهو يقتضي صرف الخبر إلى التهكم .

هذا والمراد بـ ﴿ الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ أنهم كفروا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم مثل ما في قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ [الحشر : 11] .

وأنت لا يعوزك إرجاع أقوال المفسرين إلى هذه المعاقد فلا نحتاج إلى التطويل بذكرها فدونك فراجعها إن شئت ، فبنا أن نهتم بتفسير الآية على الوجه البين .

(105/825)

إن هذه الآيات وردت مورد إقامة الحجة على الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب وعلى المشركين بأنهم متنصلون من الحق متعللون للإصرار على الكفر عناداً ، فلنسلك بالخَبر مسلك مورد الحجة لا مسلك إفادة النسبَةِ الخبرية فتعين علينا أن نصرف التركيب عن استعمال ظاهره إلى استعمال مجازي على طريقة المجاز المرسل المركب من قَبيل استعمال الخبر في الإنشاء والاستفهامِ في التوبيخ ونحو ذلك الذي قال فيه التفتازاني في "المطول" : إن بيان أنه من أيّ أنواع المجاز هو مما لم يَحُم أحد حوله .

والذي تَصدّى السيد الشريف لبيانه بما لا يُبقي فيه شبهة .

فهذا الكلام مسوق مساق نقل الأقوال المستغربة المضطربة الدالة على عدم ثبات آراء أصحابها ، فهو من الحكايةِ لما كانوا يَعِدُون به فهو حكاية بالمعنى كأنه قيل : كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه حتى تأتينا البينة ، وهذا تعريض بالتوبيخ بأسلوب الإخبار المستعمل في إنشاء التعجيب أو الشكايةِ من صَلَفِ المُخبر عنه ، وهو استعمال عزيز بديع وقريب منه

قوله تعالى : ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ [التوبة : 64] إذ عَبَّر بصيغة يَحْذَر وهم إنما تظاهروا بالحذر ولم يكونوا حاذرين حقاً ولذلك قال الله تعالى : ﴿ قل استهزئوا ﴾ .

فالخبر موجَّه لكل سامع ، ومضمونه قول : "كان صدر من أهل الكتاب واشتهر عنهم وعرفوا به وتقرَّر تعلُّل المشركين به لأهل الكتاب حتى يدعونهم إلى اتباع اليهودية أو النصرانية فيقولوا : لم يأتنا رسول كما أتاكم قال تعالى : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾ [الأنعام : 156 ، 157] .

(106/825)

وتقرر تعلل أهل الكتاب به حين يدعوهم النبي صلى الله عليه وسلم للإسلام ، قال تعالى : ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألاَّ نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ [آل عمران : 183] الآية .

وشيوعه عن الفريقين قرينة على أن المراد من سياقه دمغهم بالحجة وبذلك كان التعبير بالمضارع المستقبل في قوله : ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ مصادفاً المحزّ فإنهم كانوا يقولون ذلك

قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم

وقريب منه قوله تعالى في أهل الكتاب : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند اللَّه مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة : 89] .

وحاصل المعنى : أنكم كنتم تقولون لا نترك ما نحن عليه من الدين حتى تأتينا البينة ، أي العلامة التي وُعدنا بها .

وقد جعل ذلك تمهيداً وتوطئة لقوله بعده : ﴿ رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة ﴾ الخ .

وإذ اتضح موقع هذه الآية وانقشع إشكالها فلننتقل إلى تفسير ألفاظ الآية .

فالانفكاك : الإِقلاع ، وهو مطاوع فكَّه إذا فصَله وفرقه ويستعار لمعنى أقلع عنه ومتعلق ﴿ منفكين ﴾ محذوف دل عليه وصف المتحدث عنهم بصلة ﴿ الذين كفروا ﴾ والتقدير : منفكين عن كفرهم وتاركين له ، سواء كان كفرهم إشراكاً بالله مثل كفر المشركين أو كان كفراً بالرسول صلى الله عليه وسلم فهذا القول صادر من اليهود الذين في المدينة والقرى التي حولها ويتلقفه المشركون بمكة الذين لم ينقطعوا عن الاتصال بأهل الكتاب منذ ظهرت دَعوة الإِسلام يستفتونهم في ابتكار مخلص يتسللون به عن ملام من يلومهم على الإِعراض عن الإِسلام .

وكذلك المشركون الذين حول المدينة من الأعراب مثل جُهَينة وغَطَفان ، ومن أفراد المتنصرين بمكة أو بالمدينة .

(107/825)

وقد حكى الله عن اليهود أنهم قالوا : ﴿ إن الله عهد إلينا ألا نؤمنَ لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ [آل عمران : 183] ، وقال عنهم : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة : 89] ، وحكى عن النصارى بقوله تعالى حكاية عن عيسى : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ [الصف : 6] .

وقال عن الفريقين : ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ [البقرة : 109] ، وحكى عن المشركين بقوله : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ [القصص : 48] وقولهم : ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ [الأنبياء : 5] .

ولم يختلف أهل الكتابين في أنهم أخذ عليهم العهد بانتظار نبيء ينصر الدين الحق وجعلت

علاماته دلائلَ تظهر من دعوته كقول التوراة في سفر التثنية : "أقيم لهم نبيئاً من وسط إخوتهم مِثلك وأجعل كلامي في فمه" .

ثم قولها فيه : "وأما النبي الذي يطغى فيتكلم كلاماً لم أوصه أن يتكلم به فيموت ذلك النبي وإن قلتَ في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب (الإصحاح الثامن عشر) .

وقول الإنجيل : "وأنَا أطلب من الأب فيعطيكم معزِّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد (أي شريعته لأن ذات النبي لا تمكث إلى الأبد) روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه (يوحنا الإِصحاح الرابع عشر الفقرة 6) "وأما المعزي الروح القُدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكّركم بكل ما قلتُه لكم (يوحنا الإِصحاح الرابع عشر فقرة 26) .

(108/825)

وقوله : ويقوم أنبياء كَذَبةٌ كثيرون ، (أي بعد عيسى) ويُضلون كثيرين ولكن الذي يَصْبر إلى المنتهى (أي يبقى إلى انقراض الدنيا وهو مؤول ببقاء دينه إذ لا يبقى أحد حياً إلى انقراض الدنيا) فهذا يخلِّص ويكرر ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادةً لجميع الأمم ثم

يأتي المنتهى" ، أي نهاية الدنيا (متّى الإصحاح الرابع والعشرون) ، أي فهو خاتم الرسل كما هو بين .

وكان أحبارُهم قد أساءوا التأويل للبشارات الواردة في كتبهم بالرسول المقفّي وأدْخَلوا علامات يعرفون بها الرسول صلى الله عليه وسلم الموعود به هي من المخترعات الموهومة فبقي مَنْ خَلْفَهم ينتظرون تلك المخترعات فإذا لم يجدوها كذّبوا المبعوث إليهم .

و ﴿ البينة ﴾ : الحجة الواضحة والعلامة على الصدق وهو اسم منقول من الوصف جرى على التأنيث لأنه مؤول بالشهادة أو الآية .

ولعل إيثار التعبير بها هنا لأنها أحسن ما تترجَم به العبارةُ الواقعة في كتب أهل الكتاب مما يحوم حول معنى الشهادة الواضحة لكل متبصر كما وقع في إنجيل متّى لفظ "شهادة لجميع الأمم" ، (ولعل التزام هذه الكلمة هنا مرتين كان لهذه الخصوصية) وقد ذُكرت مع ذكر الصحف الأولى في قوله :

﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينةُ ما في الصُّحُف الأولى ﴾ [طه : 133] .

والظاهر أن التعريف في ﴿ البينة ﴾ تعريف العهد الذهني ، وهو أن يراد معهود بنوعه لا بشخصه كقولهم : ادخُل السوق ، لا يريدون سوقاً معينة بل ما يوجد فيه ماهية سوق ، ومنه قول زهير :

وما الحَرْبُ إلاّ ما عَلِمْتُم وذُقْتُمُ

ولذلك قال علماء البلاغة: إن المعرَّف بهذه اللام هو في المعنى نكرة فكأنه قيل حتى تأتيهم بينةٌ.

ويجوز أن يكون التعريف لمعهود عند المخبَر عنهم، أي البينة التي هي وصايا أنبيائهم فهي معهودة عند كل فريق منهم وإن اختلفوا في تخيلها وابتعدوا في توهمها بما تمليه عليه تخيلاتهم واختلاقهم.

(109/825)

وأوثرت كلمة ﴿ البينة ﴾ لأنها تعبر عن المعنى الوارد في كلامهم ولذلك نرى مادَّتها متكررة في آيات كثيرة من القرآن في هذا الغرض كما في قوله: ﴿ أولَمْ تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ [طه: 133] وقوله: ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ [الصف: 6] وقوله: ﴿ مِن بَعد ما تبيَّن لهم الحق ﴾ [البقرة: 109] وقال عن القرآن: ﴿ هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾ [البقرة: 185].

و﴿ مِن ﴾ في قوله: ﴿ من أهل الكتاب ﴾ بيانية بيان للذين كفروا.

وإنما قدم أهل الكتاب على المشركين هنا مع أن كفر المشركين أشد من كفر أهل الكتاب لأن لأهل الكتاب السبق في هذا المقام فهم الذين بثّوا بين المشركين شبهة انطباق البينة الموصوفة

بينهم فأيدوا المشركين في إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بما هو أتقن من تُرَّهات المشركين إذ كان المشركون أميين لا يعلمون شيئاً من أحوال الرسل والشرائع ، فلما صدمتهم الدعوة المحمدية فزعوا إلى اليهود ليتلقوا منهم ما يردُّون به تلك الدعوة وخاصة بعد ما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

فالمقصود بالإِبطال ابتداءً هو دعوى أهل الكتاب ، وأما المشركون فتبع لهم .

واعلم أنه يجوز أن يكون الكلام انتهى عند قوله : ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ ، فيكون الوقف هناك ويكون قوله : ﴿ رسول من اللَّه ﴾ إلى آخرها جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً وهو قول الفراء ، أي هي رسول من الله ، يعني لأن ما في البينة من الإِبهام يثير سؤال سائل عن صفة هذه البينة ، وهي جملة معترضة بين جملة ﴿ لم يكن الذين كفروا . . . منفكين ﴾ إلى آخرها وبين جملة : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ [البينة : 4] .

ويجوز أن يكون ﴿ رسول ﴾ بدلاً من ﴿ البينة ﴾ فيقتضي أن يكون من تمام لفظ "بينة" فيكون من حكاية ما زعموه .

(110/825)

أريد إبطال معاذيرهم وإقامة الحجة عليهم بأن البينة التي ينتظرونها قد حلّت ولكنهم لا يتدبرون أو لا ينصفون أو لا يفقهون، قال تعالى:

﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة: 89].

وتنكير ﴿ رسول ﴾ للنوعية المرادِ منها تيسير ما يستصعب كتنكير قوله تعالى: ﴿ أياماً معدودات ﴾ [البقرة: 184] وقول: ﴿ المص كتاب أنزل إليك ﴾ [الأعراف: 1، 2].

وفي هذا التبيين إبطال لمعاذيرهم كأنه قيل: فقد جاءتكم البينة، على حد قوله تعالى: ﴿ أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ [المائدة: 19]، وهو يفيد أن البينة هي الرسول وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ قد أنزل اللَّه إليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات اللَّه ﴾ [الطلاق: 10، 11].

فأسلوب هذا الردّ مثل أسلوب قوله تعالى: ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي باللَّه والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث اللَّه بشراً رسولاً ﴾ [الإسراء: 90 94].

وفي هذا تذكير بغلطهم فإن كتبهم ما وعدت إلا بمجيء رسول معه شريعة وكتاب مصدق لما بين يديه وذلك مما يندرج في قولة التوراة : "وأجْعَل كلامي في فمه" .

وقول الإنجيل : "ويُذَكِّركم بكل ما قلتُه لكم" كما تقدم آنفاً ، وهو ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ﴾ [المائدة : 48] لأن التوراة والإنجيل لم يصفا النبي الموعود به إلا بأنه مثل موسى أو مثل عيسى ، أي في أنه رسول يوحي الله إليه بشريعة ، وأنه يبلغ عن الله وينطلق بوحيه ، وأن علامته هو الصدق كما تقدم آنفاً .

(111/825)

قال حجة الإسلام في كتاب "المنقذ من الضلال" : "إن مجموع الأخلاق الفاضلة كان بالغاً في نبينا إلى حد الإعجاز وأن معجزاته كانت غاية في الظهور والكثرة" .

و﴿ من اللَّه ﴾ متعلق بـ ﴿ رسول ﴾ ولم يُسلَك طريق الإضافة ليتأتى تنوين ﴿ رسول ﴾ فيشعر بتعظيم هذا الرسول .

وجملة ﴿ يتلوا صحفاً ﴾ الخ صفة ثانية أو حال ، وهي إدماج بالثناء على القرآن إذ الظاهر أن الرسول الموعود به في كتبهم لم يوصف بأنه يتلو صحفاً مطهرة .

والتلاوة : إعادة الكلام دون زيادة عليه ولا نقص منه سواء كان كلاماً مكتوباً أو محفوظاً عن ظهر قلب ، ففعل ﴿ يتلو ﴾ مؤذن بأنه يقرأ عليهم كلاماً لا تُبدَّل ألفاظه وهو الوحي المنزل عليه .

والصحف : الأوراق والقراطيس التي تُجعل لأن يكتب فيها ، وتكون من رَق أو جلد ، أو من خِرَق .

وتسمية ما يتلوه الرسول ﴿ صحفاً ﴾ مجاز بعلاقة الأيلولة لأنه مأمور بكتابته فهو عند تلاوته سيكون صُحفاً ، فهذا المجاز كقوله : ﴿ إني أراني أعصر خمراً ﴾ [يوسف : 36] .

وهذا إشارة إلى أن الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بكتابة القرآن في الصحف وما يشبه الصحف من أكتافِ الشاء والخِرَق والحجارة ، وأن الوحي المنزل على الرسول سمي كتاباً في قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ [العنكبوت : 51] لأجل هذا المعنى .

وتعدية فعل ﴿ يتلو ﴾ إلى ﴿ صحفاً ﴾ مجاز مرسل مشهور ساوى الحقيقة قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ﴾ [العنكبوت : 48] ، وهو باعتبار كون المتلو مكتوباً ، وإنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم القرآن عن ظهر قلب ولا يقرأه

من صحف فمعنى ﴿ يتلو صحفاً ﴾ يتلو ما هو مكتوب في صحف والقرينة ظاهرة وهي اشتهار كونه صلى الله عليه وسلم أمِّيّاً .

(112/825)

ووصف الصحف بـ ﴿ مطهرة ﴾ وهو وصف مشتق من الطهارة المجازية ، أي كون معانيه لا لبس فيها ولا تشتمل على ما فيه تضليل ، وهذا تعريض ببعض ما في أيدي أهل الكتاب من التحريف والأوهام .

ووصف الصحف التي يتلوها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن فيها كتباً ، والكتب : جمع كتاب ، وهو فِعال اسم بمعنى المكتوب ، فمعنى كون الكتب كائنة في الصحف أن الصحف التي يكتب فيها القرآن تشتمل على القرآن وهو يشتمل على ما تضمنته كتب الرسل السابقين مما هو خالص من التحريف والباطل ، وهذا كما قال تعالى : ﴿ مصدق لما بين يديه ﴾ [البقرة : 97] وقال : ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ [الأعلى : 18 ، 19] ، فالقرآن زُبدة ما في الكتب الأولى ومجمع ثمرتها ، فأطلق على ثمرة الكتب اسم كتب على وجه مجاز الجزئية .

والمراد بالكتب أجزاء القرآن أو سوره فهي بمثابة الكتب .

والقِيّمة : المستقيمة ، أي شديدة القيام الذي هو هنا مجاز في الكمال والصواب وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس تشبيهاً بالقائم لاستعداده للعمل النافع ، وضده العِوَج قال تعالى : ﴿ الحمد للَّه الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوجاً قيماً ﴾ [الكهف : 1 ، 2] ، أي لم يجعل فيه نقص الباطل والخطأ ، فالقيّمة مبالغة في القائم مثل السيد للسائد والميت للمائت .

وتأنيث الوصف لاعتبار كونه وصفاً لجمع .

وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4)

(113/825)

ارتقاء في الإِبطال وهو إبطال ثان لدعواهم بطريق النقض الجدلي المسمى بالمعارضة وهو تسليم الدليل والاستدلال لُما ينافي ثبوت المدلول ، وهذا إبطال خاص بأهل الكتاب اليهود والنصارى ، ولذلك أظهر فاعل ﴿ تفرق ﴾ ولم يقل : وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، إذ لو أضمر لتُوهّمَت إرادة المشركين من جملة معاد الضمير ، بعد أن أبطل زعمهم بقوله : ﴿ رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة ﴾ [البينة : 2] ارتقى إلى إبطال مزاعمهم إبطالاً مشوباً بالتكذيب وبشهادة ما حصل في الأزمان الماضية .

فيجوز أن تكون الواو للعطف عاطفة إبطالاً على إبطال ، ويجوز أن تكون واو الحال .

والمعنى : كيف يزعمون أن تمسكهم بما هم عليه من الدين مغيّا بوقت أن تأتيهم البينة والحال أنهم جاءتهم بينة من قبل ظهور الإسلام وهي بينة عيسى عليه السلام فتفرقوا في الإيمان به فنشأ من تفرقهم حدوث مِلتين اليهودية والنصرانية .

والمراد بهذه البينة الثانية مجيء عيسى عليه السلام فإن الله أرسله كما وعدهم أنبياؤهم أمثال إلياسَ واليسع وأشعياء .

وقد أجمع اليهود على النبي الموعود به تجديد الدين الحق وكانوا منتظرين المخلص ، فلما جاءهم عيسى كذبوه ، أي فلا يطمع في صدقهم فيما زعموا من انتظار البينة بعد عيسى وهم قد كذبوا ببينة عيسى ، فتبين أن الجحود والعناد شنشنة فيهم معروفة .

والمراد بالتفرق : تفرق بني إسرائيل بين مكذّب لعيسى ومؤمن به وما آمن به إلا نفر قليل من اليهود .

وجُعل التفرق كناية عن إنكار البينة لأن تفرقهم كان اختلافاً في تصديق بينة عيسى عليه السلام ، فاستعمل التفرق في صريحه وكنايته لقصد إدماج مَذَمتهم بالاختلاف بعد ظهور الحق كقوله : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ [آل عمران : 19] .

فالتعريف في ﴿ البينة ﴾ المذكورة ثانياً يجوز أن يكون للعهد الذهني ، أو للمعهود بَيْن المتحدَّث عنهم ، وهي بينة أخرى غير الأولى وإعادتُها من إعادة النكرة نكرة مثلها إذ المعرف بلام العهد الذهني بمنزلة النكرة ، أو من إعادة المعرفة المعهودة معرفةً مثلها ، وعلى كلا الوجهين لا تكون المعادة عين التي قبلها .

وقد أطبقت كلمات المفسرين على أن معنى قوله تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ أنهم ما تفرقوا عن اتباع الإِسلام ، أي تباعدوا عنه إلا من بعد ما جاء محمد صلى الله عليه وسلم وهذا تأويل للفظ التفرق وهو صرف عن ظاهره بعيد فأشكل عليهم وجه تخصيص أهل الكتاب بالذكر مع أن التباعد عن الإِسلام حاصل منهم ومن المشركين ، وجعلوا المراد بـ ﴿ البينة ﴾ الثانية عين المراد بالأولى وهي بينة محمد صلى الله عليه وسلم سوى أن الفخر ذكر كلمات تنبىء عن مخالفة المفسرين في محمل تفرق الذين أوتوا الكتاب فإنه بعد أن قرر المعنى بما يوافق كلام بقية المفسرين أتى بما يقتضي حمل التفرق على حقيقته ، وحمل البينة الثانية على معنى مغاير لمحمل ﴿ البينة ﴾ الأولى ، إذ قال : "المقصود من هذه الآية تسلية محمد صلى الله عليه وسلم أي لا يغمنّك تفرقهم فليس ذلك لقصور في الحجة بل لعنادهم فسلفهم هكذا كانوا لم يتفرقوا في السبب وعبادة العجل إلا بعد ما جاءتهم البينة ، فهي عادة قديمة لهم" ، وهو معارض لأول كلامه ، ولعله

بدا له هذا الوجه وشغله عن تحريره شاغل وهذا مما تركه الفخر في المسودة.

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)

هذا إبطال ثالث لتنصلهم من متابعة الإسلام بعلة أنهم لا يتركون ما هم عليه حتى تأتيهم البينة وزعمهم أن البينة لم تأتهم.

(115/825)

وهو إبطال بطريق القول بالموجَب في الجدل، أي إذا سلمنا أنكم مُوصَوْن بالتمسك بما أنتم عليه لا تنفكون عنه حتى تأتيكم البينة، فليس في الإسلام ما ينافي ما جاء به كتابكم لأن كتابكم يأمر بما أمر به القرآن، وهو عبادة الله وحده دون إشراك، وذلك هو الحنيفية وهي دين إبراهيم الذي أخذ عليهم العهد به، فذلك دين الإسلام وذلك ما أمرتم به في دينكم.

فلك أن تجعل الواو عاطفة على جملة: ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ [البينة: 4] الخ.

ولك أن تجعل الواو للحال فتكون الجملة حالاً من الضمير في قوله: ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ [البينة: 1].

والمعنى والحال أن البينة قد أتتهم إذ جاء الإِسلام بما صدّق قول الله تعالى لموسى عليه السلام : "أقيم لهم نبيئاً من وسط إخوتهم وأجعل كلامي في فمه" ، وقول عيسى عليه السلام : "فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم" .

والتعبير بالفعل المسند للمجهول مفيد معنيين ، أي ما أمروا في كتابهم إلا بما جاء به الإِسلام .

فالمعنى : وما أمروا في التوراة والإِنجيل إلا أن يعبدوا الله مخلصين إلى آخره .

فإن التوراة أكدت على اليهود تجنب عبادة الأصنام ، وأمرت بالصلاة ، وأمرت بالزكاة أمراً مؤكداً مكرراً .

وتلك هي أصول دين الإِسلام قبل أن يفرض صَوم رمضان والحج ، والإِنجيل لم يخالف التوراة أو المعنى وما أمروا في الإِسلام إلا بمثل ما أمرهم به كتابهم ، فلا معذرة لهم في الإِعراض عن الإِسلام على كلا التقديرين .

ونائب فاعل ﴿ أمروا ﴾ محذوف للعموم ، أي ما أمروا بشيء إلا بأن يعبدوا الله .

واللام في قوله : ﴿ ليعبدوا الله ﴾ هي اللام التي تكثر زيادتها بعد فعل الإِرادة وفعل الأمر وتقدم ذكرها عند قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ في سورة النساء (26) وقوله : ﴿ وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ في سورة الأنعام (71) ، وسماها بعض النحاة لام (أنْ) .

والإخلاص: التصفية والإنقاء، أي غير مشاركين في عبادته معه غيره.

والدين: الطاعة قال تعالى: ﴿ قل اللَّه أعبد مخلصاً له ديني ﴾ [الزمر: 14].

وحنفاء: جمع حنيف، وهو لقب للذي يؤمن بالله وحده دون شريك قال تعالى: ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ [الأنعام: 161].

وهذا الوصف تأكيد لمعنى: ﴿ مخلصين له الدين ﴾ مع التذكير بأن ذلك هو دين إبراهيم عليه السلام الذي ملئت التوراة بتمجيده واتباع هديه.

وإقامة الصلاة من أصول شريعة التوراة كلَّ صباح ومساء.

وإيتاء الزكاة: مفروض في التوراة فرضاً مؤكداً.

واسم الإشارة في قوله: ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ متوجِّهٌ إلى ما بعد حرف الاستثناء فإنه مقترن باللام المسماة (لام أنْ) المصدرية فهو في تأويل مفرد، أي إلا بعبادة الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، أي والمذكورُ دين القيمة.

و﴿ دين القيمة ﴾ يجوز أن تكون إضافته على بابها فتكون ﴿ القيمة ﴾ مراداً به غير

المراد بدين مما هو مؤنث اللفظ مما يضاف إليه دين أي دين الأمة القيّمة أو دين الكُتُب القَيمة .

ويرجّح هذا التقدير أن دليل المقدَّر موجود في اللفظ قبله .

وهذا إلزام لهم بأحقية الإِسلام وأنه الدين القيم قال تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللَّه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ﴾ [الروم : 30 31] .

ويجوز أن تكون الإِضافة صورية من إضافة الموصوف إلى الصفة وهي كثيرة الاستعمال ، وأصله الدين القيم ، فأنث الوصف على تأويل دين بملة أو شريعة ، أو على أن التاء للمبالغة في الوصف مثل تاء علاّمة والمآل واحد ، وعلى كلا التقديرين فالمراد بدين القيمة دين الإِسلام .

والقيمة : الشديدة الاستقامة وقد تقدم آنفاً .

(117/825)

فالمعنى : وذلك المذكور هو دين أهل الحق من الأنبياء وصالحي الأمم وهو عين ما جاء به الإِسلام قال تعالى في إبراهيم : ﴿ ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ [آل عمران : 67] وقال

عنه وعن إسماعيل: ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ [البقرة : 128].

وحكى عنه وعن يعقوب قولهما: ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة: 132]

وقال سليمان: ﴿ وكنا مسلمين ﴾ [النمل: 42].

وقد مضى القول في ذلك عند قوله تعالى: ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ في سورة البقرة (132).

والإشارة بذلك إلى الذي أمروا به أي مجموع ما ذكر هو دين الإسلام، أي هو الذي دعاهم إليه الإسلام فحسبوه نقضاً لدينهم، فيكون مهيع الآية مثل قوله تعالى: ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [آل عمران: 64] وقوله: ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل ﴾ [المائدة: 59].

والمقصود إقامة الحجة على أهل الكتاب وعلى المشركين تبعاً لهم بأنهم أعرضوا عما هم يتطلبونه فإنهم جميعاً مقرّون بأن الحنيفية هي الحق الذي أقيمت عليه الموسوية والعيسوية، والمشركون يزعمون أنهم يطلبون الحنيفية ويأخذون بما أدركوه من بقاياها ويزعمون أن اليهودية والنصرانية تحريف للحنيفية، فلذلك كان عامة العرب غير متهودين ولا متنصرين

ويتمسكون بما وجدوا آباءهم متمسكين به وقلّ منهم من تهودوا أو تنصروا ، وذهب نفر منهم يتطلبون آثار الحنيفية مثل زيد بن عمرو بن نُفَيْل ، وأُميَّة بن أبي الصَّلْت .

وخصّ الضمير ب"أهل الكتاب" لأن المشركين لم يؤمروا بذلك قبل الإسلام قال تعالى : ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴾ [القصص : 46] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(118/825)

فصل فى منزلة الإخلاص

قال ابن القيم :

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الإخلاص

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : 5] وقال :

وقال إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص وقال : قل الله لنبيه أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه [الزمر : 23] وقال : له ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : 16216 وقال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُم

أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [عملا : الملك : 2] قال الفضيل بن عياض : هو أخلصه وأصوبه قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه فقال : إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا : لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا والخالص : أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ

(119/825)

فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ [الكهف : 110] وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء : 125] فإسلام الوجه إخلاص القصد والعمل لله والإحسان فيه : متابعة رسوله وسنته وقال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ [الفرقان : 23] وهي الأعمال التي كانت على غير السنة أو أريد بها غير وجه الله قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغي به وجه الله تعالى : إلا ازددت به خيرا ودرجة ورفعة وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم " أي لا يبقى فيه

غل ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة بل تنفي عنه غله وتنقيه منه وتخرجه عنه فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل وكذلك يغل على الغش وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودغلا ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه : بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل : " يقاتل رياء ويقاتل شجاعة ويقاتل حمية : أي ذلك في سبيل الله فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله" وأخبر عن أول ثلاثة تسعر بهم النار : قارىء القرآن والمجاهد والمتصدق بماله الذين فعلوا ذلك ليقال : فلان قارىء فلان شجاع فلان متصدق ولم تكن أعمالهم خالصة لله وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى : أنا أغني الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء

وفي أثر آخر : يقول له يوم القيامة : اذهب فخذ أجرك ممن عملت له لا أجر لك عندنا وفي الصحيح عنه إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وقال تعالى : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ [الحج : 37]

وفي أثر مروري إلهي : الإخلاص : سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي

وقد تنوعت عبارتهم في الإخلاص و الصدق والقصد واحد فقيل : هو إفراد الحق

سبحانه بالقصد في الطاعة وقيل : تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين وقيل : التوقي من

ملاحظة الخلق حتى عن نفسك و الصدق التنقي من مطالعة النفس فالمخلص لا رياء له

والصادق لا إعجاب له ولا يتم الإخلاص إلا بالصدق ولا الصدق إلا بالإخلاص ولا يتمان

إلا بالصبر

وقيل : من شهد في إخلاصه الإخلاص احتاج إخلاصه إلى إخلاص فنقصان كل مخلص في

إخلاصه : بقدر رؤية إخلاصه فإذا سقط عن نفسه رؤية الإخلاص صار مخلصا مخلصا

وقيل : الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن والرياء : أن يكون ظاهره خيرا

من باطنه والصدق في الإخلاص : أن يكون باطنه أعمر من ظاهره وقيل : الإخلاص

نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله

ومن كلام الفضيل ترك العمل من أجل الناس : رياء والعمل من أجل الناس : شرك

والإخلاص : أن يعافيك الله منهما

قال الجنيد : الإخلاص سر بين الله وبين العبد لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيميله وقيل لسهل : أي شيء أشد على النفس فقال : الإخلاص لأنه ليس لها فيه نصيب وقال بعضهم : الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدا غير الله ولا مجازيا سواه وقال مكحول : ما أخلص عبد قط أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وقال يوسف بن الحسين : أعز شيء في الدنيا : الإخلاص وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي فكأنه ينبت على لون آخر وقال أبو سليمان الداراني : إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء

فصل قال صاحب المنازل الإخلاص : تصفية العمل من كل شوب

أي لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس : إما طلب التزين في قلوب الخلق وإما طلب مدحهم والهرب من ذمهم أو طلب تعظيمهم أو طلب أموالهم أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجه أو طلب محبتهم له أو غير ذلك من العلل والشوائب التي عقد متفرقاتها : هو إرادة ما سوى الله بعمله كائنا ما كان قال : وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى : إخراج رؤية العمل عن العمل والخلاص من طلب العوض على العمل والنزول عن الرضى بالعمل يعرض للعامل في عمله ثلاث آفات : رؤيته وملاحظته وطلب العوض عليه ورضاه به وسكونه إليه

ففي هذه الدرجة يتخلص من هذه البلية فالذي يخلصه من رؤية عمله : مشاهدته لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه له وأنه بالله لا بنفسه وأنه إنما أوجب

عمله مشيئة الله لا مشيئته هو كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : 29] فهنا ينفعه شهود الجبر وأنه آلة محضة وأن فعله كحركات الأشجار وهبوب الرياح وأن المحرك له غيره والفاعل فيه سواه وأنه ميت والميت لا يفعل شيئا وأنه لو خلي ونفسه لم يكن من فعله الصالح شيء ألبتة فإن النفس جاهلة ظالمة طبعها الكسل وإيثار الشهوات والبطالة وهي منبع كل شر ومأوى كل سوء وما كان هكذا لم يصدر منه خير ولا هو من شأنه فالخير الذي صدر منها : إنما هو من الله وبه لا من العبد ولا به كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [النور : 21] وقال أهل الجنة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴾ [الأعراف : 43] وقال تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : 74] وقال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ الآية فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته وإحسانه

ونعمته وهو المحمود عليه فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة كرؤيته لصفاته الخلقية : من سمعه وبصره وإدراكه وقوته بل من صحته وسلامة أعضائه ونحو ذلك فالكل مجرد عطاء الله ونعمته وفضله

فالذي يخلص العبد من هذه الآفة : معرفة ربه ومعرفة نفسه والذي يخلصه من طلب العوض على العمل : علمه بأنه عبد محض والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضا ولا أجرة إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه وإحسان إليه وإنعام عليه لا معاوضة إذ الأجرة إنما يستحقها الحر أو عبد الغير فأما عبد نفسه فلا والذي يخلصه من رضاه بعمله وسكونه إليه : أمران :

أحدهما : مطالعة عيوبه وآفاته وتقصيره فيه وما فيه من حظ النفس ونصيب الشيطان فقل عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب وإن قل وللنفس فيه حظ سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن التفات الرجل في صلاته فقال : "هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد "

فإذا كان هذا التفات طرفه أو لحظه فكيف التفات قلبه إلى ما سوى الله هذا أعظم نصيب

الشيطان من العبودية

وقال ابن مسعود لا يجعل أحدكم للشيطان حظا من صلاته يرى أن حقا عليه : أن لا ينصرف إلا عن يمينه فجعل هذا القدر اليسير النزر حظا ونصيبا للشيطان من صلاة العبد فما الظن بما فوقه وأما حظ النفس من العمل : فلا يعرفه إلا أهل البصائر الصادقون الثاني : علمه بما يستحقه الرب جل جلاله : من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقا وأن يرضى بها لربه فالعارف لا يرضى بشيء من عمله لربه ولا يرضى نفسه لله طرفة عين ويستحيي من مقابلة الله بعمله فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله : يحول بينه وبين الرضى بعمله والرضى عن نفسه وكان بعض السلف يصلي في اليوم والليلة أربعمائة ركعة ثم يقبض على لحيته ويهزها ويقول لنفسه : يا مأوى كل سوء وهل رضيتك لله طرفة عين

وقال بعضهم : آفة العبد رضاه عن نفسه ومن نظر إلى نفسه باستحسان شيء منها فقد أهلكها ومن لم يتهم نفسه على دوام الأوقات فهو مغرور

فصل : قال صاحب المنازل : الدرجة الثانية : الخجل من العمل مع بذل المجهود وتوفير الجهد بالاحتماء من الشهود ورؤية العمل في نور التوفيق من عين الجود

هذه ثلاثة أمور خجلة من عمله وهو شدة حيائه من الله إذ لم ير ذلك العمل صالحا له مع بذل مجهوده فيه قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ : أنهم إلى ربهم راجعون [المؤمنون : 60] قال النبي صلى الله عليه وسلم : هو الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه وقال بعضهم : إني لأصلي ركعتين فأقوم عنهما بمنزلة السارق أو الزاني الذي يراه الناس حياء من الله عز وجل فالمؤمن : جمع إحسانا في مخافة وسوء ظن بنفسه والمغرور : حسن الظن بنفسه مع إساءته الثاني : توفير الجهد باحتمائه من الشهود أي يأتي بجهد الطاقة في تصحيح العمل محتميا عن شهوده منك وبك الثالث : أن تحتمي بنور التوفيق الذي ينور الله به بصيرة العبد فترى في ضوء ذلك النور : أن عملك من عين جوده لا بك ولا منك فقد اشتملت هذه الدرجة على خمسة أشياء : عمل واجتهاد فيه وخجل وحياء من الله عز وجل وصيانة عن شهوده منك ورؤيته من عين جود الله سبحانه ومنه

قال : الدرجة الثالثة : إخلاص العمل بالخلاص من العمل تدعه يسير سير العلم وتسير أنت مشاهدا للحكم حرا من رق الرسم

قد فسر الشيخ مراده بإخلاص العمل من العمل بقوله : تدعه يسير سير العلم وتسير أنت مشاهدا للحكم ومعنى كلامه : أنك تجعل عملك تابعا للعلم موافقا له مؤتما به تسير بسيره وتقف بوقوفه وتتحرك بحركته نازلا منازله مرتويا من موارده ناظرا إلى الحكم الديني الأمري متقيدا به فعلا وتركا وطلبا وهربا ناظرا إلى ترتب الثواب الثواب والعقاب عليه سببا وكسبا ومع ذلك فتسير أنت بقلبك مشاهدا للحكم الكوني القضائي الذي تنطوي فيه الأسباب والمسببات والحركات والسكنات ولا يبقى هناك غير محض المشيئة وتفرد الرب وحده بالأفعال ومصدرها عن إرادته ومشيئته فيكون قائما بالأمر والنهي : فعلا وتركا سائرا بسيره وبالقضاء والقدر : إيمانا وشهودا وحقيقة فهو ناظر إلى الحقيقة قائم بالشريعة وهذان الأمران هما عبودية هاتين الآيتين ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : 2829] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ [الإنسان : 2930]

فترك العمل يسير سير العلم : مشهد لمن شاء منكم أن يستقيم وسير صاحبه مشاهدا للحكم : مشهد وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين وأما قوله : حرا من رق الرسم فالحرية التي يشيرون إليها : هي عدم الدخول تحت عبودية الخلق والنفس والدخول تحت

رق عبودية الحق وحده ومرادهم بالرسم : ما سوى الله فكله رسوم فإن الرسوم هي الآثار ورسوم المنازل والديار : هي الآثار التي تبقى بعد سكانها والمخلوقات بأسرها في منزل الحقيقة ورسوم وآثار للقدرة أي فتخلص نفسك من عبودية كل ما سوى الله وتكون بقلبك مع القادر الحق وحده لا مع آثار قدرته التي هي رسوم فلا تشتغل بغيره لتشغلها بعبوديته ولا تطلب بعبوديتك له حالا ولا مقاما ولا مكاشفة ولا شيئا سواه

(126/825)

فهذه أربعة أمور : بذل الجهد وتحكيم العلم والنظر إلى الحقيقة والتخلص من الالتفات إلى غيره والله الموفق والمعين

فصل : الإخلاص عدم انقسام المطلوب و الصدق عدم انقسام الطلب فحقيقة الإخلاص : توحيد المطلوب وحقيقة الصدق : توحيد الطلب والإرادة ولا يثمران إلا بالاستسلام المحض للمتابعة فهذه الأركان الثلاثة : هي أركان السير وأصول الطريق التي من لم يبن عليها سلوكه وسيره فهو مقطوع وإن ظن أنه سائر فسيره إما إلى عكس جهة مقصوده وإما سير المقعد والمقيد وإما سير صاحب الدابة الجموح كلما مشت خطوة إلى قدام رجعت عشرة إلى خلف فإن عدم الإخلاص والمتابعة : انعكس سيره إلى خلف وإن لم

يبذل جهده ويوحد طلبه : سار سير المقيد وإن اجتمعت له الثلاثة : فذلك الذي لا يجاري في مضمار سيره وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . انتهى . ا هـ

﴿ مدارج السالكين حـ 2 صـ 89 . 97 ﴾

(127/825)

فروق لغوية دقيقة :

الفرق بين الكتب والنسخ وبين المنشور والكتاب والدفتر والصحيفة وما يقرب من ذلك

الفرق بين الكتب والنسخ

ان النسخ نقل معاني الكتاب وأصله الإزالة ومنه نسخت الشمس الظل وإذا نقلت معاني الكتاب إلى آخر فكانك اسقطت الأول وأبطلته والكتب قد يكون نقلا وغيره وكل نسخ كتب وليس كل كتب نسخا

الفرق بين الزبر والكتب

أن الزبر الكتابة في الحجر نقرا ثم ذلك حتى سمي كل كتابة زبرا قوال أبو بكر أكثر ما يقال الزبر وأعرفه الكتابة في الحجر قال وأهل اليمن يسمون كل كتابة زبر وأصل الكلمة الفخامة والغلظ ومنه سميت القطعة من الحديد زبرة والشعر المجتمع على كتف الأسد زبرة وزبرت

البشر إذا طويتها بالحجارة وذلك لغلظ الحجارة وإنما قيل للكتابة في الحجر زبر لأنها كتابة غليظة ليس كما يكتب في الرقوق والكواغد وفي الحديث الفقير الذي لا زبر له قالوا لا معتمد له وهو مثل قولهم رقيق الحال كأن الزبر فخامة الحال ويجوز أن يقال الزبور كتاب يتضمن الزبر عن خلاف الحق من قولك زبرة إذا زجره وسمي زبور داود لكثرة مزاجره وقال الزجاج الزبور كل كتاب ذي حكمة

الفرق بين المنشور والكتاب

أن قولنا عند فلان منشور يفيد أن عنده مكتوبا يقويه ويؤيده والمنشور في الأصل صفة الكتاب

وفي القرآن (كتابا يلقاه منشورا) لأنه قد صار اسما للكتاب المفيد الفائدة التي ذكرنا والكتاب لا يفيد ذلك

الفرق بين الكتاب والدفتر

أن الكتاب يفيد أنه مكتوب ولا يفيد الدفتر ذلك ألا ترى أنك تقول عندي بياض ولا تقول عندي كتاب بياض

الفرق بين الصحيفة والدفتر

أن الدفتر لا يكون إلا أوراقا مجموعة والصحيفة تكون ورقة واحدة تقول عندي صحيفة بيضاء فإذا قلت صحف أفدت أنها مكتوبة وقال بعضهم يقال صحائف بيض ولا يقال

صحف بيض وإنما يقال من صحائف إلى صحف ليفيد أنها مكتوبة وفي القرآن (وإذا الصحف نشرت)

وقال أبو بكر الصحيفة قطعة من ادم أبيض أو ورق يكتب فيه

(128/825)

الفرق بين الكتاب والمصحف

أن الكتاب يكون ورقة واحدة ويكون جملة أوراق والمصحف لا يكون إلا جماعة أوراق صحفت أي جمع بعضها الى بعض وأهل الحجاز يقولون مصحف بالكسر أخرجوه مخرج ما يتعاطى باليد وأهل نجد يقولون مصحف وهو أجود اللغتين وأكثر ما يقال المصحف لمصحف القرآن والكتاب أيضا يكون مصدرا بمعنى الكتابة تقول كتبته كتابا وعلمته الكتاب والحساب وفي القرآن (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس)

أي كتبا في قرطاس ولو كان الكتاب هو المكتوب لم يحسن ذكر القرطاس

الفرق بين الكتاب والسفر

أن السفر الكتاب الكبير وقال الزجاج الأسفار الكتب الكبار وقال بعضهم السفر الكتاب يتضمن علوم

الديانات خاصة ولاذي يوجبه الاشتقاق أن يكون السفر الواضح الكاشف للمعاني من قولك أسفر الصبح إذا أضاء وسفرت المرأة نقابها إذا ألقته فانكشف وجهها وسفرت البيت كنسته وذلك لإزالتك التراب عنه حتى تنكشف أرضه وسفرت الريح التراب أو السحاب غذا قشعته فانكشفت السماء

الفرق بين الكتاب والمجلة

أن المجلة كتاب يحتوي على أشياء جليلة من الحكم وغيرها قال النابغة من الطويل

مجلتهم ذات الإله ودينهم

كريم به يرجون حسن العواقب

ويقال للكتاب إذا اشتمل على السخف والمجون وما شاكل ذلك مجلة. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ الفروق اللغوية صـ 312.310 ﴾

(129/825)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا

عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي وقع منهم الستر لمرائي عقولهم بعد صرفها للنظر الصحيح فضلوا واستمروا على ذلك وإن لم يكونوا عريقين فيه ﴿ من أهل الكتاب ﴾ أي اليهود والنصارى ﴿ والمشركين ﴾ أي العريقين في الشرك ، ودل بالإتيان بالوصف هنا والفعل في أولئك - والله أعلم - على أن المشرك يرجع عن شركه ويؤمن إن لم يكن عريقاً في الشرك بخلاف أهل الكتاب متى تلبس أحد منهم بكفر لا يرجع عنه وإن كان تلبسه به على أضعف الوجوه ، وكذا كل من ينسب إلى علم ولا سيما إن كان بليداً متى عرضت له شبهة بعد رجوعه عنها ، فلذلك جمع بينهم في قوله : ﴿ في نار جهنم ﴾ أي النار التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة تكون عذاباً لأجسامهم ﴿ خالدين فيها ﴾ أي يوم القيامة أو في الحال لسعيهم في موجباتها ، واشتراك الفريقين في جنس العذاب لا يوجب التساوي في النوع بل يختلف بحسب اشتداد الكفر وخفته .

ولما كان معظم السياق للعبادة والترغيب فيها من القراءة والسجود والانفكاك عن الكفر ، لم يذكر التأبيد بلفظه ، بل اكتفى بما دل عليه وقال في نتيجة ما مضى : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء البغضاء ﴿ هم ﴾ أي خاصة بما لضمائرهم من الخبث ﴿ شر البرية ﴾ أي

الخليقة الذين أهملوا إصلاح أنفسهم، وفرطوا في حوائجهم ومآربهم، وهذا نار لأرواحهم حين ينادى عليهم به.

ولما ذكر الأعداء وبدأ بهم، لأن السياق لذم من جمد من المألوف وترك المعروف، أتبعه الأولياء فقال مؤكداً لما للكفار من الإنكار: ﴿إن الذين آمنوا﴾ أي أقروا بالإيمان من الخلق كلهم الملائكة وغيرهم ﴿وعملوا﴾ أي تصديقاً لإيمانهم ﴿الصالحات﴾ أي هذا النوع، ولما كان نعيم القلب أعظم، قدمه على نعيم البدن إبلاغاً في مدحهم فقال: ﴿أولئك﴾ أي العالو الدرجات ﴿هم﴾ أي خاصة ﴿خير البرية﴾.

(130/825)

ولما خصصهم بالخيرية، ذكر ثوابهم، فقال ذاكراً جنة أبدانهم معظماً لهم بالتعبير عن إنعامه عليهم بلفظ الجزاء المؤذن بأنه مقابلة ما وصفوا به: ﴿جزاؤهم﴾ أي على طاعاتهم، وعظمه بقوله: ﴿عند ربهم﴾ إليهم المربي لهم وأي المحسن ﴿جنات عدن﴾ أي إقامة لا تحول عنها ﴿تجري﴾ أي جرياً دائماً لا انقطاع له.

ولما كان عموم الماء مانعاً من تمام اللذة، قرب وبعض بقوله: ﴿من تحتها﴾ أي تحت أرضها وغرفها وأشجارها ﴿الأنهار﴾.

ولما كانت اللذة لا تكمل إلا بالدوام قال : ﴿ خالدين فيها ﴾ ولما كان النظر إلى الترغيب في هذا السياق أتم حثاً على اتباع الدليل المعروف ، والمفارقة للحال المألوف ، أكد معنى الخلود تعظيماً لجزائهم بقوله : ﴿ أبداً ﴾ .

ولما كان هذا كله ثمرة الرضا ، وكان التصريح به أقر للعين لأنه جنة الروح ، قال مستأنفاً أو معللاً : ﴿ رضي الله ﴾ أي بما له من نعوت الجلال والجمال ﴿ عنهم ﴾ أي بما كان سبق لهم من العناية والتوفيق .

ولما كان الرضا إذا كان من الجانبين ، كان أتم وأعلى لهم قال : ﴿ ورضوا عنه ﴾ لأنهم لم يبق لهم أمنية إلا أعطاهموها مع علمهم أنه متفضل في جميع ذلك ، لا يجب عليه لأحد شيء ولا يقدره أحد حق قدره ، فلو أخذ الخلق بما يستحقونه أهلكهم ، وأعظم نعمه عليهم ما منّ عليهم به من متابعتهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فإن ذلك كان سبباً لكل خير .

ولما كان ذلك ربما ادعى أنه لناس مخصوصين في زمان مخصوص ، قال معمماً له ومنبهاً على الوصف الذي كان سبب أعمالهم التي كانت سبب جزائهم : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العالي

الذي جوزوا به ﴿ لمن خشي ربه ﴾ أي خاف المحسن إليه خوفاً يليق به ، فلم يركن إلى التسويف والتكاسل ، ولم يطبع نفسه بالشر بالجري مع الهوى في التطعم بالمحرمات بل كان ممن يطلب معالي الأخلاق فيستفتي قلبه فيما يرضي ربه ، فكان تواتر إحسانه يزيده خوفاً فيزيده شكراً ، فإن الخشية ملاك الأمر ، والباعث على كل خير ، وهي للعارفين ، قال الملوي ما معناه : إن الإنسان إذا استشعر عقاباً يأتيه أو خسراً ، لحقته حالة يقال لها الخوف وهي انخلاع القلب عن طمأنينة الأمن وقلقه واضطرابه لتوقع مكروه ، فإن اشتد سمي وجلاً لجولانه في نفسه ، فإذا اشتد سمي رهباً لأدائه إلى الهرب ، وهي حالة المؤمنين الفارين إلى الله ومن غلب عليه الحب لاستغراق في شهود الجماليات لحقته حالة تسمى مهابة إذ لا ينفك عن خوف إبعاد أو صد لغفلة أو ذلة ، ومن غلب عليه التعظيم لاستغراق في شهود الجلاليات صار في الإجلال ، ووراء هذا الخشية

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر : 28] فمن خاف ربه هذا الخوف انفك من جميع ما عنده مما لا يليق بجنابه سبحانه ، ولم يقدح في البينة ولا توقف فيها ، وما فارق الخوف قلباً إلا خرب ، فكان جديراً بأن يقدح في كل ما أدى إلى العمارة ، وقد رجع آخر

السورة على أولها بذلك ، وبتصنيف الناس صنفين : صنف انفك عن هوى نفسه فأنجاها ، وصنف استمر في أسرها فأرداها ، وقد ذكرت في " مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور " سر تخصيص النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبيّ ـ رضى الله عنه ـ بقراءة هذه السورة عليه بخصوصها ، وحاصله أن سبب تخصيصه بذلك أنه وجد اثنين من الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م قد خالفاه في القراءة فرفعهما إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمرهما فعرضا عليه فحسن لهما ، قال : فسقط في نفسي من التكذيب أشد مما كان في الجاهلية ، فضرب ـ صلى الله عليه وسلم ـ في صدري ففضت عرقاً ، وكأنما أنظر إلى الله فرقاً ، ثم قص عليّ خبر التخفيف بالسبعة الأحرف ، وكانت السورة التي وقع فيها الخلاف النحل وفيها أن الله يبعث رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم البعث شهيداً ، وأنه نزل عليه الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة ، وأنه نزل عليه روح القدس بالحق ليثبت الذين آمنوا ، وأن اليهود اختلفوا في السبت ، وسورة ﴿ لم يكن ﴾ على قصرها حاوية إجمالاً لكل ما في النحل على طولها بزيادة ، وفيها التحذير من الشك بعد البيان ، وتقبيح حال من فعل ذلك ، وأن حاله يكون كحال الكفرة من أهل الكتاب في العناد ، فيكون شر البرية ، فقرأها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليه ـ رضى الله عنه ـ تذكيراً له بذلك كله على وجه أبلغ وأخصر ليكون أسرع له تصوراً فيكون أرسخ في النفس وأثبت في القلب وأعشق للطبع

، فاختصه الله بالتثبيت وأراد له الثبات ، فكان من المريدين المرادين لما وصل إليه قلبه بيركة ضرب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لصدره من كشفه الحجب ونفي الشياطين

والنظر إلى سبحات القدس وشهود تلك الحضرة الشماء ، وصيرورته إلى أن يكون أصفى الصحابة ـ رضى الله عنه ـ م مراقبة لتلاوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما يتذكر من الأمر الشريف بتخصيصه بذلك ، فيصير كلما قرأ هذه السورة الجامعة غائباً عن تلاوة نفسه مصغياً بأذني قلبه إلى روح النبوة يتلو عليه ذلك فيدوم له حال الشهود الذي وصل إليه بسر تلك الضربة .

ولثبوته في هذا المقام قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أقرؤكم أبيّ " رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن أنس رضي الله تعالى عنه وهو صحيح ورواه بعضهم مرسلاً ، ومما فيه ولم أذكره في المصاعد سنة التواضع حتى لا يمنع أحداً ما يراه من علوه من القراءة على من هو دونه فإنه ما منع أكثر أهل الكتاب من الإسلام إلا رؤية ما كانوا عليه من العلم بكتب الله وسنن الرسل عليهم الصلاة والسلام وجهل العرب بذلك ، فنظروا إلى ما كان ولم ينظروا إلى الحالة الراهنة الآن ، فحلق الحسد أديانهم وسلبهم إيمانهم ، وصاروا أشقى الناس – كما

نبه عليه أول السورة – نسأل الله العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة – آمين . انتهى

انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 500.503﴾

(134/825)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال الكفار أولاً في قوله : ﴿لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين﴾ [البينة : 1] ثم ذكر ثانياً حال المؤمنين في قوله : ﴿وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله﴾ [البينة : 5] أعاد في آخر هذه السورة ذكر كلا الفريقين ، فبدأ أيضاً بحال الكفار ، فقال : ﴿إِنَّ الذين كَفَرُواْ﴾ واعلم أنه تعالى ذكر من أحوالهم أمرين أحدهما : الخلود في نار جهنم والثاني : أنهم شر الخلق ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : لم قدم أهل الكتاب على المشركين في الذكر ؟ الجواب : من وجوه أحدها : أنه عليه الصلاة والسلام ، كان يقدم حق الله سبحانه على حق نفسه ، ألا ترى أن القوم لما كسروا رباعيته قال : " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون " ولما فاتته صلاة العصر يوم الخندق

قال : " اللهم املأ بطونهم وقبورهم ناراً " فكأنه عليه السلام قال : كانت الضربة ثم على وجه الصورة ، وفي يوم الخندق على وجه السيرة التي هي الصلاة ، ثم إنه سبحانه قضاه ذلك فقال : كما قدمت حقي على حقك فأنا أيضاً أقدم حقك على حق نفسي ، فمن ترك الصلاة طول عمره لا يكفر ومن طعن في شعرة من شعراتك يكفر .

(135/825)

إذا عرفت ذلك فنقول : أهل الكتاب ما كانوا يطعنون في الله بل في الرسول ، وأما المشركون فإنهم كانوا يطعنون في الله ، فلما أراد الله تعالى في هذه الآية أن يذكر سوء حالهم بدأ أولاً في النكاية بذكر من طعن في محمد عليه الصلاة والسلام وهم أهل الكتاب ، ثم ثانيا بذكر من طعن فيه تعالى وهم المشركون وثانيها : أن جناية أهل الكتاب في حق الرسول عليه السلام كانت أعظم ، لأن المشركين رأوه صغيراً ونشأ فيما بينهم (1) ، ثم سفه أحلامهم وأبطل أديانهم ، وهذا أمر شاق ، أما أهل الكتاب فقد كانوا يستفتحون برسالته ويقرون بمبعثه فلما جاءهم أنكروه مع العلم به فكانت جنايتهم أشد .

السؤال الثاني : لم ذكر : ﴿ كَفَرُواْ ﴾ بلفظ الفعل : ﴿ والمشركين ﴾ باسم الفاعل ؟

والجواب : تنبيهاً على أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أول الأمر لأنهم كانوا مصدقين

بالتوراة والإنجيل ، ومقرين بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم كفروا بذلك بعد مبعثه عليه السلام بخلاف المشركين فإنهم ولدوا على عبادة الأوثان وإنكار الحشر والقيامة .

---

(1) لعل الأولى أن يقال : ونشأ يتيما بينهم ، ولعل فيما صحفت عن يتيما .

(136/825)

السؤال الثالث : أن المشركين كانوا ينكرون الصانع وينكرون النبوة وينكرون القيامة ، أما أهل الكتاب فكانوا مقرين بكل هذه الأشياء إلا أنهم كانوا منكرين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان كفر أهل الكتاب أخف من كفر المشركين ، وإذا كان كذلك فكيف يجوز التسوية بين الفريقين في العذاب ؟ والجواب : يقال : بئر جهنام إذا كان بعيد القعر ، فكأنه تعالى يقول تكبروا طلباً للرفعة فصاروا إلى أسفل السافلين ، ثم إن الفريقين وإن اشتراكا في ذلك لكنه لا ينافي اشتراكهم في هذا القدر تفاوتهم في مراتب العذاب ، واعلم أن الوجه في حسن هذا العذاب أن الإساءة على قسمين إساءة إلى من أساء إليك وإساءة إلى من أحسن إليك ، وهذا القسم الثاني هو أقبح القسمين والإحسان أيضاً على قسمين إحسان إلى من أحسن إليك ، وإحسان إلى من أساء إليك ، وهذا أحسن القسمين ،

فكان إحسان الله إلى هؤلاء الكفار أعظم أنواع الإحسان وإساءتهم وكفرهم أقبح أنواع الإساءة ، ومعلوم أن العقوبة إنما تكون بحسب الجناية ، فبالشتم تعزير وبالقذف حد وبالسرقة قطع ، وبالزنا رجم ، وبالقتل قصاص ، بل شتم المماثل يوجب التعزير ، والنظر الشزر إلى الرسول يوجب القتل ، فلما كانت جناية هؤلاء الكفار أعظم الجنايات ، لا جرم استحقوا أعظم العقوبات ، وهو نار جهنم ، فإنها نار في موضع عميق مظلم هائل لا مفر عنه ألبتة ، ثم كأنه قال قائل : هب أنه ليس هناك رجاء الفرار ، فهل هناك رجاء الإخراج ؟ فقال : لا بل يبقون خالدين فيها ، ثم كأنه قيل : فهل هناك أحد يرق قلبه عليهم ؟ فقال : لا بل يذمونهم ، ويلعنونهم لأنهم شر البرية .

(137/825)

السؤال الرابع : ما السبب في أنه لم يقل ههنا خالدين فيها أبداً ، وقال في صفة أهل الثواب : ﴿ خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ [البينة : 8] ؟ والجواب : من وجوه أحدها : التنبيه على أن رحمته أزيد من غضبه وثانيها : أن العقوبات والحدود والكفارات تتداخل ، أما الثواب فأقسامه لا تتداخل وثالثها : روى حكاية عن الله أنه قال : يا داود حببني إلى خلقي ، قال : وكيف أفعل ذلك ؟ قال : اذكر لهم سعة رحمتي ، فكان هذا من هذا الباب .

السؤال الخامس : كيف القراءة في لفظ البرية ؟ الجواب : قرأ نافع البريئة بالهمز ، وقرأ الباقون بغير همز وهو من برأ الله الخلق ، والقياس فيها الهمز إلا أنه ترك همزه ، كالنبي والذرية والخابية ، والهمزة فيه كالرد إلى الأصل المتروك في الاستعمال ، كما أن من همز النبي كان كذلك وترك الهمز فيه أجود ، وإن كان الهمز هو الأصل ، لأن ذلك صار كالشيء المرفوض المتروك .

وهمز من همز البرية يدل على فساد قول من قال : إنه من البرا الذي هو التراب .

السؤال السادس : ما الفائدة في قوله : ﴿ هم شر البرية ﴾ ؟ الجواب : أنه يفيد النفي والإثبات أي هم دون غيرهم ، واعلم أن شر البرية جملة يطول تفصيلها ، شر من السراق ، لأنهم سرقوا من كتاب الله ، صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر من قطاع الطريق ، لأنهم قطعوا طريق الحق على الخلق ، وشر من الجهال الأجلاف ، لأن الكبر مع العلم يكون كفر عناد فيكون أقبح .

واعلم أن هذا تنبيه على أن وعيد علماء السوء أعظم من وعيد كل أحد .

السؤال السابع : هذه الآية هل هي مجراة على عمومها ؟ الجواب : لا بل هي مخصوصة بصورتين إحداهما : أن من تاب منهم وأسلم خرج عن الوعيد والثانية : قال بعضهم : لا يجوز أن يدخل في الآية من مضى من الكفار ، لأن فرعون كان شراً منهم ، فأما الآية الثانية وهي الآية الدالة على ثواب المؤمنين فعامة فيمن تقدم وتأخر ، لأنهم أفضل الأمم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البرية ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

الوجه في حسن تقديم الوعيد على الوعد وجوه أحدها : أن الوعيد كالدواء ، والوعد كالغذاء ، ويجب تقديم الدواء حتى إذا صار البدن نقياً انتفع بالغذاء ، فإن البدن غير النقي كلما غذوته زدته شراً ، هكذا قاله بقراط في كتاب " الفصول " وثانيها : أن الجلد بعد الدبغ يصير صالحاً للمدارس والخف ، أما قبله فلا ، ولذلك فإن الإنسان متى وقع في محنة أو شدة رجع إلى الله ، فإذا نال الدنيا أعرض ، على ما قال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] وثالثها : أن فيه بشارة ، كأنه تعالى يقول : لما لم يكن بد من الأمرين ختمت بالوعد الذي هو بشارة مني في أني أختم أمرك بالخير ، ألست كنت نجساً في مكان نجس ، ثم أخرجتك إلى الدنيا طاهراً ، أفلا أخرجك إلى الجنة طاهراً ! .

المسألة الثانية :

احتج من قال : إن الطاعات ليست داخلة في مسمى الإيمان بأن الأعمال الصالحة معطوفة

في هذه الآية على الإيمان، والمعطوف غير المعطوف عليه.

المسألة الثالثة:

قال: ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ ولم يقل: إن المؤمنين إشارة إلى أنهم أقاموا سوق الإسلام حال كساده، وبذلوا الأموال والمهج لأجله، ولهذا السبب استحقوا الفضيلة العظمى كما قال: ﴿ لاَ يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الفتح وقاتل ﴾ [الحديد: 10] ولفظة: ﴿ ءامَنُواْ ﴾ أي فعلوا الإيمان مرة.

واعلم أن الذين يعتبرون الموافاة يحتجون بهذه الآية، وذلك لأنها تدل على أن من أتى بالإيمان مرة واحدة فله هذا الثواب، والذي يموت على الكفر لا يكون له هذا الثواب، فعلمنا أنه ما صدر الإيمان عنه في الحقيقة قبل ذلك.

المسألة الرابعة:

قوله: ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ من مقابلة الجمع بالجمع، فلا يكلف الواحد بجميع الصالحات، بل لكل مكلف حظ فحظ الغني الإعطاء، وحظ الفقير الأخذ.

المسألة الخامسة:

احتج بعضهم بهذه الآية في تفضيل البشر على الملك ، قالوا : روى أبو هريرة أنه عليه السلام قال : " أتعجبون من منزلة الملائكة من الله تعالى ! والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من ذلك ، واقرؤا إن شئتم : ﴿ أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ "

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف لوجوه : أحدها : ما روى عن يزيد النحوي أن البرية بنو آدم من البرا وهو التراب فلا يدخل الملك فيه ألبتة وثانيها : أن قوله : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ غير مختص بالبشر بل يدخل فيه الملك وثالثها : أن الملك خرج عن النص بسائر الدلائل ، قالوا : وذلك لأن الفضيلة إما مكتسبة أو موهوبة ، فإن نظرت إلى الموهوبة فأصلهم من نور وأصلك من حمأ مسنون ، ومسكنهم دار لم يترك فيها أبوك مع الزلة ومسكنكم أرض هي مسكن الشياطين ، وايضاً فمصالحنا منتظمة بهم ورزقنا في يد البعض وروحنا في يد البعض ، ثم هم العلماء ونحن المتعلمون ، ثم انظر إلى عظيم همتهم لا يميلون إلى محقرات الذنوب ، ومن ذلك فإن الله تعالى لم يحك عنهم سوى دعوى الإلهية حين قال :

﴿ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنّى إله مّن دُونِهِ ﴾ [الأنبياء : 29] أي لو أقدموا على ذنب فهمتهم بلغت غاية لا يليق بها إلا دعوى الربوبية ، وأنت أبداً عبد البطن والفرج ، وأما العبادة فهم أكثر عبادة من النبي لأنه تعالى مدح النبي بإحياء ثلثي الليل وقال فيهم : ﴿ يُسَبّحُونَ الليل

والنهار لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء : 20] ومرة : ﴿لَا يَسْئَمُونَ﴾ [فصلت : 38] وتمام القول في هذه المسألة قد تقدم في سورة البقرة .

(140/825)

جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)

اعلم أن التفسير ظاهر ونحن نذكر ما فيها من اللطائف في مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن المكلف لما تأمل وجد نفسه مخلوقاً من المحن والآفات ، فصاغه من أنجس شيء في أضيق مكان إلى أن خرج باكياً لا للفراق ولكن مشتكياً من وحشة الحبس ليرحم ، كالذي يطلق من الحبس يغلبه البكاء ليرحم ، ثم لم يرحم بل شدته القابلة ولم يكن مشدوداً في الرحم ثم لم يمض قليل مدة حتى ألقوا في المهد وشدوه بالقماط ، ثم لم يمض قليل حتى أسلموه إلى أستاذ يحبسه في المكتب ويضربه على التعليم وهكذا إلى أن بلغ الحلم ، ثم بعد ذلك شد بمسامير العقل والتكليف ، ثم إن المكلف يصير كالمتحير ، يقول : من الذي يفعل في هذه الأفعال مع أنه ما صدرت عني جناية ! فلم يزل يتفكر حتى ظفر بالفاعل ، فوجده

عالماً لا يشبه العالمين ، وقادراً لا يشبه القادرين ، وعرف أن كل ذلك وإن كان صورته صورة المحنة ، لكن حقيقته محض الكرم والرحمة ، فترك الشكاية وأقبل على الشكر ، ثم وقع في قلب العبد أن يقابل إحسانه بالخدمة له والطاعة ، فجعل قلبه مسكناً لسطان عرفانه ، فكأن الحق قال : عبدي أنزل معرفتي في قلبك حتى لا يخرجها منه شيء أو يسبقها هناك فيقول العبد : يا رب أنزلت حب الثدي في قلبي ثم أخرجته ، وكذا حب الأب والأم ، وحب الدنيا وشهواتها وأخرجت الكل .

(141/825)

أما حبك وعرفانك فلا أخرجهما من قلبي ، ثم إنه لما بقيت المعرفة والمحبة في أرض القلب انفجر من هذا الينبوع أنهار وجداول ، فالجدول الذي وصل إلى العين حصل منه الاعتبار ، والذي وصل إلى الأذن حصل منه استماع مناجاة الموجودات وتسبيحاتهم ، وهكذا في جميع الأعضاء والجوارح ، فيقول الله : عبدي جعلت قلبك كالجنة لي وأجريت فيه تلك الأنهار دائمة مخلدة ، فأنت مع عجزك وقصورك فعلت هذا ، فأنا أولى بالجود والكرم والرحمة فجنة بجنة ، فلهذا قال : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جنات عَدْنٍ * تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ بل كأن الكريم الرحيم يقول : عبدي أعطاني كل ما ملكه ، وأنا أعطيته بعض ما

في ملكي ، وأنا أولى منه بالكرم والجود ، فلا جرم جعلت هذا البعض منه موهوباً دائماً مخلداً ، حتى يكون دوامه وخلوده جابراً لما فيه من النقصان الحاصل بسبب البعضية .

المسألة الثانية :

الجزاء اسم لما يقع به الكفاية ، ومنه اجتزت الماشية بالحشيش الرطب عن الماء ، فهذا يفيد معنيين أحدهما : أنه يعطيه الجزاء الوافر من غير نقص والثاني : أنه تعالى يعطيه ما يقع به الكفاية ، فلا يبقى في نفسه شيء إلا والمطلوب يكون حاصلاً ، على ما قال : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ﴾ [فصلت : 31] .

المسألة الثانية :

قال : ﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ فأضاف الجزاء إليهم ، والإضافة المطلقة تدل على الملكية فكيف الجمع بينه وبين قوله :

(142/825)

﴿ الذى أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ ﴾ [فاطر : 35] والجواب : أما أهل السنة فإنهم يقولون : إنه لو قال الملك الكريم : من حرك أصبعه أعطيته ألف دينار ، فهذا شرط وجزاء بحسب اللغة وبحسب الوضع لا بحسب الاستحقاق الذاتي ، فقوله : ﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾

يكفي في صدقه هذا المعنى وأما المعتزلة فإنهم قالوا : في قوله تعالى : ﴿ الذى أَحَلَّنَا دَارَ المقامة مِن فَضْلِهِ ﴾ إن كلمة من لابتداء الغاية ، فالمعنى أن استحقاق هذه الجنان ، إنما حصل بسبب فضلك السابق فإنك لولا أنك خلقتنا وأعطيتنا القدرة والعقل وأزلت الأعذار وأعطيت الألطاف وإلا لما وصلنا إلى هذه الدرجة .

فإن قيل : فإذا كان لا حق لأحد عليه في مذهبكم ، فما السبب في التزام مثل هذا الإنعام ؟ قلنا : أتسأل عن إنعامه الأمسى حال عدمنا ؟ أو عن إنعامه اليومي حال التكليف ؟ أو عن إنعامه في غد القيامة ؟ فإن سألت عن الأمسي فكأنه يقول : أنا منزه عن الانتفاع والمائدة مملوءة من المنافع فلو لم أخلق الخلق لضاعت هذه المنافع ، فكما أن من له مال ولا عيال له فإنه يشتري العبيد والجواري لينتفعوا بماله ، فهو سبحانه اشترى من دار العدم هذا الخلق لينتفعوا بملكه ، كما روى : "الخلق عيال الله" وأما اليومي فالنعمان (1) يوجب الإتمام بعد الشروع .

فالرحمن أولى .

وأما الغد فأنا مديونهم بحكم الوعد والإخبار فكيف لا أفي بذلك .

---

(1) يراد بالنعمان الوصفية من الإنعام ، أو الاسمية والاسمية نص الأولى يقصد النعمان بن المنذر بن ماء السماء ، وهو .

المسألة الرابعة :

في قوله : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ لطائف :

أحدها : قال بعض الفقهاء : لو قال : لا شيء لي على فلان ، فهذا يختص بالديون وله أن يدعي الوديعة ، ولو قال : لا شيء لي عند فلان انصرف إلى الوديعة دون الدين ، ولو قال : لا شيء لي قبل فلان انصرف إلى الدين والوديعة معاً ، إذا عرفت هذا فقوله : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يفيد أنه وديعة والوديعة عين ، ولو قال : لفلان علي فهو إقرار بالدين ، والعين أشرف من الدين فقوله : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يفيد أنه كالمال المعين الحاضر العتيد ، فإن قيل : الوديعة أمانة وغير مضمونة والدين مضمون والمضمون خير مما كان غير مضمون ، قلنا : المضمون خير إذا تصور الهلاك فيه وهذا في حق الله تعالى محال ، فلا جرم قلنا : الوديعة هناك خير من المضمون .

وثانيها : إذا وقعت الفتنة في البلدة ، فوضعت مالك عند إمام المحلة على سبيل الوديعة صرت فارغ القلب ، فههنا ستقع الفتنة في بلدة بدنك ، وحينئذ تخاف الشيطان من أن يغيروا عليها ، فضع وديعة أمانتك عندي فإني أكتب لك به كتاباً يتلى في المحاريب إلى يوم

القيامة وهو قوله : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ حتى أسلمه إليك أحوج ما تكون إليه وهو في عرصة القيامة .

وثالثها : أنه قال : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وفيه بشارة عظيمة ، كأنه تعالى يقول : أنا الذي ربيتك أولاً حين كنت معدوماً صفر اليد من الوجود والحياة والعقل والقدرة ، فخلقتك وأعطيتك كل هذه الأشياء فحين كنت مطلقاً أعطيتك هذه الأشياء ، وما ضيعتك أترى أنك إذا اكتسبت شيئاً وجعلته وديعة عندي فأنا أضيعها ، كلا إن هذا مما لا يكون .

المسألة الخامسة :

قوله : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جنات ﴾ فيه قولان :

(144/825)

أحدهما : أنه قابل الجمع بالجمع ، وهو يقتضي مقابلة الفرد بالفرد ، كما لو قال لامرأتيه أو عبديه : إن دخلتما هاتين الدارين فأنتما كذا فيحمل هذا على أن يدخل كل واحد منهما داراً على حدة ، وعن أبي يوسف لم يحنث حتى يدخلا الدارين ، وعلى هذا إن ملكتما هذين العبدين ، ودليل القول الأول : ﴿ جَعَلُوٓاْ أَصَابِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ [نوح : 7] فعلى القول الأول يبين أن الجزاء لكل مكلف جنة واحدة ، لكن أدنى تلك الجنات

مثل الدنيا بما فيها عشر مرات كذا روي مرفوعاً ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمُلْكاً كَبِيراً ﴾ [الإنسان : 20] ويحتمل أن يراد لكل مكلف جنات ، كما روي عن أبي يوسف وعليه يدل القرآن ، لأنه قال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 26] ثم قال : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 62] فذكر أربعاً للواحد ، والسبب فيه أنه بكى من خوف الله ، وذلك البكاء إنما نزل من أربعة أجفان اثنان دون الإثنين ، فاستحق جنتين دون الجنتين ، فحصلت له أربع جنات ، لسكبه البكاء من أربعة أجفان ، ثم إنه تعالى قدم الخوف في قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ وأخر الخوف في هذه الآية لأنه ختم السورة بقوله : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ وفيه إشارة إلى أنه لا بد من دوام الخوف ، أما قبل العمل فالحاصل خوف الاختلال ، وأما بعد العمل فالحاصل خوف الخلاف ، إذ هذه العبادة لا تليق بتلك الحضرة .

المسألة السادسة :

قوله : ﴿ عَدْنٍ ﴾ يفيد الإقامة : ﴿ لاَ يُخْرَجُونَ مِنْهَا ﴾ [الجاثيه : 45] ﴿ وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : 48] ﴿ لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف : 108] يقال : عدن

بالمكان أقام ، وروي أن جنات عدن وسط الجنة ، وقيل : عدن من المعدن أي هي معدن النعيم والأمن والسلامة ، قال بعضهم : إنها سميت جنة إما من الجن أو الجنون أو الجنة أو الجنين ، فإن كانت من الجن فهم المخصوصون بسرعة الحركة يطوفون العالم في ساعة واحدة فكأنه تعالى قال : إنها في إيصال المكلف إلى مشتهياته في غاية الإسراع .

مثل حركة الجن ، مع أنها دار إقامة وعدن ، وإما من الجنون فهو أن الجنة ، بحيث لو رآها العاقل يصير كالمجنون ، لولا أن الله بفضله يثبته ، وإما من الجنة فلأنها جنة واقية تقيك من النار ، أو من الجنين ، فلأن المكلف يكون في الجنة في غاية التنعم ، ويكون كالجنين لا يمسه برد ولا حر ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾ [الإنسان : 13] .

المسألة السابعة :

قوله : ﴿ تَجْرِى ﴾ إشارة إلى أن الماء الجاري ألطف من الراكد ، ومن ذلك النظر إلى الماء الجاري ، يزيد نوراً في البصر بل كأنه تعالى قال : طاعتك كانت جارية ما دمت حياً على ما قال :

﴿ واعبد ربَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [الحجر : 99] فوجب أن تكون أنهار إكرامي جارية إلى الأبد ، ثم قال : ﴿ من تحتها ﴾ إشارة إلى عدم التنغيص ، وذلك لأن التنغيص في البستان ، إما بسبب عدم الماء الجاري فذكر الجري الدائم ، وإما بسبب الغرق والكثرة ، فذكر من تحتها ، ثم الألف واللام في الأنهار للتعريف فتكون منصرفة إلى الأنهار المذكورة في القرآن ، وهي نهر الماء واللبن والعسل والخمر ، واعلم أن النهار والأنهار من السعة والضياء ، فلا تسمى الساقية نهراً ، بل العظيم هو الذي يسمى نهراً بدليل قوله : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفلكَ لِتَجْرِىَ فِى البحر بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنهار ﴾ [إبراهيم : 32] فعطف ذلك على البحر .

المسألة الثامنة :

اعلم أنه تعالى لما وصف الجنة أتبعه بما هو أفضل من الجنة وهو الخلود أولاً والرضا ثانياً ، وروى أنه عليه السلام قال : " إن الخلود في الجنة خير من الجنة ورضا الله خير من الجنة " .

أما الصفة الأولى : وهي الخلود ، فاعلم أن الله وصف الجنة مرة بجنات عدن ومرة بجنات النعيم ومرة بدار السلام ، وهذه الأوصاف الثلاثة إنما حصلت لأنك ركبت إيمانك من أمور ثلاثة اعتقاد وقول وعمل .

وأما الصفة الثانية : وهي الرضا ، فاعلم أن العبد مخلوق من جسد وروح ، فجنة الجسد هي الجنة الموصوفة وجنة الروح هي رضا الرب ، والإنسان مبتدأ أمره من عالم الجسد

ومنتهى أمره من عالم العقل والروح، فلا جرم ابتدأ بالجنة وجعل المنتهى هو رضا الله، ثم إنه قدم رضى الله عنهم على قوله: ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ لأن الأزلي هو المؤثر في المحدث، والمحدث لا يؤثر في الأزلي.

المسألة التاسعة:

(147/825)

إنما قال: ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ ولم يقل رضي الرب عنهم ولا سائر الأسماء لأن أشد الأسماء هيبة وجلالة لفظ الله، لأنه هو الاسم الدال على الذات والصفات بأسرها أعني صفات الجلال وصفات الإكرام، فلو قال: رضي الرب عنهم لم يشعر ذلك بكمال طاعة العبد لأن المربي قد يكتفي بالقليل، أما لفظ الله فيفيد غاية الجلالة والهيبة، وفي مثل هذه الحضرة لا يحصل الرضا إلا بالفعل الكامل والخدمة التامة، فقوله: ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ يفيد تطرية فعل العبد من هذه الجهة.

المسألة العاشرة:

اختلفوا في قوله: ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾ فقال بعضهم: معناه رضي أعمالهم، وقال بعضهم: المراد رضي بأن يمدحهم ويعظمهم، قال: لأن الرضا عن الفاعل غير الرضا بفعله

، وهذا هو الأقرب ، وأما قوله : ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ فالمراد أنه رضوا بما جازاهم من النعيم والثواب .

أما قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

الخوف في الطاعة حال حسنة قال تعالى : ﴿ والذين يُؤْتُونَ مَا ءاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : 60] ولعل الخشية أشد من الخوف ، لأنه تعالى ذكره في صفات الملائكة مقروناً بالإشفاق الذي هو أشد الخوف فقال : ﴿ هُم مّنْ خَشْيةِ رَبّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون : 57] والكلام في الخوف والخشية مشهور .

المسألة الثانية :

هذه الآية إذا ضم إليها آية أخرى صار المجموع دليلاً على فضل العلم والعلماء ، وذلك لأنه تعالى قال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] فدلت هذه الآية على أن العالم يكون صاحب الخشية ، وهذه الآية وهي قوله : ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴾ تدل على أن صاحب الخشية تكون له الجنة فيتولد من مجموع الآيتين أن الجنة حق العلماء .

المسألة الثالثة :

قال بعضهم : هذه الآية تدل على أن المرء لا ينتهي إلى حد يصير معه آمناً بأن يعلم أنه من أهل الجنة ، وجعل هذه الآية دالة عليه .

وهذا المذهب غير قوي ، لأن الأنبياء عليهم السلام قد علموا أنهم من أهل الجنة ، وهم مع ذلك من أشد العباد خشية لله تعالى ، كما قال عليه الصلاة والسلام : " أعرفكم بالله أخوفكم من الله ، وأنا أخوفكم منه " والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 53.46 ﴾

(149/825)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾

حكم الله في هذه الآية بتخليد الكافرين من ﴿ أهل الكتاب والمشركين ﴾ وهم عبدة الأوثان في النار وبأنهم ﴿ شر البريّة ﴾ ، و﴿ البريّة ﴾ جميع الخلق لأن الله تعالى برأهيم أو أوجدهم بعد العدم ، وقرأ نافع وابن عامر والأعرج : " البريئة " بالهمز من برأ ، وقرأ

الباقون والجمهور : "البرّية" بشد الياء بغير همز على التسهيل ، والقياس الهمز إلا أن هذا مما ترك همزة كالنبي والذرية ، وقرأ بعض النحويين : "البرية" مأخوذ من البراء وهو التراب ، وهذا الاشتقاق يجعل الهمز خطأ وغطاً وهو اشتقاق غير مرضي ، و ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ شروط جميع أمة محمد ، ومن آمن بنبيه من الأمم الماضية ، وقرأ بعض الناس "خير" .

وقرأ بعض قراء مكة : "خيار" بالألف ، وروي حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ هذه الآية : "أولئك هم خير البريئة" .

(150/825)

ثم قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه "أنت يا علي وشيعتك من خير البرية" ، ذكره الطبري ، وفي الحديث : أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : "يا خير البرية" ، فقال له : ذلك إبراهيم عليه السلام ، وقوله تعالى : ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار ﴾ فيه حذف مضاف تقديره سكنى ﴿ جنات عدن ﴾ أو دخول ﴿ جنات عدن ﴾ ، والعدن الإقامة والدوام ، عدن بالموضع أقام فيه ، ومنه المعدن لأنه رأس ثابت ، وقال ابن مسعود : ﴿ جنات عدن ﴾ بطنان الجنة أي سوطها ، وقوله : ﴿

رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ قيل ذلك في الدنيا ، ورضاه عنهم هو ما أظهره عليهم من أمارات رحمته وغفرانه ، ورضاهم عنه : هو رضاهم بجميع ما قسم لهم من جميع الأرزاق والأقدار . قال بعض الصالحين : رضى العباد عن الله رضاهم بما يرد من أحكامه ، ورضاه عنهم أن يوفقهم للرضى عنه ، وقال أبو بكر بن طاهر : الرضى عن الله خروج الكراهية عن القلب حتى لا يكون إلا فرح وسرور ، وقال السري السقطي : إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تطلب منه الرضا عنك ؟ وقيل ذلك في الآخرة ، فرضاهم عنه رضاهم بما من به عليهم من النعم ، ورضاهم عنه هو ما روي أن الله تعالى يقول لأهل الجنة : هل رضيتم بما أعطيتكم ؟ فيقولون : نعم ربنا وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين ، فيقول : أنا أعطيكم أفضل من كل ما أعطيتكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً ، وخص الله بالذكر أهل الخشية لأنها رأس كل بركة الناهية عن المعاصي الآمرة بالمعروف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(151/825)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين ﴾

"المشركين" : معطوف على "الَّذين" ، أو يكون مجروراً معطوفاً على "أهل" .

﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ البرية ﴾ قرأ نافع وابن ذَكوان بالهمز على الأَصل في الموضعين ؛ من قولهم : برأ الله الخلق ، وهو البارىء الخالق ، وقال : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد : 22] .

الباقون بغير همز .

وشدّ الياء عِوضاً منه .

قال الفَرّاء : إن أُخذت البَرِيَّة من البَرَى ، وهو التراب ، فأصله غير الهمز ؛ تقول منه : بَرَاه اللَّهُ يبرُوه بَرْواً ؛ أي خلقه .

قال القُشَيْرِيّ : ومن قال البَرِية من البَرَى ، وهو التراب ، قال : لا تدخل الملائكة تحت هذه اللفظة .

وقيل : البَرِيَّة : مِن بَرَيْت القلمَ ، أي قَدَّرته ؛ فتدخل فيه الملائكة .

ولكنه قول ضعيف ؛ لأنه يجب منه تخطئة من هَمَزَ .

وقوله : "شَرُّ البَرِيَّة" أي شر الخليقة .

فقيل يحتمل أن يكون على التعميم .

وقال قوم : أي هم شر البرية الذين كانوا في عصر النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العالمين ﴾ [البقرة : 47] أي على عالَمي زمانكم .

ولا يبعد أن يكون في كفار الأمم قبل هذا من هُو شر منهم ؛ مثل فرعون وعاقر ناقة صالح .

وكذا "خَيْرُ البَرِيَّة" : إمّا على التعميم ، أو خير بَرِيةِ عصرهم .

وقد استدل بقراءة الهمز من فضّل بني آدم على الملائكة ، وقد مضى في سورة "البقرة" القول فيه .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : المؤمنُ أكرم على الله عز وجل من بعض الملائكة الذين عنده .

قوله تعالى : ﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ أي ثوابهم .

﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي خالقهم ومالكهم .

﴿ جَنَّاتُ ﴾ أي بساتين .

﴿ عَدْنٍ ﴾ أي إقامة .

والمفسرون يقولون : "جَناتُ عَدْنٍ" بُطْنانُ الجَنَّةِ ، أي وَسَطُها ؛ تقول : عَدَن بالمكان يَعْدِن (عَدْنا وعُدُونا) : أقام .

ومعدِن الشيء : مرْكزه ومستقرُّه .

قال الأعشى :

وإنْ يُسْتضافوا إلى حُكْمِهِ . . .

يُضَافُوا إلى رَاجحٍ قَدْ عَدَنْ

﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ لا يَظْعَنون ولا يموتون .

﴿ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ ﴾ أي رضِيَ أعمالهم ؛ كذا قال ابن عباس .

﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ أي رَضُوا هم بثواب الله عز وجل .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي الجنة .

﴿ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أي خاف ربّه ، فتناهى عن المعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(153/825)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾

أي اليهودُ والنّصارَى وإيرادُهم بذلكَ العنوانِ للإشعارِ بعلةِ ما نُسبَ إليهمْ من الوعدِ باتباعِ

الحقّ فإنّ مناطَ ذلكَ وجدانُهم لَهُ في كتابهم وإيرادُ الصلةِ فعلاً لما أنّ كفرَهم حادثٌ بعدَ أنبيائِهم ﴿ والمشركين ﴾ أي عبدةِ الأصنامِ وقُرِىءَ والمشركونَ عطفاً على الموصولِ ﴿ مُنفَكّينَ ﴾ أي عمّا كانُوا عليهِ من الوعدِ باتباعِ الحقّ والإيمانِ بالرسولِ المبعوثِ في آخرِ الزمانِ والعزمِ على إنجازِه وهَذا الوعدُ من أهلِ الكتابِ مما لا ريبَ فيه حتّى إنّهم كانُوا يستفتحونَ ويقولونَ : اللهمَّ افتحْ علينَا وانصرنا بالنبيِّ المبعوثِ في آخرِ الزمانِ ويقولونَ لأعدائِهم منَ المشركينَ : قد أظلَّ زمانُ نبيٍ يَخرجُ بتصديقِ ما قلنَا فنقتلُكُم معَهُ قتلَ عادٍ وإرمَ وأما منَ المشركينَ فلعلَّهُ قدْ وقعَ من متأخريهمْ بعدَ مَا شاعَ ذلكَ من أهلِ الكتابِ واعتقدوا صحتَهُ بَمَا شاهدُوا من نصرتهم على أسلافهم كما يشهدُ به أنهم كانوا يسألونهم عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم هل هُوَ المذكورُ في كتابِهم وكانوا يغرونَهُم بتغييرِ نعوته عليهِ السَّلامُ وانفكاكُ الشيءِ أنْ يزايلَهُ بعدَ التحامِه كالعظمِ إذا انفكَّ من مفصلِه وفيهِ إشارةٌ إلى كمالِ وكادةِ وعدِهم أيْ لم يكونُوا مفارقينَ للوعدِ المذكورِ بل كانُوا مجمعينَ عليهِ عازمينَ على إنجازه ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ﴾ التي كانُوا قد جعلوا إتيانها ميقاتاً لاجتماعِ الكلمةِ والاتفاقِ عَلى الحقّ فجعلوه ميقاتاً للانفكاكِ والافتراقِ وإخلافِ الوعدِ والتعبيرُ عن إتيانِها بصيغةِ المضارعِ باعتبارِ حالِ المحكيّ لا باعتبارِ حالِ الحكايةِ كما في قولِه تعالَى : ﴿ واتبعوا مَا تَتْلُواْ الشياطين ﴾ أي تلتْ وقولُه تعالى :

﴿ رَّسُولٍ ﴾ بدلٌ منَ البينةِ عبرَ عنه عليهِ السَّلامُ بالبينةِ للإيذانِ بغايةِ ظهورِ أمرِه وكونِه ذلكَ الموعودَ في الكتابينِ وقولُه تعالى : ﴿ مِنَ اللهِ ﴾ متعلقٌ بمضمرٍ هو صفةٌ لرسولٍ مؤكدٍ لما أفادَه التنوينُ من الفخامةِ الذاتيةِ بالفخامةِ الإضافيةِ أي رسولٌ وأيُّ رسولٍ كائنٌ منْهُ

وقولُه تعالى : ﴿ يَتْلُو ﴾ صفةٌ أخرى أو حالٌ من الضميرِ في متعلقِ الجارِّ ﴿ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾ أيْ منزهةً عنِ الباطلِ لا يأتيه الباطلُ من بينِ يديهِ ولا منْ خلفِهِ أو من أنْ يمسَّهُ غيرُ المطهرينَ ونسبةُ تلاوتِها إليه عليهِ السلامُ منْ حيثُ إنَّ تلاوةَ مَا فيها بمنزلةِ تلاوتِها .

وقولُه تعالى : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ صفةٌ لصحفاً أوْ حالٌ منْ ضميرِها من مطهرةٍ ويجوزُ أنْ يكونَ الصفةُ أُو الحالُ الجارَّ والمجرورَ فقطْ وكتبٌ مرتفعاً بهِ على الفاعليةِ ومَعْنى قيمةٌ مستقيمةٌ ناطقةٌ بالحقِّ والصوابِ . وقولُه تعالَى :

(155/825)

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ إلخ كلامٌ مسوقٌ لغايةِ تشنيعِ أهلِ الكتابِ خاصَّةً وتغليظِ جناياتِهم ببيانِ أنَّ ما نسبَ إليهمْ من الانفكاكِ لم يكنْ لاشتباهٍ مَا في الأمرِ بل كانَ بعدَ وضوحِ الحقِّ وتبينِ الحالِ وانقطاعِ الأعذارِ بالكليةِ وهُوَ السرُّ في وصفِهم بإيتاءِ الكتابِ

المنبىءِ عن كمالِ تمكنِهم منْ مطالعتِه والإحاطةِ بما فِي تضاعيفِه من الأحكامِ والأخبارِ التي مِنْ جُملتِها نعوتُ النبيِّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلاوُ بعدَ ذكرِهم فيما سبقَ بما هُوَ جارٍ مَجْرَى اسمِ الجنسِ للطائفتينِ ولمَّا كانَ هؤلاءِ والمشركونَ باعتبارِ اتفاقِهم عَلَى الرأيِ المذكورِ في حكمِ فريقٍ واحدٍ عبرَ عمَّا صدرَ عنهمْ عقيبَ الاتفاقِ عندِ الإخبارِ بوقوعِه بالانفكاكِ وعندَ بيانِ كيفيةِ وقوعِه بالتفرقِ اعتبارِ الاستقلال كل من فريقي أهل الكتاب وإيذاناً بأن انفكاكهم عن الرأي المذكور ليس بطريق الاتفاق على رأي أخر بل بطريق الاختلاف القديم وقولُه تعالى.

(156/825)

﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ استثناءٌ مفرغٌ منْ أعمّ الأوقاتِ أيْ وما تفرقُوا في وقتٍ منَ الأوقاتِ إلا منْ بعدِ ما جاءتْهُمُ الحجةُ الواضحةُ الدالَّةُ على أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم هو الموعودُ في كتابِهم دلالةً جليةً لا ريبَ فيها كقولِه تعالى : ﴿ وَمَا اختلف الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ وقولُه تعالى ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله ﴾ جملةٌ حاليةٌ مفيدةٌ لغايةِ قبحِ ما فعلُوا أيْ والحالُ أنهم ما أُمِرُوا بما أُمروا في كتابِهم إلا لأجلِ أنْ يعبدُوا الله ، وقيلَ : اللامُ بمَعْنى أنْ أي إلا بأنْ يعبدُوا الله ، ويعضدُه قراءةُ إلا أنْ

يعبدُوا اللهَ ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي جاعلينَ دينَهُم خَالِصاً له تعالَى أو جاعلينَ أنفسَهُم خالِصةً لَهُ تعالَى في الدِّينِ . ﴿ حُنَفَاء ﴾ مائلينَ عن جميعِ العقائدِ الزائغةِ إلى الإسلامِ ﴿ وَيُقِيمُواْ الصلاة وَيُؤْتُواْ الزكاة ﴾ إنْ أُريدَ بهما ما في شريعتِهم من الصَّلاةِ والزَّكاةِ فالأمرُ ظاهرٌ وإنْ أُريدَ ما في شريعتِنا فمعْنى أمرِهم بهما في الكتابينِ أنَّ أمرَهُم باتباعِ شريعتِنا أمرٌ لهم بجميعِ أحكامِها التي هُمَا من جُملتها .

(157/825)

﴿ وَذَلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من عبادةِ الله تعالى بالإخلاصِ وإقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ للإشعارِ بعلوِّ رتبتِه وبُعدِ منزلتِه . ﴿ دِينُ القيمة ﴾ أي دينُ الملةِ القيمةِ ، وقُرىءَ الدينُ القيمةُ على تأويلِ الدينِ بالملةِ . هذا وقد قيلَ : قولُه تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ ﴾ إلى قولِه كتبٌ قيمةٌ حكايةٌ لمَا كانُوا يقولونَهُ قبلَ مبعثِه عليهِ السَّلامُ من أنَّهم لا ينفكونَ عنْ دينِهم إلى مَبْعثِه ويعدونَ أنْ ينفكُّوا عنه حينئذٍ ويتفقوا على الحقِّ وقولُه تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ بيانٌ لإخلافِهم الوعدَ وتعكيسِهم الأمرَ بجعلِهم ما هُو سببٌ لانفكاكِهم عن دينِهم الباطلِ حسبمَا وعدُوه سبباً لثباتِهم عليهِ وعدمِ انفكاكِهم عنه ومثلُ ذلكَ بأنْ يقولَ الفقيرُ الفاسقُ لمن يعظهُ لا أنفكُّ عمَّا أنَا فيهِ حتَّى أستغني

فيستغني فيزدادُ فسقاً فيقول له واعظه لم تكنْ منفكّاً عن الفسقِ حتى توسرَ وما عكفتَ على الفسقِ إلا بعدَ اليسارِ ، وأنت خبيرٌ بأنّ هَذا إنّما يتسنّى بعد اللّتيا والتي على تقديرِ أنْ يرادَ بالتفرقِ تفرقُهم عن الحقِّ بأنْ يقال التفرقُ عن الحقّ مستلزمٌ للثباتِ على الباطلِ فكأنّه قيلَ : وما أجمعُوا على دينِهم إلا منْ بعدِ ما جاءتْهُم البينةُ وأما على تقديرِ أنْ يُرادَ به تفرقُهم فرقاً فمنُهم من آمنَ ومنُهم من أنكرَ ومنهم من عرفَ وعاندَ كَمَا جوّزه القائلُ فلا فتأملْ .

(158/825)

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ بيانٌ لحالِ الفريقينِ في الآخرةِ بعد بيانِ حالِهم في الدُّنيا ، وذكرَ المشركينَ لئلاّ يتوهَم اختصاصُ الحكمِ بأهلِ الكتابِ حسبَ اختصاصِ مشاهدةِ شواهدِ النبوةِ في الكتابِ بهم ومَعْنى كونِهم فيها أنّهم بصيرونَ إليها يومَ القيامةِ ، وإيرادُ الجملةِ الاسميةِ للإيذانِ بتحققِ مضمونِها لا محالةَ أو أنّهم فيها الآنَ إما على تنزيلِ ملابستِهم لما يوجبُها منزلَةَ ملابستِهم لها وإمَّا عَلى أنَّ ما هُم فيهِ من الكفرِ والمَعاصي عينُ النارِ إلا أنّها ظهرتْ في هذهِ النشأةِ بصورةٍ عَرَضيةٍ وستخلعُها في النشأةِ الآخرةِ وتظهرُ بصورتِها الحقيقيةِ كَما في قولِه تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ في سورةِ الأعرافِ .

﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حالٌ من المستكنّ في الخبرِ ، واشتراكُ الفريقين في دخولِ دارِ العذابِ بطريقِ الخُلودِ لا يُنافِي تفاوتَ عذابِهم في الكيفيةِ فإنَّ جهنَم دركاتٌ وعذابَها ألوانٌ ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إليهم باعتبارِ اتّصافِهم بما هُم فيه من القبائحِ المذكورةِ وما فيهِ من مَعْنى البُعدِ للإشعارِ بغايةِ بُعدِ منزلتِهم في الشرّ أي أولئكَ البعداءُ المذكورونَ ﴿ هُمْ شَرُّ البرية ﴾ شرُّ الخليقةِ أي أعمالاً وهو الموافقُ لما سيأتِي في حقِ المؤمنينَ فيكونُ في حيزِ التعليلِ لخلودِهم في النارِ ، أو شرُّهم مقاماً ومصيراً فيكونَ تأكيداً لفظاعةِ حالِهم ، وقُرِىءَ بالهمزِ على الأصلِ .

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ بيانٌ لمحاسنِ أحوالِ المؤمنينَ إثرَ بيانِ سوءِ حالِ الكفرةِ جرياً على السنةِ القرآنيةِ من شفعِ الترهيبِ بالترغيبِ ﴿ أولئك ﴾ المنعوتونَ بَما هُو في الغايةِ القاصيةِ من الشرفِ والفضيلةِ من الإيمانِ والطاعة . ﴿ هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ وقُرِىءَ خيارُ البريةِ وهو جمعُ خيّرٍ ، نحوُ جيدٍ وجيادٍ .

(159/825)

﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ بمقابلةِ ما لهُم من الإيمانِ والطاعةِ ﴿ عِندَ رَبّهِمْ جنات عَدْنٍ * تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ إنْ أُريد بالجنّاتِ الأشجارُ الملتفةُ الأغصانِ كمَا هو الظاهرُ ، فجريانُ

الأنهارِ من تحتها ظاهرٌ ، وإنْ أُريدَ بها مجموعُ الأرضِ ومَا عليها فهُو باعتبارِ الجزءِ الظاهرِ ، وأيّاً ما كانَ فالمرادُ جريانُها بغيرِ أخدودٍ . ﴿ خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ متنعيمنَ بفنونِ النعمِ الجُسمانيةِ والروحانيةِ وفي تقديمِ مدحِهم بخيريةِ البريةِ وذكرِ الجزاءِ المؤذنِ بكونِ ما مُنحوهُ في مقابلةِ ما وُصفوا بهِ وبيانِ كونِه من عندِه تعالَى والتعرضِ لعنوانِ الربوبيةِ المنبئةِ عن التربيةِ والتبليغِ إلى الكمالِ مع الإضافةِ إلى ضميرِهم وجمعِ الجنَّاتِ وتقييدِها بالإضافةِ وبما يزيدُها نعيماً وتأكيداً الخلودِ بالأبودِ من الدلالةِ على غايةِ حُسنِ حالِهم ما لا يَخْفى . ﴿ رَّضِىَ الله عَنْهُمْ ﴾ استئنافٌ مبينٌ لما يتفضلُ عليهم زيادةً على ما ذُكِرَ من أجزيةِ أعمالِهم ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ حيثُ بلغُوا من المطالبِ قاصيتَها وملكُوا من المآربِ ناصيتَها وأُتيحَ لهم ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطَرَ على قلبِ بشرٍ ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذُكِرَ من الجزاءِ والرضوانِ ﴿ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴾ فإنَّ الخشيةَ التي هيَ من خصائصِ العلماءِ بشؤونِ الله عزَّ وجلَّ مناطٌ لجميعِ الكمالاتِ العلميةِ والعمليةِ المستتبعةِ للسعادةِ الدينيةِ والدنيويةِ . والتعرضُ لعُنوانِ الربوبيةِ المعربةِ عن المالكيةِ والتربيةِ للإشعارِ بعلَّةِ الخشيةِ والتحذيرِ من الاغترارِ بالتربيةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(160/825)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾

قيل بيان لحال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا وذكر المشركين لئلا يتوهم اختصاص الحكم بأهل الكتاب حسب اختصاص مشاهدة شواهد النبوة في الكتاب بهم فالمراد بهؤلاء الذين كفروا هم المتقدمون في صدر السورة وفي ذلك احتمال أشرنا إليه فلا تغفل ومعنى كونهم في نار جهنم أنهم يصيرون إليها يوم القيامة لكن لتحقق ذلك لم يصرح به وجيء بالجملة اسمية أو يقدر متعلق الجار بمعنى المستقبل أو أنهم فيها الآن على إطلاق نار جهنم على ما يوجبها من الكفر مجازاً مرسلاً بإطلاق اسم المسبب على السبب وجوزت الاستعارة وقيل إن ما هم فيه من الكفر والمعاصي عين النار إلا أنها ظهرت في هذه النشأة بصورة عرضية وستخلفها في النشأة الآخرة وتظهر بصورتها الحقيقية وقد مر نظيره غير مرة ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال من المستكن في الخبر واشتراك الفريقين في دخول النار بطريق الخلود لا ينافي تفاوت عذابهما في الكيفية فإن جهنم والعياذ بالله تعالى دركات وعذابها ألوان فيعذب أهل الكتاب في درك منها نوعاً من العذاب والمشركون في درك أسفل منه بعذاب أشد لأن كفرهم أشد من كفر أهل الكتاب وكون أهل الكتاب كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم مع علمهم بنعوته الشريفة وصحة رسالته من كتابهم ولم يكن للمشركين علم بذلك كعلمهم لا يوجب كون عذابهم أشد من عذاب المشركين ولا مساوياً له فإن الشرك

ظلم عظيم وقد انضم إليه من أنواع الكفر في المشركين مما ليس عند أهل الكتاب وقد استدل بالآية على خلود الكفار مطلقاً في النار ﴿ أولئك ﴾ إشارة إليهم باعتبار اتصافهم بما هم فيه من القبائح المذكورة وما فيه من معنى البعد لبعد منزلتهم في الشر أي أولئك البعداء المذكورون ﴿ هُمْ شَرُّ البرية ﴾ أي الخلقية وقيل أي البشر والمراد قيل هم شر البرية أعمالاً فتكون الجملة في حيز التعليل لخلودهم في النار وقيل شرها مقاماً ومصيراً فتكون تأكيداً لفظاعة حالهم ورجح الأول بأنه الموافق لما سيأتي إن

(161/825)

شاء الله تعالى في حق المؤمنين وأياً ما كان فالعموم على ما قيل مشكل فإن إبليس وجنوده شر منهم أعمالاً ومقاماً وكذا المشركون المنافقون حيث ضموا إلى الشرك النفاق وقد قال سبحانه ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ [النساء : 145] وقال بعض لا يبعد أن يكون في كفار الأمم من هو شر منهم كفرعون وعاقر الناقة وأجاب بأن المراد بالبرية المعاصرون لهم ولا يخفى أنه يبقى معه الاشكال بإبليس ونحوه وأجيب بأن ذلك إذا كان الحصر حقيقياً وأما إذا كان إضافياً بالنسبة إلى المؤمنين بحسب زعمهم فلا اشكال إذ يكون المعنى أولئك هم شر البرية لا غيرهم من المؤمنين كما يزعمون قالاً أو حالاً وقيل يراد

بالبرية البشر ويراد بشريتهم بحسب الأعمال ولا يبعد أن يكونوا بحسب ذلك هم شر جميع البرية لما أن كفرهم مع العلم بصحة رسالته عليه الصلاة والسلام ومشاهدة معجزاته الذاتية والخارجية ووعد الإيمان به عليه الصلاة والسلام ومع إدخالهم به الشبهة في قلوب من يأتي بعدهم وتسببهم به ضلال كثير من الناس إلى غير ذلك مما تضمنه واستلزمه من القبائح شر كفر وأقبحه لا يتسنى مثله لأحد من البشر إلى يوم القيامة وكذا سائر أعمالهم من تحريف الكلم عن مواضعه وصد الناس عنه صلى الله عليه وسلم ومحاربتهم إياه عليه الصلاة والسلام وكون كفر فرعون وعاقر الناقة وفعلهما بتلك المثابة غير مسلم ويلتزم دخول المنافقين في عموم الذين كفروا أو كون كفرهم وأعمالهم دون كفر واعمال المذكورين وفيه شيء لا يخفى فتأمل وقيل ليس المراد بأولئك الذين كفروا أقواماً مخصوصين وهم المحدث عنهم أولاً بل الأعم الشامل لهم ولغيرهم من سالف الدهر إلى آخره وهو على ما فيه لا يتم بدون حمل البرية على البشر فلا تغفل وقرأ الأعرج وابن عامر ونافع البريئة هنا وفيما بعد بالهمزة فقيل هو الأصل من برأهم الله تعالى بمعنى ابتدأهم واخترع خلقهم فهي فعلية بمعنى مفعولة لكن عامة العرب إلا أهل مكة التزموا

تسهيل الهمزة بالإبدال والإدغام فقالوا البرية كما قالوا الذرية والخابية وقيل ليس بالأصل وإنما البرية بغير همو من البري المقصور يعني التراب فهو أصل برأسه والقراءتان مختلفتان أصلاً ومادة ومتفقتان معنى في رأي وهو أن يكون المراد عليهما البشر ومختلفان فيه أيضاً في رأي آخر وهو أن يكون المراد بالمهموز الخليفة الشاملة للملائكة والجن كالبشر وبغير المهموز البشر المخلوقون من التراب فقط وأيا ما كان فليست القراءة بالهمز خطأ كيف وقد نقلت عمن ثبتت عصمته مع أن الهمزة لغة قوم من أنزل عليه الكتاب صلى الله عليه وسلم .

﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾

بيان لمحاسن أحوال المؤمنين أثر بيان سوء حال الكفرة جرياً على السنة القرآنية من شفع الترهيب بالترغيب أو هو على ما أشرنا إليه سابقاً وقال عصام الدين إن قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا ﴾ [البينة : 6] الخ كالتأكيد لقوله تعالى ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ [البينة : 5] إذ لا تحقيق لكونها الملة القيمة فوق أن يكون جزاء المعرض هذا وجزاء الممتثل ذلك إلا أن ذلك اقتضى قوله تعالى إن الذين آمنوا الخ وكأنه فصل لتخييل عدم المناسبة بين الجملتين لا في المسند إليه ولا في المسند ﴿ أولئك ﴾ أي المنعوتون بما هو الغاية القاصية من الشرف والفضيلة من الإيمان والطاعة ﴿ هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ وقرأ حميد وعامر بن عبد الواحد هم خيار البرية وهو جمع خير كجباد وجيد .

﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ بمقابلة ما لهم من الإيمان والطاعات ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ جنات عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ تقدمت نظائره وفي تقديم مدحهم بخير البرية وذكر الجزاء المؤذن بكون ما منح في مقابلة ما وصفوا به وبيان كونه من عنده تعالى والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال مع الإضافة إلى ضميرهم وجمع الجنات وتقييدها بالإضافة وبما يزيدها نعيماً وتأكيد الخلود بالأبود من الدلالة على غاية حسن حالهم ملا لا يخفى والظاهر أن جملة ﴿ هم خير البرية ﴾ [البينة : 7] خبر اسم الإشارة وكذا ما بعد وزعم بعض الأجلة أن الأنسب بالعديل السابق أن تجعل معترضة ويكون الخبر ما بعدها وفيه نظر وقوله تعالى : ﴿ رَّضِىَ الله عَنْهُمْ ﴾ استئناف نحوي واخبار عما تفضل عز وجل به زيادة على ما ذكر من أجزية أعمالهم ويجوز أن يكون بيانياً جواباً لمن يقول ألهم فوق ذلك أمر آخر وجوز أن يكون خبراً بعد خبر أو حالاً بتقدير قد أو بدونه وجوز أن يكون دعاء لهم من ربهم وهو مجاز عن الإيجاد مع زيادة التكريم وهو خلاف الظاهر وبعده عطف قوله تعالى : ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ عليه وعلل رضاهم بأنهم بلغوا من المطالب قاصيتها ومن المآرب ناصيتها واتيح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من الجزاء والرضوان ﴿ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴾ فإن الخشية ملاك السعادة الحقيقية والفوز بالمراتب العلية إذ لولاها لم تترك المناهي

والمعاصي ولا استعد ليوم يؤخذ فيه بالاقدام والنواصي وفيه إشارة إلى أن مجرد الإيمان والعمل الصالح ليس موصلاً إلى أقصى المراتب ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ [التوبة : 72] بل الموصل له خشية الله تعالى ﴿ وإنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر : 28] ولذا قال الجنيد قدس سره الرضا على قدر قوة العلم والرسوخ في المعرفة وقال عصام الدين الأظهر إن ذلك إشارة إلى ما يترتب

(164/825)

عليه الجزاء والرضوان من الإيمان والعمل الصالح وتعقب بأن فيه غفلة عما ذكر وعن أنه لا يكون حينئذ لقوله تعالى ذلك الخ كبير فائدة والتعرض لعنوان الربوبية المعربة عن المالكية والتربية للاشعار بعلة الخشية والتحذير من الاغترار بالتربية واستدل بقوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ [البينة : 7] الخ على أن البشر أفضل من الملك لظهور أن المراد بالذين آمنوا المؤمنون من البشر وفي الآثار ما يدل على ذلك أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة مرفوعاً أتعجبون لمنزلة الملائكة من الله تعالى والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله تعالى يوم القيامة أعظم من منزلة الملك واقرؤوا إن شئتم إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت قلت يا رسول الله من أكرم الخلق على

الله تعالى قال يا عائشة أما تقرئين أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية

وأنت تعلم أن هذا ظاهر في أن المراد بالبرية الخليقة مطلقاً ليتم الاستدلال ثم أنه يحتاج أيضاً

إلى ادخال الأنبياء عليهم السلام في عموم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لا يراد بهم قوم

بخصوصهم إذ لو لم يدخلوا لزم تفضيل عوام البشر أي الذين ليسوا بأنبياء منهم على خواص

الملائكة أعني رسلهم عليهم السلام وذلك مما لم يذهب إليه أحد من أهل السنة بل هو

يكفرون من يقول به فليتفطن والإمام قد ضعف الاستدلال في تفسيره بما لا يخلو عن بحث

ولعل الأبعد عن القيل والقال جعل الحصر إضافياً بالنسبة إلى ما يزعمه أهل الكتاب

والمشركون قالاً أو حالاً من أنهم هم خير البرية وكذا يجعل الحصر السابق بالنسبة إلى ما

يزعمونه من أن المؤمنين هم شر البرية وصحة ما سبق من الآثار في حيز المنع ثم الظاهر أن

المراد بالذين آمنوا الخ مقابل

(165/825)

﴿ الذين كفروا ﴾ [البينة : 6] لا قوم من الذين انصفوا بما في حيز الصلة بخصوصهم

وزعم بعض أنهم مخصوصون فقد أخرج ابن مردويه عن علي كرم الله تعالى وجهه قال قال

لي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألم تسمع قول الله تعالى إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات

أولئك هم خير البرية هم أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض إذا جثت الأمم للحساب يدعون غراً محجلين وروي نحوه الإمامية عن يزيد بن شراحيل الأنصاري كاتب الأمير كرم الله تعالى وجهه وفيه أنه عليه الصلاة والسلام قال ذلك له عند الوفاة ورأسه الشريف على صدره رضي الله تعالى عنه وأخرج ابن مردويه أيضاً عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية ﴿ أن الذين آمنوا ﴾ [البينة : 7] الخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين وذلك ظاهر في التخصيص وكذا ما ذكره الطبرسي الإمامي في "مجمع البيان" عن مقاتل بن سليمان عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال في الآية نزلت في علي كرم الله تعالى وجهه وأهل بيته وهذا ان سلمت صحته لا محذور فيه إذ لا يستدعي التخصيص بل الدخول في العموم وهم بلا شبهة داخلون فيه دخولاً أولياً وأما ما تقدم فلا تسلم صحته فإنه يلزم عليه علي كرم الله تعالى وجهه خيراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم والإمامية وإن قالوا إنه رضي الله تعالى عنه خير من الأنبياء حتى أولي العزم عليهم السلام ومن الملائكة حتى المقربين عليهم السلام لا يقولون بخيريته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن قالوا بأن البرية على ذلك مخصوصة بمن عداه عليه الصلاة والسلام للدليل الدال على أنه صلى الله عليه وسلم خير منه كرم الله تعالى وجهه قيل إنها مخصوصة أيضاً بمن عدا الأنبياء والملائكة ومن قال

أهل السنة بخيريته للدليل الدال على خيريتهم وبالجملة لا ينبغي أن يرتاب في عدم تخصيص الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالأمير كرم الله تعالى وجهه

وشيعته ولا به رضي الله تعالى عنه وأهل بيته وان دون إثبات صحة تلك الأخبار خرط القتادة والله تعالى أعلم.

ثم أن الروايات في أن هذه السورة قد نسخ منها كثير كثيرة منها ما أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم وصححه عن أبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "إن الله تعالى أمرني أن أقرأ عليك القرآن فقرأ عليه الصلاة والسلام لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب فقرأ فيها ولو أن ابن آدم سأل وديا من مال فاعطيه يسأل ثانياً ولو سأل ثانياً فاعطيه يسأل ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب وان الدين عند الله الحنيفية غير الشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ومن يفعل ذلك فلن يكفره وفي بعض الآثار أن النبي صلى الله عليه وسلم اقرأه هكذا ما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة أن أقوم الدين لحنيفية مسلمة غير مشركة ولا يهودية ولا نصرانية ومن يعمل صالحاً فلن يكفره" وما اختلف الذين

أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وفارقوا الكتاب لما جاءهم أولئك عند الله شر البرية ما كان الناس إلا أمة واحدة ثم أرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين يأمرن الناس يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويعبدون الله وحده أولئك عند الله خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه أخرج ذلك ابن مردويه عن أبي رضي الله تعالى عنه وهو مخالف لما صح عنه فلا يعول عليه كما لا يخفى على العارف بعلم الحديث. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(167/825)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة:

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) ﴾

المراد ب ﴿ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ : اليهود والمراد ب ﴿ المشركين ﴾ : مشركو العرب، وهم عبدة الأوثان.

و﴿ مُنفَكّينَ ﴾ خبر كان.

يقال فككت الشيء فانفك، أي انفصل.

والمعنى : أنهم لم يكونوا مفارقين لكفرهم ، ولا منتهين عنه .

﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ﴾ وقيل : الانفكاك بمعنى الانتهاء وبلوغ الغاية ، أي : لم يكونوا يبلغون نهاية أعمارهم ، فيموتوا حتى تأتيهم البينة .

وقيل : منفكين زائلين ، أي : لم تكن مدّتهم ؛ لتزول حتى تأتيهم البينة ، يقال ما انفك فلان قائماً ، أي : ما زال قائماً ، وأصل الفكّ الفتح .

ومنه فكّ الخلخال .

وقيل : منفكين بارحين .

أي : لم يكونوا ليبرحوا أو يفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة .

وقال ابن كيسان : المعنى لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد صلى الله عليه وسلم حتى بعث .

فلما بعث حسدوه وجحدوه ، وهو كقوله : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ [البقرة : 89] وعلى هذا فيكون قوله : ﴿ والمشركين ﴾ أنهم ما كانوا يسيئون القول في محمد صلى الله عليه وسلم حتى بعث ، فإنهم كانوا يسمونه " الأمين " ، فلما بعث عادوه وأساءوا القول فيه .

وقيل : مُنفَكّينَ هالكين .

من قولهم : انفكّ صلبه ، أي : انفصل .

فلم يلتئم فيهلك ، والمعنى : لم يكونوا معذبين ، ولا هالكين إلاّ بعد قيام الحجة عليهم .

وقيل : إن المشركين هم أهل الكتاب ، فيكون وصفاً لم ؛ لأنهم قالوا المسيح ابن الله ، وعزير ابن الله .

(168/825)

قال الواحدي : ومعنى الآية : إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لن ينتهوا عن كفرهم ، وشركهم بالله حتى أتاهم محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن ، فبيّن لهم ضلالتهم وجهالتهم ، ودعاهم إلى الإيمان ، وهذا بيان عن النعمة ، والإنقاذ به من الجهل والضلالة ، والآية فيمن آمن من الفريقين .

قال : وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً وتفسيراً ، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء ، وسلكوا في تفسيرها طرقاً لا تفضي بهم إلى الصواب .

والوجه ما أخبرتك ، فاحمد الله إذ أتاك بيانها من غير لبس ولا إشكال .

قال : ويدلّ على أن البينة محمد صلى الله عليه وسلم أنه فسرها وأبدل منها فقال : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾ يعني : ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها ، وهو القرآن ، ويدلّ على ذلك أنه كان يتلو عن ظهر قلبه ، لا عن كتاب انتهى كلامه .

وقيل : إن الآية حكاية لما كان يقوله أهل الكتاب والمشركون إنهم لا يفارقون دينهم حتى يبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم الموعود به ، فلما بعث تفرّقوا ، كما حكاه الله عنهم في هذه السورة .

والبينة على ما قاله الجمهور هو : محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه في نفسه بينة وحجة ، ولذلك سماه سراجاً منيراً ، وقد فسر الله سبحانه هذه البينة المجملة بقوله : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللهِ ﴾ فاتضح الأمر ، وتبين أنه المراد بالبينة .

وقال قتادة ، وابن زيد : البينة هي القرآن كقوله : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِى الصحف الأولى ﴾ [طه : 133] وقال أبو مسلم : المراد بالبينة مطلق الرسل ، والمعنى : حتى تأتيهم رسل من الله ، وهم الملائكة يتلون عليهم صحفاً مطهرة ، والأوّل أولى .

قرأ الجمهور : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ وقرأ ابن مسعود : (لم يكن المشركون وأهل الكتاب) .

قال ابن العربي : وهي : قراءة في معرض البيان ، لا في معرض التلاوة .

وقرأ الأعمش، والنخعي: " والمشركون " بالرفع عطفاً على الموصول.

وقرأ أبيّ: (فما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون).

قرأ الجمهور: ﴿ رسول من الله ﴾ برفع ﴿ رسول ﴾ على أنه بدل كل من كلّ مبالغة، أو بدل اشتمال.

قال الزجاج: رسول رفع على البدل من البينة.

وقال الفراء: رفع على أنه خبر مبتدأ مضمر، أي: هي رسول، أو هو رسول.

وقرأ أبيّ، وابن مسعود: (رسولاً) بالنصب على القطع، وقوله: ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ متعلق بمحذوف هو صفة لرسول، أي: كائن من الله، ويجوز تعلقه بنفس رسول، وجوّز أبو البقاء أن يكون حالاً " من صحف ".

والتقدير: يتلو صحفاً مطهرة منزلة من الله.

وقوله: ﴿ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾ يجوز أن تكون صفة أخرى لرسول، أو حالاً من متعلق الجار والمجرور قبله.

ومعنى ﴿ يتلو ﴾: يقرأ، يقال تلا يتلو تلاوة، والصحف جمع صحيفة.

وهي ظرف المكتوب.

ومعنى ﴿ مطهرة ﴾: أنها منزّهة من الزور والضلال.

قال قتادة: مطهرة من الباطل.

وقيل: مطهرة من الكذب، والشبهات، والكفر، والمعنى واحد؛ والمعنى: أنه يقرأ ما تتضمنه الصحف من المكتوب فيها؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يتلو عن ظهر قلبه، لا عن كتاب كما تقدّم.

وقوله: ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ صفة ل ﴿ صحفاً ﴾، أو حال من ضميرها، والمراد الآيات، والأحكام المكتوبة فيها، والقيمة المستقيمة المستوية المحكمة، من قول العرب: قام الشيء: إذا استوى وصحّ.

وقال صاحب النظم: الكتب بمعنى الحكم كقوله: ﴿ كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِى ﴾ [المجادلة: 21] أي: حكم.

(170/825)

وقوله صلى الله عليه وسلم في قصة العسيف: "لأقضين بينكما بكتاب الله" ثم قضى بالرجم، وليس الرجم في كتاب الله، فالمعنى: لأقضينّ بينكما بحكم الله، وبهذا يندفع ما قيل: إن الصحف هي الكتب، فكيف قال: ﴿ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ وقال الحسن: يعني: بالصحف المطهرة التي في السماء، يعني في اللوح المحفوظ، كما في قوله: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج: 21، 22].

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُوا الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ هذه الجملة مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتقريعهم ، وبيان أن ما نسب إليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر ، بل كان بعد وضوح الحق ، وظهور الصواب .

قال المفسرون : لم يزل أهل الكتاب مجتمعين حتى بعث الله محمداً .

فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا ، فآمن به بعضهم ، وكفر آخرون .

وخصّ أهل الكتاب ، وإن كان غيرهم مثلهم في التفرّق بعد مجيء البينة ؛ لأنهم كانوا أهل علم ، فإذا تفرّقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف ، والاستثناء في قوله : ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ مفرّغ من أعم الأوقات ، أي : وما تفرّقوا في وقت من الأوقات إلاّ من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة ، وهي : بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشريعة الغرّاء ، والمحجة البيضاء .

وقيل البينة : البيان الذي في كتبهم أنه نبيّ مرسل كقوله : ﴿ وَمَا اختلف الذين أُوتُوا الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ العلم ﴾ [آل عمران : 19] قال القرطبي : قال العلماء : من أوّل السورة إلى قوله : ﴿ كُتُبٌ قَيّمَةٌ ﴾ حكمها فيمن آمن من أهل الكتاب والمشركين .

وقوله : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ .

. ﴾ إلخ فيمن لم يؤمن من أهل الكتاب والمشركين بعد قيام الحجج .

وجملة : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ اللهَ ﴾ في محل نصب على الحال مفيدة ؛ لتقريعهم وتوبيخهم بما فعلوا من التفرّق بعد مجيء البينة ، أي : والحال أنهم ما أمروا في كتبهم إلاّ لأجل أن يعبدوا الله ، ويوحدوه حال كونهم ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ أي : جاعلين دينهم خالصاً له سبحانه ، أو جاعلين أنفسهم خالصة له في الدين .

وقيل : إن اللام في : ﴿ ليعبدوا ﴾ بمعنى "أن" ، أي : ما أمروا إلاّ بأن يعبدوا كقوله : ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [النساء : 26] أي : أن يبيّن ، و ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُواْ نُورَ اللهِ ﴾ [الصف : 8] أي : أن يطفئوا .

قرأ الجمهور : ﴿ مخلصين ﴾ بكسر اللام .

وقرأ الحسن بفتحها .

وهذه الآية من الأدلة الدالة على وجوب النية في العبادات ؛ لأن الإخلاص من عمل القلب .

وانتصاب ﴿ حُنَفَاء ﴾ على الحال من ضمير ﴿ مخلصين ﴾ ، فتكون من باب التداخل ، ويجوز أن تكون من فاعل "يعبدوا" ، والمعنى : مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام .

قال أهل اللغة : أصله أن يحنف إلى دين الإسلام ، أي : يميل إليه .

﴿ وَيُقِيمُواْ الصلاة وَيُؤْتُواْ الزكواة ﴾ أي : يفعلوا الصلوات في أوقاتها ، ويعطوا الزكاة عند محلها ، وخصّ الصلاة والزكاة ؛ لأنهما من أعظم أركان الدين .

قيل : إن أريد بالصلاة والزكاة ما في شريعة أهل الكتاب من الصلاة والزكاة ، فالأمر ظاهر .

وإن أريد ما في شريعتنا ، فمعنى أمرهم بهما في الكتابين أمرهم باتباع شريعتنا ، وهما : من جملة ما وقع الأمر به فيها .

﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ أي : وذلك المذكور من عبادة الله ، وإخلاصها ، وإقامة الصلاة ، والزكاة ﴿ دِينُ القيمة ﴾ أي : دين الملة المستقيمة .

قال الزجاج : أي ذلك دين الملة المستقيمة ، فالقيمة صفة لموصوف محذوف .

قال الخليل : القيمة جمع القيم ، والقيم : القائم .

قال الفرّاء : أضاف الدين إلى القيمة .

وهو نعته لاختلاف اللفظين .

(172/825)

وقال أيضاً : هو من إضافة الشيء إلى نفسه ، ودخلت الهاء للمدح والمبالغة .

ثم بيّن سبحانه حال الفريقين في الآخرة بعد بيان حالهم في الدنيا فقال : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ .

الموصول اسم "إنّ" ، و ﴿ المشركين ﴾ معطوف عليه ، وخبرها ﴿ في نار جهنم ﴾ ،

و ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال من المستكنّ في الخبر .

ويجوز أن يكون قوله : و ﴿ المشركين ﴾ مجروراً عطفاً على أهل الكتاب .

ومعنى كونهم في نار جهنم أنهم يصيرون إليها يوم القيامة ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى من تقدّم ذكرهم من أهل الكتاب ، والمشركين المتصفين بالكون في نار جهنم ، والخلود فيها ﴿ هُمْ شَرُّ البرية ﴾ أي : الخليقة ، يقال برأ ، أي : خلق .

والبارىء الخالق .

والبرية الخليقة .

قرأ الجمهور : ﴿ البرية ﴾ بغير همز في الموضعين .

وقرأ نافع ، وابن ذكوان فيها بالهمز .

قال الفرّاء : إن أخذت البرية من البراء ، وهو التراب لم تدخل الملائكة تحت هذا اللفظ ، وإن أخذتها من بريت القلم ، أي : قدّرته دخلت .

وقيل : إن الهمز هو الأصل ، لأنه يقال برأ الله الخلق بالهمز ، أي : ابتدعه واخترعه ومنه قوله : ﴿ مّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ [الحديد : 22] ولكنها خففت الهمزة ، والتزم تخفيفها عند عامة العرب .

ثم بيّن حال الفريق الآخر فقال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي : جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ أولئك ﴾ المنعوتون بهذا ﴿ هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ قال : والمراد أن

أولئك شرّ البرية في عصره صلى الله عليه وسلم .

ولا يبعد أن يكون كفار الأمم من هو شرّ منهم ، وهؤلاء خير البرية في عصره صلى الله عليه وسلم ولا يبعد أن يكون في مؤمني الأمم السابقة من هو خير منهم .

﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي ثوابهم عند خالقهم بمقابلة ما وقع منهم من الإيمان ، والعمل الصالح ﴿ جنات عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ .

والمراد بجنات عدن : هي أوسط الجنات وأفضلها .

يقال عدن بالمكان يعدن عدناً ، أي : أقام .

ومعدن الشيء : مركزه ومستقرّه ، ومنه قول الأعشى :

وإن يستضافوا إلى علمه . . . يضافوا إلى راجح قد عدن

وقد قدّمنا في غير موضع أنه إن أريد بالجنات الأشجار الملتفة ، فجريان الأنهار من تحتها ظاهر .

وإن أريد مجموع قرار الأرض والشجر ، فجري الأنهار من تحتها باعتبار جزئها الظاهر ، وهو الشجر .

﴿ خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ لا يخرجون منها ، ولا يظعنون عنها ، بل هم دائمون في نعيمها مستمرّون في لذاتها ، ﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ الجملة مستأنفة لبيان ما تفضل الله به عليهم من الزيادة على مجرّد الجزاء .

وهو رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره ، وقبلوا شرائعه ، ورضاهم عنه حيث بلغوا من المطالب ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ويجوز أن تكون الجملة خبراً ثانياً ، وأن تكون في محل نصب على الحال بإضمار قد .

﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أي : ذلك الجزاء والرضوان لمن وقعت منه الخشية لله سبحانه في الدنيا ، وانتهى عن معاصيه بسبب تلك الخشية التي وقعت له لا مجرّد الخشية مع الانهماك في معاصي الله سبحانه ، فإنها ليست بخشية على الحقيقة .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ قال : برحين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : أتعجبون من منزلة الملائكة من الله ، والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك .

واقرءوا إن شئتم : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : "قلت يا رسول الله من أكرم الخلق على الله ؟ قال : " يا عائشة أما تقرئين : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ "

وأخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : كنا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأقبل عليّ ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة " ونزلت : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ فكان أصحاب محمد إذا أقبل قالوا : قد جاء خير البرية" .

وأخرج ابن عدي ، وابن عساكر عن أبي سعيد مرفوعاً : "علي خير البرية" .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : "لما نزلت هذه الآية : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليّ : " هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين " وأخرج ابن مردويه عن عليّ مرفوعاً نحوه .

وأخرج أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أخبركم بخير البرية ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله كلما كانت هيعة استوى عليه .

ألا أخبركم بشرّ البرية ؟ قالوا بلى ، قال : الذي يسأل بالله ولا يعطي به " قال أحمد : حدّثنا إسحاق بن عيسى ، حدّثنا أبو معشر عن أبي وهب مولى أبو هريرة عن أبي هريرة قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

. فذكره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 473 . 477 ﴾

(175/825)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها » . .

هو مواجهة للذين ظلّوا على كفرهم من أهل الكتاب ، والذين أقاموا على شركهم من المشركين بعد أن جاءتهم البينة . . فهؤلاء وأولئك جميعا سيلقون فى نار جهنم خالدين فيها . . وهؤلاء وأولئك هم شر البرية ، أي شر الخلق . . لأنهم لم يؤمنوا وقد جاءتهم البينة ، التي جمعت البنيان كله ، واشتملت على الهدى جميعه ، فكانت آياتها قائمة بين الناس ، يلقونها فى كل لحظة ، ويديرون عقولهم وقلوبهم إليها فى كل زمان ومكان ، ولم تكن آياتها آيات عارضة ، تلقاها حواسّ من يشهدونها ساعة من نهار ، ثم تزول فلا ترى أبد الدهر ، كما رأى الراءون من آيات موسى ، وعيسى عليهما السلام . . وإنما هى آيات تعايش الإنسان ، وتصحبه ما شاء أن تصحبه وتعيش معه . .

والحق حين تتضح آياته هذا الوضوح المشرق ، وحين يتجلّى وجهه هذا التجلي المبين ،

يكون منكره ، والحائد عنه ، أشدّ الناس ضلالا ، وأكثرهم عنادا ، وأبعدهم عن الخير ، وأقربهم إلى الشر . . « أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ » . .

وقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ » .

(176/825)

أي الذين آمنوا بهذا الدّين وعملوا الصالحات ، أولئك هم خير الخلق جميعا ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » ، إذ ألبسهم إيمانهم باللّه ، وأعمالهم الصالحة فى ظل هذا الإيمان ـ لباس التقوى ، فكانوا هم عباد اللّه ، وكانوا أهل ودّه ، ولهذا كان جزاؤهم عند ربهم هذا الجزاء الكريم : « جنات عدن » أي جنات خلود واستقرار ، تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، لا يتحولون عنها . . « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ » فأدخلهم فى جنّاته ، وأفاض عليهم من نعيمه . « وَرَضُوا عَنْهُ » أي رضوا عن ربّهم ، وحمدوه ، وشكروا له هذا النعيم الذي هم فيه . . وذلك النعيم والرضوان ، إنما هو لمن خشى ربّه ، واتقاه ، وخاف مقامه .

هذا ، ويلاحظ هنا أمران :

أولهما : أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات قد جاء الحديث عنهم مطلقا من غير قيد

الإضافة إلى أهل الكتاب ، أو المشركين ، فلم يجيء النظم القرآنى هكذا : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات من أهل الكتاب والمشركين » .

. كما جاء فى الآية السابقة : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ » . وذلك لأن الذين يؤمنون باللّه ويعملون الصالحات فى جميع الأحوال والأزمان داخلون فى ساحة المؤمنين بشريعة الإسلام . .

سواء أكان هذا الإيمان عن دعوة رسول وكتاب ، أو عن دعوة العقل ، وإلهام الفطرة ، فالمؤمن باللّه حيث كان ، وحيث كان مصدر إيمانه ، هو لاحق بهؤلاء المؤمنين ، وهو ملاق هذا الجزاء الذي يجزى به المؤمنون . .

أما حصر الكافرين هنا فى الذين كفروا من أهل الكتاب ، والذين كفروا من المشركين ، بعد أن جاءتهم البينة . فهو تشنيع على هذا الوجه الكريه الغليظ من وجوه الكفر ، فى مواجهة هذا الصبح المشرق ، الذي

لا ينكره إلا مكابر ، ولا يكفر به إلا من ختم اللّه على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، ومن هنا كانوا شرّ البريّة على الإطلاق ، كما كان المؤمنون بشريعة الإسلام خير

البرية على الإطلاق كذلك .

وثانى الأمرين : هو أن وعيد الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين بالخلود فى النّار ـ لم يقيّد بلفظ التأبيد « أبدا » بل جاء مطلقا هكذا : « خالِدِينَ فِيها » على حين جاء وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالخلود فى الجنة مؤبدا . . هكذا « خالِدِينَ فِيها أَبَداً » .

فما تأويل هذا ؟

نقول ـ واللّه أعلم ـ إن تأبيد الخلود فى الجنة ، هو أمر عام لكل من أكرمه اللّه بدخول الجنة ، وأخذ مكانه فيها ، ونزل منزله منها . . فإنه لا يتحول أبدا عن هذا المنزل ، وإن كان ثمة تحول فهو إلى منزل آخر فى الجنة ، أعلى من منزله الذي هو فيه . . فخلود أهل الجنة فى الجنة ، خلود مؤبد لكل من دخلها . . أما أهل النار . . فإن كثيرا ممن يدخلها من عصاة المؤمنين ، لا يخلدون فيها ، بل يتحولون عنها إلى الجنة ، بعد أن ينالوا جزاءهم من العذاب فى النار ، وأما الذين يخلدون فى النار فهم أهل الكفر ، وحسبهم من العذاب أن يكون خالدا ، أي طويلا ممتدّا إلى ما شاء اللّه . . فمعنى الخلود هنا هو امتداد الزمن وطوله ، كما يفهم من قوله تعالى : « يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ » أي يخلده ، ويمد له فى عمره زمنا طويلا . .

ثم إن هؤلاء الخالدين فى النار ، هم بعد ذلك إلى مشيئة اللّه ، فى تأبيد هذا الخلود أو توقيته ، وهذا ما يفهم من قوله تعالى فى أصحاب النار : « فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ

فِيها زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ، خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ » وقوله تعالى بعد ذلك فى أصحاب

الجنة : « وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّماواتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » (106.108 : هود) .

ففى جانب المخلدين فى النار جاء قوله تعالى : « إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ » مؤذنا بأن للّه سبحانه وتعالى فعلا آخر فى أهل النار غير هذا الخلود ، بعد أن يستوفوه . . ولا ندرى ما هو . . غير أن رحمة اللّه التي وسعت كل شىء لا تقصر عن أن تنال هؤلاء الخالدين فى النار ببعض آثارها . . تعالى اللّه عن ذلك علوّا كبيرا .

أما فى جانب المخلدين فى الجنة ، فقد جاء قوله تعالى : « عَطاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » مؤذنا بأن هذا العطاء الذي أعطوه فى الجنة ، لن ينقطع أبدا . . واللّه أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1645.1648 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾

بعد أن أنحى على أهل الكتاب والمشركين معاً ثم خَصَّ أهل الكتاب بالطعن في تعللاتهم والإبطال لشبهاتهم التي يتابعهم المشركون عليها .

أعقبه بوعيد الفريقين جمعاً بينهما كما ابتدأ الجمع بينهما في أول السورة لأن ما سبق من الموعظة والدلالة كاف في تدليل أنفسهم للموعظة .

فالجملة استئناف ابتدائي ، وقدم أهل الكتاب على المشركين في الوعيد استتباعاً لتقديمهم عليهم في سببه كما تقدم في أول السورة ، ولأن معظم الرد كان موجهاً إلى أحوالهم من قوله : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ دين القيمة ﴾ [البينة : 4 ، 5] ، ولأنه لو آمن أهل الكتاب لقامت الحجة على أهل الشرك .

و﴿ مِن ﴾ بيانية مثل التي في قوله : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ [البينة : 1] .

وتأكيد الخبر بـ ﴿ إنّ ﴾ للرد على أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم لا تمسهم النار إلا أياماً معدودة ، فإن الظرفية التي اقتضتها ﴿ في ﴾ تفيد أنهم غير خارجين منها ، وتأكد ذلك بقوله : ﴿ خالدين فيها ﴾ ، وأما المشركون فقد أنكروا الجزاء رأساً .

والإِخبارُ عنهم بالكون في نار جهنم إخبار بما يحصل في المستقبل بقرينة مقام الوعيد فإن الوعيد كالوعد يتعلق بالمستقبل وإن كان شأن الجملة الاسمية غير المقيدة بما يعين زمان وقوعها أن تفيد حصول مضمونها في الحال كما تقول : زيد في نعمة .

وجملة : ﴿ أولئك هم شر البريئة ﴾ كالنتيجة لكونهم في نار جهنم خالدين فيها فلذلك فصلت عن الجملة التي قبلها وهو إخبار بسوء عاقبتهم في الآخرة وأريد بالبريئة هنا البريئة المشهورة في الاستعمال وهم البشر ، فلا اعتبار للشياطين في هذا الاسم وهذا يشبه الاستغراق العرفي .

والبريئة : فعيلة من بَرأ الله الخلق ، أي صورهم .

(180/825)

ومعنى كونهم ﴿ شر البريئة ﴾ أنهم أشد الناس شراً ، ف ﴿ شر ﴾ هنا أفعل تفضيل أصله أشر مثل خير الذي هو بمعنى أخير ، فإضافة ﴿ شر ﴾ إلى ﴿ البريئة ﴾ على نية ﴿ مِن ﴾ التفضيلية .

وإنما كانوا كذلك لأنهم ضلوا بعد تلبسهم بأسباب الهدى ، فأما أهل الكتاب فلأن لديهم كتاباً فيه هدى ونور فعدلوا عنه ، وأما المشركون فلأنهم كانوا على الحنيفية فأدخلوا فيها

عبادة الأصنام ثم إنهم أصرّوا على دينهم بعدما شاهدوا من دلائل صدق محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به القرآن من الإعجاز والإنباء بما في كتب أهل الكتاب، وذلك مما لم يشاركهم فيه غيرهم فقد اجتنوا لأنفسهم الشر من حيث كانوا أهلاً لنوال الخير فحسرتهم على أنفسهم يوم القيامة أشد من حسرة من عداهم فكان الفريقان شراً من الوثنيين والزنادقة في استحقاق العقاب لا فيما يرجى منهم من الاقتراب.

وأقحم اسم الإشارة بين اسم ﴿ إنَّ ﴾ وخبرها للتنبيه على أنهم أحرياء بالحكم الوارد بعد اسم الإشارة من أجل الأوصاف التي قبل اسم الإشارة كما في قوله:

﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ [البقرة: 5].

وتوسيط ضمير الفصل لإفادة اختصاصهم بكونهم شر البريئة لا يشاركهم في ذلك غيرهم من فرق أهل الكفر لما علمت آنفاً.

ولا يرد أن الشياطين أشد شراً منهم لما علمت أن اسم البريئة اعتبر إطلاقه على البشر.

و﴿ البريئة ﴾ قرأه نافع وحده وابنُ ذكوان عن ابن عامر بهمز بعد الياء فعيلة من برأ اللَّهُ، إذا خلق.

وقرأه بقية العشرة بياء تحتية مشددة دون همز على تسهيل الهمزة بعد الكسرة ياء وإدغام الياء الأولى في الياء الثانية تخفيفاً.

وإثبات الهمزة لغة أهل الحجاز، والتخفيف لغة بقية العرب، كما تركوا الهمز في الدَّرِيَّة

والنبيّ .

قال سيبويه : ليس أحد من العرب إلا ويقول : تنبأ مسيلمة بالهمز غير أنهم تركوا الهمز في النبيّ كما تركوه في : الذّرِيّة والبَرِيّة إلا أهل مكة فإنهم يهمزونها ويخالفون العرب في ذلك .

(181/825)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7)

قوبل حال الكفرة من أهل الكتاب وحالُ المشركين بحال الذين آمنوا بعد أن أشِير إليهم بقوله : ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ [البينة : 5] ، استيعاباً لأحوال الفِرق في الدنيا والآخرة وجرياً على عادة القرآن في تعقيب نذارة المنذَرين ببشارة المطمئنين وما ترتب على ذلك من الثناء عليهم ، وقدم الثناء عليهم على بشارتهم على عكس نظم الكلام المتقدم في ضدهم ليكون ذكر وعدهم كالشكر لهم على إيمانهم وأعمالهم فإن الله شكور .

والجملة استئناف بياني ناشىء عن تكرر ذكر الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فإن ذلك يثير في نفوس الذين آمنوا من أهل الكتاب والمشركين تساؤلاً عن حالهم لعل تأخر إيمانهم إلى ما بعد نزول الآيات في التنديد عليهم يَجعلهم في انحطاط درجةٍ ، فجاءت هذه الآية مبينة أن من آمن منهم هو معدود في خير البريئة .

والقول في اسم الإِشارة، وضمير الفصل والقصر وهمز البريئة كالقول في نظيره المتقدم.

واسم الإِشارة والجملة المخبر بها عنه جميعها خبر عن اسم ﴿ إن ﴾.

وجملة: ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن ﴾ إلى آخرها مبيِّنة لجملة: ﴿ أولئك هم خير البريئة ﴾.

و﴿ عند ربهم ﴾ ظرف وقع اعتراضاً بين ﴿ جزاؤهم ﴾ وبين ﴿ جنات عدن ﴾ للتنويه بعِظَم الجزاء بأنه مدَّخر لهم عند ربهم تكرمةً لهم لما في ﴿ عند ﴾ من الإِيماء إلى الحظوة والعناية، وما في لفظ ربهم من الإِيماء إلى إجزال الجزاء بما يناسب عظم المضاف إليه ﴿ عندَ ﴾، وما يناسب شأن من يَرُب أن يبلغ بمربوبه عظيم الإحسان.

وإضافة: ﴿ جنات ﴾ إلى ﴿ عدن ﴾ لإِفادة أنها مسكنهم لأن العَدْن الإِقامة، أي ليس جزاؤهم تنزهاً في الجنات بل أقوى من ذلك بالإِقامة فيها.

وقوله: ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ بشارة بأنها مسكنهم الخالد.

ووصف الجنات بـ ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ لبيان منتهى حسنها.

وجَرْيُ النهر مستعار لانتقال السيْل تشبيهاً لسرعة انتقال الماء بسرعة المشي .

والنهر : أخدود عظيم في الأرض يسيل فيه الماء فلا يطلق إلا على مجموع الأخدود ومائه .

وإسناد الجري إلى الأنهار توسع في الكلام لأن الذي يجري هو ماؤها وهو المعتبر في ماهية النهر .

وجعل جزاء الجماعة جمعَ الجنات فيجوز أن يكون على وجه التوزيع ، أي لكل واحد جنة كقوله تعالى : ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم ﴾ [البقرة : 19] وقولك : ركب القوم دوابّهم ، ويجوز أن يكون لكل أحد جنات متعددة والفضل لا ينحصر قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ [الرحمن : 46] .

وجملة : ﴿ رضي الله عنهم ﴾ حال من ضمير ﴿ خالدين ﴾ ، أي خالدين خلوداً مقارناً لرضى الله عنهم ، فهم في مدة خلودهم فيها محفوفون بآثار رضى الله عنهم ، وذلك أعظم مراتب الكرامة قال تعالى :

﴿ ورضوان من اللّه أكبر ﴾ [التوبة : 72] ورِضَى الله تعلق إحسانه وإكرامه لعبده .

وأما الرضى في قوله : ﴿ ورضوا عنه ﴾ فهو كناية عن كونهم نالهم من إحسان الله ما لا مطلب لهم فوقه كقول أبي بكر في حديث الغار : "فشَرب حتى رضيتَ" ، وقول مخرمة حين أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قَباءً : "رَضِيَ مخرمة" .

وزاده حُسْن وقع هنا ما فيه من المشاكلة .

﴿ عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ﴾ .

تذييل آت على ما تقدم من الوعد للذين آمنوا والوعيد للذين كفروا بُيّن به سبب العطاء وسبب الحرمان وهو خشية الله تعالى بمنطوق الصلة ومفهومها .

والإشارة إلى الجزاء المذكور في قوله : ﴿ جزاؤهم عند ربهم ﴾ يعني أن السبب الذي أنالهم ذلك الجزاء هو خشيتهم الله فإنهم لما خشوا الله توقعوا غضبه إذا لم يصغوا إلى من يقول لهم : إني رسول الله إليكم ، فأقبلوا على النظر في دلائل صدق الرسول فاهتدوا وآمنوا ، وأما الذين آثروا حظوظ الدنيا فأعرضوا عن دعوة رسول من عند الله ولم يتوقعوا غضب مرسله فبقوا في ضلالهم .

(183/825)

فما صدْقُ : "من خشي ربه" هم المؤمنون ، واللام للملك ، أي ذلك الجزاء للمؤمنين الذين خشوا ربهم فإذا كان ذلك ملكاً لهم لم يكن شيء منه ملكاً لغيرهم فأفاد حرمان الكفرة المتقدم ذكرهم وتم التذييل .

وفي ذكر الرب هنا دون أن يقال : ذلك لمن خشي الله ، تعريض بأن الكفار لم يرعوا حق

الربوبية إذ لم يخشوا ربهم فهم عبيد سوء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(184/825)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ لم يكن ﴾ بالمدينة .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : نزلت سورة ﴿ لم يكن ﴾ بمكة .

وأخرج أبو نعيم في المعرفة عن اسماعيل بن أبي حكيم المزني أحد بني فضيل : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليسمع قراءة ﴿ لم يكن ﴾ فيقول : أبشر عبدي فوعزتي وجلالي لأمكنن لك في الجنة حتى ترضى " .

وأخرج أبو موسى المديني في المعرفة عن اسماعيل بن أبي حكيم عن مطر المزني أو المدني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله ليسمع قراءة ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ فيقول : أبشر عبدي فوعزتي وجلالي لا أنساك على حال من أحوال الدنيا والآخرة ولأمكنن لك

في الجنة حتى ترضى " .

وأخرج أحمد وابن قانع في معجم الصحابة والطبراني وابن مردويه عن أبي حبة البدري قال : " لما نزلت ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ إلى آخرها ، قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن ربك يأمرك أن تقرئها أبياً فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي : إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة . قال أبيّ : وقد ذكرت ثم يا رسول الله ؟ قال : نعم فبكى " .

وأخرج ابن سعد وأحمد والبخاري ومسلم وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبيّ بن كعب : " إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ قال : وسماني لك ؟ قال : نعم فبكى ، وفي لفظ : لما نزلت ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ دعا أبيّ بن كعب فقرأها عليه ، فقال : " أمرت أن أقرأ عليك " " .

(185/825)

وأخرج أحمد والترمذي والحاكم وصححه عن أبيّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ فقرأ فيها ولو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيته لسأل ثانياً ، ولو سأل ثانياً فأعطيه

لسأل ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب وإن ذات الدين عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل ذلك فلن يكفره " .

وأخرج أحمد عن أبيّ بن كعب قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله أمرني أن أقرأ عليك فقرأ عليَّ ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ إن الدين عند الله الحنيفية غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل خيراً فلن يكفره "

قال شعبة : ثم قرأ آيات بعدها ثم قرأ " لو أن لابن آدم وادياً من مال لسأل وادياً ثانياً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب " ، قال : ثم ختم بما بقي من السورة .

(186/825)

وأخرج ابن مردويه عن أبيّ بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يا أبيّ إني أمرت أن أقرئك سورة فأقرأنيها ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة ﴾ أي ذات اليهودية والنصرانية إن أقوم الدين الحنيفية مسلمة غير مشركة ، ومن يعمل صالحاً فلن يكفره ﴾

وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وفارقوا الكتاب لما جاءهم أولئك عند الله شر البرية ، ما كان الناس إلا أمة واحدة ثم أرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين يأمرون الناس يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويعبدون الله وحده ، وأولئك عند الله هم خير البرية ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾ " .

وأخرج أحمد عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى عمر يسأله فجعل عمر ينظر إلى رأسه مرة وإلى رجليه أخرى هل يرى عليه من البؤس ، ثم قال له عمر : كم مالك ؟ قال : أربعون من الإبل . قال ابن عباس : قلت صدق الله ورسوله لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب . فقال عمر : ما هذا ؟ فقلت : هكذا اقرأني أبيّ . قال : فمر بنا إليه فجاء إلى أبيّ فقال : ما تقول هذا ؟ قال أبيّ : هكذا أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : إذاً أثبتها في المصحف ؟ قال : نعم .

وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : قلت يا أمير المؤمنين : إن أبيّاً يزعم أنك تركت من آيات الله آية لم تكتبها . قال : والله لأسألن أبيّاً فإن أنكر لتكذبن . فلما صلى صلاة الغداة غدا على أبيّ فأذن له وطرح له وسادة وقال : يزعم هذا أنك تزعم أني تركت آية من كتاب الله لم أكتبها . فقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لو أن لابن آدم واديين من مال لابتغى إليهما وادياً ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب " فقال عمر : أفأكتبها ؟ قال : لا أنهاك . قال : فكأن أبيّاً شك أقول من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قرآن منزل .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد قال : لما نزلت ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ لقي أبيّ بن كعب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبيّ إن الله قد أنزل سورة وأمرني أن أقرئكها فقال : الله أمرك ؟ قال : نعم .

قال : فافعل . قال : فاقرأها إياه .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ﴾ قال : منتهين عما هم فيه ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ أي هذا القرآن ﴿ رسول من الله يتلوا صحفاً مطهرة ﴾ قال : يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويثني عليه بأحسن الثناء ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ والحنيفية الختان وتحريم الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات

والمناسك ﴿ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ قال : هو الذي بعث الله به رسوله وشرعه لنفسه ورضيه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ منفكين ﴾ قال : برحين .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ منفكين ﴾ قال : منتهين لم يكونوا ليؤمنوا حتى تبين لهم الحق .

(188/825)

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ قال : محمد ، وفي قوله : ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ قال : القيم .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ قال : محمد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عقيل قال : قلت للزهري تزعمون أن الصلاة والزكاة ليسا من الإيمان فقرأ ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ ترى هذا من الإيمان أم لا ؟ .

وأخرج ابن المنذر عن عطاء بن أبي رباح أنه قيل له : إن قوماً قالوا : إن الصلاة والزكاة ليسا من الدين فقال : أليس يقول الله ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء

ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ فالصلاة والزكاة من الدين .

وأخرج عبد بن حميد عن المغيرة قال : كان أبو وائل إذا سئل عن شيء من الإيمان قرأ ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ إلى قوله : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : أتعجبون من منزلة الملائكة من الله ؟ والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من منزلة ملك واقرأوا إن شئتم ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت : " قلت يا رسول الله : من أكرم الخلق على الله ؟ قال : " يا عائشة أما تقرئين ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ " " .

وأخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : "كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فأقبل عليّ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده إن هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة ، ونزلت ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ " فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا أقبل عليّ قالوا : جاء خير البرية .

وأخرج ابن عدي وابن عساكر عن أبي سعيد مرفوعاً : عليّ خير البرية .

وأخرج ابن عدي عن ابن عباس قال : " لما نزلت ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : " هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين " " .

وأخرج ابن مردويه عن عليّ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألم تسمع قول الله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ أنت وشيعتك وموعدي وموعدكم الحوض إذا جئت الأمم للحساب تدعون غرّاً محجلين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 585 ـ 589 ﴾

(190/825)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾

يعني : اليهود والنصارى ﴿ والمشركين ﴾ يعني : عبدة الأوثان ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ يعني : غير منتهين عن كفرهم ، وعن قولهم الخبيث ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ﴾ يعني : حتى أتاهم البيان

، فإذا جاءهم البيان ، فريق منهم انتهوا وأسلموا ، وفريق ثبتوا على كفرهم .

ويقال : لم يزل الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، حتى وجب في الحكمة علينا في هذا الحال ، إرسال الرسول إليهم .

ويقال : معناه لم يكونوا منتهين عن الكفر ، حتى أتاهم الرسول والكتاب ، فلما آتاهم الكتاب والرسول ، تابوا ورجعوا عن كفرهم ، وهم مؤمنو أهل الكتاب ، والذين أسلموا من مشركي العرب .

وقال قتادة : ﴿ البينة ﴾ أراد به محمداً صلى الله عليه وسلم ، وقال القتبي : ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ أي : زائلين يقال : لا أنفك من كذا أي : لا أزول .

قوله تعالى : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾ يعني : قرآناً مطهراً من الزيادة والنقصان .

ويقال : مطهراً من الكذب ، والتناقض ويقال : ﴿ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾ أي : أمور مختلفة .

ويقال : سمي القرآن صحفاً ، من كثرة السور ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ يعني : صادقة مستقيمة لا عوج فيها .

ويقال : كتب قيمة ، يعني : تدل على الصواب والصلاح ، ولا تدل على الشرك والمعاصي .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ ﴾ يعني : وما اختلفوا في محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم اليهود والنصارى ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ يعني : بعدما

ظهر لهم الحق ، فنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم قال : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ ﴾ يعني : وما أمرهم محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله ﴾ يعني : ليوحدوا الله .

(191/825)

ويقال : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ ﴾ في جميع الكتب ، ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله ﴾ يعني : يوحدوا الله ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين حُنَفَاء ﴾ مسلمين .

روي عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد أنه قال : ﴿ حُنَفَاء ﴾ يعني : متبعين .

وقال الضحاك ﴿ حُنَفَاء ﴾ يعني : حجاجاً يحجون بيت الله تعالى .

ثم قال : ﴿ وَيُقِيمُواْ الصلاة ﴾ يعني : يقرون بالصلاة ، ويؤدونها في مواقيتها ﴿ وَيُؤْتُواْ الزكواة ﴾ يعني : يقرون بها ويؤدونها ﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ يعني : المستقيم لا عوج فيه ، يعني : الإقرار بالتوحيد ، وبالصلاة والزكاة ، وإنما بلفظ التأنيث ﴿ القيمة ﴾ لأنه انصرف إلى المعنى ، والمراد به الملة ، يعني : الملة المستقيمة لا عوج فيها .

يعني : هذا الذي يأمرهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وبهذا أمروا في جميع الكتب .

ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين ﴾ يعني : الذين جحدوا

من اليهود والنصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وبالقرآن ومن مشركي مكة ، وثبتوا على كفرهم ﴿ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا ﴾ يعني : دائمين فيها ﴿ أَوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ البرية ﴾ يعني : شر الخليقة .

قرأ نافع وابن عامر (البريئة) بالهمزة ، والباقون بغير همزة .

فمن قرأ بالهمزة ، فلأن الهمزة فيها أصل .

ويقال برأ الله الخلق ، ويبرؤهم وهو الخالق البارىء .

ومن قرأ بغير همزة ، فلأنه اختار حذف الهمزة وتخفيفها .

ثم مدح المؤمنين ، ووصف أعمالهم ، وبين مكانهم في الآخرة ، حتى يرغبوا إلى جواره فقال : ﴿ إِنَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يعني : صدقوا بالله ، وأخلصوا بقلوبهم وأفعالهم ، وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تابعهم إلى يوم القيامة ﴿ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ يعني : هم خير الخليقة .

(192/825)

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص (والله للمؤمن أكرم على الله تعالى من بعض الملائكة الذين عبدوه) وروي عن الحسن ، أنه سئل عن قوله ﴿ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ أهم خير من

الملائكة ؟ قال : ويلك أين تعدل الملائكة ، من الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

ثم بين ثوابهم فقال عز وجل : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ يعني : ثوابهم في الآخرة ﴿ جنات عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ يعني : أنهار من الخمر ، والعسل ، واللبن ، وماء غير آسن ﴿ خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ يعني : دائمين مقيمين فيها ﴿ رَّضِىَ الله عَنْهُمْ ﴾ بأعمالهم ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ بثوابه الجنة ﴿ ذلك ﴾ يعني : هذا الثواب الذي ذكر ﴿ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴾ يعني : وَحَّدَ ربه في الدنيا ، واجتنب معاصيه والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 579 . 580 ﴾

(193/825)

وقال الثعلبى :

سورة البينة

﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾

وهم اليهود والنصارى ، والمشركون وهم عبدة الأوثان ، ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ منتهين عن كفرهم وشركهم ، وقال أهل اللغة : زائلين ، يقول : العرب : ما انفكّ فلان يفعل كذا ، أي ما زال ، وأصل الفكّ الفتح ، ومنه فكّ الكتاب ، وفكّ الخلخال ، وفكّ البيالم وهي خورنق العطر ،

قال طرفة :

وآليت لا ينفك كشحي بطانة . . . لعضب رقيق الشفرتين منهد

﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ﴾ الحجّة الواضحة وهي محمد (عليه السلام) أتاهم بالقرآن فبيّن لهم ضلالتهم وجهالتهم ، وهداهم إلى الإيمان ، وقال ابن كيسان معناه لم يكن هؤلاء الكفار تاركين صفة محمد (عليه السلام) حتى بعث ، فلمّا بعث تفرّقوا فيه .

ثم فسّر البيّنة فقال : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللهِ ﴾ . فأبدل النكرة من المعرفة كقوله : ﴿ ذُو العرش المجيد * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : 15-16] .

﴿ يَتْلُواْ ﴾ يقرأ ﴿ صُحُفاً ﴾ كتباً ﴿ مُّطَهَّرَةً ﴾ من الباطل ﴿ فِيهَا كُتُبٌ ﴾ من اللّه ﴿ قَيِّمَةٌ ﴾ مستقيمة عادلة ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ في أمر محمد (عليه السلام) فكذّبوه ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة ﴾ البيان في كتبهم أنه نبيٌّ مرسل .

قال العلماء : من أول السورة إلى قوله : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ حكمها في من آمن من أهل الكتاب والمشركين ، ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ﴾ حكمه في من لم يؤمن من أهل الكتاب بعد قيام الحجج عليها .

قال بعض أئمّة أهل اللغة قوله : ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ أي هالكين من قوله انفك صلا المرأة عند الولادة وهو أن تنفصل ولا يلتئم فهلك ، ومعنى الآية : لم يكونوا هالكين أي معذّبين إلاّ بعد قيام الحجّة عليهم بإرسال الرسول وإنزال الكتب .

وقرأ الأعمش (والمشركون) رفعاً ، وفي مصحف عبد اللّه (لم يكن المشركون وأهل الكتاب منفكّين) وفي حرف أُبيّ (ما كان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البيّنة رسولا من اللّه) بالنصب على القطع والحال .

﴿ وَمَآ أمروا ﴾ يعني هؤلاء الكفار ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ ﴾ يعني إلاّ أن يعبدوا اللّه مخلصين له الدين التوحيد والطاعة ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام .

وقال ابن عباس : حجاجاً ، وقال قتادة : الحنيفية هي الختان وتحريم الأُمّهات والبنات والأخوات والعمّات والخالات ، وإقامة المناسك .

وقال سعيد بن حمزة : لا تسمي العرب حنيفاً إلاّ من حجّ واختتن ﴿ وَيُقِيمُواْ الصلاة وَيُؤْتُواْ الزكاة وَذَلِكَ ﴾ الذي ذكرت ﴿ دِينُ القيمة ﴾ المستقيّمة فأضاف الدين إلى القيّمة وهو أمر فيه اختلاف اللفظين وأنّث القيّمة لأنّه رجع بها إلى الملّة والشريعة ، وقيل : الهاء فيه للمبالغة .

سمعت أبا القاسم الحنبلي يقول : سمعت أبا سهل محمد بن محمد بن الأشعث الطالقاني

يقول : إن القيّمة ها هنا الكتب التي جرى ذكرها ، والدين مضاف إليها على معنى : وذلك دين الكتب القيّمة فيما يدعو إليه ويأمر به ، نظيرها قوله سبحانه : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكتاب بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس فِيمَا اختلفوا فِيهِ ﴾

[البقرة : 213] .

وقال النضر بن شميل : سألت الخليل بن أحمد عن قوله سبحانه : ﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ فقال : القيّمة جمع القيّم ، والقيّم [والقائم] واحد ومجاز الآية : وذلك دين القائمين لك بالتوحيد .

(195/825)

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أولئك هُمْ شَرُّ البرية ﴾ الخليقة ، قرأ نافع البرئة بالهمزة في الحرفين ومثله روى ابن ذكوان عن أهل الشام على الأصل لأنه من قولهم : برأ اللّه الخلق يبرأهم برءاً ، قال اللّه سبحانه : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد : 22] ، وقرأ الآخرون بالتشديد من غير همزة ، ولها وجهان :

أحدهما أنه ترك الهمزة وأدخل الشبه به عوضاً منه .

والآخر أن يكون (فعيلة) من البراء وهو التراب ، تقول العرب : بفيك البراء فمجازه :

المخلوقون من التراب .

﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك هُمْ خَيْرُ البرية * جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً رِّضِىَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .

قال الصادق رضي الله عنه : بما كان سبق لهم من العناية والتوفيق ، ورضوا عنه بما منّ عليهم بمتابعتهم لرسوله ، وقبولهم ما جاءهم به ، أي أن بيان رضا الخلق عن اللّه رضاهم بما يرد عليهم من أحكامه ورضاه عنهم أن يوفّقهم للرضا عنه " .

محمد بن الفضيل : الرَّوح والراحة في الرضا واليقين ، والرضا باب اللّه الأعظم ومستراح العابدين . محمد بن حقيق : الرضا ينقسم قسمين : رضاً به ورضاً عنه ، فالرضا به ربّاً ومدّبراً ، والرضا عنه فيما يقضي ويقدّر .

وقيل : الرضا رفع الاختيار . ذي النون : الرضا : سرور القلب لمرِّ القضاء . حارث : الرضا سكون القلب تحت جريان الحكم . أبو عمرو الدمشقي : الرضا نهاية الصبر . أبو بكر بن طاهر : الرضا خروج الكراهية من القلب حتى لا يكون إلاّ فرح وسرور .

الواسطي : هو النظر إلى الأشياء يعني الرضا حتى لا يسخطك شيء إلاّ ما يسخِط مولاك . ابن عطاء : هو النظر إلى قديم إحسان اللّه للعبد فيترك السخط عليه .

سمعت محمد بن الحسين بن محمد يقول : سمعت محمد بن أحمد بن إبراهيم يقول : سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت علي بن عبد الحميد يقول : سمعت السهمي يقول : إذا كنت لا ترضى عن اللّه فكيف تسأله الرضا عنك ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 259.262 ﴾

(197/825)

وقال الزمخشرى :

سورة البينة

مكية ، وقيل : مدنية ، وآياتها 8 [نزلت بعد الطلاق] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة البينة (98) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1)

(198/825)

كان الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأصنام يقولون قبل مبعث النبي صلى اللّه عليه وسلم : لا ننفك مما نحن عليه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل ، وهو محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فحكى اللّه تعالى ما كانوا يقولونه ثم قال وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يعنى أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق : إذا جاءهم الرسول ، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، ونظيره في الكلام أن يقول الفقير الفاسق لمن يعظه : لست بمنفك مما أنا فيه حتى يرزقني اللّه الغنى ، فيرزقه اللّه الغنى فيزداد فسقا ، فيقول واعظه : لم تكن منفكا عن الفسق حتى توسر ، وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار : يذكره ما كان يقوله توبيخا وإلزاما .

وانفكاك الشيء من الشيء . أن يزايله بعد التحامه به ، كالعظم إذا انفك من مفصله ، والمعنى :

أنهم متشبثون بدينهم لا يتركونه إلا عند مجيء البينة . والْبَيِّنَةُ الحجة الواضحة «1» .

ورَسُولٌ بدل من البينة . وفي قراءة عبد اللّه : رسولا ، حالا من البينة صُحُفاً قراطيس مُطَهَّرَةً من الباطل فِيها كُتُبٌ مكتوبات قَيِّمَةٌ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل والمراد بتفرقهم : تفرقهم عن الحق وانقشاعهم عنه . أو تفرقهم فرقا ، فمنهم من آمن ، ومنهم من أنكر وقال :

ليس به ، ومنهم من عرف وعاند . فإن قلت : لم جمع بين أهل الكتاب والمشركين أوّلا ثم أفرد أهل الكتاب في قوله وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ؟ قلت : لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم ، فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف وَمَا أُمِرُوا يعنى في التوراة والإنجيل إلا بالدين الحنيفي ، ولكنهمحرفوا وبدلوا وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ أى دين الملة القيمة . وقرئ : وذلك الدين القيمة ، على تأويل الدين بالملة . فإن قلت : ما وجه قوله وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ؟ قلت : معناه : وما أمروا بما في الكتابين إلا لأجل أن يعبدوا اللّه على هذه الصفة . وقرأ ابن مسعود : إلا أن يعبدوا ، بمعنى : بأن يعبدوا . قرأ نافع : البريئة

---

(1) . قوله «و البينة الحجة الواضحة» في نسخة بدل «و البينة» : القرآن ، أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ ما فِي الصُّحُفِ الْأُولى ورسول من اللّه : جبريل صلوات اللّه عليه ، وهو التالي للصحف المطهرة المنتسخة من اللوح التي ذكرت في سورة عبس ، ولا بد من مضاف محذوف وهو الوحى . ويجوز أن يراد النبي صلى اللّه عليه وسلم . فان قلت : كيف نسبة تلاوة الصحف المطهرة إليه وهو أمى ؟ قلت : إذا تلا مثل المذكور فيها كان تاليا لها . . . . (ع)

بالهمز، والقرّاء على التخفيف. والنبىّ، والبرية: مما استمر الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل وقرئ: خيار البرية: جمع خير، كجياد وطياب: في جمع جيد وطيب. عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من قرأ لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقبلا «1»». انتهى. اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 781. 783﴾

---

(1). أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بسندهم إلى أبى بن كعب.

(200/825)

وقال الماوردى:

قوله تعالى ﴿ لَمْ يَكُنِ الّذِينَ كَفَرَوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ والمُشْرِكِينَ مُنفَكّينَ ﴾

معناه لم يكن الذين كفروا من اليهود والنصارى الذين هم أهل الكتاب، ولم يكن المشركون الذين هم عبدة الأوثان من العرب، وغيرهم الذين ليس لهم كتاب.. "منفكين" فيه أربعة تأويلات:

أحدها: لم يكونوا منتهين عن الشرك ﴿ حتى تأتيهم البَيِّنَةُ ﴾ حتى يتبين لهم الحق. وهذا قول ثان: لم يزالوا مقيمين على الشرك والريبة حتى تأتيهم البينة، يعنى الرسل، قاله الربيع.

الثالث: لم يفترقوا ولم يختلفوا أن الله سيبعث إليهم رسولاً حتى بعث الله محمداً صلى الله

عليه وسلم وتفرقوا ، فمنهم من آمن بربه ، ومنهم من كفر ، قاله ابن عيسى .

الرابع : لم يكونوا ليتركوا منفكين من حجج الله تعالى ، حتى تأتيهم البينة التي تقوم بها عليهم الحجة ، قال امرؤ القيس :

إذا قُلْتُ أَنْفَكَّ مِن حُبّها . . . أبى عالقُ الحُبِّ إلا لُزوما

وفي " البيّنة " ها هنا ثلاثة أوجه :

أحدها : القرآن ، قاله قتادة .

الثاني : الرسول الذي بانت فيه دلائل النبوة .

الثالث : بيان الحق وظهور الحجج .

وفي قراءة أبيّ بن كعب : ما كان الذي كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ، وفي قراءة ابن مسعود : لم يكن المشركون وأهل الكتاب منفكين .

﴿ رسولٌ مِن الله ﴾ يعني محمداً .

﴿ يَتْلُواْ صُحُفاً مُطَهّرَةً ﴾ يعني القرآن .

ويحتمل ثانياً : يتعقب بنبوته نزول الصحف المطهرة على الأنبياء قبله . وفي ﴿ مطهرة ﴾ وجهان :

أحدهما : من الشرك ، قاله عكرمة .

الثاني : مطهرة الحكم بحسن الذكر والثناء ، قاله قتادة .

ويحتمل ثالثاً : لنزولها من عند الله .

﴿ فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني كتب الله المستقيمة التي جاء القرآن بذكرها ، وثبت فيه صدقها ، حكاه ابن عيسى .

الثاني : يعني فروض الله العادلة ، قاله السدي .

﴿ وما تَفَرَّقَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ ﴾ يعني اليهود والنصارى .

(201/825)

﴿ إلاّ مِن بَعْدِ ما جاءتْهم البْيِّنَةُ ﴾ فيه قولان :

احدهما : القرآن ، قاله أبو العالية .

الثاني : محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن شجرة .

ويحتمل ثالثاً : البينة ما في كتبهم من صحة نبوته .

﴿ وما أُمِروا إلاّ ليَعْبُدوا الله مُخْلِصينَ له الدّينَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : مُقِرّين له بالعبادة .

الثاني : ناوين بقلوبهم وجه الله تعالى في عبادتهم .

الثالث : إذا قال لا إله إلا الله أن يقول على أثرها " الحمد لله " ، قاله ابن جرير .

ويحتمل رابعاً : إلا ليخلصوا دينهم في الإقرار بنبوته .

﴿ حُنفاءَ ﴾ فيه ستة أوجه :

أحدها : متبعين .

الثاني : مستقيمين ، قاله محمد بن كعب .

الثالث : مخلصين ، قاله خصيف .

الرابع : مسلمين ، قاله الضحاك ، وقال الشاعر :

أخليفة الرحمنِ إنا مَعْشرٌ . . . حُنفاءُ نسجُدُ بُكرةً وأصيلاً

الخامس : يعني حجّاجاً ، قاله ابن عباس ؛ وقال عطية العوفي : إذا اجتمع الحنيف والمسلم كان معنى الحنيف الحاج وإذا انفرد الحنيف كان معناه المسلم ، وقال سعيد بن جبير : لا تسمي العرب الحنيف إلا لمن حج واختتن .

السادس : أنهم المؤمنون بالرسل كلهم ، قاله أبو قلابة .

﴿ ويُقيموا الصّلاةَ ويُؤْتوا الزّكاةَ وذلكَ دينُ القَيّمَةِ ﴾ وفيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه وذلك دين الأمة المستقيمة .

الثاني : وذلك دين القضاء القيم ، قاله ابن عباس .

الثالث : وذلك الحساب المبين ، قاله مقاتل .

ويحتمل رابعاً : وذلك دين من قام لله بحقه .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَآ أولئك هُمْ شَرُّ البرية * إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك هُمْ خَيْرُ البرية * جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 315.317 ﴾

(202/825)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾

يعني اليهود والنصارى ﴿ والمشركين ﴾ أي : ومن المشركين ، وهم عبدة الأوثان ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ أي : منفصلين وزائلين يقال : فككت الشيء ، فانفك ، أي انفصل والمعنى : لم يكونوا زائلين عن كفرهم وشركهم ﴿ حتى تأتِيَهم ﴾ أي : حتى أتتهم ، فلفظه لفظ المستقبل ، ومعناه الماضي .

و﴿ البيِّنة ﴾ الرسول ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه بَيَّنَ لهم ضلالهم وجهلهم ، وهذا بيان عن نعمة الله على من آمن من الفريقين إذ أنقذهم .

وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى الآية : لم يختلفوا أن الله يبعث إليهم نبياً حتى بعث فافترقوا .

وقال بعضهم : لم يكونوا ليتركوا منفكين عن حجج الله حتى أُقيمت عليهم البَيِّنة .

والوجه هو الأول .

والرسول هاهنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومعنى ﴿ يتلو صحفاً ﴾ أي : ما تضمنته الصحف من المكتوب فيها ، وهو القرآن .

ويدل على ذلك أنه كان يتلو القرآن عن ظهر قلبه لا من كتاب .

ومعنى ﴿ مُطَهرة ﴾ أي : من الشرك والباطل .

﴿ فيها ﴾ أي : في الصحف ﴿ كُتُبٌ قَيِّمة ﴾ أي : عادلة مستقيمة تُبَيِّن الحق من الباطل ، وهي الآيات .

قال مقاتل : وإنما قيل لها : كتب لما جَمَعَتْ من أُمورٍ شَتَّى .

قوله تعالى : ﴿ وما تَفَرَّقَ الذين أوتوا الكتاب ﴾ يعني : من لم يؤمن منهم ﴿ إلا من بعد ما جاءتهم البَيِّنة ﴾ وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها محمد صلى الله عليه وسلم .

والمعنى : لم يزالوا مجتمعين على الإيمان به حتى بُعِث ، قاله الأكثرون .

والثاني : القرآن ، قاله أبو العالية .

والثالث: ما في كتبهم من بيان نُبُوَّتِهِ، ذكره الماوردي.

وقال الزجاج: وما تَفَرَّقوا في كفرهم بالنبيّ إلا من بعد أن تَبَيَّنوا أنه الذي وُعِدُوا به في كُتُبِهم.

قوله تعالى: ﴿ وما أُمروا ﴾ أي: في كتبهم ﴿ إلا ليعبدوا الله ﴾ أي: إلا أن يعبدوا الله.

(203/825)

قال الفراء: والعرب تجعل اللام في موضع "أن" في الأمر والإرادة كثيراً، كقوله تعالى: ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ [النساء: 26] و﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ [الصف: 8] وقال في الأمر ﴿ وأُمِرْنا لنسلم ﴾ [الأنعام: 71].

قوله تعالى: ﴿ مخلصين له الدين ﴾ أي: موحِّدين لا يعبدون سواه ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ على دين إبراهيم ﴿ ويقيموا الصلاة ﴾ المكتوبة في أوقاتها ﴿ ويؤتوا الزكاة ﴾ عند وجوبها ﴿ وذلك ﴾ الذي أُمروا به هو ﴿ دين القَيِّمة ﴾ قال الزجاج: أي دين الأمة القيِّمة بالحق.

ويكون المعنى: ذلك الدِّينُ دين الملة المستقيمة.

قوله تعالى: ﴿ أولئك هم خير البرية ﴾ قرأ نافع، وابن ذكوان عن ابن عامر بالهمز

بالكلمتين .

وقرأ الباقون بغير همز فيهما .

قال ابن قتيبة : البريَّة : الخلق .

وأكثر العرب والقراء على ترك همزها لكثرة ما جرت على الألسنة ، وهي فعلية بمعنى مفعولة .

ومن الناس من يزعم أنها مأخوذة من بَرَيْتُ العود ، ومنهم من يزعم أنها من البَرَى وهو التراب [أي : خلق من التراب ، وقالوا : لذلك لا يهمز ، وقال الزجاج : لو كان من البَرَي وهو التَراب] لما قرنت بالهمز ، وإنما اشتقاقها من بَرَأَ الله الخلق .

وقال الخطابي : أصل البريَّة الهمز ، إلا أنهم اصطلحوا على ترك الهمز فيها .

وما بعده ظاهر إلى قوله تعالى : ﴿ رضي الله عنهم ﴾ قال مقاتل : رضي الله عنهم بطاعتهم ﴿ ورضُوا عنه ﴾ بثوابه .

وكان بعض السلف يقول : إذا كنت لا ترضى عن الله ، فكيف تسأله الرضى عنك ؟ ! .

قوله تعالى : ﴿ ذلك لمن خشي ربه ﴾ أي : خافه في الدنيا ، وتناهى عن معاصيه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 195 . 200 ﴾

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾

يعني اليهود والنّصارى ﴿ والمشركين ﴾ أي ومن المشركين ، وهم عبدة الأوثان ، وذلك أن الكفار كانوا جنسين أحدهما أهل كتاب وسبب كفرهم ما أحدثوه في دينهم ، أما اليهود فقولهم عزير ابن الله وتشبيههم الله بخلقه ، وأما النّصارى فقولهم المسيح ابن الله وثالث ثلاثة وغير ذلك ، والثاني المشركون أهل الأوثان الذين لا ينتسبون إلى كتاب الله ، فذكر الله الجنسين في قوله : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين ﴾ أي منتهين عن كفرهم وشركهم وقيل معناه زائلين ﴿ حتى تأتيهم ﴾ أي حتى أتتهم لفظه مضارع ومعناه الماضي ﴿ البينة ﴾ أي الحجة الواضحة يعني محمداً (صلى الله عليه وسلم) أتاهم بالقرآن فبين لهم ضلالتهم ، وشركهم وما كانوا عليه من الجاهلية ، ودعاهم إلى الإيمان ، فآمنوا فأنقذهم الله من الجهالة والضّلالة ولم يكونوا منفصلين عن كفرهم قبل بعثه إليهم ، والآية فيمن آمن من الفريقين ، قال الواحدي في بسيطة : وهذه الآية من أصعب ما في القرآن نظماً ، وتفسيراً وقد تخبط فيها الكبار من العلماء .

قال الإمام فخر الدين في تفسيره إنه لم يلخص كيفية الأشكال فيها وأنا أقول وجه الإشكال أن تقدير الآية لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة التي هي الرّسول ، ثم إنه تعالى لم يذكر أنهم منفكون عماذا لكنه معلوم إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه ، فصار التقدير لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة ، التي هي الرسول ، ثم إن كلمة حتى لانتهاء الغاية ، فهذه الآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرّسول ثم قال بعد ذلك وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرّسول ، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والثانية مناقضة في الظاهر ، وهذا منتهى الإشكال في ظني قال والجواب عنه من وجوه :

(206/825)

أولها : وأحسنها الوجه ، الذي لخصه صاحب الكشاف وهو أن الكفار من الفريقين أهل الكتاب ، وعبدة الأوثان كانوا يقولون قبل مبعث محمد (صلى الله عليه وسلم) لا ننفك عما نحن عليه من ديننا ، ولا نتركه حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التّوراة والإنجيل وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) فحكى الله تعالى عنهم ما كانوا يقولونه ، ثم

قال ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ ، أي أنهم كانوا يعدلون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول ، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول ، ونظيره في الكلام ما يقول الفاسق الفقير لمن يعظه لست بمنفك مما أنا فيه من الأفعال القبيحة حتى يرزقني الله الغنى فيرزقه الله الغنى فيزداد فسقاً ، فيقول واعظه لم تكن منفكاً عن الفسق حتى توسر وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار فيذكره ما كان يقول توبيخاً ، وإلزاماً قال الإمام فخر الدين : وحاصل هذا الجواب يرجع إلى حرف واحد وهو أن قوله تعالى لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة مذكور حكاية عنهم ، وقوله وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إخبار عن الواقع ، والمعنى أن الذي وقع كان بخلاف ما ادعوا أو ثانيها أن تقدير الآية لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة وعلى هذا التقدير يزول الإشكال إلا أن تفسير لفظة حتى بهذا ليس من اللغة في شيء وذكر وجوهاً أخر قال : والمختار هو الأول ثم فسر البينة فقال تعالى : ﴿ رسول من الله ﴾ أي تلك البينة رسول من الله ﴿ يتلوا ﴾ أي يقرأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) ﴿ صحفاً ﴾ أي كتباً يريد ما تضمنه المصحف من المكتوب فيه وهو القرآن لأنه كان (صلى الله عليه وسلم) يقرأ عن ظهر قلبه لا عن كتاب ﴿ مطهرة ﴾ أي من الباطل والكذب والزّور ، والمعنى أنها مطهرة من القبيح ، وقيل معنى مطهرة معظمة ، وقيل مطهرة أي لا ينبغي أن يمسها إلا المطهرون ﴿ فيها ﴾ أي في الصحف ﴿

(207/825)

كتب ﴾ أي الآيات المكتوبة وقيل الكتب بمعنى الأحكام ﴿ قيمة ﴾ أي عادلة مستقيمة غير ذات عوج ، وقيل قيمة بمعنى قائمة مستقلة بالحجة من قولهم قام بالأمر إذا أجراه على وجهه ، ثم ذكر من لم يؤمن من أهل الكتاب فقال تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ يعني في أمر محمد (صلى الله عليه وسلم) ﴿ إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ يعني جاءتهم البينة في كتبهم أنه نبي مرسل قال المفسرون لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى بعثه الله تعالى فلما بعث تفرقوا في أمره ، واختلفوا فيه ، فآمن به بعضهم وكفر به آخرون ، ثم ذكر ما أمروا به في كتبهم .

﴿ وما أمروا ﴾ يعني هؤلاء الكفار ﴿ إلا ليعبدوا الله ﴾ أي وما أمروا إلا أن يعبدوا الله قال ابن عباس : ما أمروا في التوراة ، والإنجيل ، إلا بإخلاص العبادة لله موحدين له ﴿ مخلصين له الدين ﴾ الإخلاص عبارة عن النّية الخالصة ، وتجريدها عن شوائب الرّياء ، وهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه ، والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه والواجب لوجوبه والنّية الخالصة لما كانت معتبرة .

(208/825)

كانت النية معتبرة فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلا بد وأن يكون منوياً فلا بد من اعتبار النية في جميع المأمورات ، قال أصحاب الشّافعي : الوضوء مأمور به ودلت هذه الآية على أن كل مأمور به يجب أن يكون منوياً ، فتجب النية في الوضوء ، وقيل الإخلاص محله القلب وهو أن يأتي بالفعل لوجه الله تعالى مخلصاً له ، ولا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر حتى قالوا في ذلك لا يجعل طلب الجنة مقصوداً ولا النجاة من النار مطلوباً ، وإن كان لا بد من ذلك بل يجعل العبد عبادته لمحض العبودية واعترافاً لربه عزّ وجلّ بالرّبوبية ، وقيل في معنى مخلصين له الدّين مقرين له بالعبودية ، وقيل قاصدين بقلوبهم رضا الله تعالى بالعبادة (م) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الله تعالى لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم " ﴿ حنفاء ﴾ أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، وقيل متبعين ملة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام ، وقيل حنفاء أي حجاجاً وإنما قدمه على الصّلاة والزّكاة لأن فيه صلاة وإنفاق مال ، وقيل حنفاء أي مختونين محرمين لنكاح المحارم ، وقيل الحنيف الذي آمن بجميع الأنبياء والرّسل ، ولا يفرق بين أحد منهم فمن لم يؤمن بأشرف الأنبياء وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) فليس بحنيف ﴿ ويقيموا الصلاة ﴾ أي المكتوبة في أوقاتها ﴿ ويؤتوا الزكاة ﴾ أي المفروضة عند محلها ﴿ وذلك ﴾ أي الذي أمروا به ﴿ دين القيمة ﴾ أي

الملة المستقيمة والشّريعة المتبوعة ، وإنما أضاف الدين إلى القيمة وهي نعته لاختلاف اللفظين وأنث القيمة رداً إلى الملة ، وقيل الهاء في القيمة للمبالغة كعلامة ، وقيل القيمة الكتب التي جرى ذكرها ، أي وذلك دين أصحاب الكتب القيمة ، وقيل القيمة جمع القيم ، والقيم ، والقائم واحد والمعنى وذلك دين القائمين لله بالتوحيد واستدل بهذه الآية من يقول إن الإيمان

قول وعمل لأن الله تعالى ذكر الاعتقاد أولاً وأتبعه بالعمل ثانياً ثم قال وذلك دين القيمة والدين هو الإسلام والإسلام هو الإيمان بدليل قوله ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾

ثم ذكر ما للفريقين فقال تعالى ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ فإن قلت لم قدم أهل الكتاب على المشركين .

قلت لأن جنايتهم أعظم في حق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذلك أنهم كانوا يستفتحون به قبل بعثه ويقرون بنبوته ، فلما بعث أنكروه وكذبوه وصدوه مع العلم به فكانت جنايتهم أعظم من المشركين فلهذا قدمهم عليهم .

فإن قلت إن المشركين أعظم جناية من أهل الكتاب لأن المشركين أنكروا الصانع والنّبوة، والقيامة وأهل الكتاب اعترفوا بذلك غير أنهم أنكروا نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) وإذا كان كذلك كان كفرهم أخف فلم سوى بين الفريقين في العذاب.

قلت لما أراد أهل الكتاب الرّفعة في الدّنيا بإنكارهم نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) أذلهم الله في الدّنيا، وأدخلهم أسفل سافلين في الآخرة ولا يمنع من دخولهم النّار مع المشركين أن تتفاوت مراتبهم في العذاب.

﴿ في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾ أي هم شر الخلق والمعنى أنهم لما استحقوا النار بسبب كفرهم قالوا: فهل إلى خروج من سبيل فقال بل تبقون خالدين فيها، فكأنهم قالوا لم ذلك قال لأنكم شر البرية.

(210/825)

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصّالحات أولئك هم خير البرية ﴾ يعني أنهم بسبب أعمالهم الصّالحة واجتنابهم الشرك استحقوا هذا الاسم ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً م ورضوا عنه ﴾ قيل الرّضا ينقسم إلى قسمين: رضا به ورضا عنه، فالرضا به أن يكون ربا ومدبراً، والرّضا عنه فيما يقضي ويدبر قال

السري : إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تسأله الرضا عنك ، وقيل : رضي الله أعمالهم ، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخير والكرامة ﴿ ذلك ﴾ أي هذا الجزاء والرضا ﴿ لمن خشي ربه ﴾ أي لمن خاف ربه في الدّنيا وانتهى عن المعاصي (ق) عن أنس بن مالك قال : قال النبي (صلى الله عليه وسلم) لأبي بن كعب " إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ قال وسماني قال نعم فبكى " وفي رواية البخاري " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لأبي بن كعب إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن ، قال الله سماني لك ، قال نعم قال وقد ذكرت عند رب العالمين قال نعم قيل فذرفت عيناه "

(شرح غريب الحديث)

أما بكاء أبي فإنه بكى سروراً ، واستصغاراً لنفسه عن تأهله لهذه النّعمة العظيمة وإعطائه تلك المنزلة الكريمة ، والنعمة عليه فيها من وجهين أحدهما : كونه منصوصاً عليه بعينه والثاني قراءة النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فإنها منقبة عظيمة لم يشاركه فيها أحد من الصّحابة ، وقيل إنما بكى خوفاً من تقصيره في شكره هذه النعمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 277.280 ﴾

وقال النسفى :

سورة البينة

مختلف فيها وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ ﴾

بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ مّنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ أي اليهود والنصارى وأهل الرجل أخص الناس به وأهل الإسلام من يدين به ﴿ والمشركين ﴾ عبدة الأصنام ﴿ مُنفَكّينَ ﴾ منفصلين عن الكفر وحذف لأن صلة "الذين" تدل عليه ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ﴾ الحجة الواضحة والمراد محمد صلى الله عليه وسلم يقول : لم يتركوا كفرهم حتى يبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث أسلم بعض وثبت على الكفر بعض ﴿ رَسُولٌ مّنَ الله ﴾ أي محمد عليه السلام وهو بدل من ﴿ البينة ﴾ ﴿ يَتْلُواْ ﴾ يقرأ عليهم ﴿ صُحُفاً ﴾ قراطيس ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ من الباطل ﴿ فِيهَا ﴾ في الصحف ﴿ كُتُبٌ ﴾ مكتوبات ﴿ قَيّمَةٌ ﴾ مستقيمة ناطقة بالحق والعدل ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ فمنهم من أنكر نبوته بغياً وحسداً ، ومنهم من آمن .

وإنما أفرد أهل الكتاب بعدما جمع أولاً بينهم وبين المشركين، لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم، فإذا وصفوا بالتفرق عنه كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف.

(212/825)

﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ يعني في التوراة والإنجيل ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ من غير شرك ولا نفاق ﴿ حُنَفَاء ﴾ مؤمنين بجميع الرسل مائلين عن الأديان الباطلة ﴿ وَيُقِيمُوا الصلاة وَيُؤْتُوا الزكواة وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ أي دين الملة القيمة ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين فِى نَارِ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ البرية إِنَّ الذين ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ ونافع يهمزهما والقراء على التخفيف، والنبي والبرية مما استمر الاستعمال على تخفيفه ورفض الأصل ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ جنات عَدْنٍ ﴾ إقامة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبَداً رَّضِىَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾ بقبول أعمالهم ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ بثوابها ﴿ ذلك ﴾ أي الرضا ﴿ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴾ وقوله ﴿ خَيْرُ البرية ﴾ يدل على فضل المؤمنين من البشر على الملائكة، لأن البرية الخلق، واشتقاقها من برأ الله الخلق.

وقيل : اشتقاقها من البرَى وهو التراب ، ولو كان كذلك لما قرءوا ﴿ البريئة ﴾ بالهمز كذا قاله الزجاج والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 371 ﴾

(213/825)

وقال ابن جزى :

سورة لم يكن

ذكر الله الكفار ثم قسمهم إلى صنفين : أهل الكتاب والمشركين ، وذكر أن جميعهم لم يكونوا منفكين حتى تأتيهم البينة ، وتقوم عليهم الحجة ببعث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعنى منفكين : منفصلين ، ثم اختلف في هذا الانفصال على أربعة أقوال : أحدها أن المعنى لم يكونوا منفصلين عن كفرهم حتى تأتيهم لتقوم عليهم الحجة . الثاني لم يكونوا منفصلين عن معرفة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله . الثالث : اختاره ابن عطية وهو : لم يكونوا منفصلين عن نظر الله وقدرته ، حتى يبعث الله إليهم رسولاً يقيم عليهم الحجة ، الرابع : وهو الأظهر عندي أن المعنى لم يكونوا لينفصلوا من الدنيا حتى بعث الله لهم سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم فقامت عليهم الحجة ، لأنهم لو انفصلت الدنيا دون بعثه : ﴿ لَقَالُواْ رَبَّنَا لولا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً ﴾ [طه : 134] فلما

بعث الله لم يبق لهم عذر ولا حجة ، فمنفكين على هذا كقولك : لا تبرح أو لا تزول حتى يكون كذا وكذا ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللهِ ﴾ يعني سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ، وإعرابه بدل من البينة أو خبر ابتداء مضمر ﴿ يَتْلُواْ صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾ يعني القرآن في صحفه ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أي قيمة بالحق مستقيمة بالمعاني ، ووزن قيّمة فيعلة وفيه مبالغة قال ابن عطية : هذا على حذف مضاف تقديره : فيها أحكام كتب ولا يحتاج هذا إلى الحذف لأن الكتب بمعنى المكتوبات .

(214/825)

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة ﴾ أي ما اختلفوا في نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلا من بعد ما علموا أنه حق ، ويحتمل أن يريد تفرقهم في دينهم كقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الكتاب فاختلف فِيهِ ﴾ [فصلت : 45] وإنما خص الذين أوتوا الكتاب بالذكر هنا بعد ذكرهم مع غيرهم في أول السورة ؛ لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، بما يجدون في كتبهم من ذكره ﴿ وَمَآ أمروا ﴾ الآية : هنا معناها : ما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بعبادة الله ، ولكنهم حرّفوا أو بدّلوا ، ويحتمل أن يكون المعنى ما أمروا في القرآن إلا بعبادة الله ، فلأيّ شيء ينكرونه ويكفرون

به ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ استدل المالكية بهذا على وجوب النية في الوضوء ، وهو بعيد لأن الإخلاص هنا يراد به التوحيد وترك الشرك أو ترك الرياء ، وذلك أن الإخلاص مطلوب في التوحيد وفي الأعمال ، وهذا الإخلاص في التوحيد من الشرك الجلّي ، وهذا الإخلاص في الأعمال من الشرك الخفيّ ، وهو الرياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الرياء الشرك الأصغر " وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه إنه تعالى يقول : " أنا أغنى الأغنياء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشريكه " .

(215/825)

واعلم أن الأعمال ثلاثة أنواع : مأمورات ومنهيات ومباحات ، فأما المأمورات فالإخلاص فيها عبارة عن خلوص النية لوجه الله ، بحيث لا يشوبها بنية أخرى ، فإن كانت كذلك فالعمل خالص مقبول ، وإن كانت النية لغير وجه الله ، من طلب منفعة دنيوية ، أو مدح أو غير ذلك فالعمل رياء محض مردود ، وإن كانت النية مشتركة ففي ذلك تفصيل فيه نظر واحتمال . وأما المنهيات فإن تركها دون نية خرج عن عهدتها ، ولم يكن له أجر في تركها وإن تركها بنية وجه الله حصل له الخروج عن عهدتها مع الأجر ، وأما المباحات كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك فإن فعلها بغير نية لم يكن فيها أجر ، وإن فعلها بنية وجه الله فله

فيها أجر ، فإن كل مباح يمكن أن يصير قُربَه إذا قصه به وجه الله مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة ويقصد بالجماع التعفف عن الحرام ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ جمع حنيف وقد ذكر ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ تقديره : الملة القيمة ، أو الجماعة القيمة وقد فسرنا القيمة ومعناها أن الذي أمروا به من عبادة الله والإخلاص له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هو دين الإسلام فلأيّ شيء لا يدخلون فيه ؟ ﴿ البرية ﴾ الخلق لأن الله برأهم وأوجدهم بعد العدم . وقرأ بالهمز وهو الأصل بالياء وهو تخفيف من المهموز ، وهو أكثر استعمالاً عند العرب .

(216/825)

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ اختلف هل هذا في الدنيا أو في الآخرة ؟ فرضاهم عن الله في الدنيا وهو الرضا بقضائه والرضا بدينه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً " ، ورضاهم عنه في الآخرة : هو رضاهم بما أعطاهم الله فيها ، أو رضا الله عنهم لما ورد في الحديث أن الله يقول : " يا أهل الجنة هل تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : يا ربنا وأي شيء نريد وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين . فيقول : عندي أفضل من ذلك وهو رضواني فلا أسخط عليكم أبداً " ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أي لمن خافه وهذا دليل على فضل

الخوف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم خوف الله رأس كل حكمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 4 صـ 211. 213 ﴾

(217/825)

وقال البيضاوى :

سورة البينة

مختلف فيها . وآيها ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾

اليهود والنصارى فإنهم كفروا بالإِلحاد في صفات الله سبحانه وتعالى و ﴿ مِنْ ﴾ للتبيين .

﴿ والمشركين ﴾ وعبدة الأصنام . ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ عما كانوا عليه من دينهم ، أو الوعد باتباع الحق إذ جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم . ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ﴾ الرسول عليه الصلاة والسلام أو القرآن ، فإنه مبين للحق أو معجزة الرسول بأخلاقه والقرآن بإفحامه من تحدى به .

﴿ رَسُولٌ مّنَ الله ﴾ بدل من ﴿ البينة ﴾ بنفسه أو بتقدير مضاف أو مبتدأ . ﴿ يَتْلُو

صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾ صفته أو خبره ، والرسول عليه الصلاة والسلام وإن كان أمياً لكنه لما تلا مثل ما في الصحف كان كالتالي لها . وقيل المراد جبريل عليه الصلاة والسلام وكون الصحف ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أن الباطل لا يأتي ما فيها ، أو أنها لا يمسها إلا المطهرون .

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ مكتوبات مستقيمة ناطقة بالحق .

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب ﴾ عما كانوا عليه بأن آمن بعضهم أو تردد في دينه ، أو عن وعدهم بالإصرار على الكفر . ﴿ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ البينة ﴾ فيكون كقوله : ﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الذين كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ ﴾ وإفراد أهل الكتاب بعد الجمع بينهم وبين المشركين للدلالة على شناعة حالهم ، وأنهم لما تفرقوا مع علمهم كان غيرهم بذلك أولى .

﴿ وَمَا أُمِرُواْ ﴾ أي في كتبهم بما فيها . ﴿ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ لا يشركون به . ﴿ حُنَفَاء ﴾ مائلين عن العقائد الزائغة . ﴿ وَيُقِيمُواْ الصلاة وَيُؤْتُواْ الزكوة ﴾ ولكنهم حرفوا وعصوا . ﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ دين الملة القيمة .

﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين فِى نَارِ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا ﴾ أي يوم القيامة ، أو في الحال لملابستهم ما يوجب ذلك ، واشتراك الفريقين في جنس العذاب لا يوجب اشتراكهما في نوعه فلعله يختلف لتفاوت كفرهما . ﴿ أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ البرية ﴾ أي الخليقة . وقرأ نافع "البريئة" بالهمز على الأصل .

﴿ إِنَّ الذين ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البرية جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ جنات عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ فيه مبالغات تقديم المدح ، وذكر الجزاء المؤذن بأن ما منحوا في مقابلة ما وصفوا به والحكم عليه بأن من ، ﴿ عِندَ رَبّهِمْ ﴾ ، وجمع ﴿ جنات ﴾ وتقييدها إضافة ووصفاً بما تزداد لها نعيماً ، وتأكيد الخلود بالتأبيد . ﴿ رَّضِىَ الله عَنْهُمْ ﴾ استئناف بما يكون لهم زيادة على جزائهم . ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ لأنه بلغهم أقصى أمانيهم . ﴿ ذلك ﴾ أي المذكور من الجزاء والرضوان . ﴿ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴾ فإن الخشية ملاك الأمر والباعث على كل خير .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة لم يكن الذين كفروا كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقيلاً " . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 515 . 517 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

وقال أبو حيان :

سورة البينة

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) ﴾

لما ذكر إنزال القرآن ، وفي السورة التي قبلها ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ ذكر هنا أن الكفار لم يكونوا منفكين عن ما هم عليه حتى جاءهم الرسول يتلو عليهم ما أنزل عليه من الصحف المطهرة التي أمر بقراءتها ، وقسم الكافرين هنا إلى أهل كتاب وأهل إشراك .

وقرأ بعض القراء : والمشركون رفعاً عطفاً على ﴿ الذين كفروا ﴾ .

والجمهور : بالجر عطفاً على ﴿ أهل الكتاب ﴾ ، وأهل الكتاب اليهود والنصارى ، والمشركون عبدة الأوثان من العرب .

وقال ابن عباس : أهل الكتاب اليهود الذين كانوا بيثرب هم قريظة والنضير وبنو قينقاع ، والمشركون الذين كانوا بمكة وحولها والمدينة وحولها .

قال مجاهد وغيره : لم يكونوا منفكين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة .

وقال الفراء وغيره : لم يكونوا منفكين عن معرفة صحة نبوّة محمد (صلى الله عليه وسلم)

والتوكف لأمره حتى جاءتهم البينة ، فتفرقوا عند ذلك .

وقال الزمخشري : كان الكفار من الفريقين يقولون قبل المبعث : لا ننفك مما نحن فيه من ديننا حتى يبعث النبي الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل ، وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فحكى الله ما كانوا يقولونه .

وقال ابن عطية : ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى ، وذلك أنه يكون المراد : لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم حتى يبعث الله تعالى إليهم رسولاً منذراً تقوم عليهم به الحجة ويتم على من آمن النعمة ، فكأنه قال : ما كانوا ليتركوا سدى ، ولهذا نظائر في كتاب الله تعالى ، انتهى .

وقيل : لم يكونوا منفكين عن حياتهم فيموتوا حتى تأتيهم البينة .

(220/825)

والظاهر أن المعنى : لم يكونوا منفكين ، أي منفصلاً بعضهم من بعض ، بل كان كل منهم مقرّاً الآخر على ما هو عليه مما اختاره لنفسه ، هذا من اعتقاده في شريعته ، وهذا من اعتقاده في أصنامه ، والمعنى أنه اتصلت مودّتهم واجتمعت كلمتهم إلى أن أتتهم البينة .

وقيل : معنى منفكين : هالكين ، من قولهم : انفك صلا المرأة عند الولادة ، وأن ينفصل فلا

يلتئم ، والمعنى : لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، انتهى .

ومنفكين اسم فاعل من انفك ، وهي التامة وليست الداخلة على المبتدأ والخبر .

وقال بعض النحاة : هي الناقصة ، ويقدر منفكين : عارفين أمر محمد (صلى الله عليه وسلم) ، أو نحو هذا ، وخبر كان وأخواتها لا يجوز حذفه لا اقتصاراً ولا اختصاراً ، نص على ذلك أصحابنا ، ولهم علة في منع ذلك ذكروها في علم النحو ، وقالوا في قوله : حين ليس مجير ، أي في الدنيا ، فحذف الخبر أنه ضرورة ، والبينة : الحجة الجليلة .

وقرأ الجمهور : ﴿ رسول ﴾ بالرفع بدلاً من ﴿ البينة ﴾ ، وأبيّ وعبد الله : بالنصب حالاً من البينة .

﴿ يتلو صحفاً ﴾ : أي قراطيس ، ﴿ مطهرة ﴾ من الباطل .

﴿ فيها كتب ﴾ : مكتوبات ، ﴿ قيمة ﴾ : مستقيمة ناطقة بالحق .

﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ : أي من المشركين ، وانفصل بعضهم من بعض فقال : كل ما يدل عنده على صحة قوله .

﴿ إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ : وكان يقتضي مجيء البينة أن يجتمعوا على اتباعها .

وقال الزمخشري : كانوا يعدون اجتماع الكلمة والاتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول ، ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر إلا مجيء الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وقال أيضاً : أفرد أهل الكتاب ، يعني في قوله : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ بعد جمعهم والمشركين ، قيل : لأنهم كانوا على علم به لوجوده في كتبهم ، فإذا وصفوا بالتفرق عنه ، كان من لا كتاب له أدخل في هذا الوصف .

والمراد بتفرقهم : تفرقهم عن الحق ، أو تفرقهم فرقاً ، فمنهم من آمن ، ومنهم من أنكر .

وقال : ليس به ومنهم من عرف وعاند .

وقال ابن عطية : ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من أنهم لم يتفرقوا في أمر محمد (صلى الله عليه وسلم) إلا من بعد ما رأوا الآيات الواضحة ، وكانوا من قبل متفقين على نبوته وصفته ، فلما جاء من العرب حسدوه ، انتهى .

وقرأ الجمهور : ﴿ مخلصين ﴾ بكسر اللام ، والدين منصوب به ؛ والحسن : بفتحها ، أي يخلصون هم أنفسهم في نياتهم .

وانتصب ﴿ الدين ﴾ ، إما على المصدر من ﴿ ليعبدوا ﴾ ، أي ليدينوا الله بالعبادة الدين ، وإما على إسقاط في ، أي في الدين ، والمعنى : وما أمروا ، أي في كتابيهما ، بما أمروا به إلا ليعبدوا .

﴿ حنفاء ﴾ : أي مستقيمي الطريقة .

وقال محمد بن الأشعب الطالقاني : القيمة هنا : الكتب التي جرى ذكرها ، كأنه لما تقدم لفظ قيمة نكرة ، كانت الألف واللام في القيمة للعهد ، كقوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول ﴾ وقرأ عبد الله : وذلك الدين القيمة ، فالهاء في هذه القراءة للمبالغة ، أو أنث ، على أن عنى بالدين الملة ، كقوله : ما هذه الصوت ؟ يريد : ما هذه الصيحة : وذكر تعالى مقر الأشقياء وجزاء السعداء ، والبرية : جميع الخلق .

وقرأ الأعرج وابن عامر ونافع : البرئة بالهمز من برأ ، بمعنى خلق .

والجمهور : بشد الياء ، فاحتمل أن يكون أصله الهمز ، ثم سهل بالإبدال وأدغم ، واحتمل أن يكون من البراء ، وهو التراب .

قال ابن عطية : وهذا الاشتقاق يجعل الهمز خطأ ، وهو اشتقاق غير مرضي ، ويعني اشتقاق البرية بلا همز من البرا ، وهو التراب ، فلا يجعله خطأ ، بل قراءة الهمز مشتقة من برأ ، وغير الهمز من البرا ؛ والقراءتان قد تختلفان في الاشتقاق نحو : أو ننساها أو ننسها ، فهو اشتقاق مرضي .

وحكم على الكفار من الفريقين بالخلود في النار وبكونهم شر البرية ، وبدأ بأهل الكتاب لأنهم كانوا يطعنون في نبوته ، وجنايتهم أعظم لأنهم أنكروه مع العلم به ، وشر البرية ظاهره العموم .

وقيل : ﴿ شر البرّية ﴾ : الذين عاصروا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، إذ لا يبعد أن يكون في كفار الأمم هو شر من هؤلاء ، كفرعون وعاقر ناقة صالح .

وقرأ الجمهور : ﴿ خير البرية ﴾ مقابل ﴿ شر البرية ﴾ ؛ وحميد وعامر بن عبد الواحد : خيار البرية جمع خير ، كجيد وجياد .

وبقية السورة واضحة ، وتقدم شرح ذلك إفراداً وتركيباً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(223/825)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) ﴾

القراءات ﴿ البريئة ﴾ بالهمزة نافع وابن ذكوان .

الوقوف : ﴿ البينة ﴾ لا ﴿ مطهرة ﴾ ه ك ﴿ قيمة ﴾ ه ك ﴿ البينة ﴾ ه ط ﴿ القيمة

﴿ ٥ط ﴾ فيها ﴿ ط ﴾ البرية ﴿ ٥ط ﴾ الصالحات ﴿ ٥لا ﴾ البرية ﴿ ٥ط ﴾
أبداً ﴿ ط ﴾ عنه ﴿ ط ﴾ ربه ﴿ ٥

(224/825)

التفسير : استصعب بعض العلماء ومنهم الواحدي حل هذه الآية لأنه تعالى لم يبين أنهم منفكون عن أي شيء إلا أن الظاهر أنه يريد أنفاكهم عن كفرهم ، ثم إنه فسر البينة بالرسول صلى الله عليه وسلم ومعلوم أن " حتى " لانتهاء الغاية ، فالآية تقتضي أنهم صاروا منفكين عن كفرهم عند إتيان الرسول وهذا ينافي قوله ﴿ وما تفرق ﴾ الآية . والجواب على ما قال صاحب الكشاف ، أن هذه حكاية كلام الكفار ، وتقديره أن الكفار من الفريقين أهل الكتاب وعبدة الأوثان كانوا يقولون قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم : لا ننفك عما نحن فيه من ديننا ولا نتركه حتى يبعث النبي صلى الله عليه وسلم الموعود الذي هو مكتوب في التوراة والإنجيل وهو محمد صلى الله عليه وسلم فحكى الله تعالى ما كانوا يقولونه . ثم قال ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب ﴾ يعني أنهم كانوا يعدون اجتماع الكلمة والإتفاق على الحق إذا جاءهم الرسول . ثم ما فرقهم عن الحق ولا أقرهم على الكفر ، إلا مجيء الرسول ونظيره من كلام البشر أن يقول الفاسق لمن يعظه : لست بممتنع مما أنا فيه من الأفعال

القبيحة حتى يرزقني الله الغنى ، فلما رزقه الغنى ازداد فسقاً ، فيقول واعظه : لم تكن منفكاً عن الفسق حتى توسر وما غمست رأسك في الفسق إلا بعد اليسار يذكره ما كان يقوله توبيخاً وإلزاماً لأن الذي وقع كان خلاف ما ادعى . وقيل : إن " حتى " للمبالغة فيؤل المعنى إلى قولك مثلاً لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم وإن جاءتهم البينة . وقال قوم : إنا لا نحمل قوله ﴿ منفكين ﴾ على الكفر بل على كونهم منفكين عن ذكر محمد صلى الله عليه وسلم بالمناقب والفضائل ، ثم لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم تفرقوا وقال كل واحد فيه قولاً آخر رديئاً ، فتكون الآية كقوله ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ [البقرة : 89] ولا يبعد في هذا الوجه أن يكون بعضهم قد قال في محمد قولاً حسناً وآمن

به لأن التفرق يحصل بأن لا يكون الجميع باقين على حالهم الأولى ، فإذا صار بعضهم مؤمناً وبعضهم كافراً على اختلاف طرق الكفر حصل التفرقة . ولا يبعد أيضاً أن يراد أنهم لم يكونوا منفكين عن اتفاق كلمتهم على كفرهم حتى جاءهم الرسول فحينئذ تفرقوا ، وما بقوا على ذلك الائتلاف واضطربت أقوالهم .

قدم في الوعيد أهل الكتاب على المشركين ، والسر فيه بعد ما مر أنه صلى الله عليه وسلم كان يقدم حق الله على حق نفسه ولهذا حين كسروا رباعيته قال : اللهم اهد قومي فإنهم لا يعملون ، وحيث فاتته صلاة العصر يوم الخندق قال : ملأ الله بطونهم وقبورهم ناراً فقال الله تعالى : كما قدمت حقي على حقك فأنا أيضاً أقدم حقك على حقي ، فمن ترك الصلاة طول عمره لم يكفر ، ومن طعن فيك بوجه يكفر . ثم إن أهل اكتاب طعنوا فيك فقدمتهم في الوعيد على المشركين الذين طعنوا فيّ ، وأيضاً المشركون رأوه صغيراً يتيماً فيما بينهم . ثم إنه بعد النبوة سفه أحلامهم وكسر أوثانهم وهذا أمر شاق يوجب العداوة الشديدة عند أهل الظاهر . وأما أهل الكتاب فقد كانوا مقرين بنبي آخر الزمان وكان النبي صلى الله عليه وسلم مثبتاً لنبيهم وكتابهم فلم يوجب لهم ذلك عداوة شديدة ، فطعنهم في محمد صلى الله عليه وسلم طعن في غير موقعه فاستحقوا التقديم في الوعيد لذلك وكانوا شر البرية ، وهذه جملة يطول تفصيلها شر من السراق لأنهم سرقوا من كتاب الله صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر من قطاع الطريق لأنهم قطعوا على سفلتهم طريق الحق ، وشر من الجهال لأن العناد أقبح أنواع الكفر ، وفيه دلائل على أن وعيد علماء السوء

أفظع . قوله في هذه الآية ﴿ خالدين فيها ﴾ وفي آية الوعد ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ إشارة إلى كمال كرمه وسعة رحمته كما قال " سبقت رحمتي غضبي " قال العلماء : هذه الآية مخصوصة في صورتين إحداهما أن من تاب منهم وأسلم خرج من الوعيد ، والثانية أن من مضى من الكفرة ويجوز أن لا يدخل فيها لأن فرعون كان شراً منهم . قوله ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ مقابلة الجمع بالجمع فلا مكلف يأتي بجميع الصالحات بل لكل مكلف حظ . فحظ الغني الإعطاء وحظ الفقير الأخذ . احتج بعضهم بقوله ﴿ أولئك هم خير البرية ﴾ على تفضيل البشر على الملك قالوا : روى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : " أتعجبون من

منزلة الملائكة من الله والذي نفسي بيده لمنزلة العبد المؤمن عند الله يوم القيامة أعظم من ذلك وقرأ هذه الآية " أجاب المنكرون بأن الملك أيضاً داخل في الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أو المراد بالبرية بنو آدم لأن اشتقاقها من البرا وهو التراب لا من برأ الله الخلق ، وتمام البحث في المسألة قد سبق في أول البقرة . قوله ﴿ ذلك لمن خشي ربه ﴾ مع قوله ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [فاطر : 28] ظاهر في أن العلماء بالله هم خير

البرية اللهم اجعلنا منهم والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 542.
545 ﴾

(228/825)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة لم يكن

وتسمى القيامة ، وتسمى المنفكين مكية في قول يحيى بن سلام ، ومدنية في قول الجمهور ، وهي ثمان آيات وأربع وتسعون كلمة وثلاث مائة وتسعون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الذي لا يخرج شيء عن مراده ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ بنعمه جميع عباده ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه بإسعاده .

ولما كان الكفار جنسين أهل كتاب ومشركين ذكرهم الله تعالى في قوله سبحانه :

﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ أي : في مطلق الزمان الماضي والحال والاستقبال ﴿ من أهل الكتاب ﴾ أي : من اليهود والنصارى الذين كان أصل دينهم حقاً فألحدوا فيه بالتبديل والتحريف والاعوجاج في صفات الله تعالى ، ثم نسخه الله تعالى بما شرع من مخالفته في الفروع وموافقته في الأصول فكذبوا . ﴿ والمشركين ﴾ أي : بعبادة الأصنام والنار

والشمس ، ونحو ذلك ممن هم عريقون في دين لم يكن له أصل في الحق ، بأن لم يكن لهم كتاب .

تنبيه : من للبيان . وقوله تعالى : ﴿ منفكين ﴾ خبر يكن ، أي : منفصلين وزائلين عما كانوا عليه من دينهم انفكاكاً يزيلهم عنه بالكلية بحيث لا تبقى لهم به علقة ، ويثبتون على ذلك الانفكاك ، وأصل الفك الفتح والانفصال لما كان ملتحماً من فك الكتاب والختم والعظم إذا أزيل ما كان ملتصقاً أو متصلاً به ، أو عن الموعد باتباع الحق إذا جاءهم الرسول المبشر به ، فإنّ أهل الكتاب كانوا يستفتحون به ، والمشركين كانوا يقسمون بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم .

فإن قيل : لِمَ قال تعالى : ﴿ كفروا ﴾ بلفظ الماضي ، وذكر المشركين باسم الفاعل ؟

أجيب : بأنّ أهل الكتاب ما كانوا كافرين من أوّل الأمر ، لأنهم كانوا مصدّقين بالتوراة والإنجيل وبمبعث محمد صلى الله عليه وسلم بخلاف المشركين فإنهم ولدوا على عبادة الأوثان وذلك يدل على الثبات على الكفر .

وقوله تعالى : ﴿ حتى ﴾ أي : إلى أن ﴿ تأتيهم البينة ﴾ متعلق بيكن أو بمنفكين ، والبينة الآية التي هي البيان كالفجر المنير الذي لا يزداد بالتمادي إلا طوراً وضياء ونوراً ، وذلك هو

الرسول صلى الله عليه وسلم وما معه من الآيات التي أعظمها الكتاب، وهو القرآن.

وقوله تعالى: ﴿ رسول ﴾ أي: عظيم جداً بدل من البينة بنفسه، أو بتقدير مضاف، أي: سنة رسول، أو مبتدأ وزاد عظمته بقوله تعالى واصفاً له: ﴿ من الله ﴾ أي: الذي له الجلال والإكرام وهو محمد صلى الله عليه وسلم لأنه في نفسه بينة وحجة ولذلك سماه الله تعالى سراجاً منيراً، ولأنّ اللام في البينة للتعريف، أي: هو الذي سبق ذكره في التوراة والإنجيل على لسان موسى وعيسى عليهم السلام. وقد يكون التعريف للتفخيم؛ إذ هو البينة التي لا مزيد عليها والبينة كل البينة، وكذا التنكير وقد جمعها الله تعالى ههنا في حق الرسول صلى الله عليه وسلم

ونظيره: قوله تعالى حين أثنى على نفسه: ﴿ ذو العرش المجيد فعال لما يريد ﴾ (البروج، الآيتان:.)

(230/825)

فنكر بعد التعريف. وقال أبو مسلم: المراد من البينة مطلق الرسول وما معه من الآيات التي أعظمها الكتاب سواء التوراة أو الزبور أو الانجيل أو القرآن، وعبر بالمضارع لتجدّد البيان في كل وقت بتجدّد الرسالة والتلاوة. وقال البغوي: لفظه مستقبل ومعناه الماضي، أي:

حتى أتتهم البينة، وتبعه على ذلك الجلال المحلى. وقوله تعالى: ﴿ يتلو صحفاً ﴾ صفة الرسول، أو خبره والرسول صلى الله عليه وسلم وإن كان أمّياً لكنه لما تلا مثل ما في الصحف كان كالتالي لها. وقيل: المراد جبريل عليه السلام وهو التالي للصحف المنتسخة من اللوح التي ذكرت في سورة عبس، ولا بدّ من مضاف محذوف وهو الوحي. والصحف جمع صحيفة وهي: القرطاس، والمراد فيها عبر بها عنه لشدّة المواصلة ﴿ مطهرة ﴾ أي: في غاية الطهارة والنزاهة من كل قذر مما جعلنا لها من البعد عن الأدناس بأنّ الباطل من الشرك بالأوثان، وغيرها من كل زيغ لا يأتيها من بين يديها ولا من خلفها، وأنها لا يمسها إلا المطهرون.

﴿ فيها ﴾ أي: تلك الصحف ﴿ كتب ﴾ أي: أحكام مكتوبة ﴿ قيمة ﴾ أي: مستقيمة ناطقة بالحق والعدل الذي لا مرية فيه ليس فيه شرك، ولا اعوجاج بنوع من الأنواع.

﴿ وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب ﴾ أي: عما كانوا عليه، وخص أهل الكتاب بالتفرق دون غيرهم وإن كانوا مجموعين مع الكافرين، لأنهم يظنون بهم علماً فإذا تفرّقوا كان غيرهم ممن لا كتاب له أدخل في هذا الوصف. ﴿ إلا من بعد جاءتهم البينة ﴾ أي: أتتهم البينة الواضحة، والمعنيّ به محمد صلى الله عليه وسلم أتى بالقرآن موافقاً للذي في أيديهم من الكتاب بنعته وصفته، وذلك أنهم كانوا مجمعين على نبوته فلما بعث صلى الله عليه وسلم

جحدوا نبوّته وتفرّقوا ، فمنهم من كفر بغياً وحسداً ومنهم من آمن كقوله تعالى : ﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ (الشورى :)

(231/825)

. وقال تعالى : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ (البقرة :)

وقد كان مجيء البينة يقتضي اجتماعهم على الحق لا تفرّقهم فيه . وقرأ حمزة وابن ذكوان بإمالة الألف بعد الجيم محضة ، والباقون بالفتح .

ولما كان حال من أضل على علم أشنع زاد في فضيحتهم فقال تعالى :

﴿ وما أمروا ﴾ أي : هؤلاء في التوراة والإنجيل ﴿ إلا ليعبدوا الله ﴾ أي : يوحدوا الإله الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد غيره ، واللام بمعنى أن كقوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ (النساء :)

. وقوله تعالى : ﴿ مخلصين له الدين ﴾ فيه دليل على وجوب النية في العبادات لأنّ الإخلاص من عمل القلب ، وهو أن يراد به وجه الله تعالى لا غيره ، ومن ذلك قوله : ﴿ إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ (الزمر :)

. ﴿ حنفاء ﴾ أي : مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، وأصل الحنف في اللغة : الميل وخصه العرف بالميل إلى الخير ، وسموا الميل إلى الشرّ إلحاداً والحنيف المطلق الذي يكون متبرئاً عن أصول الملل الخمسة اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين . وعن فروعها من جميع النحل إلى الاعتقادات ، وعن توابعها من الخطأ والنسيان إلى العمل الصالح ، وهو مقام التقى ، وعن المكروهات إلى المستحبات وهو المقام الأوّل من الورع ، وعن الفضول شفقة على خلق الله وهو ما لا يعني إلى ما يعنى وهو المقام الثاني من الورع ، وعما يجر إلى الفضول وهو مقام الزهد ، فالآية جامعة لمقامي الإخلاص . الناظر : أحدهما : إلى الحق ، والثاني : إلى الخلق .

ولما ذكر أصل الدين أتبعه الفروع ، وبدأ بأعظمها الذي هو مجمع الدين وموضع التجرّد عن العوائق ، فقال عز من قائل : ﴿ ويقيموا ﴾ أي : يعدلوا من غير اعوجاج بجميع الشرائط والأركان والحدود ﴿ الصلاة ﴾ لتصير بذلك أهلاً بأن تقوم بنفسها ، وهي من التعظيم لأمر الله تعالى .

ولما ذكر تعالى صلة الخالق أتبعها صلة الخلائق بقوله تعالى : ﴿ ويؤتوا الزكاة ﴾ أي : يدفعوها لمستحقيها شفقة على خلق الله تعالى إعانة على الدين ، أي : ولكنهم حرّفوا ذلك وبدّلوه بطبائعهم المعوجة ، وتدخل الزكاة عند أهل الله تعالى في كل ما رزق الله من عقل وسمع وبصر ولسان ويد ورجل وجاه ، وغير ذلك كما هو واضح من قوله تعالى :

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (البقرة :)

. ﴿ وذلك ﴾ أي : والحال أنّ هذا الموصوف من العبادة على الوجه المذكور ﴿ دين القيمة ﴾ أي : الملة المستقيمة ، وأضاف الدين إلى القيمة وهي نعته لاختلاف اللفظين ، وأنث القيمة ردّاً بها إلى الملة . وقيل : الهاء للمبالغة فيه . وقيل : القيمة هي الكتب التي جرى ذكرها ، أي : وذلك دين الكتب القيمة فيما تدعو إليه وتأمر به ، كما قال تعالى :

﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ (البقرة :)

. وقال النضر بن شميل : سألت الخليل بن أحمد عن قوله تعالى : ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ فقال : القيمة جمع القيم ، والقيم والقائم واحد . قال البغوي : ومجاز الآية : وذلك دين القائمين لله تعالى بالتوحيد .

ثم ذكر تعالى ما للفريقين فقال سبحانه :

﴿ إنّ الذين كفروا ﴾ أي: وقع منهم الستر لمرأى عقولهم بعد صرفها للنظر الصحيح فضلوا واستمروا على ذلك، وإن لم يكونوا عريقين فيه ﴿ من أهل الكتاب ﴾ أي: اليهود والنصارى ﴿ والمشركين ﴾ أي: العريقين في الشرك ﴿ في نار جهنم ﴾ أي: النار التي تلقاهم بالتجهم والعبوسة ﴿ خالدين فيها ﴾ أي: يوم القيامة، أو في الحال لسعيهم لموجباتها. واشتراك الفريقين في جنس العذاب لا يوجب التساوي في النوع، بل يختلف بحسب اشتداد الكفر وخفته ﴿ أولئك ﴾ أي: هؤلاء البعداء البغضاء ﴿ هم ﴾ أي: خاصة بما لضمائرهم من الخبث ﴿ شر البرية ﴾ أي: الخليقة الذين أهملوا إصلاح أنفسهم وفرّطوا في حوائجهم ومآربهم، وهذا يحتمل أن يكون على التعميم، وأن يكون بالنسبة لعصر النبيّ صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: ﴿ وأني فضلتكم على العالمين ﴾ (البقرة:) أي: عالمي زمانهم، ولا يبعد أن يكون في كفار الأمم قبل من هو شرّ منهم، مثل فرعون وعاقر ناقة صالح.

ولما ذكر تعالى الأعداء وبدأ بهم لأنّ ذلك أردع لهم أتبعه الأولياء فقال تعالى مؤكداً ما للكفار من الإنكار:

﴿ إنّ الذين آمنوا ﴾ أي: أقروا بالإيمان ﴿ وعملوا ﴾ تصديقاً لإيمانهم ﴿ الصالحات ﴾ أي: هذا النوع ﴿ أولئك ﴾ أي: هؤلاء العالو الدرجات ﴿ هم ﴾ أي: خاصة ﴿ خير

البرية ﴾ أي : على التعميم ، أو برية عصرهم يأتي فيه ما مرّ . وقرأ نافع وابن ذكوان بالهمز في الحرفين لأنه من قولهم برأ الله الخلق ، والباقون بالياء المشدّدة بعد الراء كالذرية ترك همزه في الاستعمال . ثم ذكر ثوابهم بقوله تعالى :

(234/825)

﴿ جزاؤهم ﴾ أي : على طاعاتهم وعظمه بقوله تعالى : ﴿ عند ربهم ﴾ أي : المربي لهم والمحسن إليهم ﴿ جنات عدن ﴾ أي : إقامة لا يحولون عنها ﴿ تجري ﴾ أي : جرياً دائماً لا انقطاع له ﴿ من تحتها ﴾ أي : تحت أشجارها وغرفها ﴿ الأنهار خالدين فيها ﴾ أي : يوم القيامة ، أو في الحال لسعيهم في موجباتها وأكد معنى الخلود تعظيماً لجزائهم بقوله تعالى : ﴿ أبداً رضي الله ﴾ أي : بما له من نعوت الجلال والجمال ﴿ عنهم ﴾ أي : بما كان سبق لهم من العناية والتوفيق ﴿ ورضوا عنه ﴾ لأنهم لم يبق لهم أمنية إلا أعطاهموها مع علمهم أنه تفضل في جميع ذلك لا يجب عليه لأحد شيء ، ولا يقدره أحد حق قدره فلو أخذ الخلق بما يستحقونه لأهلكهم كما قال تعالى : ﴿ لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ (فاطر :)

. وقال ابن عباس : ورضوا عنه بثواب الله عز وجل . ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر العالي الذي

جوزوا به ﴿ لمن خشي ربه ﴾ أي : خاف المحسن إليه خوفاً يليق به فلم يركن إلى التسويف والتكاسل ، فإنّ الخشية ملاك الأمر والباعث على كل خير وهي للعارفين ، فإنّ الإنسان إذا استشعر عذاباً يأتيه لحقته حالة يقال لها : الخوف ، وهي انخلاع القلب عن طمأنينته ، فإن اشتدّ سمي : وجلاً لجولانه في نفسه ، فإن اشتدّ سمي : رهباً لأدائه إلى الهرب وهي حالة المؤمنين الفارّين إلى الله تعالى . ومن غلب عليه الحب لاستغراقه في شهود الجماليات لحقته حالة تسمى مهابة ووراء هذا الخشية ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ (فاطر :)

(235/825)

فمن خاف ربه هذا الخوف أنفك عن جميع ما عنده مما لا يليق بجنابه تعالى ، وما فارق الخوف قلباً إلا خرب . روى أنس "أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لأبيّ بن كعب : إنّ الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ قال أبيّ : وسماني لك ؟ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم نعم فبكى أبيّ" . قال البقاعي : سبب تخصيصه بذلك أنه وجد اثنين من الصحابة قد خالفاه في القراءة فرفعهما إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأمرهما فعرضا عليه فحسن لهما قال : فسقط في نفسي من التكذيب أشدّ ما يكون في الجاهلية ، فضرب صلى

الله عليه وسلم في صدري ففضت عرقاً وكأنما أنظر إلى الله فرقاً ، أي : خوفاً ثم قصَّ عليّ خبر التخفيف بالسبعة الأحرف ، وكانت السورة التي وقع فيها الخلاف النحل ، وفيها أنه تعالى يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم يوم البعث شهيداً ، وأنه نزل عليه الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة ، وأنه نزل عليه روح القدس بالحق ليثبت الذين آمنوا ، وأنّ اليهود اختلفوا في السبت .

(236/825)

وسورة لم يكن على قصرها حاوية إجمالاً لكل ما في النحل على طولها وزيادة ، وفيها التحذير من الشك بعد البيان ، وتقبيح حال من فعل ذلك وأنّ حاله يكون كحال الكفرة من أهل الكتاب في العناد فيكون شر البرية فقرأها صلى الله عليه وسلم تذكيراً له بذلك كله على وجه أبلغ وأخصر ليكون أسرع له تصوّراً ، فيكون أرسخ في النفس ، وأثبت في القلب ، وأعشق للطبع ، فاختصه الله بالتثبيت ، وأراد له الثبات فكان من المريدين المرادين لما وصل إلى قلبه بركة ضربة النبيّ صلى الله عليه وسلم لصدره ، وصار كلما قرأ هذه السورة الجامعة غائباً عن تلاوة نفسه مصغياً بإذن قلبه إلى روح النبوّة يتلو عليه ذلك فيدوم له حال الشهود الذي وصل إليه بسر تلك الضربة ، ولثبوته في هذا المقام قال صلى الله عليه وسلم

"اقرؤكم أُبيّ" . قال القرطبي : وفيه من الفقه قراءة العالم على المتعلم . وقال بعضهم : إنما قرأ النبيّ صلى الله عليه وسلم على أبيّ ليعلم الناس التواضع ، لئلا يأنف أحد من التعلم والقراءة على دونه في المنزلة . وقيل : إنّ أبياً كان أسرع أخذاً لألفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأراد بقراءته عليه أن يأخذ ألفاظه ويقرأ كما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليه ويعلم غيره وفيه فضيلة عظيمة لأبيّ ؛ إذ أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقرأ عليه . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة لم يكن كان يوم القيامة مع خير البرية مساء ومقيلاً" . حديث موضوع.

انتهى انتهى . اهـ ﴿السراج المنير حـ 8 صـ 397.402﴾

(237/825)

وقال القاسمى :

سورة البينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

أي : جحدوا نبوة النبي صلوات الله عليه بعنادهم بعد ما تبينوا الحق منها ﴿ مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ ﴾ أي : اليهود والنصارى الذين عرفوه وسمعوا أدلته وشاهدوا آياته ، لم يكونوا هم ﴿ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ أي : وثنيّ العرب ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ أي : عن غفلتهم وجهلهم بالحق ، ووقوفهم عندما قلدوا فيه آباءهم ، ولا يعرفون من الحق شيئاً ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ أي : الحجة القاطعة المثبتة للمدعي ، وهي هنا النبي صلى الله عليه وسلم ، فمجيئه هو الذي أحدث هذه الرجة فيما رسخ من عقائدهم وتمكن من عوائدهم ، حتى أخذوا يحتجون لعنادهم ومناكرتهم ، بأنه كان شيئاً معروفاً لهم ، يَصلون إليه بما كان لديهم ، ولكنه ليس بمستحق أن يتبع ؛ فإن ما هم فيه أجمل وأبدع ، ومتابعة الآباء فيه أشهى إلى النفوس وأمتع . تلك البينة التي تعرفهم وجه الحق هي : ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ ﴾ أي : محمدٌ صلى الله عليه وسلم ﴿ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾ وهي صحف القرآن المطهرة من الخلط وحشو المدلّين ، فلهذا تنبعث منها أشعة الحق حتى يعرفه طالبوه ومنكروه معاً .

(238/825)

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أي : مستقيمة لا عوج فيها . واستقامة الكتب اشتمالها على الحق الذي لا يميل إلى باطل ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : 42] ، والكتب التي في صحف القرآن ومصاحفه ، إما أن تكون

هي ما صح من كتب الأولين كموسى وعيسى وغيرهما ، مما حكاه الله في كتابه عنهم ، فإنه لم يأت منها إلا بما هو قوي سليم . وقد ترك حكاية ما لبّس في الملبّسون إلا أن يكون ذكره لبيان بطلانه ؛ ولهذا لم يجد الجاحدون لرسالته – عليه السلام – من أهل الكتاب سبيلاً إلى إنكار الحق ، وإنما فضلوا عليه سواه أن هي سور القرآن ، فإن كل سورة من سوره كتاب قويم ؛ فصحف القرآن أو صحائفه وأوراق مصحفه تحتوي على سور من القرآن هي كتب قيمة . ولما كان لسائل أن يسأل : إذا كان هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، وقد انفكوا عن ذلك الظلام المطبق ، وبدا لهم من الحق ما عرفوه كما يعرفون أبناءهم ، فما بالُهم لم يؤمنوا بهذا الحق الذي جاءهم ؟ أجاب الحق تعالى بأن أهل الكتاب قد جاءتهم البينة والحجة القاطعة على الحق الذي لا يختلف وجهه ، بما أوحى الله به إلى أنبيائهم ، وكان من حقهم أن يسترشدوا بكتبهم في معرفة سبيله حتى لا ينحرفوا عنه ، فإذا عرض لأحدهم شبهة رجع في كشفها إلى العارف بمعاني الكتب ، ثم كان عليهم أن يحرصوا على تعلم معانيها وفهم أساليبها ويحافظوا عليها حتى لا يضللهم فيها مضلل ، لكن هذه البينة لم تفدهم شيئاً ، فإنهم اختلفوا في التأويل وتفرقوا في المذاهب ، حتى صار أهل كل مذهب يبطل ما عند أهل المذهب الآخر . وكان ذلك بغياً منهم ، واستمرراً في المراد وإصراراً على ما قاد إليه الهوى . وهذا هو قوله تعالى

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾

أي : على ألسنة أنبيائهم . فهكذا كان شأنهم في النبي صلى الله عليه وسلم جحدوا بينته كما جحدوا بينة أنبيائهم بتفرقهم فيها وبعدهم بالتفرق عن حقيقتها ، فإن كان هذا شأن أهل الكتاب في بينتهم وبيننا ، فما ظنك بالمشركين ، وهم أعرق في الجهالة وأسلس قياداً للهوى منهم ؟ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا ﴾ أي : والحال أن أهل الكتاب ما أمروا بلسان أنبيائهم وكتبهم ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي : الإذعان والخضوع ، وذلك بتنقيته من أن يشركه فيه شيء ، لا واسطة ولا مال ، ولا كرامة ولا جاه ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ أي : متبعي إبراهيم عليه السلام ، أو على مثاله . وأصله جمع حنيف بمعنى المائل المنحرف ؛ سمي به إبراهيم عليه السلام لانحرافه عن وثنية الناس كافة ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي : الإتيان بها ، لإحضار القلب هيبة المعبود وترويضه بالخشوع ، لا أن تكون مجرد حركات ظاهرة ؛ فإن ذلك ليس من الصلاة في شيء البتة ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ أي : بصرفها في مصارفها التي عينها الله تعالى .

﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أي: الكتب القيمة، أو دين الأمة القيمة المستقيمة. ومعنى الآية: أن أهل الكتاب قد افترقوا، ولعنت كل فرقة أختها، وكان افتراقهم في العقائد والأحكام وفروع الشريعة، مع أنهم لم يؤمروا ولم توضع لهم تلك الأحكام إلا لأجل أن يعبدوا الله ويخلصوا له عقائدهم وأعمالهم، فلا يأخذونها إلا عنه مباشرة، ولا يقلدون أهل الضلال من الأمم الأخرى، وأن يخشعوا لله في صلاتهم، وأن يصلوا عباد الله بزكاتهم. فإذا كان هذا هو الأصل الذي يرجع إليه في الأوامر، فما كان عليهم إلا أن يجعلوه نصب أعينهم، فيردوا إليه كل ما يعرض لهم من المسائل ويَحُلُّوا به كل ما يعترض أمامهم من المشاكل. ومتى تحكم الإخلاص في الأنفس، تسلط الإنصاف عليها، فسادت فيها الوحدة، ولم تطرق طرقها الفرقة، هذا ما نعاه الله من حال أهل الكتاب، فما تقول في حالنا؟ أفما ينعاه كتابنا الشاهد علينا بسوء أعمالنا، في افتراقنا في الدِّين وأنْ صرنا فيه شيعاً، وملأناه محدثات وبدعاً؟ بهذا الذي تقدم عرفت أن الذين كفروا هم الذين أنكروا رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عند دعوتهم إلى قبول ما جاء به. وإن ﴿ مِنْ ﴾ في قوله ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ للتبعيض. وأن معنى لم يكونوا منفكين:

أي لم يكن وجه الحق لينكشف لهم ، فيقع الزلزال في عقائدهم ، فينفكوا عن الغفلة المحضة التي كانوا فيها ، حتى تأتيهم البينة . ويجوز أن يكون المراد من ﴿ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ - والله أعلم - أولئك الذين جحدوا شيئاً من دين الله تعالى عندما جاءهم ولم ينظروا في دليله ، أو أعرضوا عنه بعدما عرفوا دليله ، سواء كانوا من مشركي العرب أو من أهل الكتاب ، وإن آمنوا بعد ذلك وصدقوا . فأراد الله أن يذكر منّته على من آمن من هؤلاء ، فبيّن أن الذين كفروا - أي : جحدوا ما أوجب الله على عباده أن يعتقدوه عنه من صفاته وشرائعه من أهل الكتاب ومشركي العرب - لم يكونوا براجعين عن كفرهم وجحودهم هذا ، حتى يأتيهم الرسول فيبين لهم بطلان ما كانوا عليه من الكفر ، فيؤمنوا . فما أعظم فضل الله عليهم في إرساله رسوله إليهم ! وهذا وجه آخر غير الذي قدمناه في معنى الذين كفروا وانفكاكهم . وبذلك أو هذا ظهر معنى ﴿ حَتَّى ﴾ وبطل جميع ما يَهذي به كثير من المفسرين الذين أضلهم التقليد عن الرأي السديد ، فصعّبوا من القرآن سهله ، وحرموا من فهمه أهله . انتهى كلام الإمام نقلناه من أول السورة إلى هنا بالحرف لنفاسته ، ولكونه أحسن ما فسرت به ، وقاعدتنا التي انتهجناها في هذا التفسير أن نؤثر في معاني آياته أحسن ما قيل فيها ؛ فلذلك سميناه محاسن التأويل ، هدانا الله إلى أقوم السبيل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ أي : بالله ورسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، فجحدوا نبوته ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ أي : شر

من برأه الله وخلقه . قال الإمام : لأن منكر الحق – بعد معرفته وقيام الدليل عليه – منكر في الحقيقة لعقل نفسه ، مهلك لروحه ، جالب الهلاك لغيره .

لطائف :

الأولى : دلت هذه الآية والتي قبلها على أن عنوان المشركين ، لا يتناول أهل الكتاب في عرف القرآن ، بل هو خاص بالوثنيين ، أعني من يدينون بالإشراك وتعدد الأرباب ، فأهل الكتاب – وهم اليهود والنصارى – لا يتناولهم ذلك العنوان وإن دخل في عقائدهم الشرك ؛ لأنه دخيل لا أصيل ، ولذلك ينفرون من وصمة الشرك ، وبسببه حل النكاح منهم دون الوثنين .

الثانية : قال ابن جرير : العرب لا تهمز البرية . وبترك الهمزة فيها قرأتها قراء الأمصار ، غير شيء يذكر عن نافع بن أبي نعيم ، فإنه حكى بعضهم عنه أنه كان يهمزها ، وذهب بها إلى قول الله ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ﴾ وأنها فعيلة من ذلك ، وأما الذين لم يهمزوها ، فإن لتركهم الهمز في ذلك وجهين : أحدهما : أن يكونوا تركوا الهمز فيها كما تركوه من الملك ، وهو مفعل ، من ألك ، أو لأكَ ، ومن يزى ، و ترى و نرى ، وهو تفعل من رأيت . والآخر : أن يكونوا

وجهوها إلى أنها فعلية، من البراء وهو التراب . حكي عن العرب سماعاً فقيل : بفيك البراد، يعني به التراب . انتهى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : بالله ورسوله محمد صلوات الله عليه ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي : من بذل النفس في سبيل الجهاد للحق، وبذل المال في أعمال البر، مع القيام بفرائض العبادات، والإخلاص في سائر ضروب المعاملات؛ لأن إذعانهم الصحيح، ووجدانهم لذة معرفة الحق، ملّكت الحق قيادهم فعملوا الأعمال الصالحة، قاله الإمام ﴿ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ أي : أفضل الخليقة، لأنهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه، قد حققوا لأنفسهم معنى الْإِنْسَانية التي شرفهم الله بها . وبالعمل الصالح، قد حفظوا نظام الفضيلة الذي جعله الله قوام الوجود الْإِنْسَانيّ، وهدوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ما هُدوا إليه من الخير والسعادة، فمن يكون أفضل منهم ؟ قاله الإمام .

﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أي : بساتين إقامة، لا ظعن فيها، تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ أي : ماكثين على الدوام، لا يخرجون عنها ولا يموتون فيها ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أي : بما

أطاعوه في الدنيا ، وعملوا لخلوصهم من عقابه ذلك ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ لأنهم بحسن يقينهم يرتاحون إلى امتثال ما يأمر به في الدنيا ، فهم راضون عنه . ثم إذا ذهبوا إلى نِعَم الآخرة ، وجدوا من فضل الله ما لا محل للسخط معه ، فهم راضون عن الله في كل حال . أفاده الإمام .

﴿ ذَلِكَ ﴾ أي : هذا الجزاء الحسن وهذا الرضاء ﴿ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ أي : خاف الله في الدنيا في سره وعلانيته ، فاتقاه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ؛ فإن الخشية ملاك السعادة الحقيقية .

قال الإمام : أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم ، الذي وقع ولا يزال يقع فيه العامة من الناس ، بل الخاصة كذلك ، وهو أن مجرد الاعتقاد بالوراثة وتقليد الأبوين ، ومعرفة ظواهر بعض الأحكام ، وأداء بعض العبادات ، كحركات الصلاة وإمساك الصوم ، مجرد هذا لا يكفي في نيل ما أعد الله من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وإن كانت قلوبهم حشوها الحسد والحقد والكبرياء والرياء ، وأفواههم ملؤها الكذب والنميمة والافتراء ، وتهز أعطافهم رياح العجب والخيلاء ، وسرائرهم مسكن العبودية والرق للأمراء ، بل ولمن دون الأمراء ، خالية من أقل مراتب الخشوع والإخلاص لرب الأرض والسماء – كلا لا ينالون حسن الجزاء ؛ فإن خشية ربهم لم تحلّ قلوبهم ، ولهذا لم تهذب من

نفوسهم ، ولا يكون ذلك الجزاء إلا لمن خشي ربه ، وأشعر خوفه قلبه . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿محاسن التأويل حـ 17 صـ 453.458﴾

(244/825)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة البينة

تعريف بسورة البينة

هذه السورة معدودة في المصحف وفي أكثر الروايات أنها مدنية . وقد وردت بعض الروايات بمكيتها . ومع رجحان مدنيتها من ناحية الرواية , ومن ناحية أسلوب التعبير التقريري , فإن كونها مكية لا يمكن استبعاده . وذكر الزكاة فيها وذكر أهل الكتاب لا يعتبر قرينة مانعة . فقد ورد ذكر أهل الكتاب في بعض السور المقطوع بمكيتها . وكان في مكة بعض أهل الكتاب الذين آمنوا , وبعضهم لم يؤمنوا . كما أن نصارى نجران وفدوا على الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مكة وآمنوا كما هو معروف . وورد ذكر الزكاة كذلك في سور مكية .

والسورة تعرض عدة حقائق تاريخية وإيمانية في أسلوب تقريري هو الذي يرجح أنها مدنية

إلى جانب الروايات القائلة بهذا .

والحقيقة الأولى هي أن بعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم) كانت ضرورية لتحويل الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين عما كانوا قد انتهوا إليه من الضلال والاختلاف , وما كانوا ليتحولوا عنه بغير هذه البعثة : لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة : رسول من الله يتلو صحفا مطهرة , فيها كتب قيمة . .

والحقيقة الثانية : أن أهل الكتاب لم يختلفوا في دينهم عن جهالة ولا عن غموض فيه , إنما اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم وجاءتهم البينة : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) .

والحقيقة الثالثة : أن الدين في أصله واحد , وقواعده بسيطة واضحة , لا تدعو إلى التفرق والاختلاف في ذاتها وطبيعتها البسيطة اليسيرة : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء , ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة , وذلك دين القيمة) .

والحقيقة الرابعة : أن الذين كفروا بعد ما جاءتهم البينة هم شر البرية , وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير البرية . ومن ثم يختلف جزاء هؤلاء عن هؤلاء اختلافا بينا :

ن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها . أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية , جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا , رضي الله عنهم ورضوا عنه , ذلك لمن خشي ربه . .

وهذه الحقائق الأربع ذات قيمة في إدراك دور العقيدة الإسلامية ودور الرسالة الأخيرة . وفي التصور الإيماني كذلك . نفصلها فيما يلي :

(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة : رسول من الله يتلو صحفا مطهرة , فيها كتب قيمة) .

لقد كانت الأرض في حاجة ماسة إلى رسالة جديدة كان الفساد قد عم أرجاءها كلها بحيث لا يرتجى لها صلاح إلا برسالة جديدة , ومنهج جديد , وحركة جديدة . وكان الكفر قد تطرق إلى عقائد أهلها جميعا سواء أهل الكتاب الذين عرفوا الديانات السماوية من قبل ثم حرفوها , أو المشركون في الجزيرة العربية وفي خارجها سواء .

وما كانوا لينفكوا ويتحولوا عن هذا الكفر الذي صاروا إليه إلا بهذه الرسالة الجديدة , وإلا على يد رسول يكون هو ذاته بينة واضحة فارقة فاصلة : (رسول من الله يتلو صحفا مطهرة) . . مطهرة من الشرك والكفر (فيها كتب قيمة) . . والكتاب يطلق على الموضوع , كما يقال كتاب الطهارة وكتاب الصلاة , وكتاب القدر , وكتاب القيامة , وهذه الصحف

المطهرة - وهي هذا القرآن - فيها كتب قيمة أي موضوعات وحقائق قيمة . .

ومن ثم جاءت هذه الرسالة في إبانها , وجاء هذا الرسول في وقته , وجاءت هذه الصحف وما فيها من كتب وحقائق وموضوعات لتحدث في الأرض كلها حدثا لا تصلح الأرض إلا به . فأما كيف كانت الأرض في حاجة إلى هذه الرسالة وإلى هذا الرسول فنكتفي في بيانه باقتطاف لمحات كاشفة من الكتاب القيم الذي كتبه الرجل المسلم "السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي" بعنوان: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" . . وهو أوضح وأخصر ما قرأناه في موضوعه:

(246/825)

جاء في الفصل الأول من الباب الأول:

كان القرن السادس والسابع لميلاد المسيح من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف . فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون . وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي وقد زادتها الأيام سرعة في هبوطها وشدة في إسفافها . وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه , فنسي نفسه ومصيره , وفقد رشده , وقوة التمييز بين الخير والشر , والحسن والقبيح . وقد خفتت دعوة الأنبياء من زمن , والمصابيح التي أوقدوها قد

انطفأت من العواصف التي هبت بعدهم , أو بقيت ونورها ضعيف ضئيل لا ينير إلا بعض القلوب , فضلا عن البيوت , فضلا عن البلاد . وقد انسحب رجال الدين من ميدان الحياة , ولاذوا بالأديرة والكنائس والخلوات فرارا بدينهم من الفتن , وضنا بأنفسهم , أو رغبة إلى الدعة والسكون , وفرارا من تكاليف الحياة وجدها , أو فشلا في كفاح الدين والسياسة , والروح والمادة ; ومن بقي منهم في تيار الحياة اصطلح مع الملوك وأهل الدنيا وعاونهم على إثمهم وعدوانهم , وأكل أموال الناس بالباطل . . . .

أصبحت الديانات العظيمة فريسة العابثين والمتلاعبين ; ولعبة المجرمين والمنافقين , حتى فقدت روحها وشكلها , فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ; وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام وعسف الحكام , وشغلت بنفسها لا تحمل للعالم رسالة , ولا للأمم دعوة , وأفلست في معنوياتها , ونضب معين حياتها , لا تملك مشرعا صافيا من الدين السماوي , ولا نظاما ثابتا من الحكم البشري" . .

هذه اللمحة السريعة تصور في إجمال حالة البشرية والديانات قبيل البعثة المحمدية . وقد أشار القرآن إلى مظاهر الكفر الذي شمل أهل الكتاب والمشركين في مواضع شتى . .

من ذلك قوله عن اليهود والنصارى : وقالت اليهود عزير ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابن الله . . (وقالت اليهود ليست النصارى على شيء , وقالت النصارى ليست اليهود على شيء) . .

وقوله عن اليهود : وقالت اليهود : يد الله مغلولة . غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء .

وقوله عن النصارى : لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . . (لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة) .

وقوله عن المشركين : (قل يا أيها الكافرون , لا أعبد ما تعبدون , ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم ; ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين) . . وغيرها كثير . .

وكان وراء هذا الكفر ما وراءه من الشر والانحطاط والشقاق والخراب الذي عم أرجاء الأرض . . . "وبالجملة لم تكن على ظهر الأرض أمة صالحة المزاج , ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة , ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة , ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة , لا دين صحيح مأثور عن الأنبياء " .

ومن ثم اقتضت رحمة الله بالبشرية إرسال رسول من عنده يتلو صحفا مطهرة فيها كتب

قيمة . وما كانالذين كفروا من المشركين ومن الذين أوتوا الكتاب ليتحولوا عن ذلك الشر والفساد إلا ببعثة هذا الرسول المنقذ الهادي المبين . . .

ولما قرر هذه الحقيقة في مطلع السورة عاد يقرر أن أهل الكتاب خاصة لم يتفرقوا ويختلفوا في دينهم عن جهل أو عن غموض في الدين أو تعقيد . إنما هم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم العلم ومن بعد ما جاءتهم البينة من دينهم على أيدي رسلهم :

(وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) . .

(248/825)

وكان أول التفرق والاختلاف ما وقع بين طوائف اليهود قبل بعثة عيسى - عليه السلام - فقد انقسموا شعبا وأحزابا . مع أن رسولهم هو موسى - عليه السلام - وكتابهم هو التوراة . فكانوا طوائف خمسة رئيسية هي طوائف الصدوقيين , والفريسيين , والآسيين , والغلاة , والسامريين . . ولكل طائفة سمة واتجاه . ثم كان التفرق بين اليهود والنصارى , مع أن المسيح - عليه السلام - هو أحد أنبياء بني إسرائيل وآخرهم , وقد جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة , ومع هذا فقد بلغ الخلاف والشقاق بين اليهود والمسيحيين حد العداء العنيف والحقد الذميم . وحفظ التاريخ من المجازر بين الفريقين ما تقشعر له الأبدان .

"وقد تجدد في أوائل القرن السابع من الحوادث ما بغضهم [أي اليهود] إلى المسيحيين وبغض المسيحيين إليهم, وشوه سمعتهم . ففي السنة الأخيرة من حكم فوكاس [610م] أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية, فأرسل الأمبراطور قائده [ابنوسوس] ليقضي على ثورتهم, فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة, فقتل الناس جميعا قتلا بالسيف, وشنقا, وإغراقا, وإحراقا, وتعذيبا, ورميا للوحوش الكاسرة . . . وكان ذلك بين اليهود والنصارى مرة بعد مرة, قال المقريزي في كتاب الخطط : "وفي أيام [فوقا] ملك الروم, بعث كسرى ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر فخربوا كنائس القدس, وفلسطين وعامة بلاد الشام, وقتلوا النصارى بأجمعهم, وأتوا إلى مصر في طلبهم, وقتلوا منهم أمة كبيرة, وسبوا منهم سبيا لا يدخل تحت حصر . وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم ; وأقبلوا نحو الفرس من طبرية, وجبل الجليل, وقرية الناصرة ومدينة صور, وبلاد القدس ; فنالوا من النصارى كل منال وأعظموا النكاية فيهم, وخربوا لهم كنيستين بالقدس, وأحرقوا أماكنهم, وأخذوا قطعة من عود الصليب, وأسروا بطرك القدس وكثيرا من أصحابه . إلى أن قال – بعد أن ذكر فتح القدس :

"فثارت اليهود في أثناء ذلك بمدينة صور , وأرسلوا بقيتهم في بلادهم , وتواعدوا على الإيقاع بالنصارى وقتلهم , فكانت بينهم حرب , اجتمع فيها من اليهود نحو 20 ألفا وهدموا كنائس النصارى خارج صور . فقوس النصارى عليهم وكاثروهم فانهزم اليهود هزيمة قبيحة , وقتل منهم كثير . وكان هرقل قد ملك الروم بقسطنطينية , وغلب الفرس بحيلة دبرها على كسرى حتى رحل عنه , ثم سار من قسطنطينية ليمهد ممالك الشام ومصر , ويجدد ما خربه الفرس , فخرج إليه اليهود من طبرية وغيرها , وقدموا له الهدايا الجليلة وطلبوا منه أن يؤمنهم منه ويحلف لهم على ذلك , فأمنهم وحلف لهم . ثم دخل القدس , وقد تلقاهم النصارى بالأناجيل والصلبان والبخور والشموع المشعلة , فوجد المدينة وكنائسها خرابا , فساءه ذلك , وتوجع لهم , وأعلمه النصارى بما كان من ثورة اليهود مع الفرس , وإيقاعهم بالنصارى وتخريبهم الكنائس , وأنهم كانوا أشد نكاية لهم من الفرس , وقاموا قياما كبيرا في قتلهم عن آخرهم , وحثوا هرقل على الوقيعة بهم , وحسنوا له ذلك . فاحتجعليهم بما كان من تأمينه لهم وحلفه , فأفتاه رهبانهم وبطارقتهم وقسيسوهم بأنه لا حرج عليه في قتلهم , فإنهم عملوا عليه حيلة حتى أمنهم من غير أن يعلم بما كان منهم , وأنهم يقومون عنه بكفارة يمينه بأن يلتزموا ويلزموا النصارى بصوم جمعة في كل سنة عنه على مر الزمان والدهور ! فمال إلى قولهم وأوقع باليهود وقيعة شنعاء أبادهم جميعهم فيها , حتى لم يبق في ممالك الروم في مصر والشام إلا من فر واختفى . .

"وبهذه الروايات يعلم ما وصل إليه الفريقان : اليهود والنصارى , من القسوة والضراوة بالدم الإنساني , وتحين الفرص للنكاية في العدو , وعدم مراعاة الحدود في ذلك" .

(250/825)

ثم كان التفرق والاختلاف بين النصارى أنفسهم , مع أن كتابهم واحد ونبيهم واحد . تفرقوا واختلفوا أولا في العقيدة . ثم تفرقوا واختلفوا طوائف متعادية متنافرة متقاتلة . وقد دارت الخلافات حول طبيعة المسيح - عليه السلام - وعما إذا كان لاهوتية أو ناسوتية . وطبيعة أمه مريم . وطبيعة الثالوث الذي يتألف منه "الله" - في زعمهم - وحكى القرآن قولين منها أو ثلاثة في قوله : (لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم) . . (لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة) (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس : اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ?) .

"وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الديني ما كان بين نصارى الشام والدولة الرومية , وبين نصارى مصر . أو بين "الملكانية" , "المنوفوسية" بلفظ أصح . فكان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسيح , وكان المنوفوسيون يعتقدون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة هي الإلاهية . التي تلاشت فيها طبيعة المسيح البشرية كقطرة من الخل تقع في بحر

عميق لا قرار له . وقد اشتد هذا الخلاف بين الحزبين في القرنين السادس والسابع , حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسين , أو كأنه خلاف بين اليهود والنصارى . كل طائفة تقول للأخرى : إنها ليست على شيء .

(251/825)

"وحاول الإمبراطور هرقل [610 - 641] بعد انتصاره على الفرس [سنة 638] جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيدها , وأراد التوفيق , وتقررت صورة التوفيق أن يمتنع الناس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة السيد المسيح , وعما إذا كانت له صفة واحدة أم صفتان , ولكن عليهم بأن يشهدوا بأن الله له إرادة واحدة أو قضاء واحد . وفي صدر عام 631 حصل وفاق على ذلك , وصار المذهب المنوثيلي مذهبا رسميا للدولة , ومن تضمهم من أتباع الكنيسة المسيحية . وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المخالفة , متوسلا إلى ذلك بكل الوسائل . ولكن القبط نابذوه العداء , وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف ! وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة . وحاول الإمبراطور مرة أخرى توحيد المذاهب وحسم الخلاف فاقتنع بأن يقر الناس بأن الله له إرادة واحدة . وأما المسألة الأخرى وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل فأرجأ

القول فيه , ومنع الناس أن يخوضوا في مناظراته . وجعل ذلك رسالة رسمية , ذهب بها إلى جميع جهات العالم الشرقي . ولكن الرسالة لم تهدئ العاصفة في مصر , ووقع اضطهاد فظيع على يد قيصر في مصر استمر عشر سنين , ووقع في خلالها ما تقشعر منه الجلود , فرجال كانوا يعذبون ثم يقتلون غرقا , وتوقد المشاعل وتسلط نارها على الأشقياء حتى يسيل الدهن من الجانبين إلى الأرض ويوضع السجين في كيس مملوء بالرمل ويرمى في البحر . إلى غير ذلك من الفظائع" .

وكان هذا الخلاف كله بين أهل الكتاب جميعا (من بعد ما جاءتهم البينة) . . فلم يكن ينقصهم العلم والبيان ; إنما كان يجرفهم الهوى والانحراف .

على أن الدين في أصله واضح والعقيدة في ذاتها بسيطة :

(وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء , ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) وهذه هي قاعدة دين الله على الإطلاق :

عبادة الله وحده , وإخلاص الدين له , والميل عن الشرك وأهله , وإقامة الصلاة , وإيتاء الزكاة : (وذلك دين القيمة) . . عقيدة خالصة في الضمير , وعبادة لله , تترجم عن هذه

العقيدة , وإنفاق للمال في سبيل الله , وهو الزكاة . . فمن حقق هذه القواعد , فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب , وكما هو في دين الله على الإطلاق . دين واحد . وعقيدة واحدة , تتوالى بها الرسالات , ويتوافى عليها الرسل . . دين لا غموض فيه ولا تعقيد . وعقيدة لا تدعو إلى تفرق ولا خلاف , وهي بهذه النصاعة , وبهذه البساطة , وبهذا التيسير . فأين هذا من تلك التصورات المعقدة , وذلك الجدل الكثير ?

فأما وقد جاءتهم البينة من قبل في دياناتهم على أيدي رسلهم ; ثم جاءتهم البينة , حية في صورة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة ; ويقدم لهم عقيدة , واضحة بسيطة ميسرة , فقد تبين الطريق . ووضح مصير الذين يكفرون والذين يؤمنون :

(إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا . رضي الله عنهم ورضوا عنه , ذلك لمن خشي ربه) . .

إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) هو الرسول الأخير ; وإن الإسلام الذي جاء به هو الرسالة الأخيرة . وقد كانت الرسل تتوالى كلما فسدت الأرض لترد الناس إلى الصلاح . وكانت هناك فرصة بعد فرصة ومهلة بعد مهلة , لمن ينحرفون عن الطريق فأما وقد شاء الله أن يختم الرسالات إلى الأرض بهذه الرسالة الأخيرة الجامعة الشاملة الكاملة , فقد

تحددت الفرصة الأخيرة , فإما إيمان فنجاة , وإما كفر فهلاك . ذلك أن الكفر حينئذ دلالة على الشر الذي لا حد له , وأن الإيمان دلالة على الخير البالغ أمده .

(253/825)

(إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها . أولئك هم شر البرية)حكم قاطع لا جدال فيه ولا محال . مهما يكن من صلاح بعض أعمالهم وآدابهم ونظمهم ما دامت تقوم على غير إيمان , بهذه الرسالة الأخيرة , وبهذا الرسول الأخير . لا نستريب في هذا الحكم لأي مظهر من مظاهر الصلاح , المقطوعة الاتصال بمنهج الله الثابت القويم .

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات , أولئك هم خير البرية) .

جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)

حكم كذلك قاطع لا جدال فيه ولا محال . ولكن شرطه كذلك واضح لا غموض فيه ولا احتيال . إنه الإيمان . لا مجرد مولد في أرض تدعى الإسلام , أو في بيت يقول : إنه من المسلمين . ولا بمجرد كلمات يتشدق بها الإنسان ! إنه الإيمان الذي ينشئ آثاره في واقع

الحياة : (وعملوا الصالحات) . وليس هو الكلام الذي لا يتعدى الشفاه ! والصالحات هي كل ما أمر الله بفعله من عبادة وخلق وعمل وتعامل . وفي أولها إقامة شريعة الله في الأرض , والحكم بين الناس بما شرع الله . فمن كانوا كذلك فهم خير البرية .

(جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا) . .

جنات للإقامة الدائمة في نعيمها الذي يمثله هنا الأمن من الفناء والفوات . والطمأنينة من القلق الذي يعكر وينغص كل طيبات الأرض . . كما يمثله جريان الأنهار من تحتها , وهو يلقي ظلال النداوة والحياة والجمال !

ثم يرتقي السياق درجة أو درجات في تصوير هذا النعيم المقيم :

(رضي الله عنهم ورضوا عنه) . .

هذا الرضا من الله وهو أعلى وأندى من كل نعيم . وهذا الراضا في نفوسهم عن ربهم الرضا عن قدره فيهم . والرضا عن إنعامه عليهم والرضا بهذه الصلة بينه وبينهم . الرضا الذي يغمر النفس بالهدوء والطمأنينة والفرح الخالص العميق . .

إنه تعبير يلقي ظلاله بذاته . . (رضي الله عنهم ورضوا عنه) حيث يعجز أي تعبير آخر

عن إلقاء مثل هذه الظلال !

(ذلك لمن خشي ربه) . .

وذلك هو التوكيد الأخير . التوكيد على أن هذا كله متوقف على صلة القلب بالله , ونوع هذه الصلة , والشعور بخشيته خشية تدفع إلى كل صلاح , وتنهى عن كل انحراف . . الشعور الذي يزيح الحواجز , ويرفع الأستار , ويقف القلب عاريا أمام الواحد القهار . والذي يخلص العبادة ويخلص العمل من شوائب الرياء والشرك في كل صورة من صوره . فالذي يخشى ربه حقا لا يملك أن يخطر في قلبه ظلا لغيره من خلقه . وهو يعلم أن الله يرد كل عمل ينظر فيه العبد إلى غيره معه , فهو أغنى الشركاء عن الشرك . فإما عمل خالص له , وإلا لم يقبله .

تلك الحقائق الأربعة الكبيرة هي مقررات هذه السورة الصغيرة , يعرضها القرآن بأسلوبه الخاص , الذي يتجلى بصفة خاصة في هذه السور القصار . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3947. 3953 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) ﴾

ذكر هنا الذين كفروا ، ثم جاءت من ، وجاء بعدها أهل الكتاب والمشركين ، مما يشعر بأن وصف الكفر يشمل كلاً من أهل الكتاب والمشركين ، كما يشعر مرة أخرى أن المشركين ليسوا من أهل الكتاب لوجود العطف ، وأن أهل الكتاب ليسوا من المشركين .

وهذا المبحث معروف عند المتكلمين وعلماء التفسير ، واتفقوا على : أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وأن المشركين هم عبدة الأوثان ، والكفر بجميع القسمين .

وأهل الكتاب مختص باليهود والنصارى ، ولكن الخلاف هل الشرك يجمعهما أيضاً أم لا ؟

فبين الفريقين عموم وخصوص ، عموم في الكفر وخصوص في أهل الكتاب لليهود والنصارى ، وخصوص في المشركين لعبدة الأوثان .

ولكن جاءت آيات تدل على أن مسمى الشرك يشمل أهل الكتاب أيضاً : كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله وَقَالَتْ النصارى المسيح ابن الله ذلك قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ الله أنى يُؤْفَكُونَ اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله والمسيح ابن مَرْيَمَ وَمَآ أمروا إِلاَّ لِيعبدوا إلها وَاحِداً لاَّ إله إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : 30-31] .

فجعل مقالة كل من اليهود والنصارى إشراكاً .

وجاء عن عبد الله بن عمر منع نكاح الكتابية وقال: " وهل كبر إشراكاً من قولها: ﴿ اتخذ الله ولداً ﴾ [البقرة: 116]، فهو وإن كان مخالفاً للجمهور في منع الزواج من الكتابيات، إلا أنه اعتبرهن مشركات.

(256/825)

ولهذا الخلاف والاحتمال وقع النزاع فى مسمى الشرك، هل يشمل أهل الكتاب أم لا؟ مع أننا وجدنا فرقاً في الشرع في معاملة أهل الكتاب ومعاملة المشركين، فأحل ذبائح أهل الكتاب ولم يحلها من المشركين، وأحل نكاح الكتابيات ولم يحله من المشركات، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ ﴾ [البقرة: 221].

وقوله: ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ﴾ [الممتحنة: 10].

وقال: ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة، 10]، بين ما في حق الكتابيات قال: ﴿ والمحصنات مِنَ المؤمنات والمحصنات مِنَ الذين أُوتُوا الكتاب مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [المائدة: 5]، فكان بينهما مغايرة في الحكم.

وقد جمع والدنا الشيخ محمد الأمين رحمة الله تعالى علينا وعليه بين تلك النصوص في دفع إيهام الاضطراب عند قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ [التوبة: 30]،

المتقدم. ذكرها جمعاً مفصلاً مفاده أن الشرك الأكبر المخرج من الملة أنواع، وأهل الكتاب متصفون ببعض دون بعض، إلى آخر رحمه الله تعالى علينا وعليه.

ولعل في نفس آية ﴿ وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله ﴾، فيها إشارة إلى ما ذكره رحمة الله تعالى علينا وعليه من وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الذين كَفَرُواْ ﴾ [التوبة: 30]، أي يشابهونهم في مقالتهم، وهذا القدر اتصف به المشركون من انواع الشرك.

الثاني: تذييل الآية بصيغة المضارع عما يشركون بين ما وصف عبدة الأوثان في سورة البينة بالاسم والمشركين.

ومعلوم أن صيغة الفعل تدل على التجدد والحدوث، وصيغة الاسم تدل على الدوام والثبوت، فمشركو مكة وغيرهم دائمون على الإشراك وعبادة الأصنام، وأهل الكتاب يقع منهم حيناً وحيناً.

وقد أخذ بعض العلماء: أن الكفر ملة واحدة، فورث الجميع من بعض، ومنع الآخرون على أساس المغايرة والعلم عند الله تعالى.

تنبيه

بقي المجوس وجاءت السنة أنهم يعاملون معاملة أهل الكتاب لحديث : " سنوا بهم سنة أهل الكتاب " .

وقوله تعالى : ﴿ مُنفَكِّينَ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ﴾ ، اختلف في منفكين اختلافاً كثيراً عند جميع المفسرين ، حتى قال الفجر الرازي عند أول هذه السورة ما نصه : قال الواحدي في كتاب البسيط : هذه الآية من أصعب ما في القرآن العظيم نظماً وتفسيراً ، وقد تخبط فيها الكبار من العلماء .

ثم إنه رحمه الله لم يلخص كيفية الإشكال فيها .

وأنا أقول وجه الإشكال : أن تقدير الآية : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين مُنفَكِّينَ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة ﴾ ، التي هي الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم إنه لم يذكر منفكون عماذا لكنه معلوم ، إذ المراد هو الكفر الذي كانوا عليه .

فصار التقدير : لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة ، التي هي الرسول ، ثم قال بعد ذلك ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة ﴾ ، وهذا يقتضي أن كفرهم قد ازداد عند مجيء الرسول عليه السلام ، فحينئذ يحصل بين الآية الأولى والآية الثانية تناقض في الظاهر ، هذا منتهى الإشكال فيما أظن .

اه . حرفياً .

وقد سقت كلامه لبيان مدى الإشكال في الآيتين ، وهو مبني على أن منفكين بمعنى تاركين : وعليه جميع المفسرين .

والذي جاء عن الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه : أن منفكين أي مرتدعين عن الكفر والضلال ، حتى تأتيهم البينة ، أي أتتهم .

(258/825)

ولكن في منفكين ، وجه يرفع هذا الإشكال ، وهو أن تكون منفكين بمعنى متروكين لا بمعنى تاركين ، أي لم يكونوا جميعاً متروكين على ما هم عليه من الكفر والشرك حتى تأتيهم البينة على معنى قوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : 36] ، وقوله : ﴿ الم أَحَسِبَ الناس أَن يتركوا أَن يقولوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : 1-2] ، أي لن يتركوا وقريب منه قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ ياهود مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بتاركي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ ﴾ [هود : 53] .

وقد حكى أبو حيان قولاً عن ابن عطية قوله ، ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى ، وذلك أن يكون المراد : لم يكن هؤلاء القوم منفكين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم ، حتى يبعث الله تعالى إليهم رسولاً منذراً ، تقوم به الحجة ، ويتم على من آمن النعمة ، فكأنه

قال : ما كانوا ليتركوا سدى ، ولهذا نظائر في كتاب الله تعالى اه .

فقول ابن عطية يتفق مع ما ذكرناه ، ويزيل الإشكال الكبير عن المفسرين ، كما أسلفنا .

ولشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قول في ذلك نسوقه لشموله ، وهو ضمن كلامه على هذه السورة في المجموع مجلد 16 ص 495 قال :

وفي معنى قوله تعالى : لم يكن هؤلاء وهؤلاء منفكين . ثلاثة أقوال ذكرها غير واحد من المفسرين .

هل المراد : لم يكونوا منفكين عن الكفر ؟

أو هل لم يكونوا مكذبين بمحمد حتى بعث ، فلم يكونوا منفكين من محمد والتصديق بنبوته حتى بعث .

أو المراد : أنهم لم يكونوا متروكين حتى يرسل إليهم رسول .

وناقش تلك الأقوال وردها كلها ثم قال : فقوله : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين مُنفَكِّينَ ﴾ ، أي لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم يفعلون ما يهوونه لا حجر عليهم ، كما أن المنفك لا حجر عليه ، وهو لم يقل مفكوكين ، بل قال : منفكين ، وهذا

أحسن ، إلى أن قال : والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون ولا ينهون ولا ترسل إليهم رسل .

والمعنى : أن الله لا يخليهم ولا يتركهم ، فهو لا يفكهم حتى يبعث اليهم رسولاً ، وهذا كقوله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسان أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : 36] ، لا يؤمر ، ولا ينهى ، أي : أيظن أن هذا يكون ؟ هذا ما لا يكون ألبتة ، بل لا بد أن يؤمر وينهى .

وقريب من ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذكر صَفْحاً أَن كُنتُمْ قَوْماً مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف : 3-5] . وهذا استفهام إنكار أي لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر ، ونعرض عن إرسال الرسل .

تبين من ذلك كله أن الأصح في " منفكين " معنى " متروكين " وبه يزول الإشكال الذي أورده الفخر الرازي ، ويستقيم السياق ، ويتضح المعنى ، وبالله تعالى التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ حتى تَأْتِيَهُمُ البينة رَسُولٌ مِّنَ الله يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾ .

أجمل البينة ثم فصلها فيما بعدها ﴿ رَسُولٌ مِّنَ الله يَتْلُو صُحُفاً ﴾ .

وفي هذا قيل : إن البينة هي نفس الرسول في شخصه ، لما كانوا يعرفونه قبل مجيئه ، كما في قوله : ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسمه أَحْمَدُ ﴾ [الصف : 6] ، وقوله : ﴿

يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة : 146] .

فكأن وجوده صلى الله عليه وسلم بذاته بينة لهم .

(260/825)

ولذا جاء في الآثار الصحيحة أنهم عرفوا يوم مولده بظهور نجم نبي الختان إلى آخر أخباره صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، وكذلك المشركون كانوا يعرفونه عن طريق أهل الكتاب ، وبما كان متصفا به صلى الله عليه وسلم ، ومن جميل الصفات كما قالت له خديجة عند بدء الوحي له وفزعه منه : "كلا والله لن يخزيك الله ، والله إنك لتحمل الكلّ وتعين على نوائب الدهر " إلى آخره .

وقول عمه أبي طالب : " والله ما رأيته بعب مع الصبيان ولا علمت عليه كذبة " إلخ .

وقد لقبوه بالأمين .

وحادثة شق الصدر في رضاعة ، بل وقبل ذلك في قصة أبيه عبد الله ، لما تعرضت له المرأة تريده لنفسها ، فأبى . ولما تزوج وجخل بآمنة أم النبيِّ صلى الله عليه وسلم لقيها بعد ذلك ، فقالت له : لا حاجة لي بك ، فقال : وكيف كنت تتعرضين لي ؟ فقالت : رأيت نوراً في وجهك ، فأحببت أن يكون بي ، فلما تزوجت وضعته في آمنة ولم أره فيك الآن ، فلا

حاجة لي فيك .

فكلها دلائل على أنه صلى الله عليه وسلم كان في شخصه بينة لهم ، ثم أكرمه الله بالرسالة ، فكان رسولاً يتلو صحفاً مطهرة ، من الأباطيل والزيغ وما لا يليق بالقرآن .

ومما استدل به لذلك قوله تعالى عنه : ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ [الأحزاب : 46] فعليه يكون رسول من الله بدل من البينة مرفوع على البدلية ، أو أن البينة ما يأتيهم به الرسول مما يتلوه عليهم من الصحف المطهرة فيها كتب قيمة .

فالتشريع الذي فيها والإخبار الذي أعلنه تكون البينة . وعلى كل ، فإن البينة تصدق على الجميع ، كما تصدق على المجموع ، ولا ينفك أحدهما عن الآخر ، فلا رسول إلا برسالة تتلى ، ولا رسالة تتلى إلاَّ برسول يتلوها .

وقد عرف لفظ البينة ، للإشارة إلى وجود علم عنها مسبق عليها .

(261/825)

فكأنه قيل : حتى تأتيهم البينة الموصوفة لهم في كتبهم ، ويشير إليها ما قدمنا في أخبار عيسى عليه السلام عنه ، وآخر سورة الفتح ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾ [الفتح : 29] الآية .

قوله تعالى : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ ﴾ .

جمع كتاب ، وقال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه : كتب : بمعنى مكتوبات .

وقال ابن جرير : في الصحف المطهرة كتب من الله قيمة . يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويثني عليه بأحسن الذكر ، ويثني عليه بأحسن الثناء .

وحكاه ابن كثير واقتصر عليه .

وقال القرطبي : إن الكتب بمعنى الأحكام ، مستدلاً بمثل قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام ﴾ [البقرة : 183] وقوله : ﴿ كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ ورسلي ﴾ [المجادلة : 21] .

وقيل : الكتب القيمة : هي القرآن ، فجعله كتباً ، لأنه يشتمل على أبواب من البيان .

وذكر الفخر الرازي : أنه يحتمل في كتب أي الآيات المكتوبة في المصحف ، وهو قريب من قول الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .

وقال الشوكاني : المراد : الآيات والأحكام المكتوبة فيها ، وهذه المعاني وإن كانت صحيحة ، إلا أن ظاهر اللفظ أدل على تضمن معنى كتب منه على معنى كتابة أحكام .

والذي يظهر أن مدلول كتب على ظاهرها ، وهو تضمن تلك الصحف المطهرة لكتب سابقة قيمة ، كما ينص عليه قوله تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الحياة الدنيا والآخرة خَيْرٌ وأبقى ﴾ [الأعلى : 16-17] ، ثم قال : ﴿ إِنَّ هذا لَفِي الصحف الأولى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ

وموسى ﴾ [الأعلى : 18-19] ، وكقوله في عموم الكتب الأولى : ﴿ قَالُوا يَا قومنا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابا أُنْزِلَ مِن بَعْدِ موسى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يهدي ﴾

(262/825)

[الأحقاف : 30] ، وقوله : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكتاب بالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التوراة والإنجيل مِن قَبْلُ ﴾ [آل عمران : 3-4] .

ولذا قال : ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأنعام : 114] ، أي بما فيه من كتبهم القيمة المتقدم إنزالها ، كما في قوله : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ ﴾ [النور : 34] .

وقوله : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يَقُصُّ على بني إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الذي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل : 76] .

وقال : ﴿ وهذا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأنعام : 92] ، ونحو ذلك من الآيات ، مما يدل على أن آي القرآن متضمنة كتباً قيمة مما أنزلت من قبل ، وقد جاء عملياً في آية الرحمن وقوله : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ ﴾ [المائدة : 45] أي في التوراة ﴿ أَنَّ النفس بالنفس والعين بالعين ﴾ [المائدة : 45] ، فهذه من الكتب القيمة التي تضمنها

القرآن الكريم ، كما قال : ﴿ وَلَكُمْ فِي القصاص حَيَاةٌ ﴾ [البقرة : 179] .

ولعل هذا يبن وجه المعنى فيما رواه المفسرون عن الإمام أحمد ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب " أُمرت أن أقرأ عليك سورة البيينة ، فقال : أو ذكرت ، ثم " .

وبكى رضي الله عنه ، لأن فيها زيداة طمأنينة له على إيمانه بأنه آمن بكتاب تضمن الكتب القيمة المتقدمة ، والتي يعرفها عبد الله بن سلام أن الرجم في التوراة لما غطاها الآتي بها ، كما هو معروف في القصة . والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُواْ الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة ﴾ .

(263/825)

يلاحظ أن السورة في أولها عن الكفار عموماً من أهل الكتاب والمشركين معاص ، وهنا الحديث عن أهل الكتاب فقط ، وذلك مما يخصهم في هذا المقام دون المشركين ، وهو أنهم لأنهم أهل كتاب ، وعندهم علم به صلى الله عليه وسلم ، وبما سيأتي به ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .

وكقوله صراحة : ﴿ وَمَا تفرقوا إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ العلم بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : 14] ، فلمعرفتهم به قبل مجيئه ، واختلافهم فيه بعد مجيئه ، وخصهم هنا بالذكر في قوله :

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الذين أُوتُوا الكتاب إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ البينة ﴾ .

تنبيه

مما يدل على ما ذكرنا من معنى كتب قيمة ، أمران من كتاب الله .

الأول منهما : اختصاص أهل الكتاب هنا بعد عموم الحديث عن الذين كفروا ، وما قدمنا عن نصوص .

الثاني : أن القرآن لما ذكر الرسول يتلو على المشركين قال : ﴿ هُوَ الذي بَعَثَ فِي الأميين رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ [الجمعة : 2] ، فهذا نفس الأسلوب ، ولكن قال : آياته ، لأنهم لم يكن لهم علم بالكتب الأخرى ، فاقتصر على الآيات .

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)

وهذا لا يستوجب التفرق في أمره صلى الله عليه وسلم .

ولكن هنا لم يبين موضع المر بعبادة الله مخلصين له الدين ، هل هو في كتبهم لا سابقة ، أم في هذا القرآن الذي يتلى عليهم في صحف مطهرة ؟

وقد بين القرآن العظيم أن هذا الأمر موجود في كل من كتبهم والقرآن الكريم ، فما في كتبهم قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعبدوا الله ﴾ [النحل : 36] .

وقوله : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى : 13] .

فإقامة الدين وعدم التفرقة فيه ، هو عين عبادة الله مخلصين له الدين .

ومما في القرآن قوله تعالى : ﴿ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذكروا نِعْمَتِيَ التي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بعهدي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فارهبون وَآمِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلاَ تكونوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فاتقون وَلاَ تَلْبِسُواْ الحق بالباطل وَتَكْتُمُواْ الحق وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة واركعوا مَعَ الراكعين ﴾ [البقرة : 40-43] .

فقد نص على كامل المسألة هنا ، أن الكتب القيمة المنصوص عليها في الصحف المطهرة هي كتب أهل الكتاب ، لقوله تعالى : ﴿ وَآمِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ ﴾ [البقرة : 41] ، وأنهم أمروا في هذا القرآن بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مع التعلميات المذكورة نفسها ، وإقام الصلاة لا يكون إلا عبادة الله بإخلاص .

وهذه الأوامر سواء كانت في كتبهم أو في القرآن لا تقتضي التفرق ، بل تستوجب الاجتماع والوحدة .

قوله تعالى : ﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ .

القيمة : فيعلة من القوامة ، وهي غاية الاستقامة .

وقد جاء بعد قوله : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة : 3] ، أي مستقيمة بتعاليمها .

وقد نص تعالى على أن القرآن أقومها وأعدلها كما في قوله : ﴿ إِنَّ هذا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9] ، وقال تعالى : ﴿ الحمد لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قَيِّماً ﴾ [الكهف : 1-2] ، فنفى عنه العوج ، وأثبت له الاستقامة .

(265/825)

وهذا غاية في القوامة كما قدمنا من قبل ، من أن المستقيم قد يكون فيه انحناء كالطريق المعبد المستقيم عن المرتفعات والمنخفضات ، لكنه ينحرف تارة يميناً وشمالاً مع استقامته ، فهو مع الاستقامة لم يخل من العوج .

ولكن ما ينتفي عنه العوج وتثبت له الاستقامة ، هو الطريق الذي يمتد في اتجاه واحد بدون أي اعوجاج إلى أي الجانبين ، مع استقامته في سطحه .

وهكذا هو القرآن ، فهو الصراط الكستقيم ، ولذا قال تعالى : ﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ الملة القيمة ، قيمة في ذاتها ، وقيمة على غيرها : ومهيمنة عليه ، وكقوله : ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ [يوسف : 40] ، وقوله : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي ربي إلى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المشركين قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

العالمين لاَ شَرِيكَ لَهُ وبذلك أُمِرْتُ وَأَنْا أَوّلُ المسلمين ﴾

[الأنعام: 161-163].

تنبيه

إن في هذه الآية رداً صريحاً على أولئك الذين ينادون بدون علم إلى دعوة لا تخلو من تشكيك، حيث لم تسلم من لبس، وهي دعوة وحدة الأديان، ومحل اللبس فيها أن هذا القول منه حق، ومنه باطل.

أما الحق فهو وحدة الأصول، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أمروا إلاَّ لِيَعْبُدُواْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين حُنَفَآءَ وَيُقيموا الصلاة وَيُؤْتُوا الزكاة ﴾ [البينة: 5]، وأما الباطل فهو الإبهام، بأن هذا ينجر على الفروع مع الجزم عند الجميع، بأن فروع كل دين قد لا يتفق كلها مع فروع الدين الآخر، فلم تتحد الصلاة فلي جميع الأديان ولا الصيام، ونحو ذلك.

وقد أجمع المسلمون على أن العبرة بما في القرآن من تفصيل للفروع والسنة، تكمل تفصيل ما أجمل.

وهنا النص الصريح بأن ذلك الذي جاء به القرآن هو دين القيمة ، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم ، وهي أفعل تفضيل ، فلا يمكن أن يعادل ويساوي مع غيره أبداً مع نصوص القرآن ، بأن الله أخذ العهد على جميع الأنبياء لئن أدركوا محمداً صلى الله عليه وسلم ليؤمنن به ، ولينصرنه وليتبعنه ، وأخذ عليهم العهد بذلك . وقد أخبر الرسل أممهم بذلك . فلم يبق مجال في هذا الوقت ولا غيره لدعوة الجاهلية بعنوان مجوف وحدة الأديان ، بل الدين الإسلامي وحده ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : 85] ، وبالله تعالى التوفيق .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6)

قرئت البرية بالهمزة وبالياء ، فقرأ بالهمز : نافع وابن ذكوان . والباقون بالياء ، فاختلف في أخذها .

قال القرطبي : قال الفراء : إن أخذت البرية من البراءة بفتح الباء والراء : أي التراب .

فأصله غير مهموز بقوله منه : براه الله يبروه بروا ً ، أي خلقه ، وقيل : البرية من بريت القلم أي قدرته .

وقد تضمنت هذه الآية مسألتين : الأولى منهما : أن أولئك في نار جهنم خالدين فيها ، ومبحث خلود الكفار في النار ، تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وافياً .

والمسألة الثانية أنهم شر البرية ، والبرية أصلها البريئة ، قلبت الهمزة ياء تسهيلاً ، وأدغمت الياء في الباء ، والبريئة الخليقة والله تعالى بارئ النسم ، هو الخالق البارئ المصور سبحانه . ومن البرية الدواب والطيور ، وهنا النص على عمومه ، فأفهم أن أولئك شر من الحيوانات والدواب .

(267/825)

وقد جاء النص صريحاً في هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدواب عِندَ الله الصم البكم الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال : 22] ، وقد بين أن المراد بهم الكفار في قوله : ﴿ أولئك الذين لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وأعمى أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد : 23] ، وقال عنهم : ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم أَوْ تَهْدِي العمي وَمَن كَانَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزخرف : 40] ، فهم لصممهم وعماهم في ضلال مبين .

وقد ثبت أن الدواب ليست في ضلال مبين ، لأنها تعلم وتؤمن بوحدانية الله ، كما جاء في هدهد سليمان ، أنكر على بلقيس وقومها سجودهم للشمس والقمر من دون الله .

ونص مالك في الموطأ في فضل يوم الجمعة " أنه وما من دابة إلا تصيخ بأذنها من فجر يوم الجمعة إلى طلوع الشمس خشية الساعة " ، وهذا كله ليس عند الكافر منه شيء ، ثم في

الآخرة لما يجمع الله جميع الدواب ويقتص للعجماء من القرناء ، فيقول لها : كوني ترابا ، فيتمنى الكافر لو كان مثلها فلم يحصل له ، كما قال : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الكافر ياليتني كُنتُ تُرَاباً ﴾ [النبأ : 40] .

وذلك والله تعالى أعلم : أن الدواب لم تعمل خيراً فتبقى لتجازى عليه ، ولم تعمل شراً لتعاقب عليه فكانت لا لها ولا عليها إلا ما كان فيما بينها وبين بعضها ، فلما اقتص لها من بعضها انتهى أمرها ، فكانت نهايتها عودتها إلى منبتها وهو التراب . بخلاف الكافر فإن عليه حساب التكاليف وعقاب المخالفة فيعاقب بالخلود في النار ، فكان شر البرية .

إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7)

الحكم هنا بالعموم ، كالحكم هناك . ولكنه هنا بالخيرية والتفضيل .

أما من حيث الجنس فلا إشكال ، لأن الإنسان أفضل الأجناس ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بني آدَمَ ﴾ [الإسراء : 70] .

(268/825)

وأما من حيث العموم ، فقال بعض العلماء فيها ما يدل على صالح المؤمنين أفضل من الملائكة .

ولعل مما يقوي هذا الاستدلال، هو أن بعض أفراد جنس الإنسان أفضل من عموم أفراد جنس الملائكة، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، وإذا فضل بعض أفراد الجنس لا يمنع في البعض الآخر ولكن هل بعض أفراد الأمة بعده أفضل من عموم أو بعض أفراد الملائكة؟ هذا هو محل الخلاف.

وللقرطبي مبحث في ذلك: مبناه على أصل المادة وورود النصوص من جهة أصل المادة إن كانت البرية مأخوذة من البري وهو التراب. فلا تدخل الملائكة تحت هذا التفضيل وإلا فتدخل.

وأما من جهة النصوص، فقال في سورة البقرة عند قوله: ﴿ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ﴾ [البقرة: 33]، قال المسألة الثالثة: اختلف العلماء في هذا الباب أيهما أفضل، الملائكة أو بنو آدم؟ على قولين، فذهب قول إلى أن الرسل من البشر أفضل من الرسل من الملائكة، والأولياء من البشر أفضل من الأولياء من الملائكة.

وذهب آخرون إلى أن الملأ الأعلى أفضل، واحتج من فضل الملائكة بأنهم عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وقوله: ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ ولا أَعْلَمُ الغيب ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: 50].

وبما في البخاري يقول الله: " من ذكرني في ملأ ذكرته في ملإ خير منه " وهذا نص على أن

الملأ الأعلى خير من ملأ الأرض .

واحتج من فضل بني آدم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين آمَنُوا وَعَمِلوا الصالحات أولئك هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ [البينة : 7] ، بالهمز من بَرأَ اللهُ الْخَلقُ ، وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم " أخرجه أبو داود .

وبأن الله يباهي بأهل عرفات الملائكة ، ولا يباهي إلا بالأفضل والله تعالى أعلم .

وقال بعض العلماء : ولا طريق إلى القطع بأن الملائكة خير منهم ، لأن طريق ذلك خبر الله ، وخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو إجماع الأمة .

وليس ها هنا شيء من ذلك خلافاً للقدرية والقاضي أبي بكر ، حيث قالوا : الملائكة أفضل . قال : وأنا من قال من أصحابنا والشيعة : إن الأنبياء أفضل ، لأن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، إلى آخره .

ثم رد هذا الاستدلال .

وقد سبقنا هذا البحث لبيان الخلاف في هذه المسألة المشتمل عليها لفظ البرية ، وأعتقد أن المفاضلة جزئية لا كلية ، وذلك أن جنس البشر خلاف جنس الملائكة ، والملائكة فيهم

النص بأنهم

﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : 26] ، والبشر فيهم النص ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ [الإسراء : 70] ، والفرق بينهما ، كالفرق بين الاسم والفعل في الدلالة .

ففي الملائكة بالاسم : مكرمون ، وهو يدل على الدوام والثبوت ، وفي بني آدم كرمنا ، وهو يدل على التجدد والحدوث .

وهذا هو الواقع ، فالتكريم ثابت ولازم ودائم للملائكة بخلافه في بني آدم إذ فيهم وفيهم ، ولا يبعد أن يقال : إن التفضيل في الأعمال من حيث صدورها من بني آدم ومن الملائكة ، إذ الملائكة تصدر عنها أعمال الخير جبلة أو بدون نوازع شر ، بخلاف بني آدم ، وإن أعمال الخير تصدر عنها بمجهود مزدوج ، حيث ركبت فيه النفس اللوامة والأمارة بالسوء . ونحو ذلك من الجانب الحيواني .

وازدواجية المجهود ، هو أنه ينازع عوامل الشر حتى يتغلب عليها ، ويبذل الجهد في فعل الخير ، فهو يجاهد للتخليص من نوازع ثم الشر ، هو يجاهد للقيام بفعل الخير ، وهذا مجهود يقتضي التفضيل على المجهود من جانب واحد .

وقد جاء في السنة ما يشهد لذلك ، لما ذكر صلى الله عليه وسلم أصحابه " أن يأتي بعدهم من أن العامل منهم له أجر خمسين ، فقالوا : خمسين منا أو منهم يا رسول الله قال : " بل خمسين منكم ، لأنكم تجدون أعواناً على الخير وهم لا يجدون " .

وحديث " سبق درهم مائة ألف درهم " وبين صلى الله عليه وسلم ، أن الدرهم سبق الأضعاف المضاعفة ، لأنه ثاني اثنين فقط ، والمائة ألف جزء من مجموع كثير .

فالنفس التي تجود بنصف ما تملك ، ولا يتبقى لهم إلا درهم ، خير بكثير ممن تنفق جزءاً ضئيلاً مما تملك ويتبقى لها المال الكثير ، فكانت عوامل التصدق ودوافعه مختلفة منزلة في النفس متضادة . فالدرهم في ذاته وماهيته من جنس الدراهم الأخرى ، لم تتفاوت الماهية ولا الجنس ، ولكن تتفاوت الدوافع والعوامل لإنفاقه ، ولعل المفاضلة المقصودة تكون من هذا القبيل أولى . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنهارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾

فيه أربع مسائل : ثلاثة مجملة جاء بيانها في القرآن . والرابعة مفصّلة ولها شواهد .

أما الثلاثة المجملة فأولها قوله : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ، إذ الجزاء في مقابل شيء يستوجبه ، وعند ربهم تشعر بأنه تفضل منه ، وإلا لقال : جزاؤهم على ربهم .

وقد بين ذلك صريح قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً حَدَآئِقَ وَأَعْنَاباً وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً

وَكَأْساً دِهَاقاً لاَّ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَاباً ﴾ [النبأ : 31-36] ، فنص على أن هذا الجزاء كله من ربهم عطاء لهم من عنده .

(271/825)

الثانية والثالثة قوله : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [طه : 76] ، فأجمل ما في الجنات ، ونص على أنها تجري من تحتها الأنهار ، مع إجمال تلك الأنهار ، وقد فصلت ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ ما أعد لهم في الجنة من حدائق وأعناب وكواعب وشراب وطمأنينة ، وعدم سماع اللغو إلى آخره . كما جاء تفصيل الأنهار في سورة القتال ، في قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون فِيهَآ أَنْهَارٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثمرات وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد : 15] ، والخلود في هذا النعيم هو تمام النعيم .

قوله تعالى : ﴿ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [المائدة : 119 ، التوبة : 100 ، المجادلة : 22] .

يعتبر هذا الإخبار من حيث رضوان الله تعالى على العباد في الجنة ، من باب العام بعد الخاص .

وقد تقدم في وسرة الليل في قوله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأتقى الذى يُؤْتِي مَالَهُ يتزكى ﴾ [الليل : 17-18] - إلى قوله - ﴿ وَلَسَوْفَ يرضى ﴾ [الليل : 21] ، واتفقوا على أنها في الصديق رضي الله عنه كما تقدم ، وجاء في التي بعدها سورة والضحى قوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 5] ، أي للرسول صلى الله عليه وسلم .

وهنا في عموم ﴿ إِنَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات أولئك هُمْ خَيْرُ البرية ﴾ [البينة : 7] ، فهي عامة في جميع المؤمنين الذين هذه صفاتهم ، ثم قال رضي الله عنهم ، وقد جاء ما يبن سبب رضوان الله تعالى عليهم وهو بسبب أعمالهم ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ الله عَنِ المؤمنين إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشجرة ﴾ [الفتح : 18] ، فكانت المبايعة سبباً للرضوان .

(272/825)

وفي هذه الآية الإخبار بأن الله رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ولم يبين زمن هذا الرضوان اهو سابق في الدنيا أم حاصل في الجنة ، وقد جاءت آية تبين أنه سابق في الدنيا ، وهي قوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ الله

عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذلك الفوز العظيم ﴾ [التوبة : 100] ، فقوله تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ ، ثم يأتي بعدها ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ ﴾ .

فهو في قوة الوعد في المستقبل ، فيكون الإخبار بالرضى مسبقاً عليه .

وكذلك آية سورة الفتح في البيعة تحت الشجرة إذ فيها ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المؤمنين ﴾ [الفتح : 18] ، وهو إخبار بصيغة الماضي ، وقد سميت " بيعة الرضوان " .

تنبيه

في هذا الأسلوب الكريم سؤال ، وهو أن العبد حقاً في حاجة إلى أن يعلم رضوان الله تعالى عليه ، لأنه غاية أمانيه ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ [التوبة : 100] . أما الإخبار عن رضى العبد عن الله ، فهل من حق العبد أن يسأل عما إذا كان هو راضياً عن الله أم لا ؟ إنه ليس من حقه ذلك فعلاً ، فيكون الإخبار عن ذلك بلازم الفائدة ، وهي أنهم في غاية من السعادة والرضى فيما هم فيه من النعيم إلى الحد الذي رضوا وتجاوزا رضاهم حد النعيم إلى الرى عن المنعم .

كما يشير إلى شيء من ذلك آخر آية النبأ ﴿ عَطَآءً حِسَاباً ﴾ [النبأ : 36] ، إنهم يعطون حتى يقولوا : حسبنا حسبنا ، أي كافينا .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ .

اسم الإشارة منصب على مجموع الجزاء المتقدم ، وقد تقدم أنه للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهنا يقول : إنه لمن خشي ربه ، مما يفيد أن تلك الأعمال تصدر منهم عن رغبة ورهبة .

(273/825)

رغبة فيما عند الله ، ورهبة من الله ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46] ، وقوله : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النفس عَنِ الهوى فَإِنَّ الجنة هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 40- 41] .

والواقع أن صفة الخوف من الله تعالى ، هي أجمع صفات الخير في الإنسان ، لأنها صفة الملائكة المقربين .

كما قال عنهم : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : 50] .

وقد عم الحكم في ذلك بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بالغيب لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك : 12] .

وفي هذه الآية السر الأعظم ، وهو كون الخشية في الغيبة عن الناس ، وهذا أعلى مراتب المراقبة لله ، والخشية أشد الخوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

(274/825)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ ،

فِيهِ أَمْرٌ بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ ، وَهُوَ أَنْ لَا يُشْرِكَ فِيهَا غَيْرَهُ ؛ لِأَنَّ الْإِخْلَاصَ ضِدُّ الْإِشْرَاكِ وَلَيْسَ لَهُ تَعَلُّقٌ بِالنِّيَّةِ لَا فِي وُجُودِهَا وَلَا فِي فَقْدِهَا فَلَا يَصِحُّ الِاسْتِدْلَال بِهِ فِي إيجَابِ النِّيَّةِ ؛ لِأَنَّهُ مَتَى اعْتَقَدَ الْإِيمَانَ فَقَدْ حَصَلَ لَهُ الْإِخْلَاصُ فِي الْعِبَادَةِ وَنَفْيُ الْإِشْرَاكِ فِيهَا .

آخِرُ السُّورَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(275/825)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

[فِيهَا آيَتَانِ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾.

الْآيَةُ فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي قِرَاءَتِهَا: قَرَأَهَا أُبَيٌّ: ﴿ لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾؛ وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: لَمْ يَكُنِ الْمُشْرِكُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ مُنْفَكِّينَ.

وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ عَلَى التَّفْسِيرِ؛ وَهِيَ جَائِزَةٌ فِي مَعْرِضِ الْبَيَانِ، لَا فِي مَعْرِضِ التِّلَاوَةِ؛ فَقَدْ قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِوَايَةِ الصَّحِيحِ: ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ ﴾، وَهُوَ تَفْسِيرٌ؛ فَإِنَّ التِّلَاوَةَ مَا كَانَ فِي خَطِّ الْمُصْحَفِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ رَوَى ابْنُ إسْحَاقَ بْنِ بِشْرٍ الْكَاهِلِيُّ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنْ ابْنِ الْمُسَيِّبِ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لَعَطَّلُوا الْأَهْلَ وَالْمَالَ، وَلَتَعَلَّمُوهَا ﴾.

وَهَذَا حَدِيثٌ بَاطِلٌ؛ وَإِنَّمَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ مَا رُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ: إنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْك ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وَقَالَ: وَسَمَّانِي لَك؟ قَالَ: نَعَمْ، فَبَكَى ﴾.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ: ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ يَعْنِي زَائِلِينَ عَنْ دِينِهِمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ بِبُطْلَانِ مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَتِلْكَ الْبَيِّنَةُ هِيَ: ﴿ رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾، وَهِيَ: الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَالُوا: ﴿ مُطَهَّرَةً ﴾ مِنْ الشِّرْكِ، وَقَالُوا: مُطَهَّرَةً بِحُسْنِ الذِّكْرِ، وَقَلْبٌ مُطَهَّرٌ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ.

وَقَدْ قَالَ مَالِكٌ فِي الْآيَةِ الَّتِي فِي ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾: ﴿ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴾ إنَّهَا الْقُرْآنُ وَإِنَّهُ لَا يَمَسُّهُ إلَّا

الْمُطَهَّرُونَ، كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ؛ وَهَذِهِ الْآيَةُ تُوَافِقُ [ذَلِكَ وَتُؤَكِّدُهُ فَلَا يَمَسُّهَا إلَّا طَاهِرٌ شَرْعًا وَدِينًا، فَإِنْ وُجِدَ غَيْرُ ذَلِكَ فَبَاطِلٌ لَا يُنْفَى] ذَلِكَ فِي كَرَامَتِهَا، وَلَا يُبْطِلُ حُرْمَتَهَا، كَمَا لَوْ قَتَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ تَبْطُلْ نُبُوَّتُهُ، وَلَا أَسْقَطَ ذَلِكَ حُرْمَتَهُ، وَلَا اقْتَضَى ذَلِكَ تَكْذِيبَهُ؛ بَلْ يَكُونُ زِيَادَةً فِي مَرْتَبَتِهِ فِي الدَّارَيْنِ.

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾:

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ: الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِعِبَادَتِهِ، وَهِيَ أَدَاءُ الطَّاعَةِ لَهُ بِصِفَةِ الْقُرْبَةِ، وَذَلِكَ بِإِخْلَاصِ النِّيَّةِ بِتَجْرِيدِ الْعَمَلِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إلَّا لِوَجْهِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْإِخْلَاصُ الَّذِي تَقَدَّمَ بَيَانُهُ.

(277/825)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ إذَا ثَبَتَ هَذَا فَالنِّيَّةُ وَاجِبَةٌ فِي التَّوْحِيدِ ؛ لِأَنَّهَا عِبَادَةٌ ؛ فَدَخَلَتْ تَحْتَ هَذَا الْعُمُومِ دُخُولَ الصَّلَاةِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَلِمَ خَرَجَتْ عَنْهُ طَهَارَةُ النَّجَاسَةِ ، وَذَلِكَ يَعْتَرِضُ عَلَيْكُمْ فِي الْوُضُوءِ ؟ قُلْنَا : إزَالَةُ النَّجَاسَةِ مَعْقُولَةُ الْمَعْنَى ؛ لِأَنَّ الْغَرَضَ مِنْهَا إزَالَةُ الْعَيْنِ ، لَكِنْ بِمُزِيلٍ مَخْصُوصٍ ، فَقَدْ جَمَعَتْ عَقْلَ الْمَعْنَى وَضَرْبًا مِنْ التَّعَبُّدِ ، كَالْعِدَّةِ جَمَعَتْ بَيْنَ بَرَاءَةِ الرَّحِمِ وَالتَّعَبُّدِ ، حَتَّى صَارَتْ عَلَى الصَّغِيرَةِ وَالْيَائِسَةِ الَّتِي تُحَقِّقُ بَرَاءَةَ رَحِمِهِمَا قَطْعًا ، لَا سِيَّمَا وَمَا غَرَضٌ نَاجِزٌ ؛ وَهُوَ النَّظَافَةُ ؛ فَيَسْتَقِلُّ بِهِ ، وَلَيْسَ فِي الْوُضُوءِ [غَرَضٌ نَاجِزٌ] إلَّا مُجَرَّدُ التَّعَبُّدِ ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَوْ أَكْمَلَ الْوُضُوءَ وَأَعْضَاؤُهُ تَجْرِي بِالْمَاءِ وَخَرَجَ مِنْهُ رِيحٌ بَطَلَ وُضُوءُهُ ، وَقَدْ حَقَّقْنَا الْقَوْلَ فِيهَا فِي كِتَابِ تَخْلِيصِ التَّلْخِيصِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(278/825)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة البَرِّيَة (البينة)

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1)

قوله : ﴿ مِنْ أَهْلِ الكتاب ﴾ : متعلِّقٌ بمحذوفٍ ، لأنه حالٌ مِنْ فاعل "كفروا " .

قوله : ﴿ والمشركين ﴾ : العامَّةُ على قراءةِ " المشركين " بالياء عطفاً على " أهل " قَسَّمَ الكافرين إلى صِنْفَيْن : أهلِ كتابٍ ومشركين . وقرئ " والمشركون " بالواو نَسَقاً على " الذين كفروا " .

قوله : ﴿ مُنفَكِّينَ ﴾ خبرُ يكون . ومُنْفَكِّينَ اسمُ فاعلٍ مِنْ انْفَكَّ . وهي هنا التامَّةُ ، فلذلك لم يَحْتَجْ إلى خبرٍ . وزعم بعضُهم أنها هنا ناقصةٌ وأنَّ الخبرَ مقدرٌ تقديره : منفكِّين عارفين أَمْرَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم . قال الشيخ : " وحَذْفُ خبرِ كان [وأخواتِها] لا يجوزُ اقتصاراً ولا اختصاراً ، وجعلوا قولَه :

4612- . . . . يَبْغي جوارَكِ حينَ ليسَ مُجيرُ

أي : في الدنيا ضرورةً " قلت : وَجْهُ مَنْ منع ذلك أنه قال : صار الخبرُ مطلوباً من جهتَيْن : مِنْ جهةِ كونِه مُخْبَراً به فهو أحدُ جُزْأي الإِسناد ، ومِنْ حيث كونُه منصوباً بالفعلِ . وهذا

مُنْتَقَضٌ بمعفولَيْ "ظنَّ" فإنّ كلاًّ منهما فيه المعنيان المذكوران، ومع ذلك يُحْذَفان - أو أحدُهما - اختصارا، وأمَّا الاقْتصارُ ففيه خِلافٌ وتفصيلٌ مرَّ تفصيلُه في غضونِ هذا التصنيفِ.

قوله: ﴿حتى تَأْتِيَهُمُ﴾: متعلقةٌ ب "لم يكنْ" أو ب "مُنْفَكِّين".

رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً (2)

(279/825)

قوله: ﴿رَسُولٌ﴾: العامَّةُ على رفعِه بدلاً من "البيِّنة": إمَّا بدلَ اشتمالٍ، وإمَّا كلٍ مِنْ كل على سبيلِ المبالغة، جَعَلَ الرسولَ نفسَ البيِّنة، أو على حَذْفِ مضافٍ، أي: بيِّنَةُ رسولٍ. ويجوزُ رَفْعُه على خبرِ ابتداء مضمرٍ، أي: هي رسولٌ. وقرأ عبد الله وأُبَيّ "رسولاً" على الحالِ من البيِّنة. والكلامُ فيها على ما تقدَّم من المبالغة أو حذف المضافِ.

قوله: ﴿مِّنَ اللهِ﴾ يجوزُ تعلُّقُه بنفس "رسولٌ" أو بمحذوفٍ على أنه صفةٌ ل "رسول" وجوَّزَ أبو البقاء وجهاً ثالثاً وهو: أَنْ يكونَ حالاً مِنْ "صُحُفاً" والتقدير: يتلُو صُحُفاً مطهَّرة منزَّلةً مِنْ الله، يعني كانت في الأصل صفةً للنكرة فلمَّا تقدَّمَتْ عليها نُصِبَتْ حالاً.

قوله: ﴿يَتْلُو﴾: يجوزُ أَنْ يكونَ صفةً ل "رسول"، وأَنْ يكونَ حالاً مِنَ الضميرِ في الجارِّ

قبله إذا جَعَلْته صفةً ل " رسول " .

فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3)

قوله : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ ﴾ : يجوز أَنْ تكونَ جملة صفةً ل " صُحُفاً " ، أو حالاً مِنْ ضمير " مُطَهَّرَة " وأَنْ يكونَ الوصفُ أو الحالُ الجارَّ والمجرورَ فقط ، و " كُتُبٌ " فاعلٌ به ، وهو الأحسنُ .

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)

(280/825)

قوله : ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ : العامَّةُ على كَسْرِ اللامِ اسمَ فاعلٍ ، وانتصب به " الدِّينَ " والحسن بفتحِها على معنى : أنهم يُخْلِصون هم أنفسهم في نياتهم ، وانتصب " الدينَ " على أحدِ وجهَيْن : إمَّا إسقاطِ الخافضِ ، أي : في الدين ، وإمَّا على المصدر من معنى : لِيَعْبُدوا ، كأنه قيل : لِيَدينوا الدينَ ، أو ليعبدوا العبادةَ ، فالتجوُّز : إمَّا من الفعلِ ، وإمَّا في المصدر ، وانتصابُ " مُخْلِصِين " على الحال مِنْ فاعل " يعبدون " .

قوله : ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ حالٌ ثانيةٌ أو حالٌ من الحالِ قبلَها ، أي : من الضمير المستكنّ فيها .

وقوله : ﴿ وَمَآ أمروا ﴾ ، أي : وما أُمِروا بما أُمِروا به إلاَّ لكذا وقرأ عبد الله " وما أُمِروا إلاَّ أَنْ يَعْبُدُوا " أي : بأَنْ يَعْبُدوا . وتحريرُ مثلِها في قوله ﴿ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العالمين ﴾ [الآية : 71] في الأنعام .

وقوله : ﴿ وَذَلِكَ دِينُ القيمة ﴾ أي : الأُمَّةُ أو المِلَّةُ القيمة ، أي : المستقيمة . وقيل : الكتبُ القَيِّمة ؛ لأنها قد تقدَّمَتْ في الذِّكْرِ ، قال تعالى : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ [البينة : 3] ، فلمَّا أعادها أعادَها مع أل العهديةِ كقوله : ﴿ فعصى فِرْعَوْنُ الرسول ﴾ [المزمل : 16] وهو حسنٌ ، قاله محمد بن الأشعث الطالقاني وقرأ عبد الله : " وذلك الدِّين القيمةِ " ، والتأنيثُ حينئذٍ : إمَّا على تأويلِ الدِّين بالمِلة كقوله :

4613 . . . . سائِلْ بني أسدٍ ما هذه الصَّوْتُ

بتأويل الصيحة ، وإمَّا على أنها تاءُ المبالغةِ كعَلاَّمة .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6)

قوله: ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ ﴾: كما مَرَّ في أول السورة. وقولُه: "في نارِ" هذا هو الخبرُ، و "خالدين" حالٌ من الضمير المستكنِّ في الخبر.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7)

قوله: ﴿ البرية ﴾: قرأ نافعٌ وابن ذَكْوان "البَرِيئة" بالهمز في الحرفَيْن، والباقون بياءٍ مشدَّدةٍ. واخْتُلِف في ذلك الهمز، فقيل: هو الأصلُ، مِنْ بَرَأَ اللَّهُ الخَلْقَ ابتدأه واخترعه فيه فعليةٌ بمعنى مَفْعولةٌ، وإنما خُفِّفَتْ، والتُزِمَ تخفيفُها عند عامَّةِ العرب. وقد ذَكَرْتُ أنَّ العربَ التزمَتْ غالباً تخفيفَ ألفاظٍ منها: النبيُّ والخابيةَ والذُّرِّيَّة والبَرِيَّة. وقيل: بل البَرِيَّةُ دونَ همزةٍ مشتقةٌ مِنْ البَرا، وهو التراب، فهي أصلٌ بنفسِها، فالقراءتان مختلفتا الأصلِ متفقتا المعنى. إلاَّ أنَّ ابنَ عطيةَ غَضَّ مِنْ هذا فقال: "وهذا الاشتقاق يُجْعَلُ الهمزةَ خطأً وهو اشتقاقٌ غيرُ مَرْضِيّ" انتهى. يعني أنه إذا قيل بأنَّها مشتقةٌ من البَرا وهو الترابُ فمِنْ أين يجيْءُ في القراءةِ الأخرى؟ وهذا غيرُ لازم لأنهما قراءتان مُسْتقلَّتان، لكلٍ منهما أصلٌ مستقلٌ، فقيل: مِنْ بَرَأَ، أي: خَلَق، وهذه مِنْ البَرا؛ لأنَّهم خُلِقوا مِنْه، والمعنى بالقراءتين شيءٌ واحدٌ، وهو جميعُ الخَلْقِ. ولا يُلْتَفَتُ إلى مَنْ ضَعَّفَ الهمزَ من النحاةِ والقُرَّاءِ لثبوتِه متواتراً.

وقرأ العامَّةُ "خيرُ البَرِيَّة" مقابلاً لشَرّ. وعامر بن عبد الواحد "خِيارُ" وهو جمع خَيِّر نحو: جِياد وطِياب في جمع جَيِّد وطَيِّب، قاله الزمخشري.

جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)

(282/825)

قوله : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ : حالٌ عامله محذوفٌ ، أي : ادخلوها أو أُعْطُوها . ولا يجوز أَنْ يكونَ حالاً مِنْ " هم " في " جزاؤهم " لئلا يلزَمَ الفصلُ بين المصدرِ ومعمولِه بأجنبي . على أنَّ بعضَهم أجازه منهم ، واعتذروا : بأن المصدرَ هنا غيرُ مقدَّرٍ بحرفٍ مصدري . قال أبو البقاء : " وهو بعيد " وأمَّا " عند " فيجوز أَنْ يكونَ حالاً مِنْ " جزاؤهم " ، وأَنْ يكونَ ظرفاً له . و " أبداً " ظرفُ زمانٍ منصوبٌ بخالدين .

قوله ﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ دعاءً مستأنفاً ، وأَنْ يكونَ خبراً ثانياً ، وأَنْ يكونَ حالاً بإضمار " قد " عند مَنْ يلتزمُ ذلك .

قوله : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ﴾ : أي : ذلك المذكورُ مِنْ استقرارِ الجنةِ مع الخلودِ ورِضا الله عنه لِمَنْ خَشِيَ به . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 11 صـ 72.67 ﴾

(283/825)

من لطائف الإمام القشيري في السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة البينة

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم عزيز تتصل إليه المذنبون فغفر لهم وجبرهم : وتوسل إليه المطيعون فوصلهم ونصرهم .

تعرف إليه العالمون فبصرهخم ، وتقرب منه العارفون فقربهم لكنه سبحانه في جلاله خيرهم .

قولهّ جل ذكره : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .

" منفكين " : مُنْتَهِين عن كفرهم حتى تأتيهم البيّنة : وهي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي لم يزالوا مجتمعين عَلَى تصديقه ؛ لِمَا وَجدوه في كُتُبهم إلى أنْ بعَثَه الله تعالى . فلمّا بعَثَه حسدوه وكفروا .

﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ .

أي حتى يأتيهم رسول من الله يقرأ كُتُباً مُطَهَّرَةً عن تبديل الكفار .

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ : مستوية ليس فيها اعوجاج.

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .

يعني : القرآن.

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ أي موحِّدين لا يُشرِكون بالله شيئاً ؛ فالإخلاصُ ألَّا يكونَ شيءٌ من حركاتك وسكناتك إلا لله.

ويقال : الإخلاصُ تصفيةُ العملِ من الخَلَل.

" حنفاء " : مائلين إلى الحقّ ، عادلين عن الباطل.

﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ . . . وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ : أي دينُ الملّةِ القيمة ، والأمة القيّمة ، والشريعة القيّمة.

(284/825)

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ : مقيمين : ﴿ الْبَرِيَّةِ ﴾ : الخليقة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ .

أي : خير الخَلْق ، وهذا يدل عَلَى أنهم أفضلُ من الملائكة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ﴾ .

﴿ جَزَآؤُهُمْ ﴾ : أي ثوابهم في الآخرة عَلَى طاعاتهم .

﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ : أي : من تحت أشجارها الأنهار .

﴿ رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

فلم تَبْقَ لهم مطالبةٌ إلّا حقّقَهَا لهم .

﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴾ .

أي : خافَهُ في الدنيا .

والرضا سرورُ القلب بمرِّ القضا .

ويقال : هو سكونُ القلبِ تحت جريان الحُكْم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 752.754 ﴾

(285/825)

فصل في فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية في آيات السورة الكريمة :

سورة البيّنة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (2) فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3)

الإعراب :

(يكن) مضارع ناقص مجزوم ، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (الذين) موصول اسم يكن في محلّ رفع (من أهل) متعلّق بحال من فاعل كفروا (حتّى) حرف غاية وجرّ (تأتيهم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى . .

والمصدر المؤوّل (أن تأتيهم . .) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (منفكّين) " 1 " .

جملة : " لم يكن الذين . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " تأتيهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

2 - 3 (رسول) بدل اشتمال من البيّنة " 2 " ، (من اللّه) متعلّق بنعت لـ (رسول) " 3 " ، (فيها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (كتب) .

وجملة: "يتلو . . . " في محلّ رفع نعت لرسول "4" .

وجملة: "فيها كتب . . . " في محلّ نصب نعت لـ (صحفا) .

الصرف:

(منفكّين) ، اسم فاعل من الخماسيّ انفكّ ، جمع منفكّ ، وزنه منفعل بضمّ الميم وكسر العين ، وجاءت عينه ولامه من حرف واحد .

[سورة البينة (98) : الآيات 4 إلى 5]

وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4) وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)

---

(1) إذا كان (منفكّين) اسم فاعل للفعل الناقص (ما انفكّ) ، فالتعليق يكون في خبر مقدّر أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم حتّى تأتيهم البيّنة .

(2) أو بدل مطابق على سبيل المبالغة . . أو هو خبر لمبتدأ محذوف .

(3) أو متعلّق برسول على أنه مشتقّ .

(4) أو في محلّ نصب حال من رسول لتخصّصه بالوصف .

الإعراب :

(الواو) عاطفة (ما) نافية (إلّا) للحصر (من بعد) متعلّق بـ (تفرّق) ، (ما) حرف مصدريّ . .

والمصدر المؤوّل (ما جاءتهم البيّنة) في محلّ جرّ مضاف إليه .

جملة : " ما تفرّق الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة .

وجملة : " أوتوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " جاءتهم البيّنة " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

5 - (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة ، واستئنافيّة في الموضع الرابع (ما) نافية ، و(الواو) في (أمروا) نائب الفاعل (إلّا) للحصر (اللام) للتعليل (يعبدوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (مخلصين) حال منصوبة من فاعل يعبدوا (له) متعلّق بـ (مخلصين) (الدين) مفعول به لاسم الفاعل مخلصين (حنفاء) حال ثانية منصوبة . .

والمصدر المؤوّل (أن يعبدوا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أمروا) " 1 " .

(يقيموا) مضارع منصوب معطوف على (يعبدوا) ، وكذلك (يؤتوا) . .

وجملة : " ما أمروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما تفرّق الذين " 2 " . .

وجملة : " يعبدوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " يقيموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعبدوا .

وجملة: "يؤتوا. . ." لا محلّ لها معطوفة على جملة يقيموا.

وجملة: "ذلك دين. . ." لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) أي ما أمروا بما أمروا به إلّا لأجل العبادة.

(2) يجوز أن تكون الجملة حاليّة مفيدة لقبح ما فعلوا أي: تفرّقوا بعد مجيء البيّنة حالة كونهم أمروا بعبادة اللّه.

[سورة البينة (98) : آية 6]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6)

الإعراب:

(من أهل) متعلّق بحال من فاعل كفروا (في نار) متعلّق بمحذوف خبر إنّ (خالدين) حال منصوبة من الضمير المستكنّ في خبر إنّ (فيها) متعلّق ب (خالدين) (هم) ضمير فصل " 1 "..

جملة: "إنّ الذين كفروا. . ." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كفروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة: "أولئك . . . شر البريّة" لا محلّ لها استئناف بيانيّ - أو تعليليّة" 2 "

الصرف:

(البريّة) ، اسم جمع بمعنى الخلق ، مشتقّ من البري وهو التراب ، ووزن البريّة فعيلة بمعنى مفعولة ويجوز أن يكون البريّة مخفّفا من المهموز وأصله البريئة من برأ اللّه الخلق أي ابتدأه . .

[سورة البينة (98) : الآيات 7 إلى 8]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)

الإعراب:

(هم) ضمير فصل " 3 " ، (عند) ظرف منصوب متعلّق بحال

(1 ، 3) أو ضمير مبتدأ خبره شرّ - أو خير - والجملة الاسميّة خبر المبتدأ (أولئك) .

(2) أو في محلّ رفع خبر ثان لـ (إنّ) .

من جنّات " 1 " (من تحتها) متعلّق بـ (تجري) " 2 " ، بحذف مضاف أي : من تحت أشجارها . . أو قصورها (خالدين) حال منصوبة " 3 " ، (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (خالدين) ، (عنهم) متعلّق بـ (رضي) ، (عنه) متعلّق بـ (رضوا) ، والإشارة في (ذلك) إلى الاستقرار في الجنّة (لمن) متعلّق بخبر المبتدأ (ذلك) . .

جملة : " إنّ الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " أولئك . . . خير البريّة " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " جزاؤهم . . . جنّات " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تجري . . . " في محلّ نصب حال من جنّات " 4 " .

وجملة : " رضي اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة للدعاء " 5 " .

وجملة : " رضوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة رضي اللّه .

وجملة : " ذلك لمن خشي . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " خشي . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

---

(1) يجوز أن يتعلّق بـ (جزاؤهم) أو بحال منه . [. . . . .]

(2) أو متعلّق بحال من الأنهار .

(3) عامل الحال محذوف أي دخولها ، ولا يصحّ أن يكون العامل (جزاؤهم) كيلا يفصل بين المصدر ومعموله بأجنبيّ . .

(4) أضيف (جنّات) إلى عدن - اسم علم - فاكتسب التعريف ، أو - اسم جنس - فاكتسب التخصّص بالإضافة .

(5) يجوز أن تكون خبرا ثانيا لـ (إنّ) ، وجملة جزاؤهم . . . جنّات هي اعتراضيّة .

(289/825)

الفوائد :

- رضا الرب ورضا العبد :

قال العلماء : الرضا ينقسم إلى قسمين : رضا به ، ورضا عنه . فالرضا به أن يكون ربّا ومدبّرا . والرضا عنه فيما يقضي ويدبر . قال السري : إذا كنت لا ترضى عن اللّه فكيف تسأله الرضا عنك ، وقيل : رضي أعمالهم ورضوا عنه بما أعطاهم من الخير والكرامة .

عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال : قال النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) لأبيّ بن كعب : إن اللّه أمرني أن أقرأ عليك (لم يكن) . قال : وسماني ؟ قال : نعم ، فبكى .

و

في رواية البخاري، أن النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) قال لأبي بن كعب: إن اللّه أمرني أن

أقرئك القرآن. قال:

اللّه سماني لك؟ قال: نعم قال: وقد ذكرت عند رب العالمين؟ قال: نعم قال:

فذرفت عيناه،

(290/825)

أما بكاء أبيّ فإنه بكى سرورا أو استصغارا لنفسه، أما تخصيص هذه السورة بالقراءة فإنها مع وجازتها جامعة لأصول وقواعد ومهمات عظيمة، وأما الحكمة في أمر النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) بالقراءة على أبيّ، فهي أن يتعلم أبيّ القراءة من ألفاظه صلى اللّه عليه وسلم، وضبط أسلوب الوزن المشروع وقدره، فكانت قراءته على أبيّ ليتعلم أبيّ منه لا ليتعلم هو من أبيّ، وقيل: إنما قرأ على أبيّ ليتعلم غيره التواضع والأدب، وأن لا يستنكف الشريف صاحب الرتبة العالية أن يتعلم القرآن ممن هو دونه، وفيه تنبيه على فضيلة أبيّ والحث على الأخذ عنه وتقديمه في ذلك، فكان كذلك بعد النبي (صلّى اللّه

عليه وسلّم) رأسا وإماما في القراءة وغيرها ، وكان أحد علماء الصحابة رضي اللّه عنهم أجمعين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الجدول جـ 30 صـ 376. 381﴾

(291/825)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(98) سورة البيّنة

مدنيّة وآياتها ثمان

[سورة البينة (98) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً (2) فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3) وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4)

وَما أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نارِ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها أُولئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (6) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَزاؤُهُمْ

عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (8)

اللغة:

(

مُنْفَكِّينَ) انفكاك الشيء عن الشيء أن يزايله بعد التحامه به كالعظم إذا انفكّ من مفصله والمعنى أنهم متعلقون بدينهم لا يتركونه ولا يرومون عنه انفكاكا، قال الأزهري: "ليس هو من باب ما انفك وما برح وإنما هو من باب انفكاك الشيء عن الشيء أي انفصاله عنه".

(292/825)

(حُنَفَاءَ) مائلين إلى الخير، قال أهل اللغة وأصل الحنف في اللغة الميل، وخصّه العرف بالميل إلى الخير وسمّوا الميل إلى الشرّ إلحادا وفي القاموس: "الحنف محرّكة: الاستقامة والاعوجاج في الرجل أو أن يقدّم إحدى إبهاميّ رجليه على الأخرى أو أن يمشي على ظهر قدميه من شق الخنصر أو ميل في صدر القدم وقد حنف كفرح وكرم فهو أحنف ورجل حنفاء وكضرب مال وصخر أبو بحر الأحنف بن قيس تابعي كبير والسيوف الحنيفية تنسب له لأنه أول من أمر باتخاذها والقياس أحنفيّ والحنفاء القوس والموسى وفرس

حذيفة بن بدر وماء لبني معاوية وشجرة والأمة المتلوّنة تكسل مرة وتنشط أخرى والحرباء والسلحفاة والأطوم لسمكة بحرية والحنيف كأمير الصحيح الميل إلى الإسلام الثابت عليه وكل من حجّ أو كان على دين إبراهيم صلّى اللّه عليه وسلم والفقير والحذاء " إلى أن يقول :

" وأبو حنيفة كنية عشرين من الفقهاء أشهرهم إمام الفقهاء النعمان " وعبارة ابن خالويه جيدة وهي " حنفاء نصب على الحال مثل ظريف وظرفاء والحنيف في اللغة المستقيم فإن قيل لك : لم سمّي المعوج الرجل أحنف ؟ فقل تطيّروا من الاعوجاج إلى الاستقامة كما يقال للديغ سليم وللأعمى أبو بصير

وللأسود أبو البيضاء وللمهلكة مفازة ، هذا قول أكثر النحويين فأما ابن الأعرابي فزعم أن المفازة ليست مقلوبة لأن العرب تقول : فوّز الرجل إذا مات ومثله جنّص قال الشاعر :

فمن للقوافي بعدها من يحوكها إذا ما ثوى كعب وفوّز جرول يريد كعب بن زهير وجرول الحطيئة والحنيف ستة أشياء :

المستقيم والمعوج والمسلم والمخلص والمختون والحاج إلى بيت اللّه ومن عمل بسنة إبراهيم صلوات اللّه عليه سمّي حنيفا " .

الإعراب :

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) لم حرف نفي وقلب وجزم ويكن فعل مضارع ناقص مجزوم بلن والذين اسمها وجملة كفروا صلة ومن أهل الكتاب والمشركين متعلق بمحذوف حال والأرجح أن معنى من هنا التبعيض كما قرره الماتريدي ومنفكين خبر يكن وحتى حرف غاية وجر تأتيهم فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى والهاء مفعول به والبيّنة فاعل أي الحجة الواضحة (رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَةً) رسول بدل من البيّنة بدل كل من كل على سبيل المبالغة ، جعل الرسول نفس البيّنة ، ومن الله صفة لرسول وجملة يتلو صفة ثانية أو حال حسب القاعدة وصحفا مفعول به ومطهرة صفة لصحفا (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) الجملة صفة ثانية لصحفا وفيها خبر مقدّم وكتب مبتدأ مؤخر وقيمة نعت لكتب أي مستقيمة ناطقة بالحق والعدل (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) الواو استئنافية وما نافية وتفرق الذين فعل ماض وفاعل وجملة أوتوا لا محل لها لأنها صلة الذين والواو في أوتوا نائب فاعل

والكتاب مفعول به ثان وإلا أداة حصر ومن بعد متعلقان بتفرق وما مصدرية وجاءتهم البيّنة فعل ماض ومفعول به وفاعل مؤخر وما في حيّزها في محل جر بإضافة بعد إليها ، ومن العجيب البالغ العجب أن يعرب ابن خالويه ما موصولة ولا مبرر لهذا الإعراب على الإطلاق وعبارته المضحكة " وما بمعنى الذي وهو جر ببعد " (وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ وَذلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) الواو للحال والجملة حالية مسوقة لبيان قبح ما فعلوا واستسماجه وهو التفرق بعد مجيء البيّنة التي يجب أن يصدع بها كل من له مسكة من عقل ، وما نافية وأمروا فعل ماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل ومتعلقه محذوف أي بما أمرناهم به من شرائع وأحكام وإلا أداة حصر وليعبدوا اللام لام التعليل ويعبدوا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والواو فاعل والجار والمجرور متعلقان بأمروا على أنه في محل نصب مفعول لأجله وإنما امتنع نصبه لاختلاف الفاعل ، ولعلّ هذا الوجه خير مما اختاره الجلال وعبارته " إلا ليعبدوا اللّه أي أن يعبدوه فحذفت أن وزيدت اللام " وزاد الكرخي في الطين بلّة فقال : " وقوله زيدت اللام الأولى أن تكون بمعنى الباء أي إلا بأن يعبدوا اللّه " وهذا تكلّف وتمحّل لا يليقان بأسلوب القرآن العظيم ولعلّ هذا التوهّم تسرب إليهما عن قراءة ابن مسعود " وما أمروا إلا أن يعبدوا " وعلى هذه القراءة يكون قولهما سائغا ووارداً فتكون أن وما في حيّزها في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض وهو الباء ، والجار والمجرور متعلقان بأمروا أي بأن يعبدوا .

ومخلصين حال من ضمير يعبدوا وله متعلقان بمخلصين والدين مفعول به لمخلصين لأنه اسم فاعل وحنفاء حال ثانية كما تقدم أو حال من الحال قبلها أو من الضمير المستكن فيها فهي حال متداخلة ويقيموا الصلاة عطف على ليعبدوا اللّه ويؤتوا الزكاة عطف أيضا والواو عاطفة أو حالية وذلك مبتدأ والإشارة إلى ما ذكر من عبادة اللّه وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ودين خبر والقيمة مضاف إليه ، وقال الفرّاء :

" أضاف الدين إلى القيمة وهي نعته لاختلاف اللفظين أو هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه ودخلت الهاء للمدح والمبالغة وما في الإشارة من معنى البعد للإشعار بعلو رتبته وبعد منزلته " وعبارة ابن خالويه جيدة وهي : " فإن قيل لك : الدين هو القيمة فلم لم يقل وذلك الدين القيمة ؟

فقل : العرب تضيف الشيء إلى نعته نحو قولهم صلاة الظهر وحبّ الحصيد قال الشاعر :

أتمدح فقعسا وتذمّ عبسا ألا للّه أمك من هجين

ولو أقوت عليك ديار عبس عرفت الذلّ عرفان اليقين

فأضاف العرفان إلى اليقين وهو أراد عرفانا يقينا وقال آخرون وذلك دين الملّة القيمة وذلك دين الحنيفية القيمة فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه كما قال اللّه عزّ وجلّ : واسأل القرية التي كنّا فيها أي اسأل أهلها " (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ) كلام مستأنف مسوق للشروع في بيان مقر الأشقياء وجزاء السعداء ، وإن واسمها وجملة كفروا صلة لا محل لها ومن أهل الكتاب والمشركين حال وفي نار جهنم خبر إن وخالدين حال مقدّرة من الضمير المستكن في الخبر وفيها متعلقان بخالدين وأولئك مبتدأ وهم مبتدأ ثان أو ضمير فصل وشرّ البرية خبر هم والجملة خبر إن أو خبر أولئك وقرىء البرئية في الموضعين فقيل الهمز هو الأصل من برأ اللّه الخلق أي ابتدعه واخترعه فبرئية فعيلة بمعنى مفعوله وقيل البرية بلا همز مشتقة من البرى وهو التراب لأنهم خلقوا منه ، قال المعرّي :

ولرب أجساد جديرات البرى بالصون صارت في طلاء جدار

وقيل البرية مخفّفة من المهموز ، وعبارة ابن خالويه : " البرية جر بالإضافة والأصل البرئية فتركوا الهمزة تخفيفا وهو من برأ اللّه الخلق واللّه البارئ المصور ، حدّثنا إبراهيم بن عرفة قال حدّثنا أحمد بن محمد بن عيسى قال : حدّثنا محمد بن كثير عن سفيان عن المختار بن فلفل عن أنس قال : جاء رجل إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم وآله فقال له : يا خير البرية

فقال : ذلك إبراهيم خليل الرحمن وإنما قاله تواضعا صلّى اللّه عليه وسلم " (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ) الجملة مماثلة للأولى في إعرابها تماما ، ولابن خالويه كلام نافع في البرية ننقله فيما يلي : " البرية جر بالإضافة قال العجير لنافع بن علقمة :

(297/825)

يا نافعا يا أكرم البريّة واللّه لا أكذبك العشيّه

إنّا لقينا سنة قسيّه ثم مطرنا مطرة رويّه

فنبت البقل ولا رعيّه فانظر بنا القرابة العليّه

والعرب مما ولدت صفيّه فأمر له بألف شاة ، وقال آخرون من ترك الهمزة من البرية أخذه من البرى وهو التراب " . أنشدنا ابن مجاهد : " بغيك من سار إلى قومك البرى " وكلام العرب ترك الهمز قال الشاعر :

امرر على جدث الحسين فقل لأعظمه الزكيّة

قبر تضمن طيّبا آباؤه خير البريّة

آباؤه أهل الخلافة والرياسة والعطية

هذا ما أورده ابن خالويه وفيه مشكل لا بدّ من الإلماع إليه وهو قول العجير لنافع بن علقمة يا

نافعا فقد نصب المنادى وهو مفرد علم ونوّنه وحقّه البناء على الضم ولم نجد ما يبرره ، فقد ذكر النحاة أنه إذا

كان المنادى مفردا علما موصوفا بابن ولا فاصل بينهما والابن مضاف إلى علم جاز في المنادى وجهان ضمّه للبناء ونصبه نحو يا عمرو بن هند ويا عمرو بن هند والفتح أولى أما ضمّه فعلى القاعدة لأنه مفرد علم وأما نصبه فعلى اعتبار كلمة ابن زائدة فيكون عمرو مضافا وهند مضافا إليه وابن الشخص يضاف إليه لمكان المناسبة بينهما والوصف بابنة كالوصف بابن نحو يا هند بنة خالد ويا هند بنة خالد أما الوصف بالبنت فلا يغيّر بناء المفرد العلم فلا يجوز معها إلا البناء على الضم نحو يا هند بنت خالد وعلى كل حال ، فبيت العجير ليس من هذا الباب ولا يجدي معه القول أنه موصوف بقوله أكرم البرية على تقدير زيادة يا لأن الوصف ليس كلمة ابن وابنة وهبه نوّنه للضرورة فهلّا أبقاه مضموما كقول الأحوص :

سلام اللّه يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام

وقد اهتم النحاة بهذا البيت فأطلقوا على التنوين فيه تنوين الضرورة وليس بذاك ، وارجع إن شئت إلى كتبهم . (جَزاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) جزاؤهم مبتدأ وعند ربهم ظرف متعلق بمحذوف حال من الضمير في جزاؤهم وجنات عدن خبر وجملة تجري من تحتها الأنهار نعت لجنات وخالدين حال من عامل محذوف تقديره دخولها ، ولا يجوز أن يكون حالا من الضمير في جزاؤهم لئلا يلزم الفصل بين المصدر ومعموله بأجنبي وفيها متعلقان بخالدين وأبدا ظرف زمان لاستغراق المعنى منصوب بخالدين أيضا وجملة رضي اللّه عنهم ورضوا عنه يجوز أن تكون دعائية لا محل لها ويجوز أن تكون خبرا ثانيا وذلك مبتدأ ولمن خبره وجملة خشي ربه صلة لا محل لها أيضا .

الفوائد :

لعلّ من المفيد أن نشير هنا إلى معنى رضا العبد عن اللّه وقد أجملها الراغب فقال : " رضا العبد عن اللّه أن لا يكره ما يجري به قضاؤه ورضا اللّه عن العبد هو أن يراه مؤتمرا بأمره ومنتهيا عن نهيه " أما الجنيد فقال : " الرضا يكون على قدر قوة العلم والرسوخ في المعرفة ، والرضا حال يصحب العبد في الدنيا والآخرة وليس محلّه محلّ الخوف والرجاء والصبر والإشفاق وسائر الأحوال التي تزول عن العبد في الآخرة بل العبد يتنعم في الجنة بالرضا ويسأل اللّه تعالى حتى يقول لهم :

برضائي أحلّكم داري أي برضائي عنكم" وقال محمد بن الفضل :

" الروح والراحة في الرضا واليقين والرضا باب اللّه الأعظم ومحل استرواح العابدين " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 547.540 ﴾

(299/825)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

فَصْلٌ :

فِي قَوْله تَعَالَى . ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .

فَإِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ سُورَةٌ جَلِيلَةُ الْقَدْرِ وَقَدْ وَرَدَ فِيهَا فَضَائِلُ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَقْرَأَهَا عَلَى أبي بْنِ كَعْبٍ . فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ ﴿ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأُبَيِّ : إنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْك الْقُرْآنَ . قَالَ : آللَّهُ سَمَّانِي لَك ؟ قَالَ : اللَّهُ سَمَّاك لِي قَالَ : فَجَعَلَ أبي يَبْكِي ﴾ . وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى : ﴿ إنَّ اللَّهَ

أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْك . ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . قَالَ : سَمَّانِي لَك ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَبَكَى ﴾ . وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ : ﴿ وَذُكِرْت عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ . ﴾ قَالَ قَتَادَةُ : أُنْبِئْت

(300/825)

أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِ ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ . وَتَخْصِيصُ هَذِهِ السُّورَةِ بِقِرَاءَتِهَا عَلَى أُبَيٍّ يَقْتَضِي اخْتِصَاصَهَا وَامْتِيَازَهَا بِمَا اقْتَضَى ذَلِكَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْك ﴾ أَيْ قِرَاءَةَ تَبْلِيغٍ وَإِسْمَاعٍ وَتَلْقِينٍ لَيْسَ هِيَ قِرَاءَةَ تَلَقِّينٍ فِي تَصْحِيحٍ كَمَا يَقْرَأُ الْمُتَعَلِّمُ عَلَى الْمُعَلِّمِ . فَإِنَّ هَذَا قَدْ ظَنَّهُ بَعْضُهُمْ وَجَعَلُوا هَذَا مِنْ بَابِ التَّوَاضُعِ . وَجَعَلَ أَبُو حَامِدٍ هَذَا مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى تَوَاضُعِ الْمُتَعَلِّمِ وَلَيْسَ هَذَا بِشَيْءِ . فَإِنَّ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ كَانَ يَقْرَؤُهَا عَلَى جِبْرِيلَ يَعْرِضُ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ كُلَّ عَامٍ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ . وَأَمَّا النَّاسُ فَمِنْهُ تَعَلَّمُوهُ فَكَيْفَ يُصَحِّحُ قِرَاءَتَهُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ أَوْ يَقْرَأُ كَمَا يَقْرَأُ الْمُتَعَلِّمُ ؟ وَلَكِنَّ قِرَاءَتَهُ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ كَمَا كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ عَلَى الْإِنْسِ وَالْجِنِّ . فَقَدْ قَرَأَ عَلَى الْجِنِّ الْقُرْآنَ . وَكَانَ إذَا خَرَجَ إلَى النَّاسِ يَدْعُوهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ وَيَقْرَأُ عَلَيْهِمْ الْقُرْآنَ . وَيَقْرَؤُهُ عَلَى النَّاسِ فِي الصَّلَاةِ

وَغَيْرِ الصَّلَاةِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا

(301/825)

سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾ . وَذَكَرَ مِثْلَ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . فَهُوَ يَتْلُو عَلَى الْمُؤْمِنِينَ آيَاتِ اللَّهِ . وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ أَمَرَ بِتَخْصِيصِهِ بِالتِّلَاوَةِ عَلَيْهِ لِفَضِيلَةِ أُبَيٍّ وَاخْتِصَاصِهِ بِعِلْمِ الْقُرْآنِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ : أُبَيٌّ أَقْرَؤُنَا وَعَلِيٌّ أَقْضَانَا . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ ﷺ قَالَ لِابْنِ مَسْعُودٍ : اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ . قَالَ : أَقْرَأُ عَلَيْك وَعَلَيْك أُنْزِلَ ؟ قَالَ : إنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي ﴾ . فَقِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِإِسْمَاعِهِ إيَّاهُ لَا لِأَجْلِ التَّصْحِيحِ وَالتَّلْقِينِ . وَفِي مَعْنَى قَوْله تَعَالَى لَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مُنْفَكِّينَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ ذَكَرَهَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ . هَلْ الْمُرَادُ لَمْ يَكُونُوا مُنْفَكِّينَ عَنْ الْكُفْرِ . أَوْ هَلْ لَمْ يَكُونُوا مُكَذِّبِينَ بِمُحَمَّدِ حَتَّى بُعِثَ فَلَمْ يَكُونُوا مُنْفَكِّينَ عَنْ مُحَمَّدٍ وَالتَّصْدِيقِ بِنُبُوَّتِهِ حَتَّى بُعِثَ . أَوْ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مَتْرُوكِينَ حَتَّى يُرْسَلَ إلَيْهِمْ رَسُولٌ ؟

(302/825)

وَمِمَّنْ ذَكَرَ هَذَا أَبُو الْفَرَجِ بْنِ الْجَوْزِيِّ . قَالَ : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ يَعْنِي الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ وَهُم عَبَدَةُ الْأَوْثَانِ ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ أَيْ مُنْفَصِلِينَ وَزَائِلِينَ . يُقَالُ : فَكَكْتُ الشَّيْءَ فَانْفَكَّ أَيْ انْفَصَلَ . وَالْمَعْنَى : لَمْ يَكُونُوا زَائِلِينَ عَنْ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ حَتَّى أَتَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ . لَفْظُهُ لَفْظُ الْمُسْتَقْبَلِ وَمَعْنَاهُ الْمَاضِي . وَالْبَيِّنَةُ الرَّسُولُ وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَ لَهُمْ ضَلَالَهُمْ وَجَهْلَهُمْ . وَهَذَا بَيَانٌ عَنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى مَنْ آمَنَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ إِذْ أَنْقَذَهُمْ بِهِ . وَلَفْظُ الْبَغَوِيِّ نَحْوُ هَذَا . قَالَ : لَمْ يَكُونُوا مُنْتَهِينَ عَنْ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ وَقَالَ : أَهْلُ اللُّغَةِ : " مُنْفَكِّينَ " مُنْفَصِلِينَ زَائِلِينَ يُقَالُ : فَكَكْتُ الشَّيْءَ فَانْفَكَّ أَيْ انْفَصَلَ . ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ لَفْظُهُ مُسْتَقْبَلٌ وَمَعْنَاهُ الْمَاضِي أَيْ حَتَّى أَتَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ يَعْنِي مُحَمَّدًا أَتَاهُمْ بِالْقُرْآنِ فَبَيَّنَ لَهُمْ ضَلَالَتَهُمْ وَجَهَالَتَهُمْ وَدَعَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ . فَأَنْقَذَهُمْ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْجَهْلِ وَالضَّلَالَةِ . وَلَمْ يَذْكُرْ غَيْرَ هَذَا . قَالَ أَبُو الْفَرَجِ : وَذَهَبَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إِلَى أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ : لَمْ يَخْتَلِفُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا حَتَّى بَعَثَ فَافْتَرَقُوا . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَمْ يَكُونُوا مُنْفَكِّينَ عَنْ حُجَجِ اللَّهِ حَتَّى أُقِيمَتْ عَلَيْهِمُ الْبَيِّنَةُ .

قَالَ: وَالْوَجْهُ هُوَ الْأَوَّلُ. وَذَكَرَ الثَّلَاثَةَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ عَطِيَّةَ لَكِنَّ الثَّالِثَ وَجَّهَهُ وَقَوَّاهُ وَلَمْ يَحْكِهِ عَنْ غَيْرِهِ. فَقَالَ: قَوْلُهُ: ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ أَيْ مُنْفَصِلِينَ مُتَفَرِّقِينَ. تَقُولُ: انْفَكَّ الشَّيْءُ عَنِ الشَّيْءِ إِذَا انْفَصَلَ عَنْهُ. قَالَ: و "مَا انْفَكَّ" الَّتِي هِيَ مِنْ أَخَوَاتِ "كَانَ" لَا مَدْخَلَ لَهَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَبَيَّنَ فِي هَذِهِ أَنْ يَكُونَ هَذِهِ الصِّفَةُ مُنْفَكَّةً. قَالَ: وَاخْتَلَفَ النَّاسُ عَنْ مَاذَا؟ فَقَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: لَمْ يَكُونُوا مُنْفَكِّينَ عَنِ الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ حَتَّى جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ وَأَوْقَعَ الْمُسْتَقْبَلَ مَوْقِعَ الْمَاضِي فِي ﴿ تَأْتِيهِمْ ﴾ لِأَنَّ بَأْسَ الشَّرِيعَةِ وَعِظَمَهَا لَمْ يَجِئْ بَعْدُ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ وَغَيْرُهُ: لَمْ يَكُونُوا مُنْفَكِّينَ عَنْ مَعْرِفَةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالتَّوَكُّدِ لِأَمْرِهِ حَتَّى جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ فَتَفَرَّقُوا عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: وَذَهَبَ بَعْضُ النَّحْوِيِّينَ إِلَى أَنَّ هَذَا الْمَنْفِيَّ الْمُتَقَدِّمَ مَعَ "مُنْفَكِّينَ" بِجَعْلِهِمْ تِلْكَ هِيَ مَعَ "كَانَ" وَيُرَوَى التَّقْدِيرُ فِي خَبَرِهَا "عَارِفِينَ أَمْرَ مُحَمَّدٍ" أَوْ نَحْوَ هَذَا. قَالَ: وَفِي مَعْنَى الْآيَةِ قَوْلٌ ثَالِثٌ بَارِعُ الْمَعْنَى. وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: لَمْ يَكُونُوا هَؤُلَاءِ مُنْفَكِّينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَنَظَرِهِ لَهُمْ حَتَّى

يَبْعَثُ إِلَيْهِمْ رَسُولًا مُنْذِرًا تَقُومُ عَلَيْهِمْ بِهِ الْحُجَّةُ وَتَتِمُّ عَلَى مَنْ آمَنَ النِّعْمَةُ فَكَأَنَّهُ قَالَ: مَا كَانُوا [ل] (1) يُتْرَكُوا سُدًى. قَالَ: وَلِهَذَا الْمَعْنَى نَظَائِرُ فِي كِتَابِ اللَّهِ. وَقَدْ ذَكَرَ الثَّعْلَبِيُّ ثَلَاثَةَ

أَقْوَالٍ . لَكِنَّ الثَّالِث حكَاهُ عَمَّنْ جعل مَقْصُودهُ إهْلَاكهُمْ بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ وجعل " مُنْفَكِّينَ " بِمَعْنَى هَالِكِينَ . فَقَالَ : لَمْ يَكُونُوا مُنْفَكِّينَ مُنْتَهِينَ عَنْ كُفْرِهِمْ وَشِرْكِهِمْ . وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : زَائِلِينَ . تَقُولُ الْعَرَبُ : مَا انْفَكَّ فُلَانٌ يَفْعَلُ كَذَا أَيْ مَا زَالَ . وَأَصْلُ الْفَكِّ : الْفَتْحُ وَمِنْهُ فَكُّ الْكِتَابِ وَفَكُّ الْخَلْخَالِ . ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ الْحُجَّةُ الْوَاضِحَةُ وَهُوَ مُحَمَّدٌ أَتَاهُمْ بِالْقُرْآنِ فَبَيَّنَ ضَلَالَتَهُمْ وَجَهَالَتَهُمْ . وَدَعَاهُمْ إلَى الْإِيمَانِ . قَالَ وَقَالَ ابْنُ كيسان : مَعْنَاهُ لَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارُ تَارِكِينَ صِفَةَ مُحَمَّدٍ فِي كِتَابِهِمْ حَتَّى بُعِثَ فَلَمَّا بُعِثَ تَفَرَّقُوا فِيهِ . وَقَالَ : قَالَ الْعُلَمَاءُ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ حُكْمُهَا فِيمَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ . ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ﴾ حُكْمُهُ فِيمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ .

قَالَ وَقَالَ بَعْضُ أَئِمَّةِ اللُّغَةِ : قَوْلُهُ ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ أَيْ هَالِكِينَ . مِنْ قَوْلِهِمْ : انْفَكَّ صَلَا الْمَرْأَةِ عِنْدَ الْوِلَادَةِ وَهُوَ أَنْ يَنْفَصِلَ وَلَا يَلْتَئِمَ فَتَهْلِكَ . وَمَعْنَى الْآيَةِ : لَمْ يَكُونُوا هَالِكِينَ مُكَذِّبِينَ إلَّا بَعْدَ إقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِإِرْسَالِ الرَّسُولِ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ . وَقَدْ ذَكَرَ البغوي هَذَا وَالْأَوَّلَ . قَالَ وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ . (قُلْت : الْقَوْلُ الثَّانِي الَّذِي حَكَاهُ عَنْ ابْنِ كيسان هُوَ قَوْلُ الْفَرَّاءِ . وَقَدْ

قَدَّمَهُ المهدوي عَلَى الْأَوَّلِ فقَالَ : ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ مِنْ " انْفَكَّ الشَّيْءُ مِنْ الشَّيْءِ " إذَا فَارَقَهُ . وَالْمَعْنَى لَمْ يَكُونُوا مُتَفَرِّقِينَ إلَّا إذَا جَاءَهُمْ الرَّسُولُ لِمُفَارَقَتِهِمْ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ خَبَرِهِ وَصِفَتِهِ . وَكُفْرِهِمْ بَعْدَ الْبَيِّنَاتِ . قَالَ : وَلَا يَحْتَاجُ ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ إلَى خَبَرٍ . وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . قَالَ وَقَالَ مُجَاهِدٌ : الْمَعْنَى لَمْ يَكُونُوا مُنْتَهِينَ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ . وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا : لَمْ يَكُونُوا لِيُؤْمِنُوا حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ . قَالَ وَقَالَ الْفَرَّاءُ : لَمْ يَكُونُوا تَارِكِينَ ذِكْرَ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ ذِكْرِ النَّبِيِّ حَتَّى ظَهَرَ . فَلَمَّا ظَهَرَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا .

(306/825)

قُلْت : هَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي قَدَّمَهُ . لَكِنَّ الْفَرَّاءَ وَابْنَ كيسان جَعَلَا الِانْفِكَاكَ مُفَارَقَتَهُمْ وَتَرْكَهُمْ لِذِكْرِهِ وَخَبَرِهِ وَالْبِشَارَةِ بِهِ . أَيْ لَمْ يَكُونُوا مُفَارِقِينَ تَارِكِينَ لِمَا عَلِمُوهُ مِنْ خَبَرِهِ حَتَّى ظَهَرَ . فَانْفَكُّوا حِينَئِذٍ . وَذَاكَ يَقُولُ : لَمْ يَكُونُوا مُنْفَكِّينَ أَيْ مُتَفَرِّقِينَ إلَّا إذَا جَاءَ الرَّسُولُ لِمُفَارَقَتِهِمْ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ خَبَرِهِ . وَهُوَ مَعْنَى مَا حَكَاهُ أَبُو الْفَرَجِ : لَمْ يَخْتَلِفُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ إلَيْهِمْ نَبِيًّا حَتَّى بُعِثَ فَافْتَرَقُوا . فَالِانْفِكَاكُ انْفِكَاكُ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ أَوْ انْفِكَاكُهُمْ عَمَّا كَانَ عِنْدَهُمْ مِنْ عِلْمِهِ وَخَبَرِهِ . وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ لَمْ يُرِدْ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَطْعًا . فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ

يَذْكُرْ أَهْلَ الْكِتَابِ بَلْ ذَكَرَ الْكُفَّارَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهُ وَيَذْكُرُونَهُ وَيَجِدُونَهُ فِي كُتُبِهِمْ كَمَا كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ . وَلَا كَانُوا قَبْلَ مَبْعَثِهِ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ مُتَّفِقِينَ عَلَيْهِ . فَلَمَّا جَاءَ تَفَرَّقُوا . فَيَمْتَنِعُ أَنْ يُقَالَ : لَمْ يَكُنْ الْمُشْرِكُونَ تَارِكِينَ لِمَعْرِفَةِ مُحَمَّدٍ وَذِكْرِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ . وَلَمْ يَكُونُوا مُخْتَلِفِينَ فِي ذَلِكَ وَلَا مُتَفَرِّقِينَ فِيهِ حَتَّى بُعِثَ . فَهَذَا مَعْنًى بَاطِلٌ فِي الْمُشْرِكِينَ . وَلَا يَسْتَقِيمُ هَذَا أَيْضًا فِي أَهْلِ الْكِتَابِ . فَإِنَّ اللَّهَ إنَّمَا ذَكَرَ الْكُفَّارَ مِنْهُمْ فَقَالَ : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

(307/825)

وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الَّذِينَ كَانُوا يَعْرِفُونَ نُبُوَّتَهُ وَيُقِرُّونَ بِهِ وَيَذْكُرُونَهُ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ لَمْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ كُفَّارًا . بَلْ كَانَ الْإِيمَانُ أَغْلَبَ عَلَيْهِمْ . يُبَيِّنُ هَذَا أَنَّهُ إذَا ذَكَرَ تَفَرُّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ فَإِنَّهُ يَعُمُّهُمْ فَيَقُولُ : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . وَأَنَّهُ لَا يَقُولُ : كَانَ الْكُفَّارُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مُتَّفِقِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ . وَأَيْضًا فَاسْتِعْمَالُ لَفْظِ " الِانْفِكَاكِ " فِي هَذَا غَيْرُ مَعْرُوفٍ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ لَهُ شَاهِدٌ . فَتَسْمِيَةُ الِافْتِرَاقِ وَالِاخْتِلَافِ " انْفِكَاكًا " غَيْرُ مَعْرُوفٍ . وَأَيْضًا فَهُوَ لَمْ يَذْكُرْ لِـ ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ خَبَرًا كَمَا يُقَالُ : مَا انْفَكُّوا يَذْكُرُونَ مُحَمَّدًا وَمَا زَالُوا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَنَحْوُ

ذَلِكَ . وَهَذِهِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَخَوَاتِ "كَانَ" لَا يُقَالُ فِيهَا "مَا كُنْتُ مُنْفَكًّا" بَلْ يُقَالُ "مَا انْفَكَكْتُ أَفْعَلُ كَذَا" فَهُوَ يَلِي حَرْفَ "مَا" . وَأَيْضًا فَلَيْسَ فِي اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الِانْفِكَاكَ عَنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ خَاصَّةً . وَأَيْضًا فَهَذَا الْمَعْنَى مَذْكُورٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا

(308/825)

الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . فَلَوْ أُرِيدَ بِهَذِهِ لَكَانَ تَكْرِيرًا مَحْضًا . وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ : أَشْهَرُ عِنْدَ الْمُفَسِّرِينَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَذْكُرُ غَيْرَهُ كَالبغوي وَغَيْرِهِ فَإِنَّهُ مَعْرُوفٌ عَنْ مُجَاهِدٍ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ كَمَا فِي التَّفْسِيرِ الْمَعْرُوفِ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ قَالَ : مُنَافِقِينَ لَمْ يَكُونُوا لِيُؤْمِنُوا حَتَّى تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : لَمْ يَزَالُوا مُقِيمِينَ عَلَى الشَّكِّ وَالرِّيبَةِ حَتَّى جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ وَالرُّسُلُ . وَهَذَا الْقَوْلُ يَتَضَمَّنُ مَدْحَهُمْ وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ مَجِيءِ الْبَيِّنَةِ وَلِهَذَا احْتَاجَ مَنْ قَالَهُ إلَى أَنْ يَقُولَ : هَذَا فِيمَنْ آمَنَ مِنْ الْفَرِيقَيْنِ فِي أَنَّهُ بَيَانٌ لِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ . وَجَعَلُوا قَوْلَهُ : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ فِيمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ بِمُحَمَّدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وهذا أَيْضًا ضَعِيفٌ . فَإِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا قَبْلَ إرْسَالِ مُحَمَّدٍ إلَيْهِمْ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فَقَالَ تَعَالَى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ

بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ . وقال : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . فَأَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ هَدَى الْمُؤْمِنِينَ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ . فَكَانَ الِاخْتِلَافُ قَبْلَ وُجُودِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ

الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ

(310/825)

أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ

(311/825)

الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِ مُحَمَّدٍ وَأَنَّ الشَّيْطَانَ زَيَّنَ لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُوَ حِينَ يُبْعَثُ مُحَمَّدٌ وَلِيُّهُمْ وَأَنَّهُ أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ الْكِتَابَ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ﴿ وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَقَالَ لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . فَهَذَا بَيَّنَ أَنَّهُمْ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ قَبْلَ مُحَمَّدٍ

وَقَدْ نَهَى اللَّهُ أُمَّتَهُ أَنْ يَكُونُوا مِثْلَهُمْ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وَقَالَ عَنِ الْيَهُودِ : ﴿ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ . وَقَدْ جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ فِي السُّنَنِ وَالْمُسْنَدِ مِنْ وُجُوهٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ تَفَرَّقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً

(312/825)

وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ﴾ . وَإِنْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ كَابْنِ حَزْمٍ يُضَعِّفُ هَذِهِ الْأَحَادِيثَ فَأَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ قَبِلُوهَا وَصَدَّقُوهَا .

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ . فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ . فَهَذَا يَوْمُهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ . النَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ غَدًا لِلْيَهُودِ وَبَعْدَ غَدٍ

لِلنَّصَارَى ﴾ . وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالتَّوَاتُرِ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ اخْتَلَفُوا وَتَفَرَّقُوا قَبْلَ إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . بَلِ الْيَهُودُ افْتَرَقُوا قَبْلَ مَجِيءِ الْمَسِيحِ ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْمَسِيحُ اخْتَلَفُوا فِيهِ . ثُمَّ اخْتَلَفَ النَّصَارَى اخْتِلَافًا آخَرَ . فَكَيْفَ يُقَالُ إِنَّ قَوْلَهُ ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ هُوَ فِيمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمُحَمَّدٍ مِنْهُمْ ؟ . وَأَيْضًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا بِمُحَمَّدٍ كُفَّارٌ وَهُمُ الْمَذْكُورُونَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ .

(313/825)

الْبَيِّنَةُ ﴾ . وَهُمْ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فِيمَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَ مُحَمَّدٍ وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ قَبْلَ إِرْسَالِ مُحَمَّدٍ . وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَكْفُرْ بَلْ كَانَ مُؤْمِنًا بِالْأَنْبِيَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ

مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ نَظَرَ إلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ . وَإِنَّ رَبِّي قَالَ لِي : قُمْ فِي قُرَيْشٍ فَأَنْذِرْهُمْ . فَقُلْت : أَيْ رَبِّ إذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي حَتَّى يَدَعُوهُ خُبْزَةً . فَقَالَ : إنِّي مُبْتَلِيك وَمُبْتَلٍ بِك وَمُنْزِلٌ عَلَيْك كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا . فَابْعَثْ جُنْدًا نَبْعَثْ مِثْلَيْهِمْ وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَك مَنْ عَصَاك ﴾ وَالْحَدِيثُ أَطْوَلُ مِنْ هَذَا

(314/825)

.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا الْكَلَامُ عَلَى الْآيَةِ فَنَقُولُ : الْقَوْلُ الثَّالِثُ وَهُوَ أَصَحُّ الْأَقْوَالِ لَفْظًا وَمَعْنًى . أَمَّا مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ وَدَلَالَتِهِ وَبَيَانِهِ فَإِنَّ هَذَا اللَّفْظَ هُوَ مُسْتَعْمَلٌ فِيمَا يَلْزَمُ بِهِ الْإِنْسَانُ يَعْنِي اخْتِيَارَهُ وَيَقْهَرُ عَلَيْهِ إذَا تَخَلَّصَ مِنْهُ . يُقَالُ : انْفَكَّ مِنْهُ كَالْأَسِيرِ وَالرَّقِيقِ الْمَقْهُورِ بِالرِّقِّ وَالْأَسْرِ . يُقَالُ : فَكَكْت الْأَسِيرَ فَانْفَكَّ وَفَكَكْت الرَّقَبَةَ . قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ : ﴿ عُودُوا الْمَرِيضَ وَأَطْعِمُوا الْجَائِعَ : وَفُكُّوا الْعَانِيَ ﴾ . وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا أَنَّ عَلِيًّا لَمَّا سُئِلَ

عَمَّا فِي الصَّحِيفَةِ فَقَالَ : فِيهَا الْعَقْلُ وَفِكَاكُ الْأَسِيرِ وَأَنْ لَا يُقْتَلَ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ . فَفَكُّهُ : فَصْلُهُ عَمَّنْ يَقْهَرُهُ وَيَسْتَوْلِي عَلَيْهِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ وَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهُمَا . وَيُقَالُ : فُلَانٌ مَا يَفُكُّ فُلَانًا حَتَّى يُوقِعَهُ فِي كَذَا وَكَذَا وَالْمُتَوَلِّي لَا يَفُكُّ هَذَا حَتَّى يَفْعَلَ كَذَا يُقَالُ لِمَنْ لَزِمَ غَيْرَهُ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ إمَّا بِقُدْرَةِ وَقَهْرٍ وَإِمَّا بِتَحْسِينٍ وَتَزْيِينٍ وَأَسْبَابٍ حَتَّى يَصِيرَ بِهَا مُطِيعًا لَهُ .

(315/825)

وَيُقَالُ لِلْمُسْتَوْلَى عَلَيْهِ : هُوَ مَا يَنْفَكُّ مِنْ هَذَا كَمَا لَا يَنْفَكُّ الْأَسِيرُ وَالرَّقِيقُ مِنْ الْمُسْتَوْلَى عَلَيْهِ . فَقَوْلُهُ ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ ﴾ أَيْ لَمْ يَكُونُوا مَتْرُوكِينَ بِاخْتِيَارِ أَنْفُسِهِمْ يَفْعَلُونَ مَا يَهْوَوْنَهُ لَا حَجْرَ عَلَيْهِمْ كَمَا أَنَّ الْمُنْفَكَّ لَا حَجْرَ عَلَيْهِ . وَهُوَ لَمْ يَقُلْ " مَفْكُوكِينَ " بَلْ قَالَ ﴿ مُنْفَكِّينَ ﴾ . وَهَذَا أَحْسَنُ فَإِنَّهُ نَفْيٌ لِفِعْلِهِمْ . وَلَوْ قَالَ " مَفْكُوكِينَ " كَانَ التَّقْدِيرُ : لَمْ يَكُونُوا مُسَيَّبِينَ مُخَلِّينَ فَهُوَ نَفْيٌ لِفِعْلِ غَيْرِهِمْ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مَتْرُوكِينَ لَا يُؤْمَرُونَ وَلَا يُنْهَوْنَ وَلَا تُرْسَلُ إلَيْهِمْ رُسُلٌ بَلْ يَفْعَلُونَ مَا شَاءُوا مِمَّا تَهْوَاهُ الْأَنْفُسُ . وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ مَا يُخَلِّيهِمْ وَلَا يَتْرُكُهُمْ . فَهُوَ لَا يَفُكُّهُمْ حَتَّى يَبْعَثَ إلَيْهِمْ رَسُولًا . وَهَذَا كَقَوْلِهِ ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى . أَيْ أَيَظُنُّ أَنَّ هَذَا يَكُونُ ؟ هَذَا مَا لَا يَكُونُ أَلْبَتَّةَ ؛ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يُؤْمَرَ وَيُنْهَى . وَقَرِيبٌ مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إنَّا

جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ❁ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ❁ ❁ أفنضرب عنكم الذكر صفحا أن كنتم قوما مسرفين ❁ . وهذا استفهام إنكار أي لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر ونعرض عن إرسال الرسل . ومن كره إرسالهم ؟

فإن الأول تكذيب بوجودهم والثاني يتضمن بغضهم وكراهة ما جاءوا به . قال تعالى ❁ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ❁ وقال عن مؤمن آل فرعون ❁ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ❁ وأما من كذب بهم بعد الإرسال فكفره ظاهر . ولكن من ظن أن الله لا يرسل إليه رسولا وأنه يترك سدى مهملا لا يؤمر ولا ينهى فهذا أيضا مما ذمه الله إذا كان لا بد من إرسال الرسل وإنزال الكتب كما أنه أيضا لا بد من الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب وقيام القيامة . ولهذا ينكر سبحانه على من ظن أن ذلك لا يكون فقال تعالى ❁ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ❁ ❁ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ❁ وقال تعالى : ❁

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ

(317/825)

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

وَقَالَ عَنْ أُولِي الْأَلْبَابِ : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ وَنَحْوُهُ فِي الْقُرْآنِ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ وَالْمَعَادَ مِمَّا لَا بُدَّ مِنْهُ . وَيُنْكِرُ عَلَى مَنْ ظَنَّ أَوْ حَسِبَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ . وَهُوَ يَقْتَضِي وُجُوبَ وُقُوعِ ذَلِكَ وَأَنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ لَا يَقَعَ .

وَهَذَا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَلِ الْمُصَدِّقِينَ لِلرُّسُلِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ جِهَةِ تَصْدِيقِ الْخَبَرِ فَإِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ بِذَلِكَ وَخَبَرُهُ صِدْقٌ . فَلَا بُدَّ مِنْ وُقُوعِ مُخْبَرِهِ وَهُوَ وَاجِبٌ بِحُكْمِ وَعْدِهِ وَخَبَرِهِ . فَإِنَّهُ إذَا عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَكُونُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ . فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ عَلَى خِلَافِ مَا عَلِمَهُ وَأَخْبَرَ بِهِ وَكَتَبَهُ وَقَدَّرَهُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَدْ شَاءَ ذَلِكَ وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ كُلُّ مَا شَاءَهُ . لَكِنْ هَلْ يُقَالُ : إنَّ الْمَشِيئَةَ

مُوجِبَةٌ فِيهِ نِزَاعٌ . وَكَذَلِكَ يُقَالُ : إنَّ ذَلِكَ وَجَبَ لِإِيجَابِهِ لَهُ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ لِاقْتِضَاءِ حِكْمَتِهِ ذَلِكَ فِيهِ أَيْضًا نِزَاعٌ . وَمَا أَقْسَمَ لَيَفْعَلَنهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ . وَالْقَسَمُ مُتَضَمِّنٌ مَعْنَى الْخَبَرِ

(318/825)

وَمَعْنَى الْحَضِّ وَالطَّلَبِ . لَكِنَّ فِي ثُبُوتِ الثَّانِي فِي حَقِّ اللَّهِ نِزَاعٌ بَيْنَ النَّاسِ كَقَوْلِهِ : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ وَالَّذِينَ قَالُوا إنَّ حِكْمَتَهُ أَوْ حُكْمَهُ أَوْ مَشِيئَتَهُ تُوجِبُ ذَلِكَ يَقُولُونَ : إنَّ ذَلِكَ قَدْ يُعْرَفُ بِالْعَقْلِ . فَيَقُولُونَ : أَنَّهُ قَدْ يُعْرَفُ بِالْعَقْلِ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إرْسَالِ الرُّسُلِ . وَأَنَّ ذَلِكَ وَاجِبٌ فِي حُكْمِهِ وَحِكْمَتِهِ . وَهَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ الطَّوَائِفِ أَوْ أَكْثَرِهِمْ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : لَا يُعْلَمُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ إلَّا بِالْخَبَرِ وَهَذَا قَوْلُ الْجَهْمِيَّةِ وَالْأَشْعَرِيَّةِ . وَذَاكَ قَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْكَرَّامِيَةِ وَالْحَنَفِيَّةِ أَوْ أَكْثَرِهِمْ . وَأَمَّا أَصْحَابُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بِهَذَا وَلَكِنَّ جُمْهُورَ الْفُقَهَاءِ مَعَ السَّلَفِ يُثْبِتُونَ الْحِكْمَةَ وَالتَّعْلِيلَ . وَإِنَّمَا يَنْفِي ذَلِكَ مِنْهُمْ مَنْ وَافَقَ الْجَهْمِيَّةَ الْمُجْبِرَةَ . كَالْأَشْعَرِيِّ وَمَنْ وَافَقَهُ . وَكَذَلِكَ جُمْهُورُهُمْ يُثْبِتُونَ لِلْأَفْعَالِ صِفَاتٍ بِهَا كَانَتْ حَسَنَةً أَوْ سَيِّئَةً قَبِيحَةً . لَا يَجْعَلُونَ حُسْنَهَا

وَقُبْحِهَا تَرْجِيحًا لِأَحَدِ الْأَمْرَيْنِ بِلَا مُرَجِّحٍ بَلْ لِمَحْضِ الْمَشِيئَةِ كَمَا تَقُولُهُ الْجَهْمِيَّةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ.

هَذَا قَوْلُ الْأَئِمَّةِ وَالْجُمْهُورِ كَمَا أَنَّ الْأَئِمَّةَ وَالْجُمْهُورَ عَلَى إِثْبَاتِ الْقَدَرِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. لَا يَقُولُونَ بِقَوْلِ مَنْ أَنْكَرَ الْقَدَرَ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ وَلَا بِقَوْلِ مَنْ أَنْكَرَ حِكْمَةَ الرَّبِّ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ الْمُجْبِرَةِ وَنَحْوِهِمْ. فَلَا يَقُولُونَ بِقَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ لِلْقَدَرِ وَلَا بِقَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ الْمُجْبِرَةِ الَّذِينَ يَسْتَلْزِمُ قَوْلُهُمْ إنْكَارَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْجَزَاءِ بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ لَا سِيَّمَا مَنْ أَفْصَحَ مِنْهُمْ بِذَلِكَ أَوْ قَالَ: إنَّ مَنْ شَهِدَ الْقَدَرَ سَقَطَ عَنْهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ. فَآمَنُوا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ فِي الْجُمْلَةِ وَأَوْجَبُوا مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ وَحَرَّمُوا مَا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَآمَنُوا بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَاجْتَهَدُوا فِي مُتَابَعَةِ الرُّسُلِ. لَكِنْ أَخْطَئُوا حَيْثُ نَفَوْا الْقَدَرَ وَظَنُّوا أَنَّ إثْبَاتَهُ يُنَاقِضُ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ وَأَنَّهُ لَا يَتِمُّ إيمَانُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ عَادِلٌ صَادِقٌ حَتَّى يُكَذِّبُوا بِالْقَدَرِ وَبِإِخْرَاجِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ النَّارِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ بِأَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ لَهُ ذَنْبٌ يَسْتَحِقُّ بِهِ الْعَذَابَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ

النَّارِ وَلَا يَرْحَمُهُ أَبَدًا . فَلَمْ يُجَوِّزُوا أَنْ يُعَذِّبَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ يُرْحَمَ بَلْ عِنْدَهُمْ مَنْ كَانَ لَهُ ذَنْبٌ يَسْتَحِقُّ بِهِ الْعَذَابَ لَمْ يُرْحَمْ أَبَدًا . وَهُمْ وَإِنْ كَانُوا لَمْ

(320/825)

يَتَعَمَّدُوا تَكْذِيبَ الرُّسُلِ فَقَوْلُهُمْ هَذَا يَتَضَمَّنُ

مُخَالَفَةَ الْأَخْبَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خُرُوجِ أَهْلِ الذُّنُوبِ مِنْ النَّارِ وَشَفَاعَةِ الشُّفَعَاءِ فِيهِمْ . وَيَتَضَمَّنُ أَنَّهُمْ آيَسُوا الْخَلْقَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مَعَ تَكْذِيبِهِمْ بِعُمُومِ خَلْقِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ حَيْثُ زَعَمُوا أَنَّ مِنْ الْحَوَادِثِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَلَا يَشَاؤُهُ وَلَا يَخْلُقُهُ . وَتَشَبَّهُوا بِالْمَجُوسِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ حَتَّى قِيلَ : الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَقَابَلَهُمْ أُولَئِكَ فَتَوَقَّفُوا فِي خَبَرِ اللَّهِ مُطْلَقًا حَتَّى أَنْكَرُوا صِنْفَيْ الْعُمُومِ فَلَمْ يَعْلَمُوا بِخَبَرِهِ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ . فَلَا يَجْزِمُونَ بِالنَّجَاةِ لِلصِّنْفِ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَكَانُوا مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ طَاعَةً لِلَّهِ إذَا كَانَ لِأَحَدِهِمْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةٌ صَغِيرَةٌ . وَلَا بِالْعَذَابِ لِلصِّنْفِ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُمْ أَفْجَرُ أَهْلِ الْقِبْلَةِ وَشَرُّهَا ؛ بَلْ يُجَوِّزُونَ مَعَ عِلْمِ اللَّهِ بِهَذَا وَبِهَذَا أَنْ يُعَذِّبَ أَهْلَ الْحَسَنَاتِ الْكَبِيرَةِ عَلَى سَيِّئَةٍ صَغِيرَةٍ عَذَابًا

مَا يُعذِّبُهُ أَحدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ وَأَنْ يُدْخِلَ فُجَّارَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ الْجَنَّةَ مَعَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ .
وَبَسْطُ الْكَلَامِ عَلَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ لَهُ مَقَامٌ آخَرُ .

(321/825)

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ دَلَّتْ عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مَوَاضِعُ أُخَرُ مِنْ الْقُرْآنِ مِنْ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ الرُّسُلَ إلَى النَّاسِ تَأْمُرُهُمْ وَتَنْهَاهُمْ يُرْسِلُهُمْ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ يُنْذِرُونَ الَّذِينَ أَسَاءُوا عُقُوبَاتِ أَعْمَالِهِمْ وَيُبَشِّرُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ و ﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ ﴿ مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾ فَقَوْلُهُ ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ بَيَانٌ مِنْهُ أَنَّ الْكُفَّارَ لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَدَعَهُمْ وَيَتْرُكَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْرِ . بَلْ لَا يَفُكُّهُمْ حَتَّى يُرْسِلَ إلَيْهِمْ الرَّسُولَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ وَمِمَّا يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ " حَتَّى " حَرْفُ غَايَةٍ وَمَا بَعْدَ الْغَايَةِ يُخَالِفُ مَا قَبْلَهَا كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ وَنَظَائِرُ ذَلِكَ

. فَلَوْ أُرِيدَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُنْتَهِينَ وَيُؤْمِنُونَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ لَزِمَ أَنْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ بَعْدَ مَجِيءِ الْبَيِّنَةِ قَدْ انْتَهَوْا وَآمَنُوا . فَإِنَّ اللَّفْظَ عَامٌّ فِيهِمْ .

(322/825)

وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَّفِقِينَ عَلَى تَصْدِيقِ الرَّسُولِ حَتَّى بُعِثَ لَزِمَ أَنْ يَكُونُوا كُلُّهُمْ كَانُوا يَعْرِفُونَهُ قَبْلَ إرْسَالِهِ إلَيْهِمْ وَأَنَّهُمْ كُلَّهُمْ بَعْدَ إرْسَالِهِ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا . وَكِلَاهُمَا بَاطِلٌ . فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ وَلَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ مَا فِي الْكُتُبِ مِنْ بَعْثِهِ وَمِنْ أُمُورٍ أُخَرَ . وَلَمَّا بُعِثَ فَقَدْ آمَنَ بِهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَلَمْ يَتَفَرَّقُوا كُلُّهُمْ عَنْ الْإِيمَانِ بِهِ . وَحِينَئِذٍ فَالْآيَةُ لَمْ تَتَضَمَّنْ مَدْحَهُمْ مُطْلَقًا كَمَا ظَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّ مَعْنَاهَا أَنَّهُمْ لَمْ يَنْتَهُوا وَلَمْ يُؤْمِنُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ . وَلَا تَتَضَمَّنُ ذَمَّهُمْ مُطْلَقًا كَمَا ظَنَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءَهُمْ الرَّسُولُ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا بَعْدَ مَا كَانُوا مُتَّفِقِينَ عَلَى التَّصْدِيقِ ؛ بَلْ تَضَمَّنَتْ مَدْحَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِالرَّسُولِ . وَذَمَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ وَالْإِخْبَارُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إرْسَالِ الرَّسُولِ إلَيْهِمْ فَيُؤْمِنُ بِهِ بَعْضُهُمْ وَيَكْفُرُ بَعْضٌ . قَالَ تَعَالَى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ .

(323/825)

ثم إنَّ الذين آمَنُوا بالرُّسُلِ لَا بُدَّ أَنْ يَمْتَحِنَهُمْ لِيُمَيِّزَ بِهِ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ . فالناس إذا أُرْسِلَ إلَيْهِمْ أَحَدُ رَجُلَيْنِ . إمَّا رَجُلٌ آمَنَ بِهِمْ فِي الظَّاهِرِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُمْتَحَنَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِنْ الْكَاذِبِ . وَإِمَّا رَجُلٌ عَمِلَ السَّيِّئَاتِ وَلَمْ يُؤْمِنْ فَلَا يَفُوتُ اللَّهَ بَلْ هُوَ آخِذُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَلِهَذَا انْقَسَمَ النَّاسُ فِي الرُّسُلِ إلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ مُؤْمِنٌ بَاطِنٌ وَظَاهِرٌ وَكَافِرٌ مُظْهِرٌ لِلْكُفْرِ وَمُنَافِقٌ مُظْهِرٌ لِلْإِيمَانِ مُبْطِنٌ لِلْكُفْرِ . وَمِنْ حِينِ هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْمَدِينَةِ حَصَلَ هَذَا الِانْقِسَامُ وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ الْبَقَرَةِ أَرْبَعَ آيَاتٍ فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَآيَتَيْنِ فِي صِفَةِ الْكَافِرِينَ وَبِضْعَ عَشْرَةَ آيَةً فِي صِفَةِ الْمُنَافِقِينَ . وَأَمَّا حِينَ كَانَ بِمَكَّةَ وَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ مُسْتَضْعَفِينَ فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَحْتَاجُ

إِلَى النِّفَاقِ بَلْ كَانَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ مَنْ يَكْتُمُ إيمَانَهُ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْكُفْرِ مُكْرَهًا مَعَ طُمَأْنِينَةِ قَلْبِهِ بِالْإِيمَانِ . وَهَذَا مُؤْمِنٌ بَاطِنًا وَظَاهِرًا . فَإِنَّهُ وَإِنْ أَظْهَرَ الْكُفْرَ لِبَعْضِ النَّاسِ لَمَا أُكْرِهَ عَلَيْهِ أَوْ كَتَمَ عَنْهُ إيمَانَهُ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِالْإِيمَانِ فِي خَلْوَتِهِ وَمَعَ مَنْ يَأْمَنُهُ وَيَعْمَلُ بِمَا يُمْكِنُهُ وَمَا عَجَزَ عَنْهُ فَقَدْ سَقَطَ عَنْهُ . وَلِهَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ مِنْهُمْ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ : لَمْ يَكُنْ يُمْكِنُهُمْ نِفَاقٌ إنَّمَا كَانَ النِّفَاقُ بِالْمَدِينَةِ . وَلَكِنْ كَانَ بِمَكَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ كَمَا قَالَ فِي السُّورَةِ الْمَكِّيَّةِ ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ ذَكَرَ أَنَّ الْمُظْهِرِينَ لِلْإِيمَانِ مَا كَانَ لِيَدَعَهُمْ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَيَمْتَحِنُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ وَقَالَ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ

آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ .

فَكَذَلِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَمْ يَكُنْ لِيَتْرُكَهُمْ حَتَّى يَبْعَثَ إلَيْهِمْ الرَّسُولَ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ . فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . وَهُمْ إذَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ مِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْفُرُ . وَإِذَا قِيلَ : إنَّ الْآيَةَ تَتَضَمَّنُ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْآخَرَ وَهُوَ أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا لِيَهْتَدُوا وَيَعْرِفُوا الْحَقَّ وَيُؤْمِنُوا حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ إذْ لَا طَرِيقَ لَهُمْ إلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ إلَّا بِرَسُولِ يَأْتِي مِنْ اللَّهِ أَيْضًا ؛ أَوَلَمْ يَكُونُوا مُنْتَهِينَ مُتَّعِظِينَ وَإِنْ عَرَفُوا الْحَقَّ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَنْ يُذَكِّرُهُمْ ؛ فَهَذَا الْمَعْنَى لَا يُنَاقِضُ ذَاكَ . بِخِلَافِ قَوْلِ مَنْ قَالَ : لَمْ يَكُنْ الْمُشْرِكُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ تَارِكِينَ لِمَعْرِفَةِ مُحَمَّدٍ وَلِذِكْرِهِ وَلَمْ يَكُونُوا مُتَفَرِّقِينَ فِيهِ بَلْ مُتَّفِقِينَ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ حَتَّى جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ فَتَرَكُوا الْإِيمَانَ بِهِ وَتَفَرَّقُوا . فَإِنَّ هَذَا غَيْرُ مُرَادٍ قَطْعًا . وَمِمَّا يُبَيِّنُ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ " حَتَّى أَتَتْهُمْ " وَأُولَئِكَ لَمَّا لَمْ يَفْهَمُوا مَعْنَى الْآيَةِ ظَنُّوا أَنَّ الْمَوْضِعَ مَوْضِعُ الْمَاضِي وَأَنَّ الْمُرَادَ : مَا انْفَكُّوا عَمَّا كَانُوا عَلَيْهِ

إِمَّا مِنْ كُفْرٍ وَإِمَّا مِنْ إِيمَانٍ حَتَّى أَتَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ . فَلَمَّا قِيلَ ﴿ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ . وَقَالَ

(327/825)

بَعْضُهُمْ : لَمَّا تَأْتِهِمْ كُلُّهَا . وَأَمَّا عَلَى الْمَعْنَى الصَّحِيحِ فَالْمَوْضِعُ مَوْضِعُ الْمُضَارِعِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ . فَإِنَّ الْمُرَادَ : مَا كَانُوا مُفَكِّينَ مَتْرُوكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَالَ ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ . وَ " لَمْ " وَإِنْ كَانَتْ تَقْلِبُ الْمُضَارِعَ مَاضِيًا فَذَاكَ إذَا تَجَرَّدَ فَقِيلَ " لَمْ يَأْتِ " وَ " لَمْ يَذْهَبْ " فَمَعْنَاهُ " مَا أَتَى " وَ " مَا ذَهَبَ " . وَأَمَّا إذَا قِيلَ " لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ هَذَا " وَ ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ فَالْمَقْصُودُ مَعْنَى الْفِعْلِ الدَّائِمِ مُطْلَقًا . وَإِذَا قِيلَ " لَمْ يَكُنْ فُلَانٌ آتِيًا حَتَّى يَذْهَبَ إلَيْهِ فُلَانٌ " بِخِلَافِ مَا إذَا قُلْت " لَمْ يَكُنْ فُلَانٌ قَدْ أَتَى حَتَّى ذَهَبَ إلَيْهِ فُلَانٌ " . وَلَوْ قِيلَ " مَا كَانَ فُلَانٌ فَاعِلًا لِهَذَا حَتَّى يَكُونَ كَذَا " كَانَ نَحْوُ ذَاكَ بِخِلَافِ مَا إذَا قِيلَ " مَا كَانَ فُلَانٌ قَدْ فَعَلَ حَتَّى أَتَى فُلَانٌ " . فَنَفَى الْمُضَارِعَ الَّذِي خَبَرُهُ اسْمُ فَاعِلٍ وَهُوَ الدَّائِمُ . وَالْمُرَادُ : لَمْ يَكُونُوا فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ مَتْرُوكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ . وَلَوْ قِيلَ هُنَا " حَتَّى أَتَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ " لَمْ يَكُنْ مَوْضِعُهُ .

وَكَذَلِكَ لَوْ أَرَادَ الِانْتِهَاءَ عَنْ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ لَقِيلَ " حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ " أَيْ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ الْحَقَّ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ نَبِيٌّ يُعَرِّفُهُمْ أَوْ لَمْ يَكُونُوا مُتَّعِظِينَ عَامِلِينَ حَتَّى يَأْتِيَ مَنْ يَعِظُهُمْ وَيُذَكِّرُهُمْ . فَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ الْمَاضِي بِخِلَافِ مَا لَوْ قِيلَ : " مَا زَالُوا كَافِرِينَ حَتَّى أَتَاهُمْ " . فَالْآيَةُ تَتَضَمَّنُ الْإِخْبَارَ عَنْ وُجُوبِ إثْبَاتِ الْبَيِّنَةِ وَامْتِنَاعِ الِانْفِكَاكِ بِدُونِهَا . لَمْ يَقْصِدْ بِهَا مُجَرَّدَ الْخَبَرِ عَنْ عَدَمِ الِانْفِكَاكِ ثُمَّ ثُبُوتِهِ فِي الْمَاضِي . وَهُوَ كَمَا لَوْ قِيلَ " لَمْ يَكُونُوا يَنْفَكُّوا حَتَّى تَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَةُ " لَكِنْ هُنَا ذَكَرَ اسْمَ الْفَاعِلِينَ فَقِيلَ " مُنْفَكِّينَ " . وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إرْسَالِ الرُّسُلِ إلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ لِتَقُومَ عَلَيْهِمْ الْحُجَّةُ بِذَلِكَ ذَكَرَ بَعْدَ هَذَا أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ آمَنُوا بِالرُّسُلِ مَا تَفَرَّقُوا إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ وَقَامَتْ عَلَيْهِمْ الْحُجَّةُ . فَبَيِّنَاتُ اللَّهِ وَحُجَّتُهُ قَامَتْ عَلَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ . وَهُوَ لَمْ يُعَذِّبْ وَاحِدًا مِنْ الْحِزْبَيْنِ إلَّا بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ وَقَامَتْ عَلَيْهِمْ الْحُجَّةُ كَمَا فِي قِصَّةِ مُوسَى وَمَنْ أُرْسِلَ إلَيْهِ . فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَدَعْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ حَتَّى أَرْسَلَ إلَيْهِمْ مُوسَى وَلَمْ يُعَذِّبْهُمْ إلَّا بَعْدَ إقَامَةِ الْحُجَّةِ . ثُمَّ لَمَّا آمَنَ بَنُو إسْرَائِيلَ بِالْكُتُبِ وَالرُّسُلِ لَمْ يَتَفَرَّقُوا وَيَخْتَلِفُوا إلَّا

مِنْ

بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ . فَلَمْ يَكُونُوا مَعْذُورِينَ فِي ذَلِكَ . وَلِهَذَا نُهِيَتْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ عَنْ التَّشَبُّهِ بِهِمْ فَقِيلَ ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ . وَالنَّاسُ الَّذِينَ بُعِثَ إلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ هُمْ كَذَلِكَ . فَمَنْ كَانَ كَافِرًا لَمْ يَكُنْ مُنْفَكًّا حَتَّى تَأْتِيَهُ الْبَيِّنَةُ وَمَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدِ مِنْ الْأُمَمِ ثُمَّ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فَمَا اخْتَلَفُوا إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ . وَمَا أُمِرَ الْجَمِيعُ ﴿ إلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ . وَالْآيَةُ تَضَمَّنَتْ مَدْحَ الرَّبِّ وَذِكْرَ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَحُجَّتِهِ فِي أَنَّهُ لَا يَدَعُهُمْ حَتَّى يُرْسِلَ إلَيْهِمْ رَسُولًا كَمَا قَالَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ الْآيَةَ . لَمْ تَتَضَمَّنْ مَدْحَهُمْ عَلَى بَقَائِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ حَتَّى يَأْتِيَ الرَّسُولُ . فَإِنَّ هَذَا غَايَتُهُ أَنْ لَا يُعَاقَبُوا عَلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ الرَّسُولُ لَا أَنْ يُحْمَدُوا عَلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ الرَّسُولُ . فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ وَلَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ لَا سِيَّمَا وَأَهْلُ الْكِتَابِ قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ الْحُجَّةُ بِأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ .

وَنَظِيرُ هَذَا فِي اللَّفْظِ قَوْلُهُ ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ﴾ . لَيْسَ الْمُرَادُ : مَا كُنْتُمْ بَالِغِيهِ فِي الْمَاضِي بَلْ هَذِهِ حَالُهُمْ دَائِمًا . فَقَوْلُهُ " لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمْ " يَقْتَضِي أَنَّ هَذِهِ حَالُهُمْ دَائِمًا . وَتَضَمَّنَتْ السُّورَةُ ذِكْرَ أَصْنَافِ الْخَلْقِ وَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ جَمِيعَ الْعِبَادِ وَأَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَا بُدَّ مِنْهُ لَا بُدَّ مِنْ إرْسَالِ الرُّسُلِ وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ وَبَيَانِ السُّعَدَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالْأَشْقِيَاءِ أَهْلِ النَّارِ . فَقَوْلُهُ ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ ﴿ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ جُمْلَةٌ فِيهِ بَيَانُ إرْسَالِ الرَّسُولِ إلَى الْجَمِيعِ . وَقَوْلُهُ ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ فِيهِ إقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَى أَهْلِ الشَّرَائِعِ وَذَمُّ تَفَرُّقِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ وَأَنَّ ذَلِكَ بَعْدَ أَنْ جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ . وَهَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ نَظِيرُهُمَا قَوْلُهُ ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ

مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ .

وَمِثْلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا

وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ فِي سُورَةِ "هُودٍ" وَسُورَةِ "عسق" . ثُمَّ ذَكَرَ مَا أُمِرَ بِهِ الْجَمِيعُ بِقَوْلِهِ ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ .

ثُمَّ ذَكَرَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ وَعَاقِبَةَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .

فَصْلٌ :

وَقَوْلُهُ ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ . قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ : هُوَ تَفَرُّقُهُمْ فِي مُحَمَّدٍ بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُجْتَمِعِينَ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ . ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ جَعَلَ تَفَرُّقَهُمْ إيمَانَ بَعْضِهِمْ وَكُفْرَ بَعْضٍ . قَالَ الْبَغَوِي : ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

فقال ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ أي البيان في كتبهم أنه نبي مرسل . قال المفسرون : لم يزل أهل الكتاب مجتمعين في تصديق محمد حتى بعثه الله . فلما بعث تفرقوا في أمره واختلفوا . فآمن به بعضهم وكفر به بعضهم .

وهكذا ذكر طائفة في قوله ﴿ ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ قال أبو الفرج قال ابن عباس : ما اختلفوا في أمر محمد لم يزالوا به مصدقين حتى جاءهم العلم يعني القرآن . وروي عنه : حتى جاءهم العلم يعني محمدا . فعلى هذا يكون العلم هنا عبارة عن المعلوم . وبيان هذا أنه لما جاءهم

اختلفوا في تصديقه فكفر به أكثرهم بغيا وحسدا بعد أن كانوا مجتمعين على تصديقه بغيا وحسدا . ومنهم من جعل المتفرقين كلهم كفارا . قال ابن عطية : ثم ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من بني إسرائيل من أنهم لم يتفرقوا في أمر محمد إلا من بعد أن رأوا الآيات الواضحة وكانوا من قبل متفقين على نبوته وصفته . فلما جاء من العرب حسدوه . وكذلك قال الثعلبي : ما تفرق الذين أوتوا الكتاب في أمر محمد فكذبوه إلا من بعد ما جاءتهم البينة البيان في كتبهم أنه نبي مرسل قال العلماء : من أول هذه السورة إلى

قَوْلِه ﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ حُكْمُهَا فِيمَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ﴾ حُكْمُهُ فِيمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ . وَكَذَلِكَ قَالَ أَبُو الْفَرَجِ . قَالَ : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ يَعْنِي مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ . ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا أَنَّهُ مُحَمَّدٌ وَالْمَعْنَى لَمْ يَزَالُوا مُجْتَمِعِينَ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِ حَتَّى بُعِثَ قَالَهُ الْأَكْثَرُونَ ؛

(334/825)

وَالثَّانِي : الْقُرْآنُ قَالَهُ أَبُو الْعَالِيَةِ . وَالثَّالِثُ : مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ بَيَانِ نُبُوَّتِهِ ذَكَرَهُ الماوردي . (قُلْت : هَذَا هُوَ الَّذِي قَطَعَ بِهِ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ وَلَمْ يَذْكُرْ الثَّعْلَبِيُّ والبغوي وَغَيْرُهُمَا سِوَاهُ . وَأَبُو الْعَالِيَةِ إنَّمَا قَالَ : الْكِتَابُ لَمْ يَقُلْ : الْقُرْآنُ . هَكَذَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِالْإِسْنَادِ الْمَعْرُوفِ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ : ﴿ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ قَالَ : قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : الْكِتَابُ . وَمُرَادُ أَبِي الْعَالِيَةِ جِنْسُ الْكِتَابِ . فَيَتَنَاوَلُ الْكِتَابَ الْأَوَّلَ كَمَا قَالَ ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ﴾ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ الْقُرْآنِ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ ثُمَّ قَالَ ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ

آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ . وَهَذَا التَّفْسِيرُ مَعْرُوفٌ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَرَوَاهُ عَنْ أَبِي بْنِ كَعْبٍ . وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ عَنْ الرَّبِيعِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنْ أَبِي بْنِ كَعْبٍ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَؤُهَا ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ

النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ . وَأَنَّ اللَّهَ إنَّمَا أَرْسَلَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ عِنْدَ الِاخْتِلَافِ ﴿ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ قَالَ أَنْزَلَ الْكِتَابَ عِنْدَ الِاخْتِلَافِ . ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ ﴾ يَعْنِي بَنِي إسْرَائِيلَ . أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْعِلْمَ ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ يَقُولُ بَغْيًا عَلَى الدُّنْيَا وَطَلَبَ مُلْكِهَا وَزُخْرُفِهَا وَزِينَتِهَا أَيُّهُمْ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ وَالْمَهَابَةُ فِي النَّاسِ فَبَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَضَرَبَ بَعْضُهُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ يَقُولُ : فَهَدَاهُمُ اللَّهُ عِنْدَ الِاخْتِلَافِ أَنَّهُمْ أَقَامُوا عَلَى مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ قَبْلَ الِاخْتِلَافِ أَقَامُوا عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَعِبَادَتِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ . وَأَقَامُوا عَلَى الْأَمْرِ الْأَوَّلِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ الِاخْتِلَافِ وَاعْتَزَلُوا الِاخْتِلَافَ . فَكَانُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَانُوا شُهَدَاءَ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ وَقَوْمِ هُودٍ وَقَوْمِ صَالِحٍ وَقَوْمِ شُعَيْبٍ وَآلِ فِرْعَوْنَ أَنَّ رُسُلَهُمْ قَدْ بَلَّغَتْهُمْ وَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَهُمْ .

قلت: الاختلاف في كتاب الله نوعان. أحدهما يذم فيه المختلفين كلهم كقوله ﴿ وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد ﴾ وقوله ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ ﴿ إلا من رحم ربك ﴾ والثاني يمدح المؤمنين ويذم الكافرين كقوله ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء

الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ وقوله ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ إلى قوله: ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وقوله: ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد ﴾. وإذا كان كذلك فالذي ذمه من تفرق أهل الكتاب واختلافهم ذم فيه الجميع ونهى عن التشبه بهم فقال ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ وقال: ﴿ وما

اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ . وَذَلِكَ بِأَنْ تُؤْمِنَ طَائِفَةٌ بِبَعْضِ حَقٍّ وَتَكْفُرَ بِمَا عِنْدَ الْأُخْرَى مِنْ الْحَقِّ وَتَزِيدَ فِي الْحَقِّ بَاطِلًا كَمَا اخْتَلَفَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَحِينَئِذٍ نَقُولُ : مَنْ قَالَ إنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَا تَفَرَّقُوا فِي مُحَمَّدٍ إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا بُعِثَ إرَادَةَ إيمَانِ بَعْضِهِمْ وَكُفْرِ بَعْضِهِمْ كَمَا قَالَهُ طَائِفَةٌ فَالْمَذْمُومُ هُنَا مَنْ كَفَرَ لَا مَنْ آمَنَ . فَلَا يُذَمُّ كُلُّ الْمُخْتَلِفِينَ وَلَكِنْ يُذَمُّ مَنْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّهُ رَسُولٌ فَلَمَّا جَاءَ كَفَرَ بِهِ حَسَدًا أَوْ بَغْيًا كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ

(338/825)

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . وَإِنْ أُرِيدَ بِالتَّفَرُّقِ فِيهِ أَنَّهُمْ كُلَّهُمْ كَفَرُوا بِهِ وَتَفَرَّقَتْ أَقْوَالُهُمْ فِيهِ فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . وَقَدْ بَيَّنَ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ أَنَّهُمْ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا قَبْلَ إرْسَالِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَاخْتِلَافُ هَؤُلَاءِ وَتَفَرُّقُهُمْ فِي مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ مِنْ جُمْلَةِ مَا تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا فِيهِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16صـ 480.516 ﴾

(339/825)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى .رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والعشرون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/826)

الجزء السادس والعشرون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الزلزلة)

(4/826)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الزلزلة)

(5/826)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الزلزلة

مقصودها انكشاف الأمور ، وظهور المقدور أتم ظهور ، وانقسام الناس في الجزاء في دار

البقاء إلى سعادة وشقاء ، وعلى ذلك دل اسمها بتامل الظرف ومظروفه ، وما أفاد من بديع القدر وصروفه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 504 ﴾

(6/826)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . إذا زلزلت)

السّورة مَكِّيّة .

آياتها ثمان فى عَدّ الكوفة ، وتسع فى عدّ الباقين .

وكلماتها خمس وثلاثون .

وحروفها مائة وتسعَ عشرة .

المختلف فيها آيةٌ ﴿أَشْتَاتًا ﴾ فواصل آياتها (هما) على الميم آية ﴿أَعمَالَهُمْ ﴾ .

سمّيت سورة الزلزلة ؛ لمفتتحها .

معظم مقصود السّورة : بيان أَحوال القيامة وأَهوالها ، وذكر جزاءِ الطَّاعة ، وعقوبة المعصية ، وذكر وزن الأَعمال فى ميزان العَدْل فى قوله : ﴿فَمَنْ يَّعْمَلْ ﴾ إِلى آخره .

السّورة محكمة كلّها .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ وإِعادته مرّة أُخرى ليس بتكرار ؛ لأَنَّ الأَوّل متصل بقوله : ﴿ خَيْراً يَرَهُ ﴾ ، والثانى متصل بقوله : ﴿ و* شَرّاً يَرَهُ ﴾ .

فضل السّورة

فيه أَحاديث ضعيفة .

منها حديث أُبى : مَنْ قرأَها أَربع مرّات كان كمن قرأَ القرآن كله .

وفى حديث صحيح أَنَّه قال صلَّى الله عليه وسلَّم ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدل نصف القرآن و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن و ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ تعدل ربع القرآن .

وفى حديث على المنكر : يا علىّ من قرأَها فله من الأَجر مثل أُجر داود ، وكان فى الجنَّة رفيق داود ، وفتح له بكل آية قرأَها فى قبره باب من الجنَّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 535.536 ﴾

(7/826)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الزلزال

سميت هذه السورة في كلام الصحابة سورة : (إذا زلزلت (روى الواحدي في (أسباب النزول) عن عبد الله بن عَمرو : (نزلتْ إذا زلزلت) وأبو كبر قاعد فبكى) الحديث .

وفي حديث أنس بن مالك مرفوعاً عند الترمذي : (إذا زلزلت) تَعْدل نصف القرآن) ، وكذلك عنونها البخاري والترمذي .

وسميت في كثير من المصاحف ومن كتب التفسير (سورة الزلزال) .

وسميت في مصحف بخط كوفي قديم من مصاحف القيروان (زلُزلت) وكذلك سماها في (الإتقان) في السور المختلف في مكان نزولها ، وكذلك تسميتها في (تفسير ابن عطية) ، ولم يعدها في (الإِتقان) في عداد السور ذوات أكثر من اسم فكأنه لم ير هذه ألقاباً لها بل جعلها حكاية بعض ألفاظها ولكن تسميتها سورة الزلزلة تسمية بالمعنى لا بحكاية بعض كلماتها .

واختلف فيها فقال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعطاء والضحاك : هي مكية .

وقال قتادة ومقاتل : مدنية ، ونسب إلى ابن عباس أيضاً . والأصح أنها مكية واقتصر عليه البغوي وابن كثير ومحمد بن الحسن النيسابوري في تفاسيرهم . وذكر القرطبي عن جابر أنها مكية ولعله يعني : جابر بن عبد الله الصحابي لأن المعروف عن جابر بن زيد أنها

مدنية فإنها معدودة في نزول السور المدنية فيما روي عن جابر بن زيد . وقال ابن عطية :

آخرها وهو : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ((الزلزلة : 7) الآية نزل في رجلين كانا

بالمدينة اه . وستعلم أنه لا دلالة فيه على ذلك .

(8/826)

وقد عدت الرابعة والتسعين في عداد نزول السور فيما روي عن جابر بن زيد ونظمه

الجعبري وهو بناءٌ على أنها مدنية جعلها بعد سورة النساء وقبل سورة الحديد .

وعدد آيها تسع عند جمهور أهل العدد ، وعدّها أهل الكوفة ثماني للاختلاف في أن قوله : (

يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ((الزلزلة : 6) آيتان أو آية واحدة .

أغراضها

إثبات البعث وذكر أشراطه وما يعتري الناس عند حدوثها من الفزع .

وحضور الناس للحشر وجزائهم على أعمالهم من خير أو شر وهو تحريض على فعل الخير

واجتناب الشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 489 . 490 ﴾

(9/826)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الزلزلة

مدنية وآياتها ثمان

بين يدي السورة

* سورة الزلزلة مدنية ، وهي في أسلوبها تشبه السور المكية ، لما فيها من أهوال وشدائد يوم القيامة ، وهي هنا تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة ، حيث يندك كل صرح شامخ ، وينهار كل جبل راسخ ، ويحصل من الأمور العجيبة الغريبة ، ما يندهش له الإنسان ، كإخراج الأرض ما فيها من موتى ، وإلقائها ما في بطنها ، من كنوز ثمينة من ذهب وفضة ، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها ، تقول : عملت يوم كذا ، كذا وكذا ، وكل هذا من عجائب ذلك اليوم الرهيب ، كما تتحدث عن إنصراف الخلائق من أرض المحشر ، إلى الجنة أو النار ، وإنقسامهم إلى فريقين ما بين شقي وسعيد [فريق في الجنة ، وفريق في السعير] . انتهى انتهى . اهـ ﴿صفوة التفاسير حـ 3 صـ 590﴾

(10/826)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الزلزلة

الزلزلة : الحركة الشديدة مع اضطراب ، والأثقال : واحدها ثقل ، وهو فى الأصل متاع البيت كما قال : " وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ " والمراد هنا ما فى جوف الأرض من الدفائن كالموتى والكنوز ، وتقول أوحيت له وأوحيت إليه ووحي له ووحي إليه ، أي كلمه خفية أو ألهمه كما جاء فى قوله : " وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ " يصدر : أي يرجع ، فالوارد هو الآتي للماء ليشرب أو يستقى ، والصادر : هو الراجع عنه ، أشتاتا : واحدهم شتيت أي متفرقين متمايزين لا يسير محسنهم ومسيئهم فى طريق واحدة ، الذرة : النملة الصغيرة ، أو هى الهباء الذي يرى فى ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة ، ومثقال الذرة : وزنها ، وهو مثل فى الصغر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 218 ﴾

وقال الفراء :

سورة (الزلزلة)

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾

قوله عز وجل : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا . . . ﴾ .

الزِّلزال مصدر ، قال حدثنا الفراء قال ، وحدثنى محمد بن مروان قال : قلت : للكلبى : أرأيت قوله : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ فقال : هذا بمنزلة قوله : ﴿ وَيُخْرِجُكُم إِخْرَاجاً ﴾ قال الفراء ، فأضيف المصدر إلى صاحبه وأنت قائل فى الكلام : لأعطينّك عطيتك ، وأنت تريد عطية ، ولكن قرّبه من الجواز موافقة رءوس الآيات التى جاءت بعدها .

والزِّلزال بالكسر : المصدر والزَّلزال بالفتح : الاسم . كذلك القَعْقاع الذى يقعقع ـ الاسم ، والقِعقاع المصدر . والوَسواس : الشيطان وما وسوس إليك أو حدثك ، فهو اسم والوِسواس المصدر .

﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾

وقوله عزّ وجلّ : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا . . . ﴾ .

لفظَتْ ما فيها من ذهب أو فضة أو ميّت .

﴿ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾

وقوله جل وعز: ﴿وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا . . .﴾ .

الإنسان، يعنى به ها هنا: الكافر؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . . .﴾ . تخبر بما عَمِل [١/] عليها من حسن أو سيىء .

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾

وقوله عز وجل: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا . . .﴾ .

يقول: تحدّث أخبارها بوحى الله تبارك وتعالى، وإذنه لها، ثم قال: ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ . . .﴾ فهى -فيما جاء به التفسير- متأخرة، وهذا موضعها. اعترض بينهما ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً . . .﴾، مقدم معناه التأخير. اجتمع القراء على (لِيُرَوْا)، ولو قرئت: (ليَرَوا) كان صوابا .

(12/826)

وفى قراءة عبد الله مكان (تحدّث)، (تُنَبِّىءُ)، وكتابها (تنبّأ) بالألف .

﴿يَرَهُ . . .﴾ تجزم الهاء وترفع . انتهى انتهى . اهـ ﴿معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 284.283﴾

(13/826)

سورة (الزلزلة)

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾

قال ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ أي: أَوْحَى إِلَيْهَا. انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 582 ﴾

(14/826)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة الزلزلة «1»

2 - وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها أي موتاها.

4 - يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها: فتخبر بما عمل عليها.

5 - بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها أي بأنه أذن لها في الإخبار بذلك.

6 - يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أي يرجعون أَشْتاتاً أي فرقا.

7 - و8 - مِثْقالَ ذَرَّةٍ: وزن نملة صغيرة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 465 ﴾

---

(1) هي مدنية في قول قتادة ومقاتل ومكية في قول ابن مسعود وعطاء وجابر ومجاهد.

(15/826)

وقال الغزنوى:

[سورة الزلزلة]

1 زِلْزالَها: غاية زلزلتها، أو بأجمعها.

2 أَثْقالَها: من الموتى والكنوز «1».

3 ما لَها: أيّ شيء حدث بها؟.

4 تُحَدِّثُ أَخْبارَها: تشهد بما عمل عليها من خير أو شر «2».

5 بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها: أمرها أن تشهد.

6 أَشْتاتاً: فريقا إلى الجنّة وفريقا إلى النّار. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 886. 887 ﴾

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 283 ، وتفسير الطبري : 30/ 266 ، ومعاني الزجاج :

5/ 351 ، وتفسير البغوي : 4/ 515 ، وزاد المسير : 9/ 202 .

(2) ورد هذا المعنى في أثر مرفوع إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم أخرجه الإمام أحمد في مسنده : 2/ 374 ، والترمذي في سننه : 4/ 374 أبواب صفة القيامة ، حديث رقم (2429) ، والنسائي في التفسير : 2/ 544 ، وأخرجه - أيضا - الحاكم في المستدرك : 2/ 533 ، وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 592 ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة رضي اللّه عنه مرفوعا .

وانظر تفسير الطبري : 30/ 267 ، وتفسير الماوردي : 4/ 497 ، وتفسير البغوي : 4/ 515 ، وتفسير ابن كثير : 8/ 481 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الزلزلة

عدد 7 - 93 - 98

نزلت بالمدينة بعد النّساء ، وهي ثماني آيات ، وخمس وثلاثون كلمة ، ومئة وتسعة وأربعون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها ، ومثلها في عدد الآي سورة الانشراح والتين والتكاثر ، ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به ، ويوجد سورة المنافقين والفتح في القسم المدني مبدوءة بما بدئت به وأيضا في المكي الانشقاق والانفطار والتكوير .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها" (1) أي تحركت ومادت في مكانها واضطربت اضطرابا شديدا ، وذلك عند قيام السّاعة إذ ينخلع كلّ ما عليها من جبل وشجر وبناء ويسوى فيما نخفض منها من وديان ومغاور وبحور وأنهار وعيون وحفر وغيرها "وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها" (2) مما دفن فيها من الموتى للبعث والحساب ، ومن قال إن هذه الزلزلة في الدّنيا أول معنى أثقالها بكنوزها الدّفينة فيها ، ولكنه ليس بشيء لأن الآيات بعدها ينفين هذا المعنى ويثبتن ما جرينا عليه ، أما استدلال هذا القائل بما رواه أبو هريرة من أن النّبي صلى اللّه عليه وسلم قال تقيء الأرض أفلاذ كبدها (جمع فلذة القطعة المستطيلة وقد شبه ما يخرج منها باقطاع كبدها لاستتار الكبد بالجوف واستعار القيء للاخراج بجامع الظّهور في كل) أمثال الاسطوانة من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السّارق فيقول في هذا

قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئًا .

أخرجه مسلم ، لا يؤيد قوله هذا ، لأن ما ذكر فيه يكون آخر الزمان قبل النّفخة الأولى بكثير أي بعد نزول عيسى عليه السّلام ، إذ جاء في الخبر أنه إذ ذاك يفيض المال فلا يقبله أحد لغناه عنه .

(17/826)

ومما يؤيد ما ذكرناه بان المراد الزلزلة الأخيرة عند الصّيحة الثانية للبعث قوله تعالى "وَقَالَ الْإِنْسانُ" مبتهرا مما رأى "ما لَها" (3) ما بال هذه الأرض أي شيء حدا بها حتى تحركت هذه الحركة العظيمة وقذفت ما في بطنها من هذه الأجساد ، والقائل المستفهم هو الكافر على حد قوله تعالى (مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا) الآية 52 من سورة يس في ج 1 ، لأنه لا يؤمن بالبعث ، ويقول المؤمن عند ذلك (هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) تتمة الآية 52 منها أيضا جوابا لذلك المنكر القائل من بعثنا ، وعلى قول القائل انها في الدّنيا يكون القول والاستفهام من المؤمن والكافر ، وتكون الزلزلة من أشراط السّاعة ، لا أنهم لا يعلمون ما هي فيتساءلون عنها والأوّل أولى ، ويؤكده قوله تعالى "يَوْمَئِذٍ" يوم تقع هذه الزلزلة لأن التنوين هنا للعوض والمعوض يكون عن جملة كما هنا ، ويكون عن كلمة وعن حرف في مواضع

أخرى "تُحَدِّثُ" الخلائق "أَخْبارَها" (4) بما عملت في الدّنيا على ظهرها من خير أو شر فضلا عن أن أحدا لا يقدر أن ينكر شيئا فعله لعظيم ما يلحقه من الخوف والفزع فيتذكر كلّ شيء فعله بزمانه ومكانه، إذ يخلق اللّه تعالى عند إنكار العبد ما فعله قوة في أعضائه فتشهد كلّ منها بما وقع منها على أصحابها، كما يخلق هذه القوة في الأوثان أيضا تشهد على عابديها قال أبو هريرة قرأ صلى اللّه عليه وسلم هذه الآية فقال أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا اللّه ورسوله أعلم، قال إن أخبارها أن تشهد على كلّ عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول عمل فلان يوم كذا وكذا كذا وكذا، فهذه أخبارها أخرجه الترمذي، وقد خلق اللّه فيها النّطق مع أنها جماد راجع الآية 30 من آل عمران المارة، إذ تمثل فيها الأعمال الدّنيوية كما وقعت، والأقوال أيضا، وذلك "بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها" (5) بذلك فاستجابت لأمره وتكلمت، وذلك أن

(18/826)

اللّه تعالى يخلق فيها الحياة والعقل والنّطق لتخبر بما أمرت به، لأن ضمير تحدث يعود إليها، وعلى هذا أهل السّنة والجماعة "يَوْمَئِذٍ" يوم تحدث الأرض النّاس أخبارها بما فعلوا عليها "يَصْدُرُ النَّاسُ" بعد قيامهم من قبورهم وذهابهم للعرض على ربهم لإجراء حسابهم على

أعمالهم يذهبون "أَشْتَاتاً" متفرقين منهم من يؤخذ به ذات اليمين

إلى الجنّة ، ومنهم من يذهب به ذات الشّمال إلى النّار وذلك عند قوله تعالى ، (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) الآية 60 من سورة يس في ج 1 أيضا أي افترقوا عن المؤمنين ، وإنما يأمر النّاس ربّهم بالصدور عن موقفهم "لِيُرَوْا" جزاء "أَعْمالَهُمْ" (6) التي فعلوها بالدنيا ، ولهذا يقول جل جلاله "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ" في الدّنيا والذرة ما يلصق باليد من التراب النّاعم ، والهباء الذي يرى بين مشرق الشّمس من الكوة إلى أرض الدّار ، وتفسيرها بهذا أولى من تفسيرها بالنملة الصّغيرة ، لأنها ذرات كثيرة .

واعلموا أيها النّاس أن من يفعل قدر هذه الذرة الآن "خَيْراً يَرَهُ" (7) خيرا كثيرا مضاعفا في الآخرة ويعطيه اللّه أجرا كبيرا عليه لم يكن يحلم به ولم تخطر بباله عظمته "وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ" في دنياه و

لو أنه لم يلق إليها بالا ، لأن الذنب الصّغير إذا استصغره فاعله يكون عظيما وباله "شَرًّا يَرَهُ" (8) شرا مستطيرا في الآخرة ، وبمثله جزاؤه إذا لم يستحقره ، فعلى العاقل أن يستحقر ما يفعله من الخير ليعظم اللّه له أجره عليه ، وأن يستعظم ما يفعله من الشّر ليهون اللّه عليه وزره في الآخرة .

واعلم أن آخر هذه السّورة يؤيد ويؤكد ما جرينا عليه من أن المراد بالزلزلة هي زلزلة الآخرة ، أجارنا اللّه من أهوالها ، وآمننا من عذابها بحرمة سيد أنبيائه وجاهه على نفسه .

(19/826)

قال ابن مسعود أحكم آية في القرآن هذه الآية ، وسماها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الجامعة .

قال الرّبيع بن هيثم مرّ رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السورة ، فلما بلغ آخرها قال حسبي اللّه قد انتهت الموعظة .

هذا واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلّا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وأصحابه وأتباعه أجمعين ، صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدّين . انتهى انتهى . اهـ ﴿بيان المعاني حـ 6 صـ 5.3﴾

(20/826)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الزلزلة

مكية أو مدنية

أوحي لها تام أعمالهم كاف وكذا خيرا يره آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿ المقصد

ص ﴾

(21/826)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني:

سورة الزلزلة

مكية أو مدنية ولا وقف من أولها إلى أوحى لها لاتصال الكلام بعضه ببعض فلا يوقف على زلزالها للعطف ولا على أثقالها ولا على مالها لأنَّ قوله يومئذ تحدث أخبارها جواب إذا فلا يفصل بينهما بالوقف أي إذا كانت هذه الأشياء حدثت الأرض بأخبارها أي شهدت بالأعمال التي عملت عليها وإن جعل العامل في إذا مقدَّرًا خرجت عن الظرفية والشرط وصارت مفعولاً به ولا يوقف على أخبارها لأنَّ ما بعده متعلق بما قبله أي تحدث بأخبارها بوحي الله إليها

أوحى لها (كاف) إن نصب ما بعده بمقدار وليس بوقف إن جعل بدلاً مما قبله

أعمالهم (كاف) للابتداء بالشرط مع الفاء ومثله خيراً يره وكذا شرّاً يره . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(22/826)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة الزلزلة

مدنية وآيها ثمان كوفي ومدني أول وتسع في الباقي خلافها أشتاتا تركها كوفي ومدني أول

وقرأ (يصدر) الآية 6 بإشمام الصاد والزاي حمزة والكسائي وخلف ورويس ومر بالنساء

وقرأ (يره) الآية 7 8 معا بإسكان الهاء هشام وابن وردان من طريق النهرواني عن ابن

شبيب وقرأهما بالاختلاس من يعقوب بخلفه وابن وردان من طريق ابن هارون والعلاف

من ابن شبيب والباقون بالإشباع وبه قرأ يعقوب في الوجه الثاني وابن وردان من باقي طرقه

في الوجه الثالث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(23/826)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الزلزال "

" يصدر " قرأ الأخوان ورويس وخلف بإشمام الصاد الزاي والباقون بالصاد الخالصة ذرة خيرا ، فيه الإخفاء لأبي جعفر .

" يره " معا قرأ هشام بإسكان الهاء وصلا ووقفا والباقون بضمها مع الصلة وصلا وبإسكانها وقفا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 355 ﴾

(24/826)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الزلزلة

وقوله تعالى ﴿ خيرا يره ﴾ ﴿ شرا يره ﴾ بإشباع الضمة واختلاسها وقد ذكر في آل عمران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 375 ﴾

وقال ابن زنجلة :

99 – سورة الزلزلة

فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره 8 , 7

قرأ يحيى في رواية العجلي خيرا يره و شرا يره بإسكان الهاء فيهما وقرأ الحلواني يره يره بالاختلاس

وقرأ الباقون يرهو بالإشباع وحجتهم أن ما قبل الهاء متحرك فصار الحركة بمنزلة ضربهوي ا فتى فكما أن هذا يشبع عند الجميع فكذلك قوله يرهو ومن قرأ بالاختلاس فإنه اكتفى بالضمة عن

عن الواو لأنها تنبئ عن الواو ومن أسكن الهاء فإن أبا الحسن يزعم أن ذلك لغة وقد كرت وبينت في سورة آل عمران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 769.770 ﴾

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة إذا زلزلت 99

مكية هذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقال قتادة مدنية وكذا حكى كريب عن كتاب ابن عباس وقد ذكر نظيرتها في عدد المدني الأخير والمكي على اختلافهم في العدد

ونظيرتها في المدني الأخير والمكي الهمزة فقط

وكلمها خمس وثلاثون كلمة

وحروفها مئة وتسعة وأربعون حرفا

وهي ثماني آيات في المدني الأول والكوفي وتسع في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ أشتاتا ﴾) لم يعدها المدني الأول والكوفي وعدها الباقون ورؤوس الآي

زلزالها

1 أثقالها

2 مالها

3 أخبارها

4 أوحى لها

5 أشتاتا

* أعمالهم

6 يره

7 يره

8 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 283 ﴾

(27/826)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (إذا زلزلت الأرض) العامل في إذا جوابها وهو قوله تعالى " تحدث " أو يصدر ، و (يومئذ) بدل من إذا ، وقيل التقدير : اذكر إذا زلزلت ، فعلى هذا يجوز أن يكون تحدث عاملا في يومئذ ، وأن يكون بدلا .

والزلزال بالكسر المصدر وبالفتح الاسم .

قوله تعالى (بأن ربك) الباء تتعلق بتحدث : أي تحدث الأرض بما أوحى إليها وقيل هي زائدة ، وإن بدل من أخبارها ، و (لها) بمعنى إليها ، وقيل أوحى يتعدى باللام تارة وبعلى أخرى (1) ، و (يومئذ) الثاني بدل ، أو على تقدير اذكر أو ظرف ل (يصدر) و (أشتاتا) حال ، والواحد شت ، واللام في (ليروا) يتعلق بيصدر ، ويقرأ بتسمية الفاعل وبترك التسمية ، وهو من رؤية العين : أي جزاء أعمالهم ، و (خيرا) و (شرا) بدلان من مثقال ذرة ، ويجوز أن يكون تمييزا ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(28/826)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الزلزلة

[سورة الزلزلة (99) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (1)

"إِذا زُلْزِلَتِ" إذا ظرفية شرطية غير جازمة وماض مبني للمجهول "الْأَرْضُ" نائب فاعل

"زِلْزالَها" مفعول مطلق والجملة في محل جر بالإضافة .

[سورة الزلزلة (99) : آية 2]

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها (2)

"وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الزلزلة (99) : آية 3]

وَقالَ الْإِنْسانُ ما لَها (3)

"وَقالَ الْإِنْسانُ" ماض وفاعله والجملة معطوفة على ما قبلها "ما" اسم استفهام مبتدأ "لَها" متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ والجملة الاسمية مقول القول .

[سورة الزلزلة (99) : آية 4]

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها (4)

"يَوْمَئِذٍ" ظرف مضاف إلى مثله وهو بدل من إذا "تُحَدِّثُ" مضارع فاعله مستتر "أَخْبارَها" مفعول به والجملة جواب إذا لا محل لها .

[سورة الزلزلة (99) : آية 5]

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (5)

"بِأَنَّ رَبَّكَ" الباء حرف جر وأن واسمها "أَوْحى" ماض فاعله مستتر "لَها" متعلقان بالفعل والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر بالباء والجار والمجرور

متعلقان بتحدث .

[سورة الزلزلة (99) : آية 6]

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ (6)

"يَوْمَئِذٍ" ظرف مضاف إلى مثله وهو بدل من سابقه "يَصْدُرُ النَّاسُ" مضارع وفاعله "أَشْتاتاً" حال "لِيُرَوْا" مضارع مبني للمجهول منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو نائب فاعل "أَعْمالَهُمْ" مفعول به ، والمصدر المؤول من أن وما بعدها في محل جر باللام والجار والمجرور متعلقان بالفعل يصدر .

[سورة الزلزلة (99) : آية 7]

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7)

(29/826)

"فَمَنْ" الفاء حرف استئناف "من" اسم شرط جازم مبتدأ "يَعْمَلْ" مضارع مجزوم لأنه فعل الشرط والفاعل مستتر "مِثْقالَ ذَرَّةٍ" مفعول به مضاف إلى ذرة "خَيْراً" تمييز "يَرَهُ" مضارع مجزوم لأنه جواب الشرط والهاء مفعول به والفاعل مستتر والجملة جواب الشرط لا محل لها وجملتا الشرط والجواب خبر المبتدأ من وجملة من . . مستأنفة لا محل لها .

[سورة الزلزلة (99) : آية 8]

وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)

معطوفة على ما قبلها والإعراب واضح. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن / لـ دعاس

حـ 3 صـ 462﴾

(30/826)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَة الزلزلة

فِيهَا حديثان

1522 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تشهد الأَرْض عَلَى كل أُحْدُ بِمَا عمل عَلَى ظهرهَا

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث انس

فَحَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ من طَرِيق ابْن الْمُبَارك ثَنَا سعيد ابْن أبي أَيُّوب

ثَنَا يَحْيَى بن أبي سُلَيْمَان عَن سعيد الْمَقْبُري عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَرَأَ رَسُول الله هَذِه الْآيَة يَوْمئِذٍ تحدث أَخْبَارهَا قَالَ أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارهَا قَالُوا الله وَرَسُوله اعْلَم قَالَ فَإِن أَخْبَارهَا أَن تشهد عَلَى كل عبد أَو أمة بِمَا عمل عَلَى ظهرهَا تَقول عمل كَذَا فِي يَوْم كَذَا فَهَذِهِ أَخْبَارهَا انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح غَرِيب انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّانِي وَالسبْعين من الْقسم الثَّالِث وَالْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْقرَاءَات وَقَالَ عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ

وَأما حَدِيث انس فَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي أَوَاخِر الْبَاب السَّابِع وَالْأَرْبَعِينَ من حَدِيث رشدين بن سعد ثَنَا يَحْيَى بن أبي سُلَيْمَان عَن أبي حَازِم عَن أنس بن مَالك أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِن الأَرْض لِتُخْبِرُ يَوْم الْقِيَامَة بِكُل عمل عمل عَلَى ظهرهَا ثمَّ تَلا إِذا زلزلت الأَرْض زِلْزَالهَا إِلَى آخرهَا انْتَهَى

قَالَ الْبَيْهَقِيّ وَرشْدِين بن سعد ضَعِيف

وَبِالسَّنَدَيْنِ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

1523 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ إِذا زلزلت الأَرْض أَربع مَرَّات كَانَ كمن قَرَأَ الْقُرْآن كُله

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا يَعْقُوب بن احْمَد السّري الْعَرُوضِي أَنا مُحَمَّد بن عبد الله الْعمانِي ثَنَا أَبُو الْقَاسِم الطَّائِي حَدثنِي أبي ثني عَلّي بن مُوسَى الرِّضَا ثني أبي مُوسَى بن جَعْفَر حَدثنِي أبي جَعْفَر بن مُحَمَّد حَدثنِي أبي مُحَمَّد بن عَلّي حَدثنِي أبي عَلّي بن الْحُسَيْن حَدثنِي أبي الْحُسَيْن بن عَلّي حَدثنِي أبي عَلّي بن أبي عَلّي ابْن أبي طَالب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَفِي مُسْند ابْن أبي شيبَة وَالْبَزَّار عَن سَلمَة بن وردان عَن أنس بن مَالك عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ قل يأيها الْكَافِرُونَ ربع الْقُرْآن و إِذا زلزلت ربع الْقُرْآن و إِذا جَاءَ نصر الله ربع الْقُرْآن انْتَهَى وَفِي لفظ الْبَزَّار تعدل ربع الْقُرْآن

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الثَّانِي فِي آل عمرَان وَلَفظه من قَرَأَ إِذا زلزلت أعطي من الْأجر كمن قَرَأَ ربع الْقُرْآن

وَبِهَذَا اللَّفْظ رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انْتهى انْتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار جـ 4 صـ 261. 262﴾

(32/826)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الزلزلة

قبل أن تقوم الساعة يقع فى الأرض زلزال كبير يدوخ منه سكان القارات أجمعون . والزلازل يتفاوت أثرها بمدتها وشدتها . وقد يستمر الزلزال بضع دقائق فيترك العواصم أنقاضا ، والقرى ترابا . وقد عاينت زلزالا من نصف دقيقة طاش له اللب ، وهام الناس على وجوههم منه . فإذا اقترن الزلزال بثوران البراكين وانطلاق الحمم من باطن الأرض ، تضاعف العذاب "إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها * وقال الإنسان ما لها " . ماذا حدث لها ؟ وماذا يراد بنا ؟ "يومئذ تحدث أخبارها * بأن ربك أوحى لها " . يومئذ يشعر الناس بأن اليوم الموعود قد حل ، وأن حساب الناس على ما قدموا قد آن . "يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم " . إن شعورهم بما كان منهم قوى غالب : " يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا " . والحساب بمثقال الذرة فى ذلك اليوم العصيب . وفى الحديث أن النبى عليه الصلاة والسلام سئل عن زكاة الحمير ، فقال : ما أنزل الله فيها شيئا إلا هذه الآية

الجامعة الفاذة " فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره " . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 535 ﴾

(33/826)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(34/826)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الزلزلة

أقول : لما ذكر في آخر (لم يكُن) أن جزاء الكافرين جهنم ، وجزاء المؤمنين جنات ، فكأنه قيل : متى يكون ذلك ؟ فقيل : (إِذا زلزِلَت الأَرضُ زِلزالها) أي حين تكون زلزلة الأرض ، إلى آخره

هكذا ظهر لي ، ثم لما راجعت تفسير الإمام الرازي ، ورأيته ذكر نحوه حمدت الله كثيراً

وعبارته : ذكروا في مناسبة هذه السورة لما قبلها وجوها منها : أنه تعالى لما قال : (جَزاؤُهُم عِندَ رَبِّهِم جنات عدنٍ) فكأن المكلف قال : ومتى يكون ذلك يا رب؟ فقال : (إِذا زُلزِلَت الأَرض) ومنها : أنه لما ذكر فيها وعيد الكافرين ، ووعد المؤمنين ، أراد أن يزيد في وعيد الكافرين فقال : (إِذا زُلزِلَت الأَرض) ونظيره : (يومَ تبيضُ وجوهٌ وتسودُ وجوه) ثم ذكر ما للطائفتين فقال : (فأَما الذينَ اسودت وجوهُهُم) إلى آخره ثم جمع بينهما هنا في آخره السورة بذكر الذي يعمل الخير والشر انتهى . انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 156.155﴾

(35/826)

قوله تعالى ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) المحيط بكل شيء قدؤرة وعلما (الرحمن) الذي عم الخلق بنعمته الظاهرة قسما (الرحيم) الذي أتم النعمة على خواصه حقيقة واسما ، عينا ورسما .

لما ختم تلك بجزاء الصالح والطالح في دار البقاء على ما أسلفوه في مواطن الفناء ، ذكر في هذه أول مبادىء تلك الدار وأوائل غاياتها ، وذكر في القارعة ثواني مبادئها وآخر غاياتها ، وأبلغ في التحذير بالإخبار بإظهار ما يكون عليه الجزاء ، فقال معبراً بأداة التحقق لأن الأمر حتم لا بد من كونه : ﴿ إذا ﴾ .

ولما كان المخوف الزلزلة ولو لم يعلم فاعلها ، وكان البناء للمفعول يدل على سهولة الفعل ويسره جداً ، بنى للمفعول قوله : ﴿ زلزلت الأرض ﴾ أي حركت واضطربت زلزلة البعث بعد النفخة الثانية بحيث يعمها ذلك لا كما كان يتفق قبل ذلك من زلزلة بعضها دون بعض وعلى وجه دون ذلك ، وعظم هذا الزلزال وهوّله بإبهامه لتذهب النفس فيه كل مذهب ، فقال كاسراً الزاء لأنه مصدر ، ولو فتحها لكان اسماً للحركة ، قال البيضاوي : وليس إلا في المضاعف .

﴿ زلزالها ﴾ أي تحركها واضطرابها الذي يحق لها في مناسبته لعظمة جرم الأرض وعظمة ذلك اليوم ، ولو شرح بما يليق به لطال الشرح ، وذلك كما تقول : أكرم التقي إكرامة وأهن الفاسق الشقي إهانة ، أي على حسب ما يليق به .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : وردت عقب سورة البرية ليبين بها حصول جزاء الفريقين ومآل الصنفين المذكورين في قوله : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ﴾ - إلى قوله : ﴿ أولئك شر البرية ﴾ وقوله : ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ - إلى آخر السورة .

ولما كان حاصل ذلك افتراقهم على صنفين ولم يقع تعريف بتباين أحوالهم ، أعقب ذلك بمآل الصنفين واستيفاء جزاء الفريقين المجمل ذكرهم فقال تعالى : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ﴾ إلى آخر السورة – انتهى .

ولما كان الاضطراب العظيم يكشف عن الخفي في المضطرب قال : ﴿ وأخرجت ﴾ وأظهر ولم يضمر تحقيقاً للعموم فقال : ﴿ الأرض ﴾ أي كلها ﴿ أثقالها ﴾ أي مما هو مدفون فيها كالأموات والكنوز التي كان أمرها ثقيلاً على الناس ، وهو جمع ثقل بالكسر ، وذلك حين يكون البعث والقيام متأثراً ذلك الإخراج عن ذلك الزلزال ، كما يتأثر عن زلزال البساط بالنفض إخراج ما في بطنه وطيه وغضونه من وسخ وتراب وغيره ، وما كان على ظهرها فهو ثقل عليها لأنها يعطيها الله قوة إخراج ذلك كله كما كان يعطيها قوة أن تخرج النبت الصغير اللطيف الطري الذي هو أنعم من الحرير فيشق الأرض الصلبة التي تكل عنها المعاول والحديد ، ويشق النواة مع ما لها من الصلابة التي تستعصي بها على الحديد فينفلق نصفين وينبت منها ما يريده سبحانه وتعالى ، ويفلق قشر الجوز واللوز ونوى الخوخ وغيره مما هو في غاية الصلابة كما نشاهده ، ويخرج منه الشجر بشق الأرض على ضعفه ولينه وصلابتها

وبكونه على ظهرها حتى يصير أغلظ شيء وأشده ، وكذا الحب سواء ، فالذي قدر على ذلك هو سبحانه وتعالى قادر على تكوين الموتى في بطن الأرض وإعادتهم على ما كانوا عليه كما يكون الجنين في البطن ويشق جميع منافذه على التحذير من السمع والبصر والفم وغير ذلك من غير أن يدخل إلى هناك بيكار ولا منشار ، ثم يخرج من البطن ، فكذا إخراج الموتى من غير فرق ، كل عليه هين - سبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه .

(37/826)

ولما كان الإنسان إذا رأى هذا عجب له ولم يدرك سببه لأنه أمر عظيم فظيع يبهر عقله ويضيق عنه ذرعه ، عبر عنه بقوله : ﴿ وقال الإنسان ﴾ أي هذا النوع الصادق بالقليل والكثير لما له من النسيان لما تأكد عنده من أمر البعث بما له من الأنس بنفسه والنظر في عطفه ، على سبيل التعجب والدهش أو الحيرة ، ويجوز أن يكون القائل الكافر كما يقول : ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ [يس : 52] فيقول له المؤمن : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ [يس : 52] ﴿ ما لها ﴾ أي أيّ شيء للأرض في هذا الأمر الذي لم يعهد مثله .

ولما طال الكلام وأريد التهويل ، أبدل من " إذا " قوله معرفاً للإنسان ما سأل عنه :

﴿ يومئذ ﴾ أي إذ كان ما ذكر من الزلزال وما لزم عنه ونصبه وكذا ما أبدل منه بقوله :

﴿ تحدث ﴾ أي الأرض بلسان الحال بإخراج ما في بطنها من الموتى والكنوز وغيرها على وجه يعلم الإنسان به لم زلزلت ولم أخرجت ، وأن الإنذار بذلك كان حقاً ، وقال ابن مسعود -رضى الله عنه- : تحدث بلسان المقال .

﴿ أخبارها ﴾ أي التي زلزلت وأخرجت ما أخرجت لأجلها ، وكل شيء عمل عليها شهادة منها على العاملين فتقول : عمل فلان كذا وكذا – تعدد حتى يود المجرم أنه يساق إلى النار لينقطع عنه تعداد ذلك الذي يلزم منه العار ، وتشهد للمؤمن بما عمل حتى يسره ذلك ، فيشهد للمؤذن كل ما امتد إليه صوته من رطب ويابس .

ولما كان من المقرر أنه لا يكون شيء إلا بإذنه تعالى ، وكان قد بنى الأفعال لما لم يسم فاعله ، فكان الجاهل ربما خفي عليه فاعل ذلك قال : ﴿ بأن ﴾ أي تحدث بسبب أن ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك بإحقاق الحق وإزهاق الباطل لإعلاء شأنك ﴿ أوحى ﴾ وعدل عن حرف النهاية إيذاناً بالإسراع في الإيجاد فقال : ﴿ لها ﴾ أي بالإذن في التحديث المذكور بالحال أو المقال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 504-506 ﴾

(38/826)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا ﴾

ههنا مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا في المناسبة بين أول هذه السورة وآخر السورة المتقدمة وجوهاً أحدها : أنه تعالى لما قال : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [البينه : 8] فكأن المكلف قال : ومتى يكون ذلك يا رب فقال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا ﴾ فالعالمون كلهم يكونون في الخوف ، وأنت في ذلك الوقت تنال جزاءك وتكون آمناً فيه ، كما قال : ﴿ وَهُمْ مّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءامِنُونَ ﴾ [النمل : 89] وثانيها : أنه تعالى لما ذكر في السورة المتقدمة وعيد الكافر ووعد المؤمن أراد أن يزيد في وعيد الكافر ، فقال : أجازيه حين يقول الكافر السابق ذكره : ما للأرض تزلزل ، نظير قوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : 106] ثم ذكر الطائفتين فقال : ﴿ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ ﴾ [آل عمران : 106] ﴿ وَأَمَّا الذين ابيضت وُجُوهُهُمْ ﴾ [آل عمران : 107] ثم جمع بينهم في آخر السورة فذكر الذرة من الخير والشر .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ إِذَا ﴾ بحثان أحدهما : أن لقائل أن يقول : ﴿ إِذَا ﴾ للوقت فكيف وجه البداية بها في أول السورة ؟ وجوابه : من وجوه الأول : كانوا يسألونه متى الساعة ؟ فقال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرض ﴾ كأنه تعالى قال : لا سبيل إلى تعيينه بحسب وقته ولكني أعينه بحسب علاماته ، الثاني : أنه تعالى أراد أن يخبر المكلف أن الأرض تحدث وتشهد يوم القيامة مع أنها في هذه الساعة جماد فكأنه قيل : متى يكون ذلك ؟ فقال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرض ﴾ .

البحث الثاني : قالوا كلمة : ﴿ إن ﴾ في المجوز ، وإذا في المقطوع به ، تقول : إن دخلت الدار فأنت طالق لأن الدخول يجوز ، أما إذا أردت التعليق بما يوجد قطعاً لا تقول : إن بل تقول : إذا (نحو إذا) جاء غد فأنت طالق لأنه يوجد لا محالة .

(39/826)

هذا هو الأصل ، فإن استعمل على خلافه فمجاز ، فلما كان الزلزال مقطوعاً به قال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ .

المسألة الثالثة :

قال الفراء : الزلزال بالكسر المصدر والزلزال بالفتح الاسم ، وقد قرئ بهما ، وكذلك

الوسواس هم الاسم أي اسم الشيطان الذي يوسوس إليك ، والوسواس بالكسر المصدر ، والمعنى : حركت حركة شديدة ، كما قال : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ﴾ [الواقعة : 4] وقال قوم : ليس المراد من زلزلت حركت ، بل المراد : تحركت واضطربت ، والدليل عليه أنه تعالى يخبر عنها في جميع السورة كما يخبر عن المختار القادر ، ولأن هذا أدخل في التهويل كأنه تعالى يقول : إن الجماد ليضطرب لأوائل القيامة ، أما آن لك أن تضطرب وتتيقظ من غفلتك ويقرب منه : ﴿ لَّرَأَيْتَهُ خاشعا مُّتَصَدّعاً مّنْ خَشْيَةِ الله ﴾ [الحشر : 21] واعلم أن زل للحركة المعتادة ، وزلزل للحركة الشديدة العظيمة ، لما فيه من معنى التكرير ، وهو كالصرصر في الريح ، ولأجل شدة هذه الحركة وصفها الله تعالى بالعظم فقال : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : 1] .

المسألة الرابعة :

قال مجاهد : المراد من الزلزلة المذكورة في هذه الآية النفخة الأولى كقوله :

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ [النازعات : 6] أي تزلزل في النفخة الأولى ، ثم تزلزل ثانياً فتخرج موتاها وهي الأثقال ، وقال آخرون : هذه الزلزلة هي الثانية بدليل أنه تعالى جعل من لوازمها أنها تخرج الأرض أثقالها ، وذلك إنما يكون في الزلزلة الثانية .

المسألة الخامسة :

في قوله : ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ بالإضافة وجوه أحدها : القدر اللائق بها في الحكمة ، كقولك : أكرم التقي إكرامه وأهن الفاسق إهانته ، تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة والثاني : أن يكون المعنى زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه ، والمعنى أنه وجد من الزلزلة كل ما يحتمله المحل والثالث : زلزالها الموعود أو المكتوب عليها إذا قدرت تقدير الحي ، تقريره ما روى أنها تزلزل من شدة صوت إسرافيل لما أنها قدرت تقدير الحي .

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2)

أما قوله : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في الأثقال قولان : أحدهما أنه جمع ثقل وهو متاع البيت : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ ﴾ جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها ، قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها ، وقيل : سمي الجن والإنس بالثقلين لأن الأرض تثقل بهم إذا كانوا في بطنها ويثقلون عليها إذا كانوا فوقها ، ثم قال : المراد من هذه الزلزلة ، الزلزلة الأولى يقول : أخرجت الأرض أثقالها ، يعني الكنوز فيمتلىء ظهر الأرض ذهباً ولا أحد يلتفت إليه ، كأن الذهب يصيح ويقول : أما كنت تخرب دينك ودنياك لأجلي ! أو تكون الفائدة في إخراجها كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يحمى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة :

35] ومن قال : المراد من هذه الزلزلة الثانية وهي بعد القيامة .

قال : تخرج الأثقال يعني الموتى أحياء كالأم تلده حياً ، وقيل : تلفظه الأسرار ، ولذلك قال :

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ فتشهد لك أو عليك .

المسألة الثانية :

أنه تعالى قال في صفة الأرض : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض كِفَاتاً ﴾ [المرسلات : 25] ثم صارت بحال ترميك وهو تقرير لقوله : ﴿ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج : 2] وقوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء ﴾ [عبس : 34] .

(41/826)

أما قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا ﴾

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

ما لها تزلزل هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها ، وذلك إما عند النفخة الأولى حين تلفظ ما فيها من الكنوز والدفائن ، أو عند النفخة الثانية حين تلفظ ما فيها من الأموات .

المسألة الثانية :

قيل: هذا قول الكافر وهو كما يقولون: ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يس: 52] فأما المؤمن فيقول: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ [يس: 52] وقيل: بل هو عام في حق المؤمن والكافر أي الإنسان الذي هو كنود جزوع ظلوم الذي من شأنه الغفلة والجهالة: يقول: مالها وهو ليس بسؤال بل هو للتعجب، لما يرى من العجائب التي لم تسمع بها الآذان.

ولا تطلق بها لسان، ولهذا قال الحسن: إنه للكافر والفاجر معاً.

المسألة الثالثة:

إنما قال: ﴿ مالها ﴾ على غير المواجهة لأنه يعاتب بهذا الكلام نفسه، كأنه يقول: يا نفس ما للأرض تفعل ذلك يعني يا نفس أنت السبب فيه فإنه لولا معاصيك لما صارت الأرض كذلك فالكفار يقولون هذا الكلام والمؤمنون يقولون: ﴿ الحمد للَّهِ الذى أَذْهَبَ عَنَّا الحزن ﴾ [فاطر: 34].

أما قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدّثُ أَخْبَارَهَا ﴾

فاعلم أن ابن مسعود قرأ: ﴿ تنبيء أَخْبَارَهَا ﴾ وسعيد بن جبير تنبيء (1) ثم فيه سؤالات:

الأول: أين مفعولا ﴿ تحدث ﴾؟ الجواب: قد حذف أولهما والثاني أخبارها وأصله تحدث الخلق أخبارها إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيماً.

---

(1) رسمت في الموضعين تنبئ ، وهي قراءة بالمعنى ويظهر أن الخلاف بين القراءتين ليس في الرسم وإنما في القراءة فإحدى القراءتين بكسر الباء مخففة والثانية بتشديدها .

(42/826)

السؤال الثاني : ما معنى تحديث الأرض ؟ قلنا فيه وجوه : أحدها : وهو قول أبي مسلم يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله فكأنها حدثت بذلك ، كقولك الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة تحدث أن الدنيا قد انقضت وأن الآخرة قد أقبلت والثاني : وهو قول الجمهور : أن الله تعالى يجعل الأرض حيواناً عاقلاً ناطقاً ويعرفها جميع ما عمل أهلها فحينئذ تشهد لمن أطاع وعلى من عصي ، قال عليه السلام : " أن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عمل عليها " ثم تلا هذه الآية وهذا على مذهبنا غير بعيد لأن البنية عندنا ليست شرطاً لقبول الحياة ، فالأرض مع بقائها على شكلها ويبسها وقشفها يخلق الله فيها الحياة والنطق ، والمقصود كأن الأرض تشكو من العصاة وتشكر من أطاع الله ، فنقول : إن فلاناً صلى وزكى وصام وحج في ، وإن فلاناً كفر وزنى وسرق وجار ، حتى يود الكافر أن يساق إلى النار ، وكان علي عليه السلام : إذا فرغ بيت المال صلى فيه ركعتين ويقول : لتشهدن أني ملأتك بحق وفرغتك بحق والقول الثالث : وهو قول

المعتزلة : أن الكلام يجوز خلقه في الجماد ، فلا يبعد أن يخلق الله تعالى في الأرض حال كونها جماداً أصواتاً مقطعة مخصوصة فيكون المتكلم والشاهد على هذا التقدير هو الله تعالى .

السؤال الثالث : (إذ) و (يومئذ) ما ناصبهما ؟ الجواب : (يومئذ) بدل من إذا وناصبهما ﴿ تحدث ﴾ .

السؤال الرابع : لفظ التحديث يفيد الاستئناس وهناك لا استئناس فما وجه هذا اللفظ الجواب : أن الأرض كأنها تبث شكواها إلى أولياء الله وملائكته .

أما قوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾

ففيه سؤالان :

السؤال الأول : بم تعلقت الباء في قوله : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ ﴾ ؟ الجواب : بتحدث ، ومعناه تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها .

السؤال الثاني : لم لم يقل أوحى إليها ؟ الجواب : فيه وجهان الأول : قال أبو عبيدة : ﴿ أوحى لَهَا ﴾ أي أوحى إليها وأنشد العجاج :

أوحى لها القرار فاستقرت . . الثاني : لعله إنما قال لها : أي فعلنا ذلك لأجلها حتى تتوسل الأرض بذلك إلى التشفي من العصاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 57.54 ﴾

(44/826)

وقال القرطبى :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) ﴾

أي حرّكت من أصلها .

كذا روى عِكْرِمة عن ابن عباس ، وكان يقول : في النفخة الأولى يزلزلها وقاله مجاهد ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة * تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ [النازعات : 76] ثم تزلزل ثانية ، فتُخرِج موتاها وهي الأثقال .

وذُكِر المصدر للتأكيد ، ثم أضيف إلى الأرض ؛ كقولك : لأُعطينّك عطِيتك ؛ أي عطيتي لك .

وحسن ذلك لموافقة رؤوس الآي بعدها .

وقراءة العامة بكسر الزاي من الزلزال .

وقرأ الجحدرِيّ وعيسى بن عمر بفتحها ، وهو مصدر أيضاً ، كالوَسواس والقلقال والجَرْجار .

وقيل : الكسر المصدر .

والفتح الاسم .

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2)

قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت في بطن الأرض ، فهو ثِقل لها .

وإذا كان فوقها ، فهو ثِقل عليها .

وقال ابن عباس ومجاهد : "أثقالها" : موتاها ، تُخرجهم في النفخة الثانية ، ومنه قيل للجن والإنس : الثَّقَلان .

وقالت الخنساء :

أبعد ابنِ عمروٍ مِن آلِ الشرِ . . .

يدٍ حَلَّتْ به الأرضُ أثقالها

تقول : لما دفن عمرو صار حِلية لأهل القبور ، من شرفه وسؤدده .

وذكر بعض أهل العلم قال : كانت العرب تقول : إذا كان الرجل سفاكاً للدماء : كان ثِقلاً على ظهر الأرض ؛ فلما مات حَطّت الأرض عن ظهرها ثِقْلها .

وقيل :

"أَثْقَالَهَا" كنوزها ؛ ومنه الحديث : " تقيء الأرض أفلاذ كَبِدِها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة . . . "

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الإِنسَانُ ﴾ أي ابن آدم الكافر .

فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هو الأسود بن عبد الأسد .

وقيل : أراد كل إنسان يشاهد ذلك عند قيام الساعة في النفخة الأولى : من مؤمن وكافر .

وهذا قول من جعلها في الدنيا من أشراط الساعة ؛ لأنهم لا يعلمون جميعاً مِن أشراط الساعة في ابتداء أمرها ، حتى يتحققوا عمومها ؛ فلذلك سأل بعضهم بعضاً عنها .

وعلى قول من قال : إن المراد بالإنسان الكفار خاصة ؛ جعلها زلزلة القيامة ؛ لأن المؤمن معترف بها ، فهو لا يَسأل عنها ، والكافر جاحد لها ، فلذلك يَسأل عنها .

ومعنى ﴿ مَا لَهَا ﴾ أي ما لها زُلزلت .

وقيل : ما لها أَخْرَجَتْ أثقالها ، وهي كلمة تعجيب ؛ أي لأيّ شيء زلزلت .

ويجوز أن يحيي الله الموتى بعد وقوع النفخة الأولى ، ثم تحرّك الأرض فتخرج المَوْتَى وقد

رأوا الزلزلة وانشقاق الأرض عن الموتى أحياء ، فيقولون من الهول : مالَهَا . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(46/826)

وقال الآلوسى :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض ﴾

أي حركت تحريكاً عنيفاً متداركاً متكرراً ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ أي الزلزال المخصوص بها الذي تقتضيه بحسب المشيئة الإلهية المبنية على الحكم البالغة وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده زلزال فكان ما سواه ليس زلزالاً بالنسبة إليه أو زلزالها العجيب الذي لا يقادر قدره فالإضافة على الوجهين للعهود ويجوز أن يراد الاستغراق لأن زلزالاً مصدر مضاف فيعم أي زلزالها كله وهو استغراق عرفي قصد به المبالغة وهو مراد من قال أي زلزالها الداخل في حيز الإمكان أو عني بذلك العهد أيضاً وقرأ الجحدري وعيسى زلزالها بفتح الزاي وهو عند ابن عطية مصدر كالزلزال بالكسر وقال الزمخشري المكسور مصدر والمفتوح اسم للحركة المعروفة وانتصب ههنا على المصدر تجوزاً لسده مسد المصدر وقال أيضاً ليس في الأبنية فعلال بالفتح إلا في المضاعف وذكروا أنه يجوز في ذلك الفتح والكسر إلا أن الأغلب

فيه إذا فتح أن يكون بمعنى اسم الفاعل كصلصال بمعنى مصلصل وقضقاض بمعنى مقضقض ووسواس بمعنى موسوس وليس مصدراً عند ابن مالك وأما في غير المضاعف فلم يسمع إلا نادراً سواء كان صفة أو اسماً جامداً وبهرام وبسطام معربان أن قيل بصحة الفتح فيهما ومن النادر خزعال بمعجمتين وهو الناقة التي بها ظلع ولم يثبت بعضهم غيره وزاد ثعلب قهقازاً وهو الحجر الصلب وقيل هو جمع وقيل هو لغة ضعيفة والفصيحة قهقر بتشديد الراء وزاد آخر قسطالاً وهو الغبار وهذا الزلزال على ما ذهب إليه جمع عند النفخة الثانية لقوله تعالى :

(47/826)

﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ فقد قال ابن عباس أي موتاها وقال النقاش والزجاج ومنذر بن سعيد أن كنوزها وموتاها وروي عن ابن عباس أيضاً وهذه الكنوز على هذا القول غير الكنوز التي تخرج أيام الدجال على ما وردت به الأخبار وذلك بأن تخرج بعضا في أيامه وبعضاً عند النفخة الثانية ولا بعد في أن تكون بعد الدجال كنوز أيضاً فتخرجها مع ما كان قد بقي يومئذ هو عند النفخة الأولى وأثقالها ما في جوفها من الكنوز أو منها ومن الأموات ويعتبر الوقت ممتدا وقيل يحتمل أن يكون اخراج الموتى كالكنوز عند النفخة الأولى

وإحياؤها في النسخة الثانية وتكون على وجه الأرض بين النفختين وأنت تعلم انه خلاف ما تدل عليه النصوص وقيل أنها تزلزل عند النفخة الأولى فتخرج كنوزها وتزلزل عند الثانية فتخرج موتاها وأريد هنا بوقت الزلزال ما يعم الوقتين واقتصر بعضهم على تفسير الأثقال بالكنوز مع كون المراد بالوقت وقت النفخة الثانية وقال تخرج الأرض كنوزها يوم القيامة ليراها أهل الموقف فيتحسر العصاة إذا نظروا إليها حيث عصوا الله تعالى فيها ثم تركوها لا تغنى عنهم شيئًا وفي الحديث تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانات من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئًا وقيل إن ذلك لتكوى بها جباه الذين كنزوا وجنوبهم وظهورهم وأيا ما كان فالأثقال جمع ثقل بالتحريك وهو على ما في القاموس متاع المسافر وكل نفيس مصون وتجوز به ههنا على سبيل الاستعارة عن الثاني وجوز أن يكون جمع ثقل بكسر فسكون بمعنى حمل البطن على التشبيه والاستعارة أيضا كما قال الشريف المرتضى في الدرر وأشار إلى أنه لا يطلق على ما ذكر إلا بطريق الاستعارة ومنهم من فسر الأثقال ههنا بالأسرار وهو مع مخالفته للمأثور بعيد وإظهار الأرض في موقع الإضمار لزيادة التقرير وقيل للإيماء إلى

تبديل الأرض غير الأرض أو لأن إخراج الأرض حال بعض أجزائها والظاهر أن اخراجها ذلك مسبب عن الزلزال كما ينفض البساط ليخرج ما فيه من الغار ونحوه وإنما اختيرت الواو على الفاء تفويضاً لذهن السامع كذا قيل ولعل الظاهر انه لم ترد السببية والمسببية بل ذكر كل مما ذكر من الحوادث من غير تعرض لتسبب شيء منها على الآخر .

﴿ وَقَالَ الإنسان ﴾ أي كل فرد من أفراد الإنسان لما يبهرهم من الطامة التامة ويدهمهم من الداهية العامة ﴿ مَا لَهَا ﴾ تزلزلت هذه المرتبة من الزلزال وأخرجت ما فيها من الأثقال استعظاماً لما شاهدوه من الأمر الهائل وقد سيرت الجبال في الجو وصيرت هباء وذهب غير واحد إلى أن المراد بالإنسان الكافر غير المؤمن بالبعث والاظهر هو الأول على أن المؤمن يقول ذلك بطريق الاستعظام والكافر بطريق التعجب .

(49/826)

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل من ﴿ إذا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تُحَدّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أي الأرض واحتمال كون الفاعل المخاطب كما زعم الطبرسي لا وجه له عامل فيهما وقيل العامل مضمر يدل عليه مضمون الجمل بعد والتقدير يحشرون إذا زلزلت ويومئذ متعلق بتحديث

وإذ عليه لمجرد الظرفية وقيل هي نصب على المفعولية لا ذكر محذوفاً أي اذكر ذلك الوقت فليست ظرفية ولا شرطية وجوز أن تكون شرطية منصوب بجواب مقدر لاأي يكون ما لا يدرك كنهه أو نحوه والمراد يوم إذاً زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها وقال الإنسان ما لها تحدث الخلق ما عندها من الأخبار وذلك بأن يخلق الله تعالى فيها حياة وداكاً وتكلم حقيقة فتشهد بما عمل عليها من طاعة أو معصية وهو قول ابن مسعود والنوري وغيرهما ويشهد له الحديث الحسن الصحيح العريب أخرج الإمام أحمد والترمذي عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية يومئذ تحدث أخبارها ثم قال أتدرون ما أخبارها قالوا الله ورسوله أعلم ، قال فإن أخبارها إن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا كذا فهذه أخبارها والباء في قوله تعالى :

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحى لَهَا ﴾ للسببية أي تحدث بسبب إيحاء ربك لها وأمره سبحانه إياها بالتحديث واللام بمعنى إلى أي أوحى إليها لأن المعروف تعدى الوحي بها كقوله تعالى : ﴿ وأوحى ربُّكَ إلى النحل ﴾ [النحل : 68] لكن قد يتعدى باللام كما في قول العجاج يصف الأرض

أوحى لها القرار فاستقرت . . .

وشدها بالراسيات الثبت

ولعل اختيارها لمراعاة الفواصل وجوز أن تكون اللام للتعليل أو المنفعة لأن الأرض بتحديثها بعمل العصاة يحصل لها تشف منهم بفضحها إياهم بذكر قبائحهم والموحى إليه هي أيضاً والوحي يحتمل أن يكون وحي الهام وان يكون وحي ارسال بأن برسل سبحانه إليها رسولاً من الملائكة بذلك وقال الطبري وقوم التحديث استعارة أو مجاز مرسل لمطلق دلالة حالها والإيحاء احداث ما تدل به فيحدث عز وجل فيها من الأحوال ما يكون به دلالة تقوم مقام التحديث باللسان حتى ينظر من يقول مالها إلى تلك الأحوال فيعلم لم زلزلت ولم لفظت الأموات وإن هذا ما كانت الأنبياء عليهم السلام ينذرونه ويحذرون منه وما يعلم هو أخبارها وقيل الإيحاء على تقدير كون التحديث حقيقياً أيضاً مجاز عن أحداث حالة ينطقها سبحانه بها كإيجاد الحياة وقوة التكلم والأخبار على ما سمعت آنفا وقال يحيى بن سلام تحدث بما أخرجت من أثقالها ويشهد له ما في حديث ابن ماجة في سننه تقول الأرض يوم القيامة يا رب هذا ما استودعتني وعن ابن مسعود تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان مالها فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى فيكون ذلك جواباً لهم عند سؤالهم وقال الزمخشري يجوز أن يكون المعنى تحدث بتحديث أن ربك أوحى لها أخبارها على أن تحديثها بأن ربك أوحى لها تحديث بأخبارها كما تقول نصحتني كل نصيحة بأن نصحتني في الدين فاخبارها عليه هو أن ربك أوحى لها والباء تجريدية مثلها

في قولك لئن لقيت فلاناً لتلقين به رجلاً متناهياً في الخبر وكان الظاهر تحدث بخبرها بالأفراد وكذا على ما قبله من الوجهين لكن جمع للمبالغة كما يشير إليه المثال ونحوه قول الشاعر :

فانالني كل المنى بزيارة . . .

كانت مخالسة كخطفة طائر

فلو استطعت خلعت على الدجى . . .

لتطول ليلتنا سواد الناظر

(51/826)

ولا يخفى بعده وبالع أبو حيان في الحط عليه فقال هو عفش ينزه القرآن عنه وأراد بالعفش بعين مهملة وفاء وشين معجمة ما يدنس المنزل من الكناسة وهي كلمة تستعملها في ذلك عوام أهل المغرب وليس كما قال وجوز أيضاً أن يكون ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ ﴾ الخ بدلاً من ﴿ أخبارها ﴾ كأنه قيل يومئذ تحدث بأن ربك أوحى لها لأنك تقول حدثته كذا وحدثته بكذا فيصح إبدال بأن الخ من أخبارها وان أحدهما مجرور والآخر منصوب لأنه يحل محله في بعض الاستعمالات وليس ذلك في الامتناع خلافاً لأبي حيان كاستغفرت الذنب العظيم بنصب الذنب وجر العظيم على أنه نعت له باعتبار قولهم استغفرت من الذنب لأن البدل

هو المقصود فهو في قوة عامل آخر بخلاف النعت نعم هو أيضاً خلاف الظاهر وبعد كل ذلك اللائق أن لا يعدل عن المأثور لا سيما إذا صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقي ههنا بحث وهو أنهم اختلفوا في نحو حدثت هل هو متعد إلى مفعول واحد أو إلى أكثر فذهب الزمخشري وغيره ونقل عن سيبويه إلى الثاني وهو عندهم ملحق بأفعال القلوب فينصب مفعولين كحدثت زيداً الخبر أو ثلاثة كحدثته عمراً قائماً فأخبارها عليه هو المفعول الثاني والمفعول الأول محذوف كما أشرنا إليه ولم يذكر لأنه لا يتعلق بذكره غرض إذ الغرض تهويل اليوم وأنه مما ينطق به الجماد بقطع النظر عن المحدث كائناً من كان وقال الشيخ ابن الحاجب إنما هو متعد لواحد وما جاء بعده لتعين المفعول المطلق فعمراً قائماً في حدثت زيداً عمراً قائماً منصوب لوقوعه موقع المصدر لا لكونه مفعولاً ثانياً وثالثاً ولا يقال كيف يصح أن يقع ما ليس بفعل في المعنى أعني عمراً قائماً مصدراً لأنه لم يكن مصدراً باعتبار كونه عمراً قائماً ولكن باعتبار كونه حديثاً مخصوصاً فالوجه الذي صحح الإخبار به عن الحديث إذا قلت حديث زيد عمرو قائم هو الذي صحح وقوعه مصدراً فإخبارها عليه في موقع المفعول والمفعول به محذوف لما تقدم بل قال بعضهم إنك إذا قلت

حدثته حديثاً أو خبراً فلا نزاع في أنه مفعول مطلق والظاهر أن الأخبار في زعمه كذلك وتعقب ذلك في "الكشف" بأن ما ذكره الشيخ غير مسلم فإنه لم يفرق بين التحديث والحديث والأول هو المفعول المطلق كيف وهو يجر بالباء فتقول حدثته الخبر وبالخبر ومعلوم أن ما دخل عليه الباء لا يجوز أن يكون مفعولاً مطلقاً وقد يقال كون الشيخ لم يفرق في حيز المنع وكيف يخفى مثل ذلك على مثله لكنه قائل بأن أثر المصدر ومتعلقه قد سد مسده فيما ذكر كما سد مسده آلته في نحو ضربته سوطاً ولعل ما قرره في غير ما دخلته الباء وقال الطيبي يمكن أن يقال إن حدث وأخواتها متعديات إلى مفعول واحد حقيقة وجعلها متعديات إلى ثلاثة أو إلى اثنين تجوز أو تضمين لمعنى الإعلام واستأنس له بكلام نقله عن المفصل وكلام نقله عن صاحب الإقليد فتأمل وقرأ ابن مسعود تنبىء أخبارها وسعيد بن جبير تنبىء بالتخفيف. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(53/826)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(99) سورة الزلزلة

نزولها : مدنية . . نزلت بعد سورة «النساء» عدد آياتها : ثمانى آيات . .

عدد كلماتها : خمس وثلاثون . .

عدد حروفها : مائة وتسعة عشر حرفا . .

مناسبتها لما قبلها

ختمت سورة « البينة » قبل هذه السورة بما يلقى الكافرون ، من عذاب ، خالدين فى النار ، وبما يلقى المؤمنون ، من نعيم ، خالدين فيه خلودا مؤبدا فى الجنة . .

وجاءت سورة الزلزلة محدثة بهذا اليوم الذي يجزى فيه كل من الكافرين والمؤمنين هذا الجزاء الذي يستحقه كل فريق منهم ، فكان عرض هذا اليوم ،

وإخراج الناس فيه من قبورهم للحساب والجزاء . كان عرض هذا اليوم منظورا إليه من خلال صورتى النار والجنة اللتين تحدث عنهما السورة السابقة . كان أبعث المرهبة منه ، والخشية من لقائه .

قوله تعالى : « إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها وَقالَ الْإِنْسانُ ما لَها ؟ »

هذا من إرهاصات يوم البعث والنشور ، حيث تزلزل الأرض وتضطرب ، وهذا الزلزال

الذي سيقع لها يوم البعث ، هو زلزال خاص بهذا اليوم ، ولهذا أضيف إليها فى قوله تعالى « زلزالها » وكأنه هو الزلزال الوحيد الذي تزلزله ، م 104 .التفسير القرآنى ج 30

(55/826)

« إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » (1 : الحج) . أما ما يحدث من زلزال للأرض فيما قبل هذا الزلزال ، فلا حساب له ، إذا نظر له من خلال هذا هذا الزلزال العظيم . .

وفى هذا اليوم تخرج الأرض أثقالها ، أي ما حملت فى بطنها من أموات ، فكأنها تلدهم من جديد ، كما تلد الأم أبناءها ، بعد أن يتم حملها ، وتثقل به بطنها . . كما يقول سبحانه : « فَلَمَّا تَغَشَّاها حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُما لَئِنْ آتَيْتَنا صالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » (189 : الأعراف) . .

وقوله تعالى : « وَقالَ الْإِنْسانُ ما لَها » ؟ هو سؤال عجب ودهش ، يسأله الإنسان نفسه بعد أن تلفظه الأرض من بطنها ، وتلقى به على ظهرها . . إنه ينكر هذا الذي حدث . .

لقد كان فى بطن الأرض ، فماذا أخرجه منها ؟ وماذا يراد به ؟ وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا » ؟ (52.51 يس) .

وقوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها » . هو جواب الشرط « إذا » فى قوله تعالى : « إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها » أي فى هذا اليوم ، يوم البعث والنشور ، الذي تزلزل فيه الأرض . تحدث الأرض « أخبارها » أي تظهر الأرض أخبارها التي كانت مكنونة فى صدرها . .

وفى التعبير عن إظهار أخبارها بالتحديث . إشارة إلى أن أحداثها التي يراها الناس يومئذ ، هى أبلغ حديث ، وأظهر بيان ، فهو شواهد ناطقة بلسان الحال ، أبلغ من لسان المقال . .

(56/826)

وفى التعبير عن خبء الأرض ، وما تخرجه من بطنها بلفظ الأخبار . إشارة أخرى إلى أن هذه الأسرار المضمرة التي كانت مخبوءة فى صدر الأرض ، قد أعلنت وأصبحت أخبارا يعلمها الناس جميعا . . وهذا ما يشير إليه الرسول الكريم بقوله ، وقد سئل صلوات اللّه وسلامه عليه عن معنى قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها » .

. فقال : « أتدرون ما أخبارها » ؟ قالوا : اللّه ورسوله أعلم . قال : « أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها . .

تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا . . »

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها » أي تنشر أخبارها ، وتظهر أسرارها ، وتخرج خبأها . .

«إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها ، وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها ، وَقالَ الْإِنْسانُ ما لَها ، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها » .

. فالضمير « ها » الذي يعود إلى الأرض فى « زلزالها » و« أثقالها » و« ما لها » و« أخبارها » يشير إلى أمور خاصة بالأرض فى هذا اليوم ، يوم ينفخ فى الصور ، للبعث والنشور . . فللأرض فى هذا اليوم زلزالها الذي ينتظرها ، ولها أثقالها التي تخرجها ، ولها هذا التساؤل الذي يتساءله الناس عنها ، ولها حديثها الذي تحدثه للناس ، وعن الناس ، فى هذا اليوم الموعود .

وليس هذا الذي رآه الناس من أحداث الأرض يومئذ هو من تلقاء نفسها ، وإنما ذلك بما أوحى به إليها ربّها ، وما أمرها اللّه به ، فامتثلت له ، وأمضته كما أمر اللّه . .

وفى قوله تعالى : « أوحى لها » .إشارة إلى أنها بمجرد الإشارة إليها من اللّه ، خضعت لمشيئة اللّه . . فلم تكن فى خضوعها لربها محتاجة لأن يردّد عليها القول ، أو يؤكد لها الأمر . . بل هو مجرد اللمح والإشارة . . وهذا هو شأن

الخاضع المطيع ، الذي لا إرادة له مع من يأمره . . إنه لا يحتاج إلى أمر صريح مؤكد ، بل تغنى الإشارة عن العبارة . .

فالوحى هنا ، هو التلميح ، دون التصريح ، والإشارة دون العبارة . . وهذا من معنى قوله تعالى : « وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ، وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ » أي حق ووجب عليها الامتثال والطاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1652.1648 ﴾

(58/826)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) ﴾

افتتاح الكلام بظرف الزمان مع إطالة الجمل المضاف إليها الظرف تشويق إلى متعلّق الظَّرْف إذ المقصود ليس توقيت صدور الناس أشتاتاً ليُرَوا أعمالهم بل الإخبار عن وقوع ذلك وهو البعث ، ثم الجزاء ، وفي ذلك تنزيل وقوع البعث منزلة الشيء المحقق المفروغ منه بحيث لا يهم الناس إلا معرفة وقته وأشراطِهِ فيكون التوقيت كناية عن تحقيق وقوع الموقت .

ومعنى ﴿ زلزلت ﴾ : حُركت تحريكاً شديداً حتى يخيل للناس أنها خرجت من حيزها لأن فعل زلزل مأخوذ من الزَّلل وهو زلَق الرِّجلين ، فلما عَنَوا شدة الزلل ضاعفوا الفعل للدلالة بالتضعيف على شدة الفعل كما قالوا : كَبْكَبه ، أي كَبَّه ولَمْلَم بالمكان من اللَّمّ .

والزلزال : بكسر الزاي الأولى مصدر زَلزل ، وأما الزَّلزال بفتح الزاي فهو اسم مصدر كالوسَواس والقَلْقَال ، وتقدم الكلام على الزلزال في سورة الحج .

وإنما بُني فعل ﴿ زلزلت ﴾ بصيغة النائب عن الفاعل لأنه معلوم فاعله وهو الله تعالى .

وانتصب ﴿ زلزالها ﴾ على المفعول المطلق المؤكِّد لفعله إشارة إلى هول ذلك الزلزال فالمعنى : إذا زلزلت الأرض زلزالاً .

وأضيف ﴿ زلزالها ﴾ إلى ضمير الأرض لإفادة تمكّنه منها وتكرره حتى كأنه عرف بنسبته إليها لكثرة اتصاله بها كقول النابغة :

أسائِلَتي سَفَاهَتَها وجَهْلاً

على الهجران أختُ بني شهاب . . .

أي سفاهة لها ، أي هي معروفة بها ، وقول أبي خالد القَناني :

والله أسماكَ سُمًى مباركاً

آثرك الله به إيثَاركا . . .

يريد إيثاراً عُرِفْتَ به واختصصتَ به .

وفي كتب السيرة أن من كلام خَطر بن مالك الكاهن يذكر شيطانه حين رُجِم "بَلْبَلَه بَلْبَالُه"

أي بلبال متمكن منه .

وإعادة لفظ الأرض في قوله : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ إظهار في مقام الإِضمار

لقصد التهويل .

(59/826)

والأثقال : جمع ثِقْل بكسر المثلثة وسكون القاف وهو المتاع الثقيل ، ويطلق على المتاع

النفيس .

وإخراج الأرض أثقالها ناشىء عن انشقاق سطحها فتقذف ما فيها من معادن ومياه

وصخر .

وذلك من تكرر الانفجارات الناشئة عن اضطراب داخل طبقاتها وانقلاب أعاليها أسافل

والعكس .

والتعريف في ﴿ الإنسان ﴾ تعريف الجنس المفيد للاستغراق ، أي وقال الناس ما لها ، أي

الناس الذين هم أحياء ففزعوا وقال بعضهم لبعض ، أو قال كل أحد في نفسه حتى استوى

في ذلك الجَبان والشجاع ، والطائش والحكيم ، لأنه زلزال تجاوز الحدّ الذي يصبر على مثله

الصَّبور .

وقول : ﴿ ما لها ﴾ استفهام عن الشيء الذي ثبت للأرض ولزمها لأن اللام تفيد الاختصاص ، أي ما للأرض في هذا الزلزال ، أو ما لها زُلزلت هذا الزلزال ، أي ماذا ستكون عاقبته .

نزلت الأرض منزلة قاصد مريد يتساءل الناس عن قصده من فعله حيث لم يتبين غرضه منه ، وإنما يقع مثل هذا الاستفهام غالباً مردفاً بما يتعلق بالاستقرار الذي في الخبر مثل أن يقال : ما لَه يفعل كذا ، أو ما له في فعل كذا ، أو ما له وفلاناً ، أي معه ، فلذلك وجب أن يكون هنا مقدَّر ، أي ما لها زلزلت ، أو ما لها في هذا الزلزال ، أو ما لها وإخراج أثقالها .

وجملة : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ الجواب ﴿ إذا ﴾ باعتبار ما أبدل منها من قوله : ﴿ يومئذ يصدر الناس ﴾ فيومئذ بدل من ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ .

واليوم يطلق على النهار مع ليلِه فيكون الزلزال نهاراً وتتبَعه حوادث في الليل مع انكدار النجوم وانتثارها وقد يراد باليوم مطلق الزمان .

و ﴿ تحدث أخبارها ﴾ هو العامل في ﴿ يومئذ ﴾ وفي البدل ، والتقدير يوم إذْ تزلْزلُ الأرض وتُخرج أثقالها ويقول الناس : ما لَهَا تحدّث أخبارها الخ .

و ﴿ أخبارها ﴾ مفعول ثانٍ لفعل ﴿ تحدث ﴾ لأنه مما ألحق بظن لإِفادة الخَبَر عِلماً ، وحذف مفعوله الأول لظهوره ، أي تحدث الإِنسان لأن الغرض من الكلام هو إخبارها لما فيه من التهويل .

وضمير ﴿ تحدث ﴾ عائد إلى ﴿ الأرض ﴾ .

والتحديث حقيقته : أن يصدر كلام بخبر عن حَدث .

وورد في حديث الترمذي عن أبي هريرة قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول : عَمل كذا وكذا فهذه أخبارها " أ هـ .

وجُمع ﴿ أخبارها ﴾ باعتبار تعدد دلالتها على عدد القائلين ﴿ ما لها ﴾ وإنما هو خبر واحد وهو المبيَّن بقوله : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ .

وانتصب ﴿ أخبارها ﴾ على نزع الخافض وهو باء تعدية فعل ﴿ تحدث ﴾ .

وقوله : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ يجوز أن يتعلق بفعل ﴿ تحدث ﴾ والباء للسببيَّة ، أي تحدث أخبارها بسبب أن الله أمرها أن تحدث أخبارها .

ويجوز أن يكون بدلاً من ﴿ أخبارها ﴾ وأظهرت الباء في البدل لتوكيد تعدية فعل ﴿

تحدث ﴾ إليه ، وعلى كلا الوجهين قد أجملت أخبارها وبينها الحديث السابق .

وأطلق الوحي على أمر التكوين ، أي أوجَدَ فيها أسباب إخراج أثقالها فكأنه أسرَّ إليها بكلام كقوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ﴾ [النحل : 68] الآيات .

"

وعُدي فعل ﴿ أوحى ﴾ باللام لتضمين ﴿ أوحى ﴾ معنى قال كقوله تعالى : ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ﴾ [فصلت : 11] ، وإلا فإن حق ﴿ أوحى ﴾ أن يتعدى بحرف (إلى) .

والقول المضمَّن هو قول التكوين قال تعالى : ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [النحل : 40] .

وإنما عُدل عن فعل : قال لها إلى فعل ﴿ أوحى لها ﴾ لأنه حكاية عن تكوين لا عن قول لفظي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ [7]

قال : لما نزلت هذه الآية خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال في خطبته : « ألا وإن الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر ، ألا وإن الآخر أجل صادق ، يقضي فيها ملك قادر ، ألا وإن الخير كله بحذافيره في الجنة ، ألا وإن الشر كله بحذافيره في النار ، ألا فاعلموا وأنتم من الله على حذر ، واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ [7–8] » .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إتمام التقوى أن يتقي الله عبده ، حتى يتقيه في مثقال ذرة ، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال ، خشية أن يكون حراماً يكون حجاباً بينه وبين الحرام .

قال سهل : لا تستصغر شيئاً من الذنوب وإن قل ، فإنهم قالوا : أربعة بعد الذنب أشد من الذنب : الإصرار والاستبشار والاستصغار والافتخار .

وقد قال ابن مسعود رضي الله عنهما : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الكافر يرى ذنوبه كذبابة وقعت على أنفه فقال هكذا بيده فطارت .

ثم قال سهل : معشر المسلمين لقد أعقبتم الإقرار باللسان واليقين في القلب ، أن الله واحد ليس كمثله شيء ، وإن لكم يوماً يبعثكم فيه ويسألكم فيه عن مثاقيل الذر من أعمالكم ،

فإن كان خيراً أثابكم فيه ، وإن كان شراً عاقبكم عليه إن شاء ، فحققوه بالفعل .

قيل له : وكيف لنا أن نحققه بالفعل ؟

قال : بخمسة أشياء لا بد لكم منها : أكل الحلال ، ولبس الحلال ، وحفظ الجوارح ، وأداء الحقوق كما أمرتم به ، وكف الأذى عن المرسلين ، كيلا يذهب بأعمالكم قصاصاً في القيامة ، ثم استعينوا على ذلك كله بالله حتى يتمها لكم .

قيل له : فكيف تصح للعبد هذه الأحوال ؟

(62/826)

قال : لا بد له من عشرة أشياء يدع منها خمساً ويتمسك بخمس ويدع وساوس العدو ، ويتبع العقل فيما يزجره ، ويدع اهتمامه لأمر الدنيا ويتركها لأهلها ، ويهتم بالآخرة ويعين أهلها ويدع اتباعه الهوى ويتقي الله على كل حال ، ويترك المعصية ويشتغل بالطاعة ، ويدع الجهل والإقامة عليه حتى يحكم عمله ، ويطلب العلم ويعمل به .

قيل له : وكيف لنا أن نقيمها ونعمل بها ؟

قال : لا بد من أربعة أشياء : لا يتعب نفسه فيما كان مصيره إلى التراب ، ولا يرغب فيه ، ولا يتخذ إخواناً مصيرهم إلى التراب ، ولا يرغب فيهم .

قيل : كيف ذلك ؟

قال : يعلم أنه عبد ، مولاه عالم بحاله ، شاهد ، قادر على فرحه وترحه ، رحيم به .

والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير التسترى صـ 201. 202 ﴾

(63/826)

قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر تعالى بإخراج الأثقال التي منها الأموات ، اشتد التشوف إلى هيئة ذلك الإخراج وما يتأثر عنه ، فقال مكرراً ذكر اليوم زيادة في التهويل : ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ كان ما تقدم وهو حين يقوم الناس من القبور ﴿ يصدر ﴾ أي يرجع رجوعاً هو في غاية السرعة والاهتداء إلى الموضع الذي ينادون منه لا يغلط أحد منهم فيه ولا يضل عنه ﴿ الناس ﴾ من قبورهم إلى ربهم الذي كان لهم بالمرصاد ليفصل بينهم ﴿ أشتاتاً ﴾ أي متفرقين بحسب مراتبهم في الذوات والأحوال من مؤمن وكافر ، وآمن وخائف ، ومطيع وعاص .

ولما ذكر ذلك ، أتبعه علته فقال بانياً للمفعول على طريقة كلام القادرين : ﴿ ليروا ﴾ أي يرى الله المحسن منهم والمسيء بواسطة من يشاء من جنوده أو بغير واسطة حين يكلم سبحانه وتعالى كل أحد من غير ترجمان ولا واسطة كما أخبر بذلك رسوله. صلى الله عليه وسلم. ﴿ أعمالهم ﴾ فيعلموا جزاءها أو صادرين عن الموقف كل إلى داره ليرى جزاء عمله ، ثم سبب عن ذلك قوله مفصلاً الجملة التي قبله : ﴿ فمن يعمل ﴾ من محسن أو مسيء مسلم أو كافر ﴿ مثقال ﴾ أي مقدار وزن ﴿ ذرة خيراً ﴾ أي من جهة الخير ﴿ يره ﴾ أي حاضراً لا يغيب عنه شيء منه لأن المحاسب له الإحاطة علماً وقدرة ، فالكافر يوقف على أنه جوزي به في الدنيا أو أنه أحبط لبنائه على غير أساس الإيمان ، فهو صورة بلا معنى ليشتد ندمه ويقوى حزنه وأسفه ، والمؤمن يراه ليشتد سروره به .

(64/826)

ولما ذكر الخير ، أتبعه ضده فقال : ﴿ ومن يعمل ﴾ أي كائناً من كان ﴿ مثقال ذرة شراً ﴾ أي من جهة الشر ﴿ يره ﴾ فما فوقه ، فالمؤمن يراه ويعلم أنه قد غفر له ليشتد فرحه ، والكافر يراه فيشتد حزنه وترحه ، والذرة النملة الصغيرة أو الهباءة التي ترى طائرة في الشعاع الداخل من الكوة ، وقد رجع آخرها على أولها بتحديث الأخبار وإظهار الأسرار

، وقد ورد في حديث الأعرابي أن هذه السورة جامعة لهذه الآية الأخيرة ، وقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : إنها أحكم آية في القرآن ، وكان رسول الله عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسميها الفاذة الجامعة ، ومن فقه ذلك لم يحقر ذنباً وإن دق لأنه يجتمع إلى أمثاله فيصير كبيراً كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعائشة ـ رضى الله عنه ـا : " إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً " وروي كما ذكرته في كتابي " مصاعد النظر في الإشراف على مقاصد السور " في حديث " إنها تعدل نصف القرآن " وفي حديث آخر أنها تعدل ربع القرآن ، ولا تعارض ، فالأول نظر إليها من جهة أن الأحكام تنقسم إلى أحكام الدنيا وأحكام الآخرة ، وهذه السورة اشتملت على أحكام الآخرة إجمالاً ، وزادت على القارعة بإخراج الأثقال وأن كل أحد يرى كل ما عمل ، والثاني نظر إليه باعتبار ما تضمنه الحديث الذي رواه الترمذي عن علي ـ رضى الله عنه ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع : يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله بعثني بالحق ، ويؤمن بالموت ، ويؤمن بالبعث بعد الموت ، ويؤمن بالقدر " فاقتضى هذا الحديث أن الإيمان بالبعث الذي قررته هذه السورة ربع الإيمان الكامل الذي دل عليه القرآن ، وأيضاً فأمر الدين أربعة أجزاء : أمر المعبود ، وأمر العبيد ، وأمر العبادة ، وأمر الجزاء ، فهذه السورة تكفلت بأمر الجزاء ، وسورة الكافرون ربع لأنها في أمر العبادة على وجه الخصوص والخفاء وإن كانت على وجه التمام والوفاء ،

وسورة النصر ربع لأنها لأمر العبادة على وجه العموم والجلاء والظهور والعلاء – والله الهادي للصواب وإليه المآب. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 506.507﴾

(65/826)

فصل

قال الفخر :

قوله تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً لِّيُرَوْاْ أعمالهم﴾

الصدور ضد الورد فالوارد الجائي والصادر والمنصرف وأشتاتاً متفرقين، فيحتمل أن يردوا الأرض، ثم يصدرون عنها الأرض إلى عرصة القيامة، ويحتمل أن يردوا عرصة القيامة للمحاسبة ثم يصدرون عنها إلى موضع الثواب والعقاب، فإن قوله : ﴿أَشْتَاتاً﴾ أقرب إلى الوجه الأول ولفظة الصدر أقرب إلى الوجه الثاني، وقوله : ﴿لِّيُرَوْاْ أعمالهم﴾ أقرب إلى الوجه الأول لأن رؤية أعمالهم مكتوبة في الصحائف أقرب إلى الحقيقة من رؤية جزاء الأعمال، وإن صح أيضاً أن يحمل على رؤية جزاء الأعمال، وقوله : ﴿أَشْتَاتاً﴾ فيه وجوه أحدها : أن بعضهم يذهب إلى الموقف راكباً مع الثياب الحسنة وبياض الوجه والمنادي ينادي بين يديه : هذا ولي الله، وآخرون يذهب بهم سود الوجوه حفاة عراة مع

السلاسل والأغلال والمنادي ينادي بين يديه هذا عدو الله وثانيها : ﴿ أَشْتَاتاً ﴾ أي كل فريق مع شكله اليهودي مع اليهودي والنصراني مع النصراني وثالثها : أشتاتاً من أقطار الأرض من كل ناحية ، ثم إنه سبحانه ذكر المقصود وقال : ﴿ لِّيُرَوْاْ أعمالهم ﴾ قال بعضهم : ليروا صحائف أعمالهم ، لأن الكتابة يوضع بين يدي الرجل فيقول : هذا طلاقك وبيعك هل تراه والمرئي وهو الكتاب وقال آخرون : ليروا جزاء أعمالهم ، وهو الجنة أو النار ، وإنما أوقع اسم العمل على الجزاء لأنه الجزاء وفاق ، فكأنه نفس العمل بل المجاز في ذلك أدخل من الحقيقة ، وفي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ لِّيُرَوْاْ ﴾ بالفتح .

ثم قال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

(66/826)

﴿ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ أي زنة ذرة قال الكلبي : الذرة أصغر النمل ، وقال ابن عباس : إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها فكل واحد مما لزق به من التراب مثقال ذرة فليس من عبد عمل خيراً أو شراً قليلاً أو كثيراً إلا أراه الله تعالى إياه .

المسألة الثانية :

في رواية عن عاصم : ﴿ يُرَهُ ﴾ برفع الياء وقرأ الباقون : ﴿ يَرَهُ ﴾ بفتحها وقرأ بعضهم : ﴿ يَرَهْ ﴾ بالجزم.

المسألة الثالثة :

في الآية إشكال وهو أن حسنات الكافر محبطة بكفره وسيئات المؤمن مغفورة ، إما ابتداء وإما بسبب اجتناب الكبائر ، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذرة من الخير والشر ؟ .

واعلم أن المفسرين أجابوا عنه من وجوه : أحدها : قال أحمد بن كعب القرظي : فمن يعمل مثقال ذرة من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا حتى يلقى الآخرة ، وليس له فيها شيء ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً ، ويدل على صحة هذا التأويل ما روي أنه عليه السلام قال لأبي بكر : "يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل الخير حتى توفاها يوم القيامة" وثانيها : قال ابن عباس : ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه ، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته وثالثها : أن حسنات الكافر وإن كانت محبطة بكفره ولكن الموازنة معتبرة فتقدر تلك الحسنات انحبطت من عقاب كفره ، وكذا القول في الجانب الآخر فلا يكون ذلك قادحاً في عموم الآية ورابعها : أن تخصص عموم قوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ ونقول : المراد فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيراً يره ، ومن

يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شراً يره .

المسألة الرابعة :

(67/826)

لقائل أن يقول : إذا كان الأمر إلى هذا الحد فأين الكرم ؟ والجواب : هذا هو الكرم ، لأن المعصية وإن قلت ففيها استخفاف ، والكريم لا يحتمله وفي الطاعة تعظيم ، وإن قل فالكريم لا يضيعه ، وكأن الله سبحانه يقول لا تحسب مثقال الذرة من الخير صغيراً ، فإنك مع لؤمك وضعفك لم تضيع مني الذرة ، بل اعتبرتها ونظرت فيها ، واستدللت بها على ذاتي وصفاتي واتخذتها مركباً به وصلت إلي ، فإذا لم تضيع ذرتي أفأضيع ذرتك ! ثم التحقيق أن المقصود هو النية والقصد ، فإذا كان العمل قليلاً لكن النية خالصة فقد حصل المطلوب ، وإن كان العمل كثيراً والنية دائرة فالمقصود فائت ، ومن ذلك ما روى عن كعب : لا تحقروا شيئاً من المعروف ، فإن رجلاً دخل الجنة بإعارة إبرة في سبيل الله ، وإن امرأة أعانت بحبة في بناء بيت المقدس فدخلت الجنة .

وعن عائشة : "كانت بين يديها عنب فقدمته إلى نسوة بحضرتها ، فجاء سائل فأمرت له

بحبة من ذلك العنب فضحك بعض من كان عندها ، فقالت : إن فيما ترون مثاقيل الذرة وتلت هذه الآية" ولعلها كان غرضها التعليم ، وإلا فهي كانت في غاية السخاوة .

(68/826)

روي : "أن ابن الزبير بعث إليها بمائة ألف وثمانين ألف درهم في غرارتين ، فدعت بطبق وجعلت تقسمه بين الناس ، فلما أمست قالت : يا جارية فطوري هلمي فجاءت بخبز وزيت ، فقيل لها : أما أمسكت لنا درهماً نشتري به لحماً نفطر عليه ، فقالت : لو ذكرتيني لفعلت ذلك" وقال مقاتل : نزلت هذه الآية في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ، ويقول ما هذا بشيء ، وإنما نؤجر على ما نعطي ! وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ، ويقول : لا شيء علي من هذا إنما الوعيد بالنار على الكبائر ، فنزلت هذه الآية ترغيباً في القليل من الخير فإنه يوشك أن يكثر ، وتحذيراً من اليسير من الذنب فإنه يوشك أن يكبر ، ولهذا قال عليه السلام : " اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة " والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 57 . 59﴾

(69/826)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) ﴾

العامل في : ﴿ إذا ﴾ على قول جمهور النحاة وهو الذي يقتضيه القياس فعل مضمر يقتضيه المعنى وتقديره : تحشرون أو تجازون ، ونحو هذا ، ويمتنع أن يعمل فيه ﴿ زلزلت ﴾ لأن ﴿ إذا ﴾ مضافة إلى ﴿ زلزلت ﴾ ، ومعنى الشرط فيها ضعيف وقال بعض النحويين : يجوز أن يعمل فيها ﴿ زلزلت ﴾ ، لأن معنى الشرط لا يفارقها ، وقد تقدمت نظائرها في غير سورة ، و ﴿ زلزلت ﴾ معناه : حركت بعنف ، ومنه الزلزال ، وقوله تعالى : ﴿ زلزالها ﴾ أبلغ من قوله : زلزال ، دون إضافة إليها ، وذلك أن المصدر غير مضاف يقع على كل قدر من الزلزال وإن قل ، وإذا أضيفت إليها وجب أن يكون على قدر ما يستحقه ويستوجبه جرمها وعظمها ، وهكذا كما تقول : أكرمت زيداً كرامة فذلك يقع على كل كرامة وإن قلت بحسب زيد ، فإذا قلت كرامته أوجبت أنك قد وفيت حقه ، وقرأ الجمهور : " زِلزالها " بكسر الزاي الأولى ، وقرأ بفتحها عاصم الجحدري ، وهو أيضاً مصدر كالوسواس وغيره . و" الأثقال " : الموتى الذين في بطنها قاله ابن عباس ، وهذه إشارة إلى البعث ، وقال قوم من المفسرين منهم منذر بن سعيد الزجاج والنقاش : أخرجت موتاها وكنوزها .

قال القاضي أبو محمد : وليست القيامة موطناً لإخراج الكنوز ، وإنما تخرج كنوزها وقت الدجال ، و" قول الإنسان ما لها " هو قول على معنى التعجب من هول ما يرى ، قال جمهور المفسرين : ﴿ الإنسان ﴾ هنا يراد به الكافر ، هذا متمكن لأنه يرى ما لم يظن به قط ولا صدقه ، وقال بعض المتأولين هو عام في المؤمن والكافر ، فالكافر على ما قدمناه ، والمؤمن وإن كان قد آمن بالبعث فإنه استهول المرأى ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " ليس الخبر كالمعاينة " و" أخبار الأرض " قال ابن مسعود والثوري والثوري وغيره : هو شهادتهما بما عمل عليها من عمل صالح أو فاسد ، فالحديث على هذا حقيقة ، والكلام بإدراك وحياة يخلقها الله تعالى ، وأضاف الأخبار إليها من حيث وعتها وحصلتها ، وانتزع بعض العلماء من قوله تعالى : ﴿ تحدث أخبارها ﴾ أن قول المحدث : حدثنا وأخبرنا سواء ، وقال الطبري وقوم : التحديث في الآية مجاز ، والمعنى أن تفعله بأمر الله من إخراج أثقالها وتفتت أجزائها وسائر أحوالها هو بمنزلة التحديث بأنبائها وأخبارها ، ويؤيد القول الأول قول النبي صلى الله عليه وسلم : " فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء ، إلا شهد له يوم القيامة " ، وقرأ عبد الله بن مسعود : " تنبىء أخبارها " ، وقرأ سعيد بن جبير

: " تبين " وقوله تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ الباء باء السبب ، وقال ابن عباس وابن زيد والقرظي المعنى : ﴿ أوحى لها ﴾ ، وهذا الوحي على هذا التأويل يحتمل أن يكون وحي إلهام ، ويحتمل أن يكون وحياً برسول من الملائكة ، وقد قال الشاعر :

أوحى لها القرار فاستقرت . . . وشدها بالراسيات الثبت

(71/826)

والوحي في كلام العرب إلقاء المعنى إلقاء خفياً ، وقال بعض المتأولين : ﴿ أوحى لها ﴾ معناه : ﴿ أوحى ﴾ إلى ملائكته المصرفين أن تفعل في الأرض تلك الأفعال ، وقوله تعالى : ﴿ لها ﴾ بمعنى : من أجلها ومن حيث الأفعال فيها فهي لها ، وقوله تعالى : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ بمعنى : يتصرفون موضع وردهم مختلفي الأحوال وواحد الأشتات : شت ، فقال جمهور الناس : الورد ، هو الكون في الأرض بالموت والدفن ، والصدر : هو القيام للبعث ، و﴿ أشتاتاً ﴾ : معناه : قوم مؤمنون وقوم كافرون ، وقوم عصاة مؤمنون ، والكل سائر إلى العرض ليرى عمله ، ويقف عليه ، وقال النقاش : الورد هو ورد المحشر ، والصدر ﴿ أشتاتاً ﴾ : هو صدر قوم إلى الجنة ، وقوم إلى النار ، وقوله تعالى : ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ إما أن يكون معناه جزاء أعمالهم يراه أهل الجنة من نعيم وأهل

النار بالعذاب ، وإما أن يكون قوله تعالى : ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ متعلقاً بقوله : ﴿ بإن ربك أوحى لها ﴾ ، ويكون قوله : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ اعتراضاً بين أثناء الكلام ، وقرأ جمهور الناس : " لِيُروا " ، بضم الياء على بناء الفاعل للمفعول ، وقرأ الحسن والأعرج وحماد بن سلمة والزهري وأبو حيوة : " ليَروا " بفتح الياء على بنائه للفاعل ، ثم أخبر تعالى أنه من عمل عملاً رآه قليلاً كان أو كثيراً ، فخرجت العبارة عن ذلك بمثال التقليل ، وهذا هو الذي يسميه أهل الكلام مفهوم الخطاب ، وهو أن يكون المذكور والمسكوت عنه في حكم واحد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ [الإسراء : 23] ، وهذا كثير ، وقال ابن عباس وبعض المفسرين : رؤية هذه الأعمال هي في الآخرة ، وذلك لازم من لفظ السورة وسردها ، فيرى الخير كله من كان مؤمناً ، والكافر لا يرى في الآخرة خيراً ، لأن خيره قد عجل له في الدنيا ، وكذلك المؤمن أيضاً تعجل له سيئاته الصغار في دنياه في المصائب والأمراض ونحوها فيجيء من مجموع هذا أن من عمل

(72/826)

من المؤمنين ﴿ مثقال ذرة ﴾ من خير أو شر رآه ، ويخرج من ذلك أن لا يرى الكافر خيراً في الآخرة ، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها ، قالت : قلت يا رسول الله : أرأيت ما

كان عبد الله بن جدعان يفعله ثم البر وصلة الرحم وإطعام الطعام ، أَلَهُ في ذلك أجر ؟ قال : "لا ، لأنه لم يقل قط رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين " وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يسمي هذه الآية الجامعة الفاذة ، وقد نص على ذلك حين سئل عن الحمر الحديث ، وأعطى سعد بن أبي وقاص سائلاً تمرتين فقبض السائل يده فقال له سعد : ما هذا ؟ إن الله تعالى قبل منا مثاقيل الذر وفعلت نحو هذا عائشة في حبة عنب وسمع هذه الآية صعصعة بن عقال التيمي عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : حسبي لا أبالي أن لا أسمع غيرها ، وسمعها رجل عند الحسن ، فقال : انتهت الموعظة ، فقال الحسن : فقه الرجل ، وقرأ هشام عن ابن عامر وأبو بكر عن عاصم : "يره" ، بسكون الهاء في الأولى والأخيرة ، وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي ونافع فيما روى عنه ورش والحلواني عن قالون عنه في الأولى "يرهو" وأما الآخرة فإنه سكون وقف ، وأما من أسكن الأولى فهي على لغة من يخفف أمثال هذا ومنه قول الشاعر :

(73/826)

(ونضواي مشتاقان له أرقان)

وهذه على لغة لم يحكها سيبويه لكن حكاها الأخفش وقرأ أبو عمرو (يره) بضم الهاء

فيهما مشبعتان وقرا أبان عن عاصم وابن عباس وأبو حيوة وحميد بن الربيع عن الكسائي (يره) بضم الياء وهي رؤية بصره بمعنى يجعل يدركه ببصره والمعنى يرى جزاءه وثوابه لأن الأعمال الماضية لا ترى بعين أبدا وهذا الفعل كله هو من رأيت بمعنى أدركت ببصري فتعديه إنما هو الى مفعول واحد وقرا عكرمة (خيرا يراه) و (شرا يراه) وقال النقاش ليست برؤية بصر وانما المعنى يصيبه وينااله ويروى ان هذه السورة نزلت وأبو بكر يا كل مع النبي صلى الله عليه وسلم فترك أبو بكر الأكل وبكى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبكيك فقال يا رسول الله أو أسأل عن مثاقيل الذر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم (يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير الى الأخرة) و (الذرة) نملة صغيرة حمراء رقيقة لا يرجح لها ميزان ويقال إنها تجري اذا مضى لها حول وقد تؤول ذلك في قول امرى ء القيس

(من القاصرات الطرف لو دب محول

من الذر فوق الإتب منها لأثرا)

وحكى النقاش انهم قالوا كان بالمدينة رجلان أحدهما لا يبالي عن الصغائر يرتكبها وكان الآخر يريد ان يتصدق فلا يجد الا اليسير فيستحيي من الصدقة فنزلت الآية فيهما كانه يقال لأحدهما تصدق باليسير فإن مثقال ذرة الخير ترى وقيل للآخر كف عن الصغائر فإن

مقادير ذر الشر ترى

نجز تفسيرها والحمد لله كثيرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(74/826)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾

"يومِئِذٍ" منصوب بقوله "إذا زلزِلت" .

وقيل : بقوله : "تُحَدّثُ أَخْبارها" ؛ أي تخبر الأرض بما عُمِل عليها من خير أو شر يومئذٍ .

ثم قيل : هو من قول الله تعالى .

وقيل : مِن قول الإنسان ؛ أي يقول الإنسان ما لها تحدّث أخبارها ؛ متعجباً .

وفي الترمذيّ عن أبي هريرة قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : "أَتدرُون ما أخبارُها قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أَمَة بما عَمِل على ظهرها ، تقول عمل يوم كذا ، كذا وكذا" قال : "فَهَذِهِ أَخْبارُها" " قال : هذا حديث حسن صحيح .

قال الماورديّ ، قوله ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ : فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ بأعمال العباد على ظهرها ؛ قاله أبو هريرة ، ورواه مرفوعاً .

وهو قول من زعم أنها زَلْزلة القيامة .

الثاني : تُحَدّث أخبارها بما أخرجت من أثقالها ؛ قاله يحيى بن سلام .

وهو قول من زعم أنها زَلزلة أشراط الساعة .

قلت : وفي هذا المعنى حديث رواه ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا كان أجلُ العبد بأرض أَوثَبَتْه الحاجة إليها ، حتى إذا بلغ أقصى أثره قبضه الله ، فتقول الأرض يوم القيامة : رَبِّ هذا ما استودعتني" أخرجه ابن ماجه في سُنَنه .

وقد تقدم .

الثالث : أنها تُحَدّث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لَها ؟ قاله ابن مسعود .

فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى ، وأمر الآخرة قد أتى .

فيكون ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم ، ووعيداً للكافر ، وإنذاراً للمؤمن .

وفي حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الله تعالى يَقْلِبها حيواناً ناطقاً ؛ فتتكلم بذلك .

الثاني : أن الله تعالى يُحْدِث فيها الكلام .

الثالث : أنه يكون منها بيان يقوم مقام الكلام .

قال الطبريّ : تُبين أخبارها بالرجّة والزلزلة وإخراج الموتى .

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحى لَهَا ﴾ أي إنها تحدّث أخبارها بوحي الله "لها" ، أي إليها .

والعربُ تضع لام الصفة موضع "إلى" .

قال العجّاج يصف الأرض :

وَحَى لها القرَار فاستَقرّتِ . . .

وشَدَّها بالرّاسيات الثّبّتِ

وهذا قول أبي عبيدة : " أَوحى لها " أي إليها .

وقيل : " أَوْحَى لها " أي أمرها ؛ قاله مجاهد .

وقال السدّي : "أَوْحَى لها" أي قال لها .

وقيل : سخرها .

وقيل : المعنى يوم تكون الزلزلة ، وإخراج الأرض أثقالها ، تحدث الأرض أخبارها ؛ ما كان عليها من الطاعات والمعاصي ، وما عمل على ظهرها من خير وشر .

ورُوي ذلك عن الثوريّ وغيره .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً ﴾ أي فِرقاً ؛ جمع شَتّ.

قيل : عن موقف الحساب ؛ فريق يأخذ جهة اليمين إلى الجنة ، وفريق آخر يأخذ جهة الشمال إلى النار ؛ كما قال تعالى :

﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم : 14] ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم : 43] .

وقيل : يرجعون عن الحساب بعد فراغهم من الحساب .

﴿ أَشْتَاتاً ﴾ يعني فِرقاً فِرقاً .

﴿ لِّيُرَوْاْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ يعني ثواب أعمالهم .

وهذا كما رُوي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من أحدٍ يوم القيامة إلاّ ويَلُومُ نفسه ، فإن كان محسِناً فيقول : لِمَ لا ازددت إحساناً ؟ وإن كان غير ذلك يقول : لِمَ لا نَزَعت عن المعاصي " ؟ وهذا عند معاينة الثواب والعقاب .

وكان ابن عباس يقول : "أشْتَاتاً" متفرقين على قدر أعمالهم أهل الإيمان على حِدة ، وأهل كل دين على حدة .

وقيل : هذا الصدور ، إنما هو عند النشور ؛ يَصْدُرون أشتاتاً من القبور ، فيصار بهم إلى موقف الحساب ، ليرُوا أعمالَهم في كتبهم ، أو لِيرُوا جزاء أعمالهم ؛ فكأنهم وردوا القبور فدفِنوا فيها ، ثم صدروا عنها .

والوارد : الجائي .

والصادر: المنصرف.

﴿ أَشْتَاتاً ﴾ أي يبعثون من أقطار الأرض.

(76/826)

وعلى القول الأول فيه تقديم وتأخير؛ مجازه: تحدّث أخبارها، بأن ربك أوحى لها، ليروا أعمالهم.

واعترض قوله: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً ﴾ متفرقين عن موقف الحساب.

وقراءة العامة "لِيُرَوا" بضم الياء؛ أي ليريهم الله أعمالهم.

وقرأ الحسن والزهريّ وقتادة والأعرج ونصر بن عاصم وطلحة بفتحها؛ وروي ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم.

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ كان ابن عباس يقول: مَن يعمل من الكفار مثقال ذرّة خيراً يَرَهُ في الدنيا، ولا يُثاب عليه في الآخرة، ومن يعمل مثقال ذرّة من شر عُوقب عليه في الآخرة، مع عقاب الشرك، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من المؤمنين يَرَهُ

في الدنيا ، ولا يعاقَبْ عليه في الآخرة إذا مات ، ويُتجاوز عنه ، وإن عمل مثقال ذرّة من خير يُقْبلْ منه ، ويضاعفْ له في الآخرة .

وفي بعض الحديث : " الذرّة لا زِنة لها " وهذا مَثَلٌ ضرَبه الله تعالى : أنه لا يُغْفِل من عمل ابن آدم صغيرةً ولا كبيرة .

وهو مِثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء : 40] .

وقد تقدم الكلام هناك في الذرّ ، وأنه لا وزن له .

وذكر بعض أهل اللغة أن الذرّ : أن يضرب الرجل بيده على الأرض ، فما عِلق بها من التراب فهو الذّرّ ، وكذا قال ابن عباس : إذا وضعت يدك على الأرض ورفعتها ، فكل واحد مما لزق من التراب ذَرَّة .

وقال محمد بن كعب القُرَظِيّ : فمنْ يَعْمَل مِثْقَال ذَرَّة منْ خَيْر من كافر ، يرى ثوابه في الدنيا ، في نفسه وماله وأهله وولده ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير .

(77/826)

ومن يعمل مثقال ذرّة من شرّ من مُؤْمن ، يرى عُقوبته في الدنيا ، في نفسه وماله وولده وأهله ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شرّ .

دليله ما رواه العلماء الأثبات من حديث أنس : أن هذه الآية نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يأكل ، فأمسك وقال : يا رسول الله ، وإنا لنُرَى ما عَمِلْنا من خير وشرّ ؟ قال : " ما رأيت مما تكره فهو مثاقيل ذرّ الشرّ ، ويُدَّخَر لكم مثاقيلُ ذَرّ الخير ، حتى تُعْطَوْه يومَ القِيامة " .

قال أبو إدريس : إن مِصْداقه في كتاب الله : ﴿ وَمَآ أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : 30] .

وقال مقاتل : نزلت في رجلين ، وذلك أنه لما نزل ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ ﴾ [الإنسان : 8] كان أحدهم يأتيه السائل ، فيستقل أن يعطِيه التمرة والكِسرة والجوزة .

وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ، كالكَذبة والغِيبة والنظْرة ، ويقول : إنما أوعد الله النار على الكبائر ؛ فنزلت ترغبهم في القليل من الخير أن يُعْطُوه ؛ فإنه يوشِك أن يكثُر ، ويُحَذِّرهُمْ اليسيرَ من الذنب ، فإنه يوشِك أن يكثُر ؛ وقاله سعيد بن جبير .

والإِثم الصغير في عين صاحبه يوم القيامة أعظم من الجبال ، وجميع محاسنه أقل في عينه من كل شيء .

الثانية : قراءة العامة "يَرَهْ" بفتح الياء فيهما .

وقرأ الجَحْدَرِيّ والسُّلَمِيّ وعيسى ابن عمر وأبان عن عاصم : "يُرَهْ" بضم الياء ؛ أي يُريه اللَّهُ إياه .

والأَوْلَى الاختيار ؛ لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ [آل عمران : 30] الآية .

وسكن الهاء في قوله "يَرَه" في الموضعين هشام .

وكذلك رواه الكسائي عن أبي بكر وأبي حَيْوة والمغيرة .

واختلس يعقوب والزهري والجحدري وشيبة .

وأشبع الباقون .

وقيل "يَرَه" أي يرى جزاءه ؛ لأن ما عمله قد مضى وعُدم فلا يُرَى .

وأنشدوا :

(78/826)

إنّ من يَعْتَدِي ويَكْسِبُ إثْما . . .

وَزْنَ مِثْقَال ذرّة سَيَرَاهُ

ويُجَازَى بفعله الشرَّ شرا . . .

وبفعل الجميل أيضاً جَزَاهُ

هكذا قوله تبارك ربّي . . .

في إذا زلزلت وجَل ثَناه

الثالثة : قال ابن مسعود : هذه أحكم آية في القرآن ؛ وصدّق .

وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية ؛ القائلون بالعموم ومن لَمْ يقل به .

وروى كعب الأحبار أنه قال : لقد أنزل الله على محمد آيتين أحْصَتَا ما في التوراة والإنجيل والزَّبور والصُّحُف : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ .

قال الشيخ أبو مَدْين في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ قال : في الحال قبل المآل .

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يسمي هذه الآية الآية الجامعة الفاذة ؛ كما في الصحيح لما سئل عن الحُمُر وسكت عن البغال ، والجواب فيهما واحد ؛ لأن البغل والحمار لا كَرّ فيهما ولا فرّ ؛ فلما ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم ما في الخيل من الأجر الدائم ، والثواب المستمر ، سأل السائل عن الحُمُر ، لأنهم لم يكن عندهم يومئذٍ بَغْل ، ولا دخل الحجاز منها إلا بغلة النبيّ صلى الله عليه وسلم "الدُّلْدُل" ، التي أهداها له المقوِقس ، فأفتاه في الحَمِير بعموم الآية ، وإن في الحمار مثاقيل ذرّ كثيرة ؛ قاله ابن العربيّ .

وفي الموطأ : أن مِسْكيناً استطعم عائشة أم المؤمنين وبين يديها عِنَب ؛ فقالت لإنسان : خذ حبة فأعطه إياها .

فجعل ينظر إليها ويعجب ؛ فقالت : أتعجب ! كم ترى في هذه الحبَة من مثقال ذرّة .

وروي عن سعد بن أبي وَقّاص : أنه تصدق بتمرتين ، فقبض السائل يده ، فقال للسائل :

ويقبل الله منا مثاقيل الذرّ ، وفي التمرتين مثاقيل ذرّ كثيرة .

(79/826)

وروى المُطَّلب بن حَنْطَب : " أن أعرابياً سمع النبيّ صلى الله عليه وسلم يَقرأُها فقال : يا رسول الله ، أمثقالُ ذرّة ! قال : "نعم" فقال الأعرابيّ : واسَوْأَتاه ! مِرارا ً : ثم قام وهو يقولها ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لقد دَخَل قلبَ الأَعْرابيّ الإيمانُ" " وقال الحسن : قَدِم صعصعة عَمّ الفرزدق على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ الآيات ؛ قال : لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها ، حَسْبي ، فقد انتهت الموعظة ؛ ذكره الثعلبي .

ولفظ الماوردِي : ورُوي أن صعصعة بن ناجية جدّ الفرزدق أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستقرئه ، فقرأ عليه هذه الآية ؛ فقال صعصعة : حسبي حسبي ؛ إن عَمِلتُ مِثقالَ ذرّةٍ شرّاً رأيتُه .

ورَوى مَعمر عن زيد بن أسلم : " أن رجلاً جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال :

عَلِّمني مما علمك الله .

فدفعه إلى رجل يعلمه ؛ فعلمه ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ حتى إذا بلغ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ قال : حسبي .

فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "دَعُوهُ فإنَّهُ قد فَقُهُ" ويحكى أن أعرابياً أخَّر "خَيْراً يَرَهُ" فقيل : قدمت وأخرت .

فقال :

خذ بطنَ هَرشَى أو قَفاها فإنهُ . . .

كِلا جانِبي هَرْشَى لهنّ طرِيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(80/826)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض ﴾

أَيْ حُرِّكَتْ تحريكاً عنيفاً مُتكرراً متداركاً ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ أي الزلزالُ المخصوصُ بها عَلَى مُقْتَضى المشيئَةِ الإلهيةِ المبنيةِ على الحِكمِ البالغةِ وهُو الزلزالُ الشديدُ الذي لا غايةَ وراءَهُ أو زلزالُها العجيبُ الذي لا يُقَادرُ قدرُهُ أو زلزالُها الداخلُ في حيزِ الإمكانِ وقُرِىءَ بفتحِ

الزَّاي وهو اسمٌ وليسَ في الأبنيةِ فعلالٌ بالفتحِ إلا في المضاعفِ وقولُهم خزْعَالٌ نادرٌ وقَدْ قيلَ : الزلزالُ بالفتحِ أيضاً مصدرٌ كالوَسواسِ والجرجارِ والقَلقالِ وذلكَ عندَ النفخةِ الثانيةِ لقولِه عزَّ وجلَّ ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرضُ أَثْقَالَهَا ﴾ أي ما في جوْفِها من الأمواتِ والدفائنِ جمعُ ثِقَلٍ وهُو متاعُ البيتِ وإظهارُ الأرضِ في موقعِ الإضمارِ لزيادةِ التقريرِ أوْ للإيماءِ إلى تبدلِ الأرضِ غيرَ الأرضِ أو لأنَّ إخراجَ الأثقالِ حالُ بعضِ أجزائِها ﴿ وَقَالَ الإِنسانُ ﴾ أيْ كُلُّ فردٍ من أفرادِه لما يَدهمُهُم منَ الطامَّةِ التامَّةِ ويبهرهُم مِنَ الدَّاهيةِ العامَّةِ ﴿ مَا لَهَا ﴾ زُلزلتْ هذه المرتبةَ الشديدةَ منَ الزلزالِ وأخرجتْ ما فيهَا منَ الأثقالِ استعظاماً لما شاهدُوه منَ الأمرِ الهائلِ وقد سيرتِ الجبالُ في الجَوِّ وصيرتْ هباءً وقيلَ : هُو قولُ الكافرِ إذْ لمْ يكُنْ مؤمناً بالبعثِ والأظهرُ هُو الأولُ علَى أنَّ المؤمنَ يقولُه بطريقِ الاستعظامِ والكافرُ بطريقِ التعجبِ ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدلٌ منْ إذا وقولُه تعالَى : ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ عَامِلٌ فيهمَا ويجوزُ أنْ يكونَ إذَا منتصباً بمضمرٍ أيْ يومَ إذْ زلزلتْ الأرضُ تحدثُ الخلقَ أخبارَها إمَّا بلسانِ الحالِ حيثُ تدلُّ دلالةً ظاهرةً على ما لأجلِه زلزالُها وإخراجُ أثقالِها وإما بلسانِ المقالِ حيثُ ينطقُها الله تعالَى فتخبرُ بما عُمِلَ عليهَا منْ خيرٍ وشرَ ورُوِيَ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : " أنها تشهدُ على كُلِّ أحدٍ بما عَمِلَ عَلَى

ظَهرِهَا " وقُرِئ َتنبئُ أخبارَها وقُرِئ َتنبئُ منَ الإنباءِ .

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ أي تحدثُ أخبارَهَا بسببِ إيحاءِ ربِّكَ لها وأمْرِهِ إيَّاهَا بالتَّحديثِ عَلَى أحَدِ الوجهينِ ويَجُوزُ أنْ يكُونَ بَدَلاً مِنْ أَخْبارِهَا كَأنَّه قيلَ : تحدثُ بأخبارِهَا بأنَّ رَبَّكَ أوحى لأنَّ التحديثَ يستعملُ بالباءِ وبدونِا وأَوْحَى لَها بمعنى أَوْحَى إلِيَها .

(82/826)

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يومَ إذْ يقعُ ما ذُكِرَ ﴿ يَصْدُرُ الناس ﴾ من قبورِهم إلى موقفِ الحسابِ ﴿ أَشْتَاتاً ﴾ متفرقينَ بحسبِ طبقاتِهم بيضِ الوجوهِ آمنينَ وسودِ الوجوهِ فزعينَ كما مرَّ في قولِه تعالَى فتأتونَ أفواجاً وقيلَ : يصدرُونَ عن الموقفِ أشتاتاً ذاتَ اليمينِ إلى الجنةِ وذاتَ الشمالِ إلى النارِ ﴿ لّيُرَوْاْ أعمالهم ﴾ أي أجزيةَ أعمالِهم خيراً كانَ أَوْ شراً وقُرِئ َليَروا بالفتحِ وقولُه تعالَى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ تفصيلٌ ليَروا وقُرِئ َيُرَه والذرةُ النملةُ الصغيرةُ وقيلَ ما يُرى في شُعاعِ الشمسِ منَ الهباءِ وأيَّاً مَا كانَ فمَعنى ما يعادلُها منْ خيرٍ وشرَ إما مشاهدةُ جزائِه فمَنِ الأُولى مختصةٌ بالسُّعداءِ

والثانية بالأشقياءِ كيفَ لا وحسناتُ الكافرِ محبطةٌ بالكفرِ وسيئاتُ المؤمنِ المجتنبِ عن الكبائرِ معفوةٌ وما قيلَ : مِنْ أن حسنةَ الكافرِ تؤثرُ في نقصِ العقابِ يردُّه قولُه تعالَى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ وأما مشاهدةُ نفسِه من غيرِ أنْ يعتبرَ مَعَهُ الجزاءُ ولاَ عدمُه بلْ يفوضُ كلٌّ منهما إلى سائرِ الدلائلِ الناطقةِ بعفوِ صغائرِ المؤمنِ المجتنبِ عنِ الكبائرِ وإثابتِه بجميعِ حسناتِه وبحبوطِ حسناتِ الكافرِ ومعاقبتِه بجميعِ معاصيهِ فالمَعْنى ما رُوِيَ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما : " ليسَ منْ مؤمنٍ ولاَ كافرٍ عملَ خيراً أو شراً إلا أراهُ اللهُ تعالَى إيّاهُ أما المؤمنُ فيغفرُ له سيئاتِه ويثيبُه بحسناتِه وأما الكافِرُ فيردُّ حسناتِه تحسراً ويعاقبُه بسيئاتِه " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(83/826)

وقال الآلوسى :

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾

أي يوم إذ ما ذكر وهو يقع ظرف لقوله تعالى : ﴿ يَصْدُرُ الناس ﴾ يخرجون من قبورهم بعد أن دفنوا فيها إلى موقف الحساب ﴿ أَشْتَاتاً ﴾ متفرقين بحسب طبقاتهم بيض الوجوه

آمنين وسود الوجوه فزعين وراكبين وماشين ومقيدين بالسلاسل وغير مقيدين وعن بعض السلف متفرقين إلى سعيد وأسعد وشقي وأشقى وقيل إلى مؤمن وكافر وعن ابن عباس أهل الإيمان على حدة وأهل كل دين على حدة وجوز أن يكون المراد كل واحد وحده لا ناصر له ولا عاضد كقوله تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ [الأنعام: 94] وقيل متفرقين بحسب الأقطار ﴿ لِّيُرَوْاْ أعمالهم ﴾ أي ليبصروا جزاء أعمالهم خيراً كان أو شراً فالرؤية بصرية والكلام على حذف مضاف أو على أنه تجوز بالأعمال عما يتسبب عنها من الجزاء وقدر بعضهم كتب أو صحائف وقال آخر لا حاجة إلى التأويل والأعمال تجسم نورانية وظلمانية بل يجوز رؤيتها مع عرضيتها وهو كما ترى وقيل المراد ليعرفوا أعمالهم ويوقفوا عليها تفصيلاً عند الحساب فلا يحتاج إلى ما ذكر أيضاً وقال النقاش الصدور مقابل الورود فيردون المحشر ويصدرون منه متفرقين فقوم إلى الجنة وقوم إلى النار ليروا جزاء أعمالهم من الجنة والنار وليس بذاك وأياً ما كان فقوله تعالى: ﴿ لِّيُرَوْاْ ﴾ متعلق بيصدر وقيل هو متعلق بأوحى لها وما بينهما اعتراض وقرأ الحسن والأعرج وقتادة وحماد بن سلمة والزهري وأبو حيوة وعيسى ونافع في رواية ليروا بفتح الياء وقوله تعالى:

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾

تفصيل ﴿ ليروا ﴾ والذرة نملة صغيرة حمراء رقيقة ويقال إنها تجري إذا مضى لها حول وهي علم في القلة قال امرؤ القيس

: من القاصرات الطرف لو دب محول . . .

من الذر فوق الأتب منها لأثرا

(84/826)

وقيل الذر ما يرى في شعاع الشمس من الهباء وأخرج هناد عن ابن عباس أنه أدخل يده في التراب ثم رفعها ثم نفخ فيها وقال كل واحدة من هؤلاء مثقال ذرة وانتصاب خيراً وشراً على التمييز لأن مثقال ذرة مقدار وقيل على البدلية من مثقال والظاهر أن من في الموضعين عامة للمؤمن والكافر وأن المراد من رؤية ما يعادل مثقال ذرة من خير أو شر مشاهدة جزائه بأن يحصل له ذلك واستشكل بأن ذلك يقتضي إثابة الكافر بحسناته وما يفعله من الخير مع أنهم قالوا أعمال الكفرة محبطة وادعى في شرح المقاصد الإجماع على ذلك كيف وقد قال سبحانه وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً وقال عز وجل : ﴿ أُوْلَئِكَ الذين لَيْسَ لَهُمْ فِى الآخرة إِلاَّ النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾ [هود : 16] وقال تعالى : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ [إبراهيم : 18] الآية وكون خيرهم الذي يرونه تخفيف العذاب يدفعه قوله تعالى : ﴿ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العذاب ﴾ [البقرة : 86] وقوله سبحانه : ﴿ زدناهم عَذَاباً فَوْقَ العذاب بِمَا كَانُواْ

يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : 88] ويقتضي أيضاً عقاب المؤمن بصغائره إذا اجتنب الكبائر مع أنهم قالوا إنها مكفرة حينئذٍ لقوله تعالى : ﴿ أن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيآتكم ﴾ [النساء : 31] وقول ابن المنير : إن الاجتناب لا يوجب التكفير عند الجماعة بل التوبة أو مشيئة الله تعالى ليس بشيء لأن التوبة والاجتناب سواء في حكم النص ومشيئة الله تعالى هي السبب الأصيل فالتزم بعضهم كون المراد بمن الأولى السعداء وبمن الثانية الأشقاء بناءً على أن فمن يعمل الخ تفصيل ليصدر الناس أشتاتاً وكان مفسراً بما حاصله فريق في الجنة وفريق في السعير فالمناسب أن يرجع كل فقرة إلى فرقة لتطابق المفصل المجمل ولأن الظاهر قوله سبحانه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ ﴾ ومن يعمل بتكرير أداة الشرط

(85/826)

يقتضي التغاير بين العاملين وقال آخرون بالعموم إلا أن منهم من قال في الكلام قيد مقدر ترك لظهوره والعلم به من آيات أخر فالتقدير فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره إن لم يحبط ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره إن لم يكفر ومنهم من جعل الرؤية أعم مما تكون في الدنيا وما تكون في الآخرة فالكافر يرى جزاء خيره في الدنيا وجزاء شره في الآخرة والمؤمن يرى جزاء شره في الدنيا وجزاء خيره في الآخرة فقد روى البغوي وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن محمد

بن كعب القرظي أنه قال: فمن يعمل مثال ذرة من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا في نفسه وأهله وماله حتى يبلغ الآخرة وليس له فيها خير ومن يعمل مثقال ذرة من شر وهو مؤمن كوفىء ذلك في الدنيا في نفسه وأهله وماله حتى يبلغ الآخرة وليس عليه فيها شر وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في "الشعب" وابن أبي حاتم وجماعة عن أنس قال بينما أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يأكل مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ الآية فرفع أبو بكر يده وقال يا رسول الله إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر فقال عليه الصلاة والسلام يا أبا بكر أرأيت ما ترى في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة وفي رواية ابن مردويه عن أبي أيوب أنه صلى الله عليه وسلم قال له إذ رفع يده

(86/826)

"من عمل منكم خيراً فجزاؤه في الآخرة ومن عمل منكم شراً يره في الدنيا مصيبات وأمراضاً ومن يكن فيه مثقال ذرة من خير دخل الجنة" ومنهم من قال المراد من رؤية ما يعادل ذلك من الخير والشر مشاهدة نفسه عن غير أن يعتبر معه الجزاء ولا عدمه بل يفوض كل منهما إلى سائر الدلائل الناطقة بعفو صغائر المؤمن المجتنب عن الكبائر وإثابته بجميع

حسناته وبحبوط حسنات الكافر ومعاقبته بجميع معاصيه وبه يشعر ما أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث عن ابن عباس من قوله في الآية ليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً وشراً في الدنيا إلا أراه الله تعالى إياه فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته فيغفر له من سيئاته ويثيبه بحسناته وأما الكافر فيريه حسناته وسيئاته فيرد حسناته ويعذبه بسيئاته واختار هذا الطيبي فقال إنه يساعده النظم والمعنى والأسلوب أما النظم فإن قوله تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ ﴾ الخ تفصيل لما عقب به من قوله سبحانه: ﴿ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أعمالهم ﴾ [الزلزلة: 6] فيجب التوافق والأعمال جمع مضاف يفيد الشمول والاستغراق ويصدر الناس مفيد بقول عز وجل: ﴿ أَشْتَاتاً ﴾ فيفيد أنهم على طرائق شتى للنزول في منازلهم من الجنة والنار بحسب أعمالهم المختلفة ومن ثم كانت الجنة ذات درجات والنار ذات دركات وأما المعنى فإنها وردت لبيان الاستقصاء في عرض الأعمال والجزاء عليها كقوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بنا ﴾ [الأنبياء: 47] وأما الأسلوب فإنها من الجوامع الحاوية لفوائد الدين أصلاً وفرعاً روينا عن البخاري ومسلم عن أبي هريرة سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحمر أي عن صدقتها قال لم ينزل علي فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة أي المتفردة في معناها فتلاها عليه الصلاة والسلام وروى الإمام

أحمد عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه الآية فقال حسبي لا أبالي أن لا أسمع من القرآن غيرها انتهى وأقول الظاهر عموم من وكون المراد رؤية الجزاء كما تقدم وكذا الظاهر كون ذلك في الآخرة ولا إشكال وذلك لأن الفقرة الأولى وعد و الثانية وعيد ومذهبنا أن الوعد لازم الوقوع تفضلاً وكرماً والوعيد ليس كذلك فيفوض أمر الشر في الثانية على الدلائل وهي ناطقة بأنه إن كان كفراً لا يغفر وإن كان صغيرة من مؤمن مجتنب الكبائر يكفر وإن كان كبيرة من مؤمن أو صغيرة منه وهو غير مجتنب الكبائر فتحت المشيئة وخبرا أنس وأبي أيوب السابقان لا يأبيان ذلك بعد التأمل ولا يبعد فيما أرى أن يكون ما عدا الكفر من الكافر كذلك وأما أمر الخير فباق على ما يقتضيه الظاهر وهو بالنسبة إلى المؤمن ظاهر وأما بالنسبة إلى الكافر فتخفيف العذاب للأحاديث الصحيحة فقد ورد أن حاتماً يخفف الله تعالى عنه لكرمه وأن أبا لهب كذلك لسروره بولادة النبي صلى الله عليه وسلم وإعتاقه لجاريته ثويبة حين بشرته بذلك والحديث في تخفيف عذاب أبي طالب مشهور وما يدل على عدم تفخيف العذاب فالعذاب فيه محمول على عذاب الكفر بحسب مراتبه فهو الذي لا يخفف والعذاب الذي دلت الأخبار على تخفيفه غير ذلك ومعنى إحباط أعمال الكفار أنها لا تنجيهم من العذاب المخلد كأعمال غيرهم وهو معنى كونها سراباً وهباءً ودعوى الإجماع على إحباطها بالكلية غير

تامة كيف وهم مخاطبون بالتكاليف في المعاملات والجنايات اتفاقاً والخلاف إنما هو في خطابهم في غيرها من الفروع ولا شك أنه لا معنى للخطاب بها الأعقاب تاركها وثواب فاعلها وأقله التخفيف وإلى هذا ذهب العلامة شهاب الدين الخفاجي عليه الرحمة ثم قال وما في "التبصرة" و"شرح المشارق" و"تفسير الثعلبي" من أن أعمال الكفرة الحسنة التي لا يشترط فيها الإيمان كإنجاء الغريق وإطفاء الحريق وإطعام ابن السبيل يجزون عليها في

(88/826)

الدنيا ولا تدخر لهم في الآخرة كالمؤمنين بالإجماع للتصريح به في الأحاديث فإن عمل أحدهم في كفره حسنات ثم أسلم اختلف فيه هل يثاب عليها في الآخرة أم لا بناءً على أن اشتراط الإيمان في الاعتداد بالأعمال وعدم إحباطها هل هو بمعنى وجود الإيمان عند العمل أو وجوده ولو بعد لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث أسلمت على ما سلف لك من خير غير مسلم ودعوى الإجماع فيه غير صحيحة لأن كون وقوع جزائهم في الدنيا دون الآخرة كالمؤمنين مذهب لبعضهم وذهب آخرون إلى الجزاء بالتخفيف وقال الكرماني : إن التخفيف واقع لكنه ليس بسبب عملهم بل لأمر آخر كشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ورجائه ومنه ما يكون لأبي لهب كما قال الزركشي انتهى ولقائل أن يقول إن الشفاعة من

آثار عمل المشفوع الخير أيضاً فتأمل وسبب نزول الآية على ما أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه لما نزل

(89/826)

﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ [الإنسان : 8] كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمرة والبسرة فيردونه ويقولون ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك ويقولون إنما وعد الله تعالى النار على الكبائر فنزلت الآية ترغبهم في القليل من الخير أن يعملوه وتحذرهم اليسير من الشر أن يعملوه وفيها من دلالة الخطاب ما لا يخفى وقد كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعدها يتصدقون بما قل وكثر فقد روي أن عائشة رضي الله تعالى عنها بعث إليها ابن الزبير بمائة ألف وثمانين ألف درهم في غرارتين فدعت بطبق وجعلت تقسمها بين الناس فلما أمست قالت لجاريتها هلمي وكانت صائمة فجاءت بخبز وزيت فقالت ما أمسكت لنا درهماً نشتري به لحماً نفطر عليه فقالت لو ذكرتيني لفعلت وجاء في عدة روايات أنها أعطت سائلاً يوماً حبة من عنب فقيل لها في ذلك فقالت هذه أثقل من ذر كثير

ثم قرأت الآية وروي نحو هذا عن عمر وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن مالك رضي الله تعالى عنهم وكان غرضهم تعليم الناس أنه لا بأس بالتصدق بالقليل ولهم بذلك أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أخرج الزجاجي في أماليه عن أنس بن مالك أن سائلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاه تمرة فقال السائل نبي من الأنبياء بالتصدق بتمرة فقال عليه الصلاة والسلام أما علمت فيها مثاقيل ذر كثيرة وجاء أنه عليه الصلاة والسلام قال " اتقوا النار ولو بشق تمرة " ثم قرأ الآية وتقديم عمل الخير لأنه أشرف القسمين والمقصود بالأصالة لا يخفى حسن موقعه ويعلم منه أن هذا الإحصاء لا ينافي كرمه عز وجل المطلق وما يحكى من أن أعرابياً أخر خيراً يره فقيل له قدمت وأخرت فقال

: خذا بطن هرشي أو قفاها فإنه . . .

كلا جانبي هرشي لهن طريق

(90/826)

فغفلة عن اللطائف القرآنية أو لعله أراد أنه فيما يتعلق بالعمل لا بأس به قدم أو أخر لا أن القراءة به جائزة وقرأ الحسين بن علي على جده وعليهما الصلاة والسلام وابن عباس رضي الله تعالى عنهما وعبد الله بن مسلم وزيد بن علي وأبو حيوة والكلبي وخليد بن

نشيط وأبان عن عاصم والكسائي في رواية حميد بن الربيع عنه يره بضم الياء في الموضعين وقرأ هشام وأبو بكر يره بسكون الهاء فيهما وأبو عمرو بضمها مشبعة وباقي السبعة بالإشباع في الأول والسكون في الثاني والإسكان في الوصل لغة حكاها الأخفش ولم يحكها سيبويه وحكاها الكسائي أيضاً عن بني كلاب وبني عقيل وقرأ عكرمة يراه بالألف فيهما وذلك على لغة من يرى الجزم بحذف الحركة المقدرة على حرف العلة كما حكى الأخفش أو على ما يقال في غير القرآن من توهم ان من موصولة لا شرطية كما قيل في قوله تعالى: ﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾ [يوسف: 90] في قراءة من أثبت ياء يتق وجزم يصبر وجوز أن تكون الألف للإشباع والوجه الأول أولى والله تعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ روح المعاني حـ 30 صـ ﴾

(91/826)

وقال الشوكاني فى الآيات السابقة:

قوله: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا ﴾

أي: إذا حركت حركة شديدة.

وجواب الشرط: ﴿ تحدث ﴾، والمراد: تحركها عند قيام الساعة، فإنها تضطرب

حتى يتكسر كلّ شيء عليها .

قال مجاهد : وهي النفخة الأولى لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة * تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ [النازعات : 6 ، 7] وذكر المصدر للتأكيد ، ثم أضافه إلى الأرض ، فهو مصدر مضاف إلى فاعله ، والمعنى : زلزالها المخصوص الذي يستحقه ، ويقتضيه جرمها وعظمها .

قرأ الجمهور : ﴿ زلزالها ﴾ بكسر الزاي ، وقرأ الجحدري ، وعيسى بفتحها ، وهما مصدران بمعنى .

وقيل : المكسور مصدر ، والمفتوح اسم .

قال القرطبي : والزلزال بالفتح مصدر كالوسواس ، والقلقال ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ أي : ما في جوفها من الأموات والدفائن ، والأثقال جمع ثقل ، قال أبو عبيدة ، والأخفش : إذا كان الميت في بطن الأرض ، فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها ، فهو ثقل عليها .

قال مجاهد : أثقالها موتاها تخرجهم في النفخة الثانية .

وقد قيل : للإنس والجنّ الثقلان ، وإظهار الأرض في موضع الإضمار لزيادة التقرير .

﴿ وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا ﴾ أي : قال كل فرد من أفراد الإنسان ما لها زلزلت ؟ لما يدهمه من أمرها ، ويبهره من خطبها .

وقيل : المراد بالإنسان الكافر ، وقوله : ﴿ ما لها ﴾ مبتدأ وخبر ، وفيه معنى التعجيب ، أي : أيّ شيء لها ، أو لأيّ شيء زلزلت وأخرجت أثقالها ؟ وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل

من "إذا" ، والعامل فيهما قوله : ﴿ تُحَدّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ويجوز أن يكون العامل في إذا محذوفاً ، والعامل في يومئذ تحدّث ، والمعنى : يوم إذا زلزلت وأخرجت تخبر بأخبارها ، وتحدّثهم بما عمل عليها من خير وشرّ ، وذلك إما بلسان الحال حيث يدلّ على ذلك دلالة ظاهرة ، أو بلسان المقال ، بأن ينطقها الله سبحانه .

(92/826)

وقيل هذا متصل بقوله : ﴿ وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا ﴾ أي : قال ما لها ﴿ تُحَدّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ متعجباً من ذلك ، وقال يحيى بن سلام : تحدّث أخبارها بما أخرجت من أثقالها .

وقيل : تحدّث بقيام الساعة ، وأنها قد أتت ، وأن الدنيا قد انقضت .

قال ابن جرير : تبين أخبارها بالرجفة والزلزلة ، وإخراج الموتى ، ومفعول تحدّث الأوّل محذوف ، والثاني هو أخبارها ، أي : تحدّث الخلق أخبارها .

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ متعلق ب ﴿ تحدّث ﴾ ، ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها .

وقيل : الباء زائدة ، وأنّ وما في حيزها بدل من ﴿ أخبارها ﴾ ، وقيل : الباء سببية ، أي : بسبب إيحاء الله إليها .

قال الفرّاء : تحدّث أخبارها بوحي الله وإذنه لها ، واللام في ﴿ أوحى لها ﴾ بمعنى إلى

وإنما أثرت على " إلى " لموافقة الفواصل، والعرب تضع لام الصفة موضع إلى.

كذا قال أبو عبيدة.

وقيل: إن ﴿ أوحى ﴾ يتعدّى باللام تارة، وبإلى أخرى.

وقيل: إن اللام على بابها من كونها للعلة.

والموحى إليه محذوف، وهو الملائكة، والتقدير: أوحى إلى الملائكة لأجل الأرض، أي: لأجل ما يفعلون فيها.

والأوّل أولى.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً ﴾ الظرف إما بدل من ﴿ يومئذ ﴾ الذي قبله، وإما منصوب بمقدّر هو " اذكر "، وإما منصوب بما بعده، والمعنى: يوم إذ يقع ما ذكر يصدر الناس من قبورهم إلى موقف الحساب أشتاتاً، أي: متفرّقين، والصدر: الرجوع وهو ضدّ الورود.

وقيل: يصدرون من موضع الحساب إلى الجنة أو النار، وانتصاب ﴿ أشتاتاً ﴾ على الحال والمعنى: أن بعضهم آمن، وبعضهم خائف، وبعضهم بلون أهل الجنة، وهو البياض، وبعضهم بلون أهل النار وهو السواد، وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين، وبعضهم إلى جهة الشمال، مع تفرّقهم في الأديان، واختلافهم في الأعمال.

﴿ لِّيُرَوۡاْ أعمالهم ﴾ متعلق ب ﴿ يصدر ﴾ ، وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أي : تحدّث أخبارها بأن ربك أوحى لها ؛ ليروا أعمالهم ﴿ يَوۡمَئِذٍ يَصۡدُرُ الناس أَشۡتَاتاً ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ ليروا ﴾ مبنياً للمفعول .

وهو من رؤية البصر ، أي : ليريهم الله أعمالهم .

وقرأ الحسن ، والأعرج ، وقتادة ، وحماد بن سلمة ، ونصر بن عاصم ، وطلحة بن مصرف على البناء للفاعل ، ورويت هذه القراءة عن نافع ، والمعنى : ليروا جزاء أعمالهم .

﴿ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡراً يَرَهُ ﴾ أي : وزن نملة .

وهي أصغر ما يكون من النمل .

قال مقاتل : فمن يعمل في الدنيا مثقال ذرّة خيراً يره يوم القيامة في كتابه ، فيفرح به .

وكذلك ﴿ الجن مَن يَعۡمَلۡ ﴾ في الدنيا ﴿ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ يوم القيامة فيسوؤه .

ومثل هذه الآية قوله : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء : 40] .

وقال بعض أهل اللغة : إن الذرّة هو أن يضرب الرجل بيده على الأرض ، فما علق من التراب ، فهو الذرّة .

وقيل : الذرّ ما يرى في شعاع الشمس من الهباء ، والأوّل أولى .

ومنه قول امرىء القيس :

من القاصرات الطرف لو دبّ محول . . . من الذرّ فوق الإتب منها لأثرا

و"من" الأولى عبارة عن السعداء ، و"من" الثانية عبارة عن الأشقياء .

وقال محمد بن كعب : فمن يعمل مثقال ذرّة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا ، وفي نفسه ، وماله ، وأهله ، وولده حتى يخرج من الدنيا ، وليس له عند الله خير ، ومن يعمل مثقال ذرّة من شرّ من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في ماله ، ونفسه ، وأهله ، وولده حتى يخرج من الدنيا ، وليس له عند الله شرّ ، والأوّل أولى .

قال مقاتل : نزلت في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل ، فيستقلّ أن يعطيه التمرة والكسرة ، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ، ويقول : إنما أوعد الله النار على الكافرين .

(94/826)

قرأ الجمهور : ﴿ يره ﴾ في الموضعين بضم الهاء وصلاً ، وسكونها وقفاً ، وقرأ هشام بسكونها وصلاً ووقفاً .

ونقل أبو حيان عن هشام ، وأبي بكر سكونها ، وعن أبي عمرو ضمها مشبعة ، وباقي السبعة بإشباع الأولى ، وسكون الثانية ، وفي هذا النقل نظر ، والصواب ما ذكرنا .

وقرأ الجمهور : ﴿ يره ﴾ مبنياً للفاعل في الموضعين .

وقرأ ابن عباس ، وابن عمر ، والحسن والحسين ابنا عليّ ، وزيد بن عليّ ، وأبو حيوة ، وعاصم ، والكسائي في رواية عنهما ، والجحدري ، والسلمي ، وعيسى على البناء للمفعول فيهما ، أي : يريه الله إياه .

وقرأ عكرمة : ﴿ يراه ﴾ على توهم أن من موصولة ، أو على تقدير الجزم بحذف الحركة المقدّرة في الفعل .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض زِلْزَالَهَا ﴾ قال : تحرّكت من أسفلها ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ قال : الموتى .

﴿ وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا ﴾ قال : الكافر يقول ما لها .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : قال لها ربك قولي .

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ قال : أوحى لها : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً ﴾ قال : من كل من هاهنا ، وهاهنا .

وأخرج ابن المنذر عنه ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ قال : الكنوز والموتى .

وأخرج مسلم ، والترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئًا " وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ قال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم. قال : " فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا ، وكذا ، فهذا أخبارها " وأخرج ابن مردويه ، والبيهقي عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الأرض لتجيء يوم القيامة بكل عمل عمل على ظهرها " وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرضُ زِلْزَالَهَا ﴾ حتى بلغ ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ .

وأخرج الطبراني عن ربيعة الخرشي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تحفظوا من الأرض فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً ، أو شرّاً إلاّ وهي مخبرة " وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، والحاكم في تاريخه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن أنس قال : "بينما أبو بكر الصدّيق يأكل مع النبيّ إذ نزلت

عليه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .

فرفع أبو بكر يده ، وقال : يا رسول الله إني لراء ما عملت من مثقال ذرّة من شرّ .

فقال : " يا أبا بكر أرأيت ما ترى في الدنيا مما تكره ، فبمثاقيل ذرّ الشرّ ، ويدخر لك مثاقيل ذرّ الخير حتى توفاه يوم القيامة "

(96/826)

وأخرج إسحاق بن راهويه ، وعبد بن حميد ، والحاكم ، وابن مردويه عن أبي أسماء قال : بينا أبو بكر يتغدّى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزلت هذه الآية : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ فأمسك أبو بكر وقال : يا رسول الله ما عملنا من شرّ رأيناه ، فقال : " ما ترون مما تكرهون ، فذاك مما تجزون ، ويؤخر الخير لأهله في الآخرة " وأخرج ابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : أنزلت ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ ، وأبو بكر الصديق قاعد ، فبكى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما يبكيك يا أبا بكر ؟ " قال : يبكيني هذه السورة ، فقال : " لولا أنكم تخطئون وتذنبون ، فيغفر لكم لخلق الله قوماً يخطئون ويذنبون ، فيغفر لهم " وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أبي

هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر . . . الحديث

وقال : وسئل عن الحمر فقال : " ما أنزل عليّ فيها إلاّ هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 478. 481 ﴾

(97/826)

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ﴾

بدل من جملة : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ والجواب هو فعل ﴿ يصدر الناس ﴾ وقوله : ﴿ يومئذ ﴾ يتعلق به ، وقُدم على متعلقه للاهتمام .

وهذا الجواب هو المقصود من الكلام لأن الكلام مسوق لإِثبات الحشر والتذكير به والتحذير من أهواله فإنه عند حصوله يعلم الناس أن الزلزال كان إنذاراً بهذا الحشر .

وحقيقة ﴿ يصدر الناس ﴾ الخروج من محل اجتماعهم ، يقال : صدر عن المكان ، إذا تركه وخرج منه صُدوراً وصَدَراً بالتحريك .

ومنه الصَدَر عن الماء بعد الورد ، فأطلق هنا فعل ﴿ يصدر ﴾ على خروج الناس إلى الحشر جماعات ، أو انصرافهم من المحشر إلى مآويهم من الجنة أو النار ، تشبيهاً بانصراف الناس عن الماء بعد الورد .

وأشتات : جمع شَتّ بفتح الشين وتشديد الفوقية وهو المتفرق ، والمراد : يصدرون متفرقين جماعات كل إلى جهة بحسب أعمالهم وما عُيّن لهم من منازلهم .

وأشير إلى أن تفرقهم على حسب تناسب كل جماعة في أعمالها من مراتب الخير ومنازل الشر بقوله : ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ ، أي يصدرون لأجل تلقي جزاء الأعمال التي عملوها في الحياة الدنيا فيقال لكل جماعة : انظروا أعمالكم ، أو انظروا مآلكم .

وبُني فعل ﴿ ليروا ﴾ إلى النائب لأن المقصود رؤيتهم أعمالهم لا تعيينُ مَن يريهم إياها .

وقد أجمع القراء على ضم التحتية .

فالرؤية مستعملة في رؤية البصر والمرئي هو منازل الجزاء ، ويجوز أن تكون الرؤية مستعملة في العلم بجزاء الأعمال فإن الأعمال لا تُرى ولكن يظهر لأهلها جزاؤها .

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7)

تفريع على قوله : ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ [الزلزلة : 6] تفريع الفذلكة ، انتقالاً للترغيب والترهيب بعد الفراغ من إثبات البعث والجزاء ، والتفريعُ قاض بأن هذا يكون عقب ما

يصدر الناس أشتاتاً .

والمثقال : ما يعرف به ثِقَل الشيء ، وهو ما يُقَدَّر به الوزن وهو كميزانٍ زِنةً ومعْنًى .

(98/826)

والذّرة : النملة الصغيرة في ابتداء حياتها .

و ﴿ مثقال ذرة ﴾ مَثَل في أقل القلة وذلك للمؤمنين ظاهر وبالنسبة إلى الكافرين فالمقصود ما عملوا من شر ، وأما بالنسبة إلى أعمالهم من الخير فهي كالعدم فلا توصف بخير عند الله لأن عمل الخير مشروط بالإيمان قال تعالى : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ [النور : 39] .

وإنما أعيد قوله : ﴿ ومن يعمل ﴾ دون الاكتفاء بحرف العطف لتكون كل جملة مستقلة الدلالة على المراد لتختص كل جملة بغرضها من الترغيب أو الترهيب فأهمية ذلك تقتضي التصريح والإِطناب .

وهذه الآية معدودة من جوامع الكلم وقد وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بالجامعة الفاذة ففي "الموطأ" أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الخيل لثلاثة " الحديث .

فسُئل عن الحُمُر فقال : لم يُنْزَل عَليَّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذَّة : ﴿ فمن يعمل مثقال

ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال : هذه أحكم آية في القرآن ، وقال الحسن : قَدِم صعصعة بن ناجية جد الفرزدق على النبي صلى الله عليه وسلم يستقرىء النبي القرآن فقرأ عليه هذه الآية فقال صَعصعة : حسبي فقد انتهت الموعظة لا أبالي أن لا أسمع من القرآن غيرها .

وقال كعب الأحبار : "لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره .

وإذ قد كان الكلام مسوقاً للترغيب والترهيب معاً أوثر جانب الترغيب بالتقديم في التقسيم تنويهاً بأهل الخير .

وفي الكشاف ﴾ : يحكى أن أعرابياً أخّر خيراً يرَه فقيل قدّمت وأخّرت فقال :

خُذا بطن هَرشَى أو قَفَاها فإنه

كلا جانبيْ هَرشَى لهن طريق ا ه . . .

وقد غفل هذا الأعرابي عن بلاغة الآية المقتضية التنويه بأهل الخير .

روى الواحدي عن مقاتل: أن هذه الآية نزلت في رجلين كانا بالمدينة أحدهما لا يبالي من الذنوب الصغائر ويركبها، والآخر يحب أن يتصدق فلا يجد إلا اليسير فيستحيي من أن يتصدق به فنزلت الآية فيهما.

ومن أجل هذه الرواية قال جمع: إن السورة مدنية.

ولو صحّ هذا الخبر لما كان مقتضياً أن السورة مدنية لأنهم كانوا إذا تلوا آية من القرآن شاهداً يظنها بعض السامعين نزلت في تلك القصة كما بيناه في المقدمة الخامسة. انتهى

انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(100/826)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى:

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

هذه الآية الكريمة تقتضي أن كل إنسان كافرا أو مسلما يجازى بالقليل من الخير والشر, وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف هذا العموم، أمّا ما فعله الكافر من الخير فالآيات تصرّح بإحباطه كقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ , وقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ وكقوله : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ﴾ الآية, وقوله : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ﴾ الآية, إلى غير ذلك من الآيات ، وأمّا ما عمله المسلم من الشر فقد صرّحت الآيات بعدم لزوم مؤاخذته به لاحتمال المغفرة أو لوعد الله بها كقوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ , وقوله : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات ، والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه :

الأول : أن الآية من العام المخصوص ، والمعنى فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره إن لم يحبطه الكفر بدليل آيات إحباط الكفر عمل الكفار ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره إن لم يغفره الله له بدليل آيات احتمال الغفران والوعد به .

(101/826)

الثاني : أنّ الآية على عمومها وأنّ الكافر يرى جزاء كل عمله الحسن في الدنيا كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ الآية, وقوله : ﴿ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا ﴾ الآية, وقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ﴾ ، والمؤمن يرى جزاء كل عمله السيّء في الدنيا بالمصائب والأمراض والآلام ، ويدل لهذا ما أخرجه الطبراني في الأوسط

والبيهقي في الشعب وابن أبي حاتم وجماعة عن أنس قال : "بينا أبو بكر رضي الله عنه يأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليه ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ الآية فرفع أبو بكر يده وقال : يا رسول الله إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا بكر أرأيت ما ترى في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر" الحديث .

الوجه الثالث : أن الآية أيضاً على عمومها وأن معناها أن المؤمن يرى كل ما قدم من خير وشر فيغفر الله له الشر ويثيبه بالخير ، والكافر يرى كل ما قدم من خير وشر فيحبط ما قدم من خير ويجازيه بما فعل من الشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 341 . 342 ﴾

(102/826)

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ إذا زلزلت ﴾ بالمدينة .

وأخرج ابن مردويه عن قتادة قال: نزلت بالمدينة ﴿ إذا زلزلت ﴾ .

وأخرج أحمد وأبو داود والنسائي والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمرو قال: " أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اقرئني يا رسول الله قال له: اقرأ ثلاثاً من ذوات الراء فقال له الرجل: كبر سني واشتد قلبي وغلظ لساني. قال: اقرأ ثلاثاً من ذوات حم. فقال مثل مقالته الأولى، فقال: اقرأ ثلاثاً من المسبحات. فقال مثل مقالته، ولكن اقرئني يا رسول الله سورة جامعة فأقرأه ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ حتى فرغ منها. قال الرجل: والذين بعثك بالحق لا أزيد عليها، ثم أدبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفلح الرويجل أفلح الرويجل " .

وأخرج الترمذي وابن مردويه والبيهقي عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ إذا زلزلت ﴾ عدلت له بنصف القرآن، ومن قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص] عدلت له بثلث القرآن، ومن قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون: 1] عدلت له بربع القرآن " .

وأخرج الترمذي وابن الضريس ومحمد بن نصر والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ﴿ إذا زلزلت ﴾ تعدل نصف القرآن و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ تعدل ربع القرآن " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " من قرأ

في ليلة ﴿ إذا زلزلت ﴾ كان له عدل نصف القرآن " .

وأخرج أبو داود والبيهقي في سننه عن رجل من بني جهينة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصبح ﴿ إذا زلزلت الأرض ﴾ في الركعتين كلتيهما فلا أدري أنسي أم قرأ ذلك عمداً .

(103/826)

وأخرج سعيد بن منصور عن سعيد بن المسيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بأصحابه الفجر فقرأ بهم في الركعة الأولى ﴿ إذا زلزلت الأرض ﴾ ثم أعادها في الثانية .

وأخرج أحمد ومحمد بن نصر والطبراني والبيهقي في سننه عن أبي أمامة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي ركعتين بعد الوتر وهو جالس يقرأ فيهما ﴿ إذا زلزلت ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ .

وأخرج البيهقي عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد الوتر ركعتين وهو جالس يقرأ في الركعة الأولى بأم الكتاب ﴿ وإذا زلزلت ﴾ وفي الثانية ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن الشعبي قال : من قرأ ﴿ إذا زلزلت ﴾ فإنها تعدل سدس

القرآن.

وأخرج ابن الضريس عن عاصم قال: كان يقال: ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلث القرآن ﴿ وإذا زلزلت الأرض ﴾ نصف القرآن و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ربع القرآن.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ تحركت من أسفلها ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ قال: الموتى ﴿ وقال الإنسان ما لها ﴾ قال: يقول الكافر ما لها ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال لها ربك قولي فقالت: ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ قال: أوحى إليها ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ قال: من كل من ههنا وههنا.

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ قال: من في القبور ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال: تخبر الناس بما عملوا عليها ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ قال: أمرها وألقت ما فيها.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ قال: ما فيها من الكنوز والموتى.

وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً " .

وأخرج أحمد وعبد بن حميد والترمذي وصححه والنسائي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة قال : " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال : " أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول : عمل كذا وكذا في يوم كذا وكذا فهذه أخبارها " " .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل ما عمل على ظهرها ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ حتى بلغ ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال : أتدرون ما أخبارها جاءني جبريل قال : خبرها إذا كان يوم القيامة أخبرت بكل عمل عمل على ظهرها " .

وأخرج الطبراني عن ربيعة الجرشي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " تحفظوا من الأرض فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي

مخبرة به " .

وأخرج عبد بن حميد عن الحكم رضي الله عنه قال : رأيت أبا أمية صلى في المسجد الحرام المكتوبة ، ثم تقدم فجعل يصلي ههنا وههنا ، فلما فرغ قلت له : ما هذا الذي رأيتك تصنع ؟ قال : قرأت هذه الآية ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ إلى قوله : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ فأردت أن تشهد لي يوم القيامة .

(105/826)

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف عن إسماعيل بن عبد الله قال : سمعت سعيد بن جبير يقرأ بقراءة ابن مسعود هذه الآية : " يومئذ تنبىء أخبارها " وقرأ مرة ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ .

وأخرج ابن بي حاتم عن السدّي رضي الله عنه في قوله : ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ قال : فرقاً .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه ﴿ يومئذ يصدر الناس ﴾ قال : يتصدعون ﴿ أشتاتاً ﴾ فلا يجتمعون بعد ذلك آخر ما عليهم ، وكان يقال إن هذه السورة الفاذة الجامعة .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط والحاكم في تاريخه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس رضي الله عنه قال : " بينما أبو بكر الصديق رضي الله عنه يأكل مع النبي صلى الله عليه وسلم : إذ نزلت عليه ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ فرفع أبو بكر رضي الله عنه يده وقال : يا رسول الله إني لراء ما عملت من مثقال ذرة من شر ، فقال : "يا أبا بكر أرأيت ما ترى في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر بشر ويدخر لك مثاقيل ذر الخير حتى توفاه يوم القيامة" " .

وأخرج إسحق بن راهويه وعبد بن حميد والحاكم وابن مردويه عن أسماء قالت : " بينما أبو بكر رضي الله عنه يتغدى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزلت هذه الآية ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ فأمسك أبو بكر رضي الله عنه وقال : يا رسول الله أكل ما عملناه من سوء رأيناه ؟ فقال : "ما ترون مما تكرهون فذاك مما تجزون به ويدخر الخير لأهله في الآخرة" " .

(106/826)

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب البكاء وابن جرير والطبراني وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : " أنزلت ﴿ إذا زلزلت الأرض

زلزالها ﴾ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعد ، فبكى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما يبكيك يا أبا بكر ؟ " قال : تبكيني هذه السورة . فقال : " لولا أنكم تخطئون وتذنبون فيغفر لكم لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم " " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق إذ نزلت عليه هذه الآية ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم يده عن الطعام ثم قال :

" من عمل منكم خيراً فجزاؤه في الآخرة ، ومن عمل منكم شراً يراه في الدنيا مصيبات وأمراضاً ، ومن يكن فيه مثقال ذرة من خير دخل الجنة " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي ادريس الخولاني رضي الله عنه قال : "كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يأكل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نزلت عليه هذه الآية ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ فأمسك أبو بكر يده وقال : يا رسول الله إنا لراؤون ما عملنا من خير أو شر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا أبا بكر أرأيت ما رأيت مما تكره فهو من مثاقيل الشر ويدخر لك مثاقيل الخير حتى توفاه يوم القيامة ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ﴾ [الشورى : 30] " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري قال : " لما أنزلت هذه الآية ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ قلت : يا رسول الله إني لراء عملي ؟ قال : نعم . قلت : تلك الكبار الكبار ؟ قال : نعم . قلت : الصغار الصغار . قال : نعم . قلت : واثكل أمي . قال : أبشر يا أبا سعيد فإن الحسنة بعشر أمثالها يعني إلى سبعمائة ضعف ، والله يضاعف لمن يشاء والسيئة بمثلها أو يعفو الله ، ولن ينجو أحد منك بعمله . قلت : ولا أنت يا نبي الله ؟ قال : ولا أنا الا أن يتغمدني الله منه بالرحمة " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ الآية قال : لما نزلت ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ [الإِنسان : 8] كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه ، فيجيء السائل إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه التمرة والكسرة فيردونه ، ويقولون : ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه ، وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير كالكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك ، ويقولون : إنما وعد الله النار على الكبائر فرغبهم في الخير القليل أن يعملوه فإنه يوشك أن يكثر ، وحذرهم اليسير من الشر فإنه يوشك أن يكثر ﴿ فمن يعمل

مثقال ذرة ﴾ يعني وزن أصغر النمل ﴿ خيراً يره ﴾ يعني في كتابه ويسره ذلك .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في البعث عن ابن عباس في قوله : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة ﴾ الآية قال : ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً ولا شراً في الدنيا إلا أره الله إياه ، فأما المؤمن فيريه الله حسناته وسيئاته فيغفر له من سيئاته ويثيبه على حسناته ، وأما الكافر فيريه حسناته وسيئاته فيرد حسناته ويعذبه بسيئاته .

(108/826)

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن كعب في الآية قال : من يعمل مثقال ذرة من خير من كافر يرى ثوابها في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس عنده خير ﴿ ومن يعمل مثقال ذرة شراً ﴾ من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس عليه شيء .

وأخرج ابن المبارك في الزهد وأحمد وعبد بن حميد والنسائي والطبراني وابن مردويه عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ فقال : حسبي لا أبالي أن لا أسمع من القرآن غيرها .

وأخرج سعيد بن منصور عن المطلب بن عبد الله بن حنطب " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في مجلس ومعهم أعرابي جالس ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعلم مثقال ذرة شراً يره ﴾ فقال الأعرابي : يا رسول الله أمثقال ذرة ؟ قال : نعم . فقال الأعرابي : واسوأتاه . ثم قال وهو يقولها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان " " .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وعبد بن حميد عن زيد بن أسلم رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ الآية فقام رجل فجعل يضع يده على رأسه وهو يقول : واسوأتاه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أما الرجل فقد آمن " " .

وأخرج ابن المبارك عن زيد بن أسلم رضي الله عنه " أن رجلاً قال : يا رسول الله ليس أحد يعمل مثقال ذرة خيراً إلا رآه ولم يعمل مثقال ذرة شراً إلا رآه ؟ قال : نعم . فانطلق الرجل وهو يقول : واسوأتاه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " آمن الرجل " " .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم رضي الله عنه "أن النبي صلى الله عليه وسلم دفع رجلاً إلى رجل يعلمه فعلمه حتى بلغ ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ فقال الرجل : حسبي فقال الرجل : يا رسول الله أرأيت الرجل الذي أمرتني أن أعلمه لما بلغ ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ فقال حسبي : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "دعه فقد فقه"".

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : "ذكر لنا أن رجلاً ذهب مرة يستقرىء فلما سمع هذه الآية ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ إلى آخرها فقال : حسبي حسبي إن عملت مثقال ذرة من خير رأيته ، وإن عملت مثقال ذرة من شر رأيته. قال : وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : "هي الجامعة الفاذة"".

وأخرج ابن المبارك وعبد الرزاق عن الحسن قال : لما نزلت ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ الآية قال رجل من المسلمين : حسبي حسبي إن عملت مثقال ذرة من خير أو شر رأيته انتهت الموعظة.

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحارث بن سويد أنه قرأ ﴿ إذا زلزلت ﴾ حتى بلغ ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ قال : إن هذا الإِحصاء شديد.

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة في الآية قال : هو الكافر يعطي كتابه يوم القيامة فينظر فيه فيرى فيه كل حسنة عملها في الدنيا ، فترد عليه حسناته ، وذلك قول الله تعالى : ﴿

وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ [الفرقان : 23] فابلس واسود وجهه ، وأما المؤمن فإنه يعطى كتابه بيمينه يوم القيامة فيرى فيها كل خطيئة عملها في دار الدنيا ثم يغفر له ذلك وذلك قول الله : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ [الفرقان : 70] فابيض وجهه واشتد سروره .

(110/826)

وأخرج ابن جرير عن سليمان بن عامر رضي الله عنه أنه قال : "يا رسول الله إن أبي كان يصل الرحم ويفي بالذمة ويكرم الضيف . قال : مات قبل الإسلام ؟ قال : نعم . قال : لن ينفعه ذلك ، ولكنها تكون في عقبه فلن تخزوا أبداً ، ولن تذلوا أبداً ، ولن تفتقروا أبداً " .

وأخرج أحمد في الزهد وابن المنذر عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : لولا ثلاث لأحببت أن لا أبقى في الدنيا وضعي وجهي للسجود لخالقي في اختلاف الليل والنهار أقدمه لحياتي ، وظمأ الهواجر ، ومقاعدة أقوام ينتقون الكلام كما تنتقى الفاكهة ، وتمام التقوى أن يتقي الله تعالى البعد حتى يتقيه في مثقال ذرة حتى أن يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً حتى يكون حاجزاً بينه وبين الحرام ، إن الله قد بين للناس الذي هو يصيرهم إليه قال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ فلا

تحقرن شيئاً من الشر أن تتقيه ولا شيئاً من الشر أن تفعله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اعلموا أن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره " .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " اتقوا النار ولو بشق تمرة " ثم قرأت ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة رضي الله عنه قال : ذكر لنا أن عائشة رضي الله عنها جاءها سائل فسأل فأمرت له بتمرة ، فقال لها قائل : يا أم المؤمنين إنكم لتصدقون بالتمرة ؟ قالت : نعم . والله إن الخلق كثير ، ولا يشبعه إلا الله أو ليس فيها مثاقيل ذر كثيرة ؟ .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عائشة أن سائلاً جاءها فقالت لجاريتها : أطعميه ، فوجدت تمرة فقالت : أعطيه إياها فإن فيها مثاقيل ذر إن تقبلت .

وأخرج مالك وابن سعد وعبد بن حميد من طريق عائشة رضي الله عنها أن سائلا أتاها وعندها سلة من عنب فأخذت حبة من عنب فأعطته فقيل لها في ذلك ، فقالت : هذه

أثقل من ذر كثير ، ثم قرأت ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن جعفر بن برقان قال : بلغنا أن عمر بن الخطاب أتاه مسكين وفي يده عنقود من عنب فناوله منه حبة وقال : فيه مثاقيل ذر كثيرة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن سائلاً سأل عبد الرحمن بن عوف وبين يديه طبق وعليه فناوله حبة ، فكأنهم أنكروا ذلك عليه ، فقال : في هذه مثاقيل ذر كثير .

وأخرج سعد عن عطاء بن فروخ أن سعد بن مالك أتاه سائل وبين يديه طبق عليه تمر فأعطاه تمرة ، فقبض السائل يده . فقال سعد : ويحك تقبل الله منا مثقال الذرة والخردلة وكم في هذه من مثاقيل الذر ؟ .

وأخرج ابن سعد عن شداد بن أوس أنه خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : يا أيها الناس ألا إن الدنيا أجل حاضر يأكل منها البار والفاجر ، ألا وإن الآخرة أجل مستأخر يقضي فيها ملك قادر ، ألا وإن الخير بحذافيره في الجنة ، ألا وإن الشر بحذافيره في النار ، ألا واعلموا أنه ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

وأخرج الزجاجي في أماليه عن أنس بن مالك " أن سائلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاه تمرة فقال السائل : نبي من الأنبياء يتصدق بتمرة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أما علمت أن فيها مثاقيل ذر كثير " " .

وأخرج هناد عن ابن عباس في قوله : ﴿ مثقال ذرة ﴾ إنه أدخل يده في التراب ثم رفعها ثم نفخ فيها وقال : كل من هؤلاء مثقال ذرة .

(112/826)

وأخرج الحسين بن سفيان في مسنده وأبو نعيم في الحلية عن شداد بن أوس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أيها الناس إن الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر ، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر ، يحق فيها الحق ويبطل الباطل أيها الناس كونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن كل أم يتبعها ولدها . اعملوا وأنتم من الله على حذر ، واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم ، وأنكم ملاقوا الله لا بد منه ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ " .

وأخرج مالك والبخاري وأحمد ومسلم والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخيل لثلاثة : لرجل أجر ولرجل ستر وعلى رجل وزر " الحديث . قال : وسئل عن الحمر فقال : " ما نزل عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 590 . 598 ﴾

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾

وذلك أن الناس ، كانوا يرون في بدء الإسلام ، أن الله تعالى لا يؤاخذ بالصغائر من الذنوب ، ولا يعاقب إلا في الكبائر ، حتى نزلت هذه السورة وقال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ وذكر أهوال ذلك اليوم ، وبين أن القليل في ذلك اليوم ، يكون كثيراً فقال ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ يعني : تزلزلت الأرض عند قيام الساعة ، وتحركت واضطربت ، حتى يتكسر كل شيء عليها .

ويقال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم ، عن قيام الساعة ، فنزل وبين متى يكون قيام الساعة فقال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ يعني : تزلزلت الأرض ، وتحركت تحركاً وهو كقوله : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ [نوح : 18] والمصدر للتأكيد .

قوله تعالى : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ يعني : أظهرت ما فيها من الكنوز والأموات ﴿ وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا ﴾ يعني : يقول الإنسان الكافر : ما لها يعني : للأرض على وجه

التعجب .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ يعني : تخبر الأرض ، بكل ما عَمِلَ عليها بنو آدم ، من خير أو شر تقول : للمؤمنين صلّى عليَّ ، وحج واعتمر ، وجاهد ، فيفرح المؤمن ، وتقول للكافر أشرك وسرق ، وزنى وشرب الخمر ، فيحزن الكافر فيقول : ما لها ؟ يعني : ما للأرض تحدث بما عمل عليها ؟ على وجه التقديم والتأخير ، ومعناه : يومئذٍ تحدث أخبارها ﴿ وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا ﴾ .

(114/826)

يقول الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ يعني : أن الأرض تحدث ، بأن ربك أذن لها في الكلام ، وألهمها ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً ﴾ يعني : يرجع الناس متفرقين ، فريق في الجنة ، وفريق في السعير فريق مع الحور العين يتمعون ، وفريق مع الشياطين يعذبون ، فريق على السندس والديباج ، على الأرائك متكئون ، وفريق في النار ، على وجوههم يُجَرُّونَ .

اللهم في الدنيا هكذا كانوا فريقاً حول المساجد والطاعات ، وفريق في المعاصي والشهوات ، فذلك قوله ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً ﴾ يعني : فِرقاً فِرَقاً .

﴿ لِّيُرَوْاْ أعمالهم ﴾ يعني : ثواب أعمالهم ، وهكذا .

كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : " مَا مِنْ أَحَدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ ، إلاَّ ويَلُومُ نَفْسَهُ ، فَإِنْ كَانَ مُحْسِناً يَقُولُ : لِمَ لَمْ أزدَدْ إحساناً ، وإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ ، يَقُولُ : أَلاَ رَغِبْتُ عَنِ المَعَاصِي ؟ " وهذا عند معاينة الثواب والعقاب .

وقال أبيّ بن كعب : الزلزلة لا تخرج إلا من ثلاثة ، إما نظر الله تعالى بالهيبة إلى الأرض ، وإما لكثرة ذنوب بني آدم ، وأما لتحرك الحوت ، التي عليها الأرضون السبع ، تأديباً للخلق وتنبيهاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 581.582 ﴾

(115/826)

وقال الثعلبى :

سورة الزلزلة

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾

حُرّكت الأرض حركة شديدة لقيام الساعة ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ تحركها وقراءة العامّة بكسر الزاي .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا [الباقرجي] قال : حدّثنا عبد اللّه بن محمد بن ياسين

البغدادي قال : حدّثنا جميل بن الحسن قال : حدّثنا أحمد بن موسى صاحب اللؤلؤ قال : سمعت عاصم الجحدري يقرأ : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرض زَلْزَالَهَا ﴾ الزاي مفتوحة وهو مصدر أيضاً كالوسواس والقلقال والجرجار ، وقيل : الكسر المصدر والفتح الاسم .

﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرض أَثْقَالَهَا ﴾ موتاها وكنوزها فيقلبها على ظهرها ﴿ وَقَالَ الإِنسان مَا لَهَا ﴾ وقيل : في الآية تقديم وتأخير تقديره ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ فيقول الإنسان : ما لها .

قال المفسّرون : تُخْبِر الأرض بما عمل عليها من خير أو شرّ فتقول للمؤمن يوم القيامة : جدّ عليَّ وصام وصلّى واجتهد وأطاع ربّه ، فيفرح المؤمن بذلك ، وتقول للكافر : شرك عليَّ وزنى [وسرق] وشرب الخمر فيوبّخ بالمشهد ، وتشهد عليه الجوارح والملائكة مع علم اللّه سبحانه به حتى يودُّ أنه سيق إلى النار مما يرى من الفضوح .

حدّثنا أبو بكر محمد بن عبدوس المزكى إملاءً قال : أخبرنا أبو نصر محمد بن حمدويه بن سهل المروزي قال : حدّثنا عبد اللّه بن حمّاد الآملي قال : حدّثنا سعيد بن أبي مريم قال : حدّثنا رشد بن سعد قال : حدّثنا يحيى بن أبي سلمى عن أبي حازم عن أنس بن مالك أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال : " إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عُمِلَ على ظهرها " قال : وتلا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرض زِلْزَالَهَا ﴾ "

حتى بلغ " ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ " قال : " أتدرون ما أخبارها ؟ إذا كان يوم القيامة أخبرت بكل عمل عُمِلَ على ظهرها " .

(116/826)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا علي بن الحسن بن مطرف الجراحي قال : حدّثنا أبو عيسى عبد الرحمن بن عبد اللّه الأنباري قال : حدّثنا أحمد بن إبراهيم قال : حدّثنا خالد بن يزيد العمري قال : حدّثنا شعبة عن يحيى بن سليم أبي بلج عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة أن النبي (عليه السلام) ذكر هذه الآية : " ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ " فقال : " تدري ما أخبارها ؟ " قال : اللّه ورسوله أعلم .

قال : " فإن أخبارها أن تشهد على كلّ عبد وأَمة بما عمل على ظهرها من شيء ، تقول : عمل على ظهري كذا وكذا ، أو حملتُ على ظهري كذا وكذا يوم كذا لكذا وكذا ، فهذه أخبارها " .

وفي حرف ابن مسعود يومئذ تنبيُ أخبارها .

أخبرنا عبد اللّه بن حامد قال : أخبرنا المطرفي قال : حدّثنا بشر بن مطر قال : حدّثنا سفيان عن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة عن أبيه وكان أبوه يتيماً في حجر أبي

سعيد الخدري قال: قال لي يعني أبا سعيد: يا بُنيَّ إذا كنت في البوادي فارفع صوتك بالأذان فإني سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول:

(117/826)

"لا يسمعه جنّ ولا إنس ولا حجر إلاّ يشهد له".

أخبرنا عبد اللّه بن حامد قال: حدّثنا محمد بن عامر السمرقندي قال: حدّثنا ابن الحسين قال: حدّثنا علي بن حميد عن إبراهيم عن أبيه قال: رأيت أبا أُميّة صلّى في المسجد الحرام المكتوبة، ثم تقدم فجعل يصلي هاهنا وهاهنا، فلمّا فرغ قلت: يا أبا أُميّة ما هذا الذي رأيتك تصنع؟ قال قرأت هذه الآية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ فاردت أن تشهد لي يوم القيامة.

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ أي أمرها بالكلام واذن لها فيه، قال [العجاج يصف الأرض]:

أوحى لها القرار فاستقرّت... وشدّها بالراسيات الثُبّت

أي أمرها بالقرار.

وقال ابن عباس والقرظي وابن زيد: أوحى إليها. ومجاز الآية: يوحي اللّه إليها.

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً ﴾ عن موقفِ الحساب ، أشتاتاً : متفرقين فآخذٌ ذات اليمين إلى الجنة ، وآخذ ذات الشمال إلى النار ﴿ لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ قيل : في هذه الآية تقديم وتأخير تقديرها ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوحى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً ﴾ وقراءة العامّة لِيُروا بضم الياء ، وقرأ الحسن والأعرج بفتح الياء وروي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ أي يُرى ثوابه ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ .

قال ابن عباس : ليس مؤمن ولا كافر عمل خيرًا ولا شراً في الدنيا إلاّ أراه اللّه إياه ، أما المؤمن فيرى حسناته وسيّئاته ، فيغفر له سيئاته ويثيبه لحسناته ، وأما الكافر فترَدُ حسناته ويعذبه بسيّئاته .

(118/826)

وقال محمد بن كعب في هذه الآية : فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا من كافر يرى ثوابه في نفسه وأهله وماله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند اللّه خير ، ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وأهله وماله وولده حتى يخرج من الدنيا ، وليس له عند اللّه شر .

ودليل هذا التأويل ما أخبرنا عقيل أنّ أبا الفرج أخبرهم عن ابن جرير قال: حدّثني أبو الخطاب الجنائي قال: حدّثنا الهيثم بن الربيع قال: حدّثنا سماك بن عطية عن أيوب عن أبي قُلابة عن أنس قال: "كان أبو بكر يأكل مع النبي (عليه السلام) فنزلت هذه الآية: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ فرفع أبو بكر - رضي اللّه عنه - يده وقال: يا رسول اللّه أنّي أخبر بما عملت من مثقال ذرة من شر؟ فقال: "يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذرّ الشرّ، ويدّخر اللّه لك مثاقيل ذر الخير حتى تُوفّاه يوم القيامة".

له عن محمد بن جرير قال: حدّثني يونس بن عبد الأعلى قال: أخبرنا بن وهب قال: حدّثني حُيي بن عبد اللّه عن أبي عبد الرحمن الجيلي عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص أنه قال: "نزلت ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ وأبو بكر الصديق رضي اللّه عنه قاعد فبكى حين أُنزلت، فقال له رسول اللّه (عليه السلام): "ما يبكيك يا أبا بكر؟" قال: أبكتني هذه السورة، فقال له رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم): "واللّه لو أنكم لا تُخطِئُونَ ولا تُذْنِبونَ ويغفر اللّه لكم لخلق اللّه أُمّةً يخطئون ويذنبون فيغفر لهم".

وقراءة العامّة يره بفتح الياء في الحرفين، وقرأ خالد بن نشيط وعاصم الجحدري بضم اليائين لقوله: ﴿ لِّيُرَوْاْ ﴾.

قال مقاتل : نزلت هذه الآية في رجلين وذلك أنه لما نزل ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ ﴾ [الدهر : 8] كان أحدهما يأتيه السائل فيستقلّ أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ونحوها ويقول : ما هذا بشيء إنّما نُؤجر على ما نعطي ونحن نحبه يقول اللّه سبحانه : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ ﴾ [الدهر : 8] فما أحب لنا هذا فردهُ غفران ، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ، الكذبة والغيبة والنظرة وأشباه ذلك ويقول : ليس عليَّ من هذا شيء إنّما وعد اللّه سبحانه النار على الكبائر ، وليس في هذا إثم ، فأنزل الله سبحانه يرغّبهم في القليل من الخير أن يعطوه ، فإنّه يوشك أن يكثر ، ويحذّرهم اليسير من الذنب فإنّه يوشك أن يكبر ، فالإثم الصغير في عين صاحبه يوم القيامة أعلى من الجبال ، وجميع محاسنه أقل في عينه من كل شيء فقال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ .

سُئل ثعلبة عن الذرّة قال : إن مائة مثل وزن حبّة والذرّة واحد منها . وقال يزيد بن [مروان] : زعموا أن الذرّة ليس لها وزن ، ومعنى المثقال الوزن ، وهو مفعال من الثقل ، وقال ابن مسعود : أحكم آية في القرآن ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ وكان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يسمّيها " الجامعة الفاذة " ، وتصدق سعد بن أبي وقّاص بتمرتين وقبض السائل يده فقال سعد : ويحك تقبل اللّه منّا

مثقال الذرّة والخردلة وكأين في هذه من مثاقيل .

وتصدّق عمر بن الخطّاب وعائشة بحبة من عنب وقالا فيها مثاقيل ذرّ كُثر .

(120/826)

وروى المطّلب بن [عبد الله عن عائشة] " أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قرأ في مجلس ومعهم أعرابي جالس فقال رسول الله (عليه السلام) : " ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ " فقال الأعرابي : يا رسول الله مثقال ذرّة ؟ قال له : " نعم " ، فقال الأعرابي : يا رسول الله مثقال ذرّة ؟ قال له " نعم " ، فقال الأعرابي : واسوأتاه منّا إذاً ، ثم قام وهو يقولها فقال رسول الله (عليه السلام) : " لقد دخل قلب الأعرابي الإيمان " .

وأخبرنا عبد الله بن حاطب قال : أخبرنا محمد بن عامر السمرقندي قال : حدّثنا عمر بن يحيى قال : حدّثنا عبد بن حميد عن وهب بن جرير عن أبيه قال : سمعت الحسن يقول : " قدم صعصعة عمّ الفرزدق على النبي (عليه السلام) فلمّا سمع ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ قال : حسبي ما أبالي ولا أسمع من القرآن غير هذا " .

وقال الربيع بن صبيح : مرّ رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السورة ، فلمّا بلغ آخرها قال : " حسبي قد أتممت الموعظة " فقال الحسن : " لقد فقه الرجل " .

أنشدنا أبو القاسم الحسن بن محمد المفسّر قال : أنشدني أبو الفضل أحمد بن محمد بن حمدون الفقيه قال : أنشدني أبو بكر أحمد بن محمد بن إبراهيم الحواربي بواسط :

إنّ من يعتدي ويكسب إثماً . . . وزن مثقال ذرّة سيراه

ويجازى بفعله الشر شرّاً . . . وبفعل الجميل أيضاً جزاه

هكذا قوله تبارك ربّي . . . في إذا زلزلت جلّ ثناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 263 . 237 ﴾

(121/826)

وقال الزمخشرى :

سورة الزلزلة

مدنية وقيل مكية ، وآياتها 8 [نزلت بعد النساء] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة الزلزلة (99) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها (2) وَقالَ الْإِنْسانُ ما لَها (3)
يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها (4)
بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ
خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)

زِلْزالَها قرئ بكسر الزاى وفتحها ، فالمكسور مصدر ، والمفتوح : اسم ، وليس في الأبنية فعلال بالفتح إلا في المضاعف . فإن قلت : ما معنى زلزالها بالإضافة؟ قلت : معناه زلزالها الذي تستوجبه في الحكمة ومشيئة اللّه ، وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده . ونحوه قولك : أكرم التقىّ إكرامه ، وأهن الفاسق إهانته ، تريد : ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة أو زلزالها كله وجميع ما هو ممكن منه . الأثقال : جمع «1» ثقل . وهو متاع البيت ، وتحمل أثقالكم جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالا لها وَقالَ الْإِنْسانُ ما لَها زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها ، وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ أمواتها أحياء ، فيقولون ذلك

---

(1) . قوله «جمع ثقل وهو متاع» في الصحاح «الثقل» : واحد الأثقال ، مثل حمل وأحمال . والثقل - بالتحريك متاع المسافر وحشمه . (ع)

لما يبهرهم من الأمر الفظيع ، كما يقولون : مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا . وقيل : هذا قول الكافر ، لأنه كان لا يؤمن بالبعث ، فأما المؤمن فيقول : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . فإن قلت : ما معنى تحديث الأرض والإيحاء لها ؟ قلت : هو مجاز عن إحداث اللّه تعالى فيها من الأحوال ما يقوم مقام التحديث بالنسيان ، حتى ينظر من يقول ما لها إلى تلك الأحوال ، فيعلم لم زلزلت ولم لفظت الأموات ؟ وأنّ هذا ما كانت الأنبياء ينذرونه ويحذرون منه . وقيل : ينطقها اللّه على الحقيقة . وتخبر بما عمل عليها من خير وشر . وروى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تشهد على كل أحد بما عمل على ظهرها «1» . فإن قلت : إِذا ، وَيَوْمَئِذٍ : ما ناصبهما ؟ قلت :

يَوْمَئِذٍ : بدل من إِذا ، وناصبهما تُحَدِّثُ . ويجوز أن ينتصب إِذا بمضمر ، وَيَوْمَئِذٍ بتحدث . فإن قلت : أين مفعولا تُحَدِّثُ ؟ قلت : قد حذف أوّلهما ، والثاني أخبارها ، وأصله تحدث الخلق أخبارها ، إلا أن المقصود ذكر تحديثها الأخبار لا ذكر الخلق تعظيما لليوم . فإن قلت : بم تعلقت الباء في قوله بِأَنَّ رَبَّكَ ؟ قلت ، بتحدّث ، معناه : تحدّث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها ، وأمره إياها بالتحديث . ويجوز أن يكون المعنى : يومئذ تحدث بتحديث أنّ ربك أوحى لها أخبارها ، على أن تحديثها بأن ربك أوحى لها : تحديث بأخبارها ، كما تقول :

نصحتني كل نصيحة ، بأن نصحتني في الدين . ويجوز أن يكون بِأَنَّ رَبَّكَ بدلا من أَخْبارَها كأنه قيل : يومئذ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها ، لأنك تقول : حدثته كذا وحدثته بكذا . وأَوْحى لَها بمعنى أوحى إليها ، وهو مجاز كقوله أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ قال :

أوحى لها القرار فاستقرّت «2»

وقرأ ابن مسعود : تنبئ أخبارها ، وسعيد بن جبير : تنبئ ، بالتخفيف . يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف أَشْتاتاً بيض الوجوه آمنين ، وسود الوجوه فزعين . أو يصدرون عن الموقف أشتاتا يتفرق بهم طريقا الجنة والنار ، ليروا جزاء أعمالهم . وفي قراءة النبي صلى اللّه عليه وسلم : ليروا بالفتح . وقرأ ابن عباس وزيد بن على : يره ، بالضم . ويحكى أنّ أعرابيا أخر خَيْراً يَرَهُ فقيل له ، قدّمت وأخرت ، فقال :

---

(1) . أخرجه الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم من رواية ابن أيوب عن يحيى عن أبى سليمان المنقري عن أبى هريرة . وسعيد ثقة . وخالفه رشدين بن سعد وهو ضعيف فقال : عن يحيى بن أبى سليمان عن أبى حازم بالسندين المذكورين عن أنس بن مالك . وأخرجه ابن مردويه .

(2) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة 75 فراجعه إن شئت اه مصححه .

خذا بطن هرشى أو قفاها فإنّه كلا جانبي هرشى لهنّ طريق «1»

والذرّة : النملة الصغيرة ، وقيل «الذرّ» ما يرى في شعاع الشمس من الهباء . فإن قلت حسنات الكافر محبطة بالكفر ، وسيئات المؤمن معفوّة باجتناب الكبائر ، فما معنى الجزاء بمثاقيل الذرّ من الخير والشر «2» ؟ قلت : المعنى فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا : من فريق السعداء . ومن يعمل مثقال ذرّة شرا : من فريق الأشقياء ، لأنه جاء بعد قوله يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً ، عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . «من قرأ سورة إذا زلزلت أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله» «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 783 . 785﴾

---

(1) . روى أن أعرابيا أخر قوله تعالى خَيْراً يَرَهُ عما بعده ، فقيل : قدمت وأخرت ، فضرب ذلك البيت مثلا . وهرشى - كسكرى : ثنية في طريق مكة عند الجحفة ، أى : اسلكا أما تلك الثنية أو خلفها ، فانه أى :

الحال والشأن كل من جانبيها طريق للإبل التي تطلبانها ، وتكرير لفظ «هرشى» لتقريرها في ذهن السامع خوف غفلته عنها ، والمقام كان مقام هداية ، فحسن فيه ذلك . [. . . . .]

(2) . قال محمود : «إن قلت حسنات الكافر محبطة بالكفر . . . الخ» قال أحمد :

السؤال مبنى على قاعدتين، إحداهما : أن حسنات الكافر محبطة بالكفر، وهذه فيها نظر، فان حسنات الكافر محبطة، أي : لا يثاب عليها ولا ينعم. وأما تخفيف العذاب بسببها، فغير منكر، فقد وردت به الأحاديث الصحيحة. وقد ورد أن حاتما يخفف الله عنه لكرمه ومعروفه، وورد ذلك في حق غيره كأبى طالب أيضا، فحينئذ لحسنات الكافر أثر ما في تخفيف العذاب، فيمكن أن يكون المرئي هو ذلك الأثر، والله أعلم. وأما القاعدة الثانية : وهي القول بأن اجتناب الكبائر يوجب تمحيص الصغائر ويكفرها عن المؤمن، فمردود عند أهل السنة فان الصغائر عندهم حكمها في التكفير في حكم الكبائر : تكفر بأحد أمرين : إما بالتوبة النصوح المقبولة، وإما بالمشية لا غير ذلك. وأما اجتناب الكبيرة عندهم فلا يوجب التكفير للصغيرة، فالسؤال المذكور إذا ساقط عن أهل السنة، ولكن الزمخشري التزم الجواب عنه الزموه على قاعدته الفاسدة، والله الموفق.

(3) . أخرجه الثعلبي من حديث على بإسناد أهل البيت، لكنه من رواية أبى القاسم الطائي. وهو ساقط وشاهده عند ابن أبى شيبة والبزار من رواية سلمة بن وردان عن أنس مرفوعا : إذا زلزلت تعدل ربع القرآن» وأخرجه ابن مردويه والواحدي باسناديهما إلى أبى بن كعب بلفظ «من قرأ إذا زلزلت أعطى من الأجر كمن قرأ القرآن.

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ إذا زُلزِلت الأرض زلزالها ﴾

أي حركت الأرض حركتها ، والزلزلة شدة الحركة ، فيكون من زل يزل .

وفي قوله ﴿ زلزالها ﴾ وجهان :

أحدهما : لأنها غاية زلازلها المتوقعة .

الثاني : لأنها عامة في جميع الأرض ، بخلاف الزلازل المعهودة في بعض الأرض .

وهذا الخطاب لمن لا يؤمن بالبعث وعيد وتهديد ، ولمن يؤمن به إنذار وتحذير ، واختلف في هذه الزلزلة على قولين : أحدهما : أنها في الدنيا من أشراط الساعة ، وهو قول الأكثرين .

الثاني : أنها الزلزلة يوم القيامة ، قاله خارجة بن زيد وطائفة .

﴿ وأَخْرَجَتِ الأرضُ أَثْقَالَهَا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : . . . .

الثاني : ما عليها من جميع الأثقال ، وهذا قول عكرمة .

ويحتمل قول الفريقين .

ويحتمل رابعاً : أخرجت أسرارها التي استودعتها ، قال أبو عبيدة : إذا كان الثقل في بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها .

﴿ وقالَ الإنسانُ ما لَها ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : ما لها زلزلت زلزالها .

الثاني : ما لها أخرجت أثقالها .

وفي المراد بهذا " الإنسان " قولان :

أحدهما : أن المراد جميع الناس من مؤمن وكافر ، وهذا قول من جعله في الدنيا من أشراط الساعة لأنهم لا يعلمون جميعاً أنها من أشراط الساعة في ابتداء أمرها حتى يتحققوا عمومها ، فلذلك سأل بعضهم بعضاً عنها .

الثاني : أنهم الكفار خاصة ، وهذا قول من جعلها زلزلة القيامة ، لأن المؤمن يعترف بها فهو لا يسأل عنها ، والكافر جاحد لها فلذلك يسأل عنها .

﴿ يومئذٍ تُحَدِّثُ أخْبارَها ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : تحدث أخبارها بأعمال العباد على ظهرها ، قاله أبو هريرة ورواه مرفوعاً ، وهذا قول من زعم أنها زلزلة القيامة .

الثالث : تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لها ، قال ابن مسعود : فتخبر بأن أمر الدنيا قد انقضى ، وأن أمر الآخرة قد أتى ، فيكون ذلك منها جواباً عند سؤالهم ، وعيداً للكافر وإنذاراً للمؤمن .

وفي حديثها بأخبارها ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن الله تعالى يقلبها حيواناً ناطقاً فتتكلم بذلك .

الثاني : أن الله تعالى يُحدث الكلام فيها .

الثالث : يكون الكلام منها بياناً يقوم مقام الكلام .

﴿ بأَنَّ رَبّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : معناه أوحى إليها بأن ألهمها فأطاعت ، كما قال العجاج :

أَوْحى لها القَرَارَ فاسْتَقَرَّتِ . . . وشَدَّها بالراسياتِ الثُّبَّتِ

الثاني : يعني قال لها ، قاله السدي .

الثالث : أمرها ، قاله مجاهد .

وفيما أوحى لها وجهان :

أحدهما : أوحى لها بأن تحدث أخبارها .

الثاني : بأن تخرج أثقالها .

ويحتمل ثالثاً : أوحى لها بأن تزلزل زلزالها .

﴿ يومئذٍ يَصْدُرُ الناسُ أَشْتاتاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنه يوم القيامة يصدرون من بين يدي الله تعالى فرقاً فرقاً مختلفين في قدرهم

وأعمالهم ، فبعضهم إلى الجنة وهم أصحاب الحسنات ، وبعضهم إلى النار وهم أصحاب السيئات ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أنهم في الدنيا عند غلبة الأهواء يصدرون فرقاً ، فبعضهم مؤمن ، وبعضهم كافر ، وبعضهم محسن ، وبعضهم مسيء ، وبعضهم محق ، وبعضهم مبطل .

﴿ لِيُرَوْا أَعْمالَهم ﴾ يعني ثواب أعمالهم يوم القيامة .

ويحتمل ثالثاً : أنهم عند النشور يصدرون أشتاتاً من القبور على اختلافهم في الأمم والمعتقد بحسب ما كانوا عليه في الدنيا من اتفاق أو اختلاف ليروا أعمالهم في موقف العرض من خير أو شر فيجازون عليها بثواب أو عقاب ، والشتات : التفرق والاختلاف ، قال لبيد :

إنْ كُنْتِ تهْوينَ الفِراقَ ففارقي . . . لا خيرَ في أمْر الشتات

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه ﴾ في هذه الآية ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن معنى يَرَهُ أي يعرفْهُ .

الثاني : أنه يرى صحيفة عمله .

الثالث : أن يرى خير عمله ويلقاه .

وفي ذلك قولان :

أحدهما : يلقى ذلك في الآخرة ، مؤمناً كان أو كافراً ، لأن الآخرة هي دار الجزاء .

الثاني : أنه إن كان مؤمناً رأى جزاء سيئاته في الدنيا ، وجزاء حسناته في الآخرة حتى يصير إليها وليس عليه سيئة .

وإن كان كافراً رأى جزاء حسناته في الدنيا ، وجزاء سيئاته في الآخرة حتى يصير إليها وليس له حسنة ، قاله طاووس .

ويحتمل ثالثاً : أنه جزاء ما يستحقه من ثواب وعقاب عند المعاينة في الدنيا ليوفاه في الآخرة .

ويحتمل المراد بهذه الآية وجهين :

أحدهما : إعلامهم أنه لا يخفى عليه صغير ولا كبير .

الثاني : إعلامهم أنه يجازي بكل قليل وكثير .

وحكى مقاتل بن سليمان أنها نزلت في ناس بالمدينة كانوا لا يتورعون من الذنب الصغير من نظرة أو غمزة أو غيبة أو لمسة ، ويقولون إنما وعد الله على الكبائر ، وفي ناس يستقلون الكسرة والجوزة والتمرة ولا يعطونها ، ويقولون إنما نجزى على ما تعطيه ونحن نحبه ، فنزل هذا فيهم .

وروي أن صعصعة بن ناجية جد الفرزدق أتى النبي صلى الله عليه وسلم يستقرئه ، فقرأ عليه هذه الآية ، فقال صعصعة : حسبي حسبي إن عملت مثقال ذرة خيراً رأيته ، وإن عملت مثقال ذرة شراً رأيته .

وروى أبو أيوب الأنصاري : قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله عنه يتغذيان إذا نزلت هذه السورة ، فقاما وأمسكا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 6 صـ 318. 322﴾

(127/826)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إذا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَها ﴾

أي : حُرِّكت حركةً شديدةً ، وذلك عند قيام الساعة .

وقال مقاتل : تتزلزل من شدة صوت إسرافيل حتى يَنْكَسِرَ كلُّ ما عليها من شدة الزّلزلة ولا تسكن حتى تلقيَ ما على ظهرها من جبل ، أو بناءٍ ، أو شجر ، ثم تتحرك وتضطرب ، فتُخْرِجَ ما في جوفها .

وفي وقت هذه الزلزلة قولان .

أحدهما : تكون في الدنيا ، وهي من أشراط الساعة ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنها زلزلة يوم القيامة ، قاله خارجة بن زيد في آخرين .

قال الفراء : حدثني محمد بن مروان ، قال : قلت للكلبي : أرأيتَ قول الله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ ؟ فقال هذه بمنزلة قوله تعالى : ﴿ ويخرجكم إخراجاً ﴾ [نوح : 18] فأضيف المصدر إلى صاحبه ، وأنت قائل في الكلام : لأُعطِيَنَّكَ عَطِيَّتَكَ ، تريد عطية .

والزِّلزال بالكسر المصدر ، وبالفتح الاسم .

وقد قرأ أبو العالية ، وأبو عمران ، وأبو حيوة الجحدري : "زَلزالها" بفتح الزاي .

قوله تعالى : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ فيه قولان .

أحدهما : ما فيها من الموتى ، قاله ابن عباس .

والثاني : كنوزها ، قاله عطية وجمع الفراء بين القولين فقال : لفظت ما فيها من ذهب ، أو فضة ، أو ميت .

قوله تعالى : ﴿ وقال الإنسان ما لها ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه اسم جنس يعم الكافر والمؤمن ، وهذا قول من جعلها من أشراط الساعة ، لأنها حين ابتدأت لم يعلم الكلُّ أنها من أشراط الساعة ، فسأل بعضهم بعضاً حتى أيقنوا .

والثاني : أنه الكافر خاصة ، وهذا قول من جعلها زلزلة القيامة ، لأن المؤمن عارف فلا

يسأل عنها ، والكافر جاحد لها لأنه لا يؤمن بالبعث ، فلذلك يسأل .

قوله تعالى : ﴿ يومئذ تُحَدِّثُ أخبارها ﴾ قال الزجاج : "يومئذ" منصوب بقوله تعالى :

﴿ إذا زلزلت ﴾ ﴿ وأخرجت ﴾ ففي ذلك اليوم تحدِّث بأخبارها ، أي : تخبر بما عمل عليها .

(128/826)

وفي حديث أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : أتدرون ما أخبارها ؟

قالوا : الله و رسوله أعلم .

قال : أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا .

قوله تعالى : ﴿ بأنَّ ربَّك أوحى لها ﴾ قال الفراء : تحدِّث أخبارها بوحي الله وإذنه لها .

قال ابن عباس : أوحى لها ، أي : أوحى إليها ، وأذن لها أن تخبر بما عمل عليها .

وقال أبو عبيدة : "لها" بمعنى "إليها" قال العجَّاج :

وَحَى لها القَرَارَ فاسْتَقَرَّتِ . . . .

قوله تعالى : ﴿ يومئذ يَصْدُرُ النَّاس ﴾ أي : يرجعون عن موقف الحساب ﴿ أشتاتاً ﴾

أي : فِرَقاً .

فأهل الإيمان على حدةٍ وأهل الكفر على حِدة ﴿ ليُرَوْا أعمالهم ﴾ وقرأ أبو بكر الصديق ، وعائشة ، والجحدري : "لِيَروْا" بفتح الياء .

قال ابن عباس : أي : ليروا جزاء أعمالهم .

فالمعنى : أنهم يرجعون عن الموقف فرقاً لينزلوا منازلهم من الجنة والنار .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : تُحَدِّث أخبارها بأن ربّك أوحى لها ليروا أعمالهم يومئذ يصدر الناس أشتاتاً .

فعلى هذا : يرون ما عملوا من خير أو شر في موقف العَرْضِ ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة ﴾

قال المفسرون : من يعمل في الدنيا مثقال ذرة من الخير أو الشر يره وقرأ أبان عن عاصم "يُرَه" بضم الياء في الحرفين .

وقد بَيَّنَّا معنى "الذَّرَّة" في سورة [النساء : 40] وفي معنى هذه الرؤية قولان .

أحدهما : أنه يراه في كتابه .

والثاني : يرى جزاءه .

وذكر مقاتل : أنها نزلت في رجلين كانا بالمدينة ، كان أحدهما يستقلُّ أن يعطيَ السائل الكِسْرة ، أو التمرة .

وكان الآخر يتهاونُ بالذَّنب اليسير ، فأنزل الله عز وجل هذا يُرَغِّبُهم في القليل من الخير ، ويُحَذِّرهم اليسير من الشر . انتهى انتهى . اهـ ﴿زاد المسير حـ 9 صـ 201. 205﴾

(129/826)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾

أي تحركت حركة شديدة ، واضطربت ، وذلك عند قيام الساعة ، وقيل تزلزل من شدة صوت إسرافيل حتى ينكسر كل ما عليها من شدة الزّلزلة ولا تسكن حتى تلقي ما على ظهرها من جبل ، وشجر ، وبناء وفي وقت هذه الزّلزلة قولان أحدهما : وهو قول الأكثرين ، أنها في الدّنيا ، وهي من أشراط السّاعة والثاني أنها زلزلت يوم القيامة .

﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ فمن قال إن الزّلزلة تكون في الدّنيا قال أثقالها كنوزها ، وما في بطنها من الدّفائن ، والأموال فتلقيها على ظهرها يدل على صحة هذا القول ، ما روي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوانة من الذهب ، والفضة ، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت ويجيء القاطع ، فيقول في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السّارق فيقول في هذا

قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً " أخرجه مسلم والأفلاذ جمع فلذة وهي القطعة المستطيلة شبه ما يخرج من باطنها بأقطاع كبدها ، لأن الكبد مستور في الجوف ، وإنما خص الكبد لأنها من أطيب ما يشوى عند العرب من الجزور ، واستعار القيء للإخراج ، ومن قال بأن الزّلزلة تكون يوم القيامة ، قال أثقالها الموتى فتخرجهم إلى ظهرها قيل إن الميت إذا كان في بطن الأرض ، فهو ثقل لها وإذا كان فوقها ، فهو ثقل عليها ، ومنه سميت الجن والإنس بالثقلين لأن الأرض تثقل بهم أحياء وأمواتاً .

﴿ وقال الإنسان ما لها ﴾ يعني ما لها تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة ، ولفظت ما في بطنها وفي الإنسان وجهان .

(130/826)

أحدهما أنه اسم جنس يعم المؤمن والكافر ، وهذا على قول من جعل الزّلزلة من أشراط السّاعة ، والمعنى أنها حين وقعت لم يعلم الكل أنها من أشراط السّاعة ، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك ، والثاني أنه اسم للكافر خاصة وهذا على قول من جعلها زلزلة القيامة لأن المؤمن عارف بها فلا يسأل عنها ، والكافر جاحد لها ، فإذا وقعت سأل عنها ، وقيل مجاز الآية ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ فيقول الإنسان ما لها ، والمعنى أن الأرض تحدث

بكل ما عمل على ظهرها من خير أو شر ، فتشكوا العاصي ، وتشهد عليه وتشكر الطّائع وتشهد له " " عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذه الآية ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال أتدرون ما أخبارها قالوا الله ورسوله أعلم ، قال فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول عمل يوم كذا كذا وكذا فهذه أخبارها " أخرجه التّرمذي ، وقال حديث حسن صحيح ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ أي أمرها بالكلام وأذن لها أن تخبر بما عمل عليها قال ابن عباس : أوحى إليها قيل إن الله تعالى يخلق في الأرض الحياة ، والعقل ، والنطق حتى تخبر بما أمر الله به وهذا مذهب أهل السنة .

قوله تعالى : ﴿ يومئذ يصدر النّاس ﴾ أي عن موقف الحساب بعد العرض ﴿ أشتاتاً ﴾ أي متفرقين فآخذ ذات اليمين إلى الجنة وآخذ ذات الشمال إلى النار ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ قال ابن عباس ليروا جزاء أعمالهم ، وقيل معناه ليروا صحائف أعمالهم التي فيها الخير والشّر .

﴿ فمن يعمل مثقال ذرة ﴾ قال وزن نملة صغيرة وقيل هو ما لصق من التراب باليد ﴿ خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ قال ابن عباس : ليس مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً في الدّنيا إلا أراه الله إياه يوم القيامة ، فأما المؤمن فيرى حسناته وسيئاته فيغفر الله له سيئاته ، ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر ، فيرد حسناته ويعذبه بسيئاته ، وقال محمد بن كعب القرظي فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره من كافر يرى ثوابه في الدّنيا في نفسه وولده وأهله وماله حتى يخرج من الدّنيا وليس له عند الله خير ومن يعلم مثقال ذرة شراً يره من مؤمن يرى عقوبته في الدّنيا في نفسه ، وماله ، وولده وأهله حتى يخرج من الدّنيا وليس له عند الله شر قيل نزلت هذه الآية في رجلين وذلك أنه لما نزلت ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ وكان أحدهما يأتيه السائل ، فيستقل أن يطعمه التّمرة والكسرة ، والجوزة ونحو ذلك ويقول هذا ليس بشيء يؤجر عليه إنما يؤجر على ما يعطي ونحن نحبه ، وكان الآخر يتهاون بالذّنب الصّغير مثل الكذبة والنظرة وأشباه ذلك ويقول إنما وعد الله النار على الكبائر وليس في هذا ، إثم فأنزل الله هذه الآية يرغبهم في القليل من الخير أن يعطوه فإنه يوشك أن يكثر ويحذرهم من اليسير من الذّنب ، فإنه يوشك أن يكبر والإثم الصغير في عين صاحبه يصير مثل الجبل العظيم يوم القيامة قال ابن مسعود : أحكم آية في القرآن ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وسمي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هذه الآية الجامعة الفاذة حين سأل عن زكاة الحمير ، فقال " ما أنزل الله فيها

شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة " ، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وتصدق عمر بن الخطاب وعائشة كل واحد منهما بحبة عنب ، وقالا فيها مثاقيل كثيرة ، قلت إنما كان غرضهما تعليم الغير وإلا فهما من كرماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم وقال الربيع بن

(132/826)

خيثم : مر رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السّورة فلما بلغ آخرها قال حسبي الله قد انتهت الموعظة ، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 280.282 ﴾

(133/826)

وقال النسفى :

سورة الزلزلة

مختلف فيها وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرضُ زِلْزَالَهَا ﴾

أي إذا حركت زلزالها الشديد الذي ليس بعده زلزال .

وقرىء بفتح الزاء فالمكسور مصدر والمفتوح اسم ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرضُ أَثْقَالَهَا ﴾ أي كنوزها وموتاها جمع ثقل وهو متاع البيت ، جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالاً لها ﴿ وَقَالَ الإنسان ﴾ زلزلت هذه الزلزلة الشديدة ولفظت ما في بطنها ، وذلك عند النفخة الثانية حين تزلزل وتلفظ موتاها أحياء فيقولون ذلك لما يبهرهم من الأمر الفظيع كما يقولون ﴿ مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ [يس : 52] وقيل : هذا قول الكافر لأنه كان لا يؤمن بالبعث ، فأما المؤمن فيقول ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ [يس : 52] ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل من "إذا" وناصبها ﴿ تُحَدِّثُ ﴾ أي تحدث الخلق ﴿ أَخْبَارَهَا ﴾ فحذف أول المفعولين لأن المقصود ذكر تحديثها الإخبار لا ذكر الخلق .

قيل : ينطقها الله وتخبر بما عمل عليها من خير وشر .

وفي الحديث : " تشهد على كل واحد بما عمل على ظهرها " ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ أي تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها أي إليها وأمره إياها بالتحديث ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس ﴾ يصدرون عن مخارجهم من القبور إلى الموقف ﴿ أَشْتَاتاً ﴾ بيض الوجوه آمنين وسود الوجوه فزعين ، أو يصدرون عن الموقف أشتاتاً يتفرق بهم طريقا الجنة والنار ﴿

لِّيُرَوْاْ أعمالهم ﴾ أي جزاء أعمالهم ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ نملة صغيرة ﴿ خَيْرًا ﴾ تمييز ﴿ يَرَهُ ﴾ أي ير جزاءه ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ قيل : هذا في الكفار والأول في المؤمنين .

ويروى أن أعرابياً أخر خيراً يره فقيل له : قدمت وأخرت فقال :

خذا بطن هرشي أو قفاها فإنه . . .

كلا جانبي هرشي لهن طريق

(134/826)

وروي أن جد الفرزدق أتاه عليه السلام ليستقرئه فقرأ عليه هذه الآية فقال : حسبي حسبي ، وهي أحكم آية وسميت الجامعة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 372 ﴾

(135/826)

وقال ابن جزى :

سورة الزلزلة

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأرض ﴾

أي حركت واهتزت ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ مصدر وإنما أضيف إليها تهويلاً كأنه يقول الزلزلة التي تليق بها على عظم جرمها ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ يعني الموتى الذين في جوفها ، وذلك عند النفخة الثانية في الصور . وقيل : هي الكنوز وهذا ضعيف لأن إخراجها للكنوز وقت الدجال ﴿ وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا ﴾ أي يتعجب من شأنها فيحتمل أن يريد جنس الإنسان أو الكافر خاصة ؛ لأنه الذي يرى حينئذ ما لا يظن ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ هذه عبارة عما يحدث فيها من الأهوال فهو مجاز وحديث بلسان الحال وقيل : هو شهادتها على الناس بما عملوا على ظهرها فهو حقيقة ، وتُحدّث يتعدى إلى مفعولين حذف المفعول منهما ، والتقدير تحدث الخلق أخبارها ، وانتزع بعض المحدثين من قوله : تُحدّثُ أخبارها أن قول المحدّث حدثنا وأخبرنا سواء ، وهذه الجملة هي جواب إذا زلزلت وتحدث هو العامل في إذا . ويومئذ بدل من إذا ويجوز أن يكون العامل في إذا مضمر وتحدث عامل في يومئذ ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ الباء سببية متعلقة بتحدث أي تحدث بسبب أن الله أوحى لها ، ويحتمل أن يكون بأن الله أوحى لها بدلاً من إخبارها وهذا كما تقول : حدثت كذا وحدثت بكذا ، والمعنى على هذا تحدث بحديث الوحي لها ، وهذا

الوحي يحتمل أن يكون إلهاماً أو كلاماً بواسطة الملائكة ولها بمعنى إليها ، وقيل : معناه أوحى إلى الملائكة من أجلها وهذا بعيد .

(136/826)

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً ﴾ مختلفين في أحوالهم ، وواحد الأشتات شتيت ، وصدر الناس : هو انصرافهم من موضع وردهم ، فقيل : الورد هو الدفن في القبور والصَدْر : هو القيام للبعث . وقيل الورد القيام للحشر ، والصدر الإنصراف إلى الجنة أو النار . وهذا أظهر . وفيه يعظم التفاوت بين أحوال الناس فيظهر كونهم أشتاتاً ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ المثقال هو الوزن والذرة هي النملة الصغيرة ، والرؤية هنا ليست برؤية بصر وإنما هي عبارة عن الجزاء . وذكر الله مثقال الذرة تنبيهاً على ما هو أكثر منه من طريق الأولى ، كأنه قال : من يعمل قليلاً أو كثيراً وهذه الآية هي في المؤمنين ، لأن الكافر لا يجازى في الآخرة على حسناته ، إذ لم تقبل منه . استدل أهل السنة بهذه الآية : أنه لا يخلد مؤمن في النار ؛ لأنه إذا خلد لم ير ثواباً على إيمانه وعلى ما عمل من الحسنات ، وروى " عن عائشة أنها تصدقت بحبة عنب فقيل لها في ذلك ؛ فقالت : كم فيها من مثقال ذرة " ، وسمع رجلاً هذه الآية عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " حسبي الله لا أبالي أن

أسمع غيرها " ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ هذا على عمومه في حق الكافر ، وأما المؤمنون فلا يجازون بذنوبهم إلا بستة شروط : وهي أن تكون ذنوبهم كبائر ، وأن يموتوا قبل التوبة منها ، وأن لا تكون لهم حسنات أرجح في الميزان منها ، وأن لا يشفع فيهم ، وأن لا يكون ممن استحق المغفرة بعمل كأهل بدر ، وأن لا يعفو الله عنهم فإن المؤمن العاصي في مشيئة الله إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 214.213 ﴾

(137/826)

وقال البيضاوى :

سورة الزلزلة

مختلف فيها . وآيها ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾

اضطرابها المقدر لها عند النفخة الأولى ، أو الثانية أو الممكن لها أو اللائق بها في الحكمة ، وقرىء بالفتح وهو اسم الحركة وليس في الأبنية فعلال إلا في المضاعف .

﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ ما في جوفها من الدفائن أو الأموات جمع ثقل وهو متاع البيت .

﴿ وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا ﴾ لما يبهرهم من الأمر الفظيع ، وقيل المراد ب ﴿ الإنسان ﴾ الكافر فإن المؤمن يعلم ما لها .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدّثُ ﴾ تحدث الخلق بلسان الحال . ﴿ أَخْبَارَهَا ﴾ ما لأجله زلزالها وإخراجها . وقيل ينطقها الله سبحانه وتعالى فتخبر بما عمل عليها ، و﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل من ﴿ إِذَا ﴾ وناصبهما ﴿ تُحَدّثُ ﴾ ، أو أصل و﴿ إِذَا ﴾ منتصب بمضمر .

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ أي تحدث بسبب إيحاء ربك لها بأن أحدث فيها ما دلت على الأخبار ، أو أنطقها بها ويجوز أن يكون بدلاً من إخبارها إذ يقال : حدثته كذا وبكذا ، واللام بمعنى إلى أو على أصلها إذ لها في ذلك تشف من العصاة .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس ﴾ من مخارجهم من القبور إلى الموقف . ﴿ أَشْتَاتاً ﴾ متفرقين بحسب مراتبهم . ﴿ لّيُرَوْاْ أعمالهم ﴾ جزاء أعمالهم ، وقرىء بفتح الياء .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ تفصيل ﴿ لّيُرَوْاْ ﴾ ولذلك قرىء "يُرَهُ" بالضم ، وقرأ هشام بإسكان الهاء ولعل حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران في نقص الثواب والعقاب . وقيل الآية مشروطة بعدم الإحباط والمغفرة ، أو من الأولى مخصوصة بالسعداء والثانية بالأشقياء لقوله ﴿ أَشْتَاتاً ﴾ ، وال ﴿ ذَرَّةٍ ﴾

النملة الصغيرة أو الهباء .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة إذا زلزلت الأرض أربع مرات كان كمن قرأ القرآن كله " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 518.519 ﴾

---

(1) رواه الثعلبي بسند ضعيف لكن يشهد له ما رواه ابن أبي شيبة مرفوعاً «إذا زلزلت تعدل ربع القرآن» .

(138/826)

وقال أبو حيان :

سورة الزلزلة

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) ﴾

لما ذكر فيما قبلها كون الكفار يكونون في النار ، وجزاء المؤمنين ، فكأن قائلاً قال : متى ذلك ؟ فقال : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ .

قيل : والعامل فيها مضمر ، يدل عليه مضمون الجمل الآتية تقديره : تحشرون .

وقيل : اذكر .

وقال الزمخشري : تحدث ، انتهى .

وأضيف الزلزال إلى الأرض ، إذ المعنى زلزالها الذي تستحقه ويقتضيه جرمها وعظمها ، ولو لم يضف لصدق على كل قدر من الزلزال وإن قل ؛ والفرق بين أكرمت زيداً كرامة وكرامته واضح .

وقرأ الجمهور : ﴿ زلزالها ﴾ بكسر الزاي ؛ والجحدري وعيسى : بفتحها .

قال ابن عطية : وهو مصدر كالوسواس .

وقال الزمخشري : المكسور مصدر ، والمفتوح اسم ، وليس في الأبنية فعلال بالفتح إلا في المضاعف ، انتهى .

أما قوله : والمفتوح اسم ، فجعله غيره مصدراً جاء على فعلال بالفتح .

ثم قيل : قد يجيء بمعنى اسم الفاعل ، فتقول : فضفاض في معنى مفضفض ، وصلصال : في معنى مصلصل .

وأما قوله : وليس في الأبنية الخ ؛ فقد وجد فيها فعلال بالفتح من غير المضاعف ، قالوا : ناقة بها خزعال بفتح الخاء وليس بمضاعف .

﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ : جعل ما في بطنها أثقالاً .

وقال النقاش والزجاج والقاضي منذر بن سعيد : أثقالها : كنوزها وموتاها .

ورد بأن الكنوز إنما تخرج وقت الدجال ، لا يوم القيامة ، وقائل ذلك يقول : هو الزلزال يكون في الدنيا ، وهو من أشراط الساعة ، وزلزال : يوم القيامة ، كقوله : ﴿ يوم ترجف الراجفة

تتبعها الرادفة ﴾ فلا يرد عليه بذلك ، إذ قد أخذ الزلزال عاماً باعتبار وقتيه .

ففي الأول أخرجت كنوزها ، وفي الثاني أخرجت موتاها ، وصدقت أنها زلزلت زلزالها وأخرجت أثقالها .

وقيل أثقالها كنوزها ومنه قوله " تلقى الأرض أفلاذ كبدها " أمثال الأسطوان من الذهب والفضة .

وقال ابن عباس : موتاها ، وهو إشارة إلى البعث وذلك عند النفخة الثانية ، فهو زلزال يوم القيامة ، لا الزلزال الذي هو من الأشراط .

﴿ وقال الإنسان ما لها ﴾ : يعني معنى التعجب لما يرى من الهول ، والظاهر عموم الإنسان .

وقيل : ذلك الكافر لأنه يرى ما لم يقع في ظنه قط ولا صدقة ، والمؤمن ، وإن كان مؤمناً بالبعث ، فإنه استهول المرأى .

وفي الحديث : " ليس الخبر كالعيان " قال الجمهور : الإنسان هو الكافر يرى ما لم يظن .

﴿ يومئذ ﴾ : أي يوم إذ زلزلت وأخرجت تحدث ، ويومئذ بدل من إذا ، فيعمل فيه لفظ

العامل في المبدل منه ، أو المكرر على الخلاف في العامل في البدل .

﴿ تحدث أخبارها ﴾ : الظاهر أنه تحديث وكلام حقيقة بأن يخلق فيها حياة وإدراكاً ، فتشهد بما عمل عليها من صالح أو فاسد ، وهو قول ابن مسعود والثوري وغيرهما .

ويشهد له ما جاء في الحديث : " بأنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر إلا شهد له يوم القيامة "

، وما جاء في الترمذي عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه قرأ هذه الآية ثم قال : " أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، فقال : إن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول عمل كذا يوم كذا وكذا ، قال فهذه أخبارها " هذا حديث حسن صحيح غريب .

قال الطبري : وقوم التحديث مجاز عن إحداث الله تعالى فيها الأحوال ما يقوم مقام التحديث باللسان ، حتى ينظر من يقول ما لها إلى تلك الأحوال ، فيعلم لم زلزلت ، ولم لفظت الأموات ، وأن هذا ما كانت الأنبياء ينذروا به ويحدثون عنه .

وقال يحيى بن سلام : تحدث بما أخرجت من أثقالها ، وهذا هو قول من زعم أن الزلزلة هي التي من أشراط الساعة .

وفي سنن ابن ماجه حديث في آخره تقول الأرض يوم القيامة : يا رب هذا ما استودعتني .

وعن ابن مسعود : تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان ما لها ، فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى ، وأمر الآخرة قد أتى ، فيكون ذلك جواباً لهم عند سؤالهم .

وتحدث هنا تتعدى إلى اثنين ، والأول محذوف ، أي تحدث الناس ، وليست بمعنى اعلم المنقولة من علم المتعدية إلى اثنين فتتعدى إلى ثلاثة .

﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ : أي بسبب إيحاء الله ، فالباء متعلقة بتحدث .

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون المعنى : يومئذ تحدث بتحديث أن ربك أوحى لها أخبارها ، على أن تحديثها بأن ربك أوحى لها تحديث أخبارها ، كما تقول : نصحتني كل نصيحة بأن نصحتني في الدين .

انتهى ، وهو كلام فيه عفش ينزه القرآن عنه .

وقال أيضاً : ويجوز أن يكون ﴿ بأن ربك ﴾ بدلاً من ﴿ أخبارها ﴾ ، كأنه قيل : يومئذ تحدث بأخبارها بأن ربك أوحى لها ، لأنك تقول : حدثته كذا وحدثته بكذا ، انتهى .

وإذا كان الفعل تارة يتعدى بحرف جر ، وتارة يتعدى بنفسه ، وحرف الجر ليس بزائد ، فلا يجوز في تابعه إلا الموافقة في الإعراب .

فلا يجوز استغفرت الذنب العظيم ، بنصب الذنب وجر العظيم لجواز أنك تقول من الذنب ، ولا اخترت زيداً الرجال الكرام ، بنصب الرجال وخفض الكرام .

وكذلك لا يجوز أن تقول : استغفرت من الذنب العظيم ، بجر الذنب ونصب العظيم ،

وكذلك في اخترت .

فلو كان حرف الجر زائداً ، جاز الاتباع على موضع الاسم بشروطه المحررة في علم النحو ،

تقول : ما رأيت من رجل عاقلاً ، لأن من زائدة ، ومن رجل عاقل على اللفظ .

ولا يجوز نصب رجل وجر عاقل على مراعاة جواز دخول من ، وإن ورد شيء من ذلك

فبابه الشعر .

وعدى أوحى باللام لا بإلى ، وإن كان المشهور تعديتها بإلى لمراعاة الفواصل .

قال العجاج يصف الأرض :

أوحى لها القرار فاستقرت . . .

وشدها بالراسيات الثبت

فعداها باللام .

وقيل : الموحى إليه محذوف ، أي أوحى إلى ملائكته المصرفين أن تفعل في الأرض تلك

الأفعال .

واللام في لها للسبب ، أي من أجلها ومن حيث الأفعال فيها .

وإذا كان الإيحاء إليها ، احتمل أن يكون وحي إلهام ، واحتمل أن يكون برسول من الملائكة .

﴿ يومئذ يصدر الناس ﴾ : انتصب يومئذ بيصدر ، والصدر يكون عن ورد .

وقال الجمهور : هو كونهم في الأرض مدفونين ، والصدر قيامهم للبعث ، و﴿ أشتاتاً ﴾ : جمع شت ، أي فرقاً مؤمن وكافر وعاص سائرون إلى العرض ، ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ .

وقال النقاش : الصدر قوم إلى الجنة وقوم إلى النار ، ووردهم هو ورد المحشر .

فعلى الأول المعنى : ليرى عمله ويقف عليه ، وعلى قول النقاش : ليرى جزاء عمله وهو الجنة والنار .

والظاهر تعلق ﴿ ليروا ﴾ بقوله ﴿ يصدر ﴾ .

وقيل : بأوحى لها وما بينهما اعتراض .

وقال ابن عباس : أشتاتاً : متفرقين على قدر أعمالهم ، أهل الأيمان على حدة ، وأهل كل دين على حدة .

وقال الزمخشري : أشتاتاً : بيض الوجوه آمنين ، وسود الوجوه فزعين ، انتهى .

ويحتمل أن يكون أشتاتاً ، أي كل واحد وحده ، لا ناصر له ولا عاضد ، كقوله تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ وقرأ الجمهور : ﴿ ليروا ﴾ بضم الياء ؛ والحسن والأعرج وقتادة

وحماد بن سلمة والزهري وأبو حيوة وعيسى ونافع في رواية : بفتحها ، والظاهر تخصيص العامل ، أي ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً ﴾ من السعداء ، لأن الكافر لا يرى خيراً في الآخرة ، وتعميم ﴿ ومن يعمل مثقال ذرة شراً ﴾ من الفريقين ، لأنه تقسم جاء بعد قوله : ﴿ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ﴾ .

وقال ابن عباس : قال هذه الأعمال في الآخرة ، فيرى الخير كله من كان مؤمناً ، والكافر لا يرى في الآخرة خيراً لأن خيره قد عجل له في دنياه ، والمؤمن تعجل له سيآته الصغائر في دنياه في المصائب والأمراض ونحوها ، وما عمل من شر أو خير رآه .

(142/826)

ونبه بقوله : ﴿ مثقال ذرة ﴾ على أن ما فوق الذرة يراه قليلاً كان أو كثيراً ، وهذا يسمى مفهوم الخطاب ، وهو أن يكون المذكور والمسكوت عنه في حكم واحد ، بل يكون المسكوت عنه بالأولى في ذلك الحكم ، كقوله : ﴿ فلا تقل لهما أف ﴾ والظاهر انتصاب خيراً وشراً على التمييز ، لأن مثقال ذرة مقدار .

وقيل : بدل من مثقال .

وقرأ الجمهور : بفتح الياء فيهما ، أي يرى جزاءه من ثواب وعقاب .

وقرأ الحسين بن علي وابن عباس وعبد الله بن مسلم وزيد بن علي والكلبي وأبو حيوة وخليد بن نشيط وأبان عن عاصم والكسائي في رواية حميد بن الربيع عنه : بضمها ؛ وهشام وأبو بكر : بسكون الهاء فيهما ؛ وأبو عمرو : بضمهما مشبعتين ؛ وباقي السبعة : بإشباع الأولى وسكون الثانية ، والإسكان في الوصل لغة حكاها الأخفش ولم يحكها سيبويه ، وحكاها الكسائي أيضاً عن بني كلاب وبني عقيل ، وهذه الرؤية رؤية بصر .

وقال النقاش : ليست برؤية بصر ، وإنما المعنى يصيبه ويناله .

وقرأ عكرمة : يراه بالألف فيهما ، وذلك على لغة من يرى الجزم بحذف الحركة المقدرة في حروف العلة ، حكاها الأخفش ؛ أو على توهم أن من موصولة لا شرطية ، كما قيل في أنه من يتقي ويصبر في قراءة من أثبت ياء يتقي وجزم يصبر ، توهم أن من شرطية لا موصولة ، فجزم ويصبر عطفاً على التوهم ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(143/826)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) ﴾

القراآت ﴿ يره ﴾ ساكنة الهاء في الحرفين : الحلواني عن هشام .

الوقوف : ﴿ زلزالها ﴾ ه لا ﴿ أثقالها ﴾ لا ﴿ ماالها ﴾ ه لا لاحتمال حذف عامل " إذا " أي أذا كانت هذه الأمور ترى ما ترى واحتمال أن يكون العامل ﴿ تحدث ﴾ و ﴿ يومئط ﴾ بدلاً من " إذا " ﴿ أخبارها ﴾ ه لا ﴿ لها ﴾ ه ط ﴿ أعمالهم ﴾ ه ط ﴿ يره ﴾ ه ط ﴿ يره ﴾ ه.

التفسير : لما ختم السورة المتقدمة بالوعيد والوعد أتبعه بذكر وقت الجزاء وعدد من إماراته الزلزلة الشديدة التي تستأهلها الأرض وهي معنى إضافة الزلزال إلى ضمير الأرض. قال أهل المعاني : هو كقولك " أكرم التقي إكرامه وأهن الفاسق إهانته " يريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة . وقريب منه قول من قال : أراد بزلزالها كل الزلزال وجميع ما هو ممكن منه أي يوجد الزلزلة كل ما يحتمل المحل . وقيل : زلزالها الموعود والمكتوب عليها لما أنها قدرت تقدير الحي . يروى أنها تتزلزل من شدة صوت إسرافيل عليه السلام . ومن امارات الساعة إخراج الأرض أثقالها أي ما في جوفها من الدفائن والأموات قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها وإذا كان فوقها فو ثقل عليها وسمي الإنس والجن بالثقلين لذلك . يروى أنها تخرج كنوزها فيملأ ظهر الأرض ذهباً ولا أحد يلتفت إليه ، وكأن الذهب بصيح ويقول : أما كنت تخرب دينك ودنياك لأجلي ؟ ويمكن أن تكون الفائدة في إخراجها أن يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها الجباه والجنوب والظهور

قالوا : إناه عند النفخة الأول تتزلزل فتلفظ بالكنوز والدفائن ، وعند النفخة الثانية ترجف فتخرج الأموات أحياء كالأم تلد حياً . وقيل : تلفظهم أمواتاً ثم يحييهم الله تعالى . وقيل : أثقالها أسرارها فيومئذ تكشف الأسرار ولذلك قال ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ أي تشهد لك وعليك ﴿ وقال الإنسان ما لها ﴾ تعجباً من حالها . وقيل : والكافر لأنه كان لا يؤمن بالبعث فيقول

﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾

[يس : 52] وأما المؤمن فيقول

(144/826)

﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾

[يس : 52] والباء في قوله ﴿ بأن ربك ﴾ إما أن تتعلق بـ ﴿ تحدث ﴾ والإيحاء بمعنى الأمر أي تحدث بسبب أن ربك أمرها بالتحديث ومفعول ﴿ تحدث ﴾ محذوف أي تحدث الناس ، أو متروك لأن المقصود تحديثها لا من تحدثه . وقيل : تحديثها بأن ربك أوحى لها تحديث بأخبارها كما تقول " نصحتني كل النصيحة بأن نصحتني في الدين " . وقيل : بدل من ﴿ أخبارها ﴾ لأنك تقول : حدثته كذا وحدثته بكذا . وأوحى لها

بمعنى أوحى إليها وهو مجاز عند صاحب الكشاف . وأبي مسلم كأنها بلسان الحال تبين لكل أحد جزاء عمله ، أو تحدث أن الدنيا قد انقضت والآخرة قد أقبلت .

(145/826)

والجمهور على أنه تعالى يجعل الأرض ذات فهم ونطق ويعرفها جميع ما عمل عليها فحينئذ تشهد لمن أطاع وعلى من عصى . وكان علي رضي الله عنه إذا فرغ بيت المال صلى فيه ركعتين ويقول : إشهدي أني ملأتك بحق وفرغتك بحق . وقيل : لفظ التحديث يفيد الاستئناس ، فعل الأرض تبث شكواها إلى أولياء الله وملائكته ، وقالت المعتزلة : إن الله تعالى يخلق في الأرض وهي جماد أصواتاً مقطعة مخصوصة فيكون المتكلم والشاهد على أن التقدير هو الله . قوله ﴿ يصدر ﴾ الصدر ضد الورود فالوارد الجائي والصادر المنصرف ، ﴿ أشتاتاً ﴾ أي متفرقين جمع شت أو شتيت أي يذهبون من مخارج قبورهم إلى الموقف . فبعضهم إثر بعض راكبين مع الثياب الحسنة وبياض الوجه وينادي مناد بين يديه هذا ولي الله ، وبعضهم مشاة عراة حفاة سود الوجوه مقيدين بالسلاسل والأغلال والمنادي ينادي هذا عدو الله . وقيل : أشتاتاً أي كل فريق مع شكله اليهودي مع اليهودي ، والنصراني مع النصراني وقيل : من كل قطر من أقطار الأرض ليروا صحائف أعمالهم أو

جزاء أعمالهم وهو الجنة أو النار وما يناسب كلاً منهما . والذرة أصغر النمل أو هي الهباءة ، وعن ابن عباس إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها فكل واحد مما لزق بها من التراب مثقال ذرة ، فليس من عبد عمل خيراً أو شراً ، قليلاً كان أو كثيراً إلا أراه الله تعالى إياه . قال مقاتل : نزلت هذه الآية في رجلين وذلك أنه لما نزل

﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾

(146/826)

[الدهر : 8] كان أحدهما يأتيه السائل فيسأم أن يعطيه الثمرة والكسرة والجوزة ويقول : ما هذا بشيء وإنما يؤجر على ما نعطي وكان أحدهما يتهاون بالذنب الصغير ويقول : لا شيء علي من هذا فرغب الله تعالى في القليل من الخير لأنه يوشك أن يكثر ، وحذر من الذنب اليسير فإنه يوشك أن يعظم ، فلهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم " اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة " والتحقيق أن المقصود النية فإن كان العمل قليلاً والنية خالصة حصل المطلوب ، وإن كان العمل كثيراً والنية فاسدة فالمقصود فائت ، ولهذا قال كعب الأحبار : لا تحقروا شيئاً من المعروف فإن رجلاً دخل الجنة بإعارة إبرة في سبيل الله ، وإن امرأة أعانت بحبة في بناء بيت المقدس فدخلت الجنة . وعن عائشة أنه كان بين يديها

عنب قدمته إلى نسوة بحضرتها فجاء سائل فأمرت له بحبة من ذلك ، فضحك بعض من كان عندها فقالت : إن فيما ترون مثاقيل وتلت هذه الآية . قال جار الله : إن حسنات الكافر محبطة بالكفر وسيئات المؤمن مكفرة باجتناب الكبائر ، فما معنى الجزاء لمثاقيل الذر من الخير والشر ؟ وأجاب على مذهبه بأن المعنى فمن يعمل من فريق السعداء مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل من فريق الأشقياء مثقال ذرة شراً .

(147/826)

يره . وذلك أن الحكم جاء بعد قوله ﴿ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ والأولى في جوابه ما روي عن ابن عباس : ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله تعالى إياه . فأما المؤمن فيغفر له سيئاته ويثاب بحسناته وأما الكافر فترد حسناته ويعذب بسيئاته . وقل : إن حسنات الكافر وإن كانت محبطة بكفره لكن الموازنة معتبرة فتقدر تلك الحسنات انحبطت من عقاب كفره ، وكذا القول في الجانب الآخر . وعن محمد بن كعب القرظي : معناه فمن يعمل مثقال ذرة من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا في نفسه أو أهله أو ماله حتى يلقى الآخرة وليس له فيها خير ، ومن يعمل مثقال ذرة من شر وهو مؤمن فإنه يرى عقوبة ذلك في الدنيا في نفسه أو أهله أو ماله حتى يلقى الآخرة وليس له فيها شر ،

وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً ويؤيده ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر : يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل الخير حتى توفاها يوم القيامة . فإن قيل : إن كان الأمر إلى هذا الحد فأين الكرم ؟ قلت : هذا هو الكرم لأن المعصية وإن قلت ففيها استخفاف والكريم لا يحتمله ، والطاعة تعظيم وإن قلت فالكريم لا يضيعه . قال أهل العرفان : كأنه تعالى يقول : ابن آدم أنك مع ضعفك وعجزك لم تضيع ذرة من مخلوقاتي بل نظرت فيها واعتبرت بها واستدللت بوجودها على وجود الصانع ، فأنا مع كمال قدرتي وكرمي كيف أضيع ذرتك والله الكريم . انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 546 ـ 548 ﴾

(148/826)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الزلزلة

مدنية في قول ابن عباس وقتادة ومكية في قول ابن مسعود وعطاء وجابر وهي ثمان آيات وخمس وثلاثون كلمة ومائة وتسع وأربعون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ الخلق بنعمته

الظاهرة قسماً ﴿ الرحيم ﴾ الذي أتم النعمة على خواصه حقيقة عيناً واسماً .

ولما قال تعالى : للمؤمنين ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن ﴾ كأنَّ المكلف قال : متى يكون ذلك فقيل : له :

﴿ إذا زلزلت الأرض ﴾ أي : تحرّكت واضطربت لقيام الساعة ، فالعاملون كلهم يكونون في الخوف وأنت في ذلك الوقت تنال جزاءك وتكون آمناً لقوله تعالى : ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ (النمل :)

. ﴿ زلزالها ﴾ أي : تحريكها الشديد المناسب لعظم جرم الأرض وعظمة ذلك كما تقول : أكرم التقي إكرامه ، وأهن الفاسق إهانته تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة .

ولما كان الاضطراب العظيم يكشف عن الخفي في المضطرب قال تعالى :

﴿ وأخرجت الأرض ﴾ أي : كلها ، ولم يضمر تحقيقاً للعموم ﴿ أثقالها ﴾ أي : مما هو مدفون فيها من الكنوز والأموات . قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت في بطن الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها . وقال ابن عباس ومجاهد : أثقالها أمواتها تخرجهم في النفخة الثانية ، ومنه قيل للجنّ والإنس : الثقلان . وقيل : أثقالها

كنوزها ، ومنه الحديث : "تنفى الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً" فيعطيها الله تعالى قوّة إخراج ذلك كله كما كان يعطيها قوّة أن تخرج النبات الصغير اللطيف الطريّ الذي هو أنعم من الحرير ، فتشق الأرض الصلبة التي تكل عنها المعاويل شق النواة مع ما لها من الصلابة التي استعصت بها على الحديد ، فتنفلق نصفين وينبت منها سائر ما يريده سبحانه وتعالى فالذي قدر على ذلك قادر على تكوين الموتى في بطن الأرض ، وإعادتهم على ما كانوا عليه كما يكون الجنين في البطن ، ويشق جميع منافذه من السمع والبصر والفم وغير ذلك من غير أن يدخل هناك بيكار ولا منشار ، ثم يخرج من البطن . هكذا إخراج الموتى من غير فرق كل ذلك عليه هين سبحانه . ما أعظم شأنه وأعز سلطانه .

﴿ وقال الإنسان ﴾ أي : هذا النوع الصادق بالقليل والكثير لما له من النسيان لما أكده عنده من أمر البعث لما له من الإنس بنفسه ، والنظر في عطفه على سبيل التعجب أو الدهش والحيرة أو الكافر كما يقول : ﴿ من بعثنا من مرقدنا ﴾ (يس :)

فيقول له المؤمن : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ (يس :)

﴿ ما لها ﴾ أي : أيّ شيء ثبت للأرض في هذه الزلزلة الشديدة التي لم يعهد مثلها ولفظت ما في بطنها .

﴿ يومئذ ﴾ أي: إذ كان ما ذكر من الزلزال وما لزم عنه وقوله تعالى: ﴿ تحدّث أخبارها ﴾ جواب إذا وهو الناصب لها عند الجمهور، ومعنى تحدّث، أي: تخبر الأرض بما عمل عليها من خير أو شرّ يومئذ، ثم قيل: هو من قول الله تعالى، وقيل: من قول الإنسان، أي: يقول الإنسان ما لها تحدّث أخبارها متعجباً. روى الترمذي عن أبي هريرة أنه قال: "قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ﴿ يومئذ تحدّث أخبارها ﴾ قال: "أتدرون ما أخبارها قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل يوم كذا وكذا كذا وكذا. قال: فهذه أخبارها".

في تحديثها بأخبارها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ الله تعالى يقلبها حيواناً ناطقاً فتتكلم بذلك.

ثانيها: أنّ الله تعالى يحدث فيها الكلام.

ثالثها: أن يكون فيها بيان يقوم مقام الكلام. قيل: في الآية تقديم وتأخير تقديره يومئذ تحدث أخبارها فيقول الإنسان ما لها أي: تخبر الأرض بما عمل عليها.

﴿ بأن ربك ﴾ متعلق بتحدِّث، ويجوز أن يتعلق بنفس أخبارها والباء سببية، أي:

تحدّث بسبب أن ربك المحسن إليك بأنواع النعم ﴿ أوحى لها ﴾ أي : أذن لها أن تتكلم بذلك المذكور بالقال أو بالحال على ما مرّ . قال البقاعي : وعدل عن قوله إليها إلى قول الله تعالى : ﴿ لها ﴾ إيذاناً بالإسراع في الإيحاء . وقال البغوي : أوحى إليها واحد . وقرأ حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، . وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين ، والباقون بالفتح .

(151/826)

وقوله تعالى : ﴿ يومئذ ﴾ بدل من يومئذ قبله منصوب بقوله تعالى : ﴿ يصدر ﴾ أو بأذكر مقدّراً ، أي : واذكر يوم إذ كان ما تقدّم وهو حين يقوم الناس من القبور يصدر ﴿ الناس ﴾ أي : يرجعون من قبورهم إلى ربهم الذي كان لهم بالمرصاد ليفصل بينهم . وقرأ حمزة والكسائي بإشمام الصاد بين الصاد والزاي ، والباقون بالصاد الخالصة ﴿ أشتاتاً ﴾ أي : متفرّقين بحسب مراتبهم في الذوات والأحوال من مؤمن وكافر ، وآمن وخائف ، ومطيع وعاص . وعن ابن عباس : متفرّقين على قدر أعمالهم أهل الإيمان على حدة ، أو متفرّقين فأخذ ذات اليمين على الجنة ، وأخذ ذات الشمال إلى النار ﴿ ليروا ﴾ أي : يرى الله تعالى المحسن منهم والمسيء بواسطة من شاء من جنوده ، أو بغير واسطة حين يكلم سبحانه كل أحد من غير ترجمان ولا واسطة كما أخبر بذلك رسوله صلى الله عليه وسلم

﴿ أعمالهم ﴾ فيعلموا جزاءها ، أو صادرين عن الموقف كل إلى داره ليرى جزاء عمله ، ثم سبب عن ذلك قوله تعالى مفصلاً الجملة التي قبله : ﴿ فمن يعمل ﴾ من محسن أو مسيء ، مسلم أو كافر ﴿ مثقال ذرّة خيراً ﴾ أي : من جهة الخير ﴿ يره ﴾ أي : يرى ثوابه حاضراً لا يغيب عنه شيء منه ، لأنّ المحاسب له الإحاطة علماً وقدرة .

﴿ ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره ﴾ فالمؤمن يراه ليشتدّ سروره به ، والكافر يوقف على عمله أنه أحبط لبنائه على غير أساس الإيمان ، أو على أنه جوزي في الدنيا فهو صورة بلا معنى ليشتدّ ندمه وتبقى حسرته . وعن ابن عباس : من يعمل من الكفار خيراً يره في الدنيا ولا يثاب عليه في الآخرة ، ومن يعمل مثقال ذرّة من شر عوقب عليه في الآخرة مع عقاب الشرك ، ومن يعمل مثقال ذرّة من شر من المؤمنين يره في الدنيا ولا يعاقب عليه في الآخرة إذا تاب ويتجاوز عنه ، وإن عمل مثقال ذرّة من خير يقبل منه ويضاعف في الآخرة

وفي بعض الأحاديث : إنّ الذرّة لا زنة لها ، وهذا مثل ضربه الله تعالى ليبين أنه لا يغفل عن عمل ابن آدم صغيراً ولا كبيراً ، وهو كقوله تعالى : ﴿ إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة ﴾ (النساء :)

. وذكر بعض أهل اللغة أنّ الذر أن يضرب الرجل يده على الأرض فما علق من التراب فهو الذر . وعن ابن عباس : إذا وضعت يدك على الأرض ورفعتها فكل واحدة مما لزق من التراب ذرّة ، وفسرها بعضهم بالنملة الصغيرة ، وبعضهم بالهباءة التي ترى طائرة في الشعاع الداخل من الكوة . وقال محمد كعب القرظي : فمن يعمل مثقال ذرّة من خير من كافر يرى ثوابه في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله تعالى خير ومن يعمل مثقال ذرّة من شرّ ، من مؤمن يرى عقوبته في الدنيا في نفسه وماله وأهله وولده حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله تعالى شررّ ودليله ما روى أنس "أن هذه الآية نزلت على النبيّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يأكل فأمسك وقال : يا رسول الله وإنا لنرى ما عملنا من خير وشرّ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فمثاقيل ذر الشر ويدّخر لكم مثاقيل ذر الخير حتى تعطوه يوم القيامة" . وقال أبو إدريس : إنّ مصداقه من كتاب الله عز وجل : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ (الشورى :)

. وقال مقاتل : نزلت في رجلين أحدهما كان يأتيه السائل فيستقل أن يعطيه التمرة والكسرة والجوزة ، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير كالكذبة والغيبة والنظرة ، ويقول : إنما وعد الله تعالى النار على الكبائر فنزلت هذه الآية لترغبهم في القليل من الخير يعطوه ولهذا قال صلى الله عليه وسلم "اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة" وتحذرهم من اليسير من الذنب ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لعائشة : "إياك ومحقرات الذنوب فإنّ لها من الله تعالى طالباً" وقال ابن مسعود : هذه الآية أحكم آية في القرآن وأصدق . وقد اتفق العلماء على عموم هذه الآية .

وقال كعب الأحبار : لقد أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم آيتان أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزبور والصحف ﴿ فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره ﴾ . وكان صلى الله عليه وسلم يسمي هذه الجامعة الفاذة حين سئل عن زكاة الحمير فقال : "ما نزل عليّ فيها شيء غير هذه الآية الجامعة الفاذة" : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرّة شراً يره ﴾ . وروى مالك في الموطأ أنّ مسكيناً استطعم عائشة رضي الله عنها وبين يديها عنب ، فقالت لإنسان خذ حبة فأعطه إياها فجعل ينظر إليها ويتعجب فقالت : أتعجب كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرّة ، وكذا تصدّق عمر رضي الله عنه ، وإنما فعلا ذلك لتعليم الغير وإلا فهما من كرماء الصحابة . قال الربيع

بن خيثم مرّ رجل بالحسن وهو يقرأ هذه الآية فلما بلغ آخرها قال : حسبي قد انتهت الموعظة .

(154/826)

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ يره ﴾ جواب الشرط في الموضعين . وقرأ هشام بسكون هاء يره وصلاً في الحرفين ، والباقون بضمها وصلاً وساكنة وقفاً كسائر هاء الكناية . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من قرأ إذا زلزلت أربع مرّات كان كمن قرأ القرآن كله" ، رواه الثعلبي بسند ضعيف لكن يشهد له ما رواه ابن أبي شيبة مرفوعاً "إذا زلزلت تعدل ربع القرآن" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿السراج المنير حـ 8 صـ 403 407.﴾

(155/826)

وقال القاسمى :

سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾

أي: أصابها ذلك الزلزال الشديد والاهتزاز الرهيب. فالإضافة للتفخيم أو الاختصاص ، بمعنى الزلزال المخصوص بها ، وهي الرجة التي لا غاية وراءها . والأقرب الأول لآية:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج: 1] ، وقرئ بفتح الزاي ، وقد قيل: هما مصدران . وقيل: المفتوح اسم والمكسور مصدر ، وهو المشهور .

﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ أي: قذفت ما في باطنها من كنوز ودفائن وأموات وغير ذلك . لشدة الزلزلة وتشقق ظهرها . كقوله:

﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق: 3 – 4] ، والأثقال جمع ثقل ، بفتحتين وهو متاع المسافر وكل نفيس مصون . وهذا على الاستعارة . ويجوز أن يكون بكسر فسكون بمعنى حمل البطن ، على التشبيه أيضاً ؛ لأن الحمل يسمى ثقلاً كما في قوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا أَثْقَلَت ﴾ [الأعراف: 189] ، قاله الشريف المرتضى في "الدرر" .

﴿ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾

أي: قال مَن يكون مِن الْإِنْسَاْن شاهداً لهذا الزلزال الذي فاجأه ودهشه ولم يعهد مثله: ما لهذه الأرض رجّت الرجة الهائلة ، وبعثر ما فيها من الأثقال المدفونة ؟!

﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بدل من إذا ، أي : في ذلك الوقت ﴿ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ أي : تبين الأرض بلسان حالها ، ما لأجله زلزالها وإخراج أثقالها . فتدل دلالة ظاهرة على ذلك ، وهو الإيذان بفناء النشأة الأولى وظهور نشأة أخرى . فالتحديث استعارة أو مجاز مرسل مطلق الدلالة .

قال أبو مسلم : أي : يومئذ يتبين لكل أحد جزاء عمله ، فكأنها حدثت بذلك كقولك : الدار تحدثنا بأنها كانت مسكونة ، فكذا انتقاض الأرض بسبب الزلزلة تحدّث أن الدنيا قد انقضت ، وأن الآخرة قد أقبلت .

(156/826)

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ الباء سببية متعلق بـ ﴿ تُحَدِّثُ ﴾ أي : تحدث بسبب إيحاء ربك لها ، وأمره إياها بالتحديث . والإيحاء استعارة أو مجاز مرسل لإرادة لازمه ، وهو إحداث ما تدل به على خرابها .

وقال القاشانيّ : أي : أشار إليها وأمرها بالاضطراب والخراب وإخراج الأثقال ، يعني الأمر التكوينيّ ، وهو تعلق القدرة الإلهية بما هو أثر لها .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً ﴾ أي : ينصرفون عن مراقدهم إلى موطن حسابهم

وجزائهم ، متفرقين سعداء وأشقياء ﴿ لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي : ليريهم الله جزاء أعمالهم .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ أي : فمن عمل في الدنيا وزن ذرة من خير يرى ثوابه هنالك . والذرة النملة الصغيرة وهي مثل في الصغر . وقيل : الذر هو الهباء الذي يرى في ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ أي : ومن كان عمل في الدنيا وزن ذرة من شر ، يرى جزاءه ثمة .

تنبيهات :

الأول : دل لفظ ﴿ مَن ﴾ على شمول الجزاء بقسميه للمؤمن وغيره .

قال الإمام : أي : ومن يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره ، فإنه يراه ويجد جزاءه ، لا فرق في ذلك بين المؤمن والكافر . غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لا تصل بهم إلى أن تخلصهم من عذاب الكفر ، فهم به خالدون في الشقاء . والآيات التي تنطق بحبوط أعمال الكفار ، وأنها لا تنفعهم ، معناها هو ما ذكرنا ، أي : أن عملاً من أعمالهم لا ينجيهم من عذاب الكفر ، وإن خفف عنهم بعض العذاب الذي كان يرتقبهم ، على بقية السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شيء ، كيف لا ، والله جل شأنه يقول :

﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47] .

(157/826)

فقوله : ﴿ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ أصرح قول في أن الكافر والمؤمن في ذلك سواء ، وإن كلاًّ يوفى يوم القيامة جزاءه . وقد ورد أن < حاتماً يخفف عنه لكرمه > ، وأن < أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبي صلى الله عليه وسلم > وما نقله بعضهم من الإجماع على أن الكافر لا تنفعه في الآخرة حسنة ولا يخفف عنه عذاب سيئة ما ، لا أصل له . فقد قال بما قلناه كثير من أئمة السلف رضي الله عنهم . على أن كلمة الإجماع ، كثيراً ما يتخذها الجهلاء السفهاء آلة لقتل روح الدّين ، وحجَرا يلقمونه أفواه المتكلمين . وهم لا يعرفون للإجماع الذي يقوم به الحجة معنى ، فبئس ما يصنعون . انتهى .

وقد سبقه الشهاب في " حواشيه " على القاضي ، حيث ناقش صاحب " المقاصد " في دعواه الإجماع على إحباط عمل الكفرة . وعبارته : كيف يدعى الإجماع على الإحباط بالكلية ، وهو مخالف لما صرح به في الآية ؟ والذي يلوح للخاطر ، بعد استكشاف سرائر الدفاتر ، أن الكفار يعذبون على الكفر بحسب مراتبه . فليس عذاب أبي طالب كعذاب

أبي جهل ، ولا عذاب المعطلة كعذاب أهل الكتاب ، كما تقتضيه الحكمة والعدل الإلهي .

انتهى .

الثاني : قال في " الإكليل " : في هاتين الآيتين الترغيب في قليل الخير وكثيره ، والتحذير من قليل الشر وكثيره أخرج عبد الرزاق عن ابن مسعود قال : هذه الآية أحكم آية في القرآن .

وفي لفظ : أجمع .

وسمى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية < الجامعة الفاذة > ، حين سئل عن زكاة الحمير فقال : < ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذة > :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ وروى الإمام أحمد عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق ، أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم < فقرأ عليه : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ > إلخ . قال : حسبي . لا أبالي أن لا أسمع غيرها . ورواه النسائي في تفسيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التأويل حـ 17 صـ 459.

462﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الزلزلة

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (3)

سورة الزلزلة

تعريف بسورة الزلزلة

هذه السورة مدنية في المصحف وفي بعض الروايات ; ومكية في بعض الروايات الأخرى .

ونحن نرجح الروايات التي تقول بأنها مكية , وأسلوبها التعبيري وموضوعها يؤيدان هذا .

إنها هزة عنيفة للقلوب الغافلة . هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد والإيقاع اللفظي .

وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ; فما يكادون يفيقون حتى يواجههم الحساب والوزن والجزاء في بضع فقرات قصار !

وهذا هو طابع الجزء كله , يتمثل في هذه السورة تمثلا قويا . . .

إذا زلزلت الأرض زلزالها , وأخرجت الأرض أثقالها , وقال الإنسان مالها ? يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها .

إنه يوم القيامة حيث ترتجف الأرض الثابتة ارتجافا , وتزلزل زلزالا , وتنفض ما في جوفها نفضا , وتخرج ما يثقلها من أجساد ومعادن وغيرها مما حملته طويلا . وكأنها تتخفف من

هذه الأثقال , التي حملتها طويلا !

وهو مشهد يهز تحت أقدام المستمعين لهذه السورة كل شيء ثابت ; ويخيل إليهم أنهم يترنحون ويتأرجحون , والأرض من تحتهم تهتز وتمور ! مشهد يخلع القلوب من كل ما تتشبث به من هذه الأرض , وتحسبه ثابتا باقيا ; وهو الإيحاء الأول لمثل هذه المشاهد التي يصورها القرآن , ويودع فيها حركة تكاد تنتقل إلى أعصاب السامع بمجرد سماع العبارة القرآنية الفريدة !

ويزيد هذا الأثر وضوحا بتصوير "الإنسان" حيال المشهد المعروض , ورسم انفعالاته وهو يشهده :

(وقال الإنسان : ما لها ?) . .

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)

وهو سؤال المشدوه المبهوت المفجوء , الذي يرى ما لم يعهد , ويواجه ما لا يدرك , ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه والسكوت . مالها ? ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجا ? مالها ?

وكأنه يتمايل على ظهرها ويترنح معها ; ويحاول أن يمسك بأي شيء يسنده ويثبته , وكل ما حوله يمور مورا شديدا !

"والإنسان" قد شهد الزلازل والبراكين من قبل . وكان يصاب منها بالهلع والذعر , والهلاك والدمار , ولكنه حين يرى زلزال يوم القيامة لا يجد أن هناك شبها بينه وبين ما كان يقع من الزلازل والبراكين في الحياة الدنيا . فهذا أمر جديد لا عهد للإنسان به . أمر لا يعرف له سرا , ولا يذكر له نظيرا . أمر هائل يقع للمرة الأولى !

(يومئذ) . . يوم يقع هذا الزلزال ويشده أمامه الإنسان (تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها) . . يومئذ تحدث هذه الأرض أخبارها , وتصف حالها وما جرى لها . . لقد كان ما كان لها (بأن ربك أوحى لها) . . وأمرها أن تمور مورا , وأن تزلزل زلزالها , وأن تخرج أثقالها ! فأطاعت أمر ربها (وأذنت لربها وحقت) . . تحدث أخبارها . فهذا الحال حديث واضح عما وراءه من أمر الله ووحيه أليها . .

وهنا و"الإنسان" مشدوه مأخوذ , والإيقاع يلهث فزعا ورعبا , ودهشة وعجبا , واضطرابا ومورا . . هنا و"الإنسان" لا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يتساءل : مالها مالها ? هنا يواجه بمشهد الحشر والحساب والوزن والجزاء :

(يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

وفي لمحة نرى مشهد القيام من القبور : (يومئذ يصدر الناس أشتاتا) . . نرى مشهدهم شتيتا منبعثا من أرجاء الأرض (كأنهم جراد منتشر) . . وهو مشهد لا عهد للإنسان به كذلك من قبل . مشهد الخلائق في أجيالها جميعا تنبعث من هنا ومن هناك : (يوم تشقق الأرض عنهم سراعا) . . وحيثما امتد البصر رأى شبحا ينبعث ثم ينطلق مسرعا ! لا يلوي على شيء , ولا ينظر وراءه ولا حواليه : (مهطعين إلى الداع) ممدودة رقابهم , شاخصة أبصارهم . (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) .

إنه مشهد لا تعبر عن صفته لغة البشر . هائل مروع . مفزع . مرعب . مذهل . . . كل أولئك وسائر ما في المعجم من أمثالها لا تبلغ من وصف هذا المشهد شيئا مما يبلغه إرسال الخيال قليلا يتملاه بقدر ما يملك وفي حدود ما يطيق !

(يومئذ يصدر الناس أشتاتا) . . (ليروا أعمالهم) . . وهذه أشد وأدهى . . إنهم ذاهبون إلى حيث تعرض عليهم أعمالهم , ليواجهوها , ويواجهوا جزاءها . ومواجهة الإنسان لعمله قد تكون أحيانا أقسى من كل جزاء . وإن من عمله ما يهرب من مواجهته بينه وبين نفسه , ويشيح بوجهه عنه لبشاعته حين يتمثل له في نوبة من نوبات الندم ولذع

الضمير . فكيف به وهو يواجه بعمله على رؤوس الأشهاد , في حضرة الجليل العظيم الجبار المتكبر ؟ !

إنها عقوبة هائلة رهيبة . . مجرد أن يروا أعمالهم , وأن يواجهوا بما كان منهم !

ووراء رؤيتها الحساب الدقيق الذي لا يدع ذرة من خير أو من شر لا يزنها ولا يجازي عليها .

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) . .

ذرة . . كان المفسرون القدامى يقولون : إنها البعوضة . وكانوا يقولون : إنها الهباءة التي ترى في ضوء الشمس . . . فقد كان ذلك أصغر ما يتصورون من لفظ الذرة . . .

(162/826)

فنحن الآن نعلم أن الذرة شيء محدد يحمل هذا الإسم , وأنه أصغر بكثير من تلك الهباءة التي ترى في ضوء الشمس , فالهباءة ترى بالعين المجردة . أما الذرة فلا ترى أبدا حتى بأعظم المجاهر في المعامل . إنما هي "رؤيا" في ضمير العلماء ! لم يسبق لواحد منهم أن رآها بعينه ولا بمجهره . وكل ما رآه هو آثارها !

فهذه أو ما يشبهها من ثقل , من خير أو شر , تحضر ويراها صاحبها ويجد جزاءها ! . .

.

عندئذ لا يحقر "الإنسان" شيئا من عمله . خيرا كان أو شرا . ولا يقول : هذه صغيرة لا حساب لها ولا وزن . إنما يرتعش وجدانه أمام كل عمل من أعماله إرتعاشة ذلك الميزان الدقيق الذي ترجح به الذرة أو تشيل !

إن هذا الميزان لم يوجد له نظير أو شبيه بعد في الأرض . . إلا في القلب المؤمن . . القلب الذي يرتعش لمثقال ذرة من خير أو شر . . . وفي الأرض قلوب لا تتحرك للجبل من الذنوب والمعاصي والجرائر . . ولا تتأثر وهي تسحق رواسي من الخير دونها رواسي الجبال . .

إنها قلوب عتلة في الأرض , مسحوقة تحت أثقالها تلك في يوم الحساب ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3954 . 3956 ﴾

(163/826)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1)

الزلزلة : الحركة الشديدة بسرعة ، ويدل لذلك فقه اللغة من وجهين :

الأول : تكرار الخوف ، أو ما يقال تكرار المقطع الواحد ، مثل صلصل وقلقل وزقزق ، فهذا التكرار يدل على الحركة .

والثاني : وزن فعَّل بالتضعيف كغلّق وكسّر وفتح ، فقد اجتمع في هذه الكلمة تكرار المقطع وتضعيف الوزن .

ولذا ، فإن الزلزال أشد ما شهد العالم من حركة ، وقد شوهدت حركات زلزال في أقل من ربع الثانية ، فدمر مدناً وحطم قصوراً . ولذا فقد جاء وصف هذا الزلزال بكونه شيئاً عظيماً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحج : 1] ، ويدل على هذه الشدة تكرار الكلمة في زلزلت وفي زلزلها ، كما تشعر به هذه الإضافة .

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، إيراد النصوص المبينة لذلك في أول سورة الحج كقوله تعالى : ﴿ وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ [الحاقة : 14] ، وقوله : ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً ﴾ [الواقعة : 4-5] ، وقوله : ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة تَتْبَعُهَا الرادفة ﴾ [النازعات : 6-7] ، وساق قوله : ﴿ وَأَخْرَجَتِ الأرض أَثْقَالَهَا ﴾ [الزلزلة : 2] .

واختلف في الأثقال ما هي على ثلاثة أقوال :

فقيل : موتاها . وقيل : كنوزها ، وقيل : التحدث بما عمل عليها الإنسان . ولعل الأول

أرجح هذه الثلاثة، لأن إخراج كنوزها سيكون قبل النفخة، والتحدث بالأعمال منصوص عليه بذاته، فبس هو الأثقال. ورجحوا القول الأول لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأرض كِفَاتاً أَحْيَآءً وَأَمْوَاتاً ﴾ [المرسلات: 25-26].

وقالوا: الإنس والجن ثقلان على ظهرها، فهما ثقل عليها، وفي بطنها فهم ثقل فيها، ولذا سميا بالثقلين. قال الفخر الرازي وابن جرير.

وروي عن ابن عباس: أنه موتاها.

(164/826)

وشبيه بذلك قوله: ﴿ وَإِذَا الأرض مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق: 3-4]، ولا يبعد أن يكون الجميع إذا راعينا صيغة الجمع أثقالها، ولم يقل ثقلها وإرادة الجمع مروية أيضاً عن ابن عباس. ذكره الألوسي، وابن جرير عنه وعن مجاهد.

وحكى الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه القولين في إملائه: أي موتاها، وقيل: كنوزها

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا ﴾، لفظ الإنسان هنا عام وظاهره أن كل إنسان يقول ذلك، ولكن جاء ما يدل على أن الذي يقول ذلك هو الكافر. أما المؤمن فيقول: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ [يس: 52] في قوله: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصور

فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجدَاث إلى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ قَالُواْ ياويلنا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرحمن وَصَدَقَ المرسلون ﴾ [يس : 51-52] .

فالكافر يدعو بالويل والمؤمن يطمئن للوعد ، ومما يدل على أن الجواب من المؤمنين ، لا من الملائكة ، كما يقول بعض الناس ، ما جاس في آخر السياق قوله : ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ ﴾ [يس : 53] – أي كلا الفريقين – ﴿ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس : 53] .

وقوله : ﴿ مَا لَهَا ﴾ سؤال استيضاح ، وذهول من هول ما يشاهد . وقوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ، التحديث هنا صريح في الحديث وهو على حقيقته ، لأن في ذلك اليوم تتغير أوضاع كل شيء وتظهر حقائق كل شيء ، وكما أنطق الله الجلود ينطق الأرض ، فتحدث بأخبارها ،

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قالوا أَنطَقَنَا الله الذي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [فصلت : 21] ، وتقدم تفصيل ذلك عند أول سورة الحشر ، لأن الله أودع في الجمادات القدرة على الإدراك والنطق ، والمراد بإخبارها أنها تخبر عن أعمال كل إنسان عليها في حال حياته .

ومما يشهد لهذا المعنى حديث المؤذن " لا يسمع صوته حجر ولا مدر إلا وشهد له يوم القيامة " ، وذكر ابن جرير وجها آخر ، وهو أن إخبارها هو ما أخبرته من أثقالها بوحي الله لها والأول أظهر لأنه يثبت معنى جديدا . ويشهد له الحديث الصحيح .

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7)

في هاتين الآيتين مبحثان أحدهما في معنى من لعمومه ، والآخر في صيغة يعمل .

أما الأول فهو مطروق في جميع كتب التفسير على حد قولهم : من للمعلوم المسلم والكافر ، مع أن الكافر لا يرى من عمل الخير شيئاً ، لقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان : 23] ، وفي حق المسلم ، قد لا يرى كل ما عمل من شر ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء : 48] .

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه هذه المسألة بتوسع في دفع إيهام الاضطراب بما يغني عن إيراده .

أما المبحث الثاني فلم أر من تناوله بالبحث ، وهو في صيغة يعمل ، لأنها صيغة مضارع ، وهي للحال والاستقبال .

والمقام في هذا السياق ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً ﴾ [الزلزلة : 6] ، وهو يوم البعث ، وليس هناك مجال للعمل ، وكان مقتضى السياق أن يقال : فمن عمل مثقال ذرة خيراً يره .

ولكن الصيغة هنا صيغة مضارع ، والمقام ليس مقام عمل ، ولكن في السياق ما يدل على أن المراد بعمل مثقال ذرة أي من الصنفين ما كان من قبل ذلك ، لقوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتاً لِّيُرَوْاْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [الزلزلة : 6] ، فهم إنما يروا في ذلك اليوم أعمالهم التي علموها من قبل ، فتكون صيغة المضارع هنا من باب الالتفات ، حيث كان السياق أولاً من أول السورة في معرض الإخبار عن المستقبل : إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وإذا أخرجت الأرض أثقالها ، وإذا قال الإنسان ما لها . في ذلك اليوم الآتي تحدث أخبارها ، وفي ذلك اليوم يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم التي عملوها من قبل كما في قوله : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [النبأ : 40] ، وقوله : ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً ﴾ [الكهف : 49] .

ثم جاء الالتفات بمخاطبتهم على سبيل التنبيه والتحذير ، فمن يعمل الآن في الدنيا مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل الآن في الدنيا مثقال ذرة شراً يره في الآخرة ، ومثال الذرة : قيل : هي النملة الصغيرة ، لقول الشاعر :

من القاصرات الطرف لو دب محول . . . من الذر فوق الإتب منها لأثرا

والإتب : قال في القاموس : الإتب بالكسر ، والمئتبة كمكنسة برد يشق ، فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمين ، وقيل : هي الهباء التي ترى في أشعة الشمس ، وكلاهما مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وسيأتي زيادة إيضاح لكيفية الوزن في سورة القارعة إن شاء الله .

(167/826)

ولعل ذكر الذرة هنا على سبيل المثال لمعرفتهم لصغرها ، لأنه تعالى عمم العمل في قوله : ﴿ يَوْمَ يَنظُرُ المرء مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ [النبأ : 40] ، أيا كان هو مثقال ذرة أو مثاقيل القناطير ، وقد جاء النص صريحا بذلك في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلاَ فِي السمآء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك ولا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : 61] .

وهنا تنبيهان : الأول من ناحية الأصول ، وهو أن النص على مثقال الذرة من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، فلا يمنع رؤية مثاقيل الجبال ، بل هي أولى وأحرى .

وهذا عند الأصوليين ما يسمى الإلحاق بنفي الفارق ، وقد يكون المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق به ، وقد يكون مساويا له ، فمن الأول هذه الآية وقوله : ﴿ فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ

أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ [الإسراء : 23]، ومن المساوي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ [النساء : 10]، فإن إحراق ماله وإغراقه ملحق بأكله، بنفي الفارق وهو مساوٍ لأكله في عموم الإتلاف عليه، وهو عند الشافعي ما يسمى القياس في معنى الأصل، أي النص.

التنبيه الثاني في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأرض وَلَا فِي السمآء وَلَا أَصْغَرَ مِن ذلك ﴾ [يونس : 61].

رد على بعض المتكلمين في العصر الحاضر، والمسمى بعصر الذرة، إذ قالوا : لقد اعتبر القرآن الذرة أصغر شيء، وأنها لا تقبل التقسيم، كما يقول المناطقة : إنها الجوهر الفرد، الذي لا يقبل الانقسام.

وجاء العلم الحديث، ففتت الذرة وجعل لها أجزاء. ووجه الرد على تلك المقالة الجديدة، على آيات من كتاب الله هو النص الصريح من مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك إلا في كتاب.

فمعلوم ذلك عند الله ومثبت في كتاب ما هو أصغر من الذرة ، ولا حد لهذا الأصغر بأي نسبة كانت ، فهو شامل لتفجير الذرة ولأجزائها مهما صغرت تلك الأجزاء .

سبحانك ما أعظم شأنك ، وأعظم كتابك ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكتاب مِن شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 38] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

(169/826)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : [إنَّهَا مَكِّيَّةٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ] : إنَّهَا مَدَنِيَّةٌ : وَفَضْلُهَا كَثِيرٌ ، وَتَحْتَوِي عَلَى عَظِيمٍ ؛ قَالَ إبْرَاهِيمُ التَّيْمِيُّ : لَقَدْ أَدْرَكْت سَبْعِينَ شَيْخًا فِي مَسْجِدِنَا هَذَا ، أَصْغَرُهُمْ الْحَارِثُ بْنُ سُوَيْد ، وَسَمِعْته يَقْرَأُ : ﴿ إذَا زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ ﴾ ، حَتَّى إذَا بَلَغَ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ بَكَى ثُمَّ قَالَ : إنَّ هَذِهِ لَإِحْكَامٌ شَدِيدٌ .

وَلَقَدْ رَوَى الْعُلَمَاءُ الْأَثْبَاتُ أَنَّ ﴿ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ

يأكل؛ فأمسك؛ فقال؛ يا رسول الله؛ أوإنا لنرى ما عملنا من خير وشر؟ قال: أرأيت ما تكره فهو مثاقيل ذر الشر، ويدخر لكم مثاقيل ذر الخير حتى تعطوه يوم القيامة ﴾.

قال أبو إدريس: إن مصداقه من كتاب الله: ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾.

وروى القاضي أبو إسحاق أن ﴿ النبي صلى الله عليه وسلم دفع رجلا إلى رجل يعلمه حتى إذا بلغ: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ قال: حسبي.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: دعوه، فإنه قد فقه ﴾.

(170/826)

وروى كعب الأحبار أنه قال: لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل ألا تجدون: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾

قال جلساؤه: بلى.

قال: فإنهما قد أحصتا ما في التوراة والإنجيل.

وذكر الحديث.

وَقَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ: لِرَجُلٍ أَجْرٌ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ» وَذَكَرَ الْحَدِيثَ إلَى قَوْلِهِ: «فَسُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْحُمُرِ، فَقَالَ: مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهَا شَيْءٌ إلَّا هَذِهِ الْآيَةُ الْجَامِعَةُ الْفَاذَّةُ: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» » .

وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى عُمُومِ هَذِهِ الْآيَةِ الْقَائِلُونَ بِالْعُمُومِ وَمَنْ لَمْ يَقُلْ بِهِ، وَقَدْ بَيَّنَ مَا فَسَّرْنَا بِهِ أَنَّ الرُّؤْيَةَ قَدْ تَكُونُ فِي الدُّنْيَا بِالْبَلَاءِ كَمَا تَكُونُ فِي الْآخِرَةِ بِالْجَزَاءِ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ.

قَالَ الْقَاضِي: وَقَدْ سَرَدْنَا مِنْ الْقَوْلِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَا سَرَدْنَا، وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ هَذَا قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ، وَمِنْ تَمَامِهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ الْحُمُرِ، وَسَكَتَ عَنْ الْبِغَالِ، وَالْجَوَابُ فِيهِمَا وَاحِدٌ؛ لِأَنَّ الْبَغْلَ وَالْحِمَارَ لَا كَرَّ فِيهِمَا وَلَا فَرَّ.

(171/826)

فَلَمَّا ذَكَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا فِي الْخَيْلِ مِنْ الْأَجْرِ الدَّائِمِ وَالثَّوَابِ الْمُسْتَمِرِّ سَأَلَ السَّائِلُ عَنْ الْحُمُرِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ يَوْمَئِذٍ بَغْلٌ، وَلَا دَخَلَ الْحِجَازَ مِنْهَا [شَيْءٌ] إلَّا بَغْلَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [الدُّلْدُلُ] الَّتِي أَهْدَاهَا لَهُ الْمُقَوْقِسُ، فَأَفْتَاهُ فِي الْحَمِيرِ بِعُمُومِ

الْآيَةِ ، وَإِنَّ فِي الْحِمَارِ مَثَاقِيلَ ذَرٍّ كَثِيرَةً .

وَقَدْ بَيَّنَّا فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَجْهَ هَذَا الدَّلِيلِ وَنَوْعَهُ ، وَأَنَّهُ مِنْ بَابِ الْقِيَاسِ أَوْ غَيْرِهِ وَتَحْقِيقَهُ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(172/826)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الزلزلة

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1)

قوله : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ : " إذا " شرطٌ ، وجوابُها " تُحَدِّثُ " وهو الناصبُ لها عند الجُمهور . وجوَّز أبو البقاء أَنْ يكونَ العاملُ فيها " يَصْدُرُ " وغيرُهم يجعلُ العاملَ فيها ما بعدَها ويليها ، وإنْ كان معمولاً لها بالإِضافةِ تقديراً ، واختاره مكي ، وجَعَلَ ذلك نظيرَ " مَنْ " و " ما " يعني أنَّهما يَعْمَلان فيما بعدَهما الجزمَ ، وما بعدَهما يعملُ فيهما النصبَ ، ولو مَثَّل بأيّ لكان أوضحَ . وقيل : العاملُ فيها مقدَّرٌ ، أي : يُحْشَرون . وقيل : اذكُرْ ، وحينئذٍ تَخْرُجُ عن الظرفيةِ والشرط .

قوله : ﴿ زِلْزَالَهَا ﴾ مصدرٌ مضافٌ لفاعِله . والمعنى : زِلْزالَها الذي تَسْتَحقه ويَقْتضيه جرْمُها وعِظَمُها . قال الزمخشري : " ونحُوه : أكرِمِ التقيَّ إكرامَه ، وأَهِنِ الفاسِقَ إهانتَه ، أو زِلْزالَها كلَّه " والعامَّةُ بكسر الزاي .

والجحدريُّ وعيسى بفتحِها . فقيل : هما مصدران بمعنى . وقيل : المكسورُ مصدرٌ ، والمفتوحُ اسمٌ . قال الزمخشري : " وليس في الأبنية فَعْلال بالفتح إلاَّ في المضاعَفِ " قلت : وقد جَعَلَ بعضُهم المفتوحَ بمعنى اسمِ الفاعل نحو : صَلْصَال بمعنى مُصَلْصِل ، وقد تقدَّمَ ذلك . وقوله : " ليس في الأبنية فَعْلال " يعني غالباً ، وإلاَّ فقد وَرَدَ : " ناقةٌ خَزْعال " .

وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3)

قوله : ﴿ مَا لَهَا ﴾ : ابتداءٌ وخبرٌ ، وهذا يَرُدُّ قولَ مَنْ قال : إنَّ الحالَ في نحو ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التذكرةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر : 49] لازِمَةٌ لئلا يصيرَ الكلامُ غيرَ مفيدٍ ، فإنه لا حالَ هنا .

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4)

قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ : أي : يومَإذ زُلْزِلَتْ . والعاملُ في " يومئذٍ " " تُحَدِّثُ " إنْ جَعَلْتَ " إذا " منصوبةً بما بعدها أو بمحذوفٍ ، وإن جَعَلْتَ العاملَ فيها " تُحَدِّثُ " كان " يومئذٍ " بدلاً

منها ، فالعاملُ فيه العاملُ فيها ، أو شيءٌ آخرُ لأنه على نيةِ تكرارِ العاملِ . خلافٌ مشهورٌ .

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5)

قوله : ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ ﴾ : متعلِّقٌ ب " تُحَدِّثُ " أي : تُحَدِّثُ . ويجوزُ أَنْ يتعلَّقَ بنفسِ " أخبارَها " وقيل : الباءُ زائدةٌ ، وأنَّ وما في حَيِّزها بدلٌ من " أخبارَها " وقيل : الباءُ سببيةٌ ، أي : بسببِ إيحاءِ اللَّهِ تعالى إليها . وقال الزمخشري : " فإنْ قلتَ : أين مفعولاً " تُحَدِّثُ " ؟ قلت : حُذِفَ أوَّلُهما ، والثاني : " أخبارَها " ، وأصله : تُحَدِّث الخلقَ أخبارَها . إلاَّ أنَّ المقصودَ ذِكْرُ تَحْدِيثِها الأخبارَ لا ذِكْرُ الخَلْقِ تعظيماً لليوم . فإنْ قلت : بِمَ تَعَلَّقَتِ الباءُ في قولِه " بأنَّ ربَّك " ؟ قلت : بتُحَدِّثُ ؛ لأنَّ معناه : تُحَدِّثُ أخبارَها بسببِ إيحاءِ ربِّك . ويجوزُ أَنْ يكونَ المعنى : تُحَدِّثُ ربَّك بتحديثِ أنَّ ربَّك أوحى لها أخبارَها ، على أنَّ تَحْديثَها بأنَّ ربَّك أوحى لها تَحْديثٌ بأخبارِها ، كما تقول : نَصَحْتَني كلَّ نصيحة بأَنْ نَصَحْتَني في الدين " قال الشيخ : " وهو كلامٌ فيه عَفْشٌ يُنَزَّهُ القرآنُ عنه " . قلت : وأيُّ عَفْشٍ فيه مع صِحَّتِه وفصاحتِه ؟ ولكنْ لَمَّا طالَ تقديرُه مِنْ جهةِ إفادتِه هذا المعنى الحسنَ جَعَلَه عَفْشاً وحاشاه .

ثم قال الزمخشريُّ : " ويجوز أَنْ يكونَ " بأنَّ ربَّك " بدلاً مِنْ " أخبارَها " كأنه قيل : يومئذٍ تُحَدِّثُ بأخبارِها بأنَّ ربَّك أوحى لها ؛ لأنَّك تقول : حَدَّثْتُه كذا ، وحَدَّثْتُه بكذا " قال الشيخ : " وإذا كان الفعلُ يتعدَّى تارةً بحرفِ جرٍّ ، وتارةً يتعدى بنفسِه ، وحرفُ الجرِّ ليس بزائدٍ ، فلا يجوزُ في تابعِه إلاَّ الموافقةُ في الإِعرابِ فلا يجوز : " استغفَرْتُ الذنبَ العظيمِ " بنصب " الذنبَ " وجَرِّ " العظيم " لجوازِ أنَّك تقولُ " من الذنب " ، ولا " اخْتَرْتُ زيداً الرجالَ الكرامِ " بنصبِ الرجالَ " وخَفْضِ الكرامِ " ، وكذلك لا يجوز أَنْ تقولَ : " استغفرتُ من الذنبِ العظيمَ " بنصبِ " العظيمَ " وكذلك في " اخْتَرْتُ " فلو كان حرفُ الجر زائداً جاز الإِتباعُ على موضعِ الاسمِ بشروطِه المحررةِ في علمِ النحو تقول : " ما رأيتُ مِنْ رجلٍ عاقلاً " لأنَّ " مِنْ " زائدةٌ ، " ومِنْ رجل عاقلٍ " على اللفظِ ، ولا يجوز نَصْبُ " رجل " وجَرُّ " عاقل " على جوازِ مراعاةِ دخولِ " مِنْ " ، وإنْ ورَدَ شيءٌ مِنْ ذلك فبابُه الشِّعْرُ " انتهى .

ولا أَدْري كيف يُلْزِمُ الزمخشريَّ ما أَلْزَمَه به من جميعِ المسائلِ التي ذكَرَها ، فإنَّ الزمخشريَّ يقول : إنَّ هذا بدلٌ مِمَّا قبلَه ، ثم ذَكَرَ مُسَوِّغَ دخولِ الباءِ في البدلِ : وهو أنَّ المُبْدَلَ منه يجوزُ دخولُ الباءِ عليه ، فلو حَلَّ البدلُ مَحَلَّ المبدلِ منه ومعه الباءُ ، لكان جائزاً ؛ لأنَّ العاملَ يتعَدَّى به ، وذَكَرَ مُسَوِّغاً لخُلُوِّ المبدلِ منه من الباءِ فقال : " لأنَّك تقول : حَدَّثْتُه كذا وحَدَّثْتُه

بكذا " وأمَّا كَوْنُه يَمْتنعُ أَنْ تقولَ : " استغفَرتُ الذنبَ العظيمِ " بنَصْبِ " الذنبَ " وجرِّ " العظيمِ " إلى آخرِه ، فليس في كلامِ الزمخشريِّ شيءٌ منه البتَةَ .

(175/826)

ونظيرُ ما قاله الزمخشريُّ في بابِ " استغفر " أَنْ تقولَ " استغفرْتُ اللَّهَ ذنباً مِنْ شَتْمي زيداً " فقولك : " مِنْ شَتْمي " بدلٌ مِنْ " الذنب " وهذا جائزٌ لا مَحالةَ .

قوله : { أوحى لَهَا } في هذه اللامِ أوجهٌ ، أحدُها : أنها بمعنى إلى ، وإنما أُوْثِرَتْ على " إلى " لموافقةِ الفواصلِ . وقال العجَّاج في وَصْفِ الأرض :

4614 أَوْحَى لها القرارَ فاستقرَّتِ . . . وشَدَّها بالرَّاسياتِ الثُّبَّتِ

الثاني : أنَّها على أصلِها ، و " أوحى " يتعدَّى باللامِ تارةً وب " إلى " أخرى ، ومنه البيتُ المتقدمُ ، الثالث : أنَّ اللامَ على بابها من العلةِ ، والموحى إليه محذوفٌ ، وهو الملائكةُ ، تقديرُه : أوحى إلى الملائكةِ لأجلِ الأرض ، أي : لأَجْلِ ما يَفْعَلون فيها .

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6)

قوله : { يَوْمَئِذٍ } : إمَّا بدلٌ مِنْ يومئذٍ " قبلَه ، وإمَّا منصوبٌ ب " يَصْدُرُ " وإمَّا منصوبٌ ب " اذْكُرْ " مقدراً .

قوله : ﴿ أَشْتَاتاً ﴾ حالٌ مِنْ " الناس " وهو جمع شَتَّ ، أي : متفرِّقين في الأمنِ والخوفِ والبياضِ والسوادِ .

قوله : ﴿ لِّيُرَوْاْ ﴾ متعلِّقٌ ب " يَصْدُرُ " وقيل : ب " أوحى " وما بينهما اعتراضٌ . والعامَّةُ على بنائِه للمفعولِ . وهو مِنْ رؤيةِ البصرِ فتعدَّى بالهمزةِ إلى ثانٍ ، وهو " أعمالَهم " وقرأ الحسن والأعرج وقتادة وحمادة بن سَلَمة - وتروى عن نافع ، قال الزمخشري : " وهي قراءةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم " - مبنياً للفاعل والمعنى : جزاءَ أعمالِهم .

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)

قوله : ﴿ خَيْراً ﴾ ، ﴿ شَرّاً ﴾ : في نصبِهما وجهان ، أظهرهما : أنهما تمييز للمِثْقال فإنه مقدارٌ . والثاني : أنهما بدلان مِنْ " مثقالَ "

(176/826)

قوله : ﴿ يَرَهُ ﴾ جوابُ الشرطِ في الموضعين . وقرأ هشام بسكونِ هاء " يَرَهْ " وَصْلاً في الحرفَيْن . وباقي السبعةِ بضمِّها موصولةً بواوٍ وَصْلاً ، وساكنةً وَقْفاً كسائرِ هاءِ الكنايةِ ، هذا ما قرأْتُ به . ونَقَل الشيخُ عن هشام وأبي بكر سكونَها ، وعن أبي عمرو ضمُّها مُشْبعة ، وباقي السبعةِ بإشباعِ الأولى وسكونِ الثانية . انتهى . وكان ذلك لأجلِ الوقفِ

على آخرِ السورةِ غالباً . أمّا لو وَصَلوا آخرَها بأولِ " العادِيات " كان الحكمُ الإِشباعَ هذا مقتضى أصولِهم كما قَدَّمْتُه وهو المنقولُ .

وقرأ العامَّةُ " يَرَهُ " مبنياً للفاعلِ . وقرأ ابن عباس والحسين بن علي وزيد بن علي وأبو حيوة وعاصم والكسائي في رواية " يُرَه " مبنياً للمفعول . وعكرمة " يَراه " بالألفِ : إمَّا على تقديرِ الجزمِ بحَذْفِ الحركةِ المقدرة ، وإمَّا على تَوَهُّمِ أنَّ " مَنْ " موصولةٌ ، وتحقيق هذا مذكورٌ في أواخرِ يوسف . وحكى الزمخشري أن أعرابياً أَخَّرَ " خيراً يَرَهُ " فقيل له : قَدَّمْتَ وأَخَّرْتَ ، فأنشد :

4615 خذا بَطْنَ هرشى أوقَفاها فإنَّه . . . كِلا جانبَيْ هرشى لَهُنَّ طريقُ

انتهى . يريدُ أنَّ التقديمَ والتأخيرَ سواءٌ ، وهذا لا يجوزُ البتةَ فإنه خطأٌ لا يُعْتَقَدُ به قراءةً .

والذَّرَّةَ قيل : النملةُ الصغيرةُ . وأصغرُما تكونُ قضى عليها حَوْلٌ قال امرؤ القيس :

4616 من القاصراتِ الطَّرْفِ لودبَّ مُحْوِلٌ . . . من الذَّرِّ فوق الإِتْبِ منها لأَثَّرا . انتهى

انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 11 صـ 73 . 79﴾

(177/826)

من لطائف الإمام القشيري في السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الزلزلة

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة من تأملها بمعانيها ووقف على ما أودع فيها رتعت أسراره في رياض من الأنس مونقة ، وأينعت أفكاره بلوائح من اليقين مشرقة ، فهي على جلال الحق شاهد ، وهي على ما يحيط به الذكر ويأتي عليه الحصر زائدة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾ .

أي : أمواتَها ، وما فيها من الكنوز والدفائن .

﴿ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾ .

يعني الكافرُ الذي لا يُؤْمِنُ بها أي بالبعث .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ .

يومئذٍ تُخَبِّر الأَرضُ :

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ .

أي : إنما تفعَل ذلك بامر الله .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

﴿ أَشْتَاتاً ﴾ : متفرّقين . ﴿ لِّيُرَوْاْ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ليُحاسَبوا .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ .

فيُقَاسي عناءَه . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 755 . 756﴾

(178/826)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الزلزلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (3)

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4)

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6)

الإعراب :

(إذا) ظرف للشرط في محلّ نصب متعلّق بالجواب تحدّث " 1 " ، (زلزالها) مفعول مطلق منصوب .

جملة : " زلزلت الأرض . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(1) أو بـ (يصدر) الناس .

(179/826)

---

2 - 5 (الواو) عاطفة في الموضعين (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ (لها) متعلّق بمحذوف خبر ما ، (يومئذ) ظرف زمان منصوب - أو مبنيّ - مضاف إلى اسم ظرفيّ متعلّق بجواب إذا فهو بدل منه ، والتنوين في (إذ) عوض من محذوف أي يوم إذ زلزلت الأرض . . . تحدّث (لها) متعلّق بـ (أوحى) " 1 " .

والمصدر المؤوّل (أنّ ربّك أوحى . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (تحدّث) .

وجملة : " أخرجت الأرض . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة زلزلت .

وجملة : " قال الإنسان . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة زلزلت .

وجملة : " ما لها . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تحدّث أخبارها . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أوحى لها . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

6 - (يومئذ) توكيد للأول " 2 " ، (أشتاتا) حال منصوبة من الناس (اللام) للتعليل (يروا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والواو في (يروا) نائب الفاعل ، وفي (أعمالهم)

حذف مضاف أي جزاء أعمالهم . .

والمصدر المؤوّل (أن يروا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يصدر) .

وجملة: "يصدر الناس . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يروا . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

البلاغة

الإسناد المجازي: في قوله تعالى "إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها " .

---

(1) فعل أوحى يتعدى بـ (إلى) : قل أوحي إلي أنه استمع نفر . . . والظاهر أن الموحى إليه محذوف وهم الملائكة، أي: أوحى ربك إلى الملائكة لأجل الأرض أي لأجل ما يفعل فيها سكانها، ويجوز تضمين (أوحى) معنى سمح أي: سمح لها بالتحديث.

(2) أو متعلق بـ (يصدر) .

أسند الإخراج إلى الأرض مجازا، لأن المخرج الحقيقي هو اللّه سبحانه وتعالى، والأرض مكان للإخراج.

[سورة الزلزلة (99) : الآيات 7 إلى 8]

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة تفريعيّة (من) اسم شرط جازم في محلّ رفع مبتدأ (خيرا) تمييز منصوب " 1 " . .

جملة : " من يعمل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يصدر الناس " 2 " .

وجملة : " يعمل . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 3 " .

وجملة : " يره " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

8 - (الواو) عاطفة (من يعمل . . . يره) مثل الأولى مفردات وجملا .

الفوائد :

- الجامعة الفاذّة : قيل نزلت هذه الآية في رجلين ، وذلك أنه لما نزلت ، (وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً) كان أحدهما يأتيه السائل فيستقل أن يطعمه التمرة والكسرة والجوزة ونحو ذلك ، ويقول : هذا ليس بشيء

---

(1) أو بدل من مثقال منصوب .

(2) في الآية (6) من السورة .

(3) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا .

يؤجر عليه ، إنما نؤجر على ما يعطى ونحن نحبه وكان الآخر يتهاون بالذنب الصغير مثل الكذبة والنظرة وأشباه ذلك ، ويقول : إنما وعد اللّه النار على الكبائر ، وليس في هذا إثم فأنزل اللّه (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) فإنه سبحانه وتعالى يرغبهم في القليل من الخير أن يفعلوه فإنه يوشك أن يكثر ، ويحذرهم من الذنب الصغير فإنه يوشك أن يكبر ، قال ابن مسعود : أحكم آية في القرآن هذه الآية ، و

سمّى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) هذه الآية : (الجامعة الفاذّة) حين سئل عن زكاة الحمير فقال : ما أنزل اللّه فيها شيئًا إلا هذه الآية الجامعة الفاذة .

وتصدق عمر بن الخطاب وعائشة رضي اللّه عنهما كل واحد منهما بحبة عنب ، وقالا : كم فيها من مثاقيل الذر . والغرض من ذلك تعليم الغير ، وإلا فهما من كرماء الصحابة .

وقال الربيع بن خيثم : مر رجل بالحسن وهو يقرأ هذه السورة ، فلما بلغ آخرها قال : حسبي اللّه قد انتهت الموعظة .

- بعض أحكام التمييز :

التمييز نوعان :

آ – تمييز مفرد : وهو ما كان مميزه ملفوظا ودالا على :

1 – عدد : مثل : (فتم ميقات ربه أربعين ليلة) .

2 – وزن : مثل : (اشتريت رطلا عسلا) .

3 – كيل : مثل : (بعتك صاعا تمرا) .

4 – مساحة : مثل : (زرعت هكتارا أرضا) .

5 – مقياس : مثل : (سرت عشرين مترا) .

ويجوز في هذا النوع أن يكون التمييز منصوبا ، كما مر في الأمثلة السابقة ، أو مجرورا بمن ، مثل : (اشتريت صاعا من تمر) ، أو مجرورا بالإضافة مثل : (اشتريت صاع تمر) . أما تمييز العدد فيأتي مفردا منصوبا مع الأعداد من أحد عشر إلى تسعة عشر ، مثل قوله تعالى :

(إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا) (فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً) و(هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً) . ويأتي جمعا مجرورا ، مع الأعداد من ثلاثة إلى عشرة ، كقوله تعالى : (سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا) . ويأتي مفردا مجرورا مع المائة والألف والمليون ، كقوله تعالى : (بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ) (فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا) .

ب - تمييز جملة: وهو ما كان مميزه ملحوظا مفهوما من معنى الجملة، وهذا النوع يأتي منصوبا دائما، كقوله تعالى: (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً) (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً) (فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً) (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَراً). انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 30 صـ 382.386﴾

(183/826)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(99) سورة الزّلزلة

مدنيّة وآياتها ثمان

[سورة الزلزلة (99): الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها (2) وَقالَ الْإِنْسانُ ما لَها (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها (4)

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ (6) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)

الإعراب :

(إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها) إذا ظرف لما يستقبل من الزمن متضمن معنى الشرط متعلق بتحدث وهو الجواب وجملة زلزلت في محل جر بإضافة الظرف إليها وزلزلت فعل ماض مبني للمجهول والأرض نائب فاعل وزلزالها مفعول مطلق وهو مصدر مضاف لفاعله والمعنى زلزالها الذي تستحقه ويقتضيه جرمها وعظمتها ، وقيل إذا لمجرد الظرفية والعامل فيها محذوف أي يحشرون وقيل اذكر فهي مفعول به وقراءة العامة بكسر الزاي وقرىء بفتحها فقيل هما مصدران

بمعنى واحد وقيل المصدر مكسور والاسم مفتوح قال الزمخشري :

" قرىء بكسر الزاي وفتحها فالمكسور مصدر والمفتوح اسم وليس في الأبنية فعلال بالفتح إلا في المضاعف " وهذا في الغالب وإلا فقد ورد ناقة خزعال قال في القاموس " خزعل الضبع عرج وخمع والماشي نفض رجليه وناقة بها خزعال : ظلع وليس فعلال من غير المضاعف سواه وقسطال وخرطال " وفيه أيضا " وزلزله زلزلة وزلزالا مثلثة حركه والزلازل البلايا " وقال ابن عرفة : الزلزلة والتلتلة واحد والزلازل والتلاتل وأنشد للراعي :

فأبوك سيدها وأنت أشدّها زمن الزلازل في التلاتل جولا

(وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) نسق على ما تقدم ، وأخرجت الأرض فعل ماض وفاعل وأثقالها مفعول به ، ووضع الظاهر موضع المضمر لزيادة التقرير وتفخيم هول الساعة ، وأثقالها مفعول به وهو جمع ثقل بالكسر كحمل وأحمال كما في المختار وعبارة الزمخشري " جعل ما في جوفها من الدفائن أثقالا لها " (وَقَالَ الْإِنْسَانُ : مَا لَهَا) الواو عاطفة وقال الإنسان فعل وفاعل وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ ولها خبر ، وفي الإنسان قولان : أحدهما أنه اسم جنس يعمّ المؤمن والكافر أي يقول الجميع ذلك لما يبهرهم من الأمر الفظيع كما يقولون : من بعثنا من مرقدنا والثاني أنه الكافر خاصة لأنه كان لا يؤمن بالبعث فأما المؤمن فيقول : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) يومئذ ظرف أضيف إلى مثله ومحله النصب على أنه بدل من إذا والعامل فيه هو العامل في المبدل منه والتنوين عوض عن جملة أي يوم إذ تزلزل الأرض زلزالها وتخرج الأرض أثقالها ويقول الإنسان ما لها فحذفت هذه الجمل الثلاث وناب منابها التنوين فاجتمع ساكنان وهما الذال والتنوين فكسرت الذال لالتقاء الساكنين وليست هذه الكسرة في

الذال بكسرة إعراب وإن كانت إذ في موضع جر بإضافة ما قبلها إليها وإنما الكسرة فيها لالتقاء الساكنين وهذا التنوين يسمى تنوين العوض .

وتحدث فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره هي أي الأرض ومفعول تحدث الأول محذوف أي الخلق (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها) الباء حرف جر وأن وما في حيّزها في محل جر بالباء والجار والمجرور متعلقان بتحدث والمعنى تحدث أخبارها بسبب إيحاء ربك لها وأمره إياها بالتحديث وأن واسمها وجملة أوحى خبرها ولها متعلقان بأوحى واللام بمعنى إلى وإنما أوثرت على إلى لمراعاة الفواصل وما يتعدى بإلى يجوز أن يتعدى باللام ولا عكس (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ) يومئذ ظرف أضيف إلى مثله بدل من يومئذ قبله أو متعلق بيصدر أو هو مفعول لأذكر مقدرا ويصدر الناس فعل مضارع وفاعل وأشتاتا حال من الناس جمع شت أي متفرقين يقال أمر شت وشتات متشتت ومتفرق وهو وصف بالمصدر ويقال جاءوا أشتاتا وجاءوا شتات شتات أي متفرقين والنصب على الحالية، وقال عدي بن زيد :

قد هراق الماء في أجوافها وتطايرن بأشتات شقق

وليروا اللام للتعليل ويروا فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بأن مضمرة بعد اللام والواو نائب فاعل وأعمالهم مفعول به ثان والرؤية بصرية ولذلك عدّيت إلى اثنين لأن أرى يتعدى

إلى ثلاث ولام التعليل ومدخولها متعلقان بيصدر (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) الفاء تفريعية ومن اسم شرط جازم مبتدأ ويعمل فعل الشرط وفاعله هو يعود على من ومثقال ذرة مفعول به وخيرا تمييز أو بدل من مثقال ويره جواب الشرط مجزوم وعلامة جزمه حذف حرف العلة والهاء مفعول ير وفعل الشرط وجوابه خبر من والجملة الثانية عطف على الأولى وإعرابها مماثل لإعرابها ، وفي ابن خالويه : " وقدم جدّ الفرزدق

(186/826)

على رسول الّله صلّى الّله عليه وسلم فقال : يا رسول الّله أسمعني شيئًا مما أنزل الّله عليك فقرأ عليه إذا زلزلت فلما انتهى إلى قوله فمن يعمل مثقال ذرة إلخ قال : حسبي يا رسول الّله ، وحدّثني أبو عبد الّله عن أبي العيناء عن الأصمعي قال : قرأ أعرابي فمن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره فقدّم وأخر فقلت له : قدّمت وأخّرت فقال :

خذا جنب هرشى أو قفاها فإنه كلا جانبي هرشى لهنّ طريق "

وروى هذه النادرة الزمخشري في كشافه أيضا وأضاف : " والذرة :

النملة الصغيرة وقيل الذر ما يرى في شعاع الشمس من الهباء " وهرشى كسكرى ثنية في

طريق مكة عند الجحفة . أي اسلكا أمام تلك الثنية أو خلفها فإنه أي الحال والشأن كلّ من جانبيها طريق للإبل التي تطلبانها ، وتكرير لفظ هرشى لتقريرها في ذهن السامع خوف غفلته عنها والمقام كان مقام هداية فحسن فيه ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 548. 551 ﴾

(187/826)

من الإعجاز العلمى فى القرآن

بحث بعنوان

الزلازل و البراكين رؤية ايمانية

سورة الزلزلة واحدة من أكثر سور القرآن الكريم تأثيرا في القلوب الواعية منها والغافلة ، ومن أشدها تحذيرا وتنبيها للنفس البشرية بما تسوقه من صور لمشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة التي تتنوع وتتعدد . . . . مبشرة الأتقياء بنعيم مقيم محذرة الأشقياء من عذاب أليم . مؤكدة أن عمل الخير أو الشر مهما تضاءل سيجزى به الإنسان وأن الحساب والوزن والجزاء لن يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ويحصيها * فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره * .

تبدأ السورة بربط ظاهرتين عرفهما الناس في حياتهم الدنيا ، واعتبروهما من الكوارث الطبيعية . . . الزلازل والبراكين ؛ نظرا لما تحدثانه من هلاك ودمار وما تبثانه من هلع وذعر . وواضح من السياق أن ما سيحدث يوم القيامة سيكون أكثرا هولا وأشد وقعا وأنه لا وجه لتشبيه ما سيحدث في ذلك اليوم بما ألفه الناس أو عرفوه في دنياهم ، ومن المثير للتأمل والتدبر أن أول آيتين في السورة قد أوردتا إشارتين علميتين في غاية الأهمية ، لم يتوصل العلم إليهما بشكل قطعي إلا في منتصف هذا القرن وبعد تجميع كم هائل من القياسات والبيانات من كافة أنحاء العالم ، استخدم في الحصول عليه أدق الأجهزة العلمية وأكثرها حساسية ، وما كان يمكن لبشر في زمن محمد عليه الصلاة والسلام أن يصل إلي أي منها .

الإشارة العلمية الأولى : هي الربط بين ظاهرتي الزلازل والبراكين .

الإشارة العلمية الثانية : هي أن مكونات جوف الأرض أثقل من مكوناتها السطحية .

(188/826)

بالنسبة للإشارة الأولى فكلنا سمع في السنوات الحديثة عن ما يسمى بشبكات الرصد الزلزالي المنتشرة في كل بقاع العالم ، وكلنا يقرأ بين الحين والآخر أن مرصد حلوان في مصر ومرصد كذا في فرنسا وكذا في أمريكا وكذا ، في اليابان قد سجل الزلزال الذي وقع في

منطقة كذا والتي قد تبعد آلاف الأميال عن تلك المراصد ، وأنه قد تم بفضل تعاون هذه المراصد تحديد بؤرة الزلزال وشدته بدقة كبيرة ، كما وأننا جميعا نسمع بين حين وآخر عن حدوث انفجار أو نشاط بركاني في منطقة كذا من العالم ، وربما شاهد بعضنا ما تعرضه أجهزة التلفاز عن هذه الأنشطة البركانية ورأى الحمم أو سحب الرماد البركاني تخرج من فوهات البراكين أو من تشققات الأرض ، وما تحدثه من دمار وهلع وذعر فدعا الله أن يقيه شر هذا البلاء ، وحمده لكونه يعيش بعيدا عن مثل تلك المناطق ، ولكن الذي لا يعرفه الكثيرون هو أن هناك فئة ليست بالقليلة من العلماء المتخصصين تعكف على هذه الأحداث والبيانات لتوقعها على خرائط أساس * أي خالية من أي بيانات * للكرة الأرضية ، فهذه مجموعة توقع بؤر الزلازل التي تزيد شدتها على والتي حدثت خلال المائتي عام الماضية على خريطة تسمى خريطة مواقع الزلازل الحديثة وهذه مجموعة أخرى توقع أماكن الأنشطة البركانية الحديثة خلال نفس الفترة الزمنية على خريطة أساس مماثلة وتسمى خريطة النشاط البركاني الحديث أظهرت خريطة المجموعة الأولي أن توزيع بؤر الزلازل على مستوي الكرة الأرضية ليس عشوائيا بل إنه يتبع نمطا معينا ، وأن هناك مناطق تخلو تماما من تلك البؤر مثل الصحراء الكبرى بينما هناك أخرى تتركز فيها هذه البؤر مثل اليابان وإندونيسيا والساحل الغربي لأمريكا الجنوبية والتي أطلق عليها مجازا أحزمة الزلازل ، وأظهرت خريطة المجموعة الثانية أن توزيع الأنشطة البركانية ليس عشوائيا

أيضا بل يتبع نمطا معينا ، وأن هناك مناطق تخلو تماما من النشاط البركاني مثل الصحراء الكبرى وأخرى تكثر

(189/826)

فيها هذه الأنشطة مثل اليابان وإندونيسيا والساحل الغربي لأمريكا اللاتينية وأطلق عليها حزام النار ، تظهر أي مقارنة بين تلك الخرائط أن هناك تطابقا كاملا بين المناطق التي تحدث فيها الزلازل *أحزمة الزلازل* وتلك التي تكثر فيها الأنشطة البركانية *أحزمة النار* مما يؤكد وجود علاقة وثيقة لا يشوبها أي شك بين الزلزلة والانفجارات البركانية .

والسؤال هو : لو لم يكن هذا القرآن وحيا من العليم الحكيم فكيف تأتىَّ لمحمد أن يربط بين هاتين الظاهرتين بالذات ليصور منهما مشهدا من مشاهد يوم القيامة ؟ ولماذا لم يربط الزلازل مثلا بالصواعق أو الأعاصير أو يربط البرق والرعد بالبراكين ؟ وكيف أمكن لمحمد دون أي قياسات أو اتصالات أو رصد وقبل أن تكتشف مناطق كثيرة من العالم أن يربط بين الظاهرتين بهذا الربط الجازم الواضح المبسط ؟ *إن هو إلا وحي يوحي * ولعل في هذه الإشارة العلمية وما بها من إعجاز مجالا ليراجع أي منكر لرسالة محمد موقفه وليزداد كل مؤمن بها إيمانا وتصديقا .

أما بالنسبة للإشارة العلمية الثانية والتي وردت في الآية الثانية من سورة الزلزلة *وأخرجت الأرض أثقالها* فهي تفيد أن مكونات الأرض في جوفها أثقل من مكوناتها عند سطحها . والسؤال هو : ما نصيب هذه المعلومة من الصحة ومتى وكيف أمكن للعالم أن يعرفها ؟ أما أن هذه المعلومة صحيحة فهذا أمر مؤكد لا يختلف عليه اثنان من علماء الأرض الآن بل إنه أمكن تحديد كثافة تلك المكونات فمتوسط الثقل النوعي لمواد الأرض السطحية هو حوالي 2.5 وتزيد هذه القيمة تدريجيا لتصل إلي حوالي 3.5 في الوشاح على عمق يبدأ من حوالي 60 كم إلى حوالي 2900 كم ثم يصل الثقل النوعي إلى حوالي 12 في لب الأرض الذي يمتد لمسافة 3000 كم أخرى حتى مركز الأرض .

(190/826)

أما متى عرف العلماء هذه الحقائق ؟ فالمعلومات كلها تؤكد أن ذلك تم كله في القرن الحالي بعد أن أمكن قياس سرعة انتقال الموجات الزلزالية في جوف الأرض وتحديد النطاقات التي تتغير عندها هذه السرعات ، ثم تحديد تركيب هذه النطاقات من المضاهاة التجريبية لسرعة انتقال أنواع الموجات في المواد المختلفة ، كما ساعدت دراسة النيازك الحديدية التي تتساقط على الأرض والتي يعتقد أنها مماثلة لمكونات الأرض الداخلية أيضا في الوصول إلي

تصور عن التركيب الداخلي للأرض والصور التي يمكن أن تتواجد عليها المادة هناك كما أمكن الاستفادة أيضا من قوانين الجاذبية في حساب متوسط كثافة الأرض حوالي 5.5م/سم والذي أعطى مصداقية لكل هذه التقديرات .

والآن نعود فنسأل لو لم يكن وحيا فكيف كان لمحمد أن يعرف هذا التدرج في ارتفاع كثافة مكونات الأرض وأنه عندما تحدث الزلزلة الكبرى ستلقي الأرض بأثقالها مما هو في أعماق أعماقها ، ثم نوجه الانتباه إلي هذا التوافق الرائع مع ما ذكره الحق في موضع آخر من كتابه الكريم *الله الذي جعل لكم الأرض قرارا* سورة غافر 64 . فقد جعلها بهذا التوزيع الداخلي للأثقال والجاذبية ملائمة تماما للحياة والاستقرار عليها سواء من البشر أو الحيوان أو النبات ، فإذا أراد الله أن ينهي هذه الحياة بكافة صورها فما على الأرض إلا أن تتخلى عن مسئوليتها وتلقي ما بداخلها تصديقا لقوله تعالي *وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت* سورة الانشقاق 3-4 . وبهذا تنتهي الحياة على الأرض. . . الزلزال الأعظم يحدث فتتشقق الأرض ويندفع ما بداخلها وتلقي بأثقالها فتميد وتضرب *لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . أ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والعشرون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/827)

الجزء السابع والعشرون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة العاديات)

(4/827)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة العاديات)

(5/827)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة العاديات

مقصودها إعلام بأن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك لإيثار الفاني من العز والمال على الباقي عند ذي الجلال ، المدلول عليه بالقسم وه والعاديلت والمقسم عليه وما عطف عليه ، وقد

علم أن اسمها أدل شيء على ذلك لما هدى إليه القسم والمقسم عليه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 508 ﴾

(6/827)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والعاديات ضبحا)

السّورة مكِّيّة .

آياتها إِحدى عشرة .

وكلماتها أَربعون .

وحروفها مائة وستُّون .

فواصل آياتها على (دار) .

سمّيت سورة العاديات ؛ لمفتتحها .

معظم مقصود السّورة : بيان شرف الغُزاة فى سبيل الرّحمن ، وذكر كفران الإِنسان ، والخبر

عن اطلاع الملك الدّيّان ، على الإِسرار والإِعلان ، وذمّ محبّة ما هو فان ، والخبر من إِحياءِ

الأموات بالأَجساد والأَبدان، وأَمّه - تعالى - خبير بما للخلق من الطَّاعة والعصيان.

السّورة محكمة:

متشابه سورة والعاديات

قوله: ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾: أَقسم بثلاثة أَشياء: إِن الإِنسان لربه لكنود، وإِنه على ذلك لشهيد وإِنه لحب الخير لشديد.

فضل السّورة

فيه من الأَحاديث الضَّعيفة: مَنْ قرأَها أُعطى من الأَجر عشر حسنات، بعدد مَنْ يأْتى المزدلفة، ويشهد جَمْعًا وحديث علىّ: يا علىّ مَنْ قرأَها فكأَنَّما كسا كلّ يتيم فى أُمّتى، وأَعطاه الله بكلّ آية قرأَها حديقة فى الجَنَّة. انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 537.538﴾

(7/827)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور:

سورة العاديات

سميت في المصاحف القيروانية العتيقة والتونسية والمشرقية (سورة العاديات) بدون واو ، وكذلك في بعض التفاسير فهي تسمية لما ذكر فيها دون حكاية لفظه . وسميت في بعض كتب التفسير (سورة والعاديات) بإثبات الواو .

واختلف فيها فقال ابن مسعود وجابر بن زيد وعطاء والحسن وعكرمة : هي مكية .

وقال أنس بن مالك وابن عباس وقتادة : هي مدنية .

وعدت الرابعة عشرة في ترتيب نزول السور عند جابر بن زيد بناء على أنها مكية نزلت بعد سورة العصر وقبل سورة الكوثر .

وآيها إحدى عشرة .

ذكر الواحدي في (أسباب النزول) عن مقاتل وعن غيره أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعث خيلاً سَرية إلى بني كنانة وأَمَّرَ عليها المنذر بن عَمْرو الأنصاري فأسهبتْ أي أمعنت في سهب وهي الأرض الواسعة شهراً وتأخر خبرهم فأرجف المنافقون وقالوا : قُتِلوا جميعاً ، فأخبر الله عنهم بقوله : (والعاديات ضبحاً ((العاديات : 1) الآيات ، إعلاماً بأن خيلهم قد فعلتْ جميع ما في تلك الآيات .

وهذا الحديث قال في (الإتقان) رواه الحاكم وغيره . وقال ابن كثير : روى أبو بكر البزار هنا حديثاً غريباً جداً وساق الحديث قريباً مما للواحدي .

وأقول غرابة الحديث لا تناكد قبوله وهو مروي عن ثقات إلا أن في سنده حَفص بن جميع وهو ضعيف . فالراجح أن السورة مدنية .

(8/827)

أغراضها

ذمُّ خصَال تفضي بأصحابها إلى الخسران في الآخرة ، وهي خصال غالية على المشركين والمنافقين ، ويراد تحذير المسلمين منها .

ووعظ الناس بأن وراءهم حسابا ً على أعمالهم بعد الموت ليتذكره المؤمن ويهدد به الجاحد . وأُكد ذلك كله بأن افتتح بالقسم ، وأدمج في القسم التنويه بخيل الغزاة أو رواحل الحجيج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 497 . 498 ﴾

(9/827)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة العاديات

مكية وآياتها إحدى عشرة آية

بين يدي السورة

* سورة العاديات مكية ، وهي تتحدث عن خيل المجاهدين في سبيل الله ، حين تغير على الأعداء ، فيسمع لها عند عدوها بسرعة صوت شديد ، وتقدح بحوافرها الحجارة فيتطاير منها النار ، وتثير التراب والغبار

* وقد بدأت السورة الكريمة ، بالقسم بخيل الغزاة - إظهارا لشرفها وفضلها عند الله - على أن الإنسان كفور لنعمة الله تعالى عليه ، جحود لآلائه وفيوض نعمائه ، وهو معلن لهذا الكفران والجحود ، بلسان حاله ومقاله ، كما تحدثت عن طبيعة الإنسان وحبه الشديد للمال

* وختمت السورة الكريمة ببيان أن مرجع الخلائق إلى الله للحساب والجزاء ، ولا ينفع في الآخرة مال ولا جاه ، وإنما ينفع الأيمان والعمل الصالح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 592 ﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة العاديات

العاديات : واحدها عادية من العدو وهو الجري ، والضبح : صوت أنفاس الخيل حين الجري. قال عنترة :

والخيل تكدح حين تضبح فى حياض الموت ضبحا والموريات : واحدها مورية من الإيراء ، وهو إخراج النار ، تقول : أورى فلان إذا أخرج النار بزند ونحوه ، والقدح : الضرب لإخراج النار كضرب الزناد بالحجر ، والمغيرات : واحدها مغيرة من أغار على العدو إذا هجم عليه بغتة ليقتله أو يأسره ، أو يستلب ماله ، والإثارة : التهييج وتحريك الغبار ، والنقع : الغبار ، وسطن :

أو توسطن تقول وسطت القوم أسطهم وسطا : إذا صرت فى وسطهم ، والكنود : الكفور ، يقال كند النعمة أي كفرها ولم يشكرها وأنشدوا :

كنود لنعماء الرجال ومن يكن كنودا لنعماء الرجال يبعّد

وأصل الكنود الأرض التي لا تنبت شيئًا ، شبه بها الإنسان الذي يمنع الخير ويجحد ما عليه من واجبات ، لشهيد : أي لشاهد على كنوده وكفره بنعمة ربه ، والخير : المال كما جاء فى قوله : " إِنْ تَرَكَ خَيْراً " ، لشديد : أي لبخيل ، بعثر :

أي بعث وأثير ، وحصّل : أي أظهر محصلا مجموعا ، ما فى الصدور : أي ما في القلوب من العزائم والنوايا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 222.221 ﴾

(11/827)

وقال الفراء :

سورة (العاديات)

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً . . . ﴾ .

قال ابن عباس : هى الخيل ، والضبيح : أصواتٍ أنفاسها إذا عدون . قال : حدثنا الفراء قال : حدثنى بذلك حِبَّان بإسناده عن ابن عباس .

﴿ فَالمُورِيَاتِ قَدْحاً ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ فَالمُورِيَاتِ قَدْحاً . . . ﴾ .

أورت النار بحوافرها ، فهى نار الحُباحب . قال الكلبى بإسناده : وكان الحباحب من أَحياء العرب ، وكان من أبخل الناس ، فبلغ به البخل ، أنه كان لا يوقد ناراً إلاَّ بليل ، فإذا انتبه منتبه ليقتبس منها أطفأها ، فكذلك ما أورت الخيل من النار لا ينتفع بها ، كما لا ينتفع

بنار الحباحب.

﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً . . . ﴾ .

أغارت الخيل صبحا ، وإنما كانت سريَّة بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى كنانة، فأبطأ عليه خبرها ، فنزل عليه الوحى بخبرها فى العاديات، وكان على بن أبى طالب رحمه الله يقول: هى الإبلُ، وذهب إلى وقعة بدر ، وقال: ما كان معنا يومئذ إلا فرس عليه المقداد بن الأسود.

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً . . . ﴾ .

والنقع: الغبار، ويقال: التراب.

وقوله عز وجل: ﴿ بِهِ نَقْعاً ﴾ يريد [/ب]: بالوادى، ولم يذكره قبل ذلك، وهو جائز: لأن الغبار لا يثار إلاّ من موضع وإن لم يذكر، وإذا عرف اسم الشىء كُنّى عنه وإن لم يَجْرِ له ذكر.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ ، يعنى: القرآن، وهو مستأنف سورة، وما استئنافه فى سورة إلاّ كذكره فى آية قد جرى فيما قبلها، كقوله: ﴿ حم ، والكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ ﴾ ، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ

ذِكْرِ رَبِّى حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ يريد : الشمس ولم يجر لها ذكر .

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾

(12/827)

وقوله عز وجل : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً . . . ﴾ .

اجتمعوا على تخفيف (فوسطن) ، ولو قرئت "فوسّطن" كان صوابا ؛ لأن العرب تقول :

وسَطت الشىء ، ووسَّطته وتوسَّطته ، بمعنى واحد .

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ . . . ﴾ .

قال الكلبى وزعم أنها فى لغة كندة وحضرموت : "لَكَنُود" : لكفور بالنعمة .

وقال الحسن : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ قال : لَوّام لربه يَعد المسيئات ، وينسى النعم .

﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ . . . ﴾ .

يقول : وإن الله على ذلك لشهيد .

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ . . . ﴾ .

قد اختلف فى هذا ؛ قال الكلبى بإسناده : لشديد : لبخيل ، وقال آخر : وإنه لحب الخير لقوىٌّ ، والخير : المال . ونرى والله أعلم ـ أن المعنى : وإنه لِلْخير لشديد الحب ، والخير : المال ، وكأن الكلمة لما تقدم فيها الحب ، وكان موضعه أن يضاف إليه شديد حذف الحب من آخرة لمّا جرى ذكره فى أوله ، ولرءوس الآيات ، ومثله فى سورة إبراهيم : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ والعصُوف لا يكون للأيام ؛ إنما يكون للريح [١/] فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم طرحت من آخره ، كأنه قيل : فى يوم عاصف الريح .

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ . . . ﴾ .

رأيتها فى مصحف عبد الله : "إذا بحث ما فى القبور" ، وسمعت بعض أعراب بنى أسد ، وقرأها فقال : "بحثر" وهما لغتان : بحثر ، وبعثر .

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ . . . ﴾ بُيِّن .

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ . . . ﴾ .

وهى فى قراءة عبدالله : "بأنه يومئذ بهم خبير" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 286.284 ﴾

(13/827)

وقال الأخفش :

سورة (العاديات)

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾

قال ﴿ فَوَصَطْنَ بِهِ ﴾ وقال بعضهم ﴿ فَوَسَطْنَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 583 ﴾

(14/827)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة العاديات

1 - الْعادِياتِ : الخيل . و(الضبح) : صوت حلوقها إذا عدت .

وكان عليّ – رضي اللّه عنه – يقول : «هي الإبل تذهب إلى وقعة بدر .

(و قال) : ما كان معنا يومئذ إلّا فرس عليه المقداد» .

وقال آخرون : «الضّبع» و«الضّبح» واحد في السير ، يقال : ضبعت الناقة وضبحت .

2 – فَالْمُورِياتِ قَدْحاً أي أورت النار بحوافرها .

4 – و(النقع) : الغبار . ويقال : التراب .

5 – فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً أي توسّطن [به] جمعا من الناس أغارت عليهم .

6 – لَكَنُودٌ : لكفور . و«الأرض الكنود» : التي لا تنبت شيئًا .

7 – وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ يقول : وإن اللّه على ذلك لشهيد .

8 – وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ أي [وإنه] لحبّ المال لبخيل .

9 – بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ أي قلب وأثير .

10 – وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ : ميّز ما فيها من الخير والشر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 466 ﴾

(15/827)

وقال الغزنوي:

[سورة العاديات]

1 ضَبْحاً: تضبح ضبحا وهو حمحمتها عند العدو «1».

2 فَالْمُورِياتِ: الخيل تورى النّار بسنابكها «4». وقيل «2»: إنّها نيران الحروب والقرى.

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء: 3/ 284، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 535، وتفسير الطبري: 30/ 271.

وحمحمة الفرس: صوت أنفاسها.

(2) هذا قول أبي عبيدة في مجاز القرآن: 2/ 307، وأخرجه الطبري في تفسيره: 30/ 273 عن الكلبي، والضحاك، ونقله الماوردي في تفسيره: 4/ 500 عن عطاء، واختار الطبري هذا القول.

(5) ينظر هذا القول في تفسير الطبري: 30/ 274، وتفسير الماوردي: 4/ 501.

4 نَقْعاً: غبارا «1».

ويقال «وسط الدار» «2»: إذا نزل وسطها، وكان عليه السّلام بعث سريّة إلى بني كنانة فأبطأت عليه، فأخبر بها في هذه السّورة «3».

6 لَكَنُودٌ: يكفر اليسير ولا يشكر الكثير «4»، أو ينسى كثير النّعمة لقليل المحنة «5».

[108/ أ] وفي الحديث «6»: «الكنود: الكفور الذي يأكل وحده، ويضرب عبده/ ويمنع رفده «7»». انتهى انتهى. اهـ ﴿معانى القرآن/ للغزنوى حـ 2 صـ 887. 888﴾

---

(1) معاني القرآن للفراء: 3/ 284، ومجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 307، ومعاني الزجاج:

5/ 353، واللسان: 8/ 362 (نقع).

(2) إشارة إلى قوله تعالى: فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً [آية: 5].

(3) ينظر خبر هذه السرية في أسباب النزول للواحدي: 536، والدر المنثور: 8/ 600، وفتح القدير للشوكاني: 5/ 471.

(4) نص هذا القول في تفسير الماوردي: 4/ 502.

(5) أخرج الطبري نحو هذا القول في تفسيره: 30/ 278 عن الحسن.

(6) أخرجه الطبري في تفسيره: 30/ 278 عن أبي أمامة مرفوعا.

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 603 ، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي ، وابن عساكر عن أبي أمامة مرفوعا .

وأورد الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 488 ، رواية ابن أبي حاتم وضعّف إسناده ، لوجود جعفر بن الزبير فيه .

(7) الرّفد : بكسر الراء : العطاء والصلة .

اللسان : 3/ 181 (رفد) .

(17/827)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة العاديات

14 - 100

نزلت بمكة بعد العصر ، وهي إحدى عشره آية وأربعون كلمة ، ومائة وثلاثون حرفا ، لا يوجد سورة مبدوءة أو مختومة بما بدئت وختمت به ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ .

قال تعالى "وَالْعادِياتِ) الخيل الغازية في سبيل اللّه تعدو عدوا سريعا وتضبح عند جريها

"ضَبْحاً 1" هو صوت أجوافها قال ابن عباس ليس شيء يضبح سوى الفرس والكلب وأصل العاديات بالواو أي العادوات لأن فعلها واوي فقلب ياء لانكسار ما قبلها وضبحا مفعول مطلق وهو أنفاس الخيل عند العدو وقال علي كرم الله وجهه الضّبح من الخيل الحمحمة وفي الإبل التنفس قال عنترة :

والخيل تكدح حين تضبح في حياض الموت ضبحا

"فَالْمُورِياتِ" الخيل التي توري النار بسبب اصطدام حوافرها في الأرض الصلبة تقدح "قَدْحاً 2" يقال قدح فأورى إذا أخرج النار ، وقدح فأصلد إذا لم يخرجها "فَالْمُغِيراتِ" الخيل التي تغير بفرسانها بسرعة إلى مجابهة العدو "صُبْحاً 3" لأن الناس في غفلة عن الاستعداد وكانوا يمدحون هذه الحالة وقيل فيها :

قومي الذين صبحوا الصباحا يوم النخيل غادة ملحاحا

وقال تعالى : (فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ) الآية 177 من سورة الصافّات في ج 2 "فَأَثَرْنَ" هيجن تلك الخيل المغيرة "بِهِ" بحوافرها الموريات في الصباح الذي أغارت فيه "نَقْعاً 4" غبارا علا المكان الذي مرزن فيه قال ابن رواحة :

عدمت خيلنا ان لم تروها تثير النقع من كتفي كداء

وقد حقق الله قوله يوم الفتح حيث دخلوها من كداء "فَوَسَطْنَ بِهِ" بذلك النقع الناشئ عن

الاغارة "جَمْعاً 5" أي صرن بعدوهن وسط الجمع من الأعداء .

وقد أقسم اللّه بخيل الغزاة أتى هذا وصفها تنبيها لما فيها من المنافع الدينية والدنيوية .

(18/827)

الأجر والغنيمة وأظهار الكلمة وإذلال الأعداء وتعظيما لشأن الغزاة وحثا لهم على الاقدام وعلى أقتناء الخيل ولهذا وردت أحاديث كثيرة في فضل رباطها منها قوله صلّى اللّه عليه وسلم الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة وقال تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) الآية 6 من الأنفال في ج 3 وسيأتي ما ورد فيها عند تفسيرها إن شاء اللّه وجواب القسم قوله "إِنَّ الْإِنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ 6" كفور لنعمة ربه والكند الجحد قال :

كنود لنعماء الرجال ومن يكن كنود لنعماء الرجال بعيد

مطلب في وصف خيل الغزاة :

وقال الفضيل بن عياض : الكنود الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان ، وضده الشكور . . .

"وَإِنَّهُ" أي ذلك الإنسان الشامل لافراده لا يختص

به واحد دون آخر "عَلَى ذَلِكَ" الحال "لَشَهِيدٌ 7" لأنه لم يظهر أثر أنعام اللّه عليه فقد كفرها فيكون لسان حاله شاهدا عليه دون لسان قاله وأعاد بعض المفسرين الضمير إلى اللّه أي أن اللّه تعالى شاهد على جحوده ، والأول أولى يؤيده قوله جل قوله "وَإِنَّهُ" أي جنس الإنسان قولا واحدا "لِحُبِّ الْخَيْرِ" المال ، وأتى بهذا المعنى هنا ، وفي قوله تعالى (إِنْ تَرَكَ خَيْراً) الآية 181 من البقرة في ج 3 أي مالا كثيرا ولا يجوز عود الضمير هنا إلى اللّه إذ لا يجوز أن يوصف بقوله "لَشَدِيدٌ 8" بخيل ممسك لاستحالته عليه تعالى ولأن الضمير راجع إلى الجاحد في الجملة الاولى وهنا أيضا وأن اتساق الضمائر وعدم تفككها اولى عند الإمكان كما هنا ، وجاء بكلام العرب شديد بمعنى بخيل ومن قول طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

(19/827)

وإذا لم يكن الرجل هشا منبسطا عند الإنفاق يسمى شديدا عبوسا ولهذا هدده اللّه وأوعده بقوله "أَ فَلا يَعْلَمُ" هذا البخيل مغبة بخله "إِذا بُعْثِرَ" بعث "ما فِي الْقُبُورِ 9" من الموتى واخرجوا من برزخهم وأبرزوا للحساب والجزاء وزيدت الراء في بعثر لأن قيامهم من القبور يكون بعد بعثرة اجزائهم وتفتتها كالتراب ، وعبر عن المبعوثين بلفظ ما دون من ليعم

الإنسان وغيره من سائر الحيوان "وَحُصِّلَ" أظهر وجمع "ما فِي الصُّدُورِ 10" من الخير والشر الكامن فيها وميز بينهما

"إِنَّ رَبَّهُمْ" أي أولئك المبعوثون من أجداثهم "بِهِمْ يَوْمَئِذٍ" يوم إخراجهم من قبورهم يوم القيامة وأفرازهم عن بعضهم يوم يقول اللّه جل قوله :

(وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ) الآية 59 من سورة يس الآتية "لَخَبِيرٌ 11" بما عملوه في دنياهم لا يخفى عليه شيء منه فيجازيهم بحسبه وخص أعمال القلوب بالذكر دون الجوارح لأن أعمالها تابعة لها فلولا البواعث والواردات في القلب لما حصلت أعمال الجوارح ، هذا وأن ما أخرجه البزار وغيره عن ابن عباس من أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بعث خيلا ولبث شهرا لا يأتيه خبر عنها فنزلت هذه السورة لا قيمة له إلا أن يقال تلاها حينذاك لأن هذه السورة مكية ، وبعث السرايا لم يكن إلا

في المدينة بعد الهجرة فلا مجال للقول بصحته من جهة النزول أما التلاوة فنعم .

هذا ، واللّه أعلم ، واستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 168.165 ﴾

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة والعاديات

مكية أو مدنية

وجواب القسم إن الإنسان لربه لكنود وهو حسن إن لم يجعل ما بعده من تتمته بل مستأنفا وعلى هذا لشهيد حسن وكذا لشديد وان جعل من تتمته فالأولين كافيان والثالث حسن ما في الصدور تام وكذا آخر السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(21/827)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة والعاديات

مكية أو مدنية ولا وقف من أولها إلى لكنود لاتصال الجواب بالقسم فلا يوقف على ضجا ولا على قدحاً ولا على صبحاً ولا على نقعاً ولا على جمعاً لأنَّ القسم قد وقع على جميع ذلك فلا يقطع بعضه من بعض

لكنود (حسن) على استئناف ما بعده والمراد بالإنسان الكافر والمنافق و الكنود الكفور

يقال كند أباه إذا كفره قال الشاعر

أحدث لها تحدث وصالك إنها

كند لوصل الزائر المعتاد

وأنشد أيضاً كنود لنعماء الرجال ومن يكن

كنود النعماء الرجال يبعد

لشهيد (حسن) سواء عاد الضمير على الله أو على الإنسان

لشديد (حسن) قال الفراء أصل نظم الآية أن يقال وإنه لشديد الحب فلما قدم الحب قال

لشديد وحذف من آخره ذكر الحب لأنَّه قد جرى ذكره و لرؤوس الآي كقوله في يوم

عاصف و العصوف للريح لا لليوم كأنه قال في يوم عاصف الريح

ما في الصدور (تام) وقال الكواشي ولم أر أحداً من الإثبات ذكر هنا وقفاً ورأى الوقف هنا

حسناً وهو كما قال للابتداء بإن ومفعول يعلم محذوف وهو العامل في الظرف أي أفلا يعلم

ما له إذا بعثر

أو أنَّه ما دل عليه خبر أن أي إذا بعثر جوزوا

آخر السورة (تام) حكى أن الحجاج بن يوسف الثقفي قرأ على المنبر بحضرة الناس فجرى

على لسانه أنَّ ربهم بفتح الهمزة فقال خبير وأسقط اللام ثم استدرك عليه من جهة العربية

أنَّ إن في تأويل أن المفتوحة وإنَّما كسرت لدخول اللام في خبرها فزعم أنَّ من العرب من يفتح أن مع وجود اللام في خبرها بجعل اللام ملغاة و أنشد

وأعلم علماً ليس بالظن أنَّه

إذا ذل مولى المرء فهو ذليل

وأنَّ لسان المرء ما لم تكن به

حصاة على عوراته لدليل

(22/827)

ففتح أن وفي خبرها اللام لإيقاع العلم عليها ويجوز أن يكون قد ابتدأ في البيت الثاني وأضمر لام تعليل قبل أن فقال خبير وأسقط اللام عمداً وهذا إن صح كفر ولا يقال أنها قراءة ثابتة كما نقل عن أبي السمال العدوي فإن كان ناقلاً لها فلا يكفر لأنَّ الأمة أجمعت على أنَّ من زاد حرفاً في القرآن أو نقصه عمداً فهو كافر اهـ الثعالبي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(23/827)

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة العاديات :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ : "فَأَثَّرْنَ بِه1" ، مشددة الثاء أبو حيوة .

قال أبو الفتح : هذا كقولك : أرين ، وأبدين2 نقعا ، كما يؤثر الإنسان النفس وغيره ، مما يبديه للناظر . [168و] وليس "أثرن" من لفظ أثرن خفيفة ، بل يكون من لفظ أ ث ر ، وأثرن خفيفة من لفظ ث و ر .

وقرأ : "فوَسَّطْن3 بِهِ" ، مشددة -علي بن أبي طالب وابن أبي ليلى وقتادة .

قال أبو الفتح : أي : أثرن باليد نقعا ، ووسطن بالعدو جمعا . وأضمر المصدر لدلالة اسم الفاعل عليه ، كما أضمر لدلالة الفعل عليه في قوله : من كذب كان شرا له ، أي : كان الكذب شرا له ، وقول الآخر :

إذا نهى السفيه جرى إليه وخالف والسفيه إلى خلاف4

أي : جرى إلى السفه ، وأضمره لدلالة السفيه عليه .

فأما "وَسَّطْنَ" ، بالتشديد فعلى معنى ميزن به جمعا ، أي : جعلنه شطرين : قسمين :

شقين. ومعنى وسطنه: صرن في وسطه، وإن كان المعنيان متلاقيين، فإن الطريقين مختلفان:

1 سورة العاديات: 4.

2 قال الزمخشري في الكشاف "2، 556" لأن التأثير فيه معنى الإظهار، أو قلب ثورن إلى وثرن، وقلب الواو همزة.

3 سورة العاديات: 5.

4 انظر الصفحة 170 من الجزء الأول.

(24/827)

ومعنى "وسطن"، خفيفة كمعنى توسط، ألا ترى إلى قوله:

فتوسطا عرض السرى وصدعا مسجورة متجاورا قلامها 1

ووسطنه -مشددة- أقوى معنى وسطنه مخففا، لما مع التشديد من معنى التكثير والتكرير. انتهى انتهى. ا هـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 369 ﴾

1 البيت للبيد من معلقته، وروى "فرمى بها" مكان فتوسطا. وضمير "فتوسطا" للعير

وأتانه في الأبيات السابقة. والعرض: الناحية. والسرى: النهر الصغير، والجمع الأسرية. والتصديع: التشقيق. ومسجورة مملوءة، يريد: عينا مملوءة، فحذف الموصوف لدلالة صفته عليه. والقلام: ضرب من النبت، وقيل: هو القصب. يقول: إن العير وأتانه قد وردا عينا ممتلئة ماء، وقد كثر من حولها القلام وتجاور، فدخلا إليها من عرض نهرها. وانظر ديوان الشاعر: 307، وشرح المعلقات السبع للزوزني: 102، واللسان "صدع".

(25/827)

وقال العلامة الدمياطى:

سورة العاديات

مكية وآيها إحدى عشرة وأدغم تاء العاديات في الضاد وتاء (فالمغيرات) الآية 3 في الصاد أبو عمرو بخلفه كيعقوب من المصباح ووافقهما في الثانية مع الخلف خلاد وأثبت في الأصل هنا الخلاف في الأولى لخلاد كالثانية وفيه نظر فإنها انفرادة لابن خيرون عن خلاد لا يقرأ بها ولذا أسقطها من الطيبة. انتهى انتهى. اهـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(26/827)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة والعاديات "

" فالمغيرات " بعثر . رقق الراء ورش فيهما .

" لخبير " آخر السورة وآخر الربع .

الممال

سورة العلق آخر السورة الإحدى عشرة .

" رءوس الآي الممالة " :

" ليطغى " استغنى ، الرجعى ، ينهى ، صلى ، الهدى ، بالتقوى ، وتولى ، يرى وكلها معدودة إجماعا إلا ينهى فعدها الكل إلا الدمشقي وقد أمالها كلها الأخوان وخلف وقللها كلها ورش وكذلك أبو عمرو إلا يرى فأمالها .

" ما ليس برأس آية " :

" رآه " بإمالة الراء والهمزة لشعبة والأخوين وخلف وابن ذكوان بخلف عنه والوجه الثاني له الفتح في الراء والهمزة وبإمالة الهمزة فقط للبصري وبتقليلهما لورش أدراك سبق في الانفطار . جاءتهم لابن ذكوان وخلف وحمزة ، نار بالإمالة للدوري والبصري والتقليل لورش ، أوحى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه .

المدغم

" الكبير " علم بالقلم ، القدر ليلة ، الفجر لم يكن ، البرية جزاؤهم ، والعاديات ضبحا فالمغيرات صبحا ، ووافقه في الأخير خلاد بخلف عنه ومده عنده لازم كما تقدم والوجه الثاني له الإظهار الخير لشديد ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 356.355 ﴾

(27/827)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة والعاديات 100

مكية وقال أنس بن مالك هي مدنية أخبرني خلف بن أحمد القاص قال انا زياد بن عبد الرحمن قال أنا محمد بن حميد قال أنا محمد بن يحيى بن سلام عن أبيه عن الخليل بن مرة عن أبان بن أبي عياش عن أنس أنها مدنية وقد ذكر نظيرتها في جميع العدد

وكلمها أربعون كلمة ككلم والضحى

وحروفها مئة وثلاثة وستون حرفا

وهي إحدى عشرة آية في جميع العدد ليس فيها اختلاف ورؤوس الآي

ضبحا

1 قدحا

2 صبحا

3 نقعا

4 جمعا

5 لكنود

6 لشهيد

7 لشديد

8 القبور

9 الصدور

10 لخبير

11 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 284﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبري :

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (ضبحا) مصدر في موضع الحال : أي والعاديات ضابحة ، و (قدحا) مصدر مؤكد لأن الموري القادح ، و (صبحا) ظرف ، والهاء ضمير الوادي ، ولم يجر له ذكر هنا ، و (جمعا) حال ، وبه حال أيضا ، وقيل الباء زائدة : أي وسطنه ، و (لربه) تتعلق بكنود : أي كفور لنعم ربه ، و (لحب الخير) يتعلق بشديد : أي يتشدد لحب جمع المال ، وقيل هي بمعنى على .

قوله تعالى (إذا بعثر) العامل في إذا يعلم ، وقيل العامل فيه ما دل عليه خبر إن .

والمعنى : إذا بعثر جوزوا ، و (يومئذ) يتعلق بخبير ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿

إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

---

(1) (قوله وبعلى أخرى) كذا بالنسخ ، ولعل المناسب : وبإلى أخرى كما هو واضح اه .

(*)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة العاديات

[سورة العاديات (100) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْعادِياتِ ضَبْحاً (1)

"وَالْعادِياتِ" جار ومجرور متعلقان بفعل قسم محذوف "ضَبْحاً" مفعول مطلق لفعل محذوف.

والجملة الفعلية في محل نصب حال.

[سورة العاديات (100) : آية 2]

فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (2)

"فَالْمُورِياتِ" معطوف على العاديات "قَدْحاً" حال.

[سورة العاديات (100) : آية 3]

فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (3)

"فَالْمُغِيراتِ" معطوف على العاديات "صُبْحاً" ظرف زمان

[سورة العاديات (100) : آية 4]

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (4)

"فَأَثَرْنَ" ماض مبني على السكون والنون فاعله "بِهِ" متعلقان بالفعل "نَقْعاً" مفعول به

والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة العاديات (100) : آية 5]

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (5)

معطوفة على ما قبلها وإعرابها مثله .

[سورة العاديات (100) : آية 6]

إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6)

"إِنَّ الْإِنْسانَ" إن واسمها "لِرَبِّهِ" متعلقان بما بعدهما "لَكَنُودٌ" اللام المزحلقة "كنود" خبر إن

والجملة الاسمية جواب قسم لا محل لها .

[سورة العاديات (100) : آية 7]

وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ (7)

"وَإِنَّهُ" إن واسمها "عَلى ذلِكَ" متعلقان بما بعدهما "لَشَهِيدٌ" اللام المزحلقة "شهيد" خبر إن

والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة العاديات (100) : آية 8]

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8)

"وَإِنَّهُ" إن واسمها "لِحُبِّ" متعلقان بشديد "الْخَيْرِ" مضاف إليه "لَشَدِيدٌ" اللام المزحلقة "شديد" خبر إن. والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة العاديات (100) : آية 9]

أَفَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ (9)

(30/827)

"أَفَلا" الهمزة حرف استفهام إنكاري والفاء حرف عطف عطفت على محذوف مقدر ولا نافية "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "إِذا" ظرف زمان "بُعْثِرَ" ماض مبني للمجهول "ما" نائب فاعل "فِي الْقُبُورِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول والجملة في محل جر بالإضافة.

[سورة العاديات (100) : آية 10]

وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ (10)

"وَحُصِّلَ ما" ماض مبني للمجهول وما نائب فاعل "فِي الصُّدُورِ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول.

والجملة معطوفة على ما قبلها.

[سورة العاديات (100) : آية 11]

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)

"إِنَّ رَبَّهُمْ" إن واسمها "بِهِمْ" متعلقان بخبير "يَوْمَئِذٍ" ظرف مضاف إلى مثله "لَخَبِيرٌ" اللام المزحلقة "خبير" خبر إن والجملة مستأنفة لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 463.464 ﴾

(31/827)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة العاديات

فِيهَا حديثان

1524 - الحَدِيث الأول

قَالَ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَا لم يكن نقع وَلَا لقلقة

قلت غَرِيب مَرْفُوعا وَلم أَجِدهُ إِلَّا من قَول عمر رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه فِي الْجَنَائِز أَنا معمر عَن الْأَعْمَش عَن أبي وَائِل قَالَ قيل لعمر إِن نسْوَة من بني الْمُغيرَة قد اجْتَمعْنَ فِي دَار

خَالِد بن الْوَلِيد يبْكين عَلَيْهِ وَإِنَّا نكره أَن يؤذينك فَلَو نهيتهن فَقَالَ عمر مَا عَلَيْهِنَّ أَن يهرقن من دُمُوعهنَّ على أبي سُلَيْمَان سجلا أَو سجلين مَا لم يكن نقع أَو لقلقة انْتَهَى

وَمن طَرِيق عبد الرَّزَّاق رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي فَضَائِل خَالِد بن الْوَلِيد وَزَاد فِيهِ النَّقْع اللَّطْم واللقلقة الصُّرَاخ انْتَهَى وَسكت عَنهُ

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي سنَنه قَالَ النَّوَوِيّ فِي الْخُلَاصَة بِسَنَد صَحِيح

وَذكره البُخَارِيّ فِي صَحِيحه تَعْلِيقا فِي بَاب الْجَنَائِز فَقَالَ بَاب مَا يكره من النِّيَاحَة على الْمَيِّت وَقَالَ عمر دعهن يبْكين على أبي سُلَيْمَان مَا لم يكن نقع أَو لقلقة قَالَ وَالنَّقْع التُّرَاب على الرَّأْس واللقلقة الصَّوْت انْتَهَى

قلت وَرَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي غَرِيب الحَدِيث لَهُ حَدثنِي جرير عَن مَنْصُور عَن أبي وَائِل بِهِ بِلَفْظ عبد الرَّزَّاق

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ فِي غَرِيب الحَدِيث لَهُ عَن أبي مُعَاوِيَة عَن الْأَعْمَش بِهِ

قَالَ أَبُو عبيد وَالنَّقْع عندنَا رفع الصَّوْت وَهُوَ قَول أَكثر أهل الْعلم وَقَالَ بَعضهم هُوَ رفع التُّرَاب على الرَّأْس وَقَالَ آخَرُونَ هُوَ شقّ الْجُيُوب قَالَ وَأما اللقلقة فَهِيَ شدَّة الصَّوْت وَلم أسمع فِيهِ

خلافًا انْتَهى

وَقَالَ إِبْرَاهِيم الْحَرْبِيّ قَالَ الْأَصْمَعِي النّقْع الصياح وَقَالَ أَبُو سَلمَة هُوَ وضع التُّرَاب عَلَى الرَّأْس انْتَهَى

وَالْمُصَنّف رَحمَهُ اللَّهُ احْتج بِالْحَدِيثِ عَلَى أَن النّقْع الصياح

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات فِي تَرْجَمَة خَالِد بن الْوَلِيد أخْبرنَا وَكِيع ثَنَا الْأَعْمَش بِهِ بِلَفْظ عبد الرَّزَّاق وَزَاد قَالَ وَكِيع قَالَ وَالنّقْع الشق وَاللَّقْلَقَة الصَّوْت انْتَهَى

1525 - قَوْله

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كنت جَالِسا فِي الْحجر فجاء رجل فَسَأَلَنِي عَن وَالْعَادِيات ضَبْحًا قَالَ ففسرتها بِالْخَيْلِ فَذهب إِلَى عَلّي وَهُوَ تَحت سِقَايَة زَمْزَم فَسَأَلَهُ وَذكر لَهُ مَا قلت فَقَالَ ادْعُه لي فَلَمَّا وقفت عَلَى رَأسه قَالَ تُفْتِي النَّاس بِمَا لَا علم لَك بِهِ وَالله إِن كَانَت لأوّل غَزْوَة فِي الْإِسْلَام بدر وَمَا مَعنا إِلَّا فرسَان فرس لِلزُّبَيْرِ وَفرس لِلْمِقْدَادِ إِنَّمَا العاديات ضَبْحًا الْإِبِل من عَرَفَة إِلَى مُزْدَلِفَة وَمن مُزْدَلِفَة إِلَى منى

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْجِهَاد من طَرِيق ابْن وهب ثني أَبُو صَخْر عَن أبي مُعَاوِيَة البَجلِيّ عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ بَيْنَمَا أَنا فِي الْحجر جَالس . . . إِلَى آخِره سَوَاء وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وتعقبه الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره فَقَالَ لم يحْتَج البُخَارِيّ بِأبي صَخْر وَأما مُعَاوِيَة البَجلِيّ فَلَا ذكر لَهُ فِي الْكتب السِّتَّة انْتَهَى

(33/827)

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره

وَمن طَرِيقه رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

1526 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ العاديات أعطي من الْأجر عشر حَسَنَات

بِعَدَد من بَات فِي الْمزْدَلِفَة وَشهد جمعا

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث عبد الله بن روح ثَنَا شَبابَة بن سوار بِسَنَدِهِ فِي سُورَة الْقدر

وَبِهَذَا الْمَتْن رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس. انتهى انتهى. اهـ ﴿تخريج الأحاديث

والآثار جـ 4 صـ 265. 267﴾

(34/827)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة العاديات» (100)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«الْعادِياتِ» (1) الخيل . .

«ضَبْحاً «1»» (1) أي ضبعا ضبحت وضبعت واحد وقال بعضهم : تضبح تنحم «2» فمن قال هذا ففيه ضمير . .

«فَالْمُورِياتِ قَدْحاً» (2) تورى بسنابكها النار . .

«فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً» (3) تغير عند الصباح . .

«فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً» (4) فرفعن به غبارا «3» ، النقع : الغبار . .

«إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ» (6) لكفور وكذلك الأرض الكنود التي لا تنبت شيئا قال الأعشى :

أحدث لها تحدث لوصلك إنها كند لوصل الزائر المعتاد

«4» [945] .

«وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ» (8) وإنه من أجل حبّ الخير لشديد «5» : لبخيل ، يقال للبخيل : شديد ومتشدد ، قال طرفة :

(1) . - 4 «ضبحا» : وانظر القرطبي (20/ 155) ما رواه عن أبى عبيدة فى تفسير الآية .

(2) . - 4 «تنحم» : وفى اللسان : وقيل تضبح تنحم وهو صوت أنفاسها إذا عدون (ضبح) .

(3) . - 7 «فأثرن . . . غبارا» : وهو فى الطبري وقال ابن حجر هو قول أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 558) .

(4) . - 945 : ديوانه ص 98 والطبري 30/ 153 والقرطبي 20/ 161 .

(5) . - 12 «وإنه . . . لشديد . . . لشديد» : وهو فى البخاري ، وأشار إليه ابن حجر بقوله :

هو قول أبى عبيدة أيضا فسر اللام بمعنى من أجل أي لأنه لأجل حب المال لبخيل (فتح الباري 8/ 558) .

(35/827)

أرى الموت يعتام النفوس ويصطفى عقيلة مال الباخل المتشدّد

«1» [946] ويروى : يعتام الكريم . .

«إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ» (9) أثير فأخرج . .

«حُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ» (10) ميّز «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 308.307﴾

---

(1) . - 946 : ديوانه من الستة ص 58 والطبري 30/ 154 والقرطبي 20/ 162 وشواهد الكشاف 103 .

(2) . - 4 «حصل . . . ميز» : كما فى فتح الباري 8/ 558 .

(36/827)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة العاديات

الجهاد يحرس العقيدة ، ويحمى الحقيقة ، ويصون البلاد والحرمات . إن الباطل يمتد فى أى فراغ أمامه ، وإذا وجد مقاومة ضعيفة اجتاحها وبلغ غرضه . وقد رأيت الخنا يفرض تقاليده على الشعوب لأنه يستند إلى سلطات قوية ، ورأيت الشرف يذوب أمامه ويزول .

وكثيرا ما أتذكر قول الفتية أصحاب الكهف ، بعضهم للبعض الآخر " إنهم إن يظهروا

عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا " . من أجل ذلك أقسم الله بأدوات الجهاد " والعاديات ضبحا * فالموريات قدحا * فالمغيرات صبحا * فأثرن به نقعا * فوسطن به جمعا * إن الإنسان لربه لكنود " . عندما تعدو الخيل بفرسانها ، وأنفاسها تضطرم فى صدورها ، وسنابكها تقدح الشرر من شدة جريها ، ورجالها يستقبلون الموت هجوما أو دفاعا ، عندئذ يعلم المبطلون فداحة ما فعلوا ، ويدفعون ثمنه من دمائهم . . أحيانا تكون نيران الجهاد كالسوائل المبيدة للحشرات ، تحمى الزرع والضرع . وقديما قال حماة الأعراض : لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم والحق فى عصرنا يحتاج إلى خيالة ورجالة يذودون عنه ، ويستبقون على الأيام معالمه ! فإن هناك أهل كنود وجماح يسرقون العقائد والفضائل ، ويريدون فرض الزور والظلم على الناس " إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد " . وما أظن الآخرة جحدت فى عصر كما جحدت فى عصرنا ، ولا الدنيا عبدت فى أيام كما عبدت فى أيامنا " أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور * وحصل ما في الصدور * إن ربهم بهم يومئذ لخبير " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 536 ﴾

(37/827)

(38/827)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة العاديات

أقول : لا يخفى ما بين قوله في الزلزلة : (وأَخرجتِ الأَرضُ أَثقالها) وقوله في هذه السورة :

(إِذا بُعثِرَ ما في القبور) من المناسبة والعلاقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار ترتيب القرآن

صـ 156 ﴾

(39/827)

قوله تعالى ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3)

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ

(7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي له الأمر كله فلا يسأل عما يفعل (الرحمن) الذي عم بنعمة إيجاده وبيانه فنعمته أتم نعمة وأشمل (الرحيم) الذي خص خلص عباده بتوفيقه فأتم نعمته عليهم وأكمل .

لما ختم الزلزلة بالجزاء لأعمال الشر يوم الفصل ، افتتح هذه ببيان ما يجر إلى تلك الأعمال من الطبع ، وما ينجر إليه ذلك الطبع مما يتخيله من النفتع ، موبخاً من لا يستعد لذلك اليوم بالاحتراز التام من تلك الأعمال ، معنفاً من أثر دنياه على أخراه ، مقسماً بما لا يكون إلا عند أهل النعم الكبار الموجبة للشكر ، فمن غلب عليه الروح شكر ، ومن غلب عليه الطبع – وهم الأكثر – كفر فقال : ﴿ والعاديات ﴾ أي الدواب التي من شأنها أن تجري بغاية السرعة ، وهي الخيل التي ظهورها عز وبطونها كنز ، وهي لرجل وزر ولرجل أجر ، فمن فاخر بها ونادى بها أهل الإسلام وأبطره عزها حتى قطع الطريق وأخاف الرفيق كانت له شراً ، ومن جعلها في سبيل الله كانت له أجراً ، ومن حمل عليها ولم ينس حق الله في رقابها وظهورها وكانت له ستراً ، وإنما أقسم بها ليتأمل ما فيها من الأسرار الكبار التي باينت به أمثالها من الدواب كالثور مثلاً والحمار ليعلم أن الذي خصها بذلك فاعل مختار واحد قهار ، فالقسم في الحقيقة به سبحانه .

ولما كانت دالة على الضابحات بالالتزام ، قال ناصباً به أو ب " تضبح " مقدراً :

﴿ ضبحاً ﴾ والضبح صوت جهير من أفواهها عند العدو الشديد ، ليس بصهيل ولا حمحمة ولا رغاء وهو النفس ، وليس شيء من الدواب يضبح غير الفرس والكلب والثعلب ، وأصله للثعلب واستيعر للخيل ، وحكاه ابن عباس - رضى الله عنهما - فقال : أحأح ، أو الضبح عدو دون التقريب .

ولما ذكر عدوها ، أتبعه ما ينشأ عنه ، فقال عاطفاً بأداة التعقيب لأن العدو بحيث يتسبب عنه ويتعقبه الإيراء : ﴿ فالموريات ﴾ أي المخرجات للنار بما يصطك من نعلها بالأحجار ، لا سيما عند سلوك الأوعار .

ولما كان الإيراء أثر القدح قال : ﴿ قدحاً ﴾ أي تقدح ضرباً بعنف كضرب الزند ليوري النار ، ونسب الإيراء إليها لإيجادها صورته وإن لم يكن لها قصد إليه .

ولما ذكر العدو وما يتأثر عنه ، ذكر نتيجته وغايته فقال : ﴿ فالمغيرات ﴾ أي بإغارة أهلها عليها على العدو والإغارة والركض الشديد لإرادة القتل والنهب .

ولما كانت الإغارة الكائن عنها الثبور والويل أروع ما تكون في أعقاب الليل قال :

﴿ صبحاً ﴾ أي ذات دخول في الصباح .

ولما كان الأعداء حال الإغارة يكون مختلفاً تارة يميناً وتارة شمالاً وتارة أماماً وتارة وراء بحسب الكر والفر في المصاولة والمحاولة تارة أثر الهارب ، وأخرى في مصاولة المقبل المحارب ، فينشأ عنها الغبار الكثير لإثارة الهواء له واصطدام بعضه ببعض لتعاكسه بقوة الدفع من قوائمها وما تحركه منه ، وكان المقسم به منظوراً فيه إلى ذاته ونتيجة القسم منظوراً فيها إلى الفعل بادىء بدء مع قطع النظر بالأصالة عن الذات ، عطف على اسم الفاعل بعد حله إلى أن وصلتها فقال : ﴿ فأثرن به ﴾ أي بفعل الإغارة ومكانها وزمانها من شدة العدو ﴿ نقعاً ﴾ أي غباراً مع الاعناق والصياح والزجر بالعنق حتى صار ذلك الغبار منحبكاً ومنعقداً عليها .

(41/827)

ولما كان المغير يتوسط الجمع عند اختلال حالهم فيفرق شملهم لأنهم متى افترقوا حصل فيهم الخلل ، ومتى اختلفوا تخللهم العدو ففرق شملهم قال : ﴿ فوسطن به ﴾ أي بذلك النقع أو الفعل والوقت والموضع ﴿ جمعاً ﴾ أي وهو المقصود بالإغارة ، فدخلت في وسط ذلك الجمع لشجاعتها وقوتها وطواعيتها وشجاعة فرسانها .

ولما أقسم بالخيل التي هي أشرف الحيوان كما أن الإنسان المقسم لأجله أشرف ما اتصف منه بالبيان ، وتجري به أفكاره كخيل الرهان ، وتقدح المعاني تارة مقترنة بأشرف اللمعان ، وأخرى بأخس ما يقع به الاقتران ، من الزور والبهتان ، والإلحاد والطغيان ، وتغير منه ثواقب الأذهان ، تارة على شبه الخصوم بالبرهان ، وأخرى بما يغير به من الشبه الملتبسة في وجوه المعاني الحسان ، وينثر تارة المعاني الصحيحة على أهل الطغيان ، من ذوي البدع والكفران ، وأخرى الفاسدة على حزب الملك الديان ، وتتوسط تارة جمع أولي الطغيان ، وأخرى جمع أولي الإيمان ، وكانت الإغارة في الغالب لأجل قهر المغار عليهم على أموالهم عدواناً إن كان ذلك في غير الجهاد ، وإن كانت في الجهاد فقل من يخلص في ذلك الحال ، فيكون عمله ليس إلا لله كما أشار إليه الحديث القدسي : "إن عبدي كل عبدي للذي يذكرني عند لقاء قرنه" قال مجيباً للقسم بذكر المقسم عليه حاكماً على النوع باعتبار عد المخلص لقلته عدماً ، مؤكداً لما لهم من تكذيب ذلك فإن كل أحد يتبرأ من مثل هذا الحال : ﴿إن الإنسان﴾ أي هذا النوع بما له من الأنس بنفسه والنسيان لما ينفعه ﴿لربه﴾ أي المحسن إليه بإبداعه ثم إبقائه وتدبيره وتربيته ﴿لكنود﴾ أي كفور نكد لسوء المعاملة

حيث يقدم بما أحسن به الله إليه من الصافنات الجياد وبما آتاه من قوة الجنان والأركان على ما نهاه عنه، ومصدره الكنود بالضم وهو كفران النعمة، فالمراد هنا - بالتعبير عنه بهذه الصيغة التي هي للمبالغة - من يزدري القليل ولا يشكر الكثير، وينسى كثير النعمة بقليل المحنة، ويلوم ربه في أيسر نقمة، وقال الفضيل بن عياض: هو من أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان، والشكور ضده.

(43/827)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: أقسم سبحانه على حال الإنسان بما هو فقال: "إن الإنسان لربه لكنود" أي لكفور، يبخل بما لديه من المال كأنه لا يجازي ولا يحاسب على قليل ذلك وكثيره من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وكأنه ما سمع بقوله تعالى: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ ﴿ وإنه لحب الخير ﴾ أي المال ﴿ لشديد ﴾ لبخيل، ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ فإن الله على ذلك لمطلع فلا نظر في أمره وعاقبة مآله ﴿ إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور ﴾ أي ميز ما فيها من الخير والشر ليقع الجزاء عليه ﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ لا يخفى عليه شيء من أمرهم ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ - انتهى.

ولما كان إقدام الإنسان على الظلم عجباً ، فإذا كان يشهد على نفسه بالظلم كان أعجب ، قال مؤكداً لما لأكثر الخلق قبل البعث والمحاققة من إنكار كفرانه : ﴿ وإنه ﴾ أي الإنسان ﴿ على ذلك ﴾ أي الكنود العظيم حيث أقدم على مخالفة الملك الأعظم المحسن مع الكفر لإحسانه ﴿ لشهيد ﴾ لأنه مقر إذا حوقق بأن جميع ما هو فيه من إحسان ربه وبأن ربه نهاه عن المخالفة ، أو أنه لا أمر عنده منه بما فعل ، وأنه لا ينبغي لعاقل أن يتحرك بحركة يمكن أن يكرهها الملك الذي هو في خدمته ولا شيء له إلا منه بغير إذنه ، وأنه إن تحرك بغير ذلك كان كافراً لإحسانه مستحقاً لعقابه ، لا يقدر على إنكار شيء منه .

(44/827)

ولما كان من العجائب أن يكفر أحد إحسان المنعم ، وهو شاهد على نفسه ، ذكر الحامل له على ذلك حتى هان عليه فقال : ﴿ وإنه ﴾ أي الإنسان من حيث هو مع شهادته على نفسه بالكفر الذي يقتضي سلب النعم ﴿ لحب ﴾ أي لأجل حب ﴿ الخير ﴾ أي المال الذي لا يعد غيره لجهله خيراً ﴿ لشديد ﴾ أي بخيل بالمال ضابط له ممسك عليه ، أو بليغ القوة في حبه لأن منفعته في الدنيا وهو متقيد بالعاجل الحاضر المحسوس مع علمه بأن أقل ما فيه أنه يشغله عن حسن الخدمة لربه وهو معرض عن الدين حيث كانت منفعته آجلة

غائبة مع علمه بأن المعرّف بما يرضى من خدمة ربه الحاث عليها الداعي إليها فهو لحب عبادة الله ضعيف متقاعس ، وكان حبه الخير يقتضي عنه الشكر الذي يتقاضى الزيادة ، ولا يتخيل أن شديداً عامل في الحب لأن ما بعد اللام لا يعمل فيها قبلها ، وإنما ذلك المتقدم دليل على المعمول المحذوف . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 508. 511﴾

(45/827)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) ﴾

اعلم أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدت ، وهو صوت ليس بصهيل ولا حمحمة ، ولكنه صوت نفس ، ثم اختلفوا في المراد بالعاديات على قولين :

(46/827)

الأول : ما روى عن علي عليه السلام وابن مسعود أنها الإبل ، وهو قول إبراهيم والقرظي روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : "بينا أنا جالس في الحجر إذ أتاني رجل فسألني عن العاديات ضبحاً ، ففسرتها بالخيل فذهب إلى علي عليه السلام وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت ، فقال : ادعه لي فلما وقفت على رأسه ، قال : تفتي الناس بما لا علم لك به ، والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد والعاديات ضبحاً الإبل من عرفة إلى مزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى ، يعني إبل الحاج ، قال ابن عباس : فرجعت عن قولي إلى قول علي عليه السلام" ويتأكد هذا القول بما روى أبي في فضل السورة مرفوعاً : "من قرأها أعطي من الأجر بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعاً" وعلى هذا القول : ﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ أن الحوافر ترمى بالحجر من شدة العدو فتضرب به حجراً آخر فتورى النار أو يكون المعنى الذين يركبون الإبل وهم الحجيج إذا أوقدوا نيرانهم بالمزدلفة ﴿ فالمغيرات ﴾ الإغارة سرعة السير وهم يندفعون صبيحة يوم النحر مسرعين إلى منى ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ يعني غباراً بالعدو وعن محمد بن كعب النقع ما بين المزدلفة إلى منى ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ يعني مزدلفة لأنها تسمى الجمع لاجتماع الحاج بها ، وعلى هذا التقدير ، فوجه القسم به من وجوه أحدها : ما ذكرنا من المنافع الكثيرة فيه في قوله : ﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإبل ﴾ [الغاشية : 17] وثانيها : كأنه تعريض بالآدمي الكنود فكأنه تعالى يقول : إني سخرت مثل هذا لك وأنت متمرد عن

طاعتي وثالثها : الغرض بذكر إبل الحج الترغيب في الحج ، كأنه تعالى يقول : جعلت ذلك الإبل مقسماً به ، فكيف أضيع عملك ! وفيه تعريض لمن يرغب الحج ، فإن الكنود هو الكفور ، والذي لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَاس حِجُّ البيت ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ ﴾

(47/827)

[آل عمران : 97] .

القول الثاني : قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعطاء وأكثر المحققين : أنه الخيل ، وروى ذلك مرفوعاً .

قال الكلبي : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى أناس من كنانة فمكث ما شاء الله أن يمكث لا يأتيه منهم خبر فتخوف عليها .

فنزل جبريل عليه السلام بخبر مسيرها ، فإن جعلنا الألف واللام في : ﴿ والعاديات ﴾ للمعهود السابق كان محل القسم خيل تلك السرية ، وإن جعلنا هما للجنس كان ذلك قسماً بكل خيل عدت في سبيل الله .

واعلم أن ألفاظ هذه الآيات تنادي أن المراد هو الخيل ، وذلك لأن الضبح لا يكون إلا للفرس

، واستعمال هذا اللفظ في الإبل يكون على سبيل الاستعارة، كما استعير المشافر والحافر للإنسان، والشفتان للمهر، والعدول من الحقيقة إلى المجاز بغير ضرورة لا يجوز، وأيضاً فالقدح يظهر بالحافر ما لا يظهر بخف الإبل، وكذا قوله: ﴿فالمغيرات صُبْحاً﴾ لأنه بالخيل أسهل منه بغيره، وقد روينا أنه ورد في بعض السرايا، وإذا كان كذلك فالأقرب أن السورة مدنية، لأن الإذن بالقتال كان بالمدينة، وهو الذي قاله الكلبي: إذا عرفت ذلك فههنا مسائل:

المسألة الأولى:

(48/827)

أنه تعالى إنما أقسم بالخيل لأن لها في العدو من الخصال الحميدة ما ليس لسائر الدواب، فإنها تصلح للطلب والهرب والكر والفر، فإذا ظننت أن النفع في الطلب عدوت إلى الخصم لتفوز بالغنيمة، وإذا ظننت أن المصلحة في الهرب قدرت على أشد العدو، ولا شك أن السلامة إحدى الغنيمتين، فأقسم تعالى بفرس الغازي لما فيه من منافع الدنيا والدين، وفيه تنبيه على أن الإنسان يجب عليه أن يمسكه لا للزينة والتفاخر، بل لهذه المنفعة، وقد نبه تعالى على هذا المعنى في قوله: ﴿والخيل والبغال والحمير لِتَرْكَبُوهَا

وَزِينَةً ﴾ [النحل : 8] فأدخل لام التعليل على الركوب وما أدخله على الزينة وإنما قال : ﴿ صُبْحاً ﴾ لأنه أمارة يظهر به التعب وأنه يبذل كل الوسع ولا يقف عند التعب ، فكأنه تعالى يقول : إنه مع ضعفه لا يترك طاعتك ، فليكن العبد في طاعة مولاه أيضاً كذلك .

المسألة الثانية :

ذكروا في انتصاب ﴿ ضَبْحاً ﴾ وجوهاً أحدها : قال الزجاج : والعاديات تضبح ضبحاً وثانيها : أن يكون ﴿ والعاديات ﴾ في معنى والضابحات ، لأن الضبح يكون مع العدو ، وهو قول الفراء وثالثها : قال البصريون : التقدير : والعاديات ضابحة ، فقوله : ﴿ ضَبْحاً ﴾ نصب على الحال .

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2)

فاعلم أن الإيراء إخراج النار ، والقدح الصك تقول : قدح فأورى وقد فأصلد ، ثم في تفسير الآية وجوه أحدها : قال ابن عباس : يريد ضرب الخيل بحوافرها الجبل فأورت منه النار مثل الزند إذا قدح ، وقال مقاتل : يعني الخيل تقدحن بحوافرهن في الحجارة ناراً كنار الحباحب (1) والحباحب اسم رجل كان بخيلاً لا يوقد النار إلا إذا نام الناس ، فإذا انتبه أحد أطفأ ناره لئلا ينتفع بها أحد .

---

(1) ويقال : الحباحب طائر صغير كالذبابة تضيء ليلا فيظنه الرائي نارا .

فشبهت هذه النار التي تنقدح من حوافر الخيل بتلك النار التي لم يكن فيها نفع ومن الناس من يقول : إنها نعل الحديد يصك الحجر فتخرج النار ، والأول أبلغ لأن على ذلك التقدير تكون السنابك نفسها كالحديد وثالثها : قال قوم : هذه الآيات في الخيل ، ولكن إيراؤها أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوهم ، كما قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ ﴾ [المائدة : 64] ومنه يقال للحرب إذا التحمت : حمي الوطيس وثالثها : هم الذين يغزون فيورون بالليل نيرانهم لحاجتهم وطعامهم ﴿ فالموريات ﴾ هم الجماعة من الغزاة ورابعها : إنها هي الألسنة توري نار العداوة لعظم ما تتكلم به وخامسها : هي أفكار الرجال توري نار المكر والخديعة ، روي ذلك عن ابن عباس ، ويقال : لأقدحن لك ثم لأورين لك ، أي لأهيجن عليك شراً وحرباً ، وقيل : هو المكر إلا أنه مكر بإيقاد النار ليراهم العدو كثيراً ، ومن عادة العرب عند الغزو إذا قربوا من العدو أن يوقدوا نيراناً كثيرة ، لكي إذا نظر العدو إليهم ظنهم كثيراً وسادسها : قال عكرمة : الموريات قدحاً الأسنة وسابعها : ﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ أي فالمنجحات أمراً ، يعني الذين وجدوا مقصودهم وفازوا بمطلوبهم من الغزو والحج ، ويقال للمنجح في حاجته : وروي زنده ، ثم يرجع هذا

إلى الجماعة المنجحة ، ويجوز أن يرجع إلى الخيل ينجح ركبانها قال جرير :

وجدنا الأزد أكرمهم جوادا . . وأوراهم إذا قدحوا زناداً

ويقال : فلان إذا قدح أورى ، وإذا منح أورى ، واعلم أن الوجه الأول أقرب لأن لفظ الإيراء حقيقة في إيراء النار ، وفي غيره مجاز ، ولا يجوز ترك الحقيقة بغير دليل .

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3)

(50/827)

يعني الخيل تغير على العدو وقت الصبح ، وكانوا يغيرون صباحاً لأنهم في الليل يكونون في الظلمة فلا يبصرون شيئاً ، وأما النهار فالناس يكونون فيه كالمستعدين للمدافعة والمحاربة ، أما هذا الوقت فالناس يكونون فيه في الغفلة وعدم الاستعداد .

وأما الذين حملوا هذه الآيات على الإبل ، قالوا : المراد هو الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى ، والسنة أن لا تغير حتى تصبح ، ومعنى الإغارة في اللغة الإسراع ، يقال : أغار إذا أسرع وكانت العرب في الجاهلية تقول : أشرق ثبير كيما نغير .

أي نسرع في الإفاضة .

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4)

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في النقع قولان : أحدهما : أنا هو الغبار وقيل : إنه مأخوذ من نقع الصوت إذا ارتفع ، فالغبار يسمى نقعاً لارتفاعه ، وقيل : هو من النقع في الماء ، فكأن صاحب الغبار غاص فيه ، كما يغوص الرجل في الماء والثاني : النقع الصباح من قوله عليه الصلاة والسلام : " مالم يكن نقع ولا لقلقة " أي فهيجن في المغار عليهم صياح النوائح ، وارتفعت أصواتهن ، ويقال : ثار الغبار والدخان ، أي ارتفع وثار القطا عن مفحصه ، وأثرن الغبار أي هيجنه ، والمعنى أن الخيل أثرن الغبار لشدة العدو في الموضع الذي أغرن فيه .

المسألة الثانية :

الضمير في قوله : ﴿ به ﴾ إلى ماذا يعود ؟ فيه وجوه أحدها : وهو قول الفراء أنه عائد إلى المكان الذي انتهى إليه ، والموضع الذي تقع فيه الإغارة ، لأن في قوله : ﴿ فالمغيرات صُبْحاً ﴾ دليلاً على أن الإغارة لا بد لها من وضع ، وإذا علم المعنى جاز أن يكنى عما لم يجز ذكره بالتصريح كقوله : ﴿ إِنَّآ أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر ﴾ [القدر : 1] وثانيها : إنه عائد إلى ذلك الزمان الذي وقعت فيه الإغارة ، أي فأثرن في ذلك الوقت نقعاً وثالثها : وهو قول الكسائي أنه عائد إلى العدو ، أي فأثرن بالعدو نقعاً ، وقد تقدم ذكر العدو في قوله :

﴿ والعاديات ﴾ .

المسألة الثالثة :

(51/827)

فإن قيل : على أي شيء عطف قوله : ﴿ فَأَثَرْنَ ﴾ قلنا : على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه ، والتقدير واللائي عدون فأورين ، وأغرن فأثرن .

المسألة الرابعة :

قرأ أبو حيوة : ﴿ فَأَثَّرْنَ ﴾ بالتشديد بمعنى فأظهرن به غباراً ، لأن التأثير فيه معنى الإظهار ، أو قلب ثورن إلى وثرن وقلب الواو همزة .

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5)

ففيه مسألتان :

المسألة الأولى :

قال الليث : وسطت النهر والمفازة أسطها وسطاً وسطة ، أي صرت في وسطها ، وكذلك وسطتها وتوسطتها ، ونحو هذا ، قال الفراء : والضمير في قوله : ﴿ بِهِ ﴾ إلى ماذا يرجع ؟ فيه وجوه أحدها : قال مقاتل : أي بالعدو ، وذلك أن العاديات تدل على العدو ، فجازت

الكناية عنه ، وقوله : ﴿ جَمْعاً ﴾ يعني جمع العدو ، والمعنى صرن بعدوهن وسط جمع العدو ، ومن حمل الآيات على الإبل ، قال : يعني جمع منى وثانيها : أن الضمير عائد إلى النقع أي : وسطن بالنقع الجمع وثالثها : المراد أن العاديات وسطن ملبساً بالنقع جمعاً من جموع الأعداء .

المسألة الثانية :

قرئ : ﴿ فَوَسَّطْنَ ﴾ بالتشديد للتعدية ، والباء مزيدة للتوكيد كقوله : ﴿ وَأُتُوا بِهِ ﴾ [البقرة : 25] وهي مبالغة في وسطن ، واعلم أن الناس أكثروا في صفة الفرس ، وهذا القدر الذي ذكره الله أحسن ، وقال عليه الصلاة والسلام : " الخيل معقود بنواصيها الخير " ، وقال أيضاً : " ظهرها حرز وبطنها كنز " واعلم أنه تعالى لما ذكر المقسم به ، ذكر المقسم عليه وهو أمور ثلاثة : أحدها : قوله :

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8)

(52/827)

قال الواحدي : أصل الكنود منع الحق والخير والكنود الذي يمنع ما عليه ، والأرض الكنود هي التي لا تنبت شيئاً ثم للمفسرين عبارات ، فقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة : الكنود هو الكفور قالوا : ومنه سمي الرجل المشهور كندة لأنه كند أباه ففارقه ، وعن الكلبي الكنود بلسان كندة العاصي وبلسان بني مالك البخيل ، وبلسان مضر وربيعة الكفور ، وروى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن : الكنود هو الكفور الذي يمنع رفده ، ويأكل وحده ، ويضرب عبده ، وقال الحسن : الكنود اللوام لربه يعد المحن والمصائب ، وينسى النعم والراحات ، وهو كقوله : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَّرَهُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾ [الفجر : 16] .

واعلم أن معنى الكنود لا يخرج عن أن يكون كفراً أو فسقاً ، وكيفما كان فلا يمكن حمله على كل الناس ، فلا بد من صرفه إلى كافر معين ، أو إن حملناه على الكل كان المعنى أن طبع الإنسان يحمله على ذلك إلا إذا عصمه الله بلطفه وتوفيقه من ذلك ، والأول قول الأكثرين قالوا : لأن ابن عباس قال : إنها نزلت في قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي ، وأيضاً فقوله : ﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى القبور ﴾ [العاديات : 9] لا يليق إلا بالكافر ، لأن ذلك كالدلالة على أنه منكر لذلك الأمر .

الثاني : من الأمور التي أقسم الله عليها قوله : ﴿ وَإِنَّهُ على ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ وفيه قولان : أحدهما : أن الإنسان على ذلك أي على كنوده لشهيد يشهد على نفسه بذلك ، أما لأنه أمر ظاهر لا يمكنه أن يجحده ، أو لأنه يشهد على نفسه بذلك في الآخرة ويعترف بذنوبه القول الثاني : المراد وإن الله على ذلك لشهيد قالوا : وهذا أولى لأن الضمير عائد إلى أقرب المذكورات والأقرب ههنا هو لفظ الرب تعالى ويكون ذلك كالوعيد والزجر له عين المعاصي من حيث إنه يحصى عليه أعماله ، وأما الناصرون للقول الأول فقالوا : إن قوله بعد ذلك : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ ﴾ الضمير فيه عائد إلى الإنسان ، فيجب أن يكون الضمير في الآية التي قبله عائداً إلى الإنسان ليكون النظم أحسن .

الأمر الثالث : مما أقسم الله عليه قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ ﴾ الخير المال من قوله تعالى : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [البقرة : 180] وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ [المعارج : 21] وهذا لأن الناس يعدون المال فيما بينهم خيراً كما أنه تعالى سمى ما ينال المجاهد من الجراح وأذى الحرب سوءاً في قوله : ﴿ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوء ﴾ [آل عمران : 174] والشديد البخيل الممسك ، يقال : فلان شديدة ومتشدد ، قال طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي . . عقيلة مال الفاحش المتشدد

ثم في التفسير وجوه أحدها : أنه لأجل حب المال لبخيل ممسك وثانيها : أن يكون المراد من الشديدة القرى ، ويكون المعنى وإنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوي مطيق ، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيف ، تقول : هو شديد لهذا الأمر وقوي له ، وإذا كان مطيقاً له ضابطاً وثالثها : أراد إنه لحب الخيرات غير هني منبسط ولكنه شديد منقبض ورابعها : قال الفراء : يجوز أن يكون المعنى وإنه لحب الخير لشديد الحب يعني أنه يحب المال ، ويحب كونه محباً له ، إلا أنه اكتفى بالحب الأول عن الثاني ، كما قال :

﴿ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [ابراهيم : 18] أي في يوم عاصف الريح فاكتفى بالأولى عن الثانية وخامسها : قال قطرب : أي إنه شديد حب الخير ، كقولك إنه لزيد ضروب أي أنه ضروب زيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 60.

64 ﴾

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾

أي الأفراس تعدو .

كذا قال عامة المفسرين وأهل اللغة ؛ أي تعدو في سبيل الله فتضبح .

قال قتادة : تضبح إذا عدت ؛ أي تحمحِم .

وقال الفراء : الضَّبْح : صوت أنفاس الخيل إذا عَدَوْن .

ابن عباس : ليس شيء من الدواب يضْبَح غير الفرس والكلب والثعلب .

وقيل : كانت تُكْعَم لئلا تصهَل ، فيعلم العدوّ بهم ؛ فكانت تتنفس في هذه الحال بقوّة .

قال ابن العربي : أقسم الله بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال : ﴿ يس * والقرآن الحكيم ﴾ [ياس : 21] ، وأقسم بحياته فقال : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر : 72] ، وأقسم بخيله وصهيلها وغُبارها ، وقدح حوافرها النار من الحجر ، فقال : "والعادِيات ضَبْحا" . . .

الآيات الخمس .

وقال أهل اللغة :

وَطَعْنةٍ ذاتِ رَشاشٍ واهِيَهْ . . .

طَعَنْتَها عند صُدُورِ العَادِيهْ

يعني الخيل.

وقال آخر:

والعاديات أُسابِيُّ الدماءِ بها . . .

كأنّ أعناقَها أنصاب ترجيبِ

يعني الخيل.

وقال عنترة:

والخيل تعلم حين تَضْ . . .

بَحُ فِي حِياضِ المَوْتِ ضَبْحَا

وقال آخر:

لَسْتُ بالتُّبَّعِ اليمانِيّ إنْ لَمْ . . .

تَضْبَحِ الخيلُ في سَوادِ العِرَاقِ

وقال أهل اللغة: وأصل الضَّبْح والضُّباح للثعالب؛ فاستعير للخيل.

وهو من قول العرب: ضَبَحَتْه النار: إذا غيرت لونه ولم تبالغ فيه.

وقال الشاعر:

فَلَمَّا أَنْ تلْهُوجْنَا شِواءً . . .

به اللَّهَبانُ مَقهوراً ضَبِيحاً

وانضبح لونه : إذا تغير إلى السواد قليلاً .

وقال :

عَلِقْتُها قَبل انْضِباحِ لَوْني . . .

وإنما تَضْبَح هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من فَزَع وتعب أو طمع .

ونصب "ضَبْحا" على المصدر ؛ أي والعاديات تضبح ضَبْحاً .

والضِّبح أيضاً الرّماد .

وقال البصريون : ﴿ ضَبْحاً ﴾ نصب على الحال .

وقيل : مصدر في موضع الحال .

(56/827)

قال أبو عبيدة : ضَبَحَتِ الخيل ضَبْحاً مثل ضَبَعَتْ ؛ وهو السير .

وقال أبو عبيدة : الضَّبْح والضَّبْع : بمعنى العدو والسير .

وكذا قال المبرد : الضبح مدّ أضباعها في السير .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سَرِيّة إلى أناس من بني كِنانة ، فأبطأ عليه خبرها ، وكان استعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري ، وكان أحد النقباء ؛ فقال

المنافقون : إنهم قُتلوا ؛ فنزلت هذه السورة إخباراً للنبيّ صلى الله عليه وسلم بسلامتها ، وبشارة له بإغارتها على القوم الذين بعث إليهم .

وممن قال : إن المراد بالعاديات الخيل ، ابنُ عباس وأنس والحسن ومجاهد .

والمراد الخيل التي يغزو عليها المؤمنون .

وفي الخبر : " من لم يعرف حُرْمة فرس الغازي ، ففيه شُعبة من النفاق " وقول ثان : أنها الإبل ؛ قال مسلم : نازعتُ فيها عكرمة فقال عكرمة : قال ابن عباس هي الخيل .

وقلت : قال عليّ هي الإبل في الحج ، ومولاي أعلم من مولاك .

وقال الشعبيّ : تمارى عليّ وابن عباس في "العاديات" ، فقال عليّ : هي الإبل تعدو في الحج .

وقال ابن عباس : هي الخيل ؛ ألا تراه يقول ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ فهل تثير إلا بحوافرها ! وهل تَضْبَحُ الإبل ! فقال علي : ليس كما قلت ، لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلا فرس أبلق للمقداد ، وفرس لمرثَد بن أبي مَرْثَد ؛ ثم قال له عليّ : أتفتِي الناس بما لا تعلم ! والله إن كانت لأوّل غزوة في الإسلام وما معنا إلا فرسان : فرس للمقداد ، وفرس للزُّبير ؛ فكيف تكون العادياتِ ضبحا ! إنما العادياتُ الإبل من عَرَفَة إلى المزدِلفة ، ومن المزدِلفة إلى عرفة .

قال ابن عباس : فرجعت إلى قول عليّ ، وبه قال ابن مسعود وعبيد بن عمير ومحمد بن كعب والسدّي .

ومنه قول صفِية بنت عبد المطلب :

فلا والعادياتِ غَداة جَمْعٍ . . .

بأيديها إذا سَطَع الغُبار

يعني الإبل .

وسميت العاديات لاشتقاقها من العدو ، وهو تباعد الأرجل في سرعة المشي .

وقال آخر :

(57/827)

رأى صاحبي في العادياتِ نَجيبةً . . .

وأمثالَها في الواضعاتِ القوامِس

ومن قال هي الإبل فقوله "ضبحا" بمعنى ضبعاً ؛ فالحاء عنده مبدلة من العين ؛ لأنه يقال :

ضبعت الإبل وهو أن تمد أعناقها في السير .

وقال المبرد : الضبع مدّ أضباعها في السير .

والضبح أكثر ما يستعمل في الخيل .

والضبع في الإبل .

وقد تبدل الحاء من العين .

أبو صالح : الضبح من الخيل : الحمحمة ، ومن الإبل التنفس .

وقال عطاء : ليس شيء من الدواب يَضْبَحُ إلا الفرس والثعلب والكلب ؛ وروي عن ابن عباس .

وقد تقدّم عن أهل اللغة أن العرب تقول : ضَبَح الثعلب ؛ وضبح في غير ذلك أيضاً .

قال تَوْبة :

ولو أَنَّ ليلى الأخيلية سَلَّمَتْ . . .

عَليَّ ودونِي تُرْبة وصفائح

لَسَلَّمْتُ تسليمَ البشاشةِ أَو زَقَا . . .

إليها صَدًى من جانب القبرِ ضابحُ

زقا الصدى يزقو زُقاء : أي صاح .

وكل زاقٍ صائح .

والزَّقْية : الصيحة .

﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ قال عكرمة وعطاء والضحاك : هي الخيل حين تُورِي النار بجوافرها ، وهي سنابكها ؛ وروي عن ابن عباس .

وعنه أيضاً : أورت بجوافرها غُباراً .

وهذا يخالف سائر ما روي عنه في قدح النار ؛ وإنما هذا في الإبل .

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ والعاديات ضَبْحاً * فالموريات قَدْحاً ﴾ قال : قال

ابن عباس : هو في القتال وهو في الحج .

ابن مسعود : هي الإبل تطأ الحصى ، فتخرج منها النار .

وأصل القدْحِ الاستخراج ؛ ومنه قدَحْت العين : إذا أخرجت منها الماء الفاسد .

واقتدحْت بالزند .

واقْتدَحْتُ المرق : غَرَفته .

ورَكِيّ قَدُوح : تغترف باليد .

والقَديح : ما يبقى في أسفل القِدر ، فيغرف بَجهد .

والمِقدحة : ما تُقْدَح به النار .

والقدّاحة والقدّاح : الحجر الذي يُوري النار .

يقال : ورَى الزند (بالفتح) يَرِي ورْياً : إذا خرجت ناره .

وفيه لغة أخرى : ورِي الزند (بالكسر) يَرِي فيهما .

وقد مضى هذا في سورة "الواقعة" .

و"قَدْحاً" انتصب بما انتصب به "ضَبْحاً" .

وقيل : هذه الآيات في الخيل ؛ ولكن إيراءها : أن تهيج الحرب بين أصحابها وبين عدوّهم .

ومنه يقال للحرب إذا التحمت : حَمِيَ الوَطِيسُ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ ﴾ [المائدة : 64] .

وروي معناه عن ابن عباس أيضاً ، وقاله قتادة .

وعن ابن عباس أيضاً : أن المراد بالمُوريات قَدْحاً : مَكْرُ الرجال في الحرب ؛ وقاله مجاهد وزيد بن أسلم .

والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه : والله لأمكُرَنَّ بك ، ثم لأُورِيَنَّ لك .

وعن ابن عباس أيضاً : هم الذين يغزُون فيُورون نيرانهم بالليل ، لحاجتهم وطعامهم .

وعنه أيضاً : أنها نيران المجاهدين إذا كثرت نارها إرهاباً .

وكل من قرب من العدوّ يُوقد نيراناً كثيرة ليظنهم العدوّ كثيراً .

فهذا إقسام بذلك .

قال محمد بن كعب : هي النار تجمع .

وقيل : هي أفكار الرجال تُورِي نار المكر والخديعة .

وقال عكرمة : هي ألسنة الرجال تُورِي النار من عظيم ما تتكلم به ، ويَظْهر بها ، من إقامة

الحُجج ، وإقامة الدلائل ، وإيضاح الحق ، وإبطال الباطل .

وروى ابن جُرِيج عن بعضهم قال : فالمُنجِحات أَمْرا وعملاً ، كنجاح الزند إذا أوري .

قلت : هذه الأقوال مجاز ؛ ومنه قولهم : فلان يُورِي زِناد الضلالة .

والأوّل : الحقيقة ، وأن الخيل من شِدّة عدوِها تقدح النار بحوافرها .

قال مقاتل : العرب تسمي تلك النار نار أبي حُباحِب ، وكان أبو حُباحِب شيخاً من مُضَر في الجاهلية ، من أبخل الناس ، وكان لا يُوقد نار الخبز ولا غيره حتى تنام العيون ، فيوقِد نُويرةً تقِد مرّة وتخمد أخرى ؛ فإن استيقظ لها أحد أطفأها ، كراهية أن ينتفع بها أحد .

فشبهت العرب هذه النار بناره ؛ لأنه لا يُنتفع بها .

وكذلك إذا وقع السيف على البيضة فاقتدحت ناراً ، فكذلك يسمونها .

قال النابغة :

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنّ سُيوفهم . . .

(59/827)

بهنّ فلولٌ مِن قِراع الكتائب

تَقُدّ السَّلُوقِيَّ المضاعَف نَسْجُه . . .

وتُوقِد بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3)

الخيل تغِير على العدو عند الصبح ؛ عن ابن عباس وأكثر المفسرين .

وكانوا إذا أرادوا الغارة سَرَوْا ليلاً ، ويأتون العدوّ صبحاً ؛ لأن ذلك وقت غفلة الناس .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَسَآءَ صَبَاحُ المنذرين ﴾ [الصافات : 177] .

وقيل : لعِزهم أغاروا نهاراً ، و"صُبْحاً" على هذا ، أي علانية ، تشبيهاً بظهور الصبح .

وقال ابن مسعود وعليّ رضي الله عنهما : هي الإبل تدفع بركبانها يوم النحر من مِنى إلى جَمْع .

والسنة ألا تَدْفع حتى تصبح ؛ وقاله القُرَظِيّ .

والإغارة : سرعة السير ؛ ومنه قولهم : أشرِقْ ثَبِير ، كيما نُغِير .

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4)

أي غباراً ؛ يعني الخيل تثير الغبار بشدّة العدو في المكان الذي أغارت به .

قال عبد الله بن رواحة :

عدِمْتُ بُنَيَّتي إن لم تَرَوْها . . .

تُثِير النَّقْعَ من كَنَفَيْ كَداءِ

والكناية في "به" ترجع إلى المكان أو إلى الموضع الذي تقع فيه الإغارة .

وإذا عُلِم المعنى جاز أن يكنى عما لم يجر له ذكر بالتصريح؛ كما قال: ﴿ حتى تَوَارَتْ بالحجاب ﴾ [ص: 32].

وقيل: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ ﴾، أي بالعَدْو ﴿ نَقْعاً ﴾.

وقد تقدّم ذكر العَدْو.

وقيل: النقع: ما بين مزدِلفة إلى مِنى؛ قاله محمد بن كعب القُرَظِيّ.

وقيل: إنه طريق الوادي؛ ولعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع.

وفي الصحاح: النقع: الغبار، والجمع: نِقاع.

والنقع: محبِس الماء، وكذلك ما اجتمع في البئر منه.

وفي الحديث: أنه نهى أن يمنع نقع البئر.

والنقع الأرض الحرّة الطين يستنقع فيها الماء؛ والجمع: نِقاع وأنقع؛ مثل بحر وبِحار وأبحر.

(60/827)

قلت: وقد يكون النقع رفع الصوت، ومنه حديث عمر حين قيل له: إن النساء قد اجتمعن يبكين على خالد بن الوليد؛ فقال: وما على نساء بني المغيرة أن يسفِكن من دموعهنّ وهنّ جلوس على أبي سليمان، ما لَمْ يكن نقْع ولا لَقْلَقَة.

قال أبو عبيد : يعني بالنقع رفع الصوت ؛ على هذا رأيت قول الأكثرين من أهل العلم ؛ ومنه قول لبيد :

فمتى ينقَعْ صُراخٌ صادِق . . .

يُحْلِبوها ذاتَ جَرْسٍ وزَجَل

ويروى "يَحْلِبوها" أيضاً .

يقول : متى سمعوا صراخاً أحلبوا الحرب ، أي جمعوا لها .

وقوله : "يَنْقع صُراخ" : يعني رفع الصوت .

وقال الكسائي : قوله "نقع ولا لقلقة" النقع : صنعة الطعام ؛ يعني في المَأْتَم .

يقال منه : نقعْتُ أنقَعُ نَقْعاً .

قال أبو عبيد : ذهب بالنقع إلى النَّقيعة ؛ وإنما النقيعة عند غيره من العلماء : صنعة الطعام عند القدوم من سفر ، لا في المأتم .

وقال بعضهم : يريد عمر بالنقع : وضع التراب على الرأس ؛ يذهب إلى أن النقع هو الغبار .

ولا أحسب عمر ذهب إلى هذا ، ولا خافه منهنّ ، وكيف يبلغ خوفه ذا وهو يكره لهنّ القيام .

فقال : يَسْفِكْنَ من دموعهنّ وهُنّ جلوس .

قال بعضهم : النقع : شق الجيوب ؛ وهو الذي لا أدري ما هو من الحديث ولا أعرفه ، وليس

النقع عندي في هذا الحديث إلا الصوت الشديد ، وأمّا اللقلقة : فشِدّة الصوت ، ولم أسمع فيه اختلافاً .

وقرأ أبو حَيْوة "فأَثَّرْنَ" بالتشديد ؛ أي أرت آثار ذلك .

ومن خفف فهو من أثار : إذا حرّك ؛ ومنه ﴿ وَأَثَارُواْ الأَرض ﴾ [الروم : 9] .

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5)

"جَمْعاً" مفعول ب"وَسَطْنَ" ؛ أي فوسطْن بركبانهن العدوّ ؛ أي الجمع الذي أغاروا عليهم .

وقال ابن مسعود : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ : يعني مُزْدلِفة ؛ وسميت جمعاً لاجتماع الناس .

ويقال : وسَطْتُ القوم أَسِطُهم وَسْطاً وسِطَةً ؛ أي صِرت وَسْطَهم .

(61/827)

وقرأ علي رضي الله عنه "فَوَسَّطْنَ" بالتشديد ، وهي قراءة قتادة وابن مسعود وأبي رجاء ؛ لغتان بمعنى ، يقال : وسَّطْتُ القوم (بالتشديد والتخفيف) وتَوَسَّطتُهُمْ : بمعنى واحد .

وقيل : معنى التشديد : جعلها الجمع قسمين .

والتخفيف : صِرْن في وسط الجمع ؛ وهما يرجعان إلى معنى الجمع .

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6)

هذا جواب القسم ؛ أي طبع الإنسان على كفران النعمة .

قال ابن عباس : ﴿ لَكَنُودٌ ﴾ لكفور جَحُود لنعم الله .

وكذلك قال الحسن .

وقال : يذكر المصائب وينسى النعم .

أخذه الشاعر فنظمه :

يا أَيُّهَا الظالمُ في فِعْلِه . . .

والظُّلْم مردود على مَنْ ظَلَمْ

إلى متى أَنْتَ وحَتَّى متى . . .

تشكو المُصيباتِ وتنسى النعم !

وروى أبو أُمامة الباهِلِيّ : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الكَنُود ، هو الذي يأكل وَحْدَه ، ويمنع رِفْده ، ويضرب عَبْدَه " وروى ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بشرارِكُمْ " ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .

قال : "من نَزَل وحدَه ، ومنع رِفْدَه ، وجَلَد عبدَه" " خرجهما الترمذي الحكيم في نوادر الأصول .

وقد روي عن ابن عباس أيضاً أنه قال : الكَنود بلسان كِندة وحضرموت : العاصي ،

وبلسان ربيعة ومضر : الكفور .

وبلسان كِنانة : البخيل السَّيّء المَلَكة ؛ وقاله مقاتل .

وقال الشاعر :

كَنودٌ لِنَعماء الرجالِ ومَنْ يكن . . .

كَنوداً لنعماء الرجال يُبَعَّدِ

أي كفور .

ثم قيل : هو الذي يكفر اليسير ، ولا يشكر الكثير .

وقيل : الجاحد للحق .

وقيل : إنما سميت كِنْدَة كِندة ، لأنها جحدتْ أباها .

وقال إبراهيم بن هَرْمَة الشاعر :

دعِ البخلاءَ إن شمخُوا وصَدُّوا . . .

وذِكرى بُخْلِ غانيةٍ كَنودِ

وقيل : الكَنود : من كَند إذا قطع ؛ كأنه يقطع ما ينبغي أنْ يواصله من الشكر .

ويقال : كَنَد الحبلَ : إذا قطعه .

قال الأعشى :

أَمِيطِي تُمِيطي بصُلْبِ الفؤادِ . . .

(62/827)

وَصُولِ حِبالٍ وكَنَّادِها

فهذا يدل على القطع .

ويقال : كَنَدَ يكْنِد كُنوداً : أي كفر النعمة وجحدها ، فهو كنود .

وامرأة كنود أيضاً ، وكُنُدٌ مِثله .

قال الأعشى :

أحدِث لها تحدِث لوصلك إنها . . .

كُنُد لوصلِ الزائر المعتادِ

أي كفور للمواصلة .

وقال ابن عباس : الإنسان هنا الكافر ؛ يقول إنه لكفور ؛ ومنه الأرض الكنود التي لا تنبت شيئًا .

وقال الضحاك : نزلت في الوليد بن المغيرة .

قال المبرد : الكنود : المانع لما عليه .

وأنشد لكثير :

أحدِثْ لها تُحْدِثْ لوصلك إنها . . .

كُنُدٌ لِوَصل الزائر المعتاد

وقال أبو بكر الواسطي : الكنود : الذي ينفق نعم الله في معاصي الله .

وقال أبو بكر الوراق : الكنود : الذي يرى النعمة من نفسه وأعوانه .

وقال الترمذي : الذي يرى النعمة ولا يرى المنعِم .

وقال ذو النون المصري : الهلوع .

والكنود : هو الذي إذا مسه الشر جزوع ، وإذا مسه الخير منوع .

وقيل : هو الحقود الحسود .

وقيل : هو الجهول لقدره .

وفي الحكمة : من جهِل قدره : هتك سِتره .

قلت : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود .

وقد فسر النبيّ صلى الله عليه وسلم معنى الكنود بخصال مذمومة ، وأحوال غير محمودة ؛ فإن صح فهو أعلى ما يقال ، ولا يبقى لأحد معه مقال .

وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7)

أي وإن الله عز وجل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد .

كذا روى منصور عن مجاهد ؛ وهو قول أكثر المفسرين ، وهو قول ابن عباس .

وقال الحسن وقتادة ومحمد بن كعب : "وإنه" أي وإن الإنسان لشاهد على نفسه بما يصنع ؛

ورُوِي عن مجاهد أيضاً .

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ أي الإنسان من غير خلاف .

﴿ لِحُبِّ الخير ﴾ أي المال ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْراً ﴾ [البقرة : 180] .

وقال عدِيّ :

ماذا تُرَجّي النفوسُ من طلبِ ال . . .

خَيْر وحُبُّ الحياةِ كارِبُها

﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ أي لقويّ في حبه للمال .

(63/827)

وقيل : "لشدِيد" لبخيل .

ويقال للبخيل : شديد ومتشدّد .

قال طَرَفة :

أَرَى الموتَ يعتامُ الكِرامَ ويَصْطَفِي . . .

عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدّدِ

يقال : اعتامه واعتماه ؛ أي اختاره .

والفاحِشُ : البخيل أيضاً .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَأْمُرُكُم بالفحشآء ﴾ [البقرة : 268] أي البخل .

قال ابن زيد : سمى الله المال خيرا ؛ وعسى أن يكون شراً وحراماً ؛ ولكن الناس يَعُدّونه خيراً ، فسمّاه الله خيراً لذلك .

وسمى الجهاد سُوءاً ، فقال : ﴿ فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء ﴾ [آل عمران : 174] على ما يسميه الناس .

قال الفرّاء : نظم الآية أن يقال : وإنه لشديد الحبّ للخير ؛ فلما تقدّم الحب قال : شديد ، وحذف من آخره ذكر الحب ؛ لأنه قد جرى ذكره ، ولرؤوس الآي ؛ كقوله تعالى : ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم : 18] ، والعُصُوف : للريح لا الأيام ، فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم ، طرح من آخره ذكر الريح ؛ كأنه قال : في يوم عاصِف الريح . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(64/827)

وقال الآلوسى :

﴿ والعاديات ﴾

الجمهور على أنه قسم لخيل الغزاة في سبيل الله تعالى التي تعدو أي تجري بسرعة نحو العدو واصل العاديات العادوات بالواو فقلت ياء لانكسار ما قبلها وقوله تعالى : ﴿ ضَبْحاً ﴾ مصدر منصوب بفعله المحذوف أي تضبح أو يضبحن ضبحا والجملة في موضع الحال وضبحها صوت أنفاسها عند عدوها وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس الخيل إذا عدت قالت احاح فذلك ضبحها وأخرج ابن جرير عن علي كرم الله تعالى وجهه الضبح من الخيل الحمحمة ومن الإبل التنفس وفي "البحر" تصويت جهير عند العدو الشديد ليس بصهيل ولا رغاء ولا نباح بل هو غير الصوت المعتاد من صوت الحيوان الذي ينسب هو إليه وعن ابن عباس ليس يضبح من الحيوان غير الخيل والكلاب ولا يصح عنه فإن العرب استعملت الضبح في الإبل والأسود من الحيات والبوم والأرنب والثعلب وربما تسنده إلى القوس أنشد أبو حنيفة في صفتها

: حنانة من نشم أو تالب . . .

تضبح في الكف ضباح الثعلب

وذكر بعضهم أن أصله للثعلب فاستعير للخيل كما في قول عنترة

: والخيل تكدح حين تض . . .

بح في حياض الموت ضبحا

وإنه من ضبحته النار غيرت لونه ولم تبالغ فيه ويقال الضبح لونه تغير إلى السواد قليلاً وقال أبو عبيدة الضبح وكذا الضبع بمعنى العدو الشديد وعليه قيل إنه مفعول مطلق للعاديات وليس هناك فعل مقدر وجوز على تفسيره بما تقدم أن يكون نصباً على المصدرية به أيضاً لكن باعتبار أن العدو مستلزم للضبح فهو في قوة فعل الضبح ويجوز أن يكون نصباً على الحال مؤولاً باسم الفاعل بناءً على أن الأصل فيها أن تكون غير جامدة أي والعاديات ضابحات .

(65/827)

﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ الإيراء إخراج النار والقدح هو الضرب والصك المعروف يقال قدح فأوري إذا أخرج النار وقدح فاصلد إذا قدح ولم يخرجها والمراد بها الخيل أيضاً أي فالتي توري النار من صدم حوافرها للحجارة وتسمى تلك النار نار الحباحب وهو اسم رجل بخيل كان لا يوقد إلا ناراً ضعيفة مخافة الضيفان فضربوا بها المثل حتى قالوا ذلك لما تقدحه الخيل بحوافرها والإبل بإخفافها وانتصاب قدحاً كانتصاب ﴿ ضبحاً ﴾ على ما

تقدم وجوز كونه على التمييز المحول عن الفاعل أي فالموري قدحها ولعله أميز وأبعد عن القدح وعن قتادة الموريات مجاز في الخيل توري نار الحرب وتوقدها وهو خلاف الظاهر .

﴿ فالمغيرات ﴾ من أغار على العدو هجم عليه بغتة بخيله لنهب أو قتل أو اسار فالإغارة صفة أصحاب الخيل وإسنادها إليها إما بالتجوز فيه أو بتقدير المضاف والأصل فالمغير أصحابها أي فالتي يغير أصحابها العدو عليها وقيل بسببها ﴿ صُبْحاً ﴾ أي في وقت الصبح فهو نصب على الظرفية وذلك هو المعتاد في الغارات كانوا يعدون ليلاً لئلا يشعر بهم العدو ويهجمون صباحاً ليروا ما يأتون وما يذرون وكانوا يتحمسون بذلك ومنه قوله

: قومي الذين صبحوا الصباحا . . .

يوم النخيل غارة ملحاحا

(66/827)

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ ﴾ من الإثارة وهي التهييج وتحريك الغبار ونحوه والأصل أثورن نقلت حركة الواو إلى ما قبلها وقلبت ألفاً وحذفت لاجتماع الساكنين والفعل عطف على الاسم قبله وهو ﴿ العاديات ﴾ أو ما بعده لأنه اسم فاعل وهو في معنى الفعل خصوصاً إذا وقع صلة

فكأنه قيل فاللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن ولا شذوذ في مثله لأن الفعل تابع فلا يلزم دخول أل عليه ولا حاجة إلى أن يقال هو معطوف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه والحكمة في مجىء هذا فعلاً بعد اسم فاعل على ما قال ابن المنير تصوير هذه الأفعال في النفس فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة وكذلك التصوير بالمضارع بعد المضارع كقول ابن معد يكرب

: بأني قد لقيت الغول يهوى . . .

بشهب كالصحيفة صحصحان فآخذه فأضربه فخرت

صريعاً لليدين وللجران . . .

وخص هذا المقام من الفائدة على ما قال الطيبي : إن الخيل وصفت بالأوصاف الثلاثة ليرتب عليها ما قصد من الظفر بالفتح فجىء بهذا الفعل الماضي وما بعده مسببين عن أسماء الفاعلين فأفاد ذلك أن تلك المداومة أنتجت هاتين البغيتين ويفهم منه أن الفاء لتفريع ما بعدها عما قبلها وجعله مسبباً عنه وسيأتي الكلام فيها قريباً إن شاء الله تعالى وضمير به للصبح والباء ظرفية أي فهيجن في ذلك الوقت ﴿ نَقْعاً ﴾ أي غباراً وتخصيص إثارته بالصبح لأنه لا يثور أولاً يظهر ثورانه بالليل وبهذا يظهر أن الإيراء الذي لا يظهر في النهار واقع في الليل وفي ذكر إثارة الغبار إشارة بلا غبار إلى شدة العدو وكثرة الكر والفر وكثيراً ما

يشيرون به إلى ذلك ومنه قول ابن رواحة

: عدمت بنيتي إن لم تروها . . .

تثير النقع من كنفي كداء

وقال أبو عبيدة النقع رفع الصوت ومنه قول لبيد

: فمتى ينقع صراخ صادق . . .

يحلبوه ذات جرس وزجل

وقول عمر رضي الله تعالى عنه وقد قيل له يوم توفي خالد بن الوليد أن النساء قد اجتمعن يبكين على خالد ما على نساء بني المغيرة أن يسفكن على أبي سليمان دموعهن وهن جلوس ما لم يكن نقع ولا لقلقة والمعنى عليه فهيجن في ذلك الوقت صياحاً وهو صياح من هجم عليه وأوقع به والمشهور المعنى الأول وجوز كون ضمير به للعدو الدال عليه العاديات أو للإغارة الدال عليها المغيرات والتذكير لتأويلها بالجري ونحوه والباء للسببية أو للملابسة وجوز كونها ظرفية أيضاً والضمير للمكان الدال عليه السياق والأول أظهر وألطف ومثله ضمير به في قوله عز وجل :

﴿ فَوَسَطْنَ ﴾ ﴿ بِهِ ﴾ أي فتوسطن في ذلك الوقت ﴿ جَمْعاً ﴾ من جموع الأعداء وجوز فيه وفي بائه نحو ما تقدم في ﴿ به ﴾ قبله وجوز أيضاً كون الضمير للنقع والباء للملابسة أي فتوسطن ملتبسات بالنقع جمعاً أو هي على ما قيل للتعدية إن أريد أنها وسطت الغبار والفاآت كما في "الإرشاد" للدلالة على ترتيب ما بعد كل منها على ما قبله فتوسط الجمع مترتب على الإثارة المترتبة على الإيراء المترتب على العدو وقرأ أبو حيوة وابن أبي ليلى الأول : كالجمهور والثاني : كذين والمعنى على تشديد الأول فأظهرن به غباراً لأن التأثير فيه معنى الإظهار وعلى تشديد الثاني على نحو ما تقدم فقد نقلوا أن وسط مخففاً ومثقلاً بمعنى واحد وأنهما لغتان وقال ابن جني : المعنى ميزن به جمعاً أي جعلنه شطرين أي قسمين وشقين وقال الزمخشري التشديد فيه للتعدية والباء مزيدة للتأكيد كما في قوله تعالى ﴿ وأوتوا به ﴾ [البقرة : 25] في قراءة وهي مبالغة في وسطن وجوز أن يكون قلب ثورن إلى وثرن ثم قلبت الواو همزة فالمعنى على ما مر وهو تمحل مستغنى عنه.

وعن السدي ومحمد بن كعب وعبيد بن عمير أنهم قالوا العاديات هي الإبل تعدو ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى ونسب إلى علي كرم الله تعالى وجهه فقد أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في كتاب الأضداد وابن مردويه والحاكم وصححه عن ابن عباس قال بينما أنا في الحجر جالس إذ أتاني رجل فسألني عن العاديات ضبحاً فقلت الخيل حين تغير في سبيل الله تعالى ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم فانفتل عني فذهب إلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وهو جالس تحت سقاية زمزم فسأله عن العاديات ضبحاً فقال سألت عنها أحداً قبلي قال نعم سألت عنها ابن عباس فقال هي الخيل حين تغير في سبيل الله تعالى فقال اذهب فادعه لي فلما وقفت على رأسه قال تفتي الناس بما لا علم لك به والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام لبدر وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود فكيف تكون العاديات ضبحا إنما العاديات ضبحا الإبل تعد من عرفة إلى المزدلفة فإذا أووا إلى المزدلفة أوروا النيران والمغيرات صبحاً من المزدلفة إلى منى فذلك جمع وأما قوله تعالى: ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ فهو نقع الأرض حين تطؤها بخفافها قال ابن عباس فنزعت عن قولي إلى قول علي كرم الله تعالى وجهه ورضي الله تعالى عنه واستشكل رده كرم الله تعالى وجهه كون المراد بها الخيل بما كان من أمر غزوة بدر بأن ابن عباس لم يدع أن أل في العاديات للعهد وأنها إشارة إلى عاديات بدر ولا أن السورة نزلت في شأن تلك الغزوة ليلزم تحقق ذلك فيها ودخولها تحت العموم بل

ظاهر كلامه حمل ذلك على جنس الخيل التي تعدو في سبيل الله عز وجل وإن حملت على العهد وقيل أن المعهود هو الخيل التي بعثها عليه الصلاة والسلام للغزو على ما سمعت صدر السورة وكذا على ما روي من أنه عليه الصلاة والسلام بعث إلى أناس من بني كنانة سرية واستعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصاري وكان أحد

النقباء فأبطأ عليه صلى الله عليه وسلم خبرها شهراً فقال المنافقون أنهم قتلوا فنزلت السورة إخباراً له عليه الصلاة والسلام بسلامتها وبشارة له صلى الله عليه وسلم بإغارتها على القوم لم يعد وأجيب بأنه كرم الله تعالى وجهه أراد أن غزوة بدر هي أفضل غزوات الإسلام وبدرها الذي ليس فيه انثلام فيتعين أن لا تكون المراد ذلك ويسلك في الآية ما يناسبها من المسالك ولا يخفى أن هذا الجواب لا يتحمل لمزيد ضعفه الإغارة عليه وإطلاق أعنة عاديات الأفكار إليه والأحرى أن الخبر لا صحة له وتصحيح الحاكم محكوم عليه عند أهل الأثر بكثرة التساهل فيه وأنه غير معتبر ثم أن النقل عنه رضي الله تعالى عنه في المراد بالعاديات متعارض فما تقدم أنه إبل الحجاج ونقل صاحب التأويلات أنه كرم الله تعالى وجهه فسرها بإبل بدر وأن ابن مسعود هو الذي فسرها بإبل الحجاج ويرجح إرادة الخيل

أن إثارة النقع فيها أظهر منها في الإبل ثم إن ذلك الخبر يقتضي أن للقسم به نوعان الخيل والإبل وجماعة الغزاة أو الحجاج الموقدة نارا لطعامها أو نحوه وفي بعض الآثار عن ابن عباس ما هو أصرح مما تقدم في تفسير الموريات بما يغاير العاديات بالذات ففي "البحر" عنه أنها الجماعة التي توري نارها بالليل لحاجتها وطعامها وفي رواية أخرى عنه تلك جماعة الغزاة تكثر النار إرهابا وروريت المغايرة عن آخرين أيضا فعن مجاهد وزيد بن أسلم وهي رواية أخرى عن ابن عباس هي الجماعة تمكر في الحرب فالعرب تقول إذا أرادت المكر بالرجل والله لأورين له ومن الغريب ما روي عن عكرمة أنها ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما يتكلم به ويظهر من الحجج والدلائل وإظهار الحق وإبطال الباطل وهو كما ترى.

(70/827)

وهو من البطون والإشارات أن يكون المقسم به النفوس العادية أثر كما لهن الموريات بأفكارهن أنوار المعارف والمغيرات على الهوى والعادات إذا ظهر لهن مثل أنوار القدس فأثرن به شوقا فوسطن بذلك الشوق جمعا من جموع العليين ومثله ما قيل إن ذلك قسم بالهمم القالبية التي تعدو في سبيل الله تعالى خارجا من جوف اشتياقها صوت الدعاء من شدة العدو وغاية الشوق بحيث يسمع الروحانيون ضجيج دعائها وتضرعها والتماسها

تسهيل سلوك الطريق الوعر الذي يتعلق بجبال القالب الموريات بحوافر الذكر نار الهداية المستكنة في حجر القالب وقت تخمير اللطيفة والمغيرات بعد سلوكها في جبال القالب الراسية في ظلام الليل القالبي وعبورها عنها إلى أفق عالم النفس وتنفس صبح النفس على الخواطر النفسية وشؤونها فهيجن بذلك الجري غبار الخواطر وأثرنه لئلا يختفي خاطر من الخواطر فوسطن بذلك جمعاً من جنود القوى القلبية وحزب الخواطر الذكرية التي هي حزب الرحمن في وسط عالم النفس ولهم في هذا الباب غير ذلك وأياً ما كان فالمقسم عليه قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الإنسان لِرَبّهِ لَكَنُودٌ ﴾ أي لكفور جحود من كند النعمة كفرها ولم يشكرها

وأنشدوا

: كنود لنعماء الرجال ومن يكن . . .

كنوداً لنعماء الرجال يبعد

(71/827)

وعن ابن عباس ومقاتل الكنود بلسان كندة وحضرموت العاصي وبلسان ربيعة ومضر الكفور وبلسان كنانة البخيل السيء الملكة ومنه الأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً وقال

الكلبي نحوه إلا أنه قال وبلسان بني مالك البخيل ولم يذكر حضرموت بل اقتصر على كندة وتفسيره بالكفور هنا مروى عن ابن عباس والحسن وأخرجه ابن عساكر عن أبي أمامة مرفوعاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية أخرى عن الحسن أنه قال هو اللائم لربه عز وجل يعد السيآت وينسى الحسنات وروى الطبراني وغيره بسند ضعيف عن أبي أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتدرون ما الكنود قالوا الله تعالى ورسوله أعلم قال هو الكفور الذي يضرب عبده ويمنع رفده ويأكل وحده " وأخرج البخاري في الأدب المفرد والحكيم الترمذي وغيرهما تفسيره بالذي يمنع رفده وينزل وحده ويضرب عبده موقوفاً على أبي أمامة والجمهور على تفسيره بالكفور وكل مما ذكر لا يخلو عن كفران والكفران المبالغ فيه يجمع صنوفاً منه وأل في الإنسان للجنس والحكم عليه بما ذكر باعتبار بعض الأفراد وقيل المراد به كافر معين لما روي عن ابن عباس أنها نزلت في قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي وأيد بقوله تعالى بعد : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾ [العاديات : 9] الخ لأنه لا يليق إلا بالكافر وفي الأمرين نظر وقيل المراد به كل الناس على معنى أن طبع الإنسان يحمله على ذلك إلا إذا عصمه الله تعالى بلطفه وتوفيقه من ذلك واختاره عصام الدين وقال فيه مدح للغزاة لسعيهم على خلاف طبعهم .

ولربه متعلق بكنود واللام غير مانعة من ذلك وقدم للفاصلة مع كونه أهم من حيث إن الذم

البالغ إنما هو على كنود نعمته عز وجل وقيل للتخصيص على سبيل المبالغة .

وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7)

(72/827)

﴿ وإِنَّهُ ﴾ أي الإنسان كما قال الحسن ومحمد بن كعب ﴿ على ذلك ﴾ أي على كنوده ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ لظهور أثره عليه فالشهادة بلسان الحال الذي هو أفصح من لسان المقال وقيل هي بلسان المقال لكن في الآخرة وقيل شهيد من الشهود لا من الشهادة بمعنى أنه كفور مع علمه بكفرانه وعمل السوء مع العلم به غاية المذمة والظاهر الأول وقال ابن عباس وقتادة ضمير أنه عائد على الله تعالى أي وأن ربه سبحانه شاهد عليه فيكون الكلام على سبيل الوعيد واختاره التبريزي فقال هو الأصح لأن الضمير يجب عوده إلى أقرب مذكور قبله وفيه أن الوجوب ممنوع واتساق الضمائر وعدم تفكيكها يرجح الأول فإن الضمير السابق أعني ضمير ﴿ لربه ﴾ للإنسان ضرورة وكذا الضمير اللاحق أعني الضمير في قوله تعالى :

(73/827)

﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ ﴾ أي المال وورد بهذا المعنى في القرآن كثيراً حتى زعم عكرمة أن الخير حيث وقع في القرآن هو المال وخصه بعضهم بالمال الكثير وفسر به في قوله تعالى: ﴿ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ ﴾ [البقرة: 180] وإطلاق كونه خيراً باعتبار ما يراه الناس وإلا فمنه ما هو شر يوم القيامة واللام للتعليل أي أنه لأجل حب المال ﴿ عَذَابٞ لَشَدِيدٌ ﴾ أي لبخيل كما قيل وكما يقال للبخيل شديد يقال له متشدد كما في قول طرفة ﴿ : أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد ﴾ وشديد فيه يجوز أن يكون بمعنى مفعول كأن البخيل شد عن الافضال ويجوز أن يكون بمعنى فاعل كأنه شد صرته فلا يخرج منها شيئاً وجوز غير واحد أن يراد بالشديد القوي ولعله الأظهر وكان اللام عليه بمعنى في أي وأنه لقوي مبالغ في حب المال والمراد قوة حبه له وقال الزمخشري المعنى وأنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوي مطيق وهو لحب عبادة الله تعالى وشكر نعمته سبحانه ضعيف متقاعس تقول هو شديد لهذا الأمر وقوي له إذا كان مطيقاً له ضابطاً وجعل النيسابوري اللام على هذا التعليل وليس بظاهر فتأمل وقال الفراء يجوز أن يكون المعنى وأنه لحب الخير لشديد الحب يعني أنه يحب المال ويحب كونه محباً له إلا أنه اكتفى بالحب الأول عن الثاني كما قال تعالى: ﴿ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم: 18] أي في يوم عاصف الريح فاكتفى بالأولى عن الثانية وقال قطرب أي أنه شديد لحب الخير كقولك أنه

لزيد ضروب في أنه ضروب لزيد وظاهر لتمثيل أنه اعتبر حب الخير مفعولاً به لشديد وإن شديد اسم فاعل جيء به على فعيل للمبالغة وإن اللام في لحب للتقوية وفيه ما فيه وقيل يجوز أن يعتبر أن شديداً صفة مشبهة كانت مضافة إلى مرفوعها وهو حب المضاف إلى الخير إضافة المصدر إلى مفعوله ثم حول الإسناد وانتصب المرفوع على التشبيه بالمفعول به ثم قدم وجر باللام وفيه مع قطع

(74/827)

النظر عن التكلف أن تقدم معمول الصفة عليها لا يجوز وكونه مجروراً في مثل ذلك لا يجدي نفعاً إذ ليس هو فيه نحو زيد بك فرح كما لا يخفى ويفهم من كلام الزمخشري في "الكشاف" جواز أن يراد به ما هو عنده تعالى من الطاعات على أن المعنى أنه لحب الخيرات غير هش منبسط ولكنه شديد منقبض. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(75/827)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) ﴾

أقسم الله بـ ﴿ العاديات ﴾ جمع العادية ، وهو اسم فاعل من العَدْو وهو السيْر السريع يطلق على سير الخيل والإبل خاصة .

وقد يوصف به سير الإنسان وأحسب أنه على التشبيه بالخيل ومنه عَدَّاؤو العرب ، وهم أربعة : السُّلَيْك بن السُّلَكَة ، والشَّنْفَرى ، وتَأَبَّط شَرّاً ، وعَمْرو بن أمية الضَّمْري .

يضرب بهم المثل في العَدْو .

وتأنيث هذا الوصف هنا لأنه من صفات ما لا يعقل .

والضَّبح : اضطراب النفَس المتردد في الحنجرة دون أن يخرج من الفم وهو من أصوات الخيل والسباع .

وعن عطاء : سمعت ابن عباس يصف الضبح أحْ أحْ .

وعن ابن عباس ليس شيء من الدواب يضبح غير الفرس والكلْب والثعلب ، وهذا قول أهل اللغة واقتصر عليه في "القاموس" .

روى ابن جرير بسنده إلى ابن عباس قال : "بينما أنا جالس في الحِجْر جاءني رجل فسألني عن ﴿ العاديات ضبحاً ﴾ فقلت له : الخيل حين تغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويُورون نارهم ، فانفتل عني فذهب إلى علي بن أبي طالب وهو تحت

سِقاية زمزم فسأله عنها ، فقال : سألتَ عنها أحداً قبلي ؟ قال : نعم ، سألتُ ابن عباس فقال : الخيل تغزو في سبيل الله ، قال : اذهب فادعُه لي ، فلما وقفتُ عند رأسه .

قال : تُفتي الناس بما لا علم لك به واللهِ لَكانتْ أول غزوة في الإسلام لبدر وما كان معَنا إلا فَرسَان فرسٌ للزبير وفرس للمِقداد فكيف تكون العاديات ضَبحا ، إنما العاديات ضَبحا الإبل من عَرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى (يعني بذلك أن السورة مكية قبل ابتداء الغزو الذي أوله غزوة بدر) قال ابن عباس : فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال علي" .

وليس في قول علي رضي الله عنه تصريح بأنها مكية ولا مدنية وبمثل ما قال علي قَال ابن مسعود وإبراهيمُ ومجاهد وعُبيد بن عمير .

والضبح لا يطلق على صوت الإبل في قول أهل اللغة .

(76/827)

فإذا حمل ﴿ العاديات ﴾ على أنها الإبل ، فقال المبرد وبعض أهل اللغة : من جعلها للإبل جعل ﴿ ضبحا ﴾ بمعنى ضَبعا ، يقال : ضبحت الناقة في سيرها وضبَعت ، إذا مدت ضبعيها في السير .

وقال أبو عبيدة : ضبحت الخيل وضبعت ، إذا عَدَت وهو أن يمد الفرس ضبعيه إذا عدا ، أي فالضبح لغة في الضبع وهو من قلب العين حاء .

قال في "الكشاف" : "وليس بثبت" .

ولكن صاحب "القاموس" اعتمده .

وعلى تفسير ﴿ العاديات ﴾ بأنها الإِبل يكون الضبح استعير لصوت الإِبل ، أي من شدة العدو قويت الأصوات المتردّدة في حناجرها حتى أشبهت ضبح الخيل أو أريد بالضبح الضبع على لغة الإِبدال .

وانتصب ﴿ ضبحاً ﴾ فيجوز أن يجعل حالاً من ﴿ العاديات ﴾ إذا أريد به الصوت الذي يتردد في جوفها حين العدو ، أو يجعل مبيناً لنوع العدو إذا كان أصله : ضبحا .

وعلى وجه أن المقسم به رواحل الحج فالقَسم بها لتعظيمها بما تُعين به على مناسك الحج .

واختير القسم بها لأن السامعين يوقنون أن ما يقسم عليه بها محقق ، فهي معظمة عند الجميع من المشركين والمسلمين .

والموريات : التي توري ، أي توقد .

والقَدْح : حكّ جسم على آخر ليقدح ناراً ، يقال : قدح فأورى .

وانتصب ﴿ قدحا ﴾ على أنه مفعول مطلق مُؤكّد لعامله .

وكل من سنابك الخيل ومناسم الإِبل تقدح إذا صَكّت الحجر الصّوّان ناراً تسمى نار

الحُباحب ، قال الشنفرى يشبِّه نفسه في العدو ببعير :

إذا الأمْعَز الصَّوَّان لاقى مَناسمي

تَطَاَير منه قادح ومُفَلَّل . . .

وذلك كناية عن الإمعان في العدو وشدة السرعة في السير .

ويجوز أن يراد قَدح النيرَان بالليل حين نزولهم لحاجتهم وطعامهم ، وجُوز أن يكون ﴿ الموريات قدحاً ﴾ مستعار لإثارة الحرب لأن الحرب تشبَّه بالنار .

(77/827)

قال تعالى : ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها اللَّه ﴾ [المائدة : 64] ، فيكون ﴿ قدحاً ﴾ ترشيحاً لاستعارة ﴿ الموريات ﴾ ومنصوباً على المفعول المطلق ل ﴿ الموريات ﴾ وجُوز أن يكون ﴿ قدحاً ﴾ بمعنى استخراج المرق من القِدر في القداح لإطعام الجيش أو الركْب ، وهو مشتق من اسم القَدَح ، وهو الصحفة فيكون ﴿ قدحاً ﴾ مصدراً منصوباً على المفعول لأجله .

والمغيرات : اسم فاعل من أغار ، والإغارة تطلق على غزو الجيش داراً وهو أشهر إطلاقها فإسناد الإغارة إلى ضمير ﴿ العاديات ﴾ مجاز عقلي فإن المغيرين راكبوها

ولكن الخيل أو إبل الغزو أسباب للإغارة ووسائل .

وتطلق الإغارة على الاندفاع في السير .

و ﴿ صبحاً ﴾ ظرف زمان فإذا فسر "المغيرات" بخيل الغزاة فتقييد ذلك بوقت الصبح لأنهم كانوا إذا غزوا لا يغيرون على القوم إلا بعد الفجر ولذلك كان مُنذر الحَيّ إذا أنذر قومه بمجيء العدوّ نادى : يا صَبَاحاه ، قال تعالى : ﴿ فإذا نَزَل بساحتهم فساء صباح المنذرين ﴾ [الصافات : 177] .

وإذا فسر "المغيرات" بالإبل المسرعات في السير ، فالمراد : دفعها من مزدلفة إلى منى صباحَ يوم النحر وكانوا يدفعون بكرة عندما تُشرق الشمس على ثبير ومن أقوالهم في ذلك : "أشْرِق ثَبير كيما نغير" .

"وأثَرنَ به نقعاً" : أصعَدْن الغبار من الأرض من شدة عدْوِهن ، والإِثارة : الإِهاجة ، والنقع : الغبار .

والباء في ﴿ به ﴾ يجوز أن تكون سببية ، والضمير المجرور عائد إلى العَدْوِ المأخوذ من ﴿ العاديات ﴾ .

ويجوز كون الباء ظرفية والضمير عائداً إلى ﴿ صبحاً ﴾ ، أي أثرن في ذلك الوقت وهو وقت إغارتها .

ومعنى : "وسَطْن" : كُنَّ وسط الجمع ، يقال : وسط القومَ ، إذا كان بينهم .

و﴿ جمعاً ﴾ مفعول : "وسَطْن" وهو اسم لجماعة الناس ، أي صِرْن في وسط القوم المغزوون .

(78/827)

فأما بالنسبة إلى الإبل فيتعين أن يكون قوله : ﴿ جمعاً ﴾ بمعنى المكان المسمى ﴿ جمعاً ﴾ وهو المزدلفة فيكون إشارة إلى حلول الإبل في مزدلفة قبل أن تغير صبحاً منها إلى عرفة إذ ليس ثمة جماعة مستقرة في مكان تصل إليه هذه الرواحل .

ومن بديع النظم وإعجازه إيثار كلمات "العاديات وضبحاً والموريات وقدحا ، والمغيرات وصبحاً ، ووسطن وجمعاً" دون غيرها لأنها برشقاتها تتحمل أن يكون المقسم به خيل الغزو ورواحل الحج .

وعطفت هذه الأوصاف الثلاثة الأولى بالفاء لأن أسلوب العرب في عطف الصفات وعطف الأمكنة أن يكون بالفاء وهي للتعقيب ، والأكثر أن تكون لتعقيب الحصول كما في هذه الآية ، وكما في قول ابن زَيَّابة :

يا لهفَ زَيَّابةَ للحارثِ الصَّ

ابح فالغانم فالآيب . . .

وقد يكون لمجرد تعقيب الذِّكر كما في سورة الصافات.

والفاء العاطفة لقوله: ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ عاطفة على وصف "المغيرات".

والمعطوف بها من آثار وصف المغيرات.

وليست عاطفة على صفة مستقلة مثل الصفات الثلاث التي قبلها لأن إثارة النقع وتوسط الجمع من آثار الإِغارة صُبحاً، وليسا مُقْسماً بهما أصالةً وإنما القَسم بالأوصاف الثلاثة الأولى.

فلذلك غُير الأسلوب في قوله: ﴿ فأثرن به نقعاً فوسطن به جمعاً ﴾ فجيء بهما فعلين ماضيين ولم يأتيا على نسق الأوصاف قبلهما بصيغة اسم الفاعل للإِشارة إلى أن الكلام انتقل من القَسَم إلى الحكاية عن حصول ما تَرَتَّبَ على تلك الأوصاف الثلاثة ما قُصد منها من الظفَر بالمطلوب الذي لأجله كان العَدو والإِيراء والإِغارة عقبه وهي الحُلول بدار القوم الذين غزَوهم إذا كان المراد بـ ﴿ العاديات ﴾ الخيل، أو بلوغ تُمام الحج بالدفع عن عرفة إذا كان المراد بـ ﴿ العاديات ﴾ رواحل الحجيج، فإن إثارة النقع يشعرون بها عند الوصول حين تقف الخيل والإِبل دفعة، فتثير أرجلها نقعاً شديداً فيما بينهما، وحينئذ تتوسطن الجمع من الناس.

وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون المراد بقوله : ﴿ جمعاً ﴾ اسم المزدلفة حيث المشعر الحرام .

ومناسبة القسم بهذه الموصوفات دون غيرها إن أريد رواحل الحجيج وهو الوجه الذي فسر به علي بن أبي طالب هو أن يصدّق المشركون بوقوع المقسم عليه لأن القسم بشعائر الحج لا يكون إلا باراً حيث هم لا يصدقون بأن القرآن كلام الله ويزعمونه قول النبي صلى الله عليه وسلم

وإن أريد بـ ﴿ العاديات ﴾ وما عطف عليها خيل الغزاة ، فالقسم بها لأجل التهويل والترويع لإِشعار المشركين بأنَّ غارة تترقبهم وهي غزوة بدر ، مع تسكين نفس النبي صلى الله عليه وسلم من التردد في مصير السرية التي بعث بها مع المُنذر بن عَمْرو إذا صحّ خبرها فيكون القسم بخصوص هذه الخيل إدماجاً للاطمئنان .

وجملة : ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ جواب القسم .

والكَنود : وصف من أمثلة المبالغة من كَند ولغات العرب مختلفة في معناه فهو في لغة مضر وربيعةَ : الكفور بالنعمة ، وبلغة كنانة : البخيل ، وفي لغة كِندة وحضرموت : العاصي .

والمعنى : لشديد الكفران لله .

والتعريف في ﴿ الإنسان ﴾ تعريف الجنس وهو يفيد الاستغراق غالباً ، أي أن في طبع

الإنسان الكُنود لربه ، أي كفرانَ نعمته ، وهذا عارض يعرض لكل إنسان على تفاوتٍ فيه ولا يسلم منه إلا الأنبياء وكُمَّل أهل الصلاح لأنه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه وهو أمر في الجبلة لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكّرُ حق غيره .

وبذلك قد يذهل أو ينسَى حق الله ، والإِنسان يحس بذلك من نفسه في خطراته ، ويتوانى أو يغفل عن مقاومته لأنه يشتغل بإرضاء داعية نفسه والأنفس متفاوتة في تمكن هذا الخُلق منها ، والعزائم متفاوتة في استطاعة مغالبته .

(80/827)

وهذا ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد ﴾ فلذلك كان الاستغراق عرفياً أو عامّاً مخصوصاً ، فالإِنسان لا يخلو من أحوال مآلها إلى كفران النعمة ، بالقول والقصد ، أو بالفعل والغفلة ، فالإِشراك كنود ، والعِصيان كنود ، وقِلة ملاحظة صَرف النعمة فيما أعطيت لأجله كنود ، وهو متفاوت ، فهذا خلق متأصل في الإِنسان فلذلك أيقظ الله له الناس ليَريضوا أنفسهم على أمانة هذا الخلق من نفوسهم كما في قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾ [المعارج : 19] وقوله : ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ [الأنبياء : 37] وقوله : ﴿ إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى ﴾ [العلق :

6 ، 7] وقد تقدمت قريباً .

وعن ابن عباس : تخصيص الإنسان هنا بالكافر فهو من العموم العرفي .

وروي عن أبي أمامة الباهلي بسند ضعيف قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الكنود هو الذي يأكل وحْدَه ويمنع رفده ويضْرب عبده " وهو تفسير لأدنى معاني الكنود فإن أكله وحده ، أي عدم إطعامه أحداً معه ، أو عدم إطعامه المحاويج إغضاء عن بعض مراتب شكر النعمة ، وكذلك منعه الرفد ، ومثله : ضربه عبده فإن فيه نسياناً لشكر الله الذي جعل العبد ملكاً له ولم يجعله ملكاً للعبد فيدل على أن ما هو أشد من ذلك أولى بوصف الكَنود .

وقيل التعريف في ﴿ الإنسان ﴾ للعهد ، وأن المراد به الوليد بن المغيرة ، وقيل : قرطة بن عبد عمرِو بن نوفل القرشي .

واللام في ﴿ لربه ﴾ لام التقوية لأن (كَنود) وصف ليس أصيلاً في العمل ، وإنما يتعلق بالمعمولات لمشابهته الفعل في الاشتقاق فيكثر أن يقترن مفعوله بلام التقوية ، ومع تأخيره عن معموله .

وتقديم ﴿ لربه ﴾ لِإفادة الاهتمام بمتعلق هذا الكنود لتشنيع هذا الكنود بأنه كنود للرب الذي هو أحق الموجودات بالشكر وأعظم ذلك شرك المشركين ، ولذلك أكد الكلام بلام الابتداء الداخلة على خبر (إنَّ) للتعجيب من هذا الخبر .

وتقديم ﴿ لربه ﴾ على عامله المقترن بلام الابتداء وهي من ذوات الصدر لأنهم يتوسعون في المجرورات والظروف ، وابنُ هشام يرى أن لام الابتداء الواقعة في خبر (إنَّ) ليست بذات صدارة .

وضمير ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ عائد إلى الإنسان على حسب الظاهر الذي يقتضيه اتساق الضمائر واتحاد المتحدث عنه وهو قول الجمهور .

والشهيد : يطلق على الشاهد وهو الخبر بما يُصدِّق دعوى مدع ، ويطلق على الحاضر ومنه جاء إطلاقه على العالم الذي لا يفوته المعلوم ، ويطلق على المقر لأنه شهد على نفسه .

والشهيد هنا : إما بمعنى المقر كما في "أشْهد أن لا إله إلا الله" .

والمعنى : أن الإنسان مقر بكنوده لربه من حيث لا يقصد الإقرار ، وذلك في فلتات الأقوالِ مثل قول المشركين في أصنامهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى اللَّه زلفى ﴾ [الزمر : 3] .

فهذا قول يلزمه اعترافهم بأنهم عبدوا ما لا يستحق أن يُعبد وأشركوا في العبادة مع المستحق للانفراد بها ، أليس هذا كنوداً لربهم ، قال تعالى : ﴿ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ [الأنعام : 130] ، وفي فلتات الأفعال كما يعرض للمسلم في المعاصي .

والمقصود من هذه الجملة تفظيع كنود الإنسان بأنه معلوم لصاحبه بأدنى تأمل في أقواله وأفعاله.

وعلى هذا فحرف ﴿ على ﴾ متعلق ب"شهيد" واسم الإِشارة مُشار به إلى الكُنود المأخوذ من صفة "كَنود".

ويجوز أن يكون "شهيد" بمعنى (عليم) كقول الحارث بن حِلِّزة في عمرو بن هند:

وهو الربُّ والشهيدُ على يَوْ

م الخيَارَيْنِ والبَلاء بَلاء . . .

(82/827)

ومتعلق "شهيد" محذوفاً دلّ عليه المقام، أي عليم بأن الله ربه، أي بدلائل الربوبية، ويكون قوله: ﴿ على ذلك ﴾ بمعنى: مع ذلك، أي مع ذلك الكُنود هو عليم بأنه ربه مستحق للشكر والطاعة لا للكنود، فحرف ﴿ على ﴾ بمعنى (مع) كقوله: ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ [البقرة: 177] و ﴿ يطعمون الطعام على حبه ﴾ [الإنسان: 8] وقول الحارث بن حلزة:

فبقينا على الشَّناءَة تَنْمِ

نَا حصون وعِرة قعساء . . .

والجار والمجرور في موضع الحال وذلك زيادة في التعجيب من كنود الإنسان .

وقال ابن عباس والحسن وسفيان : ضمير ﴿ وإنَّه ﴾ عائد إلى "ربه" ، أي وأن الله على ذلك لشهيد ، والمقصود أن الله يعلم ذلك في نفس الإنسان ، وهذا تعريض بالتحذير من الحساب عليه .

وهذا يسوغه أن الضمير عائد إلى أقرب مذكور ونقل عن مجاهد وقتادة كلا الوجهين فلعلهما رأيا جواز المحملين وهو أولى .

وتقديم ﴿ على ذلك ﴾ على "شهيد" للاهتمام والتعجيب ومراعاة الفاصلة .

والشديد : البخيل .

قال أبو ذؤيب راثياً :

حَذَرْنَاه بأثواب في قَعر هوة

شَديدٍ على ما ضُمَّ في اللحد جُولُها . . .

والجول بالفتح والضَّم : التراب ، كما يقال للبخيل المتشدد أيضاً قال طرفة :

عقيلة مال الفاحش المتشدد

واللام في ﴿ لحب الخير ﴾ لام التعليل ، والخير : المال قال تعالى : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ [البقرة : 18] .

والمعنى : إن في خُلق الإِنسان الشُّحّ لأجل حبه المال ، أي الازدياد منه قال تعالى : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر : 9] .

وتقديم ﴿ لحب الخير ﴾ على متَعلَّقه للاهتمام بغرابة هذا المتعلق ولمراعاة الفاصلة ، وتقديمه على عامله المقترن بلام الابتداء ، وهي من ذوات الصدر لأنه مجرور كما علمت في قوله : ﴿ لربه لكنود ﴾ .

(83/827)

وحب المال يبعث على منع المعروف ، وكان العرب يعيِّرون بالبخل وهم مع ذلك يبْخَلون في الجاهلية بمواساة الفقراء والضعفاء ويأكلون أموال اليتامى ولكنهم يسرفون في الإِنفاق في مظان السمعة ومجالس الشرب وفي الميسر قال تعالى : ﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لما وتحبون المال حباً جماً ﴾ [الفجر : 2018] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(84/827)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ الآية ،

هذه الآية تدل على أنّ الإنسان شاهد على كنود نفسه أي مبالغته في الكفر ، وقد جاءت آيات أخر تدل على خلاف ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ وقوله : ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ , وقوله : ﴿ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ , والجواب عن هذا من ثلاثة أوجه :

الأول : أنّ شهادة الإنسان بأنه كنود هي شهادة حالة بظهور كنوده ، والحال ربما تكفي عن المقال .

الثاني : أن شهادته على نفسه بذلك يوم القيامة كما يدل له قوله : ﴿ وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ , وقوله : ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ , وقوله : ﴿ بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

الوجه الثالث : أن الضمير في قوله ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ راجع إلى رب الإنسان المذكور في قوله : ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ وعليه فلا إشكال في الآية ، ولكن رجوعه إلى الإنسان أظهر بدليل قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع ايهام الاضطراب صـ 343 ﴾

قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان المال فانياً لا ينبغي لعاقل أن يعلق أمله به فضلاً عن أن يؤثرة على الباقي ، نبهه على ذلك بتهديد بليغ ، فقال مسبباً عن ذلك معجباً ، موقفاً له على ما يؤول إليه أمره : ﴿ أفلا يعلم ﴾ أي هذا الإنسان الذي أنساه أنسه بنفسه .

ولما كان الحب أمراً قلبياً ، لا يطلع عليه إلا عالم الغيب ، وكان البعث من عالم الغيب ، وكان أمراً لا بد منه ، وكان المخوف مطلق كونه ، لم يحتج إلى تعيين الفاعل ، فبنى للمفعول قوله مهدداً مؤذناً بأنه شديد القدرة على إثارة الخفايا ، معلقاً بما يقدره ما يؤول إليه أمره من أن الله يحاسبه ويجازيه على أعماله ، وأنه لا ينفعه مال ولا غيره ، ولا ينجيه إلا ما كان من أعماله موافقاً لأمر ربه مبنياً على أساس الإيمان واقعاً بالإخلاص : ﴿ إذا بعثر ﴾ أي أثير بغاية السهولة وأخرج وفرق ونظر وفتش بغاية السهولة .

ولما كان الميت قبل البعث جماداً ، عبر عنه بأداة ما لا يعقل فقال : ﴿ ما في القبور ﴾ أي أخرج ما فيها من الموتى الذين تنكر العرب بعثهم فنشروا للحساب ، أو من عظامهم ولحومهم وأعصابهم وجلودهم وجميع أجسامهم ، وقلب بعضه على بعض حتى أعيد كل شيء منه على ما كان عليه ، ثم أعيدت إليه الروح ، فكان كل أحد على ما مات عليه .

ولما كان المخوف إنما هو ما يتأثر عن البعث من الجزاء على الأعمال الفاسدة قال :

﴿ وحصل ﴾ أي أخرج وميز وجمع فعرف أنه معلوم كله بغاية السهولة كما أشار البناء للمفعول ﴿ ما في الصدور ﴾ أي من خير أو شر مما يظن مضمره أنه لا يعلمه أحد أصلاً ، وظهر مكتوباً في صحائف الأعمال ، وهذا يدل على أن النيات يحاسب بها كما يحاسب على ما يظهر من آثارها .

ولما كان علم ما في الصدور أمراً باهراً للعقل ، قال جامعاً نظراً إلى المعنى لما عبر عنه بالإفراد بالنظر إلى اللفظ ، لأن العلم بالكل يلازمه العلم بالبعض بخلاف العكس مؤكداً إشارة إلى أنه مما لا يكاد يصدق ، معللاً للجملة المحذوفة الدالة على الحساب : ﴿ إن ربهم ﴾ أي المحسن إليهم بخلقهم ورزقهم وتربيتهم وجعلهم أقوياء سويين ﴿ بهم ﴾ قدم هذا الجار والمجرور لا للاختصاص ، بل للاشارة إلى نهاية الخبر .

ولما كانت الخبرة للإحاطة بالشيء ظاهراً وباطناً ، وكان يلزم من الخبرة بالشيء بعد كونه بمدد طوال الخبرة به حال كونه من باب الأولى قال : ﴿ يومئذ ﴾ أي إذ كانت هذه الأمور وهو يوم القيامة ﴿ لخبير ﴾ أي محيط بهم من جميع الجهات عالم غاية العلم ببواطن أمورهم ، فكيف بظواهرها جواهر وأعراضاً ، أقوالاً وأفعالاً ، خفية كانت أو ظاهرة ، سراً كانت أو علانية ، خيراً كانت أو شراً ، ومن المعلوم أن فيها الظلم وغيره ، ومنهم المحسن وغيره ، فلأجل علمه سبحانه بذلك غاية العلم يحاسبهم لئلا يقع ما ينافي الحكمة وهو أن تستوي الحسنة والسيئة ، فالقصد بالقيد وتقديم الظرف الإبلاغ في التعريف بأنه سبحانه وتعالى محيط العلم بذلك كما إذا قيل لك : تعرف فلاناً ؟ فقلت : ولا أعرف إلا هو ، فإن قصدك بذلك أن معرفتك به في غاية الإتقان ، لا نفي معرفة غيره ، وفيه إشعار بأن كل أحد يعرف غاية المعرفة في ذلك اليوم أنه سبحانه وتعالى عالم بأحواله لا ذهول له عن شيء من ذلك كما يقع في هذه الدار من أن الإنسان يعمل أشياء كثيرة وهو غافل عن أن ربه سبحانه مطلع عليه فيها ، ولو نبه لعلم ، فلإحاطته سبحانه وتعالى بجميع أحوالهم كان عالماً بأن الإنسان لربه لكنود ، وقد رجع آخرها إلى أولها ، وتكفل مفصلها بشرح مجملها – والله الهادي للصواب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر جـ 8 صـ 511 . 512 ﴾

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما عد عليه قبائح أفعاله خوفه ، فقال :

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

القول في : ﴿ بُعْثِرَ ﴾ مضى في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار : 4]

وذكرنا أن معنى : ﴿ بُعْثِرَتْ ﴾ بعث وأثير وأخرج ، وقرىء (بحثر) .

المسألة الثانية :

لقائل أن يسأل لم قال : ﴿ بُعْثِرَ مَا فِى القبور ﴾ ولم يقل : بعثر من في القبور ؟ ثم إنه لما قال :

﴿ ما في القبور ﴾ ، فلم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ ﴾ ولم يقل : إن ربها بها يومئذ لخبير ؟ الجواب

عن السؤال الأول : هو أن ما في الأرض من غير المكلفين أكثر فأخرج الكلام على الأغلب ،

أو يقال : إنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء بل بعد البعث يصيرون كذلك ، فلا

جرم كان الضمير الأول ضمير غير العقلاء ، والضمير الثاني ضمير العقلاء .

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10)

قال أبو عبيدة ، أي ميز ما في الصدور ، وقال الليث : الحاصل من كل شيء ما بقي وثبت وذهب سواه ، والتحصيل تمييز ما يحصل والاسم الحصيلة قال لبيد :

وكل امرىء يوماً سيعلم سعيه . . إذا حصلت عند الإله الحصائل

وفي التفسير وجوه أحدها : معنى حصل جمع في الصحف ، أي أظهرت محصلاً مجموعاً وثانيها : أنه لا بد من التمييز بين الواجب ، والمندوب ، والمباح ، والمكروه ، والمحظور ، فإن لكل واحد ومنه قيل للمنخل : المحصل وثالثها : أن كثيراً ما يكون باطن الإنسان بخلاف ظاهره ، أما في يوم القيامة فإنه تتكشف الأسرار وتنتهك الأستار ، ويظهر ما في البواطن ، كما قال : ﴿يَوْمٍ تبلى السرائر﴾ [الطارق : 9] .

(88/827)

واعلم أن حظ الوعظ منه أن يقال : إنك تستعد فيما لا فائدة لك فيه ، فتبني المقبرة وتشتري التابوت ، وتفصل الكفن ، وتغزل العجوز الكفن ، فيقال : هذا كله للديدان ، فأين حظ الرحمن ! بل المرأة إذا كانت حاملاً فإنها تعد للطفل ثياباً ، فإذا قلت لها : لا طفل لك

فما هذا الاستعداد ؟ فتقول : أليس يبعثر ما في بطني ؟ فيقول الرب لك : ألا يبعثر ما في بطن الأرض ، فأين الاستعداد ، وقرىء (وحصل) بالفتح والتخفيف بمعنى ظهر .

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)

اعلم أن فيه سؤالات :

الأول : أنه يوهم أن علمه بهم في ذلك اليوم إنما حصل بسبب الخبرة ، وذلك يقتضي سبق الجهل وهو على الله تعالى محال : الجواب من وجهين أحدهما : كأنه تعالى يقول : إن من لم يكن عالماً ، فإنه يصير بسبب الاختبار عالماً ، فمن كان لم يزل عالماً أن يكون خبيراً بأحوالك ! وثانيهما : أن فائدة تخصيص ذلك الوقت في قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ مع كونه عالماً لم يزل أنه وقت الجزاء ، وتقريره لمن الملك كأنه يقول : لا حاكم يروج حكمه ولا عالم تروج فتواه يومئذ إلا هو ، وكم عالم لا يعرف الجواب وقت الواقعة ثم يتذكره بعد ذلك ، فكأنه تعالى يقول : لست كذلك .

السؤال الثاني : لم خص أعمال القلوب بالذكر في قوله : ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى الصدور ﴾ وأهمل ذكر أعمال الجوارح ؟ الجواب : لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلب .

فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح ، ولذلك إنه تعالى جعلها الأصل في الذم ، فقال : ﴿ آثم قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : 283] والأصل في المدح ، فقال : ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : 2] .

السؤال الثالث : لم قال : ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى الصدور ﴾ ولم يقل : وحصل ما في القلوب ؟

الجواب : لأن القلب مطية الروح وهو بالطبع محب لمعرفة الله وخدمته ، إنما المنازع في هذا الباب هو النفس ومحلها ما يقرب من الصدر ، ولذلك قال : ﴿ يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ الناس ﴾ [الناس : 5] وقال : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ الله صَدْرَهُ للإسلام ﴾ [الزمر : 22] فجعل الصدر موضعاً للإسلام .

السؤال الرابع : الضمير في قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ ﴾ عائد إلى الإنسان وهو واحد والجواب : الإنسان في معنى الجمع كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِي خُسْرٍ ﴾ [العصر : 2] ثم قال : ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ [العصر : 3] ولولا أنه للجمع وإلا لما صح ذلك .

واعلم أنه بقي من مباحث هذه الآية مسألتان :

المسألة الأولى :

هذه الآية تدل على كونه تعالى عالماً بالجزئيات الزمانيات ، لأنه تعالى نص على كونه عالماً بكيفية أحوالهم في ذلك اليوم فيكون منكره كافراً .

المسألة الثانية :

نقل أن الحجاج سبق على لسانه أن بالنصب ، فأسقط اللام من قوله : ﴿ لَّخَبِيرٌ ﴾ حتى لا يكون الكلام لحناً ، وهذا يذكر في تقرير فصاحته ، فزعم بعض المشايخ أن هذا كفر لأنه قصد لتغيير المنزل .

ونقل عن أبي السماءل أنه قرأ على هذا الوجه ، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 66.64 ﴾

(90/827)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) ﴾

اختلف الناس في المراد : ب ﴿ العاديات ﴾ ، فقال ابن عباس وقتادة ومجاهد وعكرمة : أراد الخيل لأنها تعدو بالفرسان وتصيح بأصواتها ، قال بعضهم : وسببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خيلاً إلى بني كنانة سرية فأبطأ أمرها عليه حتى أرجف بهم بعض المنافقين ، فنزلت الآية معلمة أن خيله عليه السلام قد فعلت جميع ما في الآية ، وقال آخرون : القسم هو بالخيل جملة لأنها تعدو ضابحة قديماً وحديثاً ، وهي حاصرة البلاد

وهادمة الممالك ، وفي نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وقال علي بن أبي طالب وحديثاً ،

وهي حاصرة البلاد وهادمة الممالك ، وفي نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وقال علي بن أبي طالب وابن مسعود وإبراهيم وعبيد بن عمير : ﴿ العاديات ﴾ في هذه الآية : الإبل لأنها تضبح في عدوها ، قال علي : والقسم بالإبل العاديات من عرفة ومن مزدلفة إذا وقع الحاج وبإبل غزوة بدر فإنه لم يكن في الغزوة غير فرسين : فرس المقداد وفرس الزبير بن العوام ، والضبح : تصويت جهير عند العدو الشديد ليس بصهيل ولا رغاء ولا نباح ، بل هو غير المعاد من صوت الحيوان الذي يضبح . وحكي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : ليس يضبح من الحيوان غير الخيل والكلاب ، وهذا عندي لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنه ، وذلك أن الإبل تضبح والأسود من الحيات والبوم والصدى والأرنب والثعلب ، والقوس هذه كلها قد استعملت لها العرب الضبح ، وأنشد أبو حنيفة في صفة قوس : [الرجز]

حنانة من نشم أو تالب . . . تضبح في الكف ضباح الثعلب

والظاهر في الآية، أن القسم بالخيل أو بالإبل أو بهما ، قوله تعالى ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال علي بن أبي طالب وابن مسعود : هي الإبل ، وذلك أنها في عدوها ترجم الحصى بالحصى فيتطاير منه النار فذلك القدح. قال ابن عباس : هي الخيل ، وذلك بحوافرها في الحجارة وذلك معروف. وقال عكرمة : ﴿ الموريات قدحاً ﴾ : هي الألسن ، فهذا على الاستعارة أي ببيانها تقدح الحجج وتظهرها . وقال مجاهد : ﴿ الموريات قدحاً ﴾ ، يريد به مكر الرجال ، وقال قتادة : ﴿ الموريات ﴾ ، الخيل تشعل الحرب ، فهذا أيضاً على الاستعارة البينة ، وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من العلماء : الكلام عام يدخل في القسم كل من يظهر بقدحه ناراً ، وذلك شائع في الأمم طول الدهر وهو نفع عظيم من الله تعالى ، وقد وقف عليه في قوله تعالى : ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ [الواقعة : 71] معناه : تظهرون بالقدح ، قال عدي بن زيد : [الخفيف]

فقدحنا زناداً وورينا . . . فوق جرثومة من الأرض نار

وقوله تعالى : ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ قال علي وابن مسعود : هي الإبل من مزدلفة إلى منى أو في بدر ، والعرب تقول : أغار إذا عدا جرياً ونحوه ، وقال ابن عباس وجماعة كثيرة ، هي الخيل واللفظة من الغارة في سبيل الله وغير ذلك من سير الأمم ، وعرف الغارات أنها مع الصباح لأنها تسري ليلة الغارة والنقع : الغبار الساطع المثار ، وقرأ أبو حيوة : " فأثّرن " بشد الثاء ، والضمير في ﴿ به ﴾ ظاهر أنه للصبح المذكور ، ويحتمل أن يكون للمكان

والموضع الذي يقتضيه المعنى وإن كان لم يجر له ذكر ، ولهذا أمثلة كثيرة ، ومشهورة إثارة النقع هو للخيل ومنه قول الشاعر [البسيط]

يخرجن من مستطير النقع دامية . . . كأن آذانها أطراف أقلام

(92/827)

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هو هنا الإبل تثير النقع بأخفافها ، وقوله تعالى : ﴿ فوسطن به جميعاً ﴾ قال ابن عباس وعلي : هي الإبل ، و﴿ جمعاً ﴾ : هي المزدلفة ، وقال ابن عباس : هي الخيل ، والمراد جمع من الناس هم المغيرون ، وقرأ علي بن أبي طالب وقتادة وابن أبي ليلى : "فوسّطن" بشد السين ، وقال بشر بن أبي حازم : [الكامل]

فوسطن جمعهم وأفلت حاجب . . . تحت العجاجة في الغبار الأقتم

وذكر الطبري عن زيد بن أسلم : أنه كان يكره تفسير هذه الألفاظ ، ويقول : هو قسم أقسم الله به ، وجمهور الأمة وعلماؤها مفسرون لها كما ذكرنا ، والقسم واقع على قوله : ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "أتدرون ما الكنود ؟ " قالوا لا يا رسول الله ، قال : "هو الكفور الذي يأكل وحده ويمنع رفده ، ويضرب

عبده . " وقد يكون من المؤمنين الكفور بالنعمة ، فتقدير الآية : إن الإنسان لنعمة ربه لكنود ، وأرض كنود لا تنبت شيئاً ، وقال الحسن بن أبي الحسن : الكنود اللائم لربه الذي يعد السيئات وينسى الحسنات ، والكنود العاصي بلغة كندة ، ويقال للخيل كنود ، وقال أبو زبيد : [الخفيف]

إن تفتني فلم أطب بك نفساً . . . غير أني أمنى بدهر كنود

وقال الفضيل : الكنود الذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة ويعامل الله على عقد عوض ، وقوله تعالى : ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ يحتمل الضمير أن يعود على الله تعالى ، وقاله قتادة : أي وربه شاهد عليه ، وتفسير هذا الخبر يقتضي الشهادة بذلك ، ويحتمل أن يعود على ﴿ الإنسان ﴾ أي أفعاله وأقواله وحاله المعلومة من هذه الأخلاق تشهد عليه ، فهو شاهد على نفسه بذلك ، وهذا قول الحسن ومجاهد ، والضمير في قوله تعالى : ﴿ وإنه لحب الخير ﴾ عائد على ﴿ الإنسان ﴾ لا غير ، والمعنى من أجل حب الخير إنه ﴿ لشديد ﴾ ، أي بخيل بالمال ضابط له ، ومنه قول الشاعر [طرفة بن العبد] : [الطويل]

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي . . . عقيلة مال الفاحش المتشدد

و﴿ الخير ﴾ المال على عرف ذلك في كتاب الله تعالى ، قال عكرمة : ﴿ الخير ﴾ حيث وقع في القرآن فهو المال ، ويحتمل أن يراد هنا الخير الدنياوي من ماله وصحة وجاه عند الملوك ونحوه ، لأن الكفار والجهال لا يعرفون غير ذلك ، فأما المحب في خير الآخرة فممدوح له مرجو له الفوز وقوله تعالى : ﴿ أفلا يعلم ﴾ ، توقيف على المال والمصير أي أفلا يعلم مآله فيستعد له ، و" بعثرة ما في القبور " : تقصيه مما يستره والبحث عنه ، وهذه عبارة عن البحث ، وفي مصحف ابن مسعود : " بحث ما في القبور " ، وفي حرف أبي : " وبحثرت القبور " ، و﴿ تحصيل ما في الصدور ﴾ : تمييزه وكشفه ليقع الجزاء عليه من إيمان وكفر ونية ، ويفسره قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يبعث الناس يوم القيامة على نياتهم) وقرا يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم بفتح الحاء والصاد ثم استؤنف في الخبر الصادق الجزم بأن الله تعالى خبير بهم " يومئذ " لكن خصص " يومئذ " لأنه يوم المجازاة فإليه طمحت النفوس وهذا وعيد مصرح

نجز تفسير سورة (العاديات) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(94/827)

وقال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾

أي ابن آدم ﴿ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ أي أثير وقُلِب وبُحِث ، فأُخرج ما فيها .

قال أبو عبيدة : بَعْثَرْتُ المتاع : جعلت أسفلهُ أعلاه .

وعن محمد بن كعب قال : ذلك حين يُبْعَثون .

الفرّاء : سمعت بعض أعراب بني أسد يقرأ : "بُحْثِر" بالحاء مكان العين ؛ وحكاه الماورديّ عن ابن مسعود ، وهما بمعنى .

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصدور ﴾ أي مُيز ما فيها من خير وشر ؛ كذا قال المفسرون .

وقال ابن عباس : أُبرِز .

وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جُبير ويحيى بن يعمُر ونصر بن عاصم "وحَصَل" بفتح الحاء وتخفيف الصاد وفتحها ؛ أي ظهر .

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أي عالم لا يخفى عليه منهم خافية .

وهو عالم بهم في ذلك اليوم وفي غيره ، ولكن المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم .

وقوله : ﴿ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ العامل في "إذا" : "بُعْثِر" ، ولا يعمل فيه ﴿ يَعْلَمُ ﴾ ؛ إذ لا يراد به العلم من الإنسان ذلك الوقت ، إنما يراد في الدنيا .

ولا يعمل فيه "خَبِيرٌ" ؛ لأن ما بعد "إنّ" لا يعمل فيما قبلها .

والعامل في ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ : "خَبِيرٌ" ، وإن فصلت اللام بينهما ؛ لأن موضع اللام الابتداء .

وإنما دخلت في الخبر لدخول "إنّ" على المبتدأ .

ويروى أن الحجاج قرأ هذه السورة على المنبر يحضهم على الغزو ، فجرى على لسانه : "أَنَّ ربهم" بفتح الألف ، ثم استدركها فقال : "خَبير" بغير لام .

ولولا اللام لكانت مفتوحة ، لوقوع العلم عليها .

وقرأ أبو السَّمَّال "أَنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ خَبِيرٌ" .

والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(95/827)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ والعاديات ﴾

أقسمَ سبحانَهُ بخيلِ الغُزاةِ التي تعدُو نحوَ العدوِّ وقولُه تعالَى : ﴿ ضَبْحاً ﴾ مصدرٌ منصوبٌ إما بفعلِه المحذوفِ الواقعِ حالاً منها أي تضبحُ ضَبْحاً وهُو صوتُ أنفاسِها عندَ عدوها أوْ بالعادياتِ فإن العدوَ مستلزمٌ للضبحِ كأنَّه قيلَ : والضابحاتِ أو حالٌ على أنَّه مصدرٌ بمعنى الفاعلِ أيْ ضابحاتٌ ﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ الإيراءُ إخراجُ النَّارِ والقدحُ

الصَّكِّ يقال قَدح فأَوْرَى أيْ فالتي تُورِى النارَ منْ حوافرِها وانتصاب قَدحاً كانتصاب ضبحاً على الوجوهِ الثلاثةِ ﴿ فالمغيرات ﴾ أسند الإغارةَ التي هيَ مباغتةُ العدوِّ للنهبِ أو للقتلِ أو للأسرِ إليهَا وهيَ حالُ أهلِها وإيذاناً بأنَّها العمدةُ في إغارتهم ﴿ صُبْحاً ﴾ أي في وقتِ الصبحِ وهو المعتادُ في الغاراتِ يعدونَ ليلاً لئلا يشعرُ بهمْ العدوّ ويهجمونَ عليهمْ صباحاً ليَروا مَا يأتونَ ومَا يذرونَ وقولُه تعالَى : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ ﴾ عطفٌ على الفعلِ الذي دلَّ عَلَيهِ اسمُ الفاعلِ إذِ المَعْنى واللاتِي عدونَ فأورينَ فأغرنَ فأثرنَ بهِ أيْ فهيجنَ بذلكَ الوقتِ ﴿ نَقْعاً ﴾ أيْ غُباراً وتخصيصُ إثارتِه بالصُّبحِ لأنَّه لا يثورُ أو لا يظهرُ ثورانُه بالليلِ وبهذا ظهرَ أنَّ الإيراءَ الذي لا يظهرُ في النهارِ واقعٌ في الليلِ ولله درُّ شأنِ التنزيلِ وقيلَ النقعُ الصياحُ والجَلَبةُ وقُرِىءَ فأثَّرنَ بالتشديدِ بمَعْنى فأظهرنَ بِهِ غُباراً لأنَّ التأثيرَ فيهِ مَعْنى الإظْهارِ ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ ﴾ أي توسطنَ بذلك الوقتِ أو توسطنَ ملتبساتٍ بالنقعِ ﴿ جَمْعاً ﴾ من جموعِ الأعداءِ والفاءاتُ للدلالةِ عَلَى ترتبِ ما بعدَ كُلٍ مِنْهَا عَلَى ما قبلَهَا كَما في قولِه :

يَا لهفَ زَيّابةَ للحارثِ الصّابحِ فالغانمِ فالآيبِ . . . فإنّ توسطَ الجمعِ مترتبٌ عَلى الإثارةِ المترتبةِ على الإغارةِ المترتبةِ على الإيراءِ المترتبِ على العدوِ .

(97/827)

وقولُه تعالَى : ﴿ إِنَّ الإنسانَ لِرَبّهِ لَكَنُودٌ ﴾ أَيْ لكفورٌ من كَنَدَ النعمةَ كنوداً جوابُ القسمِ والمرادُ بالإنسانِ بعضُ أفرادِه . رُوِيَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بعثَ إلى أناسٍ منْ بِني كنانةَ سريةً واستعملَ عليهَا المنذرَ بنَ عمروٍ الأنصاريّ وكانَ أحدَ النقباءِ فأبطأَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ خبرُهَا شهراً فقالَ المنافقونَ إنهم قُتلوا فنزلتْ السورةُ إخباراً للنبيّ عليهِ عليه الصلاةُ والسلامُ بسلامتِها وبشارةً لهُ بإغارتِها على القومِ ونعياً على المُرجفينَ في حقّهم مَا هُم فيهِ من الكنودِ وفي تخصيصِ خيلِ الغُزاةِ بالإقسامِ بهَا منَ البراعةِ ما لا مزيدَ عليهِ كأنه قيلَ : وخيلِ الغُزاةِ التي فعلتْ كيتَ وكيتَ وقد أرجفَ هؤلاءِ في حقّ أربابِها ما أرجفُوا أنهم مبالغونَ في الكفرانِ ﴿ وَإِنَّهُ على ذَلِكَ ﴾ أيْ وإنَّ الإنسانَ على كنودِه ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ يشهدُ عَلى نفسِه بالكنودِ لظهورِ أثره عليهِ ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبّ الخير ﴾ أي المالِ كمَا في قولِه تعالَى إنْ تركَ خيراً ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ أيْ قويٌ مطيقٌ مجدٌّ في طلبه وتحصيلِه متهالكٌ عليهِ يقالُ هُوَ شديدٌ لهذا الأمرِ وقويٌّ لَهُ إذا كانَ مطيقاً لَهُ ضَابطاً وقيلَ : الشديدُ البخيلُ أيْ إنَّه لأجلِ

حُبِّ المالِ وثقلِ إنفاقِه عليهِ لبخيلٍ مُمسكٍ ولعَلَّ وصفَهُ بهذا الوصفِ القبيحِ بعدَ وصفِه بالكنودِ للإيماءِ إلى أنَّ من جملةِ الأمورِ الداعيةِ للمنافقينَ إلى النفاقِ حبَّ المالِ لأنَّهم بما يظهرونَ من الإيمانِ يعصمونَ أموالَهم ويحوزونَ من الغنائمِ نصيباً وقولُه تعالَى : ﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى القبور ﴾ الخ تهديدٌ ووعيدٌ والهمزةُ للإنكارِ والفاءُ للعطفِ على مقدرٍ يقتضيهِ المقامُ أي أيفعلُ ما يفعلُ من القبائحِ أو ألا يلاحظُ فلا يعلمُ حالَهُ إذا بعثَ منْ في القبورِ من الموْتى وإيرادُ ما لكونِهم إذْ ذاكَ

(98/827)

بمعزلٍ عنْ رتبةِ العقلاءِ وقُرِىءَ بُحْثِرَ وبُحِثَ وبَحْثَرَ وبَحَثَ على بنائِهما للفاعلِ ﴿ وَحُصّلَ ﴾ أَيْ جمعَ محصلاً أوْ ميزَ خيرُه من شرِّهِ وقرِىء وحَصَّلَ مبنياً للفاعلِ وحَصَلَ مخففاً ﴿ مَا فِى الصدور ﴾ من الأسرارِ الخفيةِ التي منْ جُملتِها ما يخفيه المنافقونَ من الكفرِ والمعاصِي فضلاً عن الأعمالِ الجليةِ ﴿ إِنَّ رَبَّهُم ﴾ أي المبعوثينَ كَنَّى عنْهُم بعدَ الإحياءِ الثاني بضميرِ العُقلاءِ بعدَ مَا عبرَ عنهُمْ قبلَ ذلكَ بما بناءً على تفاوتِهم في الحالينِ كما فعلَ نظيرَهُ بعد الإحياءِ الأولِ حيثُ التفتَ إلى الخطابِ في قولِه تعالَى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والابصار ﴾ الآيةَ بعدَ قولِه : ﴿ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴾ إيذاناً بصلاحيتِهم

للخطاب بعد نفخِ الروحِ وبعدمِها قبلَه كما أُشيرَ إليهِ هناكَ ﴿ بِهِمُ ﴾ بذواتِهم وصفاتِهم وأحوالِهم بتفاصيلِها ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ يومَ إذْ يكونُ ما ذكرَ من بعثِ ما في القبورِ وتحصيلِ مَا فِي الصدورِ ﴿ لَّخَبِيرٌ ﴾ أيْ عالمٌ بظواهرِ ما عملُوا وبواطنِه علماً موجباً للجزاءِ متصلاً بهِ كما ينبىءُ عنْهُ تقييدُه بذلكَ اليومِ وإلاَّ فمطلقُ علمِه سبحانَهُ محيطٌ بمَا كانَ وما سيكونُ وقولُه تعالَى بهم ويومئذَ متعلقانِ بخبيرٍ قدمَا عليه لمراعاةِ الفواصلِ واللامُ غيرُ مانعةٍ من ذلكَ وقرأَ ابنُ السَّماكِ إنَّ ربَّهم بهمْ يومئذٍ خبيرٌ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(99/827)

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ﴾ الخ

تهديد ووعيد والهمزة للإنكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام ومفعول يعلم محذوف وهو العامل في إذا وهي ظرفية أي أيفعل ما يفعل من القبائح أو ألا يلاحظ فلا يعلم الآن ماله إذا بعثر من في القبور من الموتى وإيراد ما لكونهم إذ ذاك بمعزل من رتبة العقلاء وقال الحوفي العامل في إذا الظرفية يعلم وأورد عليه أنه لا يراد منه العلم في ذلك الوقت بل

العلم في الدنيا وأجيب بأن هذا إنما يرد إذا كان ضمير يعلم راجعاً إلى الإنسان وذلك غير لازم على هذا القول لجواز أن يرجع إليه عز وجل ويكون مفعولاً يعلم محذوفين والتقدير أفلا يعلمهم الله تعالى عاملين بما عملوا إذا بعثر على أن يكون العلم كناية عن المجازاة والمعنى أفلا يجازيهم إذا بعثر ويكون الجملة المؤكدة بعد تحقيقاً وتقرير لهذا المعنى وهو كما ترى وقيل إن إذا مفعول به ليعلم على معنى أفلا يعلم ذلك الوقت ويعرف تحققه وقل إن العامل فيها بعثر بناء على أنها شرطية غير مضافة قالوا ولم يجوز أن يعمل فيها ﴿ لخبير ﴾ لأن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها وأوجه الأوجه ما قدمناه وتعدى العلم إذا كان بمعنى المعرفة لواحد شائع وتقدم تحقيق معنى البعثرة فتذكر .

وقرأ عبد الله بحثر بالحاء والثاء المثلثة وقرأ الأسود بن زيد بحث بهما بدون راء وقرأ نصر بن عاصم بحثر كقراءة عبد الله لكن بالبناء للفاعل .

(100/827)

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى الصدور ﴾ أي جمع ما في القلوب من العزائم المصممة وأظهر كإظهار اللب من القشر وجمعه أو ميز خيره من شره فقد استعمل حصل الشيء بمعنى ميزه من غيره كما في البحر وأصل التحصيل إخراج اللب من القشر كإخراج الذهب من حجر

المعدن والبر من التبن وتخصيص ما في القلوب لأنه الأصل لأعمال الجوارح ولذا كانت الأعمال بالنيات وكان أول الفكر آخر العمل فجميع ما عمل تابع له فيدل على الجميع صريحاً وكناية وقرأ ابن يعمر ونصر بن عاصم ومحمد بن أبي معدان وحصل مبنياً للفاعل وهو ضميره عز وجل وقرأ ابن يعمر ونصر أيضاً حصل مبنياً للفاعل خفيف الصاد فما عليه هو الفاعل .

﴿ إِنَّ رَبَّهُم ﴾ أي المبعوثين كنى عنهم بعد الإحياء الثاني بضمير العقلاء بعدما عبر عنهم قبل ذلك بما بناء على تفاوتهم في الحالين ﴿ بِهِمْ ﴾ بذواتهم وصفاتهم وأحوالهم بتفاصيلها ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم إذ يكون ما عد من بعث ما في القبور وتحصيل ما في الصدور والظرفان متعلقان بقوله تعالى : ﴿ لَّخَبِيرٌ ﴾ أي عالم بظواهر ما عملوا وبواطنه علماً موجباً للجزاء متصلاً به كما ينبئ عنه تقييده بذلك اليوم وإلا فمطلق علمه عز وجل بما كان وما سيكون .

وقرأ أبو السماء والحجاج أن ربهم بهم يومئذ خبير بفتح همزة أن وإسقاط لام التأكيد فإن وما بعدها في تأويل مصدر معمول ليعلم على ما استظهره بعضهم وأيد به كون يعلم معلقة عن العلم في ﴿ إِنَّ رَبَّهُم ﴾ الخ على قراءة الجمهور لمكان اللام وإذا على هذا لا يجوز تعلقها بخبير أيضاً لكونه في صلة إن المصدرية فلا يتقدم معموله عليها ويعلم أمره مما تقدم وقيل الكلام على تقدير لام التعليل وهي متعلقة بحصل كأنه قيل وحصل ما في الصدور لأن ربهم

بهم يومئذ خبير والأول أظهر والله تعالى أعلم وأخبر. انتهى انتهى. ا هـ ﴿روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(101/827)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) ﴾

العاديات جمع عادية.

وهي الجارية بسرعة، من العدو : وهو المشي بسرعة، فأبدلت الواو ياء لكسر ما قبلها كالغازيات من الغزو.

والمراد بها الخيل العادية في الغزو نحو العدوّ.

وقوله : ﴿ ضَبْحاً ﴾ مصدر مؤكد لاسم الفاعل.

فإن الضبح نوع من السير، ونوع من العدو.

يقال ضبح الفرس : إذا عدا بشدّة، مأخوذ من الضبع، وهو الدفع، وكأن الحاء بدل من العين.

قال أبو عبيدة، والمبرد : الضبح من إضباحها في السير ومنه قول عنترة :

والخيل تكدح في حياض الموت ضبحا . . . ويجوز أن يكون مصدراً في موضع الحال ، أي : ضابحات ، أو ذوات ضبح ، ويجوز أن يكون مصدراً لفعل محذوف ، أي : تضبح ضبحاً .

وقيل الضبح : صوت حوافرها إذا عدت .

وقال الفراء : الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدت ، قيل كانت تكعم لئلا تصهل ، فيعلم العدوّ بهم ، فكانت تتنفس في هذه الحالة بقوّة ، وقيل الضبح : صوت يسمع من صدور الخيل عند العدو ليس بصهيل .

وقد ذهب الجمهور إلى ما ذكرنا من أن ﴿ العاديات ضبحاً ﴾ هي الخيل .

وقال عبيد بن عمير ، ومحمد بن كعب والسديّ : هي الإبل ، ومنه قول صفية بنت عبد المطلب :

فلا والعاديات غداة جمع . . . بأيديها إذا صدع الغبار

ونقل أهل اللغة أن أصل الضبح للثعلب ، فاستعير للخيل ، ومنه قول الشاعر :

تضبح في الكف ضباح الثعلب . . . ﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ هي الخيل حين توري النار بسنابكها .

والإيراء إخراج النار ، والقدح الصكّ ، فجعل ضرب الخيل بحوافرها كالقدح بالزناد .

قال الزجاج : إذا عدت الخيل بالليل ، وأصاب حوافرها الحجارة انقدح منها النيران ،

والكلام في انتصاب ﴿ قدحاً ﴾ كالكلام في انتصاب ﴿ ضبحاً ﴾ ، والخلاف في كونها الخيل أو الإبل ، كالخلاف الذي تقدّم في العاديات .

(102/827)

والراجح أنها الخيل ، كما ذهب إليه الجمهور ، وكما هو الظاهر من هذه الأوصاف المذكورة في هذه السورة ما تقدّم منها وما سيأتي ، فإنها في الخيل أوضح منها في الإبل ، وسيأتي ما في ذلك من الخلاف بين الصحابة .

﴿ فالمغيرات صُبْحاً ﴾ أي : التي تغير على العدوّ وقت الصباح ، يقال أغار يغير إغارة إذا باغت عدوّه بقتل ، أو أسر ، أو نهب ، وأسند الإغارة إليها وهي لأهلها للإشعار بأنها عمدتهم في إغارتهم ، وانتصاب ﴿ صبحاً ﴾ على الظرفية .

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ معطوف على الفعل الذي دلّ عليه اسم الفاعل ، إذ المعنى : واللاتي عدون فأثرن ، أو على اسم الفاعل نفسه لكونه في تأويل الفعل لوقوعه صلة للموصول ، فإن الألف واللام في الصفات أسماء موصولة ، فالكلام في قوّة : واللاتي عدون ، فأورين ، فأغرن ، فأثرن ، والنقع : الغبار الذي أثرته في وجه العدو عند الغزو ، وتخصيص إثارته بالصبح ؛ لأنه وقت الإغارة ، ولكونه لا يظهر أثر النقع في الليل الذي اتصل به الصبح .

وقيل المعنى : فأثرن بمكان عدوهنّ نقعاً ، يقال ثار النقع ، وأثرته ، أي : هاج ، أو هيجته .

قرأ الجمهور (فأثرن) بتخفيف المثلثة .

وقرأ أبو حيوة ، وابن أبي عبلة بالتشديد ، أي : فأظهرن به غباراً ، وقال أبو عبيدة : النقع

رفع الصوت ، وأنشد قول لبيد :

فمتى ينقع صراخ صادق . . . يجلبوها ذات جرس وزجل

يقول .

حين سمعوا صراخاً أجلبوا الحرب ، أي : جمعوا لها .

قال أبو عبيدة : وعلى هذا رأيت قول أكثر أهل العلم انتهى ، والمعروف عند جمهور أهل

اللغة والمفسرين أن النقع : الغبار ، ومنه قول الشاعر :

يخرجن من مستطار النقع دامية . . . كأنّ أذنابها أطراف أقلام

وقول عبد الله بن رواحة :

عدمنا خيلنا إن لم تروها . . . تثير النقع من كنفي كداء

وقول الآخر :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا . . . وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وهذا هو المناسب لمعنى الآية ، وليس لتفسير النقع بالصوت فيها كثير معنى ، فإن قولك أغارت الخيل على بني فلان صبحاً ، فأثرن به صوتاً ، قليل الجدوى مغسول المعنى بعيد من بلاغة القرآن المعجزة .

وقيل النقع : شقّ الجيوب ، وقال محمد بن كعب : النقع ما بين مزدلفة إلى منى .

وقيل : إنه طريق الوادي .

قال في الصحاح : النقع الغبار ، والجمع أنقاع ، والنقع محبس الماء ، وكذلك ما اجتمع في البئر منه ، والنقع الأرض الحرّة الطين يستنقع فيها الماء .

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ أي : توسطن بذلك الوقت ، أو توسطن ملتبسات بالنقع جمعاً من جموع الأعداء ، أو صرن بعدوهن وسط جمع الأعداء ، والباء إما للتعدية ، أو للحالية ، أو زائدة ، يقال : وسطت المكان ، أي : صرت في وسطه ، وانتصاب جمعاً على أنه مفعول به ، والفاآت في المواضع الأربعة للدلالة على ترتب ما بعد كل واحدة منها على ما قبلها .

قرأ الجمهور : ﴿ فوسطن ﴾ بتخفيف السين .

وقرئ بالتشديد .

﴿ إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ هذا جواب القسم ، والمراد بالإنسان بعض أفراده ، وهو الكافر ، والكنود : الكفور للنعمة .

وقوله : ﴿ لِرَبِّهِ ﴾ متعلق بكنود .

قدّم لرعاية الفواصل ، ومنه قول الشاعر :

كنود لنعماء الرجال ومن يكن . . . كنوداً لنعماء الرجال يبعد

أي : كفور لنعماء الرجال .

وقيل : هو الجاحد للحقّ .

قيل : إنها إنما سميت كندة ، لأنها جحدت أباها .

وقيل : الكنود مأخوذ من الكند .

وهو القطع ، كأنه قطع ما ينبغي أن يواصله من الشكر .

يقال كند الحبل : إذا قطعه ، ومنه قول الأعشى :

وصول حبال وكنادها . . . وقيل : الكنود : البخيل ، وأنشد أبو زيد :

إن نفسي لم تطب منك نفسا . . . غير أني أمسي بدين كنود

وقيل : الكنود الحسود .

وقيل : الجهول لقدره ، وتفسير الكنود بالكفور للنعمة أولى بالمقام ؛ والجاحد للنعمة كافر لها ، ولا يناسب المقام سائر ما قيل .

﴿ وَإِنَّهُ على ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ أي : وإن الإنسان على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به لظهور أثره عليه .

وقيل المعنى : وإن الله جلّ ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد ، وبه قال الجمهور .

وقال بالأوّل الحسن ، وقتادة ، ومحمد بن كعب ، وهو أرجح من قول الجمهور لقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ ﴾ فإن الضمير راجع إلى الإنسان ، والمعنى : إنه لحبّ المال قويّ مجدّ في طلبه ، وتحصيله متهالك عليه ، يقال هو شديد لهذا الأمر وقويّ له : إذا كان مطيقاً له ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [البقرة : 180] ومنه قول عديّ بن حاتم :

ماذا ترجى النفوس من طلب ال . . . خير وحبّ الحياة كاربها

وقيل المعنى : وإن الإنسان من أجل حب المال لبخيل ، والأوّل أولى .

واللام في : ﴿ لِحُبِّ ﴾ متعلقة بشديد .

قال ابن زيد : سمى الله المال خيراً ، وعسى أن يكون شرّاً ، ولكن الناس يجدونه خيراً ، فسماه خيراً .

قال الفراء : أصل نظم الآية أن يقال : وإنه لشديد الحبّ للخير ، فلما قدّم الحبّ قال : لشديد ، وحذف من آخره ذكر الحبّ ؛ لأنه قد جرى ذكره ، ولرؤوس الآي كقوله : ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم : 18] والعصوف للريح لا لليوم ، كأنه قال : في يوم عاصف

الريح .

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القبور ﴾ الاستفهام للإنكار ، والفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام ، أي : يفعل ما يفعل من القبائح ، فلا يعلم ، و ﴿ بعثر ﴾ معناه نثر وبحث ، أي : نثر ما في القبور من الموتى ، وبحث عنهم وأخرجوا .

قال أبو عبيدة : بعثرت المتاع جعلت أسفله أعلاه .

قال الفرّاء : سمعت بعض العرب من بني أسد يقول : بحثر بالحاء مكان العين ، وقد تقدّم الكلام على هذا في قوله : ﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار : 4] .

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصدور ﴾ أي : ميز وبيّن ما فيها من الخير والشرّ ، والتحصيل التمييز ، كذا قال المفسرون ، وقيل : حصل أبرز .

(105/827)

قرأ الجمهور : ﴿ حصل ﴾ بضم الحاء ، وتشديد الصاد مكسوراً مبنياً للمفعول .

وقرأ عبيد بن عمير ، وسعيد بن جبير ، ويحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم حصل بفتح الحاء والصاد ، وتخفيفها مبنياً للفاعل ، أي : ظهر .

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أي : إن ربّ المبعوثين بهم لخبير لا تخفى عليه منهم خافية ،

فيجازيهم بالخير خيراً ، وبالشرّ شرّاً .

قال الزجاج : الله خبير بهم في ذلك اليوم ، وفي غيره ، ولكن المعنى : إن الله يجازيهم على كفرهم في ذلك اليوم ، ومثله قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الذين يَعْلَمُ الله مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ [النساء : 63] معناه : أولئك الذين لا يترك الله مجازاتهم .

قرأ الجمهور : ﴿ إن ربهم ﴾ بكسر الهمزة ، وباللام في لخبير .

وقرأ أبو السماك بفتح الهمزة ، وإسقاط اللام من ﴿ لخبير ﴾ .

وقد أخرج البزار ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والدارقطني في الأفراد ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلاً ، فاستمرّت شهراً لا يأتيه منها خبر ، فنزلت : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ ضبحت بأرجلها .

ولفظ ابن مردويه : ضبحت بمناخرها .

﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ قدحت بحوافرها الحجارة ، فأورت ناراً .

﴿ فالمغيرات صُبْحاً ﴾ صبحت القوم بغارة .

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ أثارت بحوافرها التراب .

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ صبحت القوم جميعاً .

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عنه قال : "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى العدوّ ، فأبطأ خبرها ، فشقّ ذلك عليه ، فأخبره الله خبرهم ، وما كان من أمرهم ،

فقال : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ .

قال : هي الخيل" .

والضبح نخير الخيل حين تنخر .

﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ قال : حين تجري الخيل توري ناراً أصابت بسنا بكها الحجارة .

(106/827)

﴿ فالمغيرات صُبْحاً ﴾ قال : هي الخيل أغارت ، فصبحت العدوّ ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾

قال : هي الخيل أثرن بحوافرها ، يقول تعدو الخيل ، والنقع الغبار .

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ قال : الجمع العدو .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال : تقاولت أنا ، وعكرمة في شأن العاديات ، فقال :

قال ابن عباس : هي الخيل في القتال ، وضبحها حين ترخي مشافرها إذا عدت ﴿

فالموريات قَدْحاً ﴾ أرت المشركين مكرهم .

﴿ فالمغيرات صُبْحاً ﴾ قال : إذا صبحت العدو ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ قال : إذا

توسطت العدو .

وقال أبو صالح : فقلت قال عليّ : هي الإبل في الحج ومولاي كان أعلم من مولاك .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في كتاب الأضداد ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : بينما أنا في الحجر جالس إذ أتاني رجل يسأل عن ﴿ العاديات ضبحاً ﴾ ، فقلت : الخيل حين تغير في سبيل الله ، ثم تأوي إلى الليل ، فيصنعون طعامهم ، ويورون نارهم ، فانفتل عني ، فذهب إلى عليّ بن أبي طالب ، وهو جالس تحت سقاية زمزم ، فسأله عن ﴿ العاديات ضبحاً ﴾ ، فقال : سألت عنها أحداً قبلي ؟ قال : نعم سألت عنها ابن عباس ، فقال : هي الخيل حين تغير في سبيل الله ، فقال : اذهب ، فادعه لي ، فلما وقفت على رأسه قال : تفتي الناس بما لا علم لك ، والله إن كانت لأوّل غزوة في الإسلام لبدر ، وما كان معنا إلاّ فرسان فرس للزبير ، وفرس للمقداد بن الأسود ، فكيف تكون ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ .

إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة ، فإذا أووا إلى المزدلفة أوقدوا النيران ، والمغيرات صبحاً : من المزدلفة إلى منى ، فذلك جمع ، وأما قوله : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ فهي : نقع الأرض تطؤه بأخفافها وحوافرها .

قال ابن عباس : فنزعت عن قولي ، ورجعت إلى الذي قال عليّ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ قال : الإبل .

أخرجه عنه من طريق الأعمش عن إبراهيم النخعي .

قال إبراهيم : وقال عليّ بن أبي طالب : هي الإبل .

وقال ابن عباس هي الخيل .

فبلغ علياً قول ابن عباس : فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر .

قال ابن عباس : إنما كانت تلك في سرية بعثت .

وأخرج عبد بن حميد عن عامر الشعبي قال : تمارى عليّ ، وابن عباس في ﴿ العاديات ضبحاً ﴾ فقال ابن عباس : هي الخيل ؛ وقال عليّ : كذبت يا ابن فلانة ، والله ما كان معنا يوم بدر فارس إلاّ المقداد كان على فرس أبلق .

قال : وكان يقول هي : الإبل ، فقال ابن عباس : ألا ترى أنها تثير نقعاً ، فما شيء تثير إلاّ بحوافرها .

وأخرج عبد بن حميد ، والحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ قال : الخيل .

﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ قال : الرجل إذا أورى زنده .

﴿ فالمغيرات صُبْحاً ﴾ قال : الخيل تصبح العدوّ .

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ قال : التراب .

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ قال : العدوّ .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ قال : قال ابن عباس : القتال .

وقال ابن مسعود : الحج .

وأخرج عبد الرزاق ، وسعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طريق عمرو بن دينار عن ابن عباس ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ قال : ليس شيء من الدواب يضبح إلاّ الكلب ، أو الفرس .

﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ قال : هو مكر الرجل قدح ، فأورى .

﴿ فالمغيرات صُبْحاً ﴾ قال : غارة الخيل صبحاً .

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ قال : غبار وقع سنابك الخيل .

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ قال : جمع العدوّ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ قال : الخيل ضبحها زحيرها .

ألم تر أن الفرس إذا عدا قال : أحأح ، فذلك ضبحها .

وأخرج ابن المنذر عن عليّ قال : الضبح من الخيل الحمحمة ، ومن الإبل النفس .

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ قال : هي الإبل في الحج .

﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ إذا سفت الحصى بمناسمها ، فضرب الحصى بعضه بعضاً ، فيخرج منه النار .

﴿ فالمغيرات صُبْحاً ﴾ حين يفيضون من جمع .

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ قال : إذا سرن يثرن التراب .

وأخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : الكنود بلساننا أهل البلد الكفور .

وأخرج ابن عساكر عن أبي أمامة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ قال لكفور .

وأخرج عبد بن حميد ، والبخاري في الأدب ، والحكيم الترمذي ، وابن مردويه عن أبي أمامة قال : الكنود الذي يمنع رفده ، وينزل وحده ، ويضرب عبده .

ورواه عنه ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه ، والديلمي ، وابن عساكر مرفوعاً ، وضعف إسناده السيوطي ، وفي إسناده جعفر بن الزبير ، وهو متروك ، والموقوف أصح ؛ لأنه لم يكن من طريقه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ وَإِنَّهُ على ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ قال : الإنسان ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير ﴾ قال : المال .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عنه : ﴿ إذا بُعْثِرَ مَا فِى القبور ﴾ قال : بحث ﴿ وَحُصّلَ مَا فِى الصدور ﴾ قال : أبرز . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 481. 485 ﴾

(109/827)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) ﴾

فُرع على الإخبار بكنود الإنسان وشحه استفهام إنكاري عن عدم علم الإنسان بوقت بعثرة ما في القبور وتحصيل ما في الصدور فإنه أمر عجيب كيف يغفل عنه الإنسان .

وهمزة الاستفهام قدمت على فاء التفريع لأن الاستفهام صدر الكلام .

وانتصب ﴿ إذا ﴾ على الظرفية لمفعول ﴿ يعلم ﴾ المحذوف اقتصاراً ، لِيَذْهَبَ السامع في تقديره كلَّ مذهب ممكن قصداً للتهويل .

والمعنى : ألا يعلم العذابَ جزاءً له على ما في كنوده وبخله من جناية متفاوتة المقدار إلى

حد إيجاب الخلود في النار .

وحُذف مفعولا ﴿ يعلم ﴾ ولا دليل في اللفظ على تعيين تقديرهما فيوكل إلى السامع تقدير ما يقتضيه المقام من الوعيد والتهويل ويسمى هذا الحذف عند النحاة الحذف الاقتصاري ، وحذف كلا المفعولين اقتصاراً جائز عند جمهور النحاة وهو التحقيق وإن كان سيبويه يمنعه .

و﴿ بُعثِر ﴾ : معناه قُلب من سفل إلى علوّ ، والمراد به إحياء ما في القبور من الأموات الكاملة الأجساد أو أجزائها ، وتقدم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ في سورة الانفطار (4) .

و﴿ حُصِّل ﴾ : جُمع وأُحصي .

و﴿ ما في الصدور ﴾ : هو ما في النفوس من ضمائر وأخلاق ، أي جُمع عَدُّه والحسابُ عليه .

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)

جملة مستأنفة استئنافاً بيانياً ناشئاً عن الإنكار ، أي كان شأنهم أن يعلموا اطلاع الله عليهم إذا بعثر ما في القبور ، وأن يذكروه لأن وراءهم الحساب المدقق ، وتفيد هذه الجملة مفاد التذييل .

وقوله : ﴿ يومئذ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ لخبير ﴾ ، أي عليم .

والخبير : مكنًى به عن المجازى بالعقاب والثواب ، بقرينة تقييده بيومئذ لأن علم الله بهم حاصل من وقت الحياة الدنيا ، وأما الذي يحصل من علمه بهم يوم بَعثرة القبور ، فهو العلم الذي يترتب عليه الجزاء .

(110/827)

وتقديم ﴿ بهم ﴾ على عامله وهو ﴿ لخبير ﴾ للاهتمام به ليعلموا أنهم المقصود بذلك .

وتقديم المجرور على العامل المقترن بلام الابتداء مع أن لها الصدر سائغ لتوسعهم في المجرورات والظرف كما تقدم آنفاً في قوله : ﴿ لربه لكنود ﴾ [العاديات : 6] وقوله : ﴿ على ذلك لشهيد ﴾ [العاديات : 7] وقوله : ﴿ لحب الخير لشديد ﴾ [العاديات : 8] .

وقد علمتَ أن ابن هشام ينازع في وجوب صدارة لام الابتداء التي في خبر ﴿ إنَّ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(111/827)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت والعاديات بمكة .

وأخرج أبو عبيد في فضائله عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ إذا زلزلت ﴾ [الزلزلة : 1] تعدل بنصف القرآن ﴿ والعاديات ﴾ تعدل بنصف القرآن " .

وأخرج محمد بن نصر من طريق عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ إذا زلزلت ﴾ تعدل نصف القرآن ﴿ والعاديات ﴾ تعدل نصف القرآن و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الاخلاص] تعدل ثلث القرآن و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ [سورة الكافرون : 1] تعدل ربع القرآن " .

وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني في الافراد وابن مردويه عن ابن عباس قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلاً فاستمرت شهراً لا يأتيه منها خبر فنزلت ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ ضبحت بأرجلها ولفظ ابن مردويه ضبحت بمناخيرها ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قدحت بحوافرها الحجارة فأورت ناراً ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ صبحت القوم بغارة ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ أثارت بحوافرها التراب ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾

صبحت القوم جميعاً .

وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس قال : " بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى العدو فأبطأ خبرها ، فشق ذلك عليه ، فأخبره الله خبرهم ، وما كان من أمرهم فقال : ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال : هي الخيل ، والضبح : نخير الخيل حتى تنخر ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال : حين تجري الخيل توري ناراً أصابت بسنابكها الحجارة ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ قال : هي الخيل أغارت فصبحت العدو ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ قال : هي الخيل أثرن بحوافرها يقول تعدو الخيل ، والنقع الغبار ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ قال : الجمع العدوّ " .

(112/827)

وأخرج عبد بن حميد عن أبي صالح قال : تقاولت أنا وعكرمة في شأن العاديات فقال : قال ابن عباس هي الخيل في القتال ، وضبحها حين ترخي مشافرها إذا أعدت ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال : أرت المشركين مكرهم ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ قال : إذا صبحت العدو ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ قال : إذا توسطت العدو . قال أبو صالح : فقلت : قال عليّ : هي الإِبل في الحج ، ومولاي كان أعلم من مولاك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس قال : بينما أنا في الحجر جالس إذ أتاني رجل فسأل عن العاديات ضبحاً فقلت : الخيل حين تغير في سبيل الله ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم ، فانفتل عني فذهب عني إلى علي بن أبي طالب وهو جالس تحت سقاية زمزم ، فسأله عن العاديات ضبحاً . فقال : سألت عنها أحداً قبل ؟ قال نعم . سألت عنها ابن عباس . فقال : هي الخيل حين تغير في سبيل الله . فقال : اذهب فادعه لي .

فلا وقفت على رأسه قال : تفتي الناس بما لا علم لك والله إن أول غزوة في الإسلام لبدر ، وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود ، فكيف يكون العاديات ضبحاً إنما العاديات ضبحاً من عرفة إلى المزدلفة ، فإذا أدوا إلى المزدلفة أوروا إلى النيران ﴿ والمغيرات صبحاً ﴾ من المزدلفة إلى منى فذلك جمع وأما قوله : ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ فهو نقع الأرض حين تطؤه بخفافها وحوافرها . قال ابن عباس فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال عليّ .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق الأعمش عن إبراهيم عن عبد الله ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال : الإبل قال إبراهيم : وقال علي بن أبي طالب : هي الإبل . وقال ابن عباس : هي الخيل فبلغ علياً قول ابن عباس فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر . قال ابن عباس : إنما كان ذلك في سرية بعثت .

وأخرج عبد بن حميد عن عامر قال : تمارى عليّ وابن عباس في العاديات ضبحاً فقال ابن عباس : هي الخيل ، وقال عليّ : كذبت يا ابن فلانة ، والله ما كان معنا يوم بدر فارس إلا المقداد ، وكان على فرس أبلق . قال : وكان عليّ يقول : هي الإِبل . فقال ابن عباس : ألا ترى أنها تثير نقعاً فما شيء تثيره إلا بحوافرها .

وأخرج عبد بن حميد والحاكم وصححه من طريق مجاهد عن ابن عباس ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال : الخيل ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال : الرجل إذا أورى زنده ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ قال : الخيل تصبح العدوّ ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ قال : التراب ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ قال : العدو ﴿ إن الإِنسان لربه لكنود ﴾ قال : لكفور .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال : قال ابن عباس في القتال ، وقال ابن مسعود : في الحج .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عمرو بن دينار عن عطاء عن ابن عباس ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال : ليس بشيء من الدواب يضبح إلا كلب أو فرس ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال : هو مكر الرجل قدح فأورى

﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ قال: غارت الخيل صبحاً ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ قال: غبار وقع سنابك الخيل ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ قال: جمع العدو. قال عمرو: وكان عبيد بن عمير يقول: هي الإِبل.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال: الخيل ضبحها زجرها ألم تر أن الفرس إذا عدا قال: أحأح فذاك ضبحها.

وأخرج ابن جرير عن علي قال: الضبح من الخيل الحمحمة ومن الإِبل النفس.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال: هي الخيل تعدو حتى تضبح ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال: قدحت النار بحوافرها ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ غارت حين أصبحت ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ قال: غبار ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ قال: جمع القوم ﴿ إن الإِنسان لربه لكنود ﴾ قال: لكفور.

(114/827)

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن مجاهد ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال: الخيل ألم تر إلى الفرس إذا أحري كيف يضبح، وما ضبح بعير قط ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال: المكر تقول العرب إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه: أما والله لأقدحن لك، ثم لأورين ﴿

فالمغيرات صبحاً ﴾ قال : الخيل ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ قال : التراب مع وقع الخيل ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ قال : جمع العدو ﴿ إن الإِنسان لربه لكنود ﴾ قال : لكفور .

وأخرج عبد بن حميد عن عطية ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال : الخيل ألم ترها إذا عدت تزحر يقول تنحر ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال : الكر ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ قال : الخيل ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ قال : الغبار ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ قال : جمع المشركين ﴿ إن الإِنسان لربه لكنود ﴾ قال : لكفور .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال : كان مكر المشركين إذا مكروا قدحوا النار حتى يروا أنهم كثير .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ قال : النقع ما يسطع من حوافر الخيل . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم . أما سمعت حسان بن ثابت وهو يقول :

عدمنا خيلنا إن لم تروها . . . تثير النقع موعدها كداء

قال : فأخبرني عن قوله ﴿ إن الإِنسان لربه لكنود ﴾ قال : الكنود الكفور للنعمة وهو الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويجيع عبده . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت الشاعر وهو يقول :

شكرت له يوم العكاظ نواله . . . ولم أك للمعروف ثم كنودا

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال : هي الإبل في الحج ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ إذا استفت الحصى بمناسمها تضرب الحصى بعضه بعضاً فيخرج منه النار ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ حين يفيضون من جمع ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ قال : إذا صرن يثرن التراب .

(115/827)

وأخرج عبد بن حميد عن عطاء ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال : الإبل ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال : الخيل ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ قال : القوم ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ قال : لكفور .

وأخرج عبد بن حميد عن محمد بن كعب القرظي ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال : الدفعة من عرفة ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال : النيران تجمع ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ قال : الدفعة من جمع ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ قال : بطن الوادي ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ قال : جمع منى .

وأخرج عبد بن حميد وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس قال : الكنود بلساننا أهل البلد الكفور .

وأخرج ابن عساكر عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ إن الإِنسان لربه لكنود ﴾ قال : لكفور .

وأخرج عبد بن حميد والبخاري في الأدب والحكيم الترمذي وابن مردويه عن أبي أمامة قال : الكنود الذي يمنع رفده وينزل وحده ويضرب عبده .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر بسند ضعيف عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتدرون ما الكنود ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هو الكفور الذي يضرب عبده ويمنع رفده ويأكل وحده" .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن قتادة والحسن في قوله : ﴿ إن الإِنسان لربه لكنود ﴾ قال : الكفور للنعمة ، البخيل بما أعطى ، والذي يمنع رفده ويجيع عبده ويأكل وحده ، ولا يعطي النائبة تكون في قومه ، ولا يكون كنوداً حتى تكون هذه الخصال فيه .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن الحسن ﴿ إن الإِنسان لربه لكنود ﴾ قال : لكفور يعدد المصيبات وينسى نعم ربه عز وجل .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ قال : الإِنسان ﴿ وإنه لحب الخير ﴾ قال : المال .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ قال : الله عز وجل .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ قال : هذه من مقاديم الكلام يقول وإن الله على ذلك لشهيد ، وإن الإنسان لحب الخير لشديد .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وإنه لحب الخير ﴾ قال : هو المال .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ قال : الإنسان شاهد على نفسه ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ﴾ قال : حين يبعثون ﴿ وحصل ما في الصدور ﴾ قال : أخرج ما في الصدور .

وأخرج ابن عساكر من طريق البختري بن عبيد عن أبيه عن أبي هريرة قال : " قال رجل يا رسول الله : ما العاديات ضبحاً ؟ فأعرض عنه ثم رجع إليه من الغد فقال : ما الموريات قدحاً ؟ فأعرض عنه ، ثم رجع إليه الثالثة فقال : ما المغيرات صبحاً ؟ فرفع العمامة والقلنسوة عن رأسه بخصرته فوجده مقرعاً رأسه فقال : لو وجدتك حالقاً رأسك لوضعت الذي فيه عيناك ففزع الملأ من قوله ، فقالوا يا نبي الله ولم ؟ قال : إنه سيكون أناس من أمتي يضربون القرآن بعضه ببعض ليبطلوه ويتبعون ما تشابه ويزعمون أن لهم في أمر ربهم سبيلاً ، ولكل دين مجوس ، وهم مجوس أمتي وكلاب النار " فكأنه يقول : هم القدرية . قال

الذهبي في الميزان : البختري ضعفه أبو حاتم وأعله غيره وقال أبو نعيم : روي عن أبيه موضوعات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 599 . 604 ﴾

(117/827)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾

قال مقاتل : وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى بني كنانة واستعمل عليهم المنذر به عمرو ، الساعدي ، فأبطأ عليه ، خبرهم فاغتم لذلك فنزل عليه جبريل عليه السلام بهذه السورة يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلمه عن حالهم فقال : (والعاديات ضبحاً) يعني : أفراس أصحابك يا محمد صلى الله عليه وسلم إنهم يسبحون في عدوهم ﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ يعني : النار التي تسطع من حوافر الفرس إذا عدت في مكان ذي صخور وأحجار ﴿ فالمغيرات صُبْحاً ﴾ يعني : أصحابك يغيرون على العدوّ عند الصبح ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ يعني : يثيرون بحوافرهن التراب إذا عدت الفرس في مكان سهل يهيج التراب والغبار (نقعاً) يعني : أطراحاً على الأرض ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾

يعني : أصحابك أصبحوا في وسط العدو مع الظفر والغنيمة فلا تغتم وقال الكلبي (والعاديات ضبحاً) يعني : أنفاس الخيل حين تتنفس إذا اجتهدت وقال ابن مسعود رضي الله عنه (والعاديات ضبحاً) يعني : الإبل بعرفات إذا دخل الحجاج مكة وروى عطاء عن ابن عباس في قوله (والعاديات ضبحاً) قال الخيل وما أصبح دابة قط إلا كلب أو خنزير وهو يلهث كما يلهث الكلب وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : هي الإبل تذهب إلى وقعة بدر .

وقال أبو صالح تقاولت مع عكرمة في قوله (والعاديات ضبحاً) قال عكرمة قال ابن عباس هي الخيل في القتال فقلت مولاي يعني : علي بن أبي طالب رضي الله عنه أعلم من مولاك إنه كان يقول هي الإبل التي تكون بمكة حين تفيض من عرفات إلى جمع ، وقال أهل اللغة : الضبح صوت حلوقها إذا عدت ، والضبح والضبع واحد ، يقال : ضبحت النوق وضبعت إذا عدت في المسير .

وهذا قسم أقسم الله تعالى بهذه الأشياء وجوابه قوله تعالى ﴿ إِنَّ الإنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات : 6] وقال بعضهم (فالموريات قدحاً) معناه فالمنجيات عملاً وهذا مثل

ضربه الله تعالى فكما أن الأقداح تنجي الرجل المسلم من برد الشتاء والهلاك وإذا لم يكن معه الزند فيهلك في البرد فكذلك العمل الصالح ينجي العبد يوم القيامة ومن العذاب الهلاك وإذا لم يكن معه عمل صالح يهلك في العذاب ويقال (فالموريات قدحاً) يعني : ناراً لأبي حباحب كان رجل في بعض أحياء العرب من أبخل الناس ولم يوقد ناراً حتى ينام كل ذي عين ثم يوقدها فإذا استيقظ أحد أطفأها لكي لا ينتفع بناره أحد بخلاً منه فكذلك الخيل حين اشتدت على الأرض الحصاة فقدحت النار بحوافرها لا ينتفع بها كما لا ينتفع بنار أبي حباحب ثم قال (فالمغيرات صُبْحاً) يعني : الخُصَماء يغيرون على حسنات العبد يوم القيامة بمنزلة ريح عاصف يجيء ويرفع التراب الناقع من حوافر الدواب فذلك قوله تعالى (فأثرن به نقعاً) ويقال هي الإبل ترجع من عرفات إلى مزدلفة ثم يرجعن إلى منى ويذبح هناك ويقسم الخمر ويوجد اللحم كأنهم أغاروها (فأثرن به نقعاً) يعني : هيّجن بالوادي غباراً حين يرجعون من مزدلفة إلى منى وقوله تعالى (به) كناية عن الوادي فكأنه يقول (فأثرن به نقعاً) أي غباراً ثم قال (فوسطن به جمعاً) يعني : فوقعن بالوادي ويقال بالمكان جمعاً أي اجتمع الحاج بمنى .

ثم قال ﴿ إِنَّ الإنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ فيه جواب القسم أقسم الله تعالى بهذه الأشياء وفيه بين ذكر فضل الغازي وفضل فرس الغازي على تفسير من فسر الآية على الفرس حين أقسم

الله تعالى بالتراب الذي يخرج والنار التي تخرج من تحت حوافر فرس الغازي لأنه ليس عمل أفضل من الجهاد في سبيل الله تعالى.

(119/827)

ومن فسر الآية على الإبل ففي الآية بيان فضل الحاج وفضل دواب الحاج حيث أقسم الله تعالى بالتراب الذي يخرج من تحت أخفاف إبل الحاج والنار التي تخرج منها حيث صارت في أرض الحجارة أن الإنسان لربه لكنود يعني: لبخيل قال مقاتل نزلت في قرط بن عبد الله وقال معنى "الكنود" بلسان كندة وبني حضرموت هو العاصي سيده وبلسان بني كنانة البخيل ويقال هو الوليد بن المغيرة ويقال هو أبو حباحب ويقال كان ثلاثة نفر في العرب في عصر واحد أحدهم آية في السخاء وهو حاتم الطائي والثاني آية في البخل وهو أبو حباحب والثالث آية في الطمع وهو أشعب، كان طماعاً، وكان من طمعه إذا رأى عروساً تزف إلى موضع جعل يكنس باب داره لكي تدخل داره وكان إذا رأى إنساناً يحك عنقه فيظن أنه ينزع القميص ليدفعه إليه ويقال "الكنود" الذي يمنع وفده ويجمع أهله ويضرب عبده ويأكل وحده ولا يعبأ للنائرة في قومه أي المصيبة، وقال الحسن: الكنود

الذي يذكر المصائب وينسى النعم ، ويقال الكنود الذي لا خير فيه ، ويقال : الأرض التي غلب عليها السبخة ولا يخرج منها البذر أرض كنود .

(120/827)

قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ يعني : الله تعالى حفيظ على صنعه عالم به ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ يعني : الإنسان على جمع المال حريص وقال القتبي معناه إنه لحب المال لبخيل والشدة البخل ها هنا وقال الزجاج معناه أنه من أجل حب المال لبخيل وهذا موافق لما قال القتبي ثم قال عز وجل ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ يعني : أفلا يعلم هذا البخيل إذا بعث الناس من قبورهم وعرضوا على الله تعالى بعثر يعني : أخرج ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ يعني : بين ما في القلوب من الخير والشر ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ يعني : عالم بهم وبأعمالهم وبنيّاتهم ومن أطاعه في الدنيا ومن عصاه فيها وفي الآية دليل أن الثواب يستوجب على قدر النية ويجري به لأنه قال عز وجل (وحصل ما في الصدور) يعني : يحصل له من الثواب بقدر ما كان في قلبه من النية إن نوى بعمله وجه الله تعالى والدار الآخرة يحصل له الثواب على قدره والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 583.585 ﴾

وقال الثعلبى :

سورة العاديات

﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾

قال ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة والحسن والكلبي وأبو العالية والربيع وعطية وقتادة ومقاتل وابن كيسان : هي الخيل التي تعدو في سبيل اللّه وتضبح وهو صوت أنفاسها إذا أجهدت في الجري فيكثر الربو في أجوافها من شدة العدو ، قال ابن عباس : ليس شيء من الدواب يضبح غير الفرس والكلب والثعلب .

قال أهل اللغة : أصل الضبح والضباح للثعالب فاستُعير في الخيل ، وهو من قول العرب : ضبحته النار إذا غيّرت لونه ، وإنّما تضبح هذه الحيوانات إذا تغيّرت حالها من تعب أو فزع أو طمع ، ونصب قوله : ﴿ ضَبْحاً ﴾ على المصدر ومجازه : والعاديات تضبح ضبحاً

قال الشاعر :

لستُ بالتُبّعِ اليماني إن لم . . . تضبح الخيل في سواد العراقِ

وقال آخر :

والعاديات أسابي الدماء بها . . . كأن أعناقها أنصاب ترجيب

يعني الخيل .

قال مقاتل : بعث رسول اللّه صلى الله عليه وسلم سرية إلى حي من كنانة واستعمل عليهم المنذر بن عمر الأنصاري أحد النقباء فتأخر خبرهم ، وقال المنافقون : قتلوا جميعاً فأخبره اللّه سبحانه عنها فقال : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ يعني تلك الخيول غدت حتى ضبحت ، وهو صوت ليس بصهيل ولا حمحمة ، وقال الحكماء : هو تقلقل الجرذان في القُنب .

وقيل : هو صوت إرخاء مشافرها إذا عدت ، قال أبو الضحى : وكان ابن عباس يقول : ضباحها أُح أُح . وقال قوم : هي الإبل .

أنبأني عبد اللّه بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن أبي سعيد قال : حدّثنا الحسن بن محمد بن الصباح قال : حدّثنا مروان بن معاوية قال : حدّثنا إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح في قوله سبحانه : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ قال : ما رأى فيه عكرمة ؟ فقال عكرمة : قال ابن عباس : هي الخيل في القتال ، فقلت أنا : (قال علي : هي الإبل في الحجّ) ، وقلت : مولاي أعلم من مولاك .

وقال الشعبي تمارى علي بن عباس في قوله : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾ فقال ابن عباس : هي الخيل ، ألا تراه يقول : ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ فهل تُثير إلاّ بحوافرها ، وهل تضبح الإبل ؟ وإنما تضبح الخيل ، فقال علي : ليس كما قلت لقد رأيتنا يوم بدر وما معنا إلاّ فرس أبلق للمقداد بن الأسود . وفي رواية أُخرى وفرسٌ لمرثد بن أبي مرثد الغنوي .

وأخبرني عقيل بن أبي الفرج ، أخبرهم عن أبي جرير قال : حدّثني يونس قال : أخبرنا بن وهب قال : حدّثنا أبو صخر عن أبي لهيعة البجلي عن سعيد بن حسين عن ابن عباس حدّثه قال : بينما أنا في الحجر جالس أتاني رجل فسأل عن العاديات ضبحاً ، فقال له : الخيل حين تغير في سبيل اللّه ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم ، فانفتل عني وذهب إلى علي بن أبي طالب وهو تحت سقاية زمزم وسأله عن العاديات ضبحاً فقال : " سألت عنها أحداً قبلي " .

قال : نعم ، سألت عنها ابن عباس وقال : هي الخيل تغير في سبيل اللّه قال : " اذهب فادعه لي " ، فلمّا وقف على رأسه قال : " تفتي الناس بما لا علم لك به ، واللّه إن كانت لأول غزوة في الإسلام بدر ، وما كان معنا إلاّ فرَسان : فرس للزبير وفرس للمقداد بن الأسود ، فكيف تكون العاديات الخيل ، بل العاديات ضبحاً الإبل من عرفة إلى المزدلفة ، ومن المزدلفة إلى مِنى " .

قال ابن عباس : فنزعت عن قولي ورجعت إلى الذي قال علي ، وإلى قول علي ذهب ابن

مسعود ومحمد بن عمير ومحمد بن كعب والسدي .

وقال بعضهم : من قال : هي الإبل قال ضبحاً يعني ضبعاً بمدّ أعناقها في السير وضبحت وضبعت بمعنى واحد ، قالت صفية بنت عبد المطّلب :

فلا والعاديات غداة جمع . . . بأيديها إذا سطع الغبار

﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ قال عكرمة وعطاء والضّحاك : هي الخيل توري النار بحوافرها إذا سارت في الحجارة والأرض المحصبة .

وقال مقاتل والكلبي : والعرب تُسمي تلك النار نار أبي حباحب .

(123/827)

وكان أبي حباحب شيخاً من مُضر في الجاهلية وكان من أبخل الناس ، وكان لا يوقد ناراً لخبز ولا غيره حتى تنام كل ذي عين ، فإذا نام أصحابه وقَدَنويرة تقد مرّة وتخمد مرّة ، فإذا استيقظ بها أحد أطفأها كراهية أن ينتفع بها أحد ، فشبّهت العرب هذه النار بناره ، أي لا ينتفع به كما لا يُنتفعُ بنار أبي حباحب .

ومجاز الآية : والقادحات قدحاً فخالف بين الصدر والمصدر . وقال قتادة : هي الخيل تهيج للحرب ونار العداوة بين أصحابها وفرسانها .

وروى سعيد بن حسن عن ابن عباس قال : هي الخيل تغير في سبيل اللّه ثم تأوي إلى الليل فيصنعون طعامهم ويورون نارهم .

مجاهد وزيد بن أسلم : هي مكر الرجل والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر لصاحبه قال : أما واللّه لأقدحنّ لك ثم لأُورينّ لك .

سعيد بن جُبير : يعني رجال الحرب . عكرمة : هي ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما تتكلّم به .

ابن جريج عن بعضهم : فالمنجّحات عملا كنجاح الوتد إذا أُوريَ . محمد بن كعب : هي النيران بجمع .

﴿ فالمغيرات صُبْحاً ﴾ يعني الخيل ، تغير بفرسانها على العدو وقت الصبح ، هذا قول أكثر المفسّرين .

قال القرظي : هي الأبل تدفع بركبانها يوم النحر من جمع إلى منى ، والسنّة أن لا يدفع حتى يصبح ، والإغارة سرعة السير ، ومنه قولهم : أشرق ثبير كما نغير .

﴿ فَأَثَرْنَ ﴾ فيهيَّجنَ . وقرأ أبو حيوة فأثرن بالتشديد من التأثير به أي بذلك المكان الذي انتهين إليه كناية عن غير مذكور ؛ لأن المعنى مفهوم مشهور .

﴿ نَقْعاً ﴾ أي غباراً ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ ﴾ أي دخلن به وسطهم يقال : وسطت القوم ،

بالتخفيف ، ووسطّهم بالتشديد ، وتوسطتهم كلّها بمعنى واحد ، وقرأ قتادة فوسّطن ، بالتشديد ﴿ جَمْعاً ﴾ أي جمع العدو وهم الكتيبة ، وقال القرظي : يعني جمع منى .

(124/827)

﴿ إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع : لكفور جحود لِنعم اللّه تعالى . قال الكلبي : هو بلسان كندة وحضرموت ، وبلسان معد كلهم : العاصي ، وبلسان مضر وربيعة وقضاعة : الكفور ، وبلسان بني مالك البخيل .

وروى شعبة عن سماك أنه قال : إنما سميت كندة ؛ لأنها قطعت أباها .

وقال ابن سيرين : هو اللوّام لربه . وقال الحسن : هو الذي يعدّ المصائب وينسى النعم ، أخذه الشاعر فقال :

يا أيها الظالمُ في فعله . . . والظلم مردودٌ على من ظَلَمْ

إلى متى أنت وحتى متى . . . تشكو المصيبات وتنسى النِّعم

وأخبرنا أبو القمر بن حبيب في صفر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة قال : أخبرنا أبو جعفر محمد بن أحمد بن سعد الرازي قال : حدّثنا العباس بن حمزة قال : حدّثنا أحمد بن محمد قال : حدّثنا صالح بن محمد قال : حدّثنا سلمة عن جعفر بن الزبير عن القميّ عن أبي أمامة عن

رسول اللّه (عليه السلام) في هذه الآية : ﴿ إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ قال رسول اللّه (عليه السلام) : " أتدرون ما الكنود ؟ " ، فقالوا : اللّه ورسوله أعلم ، قال : " الكنود [قال : هو الكفور الذي] يأكل وحده ، ويمنع رفده ، ويضرب عبده " .

وقال عطاء : الكنود الذي لا يعطي في النائبة مع قومه . وقال أبو عبيدة : هو قليل الخير ، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئًا قال أبو ذبيان :

إن نفسي ولم أطب عنك نفسا . . . غير أنّي أُمنى بدهر كنود

وقال الفضيل بن عياض : الكنود الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة .

(125/827)

وقال أبو بكر الورّاق : الكنود الذي يرى النعمة من نفسه وأعوانه . محمد بن علي الترمذي : هو الذي يرى النعمة ولا يرى المنعم ، وقال أبو بكر الواسطي : هو الذي ينفق نعم اللّه سبحانه في معاصي اللّه ، وقال بسّام بن عبد اللّه : هو الذي يجادل ربّه على عقد العوض . ذو النّون : تفسير الهلوع والكنود قوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ [المعارج : 20-21] .

وقيل : هو الذي يكفر باليسير ولا يشكر الكثير ، وقيل : الحقود ، وقيل : الحسود . وقيل : جهول القدر . وفي الحكمة من جهل قدره هتك ستره . وقال بعضهم والحسن : رأسه على وسادة النعمة وقلبه في ميدان الغفلة . وقيل : يرى ما منهُ ولا يرى ما إليه ، وجمع الكنود كُند . قال الأعشى :

أحدث لها [تحدث] لوصلك أنّها . . . كند لوصل الزائر المعتاد

﴿ وَإِنَّهُ على ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ قال أكثر المفسّرين : وإن الّله على كنود هذا الإنسان وصنيعه لشاهد ، وقال ابن كيسان : ال (هاء) راجعة إلى الإنسان ، يعني أنّه شاهد على نفسه بما يصنع ، ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني الإنسان ﴿ لِحُبِّ الخير ﴾ أي المال .

وقال ابن زيد : سمّى الّله المال خيراً وعسى أن يكون خبيثاً وحراماً ولكن الناس يعدّونه خيراً فسمّاه الّله خيراً ؛ لأن الناس يسمّونه خيراً وسمي الجهاد سوءاً فقال :

﴿ فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ الله وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء ﴾ [آل عمران : 174] أي قتال . وليس هو عند الله بسوء ولكن سمّاه الّله سوءاً ؛ لأنّ الناس يسمّونه سوءاً .

ومعنى الآية وإنه من أجل حبّ المال ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ بخيل ، ويقال للبخيل : شديد ومتشدّد ، قال طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي . . . عقيلة مال الفاحش المتشدّد

والفاحش: البخيل أيضاً قال الله سبحانه: ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِالفَحشَآءِ ﴾ [البقرة: 268] أي البخل، وقيل: معناه: وإنّه لحب الخير لقويّ، وقال الفرّاء: كان موضع الحب أن يكون بعد شديد وأن يضاف شديد إليه فيقال: وإنّه لشديد الحبّ للخير، فلمّا يقدم الحبّ قبل شديد وحذف من آخره لمّا جرى ذكره في أوله، ولرؤوس الآيات كقوله سبحانه: ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم: 18] والعصوف لا يكون للأيّام إنّما يكون للريح، فلمّا جرى ذكر الريح قبل اليوم طرحت من آخره كأنه قيل: في يوم عاصف الريح.

﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ يُحث وأثير، قال الفرّاء: وسمعت بعض أعراب بني أسد يقرأ: بُحثر بالحاء وقال: هما لغتان.

﴿ مَا فِي القبور ﴾ فأُخرجوا منها ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصدور ﴾ أي مُيِّز وأُبرز ما فيها من خير أو شرّ، وقرأ عبيد بن عمير وسعيد بن جُبير حَصَل بفتح الحاء وتخفيف الصاد أي ظهر.

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ ﴾ جمع الكناية لانّ الإنسان اسم الجنس.

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ عالم، والقراءة بكسر الألف لأجل اللام، ولولاها لكانت مفتوحة بوقوع العلم عليها. وبلغني أن الحجاج بن يوسف قرأ على المنبر هذه السورة يحضُّ الناس على الغزو فجرى على لسانه: أنّ ربهم بفتح الألف ثم استدركها من جهة العربية فقال:

خبير، وأسقط اللام. انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشف والبيان حـ 10 صـ 268. 273﴾

(127/827)

وقال الزمخشرى:

سورة العاديات

مكية، وقيل مدنية، وآياتها 11 [نزلت بعد العصر] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة العاديات (100) : الآيات 1 إلى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعادِياتِ ضَبْحاً (1) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (2) فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (5) إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أَفَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ (9)

وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)

أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح. والضبح: صوت أنفاسها إذا عدون. وعن ابن عباس أنه حكاه فقال: أحاح. قال عنترة:

والخيل تكدح حين تضبح في حياض الموت ضبحا «1» وانتصاب ضبحا على: يضبحن ضبحا، أو بالعاديات، كأنه قيل: والضابحات، لأن الضبح يكون مع العدو «2». أو على الحال، أى: ضابحات فَالْمُورِياتِ تورى نار الحباحب «3»

---

(1). الكدح: الجد في العدو، والضبح: إخراج النفس بصوت غير الصهيل والحمحمة. وحكاه ابن عباس في التفسير فقال: أح أح، وشبه الموت بالسيل على طريق المكنية، والحياض تخييل لذلك.

(2). قال محمود: «أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح والضبح صوت أنفاسها... الخ» قال أحمد: ولم يذكر حكمة الإتيان بالفعل معطوفا على الاسم، فنقول: إنما عطف فَأَثَرْنَ على الاسم الذي هو الْعادِياتِ وما بعده لأنها أسماء فاعلين، تعطى معنى الفعل. وحكمة مجيء هذا المعطوف فعلا عن اسم فاعل: تصوير هذه الأفعال في النفس، فان التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم، لما بينهما من التخالف: وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة، وكذلك التصوير بالمضارع بعد الماضي، وقد تقدمت له شواهد أقربها قول ابن معديكرب:

بأنى لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان

فاضربها بلا دهش فخرت صريعا لليدين وللجران

(3). قوله «توري نار الحباحب» الحباحب: اسم رجل بخيل كان لا يوقد إلا نارا ضعيفة

مخافة الضيفان، فضربوا به المثل حتى قالوا: نار الحباحب: لما تقدحه الخيل بحوافرها. اه

من الصحاح. (ع)

(128/827)

وهي ما ينقدح من حوافرها قَدْحاً قادحات صاكات بحوافرها الحجارة. والقدح.

الصك.

والإيراء. إخراج النار. تقول. قدح فأورى، وقدح فأصلد «1»، وانتصب قدحا بما

انتصب به ضبحا فَالْمُغِيراتِ تغير على العدو صُبْحاً في وقت الصبح فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فهيجن

بذلك الوقت غبارا فَوَسَطْنَ بِهِ بذلك الوقت، أو بالنقع، أى وسطن النقع الجمع.

أو فوسطن ملتبسات به جَمْعاً من جموع الأعداء، ووسطه بمعنى توسطه. وقيل: الضمير

لمكان الغارة. وقيل: للعدو الذي دلّ عليه وَالْعادِياتِ ويجوز أن يراد بالنقع: الصياح، من

قوله عليه السلام «ما لم يكن نقع ولا لقلقة «2»» وقول لبيد:

فمتى ينقع صراخ صادق «3»

أى: فهيجن في المغار عليهم صياحا وجلبة «4». وقرأ أبو حيوة: فأثرن بالتشديد،

بمعنى: فأظهرن به غبارا، لأن التأثير فيه معنى الإظهار. أو قلب ثورن إلى وثرن، وقلب

الواو همزة . وقرئ :

فوسطن بالتشديد للتعدية . والباء مزيدة للتوكيد ، كقوله وَأُتُوا بِهِ وهي مبالغة في وسطن .

وعن ابن عباس : كنت جالسا في الحجر فجاء رجل فسألنى عن الْعادِياتِ ضَبْحاً

ففسرتها بالخيل ، فذهب إلى علىّ وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت ، فقال :

ادعه لي ، فلما وقفت على رأسه قال : تفتي الناس بما لا علم لك به ، واللّه إن كانت لأول

غزوة في الإسلام بدر ،

---

(1) . قوله «فأصلد» في الصحاح : صلد الزند ، إذا صوت ولم يخرج ثارا ، وأصلد الرجل : أى صلد زنده اه . (ع)

(2) . لم أجده مرفوعا . وإنما ذكره البخاري في الجنائز تعليقا عن عمر . قال «دعهن يبكين على أبى سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة» قال : والنقع التراب على الرأس واللقلقة الصوت . ووصله عبد الرزاق والحاكم وابن سعد وأبو عبيد والحربي في الغريب كلهم من طريق الأعمش عن أبى وائل قال «و قيل لعمر : إن نسوة من بنى المغيرة قد اجتمعن في دار خالد بن الوليد يبكين عليه . وإنا نكره أن يؤذينك . فلو نهيتهن فقال : ما عليهن أن يهرقن من دموعهن على أبى سليمان - سجلا أو سجلين ما لم يكن نقع أو لقلقة» وفي رواية ابن سعد قال : وكيع : النقع الشق . واللقلقة الصوت . وقال بعضهم : رفع التراب على الرأس وشق الجيوب . وأما اللقلقة فهي شدة الصوت .

ولم أسمع فيه خلافا . وقال الحربي عن الأصمعي . النقع الصياح . وعن أبى سلمة هو وضع التراب على الرأس .

(3) فمتى ينقع صراخ صادق جلبوه ذات جرس وزجل

للبيد بن ربيعة . وجلب على فرسه وأجلب : إذا صاح به وحثه على السبق . وجلب بالتشديد - : صوت . والجرس الصوت الخفي . والزجل : صوت كدوي النحل . يقول : فمنى يرتفع صراخ للحرب صادق صرخوه ذات جرس ، أى : كتيبة ذات جرس ، وهو بدل من فاعل جلبوه . أو جاء على لغة أكلونى البراغيث . والمعنى : أن الصوت المنخفض ملازم لها ، بخلاف المرتفع . ويجوز أن «جلبوه» جواب الشرط . ويجوز أنه صفة صراخ ، وجواب الشرط فيما بعده ، وهو أقرب من الأول .

(4) . قوله «صباحا وجلبة» في الصحاح : الجلب والجلبة : الأصوات . (ع)

(129/827)

وما كان معنا إلا فرسان : فرس للزبير وفرس للمقداد الْعادِياتِ ضَبْحاً الإبل من عرفة إلى المزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى «1» ، فإن صحت الرواية فقد استعير الضبح للإبل ، كما استعير المشافر والحافر للإنسان ، والشفتان للمهر ، والثفر للثورة «2» وما أشبه ذلك .

وقيل الضبح لا يكون إلا للفرس والكلب والثعلب . وقيل : الضبح بمعنى الضبع ، يقال : ضبحت الإبل وضبعت : إذا مدت أضباعها في السير ، وليس بثبت . وجمع : هو المزدلفة . فإن قلت : علام عطف فَأَثَرْنَ ؟ قلت : على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه ، لأنّ المعنى : واللاتي عدون فأورين ، فأغرن فأثرن . الكنود : الكفور . وكند النعمة كنودا . ومنه سمى : كندة ، لأنه كند أباه ففارقه . وعن الكلبي : الكنود بلسان كندة : العاصي ، وبلسان بنى مالك : البخيل ، وبلسان مضر وربيعة : الكفور ، يعنى : أنه لنعمة ربه خصوصا لشديد الكفران ، لأن تفريطه في شكر نعمة غير اللّه تفريط قريب لمقاربة النعمة ، لأن أجلّ ما أنعم به على الإنسان من مثله نعمة أبويه ، ثم إن عظماها في جنب أدنى نعمة اللّه قليلة ضئيلة وَإِنَّهُ وإنّ الإنسان عَلى ذلِكَ على كنوده لَشَهِيدٌ يشهد على نفسه ولا يقدر أن يجحده لظهور أمره . وقيل :

وإنّ اللّه على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد الْخَيْرِ المال من قوله تعالى إِنْ تَرَكَ خَيْراً والشديد : البخيل الممسك . يقال : فلان شديد ومتشدّد . قال طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد «3»

يعنى : وإنه لأجل حب المال وأن إنفاقه يثقل عليه : لبخيل ممسك . أو أراد بالشديد : القوى ، وأنه لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوى مطيق ، وهو لحب عبادة اللّه وشكر نعمته ضعيف متقاعس . تقول : هو شديد لهذا الأمر ، وقوىّ له : إذا كان مطيقا له ضابطا . أو

أراد : أنه لحب الخيرات غير هش منبسط ، ولكنه شديد منقبض بُعْثِرَ بعث . وقرئ : بحثر ، وبحث . وبحثر ، وحصل : على بنائهما للفاعل . وحصل : بالتخفيف . ومعنى حُصِّلَ جمع في

---

(1) . أخرجه الطبري والحاكم من رواية أبى صخر عن أبى معاوية البجلي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وأخرجه الثعلبي وابن مردويه من هذا الوجه .

(2) . قوله «للمهر والنفر الثورة» النفر السباع كالحياء للناقة ، وربما استعير بغيرها .

والثورة : تأنيث الثور .

قال الأخطل :

جزى اللّه عنا الأعورين ملاحة وفروة ثفر الثور المتضاجم

وفروة : اسم رجل . والمتضاجم : المعوج الفم اه من هامش . (ع)

(3) . لطرفة بن العبد في معلقته . واعتام يعتام اعتياما : اختار اختيارا . والعقيلة من كل شيء : أكرمه . يقول :

أرى الموت يختار الكرام فيأخذها ، ويصطفى أعز مال البخيل الشديد الإمساك فيبقيه .

وقيل : فيأخذه أيضا .

الصحف ، أى : أظهر محصلا مجموعا . وقيل : ميز بين خيره وشره . ومنه قيل للمنخل : المحصل .

ومعنى علمه بهم يوم القيامة : مجازاته لهم على مقادير أعمالهم ، لأنّ ذلك أثر خبره بهم .

وقرأ أبو السمال : إنّ ربهم بهم يومئذ خبير .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم : «من قرأ سورة والعاديات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعا» «1» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 4 صـ 786 . 789 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بسندهم إلى أبى بن كعب .

(131/827)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾

في العاديات قولان :

أحدهما : أنها الخيل في الجهاد ، قاله ابن عباس وأنس والحسن ، ومنه قول الشاعر :

وطعنةٍ ذاتِ رشاشٍ واهيهْ . . . طعنْتُها عند صدور العاديْه

يعني الخيل .

الثاني : أنها الإبل في الحج ، قاله عليٌّ رضي الله عنه وابن مسعود ومنه قول صفية بنت عبد المطلب :

فلا والعاديات غَداة جَمْعٍ . . . بأيديها إذا صدع الغبار

يعني الإبل ، وسميت العاديات لاشتقاقها من العدو ، وهو تباعد الرجل في سرعة المشي ؛ وفي قوله " ضبحاً " وجهان :

أحدهما : أن الضبح حمحمة الخيل عند العدو ، قاله من زعم أن العاديات الخيل .

الثاني : أنه شدة النّفس عند سرعة السير ، قاله من زعم أنها الإبل ، وقيل إنه لا يضبح بالحمحمة في عدوه إلا الفرس والكلب ، وأما الإبل فضبحها بالنفَس ؛ وقال ابن عباس : ضبحها : قول سائقها أجأح ؛ وهذا قَسَمٌ ،

﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ فيه ستة أقاويل :

أحدها : أنها الخيل توري النار بحوافرها إذا جرت من شدة الوقع ، قاله عطاء .

الثاني : أنها نيران الحجيج بمزدلفة ، قاله محمد بن كعب .

الثالث : أنها نيران المجاهدين إذا اشتعلت فكثرت نيرانها إرهاباً ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنها تهيج الحرب بينهم وبين عدوهم ، قاله قتادة .

الخامس : أنه مكر الرجال ، قاله مجاهد ؛ يعني في الحروب .

السادس : أنها الألسنة إذا ظهرت بها الحجج وأقيمت بها الدلائل وأوضح بها الحق وفضح بها الباطل ، قاله عكرمة ، وهو قَسَمٌ ثانٍ .

﴿ فالمغيرات صُبْحاً ﴾ فيها قولان :

أحدهما : أنها الخيل تغير على العدو صبحاً ، أي علانية ، تشبيهاً بظهور الصبح ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها الإبل حين تعدو صبحاً من مزدلفة إلى منى ، قاله عليّ رضي الله عنه .

﴿ فأثَرن به نَقْعاً ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : فأثرن به غباراً ، والنقع الغبار ، قاله قتادة ، وقال عبد الله بن رواحة :

عدمت بُنَيّتي إن لم تَروْها . . . تثير النقْعَ من كنفي كَداءِ

الثاني : النقع ما بين مزدلفة إلى منى ، قاله محمد بن كعب .

الثالث : أنه بطن الوادي ، فلعله يرجع إلى الغبار المثار من هذا الموضع .

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ فيه قولان :

أحدهما : جمع العدو حتى يلتقي الزخف ، قاله ابن عباس والحسن .

الثاني : أنها مزدلفة تسمى جمعاً لاجتماع الحاج لها وإثارة النقع في الدفع إلى منى ، قاله مكحول .

﴿ إِنَّ الإنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ فيه سبعة أقاويل :

أحدها : لكفور قاله قتادة ، والضحاك ، وابن جبير ، ومنه قول الأعشى :

أَحْدِثْ لها تحدث لوصْلك إنها . . . كُنُدٌ لوصْلِ الزائِرِ المُعْتادِ

وقيل : إن الكنود هو الذي يكفر اليسير ولا يشكر الكثير .

الثاني : أنه اللوام لربه ، يذكر المصائب وينسى النعم ، قاله الحسن ، وهو قريب من المعنى الأول .

الثالث : أن الكنود الجاحد للحق ، وقيل إنما سميت كندة لأنها جحدت أباها ، وقال إبراهيم بن زهير الشاعر :

دع البخلاءَ إن شمخوا وصَدُّوا . . . وذكْرى بُخْلِ غانيةٍ كَنُودِ

الرابع : أن الكنود العاصي بلسان كندة وحضرموت ، وذكره يحيى بن سلام .

الخامس : أنه البخيل بلسان مالك بن كنانة ، وقال الكلبي : الكنود بلسان كندة وحضرموت : العاصي ، وبلسان مضر وربيعة : الكفور ، وبلسان مالك بن كنانة :

البخيل .

السادس : أنه ينفق نعم الله في معاصي الله .

السابع : ما رواه القاسم عن أبي أمامه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الكنود الذي يضرب عبده ويأكل وحده ويمنع رفده " وقال الضحاك : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وعلى هذا وقع القسم بجميع ما تقدم من السورة .

﴿ وإنَّه على ذلك لَشهيدٌ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الله تعالى على كفر الإنسان لشهيد ، قاله ابن جريج .

الثاني : أن الإنسان شاهد على نفسه ، لأنه كنود ، قاله ابن عباس .

﴿ وإنه لِحُبِّ الخيرِ لشديدٌ ﴾ يعني الإنسان ، وفي الخير ها هنا وجهان :

أحدهما : المال ، قاله ابن عباس ، ومجاهد وقتادة .

الثاني : الدنيا ، قاله ابن زيد .

ويحتمل ثالثاً : أن الخير ها هنا الاختيار ، ويكون معناه : وإنه لحب اختياره لنفسه لشديد .

وفي قوله ﴿ لشديد ﴾ وجهان :

أحدهما : لشديد الحب للخير ، وشدة الحب قوته وتزايده .

الثاني : لشحيح بالمال يمنع حق الله منه ، قاله الحسن ، من قولهم فلان شديد أي شحيح .

﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إذا بُعْثِرَ ما في القُبورِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : من فيها من الأموات .

الثاني : معناه مات .

الثالث : بحث ، قاله الضحاك ، وهي في قراءة ابن مسعود : بُحْثِرَ ما في القبور .

﴿ وحُصِّلَ ما في الصُّدُورِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : ميز ما فيها ، قاله الكلبي .

الثاني : استخرج ما فيها .

الثالث : كشف ما فيها .

﴿ إنَّ ربَّهم بهم يومئذٍ لَخبيرٌ ﴾ أي عالم ، ويحتمل وجهين :

أحدهما : لخبير بما في نفوسهم .

الثاني : لخبير ، بما تؤول إليه أمورهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 326.323 ﴾

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) ﴾

قوله تعالى : ﴿ والعاديات ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أنها الإبل في الحج ، قاله علي ، وابن مسعود ، وعبيد بن عمير ، والقرظي ، والسدي .

وروي عن علي أنه قال : و "العاديات ضبحاً" من عرفة إلى المزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى ، وروي عن علي أنه قال هذا في صفة وقعة بدر .

قال : وما كان معنا يومئذ إلا فرس .

وفي بعض الحديث أنه كان معهم فرسان .

والثاني : أنها الخيل في سبيل الله ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وعطاء ، ومجاهد ، وأبو العالية ، وعكرمة ، وقتادة ، وعطية ، والربيع ، واللغويون .

وكان ابن عباس يذهب إلى أن هذا كان في سريَّة ، فروى عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خيلاً ، فلم يأته خبرها شهراً ، فنزلت "والعاديات ضبحاً" ضبحت بمناخرها ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قدحت بحوافرها الحجارة فأورت ناراً ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ صبحت القوم بغارة ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ أثارت بحوافرها التراب

﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ قال: صبحت الحي جميعاً.

وقال مقاتل: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سريَّة إلى حَيَّيْن من كنانة واستعمل عليها المنذر بن عمرو الأنصاري، فأبطأ عنه خبرها، فجعل اليهود والمنافقون إذا رأوا رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تناجَوْا، فيظن الرجل أنه قد قُتِلَ أخوه أو أبوه، أو عمه، فيجد من ذلك حزناً، فنزلت "والعاديات ضبحاً" فأخبر الله كيف فعل بهم.

قال الفراء: الضبح: أصوات أنفاس الخيل إذا عَدَوْنَ.

وقال ابن قتيبة: الضبح: صوت حلوقها إذا عَدَتْ.

وقال الزجاج: ضبحها: صوت أجوافها إذا عَدَتْ.

قوله تعالى: ﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ فيه خمسة أقوال.

أحدها: أنها الخيل تُوري النار بحوافرها إذا جرت، وهذا قول الجمهور.

قال الزجاج: إذا عدت الخيل بالليل، فأصابت بحوافرها الحجارة، انقدحت منها النيران.

والثاني : أنها نيران المجاهدين إذا أُوقدت ، روي عن ابن عباس .

والثالث : مَكْرُ الرجال في الحرب ، قاله مجاهد ، وزيد بن أسلم .

والرابع : نيران الحجيج بالمزدلفة ، قاله القرظي .

والخامس : أنها الألسنة إذا ظهرت بها الحجج وأُقيمت بها الدلائل على الحق وفضح بها الباطل ، قاله عكرمة .

قوله تعالى : ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ هي التي تغير على العَدُوِّ عند الصباح ، هذا قول الأكثرين .

وقال ابن مسعود : فالمغيرات صبحاً حين يُفيضون من جمع .

قوله تعالى : ﴿ فأَثَرْنَ به ﴾ قال الفراء : يريد بالوادي ولم يذكره قبل ذلك ، وهذا جائز ، لأن الغبار لا يثار إلا من موضع .

والنقع : الغبار ، ويقال : التراب .

وقال الزجاج : المعنى : فأثرن بمكان عَدْوِهِنَّ ، ولم يتقدم ذكر المكان ، ولكن في الكلام دليل عليه ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ قال المفسرون : المعنى : توسطن جمعاً من العدو ، فأغارت عليهم .

وقال ابن مسعود : فوسطن به جمعاً ، يعني مزدلفة .

قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ هذا جواب القسم .

والإنسان هاهنا : الكافر .

قال الضحاك : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وقال مقاتل : نزلت في قرط بن عبد الله بن عمرو بن نوفل القرشي .

وفي "الكَنُود" ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الذي يأكل وحده ، ويمنع رِفْده ، ويضرب عبده ، رواه أبو أُمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أنه الكفور ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك .

والثالث : لَوّام لِرَبِّه يَعُدُّ المصيبات ، وينسى النِّعَم ، قاله الحسن .

قال ابن قتيبة : والأرض الكنود : التي لا تُنْبِتُ شيئاً .

قوله تعالى : ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الله عز وجل ، [تقديره] : وإن الله على كفره لشهيد .

والثاني : أنها ترجع إلى الإنسان ، فتقديره : إن الإنسان شاهد على نفسه أنه كنود ، روي القولان عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ وإنه ﴾ يعني : الإنسان ﴿ لحبِّ الخير ﴾ يعني : المال ﴿ لشديدٌ ﴾ .

وفي معنى الآية قولان .

أحدهما : وإنه من أجل حُبِّ المال لبخيلٌ ، هذا قول الحسن ، وابن قتيبة ، والزجاج .

قال أبو عبيدة : ويقال للبخيل : شديد ، ومُتَشَدِّدٌ .

قال طرفة :

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَام ويَصْطَفي . . .

عَقِيلَةَ مَالِ البَاخِلِ المُتَشَدِّدِ

والثاني : وإنه للخير لشديد الحبِّ ، وهذا اختيار الفراء .

قال : فكأن الكلمة لمَّا تقدم فيها الحب ، وكان موضعه أن يضاف إليه "شديد" ، حذف الحبّ من آخره لما جرى ذكره في أوله ، ولرؤوس الآي .

ومثله ﴿ اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴾ [إبراهيم : 18] فلما جرى ذكر الريح قبل اليوم طرحت من آخره .

قوله تعالى : ﴿ أفلا يعلم ﴾ يعني : الإنسان المذكور ﴿ إذا بُعْثِرَ ما في القبور ﴾ أي : أُثير وأُخرج ﴿ وحُصِّل ما في الصدور ﴾ أي : مُيِّز واستُخرج .

والتحصيل : تمييز ما يحصل .

وقال ابن عباس : أُبرز ما فيها وقال ابن قتيبة : مُيِّزَ ما فيها من الخير والشر .

وقال أبو سليمان الدمشقي : المعنى : لو علم الإنسان الكافر ما له في ذلك اليوم لزهد في الكفر ، وبادر إلى الإسلام .

ثم ابتدأ فقال تعالى : ﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ وقال غيره : إنما قرئت "إن" بالكسر لأجل اللام ، ولولاها كانت مفتوحة بوقوع العلم عليها .

فإن قيل : أليس الله خبيراً بهم في كل حال ، فلم خص ذلك اليوم ؟

فالجواب أن المعنى : أنه يجازيهم على أفعالهم يومئذ ، ومثله ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ﴾ [النساء : 63] ، ومعناه : يجازيهم على ذلك ، ومثله : ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ [غافر : 16] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 212.206 ﴾

(137/827)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾

فيه قولان أحدهما ، أنها الإبل في الحج قال عليّ كرم الله وجهه : هي الإبل تعدو من عرفة إلى المزدلفة ومن المزدلفة إلى منى ، وعنه قال كانت أول غزاة في الإسلام بدراً ، وما كان

معنا إلا فرسان فرس للزّبير، وفرس للمقداد بن الأسود، فكيف تكون العاديات؟ فعلى هذا القول يكون معنى ضبحها مد أعناقها في السير وأصله من حركة النار في العود.

﴿ فالموريات قدحاً ﴾ يعني أن أخفاف الإبل ترمي بالحجارة من شدة عدوها فيضرب الحجر حجراً آخر فيوري النّار، وقيل هي النيران بجمع ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ يعني الإبل تدفع بركبانها يوم النّحر من جمع إلى منى والسنة أن لا يدفع حتى يصبح والإغارة سرعة السير، ومنه قولهم أشرق ثبير كيما نغير ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ أي هيجن بمكان سيرها غباراً.

(138/827)

﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ أي وسطن بالنقع جمعاً وهو مزدلفة، فوجه القسم على هذا أن الله تعالى أقسم بالإبل لما فيها من المنافع الكثيرة، وتعريضه بإبل الحج للتّرغيب وفيه تقريع لمن لم يحج بعد القدرة عليه، فإن الكنود هو الكفور، ومن لم يحج بعد الوجوب موصوف بذلك القول الثاني في تفسير والعاديات، قال ابن عباس وجماعة هي الخيل العادية في سبيل الله والضبح صوت أجوافها إذا غدت قال ابن عباس: وليس شيء من الحيوانات يضبح سوى الفرس، والكلب، والثعلب، وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغير حالها من فزع أو

تعب ، وهو من قول العرب ضبحته النّار إذا غيرت لونه ، ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ يعني أنها توري النّار بحوافرها إذا سارت في الحجارة ، وقيل هي الخيل تهيج الحرب ونار العداوة بين فرسانها وقال ابن عباس : هي الخيل تغزو في سبيل الله ثم تأوي باللّيل فيوري أصحابها ناراً ، ويصنعون طعامهم ، وقيل هو مكر الرّجال في الحرب ، والعرب تقول إذا أراد الرجل أن يمكر بصاحبه أما والله لأقدحن لك ثم لأورين لك ، ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ يعني الخيل تغير بفرسانها على العدو عند الصّباح لأن النّاس في غفلة في ذلك الوقت عن الاستعداد ، ﴿ فأثرن به ﴾ أي بالمكان ﴿ نقعاً ﴾ أي غباراً ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ أي دخلن به أي بذلك النّقع وهو الغبار ، وقيل صرن بعدوهن وسط جمع العدو ، وهم الكتيبة وهذا القول في تفسير هذه الآيات أولى بالصّحة ، وأشبه بالمعنى ، لأن الضبح من صفة الخيل ، وكذا إيراء النار بحوافرها ، وإثارة الغبار أيضاً ، وإنما أقسم الله بخيل الغزاة لما فيها من المنافع الدينية ، والدنيوية ، والأجر ، والغنيمة ، وتنبيهاً على فضلها ، وفضل رباطها في سبيل الله عزّ وجلّ ، ولما ذكر الله تعالى المقسم به ذكر المقسم عليه .

فقال تعالى : ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ أي لكفور وهو جواب القسم قال ابن عباس : الكنود الكفور الجحود لنعمة الله تعالى ، وقيل الكنود هو العاصي ، وقيل هو الذي يعد المصائب ، وينسى النّعم ، وقيل هو قليل الخير مأخوذ من الأرض الكنود ، وهي التي لا تنبت شيئاً ، وقال الفضيل بن عياض الكنود : الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان ، وضده الشّكور الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ قال أكثر المفسرين : وإن الله على كونه كنود الشّاهد ، وقيل الهاء راجعة إلى الإنسان ، والمعنى أنه شاهد على نفسه بما صنع ﴿ وإنه ﴾ يعني الإنسان ﴿ لحب الخير ﴾ أي المال ﴿ لشديد ﴾ أي لبخيل والمعنى أنه من أجل حب المال لبخيل ، وقيل معناه وإنه لحب المال وإيثار الدّنيا لقوي شديد ﴿ أفلا يعلم ﴾ يعني هذا الإنسان ﴿ إذا بعثر ﴾ أي أثير وأخرج ﴿ ما في القبور ﴾ يعني من الموتى ﴿ وحصل ما في الصدور ﴾ أي ميز وأبرز ما فيها من الخير والشر ﴿ إن ربهم بهم ﴾ أي جمع الكناية لأن الإنسان اسم جنس ﴿ يومئذ لخبير ﴾ أي عالم والله تعالى خبير بهم في ذلك اليوم ، وفي غيره ، ولكن المعنى أنه يجازيهم في ذلك اليوم على كفرهم وإنما خص أعمال القلوب بالذّكر في قوله ، ﴿ وحصل ما في الصّدور ﴾ لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب ، فإنه لولا البواعث والإرادات التي في القلوب لما حصلت أعمال الجوارح والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن جـ 7 صـ 282 . 284 ﴾

وقال النسفى :

سورة الْعَادِيَاتِ

مختلف فيها وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾

أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح ، والضبح : صوت أنفاسها إذا عدون .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه حكاه فقال : أحأح .

وانتصاب ﴿ ضَبْحاً ﴾ على يضبحن ضبحاً ﴿ فالموريات ﴾ تورى نار الحباحب وهي ما ينقدح من حوافرها ﴿ قَدْحاً ﴾ قادحات صاكات بحوافرها الحجارة ، والقدح : الصك ، والإيراء : إخراج النار ، تقول : قدح فأورى وقدح فأصلد .

وانتصب ﴿ قَدْحاً ﴾ بما انتصب به ﴿ ضَبْحاً ﴾ ﴿ فالمغيرات ﴾ تغير على العدو ﴿ صُبْحاً ﴾ في وقت الصبح ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ فهيجن بذلك الوقت غباراً ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ ﴾ بذلك الوقت ﴿ جَمْعاً ﴾ من جموع الأعداء ووسطه بمعنى توسطه .

وقيل : الضمير لمكان الغارة أو للعدو الذي دل عليه .

﴿ والعاديات ﴾ وعطف ﴿ فَأَثَرْنَ ﴾ على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه لأن المعنى واللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن .

وجواب القسم ﴿ إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ لكفور أي إنه لنعمة ربه خصوصاً لشديد الكفران ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ وإن الإنسان ﴿ على ذلك ﴾ على كنوده ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ يشهد على نفسه ، أو وإن الله على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ ﴾ وإنه لأجل حب المال لبخيل ممسك ، أو إنه لحب المال لقوي وهو لحب عبادة الله ضعيف ﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ ﴾ الإنسان ﴿ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ بعث ﴿ مَا فِى القبور ﴾ من الموتى و"ما" بمعنى "من" ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى الصدور ﴾ ميز ما فيها من الخير والشر ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ لعالم فيجازيهم على أعمالهم من الخير والشر ، وخص ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ بالذكر وهو عالم بهم في جميع الأزمان لأن الجزاء يقع يومئذ والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 373 ﴾

(141/827)

وقال ابن جزى :

سورة الْعَادِيَاتِ

اختلف في العاديات والموريات والمغيرات هل يراد بها الخيل أو الإبل ؟ وعلى القول بأنها الخيل اختلف هل يعني خيل المجاهدين أو الخيل على الاطلاق ؟ وعلى القول بأنها الإبل اختلف هل يعني إبل غزوة بدر أو إبل المجاهدين مطلقاً ، أو إبل الحجاج أو الإبل على الاطلاق ؟ ومعنى العاديات التي تعدو في مشيها ، والضبح هو تصويت جهير عند العدو الشديد ، ليس بصهال . وهو مصدر منصوب على تقدير : يضبحن ضبحاً أو هو مصدر في موضع الحال تقديره : العاديات في حال ضبحها ، والموريات من قولك أوريت النار إذا أوقدتها ، والقدح هو صك الحجارة فيخرج منها شعلة نار . وذلك عند ضرب الأرض لأرجل الخيل أو الإبل ، وإعراب قدحاً كإعراب صبحاً ، والمغيرات من قولك : أغارات الخيل إذا خرجت للإغارة على الأعداء ، وصبحاً ظرف زمان لأن عادة أهل الغارة في الأكثر أن يخرجوا في الصباح ﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ هذه الجملة معطوفة على العاديات وما بعده لأنه تقدير التي تعدو ، والنقع : الغبار والضمير المجرور للوقت المذكور وهو الصبح ، فالباء ظرفية أو لكان الذي تقتضيه المعنى ، فالباء أيضاً ظرفية أو للعَدْو ، وهو المصدر الذي يقتضيه العاديات . فالباء سببية ، ومعنى أثرن حركن والضمير الفاعل للإبل أو للخيل أي حركن الغبار عند مشيهن ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ معنى وسطن توسطن ،

وجمعاً اختلف هل المراد به جمع من الناس أو المزدلفة لأن اسمها جمع والضمير المجرور للوقت أو للمكان أو للعدو أو للنقع .

(142/827)

﴿ إِنَّ الإنسان لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ هذا جواب القسم والكنود الكفور للنعمة فالتقدير : إن الإنسان لنعمة ربه لكفور ، والإنسان جنس ، وقيل : الكنود العاصي ، وقال بعض الصوفية : الكنود هو الذي يعبد الله على عوض ﴿ وَإِنَّهُ على ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ الضمير للإنسان أي هو شاهد على نفسه بكنوده ، وقيل : هو الله تعالى على معنى التهديد : والأول أرجح لأن الضمير الذي بعده الإنسان بإتفاق ، فيجري الكلام على نسق واحد ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ ﴾ الخبر هنا المال ، كقوله : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْراً ﴾ [البقرة : 180] والمعنى أن الإنسان شديد الحب للمال ، فهو ذم لحبه والحرص عليه ، وقيل : الشديد : البخيل ، والمعنى على هذا أنه بخيل من أجل حب المال ، والأول أظهر ، ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي القبور ﴾ اي بحث عند ذلك عبارة عن البعث ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصدور ﴾ أي جمع ما في الصحف وأظهر محصلاً أو ميز خيره من شره ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ الضمير في ربهم وبهم يعود على الإنسان ، لأنه يراد به الجنس وفي هذه الجملة وجهان : أحدهما أن

هذه الجملة معمول " أفلا يعلم " فكان الأصل أن تفتح إن ، ولكنها كسرت من أجل اللام التي في خبرها ، الثاني : أن تكون هذه الجملة مستأنفة ويكون معمول " أفلا يعلم " محذوفاً ويكون الفاعل ضميراً يعود على الإنسان والتقدير : أفلا يعلم الإنسان حاله وما يكون منه إذا بعثر ما في القبور ؟ وهذا هو الذي قاله ابن عطية : ويحتمل عندي أن يكون فاعل " أفلا يعلم " ضميراً يعود على الله ، والمفعول محذوف والتقدير : أفلا يعلم الله أعمال الإنسان إذا بعثر ما في القبور ، ثم استأنف قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ على وجه التأكيد ، أو البيان للمعنى المتقدم ، والعامل في إذا بعثر على هذا الوجه هو : أفلا يعلم ، والعمل فيه على مقتضى قول ابن عطية هو المعفول المحذوف ، وإذا هنا

ظرفية بمعنى حين ووقت وليست بشرطية ، والعامل في يومئذ خبير ، وإنما حض ذلك بيوم القيامة لأنه يوم الجزاء بقصد التهديد ، مع أن الله خبير على الإطلاق . انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 4 صـ 214.215 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة الْعَادِيَاتِ

مختلف فيها ، وآيها إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ والعاديات ضَبْحاً ﴾

أقسم سبحانه بخيل الغزاة تعدو فتضبح ضبحاً ، وهو صوت أنفاسها عند العدو ونصبه بفعله المحذوف ، أو ب ﴿ العاديات ﴾ فإنها تدل بالالتزام على الضابحات ، أو ضبحاً حال بمعنى ضابحة .

﴿ فالموريات قَدْحاً ﴾ فالتي توري النار ، والإِيراء إخراج النار يقال قدح الزند فأورى .

﴿ فالمغيرات ﴾ يغير أهلها على العدو . ﴿ صُبْحاً ﴾ أي في وقته .

﴿ فَأَثَرْنَ ﴾ فهيجن . ﴿ بِهِ ﴾ بذلك الوقت . ﴿ نَقْعاً ﴾ غباراً أو صياحاً .

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ ﴾ فتوسطن بذلك الوقت أو بالعدو ، أو بالنقع أي ملتبسات به . ﴿ جَمْعاً ﴾ من جموع الأعداء ، " روي : أنه عليه الصلاة والسلام بعث خيلاً فمضت أشهر لم يأته منهم خبر فنزلت " . ويحتمل أن يكون القسم بالنفوس العادية أثر كما لهن الموريات بأفكارهن أنوار المعارف ، والمغيرات على الهوى والعادات إذا ظهر لهن مثل أنوار القدس ،

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ ﴾ شوقاً ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ من مجموع العليين .

﴿ إِنَّ الإِنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ لكفور من كَنَدِ النعمة كنوداً ، أو لعاص بلغة كندة ، أو لبخيل بلغة بني مالك وهو جواب القسم .

﴿ وَإِنَّهُ على ذَلِكَ ﴾ وإن الإنسان على كنوده ﴿ لَشَهِيدٌ ﴾ يشهد على نفسه لظهور أثره عليه ، أو أن الله سبحانه وتعالى على كنوده لشهيد فيكون وعيداً .

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير ﴾ المال من قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ أي مالاً . ﴿ لَشَدِيدٌ ﴾ لبخيل أو لقوي مبالغ فيه .

﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ بعث . ﴿ مَا فِى القبور ﴾ من الموتى وقرىء "بحثر" و"بحث" .

﴿ وَحُصِّلَ ﴾ جمع محصلاً في الصحف أو ميز . ﴿ مَا فِى الصدور ﴾ من خير أو شر ، وتخصيصه لأنه الأصل .

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴾ وهو يوم القيامة . ﴿ لَّخَبِيرٌ ﴾ عالم بما أعلنوا وما أسروا فيجازيهم عليه ، وإنما قال ﴿ مَا ﴾ ثم قال ﴿ بِهِمُ ﴾ لاختلاف شأنهم في الحالين ، وقرىء ﴿ أن ﴾ و"خبير" بلا لام . عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة

والعاديات أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من بات بالمزدلفة وشهد جمعاً " . (1)

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 520 . 521 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(146/827)

وقال أبو حيان :

سورة الْعَادِيَاتِ

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) ﴾

والجمهور من أهل التفسير واللغة على أن العاديات هنا الخيل ، تعدو في سبيل الله وتضبح حالة عدوها ، وقال عنترة :

والخيل تكدح حين تضبح . . .

في حياض الموت ضبحا

وقال أبو عبد الله وعلي وإبراهيم والسدي ومحمد بن كعب وعبيد بن عمير : العاديات : الإبل .

أقسم بها حين تعدو من عرفة ومن المزدلفة إذا دفع الحاج .

وبأهل غزوة بدر لم يكن فيها غير فرسين ، فرس للزبير وفرس للمقداد ، وبهذا حج عليّ رضي الله عنه ابن عباس حين تماريا ، فرجع ابن عباس إلى قول علي رضي الله تعالى عنهما .

وقالت صفية بنت عبد المطلب :

فلا والعاديات غداة جمع . . .

بأيديها إذا سطع الغبار

وانتصب ضبحاً على إضمار فعل ، أي يضبحن ضبحاً ؛ أو على أنه في موضع الحال ، أي ضابحات ؛ أو على المصدر على قول أبي عبيدة أن معناه العدو الشديد ، فهو منصوب بالعاديات .

وقال الزمخشري : أو بالعاديات كأنه قيل : والضابحات ، لأن الضبح يكون مع العدو ، انتهى .

وإذا كان الضبح مع العدو ، فلا يكون معنى ﴿ والعاديات ﴾ معنى الضابحات ، فلا ينبغي أن يفسر به .

﴿ فالموريات قدحاً ﴾ ، والإيراء : إخراج النار ، أي تقدح بحوافرها الحجارة فيتطاير منها النار لصك بعض الحجارة بعضاً .

ويقال : قدح فأورى ، وقدح فأصلد .

وتسمى تلك النار التي تقدحها الحوافر من الخيل أو الإبل : نار الحباحب .

قال الشاعر :

تقدّ السلوقي المضاعف نسجه . . .

وتوقد بالصفاح نار الحباحب

وقيل : ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ مجاز ، أو استعارة في الخيل تشعل الحرب ، قاله قتادة .

وقال تعالى : ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ ويقال : حمي الوطيس إذا اشتدّ الحرب .

وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم : الموريات : الجماعة التي تمكر في الحرب ، والعرب تقوله إذا أرادت المكر بالرجل : والله لا يكون ذلك ، ولأورين لك .

وعن ابن عباس أيضاً : التي توري نارها بالليل لحاجتها وطعامها .

وعنه أيضاً : جماعة الغزاة تكثر النار إرهاباً .

وقال عكرمة : ألسنة الرجال توري النار من عظيم ما تتكلم به ، وتظهر من الحجج والدلائل ، وإظهار الحق وإبطال الباطل .

﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ : أي تغير على العدو في الصبح ، ومن قال هي الإبل ، قال العرب تقول : أغار إذا عدى جرياً ، أي من مزدلفة إلى منى ، أو في بدر ؛ وفي هذا دليل على أن هذه الأوصاف لذات واحدة ، لعطفها بالفاء التي تقتضي التعقيب.

والظاهر أنها الخيل التي يجاهد عليها العدو من الكفار ، ولا يستدل على أنها الإبل بوقعة بدر ، وإن لم يكن فيها إلا فرسان ، لأنه لم يذكر أن سبب نزول هذه السورة هو وقعة بدر ، ثم بعد ذلك لا يكاد يوجد أن الإبل جوهد عليها في سبيل الله ، بل المعلوم أنه لا يجاهد في سبيل الله تعالى إلا على الخيل في شرق البلاد وغربها.

﴿ فأثرن ﴾ : معطوف على اسم الفاعل الذي هو صلة أل ، لأنه في معنى الفعل ، إذ تقديره : فاللاتي عدون فأغرن فأثرن.

وقال الزمخشري : معطوف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه ، انتهى.

وتقول أصحابنا : هو معطوف على الاسم ، لأنه في معنى الفعل.

وقرأ الجمهور : ﴿ فأثرن ﴾ ، ﴿ فوسطن ﴾ ، بتخفيف الثاء والسين ؛ وأبو حيوة وابن أبي عبلة : بشدّهما ؛ وعليّ وزيد بن علي وقتادة وابن أبي ليلى : بشدّ السين.

وقال الزمخشري : وقرأ أبو حيوة : فأثرن بالتشديد ، بمعنى : فأظهرن به غباراً ، لأن التأثير فيه معنى الإظهار ، أو قلب ثورن إلى وثرن ، وقلب الواو همزة.

وقرىء : فوسطن بالتشديد للتعدية ، والباء مزيدة للتوكيد ، كقوله : ﴿ فأتوا به ﴾ وهي

مبالغة في وسطن ، انتهى .

أما قوله : أو قلب ، فتمحل بارد .

وأما أن التشديد للتعدية ، فقد نقلوا أن وسط مخففاً ومثقلاً بمعنى واحد ، وأنهما لغتان ، والضمير في به عائد في الأول على الصبح ، أي هيجن في ذلك الوقت غباراً ، وفي به الثاني على الصبح .

قيل : أو على النقع ، أي وسطن النقع الجمع ، فيكون وسطه بمعنى توسطه .

(148/827)

وقال علي وعبد الله : ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ : أي الإبل ، وجمعاً اسم للمزدلفة ، وليس بجمع من الناس .

وقال بشر بن أبي حازم :

فوسطن جمعهم وأفلت حاجب . . .

تحت العجاجة في الغبار الأقتم

وقيل : الضمير في به معاً يعود على العدو الدال عليه ﴿ والعاديات ﴾ أيضاً .

وقيل : يعود على المكان الذي يقتضيه المعنى ، وإن لم يجر له ذكر ، لدلالة والعاديات وما

بعدها عليه .

وقيل : المراد بالنقع هنا الصياح ، والظاهر أن المقسم به هو جنس العاديات ، وليست أل فيه للعهد ، والمقسم عليه : ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ .

وفي الحديث : " الكنود يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده " وقال ابن عباس والحسن : هو الجحود لنعمة الله تعالى .

وعن الحسن أيضاً : هو اللائم لربه ، يعد السيئات وينسى الحسنات .

وقال الفضيل : هو الذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة ، ويعامل الله على عقد عوض .

وقال عطاء : هو الذي لا يغطى في النائبات مع قومه .

وقيل : البخيل .

وقال ابن قتيبة : أرض كنود : لا تنبت شيئاً .

والظاهر عود الضمير في ﴿ وإنه ﴾ على ذلك ﴿ لشهيد ﴾ ، أي يشهد على كنوده ، ولا يقدر أن يجحده لظهور أمره ، وقاله الحسن ومحمد بن كعب .

وقال ابن عباس وقتادة : هو عائد على الله تعالى ، أي وربه شاهد عليه ، وهو على سبيل الوعيد .

وقال التبريزي : هو عائد على الله تعالى ، وربه شاهد عليه هو الأصح ، لأن الضمير يجب

عوده إلى أقرب المذكورين ، ويكون ذلك كالوعيد والزجر عن المعاصي ، انتهى .

ولا يترجح بالقرب إلا إذا تساويا من حيث المعنى .

والإنسان هنا هو المحدث عنه والمسند إليه الكنود .

وأيضاً فتناسق الضمائر لواحد مع صحة المعنى أولى من جعلهما لمختلفين ، ولا سيما إذا توسط الضمير بين ضميرين عائدين على واحد .

﴿ وإنه ﴾ : أي وإن الإنسان ، ﴿ لحب الخير ﴾ : أي المال ، ﴿ لشديد ﴾ : أي قوي في حبه .

وقيل : لبخيل بالمال ضابط له ، ويقال للبخيل : شديد ومتشدد .

وقال طرفة :

(149/827)

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي . . .

عقيلة مال الفاحش المتشدد

وقال قتادة : الخير من حيث وقع في القرآن هو المال .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يراد هذا الخير الدنيوي من مال وصحة وجاه عند الملوك

ونحوه ، لأن الكفار والجهال لا يعرفون غير ذلك .

فأما المحب في خير الآخرة فممدوح مرجوله الفور .

وقال الفراء : نظم الآية أن يقال : وإنه لشديد الحب للخير .

فلما تقدم الحب قال لشديد ، وحذف من آخره ذكر الحب لأنه قد جرى ذكره ، ولرءوس الآي كقوله تعالى : ﴿ في يوم عاصف ﴾ والعصوف : للريح لا للأيام ، كأنه قال : في يوم عاصف الريح ، انتهى .

وقال غيره ما معناه : لأنه ليس أصله ذلك التركيب ، بل اللام في ﴿ لحب ﴾ لام العلة ، أي وإنه لأجل حب المال لبخيل ؛ أو وإنه لحب المال وإيثاره قوي مطيق ، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيف متقاعس .

تقول : هو شديد لهذا الأمر وقوي له إذا كان مطيقاً له ضابطاً .

قال الزمخشري : أو أراد : وإنه لحب الخيرات غير هش منبسط ، ولكنه شديد منقبض .

﴿ أفلا يعلم ﴾ : توقيف إلى ما يؤول إليه الإنسان ، ومفعول يعلم محذوف وهو العامل في الظرف ، أي أفلا يعلم ما له ؟ ﴿ إذا بعثر ﴾ ، وقال الحوفي : إذا ظرف مضاف إلى بعثر والعامل فيه يعلم .

انتهى ، وليس بمتضح لأن المعنى : أفلا يعلم الآن ؟ وقرأ الجمهور : بعثر بالعين مبنياً للمفعول .

وقرأ عبد الله : بالحاء .

وقرأ الأسود بن زيد : بحث .

وقرأ نضر بن عاصم : بحثر على بنائه للفاعل .

وقرأ ابن يعمر ونصر بن عاصم ومحمد بن أبي سعدان : وحصل مبنياً للفاعل ؛ والجمهور : مبنياً للمفعول .

وقرأ ابن يعمر أيضاً ونصر بن عاصم أيضاً : وحصل مبنياً للفاعل خفيف الصاد ، والمعنى جمع ما في المصحف ، أي أظهر محصلاً مجموعاً .

وقيل : ميز وكشف ليقع الجزاء عليه .

وقرأ الجمهور : ﴿ إن ﴾ ﴿ لخبير ﴾ باللام : هو استئناف إخبار ، والعامل في ﴿ بهم ﴾ ، وفي ﴿ يومئذ لخبير ﴾ ، وهو تعالى خبير دائماً لكنه ضمن خبير معنى مجاز لهم في ذلك اليوم .

وقرأ أبو السمال والحجاج : بفتح الهمزة وإسقاط اللام .

ويظهر في هذه القراءة تسلط يعلم على إن ، لكنه لا يمكن إعمال خبير في إذا لكونه في صلة

أن المصدرية ، لكنه لا يمكن أن يقدر له عامل فيه من معنى الكلام ، فإنه قال : يجزيهم إذا بعثر ، وعلى هذا التقدير يجوز أن يكون يعلم معلقه عن العمل في قراءة الجمهور ، وسدت مسد المعمول في إن ، وفي خبرها اللام ظاهر ، إذ هي في موضع نصب بيعلم .

وإذا العامل فيها من معنى مضمون الجملة تقديره : كما قلنا يجزيهم إذا بعثر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(151/827)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) ﴾

القراءات ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ بالإدغام : أبو عمر وغير عباس ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ أبو عمرو غير عباس وخلاد عن حمزة.

الوقوف : ﴿ ضبحا ﴾ ه لا ﴿ قدحا ﴾ ه لا ﴿ صبحا ﴾ ه لا ﴿ نقعاً ﴾ ه لا ﴿ جمعاً ﴾ ه لا ﴿ لكنود ﴾ ه ج لأن ما بعده يصلح عطفاً واستئنافاً ﴿ لشهيد ﴾ ه لذلك ﴿ لشديد ﴾ ه ط ﴿ القبور ﴾ لا ﴿ الصدور ﴾ ه لا ﴿ لخبير ﴾ ه.

(152/827)

التفسير : إنه سبحانه ذكر في هذه السورة رداءة ما عليه جبلة الإنسان من قلة الشكر والصبر والحرص على المال بحيث يكاد يشغله عن تحصيل الكمال الحقيقي ، وعن المعاد الذي إليه مآل حال العباد ، فأقسم على ذلك بالأمور والتي هي مركوزة في خزانة خيالهم ولا تكاد تخلو في الأغلب عن الخطور ببالهم . وفي تفسيرها قولان مرويان : الأول أن العاديات هي الإبل . يروى عن ابن عباس أنه قال : بينا أنا جالس في الحجر إذ جاء رجل فسألني عن ﴿ العاديات ضبحاً ﴾ ففسرتها بالخيل فذهب إلى علي رضي الله عنه وهو بجنب سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت فقال : ادعه لي فلما وقفت على رأسه قال : تفتي الناس بما لا علم لك به والله إن كانت لأول غزوة في الإسلام يعني بدراً وما كان معنا إلا فرسان فرس للزبير وفرس للمقداد . ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ الإبل تعدو من عرفة إلى مزدلفة ومن المزدلفة إلى منى ، والضبح على هذا مستعار لأن أصل استعماله في الخيل وهو صوت أنفاسها إذا عدون وهذا الصوت غير الصهيل وغير الحمحمة ، وانتصابه على "يضبحن ضبحاً" أو بالعاديات لأن العدو لا يخلو عن الضبح ، أو على الحال . وهكذا القول في ﴿ الموريات قدحاً ﴾ لأن الإبل قلما توري أخفافها . يقال : قدح فاورى وقدح فأصلد ﴿ فالمغيرات ﴾ أي المسرعات يندفعون صبيحة يوم النحر مسرعين إلى منى ﴿ فأثرن ﴾ من الإثارة أي هيجن وهو حكاية الماضي أو هو نحو ﴿ ونادى ﴾ [الأعراف : 48]

﴿ وسيق ﴾ [الزمر : 72] ﴿ به ﴾ أو بالعدو أو بذلك الوقت ﴿ نقعاً ﴾ غباراً ﴿ فوسطن ﴾ أي توسطن ﴿ به ﴾ بذلك الوقت أو بالعدو أو متلبسة بالنقع ﴿ جمعاً ﴾ وهو المزدلفة لاجتماع الحاج بها . القول الثاني عن مجاهد وقتادة والضحاك وأكثر المحققين أن العاديات الخيل ، ويروى ذلك مرفوعاً . قال الكلبي : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى ناس من كنانة فمكثت ما شاء الله أن تمكث لا يأتيه منهم خبر ، فتخوف عليها فنزل جبرائيل بخبر مسيرها .

(153/827)

وعلى هذا فاللام في ﴿ العاديات ﴾ للعهد . ويحتمل أن يكون للجنس ويدخل خيل السرية فيها دخولاً أولياً . وقوله ﴿ فالمغيرات ﴾ على هذا يكون من أغار على العدو إذا شن عليهم الغارة والجمع جماعة الغزاة أو الكفرة . وقيل : الإيراء عبارة عن شبيب نيران الحرب وإيقادها كقوله ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾

وقيل : معناه جمع ما في الصدور في الصحف أي أظهر محصلاً مجموعاً . وقيل : يكشف ما في البواطن من الأخبار وما في الأستار من الأسرار ويندرج فيه أعمال الجوارح تبعاً . وإنما لم يقل ما في القلوب لأن القلب مطية الروح وهو بالطبع محب لمعرفة اله تعالى إنما المنازع في هذا

الباب هو النفس ومحلها ما يقرب من الصدر ، وإنما جمع الضمير في قوله ﴿ إن ربهم بهم ﴾ حملاً على معنى الإنسان . ومعنى تقييد العلم بذلك الزمان حيث قال ﴿ يومئذ ﴾ وهو عالم بأحوالهم أزلاً وأبداً التوبيخ وكأنه تعالى قال : إن من لم يكن عالماً في الأزل فإنه يصير بعد الاختبار عالماً ، فالذي هو عالم في الأزل كيف لا يكون خبيراً بهم في الأبد ؟ ويجوز أن يكون سبب التقييد هو أن ذلك وقت المجازاة على حسب العلم بالأعمال والأقوال والأحوال وإليه المصير والمآب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 549 . 551 ﴾

(154/827)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة والعاديات

مكية في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء ، ومدنية في قول ابن عباس وأنس ابن مالك ، وهي إحدى عشرة آية وأربعون كلمة ومائة وثلاثة وستون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الذي له الأمر كله فلا يسئل عما يفعل ﴿ الرحمن ﴾ الذي نعمته أتم نعمة وأشمل ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه بتوفيقه وأتم نعمته عليهم وأكمل .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قسم أقسم الله سبحانه بخيل الغزاة تعدو فتضبح ، والضبح : صوت أنفاسها إذا عدون . وعن ابن عباس أنه حكاه فقال : أحأح ، قال عنترة :

*والخيل تكدح حين تض ** بح في حياض الموت ضبحا*

وانتصاب ضبحاً على يضبحن أو بالعاديات ، كأنه قيل : والضابحات ضبحاً لأنّ الضبح يكون مع العدو ، أو على الحال ، أي : ضابحات ، والعاديات جمع عادية وهي الجارية بسرعة من العدو وهو المشي بسرعة .

وعن ابن عباس : كنت جالساً في الحجر فجاء رجل فسألني عن العاديات ضبحاً ففسرتها بالخيل فذهب إلى عليّ رضي الله عنه ، وهو تحت سقاية زمزم فسأله وذكر له ما قلت ، فقال : ادعه لي فلما وقفت على رأسه قال : تفتي الناس بما لا علم لك به ، والله إن كانت لأوّل غزوة في الإسلام بدر وما كان معنا إلا فرسان ؛ فرس للزبير وفرس للمقداد العاديات ضبحاً الإبل من عرفة إلى المزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى . قال الزمخشري : فإن صحت الرواية فقد استعير الضبح للإبل كما استعير المشافر والحافر للإنسان ، والشفتان للمهر وما أشبه ذلك . قال ابن عباس : وليس شيء من الحيوان يضبح غير الفرس والكلب والثعلب ، ونقل غيره أنّ الضبح يكون في الإبل والأسود من الحيات والبوم والضرو والأرنب والثعلب والفرس .

ثم اتبع عدوها ما ينشأ عنه فقال تعالى عاطفاً بأداة التعقيب :

﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال عكرمة والضحاك : هي الخيل توري النار بحوافرها إذا سارت في الحجارة لا سيما عند سلوك الأوعار ، وقدحاً منصوب لما انتصب به ضبحاً . قال الزمخشري : ففيه الثلاثة أوجه المتقدّمة . وعن ابن عباس : أورت بحوافرها غباراً ، وهذا إنما يناسب من فسر العاديات بالإبل . وقال ابن مسعود : هي الإبل تطأ الحصى فتخرج منه النار أصل القدح : الاستخراج ، ومنه قدحت العين إذا أخرجت منها الماء الفاسد . وعن قتادة وابن عباس أيضاً : أنّ الموريات قدحاً الرجال في الحرب ، والعرب تقول : إذا أرادوا أنّ الرجل يمكر بصاحبه والله لأمكرنّ بك ثم لأورين لك ، وعن ابن عباس أيضاً : هم الذين يغزون فيورون نيرانهم بالليل لحاجتهم وطعامهم ، وعنه أيضاً : إنها نيران المجاهدين إذا كثرت إرهاباً ليظنهم العدوّ كثيراً قال القرطبي : وهذه الأقوال مجاز كقولهم : فلان يوري زناد الضلالة والأوّل الحقيقة وأنّ الخيل من شدّة عدوها تقدح النار بحوافرها . وقال مقاتل : تسمى تلك النار نار أبي حباب ، وأبو حباب كان شيخاً من مضر في الجاهلية من أبخل الناس ، وكان لا يوقد نار الخبز ولا غيره حتى تنام العيون فيوقد نويرة تقد مرّة وتخمد أخرى ، فإن استيقظ لها أحداً أطفأها كراهة أن ينتفع بها أحد ، فشبهت العرب

هذه النار بناره لأنه لا ينتفع بها .

ولما ذكر العدو وما يتأثر عنده ذكر نتيجته وغايته بقوله :

﴿ فالمغيرات ﴾ أي : بإغارة أهلها وقوله تعالى : ﴿ صبحاً ﴾ ظرف ، أي : التي تغير وقت الصبح يقال أغار بغير إغارة إذا باغت عدوّه لنهب أو قتل أو أسر ، قال الشاعر :

*فليت لي بهم قوماً إذا اركبوا ** شنوا الإغارة فرساناً وركبانا*

وغار لغية .

﴿ فأثرن ﴾ أي : فهيجن ﴿ به ﴾ أي : بفعل الإغارة ومكانها وزمانها من شدّة العدو ﴿ نقعاً ﴾ أي : غبار الشدّة حركتهنّ والنقع الغبار .

(156/827)

تنبيه : عطف الفعل وهو فأثرن على الاسم لأنه في تأويل الفعل لوقوعه صلة لأل . وقال الزمخشري : معطوف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه ، لأنّ المعنى واللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن .

﴿ فوسطن به ﴾ أي : بذلك النقع أو العدو أو الوقت ﴿ جمعاً ﴾ من العدوّ ، أي : صرن وسط العدو وهو الكتيبة ، يقال : وسطت القوم بالتخفيف ووسطتهم بالتشديد ،

وتوسطتهم بمعنى واحد . وقال القرطبي : يعني جمع منى وهو مزدلفة ، فوجه القسم على هذا أنّ الله تعالى أقسم بالإبل لما فيها من المنافع الكثيرة وتعريضه بإبل الحج للترغيب فيه ، وفيه تعريض على من لم يحج بعد القدرة عليه كما في قوله تعالى : ﴿ ومن كفر ﴾ أي : من لم يحج ﴿ فإنّ الله غنيّ عن العالمين ﴾ (آل عمران :)

وجواب القسم قوله تعالى :

﴿ إنّ الإنسان ﴾ أي : هذا النوع بما له من الأنس بنفسه والنسيان لما ينفعه ﴿ لربه ﴾ المحسن إليه بإبداعه ثم بإبقائه وتدبيره وتربيته ﴿ لكنود ﴾ قال ابن عباس : لكفور جحود لنعم الله تعالى . وقال الكلبي : هو بلسان ربيعة ومضر الكفور وبلسان كندة وحضرموت العاصي . وقال الحسن : هو الذي يعدّ المصائب وينسى النعم وقال أبو عبيدة : هو قليل الخير والأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً ، وفي الحديث عن أبي امامة هو الذي يأكل وحده ويمنع رفده ويضرب عبده . وقال الفضيل بن عياض : الكنود الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الكثيرة من الإحسان ، والشكور الذي أنسته الخصلة الواحدة من الإحسان الخصال الكثيرة من الإساءة .

﴿ وإنه ﴾ أي : الإنسان ﴿ على ذلك ﴾ أي : الكنود العظيم حيث أقدم على مخالفة الملك الأعظم المحسن مع الكفر لإحسانه ﴿ لشهيد ﴾ أي : يشهد على نفسه ولا يقدّر أن يجحده لظهور أثره عليه ، أو أن الله تعالى على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد .

﴿ وإنه ﴾ أي : الإنسان من حيث هو ﴿ لحب ﴾ أي : لأجل حب ﴿ الخير ﴾ أي : المال الذي لا يعدّ غيره لجهله خيراً ﴿ لشديد ﴾ أي : بخيل بالمال ضابط له ممسك عليه ، أو بليغ القوة في حبه لأنّ منفعته في الدنيا ، وهو متقيد بالعاجل الحاضر المحسوس مع علمه بأنّ أقل ما فيه أنه يشغله عن حسن الخدمة لربه تعالى ، ومع ذلك فهو لحب المال وإيثار الدنيا وطلبها قوي مطيق ، وهو لحب عبادة ربه وشكر نعمته ضعيف متقاعس .

ثم سبب عن ذلك قوله تعالى :

﴿ أفلا يعلم ﴾ أي : هذا الإنسان الذي أنساه أنسه بنفسه ﴿ إذا بعثر ﴾ أي : انتثر بغاية السهولة وأخرج ﴿ ما في القبور ﴾ أي : من الموتى . قال أبو عبيدة : بعثرت المتاع : جعلت أسفله أعلاه . قال محمد بن كعب : ذلك حين يبعثون . فإن قيل : لِمَ قال : ﴿ ما في القبور ﴾ ولم يقل من ، ثم قال بعد ذلك :

﴿ إن ربهم بهم ﴾ أجيب : عن الأوّل بأنّ ما في الأرض غير المكلفين أكثر فأخرج الكلام على الأغلب ، أو أنهم حال ما يبعثون لا يكونون أحياء عقلاء بل يصيرون كذلك بعد البعث ، فلذلك كان الضمير الأوّل ضمير غير العقلاء ، والضمير الثاني ضمير العقلاء .

﴿ وحُصِّل ﴾ أي : أخرج وجمع بغاية السهولة ﴿ ما في الصدور ﴾ من خير وشر مما يظن مضمره أنه لا يعلمه أحد أصلاً ، وظهر مكتوباً في صحائف الأعمال وهذا يدل على أن النيات يحاسب عليها كما يحاسب على ما يظهر من آثارها . وتخصيص الصدر بذلك لأنه محله القلب .

(158/827)

﴿ إن ربهم ﴾ أي : المحسن إليهم بخلقهم وخلقهم وتربيتهم ﴿ بهم يومئذ ﴾ أي : إذا كانت هذه الأمور وهو يوم القيامة ﴿ لخبير ﴾ أي : لمحيط بهم من جميع الجهات عالم غاية العلم ببواطن أمورهم فكيف بظواهرها ومعنى علمه بهم يوم القيامة مجازاته لهم ، وإلا فهو خبير بهم في ذلك اليوم وفي غيره فكيف ينبغي للعاقل أن يعلق آماله بالمال فضلاً عن أن يؤثره على الباقي . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة والعاديات أعطي من الأجر حسنات من بات بالمزدلفة وشهد جمعاً" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 408 . 411 ﴾

(159/827)

وقال القاسمى :

سورة العاديات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴾

إقسام بخيل الغُزاة التي تعدُو نحو العدوِّ ، فتضبح ، و الضبح : صوت أنفاسِها إذا عدت . وليس المراد بالصوت الصهيل . بل قولها : احاح ، كما قاله ابن عباس . ونصب ﴿ ضَبْحاً ﴾ إما بفعله المحذوف ، أو بالعاديات لإفادته معناه ، أو بالحالية .

﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ﴾ أي : تورى النار بحوافرها . والقدح هو الضرب لإخراج النار ، والإيراء يترتب عليه ، لأنه إخراج النار وإيقادها ؛ فإيراؤها ما يرى من صدم حوافرها للحجارة ، وتسمى نار الحباحب . ولما كان مرتباً على عدوْها عطفهُ بالفاء ، وكون المراد به الحرب بعيد . وفي إعرابه الوجوه السابقة .

﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ﴾ أي : تغير على العدوّ في وقته . يقال : أغار على العدوّ ، إذا هجم عليه ليقتله أو يأسره أو يستلب ماله .

قال الإمام : وهو وصف عرض للخيل من الغاية التي أجريت لها ، أي : أنها تعدو ويشتد عدوها حتى يخرج الشرر من حوافرها ، لتهجم على عدوّ وقت الصباح ، وهو وقت

المفاجأة لأخذ العدو على غير أهبة .

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾ أي : فأهجن بذلك الوقت غباراً من الإثارة ، وهي التهييج وتحريك الغبار ونحوه ليرتفع . والنقع : الغبار كما ذكرنا ، وورد بمعنى الصياح ، فجوّز إرادته هنا بمعنى صياح من هجم عليه ، وأوقع به . لا صياح المغير على المحارب ، وإن جاز على بُعد فيه ، أي : هيجن الصياح بالإغارة على العدوّ ، وضمير ﴿ بِهِ ﴾ للوقت والباء ظرفية . وفيه احتمالات أخر ككونه للعدو أو للإغارة ، لتأويلها بالجري . فالباء سببية أو للملابسة . ويجوز كونها ظرفية أيضاً . والضمير للمكان الدال عليه السياق ، للعلم بأن الغبار لا يثار إلا من موضع . وهو الذي اختاره ابن جرير .

(160/827)

قال الشهاب : وذكر إثارة الغبار ، للإشارة إلى شدة العدو وكثرة الكرّ والفرّ . وتخصيص الصبح لأن الغارة كانت معتادة فيه ، أي : لمباغتة العدوّ . والغبار إنما يظهر نهاراً . وأثرن معطوف على ما قبله .

قال الناصر : وحكمة الإتيان بالفعل معطوفاً على الاسم الذي هو العاديات أو ما بعدهُ ، لأنها أسماء فاعلين تعطي معنى الفعل . وحكمة مجيء هذا المعطوف فعلاً عن اسم فاعل

، تصوير هذه الأفعال في النفس . فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف . وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة . وكذلك التصوير بالمضارع بعد الماضي .

وقوله تعالى : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ أي : فتوسطن ودخلن في وسط جمع من الأعداء ، ففرقته وشتته . يقال : وسطت القوم بالتخفيف ، و وسطته بالتشديد ، و توسطتُه بمعنى واحد . وفي الضمير الوجوه المتقدمة .

قال الإمام رحمه الله : أقسم تعالى بالخيل متصفة بصفاتها التي ذكرها آتية بالأعمال التي سردها ؛ لينوه بشأنها ويعلي من قدرها في نفوس المؤمنين أهل العمل والجد ؛ ليعنوا بقنيتها وتدريبها على الكر والفر ، وليحملهم أنفسهم على العناية بالفروسية والتدرب على ركوب الخيل ، والإغارة بها ؛ ليكون كل واحد منهم مستعداً في أي : وقت كان ، لأن يكون جزءاً من قوة الأمّة إذا اضطرت إلى صدّ عدو ، أو بعثها باعث على كسر شوكته . وكان في هذه الآيات القارعات ، وفي تخصيص الخيل بالذكر في قوله :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال : 60] ، وفيما ورد من الأحاديث التي لا تكاد تحصر ما يحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون في مقدمة فرسان الأرض مهارة في ركوب الخيل ، ويبعث القادرين منهم على قنية الخيل على التنافس في عقائلها ، وأن يكون فن السباق عندهم يسبق بقية الفنون إتقاناً . أفليس أعجب العجب أن ترى أمماً ، هذا كتابها ، قد أهملت شأن الخيل والفروسية ، إلى أن صار يشار إلى راكبها بينهم بالهزؤ والسخرية ؟ وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم إلى بلاد أخرى .

ثم قال : يقسم الله بالخيل صاحبة تلك الصفات التي رفع ذكرها ، ليؤكد الخبر الذي جاء في قوله :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾

أي : كفور يكفر نعمه ولا يشكرها ، أي : لا يستعملها فيما ينبغي ليتوصل بها إليه .

قال الهايميّ : أي : لكفور ، فيوجب قتله بهذه الخيول وقهره بهذا الغضب . وعن أبي أمامة : الكنود الذي يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفده .

﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ أي : وإن الْإِنْسَاْن على كنوده لشهيد يشهد على نفسه به ، لظهور أثره عليه . فالشهادة مستعارة لظهور آثار كفرانه وعصيانه بلسان حاله .

قال القاشاني : لشهادة عقله ونور فطرته إنه لا يقوم بحقوق نعم الله ، ويقصر في جنب الله

بكفرانه .

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ أي : وإنه لحب المال والدنيا وإيثارها لقويّ ، ولحب تقوى الله وشكر نعمته ضعيف متقاعس ، وإنهُ لحب الخير الموصل إلى الحق شديد منقبض ، غير هش منبسط . أو اللام للتعليل ، أي : إنه لأجل حب المال بخيل ، فلذلك يحتجب به غارزاً رأسه في تحصيله وحفظه وجمعه ومنعه ، مشغولاً به عن الحق ، معرضاً به عن جنابه .

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ ﴾

أي : أبعد هذا الاحتجاب ومخالفة العقل ، ولا يعلم بنور فطرته وقوة عقله ﴿ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ أي : بعث وأثير ما في القبور وإخراج موتاها .

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ أي : أظهر وأبرز ما في صدورهم ونفوسهم من أسرارهم ونياتهم المكتومة فيها ، من خير أو شر .

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ أي : عالم بأسرارهم وضمائرهم وأعمالهم ، فيجازيهم على حسبها يومئذ . وتقديم الظرف ، إما لمكان نظم السجع ورعاية الفواصل ، أو

للتخصيص لوقوع علمه تعالى كناية عن مجازاته ، وهي إنما تكون يومئذ .

قال الرازيّ : وإنما خص أعمال القلوب بالتحصيل دون أعمال الجوارح ، لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب ، فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب ، لما حصلت أفعال الجوارح؛ ولذلك جعلها تعالى الأصل في الذم فقال : ﴿ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : 283] والأصل في المدح فقال :

﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال : 2] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 466.463 ﴾

(163/827)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة العاديات

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (5)

سورة العاديات

يجري سياق هذه السورة في لمسات سريعة عنيفة مثيرة , ينتقل من احداها إلى الأخرى

قفزا وركضا ووثبا , في خفة وسرعة وانطلاق , حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع ! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف !

وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة , القادحة للشرر بحوافرها , المغيرة مع الصباح , المثيرة للنقع وهو الغبار , الداخلة في وسط العدو فجأة تأخذه على غرة , وتثير في صفوفه الذعر والفرار !

يليه مشهد في النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد !

ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور !

وفي الختام ينتهي النقع المثار , وينتهي الكنود والشح , وتنتهي البعثرة والجمع . . إلى نهايتها جميعا . إلى الله . فتستقر هناك : (إن ربك بهم يومئذ لخبير) . . .

والإيقاع الموسيقي فيه خشونة ودمدمة وفرقعة , تناسب الجو الصاخب المعفر الذي تنشئه القبور المبعثرة , والصدور المحصل ما فيها بشدة وقوة , كما تناسب جو الجحود والكنود , والأثرة والشح الشديد . . فلما أراد لهذا كله إطارا مناسبا , اختاره من الجو الصاخب المعفر كذلك , تثيره الخيل العادية في جريها , الصاخبة بأصواتها , القادحة بحوافرها , المغيرة فجاءة مع الصباح , المثيرة للنقع والغبار , الداخلة في وسط العدو على غير انتظار . . . فكان الإطار من الصورة والصورة من الإطار .

إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أَفَلَا
يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10)

(164/827)

(والعاديات ضبحا , فالموريات قدحا , فالمغيرات صبحا , فأثرن به نقعا , فوسطن به جمعا . . إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد . . .).

يقسم الله سبحانه بخيل المعركة , ويصف حركاتها واحدة واحدة منذ أن تبدأ عدوها وجريها ضابحة بأصواتها المعروفة حين تجري , قارعة للصخر بحوافرها حتى توري الشرر منها , مغيرة في الصباح الباكر لمفاجأة العدو , مثيرة للنقع والغبار . غبار المعركة على غير انتظار . وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب !

إنها خطوات المعركة على ما يألفه المخاطبون بالقرآن أول مرة . . . والقسم بالخيل في هذا الإطار فيه إيحاء قوي بحب هذه الحركة والنشاط لها , بعد الشعور بقيمتها في ميزان الله والتفاته سبحانه إليها ?

وذلك فوق تناسق المشهد مع المشاهد المقسم عليها والمعقب بها كما أسلفنا . أما الذي

يقسم الله - سبحانه - عليه , فهو حقيقة في نفس الإنسان , حين يخوى قلبه من دوافع الإيمان . حقيقة ينبهه القرآن إليها , ليجند إرادته لكفاحها مذ كان الله يعلم عمق وشائجها في نفسه , وثقل وقعها في كيانه :

(إن الإنسان لربه لكنود . وإنه على ذلك لشهيد . وإنه لحب الخير لشديد) . .

إن الإنسان ليجحد نعمة ربه , وينكر جزيل فضله . ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالا وأقوالا , فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة . وكأنه يشهد على نفسه بها . أو لعله يشهد على نفسه يوم القيامة بالكنود والجحود : (وإنه على ذلك لشهيد) . . يوم ينطق بالحق على نفسه حيث لا جدال ولا محال !

(وإنه لحب الخير لشديد)فهو شديد الحب لنفسه , ومن ثم يحب الخير . ولكن كما يتمثله مالا وسلطة ومتاعا بأعراض الحياة الدنيا . . . .

(165/827)

هذه فطرته . وهذا طبعه . ما لم يخالط الإيمان قلبه . فيغير من تصوراته وقيمه وموازينه واهتماماته . ويحيل كنوده وجحوده اعترافا بفضل الله وشكرانا . كما يبدل أثرته وشحه إيثارا ورحمة . ويريه القيم الحقيقية التي تستحق الحرص والتنافس والكد والكدح . وهي

قيم أعلى من المال والسلطة والمتاع الحيواني بأعراض الحياة الدنيا . .

إن الإنسان - بغير إيمان - حقير صغير . حقير المطامع , صغير الاهتمامات . ومهما كبرت أطماعه . واشتد طموحه , وتعالت أهدافه , فإنه يظل مرتكسا في حمأة الأرض , مقيدا بحدود العمر , سجينا في سجن الذات . . لا يطلقه ولا يرفعه إلا الاتصال بعالم أكبر من الأرض , وأبعد من الحياة الدنيا , وأعظم من الذات . . عالم يصدر عن الله الأزلي , ويعود إلى الله الأبدي , وتتصل فيه الدنيا بالآخرة إلى غير انتهاء . .

ومن ثم تجيء اللفتة الأخيرة في السورة لعلاج الكنود والجحود والأثرة والشح , لتحطيم قيد النفس وإطلاقها منه . مع عرض مشهد البعث والحشر في صورة تنسي حب الخير , وتوقظ من غفلة البطر :

(أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور , وحصل ما في الصدور ?) . .

وهو مشهد عنيف مثير . بعثرة لما في القبور . بعثرة بهذا اللفظ العنيف المثير . وتحصيل لأسرار الصدور التي ضنت بها وخبأتها بعيدا عن العيون . تحصيل بهذا اللفظ العنيف القاسي . . فالجو كله عنف وشدة وتعفير !

أفلا يعلم إذا كان هذا ? ولا يذكر ماذا يعلم ? لأن علمه بهذا وحده يكفي لهز المشاعر . ثم ليدع النفس

إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (11)

تبحث عن الجواب , وترود كل مراد , وتتصور كل ما يمكن أن يصاحب هذه الحركات العنيفة من آثار وعواقب !

ويختم هذه الحركات الثائرة باستقرار ينتهي إليه كل شيء , وكل أمر , وكل مصير :

(إن ربهم بهم يومئذ لخبير) . .

فالمرجع إلى ربهم . وإنه لخبير بهم(يومئذ) وبأحوالهم وأسرارهم . . والله خبير بهم في كل وقت وفي كل حال . ولكن لهذه الخبرة(يومئذ)آثار هي التي تثير انتباههم لها في هذا المقام . . . إنها خبرة وراءها عاقبة . خبرة وراءها حساب وجزاء . وهذا المعنى الضمني هو الذي يلوح به في هذا المقام !

إن السورة مشوار واحد لاهث صاخب ثائر . . حتى ينتهي إلى هذا القرار . . معنى ولفظا وإيقاعا , على طريقة القرآن ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3957. 3959﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1)

قال الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في إملائه :

العاديات : جمع عادية ، والعاديات : المسرعات في مسيرها .

فمعنى العاديات : أقسم بالمسرعات في سيرها .

ثم قال : وأكثر العلماء على أن المراد به الخيل ، تعدو في الغزو ، والقصد تعظيم شأن الجهاد في سبيل الله .

وقال بعض العلماء : المراد بالعاديات : الإبل تعدو بالحجيج من عرفات إلى مزدلفة ومنىً .

ومعنى قوله : ضبحاً : أنها تضبح ضبحاً ، فهو مفعول مطلق ، والضبح : صوت أجواف الخيل عند جريها .

وهذا يؤيد القول الأول الذي يقول هي الإبل ، ولا يختص الضبح بالخيل .

فالموريات قدحاً : أي الخيل توري النار بحوافرها من الحجارة ، إذا سارت ليلاً .

وكذلك الذي قال : العاديات : الإبل . قال : برفعها الحجارة فيضرب بعضها بعضاً .

ويدل لهذا المعنى قول الشاعر :

تنفي يداها الحصا في كل هاجرة . . . نفي الدراهم تنقاد الصياريف

فالمغيرات صبحا ، الخيل تغير بالحجاج صبحاً من مزدلفة إلى منى يوم النحر .

فأثرن به نقعاً : أي غباراً . قال به . أي : بالصبح أو به . أي بالعدو .

والمفهوم من العاديات : توسطن به جمعاً ، أي دخلن في وسط جمع أي خلق كثير من الكفار .

ونظير هذا المعنى قول بشر بن أبي حازم :

فوسطن جمعهم وأفلت حاجب . . . تحت العجاجة في الغبار الأقتم

وعلى القول الثاني الذي يقول : العاديات الإبل تحمل ، الحجيج .

فمعنى قوله : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ ، أي صرن بسبب ذلك العدو ، وسط جمع . وهي المزدلفة ، وجمع اسم من أسماء المزدلفة .

ويدل لهذا المعنى قول صفية بنت عبد المطلب ، عمة النَّبي صلى الله عليه وسلم وأم الزبير بن العوام رضي الله عنهما :

فلا والعاديات مغيرات جمع . . . بأيدها إذا سطع الغبار

وهذا الذي ساقه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، قد جمع أقوال جميع المفسرين في هذه الآيات ، وقد سقته بحروفه لبيانه للمعنى كاملاً .

ولكن مما قدمه رحمة الله تعالى علينا وعليه أن من أنواع البيان في الأضواء : أنه إذا اختلف علماء التفسير في معنى وفي الآية قرينة. ترد أحد القولين أو تؤيد أحدهما فإنه يشير إليه .

وقد وجد الختلاف المفسرين في هذه الآيات في نقطة أساسية من هذه الآيات مع اتفاقهم في الألفاظ ، ومعانيها والأسلوب وتراكيبه .

ونقطة الخلاف هي معنى الجمع الذي توسطن به ، أهو المزدلفة لأن من أسمائها جمعاً كما في الحديث : " وقفت ها هنا وجمع كلها موقف " وهذا مروي عن علي رضي الله عنه ، في نقاش بينه وبين ابن عباس . ساقه ابن جرير .

أم بالجمع جمع الجيش في القتال على ما تقدم ، وهو قول ابن عباس وغيره . حكاه ابن جرير وغيره .

وقد وجدنا قرائن عديدة في الآية تمنع من إرادة المزدلفة بمعنى جمع ، وهي كالآتي : اولاً وصف الخيل أو الإبل على حد سواء بالعاديات ، حتى حد الضبح وروى الناب بالحوافر وبالحصا ، لأنها أوصاف تدل على الجري السريع .

ومعلوم أن الإفاضة عن عرفات ثم من المزدلفة لا تحتمل هذا العدو ، وليس هو فيها بمحمود ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان ينادي " السكينة السكينة " فلو وجد لما كان موضع تعظيم وتفخيم .

ثانياً : أن المشهور أن إثارة النقع من لوازم الحرب ، كما قاله بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا . . . وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

أي : لشدة الكر والفر .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ فالمغيرات صُبْحاً فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾ [العاديات : 3-5] ، جاء مرتباً بالفاء ، وهي تدل على الترتيب والتعقيب .

وقد تقدم المغيرات صبحاً ، وبعدها فوسطن به جمعاً .

وجمع هي المزدلفة ، وإنما يؤتى إليها ليلاً . فكيف يقرن صبحاً ، ويتوطن المزدلفة ليلاً .

وعلى ما حكاه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أنهم يغيرون صبحاً من المزدلفة إلى منى ، تكون تلك الإغارة صبحاً بعد التوسط بجمع ، والسياق يؤخرها عن الإغارة ولم يقدمها عليها .

فتبين بذلك أن إرادة الزدلفة غير متأتية في هذا السياق .

ويبقى القول الآخر وهو الأصح . والله تعالى أعلم .

ولو رجعنا إلى نظرية ترابط السور فيها ترشيحاً لهذا المعنى ، وهو أنه في السورة السابقة ،

ذكرت الزلزلة وصدور الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم .

وهنا حث على أفضل الأعمال التي تورث الحياة الأبدية والسعادة الدائمة في صورة مماثلة ،

وهي عدوهم أشتاتاً في سبيل الله لتحصيل ذاك العمل الذي يحبون رؤيته في ذلك الوقت ،

وهو نصرة دين الله أو الشهادة في سبيل الله ، والعلم عند الله تعالى .

إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6)

هذا الجواب قال القرطبي : الكنود : الكفور الجحود لنعم الله ، وهو قول ابن عباس .

وقيل الحسن : يذكر المصائب وينسى النعم ، أخذه الشاعر فنظمه :

يا أيها الظالم في فعله . . . والظلم مردود على من ظلم

إلى متى أنت وحتى متى . . . تشكو المصيبات وتنسى النعم

وروى أبو أمامة الباهلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الكنود هو الذي يأكل وحده ، ويمنع رفده ، ويضرب عبده " .

وروى ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا أبشركم بشراركم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : من نزل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده " خرجهما الترمذي الحكيم في نوادر الأصول .

وروى ابن عباس أيضاً أنه قال : " الكنود بلسان كندة وحضرموت : العاصي ، وبلسان ربيعة ومضر : الكفور ، وبلسان كِنانة : البخيل السيء الملكة " .

وقال مقاتل . وقال الشاعر :

كنود لنعماء الرجال ومن يكن . . . كَنوداً لنعماء الرجال يُبعّد

أي كفور .

ثم قيل : هو الذي يكفر اليسير ، ولا يشكر الكثير .

وقيل : الجاحد للحق .

وقيل : سميت كندة كندة ، لأنها جحدت أباها .

وقلا إبراهيم بن هرمة الشاعر :

دع البخلاء إن شمخُوا وصَدوا . . . ذكري بخل غانيةٍ كنود

في نقول كثيرة وشواهد .

ومنها : الكنود الذي ينفق نعم الله في معصية الله .

(170/827)

وعن ذي النون : الهلوع والكنود : هو الذي إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً .

وقيل : الحسود الحقود .

ثم قال القرطبي رحمه الله في آخر البحث :

قلت : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود .

وقد فسر النَّبي صلى الله عليه وسلم معنى الكنود بخصال مذمومة ، وأحوال غير محمودة ، فإن صح فهو أعلى ما يقال ، ولا يبقى لأحد معه مقال . اه .

وهكذا كما قال : إن صح الأثر فلا قول لأحد ، ولكن كل هذه الصفات من باب اختلاف التنوع ، لأنها داخلة ضمن معنى الجحود للحق أو للنعم .

وقد استدل ذو النون المصري بالآية الكريمة ، وهي مفسرة للكنود على المعاني المتقدمة بأنه هو الهلوع ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً ﴾ [المعارج : 20-21] .

ومثلها قوله : ﴿ فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابتلاه رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ ربي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابتلاه فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ ربي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر : 15-16] .

وقد عقب عليه هناك بمثل ما عقب عليه هنا .

ومثلها قوله : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليتيم وَلاَ تَحَاضُّونَ على طَعَامِ المسكين وَتَأْكُلُونَ التراث أَكْلاً لَّمّاً وَتُحِبُّونَ المال حُبّاً جَمّاً ﴾ [الفجر : 17-20] .

وهنا عقب عليه بقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : 8] ، والله تعالى أعلم .

وقوله : إن الإنسان عام في كل إنسان ، ومعلوم أن بعض الإنسان ليس كذلك ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أعطى واتقى وَصَدَّقَ بالحسنى ﴾ [الليل : 5-6] ، مما يدل على أنه من العام المخصوص .

وأن هذه الصفات من طبيعة الإنسان إلا ما هذبه الشرع ، كما قال تعالى :

﴿ وَأُحْضِرَتِ الأنفس الشح ﴾ [النساء : 128] .

وقوله : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [الحشر : 9] .

ونص الشيخ في إملائه أن المراد به الكافر .

(171/827)

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ على ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ .

اختلف في مرجع الضمير في : وإنه ، فقيل : راجع للإنسان ، ورجحه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ، مستدلاً بقوله تعالى بعده ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : 8] .

وقيل : راجع إلى رب الإنسان .

واختار هذا القرطبي وقدمه .

وجميع المفسرين يذكرون الخلاف ، وقد عرفت الراجح منها ، وعليه ، فعلى أنه راجع لرب الإنسان فلا إشكال في هذه الآية ، وعلى أنه راجع للإنسان ففيه إشكال أورده الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الإضطراب وأجاب عليه .

وهو أنه جاءت نصوص تدل على أنه ينكر ذلك ، وأنه كان يجب أن يحسن صنعاً ، ونحو ذلك .

ومن الجواب عليه : أن شهادته بلسان الحال .

وقد أورد بعض المفسرين شهادتهم بلسان المقال في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ على أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ﴾ [التوبة : 17] ، إلا أن هذه الشهادة بالكفر هي الشرك . والله تعالى أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخير لَشَدِيدٌ ﴾ .

الخير عام ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7] .

ولكنه هنا خاص بالمال ، فهو من العام الذي أريد به الخاص من قصر العام على بعض أفراده ، لأن المال فرد من أفراد الخير ، كقوله تعالى : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ [البقرة : 180] ، أي مالاً ، لأن عمل الخير يصحبه معه ولا يتركه .

وفي معنى هذا وجهان : الأول وإنه لحب الخير أي بسبب حبه الخير لشديد بخيل ، شديد البخل .

كما قيل :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي . . . عقيلة مال الفاحش المتشدد

أي شديد البخل على هذه الرواية من هذا البيت .

والوجه الثاني : وإنه لشديد حب المال حباً جماً سيحمله حبه على البخل .

(172/827)

وفي هذا النص مذمة حب المال وهو جبلة في الإنسان ، إلا من هذبه الإسلام ، إلا أن الذم ينصب على شدة الحب التي تحمل صاحبها على ضياع الحقوق أو تعدي الحدود .

وهذه الآية وما قبلها نازلة في الكفار كما قدمنا كلام الشيخ رحمة اله تعالى علينا وعليه في إملائه .

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9)

البعثرة : الانتثار .

وقال الزمخشري : إن هذه الكلمة مأخوذة من أصلين : البعث والنثر .

فالبعث : خروجهم أحياء .

والنثر : الانتشار كنثر الحب ، فهي تدل على بعثهم منتشرين .

وقد نص تعالى على هذا المعنى في قوله : ﴿ وَإِذَا القبور بُعْثِرَتْ ﴾ [الانفطار : 4] ، أي بعثر من فيها .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث سِرَاعاً ﴾ [المعارج : 43] .

وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر : 7] .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث ﴾ [القارعة : 4] .

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10)

قيل : حصل أي أُبرز . قاله ابن عباس .

وقيل : ميز الخير من الشر .

والحاصل من كل شيء ما بقي .

قال لبيد :

وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه إذا حصلت عند الإله الحصائل .

والمراج بما في الصدور الأعمال ، وهذا كقوله : ﴿ يَوْمَ تبلى السرآئر ﴾ [الطارق : 9] .

ونص على الصدور هنا ، مع أن المراد القلوب ، لأنها هي مناط العمل ومعقد النية .

والعقيدة وصحة الأعمال كلها مدارها على النية ، كما في حديث : " إنما الأعمال بالنيات " وحديث : " ألا أن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله " الحديث .

وقال الفخر الرازي : خصص القلب بالذكر ، لأنه محل لأصول الأعمال .

ولذا ذكره في معرض الذم، فإنه ﴿ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة: 283]، وفي معرض المدح ﴿ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: 2].

ويشهد لما قاله قوله: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: 89].

وقوله: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة: 74].

وقال: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ ﴾ [الزمر: 23].

وقوله: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: 28]، ونحو ذلك.

ومما يدل على ان المراد بالصدور ما فيها هو القلب.

قوله: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: 46].

وقال الفخ الرازي: نص على الصدور ليشمل الخير والشر، لأن القلب محل الإيمان.

والصدر هو محل الوسوسة لقوله تعالى: ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ [الناس: 5].

وهذا وإن كان وجيهاً، لأن محل الوسوسة أيضاً هو القلب، فيرجع إلى المعنى الأول والله أعلم.

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)

ذكر الظرف هنا يشعر بقصر الوصف عليه مع أنه سبحانه خبير بهم في كل وقت في ذلك اليوم ، وقبل ذلك اليوم ، ولكنه في ذلك اليوم يظهر ما كان خفياً ، فهو بحانه يعلم السر وأخفى ، وهو سبحانه لا يخفى عليه خافية .

ولكن ذكر الظرف هنا للتحذير مع الوصف بخبير ، أخص من عليم ، كما في قوله : ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ العليم الخبير ﴾ [التحريم : 3] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

(174/827)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْعَادِيَاتِ

أَقْسَمَ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ ﴿ يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴾ .

وَأَقْسَمَ بِحَيَاتِهِ ، فَقَالَ : ﴿ لَعَمْرُك إنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

وَأَقْسَمَ بِخَيْلِهِ وَصَهِيلِهَا وَغُبَارِهَا وَقَدْحِ حَوَافِرِهَا النَّارَ مِنْ الْحَجَرِ ، فَقَالَ : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴾ الْآيَاتُ الْخَمْسُ .

وَالْمُقْسَمُ عَلَيْهِ: ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ .

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ وَهُوَ الْمَالُ.

وَقَدْ تَبَيَّنَ فِيمَا تَقَدَّمَ [حَالُ الْمَالِ] فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالنَّفْعِ وَالضُّرِّ، وَالْفَائِدَةِ وَالْخَيْبَةِ.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(175/827)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين:

سورة العاديات

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1)

قوله: ﴿ والعاديات ﴾ : جمعُ " عادِيَة " وهي الجاريَةُ بسُرعةٍ، من العَدْوِ، وهو المَشْيُ بسُرْعةٍ. والياءُ عن واوٍ لكسْرِ ما قبلها نحو: الغازِيات من الغزْوِ. يُقال: عَدا يَعْدُوا عَدْواً، فهو عادٍ وهي عادِيَةٌ، وقد تقدَّمَ هذا في المؤمنين.

قوله: ﴿ ضَبْحاً ﴾ فيه أوجهٌ. أحدُها: أنه مصدرٌ مؤكِّدٌ لاسمِ الفاعلِ؛ فإنَّ الضَّبْحَ نوعٌ من السيرِ والعَدْوِ كالضَّبْع. يقال: ضَبَحَ الفَرَسُ وضَبَعَ، إذا عدا بشدةٍ، أَخْذاً مِن

الضَّبْع ، وهو الذِّراع لأنه يَمُدُّه عند العَدْوِ ، وكأنَّ الحاءَ بدلٌ من العين . وإلى هذا ذهب أبو عبيدةَ . والمبردُ . قالا الضَّبحُ مِنْ إضباعِها في السَّيْرِ . وقال عنترةُ :

4617 والخيلُ تعلَمُ حين تَضْ . . . بَحُ في حِياضِ المَوْتِ ضَبْحاً

(176/827)

الثاني : أنه مصدرٌ في موضعِ الحالِ ، أي : ضابحاتٍ ، أو ذوي ضَبْح . والضَّبْحُ : صوتٌ يُسْمَعُ مِنْ صدورِ الخيلِ عند العَدْوِ ، ليس بصَهيلٍ . وعن ابن عباس : انه حكاه فقال : أحْ أحْ . ونُقل عنه : أنه لم يَضْبَحْ من الحيوان غيرُ الخيلِ والكَلْبِ والثعلبِ . وهذا يَنْبغي أَنْ لا يَصِحَّ عنه ، فإنه رُوي أنه قال : سُئِلْتُ عنها ففَسَّرْتُها بالخيل . وكان عليٌّ رضي الله عنه تحت سِقايةِ زمزم فسأله ، وذَكَر له ما قلتُ . فدعاني فلمَّا وقفْتُ على رأسِه قال : " تُفْتي الناسَ بغيرِ علمٍ ، إنَّها لأول غزوةٍ في الإسلام وهي بدرٌ ، ولم يكنْ معنا إلاَّ فَرَسان : فرسٌ للمِقْداد ، وفرسٌ للزُّبَيْر ، والعادياتِ ضَبْحاً : الإبلُ مِنْ عرفةَ إلى المزدلفةِ ، ومن المزدلفةِ إلى مِنى " إلاَّ أنَّ الزمخشريَّ قال بعد ذلك : " فإنْ صَحَّتِ الروايةُ فقد اسْتُعير الضَّبْحُ للإبل ، كما اسْتُعير المَشافِرُ والحافِرُ للإنسان ، والشَّفَتان للمُهْر " ونَقَل غيرُه أن الضَّبْحَ يكونُ في الإبلِ والأَسْوَدِ من الحَيَّاتِ والبُومِ والصدى والأرنبِ والثعلبِ والقوسِ . وأنشد أبو حنيفةَ في

صفةِ قوْس .

4618 حنَّانةٌ مِنْ نَشَمٍ أو تالبٍ . . . تَضْبَحُ في الكَفِّ ضُباحَ الثعلبِ

وعندي أنَّ هذا مِن الاستعارةِ . ونَقَل أهلُ اللغةِ أنَّ أصلَ الضَّبْحِ في الثعلبِ فاسْتُعير للخيلِ ، وهو مِنْ ضَبَحَتْه النارُ : أي غَيَّرت لونه ولم تبالغْ فيه . والضَّبْحُ لونٌ يُغَيِّرُ إلى السواد قليلاً .

الثالث : من الأوجه : أَنْ يكونَ منصوبا بفعلٍ مقدرٍ ، أي : تَضْبَحُ ضَبْحاً . وهذا الفعلُ حالٌ من " العاديات " .

(177/827)

الرابع : أنَّه منصوبٌ بالعادِيات ، وإنْ كان المرادُ به الصوتَ . قال الزمخشري : "كأنَّه قيل : والضَّابحاتِ لأنَّ الضَّبْحَ يكون مع العَدْوِ " . قال الشيخ : " وإذا كان الضَّبْحُ مع العَدْوِ فلا يكون معنى " والعادياتِ " : والضَّابحاتِ فلا ينبغي أن يُفَسَّرَ به " . قلت : لم يَقُلِ الزمشخريُّ أنه بمعناه ، وإنما جعله منصوباً به ؛ لأنه لازمٌ له لا يُفارِقه فكأنَّه ملفوظٌ به . وقوله : "كأنه قيل " تفسيرٌ للتلازُم ، لا أنه هو هو .

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2)

قوله : ﴿ قَدْحاً ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ مصدرا مؤكِّداً ؛ لأنَّ الإِيراء من القَدْحِ يقال : قَدَحَ

فَأَوْرَى وقَدَح فأَصْلَدَ . ويجوزُ أَنْ يكونَ حالاً فالمعنى : قادحاتٍ ، أي : صاكَّاتٍ بحوافِرِها ما يُوْرِي النارَ يُقال : " قَدَحْتُ الحجرَ بالحجرِ " أي : صَكَكْتُه به . وقال الزمخشري : " انتصَبَ بما انتصَبَ به ضَبْحاً " . وكان جَوَّزَ في نَصْبه ثلاثةَ أوجهٍ : النصبَ بإضمارِ فعلٍ ، والنصبَ باسمِ الفاعلِ قبلَه ، لأنه مُلازِمُه ، والنصبَ على الحال . وتُسَمَّى تلك النارُ التي تَخْرُجُ من الحوافرِ نارَ الحُباحِب . قال :

4619 تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ المُضاعَفَ نَسْجُهُ . . . وتُوْقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ

فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3)

قوله : ﴿ فالمغيرات صُبْحاً ﴾ : صُبْحاً : ظرفٌ ، أي : التي تُغير وقتَ الصبح يقال : أغارَ يُغير إغارةً باغتَ عَدُوَّه لنَهْبٍ أو قَتْلٍ أو أَسْرٍ قال :

4620 فلَيْتَ لي بهمُ قوماً إذا رَكِبوا . . . شَنُّوا الإغارةَ فُرْساناً ورُكْبانا

و" غار " لُغَيَّةٌ ، وأغار وغارَ أيضاً : نَزَل الغَوْرَ وهو المُنْهَبَطُ من الأرض . واختلف الناسُ في موصوفاتِ هذه الصفاتِ أعني العاديات وما بعدها فقيل : الخيلُ ، أي والخيلِ العادياتِ ، فالمُورِياتِ ، فالمُغيراتِ . ونظيرُ العطفِ هنا كالعطفِ في قولِه :

4621 يا لَهْفَ زَيَّابةَ للحارِث ال . . . صابحِ فالغانِمِ فالآئِبِ

وتقدَّم تقريرُه أولَ البقرة . وقيل : التقديرُ : والإبلِ العادياتِ مِنْ عرفةَ إلى مزدلفةَ ، ومِنْ مزدلفةَ إلى مِنى ، كما تقدَّم عن أمير المؤمنين . ويَدُلُّ له قولُ صفيَّةَ بنتِ عبد المطلب :

4622 أمَا والعادياتِ غَداةَ جَمْعٍ . . . بأَيْديها إذا سَطَع الغُبارُ

وقيل : " فالموريات " أي : الجماعةُ التي تَمْكُرُ في الحرب . تقول العرب : لأُوْرِيَنَّ لك ، لأَمْكُرَنَّ بك .

فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4)

قوله : ﴿ فَأَثَرْنَ ﴾ : عَطَفَ الفعلَ على الاسمِ ؛ لأنَّ الاسمَ في تأويل الفعلِ لوقوعِه صلةً لِ أل . قال الزمخشري : " معطوفٌ على الفعلِ الذي وُضِعَ اسمُ الفاعلِ موضعَه " يعني في الأصل ، إذ الأصلُ : واللاتي عَدَوْنَ فأَوْرَيْنَ فأَغَرْنَ فَأَثَرْنَ .

قوله : ﴿ بِهِ ﴾ : في الهاء أوجهٌ . أحدُهما : أنها ضميرُ الصُّبح ، أي : فَأَثَرْنَ في وقتِ الصُّبح غُباراً . وهذا حَسَنٌ ؛ لأنه مذكورٌ بالصَّريح . الثاني : أنه عائدٌ على المكانِ ، وإن لم يَجْرِ له ذِكْرٌ ؛ لأنَّ الإثارةَ لا بُدَّ لها من مكان ، فالسِّياقُ والفعلُ يَدُلاَّن عليه . وفي عبارةِ الزمخشريِّ : " وقيل : الضمير لمكان الغارة " هذا على تلك اللُّغَيَّة ، وإلاَّ فالفصيحُ أَنْ يقولَ : الإغارة الثالث : أنه ضميرُ العَدْوِ الذي دَلَّ عليه " والعادياتِ " .

وقرأ العامَّةُ بتخفيفِ الثاءِ ، مِنْ أثار كذا : إذا نَشَره وفَرَّقه مع ارتفاعٍ . وقرأ أبو حَيْوَة وابن أبي عبلة بتشديدها ، وخَرَّجه الزمخشريُّ على وجهَيْن : الأول بمعنى فأَظْهَرْنَ به غباراً ؛ لأنَّ التأثيرَ فيه معنى الإِظهارِ . والثاني : أنه قَلَبَ " ثَوَّرْنَ " إلى " وَثَّرْنَ " وقَلَبَ الواوَ همزةً . انتهى . قلت : يعني أنَّ الأصلَ : ثَوَّرْنَ ، مِنْ ثَوَّرَ يُثَوِّرُ بالتشديد عدَّاه بالتضعيف كما يُعَدَّى بالهمزةِ في قولِك : أثاره ، ثم قَلَبَ الكلمةَ : بأنْ جَعَلَ العينَ وهي الواوُ موضعَ الفاء ، وهي الثاءُ ، فصارت وَثَّرْنَ ، ووزنُها حينئذٍ عَفَّلْنَ ، ثم قَلَبَ الواوَ همزةً ، فصار " أَثَّرْنَ " وهذا بعيدٌ جداً . وعلى تقديرِ التسليمِ فقَلْبُ الواوِ المفتوحةِ همزةً لا يَنْقاس إنما جاءت منه أُلَيْفاظٌ كأَحَدٍ وأَناةٍ . والنَّقْعُ : الغبار وأُنْشِد :

4623 يَخْرُجْنَ مِنْ مُسْتَطارِ النَّقْعِ داميةً . . . كأنَّ آذانَها أطرافُ أَقْلامِ

وقال ابن رَواحة :

4624 عَدِمْتُ بُنَيَّتي إنْ لَمْ تَرَوْها . . . تُثيرُ النَّقْعَ مِنْ كَنَفَيْ كَداءِ

وقال أبو عبيد : " النَّقْعُ رَفْعُ الصوتِ " وأُنْشَد :

4625 فمتى يَنْقَعْ صُراخٌ صادِقٌ . . . يُحْلِبُوْها ذاتَ جَرْسٍ وزَجَلْ

قال الزمخشري : " ويجوز أَنْ يُرادَ بالنَّقْع الصياحُ ، من قولِه عليه السلام : " ما لم يكن نَقْعٌ ولا لَقْلَقَةٌ " وقول لُبيد :

فمتى يَنْقعْ صُراخٌ صادِقٌ . . . .

أي : هَيَّجْنَ في المَغارِ عليهم صَباحاً " انتهى . فعلى هذا تكون الباء بمعنى " في " ويعودُ الضمير على المكانِ الذي فيه الإِغارةُ كما تقدَّمَ .

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5)

(180/827)

قوله : ﴿ فَوَسَطْنَ ﴾ : العامَّةُ على تخفيفِ السينِ ، أي : تَوَسَّطْنَ . وفي الهاءِ في " به " أوجهٌ ، أحدُها : أنها للصبح ، كما تقدَّم . والثاني : أنها للنَّقْعِ ، أي : وَسَطْنَ بالنَّقْعِ الجَمْعَ ، أي : جَعَلْنَ الغبارَ وَسْطَ الجمع ، فالباءُ للتعدية ، وعلى الأولِ هي ظرفيةٌ . الثالث : أنَّ الباءَ للحاليةِ ، أي : فتوسَّطْنَ مُلْتبساتٍ بالنقع ، أي : بالغبار جمعاً من جموع الأعداء . وقيل : الباءُ مزيدةٌ ، نقله أبو البقاء و " جَمْعاً " على هذه الأوجهِ مفعولٌ به . الرابع : أنَّ المرادَ بـ جَمْعِ المزدلفة وهي تُسَمَّى جَمْعاً . والمرادُ أنَّ الإِبلَ تتوسَّطُ جَمْعاً الذي هو المزدلفةُ ، كما مرَّ عن أميرِ المؤمنين رضي الله عنه ، فالمرادُ بالجَمْعِ مكانٌ لا جماعةُ الناسِ ، كقولِ صفية :

4626 . . . . والعادياتِ غَداةَ جَمْعٍ . . . .

. . . .

وقولِ بشرِ بنِ أبي خازم:

4627 فَوَسَطْنَ جَمْعَهُمُ وأَفْلَتَ حاجبٌ . . . تحت العَجابةِ في الغُبارِ الأَقْتَمِ

و"جَمْعاً" على هذا منصوبٌ على الظرف، وعلى هذا فيكونُ الضميرُ في "به": إمَّا للوقتِ، أي: في وقت الصبح، وإمَّا للنَّقْع، وتكونُ الباءُ للحال، أي: مُلْتبساتٍ بالنَّقْع. إلاَّ أنه يُشْكِلُ نَصْبُ الظرفِ المختصِّ إذ كان حَقُّه أَنْ يتعدى إليه ب"في" وقال أبو البقاء: "إنَّ جَمْعاً حالٌ" وسبقه إليه مكي. وفيه بُعْدٌ؛ إذ المعنى: على أنَّ الخيلَ توسَّطَتْ جَمْعٌ الناسِ.

(181/827)

وقرأ علي وزيد بن علي وقتادة وابن أبي ليلى بتشديد السين، وهما لغتان بمعنىً واحدٍ أعني التثقيلَ والتخفيفَ. وقال الزمخشري: "التشديدُ للتعديةِ والباءُ مزيدةٌ للتأكيدِ كقوله: ﴿ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهاً ﴾ [البقرة: 25] وهي مبالَغَةٌ في "وَسَطْن" انتهى. وقولُه: "وهي مبالَغَةٌ" يناقِضُ قولَه أولاً "للتعدية"؛ لأن التشديدَ للمبالغة لا يُكْسِبُ الفعلَ مفعولاً آخر تقول: "ذَبَحْتُ الغنم" مخففاً ثم تبالِغ فتقول: "ذَبَّحْتها" مثقلاً، وهذا على رأيِه قد جَعَله متعدياً بنفسِه بدليلِ جَعْلِه الباءِ مزيدةً فلا يكون للمبالغة.

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6)

قوله : ﴿ إِنَّ الإِنسان ﴾ : هذا هو المُقْسَم عليه و " لربِّه " متعلِّقٌ بالخبرِ ، وقُدِّمَ للفواصلِ .

والكَنُوْدُ : الجَحُوْد . وقيل : الكَفورُ النعمةِ وأُنْشِد :

4628 كَنُوْدٌ لنَعْماءِ الرجالِ ومَنْ يَكُنْ . . . كَنُوْداً لِنَعْماءِ الرجالِ يُبَعَّدِ

وعن ابن عباس : هو بلسانِ كِنْدَةَ وحَضْرَمَوْتَ العاصي ، وبلسان ربيعةَ ومُضَرَ الكَفُورُ ، وبلسانِ كِنانةَ البخيل . وأنشد أبو زيد :

4629 إنْ تَفُتْني فلم أَطِبْ عنك نَفْساً . . . غيرَ أَنِّي أمنى بدَيْنٍ كَنُودِ

وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8)

قوله : ﴿ لِحُبِّ ﴾ : اللامُ متعلِّقَةٌ ب " شديدٌ " وفيه وجهان ، أحدهما : أنها المعدِّيَة . والمعنى : وإنه لقَويٌّ مُطيقٌ لحُبِّ الخيرِ يقال : هو شديدٌ لهذا الأمرِ ، أي : مُطيقٌ له والثاني : أنها للعلةِ ، أي : وإنَّه لأجلِ حبِّ المالِ لَبخيلٌ . وقيل : اللامُ بمعنى " على " . ولا حاجةَ إليه ، وقد يُعَبَّرُ بالشديدِ والمتشدِّدِ عن البخيل قال :

4630 [أرى] الموتَ يَعْتامُ الكرامَ ويَصْطفي . . . عَقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشدِّدِ

وقال الفراء : " أصل نُظُمِ الآية أنْ يقالَ : وإنه لشديدُ الحُبِّ للخير ، فلما قَدَّم " الحُبّ " قال : لشديد ، وحَذَفَ مِنْ آخره ذِكْرَ " الحُبِ " ؛ لأنه قد جرى ذِكْرُه ، ولرؤوسِ الآي كقولِه : ﴿ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ﴾ [إبراهيم : 18] والعُصُوف للريح لا لليوم ، كأنه قال : في يومٍ عاصفِ الريح " .

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9)

قوله : ﴿ إِذَا بُعْثِرَ ﴾ : في العاملِ فيها أوجهٌ أحدُها : "بُعْثِرَ" نقله مكي عن المبرد وتقدَّم تحريرُ هذا قريباً في السورةِ قبلَها . والثاني : أنه ما دَلَّ عليه خبرُ "إنَّ" أي : إذا بُعْثِر جُوزوا . والثالث : أنه "يَعْلَمُ" ، وإليه ذهب الحوفيُّ وأبو البقاء . وردَّه مكيُّ قال : "لأنَّ الإِنسانَ لا يُرادُ منه العِلْمُ والاعتبارُ ذلك الوقتَ ، وإنما يَعْتَبِرُ في الدنيا ويعلَمُ" وقال الشيخ : " وليس بمتَّضِحٍ لأنَّ المعنى : أفلا يعلَمُ الآن .

وكان قد قال قبل ذلك : " ومفعولُ يَعْلَمُ محذوفٌ وهو العاملُ في الظرفِ ، أي : أفلا يعلم مآلَه إذا بُعْثِرَ " انتهى . فجعَلَها متعديةً في ظاهرِ قولِه إلى واحدٍ ، وعلى هذا فقد يُقال : إنها عاملةٌ في " إذا " على سبيلِ أنَّ " إذا " مفعولٌ به لا ظرفٌ إذ التقديرُ : أفلا يَعْرِفُ وقتَ بَعْثَرَةِ القبورِ . يعني أنْ يُقِرَّ بالبعثِ ووقتِه ، و " إذا " قد تصرَّفَتْ وخَرَجَتْ عن الظرفيةِ ، ولذلك شواهدُ تقدَّم ذِكْرُها في غضونِ هذا التصنيفِ . الرابع : أنَّ العاملَ فيها محذوفٌ ، وهو

مفعولٌ "يَعْلَمُ" كما تقدَّم تقريرُه، أي: يعلمُ مآلَه إذا بُعْثِرَ. ولا يجوزُ أن يعملَ فيه "لَخبيرٌ" لأنَّ ما في حيِّزِ "إنَّ" لا يتقدَّمُ عليها.

(183/827)

وقرأ العامَّةُ "بُعْثِرَ" بالعينِ مبنياً للمفعولِ. والموصولُ قائمٌ مقامَ الفاعلِ. وابن مسعودٍ بالحاء. وقرأ الأسود بن يزيد ومحمد بن معدان "بُحِثَ" من البحث. ونصر بن عاصم "بَعْثَرَ" مبنياً للفاعل وهو اللَّهُ تعالى أو المَلَكُ. والعامَّةُ "حُصِّل" مبنياً للمفعولِ كالذي قبلَه. ويحيى بن يعمر ونصرُ بن عاصم وابن معدان "حَصَّلَ" مبنياً للفاعلِ. ورُوِي عن ابن يعمرَ ونصرٍ أيضاً "حَصَلَ" خفيفةَ الصادِ مبنياً للفاعل بمعنى: جَمَعَ ما في الصحفِ تَحَصُّلاً، والتحصيلُ: جَمْعُ الشيء، والحُصولُ اجتماعُه. وقيل: التحصيلُ التمييزُ. ومنه قيل للمُنْخُلِ: مُحَصِّل. وحصَلَ الشيءُ مخفَّفاً: ظَهَرَ واستبانَ، وعليه القراءةُ الأخيرةُ.

إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)

(184/827)

قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم ﴾ : العامَّةُ على كَسْرِ الهمزةِ لوجودِ اللامِ في خبرِها . والظاهرُ أنَّها مُعلِّقَةٌ لـ "يَعْلَمُ" فهي في محلِّ نصب ، ولكن لا يَعْمَلُ في "إذا" خبرُها لِما تقدَّم ؛ بل يُقَدَّرُ له عاملٌ مِنْ معناه كما تقدَّم . ويدلُّ على أنها مُعَلِّقَةٌ للعِلْمِ لا مستأنفةٌ قراءةُ أبي السَّمَّال وغيرِه "أنَّ ربَّهم بهم يؤمئذٍ خبيرٌ" بالفتح وإسقاطِ اللامِ ، فإنَّها في هذه القراءةِ سادَّةٌ مَسَدَّ مفعولَيْها . ويُحْكَى عن الخبيثِ الروحِ الحَجَّاجِ أنه لمَّا فَتَحَ همزةَ "أنَّ" استدرك على نفسِه فتعمَّد سقوطَ اللامِ . وهذا إنْ صَحَّ كُفْرٌ . ولا يُقال : إنها قراءةٌ ثابتةٌ ، كما نَقَلْتُها عن أبي السَّمَّال ، فلا يكفرُ ، لأنه لو قرأها كذلك ناقِلاً لها لم يُمْنَعْ منه ، ولكنه أسقطَ اللامَ عَمْداً إصلاحاً لِلسانِه . وأجمعَ الأمةُ على أنَّ مَنْ زاد حرفاً في القرآن أو نَقَصَه عَمْداً فهو كافِرٌ ، وإنما قلتُ ذلك لأنِّي رأيتُ الشيخَ قال : "وقرأ أبو السَّمَّال والحجَّاج" ولا يُحْفَظُ عن الحجَّاجِ إلاَّ هذا الأثرُ السَّوْءُ ، والناسُ يَنْقُلونه عنه كذلك ، وهو أقلُّ مِنْ أَنْ يُنْقَلَ عنه .

و"بهم" و"يومئذٍ" متعلِّقان بالخبرِ ، واللامُ غيرُ مانعةٍ من ذلك ، وقُدِّما لأَجْلِ الفاصلةِ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 11 صـ 81. 92﴾

(185/827)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة العاديات

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة غيور لا يصلح لذكرها إلا لسان مصون ، عن اللغو والغيبة ، ولا يصلح لمعرفتها إلا قلب محروس عن الغفلة والغيبة ، ولا يصلح لمحبتها إلا روح محفوظة عن العلاقة والحجبة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ﴾ .

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ﴾ : الخيلُ التي تعدو .

﴿ ضَبْحاً ﴾ أي إذا ضَبحن ضبحاً ، والضبحُ : هو صوتُ أجوافها إِذا عَدَوْنَ .

ويقال : ضبحُها هو شِدةُ نَفَسِها عند العَدْوِ .

وقيل : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ﴾ : الإبل .

وقيل : أقسم الله بأفراسِ الغزاة .

﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ﴾ .

تورى بحوافرها النار إِذا عَدَتْ وأصابَتْ سنابِكُها الحجارة بالليل .

ويقال : الذين يورون النار بعد انصرافهم من الحرب .

ويقال: هي الأسِنّة.

﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ﴾.

تُغِير على العدوّ صباحاً.

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ﴾.

أي: هَيَّجْنَ به غبارا.

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ﴾.

أي: تَوَسَّطْنَ المكان، أي: تتوسط الخيل بفوارسها جَمْعَ العَدُوِّ.

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾.

هذا هو جوابُ القَسَمِ.

﴿ لَكَنُودٌ ﴾: أي لكَفُور بالنعمة.

﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَالِكَ لَشَهِيدٌ ﴾.

أي: وإنه على كنوزه لشهيد.

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾.

أي: وإنه لبخيلٌ لأجل حُبِّ المال.

قوله جلّ ذكره: ﴿ أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ ﴾.

أي: بُعِثَ الموتى.

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِى الصُّدُورِ ﴾ .

بُيِّنَ ما في القلوب من الخير والشرّ .

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرُ ﴾ .

أفلا يعلم أن اللَّهَ يُجازيهم – ذلك اليومَ – على ما أسلفوا ، ثم قال عَلَى الاستئناف : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرُ ﴾ .

ويقال في معنى الكَنُود : هو الذي يَرَى ما إليه مِنْ البَلْوَى ، ولا يرى ما هو به مِنْ النُّعْمَى .

ويقال : هو الذي رأسُه على وسادة النعمة ، وقَلبه في ميدان الغفلة .

ويقال : الكَنُود : الذي ينسى النِّعَم ويَعُدّ المصائب .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَى ذَالِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ ، يحتمل : وإِنَّ اللَّهَ على حاله لشهيد . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 757.759 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة:

سورة العاديات

آياتها 11 آية

[سورة العاديات (100) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْعادِياتِ ضَبْحاً (1) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (2) فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (4)
فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (5) إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ
الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8)

الإعراب:

(والعاديات) متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (ضبحا) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره تضبح " 1 " ، (الفاء) عاطفة في المواضع الأربعة (قدحا) مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره تقدح " 2 " ، (صبحا) ظرف

---

(1) أو مفعول مطلق نائب عن المصدر لملاقاته في المعنى لأنّ العاديات ضابحة، أو مصدر في موضع الحال، ضابحات.

(2) يجوز فيه الوجهان الواردان في (ضبحا).

زمان منصوب متعلّق بـ (المغيرات) ، (به) متعلّق بـ (أثرن) " 1 " ، والثاني بـ (وسطن) " 2 " ، (جمعا) مفعول به منصوب (لربّه) متعلّق بـ (كنود) ، (اللام) المزحلقة – أو لام القسم – (الواو) عاطفة في الموضعين (على ذلك) متعلّق بـ (شهيد) (اللام) مثل الأولى في الموضعين (لحبّ) متعلّق بـ (شديد) " 3 " . .

جملة : " (أقسم) بالعاديات . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " أثرن . . . " لا محلّ لها معطوفة على (مغيرات) لأنها بمنزلة الصلة للموصول (ال) أي : فاللائي أغرن . . . فأثرن .

وجملة : " وسطن " لا محلّ لها معطوفة على جملة أثرن .

وجملة : " إنّ الإنسان . . . لكنود " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " إنّه . . . لشهيد " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

وجملة : " إنّه . . . لشديد " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم .

الصرف :

(1) العاديات : جمع العادية مؤنّث العادي ، اسم فاعل من عدا بمعنى ركض وزنه فاعل ،

وفيه إعلال بالقلب ، أصله العادو ، تحرّكت الواو بعد كسر قلبت ياء . .

(ضبحا) ، مصدر الثلاثيّ ضبحت الخيل تضبح باب فتح أي أسمعت صوتا ليس بصهيل ولا حمحمة ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(2) الموريات : جمع المورية مؤنّث الموري ، اسم فاعل من أورى النار إذا أقدح الحجارة لإخراج النار منها ، وزنه مفعل بضمّ الميم وكسر العين .

(قدحا) ، مصدر سماعيّ للثلاثيّ قدح الحجارة ببعضها باب فتح إذا

---

(1) بمكان عدوهنّ أو بذلك الوقت .

(2) الضمير في (به) يعود على الصبح أو على النقع ، ويجوز في الجارّ أن يتعلّق بحال من فاعل وسطن : متلبّسات بالنقع . [. . . . . .]

(3) واللام للتقوية أو للتعليل .

(189/827)

صكّها لإخراج النار ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(3) المغيرات : جمع المغيرة مؤنّث المغير ، اسم فاعل من (أغار) الرباعيّ ، وزنه مفعل بملاحظة الإعلال بالتسكين - تسكين الياء ونقل حركتها إلى الغين قبلها - (4) نقعا : اسم

بمعنى الغبار ، وزنه فعل بفتح فسكون .

(6) كنود : صيغة مبالغة من (كند) النعمة أي كفر بها باب نصر ، وزنه فعول للمذكّر والمؤنّث .

البلاغة

الاستعارة التصريحية : في قوله تعالى " فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً " .

استعارة في الخيل توري نار الحرب وتوقدها ، فقد شبه الحرب بالنار المشتعلة ، وحذف المشبه وأبقى المشبه به .

المخالفة بين المعطوف والمعطوف عليه : في قوله تعالى " فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً " .

حيث عطف الفعل على الاسم الذي هو العاديات وما بعده ، وفي الحقيقة العطف على الفعل الذي وضع اسم الفاعل موضعه ، لأن المعنى : واللاتي عدون فاورين فأغرن ، فأثرن .

الجناس اللاحق : في قوله تعالى " وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ " .

وهذا الجناس هو ما أبدل أحد ركنيه حرف واحد بغيره من غير مخرجه، سواء كان الإبدال في الأول أو الوسط أو الآخر. والآية التي نحن بصددها مثال الإبدال من الوسط.

[سورة العاديات (100) : الآيات 9 إلى 11]

أَفَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)

الإعراب:

(الفاء) عاطفة، والاستفهام للإنكار (لا) نافية (إذا) ظرف في محلّ نصب مجرّد من الشرط " 1 "، متعلّق بمحذوف يفسّره قوله تعالى: إنّ ربّهم... خبير أي يعلمهم اللّه " 2 "، (في القبور) متعلّق بمحذوف صلة ما الأول (في الصدور) صلة ما الثاني (بهم) متعلّق بـ (خبير) وكذلك (يومئذ) الظرف المنصوب - أو المبنيّ - (اللام) المزحلقة للتوكيد..

جملة: " يعلم... " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي: أ يفعل القبائح فلا يعلم أنّا نجازيه يوم القيامة.

وجملة: " بعثر... " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " حصّل... " في محلّ جرّ معطوفة على جملة بعثر.

وجملة: " إنّ ربّهم بهم... لخبير " لا محلّ لها تعليل للمفعول المقدّر " 3 ".

البلاغة

تجنيس التحريف : في قوله تعالى "إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ" .

وهذا الفن ، هو الذي يكون الضبط فيه فارقا بين الكلمتين أو بعضهما ، وهو أيضا ما اتفق ركناه في أعداد الحروف ، واختلفا في الحركات ، سواء كانا من اسمين أو فعلين ، أو اسم وفعل ، أو من غير ذلك .

الفوائد :

- التصوير في القرآن الكريم :

من أسرار الإعجاز في كتاب اللّه عز وجل أنه يصور المعاني والأفكار تصويرا

---

(1) أو متضمّن معنى الشرط.

---

(2) أو متعلّق بمفعول يعلم المقدّر ، وجملة إنّ ربّهم . . تعليل للمفعول أي : ألا يعلم الإنسان أنّا نجازيه وقت بعثرة القبور لأن ربّهم بهم خبير . . وإذا تضمّن الظرف معنى الشرط كان متعلّقا بالجواب المقدّر المعلل بقوله : إنّ ربّهم . . أي إذا بعثر ما في القبور يتمّ جزاؤهم بحسب أعمالهم لأنّ ربّهم خبير بهم .

(3) أو هي مفعول يعلم ، وقد كسرت همزة (إنّ) لمجيء اللام في الخبر ، وحقّها الفتح .

رائعا ، ويجسدها كأنها حياة متحركة تمر أمامنا ، ويتملّاها حسّنا وفكرنا وتصوّرنا ، وعلاوة على ذلك فإن الألفاظ بجرسها وإيقاعها تساعد على رسم الصورة وإعطائها أبعادها وقد جاءت هذه السورة من هذا القبيل ، ففي مطلعها رسمت لنا صورة الخيل المغيرة الماضية إلى الجهاد ، فجاء التعبير مصورا مبرزا لتلك الصورة ، فلنتصور هذين المصدرين بإيقاعهما وجرسهما (ضبحا ، قدحا) فإنهما يصوران عنف الخيل الماضية إلى الجهاد ، واستعمال الصفات التالية : (العاديات – الموريات – المغيرات) فإنها تكمل الصورة وتمنحها بعدها المعنوي والنفسي وفي قوله تعالى : (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً . فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً) تكتمل الصورة ، ونحس بالحركة والحياة تسري من خلال هذا التعبير الرائع ، ومن تناسق التعبير في هذه السورة ، فإننا لاحظنا كيف كان مطلعها يتسم بقصر الفواصل ، وشدة التعبير التي تناسب صورة الخيل والمعمعة والعجاج أما في قسمها الثاني ، عند ما لجأت إلى التعبير عن جحود الإنسان وحبه للمال ، فإن التعبير هدأ وطال ، ليناسب المقام (إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ، وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ . وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) ، ثم رجع ليلائم مشهد القيامة والحساب . كما نلاحظ أن الأفعال بجرسها ، ترسم مشهد القيامة وعنفوانه

: (أَفَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ) فالفعلان: (بعثر) يعبر عن عنف القيامة وشدة الأمر، و(حصّل) يعبر عن التحصيل بشدة ومن هنا نلاحظ الدقة في استخدام الفعل ليعبر عن المعنى المطلوب بدقة متناهية، كما نلاحظ الحركة والحياة التي تسري في كلمات القرآن الكريم، وهذا سر من أسرار الإعجاز في كتاب اللّه عز وجل.

انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 30 صـ 387. 391﴾

(193/827)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(100) سورة العاديات

مكيّة وآياتها إحدى عشرة

[سورة العاديات (100): الآيات 1 إلى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْعادِياتِ ضَبْحاً (1) فَالْمُورِياتِ قَدْحاً (2) فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً (4)

فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً (5) إِنَّ الْإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلى ذلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ

الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أَفَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ (9)

وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)

اللغة :

(الْعادِياتِ) الخيل تعدو في الغزو بسرعة والياء من الواو لكسر ما قبلها .

(ضَبْحاً) هو صوت أجوافها وفي المختار : " ضبحت الخيل من باب قطع والضبح صوت أنفاسها إذا عدت " وفي القاموس : " ضبحت الخيل ضبحا وضباحا أسمعت من أفواهها صوتا ليس بصهيل ولا

حمحمة أو عدت دون التقريب " وقال الفراء : " الضبح صوت الخيل إذا عدت قال ابن عباس : ليس شيء من الدواب يضبح غير الفرس والكلب والثعلب وقيل كانت تكعم لئلا تصهل فيعلم العدو بهم فكانت تتنفس في هذه الحالة بقوة وإنما تضبح هذه الحيوانات إذا تغيرت حالها من فزع أو تعب " وفي القاموس : "كعمت البصير كمنع فهو مكعوم وكعيم : شددت فاه لئلا يعضّ أو يأكل وما كعم به يقال له كعام ككتاب " وقال الزمخشري : " أقسم بخيل الغزاة تعدو فتضبح والضبح صوت أنفاسها إذا عدون ، وعن ابن عباس أنه حكاه فقال : أح أح ، قال عنترة :

والخيل تكدح حين تضبح في حياض الموت ضبحا "

والكدح الجدّ في العدو ، وشبّه عنترة الموت بالسيل على طريق الاستعارة المكنية والحياض تخييل ذلك .

(فَالْمُورِياتِ) الخيل توري النار بسنابكها أي تقدح كما توري الزندة وهي نار الحباحب
والمصدر أورى يوري إراء فهو مور قال النابغة :

(194/827)

تقد السلوقي المضاعف نسجه وتوقد بالصفاح نار الحباحب
والحباحب كما في الصحاح : اسم رجل بخيل كان لا يوقد إلا نارا ضعيفة مخافة الضيفان
فضربوا به المثل حتى قالوا نار الحباحب لما تقدحه الخيل بحوافرها .
وفي المصباح : " ورى الزند يرى من باب وعد وفي لغة وري يري بكسرهما وأورى بالألف
وذلك إذا أخرج ناره " وفي المختار : " وأوراه غيره " فاستفيد مما في المصباح والمختار أنه
يستعمل ثلاثيا لازما ورباعيا لازما ومتعديا وما في الآية من قبيل المتعدي الرباعي .
(قَدْحاً) مصدر قدح يقال : قدحت الحجر بالحجر أي صككته به وأصل القدح
الاستخراج ومنه قدحت العين إذا أخرجت منها الماء الفاسد واقتدحت الزند
واقتدحت المرق غرفته والمقدحة بكسر الميم ما تقدح به النار والقداحة والقداح الحجر
الذي يوري النار .
(فَالْمُغِيراتِ) الخيل تغير على العدو وفي المصباح : " وأغار الفرس إغارة والاسم الغارة مثل

أطاع إطاعة والاسم الطاعة إذا أسرع في العدو وأغار القوم إغارة أسرعوا في السير " وفي القاموس : " وأغار على القوم غارة وإغارة دفع عليهم الخيل وأغار الفرس اشتد عدوه في الغارة وغيرها " قال :

أغار على العدو بكل طرف وسلهبة تجول بلا حزام

(فَأَثَرْنَ) هيجن يقال : ثار يثور ثورا وثورانا وثؤور أهاج ومنه ثارت الفتنة بينهم وثار الغبار أو الدخان ارتفع وثار الجراد ظهر وثارت نفسه جشأت وثار إليه . وبه : وثب عليه .

(نَقْعاً) غبارا والنقع أيضا أن يروى الإنسان من شرب الماء يقال نقعت غلّي بشربة ماء ، وقال بشار :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

(195/827)

(فَوَسَطْنَ) توسطن وفي المصباح : " يقال : وسطت القوم والمكان أسط وسطا من باب وعد إذا توسطت بين ذلك والفاعل واسط وبه سمي البلد المشهور بالعراق لأنه توسط الإقليم " وفي المختار : تقول : جلست وسط القوم بالتسكين لأنه ظرف وجلست وسط الدار بالتحريك لأنه اسم لما يكتنفه غيره من جهاته وكل موضع صلح فيه " بين " فهو وسط

بالسكون وإن لم يصلح فيه " بين " فهو وسط بالتحريك وربما سكن وليس بالوجه " .

وعبارة القاموس : " ووسطهم كوعد وسطا وسطة جلس وسطهم كتوسطهم وهو وسيط فيهم أي أوسطهم نسبا وأرفعهم محلا والوسيط بين المتخاصمين وكصبور بيت من الشّعر أو هو أصغرها والناقة تملأ الإناء والتي تحمل على رؤوسها وظهورها لا تعقل ولا تقيد والتي تجر أربعين يوما بعد السنة ووسطان بلد للأكراد ووسط محركة جبل ودارة واسط موضع ووسط محركة : ما بين طرفيه كأوسطه فإذا سكنت كانت ظرفا أو هما فيما هو مصمت كالحلقة فإذا كانت أجزاؤه متباينة فبالإسكان فقط أو كل موضع صلح فيه بين فهو بالتسكين وإلا فهو بالتحريك " .

(لَكَنُودٌ) الكنود : الكفور وكند النعمة كنودا ومنه سمي كندة لأنه كند أباه ففارقه ، وعن الكلبي : الكنود بلسان كندة : العاصي وبلسان بني مالك : البخيل وبلسان مضر وربيعة : الكفور وفي المختار : "كند : كفر النعمة وبابه دخل فهو كنود وامرأة كنود أيضا " وروى أبو أمامة الباهلي قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : " الكنود : الذي يأكل وحده ويمنع رفده أي عطاءه ويضرب عبده " وعبارة ابن خالويه : الكنود : الكفور قال الحسن في قوله عزّ وجلّ : إن الإنسان لربه لكنود قال : يذكر المصائب وينسى النعم ، وقال النمر بن تولب :

كنود لا تمنّ ولا تغادي إذا علقت حبائلها برهن

لها ما تشتهي عسل مصفّى إذا شاءت وحوّارى بسمن

(بُعْثِرَ) تقدم شرحها كثيرا والبعثرة والبحثرة بالحاء استخراج الشيء واستكشافه.

الإعراب:

(196/827)

(وَالْعادِياتِ ضَبْحاً فَالْمُورِياتِ قَدْحاً فَالْمُغِيراتِ صُبْحاً) الواو حرف قسم وجر والعاديات مجرور بواو القسم والجار المجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف وضبحا مفعول مطلق لفعل محذوف أي يضبحن ضبحا وهذا الفعل المقدّر حال من العاديات ويجوز أن تعرب حالا أي ضابحات وقال الخطيب " وانتصاب ضبحا على تقدير فعل أي يضبحن ضبحا أو بالعاديات كأنه قيل والضابحات ضبحا لأن الضبح لا يكون إلا مع العدو أو على الحال أي ضابحات ، والفاء عاطفة والموريات عطف على العاديات وقدحا فيه الأوجه الثلاثة التي في ضبحا ، قال الزمخشري " وانتصب قدحا بما انتصب به ضبحا " والفاء عاطفة والمغيرات نسق أيضا على العاديات وضبحا نصب على الظرفية أي التي تغير في وقت الصبح وهو متعلق بالمغيرات قال أبو حيان وأجاد : " وفي هذا دليل على أن هذه الأوصاف لذات واحدة لعطفها بالفاء التي تقتضي التعقيب والظاهر أنها

الخيل التي يجاهد عليها العدو من الكفار ولا يستدل على أنها الإبل بوقعة بدر وإن لم يكن فيها إلا فرسان اثنان لأنه لم يذكر أن سبب نزول هذه السورة هو وقعة بدر ثم بعد ذلك لا يكاد يوجد أن الإبل جوهد عليها في سبيل اللّه بل المعلوم أنه لا يجاهد في سبيل اللّه تعالى إلا على الخيل في شرق البلاد وغربها " قال هذا في معرض ردّه على من فسّر العاديات بالإبل

(فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً) الفاء حرف عطف وأثرن فعل ماض مبني على السكون والنون فاعل والعطف على فعل ومنع اسم الفاعل موضعه لأن المعنى واللاتي عدون فأورين فأغرن فأثرن ، وبه متعلقان بأثرن ونقعا مفعول به والضمير في به يعود على الوادي وإن لم يتقدم له ذكر وهو مكان العدو وقيل يعود على الصبح أي فأثرن به في وقت الصبح ، قال أبو حيان : " وهذا أحسن من الأول لأنه مذكور بالصريح " وعلى كلّ من التفسيرين فالباء من به بمعنى في وكل ما يتعدى بفي يتعدى بالباء ولا عكس .

والفاء عاطفة ووسطن فعل ماض مبني على السكون ونون النسوة فاعل وبه متعلقان بوسطن

والضمير يعود على الصبح كما تقدم أو على النقع فالباء للتعدية وعلى الأول للظرفية وقيل إن الباء حالية أي فتوسطن ملتبسات بالغبار فتكون متعلقة بمحذوف على أنه حال ، ونقل أبو البقاء وجها غريبا لم أجد له مبررا وهو أنها زائدة وجمعا مفعول أثرن وأغرب أبو البقاء أيضا فجعلها حالا لأنه جعل الباء زائدة في المفعول به وليس بذاك ، وأسف ابن خالويه فأعرب جمعا ظرفا ولست أدري ولا المنجّم يدري كيف استقام له (إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) الجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب القسم وإن حرف مشبّه بالفعل والإنسان اسمها ولربه متعلقان بكنود واللام المزحلقة وكنود خبر إن والألف واللام في الإنسان للجنس وقيل للكافر والأول أولى لأن طبع الإنسان مجبول على ذلك يهيب به إلى الشر إلا من عصمه اللّه (وَإِنَّهُ عَلَى ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ) عطف على الجملة السابقة وهو المقسم عليه الثاني وإن واسمها وعلى ذلك متعلقان بشديد واللام المزحلقة وشديد خبر إن أي يشهد على نفسه بصنعه والشهادة بالقوة التي تبد في آثار أعماله الواضحة وشواهدها الفاضحة ، وأجاز الزمخشري أن يعود الضمير على اللّه فقال : " وقيل وإن اللّه على كنوده لشاهد على سبيل الوعيد " (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) منسوق على ما تقدم وهو المقسم عليه الثالث وإن واسمها ولحب الخير متعلقان بشديد واللام للتقوية والمعنى إنه لقوي مطيق لحب الخير ، يقال هو شديد لهذا الأمر أي مطيق له وقيل اللام للتعليل أي وأنه لأجل حب المال لشديد واللام المزحلقة وشديد خبرها وأراد بالخير المال والشديد البخيل الممسك يقال : فلان شديد

ومتشدّد قال طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيلة مال الفاحش المتشدّد

وعبارة ابن خالويه : " والخير المال هاهنا كما قال تعالى : إن ترك خيرا أي مالا والخير الخيل من قوله تعالى : إني أحببت حبّ الخير عن

(198/827)

ذكر ربي يعني الخيل والخير الخمر تقول العرب ما عنده خل ولا خمر أي لا شر ولا خير ويجمع الخير خيورا والشر شرورا " قلت : لم أر في ما لدي من المعاجم هذا المعنى للخير أي الخمر وما كنت لأسجّل هذه الملاحظة لأن ابن خالويه من الأئمة المشهود لهم بالحفظ ولكني سجلت ملاحظتي تعليقا على إيراده المثل فالسياق الذي أورده فيه يدل على أن الخير قد يراد به الخمر ولكن المثل لم يرد ذلك قطعا وإنما جعل الشر خلا والخير خمرا على سبيل التشبيه فقولهم في المثل ما عنده خل ولا خمر يريدون به ما عنده خير ولا شر وقولهم : ما أنت بخل ولا خمر المراد به ما أشار إليه الميداني وغيره من أنه كان بعض العرب يجعلون الخير خمرا للذتها والخل شرا لحموضته ولأنه لا يقدر الإنسان على شربه (أَفَلا يَعْلَمُ إِذا بُعْثِرَ ما فِي الْقُبُورِ) الهمزة للاستفهام الإنكاري والفاء للعطف على مقدّر يقتضيه المقام أي أيفعل ما

يفعل من المقابح فلا يعلم ، ولا نافية ويعلم فعل مضارع مرفوع وإذا ظرف لمجرد الظرفية ، قال زاده : " لا يجوز أن يكون ظرفا ليعلم لأن الإنسان لا يراد منه العلم في ذلك الوقت وإنما يراد منه ذلك وهو في الدنيا ، ولا يجوز أن يكون ظرفا لبعثر لأن المضاف إليه لا يعمل في المضاف ولا لقوله خبير لأن ما بعد إن لا يعمل فيما قبلها فتعين أن يكون العامل فيه ما دلّ عليه قوله : إن ربهم بهم يومئذ لخبير ، أي أفلا يعلم الإنسان في الدنيا أنه تعالى يجازيه إذا بعثر ومعنى علم اللّه تعالى بهم يوم القيامة مجازاته لهم " وجملة بعثر في محل جر بإضافة الظرف إليها وما موصول نائب فاعل بعثر وفي القبور متعلقان بمحذوف لا محل له لأنه صلة ما (وَحُصِّلَ ما فِي الصُّدُورِ) منسوق على بعثر

ما في القبور وحصل فعل ماض مبني للمجهول أي جمع في الصحف وأظهر مفصلا مجموعا وقيل ميّز بين خيره وشره وسمينه وغثّه ، قال زاده : " وخصّ أعمال القلوب بالذكر وترك ذكر أعمال الجوارح لأنها تابعة لأعمال القلوب فإنه

لولا تحقق البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح " وهذا كلام جيد فتدبره (إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ) الجملة تعليل لعامل إذا المحذوف وهو مفعول يعلم أي أفلا

يعلم أنّا نجازيه وقت ما ذكر ثم علّل ذلك بقوله إن ربهم إلخ وإن واسمها وبهم متعلقان بخبير ويومئذ ظرف متعلق بخبير أيضا واللام المزحلقة وخبير خبر إن .

البلاغة :

1- في المخالفة بين المعطوف والمعطوف عليه بقوله " فأثرن به نقعا " إذ عطف الفعل على الاسم الذي هو العاديات وما بعده لأنها أسماء فاعلين تعطي معنى الفعل سر بديع ، وهو تصوير هذه الأفعال في النفس وتجسيدها أمام العين ، فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف وهو أبلغ من التصوير والتجسيد بالأسماء المتناسقة وكذلك التصوير بالمضارع بعد الماضي وقد تقدمت له شواهد أقربها قول عمرو بن معد يكرب :

بأني قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت صريعا لليدين وللجران

2- وفي قوله " فالموريات قدحا " استعارة في الخيل تشعل الحرب فهي استعارة تصريحية شبّه الحرب بالنار المشتعلة وحذف المشبه وأبقى المشبه به قال تعالى : كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويقال حمى الوطيس إذا اشتدت الحرب .

3- وفي قوله " إن ربهم بهم يومئذ لخبير " تجنيس التحريف وبعضهم يسمّيه " الجناس المحرّف " وهو الذي يكون الضبط فيه فارقا بين الكلمتين أو بعضهما ، وهو أيضا ما اتفق ركناه في أعداد الحروف

واختلفا في الحركات سواء كانا من اسمين أو فعلين أو اسم وفعل أو من غير ذلك والغاية فيه قوله تعالى : " ولقد أرسلنا فيهم منذرين ، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين " ولا يقال إن اللفظين متّحدان في المعنى فلا يكون بينهما تجانس لأنّا نقول المراد بالأول اسم الفاعل وبالثاني اسم المفعول فالاختلاف ظاهر ومنه قوله صلّى اللّه عليه وسلم : " اللّهمّ كما حسنت خلقي فحسّن خلقي " ومثله قولهم جبة البرد جنة البرد ومنه قولهم : رطب الرطب ضرب من الضرب ، ومن الشعر قول أبي تمام :

هنّ الحمام فإن كسرت عيافة من خائهنّ فإنهنّ حمام

ومثله قول المعرّي :

والحسن يظهر في شيئين رونقه بيت من الشعر أو بيت من الشعر

وله أيضا :

لغيري زكاة من جمال فإن تكن زكاة جمال فاذكري ابن سبيل

4- في قوله " وإنه على ذلك لشهيد وإنه لحب الخير لشديد " الجناس اللاحق وهو الذي أبدل أحد ركنيه حرف واحد بغيره من غير مخرجه سواء كان الإبدال في الأول أو الوسط

أو الآخر وإن كان ما أبدل منه من مخرجه سمي مضارعا ، فمثال الإبدال من الأول قوله تعالى :

" ويل لكل همزة لمزة " والآية التي نحن بصددها مثال الإبدال من الوسط ، ومثال الإبدال من الآخر قوله تعالى : " وإذا جاءهم أمر من الأمن " ومن الأحاديث على هذا النمط أيضا من الأول قوله عليه السلام : " الحمد للّه الذي حسّن خلقي وزان منّي ما شان من غيري " ومن الثاني حديث الطبراني " لولا رجال ركّع وصبيان رضّع وبهائم رتّع " ومن الثالث حديث الطبراني أيضا " لن تفنى أمتي حتى يظهر فيهم

التمايز والتمايل " وحديث الديلمي أيضا " أحب المؤمنين إلى اللّه من نصّب نفسه في طاعة اللّه ونصح لأمة محمد " ومن الأمثلة الشعرية على هذا الترتيب المذكور أيضا قول أبي فراس :

إن الغني هو الغني بنفسه ولو أنه عاري المناكب حافي

ما كل ما فوق البسيطة كافيا وإذا قنعت فكل شيء كافي

ومن الثاني قول البحتري :

وقعودي عن التقلب والأرض لمثلي رحيبة الأكناف

ليس عن ثروة بلغت مداها غير أنّي امرؤ كفاني كفافي

ومن الثالث قول بعضهم :

شوقي لذاك المحيا الزاهر الزاهي شوق شديد وجسمي الواهن الواهي

أسهرت طرفي وولهت الفؤاد هوى فالقلب والطرف بين الساهر الساهي . انتهى انتهى ا .

هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 552 . 561 ﴾

(202/827)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والعشرون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/828)

الجزء الثامن والعشرون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة القارعة)

(4/828)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة القارعة)

(5/828)

"فصل فى مقصود السورة الكريمة"

قال البقاعى:

سورة القارعة

مقصودها إيضاح يوم الدين بتصوير ثواني أحواله في مبدئه ومآله، وتقسيم الناس فيه إلى ناج وهالك، واسمها القارعة واضح في ذلك. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 513﴾

(6/828)

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

(بصيرة فى.. القارعة)

السّورة مكِّيّة.

آياتها إِحدى عشرة فى عدّ الكوفة، وعشرة فى الحجاز، وثمان فى البصرة، والشَّام.

وكلماتها ستّ وثلاثون.

وحروفها مائة وخمسون فواصل آياتها (شثه) .

سمّيت بالقارعة ، لمفتتحها .

معظم مقصود السّورة : بيان هيبة العَرَصات ، وتأْثيرها فى الجمادات والحيوانات ، وذكر وَزن الحسنات والسّيئات ، وشرح عيش أَهل الدرجات وبيان حال أَصحاب الدّركات فى قوله : ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُه﴾ ، ثمّ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ جمع ميزان . وله كِفَّتان (و) عمود ولسان .

وإِنَّما جمع لاختلاف الموزونات ، وتجدّد الوزن ، وكثرة الموزون ، أَو جمع على أَنّ كل جزءٍ منه بمنزلة ميزان والله أَعلم .

فضل السّورة

فيها أَحاديث واهية ؛ منها حديث أُبىّ : مَنْ قرأَها ثقَّل الله بها ميزانه يوم القيامة ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها فكأَنَّما ذَبَح أَلف بَدَنة بين الرّكن والمقام ، وله بكلّ آية قرأَها ثوابُ المرابطين ، وبكل حرف درجة فى الجنَّة ، وكُتِب عند الله من الخاشعين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 539﴾

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة القارعة

اتفقت المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة على تسمية هذه السورة (سورة القارعة)

ولم يُروَ شيء في تسميتها من كلام الصحابة والتابعين .

واتُّفق على أنها مكية .

وعدت الثلاثين في عِداد نزول السور نزلت بعد سورة قريش وقبل سورة القيامة .

وآيها عشر في عد أهل المدينة وأهلِ مكة ، وثمانٍ في عد أهل الشام والبصرة ، وإحدى عشرة في عد أهل الكوفة .

أغراضها

ذُكر فيها إثبات وقوع البعث وما يسبق ذلك من الأهوال .

وإثباتُ الجزاء على الأعمال وأن أهل الأعمال الصالحة المعتبرة عند الله في نعيم ، وأهل الأعمال السيئة التي لا وزن لها عند الله في قعر الجحيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 509 ﴾

وقال الشيخ الصابوني :

سورة القارعة

مكية وآياتها إحدى عشرة

بين يدي السورة

* سورة القارعة مكية ، وهي تتحدث عن القيامة وأهوالها ، والآخرة وشدائدها ، وما يكون فيها من أحداث وأهوال عظام ، كخروج الناس من القبور ، وإنتشارهم في ذلك اليوم الرهيب ، كالفراش المتطاير ، المنتشر هنا وهناك ، يجيئون ويذهبون على غير نظام ، من شدة حيرتهم وفزعهم في ذلك اليوم العصيب .

* كما تحدثت عن نسف الجبال وتطايرها ، حتى تصبح كالصوف المنبث المتطاير في الهواء ، بعد أن كانت صلبة راسخة فوق الأرض ، وقد قرنت بين الناس والجبال ، تنبيها على تأثير تلك القارعة في الجبال ، حتى صارت كالصوف المندوف ، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم العصيب ؟

*وختمت السورة الكريمة بذكر الموازين التي توزن بها أعمال الناس ، وإنقسام الخلق إلى

سعداء وأشقياء ، حسب ثقل الموازين وخفتها ، وسميت السورة الكريمة بالقارعة ، لأنها تقرع القلوب والأسماع بهولها وشدائدها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿صفوة التفاسير حـ 3 صـ 595.594﴾

(9/828)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة القارعة

(الْقارِعَةُ) من أسماء القيامة كالحاقة والصاخّة والطامّة والغاشية وسميت بذلك لأنها تقرع القلوب بهولها ، كما تسمى الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة ، قال تعالى : " وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ " أي حادثة عظيمة تقرعهم وتصك أجسادهم فيألمون لها .

الفراش : هو الحشرة التي تراها تترامى على ضوء السراج ليلا ، وبها يضرب المثل فى الجهل بالعاقبة قال جرير :

إن الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطلى

والمبثوث : المفرق المنتشر ، تقول بثث الشيء : أي فرقته .

أي إن الناس من هول ذلك اليوم يكونون منتشرين حيارى هائمين على وجوههم لا يدرون ماذا يفعلون ، ولا ماذا يراد بهم كالفراش الذي يتجه إلى غير جهة واحدة .

بل تذهب كل فراشة إلى جهة غير ما تذهب إليها الأخرى .

وجاء تشبيههم فى آية أخرى بالجراد المنتشر فى كثرتهم وتتابعهم فقال : "كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ" .

(وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) العهن (بكسر العين وسكون الهاء) الصوف ذو الألوان ، والمنفوش : الذي نفش ففرقت شعراته بعضها عن بعض حتى صار على حال يطير مع أضعف ريح .

أي إن الجبال لتفتتها وتفرق أجزائها لم يبق لها إلا صورة الصوف المنفوش فلا تلبث أن تذهب وتتطاير ، فكيف يكون الإنسان حين حدوثها وهو ذلك الجسم الضعيف السريع الانحلال .

والمراد من كون أمه هاوية – أن مرجعه الذي يأوى إليه مهواة سحيقة فى جهنم يهوى فيها ، كما يأوى الولد إلى أمه ، قال أمية بن أبى الصلت :

فالأرض معقلنا وكانت أمّنا فيها مقابرنا وفيها نولد

(وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ ؟) أي وأىّ شىء يخبرك بما هى تلك الهاوية ، وأنها أىّ شىء تكون ؟

ثم فسرها بعد إبهامها فقال :

(نارٌ حامِيَةٌ) أي هى نار ملتهبة يهوى فيها ليلقى جزاء ما قدّم من عمل ، وما اجترح من سيئات .

(10/828)

وفى هذا إيماء إلى أن جميع النيران إذا قيست بها ووزنت حالها بحالها لم تكن حامية ، وذلك دليل على قوة حرارتها ، وشدة استعارها .

وقانا اللّه شر هذه النار الحامية ، وآمننا من سعيرها بمنه وكرمه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 225 . 228 ﴾ . باختصار .

(11/828)

وقال الفراء :

سورة (القارعة)

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ . . . ﴾ .

يريد : كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضا ، كذلك الناس يومئذ يجول بعضهم فى بعض .

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ . . . ﴾ وفى قراءة عبد الله : "كالصوف المنفوش" ،

وذكر : أن صُوَر الجبال تسيّر على الأرض ، وهى فى صور الجبال كالهباء .

وقوله عز وجل : ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ .

لأن ألوانها مختلفة ، كألوان العهن .

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ . . . ﴾ .

ووزنه ، والعرب تقول : هل لك فى درهم بميزان درهمك ووزن درهمك ، ويقولون : دارى

بميزان دارك ووزن دارك ، وقال الشاعر :

قد كنتُ قبل لقائِكم ذا مِرّةٍ * عندى لكلٍ مخاصم ميزانه

يريد : عندى وزن كلامه ونقضه .

﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾

وقوله جل وعز : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . . . ﴾ .

صارت مأواه، كما تؤوي المرأة ابنها ، فجعلها إذ لا مأوى له غيرها أمًّا له . انتهى ا . هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 287.286 ﴾

(12/828)

وقال الأخفش :

سورة (القارعة)

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾

قال ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ وواحدها : "العِهْنَة" مثل : "الصُوف" و"الصُّوفَة" وأما قوله ﴿ مَا هِيَهْ ﴾ [10] بالهاء فلأن السكت عليها بالهاء لأنها رأس آية . انتهى ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 583 ﴾

(13/828)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة القارعة

«1»

1 - و2 - و3 - الْقارِعَةُ: القيامة، لأنها تقرع [الخلائق بأحوالها وأفزاعها]. ويقال:

أصابتهم قوارع الدهر.

4 - كَالْفَراشِ: ما تهافت في النار: من البعوض.

الْمَبْثُوثِ: المنتشر.

5 - و (والعهن): الصّوف المصبوغ.

9 - فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ أي النار له كالأم يأوي إليها. انتهى انتهى. اهـ ﴿تأويل مشكل القرآن ص 467﴾

---

(1) هي مكية بالإجماع.

(14/828)

وقال الغزنوى:

[سورة القارعة]

4 كَالْفَراشِ: همج الطّير وخشاشها «1».

---

(1) هذا قول الفراء في معانيه: 3/ 286، وذكره الطبري في تفسيره: 30/ 281، والزجاج في معانيه: 5/ 355، ونقله الماوردي في تفسيره: 4/ 504 عن الفراء.

قال: وفي الفراش قولان:

أحدهما: أنه الهمج الطائر من بعوض وغيره، ومنه الجراد، قاله الفراء، الثاني: أنه طير يتساقط في النار ليس ببعوض ولا ذباب، قاله أبو عبيدة وقتادة.

وكذا البغوي في تفسيره: 4/ 519، وابن الجوزي في زاد المسير: 9/ 213.

[.....]

(15/828)

و «العهن» «1»: الصّوف بألوانه «2»، و «المنفوش»: المندوف «3».

9 فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ: يهوي على أمّ رأسه «4». وقيل «5»: الهاوية جهنّم، فهو يأوي إليها كما يأوي الولد إلى أمّه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿معانى القرآن/ للغزنوى حـ 2 صـ 888. 889﴾

---

(1) في قوله تعالى: وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ [آية: 5].

(2) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 309، وتفسير الطبري: 30/ 281،

ومعاني الزجاج:

5/ 355 ، واللسان : 13/ 297 (عهن) .

(3) أي : المطروق كما في اللسان : 9/ 325 (ندف) .

وانظر تفسير البغوي : 4/ 519 ، وزاد المسير : 9/ 214 .

(4) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (30/ 282 ، 283) عن أبي صالح ، وقتادة

، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 506 عن عكرمة.

(5) أخرجه الطبري في تفسيره : 30/ 283 عن ابن عباس ، وابن زيد .

ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 505 عن ابن زيد .

ونسبه ابن الجوزي في زاد المسير : 9/ 215 ، إلى ابن زيد ، والفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج.

(16/828)

وقال ملاحويش :

تفسير سورة القارعة

عدد 30 - 101

نزلت بمكة بعد قريش ، وهي إحدى عشرة آية ، وست وثلاثون كلمة ، ومائة واثنان وخمسون حرفا ، لا يوجد سورة مبدوءة ولا مختومة بما بدئت وختمت به ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "الْقارِعَةُ 1" كناية عن يوم القيامة وقد كررها تهويلا لما يقع فيها فقال "مَا الْقارِعَةُ 2" أيها الناس شيء عظيم هي وكل قارعة مخوفة ، دونها في الفظاعة ثم كررها ثالثا مع الاستفهام على سبيل التعظيم إيذانا بشدة أهوالها فقال "وَما أَدْراكَ" أيها الإنسان العاقل أي شيء أعلمك "مَا الْقارِعَةُ 3" فإنك مهما بلغت من الإدراك لا تدري كنهها ، وانك كيفما قد صورت وصورت فهي فوق ذلك لأنها تقرع القلوب بالفزع قرعا هائلا "يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ" فيه في مشيهم وتراصهم "كَالْفَراشِ" الحشرات التي تتهافت على الضياء والنار فإنها تترامى فوق بعضها لا تتجه إلى جهة واحدة مع أن القصد واحد لذلك وصفها اللّه بقوله "الْمَبْثُوثِ 4" المتفرق شبه اللّه تعالى الخلائق في ذلك اليوم المهول بهذا النوع من الطير الصغير وتهافته على بعضه نحو الضياء لأنهم يوم يبعثون يتبعون صوت الداعي حيارى لا يعرفون أين يذهبون ، يموج بعضهم في بعض من شدة الفزع الحاصل من شدة صوت الملك راجع تفسير الآية 305 من سورة طه الآتية ، فكما أن الفراش يظن أن في الضياء طريقا فيقصده ليمر به ويتهافت عليه فيتراكم بعضه على بعض فكذلك أهل الحشر

حين يساقون إليه ولهذا شبههم به "وَتَكُونُ الْجِبالُ) الشامخات فيه أيضا "كَالْعِهْنِ" الصوف "الْمَنْفُوشِ" وقيل المصبوغ ألوانا مستدلا بقوله تعالى :

(17/828)

"جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ" الآية 27 من سورة فاطر الآتية ، وما جرينا عليه أنسب بالمقام لأن الآية المستدل بها تبين ماهية الطرق في الجبال وأن كل طريق بلون أرضه بمناسبة تعداد نعم اللّه على خلقه ، وهنا يبين كيفية اضمحلال الناس معنى بالنسبة للجملة قبلها المبينة من تشتت الناس والجبال مع عظمتها أما الطرق فلم يسبق لها ذكر ولا مناسبة بينها وبين ما نحن فيه فتنبه أيها القارئ واعتبر ، فإذا كان هذا حال الجبال الصلبة في ذلك اليوم تكون هباء وتطاير كالصوف حالة النّدف .

فكيف بك أيها الضعيف عند ما تقرع القارعة .

وتأمل ما ذكره اللّه أول سورة الحج في ج 3 وابك على نفسك ، وقل اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وبك المستغاث وأنت المستعان وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

ثم انه

جل شأنه قسم عباده إلى قسمين فقال "فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ 6" بعمله الصالح وطاشت

سيئاته لقلتها "فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ 7" في جنة عالية يرضاها صاحبها برضاء اللّه "وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ 8" بعمله الطالح وطاشت .

وثقلت أعماله السيئة "فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ 9" في نار حامية يزج فيها ويقال للمأوى أم على التشبيه لأن الولد يفزع لأمه عند ما يخاف والأم تأوى له فإذا كبر لجأ إلى أبيه عند النوائب فإذا كبر لجأ إلى الحاكم فإذا فقه لجأ إلى السلطان ، وهكذا يتدرج بسبب انكشاف القوة التي هي أعلى حتى يتم عقله فيلجأ إلى اللّه حتى يتبين له أن كل أحد عاجز عما يريده إلا اللّه ، وهكذا الناس الآن فلو أنهم لجأوا إلى اللّه قبل كل شيء بعقيدة راسخة لما احتاجوا لمن هو دونه والهاوية اسم من أسماء النار لا يدرك قعرها يأوي إليها المجرمون أجارنا اللّه منها .

(18/828)

وقال بعض المفسرين المراد بأمه أمّ رأسه لأنهم يطرحون فيها على رؤوسهم ، والأول أولى وأن أهل النار يدفعون فيها دفعا وطرحا وزجا على وجوههم ورؤوسهم لا يؤبه بهم لحقارتهم ، والحكم أنه لا يقال أن الأعمال أمور معنوية لا يتأتى فيها الوزن لأنها تجسّم يوم القيامة ، ولا يستبعد هذا على من يسخر الجوارح بالشهادة على ذويها لأن في القيامة ما لا يخطر على قلب بشر ، ولا يتصوره العقل راجع تفسير الآية 23 من سورة الفجر المارة

والآيتين 107 و109 في ج2 تجد أن القيامة يقع فيها أشياء خارقة للعادة "وَما أَدْراكَ" أيها الإنسان "ما هِيَهْ 10" هي داهية دهماء تصفر منها الأعضاء وهي "نارٌ حامِيَةٌ 11" جدا بلغت حرارتها النهاية وعذابها الغاية ، نعوذ بعظمة اللّه منها ومن أهلها .

روي عن أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه أنه قال : إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الحق غدا أن يكون ثقيلا ، وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غدا أن يكون خفيفا .

هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه واتباعه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿بيان المعاني حـ 1 صـ 236.234﴾

(19/828)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة القارعة

مكية

وما أدراك ما القارعة كاف وقال أبو عمرو كابي حاتم تام كالعهن المنفوش كاف راضية صالح وكذا هاويه كاف آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿المقصد صـ﴾

(20/828)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني:

سورة القارعة

مكية

ما القارعة (حسن)

وما أدراك ما القارعة (كاف) إن نصب يوم بفعل مقدر أي تقع القارعة في هذا اليوم أو تكون القارعة أو تقرعهم يوم يكون فخرج بذلك عن الظرفية وصار مفعولاً به وقال أبو عمرو كأبي حاتم لتمام المبتدأ والخبر لتمام المبالغة في التعظيم بالمعظم ويجوز المبثوث لتفصيل أسباب الخوف وإلا فهو معطوف

المنفوش (كاف)

راضية (تام)

هاوية (كاف) ومثله ماهية

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

(21/828)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة القارعة

مكية وآيها ثمان بصري وشامي وعشر حجازي وإحدى عشرة كوفي خلافها ثلاث

القارعة الأولى كوفي موازينه معا حجازي وكوفي ومر قريبا إمالة أدراك

وقرأ (ماهيه) الآية 10 بحذف الهاء وصلا وإثباتها وقفا حمزة ويعقوب والباقون بإثباتها

في الحالين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر ص ﴾

(22/828)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

"سورة القارعة"

"فهو" من خفت، جلي .

"ماهيه" قرأ يعقوب وحمزة بحذف الهاء الساكنة وصلا وإثباتها وقفا وغيرهما بإثبتها في الحالين . انتهى انتهى . اهـ ﴿البدور الزاهرة صـ 356﴾

(23/828)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة القارعة

قوله تعالى ﴿ وما أدراك ما هيه ﴾ يقرأ بإثبات الهاء وحذفها وعلله مذكورة في الانعام .

انتهى انتهى . اهـ ﴿الحجة فى القراءات السبعة صـ 375﴾

(24/828)

وقال ابن زنجلة :

101 - سورة القارعة

وما أدراك ماهية 10

قرأ حمزة ماهية بحذف الهاء في الوصل وقرأ الباقون بإثبات الهاء في الوصل وقد مر الكلام عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 770 ﴾

(25/828)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة القارعة 101

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير المدنيين والمكي على اختلافهم في العدد ولا نظير لها في المدنيين والمكي

وكلمها ست وثلاثون كلمة

وحروفها مئة واثنان وخمسون حرفا

وهي ثماني آيات في البصري والشامي وعشر في المدنيين والمكي وإحدى عشرة في الكوفي

اختلافها ثلاث آيات (﴿ القارعة ﴾) الأولى عدها الكوفي ولم يعدها الباقون (﴿ ثقلت موازينه ﴾) و (﴿ خفت موازينه ﴾) لم يعدهما البصري والشامي وعدهما الباقون

ورؤوس الآي

ما القارعة

2 ما القارعة

3 المبثوث

4 المنفوش

5 موازينه

6 راضية

7 موازينه

8 هاوية

9 ماهية

10 حامية

11 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 285 ﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكلام في أولها مثل الكلام في أول الحاقة .

قوله تعالى (يوم يكون) العامل فيه القارعة ، أو ما دلت عليه ، وقيل التقدير اذكروا ، و (راضية) قد ذكر في الحاقة ، والهاء في (هيه) هاء السكت ، ومن أثبتها في الوصل أجرى الوصل مجرى الوقف لئلا تختلف رءوس الآى ، و (نار) خبر مبتدأ محذوف : أي هي نار (حاميه) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(27/828)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة القارعة

[سورة القارعة (101) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْقارِعَةُ (1) مَا الْقارِعَةُ (2) وَما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ (3)

"الْقارِعَةُ" مبتدأ مرفوع "مَا الْقارِعَةُ" مبتدأ وخبره والجملة خبر القارعة والجملة الاسمية ابتدائية لا محل لها. "وَما" الواو حرف استئناف "ما" اسم استفهام مبتدأ "أَدْراكَ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة الفعلية خبر ما والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "مَا الْقارِعَةُ" مبتدأ وخبره والجملة سدت مسد مفعول أدراك الثاني.

[سورة القارعة (101) : آية 4]

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ (4)

"يَوْمَ" ظرف زمان "يَكُونُ النَّاسُ" مضارع ناقص واسمه "كَالْفَراشِ" خبر يكون "الْمَبْثُوثِ" صفة الفراش. والجملة في محل جر بالإضافة.

[سورة القارعة (101) : آية 5]

وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5)

معطوفة على ما قبلها والإعراب واضح.

[سورة القارعة (101) : آية 6]

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ (6)

"فَأَمَّا" الفاء حرف استئناف "أما" حرف شرط وتفصيل "مَنْ" اسم موصول مبتدأ "ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ" ماض وفاعله والجملة صلة.

[سورة القارعة (101) : آية 7]

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (7)

"فَهُوَ" الفاء رابطة لأن الموصول يشبه الشرط "هو" مبتدأ "فِي عِيشَةٍ" خبر "راضِيَةٍ" صفة والجملة الاسمية خبر المبتدأ من.

[سورة القارعة (101) : آية 8]

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ (8)

معطوفة على ما قبلها والإعراب واضح.

[سورة القارعة (101) : آية 9]

فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ (9)

"فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ" الفاء رابطة ومبتدأ وخبره والجملة الاسمية خبر المبتدأ من.

[سورة القارعة (101) : آية 10]

وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ (10)

مثل إعراب الآية - 3 - والهاء للسكت.

[سورة القارعة (101) : آية 11]

نارٌ حامِيَةٌ (11)

"نارٌ" خبر لمبتدأ محذوف "حامِيَةٌ" صفة والجملة مفسرة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 465 ﴾

(28/828)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةُ القارعة

فِيهَا حديثان

1527 - قَوْله

وَثقل الْمِيزَان رُجْحَانهَا وَمِنْه حَدِيث أبي بكر فِي وَصيته لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما

قلت رَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي خِلَافه . . . حَدثنَا وَكِيع عَن إِسْمَاعِيل ابْن أبي خَالِد عَن زبيد بن الْحَارِث أَن أَبَا بكر لما حَضَره الْمَوْت أرسل إِلَى عمر فَلَمَّا أَتَى قَالَ لَهُ إِنِّي مُوصِيك بِوَصِيَّة إِن لله حَقًا فِي اللَّيْل لَا يقبله بِالنَّهَارِ وَحقا بِالنَّهَارِ لَا يقبله بِاللَّيْلِ وَإنَّهُ لَيْسَ لأَحَدنَا نَافِلَة حَتَّى يُؤَدِّي الْفَرِيضَة إِنَّه إِنَّمَا ثقلت مَوَازِين من ثقلت مَوَازِينه يَوْم الْقِيَامَة بِاتِّبَاعِهِمْ

الْحق فِي الدُّنْيَا وثقله عَلَيْهِم وَحق لِميزَان لَا يوضع فِيهِ إِلَّا الْحق أَن يثقل وخفت موازين من خفت موازينه يَوْم الْقِيَامَة باتباعهم الْبَاطِل وخفته عَلَيْهِم وَحق لِميزَان لَا يوضع فِيهِ إِلَّا الْبَاطِل أَن يخف ألم تَرَ أَن الله ذكر أهل الْجنَّة بِأَحْسَن أَعْمَالهم حَتَّى يَقُول قَائِل من يبلغ عمله عمل هَؤُلَاءِ وَذَلِكَ أَن الله تجَاوز عَن أَسْوَأ أَعْمَالهم فَلم يُبْدِهِ لَهُم وَذكر أهل النَّار بأسوأ أَعْمَالهم حَتَّى يَقُول قَائِل أَنا خير عملا من هَؤُلَاءِ وَذَلِكَ أَن الله رد عَلَيْهِم أحسن أَعْمَالهم ألم تَرَ أَن الله أنزل آيَة الشدَّة عِنْد آيَة الرخَاء وَآيَة الرخَاء عِنْد آيَة الشدَّة ليَكُون رَاغِبًا رَاهِبًا لِئَلَّا يلقِي بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَة وَلَا يتَمَنَّى على الله أُمْنِية يتَمَنَّى فِيهَا على الله غير الْحق انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة أبي بكر الصّديق

(29/828)

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره سُورَة الْأَحْقَاف حَدثنَا ابْن حميد ثَنَا جرير عَن لَيْث عَن مُجَاهِد قَالَ دَعَا أَبُو بكر عمر . . . فَذكره

1528 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يهوي فِيهَا يَعْنِي النَّار سبعين خَرِيفًا

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْأَهْوَال من حَدِيث مُحَمَّد بن إِسْحَاق عَن

مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ عَن عِيسَى بن طَلْحَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِن الرجل ليَتَكَلَّم بِالْكَلِمَةِ لَا يرى بهَا بَأْسا فَيهْوِي بهَا فِي النَّار سبعين خَرِيفًا انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم

وَرَوَاهُ أَحْمد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَالْبَزَّار وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مسانيدهم

وَفِيه أَحَادِيث مِنْهَا

حَدِيث رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي صَحِيحه من حَدِيث عبد الله بن دِينَار عَن أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِن أحدكُم ليَتَكَلَّم بِالْكَلِمَةِ من رضوَان الله مَا يلقِي بهَا بَالا يرفعهُ الله بهَا دَرَجَات وَإِن العَبْد ليَتَكَلَّم بِالْكَلِمَةِ من سخط الله مَا يلقِي بهَا بَالا يهوي بهَا فِي جَهَنَّم

حَدِيث آخر رَوَى التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي صفة جَهَنَّم من حَدِيث الْحسن عَن عتبَة بن غَزوَان أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِن الصَّخْرَة الْعَظِيمَة لتلقى من شَفير جَهَنَّم فَتَهْوِي فِيهَا سبعين عَاما وَمَا تُفْضِي إِلَى قَرَارهَا انْتَهَى وَضَعفه فَقَالَ لَا نَعْرِف لِلْحسنِ سَمَاعا من عتبَة بن غَزوَان وَإِنَّمَا قدم عتبَة فِي زمَان عمر وَولد الْحسن لِسنتَيْنِ بَقِيَتَا من خلَافَة عمر انْتَهَى

وروَاهُ فِي الشّمَائِل من حَدِيث خَالِد بن عُمَيْر عَن عتبَة بن غَزوَان

ورى التِّرْمِذِيّ أَيْضا من حَدِيث أبي الْهَيْثَم عَن الْخُدْرِيّ مَرْفُوعا ويل وَاد فِي جَهَنَّم يهوي فِيهِ الْكَافِر أَرْبَعِينَ خَرِيفًا قبل أَن يبلغ قَعْره انْتَهَى

حَدِيث آخر روى الْبَزَّار فِي مُسْنده ثَنَا معَاذ بن سهل ثَنَا عُثْمَان بن عبد الله ثَنَا الْحسن بن أبي جَعْفَر عَن عَاصِم عَن أبي وَائِل عَن عبد الله عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ إِن الرجل ليَتَكَلَّم بِالْكَلِمَةِ يهوي بهَا فِي النَّار كَذَا وَكَذَا خَرِيفًا انْتَهَى وَقَالَ لَا نعلمهُ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَاد

وَأخرج أَيْضا من حَدِيث مجَالد عَن الشّعبِيّ عَن مَسْرُوق عَن ابْن مَسْعُود يرفعهُ يُؤْتى بِالْقَاضِي يَوْم الْقِيَامَة فَيُوقف على شَفير جَهَنَّم فَإِن أَمر بِهِ دفع فَيهْوِي فِيهَا سبعين خَرِيفًا

1529 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة القارعة ثقل الله مِيزَانه يَوْم الْقِيَامَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره فِي آل عمرَان

وَسَنَد الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 271. 273 ﴾

(31/828)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة القارعة

قبيل قيام الساعة ، والناس فى بيوتهم أو أعمالهم ، ينطلق صوت مرهب ، يفزع له اليقظان ويستيقظ له الهاجع ويشعر الكل بالخطر المحدق : " واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج" . هل هو قرع أجراس أو قرع طبول أو هو الصاخة التى تخرق الآذان ؟ إنه " القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش " . إن الجبال فقدت تماسكها ، وتساقطت كقطع الصوف المندوف . أما الناس فكأسراب الفراش أو الجراد المنتشر ، لا يلوى أحد على أحد ، كل امرئ يبحث عن مستقبله ، يريد أن يعرف أين مصيره ؟ إنك صنعت مستقبلك فى الأيام التى خلت . " فأما من ثقلت موازينه * فهو في

عيشة راضية" . والمراد كفة الخير الملأى بحسناته . أما إذا قل خيره وطفح شره " فأمه هاوية " تعبير جرى على عادة العرب الذين يجعلون حال الأم دليلا على حال ابنها فى الحزن والسرور ، روى أن أعرابيا سمع الآية " واتخذ الله إبراهيم خليلا" . فقال : لقد قرت عين أم إبراهيم ! ! والهاوية اسم للمكان المنخفض ، والمراد هنا جهنم . . لقوله بعد " وما أدراك ما هيه * نار حامية" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 537﴾

(32/828)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(33/828)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة القارعة

قال الإمام : لما ختم الله سبحانه السورة السابقة بقوله : (إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ) فكأنه

قيل : وما ذاك ؟ قال : هي القارعة قال : وتقديره : ستأتيك القارعة على ما أخبرت عنه بقوله : (إِذا بُعثِرَ ما في القبور) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 156 ﴾

(34/828)

قوله تعالى ﴿ الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الملك الأعلى) الرحم ، (الذي عمت نعمة إيجاده وبيانه جميع الورى (الرحيم) الذي خص أهل حزبه بالتوفيق لما يجب ويرضى .

لما ختم العاديات بالبعث ذكر صيحته فقال : ﴿ القارعة ﴾ أي الصيحة أو القيامة ، سميت بها لأنها تقرع أسماع الناس وتدقها دقاً شديداً عظيماً مزعجاً بالأفزاع ، والأجرام الكثيفة بالتشقق والانفطار ، والأشياء الثابتة بالانتثار .

ولما كانت تفوق الوصف في عظم شأنها وجليل سلطانها ، عبر عن ذلك وزاده عظماً بالإلهام والإظهار في موضع الإضمار مشيراً بالاستفهام إلى أنها مما يستحق السؤال عنه

على وجه التعجيب والاستعظام فقال : ﴿ ما القارعة ﴾ وأكد تعظيمها إعلاماً - بأنه مهما خطر ببالك من عظمها فهي أعظم منه فقال : ﴿ وما أدراك ﴾ أي وأيّ شيء أعلمك وإن بالغت في التعرف ، وأظهر موضع الإضمار لذلك فقال : ﴿ ما القارعة ﴾ أي أنك لا تعرفها لأنك لم تعهد مثله .

(35/828)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما قال الله سبحانه وتعالى : " أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور " كان ذلك مظنة لأن يسأل : متى ذلك ؟ فقيل : يوم القيامة الهائل الأمر ، الفظيع الحال ، الشديد البأس ، والقيامة هي القارعة ، وكررت تعظيماً لأمرها كما ورد في قوله تعالى ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ [الحاقة : 1 - 2] وفي قوله سبحانه : ﴿ فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ [طه : 78] ثم زاد عظيم هوله إيضاحاً بقوله تعالى ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ والفراش ما تهافت في النار من البعوض ، والمبثوث : المنتشر ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ والعهن : الصوف المصبوغ ، وخص لإعداده للغزل إذ لا يصبغ لغيره بخلاف الأبيض فإنه - لا يلزم فيه ذلك ، ثم ذكر حال الخلق في وزن الأعمال وصيرورة كل فريق إلى ما كتب له وقدر - انتهى .

ولما ألقى السامع جميع فكره إلى تعرف أحوالها ، قال ما تقديره : تكون ﴿ يوم يكون ﴾ أي كوناً كأنه جبلة ﴿ الناس ﴾ أي الذين حالهم النوس على كثرتهم واختلاف ذواتهم وأحوالهم ومراتبهم ومقاديرهم وانتشارهم بعد بعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور ﴿ كالفراش ﴾ أي صغار الجراد لأنها تتفرش وتتهافت على النار ، أو هو طير غير ذلك لا دم له ، يتساقط في النار وليس ببعوض ولا ذباب ، وقال حمزة الكرماني : شبههم بالفراش التي تطير من هنا ومن هنا ولا تجري على سمت واحد وهي همج يجتلبها السراج ، وقال غيره : وجه الشبه الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما تتطاير الفراش ، وكثرة التهافت في النار وركوب بعضهم بعضاً - وموج بعضهم في بعض من شدة الهول كما قال تعالى ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ [القمر : 7] ﴿ المبثوث ﴾ أي المنتشر المتفرق .

(36/828)

ولما كانت الجبال أشد ما تكون ، عظم الرهبة بالإخبار بما يفعل بها فقال تعالى : ﴿ وتكون الجبال ﴾ على ما هي عليه من الشدة والصلابة وأنها صخور راسخة ﴿ كالعهن ﴾ أي الصوف المصبغ لأنها ملونة كما قال تعالى :

﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر ﴾ [فاطر : 27] أي وغير ذلك ﴿ المنفوش ﴾ أي المندوف المفرق الأجزاء الذي ليس هو بمتلبد شيء منه على غيره ، فتراها لذلك متطايرة في الجو كالهباء المنثور حتى تعود الأرض كلها لا عوج فيها ولا أمتاً . انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 513.514 ﴾

(37/828)

فصل

قال الفخر :

سُورَةُ الْقَارِعَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ ءايَةً اعلم أنه سبحانه وتعالى لما ختم السورة المتقدمة بقوله ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ فكأنه قيل وما ذلك اليوم فقيل هي القارعة ﴿ الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) ﴾

اعلم أن فيه مسائل :

المسألة الأولى :

القرع الضرب بشدة واعتماد ، ثم سميت الحادثة العظيمة من حوادث الدهر قارعة ، قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ [الرعد : 31] ومنه

قولهم : العبد يقرع بالعصا ، ومنه المقرعة وقوارع القرآن وقرع الباب ، وتقارعوا تضاربوا بالسيوف ، واتفقوا على أن القارعة اسم من أسماء القيامة ، واختلفوا في لمية هذه التسمية على وجوه أحدها : أن سبب ذلك هو الصيحة التي تموت منها الخلائق ، لأن في الصيحة الأولى تذهب العقول ، قال تعالى : ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى السموات وَمَن فِى الأَرض ﴾ [الزمر : 68] وفي الثانية تموت الخلائق سوى إسرافيل ، ثم يميته الله ثم يحييه ، فينفخ الثالثة فيقومون .

وروى أن الصور له ثقب على عدد الأموات لكل واحد ثقبة معلومة ، فيحيي الله كل جسد بتلك النفخة الواصلة إليه من تلك الثقبة المعينة ، والذي يؤكد هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحدة ﴾ [يس : 49] ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ واحدة ﴾ [الصافات : 19] وثانيها : أن الأجرام العلوية والسفلية يصطكان اصطكاكاً شديداً عند تخريب العالم ، فبسبب تلك القرعة سمي يوم القيامة بالقارعة وثالثها : أن القارعة هي التي تقرع الناس بالأهوال والإفزاع ، وذلك في السموات بالانشقاق والإنفطار ، وفي الشمس والقمر بالتكور ، وفي الكواكب بالانتثار ، وفي الجبال بالدك والنسف ، وفي الأرض بالطي والتبديل ، وهو قول الكلبي ورابعها : أنها تقرع أعداء الله بالعذاب والخزي والنكال ، وهو قول مقاتل ، قال بعض المحققين وهذا أولى من قول الكلبي لقوله تعالى : ﴿ وَهُمْ مّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ

ءامِنُونَ﴾ [النمل: 89].

المسألة الثانية:

(38/828)

في إعراب قوله: ﴿القارعة مَا القارعة﴾ وجوه أحدها: أنه تحذير وقد جاء التحذير بالرفع والنصب تقول: الأسد الأسد، فيجوز الرفع والنصب وثانيها: وفيه إضمار أي ستأتيكم القارعة على ما أخبرت عنه في قوله: ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى القبور﴾ [العاديات: 9] وثالثها: رفع بالابتداء وخبره: ﴿مَا القارعة﴾ وعلى قول قطرب الخبر.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة﴾ فإن قيل: إذا أخبرت عن شيء بشيء فلا بد وأن تستفيد منه علماً زائداً، وقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ يفيد كونه جاهلاً به فكيف يعقل أن يكون هذا خبراً؟ قلنا: قد حصل لنا بهذا الخبر علم زائد، لأنا كنا نظن أنها قارعة كسائر القوارع، فبهذا التجهيل علمنا أنها قارعة فاقت القوارع في الهول والشدة.

المسألة الثالثة:

قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة﴾ فيه وجوه أحدها: معناه لا علم لك بكنهها، لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد ولا فهمه، وكيفما قدرته فهو أعظم من تقديرك كأنه تعالى

قال : قوارع الدنيا في جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع ، ونار الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار ، ولذلك قال في آخر السورة :

﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة : 11] تنبيهاً على أن نار الدنيا في جنب تلك ليست بحامية ، وصار آخر السورة مطابقاً لأولها من هذا الوجه .

فإن قيل : ههنا قال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة ﴾ وقال في آخر السورة : ﴿ فَأُمُّهُ هاوية وما أدراك ماهيه ﴾ [القارعة : 9 ، 10] ولم يقل : وما أدراك ما هاوية فما الفرق ؟ قلنا : الفرق أن كونها قارعة أمر محسوس ، أما كونها هاوية فليس كذلك ، فظهر الفرق بين الموضعين وثانيها : أن ذلك التفصيل لا سبيل لأحد إلى العلم به إلا بأخبار الله وبيانه ، لأنه بحث عن وقوع الوقعات لا عن وجوب الواجبات ، فلا يكون إلى معرفته دليل إلا بالسمع .

المسألة الرابعة :

نظير هذه الآية قوله : ﴿ الحاقة * مَا الحاقة * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحاقة ﴾ [الحاقة : 1 - 3] ثم قال المحققون قوله : ﴿ القارعة * مَا القارعة ﴾ أشد من قوله : ﴿ الحاقة * مَا الحاقة ﴾ لأن النازل آخراً لا بد وأن يكون أبلغ لأن المقصود منه زيادة التنبيه ، وهذه الزيادة

لا تحصل إلا إذا كانت أقوى، وأما بالنظر إلى المعنى، فالحاقة أشد لكونه راجعاً إلى معنى العدل، والقارعة أشد لما أنها تهجم على القلوب بالأمر الهائل.

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾.

قال صاحب الكشاف: الظرف نصب بمضمر دلت عليه القارعة، أي تقرع يوم يكون الناس كذا.

واعلم أنه تعالى وصف ذلك اليوم بأمرين الأول: كون الناس فيه: كالفراش المبثوث قال الزجاج: الفراش هو الحيوان الذي يتهافت في النار، وسمي فراشاً لتفرشه وانتشاره، ثم إنه تعالى شبه الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث، وفي آية أخرى بالجراد المنتشر.

أما وجه التشبيه بالفراش، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، يدل هذا على أنهم إذا بعثوا فزعوا، واختلفوا في المقاصد على جهات مختلفة غير معلومة، والمبثوث المفرق، يقال: بثه إذا فرقه.

وأما وجه التشبيه بالجراد فهو في الكثرة.

قال الفراء : كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضاً ، وبالجملة فالله سبحانه وتعالى شبه الناس في وقت البعث بالجراد المنتشر ، وبالفراش المبثوث ، لأنهم لما بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد والفراش ، ويأكد ما ذكرنا بقوله تعالى : ﴿ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ﴾ [النبأ : 18] وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبّ العالمين ﴾ [المطففين : 6] وقوله في قصة يأجوج ومأجوج : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ﴾ [الكهف : 99] فإن قيل : الجراد بالنسبة إلى الفراش كبار ، فكيف شبه الشيء الواحد بالصغير والكبير معاً ؟ قلنا : شبه الواحد بالصغير والكبير لكن في وصفين .

أما التشبيه بالفراش فبذهاب كل واحدة إلى غير جهة الأخرى .

وأما بالجراد فبالكثرة والتتابع ، ويحتمل أن يقال : إنها تكون كباراً أولاً كالجراد ، ثم تصير صغاراً كالفراش بسبب احتراقهم بحر الشمس ، وذكروا في التشبيه بالفراش وجوهاً أخرى أحدها : ما روى أنه عليه السلام قال : " الناس عالم ومتعلم ، وسائر الناس همج رعاع " فجعلهم الله في الأخرى كذلك : جزاء وفاقاً وثانيها : أنه تعالى إنما أدخل حرف التشبيه ، فقال : ﴿ كالفراش ﴾ لأنهم يكونون في ذلك اليوم أذل من الفراش ، لأن الفراش لا يعذب ، وهؤلاء يعذبون ، ونظيره : ﴿ كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾

[افرقان : 44] الصفة الثانية : من صفات ذلك اليوم قوله تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ العهن الصوف ذو الألوان ، وقد مر تحقيقه عند قوله : ﴿ وَتَكُونُ الجبال

كالعهن ﴾ [المعارج : 9] والنفش فك الصوف حتى ينتفش بعضه عن بعض ، وفي قراءة ابن مسعود : كالصوف المنفوش .

(41/828)

واعلم أن الله تعالى أخبر أن الجبال مختلفة الألوان على ما قال : ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ ألوانها وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ [فاطر : 27] ثم إنه سبحانه يفرق أجزاءها ويزيل التأليف والتركيب عنها فيصير ذلك مشابهاً للصوف الملون بالألوان المختلفة إذا جعل منفوشاً ، وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

إنما ضم بين حال الناس وبين حال الجبال ، كأنه تعالى نبه على أن تأثير تلك القرعة في الجبال هو أنها صارت كالعهن المنفوش ، فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها فالويل ثم الويل لابن آدم إن لم تتداركه رحمة ربه ، ويحتمل أن يكون المراد أن جبال النار تصير كالعهن المنفوش لشدة حمرتها .

المسألة الثانية :

قد وصف الله تعالى تغير الأحوال على الجبال من وجوه أولها : أن تصير قطعاً ، كما قال :

﴿ وحملت الأرض والجبال فدكَّتا دكّةً واحدة ﴾ [الحاقة : 14] ، وثانيها : أن تصير كثيباً مهيلاً ، كما قال : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] ثم تصير كالعهن المنفوش ، وهي أجزاء كالذر تدخل من كوة البيت لا تمسها الأيدي ، ثم قال : في الرابع تصير سراباً ، كما قال : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [النبأ : 20] المسألة الثالثة :

لم يقل : يوم يكون الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش بل قال : ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ لأن التكوير في مثل هذا المقام أبلغ في التحذير . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 67.69 ﴾

(42/828)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ القارعة * مَا القارعة ﴾

أي القيامة والساعة ؛ كذا قال عامة المفسرين .

وذلك أنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها .

وأهل اللغة يقولون : تقول العرب قَرَعَتْهُمُ القارعة ، وفَقَرَتْهُمُ الفاقِرة ؛ إذا وقع بهم أمر فظيع .

قال ابن أحمر :

وقارعةٍ مِن الأيام لوْلاَ . . .

سبيلهم لزاحت عنك حِينا

وقال آخر :

مَتَى تَقْرَعْ بمَرْوِتكم نَسُوْكُمْ . . .

ولم تُوقَدْ لَنَا في القِدْرِ نَارُ

وقال تعالى : ﴿ ولاَ يَزَالُ الذين كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ [الرعد : 31] وهي الشديدة من شدائد الدهر .

قوله تعالى : ﴿ مَا القارعة ﴾ استفهام ؛ أي أيّ شيء هي القارعة ؟ وكذا ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة ﴾ كلمة استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها ؛ كما قال : ﴿ الحاقة * مَا الحآقة * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحاقة ﴾ [الحاقة : 1 3] على ما تقدّم .

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4)

"يوم" منصوب على الظرف ، تقديره : تكون القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث .

قال قتادة : الفراش الطير الذي يتساقط في النار والسراج .

الواحدة فراشة ، وقاله أبو عبيدة .

وقال الفراء : إنه الهَمَج الطائر ، من بَعوض وغيره ؛ ومنه الجراد .

ويقال: هو أطيش من فراشة.

وقال:

طُوَيِّشٌ مِنْ نفرٍ أطْياشِ . . .

أطيشُ من طائرة الفَراشِ

وقال آخر:

وقدْ كانَ أقوامٌ رددتَ قُلُوبَهُمْ . . .

إليهم وكانوا كالفراشِ من الجَهْلِ

وفي صحيح مسلم عن جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مثلي ومثَلُكُمْ كمثل رجل أوقد ناراً، فجعل الجنادِبُ والفَراشُ يَقَعْن فيها، وهو يذُبُّهنَّ عنها، وأنا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عن النار، وأنتمْ تفَلَّتونَ مِنْ يديِ " وفي الباب عن أبي هريرة.

والمبثوث المتفرق.

وقال في موضع آخر: ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر: 7].

فأوّل حالهم كالفَراش لا وجه له ، يَتَحيّرُ في كل وجه ، ثم يكونون كالجراد ، لأن لها وجهاً تقصده .

والمبثوث : المتفرق المنتشر .

وإنما ذكر على اللفظ : كقوله تعالى : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر : 20] ولو قال المبثوثة فهو كقوله تعالى : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 5] .

وقال ابن عباس والفراء : "كالفراشِ المبثوثِ" كغَوغاء الجراد ، يركب بعضها بعضاً .

كذلك الناس ، يجول بعضهم في بعض إذا بعثوا .

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5)

أي الصوف الذي يُنْفش باليد ، أي تصير هباء وتزول ؛ كما قال جل ثناؤه في موضع آخر : ﴿ هَبَآءً مُّنبَثّاً ﴾ [الواقعة : 6] .

وأهل اللغة يقولون : العِهن الصوف المصبوغ .

وقد مضى في سورة ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌ ﴾ [المعارج : 1] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ القارعة مَا القارعة ﴾

الجمهور على أنها القيامة نفسها ومبدؤها النفخة الأولى ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق وقيل صوت النفخة وقال الضحاك هي النار ذات التغيظ والزفير وليس بشيء وأياً ما كان فهي من القرع وهو الضرب بشدة بحيث يحصل منه صوت شديد وقد تقدم الكلام فيها وكذا ما يعلم منه إعراب ما ذكر في الكلام على قوله تعالى : ﴿ الحاقة مَا الحاقة وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحاقة ﴾ [الحاقة : 1-3] وقرأ عيسى القارعة بالنصب وخرج على أنه بإضمار فعل أي اذكر القاعرة وقوله تعالى

(45/828)

﴿ يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث ﴾ قيل أيضاً منصوب باضمار اذكر كأنه قيل بعد تفخيم أمر القارعة وتشويقه عليه الصلاة والسلام إلى معرفتها ﴿ اذكر يَوْمَ يَكُونُ الناس ﴾ الخ فإنه يدريك ما هي وقال الزمخشري ظرف لمضمر دلت عليه القاعرة أي تقرع يوم وقال الحوفي ظرف تأتي مقدراً وبعضهم قدر هذا الفعل مقدماً على القارعة وجعلها فاعلاً له أيضاً وقال ابن عطية ظرف للقارعة نفسها من غير تقدير ولم يبين أي القوارع أراد وتعقبه أبو

حيان بأنه إن أراد اللفظ الأول ورد عليه الفصل بين العامل وهو في صلة أل والمعمول بالخبر وهو لا يجوز وإن أراد الثاني أو الثالث فلا يلتئم معنى الظرف معه وأيد بقراءة زيد بن علي يوم بالرفع على ذلك وقدر بعضهم المبتدأ وقتها والفراش قال في "الصحاح" جمع فراشة التي تطير وتهافت في النار وهو المروى عن قتادة وقيل هو طير رقيق يقصد النار ولا يزال يتقحم على المصباح ونحوه حتى يحترق وقال الفراء هو غوغاء الجراد الذي ينتشر في الأرض ويركب بعضه بعضاً من الهول وقال صاحب التأويلات اختلفوا في تأويله على وجوه لكن كلها ترجع إلى معنى واحد وهو الإشارة إلى الحيرة والاضطراب من هول ذلك اليوم واختار غير واحد ما روى عن قتادة وقالوا شبهوا في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والمجيء والذهاب على غير نظام والتطاير إلى الداعي من كل جهة حين يدعوهم إلى المحشر بالفراش المتفرق المتطاير قال جرير

: إن الفرزدق ما علمت وقومه . . .

مثل الفراش غشين نار المصطلى

﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ أي الصوف مطلقاً أو المصبوغ كما قيده الراغب به وقد تقدم الكلام فيه في المعارج وكان بمعنى صار أي وتصير جميع الجبال كالعهن ﴿ المنفوش ﴾ المفرق بالإصبع ونحوها في تفرق أجزائها وتطايرها في الجو حسبما ينطق به غير آية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) ﴾

الافتتاح بلفظ ﴿ القارعة ﴾ افتتاح مهول ، وفيه تشويق إلى معرفة ما سيخبر به .

وهو مرفوع إما على الابتداء و ﴿ ما القارعة ﴾ خبره ويكون هناك منتهى الآية .

فالمعنى : القارعة شيء عظيم هي .

وهذا يجري على أن الآية الأولى تنتهي بقوله : ﴿ ما القارعة ﴾ .

وإمّا أن تكون ﴿ القارعة ﴾ الأولُ مستقلاً بنفسه ، وعُدّ آية عند أهل الكوفة فيقدر خبرٌ عنه محذوف نحو : القارعة قريبة ، أو يقدر فعل محذوف نحو أتتْ القارعة ، ويكون قوله : ﴿ ما القارعة ﴾ استئنافاً للتهويل ، وجُعل آية ثانية عند أهل الكوفة ، وعليه فالسورة مسمطة من ثلاث فواصل في أولها وثلاث في آخرها وفاصلتين وسطها .

وإعادة لفظ ﴿ القارعة ﴾ إظهار في مقام الإِضمار عدل عَنْ أن يقال : القارعة ما هِيهْ ، لما في لفظ القارعة من التهويل والترويع ، وإعادة لفظ المبتدأ أغنت عن الضمير الرابط بين المبتدأ وجملة الخبر .

والقارعة: وصف من القرع وهو ضرب جسم بآخر بشدة لها صوت.

وأطلق القرع مجازاً على الصوت الذي يتأثر به السامع تأثُّر خوف أو اتعاظ، يقال: قَرَع فُلاناً ، أي زجره وعَنَّفه بصوت غضب.

وفي المقامة الأولى: "ويقرع الأسماع بزواجر وعظه".

وأطلقت ﴿ القارعة ﴾ على الحدث العظيم وإن لم يكن من الأصوات كقوله تعالى: ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة ﴾ [الرعد: 31] وقيل: تقول العرب: قرعت القوم قارعة، إذا نزل بهم أمر فظيع ولم أقف عليه فيما رأيت من كلام العرب قبل القرآن.

وتأنيث ﴿ القارعة ﴾ لتأويلها بالحادثة أو الكائنة.

و﴿ ما ﴾ استفهامية، والاستفهام مستعمل في التهويل على طريقة المجاز المرسل المركب لأن هول الشيء يستلزم تساؤل الناس عنه.

ف﴿ القارعة ﴾ هنا مراد بها حادثة عظيمة.

وجمهور المفسرين على أن هذه الحادثة هي الحشر فجعلوا القارعة من أسماء يوم الحشر مثل القيامة ، وقيل : أريد بها صيحة النفخة في الصُّور ، وعن الضحاك : القارعة النار ذات الزفير ، كأنه يريد أنها اسم جهنم .

وهذا التركيب نظير قوله تعالى : ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : 1 3] وقد تقدم .

ومعنى ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ زيادة تهويل أمر القارعة و ﴿ ما ﴾ استفهامية صادقة على شخص ، والتقدير : وأي شخص أدراك ، وهو مستعمل في تعظيم حقيقتها وَهَوْلها لأن هول الأمر يستلزم البحث عن تعرفة .

وأدراك : بمعنى أعلمك .

و ﴿ ما القارعة ﴾ استفهام آخر مستعمل في حقيقته ، أي ما أدراك جواب هذا الاستفهام .

وسدّ الاستفهام مَسدَّ مفعولي ﴿ أدراك ﴾ .

وجملة : ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ عطف على جملة ﴿ ما القارعة ﴾ .

والخطاب في ﴿ أدراك ﴾ لغير معين ، أي وما أدراك أيها السامع .

وتقدم نظير هذا عند قوله تعالى : ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : 1 3] وتقدم بعضه عند قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ في سورة الانفطار (17

) .

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4)

﴿ يوم ﴾ مفعول فيه منصوب بفعل مضمر دل عليه وصف القارعة لأنه في تقدير : تَقْرع ، أو دل عليه الكلام كله فيقدر : تكون ، أو تحصل ، يوم يكون الناس كالفراش .

وجملة : ﴿ يوم يكون الناس ﴾ مع متعلقها المحذوف بيان للإِبهامين اللذين في قوله : ﴿ ما القارعة ﴾ [القارعة : 2] وقوله : ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ [القارعة : 3] .

وليس قوله : ﴿ يوم يكون الناس ﴾ خبراً عن ﴿ القارعة ﴾ إذ ليس سياق الكلام لتعيين يوم وقوع القارعة .

والمقصود بهذا التوقيت زيادة التهويل بما أضيف إليه ﴿ يوم ﴾ من الجملتين المفيدتين أحوالاً هائلة ، إلا أن شأن التوقيت أن يكون بزمان معلوم ، وإذ قد كان هذا الحال الموقت بزمانه غير معلوم مَداه .

(48/828)

كان التوقيت له إطماعاً في تعيين وقت حصوله إذ كانوا يَسألون متى هذا الوعد ، ثم توقيته بما هو مجهول لهم إبهاماً آخر للتهويل والتحذير من مفاجآته ، وأبرز في صورة التوقيت

للتشويق إلى البحث عن تقديره ، فإذا باء الباحث بالعجز عن أخذ بحيطة الاستعداد لحلوله بما ينجيه من مصائبه التي قرَعتْ به الأسماع في آي كثيرة .

فحصل في هذه الآية تهويل شديد بثمانية طرق : وهي الابتداء باسم القارعة ، المؤذن بأمر عظيم ، والاستفهام المستعمل في التهويل ، والإظهار في مقام الإضمار أول مرة ، والاستفهامُ عما ينْبئُ بكنه القارعة ، وتوجيهُ الخطاب إلى غير معين ، والإظهار في مقام الإضمار ثاني مرة ، والتوقيتُ بزمان مجهولٍ حصوله وتعريف ذلك الوقت بأحوال مهولة .

والفَراش : فرخ الجَراد حين يخرُج من بيضه من الأرض يَركب بعضه بعضاً وهو ما في قوله تعالى : ﴿ يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ [القمر : 7] .

وقد يطلق الفراش على ما يطير من الحشرات ويتساقط على النار ليْلاً وهو إطلاق آخر لا يناسب تفسيرُ لفظ الآية هنا به .

و ﴿ المبثوث ﴾ : المتفرق على وجه الأرض .

وجملة : ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ معترضة بين جملة ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ وجملة : ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ [القارعة : 6] الخ .

وهو إدماج لزيادة التهويل .

ووجه الشبه كثرة الاكتظاظ على أرض المحشر .

والعِهن : الصوف ، وقيل : يختص بالمصبوغ الأحمر ، أو ذي الألوان ، كما في قول زهير :

كأنَّ فُتَاتَ العِهن في كل منزلٍ

نَزَلْنَ به حبُّ الفنَا لم يُحطَّمِ . . .

لأن الجبال مختلفة الألوان بحجارتها ونبتها قال تعالى : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ﴾ [فاطر : 27] .

والمنفوش : المفرق بعض أجزائه عن بعض ليغزل أو تحشى به الحشايا ، ووجه الشبه تفرق الأجزاء لأن الجبال تندكّ بالزلازل ونحوها فتتفرق أجزاءً .

وإعادة كلمة ﴿ تكون ﴾ مع حرف العطف للإشارة إلى اختلاف الكونين فإن أولهما كونُ إيجاد ، والثاني كون اضمحلال ، وكلاهما علامة على زوال عالم وظهور عالم آخر .

وتقدم قوله تعالى ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ في سورة المعارج (9) . انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان اليوم إنما يوصف لأجل ما يقع فيه ، سبب عن ذلك قوله مفصلاً لهم : ﴿ فأما من ثقلت ﴾ أي بالرجحان .

ولما كانت الموزونات كثيرة الأنواع جداً ، جمع الميزان باعتبارها فقال : ﴿ موازينه ﴾ أي مقادير أنواع حسناته باتباع الحق لأنه ثقيل في الدنيا واجتناب الباطل ، والموزون الأعمال أنفسها تجسداً وصحائفها ﴿ فهو ﴾ بسبب رجحان حسناته ﴿ في عيشة ﴾ أي حياة تتقلب فيها ، ولعله ألحقها الهاء الدالة على الوحدة - والمراد العيش - ليفهم أنها على حالة واحدة - في الصفاء واللذة وليست ذات ألوان كحياة الدنيا ﴿ راضية ﴾ أي ذات رضى أو مرضية لأن أمه - جنة عالية ﴿ وأما من خفت ﴾ أي طاشت ﴿ موازينه ﴾ أي بأن غلبت سيئاته أو لم تكن له حسنة لاتباعه الباطل وخفته عليه في الدنيا ﴿ فأمه ﴾ أي التي تؤويه وتضمه إليها كما يقال للأرض : أم - لأنها تقصد لذلك ، ويسكن إليها كما يسكن إلى الأم ، وكذا المسكن ، وهو يفهم أنه مخلوق منها غلب عليه طبع الشيطان لكون العنصر الناري أكثر أجزائه ، وعظمها بالتنكير والتعبير بالوصف المعلم بأنه لا قرار لها فقال :

﴿ هاوية ﴾ أي نار نازلة سافلة جداً فهو بحيث لا يزال يهوي فيها نازلاً وهو في عيشة ساخطة ، فالآية من الاحتباك ، ذكر العيشة أولاً دليلاً على حذفها ثانياً ، وذكر الأم ثانياً دليلاً على حذفها أولاً .

ولما كانت مما يفوت الوصف بعظيم أهوالها وشديد زلزالها ، جمع الأمر فيها فقال منكراً أن يكون مخلوق يعرف وصفها : ﴿ وما أدراك ﴾ أي وأيّ شيء أعلمك وإن اشتد تكلفك ﴿ ما هيه ﴾ أي الهاوية لأنه لم يعهد أحد مثلها ليقيسها عليه ، وهاء السكت إشارة إلى إن ذكرها مما يكرب القلب حتى لا يقدر على الاسترسال في الكلام أو إلى - أنها مما ينبغي للسامع أن يقرع بهذا الاستفهام عنها سمعه فيسكت لسماع الجواب وفهمه غاية السكوت ويصغي غاية الإصغاء .

(51/828)

ولما هوّلها بما ذكر ، أتبعها ما يمكن البشر معرفته من وصفها فقال ﴿ نار حامية ﴾ أي قد انتهى حرها ، هذا ما تتعارفونه بينكم ، وأما التفاصيل فأمر لا يعلمه إلا الله تعالى ، وهذا نهاية القارعة ، فتلاؤم الأول للآخر واضح جداً وظاهر - والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 515.514 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) ﴾

واعلم أنه تعالى لما وصف يوم القيامة قسم الناس فيه إلى قسمين فقال : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ واعلم أن في الموازين قولين : أحدهما : أنه جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله ، وهذا قول الفراء قال : ونظيره يقال : عندي درهم بميزان درهمك ووزن درهمك وداري بميزان دارك ووزن دارك أي بحذائها والثاني : أنه جمع ميزان ، قال ابن عباس : الميزان له لسان وكفتان لا يوزن فيه إلا الأعمال فيؤتى بحسنات المطيع في أحسن صورة ، فإذا رجح فالجنة له ويؤتى بسيئات الكافر في أقبح صورة فيخف وزنه فيدخل النار .

وقال الحسن : في الميزان له كفتان ولا يوصف ، قال المتكلمون : إن نفس الحسنات والسيئات لا يصح وزنهما ، خصوصاً وقد نقضيا ، بل المراد أن الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات توزن ، أو يجعل النور علامة الحسنات والظلمة علامة السيئات ، أو

تصور صحيفة الحسنات بالصورة الحسنة وصحيفة السيئات بالصورة القبيحة فيظهر بذلك الثقل والخفة ، وتكون الفائدة في ذلك ظهور حال صاحب الحسنات في الجمع العظيم فيزداد سروراً ، وظهور حال صاحب السيئات فيكون ذلك كالفضيحة له عند الخلائق .

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7)

أما قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ فالعيشة مصدر بمعنى العيش ، كالخيفة بمعنى الخوف ، وأما الراضية فقال الزجاج : معناه أي عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها وهي كقولهم لابن وتامر بمعنى ذو لبن وذو تمر ، ولهذا قال المفسرون : تفسيرها مرضية على معنى يرضاها صاحبها .

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8)

(53/828)

ثم قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ موازينه ﴾ أي قلت : حسناته فرجحت السيئات على الحسنات قال أبو بكر رضي الله عنه : إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل

أن يكون خفيفاً ، وقال مقاتل : إنما كان كذلك لأن الحق ثقيل والباطل خفيف .

فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10)

أما قوله تعالى : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ ففيه وجوه : أحدها : أن الهاوية من أسماء النار وكأنها النار العميقة يهوى أهل النار فيها مهوى بعيداً ، والمعنى فمأواه النار ، وقيل : للمأوى أم على سبيل التشبيه بالأم التي لا يقع الفزع من الولد إلا إليها وثانيها : فأم رأسه هاوية في النار ذكره الأخفش ، والكلبي ، وقتادة قال : لأنهم يهوون في النار على رؤوسهم وثالثها : أنهم إذا دعوا على الرجل بالهلاك قالوا : هوت أمه لأنه إذا هوى أي سقط وهلك فقد هوت أمه حزناً وثكلاً ، فكأنه قيل : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ موازينه ﴾ فقد هلك .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ما هيه ﴾ قال صاحب الكشاف : (هيه) ضمير الداهية التي دل عليها قوله : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ في التفسير الثالث : أو ضمير (هاوية) : والهاء للسكت فإذا وصل جاز حذفها والاختيار الوقف بالهاء لاتباع المصحف والهاء ثابتة فيه ، وذكرنا الكلام في هذه الهاء عند قوله : ﴿ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ [البقرة : 259] ﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] ﴿ مَا أغنى عَنّى مَالِيَهْ ﴾ [الحاقة : 28] .

نَارٌ حَامِيَةٌ (11)

ثم قال تعالى : ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ والمعنى أن سائر النيران بالنسبة إليها كأنها ليست حامية ، وهذا القدر كاف في التنبيه على قوة سخونتها ، نعوذ بالله منها ومن جميع أنواع العذاب ، ونسأله التوفيق وحسن المآب : ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 70 . 71 ﴾

(55/828)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) ﴾

قرأ : " القارعةَ ما القارعةَ " بالنصب عيسى ، قال جمهور المفسرين : ﴿ القارعة ﴾ يوم القيامة نفسها لأنها تقرع القلوب بهولها ، وقال قوم من المتأولين : ﴿ القارعة ﴾ صيحة النفخة في الصور ، لأنها تقرع الأسماع ، وفي ضمن ذلك القلوب ، وفي قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ﴾ تعظيم لأمرها ، وقد تقدم مثله ، و﴿ يوم ﴾ : ظرف ، والعامل فيه ﴿ القارعة ﴾ وأمال أبو عمرو : ﴿ القارعة ﴾ ، و" الفراش " : طير دقيق يتساقط في النار ويقصدها ، ولا يزال يقتحم على المصباح ونحوه حتى يحترق ، ومنه قول الرسول صلى الله

عليه وسلم : " أنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقتحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب " ، وقال الفراء : " الفراش " في الآية : غوغاء الجراد وهو صغيره الذي ينتشر في الأرض والهواء ، و﴿ المبثوث ﴾ هنا معناه : المتفرق ، جمعه وجملته موجودة متصلة ، وقال بعض العلماء : الناس أول قيامهم من القبور ﴿ كالفراش المبثوث ﴾ ، لأنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام ، يدعوهم الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر فهم حينئذ كالجراد المنتشر ، لأن الجراد إنما توجهه إلى ناحية مقصودة ، واختلف اللغويون في " العهن " ، فقال أكثرهم : هو الصرف عاماً ، وقال آخرون : وهو الصوف الأحمر ، وقال آخرون : هو الصوف الملون ألواناً ، واحتج بقول زهير :

كأن فتات العهن في كل منزل . . . نزلن به حب الفنا لم يحطم

(56/828)

والفنا : عنب الثعلب ، وحبه قبل التحطم منه الأخضر والأحمر والأصفر ، وكذلك الجبال جدد بيض وحمر وسود وصفر ، فجاء التشبيه ملائماً ، وكون ﴿ الجبال كالعهن ﴾ ، إنما هو وقت التفتيت قبل النسف ومصيرها هباء ، وهي درجات ، والنفش : خلخلة الأجزاء وتفريقها عن تراصها ، وفي قراءة ابن مسعود وابن جبير : "كالصوف المنفوش " ،

و" الموازين " : هي التي في القيامة ، فقال جمهور العلماء والفقهاء والمحدثين : ميزان القيامة بعمود ليبين الله أمر العباد بما عهدوه وتيقنوه ، وقال مجاهد : ليس ثم ميزان إنما هو العدل مثل ذكره بالميزان إذ هو أعدل ما يدري الناس ، وجمعت الموازين للإنسان لما كانت له موزونات كثيرة متغايرة ، وثقل هذا الميزان هو بالإيمان والأعمال ، وخفته بعدمها وقلتها ، ولن يخف خفة موبقة ميزان مؤمن . ﴿ عيشة راضية ﴾ معناه : ذات رضى على النسب ، وهذا قول الخليل وسيبويه ، وقوله تعالى : ﴿ فأمه هاوية ﴾ قال كثير من المفسرين : المراد بالأم نفس الهاوية ، وهي درك من أدراك النار ، وهذا كما يقال للأرض : أم الناس لأنها تؤويهم ، وكما قال عتبة بن أبي سفيان في الحرب : فنحن بنوها وهي أمنا ، فجعل الله الهاوية أم الكافر لما كانت مأواه ، وقال آخرون : هو تفاؤل بشر فيه تجوز في أم الولاد ، كما قالوا : أمه ثاكل وخوى نجمه وهوى نجمه ونحو هذا ، وقال أبو صالح وغيره : المراد أم رأسه لأنهم يهوون على رؤوسهم ، وقرأ طلحة : " فإمُّه " بكسر الهمزة وضم الميم المشددة ، ثم قرر تعالى نبيه على دراية أمرها وتعظيمه ثم أخبره أنها ﴿ نار حامية ﴾ ، وقرأ : " ما هي " بطرح الهاء في الوصل ابن إسحاق والأعمش ، وروى المبرد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لرجل : لا أم لك ، فقال : يا رسول الله ، أتدعوني إلى الهدى وتقول : لا أم لك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما أردت لا نار لك ، " قال الله تعالى : ﴿ فأمه هاوية ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) ﴾

قد تقدم القول في المِيزان في "الأعراف والكهف والأنبياء" .

وأن له كِفَّةً ولساناً توزن فيه الصحف المكتوب فيها الحسنات والسيئات .

ثم قيل : إنه ميزان واحد بيد جبريل يزِن أعمال بني آدم ، فعبَّر عنه بلفظ الجمع .

وقيل : موازين ، كما قال :

فلِكلِّ حادِثةٍ لَهَا مِيزانُ . . .

وقد ذكرناه فيما تقدم .

وذكرناه أيضاً في كتاب "التذكِرة" وقيل : إن الموازين الحُجَج والدلائل ، قاله عبد العزيز بن يحيى ، واستشهد بقول الشاعر :

قَد كُنتُ قبلَ لقائكم ذا مِرَّةٍ . . .

عِندِي لكُلِّ مخاصِمٍ مِيزانُهُ

ومعنى ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي عيش مَرْضيّ ، يرضاه صاحبه .

وقيل : ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي فاعلة للرضا ، وهو اللين والانقياد لأهلها .

فالفعل للعيشة لأنها أعطت الرضا من نفسها ، وهو اللين والانقياد .

فالعيشة كلمة تجمع النِّعَم التي في الجنة ، فهي فاعلة للرضا ، كالفُرُش المرفوعة ، وارتفاعها مقدار مائة عام ، فإذا دنا منها وِلي الله اتضعت حتى يستوي عليها ، ثم ترتفع كهيئتها ، ومثل الشجرة فرعها ، كذلك أيضاً من الارتفاع ، فإذا اشتهى وِليُّ الله ثمرتها تدلت إليه ، حتى يتناولها وِليّ الله قاعداً وقائماً ، وذلك قوله تعالى : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 23] .

وحيثما مشى أو ينتقل من مكان إلى مكان ، جرى معه نهر حيث شاء ، عُلوًّا وسُفْلاً ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ [الإنسان : 6] .

فيروى في الخبر "إنه يشير بقضيبه فيجري من غير أخدود حيث شاء من قصوره وفي مجالسه" .

فهذه الأشياء كلها عيشة قد أعطت الرضا من نفسها ، فهي فاعلة للرضا ، وهي انذلت وانقادت بذْلاً وسماحة .

ومعنى ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ يعني جهَنَّم .

وسماها أُمًّا ، لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أمه ، قاله ابن زيد .

ومنه قول أمية بن أبي الصَّلْت :

فالأرضُ مَعْقِلنا وكانتْ أُمَّنا . . .

فيها مَقابرُنا وفيها نُولَدُ

وسميت النار هاوية ، لأنه يهوِي فيها مع بعدِ قعرها .

ويروى أن الهاوية اسم الباب الأسفل من النار .

وقال قتادة : معنى "فأمه هاوِية" فمصيره إلى النار .

عكرمة : لأنه يهوي فيها على أم رأسه .

الأخفش : "أمه" : مستقرّه ، والمعنى متقارب .

وقال الشاعر :

يا عمرُو لو نالتك أرماحُنا . . .

كنتَ كمن تهوِي به الهاوِيَهْ

والهاوية : المَهْوَاة .

وتقول : هَوَتْ أمّه ، فهي هاوية ، أي ثاكلة ، قال كعب بن سعد الغَنَوِيّ :

هَوَتْ أُمُّه ما يبعثُ الصبحُ غاديا . . .

وماذا يؤدّي الليلُ حين يَأُوبُ

والمَهْوَى والْمَهْوَاة : ما بين الجبلين ، ونحو ذلك .

وتهاوى القوم في المَهْوَاة : إذا سقط بعضهم في إثر بعض .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ الأصل "ماهي" فدخلت الهاء للسكت .

وقرأ حمزة والكسائي ويعقوب وابن مُحيصِن "ما هِيَ نارٌ" بغير هاء في الوصل ، ووقفوا بها .

وقد مضى في سورة "الحاقة" بيانه .

﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ أي شديدة الحرارة .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ناركم هذه التي يُوقِد ابنُ آدم جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم" قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله .

قال : "فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً ، كلها مثل حرّها" "

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال : إنما ثقل ميزان من ثقل ميزانه ، لأنه وضع فيه الحق ، وحُقّ لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلاً .

وإنما خف ميزان من خف ميزانه ، لأنّه وضع فيه الباطل ، وحق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفاً .

وفي الخبر عن أبي هريرة : عن النبي صلى الله عليه وسلم : "أن الموتى يَسألون الرجل يأتيهم عن رجل مات قبله ، فيقول ذلك مات قبلي ، أما مرّ بكم ؟ فيقولون لا والله ، فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون ! ذُهِب به إلى أمه الهاوية ، فبئست الأمّ ، وبئست المُرَبية" وقد ذكرناه بكماله في كتاب "التذكرة" ، والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(60/828)

وقال أبو السعود فى الآيات السابقة :

﴿ القارعة ﴾

القرعُ هو الضربُ بشدةٍ واعتمادٍ بحيثُ يحصلُ منهُ صوتٌ شديدٌ وَهيَ القيامةُ التي مبدؤُهَا النفخةُ الأُولى ومُنتهاهَا فصلُ القضاءِ بينَ الخلائقِ كما مرَّ في سورةِ التكويرِ سميتْ بهَا لأنَّها تقرعُ القلوبَ والأسماعَ بفنونِ الأفزاعِ والأهوالِ وتُخْرجُ جميعَ الأجرامِ العلويةِ والسفليةِ منْ حالٍ إلى حالٍ السماءَ بالانشقاقِ والانفطارِ والشمسَ والنجومَ بالتكويرِ والانكدارِ والانتشارِ والأرضَ بالزلزالِ والتبديلِ والجبالَ بالدكِّ والنسفِ وهيَ مبتدأٌ خبرُه قولُه تعالَى :

﴿ مَا القارعة ﴾ على أنَّ مَا الاستفهامية خبرُ القارعةِ مبتدأٌ لا بالعكسِ لَما مرَّ غيرَ مرةٍ أنَّ محطَّ الفائدةِ هُوَ الخبرُ لا المبتدأُ ولا ريبَ في أنَّ مدارَ إفادةِ الهولِ والفخامةِ هُهَنا هُو كلمةُ مَا لا القارعةِ أيْ أَيُّ شيءٍ عجيبٍ هيَ في الفخامةِ والفظاعةِ وقد وضعَ الظاهرَ موضعَ الضميرِ تأكيداً للتهويلِ وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة ﴾ تأكيد لهولِها وفظاعتِها ببيانِ خروجِها عنْ دائرةِ علومِ الخلقِ على مَعْنى أنَّ عِظمَ شأْنِها ومَدَى شِدَّتِها بحيثُ لا تكادُ تنالُه درايةُ أحدٍ حَتَّى يدريكَ بِهَا وَمَا فِى حيزِ الرفعِ على الابتداءِ وأدراكَ هو الخبرُ وَلا سبيلَ إلى العكسِ ههنا ومَا القارعةُ جملةٌ كما مَرَّ محلّها النصبُ على نزعِ الخافضِ لأنَّ أَدْرى يتعدَّى إلى المفعولِ الثاني بالباءِ كما في قولِه تعالَى : ﴿ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ ﴾ فلما وقعتْ الجملةُ الاستفهاميةُ معلقةً لهُ كانتْ في موْقعِ المفعولِ الثانِي له والجملةُ الكبيرةُ معطوفةٌ على ما قبلَها من الجملةِ الواقعةِ خبراً للمبتدأِ الأولِ أيْ وأيُّ شيءٍ أعلمكَ مَا شأنُ القارعةِ ولما كانَ هذا منبئاً عن الوعدِ الكريمِ بإعلامِها أنجزَ ذلكَ بقولِه تعالَى :

﴿ يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث ﴾ عَلى أنَّ يومَ مرفوعٌ عَلَى أَنَّهُ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ وحركتُه الفتحُ لإضافتِه إلى الفعلِ وإنْ كانَ مضارعاً كَما هُو رأيُ الكوفيينَ أيْ هيَ يومُ يكونُ

الناسُ فيهِ كالفراشِ المبثوثِ في الكثرةِ والانتشارِ والضعفِ والذلةِ والاضطرابِ والتطايرِ إلى الداعِي كتطايرِ الفَراشِ إلى النارِ أو منصوبٌ بإضمارِ اذكرْ كأنَّه قيل بعدَ تفخيمِ أمرِ القارعةِ وتشويقِه عليه الصلاةُ والسلامُ إلى معرفتِها اذكرْ يومَ يكونُ الناسِ الخ فإنَّه يدريكَ ما هيَ هذا وقد قيلَ : إنه ظرفٌ ناصبُه مضمرٌ يدلُّ عليهِ القارعةُ أيْ تقرعُ يومَ يكونُ الناس الخ وقيل : تقديرُه ستأتيكُم القارعةُ يومَ يكونُ الخ .

(62/828)

﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ أي كالصوفِ الملونِ بالألوانِ المختلفةِ المندوفِ في تفرقِ أجزائِها وتطايرِها في الجوِّ حسبَما نطقَ بهِ قولُه تعالَى : ﴿ وَتَرَى الجبال تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ وكلا الأمرينِ من آثارِ القارعةِ بعد النفخةِ الثانيةِ عندَ حشرِ الخلقِ يبدلُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الأرضَ غيرَ الأرضِ ويغيرُ هيئاتِها ويسيرُ الجبالَ عن مقارِّهَا عَلى ما ذُكِرَ منَ الهيئاتِ الهائلةِ ليشاهدَها أهلُ المحشرِ وهيَ وإنْ اندكتْ وتصدعتْ عندَ النفخةِ الأُولى لكنْ تسييرِها وتسويةَ الأرضِ إنَّما يكونانِ بعد النفخةِ الثانيةِ كما ينطقُ به قولُه تعالَى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الجبال فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبّى نَسْفاً * فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً * لاَّ ترى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً * يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الداعى ﴾ وقولُه تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ

الأرض والسماوات وَبَرَزُوا لِلَّهِ الوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ فإن اتباعَ الداعِي الذي هُو إسرافيلُ عليهِ السلامُ وبروزَ الخلقِ للهِ سبحانَهُ لا يكونُ إلا بعدَ البعثِ قطعاً وقد مرَّ تمامُ الكلامِ في سورةِ النمل وقولُه تعالَى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ الخ بيانٌ إجماليٌّ لتحزب الناسِ إلى حزبينِ وتنبيهٌ على كيفيةِ الأحوالِ الخاصّةِ بكلٍ منهُما إثرَ بيانِ الأحوالِ الشاملةِ للكُلِّ والموازينُ إمَّا جمعُ الموزونِ وهُوَ العملُ الذي لَهُ وزنٌ وخطرٌ عندَ اللهِ كما قالَهُ الفرَّاءُ أو جمعُ ميزانٍ قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما إنه ميزانٌ له لسانٌ وكِفتانِ لا يوزنُ فيهِ إلا الأعمالُ قالوا توضعُ فيه صحائفُ الأعمالِ فينظرُ إليهِ الخلائقُ إظهاراً للمعدلةِ وقطعاً للمعذرةِ وقيل : الوزنُ عبارةٌ عن القضاءِ السويِّ والحكمُ العادلِ وبِهِ قال مجاهدٌ والأعمشُ والضحاكُ واختارَهُ كثيرٌ من المتأخرينَ قالوا إنَّ

(63/828)

الميزانَ لا يتوصلُ بِهِ إلا إلى معرفةِ مقاديرِ الأجسامِ فكيفَ يمكنُ أن يعرفَ به مقاديرُ الأعمالِ التي هيَ أعراضٌ منقضيةٌ وقيلَ : إن الأعمالَ الظاهرةَ في هذهِ النشأةِ بصورٍ عريضةٍ تبرزُ في النشأةِ الآخرةِ بصورٍ جوهريةٍ مناسبةٍ لها في الحُسْنِ والقُبحِ وقد رُوِي عنْ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما أنَّه يُؤتى بالأعمالِ الصالحةِ على صُورٍ حسنةٍ وبالأعمالِ السيئةِ على صورٍ

قبيحةٍ فتوضعُ في الميزانِ أيْ فمَنْ ترجحتْ مقاديرُ حسناتِه .

﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي ذاتُ رِضا أو مرضيةٍ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ موازينه ﴾ بأن لم يكن له حسنة يعتد بها أو ترجحت سيئاته على حسناته ﴿ فَأُمُّهُ ﴾ أيْ فمأواهُ ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ هيَ من أسماءِ النارِ سميتْ به لغايةِ عُمْقِها وبعدِ مَهْواها .

رُوِيَ أنَّ أهلَ النارِ تهوي فيها سبعينَ خريفاً وقيلَ إنها اسمٌ للبابِ الأسفلِ مِنْهَا وعبرَ عنِ المأْوى باللامِ لأَنَّ أهلَها يأوونَ إليهَا كما يأوِي الولدُ إلى أمِه وعنْ قتادةَ وعكرمةَ والكبيِّ أنَّ المعنى فأُمُّ رأسِه هاويةٌ في قعرِ جهنَم لأَنَّه يطرحُ فيهَا منكوساً والأولُ هو الموافقُ لقولِه تعالَى :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ فإنه تقريرٌ لَها بعدَ إبهامِها والإشعارِ بخروجِها عنِ الحدودِ المعهودةِ للتفخيمِ والتهويلِ وهيَ ضميرُ الهاويةِ والهاءُ للسكتِ وإذَا وصلَ القارىءُ حذفَها وقيلَ : حقُّه أنْ لاَ يُدرجَ لئلا يسقطَها الإدراجُ لأنها ثابتةٌ في المصحفِ وقد أجيز إثباتُها مع الوصلِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(64/828)

وقال الآلوسى :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ إلى آخره

بيان إجمالي لتحزب الناس حزبين وتنبيه على كيفية الأحوال الخاصة بكل منهما أثر بيان الأحوال الشاملة للكل وهذا إشارة إلى وزن الأعمال وهو مما يجب الايمان به حقيقة ولا يكفر منكره ويكون بعد تطاير الصحف وأخذها بالايمان والشمائل وبعد السؤال والحساب كما ذكره الواحدي وغيره وجزم به صاحب كنز الأسرار بميزان له لسان وكفتان كإطباق السموات والأرض والله تعالى أعلم بماهيته وقد روى القول به عن ابن عباس والحسن البصري وعزاه في "شرح المقاصد" لكثير من المفسرين ومكانه بين الجنة والنار كما في "نوادر الأصول" وذكر يتقبل به العرش يأخذ جبريل عليه السلام بعموده ناظراً إلى لسانه وميكائيل عليه السلام أمين عليه والأشهر الأصح أنه ميزان واحد كما ذكرنا لجميع الأمم ولجميع الأعمال فقوله تعالى موازينه وهو جمع ميزان وأصله موازن بالواو لكن قلبت ياء لسكونها وانكسار ما قبلها قيل للتعظيم كالجمع في قوله تعالى : ﴿ كذبتْ عَادٌ المرسلين ﴾ [الشعراء : 123] في وجه أو باعتبار أجزائه نحو شابت مفارقة أو باعتبار تعدد الأفراد للتغاير الاعتباري كما قيل في قوله

: لمعان برق أو شعاع شموس . . .

وزعم الرازي على ما نقل عنه أن فيه حديثاً مرفوعاً وقال آخرون يوزن نفس الأعمال فتصور الصالحة بصور حسنة نوارنية ثم تطرح في كفة النور وهي اليمنى المعدة للحسنات فتثقل بفضل الله تعالى وتصور الأعمال السيئة بصور قبيحة ظلمانية ثم تطح في كفة الظلمة وهي الشمال فتخف بعدل الله تعالى وامتناع قلب الحقائق في مقام خرق العادات ممنوع أو مقيد ببقاء آثار الحقيقة الأولى وقد ذهب بعضهم إلى أن الله تعالى يخلق أجساماً على عدد تلك الأعمال من غير قلب لها وادعى أن فيه أثراً والظاهر أن الثقل والخفة مثلهما في الدنيا فما ثقل نزل إلى أسفل ثم يرتفع إلى عليين وما خف طاش إلى أعلى ثم نزل إلى سجين وبه صرح القرطبي وقال بعض المتأخرين هما على خلاف ما في الدنيا وإن عمل المؤمن إذا رجح صعد وثقلت سيآته وأن الكافر تثقل كفته لخو الأخرى من الحسمات ثم تلا ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ [فاطر : 10] وفي كونه دليلاً نظر وذكر بعضهم أن صفة الوزن أن يجعل جميع أعمال العباد في الميزان مرة واحدة الحسنات في كفة النور عن يمين العرش جهة الجنة والسيآت في كفة الظلمة جهة النار ويخلق الله تعالى لكل إنسان علماً ضرورياً يدرك به خفة أعماله وثقلها وقيل نحوه إلا أن علامة الرجحان عمود من نور يثور من كفة الحسنات حتى يكسو كفة السيآت وعلامة الخفة عمود ظلمة يثور من كفة السيآت حتى يكسو كفة الحسنات فالكيفيات أربع وستظهر حقيقة الحال بالعيان وهو قال القرطبي لا يكون في حق

كل أحد لما في الحديث الصحيح فيقال يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن الحديث وأحرى الأنبياء عليهم السلام وقوله سبحانه :

(66/828)

﴿ يُعْرَفُ المجرمون بسيماهم ﴾ [الرحمن : 41] فيؤخذ بالنواصي والأقدام وإنما يبقى الوزن لمن شاء الله تعالى من الفريقين وذكر القاضي منذر بن سعيد البلوطي أن أهل الصبر لا توزن أعمالهم وإنما يصب لهم الأجر صباً والظاهر أنه يدرج المنافق في الكافر والحق أن أعمالهم مطلقاً توزن لظواهر الآيات والأحاديث الكثيرة والمراد في الآية ﴿ وَزْناً ﴾ والصحيح أن الجن مؤمنهم وكافرهم كالإنس في هذا الشأن كما قرر في محله والتقسيم فيما نحن فيه على ما سمعت عن القرطبي بالنسبة إلى من توزن أعماله لا بالنسبة إلى الناس مطلقاً وأنكر المعتزلة الوزن حقيقة وجماعة من أهل السنة والجماعة منهم مجاهد والضحاك والأعمش قالوا إن الإعمال أعراض إن أمكن بقاؤها لا يمكن وزنها فالوزن عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل وجوزوا فيما هنا أن تكون الموازين جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله تعالى وأن معنى ثقلها رجحانها وروى هذا عن الفراء أي فمن ترجحت مقادير حسناته ورتبها .

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ المشهور جعل ذلك من باب النسب أي ذات رضا وجوز أن تكون ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ بمعنى المفعول أي مرضية على التجوز في الكلمة نفسها وأن يكون الإسناد مجازياً وهو حقيقة إلى صاحب العيشة وجوز أن يكون في الكلام استعارة مكنية وتخييلية على ما قرر في كتب المعاني لكن ذكر بعض الأجلة ههنا كلاماً نفيساً وهو أن ما كان للنسب يؤول بذي كذا فلا يؤنث لأنه لم يجر على موصوف فالحق بالجوامد ونقل عن السيرافي أنع قال يقدح فيما عللوا به سقوط الهاء في ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ وفيه وجهان .

(67/828)

أحدهما : أن تكون بمعنى أنها ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ أهلها فهي ملازمة لهم راضية بهم والآخر أن تكون الهاء للمبالغة كعلامة وراوية ووجه بإن الهاء لزمت لئلا تسقط الياء فيخل بالبنية كناقة مشلية وكلبة مجرية وهم يقولون ظبية مطفل ومشدان وباب مفعل ومفعال لا يؤنث وقد أدخلوا الهاء في بعضه كمصكة انتهى ثم قال إن هذا حقيق بالقبول ومحصله الجواب بوجه .

أحدها : ان راضية هنا فيه ليس من باب النسب بل هو اسم فاعل أريد به لازم معناه لأن من شاء شيئاً ورضى به لازمه فهو مجاز مرسل أو استعارة ويجوز أن يراد أنه مجاز في

الإسناد وما ذكر بيان لمعناه الثاني : إن الهشاء للمبالغة ولا تختص بفعال ولذا مثل برواية أيضاً والثالث : أنه يجوز الحاق الهاء في المعتل لحفظ البلية ومصكة أما شاذاً ولتشبيه المضاعف بالمعتل انتهى فاحفظه فإنه نفيس خلا عنه أكثر الكتب .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ موازينه ﴾ بأن لم يكن له حسنة يعتد بها أو ثقلت سيئآته على حسناته .

﴿ فَأُمُّهُ ﴾ أي فماواه كما قال ابن زيد وغيره ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ أريد بها النار كما يؤذن به قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ فإنه تقرير لها بعد إبهامها والاشعار بخروجها عن المعهود للتفخيم والتهويل وذكر أن إطلاق ذلك عليها لغاية عمقها وبعد مهواها فقد روى أن أهل النار تهوى فيها سبعين خريفاً وخصها بعضهم بالباب الأسفل من النار وعبر عن المأوى بالأم على التشبيه بها فالام مفزع الولد ومأواه وفيه تهكم به وقيل شبه النار بالأم في أنها تحيط بها إحاطة رحم الولد بالأم .

وعن قتادة وأبي صالح وعكرمة والكلبي وغيرهم المعنى فام رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يطرح فيها منكوساً وفي رواية أخرى عن قتادة هو من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة هوت أمه لأنه إذا هوى أي سقط وهلك فقد هوت أمه ثكلاً وحزناً ومن ذلك قول كعب بن سعد الغنوي

هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا . . .

وماذا يرد الليل حين يؤب

(68/828)

وفي "الكشف" أن هذا أحسن ليطابق قوله سبحانه : ﴿ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [القارعة : 7] وما فيه من المبالغة وقال الطيبي أنه الأظهر وللبحث فيه مجال والضمير أعني هي عليه للداهية التي دل عليها الكلام وعلى ما قدمنا لهاوية وعلى الوجه الثاني لما يشعر به الكلام كأنه قيل فأم رأسه هاوية في نار ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ﴾ الخ والهاء الملحقة في هيه هاء السكت وحذفها في الوصل ابن أبي إسحاق والأعمش وحمزة وأثبتها الجمهور ورفع نار على أنها خبر مبتدأ محذوف أي هي نار وحامية نعت لها وهو من الحمى اشتداد الحر قال في "القاموس" حمى الشمس والنار حمياً وحمياً وحموا اشتد حرهما وجعله بعضهم على ما قيل من حميت القدر فهي محمية ففسره بذات حمى وهو كما ترى وقرأ طلحة فإمه بكسر الهمزة قال ابن خالويه وحكى ابن دريد أنها لغة وأما النحويون فيقولون لا يجوز كسر الهمزة إلا أن يتقدمها كسرة أو ياء والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ القارعة ﴾

من أسماء القيامة ؛ لأنها تقرع القلوب بالفزع ، وتقرع أعداء الله بالعذاب .

والعرب تقول قرعتهم القارعة : إذا وقع بهم أمر فظيع .

قال ابن أحمر :

وقارعة من الأيام لولا . . . سبيلهم لراحت عنك حينا

وقال آخر :

متى نقرع بمروتكم نسؤكم . . . ولما يوقد لنا في القدر نار

﴿ والقارعة ﴾ مبتدأ ، وخبرها قوله : ﴿ مَا القارعة ﴾ .

وبالرفع قرأ الجمهور ، وقرأ عيسى بنصبها على تقدير : احذروا القارعة .

والاستفهام للتعظيم ، والتفخيم لشأنها ، كما تقدّم بيانه في قوله : ﴿ الحاقة * مَا الحاقة * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحاقة ﴾ [الحاقة : 1 3] .

وقيل : معنى الكلام على التحذير .

قال الزجاج : والعرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب ، وأنشد قول الشاعر :

لجديرون بالوفاء إذا قال . . . أخو النجدة السلاح السلاح

والحمل على معنى التفخيم ، والتعظيم أولى ، ويؤيده وضع الظاهر موضع الضمير ، فإنه أدلّ على هذا المعنى .

ويؤيده أيضاً قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة ﴾ فإنه تأكيد لشدّة هولها ، ومزيد فظاعتها حتى كأنها خارجة عن دائرة علوم الخلق بحيث لا تنالها دراية أحد منهم ، وما الاستفهامية مبتدأ ، و ﴿ أدراك ﴾ خبرها .

و ﴿ ما القارعة ﴾ مبتدأ وخبر .

والجملة في محل نصب على أنها المفعول الثاني ؛ والمعنى : وأيّ شيء أعلمك ما شأن القارعة؟ ثم بيّن سبحانه متى تكون القارعة فقال : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث ﴾ .

وانتصاب الظرف بفعل محذوف تدلّ عليه القارعة ، أي : تقرعهم يوم يكون الناس إلخ ، ويجوز أن يكون منصوباً بتقدير اذكر .

وقال ابن عطية ، ومكي ، وأبو البقاء : هو منصوب بنفس القارعة ، وقيل : هو خبر مبتدأ محذوف ، وإنما نصب لإضافته إلى الفعل ، فالفتحة فتحة بناء لا فتحة إعراب ، أي : هي يوم يكون إلخ .

وقيل التقدير : ستأتيكم القارعة يوم يكون .

وقرأ زيد بن عليّ برفع يوم على الخبرية للمبتدأ المقدّر .

(70/828)

والفراش : الطير الذي تراه يتساقط في النار ، والسراج ، والواحدة فراشة ، كذا قال أبو عبيدة وغيره .

قال الفراء : الفراش هو الطائر من بعوض وغيره ، ومنه الجراد .

قال وبه يضرب المثل في الطيش ، والهوج ، يقال : أطيش من فراشة ، وأنشد :

فراشة الحلم فرعون العذاب وإن . . . يطلب نداه فكلب دونه كلب

وقول آخر :

وقد كان أقوام رددت حلومهم . . . عليهم وكانوا كالفراش من الجهل

والمراد بالمبثوث المتفرّق المنتشر .

يقال بثه : إذا فرقه .

ومثل هذا قوله سبحانه في آية أخرى : ﴿ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر : 7] وقال ﴿ المبثوث ﴾ ، ولم يقل المبثوثة : لأن الكل جائز ، كما في قوله : ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [

القمر : 20] و ﴿ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة : 7] وقد تقدّم بيان وجه ذلك .

﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ أي : كالصوف الملوّن بالألوان المختلفة الذي نفش بالندف .

والعهن عند أهل اللغة : الصوف المصبوغ بالألوان المختلفة ، وقد تقدّم بيان هذا في سورة سأل سائل ، وقد ورد في الكتاب العزيز أوصاف للجبال يوم القيامة .

وقد قدّمنا بيان الجمع بينها .

ثم ذكر سبحانه أحوال الناس ، وتفرّقهم فريقين على جهة الإجمال فقال : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ موازينه * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ قد تقدّم القول في الميزان في سورة الأعراف ، وسورة الكهف ، وسورة الأنبياء .

وقد اختلف فيها هنا .

فقيل : هي جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله ، وبه قال الفرّاء وغيره .

وقيل : هي جمع ميزان .

وهو الآلة التي توضع فيها صحائف الأعمال ، وعبر عنه بلفظ الجمع ، كما يقال لكلّ حادثة ميزان ، وقيل : المراد بالموازين الحجج والدلائل ، كما في قول الشاعر :

لقد كنت قبل لقائكم ذا مرة . . . عندي لكلّ مخاصم ميزانه

ومعنى عيشة راضية مرضية يرضاها صاحبها .

قال الزجاج ، أي : ذات رضى يرضاها صاحبها .

(71/828)

وقيل : عيشة راضية أي : فاعلة للرضى ، وهو اللين ، والانقياد لأهلها .

والعيشة كلمة تجمع النعم التي في الجنة : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ موازينه ﴾ أي : رجحت سيئاته على حسناته ، أو لم تكن له حسنات يعتدّ بها ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ أي : فمسكنه جهنم .

وسماها أمه ؛ لأنه يأوي إليه ، كما يأوي إلى أمه .

والهاوية من أسماء جهنم .

وسميت هاوية ؛ لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها .

ومنه قول أمية بن أبي الصلت :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا . . . فيها مقابرنا وفيها نولد

وقول الآخر :

يا عمرو لو نالتك أرماحنا . . . كنت كمن تهوي به الهاوية

والمهوى ، والمهواة : ما بين الجبلين ، وتهاوى القوم في المهواة : إذا سقط بعضهم في إثر بعض .

قال قتادة : معنى ﴿ فَأُمُّهُ هاوية ﴾ فمصيره إلى النار .

قال عكرمة : لأنه يهوي فيها على أمّ رأسه .

قال الأخفش : أمه مستقرّه .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ماهية ﴾ هذا الاستفهام للتهويل ، والتفظيع ببيان أنها خارجة عن المعهود بحيث لا تحيط بها علوم البشر ، ولا تدري كنهها .

ثم بيّنها سبحانه فقال : ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ أي : قد انتهى حرّها ، وبلغ في الشدّة إلى الغاية ، وارتفاع نار على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أي : هي نار حامية .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم من طرق عن ابن عباس قال : ﴿ القارعة ﴾ من أسماء يوم القيامة .

وأخرج ابن المنذر عنه في قوله : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ قال : كقوله هوت أمه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ قال : أمّ رأسه هاوية في جهنم .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه ما فعل فلان ما فعلت فلانة ؟ فإذا كان مات ، ولم يأتهم قالوا : خولف به إلى أمه الهاوية ، فبئست الأمّ ، وبئست المربية " وأخرج ابن مردويه من حديث أبي أيوب الأنصاري نحوه .

وأخرج ابن المبارك من حديث أبي أيوب نحوه أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 487.485 ﴾

(72/828)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) ﴾

تفصيل لما في قوله : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ [القارعة : 4] من إجمال حال الناس حينئذ ، فذلك هو المقصود بذكر اسم الناس الشامل لأهل السعادة وأهل الشقاء فلذلك كان تفصيله بحالين : حال حَسَن وحال فظيع .

وثقل الموازين كناية عن كونه بمحل الرضى من الله تعالى لكثرة حسناته ، لأن ثقل الميزان يستلزم ثقل الموزون وإنما توزن الأشياء المرغوب في اقتنائها ، وقد شاع عند العرب الكناية عن الفضل والشرف وأصالة الرأي بالوزن ونحوِه ، وبضد ذلك يقولون : فلان لا يقام له وزن ، قال تعالى : ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ [الكهف : 105] ، وقال النابغة :

وميزانه في سُورة المجد مَاتِع

أي راجح وهذا متبادر في العربية فلذلك لم يصرح في الآية بذكر ما يُثقل الموازين لظهور أنه

العمل الصالح.

وقد ورد ذكر الميزان للأعمال يوم القيامة كثيراً في القرآن، قال ابن العربي في "العواصم": لم يرد حديث صحيح في الميزان.

والمقصودُ عدم فوات شيء من الأعمال، والله قادر على أن يجعل ذلك يوم القيامة بآلة أو بعمل الملائكة أو نحو ذلك.

والعيشة: اسم مصدر العَيش كالخِيفة اسم للخوف.

أي في حياة.

ووصف الحياة بـ ﴿ راضية ﴾ مجاز عقلي لأن الراضي صاحبها راض بها فوصفت به العيشة لأنها سبب الرضى أو زمان الرضى.

وقوله: ﴿ فأمه هاوية ﴾ إخبار عنه بالشقاء وسوء الحال، فالأم هنا يجوز أن تكون مستعملة في حقيقتها.

وهاوية: هالكة، والكلام تمثيل لحال من خفّت موازينه يومئذ بحال الهالك في الدنيا لأن العرب يكنون عن حال المرء بحال أمه في الخير والشر لشدة محبتها ابنها فهي أشد سروراً بسروره وأشد حزناً بما يحزنه.

صلّى أعرابي وراءَ إمام فقرأ الإمام : ﴿ واتخذ اللّٰه إبراهيم خليلاً ﴾ [النساء : 125]

فقال الأعرابي : "لقد قَرَّت عينُ أمِّ إبراهيم" ومنه قول ابن زيابة حين تهدده الحارث بن همَّام

الشيباني :

يا لهفَ زَيّابة للحارث الصا

بح فالغَانم فالآيب . . .

ويقولون في الشر : هَوتْ أمه ، أي أصابه ما تَهلك به أمه ، وهذا كقولهم : ثكلته أمه ، في

الدعاء ، ومنه ما يستعمل في التعجب وأصله الدعاء كقول كعب بن سعد الغَنوي في رثاء

أخيه أبي المِغوار :

هَوَتْ أمُّه ما يَبعث الصبحُ غادياً

وماذا يَرُدُّ الليلُ حينَ يؤوب . . .

أي ماذا يبعث الصبحُ منه غادياً وما يردُّ الليلُ حينَ يؤوب غانماً ، وحذف منه في الموضعين

اعتماداً على قرينة رفع الصبح والليل وذِكر : غادياً ويؤوب و (مِن) المقدَّرة تجريدية

فالكلام على التجريد مثل : لقيت منه أسداً .

فاستعمل المركب الذي يقال عند حال الهلاك وسوء المصير في الحالة المشبهة بحال الهلاك ،

ورمز إلى التشبيه بذلك المركب ، كما تضرب الأمثال السائرة .

ويجوز أن يكون "أمه" مستعاراً لمقره ومآله لأنه يأوي إليه كما يأوي الطفل إلى أمه .

و﴿ هاوية ﴾ المكان المنخفض بين الجبلين الذي إذا سقط فيه إنسان أو دابة هلك ، يقال : سقط في الهاوية .

وأريد بها جهنم ، وقيل : هي اسم لجهنم ، أي فمأواه جهنم .

ويجوز أن يكون "أمه" على حذف مضاف ، أي أم رأسه ، وهي أعلى الدماغ ، و ﴿ هاوية ﴾ ساقطة من قولهم سقط على أم رأسه ، أي هلك .

﴿ وما أدراك ما هيه ﴾ : تهويل كما تقدم آنفاً .

وضمير ﴿ هِيه ﴾ عائد إلى ﴿ هاوية ﴾ ، فعلى الوجه الأول يكون في الضمير استخدام ، إذ معاد الضمير وصف هالكة ، والمرادُ منه اسم جهنم كما في قول معاوية بن مالك الملقَّب معوِّذَ الحُكماء :

إذا نزل السماءُ بأرض قوم

رَعَيْنَاه وإنْ كانوا غضاباً . . .

وعلى الوجه الثاني يعود الضمير إلى ﴿ هاوية ﴾ وفسرت بأنها قعر جهنم .

وعلى الوجه الثالث يكون في ﴿ هِيه ﴾ استخدام أيضاً كالوجه الأول .

والهاء التي لحقت ياء (هِي) هاءُ السكت ، وهي هاء تُجلب لأجل تخفيف اللفظ عند الوقف عليه ، فمنه تخفيف واجب تجلب له هاء السكت لزوماً ، وبعضه حسن ، وليس بلازم وذلك في كل اسم أو حرف بآخره حركة بناء دائمة مثل : هو ، وهي ، وكيف ، وثم ، وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كِتابيه ﴾ في سورة الحاقة (19) .

وجمهور القراء أثبتوا النطق بهذه الهاء في حالتي الوقف والوصل ، وقرأ حمزة وخلف بإثبات الهاء في الوقف وحذفها في الوصل .

وجملة : نار حامية ﴾ بيان لجملة : ﴿ وما أدراك ما هيه ﴾ ، والمعنى : هي نار حامية .

وهذا من حذف المسند إليه الذي اتّبع في حذفه استعمال أهل اللغة .

ووصف ﴿ نار ﴾ بـ ﴿ حامية ﴾ من قبيل التوكيد اللفظي لأن النار لا تخلو عن الحَمْي فوصفها به وصف بما هو من معنى لفظ ﴿ نار ﴾ فكانَ كذكر المرادف كقوله تعالى : ﴿ نار اللّه الموقدة ﴾ [الهمزة : 6] . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(75/828)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾

هذه الآية الكريمة تدل على أن الهاوية وصف لا علَم للنار إذ تنوينها ينافي كونها اسما من أسماء النار يلزم فيها المنع من الصرف للعلمية والتأنيث ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ يدل على أن الهاوية من أسماء النار .

اعلم أولا أنّ في معنى قوله تعالى : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ ثلاثة أوجه للعلماء ، اثنان منها لا إشكال في الآية عليهما ، والثالث هو الذي فيه الإشكال المذكور ، أمّا اللذان لا إشكال في الآية عليهما فالأول منهما أن المعنى ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ أي أمّ رأسه هاوية في قعر جهنم ؛ لأنه يطرح فيها منكوسا رأسه أسفل ورجلاه أعلا ، وروي هذا القول عن قتادة وأبي صالح وعكرمة والكلبي وغيرهم ، وعلى هذا القول فالضمير في قوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ عائد إلى محذوف دلّ عليه المقام أي أم رأسه هاوية في نار وما أدراك ما هيه نار حامية .

والثاني : أنه من قول العرب إذا دعوا على الرجل بالهلكة قالوا : "هوت أمه" لأنه إذا هوى أي سقط وهلك فقد هوت أمه ثكلا وحزنا ، ومن هذا المعنى قول كعب بن سعد الغنوي :

هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا

يؤوب وماذا يرد الليل حين

وهذا القول رواية أخرى عن قتادة، وعلى هذا القول فالضمير في قوله: ﴿ هِيَهْ ﴾ للداهية التي دلّ عليها الكلام، وذكر الألوسي في تفسيره أن صاحب الكشف قال: إنّ هذا القول أحسن, وأن الطيبي قال: إنه أظهر, وقال هو: وللبحث فيه مجال.

الثالث الذي فيه إشكال: أنّ المعنى ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ أي مأواه الذي يحيط به ويضمّه هاوية وهي النار؛ لأن الأمّ تؤوي ولدها وتضمّه، والنار تضمّ هذا العاصي وتكون مأواه.

(76/828)

والجواب على هذا القول هو ما أشار له الألوسي في تفسيره من أنه نكّر الهاوية في محلّ التعريف لأجل الإشعار بخروجها عن المعهود للتفخيم والتهويل, ثم بعد إبهامها لهذه النكتة قرّرها بوصفها الهائل بقوله ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾.

قال مقيده عفا الله عنه: هذا الجواب الذي ذكره الألوسي يدخل في حد نوع من أنواع البديع المعنوي يسمّيه علماء البلاغة التجريد، فحد التجريد عندهم هو أن ينتزع من أمر ذي صفة آخر مثله فيها مبالغة في كمالها فيه، وأقسامه معروفة عند البيانيين؛ فمنه ما يكون التجريد فيه بحرف نحو قولهم: "لي من فلان صديق حميم" أي بلغ من الصداقة حدا صح معه أن يستخلص منه آخر مثله فيها مبالغة في كمالها فيه, وقولهم: "لئن سألته لتسألن به

البحر" بالغ في اتصافه بالسماحة حتى انتزع منه بحرا في السماحة ، ومن التجريد بواسطة الحرف قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ﴾ وهو أشبه شيء بالآية التي نحن بصددها ؛ لأن النار هي دار الخلد بعينها لكنه انتزع منها دارا أخرى وجعلها معدة في جهنم للكفار تهويلا لأمرها ومبالغة في اتصافها بالشدة ، ومن التجريد ما يكون من غير توسط الحرف نحو قول قتادة بن سلمة الحنفي :

ولئن بقيت لأرحلن بغزوة

تحوي الغنائم أو يموت كريم

يعني نفسه انتزع من نفسه كريما مبالغة في كرمه ، فإذا عرفت هذا فالنار سميت الهاوية لغاية عمقها وبعد مهواها ، فقد روي أن داخلها يهوي فيها سبعين خريفا ، وخصها البعض بالباب الأسفل من النار فانتزع منها هاوية أخرى مثلها في شدة العمق وبعد المهوى مبالغة في عمقها وبعد مهواها ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 346.344 ﴾

(77/828)

"فصل"

قال السيوطى :

﴿ الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت سورة القارعة بمكة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : القارعة من أسماء يوم القيامة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ قال : هذا هو الفراش الذي رأيتم يتهافت في النار ، وفي قوله : ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ قال : كالصوف ، وفي قوله : ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ﴾ قال : هي الجنة ﴿ وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ﴾ قال : هي النار مأواهم وأمهم ومصيرهم ومولاهم .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ فأمه هاوية ﴾ قال : مصيره إلى النار ، وهي الهاوية .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ فأمه هاوية ﴾ كقولك هويت أمه .

وأخرج ابن المنذر عن قتادة قال : هي كلمة عربية إذا وقع رجل في أمر شديد قالوا : هويت أمه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي خالد الوالبي ﴿ فأمه هاوية ﴾ قال : أم رأسه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : أم رأسه هاوية في جهنم .

وأخرج ابن جرير عن أبي صالح قال : يهوون في النار على رؤوسهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : الهاوية النار هي أمه ومأواه التي يرجع إليها ويأوي إليها .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال : إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى روح المؤمنين فتقول : روحوا لأخيكم فإنه كان في غم الدنيا ويسألونه ما فعل فلان ؟ ما فعل فلان ؟ فيخبرهم فيقول صالح حتى يسألوه ما فعل فلان فيقول : مات أما جاءكم فيقولون : لا ذهب به إلى أمه الهاوية .

(78/828)

وأخرج الحاكم عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا مات العبد تلقى روحه أرواح المؤمنين فيقولون له : ما فعل فلان فإذا قال مات قالوا : ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " إذا مات المؤمن تلقته أرواح المؤمنين يسألونه ما فعل فلان ؟ ما فعلت فلانة ؟ فإن كان مات ولم يأتهم قالوا خولف به إلى أمه الهاوية بئست الأم وبئست المربية ، حتى يقولوا : ما فعل فلان . هل تزوج ؟ ما فعلت فلانة هل تزوجت فيقولون : دعوه فيستريح فقد خرج من كرب الدنيا " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقتها أهل الرحمة من عباد الله كما يلقون البشير من أهل الدنيا فيقولون : انظروا صاحبكم يستريح فإنه كان في كرب شديد ، ثم يسألونه ما فعل فلان وفلانة هل تزوجت ؟ فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله فيقول هيهات قد مات ذاك قبلي ، فيقولون : إنا لله وإنه إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية " .

وأخرج ابن المبارك عن أبي أيوب الأنصاري قال : إذا قبضت نفس العبد تلقاها أهل الرحمة من عباد الله كما يلقون البشير في الدنيا فيقبلون عليه ليسألوه فيقول بعضهم لبعض : انظروا أخاكم حتى يستريح ، فإنه كان في كرب ، فيقبلون عليه يسألونه ما فعل فلان ما فعلت فلانة هل تزوجت ؟ فإذا سألوه عن الرجل مات قبله قال لهم : إنه قد هلك فيقولون : إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية ، فبئست الأم وبئست المربية ، فيعرض عليهم أعمالهم ، فإذا رأوا حسناً فرحوا واستبشروا وقالوا : هذه نعمتك على عبدك فأتمها وإن رأوا سوءاً قالوا : اللهم راجع عبدك . قال ابن المبارك ورواه سلام الطويل عن ثور فرفعه .

وأخرج ابن المبارك عن سعيد بن جبير أنه قيل له : هل يأتي الأموات أخبار الأحياء ؟ قال : نعم ، ما من أحد له حميم إلا يأتيه أخبار أقاربه ، فإن كان خيراً سرّ به وفرح به ، وإن كان شراً ابتأس لذلك وحزن ، حتى إنهم ليسألون عن الرجل قد مات فيقال : ألم يأتكم ؟ فيقولون : لقد خولف به إلى أمه الهاوية .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن وهب بن منبه رضي الله عنه قال : مر عيسى عليه السلام بقرية قد مات أهلها إنسها وجنها وهوامها وأنعامها وطيورها ، فقام ينظر إليها ساعة ، ثم أقبل على أصحابه فقال : مات هؤلاء بعذاب الله ، ولو ماتوا بغير ذلك ماتوا متفرقين ، ثم ناداهم : يا أهل القرية . فأجابه مجيب : لبيك يا روح الله . قال : ما كان جنايتكم ؟ قالوا عبادة الطاغوت وحب الدنيا . قال : وما كانت عبادتكم الطاغوت ؟ قال : الطاعة لأهل معاصي الله تعالى . قال : فما كان حبكم الدنيا ؟ قالوا : كحب الصبيّ لأمه . كنا إذا أقبلت فرحنا ، وإذا أدبرت حزنا مع أمل بعيد وإدبار عن طاعة الله وإقبال في سخط الله . قال : وكيف كان شأنكم ؟ قالوا : بتنا ليلة في عافية وأصبحنا في الهاوية . فقال عيسى : وما الهاوية ؟ قال : سجين . قال : وما سجين ؟ قال : جمرة من نار مثل أطباق الدنيا كلها

دفنت أرواحنا فيها . قال : فما بال أصحابك لا يتكلمون ؟ قال : لا يستطيعون أن يتكلموا ملجمون بلجام من نار . قال : فكيف كلمتني أنت من بينهم ؟ قال : إني كنت فيهم ولم أكن على حالهم ، فلما جاء البلاء عمني معهم ، فأنا معلق بشعرة في الهاوية لا أدري أكردس في النار أم أنجو .

فقال عيسى : بحق أقول لكم لأكل خبز الشعير وشرب ماء القراح والنوم على المزابل مع الكلاب كثير مع عافية الدنيا والآخرة .

(80/828)

وأخرج أبو يعلى قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه فإن كان غائباً دعا له ، وإن كان شاهداً زاره ، وإن كان مريضاً عاده . ففقد رجلاً من الأنصار في اليوم الثالث فسأل عنه فقالوا : تركناه مثل الفرخ لا يدخل في رأسه شيء إلا خرج من دبره . قال : عودوا أخاكم فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نعوده ، فلما دخلنا عليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف تجدك ؟ قال : لا يدخل في رأسي شيء ألا خرج من دبري . قال : ومم ذاك ؟ قال يا رسول الله : مررت بك وأنت تصلي المغرب فصليت معك ، وأنت تقرأ هذه السورة ﴿ القارعة ما القارعة

﴿ إلى آخرها ﴿ نار حامية ﴾ فقلت : اللهم ما كان من ذنب أنت معذبي عليه في الآخرة فعجل لي عقوبته في الدنيا فنزل بي ما ترى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بئس ما قلت ، ألا سألت الله أن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم فدعا بذلك ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم ، فقام كأنما نشط من عقال " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 605.608 ﴾

(81/828)

فصل

قال السمرقندى فى الآيات السابقة :

قوله تعالى ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ﴾

يعني : القيامة والساعة ما الساعة وهذا من أسماء يوم القيامة مثل الحاقة والطامة والصاخة ، وإنما سميت القارعة لأنها تنزع القلوب بالأهوال ويقال سماها قارعة لثلاثة : لأنها تقرع في أذن العبد بما علم وسمعه والثاني تقرع أركان العبد بعضه في بعض والثالث تقرع القلوب كما تقرع القصار الثوب ثم قال عز وجل ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ تعظيماً لشدتها ثم وصفها فقال ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ يعني : كالجراد كالفراش

يجول بعضهم في بعض كما قال في آية أخرى ﴿ خُشَّعًا أَبصارهم يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر : 7] ويقال شبههم بالفراش لأنهم يلقون أنفسهم في النار كما يلقي الفراش نفسه في النار ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ يعني : كالصوف المندوف وهي تمر مَرَّ السحاب ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ يعني : رجحت حسناته على سيئاته ويقال ثقلت موازينه بالعمل الصالح بالصلاة والزكاة وغيرها من العبادات ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ يعني : في عيش مرضي يعني : في الجنة لا موت فيها ولا فقر ولا مرض ولا خوف ولا جنون يعني : آمن من كل خوف وفقر ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ موازينه ﴾ يعني : رجحت سيئاته على حسناته يعني : الكافر ويقال من خفت موازينه يعني : لا يكون له عمل صالح ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ يعني : مصيره إلى النار قال قتادة هي أمهم ومأواهم وإنما سميت الهاوية لأن الكافر إذا طرح فيها يهوي على هامته وإنما سميت أمه لأنه مصيره إليها ومسكنه فيها ثم وصفها فقال ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ تعظيماً لشدتها ثم أخبر عنها فقال ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ يعني : حارة قد انتهى حرها وأصله ما هي فأدخلت الهاء للوقف كقوله ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كتابه بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقرؤا كتابيه ﴾ [الحاقة : 19] وأصله كتابي قرأ حمزة والكسائي وما أدراك ما هي بغير هاء في الوصل وبالهاء

عند الوقف وقرأ الباقون بإثباتها في الوصل والوقف والله تعالى أعلم بالصواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 586. 587 ﴾

(83/828)

وقال الثعلبى :

سورة القارعة

﴿ القارعة * مَا القارعة * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا القارعة * يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث ﴾

وهي الطير التي تتساقط في النار، المبثوث : المتفرّق. قال الفرّاء : الغوغاء : الجراد يركب بعضه بعضاً من الهول.

﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ كالصوف المصبوغ المبلل.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ مرضيّة في الجنة.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ مسكنه ومأواه النار. قال قتادة : هي كلمة عربية، كان الرجل إذا وقع في أمر شديد قال : هوت أُمّه، وقال بعضهم : أراد أُمّ رأسه،

يعني أنهم يهوون في النار على رؤوسهم ، وإلى هذا التأويل ذهب قتادة وأبو صالح .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ أي مَنْ ؟ فقال : ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ .

وأخبرنا ابن حامد قال [حدّثنا] صالح بن محمد قال : حدّثنا إبراهيم بن محمد عن جعفر ابن زيد عن أنس بن مالك قال : إن ملكاً من ملائكة اللّه عزّ وجل موكّل يوم القيامة بميزان ابن آدم ، فيجاء به حتى يوقف بين كفتي الميزان ، فيوزن عمله فإنْ ثقل ميزانه نادى الملائكة بصوت يسمع جميع الخلق باسم الرجل : ألا سَعُدَ فلان سعادة لا شقاوة بعدها ، وإن خفّت موازينه ينادي الملائكة : ألا شقيَ فلان شقاوة لا سعادة بعدها . انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 274 . 275 ﴾

(84/828)

وقال الزمخشرى :

سورة القارعة

مكية ، وآياتها 11 [نزلت بعد قريش] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القارعة (101) : الآيات 1 إلى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْقارِعَةُ (1) مَا الْقارِعَةُ (2) وَما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ (4)

وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ (9)

وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ (10) نارٌ حامِيَةٌ (11)

الظرف نصب بمضمر دلت عليه القارعة، أى: تقرع يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة، والتطاير إلى الداعي من كل جانب، كما يتطاير الفراش إلى النار. قال جرير:

إنّ الفرزدق ما علمت وقومه مثل الفراش غشين نار المصطلى «1»

---

(1). لجرير. وما علمت: أى مدة علمى، أو في علمى. وهذا من الانصاف في المحاورة. والفراش: ما يتطاير إلى السراج، وربما مات فيه لحمقه. والمصطلى: المتدفئ بالنار: شبههم به في الذل والجهل والتطفل على الغير، كما يغشى الفراش رأس المصطلى ويحوم حولها. وربما ألقى بنفسه إلى النار، مهم مثله. [.....]

وفي أمثالهم : أضعف من فراشة وأذل وأجهل . وسمى فراشا : لتفرّشه وانتشاره . وشبه الجبال بالعهن وهو الصوف المصبغ ألوانا ، لأنها ألوان ، وبالمنفوش منه ، لتفرق أجزائها . وقرأ ابن مسعود : كالصوف . الموازين : جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند اللّه .

أو جمع ميزان . وثقلها : رجحانها . ومنه حديث أبى بكر لعمر رضى اللّه عنهما في وصيته له :

«وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق وثقلها في الدنيا ، وحق لميزان لا توضع فيه إلا الحسنات أن يثقل ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه لاتباعهم الباطل وخفتها في الدنيا ، وحق لميزان لا توضع فيه إلا السيئات أن يخف «1»» فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة «2» : هوت أمّه ، لأنه إذا هوى أى سقط وهلك ، فقد هوت أمّه ثكلا وحزنا قال :

هوت أمّه ما يبعث الصّبح غاديا وما ذا يردّ اللّيل حين يئوب «3»

فكأنه قيل . وأما من خفت موازينه فقد هلك . وقيل هاوِيَةٌ من أسماء النار ، وكأنها النار العميقة لهوى أهل النار فيها مهوى بعيدا ، كما روى «يهوى فيها سبعين خريفا «4»» أى فمأواه النار . وقيل للمأوى : أمّ ، على التشبيه ، لأنّ الأمّ مأوى الولد ومفزعه . وعن قتادة : فأمّه هاوية ، أى فأمّ رأسه هاوية في قعر جهنم ، لأنه يطرح فيها منكوسا هِيَهْ ضمير الداهية

التي

---

(1) . وهذا منقطع مع ضعف ليث . وهو ابن أبى سليم . وأخرجه ابن أبى شيبة وأبو نعيم في الحلية في ترجمة أبى بكر من رواية إسماعيل بن أبى خالد عن زيد بن الحرث «أن أبا بكر لما حضره الموت أرسل إلى عمر . فلما اتى قال له : إنى موصيك بوصية ، إن للّه حقا في الليل لا يقبله في النهار وحقا بالنهار لا يقبله في الليل . وإنه ليس لأحدنا نافلة حتى يؤدى الفريضة . إنه إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم . وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل - الحديث» .

(2) . قال محمود : «إذا دعوا على الرجل بالهلكة قالوا : هوت أمه . . . الخ» قال أحمد : والأول أظهر ، لأنه مثل معروف كقولهم ، لأمه الهبل .

(3) . لكعب في مرثية أخيه . وهوت أمه دعاء لا يراد به الوقوع بل التعجب . وما مبتدأ ، وما بعده خبر .

والمعنى : أى شيء يبعثه الصبح منه ، وأى شيء يرده الليل ، كما روى : وما ذا يرد الليل ، يعنى : أنه شيء عظيم .

ومنه تجريد مقدر فيه ، يعنى : أنه كان يغدو في طلب الغارة ويرجع في الليل ظافرا . وما في الموضعين من الاستفهام ، معناه التعجب والاستعظام . وإسناد الفعل الصبح والليل مجاز .

(4) . هذا طرف من حديث أخرجه الترمذي في صفة جهنم من رواية الحسن عن عتبة

بن غزوان «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال . إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوي فيها سبعين عاما ما تقضى إلى قعرها » وقال غريب لا نعرف الحسن سماعا . من عتبة وهذا منقطع . وقد رواه مسلم من حديث عتبة بلفظ «و ذكر لنا » وهو في حكم المرفوع «و روى الحاكم من طريق عيسى بن طلحة عن أبى هريرة مرفوعا «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها في النار سبعين خريفا » وأصله في البخاري من رواية أبى صالح عن أبى هريرة بلفظ «يهوى بها في جهنم» حسب . وروى البزار من طريق مجالد عن الشعبي عن مسروق عن ابن مسعود رفعه ، يؤتى بالقاضي يوم القيامة فيوقف على شفير جهنم فان أمر به فدفع فهوى فيها سبعين خريفا » .

(86/828)

دلّ عليها قوله فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ في التفسير الأوّل . أو ضمير هاوية والهاء للسكت ، وإذا وصل القارئ حذفها . وقيل : حقه أن لا يدرج لئلا يسقطها الإدراج ، لأنها ثابتة في المصحف . وقد أجيز إثباتها مع الوصل .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة القارعة ثقل اللّه بها ميزانه يوم القيامة «1»» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 789 . 791﴾

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بسندهم إلى أبى بن كعب .

(87/828)

وقال الماوردى :

قول تعالى ﴿ القارِعَةُ * ما القارِعَةُ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أنها العذاب ، لأنها تقرع قلوب الناس بهولها .

ويحتمل ثانياً : أنها الصيحة لقيام الساعة ، لأنها تقرع بشدائدها .

وقد تسمى بالقارعة كل داهية ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يزالُ الذِّين كفروا تُصيبُهم بما صَنَعوا قارعةٌ ﴾ [الرعد : 31] قال الشاعر :

متى تُقْرَعْ بمرْوَتكم نَسُؤْكم . . . ولم توُقَدْ لنا في القدْرِ نارُ

﴿ ما القارعة ﴾ تعظيماً لها ، كما قال تعالى : ﴿ الحاقّة ما الحاقّة ﴾ .

﴿ يومَ يكونُ النّاسُ كالفَراشِ المبْثُوثِ ﴾ وفي الفراش قولان :

أحدهما : أنه الهمج الطائر من بعوض وغيره ، ومنه الجراد ، قاله الفراء ، الثاني : أنه طير يتساقط في النار ليس ببعوض ولا ذباب ، قاله أبو عبيدة وقتادة .

وفي ﴿ المبثوث ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه المبسوط ، قاله الحسن .

الثاني : المتفرق ، قاله أبو عبيدة .

الثالث : أنه الذي يحول بعضه في بعض ، قاله الكلبي .

وإنما شبه الناس الكفار يوم القيامة بالفراش المبثوث لأنهم يتهافتون في النار كتهافت الفراش .

﴿ وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ المنْفُوشِ ﴾ والعِهن : الصوف ذو الألوان في قول أبي عبيدة ، وقرأ ابن مسعود : "كالصوف " .

وقال ﴿ كالْعِهْنِ المَنْفُوشِ ﴾ لخفته ، وضعفه ، فشبه به الجبال لخفتها ، وذهابها بعد شدّتها وثباتها .

ويحتمل أن يريد جبال النار تكون كالعهن لحمرتها وشدة لهبها ، لأن جبال الأرض تسير ثم تنسف حتى يدك بها الأرض دكّا .

﴿ فأمّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُه ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه ميزان ذو كفتين توزن به الحسنات والسيئات ، قاله الحسن ، قال أبو بكر رضي الله عنه : وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً .

الثاني : الميزان هو الحساب ، قاله مجاهد ، ولذلك قيل : اللسان وزن الإنسان ، وقال

الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرّةٍ . . . عندي لكل مُخاصِمٍ ميزانُه

أي كلام أعارضه به .

(88/828)

الثالث : أن الموازين الحجج والدلائل ، قاله عبد العزيز بن يحيى ، واستشهد فيه بالشعر المتقدم .

وفي الموازين وجهان :

أحدهما : جمع ميزان .

الثاني : أنه جمع موزون .

﴿ فهو في عِيشةٍ راضِيةٍ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني في عيشة مرضية ، قال قتادة : وهي الجنة .

الثاني : في نعيم دائم ، قاله الضحاك ، فيكون على الوجه الأول من المعاش ، وعلى الوجه الثاني من العيش .

﴿ وأمّا مَنْ خَفّتْ مَوازِينُه * فأمُّهُ هاويةٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن الهاوية جهنم ، سماها أُمًّا له لأنه يأوي إليها كما يأوي إلى أُمّه ، قاله ابن زيد ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت .

فالأرضُ مَعْقِلنا وكانتْ أُمّنا . . . فيها مقابِرُنا وفيها نُوَلدُ

وسميت النار هاوية لأنه يهوي فيها مع بعد قعرها .

الثاني : أنه أراد أُمّ رأسه يهوي عليها في نار جهنم ، قاله عكرمة .

وقال الشاعر :

يا عَمرو لو نَالَتْك أَرْحامُنا . . . كُنْتَ كَمن تَهْوِي به الهاوِيَة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 327. 329 ﴾

(89/828)

وقال ابن الجوزى :

﴿ الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يوم يكون النَّاس ﴾

اليوم منصوب على الظرف .

المعنى : يكون يوم يكون الناس ﴿ كالفراش المبثوث ﴾ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه غوغاء الجراد ، قاله الفراء .

قال ابن قتيبة : غوغاء الجراد : صغاره ، ومنه قيل لعامة الناس : غوغاء .

والثاني : أنه طير ليس ببعوض ولا ذِبّان ، قاله أبو عبيدة .

والثالث : أنه ما تهافت في النار من البعوض ، قاله ابن قتيبة .

وكذلك قال الزجاج : ما يُرى كصغار البَقّ يتهافت في النار .

وشَبّه الناس في وقت البعث به وبالجراد المنتشر ، لأنهم إذا بعثوا ماج بعضهم في بعض .

وذكر الماوردي : أن هذا التشبيه للكفار ، فهم يتهافتون في النار يوم القيامة تَهَافُتَ الفراش .

فأما "المبثوث" فهو المنتشر والمتفرِّق .

قوله تعالى : ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ وقد شرحناه في [سأل سائل : 9] و"المنفوش" الذي قد ندف .

قال مقاتل : وتصير الجبال كالصوف المندوف .

فإذا رأيت الجبل قلت : هذا جبل : فإذا مسسته لم تر شيئاً ، وذلك من شِدّة الهَوْل .

قوله تعالى : ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ ، أي : رجحت بالحسنات ، وقد بَيّنَّا هذه الآية في أول [الأعراف : 8] وبيّنّا معنى "عيشة راضية" في [الحاقة : 21]

قوله تعالى : ﴿ فأُمّه هاوية ﴾ ، قرأ ابن مسعود ، وطلحة بن مصرف ، والجحدري "فإمه" بكسر الهمزة .

وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أُمُّ رأسه هاوية ، يعني : أنه يهوي في النار على رأسه ، هذا قول عكرمة ، وأبي صالح .

والثاني : أنها كلمة عربية كان الرجل إذا وقع في أمر شديد قالوا : هَوَتْ أُمُّه ، قاله قتادة .

والثالث : أن المعنى ، فمسكنُه النار .

وإنما قيل لمسكنه : أُمُّه ، لأن الأصل السكون إلى الأمّهات .

(90/828)

والنَّار لهذا كالأُمِّ ، إذ لا مأوى له غيرها ، هذا قول ابن زيد ، والفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج ، ويدل على صحة هذا ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا مات العبد تلقى رُوحُه أرواحَ المؤمنين ، فتقول له : ما فعل فلان ؟ فإذا قال : مات ، قالوا : ذُهِبَ به إلى أُمّه الهاوية ، فَبِئْسَتِ الأُمُّ ، وبِئْستِ المربِّيَة .

قوله تعالى : ﴿ وما أدراك ماهِيَهْ ﴾ يعني : الهاوية .

قرأ حمزة ، ويعقوب "ما هي" بحذف الهاء الأخيرة في الوصل ، وإثباتها في الوقف .

لتبيين فتحة الياء ، فالوقف "هيه" والوصل هي نار .

والذي يجب اتباعُ المصحف .

والهاء فيه ثابتة فتوقف عليها ، ولا توصل "نار حامية" أي : حارَّة قد انتهى حرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 216.213 ﴾

(91/828)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ القارعة ﴾

أصل القرع الصّوت الشّديد ، ومنه قوارع الدّهر أي شدائده ، والقارعة من أسماء القيامة . سميت بذلك لأنها تقرع القلوب بالفزع ، والشدائد وقيل سميت قارعة بصوت إسرافيل لأنه إذا نفخ في الصور مات جميع الخلائق من شدة صوت نفخته ، ﴿ ما القارعة ﴾ تهويل وتعظيم ، والمعنى أنها فاقت القوارع في الهول والشّدة ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ معناه لا علم لك بكنهها لأنها في الشدة بحيث لا يبلغها فهم أحد وكيفما قدرت أمرها فهي أعظم من ذلك ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ الفراش هذه الطير التي تراها تتهافت في النار سميت بذلك لفرشها ، وانتشارها ، وإنما شبه الخلق عند البعث بالفراش ، لأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة .

بل كل واحدة تذهب إلى غير جهة الأخرى ، فدل بهذا التشبيه على أن الخلق في البعث يتفرقون ، فيذهب كل واحد إلى غير جهة الآخر ، والمبثوث المتفرق ، وشبههم أيضاً بالجراد فقال : كأنهم جراد منتشر وإنما شبههم بالجراد لكثرتهم قال الفراء : كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضاً فشبه الناس عند البعث بالجراد لكثرتهم بموج بعضهم في بعض ، ويركب بعضهم بعضاً من شدة الهول .

(92/828)

﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ أي كالصّوف المندوف ، وذلك لأنها تتفرق أجزاؤها في ذلك اليوم حتى تصير كالصّوف المتطاير عند الندف ، وإنما ضم بين حال الناس وحال الجبال ، كأنه تعالى نبه على تأثير تلك القارعة في الجبال العظيمة الصّلدة الصّلبة حتى تصير كالعهن المنفوش ، فكيف حال الإنسان الضّعيف عند سماع صوت القارعة ثم لما ذكر حال القيامة قسم الخلق على قسمين فقال تعالى : ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ يعني رجحت موازين حسناته قيل هو جمع موزون ، وهو العمل الذي له قدر وخطر عند الله تعالى ، وقيل هو جمع ميزان وهو الذي له لسان وكفتان توزن فيه الأعمال فيؤتى بحسنات المؤمن في أحسن صورة فتوضع في كفة الميزان ، فإن رجحت فالجنة له ويؤتى بسيئات الكافر في أقبح

صورة فتخف ميزانه ، فيدخل النار ، وقيل إنما توزن أعمال المؤمنين فمن ثقلت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن ثقلت سيئاته على حسناته دخل النار ، فيقتص منه على قدرها ثم يخرج منها ، فيدخل الجنة أو يعفو الله عنه بكرمه ، فيدخل الجنة بفضل الله وكرمه ، ورحمته ، وأما الكافرون فقد قال : في حقهم ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ روى عن أبي بكر الصّديق أنه قال : إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بإتباعهم الحق في دار الدّنيا ، وثقله عليهم وحق لميزان يوضع فيه الحق غداً أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدّنيا وخفته عليهم ، وحق لميزان يوضع فيه الباطل غداً أن يكون خفيفاً .

(93/828)

قوله تعالى : ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ أي مرضية في الجنة ، وقيل في عيشة ذات رضا يرضاها صاحبها ﴿ وأما من خفت موازينه ﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته ﴿ فأمه هاوية ﴾ أي مسكنة النّار سمي المسكن أمّاً لأن الأصل في السكون الأمهات ، وقيل معناه فأم رأسه هاوية في النّار ، والهاوية اسم من أسماء النار ، وهي المهواة التي لا يدرك قعرها فيهوون فيها على رؤوسهم ، وقيل كان الرجل إذا وقع في أمر شديد يقال هوت أمه

أي هلكت حزناً وثكلاً ﴿ وما أدراك ما هيه ﴾ يعني الهاوية ثم فسرها فقال ﴿ نار حامية ﴾ أي حارة قد انتهى حرها نعوذ بالله وعظمته منها والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 284.285 ﴾

(94/828)

وقال النسفى :

سورة الْقَارِعَةِ

مكية وهي إحدى عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ القارعة ﴾

مبتدأ ﴿ مَا ﴾ مبتدأ ثانٍ ﴿ القارعة ﴾ خبره والجملة خبر المبتدأ الأول، وكان حقه ما هي وإنما كرر تفخيماً لشأنها ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا القارعة ﴾ أي أيّ شيء أعلمك ما هي ومن أين علمت ذلك؟ ﴿ يَوْمٍ ﴾ نصب بمضمر دلت عليه القارعة أي تقرع يوم ﴿ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث ﴾ شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار، وسمي فراشاً لتفرشه وانتشاره ﴾

﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ وشبه الجبال بالعهن وهو الصوف المصبغ ألوناً لأنها ألوان ﴿ وَمِنَ الجبال جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ ألوانها ﴾ [فاطر : 27] وبالمنفوش منه لتفرق أجزائها ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ باتباعهم الحق وهي جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله ، أو جمع ميزان وثقلها رجحانها ﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ذات رضا أو مرضية ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ موازينه ﴾ باتباعهم الباطل ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ فمسكنه ومأواه النار .

وقيل : للمأوى أمٌّ على التشبيه لأن الأم مأوى الولد ومفزعه ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ الضمير يعود إلى ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ والهاء للسكت ثم فسرها فقال ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ بلغت النهاية في الحرارة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 373 . 374 ﴾

(95/828)

وقال ابن جزى :

سورة الْقَارِعَةِ

﴿ القارعة ﴾

من أسماء القيامة لأنها تقرع القلوب بهولها ، وقيل : هي النفخة في الصور لأنها تقرع الأسماع ﴿ مَا القارعة ﴾ مبتدأ وخبر في موضع خبر القارعة ، والمراد به تعظيم شأنها ، كذلك ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا القارعة ﴾ ﴿ يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث ﴾ العامل في الظرف محذوف دل عليه القارعة تقديره ، تقرع في يوم ، والفراش هو الطير الصغير الذي يشبه البعوض ، ويدور حول المصباح . والمبثوث هو المنتشر المفترق . شبّه الله الخلق يوم القيامة به في كثرتهم وانتشارهم وذلتهم ، ويحتمل أنه شبههم به لتساقطهم في جهنم . كما يتساقط الفراش في المصباح . قال بعض العلماء : الناس في أول قيامهم من القبور كالفراش المبثوث ، لأنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام ، ثم يدعوهم الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر ؛ فيكونون حينئذ كالجراد المنتشر . لأن الجراد يقصد إلى جهة واحدة ، وقيل : الفراش هنا الجراد الصغير وهو ضعيف ﴿ وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ العهن هو الصوف ، وقيل : الصوف الأحمر وقيل : الصوف الملون ألواناً ، شبّه الله الجبال يوم القيامة به ، لأنها تنسف فتصير لينة ، وعلى القول بأنه الملون يكون التشبيه أيضاً من طريق اختلاف ألوان الجبال ؛ لأن منها بيضاء وحمراء وسوداء .

﴿ مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ هو جمع ميزان أو جمع موزون ، وميزان الأعمال يوم القيامة له لسان وكفتان عند الجمهور ، وقال قوم : هو عبارة عن العدل ﴿ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ معناه ذات رضا عند سيبويه : وثقل الموازين بكثرة الحسنات وخفتها بقلتها ، ولا يخف ميزان مؤمن خفة موبقة لأن الإيمان يوزن فيه ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدهما أن الهاوية جهنم سميت بذلك لأن الناس يهوون فيها أي يسقطون ، وأمه معناه مأواه كقولك : المدينة أم فلان أي مسكنه على التشبيه بالأمّ الوالدة لأنها مأوى الولد ومرجعه . الثاني أن الأم هي الوالدة ، وهاوية ساقطة وذلك عبارة عن هلاكه كقولك : أمه ثكلى إذا هلك ، الثالث أن المعنى أم رأسه هاوية في جهنم ، أي ساقطة فيها ، لأنه يطرح فيها منكوساً ، وروي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل : لا أمّ لك . فقال : يا رسول الله تدعوني إلى الهدى وتقول لي لا أمّ لك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أردت لا نار لك " ، قال الله تعالى : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ وهذا يؤيد القول الأول ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴾ الهاء للسكت والضمير لجهنم على القول بأنها الهاوية ، وهو للفعلة والخصلة التي يراد بها العذاب على القول الثاني والثالث ، والمقصود تعظيمها ثم فسرها بقوله : ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 205﴾

وقال البيضاوى :

سورة القَارِعَةِ

مكية ، وآيها ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ القارعة مَا القارعة ومَا أَدْرَاكَ مَا القارعة ﴾

سبق بيانه في "الحاقة" .

﴿ يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث ﴾ في كثرتهم وذلتهم وانتشارهم واضطرابهم ، وانتصاب ﴿ يَوْمَ ﴾ بمضمر دلت عليه ﴿ القارعة ﴾ .

﴿ وتَكُونُ الجبال كالعهن ﴾ كالصوف ذي الألوان . ﴿ المنفوش ﴾ المندوف لتفرق أجزائها وتطايرها في الجو .

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ موازينه ﴾ بأن ترجحت مقادير أنواع حسناته .

﴿ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ ﴾ في عيش . ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ ذات رضا أو مرضية .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ موازينه ﴾ بأن لم يكن له حسنة يعبأ بها ، أو ترجحت سيئاته على حسناته .

﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ فمأواه النار المحرقة والهاوية من أسمائها ولذلك قال :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ ذات حمى .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة القارعة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة " .

(1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 522 ﴾

---

(1) حديث موضوع.

(98/828)

وقال أبو حيان :

سورة الْقَارِعَةِ

﴿ الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) ﴾

وقال الجمهور : ﴿ القارعة ﴾ : القيامة نفسها ، لأنها تقرع القلوب بهولها .

وقيل : صيحة النفخة في الصور ، لأنها تقرع الأسماع وفي ضمن ذلك القلوب .

وقال الضحاك : هي النار ذات التغيظ والزفير .

وقرأ الجمهور : ﴿ القارعة ما القارعة ﴾ بالرفع ، فما استفهام فيه معنى الاستعظام والتعجب وهو مبتدأ ، والقارعة خبره ، وتقدم تقرير ذلك في ﴿ الحاقة ما الحاقة ﴾ وقيل ذلك في قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ وقال الزجاج : هو تحذير ،

والعرب تحذر وتغري بالرفع كالنصب ، قال الشاعر :

أخو النجدة السلاح السلاح . . .

وقرأ عيسى : بالنصب ، وتخريجه على أنه منصوب بإضمار فعل ، أي اذكروا القارعة ، وما زائدة للتوكيد ؛ والقارعة تأكيد لفظي للأولى .

وقرأ الجمهور : ﴿ يوم ﴾ بالنصب ، وهو ظرف ، والعامل فيه ، قال ابن عطية : القارعة . فإن كان عنى بالقارعة اللفظ الأول ، فلا يجوز للفصل بين العامل ، وهو في صلة أل ، والمعمول بالخبر ؛ وكذا لو صار القارعة علماً للقيامة لا يجوز أيضاً ، وإن كان عنى اللفظ الثاني أو الثالث ، فلا يلتئم معنى الظرف معه .

وقال الزمخشري : الظرف نصب بمضمر دل عليه القارعة ، أي تقرع يوم يكون الناس .

وقال الحوفي : تأتي يوم يكون .

وقيل : اذكر يوم .

وقرأ زيد بن عليّ : يوم يكون مرفوع الميم ، أي وقتها .

﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ ، قال قتادة : هو الطير الذي يتساقط في النار .

وقال الفراء : غوغاء الجراد ، وهو صغيره الذي ينتشر في الأرض يركب بعضه بعضاً من الهول .

وقيل : الفراش طير دقيق يقصد النار ، ولا يزال يتقحم على المصباح ونحوه حتى يحترق .

شبهوا في الكثرة والانتشار والضعف والذلة والمجيء والذهاب على غير نظام، والتطاير إلى الداعي من كل جهة حتى تدعوهم إلى ناحية المحشر، كالفراش المتطاير إلى النار.

قال جرير:

إن الفرزدق ما علمت وقومه . . .

(99/828)

مثل الفراش غشين نار المصطلي

وقرن بين الناس والجبال تنبيهاً على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى صارت كالعهن المنفوش؛ فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها؟ وتقدم الكلام في الموازين وثقلها وخفتها في الأعراف، وعيشة راضية في الحاقة.

﴿ فأمه هاوية ﴾: الهاوية دركة من دركات النار، وأمه معناه مأواه، كما قيل للأرض أم الناس لأنها تؤويهم، وكما قال عتبة بن أبي سفيان في الحرب: فنحن بنوها وهي أمنا.

وقال قتادة وأبو صالح وغيره: فأم رأسه هاوية في قعر جهنم لأنه يطرح فيها منكوساً.

وقيل: هو تفاؤل بشر، وإذا دعوا بالهلكة قالوا هوت أمه، لأنه إذا هوى، أي سقط وهلك فقد هوت أمه ثكلاً وحزناً.

قال الشاعر :

هوت أمه ما نبعث الصبح غاديا . . .

وماذا يرد الليل حين يؤون

وقرأ الجمهور : ﴿ فأمه ﴾ بضم الهمزة ، وطلحة بكسرها .

قال ابن خالويه : وحكى ابن دريد أنها لغة .

وأما النحويون فإنهم يقولون : لا يجوز كسر الهمزة إلا أن يتقدمها كسرة أو ياء ، انتهى .

﴿ وما أدراك ﴾ : هي ضمير يعود على هاوية إن كانت كما قيل دركة من دركات النار معروفة بهذا الاسم ، وإن كانت غير ذلك مما قيل فهي ضمير الداهية التي دل عليها قوله : ﴿ فأمه هاوية ﴾ ، والهاء فيما هيه هاء السكت ، وحذفها في الوصل ابن أبي إسحاق والأعمش وحمزة ، وأثبتها الجمهور : ﴿ نار ﴾ : خبر مبتدأ محذوف ، أي هي نار ، أعاذنا الله منها بمنه وكرمه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(100/828)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾

القراءات: ﴿ ما هي ﴾ بغير هاء السكت في الوصل: حمزة وسهل ويعقوب. الآخرون: بالهاء وإن كانت وصلاً إتباعاً لخط المصحف.

الوقوف: ﴿ القارعة ﴾ ه لا ﴿ ما القارعة ﴾ ه لا ﴿ المبثوث ﴾ ه ج للآية والعطف ﴿ المنقوش ﴾ ه ط للابتداء بالشرط ﴿ موازينه ﴾ ه لا لأن ما بعده جواب فأما ﴿ راضية ﴾ ه ط ﴿ موازينه ﴾ ه لا ﴿ هاوية ﴾ ه ط ﴿ ماهية ﴾ ه ط ﴿ حامية ﴾ ه.

(101/828)

التفسير: لما ختم السورة المتقدمة بأحوال المعاد ذكر في هذه السورة بعض أحوال الآخرة، والقرع الاصطكاك بشدة واعتماد ثم سميت الحادثة الهائلة قارعة والمراد ههنا القيامة ولا أهول منها ولذلك قال في الإخبار عنها ﴿ ما القارعة ﴾ لأنه يفيد زيادة التهويل ثم قال ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ وانتصب ﴿ يوم ﴾ بفعل محذوف دل عليه القارعة أي تقرع الناس يوم كذا، وهذا القرع عبارة عن الصيحة التي يموت فيها الخلائق ثم يحييهم عند النفخة الثانية كما روي ان الصور له ثقب على عدد الأموات لكل واحد ثقبة معلومة فيحيى الله بتلك النفخة الواصلة إليه من تلك الثقبة المعينة. وقيل: القرع هو اصطكاك الأجرام العلوية والسفلية حين التخريب والتبديل، أو هو نفس انفطارها وانتثارها

واند كا كها قاله الكلبي وقال مقاتل : إنها تقرع أعداء الله بالعذاب ، وأما أولياؤه فهم من القرع آمنون . والفراش اسم لهذه الدواب التي تتهافت فتقع في النار سمي فراشاً لتفرشه وانتشاره وأكد هذا المعنى بقوله ﴿ المبثوث ﴾ وشبه الناس يومئذ بها لكثرتهم وانتشارهم ذاهبين في كل أوب كما شبههم بالجراد المنتشر في موضع آخر لذلك لا لصغر الجثة والنحول والضعف . وجوز بعضهم أن يكونوا أولاً أكبر جثة فشبههم وقتئذ بالجراد ثم يؤل حالهم إلى الهزل والضعف لحر الشمس ولسائر أصناف المتاعب ، فشبهوا للضعف بالفراش . ويمكن أن يكون وجه التشبيه الذلة والضعف كقوله صلى الله عليه وسلم " الناس اثنان : عالم ومتعلم وسائر الناس همج " وشبه الجبال بالعهن لاختلاف أجزائها في الحمرة والبياض والسواد كما مر في " المعارج " . وزاد ههنا وصفه بالمنقوش لتفرق أجزائها وزوال تأليفها ثم قسم الناس فيه إلى قسمين بحسب ثقل موازين أعمالهم وخفتها وقد مر تحقيقه في " الأعراف " . وقوله ﴿ راضية ﴾ من الإسناد المجازي كما مر في " الحاقة " . وأما قوله ﴿ فأمه هاوية ﴾ ففيه وجوه أحدها : أن الأم هي المعروفة والهاوية والهالكة وهذا من

مستعملات العرب يقولون : هوت أمه أي هلكت وسقطت يعنون الدعاء عليه بالويل والثبور والخزي والهوان . وقال الأخفش والكلبي وقتادة : فأم رأسه هاوية في النار لأنهم يهوون ي النار على رؤوسهم . وقيل : الأم الأصل والهاوية من أسماء النار لأنها نار عتيقة والمعنى : منزلة ومأواه الذي يأوى إليه هو النار ويؤيد هذا الوجه قوله ﴿ ماهية ﴾ أي ما الهاوية ، هذا هو الظاهر . والأولون قالوا : الضمير للداهية التي يدل عليها قوله ﴿ فأمه هاوية ﴾ وفي قوله ﴿ نار حامية ﴾ إشارة إلى نيران الدنيا بالنسبة إلى نار الآخرة غير حامية والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 552 . 553 ﴾

(103/828)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة القارعة

مكية وهي إحدى عشرة آية وست وثلاثون كلمة ومائة واثنان وخمسون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الملك الأعلى ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمت نعمه إيجاده جميع الورى

﴿ الرحيم ﴾ الذي يخص أولياءه بالتوفيق لما يحب ويرضى .

ولما ختم العاديات بالبعث ذكر صيحته بقوله تعالى :

﴿ القارعة ﴾ أي: الصيحة، أو القيامة التي تقرع القلوب بأهوالها والأجرام الكثيفة بالتشقق والانفطار، والأشياء الثابتة بالانتشار. وقوله تعالى:

﴿ ما القارعة ﴾ تهويل لشأنها وهما مبتدأ وخبر، خبر القارعة، وأكد تعظيمها إعلاماً بأنه مهما خطر في بالك من عظمها فهي أعظم منه، فقال تعالى:

﴿ وما أدراك ﴾ أي: أعلمك ﴿ ما القارعة ﴾ أي: إنك لا تعرفها لأنك لم تعهد مثلها، وما الأولى مبتدأ وما بعدها خبره، وما الثانية وخبرها في محل المفعول الثاني لأدري.

واختلف في ناصب ﴿ يوم ﴾ على وجهين أحدهما أنه بمضمر دلّ عليه القارعة، أي: تقرعهم يوم. وقيل تقديره: تأتي القارعة يوم ﴿ يكون الناس ﴾ والثاني أنه أذكر مقدّراً فهو مفعول به لا ظرف. وقوله تعالى: ﴿ كالفراش المبثوث ﴾ يجوز أن يكون خبراً للناقصة وأن يكون حالاً من فاعل التامة، أي: يؤخذون ويحشرون شبه الفراش شبههم في الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، والتطاير إلى الداعي من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار، والفراش طائر معروف. قال قتادة: الفراش الطير الذي يتساقط في النار والسراج، الواحدة فراشة. وقال الفراء: هو الهمج من البعوض والجراد وغيرهما، وبه يضرب المثل في الطيش والهرج يقال: أطيش من فراشة. وأنشدوا:

*فراشة الحلم فرعون العذاب وأن ** تطلب نداه فكلب دونه كلب*

وفي أمثالهم : أضعف من فراشة ، وأذل وأجهل . وسمي فراشاً لتفرشه وانتشاره . وروى مسلم عن جابر قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذبهنّ عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي" . وفي تشبيه الناس بالفراش مبالغات شتى منها الطيش الذي يلحقهم وانتشارهم في الأرض ، وركوب بعضهم بعضاً ، والكثرة والضعف ، والذلة والمجيء من غير ذهاب ، والقصد إلى الداعي من كل جهة ، والتطاير إلى النار . قال جرير :

*إنّ الفرزدق ما علمت وقومه ** مثل الفراش غشين نار المصطلى*

والمبثوث المتفرق ، وقال تعالى في موضع آخر : ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ (القمر :)

فإن قيل : كيف شبه الشيء الواحد بالصغير والكبير معاً لأنه شبههم بالجراد المنتشر والفراش المبثوث ؟

أجيب : بأنّ التشبيه بالفراش في ذهاب كل واحد إلى غير جهة الآخر ، وأمّا التشبيه بالجراد فبالكثرة والتتابع .

﴿ وتكون الجبال ﴾ على ما هي عليه من الشدّة والصلابة وأنها صخوراً راسخة ﴿ كالعهن ﴾ أي : الصوف المصبوغ ألواناً لأنها ملوّنه قال تعالى : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر ﴾ (فاطر :)

أي : وغير ذلك ﴿ المنفوش ﴾ أي : المندوف المفرّق الأجزاء فتراها لذلك متطايرة في الجوّ كالهباء المنثور ، كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿ هباءً منبثاً ﴾ (الواقعة :)
حتى تعود الأرض كلها لا عوج فيها ولا أمّتا .
ثم سبب عن ذلك تعالى مفصلاً لهم :

(105/828)

﴿ فأمّا من ثقلت موازينه ﴾ أي : برجحان الحسنات ، وفي الموازين قولان : أحدهما : أنه جمع موزون وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله تعالى ، وهذا قول الفراء . والثاني : قال ابن عباس : إنه جمع ميزان له لسان وكفتان لا يوزن فيه إلا الأعمال ، فتوزن فيه الصحف المكتوبة فيها الحسنات والسيئات أو الأعمال أنفسها ، فيؤتى بحسنات المؤمن في أحسن صورة فتوضع في كفة الميزان فإذا رجحت فالجنة له ، ويؤتى بسيئات الكافر في أقبح صورة فيخف ميزانه فيدخل النار .
وقيل : إنما توزن أعمال المؤمنين فمن ثقلت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن ثقلت سيئاته على حسناته دخل النار فيقتص منه على قدرها ، ثم يخرج منها فيدخل الجنة ، أو يعفو الله عنه فيدخل الجنة بفضله ورحمته . وأمّا الكافر فقد قال الله تعالى في حقه : ﴿ فلا

نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ (الكهف :)

ثم قيل : إنه ميزان واحد بيد جبريل عليه السلام يزن به أعمال بني آدم ، فعبر عنه بلفظ الجمع . وقيل : موازين لكل حادثة ميزان ، وقيل : الموازين الحجج والدلائل قاله عبد العزيز بن يحيى ، واستشهد بقول الشاعر :

*قد كنت قبل لقائكم ذا مرّة ** عندي لكل مخاصم ميزانه*

﴿ فهو ﴾ أي : بسبب رجحان حسناته ﴿ في عيشة ﴾ أي : حياة يتقلب فيها .

قال البقاعي : ولعله ألحقها بالهاء الدالة على الوحدة ، والمراد العيش ليفهم أنها على حالة واحدة في الصفاء واللذة وليست ذات ألوان كحياة الدنيا ﴿ راضية ﴾ أي : ذات رضا أو مرضية لأنّ أمّه جنة عالية .

﴿ وأمّا من خفت ﴾ أي : طاشت ﴿ موازينه ﴾ أي : غلبت سيأاته ، أو لم تكن له حسنة لاتباعه الباطل وخفته عليه في الدنيا .

(106/828)

﴿ فأمّه ﴾ أي : التي تؤويه وتضمه إليها كما يقال للأرض أم لأنها تقصد لذلك ، ويسكن إليها كما يسكن إلى الأمّ وكذا المسكن ﴿ هاوية ﴾ أي : نار نازلة سافلة جدّاً ، فهو بحيث

لا يزال يهوي فيها نازلاً فهو في عيشة ساخطة فالآية من الاحتباك ذكر العيشة أولاً دليلاً على حذفها ثانياً وذكر الأمّ ثانياً ، دليلاً على حذفها أوّلاً ، والهاوية اسم من أسماء جهنم وهي المهواة لا يدرك قعرها .

وقال قتادة : هي كلمة عربية كان الرجل إذا وقع في أمر شديد يقال : هوت أمّه . وقيل : أراد أمّ رأسه يعني أنهم يهوون في النار على رؤوسهم ، وإلى هذا التأويل ذهب قتادة وأبو صالح . وروي عن أبي بكر أنه قال : وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباع الحق وثقله في الدنيا ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحسنات أن يثقل ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل وخفته في الدنيا ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا السيئات أن يخف .

﴿ وما أدراك ﴾ أي : وأيّ شيء أعلمك وإن اشتدّ تكلفك ﴿ ماهيه ﴾ أي : الهاوية ، والأصل ما هي فدخلت الهاء للسكت وقرأ حمزة في الوصل بغيرها بعد الياء التحتية ووقف بها ، والباقون بإثباتها وصلاً ووقفاً .

فإن قيل : قال هنا : ﴿ وما أدراك ماهيه ﴾ وقال أوّل السورة : ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ ولم يقل ما أدراك ما الهاوية ؟ .

أجيب : بأنّ كونها قارعة أمر محسوس وكونها هاوية ليس كذلك فظهر الفرق .

وقوله تعالى : ﴿ نار حامية ﴾ خبر مبتدأ مضمر ، أي : هي ، أي : الهاوية نار شديدة

الحرارة. روى مسلم أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "ناركم هذه التي توقد جزء من سبعين جزءاً من حرّ جهنم، قالوا: وإنها لكافية يا رسول الله؟ قال: فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرّها" وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري: عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة القارعة ثقل الله بها ميزانه يوم القيامة" حديث موضوع. انتهى انتهى. اهـ ﴿السراج المنير حـ 8 صـ 415.412﴾

(107/828)

وقال القاسمى:

سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ ﴾

قال أبو السعود: القرع هو الضرب بشدة واعتماد، بحيث يحصل منه صوت شديد، وهي القيامة. سميت بها لأنها تفزع القلوب والأسماع بفنون الأفزاع والأهوال، وتخرج جميع الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال: السماء بالانشقاق والانفطار، والشمس والنجوم بالتكوير والانكدار والانتثار، والأرض بالزلزال والتبديل، والجبال بالدك والنسف

.

وهي مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ على أن ما الاستفهامية خبر والقارعة مبتدأ ، لا بالعكس ؛ لأن محط الفائدة هو الخبر لا المبتدأ . ولا ريب في أن مدار إفادة الهول والفخامة هاهنا هو كلمة ما ، لا القارعة أي : أي : شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة ؟ وقد وضع الظاهر موضع الضمير تأكيداً للتهويل .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ تأكيد لهولها وفظاعتها ، ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق ، على معنى أن عظم شأنها ومدى شدتها بحيث لا تكاد تناله دراية أحد ، حتى يدريك بها ، أي : وأي شيء أعلمك ما شأن القارعة ؟ ولما كان هذا منبأ عن الوعد الكريم بإعلامها ، أنجز ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ أي : هي يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث في الكثرة والانتشار ، والضعف والذلة والاضطراب ، والتطاير إلى الداعي ، كتطاير الفراش إلى النار . ف ﴿ يَوْمَ ﴾ خبر محذوف بني على الفتح لإضافته إلى الفعل ، أو هو منصوب بإضمار اذكر ، كأنه قيل بعد تفخيم أمر القارعة وتشويقه عليه الصلاة والسلام إلى معرفتها : اذكر يوم يكون الناس .

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ أي : كالصوف المندوف في تفرق أجزائها وتطايرها في الجو . ولما كان من المعلوم أن ذلك اليوم هو اليوم الذي تبتدئ فيه الحياة الآخرة ، وفيها تعرف مقادير الأعمال وما تستحقه من الجزاء ، رتب عليه قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾

قال ابن جرير : أي : فأما من ثقلت موازين حسناته ، يعني بالموازين الوزن . والعرب تقول : لك عندي درهم بميزان درهمك ، ويقولون : داري بميزان دارك ووزن دارك ، يراد حذاء دارك . قال الشاعر :

قد كنتُ قبل لقائكم ذا مِرَّة عندي لكلِّ مخاصم ميزانُهُ

يعني بقوله : ميزانه كلامه وما ينقض عليه حجته . وكان مجاهد يقول : ليس ميزان إنما هو مثل ضرب . انتهى .

وعليه فالموازين جمع ميزان . وجوز كونهُ جمع موزون ، وهو العمل الذي له خطر ووزن عند الله تعالى . ومعنى قوله :

﴿ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ أي : في عيشة قد رضيها في الجنة ، ف ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ بمعنى مرضية على التجوز في الكلمة نفسها أو في إسنادها ، أو استعارة مكنية وتخييلية .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ أي : وزن حسناته .

﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ أي : فمأواه ومسكنه الهاوية التي يهوي فيها على رأسه في جهنم .

قال الشهاب : فسمى المأوى أُمّاً على التشبيه تهكماً ؛ لأن أم الولد مأواه ومقره . وفي "التأويلات" : قيل المراد أم رأسه ، أي : يلقى في النار منكوساً على رأسه . انتهى .

والأول هو الموافق لقوله : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ فإنه تقرير لها بعد إبهامها ، والإشعار بخروجها عن الحدود المعهودة للتهويل . أصل ﴿ مَا هِيَهْ ﴾ ماهي ، كناية عن الهاوية فأدخل في آخرها هاء السكت وقفاً . وتحذف وصلاً ، وقد أجيز إثباتها مع الوصل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 467.

469 ﴾

(109/828)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة القارعة

الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2)

تقرع القلوب بهولها .

والسورة كلها عن هذه القارعة . حقيقتها . وما يقع فيها . وما تنتهي إليه . . فهي تعرض مشهدا من مشاهد القيامة .

والمشهد المعروض هنا مشهد هول تتناول آثاره الناس والجبال . فيبدو الناس في ظله صغارا ضئالا على كثرتهم : فهم (كالفراش المبثوث) مستطارون مستخفون في حيرة الفراش الذي يتهافت على الهلاك , وهو لا يملك لنفسه وجهة , ولا يعرف له هدفا ! وتبدو الجبال التي كانت ثابتة راسخة كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح وتعبث به حتى الأنسام ! فمن تناسق التصوير أن تسمى القيامة بالقارعة , فيتسق الظل الذي يلقيه اللفظ , والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها , مع آثار القارعة في الناس والجبال سواء ! وتلقي إيحاءها للقلب والمشاعر , تمهيدا لما ينتهي إليه المشهد من حساب وجزاء !

(القارعة . ما القارعة ? وما أدراك ما القارعة ?) . .

لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة : (القارعة) بلا خبر ولا صفة . لتلقي بظلها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب !

ثم أعقبها سؤال التهويل : (ما القارعة ?) . . فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل !

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (5) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)

ثم أجاب بسؤال التجهيل : (وما أدراك ما القارعة ?) . . فهي أكبر من أن يحيط بها

الإدراك , وأن يلم بها التصور !

ثم الإجابة بما يكون فيها , لا بماهيتها . فماهيتها فوق الإدراك والتصور كما أسلفنا :

(يوم يكون الناس كالفراش المبثوث , وتكون الجبال كالعهن المنفوش) . .

(110/828)

هذا هو المشهد الأول للقارعة . مشهد تطير له القلوب شعاعا , وترجف منه الأوصال ارتجافا . ويحس السامع كأن كل شيء يتشبث به في الأرض قد طار حوله هباء ! ثم تجيء الخاتمة للناس جميعا :

(فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية , وأما من خفت موازينه فأمه هاوية . وما أدراك ما هيه ? نار حامية !) .

وثقل الموازين وخفتها تفيدنا : قيما لها عند الله اعتبار , وقيما ليس لها عنده اعتبار . وهذا ما يلقيه التعبير بجملته , وهذا - والله أعلم - ما يريده الله بكلماته . فالدخول في جدل عقلي ولفظي حول هذه التعبيرات هو جفاء للحس القرآني , وعبث ينشئه الفراغ من الاهتمام الحقيقي بالقرآن والإسلام !

(فأما من ثقلت موازينه) في اعتبار الله وتقويمه (فهو في عيشة راضية) . . ويدعها مجملة بلا

تفصيل , توقع في الحس ظلال الرضى وهو أروح النعيم .

(وأما من خفت موازينه) في اعتبار الله وتقويمه (فأمه هاوية) . . والأم هي مرجع الطفل وملاذه . فمرجع القوم وملاذهم يومئذ هو الهاوية ! وفي التعبير أناقة ظاهرة , وتنسيق خاص . وفيه كذلك غموض يمهد لإيضاح بعده يزيد في عمق الأثر المقصود :

وما أدراك ما هيه ? . .

سؤال التجهيل والتهويل المعهود في القرآن , لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيز الإدراك !

ثم يجيء الجواب كنبرة الختام :

نار حامية . .

هذه هي أم الذي خفت موازينه ! أمه التي يفيء إليها ويأوي ! والأم عندها الأمن والراحة . فماذا هو واجد عند أمه هذه . . الهاوية . . النار . . الحامية ! !

إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال جـ 6 ص 3961.3960 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

سورة القارعة

الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3)

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في أول سورة الواقعة ، وقال : كالطامة والصاخة ، والآزفة ، والقارعة . 1ه . أي وكذلك الصاخة والساعة .

ومعلوم أن الشيء إذا عظم خطره كثرت أسماؤه .

أو كما روي عن الإمام علي : كثر الأسماء تدل على عظم المسمى .

ومعلوم أن ذلك ليس من المترادفات ، فإن لكل اسم دلالة على معنى خاص به .

فالواقعة لصدق وقوعها ، والحاقة لتحقق وقوعها ، والطامة لأنها تطعم وتعم بأحوالها ، والآزفة من قرب وقوعها أزفت الآزفة مثل اقتربت الساعة ، وهكذا هنا .

قالوا : القارعة : والحاقة لتحقق وقوعها ، والطامة لأنها تطم وتعم بأحوالها ، والآزفة من قرب وقوعها أزفت الآزفة مثل اقتربت الساعة ، وهكذا هنا .

قالوا : القارعة مثل قرع الصوت الشديد لشدة أهوالها .

وقيل : القارعة اسم للشدة .

قال القرطبي : تقول العرب : قرعتهم القارعة وفرقتهم الفاقرة ، إذا وقع بهم أمر فظيع .

قال ابن جرير :

وقارعة من الأيام لولا . . . سبيلهم لزاحت عندك حِنا

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الذين كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ [الرعد : 31] ، وهي الشديدة من شدائد الدهر .

وقوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا القارعة ﴾ ، تقدم قولهم : إن كل ما جاء وما أدراك أنه يدريه وما جاء وما يدريك لا يدريه .

وقد أدراه هنا بقوله : ﴿ يَوْمَ يَكُونُ الناس كالفراش المبثوث وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش ﴾ [القارعة : 4–5] ، وهذا حال من أحوالها .

وقد بين بعض الأحوال الأخرى في الواقعة بأنها خافضة رافعة ، وهي الطامة والصاخة : ينظر المرء ما قدمت يداه .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ [عبس : 34–35] .

(112/828)

وأيضاً فإن كل حالة يذكر الحال الذي يناسبها ، فالقارعة من القرع وهو الضرب ، ناسب أن يذكر معها ما يهن قوى الإنسان إلى ضعف الفراش البثوث ، ويفكك ترابط الجبال إلى هباء العهن المنفوش .

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4)

الفراش : جمع فراشة .

وقيل : هي التي تطير وتتهافت في النار .

وقيل : طير رقيق يقصد النار ولا يزال يقتحم على المصباح ونحوه حتى يحترق .

وذكر الشيخ في إملائه قول جرير :

إن الفرزدق ما علمت وقومه . . . مثل الفراش غشين نار المصطلى

وقال الفراء : هو غوغاء الجراد الذي ينتشر في الأرض ويركب بعضه بعضاً من الهول .

ونقل القرطبي عن الفراء : أنه الهمج الطائر من بعوض وغيره .

ومنه الجراد . ويقال : هو أطيش من فراشة قال :

طويش من نفر أطياش . . . أطيش منن طائرة الفراش

وفي صحيح مسلم عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذُبّهن عنها . وأنا آخذ بِحُجزِكم عن النار وأنتم تفلّتون من يدي " .

والمبثوث : المنتشر .

ومثله قوله : ﴿ خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأجداث كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ [القمر : 7] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيانه في " سورة اقتربت الساعة " ، سورة ق والقرآن ، وسورة يس والقرآن الحكيم . بما يغني عن إعادته هنا .

وقد قيل : إن وصفها بالفراش في أول حالها في الاضطراب والحيرة .

ووصفها كالجراد في الكثرة ووحدة الاتجاه ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى الداع يَقُولُ الكافرون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر : 8] .

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5)

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورة الواقعة بيان أحوال الجبال يوم القيامة من بدئها بكثيب مهيل ، ثم كالعهن المنفوش ، ثم تسير كالسراب .

(113/828)

وأحال فيها على غيرها ، كقوله : ﴿ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السحاب ﴾ [النمل : 88] .

وتقدمت الإشارة إلى ذلك في سورة سأل سائل .

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (7)

في قوله : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ، دلالة على وقع الوزن لكل إنسان .

والموازين : يراد بها الموزون ، ويراد بها آلة الوزن ، كالمعايير ، وهما متلازمان .

وتقدم أن المعايير بالذرة وأقل منها .

وقد جاء نصوص على وضع الموازين وإقامتها بالعدل والقسط .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان ذلك عند قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الموازين القسط لِيَوْمِ القيامة فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وكفى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : 47] .

وقوله : ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ، قالوا : بمعنى مرضية ، وراضية أصلها مرضية ، كما في قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ [الغاشية : 8-9] ، إسناد الرضى للعيشة ، على أنها فاعلة الرضى ، لأن كلمة العيشة جامعة لنعيم الجنة وأسباب النعيم ، راضية طائعة لينة لأصحاب الجنة ، فتفجر لهم الأنهار طواعية ، وتدنو الثمار طواعية ، كما في قوله : ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 23] .

فالقول الأول : هو المعروف في البلاغة بإطلاق المحل وإرادة الحال ، كقوله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ [العلق : 17] .

والنادي : مكان منتدى القوم ، أي ينادي بعضهم بعضاً للاجتماع فيه .

والمراد : من يحل هذا النادي ، ويكون هنا أطلق المحل وهو محل العيشة ، وأراد الحال فيها .

وعلى الثاني : فهو إسناد حقيقي من إسناد الرضى لمن وقع منه أو قام به . زمما هو جدير بالذكر أن حمله على الأسلوب البياني ليس متجهاً كالآية الأخرى ، لأن العيشة ليست محلاً لغيرها بل هي حالة ، والمحل الحقيقي هو الجنة والعيشة حالة فيها ، وهي اسم لمعاني النعيم كما تقدم ، فيكون حمل الإسناد على الحقيقة أصح .

وقد جاءت الأحاديث : أن الجنة تحس بأهلها وتفرح بعمل الخير ، كما أنها تتزين وتبتهج في رمضان ، وأنها تناظرت مع النار . وكل يدلي بأهله وفرحة بهم ، حتى وعد الله كلاً بملئها . ونصوص تلقي الحور والولدان والملائكة في الجنة لأهل الجنة بالرضى والتحية معلومة .

وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ﴾ [يس : 57] ، أي لا يتأخر عنهم شيء .

وقوله : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادخلوها خَالِدِينَ ﴾ [الزمر : 73] .

وقوله : ﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطرف لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : 56] . وقاصرات الطرف عن رضى بأهلهن . ومنه ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ [الرحمن : 72] ، أي على أزواجهن .

وقوله : ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴾ [الإنسان : 14] ، ونحو ذلك ، مما يشعر بأنه نعيم الجنة بنفسه راض بأهل الجنة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9)

وقع الخلاف في المراد من قوله : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ ، هل المراد بأمه مأواه وهي النار ، وأن هاوية من أسمائها ، أم المراد بأمه رأسه وأن هاوية من الهوى ، فيلقى في النار منسكاً رأسه يهوى في النار .

وقد بحث الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ذلك في دفع إيهام الاضطراب ، ولا يبعد من يقول إنه لا تعارض بين القولين .

(115/828)

فتكون أمه هاوية ، وهي النار ويلقى فيها منكساً تهوى رأسه والعياذ بالله .

وحكى القرطبي على أن الأم بمعنى قول لبيد :

فالأرض معقلنا وكانت أمنا . . . فيها مقابرنا وفيها نولد

وعلى معنى الهاوية البعيدة والداهية ، قول الشاعر :

يا عمرو لو نالتك رماحنا . . . كنت كمن تهوى به الهاوية

والهاوية : مكان الهوى .

كما قيل :

أكلت دماً إن لم أرعك بضرة . . . بعيدة مهوى القبرط مياسة القد

أو طيبة النشر .

وفي الحديث : " إن أحدكم ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بأساً يهوى بها في النار أربعين خريفاً " .

نسأل الله السلام .

وقد فسر الهاوية بما بعدها : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [القارعة : 10-11] .

وقد فسر الهاوية بأنها أسفل دركات النار . عياذاً بالله .

وقد جاء قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الحطمة وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحطمة نَارُ الله الموقدة ﴾ [الهمزة : 4-6] .

والنبذ : الطرح ، مما يرجع ما قلناه من إمكان إرادة المعنيين كون أمه هي الهاوية أي النار ، يهوى فيها على أُم رأسه ، وذلك بالنبذ في الهاوية بعيدة المهوى ، وعادة الجسم إذا ألقى من شاهق بعيداً يسبغه إلى أسفل أثقله ، وأثقل جسم الإنسان رأسه . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة القارعة

الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2)

قوله : ﴿ القارعة مَا القارعة ﴾ كقولِه تعالى : ﴿ الحاقة مَا الحآقة ﴾ [الحاقة : 12]

وكقولِه : ﴿ وَأَصْحَابُ اليمين مَآ أَصْحَابُ اليمين ﴾ [الواقعة : 27] وقد تقدَّما وقد

عَرَفْتَ مِمَّا نقله مكي أنه يجوز رَفْعُ " القارعة " بفعلٍ مضمرٍ ناصبٍ ل " يومَ " وقيل : معنى

الكلامِ على التحذير . قال الزجاج : " والعرب تُحَذِّر وتُغْرِي بالرفع كالنصب . وأنشد :

4631 لَجَديرون بالوفاءِ إذا ق . . . لَ أخو النجدةِ السِّلاحُ السِّلاحُ

قلت : وقد تقدَّم ذلك في قوله : ﴿ نَاقَةَ الله ﴾ [الشمس : 13] فيمَنْ رفعَه . ويَدُلُّ

على ذلك قراءةُ عيسى ﴿ القارعةَ ما القارعةَ ﴾ بالنصب ، وهو بإضمارِ فعلٍ ، أي :

احذروا القارعةَ و " ما " زائدةٌ . والقارعةُ الثانية تأكيدٌ للأولى تأكيداً لفظياً .

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4)

قوله: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ﴾ : في ناصبِه أوجهٌ، أحدُها: مضمرٌ يَدُلُّ عليه "القارعةُ"، أي: تَقْرَعُهم يومَ يكون. وقيل: تقديرُه: تأتي القارعةُ يومَ. الثاني: أنَّه "اذْكُرْ" مقدَّراً فهو مفعولٌ به لا ظرفٌ. الثالث: أنَّه "القارعة" قاله ابنُ عطية وأبو البقاء ومكي. قال الشيخ: "فإنْ كان يعني ابنُ عطيةَ عني اللفظَ الأولَ فلا يجوزُ للفَصْلِ بين العاملِ، وهو في صلةِ أل، والمعمولِ بأجنبيٍ وهو الخبرُ، وإن جَعَلَ القارعةَ عَلَماً للقيامة فلا يعمل أُيضاً، وإنْ عنى الثاني والثالثَ فلا يَلْتَئِمُ معنى الظرفيةِ معه". الرابع: أنه فعلٌ مقدرٌ رافعٌ للقارعةِ الأولى، كأنه قيل: تأتي القارعةُ يومَ يكون، قال مكيٌّ. وعلى هذا فيكونُ ما بينهما اعتراضاً وهو بعيدٌ جداً منافرٌ لنَظْمِ الكلام. وقرأ زيد بن علي "يومُ" بالرفع خبراً لمبتدأ محذوفٍ، أي: وقتُها يومُ يكونُ.

قوله: ﴿ كالفراش ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ خبراً للناقصةِ، وأَنْ يكونَ حالاً مِنْ فاعلِ التامَّةِ، أي: يُوْجَدُون ويُحْشَرونَ شِبْهَ الفَراشَ، وهو طائرٌ معروفٌ وقيل: هو الهَمَجُ من البعوضِ والجَرادِ وغيرِهما، وبه يُضْرَبُ المَثَلُ في الطَّيْشِ والهَوَجِ يقال: "أَطْيَشُ مِنْ فَراشة" وأُنْشِد:

4632 فَراشَةُ الحُلْمِ فِرْعَوْنُ العذابِ وإنْ . . . يُطْلَبْ نَداه فكَلْبٌ دونَه كَلْبُ

وقال آخر:

4633 وقد كان أَقوامٌ رَدَدْتُ قلوبَهُمْ . . . عليهم وكانوا كالفَراشِ من الجهلِ

والفَراشةُ: الماءُ القليلُ في الإِناءِ، وفَراشةُ القُفْلِ لشَبَهِها بالفَراشة. وفي تشبيه الناسِ

بالفَراشِ مبالغاتٌ شتى منها : الطيشُ الذي يلْحقُهم ، وانتشارُهم في الأرض ، وركوبُ بعضِهم بعضاً ، والكثْرةُ والضَّعْفُ والذِّلةُ والمجيءُ مِنْ غيرِ ذَهابٍ . والقَصْدُ إلى الداعي من كل جهةٍ ، والتطايرُ إلى النار . قال جرير :

(118/828)

4634 إنَّ الفرزدقَ ما عَلِمْتَ وقومَه . . . مثلُ الفَراشِ غَشِيْنَ نارَ المُصْطَلي

والعِهْنُ تقدَّم في سأل .

فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9)

قوله : { فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ } : أي : هالكةٌ ، وهذا مَثَلٌ . يقولون لمَنْ هَلَكَ : " هَوَتْ أمُّه " لأنه إذا هَلَكَ سَقَطَتْ أمُّه ثُكْلاً وحُزْناً . وعليه قولُ الشاعر :

4635- هَوَتْ أمُّه ما يَبْعَثُ الصبحُ غادياً . . . وماذا يَرُدُّ الليلُ حين يَؤُوْبُ

وقرأ طلحة " فإمُّه " بكسرِ الهمزة . نَقَلَ ابنُ خالوَيْه عن ابن دريد أنها لغةٌ . والنحويون لا يُجيزون ذلك إلاَّ إذا تقدَّمها كسرةٌ أو ياءٌ . وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في سورةِ النساء ، واختلافُ القُرَّاء فيه .

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10)

قوله : ﴿ مَا هِيَهْ ﴾ : مبتدأ وخبرٌ سادَّان مَسَدَّ المفعولَيْن ل " أَدْرَاك " وهو من التعليقِ و " هي " ضميرُ الهاويةِ ، إنْ كانت الهاوية كما قيل اسماً ل دَرَكَةٍ مِنْ دَرَكاتِ النار ، وإلاَّ عادَتْ على الداهية المفهومةِ من الهاويةِ . وأسقط هاءَ السكتِ حمزةُ وَصْلاً . وقد تقدَّم تحقيقُ هذا في الحاقة . و " نارٌ " خبرُ مبتدأ مضمرٍ ، أي : هي نارٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 11 صـ 93.96 ﴾

(119/828)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة القارعة

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة إذا سمعها العاصون نسوا زلتهم في جنب رحمته ، وإذا سمعها العابدون نسوا صولتهم في جنب إلهيته .

كلمة من سمعها ما غادرت له شغلا إلا كفته ، ولا أمرا إلا أصلحته ، ولا ذنبا إلا غفرته ، ولا أربا إلا قضته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .

القارعةُ : اسمٌ من أسماء القيامة ، وهي صيغة " فاعلة " من القَرْع ، وهو الضربُ بشدَّة . سُمّيت قارعة لأنها تقرعهم .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ .

تهويلاً لها .

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ .

أي : المُتَفَرِّق . . . وعند إعادتهم يركب بعضهم بعضاً .

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾ .

أي : كالصوف المصبوغ .

والمعنى فيه : أن أصحابَ الدعاوى وأرباب القوة في الدنيا يكونون – في القيامة إذا بُعِثُوا – أضعفَ من كلِّ ضعيف ؛ لأن القُوى هنالك تسقط ، والدعاوى تَبْطُل .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ .

مَنْ ثقلت موازينهُ بالخيرات فهو في عيشة راضية ؛ أي مَرْضية .

ووزنُ الأعمالِ يومئذٍ يكون بوزن الصحف . ويقال : يخلق بَدَلَ كلِّ جزءٍ من أفعاله جوهراً ، وتُوزَنُ الجواهر ويكون ذلك وزن الأعمال .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .

مَنْ خَفَّتْ موازينه من الطاعات – وهم الكفارُ – فمأواه هاوية .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ .

سؤالٌ على جهة التهويل . ولم يَرِدُ الخَبَرُ بأن الأحوال توزَن ، ولكن يُجازَى كلٌّ بحالةٍ مما هو كَسْبٌ له ، أو وَصَلَ إلى أسبابها بكَسْبٍ منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 760 . 761 ﴾

(120/828)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4)

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5)

الإعراب :

(ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ في المواضع الثلاثة ، خبر الأول والثالث (القارعة) ،

وخبر الثاني جملة أدراك ، (والواو) قبله اعتراضيّة (يوم) ظرف زمان منصوب متعلّق بفعل محذوف تقديره تقرع " 1 " ، (كالفراش) متعلّق بخبر يكون " 2 " ، ومثله (كالعهن) . .

---

(1) أو تأتي . . أو هو مفعول به لفعل محذوف تقديره اذكر .

(2) أو بحال من الناس إن كان الفعل (يكون) تامّا أي يوجدون في المحشر حالة كونهم كالفراش

(121/828)

جملة : " القارعة ما القارعة . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " ما القارعة . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (القارعة) .

وجملة : " ما أدراك . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " أدراك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) الثاني .

وجملة : " ما القارعة . . . " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل أدراك .

وجملة : " (تقرع) يوم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يكون الناس . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تكون الجبال . . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة يكون الناس .

الصرف :

(4) الفراش : اسم جمع ، واحدته فراشة ، وزنه فعال بفتح الفاء .

(5) المنفوش : اسم مفعول من الثلاثيّ نفش ، وزنه مفعول .

البلاغة

التشبيه المرسل المجمل : في قوله تعالى "يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ" .

تشبيه رائع ، حيث شبهوا في الكثرة والانتشار ، والضعف والذلة ، والمجيء والذهاب على غير نظام ، والتطاير إلى الداعي من كل جهة ، حين يدعوهم إلى المحشر ، بالفراش المتفرق المتطاير .

(122/828)

التشبيه المرسل المجمل : في قوله تعالى "وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ" .

حيث شبه الجبال بالصوف الملون بالألوان المختلفة المندوف ، في تفرق أجزائها وتطايرها في الجو ، حسبما نطق به قوله تعالى "وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ" .

[سورة القارعة (101) : الآيات 6 إلى 11]

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ (9) وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ (10)

نارٌ حامِيَةٌ (11)

الإعراب:

(الفاء) استئنافيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (من) اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ (الفاء) رابطة لجواب أما (في عيشة) متعلّق بخبر المبتدأ هو..

جملة: "من ثقلت موازينه..." لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ثقلت موازينه..." لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: "هو في عيشة..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (من).

8 - 11 (الواو) عاطفة (أمّا من... هاوية) مثل أمّا من... في عيشة (الواو) اعتراضيّة (ما أدراك ما هيه) مثل ما أدراك ما القارعة "1"، و(الهاء) في (هيه) للسكت لا محلّ لها (نار) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي.

وجملة: "من خفّت موازينه..." لا محلّ لها معطوفة على جملة من ثقلت...

وجملة: "خفّت موازينه..." لا محلّ لها صلة الموصول (من).

وجملة: أمّه هاوية..." في محلّ رفع خبر المبتدأ (من).

وجملة: "ما أدراك..." لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة: "أدراك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) .

---

(1) في الآية (3) من هذه السورة.

(123/828)

وجملة: "ما هيه" في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل أدراك .

وجملة: "(هي) نار . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف:

(9) هاوية: مؤنّث الهاوي ، اسم فاعل من هوى يهوي باب ضرب ، وزنه فاعل ، أو هو اسم علم للنار على وزن فاعل .

البلاغة

1 - المجاز المرسل: في قوله تعالى "فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ" .

وهذا المجاز علاقته المحلية ، لأن الذي يرضى بها الذي يعيش فيها ، وقيل: راضية بمعنى مرضية .

2 - التشبيه: في قوله تعالى "فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ" .

حيث عبّر عن المأوى بالأم ، على التشبيه بها ، فالأم مفزع الولد ومأواه ، وفيه تهكم به ،

وقيل : شبه النار بالأم في أنها تحيط به إحاطة رحم الأم بولدها .

الفوائد :

- هاء السكت :

وهي اللاحقة لبيان حركة أو حرف ، كقوله تعالى (وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ) ، وقولنا (ها هناه) (وا زيداه) . وأصلها أن يوقف عليها . وربما وصلت بنية الوقف . وقد وردت هاء السكت في قوله تعالى (ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ) . انتهى . اهـ

﴿ الجدول حـ 30 صـ 392.395 ﴾

(124/828)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(101) سورة القارعة

مكيّة وآياتها إحدى عشرة

[سورة القارعة (101) : الآيات 1 إلى 11]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْقارِعَةُ (1) مَا الْقارِعَةُ (2) وَما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ

(4)

وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (5) فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ (9)

وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ (10) نارٌ حامِيَةٌ (11)

اللغة:

(الْقارِعَةُ) القيامة التي تقرع القلوب بأهوالها وفي المختار: " وقرع من باب قطع والقارعة الشديدة من شدائد الدهر وهي الداهية " وفي المصباح: " قرعت الباب قرعا بمعنى طرقته ونقرت عليه " .

(الفراش) في القاموس: " والفراشة التي تهافت في السراج والجمع فراش ومن القفل ما ينشب فيه وكل عظم رقيق والماء القليل والرجل الخفيف وقرية بين بغداد والحلّة وموضع بالبادية وعلم ودرب

فراشة محله ببغداد والفراش كسحاب: ما يبس بعد الماء من الطين على الأرض ومن النبيذ الحبب الذي يبقى عليه وعرقان أخضران تحت اللسان والحديدتان يربط بهما العذران في اللجام وبالكسر ما يفرش والجمع فرش وزوجة الرجل قيل ومنه وفرش مرفوعة وعش الطائر وموقع اللسان في قعر الفم " وقد خلط صاحب المنجد فمزج الفراشة والفراش في مادة واحدة وجعل من معاني الفراش الرجل الخفيف وإنما هو فراشة ،

وسيأتي المزيد من معنى هذا التشبيه في باب البلاغة .

(الْمَبْثُوثِ) المتفرق المنتشر يقال قد بسط فلان خيره وبثّه وبقّه إذا وسعه قال :

وبسط الخير لنا وبقّه فالناس طرا يأكلون رزقه

(العهن) الصوف الأحمر واحدها عهنه .

(125/828)

(الْمَنْفُوشِ) اسم مفعول من النفش وهو- كما في القاموس- تشعيث الشيء بأصابعك حتى ينتشر كالتنفيش ، والنفش بالتحريك الصوف ، وعبارة ابن خالويه : " يقال : نفشت الصوف والقطن وسبّخته إذا نفشته وخففته كما يفعل النادف ، ويقال : لقطع القطن وما يتساقط عند الندف السبيخة وجمعها سبائخ ويقال : سبخ اللّه عنك الحمّى أي خففها وسلها عنك ومن ذلك أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم رأى عائشة تدعو على سارق سرقها فقال : لا تسبّخي عنه بدعائك عليه " .

الإعراب :

(الْقارِعَةُ مَا الْقارِعَةُ) تقدم إعرابها في الحاقة ما الحاقة (وَما أَدْراكَ مَا الْقارِعَةُ) تقدم

إعرابها في ما أدراك ما الحاقة ، فجدد بها عهدا {يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ}

الظرف نصب بمضمر دلّت عليه القارعة

(126/828)

أي تقرع القلوب بأهوالها يوم القيامة ، ولا يجوز أن يكون معلقا بالقارعة الأول للفصل بينهما بالخبر ولا بالثاني والثالث لعدم التّام الظرف معهما من حيث المعنى وجملة يكون في محل جر بإضافة الظرف إليها والناس اسم يكون وكالفراش خبرها والمبثوث نعت للفراش ويجوز أن تكون يكون تامة فيكون الناس فاعلا وكالفراش حال من فاعل يكون التامة أي يوجدون ويحشرون حال كونهم كالفراش {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ} عطف على الآية السابقة مماثلة لها في إعرابها {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ} الفاء تفريعية وأما حرف شرط وتفصيل ومن اسم موصول مبتدأ وجملة ثقلت موازينه صلة لمن لا محل لها والفاء رابطة لما في الموصول من معنى الشرط وهو مبتدأ ثان وفي عيشة خبره وراضية صفة والمبتدأ الثاني وخبره خبر الأول وهو من ، وسيأتي معنى راضية في باب البلاغة {وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ} عطف على الجملة السابقة وأمه مبتدأ وهاوية خبر أمه والجملة خبر من {وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ} الواو عاطفة وما اسم استفهام مبتدأ

وجملة أدراك خبر والكاف مفعول به أول وما اسم استفهام مبتدأ وهي خبر والهاء للسكت وجملة ما هيه المعلقة بالاستفهام سدّت مسدّ مفعول أدراك الثاني . والهاوية اسم من أسماء جهنم وهي المهواة التي لا يدرك قعرها ولا يسبر غورها ، وقال قتادة : هي كلمة عربية كان الرجل إذا وقع في أمر شديد يقال هوت أمه وقيل أراد أم رأسه يعني أنهم يهوون في النار على رؤوسهم وعبارة الزمخشري : " فأمه هاوية ، من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة هوت أمه لأنه إذا هوى أي سقط وهلك فقد هوت أمه ثكلا وحزنا قال :

هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا وماذا يردّ الليل حين يئوب "

والبيت لكعب في مرثية أخيه ، وهوت أمه دعاء لا يراد به الوقوع

بل التعجب وما اسم استفهام مبتدأ وما بعده خبر والمعنى أي شيء يبعثه الصبح منه وأي شيء يردّه الليل ولا بدّ من تقدير منه التجريدية يعني أنه كان يغدو في طلب الغارة ويرجع في الليل ظافرا وما في الموضعين من الاستفهام معناه التعجب والاستعظام وإسناد الفعل للصبح والليل مجاز (نارٌ حامِيَة) نار خبر لمبتدأ محذوف أي هي وحامية نعت . هذا ويكثر حذف المبتدأ في جواب الاستفهام وبعد فاء الجواب وبعد القول .

البلاغة :

1- في قوله " القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة " فن التكرير والمراد به تهويل شأنها وتفخيم لفظاعتها ، وقد تقدم بحثه كثيرا .

2- وفي قوله " يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش " تشبيها ن رائعان وهو تشبيه مرسل مجمل لأن وجه الشبه حذف ففي الأول وجوه الشبه كثيرة منها :

1- الطيش الذي لحقهم 2- وانتشارهم في الأرض 3- وركوب بعضهم بعضا 4- الكثرة التي لا غناء فيها 5- والضعف والتذلل وإجابة الداعي من كل جهة 6- والتطاير إلى النار للاحتراق من حيث لا تريد الاحتراق .

أما تشبيه الجبال بالعهن المنفوش فهو أيضا تشبيه مرسل مجمل ، وأوجه الشبه كثيرة أيضا منها :

1- تفتتها وانهيارها 2- وصيرورتها كالعهن 3- ثم صيرورتها كالهباء . وقد تشبث الشعراء بهذه المعاني فقال جرير يهجو الفرزدق :

أبلغ بني وقبان أن حلومهم خفّت فما يزنون حبة خردل

أزرى بحلمكم الفياش فأنتم مثل الفراش غشين نار المصطلي

وقال أبو العلاء المعرّي في رثاء والده :

فيا ليت شعري هل يخف وقاره إذا صار أحد في القيامة كالعهن

وهل يرد الحوض الرويّ مبادرا مع الناس أم يأبى الزحام فيستأني

وأولها :

نقمت الرضا حتى على ضاحك المزن فلا جادني إلا عبوس من الدّجن

وليت فمي إن شاء سنى تبسمي فم الطعنة النجلاء تدمى بلا سن

(128/828)

3- وفي قوله " فهو في عيشة راضية " مجاز مرسل لأن الذي يرضى بها الذي يعيش فيها فهو مجاز مرسل علاقته المحلية وقيل راضية بمعنى مرضية ، وأول من ألّف في مجازات القرآن في أواخر القرن الثاني الهجري أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتابه " مجاز القرآن " وقد أشرنا إليه في هذا الكتاب وهو يقدّم لكتابه بمقدمة في بحوث لغوية عامة في القرآن يبدؤها ببحث كلمة قرآن وله رأي خاص في اشتقاق هذه الكلمة ينقله عنه المتأخرون وهو قوله : " إنما سمي قرآنا لأنه يجمع السور فيضمها وتفسير ذلك آية في القرآن قال اللّه جلّ ثناؤه : إن علينا جمعه وقرآنه " ويستشهد عليه من كلام العرب ويدلف بعد ذلك إلى نص القرآن وما يتضمنه من فنون الكلام منبّها إلى أن القرآن يشابه في نظمه كلام العرب فيقول : " وفي القرآن مثل ما في كلام العرب من وجوه الإعراب والمعاني " ويذكر تلك الوجوه مع أمثلة لها ويتعرض

لها بالتفصيل منبّها وبصدد الآية قال " ومن مجاز ما يقع المفعول إلى الفاعل قال : كالذي ينعق بما لا يسمع المعنى على الشاة المنعوق بها وحول على الراعي الذي ينعق بالشاة وقال : كالنهار مبصرا له مجازان أحدهما أن العرب وضعوا أشياء من كلامهم في موضع الفاعل والمعنى أنه

مفعول لأنه ظرف يفعل فيه غيره ولأن النهار لا يبصر ولكنه يبصر فيه الذي ينظر وفي القرآن : في عيشة راضية وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها " وخلاصة القول في كتاب المجاز أنه كان خطوة في سبيل الكلام في طرق القول أو المجاز بمعناه العام وقد حاول أن يكشف عن بعض ما جاء من ذلك في أسلوب القرآن مع مقارنته بما جاء في الأدب العربي وساعد عليه محصوله الغزير فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 562. 567﴾

(129/828)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والعشرون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والعشرون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة التكاثر)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة التكاثر)

(5/829)

"فصل في مقصود السورة الكريمة"

قال البقاعى :

سورة التكاثر

مقصودها التصريح بما أشارت إليه العاديات من أن سبب الهلاك يوم الجمع . الذي صورته القارعة . الجمع للمال ، والإخلاد إلى دار الزوال ، واسمها واضح الدلالة على ذلك .

أهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 516 ﴾

(6/829)

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى:

(بصيرة فى .. ألهاكم)

السّورة مكِّيّة.

وآياتها ثمان.

وكلماتها ثمانية وعشرون.

وحروفها مائة وعشرون.

فواصل آياتها (نمر).

سمّيت سورة التكاثر لمفتتحها.

معظم مقصود السّورة: ذمّ المُقْبِلين على الدّنيا، والمفتخرين بالمال، وبيان أَنَّ عاقبة الكلّ الموت والزَّوال، (وأن) نصيب الغافلين العقوبة والنكال، وأَعدّ للمتمولين المذلَّة والسّؤال، والحساب والوبال، فى قوله: ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾.

السّورة محكمة.

المتشابهات:

قوله: ﴿كَلَّا﴾ فى المواضع الثلاثة فيه قولان.

أَحدهما أَنَّ معناه: الرّدع والزجر عن التكاثر.

فيحسن الوقف عليه والابتداءِ بما بعده ، والثانى أَنه يجرى مجرى القَسَم .

ومعناه : حقًّا .

قوله : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وبعده : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تكرار للتأْكيد عند بعضهم .

وعند بعضهم : هما فى وقتين : فى القبر والقيامة .

فلا يكون تكراراً .

وكذلك قول من قال : الأَول للكفَّار ، والثانى للمؤمنين .

قوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ تأْكيد أَيضاً .

وقيل : الأَوّل قبل الدّخول ، والثانى بعد الدّخول .

ولهذا قال بعده : ﴿ عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ أَى عِيانًا ، لستم عنها بغائبين .

وقيل : الأَوّل من رؤية العَيْن ، والثانى من رؤية القلب .

فضل السّورة

فيه أَحاديث ساقطة : من قرأَها لم يحاسبه الله بالنّعم التى أَنعم عليه فى الدّنيا ، وأُعطى من الأَجر كأَنَّما قرأَ أَلف آية ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها فكأَنَّما ذَبَح أَلف بَدَنَة فيما بين الرّكن والمقام ، وله بكلّ آية وحرف درجة فى الجنَّة ، وكُتب عند الله من الخاشعين ، وله بكلّ آية قرأَها ثوابُ المرابطين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 540 .

541 ﴾

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة التكاثر

قال الألوسي : أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال : كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسمونها (المَقْبُرة) اه .

وسميت في معظم المصاحف ومعظم التفاسير (سورة التكاثر) وكذلك عنونها الترمذي في (جامعه) وهي كذلك معنونة في بعض المصاحف العتيقة بالقيروان . وسميت في بعض المصاحف (سورة ألهاكم) وكذلك ترجمها البخاري في كتاب التفسير من (صحيحه) .

وهي مكية عند الجمهور ، قال ابن عطية : هي مكية لا أعلم فيها خلافاً .

وعن ابن عباس والكلبي ومقاتل : أنها نزلت في مفاخرة جَرت بين بني عبد مناف وبَني سهم في الإِسلام كما يأتي قريباً وكانوا من بطون قريش بمكة ولأن قبور أسلافهم بمكة .

وفي (الإِتقان) : المختار أنها مدنية . قال : ويدل له ما أخرجه ابن أبي حاتم أنها نزلت في قبيلتين من الأنصار تفاخروا ، وما أخرجه البخاري عن أبي بن كعب أن رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) قال : (لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحبَّ أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب) . قال أبي : كنا نرى هذا في القرآن حتى نزلت : (ألهاكم التكاثر ((التكاثر : 1) اه . يريد المستدل بهذا أن أبيّا أنصاريٌ وأن ظاهر قوله : حتى نزلت : (ألهاكم التكاثر ، أنها نزلت بعد أن كانوا يَعدُّون : لو أن لابن آدم وادياً من ذهب الخ من القرآن وليس في كلامُ أُبيّ دليل ناهض إذ يجوز أن يريد بضمير كنا (المسلمين ، أي كان من سبق منهم بعد ذلك من القرآن حتى نزلت سورة التكاثر وبَيّن لهم النبي (صلى الله عليه وسلم) أن ما كانوا يقولونه ليس بقرآن .

(8/829)

والذي يظهر من معاني السورة وغلظة وعيدها أنها مكية وأن المخاطب بها فريق من المشركين لأن ما ذكر فيها لا يليق بالمسلمين أيامئذ .

وسبب نزولها فيما قاله الواحدي والبغوي عن مقاتل والكلبي والقرطبيُّ عنهما وعن ابن عباس : أن بني عبد مناف وبني سهم من قريش تفاخروا فتعادُّوا السادة والأشراف من أيهم أكثر عدداً فكثَر بنو عبد مناف بني سهم ، ثم قالوا نعُدُّ موتانا حتى زاروا القبور فعدوا القبور فكَثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي بُرَيْدة الجَرميّ قال : نزلت في قبيلين من الأنصار بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا بالأحياء ثم قالوا : انطِلقوا بنا إلى القبور فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ، تشير إلى القبرِ ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأنزل الله : (ألهاكم التكاثر) .

وقد عدت السادسة عشرة في ترتيب نزول السور ، نزلت بعد سورة الكوثر وقبل سورة الماعون بناء على أنها مكية .

وعدد آياتها ثمان .

أغراضها

اشتملت على التوبيخ على اللهو عن النظر في دلائل القرآن ودعوة الإسلام بإيثار المال والتكاثر به والتفاخر بالأسلاف وعدم الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا في القبور كما صار من كان قبلهم وعلى الوعيد على ذلك .

وحثهم على التدبر فيما ينجيهم من الجحيم .

وأنهم مبعوثون ومسؤولون عن إهمال شكر المنعم العظيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ 518.517﴾

(9/829)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة التكاثر

مكية وأياتها ثمان أيات

بين يدي السورة

* سورة التكاثر مكية ، وهي تتحدث عن انشغال الناس بمغريات الحياة ، وتكالبهم على جمع حطام الدنيا ، حتى يقطع الموت عليهم متعتهم ، ويأتيهم فجأة وبغتة ، فينقلهم من القصور إلى القبور . الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل ، وقد تكرر في هذه السورة (الزجر والإنذار) تخويفا للناس ، وتنبيها لهم على خطئهم ، باشتغالهم بالفانية عن الباقية [كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون] .

* وختمت السورة الكريمة ببيان المخاطر والأهوال التي سيلقونها في الآخرة ، والتي لا يجوزها ولا ينجو منها إلا المؤمن ، الذي قدم صالح الأعمال . انتهى انتهى . اهـ ﴿صفوة التفاسير حـ 3 صـ 597 . 598﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة التكاثر

اللهو : ما يشغل الإنسان ، سواء أكان مما يسرّ أم لا ، ثم خص بما يشغل مما فيه سرور وإذا ألهى المرء بشىء فهو غافل به عما سواه ، والتكاثر : التباهي بالكثرة بأن يقول كل للآخر أنا أكثر منك مالا ، أنا أكثر منك ولدا ، أنا أكثر منك رجال ضرب وحرب ، حتى زرتم المقابر : أي حتى صرتم من الموتى ، قال جرير :

زار القبور أبو مالك فأصبح ألأم زوّارها

علم اليقين : أي علم الأمر الميقون الموثوق به ، والجحيم : دار العذاب . عين اليقين : أي عين هى اليقين نفسه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 229 ﴾

(11/829)

وقال الفراء :

سورة (التكاثر)

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . . . ﴾ .

نزلت فى حيين من قريش تفاخروا : أيهم أكثر عددا ؟ ؛ وهما : بنو عبد مناف وبنو سهم فكثرت [/ب] بنو عبد مناف بنى سهم ، فقالت بنو سهم : إن البغى أهلكنا فى الجاهلية ، فعادّونا بالأحياء والأموات فكثَرتهم بنو سهم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ حتى ذكرتم الأموات ، ثم قال لهم : ﴿ كَلَّا . . . ﴾ ليس الأمر على ما أنتم [عليه] ، وقال ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ . . . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . . . ﴾ . والكلمة قد تكررها العرب على التغليظ والتخويف ، فهذا من ذاك .

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ عِلْمَ الْيَقِينِ . . . ﴾ .

مثل قوله : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ . المعنى فيه : لو تعلمون علما يقينا .

﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . . . ﴾ .

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا . . . ﴾ مرتين من التغليظ أيضا . ﴿ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ . . . ﴾ عينا لستم بغائبين ، فهذا قراءة العوام أهل المدينة ، وأهل الكوفة وأهل البصرة بفتح التاء من الحرفين .

[حدثنا أبو العباس قال : حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال : وحدثنى محمد بن الفضل عن عطاء عن أبى عبد الرحمن السلمى ، عن على رحمه الله أنه قرأ "لَتُرَوُنَّ الْجَحِيمَ ، ثُمَّ

لَتَرَوُنَّها" ، بضم التاء الأولى ، وفتح الثانية . والأوّل أشبه بكلام العرب ، لأنه تغليظ ، فلا ينبغي أن يختلف لفظه ، ألا ترى قوله : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُون ، ثُمَّ كَلاَّ سوْف تعلمون ﴾ ؟ وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مع الْعُسْرِ يُسْرا ﴾ .

(12/829)

ومن التغليظ قوله فى سورة : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ، لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدونَ ﴾ مكرر ، كرر فيها وهو معنى واحد ، ولو رفعت التاء فى الثانية ، كما رفعت الأولى كان وجها جيدا .

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم . . . ﴾ .

قال : إنه الأمن والصحة . وذكر الكلبى بإسناده أن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا فى أمر فرجعوا جياعا ، فدخلوا على رجل من الأنصار ، فأصابوا تمرا وماءا باردا ، فلما خرجوا قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنكم ستسألون عن هذه وعن هذا ؛ فقالوا : فما شكرها يا رسول الله ؟ قال : أن تقولوا : الحمد لله[/ا] .

وذُكِر فى هذا الحديث : أنّ النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ثلاث لا يُسأل عنهن المسلم

: طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكنه من الحر والبرد) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للفراء جـ 3 صـ 287. 288 ﴾

(13/829)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة التكاثر «1»

1 - أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ بالعدد والقرابات .

2 - حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ : حتى عددتم من في المقابر : من موتاكم .

8 - عَنِ النَّعِيمِ يقال : الأمن والصحة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 468 ﴾

---

(1) هي مكية عند المفسرين وروى البخاري أنها مدنية .

(14/829)

وقال الغزنوى :

[سورة التكاثر]

3 كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ : في القبر ، ثُمَّ كَلَّا : في البعث «1» .

6 لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ : في الموقف ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّها : بالملابسة والدخول «2» .

8 ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ، نزلت والصّحابة في جهد من العيش فقالوا : يا رسول اللّه كيف نسأل عن النّعيم ؟ وإنّما نأكل الشّعير في نصف بطوننا ونلبس الصوف مثل الضأن .

فقال : «شرب الماء البارد ، وحذو النّعال ، وظل الجدر» «3» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 889 ﴾

---

(1) ينظر تفسير الطبري : 30/ 284 ، وتفسير الماوردي : 4/ 508 ، وتفسير القرطبي :

172. /20

(2) تفسير الماوردي : 4/ 508 ، وتفسير القرطبي : 20/ 174 .

(3) أورد - نحوه - السيوطي في الدر المنثور : 8/ 613 ، وعزا إخراجه إلى عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن عكرمة .

وذكر الطبري في تفسيره : 30/ 289 عدة أقوال في المراد ب - «النعيم» - ، وعقب عليها بقوله : «و الصواب من القول في ذلك أن يقال : إن اللّه أخبر أنه سائل هؤلاء القوم ، عن

النعيم ، ولم يخصص في خبره أنه سائلهم عن نوع من النعيم دون نوع ، بل عم بالخبر في ذلك عن الجميع ، فهو سائلهم كما قال عن جميع النعيم ، لا عن بعض دون بعض» .

(15/829)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة التكاثر

عدد 16 - 102

نزلت بمكة بعد الكوثر ، وهي ثماني آيات ، وثمانية وعشرون كلمة ، ومائة وعشرون حرفا ، لا يوجد في القرآن سورة مبدوءة ولا مختومة بما بدئت وختمت به ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ .

قال تعالى "أَلْهاكُمُ" عاقكم وأخركم أيها الناس واشغلكم "التَّكاثُرُ 1" بالأموال والأولاد والمباهات والمفاخرة والتباري بالعدوان والمناقب والسمعة عن طاعة ربكم وإدامة ذكره وبقيتم في ذلك منهمكين معرضين عما ينجيكم من الآخرة "حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ 2" أي متم

ودفنتم فيها يقال لمن مات زار قبره أو رمسه ، أي منعكم حرصكم على تكثير أموالكم عما يقربكم من ربكم إلى أن هلكتم .

(16/829)

روى مطرف بن عبد اللّه بن الشخير عن أبيه قال انتهيت إلى رسول اللّه وهو يقرأ هذه الآية فقال : يقول ابن آدم مالي ، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأبقيت وما أكلت فأفنيت وما لبست فأبليت ؟ ! أخرجه الترمذي ، وروى البخاري عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان ويبقي واحد ، يتبعه ماله وأهله وعمله ، فيرجع ماله وأهله ويبقى عمله ، نزلت هذه الآية في بني عبد مناف وبني سهم بن عمرو كل يقول نحن أكثر سيدا وأعز عزيزا وأعظم نفرا وأكثر عددا حتى ان كلا منهم عد موتاه فكثر بنو سهم بني عبد مناف بثلاثة أبيات ، فرد اللّه عليهم بلسان نبيه "كَلَّا" أي ليس التكاثر المحمود الذي يتنافس به المتنافسون بكثرة الأموال والأولاد ولكنه بالأعمال الصالحة ، وما قيل إنها نزلت في الأنصار الذين تفاخروا بأحيائهم وأمواتهم لا يصح ، وكذلك القول بأنها نزلت في طائفتين من اليهود غير صحيح لأن الأنصار واليهود في المدينة ، ولم ينزل عنهما شيء في مكة وهي مع وجود السبب عامة ، في كل من هذا شأنه ، لما ذكرنا بأن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص

السبب ثم هدد اللّه المتكاثرين بقوله "سَوْفَ تَعْلَمُونَ" عاقبة هذا التباهي والتفاخر في برزخ القبر ، إذا أنزل بكم الموت الذي هو خاتمة ايام الدنيا ومفتتح أيام الآخرة

(17/829)

"ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ 3" مخافة يوم الحشر والنشور ، قال علي كرم اللّه وجهه كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة التي فيها هذه الآية فأيقنا ، قال تعالى مكررا الردع والزجر تأكيدا لعظم ما يلاقونه عند البعث "كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ 4" الحال الذي أنتم فيه بأنه زائل ، وأن ما بين أيديكم لا ينفعكم نفعا دائما إذ لا يكون إلا بالعمل الصالح "عِلْمَ الْيَقِينِ 5" كالأمور التي تحققون صحتها وتتيقنون وقوعها لما ألهاكم تكاثركم ولأشغلكم خوف الآخرة وعذابها عن كل ما في الدنيا ، راجع تفسير آخر سورة الواقعة الآتية ، ثم أكد الإنذارات الثلاثة بالقسم وعزتي وجلالي "لَتَرَوُنَّ" أيها المتفاخرون المتكاثرون "الْجَحِيمَ 6" بأبصاركم عيانا بعد الموت قبل الجزاء ، وهي التي أوعدكم العذاب فيها على لسان رسله ، ثم كرر القسم تشديدا للتهديد وتهويلا للأمر فقال عز قوله "ثُمَّ لَتَرَوُنَّها" أي الجحيم المذكورة "عَيْنَ الْيَقِينِ 7" بالمشاهدة لا خفاء فيها ، وهذا القسم من نوع الأقسام المضمرة التي تدل عليها اللام وقد يستدل عليها بالواو معنى كقوله تعالى (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها) الآية 75 من

سورة مريم الآتية والأولى في القرآن كثير ، وإن غالب الأقسام المحذوفة الفعل تكون بالواو وإذا ذكر حرف القسم أتى بالفعل كقوله تعالى (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيمانِهِمْ) الآية 52 من سورة النور وقوله (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ) الآية 73 من سورة التوبة في ج 3 وإذا لم يوجد الفعل لا توجد الياء قطعا ولهذا أخطأوا عند قوله تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) الآية 12 من سورة لقمان في ج 2 ، وقوله (بِما عَهِدَ عِنْدَكَ) الآية 12 من الأعراف الآتية (وقوله إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ) 119 من المائدة في جزء 3 ومن القسم .

(18/829)

واليقين اعتقاد الشيء أنه كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن إلا كذا اعتقادا مطابقا المواقع غير ممكن الزوال ثم كرر القسم التهديدي تأييدا للتأكيد فقال "ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ) يوم الحساب الذي سينال فيه كل أحد جزائه "عَنِ النَّعِيمِ" الذي شغلكم الالتذاذ به في الدنيا عن القيام بأمر الدين .

روي عن ابن الزبير أنه قال لما نزلت هذه الآية قال الزبير رضي اللّه عنه يا رسول اللّه وأي نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء قال أما إنه سيكون

وروى البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس

الصحة والفراغ .

ولهذا فسر بعضهم النعيم بالصحة والأمن وفسره بعضهم بما جاء في قول الشاعر :

خبز وماء وظل هو النعيم الأجل

جحدت نعمة ربي ان قلت اني مقلّ

وقال الحسن هو ما سوى كنّ يؤويه ، وأثواب تواريه ، وكسرة تغذيه .

والآية عامة في كل ما يطلق عليه اسم النعيم وسيأتي بحث معنى اليقين في الآية 52 من سورة الحاقة وإن النعيم نسبي بحسب الأشخاص والأحوال والأمكنة .

هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه وسلم على سيدنا .

محمد وآله وأصحابه وأتباعه أجمعين صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿بيان المعاني حـ 1 صـ 170. 172﴾

(19/829)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة التكاثر

مكية

المقابر تام ويبتدئ بكاد بمعنى الأعلى التهديد والوعيد ثم كلا سوف تعلمون كاف وكذا علم اليقين عين اليقين صالح آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿المقصد صـ ﴾

(20/829)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني:

سورة التكاثر

مكية ولا وقف من أوَّلها إلى المقابر فلا يوقف على التكاثر لأن ما بعده غاية لما قبله

المقابر (كاف) ولا يوقف على كلا لأنَّها صلةٌ لما بعدها بمعنى حقاً سوف تعلمون ما أنتم عليه من التكاثر بالأموال والأولاد فالخطاب الأوَّل للكفار والثاني للمؤمنين وفصل بين الأوَّل والثاني بالوقف وإلا فالثاني داخل مع الأول لا تساقه عليه وكررت للتغليظ والتخويف ووعيد بعد وعيد وجاء بثُّم إيذاناً بأنَّ تكريره أبلغ منَّ الأول في التهويل

تعلمون الثاني (كاف) ثم كرر الثالثة لتحقيق العلم فقال كلا لو تعلمون علم اليقين وهو أكفى مما قبله وجواب لو محذوف تقديره ما ألهاكم التكاثر وجعل الحسن البصري كلا الثالثة قسماً

وابتدأ بها وقيل الوقف لو تعلمون ثم يبتدئ علم اليقين على القسم وانتصب لما حذفت الواو وجوباً به لترون أي والله لترون الجحيم كقول امرئ القيس

فقالت يمين الله مالك حيلة وما أن أرى عنك الغواية تنجلي

وقيل لا يجوز أن يكون لترون جواباً لأنه محقق الوقوع بل الجواب محذوف تقديره لو تعلمون علماً يقيناً ما ألهاكم التكاثر فحذف الجواب للعلم بتقدمه قرأ العامة لترون مبنياً للفاعل وقرأ ابن عامر و الكسائي لترون بضم التاء الفوقية رباعياً متعدياً لاثنين الأول الواو والثاني الجحيم ولا يوقف على الجحيم للعطف

عين اليقين (جائز) لاختلاف المسؤول عنه وقيل لا يجوز للعطف

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(21/829)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة التكاثر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

روى عن الحسن وأبي عمرو – واختلف عنهما – أنهما همز "لَتَرَؤُنَّ الْجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَؤُنَّهَا" .

قال أبو الفتح : هذا على إجراء غير اللازم مجرى اللازم ، وله باب في كتابنا الخصائص 1 ، غير أنه ضعيف مرذول . وذلك أن الحركة فيه لالتقاء الساكنين ، وقد كررنا في كلامنا أن أعراض التقاء الساكنين غي محفول بها ، هذا إذا كانا في كلمتين ، إلا أن الساكنين هنا مما هو جار مجرى الكلمة الواحدة .

ألا ترى أن النون تبنى مع الفعل كخمسة عشر ، وذلك في قولك : لأفعلن كذا ؟ فمن ههنا ضارعت حركة نون أين ، وفاء كيف ، وسين أمس ، وهمزة هؤلاء ، وذال منذ . وكل واحدة من هذه الحركات معتدة ، وإن كانت لالتقاء الساكنين .

ألا ترى أنهم احتسبوها ، وأثبتوها ، وجعلوا ما هي فيه مبنيا عليها ؟ وهذه الحركات – لما ذكرنا من كونها في كلمة واحدة – أقوى من حركات التقائهما في المنفصلين .

ألا ترى إلى إجتماعهم على أنه لم يبن فعل على الكسر ، هذا مع كثرة ما جاء عنهم من نحو "قُمِ اللَّيْل 1" و "قُلِ اللَّهُم" ، وقول الشاعر :

زيادتنا نعمان لا تحرمننا تق الله فينا والكتاب الذي تتلو 3

وسبب ترك اعتدادهم بها كون الساكنين من كلمتين ، وكذلك أيضا قولهم : لا ضم في الفعل ، وقد قرئ : "قُمِ اللَّيْل 4" ، وهذا واضح . فإذا ثبت بذلك الفرق بين حركتي التقاء

الساكنين وهما متصلان وبينهما وهما منفصلان سكنت إلى همز الواو من قوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ و ﴿ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ ، فاعرف ذلك ؛ فإن جميع أصحابنا تلقوا همزة هذه الواو بالفساد ، وجمعوا بينها وبين همز الواو من قوله : "اشْتَرَءوُا الضَّلالَةَ5" فيمن همز الواو ، وهذه لعمري قبيحة ؛ [168ظ] لأن الساكنين من كلمتين ، فلذلك فرق ما بين الموضعين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 371 ﴾

---

1 الخصائص : 3 : 87 .

2 سورة المزمل : 2 ، والقراءة بالفتح لطلب الخفة كما في البحر : 8 : 360 .

3 لعبد الله بن همامخ السلولي ، وبعده :

أيثبت ما زدتم وتلقى زيادتي دمي أن أسيغت هذه لكم بسل

بسل : حلال ، وهي أيضا الحرام ، للواحد والجمع والمذكر والمؤنث . ويروى "تنسينها" مكان "تحرمننا" ، و"خف" مكان "تق" ، ويروى

. . لا تنسيها اذ تق الله فينا . .

وانظر النوادر : 4 ، والخصائص 2 : 286 ، 3 : 89 ، واللسان "وقى" ، و"بسل" .

4 هي قراءة أبي السمال ، وضمت الميم اتباعا لحركة القاف . وانظر البحر 8 : 360 .

5 سورة البقرة : 16 .

وقال العلامة الدمياطى :

سورة التكاثر

مكية وقال البخاري مدنية وآيها ثمان وأمال ألهاكم حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه

واختلف في ( ) لترون الجحيم (الآية 6 فابن عامر والكسائي بضم التاء مبنيا للمفعول مضارع أرى معدى رأى البصرية بالهمز لاثنين رفع الأول على النيابة وبقي الثاني وهو الجحيم منصوبا وأصله لترأيون كتكرمون نقلت حركة الهمزة إلى الراء فانقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ثم حذفت للساكنين ودخلت النون الثقيلة وحذفت نون الرفع وحركت الواو للساكنين ولم تحذف لأنها علامة جمع وقبلها فتحة ولو كانت ضمة لحذفت نحو ولا يصدنك عن آيات الله وعن الحسن لترؤن ثم لترؤنها بهمزة الواوين استثقل الضمة على الواو فهمز كما همز أقتت والباقون بفتح التاء مبنيا للفاعل مضارع رأى وخرج بالقيد ثم لترونها المتفق على فتح تائه لأن المعنى فيه أنهم يرونها أولا ثم يرونها بأنفسهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(23/829)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

"سورة التكاثر"

"المقابر" رقق ورش راءه مطلقا وغيره يرققها وقفا ويفخمها وصلا .

"لترون" قرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء وغيرهما بفتحها ولا خلاف بين العشرة في فتح التاء في لترونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 356 ﴾

(24/829)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة التكاثر

قوله تعالى ﴿ لترون الجحيم ﴾ يقرأ بفتح التاء وضمها فالحجة لمن فتح انه دل بذلك على بناء الفعل لهم فجعلهم به فاعلين والحجة لمن ضم انه دل بذلك على بناء الفعل لما لم يسم

فاعله والاصل في الفعل لترأيون على وزن لتفعلون فنقلوا فتحة الهمزة الى الراء وهي ساكنة ففتحوها وحذفوا الهمزة تخفيفا فبقيت الياء مضمومة والضم فيها مستثقل فحذفوا الضمة عنها فبقيت ساكنة وواو الجمع ساكنة فحذفوا الياء لالتقاء الساكنين فالتقى حينئذ ساكنان واو الجمع والنون المدغمة فحذفوا الواو لالتقائهما فأما قوله ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ بفتح التاء لا خلاف بينهم فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 375 ﴾

(25/829)

وقال ابن زنجلة :

102 - سورة التكاثر

لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين 6 , 7

قرا الكسائي وابن عامر لترون الجحيم بضم التاء على ما لم يسم فاعله ثم لترونها بالنصب وقرأ الباقون لترون الجحيم بفتح التاء أي إنكم لترونها وحجتهم إجماع الجميع على فتح التاء في قوله ثم لترونها فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه أولى وأما من قرأ في أحدهما بالضم وفي الأخرى بالفتح فكأنه ذهب إلى أنت ترى فترى

أعلم أن رأى فعل يتعدى إلى مفعول واحد تقول رأيت الهلال فإذا نقلت الفعل بالهمز زاد مفعولا آخر تقول أريت زيدا الهلال فإن بنيت هذا الفعل المنقول بالهمز قلت أري زيد الهلال فيقوم المفعول الأول مقام الفاعل ويبقى الفعل متعديا إلى مفعول واحد فكذلك لترون الجحيم قام الضمير مقام الفاعل لما بني الفعل للمفعول به أنت وانتصب الجحيم على أنه مفعول

قال الفراء إنما ضمت الواو لأن الأصل لترأيون فنقلوا فتحة

الهمزة إلى الراء وحذفوا الهمزة تخفيفا ثم استثقلوا الضمة على الياء فحذفوها فالتقى ساكنان الياء والواو فأسقطوا الياء ثم التقى ساكنان الواو والنون فحركوا الواو لالتقاء الساكنين وحولت إليها تلك الحركة التي كانت في الياء فحركت بها

وقال غيره إن هذه الواو اسم الفاعلين وإعرابها الرفع فإذا وجب تحريكها كانت حركة الأصل أولى بها وقوله لترون وزنها لتعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 771 772.﴾

(26/829)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة ألهالكم 102

مكية وقد ذكر نظيرتها في جميع العدد

وكلها ثمان وعشرون كلمة

وحروفها مئة وعشرون حرفا

وهي ثماني آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل وليس منها موضع واحد وهو قوله جل وعلا (﴿ كلا لو تعلمون ﴾) ورؤوس الآي

التكاثر

1 المقابر

2 تعلمون

3 تعلمون

4 اليقين

5 الجحيم

6 اليقين

7 النعيم

8 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 286 ﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (لو تعلمون) جواب لو محذوف : أي لو علمتم لرجعتم عن كفركم و (علم اليقين) مصدر .

قوله تعالى (لترون) هو مثل لتبلون ، وقد ذكر ، ويقرأ بضم التاء على ما يسم فاعله ، وهو من رؤية العين ، نقل بالهمزة فتعدى إلى اثنين ، ولا يجوز همز الواو لأن ضمها غير لازم ، وقد همزها قوم كما همزوا واو اشتروا الضلالة ، وقد ذكر ، و (عين اليقين) مصدر على المعنى ، لأن رأى وعاين بمعنى واحد ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة التكاثر

[سورة التكاثر (102) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (1)

"أَلْهاكُمُ" ماض ومفعوله "التَّكاثُرُ" فاعل والجملة ابتدائية لا محل لها .

[سورة التكاثر (102) : آية 2]

حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (2)

"حَتَّى" حرف غاية وجر "زُرْتُمُ" ماض وفاعله "الْمَقابِرَ" مفعول به والمصدر المؤول من أن المضمرة بعد حتى وما بعدها في محل جر بحتى والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما .

[سورة التكاثر (102) : آية 3]

كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3)

"كَلَّا سَوْفَ" حرف ردع وزجر وسوف للاستقبال "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة التكاثر (102) : آية 4]

ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)

معطوفة على ما قبلها .

[سورة التكاثر (102) : آية 5]

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر "لَوْ" حرف شرط غير جازم "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله "عِلْمَ الْيَقِينِ" مفعول به مضاف إلى اليقين والجملة ابتدائية لا محل لها .

[سورة التكاثر (102) : آية 6]

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6)

"لَتَرَوُنَّ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو فاعله "الْجَحِيمَ" مفعول به والجملة جواب للقسم المحذوف لا محل لها .

[سورة التكاثر (102) : آية 7]

ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (7)

"ثُمَّ" حرف عطف "لَتَرَوُنَّها" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو فاعله وها مفعول به "عَيْنَ الْيَقِينِ" عين صفة مفعول مطلق محذوف أي رؤية عين وهو مضاف إلى اليقين والجملة جواب للقسم المحذوف لا محل لها .

[سورة التكاثر (102) : آية 8]

ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

(29/829)

"ثُمَّ" حرف عطف "لَتُسْئَلُنَّ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مرفوع بثبوت النون المحذوفة والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعله والنون نون التوكيد الثقيلة والجملة معطوفة على ما قبلها "يَوْمَئِذٍ" ظرف أضيف إلى مثله "عَنِ النَّعِيمِ" متعلقان بالفعل. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 466﴾

(30/829)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَةَ التكاثر

فِيهَا حديثان

1530 - الحَديث الأول

رُوِيَ أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أكل هُوَ وَأَصْحَابه تمرا وَشَرِبُوا عَلَيْهِ مَاء فَقَالَ الْحَمد لله الَّذِي أطعمنَا وَسَقَانَا وَجَعَلنَا مُسلمين

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَالَّذِي وجدته مَا رَوَاهُ النَّسَائِيّ من حَدِيث عمار سَمِعت جَابر بن عبد الله يَقُول أكل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رطبا وَشَرِبُوا مَاء فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم هَذَا من النَّعيم الَّذِي تسْأَلُون عَنهُ انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الأول من الْقسم الرَّابِع

وَلم يروه الطَّبَرِيّ وَابْن مرْدَوَيْه فِي تفسيريهما إِلَّا كَذَلِك

وَرَوَى أَبُو دَاوُد فِي سنَنه فِي الْأَطْعِمَة وَالتِّرْمِذِيّ فِي الشَّمَائِل وَالنَّسَائِيّ فِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة من حَدِيث ربَاح بن عُبَيْدَة السّلمِيّ عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ قَالَ كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِذا أكل طَعَاما قَالَ الْحَمد لله الَّذِي أطعمنَا وَسَقَانَا وَجَعَلنَا مُسلمين انْتَهَى

1531 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ أَلْهَاكُم التكاثر لم يحاسبه الله بالنعيم الَّذِي أنعم عَلَيْهِ فِي دَار الدُّنْيَا وَأُعْطِي من الْأجر كَأَنَّمَا قَرَأَ ألف آيَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم غير مرّة

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الأول فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيطِ بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 278.277 ﴾

(31/829)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة التكاثر

" ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر " 0 الخطاب للمشركين عبدة الأصنام ، ويجوز أن يشمل كل عاكف على مآربه من عبيد الدنيا . ونحن عند التأمل فى أحوال الناس ، نجد من لا تمر الآخرة بباله . قد يسمع بالآخرة سماعا عابرا لا يحمله على ادخار شىء لها ، ولا التعزى عن أحزانه بشىء فيها . وليست القصة الانشغال وراء ضرورات العيش . إنها منافسة مع الآخرين فى جمع الحطام والظفر بأكبر حظ منه ، ولا تنتهى هذه المنافسة إلا مع خمود الأنفاس ومداهمة الموت ! وزيارة المقابر . . الحلول بها ، والدفن فيها ! وسميت زيارة لأن القبر ليس المثوى الأخير ، إنه خارج منه بعد حين لاستكمال حسابه " ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد

الرحمن وصدق المرسلون" . فالقبر معبر أو برزخ إلى ما وراءه. "كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون" المعرفة المفاجئة عند معاينة دار الخلود . ثم قال لعبيد الحياة الدنيا " كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم" . لو أنكم صدقتم الرسل ، لكان لكم سلوك آخر يقيكم عذاب الجحيم . إن المرء يستطيع أن يقى وجهه النار بشق تمرة ! ولكنكم لم تفعلوا فلتلفحكم النار يوم الجزاء "ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم" . فى الآخرة يسأل الإنسان عن كل نعمة لم يشكرها بعدما استمتع بها ، ويقال للكافرين "أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها" . ما جدوى الاستمتاع والمكاثرة؟ استعدوا لعذاب الهون . "ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون" . انتهى

انتهى . اهـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 538﴾

(32/829)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(33/829)

" فصل "

قال السيوطي :

سورة التكاثر

أقول : هذه السورة واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها ، كأنه لما قال هناك : (فأُمه هاوية) قيل : لم ذلك ؟ فقال : لأنكم (ألهاكم التكاثر) فاشتغلتم بدنياكم ، وملأتم موازينكم بالحطام ، فخفت موازينكم بالآثام ، ولهذا عقبها بسورة العصر ، المشتملة على أن الإنسان في خُسر ، بيان لخسارة تجارة الدنيا ، وربح تجارة الآخرة ، ولهذا عقبها بسورة الهمزة ، المتوعد فيها من جمع مالاً وعدّده ، يحسب أن ماله أخلده فانظر إلى تلاحم هذه السور الأربع ، وحسن اتساقها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 157 ﴾

(34/829)

قوله تعالى ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) ذي الجلال والإكرام (الرحمن) الذي عم بالإنعام ، بالبيان – بعد الاتهام ، والإيجاد بعد الإعدام (الرحيم) الذي خص أهل وده بدوقام نعمتهم بالإتمام .

التكاثر : (1 – 8) ألهاكم التكاثر

ولما أثبت في القارعة أمر الساعة ، وقسم الناس فيها إلى شقي وسعيد ، وختم بالشقي ، افتتح هذه بعلة الشقاوة ومبدأ الحشر لينزجر السامع عن هذا السبب ليكون من القسم الأول ، فقال ما حاصله : انقسمتم فكان قسم منكم هالكاً لأنه ﴿ ألهكم ﴾ أي أغفلكم إلا النادر منكم غفلة عظيمة عن الموت الذي هو وحده كاف في البعث على الزهد فكيف بما بعده ﴿ التكاثر ﴾ وهو المباهاة والمفاخرة بكثرة الأعراض الفانية من متاع الدنيا : المال والجاه والبنين ونحوها مما هو شاغل عن الله ، فكان ذلك موجباً لصرف الهمة كلها إلى الجمع ، فصرفكم ذلك إلى اللهو ، فأغفلكم عما أمامكم من الآخرة والدين الحق وعن ذكر ربكم وعن كل ما ينجيكم من سخطه ، أو عن المنافسة في الأعمال الموصلة إلى أعلى الدرجات بكثرة الطاعات ، وذلك كله لأنكم لا تسلمون بما غلب عليكم من الجهل الذي سببه شهوة النفس وحب الراحة فخفت موازينكم ، وحذف هذا الشيء الملهو عنه لتعظيمه والدلالة على أنه ليس غيره مما يؤسف على اللهو عنه .

ولما كانوا ينكرون البعث ، ويعتقدون دوام - الإقامة في القبور ، عبر بالزيارة إشارة إلى أن البعث لا بد منه ولا مرية فيه ، وأن اللبث في البرزخ وإن طال فإنما هو كلبث الزائر عند مزوره في جنب الإقامة بعد البعث في دار النعيم أو غار الجحيم ، وأن الإقامة فيه محبوبة للعلم بما بعده من الأهوال والشدائد والأوجال ، فقال : ﴿ حتى ﴾ أي استمرت مباهاتكم ومفاخرتكم إلى أن ﴿ زرتم المقابر ﴾ أي بالموت والدفن ، فكنتم فيها عرضة للبعث لا تتمكنون من عمل ما ينجيكم لأن دار العمل فاتت كما أن الزائر ليس بصدد العلم عند المزور ، لا يمكثون بها إلا ريثما يتكمل المجموعون بالموت كما أن الزائر معرض للرجوع إلى داره وحل قراره ، فلو لم يكن لكم وازع عن الإقبال على الدنيا إلا الموت لكان كافياً فكيف والأمر أعظم من ذلك ؟ فإن الموت مقدمة من مقدمات العرض ، قال أبو حيان : سمع بعض الأعراب الآية فقال : بعث القوم للقيامة ورب الكعبة ، فإن الزائر منصرف لا مقيم ، وروى ابن أبي الدنيا عن عمر بن عبد العزيز أنه قرأها ثم قال : ما أرى المقابر إلا زيارة ، ولا بد لمن زار أن يرجع إلى بيته ، إما إلى الجنة أو إلى النار .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تقدم ذكر القارعة وعظيم أهوالها ، أعقب بذكر ما شغل وصد عن الاستعداد لها وألهى عن ذكرها ، وهو التكاثر بالعدد والقرابات والأهلين فقال : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ وهو في معرض التهديد والتقريع وقد أعقب بما يعضد ذلك

وهو قوله ﴿كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون﴾ ثم قال: ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ وحذف جواب "لو" والتقدير: لو تعلمون علم اليقين لما شغلكم التكاثر، قال. صلى الله عليه وسلم.:

"لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً" الحديث، وقوله تعالى "لترون الجحيم" جواب لقسم مقدر أي والله لترون الجحيم، وتأكد بها التهديد وكذا ما بعد إلى آخر السورة - انتهى.

(36/829)

ولما كان الاشتغال بالتكاثر في غاية الدلالة على السفه لأن من المعلوم قطعاً أن هذا الكون على هذا النظام لا يكون إلا بصانع حكيم، وكان العقلاء المنتفعون بالكون في غاية التظالم، وكان الحكيم لا يرضى أصلاً أن يكون عبيده يظلم بعضهم بعضاً ثم لا يحكم بينهم ولا ينظر في مصالحهم علم قطعاً أنه يبعثه ليحكم بينهم لأنه كما قدر على إبدائهم يقدر على إعادتهم، وقد وعد بذلك وأرسل به رسله وأنزل به كتبه، فثبت ذلك ثبوتاً لا مرية فيه ولا مزيد عليه، وكان الحال مقتضياً لأن يردع غاية الردع من أعرض عما يعنيه وأقبل على ما لا يعنيه، فقال سبحانه معبراً بأم الروادع، وجامعة الزواجر والصوادع: ﴿كلا﴾ أي ارتدعوا أنتم

ردع وانزجروا أعظم زجر عن الاشتغال بما لا يجدي، فإنه ليس الأمر كما تظنون من أن الفخر في المكاثرة بالأعراض الدنيوية ولم تخلقوا لذلك، إنما خلقتم لأمر عظيم، فهو الذي يهمكم فاشتغلتم عنه بما لا يهمكم - فكنتم لاهين كمن كان يكفيه كل يوم درهم فاشتغل بتحصيل أكثر، وكذا من ترك المهم من التفسير واشتغل بالأقوال الشاذة أو ترك المهم من الفقه واشتغل بنوادر الفروع وعلل النحو وغيرها وترك ما هو أهم منه مما لا عيش له إلا به.

ولما كان الردع لا يكون إلا عن ضار يجر وبالاً وحسرة، دل على ذلك بقوله استئنافاً: ﴿سوف﴾ أي بعد مهلة طويلة يتذكر فيها من تذكر ﴿تعلمون﴾ أي يتجدد لكم العلم بوعد لا خلف فيه بما أنتم عليه من الخطإ عند معاينة ما يكشفه الموت ويجر حزنه الفوت من عاقبة ذلك ووباله.

ولما كان من الأمور ما لو شرح شأنه على ما هو عليه لطال وأدى إلى الملال، دل على أن شرح هذا الوعيد مهول بقوله مؤكداً مع التعبير بأداة التراخي الدالة على علو الرتبة: ﴿ثم كلا﴾ أي ارتدعوا ارتداعاً أكبر من ذلك لأنه ﴿سوف تعلمون﴾ أي يأتيكم العلم من غير شك وإن تأخر زمنه يسيراً بالبعث.

ولما كان هذا أمراً صادعاً ، أشار إلى أنه يكفي هذه الأمة المرحومة التأكيد بمرة ، فقال مردداً للأمر بين تأكيد الردع ثالثاً بالأداة الصالحة له ولأن تكون لمعنى - حقاً كما يقوله ائمة القراءة : ﴿ كلا ﴾ أي - ليشتد ارتداعهم عن التكاثر فإنه أساس كل بلاء فإنكم ﴿ لو تعلمون ﴾ أيها المتكاثرون .

ولما كان العلم قد يطلق على الظن رفع مجازه بقوله : ﴿ علم اليقين ﴾ أي لو يقع لكم علم على - وجه اليقين مرة من الدهر لعلمتم ما بين أيديكم ، فلم يلهكم التكاثر ولضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون - فحذف هذا الجواب بعد حذف المفعول للتفخيم فهو إشارة إلى أنه لا يقين غيره ، والمعنى أن أعمالكم أعمال من لا يتيقنه ، قال الرازي : واليقين مركب الأخذ في هذا الطريق ، وهو غاية درجات العامة ، وأول خطوة الخاصة ، قال عليه الصلاة والسلام : " خير ما ألقي في القلب اليقين " وعلم قبول ما ظهر من الحق وقبول ما غاب للحق والوقوف على ما قام بالحق ، والآية من الاحتباك : ذكر الإلهاء أولاً وحذف سببه وهو الجهل لدلالة الثاني عليه ، وذكر ثانياً العلم الذي هو الثمرة وحذف ما يتسبب عنه من عدم اللهو الذي هو ضد الأول ، وزاد في التفخيم لهذا الوعيد بإيضاح المتوعد به بعد إبهامه مع قسم دل عليه بلامه ، فقال : ﴿ لترون ﴾ أي بالمكاشفة وعزتنا ، ولا يصح أن يكون هذا جواباً لما قبله لأنه محقق ﴿ الجحيم ﴾ أي النار التي تلقى

المعذبين بها بكراهة وتغيظ وعتو وشديد توقد ، فالمؤمن يراها وينجو منها سواء خالطها أم لا والكافر يخلد فيها .

(38/829)

ولما كان هذا توعداً على التكاثر لأنه يقتضي الإعراض عن الآخرة فيوقع في غمرات البلايا الكبار ، أكد فقال مفخماً له بحرف التراخي : ﴿ ثم لترونها ﴾ وعزة الله ، ورقي العلم عن رتبة الأول فقط فقال تعالى : ﴿ عين اليقين ﴾ أي الرؤية التي هي نفس اليقين ، وذلك هو المعاينة بغاية ما يكون من صفاء العلم لكونه لا ريبة فيه فإن المشاهدة أعلى أنواع العلم ، قال الرازي : وهو المغني بالاستدراك عن الاستدلال ، وعن الخبر بالعيان ، وخرق الشهود حجاب – العلم – انتهى .

ويجوز أن يكون هذا الثاني بالملامسة والدخول ، فالمؤمن وارد والكافر خالد .

ولما كان من أهول الخطاب التهديد برؤية العذاب ، زاد في التخويف بأنه لأجل أن يكون ما يعذب به العاصي عتيداً ، فإذا أوجب السؤال النكال كان حاضراً لا مانع من إيقاعه في الحال ، ولو لم يكن حاضراً كان لمن استحقه في مدة إحضاره محال ، فقال مفخماً بأداة التراخي : ﴿ ثم ﴾ أي بعد أمور طويله عظيمة مهولة جداً ﴿ لتسئلن ﴾ وعزتنا

﴿ يومئذ ﴾ أي إذ ترون الجحيم ﴿ عن النعيم ﴾ أي الذي أداكم التكاثر إليه حتى عن الماء البارد في الصيف والحار في الشتاء هل كان استمتاعكم به على وجه السرف لإرادة الترف أو كان لإرادة القوة للنشأة إلى الخير فلم يخرج عن السرف ، فالمؤمن المطيع يسأل سؤال تشريف ، والعاصي يسأل سؤال توبيخ وتأفيف ، ولام النعيم قد تكون لمطلق الجنس وإليه يشير حديث أبي هرير - رضى الله عنه - عند الترمذي وغيره أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ضاف أبا الهيثم بن التيهان مع أبي بكر وعمر - رضى الله عنهما - فأطعمهم بسراً ورطباً وسقاهم ماء بارداً وبسط لهم بساطاً في ظل ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - :

(39/829)

" إن هذا من النعيم الذي تسألون عنه : ظل بارد ورطب طيب وماء بارد " وقد يكون للكمال فيكون من أعلام النبوة كما في حديث محمود بن لبيد - رضى الله عنه - عند أحمد من وجه حسن إن شاء الله أنهم قالوا عند نزولها : أي نعيم وإنما هما الأسودان : التمر والماء ، وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر ، قال : " إن ذلك سيكون " له شاهد عند الطبراني عن ابن الزبير - رضى الله عنهما - ، وعند الطبراني أيضاً عن الحسن البصري مرسلاً ، فقد التحم آخرها بأولها على وجه هو من ألطف الخطاب ، وأدق المسالك في

النهي عما يجر إلى العذاب ، لأن العاقل إذا علم أن بين يديه سؤالاً عن كل ما يتلذذ به علم أنه يعوقه ذلك في زمن السؤال عن لذاذات الجنة العوال الغوال ، فكان خوفه من مطلق السؤال مانعاً له عن التنعم بالمباح فكيف بالمكروه فكيف ثم كيف بالمحرم ؟ فكيف إذا كان السؤال من ملك تذوب لهيبته الجبال ؟ فكيف إذا كان السؤال على وجه العتاب ؟ فكيف إذا جر إلى العذاب ؟ فتأمل كلام خالقك ما ألطف إشاراته وأجل عباراته ، في نذاراته وبشاراته - والله أرحم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 516 . 520 ﴾

(40/829)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

الإلهاء الصرف إلى اللهو .

واللهو الانصراف إلى ما يدعو إليه الهوى ، ومعلوم أن الانصراف إلى الشيء يقتضي

الإعراض عن غيره ، فلهذا قال أهل اللغة : ألهاني فلان عن كذا أي أنساني وشغلني ، ومنه الحديث : " أن الزبير كان سمع صوت الرعد لهى عن حديثه " أن تركه وأعرض عنه ، وكل شيء تركته فقد لهيت عنه ، والتكاثر التباهي بكثرة المال والجاه والمناقب يقال : تكاثر القوم تكاثراً إذا تعادلوا ما لهم من كثرة المناقب ، وقال أبو مسلم : التكاثر تفاعل عن الكثرة والتفاعل يقع على أحد وجوه ثلاثة يحتمل أن يكون بين الإثنين فيكون مفاعله ، ويحتمل تكلف الفعل تقول : تكارهت على كذا إذا فعلته وأنت كاره ، وتقول : تباعدت عن الأمر إذا تكلفت العمى عنه وتقول : تغافلت ، ويحتمل أيضاً الفعل بنفسه كما تقول : تباعدت عن الأمر أي بعدت عنه ، ولفظ التكاثر في هذه الآية يحتمل الوجهين الأولين ، فيحتمل التكاثر بمعنى المفاعلة لأنه كم من اثنين يقول كل واحد منهما لصاحبه : ﴿ أَنَاْ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً ﴾ [الكهف : 34] ويحتمل تكلف الكثرة فإن الحريص يتكلف جميع عمره تكثير ماله ، واعلم أن التفاخر والتكاثر شيء واحد ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الحديد : 20] .

المسألة الثانية :

اعلم أن التفاخر إنما يكون بإثبات الإنسان نوعاً من أنواع السعادة لنفسه ، وأجناس السعادة ثلاثة :

فأحدها : في النفس والثانية : في البدن والثالثة : فيما يطيف بالبدن من خارج ، أما التي في

النفس فهي العلوم والأخلاق الفاضلة وهما المرادان بقوله حكاية عن إبراهيم : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بالصالحين ﴾ [الشعراء : 83] وبهما ينال البقاء الأبدي والسعادة السرمدية .

(41/829)

وأما التي في البدن فهي الصحة والجمال وهي المرتبة الثانية ، وأما التي تطيف بالبدن من خارج فقسمان : أحدهما : ضروري وهو المال والجاه والآخر غير ضروري وهو الأقرباء والأصدقاء وهذا الذي عددناه في المرتبة الثالثة إنما يراد كله للبدن بدليل أنه إذا تألم عضو من أعضائه فإنه يجعل المال والجاه فداء له .

وأما السعادة البدنية فالفضلاء من الناس إنما يريدونها للسعادة النفسانية فإنه ما لم يكن صحيح البدن لم يتفرغ لاكتساب السعادات النفسانية الباقية ، إذا عرفت هذا فنقول : العاقل ينبغي أن يكون سعيه في تقديم الأهم على المهم ، فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان والأقرباء تفاخر بأخس المراتب من أسباب السعادات ، والاشتغال به يمنع الإنسان من تحصيل السعادة النفسانية بالعلم والعمل ، فيكون ذلك ترجيحاً لأخس المراتب في السعادات على أشرف المراتب فيها ، وذلك يكون عكس الواجب ونقيض الحق ، فلهذا

السبب ذمهم الله تعالى فقال : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ ويدخل فيه التكاثر بالعدد وبالمال والجاه والأقرباء والأنصار والجيش ، وبالجملة فيدخل فيه التكاثر بكل ما يكون من الدنيا ولذاتها وشهواتها .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ ألهاكم ﴾ يحتمل أن يكون إخباراً عنهم ، ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى التوبيخ والتقريع أي أألهاكم ، كما قرىء ﴿ أنذرتهم ﴾ و ﴿ أأنذرتهم ﴾ [البقرة : 6] ، و ﴿ إذا كنا عظاماً ﴾ و ﴿ أئذا كنا عظاماً ﴾ [الإسراء : 49] .

المسألة الرابعة :

(42/829)

الآية دلت على أن التكاثر والتفاخر مذموم والعقل دل على أن التكاثر والتفاخر في السعادات الحقيقية غير مذموم ، ومن ذلك ما روي من تفاخر العباس بأن السقاية بيده ، وتفاخر شيبة بأن المفتاح بيده إلى أن قال علي عليه السلام : وأنا قطعت خرطوم الكفر بسيفي فصار الكفر مثلة فأسلمتم فشق ذلك عليهم فنزل قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحاج ﴾ [التوبة : 19] الآية وذكرنا في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبّكَ فَحَدّثْ ﴾

[الضحى : 11] أنه يجوز للإنسان أن يفتخر بطاعاته ومحاسن أخلاقه إذا كان يظن أن غيره يقتدي به ، فثبت أن مطلق التكاثر ليس بمذموم ، بل التكاثر في العلم والطاعة والأخلاق الحميدة ، هو المحمود ، وهو أصل الخيرات ، فالألف واللام في التكاثر ليسا للاستغراق ، بل للمعهود السابق ، وهو التكاثر في الدنيا ولذاتها وعلائقها ، فإنه هو الذي يمنع عن طاعة الله تعالى وعبوديته ، ولما كان ذلك مقرراً في العقول ومتفقاً عليه في الأديان ، لا جرم حسن إدخال حرف التعريف عليه .

المسألة الخامسة :

في تفسير الآية وجوه أحدها : ألهاكم التكاثر بالعدد .

روي أنها نزلت في بني سهم وبني عبد مناف تفاخروا أيهم أكثر فكان بنو عبد مناف أكثر فقال : بنو سهم عدوا مجموع أحيائنا وأمواتنا مع مجموع أحيائكم وأمواتكم ، ففعلوا فزاد بنو سهم ، فنزلت الآية وهذه الرواية مطابقة لظاهر القرآن ، لأن قوله : ﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ يدل على أنه أمر مضى .

فكأنه تعالى يعجبهم من أنفسهم ، ويقول هب أنكم أكثر منهم عدداً فماذا ينفع ، والزيارة إتيان الموضع ، وذلك يكون لأغراض كثيرة ، وأهمها وأولاها بالرعاية ترقيق القلب وإزالة حب الدنيا فإن مشاهدة القبور تورث ذلك على ما قال عليه السلام : "كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإن في زيارتها تذكرة" ثم إنكم زرتم القبور ، بسبب قساوة القلب والاستغراق في حب الدنيا فلما انعكست هذه القضية ، لا جرم ذكر الله تعالى ذلك في معرض التعجيب .

والقول الثاني : أن المراد هو التكاثر بالمال واستدلوا عليه بما روى مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه ، أنه عليه السلام كان يقرأ : ﴿ألهاكم﴾ وقال ابن آدم : يقول مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ، والمراد من قوله : ﴿حتى زُرْتُمُ المقابر﴾ أي حتى متم وزيارة القبر عبارة عن الموت ، يقال لمن مات : زار قبره وزار رمسه ، قال جرير للأخطل :

زار القبور أبو مالك . . فأصبح ألأم زوارها

أي مات فيكون معنى الآية : ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت ، وأنتم على ذلك ، يقال حمله على هذا الوجه مشكل من وجهين الأول : أن الزائر هو الذي يزور ساعة ثم ينصرف ، والميت يبقى في قبره ، فكيف يقال : إنه زار القبر ؟ والثاني : أن قوله : ﴿حتى زُرْتُمُ المقابر﴾ إخبار عن الماضي ، فكيف يحمل على

المستقبل ؟ والجواب : عن السؤال الأول أنه قد يمكث الزائر ، لكن لا بد له من الرحيل ، وكذا أهل القبور يرحلون عنها إلى مكان الحساب والجواب : عن السؤال الثاني من وجوه أحدها : يحتمل أن يكون المراد من كان مشرفاً على الموت بسبب الكبر ، ولذلك يقال فيه : إنه على شفير القبر وثانيها : أن الخبر عمن تقدمهم وعظاً لهم ، فهو كالخبر عنهم ، لأنهم كانوا على طريقتهم ، ومنه قوله تعالى :

(44/829)

﴿ وَيَقْتُلُونَ النَبيينَ ﴾ [آل عمران : 21] وثالثها : قال أبو مسلم : إن الله تعالى يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعييراً للكفار ، وهم في ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور .

القول الثالث : ألهاكم الحرص على المال وطلب تكثيره حتى منعتم الحقوق المالية إلى حين الموت ، ثم تقول في تلك الحالة : أوصيت لأجل الزكاة بكذا ، ولأجل الحج بكذا .

القول الرابع : ألهاكم التكاثر فلا تلتفتون إلى الدين ، بل قلوبكم كأنها أحجار لا تنكسر ألبتة إلا إذا زرتم المقابر ، هكذا ينبغي أن تكون حالكم ، وهو أن يكون حظكم من دينكم ذلك القدر القليل من الانكسار ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الملك : 23] أي لا أقنع منكم بهذا القدر القليل من الشكر .

المسألة السادسة :

أنه تعالى لم يقل : ألهاكم التكاثر عن كذا وإنما لم يذكره ، لأن المطلق أبلغ في الذم لأنه يذهب الوهم فيه كل مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله الموضع ، أي : ألهاكم التكاثر عن ذكر الله وعن الواجبات والمندوبات في المعرفة والطاعة والتفكر والتدبر ، أو نقول : إن نظرنا إلى ما قبل هذه الآية فالمعنى : ألهاكم التكاثر عن التدبر في أمر القارعة والاستعداد لها قبل الموت ، وإن نظرنا إلى الأسفل فالمعنى ألهاكم التكاثر ، فنسيتم القبر حتى زرتموه .

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)

(45/829)

أما قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فهو يتصل بما قبله وبما بعده أما الأول ، فعلى وجه الرد والتكذيب أي ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء من أن السعادة الحقيقية بكثرة العدد والأولاد ، وأما اتصاله بما بعده ، فعلى معنى القسم أي حقاً سوف تعلمون لكن حين يصير الفاسق تائباً ، والكافر مسلماً ، والحريص زاهداً ، ومنه قول الحسن : لا يغرنك كثرة من ترى حولك فإنك تموت وحدك ، وتحاسب وحدك ، وتقريره : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ المرء ﴾ [عبس : 34] و ﴿ يَأْتِينَا فَرْداً ﴾ [مريم : 80] و ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا

فرادى ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَتَرَكْتُمْ مَّا خولناكم ﴾ [الأنعام : 94] وهذا يمنعك عن التكاثر ، وذكروا في التكوير وجوهاً أحدها : أنه للتأكيد ، وأنه وعيد بعد وعيد كما تقول : للمنصوح أقول لك ، ثم أقول لك لا تفعل وثانيها : أن الأول عند الموت حيث يقال له : لا بشرى والثاني في سؤال القبر : من ربك ؟ والثالث عند النشور حين ينادي المنادي ، فلأن شقى شقاوة لا سعادة بعدها أبداً وحين يقال : ﴿ وامتازوا اليوم ﴾ [يس : 59] وثالثها : عن الضحاك سوف تعلمون ، أيها الكفار : ثم كلا سوف تعلمون أيها المؤمنون ، وكان يقرؤها كذلك ، فالأول وعيد والثاني وعد ورابعها : أن كل أحد يعلم قبح الظلم والكذب وحسن العدل والصدق لكن لا يعرف قدر آثارها ونتائجها ، ثم إنه تعالى يقول : سوف تعلم العلم المفضل لكن التفصيل يحتمل الزائد فمهما حصلت زيادة لذة ، ازداد علماً ، وكذا في جانب العقوبة فقسم ذلك على الأحواس ، فعند المعاينة يزداد ، ثم عند البعث ، ثم عند الحساب ، ثم عند دخول الجنة والنار ، فلذلك وقع التكرير وخامسها : أن إحدى الحالتين عذاب القبر والأخرى عذاب القيامة ، كما روي عن ذر أنه قال : كنت أشك في عذاب القبر ، حتى سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول : إن هذه الآية تدل على عذاب القبر ، وإنما قال : ﴿ ثُمَّ ﴾ لأن

بين العالمين والحياتين موتاً .

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7)

ثم قال تعالى : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين * لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اتفقوا على أن جواب (لو) محذوف ، وأنه ليس قوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴾ جواب (لو) ويدل عليه وجهان أحدهما : أن ما كان جواب لو فنفيه إثبات ، وإثباته نفي ، فلو كان قوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴾ جواباً للو لوجب أن لا تحصل هذه الرؤية ، وذلك باطل ، فإن هذه الرؤية واقعة قطعاً ، فإن قيل : المراد من هذه الرؤية رؤيتها بالقلب في الدنيا ، ثم إن هذه الرؤية غير واقعة قلنا : ترك الظاهر خلاف الأصل والثاني : أن قوله : ﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ [التكاثر : 8] إخبار عن أمر سيقع قطعاً ، فعطفه على مالا يوجد ولا يقع قبيح في النظم ، واعلم أن ترك الجواب في مثل هذا المكان أحسن ، يقول الرجل للرجل : لو

فعلت هذا أي لكان كذا ، قال الله تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الذين كَفَرُواْ حِينَ لاَ يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النار وَلاَ عَن ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنبياء : 39] ولم يجيء له جواب وقال : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ على رَبّهِمْ ﴾ [الأنعام : 30] إذا عرفت هذا فنقول : ذكروا في جواب لو وجوهاً أحدها : قال الأخفش : لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم التكاثر وثانيها : قال أبو مسلم لو علمتم ماذا يجب عليكم لتمسكتم به أو لو علمتم لأي أمر خلقتم لاشتغلتم به وثالثها : أنه حذف الجواب ليذهب الوهم كل مذهب فيكون التهويل أعظم ، وكأنه قال : لو علمتم علم اليقين لفعلتم مالا يوصف ولا يكتنه ، ولكنكم ضلال وجهلة ، وأما قوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴾ فاللام يدل على أنه جواب قسم محذوف ، والقسم لتوكيد الوعيد ، وأن ما أوعدا به مما لا مدخل فيه للريب وكرره معطوفاً بثم تغليظاً للتهديد وزيادة في التهويل .

المسألة الثانية :

أنه تعالى أعاد لفظ كلا وهو للزجر ، وإنما حسنت الإعادة لأنه عقبه في كل موضع بغير ما عقب به الموضع الآخر ، كأنه تعالى قال : لا تفعلوا هذا فإنكم تستحقون به من العذاب كذا

لا تفعلوا هذا فإنكم تستوجبون به ضرراً آخر ، وهذا التكرير ليس بالمكروه بل هو مرضي عندهم ، وكان الحسن رحمه الله يجعل معنى ﴿ كَلاَّ ﴾ في هذا الموضع بمعنى حقاً كأنه قيل حقاً : لو تعلمون علم اليقين .

المسألة الثالثة :

في قوله : ﴿ عِلْمَ اليقين ﴾ وجهان أحدهما : أن معناه علماً يقيناً فأضيف الموصوف إلى الصفة ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَدَارُ الأخرة ﴾ [يوسف : 109] وكما يقال : مسجد الجامع وعام الأول والثاني : أن اليقين ههنا هو الموت والبعث والقيامة ، وقد سمي الموت يقيناً في قوله : ﴿ واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [الحجر : 99] ولأنهما إذا وقعا جاء اليقين ، وزال الشك فالمعنى لو تعلمون علم الموت وما يلقى الإنسان معه وبعده في القبر وفي الآخرة لم يلهكم التكاثر والتفاخر عن ذكر الله ، وقد يقول الإنسان : أنا أعلم علم كذا أي أتحققه ، وفلان يعلم علم الطب وعلم الحساب ، لأن العلوم أنواع فيصلح لذلك أن يقال : علمت علم كذا .

المسألة الرابعة :

العلم من أشد البواعث على العمل ، فإذا كان وقت العمل أمامه كان وعداً وعظة ، وإن كان بعد وفاة وقت العمل فحينئذ يكون حسرة وندامة ، كما ذكر أن ذا القرنين لما دخل الظلمات (وجد خرزاً) ، فالذين كانوا معه أخذوا من تلك الخرز فلما خرجوا من

الظلمات وجدوها جواهر ، ثم الأخذون كانوا في الغم أي لما لم يأخذوا أكثر مما أخذوا ، والذين لم يأخذوا كانوا أيضاً في الغم ، فهكذا يكون أحوال أهل القيامة .

المسألة الخامسة :

في الآية تهديد عظيم للعلماء فإنها دلت على أنه لو حصل اليقين بما في التكاثر والتفاخر من الآفة لتركوا التكاثر والتفاخر ، وهذا يقتضي أن من لم يترك التكاثر والتفاخر لا يكون اليقين حاصلاً له فالويل للعالم الذي لا يكون عاملاً ثم الويل له .

المسألة السادسة :

في تكرار الرؤية وجوه أحدها : أنه لتأكيد الوعيد أيضاً لعل القوم كانوا يكرهون سماع الوعيد فكرر لذلك ونون للتأكيد تقتضي كون تلك الرؤية اضطرارية ، يعني لو خليتم ورأيكم ما رأيتموها لكنكم تحملون على رؤيتها شئتم أم أبيتم وثانيها : أن أولهما الرؤية من البعيد :

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا ﴾ [الفرقان : 12] وقوله : ﴿ وَبُرِّزَتِ الجحيم لِمَن يرى ﴾ [النازعات : 36] والرؤية الثانية إذا صاروا إلى شفير النار وثالثها : أن الرؤية الأولى عند الورود والثانية عند الدخول فيها ، قيل : هذا التفسير ليس بحسن لأنه قال : ﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ ﴾ والسؤال يكون قبل الدخول ورابعها : الرؤية الأولى للوعد والثانية المشاهدة وخامسها : أن يكون المراد لترون الجحيم غير مرة فيكون ذكر الرؤية مرتين عبارة عن تتابع الرؤية واتصالها لأنهم مخلدون في الجحيم فكأنه قيل لهم : على جهة الوعيد ، لئن كنتم اليوم شاكين فيها غير مصدقين بها فسترونها رؤية دائمة متصلة فتزول عنكم الشكوك وهو كقوله : ﴿ مَّا ترى فِى خَلْقِ الرحمن مِن تفاوت ﴾ - إلى قوله - ﴿ ثم ارجع البصر كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك : 3 ، 4] بمعنى لو أعدت النظر فيها ما شئت لم تجد فطوراً ولم يرد مرتين فقط ، فكذا ههنا ، إن قيل : ما فائدة تخصيص الرؤية الثانية باليقين ؟ قلنا : لأنهم في المرة الأولى رأوا لهباً لا غير ، وفي المرة الثانية رأوا نفس الحفرة وكيفية السقوط فيها وما فيها من الحيوانات المؤذية ، ولا شك أن هذه الرؤية أجلى ، والحكمة في النقل من العلم الأخفى إلى الأجلى التفريع على ترك النظر لأنهم كانوا يقتصرون على الظن ولا يطلبون الزيادة .

المسألة السابعة :

قراءة العامة (لترون) بفتح التاء ، وقرئ بضمها من رأيته الشيء ، والمعنى أنهم يحشرون إليها فيرونها ، وهذه القراءة تروى عن ابن عامر والكسائي كأنهما أرادا لترونها فترونها ، ولذلك قرأ الثانية : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ بالفتح ، وفي هذه الثانية دليل على أنهم إذا أروها رأوها وفي قراءة العامة الثانية تكرير للتأكيد ولسائر الفوائد التي عددناها ، واعلم أن قراءة العامة أولى لوجهين الأول : قال الفراء : قراءة العامة أشبه بكلام العرب لأنه تغليظ ، فلا ينبغي أن الجحيم لفظه الثاني : قال أبو علي المعنى في : ﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴾ لترون عذاب الجحيم ، ألا ترى أن الجحيم يراها المؤمنون أيضاً بدلالة قوله :

﴿ وَإِن مّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] وإذا كان كذلك كان الوعيد في رؤية عذابها لا في رؤية نفسها يدل على هذا قوله : ﴿ إِذْ يَرَوْنَ العذاب ﴾ [البقرة : 165] وقوله : ﴿ وَإِذَا رَأَى الذين ظَلَمُواْ العذاب ﴾ [النحل : 85] وهذا يدل على أن (لترون) أرجح من (لترون) .

ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

فيه قولان :

المسألة الأولى :

في أن الذي يسأل عن النعيم من هو ؟ فيه قولان :

(52/829)

أحدهما : وهو الأظهر أنهم الكفار ، قال الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار ويدل عليه وجهان الأول : ما روي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية ، قال يا رسول الله : أرأيت أكلة أكلتها معك في بيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر وماء عذب أن تكون من النعيم الذي نسأل عنه ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : إنما ذلك للكفار ، ثم قرأ : ﴿ وَهَلْ نُجْزِى إِلاَّ الكفور ﴾ [سبأ : 17] والثاني : وهو أن ظاهر الآية يدل على ما ذكرناه ، وذلك لأن الكفار ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى والاشتغال بشكره ، فالله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظهر لهم أن الذي ظنوه سبباً لسعادتهم هو كان من أعظم أسباب الشقاء لهم في الآخرة .

(53/829)

والقول الثاني : أنه عام في حق المؤمن والكافر واحتجوا بأحاديث ، روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة عن النعيم فيقال له : ألم

نصحح لك جسمك ونروك من الماء البارد " وقال محمود بن لبيد : لما نزلت هذه السورة قالوا : يا رسول الله عن أبي نعيم : نسأل ؟ إنما هما الماء والتمر وسيوفنا على عواتقنا والعدو حاضر ، فعن أي نعيم نسأل ؟ قال : " إن ذلك سيكون " وروي عن عمر أنه قال : أي نعيم نسأل عنه يا رسول الله وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " ظلال المساكن والأشجار والأخبية التي تقيكم من الحر والبرد والماء البارد في اليوم الحار " وقريب منه : " من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها " وروي أن شاباً أسلم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلمه رسول الله سورة ألهاكم ثم زوجه رسول الله امرأة فلما دخل عليها ورآى الجهاز العظيم والنعيم الكثير خرج وقال : لا أريد ذلك فسأله النبي عليه الصلاة والسلام عنه فقال : ألست علمتني : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ وأنا لا أطيق الجواب عن ذلك .

وعن أنس لما نزلت الآية قام محتاج فقال : هل علي من النعمة شيء ؟ قال : الظل والنعلان والماء البارد .

وأشهر الأخبار في هذا ما روي أنه عليه الصلاة والسلام خرج ذات ليلة إلى المسجد ، فلم يلبث أن جاء أبو بكر فقال : ما أخرجك يا أبا بكر ؟ قال : الجوع ، قال : والله ما أخرجني إلا الذي أخرجك ، ثم دخل عمر فقال : مثل ذلك ، فقال : قوموا بنا إلى منزل أبي الهيثم ، فدق رسول الله صلى الله عليه وسلم الباب وسلم ثلاث مرات فلم يجب أحد فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت امرأته تصيح كنا نسمع صوتك لكن أردنا أن تزيد من سلامك فقال لها : خيراً ، ثم قالت : بأبي أنت وأمي إن أبا الهيثم خرج يستعذب لنا الماء ، ثم عمدت إلى صاع من شعير فطحنته وخبزته ورجع أبو الهيثم فذبح عناقاً وأتاهم بالرطب فأكلوا وشربوا فقال عليه الصلاة والسلام :

" هذا من النعيم الذي تسألون عنه " وروى أيضاً : " لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع عن عمره وماله وشبابه وعمله " وعن معاذ عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أن العبد ليسأل يوم القيامة حتى عن كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعه ، عن لمس ثوب أخيه " واعلم أن الأولى أن يقال : السؤال يعم المؤمن والكافر ، لكن سؤال الكافر توبيخ لأنه ترك الشكر ، وسؤال المؤمن سؤال تشريف لأنه شكر وأطاع .

المسألة الثانية :

ذكروا في النعيم المسئول عنه وجوهاً أحدها : ما روي أنه خمس : شبع البطون وبارد الشراب ولذة النوم وإظلال المساكن واعتدال الخلق وثانيها : قال ابن مسعود : إنه الأمن والصحة والفراغ وثالثها : قال ابن عباس : إنه الصحة وسائر ملاذ المأكول والمشروب ورابعها : قال بعضهم : الانتفاع بإدراك السمع والبصر وخامسها : قال الحسن بن الفضل : تخفيف الشرائع وتيسير القرآن وسادسها : قال ابن عمر : إنه الماء البارد وسابعها : قال الباقر : إنه العافية ، ويروى أيضاً عن جابر الجعفي قال : دخلت على الباقر فقال : ما تقول أرباب التأويل في قوله : ﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ ؟ فقلت : يقولون الظل والماء البارد فقال : لو أنك أدخلت بيتك أحداً وأقعدته في ظل وأسقيته ماء بارداً أتمن عليه ؟ فقلت : لا ، قال : فالله أكرم من أن يطعم عبده ويسقيه ثم يسأله عنه ، فقلت : ما تأويله ؟ قال : النعيم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أنعم الله به على هذا العالم فاستنقذهم به من الضلالة ، أما سمعت قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ الله عَلَى المؤمنين إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً ﴾ [آل عمران : 164] الآية القول الثامن : إنما يسألون عن الزائد مما لا بد منه من مطعم وملبس ومسكن .

والتاسع : وهو الأولى أنه يجب حمله على جميع النعم ، ويدل عليه وجوه : أحدها : أن الألف واللام يفيدان الاستغراق وثانيها : أنه ليس صرف اللفظ إلى البعض أولى من صرفه إلى الباقي لاسيما وقد دل الدليل على أن المطلوب من منافع هذه الدنيا اشتغال العبد بعبودية الله تعالى وثالثها : أنه تعالى قال : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نِعْمَتِيَ التى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 40] والمراد منه جميع النعم من فلق البحر والإنجاء من فرعون وإنزال المن والسلوى فكذا ههنا ورابعها : أن النعيم التام كالشيء الواحد الذي له أبعاض وأعضاء فإذا أشير إلى النعيم فقد دخل فيه الكل ، كما أن الترياق اسم للمعجون المركب من الأدوية الكثيرة فإذا ذكر الترياق فقد دخل الكل فيه .

(57/829)

واعلم أن النعم أقسام فمنها ظاهرة وباطنة ، ومنها متصلة ومنفصلة ، ومنها دينية ودنيوية ، وقد ذكرنا أقسام السعادات بحسب الجنس في تفسير أول هذه السورة ، وأما تعديدها بحسب النوع والشخص فغير ممكن على ما قاله تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ الله لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] واستعن في معرفة نعم الله عليك في صحة بدنك بالأطباء

، ثم هم أشد الخلق غفلة ، وفي معرفة نعم الله عليك بخلق السموات والكواكب بالمنجمين ، وهم أشد الناس جهلاً بالصانع ، وفي معرفة سلطان الله بالملوك ، ثم هم أجهل الخلق ، وأما الذي يروى عن ابن عمر أنه الماء البارد فمعناه هذا من جملته ، ولعله إنما خصه بالذكر لأنه أهون موجود وأعز مفقود ، ومنه قول ابن السماك للرشيد : أرأيت لو احتجت إلى شربة ماء في فلاة أكنت تبذل فيه نصف الملك ؟ فلا تغتر بملك كانت الشربة الواحدة من الماء قيمته مرتين ؛ أو لأن أهل النار يطلبون الماء أشد من طلبهم لغيره ، قال تعالى : ﴿ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ الماء ﴾ [الأعراف : 5] أو لأن السورة نزلت في المترفين ، وهم المختصون بالماء البارد والظل ، والحق أن السؤال يعم المؤمن والكافر عن جميع النعيم سواء كان مما لا بد منه (أو لا) ، وليس كذلك لأن كل ذلك يجب أن يكون مصروفاً إلى طاعة الله لا إلى معصيته ، فيكون السؤال واقعاً عن الكل ، ويؤكده ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا عمل به " فكل النعيم من الله تعالى داخل فيما ذكره عليه الصلاة والسلام .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في أن هذا السؤال أين يكون ؟ .

فالقول الأول : أن هذا السؤال إنما يكون في موقف الحساب ، فإن قيل : هذا لا يستقيم ، لأنه تعالى أخبر أن هذا السؤال متأخر عن مشاهدة جهنم بقوله : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ ﴾ وموقف السؤال متقدم على مشاهدة جهنم ؟ قلنا : المراد من قوله : ﴿ ثُمَّ ﴾ أي ثم أخبركم أنكم تسألون يوم القيامة ، وهو كقوله : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين ءامَنُواْ ﴾ [البلد : 13 – 17] .

القول الثاني : أنهم إذا دخلوا النار سئلوا عن النعيم توبيخاً لهم ، كما قال : ﴿ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا ﴾ [الملك : 80] وقال : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴾ [المدثر : 42] ولا شك أن مجيء الرسول نعمة من الله ، فقد سئلوا عنه بعد دخولهم النار ، أو يقال : إنهم إذا صاروا في الجحيم وشاهدوها ، يقال لهم : إنما حل بكم هذا العذاب لأنكم في دار الدنيا اشتغلتم بالنعيم عن العمل الذي ينجيكم من هذه النار ، ولو صرفتم عمركم إلى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة الفائزين بالدرجات ، فيكون ذلك من الملائكة سؤالاً عن نعيمهم في الدنيا ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 72. 79 ﴾

وقال السمرقندى

قوله تعالى ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾

قال الكلبي نزلت في حَيَّيْن من العرب أحدهما بنو عبد مناف والآخر بنو سهم تفاخرا في الكثرة فكثرتهم بنو عبد مناف فقال بنو سهم إنا البغي والقتال قد أهلكنا فقد أحيانا وأحياكم وأمواتنا وأمواتكم ففعلوا فكثرتهم بنو سهم فنزل (أَلْهَاكُمُ التكاثر) يعني : شغلكم وأذهلكم التفاخر ﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ يعني : أتيتم وذكرتم وعددتم أهل المقابر يعني : حتى يدرككم الموت على تلك الحال وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ ثم قال يقول بني آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فَأَفْنَيْتَ أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ويقال معناه أغفلكم التفاخر والتكاثر عن الهاوية والنار الحامية حتى زرتم المقابر يعني : عددتم مَنْ في المقابر ثم قال ﴿ كَلاَّ ﴾ وهو رد على صنيعكم ويقال (كلا) معناه أي لاَ تَدَعون الفخر بالأحساب حتى زرتم المقابر وقال الزجاج كلا ردع لهم وتنبيه يعني : ليس الأمر الذي أن يكون عليه التكاثر والذي ينبغي أن يكونوا عليه طاعة الله تعالى والإيمان بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ إذا نزل بكم الموت ويقال (كلا سوف تعلمون) إن سئلتم في القبر ثم قال ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ بعد الموت حين نزل بكم العذاب لأن الأحساب لا تنفعكم قوله

تعالى ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ قال بعضهم معناه لا لا تؤمنون بالوعيد وقد تم الكلام ثم استأنف فقال ﴿ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ يعني : لو تعلمون ما القيامة باليقين لألهاكم عن ذلك ويقال هذا موصول به كلا لو تعلمون يقول حقاً لو علمتم علم اليقين بأن المال والحسب والفخر لا ينفعكم يوم القيامة ما افتخرتم بالمال والعدد والحسب ثم قال عز وجل ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ قرأ ابن عامر والكسائي ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾ بضم التاء والباقون بالنصب فمن قرأ بالضم فهو على فعل ما لم يسم فاعله ونصب الجحيم على أنه مفعول به ثان ، ومن قرأ

(60/829)

بالنصب فعلى فعل المخاطبة ونصب الجحيم لأنه مفعول يعني : لترون الجحيم يوم القيامة عياناً ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ يعني : يدخلونها عياناً لا شك فيه ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ يعني : ولتسألن يوم القيامة عن النعيم قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه من أكل خبزاً يابساً وشرب الماء من الفرات فقد أصاب النعيم وقال ابن مسعود رضي الله عنه هو الأمن والصحة وروى حماد بن سلمة عن أبيه عمار بن أبي عمار عن جابر أنه قال جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأطعمناهم رطباً وأسقيناهم الماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(61/829)

" هَذَا مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تَسْأَلُونَ عَنْهُ " وروى صالح بن محمد عن محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال إن أبا بكر سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكلة أكلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أبي الهيثم بن التيهان من لحم وخبز وشعير وبسر مذنب وماء عذب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إِنَّمَا ذلك لِلكُفَّارِ ثُمَّ قَالَ ثَلاثَةٌ لا يسْأَلُ الله تعالى عَنْهَا العَبْدَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَا يُوارِي عَوْرَتَهُ وَمَا يُقِيمُ بِهِ صُلْبُهُ وَمَا يَكُفُّهُ عَنِ الحَرِّ والقُرِّ وَهُوَ مَسْؤُول بَعْدَ ذلك عَنْ كُلِّ نِعْمَةٍ " وروى الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " مَا أَنْعَمَ الله تَعَالى عَلَى العَبْدِ مِنْ نِعْمَةٍ صَغِيرَةٍ أَوْ كَبِيرَةٍ فَيَقُولُ عَلَيْهَا الحَمْدُ لله إلاَّ أَعْطَاهُ الله تَعَالى خَيْراً مِمَّا أَخَذَ " والله أعلم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَنْ قَرَأَ سُورَةَ التَّكَاثُر لَمْ يُحَاسِبْهُ الله تَعَالَى بِالنَّعِيمِ الَّذِي أَنْعَمَ بِهِ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا وَأُعْطِيَ مِنَ الأَجْرِ كَأَنَّمَا قَرَأَ القُرْآنْ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 589.588 ﴾

(62/829)

وقال الثعلبى :

سورة التكاثر

﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾

يقول : شغلتكم المباهاة والمفاخرة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربّكم وما ينجيكم من سخطه عليكم ﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ أي مُتُّم فدفنتم فيها .

قال قتادة : نزلت في اليهود قالوا : نحن أكثر من بني فلان ، وبنو فلان أكثر من بني فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلّالا . وقال ابن بريدة : نزلت في فخذ من الأنصار تفاخروا .

مقاتل والكلبي : نزلت في حيّين من قريش : بني عبد مناف وبني قصي ، وبني سهم بن عمرو بن هصيص ابن كعب ، كان بينهم لحاء فتعادّوا السادة والأشراف أيّهم أكثر فقال بنو عبد مناف : نحن أكثر سيّداً وأعزّ عزيزاً وأعظم نفراً وأكثر عدداً .

وقال بنو سهم مثل ذلك فكثرهم بنو عبد مناف ثم قالوا : نعدّ موتانا حتى زاروا القبور فعدّوهم ، وقالوا : هذا قبرُ فلان وهذا قبرُ فلان ، فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات ؛ لأنهم كانوا أكثر عدداً في الجاهلية فأنزل اللّه سبحانه هذه الآية .

أخبرنا أبو القاسم عبد الرحمن بن أحمد بن جعفر ، وأبو بكر أحمد بن الحسن بن أحمد الحبريان قالا : أخبرنا أبو محمد حاجب بن أحمد بن [سفيان] قال : حدّثنا عبد الرحمن

بن مسيّب قال : حدّثنا النضر بن شميل قال : أخبرنا شعبة عن قتادة عن مطرف بن عبد اللّه عن النخير عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله (عليه السلام) وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾ قال : " يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك إلاّ ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدّقت فأمضيت " .

وروى زر بن حبيش عن علي بن أبي طالب قال : ما زلنا نشكّ في عذاب القبر حتى نزلت ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾ إلى ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني في القبر .

(63/829)

﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وعيد لهم ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ والتكرير على التأكيد ، وقال الضحّاك : ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني الكفّار ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني المؤمنين ، وكذلك كان يقرأها : الأُولى بالتاء والثانية بالياء ثم ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين ﴾ أي علماً يقيناً فأضاف العلم إلى اليقين لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين ﴾ [الواقعة : 95] قال قتادة : كنّا نحدّث أن علم اليقين أن يعلم أن اللّه باعثه بعد الموت .

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ يصلح أن يكون في معنى المضي جواباً ل (لو) ، تقديره : لو تعلمون العلم اليقين لرأيتم الجحيم بقلوبكم ، ثم رأيتموها بالعين اليقين .

وقيل : معناه لو تعلمون علم اليقين لشغلكم عن التكاثر والتفاخر ، ثم استأنف ﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴾ على نيّة القَسَم ، وإلى هذا ذهب مقاتل ، وقيل : معناه : لو علمتم يقيناً أنكم ترون النار لشغلكم ذلك عما أنتم فيه .

وقيل : ذكر (كلاّ) ثلاث مرّات أرادَ : تعلمون عند النزوع ، وتعلمون في القبر ، وتعلمون في القيامة ، ثم ذكر في الثالثة علم اليقين ؛ لأنّه صار عياناً ما كان مُغيّباً .

وقراءة العامّة لتَرونّ بضم التاء في الحرفين ، وضمَّ الكسائي التاء في الأُولى منهما وفتح الأُخرى ، ورواه عن علي رضي الله عنه .

أخبرنا محمد بن عبدوس قال : حدّثنا محمد بن يعقوب قال : حدّثنا محمد بن الجهم قال : حدّثنا الفرّاء قال : أخبرني محمد بن الفضل عن عطاء عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي أنه قرأ ﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ بضم التاء الأُولى وفتح الثانية ، وقال الفرّاء : الأول أشبه بكلام العرب ؛ لأنّه تغليظ فلا ينبغي أن يختلف لفظه .

(64/829)

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ اختلفوا فيه وأكثروا ، فأخبرنا أبو علي الحسين بن محمد ابن علي بن إبراهيم السراج بقراءتي عليه في الجامع يوم الجمعة في المحرم سنة ثمان وثمانين

وثلاثمائة قال : حدّثنا أبو بكر محمد بن علي بن مهران الخشّاب ، قال حدّثنا علي بن سعيد العسكري قال : حدّثنا الحسين بن معاذ الأخفش مُستملي أبي حفص الفلاس قال : حدّثنا إبراهيم ابن أبي سويد الذارع قال : حدّثنا سويد أبو حاتم عن قتادة عن عبد اللّه بن سفيان عن أبي هريرة عن النبي (عليه السلام) ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ قال : " عن الماء البارد " .

وحدّثنا أبو الحسن محمد بن علي بن الحسين بن القيّم الحسني السُّني قال : حدّثنا أحمد ابن علي بن مهدي بن صدقة بالرملة قال : حدّثني أبي قال : حدّثنا علي بن موسى الرضا قال : حدّثني أبي موسى بن جعفر قال : حدّثني أبي جعفر بن محمد قال : حدّثني أبي محمد بن علي ، قال حدّثني أبي علي بن الحسين قال : حدّثني أبي الحسين بن علي قال : حدّثني أبي علي بن أبي طالب قال : قال رسول اللّه (عليه السلام) في قول سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ قال : " الرطب والماء البارد " .

وقال عبد اللّه بن عمر : هو الماء البارد في الصيف ، ودليل هذا التأويل الخبر المأثور : " أن أول ما يسأل اللّه سبحانه العبد يوم القيامة أن يقول له : ألم أصحّ جسمك وأروك من الماء البارد " .

وقال أنس بن مالك : " ضاف رسول اللّه صلى الله عليه وسلم إلى المقداد بن الأسود فقدم إليه طعاماً فأكله ثم سقاه ماءً بارداً فاستطابه وقال : " يا بردها على الكبد " ، ثم قال : "

إذا شرب أحدكم الماء فليشرت أبرد ما يقدر عليه" قيل ولم؟ قال "أطيب للمعدة، وأنفع للعلّة، وأبعث على الشكر".

(65/829)

وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول: سمعت أبا زكريّا العنبري يقول: سمعت أبا العباس الأزهري يقول: سمعت أبا حاتم يقول: الماء البارد العذب يستخرج الحمد من جوف القلب.

وقال مالك بن دينار: قال رجل للحسن: إنّ لنا جاراً لا يأكل الفالود ويقول: لا أقوم بشكره، فقال: ما أجهل جاركم بنعمة اللّه عليه بالماء البارد أكثر من نعمة بجميع الحلاوي!

وأخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن يحيى قال: أخبرنا أبو محمد عبد اللّه بن أحمد [بن محمد الرومي] قال: حدّثنا أبو حفص محمد بن حفص البصري قال: حدّثنا عبد اللّه بن سلمة بن عياش قال: حدّثنا الأشعث بن نزار عن قتادة عن عبد اللّه بن شقيق عن أبي هريرة أن النبي (عليه السلام) في قول اللّه جلّ ثناؤه ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ قال:

"من أكل خبز البُرّ، وشرب الماء المبرّد، وكان له ظل، فذلك النعيم الذي يُسأل عنه".

وأخبرني ابن فنجويه قال: حدّثنا بن مالك قال: حدّثنا ابن حنبل قال: حدّثني الوليد بن شجاع قال: حدّثنا محمد بن سعيد الأصبهاني عن ابن أبي ليلى عن الشعبي عن عبد اللّه بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ قال: "الأمن والصحة".

وأخبرني بن فنجويه قال: حدّثنا ابن برزة قال: حدّثنا محمد بن غالب بن حرب قال: حدّثني زكريّا بن يحيى الرقاشي المنقري قال: حدّثنا عبد اللّه بن عيسى بن خلف قال: حدّثنا يونس بن عبد عن عكرمة عن ابن عباس أنّه سمع عمر بن الخطاب يقول: "خرج علينا رسول اللّه (عليه السلام) عند الظهيرة فوجد أبا بكر في المسجد فقال: "يا أبا بكر ما أخرجك في هذه الساعة؟" قال: يا رسول اللّه أخرجني الذي أخرجك.

قال: وجاء عمر فقال له رسول اللّه: "يا أبا الخطّاب ما أخرجك؟" قال: يا رسول اللّه الذي أخرجكما. وقعد معهما عمر قال: فأقبل رسول اللّه (عليه السلام) يحدّثهما ثم قال: "هل لكما من قوّة فتنطلقان إلى هذا النخل فتصيبان طعاماً وشراباً وظلاًّ؟" قلنا: نعم، قال: "مرّوا بنا إلى أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري" فتقدّم رسول اللّه صلى الله عليه

وسلم بين أيدينا فاستأذن وسلّم عليهم ثلاث مرّات ، وأُمّ الهيثم تسمع الكلام من وراء الباب ، وتريد أن يزيدهم رسول اللّه (عليه السلام) ، فلمّا أراد رسول اللّه (عليه السلام) أن ينصرف خرجت أُمّ الهيثم تسعى خلفهم فقالت : يا رسول الله لقد سمعت تسليمك ولكنّي أردت أن تزيدنا من سلامك .

فقال لها رسول اللّه (عليه السلام) : " أين أبو الهيثم ؟ " قالت : يا رسول اللّه هو قريب ، ذهب يستعذب لنا من الماء ، ادخلوا فإنه يأتي الساعة إن شاء اللّه .

وبسطت لهم بساطاً تحت شجرة حتى جاء أبو الهيثم ، ففرح بهم أبو الهيثم وقرّت عينه ، وصعد أبو الهيثم على نخلة يصرم لهم عذقاً ، فقال له رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " حسبك يا أبا الهيثم " قال : يا رسول اللّه تأكلون من بسره ومن رطبه وتذنوبه ثم أتاهم فشربوا عليه فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " هذا من النعيم الذي تُسألون عنه " .

ثم قام أبو الهيثم إلى شاة لهم ليذبحها ، فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم " إياك واللبون " وقامت أُمّ الهيثم تعجن لهم وتخبز فوضع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رؤوسهم للقائلة ، فانتبهوا وقد أدرك طعامهم فوضع بين أيديهم الطعام فأكلوا وشبعوا وحمدوا اللّه عزّ وجلّ ، ثم ردّ عليهم أبو الهيثم بقية الأعذاق فأكلوا من رطبه [ومن تذنوبه] فسلّم عليهم رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ودعا لهم بخير " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا الفريابي قال : حدّثنا منصور بن أبي مزاحم قال : حدّثنا أبو سعيد المؤذّن وهو محمد بن مسلم بن أبي للوضّاح عن محمد بن عمر عن صفوان بن سليم عن محمود بن لبيد قال : "لمّا نزلت هذه الآية : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ قالوا : يا رسول اللّه عن أيّ نعيم نُسأل وإنّما هما هذان الأسودان التمر والماء ، وسيوفنا على عواتقنا ؟ قال : "إنّ ذاك لكائن " .

وأخبرنا الفنجوي قال : حدّثنا القطيعي قال : حدّثنا ابن حنبل قال : حدّثنا أبي قال : حدّثنا عنّان قال : حدّثنا يزيد بن إبراهيم قال : أخبرنا يوسف ابن أخت ابن سيرين عن أبي قلابة " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول اللّه سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ قال : " ناس من أُمّتي يعقدون السمن والعسل بالنقي فيأكلونه " .

وأخبرنا بن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا الفريابي قال : حدّثنا إبراهيم بن عبد اللّه قال : أخبرنا هيثم قال : أخبرنا منصور بن زاذان عن ابن سيرين عن ابن عمر قال : لا يدخل الحمّام فإنّه ممّا أحدثوا من النعيم ، قال : وكان منصور لا يدخل الحمّام .

وأخبرني الحسين قال : حدّثنا [أحمد بن جعفر بن حمدان] قال : حدّثنا محمود بن الفرج قال : حدّثنا ابن أبي الشوارب قال : حدّثنا أبو عوانة عن ابراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد اللّه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال : " إن اللّه سبحانه

ليعدد نعمه على العبد في المصدر : [يوم القيامة حتى يعد عليه] : سألتني فلانة أن أزوجكها ، يسمّيها باسمها فزوجتكها " .

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن صقلاب قال : حدّثنا ابن أبي الخصيب قال : حدّثني محمد بن عيسى قال : حدّثنا فضل بن سهل قال : حدّثنا حفص بن عمر قال : حدّثنا الحكم بن أبان عن عكرمة قال :

(68/829)

" لمّا نزلت ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ قالت الصحابة : يا رسول اللّه وأي نعيم نحن فيه . وإنما نأكل في أنصاف بطوننا الشبع ؟ فأوحى اللّه سبحانه إلى نبيّه : قل لهم : " أليس تحتذون النعال ، وتشربون الماء البارد ؟ فهذا من النعيم " .

وأخبرني ابن فنجويه قال حدّثنا أبو زرعة الرازي قال : حدّثنا أبو الحسن الأشناني القاضي قال : حدّثنا أحمد بن الحسن بن سعيد الخراز قال : حدّثني أبي قال : حدّثني محمد بن مروان عن أبان بن تغلب عن أنس بن مالك قال : " لما نزلت ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ جاء رجل محتاج فقال : يا رسول اللّه هل عليّ من النعمة شيء ؟ قال : " نعم ، النعلان ، والظل ، والماء البارد " .

وأخبرنا محمد بن محمد بن هانئ قال : حدّثنا أبو عبد اللّه محمد بن محمد الرواساني قال : حدّثنا أبو سعيد الأشجّ قال : حدّثنا ابن نمير عن ابن جريج عن مجاهد ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ قال : عن كل لذّة من لذات الدنيا .

وأنبأني عبد اللّه بن حامد ، قال : أخبرنا محمد بن الحسن قال : حدّثنا علي بن الحسن بن أبي عيسى قال : حدّثنا يحيى بن يحيى قال : حدّثنا أبو عامر بن أُساف اليمامي عن يحيى وهو عبد لابن أبي كثير قال : " قرأ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾ على أصحابه فلمّا بلغ ﴿ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ قال : " هل تدرون ما ذاك النعيم ؟ " قالوا : اللّه ورسوله أعلم . قال : " بيت يقلّك ، وخرقة تواري عورتك ، وكسرة تشدُ بها صلبك ما سوى ذلك نعيم " .

(69/829)

وأخبرنا عبد اللّه بن حامد إجازة قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن يحيى المكّي قال : حدّثني أبو بكر محمد بن جعفر المقري بشمشاط قال : حدّثنا أحمد بن سفيان بن علقمة بن عبد اللّه المقدمي قال : حدّثنا عمرو بن خالد قال : حدّثنا النضر بن عربي عن عكرمة عن ابن عباس قال : " قرأ رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾ قال : " تكاثر

الأموال : جمعها من غير حقّها ، ومنعها عن حقّها ، وشدّها في الأوعية ، ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ حتى دخلتم قبوركم ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ لو قد دخلتم قبوركم ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين ﴾ لو قد تطايرت الصُحف فشقيٌّ وسعيد ﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴾ ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ قال : وذلك حين يؤتى بالصراط فينصب بين حفرتي جهنم ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ قال عن خمس : عن شبع البطون ، وبارد الشراب ، ولذّة النوم ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق " .

وأخبرنا عبد اللّه بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن عبد اللّه قال : حدّثنا محمد بن عبد اللّه قال : حدّثنا الحسن بن زياد قال : حدّثنا أبو خلد الأحمر عن مفضل عن مغيرة عن إبراهيم قال : من أكل فسمّى اللّه وفرغ فحمد اللّه لم يسئل عن نعيم ذلك الطعام .

وقال ابن عباس : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، قال : يسأل اللّه العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 36] ، أبو جعفر : العافية .

وأنبأني عقيل قال: أخبرنا المعافى قال: أخبرنا ابن جرير قال: أخبرنا بن حميد قال: حدّثنا مهران عن إسماعيل بن عياش عن عبد الرحمن بن الحرث التميمي عن ثابت البناني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "النعيم المسؤول عنه يوم القيامة: كسرة تقوّيه، وماء يرويه، وثوب يواريه".

وبه عن مهران عن سفيان عن بكر بن [عتيق] العامري قال: أُتي سعيد بن جبير بشربة عسل فقال: أما إنّ هذا من النعيم الذي يُسئل عنه.

وقال محمد بن كعب: يعني عمّا أنعم عليكم بمحمد (عليه السلام)، ودليل هذا التأويل قوله سبحانه ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: 83]، عكرمة: عن الصحة والفراغ.

سعيد بن جبير: عن الصحة والفراغ والمال، ودليله ما روى ابن عباس عن النبي (عليه السلام) أنّه قال: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ".

وقال عروة بن محمد: كنّا مع وهب بن منبه فرأينا رجلاً أصمّ أعمى مقعداً مجذوماً مصاباً فقلنا: هل بقي على هذا شيءٌ من النعيم؟ قال: نعم، أعظمه بشبعه ما يأكل ويشرب ويسهل عليه إذا خرج لذلك.

قال بكر عن عبد اللّه المزني: يا لها من نعمة يأكل لذّة ويخرج سرجاً. أبو العالية: عن

الإسلام والستر . الحسين بن الفضل : تخفيف الشرايع وتيسير القرآن . أبو بكر الورّاق : عن الآلاء والنعماء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 282.276 ﴾

(71/829)

وقال الزمخشرى :

سورة التكاثر

مكية ، وآياتها 8 «نزلت بعد الكوثر» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التكاثر (102) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (2) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)

كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

ألهاه عن كذا وأقهاه : إذا شغله «1» . والتَّكاثُرُ التبارى في الكثرة والتباهي بها ، وأن يقول هؤلاء : نحن أكثر ، وهؤلاء : نحن أكثر . روى أن بنى عبد مناف وبنى سهم تفاخروا أيهم

أكثر عددا ، فكثرهم بنو عبد مناف فقالت بنوسهم : إن البغي أهلكنا في الجاهلية فعادّونا بالأحياء والأموات ، فكثرتهم بنوسهم . والمعنى : أنكم تكاثرتم بالأحياء حتى إذا استوعبتم عددهم صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات : عبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة المقابر تهكما بهم : وقيل كانوا يزورون المقابر فيقولون : هذا قبر فلان وهذا قبر فلان عند تفاخرهم .

والمعنى : ألهاكم ذلك - وهو مما لا يعنيكم ولا يجدى عليكم في دنياكم وآخرتكم - عما يعنيكم من أمر الدين الذي هو أهم وأعنى من كل مهم . أو أراد ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن

---

(1) . قوله «وأقهاه إذا شغله» مضروب عليه بخط المصنف في نسخة اه من هامش . وفي الصحاح : أقهى الرجل من الطعام إذا احتواه . والقهوة : الخمر . يقال : سميت بذلك لأنها تقهى ، أى تذهب بشهوة الطعام . (ع)

(72/829)

متم وقبرتم ، منفقين أعماركم في طلب الدنيا والاستباق إليها والتهالك عليها ، إلى أن أتاكم الموت لا همّ لكم غيرها ، عما هو أولى بكم من السعى لعاقبتكم والعمل لآخرتكم . وزيارة

القبور :

عبارة عن الموت . قال :

لن يخلص العام خليل عشرا ذاق الضّماد أو يزور القبرا «1»

وقال : زار القبور أبو مالك فأصبح الأمّ زوّارها »

وقرأ ابن عباس : أألهاكم ؟ على الاستفهام الذي معناه التقرير كَلَّا ردع وتنبيه على أنه لا ينبغي الناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه سَوْفَ تَعْلَمُونَ إنذار ليخافوا فينتبهوا عن غفلتهم . والتكرير : تأكيد للردع والإنذار عليهم . وثُمَّ دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأوّل وأشد ، كما تقول للمنصوح : أقول لك ثم أقول لك : لا تفعل . والمعنى : سوف تعلمون الخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدّامكم من هول لقاء اللّه ، وإنّ هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم . ثم كرّر التنبيه أيضا وقال لَوْ تَعْلَمُونَ محذوف الجواب ، يعنى :

لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين ، أى : كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور التي وكلتم بعلمها هممكم : لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه ، ولكنكم ضلال جهلة ، ثم قال لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ فبين لهم ما أنذرهم منه وأوعدهم به ، وقد مرّ ما في إيضاح الشيء بعد إبهامه من تفخيمه وتعظيمه ، وهو جواب قسم محذوف ، والقسم لتوكيد الوعيد ، وأن ما أوعدوا به مالا مدخل فيه للريب ، وكرره معطوفا بثم تغليظا في التهديد وزيادة في التهويل . وقرئ :

لترؤن بالهمز ، وهي مستكرهة . فإن قلت : لم استكرهت والواو المضمومة قبلها همزة قياس مطرد ؟ قلت :

ذاك في الواو التي ضمتها لازمة ، وهذه عارضة لالتقاء الساكنين . وقرئ : لترون ، ولترونها : على البناء للمفعول عَيْنَ الْيَقِينِ أى الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته . ويجوز أن يراد بالرؤية :

---

(1) إنى رأيت الضمد هيئا نكرا لن يخلص العام حليل عشرا

ذاق الضماد أو يزور القبرا

للأخطل . وضمد رأسه : عصبه . وضمد جرحه : ألصق عليه الدواء . والضمد والضماد : الحقد ، لكتمه في القلب والتزوج لضم المرأة إلى الرجل . والنكر : المنكر ، ولن يخلص : بيان لوجه إنكار الضمد أى التزوج . والعام :

نصب على الظرفية . ويروى ، حليل بالمهملة وبالمعجمة . وعشرا - بالكسر : أى معاشرة ، وبفتحها : أى عشر ليال . وذاق الضماد : صفة حليل ، فصلت عنه بالمفعول . وشبه الضماد بالمطعوم المكروه بحسب ما رأى على طريق الكناية ، والذوق تخييل . وزيارة القبر : كناية عن الموت ، أى : لن يخلص إلى أن يموت ، ولا ينافيه التقييد بالعام لإمكان الموت فيه ، ولعله كان جدبا .

(2) . زار القبور ، أى : مات . وفيه نوع تهكم به حيث كنى عن الموت المكروه عادة

بالزيارة المحبوبة ، وألأم : أفعل تفضيل من اللؤم ، أي : الحسة . والزوار : جمع زائر ، أي : كان ألأم الأحياء ، فأصبح ألأم الأموات .

(73/829)

العلم والإبصار عَنِ النَّعِيمِ عن اللهو والتنعم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه .

فإن قلت : ما النعيم الذي يسئل عنه الإنسان ويعاتب عليه ؟ فما من أحد إلا وله نعيم ؟

قلت :

هو نعيم من عكف همته على استيفاء اللذات ، ولم يعش إلا ليأكل الطيب ويلبس اللين ، ويقطع أوقاته باللهو والطرب ، لا يعبأ بالعلم والعمل ، ولا يحمل نفسه مشاقهما ، فأما من تمتع بنعمة اللّه وأرزاقه التي لم يخلقها إلا لعباده ، وتقوّى بها على دراسة العلم والقيام بالعمل ، وكان ناهضا بالشكر : فهو من ذاك بمعزل ، وإليه أشار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيما يروى : أنه أكل هو وأصحابه تمرا وشربوا عليه ماء فقال : «الحمد للّه الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين» «1» .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ ألهاكم التكاثر لم يحاسبه اللّه بالنعيم الذي أنعم به عليه في دار الدنيا ، وأعطى من الأجر كأنما قرأ ألف آية» «2» . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 4 صـ 791 . 793 ﴾

---

(1) . لم أجده هكذا . وفيه تخليط لعله من الناسخ . وهو يخرج من حديثين : أحدهما أخرجه النسائي وابن حبان والطبري وابن مردويه من حديث جابر قال «أكل رسول اللّه صلى الله عليه وسلم رطبا وشربوا ماء . فقال : هذا من النعيم الذي تسألون عنه» وروى أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي من حديث أبى سعيد الخدري قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا أكل طعاما قال : الحمد للّه الذي أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين .

(2) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه باسنادهم إلى أبى بن كعب .

(74/829)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾

في ﴿ ألهاكم ﴾ وجهان :

أحدهما : شغلكم .

الثاني : أنساكم ، ومعناه ألهاكم عن طاعة ربكم وشغلكم عن عبادة خالقكم .

وفي ﴿ التكاثر ﴾ ثلاثة أقاويل :

أحدها : التكاثر بالمال والأولاد ، قاله الحسن .

الثاني : التفاخر بالعشائر والقبائل ، قاله قتادة .

الثالث : التشاغل بالمعاش والتجارة ، قاله الضحاك .

﴿ حتى زُرْتُم المقابِرَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : حتى أتاكم الموت فصرتم في المقابر زوّاراً ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار .

الثاني : ما حكاه الكلبي وقتادة : أن حيّين من قريش ، بني عبد مناف وبني سهم ، كان بينهما ملاحاة فتعادّوا بالسادة والأشراف أيهم أكثر ، فقال بنو عبد مناف : نحن أكثر سيّداً وعزاً وعزيزاً وأعظم نفراً ، وقال بنو سهم مثل ذلك ، فكثرهم بنو عبد مناف ، فقال بنو سهم إن البغي أهلكنا في الجاهلية فعُدّوا الأحياء والأموات ، فعدّوهم فكثرتهم بنو سهم ، فأنزل الله تعالى ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ يعني بالعدد ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ أي حتى ذكرتم الأموات في المقابر .

﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمونَ * ثم كلاّ سَوْفَ تَعلَمونَ ﴾ هذا وعيد وتهديد ، ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ .

ويحتمل أن يعدل به عن التأكيد فيكون فيه وجهان :

أحدهما : كلا سوف تعلمون عند المعاينة أن ما دعوتكم إليه حق ، ثم كلا سوف تعلمون عند البعث أن ما وعدتكم صدق .

الثاني : كلا سوف تعلمون عند النشور أنكم مبعوثون ، ثم كلا سوف تعلمون في القيامة أنكم معذَّبون .

﴿ كَلاّ لو تَعْلَمون عِلْمَ اليَقِين ﴾ معناه لو تعلمون في الحياة قبل الموت من البعث والجزاء ما تعلمونه بعد الموت منه .

﴿ عِلْمَ اليقين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : علم الموت الذي هو يقيني لا يعتريه شك ، قاله قتادة .

الثاني : ما تعلمونه يقيناً بعد الموت من البعث والجزاء ، قاله ابن جريج .

(75/829)

وفي ﴿ كَلاَّ ﴾ في هذه المواضع الثلاثة وجهان :

أحدهما : أنها بمعنى " إلا " ، قاله أبو حاتم .

الثاني : أنها بمعنى حقاً ، قاله الفراء .

﴿ لَتَرَوُنَّ الجَحيمَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن هذا خطاب للكفار الذين وجبت لهم النار .

الثاني : أنه عام ، فالكافر هي له دار والمؤمن يمر على صراطها .

روى زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرفع الصراط وسط جهنم ، فناج مسلّم ، ومكدوس في نار جهنم " .

﴿ ثم لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليَقين ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن عين اليقين المشاهدة والعيان .

الثاني : أنه بمعنى الحق اليقين ، قاله السدي .

ويحتمل تكرار رؤيتها وجهين :

أحدهما : أن الأول عند ورودها .

والثاني : عند دخولها .

﴿ ثم لَتُسْأَلُنّ يومَئذٍ عن النّعيم ﴾ فيه سبعة أقاويل :

أحدها : الأمن والصحة ، قاله ابن مسعود ؛ وقال سعيد بن جبير : الصحة والفراغ ، للحديث .

الثاني : الإدراك بحواس السمع والبصر ، قاله ابن عباس .

الثالث : ملاذّ المأكول والمشروب ، قاله جابر بن عبد الله الأنصاري .

الرابع : أنه الغداء والعشاء ، قاله الحسن .

الخامس : هو ما أنعم الله عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، قاله محمد بن كعب .

السادس : عن تخفيف الشرائع وتيسير القرآن ، قاله الحسن أيضاً والمفضل .

السابع : ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثم لتسألن يومئذٍ عن النَعيم " عن شبع البطون وبارد الماء وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم ، وهذا السؤال يعم المؤمن والكافر ، إلا أن سؤال المؤمن تبشير بأن جمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ، وسؤال الكافر تقريع لأنه قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية ، ويحتمل أن يكون ذلك تذكيراً بما أوتوه ، ليكون جزاء على ما قدموه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 330.332 ﴾

(76/829)

وقال ابن عطية :

سورة التَّكَاثُر

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) ﴾

" ألهى " معناه : شغل بلذاته ، ومنه لهو الحديث والأصوات واللهو بالنساء ، وهذا خبر فيه تقريع وتوبيخ وتحسر ، وقرأ ابن عباس وعمران الجوني وأبو صالح : " أألهاكم " على

الاستفهام ، و﴿ التكاثر ﴾ هي المفاخرة بالأموال والأولاد والعدد جملة ، وهذا هجيرى أبناء الدنيا : العرب وغيرهم لا يتخلص منهم إلا العلماء المتقون ، وقد قال الأعشى : [السريع]

ولست بالأكثر منهم حصى . . . وإنما العزة للكاثر

(77/829)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت " ، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى : ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ ، فقال قوم : حتى ذكرتم الموت في تفاخركم بالآباء والسلف ، وتكثرتم بالعظام الرمام ، وقال المعنى : حتى متم وزرتم بأجسادكم مقابرها أي قطعتم بالتكاثر أعماركم ، وعلى هذا التأويل روي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال : بعث القوم للقيامة ورب الكعبة ، فإن الزائر منصرف لا مقيم ، وحكى النقاش هذه النزعة من عمر بن عبد العزيز ، وقال آخرون : هذا تأنيب على الإكثار من زيارة القبور أي حتى جعلتم أشغالكم القاطعة بكم عن العبادة والتعلم زيارة القبور تكثراً بمن سلف وإشادة بذكره ، وقال ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : "كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها

ولا تقولوا هجراً " فكان نهيه عليه السلام في معنى الآية ، ثم أباح بعد لمعنى الاتعاظ لا لمعنى المباهاة والتفاخر كما يصنع الناس في ملازمتها وتسنيمها بالحجارة والرخام وتلوينها شرفاً وبنيان النواويس عليها ، وقوله تعالى : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ زجر ووعيد ثم كرر تأكيداً ، ويأخذ كل إنسان من الرجز والوعيد المكررين على قدر حظه من التوغل فيما يكره ، هذا تأويل جمهور الناس ، وقال علي بن أبي طالب : "كلا ستعلمون في القبور ثم كلا ستعلمون في البعث " ، وقال الضحاك : الزجر الأول وعيده هو للكفار والثاني للمؤمنين ، وقرأ مالك بن دينار : "كلا ستعلمون " فيهما ، وقوله تعالى : ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ جواب ﴿ لو ﴾ محذوف مقدر في القول أي لازدجرتم وبادرتم إنقاذ أنفسكم من الهلكة ، و﴿ اليقين ﴾ أعلى مراتب العلم ، ثم أخبر تعالى الناس أنهم يرون الجحيم ، وقرأ ابن عامر والكسائي : "لتُرون " بضم التاء ، وقرأ الباقون بفتحها وهي الأرجح ، وكذلك في الثانية ، وقرأ علي بن أبي طالب بفتح التاء الأولى وضمها

في الثانية ، وروي ضمها عن ابن كثير وعاصم ، و" ترون " أصله ترأيون نقلت حركة الهمزة إلى الراء وقلبت الياء ألفاً لحركتها بعد مفتوح ، ثم حذفت الألف لسكونها . وسكون الواو

بعدها ثم جلبت النون المشددة فحركت الواو بالضم لسكونها وسكون النون الأولى من المشددة إذ قد حذفت نون الإعراب للبناء ، وقال ابن عباس : هذا خطاب للمشركين ، فالمعنى على هذا أنها رؤية دخول .

التكاثر : (7) ثم لترونها عين . . . . . وصلي وهو " عين اليقين " وقال آخرون الخطاب للناس كلهم فهي كقوله تعالى " وإن منكم الا واردها " مريم 71 فالمعنى ان الجميع يراها ويجوز الناجي ويتكردس فيها الكافر وقوله تعالى " ثم لترونها عين اليقين " تاكيدا في الخبر و " عين اليقين " حقيقته وغايته وروي عن الحسن وأبي عمرو انهما همزا (لترؤن) ولترؤنها بخلاف عنهما وروي ابن كثير (ثم لترونها) بضم التاء ثم اخبر تعالى ان الناس مسؤولون يومئذ عن نعيمهم في الدنيا كيف نالوه ولم آثروه وتتوجه في هذا اسئلة كثيرة بحسب شخص من شخص منقادة لمن أعطي فهما في كتاب الله تعالى

(79/829)

التكاثر : (8) ثم لتسألن يومئذ . . . . . وقال ابن مسعود والشعبي وسفيان ومجاهد " النعيم " هو الأمن والصحة وقال ابن عباس هو البدن والحواس يسأل المرء فيما استعملها وقال ابن جبير هو كل ما يتلذذ به من طعام وشراب واكل رسول الله عليه السلام هو وبعض

أصحابه رطبا وشربوا عليها ماء فقال لهم هذا من النعيم الذي تسألون عنه ومضى يوما عليه السلام هو وأبو بكر وعمر وقد جاؤوا الى منزل ابي الهيثم بن التيهان فذبح لهم شاة واطعمهم خبزا ورطبا واستعذب لهم ماء وكانوا في ظل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم) وروي عنه عليه السلام انه قال (النعيم المسؤول عنه كسرة تقوته وماء يرويه وثوب يواريه) وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم (ان النعيم المسؤول عنه الماء البارد في الصيف) وقال عليه السلام (من اكل خبز البر وشرب الماء البارد فذلك النعيم الذي يسأل عنه) وقال عليه السلام (بيت يكنك وخرقة تواريك وكسرة تشد قلبك وما سوى ذلك فهو نعيم)

وقال النبي عليه السلام (وكل نعيم فهو مسؤول عنه الا نعيم في سبيل الله عز وجل)

نجز تفسير سورة " التكاثر " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(80/829)

وقال ابن الجوزى :

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) ﴾

قوله [تعالى] : ﴿ ألهاكم ﴾

وقرأ أبو بكر الصِّدِّيق ، وابن عباس ، والشعبي ، وأبو العالية ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة : "أَأَلهاكم" بهمزتين مقصورتين على الاستفهام .

وقرأ معاوية ، وعائشة "آلهاكم" بهمزة واحدة ممدودة استفهاماً أيضاً .

ومعنى ألهاكم : شغلكم عن طاعة الله وعبادته .

وفي المراد بالتكاثر ثلاثة أقوال .

أحدها : التكاثر بالأموال والأولاد ، قاله الحسن .

والثاني : التفاخر بالقبائل والعشائر ، قاله قتادة .

والثالث : التشاغل بالمعاش والتجارة ، قاله الضحاك .

وفي قوله تعالى ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ قولان .

أحدهما : حتى أدرككم الموت على تلك الحال ، فصرتم في المقابر زُوَّاراً ترجعون منها إلى منازلكم من الجنة أو النار ، كرجوع الزائر إلى منزله .

والثاني : حتى زرتم المقابر فعَدَدْتم من فيها [من] موتاكم .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ قال الزجاج : هي ردع وتنبيه .

والمعنى : ليس الأمر الذي ينبغي أن يكونوا عليه التكاثر .

قوله تعالى : ﴿ سوف تعلمون ﴾ عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت .

وقيل : العلم الأول : يقع عند نزول الموت .

والثاني : عند نزول القبر .

قوله تعالى : ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ المعنى : لو تعلمون الأمر علماً يقيناً لَشَغَلَكم ما تعلمون عن التكاثر ، والتفاخر .

وجواب "لو" محذوف : وهو ما ذكرنا .

ثم أوعدهم وعيداً آخر فقال تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة "لَترون" "ثم لَترونها" بفتح التاء .

وقرأ مجاهد ، وعكرمة ، وحميد ، وابن أبي عبلة "لُترون" "لتُرونها" بضم التاء فيهما من غير همز ﴿ ثم لَتَرَوُنَّها عين اليقين ﴾ أي : مشاهدة ، فكان المراد ب "عين اليقين" نفسه ، لأن عين الشيء : ذاته .

قوله تعالى : ﴿ ثم لتسألُنَّ يومئذ عن النعيم ﴾ اختلفوا ، هل هذا السؤال عام ، أم لا ؟ على قولين .

(81/829)

أحدهما : أنه خاص للكفار ، قاله الحسن .

والثاني : عام ، قاله قتادة .

وللمفسرين في المراد بالنعيم عشرة أقوال .

أحدها : أنه الأمن والصحة ، رواه ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وتارة يأتي موقوفاً عليه ، وبه قال مجاهد والشعبي .

والثاني : أنه الماء البارد ، رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثالث : أنه الخبز البُرّ والماءُ العَذْبُ ، قاله أبو أُمامة .

والرابع : أنه ملاذ المأكول والمشروب ، قاله جابر بن عبد الله .

والخامس : أنه صحة الأبدان ، والأسماع ، والأبصار ، قاله ابن عباس .

وقال قتادة : هو العافية .

والسادس : أنه الغداء والعشاء ، قاله الحسن .

والسابع : الصحة والفراغ ، قاله عكرمة .

والثامن : كل شيء من لذة الدنيا ، قاله مجاهد .

والتاسع : أنه إنعام الله على الخلق بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم ، قاله القرظي .

والعاشر : أنه صنوف النعم ، قاله مقاتل .

والصحيح أنه عام في كل نعيم ، وعام في جميع الخلق ، فالكافر يسأل توبيخاً إذا لم يشكر المنعم ، ولم يوحِّده .

والمؤمن يسأل عن شكرها .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله تعالى : " ثلاث لا أسأل عبدي عن شكرهن وأسأله عما سوى ذلك ، بيت يُكنُّه ؛ وما يقيم به صلبه من الطعام ، وما يواري به عورته من اللباس " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 217. 223 ﴾

(82/829)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾

أي شغلتكم المفاخرة ، والمباهاة ، والمكاثرة بكثرة المال ، والعدد ، والمناقب عن طاعة الله ربكم ، وما ينجيكم من سخطه ، ومعلوم أن من اشتغل بشيء أعرض عن غيره ، فينبغي للمؤمن العاقل أن يكون سعيه وشغله في تقديم الأهم وهو ما يقربه من ربه عزّ وجلّ .

(83/829)

فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان ، والأقرباء تفاخر بأخس المراتب ، والاشتغال به يمنع الإنسان من الاشتغال بتحصيل السّعادة الأخروية التي هي سعادة الأبد ، ويدل على أن المكاثرة ، والمفاخرة بالمال مذمومة ، ما روي عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يقرأ هذه الآية ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ فقال " يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت " أخرجه التّرمذي وقال حديث حسن صحيح (خ) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه ماله وأهله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله " ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ أي حتى متم ودفنتم في المقابر يقال لمن مات زار قبره وزار رمسه ، فيكون معنى الآية ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت ، وأنتم على ذلك قيل نزلت هذه الآية في اليهود ، قالوا نحن أكثر من بني فلان ، وبنو فلان أكثر من بني فلان ، شغلهم ذلك حتى ماتوا ضلالاً ، وقيل نزلت في حيين من قريش ، وهما بنو عبد مناف ، وبنو سهم بن عمرو ، وكان بينهم تفاخر فتعادوا القادة ، والأشراف أيهم أكثر فقال بنو عبد مناف نحن أكثر سيداً ، وأعز عزيزاً ، وأعظم نفراً ، وأكثر عدداً ، وقال بنو سهم مثل ذلك ، فكاثرهم بنو بعد مناف ، ثم قالوا نعد موتانا فعدوا الموتى حتى زاروا القبور ، فعدوهم فقالوا هذا قبر فلان وهذا قبر فلان فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات لأنهم كانوا في الجاهلية

أكثر عدداً فأنزل الله هذه الآية ، وهذا القول أشبه بظاهر القرآن لأن قوله ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ يدل على أمر مضى ، فكأنه تعالى يعجبهم من أنفسهم ويقول مجيباً هب إنكم أكثر عدداً ، فماذا ينفع .

(84/829)

﴿ كلا ﴾ أي ليس الأمر كما يتوهمه هؤلاء بالتكاثر والتّفاخر ، وقيل المعنى حقاً ﴿ سوف تعلمون ﴾ وعيد لهم ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ كرره توكيداً والمعنى سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت ، فهو وعيد بعد وعيد ، وقيل معناه كلا سوف تعلمون يعني الكافرين ثم كلا سوف تعلمون يعني المؤمنين وصاحب هذا القول يقرأ الأولى بالياء والثانية بالتاء .

﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ أي علماً يقيناً وجواب لو محذوف والمعنى لو تعلمون علماً يقيناً لشغلكم ما تعلمون عن التكاثر والتّفاخر ، قال قتادة كنا نحدث أن علم اليقين أن يعلم أن الله باعثه بعد الموت ﴿ لترون الجحيم ﴾ اللام تدل على أنه جواب قسم محذوف والقسم لتوكيد الوعيد ، وإن ما أوعدوا به لا يدخله شك ولا ريب ، والمعنى أنكم ترون الجحيم بأبصاركم بعد الموت ﴿ ثم لترونها ﴾ يعني مشاهدة ﴿ عين اليقين ﴾ وإنما كرر

الرّؤية لتأكيد الوعيد ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النّعيم ﴾ يعني أن كفار مكة كانوا في الدّنيا في الخير والنعمة ، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه لأنهم لم يشكروا رب النّعيم حيث عبدوا غيره ثم يعذبون على ترك الشكر ، وذلك لأن الكفار لما ألهاهم التكاثر بالدّنيا ، والتّفاخر بلذاتها عن طاعة الله والاشتغال بشكره سألهم عن ذلك ، وقيل إن هذا السّؤال يعم الكافر ، والمؤمن ، وهو الأولى لكن سؤال الكافر توبيخ ، وتقريع لأنه ترك شكر ما أنعم الله به عليه ، والمؤمن يسأل سؤال تشريف وتكريم لأنه شكر ما أنعم الله به عليه ، وأطاع ربه فيكون السّؤال في حقه تذكرة بنعم الله عليه .

يدل على ذلك ما روي " عن الزّبير قال لما نزلت ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال الزبير : يا رسول الله وأي نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التّمر والماء قال أما أنه سيكون " أخرجه الترمذي وقال حديث حسن واختلفوا في النعيم الذي يسأل البعد عنه ، فروي عن ابن مسعود رفعه قال لتسألن يومئذ عن النّعيم قال الأمن ، والصحة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد " أخرجه التّرمذي وقال حديث غريب

(م) عن أبي هريرة قال " خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال (صلى الله عليه وسلم) ما أخرجكما من بيوتكما هذه السّاعة، قالا الجوع يا رسول الله قال وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، فقوموا فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته فلما رأته المرأة قالت مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أين فلان قالت ذهب يستعذب لنا الماء إذا جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر، وتمر، ورطب فقال: كلوا وأخذ المدية فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إياك والحلوب، فذبح لهم شاة فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما شبعوا ورووا قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأبي بكر وعمر والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النّعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النّعيم " .

وأخرجه التّرمذي بأطول من هذا " وفيه ظل بارد ورطب طيب وماء بارد " وروي عن ابن عباس قال: النّعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العبيد يوم القيامة فيم

استعملوها وهو أعلم بذلك منهم ، وقيل يسأل عن الصحة والفراغ والمال (خ) عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ " ، وقيل الذي يسأل العبد عنه هو القدر الزائد على ما يحتاج إليه فإنه لا بد لكل أحد من مطعم ، ومشرب ، وملبس ، ومسكن ، وقيل يسأل عن تخفيف الشرائع وتيسير القرآن ، وقيل عن الإسلام فإنه أبر النّعم ، وقيل يسأل عما أنعم به عليكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنقذكم به من الضّلال إلى الهدى ، والنّور وامتنَّ به عليكم والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 285. 287 ﴾

(87/829)

وقال النسفى :

سورة التَّكَاثُر

مكية وهي ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ ألهاكم التكاثر ﴾

شغلكم التباري في الكثرة والتباهي بها في الأموال والأولاد عن طاعة الله ﴿ حتى زُرْتُمُ

المقابر ﴾ حتى أدرككم الموت على تلك الحال، أو حتى زرتم المقابر وعددتم من في المقابر من موتاكم ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وتنبيه على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عند النزع سوء عاقبة ما كنتم عليه ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ في القبور ﴿ كَلاَّ ﴾ تكرير الردع للإنذار والتخويف ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ جواب "لو" محذوف أي لو تعلمون ما بين أيديكم ﴿ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ علم الأمر يقين أي كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور لما ألهاكم التكاثر، أو لفعلتم ما لا يوصف ولكنكم ضلال جهلة ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ هو جواب قسم محذوف والقسم لتوكيد الوعيد ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾، بضم التاء: شامي وعلي ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ كرره معطوف ب "ثم" تغليظاً في التهديد وزيادة في التهويل، أو الأول بالقلب والثاني بالعين ﴿ عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ أي الرؤية التي هي نفس اليقين وخالصته ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ عن الأمن والصحة فيم أفنيتموهما؟ عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وقيل: عن التنعم الذي شغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه.

وعن الحسن ما سوى كنّ يؤويه وثوب يواريه وكسرة تقويه وقد روي مرفوعاً والله أعلم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 374. 375 ﴾

وقال ابن جزى :

سورة التَّكَاثُر

﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾

هذا خبر يرا د به الوعظ والتوبيخ ، ومعنى ألهاكم شغلكم والتكاثر المباهاة بكثرة المال والأولاد ، وأن يقول هؤلاء : نحن أكثر ويقول هؤلاء : نحن أكثر ، ولما قرأها النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقول ابن آدم مالي مالي وليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت " ﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدهما : أن معناه حتى متم فأراد بزيارة المقابر الدفن فيها . الثاني أن معناه حتى ذكرتم الموتى الذين في المقابر ، فعبّر بزيارتها عن التفاخر بمن فيها ؛ لأن بعض العرب تفاخر بآبائها الموتى . فالمعنى ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾ حتى بلغتم فيه إلى ذكر الموتى . الثالث : أن معناها زيارة المقابر حقيقة لتعظيم أهلها والتفاخر بهم فيقال : هذا قبلا فلان ليشهر ذكره ويعظم قدره ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ زجر وتهديد ، ثم كرره للتأكيد وعطفه بثم إشارة إلى أن الثاني أعظم من الأول ، وقيل : الأول تهديد للكفار والثاني : تهديد للمؤمنين وحذف معمول تعلمون وتقديره ما يحل بكم ، أو تعلمون أن القرآن حق ، أو تعلمون أنكم كنتم على خطأ في اشتغالكم بالدنيا ، وإنما حذفه لقصد التهويل فيقدر السامع أعظم ما يخطر بباله .

﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ جواب لو محذوف تقديره لو تعلمون لازدجرتم واستعددتم للآخرة فينبغي الوقف على اليقين ، ومعمول لو تعلمون محذوف أيضاً ، وعلم اليقين مصدر ، ومعنى علم اليقين : العلم الذي لا يشك فيه . قال بعضهم : هو من إضافة الشيء إلى نفسه كقولك : دار الآخرة وقال الزمخشري : معناه علم الأمور التي تيقنونها بالمشاهدة ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ هذا جواب قسم محذوف ، وهو تفسير لمفعول لو تعلمون تقديره : لو تعلمون عاقبة أمركم ثم فسرها بأنها رؤية الجحيم ، والتفسير بعد الإبهام يدل على التهويل والتعظيم . والخطاب لجميع الناس فهو كقوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] وقيل : للكفار خاصة ، فالرؤية على هذا يراد بها الدخول فيها ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ هذا تأكيد للرؤية المتقدمة وعطفه بثم للتهويل والتفخيم ، والعين هنا من قولك : عين الشيء نفسه وذاته ، أي لترونها الرؤية التي هي نفس اليقين ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ هذا إخبار بالسؤال في الآخرة عن نعيم الدنيا ، فقيل : النعيم الأمن والصحة ، وقيل : الطعام والشراب ، وهذه أمثلة ، والصواب العموم في كل ما يتلذذ به قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بيت يُكنّك وخرقه تواريك وكسرة تشدّ قلبك وما سوى ذلك فهو نعيم ،

وقال صلى الله عليه وسلم كل نعيم فمسؤول عنه إلا نعيم في سبيل الله ، " وأكل صلى الله عليه وسلم يوماً مع أصحابه رطباً وشربوا عليه ماء ، فقال لهم : هذا من النعيم الذي تسألون عنه" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 216 ﴾

(90/829)

وقال البيضاوى :

سورة التَّكَاثُر

مختلف فيها ، وآيها ثمان آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ ألهاكم ﴾ شغلكم وأصله الصرف إلى اللهو منقول من لها إذا غفل . ﴿ التكاثر ﴾ التباهي بالكثرة

﴿ حتى زرْتُمُ المقابر ﴾ إذا استوعبتم عدد الأحياء صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات ، عبر عن انتقالهم إلى ذكر الموتى بزيارة المقابر . روي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا بالكثرة فكثرهم بنو عبد مناف ، فقال بنو سهم إن البغي أهلكنا في الجاهلية فعادونا بالأحياء والأموات فكثرهم بنو سهم ، وإنما حذف المنهي عنه وهو ما يعنيهم من أمر الدين

للتعظيم والمبالغة. وقيل معناه ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم مضيعين أعماركم في طلب الدنيا عما هو أهم لكم، وهو السعي لأخراكم فتكون زيارة القبور عبارة عن الموت.

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع وتنبيه على أن العاقل ينبغي له أن لا يكون جميع همه ومعظم سعيه للدنيا فإن عاقبة ذلك وبال وحسرة. ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ خطأ رأيكم إذا عاينتم ما وراءكم وهو إنذار ليخافوا وينتبهوا من غفلتهم.

﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تكرير للتأكيد وفي ﴿ ثُمَّ ﴾ دلالة على أن الثاني أبلغ من الأول ، أو الأول عند الموت أو في القبر والثاني عند النشور.

﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين ﴾ أي لو تعلمون ما بين أيديكم علم اليقين أي كعلمكم ما تستيقنونه لشغلكم ذلك عن غيره، أو لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه فحذف الجواب للتفخيم ولا يجوز أن يكون قوله.

﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴾ جواباً له لأنه محقق الوقوع بل هو جواب قسم محذوف أكد به الوعيد وأوضح به ما أنذرهم منه بعد إبهامه تفخيماً، وقرأ ابن عامر والكسائي بضم التاء.

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ تكرير للتأكيد ، أو الأولى إذا رأيتهم من مكان بعيد والثانية إذا وردوها ، أو المراد بالأولى المعرفة وبالثانية الإبصار . ﴿ عَيْنَ اليقين ﴾ أي الرؤية التي هي نفس اليقين ، فإن علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين .

﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ الذي ألهاكم ، والخطاب مخصوص بكل من ألهاه دنياه عن دينه و﴿ النعيم ﴾ بما يشغله للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله : ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله ﴾ ﴿ كُلُواْ مِنَ الطيبات ﴾ وقيل يعمان إذ كل يسأل عن شكره . وقيل الآية مخصوصة بالكفار .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ ألهاكم لم يحاسبه الله سبحانه وتعالى بالنعيم الذي أنعم به عليه في دار الدنيا ، وأعطي من الأجر كأنما قرأ ألف آية " . (1) انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 523 . 525 ﴾

---

(1) حديث موضوع إلا آخره ، فرواه الحاكم بلفظ «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم قالوا : ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية ؟ قال : أو ما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر» .

وقال القرطبي :

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾ "ألهاكم" شغلكم.

قال :

فَأَلْهَيْتُهَا عن ذِي تَمائم مُغْيل . . .

أي شغلكم المباهاة بكثرة المال والعدد عن طاعة الله ، حتى مِتم ودفنتم في المقابر .

وقيل ﴿ أَلْهَاكُمُ ﴾ : أنساكم .

﴿ التكاثر ﴾ أي من الأموال والأولاد ، قاله ابن عباس والحسن .

وقال قتادة : أي التفاخر بالقبائل والعشائر .

وقال الضحاك : أي ألهاكم التشاغل بالمعاش والتجارة .

يقال : لَهِيت عن كذا (بالكسر) أَلْهى لَهِيًّا وِلهْيَاناً : إذا سلوت عنه ، وتركت ذكره ، وأضربت عنه .

وألهاه : أي شغله .

ولَهَّاه به تلهية أي عَلَّله .

والتكاثر : المكاثرة .

قال مقاتل وقتادة وغيرهما : نزلت في اليهود حين قالوا : نحن أكثر من بني فلان ، وبنو فلان أكثر من بني فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا ضُلَّالًا .

وقال ابن زيد : نزلت في فخِذ من الأنصار .

وقال ابن عباس ومقاتل والكلبي : نزلت في حَيَّيْن من قريش : بني عبد مَناف ، وبني سَهْم ، تعادُّوا وتكاثروا بالسادة والأشراف في الإسلام ، فقال كل حيّ منهم نحن أكثر سيداً ، وأعز عزيزاً ، وأعظم نفراً ، وأكثر عائذاً ، فكَثَرَ بنو عبد مناف سهماً .

ثم تكاثروا بالأموات ، فكَثَرَتْهُمْ سَهْم ، فنزلت ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾ بأحيائكم فلم ترضَوا ﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ مفتخرين بالأموات .

وروى سعيد عن قتادة قال : كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان ، ونحن أعدّ من بني فلان ؛ وهم كلَّ يوم يتساقطون إلى آخرهم ، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلُّهم .

وعن عمرو بن دينار : حلف أن هذه السورة نزلت في التجار .

وعن شيبان عن قتادة قال : نزلتْ في أهل الكتاب .

قلت : الآية تَعُمّ جميع ما ذكر وغيره .

وفي صحيح مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾ قال : "يقولُ ابنُ آدم : مالي مالي ! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيتَ ، أو لبستَ فأبلَيتَ ، أو تصدّقْتَ فأمضيت وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركُه للناس .

وروى البخاريّ عن ابن شهاب : أخبرني أَنَس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن لابن آدم وادياً من ذهب ، لأحب أن يكون له واديان ، ولَنْ يَمْلأ فاه إلاّ الترابُ ، ويتوبُ اللَّهُ على من تابَ" قال ثابت عن أنس عن أبيّ : كنا نرى هذا من القرآن ، حتى نزلت ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾ .

قال ابن العربيّ : وهذا نصّ صحيح مليح ، غاب عن أهل التفسير فجهِلوا وجَهَّلوا ، والحمد لله على المعرفة .

وقال ابن عباس : " قرأ النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾ قال : "تَكاثُرُ الأموال : جمعها من غير حقها ، ومنعها من حقها ، وشدّها في الأوعية" " .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ أي حتى أتاكم الموت ، فصرتم في المقابر زوّاراً ، ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار .

يقال لمن مات : قد زار قبره .

وقيل : أي ألهاكم التكاثر حتى عددتم الأموات ؛ على ما تقدّم .

وقيل : هذا وعيد .

أي اشتغلتم بمفاخرة الدنيا ، حتى تزوروا القبور ، فترَوْا ما ينزل بكم من عذاب الله عز وجل .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ المقابر ﴾ جمع مَقْبَرة ومَقْبُرة (بفتح الباء وضمها) .

والقبور : جمع القبر ؛ قال :

أَرَى أَهْلَ القُصُور إذا أُمِيتُوا . . .

بَنَوْا فوق المقابر بالصُّخُورِ

أَبَوْا إلا مُباهاةً وفَخْرًا . . .

على الفقراءِ حتّى في القُبورِ

وقد جاء في الشعر (المَقْبَر) ؛ قال :

لكل أناس مَقْبَر بِفنائهم . . .

فهُمْ يَنقصُونَ والقُبورُ تَزِيدُ

وهو المقْبُريّ والمقْبَريّ : لأبي سعيد المقبُريّ ؛ وكان يسكن المقابر .

(94/829)

وقَبَرت المَيتَ أَقْبِرهُ واقبرُهُ قبراً ، أي دفنته .

وأقبرته أي أمرت بأن يقبر .

وقد مضى في سورة "عبَس" القول فيه .

والحمد لله .

الرابعة : لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة .

وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي ؛ لأنها تذكر الموت والآخرة .

وذلك يحمل على قصر الأمل ، والزهد في الدنيا ، وترك الرغبة فيها .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروا القبور ، فإنها تزهد في الدنيا ، وتذكِّر الآخرة" رواه ابن مسعود ؛ أخرجه ابن ماجه .

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة : " فإنها تذكر الموت " وفي الترمذيّ عن بُرَيْدة : " فإنها تذكِّر الآخرة " قال : هذا حديث حسن صحيح .

وفيه عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن زوّارات القبور .

قال : وفي الباب عن ابن عباس وحسان بن ثابت .

قال أبو عيسى : وهذا حديث حسن صحيح .

وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبيّ صلى الله عليه وسلم في زيارة القبور ؛ فلما رَخّص دخل في رخصته الرجال والنساء .

وقال بعضهم : إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صَبْرهن ، وكثرة جَزَعِهنّ .

قلت : زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء ، مختلف فيه للنساء .

أما الشوابّ فحرام عليهن الخروج ، وأما القواعد فمباح لهنّ ذلك .

وجائز لجميعهن .

ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال ؛ ولا يختلف في هذا إن شاء الله .

وعلى هذا المعنى يكون قوله : " زوروا القبور " عاماً .

وأمّا مَوْضعٌ أو وقتٌ يُخْشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء ، فلا يحل ولا يجوز .

فبينا الرجل يخرج ليعتبر ، فيقع بصره على امرأة فيفتتن ، وبالعكس ؛ فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزوراً غير مأجور .

والله أعلم .

(95/829)

الخامسة : قال العلماء : ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه ، أن يكثر من ذكر هاذم اللذات ، ومفرق الجماعات ، ومُوتم البنين والبنات ، ويواظب على مشاهدة المحتضَرين ، وزيارة قبور أموات المسلمين .

فهذه ثلاثة أمور ، ينبغي لمن قسا قلبه ، ولزمه ذنبه ، أن يستعين بها على دواء دائه ، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه ؛ فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت ، وانجلت به قساوة قلبه فذاك ، وإن عظم عليه ران قلبه ، واستحكمت فيه دواعي الذنب ؛ فإن مشاهدة المحتضرين ، وزيارة قبور أموات المسلمين ، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول ؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير ، وقائم له مقام التخويف والتحذير .

وفي مشاهدة من احتُضِر ، وزيارة قبر من مات من المسلمين مُعايَنةٌ ومشاهدة ؛ فلذلك كان أبلغ من الأوّل ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " ليس الخبر كالمعاينة " رواه ابن عباس .

فأما الاعتبار بحال المحتَضَرِين ، فغير ممكن في كل الأوقات ، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات .

وأما زيارة القبور فوجودها أسرع ، والانتفاع بها أليق وأجدر .

فينبغي لمن عزم على الزيارة ، أن يتأدّب بآدابها ، ويحضر قلبه في إتيانها ، ولا يكون حظه منها التطواف على الأجداث فقط ؛ فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة .

ونعوذ بالله من ذلك .

بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى ، وإصلاح فساد قلبه ، أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء ، ويتجنب المشي على المقابر ، والجلوس عليها ويُسلم إذا دخل المقابر ، وإذا

وصل إلى قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضاً ، وأتاه من تلقاء وجهه ؛ لأنه في زيارته كمخاطبته حياً ، ولو خاطبه حياً لكان الأدب استقباله بوجهه ؛ فكذلك هاهنا .

(96/829)

ثم يعتبر بمن صار تحت التراب ، وانقطع عن الأهل والأحباب ، بعد أن قاد الجيوش والعساكر ، ونافس الأصحاب والعشائر ، وجمع الأموال والذخائر ؛ فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه ، وهول لم يرتقبه .

فليتأمّل الزائر حال من مضى من إخوانه ، ودَرَجَ من أقرانه الذين بلغوا الآمال ، وجمعوا الأموال ؛ كيف انقطعت آمالهم ، ولم تغن عنهم أموالهم ، ومحا التراب محاسن وجوههم ، وافترقت في القبور أجزاؤهم ، وترمّل من بعدهم نساؤهم ، وشَمِل ذل اليتيم أولادهم ، واقتسم غيرهم طريفهم وتِلادهم .

وليتذكر تردّدهم في المآرب ، وحرصهم على نيل المطالب ، وانخداعهم لمواتاة الأسباب ، وركونهم إلى الصحة والشباب .

وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم ، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع ، والهلاك السريع ، كغفلتهم ، وأنه لا بدّ صائر إلى مصيرهم ، ولْيُحضر بقلبه ذِكر من كان متردّداً في

أغراضه ، وكيف تهدّمت رجلاه ، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خُوِّله وقد سالت عيناه ، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه ، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه ، وليتحقق أن حاله كحاله ، ومآله كمآله .

وعند هذا التذكُّر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية ، ويقبل على الأعمال الأخروية ، فيزهد في دنياه ، ويقبل على طاعة مولاه ، ويلين قلبه ، وتخشع جوارحه .

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ قال الفرّاء : أي ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر والتمام على هذا ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي سوف تعلمون عاقبة هذا .

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ : وعِيد بعد وعيد ؛ قاله مجاهد .

ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ ؛ وهو قول الفرّاء .

وقال ابن عباس : "كلا سوف تعلمون" ما ينزل بكم من العذاب في القبر .

"ثم كلا سوف تعلمون" في الآخرة إذا حل بكم العذاب .

فالأوّل في القبر، والثاني في الآخرة؛ فالتكرار للحالتين.

وقيل: "كلا سوف تعلمون" عند المعاينة، أن ما دعوتكم إليه حق.

"ثم كلا سوف تعلمون": عند البعث، أن ما وعدتكم به صدق.

وروى زِرُّ بن حُبَيْشٍ عن عليّ رضي الله عنه، قال: كنا نشك في عذاب القبر، حتى نزلت هذه السورة، فأشار إلى أن قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني في القبور.

وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رُسُلٌ لِتَنْزِع أرواحكم. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: إذا دخلتم قبوركم، وجاءكم مُنْكر ونَكِير، وحاط بكم هول السؤال، وانقطع منكم الجواب.

قلت: فتضمنت السورة القول في عذاب القبر.

وقد ذكرناه في كتاب "التذكرة" أن الإيمان به واجب، والتصديق به لازم؛ حَسْبَمَا أخبَر به الصادق، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلَّف في قبره، بردّ الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليعقل ما يُسأَل عنه، وما يُجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أُعدّ له في قبره، من كرامة وهوانٍ.

وهذا هو مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة.

وقد ذكرناه هناك مستوفى، والحمد لله.

وقيل: "كَلاّ سوف تعلمون" عند النشور أنكم مبعوثون "ثمّ كلا سوف تعلمون" في القيامة

أنكم معذبون .

وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحَشْر ، وسؤال وعَرْض ، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها ؛ حسب ما ذكرناه في كتاب "التذكرة ، بأحوال الموتى وأمور الآخرة" .

وقال الضحاك : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني الكفار ، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ : قال المؤمنون .

وكذلك كان يقرؤها ، الأولى بالتاء والثانية بالياء .

قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾

(98/829)

أعاد "كَلَّا" وهو زجر وتنبيه ، لأنه عَقَّب كل واحد بشيء آخر ؛ كأنه قال : لا تفعلوا ، فإنكم تندمون ، لا تفعلوا ، فإنكم تستوجبون العقاب .

وإضافة العلم إلى اليقين ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴾ [الواقعة : 95] .

وقيل : اليقين هاهنا : الموت ؛ قاله قتادة .

وعنه أيضاً : البعث ؛ لأنه إذا جاء زال الشك ، أي لو تعلمون علم البعث .

وجواب "لو" محذوف ؛ أي لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور ،

وانشقت اللُّحود عن جُثَثكم ، كيف يكون حَشْركم ؟ لشغلَكُم ذلك عن التكاثر بالدنيا .

وقيل : ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين ﴾ أي لو قد تطايرتِ الصحف ، فشَقِيٌّ وسعيدٌ .

وقيل : إن "كَلاَّ" في هذه المواضع الثلاثة بمعنى "أَلاَ" قاله ابن أبي حاتم ، وقال الفرّاء : هي بمعنى "حَقّاً" وقد تقدّم الكلام فيها مستوفى .

قوله تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴾ هذا وعيد آخر .

وهو على إضمار القسم ؛ أي لترون الجحيم في الآخرة .

والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار .

وقيل : هو عام ؛ كما قال : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] ، فَهِيَ لِلكفار دار ، وللمؤمنين ممر .

وفي الصحيح : " فيمرّ أوّلهم كالبرق ، ثم كالريح ، ثم كالطير . . .

" الحديث .

وقد مضى في سورة "مريم" .

وقرأ الكسائيّ وابن عامر "لَتُرَوُنَّ" بضم التاء ، من أريته الشيء ؛ أي تحشرون إليها فترونها .

وعلى فتح التاء ، هي قراءة الجماعة ؛ أي لترون الجحيم بأبصاركم على البعد .

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ أي مشاهدة .

وقيل : هو إخبار عن دوام مُقامهم في النار ؛ أي هي رؤية دائمة متصلة .

والخطاب على هذا للكفار .

(99/829)

وقيل : معنى ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين ﴾ أي لو تعلمون اليوم في الدنيا ، علم اليقين فيما أمامكم ، مما وصفت : ﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴾ بعيون قلوبكم ؛ فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك ؛ وهو أن تَتَصَوَّرَ لك تارات القيامة ، وقطع مسافاتها .

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ : أي عند المعاينة بعين الرأس ، فتراها يقيناً ، لا تغيب عن عينك .

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ : في موقف السؤال والعرض .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبي بكر وعمر ؛ فقال : "ما أَخْرجَكما من بُيوتِكمَا هَذِه الساعةَ" ؟ قالا : الجوع يا رسول الله .

قال : "وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما ؛ قُوما" فقاما معه ؛ فأتى رجلاً

من الأنصار ، فإذا هو ليس في بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مَرْحباً وأهْلاً .

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أين فلان" ؟ قالت : يستعذِب لنا من الماء ؛ إذ جاء الأنصاريّ ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحِبيهِ ، ثم قال : الحمد لله ! ما أحدٌ اليومَ أكرم أضيافاً مني .

قال : فانطلق ، فجاءهم بِعِذْق فيه بُسْر وتمر ورُطَب ، فقال : كلوا من هذه .

(100/829)

وأخذ المدية ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إياكَ والحَلُوبَ" فذبح لهم ؛ فأكَلُوا من الشّاة ومن ذلك العِذق ، وشربوا ؛ فلما أن شبِعوا ورَوُوا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : "والذي نفسي بيده لَتُسْأَلُنَّ عن نعيم هذا اليوم ، يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم" " خرجه الترمذيّ ، وقال (فيه) : " هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة : ظِلٌّ بارد ، ورُطب طيِّب ، وماء بارد " وكنَّى الرجل الذي من الأنصار ، فقال : أبو الهيثم بن التَّيهان .

وذكر قصته .

قلت : اسم هذا الرجل الأنصاريّ مالك بن التيهان ، ويكنى أبا الهيثم .

وفي هذه القصة يقول عبد الله بن رواحة ، يمدح بها أبا الهيثم بن التَّيّهان :

فَلَمْ أَرَ كالإسلامِ عِزاً لأمّةٍ . . .

ولا مِثلَ أضيافِ الإِراشيّ مَعْشَرَا

نبيّ وصِدّيقٌ وفاروق أمّة . . .

وخيرِ بني حوّاء فرْعا وعُنْصُرا

فوافَوْا لِميقاتٍ وقَدْرِ قَضيةٍ . . .

وكان قضاء الله قَدْرا مُقَدّرَا

إلى رجلٍ نَجْدٍ يُباري بجودِهِ . . .

شُموسَ الضُّحَى جودا ومجداً ومَفخرا

وفارِسِ خلقِ الله في كل غارةٍ . . .

إذا لبس القومُ الحديدَ المُسَمّرَا

فَفَدّى وحَيّا ثم أَدْنَى قِراهُمُ . . .

فلَمْ يَقْرِهِمْ إلاَّ سَمِيناً مُتَمّرَا

وقد ذكر أبو نَعيم الحافظ ، " عن أبي عسِيب مولى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً ، فخرجت إليه ، ثم مر بأبي بكر فدعاه ، فخرج إليه ، ثم مر بعمر فدعاه ، فخرج إليه ، فانطلق حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار ، فقال لصاحب الحائط : "أطعمنا بُسْراً" فجاء بِعذْق ، فوضعه فأكلوا ، ثم دعا بماء فشرب ، فقال : "لَتُسْأَلُنّ عن هذا يومَ القيامة" قال : وأخذ عمر العِذْق ، فضرب به الأرض حتى تناثر البسر نحو وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال : يا رسول الله ، إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة ؟ قال : "نعم إلا من ثلاث : كِسرة يسُدّ بها جَوْعَته ، أو ثوب يستر به عَوْرته ، أو جُحْرٍ يأوي فيه من الحرّ والقُرّ" " .

واختلف أهل التأويل في النعيم المسؤول عنه على عشرة أقوال :

أحدها : الأمن والصحة ؛ قاله ابن مسعود .

الثاني : الصحة والفراغ ؛ قاله سعيد بن جبير .

وفي البخاريّ عنه عليه السلام : " نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ "

الثالث : الإدراك بحواس السمع والبصر ؛ قاله ابن عباس .

وفي التنزيل : ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 36] .

وفي الصحيح عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول له : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ، ومالاً وولداً . . . " ، الحديث .

خرجه الترمذيّ وقال فيه : حديث حسن صحيح .

الرابع : ملاذ المأكول والمشروب ؛ قاله جابر ابن عبد الله الأنصاري .

وحديث أبي هريرة يدل عليه .

الخامس : أنه الغداء والعشاء ؛ قاله الحسن .

السادس : قول مكحول الشامي : أنه شِبعَ البطون ، وبارد الشراب ، وظلال المساكن ، واعتدال الخُلق ، ولذة النوم .

(102/829)

ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ : يعني عن شبع البطون . . . " فذكره .

ذكره الماوردي ، وقال : وهذا السؤال يعمّ الكافر والمؤمن ، إلا أن سؤال المؤمن تبشير بأن

يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

وسؤال الكافر تقريع أن قابل نعيم الدنيا بالكفر والمعصية.

وقال قوم: هذا السؤال عن كل نعمة، إنما يكون في حق الكفار، فقد "رُوي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال: يا رسول الله، أرأيتَ أُكلةً أكلتُها معك في بيت أبي الهيثم بن التَّيْهان، من خبز شعير ولحم وبُسْر قد ذنَّب، وماء عذب، أَتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نُسأل عنه؟ فقال عليه السلام: ذلك للكُفار، ثم قرأ: ﴿ وَهَلْ نجزي إلاَّ الكفور ﴾ [سبأ: 17]" ذكره القشيريّ أبو نصر.

وقال الحسن: لا يُسأَل عن النعيم إلا أهل النار.

وقال القشيري: والجمع بين الأخبار: أن الكل يُسْأَلون، ولكن سؤال الكفار توبيخ، لأنه قد ترك الشكر.

وسؤال المؤمن سؤال تَشْريف، لأنه شَكَر.

وهذا النعيم في كل نعمة.

قلت: هذا القول حسن، لأن اللفظ يعم.

وقد ذكر الفِرْيابي قال: حدّثنا ورقاء عن ابن أبي نَجيح عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ قال: كل شيء من لذة الدنيا.

وروى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله تعالى

لَيُعَدِّدِ نعمه على العبد يوم القيامة، حتى يَعُدَّ عليه: سألتني فلانة أن أزوّجكها، فيسميها باسمها، فزوجتكها" وفي الترمذي عن أبي هريرة قال:

"لما نزلت هذه الآية: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ قال الناس: يا رسول الله، عن أي النعيم نُسْأَل؟ فإنما هما الأسودان والعدوّ حاضر، وسيوفنا على عواتقنا.

(103/829)

قال: "إن ذلك سيكون" " وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أوّل ما يسأل عنه يوم القيامة يعني العبد أن يقال له: ألم نُصِحَّ لك جسمك، ونُرويَك من الماء البارد" قال: حديث ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده، فيوقفه بين يديه، فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله"

والجاه من نعيم الدنيا لا محالة.

وقال مالك رحمه الله: إنه صحة البدن، وطيب النفس.

وهو القول السابع.

وقيل: النوم مع الأمن والعافية.

وقال سفيان بن عيينة: إن ما سَدَّ الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس، لا يُسأل

عنه المرء يوم القيامة، وإنما يُسأل عن النَّعيم.

قال: والدليل عليه أن الله تعالى أسكن آدم الجنة.

فقال له: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ [طه: 119 118].

فكانت هذه الأشياء الأربعة ما يُسدّ به الجوع، وما يُدفع به العطش، وما يَسْتَكِنُّ فيه من الحر، ويَسْتُر به عَورته لآدم عليه السلام بالإطلاق، لا حساب عليه فيها، لأنه لا بدّ له منها.

قلت: ونحو هذا ذكره القشيري أبو نصر، قال: إن مما لا يسأل عنه العبد لباساً يواري سوأته، وطعاماً يقيم صُلْبه، ومكاناً يُكِنه من الحرّ والبرد.

قلت: وهذا منتزع من قوله عليه السلام: "ليسَ لابن آدمَ حَقٌّ في سِوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجِلْف الخبز والمَاء" خرجه الترمذيّ.

وقال النضر بن شُميل: جِلف الخبز: ليس معه إدام.

وقال محمد بن كعب: النعيم: هو ما أنعم الله علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وفي التنزيل: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى المؤمنين إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران: 164].

وقال الحسن أيضاً والمفضَّل : هو تخفيف الشرائع ، وتيسير القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : 78] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : 17] .

قلت : وكل هذه نِعم ، فيسأل العبد عنها : هل شكر ذلك أم كفر .

والأقوال المتقدمة أظهر .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(105/829)

وقال ابن كثير :

تفسير سورة التكاثر

وهي مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) ﴾

يقول تعالى : شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم

ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر ، وصرتم من أهلها ؟ !

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا زكريا بن يحيى الوَقار المصري ، حدثنا خالد بن عبد الدايم ، عن ابن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ عن الطاعة ، ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ حتى يأتيكم الموت" (1) .

وقال الحسن البصري : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ في الأموال والأولاد .

وفي صحيح البخاري ، في "الرقاق" منه : وقال لنا أبو الوليد : حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك ، عن أبي بن كعب قال : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ يعني : "لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب" .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة : سمعت قتادة يحدث عن مُطْرِّف - يعني ابن عبد الله بن الشخير - عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : " ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ يقول ابن آدم : مالي مالي . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ " .

ورواه مسلم والترمذي والنسائي ، من طريق شعبة ، به (2) .

---

(1) وهذا معضل ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف .

(2) المسند (24/4) وصحيح مسلم برقم (2958) وسنن الترمذي برقم (3354) وسنن النسائي (238/6) .

(106/829)

وقال مسلم في صحيحه : حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا حفص بن ميسرة ، عن العلاء ، عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يقول العبد : مالي مالي ؟ وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فاقتنى وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس" . تفرد به مسلم (1) .

---

(1) صحيح مسلم برقم (2959) .

(107/829)

وقال البخاري : حدثنا الحُمَيدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، سمع أنس بن مالك يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يتبع الميت ثلاثةٌ ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد : يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله" .

وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي ، من حديث سفيان بن عيينة ، به (1) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثنا قتادة ، عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان : الحرص والأمل" . أخرجاه في الصحيحين (2) .

وذكر الحافظ ابن عساكر ، في ترجمة الأحنف بن قيس (3) - واسمه الضحاك - أنه رأى في يد رجل درهما فقال : لمن هذا الدرهم ؟ فقال الرجل : لي . فقال : إنما هو لك إذا أنفقته في أجر أو ابتغاء شكر . ثم أنشد الأحنف متمثلا قول الشاعر :

أنتَ للمال إذا أمسكتَه . . . فإذا أنفقتَه فالمالُ لَكْ . . .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة قال : صالح بن حيان حدثني عن ابن بريدة في قوله : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ قال : نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار ، في بني حارثة وبني الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثلُ فلان بن فلان ، وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور . فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ؟ يشيرون إلى القبر - ومثل فلان ؟ وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأنزل الله : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل .

وقال قتادة : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان ونحن أعَدُّ من بني فلان ، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم ، والله ما زالوا كذلك حتى

صاروا من أهل القبور كلهم.

---

(1) صحيح البخاري برقم (6514) وصحيح مسلم برقم (2960) وسنن الترمذي برقم (2379) وسنن النسائي الكبرى برقم (2064).

(2) المسند (3/115) وصحيح البخاري برقم (6421) وصحيح مسلم برقم (1047).

(3) تاريخ دمشق (8/443 "المخطوط").

(108/829)

والصحيح أن المراد بقوله: ﴿ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أي: صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على رجل من الأعراب يعوده، فقال: "لا بأس، طهور إن شاء الله". فقال: قلت: طَهُور؟! بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور! قال: "فنَعَم إذًا" (1).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني، أخبرنا حكام بن سلم الرازي، عن عمرو بن أبي قيس، عن الحجاج، عن المنْهال، عن زر بن حُبَيْش، عن علي قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ

الْمَقَابِرَ ﴾

---

(1) صحيح البخاري برقم (5662، 5656، 7470) .

(109/829)

ورواه الترمذي عن أبي كُرَيب، عن حَكَّام بن سلم [به] وقال: غريب (1) .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سلمة بن داود العُرضي حدثنا أبو المليح الرقي، عن ميمون بن مهران قال: كنت جالسا عند عمر بن عبد العزيز، فقرأ: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ فلبث هنيهة فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله.

قال أبو محمد: يعني أن يرجع إلى منزله -إلى جنة أو نار. وهكذا ذُكر أن بعضَ الأعراب سمع رجلا يتلو هذه الآية: ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ فقال: بُعثَ اليوم ورب الكعبة. أي: إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره.

وقوله: ﴿ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال الحسن البصري: هذا وعيد بعد وعيد.

وقال الضحاك: ﴿ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني: الكفار، ﴿ ثُمَّ كَلا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

يعني : أيها المؤمنون .

وقوله : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أي : لو علمتم حق العلم ، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة ، حتى صرتم إلى المقابر .

ثم قال : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم ، وهو قوله : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ توعَّدَهم بهذا الحال ، وهي رؤية النار التي إذا زفرت زفرة خرّ كل ملك مقرب ، ونبي مرسل على ركبتيه ، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال ، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك .

وقوله : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أي : ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم ، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك . ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته .

---

(1) سنن الترمذي برقم (3355) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا زكريا بن يحيى الخزاز المقري ، حدثنا عبد الله ابن عيسى أبو خالد الخزاز ، حدثنا يونس بن عبيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الظهيرة ، فوجد أبا

بكر في المسجد فقال : "ما أخرجك هذه الساعة ؟ " قال : أخرجني الذي أخرجك يا رسول الله . قال : وجاء عمر بن الخطاب فقال : "ما أخرجك يا ابن الخطاب ؟ " قال أخرجني الذي أخرجكما . قال : فقعد عمر ، وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثهما ، ثم قال : "هل بكما من قوة ، تنطلقان إلى هذا النخل فتصيبان طعامًا وشرابًا

وظلا ؟ " قلنا : نعم . قال : "مُروا بنا إلى منزل ابن التَّيهان أبي الهيثم الأنصاري" . قال : فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أيدينا ، فسلم واستأذن - ثلاث مرات - وأم الهيثم من وراء الباب تسمع الكلام ، تريد أن يزيدها رسول الله صلى الله عليه وسلم من السلام ، فلما أراد أن ينصرف خرجت أم الهيثم تسعى خلفهم ، فقالت : يا رسول الله ، قد - والله - سمعت تسليمك ، ولكن أردت أن تزيدنا من سلامك . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خيرًا" . ثم قال : "أين أبو الهيثم ؟ لا أراه" . قالت : يا رسول الله ، هو قريب ذهب يَستعذبُ الماء ، ادخلوا فإنه يأتي الساعة إن شاء الله ، فبسطت - بساطا تحت شجرة ، فجاء أبو الهيثم ففرح بهم وقرت عيناه بهم ، فصعد على نخلة فصرم

لهم أعذاقًا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حَسْبُكَ يا أبا الهيثم" . قال : يا رسول الله ، تأكلون من بُسره ، ومن رطبه ، ومن تَذْنُوبه ، ثم أتاهم بماء فشربوا عليه ،

(112/829)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذا من النعيم الذي تسألون عنه" (1) هذا غريب من هذا الوجه .

وقال ابن جرير : حدثني الحُسَين بن علي الصدائي ، حدثنا الوليد بن القاسم ، عن يزيد بن كيسان ، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : بينما أبو بكر وعمر جالسان ، إذ جاءهما النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "ما أجلسكما ها هنا ؟" قالا والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع . قال : "والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره" . فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار ، فاستقبلتهم المرأة ، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم : "أين فلان ؟" فقالت : ذهب يستعذب لنا ماء . فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال : مرحبا ، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم . فعلق قربته بكرب نخلة وانطلق فجاءهم بعذق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "ألا كنت اجتنيت" ؟ فقال : أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم . ثم أخذ الشفرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إياك والحلوب

؟ " فذبح لهم يومئذ ، فأكلوا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لتسألن عن هذا يوم القيامة . أخرجكم من بيوتكم الجوع ، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا ، فهذا من النعيم" (2) .

ورواه مسلم من حديث يزيد بن كيسان ، به (3) ورواه أبو يعلى وابن ماجة ، من حديث المحاربي ، عن يحيى بن عُبيد الله ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن أبي بكر الصديق ، به (4) وقد رواه أهل السنن الأربعة ، من حديث عبد الملك بن عمير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، بنحو من هذا السياق وهذه القصة (5) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج ، حدثنا حشرج ، عن أبي نُصرة ، عن أبي عسيب - يعني

---

(1) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (253/19) من طريق زكريا بن يحيى ، عن عبد الله بن عيسى ، به . وقال الهيثمي في المجمع (317/10) : "فيه عبد الله بن عيسى - أبو خلف - وهو ضعيف" .

(2) تفسير الطبري (185/30) .

(3) صحيح مسلم برقم (2038) .

(4) مسند أبي يعلى (79/1) وسنن ابن ماجة برقم (3181) .

(5) سنن أبي داود برقم (5128) وسنن الترمذي برقم (2822) ، (2369) وسنن النسائي الكبرى برقم (11697) وسنن ابن ماجة برقم (3745) .

(113/829)

مولى رسول الله – قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلا فمر بي ، فدعاني فخرجت إليه ، ثم مر بأبي بكر فدعاه فخرج إليه ، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه ، فانطلق حتى أتى حائطا لبعض الأنصار ، فقال لصاحب الحائط : "أطعمنا" . فجاء بعِذْق فوضعه ، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم دعا بماء بارد فشرب ، وقال : "لتسألن عن هذا يوم القيامة" . قال : فأخذ عُمَرُ العذْقَ فضرب به الأرض ، حتى تناثر البُسرُ قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : يا رسول الله ، إنا لمسئول عن هذا يوم القيامة ؟ قال : "نعم ، إلا من ثلاثة : خرقة لف بها الرجل عورته ، أو كسرة سَدَّ بها جوعته ، أو جحر تَدخَّل فيه من الحر والقر" (1) تفرد به أحمد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد ، حدثنا عمار ، سمعت جابر بن عبد الله يقول : أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رطبا ، وشربوا ماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هذا من النعيم الذي تسألون عنه" .

ورواه النسائي، من حديث حماد بن سلمة [عن عمار بن أبي عمار عن جابر] به (2).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا محمد بن عمرو، عن صفوان بن سليم، عن محمود بن الربيع قال: لما نزلت: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قالوا: يا رسول الله، عن أي نعيم نُسأل؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو حاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال أما إن ذلك سيكون" (3).

---

(1) المسند (81/5).

(2) المسند (351/3) وسنن النسائي (246/6).

(3) المسند (429/5).

وقال أحمد: حدثنا أبو عامر، عبد الملك بن عمرو، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا معاذ بن عبد الله بن حُبَيب، عن أبيه، عن عمه قال: كنا في مجلس فطلع علينا النبي صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه أثر ماء، فقلنا: يا رسول الله، نراك طيب النفس. قال: "أجل". قال: ثم خاض الناس في ذكر الغنى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا

بأس بالغنى لمن اتقى الله ، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم" .

ورواه ابن ماجة ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن خالد بن مخلد ، عن عبد الله بن سليمان ، به (1) .

وقال الترمذي : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا شبابة ، عن عبد الله بن العلاء ، عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزم الأشعري قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال النبي صلى الله عليه وسلم : "إن أول ما يسأل عنه - يعني يوم القيامة - العبد من النعيم أن يقال له : ألم نُصِحّ لك جسمك ، ونُرْوِكَ من الماء البارد ؟ " .

---

(1) المسند (372/5) وسنن ابن ماجة برقم (2141) وقال البوصيري في الزوائد (158/2) : "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات" .

(115/829)

تفرد به الترمذي . ورواه ابن حبان في صحيحه ، من طريق الوليد بن مسلم ، عن عبد الله بن العلاء بن زَبْر ، به (1) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا مُسَدَّد ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن

عمرو، عن يحيى بن حاطب، عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لما نزلت: ﴿ [ثُمَّ] لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قالوا: يا رسول الله، لأي نعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان التمر والماء؟ قال: "إن ذلك سيكون". وكذا رواه الترمذي وابن ماجة، من حديث سفيان - هو ابن عيينة - به (2) ورواه أحمد عنه (3) وقال الترمذي: حسن.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله الظهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، عن الحكم ابن أبان، عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قالت الصحابة: يا رسول الله، وأي نعيم نحن فيه، وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير؟ فأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم: قل لهم: أليس تحتذون النعال، وتشربون الماء البارد؟ فهذا من النعيم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن ابن أبي ليلى - أظنه عن عامر - عن ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿ [ثُمَّ] لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قال: "الأمن والصحة" (4).

وقال زيد بن أسلم، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ يعني: شبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخلق، ولذة النوم. رواه ابن أبي حاتم بإسناده المتقدم، عنه في أول السورة.

---

(1) سنن الترمذي برقم (3358) وصحيح ابن حبان برقم (7320) "الإحسان".

(2) سنن الترمذي برقم (3356) وسنن ابن ماجة برقم (4158) .

(3) المسند (174/1) .

(4) ورواه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد برقم (855) من طريق محمد بن سليمان الأصبهاني ، به .

(116/829)

وقال سعيد بن جبير : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا .

وقال الحسن البصري : نعيم الغداء والعشاء ، وقال أبو قلابة : من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقي . وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ قال : النعيم : صحة الأبدان والأسماع والأبصار ، يسأل الله العباد فيما استعملوها ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا ﴾ [الإسراء : 36] .

وثبت في صحيح البخاري ، وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه ، من حديث عبد الله

بن سعيد ابن أبي هند ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(117/829)

"نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ" (1) .

ومعنى هذا : أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما ، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه ، فهو مغبون .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا القاسم بن محمد بن يحيى المروزي ، حدثنا علي بن الحسن ابن شقيق ، حدثنا أبو حمزة ، عن ليث ، عن أبي فزارة ، عن يزيد بن الأصم ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما فوق الإزار ، وظل الحائط ، وخُبْز ، يحاسب به العبد يوم القيامة ، أو يسأل عنه" (2) ثم قال : لا نعرفه إلا بهذا الإسناد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بهز وعفان قالا حدثنا حماد - قال عفان في حديثه : قال إسحاق ابن عبد الله ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يقول الله ، عز وجل - قال عفان : يوم القيامة - : يا بن آدم ، حملتك على الخيل والإبل ،

وزوجتك النساء ، وجعلتك ترْبَع وترأس ، فأين شكر ذلك ؟ " (3) تفرد به من هذا الوجه .

آخر تفسير سورة "التكاثر" [ولله الحمد والمنة] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 8 صـ 472.479 ﴾

---

(1) صحيح البخاري برقم (6412) وسنن الترمذي برقم (2304) وسنن ابن ماجة برقم (4170) .

(2) مسند البزار برقم (3643) "كشف الأستار" وليث بن أبي سليم ضعيف .

(3) المسند (492/2) .

وقال أبو حيان :

﴿ ألهاكم ﴾ :

شغلكم فعلى ما روى الكلبي ومقاتل يكون المعنى : أنكم تكاثرتم بالأحياء حتى استوعبتم عددهم ، صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات .

عبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة المقابر تهكماً بهم ، وهذا معنى ينبو عنه لفظ زرتم .

قيل : ﴿ حتى زرتم ﴾ : أي متم وزرتم بأجسادكم مقابرها ، أي قطعتم بالتكاثر والمفاخرة بالأموال والأولاد والعدد أعماركم حتى متم .

وسمع بعض الأعراب ﴿ حتى زرتم ﴾ فقال : بعث القوم للقيامة ، ورب الكعبة فإن الزائر منصرف لا مقيم .

وعن عمر بن عبد العزيز نحو من قول الأعرابي .

وقيل : هذا تأنيث على الإكثار من زيارة تكثراً بمن سلف وإشادة بذكره .

وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نهى عن زيارة القبور ، ثم قال : " فزوروها أمر إباحة للاتعاظ بها لا لمعنى المباهاة والتفاخر " قال ابن عطية : كما يصنع الناس في ملازمتها وتسليمها بالحجارة والرخام ، وتلوينها شرفاً ، وبيان النواويس عليه .

وابن عطية لم ير إلا قبور أهل الأندلس ، فكيف لو رأى ما تباهى به أهل مصر في مدافنهم بالقرافة الكبرى ، والقرافة الصغرى ، وباب النصر وغير ذلك ، وما يضيع فيها من الأموال ، والتعجب من ذلك ، ولرأى ما لم يخطر ببال ؟

وأما التباهي بالزيارة ، ففي هؤلاء المنتمين إلى الصوف أقوام ليس لهم شغل إلا زيارة القبور . زرت قبر سيدي فلان بكذا ، وقبر فلان بكذا ، والشيخ فلاناً بكذا ، والشيخ فلاناً بكذا ؛ فيذكرون أقاليم طافوها على قدم التجريد ، وقد حفظوا حكايات عن أصحاب تلك القبور وأولئك المشايخ بحيث لو كتبت لجاءت أسفاراً ، وهم مع ذلك لا يعرفون فروض

الوضوء ولا سننه ، وقد سخر لهم الملوك وعوام الناس في تحسين الظن بهم وبذل أموالهم لهم .

(119/829)

وأما من شذا منهم لأن يتكلم للعامة فيأتي بعجائب ، يقولون هذا فتح هذا من العلم اللدني علم الخضر ، حتى أن من ينتمي إلى العلم لما رأى رواج هذه الطائفة سلك مسلكهم ونقل كثيراً من حكاياتهم ومزج ذلك بيسير من العلم طلباً للمال والجاه وتقبيل اليد ؛ ونحن نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لطاعته .

وقرأ الجمهور : ألهاكم على الخبر ؛ وابن عباس وعائشة ومعاية وأبو عمران الجوني وأبو صالح ومالك بن دينار وأبو الجوزاء وجماعة : بالمد على الاستفهام ، وقد روي كذلك عن الكلبي ويعقوب ، وعن أبي بكر الصديق وابن عباس أيضاً والشعبي وأبي العالية وابن أبي عبلة والكسائي في رواية : أألهاكم بهمزتين ، ومعنى الاستفهام : التوبيخ والتقرير على قبح فعلهم ؛ والجمهور : على أن التكرير توكيد .

قال الزمخشري : والتكرير تأكيد للردع والإنذار ؛ وثم دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشد ، كما تقول للمنصوح : أقول لك ثم أقول لك لا تفعل ، والمعنى : سوف تعلمون

الخطاب فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله تعالى .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ في القبور ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ في البعث : غاير بينهما بحسب التعلق ، وتبقى ثم على بابها من المهلة في الزمان .

وقال الضحاك : الزجر الأول ووعيده للكافرين ، والثاني للمؤمنين .

﴿ كلا لو تعلمون ﴾ : أي ما بين أيديكم مما تقدمون عليه ، ﴿ علم اليقين ﴾ : أي كعلم ما تستيقنونه من الأمور لما ألهاكم التكاثر أو العلم اليقين ، فأضاف الموصوف إلى صفته وحذف الجواب لدلالة ما قبله عليه وهو ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ .

وقيل : اليقين هنا الموت .

وقال قتادة : البعث ، لأنه إذا جاء زال الشك .

(120/829)

ثم قال : ﴿ لترون الجحيم ﴾ : والظاهر أن هذه الرؤية هي رؤية الورود ، كما قال تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ ولا تكون رؤية عند الدخول ، فيكون الخطاب للكفار لأنه قال بعد ذلك : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ .

﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ : تأكيد للجملة التي قبلها ، وزاد التوكيد بقوله : ﴿ عين اليقين ﴾ نفياً لتوهم المجاز في الرؤية الأولى .

وعن ابن عباس : هو خطاب للمشركين ، فالرؤية رؤية دخول .

وقرأ ابن عامر والكسائي : لترون بضم التاء ؛ وباقي السبعة : بالفتح ، وعليّ وابن كثير في رواية ، وعاصم في رواية : بفتحها في ﴿ لترون ﴾ ، وضمها في ﴿ لترونها ﴾ ، ومجاهد والأشهب وابن أبي عبلة : بضمهما .

وروي عن الحسن وأبي عمرو بخلاف عنهما أنهما همزا الواوين ، استثقلوا الضمة على الواو فهمزوا كما همزوا في وقتت ، وكان القياس أن لا تهمز ، لأنها حركة عارضة لالتقاء الساكنين فلا يعتد بها .

لكنها لما تمكنت من الكلمة بحيث لا تزول أشبهت الحركة الأصلية فهمزوا ، وقد همزوا من الحركة العارضة ما يزول في الوقف نحو استرؤا الصلاة ، فهمز هذه أولى .

﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ : الظاهر العموم في النعيم ، وهو كل ما يتلذذ به من مطعم ومشرب ومفرش ومركب ، فالمؤمن يسأل سؤال إكرام وتشريف ، والكافر سؤال توبيخ وتقريع .

وعن ابن مسعود والشعبي وسفيان ومجاهد : هو الأمن والصحة .

وعن ابن عباس : البدن والحواس فيم استعملها .

وعن ابن جبير : كل ما يتلذذ به .

وفي الحديث : " بيت يكنك وخرقة تواريك وكسرة تشد قلبك وما سوى ذلك فهو نعيم " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(121/829)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) ﴾

القراءات : ﴿ لترون ﴾ بضم التاء من الإراءة مجهولاً : ابن عامر وعلي .

الوقوف ﴿ التكاثر ﴾ ه لا ﴿ المقابر ﴾ ه ك لأن ﴿ كلاّ ﴾ بمعنى حقاً وقد يحمل على الردع عن التكاثر ﴿ سوف تعلمون ﴾ ه لا ﴿ سوف تعلمون ﴾ ه ﴿ اليقين ﴾ ه ط لأن جواب " لو " محذوف وقوله ﴿ لترون ﴾ جواب قسم ﴿ الجحيم ﴾ ه لا ﴿ اليقين ﴾ ه ﴿ النعيم ﴾ ه .

(122/829)

التفسير: لما ذكر القارعة وأهوالها قال ﴿ ألهاكم ﴾ أي شغلكم التكاثر وهو المغالبة بالكثرة أو تكلف الافتخار بها مالاً وجاهاً عن التدبر في أمر المعاد فنسيتم القبر حتى زرتموه. ويروى أن بني عبد منافٍ وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عدداً فكثرهم أي غلبهم بالكثرة بنو عبد منافق فقالت بنوسهم: إن البغي أهلكنا في الجاهلية فعادونا بالأحياء والأموات أي عدوا مجموع أحيائنا وأمواتنا مع مجموع أحيائكم وأمواتكم ففعلوا فزاد بنوسهم فنزلت الآية. وهذه الرواية شديدة الطباق لظاهر الآية لقوله ﴿ زرتم ﴾ بصيغة الماضي وفيه تعجب من حالهم أنهم زاروا القبور في معرض المفاخرة والإستغراق في حب ما لا طائل تحته من التباهي بالكثرة والتباري فيها، مع أن زيارة القبور مظنة ترقيق القلب وإزالة القساوة كما قال صلى الله عليه وسلم "كنت نهيتكم عن زياة القبور ثم بدا لي فزوروها فإن في زيارتها تذكرة" من هنا قال بعضهم: أراد الحرص على المال قد شغلكم عن الدين فلا تلتفتون إليه إلا إذا زرتم المقابر فحينئذ ترق قلوبكم يعني أن حظكم من دينكم ليس إلا هذا القدر ونظيره قوله ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ [الملك: 23] أي لا أقنع منكم بهذا القدر من الشكر. وقيل: معنى الآية ألهاكم حرصكم على تكثير أموالكم عن طاعة ربكم حتى أتاكم الموت وأنتم على ذلك، ويندرج فيه من يمنع الحقوق المالية إلى حين الموت ثم يقول: أوصيت لفلان بكذا ولفلان بكذا، واستدلوا عليهم بما روى مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "يا ابن آدم تقول مالي مالي وهل لك

من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت " ثم قرأ ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾ أي حتى متم . وأورد عليه أن الزائر هو الذي يجيء ساعة ثم ينصرف . والميت يبقى في قبره مدة مديدة . وأيضاً إن قوله ﴿ زرتم ﴾ صيغة الماضي فكيف يحمل على المستقبل ؟ ويمكن أن يجاب عن الأول بأن مدة اللبث في

(123/829)

القبر بالنسبة إلى الأبد أقل من لحظة كما قال ﴿ كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ [الكهف : 19] وعن الثاني بأن المشرف على الموت كأنه على شفير القبر أو هو خبر عمن تقدمهم والخبر عنهم كالخبر عن متأخريهم لأنهم كانوا على طريقتهم .

(124/829)

أما تكرار رؤية الجحيم فقيل : إن الأول رؤيتها من بعيد كما قال ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴾ [الفرقان : 12] والثاني رؤيتها من قريب إذا وصلوا إلى شفيرها . وقيل : الأولى عند الورود ، والثاني بعد الدخول ، وأورد قوله ﴿ ثم لتسئلن ﴾ فيها فإن السؤال قبل

الدخول. وقيل: التثنية للتكرير والمراد تتابع الرؤية وإتصالها فكأنه قيل لهم: إن كنتم اليوم شاكين فيها فسترونها رؤية دائمة متصلة، فيجوز أن يكون قوله ﴿ علم اليقين ﴾ متعلقاً بالرؤيتين جميعاً، ويجوز أن يكون متعلقاً بالثانية لأن علمهم بها وبأحوالها وآلامها يزداد شيئاً فشيئاً حتى يصير الخبر عيناً. ومعنى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين قد مر في آخر "الواقعة" وفي السؤال عن النعيم وجهان: الأول أنه للكفار لما "روي أن أبا بكر لما نزلت الآية قال: يا رسول الله أرأيت أكلة أكلتها معك في بيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم وبسر وماء عذب، أتكون من النعيم الذي يسأل عنه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إنما ذلك للكفار ثم قرأ ﴿ وهل نجازي إلا الكفور ﴾ [سبأ: 17]" ولأن الخطاب في أول السورة للذين ألهاهم التكاثر عن الماد فناسب أن يكون الخطاب في آخر السورة أيضاً لهم. ويكون الغرض من السؤال التقريع حتى يظهر لهم أن الذي ظنوه سبباً للسعادة هو أعظم أسباب الشقاء لهم. الثاني العموم لوجوه منها خبر أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم "أول ما يسأل عن العبد يوم القيامة النعيم فيقال له ألم نصحح لك جسمك ألم نروك من الماء البارد" ومنها قول محمود بن لبيد: لمّا نزلت السورة قالوا: يا رسول الله إنما هو إنما هو الماء والتمر وسيوفنا على عواتقنا والعدو حاضر فعن أي نعيم يسأل؟ فقال: أما إنه سيكون وعن أنس لما نزلت الآية قام محتاج فقال: هل علي من النعمة

شيء ؟ قال : الظل والنعلان والماء البارد . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى

يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل به " وعن الباقر رضي الله عنه أن النعيم العافية . وعنه أن الله أكرم من أن يطعم عبداً ويسقيه ثم يسأله عنه ، وإنّما النعيم الذي عنه هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أما سمعت قوله تعالى ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً ﴾ [آل عمران : 164] وقيل : هو الزائد على الكفاية . وقيل : خمس نعم : شبع البطون وبارد الشراب ولذة النوم وإظلال المساكن واعتدال الخلق ، وعن ابن مسعود : الأمن والصحة والفراغ ، وعن ابن عباس : ملاذ المأكول والمشروب . وقيل : الانتفاع بالحواس السليمة . وعن الحسين بن الفضل : تخفيف الشرائع وتيسير القرآن . وقال ابن عمر : الماء البارد . والظاهر العموم لأجل لام الجنس إلا أن سؤال الكافر للتوبيخ لأنه عصة وكفر ، وسؤال المؤمن للتشريف فإنه أطاع وشكر . والظاهر أن هذا السؤال في الموقف وهو متقدم على مشاهدة جهنم . ومعنى " ثم " الترتيب في الإخبار أي ثم أخبركم أنكم تسألون يوم

القيامة عن النعيم. وقيل: هو في النار توبيخاً لهم كقوله ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألتهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ [الملك: 8] وقوله ﴿ ما سلككم ﴾ [المدثر: 42] ونحوه.

انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 554.557 ﴾

(126/829)

وقال الخطيب الشربينى:

سورة التكاثر

مكية وهي ثمان آيات وثمانية وعشرون كلمة ومائة وعشرون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ ذي الجلال والإكرام ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ بالإيجاد بعد الإعدام

﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه بتمام الإنعام.

ولما ختم القارعة بالشقي افتتح هذه بفعل الشقاوة ومبدأ الحشر لينزجر السامع. فقال تعالى:

﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ أي: شغلكم المباهاة والمفاخرة والمكاثرة بكثرة المال والعدد عن طاعة ربكم، وما ينجيكم من سخطه.

﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ أي: ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم منفقين

أعماركم في طلب الدنيا ، والاستباق إليها والتهالك عليها إلى أن أتاكم الموت ، لا همّ لكم غيرها عما هو أولى بكم من السعي لعاقبتكم ، والعمل لآخرتكم ، وزيارة القبر عبارة عن الموت . قال الأخطل :

*لن يخلص العام خليل عشراً ** ذاق الضماد أو يزور القبرا*

تنبيه : حتى غاية لقوله تعالى : ﴿ ألهاكم ﴾ وهو عطف عليه ، والمعنى : حتى أتاكم الموت فصرتم في المقابر زواراً ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار ، يقال لمن مات : قد زار قبره .

فإن قيل : شأن الزائر أن ينصرف قريباً والأموات ملازمون للقبور فكيف يقال : إنه زار القبر ، وأيضاً حتى زرتم إخبار عن الماضي فكيف يحمل على المستقبل .

أجيب : عن الأول : بأن سكان القبور لا بد أن ينصرفوا عنها ، فإن كل آت قريب ، وعن الثاني : لتحققه عبر عنه بالماضي كقوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله ﴾ (النحل :)

(127/829)

وقال أبو مسلم : إنّ الله تعالى يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعبيراً للكفار وهم في ذلك الوقت قد تقدّمت منهم زيارة القبور . وقال مقاتل والكلبي : نزلت في حيين من قريش بني

عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عدداً فكثرهم بنو عبد مناف ، وقالت بنو سهم : إنّ البغي أهلكنا في الجاهلية فعادّونا بالأحياء والأموات فكثرهم بنو سهم بثلاثة أبيات ، لأنهم كانوا في الجاهلية أكثر عدداً ، والمعنى : أنكم تكاثرتم بالأحياء حتى استوعبتم عددهم ثم صرتم إلى المقابر فتكاثرتم بالأموات عبر عن بلوغهم ذكر الموتى بزيارة القبور تهكماً بهم ، وإنما حذف الملهى عنه وهو ما يعنيهم من أمر الدين للتعظيم والمبالغة .

وقال قتادة : في اليهود قالوا نحن أكثر من بني فلان وبنو فلان أكثر من بني فلان ، شغلهم ذلك حتى ماتوا ضلالاً ، أو أنهم كانوا يزورون المقابر فيقولون : هذا قبر فلان ، وهذا قبر فلان عند تفاخرهم ، والمعنى : ألهاكم ذلك وهو مما لا يعينكم ولا يجدي عنكم في دنياكم وآخرتكم عما يعينكم من أمر الدين الذي هو أهمّ وأعنى من كل مهمّ من المقابر ، والمقابر : جمع مقبرة بفتح الباء وضمها ، ويسمى سعيد المقبري لأنه كان يسكن المقابر . قال القرطبي : لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة ، واعترضه ابن عادل : بأنّ الله تعالى قال في سورة أخرى : ﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ (عبس :

وهذا ممنوع فإنه قال المقابر ، فلفظ هذه الآية غير لفظ تلك . وزيارة القبور من أعظم الأدوية للقلب القاسي لأنها تذكر الموت والآخرة ، وذلك يحمل على قصر الأمل والزهد في الدنيا وترك الرغبة فيها قال صلى الله عليه وسلم "كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة" . وروى أبو هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم "لعن زوّارات القبور" . فتكره لهنّ لقلة صبرهنّ وكثرة جزعهنّ نعم زيارة النبيّ صلى الله عليه وسلم سنة لهنّ ويلحق به بقية الأنبياء والعلماء ، وينبغي لمن زار القبور أن يتأدّب بآدابها ويحضر قلبه في إتيانها ، ولا يكون حظه منها الطواف عليها فقط فإنّ هذه حالة يشاركه فيها البهائم ، بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى وإصلاح فساد قلبه ، ونفع الميت بما يتلوه عنده من القرآن والدعاء ، ويتجنب الجلوس عليها .

ويسلم إذا دخل المقابر فيقول : "السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون" . وإذا وصل على قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضاً ، وأتاه من قبل وجهه لأنه في زيارته كمخاطبه حياً ، ثم يعتبر بمن صار تحت التراب ، وانقطع عن الأهل والأحباب ، ويتأمّل حال من مضى من إخوانه كيف انقطعت آمالهم ولم تغن عنهم أموالهم ، ومجيء التراب على محاسنهم ووجوههم ، وافترقت في التراب أجزاؤهم ، وترمل من بعدهم نساؤهم ، وشمل ذل اليتم أولادهم وأنه لا بدّ صائر إلى مصيرهم ، وأنّ حاله كحالهم وماله كمالهم .

وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه قال : "انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية قال : يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما تصدّقت فأمضيت ، أو أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت" . وعن مالك قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ، ويبقى واحد يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله" . وقرأ ألهاكم حمزة والكسائي بالإمالة محضة ، وقرأ ورش بالفتح وبين اللفظين ، والباقون بالفتح .

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردع وتنبيه على أنه لا ينبغي للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بذنبه . وقوله تعالى : ﴿ سوف تعلمون ﴾ إنذار ليخافوا فينتبهوا عن غفلتهم وقوله تعالى :

﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ تكرير للتأكيد وثم للدلالة على أن الثاني أبلغ من الأوّل وأشدّ كما يقال للمنصوع أقول لك لا تفعل ، والمعنى سوف تعلمون والخطأ فيما أنتم عليه إذا عاينتم ما قدامكم من هول لقاء الله تعالى ، وإن هذا التنبيه نصيحة لكم ورحمة عليكم .

وعن عليّ كرم الله وجهه ورضي الله عنه ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ في الدنيا .

﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ في الآخرة فعلى هذا يكون غير مكرّر لحصول التغاير بينهما لأجل تغاير المتعلقين وثم على بابها من المهلة . وعن ابن عباس ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبور ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ في الآخرة إذا حل بكم العذاب فالتكرار للحالتين . وروى زر بن حبيش عن علي كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة فأشار على أنّ قوله تعالى : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ في القبور . وقيل : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ إذا نزل بكم الموت وجاءتكم رسل ربكم بنزع أرواحكم ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ في القيامة أنكم معذبون ، وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة ، من بعث وحشر وعرض وسؤال إلى غير ذلك من أهوال القيامة ، وقال الضحاك : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ يعني الكفار ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ أيها المؤمنون فالأوّل وعيد والثاني وعد .

ولما كان هذا أمراً صادقاً أشار تعالى إلى أنه يكفي هذه الأمّة المرحومة التأكيد بمرّة واحدة ، فقال سبحانه مردّداً الأمر بين تأكيد الردع تالياً بالأداة الصالحة له ، ولأن يكون بمعنى حقاً كما يقوله أئمة القراءة .

﴿ كلا ﴾ أي : ليشتدّ ارتداعكم عن التكاثر ، فإنه أساس كل بلاء فإنكم ﴿ لو تعلمون ﴾

أي : أيها الكافرون ﴿ علم اليقين ﴾ أي : لو يقع لكم علم على وجه اليقين مرّة من الدهر لعلمتم ما بين أيديكم فلم يلهكم التكاثر ولضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون فحذف الجواب أخوف ليذهب الوهم معه كل مذهب ولا يجوز أن يكون .

﴿ لترون الجحيم ﴾ جوابها الآن هذا مثبت ، وجواب لو يكون منفياً ولأنه تعالى عطف عليه ، ثم لتسألن وهو مستقبل لا بد من وقوعه وحذف جواب لو كثير . قال الأخفش : التقدير لو تعلمون علم اليقين لالهاكم بل هو جواب قسم محذوف أكد به الوعيد ، وأوضح به ما أنذرهم منه بعد إبهامه تفخيماً .

وقوله تعالى : ﴿ ثم لترونها ﴾ تكرير للتأكيد ، والأولى إذا رأتهم من مكان بعيد ، والثانية إذا وردوها والمراد بالأولى المعرفة والثانية الإبصار . ﴿ عين اليقين ﴾ أي : الرؤية التي هي نفس اليقين ، فإن علم المشاهدة أعلى مراتب اليقين . قال الرازي : واليقين مركب الإخلاص في هذا الطريق ، وهو غاية درجات العامة وأوّل خطرة الخاصة . قال صلى الله عليه وسلم "خير ما ألقي في القلب اليقين" وعلمه قبول ما ظهر من الحق وقبول ما غاب للحق والوقوف على ما قام بالحق . وقال قتادة : اليقين هنا الموت ، وعنه أيضاً . البعث ، أي : لو تعلمون علم الموت ، أو البعث فعبر عنه الموت باليقين ، والعلم من أشدّ البواعث على العمل . وقيل : لو تعلمون اليوم في الدنيا علم اليقين بما أمامكم مما وصفت . .

﴿ لترونّ الجحيم ﴾ بعيون قلوبكم ، فإنّ علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك . وقرأ لترونَ ابن عامر والكسائي بضم التاء ، والباقون بالفتح .

(131/829)

﴿ ثم لتسئلنّ ﴾ حذف منه نون الرفع لتوالي النونات ، والواو لالتقاء الساكنين ﴿ يومئذ ﴾ أي : يوم رؤيتها ﴿ عن النعيم ﴾ وهو ما يلتذ به في الدنيا من الصحة والفراغ والأمن والمطعم والمشرب وغير ذلك ، والمراد بذلك ما يشغله عن الطاعة للقرينة والنصوص الكثيرة كقوله تعالى : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ﴾ (الأعراف :)

وقوله تعالى : ﴿ كلوا من الطيبات ﴾ (المؤمنون :)

وقال الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار ، لأنّ أبا بكر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية قال : يا رسول الله ، أرأيت أكلة أكلتها معك في بيت أبي الهيثم من خبز وشعير ولحم وبسر وماء عذب ، أيكون من النعيم الذي يسأل عنه ، فقال صلى الله عليه وسلم "إنما ذلك للكفار ثم قرأ صلى الله عليه وسلم ﴿ وهل نجازي إلا الكفور ﴾ (سبأ :)

" لأنّ ظاهر الآية يدل على ذلك لأنّ الكفار ألهاهم التكاثر بالدنيا والتفاخر بلذاتها عن طاعة الله تعالى ، والاشتغال بشكره فالله تعالى يسألهم عنها يوم القيامة حتى يظهر لهم أن

الذي ظنوه لسعادتهم كان من أعظم الأسباب لشقاوتهم . وقيل : السؤال عام في حق المؤمن والكافر لقوله صلى الله عليه وسلم "أوّل ما يسأل العبد يوم القيامة عن النعيم فيقال له : ألم نصحح جسمك ، ألم نروك من الماء البارد ؟" . وقيل : الزائد على ما لا بدّ منه ، وقيل : غير ذلك . قال الرازي : والأولى على جميع النعم لأنّ الألف واللام تفيد الاستغراق وليس صرف اللفظ على البعض أولى من صرفه إلى الباقي ، فيسأل عنها هل شكرها أم كفرها .

وإذا قيل : إنّ هذا السؤال للكافر ، فقيل : هو في موقف الحساب ، وقيل : بعد دخول النار يقال لهم : إنما حل بكم هذا العذاب لاشتغالكم في الدنيا بالنعيم عن العمل الذي ينجيكم من هذه النار ، ولو صرفتم عمركم إلى طاعة ربكم لكنتم اليوم من أهل النجاة .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من قرأ ألهاكم التكاثر لم يحاسبه الله بالنعيم الذي أنعم به عليه في دار الدنيا ، وأعطي من الأجر كأنما قرأ ألف آية" حديث موضوع إلا آخره ، فرواه الحاكم بلفظ "ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم

قالوا : ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية ؟ قال : أو ما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 416. 420 ﴾

(133/829)

وقال أبو السعود :

﴿ ألهاكم التكاثر ﴾

أَىْ شغلكُم التغالبُ في الكثرةِ وَالتفاخرُ بها . رُوِىَ أَنَّ بَنِي عبدِ مَنَافٍ وبَنِي سَهْمٍ تَفَاخرُوا وَتعادَّوا وَتكاثرُوا بالسَّادةِ والأشرافِ في الإِسلامِ فقالَ كلٌّ منَ الفريقينِ نحنُ أكثرُ منكم سيداً وأعزُّ عزيزاً وَأعظمُ نفراً فكثَرَهُمْ بنُو عبدِ مَنَافٍ فَقَالَ بنُو سَهْمٍ إنْ البغَي أفنانَا في الجَاهليةِ فعادُّونَا بالأَحياءِ وَالأَمْواتِ فكَثَرهُمْ بنُو سَهْمٍ والمَعنى أنكُم تكاثرتُمْ بالأَحياءِ ﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ أي حَتَّى إذَا استوعبتُمْ عددهُم صِرْتُمْ إلى التفاخرِ والتكاثرِ بالأمواتِ فعبرَ عنْ بلوغِهم ذكرَ المَوتى بزيارةِ القبورِ تهكماً بهِمْ وقيل كَانُوا يزورونَ المقابَر فيقولونَ هَذَا قبرُ فُلانٍ وهَذا قبرُ فُلانٍ يفتخرونَ بذلكَ وقيلَ : المَعْنى ألهاكُم التكاثُر بالأموالِ وَالأولادِ إلى أَنْ متمْ وقبرتمْ مضيعينَ أعماركُم في طلبِ الدُّنيا معرضينَ عَمَّا يهمكُم من السعيِ لأُخرَاكُم فتكونُ زيارةُ القبورِ عبارةً عنِ الموتِ وقُرِىءَ أألهاكُم عَلى الاستفهامِ التقريريِّ ﴿ كَلاَّ ﴾

رَدْعٌ وتنبيهٌ عَلَى أنَّ العاقل ينبغي أنْ لا يكونَ معظمُ هَمِّه مقصُوراً عَلى الدُّنيا فإنَّ عاقبةَ ذلكَ وخيمةٌ ﴿ سَوْفَ تَعْلَمونَ ﴾ سوءَ مغبةِ مَا أَنتم عليهِ إذَا عاينتُمْ عاقبتَهُ .

(134/829)

﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمونَ ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ وثمَّ للدلالةِ عَلَى أَنَّ الثَّاني أبلغُ منَ الأولِ أو الأولُ عندَ الموتِ أو في القبرِ والثَّاني عندَ النشورِ ﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليقين ﴾ أَيْ لَوْ تعلمونَ ما بينَ أيديكُم علَمَ الأمرِ اليقينِ أيْ كعلمكِم ما تستيقنونَهُ لفعلتُم ما لاَ يُوصفُ ولا يكتنهُ فحذفَ الجوابَ للتهويلِ وقولُه تعالَى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴾ جوابُ قسمٍ مضمرٍ أُكِّدَ بِه لَهُ الوعيدُ وشددَ بِه التهديدُ وأوضحَ بِه مَا أُنذروه بعدَ إبهامِهِ تفخيماً .

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ أو الأُولى إذَا رأتْهُمْ منْ مكانٍ بعيدٍ والثانيةُ إذَا وردُوهَا أو المرادُ بالأَولى المعرفةُ وبالثانيةِ المشاهدةُ والمعاينةُ ﴿ عَيْنَ اليقين ﴾ أَي الرؤيةُ التي هيَ نفسُ اليقينِ فإنَّ علمَ المشاهدةِ أقْصى مراتبِ اليقينِ ﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ أيْ عنِ النعيمِ الذي ألهاكُم الالتذاذُ بِه عنِ الدينِ وتكاليفه فإنَّ الخطابَ مخصوصٌ بمنْ عكفَ همتَهُ عَلى استيفاءِ اللذاتِ ولَمْ يعشْ إلاَّ ليأكلَ الطيبَ ويلبسَ اللينَ ويقطعَ أوقاتَهُ باللهوِ والطَّربِ لاَ يعبأُ بالعلمِ والعملِ ولا يحمل نفسَهُ مشاقهما فأمَّا منْ تمتعَ بنعمةِ الله تعالَى وتقوَّى

بَها عَلى طاعتِهِ وكانَ ناهضاً بالشكرِ فهُوَ منْ ذلكَ بمعزلٍ بعيدٍ وَقيلَ الآيةُ مخصوصةٌ بالكفارِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(135/829)

وقال النخجواني :

[سورة التكاثر]

فاتحة سورة التكاثر

لا يخفى على من هداه اللّه إلى طريق المعرفة والإيمان وكشف لهم سبيل الكشف والعيان وأفاض عليه بلطفه سجال الفضل والإحسان أن الأموال والأولاد ومطلق المزخرفات الدنية الدنياوية ما هي الا أسباب التكاثر والتفاخر وعلل الاستكبار والخيلاء في النشأة الأولى وموجبات العوائق عن الوصول إلى روضة الرضا وجنة المأوى في النشأة الاخرى فلا بد لأرباب الارادة والولاء ان يتزهدوا عنها ولا يلتفتوا إليها مطلقا بل يتزودوا فيها للنشأة الاخرى بزاد التقوى فنعم الزاد التقوى والرضا بما جرى عليه القضاء لذلك خاطب سبحانه في هذه السورة اهل المفاخرة والمباهاة بتكاثر الأموال والأولاد وأوعدهم بما أوعدهم تسجيلا على ضلالهم وانحرافهم عن جادة العدالة الإلهية وصراط التوحيد فقال

بعد التيمن بِسْمِ اللَّهِ المتجلى بكمالاته في الإنسان ليربيه على نشأة الايمان والعرفان الرَّحْمنِ عليه بأنواع اللطف والإحسان ليتوجه نحوه سبحانه في عموم الأحيان الرَّحِيمِ له يهديه إلى مرتبة الكشف والعيان

[الآيات]

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ: أى شغلتكم المفاخرة والمباهاة بكثرة الأموال والأولاد أيها المنهمكون في بحر الغفلة والضلال عن توحيد ربكم وطاعته وقد كنتم أنتم على هذا طول عمركم

حَتَّى زُرْتُمُ ولحقتم الْمَقابِرَ وصرتم فيها أمواتا أمثالهم وبالجملة ما صدر عنكم ما جبلتم لأجله طول دهركم حتى متم وخرجتم عنها بلا ترتب حكمة المعرفة ومصلحة الايمان قال سبحانه ردعا لهم وتهديدا

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ان أمركم وشأنكم ما هذا التكاثر والتفاخر وستعلمون غدا ما يترتب عليه

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ان الأمر ليس كذلك كرره تأكيدا ومبالغة في التهديد والوعيد وتهويلا للموعود ثم سجل عليهم

سبحانه جهلهم وضلالهم رادعا لهم بقوله

كَلَّا يعنى ما تتكاثرون ولا تتفاخرون وتتباهون بهذه الزخرفة الفانية الدنية أيها الجاهلون المكابرون لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ أى لو علمتم يقينا علميا وصدقتم تصديقا قلبيا أنكم لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ لما تكاثرتم ولا تفاخرتم بما تفاخرتم وما خطر ببالكم أمثال هذه الخواطر الكاذبة الا انكم جاهلون ذاهلون غافلون عن رؤيتها بل أنتم منكرون لها أيها المسرفون المفرطون لذلك قد كنتم تفتخرون وتتكاثرون بالحطام الدنية الدنياوية وتستلذون بلذاتها الفانية وشهواتها الغير الباقية. ثم كرر سبحانه امر الرؤية تهويلا عليهم وتنصيصا على وعيدهم فقال

ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا أى الجحيم المعدة لتعذيبكم عَيْنَ الْيَقِينِ أى يقينا عينيا حين تعاينونها وترون منازلكم فيها

ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ ولتحاسبن أيها الناس الناسون لعهود الحق ومواثيقه يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ الفاني الذي قد شغلكم عن الحق وألهاكم عن طاعته وعبادته وصرفكم عن النعيم المقيم فحينئذ ظهر عندكم خطأ آرائكم وفساد اهوائكم التي قد كنتم عليها في النشأة الأولى ولا يفيدكم ظهورهما لانقضاء زمان التدارك والتلافي. ربنا آتنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب

خاتمة سورة التكاثر

عليك أيها المحمدي المتصف باليقين العلمي بعموم المعتقدات الأخروية ان تكون على ذكر

تام منها واستحضار كامل بحيث يكون علمك بها عينا بل حقا قبل حلولها ونزولها فعليك ان تركن عن الدنيا ومزخرفاتها الفانية ونعيمها الغير الباقية ولذاتها وتقنع بالكفاف وتتصف بالعزوبة والعفاف سيما في هذا الزمان الخوان وبين هذه الاخوان الذين هم اخوان الشياطين مشغولون بتكثير الزخارف والحطام في كل حين وأوان لتحصيل المال والجاه ليتفوقوا على الأقران وبالجملة عليك ان تلازم العزلة والفرار عن أصحاب الثروة والفضول فان صحبة الأشرار يعوقك عن ملاحظة الأسرار ويمنعك عن مشاهدة الأنوار . ربنا هب لنا من لدنك جذبة تنجينا من فضول الكلام وتوصلنا إلى دار السلام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الفواتح الإلهية حـ 2 صـ 527.528 ﴾

(137/829)

وقال الآلوسى :

﴿ ألهاكم ﴾

أي شغلكم وأصل اللهو الغفلة ثم شاعر في كل شاغر وخصه العرف بالشاغل الذي يسر المرء وهو قريب من اللعب ولذا ورد بمعناه كثيراً وقال الراغب اللهو ما يشغلك عما يعني ويهم وقيل ليس بذاك المراد به هنا الغفلة والمعنى جعلكم لاهين غافلين ﴿ التكاثر ﴾ أي

التباري في الكثرة والتباهي بها بأن يقول هؤلاء نحن أكثر وهؤلاء نحن أكثر .

﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ حتى إذا استوعبتم عدد الأحياء صرتم إلى المقابر وانتقلتم إلى ذكر من فيها فتكاثرتم بالأموات فالغاية داخلة في المغيا وقد تقدم من سبب النزول ما يوضح ذلك .

وعن الكلبي ومقاتل أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا أيهم أكثر عدداً فكثرتهم بنو عبد مناف فقالت بنو سهم أن البغي أهلكنا في الجاهلية فعادونا بالإحياء والأموات فكثرتهم بنو سهم وزيارة المقابر على ما تقدم على ظاهرها وأما على هذا فقد عبر بها عن بلوغهم ذكر الموتى كناية أو مجازاً واستحسن جعله تمثيلاً وفي "الكشاف" عبر بذلك عما ذكر تهكماً بهم ووجهه بعض بأنه كأنه قيل أنتم في غفلكم هذا كمن يزور القبور من غير غرض صحيح وبعض آخر بأن زيارة القبور للاتعاظ وتذكر الموت وهم عكسوا فجعلوها سبباً للغفلة وهذا أولى والمعنى ﴿ ألهاكم ﴾ ذلك وهو لا يعنيكم ولايجدي عليكم في دنياكم وآخرتكم عما يعنيكم من أمر الدين الذي هو أهم وأعنى من كل مهم وحذف الملهى عنه للتعظيم المأخوذ من الإبهام بالحذف والمبالغة في الذم حيث أشار إلى أن ما يلهي مذموم فضلاً عن الملهى عن أمر الدين وقيل المراد ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ بالأموال والأولاد إلى أن متم وقبرتم منفقين أعماركم في طلب الدنيا والاشتياق إليها والتهالك عليها إلى أتاكم الموت لا هم لكم غيرها عما هو أولى بكم من السعي لعاقبتكم والعمل لآخرتكم وصدره قد

أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس وهو ابن أبي حاتم وابن أبي شيبة عن الحسن وزيارة المقابر عليه عبارة عن الموت كما قال الشاعر

(138/829)

: إني رأيت الضمد شيئاً نكراً . . .

لن يخلص العام خليل عشرا ذاق الضماد أو يزور القبرا

وقال جرير

: زار القبور أبو مالك . . .

فأصبح ألأم زوارها

وفي ذلك إشارة إلى تحقيق البعث .

يحكى أن أعرابياً سمع ذلك فقال بعث القوم للقيامة ورب الكعبة فإن الزائد منصرف لا مقيم وعن مر بن عبد العزيز أنه قال لا بد لمن زاد أن يرجع إلى جنة أو نار وفيه أضياً إشارة إلى قصر زمن اللبث في القبور والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع أو لتغليب من مات أولاً أو لجعل موت آبائهم بمنزلة موتهم .

ومما يقضي منهم العجب قول أبي مسلم أن الله عز وجل يتكلم بهذه السورة يوم القيامة تعييراً

للكفار وهم في ذلك الوقت قد تقدمت منهم زيارة القبور وقيل هذا تأنيب على الإكثار من زيارة القبور تكثراً بمن سلف ومباهاة وتفاخراً به لا اتعاظاً وتذكراً للآخرة كما هو المشروع ويشير إليه خبر أبي داود نهيتكم عن زيادة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة ولا يخفى أن الآية بمعزل عن ذلك نعم لا كلام في ذم زيارة القبور للتفاخر بالمزور أو للتباهي بالزيارة كما يفعل كثير من الجهلة المنتسبين إلى المتصوفة في زياراتهم لقبور المشايخ عليهم الرحمة هذا مع ما لهم فيها من منكرات اعتقدوها طاعات وشنائع اتخذوها شرائع إلى أمور تضيق عنها صدور السطور وقرأ ابن عباس وعائشة ومعاوية وأبو عمران الجوني وأبو صالح ومالك بن دينار وأبو الجوزاء وجماعة آلهاكم بالمد على الاستفهام وروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وابن عباس أيضاً والشعبي وأبي العالية وابن أبي عبلة والكسائي في رواية أألهاكم بهمزتين والاستفهام للتقرير .

﴿ كَلَّآ ﴾ ردع عن الاشتغال بما لا يعنيه عما يعنيه وتنبيه على الخطا فيه لأن عاقبته وخيمة ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ سوء مغبة ما أنتم عليه إذا عاينتم عاقبته والعلم بمعنى المعرفة المتعدية لواحد .

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تكرير للتأكيد وثم للدلالة على أن الثاني أبلغ كما يقول العظيم لعبده أقول لك ثم أقول لك لا تفعل قيل ولكونه أبلغ نزل منزلة المغايرة فعطف وإلا فالمؤكد لا يعطف على المؤكد لما بينهما من شدة الاتصال وأنت تعلم أن المنع هو رأي اللغويين وقد صرح المفسرون والنحاة بخلافه.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه الأول في القبور والثاني في النشور فلا تكرير والتراخي على ظاهره ولا كلام في العطف وقال الضحاك الزجر الأول ووعيده للكافرين وما بعد للمؤمنين وهو خلاف الظاهر.

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أي لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر المتيقن أي كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور فالعلم مضاف للمفعول واليقين بمعنى المتيقن صفة لمقدر وجوز أبو حيان كون الإضافة من إضافة الموصوف إلى صفته أي العلم اليقين وفائدة الوصف ظاهرة بناء على أن العلم يطلق على غير اليقين وجواب لو محذوف للتهويل أي لو تعلمون كذلك لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه أو لشغلكم ذلك عن التكاثر وغيره أو نحو ذلك وقوله تعالى ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ جواب قسم مضمر أكد به الوعيد وشدد به التهديد وأوضح به ما أنذروه بعد إبهامه تفخيماً ولا يجوز أن يكون جواب لو الامتناعية لأنه محقق الوقوع وجوابها لا يكون كذلك وقيل يجوز ويكون المعنى سوف تعلمون الجزاء ثم قال سبحانه لو تعلمون

الجزاء علم اليقين الآن لترون الجحيم يعني تكون الجحيم دائماً في نظركم لا تغيب عنكم وهو ترى .

(140/829)

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ تكرير للتأكيد وثم للدلالة على الأبلغية وجوز أن تكون الرؤية الأولى إذا رأتهم من بعيد والثاني إذا وردوها أو إذ دخلوها أو الأولى إذا وردوها والثانية إذا دخلوها أو الأولى المعرفة والثانية المشاهدة والمعاينة وقيل يجوز أن يكون المراد لترون الجحيم غير مرة إشارة إلى الخلود وهذا نحو التثنية في وقوله تعالى ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ [الملك : 4] وهو خلاف الظاهر جداً .

(141/829)

﴿ عَيْنَ اليقين ﴾ أي الرؤية التي هي نفس اليقين فإن الانكشاف بالرؤية والمشاهدة فوق سائر الانكشافات فهو أحق بأن يكون عين اليقين فعين بمعنى النفس مثله في نحو جاء زيد نفسه وهو صفة مصدر مقدر أي رأية عين اليقين والعامل فيه لترونها وجوز أن يكون

متنازعاً فيه للفاعلين قبله وفي إطلاقه كلام لا أظنه يخفى عليك واليقين في اللغة على ما قال
السيد السند العلم الذي لا شك فيه وفي الاصطلاح اعتقاد الشيء إنه كذا مع اعقاد أنه لا
يمكن إلا كذا اعتقاداً مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال وقال الراغب اليقيم من صفة العلم فوق
المعرفة والدراية وإخواتهما يقال علم يقين ولا يقال معرفة يقين وهو سكون النفس مع ثبات
الفهم وفسر السيد اليقين بما سمعت ونقل عن أهل الحقيقة عدة تفسيرات فيه وعلم اليقين
بما أعطاه الدليل من إدراك الشيء على ما هو عليه وعين اليقين بما أعطاه المشاهدة
والكشف وجعل وراء ذلك حق اليقين وقال على سبيل التمثيل علم كل عاقل بالموت علم
اليقين وإذا عاين الملائكة عليهم السلام فهو عين اليقين وإذا ذاق الموت فهو حق اليقين ولهم
غير ذلك ومبنى أكثر ما قالوه على الاصطلاح فلا تغفل وقرأ ابن عامر والكسائي لترون
بضم التاء وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وابن كثير في رواية وعاصم كذلك بفتحها في لترون
وضمها في لترونها ومجاهد وأشهب وابن أبي عبلة بضمها فيهما وروي عن الحسن وأبي
عمر وبخلاف عنهما أنهما همزاً الواوين ووجه بأنهم استثقلوا الضمة على الواو فهمزوا
للتخفيف كما همزوا في ﴿ وقتت ﴾ وكان القياس ترك الهمز لأن الضمة حركة عارضة
لالتقاء الساكنين فلا يعتد بها لكن لما لزمن الكلمة بحيث لا تزول أشبهت الحركة الأصلية
فهمزوا وقد همزوا من الحركة العارضة التي تزول في الوقف نحو ﴿ اشترؤوا الضلالة ﴾ [

البقرة : 16] فالهمز من هذه أولى .

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾

(142/829)

قيل الخطاب للكفار وحكى ذلك عن الحسن ومقاتل واختاره الطيبي والنعيم عام لكل ما يتلذذ به من مطعم ومشرب ومفرش ومركب وكذا قيل في الخطابات السابقة وقد روي عن ابن عباس أنه صرح بأن الخطاب في ﴿ لترون الجحيم ﴾ [التكاثر : 6] للمشركين وحملوا الرؤية عليه على رؤية الدخول وحملوا السؤال هنا على سؤال التقريع والتوبيخ لما أنهم لم يشكروا ذلك بالإيمان به عز وجل والسؤال قيل يجوز أن يكون بعد رؤية الجحيم ودخولها كما يسألون كذلك عن أشياء أخر على ما يؤذن به قوله تعالى ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ [الملك : 8] وقوله سبحانه ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ [المدثر : 42] وذلك لأنه إذ ذاك أشد إيلاماً وادعى للاعتراف بالتقصير فثم على ظاهرها وأن يكون في موقف الحساب قبل الدخول فتكون ثم للترتيب الذكرى وقيل الخطاب مخصوص بكل من ألهاه دنياه عن دينه والنعيم مخصوص بما شغله عن ذلك لظهور أن الخطاب في ﴿ ألهاكم ﴾ الخ للمهلين فيكون قرينة على ما ذكر وللنصوص الكثيرة كقوله تعالى ﴿ قل من

حرم زينة الله ﴾ [الأعراف : 32] و﴿ كلوا من الطيبات ﴾ [المؤمنون : 51] وهذا أيضاً يحمل السؤال على سؤال التوبيخ ويدخل فيما ذكر الكفار وفسقة المؤمنين وقيل الخطاب عام وكذا السؤال يعم سؤال التوبيخ وغيره والنعيم خاص واختلف فيه على أقوال فاخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن ابن مسعود مرفوعاً هو الأمن والصحة وأخرج البيهقي عن الأمير على كرم الله تعالى وجهه قال النعيم العافية وأخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء مرفوعاً أكل خبز البر والنوم في الظل وشرب ماء الفرات مبردا وأخرج ابن جرير عن ثابت البناني مرفوعاً النعيم المسؤول عنه يوم القيامة كسرة تقوته وماء يرويه وثوب يواريه وأخرج الخطيب عن ابن عباس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسره قال الخصاف والماء وفلق الكسر وروي عنه وعن جابر أنه ملاذ المأكول والمشروب وقال الحسين بن الفضل

(143/829)

هو تخفيف الشرائع وتيسير القرآن ويروى عن جابر الجعفي من الإمامية قال دخلت على الباقر رضي الله تعالى عنه قال ما يقول أرباب التأويل في قوله تعالى لتسئلن يومئذ عن النعيم فقلت يقولون الظل والماء البارد فقال لو أنك ادخلت بيتك أحداً وأقعدته في ظل وسقيته

ائمن عليه قلت لا قال فالله تعالى أكرم من أن يطعم عبده ويسقيه ثم يسأله عنه قلت ما تأويله قال النعيم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم أنعم الله تعالى به على أهل العالم فاستنقذهم به من الضلالة أما سمعت قوله تعالى ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً ﴾ [آل عمران : 164] ومن رواية العياش من الإمامية أيضاً ان أبا عبد الله رضي الله تاعلى عنه قال لأبي حنيفة رضي الله تعالى عنه في الآية ما لنعيم عندك يا نعمان فقال القوت من الطعام والماء البارد فقال أبو عبد الله بئن أوقفك الله تعالى بين يديه حتى يسألك عن كل أكلة أكلتها أو شربة شربتها ليطولن وقوفك بين يديه فقال أبو حينفة فما النعيم قال نحن أهل البيت النعيم أنعم الله تعالى بنا على العباد وبنا ائتلفوا بعدان كانوا مختلفين وبنا ألف الله تاعلى بين قلوبهم وجعلهم إخواناً بعد ان كانوا أعداء وبنا هداهم إلى الإسلام وهو النعمة التي لا تنقطع والله تعالى سائلهم عن حث النعيم الذي أنعم سبحانه به عليهم وهو محمد وعثرته عليه وعليهم الصلاة والسلام وكلا الخبرين لا أرى لهما صحة وفيهما ما ينادي عن عدم صحتهما كما لا يخفى على من ألقى السمع وهو شهيد والحق عموم الخطاب والنعيم بيد أن المؤمن لا يثرب عليه في شيء ناله منه في الدنيا بل يسئل غير مثرب وإنما يثرب على الكافر كما ورد ذلك في حديث رواه الطبراني عن ابن مسعود ويدل على عموم الخطاب ما أخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وآخرون عن أبي هريرة قال خرج

النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما فقال ما أخرجكما من

(144/829)

بيوتكما هذه الساعة قالا الجوع يا رسول الله قال والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما فقوموا فقاموا معه عليه الصلاة والسلام فاتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رأته صلى الله عليه وسلم المرأة قالت مرحباً فقال النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فقال الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر فقال كلوا من هذا وأخذ المدية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم إياك والحلوب فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة وفي رواية ابن حبان وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه انطلقوا إلى منزل أبي أيوب الأنصاري فقالت امرأته مرحباً بنبي الله صلى الله عليه وسلم ومن معه فجاء أبو أيوب فقطع عذقاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أردت أن تقطع لنا هذا ألا جنيت من تمره قال أحببت يا رسول الله إن تأكلوا من تمره وبسره ورطبه ثم ذبح جدياً

فشوي نصفه وطبخ نصفه فلما وضع بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم أخذ من الجدي فجعله في رغيف وقال يا أبا أيوب ابلغ هذا فاطمة رضي الله تعالى عنها فإنها لم تصب مثل هذا منذ أيام فذهب به أبو أيوب إلى فاطمة رضي الله تعالى عنها فلما أكلوا وشبعوا قال النبي صلى الله عليه وسلم خبز ولحم وتمر وبسر ورطب ودمعت عيناه عليه الصلاة والسلام والذي نفسي بيده ان هذا لهو النعيم الذي تسألون عنه قال الله تعالى ثم لتسألن يوئذ عن النعيم فهذا النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة فكبر ذلك على أصحابه فقال عليه الصلاة والسلام بلى إذا أصبتم مثل هذا فضربتم بأيديكم فقولوا بسم الله فإذا شبعتم فقولوا الحمد لله الذي أشبعنا وأنعم علينا وأفضل فإن هذا كفاف بذاك وليس المراد في هذا الخبر حصر النعيم مطلقاً فيما ذكر بل حصر النعيم بالنسبة إلى

ذلك الوقت الذي كانوا فيه جياعاً وكذا فيما يصح من الأخبار التي فيها الاقتصار على شيء أو شيئين أو أكثر فكل ذلك من باب التمثيل ببعض أفراد خصت بالذكر لأمر اقتضاه الحال ويؤيد ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في غير رواية عند ذكر شيء من ذلك هذا من النعيم الذي تسألون عنه بمن التبعيضية وفي التفسير الكبير الحق أن السؤال يعم المؤمن

والكافر عن جميع النعم سواء كان ما لا بد منه أولاً لأن كل ما يهب الله تعالى يجب أن يكون مصروفاً إلى طاعته سبحانه لا إلى معصيته عز وجل فيكون السؤال واقعاً عن الكل ويؤكده قوله عليه الصلاة والسلام لا تزول قدما العبد حتى يسأل عن أربع عن عمره فيم أفناه وعن شبابه فيم ابلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه ماذا عمل به لأن كل نعيم داخل فيما ذكره عليه الصلاة والسلام ويشكل عليه ما أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد الزهد والديلمي عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

" ثلاث لا يحاسب بهن العبد ظل خص يستظل به وكسرة يشد بها صلبه وثوب يوارى به عورته " وأجيب بأنه إن صح فالمراد لا يناقش الحساب بهن وقيل المراد ما يضطر العبد إليه من ذلك لحياته فتأمل ورأيت في بعض الكتب أن الطعام الذي يؤكل مع اليتيم لا يسأل عنه وكان ذلك لأن في الأكل معه جبراً لقلبة وازالة لوحشته فيكون ذلك بمنزلة الشكر فلا يسأل عنه سؤال تقريع وفي القلب من صحة ذلك شيء والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ

﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(146/829)

وقال الشوكاني :

قوله : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾

أي : شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد ، والتفاخر بكثرتها ، والتغالب فيها .

يقال : ألهاه عن كذا ، وألهاه : إذا شغله ، ومنه قول امرئ القيس :

فألهيتها عن ذي تمائم محول . . . وقال الحسن : معنى ألهاكم : أنساكم .

﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ أي : حتى أدرككم الموت ، وأنتم على تلك الحال .

وقال قتادة : إن التكاثر التفاخر بالقبائل والعشائر .

وقال الضحاك : ألهاكم التشاغل بالمعاش .

وقال مقاتل ، وقتادة أيضاً ، وغيرهما : نزلت في اليهود حين قالوا نحن أكثر من بني فلان ، وبنو فلان أكثر من بني فلان ، ألهاهم ذلك حتى ماتوا .

وقال الكلبي : نزلت في حيين من قريش : بني عبد مناف ، وبني سهم تعادّوا ، وتكاثروا بالسيادة والأشراف في الإسلام ، فقال كل حيّ منهم : نحن أكثر سيداً ، وأعزّ عزيزاً ، وأعظم نفراً ، وأكثر قائداً ، فكثر بنو عبد مناف بني سهم ، ثم تكاثروا بالأموات ، فكثرتهم بهم ، فنزلت : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ فلم ترضوا ﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ مفتخرين بالأموات .

وقيل : نزلت في حيين من الأنصار .

والمقابر جمع مقبرة بفتح الباء وضمها .

(147/829)

وفي الآية دليل على أن الاشتغال بالدنيا ، والمكاثرة بها ، والمفاخرة فيها من الخصال المذمومة ، وقال سبحانه : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ ولم يقل عن كذا ، بل أطلقه ؛ لأن الإطلاق أبلغ في الذمّ ؛ لأنه يذهب الوهم فيه كلّ مذهب ، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام ، ولأن حذف المتعلق مشعر بالتعميم ، كما تقرّر في علم البيان ؛ والمعنى أنه شغلكم التكاثر عن كلّ شيء يجب عليكم الاشتغال به من طاعة الله ، والعمل للآخرة ، وعبر عن موتهم بزيارة المقابر ؛ لأن الميت قد صار إلى قبره ، كما يصير الزائر إلى الموضع الذي يزوره هذا على قول من قال : إن معنى ﴿ زُرْتُمُ المقابر ﴾ متم ، أما على قول من قال : إن معنى : ﴿ زُرْتُم المقابر ﴾ ذكرتم الموتى ، وعددتموهم للمفاخرة ، والمكاثرة ، فيكون ذلك على طريق التهكم بهم ، وقيل : إنهم كانوا يزورون المقابر ، فيقولون هذا قبر فلان ، وهذا قبر فلان يفتخرون بذلك .

﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ردع وزجر لهم عن التكاثر ، وتنبيه على أنهم سيعلمون عاقبة

ذلك يوم القيامة ، وفيه وعيد شديد .

قال الفرّاء : أي : ليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر .

ثم كرّر الردع والزجر ، والوعيد فقال : ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وثم للدلالة على أن الثاني أبلغ من الأوّل ، وقيل : الأوّل عند الموت أو في القبر ، والثاني يوم القيامة .

قال الفرّاء : هذا التكرار على وجه التغليظ والتأكيد .

قال مجاهد : هو وعيد بعد وعيد .

وكذا قال الحسن ، ومجاهد .

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أي : لو تعلمون الأمر الذي أنتم صائرون إليه علماً يقيناً كعلمكم ما هو متيقن عندكم في الدنيا ، وجواب " لو " محذوف ، أي : لشغلكم ذلك عن التكاثر والتفاخر ، أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير ، وتركتم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه .

و﴿ كلا ﴾ في هذا الموضع الثالث للزجر ، والردع كالموضعين الأوّلين .

وقال الفرّاء : هي بمعنى حقاً .

وقيل : هي في المواضع الثلاثة بمعنى ألا .

قال قتادة : اليقين هنا الموت ، وروي عنه أيضاً أنه قال : هو البعث .

قال الأخفش : التقدير لو تعلمون علم اليقين ما ألهاكم .

وقوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ الجحيم ﴾ جواب قسم محذوف ، وفيه زيادة وعيد وتهديد ، أي : والله لترونّ الجحيم في الآخرة .

قال الرازي : وليس هذا جواب لو ، لأن جواب لو يكون منفياً ، وهذا مثبت .

ولأنه عطف عليه ﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ ﴾ وهو : مستقبل لا بدّ من وقوعه قال : وحذف جواب لو كثير ، والخطاب للكفار ، وقيل : عام كقوله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ [مريم : 71] قرأ الجمهور : ﴿ لترون ﴾ بفتح التاء مبنياً للفاعل وقرأ الكسائي ، وابن عامر بضمها مبنياً للمفعول .

ثم كرّر الوعيد والتهديد للتأكيد فقال : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليقين ﴾ أي : ثم لترونّ الجحيم الرؤية التي هي نفس اليقين ، وهي المشاهدة والمعاينة ، وقيل المعنى : لترونّ الجحيم بأبصاركم على البعد منكم ، ثم لترونها مشاهدة على القرب .

وقيل المراد بالأوّل رؤيتها قبل دخولها ، والثاني رؤيتها حال دخولها .

وقيل : هو إخبار عن دوام بقائهم في النار ، أي : هي رؤية دائمة متصلة .

وقيل المعنى : لو تعلمون اليوم علم اليقين ، وأنتم في الدنيا لترونّ الجحيم بعيون قلوبكم ، وهو

أن تتصوّروا أمر القيامة وأهوالها .

﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ أي : عن نعيم الدنيا الذي ألهاكم عن العمل للآخرة .

قال قتادة : يعني : كفار مكة كانوا في الدنيا في الخير والنعمة ، فيسألون يوم القيامة عن شكر ما كانوا فيه ، ولم يشكروا ربّ النعم حيث عبدوا غيره ، وأشركوا به .

قال الحسن : لا يسأل عن النعيم إلاّ أهل النار .

(149/829)

وقال قتادة : إن الله سبحانه سائل كل ذي نعمة عما أنعم عليه ، وهذا هو الظاهر ، ولا وجه لتخصيص النعيم بفرد من الأفراد ، أو نوع من الأنواع ؛ لأن تعريفه للجنس ، أو الاستغراق ، ومجرّد السؤال لا يستلزم تعذيب المسئول على النعمة التي يسئل عنها ، فقد يسأل الله المؤمن عن النعم التي أنعم بها عليه فيم صرفها ، وبم عمل فيها ؟ ليعرف تقصيره ، وعدم قيامه بما يجب عليه من الشكر .

وقيل : السؤال عن الأمن والصحة .

وقيل : عن الصحة والفراغ ، وقيل : عن الإدراك بالحواسّ ، وقيل : عن ملاذ المأكول والمشروب .

وقيل : عن الغداء والعشاء .

وقيل : عن بارد الشراب وظلال المساكن .

وقيل : عن اعتدال الخلق .

وقيل : عن لذة النوم ، والأولى العموم ، كما ذكرنا .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بردة في قوله : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال : نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار في بني حارثة وبني الحارث تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما : فيكم مثل فلان ، وفلان .

وقال الآخرون : مثل ذلك تفاخروا بالأحياء .

ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان يشيرون إلى القبر ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون كذلك ، فأنزل الله : ﴿ ألهاكم التكاثر * حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ لقد كان لكم فيما زرتم عبرة وشغل .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال : في الأموال والأولاد .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألهاكم التكاثر" يعني عن الطاعة ﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ يقول : حتى يأتيكم الموت ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : لو قد دخلتم قبوركم ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ

تَعۡلَمُونَ ﴾ يقول : لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم .

﴿ كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ﴾ قال : لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدي ربكم .

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ﴾ وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم ، فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكدوش في نار جهنم .

﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ يعني : شبع البطون ، وبارد الشرب ، وظلال المساكن ، واعتدال الخلق ، ولذة النوم .

وأخرج ابن مردويه عن عياض بن غنم مرفوعاً نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال : صحة الأبدان ، والأسماع ، والأبصار ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء : 36] وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال : الأمن ، والصحة .

وأخرج البيهقي عن عليّ بن أبي طالب قال : النعيم العافية .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في الآية قال : من أكل خبز البرّ ، وشرب ماء الفرات مبرداً ، وكان له منزل يسكنه ، فذلك من النعيم الذي يسأل عنه .

وأخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآية : " أكل خبز البرّ ، والنوم في الظلّ ، وشرب ماء الفرات مبرداً " ولعل رفع هذا لا يصح ، فربما كان من قول أبي الدرداء .

وأخرج أحمد في الزهد ، وابن مردويه عن أبي قلابة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في الآية قال : " ناس من أمتي يعقدون السمن والعسل بالنقيّ ، فيأكلونه " وهذا مرسل .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت هذه الآية .

قال الصحابة : "يا رسول الله أيّ نعيم نحن فيه ؟ وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير ، فأوحى الله إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أن قل لهم : أليس تحتذون النعال ، وتشربون الماء البارد ، فهذا من النعيم" .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وهناد ، وأحمد ، وابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن محمود بن لبيد قال : لما نزلت : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ فقرأ حتى بلغ : ﴿ ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ قالوا : يا رسول الله أيّ نعيم نسأل عنه ؟ وإنما هما الأسودان : الماء ، والتمر ، وسيوفنا على رقابنا ، والعدوّ حاضر ، فعن أيّ نعيم نسأل ؟ قال : " أما إن ذلك سيكون " وأخرجه عبد بن حميد ، والترمذي ، وابن مردويه من حديث أبي هريرة .

وأخرجه أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن مردويه من حديث الزبير بن العوّام .

وأخرج أحمد في الزهد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن حبان ، وابن مردويه ، والحاكم ، والبيهقي في الشعب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أوّل ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نصحّ لك جسدك ، ونروك من الماء البارد ؟ " وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عن جابر بن عبد الله قال : جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، فأطعمناهم رطباً ، وسقيناهم ماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا من النعيم الذي تسألون عنه " وأخرج عبد بن حميد ، وابن مردويه ، والبيهقي من حديث جابر بن عبد الله نحوه .

وأخرج مسلم ، وأهل السنن ، وغيرهم عن أبي هريرة قال : خرج النبيّ ، فإذا هو بأبي بكر وعمر ، فقال : " ما أخرجكما من بيوتكما الساعة ؟ " قالا : الجوع يا رسول الله ، قال : " والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما فقوما " فقاما معه ، فأتى رجلاً من الأنصار ، فإذا هو ليس في بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم " أين فلان ؟ " قالت : انطلق يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصاريّ فنظر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، فقال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني ، فانطلق ، فجاء بعذق فيه بسر ، وتمر .

فقال : كلوا من هذا ، وأخذ المدية ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إياك والحلوب " فذبح لهم فأكلوا من الشاة ، ومن ذلك العذق ، وشربوا ، فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر ، وعمر : " والذي نفسي بيده لنسألن عن هذا النعيم يوم القيامة " وفي الباب أحاديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿فتح القدير حـ 5 صـ 487 . 490﴾

وقال القاسمي :

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾

أي : شغلكم التباهي بالكثرة في المال والولد ونحوهما ، فيقول هذا : أنا أكثر منك مالاً ، والآخر : أنا أكثر منك ولداً ، وهكذا مما يصرف عن الجد في العمل ، ويطفئ نور الاستعداد وصفاء الفطرة والعقل والكمالات المعنوية الباقية ، ذهب بكم التفاخر والتباهي بهذه الأمور الفانية ، من كثرة الأموال والأولاد ، وشرف الآباء والأجداد كلَّ مذهب ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ أي : حتى هلكتم ومتم وصرتم من أصحاب القبور ، فأفنيتم عمركم في الأعمال السيئة وما تنبهتم طول حياتكم إلى ما هو سبب سعادتكم ونجاتكم . وزيارة القبور عبارة عن الموت .

روى الزمخشري شواهد لها : قال الشهاب : وفيها إشارة إلى تحقق البعث ؛ لأن الزائر لا بد من انصرافه عما زاره ، ولذا قال بعض الأعراب لما سمعها : بعثوا وربِّ الكعبة ! وقال ابن عبد العزيز : لا بد لمن زار ، أن يرجع إلى جنة أو نار . وسمى بعض البلغاء المقبرة دهليز الآخرة .

﴿ كَلَّا ﴾ ردع عن الاشتغال بالتكاثر ، وتوهم أن الفوز بالتفاخر . فإن الفوز بالتناصر

على الحق والتحلي بالفضائل ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : مغبة ما أنتم عليه في الاخرة من وخامة عاقبة الاشتغال بهذه الشهوات السريعة الزوال ، العظيمة الوبال ، لبقاء تبعاتها .

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تكرير للتأكيد ، و ﴿ ثُمَّ ﴾ للدلالة على أن الثاني أبلغ من الأول . أو الأول عند الموت ، والثاني عند النشور .

(154/829)

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ أي : لو تعلمون ما بين أيديكم من الجزاء علم الأمر اليقين ، لكان ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والتحسر على فوات العمر العزيز في التكاثر والذهول عن الحق به . واليقين بمعنى المتيقن ، صفة لمحذوف ، أو صفة للعلم ، على أنه من إضافة الصفة للموصوف ، وحذف جواب ﴿ لَوْ ﴾ يطلبهُ العقل من الشرط وما سبقه ، ليستحكم فيه فضل استحكام .

وقوله تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ جواب قسم مضمر ، أكد به الوعيد ، وشدد به التهديد ، وأوضح به ما أنذروه تفخيماً .

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ أي : الرؤية التي هي نفس اليقين ، فالعين هنا بمعنى النفس ، كما في : جاء زيد عينه ، أي : نفسه . وإنما كانت نفس اليقين ، لأن الانكشاف بالرؤية

والمشاهدة ، فوق سائر الانكشافات ؛ فهو أحق بأن يكون عين اليقين . والتكرير للتأكيد .

قال الإمام : وكني برؤية الجحيم عن ذوق العذاب فيها ، وهي كناية شائعة في الكتاب العزيز : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أي : عن النعيم الذي ألهاكم التكاثر به والتفاخر في الدنيا ماذا عملتم فيه ، ومن أين وصلتم إليه ، وفيم أصبتموه ، وماذا عملتم به ؟ ويدخل في ذلك ما أنعم عليهم من السمع والبصر وصحة البدن .

قال ابن عباس : النعيم صحة الأبدان والأسماع والأبصار . قال : يسأل الله العباد فيم استعملوا وهو أعلم بذلك منهم . وهو قوله :

﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 36] ، قال ابن جرير : لم يخصص في خبره تعالى نوعاً من النعيم دون نوع ، بل عمّ ؛ فهو سائلهم عن جميع النعيم ، ولذا قال مجاهد : أي : عن كل شيء من لذة الدنيا . وقال قتادة : إن الله عزوجل سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 470 . 471 ﴾

وقال الشيخ المراغى:

سورة التكاثر

هى مكية، وآياتها ثمان، نزلت بعد سورة الكوثر.

ومناسبتها لما قبلها - أن فى الأولى وصف القيامة وبعض أهوالها وجزاء الأخيار والأشرار، وأن فى هذه ذكر الجحيم وهى الهاوية التي ذكرت فى السورة السابقة، وذكر السؤال عما قدم المرء من الأعمال فى الحياة الدنيا، وهذا بعض أحوال الآخرة.

[سورة التكاثر (102) : الآيات 1 الى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (2) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)

كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8) ﴾

شرح المفردات

اللهو: ما يشغل الإنسان، سواء أكان مما يسرّ أم لا، ثم خص بما يشغل مما فيه سرور وإذا ألهى المرء بشىء فهو غافل به عما سواه، والتكاثر: التباهي بالكثرة بأن يقول كل للآخر أنا أكثر منك مالا، أنا أكثر منك ولدا، أنا أكثر منك رجال ضرب وحرب، حتى زرتم المقابر

: أي حتى صرتم من الموتى ، قال جرير :

زار القبور أبو مالك فأصبح ألأم زوّارها

علم اليقين : أي علم الأمر الميقون الموثوق به ، والجحيم : دار العذاب . عين اليقين :

أي عين هى اليقين نفسه .

أسباب نزول السورة

أخرج ابن أبى حاتم عن أبى بريدة قال : نزلت « أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ » فى قبيلتين من الأنصار

وهما بنو حارثة وبنو الحرث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت إحداهما :

أفيكم مثل فلان وفلان ؟ وقالت الأخرى : مثل ذلك . تفاخروا بالأحياء ثم قالوا :

انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : أ فيكم مثل فلان وتشير إلى القبر ،

ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك فأنزل اللّه هذه السورة .

الإيضاح

(156/829)

(أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ)

أي شغلكم التفاخر والتباهي بكثرة الأنصار والأشياع ، وصرفكم ذلك عن الجد فى

العمل ، فكنتم فى لهو بالقول عن الفعل ، وفى غرور وإعجاب بالآباء والأعوان ، وصرفكم ذلك عن توجيه قواكم إلى العمل بما فرض عليكم من الأعمال لأنفسكم وأهليكم ، وما زال ذلك ديدنكم ودأبكم الذي سرتم عليه

وفى صحيح مسلم عن مطرّف عن أبيه قال : « أتيت النبي صلى اللّه عليه وسلم وهو يقرأ : ألهاكم التكاثر قال : يقول ابن آدم مالى ومالك ، يا ابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدّقت فأمضيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس »

وروى عن أنس أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : « لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحب أن يكون له واديان : ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب اللّه على من تاب » .

قال الأستاذ الإمام : وقد يكون معنى التكاثر التغالب فى الكثرة ، أي طلب كل واحد منهما أن يكون أكثر من الآخر مالا أو جاها ، والسعى إلى ذلك لمجرد المغالبة ، لا يبغي الساعي فى سعيه إلا أن يكون ماله أكثر من مال الآخر ، أو أن يكون عضده أقوى من عضده ، لينال بذلك لذة التعلى والظهور بالقوة كما هو شأن الجمهور الغالب من طلاب الثروة والقوة ، ولا ينظر الدائب منهم فى عمله إلى تلك الغاية الرفيعة غاية البذل مما يكسب فى سبل الخير ، أو النهوض بالقوة إلى نصر الحق ، وحمل المبطلين على معرفته والتوجه إليه ، ثم المحافظة بعد ذلك عليه .

وهذا معنى معقول ذهب إليه بعض المفسرين ، وهو يتفق كل الاتفاق مع ما يفهم من لفظ (أَلْهاكُمُ) فإن الذي يلهى الناس عن الحق فى كل حال ، ويصرف وجوههم عنه إلى الباطل : هو طمع كل واحد منهم أن يكون أكثر من الآخر مالا أو عدد رجال ، ليعلو عليه ، أو ليستخدمه لسلطانه ، بقدر ما يدخل فى إمكانه ، أما التفاخر بالأقوال فإنما يلهيهم فى بعض الأحوال اه .

(157/829)

(حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ) أي حتى هلكتم وصرتم من الموتى ، فأضعتم أعماركم فيما لا يجدى فائدة ، ولا يعود عليكم بمائدة ، فى حياتكم الباقية الخالدة .

قال العلماء : إن زيارة القبور من أعظم الدواء للقلب القاسي ، لأنها تذكر بالموت والآخرة ، وذلك يحمل على قصر الأمل والزهد فى الدنيا وترك الرغبة فيها ،

ومن ثم قال صلى اللّه عليه وسلم : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تزهّد فى الدنيا وتذكركم الآخرة » .

كما لا خلاف فى منع زيارتها إذا حدث فى ذلك منكرات وأشياء مما نهى عنه الدين كاختلاط الرجال بالنساء وحدوث فتن لا تحمد عقباها .

ثم نبههم إلى خطإ ما هم فيه ، وزجرهم عن البقاء على تلك الحال التي لها وخيم العاقبة فقال :

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) أي ازدجروا عن مثل هذا العمل الذي لا تكون عاقبته إلا القطيعة والهجران ، والضغينة والأحقاد ، والجئوا إلى التناصر على الحق ، والتكاتف على أعمال البر ، والتضافر على ما فيه حياة الأفراد والجماعات ، من تقويم الأخلاق ، وتطهير الأعراق ، وإنكم سوف تعلمون عاقبة ما أنتم فيه من التكاثر إذا استمر بكم هذا التفاخر بالباطل بدون عمل صحيح نافع لكم فى العقبى .

ثم أكد هذا وزاد فى التهديد فقال :

(ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ) وهذا وعيد بعد وعيد فى مقام الزجر والتوبيخ كما يقول السيد لعبده : أقول لك لا تفعل ، ثم أقول لك لا تفعل .

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) أي ارتدعوا عن تغريركم بأنفسكم ، فإنكم لو تعلمون عاقبة أمركم لشغلكم ذلك عن التكاثر ، وصرفكم إلى صالح الأعمال ، وإنّ ما تدعونه علما ليس فى الحقيقة بعلم ، وإنما هو وهم وظن لا يلبث أن يتغير ، لأنه لا يطابق الواقع ، والجدير بأن

يسمى علما هو علم اليقين المطابق للواقع ، بناء على العيان والحس ، أو الدليل الصحيح الذي يؤيده العقل ، أو النقل الصحيح عن المعصوم صلى اللّه عليه وسلم .

وإنما ذكر سبحانه هذا زيادة فى زجرهم لتغريرهم بأنفسهم ، فقد جرت عادة الغافلين أنهم إذ ذكّروا بعواقب حالهم أن يقولوا : إنهم يعلمون العواقب ، وأنهم فى منتهى اليقظة وسداد الفكرة .

ثم ذكر لهم بعض ما ينهى إليه هذا اللهو ، وهو عذاب الآخرة بعد خزى الدنيا فقال :

(لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) أي إن دار العذاب التي أعدت لمن يلهو عن الحق لا ريب فيها ولترونّها بأعينكم ، فاجعلوا صورة عذابها حاضرة فى أذهانكم ، لتنبهكم إلى ما هو خير لكم مما تلهون به .

والمراد برؤية الجحيم ذوق عذابها ، وهذا استعمال شائع فى الكتاب الكريم .

ثم كرر ذلك للتأكيد فقال :

(ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ) أي لترونها رؤية هى اليقين نفسه ، إلى أي دين أو إلى أي شخص كانت نسبتكم فلتتقوا اللّه ربكم ، ولتنتهوا عما يقذف بكم فيها ، ولتنظروا إلى ما أنتم فيه من نعمة ، ولترعوا حق اللّه فيها ، فاستعملوها فيما أمر أن تستعمل فيه ، ولا تجترحوا السيئات وتقترفوا المنكرات ، إنكم لتمنون أنفسكم بأنكم ممن يعفو اللّه عنهم ، ويزحزحهم من النار بمجرد نسبتكم إلى الدين الإسلامى وتلقيبكم بألقابه ، مع مخالفتكم أحكام القرآن

وعملكم عمل أعداء الإسلام .

ثم شدد عليهم وزاد فى تأنيبهم فقال :

(159/829)

(ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) أي إن هذا النعيم الذي تتفاخرون به وتعدونه مما يباهى بعضكم بعضا – ستسألون عنه – ماذا صنعتم به ؟ هل أديتم حق اللّه فيه .

وراعيتم حدود أحكامه فى التمتع به ، فإن لم تفعلوا ذلك كان هذا النعيم غاية الشقاء فى دار البقاء .

روى عن عمر رضى اللّه عنه أنه قال : « أىّ نعيم نسأل عنه يا رسول اللّه ، وقد أخرجنا من ديارنا وأموالنا ؟ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ظلال المساكن والأشجار ، والأخبية التي تقيكم الحر والبرد ، والماء البارد فى اليوم الحار » .

وروى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : « من أصبح آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

اللهم وفقا لشكر نعمتك وأداء حقها ، لنجد الجواب حاضرا حين سؤالنا عنها ، اللهم آمين .

سورة العصر

هى مكية ، وآياتها ثلاث ، نزلت بعد سورة الشرح.

ومناسبتها لما قبلها - أنه ذكر فى السورة السابقة أنهم اشتغلوا بالتفاخر والتكاثر وبكل ما من شأنه أن يلهى عن طاعة اللّه ، وذكر هنا أن طبيعة الإنسان داعية له إلى البوار ، وموقعة له فى الدمار إلا من عصم اللّه وأزال عنه شرر نفسه ، فكأن هذا تعليل لما سلف - إلى أنه ذكر فى السالفة صفة من اتبع نفسه وهواه ، وجرى مع شيطانه حتى وقع فى التهلكة ، وهنا ذكر من تجمل بأجمل الطباع ، فآمن باللّه وعمل الصالحات ، وتواصى مع إخوانه على الاستمساك بعرى الحق ، والاصطبار على مكارهه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 229 . 233 ﴾

(160/829)

وقال الشيخ : دروزة :

سورة التكاثر

في السورة تنديد بالمستغرقين في الدنيا وما لها ونعيمها . وإنذار لهم بالآخرة . وهي عامة العرض والتوجيه . وقد روي أنها مدنية . وأسلوبها ومضمونها يحمل على الشك في ذلك .

وقد سلكتها التراتيب المروية في سلك السور المكية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة التكاثر (102) : الآيات 1 الى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (2) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)

كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

(1) التكاثر: المباراة في الاستكثار من المال والبنين والتفاخر بذلك.

(2) زرتم المقابر: كناية عن الموت حيث يؤتى بالأموات فيدفنون في المقابر.

(3) الجحيم: النار المتقدة أو المتأججة.

في آيات السورة:

1 - تنديد موجه إلى السامعين بما هم فيه من المباراة في الاستكثار من الأموال والأولاد والتفاخر بذلك واستغراقهم بسبب ذلك استغراقا يمنعهم من التفكير في الموت وما بعده، بحيث لا ينتهون مما هم فيه إلّا حين يموتون.

2 - وتنبيه وتبصير لهم. فإنهم سوف يعلمون علما يقينيا بأنهم مخطئون، وأنهم سوف يرون الجحيم الموعودة ويرون بعين اليقين ما أوعدوا به. وأنهم سوف يسألون عن أعمالهم وما قضوه في الدنيا من حياة النعيم التي ألهتهم عن الآخرة والتفكير فيها.

ولقد روى بعض المفسرين روايات عديدة في نزول السورة. منها أنها نزلت في قبيلتين من الأنصار تفاخرتا فيما بينهما بما عندهما من مال وما هما فيه من نعيم. ومنها أنها نزلت في فريق من اليهود فخروا على المسلمين بما كان عندهم من مال. ومنها أنها نزلت في حيين من قريش هما بنو مناف وبنو سهم تفاخرا فيما بينهما بما عندهما من مال «1». ولم ترد هذه الروايات في كتب الصحاح.

والروايتان الأوليان تقتضيان أن تكون السورة مدنية مع أن رواة النزول وجمهور المفسرين يسلكونها في سلك السور المكية المبكرة في النزول. وأسلوبها ومضمونها يحملان على الشك في الروايتين وفي رواية تفاخر بني سهم ومناف القرشيين أيضا ويسوغان الترجيح بأنها مطلقة التوجيه عامة الإنذار والتنبيه مثل سور العاديات والعصر والأعلى والليل والفجر إلخ.

ولقد احتوت تلقينا جليلا مستمر المدى. ومتسقا مع التلقينات التي احتوتها السور المماثلة السابقة وهو وجوب تنبيه الناس إلى واجباتهم نحو اللّه ونحو الناس في الحياة الدنيا وعدم

الاندفاع في الاستكثار من المال والاستغراق في النعيم وجعل شهوات الحياة ونعيمها قصارى الهمّ والمطلب .

ولقد رويت بضعة أحاديث نبوية على هامش هذه السورة . منها حديث رواه مسلم والترمذي عن عبد الله بن الشخير قال : «إنه انتهى إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وهو يقرأ أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ [1] قال يقول ابن آدم مالي مالي . وهل لك من مالك إلّا ما تصدّقت فأمضيت أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت» «2» . وحديث رواه الترمذي

---

(1) انظر تفسير السورة في تفسير ابن كثير والبغوي والطبرسي والنيسابوري .

(2) التاج 4 ص 365 .

عن الزبير بن العوام قال : «لما نزلت ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ [8] قلت يا رسول اللّه فأيّ النعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء . قال أما إنّه سيكون» «1» . حيث يتسق التلقين النبوي مع ما نوهنا به من التلقين القرآني في هذا الأمر كما هو الشأن في كل أمر آخر .

وننبه مع ذلك على ضوء آيات سورة الأعراف [31 - 33] التي أوردناها في مناسبة

مماثلة في تفسير سورة الأعلى أن روح الآيات تلهم أن التنديد والتنبيه موجهان إلى من تلهيه أمواله وأولاده وشهواته ومتعه عن واجباته نحو ربه ونحو الناس ويستغرق في ذلك استغراقا يملك عليه تفكيره ويعمي بصيرته ويجعله لا يحسب للعواقب حسابا ويوهمه بأنه في أمن دائم. لا إلى أصحاب الأموال والأولاد والمتنعمين إطلاقا إذا ما أدوا حق اللّه بالإيمان به وعبادته وشكره وحق الناس بالبر والتزموا القصد والاعتدال. وليس في الأحاديث النبوية ما يتناقض مع ذلك. بل هناك أحاديث ينطوي فيها هذا بصراحة أوردناها في سياق تفسير سورة الفجر فنكتفي بهذا التنبيه دون التكرار. انتهى انتهى. اهـ ﴿التفسير الحديث حـ 2 صـ 17.15﴾

(1) التاج ج 4 ص 365.

(163/829)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب:

(102) سورة التكاثر

نزولها: مكية.. نزلت بعد سورة «الكوثر»..

عدد آياتها: ثمانى آيات..

عدد كلماتها : ثمان وعشرون كلمة . .

عدد حروفها : مائة وعشرون حرفا . .

مناسبتها لما قبلها

الحديث فى هذه السورة ، متصل بما قبلها من الحديث عن القيامة ، وعما يذهل الناس عنها ، ويشغلهم عن الإعداد لها . . وهو المال والتكاثر منه.

بسم اللّه الرحمن الرّحيم

الآيات (1.8) [سورة التكاثر (102) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (2) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)

كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

التفسير :

قوله تعالى : «أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ» .

.

أي أيها الناس ، قد شغلكم التكاثر فى الأموال والمتاع ، فقطعتم حياتكم فى جمع المال وكنزه ، وفى تحصيل الجاه والسلطان ، دون أن تلفتوا إلى ما يجمّل العقل ، ويغذى الروح ، ويكمل النفس . . «حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ» أي نزلتم فى قبوركم ، وإنها ليست دار مقام لكم ، وإنما هى إلمامة تلمّون بها ، أشبه بالزائر يطرق مكانا ، ثم يرحل عنه . وهكذا أنتم فى هذه القبور التي ستضمكم يوما . .

إنها زورة ، ثم تحوّلون عنها إلى الحياة الآخرة . . إنها منزل على الطريق إلى البعث ، والحساب والجزاء . .

فالخطاب هنا عام للناس جميعا ، والمؤمنون منهم أولى بهذا الخطاب من غيرهم ، إذ كان يرجى منهم أن ينتفعوا به ، وأن ينظروا إلى أنفسهم نظرا مجدّدا على ضوئه .

وقوله تعالى : «كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ» .

وكلا ، فليس هذا هو الموقف السليم الذي ينبغى أن يقفه الإنسان فى الحياة ، وليس هو الطريق القويم الذي يحق له أن يسلكه . . فإن جمع المال للتلهى به ، وإشباع شهوات النفس منه ، وإرضاء غرورها بالتعالي والتشامخ على الناس ، لا لكسب محمدة ، أو قضاء حق للّه أو للناس . هو ضلال ووبال . . وستعلمون حقيقة هذا لو أنكم نظرتم نظرا عاقلا

مستبصرا ، ثم كلا . . إنكم لم تحسنوا النظر ، ولم تمعنوا الفكر ، فما زال علمكم بما أنتم عليه من ضلال ، علما لا يحرك شعورا ، ولا يثير خاطرا ، ولا ينزع بكم إلى أخذ اتجاه غير اتجاهكم . . فأعيدوا النظر ، وجددوا البحث فى حالكم تلك ، وسوف تعلمون . . وكلا . . فهذا العلم الجديد الذي علمتموه لا يعدّ علما ، فما زلتم فى شك وريب من البعث والحساب

(165/829)

والجزاء ، ولو كان علما عن يقين ، لتغير حالكم ، ولما كان هذا موقفكم فى الحياة . .

فلو كنتم تعلمون علم اليقين «لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ» ، وأنتم فى هذه الدنيا ، ولعلمتم أن العذاب هو جزاء أهل الضلال ، وأن العاقل ليرى جهنم فى الدنيا وكأنها ماثلة بين عينيه ، فيتوقاها بالإيمان بالله ، والعمل الصالح ، ويخاف مقام ربه ، ويخشى لقاءه بما يجنى من منكرات . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ» (18 :

فاطر) .

وقوله تعالى : «ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ» أي لرأيتم الجحيم فى الدنيا رؤية علمية يدلكم عليها

العقل ، فكأنها ماثلة بين أعينكم . . ثم إنكم بعد ذلك : « لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ » أي رؤية بصرية ، واقعية ، حيث يشهدها كل من فى المحشر ، ويراها رأى العين ، كما يقول سبحانه : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها » (71 : مريم) وكما يقول جل شأنه : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرى » (36 : النازعات) وتوكيد جواب « لو » هنا لتحقق وقوعه مستقبلا . .

وذلك لأن « لو » حرف يمتنع جوابها لامتناع شرطها . . وذلك محقق فى الماضي ، لأن الشرط لم يقع ، فامتنع لذلك وقوع الجواب . .

فإذا جاء الشرط والجواب مضارعين ، كان الحكم معلقا ، فقد يقع الشرط فيقع تبعا لذلك الجواب ، وقد لا يقع الشرط فلا يقع الجواب . . تقول لو جاء الضيف لأكرمته . . وهذا يعنى أن الضيف لم يجىء وبالتالى لم يقع إكرامه . .

وتقول لو يجىء الضيف لأكرمنّه . . فالضيف لم يجىء بعد ، وقد يجىء ، فإذا جاء لم يكن بدّ من إكرامه . . والتوكيد للفعل هنا واجب ، لأنه حلّ محل

(166/829)

فعل غلب أن يكون ممتنعا وقوعه ، وهو جواب لو الماضي الذي يجىء أكثر ما يجىء فعلا ماضيا ، فلزم توكيد الجواب هنا ، ليقطع كل احتمال لامتناع وقوعه .

وقوله تعالى : « ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ » .

أي ثم إذ ترون الجحيم فى المحشر ، تحاسبون على ما أنعم اللّه به عليكم من نعم ، وأجلّها العقل ، والرسول ، والقرآن . . فمن رعى هذه النعم ، وأدى واجب الشكر عليها ، نجا من هذه النار ، ونزل منازل المؤمنين فى الجنة ، ومن كفر بهذه النعم ، حرم نعيم الجنة ، وألقى به فى عذاب الجحيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1664 . 1667 ﴾

(167/829)

وقال ابن عاشور :

﴿ ألهاكم ﴾

أي شغلكم عما يجب عليكم الاشتغال به لأن اللهو شغل يصرف عن تحصيل أمرٍ مهم .

و﴿ التكاثر ﴾ : تفاعل في الكثْر أي التباري في الإِكثار من شيء مرغوب في كثرته .

فمنه تكاثر في الأموال ، ومنه تكاثر في العَدد من الأولاد والأحلاف للاعتزاز بهم .

وقد فسرت الآية بهما قال تعالى : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ [سبأ : 35] .

وقال الأعشى :

ولستَ بالأكْثر منهم حَصًى

وإنما العِزة للكَاثر . . .

روى مسلم عن عبد الله بن الشِّخّير قال : " انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال : يقول ابنُ آدم مالي مالي ، وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلتَ فأفنَيْت أو لَبست فأَبْلَيْت أو تصدقت فأمضَيْت " فهذا جارٍ مجرى التفسير لمعنى من معاني التكاثر اقتضاه حال الموعظة ساعتئذ وتحتمله الآية .

والخطاب للمشركين بقرينة غلظة الوعيد بقوله : ﴿ كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ﴾ وقوله : ﴿ لترون الجحيم ﴾ [التكاثر : 6] إلى آخر السورة ، ولأن هذا ليس من خُلق المسلمين يومئذ .

والمراد بالخطاب : سادتُهم وأهلُ الثراء منهم لقوله : ﴿ ثم لتسئلن يومئذٍ عن النعيم ﴾ [التكاثر : 8] ، ولأن سادة المشركين هم الذين آثاروا ما هم فيه من النعمة على التهمّم بتلقي دعوة النبي صلى الله عليه وسلم فتصدّوا لتكذيبه وإغراء الدهماء بعدم الإِصغاء له .

فلم يُذكَر المُلْهَى عنه لظهور أنه القرآن والتدبر فيه ، والإِنصاف بتصديقه .

وهذا الإِلهاء حصل منهم وتحقق كما دل عليه حكايته بالفعل الماضي .

وإذا كان الخطاب للمشركين فلأن المسلمين يعلمون أن التلبس بشيء من هذا الخلق مذموم عند الله ، وأنه من خصال أهل الشرك فيعلمون أنهم محذرون من التلبس بشيء من ذلك فيحذرون من أن يُلهيهم حب المال عن شيء من فعل الخير ، ويتوقعون أن يفاجئهم الموت وهم لاهون عن الخير ، قال تعالى يخاطب المؤمنين : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ﴾ [الحديد : 20] الآية .

وقوله : ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ غاية ، فيحتمل أن يكون غاية لفعل ﴿ ألهاكم ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ [طه : 91] ، أي دَام إلهاء التكاثر إلى أن زرتم المقابر ، أي استمرّ بكم طولَ حياتكم ، فالغاية مستعملة في الإِحاطة بأزمان المغيَّا لا في تنهيته وحصول ضده لأنهم إذا صاروا إلى المقابر انقطعت أعمالهم كلها .

ولكون زيارة المقابر على هذا الوجه عبارة عن الحلول فيها ، أي قبورَ المقابر .

وحقيقة الزيارة الحلول في المكان حلولاً غير مستمر ، فأطلق فعل الزيارة هنا تعريضاً بهم بأن حلولهم في القبور يعقبه خروج منها .

والتعبير بالفعل الماضي في ﴿ زرتم ﴾ لتنزيل المستقبل منزلة الماضي لأنه محقق وقوعه مثل

:

﴿ أتى أمرُ اللَّه ﴾ [النحل : 1] .

ويحتمل أن تكون الغاية للمتكاثر بهِ الدالّ عليه التكاثُر ، أي بكل شيء حتى بالقبور تعدونها .

وهذا يجري على ما رَوى مقاتل والكلبي أن بني عبد مناف وبني سهم تفاخروا بكثرة السادة منهم ، كما تقدم في سبب نزولها آنفاً ، فتكون الزيارة مستعملة في معناها الحقيقي ، أي زرتم المقابر لتَعُدّوا القبور ، والعرب يكنّون بالقبر عن صاحبه قال النابغة :

لَئِنْ كان للقَبْرين قَبْرٍ بجِلَّقٍ

وقَبرٍ بصيداءَ الذي عند حارِبِ . . .

وقال عصام بن عُبيد الزِّمّاني ، أو همّام الرّقَاشي :

لو عُدّ قَبْرٌ وقبرٌ كُنتُ أقربَهم

(169/829)

قبراً وأبْعَدَهم من مَنزِل الذّام . . .

أي كنتُ أقربهم منك قبراً ، أي صاحبَ قبر .

و﴿ المقابر ﴾ : جمع مقبَرة بفتح الموحدة وبضمها .

والمقبرة الأرض التي فيها قبور كثيرة .

والتوبيخ الذي استُعمل فيه الخبر أُتبع بالوعيد على ذلك بعد الموت ، وبحرف الزجر والإِبطال بقوله : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ فأفاد ﴿ كلا ﴾ زجراً وإبطالاً لإِنهاء التكاثر .

و﴿ سوف ﴾ لتحقيق حصول العلم .

وحذف مفعول ﴿ تعلمون ﴾ لظهور أن المراد : تعلمون سوء مَغَبَّة لهوكم بالتكاثر عن قبول دعوة الإِسلام .

وأكد الزجر والوعيد بقوله : ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ فعطف عطفاً لفظيّاً بحرف التراخي أيضاً للإِشارة إلى تراخي رتبة هذا الزجر والوعيد عن رتبة الزجر والوعيد الذي قبله ، فهذا زجر ووعيد مماثل للأول لكن عطفه بحرف ﴿ ثم ﴾ اقتضى كونه أقوى من الأول لأنه أفاد تحقيق الأول وتهويله .

فجملة : ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ توكيد لفظي لجملة : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ وعن ابن عباس : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ ما ينزل بكم من عذاب في القبر : ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ عند البعث أن ما وعدتم به صِدق ، أي تُجعل كلّ جملة مراداً بها تهديد بشيء خاص .

وهذا من مُسْتَتْبَعات التراكيب والتعويل على معونة القرائن بتقدير مفعول خاص لكلِّ من فِعلي ﴿ تعلمون ﴾ ، وليس تكرير الجملة بمقتض ذلك في أصل الكلام .

ومفاد التكرير حاصل على كل حال .

(170/829)

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5)

أعيد الزجر ثالثَ مرةٍ زيادة في إبطال ما هم عليه من اللهو عن التدبر في أقوال القرآن لعلهم يقلعون عن انكبابهم على التكاثر مما هم يتكاثرون فيه ولهوهم به عن النظر في دعوة الحق والتوحيد .

وحذف مفعول ﴿ تعلمون ﴾ للوجه الذي تقدم في ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف .

وجملة : ﴿ لو تعلمون علم اليقين ﴾ تهويل وإزعاج لأن حذف جواب ﴿ لو ﴾ يجعل النفوس تذهب في تقديره كلَّ مذهب مُمكن .

والمعنى : لو تعلمون علم اليقين لتبيَّن لكم حالٌ مفظع عظيم ، وهي بيان لما في ﴿ كلا ﴾ من الزجر .

والمضارع في قوله : ﴿ لو تعلمون ﴾ مراد به زمن الحال .

أي لو علمتم الآن علم اليقين لعلمتم أمراً عظيماً .

ولفعل الشرط مع ﴿ لو ﴾ أحوال كثيرة واعتبارات ، فقد يقع بلفظ الماضي وقد يقع بلفظ المضارع وفي كليهما قد يكون استعماله في أصل معناه .

وقد يكون منزّلاً منزلةَ غير معناه ، وهو هنا مستعمل في معناه من الحال بدون تنزيل ولا تأويل .

وإضافة ﴿ علم ﴾ إلى ﴿ اليقين ﴾ إضافةُ بيانية فإن اليقين علم ، أي لو علمتم علماً مطابقاً للواقع لبان لكم شنيع ما أنتم فيه ولكن علمهم بأحوالهم جهل مركَّب من أوهام وتخيلات ، وفي هذا نداء عليهم بالتقصير في اكتساب العلم الصحيح .

وهذا خطاب للمشركين الذين لا يؤمنون بالجزاء وليس خطاباً للمسلمين لأن المسلمين يعلمون ذلك علم اليقين .

واعلم أنَّ هذا المركب هو ﴿ علم اليقين ﴾ نقل في الاصطلاح العلمي فصار لقباً لحالة من مدركات العقل وقد تقدم بيان ذلك عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ في سورة الحاقة (51) فارجع إليه .

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7)

استئناف بياني لأن ما سبقه من الزجر والردع المكرر ومن الوعيد المؤكّد على إجماله يثير في نفس السامع سؤالاً عما يُترقب من هذا الزجر والوعيد فكان قوله: ﴿ لترون الجحيم ﴾ جواباً عما يجيش في نفس السامع.

وليس قولُه: ﴿ لترون الجحيم ﴾ جواب (لَوْ) على معنى: لو تعلمون علم اليقين لكنتم كمَن ترون الجحيم، أي لترونَّها بقلوبكم، لأن نظم الكلام صيغة قَسم بدليل قَرْنه بنون التوكيد، فليست هذه اللام لامَ جواب (لو) لأن جواب (لو) مُمْتَنِعُ الوقوع فلا تقترن به نون التوكيد.

والإِخبار عن رؤيتهم الجحيم كناية عن الوقوع فيها، فإن الوقوع في الشيء يستلزم رؤيتَه فيكنى بالرؤية عن الحضور كقول جَعْفر بن عُلْبة الحارثي:

لا يَكشف الغَمَّاء إلا ابنُ حرة

يَرى غمراتِ الموْتِ ثُمَّ يَزُورُها . . .

وأُكد ذلك بقوله: ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ قصداً لتحقيق الوعيد بمعناه الكنائي.

وقد عطف هذا التأكيد بـ ﴿ ثم ﴾ التي هي للتراخي الرتبي على نحو ما قررنَاهُ آنفاً في قوله: ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ [التكاثر: 4]، وليس هنالك رؤيتان تقع إحداهما بعد الأخرى بمُهلة.

و ﴿ عينَ اليقين ﴾ : اليقين الذي لا يشوبه تردد .

فلفظ عين مجاز عن حقيقة الشيء الخالصة غير الناقصة ولا المشابهة .

وإضافة ﴿ عين ﴾ إلى ﴿ اليقين ﴾ بيانية كإضافة ﴿ حق ﴾ إلى ﴿ اليقين ﴾ في قوله تعالى : ﴿ إن هذا لهو حق اليقين ﴾ [الواقعة : 95] .

وانتصب ﴿ عين ﴾ على النيابة عن المفعول المطلق لأنه في المعنى صفة لمصدر محذوف ، والتقدير .

ثم لترونها رؤيةَ عين اليقين .

وقرأه الجمهور : ﴿ لترون الجحيم ﴾ بفتح المثناة الفوقية ، وقرأه ابن عامر والكسائي بضم المثناة من (أراه) .

وأمّا ﴿ لترونها ﴾ فلم يختلف القراء في قراءته بفتح المثناة .

(172/829)

وأشار في "الكشاف" إلى أن هذه الآيات المفتتحة بقوله : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ [التكاثر : 3] والمنتهية بقوله : ﴿ عين اليقين ﴾ ، اشتملت على وجوه من تقوية الإِنذار والزجر ، فافتتحت بحرف الردع والتنبيه ، وجيء بعده بحرف ﴿ ثم ﴾ الدال على أن

الإِنذار الثاني أبلغ من الأول .

وكرر حرف الردع والتنبيه ، وحُذف جواب ﴿ لو تعلمون ﴾ [التكاثر : 5] لما في حذفه من مبالغة التهويل ، وأُتي بلام القسم لتوكيد الوعيد .

وأكد هذا القسم بقسم آخر ، فهذه ستة وجوه .

وأقول زيادة على ذلك : إن في قوله : ﴿ عين اليقين ﴾ تأكيدين للرؤية بأنها يقين وأن اليقين حقيقة .

والقول في إضافة ﴿ عين اليقين ﴾ كالقول في إضافة ﴿ علم اليقين ﴾ [التكاثر : 5] المذكور آنفاً .

ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

أعقب التوبيخ والوعيد على لهوهم بالتكاثر عن النظر في دعوة الإِسلام من حيث إن التكاثر صدهم عن قبول ما ينجيهم ، بتهديدٍ وتخويف من مؤاخذتهم على ما في التكاثر من نعيم تمتعوا به في الدنيا ولم يشكروا الله عليه بقوله تعالى : ﴿ ثم لتسئلن يومئذٍ عن النعيم ﴾ ، أي عن النعيم الذي خولتموه في الدنيا فلم تشكروا الله عليه وكان به بَطرُكُم .

وعطف هذا الكلام بحرف ﴿ ثم ﴾ الدال على التراخي الرتبي في عطفه الجُمَلَ من أجل أن الحساب على النعيم الذي هو نعمة من الله أشدّ عليهم لأنهم ما كانوا يترقبونه ، لأن تلبسهم بالإِشراك وهُم في نعيم أشد كفراناً للذي أنعم عليهم .

و﴿ النعيم ﴾ : اسم لما يلذّ لإِنسان مما ليس ملازماً له ، فالصحة وسلامة الحواس وسلامة الإِدراك والنوم واليقظة ليست من النعيم ، وشرب الماء وأكل الطعام والتلذّذ بالمسموعات وبما فيه فخر وبرؤية المحاسن ، تعد من النعيم .

والنعيم أخص من النعمة بكسر النون ومرادف للنَّعمة بفتح النون .

ونقدم النعيم عند قوله تعالى : ﴿ لهم فيها نعيم مقيم ﴾ في سورة براءة (21) .

والخطاب موجه إلى المشركين على نسق الخطابات السابقة .

والجملة المضاف إليها (إذ) من قوله : يومئذ ﴾ محذوفة دل عليها قوله : ﴿ لترون الجحيم ﴾ [التكاثر : 6] أي يوم إذ ترون الجحيم فيغلظ عليكم العذاب .

وهذا السؤال عن النعيم الموجه إلى المشركين هو غير السؤال الذي يُسأله كل منعَم عليه فيما صرف فيه النعمة ، فإن النعمة لما لم تكن خاصة بالمشركين خلافاً للتكاثر كان السؤال عنها حقيقاً بكل منعَم عليه وإن اختلفت أحوال الجزاء المترتب على هذا السؤال .

ويؤيده ما ورد في حديث مسلم عن أبي هريرة قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في

بيته .

إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرمُ أضيافاً مني فانطلق فجاءهم بعِذْق فيه بُسْر وتَمر ورُطب وأخذ المدية فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده لتُسألنّ عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة " الحديث .

فهذا سؤال عن النعيم ثبت بالسنة وهو غير الذي جاء في هذه الآية .

والأنصاري هو أبو الهيثم بن التَّيِّهان واسمه مالك .

ومعنى الحديث : لتُسألن عن شكر تلك النعمة ، أراد تذكيرهم بالشكر في كل نعمة .

وسؤال المؤمنين سؤال لترتيب الثواب على الشكر أو لأجل المؤاخذة بالنعيم الحرام .

وذكر القرطبي عن الحسن : لا يُسأل عن النعيم إلا أهل النار ، وروي "أن أبا بكر لما نَزَلَتْ هذه الآية قال : يا رسول الله أرأيتَ أكلة أكلتُها معك في بيت أبي الهيثم بن التيِّهان من خبز شعير ولحم وبُسر قد ذنَّب وماء عذب ، أنخاف أن يكون هذا من النعيم الذي نُسأل عنه ؟ فقال عليه السلام : " ذلك للكُفّار " ثم قرأ : ﴿ وهل يُجازَى إلا الكفور ﴾ [سبأ : 17] .

قال القشيري : والجمع بين الأخبار أن الكلَّ يسألون ، ولكن سؤال الكافر سؤال توبيخ لأنه قد ترك الشكر ، وسؤال المؤمن سؤال تشريف لأنه شكر .

والجملة المضاف إليها (إذ) من قوله : ﴿ يومئذ ﴾ محذوفة دلّ عليها قوله : ﴿ لترون الجحيم ﴾ [التكاثر : 6] أي يوم إذ ترون الجحيم فيغلظ عليكم العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(175/829)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة التكاثر

هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق وكأنما هي صوت نذير , قائم على شرف عال . يمد بصوته ويدوي بنبرته . يصيح بنوم غافلين مخمورين سادرين , أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة , وحسهم مسحور . فهو يمد بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ :

(ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر) . .

أيها السادرون المخمورون . أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد وأعراض الحياة

وأنتم مفارقون . أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه . أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها ولا تفاخر . . استيقظوا وانظروا . .

فقد (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) .

ثم يقرع قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك بعد زيارة المقابر في إيقاع عميق رزين :

(كلا سوف تعلمون) . . ويكرر هذا الإيقاع بألفاظه وجرسه الرهيب الرصين :

(ثم كلا سوف تعلمون) . ثم يزيد التوكيد عمقا ورهبة , وتلويحا بما وراءه من أمر ثقيل , لا يتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والاستكثار :

(كلا لو تعلمون علم اليقين) . . ثم يكشف عن هذه الحقيقة المطوية الرهيبة :

(لترون الجحيم) . . ثم يؤكد هذه الحقيقة ويعمق وقعها الرهيب في القلوب :

ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

(ثم لترونها عين اليقين) . .

ثم يلقي بالإيقاع الأخير , الذي يدع المخمور يفيق , والغافل يتنبه , والسادر يتلفت , والناعم يرتعش ويرتجف مما في يديه من نعيم

(ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) !

لتسألن عنه من أين نلتموه ? وفيم أنفقتموه ? أمن طاعة وفي طاعة ? أم من معصية وفي معصية ? أمن حلال وفي حلال ? أم من حرام وفي حرام ? هل شكرتم ? هل أديتم ? هل

شاركتم ؟ هل استأثرتم ؟

(لتسألن)عما تتكاثرون به وتتفاخرون . . فهو عبء تستخفونه في غمرتكم ولهوكم ولكن وراءه ما وراءه من هم ثقيل !

(176/829)

إنها سورة تعبر بذاتها عن ذاتها . وتلقي في الحس ما تلقي بمعناها وإيقاعها . وتدع القلب مثقلا مشغولا بهم الآخرة عن سفساف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها التي يهش لها الفارغون !

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل . . (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) . . وتنتهي ومضة الحياة الدنيا وتنطوي صفحتها الصغيرة . . ثم يمتد الزمن بعد ذلك ويمتد الأثقال ; ويقوم الأداء التعبيري ذاته بهذا الإيحاء . فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيري الفريد . . .

وما يقرأ الإنسان هذه السورة الجليلة الرهيبة العميقة , بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة في الفضاء إلى بعيد في مطلعها , الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق في نهايتها . . حتى يشعر بثقل ما على عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التي يحياها على الأرض ثم يحمل ما

يحمل منها ويمضي به مثقلا في الطريق !

ثم ينشئ يحاسب نفسه على الصغير والزهيد !!!. انتهى انتهى. اهـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3962.3963﴾

(177/829)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سورة التكاثر

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2)

ألهاكم : أي شغلكم ، ولهاه : تلهيه ، أي علله .

ومنه قول امرئ القيس :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع . . . فألهيتها عن ذي تمائم محول

أي شغلتها .

والتكاثر : المكاثرة . ولم يذكر هنا في أي شيء كانت المكاثرة ، التي ألهتهم .

قال ابن القيم : ترك ذكره ، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء لا المتكاثر به وإما إرادة الإطلاق . اهـ.

ويعنى رحمة الله بالأول : ذم الهلع ، والنهم .

وبالثاني : ليعم كل ما هو صالح للتكاثر به ، مال وولد وجاه ، وبناه وغراس .

ولم أجد لأحد من المفسرين ذكر نظير لهذه الآية .

ولكنهم اتفقوا على ذكر سبب نزولها في الجملة ، من أن حيين تفاخرا بالآباء وأمجاد الأجداد ، فعددوا الأحياء ، ثم ذهبوا إلى المقابر ، وعدّد كل منهما ما لهم من الموتى يفخرون بهم ، ويتكاثرون بتعدادهم .

وقيل : في قريش بين بني عبد مناف وبني سهم .

وقيل : في الأنصار .

وقيل : في اليهود وغيرهم ، مما يشعر بأن التكاثر كان في مفاخر الآباء .

وقال القرطبي : الآية تعم جميع ما ذكره وغيره .

وسياق حديث الصحيح : " لو أن لابن آدم وادياً من ذهب ، لأحب أن يكون له واديان ، ولن يملأه فاه إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب " .

قال ثابت : عن أنس عن أُبَيّ : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾ [التكاثر : 1] .

وكأن القرطبي يشير بذلك ، إلى أن التكاثر بالمال أيضاً .

وقد جاءت نصوص من كتاب الله تدل على أن التكاثر الذي ألهاهم، والذي ذمَّهم الله بسببه أو حذرهم منه، إنما هو في الجميع، كما في قوله تعالى: ﴿ اعلموا أَنَّمَا الحياة الدنيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأموال والأولاد كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكفار نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً ﴾ [الحديد: 20] -إلى قوله- ﴿ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ مَتَاعُ الغرور ﴾ [الحديد: 20].

ففيه التصريح: بأن التفاخر والتكاثر بينهم في الأموال والأولاد.

ثم جاءت نصوص أخرى في هذا المعنى كقوله: ﴿ وَمَا الحياة الدنيا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخرة خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: 32].

وقوله: ﴿ وَمَا هذه الحياة الدنيا إِلاَّ لَهْوٌ ولَعِبٌ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: 64].

ولكون الحياة الدنيا بهذه المثابة، جاء التحذير منها والنهي عن أن تلههم، وفي قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ الله وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فأولئك هُمُ الخاسرون ﴾ [المنافقون: 9].

وبين تعالى أن ما عند الله للمؤمنين خير من هذا كله في قوله: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفضوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِماً قُلْ مَا عِندَ الله خَيْرٌ مِّنَ اللهو وَمِنَ التجارة والله خَيْرُ الرازقين ﴾

[الجمعة : 11] .

ومما يرجح أن التكاثر في الأموال والأولاد في نفس السورة ، ما جاء في آخرها من قوله :

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النعيم ﴾ [التكاثر : 8] ، لمناسبتها لأول السورة .

كما هو ظاهر بشمول النعيم للمال شمولاً أولياً .

وقوله : ﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ .

(179/829)

أخذ منه من قال : أن تفاخرهم ، حملهم على الذهاب إلى المقابر ليتكاثروا بأمواتهم ، كما في أخبار أسباب النزول المتقدمة .

والصحيح في زرتم المقابر : يعني متم : لأن الميت يأتي القبر كالزائر لأن وجوده فيه مؤقتاً .

وقد روي : أن أعرابياً سمع هذه الآية ، فقال : بعثوا ورب الكعبة ، فقيل له في ذلك ، فقال : لأن الزائر لا بد أن يرتحل .

تنبيه

قد بحث بعض العلماء مسألة زيارة القبور هنا لحديث : "كنت نهيتكم عن زيادة القبور ، ألا فزوروها فإنها تزهِّد في الدنيا وتذكِّر في الآخرة" .

وقالوا : إن المنع كان عاماً من أجل ذكر مآثر الآباء والموتى ، ثم بعد ذلك رخص في الزيارة ، واختلفوا فيمن رخص له . فقيل : للرجال دون النساء لعدم دخولهن في واو الجماعة في قوله : " فزوروها " .

وقيل : هو عام للرجال وللنساء ، واستدل كل فريق بأدلة يطول إيرادها .

ولكن على سبيل الأجمال لبيان الأرجح ، نورد نبذة من البحث .

فقال المانعون للنساء : إنهن من أصل المنع ، ولم تشملهن الرخصة ، ومجيء اللعن بالزيارة فيهن . وقال المجيزون : إنهن يدخلن ضمناً في خطاب الرجال ، كدخولهن في مثل قوله : ﴿ وَأَقِيمُواْ الصلاة وَآتُواْ الزكاة ﴾ [البقرة : 43] ، فإنهن يدخلن قطعاً .

وقالوا : إن اللعن المنوه عنه جاء في الحديث بروايتين رواية : " لعن الله زائرات القبور " .

وجاء " لعن الله زوّارات القبور والمتّخذات عليهن السرج " إلى آخره .

فعلى صيغة المبالغة : زوّارات لا تشمل مطلق الزيارة ، وإنما تختص للمكثرات ، لأنهن بالإكثار لا يسلمن من عادات الجاهلية من تعداد مآثر الموتى المحظور في أصل الآية .

أما مجرد زيارة بدون إكثار ولا مكث ، فلا .

واستدلوا لذلك بحديث عائشة رضي الله عنها لما ذكر لها صلى الله عليه وسلم ، السلام على أهل البقيع ، فقالت : " وماذا أقول يا رسول الله ، إن أنا زرت القبور ؟ قال : " قولي : السلام عليكم آل دار قوم مؤمنين " الحديث .

فأقرها صلى الله عليه وسلم ، على أنها تزور القبور وعلمها ماذا تقول إن هي زارت .

وكذلك بقصة مروة على المرأة التي تبكي عند القبر فكلّمها ، فقالت : إليك عني : وهي لا تعلم من هو ، فلما ذهب عنها قيل لها : إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاءت تعتذر فقال لها ، "إنما الصبر عند الصدمة الأولى " .

ولم يذكر لها المنع من زيارة القبور ، مع أه رآها تبكي .

وهذه أدلة صريحة في السماح بالزيارة . ومن ناحية المعنى ، فإن النتيجة من الزيارة للرجال من في حاجة إليها كذلك ، وهي كون زيارة القبور تزهِّد في الدنيا وترغِّب في الآخرة .

وليست هذه بخاصة في الرجال دون النساء ، بل قد يكن أحوج إليه من الرجال .

وعلى كل ، فإن الراجح من هذه النصوص والله تعالى أعلم ، هو الجواز لمن يكثرن ولا يتكلمن بما لا يليق ، مما كان سبباً للمنع الأول ، والعلم عند الله تعالى .

تنبيه آخر

من لطائف القول في التفسير ، ما ذكره أبو حيان عن التكاثر في قوله : ﴿ حتى زُرْتُمُ المقابر ﴾ [التكاثر : 2] ، ما نصه :

وقيل هذا تأنيب على الإكثار من زيارة، تكثيراً بمن سلف وإشادة بذكره، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن النواويس عليها، أي الفوانيس، وهي السرج.

ثم قال أبو حيان: وابن عطية: لم ير إلا قبور أهل الأندلس، فكيف لو رأى ما يتباهى به أهل مصر في مدافنهم بالقرافة الكبرى والقرافة الصغرى، وباب النصر وغير ذلك. وما يضيع فيها من الأموال، لتعجب من ذلك ولرأى ما لم يخطر ببال.

وأما التباهي بالزيارة: ففي هؤلاء المنتمين إلى الصوفية أقوام ليس لهم شغل إلا زيارة القبور: زرت قبر سيدي فلان بكذا، وقبر فلان بكذا، والشيخ فلاناً بكذا، فيتذكرون أقاليم طافوها على قدم التجريد.

وقد حفظوا حكايات عن أصحاب تلط القبور وأولئك المشايخ، بحيث لو كتبت لجاءت أسفاراً. وهم مع ذلك لا يعرفون فروض الوضوء ولا سننه.

وفد سخر لهم الملوك وعوام الناس في تحسين الظن بهم وبذل المال لهم، وأما من شذ منهم لأنه يتكلم للعامة فيأتي بعجائب، يقولون: هذا فتح من العلم اللدني على الخضر.

حتى إن من ينتمي إلى العلم، لما رأى رواج هذه الطائفة سلك مسلكهم، ونقل كثيراً من

حكاياتهم ، ومزج ذلك بيسير من العلم طلباً للمال والجاه وتقبيل اليد .

ونحن نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لطاعته. ا هـ . بحروفه .

وهذا الذي قاله رحمه الله من أعظم ما افتتن به المسلمون في دينهم ودنياهم معاً .

أما في دينهم : فهو الغلو الذي نهى عنه صلى الله عليه وسلم ، صيانة للتوحيد ، من سؤال غير الله. وأما في الدنيا فإن الكثير من هؤلاء يتركون مصالح دنياهم من زراعة أو تجارة أو صناعة ، ويطوف بتلك الأماكن تاركاً ومضيعاً من يكون السعي عليه أفضل من نوافل العبادات .

مما يلزم على طلبة العلم في كل مكان وزمان ، أن يرشدوا الجهلة منهم ، وأن يبينوا للناس عامة خطأ وجهل أولئك ، وأن الرحيل لتلك القبور ليس من سنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، ولا كان من عمل الخلفاء الراشدين ، ولا من عامة الصحابة ولا التابعين ، ولا من عمل أئمة المذاهب الأربعة رحمهم الله .

وإنما كان عمل الجميع زيارة ما جاورهم من المقابر للسلام عليهم والدعاء لهم ، والأتعاظ بحالهم ، والاستعداد لما صاروا إليه .

نسأل الله الهداية والتوفيق ، لاتّباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاقتفاء بآثار سلفة الأمة ، آمين .

كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)

كلا : زجر عن التلهي والتكاثر والمذكور ، وسوف تعلمون : أي حقيقة الأمر ، ومغبة هذا التبهي ، ثم كلا سوف تعلمون ، تكرار للتأكيد .

وقيل : إنه لا تكرار ، لما روي عن علي رضي الله عنه : أن الأولى في القبر ، والثانية يوم القيامة . وهو معقول .

واستدل بهم بعضهم على عذاب القبر .

(182/829)

ومعلوم صحة حديث القبر " إنما القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار " .

والسؤال فيه معلوم ، ولكن أرادوا مأخذه من القرآن .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في الكلام على سورة غافر ، عند ﴿ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سوء العذاب ﴾ [غافر : 45] ، إثبات عذاب القبر من القرآن .

وكذلك بيان معناه في آخر سورة الزخرف عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ فاصفح عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : 89] .

وهذا الزجر هنا والتحذير لهم رداً على ما كانوا عليه في التكاثر .

كما قال الشاعر :

ولست بالأكثر منهم حصى . . . وإنما العزة للكاثر

واصرح دليل لإثبات عذاب القبر من القرآن ، هو قوله تعالى : ﴿ النار يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ الساعة أدخلوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب ﴾ [غافر : 46] ، لأن الأول في الدنيا ، والثاني في الآخرة .

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7)

لو : هنا شرطية : جوابها محذوف باتفاق قدره ابن كثير أي لو علمتم حق العلم ، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الآخرة ، حتى صرتم إلى المقابر ، وعلم اليقين : أجاز أبو حيان إضافة الشيء لنفسه ، أي لمغايرة الوصف ، إذ العلم هو اليقين ، ولكنه آكد منه .

وعن حسان قوله :

وسرنا وساروا إلى بدر لحتفهم . . . لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

ولترون الجحيم : جواب لقسم محذوف .

وقال : المراد برؤيتها عند أول البعث ، أو عند الورود ، أو عند ما يتكشف الحال في القبر .

ثم لترونها عين اليقين :

قيل : هذا للكافر عند دخولها ، هذا حاصل كلام المفسرين .

ومعلوم أن هذا ليس لمجرد الإخبار برؤيتها ، ولكن وعيد شديد وتخويف بها ، لأن مجرد الرؤية معلوم .

وإن منكم إلا واردها ولكن هذه الرؤية أخص، كما في قوله: ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف: 53]، أي أيقنوا بدليل قوله: ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: 53].

وقد يبدو وجه في هذا المقام، وهو أن الرؤية هنا للنار نوعان:

الرؤية الأولى: رؤية علم وتيقن، في قوله: ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾، علماً تستيقنون به حقيقة يوم القيامة لأصبحتم بمثابة من يشاهد أهواله ويشهد بأحواله، كما في حديث الإحسان: "أن تعبد الله كأنك تراه".

وقد وقع مثله في قصة الصديق لما أخبر نبأ الإسراء، فقال: "صدق محمد، فقالوا: تصدقه وأنت تسمع منه؟ قال: إني لأصدقه على أكثر من ذلك".

فلعلمه علم اليقين بصدقه صلى الله عليه وسلم فيما يخبر، صدق بالإسراء كأنه يراه.

وتكون الرؤية الثانية، رؤية عين ومشاهدة، فهو عين اليقين.

وقد قدمنا مراتب العلم الثلاث: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

فالعلم: ما كان عن دلائل.

وعين اليقين : ما كان عن مشاهدة .

وحق اليقين : ما كان عن ملابسة ومخالطة ، كما يحصل العلم بالكعبة ، ووجهتها فهو علم اليقين ، فإذا رآه فهو عين اليقين بوجودها ، فإذا دخلها وكان في جوفها فهو حق اليقين بوجودها . والله تعالى أعلم .

ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

أصل النعيم كل حال ناعمة من النعومة والليونة ، ضد الخشونة واليبوسة ، والشدائد ، كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل : 53] .

ثم قال : ﴿ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل : 53] ، فقابل النعمة بالضر .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السيئات عنيا ﴾ [هود : 10] .

(184/829)

وعلى هذا فإن نعم الله عديدة ، كما قال : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَآ ﴾ [النحل : 18] .

وبهذا تعلم أن كل ما قاله المفسرون ، فهو من قبيل التمثيل لا الحصر ، كما قال تعالى : ﴿ لاَ

تُحْصُوهَا ﴾ .

وأصول هذه النعم أولها بالإسلام ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] .

ويدخل فيها نعم التشريع والتخفيف ، عما كان على الأمم الماضية .

كما يدخل فيها نعمة الإخاء في الله ﴿ واذكروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ [آل عمران : 103] ، وغير ذلك كثيراً .

وثانيها : الصحة ، وككال الخلقة والعافية ، فمن كمال الخلقة الحواس ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد : 8-9] .

ثم قال : ﴿ إِنَّ السمع والبصر والفؤاد كُلُّ أولئك كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : 36] .

وثالثها : المال في كسبه وإنفاقه سواء ، ففي كسبه من حله نعمة ، وفي إنفاقه في أوجهه نعمة .

هذه أصول النعم ، فماذا يسأل عنه ، منها جاءت السنة بأنه سيسأل عن كل ذلك جملة وتفصيلا .

أما عن الدين والمال والصحة ، ففي مجمل الحديث " إذا كان يوم القيامة ، لا تزال قدم عبد حتى يسأل عن خمس : عن عمره فيما أبلاه ، وعن علمه فيم عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن شبابه فيم أفناه " .

ولعظم هذه الآية وشمولها ، فإنها أصبحت من قبيل النصوص مضرب المثل ، فقد فصلت السنة جزئيات ما كانت تخطر ببال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(185/829)

وقد روى القرطبي ما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبي بكر وعمر ، فقال : " ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ " قالا : الجوع يا رسول الله ! قال : " وأنا ، والذي نفسي بيده ! لأخرجني الذي أخركما ، قوما " فقاما فقاموا معه ، فأتى رجلاً من الأنصار ، فإذا هو ليس في بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً ! وأهلاً ! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أين فلان ؟ " قالت : ذهب يستعذب لنا من الماء –أي يطلب ماءً عذباً– . إذ جاء الأنصاريُّ ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ، ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافاً مني . قال : فانطلق فجاءهم بعِذْق فيه بُسْرٌ وتمرٌ ورُطبٌ ، فقال : كلوا من هذه ، وأخذ المدية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر :

" والذي نفسي بيده ! لتُسأَلن عن هذا يوم النعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ،

ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم " وخرجه الترمذي .

وقال فيه : " هذا والذي نفسي بيده ، من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة ، ظل بارد ورطب طيب ، وماء بارد " وكنى الرجل الذي من الأنصار .

فقال : أبو الهيثم بن التيهان .

قال القرطبي : قلت : اسم هذا الرجل مالك بن التيهان ، ويكنى أبا الهيثم .

وقد ذكر ابن كثير هذه القصة من عدة طرق .

ومنها : عند أحمد أن عمر رضي الله عنه أخذ بالفرق وضرب به الأرض ، وقال : " إنا لمسؤولون عن هذا يا رسول الله ؟ قال : " نعم ، إلا من ثلاثة : خرقة لف الرجل بها عورته ، أو كسرة سد بها جوعه ، أو حجر يدخل فيه من الحر والقر " .

(186/829)

وقال سفيان بن عيينة : إن ما سد الجوع ، وستر العورة من خشن الطعام ، لا يسأل عنه المرء يوم القيامة ، وإنما يسأل عن النعيم ، والدليل عليه أن الله أسكن آدم الجنة فقال له : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تعرى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تضحى ﴾ [طه : 118-119] .

فكانت هذه الأشياء الأربعة ما يسد به الجوع ، وما يدفع به العطش ، وما يسكن فيه من الحر ويستر به عورته ، لآدم عليه السلام بالإطلاق ، لا حساب عليها لأنه لا بد له منها .

وذكر عن أحمد أيضاً بسنده " أنهم كانوا جلوساً فطلع عليهم النّبي صلى الله عليه وسلم وعلى رأسه أثر ماء ، فقلنا : يا رسول الله ، نراك طيب النفس ؟

قال : " أجل " قال : خاض الناس في ذكر الغنى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ، والصحة لمن اتقى الله ، خير من الغنى ، وطيب النفس من النعم " .

قال : ورواه ابن ماجه0 عن أبي هريرة .

وبهذا ، فقد ثبت من الكتاب والسنة ، أن النعيم الذي هو محل السؤال يوم القيامة عام في كل ما يتنعم به الإنسان في الدنيا ، حساً كان أو معنى .

حتى قالوا : النوم مع العافية ، وقالوا : إن السؤال عام للكافر والمسلم ، فهو للكافر توبيخ وتقريع وحساب ، وللمؤمن تقرير بحسب النعمة وجحودها وكيفية تصريفها . والعلم عند الله تعالى .

وكل ذلك يراد منه الحث على شكر النعمة ، والإقرار للمنعم والقيام بحقه سبحانه فيها ، كما قال تعالى عن نبي الله : ﴿ رَبِّ أوزعني أَنْ أَشكُرَ نعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِديَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذريتيا إِنِي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ المسلمين

﴾ [الأحقاف: 15].

اللَّهم أوزعنا شكر نعمتك، واجعل ما أنعمت علينا عوناً لنا على طاعتك. انتهى ا. هـ ﴿أضواء البيان حـ 9 ص﴾

(187/829)

فائدة

قال الإمام السبكي:

قَوْله تَعَالَى ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ ﴾ سَأَلَ سَائِلٌ عَنْ هَذَا التَّرْتِيبِ، إنْ كَانَ مِنْ تَرْتِيبِ الْجُمَلِ بِمَعْنَى أَنَّهُ أَقْسَمَ عَلَى رُؤْيَتِهَا ثُمَّ أَقْسَمَ عَلَى رُؤْيَتِهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ أَقْسَمَ عَلَى السُّؤَالِ فَوَاضِحٌ؛ لَكِنَّهُ لَيْسَ الْمُتَبَادِرَ إلَى الْفَهْمِ مِنْ الْآيَةِ، فَإِنَّ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ لَا يَكُونُ التَّرْتِيبُ فِي الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ بَلْ فِي نَفْسِ الْمُقْسِمِ، وَالْمُتَبَادِرُ مِنْ الْآيَةِ أَنَّهُ فِي الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ فَلَا بُدَّ مِنْ طَرِيقٍ لِتَحْقِيقِ هَذَا الْمُتَبَادِرِ، وَالْقَسَمُ إنْشَاءٌ لَا يَقْبَلُ التَّرْتِيبَ بَيْنَ الضَّرْبَيْنِ، بَلْ لَهُ أَنْ يَضْرِبَهُمَا مَعًا أَوْ يَضْرِبَ عَمْرًا ثُمَّ زَيْدًا، فَإِنَّهُ إنَّمَا رَتَّبَ بَيْنَ الْقَسَمَيْنِ لَا بَيْنَ الْمُقْسَمِ عَلَيْهِمَا.

فَالْوَجْهُ فِي فَهْمِ الْآيَةِ أَنْ نَقُولَ "ثُمَّ" دَالَّةٌ عَلَى تَأَخُّرِ مَا بَعْدَ رُؤْيَةِ الْجَحِيمِ الْأُولَى، وَكَأَنَّهُ بَعْدَ

رُؤْيَةِ الْجَحِيمِ ﴿ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ وَلَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَقُولَ إِنَّ "بَعْدَ" ظَرْفٌ مُقَدَّمٌ لِأَنَّ الْقَسَمَ لَهُ صَدْرُ الْكَلَامِ فَلَا يَعْمَلُ مَا بَعْدَهُ فِيمَا قَبْلَهُ لَكِنَّا نَقُولُ هُوَ ظَرْفٌ لِمَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَى الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ كَأَنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ ﴿ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ وَاللَّهِ وَهَكَذَا التَّقْدِيرُ فِي الْجُمْلَةِ الثَّالِثَةِ .

فَالْقَسَمُ الْآنَ عَلَى مَا يَقَعُ مُرَتَّبًا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ إِنْ دَخَلْتِ الدَّارَ فَوَاللَّهِ لَا وَطِئْتُكِ فَهُوَ قَسَمٌ الْآنَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَطَأُ بَعْدَ دُخُولِ الدَّارِ فَالْمُعَلَّقُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ لَا الْقَسَمُ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُ التَّعْلِيقِ يَقْتَضِي أَنَّهُ الْقَسَمُ لِأَنَّهُ الَّذِي جُعِلَ جَزَاءً فَالشَّرْطُ كَالْجُمْلَةِ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهَا وَالْقَسَمُ كَالْجُمَلِ الْمَعْطُوفَةِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، هَذَا كُلُّهُ إِنْ قَدَّرْنَا الْقَسَمَ بَعْدَ قَسَمٍ يَقْبَلُ اللَّامَ

أَمَّا إذا قدَّرْنَاهُ قسَمًا واحِدًا قبْلَ ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ شَامِلًا لِلْجُمَلِ الثَّلَاثِ فَلَا يَأْتِي هَذَا الْإِمْكَانُ وَيَكُونُ قَدْ أَقْسَمَ قسَمًا واحِدًا لَا أَقسَامًا ثَلَاثَة ، وَتَظْهَرُ فَائِدَةُ هَذَا الْبَحْثِ إِذَا حَلَفَ فَقَالَ وَاللَّهِ لَأَضْرِبَنَّ زَيْدًا ثُمَّ وَاللَّهِ لَأَضْرِبَنَّ عَمْرًا ثُمَّ وَاللَّهِ لَأَضْرِبَنَّ خَالِدًا كَانَتْ ثَلَاثة أَيمَانٍ ؛ وَكَوْنُ الْيَمِينِ عَلَى الثَّلَاثِ الْآنَ لَا شَكَّ فِيهِ ، وَهَلْ يَجِبُ التَّرْتِيبُ ، هَذَا مُحْتَمَلٌ .

(190/829)

وَالَّذِي يَظْهَرُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى نِيَّتِهِ فَإِنْ نَوَى التَّرْتِيبَ لَمْ يَبْرَأْ إِلَّا بِالتَّرْتِيبِ ، وَإِنْ لَمْ يَنْوِ كَفَى وُجُودُ الثَّلَاثِ كَيْفَ اتَّفَقَ ؛ وَمَتَى تَرَكَ الثَّلَاثَ لَزِمَهُ ثَلَاثُ كَفَّارَاتٍ ، وَإِنْ فَعَلَ وَاحِدَةً وَتَرَكَ ثِنْتَيْنِ لَزِمَهُ كَفَّارَةُ مَا تَرَكَ ، وَإِذَا قَالَ : وَاللَّهِ لَأَضْرِبَنَّ زَيْدًا ثُمَّ لَأَضْرِبَنَّ عَمْرًا ثُمَّ لَأَضْرِبَنَّ خَالِدًا ، كَانَتْ يَمِينًا وَاحِدَةً مُرَتَّبَةً عَلَى الثَّلَاثِ فِي قُوَّةِ قَوْلِهِ : وَاللَّهِ لَأَضْرِبَنَّ زَيْدًا ثُمَّ عَمْرًا ثُمَّ خَالِدًا ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا زِيَادَةَ التَّأْكِيدِ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَهُمَا وَيُقَالَ إِنَّ قَوْلَهُ وَاللَّهِ لَأَضْرِبَنَّ زَيْدًا ثُمَّ عَمْرًا ثُمَّ خَالِدًا يَمِينًا وَاحِدَةً بِلَا إِشْكَالٍ ، وَمَتَى أَعَادَ اللَّامَ فِي الِاثْنَيْنِ كَانَتْ ثَلَاثَةَ أَيمَانٍ ، وَإِنْ كَانَ لَا يُقَدَّرُ الْقَسَمُ فِي كُلٍّ مِنْهَا ؛ بَلْ هُوَ فِي الْإِثْبَاتِ كَمَا فِي النَّفْيِ إِذَا قَالَ وَاللَّهِ لَا ضَرَبْتُ زَيْدًا وَلَا عَمْرًا فَإِنَّهَا يَمِينَانِ ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْيَمِينِ وَاحِدًا ، وَهَذَانِ الِاحْتِمَالَانِ قُلْتُهُمَا تَفَقُّهًا لَا نَقْلًا وَلَا يَتَرَجَّحُ الْآنَ مِنْهُمَا عِنْدِي شَيْءٌ .

وَلَعَلَّهُ يَقْوَى عِنْدِي إنْ شَاءَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ هَذَا الِاحْتِمَالُ الثَّانِي ، فَإِنَّنِي مَائِلٌ إلَيْهِ ، ولَكِنَّنِي لَمْ أَجِدْ الْآنَ دَلِيلًا يَنْهَضُ تَرْجِيحُهُ . انْتَهَى . انتهى . ا هـ ﴿ فتاوى السبكى حـ 1 صـ 120 . 121 ﴾

(191/829)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت بمكة سورة ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ .

وأخرج الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم ؟ قالوا : ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية ؟ قال : أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ألهاكم التكاثر ؟ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال رضي الله عنه قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمون ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ المغيرة .

وأخرج الطيالسي وسعيد بن منصور وأحمد وعبد بن حميد والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وابن مردويه عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ وفي لفظ وقد أنزلت عليه ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ وهو يقول : " يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت " .

وأخرج الطبراني عن مطرف عن أبيه قال : لما أنزلت ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ، أو أعطيت فأمضيت " .

وأخرج عبد بن حميد ومسلم وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول العبد مالي مالي ، وإنما له من ماله ثلاثة ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فأبقى . وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس " .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول ابن آدم مالي ، وما له من ماله إلا ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو أعطى فأمضى " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والبيهقي في شعب الإيمان وضعفه عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : " قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إني قارئ عليكم سورة ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ فمن بكى فقد دخل الجنة ، فقرأها فمنا من بكى ومنا من لم يبك ، فقال الذين لم يبكوا : قد جهدنا يا رسول الله أن نبكي فلم نقدر عليه . فقال : إني قارئها عليكم الثانية فمن بكى فله الجنة ، ومن لم يقدر أن يبكي فليتباك " .

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي وهو يقرأ ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ حتى ختمها .

وأخرج البخاري وابن جرير عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال : كنا نرى هذا من القرآن لو أن لابن آدم واديين من مال لتمنى وادياً ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ثم يتوب الله على من تاب ، حتى نزلت سورة ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ إلى آخرها .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال : قالوا : نحن أكثر من بني فلان وبنو فلان أكثر من بني فلان فألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلالاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال : نزلت في اليهود .

وأخرج الترمذي وحنيش بن أصرم في الاستقامة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: نزلت ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ في عذاب القبر.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمر بن عبد العزيز أنه قرأ ﴿ الهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾ ثم قال: ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال: في الأموال والأولاد.

(193/829)

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ ولكن أخشى عليكم التعمد ".

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: " قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال: يعني عن الطاعة ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ قال: يقول: حتى يأتيكم الموت ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ يعني لو قد دخلتم قبوركم ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ يقول: لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم ﴿ كلا لو تعلمون علم

اليقين ﴾ قال: لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدي ربكم ﴿ لترون الجحيم ﴾ وذلك أن الصراط يوضع وسط جهنم، فناج مسلم ومخدوش مسلم، ومكدوش في نار جهنم ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ يعني شبع البطون وبارد الشراب وظلال المساكن واعتدال الخلق ولذة النوم".

وأخرج ابن مردويه عن عياض بن غنم "أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قوله: ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ﴾ يقول: "لو دخلتم القبور" ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾، "وقد خرجتم من قبوركم"، ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ في يوم محشركم إلى ربكم ﴿ لترون الجحيم ﴾ أي في الآخرة حق اليقين كرأي العين ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ يوم القيامة ﴿ ثم لتسألنّ يومئذ عن النعيم ﴾ بين يدي ربكم عن بارد الشراب وظلال المساكن وشبع البطون واعتدال الخلق ولذاذة النوم حتى خطبة أحدكم المرأة مع خطاب سواه فزوجها ومنعها غيره".

وأخرج ابن جرير عن الضحاك ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ الكفار ﴿ ثم كلا سوف تعلمون ﴾ المؤمنين. وكذلك كانوا يقرؤونها.

وأخرج الفريابي وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ قال: كنا نحدث أن علم اليقين أن يعلم أن الله باعثه بعد الموت.

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ لو تعلمون علم اليقين ﴾ قال : كنا نحدث أنه الموت وفي قوله : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال : إن الله سائل كل ذي نعمة فيما أنعم عليه .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس في قوله : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال : صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العباد فيم استعملوها وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله : ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ [الاسراء : 36] .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال : كل شيء من لذة الدنيا .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال : الأمن والصحة " .

وأخرج هناد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود في الآية قال النعيم : الأمن والصحة .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن عليّ بن أبي طالب ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾

قال : النعيم العافية .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب أنه سئل عن قوله : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال : عن أكل خبز البر وشرب ماء الفرات مبرداً ، وكان له منزل يسكنه ، فذاك من النعيم الذي يسأل عنه .

وأخرج ابن مردويه عن أبي الدرداء قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال : ناس من أمتي يعقدون السمن والعسل بالنقى فيأكلونه " .

(195/829)

وأخرج عبد بن حميد عن حمران بن أبان عن رجل من أهل الكتاب قال : ما الله معط عبداً فوق ثلاث إلا سائله عنهم يوم القيامة : قدر ما يقيم به صلبه من الخبز ، وما يكنه من الظل وما يواري به عورته من الناس .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال الصحابة : وفي أي نعيم نحن يا رسول الله ؟ وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير فأوحى الله إلى نبيه أن قل لهم : أليس تحتذون النعال وتشربون الماء البارد ؟ فهذا من النعيم .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد وأحمد وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن محمود بن لبيد قال : " لما أنزلت ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ فقرأ حتى بلغ ثم ﴿ لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قالوا يا رسول الله : عن أي نعيم نسأل ؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر وسيوفنا على رقابنا والعدوّ حاضر فعن أي نعيم نسأل ؟ قال : " أما إن ذلك سيكون " " .

وأخرج عبد بن حميد والترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال الناس : يا رسول الله عن أي النعيم نسأل وإنما هما الأسودان والعدوّ حاضر وسيوفنا على عواتقنا ؟ قال : " أما إن ذلك سيكون " " .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن الزبير بن العوام قال : " لما نزلت ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قالوا يا رسول الله : وأي نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال : " إن ذلك سيكون " " .

(196/829)

وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن الزبير قال : " لما نزلت ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال الزبير بن العوّام : يا رسول الله أي نعيم نسأل عنه ؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر . قال : " أما إن ذلك سيكون " . وأخرج عبد بن حميد عن

صفوان بن سليم قال : " لما نزلت ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ إلى آخرها ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : عن أي نعيم نسأل ؟ إنما هما الأسودان الماء والتمر وسيوفنا على عواتقنا . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "إنه سيكون" " .

وأخرج أبو يعلى عن الحسن قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قالوا يا رسول الله : أي نعيم نسأل عنه وسيوفنا على عواتقنا ؟ وذكر الحديث .

وأخرج أحمد في زوائد الزهد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن حبان وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد " .

وأخرج هناد وعبد بن حميد والبخاري وابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ " .

وأخرج ابن جرير عن ثابت البناني عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " النعيم المسؤول عنه يوم القيامة كسرة تقوته وماء يرويه وثوب يواريه " .

وأخرج أحمد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن جابر بن عبد الله قال : " جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر

فأطعمناهم رطباً وسقيناهم ماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا النعيم الذي تسألون عنه " " .

(197/829)

وأخرج عبد بن حميد وابن مردويه والبيهقي عن جابر بن عبد الله قال : "كان ليهودي على أبي تمر فقتل أبي يوم أحد وترك حديقتين ، وتمر اليهودي يستوعب ما في الحديقتين . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " هل لك أن تأخذ العام بعضه وتؤخر بعضها إلى قابل " فأبى اليهودي فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا حضر الجذاذ فآذني " فآذنته ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر فجعلنا نجذ ويكال له من أسفل النخل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بالبركة حتى وفيناه جميع حقه من أصغر الحديقتين ثم أتيتهم برطب وماء فأكلوا وشربوا ثم قال : " هذا من النعيم الذي تسألون عنه " " .

وأخرج مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة قال : " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قالا : الجوع يا رسول الله . قال : والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما ، فقوموا ، فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار ، فإذا هو

ليس في بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أين فلان ؟ قالت : انطلق يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصاري فنظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه ، فقال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني ، فانطلق فجاء بعذق فيه بسر وتمر فقال : كلوا من هذا ، وأخذ المدية ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إياك والحلوب فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا . فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر : " والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة " " .

(198/829)

وأخرج البزار وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوماً عند الظهيرة فوجد أبا بكر في المسجد جالساً فقال : ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال : أخرجني الذي أخرجك يا رسول الله . ثم إن عمر جاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن الخطاب ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال : أخرجني الذي أخرجكما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل بكما من قوة فتنطلقان إلى هذا النخل فتصيبان من طعام

وشراب؟ فقلنا : نعم يا رسول الله ، فانطلقنا حتى أتينا منزل مالك بن التيهان أبي الهيثم الأنصاري " .

(199/829)

وأخرج ابن حبان وابن مردويه عن ابن عباس قال : " خرج أبو بكر في الهاجرة إلى المسجد فسمع عمر ، فخرج فقال لأبي بكر : ما أخرجك هذه الساعة؟ قال : أخرجني ما أجد في نفسي من حاق الجوع. قال عمر : والذي نفسي بيده ما أخرجني إلى الجوع ، فبينما هما كذلك إذ خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما أخرجكما هذه الساعة فقالا : والله ما أخرجنا إلا ما نجد في بطوننا من حاق الجوع ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره ، فقاموا فانطلقوا إلى منزل أبي أيوب الأنصاري فلما انتهوا إلى داره قالت امرأته : مرحباً بنبي الله وبمن معه . قال النبي صلى الله عليه وسلم : أين أبو أيوب؟ فقالت امرأته : يأتيك يا نبي الله الساعة . فجاء أبو أيوب فقطع عذقاً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أردت أن تقطع لنا هذا ألا اجتنيت الثمرة؟ قال : أحببت يا رسول الله أن تأكلوا من بسره وتمره ورطبه . ثم ذبح جدياً فشوى نصفه وطبخ نصفه ، فلما وضع بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم أخذ من الجدي فجعله في رغيف وقال : يا أبا

أيوب أبلغ بهذا فاطمة فإنها لم تصب مثل هذا منذ أيام ، فذهب به أبو أيوب إلى فاطمة .

فلما أكلوا وشبعوا قال النبي صلى الله عليه وسلم : خبز ولحم وتمر وبسر ورطب ودمعت عيناه والذي نفسي بيده إن هذا لهو النعيم الذي تسألون عنه . قال الله : ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ فهذا النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة ، فكبر ذلك على أصحابه . فقال : بلى إذا أصبتم هذا فضربتم بأيديكم فقولوا : بسم الله فإذا شبعتم فقولوا : الحمد لله الذي هو أشبعنا وأنعم علينا وأفضل ، فإن هذا كفاف لها " .

(200/829)

وأخرج أحمد وابن جرير وابن عدي والبغوي في معجمه وابن منده في المعرفة وابن عساكر وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي عسيب مولى النبي صلى الله عليه وسلم قال : " خرج النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً فمر بي فدعاني ، فخرجت إليه ثم مر بأبي بكر فدعاه فخرج إليه ، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه ، فانطلق حتى دخل حائطاً لبعض الأنصار فقال لصاحب الحائط : أطعمنا ، فجاء بعذق فوضعه ، فأكل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ثم دعا بماء بارد فشرب ، وقال : لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة ، فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البسر ثم قال يا رسول الله : إنا لمسؤولون

عن هذا يوم القيامة؟ قال: نعم إلا من ثلاث كسرة يسد بها الرجل جوعته، أو ثوب يستر به عورته، أو حجر يدخل فيه من الحر والبرد".

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد قال: "كان النبي صلى الله عليه وسلم على جدول فأتي برطب وماء بارد فأكل من الرطب وشرب من الماء، ثم قال: هذا من النعيم الذي تسألون عنه".

وأخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أبي بكر الصديق قال: "انطلقت مع النبي صلى الله عليه وسلم ومعنا عمر إلى رجل يقال له الواقفي، فذبح لنا شاة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إياك وذات الدر، فأكلنا ثريداً ولحماً وشربنا ماء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هذا من النعيم الذي تسألون عنه".

(201/829)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر "أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في ساعة لم يكن يخرج فيها، ثم خرج أبو بكر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أخرجك يا أبا بكر؟ قال: أخرجني الجوع. قال: وأخرجني الذي أخرجك. ثم خرج عمر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أخرجك يا عمر؟ قال: أخرجني والذي بعثك بالحق الجوع. ثم

جاء أناس من أصحابه فقال : انطلقوا بنا إلى منزل أبي الهيثم فقالت لهم امرأته : إنه ذهب يستعذب لنا فدوروا إلى الحائط ، ففتحت لهم باب البستان فدخلوا فجلسوا ، فجاء أبو الهيثم ، فقالت له امرأته : أتدري من عندك ؟ قال : لا قالت له : عندك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فدخل عليهم فعلق قربته على نخلة ثم أخذ مخرفاً فأتى عذقاً له ، فاخترف لهم رطباً فأتاهم به ، فصبه بين أيديهم ، فأكلوا منه ، وبرد لهم ذلك الماء فشربوا منه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا من النعيم الذي تسألون عنه ".

(202/829)

وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي الهيثم بن التيهان " أن أبا بكر الصديق خرج فإذا هو بعمر جالساً في المسجد ، فعمد نحوه فوقف فسلم ، فرد عمر فقال له أبو بكر : ما أخرجك هذه الساعة ؟ فقال له عمر : بل أنت ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال أبو بكر : إني سألتك قبل أن تسألني . فقال عمر : أخرجني الجوع . فقال أبو بكر : وأنا أخرجني الذي أخرجك . فلبثا يتحدثان وطلع النبي صلى الله عليه وسلم فعمد نحوهما حتى وقف عليهما فسلم فردا السلام فقال : ما أخرجكما هذه الساعة ؟ فنظر كل واحد منهما إلى صاحبه ليس

منهما واحد إلا وهو يريد أن يخبره صاحبه فقال أبو بكر : يا رسول الله خرج قبلي وخرجت بعده ، فسألته ما أخرجك هذه الساعة فقال : بل أنت ما أخرجك هذه الساعة ؟ فقلت : إني سألتك قبل أن تسألني فقال : بل أخرجني الجوع. فقلت له : أخرجني الذي أخرجك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : وأنا فأخرجني الذي أخرجكما فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم : تعلمان من أحد نضيفه ؟ قالا : نعم أبو الهيثم بن التيهان له أعذق وجدي إن جئناه نجد عنده فضل تمر . فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وصاحباه حتى دخلوا الحائط ، فسلم النبي صلى الله عليه وسلم فسمعت أم الهيثم تسليمه ، ففدت بالأب والأم ، وأخرجت حلساً لها من شعر فجلسوا عليه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فأين أبو الهيثم فقالت : ذاك ذهب ليستعذب لنا من الماء . وطلع أبو الهيثم بالقربة على رقبته ، فلما أن رأى وضح النبي صلى الله عليه وسلم بين ظهراني النخل أسندها إلى جذع وأقبل يفدي بالأب والأم ، فلما رآهم عرف الذي بهم فقال لأم الهيثم : هل أطعمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه شيئاً ؟ فقالت : إنما جلس النبي صلى الله عليه وسلم الساعة . قال : فما عندك ؟ قالت : عندي حبات من شعير . قال : كركريها واعجني واخبزي إذ لم يكونوا يعرفون الخمير . قال : وأخذ الشفرة فرآه النبي صلى الله عليه وسلم مولياً فقال : إياك وذات

الدر . فقال : يا رسول الله إنما أريد عنيقاً في الغنم ، فذبح ونصب ، فلم يلبث إذ جاء بذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأكل النبي صلى الله عليه وسلم وصاحباه فشبعوا لا عهد لهم بمثلها . فما مكث النبي صلى الله عليه وسلم إلا يسيراً حتى أتي بأسير من اليمن فجاءته فاطمة ابنة النبي صلى الله عليه وسلم تشكو إليه العمل وتريه يديها وتسأله إياه . قال : لا ، ولكن أعطيه أبا الهيثم فقد رأيته وما لقي هو وامرأته يوم ضفناهم ، فأرسل إليه وأعطاه إياه فقال : خذ هذا الغلام يعينك على حائطك واستوص به خيراً : فمكث عند أبي الهيثم ما شاء الله أن يمكث فقال : لقد كنت مستقلاً أنا وصاحبتي بحائطنا اذهب فلا رب لك إلا الله ، فخرج ذلك الغلام إلى الشام ورزق فيها " .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود " أن أبا بكر خرج لم يخرجه إلا الجوع ، وخرج عمر لم يخرجه إلا الجوع ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم خرج عليهما ، وأنهما أخبراه أنه لم يخرجهما إلا الجوع ، فقال : انطلقوا بنا إلى منزل رجل من الأنصار يقال له أبو الهيثم بن التيهان ، فإذا هو ليس في المنزل ذهب يستقي ، فرحبت المرأة برسول الله صلى الله عليه وسلم وبصاحبيه ، وبسطت لهم شيئاً فجلسوا عليه ، فسألها النبي صلى الله عليه وسلم أين انطلق أبو الهيثم ؟ قالت : ذهب يستعذب لنا ، فلم يلبث أن جاء بقربة فيها ماء فعلقها وأراد أن يذبح لهم شاة فكان النبي صلى الله عليه وسلم كره ذلك ، فذبح لهم عناقاً ، ثم

انطلق ، فجاء بكبائس من النخل فأكلوا من ذلك اللحم والبسر والرطب ، أو شربوا من الماء فقال أحدهما : إما أبو بكر وإما عمر : هذا من النعيم الذي نسأل عنه يوم القيامة ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " المؤمن لا يثرب عليه شيء أصابه في الدنيا إنما يثرب على الكافر " " .

وأخرج ابن مردويه عن الكلبي أنه سئل عن تفسير هذه الآية ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال : إنما هي للكفار ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ﴾ [الأحقاف : 20] إنما هي للكفار قال : " وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر كلهم يقولون أخرجني الجوع فانطلق بهما النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل من الأنصار يقال له أبو الهيثم ، فلم يره في منزله ، ورحبت المرأة برسول الله صلى الله عليه وسلم وبصاحبيه ، وأخرجت بساطاً فجلسوا عليه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أين أنطلق أبو الهيثم ؟ فقالت : انطلق يستعذب لنا فلم يلبثوا أن جاء بقربة ماء فعلقها ، وكأنه أراد أن يذبح لهم شاة ، فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فذبح عناقاً ، ثم انطلق فجاء بكبائس من نخل ، فأكلوا من اللحم ومن البسر والرطب وشربوا من الماء ، فقال أحدهما : إما أبو بكر واما

عمر : هذا من النعيم الذي نسأل عنه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إنما يسأل الكفار ، وإن المؤمن لا يثرب عليه شيء أصابه في الدنيا ، وإنما يثرب على الكافر " قيل له من حدثك ؟ قال : الشعبي عن الحارث عن ابن مسعود .

وأخرج أحمد في الزهد عن عامر قال : " أكل النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر لحماً وخبزاً وشعيراً ورطباً وماء بارداً فقال : " هذا وربكما من النعيم " " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قالوا يا رسول الله : أي نعيم نسأل عنه سيوفنا على عواتقنا والأرض كلها لنا حرب ، يصبح أحدنا بغير غداء ويمسي بغير عشاء ؟ قال : عني بذلك قوم يكونون من بعدكم أنتم خير منهم يغدي عليهم بجفنة ويراح عليهم بجفنة ويغدو في حلة ويروح في حلة ، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة ويفشى فيهم السمن " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : " لما نزلت ﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قام رجل محتاج فقال يا رسول الله : هل عليّ من النعمة شيء ؟ قال : " نعم الظل والنعلان والماء البارد " " .

وأخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس في قوله : " ﴿ لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخصاف والماء والبارد وفلق الكسر " قال العباس : الخصاف خصف النعلين .

وأخرج البزار عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما فوق الإِزار وظل الحائط وخبز يحاسب به العبد يوم القيامة ويسأل عنه " .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث لا يحاسب بهن العبد : ظل خص يستظل به وكسرة يشد بها صلبه وثوب يواري به عورته " .

وأخرج أيضاً عن سلمان قال : بلغني أن في التوراة مكتوب : ابن آدم كسيرة تكفيك وخرقة تواريك وحجر يؤويك .

وأخرج أحمد في الزهد عن عبد الله بن عمرو أن رجلاً سأله إنسان من فقراء المهاجرين فقال : ألك امرأة تأوي إليك وتأوي إليها ؟ قال : نعم . قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم . قال : فلست من فقراء المهاجرين .

وأخرج أحمد في الزهد عن عثمان بن عفان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كل شيء سوى ظل بيت وجلف الخبز وثوب يواري عورته والماء فما فضل عن هذا لابن آدم فيهن حق " .

وأخرج أحمد وابن ماجة والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن مردويه عن معاذ بن عبد الله الجهني عن أبيه عن عمه قال : " خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه أثر غسل ، وهو طيب النفس ، فظننا أنه ألم بأهله ، فقلنا يا رسول الله : نراك طيب النفس ، فقال : أجل والحمد لله ، ثم ذكر الغنى فقال : " لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ، والصحة لمن اتقى خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم " " .

(206/829)

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة قال : مر عمر بن الخطاب برجل مبتلي أجذم أعمى أصم أبكم فقال لمن معه : هل ترون في هذا من نعم الله شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : " بلى ألا ترونه يبول فلا يعتصر ولا يلتوي يخرج بوله سهلاً فهذه نعمة من الله " .

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال : يا لها من نعمة تأكل لذة وتخرج سرحاً ، لقد كان ملك من ملوك هذه القرية يرى الغلام من غلمانه يأتي الحش فيكتان ثم يجرجر قائماً فيقول : يا ليتني مثلك ما يشرب حتى يقطع عنقه العطش فإذا شرب كان له في تلك الشربة موتات ، يا لها من نعمة تأكل لذة وتخرج سرحاً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : يعرض الناس يوم القيامة على ثلاثة دواوين :

ديوان فيه الحسنات وديوان فيه النعيم وديوان فيه السيئات ، فيقابل بديوان الحسنات ديوان النعيم فيستفرغ النعيم الحسنات ، وتبقى السيئات مشيئتها إلى الله عز وجل ، إن شاء عذب وإن شاء غفر .

وأخرج ابن أبي شيبة وهناد عن بكير بن عتيق قال : سقيت سعيد بن جبير شربة من عسل في قدح فشربها ثم قال : والله لأسألن عن هذا : فقلت له ؟ قال : شربته وأنا أستلذه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 609. 620 ﴾

(207/829)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

[فِيهَا آيَتَانِ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ : فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : إنَّهَا مَكِّيَّةٌ ، وَرَوَى الْبُخَارِيُّ أَنَّهَا مَدَنِيَّةٌ .

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ : أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَوْ أَنَّ

لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ ، وَلَنْ يَمْلَأَ فَاهُ إلَّا التُّرَابُ .

وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ ﴾ .

فَقَالَ ثَابِتٌ عَنْ أَنَسٍ عَنْ أُبَيٍّ قَالَ : كُنَّا نَرَى هَذَا مِنْ الْقُرْآنِ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ .

وَهَذَا نَصٌّ صَحِيحٌ مَلِيحٌ غَابَ عَنْ أَهْلِ التَّفْسِيرِ ، فَجَهِلُوا وَجَهَّلُوا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْمَعْرِفَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَدْ كُنَّا أَمْلَيْنَا فِيهَا مِائَةً وَثَمَانِينَ مَجْلِسًا ، وَذَكَرْنَا أُنْمُوذَجَهَا فِي قَانُونِ التَّأْوِيلِ فَلْيُنْظَرْ فِيهِ ، فَهُوَ مَدْخَلٌ عَظِيمٌ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ ﴾ .

فِيهَا مَسْأَلَتَانِ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ فِي النَّعِيمِ أَقْوَالًا كَثِيرَةً ، لُبَابُهَا خَمْسَةٌ :

الْأُولَى : الْأَمْنُ وَالصِّحَّةُ .

الثَّانِي : السَّلَامَةُ .

الثَّالِثُ : لَذَّةُ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ ؛ قَالَهُ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ .

الرَّابِعُ : الْغَدَاءُ وَالْعَشَاءُ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

الْخَامِسُ : شِبَعُ الْبَطْنِ ، وَشُرْبُ الْمَاءِ الْبَارِدِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ تَحْقِيقُ النَّعِيمِ مِنْ النِّعَمِ ، وَبِنَاءُ (ن ع م) لِلْمُوَافَقَةِ ، وَأَعْظَمُهَا مُوَافَقَةً مَا قَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي رِوَايَةِ كَادِحِ بْنِ رَحْمَةَ أَنَّهُ صِحَّةُ الْبَدَنِ وَطِيبُ النَّفْسِ ، وَقَدْ أَخَذَهُ الشَّاعِرُ ، فَقَالَ : إذَا الْقُوتُ يَأْتِي لَك وَالصِّحَّةُ وَالْأَمْنُ وَأَصْبَحْت أَخَا حُزْنٍ فَلَا فَارَقَك الْحُزْنُ وَقَدْ كَانَ هَذَا يَتَأَتَّى قَبْلَ الْيَوْمِ ، فَأَمَّا فِي هَذَا الزَّمَانِ فَإِنَّهُ عَسِيرُ التَّكْوِينِ ، وَقَلِيلُ الْوُجُودِ .

وَيَرَى [كَثِيرٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ] أَنَّ مَالِكًا أَخَذَهُ مِنْ حِكَمِ لُقْمَانَ ؛ فَفِيهَا أَنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ قَالَ لِابْنِهِ : لَيْسَ غِنًى كَصِحَّةٍ ، وَلَا نَعِيمٌ كَطِيبِ نَفْسٍ .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ ، عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ قَالَ : { لَمَّا نَزَلَتْ : { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ } قَالَ الزُّبَيْرُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنْ أَيِّ نَعِيمٍ نُسْأَلُ ، وَإِنَّمَا هُمَا الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ ؟ قَالَ : أَمَا إنَّهُ سَيَكُونُ } .

وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : { لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : { ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ } قَالَ النَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ عَنْ أَيِّ النَّعِيمِ نُسْأَلُ ؟ فَإِنَّمَا هُمَا الْأَسْوَدَانِ ؛ وَالْعَدُوُّ حَاضِرٌ ، وَسُيُوفُنَا عَلَى عَوَاتِقِنَا ؟ قَالَ : أَمَا إنَّهُ سَيَكُونُ } .

قَالَ الْقَاضِي : وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ السُّورَةَ مَدَنِيَّةٌ ، نَزَلَتْ بَعْدَ شَرْعِ الْقِتَالِ .

وروى ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : بَلَغَنِي ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، فَوَجَدَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَا : أَخْرَجَنَا الْجُوعُ .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَأَنَا أَخْرَجَنِي الْجُوعُ ؛ فَذَهَبُوا إِلَى أَبِي الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيْهَانِ ، فَأَمَرَ لَهُمْ بِشَعِيرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِلَ ، وَقَامَ فَذَبَحَ لَهُمْ شَاةً ، وَاسْتَعْذَبَ لَهُمْ مَاءً ، فَعُلِّقَ فِي نَخْلَةٍ ، ثُمَّ أُتُوا بِذَلِكَ الطَّعَامِ ، فَأَكَلُوا مِنْهُ ، وَشَرِبُوا

مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَتُسْأَلُنَّ عَنْ نَعِيمِ هَذَا الْيَوْمِ ﴾ .

قَالَ الْقَاضِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَالْحَدِيثُ مُسْنَدٌ مَشْهُورٌ فِي الصِّحَاحِ وَغَيْرِهَا ، وَهَذَا نَعِيمُ الْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ ، وَأَصْلُهُ الَّذِي لَا تَنَعُّمَ فِيهِ جِلْفُ الْخُبْزِ وَالْمَاءِ ، ﴿ وَحَسْبُ ابْنِ آدَمَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ ﴾ ، هَكَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَدْ يَكُونُ النَّعِيمُ فِي الْخَادِمِ كَمَا حَدَّثَ الْهُجَيْعُ بْنُ قَيْسٍ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيلَ لَهُ : مَا يَكْفِي ابْنَ آدَمَ مِنَ الدُّنْيَا ؟ قَالَ : مَا أَشْبَعَ جَوْعَتَكَ ، وَسَتَرَ عَوْرَتَكَ ؛ فَمَنْ كَانَ لَهُ خَادِمٌ فَهُنَاكَ النَّعِيمُ ، فَهُنَاكَ النَّعِيمُ ﴾ .

وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ

عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ : أَلَمْ أُصِحَّ جِسْمَك ؟ أَلَمْ أُرْوِك مِنْ الْمَاءِ الْبَارِدِ ﴾ .

(210/829)

خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ .

وَقَدْ رَوَى الْبَيْهَقِيُّ هَذَا الْحَدِيثَ فَقَالَ : إنَّ ﴿ أَبَا الْهَيْثَمِ بْنَ التَّيْهَانِ قَالَ : إنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ ، فَعَمَدَ نَحْوَهُ ، فَوَقَفَ فَسَلَّمَ فَرَدَّ عُمَرُ عَلَيْهِ السَّلَامَ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ : مَا أَخْرَجَك هَذِهِ السَّاعَةَ ؟ قَالَ : وَأَنْت مَا أَخْرَجَك هَذِهِ السَّاعَةَ ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا سَأَلْت قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَنِي .

قَالَ : أَخْرَجَنِي الْجُوعُ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَأَنَا أَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَك .

فَجَلَسَا يَتَحَدَّثَانِ ، فَطَلَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَمَدَ نَحْوَهُمَا حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِمَا ، فَسَلَّمَ فَرَدَّا عَلَيْهِ السَّلَامَ فَقَالَ : مَا أَخْرَجَكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ ؟ فَنَظَرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إلَى صَاحِبِهِ لَيْسَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ إلَّا يَكْرَهُ أَنْ يُخْبِرَهُ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : خَرَجْت يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَخَرَجْت بَعْدَهُ ، فَسَأَلْته مَا أَخْرَجَك هَذِهِ السَّاعَةَ ؟

قَالَ: بَلْ أَنْتَ مَا أَخْرَجَكَ هَذِهِ السَّاعَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا سَأَلْتُكَ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَنِي.

قَالَ: أَخْرَجَنِي الْجُوعُ.

قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: أَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَأَنَا أَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا.

(211/829)

قَالَ: ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ نُضِيفُهُ الْيَوْمَ؟ قَالَا: نَعَمْ، أَبُو الْهَيْثَمِ بْنِ التَّيِّهَانِ حَرِيٌّ إِنْ جِئْنَاهُ أَنْ نَجِدَ عِنْدَهُ فَضْلًا مِنْ تَمْرٍ يُعَالِجُ جِنَانَهُ هُوَ وَامْرَأَتُهُ لَا يَبِيعَانِ مِنْهُ شَيْئًا.

قَالَ: فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبَاهُ حَتَّى دَخَلُوا الْحَائِطَ، فَسَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَمِعَتْ أُمُّ الْهَيْثَمِ تَسْلِيمَهُ فَفَدَتْهُ بِالْأَبِ وَالْأُمِّ، وَأَخْرَجَتْ حِلْسًا لَهَا مِنْ شَعْرٍ، فَطَرَحَتْهُ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْنَ أَبُو الْهَيْثَمِ؟ قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ.

قَالَ: فَطَلَعَ أَبُو الْهَيْثَمِ بِالْقِرْبَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ ظَهْرَانَيِ النَّخْلِ أَسْنَدَهَا إِلَى جِذْعٍ، وَأَقْبَلَ يَفْدِي بِالْأَبِ وَالْأُمِّ، فَلَمَّا رَأَى وُجُوهَهُمْ عَرَفَ

الَّذِي بِهِمْ .

فَقَالَ لِأُمِّ الْهَيْثَمِ : هَلْ أَطْعَمْتِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبَيْهِ شَيْئًا ؟ فَقَالَتْ : إِنَّمَا جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّاعَةَ .

قَالَ : فَمَا عِنْدَكِ ؟ قَالَتْ : عِنْدِي حَبَّاتٌ مِنْ شَعِيرٍ .

قَالَ : كَرْكِرِيهَا وَاعْجِنِي ، وَاخْبِزِي ، إِذْ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ الْخَمِيرَ .

وَأَخَذَ شَفْرَةً ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِيَّاكَ وَذَوَاتِ الدَّرِّ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا أُرِيدُ عَنَاقًا فِي الْغَنَمِ .

(212/829)

قَالَ : فَذَبَحَ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَ بِذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبَاهُ قَالَ : فَشَبِعُوا شِبْعَةً لَا عَهْدَ لَهُمْ بِمِثْلِهَا ، فَمَا مَكَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا يَسِيرًا ، حَتَّى أُتِيَ بِأَسِيرٍ مِنَ الْيَمَنِ ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشْكُو إِلَيْهِ الْعَمَلَ وَتُرِيهِ يَدَهَا ، وَتَسْأَلُهُ إِيَّاهُ .

قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ أُعْطِيهِ أَبَا الْهَيْثَمِ ، فَقَدْ رَأَيْتُ مَا لَقِيَهُ هُوَ وَمُرَيَّتُهُ يَوْمَ ضِفْنَاهُمْ .

قَالَ : فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، فَقَالَ : خُذْ هَذَا الْغُلَامَ يُعِينُكَ عَلَى حَائِطِكَ ، وَاسْتَوْصِ بِهِ

خَيْرًا .

قَالَ : فَمَكَثَ الْغُلَامُ عِنْدَ أَبِي الْهَيْثَمِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا غُلَامُ ، لَقَدْ كُنْتَ مُسْتَقِلًّا وَأَنَا وَصَاحِبَتِي بِحَائِطِنَا ، اذْهَبْ ، فَلَا رَبَّ لَكَ إِلَّا اللَّهُ .

قَالَ : فَخَرَجَ الْغُلَامُ إِلَى الشَّامِ ﴾ .

(213/829)

وروى ﴿ عِكْرَاشُ بْنُ ذُؤَيْبٍ : قَالَ بَعَثَنِي بَنُو مُرَّةَ بْنِ عُبَيْدٍ بِصَدَقَاتِ أَمْوَالِهِمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ الْمَدِينَةَ ، فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ قَالَ : ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَانْطَلَقَ بِي إِلَى بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ ، فَقَالَ : هَلْ مِنْ طَعَامٍ ؟ فَأُتِينَا بِجَفْنَةٍ كَثِيرَةِ الثَّرِيدِ وَالْوَدَكِ ، وَأَقْبَلْنَا نَأْكُلُ مِنْهَا ، فَخَبَطْتُ بِيَدِي فِي نَوَاحِيهَا ، وَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، فَقَبَضَ بِيَدِهِ الْيُسْرَى عَلَى يَدِي الْيُمْنَى ، ثُمَّ قَالَ : يَا عِكْرَاشُ ؛ كُلْ مِنْ مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ، فَإِنَّهُ طَعَامٌ وَاحِدٌ .

ثُمَّ أُتِينَا بِطَبَقٍ فِيهِ أَلْوَانُ الرُّطَبِ ؛ أَوْ مِنْ عُبَيْدِ اللَّهِ شَكَّ قَالَ : فَجَعَلْتُ آكُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ ، وَجَالَتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الطَّبَقِ وَقَالَ : يَا عِكْرَاشُ ؛ كُلْ مِنْ حَيْثُ شِئْتَ ،

فَإِنَّهُ مِنْ غَيْرِ لَوْنٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ أُتِينَا بِمَاءٍ ، فَغَسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ ، وَمَسَحَ بِبَلَلِ يَدَيْهِ وَجْهَهُ وَذِرَاعَيْهِ وَرَأْسَهُ ، وَقَالَ : يَا عِكْرَاشُ ؛ هَذَا الْوُضُوءُ مِمَّا غَيَّرَتْ النَّارُ ﴾ .

(214/829)

وَقَالَ الْقَاضِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : فَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْمَرْءِ أَنْ يَتَوَسَّعَ فِي الطَّعَامِ وَيَتَلَذَّذَ ، وَيُسَمِّي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيَحْمَدُهُ ، وَلَا يَصْرِفَ قُوَّتَهُ الْمُسْتَفَادَةَ بِذَلِكَ فِي مَعْصِيَتِهِ ، فَإِنْ سُئِلَ وَجَذَبَتْهُ سَعَادَتُهُ فَسَيُوَفَّقُ لِلْجَوَابِ إنْ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(215/829)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾

إنه سبحانه أخبر أن التكاثر فى جمع المال وغيره ألهى الناس وشغلهم عن الآخرة والاستعداد لها وتوعدهم على ذلك فقال تعالى ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون فأخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت فزاروا المقابر ولم يفيقوا من رقدة من ألهاهم التكاثر وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت ايذانا بأنهم غير مستوطنين ولا مستقرين فى القبور وأنهم فيها بمنزلة الزائرين يحضرونها مدة ثم يظعنون عنها كما كانوا فى الدنيا زائرين لها غير مستقرين فيها ودار القرار هى الجنة أو النار ولم يعين سبحانه المتكاثر به بل ترك ذكره اما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشئ لا المتكاثر به كما يقال شغلك اللعب واللهو ولم يذكر ما يلعب ويلهو به واما ارادة الاطلاق وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا من مال أو جاه أو عبيد أو اماء أو بناء أو غراس أو علم لا ينبغى به وجه الله أو عمل لا يقربه الى الله فكل هذا من التكاثر الملهى عن الله والدار الآخرة

وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخير أنه قال انتهيت الى النبى وهو يقرأ ألهاكم التكاثر قال يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك الا ما تصدقت فأمضيت أو

أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت ثم أوعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدا مؤكدا اذا عاين تكاثره هباء منثورا وعلم دنياه التى كاثر بها انما كانت خدعا وغرورا فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له وخسر هنالك تكاثره كما خسر أمثاله وبدا له من الله ما لم يكن فى حسابه وصار تكاثره الذى شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه فعذب بتكاثره فى دنياه ثم عذب به فى البرزخ ثم يعذب به يوم القيامة فكان أشقى بتكاثره اذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة فلم يفز من تكاثره الا بأن صار من الأقلين ولم يحفظ به من علوه به فى الدنيا بأن حصل مع الاسفلين فيا له تكاثرا ما أقله ورزءا ما أجله ومن غنى جالبا لكل فقر وخيرا توصل به الى كل شر يقول صاحبه اذا انكشف عنه غطاؤه يا ليتنى قدمت لحياتى وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتى رب ارجعونى لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها تلك كلمة يقولها فلا يعول عليها ورجعة يسألها فلا يجاب إليها وتأمل قوله أولا رب استغاث بربه ثم التفت الى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدى ربه تبارك وتعالى فقال أرجعونى ثم ذكر سبب سؤال الرجعة وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه فيقال له كلا لا سبيل لك الى الرجعى وقد عمرت ما يتذكر فيه من تذكر

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استغاث وأن يفسح له فى المهلة لتيذكر ما فاته أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحا لو أجيب وانما ذلك شئ يقوله بلسانه وأنه لو رد لعاد لما نهى عنه وأنه من الكاذبين فحكمه أحكم الحاكمين وعزته وعلمه وحمده يأبى اجابته الى ما سأل فإنه لا فائدة فى ذلك ولو رد لكانت حالته الثانية مثل حالته الاولى كما قال تعالى

﴿ ولو ترى اذ وقفوا على النار قالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾

وقد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا فراجع أقوالهم تجدها لا تشفى عليلا ولا تروى غليلا ومعناها أجل وأعظم مما فسروها به ولم يتفطنوا لوجه الاضراب ببل ولا للأمر الذى بدا لهم وكانوا يخفونه وظنوا أن الذى بدا لهم

العذاب فلما لم يروا ذلك ملتئما مع قوله ما كانوا يخفون من قبل قد روا مضافا محذوفا وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه وهو أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم بل كانوا يظهرونه ويدعون إليه ويحاربون عليه ولما علموا أن هذا وارد عليهم قالوا ان القوم فى بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه وقالوا والله ربنا ما كنا مشركين فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذى أخفوه قال

الواحدى وعلى هذا أهل التفسير ولم يصنع أرباب هذا القول شيئًا فإن السياق والاضراب بل والاخبار عنهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقولهم والله ربنا ما كنا مشركين لا يلتئم بهذا الذى ذكروه فتأمله

(218/829)

وقالت طائفة منهم الزجاج بل بدا للاتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير وفيه من التكلف ما ليس بخاف واجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال كأن كفرهم لم يكن باديا لهم اذ خفيت عليهم مضرته ومعنى كلامه أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفيا عنهم لم تظهر لهم حقيقته فلما عاينوا العذاب ظهرت لهم حقيقته وشره قال وهذا كما تقول لمن كنت حدثته فى أمر قبل وقد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك وقد كان ظاهرا له قبل هذا ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم الذى كانوا ينادون به على رءوس الاشهاد ويدعون اليه كل حاضر وباد بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم ولا يقال لمن أظهر الظلم والفساد وقتل النفوس والسعى فى الأرض بالفساد أنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه

فمعنى الآية والله أعلم بما أراد من كلامه أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها

وعلموا أنهم داخلوها تمنوا أنهم يردون الى الدنيا فيؤمنون بالله وآياته ولا يكذبون رسله

فأخبر سبحانه أن الأمر ليس كذلك وأنهم ليس فى طبائعهم وسجاياهم الايمان بل

سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب وأنهم لو ردوا لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله وأخبر أنهم

كاذبون فى زعمهم أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها تبين معنى الاضراب ببل وتبين معنى الذى بدا

لهم والذى كانوا يخفونه والحامل لهم على قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا فالقوم كانوا

يعلمون أنهم كانوا فى الدنيا على باطل وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله وتيقنوا

ذلك وتحققوه ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم بل تواصوا بكتمانه فلم يكن الحامل لهم على

تمنى الرجوع والايمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل فإنهم كانوا يعلمون ذلك

ويخفونه وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم أنهم على باطل وأن الرسل

على الحق فعاينوا ذلك عيانا بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه فلو ردوا لما سمحت نفوسهم

بالايمان ولعادوا الى الكفر والتكذيب فإنهم لم يتمنوا الايمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن

الشرك باطل وانما تمنوا لما عاينوا العذاب الذى لا طاقة لهم باحتماله وهذا كمن كان يخفى

محبة شخص ومعاشرته وهو يعلم أن حبه باطل وأن الرشد فى عدوله عنه فقيل له ان اطلع عليه وليه عاقبك وهو يعلم ذلك ويكابر ويقول بل محبته ومعاشرته هى الصواب فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة تمنى أن يعفى من العقوبة وأنه لا يجتمع به بعد ذلك وفى قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاوده بعد معاينة العقوبة بل بعد أن مسته وأنهكته فظهر له عند العقوبة ما كان يخفى من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه ولو رد لعاد لما نهى عنه

وتأمل مطابقة الاضراب لهذا المعنى وهو نفى قولهم انا لو رددنا لآمنا وصدقنا لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق أى ليس كذلك بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه وكنتم تخفونه فلم يظهر لكم شئ لتكونوا عالمين به لتعذروا بل ظهر لكم ما كان معلوما وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه والله أعلم

ولا تستطل هذا الفضل المعترض فى أثناء هذه المسألة فلعله أهم منها وأنفع وبالله التوفيق فلنرجع الى تمام الكلام فيها

وقوله كلا لو تعلمون علم اليقين جوابه محذوف دل عليه ما تقدم أى لما ألهاكم التكاثر وانما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين وهو العلم الذى يصل به صاحبه الى حد الضروريات التى لا يشك ولا يمارى فى صحتها وثبوتها ولو وصلت حقيقة هذا العلم الى القلب وباشرته لما ألهاه عن موجبه

ويرتب أثره عليه فإن مجرد العلم بقبح الشئ وسوء عواقبه قد لا يكفى فى تركه فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد فاذا صار عين يقين كجملة المشاهدات كان تخلف موجبه عنه من أندر شئ وفى هذا المعنى قال حسان بن ثابت رضى الله عنه فى أهل بدر

سرنا وساروا إلى بدر لحتفهم . . . لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

وقوله كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون قيل تأكيد لحصول العلم كقوله كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون وقيل ليس تأكيدا بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت والعلم الثانى فى القبر هذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه أحدها أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته وعدم الاخلال بالفصاحة الثانى توسط ثم بين العلمين وهى مؤذنة بتراخى ما بين المرتبتين زمانا وخطرا الثالث ان هذا القول مطابق للواقع فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه ثم يعلم فى القبر وما بعده ذلك علما هو فوق الأول الرابع أن عليا

بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر قال الترمذى حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سليم الرازى عن عمرو بن أبى قيس عن الحجاج بن المنهال بن عمر عن زر عن على رضى الله عنه قال ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت الهاكم التكاثر قال الواحدى يعنى أن معنى قوله كلا سوف تعلمون فى القبر

الخامس ان هذا مطابق لما بعده من قوله لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين إطلاق الأولى وتقييد الثانية بعين اليقين وتقدم الأولى وتراخى الثانية عنها ثم ختم السورة بالاخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد والنون الثقيلة عن سؤال النعيم فكل أحد يسأل عن نعيمه الذى كان فيه فى الدنيا هل ناله من حلاله ووجهه أم لا فاذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالا آخر هل شكر الله تعالى عليه فاستعان به على طاعته أم لا فالأول سؤال عن سبب استخراجه والثانى عن محل صرفه كما فى جامع الترمذى من حديث عطاء بن أبى رباح

عن ابن عمر عن النبى قال لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسئل عن خمس عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه

وعماذا عمل فيما علم

وفيه أيضا عن أبى برزة قال قال رسول الله لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسئل عن عمره فيما أفناه وعن علمه فيما عمل فيه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أبلاه قال هذا حديث صحيح

وفيه أيضا من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ان أول ما يسئل عنه العبد يوم القيامة يعنى من النعيم أن يقال له ألم نصح جسمك ونرويك من الماء البارد

وفيه أيضا من حديث الزبير بن العوام رضى الله عنه لما نزلت لتسئلن يومئذ عن النعيم قال الزبير يا رسول الله فأى النعيم نسئل عنه وانما هو الأسودان التمر والماء قال أما انه سيكون قال هذا حديث حسن وعن أبى هريرة نحوه وقال انما هو الاسودان العدو حاضر سيوفنا على عواتقنا قال ان ذلك سيكون وقوله ان ذلك سيكون إما أن يكون المراد به أن النعيم سيكون ويحدث لكم وإما أن يرجع الى السؤال أي ان السؤال يقع عن ذلك وان كان تمرا وماء فانه من النعيم ويدل عليه قوله فى الحديث الصحيح وقد أكلوا معه رطبا ولحما وشربوا من الماء البارد هذا من النعيم الذى تسئلون عنه يوم القيامة فهذا سؤال عن شكره

والقيام بحقه

وفى الترمذى من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى قال يجاء بالعبد يوم القيامة كأنه بذج فيوقف بين يدى الله تعالى فيقول الله أعطيتك وخولتك وأنعمت عليك فماذا صنعت فيقول يا رب جمعته وثمرته فتركته أوفر ما كان فارجعنى آتيك به فاذا عبيد لم يقدم خيرا فيمضى به الى النار وفيه من حديث

أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما قالا قال رسول الله يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا وسخرت لك الأنعام والحرث وتركتك ترأس وترتع أفكنت تظن أنك ملاق يومك هذا فيقول لا فيقول له اليوم أنساك كما نسيتنى قال هذا حديث صحيح

(223/829)

وقد زعم طائفة من المفسرين أن هذا الخطاب خاص بالكفار وهم المسؤلون عن النعيم وذكر ذلك عن الحسن ومقاتل واختار الواحدى ذلك واحتج بحديث ابى بكر لما نزلت هذه الآية قال رسول الله أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبى الهيثم بن النبهان من خبز شعير ولحم وبسر قد ذنب وماء عذب أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذى نسأل عنه

فقال رسول الله انما ذلك للكفار ثم قرأ وهل نجازى إلا الكفور قال الواحدى والظاهر يشهد بهذا القول لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم والمعنى أيضا يشهد بهذا القول وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم حيث اشركوا به وعبدوا غيره فاستحقوا أن يسئلوا عما أنعم به عليهم توبيخا لهم هل قاموا بالواجب فيه أم ضيعوا حق النعمة ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم قال وهذا معنى قول مقاتل وهو قول الحسن قال لا يسئل عن النعيم الا أهل النار

قلت ليس فى اللفظ ولا فى السنة الصحيحة ولا فى أدلة العقل ما يقتضى اختصاص الخطاب بالكفار بل ظاهر اللفظ وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك ويدل على ذلك قول النبى عند قراءة هذه السورة يقول ابن آدم مالى مالى وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فابليت الحديث وهو فى صحيح مسلم وقائل ذلك قد يكون مسلما وقد يكون كافرا ويدل عليه أيضا الأحاديث التى تقدمت وسؤال الصحابة النبى وفهمهم العموم حتى قالوا له وأى نعيم نسئل عنه وانما هو الاسودان فلو كان الخطاب مختصا بالكفار لبين لهم ذلك وقال ما لكم ولها انما هى للكفار فالصحابة فهموا التعميم والأحاديث صريحة فى التعميم والذى أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم

وأما حديث ابى بكر الذى أحتج به أرباب هذا القول فحديث لا يصح والحديث الصحيح فى تلك القصة يشهد ببطلانه ونحن نسوقه بلفظه ففى صحيح مسلم عن ابى هريرة قال خرج رسول الله ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبى بكر وعمر فقال ما أخرجكما من بيوتكما فى هذه الساعة قالا الجوع يا رسول الله قال وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما قوما فقاما معه فأتى رجلا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته فلما رأته امرأته قالت مرحبا وأهلا فقال لها رسول الله وأين فلان قالت ذهب يستعذب لنا من الماء إذ جاء الأنصارى فنظر الى رسول الله وصاحبيه فقال الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافا منى قال فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال كلوا من هذا فأخذ المدية فقال له رسول الله إياك والحلوبة فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله لابى بكر وعمر والذى نفسى بيده لتسئلن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم فهذا الحديث الصحيح صريح فى تعميم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار

وايضا فالواقع يشهد بعدم اختصاصه وأن الالهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيرا بل أكثرهم قد الهاه التكاثر وخطاب القرآن عام لمن بلغه وان كان أول من دخل فيه المعاصرين لرسول الله فهو متناول لمن بعدهم وهذا معلوم بضرورة الدين وان نازع فيه من لا يعتد بقوله

من المتأخرين فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ونظائره كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين فقوله ألهاكم التكاثر خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف وهم فى الالهاء والتكاثر درجات لا يحصيها الا الله

(225/829)

فإن قيل فالمؤمنون لم يلههم التكاثر ولهذا لم يدخلوا فى الوعيد المذكور لمن الهاه قيل هذا هو الذى أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار لأنه لم يمكنهم حمله على العموم ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد فخصوهم به وجواب هذا أن الخطاب

للانسان من حيث هو إنسان على طريقة القرآن فى تناول الذم له من حيث هو إنسان كقوله وكان الانسان عجولا وكان الانسان قتورا ان الانسان لربه لكنود وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ان الانسان لكفور ونظائره كثيرة فالانسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح وانما الله سبحانه هو الذى يكمله بذلك ويعطيه إياه وليس له ذلك من نفسه بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم والظلم المضاد للعدل وكل علم وعدل وخير فيه فمن ربه لا من نفسه فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته التى هى له من نفسه ولا

خروج له عن ذلك الا بتزكية الله له وجعله مريدا للآخرة مؤثرا لها على التكاثر بالدنيا فان أعطاه ذلك وإلا فهو ملته بالتكاثر فى الدنيا ولا بد

وأما احتجاجه بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار فيقال الوعيد المذكو مشترك وهو العلم عند معاينة الآخرة فهذا أمر يحصل لكل أحد لم يكن حاصلا له فى الدنيا وليس فى قوله سوف تعلمون ما يقتضى دخول النار فضلا عن التخليد فيها وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها فان أهل الموقف يرونها ويشاهدونها عيانا وقد اقسم الرب تبارك وتعالى أنه لا بد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم فليس فى جملة هذه السورة ما ينفى عموم خطابها وأما ما ذكره عن الحسن أنه لا يسأل عن النعيم الا أهل النار فباطل قطعا اما عليه واما منه والاحاديث الصحيحة الصريحة ترده وبالله التوفيق

(226/829)

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير الملهى وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها الى آخرها بالكفار ولا يليق ذلك بها ويكفى فى ذلك تأمل الاحاديث المرفوعة فيها والله أعلم

وتأمل ما فى هذا العتاب الموجع لمن استمر على الهاء التكاثر له مدة حياته كلها الى أن زار القبور ولم يستيقظ من نوم الالهاء بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه الا وهو فى عسكر الأموات وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير

تقييد بمتكاثر به ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها وأيضا فان التكاثر تفاعل وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه فيكون أكثر منه فيما يكاثره به والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للكاثر كما قيل

ولست بالأكثر منهم حصى . . . وانما العزة للكاثر

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم اذ لم يتكاثروا بها وكل من كاثر انسانا فى دنياه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية انما تكاثر بما يدوم عليها نفعه وتكمل به وتزكو وتصير مفلحة فلا تحب أن يكثرها غيرها فى ذلك وينافسها فى هذه المكاثرة ويسابقها اليها فهذا هو التكاثر الذى هو غاية سعادة العبد

وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم فهذا تكاثر مله عن الله والدار الاخرة هو صائر الى غاية القلة فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان والتكاثر بأسباب السعادة الاخروية تكاثر لا يزال بذكر بالله ولقائه وعاقبته الكثرة الدائمة التى لا تزول ولا تفنى وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولا وأحسن منه عملا وأغزر علما واذا رأى غيره أكثر منه فى خصلة من خصال الخير يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها وليس هذا التكاثر مذموما ولا قادحا فى اخلاص العبد بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات

وقد كانت هذه حال الاوس مع الخزرج رضى الله عنهم فى تصاولهم بين يدى رسول الله ومكاثرة بعضهم لبعض فى اسباب مرضاته ونصره وكذلك كانت حال عمر مع أبى بكر رضى الله عنهما فلما تبين له مدى سبقه له قال والله لا أسابقك الى شئ أبدا

فصل ومن تأمل حسن موقع كلا فى هذا الموضع فانها تضمنت ردعا لهم

وزجرا عن التكاثر ونفيا وابطالا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكما لهم به فتضمنت اللفظة نهيا ونفيا وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علما بعد علم وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التى ألهتهم عن الاخرة رؤية بعد رؤية وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن اسباب تكاثرهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها

فلله ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة وأبلغها موعظة وتحذيرا واشدها ترغيبا في الآخرة وتزهيدا فى الدنيا على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها فتبارك من تكلم بها حقا وبلغها رسوله عنه وحيا فصل

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم الى غاية كل حى زائرين غير مستوطنين بل هم مستودعون فى المقابر مدة وبين أيديهم دار القرار فإذا كانوا عند وصولهم الى الغاية زائرين فكيف بهم وهم فى الطريق فى هذه الدار فهم فيها عابرو سبيل الى محل الزيارة ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر فهنا هنا ثلاثة أمور عبور السبيل فى هذه الدنيا وغايته زيارة القبور وبعدها النقلة إلى دار القرار فصل

فلنرجع الى تمام المناظرة قالوا فالله تعالى حمى أولياءه عن الدنيا وصانهم عنها ورغب بهم عنها تكريما لهم وتطهيرا عن أدناسها ورفعة عن دناءتها وذمها لهم وأخبرهم بهوانها عليه وسقوط قدرها عنده وأعلمهم أن بسطها فتنة وأنه سبب الطغيان والفساد فى الارض وإلهاء التكاثر بها عن طلب الاخرة وأنها متاع الغرور وذم محبيها ومؤثريها وأخبر أن من أرادها أو أراد زينتها وحرثها فليس له فى الاخرة من نصيب واخبر أن بسطها فتنة وابتلاء لا كرامة ومحبة وإن إمداد أهلها بها ليس مسارعة لهم فى الخيرات وأنها لا تقرب اليه ولا تزلف لديه وأنه لولا تتابع الناس فى الكفر لأعطى الكفار منها فوق مناهم ووسعها عليهم

أعظم التوسعة بحيث يجعل سقوف بيوتهم وأبوابهم ومعارجهم وسررهم كلها من فضة وأخبر أنه زينها لأعدائه ولضعفاء العقول الذين لا نصيب لهم فى الاخرة ونهى رسوله عن مد عينيه اليها والى مامتع به أهلها وذم من أذهب طيباته فيها واستمتع

بها وقال لنبيه ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون وفى هذا تعزية لما منعه أولياءه من التمتع بالدنيا وكثرة الأكل فيها وتأديب لمن بسط له فيها ألا يطغى فيها ولا يعطى نفسه شهواتها ولا يتمتع بها ولام سبحانه محبيها المفتخرين بها المكاثرين بها الظانين أن الفضل والكرامة فى سعتها وبسطها فأكذبهم الله سبحانه

واخبر أنه ليس كما قالوه ولا توهموه ومثلها لعباده بالأمثلة التى تدعو كل لبيب عاقل الى الزهد فيها وعدم الوثوق بها والركون اليها فأحضر صورتها وحقيقتها فى قلوبهم بما ضربه لها مثلا كماء أنزله من السماء فخالط نبات الأرض فلما أخذت به الارض زخرفها وتزينت بأنواع النبات أتاها أمره فجعل تلك الزينة يبسا هشيما تذروه الرياح كأن لم يكن قط منه شئ وأخبر سبحانه عن فنائها وسرعة انقضائها وأنه اذا عاين العبد الأخرة فكأنه لبث فيها ساعة من نهار أو يوما أو بعض يوم ونهى سبحانه عباده أن يغتروا بها واخبرهم أنها لهو

ولعب وزينة وتفاخر وتكاثر ومتاع غرور وطريق ومعبر الى الاخرة وأنها عرض عاجل لابقاء له ولم يذكر مريدها بخير قط بل حيث ذكره ذمه وأخبر أن مريدها مخالف لربه تعالى فى ارادته فالله يريد شيئا ومريد الدنيا يريد خلافه فهو مخالف لربه بنفس ارادته كفى بهذا بعدا عنه سبحانه واخبر سبحانه عن أهل النار انهم انما دخلوها بسبب غرور الدنيا وأمانيها لهم قالوا وهذا كله تزهيد لهم منه سبحانه فيها وترغيب فى التقلل منها ما أمكن قالوا وقد عرضها سبحانه وعرض مفاتيح كنوزها على أحب الخلق اليه وأكرمهم عليه عبده ورسوله محمد فلم يردها ولم يخترها ولو أثرها وارادها لكان أشكر الخلق بما اخذه منها وأنفقه كله فى مرضاة الله وسبيله قطعا بل اختار التقلل منها وصبر على شدة العيش فيها

(230/829)

قال الامام أحمد حدثنا اسماعيل بن محمد حدثنا عباد يعنى ابن عباد حدثنا مجالد بن سعيد عن الشعبى عن مسروق عن عائشة رضى الله عنها قالت دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله عباءة مثنية فرجعت الى منزلها

فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف فدخل على رسول الله فقال ما هذا فقلت فلانة

الانصارية دخلت على فرأت فراشك فبعثت الى بهذا فقال رديه فلم أرده وأعجبنى أن يكون فى بيتى حتى قال ذلك ثلاث مرات فقال يا عائشة رديه والله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة

وعرض عليه مفاتيح كنوز الدنيا فلم يأخذها وقال بل أجوع يوما وأشبع يوما فاذا جعت تضرعت اليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك وسأل ربه أن يجعل رزق أهله قوتا كما فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا وفيهما عنه قال والذى نفس أبى هريرة بيده ما شبع نبى الله وأهله ثلاثة أيام تباعا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا

وفى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه ما أعلم أن رسول الله رأى رغيفا مرققا ولا شاة سميطا قط حتى لحق بربه وفى صحيحه أيضا عنه قال خرج رسول الله ولم يشبع من خبز الشعير وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض وفى صحيح مسلم عن عمر رضى الله عنه لقد رأيت رسول الله يظل اليوم ما يجد دقلا يملأ بطنه

وفى المسند والترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما كان رسول الله يبيت الليالى المتتابعات طاويا وأهله لا يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وفى الترمذى من حديث أبى أمامة ما كان يفضل أهل بيت رسول الله خبز الشعير وفى المسند عن عائشة رضى الله عنها والذى بعث محمدا بالحق ما رأى منخلا ولا أكل خبزا منخولا منذ بعثه الله عز وجل الى أن قبض قال عروة فقلت فكيف كنتم تأكلون الشعير قالت كنا نقول أف أى ننفخه فيطير ما طار ونعجن الباقى

وفى صحيح البخارى عن أنس قال لقد رهن رسول الله درعه بشعير ولقد سمعته يقول ما أصبح لآل محمد صاع ولا أمسى وانهم لتسعة ابيات

وفى مسند الحارث عن أبى أسامة عن أنس أن فاطمة رضى الله عنها جاءت بكسرة خبز الى النبى فقال ما هذه الكسرة يا فاطمة قالت قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة فقال أما إنه أول طعام دخل فى فم أبيك منذ ثلاثة أيام

وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا عبد الواحد بن أيمن عن ابيه عن جابر رضى الله عنه قال لما حفر رسول الله الخندق أصابهم جهد شديد حتى ربط النبى على بطنه حجرا من الجوع

وقد أسرف أبو حاتم بن حبان فى تقاسيمه فى رد هذا الحديث وبالغ فى إنكاره وقال المصطفى أكرم على ربه من ذلك وهذا من وهمه وليس فى هذا ما ينقص مرتبته عند ربه

بل ذلك رفعة له وزيادة فى كرامته وعبرة لمن بعده من الخلفاء والملوك وغيرهم وكأن أبا حاتم لم يتأمل سائر الاحاديث فى معيشة النبى وهل ذلك إلا من أعظم شواهد صدقه فإنه لو كان كما يقول أعداؤه وأعداء ربه أنه ملك طالب ملك ودنيا لكان عيشه عيش الملوك وسيرته سيرتهم ولقد توفاه الله وان درعه مرهونة عند يهودى على طعام أخذه لأهله وقد فتح الله عليه بلاد العرب وجبيت اليه الاموال ومات ولم يترك درهما واحدا ولا دينارا ولا شاة ولا بعيرا ولا عبدا ولا أمة

(232/829)

قال الامام أحمد حدثنا حسين بن محمد بن مطرف عن أبى حازم عن عروة أنه سمع عائشة تقول كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد فى بيت من بيوت رسول الله نار قلت يا خالة فعلى أى شئ كنتم تعيشون قالت على الأسودين التمر والماء وقد تقدم حديث أبى هريرة فى قصة أبى الهيثم ابن النبهان وانه خرج رسول الله من بيته فرأى أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فقال ما أخرجكما قالا الجوع قال وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما وذكر أحمد من حديث مسروق قال دخلت على عائشة فدعت لى بطعام وقالت ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكى الا بكيت قال قلت لم قالت أذكر الحال التى فارق عليها رسول

الله الدنيا والله ما شبع فى يوم مرتين من خبز البر

حتى قبض وفيه عنها ما شبع رسول الله من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض

والحديثان صحيحان وفيه ايضا عنها ما شبع آل محمد من خبز مأدوم ثلاثة أيام حتى لحق

بالله عزوجل وفى الصحيحين عن أبى هريرة ما شبع رسول الله وأهله ثلاثا أتباعا من خبز

البر حتى فارق الدنيا

(233/829)

وفى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال كان النبى يبيت الليالى طاويا وأهله لا

يجدون عشاء وكان أكثر خبزهم خبز الشعير وفيه أيضا عن أنس عنه لقد اخفت فى الله

وما يخاف أحد ولقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ولقد أتت على ثلاثون من بين يوم وليلة

ومالى ولبلال طعام يأكله ولبد إلا شئ يواريه إبط بلال والحديثان صحيحان وفيه ايضا عن

أنس بن مالك رضى الله عنه عن أبى طلحة رضى الله عنه قال شكونا الى رسول الله الجوع

ورفعنا عن بطوننا حجرا حجرا فرفع رسول الله عن بطنه حجرين وفيه أيضا عن علقمة

عن عبدالله رضى الله عنه قال نام رسول الله على حصير فقام وقد اثر فى جنبه فقلنا يا

رسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال مالى وللدنيا ما أنا فى الدنيا الا كراكب استظل تحت

شجرة ثم راح وتركها حديث صحيح وفيه عن على رضى الله عنه قال خرجت فى يوم

شات من بيت رسول الله وقد أخذت اهابا معطونا فجوبت وسطه وأدخلته فى عنقى

فشددت به وسطى فحزمته بخوص من النخل وانى لشديد الجوع ولو كان فى بيت رسول

الله طعام لطعمت منه فخرجت التمس شيئا فمررت بيهودى فى مال له وهو يسقى ببكرة

له فاطلعت عليه من ثلمة من الحائط فقال مالك يا أعرابى وهل لك فى كل دلو بتمرة قلت

نعم فافتح الباب حتى أدخل ففتح فدخلت فأعطانى دلوه فكلما نزعت دلوا أعطانى تمرة

حتى امتلأت كفى أرسلت دلوه وقلت حسبى فأكلتها ثم جرعت من الماء فشربت ثم

جئت الماء فوجدت رسول الله فيه وقال سعد بن ابى وقاص رضى الله عنه لقد رأيتنا

نغزو مع رسول الله ما لنا طعام الا الحبلة وهذا السمر والحبلة ثمر العضاة ذات الشوك وهو

حديث صحيح

وكان يصلى من الليل أحيانا وعليه كساء صوف بعضه عليه وبعضه على

(234/829)

عائشة قال الحسن أثمان ستة دراهم أو سبعة وقال أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا أبو زائدة

حدثنا عطاء عن أبيه عن على قال جهز رسول الله فاطمة فى خميل وقربة ووسادة من أدم

حشوها ليف والخميل الكساء الذى خمل قال وحد ثنا بهز بن اسد حد ثنا سليمان بن المغيرة عن حميد قال قال أبو بردة دخلت على عائشة فأخرجت إلينا إزارا غليظا مما يصنع باليمن وكساء من هذه التى تدعونها الملبدة فقالت قبض رسول الله فى هذين الثوبين

قالوا ولو كان الغنى مع الشكر افضل من الفقر مع الصبر لاختاره رسول الله إذ عرضت عليه الدنيا ولأمره ربه أن يسأله إياه كما أمره أن يسأله زيادة العلم ولم يكن رسول الله ليختار الا ما اختاره الله له ولم يكن الله ليختار له الا الافضل اذ كان افضل خلقه وأكملهم

قالوا وقد أخبر النبى أن خير الرزق ما كان بقدر كفاية العبد فلا يعوزه ما يضره ولا يفضل عنه ما يطغيه ويلهيه

قال الامام أحمد حد ثنا ابن مهدى حد ثنا همام عن قتادة عن خليد العصرى عن أبى الدرداء قال قال رسول الله ما طلعت شمس قط الا بعث بجنبيها ملكان ينا ديان يسمعان أهل الأرض الا الثقلين يا أيها الناس هلموا الى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ولا آبت شمس قط الا بعث بجنبيها ملكان ينا ديان يسمعان أهل الأرض الا الثقلين اللهم أعط منفقا خلفا واعط ممسكا تلفا

وقال الامام أحمد حد ثنا وكيع حد ثنا أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن ابن ابى لبيبة عن سعد بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى

وتأمل جمعه فى هذا الحديث بين رزق القلب والبدن رزق الدنيا والآخرة واخباره أن خير الرزقين ما لم يتجاوز الحد فيكفى من الذكر اخفاؤه فإن زاد على الاخفاء خيف على صاحبه الرياء والتكبر به على الغافلين وكذلك رزق البدن اذا زاد على الكفاية خيف على صاحبه الطغيان والتكاثر

قالوا وقد غبط رسول الله المتقلل من الدنيا ما لم يغبط به الغنى

(235/829)

قال الامام أحمد حدثنا وكيع حدثنا على بن صالح عن أبى المهلب عن عبيد الله ابن زحر عن على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله ان أغبط أوليائى عندى مؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وكان غامضا فى الناس لا يشار اليه بالاصابع فعجلت منيته وقل تراثه وقلت بواكيه قال عبد الله بن أحمد سألت أبى ما تراثه قال ميراثه قالوا وحمية الله لعبده المؤمن عن الدنيا انما هو من محبته له وكرامته قال الامام أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا سليمان بن بلال عن عمرو بن أبى عمرو عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد رضى الله عنه أن رسول الله قال ان الله تبارك وتعالى يحمى عبده المؤمن من الدنيا وهو يحبه كما تحمون مرضاكم الطعام والشراب

تخافون عليهم قالوا وقل أن يقع اعطاء الدنيا وتوسعتها الا استدراجا من الله لا اكراما ومحبة لمن أعطاه

قال الامام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشد بن سعد عن حرملة بن عمران النجبى عن عقبة بن مسلم عن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن النبى قال اذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا على معاصيه وما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا قوله تعالى فلما نسو ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء الآية قالوا ولهوان الدنيا على الله منعها أكثر أوليائه وأحبائه

قال الامام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الاعمش عن سالم بن ابى الجعد قال قال رسول الله ان من أمتى لو أتى باب احدكم فسأله دينارا لم يعطه اياه ولو سأله فلسا لم يعطه اياه ولو سأل الله تعالى الجنة لأعطاها اياه ولو سأله الدنيا لم يعطها اياه وما يمنعها اياه لهوانه عليه ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره وهذا يدل على انه انما يمنعه اياها لهوانها عليه لا لهوانه هو عليه ولهذا يعطيه أفضل منها وأجل فإن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الآخرة الا من يحب

قالوا وقد اخبرهم النبى أن أقربهم منه مجلسا ذووا التقلل من الدنيا الذين لم يستكثروا منها

قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا محمد بن عمرو قال

سمعت عراك بن مالك يقول قال ابو ذر إنى لأقربكم مجلسا من رسول الله يوم القيامة وذلك

إنى سمعته يقول ان أقربكم منى مجلسا يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيها وانه

والله ما منكم من أحد الا وقد تشبث منها بشيء غيرى قالوا وقد غبط النبى من كان

عيشه كفافا وأخبر بفلاحه قال الامام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا حيوة قال

أخبرنى أبو هانى أن أبا على الحبشى أخبره أنه سمع فضاله بن عبيد يقول أنه سمع رسول الله

يقول طوبى لمن هدى الى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع

وذكر أيضا من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله قال قد أفلح من اسلم رزق كفافا

وقنعه الله بما آتاه قالوا ولو لم يكن فى التقلل الا خفة الحساب لكفى به فضلا على الغنى قال

عبد الله بن الامام أحمد حدثنا بيان بن الحكم حدثنا محمد بن حاتم قال حدثنى بشر بن

الحارث حدثنا عيسى بن يونس عن هشام عن الحسن قال قال رسول الله ثلاثة لا يحاسب

بهن العبد ظل خص يستظل به وكسرة يشد بها صلبه وثوب يوارى عورته

وقال الامام أحمد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا ليث عن أبى عثمان قال لما افتتح

المسلمون جوجى دخلوا يمشون فيها وأكداس الطعام فيها أمثال الجبال وكان رجل يمشى

الى جنب سلمان فقال يا أبا عبد الله ألا ترى الى ما فتح الله علينا ألا ترى الى ما أعطانا الله فقال سلمان وما يعجبك مما ترى الى جنب كل حبة مما ترى حساب

(237/829)

قالوا وقد شهد النبى لأصحابه أنهم يوم فقرهم وفاقتهم خير منهم يوم غناهم وبسط الدنيا عليهم قال الامام أحمد حدثنا عبد الصمد أبو الاشهب عن الحسن قال قال نبى الله يا أهل الصفة كيف أنتم قالوا نحن بخير قال أنتم اليوم خير أم يوم تغدو على أحدكم جفنة وتروح أخرى ويغدو فى حلة ويروح فى أخرى وتسترون فى بيوتكم مثل أستار الكعبة قالوا يا نبى الله نحن يومئذ خير يعطينا ربنا تبارك وتعالى فنشكر قال بل أنتم اليوم خير فهذا صريح فى أنهم فى وقت صبرهم على فقرهم خير منهم فى وقت غناهم مع الشكر

وقال عبد الله بن أحمد حدثنا أبن ذر حدثنا حفص بن غياث عن داود بن أبى هند عن أبى حرب بن أبى الاسود عن طلحة البصرى قال قدمت المدينة ولم يكن لى بها معرفة فكان يجرى علينا مد من تمر بين اثنين فصلى بنا رسول الله صلاة فهتف به هاتف من خلفه فقال يا رسول الله قد حرق بطوننا التمر وعرفت عنا الكنف فخطب فحمد الله وأثنى عليه وقال والله لو أجد لكم اللحم والخبز لأطعمتكموه وليأتين عليكم زمان تغدو على أحدكم

الجفان وتراح ولتلبسن بيوتكم مثل أستار الكعبة قالوا يا رسول الله نحن اليوم خير منا أو يومئذ قال بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ أنتم اليوم خير منكم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض

قال الامام أحمد وحدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة قال ذكر لنا أن نبى الله دخل على أهل الصفة فذكر نحوه

(238/829)

قالوا ولو لم يكن فى الغنى والمال الا أنه فتنة وقل من سلم من اصابتها له وتأثيرها فى دينه كما قال تعالى انما أموالكم وأولادكم فتنة وفى الترمذى من حديث كعب ابن عياض قال سمعت رسول الله يقول ان لكل أمة فتنة وفتنة أمتى المال قال هذا حديث حسن صحيح قالوا والمال يدعو الى النار والفقر يدعو الى الجنة قال الامام أحمد حدثنا يزيد حدثنا أبو الاشهب حدثنا سعيد بن أيمن مولى كعب بن سور قال بينا رسول الله يحدث أصحابه اذ جاء رجل من الفقراء فجلس الى جنب رجل من الاغنياء فكأنه قبض من ثيابه عنه فقال رسول الله أخشيت يا فلان أن يغدو وغناك عليه أو يغدو فقره عليك قال يا رسول الله وشر الغنى قال نعم ان غناك يدعوك الى النار وان فقره يدعوه الى الجنة قال فما ينجينى منه قال تواسيه قال

اذن افعل فقال الآخر لا أرب لى فيه قال فاستغفر وادع لأخيك

قالوا وحق الغنى أعظم من أن يقوم العبد بشكره وقد روى الترمذى فى جامعه من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه أن النبى قال ليس لابن آدم حق فى سوى هذه الخصال بيت يسكنه وثوب يوارى به عورته وجلف الخبز والماء

قال هذا حديث حسن صحيح وفى صحيح مسلم عن أبى أمامة رضى الله عنه قال قال رسول الله يا ابن آدم انك ان تبذل الفضل خير لك وأن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى

وفى صحيحه أيضا من حديث أبى نضرة عن أبى سعيد رضى الله عنه قال بينما نحن فى سفر مع رسول الله اذ جاء رجل على راحلة له فجعل يضرب يمينا وشمالا فقال رسول الله من كان معه فضل من ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان عنده فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له قال فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا فى فضل

قالوا فهذا موضع النظر فى تفضيل الغنى الشاكر ببذل الفضل كله وأما غنى يمتع بأنواع الفضل ويشكر بالواجب وبعض المستحب فكيف يفضل على فقير صابر راض عن الله فى فقره قالوا وقد أقسم رسول الله لأصحابه وهم أئمة الشاكرين أنه لا يخاف عليهم الفقر وانما يخاف عليهم الغنى ففى الصحيحين من حديث عمرو بن عوف وكان شهد بدرا أن رسول الله بعث أبا عبيدة بن الجراح الى البحرين يأتى بجزيتها وكان رسول الله صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمى فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الانصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله فلما صلى رسول الله انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله حين رآهم ثم قال أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشئ من البحرين فقالوا أجل يا رسول الله قال أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ عدة الصابرين صـ 183 - 205 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة التكاثر

حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2)

قوله : ﴿ حتى زُرْتُمُ ﴾ : " حتى " : غايةٌ لقولِه " أَلْهاكم " وهو عطفٌ عليه .

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)

قوله : ﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ : جعله الشيخُ جمالُ الدينِ بنُ مالك من التوكيدِ اللفظي مع توسُّط حرفِ العطفِ . وقال الزمخشري : " والتكريرُ تأكيدٌ للرَّدْعِ والردِّ عليهم ، و " ثم " دالَّةٌ على أنَّ الإِنذارَ الثاني أبلغ من الأولِ وأشدُّ ، كما تقولُ للمنصوح : أقولُ لك ثم أقولُ لك لا تفعَلْ " انتهى . ونُقِل عن عليّ كَرَّمَ اللَّهُ وجهَه : " كلاَّ سوف تعلمون في الدنيا ، ثم كلاَّ سوف تعلمون في الآخرة " فعلى هذا يكونُ غيرَ مكرَّرٍ لحصولِ التغايُرِ بينهما لأجل تغايُرِ المتعلِّقَيْنِ . و " ثُمَّ " على بابها من المُهْلة . وحُذِفَ متعلَّقُ العِلْمِ في الأفعالِ الثلاثةِ لأنَّ الغَرَضَ الفِعْلُ لا متعلَّقُه . وقال الزمخشري : " والمعنى : لو تعلمون الخطأَ فيما أنتم عليه إذا عايَنْتُمْ ما تَنْقَلبون إليه " فقدَّر له مفعولاً واحداً كأنه جَعَله بمعنى عَرَفَ .

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5)

قوله : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ جوابُه محذوفٌ . أي : لَفَعَلْتُم ما لا يُوصف . وقيل : التقديرُ :

لرَجَعْتُمْ عن كُفْرِكم . وعلم اليقين : مصدرٌ . قيل : وأصلُه : العلمَ اليقينَ ، فأُضِيف الموصوفُ إلى صفتِه . وقيل : لا حاجةَ إلى ذلك ؛ لأنَّ العِلْمَ يكونُ يقيناً وغيرَ يقينٍ ، فأُضِيفَ إليه إضافةَ العامِّ للخاصّ . وهذا يَدُلُّ على أنَّ اليقينَ أخصُّ .

وقرأ ابن عباس "أألْهاكم" على استفهام التقريرِ والإِنكارِ . ونُقِل في هذا : المدُّ مع التسهيل ، ونُقِلَ فيه تحقيقُ الهمزتَيْن من غيرِ مَدّ .

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6)

(241/829)

قوله : ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾ هذا جوابُ قَسَم مقدَّرٍ . وقرأ ابن عامر والكسائي "لتُرَوْنَّ" مبنياً للمفعول . وهو منقولٌ مِنْ "رأى" الثلاثي إلى "أرى" فاكتسَبَ مفعولاً آخر فقام الأولُ مقامَ الفاعلِ . وبقي الثاني منصوباً . والباقون مبنياً للفاعلِ جعلوه غيرَ منقولٍ ، فتعدى لواحدٍ فقط ، فإنَّ الرؤيةَ بَصَرِيَّة . وأمير المؤمنين ، وعاصم وابن كثير في روايةٍ عنهما بالفتح في الأولى والضمّ في الثانية ، يعني "لَتُرَوُنَّها" ومجاهد وابن أبي عبلة والأشهب بضمها فيهما .

والعامَّةُ على أن الواوَيْن لا يُهْمزان ؛ لأنَّ حركتَهما عارضةٌ ، نَصَّ على عدمِ جوازِه مكيٌّ وأبو البقاء ، وعَلَّلا بعُروضِ الحركةِ .

وقرأ الحسن وأبو عمرو بخلافٍ عنهما بهمزِ الواوَيْن استثقالاً لضمةِ الواو . قال الزمشخري : " وهي مستكرهَةٌ " يعني لِعُروض الحركةِ عليها إلاَّ أنَّهم قد هَمَزوا ما هو أَوْلى بعدَمِ الهمزِ من هذه الواوِ نحو : ﴿ اشتروا الضلالة ﴾ [البقرة : 16] ، هَمَزَواوَ " اشتَرَوْا " بعضُهم ، مع أنها حركةٌ عارضةٌ وتزول في الوَقْفِ ، وحركةُ هذه الواوِ ، وإنْ كانت عارضةً ، إلاَّ أنها غيرُ زائلةٍ في الوقفِ فهي أولى بَهْمزِها .

(242/829)

ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7)

قوله : ﴿ عَيْنَ اليقين ﴾ : مصدرٌ مؤكِّدٌ . كأنه قيل : رؤيةَ العين ، نفياً لتوَهُّمِ المجازِ في الرؤيةِ الأولى . وقال أبو البقاء : " لأنَّ رأى وعايَنَ بمعنىً " .

وَالْعَصْرِ (1)

قوله : ﴿ والعصر ﴾ : العامَّةُ على سكونِ الصادِ . وسلام " والعَصِرْ " والصَّبِرْ " بكسرِ الصادِ والباء . قال ابنُ عطية : ولا يجوزُ إلاَّ في الوقفِ على نَقْلِ الحركةِ . ورُوِيَ عن أبي عمروٍ " بالصَّبِر " بكسرِ الباء إشماماً . وهذا أيضاً لا يجوزُ إلاَّ في الوقفِ " انتهى . ونَقَل هذه القراءةَ جماعةٌ كالهُذَلِيِّ وأبي الفضل الرازيِّ وابنِ خالويه . قال الهُذَلِيُّ : " والعَصِرْ

والصَّبِرْ ، والفَجِرْ ، والوَتِرْ ، بكسرِ ما قبل الساكنِ في هذه كلّها هارونُ وابنُ موسى عن أبي عمروٍ والباقون بالإِسكانِ كالجماعةِ " انتهى . فهذا إِطْلاقٌ منه لهذه القراءةِ في حالتي الوقفِ والوصلِ . وقال ابن خالويه : " والصَّبِرْ " بنَقْلِ الحركةِ عن أبي عمرو " فأطْلَقَ ايضاً . وقال أبو الفضل : " عيسى البصرة بالصَّبِرْ " بنَقْلِ حركةِ الراءِ إلى الباءِ يُحتاج إلى أَنْ يأتيَ ببعضِ الحركةِ في الوقفِ ، ولا إلى أَنْ يُسكِّنَ فيُجْمَعَ بين ساكنَيْن ، وذلك لغةٌ شائعةٌ وليسَتْ بشاذةٍ ، بل مُسْتفيضةٌ ، وذلك دَلالةٌ على الإِعرابِ ، وانفصالٌ من التقاءِ الساكنَيْن ، وتأديةُ حقِّ الموقوفِ عليه من السكونِ " انتهى . فهذا يُؤْذِنُ بما ذَكَرَا ابنُ عطيةَ أنه كان ينبغي .

وأنشدوا على ذلك :

4636 . . . . . . واصْطِفاقاً بالرِّجِلْ . . . يريد بالرِّجْلِ . وقال آخر :

4637 أنا جريرٌ كُنْيتي أبو عَمِرْ . . . أَضْرِبُ بالسَّيْفِ وسَعْدٌ في القَصِرْ

والنقلُ جائزٌ في الضمة أيضاً كقوله :

4638 . . . . إذْ جَدَّ النُّقُرْ . . . والعَصْرُ : الليلةُ واليومُ قال :

4639 ولن يَلْبَثَ العَصْرانِ يَوْمٌ وليلةٌ . . . إذا طلبا أن يُدْرِكا ما تَيَمَّما . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 11 صـ 97 ـ 99 ﴾

من لطائف الإمام القشيري في السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة التكاثر

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم عزيز تقدس في آزاله عن كل مكان ، ولم يحتجّ في آباده إلى زمان أو إلى مكان ، لا يقطعه حد فأنى يجوز في وصفه المكان ؟ ولا يقطعه عد فأنى تجوز في زصفه الزيادة والنقصان ؟

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ .

أي : شَغَلَكم تَفَاخُرُكم فيما بينكم إلى آخر أعماركم إلى أَنْ مِتُّم .

ويقال : كانوا يفتخرون بآبائهم وأسلافهم ؛ فكانوا يشيدون بذكر الأحياء ، وبمن مضى من أسلافهم .

فقال لهم : شَغَلَكم تفاخركم فيما بينكم حتى عَدَدْتم أمواتكم أحيائِكم .

وأنساكم تكاثركم بالأموال والأولاد طاعةَ الله .

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

على جهة التهويل .

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ .

أي : لو علمتم حقَّ اليقين لارتدعتم عمَّا أنتم فيه من التكذيب .

﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ .

أراد جميعَ ما أعطاهم اللَّهُ من النعمة ، وطالَبهم بالشكر عليها .

ومن النعيم الذي يُسأَل عنه العبد تخفيفُ الشرائع ؛ والرُّخَصُ في العبادات .

ويقال : الماء الحار في الشتاء ، الماء البارد في الصيف .

ويقال : منه الصحَّةُ في الجسد ، والفراغ .

ويقال : الرضاءُ بالقضاء . ويقال : القناعة في المعيشة .

ويقال : هو المصطفى صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 762 . 763﴾

(244/829)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة التكاثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (2)

الإعراب:

(حتّى) حرف غاية وجرّ.. والمصدر المؤوّل (أن زرتم) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بـ (ألهاكم).

جملة: "ألهاكم التكاثر..." لا محلّ لها ابتدائيّة.

وجملة: "زرتم..." لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

الصرف:

(ألهاكم)، فيه إعلال بالقلب جرى مجرى تلهّى.. انظر الآية (10) من سورة عبس، ورسمت الألف طويلة لأنها توسّطت الكلمة.

(زرتم)، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون، وضمّت الزاي للدلالة على أصل الألف الواوي وزنه فلتم.

(المقابر)، جمع المقبرة، اسم مكان من الثلاثيّ قبر، وزنه مفعلة بفتح الميم والعين لأنّ عين المضارع مضمومة، والتاء للمبالغة.

[سورة التكاثر (102): الآيات 3 إلى 4]

كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)

الإعراب:

(كلّا) للردع والزجر (سوف) حرف استقبال (ثمّ) للعطف، ومفعول (تعلمون) محذوف

تقديره: سوء عاقبة التفاخر.

جملة: "سوف تعلمون... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "سوف تعلمون (الثانية) "لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

البلاغة

التكرير: في قوله تعالى "ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ".

وقد كرر لتأكيد الردع، وثم للدلالة على أن الثاني أبلغ، كما يقول العظيم لعبده أقول لك ثم

أقول لك لا تفعل. قيل: ولكونه أبلغ نزل منزلة المغايرة.

[سورة التكاثر (102): الآيات 5 إلى 8]

كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ

يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

الإعراب:

(لو) حرف شرط غير جازم (علم) مفعول مطلق منصوب (اللام) لام القسم لقسم مقدّر

(ترونّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون، وقد حذفت لتوالي الأمثال، و(الواو)

فاعل " 1 "، و(النون) نون التوكيد الثقيلة..

---

(1) لم تحذف الواو بسبب حذف عين الفعل.

جملة: " لو تعلمون... " لا محلّ لها استئنافيّة.. وجواب لو محذوف تقديره: ما اشتغلتم بالتفاخر أو لرجعتم عن الكفر.

وجملة: " ترونّ الجحيم... " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر.. وجملة القسم المقدّرة لا محلّ استئنافيّة.

7 - 8 (ثمّ) حرف عطف في الموضعين (لترونّها) مثل الأول (عين) مفعول مطلق نائب عن المصدر " 1 "، (لتسألنّ) مثل لترونّ بحذف ضمير الفاعل لالتقاء الساكنين (يومئذ) ظرف زمان منصوب - أو مبنيّ - متعلّق بـ (تسألنّ)، والتنوين في (إذ) عوض من محذوف أي يوم إذ ترونها (عن النعيم) متعلّق بـ (تسألنّ).

وجملة: " ترونّها... " جواب قسم مقدّر آخر " 2 "... وجملة القسم المقدّرة لا محلّ

لها معطوفة على جملة القسم السابقة.

وجملة: " تسألنّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة تروُنّها.

الصرف:

(6) ترونّ: في الفعل إعلال بالحذف، حذفت منه لام الكلمة - وهي الياء - كما حذفت عين الكلمة وهي الهمزة . . أصله: لترأيون، تحرّكت الياء بعد فتح قلبت ألفا، ثمّ حذفت الألف لالتقائها ساكنة مع الواو فأصبح لترأونها - بفتح الهمزة وسكون الواو - ثمّ نقلت حركة الهمزة إلى الراء قبلها، ثمّ حذفت الهمزة لثقلها ولالتقاء الساكنين، ثمّ حذفت النون علامة لرفع لدخول نون التوكيد الثقيلة واجتماع ثلاث نونات، ثمّ حرّكت الواو لضمّ لالتقاء الساكنين . . وزنه تفونّ بفتح التاء والفاء وضمّ الواو.

---

(1) إمّا لأنه نعت للمصدر أي لترونّها رؤية هي عين اليقين، أو لأنه ملاقيه في المعنى فالرؤية والمعاينة شيء واحد، وكون (عين) مصدرا فيه تجاوز.

(2) أو معطوفة على جملة جواب القسم السابقة.

البلاغة

1 - الحذف : في قوله تعالى "لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ" .

جواب لو محذوف للتهويل ، أي لو تعلمون كذلك لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه ، أو لشغلكم ذلك عن التكاثر وغيره .

2 - إيضاح الشيء بعد إبهامه : في قوله تعالى "لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ" .

حيث بيّن لهم ما أنذرهم منه وأوعدهم به ، تفخيما وتعظيما ، والقسم لتوكيد الوعيد ، وأن ما أوعدوا به مالا مدخل فيه للريب .

3 - التكرير : في قوله تعالى "ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ" .

حيث كرر القسم معطوفة بثم تغليظا في التهديد وزيادة في التهويل .

الفوائد :

- لتسألن عن النعيم :

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم ، فيقال له : ألم نصح لك جسمك ، ونروك من الماء البارد .

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال : خرج رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبي بكر وعمر ، فقال (صلّى اللّه عليه وسلّم) : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا :

الجوع يا رسول اللّه . قال : وأنا – والذي نفسي بيده – لأخرجني الذي أخرجكما ، فقوموا فقاموا معه ، فأتى رجلا من الأنصار ، فلما رأته المرأة قالت : أهلا وسهلا ، فقال لها رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : أين فلان ؟ قالت : ذهب يستعذب الماء ، إذ جاء الأنصاري ، فنظر إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) وصاحبيه ، ثم قال : الحمد للّه ما أحد اليوم أكرم أضيافا مني ، فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب ، فقال : كلوا ، وأخذ المدية ، فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : إياك والحلوب ، فذبح لهم شاة ، فأكلوا لحما وتمرا وشربوا ، فقال لهم رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : والذي نفسي بيده ، لتسئلن عن هذا النعيم يوم القيامة ، أخرجكم من بيوتكم الجوع ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم . أخرجه الترمذي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 396 - 399 ﴾.

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(102) سورة التكاثر

مكيّة وآياتها ثمان

[سورة التكاثر (102) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ (2) كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4)

كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)

الإعراب :

(أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ) ألهاكم التكاثر فعل ماض ومفعول به مقدّم وفاعل مؤخر والتكاثر التباري في الكثرة والتباهي بها وال في التكاثر للعهد وهو التكاثر في الدنيا ولذاتها وما يبدو فيها من تعاجيب وتهاويل تستهوي الناظر وتخدعه إلى حين ، وحتى يجوز أن تكون عاطفة ويجوز أن تكون حرف غاية وجر وعلى كل حال هي بمثابة الغاية للإلهاء وزرتم المقابر فعل ماض وفاعل ومفعول به والمراد بالزيارة التفاخر بالموتى أي أبلغ منكم

الطيش والبله حدّا دعاكم إلى زيارة القبور أو أضفتم إلى التكاثر بالأموال زيارة القبور لتتكاثروا بالموتى ، ويجوز أن يكون المعنى ألهاكم التكاثر بالأموال والأولاد إلى

أن متّم وقبرتم وقد أضعتم أعماركم فيما لا طائل تحته وأغفلتم وضيعتم ما هو الأهم والأجدى من السعي لأخراكم فتكون زيارة القبور عبارة عن الموت وتعين حتى الغائية الجارّة (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) كلا حرف ردع وزجر عن التشاغل عن الطاعات والجنوح إلى الزخارف والظواهر وسوف حرف استقبال وتعلمون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعل وثم حرف عطف وسوف تعلمون عطف على الجملة الأولى وجعله ابن مالك من باب التوكيد اللفظي مع توسط حرف العطف وقال الزمخشري : " والتكرير تأكيد للردع والإنذار وثم دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول وأشدّ كما تقول للمنصوح : أقول لك ثم أقول لك لا تفعل " وجواب لو محذوف يعني لو تعلمون ما أمامكم من هول لفعلتم ما لا يمكن وصفه واكتناهه ولكنهم جهلة ضلّال .

و تعلمون فعل مضارع مرفوع والواو فاعل والمفعول محذوف تقديره عاقبة التلهّي والتفاخر والتكاثر ، وعلم اليقين مصدر قيل وأصله العلم اليقين فهو من باب إضافة الموصوف إلى صفته وعبارة أبي البقاء " وعين اليقين مصدر على المعنى لأن رأى وعاين بمعنى واحد " ولا يصحّ أن يكون قوله لترون هو الجواب لأنه محقق الوقوع فلا يعلق واللام جواب قسم محذوف وترون فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال وأصله لترأيون فلما تحركت الياء وانفتح ما قبلها قلبت ألفا وحذفت لسكونها وسكون الواو بعدها ثم ألقيت حركة الهمزة التي هي عين الكلمة على الراء وحذفت لثقلها ثم دخلت النون المشددة التي هي للتوكيد فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال كما قدّمنا وحرّكت الواو بالضم لالتقاء الساكنين ولم تحذف لأنها لو حذفت لاختلّ الفعل بحذف عينه ولامه وواو الضمير (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) عطف على ما تقدم وعين اليقين نصب على أنها صفة لمصدر محذوف أي لترونها

رؤية عين اليقين وصفت الرؤية التي هي سبب اليقين بكونها عين اليقين (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) عطف أيضا وتسألن فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال وواو الفاعل حذفت لالتقاء الساكنين والنون نون التوكيد الثقيلة ويومئذ وعن النعيم متعلقان بتسألن فالمبالغات ست ستأتي في باب البلاغة .

البلاغة :

اشتملت هذه السورة على مبالغة من وجوه ستة نوردها فيما يلي :

1- تكرير الإنذار للدلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول في قوله " ثم كلا سوف تعلمون " .

2- تكرير التنبيه فقال : " لو تعلمون " محذوف الجواب ليذهب الخيال في تقديره كل مذهب وقد أوردناه لك في الإعراب .

3- القسم في قوله " لترون الجحيم " لتوكيد الوعيد .

4- وكرر القسم معطوفا بثم بقوله " ثم لترونها عين اليقين " تغليظا في التهديد ، وزيادة في الوعيد .

5- جعل الرؤية " عين اليقين " وخالصته مبالغة خاصة .

6- كرر القسم معطوفا بثم بقوله " ثم لتسألن يومئذ عن النعيم " فإن قلت ما هو النعيم الذي يسأل عنه الإنسان ويعاتب عليه فما من أحد إلا له نعيم ؟ قلت : هو نعيم المتبطلين المتبجحين الذين جنحوا إلى اللذات وأوضعوا في الآثام ، واستنزفوا أوقاتهم باللهو والطرب

ومنادح اللذة لا يبغون عنها بديلا ولا يقدمون شيئًا لدنياهم وأخراهم ، فأل في النعيم للاستغراق . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 568.570 ﴾

(253/829)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ – رَحِمَهُ اللَّهُ – :

فَصْلٌ :

" سُورَةُ التَّكَاثُرِ " قِيلَ فِيهَا : ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ الزَّائِرَ لَا بُدَّ أَنْ يَنْتَقِلَ عَنْ مَزَارِهِ فَهُوَ تَنْبِيهٌ عَلَى الْبَعْثِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ فَهَذَا خَبَرٌ عَنْ عِلْمِهِمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَلِهَذَا رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ ثُمَّ قَالَ . ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ فَهَذَا إشَارَةٌ إلَى عِلْمِهِمْ فِي الْحَالِ وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ : أَيْ لَكَانَ الْأَمْرُ فَوْقَ الْوَصْفِ وَلَعَلِمْتُمْ أَمْرًا عَظِيمًا وَلَأَلْهَاكُمْ عَمَّا أَلْهَاكُمْ فَإِنَّ الِالْتِهَاءَ بِالتَّكَاثُرِ إنَّمَا وَقَعَ مِنْ الْغَفْلَةِ وَعَدَمِ الْيَقِينِ . كَمَا قَالَ : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ وَمِثْلُ

قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ﴾ وَحَذْفُ جَوَابِ لَوْ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ تَعْظِيمًا لَهُ وَتَفْخِيمًا فَإِنَّهُ أَعْظَمُ

(254/829)

مِنْ أَنْ يُوصَفَ أَوْ يُتَصَوَّرَ بِسَمَاعِ لَفْظٍ إِذْ الْمُخْبِرُ لَيْسَ كَالْمُعَايِنِ وَلِهَذَا أَتْبَعَ ذَلِكَ بِالْقَسَمِ عَلَى الرُّؤْيَةِ الَّتِي هِيَ عَيْنُ الْيَقِينِ الَّتِي هِيَ فَوْقَ الْخَبَرِ الَّذِي هُوَ عِلْمُ الْيَقِينِ فَقَالَ : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ وَهَذَا الْكَلَامُ جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ مُسْتَقْبَلٍ مَعَ كَوْنِ جَوَابِ لَوْ مَحْذُوفًا كَمَا تَقَدَّمَ فِي أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ . وَفِي الْآخَرِ هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِلَوْ لَكِنْ يُقَالُ جَوَابُ لَوْ إنَّمَا يَكُونُ مَاضِيًا فَيُقَالُ : لَرَأَيْتُمْ الْجَحِيمَ . كَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَوْ تَكُونُونَ عَلَى الْحَالِ الَّتِي تَكُونُونَ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ فِي طُرُقِكُمْ وَعَلَى فُرُشِكُمْ ﴾ وَلَوْ كَانَ مَاضِيًا فَلَيْسَ مِمَّا يُؤَكَّدُ بَلْ يُقَالُ : لَوْ يَجِيءُ لَأَجِيءُ . وَجَوَابُ هَذَا أَنَّهُ جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ سَدَّ مَسَدَّ جَوَابِ لَوْ . كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ وَلَهُ نَظَائِرُ فِي الْقُرْآنِ وَكَلَامِ الْعَرَبِ فَإِنَّ الْكَلَامَ إذَا اشْتَمَلَ عَلَى قَسَمٍ وَشَرْطٍ وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَقْتَضِي جَوَابَهُ أُجِيبَ الْأَوَّلُ مِنْهُمَا وَهُوَ هُنَا الْقَسَمُ وَهُوَ الْمَقْصُودُ . وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَكُونُ الْمَعْنَى : وَاَللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ بِقُلُوبِكُمْ وَالْأَوَّلُ هُوَ الْمَشْهُورُ وَمِنْ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ لَمْ

يَذْكُرْ سِوَاهُ وَهُوَ الَّذِي أَثَرُوهُ عَنْ مُتَقَدِّمِيهِمْ وَيَدُلُّ عَلَى صِحَّتِهِ وَأَنَّهُ الْحَقُّ أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى مَا

قَبْلَهُ فَيَكُونُ دَاخِلًا فِي حَيِّزِهِ فَلَوْ كَانَ الْأَوَّلُ مُعَلَّقًا بِالشَّرْطِ لَكَانَ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ كَذَلِكَ وَهُوَ بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ رُؤْيَتَهَا عَيْنُ الْيَقِينِ وَالْمَسْأَلَةَ عَنْ النَّعِيمِ لَيْسَ مُعَلَّقًا بِأَنْ يَعْلَمُوهَا فِي الدُّنْيَا عِلْمَ الْيَقِينِ . وَأَيْضًا فَتَفْسِيرُ الرُّؤْيَةِ الْمُطْلَقَةِ بِرُؤْيَةِ الْقَلْبِ لَيْسَ هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ . وَأَيْضًا فَيَكُونُ الشَّرْطُ هُوَ الْجَوَابُ فَإِنَّ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ لَوْ عَلِمْتُمْ عِلْمَ الْيَقِينِ لَرَأَيْتُمْ بِقُلُوبِكُمْ وَذَلِكَ هُوَ الْعِلْمُ فَالْمَعْنَى لَوْ عَلِمْتُمْ لَعَلِمْتُمْ وَهَذَا لَا يُفِيدُ وَلَوْ أُرِيدُ بِمُشَاهَدَةِ الْقَلْبِ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مُجَرَّدِ الْعِلْمِ فَهَذَا مَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ عَلِمَ الشَّيْءَ أَمْكَنَهُ أَنْ يَجْعَلَ مُشَاهِدًا لَهُ بِقَلْبِهِ . وَأَيْضًا فَهَذَا الْمَعْنَى لَوْ كَانَ مُفِيدًا لَمْ يَكُنْ مِمَّا يَسْتَحِقُّ الْقَسَمَ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِطَائِلٍ .

وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ لَمْ يَذْكُرْ الْمَعْلُومَ حَتَّى يَسْتَلْزِمَ الْعِلْمَ بِهِ الْعِلْمَ بِالْجَحِيمِ فَإِنْ أُرِيدَ مَعْلُومٌ خَاصٌّ فَلَا دَلِيلَ فِي الشَّرْطِ عَلَيْهِ حَتَّى يَصِحَّ الِارْتِبَاطُ . وَإِنْ أُرِيدَ الْمَعْلُومُ الْعَامُّ وَهُوَ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ فَذَاكَ يَسْتَلْزِمُ الْعِلْمَ بِالْجَحِيمِ وَغَيْرِهَا وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ . فَقَدْ يَسْأَلُ وَيُقَالُ قَوْلُهُ : ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ لَمْ يَذْكُرْ

(256/829)

فِيهِ الْمَعْلُومَ بَلْ أَطْلَقَ وَمَعْلُومٌ أَنّ كُلّ أَحَدٍ سَوْفَ يَعْلَمُ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ عَلِمَهُ وَجَوَابُهُ : أَنّ سِيَاقَ الْكَلَامِ يَقْتَضِي الْوَعِيدَ وَالتّهْدِيدَ حَيْثُ افْتَتَحَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَلْهَاكُمُ التّكَاثُرُ ﴾ . وَأَيْضًا فَمِثْلُ هَذَا الْكَلَامِ قَدْ صَارَ فِي الْعُرْفِ يُسْتَعْمَلُ فِي الْوَعِيدِ غَالِبًا أَوْ فِي الْوَعْدِ . وَإِذَا كَانَ الْعِلْمُ مُقَيّدًا بِالسّيَاقِ اللّفْظِيّ وَبِالْوَضْعِ الْعُرْفِيّ . فَقَوْلُهُ : ﴿ لَوْ تَعْلَمُونَ ﴾ هُوَ ذَاكَ الْعِلْمُ أَخْبَرَ بِوُقُوعِهِ مُسْتَقْبَلًا ثُمّ عَلّقَ بِوُقُوعِهِ حَاضِرًا وَقَيّدَ الْمُعَلّقَ بِهِ بِعِلْمِ الْيَقِينِ فَإِنّهُمْ قَدْ يَعْلَمُونَ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ لَكِنْ لَيْسَ عِلْمًا هُوَ يَقِينٌ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجموع الفتاوى جـ 16صـ 517. 520 ﴾

(257/829)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحاوى فى تفسير القرآن الكريم

ويسمى (جنة المشتاق فى تفسير كلام الملك الخلاق)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى ـ رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثلاثون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/830)

الجزء الثلاثون بعد الثمانمائة

(سورة العصر ـ الهمزة)

(4/830)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

(سورة العصر)

قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه : إنها سورة لو لم ينزل إلى الناس إلا هي لكفتهم ، وهو معنى قول غيره : " إنها شملت جميع علوم القرآن ، مقصودها تفضيل نوع الإنسان المخلوق من علق ، وبيان خلاصته وعصارته وهم الحزب الناجي يوم السؤال عن زكاء الأعمال بعد الإشارة إلى أضدادهم ، والإعلام بما ينجي من الأعمال والأحوال بترك الفاني والإقبال على الباقي لأنه خلاصة اتلكون ولباب الوجود ، واسمها العصر واضح في ذلك فإن العصر يخلص روح المعصور ويميز صفاوته ، ولذلك كان وقت هذا النبي الخاتم الذي هو خلاصة الخلق وقت العصر ، وكانت صلاة العصر أفضل الصلوات ، وبيان اشتمالها على علوم القرآن تنزيل جملتها على ما قال الغزالي : إن القرآن كالبحر الذي فيه جزائر بها

معادن ستة ، منها أربعة مهمة : مهمان منها هما ياقوت أفخر فأحمره للعلم بالله ، وأخضره لصفاته ، وأزرقه لأفعاله ، وزمرد أخضر هو العلم باليوم الآخر وما فيه ، ومهمان أولهما در أنضر وهو العلم بالعبادات المقربة إليه سبحانه وتعالى ، وثانيهما مسك أذفر ، وهو العلم بالعبادات التي بها تهيأ العبادات ، ومتمان وهما درياق أكبر وهو العلم بإزاحة الشكوك ، والشبه والأوهام لأنها سموم ومهلكة للدين ، وعنبر أشهب وهو الاعتبار بمن هلك باجتناب ما كان سبب هلاكه ، والاقتفاء بمن نجا باتباع ما كان سبب نجاته ، فالجملة الأولى للعنبر لأن فيها شم روائح الهالك وضده الناجي ، وبدئ بها لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، والجملة الثانية للياقوت بصفاته الثلاث والزمرد ، والثالثة للدر والمسك ، وهخما عبادات مقصودة ، وعادات وسيلة إليها ممدودة ، والرابعة للدرياق لأن الشبه والشكوك إنما هي من أوهام عاطلة وخيالات باطلة ، والخامسة وسيلة إليها ومتمة لها لأن معرفة ذلك واجتنابه لا يكون إلا ببذل الجهد في الصبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 521﴾

(6/830)

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . والعصر)

السّورة مكّيّة .

آياتها ثلاث .

وكلماتها أَربع عشرة .

وحروفها ثمانٍ وستون المختلف فيها آيتان : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ .

وفواصلها على الرّاءِ .

سمّيت بِوَالعصر ؛ لمفتتحها .

مقصود السّورة : بيان خسران الكفَّار والفجّار ، وذكر سعادة المؤمنين الأَبرار ، وشرح حال المسلم الشكور الصبّار ، فى قوله : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ .

السّورة محكمة .

وقيل : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ منسوخ بالاستثناءِ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ كرّر لاختلاف المفعولين ، وهما ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ و ﴿ بِالصَّبْرِ ﴾ وقيل : لاختلاف الفاعلين ؛ فقد جاءَ مرفوعاً أَنَّ الإِنسان

فى قوله : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ أَنَّه أَبو جهل ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ أَبو بكر ﴿ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ﴾ عُمَر ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ ﴾ عثمان ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ علىّ رضى الله عن الخلفاءِ (الأَربع) ولعن أَبا جهل .

فضل السّورة

فيه أَحاديث منكَرة : حديث أُبىّ : مَنْ قرأَها ختم الله له بالصّبر ، وكان من أَصحاب الحقِّ يوم القيامة ، وحديث على : يا علىّ مَنْ قرأَها فكأَنَّما أَلجم أَلف فرس فى سبيل الله وأَعطاه الله بكل آية قرأَها تاجًا من الجوهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 542 ﴾

(7/830)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة العصر

ذكر ابن كثير أن الطبراني روى بسنده عن عبيد الله بن حُصَيْن قال : (كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلاّ على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر)

الخ ما سيأتي .

وكذلك تسميتها في مصاحف كثيرة وفي معظم كتب التفسير وكذلك هي في مصحف عتيق بالخط الكوفي من المصاحف القيروانية في القرن الخامس .

وسميت في بعض كتب التفسير وفي (صحيح البخاري) (سورة والعصر) بإثبات الواو على حكاية أول كلمة فيها ، أي سورة هذه الكلمة .

وهي مكية في قول الجمهور وإطلاق جمهور المفسرين . وعن قتادة ومجاهد ومقاتل أنها مدنية . وروي عن ابن عباس ولم يذكرها صاحب (الإتقان) في عداد السور المختلف فيها .

وقد عدت الثالثة عشرة في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الانشراح وقبل سورة العاديات .

وآيها ثلاث آيات .

وهي إحدى سور ثلاث هُنَّ أقصر السور عَدد آيات : هي ، والكوثر وسورة النصر .

أغراضها

واشتملت على إثبات الخسران الشديد لأهل الشرك ومن كان مثلهم من أهل

الكفر بالإِسلام بعد أن بلغت دعوته ، وكذلك من تقلد أعمال الباطل التي حذر الإِسلام المسلمين منها .

وعلى إثبات نجاة وفوز الذين آمنوا وعملوا الصالحات والداعين منهم إلى الحق .

وعلى فضيلة الصبر على تزكية النفس ودعوة الحق .

وقد كان أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اتخذوها شعاراً لهم في ملتقاهم .

روى الطبراني بسنده إلى عبيد الله بن عبد الله بن الحُصين الأنصاري (من التابعين) أنه قال : (كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلاّ على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر (أي سلام التفرق وهو سنة أيضاً مثل سلام القُدوم) .

وعن الشافعي : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم . وفي رواية عنه : لو لم ينزل إلى الناس إلا هي لكفتهم . وقال غيره : إنها شملت جميع علوم القرآن . وسيأتي بيانه . انتهى .

اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ 527 . 528﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة العصر

مكية وآياتها ثلاث آيات

بين يدي السورة

* سورة العصر مكية ، وقد جاءت في غاية الإيجاز والبيان ، لتوضيح سبب سعادة الإنسان أو شقاوته ، ونجاحه في هذه الحياة أو خسرانه ودماره .

* أقسم تعالى بالعصر وهو الزمان الذي ينتهي فيه عمر الإنسان ، وما فيه من أصناف العجائب ، والعبر الدالة على قدرة الهت وحكمته ، على أن جنس الإنسان في خسارة ونقصان ، إلا من اتصف بالأوصاف الأربعة وهى (الإيمان) و(العمل الصالح) و(التواصي بالحق) و(الإعتصام بالصبر) وهي أسس الفضيلة ، وأساس الدين ، ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله : لو لم ينزل الها سوى هذه السورة لكفت الناس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 600 ﴾

(10/830)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الْعَصْرِ

العصر : الدهر ، والإنسان : هو هذا النوع من المخلوقات ، والخسر والخسران النقصان وذهاب رأس المال ، والمراد به ما ينغمس فيه الإنسان من الآفات المهلكة ،

والحق : هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أرشد إليها دليل قاطع ، أو عيان ومشاهدة ، أو شريعة صحيحة جاء بها نبى معصوم ، والصبر : قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة فى العمل الطيب ، وتهوّن عليها احتمال المكروه فى سبيل الوصول إلى الأغراض الشريفة .

والتواصي بالحق : أن يوصى بعضهم بما لا سبيل إلى إنكاره وهو كل فضيلة وخير ،

والتواصي بالصبر : أن يوصى بعضهم بعضا به ويحثه عليه ، ولا يكون ذلك نافعا مقبولا إلا إذا كمّل المرء نفسه به وإلا صدق عليه قول أبى الأسود الدؤلي :

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم

تصف الدواء لذى السّقام وذى الضنى كيما يصح به وأنت سقيم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 233 ﴾

وقال الفراء :

سورة (العصر)

﴿ وَالْعَصْرِ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَالْعَصْرِ . . . ﴾ .

وهو الدهر أقسم به .

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ لَفِى خُسْرٍ . . . ﴾ .

لفى عقوبة بذنوبه ، وأن يخسر أهله ، ومنزله فى الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن /للفراء حـ 3 صـ 289 ﴾

(12/830)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة العصر «1»

1 – الْعَصْرِ : الدّهر ، أقسم به .

2 - إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ أي في نقص.

3 - إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ: فإنهم غير منقوصين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 469 ﴾

---

(1) هي مكية عند الجمهور، وعند مجاهد وقتادة ومقاتل مدنية.

(13/830)

وقال الغزنوى:

[سورة العصر]

1 وَالْعَصْرِ: الدهر «1». وقيل «2»: ما بعد الظّهر لأنه وقت اختتام الأعمال وانصرام النّهار.

2 لَفِي خُسْرٍ: لفي نقصان «3».

3 إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا: فإن اللّه يوفّي أجورهم في حال نقص قواهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 890 ﴾

---

(1) هذا قول الفراء في معانيه: 3/ 289، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 538،

وأخرجه الطبري في تفسيره : 30/ 289 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 510 ، عن ابن عباس وزيد بن أسلم ورجح الطبري هذا القول .

(2) نقله الماوردي في تفسيره : 4/ 510 عن الحسن ، وقتادة ، وكذا ابن الجوزي في زاد المسير : 9/ 224 ، والقرطبي في تفسيره : 20/ 179 .

(3) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 310 ، وغريب القرآن لليزيدي : 440 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 538 ، والمفردات للراغب : 147 .

(14/830)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة العصر

عدد 13 - 103

نزلت بمكة بعد الانشراح ، وهي ثلاث آيات ومثلها في عدد الآي النصر والكوثر ، وأربع عشرة كلمة وستون حرفا ، ولا يوجد في القرآن سورة مبدوءة أو مختومة بما بدئت أو ختمت به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ .

قال تعالى : "وَالْعَصْرِ 1" أقسم جل قسمه سبحانه بزمان رسوله كما أقسم بمكانه في سورة البلد الآتية تنبيها على أن زمنه أفضل الأزمنة ومكانه أشرف الأمكنة عدا البقعة التي ضمته فلا يوازيها بالشرف مكان ، حتى قال بعض العلماء بأنها أفضل من عرش الرحمن ولم يعارضه أحد دلالة على اتفاقهم على هذه وإجماعهم على أنه أحب خلق اللّه اليه وأفضلهم ، وانه عند ربه بمكان لا يوازيه مكان وقال ابن عباس المراد به الدهر وذلك لأنهم يضيفون النوائب والنوازل إليه فأقسم اللّه به تنبيها على فضله ، وأن اللّه هو المؤثر فيه وان ما يحصل فيه كان بتقديره وقضائه .

وهناك أقوال بأنه اليوم والليلة لأن العرب تعبر عنها به قال حميد بن ثور :

ولم يلبث العصران يوما وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمّما

وإنه الوقت المعلوم لأنه خلق اللّه آدم فيه ولأنه بمقابل الضحى حيث أقسم أوّلا بأول النهار فناسب أن يقسم بآخره ، وأنه صلاة العصر لأنها على أكثر الأقوال أنها الصلاة الوسطى وانه زمان حياته صلّى اللّه عليه وسلم وما بعده إلى يوم القيامة ، ومقداره بالنسبة لما مضى بمقدار العصر من اليوم والليلة روى البخاري عن سالم بن عبد اللّه عن أبيه أنه سمع النبي صلّى اللّه عليه وسلم يقول إن بقاءكم فيمن سلف من قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس .

ولشرفه صلّى اللّه عليه وسلم وشرف أمته الذين فيه .

قال تعالى :

(15/830)

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) الآية 109 من آل عمران في ج 3 وجواب القسم "إِنَّ الْإِنْسانَ" أي جنسة المشتمل على أفراده كلها "لَفِي خُسْرٍ 1) من عمره لأن كل ساعة تمر منه لا بد أن تكون في طاعة أو معصية فان في معصية فهي الخسران المبين وإن في طاعة فلعلّ غيرها أفضل منها وهو قادر على الإتيان بالأفضل فكان فعل غير الأفضل نقصانا وخسرانا ، وقد ورد في الحديث ما منكم إلا ندم يوم القيامة إن كان محسنا ندم إن لم يكن ازداد وإن كان مسيئا ندم إن لم يكن أقلع .

ولا دلالة في هذه الآية لقول من قال إن مرتكب الكبيرة مخلد في النار لأن المستثنى محصور فيمن آمن وعمل صالحا لأنه لا دلالة فيها على اكثر من كون المستثنى في خسر ليس إلا ، والخسر عام فيكون بالخلود إذا مات كافرا ويمطلق الدخول في النار إذا مات مؤمنا عاصيا فلا معنى للقول بان المستثنى ناسخ للمستثنى منه فيها كما لا منسوخ في المستثنى منه وهو

"إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" فهم مستثنون من الخسران لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وسعدوا وفازوا لا استبدالهم الفاني الخسيس بالباقي النفيس .

(16/830)

وهذا اللفظ يشمل كل من اتصف بالايمان والعمل الصالح لا يختص بعلي كرم اللّه وجهه أو سلمان الفارسي كما يتوهم من اقتصار ابن عباس عليها ، على أنها من الطراز الأول في هذا المضمار كما وأنه لا يختص بمعنى الخاسر أبي جهل أو غيره من أضرابه ، لأن اللفظ عام يدخل فيه كل من خسر الدنيا والآخرة وكل المؤمنين الذين يعملون صالحا "وَتَواصَوْا" عند الاجتماع والمفارقة فيما بينهم بان يوصي بعضهم بعضا "بِالْحَقِّ" في كل نوع من أنواعه ومنه القرآن وكل عمل خير "وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ 3" بسكون الباء وقوىء بكسر الباء بنقل حركة الراء إلى الباء في الوقف لئلا يحتاج القارئ إلى الإتيان ببعض الحركة في الوقف ، ولا إلى أن يسكن فيجمع بين ساكنين وهي لغة شاذة ولكنها في دمشق مستفيضة ، وكذلك في حلب ، أن يوصي بعضهم بعضا عند الشدائد وغيرها بالصبر وعن المعاصي التي تشتاق إليها النفس الخبيثة

(17/830)

وعلى الطاعة التي يشق أداؤها حتى على النفس الطاهرة ، قال تعالى (وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) الآية 24 من البقرة في ج 3 وأين هؤلاء الأخيار والسادة الأبرار ، وبالصبر على ما يبلو اللّه به عباده من المصائب ، هذا وإن سعادة الإنسان في طلب الآخرة والإعراض عن الدنيا لأن الانهماك فيها خسران عظيم ، ولما كانت الأسباب الداعية لحب الدنيا ظاهرة والأسباب الداعية لحب الآخرة خفية ، صار أكثر الناس يشتغل في دنياه ويستغرق في طلبها فخسر وبار وأهلك نفسه بتضييع عمره ونفاده في دنياه ، فالسعيد من كان شغله الشاغل في آخرته وأجمل في طلب الدنيا قال صلّى اللّه عليه وسلم الدنيا حلوة خضرة وإن اللّه مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون وقال عليه السلام اجملوا في طلب الدنيا (أي لا تتكالبوا عليها) فإن كلا ميسر لما خلق له وإن ما هو مقدر لك واصل إليك لا محالة راجع الحديث أول سورة القلم المارة ، قال الشافعي رحمه اللّه لو لم ينزل اللّه غير هذة السورة لكفت الناس لاشتمالها على علوم القرآن .

وأخرج الطبراني والبيهقي عن أبي حذيفة قال كان الرجلان من أصحاب الرسول إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر .

أي ليبقيا متيقظين .

هذا ، واللّه أعلم وأستغفر اللّه العلي العظيم وصلّى اللّه وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 163.165 ﴾

(18/830)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة والعصر

مكية أو مدنية

ولا وقف فيها دون أخرها للاستثناء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(19/830)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة والعصر

مكية أو مدنية

لفي خسر (جائز) عند بعضهم على أن المراد بالإنسان الجنس ومثله في الجواز الصالحات

وقيل لا يجوز لأنَّ التواصي بالحق والصبر قد دخل تحت الأعمال الصالحة فلا وقف فيها

دون آخرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(20/830)

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة الدمياطى :

سورة العصر

مكية وآيها ثلاثة خلافها ثنتان والعصر تركها مدني أخير وعد بالحق مشبه الفاصلة

الصالحات نقل ورش من طريقيه حركة همزة (الإنسان) الآية 2 كحمزة وقفا وسكت على

اللام حمزة وابن ذكوان وحفص وإدريس بخلفهم وكذا خسر إلا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(21/830)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة والعصر "

" الإنسان " آمنوا ، لا يخفى ما في الأول لحمزة وورش وما في الثاني لورش من ثلاثة البدل .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 356 ﴾

(22/830)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة والعصر 103

مكية ونظيرتها في جميع العدد الكوثر والنصر

وكلمها أربع عشرة كلمة

وحروفها ثمانية وستون حرفا

وهي ثلاث آيات في جميع العدد

اختلافها آيتان (﴿ والعصر ﴾) لم يعدها المدني الأخير وعدها الباقون (﴿ وتواصوا بالحق ﴾) عدها المدني الأخير ولم يعدها الباقون ورؤوس الآي

خسر

1 بالحق

* بالصبر

3 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 287 ﴾

(23/830)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجمهور على إسكان باء (الصبر) وكسرها قوم ، وهو على لغة من ينقل الضمة والكسرة في الوقف إلى الساكن قبلها حرصا على بيان الإعراب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(24/830)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة العصر

[سورة العصر (103) : الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (2)

"وَالْعَصْرِ" جار ومجرور متعلقان بفعل قسم محذوف "إِنَّ الْإِنْسانَ" إن واسمها "لَفِي" اللام المزحلقة "في خُسْرٍ" جار ومجرور خبر إن والجملة الاسمية جواب القسم لا محل لها .

[سورة العصر (103) : آية 3]

إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ (3)

"إِلَّا" حرف استثناء "الَّذِينَ" في محل نصب على الاستثناء من الإنسان "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" معطوف على آمنوا "الصَّالِحاتِ" مفعول به "وَتَواصَوْا" معطوف على آمنوا "بِالْحَقِّ" متعلقان بالفعل "وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ" معطوفة على ما قبلها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 467 ﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْعَصْر

فِيهَا حديثان

1532 - الحَدِيث الأول

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فَاتَتْهُ صَلَاة الْعَصْر كَأَنَّمَا وتر أَهله وَمَاله

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم فِي الصَّلَاة من حَدِيث نَافِع عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الَّذِي تفوته صَلَاة الْعَصْر كَأَنَّمَا وتر أَهله وَمَاله انْتَهَى

1533 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْعَصْر غفر الله لَهُ وَكَانَ مِمَّن تَوَاصَى بِالْحَقِّ وَتَوَاصَى بِالصبرِ

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ بِغَيْر هَذَا اللَّفْظ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون ابْن كثير بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم مَرْفُوعا من قَرَأَ سُورَة وَالْعصر ختم الله لَهُ بِالصبرِ وَكَانَ مَعَ أَصْحَاب الْحق يَوْم الْقِيَامَة انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وبلفظ الثَّعْلَبيّ أَيضا رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 281 ﴾

(26/830)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة والعصر» (103)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«لَفِي خُسْرٍ» (2) أي مهلكة ونقصان وقوله «إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ» (2 - 3) مجاز «إِنَّ الْإِنْسانَ» فى موضع «إن الأناسى» لأنه يستثنى الجميع من الواحد وإنما يستثنى الواحد من الجميع ، ولا يقال : إن زيدا قادم إلى قومه وفى آية أخرى «إِنَّ الْإِنْسانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً [وَإِذا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً] إِلَّا الْمُصَلِّينَ» (70/ 19 - 22) وإنما جاز هذا فيما أظهر لفظ الواحد منه لأن معناه على الجميع فمجازه مجاز أحد ، يقع معناه على الجميع وعلى الواحد فى القرآن «فَما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجِزِينَ» (69/ 47) وقال نابغة بنى ذبيان :

وقفت فيها أصيلالا أسائلها عيّت جوابا وما بالربع من أحد

«1» [380] إلا الأوارىّ لأيا ما أبيّنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 310 ﴾

---

(1) . – 380 : ديوانه من الستة ص 6 .

(27/830)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة العصر

" والعصر * إن الإنسان لفي خسر " . يقال عاصر فلان فلانا إذا عاش فى زمانه .

وللأزمنة معالم متميزة تعرف بها وتضاف إليها ، فيقال مثلا عصر الصحابة ، أو عصر الذرة ، أو عصر الفضاء . والذين يظلهم عصر واحد قد يتشابهون فى معايشهم وتقاليدهم ، ولكنهم يختلفون فى مصايرهم وأجزيتهم حسب سريتهم ومناهجهم . ورب رجلين عاشا فى معهد واحد ، ذهب أحدهما إلى النعيم والآخر إلى الجحيم لاختلافهما أخلاقا وإيمانا ! والسير مع الغرائز والأهواء ينتهى إلى الخسران ، وقد تكون الكثرة جامحة والقلة

واعية ، فما تغنى الكثرة عن مبطل وما يضير أهل الحق أن عددهم قليل . وهذه السورة على وجازتها لخصت عواقب النشاط الإنسانى كله ، على امتداد الزمان والمكان .

فالمقطوعون عن الله حطب جهنم ، والمتمسكون بالإيمان والصلاح والحق والصبر هم الذين كسبوا معركة الحياة . وهذه العناصر الأربعة عزيزة نادرة ، وتمر بالبشر عصور تكون فيها هذه العناصر سبة ومصدر تعاسة ، ولكن الله حصر البشرى فى أصحابها "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر" . وقد اتخذ الصحابة سورة العصر شعارا لهم فى ملتقياتهم . جاء فى الحديث . "كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يفترقا إلا أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر . وعن الشافعى : لو لم ينزل على الناس إلا هذه السورة لكفتهم ! ! إن الحق مر والصبر عليه باب للاضطهاد ، والتشبث بالإيمان عند البعض رجعية محفورة ؟ ولابد من عزيمة وجلد . . حتى يكسب المؤمنون المعركة . انتهى انتهى . اهـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 539﴾

(28/830)

(29/830)

قوله تعالى ﴿ وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي كل شيء هالك إلا وجهه (الرحمن) الذي عم بالنعمة البر والفاجر فليس شيء شبهه (الرحيم) الذي خص بإتمام النعمة أولياءه ، فكانوا للدهر غرة ولأهله جبهة .

(30/830)

لما كانت لذة هذه الدنيا الظاهرة التنعم بما فيها من المتاع ، وكان الإنسان مسؤولاً بما شهد به ، ختم التكاثر عن ذلك النعيم متوعداً برؤية الجحيم ، فكان ساكن هذه الدار على غاية الخطر ، فكان نعيمه في غاية الكدر ، قال دالاً على ذلك بأن أكثر الناس هالك ، مؤكداً

بالقسم والأداة لما للأغلب من التكذيب لذلك إما بالمقال أو بالحال : ﴿ والعصر ﴾ أي الزمان الذي خلق فيه أصله آدم عليه الصلاة والسلام وهو في عصر يوم الجمعة كما ورد في الحديث الصحيح في مسلم ، أو الصلاة الوسطى أو وقتها الذي هو زمان صاحب هذا الشرع الذي مقداره فيما مضى من الزمان بمقدار وقت العصر من النهار أو بعضه ، أو زمان كل أحد الذي هو الخلاصة بالنسبة إليه تنبيهاً له على نفاسته إشارة إلى اغتنام إنفاقه في الخير إشفاقاً من الحشر ، أو وقت الأصيل لأنه أفضله بما يحويه من الفراغ من الأشغال واستقبال الراحة والحصول على فائدة ما أنفق فيه ذلك النهار ، وبما دل عليه من طول الساعة وربح من كان له فيها بضاعة باختتام الأعمال وتقوض النهار ، والدال على البعث ، أو جميع الدهر الذي أوجد فيه سبحانه وتعالى المخلوقات وقدر فيه المقدورات بما ظهر فيه من العجائب الدالة على ما لله تعالى من العز والعظمة الداعي إلى صرف الهمة إليه وقصرها عليه : ﴿ إن الإنسان ﴾ أي هذا النوع الذي هو أشرف الأنواع لكونه في أحسن تقويم كما أن العصر خلاصة الزمان ، والعصر يكون لاستخراج خلاصات الأشياء ﴿ لفي خسر ﴾ أي نقص بحسب مساعيهم في أهوائهم وصرف أعصارهم في أغراضهم لما لهم بالطبع من الميل إلى الحاضر والإعراض عن الغائب والاغترار بالفاني أعم من أن يكون الخسر قليلاً أو جليلاً بحسب تنوع الناس إلى أكياس وأرجاس ، فمن كان كافراً كان في

كفران ، ومن كان مؤمناً عاصياً كان في خسران إن كان بالغاً في المعصية وإلا كان في مطلق الخسر ، وهو مدلول المصدر المجرد ، وفي هذا إشارة إلى العلم بالاحتياج إلى إرسال

(31/830)

الرسل لبيان المرضي لله من الاعتقادات والعبادات إيماناً وإسلاماً وإدامة لذلك ليكون فاعله من قبضة اليمين وتاركه من أصحاب الشمال .

وقال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : لما قال تعالى : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ وتضمن ذلك الإشارة إلى قصور نظر الإنسان وحصر إدراكه في العاجل دون الآجل الذي فيه فوزه وفلاحه ، وذلك لبعده عن العلم بموجب الطبع ﴿ إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [الأحزاب : 72] أخبر سبحانه أن ذلك شأن الإنسان بما هو إنسان فقال ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ فالقصور شأنه ، والظلم طبعه ، والجهل جبلته ، فيحق أن يلهيه التكاثر ، ولا يدخل الله عليه روح الإيمان ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ إلى آخرها ، فهؤلاء الذين

﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ [النور : 37] انتهى .

ولما كان الحكم على الجنس حكماً على الكل لأنهم ليس لهم من ذواتهم إلا ذلك ، وكان

فيهم من خلصه الله سبحانه وتعالى مما طبع عليه الإنسان بجعله في أحسن تقويم ، وحفظه عن الميل مع ما فيه من النقائص ، استثناهم سبحانه وتعالى لأنهم قليل جداً بالنسبة إلى أهل الخسر فقال دالاًّ بالاستثناء على أن النفوس داعية إلى الشر مخلدة إلى البطالة واللهو ، فالمخلص واحد من ألف كما في الحديث الصحيح ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا الإيمان وهو التصديق بما علم بالضرورة مجيء النبي -صلى الله عليه وسلم- به من توحيده سبحانه وتعالى والتصديق بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ولعل حكمة التعبير بالماضي الحث على الدخول في الدين ولو على أدنى الدرجات ، والبشارة لمن فعل ذلك بشرطه بالنجاة من الخسر .

(32/830)

ولما كان الإنسان حيواناً ناطقاً ، وكان كمال حيوانيته في القوة العملية للحركة بالإرادة لا بمقتضى الشهوة القاسرة البهيمية قال تعالى : ﴿ وعملوا ﴾ أي تصديقاً بما أقروا به من الإيمان ﴿ الصالحات ﴾ أي هذا الجنس ، وهو اتباع الأوامر واجتناب النواهي في العبادات كالصلاة والعادات كالبيع فكانوا بهذا مسلمين بعد أن كانوا مؤمنين فاشتروا الآخرة بالدنيا فلم يلههم التكاثر ، ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة السرمدية فلم يلقهم شيء

من الخسر .

ولما كان الإنسان بعد كماله في نفسه بالأعمال لا ينتفي عنه مطلق الخسر - إلا بتكميل غيره ، وحينئذ يكون وارثاً لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعثوا للتكميل ، وكان الدين لا يقوم ، وإذا قام لا يتم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الناشىء عن نور القلب ، ولا يتأتى ذلك إلا بالاجتماع ، قال مخصصاً لما دخل في الأعمال الصالحة تنبيهاً على عظمه :

﴿ وتواصوا ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بلسان الحال أو المقال : ﴿ بالحق ﴾ أي الأمر الثابت ، وهو كل ما حكم الشرع بصحته فلا يصح بوجه نفيه من قول أو عمل أو اعتقاد أو غيره من فعل أو ترك ، فكانوا محسنين ، والتكميل في القوة العملية باجتلاب الخيور .

(33/830)

ولما كان الإنسان ميالاً إلى النقصان ، فكان فاعل ذلك الإحسان معرضاً للشنآن من أهل العدوان ، وهم الأغلب في كل زمان ، قال تعالى : ﴿ وتواصوا ﴾ لأن الإنسان ينشط بالوعظ وينفعه اللحظ واللفظ ﴿ بالصبر ﴾ أي الناشىء عن زكاة النفس على العمل بطاعة الله من إحقاق الحق وإبطال الباطل والنفي له والمحق وعلى ما يحصل بسبب ذلك من الأذى باجتناب الشرور إلى الممات الذي هو سبب موصل إلى دار السلام ، فكانوا

مكملين للقوة العملية حافظين لما قبلها من العلمية ، وذلك هو حكمة العبادات فإن حكمة الشيء هي الغاية والفائدة المقصودة منه ، وهي هنا أمران : خارج عن العامل وهو الجنة ، وداخل قائم به وهو النور المقرب من الحق سبحانه وتعالى ، واختير التعبير بالوصية إشارة إلى الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستعمال اللين بغاية الجهد ، والصبر هو خلاصة الإنسان وسره وصفاوته وزبدته وعصارته ، الذي لا يوصل إليه إلا بضغط الإنسان لنفسه وقسرها على أفعال الطاعة وقهرها على لزوم السنة والجماعة حتى يصير الصبر لها بالتدريب عادة وصناعة ، فقد عانق آخرها أولها ، وواصل مفصلها موصلها ، وهي أربع عشرة كلمة تشير إلى أن في السنة الرابعة عشرة من النبوة يكون الإذن في الجهاد الذي هو رأس الأمر بالمعروف بالفعل لإظهار الحق وهي سنة الهجرة التي تم فيها بدره ، وعم نوره وقدره ، وجم عزه ونصره ، فإذا ضممت إليها أربع كلمات البسملة كانت موازية في العدد لسنة خمس من الهجرة ، وكان فيها غزوة بدر الموعد وغزوة الأحزاب ، وقد وقع فيهما أتم الصبر من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم ممن وافقه من الصحابة رضي الله تعالى عنهم لإظهار الحق والصواب ، فإنهم في بدر خذلوا من ركب عبد القيس أو من نعيم بن مسعود وموافقة المنافقين وخوفوا حتى كاد يعمهم الرعب والفشل ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

" والله لأخرجن ولو لم يخرج معي أحد " وأنزل الله فيها ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا ﴾ [آل عمران : 173] الآيات ، وفي الأحزاب زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وأسفرت عاقبة الصبر فيها عما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عند ذهابهم : " الآن نغزوهم ولا يغزوننا " فإذا ضممت إليها الضمائر الأربعة أشارت إلى سنة تسع ، وقد كانت فيها غزوة تبوك وهي غزوة العسرة لما كان فيها من الشدة التي أسفرت عاقبة الصبر فيها عن إقبال الوفود ، بفخامة العز والجدود وتواتر السعود ، بلطف الرحيم الودود ، وبذلك كان نور الوجود ، وتواتر الفضل والجود من الإله المعبود - وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه خيار الوجود . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 521 . 524 ﴾

(35/830)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالْعَصْرِ (1) ﴾

اعلم أنهم ذكروا في تفسير العصر أقوالاً .

(36/830)

الأول : أنه الدهر ، واحتج هذا القائل بوجوه أحدها : ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أقسم بالدهر ، وكان عليه السلام يقرأ : والعصر ونوائب الدهر إلا أنا نقول : هذا مفسد للصلاة ، فلا نقول : إنه قرأه قرآناً بل تفسيراً ، ولعله تعالى لم يذكر الدهر لعلمه بأن الملحد مولع بذكره وتعظيمه ومن ذلك ذكره في : ﴿ هَلْ أتى ﴾ [الإنسان : 1] رداً على فساد قولهم : بالطبع والدهر وثانيها : أن الدهر مشتمل على الأعاجيب لأنه يحصل فيه السراء والضراء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، بل فيه ما هو أعجب من كل عجب ، وهو أن العقل لا يقوى على أن يحكم عليه بالعدم ، فإنه مجزأ مقسم بالسنة ، والشهر ، واليوم ، والساعة ، ومحكوم عليه بالزيادة والنقصان والمطابقة ، وكونه ماضياً ومستقبلاً ، فكيف يكون معدوماً ؟ ولا يمكنه أن يحكم عليه بالوجود لأن الحاضر غير قابل للقسمة والماضي والمستقبل معدومان ، فكيف يمكن الحكم عليه بالوجود ؟ وثالثها : أن بقية عمر المرء لا قيمة له ، فلو ضيعت ألف سنة ، ثم تبت في اللمحة الأخيرة من العمر بقيت في

الجنة أبد الآباد فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة ، فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم ، فلذلك أقسم به ونبه على أن الليل والنهار فرصة يضيعها المكلف ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَهُوَ الذى جَعَلَ الليل والنهار خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً ﴾ [الفرقان : 62] ورابعها : وهو أن قوله تعالى في سورة الأنعام [12] : ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى السموات والأرض قُل الله ﴾ إشارة إلى المكان والمكانيات ، ثم قال : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِى الليل والنهار ﴾ [13] وهو إشارة إلى الزمان والزمانيات ، وقد بينا هناك أن الزمان أعلم وأشرف من المكان ، فلما كان كذلك كان القسم بالعصر قسماً بأشرف النصفين من ملك الله وملكوته وخامسها : أنهم كانوا يضيفون الخسران إلى نوائب الدهر ، فكأنه

(37/830)

تعالى أقسم على أن الدهر والعصر نعمة حاصلة لا عيب فيها ، إنما الخاسر المعيب هو الإنسان وسادسها : أنه تعالى ذكر العصر الذي بمضيه ينتقص عمرك ، فإذا لم يكن في مقابلته كسب صار ذلك النقصان عن الخسران ، ولذلك قال : ﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾ ومنه قول القائل :

إنا لنفرح بالأيام نقطعها . . وكل يوم مضى نقص من الأجل

فكأن المعنى : والعصر العجيب أمره حيث يفرح الإنسان بمضيه لظنه أنه وجد الربح مع أنه هدم لعمره وإنه لفي خسر والقول الثاني : وهو قول أبي مسلم : المراد بالعصر أحد طرفي النهار ، والسبب فيه وجوه أحدها : أنه أقسم تعالى بالعصر كما أقسم بالضحى لما فيهما جميعاً من دلائل القدرة فإن كل بكرة كأنها القيامة يخرجون من القبور وتصير الأموات أحياء ويقام الموازين وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت ، وكل واحد من ها تين الحالتين شاهد عدل ثم إذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين عد خاسراً فكذا الإنسان الغافل عنهما في خسر وثانيها : قال الحسن رحمه الله : إنما أقسم بهذا الوقت تنبيهاً على أن الأسواق قد دنا وقت انقطاعها وانتهاء التجارة والكسب فيها ، فإذا لم تكتسب ودخلت الدار وطاف العيال عليك يسألك كل أحد ما هو حقه فحينئذ تخجل فتكون من الخاسرين ، فكذا نقول : والعصر أي عصر الدنيا قد دنت القيامة و (أنت) بعد لم تستعد وتعلم أنك تسأل غداً عن النعيم الذي كنت فيه في دنياك ، وتسأل في معاملتك مع الخلق وكل أحد من المظلومين يدعي ما عليك فإذا أنت خاسر ، ونظيره :

﴿ اقترب لِلنَّاسِ حسابهم وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء : 1] ، وثالثها : أن هذا الوقت معظم ، والدليل عليه قوله عليه السلام : " من حلف بعد العصر كاذباً لا يكلمه الله ولا ينظر إليه يوم القيامة " فكما أقسم في حق الرابح بالضحى فكذا أقسم في حق الخاسر بالعصر وذلك لأنه أقسم بالضحى في حق الرابح وبشر الرسول أن أمره إلى الإقبال وههنا في حق الخاسر توعده أن أمره إلى الإدبار ، ثم كأنه يقول بعض النهار : باق فيحثه على التدارك في البقية بالتوبة ، وعن بعض السلف : تعلمت معنى السورة من بائع الثلج كان يصيح ويقول : ارحموا من يذوب رأس ماله ، ارحموا من يذوب رأس ماله فقلت : هذا معنى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذا هو خاسر .

(39/830)

القول الثالث : وهو قول مقاتل : أراد صلاة العصر ، وذكروا فيه وجوهاً أحدها : أنه تعالى أقسم بصلاة العصر لفضلها بدليل قوله : ﴿ والصلاة الوسطى ﴾ [البقرة : 238] صلاة العصر في مصحف حفصة وقيل في قوله : ﴿ تَحْبِسُونَهُمَا مِن بَعْدِ الصلاة فَيُقْسِمَانِ بالله ﴾ [المائدة : 106] إنها صلاة العصر وثانيها : قوله عليه السلام : " من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله " وثالثها : أن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم

ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم ورابعها : روي أن امرأة كانت تصيح في سكك المدينة وتقول : دلوني على النبي صلى الله عليه وسلم فرآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، " فسألها ماذا حدث ؟ قالت : يا رسول الله إن زوجي غاب عني فزنيت فجاءني ولد من الزنا فألقيت الولد في دن من الخل حتى مات ، ثم بعنا ذلك الخل فهل لي من توبة ؟ فقال عليه السلام : أما الزنا فعليك الرجم ، أما قتل الولد فجزاؤه جهنم ، وأما بيع الخل فقد ارتكبت كبيراً ، لكن ظننت أنك تركت صلاة صلاة العصر " ففي هذا الحديث إشارة إلى تفخيم أمر هذه الصلاة (1)

وخامسها : أن صلاة العصر بها يحصل ختم طاعات النهار ، فهي كالتوبة بها يختم الأعمال ، فكما تجب الوصية بالتوبة كذا بصلاة العصر لأن الأمور بخواتيمها ، فأقسم بهذه الصلاة تفخيماً لشأنها ، وزيادة توصية المكلف على أدائها وإشارة منه أنك إن أديتها على وجهها عاد خسرانك ربحاً ، كما قال :

﴿ إِلَّا الذين ءامَنُواْ ﴾ [الشعراء : 227] وسادسها : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يكلمهم ولا يزكيهم (عد) منهم رجل حلف بعد العصر كاذباً " فإن قيل صلاة العصر فعلنا ، فكيف يجوز أن يقال : أقسم الله تعالى به ؟ والجواب : أنه ليس قسماً من حيث إنها فعلنا ، بل من حيث إنها أمر شريف تعبدنا الله تعالى بها .

(1) دلالة الحديث على أهمية صلاة العصر واضحة ، أي أن اهتمام المرأة العظيم الذي بدا بالبحث والسؤال عن رسول الله جعل الرسول يظن أنها تسأله عن أعظم الأشياء وهو صلاة العصر لا هذه الأشياء المعلومة أحكامها من الدين ، ولعل هذه الحادثة كانت بقرب نزول سورة النصر ، أو قول الرسول تبكيت للمرأة على سؤالها عن المعاصي لا عن الطاعات .

(40/830)

القول الرابع : أنه قسم بزمان الرسول عليه السلام ، واحتجوا عليه بقوله عليه السلام : " إنما مثلكم ومثل من كان قبلكم مثل رجل استأجر أجيراً ، فقال : من يعمل من الفجر إلى الظهر بقيراط ، فعملت اليهود ، ثم قال : من يعمل من الظهر إلى العصر بقيراط ، فعملت النصارى ، ثم قال : من يعمل من العصر إلى المغرب بقراطين ، فعملتم أنتم ، فغضبت اليهود والنصارى ، وقالوا : نحن أكثر عملاً وأقل أجراً ! فقال الله : وهل نقصت من أجركم شيئاً ، قالوا : لا ، قال : فهذا فضلي أوتيه من أشاء ، فكنتم أقل عملاً وأكثر أجراً " فهذا الخبر دل على أن العصر هو الزمان المختص به وبأمته ، فلا جرم أقسم الله به ، فقوله : ﴿ والعصر ﴾ أي والعصر الذي أنت فيه فهو تعالى أقسم بزمانه في هذه الآية وبمكانه في قوله : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ

بهذا البلد ﴾ [البلد : 2] وبعمره في قوله : ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ [الحجر : 72] فكأنه قال : وعصرك وبلدك وعمرك ، وذلك كله كالظرف له ، فإذا وجب تعظيم حال الظرف فقس حال المظروف ، ثم وجه القسم ، كأنه تعالى يقول : أنت يا محمد حضرتهم ودعوتهم ، وهم أعرضوا عنك وما التفتوا إليك ، فما أعظم خسرانهم وما أجل خذلانهم .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الألف واللام في الإنسان ، يحتمل أن تكون للجنس ، وأن تكون للمعهود السابق ، فلهذا ذكر المفسرون فيه قولين الأول : أن المراد منه الجنس وهو كقولهم : كثر الدرهم في أيدي الناس ، ويدل على هذا القول استثناء الذين آمنوا من الإنسان والقول الثاني : المراد منه شخص معين ، قال ابن عباس : يريد جماعة من المشركين كالوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب .

وقال مقاتل : نزلت في أبي لهب ، وفي خبر مرفوع إنه أبو جهل ، وروي أن هؤلاء كانوا يقولون : إن محمداً لفي خسر ، فأقسم تعالى أن الأمر بالضد مما توهمون .

المسألة الثانية :

الخسر الخسران ، كما قيل : الكفر في الكفران ، ومعناه النقصان وذهاب رأس المال ، ثم فيه تفسيران ، وذلك لأنا إذا حملنا الإنسان على الجنس كان معنى الخسر هلاك نفسه وعمره ، إلا المؤمن العامل فإنه ما هلك عمره وماله ، لأنه اكتسب بهما سعادة أبدية ، وإن حملنا لفظ الإنسان على الكافر كان المراد كونه في الضلالة والكفر إلا من آمن من هؤلاء ، فحينئذ يتخلص من ذلك الخسار إلى الربح .

المسألة الثالثة :

إنما قال : ﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾ ولم يقل : لفي الخسر ، لأن التنكير يفيد التهويل تارة والتحقير أخرى ، فإن حملنا على الأول كان المعنى إن الإنسان لفي خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله ، وتقريره أن الذنب يعظم بعظم من في حقه الذنب ، أو لأنه وقع في مقابلة النعم العظيمة ، وكلا الوجهين حاصلان في ذنب العبد في حق ربه ، فلا جرم كان ذلك الذنب في غاية العظم ، وإن حملناه على الثاني كان المعنى أن خسران الإنسان دون خسران الشيطان ، وفيه بشارة أن في خلقي من هو أعصى منك ، والتأويل الصحيح هو الأول .

المسألة الرابعة :

لقائل : أن يقول قوله : ﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾ يفيد التوحيد ، مع أنه في أنواع من الخسر والجواب : أن الخسر الحقيقي هو حرمانه عن خدمة ربه ، وأما البواقي وهو الحرمان عن الجنة ،

والوقوع في النار ، فبالنسبة إلى الأول كالعدم ، وهذا كما أن الإنسان في وجوده فوائد ، ثم قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] أي لما كان هذا المقصود أجل المقاصد كان سائر المقاصد بالنسبة إليه كالعدم .

واعلم أن الله تعالى قرن بهذه الآية قرائن تدل على مبالغته تعالى في بيان كون الإنسان في خسر أحدها : قوله : ﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾ يفيد أنه كالمغمور في الخسران ، وأنه أحاط به من كل جانب وثانيها : كلمة إن ، ، فإنها للتأكيد وثالثها : حرف اللام في ﴿ لفي خسر ﴾ ، وههنا احتمالان :

الأول : في قوله تعالى : ﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾ أي في طريق الخسر ، وهذا كقوله في أكل أموال اليتامى :

﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ [النساء : 10] لما كانت عاقبته النار .

الاحتمال الثاني : أن الإنسان لا ينفك عن خسر ، لأن الخسر هو تضييع رأس المال ، ورأس ماله هو عمره ، وهو قلما ينفك عن تضييع عمره ، وذلك لأن كل ساعة تمر بالإنسان ؛ فإن كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك في الخسران ، وإن كانت مشغولة بالمباحات

فالخسران أيضاً حاصل ، لأنه كما ذهب لم يبق منه أثر ، مع أنه كان متمكناً من أن يعمل فيه عملاً يبقى أثره دائماً ، وإن كانت مشغولة بالطاعات فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها ، أو بغيرها على وجه أحسن من ذلك ، لأن مراتب الخضوع والخشوع لله غير متناهية ، فإن مراتب جلال الله وقهره غير متناهية ، وكلما كان علم الإنسان بها أكثر كان خوفه منه تعالى أكثر ، فكان تعظيمه عند الإتيان بالطاعات أتم وأكمل ، وترك الأعلى والاقتصار بالأدنى نوع خسران ، فثبت أن الإنسان لا ينفك ألبتة عن نوع خسران .

واعلم أن هذه الآية كالتنبيه على أن الأصل في الإنسان أن يكون في الخسران والخيبة ، وتقريره أن سعادة الإنسان في حب الآخرة والإعراض عن الدنيا ، ثم إن الأسباب الداعية إلى الآخرة خفية ، والأسباب الداعية إلى حب الدنيا ظاهرها ، وهي الحواس الخمس والشهوة والغضب ، فلهذا السبب صار أكثر الخلق مشتغلين بحب الدنيا مستغرقين في طلبها ، فكانوا في الخسران والبوار ، فإن قيل : إنه تعالى قال في سورة التين (4 ، 5) : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رددناه أَسْفَلَ سافلين ﴾ فهناك يدل على أن الابتداء من الكمال والانتهاء إلى النقصان ، وههنا يدل على أن الابتداء من النقصان والانتهاء إلى الكمال ، فكيف وجه الجمع ؟ قلنا : المذكور في سورة التين أحوال البدن ، وههنا أحوال النفس فلا تناقض بين القولين .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ .

اعلم أن الإيمان والأعمال الصالحة قد تقدم تفسيرهما مراراً ، ثم ههنا مسائل :

المسألة الأولى :

احتج من قال : العمل غير داخل في مسمى الإيمان ، بأن الله تعالى عطف عمل الصالحات على الإيمان ، ولو كان عمل الصالحات داخلاً في مسمى الإيمان لكان ذلك تكريراً ولا يمكن أن يقال : هذا التكرير واقع في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب : 7] وقوله : ﴿ وَمَلَئِكَتُهُ وَجِبْرِيلَ وميكال ﴾ [البقرة : 98] أنا نقول هناك : إنما حسن ، لأن إعادته تدل على كونه أشرف أنواع ذلك الكلي ، وعمل الصالحات ليس أشرف أنواع الأمور المسماة بالإيمان ، فبطل هذا التأويل .

قال الحليمي : هذا التكرير واقع لا محالة ، لأن الإيمان وإن لم يشتمل على عمل الصالحات ، لكن قوله : ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يشتمل على الإيمان ، فيكون قوله : ﴿ وعملوا لصالحات ﴾ مغنياً عن ذكر قوله : ﴿ الذين كَفَرُواْ ﴾ وأيضاً فقوله : ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ يشتمل على قوله : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ فوجب أن يكون ذلك تكراراً ، أجاب الأولون وقالوا : إنا لا نمنع ورود التكرير لأجل التأكيد ، لكن الأصل

عدمه ، وهذا القدر يكفي في الاستدلال .

المسألة الثانية :

(44/830)

احتج القاطعون بوعيد الفساق بهذه الآية ، قالوا : الآية دلت على أن الإنسان في الخسارة مطلقاً ، ثم استثنى : ﴿ الذين ءامَنُوا وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ والمعلق على الشرطين مفقود عند فقد أحدهما ، فعلمنا أن من لم يحصل له الإيمان والأعمال الصالحة ، لا بد وأن يكون في الخسار في الدنيا وفي الآخرة ، ولما كان المستجمع لهاتين الخصلتين في غاية القلة ، وكان الخسار لازماً لمن لم يكن مستجمعاً لهما كان الناجي أقل من الهالك ، ثم لو كان الناجي أكثر كان الخوف عظيماً حتى لا تكون أنت من القليل ، كيف والناجي أقل ؟ أفلا ينبغي أن يكون الخوف أشد ! .

المسألة الثالثة :

أن هذا الاستثناء فيه أمور ثلاثة أحدها : أنه تسلية للمؤمن من فوت عمره وشبابه ، لأن العمل قد أوصله إلى خير من عمره وشبابه وثانيها : أنه تنبيه على أن كل ما دعاك إلى طاعة الله فهو الصلاح ، وكل ما شغلك عن الله بغيره فهو الفساد وثالثها : قالت المعتزلة : تسمية

الأعمال بالصالحات تنبيه على أن وجه حسنها ليس هو الأمر على ما يقوله الأشعرية ، لكن الأمر إنما ورد لكونها في أنفسها مشتملة على وجوه الصلاح ، وأجابت الأشعرية بأن الله تعالى وصفها بكونها صالحة ، ولم يبين أنها صالحة بسبب وجوه عائدة إليها أو بسبب الأمر .

المسألة الرابعة :

لسائل أن يسأل ، فيقول : إنه في جانب الخسر ذكر الحكم ولم يذكر السبب وفي جانب الربح ذكر السبب ، وهو الإيمان والعمل الصالح ، ولم يذكر الحكم فما الفرق قلنا : إنه لم يذكر سبب الخسر لأن الخسر كما يحصل بالفعل ، وهو الإقدام على المعصية يحصل بالترك ، وهو عدم الإقدام على الطاعة ، أما الربح فلا يحصل إلا بالفعل ، فلهذا ذكر سبب الربح وهو العمل ، وفيه وجه آخر ، وهو أنه تعالى في جانب الخسر أبهم ولم يفصل ، وفي جانب الربح فصل وبين ، وهذا هو اللائق بالكرم .

أما قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ .

فاعلم أنه تعالى لما بين في أهل الاستثناء أنهم بإيمانهم وعملهم الصالح خرجوا عن أن يكونوا في خسر وصاروا أرباب السعادة من حيث إنهم تمسكوا بما يؤديهم إلى الفوز بالثواب والنجاة من العقاب وصفهم بعد ذلك بأنهم قد صاروا لشدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على ما يخصهم بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا أيضاً سبباً لطاعات الغير كما ينبغي أن يكون عليه أهل الدين وعلى هذا الوجه قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين ءامَنُواْ قُواْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ [التحريم : 6] فالتواصي بالحق يدخل فيه سائر الدين من علم وعمل ، والتواصي بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة التكليف في القيام بما يجب ، وفي اجتنابهم ما يحرم إذ الإقدام على المكروه ، والإحجام عن المراد كلاهما شاق شديد ، وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

هذه الآية فيها وعيد شديد ، وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس إلا من كان آتياً بهذه الأشياء الأربعة ، وهي الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور وإنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه فكذلك يلزمه في غيره أمور ، منها الدعاء إلى الدين والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يحب له ما يحب لنفسه ، ثم كرر التواصي ليضمن الأول الدعاء إلى الله ، والثاني الثبات عليه ، والأول الأمر بالمعروف والثاني النهي عن المنكر ، ومنه قوله :

﴿ وانه عَنِ المنكر واصبر ﴾ [لقمان : 17] وقال عمر : رحم الله من أهدى إلي عيوبي .

المسألة الثانية :

دلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن المحن تلازمه ، فلذلك قرن به التواصي .

المسألة الثالثة :

إنما قال : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ ولم يقل : ويتواصون لئلا يقع أمراً بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي ، وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل .

المسألة الرابعة :

قرأ أبو عمرو : ﴿ بالصبر ﴾ بشم الباء شيئاً من الحرف ، لا يشبع قال أبو علي : وهذا مما يجوز في الوقف ، ولا يكون في الوصل إلا على إجراء الوصل مجرى الوقف ، وهذا لا يكاد يكون في القراءة ، وعلى هذا ما يروى عن سلام بن المنذر أنه قرأ ، والعصر بكسر الصاد ولعله وقف لانقطاع نفس أو لعارض منعه من إدراج القراءة ، وعلى هذا يحمل لا على إجراء الوصل مجرى الوقف ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 80.85 ﴾

(47/830)

وقال السمرقندى

قوله تعالى ﴿ والعصر ﴾

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه يعني : الدهر وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال يعني : صلاة الصعر وذلك أن أبا بكر لما أسلم قالوا : خَسِرْتَ يا أبا بكر حين تركت دين أبيك ، فقال أبو بكر : ليس الخسارة في قبول الحق إنما الخسارة في عبادة الأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنكم فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآية (والعصر) .

(48/830)

أقسم الله تعالى بصلاة العصر ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ يعني : أن الكافر لفي خسارة وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال "إن الإنسان لفي خسر" يعني : الناس كلهم ثم

استثنى فقال عز وجل ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فإنهم غير منقوصين قال القتبي الخسر النقصان إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غير منقوص كما قال الله تعالى (ثم رددناه أسفلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) يعني : يكتب لهم ثواب عملهم وإن ضعفوا عن العمل قال الزجاج إن الإنسان أراد به الناس والخسران واحد ومعناه إن الإنسان الكافر والعاملين بغير طاعة الله تعالى لفي خسر وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ والعصر ونوايب الدهر إن الإنسان لفي خسر وإنه لفي لعنة إلى آخر الدهر ويقال أقسم الله تعالى بخالق الدهر إن الإنسان لفي خسر يعني : أبا جهل والوليد بن المغيرة ومن كان في مثل حالهما ثم استثنى المؤمنين فقال : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعني : أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ يعني : تحاثوا على القرآن يعني : يُرَغِّبون في الإيمان بالقرآن والأعمال الصالحة ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ يعني : تحاثوا على الصبر على عبادة الله تعالى وعلى الشدائد فيرغبون الناس على ذلك ويقال بالصبر على المكاره فإن الجنة حفت بالمكاره والله تعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 590 ﴾

وقال الثعلبي :

سورة العصر

﴿ والعصر ﴾

قال ابن عباس : والدهر . ابن كيسان : الليل والنهار ويقال لهما : العصران وللغداة والعشي أيضاً : عصران . قال حميد بن ثور :

ولن يلبث العصران يوم وليلة . . . إذا طلبا أن يُدركا ما تيمما

الحسن : بعد زوال الشمس إلى غروبها . قتادة : آخر ساعة من ساعات النهار . مقاتل : صلاة العصر وهي الوسطى .

﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فانّهم ليسوا في خُسر . ﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ وتحاثّوا وأوصى بعضهم بعضاً . ﴿ بالحق ﴾ بالقرآن عن الحسن وقتادة . مقاتل : بالإيمان والتوحيد . وقيل : على العمل بالحق .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ على أداء الفرائض وإقامة أمر اللّه ، وروى ابن عون عن إبراهيم قال : أراد أن الإنسان إذا عمّر في الدنيا وهرم لفي نقص وضعف وتراجع إلاّ المؤمنين فإنّهم يكتب لهم أجورهم والمحاسن التي كانوا يعملونها في حال شبابهم وقوّتهم وصحّتهم ، وهي مثل قوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ الآية [التين : 4-6] قال : [كان علي رضي الله عنه يقرأ ذلك] : إِنَّ

الاْنسَانَ لَفِي خُسْرٌ وإنه فيه إلى آخر الدهر ، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود ، وكان علي يقرأها : والعصر ، ونوائب الدهر ، إن الإنسان لفي خسر ، وإنّه فيه إلى آخر الدهر .

والقراءة الصحيحة ما عليه العامّة والمصاحف .

(50/830)

أخبرنا أبو محمد الحسن بن علي بن محمد بن حمدان الخطيب قراءة عليه في رجب سنة ست وثمانين وثلاثمائة قال : حدّثنا أبو حامد أحمد بن محمد بن دُلان قال : أخبرنا القاضي منصور بن محمد قال : حدّثنا محمد بن أحمد البزاز قال : حدّثنا أبو بكر محمد بن إبراهيم بن داود بن سليمان الدينوري قال : حدّثنا علي بن إسماعيل قال : حدّثنا الحسن بن علقمة قال : حدّثنا سباط بن محمد عن القاسم بن رفيعة عن أبي أُمامة عن أُبيّ بن كعب قال : " قرأت على رسول اللّه (صلى الله عليه وآله وسلم) والعصر فقلت : بأبي وأُمّي يا رسول اللّه وما تفسيرها ؟

فقال : " ﴿ والعصر ﴾ قسمٌ من اللّه أقسم لكم بآخر النهار " ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ قال : " أبو جهل بن هشام " ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ " أبو بكر الصديق " ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ " عمر بن الخطّاب " ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ " عثمان بن عفّان " ﴾

وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ " علي بن أبي طالب " .

وأخبرنا عبد الخالق [بن علي] قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن يوسف بن حاتم بن نضر قال : حدّثنا الحسن بن عثمان قال : حدّثنا أبو هشام محمد بن يزيد بن رفاعة قال : حدّثنا عمّي علي بن رفاعة عن أبيه رفاعة قال : حججت فوافيت علي بن عبد اللّه بن عباس يخطب على منبر رسول اللّه صلى الله عليه وسلم فقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ * والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ أبو جهل ابن هشام ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ أبو بكر الصديق ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ عمر بن الخطّاب ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ عثمان بن عفّان ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ علي بن أبي طالب . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشف والبيان حـ 10 صـ 283.284﴾

(51/830)

وقال الزمخشرى :

سورة العصر

مكية ، وآياتها 3 «نزلت بعد الشرح» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة العصر (103) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ (3)

أقسم بصلاة العصر لفضلها ، بدليل قوله تعالى : وَالصَّلاةِ الْوُسْطى صلاة العصر ، في مصحف

(52/830)

حفصة . وقوله عليه الصلاة والسلام «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» «1» ولأنّ التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار ، واشتغالهم بمعايشهم .

أو أقسم بالعشي كما أقسم بالضحى لما فيهما جميعا من دلائل القدرة . أو أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب . والإنسان : للجنس . والخسر : الخسران ، كما قيل : الكفر في الكفران . والمعنى : أن الناس في خسران من تجارتهم إلا الصالحين وحدهم ، لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ، فربحوا وسعدوا ، ومن عداهم تجروا خلاف تجارتهم ، فوقعوا في الخسارة والشقاوة وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره ، وهو

الخير كله : من توحيد اللّه وطاعته ، واتباع كتبه ورسله ، والزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ عن المعاصي وعلى الطاعات ، وعلى ما يبلو اللّه به عباده .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة والعصر غفر اللّه له وكان ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 793 . 794 ﴾

---

(1) . متفق عليه من حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما .

(2) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

(53/830)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ والعَصْرِ ﴾

وهذا قَسَمٌ ، فيه قولان :

أحدهما : أن العصر الدهر ، قاله ابن عباس وزيد بن أسلم .

الثاني : أنه العشي ما بين زوال الشمس وغروبها ، قاله الحسن وقتادة ، ومنه قول الشاعر :

تَرَوَّحْ بنا يا عمرُو قد قصر العَصْرُ . . . وفي الرَّوْحةِ الأُولى الغنيمةُ والأَجْرُ

وخصه بالقسم لأن فيه خواتيم الأعمال .

ويحتمل ثالثاً : أن يريد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم لفضله بتجديد النبوة فيه .

وفيه رابع : أنه أراد صلاة العصر ، وهي الصلاة الوسطى ، لأنها أفضل الصلوات ، قاله مقاتل .

﴿ إنّ الإنسانَ لَفي خُسْر ﴾ يعني بالإنسان جنس الناس .

وفي الخسر أربعة أوجه :

أحدها : لفي هلاك ، قاله السدي .

الثاني : لفي شر ، قاله زيد بن أسلم .

الثالث : لفي نقص ، قاله ابن شجرة .

الرابع : لفي عقوبة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وكان عاقبة أمْرِها خُسْراً ﴾ وكان عليّ رضي الله عنه يقرؤها : والعصر ونوائب الدهر إنّ الإنسان لفي خُسْرٍ وإنه فيه إلى آخر الدهر .

﴿ إلا الذين آمنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ وتَواصَوْا بالحَقِّ ﴾ في الحق ثلاثة تأويلات :

أحدها : أنه التوحيد ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : أنه القرآن ، قاله قتادة .

الثالث : أنه الله ، قاله السدي .

ويحتمل رابعاً : أن يوصي مُخَلَّفيه عند حضور المنية ألا يمُوتنّ إلا وهم مسلمون .

﴿ وتَوَاصوا بالصَّبْرِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : على طاعة الله ، قاله قتادة .

الثاني : على ما افترض الله ، قاله هشام بن حسان .

ويحتمل تأويلاً ثالثاً : بالصبر عن المحارم واتباع الشهوات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 333.334 ﴾

(54/830)

وقال ابن عطية :

﴿ وَالْعَصْرِ (1) ﴾

قال ابن عباس : ﴿ العصر ﴾ : الدهر ، يقال فيه عصر وعصر بضم العين والصاد ، وقال امرؤ القيس :

وهل يعمن من كان في العصر الخالي . . . وقال قتادة : ﴿ العصر ﴾ العشي ، وقال ابي بن كعب : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن العصر فقال : " أقسم ربكم بآخر النهار " ، وقال بعض العلماء : وذكره أبو علي ﴿ العصر ﴾ : اليوم ، ﴿ والعصر ﴾ الليلة ومنه قول حميد : [الطويل]

ولن يلبث العصران يوم وليلة . . . إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

وقال بعض العلماء : ﴿ العصر ﴾ : بكرة والعصر : عشية وهما الأبردان ، وقال مقاتل : ﴿ العصر ﴾ هي الصلاة الوسطى أقسم بها ، و﴿ الإنسان ﴾ اسم الجنس ، و" الخسر " : النقصان وسوء الحال ، وذلك بين غاية البيان في الكافر لأنه خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، وأما المؤمن وإن كان في خسر دنياه في هرمه وما يقاسيه من شقاء هذه الدار فذلك معفو عنه في جنب فلاحه في الآخرة وربحه الذي لا يفنى ، ومن كان في مدة عمره في التواصي بالحق والصبر والعمل بحسب الوصاة فلا خسر معه ، وقد جمع له الخير كله ، وقرأ علي بن أبي طالب : " والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان " ، وفي مصحف عبد الله : " والعصر لقد خلقنا الإنسان في خسر " ، وروي عن علي بن أبي طالب أنه قرأ " إن الإنسان لفي خسر وإنه فيه إلى آخر الدهر إلا الذين " ، وقرأ عاصم والأعرج : " لفي خسُر " بضم السين ، وقرأ سلام أبو المنذر : " والعصِر " بكسر الصاد " وبالصبرِ " بكسر الباء ، وهذا لا يجوز إلا في الوقف على نقل الحركة ، وروي عن أبي عمرو : " بالصبِر " بكسر الباء إشماماً ، وهذا أيضاً لا يكون إلا في الوقف . نجز تفسير سورة ﴿ العصر ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى ﴿ والعصر ﴾

فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الدهر ، قاله ابن عباس ، وزيد بن أسلم ، والفراء ، وابن قتيبة .

وإنما أقسم بالدهر لأن فيه عبرة للناظر من مرور الليل والنهار على تقدير لا ينخرم .

والثاني : أنه العشي ، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها ، قاله الحسن وقتادة .

والثالث : صلاة العصر ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ قال الزجاج : هو جواب القسم .

والإنسان هاهنا بمعنى الناس ، كما تقول : كثر الدرهم في أيدي الناس ، تريد الدراهم .

والخسر والخسران في معنى واحد .

قال أهل المعاني : الخسر : هلاك رأس المال أو نقصه .

فالإنسان إذا لم يستعمل نفسه فيما يوجب له الربح الدائم ، فهو في خسران ، لأنه عمل في إهلاك نفسه ، وهما أكبر رأس ماله ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ أي : صدّقوا الله ورسوله ، وعملوا بالطاعة ﴿ وتَواصَوْا بالحق ﴾ أي : بالتوحيد ، والقرآن ، واتباع الرسول ﴿ وتواصَوْا بالصبر ﴾ على طاعة الله ، والقيام بشريعته .

وقال إبراهيم في تفسير هذه السورة : إن الإنسان إذا عُمِّر في الدنيا لفي نقص وضعف ، إلا المؤمنين ، فإنهم يكتب لهم أجور أعمالهم التي كانوا يعملون في شبابهم وصحتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 224 . 225 ﴾

(56/830)

وقال القرطبى :

﴿ وَالْعَصْرِ (1) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ والعصر ﴾ أي الدهر ؛ قاله ابن عباس وغيره .

فالعصر مِثل الدهر ؛ ومنه قول الشاعر :

سَبيلُ الهوَى وَعْرٌ وبحرُ الهوَى غَمْرُ . . .

وَيَوْمُ الهوَى شَهْرٌ وشهْرُ الهوَى دَهْرُ

أيّ عصرٍ أقسم الله به عز وجلّ ؛ لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدّلها ، وما فيها من الدلالة على الصانع .

وقيل : العصر : الليل والنهار .

قال حُميد بن ثور :

ولَنْ يَلْبَثَ العَصْرانِ : يَوْمٌ ولَيلةٌ . . .

إذا طَلبا أَنْ يُدرِكا ما تَيَمَّمَا

والعصران أيضاً : الغداة والعشيّ .

قال :

وأَمْطُلُه العَصْرين حتى يَمَلّني . . .

ويرضى بِنصفِ الدَّينِ والأَنْفُ راغِمُ

يقول : إذا جاءني أوّل النهار وعدته آخره .

وقيل : إنه العشيّ ، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها ؛ قاله الحسن وقتادة .

ومنه قول الشاعر :

تَرَوَّحْ بنا يا عمرُو قَدْ قَصُرَ العَصْرُ . . .

وفي الرَّوْحةِ الأُولى الغنيمة والأَجْرُ

وعن قتادة أيضاً : هو آخر ساعة من ساعات النهار .

وقيل : هو قَسَم بصلاة العصر ، وهي الوسطى ؛ لأنها أفضل الصلوات ؛ قاله مقاتل .

يقال : أُذِّن للعصر ؛ أي لصلاة العصر .

وصُلِّيت العصر ؛ أي صلاة العصر .

وفي الخبر الصحيح : " الصلاةُ الوسْطَى : صلاة العصر " وقد مضى في سورة "البقرة" بيانه .

وقيل : هو قسم بعصر النبيّ صلى الله عليه وسلم ، لفضله بتجديد النبوّة فيه .

وقيل : معناه ورب العصر .

الثانية : قال مالك : من حلَف ألاّ يكلم رجلاً عَصْراً : لم يكلمه سنة .

قال ابن العربيّ : "إنما حمل مالك يمينَ الحالف ألا يكلم امرأ عصراً على السنة ؛ لأنه أكثر ما قيل فيه ، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الأيمان .

وقال الشافعيّ : يَبَرُّ بساعة ، إلا أن تكون له نية ، وبه أقول ؛ إلا أن يكون الحالف عربياً ، فيقال له : ما أردت ؟ فإذا فسره بما يحتمله قُبِل منه ، إلا أن يكون الأقل ، ويجيء على مذهب مالك أن يحمل على ما يفسر .

والله أعلم" .

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2)

هذا جواب القسم .

والمراد به الكافر ؛ قاله ابن عباس في رواية أبي صالح .

وروى الضحاك عنه قال : يريد جماعة من المشركين : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العُزَّي ، والأسود بن عبد يغوث .

وقيل : يعني بالإنسان جنس الناس .

﴿ لَفِى خُسْرٍ ﴾ : لفي غَبْن .

وقال الأخفش : هَلَكَةٍ .

الفرّاء : عقوبة ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ [الطلاق : 9] .

ابن زيد : لفي شر .

وقيل : لفي نقص ؛ المعنى متقارب .

وروي عن سلام "والعصِر" بكسر الصاد .

وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى الثقفِيّ "خُسُرٍ" بضم السين .

وروى ذلك هارون عن أبي بكر عن عاصم .

والوجه فيهما الاتباع .

ويقال : خُسْر وخُسُر ؛ مثل عُسْر وعُسُر .

وكان عليّ يقرؤها "والْعَصْرِ ونَوائِب الدَّهْر ، إنّ الإنسان لفي خُسْر .

وإنه فيه إلى آخر الدهر" .

وقال إبراهيم : إن الإنسان إذا عُمّرَ في الدنيا وهَرِم ، لفي نقص وضعف وتراجع ؛ إلا المؤمنين ، فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم ؛ نظيره قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ [التين : 54] .

قال : وقراءتنا "والعصْرِ إنّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ ، وإنَّهُ في آخر الدهر" .

والصحيح ما عليه الأمة والمصاحف .

وقد مضى الردّ في مقدّمة الكتاب على من خالف مصحف عثمان ، وأن ذلك ليس بقرآن يتلى ؛ فتأمّله هناك .

قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ ﴾ استثناء من الإنسان ؛ إذ هو بمعنى الناس على الصحيح .

(58/830)

قوله تعالى : ﴿ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي أدّوا الفرائض المفترضة عليهم ؛ وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال أبيّ بن كعب : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم "والعصر" ثم قلت : ما تفسيرها يا نبي الله ؟ قال : " "والعَصْرِ" قَسَم من الله ، أقسم ربكم بآخر النهار : ﴿ إِنَّ

الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ : أبو جهل ﴿ إِلَّا الذين آمَنُوا ﴾ : أبو بكر ، ﴿ وَعَمِلُوا الصالحات ﴾ عمر .

﴿ وَتَوَاصَوْا بالحق ﴾ عثمان ﴿ وَتَوَاصَوْا بالصبر ﴾ عليّ " رضي الله عنهم أجمعين .

وهكذا خطب ابن عباس على المنبر موقوفاً عليه .

ومعنى ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ أي تحابُّوا ؛ أوصى بعضهم بعضاً ، وحث بعضهم بعضاً .

﴿ بالحق ﴾ أي بالتوحيد ؛ كذا روى الضحاك عن ابن عباس .

قال قتادة : "بِالحقّ" أي بالقرآن .

وقال السدّي ؛ الحق هنا هو الله عز وجل .

﴿ وَتَوَاصَوْا بالصبر ﴾ على طاعة الله عز وجل ، والصبر عن معاصيه .

وقد تقدم .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(59/830)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ والعصر ﴾

قال ابن عباس : هو الدّهر قيل أقسم الله به لما فيها من العبر ، والعجائب للنّاظر وقد ورد في الحديث " لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر " وذلك لأنهم كانوا يضيفون النّوائب والنّوازل إلى الدهر ، فأقسم به تنبيهاً على شرفه وأن الله هو المؤثر فيه فما حصل فيه من النّوائب والنّوازل كان بقضاء الله وقدره ، وقيل تقديره ورب العصر ، وقيل أراد بالعصر اللّيل والنّهار لأنهما يقال لهما العصران ، فنبه على شرف الليل والنهار لأنهما خزانتان لأعمال العباد ، وقيل أراد بالعصر آخر طرفي النهار أقسم بالعشى كما أقسم بالضّحى ، وقيل أراد صلاة العصر أقسم بها لشرفها ولأنها الصّلاة الوسطى في قول بدليل قوله تعالى : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ لما قيل هي صلاة العصر والذي في مصحف عائشة وحفصة والصّلاة الوسطى صلاة العصر وفي الصحيحين " شغلونا عن الصّلاة الوسطى صلاة العصر " وقال (صلى الله عليه وسلم) " من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله " ، وقيل أراد بالعصر زمن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أقسم بزمانه كما أقسم بمكانه في قوله ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ﴾ نبه بذلك على أنه زمانه أفضل الأزمان وأشرفها ، وجواب القسم قوله تعالى : ﴿ إن الإنسان لفي

خسر ﴾ أي لفي خسران ونقصان قيل أراد بالإنسان جنس الإنسان بدليل قولهم كثر الدرهم في أيدي الناس أي الدرهم وذلك لأن الإنسان لا ينفك عن خسران ، لأن الخسران هو تضييع عمره وذلك لأن كل ساعة تمر من عمر الإنسان إما أن تكون تلك السّاعة في طاعة أو معصية ، فإن كانت في معصية فهو الخسران المبين الظاهر وإن كانت في طاعة ، فلعل غيرها أفضل وهو قادر على الإتيان بها فكان فعل غير الأفضل تضييعاً وخسراناً ، فبان بذلك أنه لا ينفك أحد من خسران ، وقيل إن سعادة الإنسان في طلب الآخرة وحبها والإعراض عن الدّنيا ثم إن الأسباب الداعية إلى حب الآخرة خفية ، والأسباب الدّاعية

(61/830)

إلى حب الدّنيا ظاهرة ، فلهذا السبب كان أكثر الناس مشتغلين بحب الدّنيا مستغرقين في طلبها ، فكانوا في خسار وبوار قد أهلكوا أنفسهم بتضييع أعمارهم ، وقيل أراد بالإنسان الكافر بدليل أنه استثنى المؤمنين فقال تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات ﴾ يعني فإنهم ليسوا في خسر ، والمعنى أن كل ما مر من عمر الإنسان في طاعة الله تعالى فهو في صلاح وخير وما كان بضده فهو في خسر وفساد وهلاك .

﴿ وتواصوا ﴾ أي أوصى بعض المؤمنين بعضاً ﴿ بالحق ﴾ يعني بالقرآن والعمل بما فيه ،

وقيل بالإيمان والتّوحيد ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ أي على أداء الفرائض وإقامة أمر الله وحدوده ، وقيل أراد أن الإنسان إذا عمر في الدّنيا وهرم لفي نقص وتراجع إلا الذين آمنوا ، وعملوا الصّالحات فإنهم تكتب أجورهم ومحاسن أعمالهم التي كانوا يعملونها في شبابهم وصحتهم وهي مثل قوله ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 287 . 288 ﴾

(62/830)

وقال النسفى :

سورة العصر

مختلف فيها وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ والعصر ﴾

أقسم بصلاة العصر لفضلها بدليل قوله تعالى : ﴿ والصلاوة الوسطى ﴾ [البقرة : 238] صلاة العصر في مصحف حفصة ، ولأن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في

تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم ، أو أقسم بالعشي كما أقسم بالضحى لما فيها من دلائل القدرة ، أو أقسم بالزمان لما في مروره من أصناف العجائب ، وجواب القسم ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ أي جنس الإنسان لفي خسران من تجاراتهم ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا فربحوا وسعدوا ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ بالأمر الثابت الذي لا يسوغ إنكاره وهو الخير كله من توحيد الله وطاعته واتباع كتبه ورسله ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات وعلى ما يبلو به الله عباده ، ﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ في الموضعين فعل ماضٍ معطوف على ماض قبله والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 375 ﴾

(63/830)

وقال ابن جزى :

سورة العصر

﴿ والعصر ﴾

فيه ثلاثة أقوال : الأول أنه صلاة العصر أقسم الله بها لفضلها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله "

الثاني أنه العشيّ أقسم به كما أقسم بالضحى ، ويؤيد هذا قول أبيّ بن كعب : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العصر فقال : أقسم ربك بآخر النهار . الثالث أنه الزمان ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ الإنسان جنس ، ولذلك استثنى منه الذين آمنوا فهو استثناء متصل ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ أي وصى بعضهم بعضاً بالحق وبالصبر ، فالحق هو الإسلام وما يتضمنه ، وفيه إشارة إلى كذب الكفار ، وفي الصبر إشارة إلى صبر المؤمنين على إذاية الكفار لهم بمكة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 216.217 ﴾

(64/830)

وقال البيضاوى :

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ والعصر ﴾

أقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها ، أو بعصر النبوة أو بالدهر لاشتماله على الأعاجيب والتعريض بنفي ما يضاف إليه من الخسران .

﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ إن الناس لفي خسران في مساعيهم وصرف أعمارهم في

مطالبهم، والتعريف للجنس والتنكير للتعظيم.

﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة السرمدية. ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ الثابت الذي لا يصح إنكاره من اعتقاد أو عمل. ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ عن المعاصي أو على الحق، أو ما يبلو الله به عباده. وهذا من عطف الخاص على العام للمبالغة إلا أن يخص العمل بما يكون مقصوراً على كماله، ولعله سبحانه وتعالى إنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاء ببيان المقصود، وإشعاراً بأن ما عدا إما عد يؤدي إلى خسر ونقص حظ، أو تكرماً فإن الإبهام في جانب الخسر كرم.

عن النبي صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة والعصر غفر الله له وكان ممن تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر". (1) انتهى انتهى. اهـ ﴿تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 526. 527﴾

---

(1) حديث موضوع.

وقال أبو حيان :

سورة العصر

﴿ والعصر ﴾

قال ابن عباس : هو الدهر ، يقال فيه عصر وعصر وعصر ؛ أقسم به تعالى لما في مروره من أصناف العجائب .

وقال قتادة : العصر : العشي ، أقسم به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة .

وقيل : العصر : اليوم والليلة ، ومنه قول حميد بن ثور :

ولن يلبث العصران يوم وليلة . . .

إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

وقيل : العصر بكرة ، والعصر عشية ، وهما الأبردان ، فعلى هذا والقول قبله يكون القسم بواحد منهما غير معين .

وقال مقاتل : العصر : الصلاة الوسطى ، أقسم بها .

وبهذا القول بدأ الزمخشري قال : لفضلها بدليل قوله تعالى ﴿ والصلاة الوسطى ﴾ صلاة العصر ، في مصحف حفصة ، وقوله (صلى الله عليه وسلم) : " من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله " ، لأن التنكيف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم وتحاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم ، انتهى .

وقرأ سلام: والعصر بكسر الصاد، والصبر بكسر الباء.

قال ابن عطية: وهذا لا يجوز إلا في الوقف على نقل الحركة.

وروي عن أبي عمرو: بالصبر بكسر الباء إشماماً، وهذا أيضاً لا يكون إلا في الوقف، انتهى.

وفي الكامل للهزلي: والعصر، والصبر، والفجر، والوتر، بكسر ما قبل الساكن في هذه كلها هارون وابن موسى عن أبي عمرو؛ والباقون: بالإسكان كالجماعة، انتهى.

وقال ابن خالويه: ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾، بنقل الحركة عن أبي عمرو.

وقال صاحب اللوامح عيسى: البصرة بالصبر، بنقل حركة الهاء إلى الياء لئلا يحتاج أن يأتي ببعض الحركة في الوقف، ولا إلى أن يسكن فيجمع بين ساكنين، وذلك لغة شائعة، وليست شاذة بل مستفيضة، وذلك دلالة على الإعراب، وانفصال عن التقاء الساكنين، ومادته حق الموقوف عليه من السكون، انتهى.

وقد أنشدنا في الدلالة على هذا في شرح التسهيل عدّة أبيات، كقول الراجز:

أنا جرير كنيتي أبو عمر . . .

أضرب بالسيف وسعد في العصر

يريد: أبو عمر.

والعصر والإنسان اسم جنس يعم ، ولذلك صح الاستثناء منه ، والخسر : الخسران ، كالكفر والكفران ، وأي خسران أعظم ممن خسر الدنيا والآخرة ؟ وقرأ ابن هرمز وزيد بن عليّ وهارون عن أبي بكر عن عاصم : خسر بضم السين ، والجمهور بالسكون .

ومن باع آخرته بدنياه فهو في غاية الخسران ، بخلاف المؤمن ، فإنه اشترى الآخرة بالدنيا ، فربح وسعد .

﴿ وتواصوا بالحق ﴾ : أي بالأمر الثابت من الذين عملوا به وتواصوا به ، ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ في طاعة الله تعالى ، وعن المعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(67/830)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ وَالْعَصْرِ (1) ﴾

والأكثرون على أن اللام للجنس ، ثم إن كان المراد بالخسر أي الخسران كالكفر والكفران هو الهلاك كان المراد جنس الإنسان على الإطلاق ، وإن كان المعنى بالخسر الضلال

والكفر كان المراد جنس الكافر هكذا قال بعضهم ، ولقائل أن يمنع لفرق ، ولا يخفى ما في " إن " ولام التأكيد وكلمة " في " وتنكير خسر من المبالغات فكأنه أثبت له جهات الخسر كلها والأعظم حرمانه عن جناب ربه . قال بعضهم : إن الإنسان لا ينفك من خسر لأن عمره رأس ماله ، فإفناء العمر فيما يمكن أن يكون خيراً منه عبارة عن الخسران . ووجهه أنه إن أفنى عمره في المعصية فخسره وحسرته ظاهران ، وإن كان مشغولاً بالمباحات فكذلك لأنه يمكنه أن يعمل فيه عملاً يبقى أثره ولذته دائماً ، وإن كان مشغولاً بالطاعات فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها على وجه أحسن لأن مراتب الخضوع والعبادة غير متناهية كما أن جلال الله وجماله ليس لهما نهاية . والتحقيق فيه أن الإنسان لا يكلف إلا ما هو وسعه وطوقه لا بالنسبة إلى نوعه بل بالنسبة إلى شخصه ، فإذا اجتنب المعاصي بقدر الإمكان واستعمل المباح بمقدار الضرورة والحاجة وأتى بالطاعة على حسب إمكانه لم يسم خاسراً ولكنه يكون أكمل الأشخاص البشرية فلهذا استثناه الله تعالى بقوله ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ إلى آخره . وعن بعضهم أنه قال في " التين " ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [التين : 4] فابتدأ من الكمال النقصان وقال ههنا ﴿ لفي خسر إلا الذين آمنوا ﴾ فعكس القضية لأن ذلك مذكور في أحوال البدن وهذا مذكور في أحوال النفس . قلت : يمكن أن يقال : إن كلتا الآيتين في شأن النفس إلا أنه أراد في " التين " ذكر استعداده الفطري وهو كرأس المال ، وههنا أراد حكاية معاملته بعدما أعطى رأس

المال . ولا ريب أن أكثرهم منهمكون في طلب اللذات العاجلة المضيعة للاستعداد الأصلي إلا الموفقين الموصوفين بالكمال والإكمال ، وفي إجمال الخسر وتسريحه إلى

بقعة الإبهام ، ثم في تفصيل الربح بأنه منوط بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق وبالصبر دليل على غاية الستر والكرم وأن رحمته سبقت غضبه ، وفي لفظ التواصي دون الدعاء أو النصيحة تأكيد بليغ كأنه أمر مهتم به كالوصية ، وفيه أنهم من الذين ماتوا بالإرادة عن الشهوات الفانية فيكون أمرهم ونصيحتهم بمنزلة قول من أشرف على الوفاة ، والحق خلاف الباطل ، ويشتمل جميع الخيرات وما يحق فعله . وقوله ﴿ والصبر ﴾ يشتمل على جميع المناهي فهم بالحقيقة آمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، وفي لفظ المضي إشارة إلى تحقيق وقوعه منهم والله أعلم وبالله التوفيق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 560.558﴾

وقال الخطيب الشربينى :

سورة العصر

مكية وروي عن ابن عباس وعبادة أنها مدنية ، وهي ثلاث آيات وأربع عشرة كلمة وثمانية وستون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي كل شيء هالك إلا وجهه ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ الوجود بإنعامه فليس شيء شبهه ﴿ الرحيم ﴾ الذي أعز أولياءه فكانوا للدّهر غرّة ولأهله جبهه .

وقوله تعالى : ﴿ والعصر ﴾ قسم ، واختلف في المراد به . فقال ابن عباس : والدهر أقسم به لأنّ فيه عبرة للناظر بتصرّف الأحوال وتبدلها وما فيها من الدلالة على الصانع ، وقيل : معناه ورب العصر ومرّ الكلام في أمثاله وقال ابن كيسان أراد بالعصر الليل والنهار ، يقال لهما العصران وقال الحسن : بعد زوال الشمس إلى غروبها وقال قتادة : آخر ساعة من ساعات النهار وقال مقاتل : أقسم بصلاة العصر وهي الصلاة الوسطى ، وهذا أشبه قال صلى الله عليه وسلم "من فاتته الصلاة الوسطى فكأنما وتر أهله وماله" ولأنّ التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بعشائهم .

ونقل ابن عادل عن مالك أنّ من حلف أن لا يكلم الرجل عصراً لم يكلمه سنة . قال ابن العربيّ : إنما حمل مالك يمين الحالف على السنة لأنه أكثر ما قيل : فيه . ونقل عن الشافعي يبرّ بساعة إلا أن تكون له نية . وجواب القسم .

﴿ إن الإنسان ﴾ أي : الجنس ﴿ لفي خسر ﴾ أي : نقص بحسب مساعيهم في أهوائهم وصرف أعمارهم في إغراضهم لما لهم بالطبع من الميل إلى الحاضر ، والإعراض عن الغائب ، والإغترار بالفاني .

تنبيه : تنكير خسر يحتمل التهويل والتحقير ، فإن حمل على الأوّل وهو الظاهر كان المعنى : أنّ الإنسان لفي خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله تعالى ، لأنّ الذنب يعظم أمّا لعظم من في حقه الذنب ، أو لأنه وقع في مقابلة النعم العظيمة ، فلذلك كان الذنب في غاية العظم . وإن حمل على الثاني كان المعنى : إن خسران الإنسان دون خسران الشيطان

ولما كان الحكم على الجنس حكماً على الكلّ لأنهم ليس لهم من ذواتهم إلا ذلك ، وكان فيهم من خلصه الله تعالى مما طبع عليه الإنسان وحفظه عن الميل استثناهم بقوله عز من قائل :

﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ أي : أوجدوا الإيمان وهو التصديق بما علم بالضرورة مجيء النبيّ صلى الله عليه وسلم به من توحيده سبحانه ، والتصديق بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . ﴿ وعملوا ﴾ أي : تصديقاً لما أقرّوا به من الإيمان ﴿ الصالحات ﴾ أي : هذا

الجنس من إيقاع الأوامر واجتناب النواهي ، واشتروا الآخرة بالدنيا فلم يلههم التكاثر ففازوا بالحياة الأبدية والسعادة السرمدية ، فلم يلحقهم شيء من الخسران .

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح : المراد بالإنسان الكافر ، وقال في رواية الضحاك : يريد به جماعة من المشركين الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب .

وقيل : لفي خسر غبن وقال الأخفش لفي هلكة وقال الفراء : لفي عقوبة . وقال ابن زيد : لفي شرّ . وروى ابن عوف عن إبراهيم قال : أراد أن الإنسان إذا عمر في الدنيا وأهرم لفي ضعف ونقص وتراجع إلا المؤمنين فإنه يكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا ﴾ (التين : ـ)

ولما كان الإنسان بعد كماله في نفسه بالأعمال لا ينتفي عنه مطلق الخسر إلا بتكميل غيره ، وحينئذ كان وارثاً لأنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعثوا للتكميل . قال تعالى مخصصاً لما دخل في الأعمال الصالحة منبهاً على عظمه : ﴿ وتواصوا ﴾ أي : أوصى بعضهم بعضاً بلسان الحال والمقال ﴿ بالحق ﴾ أي : الأمر الثابت وهو كل ما حكم الشرع بصحته ولا يسوغ إنكاره ، وهو الخير كله من توحيد الله تعالى وطاعته ، واتباع كتبه ورسله ، والزهد في الدنيا ، والرغبة في الآخرة ﴿ وتواصوا ﴾ أيضاً ﴿ بالصبر ﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات ، وعلى ما يبتلي الله به عباده من الأمراض وغيرها .

(71/830)

ويروى عن أبيّ بن كعب أنه قال : قرأت على النبي صلى الله عليه وسلم والعصر ، ثم قلت : ما تفسيرها يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم "والعصر قسم من الله أقسم ربكم بآخر النهار أنّ الإنسان لفي خسر أبو جهل إلا الذين آمنوا أبو بكر ، وعملوا الصالحات عمر وتواصوا بالحق عثمان ، وتواصوا بالصبر عليّ" . وهكذا خطب ابن عباس على المنبر موقوفاً عليه . وقال قتادة : بالحق ، أي : بالقرآن . وقال السدّي : الحق هنا الله عز وجل . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة والعصر غفر الله له ، وكان ممن تواصى بالحق وتواصى بالصبر" . حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ

﴿السراج المنير حـ 8 صـ 421.423﴾

(72/830)

وقال أبو السعود :

﴿ والعصر ﴾

أقسمَ سبحانَهُ بصلاةِ العصرِ لفضلِها الباهرِ أوْ بالعَشيِ الذَّي هُوَ ما بينَ الزوالِ والغروبِ كما أقسمَ بالضُّحى أو بعصرِ النبوةِ لظهورِ فضلِه عَلى سائرِ الأعصارِ أو بالدهرِ لانطوائِه عَلى تعاجيبِ الأمورِ القارةِ والمارةِ ﴿ إِنَّ الإنسانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ أيْ خُسرانٌ في متاجرِهم ومساعيهم وصرفِ أعمارِهم في مباغيهم والتعريفُ للجنسِ والتنكيرُ للتعظيمِ ﴿ إلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ فإنهمُ في تجارةٍ لنْ تبورَ حيثُ باعُوا الفانيَ الخسيسَ واشتَروا الباقيَ النفيسَ واستبدلُوا الباقياتِ الصالحاتِ بالعادياتِ الرائحاتِ فيا لَهَا منْ صفقةٍ ما أربَحها وهَذا بيانٌ لتكميلِهم لأنفسِهم وقولُه تعالَى : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ الخ بيانُ لتكميلِهم لغيرِهم أيْ وَصَّى بعضُهم بعضاً بالأمرِ الثابتِ الذي لا سبيلَ إلى إنكارِه ولا زوالَ في الدارينِ لمحاسنِ آثارِه وهُو الخيرُ كُلُّه منَ الإيمانِ باللهِ عزَّ وجلَّ واتباعِ كتبِه ورسلِه في كُلِّ عقدٍ وعملٍ ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ أيْ عنِ المعاصِي التي تشتاقُ إليها النفسُ بحكمِ الجِبلّةِ البشريةِ وعَلى الطاعاتِ التي يشقُّ عليهَا أداؤُها أوْ عَلى ما يبلُو اللهُ عزَّ وجلَّ بهِ عبادَهُ وتخصيص هَذا التواصِي بالذكرِ مع اندراجِه تحتَ التواصِي بالحقّ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بِهِ أو لأنَّ الأولَ عبارةٌ عن رتبةِ العبادةِ التي هي فعلُ ما يَرضى بهِ اللهُ تعالَى والثاني عن رتبةِ العبوديةِ التي هي الرّضا بما فعلَ اللهُ تعالَى فإنَّ المرادَ بالصبرِ ليسَ مجردَ حبسِ النفسِ عما تتشوقُ إليهِ من فعلٍ وتركٍ بلْ هُو تلقي ما وردَ منْه تعالَى بالجميلِ والرِّضا بهِ ظاهراً وباطناً .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

وقال الجاوى :

سورة والعصر

مكية ، ثلاث آيات ، أربع عشرة كلمة ، ثمانية وستون حرفا

وَالْعَصْرِ (1) أي الدهر أقسم اللّه به لأنه مشتمل على الأعاجيب لأنه يحصل فيه السراء ، والضراء ، والصحة ، والسقم ، والغنى ، والفقر ، بل فيه ما هو أعجب من كل عجيب ، أو هو

العشي أقسم تعالى بالعصر كما أقسم بالضحى ، فإن كل عشية تشبه تخريب الدنيا بالموت وكل بكرة تشبه القيامة يخرجون من القبور وتصير الأموات أحياء ، وقال الحسن : إنما أقسم اللّه بهذا الوقت تنبيها على أن الأسواق قد دنا وقت انتهائها ، وقرب وقت انتهاء التجارة فيها ، أو هو صلاة العصر أقسم اللّه بها لفضلها .

روي أن امرأة كانت تصيح في سكك المدينة وتقول : دلوني على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فرآها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فسألها ماذا حدث فيك قالت : يا رسول اللّه إن زوجي غاب عني فزنيت فجاءني ولد من الزنا ، فألقيت الولد في دن من الخل حتى مات ، ثم بعنا ذلك الخل فهل لي من توبة ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم :

«أما الزنا فعليك الرجم ، وأما قتل الولد فجزاؤه جهنم ، وأما بيع الخل فقد ارتكبت كبيرا ، لكن ظننت أنك تركت صلاة العصر»

ففي هذا الحديث إشارة إلى تفخيم أمر هذه الصلاة .

إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (2) أي لفي غبن في مساعيهم وصرف أعمارهم في مباغيهم أو في نقصان عمله بعد الهرم والموت إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فإنهم في تجارة لن تبور حيث استبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات ، وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ أي تحاثوا بكل ما حكم الشرع بصحته من علم وعمل وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ (3) أي تحاثوا بالصبر على أداء فرائض اللّه واجتناب معاصيه وعلى المرازي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مراح لبيد حـ 2 ص 661.660 ﴾

وقال النخجواني :

[سورة العصر]

فاتحة سورة العصر

لا يخفى على من انكشف له وحدة الحق واستقلاله في الوجود وسريانه في جميع الموجودات والمشهودات الظاهرة في صفحات الكائنات من عكوس أسمائه وصفاته الغير المحصورة ان ما سوى هذه الملاحظات والمشاهدات المتعلقة بكيفية شئون الحق وتطوراته المترتبة على أسمائه الحسنى وصفاته العليا انما هو خسران مبين ونقصان عظيم إذ الفطرة الانسانية انما جبلت لأجلها فمن لم يتصف بها فقد خسر خسرانا مبينا لذلك نبه سبحانه في هذه السورة على خسران الإنسان وحرمانه عن طريق العرفان ما لم يتصف بالإيمان والأعمال الصالحات والطاعات فقال سبحانه مقسما بعد ما تيمن بِسْمِ اللَّهِ الذي خلق الإنسان على صورته ليتخلق بأخلاقه الرَّحْمنِ عليه حيث أظهره من كتم العدم ورباه بأنواع اللطف والكرم الرَّحِيمِ عليه يهديه إلى صراط مستقيم موصل إلى توحيده

[الآيات]

وَالْعَصْرِ اقسم سبحانه بالعصر والدهر الذي هو عبارة عن بقاء الوجود الأزلي الأبدي دوامه السرمدي المنبسط الممتد من أزل الذات إلى ابد الأسماء والصفات ألا وهو حبل الله

الممدود والعروة الوثقى التي لا انفصام لها في عين الشهود

إِنَّ الْإِنْسانَ المجبول على فطرة المعرفة والايمان حسب حصته اللاهوتية لَفِي خُسْرٍ عظيم وخيبة بينة بسبب اشتغاله بما لا يعنيه من لوازم بشريته المتعلقة بحصة ناسوته

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا بوحدة الحق وتفطنوا لاستقلاله سبحانه في التصرفات الجارية في ملكه وملكوته وَهم مع الايمان والإذعان قد عَمِلُوا الصَّالِحاتِ الدالة على إخلاصهم ويقينهم في ايمانهم ونياتهم وَذلك قد تَواصَوْا بِالْحَقِّ أى اوصى بعضهم بعضا بسلوك طريق الحق وتوحيده إرشادا وتنبيها وَتَواصَوْا أيضاً بِالصَّبْرِ على مشاق الطاعات ومتاعب الرياضات الطارئة عليهم من قطع المألوفات الامكانية وترك اللذات والمستلذات البهيمية اللازمة للقوى البشرية. وفقنا الله على قطعها وقلعها بمنه وجوده

خاتمة سورة العصر

عليك أيها المحمدي القاصد لقطع العلائق الامكانية الطالب الجازم لان يخلص عن الوساوس الشيطانية والعوائق النفسانية الموروثة لك من القوى الطبيعية والمدارك الحيوانية والمشاعر البشرية ان تتصبر على عموم البلوى والمعيبات العارضة لك في نشأتك الأولى وتسترجع إلى الله في جميعها وتسندها إليه سبحانه أولا وبالذات بلا رؤية الوسائل في البين والأسباب العادية في العين وتوطن قلبك مع ربك في جميع حالاتك وترضى عن الله في عموم

ما جرى عليك من مقتضيات قضائه وبالجملة كن فانيا في الله تفز بخير الدارين وفلاح النشأتين وصلاح المنزلتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفواتح الإلهية حـ 2 صـ 528 . 529 ﴾

(77/830)

وقال الآلوسى :

﴿ والعصر ﴾

قال مقاتل أقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها لأنها الصلاة الوسطى عند الجمهور لقوله عليه الصلاة والسلام شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ولما في مصحف حفصة والصلاة الوسطى صلاة العصر وفي الحديث " من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله " وروي أن امرأة كانت تصيح في سكك المدينة دلوني على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرآها عليه الصلاة والسلام فسألها ماذا حدث فقال يا رسول الله إن زوجي غاب فزنيت فجاءني ولد من الزنا فألقيت الولد في دن خل فمات ثم بعت ذلك الخل فهل لي من توبة فقال عليه الصلاة والسلام أما الزنا فعليك الرجم بسببه وأما القتل فجزاؤه جهنم وأما بيع الخل فقد ارتكبت كبيراً لكن ظننت أنك تركت صلاة العصر ذكر ذلك الإمام وهو لعمر

إمام في نقل مثل ذلك مما لا يعول عليه عند أئمة الحديث فإياك والاقتداء به وخصت بالفضل لأن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واستغالهم بمعايشهم وقيل أقسم عز وجل بوقت تلك الصلاة لفضيلة صلاته أو لخلق آدم أبي البشر عليه السلام فيه من يوم الجمعة وإلى هذا ذهب قتادة فقد روي عنه أنه قال العصر العشى أقسم سبحانه به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة وقال الزجاج العصر اليوم والعصر الليلة وعلية قول حميد بن ثور

.

ولم يلبث العصران يوم وليلة . . .

إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

(78/830)

وقيل العصر بكرة والعصر عشية وهما إلا براد ان وعليه وعلى ما قبله يكون القسم بواحد من الأمرين غير معين وقيل المراد به عصر النبوة وكأنه عني به وقت حياته عليه الصلاة والسلام فإنه أشرف الأعصار لتشريف النبي صلى الله عليه وسلم وقيل هو زمان حياته صلى الله عليه وسلم وما بعده إلى يوم القيامة ومقداره فيما مضى من الزمان مقدار وقت

العصر من النهار ويؤذن بذلك ما رواه البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول " إنما بقاؤكم فيمن سلف قلبكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس " وشرفه لكونه زمان النبي صلى الله عليه وسلم وأمته التي هي خير أمة أخرجت للناس ولا يضره تأخيره كما لا يضر السنان تأخره عن أطراف مرانه والنور تأخره عن أطراف أغصانه وقال ابن عباس هو الدهر أقسم عز وجل به لاشتماله على أصناف العجائب ولذا قيل له أبو العجب وكأنه تعالى يذكر بالقسم به ما فيه من النعم وأضدادها لتنبيه الإنسان المستعد للخسران والسعادة ويعرض عز وجل لما في الأقسام به من التعظيم بنفي أن يكون له خسران أو دخل فيه كما يزعمه من يضيف الحوادث إليه وفي إضافة الخسران بعد ذلك للإنسان اشعار بأنه صفة له لا للزمان كما قيل

: يعيبون الزمان وليس فيه . . .

معايب غير أهل للزمان

وتعقب بأن استعمال العصر بذلك المعنى غير ظاهر .

﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ أي خسران في متاجرهم ومساعيهم وصرف أعمارهم في مباغيهم التي لا ينتفعون بها في الآخرة بل ربما تضربهم إذا حلوا الساهرة والتعريف للاستغراق بقرينة الاستثناء والتنكير قيل للتعظيم أي في خسر عظيم ويجوز أن يكون

للتنويع أي نوع من الخشر غير ما يعرفه الإنسان.

﴿ إِلَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾

(79/830)

فإنهم في تجارة لن تبور حيث باعوا الفاني الخسيس واشتروا الباقي النفيس واسبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات فيا لها من صفقة ما أربحها ومنفعة جامعة للخير ما أوضحها والمراد بالموصول كل من اتصف بعنوان الصلة لا علي كرم الله تعالى وجهه وسلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه فقط كما يتوهم من اقتصار ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الذكر عليهما بل هما داخلان في ذلك دخولاً أولياً ومثل ذلك اقتصاره في الإنسان الخاسر على أبي جهل وهو ظاهر وهذا بيان لتكميلهم لأنفسهم وقوله تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ الخ بيان لتكميلهم لغيرهم أي وصى بعضاً بعضاً بالأمر الثابت الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا زوال في الدارين لمحاسن آثاره وهو الخير كله من الإيمان بالله عز وجل واتباع كتبه ورسله عليهم السلام في كل عقد وعمل ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ عن المعاصي التي تشتاق إليها النفس بحكم الجبلة البشرية وعلى الطاعات التي يشق عليها أداؤها وعلى ما يبتلى الله تعالى به عباده من المصائب والصبر المذكور داخل في الحق وذكر بعده مع إعادة

الجار والفعل المتعلق هو به لإبراز كمال العناية به ويجوز أن يكون الأول عبارة رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضى الله تعالى والثاني عبارة رتبة العبودية التيهي الرضا بما فعل الله تعالى فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتوق إليه من فعل أو ترك بل هو تلقي ما ورد منه عز وجل بالجميل والرضا به باطناً وظاهراً وقرأ سلام وهرون وابن موسى عن أبي عمرو والعصر بكسر الصاد والصبر بكسر الباء قال ابن عطية وهذا لا يجوز ألا في الوقف على نقل الحركة وروي عن أبي عمرو بالصبر بكسر الباء اشماما وهذا كما قال لا يكون أيضاً إلا في الوقف وقال صاحب اللوامح قرأ عيسى البصرة بالصبر بنقل حركة الراء إلى الباء لئلا يحتاج إلى أن يؤتى ببعض الحركة في الوقف ولا إلى أن يسكن فيجمع بين ساكنين وذلك لغة شائعة وليست بشاذة بل مستفيضة وذلك

(80/830)

دلالة على الإعراب وانفصال من التاء الساكنين وتأدية حق الموقوف عليه من السكون

انتهى ومن هذا كما في البحر قوله

: أنا جرير كنيتي أبو عمرو . . .

اضرب بالسيف وسعد في العصر

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه كان يقرى والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان لفي خسر وانه لفيه إلى آخر الدهر وأخرج عبد بن حميد وابن أبي داود في المصاحف عن ميمون بن مهران أنه قرأ والعصر إن الإنسان لفي خسر وإنه لفيه إلى آخر الدهر إلا الذين آمنوا الخ وذكر انها قراءة ابن مسعود هذا واستدل بعض المعتزلة بما في هذه السورة على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار لأنه لم يستثن فيها عن الخسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات الخ وأجيب عنه بأنهلا دلالة في ذلك على أكثر من كون غير المستثنى في خسر وأما على كونه مخلداً في النار فلا كيف والخسر عام فهو اما بالخلود ان مات كافراً وأما بالدخول في النار ان مات عاصياً ولم يغفروا ما بفوت الدرجات العاليات إن غفر وهو جواب حسن وللشيخ الماتريدي رحمه الله تعالى في التفصي عن ذلك تكلفات مذكورة في التأويلات فلا تغفل وفي السورة من الندب إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وان يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ما لا يخفى. انتهى انتهى. ا هـ ﴿روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

وقال الشوكانى :

﴿ وَالْعَصْرِ (1) ﴾

أقسم سبحانه بالعصر ، وهو الدهر ، لما فيه من العبر من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار ، وتعاقب الظلام والضياء ، فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع عزّ وجلّ ، وعلى توحيده ، ويقال لليل عصر ، وللنهار عصر ، ومنه قول حميد بن ثور :

ولم يلبث العصران يوم وليلة . . . إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

ويقال للغداة والعشيّ : عصران ، ومنه قول الشاعر :

وأمطله العصرين حتى يملني . . . ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

وقال قتادة والحسن : المراد به في الآية العشيّ ، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها ، ومنه قول الشاعر :

يروح بنا عمرو وقد قصر العصر . . . وفي الروحة الأولى الغنيمة والأجر

وروي عن قتادة أيضاً : أنه آخر ساعة من ساعات النهار .

وقال مقاتل : إن المراد به صلاة العصر ، وهي الصلاة الوسطى التي أمر الله سبحانه بالمحافظة عليها .

وقيل : هو قسماً بعصر النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال الزجاج : قال بعضهم : معناه ، ورب العصر .

والأوّل أولى .

﴿ إِنَّ الإِنسانَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ هذا جواب القسم .

الخسر ، والخسران : النقصان ، وذهاب رأس المال ، والمعنى : أن كل إنسان في المتاجر والمساعي وصرف الأعمار في أعمال الدنيا لفي نقص ، وضلال عن الحق حتى يموت .

وقيل : المراد بالإنسان الكافر .

وقيل : جماعة من الكفار : وهم : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، والأوّل أولى لما في لفظ الإنسان من العموم ، ولدلالة الاستثناء عليه .

قال الأخفش : ﴿ فِى خُسْرٍ ﴾ في هلكة .

وقال الفراء : عقوبة .

وقال ابن زيد : لفي شرّ .

قرأ الجمهور : ﴿ والعصر ﴾ بسكون الصاد .

وقرءوا أيضاً : ﴿ خسر ﴾ بضم الخاء ، وسكون السين .

وقرأ يحيى بن سلام : (والعصر) بكسر الصاد .

وقرأ الأعرج ، وطلحة ، وعيسى : (خسر) بضم الخاء والسين ، ورويت هذه القراءة عن عاصم .

﴿ إِلَّا الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ أي : جمعوا بين الإيمان بالله والعمل الصالح ، فإنهم في ربح لا في خسر ؛ لأنهم عملوا للآخرة ، ولم تشغلهم أعمال الدنيا عنها ، والاستثناء متصل ، ومن قال : إن المراد بالإنسان الكافر فقط ، فيكون منقطعاً ، ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة ، ولا وجه لما قيل : من أن المراد الصحابة أو بعضهم ، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان ، والعمل الصالح ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ أي : وصى بعضهم بعضاً بالحق الذي يحق القيام به ، وهو الإيمان بالله ، والتوحيد ، والقيام بما شرعه الله ، واجتناب ما نهى عنه .

قال قتادة : ﴿ بالحق ﴾ ، أي : بالقرآن ، وقيل : بالتوحيد ، والحمل على العموم أولى .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ أي : بالصبر عن معاصي الله سبحانه ، والصبر على فرائضه .

وفي جعل التواصي بالصبر قريناً للتواصي بالحق دليل على عظيم قدره ، وفخامة شرفه ، ومزيد ثواب الصابرين على ما يحق الصبر عليه :

﴿ إِنَّ الله مَعَ الصابرين ﴾ [الأنفال : 46] وأيضاً التواصي بالصبر مما يندرج تحت التواصي بالحق ، فإفراده بالذكر ، وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة الدالة على إنافته على خصال الحق ، ومزيد شرفه عليها ، وارتفاع طبقته عنها .

وقد أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ والعصر ﴾ قال : الدهر .

وأخرج ابن جرير عنه قال: هو ساعة من ساعات النهار.

وأخرج ابن المنذر عنه أيضاً قال: هو ما قبل مغيب الشمس من العشيّ.

وأخرج الفريابي، وأبو عبيد في فضائله، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن الأنباري في المصاحف عن عليّ بن أبي طالب أنه كان يقرأ: (والعصر ونوائب الدهر، إن الإنسان لفي خسر، وإنه فيه إلى آخر الدهر).

وأخرج عبد بن حميد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: (والعصر إن الإنسان لفي خسر، وإنه لفيه إلى آخر الدهر). انتهى انتهى. اهـ ﴿فتح القدير حـ 5 صـ 491.492﴾

(83/830)

وقال القاسمى:

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ﴾

أي: الدهر، أقسم تعالى به لانطوائه على تعاجيب الأمور القارّة والمارّة. ولذا قيل له: أبو العجب. ولأنه يذكر بما فيه من النعم وأضدادها. فينبّه الْإِنْسَان على أنه مستعد

للخسران والسعادة . وللتنويه به والتعظيم من شأنه ، تعريضاً ببراءته مما يضاف إليه من الخسران والذم . كما قيل :

يَعيبون الزمان وليسَ فيه معيب غير أهلٍ للزمان

وجوّز أن يراد بالعصر الوقت المعروف الذي تجب فيه صلاة العصر .

قال الإمام : كان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحادثوا ويتذاكروا في شؤونهم ، وقد يكون في حديثهم ما لا يليق أو ما يؤذي به بعضهم بعضاً . فيتوهم الناس أن الوقت مذموم . فأقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان في نفسه ليس مما يذم ويسب ، كما اعتاد الناس أن يقولوا : زمان مشؤوم ، و : وقت نحس ، و : دهر سوء ، وما يشبه ذلك . بل هو عادّ للحسنات كما هو عادّ للسيئات ، وهو ظرف لشؤون الله الجليلة من خلق ورزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع . فكيف يذم في ذاته ، وإنما قد يُذم ما يقع فيه من الأفاعيل الممقوتة !

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ أي : خسران ، لخسارته رأس ماله الذي هو نور الفطرة والهداية الأصلية ، بإيثار الحياة الدنيا واللذات الفانية والاحتجاب بها وبالدهر ، وإضاعة الباقي في الفاني .

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : بالله وبما أنزل من الحق ، إيماناً مُلك إرادتهم فلا يعملون إلا ما يوافق اعتقاداتهم ، كما قال : ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ قال القاشانيّ : أي : من الفضائل

والخيرات ، أي : اكتسبوها فربحوا زيادة النور الكمالي على النور الاستعدادي الذي هو رأس مالهم .

(84/830)

﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ أي : أوصى بعضهم بعضاً بما أنزل الله في كتابه من أمره ، واجتناب ما نهى عنه من معاصيه ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ أي : على ما يبلوا الله به عباده ، أو على الحق ، فإن الوصول إلى الحق سهل . وأما البقاء عليه والصبر معه بالاستقامة والجهاد لأجله ، فذاك الذي يظهر به مصداق الإيمان وحقيقته .

تنبيهات :

الأول : قال الإمام ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" قال الشافعي رضي الله عنه : لو فكر الناس كلهم في هذه الصورة لكفتهم ، وبيان ذلك أن المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله :

إحداها : معرفة الحق . الثانية : عمله به .

الثالثة : تعليمه من لا يحسنه . الرابعة : صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه .

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة . وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل

أحد في خسر ، إلا الذين آمنوا ، وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به ، فهذه مرتبة . وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه أخرى . وتواصوا بالحق ، وصى به بعضهم بعضا تعليما وإرشادا ، فهذه مرتبة ثالثة . وتواصوا بالصبر ، صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات . فهذه مرتبة رابعة .

وهذا نهاية الكمال . فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه ، مكملاً لغيره . وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية ، فصلاح القوة العلمية بالإيمان . وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات ، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل .

فهذه السورة -على اختصارها- هي من أجمع سورة القرآن للخير بحذافيره . والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه ، شافيا من كل داء ، هاديا إلى كل خير . انتهى

(85/830)

الثاني : قال الرازي : هذه السورة فيها وعيد شديد . وذلك لأنه تعالى حكم بالخسار على جميع الناس ، إلا من كان آتيا بهذه الأشياء الأربعة . وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ؛ فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور . وأنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه ، فكذلك يلزمه في غيره أمور : منها الدعاء إلى

الدين ، والنصيحة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن يحب له ما يحب لنفسه ثم كرر التواصي ليتضمن الأول الدعاء إلى الله ، والثاني الثبات عليه . والأول الأمر بالمعروف ، والثاني النهي عن المنكر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ [لقمان : 147] ، وقال عمر : رحم الله من أهدى إليّ عيوبي .

الثالث : قال الرازي : دلت الآية على أن الحق ثقيل ، وأن المحن تلازمه ؛ فلذلك قرن التواصي بالصبر .

الرابع : تخصص التواصي بالحق والصبر ، من اندراجهما في الأعمال الصالحة ، لإبراز كمال الاعتناء بهما .

(86/830)

قال الإمام : من تلك الأعمال الدعوة إلى الحق والوصية بالصبر ، لكنه أراد تخصيص هذين الأمرين بالذكر ، لأنهما حفاظ كل خير ورأس كل أمر . والحق هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة ، وهو ما أرشد إليه دليل قاطع أو عيان ومشاهدة . فشرط النجاة من الخسران أن يعرف الناس الحق ويلزموه أنفسهم ، ويمكنوه من قلوبهم ، ثم يحمل الناس بعضهم بعضا عليه ، بأن يدعو كلٌّ صاحبه إلى الاعتقاد بالحقائق الثابتة التي لا ينازع فيها

العقل ولا يختلف فيها النقل ، وأن يبعدوا بأنفسهم وبغيرهم عن الأوهام والخيالات التي لا قرار للنفوس عليها ولا دليل يهدي إليها ، ولا يكون ذلك إلا بإعمال الفكر وإجادة النظر في الأكوان ، حتى تستطيع النفس دفع ما يرد عليها من باطل الأوهام ، وهذا إطلاق للعقل من كل قيد ، مع اشتراط التدقيق في النظر ، لا الذهاب مع الطيش والانخداع للعادة والوهم . ومن لم يأخذ نفسه بحمل الناس على الحق الصحيح بعد أن يعرفه فهو من الخاسرين . كم ترى في الآية بالنص الصريح الذي لا يقبل التأويل .

والصبر قوة للنفس على احتمال المشقة في العمل الطيب ، واحتمال المكروه من الحرمان من اللذة ، إن كان في نيلها ما يخالف حقا أو ما لا تأذن به الشريعة الصحيحة التي لا اختلاف فيها . واحتمال الآلام إذا عرضت المصائب بدون جزع ولا خروج في دفعها عن حدود الحق والشرع . فشرط النجاة من الخسران أن تصبر ، وأن توصي غيرك بالصبر ، وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة ، التي هي أم الفضائل بأسرها ، ولا يمكنك حمله على ذلك حتى تكون بنفسك متحلّياً بها ، وإلا دخلت في من يقول ولا يفعل كما يقول ؛ فلم تكن ممن يعمل الصالحات . انتهى .

الخامس : قال الإمام : إنما قال : ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ ، ولم يقل : وأوصوا ؛ ليبين أن النجاة من الخسران إنما تناط بحرص كل من أفراد الأمة على الحق ، ونزوع كل منهم إلى أن يوصي به قومه ومن يهمه أمر الحق ، ليوصي صاحبه بطلبه يهمه أن يرى الحق فيقبله ، فكأن في هذه العبارة الجزلة قد نص على تواصيهم بالحق وقبولهم الوصية به إذا وجهت إليهم .

السادس : قال ابن كثير : ذكر الطبراني من طريق حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن عبيد الله بن حصن ، قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الأخر سورة العصر إلى آخرها . ثم يسلم أحدهما على الآخر . قال الإمام : قد ظن الناس أن ذلك كان للتبرك ، وهو خطأ ؛ وإنما كان ليذكر كل واحد منهما صحابه بما ورد فيها ، خصوصا من التواصي بالحق والتواصي بالصبر ؛ حتى يجتلب منه قبل التفرق ، وصية خير لو كانت عنده .

وقد فسر الإمام رحمه الله هذه السورة بتفسير على حدة لم يسبق إلى نظيره ، فعلى من أراد التوسع في أسرارها ، أن يرجع إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 475.472 ﴾

(88/830)

وقال الشيخ : دروزة :

سورة العصر

احتوت السورة توكيدا حاسما بأن لا فلاح للإنسان إلّا بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر. وأسلوبها يدل على أنها من أوائل السور نزولا مثل الليل والأعلى وغيرهما ، لأنها احتوت مبادئ عامة محكمة من مبادئ الدعوة. وقد ذكرت بعض الروايات «1» أنها مدنية ، غير أن أسلوبها يدل على مكيتها وهو ما عليه الجمهور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة العصر (103) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ (3).

(1) العصر : آخر النهار إلى احمرار الشمس ، ويقال له الأصيل أيضا.

وبعض المفسرين قالوا إن العصر هو الدهر «2» ولكن الجمهور على القول الأول.

(2) تواصوا : أوصى بعضهم بعضا.

السورة على قصرها جاءت بأسلوب حاسم قوي ، لتهتف بالناس أن لا فلاح لهم ولا نجاح ولا صلاح إلّا في الإيمان بالله وحده والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر ، وأن كل من

ينحرف عن هذه السبيل فهو خاسر .

---

(1) انظر تفسير الآلوسي ج 30 ص 227 .

(2) انظر تفسير السورة في تفسير النيسابوري مثلا .

وهي على إيجازها خلاصة هدف الدعوة الإسلامية الموجهة إلى الإنسانية جمعاء ، وهي عرض عام مثل سورة الأعلى والليل . ولذلك نرجح أنها نزلت مثلهما قبل الفصول القرآنية التي فيها حكاية مواقف المكذبين في سورة العلق والقلم والمزمل والمدثر .

ولقد كان المؤمنون الأولون رضي اللّه عنهم يعرفون عظم مدى السورة حتى لقد روي «1» أن الرجلين من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إذا التقيا لم يفترقا إلّا بعد أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ثم يسلم أحدهما على الآخر . ولقد قال الشافعي رحمه اللّه «2» : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم .

ونقول بالمناسبة إن هناك آثارا في فضل صلاة العصر . وقد فسرت الصلاة الوسطى المأمور بالمحافظة عليها بنوع خاص في آية البقرة هذه : حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى [238] بصلاة العصر «3» . والتسمية تنويهية بفضل هذه الصلاة . ومما يروى «4» أن

النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يجلس في مسجده في المدينة لأصحابه بعد هذه الصلاة فيلتفون حوله ويستمعون إلى تعاليمه وعظاته ويراجعه الناس في مشاكلهم ، لأنهم يكونون في هذا الوقت قد فرغوا من مشاغلهم اليومية أو كادوا ، وتكون شدة الحرارة في الصيف قد خفّت . ومن هنا كان الحث على المحافظة عليها كما هو المتبادر ومن هنا تبدو حكمة القسم الرباني بوقتها .

تعليق على تعبير الصَّالِحاتِ

وتعبير الصَّالِحاتِ عام مطلق يتضمن كل نوع من أنواع الخير والبر والمعروف تعبديا كان أم غير تعبدي ، فعبادة اللّه وحده وإسلام النفس إليه ونبذ ما

---

(1) انظر تفسير السورة في تفسير ابن كثير .

(2) المصدر نفسه .

(3) انظر تفسير الآية في تفسير الزمخشري والطبرسي وابن كثير والطبري والمنار .

(4) انظر تفسير آية المائدة التي فيها : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهادَةُ بَيْنِكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ . . . الآية [106] في تفسير الزمخشري والطبرسي والمنار أيضا .

سواء عمل صالح ، والإحسان والبرّ بالمحتاجين والرحمة بالضعفاء عمل صالح ، والجهاد في سبيل اللّه ومكافحة الظلم والظالمين وتضحية النفس والمال في هذا السبيل عمل صالح ، والتزام الحق والعدل والإنصاف والصدق والأمانة عمل صالح ، والتعاون على البرّ والتقوى والأعمال العامة عمل صالح ، والكسب الحلال وقيام المرء بواجباته نحو أسرته وأولاده وأقاربه عمل صالح ، ومعاملة الناس بالحسنى عمل صالح إلخ . . . وهكذا يكون تلقين السورة وما انطوى فيها من هدف الدعوة هو التبشير بكل عمل فيه خير وبرّ ورحمة ومكرمة وفضيلة وإخلاص للّه ، وبكلمة ثانية بكل ما فيه جماع الخير وسعادة الدارين . وأعظم بهما من تلقين وهدف جليلين خالدين ، ومن هنا تبدو قوة القول المأثور عن الشافعي رحمه اللّه .

تعليق على التواصي بالحق والتواصي بالصبر

وتعبير «التواصي» قوي لأنه للمشاركة . فلا يكفي أن يلتزم الإنسان الحق والصبر بنفسه ، بل يجب أن يتضامن الناس فيهما ويوصي بعضهم بعضا بهما .

والتواصي بالحق يستهدف تضامن أفراد المجتمع في الحق وإحقاقه ، بحيث يكون الحق هو القائم الحاكم المؤيد من مجموعهم . والتواصي بالصبر يستهدف تضامن أفراد المجتمع في شد بعضهم أزر بعض في الأحداث الملمة والمصاعب المدلهمة وفي مواقف الحق والخير ، دونما وهن ولا ضعف ولا جزع ولا تراخ .

وإذا لوحظ أن تعبير الحق عام يشمل كل شيء من حقوق اللّه على عباده وحقوق المجتمع على أفراده ، وحقوق المجتمعات على بعضها ، وحقوق الأفراد على بعضهم ومجتمعاتهم ، وحقوق الضعفاء والبؤساء والمحرومين على الأقوياء والقادرين والميسورين بان مدى التلقين القرآني الجليل في التنويه بالتواصي بالحق وجعله لازما للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، واختصاصه بالذكر من الصالحات مع أنه داخل في معناها الشامل ، وما استهدفه هذا التلقين من الارتفاع بالإنسان

والمجتمع الإنساني إلى مرتبة الكمال من حيث الطمأنينة العامة والسلامة الاجتماعية ، وانتفاء أسباب الضغينة والحقد والقطيعة والخصام والبغي والبؤس والقلق التي تجتاح المجتمع حينما تنتشر فيه الفردية وتقوى الأنانية ، ويشتد عدم مبالاة الفرد بغير نفسه ومصلحته وكيانه الخاص لضمان النفع لنفسه من أي سبيل ، أو حينما يتسع المجال فيه لبغي الناس وعدوانهم بعضهم على بعض بدون رادع ، أو حينما تداس فيه حقوق الضعفاء وتفقد فيه رغبة مساعدة المحتاجين ، وتضعف أو تزول فيه عاطفة البرّ والتعاطف الاجتماعية .

وهذا المبدأ بهذه السعة من المبادئ الجليلة التي قررها القرآن مرة بعد مرة وبأساليب متنوعة ، حتى كان من أهم أهداف الدعوة الإسلامية . ووروده في هذه السورة المبكرة وبهذا الأسلوب القوي يدل على أنه من أسس الدعوة الرئيسية ، وإنه لكذلك . وإنه لمن أقوى مرشحات الإسلام للشمول والخلود .

ومثل هذا يقال في صدد الصبر والتواصي به . لأن ذلك الخلق الشخصي الاجتماعي من لوازم الحياة الإنسانية الصالحة وعمدها . ويهدف القرآن إلى تقويته في الأفراد والمجتمع وبثّ روح القوة والطمأنينة فيهم . ووروده في هذه السورة المبكرة وبهذا الأسلوب القوي يدل على اعتباره من أهم الأخلاق التي يجب أن تقوم عليها الشخصية الإنسانية الإسلامية ، وعلى ما له من خطورة وضرورة في حياة الأفراد والمجتمع .

مدى التنويه القرآني بالصبر

ونرى بهذه المناسبة أن نشير إلى ما تكرر كثيرا في القرآن من التنويه بالصبر حتى لقد بلغ عدد المرات التي وردت فيها كلمة الصبر ومشتقاتها في القرآن المكي والمدني ونوّه فيها بخلق الصبر وحثّ عليه وأثنى على من يتخلق به ويلتزمه ووعد بالنجاح والأجر وأمر بالاستعانة به على مواجهة الخطوب والشدائد نحو مائة مرة حيث يدل هذا على مبلغ العناية الربانية بترسيخ هذا الخلق أو هذه الفضيلة التي هي من أجل الفضائل الأخلاقية في المسلمين . من ذلك في القرآن المكي هذه الآيات :

1 - إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ يوسف [90] .

2 - وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (22) الرعد [22] .

3 - وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (41) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) النحل [41 - 42] .

4 - مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (96) النحل [96] .

5 - الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (35) الحج [35] .

6 - قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (10) الزمر [10] .

7 - وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (35)

فصلت [34 - 35] .

8 - وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (43) الشورى [43] .

ومن ذلك في القرآن المدني هذه الآيات :

1 - يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ

مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ

(157) البقرة [153 - 157] .

2 - لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا

وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177) البقرة [177] .

3 – وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146) آل عمران [146] .

4 – يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (200) آل عمران [200] .

وواضح من هذه الآيات ومن الآيات الكثيرة الأخرى التي وردت في سور عديدة ، أن هدفها هو بثّ روح الجلد ورباطة الجأش وضبط النفس والسكينة والتضحية في نفس المسلم مما يضمن له الكرامة والعزة والنجاح ويجنبه الطيش والهلع والجزع والاضطراب والقلق في الأزمات والأخطار .

والصبر بعد يتجسد في أخلاق كثيرة ، فالشجاعة هي الصبر على مكاره الجهاد ومواقف الحق . والعفاف هو الصبر على الشهوات . والحلم هو الصبر على المثيرات .

والكمال هو الصبر على أمانة الأسرار . والزهد هو الصبر على الحرمان . فإذا ما رسخ هذا الخلق في امرئ صار له من القوة المعنوية والشجاعة والجلد ما يمكنه من مواجهة الخطوب دون فزع وجزع وتحمل المشاق والرضاء بالمكروه والحرمان في سبيل الحق والشرف والكرامة والعزوف عن الشهوات والمثابرة على المقاصد النبيلة مهما عسرت

وطال أمدها وغدا محل رضاء اللّه عز وجل والناس واعتمادهم.

ولقد روى الخمسة عن أبي سعيد الخدري حديثا عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم جاء فيه:

(94/830)

«ما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر» «1». حيث ينطوي في الحديث التنويه العظيم بالصبر الذي ينطوي في الآيات القرآنية ويتساوق بذلك التلقين النبوي مع التلقين القرآني في هذا الأمر مثل سائر الأمور.

ولقد يكون في القرآن المكي بل والمدني آيات تحثّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والمسلمين على الصبر على ما كان يقع من أذى الكفار وما كان من هؤلاء من مكابرة وعناد ومناوأة. غير أن المتمعن فيها يجد أنه ليس من تناقض بينها وبين ما قررناه. كما أنه ليس فيها ما يمكن أن يكون حثّا على احتمال الظلم والجور والضيم والذل.

وكثير منها بل جميعها إنما توخت تثبيت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على ما هو عليه من الحق وتهدئتهم إلى الوقت المناسب وحث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على الاستمرار في الدعوة والمهمة التي انتدب لها كما ترى في الأمثلة التالية وهي مكية ومدنية:

1 - وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (109) يونس [109].

2 - وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (126)
وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (127) إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (128) النحل [126 - 128].

3 - فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ (77) غافر [77].

4 - وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) الطور [48].

5 - وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109) البقرة [109].

---

(1) التاج 2 ص 32 - 33.

6 - لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتوا الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (186) آل عمران [186].

مغزى تلازم الإيمان والعمل الصالح في القرآن

وفي تقديم الإيمان على العمل الصالح إشارة إلى انبثاق العمل الصالح من الإيمان. فالإيمان هو الذي يدفع صاحبه إلى الخير ويزعه عن الشر. وفي ربط الإيمان بالعمل الصالح إشارة إلى وجوب تلازمهما واعتبار العمل الصالح عنوانا أو مظهرا للإيمان. وهذا التلازم بين ذكر الإيمان والعمل الصالح يلحظ في جل الآيات القرآنية مما يمكن أن يدل على قصد الإشارة إلى شدة الارتباط واللحمة والتوافق بينهما وتوكيدها. وإذا لوحظ أن الإيمان شيء داخلي أو ذاتي في أعماق النفس لا يمكن أن يدل على نفسه بنفسه، ولا يمكن أن يدل عليه إلا العمل الصالح بأن لنا وجه الحق في ذلك.

والحكمة في هذا ظاهرة قوية، فالإيمان يمنح صاحبه طمأنينة واستقرار نفس يجعلانه يصدر في أعماله وأهدافه عن يقين وقصد وتثبت واندفاع وصبر، ويتحمل في سبيل ذلك ما قد يلاقيه من مصاعب وما تمس الحاجة إليه من تضحيات.

والإيمان بالله يجعل صاحبه يقبل على الخير والعمل الصالح وينقبض عن الشر والإثم والسيئات ابتغاء لوجه الله واتقاء لغضبه واكتسابا لرضائه ورضوانه، دون أن يكون هناك

حافز من منفعة عاجلة أو دون أن يكون ذلك مما لا بد منه على الأقل .

أما العمل الذي لا يصدر عن إيمان فإنه يكون معرضا في الأغلب للانقطاع والتردد والتأثر بالمؤثرات والاعتبارات الشخصية والنفعية والظرفية . وكثيرا ما ينصرف المرء عنه حينما يلقى المصاعب والمشاكل ، أو حينما يتطلب منه التضحيات أو حينما لا يكون من ورائه جلب خير أو دفع شر عاجل . والعمل الصالح من الجهة

الأخرى لا يكون فيه حيوية ويقين وتثبت واستمرار إذا لم يكن منبثقا من إيمان يجعله لازما حيّا قويا بذاته وبصرف النظر عن أي اعتبار ، ويجعل صاحبه لا ينصرف عنه مهما لاقى في سبيله من مصاعب واقتضى منه من تضحية وعناء واستنفد من قوة وجهد .

وإذا أراد قائل أن يقول إن هناك من يفعل الخير لذاته نتيجة للتربية الخلقية الراسخة فليذكر هذا القائل أن هذا النوع من الندرة بحيث لا يمكن أن يورد على ما قررناه آنفا وأن المجتمع في حاجة دائمة إلى حافز مشترك يشمل بتأثيره أكبر عدد ممكن من البشر ، وليس هذا الحافز إلّا الإيمان . وهذا فضلا عن أن التدين الراسخ في أعماق الطبيعة الإنسانية يمهد السبيل لقوة هذا الحافز وتأثيره وشموله .

وإذا أراد قائل أن يقول إن كثيرا من المؤمنين باللّه واليوم الآخر لا يفعلون الخير أو لا يفعلونه إلّا إذا رجوا مقابلة عاجلة عليه ، فالجواب على هذا هو أن إيمان هؤلاء ليس هو الإيمان الصحيح . فهم مسلمون أكثر منهم مؤمنون . وقد فرق القرآن بين الفئتين ونبه لمدى وأثر الإيمان الصحيح في صاحبه في آيات سورة الحجرات هذه : قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15) .

على أن الوازع للخير يظل دائما أقوى في المؤمنين على كل حال منه في غير المؤمنين على ما هو المشاهد المحسوس في كل وقت .

هذا ، وأسلوب السورة المطلق يسوغ وصفها بما وصفت به سورة الفاتحة والأعلى والليل والفجر ، واللّه أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير الحديث حـ 1 صـ 561 . 569 ﴾

(97/830)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(103) سورة العصر

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة الانشراح.

عدد آياتها : ثلاث آيات .

عدد كلماتها : أربع عشرة كلمة .

عدد حروفها : ثمانية وستون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

الإنسان الذي ألهاه التكاثر بالأموال ، والتفاخر بالجاه والسلطان ، دون أن يتزود للآخرة بزاد الإيمان والتقوى ، هو هذا الإنسان الخاسر . . وأي خسران أكثر من أنه اشترى الدنيا بالآخرة ؟ وهذا ما جاءت سورة العصر لتقرره . .

(98/830)

بسم اللّه الرحمن الرّحيم

الآيات : (1.3) [سورة العصر (103) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ (3)

التفسير :

قوله تعالى : « وَالْعَصْرِ » .

هو قسم بهذا الوقت من أوقات الزمن ، وهو الساعات الأخيرة من النهار . .

وقد أقسم اللّه سبحانه وتعالى بأجزاء من الزمن ، كالفجر ، والضحى ، والليل ، والنهار . .

وفى القسم « بالعصر » تنويه بشأن هذا الوقت من الزمن ، الذي تبدأ فيه الأحياء تجمع نفسها ، وتعود إلى مأواها بما حصّلت وجمعت فى سعيها فى الحياة . .

وإنه لجدير بالعاقل أن يحاسب نفسه على ما عمل فى يومه هذا ، وما حصل فيه من خير ، وما اقترف فيه من إثم . . إنه وقت محاسبة ومراجعة لأعمال اليوم ، وتصحيح للأخطاء التي وقع فيها ، فلا يستأنفها فى غده . . ولهذا كانت صلاة العصر هى الصلاة الوسطى - على ما جاءت به الأخبار الصحيحة ، وقرره معظم أهل العلم - تلك الصلاة التي نوه اللّه سبحانه وتعالى بها ، فقال تعالى : « حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطى » (238 : البقرة) .

وقوله تعالى : « إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ » .

هو المقسم عليه ، وهو جواب القسم . .

والإنسان فى خسر ، أي فى ضلال ، لأنه لم يعرف قدره ، ولم يرتفع بإنسانيته إلى المقام الذي أهّله اللّه سبحانه وتعالى له . . فلقد خلق اللّه سبحانه الإنسان فى أحسن تقويم ، ولكن الإنسان لم يلتفت إلى هذا الخلق ، ولم يقدره قدره ، ولم يأخذ الطريق الذي يدعو إليه العقل ، بل انقاد لشهواته ، واستخف بإنسانيته ، وتحول إلى عالم البهيمة ، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام . .

ذلك هو شأن الإنسان فى معظم أفراده وأحواله . . وقليل هم أولئك الذين عرفوا قدر إنسانيتهم ، وما أودع اللّه سبحانه وتعالى فيهم من قوى قادرة على أن ترتفع بهم إلى الملأ الأعلى ، لو أنهم أحسنوا استعمالها ، وهؤلاء هم الذين استثناهم اللّه سبحانه وتعالى بقوله :

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ » .

فهؤلاء هم الإنسان الكريم عند اللّه ، الذي يلقاه ربه بالرضا والرضوان . .

إنهم هم الذين آمنوا باللّه ، وعرفوا ما للّه سبحانه وتعالى ، من كمال وجلال . .

فاستمسكوا بالحق ، وهو الإيمان ، وما يدعو إليه ، وما ينهى عنه . . ثم تواصوا به فيما بينهم ، فنصح بعضهم لبعض بالاستقامة عليه ، والتمسك به ، وفى هذا ما يقوّى من جبهة

الحق ، ويكثّر من أتباعه .

وفى قوله تعالى : « وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ » .إشارة إلى أن طريق الإيمان ، والاستقامة على شريعته ليس أمرا هينا ، فإن ذلك إنما يحتاج إلى معاناة وصبر على مغالبة الشهوات ، وقهر دواعى الأهواء ، ووساوس الشيطان . . فطريق الحق طريق محفوف بالمكاره ، والصبر هو زاد الذين يسلكون طريقه ، ويبلغون به غايات الفوز والفلاح . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1667 . 1669 ﴾

(100/830)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) ﴾

أقسم الله تعالى بالعصر قسماً يراد به تأكيد الخبر كما هو شأن أقسام القرآن .

والمقسَم به من مظاهر بديع التكوين الرباني الدال على عظيم قدرته وسعة علمه .

وللعصر معانٍ يتعين أن يَكون المراد منها لا يعدو أن يكون حالة دالة على صفة من صفات الأفعال الربانية ، يتعين إما بإضافته إلى ما يُقدر ، أو بالقرينة ، أو بالعهد ، وأيّاً ما كان المرادُ منه هنا فإن القسم به باعتبار أنه زمن يذكِّر بعظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم وأحواله ،

وبأمور عظيمة مباركة مثل الصلاة المخصوصة أو عصرٍ معين مبارك .

وأشهر إطلاق لفظ العصر أنه علَم بالغلبة لوقتٍ ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرار الشمس فمبدؤه إذا صار ظل الجسم مثلَه بعد القَدْر الذي كان عليه عند زوال الشمس ويمتد إلى أن يصير ظلُّ الجسم مثلَيْ قدرِه بعد الظل الذي كان له عند زوال الشمس .

وذلك وقت اصفرار الشمس ، والعصر مبدأ العشيّ .

ويعقبه الأصيل والاحمرار وهو ما قبل غروب الشمس ، قال الحارث بن حِلزة :

آنستْ نبأة وأفزَعها القنَّ . . .

اص ُعَصراً وقَدْ دَنَا الإِمساء

فذلك وقت يؤذن بقرب انتهاء النهار ، ويذكر بخلقة الشمس والأرض ، ونظام حركة الأرض حول الشمس ، وهي الحركة التي يتكون منها الليل والنهار كل يوم وهو من هذا الوجه كالقسم بالضحى وبالليل والنهار وبالفجر من الأحوال الجوية المتغيرة بتغير توجه شعاع الشمس نحو الكرة الأرضية .

وفي ذلك الوقت يتهيأ الناس للانقطاع عن أعمالهم في النهار كالقيام على حقولهم وجنّاتهم ، وتجاراتهم في أسواقهم ، فيذكر بحكمة نظام المجتمع الإِنساني وما ألهم الله في غريزته من دأب على العمل ونظامٍ لابتدائه وانقطاعه .

وفيه يتحفز الناس للإِقبال على بيوتهم لمبيتهم والتأنس بأهليهم وأولادهم .

وهو من النعمة أو من النعيم ، وفيه إيماء إلى التذكير بمَثَل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهَرم .

وتعريفه باللام على هذه الوجوه تعريف العهد الذهني أي كل عَصْر .

ويطلق العصر على الصلاة الموقتة بوقت العَصر .

وهي صلاة معظمة .

قيل : هي المراد بالوسطى في قوله تعالى : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ﴾ [البقرة : 238] .

وجاء في الحديث : " من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهلَه ومالَه " .

وورد في الحديث الصحيح : " ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة " فذَكَر " ورجل حلف يميناً فاجرة بعد العصر على سلعة لقد أعطي بها ما لم يُعْطَ " وتعريفه على هذا تعريف العهد وصار علَماً بالغلبة كما هو شأن كثير من أسماء الأجناس المعرفة باللام مثل العَقَبَة .

ويطلق العصر على مدة معلومة لوجود جيل من الناس ، أو مَلِك أو نبيء ، أو دين ، ويعيَّن بالإضافة ، فيقال : عصر الفِطَحْل ، وعصر إبراهيم ، وعصر الإسكندر ، وعصر

الجاهلية ، فيجوز أن يكون مراد هذا الإِطلاق هنا ويكون المعنيّ به عصرَ النبي صلى الله عليه وسلم والتعريف فيه تعريف العهد الحضوري مثل التعريف في (اليوم) من قوْلك : فعلت اليوم كذا ، فالقسم به كالقسم بحياته في قوله تعالى :

﴿ لعمرك ﴾ [الحجر : 72] .

قال الفخر : فهو تعالى أقسم بزمانه في هذه الآية وبمكانه في قوله تعالى : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ [البلد : 2] وبعمره في قوله : ﴿ لعمرك ﴾ .

اه .

(102/830)

ويجوز أن يراد عصر الإِسلام كِله وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم وقد مثَّل النبي صلى الله عليه وسلم عصر الأمة الإِسلامية بالنسبة إلى عصر اليهود وعصر النصارى بما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس بقوله : " مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر أجراء يعملون له يوماً إلى الليل فعملت اليهود إلى نصف النهار ثم قالوا : لا حاجة لنا إلى أجرك وما عملنا باطل ، واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا : لك ما عملنا باطل ولك

الأجر الذي جعلتَ لنا ، واستأجر قوماً أن يعملوا بقيةَ يومهم فعملوا حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما فأنتم هُم " .

فلعل ذلك التمثيل النبوي له اتصال بالرمز إلى عصر الإِسلام في هذه الآية .

ويجوز أن يفسر العصر في هذه الآية بالزمان كله ، قال ابن عطية : قال أبي بن كعب : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العصر فقال : أقسم ربكم بآخر النهار .

وهذه المعاني لا يفي باحتمالها غير لفظ العصر .

ومناسبة القَسَم بالعَصر لغرض السورة على إرادة عصر الإِسلام ظاهرة فإنها بينت حال الناس في عصر الإِسلام بين مَن كفر به ومن آمن واستوفى حظه من الأعمال التي جاء بها الإِسلام ، ويعرف منه حال مُن أسلموا وكان في أعمالهم تقصير متفاوت ، أما أحوال الأمم التي كانت قبل الإِسلام فكانت مختلفة بحسب مجيء الرسل إلى بعض الأمم ، وبقاء بعض الأمم بدون شرائع متمسكة بغير دين الإِسلام من الشرك أو بدين جاء الإِسلام لنسخه مثل اليهودية والنصرانية قال تعالى : ﴿ من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ في سورة آل عمران (85) .

وتعريف الإنسان ﴾ تعريف الجنس مراد به الاستغراق وهو استغراق عرفي لأنه يستغرق أفراد النوع الإِنساني الموجودين في زمن نزول الآية وهو زمن ظهور الإِسلام كما علمت قريباً .

ومخصوص بالناس الذين بلغتهم الدعوة في بلاد العالم على تفاوتها .

ولما استُثني منه الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقي حكمه متحققاً في غير المؤمنين كما سيأتي . . .

والخُسر : مصدر وهو ضد الربح في التجارة ، استعير هنا لسوء العاقبة لمن يظن لنفسه عاقبةً حسنة ، وتلك هي العاقبة الدائمة وهي عاقبة الإِنسان في آخرته من نعيم أو عذاب .

وقد تقدم في قوله تعالى ﴿ فما ربحت تجارتهم ﴾ في سورة البقرة (16) وتكررت نظائره من القرآن آنفاً وبَعيداً .

والظرفية في قوله : لفي خسر ﴾ مجازية شبهت ملازمة الخسر بإحاطة الظرف بالمظروف فكانت أبلغ من أن يقال : إن الإنسان لخاسر .

ومجيء هذا الخبر على العموم مع تأكيده بالقَسم وحرففِ التوكيد في جوابه ، يفيد التهويل والإِنذار بالحالة المحيطة بمعظم الناس .

وأعقب بالاستثناء بقوله : ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ الآية فيتقرر الحكم تاماً في نفس السامع

مبيناً أن الناس فريقان : فريق يلحقه الخسران ، وفريق لا يلحقه شيء منه ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يلحقهم الخسران بحال إذا لم يتركوا شيئاً من الصالحات بارتكاب أضدادها وهي السيئات .

ومن أكبر الأعمال الصالحات التوبة من الذنوب لمقترفيها ، فمن تحقق فيه وصف الإيمان ولم يعمل السيئات أو عملها وتاب منها فقد تحقق له ضد الخسران وهو الربح المجازي ، أي حسن عاقبة أمره ، وأما من لم يعمل الصالحات ولم يتب من سيئاته فقد تحقق فيه حكم المستثنى منه وهو الخسران .

وهذا الخسر متفاوت فأعظمه وخالده الخسر المنجر عن انتفاء الإيمان بوحدانية الله وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ودون ذلك تكونُ مراتب الخسر متفاوتة بحسب كثرة الأعمال السيئة ظاهرها وباطنها .

وما حدده الإسلام لذلك من مراتب الأعمال وغفران بعض اللمم إذا ترك صاحبه الكبائر والفواحشَ وهو ما فسر به قوله تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ [هود : 114] .

وهذا الخبر مراد به الحصول في المستقبل بقرينة مقام الإِنذار والوعيد ، أي لفي خسر في الحياة الأبدية الآخرة فلا التفات إلى أحوال الناس في الحياة الدنيا ، قال تعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ [آل عمران : 196 ، 197] .

وتنكير ﴿ خسر ﴾ يجوز أن يكون للتنويع ، ويجوز أن يكون مفيداً للتعظيم والتعميم في مقام التهويل وفي سياق القسَم .

والمعنى : إن الناس لفي خسران عظيم وهم المشركون .

والتعريف في قوله : ﴿ الصالحات ﴾ تعريف الجنس مراد به الاستغراق ، أي عملوا جميع الأعمال الصالحة التي أمروا بعملها بأمر الدين وعَمل الصالحات يشمل ترك السيئات .

وقد أفاد استثناء المتصفين بمضمون الصلة ومعطوفها إيماء إلى علة حكم الاستثناء وهو نقيض الحكم الثابت للمستثنى منه فإنهم ليسوا في خسر لأجل أنهم آمنوا وعملوا الصالحات .

فأما الإِيمان فهو حقيقة مقُول على جزئياتها بالتواطىء .

وأما الصالحات فعمومها مقول عليه بالتشكك ، فيشير إلى أن انتفاء الخسران عنهم يتقدر بمقدار ما عملوه من الصالحات وفي ذلك مراتب كثيرة .

وقد دل استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من أن يكونوا في خُسر على أن سبب كون

بقية الإِنسان في خسر هو عدم الإِيمان والعمل الصالح بدلالة مفهوم الصفة.

وعُلم من الموصول أن الإِيمان والعمل الصالح هما سبب انتفاء إحاطة الخسر بالإِنسان.

وعُطف على عَمل الصالحات التواصي بالحق والتواصي بالصبر وإن كان ذلك من عمل الصالحات، عَطْف الخاص على العام للاهتمام به لأنه قد يُغفل عنه، يُظن أن العمل الصالح هو ما أثرُه عمل المرء في خاصته، فوقع التنبيه على أن من العمل المأمور به إرشادَ المسلم غيره ودعوتَه إلى الحق، فالتواصي بالحق يشمل تعليم حقائق الهدى وعقائد الصواب وإراضة النفس على فهمها بفعل المعروف وترك المنكر.

(105/830)

والتواصي بالصبر عطف على التواصي بالحق عطف الخاص على العام أيضاً وإن كان خصوصه خصوصاً من وجهٍ لأن الصبر تحمّل مشقة إقامة الحق وما يعترض المسلم من أذى في نفسه في إقامة بعض الحق.

وحقيقة الصبر أنه: منع المرء نفسه من تحصيل ما يشتهيه أو من محاولة تحصيله (إن كان صعبَ الحصول فيترك محاولة تحصيله لخوْف ضر ينْشأ عن تناوله كخوف غضب الله أو عقاب ولاة الأمور) أو لرغبة في حصول نفع منه (كالصبر على مشقة الجهاد والحج رغبة في

الثواب والصبر على الأعمال الشاقة رغبة في تحصيل مال أو سمعة أو نحو ذلك) .

ومن الصبر الصبر على ما يلاقيه المسلم إذا أمَرَ بالمعروف من امتعاض بعض المأمورين به أو مِن أذاهم بالقول كمن يقول لآمره : هَلاّ نظرت في أمر نفسك ، أو نحو ذلك .

وأما تحمل مشقة فعل المنكرات كالصبر على تجشّم السهر في اللهو والمعاصي ، والصبر على بشاعة طعم الخمر لشاربها ، فليس من الصبر لأن ذلك التحمل منبعث عن رجحان اشتهاء تلك المشقة على كراهية المشقة التي تعترضه في تركها .

وقد اشتمل قوله تعالى : ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ على إقامة المصالح الدينية كلها ، فالعقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة في الحق ، والأعمال الصالحة وتجنب السيئات مندرجة في الصبر .

والتخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة ، ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبرَ عليه حتى تصير مكارم الأخلاق ملكه لمن راض نفسه عليها ، كما قال عمرو بن العاص :

إذا المرءُ لم يَترُكْ طعاماً يُحبُّه
ولم يَنْهَ قلباً غاوياً حيثُ يمَّما . . .
فيوشِكُ أن تُلفَى له الدَّهرَ سُبَّةٌ
إذا ذُكِرَتْ أمثالُها تَمْلأ الفَمَا . . .

وكذلك الأعمال الصالحة كلها لا تخلو من إكراه النفس على ترك ما تميل إليه .

وفي الحديث : " حُفَّت الجنة بالمكارِه وحُفّت النار بالشهوات " .

(106/830)

وعن علي بن أبي طالب : "الصبر مطية لا تكبو" .

وقد مضى الكلام على الصبر مشبعاً عند قوله تعالى : ﴿ استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ في سورة البقرة (45) .

وأفادت صيغة التواصي بالحق وبالصبر أن يكون شأن حياة المؤمنين قائماً على شيوع التآمر بهما ديدناً لهم ، وذلك يقتضي اتصاف المؤمنين بإقامة الحق وصبرهم على المكاره في مصالح الإِسلام وأمته لما يقتضيه عرف الناس من أن أحداً لا يوصي غيره بملازمة أمر إلا وهو يرى ذلك الأمر خليقاً بالملازمة إذ قلّ أن يُقدم أحد على أمر بحق هو لا يفعله أو أمر بصبر وهو ذو جزع ، وقد قال الله تعالى توبيخاً لبني إسرائيل : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ [البقرة : 44] ، وقد تقدم هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ في سورة الفجر (18) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة العصر

في هذه السورة الصغيرة ذات الآيات الثلاث يتمثل منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام . وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة . إنها تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار . وتصف الأمة المسلمة : حقيقتها ووظيفتها . في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة . . وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله . .

والحقيقة الضخمة التي تقررها هذه السورة بمجموعها هي هذه :

إنه على امتداد الزمان في جميع الأعصار , وامتداد الإنسان في جميع الأدهار , ليس هنالك إلا منهج واحد رابح , وطريق واحد ناج . هو ذلك المنهج الذي ترسم السورة حدوده , وهو هذا الطريق الذي تصف السورة معالمه . وكل ما وراء ذلك ضياع وخسار . .

(والعصر , إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا , وعملوا الصالحات , وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) . إنه الإيمان . والعمل الصالح . والتواصي بالحق . والتواصي بالصبر .

.

فما الإيمان ؟ ؟

نحن لا نعرف الإيمان هنا تعريفه الفقهي ; ولكننا نتحدث عن طبيعته وقيمته في الحياة .

إنه اتصال هذا الكائن الإنساني الفاني الصغير المحدود بالأصل المطلق الأزلي الباقي الذي صدر عنه الوجود . ومن ثم اتصاله بالكون الصادر عن ذات المصدر , وبالنواميس التي تحكم هذا الكون , وبالقوى والطاقات المذخورة فيه . والانطلاق حينئذ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير . ومن حدود قوته الهزيلة إلى عظمة الطاقات الكونية المجهولة . ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله .

وفضلا عما يمنحه هذا الاتصال للكائن الإنساني من قوة وامتداد وانطلاق , فإنه يمنحه إلى جانب هذا كله متاعا بالوجود وما فيه من جمال , ومن مخلوقات تتعاطف أرواحها مع روحه . فإذا الحياة رحلة في مهرجان إلهي مقام للبشر في كل مكان وفي كل أوان . . . وهي سعادة رفيعة , وفرح نفيس , وأنس بالحياة والكون كأنس الحبيب بالحبيب . وهو كسب لا يعدله كسب . وفقدانه خسران لا يعدله خسران . . .

ثم إن مقومات الإيمان هي بذاتها مقومات الإنسانية الرفيعة الكريمة . . .

التعبد لإله واحد , يرفع الإنسان عن العبودية لسواه , ويقيم في نفسه المساواة مع جميع العباد , فلا يذل لأحد , ولا يحني رأسه لغير الواحد القهار . . ومن هنا الانطلاق التحرري الحقيقي للإنسان . الانطلاق الذي ينبثق من الضمير ومن تصور الحقيقة الواقعة في الوجود . إنه ليس هناك إلا قوة واحدة وإلا معبود واحد . فالانطلاق التحرري ينبثق من هذا التصور انبثاقا ذاتيا , لأنه هو الأمر المنطقي الوحيد .

والربانية التي تحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان تصوراته وقيمه وموازينه واعتباراته وشرائعه وقوانينه , وكل ما يربطه بالله , أو بالوجود , أو بالناس . فينتفي من الحياة الهوى والمصلحة , وتحل محلهما الشريعة والعدالة . وترفع من شعور المؤمن بقيمة منهجه , وتمده بالاستعلاء على تصورات الجاهلية وقيمها واعتباراتها , وعلى القيم المستمدة من الارتباطات الأرضية الواقعة . . ولو كان فردا واحدا , لأنه إنما يواجهها بتصورات وقيم واعتبارات مستمدة من الله مباشرة فهي الأعلى والأقوى والأولى بالاتباع والاحترام .

ووضوح الصلة بين الخالق والمخلوق , وتبين مقام الألوهية ومقام العبودية على حقيقتهما الناصعة , مما يصل هذه الخليقة الفانية بالحقيقة الباقية في غير تعقيد , وبلا وساطة في الطريق . ويودع القلب نورا , والروح طمأنينة , والنفس أنسا وثقة . وينفي التردد والخوف والقلق والاضطراب كما ينفي الاستكبار في الأرض بغير الحق , والاستعلاء على العباد بالباطل والافتراء !

والاستقامة على المنهج الذي يريده الله . فلا يكون الخير فلتة عارضة , ولا نزوة طارئة , ولا حادثة منقطعة . إنما ينبعث عن دوافع , ويتجه إلى هدف , ويتعاون عليه الأفراد المرتبطون في الله , فتقوم الجماعة المسلمة ذات الهدف الواحد الواضح , والراية الواحدة المتميزة . كما تتضامن الأجيال المتعاقبة الموصولة بهذا الحبل المتين .

والاعتقاد بكرامة الإنسان على الله , يرفع من اعتباره في نظر نفسه , ويثير في ضميره الحياء من التدني عن المرتبة التي رفعه الله إليها . وهذا أرفع تصور يتصوره الإنسان لنفسه . . . أنه كريم عند الله . . وكل مذهب أو تصور يحط من قدر الإنسان في نظر نفسه , ويرده إلى منبت حقير , ويفصل بينه وبين الملأ الأعلى . . هو تصور أو مذهب يدعوه إلى التدني والتسفل ولو لم يقل له ذلك صراحة !

ومن هنا كانت إيحاءات الداروينية والفرويدية والماركسية هي أبشع ما تبتلى به الفطرة البشرية والتوجيه الإنساني , فتوحي إلى البشر بأن كل سفالة وكل قذارة وكل حقارة هي

أمر طبيعي متوقع , ليس فيه ما يستغرب , ومن ثم ليس فيه ما يخجل . . وهي جناية على البشرية تستحق المقت والازدراء !

(110/830)

ونظافة المشاعر تجيء نتيجة مباشرة للشعور بكرامة الإنسان على الله . ثم برقابة الله على الضمائر واطلاعه على السرائر . وإن الإنسان السوي الذي لم تمسخه إيحاءات فرويد وكارل ماركس وأمثالهما , ليستحيي أن يطلع إنسان مثله على شوائب ضميره وخائنة شعوره . والمؤمن يحس وقع نظر الله - سبحانه - في أطواء حسه إحساسا يرتعش له ويهتز . فأولى أن يطهر حسه هذا وينظفه !

والحاسة الأخلاقية ثمرة طبيعية وحتمية للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حليم , يكره الشر ويحب الخير . ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

وهناك التبعة المترتبة على حرية الإرادة وشمول الرقابة , وما تثيره في حس المؤمن من يقظة وحساسية , ومن رزانة وتدبر . وهي ليست تبعة فردية فحسب , إنما هي كذلك تبعة جماعية , وتبعة تجاه الخير في ذاته , وإزاء البشرية جميعا . . أمام الله . . وحين يتحرك

المؤمن حركة فهو يحس بهذا كله, فيكبر في عين نفسه, ويقدر نتيجة خطوه قبل أن يمد رجله . . إنه كائن له قيمة في الوجود, وعليه تبعة في نظام هذا الوجود . .

(111/830)

والارتفاع عن التكالب على أعراض الحياة الدنيا - وهو بعض إيحاءات الإيمان - واختيار ما عند الله, وهو خير وأبقى . (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) . . والتنافس على ما عند الله يرفع ويطهر وينظف . . يساعد على هذا سعة المجال الذي يتحرك فيه المؤمن . . بين الدنيا والآخرة, والأرض والملأ الأعلى . مما يهدئ في نفسه القلق على النتيجة والعجلة على الثمرة . فهو يفعل الخير لأنه الخير, ولأن الله يريده, ولا عليه ألا يدر الخير خيرا على مشهد من عينيه في عمره الفردي المحدود . فالله الذي يفعل الخير ابتغاء وجهه لا يموت - سبحانه - ولا ينسى, ولا يغفل شيئا من عمله . والأرض ليست دار جزاء . والحياة الدنيا ليست نهاية المطاف . ومن ثم يستمد القدرة على مواصلة الخير من هذا الينبوع الذي لا ينضب . وهذا هو الذي يكفل أن يكون الخير منهجا موصولا, لا دفعة طارئة, ولا فلتة مقطوعة . وهذا هو الذي يمد المؤمن بهذه القوة الهائلة التي يقف بها في وجه الشر . سواء تمثل في طغيان طاغية, أو في ضغط الاعتبارات الجاهلية, أو في اندفاع

نزواته هو وضغطها على إرادته . هذا الضغط الذي ينشأ أول ما ينشأ من شعور الفرد بقصر عمره عن استيعاب لذائذه وتحقيق أطماعه , وقصره كذلك عن رؤية النتائج البعيدة للخير , وشهود انتصار الحق على الباطل ! والإيمان يعالج هذا الشعور علاجا أساسيا كاملا .

إن الإيمان هو أصل الحياة الكبير , الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير , وتتعلق به كل ثمرة من ثماره , وإلا فهو فرع مقطوع من شجرته , صائر إلى ذبول وجفاف . وإلا فهي ثمرة شيطانية , وليس لها امتداد أو دوام !

وهو المحور الذي تشد إليه جميع خيوط الحياة الرفيعة . وإلا فهي مفلتة لا تمسك بشيء , ذاهبة بددا مع الأهواء والنزوات . .

وهو المنهج الذي يضم شتات الأعمال , ويردها إلى نظام تتناسق معه وتتعاون , وتنسلك في طريق واحد , وفي حركة واحدة , لها دافع معلوم , ولها هدف مرسوم . .

ومن ثم يهدر القرآن قيمة كل عمل لا يرجع إلى هذا الأصل , ولا يشد إلى هذا المحور , ولا ينبع من هذا المنهج . والنظرية الإسلامية صريحة في هذا كل الصراحة . . جاء في سورة

إبراهيم : (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف . لا يقدرون مما كسبوا على شيء) . . وجاء في سورة النور : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء , حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) . . وهي نصوص صريحة في إهدار قيمة العمل كله , ما لم يستند إلى الإيمان , الذي يجعل له دافعا موصولا بمصدر الوجود , وهدفا متناسقا مع غاية الوجود . وهذه هي النظرة المنطقية لعقيدة ترد الأمور كلها إلى الله . فمن انقطع عنه فقد انقطع وفقد حقيقة معناه .

إن الإيمان دليل على صحة الفطرة وسلامة التكوين الإنساني , وتناسقه مع فطرة الكون كله , ودليل التجاوب بين الإنسان والكون من حوله . فهو يعيش في هذا الكون , وحين يصح كيانه لا بد أن يقع بينه وبين هذا الكون تجاوب . ولا بد أن ينتهي هذا التجاوب إلى الإيمان , بحكم ما في الكون ذاته من دلائل وإيحاءات عن القدرة المطلقة التي أبدعته على هذا النسق . فإذا فقد هذا التجاوب أو تعطل , كان هذا بذاته دليلا على خلل ونقص في الجهاز الذي يتلقى , وهو هذا الكيان الإنساني . وكان هذا دليل فساد لا يكون معه إلا الخسران . ولا يصح معه عمل ولو كان في ظاهره مسحة من الصلاح .

وإن عالم المؤمن من السعة والشمول والامتداد والارتفاع والجمال والسعادة بحيث تبدو إلى جانبه عوالم غير المؤمنين صغيرة ضئيلة هابطة هزيلة شائهة شقية . . خاسرة أي خسران !

والعمل الصالح وهو الثمرة الطبيعية للإيمان , والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب . فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة . ما أن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح . . هذا هو الإيمان الإسلامي . . لا يمكن أن يظل خامدا لا يتحرك , كامنا لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن . . فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت . شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها . فهو ينبعث منها انبعاثا طبيعيا . وإلا فهو غير موجود !

ومن هنا قيمة الإيمان . . إنه حركة وعمل وبناء وتعمير . . يتجه إلى الله . . إنه ليس انكماشا وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير . وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة بناء كبرى في صميم الحياة .

وهذا مفهوم ما دام الإيمان هو الارتباط بالمنهج الرباني . وهذا المنهج حركة دائمة متصلة في صميم الوجود . صادرة عن تدبير , متجهة إلى غاية . وقيادة الإيمان للبشرية هي قيادة لتحقيق منهج الحركة التي هي طبيعة الوجود . الحركة الخيرة النظيفة البانية المعمرة اللائقة بمنهج يصدر عن الله .

أما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فتبرز من خلالها صورة الأمة المسلمة – أو الجماعة المسلمة – ذات الكيان الخاص , والرابطة المميزة , والوجهة الموحدة . الجماعة التي تشعر بكيانها كما تشعر بواجبها . والتي تعرف حقيقة ما هي مقدمة عليه من الإيمان والعمل الصالح , الذي يشمل فيما يشمل قيادة البشرية في طريق الإيمان والعملالصالح ; فتتواصى فيما بينها بما يعينها على النهوض بالأمانة الكبرى .

(114/830)

فمن خلال لفظ التواصي ومعناه وطبيعته وحقيقته تبرز صورة الأمة – أو الجماعة – المتضامنة المتضامنة . الأمة الخيرة . الواعية . القيمة في الأرض على الحق والعدل والخير . . وهي أعلى وأنصع صورة للأمة المختارة . . وهكذا يريد الإسلام أمة الإسلام . . هكذا يريدها أمة خيرة قوية واعية قائمة على حراسة الحق والخير , متواصية بالحق والصبر في مودة وتعاون وتآخ تنضح بها كلمة التواصي في القرآن . .

والتواصي بالحق ضرورة . فالنهوض بالحق عسير . والمعوقات عن الحق كثيرة : هوى النفس , ومنطق المصلحة , وتصورات البيئة . وطغيان الطغاة , وظلم الظلمة , وجور الجائرين . . والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية , والأخوة في

العبء والأمانة . فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية , إذ تتفاعل معا فتتضاعف . تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله . . وهذا الدين - وهو الحق - لا يقوم إلا في حراسة جماعة متعاونة متواصية متكافلة متضامنة على هذا المثال .

والتواصي بالصبر كذلك ضرورة . فالقيام على الإيمان والعمل الصالح , وحراسة الحق والعدل , من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة . ولا بد من الصبر . لا بد من الصبر على جهاد النفس , وجهاد الغير , والصبر على الأذى والمشقة . والصبر على تبجح الباطل وتنفج الشر . والصبر على طول الطريق وبطء المراحل , وانطماس المعالم , وبعد النهاية ! والتواصي بالصبر يضاعف المقدرة , بما يبعثه من إحساس بوحدة الهدف , ووحدة المتجه , وتساند الجميع , وتزودهم بالحب والعزم والاصرار . . إلى آخر ما يثيره من معاني الجماعة التي لا تعيش حقيقة الإسلام إلا في جوها , ولا تبرز إلا من خلالها . . وإلا فهو الخسران والضياع .

ونـنظر اليوم من خلال هذا الدستور الذي يرسمه القرآن لحياة الفئة الرابحة الناجية من الخسران ، فيهولنا أن نرى الخسر يحيق بالبشرية في كل مكان على ظهر الأرض بلا استثناء . يهولنا هذا الضياع الذي تعانيه البشرية في الدنيا - قبل الآخرة - يهولنا أن نرى إعراض البشرية ذلك الإعراض البائس عن الخير الذي أفاضه الله عليها ; مع فقدان السلطة الخيرة المؤمنة القائمة على الحق في هذه الأرض . . هذا والمسلمون - أو أصحاب دعوى الإسلام بتعبير أدق - هم أبعد أهل الأرض عن هذا الخير ، وأشدهم إعراضا عن المنهج الإلهي الذي اختاره الله لهم ، وعن الدستور الذي شرعه لأمتهم ، وعن الطريق الوحيد الذي رسمه للنجاة من الخسران والضياع . والبقاع التي انبعث منها هذا الخير أول مرة تترك الراية التي رفعها لها الله ، راية الإيمان ، لتتعلق برايات عنصرية لم تنل تحتها خيرا قط في تاريخها كله . لم يكن لها تحتها ذكر في الأرض ولا في السماء . حتى جاء الإسلام فرفع لها هذه الراية المنتسبة لله ، لا شريك له ، المسماة باسم الله لا شريك له ، الموسومة بميسم الله لا شريك له . . الراية التي انتصر العرب تحتها وسادوا وقادوا البشرية قيادة خيرة قوية واعية ناجية لأول مرة في تاريخهم وفي تاريخ البشرية الطويل . .

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه القيم : "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ? " . عن هذه القيادة الخيرة الفذة في التاريخ كله ، وتحت عنوان "عهد القيادة الإسلامية" :

"الأئمة المسلمون وخصائصهم" :

"ظهر المسلمون , وتزعموا العالم , وعزلوا الأمم المزيفة من زعامة الإنسانية التي استغلتها وأساءت عملها ,وساروا بالإنسانية سيرا حثيثا متزنا عادلا , وقد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم , وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلهم وتحت قيادتهم . " أولا : أنهم أصحاب كتاب منزل وشريعة إلهية , فلا يقننون ولا يشترعون من عند أنفسهم . لأن ذلك منبع الجهل والخطأ والظلم , ولا يخبطون في سلوكهم وسياستهم ومعاملتهم للناس خبط عشواء , وقد جعل الله لهم نورا يمشون به في الناس , وجعل لهم شريعة يحكمون بها الناس (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ?)وقد قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط , ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى , واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) .

ثانيا : -أنهم لم يتولوا الحكم والقيادة بغير تربية خلقية وتزكية نفس , بخلاف غالب الأمم والأفراد ورجال الحكومة في الماضي والحاضر , بل مكثوا زمنا طويلا تحت تربية محمد (صلى الله عليه وسلم) وإشرافه الدقيق , يزكيهم ويؤدبهم , ويأخذهم بالزهد والورع

والعفاف والأمانة والإيثار وخشية الله , وعدم الاستشراف للإمارة والحرص عليها . يقول : " إنا والله لا نولي هذا العمل أحدا سأله , أو أحدا حرص عليه " .

(117/830)

ولا يزال يقرع سمعهم : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) . . فكانوا لا يتهافتون على الوظائف والمناصب , فضلا عن أن يرشحوا أنفسهم للإمارة , ويزكوا أنفسهم , وينشروا دعاية لها , وينفقوا الأموال سعيا وراءها . فإذا تولوا شيئا من أمور الناس لم يعدوه مغنما أو طعمة أو ثمنا لما أنفقوا من مال أو جهد ; بل عدوه أمانة في عنقهم , وامتحانا من الله ; ويعلمون أنهم موقوفون عند ربهم , ومسؤولون عن الدقيق والجليل , وتذكروا دائما قول الله تعالى : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها , وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) . . وقوله . . (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض , ورفع بعضكم فوق بعض درجات , ليبلوكم فيما آتاكم) . .

"ثالثا : أنهم لم يكونوا خدمة جنس , ورسل شعب أو وطن , يسعون لرفاهيته ومصلحته وحده , ويؤمنون بفضله وشرفه على جميع الشعوب والأوطان , لم يخلقوا إلا ليكونوا حكاما , ولم تخلق إلا لتكون محكومة لهم . ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون

في ظلها , ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها , ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكم أنفسهم ! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده . كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد : الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده , ومن ضيق الدنيا إلى سعتها , ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

فالأمم عندهم سواء , والناس عندهم سواء . الناس كلهم من آدم , وآدم من تراب . لا فضل لعربي على عجمي , ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا , إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وقد قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص عامل مصر – وقد ضرب ابنه مصريا وافتخر بآبائه قائلا : خذها من ابن الأكرمين . فاقتص منه عمر – : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أحرارا أمهاتهم ? فلم يبخل هؤلاء بما عندهم من دين وعلم وتهذيب على أحد , ولم يراعوا في الحكم والإمارة والفضل نسبا ولونا ووطنا , بل كانوا سحابة انتظمت البلاد وعمت العباد , وغوادي مزنة أثنى عليها السهل والوعر , وانتفعت بها البلاد والعباد على

قدر قبولها وصلاحها .

في ظل هؤلاء وتحت حكمهم استطاعت الأمم والشعوب - حتى المضطهدة منها في القديم - أن تنال نصيبها من الدين والعلم والتهذيب والحكومة , وأن تساهم العرب في بناء العالم الجديد , بل إن كثيرا من أفرادها فاقوا العرب في بعض الفضائل , وكان منهم أئمة هم تيجان مفارق العرب وسادة المسلمين من الأئمة والفقهاء والمحدثين . .

"رابعا : إن الإنسان جسم وروح , وهو ذو قلب وعقل وعواطف وجوارح , لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقيا متزنا عادلا حتى تنمو فيه هذه القوى كلها نموا متناسبا لائقا بها , ويتغذى غذاء صالحا , ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذا ساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنساني . وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا مكنت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بين الذين يؤمنون بالروح والمادة , ويكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية والخلقية , وأصحاب عقول سليمة راجحة , وعلوم صحيحة نافعة " . . .

إلى أن يقول تحت عنوان : "دور الخلافة الراشدة مثل المدنية الصالحة " :

"وكذلك كان , فلم نعرف دورا من أدوار التاريخ أكمل وأجمل وأزهر في جميع هذه النواحي من هذا الدور – دور الخلافة الراشدة – فقد تعاونت فيه قوة الروح والأخلاق والدين والعلم والأدوات المادية في تنشئة الإنسان الكامل . وفي ظهور المدنية الصالحة . . كانت حكومة من أكبر حكومات العالم , وقوة سياسية مادية تفوق كل قوة في عصرها , تسود فيها المثل الخلقية العليا , وتحكم معايير الأخلاق الفاضلة في حياة الناس ونظام الحكم , وتزدهر فيها الأخلاق والفضيلة مع التجارة والصناعة , ويساير الرقي الخلقي والروحي اتساع الفتوح واحتفال الحضارة , فتقل الجنايات , وتندر الجرائم بالنسبة إلى مساحة المملكة وعدد سكانها ورغم دواعيها وأسبابها , وتحسن علاقة الفرد بالفرد , و الفرد بالجماعة , وعلاقة الجماعة بالفرد . وهو دور كمالي لم يحلم الإنسان بأرقى منه , ولم يفترض المفترضون أزهى منه . . " .

هذه بعض ملامح تلك الحقبة السعيدة التي عاشتها البشرية في ظل الدستور الإسلامي الذي تضع "سورة العصر" قواعده , وتحت تلك الراية الإيمانية التي تحملها جماعة الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

فأين منها هذا الضياع التي تعانيه البشرية اليوم في كل مكان , والخسار الذي تبوء به في معركة الخير والشر , والعماء عن ذلك الخير الكبير الذي حملته الأمة العربية للبشر يوم حملت راية الإسلام فكانت لها القيادة . ثم وضعت هذه الراية فإذا هي في ذيل القافلة .

وإذا القافلة كلها تعطو إلى الضياع والخسار . وإذا الرايات كلها بعد ذلك للشيطان ليس فيها راية واحدة لله . وإذا هي كلها للباطل ليس فيها راية واحدة للحق . وإذا هي كلها للعماء والضلال ليس فيها راية واحدة للهدى والنور , وإذا هى كلها للخسار ليس فيها راية واحدة للفلاح ! وراية الله ما تزال . وإنها لترتقب اليد التي ترفعها والأمة التي تسير تحتها إلى الخير والهدى والصلاح والفلاح .

ذلك شأن الربح والخسر في هذه الأرض . وهو على عظمته إذا قيس بشأن الآخرة صغير . وهناك . هناك

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)

الربح الحق والخسر الحق . هناك في الأمد الطويل , وفي الحياة الباقية , وفي عالم الحقيقة , هناك الربح والخسر : ربح الجنة والرضوان , أو خسر الجنة والرضوان . هناك حيث يبلغ الإنسان أقصى الكمال المقدر له , أو يرتكس فتهدر آدميته , وينتهي إلى أن يكون حجرا في القيمة ودون الحجر في الراحة :

(يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر : يا ليتني كنت ترابا) . .

وهذه السورة حاسمة في تحديد الطريق . . إنه الخسر . . (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات , وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) . . طريق واحد لا يتعدد . طريق الإيمان والعمل الصالح وقيام الجماعة المسلمة , التي تتواصى بالحق وتتواصى بالصبر . وتقوم متضامنة على حراسة الحق مزودة بزاد الصبر .

إنه طريق واحد . ومن ثم كان الرجلان من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة "العصر" ثم يسلم أحدهما على الآخر . . لقد كانا يتعاهدان على هذا الدستور الإلهي , يتعاهدان على الإيمان والصلاح , ويتعاهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر . ويتعاهدان على أنهما حارسان لهذا الدستور . ويتعاهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال جـ 6 صـ 3964 . 3971 ﴾

(121/830)

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) ﴾

العصر : اسم للزمن كله أو جزء منه .

ولذا اختلف في المراد منه ، حيث لم يبين هنا .

فقيل : هو الدهر كله ، أقسم الله به لما فيه من العجائب ، أمة تذهب وأمة تأتي ، وقدر ينفذ ، وآية تظهر ، وهو لا يتغير ، ليل يعقبه نهار ، ونهار يطرده ليل ، فهو في نفسه عجب .

كما قيل :

موجود شبيه المعدوم ، ومتحرك يضاهي الساكن .

كما قيل :

وأرى الزمان سفينة تجري بنا . . . نحو المنون ولا نرى حركاته

فهو في نفسه آية ، سواء في ماضيه لا يعلم متى كان ، أو في حاضره لا يعلم كيف ينقضي ، أو في مستقبله .

واستدل لهذا القول بما جاء موقوفاً على علي رضي الله عنه ، ومرفوعاً من قراءة شاذة : والعصر ونوائب الدهر . وحمل على التفسير إذا لم يصح قرآناً ، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس .

وعليه قول الشاعر :

سبيل الهوى وعر وبحر الهوى غم . . . ر ويوم الهوى شهر ، وشهر الهوى دهر

وقيل العصر : الليل والنهار .

قال حميد بن ثور :

ولم يلبث العصران يوم ليلة . . . إذا طلبا أن يدركا ما يتمما

والعصران : أيضاً الغداة العشي .

كما قيل :

وأمطله العصرين حتى يملني . . . ويرضى بنصف الدين والأنف راغم

والمطل : التسويف وتأخير الدين .

كما قيل :

قضى كل ذي دين فوفى غريمه . . . وعزة ممطول معنى غريمها

وقيل : إن العشي ما بعد زوال الشمس إلى غروبها ، وهو قول الحسن وقتادة .

ومنه قول الشاعر :

تروح بنا يا عمرو قد قصر العصر . . . وفي الروحة الأولى الغنيمة والأجر

وعن قتادة أيضاً : هو آخر ساعة من ساعات النهار ، لتعظيم اليمين فيه ، وللقسم بالفجر والضحى .

وقيل : هو صلاة العصر لكونها الوسطى .

وقيل : عصر النَّبي صلى الله عليه وسلم أو زمن أمته ، لأنه يشبه عصر عمر الدنيا .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن أقرب هذه الأقوال كلها قولان : إما العموم بمعنى الدهر للقراءة الشاذة ، إذ أقل درجاتها التفسير ، ولأنه يشمل بعمومه بقية الأقوال .

وإما عصر الإنسان أي عمره ومدة حياته الذي هو محل الكسب والخسران لإشعار السياق ، ولأنه يخص العبد في نفسه موعظة وانتفاعاً .

ويرجع لهذا المعنى ما يكتنف هذه السورة من سور التكاثر قبلها ، والهمزة بعدها ، إذ الأولى تذم هاذ التلهي والتكاثر بالمال والولد ، حتى زيارة المقابر بالموت ، ومحل ذلك هو حياة الإنسان .

وسورة الهمزة في نفس المعنى تقريباً ، في الذي جمع مالاً وعدده ، يحسب أن ماله أخلده .

فجمع المال وتعداده في حياة الإنسان وحياته محدودة ، وليس مخلداً في الدنيا ، كما أن الإيمان وعمل الصالحات مرتبط بحياة الإنسان .

وعليه ، فإما أن يكون المراد بالعصر في هذه السورة العموم لشموله الجميع ولقراءة الشاذة ، وهذا أقواها .

وإما حياة الإنسان ، لأنه ألزم له في عمله ، وتكون كل الإطلاقات الأخرى من إطلاق الكل ، وإرادة البعض ، والله تعالى أعلم .

وقوله : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ .

لفظ الإنسان وإن كان منفرداً ، فإن أل فيه جعلته للجنس .

وقد بينه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في دفع إيهام الاضطراب ، وتقدم التنبيه عليه مراراً ، فهو شامل للمسلم والكافر ، إلا من استثنى الله تعالى .

وقيل : خاص بالكافر ، والأول أرجح للعموم .

وإن الإنسان لفي خسر ، جواب القسم ، والخسر : قيل : هو الغبن ، وقيل : النقص : وقيل ، العقوبة ، وقيل : الهلكة ، والكل متقارب .

وأصل الخسر والخسران كالكفر والكفران ، النقص من رأس المال ، ولم يبين هنا نوع الخسران في أي شيء ، بل أطلق ليعم ، وجاء بحرف الظرفية ، ليشعر أن الإنسان مستغرق في الخسران ، وهو محيط به من كل جهة .

(123/830)

ولو نظرنا إلى أمرين وهما المستثنى والسورة التي قبلها ، لا تضّح هذا العموم ، لأن مفهوم المستثنى يشمل أربعة أمور : عدم الإيمان وهو الكفر ، وعدم العمل الصالح وهو العمل الفاسد ، وعدم التواصي بالحق وهو انعدام التواصي كلية أو التواصي بالباطل ، وعدم التواصي بالصبر ، وهو إما انعدام التواصي كلية أو الهلع والجزع .

والسورة التي قبلها تلهي الإنسان بالتكاثر في المال والولد ، بغية الغنى والتكثر فيه ، وضده ضياع المال والولد وهو الخسران .

فعليه يكون الخسران في الدينة من حيث الإيمان بسبب الكفر ، وفي الإسلام وهو ترك العمل ، وإن كان يشمله الإيمان في الاصطلاح والتلهي في الباطل وترك الحق ، وفي الهلع والفزع .

ومن ثم ترك الأمر والنهي بما فيه مصلحة العبد وفلاحه وصلاح دينه ودنياه ، وكل ذلك جاء في القرآن ما يدل عليه نجمله كالآتي :

أما الخسران بالكفر . فكما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أُوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذين مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين ﴾ [الزمر : 65] .

وقوله : ﴿ قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ الله ﴾ [الأنعام : 31] ، أي لأنهم لم يعملوا لهاذ اللقاء ، وقصروا أمرهم في الحياة الدنيا فضيعوا أنفسهم ، وحظهم في الآخرة .

وأما الخسران بترك العمل ، فكما في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فأولئك الذين خسروا أَنْفُسَهُم ﴾ [الأعراف : 9] ، لأن الموازين هي معايير الأعمال كما تقدم ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7] .

ومثله : ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشيطان وَلِيّاً مِّن دُونِ الله فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُّبِيناً ﴾ [النساء : 119] ، لأنه سيكون من حزب الشيطان ﴿ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة : 19] ، أي بطاعتهم إياه في معصية الله .

وأما الخسران بترك التواصي بالحق فليس بعد الحق إلا بالضلال ، والحق هو الإسلام بكامله ، وقد نال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخاسرين ﴾ [آل عمران : 85] .

وأما الخسران بترك التواصي بالصبر والوقوع في الهلع والفزع ، فكما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الناس مَن يَعْبُدُ الله على حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطمأن بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلب على وَجْهِهِ خَسِرَ الدنيا والآخرة ذلك هُوَ الخسران المبين ﴾ [الحج : 11] .

تحقيق المناط في حقيقة خسران الإنسان

اتفقوا على أن رأس مال الإنسان في حياته هو عمره .

كلف بإعماله في فترة وجوده في الدنيا ، فهي له كالسوق . فإن أعمله في خير ربح ، وإن أعمله في شر خسر .

ويدل لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ [التوبة : 111] .

وقوله : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ [

الصف : 10-11] الآية .

وفي الحديث عند مسلم : " الطهور شطر الإيمان " .

وفي آخره "كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها "مما يؤكد أن رأس مال الإنسان عمره .

ولأهمية هذا العمر جاء قسيم الرسالة والنذارة في قوله : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النذير ﴾ [فاطر : 37] .

وعلى هذا قالوا : إن الله تعالى أرسل رسوله بالهدى .

وهدى كل إنسان النجدين ، وجعل لكل إنسان منزلة في الجنة ومنزلة في النار .

فمن آمن وعمل صالحاً كان مآله إلى منزلة الجنة ، وسلم من منزلة النار ، ومن كفر كان مآله إلى منزلة النار ، وترك منزلته في الجنة .

كما جاء في حديث القبر " أول ما يدخل في قبره إن كان مؤمناً يفتح له باب إلى النار ، ويقال له : ذاك مقعدك من النار لو لم تؤمن ثم يقفل عنه ، ويفتح له باب إلى الجنة ويقال له : هذا منزلك يوم تقوم الساعة ، فيقول : رب ، أقم الساعة " .

وإن كان كافراً كان على العكس تماماً ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيأخذ كل منزلته فيها ، وتبقى منازل أهل النار في الجنة خالية فيتوارثها أهل الجنة ، وتبقى منازل أهل الجنة في النار خالية ، فتوزع على أهل النار ، وهنا يظهر الخسران المبين ، لأنه من ترك منزلة في الجنة وذهب إلى منزلة في النار ، فهو بلا شك خاسر ، وإذا ترك منزلته في الجنة لغيره وأخذ هو بدلاً منها منزلة غيره في النار ، كان هو الخسران المبين ، عياذاً بالله .

أما في غير الكافر وفي عموم المسلمين ، فإن الخسران في التفريط بحيث لو دخل الجنة ولم ينل أعلى الدرجات يُحسّ بالخسران في القوت الذي فرط فيه ، ولم يناقش في فعل الخير ، لينال أعلى الدرجات .

فهذه السورة فعلاً دافع لكل فرد إلى الجد والعمل المربح ، ودرجات الجنة رفيعة ومنازلها عالية مهما بل العبد من جهد ، فإن أمامه مجال للكسب والربح ، نسأل الله التوفيق والفلاح .

وقد قالوا : لا يخرج إنسان من الدنيا إلا حزيناً ، فإن كان مسيئاً فعلى إساءته ، وإن كان محسناً فلتقصيره ، وقد يشهد لهذا المعنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة أَلاَّ تَخَافُواْ وَلاَ تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بالجنة التي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : 30] .

فالخوف من المستقبل أمامهم ، والحزن على الماضي خلفهم ، والله تعالى أعلم .

ويبين خطر هذه المسألة : أن الإنسان إذا كان في آخر عمره ، وشعر بأيامه المعدودة وساعاته المحدودة ، وأراد زيادة يوم فيها ، يتزوّد منها أو ساعة وجيزة يستدرك بعضاً مما فاته ، لم يستطع لذلك سبيلاً ، فيشعر بالأسى والحزن على الأيام والليالي والشهور والسنين التي ضاعت عليه في غير ما كسب ولا فائدة ، كان من الممكن أن تكون مربحة له ، وفي الحديث الصحيح :

" نعمتان مغبون فيهما الإنسان : الصحة والفراغ " .

أي أنهما يمضيان لا يستغلهما في أوجه الكسب المكتملة ، فيفوتان عليه بدون عوض يذكر ثم يندم ، ولات حين مندم .

كما قيل في ذلك :

بدلت جمة برأس أزعرا . . . وبالثنايا البيض الدر دررا

كما اشترى المسلم إذ تنصرا . . . تنبيه

في سورة التكاثر تقبيح التلهي بالتكاثر بالمال والولد ونحوه ، ثم الإشعار بأنه سببه الجهل ، لأنهم لو كانوا يعلمون علم اليقين لما ألهاهم ذلك حتى باغتهم الموت .

وهنا إشعار أيضاً بأن سبب هذا الخسران الذي يقع فيه الإنسان ، هو الجهل الذي يجر إلى الكفر والتمادي في الباطل ، ويساعد على هاذ قسوة القلب ، وطول الأمد . كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمنوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الحق وَلاَ يَكُونُواْ كالذين أُوتُواْ الكتاب مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمد فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : 16].

تنبيه آخر

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ ﴾ ، نص على الإنسان على ما تقدم وقد جاءت آية أخرى تدل على أن الجن كالإنس في قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين حَقَّ عَلَيْهِمُ القول في أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمْ مِّنَ الجن والإنس إِنَّهُمْ كَانُواْ خَاسِرِينَ ﴾ [الأحقاف : 18] .

وتقدم بيان تكليف الجن بالدعوة واستجابتهم لها . والدعوة إليها .

(127/830)

إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)

هذا هو المستثنى من الإنسان المتقدم ، مما دل على العموم كما قدمنا ، والإيمان لغة التصديق وشرعاً الاعتقاد الجازم بأركان الإيمان الستة ، في حديث جبريل عليه السلام مع

الرسول صلى الله عليه وسلم لما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان .

وعملوا الصالحات : العطف يقتضي المغايرة .

ولذا قال بعض الناس : إن الأعمال ليست داخلة في تعريف الإيمان ومقالاتهم معروفة .

والجمهور : أن الإيمان اعتقاد بالجنان ، ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح .

فالعمل داخل فيه ويزيد وينقص ، وقد قدمنا : أن العمل شرط أقرب من أن يكون جزءاً ، أي أن الإيمان يصدق بالاعتقاد ، ولا يتوقف وجوده على العمل ، ولكن العمل شرط في الانتفاع بالإيمان ، إذا تمكن العبد من العمل ، ومما يدل لكونه الإيمان يصدق عليه حد الاعتقاد والنطق ، ولو لم يتمكن العبد من العمل ، قصة الصحابي الذي أسلم عند بدء المعركة ، وقاتل ، واستشهد ولم يصلّ لله ركعة فدخل الجنة .

والجمهور : على أن مجرد الاعتقاد لا ينفع صاحبه ، كما كان يعتقد عم النَّبي صلى الله عليه وسلم صحة رسالته ، ولكنه لم يقل كلمة يحاج له صلى الله عليه وسلم بها ، وكذلك لو اعتقد ونطق بالشهادتين ، ولم يعمل كان مناقضاً لقوله .

وقد قدمنا هذه المسألة مفصلة .

والصالحات : جمع صالحة ، وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وتعريفه وشروط كون العمل صالحاً بأدلته من كونه موافقاً لكتاب الله صاحبه خالصاً لوجه الله ، وكونه صادراً من مؤمن بالله ، إلخ .

وقوله : ﴿ وَتَوَاصَوْا بالحق ﴾ .

يعتبر التواصي بالحق ، من الخاص بعد العام ، لأنه داخل في عمل الصالحات .

وقيل : إن التواصي ، أن يوصي بعضهم بعضاً بالحق .

وقيل : الحق كل ما كان ضد الباطل فيشمل عمل الطاعات ، وترك المعاصي .

(128/830)

واعتبر هذا أساساً من أسس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بقرينة التواصي بالصبر ، أي على الأمر والنهي ، على منا سيأتي إن شاء الله .

وقيل : الحق ، هو القرآن ، لشموله كل أمر وكل نهي ، وكل خير ، ويشهد لذلك قوله تعالى في حق القرآن ﴿ وبالحق أَنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ ﴾ [الإسراء : 105] .

وقوله : ﴿ إِنَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الكتاب بالحق فاعبد الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين ﴾ [الزمر : 2] .

وقد جاءت آيات في القرآن تدل على أن الوصية بالحق تشمل الشريعة كلها ، أصولها وفروعها ، ماضيها وحاضرها ، من ذلك ما وصى الله به الأنبياء وعموماً ، من نوح وإبراهيم ومن بعدهم في قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدين مَا وصى بِهِ نُوحاً والذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وموسى وعيسى أَنْ أَقِيمُواْ الدين وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [

الشورى : 13] .

وإقامة الدين للقيام بكليته ، وقد كانت هذه الوصية عمل الرسل لأممهم ومن بعدهم ، فنفذها إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ ووصى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ الله اصطفى لَكُمُ الدين فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[البقرة : 132] .

ومن بعد إبراهيم يعقوب كما قال تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إلها وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : 133] .

فهذا تواصي الأمم بأصل الإيمان وعموم الشريعة ، وكذلك بالعبادة من صلاة وزكاة ، كما في قوله تعالى عن نبي الله عيسى عليه السلام : ﴿ وَأَوْصَانِي بالصلاة والزكاة مَا دُمْتُ حَيّاً وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ [مريم : 31-32] .

(129/830)

وكذلك الحالة الاجتماعية ماثلة في الوصية بالوالدين والأولاد ، لترابط الأسرة ، ففي الوالدين قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً على وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي

عَامَيْنِ أَنِ اشكر لي وَلِوَالدَيْك إِلَيّ المصير وإِن جَاهدَاك على أَن تُشْرِك بِي مَا لَيْس لَك بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدنيا مَعْرُوفا ﴾ [لقمان : 14-15] .

وفي الأبناء قال : ﴿ يُوصِيكُمُ الله فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْل حَظّ الأُنْثَيين ﴾ [النساء : 11] .

وفي الحقوق العامة أوامر ونواهي ، عبادات ومعاملات ، جاءت آيات الوصايا العشر التي قال عنها ابن مسعود رضي الله عنه : " من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرّمَ رَبّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وبالوالدين إِحْسَانًا وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مّنْ إمْلاَقٍ نّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُوا الفواحش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُوا النفس التي حَرّمَ الله إِلاّ بالحق ذلكم وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ اليتيم إِلاّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ حتى يَبْلُغَ أَشُدّهُ وَأَوْفُوا الكيل والميزان بالقسط لاَ نُكَلّفُ نَفْسًا إِلاّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فاعدلوا وَلَوْ كَانَ ذَا قربى وَبِعَهْدِ الله أَوْفُوا ذلكم وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ وَأَنّ هذا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فاتبعوه وَلاَ تَتّبِعُوا السبل فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذلكم وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ ﴾ [الأنعام : 151-153] .

تلك الوصايا الجامعة أبواب الخير الموصدة أبواب الشر والمذيلة بهذا التبيين والتعريف ، وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه لا تتبعوا السبل .

ولو أردنا أن نربط بين هذا وبين التواصي بالحق وبينهما وبين فاتحة الكتاب ، لكانت النتيجة كالآتي في قوله : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ ، إحالة على تلك الوصايا ، وهي شاملة جامعة ومعنون لها بأنها صراط الله المستقيم .

فكأن قوله : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ ، مساوياً لقوله : وتواصوا بالصراط المستقيم . واستقيموا عليه .

ثم في سورة الفاتحة : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] ، وهذا صراط الله المستقيم فاتبعوه .

فكانت سورة العصر مشتملة على التواصي بالاستقامة على صراط الله المستقيم واتباعه ، ويأتي عقبها قوله : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ ، بمثابة التثبيت على هذا الصراط المستقيم إذ الصبر لازم على عمل الطاعات ، كما هو لازم لترك المنكرات .

وتلك الوصايا العشر جمعت أمراً ونهياً فعلاً وتركاً وكذلك فيه الإشارة إلى ما يقوله دعاة الإسلام من أن العمل الصالح والدعوة إلى الحق والتواصي به ، فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وغالباً من يقوم به يتعرض لأذى الناس ، فلزمهم التواصي بالصبر ، كما قال لقمان لابنه يوصيه وجامعاً في وصيته وصية سورة العصر إذ قال :

﴿ يا بني أَقِمِ الصلاة وَأْمُرْ بالمعروف وانه عَنِ المنكر واصبر على مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [لقمان : 17] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتفصيل عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ ﴾ [المائدة : 105] ، في سورة المائدة .

فصارت هذه السورة بحق جامعة لأصول الرسالة .

كما روي عن الشافعي رحمه الله أنه قال : لو تأمل الناس هذه السورة لكفتهم .

(131/830)

قوله : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ ، جاء الحث على التواصي بالرحمة أيضاً مع الصبر ، في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الذين آمَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ [البلد : 17] .

وبهذه الوصايا الثلاث : بالتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة ، تكتمل مقومات المجتمع المتكامل قوامه الفضائل المثلى ، والقيم الفضلى .

لأن بالتواصي بالحق إقامة الحق ، والاستقامة على الطريق المستقيم .

وبالتواصي بالصبر ، يستطيعون مواصلة سيرهم على هذا الصراط ، ويتخطون كل

عقبات تواجههم.

وبالتواصي بالمرحمة: يكونون مرتبطين كالجسد الواحد ، وتلك أعطيات لم يعطها إلا القرآن وأعطاها في هذه السورة الموجزة. وبالله التوفيق.

تنبيه

قال الفخر الرازي: إن الله تعالى لما أخبر عن هؤلاء بالنجاة من الخسران ، وفوزهم بالعمل الصالح والإيمان ، أخبر عنهم أنهم لم يكتفوا بما يتعلق بهم أنفسهم بل تعدوا إلى غيرهم ، فدعوهم إلى ما فازوا به على حد قوله صلى الله عليه وسلم: " حب لأخيك ما تحب لنفسك " اهـ. ملخصاً.

ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الذين قَالُواْ رَبُّنَا الله ثُمَّ استقاموا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائكة ﴾ [فصلت: 30] -إلى قوله- ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المسلمين وَلاَ تَسْتَوِي الحسنة وَلاَ السيئة ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: 33-35].

فقد بين تعالى أن الناس أقسام ثلاثة ، إزاء دعوة الرسل.

قوم آمنوا وقالوا: ربنا الله ، واستقاموا على ذلك بالعمل الصالح.

وقوم: ارتفعت همتهم إلى دعوة غيرهم وهم أحسن قولاً بلا شك.

وقوم: عادوا الدعاة وأساؤوا إليهم.

(132/830)

ثم بين موقف الدعاة من أولئك المسيئين في غضون قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الحسنة وَلَا السيئة ادفع ﴾ أي إساءة المسيئين ﴿ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ فيصبحوا أولياء لك وبين أن هذه المنزلة ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الذين صَبَرُواْ ﴾ ثم بين أن من ارتفع إليها وسلك مسلكها ﴿ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: 79].

تنبيه

كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، قول للدعاة عدوان: أحدهما: من الإنس. والآخر من الشياطين.

وقد أرشدنا الله لكيفية التغلب عليهما واكتفاء شرهما.

أما عداوة الإنس فبمقابلة الإساءة بالإحسان، فيصبح ولياً حميماً.

وأما عدو الجن فبالاستعاذة منه ﴿ وَإِماَّ يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: 200].

نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق .

وقد أشرنا إلى أن الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قدم مبحث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَّن ضَلَّ إِذَا اهتديتم ﴾ [المائدة : 105] .

وذكر سورة العصر عندها ، وعقد مسائل متعددة في منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بما لا غنى عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

(133/830)

فائدة

قال التسترى :

﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات ﴾ [3]

يعني أدوا الفرائض كما فرضت عليهم .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق ﴾ [3] أي بالله عزّ وجلّ .

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [3] على أمره .

قيل : وما الصبر ؟ قال : لا عمل أفضل من الصبر ، ولا ثواب أكبر من ثواب الصبر ولا زاد إلا

التقوى ، ولا تقوى إلا بالصبر ، ولا معين على الصبر لله إلا الله عزَّ وجلَّ .

قيل : الصبر من الأعمال ؟ قال : نعم الصبر من العمل بمنزلة الرأس من الجسد ، لا يصلح أحدهما إلا بصاحبه .

قيل : ما أجل الصبر ؟ قال : أجله انتظار الفرج من الحق .

قيل : فما أصل الصبر ؟ قال : مجاهدة النفس على إقامة الطاعات وأدائها بأحكامها وحدودها ومكابدتها على اجتناب المعاصي صغيرها وكبيرها .

قيل : والناس في الصبر كيف هم ؟ قال : الناس في الصبر صنفان : فصنف يصبرون للدنيا حتى ينالوا منها ما تشتهي أنفسهم ، فهو الصبر المذموم ، وصنف يصبرون للآخرة طلباً لثواب الآخرة وخوفاً من عذابها .

قيل : فالصبر للآخرة هو على نوع واحد أو على أنواع ؟ قال : الصبر للآخرة له أربع مقامات : فثلاث منها فرض ، والرابع فضيلة : صبر على طاعة الله عزَّ وجلَّ وصبر على معصيته وصبر على المصائب من عنده .

أو قال : صبر على أمر الله عزَّ وجلَّ ، وصبر على نهيه ، وصبر على أفعال الله عزَّ وجلَّ ، فهذه ثلاث مقامات منه ، وهي فرض ، والمقام الرابع فضيلة وهو الصبر على أفعال المخلوقين .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : 126] الآية ، كم

بالمثل وفضل الصبر، ثم قال: ﴿ واصبر وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بالله ﴾ [النحل: 127] ولا يعين عليه إلا هو.

ولقد لحق رجل بأويس القرني رحمه الله فسمعه يقول: اللهم إني أعتذر إليك اليوم من كل كبد جائعة وبدن عاري، فإنه ليس في بيتي من الطعام إلا ما في بطني، وليس شيء من الدنيا إلا ما على ظهري.

(134/830)

قال: وعلى ظهره خريقة قد تردى بها.

قال: وأتاه رجل فقال له: يا أويس كيف أصبحت؟ أو قال: وكيف أمسيت؟ قال: أحمد الله على كل حال، وما تسأل عن حال رجل إذا هو أصبح ظن أنه لا يمسي، وإذا أمسى ظن أنه لا يصبح، إن الموت وذكره لم يدع لمؤمن فرحاً، وإن حق الله عزَّ وجلَّ في مال المسلم لم يدع له في ماله فضة ولا ذهباً، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدع لمؤمن صديقاً، نأمر بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون على ذلك من الفاسقين أعواناً، حتى والله لقد قذفوني بالعظائم، وأيم الله لا أدع أن أقوم لله فيهم بحقه، ثم أخذ الطريق.

فهذا أويس قد بلغ هذا المقام في الصبر .

والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 204 . 205 ﴾

(135/830)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْأِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾

هذه الآية الكريمة يدل ظاهرها على أن هذا المخبر عنه أنه في خسر إنسان واحد بدليل إفراد لفظة الإنسان ، واستثناؤه من ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات يقتضي أنه ليس إنسانا واحدا .

والجواب عن هذا هو أن لفظ الإنسان وإن كان واحدا فالألف واللام للاستغراق يصير المفرد بسببهما ما صيغة عموم ، وعليه فمعنى أن الإنسان أي أن كل إنسان لدلالة (ال الاستغراقية على ذلك ، والعلم عند الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 347 ﴾

(136/830)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالْعَصْرِ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ والعصر ﴾ بمكة .

وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي مليكة الدارمي وكانت له صحبة قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر .

وأخرج ابن سعد عن ميمون قال : شهدت عمر حين طعن فأمنا عبد الرحمن بن عوف فقرأ بأقصر سورتين في القرآن بالعصر و ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ [النصر : 1] في الفجر .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن الأنباري في المصاحف والحاكم عن علي بن أبي طالب أنه كان يقرأ " والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان لفي خسر وانه لفيه إلى آخر الدهر " .

وأخرج عبد بن حميد عن إسماعيل بن عبد الملك قال : سمعت سعيد بن جبير يقرأ قراءة ابن مسعود : " والعصر إن الإنسان لفي خسر وإنه لفيه إلى آخر الدهر إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات " .

وأخرج عبد بن حميد عن إبراهيم قال : قرأنا : " والعصر إن الإِنسان لفي خسر وإنه لفيه إلى آخر الدهر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر " . ذكر أنها في قراءة عبد الله بن مسعود .

وأخرج عبد بن حميد عن حوشب قال : أرسل بشر بن مروان إلى عبد الله بن عتبة بن مسعود فقال : كيف كان ابن مسعود يقرأ ﴿ والعصر ﴾ فقال : " والعصر إن الإِنسان لفي خسر وهو فيه إلى آخر الدهر " فقال له بشر : هو يكفر به . فقال عبد الله لكني أومن به .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ والعصر ﴾ قال : ساعة من ساعات النهار .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ والعصر ﴾ قال : هو ما قبل مغيب الشمس من العشي .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ والعصر ﴾ قال : ساعة من ساعات النهار ، وفي قوله : ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ قال : كتاب الله ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ قال : طاعة الله .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي ﴿ والعصر ﴾ قال: قسم أقسم به ربنا تبارك وتعالى ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ قال: الناس كلهم، ثم استثنى فقال: ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ ثم لم يدعهم وذاك حتى قال: ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ ثم لم يدعهم وذاك حتى قال: ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ ثم لم يدعهم وذاك حتى قال: ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ يشترط عليهم.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ﴾ يعني أبا جهل بن هشام ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ذكر عليّاً وسلمان. انتهى.

اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 621.622 ﴾

(138/830)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله:

سُورَةُ الْعَصْرِ

[فِيهَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ]

وَهِيَ قَوْله تَعَالَى: ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾: قَالَ مَالِكٌ: مَنْ حَلَفَ أَلَّا يُكَلِّمَ رَجُلًا عَصْرًا لَمْ يُكَلِّمْهُ

سَنَةً ، وَلَوْ حَلَفَ أَلَّا يُكَلِّمَهُ الْعَصْرَ لَمْ يُكَلِّمْهُ أَبَدًا ؛ لِأَنَّ الْعَصْرَ هُوَ الدَّهْرُ .

قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ : بِنَاءُ (ع ص ر) يَنْطَلِقُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ الْمَعَانِي ، فَأَمَّا مَا يَتَعَلَّقُ بِالزَّمَانِ فَفِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : الْعَصْرُ الدَّهْرُ .

الثَّانِي : اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .

[قَالَ الشَّاعِرُ : وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ إذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَا مَا تَيَمَّمَا الثَّالِثُ الْعَصْرُ : الْغَدَاةُ وَالْعَشِيُّ .

قَالَ الشَّاعِرُ : وَأَمْطُلُهُ الْعَصْرَيْنِ حَتَّى يَمَلَّنِي وَيَرْضَى بِنِصْفِ الدَّيْنِ وَالْأَنْفُ رَاغِمٌ وَقَدْ قِيلَ : إنَّ الْعَصْرَ مِثْلُ الدَّهْرِ] ؛ قَالَ الشَّاعِرُ : سَبِيلُ الْهَوَى وَعْرٌ وَبَحْرُ الْهَوَى غَمْرٌ وَيَوْمُ الْهَوَى شَهْرٌ وَشَهْرُ الْهَوَى دَهْرٌ يُرِيدُ عَامًا .

الرَّابِعُ أَنَّ الْعَصْرَ [سَاعَةٌ مِنْ] سَاعَاتِ النَّهَارِ قَالَهُ مُطَرِّفٌ ، وَقَتَادَةُ .

قَالَ الْقَاضِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إنَّمَا حَمَلَ مَالِكٌ يَمِينَ الْحَالِفِ أَلَّا يُكَلِّمَ امْرَأً عَصْرًا عَلَى السَّنَةِ ؛ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ مَا قِيلَ فِيهِ ، وَذَلِكَ عَلَى أَصْلِهِ فِي تَغْلِيظِ الْمَعْنَى فِي الْأَيْمَانِ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : يُبَرُّ بِسَاعَةٍ إلَّا أَنْ تَكُونَ لَهُ نِيَّةٌ ؛ وَبِهِ أَقُولُ ، إلَّا أَنْ يَكُونَ الْحَالِفُ عَرَبِيًّا ، فَيُقَالُ لَهُ : مَا أَرَدْت ؟ فَإِذَا فَسَّرَهُ بِمَا يُحْتَمَلُ قُبِلَ مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ الْأَقَلَّ ، وَيَجِيءُ عَلَى مَذْهَبِ مَالِكٍ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى مَا يُفَسِّرُ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(140/830)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة العصر

إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2)

قوله : ﴿ إِنَّ الإنسان ﴾ : المرادُ به العمومُ بدليلِ الاستثناءِ منه ، وهو مِنْ جملةِ أدلةِ العمومِ . وقرأ العامَّةُ "لَفي خُسْرٍ" بسكونِ السينِ . وزيد بن علي وابنُ هرمز وعاصم في روايةٍ بضمِّها ، وهي كالعُسْرِ واليُسْرِ ، وقد تقدَّما أول هذا التصنيفِ في البقرة . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿الدر المصون حـ 11 صـ 103.101 ﴾

(141/830)

من لطائف الإمام القشيري فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة العصر

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة من سمعها لم يدخر عنها ماله ، لأنه علم أنه سبحانه يحسن مآله ، ومن عرفها لم يؤثر عليها نفسه ، لأنه لم يوجد بدونها أنسه .

كلمة من صحبها لم يمنع عنها روحه ، إذ وجد الحياة الأبدية له ممنوحة

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ .

﴿ العصر ﴾ : الدهر – أقسم به .

ويقال : أراد به صلاة العصر . ويقال : هو العَشِيّ .

﴿ الإِنسَانَ ﴾ : أراد به جنْسَ الإنسان . " والخُسْر " : الخسران .

والمعنى : إن الإنسان لفي عقوبةٍ من ذنوبه . ثم استثنى المؤمنين فقال :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ .

الذين أخلصوا في العبادة وتواصوا بما هو حقٌّ ، وتواصوا بما هو حَسَنٌ وجميلٌ ، وتواصوا بالصبر .

وفي بعض التفاسير: قوله: ﴿ الذين آمنوا ﴾ يعني أبا بكر، ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ : يعني عمر.

و﴿ تواصوا بالحقِّ ﴾ يعني عثمان، و ﴿ تواصوا الصبر ﴾ يعني عليًّا -رضي الله عنهم أجمعين.

والخسرانُ الذي يلحق الإنسان على قسمين: في الأعمال ويتبيَّن ذلك في المآل، وفي الأحوال ويتبيَّن ذلك في الوقت والحال؛ وهو القبضُ بعد البسط، والحجبةُ بعد القربة، والرجوعُ إلى الرُّخَصِ بعد إيثار الأَشَقِّ والأَوْلَى.

﴿ وتواصوا بالحقِّ ﴾ : وهو الإيثارُ مع الخَلْق، والصدقُ مع الحقِّ.

﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ : على العافية... فلا صبرَ أَتَمُّ منه.

ويقال: بالصبر مع الله.. وهو أشدُّ أقسام الصبر. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 764. 765﴾

(142/830)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة:

سورة العصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا بِالْحَقِّ وَتَواصَوْا بِالصَّبْرِ (3)

الإعراب :

(والعصر) متعلّق بفعل محذوف تقديره أقسم (اللام) لام القسم عوض من المزحلقة (إلّا) للاستثناء (الذين) موصول في محلّ نصب على الاستثناء (بالحقّ) متعلّق بـ (تواصوا) ، (بالصبر) متعلّق بـ (تواصوا) الثاني جملة : " (أقسم) بالعصر ... " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " إنّ الإنسان لفي خسر ... " لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " آمنوا ... " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " عملوا ... " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " تواصوا (الأولى) " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " تواصوا (الثانية) " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

الصرف :

(العصر) ، اسم بمعنى الدهر أو بمعنى الوقت الذي بعد الزوال إلى الغروب ، أو بمعنى صلاة العصر ، وزنه فعل بفتح فسكون .

الفوائد :

- (ال) (الجنسية) و(ال) (العهدية) :

(ال) (الجنسية) : إما لاستغراق الأفراد ، كقوله تعالى (إن الإنسان لفي خسر) أي جميع جنس الإنسان .

أو لاستغراق خصائص الأفراد ، مثل : (زيد الرجل كرما) أي الكامل في صفة الكرم .

و(ال) العهدية : إما أن يكون معهودها مصحوبا ذكريا ، كقوله تعالى (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول) ، أو معهودا ذهنيا : كقوله تعالى (إذ هما في الغار) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 400. 401 ﴾

(143/830)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(103) سورة العصر

مكيّة وآياتها ثلاث

[سورة العصر (103) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَتَواصَوْا

بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)

اللغة :

(الْعَصْرِ) قال في القاموس " العصر مثلثة وبضمتين الدهر والجمع أعصار وعصور وأعصر وعصر والعصر اليوم والليلة والعشي إلى احمرار الشمس ويحرّك والغداة والحبس والرهط والعشيرة والمطر من المعصرات والمنع والعطية ، عصره يعصره وبالتحريك الملجأ والمنجاة كالعصر بالضم " إلى آخر هذه المادة الطويلة فإن قلت ما المراد به هنا ؟

قال ابن عباس : هو الدهر ، أقسم به تعالى لما في مروره من أصناف العجائب وقال قتادة العصر العشي أقسم به كما أقسم بالضحى لما فيهما من دلائل القدرة وقيل العصر اليوم والليلة ومنه قول حميد بن ثور :

ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

وقال مقاتل العصر الصلاة الوسطى أقسم بها وبهذا القول بدأ الزمخشري قال " لفضلها "

قال ابن خالويه : " وقرأ سلام أبو المنذر والعصر بكسر الصاد والراء وهذا إنما يكون في نقل الحركة عند الوقف كقولك مررت ببكر تعلو كسرة الراء إلى الكاف عند الوقف وكذلك يفعلون في المرفوع ولا ينقلون في المنصوب إلا في ضرورة شاعر . قال سيبويه : الوقف على الاسم بستة أشياء : بالإشمام والإشباع ، وروم الحركة ، ونقل الحركة ، والتشديد ، والإسكان " ونقول الإشمام ضم الشفتين بعد الإسكان في المرفوع والمضموم للإشارة إلى

الحركة من صوت والغرض به الفرق الساكن والمسكن في الوقف ، والروم هو أن تأتي بالحركة مع إضعاف صوتها والغرض به هو الغرض بالإشمام إلا أنه أتم في البيان من الإشمام فإنه يدركه الأعمى والبصير والإشمام لا يدركه إلا البصير .

(144/830)

(الْإِنْسانَ) لفظ يقع للذكر والأنثى من بني آدم وربما أنّث العرب فقالوا إنسان وإنسانة قال :

إنسانة تسقيك من إنسانها خمرا حلالا مقلتاها عنبه

وال فيه لاستغراق الجنس فيشمل المؤمن والكافر بدليل الاستثناء .

(خُسْرٍ) غبن ، والخسر والخسران سواء قال في المصباح : " خسر في تجارته خسارة بالفتح وخسرا وخسرانا ويتعدى بالهمزة فيقال أخسرته فيها وخسر خسرا وخسرانا أيضا : هلك " .

الإعراب :

(وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ) الواو حرف قسم وجر والعصر مجرور بواو القسم والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف وجملة إن الإنسان إلخ جواب القسم لا محل لها وإن واسمها واللام المزحلقة وفي خسر خبر إن (إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) إلا أداة استثناء والذين مستثنى من الإنسان لأنه اسم جنس كما تقدم وجملة آمنوا صلة لا محل لها وعملوا الصالحات عطف على آمنوا وتواصوا بالحق عطف أيضا أي أوصى بعضهم بعضا وهو فعل ماض مبني على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والواو فاعل ، وتواصوا بالصبر عطف أيضا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 571. 573﴾

(145/830)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الهمزة)

(146/830)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الهمزة

مقصودها بيان الحزب الأكبر الخاسر الذي أهاه التكاثر ، فبانت خسارته يوم القارعة الخافضة الرافعة ، واسمها الهمزة ظاهر الدلالة على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 525 ﴾

(147/830)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . ويل لكل همزة)

السّورة مكِّيّة .

آياتها تسع إِجماعًا .

وكلماتها ثلاث وثلاثون .

وحروفها مائة وثلاثون .

فواصل آياتها على الهاءِ .

سمّيت سورة الهُمَزة ، لمفتتحها ، وسورة الحُطَمَة ؛ لذكرها فيها .

معظم مقصود السّورة : عقوبة العَيّاب المغتاب ، وذمّ جَمْعِ الدّنيا ومنعه وبيان صعوبة

العقوبة فى قوله : ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِ﴾ .

السّورة محكمة .

ومن (المتشابه) : (الذى جمع فيه اشتباه ويحسن الوقف على (لُمَزة) حيث لم يصلح أَن يكون (الذى) وصفا له ، ولا بدلاً عنه .

ويجوز أضن يكون رفعًا بالابتداءِ (يحسب) خبره ، ويجوز أن يرفع بالخبر أَى هو الذى جَمَع .

ويجوز أَن يكون نصبًا على الذمّ ، بإِضمار أَعنى, ويجوز أَن يكون جرّا بالبدل من قوله : (كلّ) .

فضل السّورة

فيه أَحاديث ضعيفة .

منها حديث أُبىّ : من قرأَها أُعطِى من الأَجر عشر حسنات بعدد من استهزأَ بمحمّد - صلَّى الله عليه وسلَّم - وأَصحابه ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها فكأَنَّما تصدّق بوزن جبَل أُحُد ذهبا فى طاعة الله ، وأَعطاه الله بكلّ آية قرأَها ستّمائة حسنة . انتهى انتهى . اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 543﴾

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الهمزة

سميت هذه السورة في المصاحف ومعظم التفاسير سورة الهمزة بلام التعريف ، وعنونها في صحيح البخاري ﴿ وبعض التفاسير : (سورة ويل لكل هُمزة) . وذكر الفيروز آبادي في (بصائر ذوي التمييز) أنها تسمى (سورة الحطمة) لوقوع هذه الكلمة فيها .

وهي مكية بالاتفاق .

وعدت الثانية والثلاثين في عداد نزول السور نزلت بعد سورة القيامة وقبل سورة المرسلات .

وآيها تسع بالاتفاق .

روي أنها نزلت في جماعة من المشركين كانوا أقاموا أنفسهم لِلَمز المسلمين وسَبهم واختلاق الأحدوثات السيئة عنهم . وسُمي من هؤلاء المشركين : الوليدُ بن المغيرة المخزومي ، وأمية بن خلف ، وأبيّ بن خلف ، وجميل بن مَعْمر من بني جُمَح (وهذا أسلَم يوم الفتح وشهد حُنيناً) والعاص بنُ وائل من بني سهم . وكلهم من سادة قريش . وسُمي الأسودُ بن عبد يغوث ، والأخنسُ بن شَرِيق الثقفيان من سادة ثقيف أهل الطائف . وكل هؤلاء من

أهل الثراء في الجاهلية والازدهاء بثرائهم وسؤددهم . وجاءت آية السورة عامة فعم حكمها المسمَّيْنَ ومن كان على شاكلتهم من المشركين ولم تذكر أسماؤهم .

أغراضها

فغرض هذه السورة وعيد جماعة من المشركين جعلوا هَمز المسلمين ولمزهم ضرباً من ضروب أذاهم طمعاً في أن يُلجئهم الملل من أصناف الأذى ، إلى الانصراف عن الإسلام والرجوع إلى الشرك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 535.536 ﴾

(149/830)

وقال الشيخ الصابوني :

سورة الهمزة

مكية وآياتها تسع آيات

بين يدي السورة

* سورة الهمزة مكية ، وقد تحدثت عن الذين يعيبون الناس ، ويإليلون أعراضهم ، بالطعن والإنتقاص ، والازدراء ، وبالسخرية والإستهزاء فعل السفهاء [ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده]

*كما ذمت الذين يشتغلون بجمع الأموال ، وتكديس الثروات ، كأنهم مخلدون في هذه الحياة ، يظنون لفرط جهلهم وكثرة غفلتهم أن المال سيخلدهم في الدنيا [يحسب أن ماله أخلده] .

*وختمت السورة بذكر عاقبة هؤلاء التعساء الأشقياء ، حيث يدخلون نارا لا تخمد أبدا ، تحطم المجرمين ومن يلقى فيها من البشر ، لأنها الحطمة نار سقر ! ! [كلا لينبذن في الحطمة وما أدراك ما الحطمة ؟] إلى نهاية السورة الكريمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 602 ﴾

(150/830)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الهمزة

ويل : أي خزى وعذاب ، وهو لفظ يستعمل فى الذم والتقبيح والمراد به التنبيه على قبح ما سيذكر بعد من صفاتهم ، والهمزة للمزة : الذي يطعن فى أعراض الناس ويظهر عيوبهم ويحقّر أعمالهم ، تلذذا بالحط منهم وترفعا عنهم وأصل الهمز : الكسر يقال همز كذا : أي

كسره ، وأصل اللمز الطعن ، يقال لمزه بالرمح : أي طعنه ثم شاع استعمالها فيما ذكرنا ،

قال زياد الأعجم :

إذا لقيتك عن شحط تكاشرنى وإن تغيبت كنت الهامز اللمزه

وعن مجاهد وعطاء : الهمزة الذي يغتاب ويطعن فى وجه الرجل ، واللمزة :

الذي يغتاب من خلفه إذا غاب ، ومنه قول حسان :

همزتك فاختضعت بذلّ نفس بقافية تأجّج كالشواظ

عدّده : أي عده مرة بعد أخرى شغفا به ، أخلده : أي ضمن له الخلود فى الدنيا ، والنبذ :

الطرح مع الإهانة والتحقير ، والحطمة : من الحطم وهو الكسر ، يقال رجل حطمة إذا كان

شديدا لا يبقى على شىء .

وفى أمثالهم : شرّ الرّعاء الحطمة : أي الذي يحطم ما شيته ويكسرها بشدة سوقها قال :

قد لفّها الليل بسواق حطم ليس براعي إبل ولا غنم

ولا بجزّار على ظهر وضم

والمراد بها النار ، لأنها تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب ، تطّلع على

الأفئدة : أي تعلو أوساط القلوب وتغشاها ، مؤصدة : أي مطبقة من أوصدت الباب : أي

أغلقته قال :

تحنّ إلى أجبال مكة ناقتى ومن دونها أبواب صنعاء موصده

والعمد : واحدها عمود ، وممدّدة : أي مطولة من أول الباب إلى آخره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 237 . 238 ﴾

(151/830)

وقال الفراء :

سورة (الهمزة)

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . . . ﴾ .

وإنما نزلت فى رجل واحد كان يهمز الناس ، ويلمِزهم : يغتابهم ويعيبهم ، وهذا جائز فى العربية أن تذكر الشىء العام وأنت تقصد قصد واحد من هذا وأنت قائل فى الكلام عند قول الرجل : لا أزورك أبدا ، فتقول أنت : كل من لم يزرنى فلست بزائره ، وأنت تريد الجواب ، وتقصد قصده ، وهى فى قراءة عبدالله : "وَيْلٌ لِلْهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ" .

﴿ الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ الَّذِى جَمَعَ مَالاً . . . ﴾ .

ثقّل : جمّع . الأعمش وأبو جعفر المدنى ، وخففها عاصم ونافع والحسن البصرى ،

واجتمعوا جميعا على ﴿ وَعَدَّدَهُ ﴾ بالتشديد ، يريدون : أحصاه. وقرأها الحسن : "وعدَدَه" خفيفة فقال بعضهم فيمن خفف : جمَع مالا وأحصى عدده ، مخففة يريد : عشيرته.

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ... ﴾ .

يريد : يخلده وأنت قائل للرجل : أتحسب أنّ مالك أنجاك من عذاب الله ؟ ما أنجاك من عذابه إلاّ الطاعة ، وأنت تعنى ، ما ينجيك. ومن ذلك قولك للرجل يعمل الذنب المُوبق : دخل والله النار ، والمعنى : وجبت له النار.

﴿ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ... ﴾ .

قرأها العوام : "لَيُنْبذَنَّ" على التوحيد ، وقرأها الحسن البصرى وحده [/ب] "لَيُنْبَذَانّ فِى الحطمة" يريد : الرجل وماله ، والحطمة ، اسم من أسماء النار ، كقوله : جهنم ، وسقر ، ولظى فلو ألقيت منها الألف واللام إذ كانت اسما لم يَجرِ.

﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ... ﴾ .

يقول : يبلغ ألمها الأفئدة ، والاطلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى واحد. العرب تقول : متى

طلعتَ أرضنا ، وطلعتُ أرضى ، أى : بلغت .

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾

(152/830)

وقوله جل وعز : ﴿ مُّؤْصَدَةٌ . . . ﴾ .

وهى المطبَقة ، تهمز ولا تهمز .

﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ . . . ﴾ .

[حدثنا أبو العباس قال : حدثنا محمد] قال : حدثنا الفراء ، قال : حدثنى إسماعيل بن جعفر المدنى قال : كان أصحابنا يقرءون : (فى عَمَد) بالنصب ، وكذلك الحسن .

وحدثنى به الكسائى عن سليمان بن أرقم عن الحسن : (فى عَمَد) .

[حدثنا أبو العباس قال : حدثنا محمد] قال : حدثنا الفراء قال : وحدثنى قيس بن الربيع عن أبى إسحق عن عاصم بن ضمرة السلولى عن على رحمه الله أنه قرأها : "فى عُمُد مُمَدَّدة" .

[حدثنا أبو العباس قال : حدثنا محمد] قال حدثنا الفراء ، قال : حدثنى محمد بن الفضل

عن عطاء عن أبى عبد الرحمن عن عبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت أنهما قرآ : "فى عُمُد مُمَدَّدَة" . قال الفراء : والعُمُد ، والعَمَد جمعان للعمود ، مثل : الأديم ، والأُدُم ، والأَدَم ، وَالإهَاب ، والأُهُب ، والأَهَب ، والقضيم والقَضَم والقُضُم ويقال : إنها عُمُد من نار .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 289 . 291 ﴾

(153/830)

وقال الأخفش :

سورة (الهمزة)

﴿ الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾

قال ﴿ جَمَعَ ﴾ و ﴿ جمعَ مَالاً وعَدَّدَهُ ﴾ من "العِدَّة" .

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾

[وقال] ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ ﴿ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ أي : هو وماله .

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾

وقال ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ من "أَأْصَدَ" "يُؤصِدُ" وبعضهم يقول : "أُوْصِدَتْ" فذلك لا يهمزها

مثل "أَوْجَعَ" فهو "مُوجع" ومثله "اأُكَفَ" و"أَوْكَفَ" يقالان جميعا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 584 ﴾

(154/830)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الهمزة «1»

1 - (الهمزة) : العيّاب والطّعّان . و(و اللمزة) مثله . وأصل «الهمز» و«اللّمز» : الدّفع .

4 - لَيُنْبَذَنَّ : ليطرحنّ .

7 - الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ مبين في كتاب «المشكل» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 470 ﴾

---

(1) هي مكية بالإجماع .

(155/830)

وقال الغزنوى:

[سورة الهمزة]

«الهمزة» «1» : الهمز باليد والعين، واللّمز باللّسان «2» . وقيل «3» : الهمز في الوجه واللّمز في القفا.

---

(1) في قوله تعالى: وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ [آية: 1] .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره: (30/ 292، 293) عن مجاهد، وابن زيد.

(3) أخرجه الطبري في تفسيره: 30/ 292، عن أبي العالية، ونقله ابن الجوزي في زاد المسير:

9/ 227 عن الحسن، وعطاء بن أبي رباح، وأبي العالية، وكذا القرطبي في تفسيره: 20/ 181. [.....]

(156/830)

---

2 وَعَدَّدَهُ: للدهور من غير أداء حق اللّه تعالى «1» .

4 الْحُطَمَةِ: كثير الحطم، وهو الأكل هنا «2» ، وفي الحديث «3» : «شر الرعاء

الحطمة» وهو العنيف بالمال .

9 فِي عَمَدٍ : أي : بعمد «4» .

أوصدت «5» وأغلقت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 890 .

891 ﴾

---

(1) ينظر تفسير الطبري : 30/ 293 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 361 ، وزاد المسير :

9/ 229 .

(2) تفسير البغوي : 4/ 524 ، والكشاف : 4/ 284 ، واللسان : 12/ 138 (حطم) .

(3) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه : 3/ 1461 حديث رقم (1830) كتاب الإمارة ، باب «فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر . . .» عن عبيد اللّه بن زياد مرفوعا .

وانظر غريب الحديث لابن قتيبة : (1/ 587 ، 588) ، والنهاية لابن الأثير : 1/ 402 .

(4) فالفاء هنا بمعنى الباء كما في تفسير الطبري : 30/ 295 ، وزاد المسير : 9/ 230 ، وتفسير القرطبي : 20/ 185 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الهمزة عد 32 - 104

نزلت بمكة بعد القيامة ، وهي تسع آيات وثلاثون كلمة ، ومائة وثلاثون حرفا ، ويوجد سورة المطففين مبدوءة بما بدئت به فقط ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى "وَيْلٌ" هلاك وقبح وحسرة وندامة وذم وسخط ، وأصله (وي لفلان) فكثر استعمالها فوصلت والويل جبل أو واد في جهنم "لِكُلِّ" ذي "هُمَزَةٍ" هي كالهزم الكسر بالعين أو بإحدى الجوارح "لُمَزَةٍ 1" هي كالهمز الطعن في عرض الناس وكل ما من شأنه أن يعيبهم بمواجهتهم أو بغيابهم وقيل الهمز يكون باللسان والرأس واللمز بالعين والحاجب وعلى كل فكل إشارة أو لفظ ما من شأنه إفادة القدح في الناس أو ذمهم داخل في هذا .

قال الشاعر :

إذ لقيتك عن سخط تكاشرني وان تغيبت كنت الهامز اللمزا

ومنه : تشير فأدري ما تقول بطرفها وأطرق طرفي عند ذاك فتفهم

حواجبنا تقضي الحوائج بيننا فنحن سكوت والهوى يتكلم

وقدمنا في تفسير الآية 11 من سورة القلم ما يتعلق بهذا وله صلة في الآية 11 من سورة الحجرات في ج 3 .

قال أبو الجوزاء لابن عباس من هؤلاء الذين ذمهم اللّه بالويل قال المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الاحبة ، الناعتون الناس بالمعيب وتتناول كل من يعيب الناس بما يفعلونه جهرا أو بظهر الغيب أو ما يبطنونه ولذلك قال تعالى :

(158/830)

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ "الَّذِي جَمَعَ مالًا وَعَدَّدَهُ 2" مرّة بعد أخرى حبا له وشعفا به ولذلك يستصغر الناس ويهزأ بهم فيهمز هذا ويلمز ذاك ، وينم على ذلك ويعيب الآخر "أَيَحْسَبُ" هذا للعجب بنفسه "أَنَّ مالَهُ" المتكبر به جعله يسخر بالناس أو أنه "أَخْلَدَهُ 3" في هذه الدنيا أيضا ويحسب انه لا يموت ولا يبعث ولا يحاسب ولا يقاص "كَلَّا" لا يظن ذلك إذ لا حقيقة لهذا الحسبان فلا شيء يخلد في الدنيا ، ولا يبقى شيء بلا جزاء ، على أن الذي يخلد الذكرى يتوقع منه الخير ، هو العمل الصالح ، قال علي كرم اللّه وجهه : مات خزّان المال

وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر .

ثم أقسم جل شأنه فقال : "لَيُنْبَذَنَّ" ليقذفن هذا الخبيث واضرابه "فِي الْحُطَمَةِ 4" الدركة الثانية في النار ، وسميت حطمة لأنها تحطم العظام لأول وهلة "وَمَا أَدْرَاكَ" أيها الإنسان "مَا الْحُطَمَةُ 5" شيء عظيم هي لا ينالها عقلك ، وفيها تهويل وتفظيع لأمرها ، لأنها هي "نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ 6" التي لا تخمد أبدا ، فويل لك أيها العياب الطّعان المتعظم على الناس بالمال منها ، فإنها لشدة إحراقها "تَطَّلِعُ" حال القائك فيها وأمثالك "عَلَى الْأَفْئِدَةِ 7" فيصل ألمها للقلوب لأنها موطن الكفر والنيات السيئة والعقيدة الفاسدة ، أي أن هذه النار تدخل من أفواه المعذبين فتصل إلى صدورهم ، فتصلي أفئدتهم من غير أن تحرقها لأنها لو حرقت لماتوا .

والنار كالجنة لا موت فيها كما مر في الاية (13) من سورة الأعلى ، وإنما خصّ الأفئدة حيث لا ألطف منها في الوجود ، وألمها أشد من غيرها لأنها حساسة ، فتتألم بأدنى أذى يصيبها حتى الخطرة ، فكيف إذا أحاطت بها النار والعياذ باللّه .

قال صلّى اللّه عليه وسلم : إن النار تأكل أهلها حتى إذا طلعت على أفئدتهم انتهت ، ثم ان اللّه تعالى يعيد لحمهم وعظامهم مرة أخرى .

وهكذا دواليك ، راجع تفسير الآية 55 من سورة النساء في ج 3 "إِنَّها" أي الحطمة تكون "عَلَيْهِمْ" أي جماعة الكفر كلهم ، وذلك لأن النكرة إذا اختصت عمّت "مُؤْصَدَةٌ 8" مغلقة مطبقة قال :

تحنّ إلى جبال مكة ناقتي ومن دونها أبواب صنعاء مؤصده

وقال الآخر :

قوما يعالج حملها أبناؤهم وسلاسلا ملسا وبابا مؤصدا

وذلك الإيصاد في "عَمَدٍ" غلاظ عظام من وراء أبوابها "مُمَدَّدَةٍ 9" توصد عليها بها ، فلا يمكن أن يفتح بابها ، ولا يدخل عليها روح.

وقرىء عمد بضمتين وبفتح العين مع كسر الميم مثل أرم وأرم وأريم ، وعقم وعقم وعقيم ، وهو كل مستطيل من حجر أو خشب أو حديد ، وهو جمع عمود على غير واحد ، أما ما يجمع على واحد فهو ما ينظم مثل رسل جمع رسول ، وزبر جمع زبور ، سبل جمع سبيل .

وجاء بهذا اللفظ لأن العرب اعتادوا أن يضعوا أحجارا أو أعمدة مستطيلة وراء الباب لئلا تفتح بالدفع جريا على عاداتهم فيدخلون أطرافها بشعوب يجعلونها في ساريتي الباب من الداخل ، وإن الأبواب القديمة التي رأيناها في حلب والشام ودرعا وتدمر وبصرى كانت توصد على هذه الطريقة .

وفي جهتي الباب من الداخل ثقوب لإدخال العمد فيها ، ومنها ما هو موجود حتى الآن ، ولكن لا قياس بين الأحجار والعمد التي يجعلها الناس ، وبين العمد التي يجعلها ربهم .

مطلب الكهرباء من الخوارق :

ويؤخذ من هذا لا من حيث التأويل ، بل من حيث نفوذ النور ما أحدث في هذا الزمان الكهرباء وما يسمونه (أشعة رونتجن) إذ أن نورها يطلع على الافئدة وغيرها ، ويبين ما فيها ويصورها فيظهر للرائي سلامة الأفكار والأعضاء ومعايبها .

وما ندري ما يظهر لنا الزمن من أسرار هذا القرآن الذي قال عنه منزله (ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) الآية 38 من الأنعام في ج 2 .

وأشار حيث أشارته في الآية 24 من سورة يونس في ج 2 أيضا ، بأن أهل الدنيا يقدرون بتقدير اللّه على كل ما يتعلق بأمرها ، وإن أعمالهم التي ظهرت الآن من طائرات سريعة الطيران وقاذفات تمحق المدن فضلا عن المذياع وشبهه والأوائل التي ينوب عمل يوم منها عن عمل شهر وأشهر تشير إلى قرب الساعة واللّه أعلم .

نزلت هذه السورة في الأخنس بن شريق لكونه اعتاد الغيبة والنميمة والوقيعة في أعراض

الناس ، إلا أن الوعيد فيها عام يتناول كل من يباشر ذلك الفعل القبيح لعموم اللفظ لا لخصوص السبب .

وقد وردت أحاديث كثيرة في النهي عن الغيبة والنميمة والهمز واللمز سنأتي عليها عند كل بحث يتعلق بها .

حفظنا الله منها ، هذا والله أعلم ، واستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى ، الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين آمين . انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 247. 250 ﴾

(161/830)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الهمزة

مكية أو مدنية

أخلده تام ويكون كلا بمعنى إلا ويجوز الوقف على كلا بمعنى النفي في الحطمة كاف وما

أدراك ما الحطمة أكفى منه ويبتدئ نار الله بتقدير يرهى نار الله على الافئدة صالح آخر السورة تام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ المقصد ص ﴾

(162/830)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الهمزة

مكية أو مدنية

لمزة (حسن) إن رفع ما بعده خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي جمع أو نصب على الذم

وليس بوقف إن جعل بدل معرفة من نكرة قرأ الأخوان وابن عامر جمع بتشديد الميم

والباقون بتخفيفها

وعدده (كاف) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل حالاً من فاعل جمع

أخلده كلا (تام) لأنّ كلا هنا حرف ردع وزجر عن حسبانه الفاسد فهي بمعنى النفي أي لا

يخلده ماله

في الحطمة (كاف)

ما الحطمة (أكفى) مما قبله ويبتدئ نار الله بتقدير هي نار الله والوقف على الموقدة قبيح

لأنَّما بعده صفة والصفة والموصوف كالشيء الواحد

الأفئدة (صالح)

مؤصدة ليس بوقف لأنَّما بعده صفة لنار الله قرأ الأخوان وأبو بكر عمد بضمتين

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(163/830)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة الهمزة

مكية وآيها تسع مشبه الفاصلة موضع (همزة)

واختلف في (جمع) الآية 4 فابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وروح وخلف

بتشديد الميم على المبالغة وافقهم الأعمش والباقون بتخفيفها وعن الحسن وعدده

بتخفيف الدال الأولى أي وجمع عدد ذلك المال وفتح سين يحسب ابن عامر وعاصم

وحمزة وأبو جعفر عن ابن محيصن والحسن لينبذان بألف وكسر النون على التثنية أي هو

وماله ومر إمالة أدراك قريبا

وقرأ (مؤصدة) لآية 8 بالهمز أبو عمرو وحفص وحمزة ويعقوب وخلف والباقون بالواو كوقف حمزة وسبق في سورة البلد

واختلف في (عمد) الآية 9 فأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف بضم العين والميم جمع عمود كرسول ورسل أو عماد ككتاب وكتب وافقهم الحسن والأعمش والباقون بفتحتين فقيل اسم جمع كعمود وقيل بل هو جمع له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(164/830)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الهمزة "

" جمع " شدد الميم الشامي والأخوان وخلف وروح وأبو جعفر وخففها الباقون .

" يحسب " عليهم . مؤصدة . تقدم كله في سورة البلد .

" الأفئدة " لحمزة فيه وقفا نقل حركة الهمزة إلى الفاء مع حذف الهمزة على كل من السكت والنقل في لام التعريف .

"عمد " قرأ شعبة والأخوان وخلف بضم العين والميم والباقون بفتحهما . انتهى ا . هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 356 . 357 ﴾

(165/830)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الهمزة

قوله تعالى ﴿ الذي جمع مالا ﴾ يقرأ بتشديد الميم وتخفيفها فالحجة لمن شدد انه اراد تكرار الفعل ومداومة الجمع والحجة لمن خفف انه اراد جمعا واحدا لمال واحد

قوله تعالى ﴿ مؤصدة ﴾ يقرأ بالهمز وتركه وقد ذكرت علته في سورة البلد

قوله تعالى ﴿ في عمد ﴾ يقرأ بضم العين والميم وفتحهما فالحجة لمن ضم انه جعله جمع عماد فقال عمد ودليله جدار جدر والحجة لمن فتح انه جعله جمع عمود فقال عمد كما قالوا اديم وادم وافيق وافق فإن قيل فإن ذلك بالواو وهذان بالياء فكيف اتفقا فقل لاتفاق حروف المد واللين في موضع واحد الا ترى انك تقول فراش وفرش وعمود وعمد وسرير

وسرر فيتفق لفظ الجمع وان كانت ابنية الواحد مختلفة لاتفاق حروف المد واللين في موضع واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الحجة فى القراءات السبعة صـ 375﴾

وقال ابن زنجلة :

104 - سورة الهمزة

الذي جمع مالا وعدده 52

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي جمع مالا بالتشديد لتكرير الفعل لأنه جمعه من ها هنا وها هنا لم يجمعه في يوم ولا يومين ولا شهر ولا شهرين ولا سنة ولا سنتين وأخرى وهي أنه أتى عقيبه فعل مشدد فشدد الميم إذ أتى في سياقه ليأتلف الكلام على نظام واحد فشدد جمع لتشديد عدده إذ لم يقل عده

وقرأ الباقون جمع بالتخفيف من جمعت جمعا وحجتهم إجماع الجميع في قوله خير مما يجمعون فإلحاق ما اختلفوا فيه بما أجمعوا عليه أولى

في عمد ممددة

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر في عمد بضم العين والميم وقرأ الباقون بنصبهما

فمن ضم فلأنه جمع عمود عمد نحو صبور وصبر ويقال واحدها عماد كما تقول حمار وحمر وإهاب وأهب ومن قرأ عمد قالوا واحدها عمدة كما تقول بقرة وبقر وثمرة وثمر وعمدة وعمد قالوا في جمع عمود عمد وقالوا أيضا أفيق وأفق وأديم وأدم وعمود وعمد وهذا اسم من أسماء الجمع غير مستمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 772. 773﴾

(167/830)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الهمزة 104

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير المدني الأول والكوفي ولا نظير لها فيهما

وكلمها ثلاث وثلاثون كلمة

وحروفها مئة وثلاثة وثلاثون حرفا

وهي تسع آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف ورؤوس الآي

لمزة

1 وعدده

2 أخلده

3 الحطمة

4 الحطمة

5 الموقدة

6 الأفئدة

7 مؤصدة

8 ممددة

9 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 288 ﴾

(168/830)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الحطمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الهاء في الهمزة واللمزة للمبالغة ، و (الذى) يحتمل الجر على البدل ، والنصب على إضمار أعنى ، والرفع على هو ، و (عدده) بالتشديد على أنه فعل إما من العدد أو الأعداد ، و (يحسب) حال من الضمير في جمع ، و (أخلده) بمعنى يخلده ، وقيل هو على بابه : أي أطال عمره .

قوله تعالى (لينبذن) أي الجامع ، وينبذان : أي هو وماله ، وينبذن بضم الذال : أي هو وماله أيضا وعدده ، ويجوز أن يكون المعنى هو وأمواله لأنها مختلفة .

قوله تعالى (نار الله) أي هي نار الله ، و (التى) رفع على النعت ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو في موضع نصب بأعنى ، و (الأفئدة) جمع قلة استعمل في موضع الكثرة .

والعمد بالفتح جمع عمود أو عماد وهو جمع ، قيل ويقرأ بضمتين مثل كتاب وكتب ورسول ورسل ، والتقدير : هم في عمد ، ويجوز أن يكون حالا من المجرور أي موثقين ، ويجوز أن يكون صفة لمؤصدة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الهمزة

[سورة الهمزة (104) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1)

"وَيْلٌ" مبتدأ مرفوع "لِكُلِّ" خبره "هُمَزَةٍ" مضاف إليه "لُمَزَةٍ" بدل منه والجملة ابتدائية لا محل لها .

[سورة الهمزة (104) : آية 2]

الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ (2)

"الَّذِي" اسم موصول بدل كل من كل "جَمَعَ" ماض فاعله مستتر "مالًا" مفعول به والجملة صلة "وَعَدَّدَهُ" معطوف على ما قبله .

[سورة الهمزة (104) : آية 3]

يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ (3)

"يَحْسَبُ" مضارع فاعله مستتر "أَنَّ مالَهُ" أن واسمها "أَخْلَدَهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر أن والمصدر المؤول من أن وما بعدها سد مسد مفعولي يحسب وجملة يحسب . . حال .

[سورة الهمزة (104) : آية 4]

كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4)

"كَلَّا" حرف ردع وزجر "لَيُنْبَذَنَّ" اللام واقعة في جواب قسم محذوف ومضارع مبني للمجهول مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ونائب الفاعل مستتر والجملة جواب القسم لا محل لها "فِي الْحُطَمَةِ" متعلقان بما قبلهما .

[سورة الهمزة (104) : آية 5]

وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ (5)

انظر سورة القارعة الآية رقم - 3 - .

[سورة الهمزة (104) : آية 6]

نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6)

"نارُ اللَّهِ" خبر لمبتدأ محذوف ولفظ الجلالة مضاف إليه "الْمُوقَدَةُ" صفة نار والجملة بدل من الحطمة .

[سورة الهمزة (104) : آية 7]

الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7)

"الَّتِي" اسم موصول صفة نار "تَطَّلِعُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "عَلَى الْأَفْئِدَةِ" متعلقان بالفعل .

[سورة الهمزة (104) : آية 8]

إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8)

"إِنَّها" إن واسمها "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالخبر "مُؤْصَدَةٌ" خبر والجملة الاسمية حال.

[سورة الهمزة (104) : آية 9]

فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)

"فِي عَمَدٍ" الجار والمجرور صفة مؤصدة "مُمَدَّدَةٍ" صفة عمد. انتهى انتهى. اهـ

﴿ إعراب القرآن / لدعاس جـ 3 صـ 468 ﴾

(170/830)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةُ الْهمزَة

1534 - عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْهمزَة أعطَاهُ الله عشر حَسَنَات بِعَدَد من اسْتَهْزَأَ بِمُحَمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابه

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أَخْبرنِي أَبُو الْحسن مُحَمَّد بن الْقَاسِم الْفَارِسِي ثَنَا أَبُو عَمْرو إِسْمَاعِيل

بن نجيد ثَنَا أَبُو عبيد الله مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم بن سعيد البوسنجي ثَنَا سعيد ابْن حَفْص قَالَ

قَرَأت عَلَى معقل بن عبيد الله عَن عِكْرِمَة بن خَالِد عَن سعيد ابْن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس عَن

أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَرَأَ سُورَة ويل لكل همزَة لمزَة

أعطي من الْأجر . . . إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث

والآثار حـ 4 صـ 285 ﴾

(171/830)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة الهمزة» (104)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«هُمَزَةٍ» (1) الهمزة الذي يغتاب [الناس] ويغضّهم «1» . قال الأعجم :

تدلى بودّي إذا لا قيتنى كذبا وإن أغيّب فأنت الهامز الّلمزه

«2» [294].

«وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ» (5) فسّرها فقال.

«نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ» (6) ويقال للرجل الأكول. إنه لحطمة..

«مُؤْصَدَةٌ» (8) مطبقة..

«فِي عَمَدٍ» (9) وفى عمد جمع العماد «3». انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 2 صـ 311 ﴾

---

(1). - 3 «يغتاب... يغضهم»: من اللسان. [.....]

(2). - 294: وانظر أيضا الطبري 30/ 161 والقرطبي 20/ 182 واللسان (همز) وشواهد الكشاف 142.

(3). - 8 «عمد جمع العماد»: رواه القرطبي 20/ 186]

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى:

سورة الهمزة

من الحروب التى شنها المجرمون على أصحاب الإيمان حرب السخرية والاستهزاء " إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون " . وقد نظمت هذه الحرب فى العصور الأخيرة وتخصصت لها صحف ! وعند نزول الوحى ، كان القاعدون الواجدون من أثرياء مكة وغيرهم ، يعقدون المجالس اللاهية ويتناولون المسلمين بالغمز واللمز ، فنزلت هذه السورة " ويل لكل همزة لمزة * الذي جمع مالا وعدده * يحسب أن ماله أخلده " . والهمز واللمز تناول الغير بالإشارة أو العبارة ، تارة بالكلام ، وتارة بحركة العين والشفتين ، وفى بعض الصحف بالرسم الهزلى واختلاق حركات ذات سخف . وهؤلاء الساخرون أهل بطالة يعيشون فى ظلال أموالهم أو مما تصرفه لهم جهات مريبة . الويل لهؤلاء فى الدنيا والآخرة . يقول الله فى هذا الساخر : "كلا لينبذن في الحطمة * وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة" . أى تكوى القلوب " إنها عليهم مؤصدة " . كالعلبة المغلقة على ما بها . "في عمد ممددة" . قاعدة هذا السجن أعمدة ذاهبة فى الطول ينتشر العذاب فيها كلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 540﴾

قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي له تمام العز وهو الحكم العدل (الرحمن) الذي عم ظاهر نعمته أهل البخل وأولي البذل (الرحيم) الذي أتم نعمته على من شاء من عباده فخصهم بالفضل .

لما بين الناجين من قسمي الإنسان في العصر ، وختم بالصبر ، حصل تمام التشوف إلى أوصاف الهالكين ، فقال مبيناً لأضلهم وأشقاهم الذي الصبر على أذاه في غاية الشدة ليكون ما أعد له من العذاب مسلاة للصابر : ﴿ ويل ﴾ أي هلاك عظيم جداً ﴿ لكل همزة ﴾ أي الذي صار له الهمز عادة لأنه خلق ثابت في جبلته وكذا ﴿ لمزة ﴾ والهمز الكسر كالهزم ، واللمز الطعن - هذا أصلهما ، ثم خصا بالكسر من أعراض الناس والطعن

فيهم ، وقال ابن هشام في تهذيب السيرة : الهمزة الذي يشتم الرجل علانية ، ويكسر عينيه عليه ويهمز به ، واللمزة الذي يعيب الناس سراً – انتهى .

وقال البغوي : وأصل الهمز الكسر والعض على الشيء بالعنف ، والذي دل على الاعتياد صيغة فعل بضم وفتح كما يقال ضحكة للذي يفعل الضحك كثيراً حتى صار عادة له وضرى به ، والفعلة بالسكون للمفعول وهو الذي يهمزه الناس ويلمزونه ، وقرىء بها وكأنه إشارة إلى من يتعمد أن يأتي بما يهمز به ويلمز به فيصير مسخرة يضحك منه – والله أعلم .

(175/830)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما قال سبحانه وتعالى ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ أتبعه بمثال من ذكر نقصه وقصوره واغتراره ، وظنه الكمال لنفسه حتى يعيب غيره ، واعتماده على ما جمعه من المال ظناً أنه يخلده وينجيه ، وهذا كله هو عين النقص ، الذي هو شأن الإنسان ، وهو المذكور في السورة قبل ، فقال تعالى ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ فافتتحت السورة بذكر ما أعد له من العذاب جزاء له على همزه ولمزه الذي أتم حسده ، والهمزة العياب الطعان واللمزة مثله ، ثم ذكر تعالى ماله ومستقرة بقوله : ﴿ لينبذن في الحطمة ﴾ أي ليطرحن في النار جزاء له على اغتراره وطعنه – انتهى .

ولما كان الذي يفعل النقيصة من غير حاجة تحوجه إليها أقبح حالاً وكان المتمول عندهم هو الرابح ، وهم يتفاخرون بالربح ويعدون الفائز به من ذوي المعالي ، قال مقيداً ل "كل " بالوصف مبيناً الخاسر كل الخسارة : ﴿ الذي جمع ﴾ ولما كان مطلق الجمع يدل على الكثرة جاء التشديد في فعله لأبي جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي ، وخلت تصريحاً بما علم تلويحاً ودلالة على أن المقصود به من جعل الدنيا أكبر همه ، والتخفيف لمن عداهم اكتفاء بأصل مدلوله بخلاف عدد ، فإن مجرده يكون لما قل ، ولهذا أجمعوا على التضعيف فيه : ﴿ مالاً ﴾ أي عظيماً ، وأكد مراد الكثرة بقوله : ﴿ وعدده ﴾ أي جعله بحيث إذا أريد عدده طال الزمان فيه وكثر التعداد ، أو ادخره وأمسكه إعداداً لما ينوبه في هذه الدنيا المنقضية ، وزاده قيداً آخر في بيان حاله فقال : ﴿ يحسب ﴾ لقلة عقله ﴿ أن ماله ﴾ أي ذلك الذي عدده ﴿ أخلده ﴾ أي أوصله إلى رتبة الخلد في الدنيا ، فأحب ذلك المال كما يحب الخلود ، ويجوز أن يكون ذلك كناية عن أنه عمل - بانهماكه في المعاصي والإعراض عن الله عز وجل والإقبال على التوسع في الشهوات والأعراض الزائلات - عمل من يظن أنه لا يموت ، ويجوز أن يكون استئنافاً ، وفيه تعريض بأنه لا يفيد الخلد إلا الأعمال

الصالحة المسعدة في الدار الآخرة .

ولما كان هذا الحسبان لشدة وهيه وبيان ضعفه لا يحتاج إلى إقامة دليل على فساده ، اكتفى فيه بأداة الردع الجامعة لكل زجر فقال : ﴿ كلا ﴾ أي لا يكون ما حسبه لأنه لا يكون له ما لا يكون لغيره من أمثاله بل يموت كما مات كل حي مخلوق .

(177/830)

ولما كان كأنه قيل : فما الذي يفعل به بعد الموت ؟ قال مقسماً دالاًّ باللام الداخلة على الفعل على القسم : ﴿ لينبذن ﴾ أي ليطرحن بعد موته طرح ما هو خفيف هين جداً على كل طارح كما دل عليه التعبير بالنبذ وبالبناء للمفعول ﴿ في الحطمة ﴾ أي الطبقة من النار التي من شأنها أن تحطم أي تكسر وتهشم بشدة وعنف كل ما طرح فيها فيكون أخسر الخاسرين ، وعبر بها في مقابلة الاستعداد بالمال الحامل على الاستهانة بالخلق ، قال الأستاد أبو الحسن الحرالي : فلمعنى ما يختص بالحكم يسمي تعالى باسم من أسمائها من نحو جهنم فيما يكون مواجهة ومن نحو الحطمة فيما يكون جزاء لقوة قهر واستعداد بعدد ، ونحو ذلك في سائر أسمائها ، وعظم شأنها سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وما أدراك ﴾ أي وأيّ شيء أعلمك ولو بمحاولة منك للعلم واجتهاد في التعرف مع كونك أعلم الخلق ﴿ ما

الحطمة ﴾ أي ما الدركة النارية التي سميت هذا الاسم لهذه الخاصية فإنه ليس في الوجود الذي شاهدتموه ما يقاربها ليكون مثالاً لها ، ثم فسرها بقوله : ﴿ نار الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي عدل المشركون عنه إلى شركائهم ، فعظمة هذه النار من عظمته ، وانتقامه من نقمته ﴿ الموقدة ﴾ أي التي وجد وتحتم إيقادها بإيقاده ، ومن الذي يطيق محاولة ما أوقده؟ فهي لا يزال لها هذا الاسم ثابتاً .

ولما وصف الهامز الهازم ، وصف الحاطم فقال تعالى : ﴿ التي ﴾ ولما كان لا يطلع على أحوال الشيء إلا من قبله علماً قال : ﴿ تطلع ﴾ اطلاعاً شديداً ﴿ على الأفئدة ﴾ جمع فؤاد وهو القلب الذي يكاد يحترق من شدة ذكائه ، فكان ينبغي أن يجعل ذكاءه في أسباب الخلاص ، واطلاعها عليه بأن تعلو وسطه وتشتمل عليه اشتمالاً بالغاً ، سمي بذلك لشدة توقده ، وخص بالذكر لأنه ألطف ما في البدن وأشده تألماً بأدنى شيء من الأذى ، ولأنه منشأ العقائد الفاسدة ومعدن حب المال الذي هو منشأ الفساد والضلال ، وعنه تصدر الأفعال القبيحة .

ولما كان الاطلاع على الفؤاد مظنة الموت، وفي الموت راحة من العذاب، أشار إلى خلودهم فيها وأنهم لا يموتون ولا ينقطع عنهم العذاب، فقال مؤكداً لأنهم يكذبون بها: ﴿إنها﴾ وأشار إلى قهرهم وغلبتهم فقال: ﴿عليهم﴾ وآذن بسهولة التصرف في تعذيبهم وانقطاع الرجاء من خلاصهم بقوله معبراً باسم المفعول: ﴿مؤصدة﴾ أي مطبقة بغاية الضيق، من أوصدت الباب - إذا أطبقته.

ولما كانت عادتهم في المنع من التصرف أن يضعوا خشبة عظيمة تسمى المقطرة فيها حلق توثق فيها الرجل، فلا يقدر صاحبها بعد ذلك على حراك، قال مصوراً لعذابهم بحال من ضمير "عليهم": ﴿في﴾ أي حال كونهم موثقين في ﴿عمد﴾ بفتحتين وبضمتين جمع عمود ﴿ممددة﴾ أي معترضة كأنها موضوعة على الأرض، فهي في غاية المكنة فلا يستطيع الموثق بها على نوع حيلة في أمرها فهو تأكيد ليأسهم من الخروج بالإيثاق بعد الإيصاد، وهذا أعظم الويل وأشد النكال، فقد رجع آخرها إلى أولها، وكان لمفصلها أشد التحام بموصلها - والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب. انتهى انتهى. ا هـ

﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 525.527﴾

(179/830)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

الويل لفظة الذم والسخط ، وهي كلمة كل مكروب يتولون فيدعو بالويل وأصله وي لفلان ثم كثرت في كلامهم فوصلت باللام ، وروي أنه جبل في جهنم إن قيل : لم قال : ههنا : ﴿ وَيْلٌ ﴾ وفي موضع آخر : ﴿ وَلَكُمُ الويل ﴾ [الأنبياء : 18] ؟ قلنا ن : لأن ثمة قالوا : ﴿ يا ويلنا إِنَّا كُنَّا ظالمين ﴾ [الأنبياء : 14] فقال : ﴿ وَلَكُمُ الويل ﴾ وههنا نكر لأنه لا يعلم كنهه إلا الله ، وقيل : في ويل إنها كلمة تقبيح ، وويس استصغار وويح ترحم ، فنبه بهذا على قبح هذا الفعل ، واختلفوا في الوعيد الذي في هذه السورة هل يتناول كل من يتمسك بهذه الطريقة في الأفعال الرديئة أو هو مخصوص بأقوام معينين ، أما المحققون فقالوا : إنه عام لكل من يفعل هذا الفعل كائناً من كان وذلك لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ وقال آخرون : إنه مختص بأناس معينين ، ثم قال عطاء والكلبي : نزلت في الأخنس بن شريق كان يلمز الناس ويغتابهم وخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال مقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم من ورائه ويطعن عليه في

وجهه ، وقال محمد بن إسحاق : ما زلنا نسمع أن هذه السورة نزلت في أمية بن خلف ، قال الفراء : وكون اللفظ عاماً لا ينافي أن يكون المراد منه شخصاً معيناً ، كما أن إنساناً لو قال لك لا أزورك أبداً فتقول : أنت كل من لم يزرني لا أزوره وأنت إنما تريده بهذه الجملة العامة وهذا هو المسمى في أصول الفقه بتخصيص العام بقرينة العرف .

المسألة الثانية :

الهمز الكسر قال تعالى : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاء ﴾ [القلم : 11] واللمز الطعن والمراد الكسر من أعراض الناس والغض منهم والطعن فيهم ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَلْمِزُواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات : 11] وبناء فعله يدل على أن ذلك عادة منه قد ضري بها ونحوهما اللعنة والضحكة ، وقرىء : ﴿ وَيْلٌ لّكُلّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ بسكون الميم وهي المسخرة التي تأتي بالأوابد والأضاحيك فيضحك منه ويشتم وللمفسرين ألفاظاً أحدها : قال ابن عباس : الهمزة المغتاب ، واللمزة العياب وثانيها : قال أبو زيد : الهمزة باليد واللمزة باللسان وثالثها : قال أبو العالية : الهمزة بالمواجهة واللمزة بظهر الغيب ورابعها : الهمزة جهراً واللمزة سراً بالحاجب والعين وخامسها : الهمزة واللمزة الذي يلقب الناس بما يكرهون وكان الوليد بن

المغيرة يفعل ذلك ، لكنه لا يليق بمنصب الرياسة إنما ذلك من عادة السقاط ويدخل فيه من يحاكي الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا .

وقد حكى الحكم بن العاص مشية النبي صلى الله عليه وسلم فنفاه عن المدينة ولعنه

وسادسها : قال الحسن : الهمزة الذي يهمز جليسه يكسر عليه عينه واللمزة الذي يذكر أخاه بالسوء ويعيبه وسابعها : عن أبي الجوزاء قال : قلت لابن عباس : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ من هؤلاء الذين يذمهم الله بالويل فقال : هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الناعتون للناس بالعيب .

واعلم أن جميع هذه الوجوه متقاربة راجعة إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب ، ثم هذا على قسمين فإنه إما أن يكون بالجد كما يكون عند الحسد والحقد ، وإما أن يكون بالهزل كما يكون عند السخرية والإضحاك ، وكل واحد من القسمين ، إما أن يكون في أمر يتعلق بالدين ، وهو ما يتعلق بالصورة أو المشي ، أو الجلوس وأنواعه كثيرة وهي غير مضبوطة ، ثم إظهار العيب في هذه الأقسام الأربعة قد يكون لحاضر ، وقد يكون لغائب ، وعلى التقديرين فقد يكون باللفظ ، وقد يكون بإشارة الرأس والعين وغيرهما ، وكل ذلك

داخل تحت النهي والزجر ، إنما البحث في أن اللفظ بحسب اللغة موضوع لماذا ، فما كان اللفظ موضوعاً له كان منهياً بحسب اللفظ ، وما لم يكن اللفظ موضوعاً له كان داخلاً تحت النهي بحسب القياس الجلي ، ولما كان الرسول أعظم الناس منصباً في الدين كان الطعن فيه عظيماً عند الله ، فلا جرم قال : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ .

الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

﴿ الذى ﴾ بدل من كل أو نصب على ذم ، وإنما وصفه الله تعالى بهذا الوصف لأنه يجري مجرى السبب والعلة في الهمز واللمز وهو إعجابه بما جمع من المال ، وظنه أن الفضل فيه لأجل ذلك فيستنقص غيره .

المسألة الثانية :

قرأ حمزة والكسائي وابن عامر جمع بالتشديد والباقون بالتخفيف والمعنى في جمع وجمع واحد متقارب ، والفرق أن ﴿ جَمَعَ ﴾ بالتشديد يفيد أنه جمعه من ههنا وههنا ، وأنه لم

يجمعه في يوم واحد ، ولا في يومين ، ولا في شهر ولا في شهرين ، يقال : فلان يجمع الأموال أي يجمعها من ههنا وههنا ، وأما جمع بالتخفيف ، فلا يفيد ذلك ، وأما قوله : ﴿ مَالاً ﴾ فالتنكير فيه يحتمل وجهين أحدهما : أن يقال : المال اسم لكل ما في الدنيا كما قال : ﴿ الْمَالُ والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 46] فمال الإنسان الواحد بالنسبة إلى مال كل الدنيا حقير ، فكيف يليق به أن يفتخر بذلك القليل والثاني : أن يكون المراد منه التعظيم أي مال بلغ في الخبث والفساد أقصى النهايات .

فكيف يليق بالعاقل أن يفتخر به ؟ أما قوله : ﴿ وَعَدَّدَهُ ﴾ ففيه وجوه أحدها أنه مأخوذ من العدة وهي الذخيرة يقال : أعددت الشيء لكذا وعددته إذا أمسكته له وجعلته عدة وذخيرة لحوادث الدهر وثانيها : عدده أي أحصاه وجاء التشديد لكثرة المعدود كما يقال : فلان يعدد فضائل فلان ، ولهذا قال السدي : وعدده أي أحصاه يقول : هذا لي وهذا لي يلهيه ماله بالنهار فإذا جاء الليل كان يخفيه وثالثها : عدده أي كثره يقال : في بني فلان عدد أي كثرة ، وهذان القولان الأخيران راجعان إلى معنى العدد ، والقول الثالث إلى معنى العدة ، وقرأ بعضهم وعدده بالتخفيف وفيه وجهان أحدهما : أن يكون المعنى جمع المال وضبط عدده وأحصاه وثانيهما : جمع ماله وعدد قومه الذين ينصرونه من قولك فلان ذو عدد وعدد إذا كان له عدد وافر من الأنصار والرجل متى كان كذلك كان أدخل في التفاخر ثم

وصفه تعالى بضرب خر من الجهل فقال : .

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3)

(183/830)

واعلم أن أخلده وخلده بمعنى واحد ثم في التفسير وجوه أحدها : يحتمل أن يكون المعنى طول المال أمله ، حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله ، يحسب أن ماله تركه خالداً في الدنيا لا يموت وإنما قال : ﴿ أَخْلَدَهُ ﴾ ولم يقل : يخلده لأن المراد يحسب هذا الإنسان أن المال ضمن له الخلود وأعطاه الأمان من الموت وكأنه حكم قد فرغ منه ، ولذلك ذكره على الماضي .

قال الحسن : ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه كالموت وثانيها : يعمل الأعمال المحكمة كتشييد البنيان بالآجر والجص ، عمل من يظن أنه يبقى حياً أو لأجل أن يذكر بسببه بعد الموت وثالثها : أحب المال حباً شديداً حتى اعتقد أنه إن انتقص مالي أموت ، فلذلك يحفظه من النقصان ليبقى حياً ، وهذا غير بعيد من اعتقاد البخيل ورابعها : أن هذا تعريض بالعمل الصالح وأنه هو الذي يخلد صاحبه في الدنيا بالذكر الجميل وفي الآخر في النعيم المقيم .

أما قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ ﴾ ففيه وجهان أحدهما : أنه ردع له عن حسبانه أي ليس الأمر كما يظن أن المال يخلده بل العلم والصلاح، ومنه قول علي عليه السلام : مات خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر، والقول الثاني معناه حقاً : ﴿ لينبذن ﴾ واللام في : ﴿ لَيُنبَذَنَّ ﴾ جواب القسم المقدر فدل ذلك على حصول معنى القسم في كلا.

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5)

فإنما ذكره بلفظ النبذ الدال على الإهانة، لأن الكافر كان يعتقد أنه من أهل الكرامة، وقرىء (لينبذان) أي هو وماله و (لينبذن) بضم الذال أي هو وأنصاره، وأما : ﴿ الحطمة ﴾ فقال المبرد : إنها النار التي تحطم كل من وقع فيها ورجل حطمة أي شديد الأكل يأتي على زاد القوم، وأصل الحطم في اللغة الكسر، ويقال : شر الرعاء الحطمة، يقال : راع حطمة وحطم بغير هاء كأنه يحطم الماشية أي يكسرها عند سوقها لعنفه، قال المفسرون : الحطمة اسم من أسماء النار وهي الدركة الثانية من دركات النار، وقال مقاتل : هي تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الملك ليأخذ الكافر فيكسره على صلبه كما توضع الخشبة على

الركبة فتكسر ثم يرمي به في النار "

واعلم أن الفائدة في ذكر جهنم بهذا الاسم ههنا وجوه : أحدها : الاتحاد في الصورة كأنه تعالى يقول : إن كنت همزة لمزة فوراءك الحطمة والثاني : أن الهامز بكسر عين ليضع قدره فيلقيه في الحضيض فيقول تعالى : وراءك الحطمة ، وفي الحطم كسر فالحطمة تكسرك وتلقيك في حضيض جهنم لكن الهمزة ليس إلا الكسر بالحاجب ، أما الحطمة فإنها تكسر كسراً لا تبقي ولا تذر الثالث : أن الهماز اللماز يأكل لحم الناس والحطمة أيضاً اسم للنار من حيث إنها تأكل الجلد واللحم ، ويمكن أن يقال : ذكر وصفين الهمز واللمز ، ثم قابلهما باسم واحد وقال : خذ واحداً مني بالإثنين منك فإنه يفي ويكفي ، فكأن السائل يقول : كيف يفي الواحد بالإثنين ؟ فقال : إنما تقول : هذا لأنك لا تعرف هذا الواحد فلذلك قال :

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحطمة ﴾ .

نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6)

(185/830)

أما قوله تعالى : ﴿ نَارُ الله ﴾ فالإضافة للتفخيم أي هي نار لا كسائر النيران : الموقدة التي لا تخمد أبداً أو الموقدة بأمره أو بقدرته ومنه قول علي عليه السلام : عجباً ممن يعصى الله

على وجه الأرض والنار تسعر من تحته ، وفي الحديث : " أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت ، ثم ألف سنة حتى ابيضت ، ثم ألف سنة حتى اسودت فهي الآن سوداء مظلمة " .

الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7)

فاعلم أنه يقال : طلع الجبل واطلع عليه إذا علاه ، ثم في تفسير الآية وجهان : الأول : أن النار تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم ، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ، ولا أشد تألماً منه بأدنى أذى يماسه ، فكيف إذا اطلعت نار جهنم واستولت عليه .

ثم إن الفؤاد مع استيلاء النار عليه لا يحترق إذ لو احترق لمات ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ [الأعلى : 13] ومعنى الاطلاع هو أن النار تنزل من اللحم إلى الفؤاد والثاني : أن سبب تخصيص الأفئدة بذلك هو أنها مواطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة ، واعلم أنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن النار تأكل أهلها حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت ، ثم إن الله تعالى يعيد لحمهم وعظمهم مرة أخرى .

إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8)

فقال الحسن : مؤصدة أي مطبقة من أصدت الباب وأوصدته لغتان ، ولم يقل : مطبقة لأن المؤصدة هي الأبواب المغلقة ، والإطباق لا يفيد معنى الباب .

واعلم أن الآية تفيد المبالغة في العذاب من وجوه أحدها : أن قوله : ﴿ لَيُنبَذَنَّ ﴾ [الهمزة : 4] يقتضي أنه موضع له قعر عميق جداً كالبئر وثانيها : أنه لو شاء يجعل ذلك الموضع بحيث لا يكون له باب لكنه بالباب يذكرهم الخروج ، فيزيد في حسرتهم وثالثها : أنه قال : ﴿ عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ ولم يقل : مؤصدة عليهم لأن قوله : ﴿ عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ يفيد أن المقصود أولاً كونهم بهذه الحالة ، وقوله مؤصدة عليهم لا يفيد هذا المعنى بالقصد الأول .

فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرىء (في عمد) بضمتين وعمد بسكون الميم وعمد بفتحتين ، قال الفراء : عمد وعمد وعمد مثل الأديم والإدم والأدم والإهاب والأهب والأهب ، والعقيم والعقم والعقم وقال المبرد وأبو علي : العمد جمع عمود على غير واحد ؛ أما الجمع على واحد فهو العمد مثل زبور وزبر ورسول ورسل .

المسألة الثانية :

العمود كل مستطيل من خشب أو حديد ، وهو أصل للبناء ، يقال : عمود البيت للذي يقوم به البيت .

المسألة الثالثة :

في تفسير الآية وجهان الأول : أنها عمد أغلقت بها تلك الأبواب كنحو ما تغلق به الدروب ، وفي بمعنى الباء أي أنها عليهم مؤصدة بعمد مدت عليها ، ولم يقل : بعمد لأنها لكثرتها صارت كأن الباب فيها والقول الثاني : أن يكون المعنى : إنها عليهم مؤصدة حال كونهم موثقين : فى عمد ممدة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص ، اللهم أجرنا منها يا أكرم الأكرمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 86 .90 ﴾

(187/830)

وقال السمرقندى

قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾

يعني : الشدة من العذاب .

ويقال : ﴿ وَيْلٌ ﴾ واد في جهنم ، ﴿ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ قال أبو العالية : يعني : يهمزه في وجهه ، ويلمزه من خلفه .

وقال مجاهد : الهمزة اللعان ، واللمزة الذي يأكل لحوم الناس .

وقال ابن عباس : الهمزة واللمزة ، الذي يفرق بين الناس بالنميمة .

والآية نزلت في الأخنس بن شريق .

ويقال : الذي يسخر من الناس ، فيشير بعينه وبحاجبيه ، وبشفتيه إليه .

وقال مقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وكان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ويطعن في وجهه .

ويقال : نزلت في جميع المغتابين .

ثم قال عز وجل : ﴿ الذى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ يعني : استعبد بماله ، الخدم والحيوان ، وعدّده أي : حسبه وأحصاه .

قرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ﴿ الذى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ بالتشديد ، والباقون بالتخفيف .

فمن قرأ بالتشديد ، فهو للمبالغة كثر الجمع ، ومن قرأ بالتخفيف ، فمعناه ﴿ جُمِع مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ أي : قوماً أعدهم نصاراً .

قوله عز وجل : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ يعني : يظن أن ماله الذي جمع ، أخلده في الدنيا ، ويمنعه من الموت .

ومن قرأ بالتخفيف ، فلا يموت حتى يفنى ماله .

يقول الله تعالى: ﴿ كَلَّا ﴾ لا يخلده ماله أبداً، وولده.

ثم استأنف فقال عز وجل: ﴿ لَيُنبَذَنَّ فِى الحطمة ﴾ يعني: ليطرحن، وليقذفن في الحطمة، والحطمة اسم من أسماء النار.

ثم قال: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحطمة ﴾ تعظيماً لشدتها.

ثم وصفها فقال: ﴿ نَارُ الله الموقدة ﴾ يعني: المستعرة، تحطم العظام، وتأكل اللحم، فلهذا سميت الحطمة ﴿ التى تَطَّلِعُ عَلَى الافئدة ﴾ يعني: تأكل اللحم، حتى تبلغ أفئدتهم.

وقال القتبي: ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الافئدة ﴾ أي: تشرف على الأفئدة، وخص الأفئدة، لأن الألم إذا وصل إلى الفؤاد، مات صاحبه.

(188/830)

فأخبر أنهم في حال من يموت، وهم لا يموتون، كما قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَا ﴾ [الأعلى: 13] ويقال: ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الافئدة ﴾ يعني: تأكل الناس، حتى تبلغ الأفئدة فإذا بلغت ابتدأ خلقه، ولا تحرق القلب، لأن القلب إذا احترق، لا يجد الألم، فيكون القلب على حاله.

ثم قال : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ يعني : مطبقة على الكافرين ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِ ﴾

يعني : طبقها مشدود إلى العمد .

وقال الزجاج : معناه العذاب مطبق عليهم في عمد ، أي : عمد من النار .

وقال الضحاك : مؤصدة أي : حائط لا باب فيه .

وروي عن الأعمش ، أنه كان يقرأ ﴿ عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ ممدودة يعني : أطبقت الأبواب ،

ثم شددت بالأوتاد من حديد ، من نار حتى يرجع إليهم غمها وحرها ، فلا يفتح لهم باب ،

ولا يدخل عليهم روح ، ولا يخرج منها غم إلى الأبد .

قرأ حمزة والكسائي ، وعاصم في رواية أبي بكر ، في عُمد ممدودة بضم العين والميم .

وقرأ الباقون بالنصب ، ومعناهما واحد ، وهو جمع العماد .

والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 591 . 592 ﴾

(189/830)

وقال الثعلبى :

سورة الهمزة

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾

قال ابن عباس : هم المشّاؤون بالنميمة ، المفرّقون بين الأحبّة ، الباغون ، البراء : العنت .

سعيد بن جبير وقتادة : الهمزة الذي يأكل لحوم الناس ويغتابهم ، واللمزة : الطعّان عليهم .

مجاهد : الهمزة : الطعّان في الناس ، واللمزة : الطعّان في أنساب الناس .

وقال أبو العالية والحسن وعطاء بن أبي رباح : الهمزة الذي يغيب ويطعن في وجه الرجل إذا أقبل ، واللمزة الذي يغتابه من خلفه إذا أدبر وغاب . ضده مقاتل . مرّة : يعني كل طعّان عيّاب مغتاب للمرء إذا غاب ، دليله قول زياد بن الأعجم :

إذا لقيتكَ عن شحط تكاشرني . . . وإن تغيّبتُ كنتَ الهامز اللمزة

ابن زيد : الهمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم ، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ويغيبهم .

سفيان الثوري : يهمز بلسانه ويلمز بعينه . ابن كيسان : الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ ، واللمزة الذي يكسر عينه على جليسه ، ويُشير برأسه ، ويومض بعينه ، ويرمز بحاجبه ، وهما لغتان للفاعل نحو سَخَرة وضَحَكة للذي يسخر ويضحك من الناس .

وروي عن أبي جعفر والأعرج بسكون الميم فيهما ، فإن صحّت القراءة فهي في معنى المفعول ، وهو الذي يتعرّض للناس حين يهمزوه ويضحكون منه ، ويحملهم على الاغتياب .

وقرأ عبد اللّه والأعمش ويلٌ للهمزة اللمزة ، وأصل الهمز الكسر والعض على الشيء بالعنف ، ومنه همز الحرف ، ويُحكى أنّ أعرابيّاً قيل له : أتهمز الفارة ؟ فقال : الهرّة تهمزها ، وقال الحجاج :

ومن همزنا رأسه تهشما . . . واختلف المفسّرون فيمن نزلت هذه الآية ، فقال قوم : نزلت في جميل بن عامر الجمحي ، وإليه ذهب ابن أبي الجمح ، وقال الكلبي : نزلت في الأخنس بن شريق ووهب بن عمرو الثقفي وكان يقع في الناس ويغتابهم مقبلين ومدبرين .

وقال محمد بن إسحاق بن مسار : ما زلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت في أُميّة بن خلف الجمحي .

(190/830)

وقال مقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة وكان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم ويطعن في وجهه .

وقال مجاهد وغيره : ليست بخاصّة لأحد ، بل كل من كانت هذه صفته .

﴿ الذى جَمَعَ مَالاً ﴾ قرأ شيبة ونافع وعاصم وابن كثير وأبو عمرو وأيّوب بتخفيف الميم ، واختاره أبو حاتم ، غيرهم بالتشديد واختاره أبو عبيد ، واختلف فيه عن يعقوب .

﴿ وَعَدَّدَهُ ﴾ أحصاه وقال مقاتل : أستعدّه وذخره وجعله عتاداً له ، وقرأ الحسن وعدده بالتخفيف وهو بعيد ، وقد جاء مثل ذلك في الشعر لمّا أبرزوا التضعيف خفّفوه ، قال الشاعر :

مهلا أعاذل قد جربت من خلقي . . . إني أجود الأقوام وإن ضننوا

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ في الدنيا ﴿ كَلاَّ ﴾ ردٌ عليه .

أخبرني بن فتحوية قال : حدّثنا خُنيس قال : حدّثنا أبو الهيثم بن الفضل قال : حدّثنا أبو زرعة قال : حدّثنا ابن السرح قال : أخبرنا ابن وهب قال : حدّثني حرملة بن عمر أنه سمع عمر ابن عبد اللّه مولى غفرة يقول : إذا سمعت اللّه سبحانه يقول : ﴿ كَلاَّ ﴾ فإنما يقول : كذبت .

﴿ لَيُنبَذَنَّ ﴾ ليقذفنّ ويطرحنّ ، وقرأ الحسن لينبذان بالألف على التثنية يريد هو وماله ﴿ فِي الحطمة ﴾ وهي النار سُمّيت بذلك ؛ لأنّها تحطم أي تكسر ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحطمة * نَارُ اللهِ الموقدة * التي تَطَّلِعُ عَلَى الأفئدة ﴾ يعني يبلغ ألمها ووجعها القلوب ، والاطلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى ، وحكي عن بعض العرب سماعاً : متى طلعت أرضنا بمعنى بلغت ، ومعنى الآية أنها تأكل شيئاً منه حتى تنتهي إلى فؤاده .

قال القرظي والكلبي : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ مطبقة مغلقة ﴿ فِي عَمَدٍ ﴾ ، قرأ أهل الكوفة بضمّتين ، غيرهم بالنصب ، واختاره أبو حاتم لقوله : ﴿ رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ

تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد : 1] وهما جمعان للعمود مثل أديم وأدم ، وأفيق وأفق ، وقضيم وقضم ، قال الفرّاء : وقال أبو عبيد : هو جمع عماد مثل أهاب وأُهُب وأَهَب .

﴿ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ قراءة العامّة بالخفض على نعت العمد ، وقرأ عاصم الجحدري ممدّدةٌ بالرفع جعلها نعتاً للموصدة .

واختلفوا في معنى الآية ، فقال ابن عباس : أدخلهم في عمد ، فمدّت عليهم بعماد وفي أعناقهم السلاسل ، فسدّت عليهم بها الأبواب .

وقال قتادة : بلغنا أنّها عمد يعذّبون بها في النار ، وقيل : هي عمد موتّدة على أبوابها [ليتأكد أياسهم] منها ، وقيل : معناه أنّها عليهم مؤصدة بعمد ، وكذلك هي في قراءة عبد اللّه : بعمد ، بالباء .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : " المؤمن كيّس فطن حذر وقاف ثبت ، لا يعجل ، عالم ورع ، والمنافق همزة لمزة حطمة ، [لا يقف عند شبهة ولا عند محرم] كحاطب الليل لا يبالي من أين كسب ولا فيما أنفق " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 285. 287 ﴾

وقال الزمخشرى :

سورة الهمزة

مكية ، وآياتها 9 [نزلت بعد القيامة] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الهمزة (104) : الآيات 1 إلى 9]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4)

وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)

الهمز : الكسر ، كالهزم . واللمز : الطعن . يقال : لمزه ولهزه طعنه ، والمراد : الكسر من

أعراض الناس والغض «1» منهم ، واغتيابهم ، والطعن فيهم «2» وبناء «فعلة» يدل على أنّ ذلك عادة منه قد ضرى بها . ونحوهما : اللعنة والضحكة . قال :

وإن أغيّب فأنت الهامز اللّمزه «3»

وقرئ : ويل للهمزة اللمزة . وقرئ : ويل لكل همزة لمزة ، بسكون الميم : وهو المسخرة الذي يأتى بالأوابد «4» والأضاحيك فيضحك منه ويشتم . وقيل : نزلت في الأخنس بن شريق وكانت عادته الغيبة والوقيعة . وقيل : في أمية بن خلف . وقيل : في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وغضه منه . ويجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد عاما ، ليتناول كل من باشر ذلك القبيح ، وليكون جاريا مجرى التعريض بالوارد فيه ، فإنّ ذلك أزجر له وأنكى فيه الَّذِي بدل من كل . أو نصب على الذم . وقرئ : جمع بالتشديد ، وهو مطابق لعدده . وقيل عَدَّدَهُ جعله عدة لحوادث الدهر . وقرئ : وعدده أى جمع المال وضبط عدده وأحصاه . أو جمع ماله وقومه الذين ينصرونه ، من قولك : فلان ذو عدد وعدد : إذا كان له عدد وافر من الأنصار وما يصلحهم . وقيل وَعَدَّدَهُ معناه : وعدّه على فك الإدغام ، نحو : ضننوا أَخْلَدَهُ وخلده بمعنى ، أى طوّل المال أمله ، ومناه الأمانى البعيدة ، حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أنّ المال تركه خالدا في الدنيا لا يموت . أو يعمل من تشييد البنيان الموثق بالصخر والآجر وغرس الأشجار وعمارة الأرض : عمل من يظن أن ماله أبقاه حيا . أو هو تعريض بالعمل الصالح . وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم ، فأما المال فما أخلد أحدا فيه . وروى أنه كان للأخنس أربعة آلاف دينار . وقيل : عشرة آلاف . وعن الحسن : أنه عاد موسرا

---

(1) . قوله «أعراض الناس والغض منهم» في الصحاح : غض منه ، إذا وضعه ونقص من

قدره. (ع)

(2) . قال محمود : «قال المراد بالهمزة المكثر من الطعن على الناس والقدح فيهم . . . الخ» قال أحمد : وما أحسن مقابلة الهمزة اللمزة بالحطمة ، فانه لما وسمه بهذه السمة بصيغة أرشدت إلى أنها راسخة فيه ومتمكنة منه أتبع المبالغة بوعيده بالنار التي سماها بالحطمة لما يلقى فيها ، وسلك في تعيينها صيغة مبالغة على وزن الصيغة التي ضمنها الذنب ، حتى يحصل التعادل بين الذنب والجزاء ، فهذا الذي ضرى بالذنب جزاؤه هذه الحطمة التي هي ضارية بحطم كل ما يلقى إليها . [. . . . . .]

(3) إذا لقيتك عن شحط تكاشرنى وإن تغيبت كنت الهامز اللمزة

لزياد الأعجم. والشحط – بالفتح : البعد . وكثر عن أسنانه : أبداها في الضحك وغيره ، لكن اشتهر في لسان العرب في الأول . والهمز : الكسر . واللمز : الطعن . روى أن أعرابيا سئل : أتهمز الفأرة؟ فقال : نعم تهمزها الهرة ، أى : تأكلها ، والهامز هنا : المغتاب الغياب ، الذي يملأ فمه بما يخرم عرض غيره . والهمزة : من اعتاد ذلك . واللامز : الرامي لغيره بالمسبة . واللمزة : من اعتاد ذلك . يقول : إذا لقيتك على بعد المسافة بيننا تضاحكنى ، وإذا غبت عنك كنت المغتاب المكثر من الطعن في عرضي . وروى : وإن أغيب فأنت الهامز ، على البناء للمجهول .

(4) . قوله «الذي يأتى بالأوابد» في الصحاح: جاء فلان بآبدة ، أى : بداهية يبقى ذكرها على الأبد . (ع)

(194/830)

فقال : ما تقول في ألوف لم أفتد بها من لئيم ، ولا تفضلت على كريم ؟ قال : ولكن لما ذا ؟ قال : لنبوة الزمان ، وجفوة السلطان ، ونوائب الدهر ، ومخافة الفقر . قال : إذن تدعه لمن لا يحمدك ، وترد على من لا يعذرك كَلَّا ردع له عن حسبانه . وقرئ : لينبذان ، أى : هو وماله . ولينبذن ، بضم الذال ، أى : هو وأنصاره . ولينبذنه فِي الْحُطَمَةِ في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها . ويقال للرجل الأكول : إنه الحطمة . وقرئ : الحاطمة ، يعنى أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم ، وهي أوساط القلوب ، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ، ولا أشد تألما منه بأدنى أذى يمسه ، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه . ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة . ومعنى اطلاع النار عليها : أنها تعلوها وتغلبها وتشتمل عليها . أو تطالع على سبيل المجاز معادن موجبها مُؤْصَدَةٌ مطبقا . قال :

تحنّ إلى أجبال مكّة ناقتي ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة «1»

وقرئ: في عمد ، بضمتين. وعمد ، بسكون الميم. وعمد . بفتحتين. والمعنى: أنه يؤكد يأسهم من الخروج وتيقنهم بحبس الأبد ، فتؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد ، استيثاقا في استيثاق. ويجوز أن يكون المعنى: أنها عليهم مؤصدة ، موثقين في عمد ممدّدة مثل المقاطر «2» التي تقطر فيها اللصوص. اللهم أجرنا من النار يا خير مستجار.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «من قرأ سورة الهمزة أعطاه اللّه عشر حسنات بعدد من استهزا بمحمد وأصحابه» «3». انتهى انتهى. ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 ص 796.794﴾

---

(1) . يقول: تحنّ ناقتي شوقا إلى أجبال مكة ، جمع جبلي ، كأسباب وسبب ، لأنها وطنها ، والحال أن أبواب صنعاء مدينة من اليمن ، مؤصدة: أى مغلقة أمامها ، والمراد: تحزنه وتشوقه إلى وطنه ، ونسبه الناقة مبالغة.

(2) . قوله «مثل المقاطر التي تقطر فيها» في الصحاح «المقطرة»: الفلق» وهي خشبة فيها خروق تدخل فيما أرجل المحبوسين. (ع)

(3) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب.

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾

فيه أربعة تأويلات :

أحدها : أن الهمزة المغتاب ، واللمزة العيّاب ، قاله ابن عباس ، ومنه قول زياد الأعجم :

تُدْلي بوُدّي إذا لاقيتني كَذِباً . . . وإن أُغَيّبْ فأنْتَ الهامزُ اللُّمَزة

الثاني : أن الهمزة الذي يهمز الناس ، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ، قاله ابن زيد .

الثالث : أن الهمزة الذي يهمز في وجهه إذا أقبل ، واللمزة الذي يلمزه من خلفه إذا أدبر ، قاله أبو العالية ، ومنه قول حسان :

همزتك فاخْتَضَعْتَ بذُلّ نفْسٍ . . . بقافيةٍ تأجج كالشُّواظِ

الرابع : أن الهمزة الذي يعيب جهراً بيد أو لسان ، واللمزة الذي يعيبهم سراً بعين أو حاجب ، قاله عبد الملك بن هشام .

قال رؤبة :

في ظل عَصْرَيْ باطِلي ولَمزي . . . .

واختلفوا فيمن نزلت فيه على خمسة أقاويل :

أحدها : في أُبي بن خلف ، قاله عمار .

الثاني : في جميل بن عامر الجمحي ، قاله مجاهد .

الثالث : في الأخنس بن شريق الثقفي ، قاله السدي .

الرابع : في الوليد بن المغيرة ، قاله ابن جريج .

الخامس : أنها مرسلة على العموم من غير تخصيص ، وهو قول الأكثرين .

﴿ الذي جَمَعَ مَالاً وعَدَّدَه ﴾ فيه اربعة أوجه :

أحدها : يعني أحصى عدده ، قاله السدي .

الثاني : عددّ أنواع ماله ، قاله مجاهد .

الثالث : لما يكفيه من الشين ، قاله عكرمة .

الرابع : اتخذ ماله لمن يرثه من أولاده .

ويحتمل خامساً : أنه فاخر بعدده وكثرته .

﴿ يَحْسَبُ أَنّ مالَه أَخْلَدَهُ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يزيد في عمره ، قال عكرمة .

الثاني : يمنعه من الموت ، قال السدي .

ويحتمل ثالثاً : ينفعه بعد موته .

﴿ كَلاَّ لَيُنبذَنَّ في الحُطَمَةِ ﴾ وفيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه اسم باب من أبواب جهنم ، قاله ابن واقد ، وقال الكلبي هو الباب السادس .

الثاني : أنه اسم درك من أدراك جهنم ، وهو الدرك الرابع ، قاله الضحاك .

الثالث : أنه اسم من أسماء جهنم ، قاله ابن زيد .

وفي تسميتها بذلك وجهان :

أحدهما : لأنها تحطم ما أُلقي فيها ، أي تكسره وتهده ، ومنه قول الراجز :

إنا حَطْمنا بالقضيب مُصْعَبا . . . يومَ كَسَرنا أَنْفَهُ ليَغْضَبا

﴿ التي تَطّلِعُ على الأَفئدةِ ﴾ روى خالد بن أبي عمران عن النبي صلى الله عليه وسلم أن النار تأكل أهلها حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت ، ثم إذا صدروا تعود ، فذلك قوله ﴿ نار الله الموقدة ، التي تطلع على الأفئدة ﴾ ويحتمل اطلاعها على الأفئدة وجهين :

أحدهما : لتحس بألم العذاب مع بقاء الحياة ببقائها .

الثاني : استدل بما في قلوبهم من آثار المعاصي وعقاب على قدر استحقاقهم لألم العذاب ، وذلك بما استبقاه الله تعالى من الإمارات الدالة عليه .

﴿ إنَّها عليهم مُؤْصَدَةٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : مطبقة ، قاله الحسن والضحاك .

الثاني : مغلقة بلغة قريش ، يقولون آصد الباب إذا أغلقه ، قاله مجاهد ومنه قول عبيد الله

بن قيس الرقيات :

إن في القَصْر لو دَخَلنْا غزالاً . . . مُصْفقاً مُوصَداً عليه الحجابُ

الثالث : مسدودة الجوانب لا ينفتح منها جانب ، قاله سعيد بن المسيب ، وقال مقاتل بن سليمان : لا يدخلها روْح ولا يخرج منها غم .

﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ فيه خمسة أوجه :

أحدها : أنها موصدة بعمد ممددة ، قاله ابن مسعود ، وهي في قراءته " بعَمَدٍ ممّددة " .

الثاني : أنهم معذبون فيها بعُمد محددة ، قاله قتادة .

الثالث : أن العُمد الممدة الأغلال في أعناقهم ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنها قيود في أرجلهم ، قاله أبو صالح .

الخامس : معناه في دهر ممدود ، قاله أبو فاطمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 335 . 337 ﴾

(197/830)

وقال ابن عطية :

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) ﴾

﴿ ويل ﴾ لفظ يجمع الشر والحزن، وقيل ﴿ ويل ﴾ : واد في جهنم، و" الهمزة " الذي يهمز الناس بلسانه أي يعيبهم، ويغتابهم، وقال ابن عباس : هو المشاء بالنميم .

(198/830)

قال القاضي أبو محمد : ليس به لكنهما صفتان تتلازم، قال الله تعالى : ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ [القلم : 11]، وقال مجاهد : " الهمزة " الذي يأكل لحوم الناس، وقيل لأعرابي : أتهمز إسرائيل فقال : إني إذاً لرجل سوء، حسب أنه يقال له أتقع في سبه، و" اللمزة " قريب من المعنى في الهمزة، قال الله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ [الحجرات : 11]، وقرأ ابن مسعود والأعمش والحسن : " ويل الهمزة اللمزة "، وهذا البناء الذي هو فعلة يقتضي المبالغة في معناه، قال أبو العالية والحسن : الهمز بالحضور واللمز بالمغيب، وقال مقاتل ضد هذا، وقال مرة : هما سواء، وقال ابن أبي نجيح : الهمز باليد والعين : واللمز باللسان، وقال تعالى : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ [التوبة : 58] وقيل نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق وقيل في جميل بن عامر الجمحي ثم هي تتناول كل من اتصف بهذه الصفات، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي والحسن وأبو جعفر : " جمّع " بشدة الميم، والباقون بالتخفيف، وقوله ﴿ وعدده ﴾ معناه : أحصاه وحافظ على

عدده وأن لا ينتقص ، فمنعه من الخيرات ونفقة البر ، وقال مقاتل : المعنى استعده وذخره وقرأ الحسن : " وعدَدَه " بتخفيف الدالين ، فقيل المعنى جمع مالاً وعدداً من عشرة ، وقيل أراد عدداً مشدداً فحل التضعيف ، وهذا قلق ، وقوله : ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ معناه : يحسب أن ماله هو معنى حياته وقوامها ، وأنه حفظه مدة عمره ويحفظه ، ثم رد على هذه الحسبة وأخبر إخبارا مؤكداً أنه ينبذ ﴿ في الحطمة ﴾ أي التي تحطيم ما فيها وتلتهبه ، وقرأ : " يحسَب " بفتح السين الأعرج وأبو جعفر وشيبة ، وقرأ ابن محيصن والحسن بخلاف عنه : " لينبذان " بنون مكسورة مشددة قبلها ألف ، يعني هو ماله ، وروي عنه ضم الذال على نبذ جماعة هو ماله وعدده ، أو يريد جماعة الهمزات ثم عظم شأنها وأخبر أنها ﴿ نار الله الموقدة ﴾ التي يبلغ إحراقها القلوب ولا يخمد ،

والفؤاد القلب ، ويحتمل أن يكون المعنى أنها لا يتجاوزها أحد حتى تأخذه بواجب عقيدة قلبه ونيته فكأنها متطلعة على القلوب باطلاع الله تعالى إياها ، ثم أخبر بأنها عليهم موصدة ومعناه مطبقة أو مغلقة ، قال علي بن أبي طالب : أبواب النار بعضها فوق بعض ، وقوله تعالى : ﴿ في عمد ﴾ هو جمع عمود كأديم وأدم ، وهي عند سيبويه أسماء جمع لا

جموع جارية على الفعل ، وقرأ ابن مسعود : " موصدة بعمد ممدّدة " ، وقال ابن زيد : المعنى في عمد حديد مغلولين بها والكل من نار ، وقال أبو صالح : هذه النار هي في قبورهم ، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر وحمزة والكسائي : " عُمُد " بضم العين والميم ، وقرأ الباقون وحفق عن عاصم بفتحها ، وقرأ الجمهور : "ممددةٍ" بالخفض على نعت العمد ، وقرأ عاصم : "ممددة" بالرفع على اتباع ﴿ موصدة ﴾ .

نجز تفسيرها بحمد الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(200/830)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ويل لكل هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ اختلفوا في الهُمَزَة واللُّمَزَة هل هما بمعنى واحد ، أم مختلفان ؟ على قولين .

أحدهما : أنهما مختلفان .

ثم فيهما سبعة أقوال .

أحدها : أن الهُمَزَة : المُغْتَاب ، واللُّمَزَة : العيّاب ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن الهُمَزَة : الذي يهمز الإنسان في وجهه .

واللُّمَزَة : يَلْمِزُه إذا أدبر عنه ، قاله الحسن ، وعطاء ، وأبو العالية .

والثالث : أن الهُمَزَة : الطعّان في الناس ، واللُّمَزَة : الطعّان في أنساب الناس ، قاله مجاهد .

والرابع : أن الهُمَزَة : بالعين ، واللُّمَزَة : باللسان ، قاله قتادة .

والخامس : أن الهُمَزَة : الذي يهمز الناس بيده ويضربهم ، واللُّمَزَة : الذي يَلْمِزهم بلسانه ، قاله ابن زيد .

والسادس : أن الهُمَزَة : الذي يهمز بلسانه ، واللُّمَزَة : الذي يلمز بعينه ، قاله سفيان الثوري .

والسابع : أن الهُمَزَة : المغتاب ، واللُّمَزَة : الطاعن على الإنسان في وجهه ، قاله مقاتل .

والقول الثاني : أن الهُمَزَة : العَيَّاب الطعان ، واللُّمَزَة مثله .

وأصل الهمز واللمز : الدفع ، قاله ابن قتيبة ، وكذلك قال الزجاج : الهُمَزَة اللُّمَزَة : الذي يغتاب الناس ويَغُضُّهم .

قال الشاعر :

إذا لَقِيتُكَ عَنْ كُرْهٍ تُكَاشِرُني . . .

وإن تَغَيَّبْتُ كُنْتَ الهَامِزَ اللُّمَزَهْ

قوله تعالى : ﴿ الذي جمع مالاً ﴾ قرأ أبو جعفر ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ،

وخلف، وروح "جَمَّع" بالتشديد .

والباقون بالتخفيف .

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَّده ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الدال .

وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والحسن، وابن يعمر بتخفيفها .

وللمفسرين في معنى الكلام قولان .

أحدهما : أحصى عَدَدَه، قاله السدي .

والثاني : أَعَدَّه لما يكفيه في السِّنين، قاله عكرمة .

قال الزجاج : من قرأ "عدَّده" بالتشديد ، فمعناه : عدَّده للدهور .

(201/830)

ومن قرأ "عَدَدَه" بالتخفيف، فمعناه : جمع مالاً وَعَدَداً .

أي : وقوماً اتخذهم أنصاراً .

قوله تعالى : ﴿ يحسب أنَّ ماله أخلده ﴾ أخلده بمعنى يخلده، والمعنى : يظن ماله مانعاً له من الموت، فهو يعمل عمل من لا يظن أنه يموت ﴿ كلا ﴾ أي : لا يخلده ماله ولا يبقى له ﴿ لَيُنْبَذَنَّ ﴾ أي : لَيُطْرَحَنَّ ﴿ في الحطمة ﴾ وهو اسم من أسماء جهنم .

سميت بذلك لأنها تحطم ما يُلقى فيها ، أي : تكسره ، فهي تكسر العظم بعد أكلها اللحم .

ويقال للرجل الأكول : إنه لَحُطَمة .

وقرأ أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وأبو عبد الرحمن ، والحسن ، وابن أبي عبلة ، وابن محيصن ، "لينبذانّ" بألف ممدودة ، وبكسر النون ، وتشديدها ، أي : هو وماله .

قوله تعالى : ﴿ التي تَطَّلِع على الأفئدة ﴾ أي : تأكل اللحم والجلود حتى تقع على الأفئدة فتحرقها ، قال الفراء : يبلغ ألمها الأفئدةَ .

والاطِّلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى واحد ، والعرب تقول : متى طلعَت أرضنا ؟ أي : بلغتَ .

وقال ابن قتيبة : تَطَّلع على الأفئدة ، أي : توفي عليها وتشرف .

وخص الأفئدة ، لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه ، فأخبر أنهم في حال من يموت ، وهم لا يموتون .

وقد ذكرنا تفسير "المؤصدة" في سورة [البلد : 20] .

قوله تعالى : ﴿ في عَمَدٍ ﴾ قرأ حمزة ، وخلف ، والكسائي ، وعاصم إلا حفصاً بضم العين ، وإسكان الميم .

قال المفسرون : وهي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار .

و"في" بمعنى الباء .

والمعنى : مطبَقة بعُمُدٍ .

قال قتادة : وكذلك هو في قراءة عبد الله .

وقال مقاتل : أُطبقت الأبواب عليهم ، ثم شُدَّت بأوتادٍ من حديد ، حتى يرجع عليهم غَمُّها وحَرُّها .

و"ممدَّدة" صفة العُمُد ، أي : أنها ممدودة مطوّلة ، وهي أرسخ من القصيرة .

وقال قتادة : هي عُمُدٌ يعذَّبون بها في النار .

وقال أبو صالح : "في عَمَدٍ مُمَدَّدة" قال : القيود الطوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 226 . 230 ﴾

(202/830)

وقال القرطبى :

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) ﴾

قد تقدّم القول في "الويل" في غير موضع ، ومعناه الخِزي والعذاب والهَلَكة .

وقيل : وادٍ في جهنم .

﴿ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ قال ابن عباس : هم المشّاؤون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ،

الباغون للبرآء العيب ؛ فعلى هذا هما بمعنى .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " شِرار عبادِ الله تعالى المَشّاؤون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العيب " وعن ابن عباس أن الهُمَزَة : القَتّات ، واللُّمزة : العياب .

وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رَباح : الهمزة : الذي يغتاب ويَطْعُن في وجه الرجل ، واللمزة : الذي يغتابه مِن خلفه إذا غاب ؛ ومنه قول حسان :

هَمَزْتُكَ فاخْتَضَعْتَ بذُل نفسٍ . . .

بِقافيةٍ تَأَجّجُ كالشُّوَاظِ

واختار هذا القول النحاس ، قال : ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ [التوبة : 58] .

وقال مُقاتل ضدّ هذا الكلام : إن الهُمَزَة : الذي يَغتابُ بالغَيبة ، واللُّمَزة : الذي يغتاب في الوجه .

وقال قتادة ومجاهد : الهُمَزة : الطَّعّان في الناس ، واللُّمَزة : الطَّعّان في أنسابهم .

وقال ابن زيد : الهامز : الذي يهمز الناس بيده ويضربهم ، واللُّمَزة : الذي يَلْمِزهم بلسانه ويعيبهم .

وقال سفيان الثورِيّ : يهمِز بلسانه ، ويلمِز بعينيه .

وقال ابن كيسان : الهُمَزَة الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ ، واللمزة : الذي يكسر عينه

على جليسه ، ويشير بعينه ورأسه وبحاجبيه .

وقال مرة : هما سواء ؛ وهو القَتَّات الطَّعَّان للمرء إذا غاب .

وقال زياد الأعجم :

تُدْلي بوُدّي إذا لاقيتَني كَذِباً . . .

وإنْ أُغَيَّبْ فانت الهامزُ اللُّمَزه

وقال آخر :

إذا لقِيتكَ عن سُخْطٍ تُكاشِرُني . . .

وإن تَغَيَّبتُ كنتُ الهامِزَ اللُّمَزَهْ

الشحط : البعد .

(203/830)

والهُمَزة : اسم وضع للمبالغة في هذا المعنى ؛ كما يقال : سُخَرَةٌ وضُحَكَة : للذي يَسخَر وَيضْحك بالناس .

وقرأ أبو جعفر محمد بن عليّ والأعرج "هُمْزَة لُمْزَة" بسكون الميم فيهما .

فإن صح ذلك عنهما ، فهي في معنى المفعول ، وهو الذي يتعرّض للناس حتى يَهْمِزوه

ويضحكوا منه ، ويحملهم على الاغتياب .

وقرأ عبد الله بن مسعود وأبو وائل والنخَعيّ والأعمش : "ويْلٌ للهُمَزَةِ اللُّمَزَة" .

وأصل الهمز : الكسر ، والعَضّ على الشيء بعنف ؛ ومنه همز الحرف .

ويقال : همزت رأسه .

وهمزت الجوز بكفي كسرته .

وقيل لأعرابيّ : أتهمزون (الفارة) ؟ فقال : إنما تهمزها الهِرّة .

الذي في الصحاح : وقيل لأعرابي أتهمز الفارة؟ فقال السنور يهمزها .

والأوّل قاله الثعلبي ، وهو يدل على أن الهِرّ يسمى الهمزة .

قال العجاج :

ومَنْ هَمَزْنَا رأسَهُ تَهَشَّمَا . . .

وقيل : أصل الهمز واللمز : الدفع والضرب .

لَمَزَهُ يَلْمِزه لَمْزاً : إذا ضربه ودفعه .

وكذلك هَمَزَهُ : أي دفعه وضربه .

قال الراجز :

ومَنْ هَمَزْنَا عِزَّهُ تبَرْكَعا . . .

على استه زَوْبَعَةً أو زَوْبَعَا

البركعة: القيام على أربع.

وبركعهُ فتبركع؛ أي صرعه فوقع على استه؛ قاله في الصحاح.

والآية نزلت في الأخنس بن شَريق، فيما رَوى الضحاك عن ابن عباس.

وكان يَلْمز الناس ويعيبهم: مقبلين ومدبرين.

وقال ابن جُرَيج: في الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم من ورائه، ويقدح فيه في وجهه.

وقيل: نزلت في أُبَيّ بن خَلَف.

وقيل: في جميل بن عامر الثقفيّ.

وقيل: إنها مرسلة على العموم من غير تخصيص؛ وهو قول الأكثرين.

قال مجاهد: ليست بخاصة لأحد، بل لكل من كانت هذه صفته.

وقال الفرّاء: يجوز أن يذكر الشيء العام ويقصد به الخاصّ، قصدَ الواحد إذا قال: لا أزورك أبداً.

فتقول: من لم يزرني فلست بزائره؛ يعني ذلك القائل.

الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2)

أي أعدّه زعم لنوائب الدهر ؛ مثل كَرُمَ وأكرم .

وقيل : أحصى عدده ؛ قاله السديّ .

وقال الضحاك : أي أعدّ ماله لمن يرثه من أولاده .

وقيل : أي فاخر بعدده وكثرته .

والمقصود الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة .

كما قال : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ [القلم : 12] ، وقال : ﴿ وَجَمَعَ فَأَوعى ﴾ [المعارج : 18] .

وقراءة الجماعة "جَمَعَ" مخفف الميم .

وشدّدها ابن عامر وحمزة والكسائيّ على التكثير .

واختاره أبو عُبيد ؛ لقوله : "وَعَدَّدَه" .

وقرأ الحسن ونصر بن عاصم وأبو العالية "جَمَعَ" مخففاً ، "وعَدَدَه" مخففاً أيضاً ؛ فأظهروا التضعيف ، لأن أصله عَدَّه وهو بعيد ؛ لأنه وقع في المصحف بدالين .

وقد جاء مثله في الشعر ؛ لما أبرزوا التضعيف خففوه .

قال :

مَهْلاً أُمامةُ قد جَرَّبْتِ منْ خُلُقِي . . .

إِنِّي أَجُودُ لِأَقْوامٍ وإِنْ ضَنِنُوا

أراد : ضنُّوا وبخِلوا ، فأظهر التضعيف ؛ لكن الشعر موضع ضرورة .

قال المهدويّ : من خفف "وعدّده" فهو معطوف على المال ؛ أي وجمع عدده فلا يكون فعلاً على إظهار التضعيف ؛ لأن ذلك لا يستعمل إلا في الشعر .

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3)

قوله تعالى : ﴿ يَحْسَبُ ﴾ أي يظنّ ﴿ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أي يبقيه حياً لا يموت ؛ قاله السُّدِّيّ .

وقال عكرمة : أي يزيد في عمره .

وقيل : أحياه فيما مضى ، وهو ماضٍ بمعنى المستقبل .

يقال : هلك والله فلان ودخل النار ؛ أي يدخل .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردّ لما توهمه الكافر ؛ أي لا يَخْلُد ولا يَبقَى له مال .

وقد مضى القول في "كَلاّ" مستوفى .

وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرة : إذا سمعت الله عز وجل يقول "كَلاَّ" فإنه يقول كذبت .

﴿ لَيُنبَذَنَّ ﴾ أي ليطرحنّ وليلقين .

وقرأ الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحُمَيد وابن محيصن : لَيَنْبَذَانِّ

بالتثنية، أي هو وماله.

وعن الحسن أيضاً "لَيُنْبَذَنَّهُ" على معنى لَيُنْبَذَنّ ماله.

(205/830)

وعنه أيضاً بالنون "لَنَنْبذنّه" على إخبار الله تعالى عن نفسه، وأنه يَنْبِذ صاحب المال.

وعنه أيضاً "لَيُنْبَذُنّ" بضم الذال؛ على أن المراد الهمزة واللمزة والمال وجامعه.

﴿ فِي الحطمة ﴾ وهي نار الله؛ سُمّيت بذلك لأنها تكسر كل ما يُلْقى فيها وتحطمه وتَهْشِمه.

قال الراجز:

إنا حَطَمْنا بالقَضِيب مُصْعَبَا . . .

يومَ كَسَرْنا أَنْفَهِ ليغضبَا

وهي الطبقة السادسة من طبقات جهنم.

حكاه الماوردي عن الكلبي.

وحكى القشيري عنه: "الحُطَمة" الدّرَكة الثانية من درك النار.

وقال الضحاك: وهي الدرك الرابع.

ابن زيد : اسم من أسماء جهنم .

﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحطمة ﴾ على التعظيم لشأنها ، والتفخيم لأمرها .

ثم فسرها ما هي فقال : ﴿ نَارُ الله الموقدة ﴾ أي التي أُوقد عليها ألف عام ، وألف عام ، وألف عام ؛ فهي غير خامدة ، أعدّها الله للعصاة .

﴿ التي تَطَّلِعُ عَلَى الأفئدة ﴾ قال محمد بن كعب : تأكل النار جميع ما في أجسادهم ، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد ، خُلِقوا خلقاً جديداً ، فرجعت تأكلهم .

وكذا روى خالد بن أبي عمران عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أن النار تأكل أهلها ، حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت ، ثم إذا صَدَروا تعود ، فذلك قوله تعالى : ﴿ نَارُ الله الموقدة * التي تَطَّلِعُ عَلَى الأفئدة ﴾ " وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه .

أي إنه في حال من يموت وهم لا يموتون ؛ كما قال الله تعالى : ﴿ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يحيى ﴾ [طه : 74] فهم إذاً أحياء في معنى الأموات .

وقيل : معنى "تَطَّلِعُ على الأَفْئِدِةِ" أي تعلم مقدار ما يستحقُّه كل واحد منهم من العذاب ؛ وذلك بما استبقاه الله تعالى من الأمارة الدالة عليه .

ويقال : اطَّلَع فلان على كذا : أي علمه .

وقد قال الله تعالى : ﴿ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وتولى ﴾ [المعارج : 17] .

وقال تعالى : ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ [الفرقان : 12] .

فوصفها بهذا ، فلا يبعد أن توصف بالعلم .

إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (9)

أي مُطْبَقة ؛ قاله الحسن والضحاك .

وقد تقدّم في سورة "البَلَد" القول فيه .

وقيل : مُغلقة ؛ بلغة قريش .

يقولون : آصَدْتُ الباب : إذا أغلقته ؛ قاله مجاهد .

ومنه قول عُبيد الله بن قيس الرقيات :

إنَّ في القَصْرِ لَوْ دَخَلْنا غزَالاً . . .

مُصْفَقاً مُوصَداً عليهِ الحِجابُ

﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ الفاء بمعنى الباء ؛ أي موصدة بعمد ممدّدة ، قاله ابن مسعود ؛

وهي في قراءته "بعَمَدٍ مُمَدَّدةٍ" وفي حديث أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ثُمَّ

إنَّ الله يبْعَثُ إليهِمْ ملائكة بأطباق من نار ، ومسامير من نار وعَمَد من نار ، فتطبق عليهم

بتلك الأطباق ، وتشدّ عليهم بتلك المسامير ، وتمدّ بتلك العَمد ، فلا يَبْقى فيها خَلَلْ يدخل فيه رَوْح ، ولا يخرج منه غمّ ، وينساهم الرحمن على عرشه ، ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم ، ولا يستغيثون بعدها أبداً ، وينقطع الكلام ، فيكون كلامهم زَفِيراً وشهيقاً ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِ ﴾ " وقال قتادة : "عَمَد" يعذبون بها .

واختاره الطبريّ .

وقال ابن عباس : إن العَمَد الممدّدة أغلال في أعناقهم .

وقيل : قيود في أرجلهم ؛ قاله أبو صالح .

وقال القشيريّ : والمعظم على أن العمد أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار .

وتشدّ تلك الأطباق بالأوتاد ، حتى يرجع عليهم غمها وحرها ، فلا يدخل عليهم رَوْحٌ .

وقيل : أبواب النار مطبقة عليهم وهم في عَمَد ؛ أي في سلاسل وأغلالٍ مطوّلة ، وهي أحكم وأرسخ من القصيرة .

وقيل : هم في عمد ممدّدة ؛ أي في عذابها وآلامها يُضْربون بها .

وقيل : المعنى في دهر ممدود ؛ أي لا انقطاع له .

وقرأ حمزة والكسائيّ وأبو بكر عن عاصم "فِي عُمُدٍ" بضم العين والميم : جمع عمود .

وكذلك "عَمَد" أيضاً .

قال الفراء : والعَمَد والعُمُد : جمعان صحيحان لعمود ؛ مثل أَدِيم وأَدَم وأُدُم ، وأَفِيق وأَفَق وأُفُقٍ .

أبو عُبيدة : عَمَد : جمع عِماد ؛ مثل إهاب .

واختار أبو عُبيد "عَمَد" بفتحتين .

وكذلك أبو حاتم ؛ اعتباراً بقوله تعالى : ﴿ رَفَعَ السماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد : 2] وأجمعوا على فتحها .

قال الجوهريّ : العمود : عمود البيت ، وجمع القلة : أعمدة ، وجمع الكثرة عُمُد ، وعَمَد ؛ وقرىء بهما قوله تعالى : ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِ ﴾ .

وقال أبو عبيدة : العمود ، كل مستطيل من خشب أو حديد ، وهو أصل للبناء مثل العِماد .

عَمَدْت الشيء فانعمد ؛ أي أقمته بِعماد يعتمِد عليه .

وأعمدته جعلت تحته عَمَداً .

والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ ويل ﴾

أي قبح ، وقيل اسم واد في جهنم ﴿ لكل همزة لمزة ﴾ قال ابن عباس هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب وقيل معناهما واحد وهو العياب المغتاب للناس في بعضهم قال الشاعر :

إذا لقيتك من كره تكاشرني . . .

وإن تغيبت كنت الهامز اللمزا

وقيل بل يختلف معناهما فقيل الهمزة الذي يعيبك في الغيب ، واللّمزة الذي يعيبك في الوجه ، وقيل هو على ضده ، وقيل الهمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم ، واللّمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم ، وقيل هو الذي يهمز بلسانه ويلمز بعينه ، وقيل الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ ، واللمزة الذي يرمق بعينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبه ، وقيل الهمزة المغتاب للناس واللمزة الطعان في أنسابهم وحاصل هذه الأقاويل يرجع إلى أصل واحد ، وهو الطعن وإظهار العيب وأصل الهمز الكسر والقبض على الشيء بالعنف ، والمراد منه هنا الكسر من أعراض الناس والغض منهم ، والطعن فيهم ، ويدخل فيه من يحاكي الناس بأقوالهم ، وأفعالهم ، وأصواتهم ليضحكوا منه ، وهما نعتان للفاعل على نحو سخره

وضحكة للذي يسخر ويضحك من الناس ، واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية ، فقيل نزلت في الأخنس بن شريق بن وهب .

كان يقع في الناس ويغتابهم وقال محمد بن إسحاق : ما زلنا نسمع أن سورة الهمزة نزلت في أمية بن خلف الجمحي ، وقيل نزلت في الوليد بن المغيرة كان يغتاب النبي (صلى الله عليه وسلم) من ورائه ويطعن عليه في وجهه ، وقيل نزلت في العاص بن وائل السّهمي ، وقيل هي عامة في كل شخص هذه صفته كائناً من كان ، وذلك لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ والحكم ، ومن قال إنها في أناس معينين قال أن يكون اللّفظ عاماً لا ينافي أن يكون المراد منه شخصاً معيناً وهو تخصيص العام بقرينة العرف والأولى أن تحمل على العموم في كل من هذه صفته

(209/830)

ثم وصفه فقال تعالى : ﴿ الذي جمع مالاً ﴾ وإنما وصفه بهذا الوصف لأنه يجري مجرى السبب والعلة في الهمز واللمز يعني وهو بإعجابه بما جمع من المال يستصغر الناس ويسخر منهم ، وإنما نكر مالاً لأنه بالنسبة إلى مال هو أكثر منه كالشّيء الحقير وإن كان عظيماً عند صاحبه فكيف يليق بالعاقل أن يفتخر بالشيء الحقير ﴿ وعدده ﴾ أي أحصاه من العدد

، وقيل هو من العدة أي استعده وجعله ذخيرة وغنى له ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ أي يظن أنه يخلد في الدّنيا ولا يموت ليساره وغناه قال الحسن ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت ومعناه أن الناس لا يشكون في الموت مع أنهم يعملون عمل من يظن أنه يخلد في الدّنيا ولا يموت ﴿ كلا ﴾ رد عليه أي لا يخلده ماله بل يخلده ذكر العلم ، والعمل الصّالح ومنه قول علي : مات خزان المال ، وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر ، وقيل معناه حقاً ﴿ لينبذن ﴾ واللام في لينبذن جواب القسم فدل ذلك على حصول معنى القسم ، ومعنى لينبذن ليطرحن ﴿ في الحطمة ﴾ أي في النار ، وهو اسم من أسمائها مثل سقر ولظى ، وقيل هو اسم للدركة الثانية منها وسميت حطمة لأنها تحطم العظام وتكسرها ، والمعنى يا أيها الهمزة اللمزة الذي يأكل لحوم الناس ، ويكسر من أعراضهم إن وراءك الحطمة التي تأكل اللحوم وتكسر العظام ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ أي نار لا كسائر النيران ﴿ نار الله ﴾ إنما أضافها إليه على سبيل التفخيم والتعظيم لها ﴿ الموقدة ﴾ أي لا تخمد أبداً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أوقد على النّار ألف سنة حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة " أخرجه الترّمذي قال ويروى عن أبي هريرة موقوفاً وهو أصح ﴿ التي تطلع على الأفئدة ﴾ أي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب ، والمعنى أنها تأكل كل شيء حتى تنتهي إلى الفؤاد ، وإنما خص الفؤاد بالذكر لأنه ألطف

(210/830)

شيء في بدن الإنسان ، وأنه يتألم بأدنى شيء ، فكيف إذا اطلعت عليه واستولت عليه ، ثم إنه مع لطافته لا يحترق إذ لو احترق لمات صاحبه ، وليس في النار موت ، وقيل إنما خصه بالذكر لأن القلب موطن الكفر ، والعقائد ، والنيات الفاسدة .

﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أي مطبقة مغلقة ﴿ في عمد ممدة ﴾ قال ابن عباس : أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد وفي أعناقهم السلاسل سدت عليهم بها الأبواب ، وقال قتادة : بلغنا أنهم عمد يعذبون بها في النّار ، وقيل هي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار ، والمعنى أنها مطبقة عليهم بأوتاد ممدودة ، وقيل أطبقت الأبواب عليهم ثم سدت بأوتاد من حديد من نار حتى يرجع عليهم غمها وحرها ، فلا ينفتح عليهم باب ، ولا يدخل عليهم روح ، وممددة صفة العمد ، أي مطولة فتكون أرسخ من القصيرة نعوذ بالله من النار ، وحرها والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 288 . 290 ﴾

(211/830)

وقال النسفى :

سورة الهمزة

مكية وهي تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ ﴾ أي الذي يعيب الناس من خلفهم ﴿ لُّمَزَةٍ ﴾ أي من يعيبهم مواجهة .

وبناء "فعلة" يدل على أن ذلك عادة منه .

قيل : نزلت في الأخنس بن شريق وكانت عادته الغيبة والوقيعة .

وقيل : في أمية بن خلف .

وقيل : في الوليد .

ويجوز أن يكون السبب خاصاً والوعيد عاماً ليتناول كل من باشر ذلك القبيح ﴿ الذى ﴾ بدل من كل أو نصب على الذم ﴿ جَمَعَ مَالاً ﴾ ﴿ جمّع ﴾ شامي وحمزة وعلي مبالغة جمع وهو مطابق لقوله ﴿ وَعَدَّدَهُ ﴾ أي جعله عدة لحوادث الدهر ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أي تركه خالداً في الدنيا لا يموت أو هو تعريض بالعمل الصالح وأنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم ، فأما المال فما أخلد أحداً فيه ﴿ كَلاَّ ﴾ ردع له عن حسبانه ﴿ لَيُنبَذَنَّ ﴾ أي الذي جمع ﴿ فِى الحطمة ﴾ في النار التي شأنها أن تحطم كل ما يلقى

فيها ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحطمة ﴾ تعجيب وتعظيم ﴿ نَارُ الله ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هي نار الله ﴿ الموقدة ﴾ نعتها ﴿ التى تَطَّلِعُ عَلَى الافئدة ﴾ يعني أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم وهي أوساط القلوب ، ولا شيء في بدن الإنسان ألطف من الفؤاد ولا أشد تألماً منه بأدنى أذى يمسه ، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه ؟ وقيل : خص الأفئدة لأنها مواطن الكفر والعقائد الفاسدة ، ومعنى اطلاع النار عليها أنها تشتمل عليها ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم ﴾ أي النار أو الحطمة ﴿ مُّؤْصَدَةُ ﴾ مطبقة ﴿ فِى عَمَدٍ ﴾ ﴿ بضمتين ﴾ كوفي حفص ، الباقون ﴿ فِى عَمَدٍ ﴾ وهما لغتان في جمع عماد كإهاب وأهب وحمار وحمر ﴿ مُّمَدَّدَةِ ﴾ أي تؤصد عليهم الأبواب وتمدد على الأبواب العمد استيثاقاً في استيثاق .

(212/830)

في الحديث : " المؤمن كيس فطن وقاف متثبت لا يعجل عالم ورع ، والمنافق همزة لمزة حطمة كحاطب الليل لا يبالي من أين اكتسب وفيم أنفق " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 375. 376 ﴾

(213/830)

وقال ابن جزى :

سورة الهمزة

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾

هو على الجملة الذي يعيب الناس ويأكل أعراضهم ، واشتقاقه من الهمز واللمز ، وصيغة فعلة للمبالغة ، واختلف في الفرق بين الكلمتين فقيل : الهمز في الحضور ، واللمز في الغيبة ، وقيل : بالعكس . وقيل : الهمز باليد والعين ، واللمز باللسان ، وقيل : هما سواء . ونزلت السورة في الأخنس بن شريق لأنه كان كثير الوقيعة في الناس وقيل : في أمية بن خلف ، وقيل في الوليد بن المغيرة . ولفظها مع ذلك على العموم في كل من اتصف بهذه الصفات ﴿ وَعَدَّدَهُ ﴾ أي أحصاه وحافظ على عدده أن لا ينقص فمنعه من الخيرات ، وقيل : معناه استعدّه وادّخره عدّة لحوادث الدهر ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أي يظن لفرط جهله واغتراره أن ماله يخلده في الدنيا ، وقيل : يظن أن ماله يوصله إلى دار الخلد ﴿ كَلَّا ﴾ رد على فيما ظنه ﴿ لَيُنبَذَنَّ فِي الحطمة ﴾ هذا جواب قسم محذوف والحطمة هي جهنم ، وإنما سميت حُطَمَة لأنها تحطم ما يلقى فيها ، وتلتهبه وقد عظّمها بقوله : ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ ﴾ ثم فسّرها بأنها ﴿ نَارُ الله الموقدة * التي تَطَّلِعُ عَلَى الأفئدة ﴾ أي : تبلغ القلوب بإحراقها قال ابن عطية : يحتمل أن يكون المعنى أنها تطلع على ما في القلوب من العقائد

والنيّات باطلاع الله إياها ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ مغلقة ﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ العمد جمع عمود وهو عند سيبويه اسم جمع وقرئ في عُمُد بضمتين ، والعمود هو : المستطيل من حديد أو خشب والمددة الطويلة ، وفي المعنى قولان : أحدهما : أن أبواب جهنم أغلقت عليهم ، ثم مدت على أبوابها عُمُدٌ تشديداً في الإغلاق والثقاف كما تثقف أبواب البيوت بالعمد ، وهو على هذا متعلق بمؤصدة ، والآخر أنهم موثوقون مغلولون في العمد ، فالمجرور على هذا في موضع خبر مبتدأ مضمر تقديره : هم موثوقون في عمد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 4 صـ 217 ﴾

(214/830)

وقال البيضاوى :

سورة الهمزة

مكية ، وآيها تسع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾

الهمز الكسر كالهزم ، واللمز الطعن كاللهز فشاعا في الكسر من أعراض الناس والطعن فيهم

، وبناء فعله يدل على الاعتياد فلا يقال ضحكة ولعنة إلا للمكثر المتعود ، وقرىء "همزة لمزة" بالسكون على بناء المفعول وهو المسخرة الذي يأتي بالأضاحيك فيضحك منه ويشتم . ونزولها في الأخنس بن شريق فإنه كان مغياباً ، أو في الوليد بن المغيرة واغتيابه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ الذى جَمَعَ مَالاً ﴾ بدل من كل أو ذم منصوب أو مرفوع ، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بالتشديد للتكثير ﴿ وَعَدَّدَهُ ﴾ وجعله عدة للنوازل أو عدة مرة بعد أخرى ، ويؤيده أنه قرىء "وَعَدَدَهُ" على فك الإدغام .

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ تركه خالداً في الدنيا فأحبه كما يحب الخلود ، أو حب المال أغفله عن الموت أو طول أمله حتى حسب أنه مخلد فعمل عمل من لا يظن الموت ، وفيه تعريض بأن المخلد هو السعي للآخرة .

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع له عن حسبانه . ﴿ لَيُنبَذَنَّ ﴾ ليطرحن . ﴿ فِى الحطمة ﴾ في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يطرح فيها .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحطمة ﴾ ما [هذه] النار التي لها هذه الخاصية .

﴿ نَارُ الله ﴾ تفسير لها . ﴿ الموقدة ﴾ التي أوقدها الله وما أوقده لا يقدر غيره أن يطفئه .

﴿ التى تَطَّلِعُ عَلَى الأفئدة ﴾ تعلو أوساط القلوب وتشتمل عليها ، وتخصيصها بالذكر

لأن الفؤاد ألطف ما في البدن وأشده ألماً ، أو لأنه محل العقائد الزائفة ومنشأ الأعمال القبيحة .

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ مطبقة من أوصدت الباب إذا أطبقته ، قال :

تحن إلى أجبال مكة ناقتي . . . وَمَنْ دُونِهَا أبواب صنعاء مُوصَدَة

وقرأ حفص وأبو عمرو وحمزة بالهمزة .

(215/830)

﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِ ﴾ أي موثقين في أعمدة ممدودة مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص وقرأ الكوفيون غير حفص بضمتين ، وقرىء "عُمْدٍ" بسكون الميم مع ضم العين .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه " رضوان الله عليهم أجمعين . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 528.529 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(216/830)

وقال أبو حيان :

سورة الهمزة

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) ﴾

وتقدم الكلام في الهمزة في سورة ن ، وفي اللمز في سورة براءة ، وفعله من أبنية المبالغة ، كنومة وعيبة وسحرة وضحكة ، وقال زياد الأعجم :

تدلى بودّي إذا لاقيتني كذباً . . .

وإن أغيب فأنت الهامز اللمزه

وقرأ الجمهور : بفتح الميم فيهما ؛ والباقون : بسكونها ، وهو المسخرة الذي يأتي بالأضاحيك منه ، ويشتم ويهمز ويلمز .

﴿ الذي ﴾ : بدل ، أو نصب على الذم .

وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر والأخوان : جمع مشدد الميم ؛ وباقي السبعة : بالتخفيف ، والجمهور : ﴿ وعدده ﴾ بشد الدال الأولى : أي أحصاه وحافظ عليه .

وقيل : جعله عدة لطوارق الدهر ؛ والحسن والكلبي : بتخفيفهما ، أي جمع المال وضبط عدده .

وقيل : وعدداً من عشيرته .

وقيل : وعدده على ترك الإدغام ، كقوله :

إني أجود لأقوام وإن ضننوا . . .

﴿ أخلده ﴾ : أي أبقاه حياً ، إذ به قوام حياته وحفظه مدّة عمره .

قال الزمخشري : أي طوّل المال أمله ومناه الأماني البعيدة ، حتى أصبح لفرط غفلته وطول أمله يحسب أن المال تركه خالداً في الدنيا لا يموت .

قيل : وكان للأخنس أربعة آلاف دينار .

وقيل : عشرة آلاف دينار .

﴿ كلا ﴾ ردع له عن حسبانه .

وقرأ الجمهور : ﴿ لينبذن ﴾ فيه ضمير الواحد ؛ وعليّ والحسن : بخلاف عنه ؛ وابن محيصن وحميد وهارون عن أبي عمرو : ولينبذان ، بألف ضمير اثنين : الهمزة وماله .

وعن الحسن أيضاً : لينبذن بضم الذال ، أي هو وأنصاره .

وعن أبي عمرو : لينبذنه .

وقرأ الجمهور : ﴿ في الحطمة وما أدراك ما الحطمة ﴾ ؛ وزيد بن عليّ : في الحاطمة وما أدراك ما الحاطمة ، وهي النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها .

قال الضحاك : الحطمة : الدرك الرابع من النار .

وقال الكلبي : الطبقة السادسة من جهنم ؛ وحكى عنه القشيري أنها الدركة الثانية ؛

وعنه أيضاً : الباب الثاني .

وقال الواحدي : باب من أبواب جهنم ، انتهى .

(217/830)

و ﴿ نار الله ﴾ : أي هي ، أي الحطمة .

﴿ التي تطلع على الأفئدة ﴾ : ذكرت الأفئدة لأنها ألطف ما في البدن وأشدّه تألماً بأدنى شيء من الأذى ؛ واطلاع النار عليها هو أنها تعلوها وتشتمل عليها ، وهي تعلو الكفار في جميع أبدانهم ، لكن نبه على الأشرف لأنها مقر العقائد .

وقرأ الأخوان وأبو بكر : في عمد بضمتين جمع عمود ؛ وهارون عن أبي عمرو : بضم العين وسكون الميم ؛ وباقي السبعة : بفتحها ، وهو اسم جمع ، الواحد عمود .

وقال الفرّاء : جمع عمود ، كما قالوا : أديم وأدم .

وقال أبو عبيدة : جمع عماد .

قال ابن زيد : في عمد حديد مغلولين بها .

وقال أبو صالح : هذه النار هي قبورهم ، والظاهر أنها نار الآخرة ، إذ يئسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم وتمدد العمد ، كل ذلك إيذاناً بالخلود إلى غير نهاية .

وقال قتادة: كنا نحدّث أنها عمد يعذبون بها في النار.

وقال أبو صالح: هي القيود، والله تعالى أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(218/830)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى:

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) ﴾

وقيل: أحب المال حباً شديداً حتى اعتقد أنه إن انتقص مالي أموت فلذلك يحفظه عن النقصان ليبقى حياً وهذا غير بعيد من اعتقاد البخيل ﴿ كلا ﴾ ردع له عن حسبانه أي ليس الأمر كما يظن هو أن المال مخلد بل المخلد هو العلم والعمل كما قال علي رضي الله عنه: مات خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر. عن الحسن أنه عاد موسراً فقال: ما تقول في ألفو لم أفتد بها من لئيم ولا تفضلت بها على كريم؟ قال: ولكن لماذا قال لنبوة الزمان وجفوة السلطان ونوائب الدهر ومخافة الفقر؟ قال: إذاً تدعه لمن لا يحمدك وترد على من لا يعذرك. قوله ﴿ لينبذن ﴾ جواب قسم محذوف أو جواب حقاً لأنه في معنى القسم. والنبذ الطرح وفيه إشعار بإهانته. وفي قوله ﴿ في الحطمة ﴾ وهي

النار التي من شأنها أن تحطم أي تكسر كل ما يلقى فيها إشارة إلى غاية تعذيبه . ويقال للرجل الأكول إنه لحطمة ووزنها " فعلة " كهمزة ولمزة فكأنه قيل له : كنت همزة لمزة فقا بلناك بالحطمة . وأيضاً في الحطم معنى الكسر والهماز اللماز يكسر الناس بالاغتياب والعيب أو يأكل لحمهم كما يأكل الرجل الأكول . ثم كأن قائلاً سأل كيف قوبل الوصفان بوصف واحد ؟ فقيل : إنك لا تعرف ذلك الواحد وما أدراك ما هذه الحطمة ﴿ نار الله ﴾ هي إضافة تعظيم كبيت الله ﴿ الموقدة التي تطلع على الأفئدة ﴾ أي تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على جنانها وخباياها . ولا شيء في الإنسان ألطف منه ولا أشد تألماً . ويجوز أن يكون في تخصيص الأفئدة إشارة إلى زيادة تعذيب للقلب لأنه محل الكفر والعقائد الفاسدة . وعند أهل التأويل : إذا كانت النار أمراً معنوياً فلا ريب أنه لا يتألم بها إلا الفؤاد الذي هو محل الإدراكات والعقائد . وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم " إن النار تأكل أهلها حتى إذا طلعت على أفئدتهم أي تعلوها وتغلبها انتهت ثم إن الله تعالى يعيد لحمهم وعظمهم مرة أخرى " والمؤصدة المطبقة الأبواب اصدت

الباب وأوصدته لغتان . يوصد عليهم الأبواب ويمدد على الأبواب العمد استيثاقاً في استيثاق . وجوز أن يراد أن أبواب النار عليهم مؤصدة حال كونهم مؤثقين في عمد مقطرة ، والمقطرة خشبة فيها خروق يدخل فيها أرجل المحبوسين اللهم أجرنا منها . قال المبرد : والعمد بفتحتين جمع عمود على غير واحده وأما الجمع على واحده فالعمد بضمتين مثل زبور وزبر ورسول ورسل . قال الفراء : العماد والعمد كالإهاب والأهب فالتأنيث لأنه اسم جمع أو بتأويل الاسطوانة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 561.
563﴾

(220/830)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الهمزة

مكية وهي تسع آيات وثلاثون كلمة ومائة وثلاثون حرفاً

﴿بسم الله﴾ الحكم العدل ﴿الرحمن﴾ الذي عمّ جوده أهل البخل وأولي العدل

﴿الرحيم﴾ الذي خص أولياءه بزيادة الفضل

وقوله تعالى : ﴿ويل﴾ فيه قولان : أحدهما : أنه كلمة عذاب ، والثاني : أنه واد في جهنم

﴿ لكل همزة لمزة ﴾ قال ابن عباس : هم المشاؤون بالنميمة المفرّقون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب ، فعلى هذا هما بمعنى . وقال صلى الله عليه وسلم "شرّ عباد الله المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبراء العيب" . وقال مقاتل : الهمزة الذي يعيبك في الغيب ، واللمزة الذي يعيبك في الوجه . وقال أبو العالية والحسن : الهمزة الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل ، واللمزة الذي يغتابه من خلفه ، وهذا اختيار النحاس . ومنه قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ (التوبة :)

. وقال سعيد بن جبير : الهمزة الذي يأكل لحوم الناس ويغتابهم ، واللمزة الطعان عليهم . وقال ابن زيد : الهمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم ، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم . وقال سفيان الثوري : يهمز بلسانه ويلمز بعينه . وقال ابن كيسان : الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ ، واللمزة الذي يكسر عينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبه .

وحاصل هذه الأقاويل يرجع إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب ، ويدخل في ذلك من يحاكي الناس بأقوالهم وأفعالهم وأصواتهم ليضحكوا منهم . وأصل الهمز الكسر واللمز الطعن ، ثم خصا بالكسر من أعراض الناس والطعن فيهم حتى صار ذلك عادة ، لأنه خلق ثابت في جبلتهم والذي دلّ على الاعتياد صيغة فعلة بضم ففتح ، كما يقال : ضحكة للذي يفعل الضحك كثيراً حتى صار عادة له وضرى به .

واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية ، فقال الكلبي : نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي كان يقع في الناس ويغتابهم . وقال محمد بن إسحاق : ما زلنا نسمع أنّ سورة الهمزة نزلت في أمية بن خلف الجمحيّ . وقال مقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب النبيّ صلى الله عليه وسلم من ورائه ، ويطعن عليه في وجهه . وقال مجاهد : هي عامّة في حق من هذه صفته .

وقوله تعالى : ﴿ الذي جمع مالاً ﴾ بدل من كل ، أو ذمّ منصوب أو مرفوع . وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بتشديد الميم على المبالغة والتكثير ولأنه يوافق قوله تعالى :

﴿ وعدّده ﴾ والباقون بتخفيفها ، وهي محتملة للتكثير وعدمه ، ومعنى عدّده : أحصاه وجعله للحوادث . وقال الضحاك : أعدّ ماله لمن يرثه من أولاده ، وقيل : فاخر بعدده وكثرته : والمقصود الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة كقوله تعالى :

﴿ مناع للخير ﴾ (ص :)

وقوله تعالى : ﴿ جمع فأوعى ﴾ (المعراج :)

﴿ يحسب ﴾ أي : يظنّ لجهله ﴿ أنّ ماله أخلده ﴾ أي : أوصله إلى رتبة الخلد في الدنيا فيصير خالداً فيها لا يموت ، أو يعمل من تشييد البنيان الموثق بالصخر والآجر وغرس الأشجار وعمارة الأرض عمل من يظنّ أنّ ماله أبقاه حياً ، أو هو تعريض بالعمل الصالح ، أو

أنه هو الذي أخلد صاحبه في النعيم ، فأمّا المال فما أخلد أحداً فيه . وروي أنه كان للأخنس أربعة آلاف دينار ، وقيل : عشرة آلاف دينار . وعن الحسن : أنه عاد موسراً فقال : ما تقول في ألوف لم أفتد بها من لئيم ولا تفضلت بها على كريم ؟ قال : لماذا ؟ قال : لنبوة الزمان ، وجفوة السلطان ونوائب الدهر ، ومخافة الفقر . قال : إذاً تدعه لمن لا يحمدك ، وترد على من لا يعذرك . وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين ، والباقون بكسرها .

(222/830)

وقوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ ردع له عن حسبانه ، وقيل : معناه حقاً . وقوله تعالى : ﴿ لينبذنّ ﴾ جواب قسم محذوف ، أي : ليطرحن بعد موته ﴿ في الحطمة ﴾ أي : الطبقة من جهنم التي شأنها أن تحطم ، أي : تكسر بشدّة وعنف كل ما طرح فيها يكون أخسر الخاسرين ويقال للرجل الأكول : إنه لحطمة .

﴿ وما أدراك ﴾ أي : وأيّ شيء أعلمك ، ولو بمحاولة منك للعلم واجتهاد في التعرف مع كونك أعلم الحكماء ﴿ ما الحطمة ﴾ أي : الدركة النارية التي سميت هذا الاسم بهذه الخاصة ، وإنه ليس في الوجود الذي شاهدتموه ما يقاربها ليكون مثالاً لها ، ثم فسرها بقوله

تعالى :

﴿ نار الله ﴾ أي : الملك الأعظم الذي له الملك كله ﴿ الموقدة ﴾ أي : التي وجد وتحتم إيقاده ، ومن الذي يطيق محاولة ما أوقد فهي لا يزال لها هذا الاسم ثابتاً .

روى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال : "أوقد على النار ألف سنة حتى احمرّت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودّت فهي سوداء مظلمة" .

﴿ التي تطلع ﴾ أي : إطلاعاً شديداً ﴿ على الأفئدة ﴾ جمع فؤاد وهو القلب الذي يكاد يحترق من شدّة ذكائه فكان ينبغي أن يجعل ذكاءه في أسباب الخلاص ، وإطلاعها عليه بأن تعلو وسطه وتشتمل عليه اشتمالاً بليغاً سُمّيَ بذلك لشدّة توقدّه وخُصّ لأنه ألطف ما في البدن وأشدّ تألماً بأدنى شيء من الأذى ، ولأنه منشأ العقائد الفاسدة ، ومعدن حبّ المال الذي هو منشأ حبّ الفساد والضلال ، وعنه تصدر الأفعال القبيحة . وقيل : معنى ﴿ تطلع على الأفئدة ﴾ أي : تعمل ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب يقال : اطلع على كذا ، أي : علمه .

ثم أشار إلى خلودهم فيها بقوله تعالى مؤكداً لأنهم يكذبون بها :

﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ قال الحسن : مطبقة ، أي : بغاية الضيق . وقال مجاهد : مغلقة بلغة قريش ، يقال : أصدت الباب ، أي : أغلقته ومنه قول عبد الله بن قيس :

*إنّ في القصر لو دخلنا غزالاً ** مفتناً مؤصداً عليه الحجاب*

ثم بين حال عذابهم بقوله تعالى :

﴿ في ﴾ أي : في حال كونهم موثوقين في ﴿ عمد ﴾ قرأ حمزة والكسائي وشعبة بضم العين والميم جمع عمود نحو رسول ورسل ، وقيل : جمع عماد ككتاب وكتب ، والباقون بفتحهما فقيل : هو اسم جمع لعمود ، وقيل : بل هو جمع له . قال الفراء : كأديم وأدم . وقال أبو عبيدة : هو جمع عماد . ﴿ممددة ﴾ أي : معترضة كأنها موضوعة على الأرض في غاية المكنة فلا يستطيع الموثوق بها على نوع حيلة في أمرها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنّ الله يبعث عليهم ملائكة بأطباق من نار ومسامير من نار ، وعمد من نار ، فيطبق عليهم بتلك الأطباق ، وتسدّ بتلك المسامير ، وتمدّ بتلك العمد فلا يبقى فيها خلل يدخل منه روح ولا يخرج منه غم فيكون كلامهم فيها زفيراً وشهيقاً" .

وقال قتادة : عمد تعذبون بها ، واختاره الطبريّ . وقال ابن عباس : إنّ العمد الممدّدة أغلال في أعناقهم . وقال أبو صالح قيود في أرجلهم . وقال القشيري : العمد أوتاد الأطباق . وقيل : المعنى في دهور ممدودة لا انقطاع لها . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه" حديث موضوع. انتهى انتهى . ا هـ

﴿السراج المنير حـ 8 صـ 424. 427﴾

(224/830)

وقال أبو السعود :

﴿ وَيْلٌ ﴾ مبتدأٌ خبرُه ﴿ لّكُلّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ وساغَ الابتداءُ به مع كونِه نكرةً لأنَّه دعاءٌ عليهم بالهلكةِ أو بشدةِ الشرِّ والهَمْزُ الكسرُ كالهزمِ واللمزِ الطعنُ كاللهزِ شاعا في الكسرِ مِنْ أعراضِ النَّاسِ والطعن فيهِمْ وبناء فُعَلةٍ للدلالةِ عَلى أنَّ ذلكَ منْهُ عادةٌ مُستمرةٌ قَدْ ضَرِيَ بهَا وكذلكَ اللُّعَنةُ والضُّحَكَةُ وقُرِىءَ لكُلِّ هُمْزةٍ لُمْزةٍ بسكونِ الميمِ وهُوَ المسخرةُ الذي يأتي بالأضاحيكِ فيضحكُ منْهُ ويُستهزأُ بِهِ وقيل : نزلتْ في الأخنسِ بْنِ شُرَيقٍ فإنَّهُ كانَ ضارياً بالغِيْبةِ والوقيعةِ ، وقيل : في أمية بنِ خَلَفٍ ، وقيل : في الوليدِ بْنِ المغيرةِ واغتيابه لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم غضةً مِنْ جنابه الرفيعِ واختصاصُ السببِ لا يستْدعِي خصوصَ الوعيدِ بهم بل كلُّ منْ اتصفَ بوصفِهم القبيحِ فلَهُ ذنوبٌ منْهُ مثلُ ذنوبِهم ﴿ الذى جَمَعَ مَالاً ﴾ بدلٌ منْ كُلِّ أوْ منصوبٌ أو مرفوعٌ على الذمِّ وقُرِىءَ جمَّعَ بالتشديدِ التكثيرُ وتنكيرُ مالاً

للتفخيمِ والتكثيرِ الموافقُ لقولِه تعالَى : ﴿ وَعَدَّدَهُ ﴾ وقيل : مَعْنى عَدَّدَهُ جعلَهُ عدةً لنوائبِ الدَّهرِ وقُرِىءَ وعَدَدَهُ أيْ جمعَ المالَ وضبطَ عَدَدَهُ أوْ جمعَ مالَهُ وعددَهُ الذين ينصرونَهُ منْ قولِك فلانٌ ذو عُددٍ وعَددٍ إذا كانَ لَهُ عددٌ وافرٌ منَ الأنصارِ والأعوانِ وقيلَ هُو فعلٌ ماضٍ بفكِّ الإدغامِ ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أيْ يعملُ عملَ منْ يظنُّ أنَّ مالَهُ يبقيهِ حياً والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ لزيادةِ التقريرِ وقيلَ طوَّلَ المالُ أملَهُ ومَنَّاهُ الأَمانيّ البعيدةَ حَتَّى أصبحَ لفرطِ غفلتِه وطولِ أملِه يحسبُ أنَّ المالَ تركَهُ خالداً في الدُّنيا لا يموتُ وقيلَ هُو تعريضٌ بالعملِ الصالحِ والزهدِ في الدُّنيا وأنَّه هُوَ الذي أخلدَ صاحبَهُ في الحياةِ

(225/830)

الأبديةِ والنعيمِ المقيمِ فأمَّا المالُ فليسَ بخالدٍ ولا بمُخلِّدٍ . ورُوِيَ أنَّ الأخنسَ كانَ لهُ أربعةُ آلافِ دينارٍ وقيلَ : عشرةُ آلافٍ والجملةُ مستأنفةٌ أو حالٌ منْ فاعلِ جمعَ ﴿ كَلاَّ ﴾ ردعٌ لهُ عنْ ذلكَ الحُسبانِ الباطلِ وقولُه تعالَى : ﴿ لَيُنبَذَنَّ ﴾ جوابُ قسمٍ مقدرٍ والجملةُ استئنافٌ مبينٌ لعلةِ الردعِ أيْ واللهِ ليطرحنَّ بسببِ تعاطيه للأفعالِ المذكورةِ ﴿ فِى الحطمة ﴾ أيْ في النارِ التي شأنُها أنْ تحطمَ وتكسرَ كلَّ مَا يُلْقَى فيهَا كما أنَّ شأنَهُ كسرُ أعراضِ النَّاسِ وجمعُ المالِ .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحطمة ﴾ لتهويلِ أمرهَا ببيانِ أنَّها ليستْ منَ الأمورِ التي تنالهَا عقولُ الخلقِ ، وقولُه تعالَى : ﴿ نَارُ اللهِ ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ والجملةُ بيانٌ لشأنِ المسؤولِ عَنْها أيْ هيَ نارُ اللهِ ﴿ الموقدة ﴾ بأمرِ اللهِ عزَّ سلطانُهُ وفي إضافتِها إليهِ سُبحانَهُ ووصفُهَا بالإيقادِ منْ تهويلِ أمرِهَا مَا لاَ مزيدَ عليهِ ﴿ التى تَطَّلِعُ عَلَى الافئدة ﴾ أيْ تعلُو أوساطَ القلوبِ وتغشاهَا وتخصيصُها بالذكرِ لما أنَّ الفؤادَ ألطفُ ما في الجسدِ وأشدُّهُ تألماً بأدْنى أذَى يمسُّهُ أوْ لأنَّه محلُ العقائدِ الزائغةِ والنياتِ الخبيثةِ ومنشأُ الأعمالِ السيئةِ .

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي مطبقة من أوصدت الباب وأصدته أي أطبقته . ﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِ ﴾ إمَّا حالٌ منَ الضميرِ المجرورِ في عليهمْ أيْ كائنينَ في عمدٍ ممددةٍ أيْ موثقينَ فيهَا مثلُ المقاطرِ التي تُقطرُ فيهَا اللصوصُ أوْ خبرُ مبتدأ مضمرٍ أيْ هُمْ في عمدٍ أو صفةٌ لمؤصدةٍ قالَه أبو البقاءِ أيْ كائنةٌ في عمدٍ ممدودةٍ بأنْ تؤصدَ عليهمْ الأبوابُ وتمددَ على الأبوابِ العمدُ استيثاقاً في استيثاقٍ اللهمَّ أجرنَا منها يا خيرَ مستجارٍ وقُرِىءَ عُمُدٌ بضمتينِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

وقال النخجواني :

[سورة الهمزة]

فاتحة سورة الهمزة

لا يخفى على الموحدين المستكشفين عن سرائر التوحيد واليقين ان الكمالات الدينية كلها منوطة مربوطة بالتخلق بأخلاق اللّه والتأدب بآدابه فلا بد لأرباب الارادة والطلب ان يهذبوا ظواهرهم أولا بالشرائع النبوية والنواميس المصطفوية المقتبسة من مشكاة النبوة والولاية وبواطنهم بالخواطف الغيبية والهواتف اللدنية الملهمة إليهم حسب القوى القدسية اللاهوتية المتعلقة باستعداداتهم الفطرية وقابلياتهم الجبلية فمن رغب عنها ولم يتصف بها فما له في الآخرة من خلاق لذلك قد حث وحرض سبحانه في هذه السورة ارباب العناية والتوفيق على كسب الآداب والتخلق بمحاسن الأخلاق والاتصاف بأوصاف الكمال بتوبيخ أصحاب الغفلة والضلال المسيئين الأدب مع اللّه ومع خلص عباده وبسوء منقلبهم ومآبهم عنده سبحانه فقال بعد التيمن بِسْمِ اللَّهِ المتجلى بعموم كمالاته في مظهر الإنسان الرَّحْمنِ عليه بأنواع الكرم والامتنان الرَّحِيمِ بخواص عباده حيث خلقهم بأخلاقه الحسان ويسر لهم طريق العرفان

[الآيات]

وَيْلٌ عظيم وهلاك هائل شديد لِكُلِّ فرد من افراد الأقوام هُمَزَةٍ وهو الذي يمشى بين الناس

بالهمز وكسر العرض وقد صارت له هذه الديدنة القبيحة عادة راسخة وملكة مستمرة وايضا لكل لُمَزَةٍ وهو الذي يطعن في انساب الأنام وينسبهم إلى انواع البغي والآثام افتراء ومراء وما حداه وحمله على هذه الخصلة القبيحة والفعلة المستهجنة الوقيحة الا ثروته وماله وسيادته وجاهه وهو

الَّذِي جَمَعَ مالًا وامتعة كثيرة من الزخارف الدنية الدنياوية التي قد مالت قلوب ابنائها إليها بالطبع وَعَدَّدَهُ أى جعل ماله عدة عموم النوائب والنوازل وخيل انه يردها به وقت إلمامها

(227/830)

بل يَحْسَبُ ويظن أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ أى ادام وأبقى ماله نفسه وجعله مخلدا في الدنيا مستمرا فيها أبدا بحيث لا يطرأ عليه زوال وانتقال أصلا فقد اغتر بماله وجاهه إلى حيث قد خيل له الخلود به فيها والدوام عليها بطرا وغرورا . ثم قال سبحانه

كَلَّا ردعا له عن حسبانه واغتراره هذا وخطأ رأيه وطغيانه يعنى من اين يتأتى ويتيسر له الخلود والدوام فيها والله لَيُنْبَذَنَّ ويطرحن ذلك المفسد المفرط يوم الجزاء فِي الْحُطَمَةِ أى النار التي من شأنها انها تحطم أى تكسر وتفنى من يطرح فيها ثم ابهمها سبحانه تهويلا فقال

وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ المعدة لتعذيبه ثم فسرها لكونه ادخل في التهويل والتفظيع بقوله

نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ المسعرة

الَّتِي تَطَّلِعُ وتعلو عَلَى الْأَفْئِدَةِ والأكباد أى حرقها وايلامها غير مختص بظواهر الجلود بل يسرى إلى الاعماق والبواطن أيضاً كما ان اثر الهمز واللمز اللذين هما سبب التعذيب بهذه الخطمة يشمل ظواهر الناس وبواطنهم كذلك الجزاء المترتب عليهما وبالجملة

إِنَّها أى النار الموقدة الإلهية عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ أى مطبقة عليهم محيطة بهم حافة بجوانبهم وحواليهم وهم حينئذ مشدودون موثوقون بأيديهم وأرجلهم

فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ أى اعمدة وأخشاب طوال مثقوبة مربوطين من أعناقهم بالسلاسل والأغلال ألا وهي مصورة لهم من سلاسل الآمال وأغلال الأماني التي هم مقيدون بها في سجن الإمكان . أعاذنا اللّه وعموم عباده منها

خاتمة سورة الهمزة

عليك أيها الموحد المحمدي الوجل الخائف عن مقتضيات القهر الإلهي وموجبات غضبه ان تعدل في عموم اخلاقك واطوارك وتعيش بين بنى نوعك هينا لينا فرحانا سليما يقظانا بلا مماراة ومخاصمة وبلا أغراض نفسانية من شيطنة الشيخية وعجب الدرويشية وكيد الرياء ورعونات الهوى وحفظ الجاه والثروة والسيادة وكثرة التبع والخدم والخيل والخشم بل لك ان تصاحبهم وتداريهم خالصا للّه على سبيل الوفاق والملاطفة بلا شوب الشقاق والنفاق وبالجملة ترجحهم جميعا على نفسك في كل الأمور وتراعيهم حسب المقدور فان

رعايتك إياهم وترجيح جانبهم يؤدى إلى مراعاة جانب الحق وترجيحه وبالجملة احسن إليهم كما احسن الله إليك فكن من المحسنين المتخلقين بالأخلاق الإلهية واعبد ربك في كل ذرة من ذرائر المظاهر حتى يأتيك اليقين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الفواتح الإلهية حـ 2 ص 530.529 ﴾

(228/830)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾

تقدم الكلام على إعراب مثل هذه الجملة والهمز والكسر كالهمز واللمز الطعن كاللهز شاعا في الكسر من اعراض الناس والغض منهم واغتيابهم والطعن فيهم وأصل ذلك كان استعارة لأنه لا يتصور الكسر والطعن الحقيقيان في الأجسام فصار حقيقة عرفية ذلك وبناء فعلة يدل على الاعتياد فلا يقال ضحكة ولعنة إلا للمكثر المتعود قال زياد الأعجم.

إذا لقيتك عن شحط تكاشرني . . .

وإن تغيبت كنت الهامز اللمزة

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وجماعة عن ابن عباس أن سئل عن ذلك فقال هو المشاء

بالنميمة المفرق بين الجمع المغري بين الإخوان وأخرج ابن أبي حاتم وعبد بن حميد وغيرهما عن مجاهد الهمزة الطعان في الناس واللمزة الطعان في الأنساب وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية الهمز في الوجه واللمز في الخلف وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن جريج الهمز بالعين والشدق واليد واللمز باللسان وقيل غير ذلك وما تقدم أجمع.

وقرأ الباقر رضي الله تعالى عنه لكل همزة لمزة بسكون الميم فيهما على البناء الشائع في معنى المفعول وهو المسخرة الذي يأتي بالأضاحيك فيضحك منه ويشتم ويهمز ويلمز ونزل ذلك على ما أخرج بن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عمر في أبي بن خلف وعلى ما أخرج عن السدى في أبي بن عمر والثقفي الشهير بالاخنس بن شريق فإنه كان متغنا باً كثير الوقعية وعلى ما قال ابن اسحق في أمية بن خلف الجمحي وكان يهمز النبي صلى الله عليه وسلم ويعيبه وعلى ما أخرج ابن جرير وغيره عن مجاهد في جميل بن عامر وعلى ما قيل في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وغضه منه وعلى قول في العاص بن وائل ويجوز أن يكون نازلاً في جميع من ذكر لكن استشكل نزولها في الأخنس بأنه على ما صححه ابن حجر في "الإصابة" أسلم وكان من المؤلفة قلوبهم فلا

يتأتى الوعيد الآتي في حقه فاما ً أن لا يصح ذلك أو لا يصح إسلامه وأيضا ً استشكلت قراءة الباقر رضي الله تعالى عنه بناء على ما سمعت في معناها وكون الآية نازلة في الوليد بن المغيرة ونحوه من عظماء قريش وبه اندفع ما في التأويلات من أنه كيف عيب الكافر بهذين الفعلين مع أن فيه حالا أقبح منهما وهو الكفر وأما ما أجاب به من أن الكفر غير قبيح لنفسه بخلافهما فلا يخفى ضعفه لأن فوت الاعتقاد الصحيح أقبح من كل شيء قبيح وقوله تعالى :

﴿ الذى جَمَعَ مَالاً ﴾ بدل من ﴿ كل ﴾ بدل كل وقيل بدل بعض من كل وقال الجاربردي يجوز أن يكون صفة له لأنه معرفة على ما ذكره الزمخشري في قوله تعالى ﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ [ق : 21] إذ جعل جملة معها سائق حالا من كل نفس لذلك ولا يخفى ما فيه ويجوز أن يكون منصوبا ً أو مرفوعا ً على الذم وتنكير مالا للتفخيم والتكثير وقد كان عند القائلين إنها نزلت في الأخنس أربعة آلاف دينار وقيل عشرة آلاف وجوز أن يكون للتحقير والتقليل باعتبار أنه عند الله تعالى أقل وأحقر شيء وقرأ الحسن وأبو جعفر وابن عامر والاخوان جمع بشد الميم للتكثير وهو أوفق بقوله تعالى : ﴿ وَعَدَّدَهُ

﴿ أي عدة مرة بعد أخرى حباله وشغفا به وقيل جعله أصنافاً وأنواعاً كعقار ومتاع ونقود حكاه في التأويلات وقال غير واحد أي جعله عدة ومدخراً لنوائب الدهر ومصائبه وقرأ الحسن والكلبي وعدده بالتخفيف فقيل معناه وعده فهو فعل ماض فك إدغامه على خلاف القياس كما في قوله :

مهلا اعاذل هل جربت من خلقي . . .

إني أجود لأقوام وان ضننوا

وقيل هو اسم بمعنى العدد المعروف معطوف على ماله أي جمع ماله وضبط عدده وأحصاه وليس ذلك على ما في الكشف من باب

علفتها تبنا وماء بارداً . . .

لأن جمع العدد عبارة عن ضبطه وإحصائه فلا يحتاج إلى تكلف وعلى الوجهين أيد بالقراءة المذكورة المعنى الأول لقراءة الجمهور وقيل هو اسم بمعنى الاتباع والأنصار يقال فلان ذو عدد وعدد إذا كان له عدد وافر من الأنصار وما يصلحهم وهو معطوف على ماله أيضاً أي جمع ماله وقومه الذين ينصرونه .

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ جملة حالية أو استئنافية وأخلده وخلده بمعنى أي تركه خالداً أي ما كثا مكثاً لا يتناهى أو مكثا طويلاً جداً والكلام من باب الاستعارة التمثيلية والمراد ان المال طول أمله ومناه الأماني البعيدة فهو يعمل من تشييد البنيان وغرس الأشجار وكرى الأنهار ونحو ذلك عمل من يظن أنه ماله أبقاه حيا والاظهار في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتعبير بالماضي للمبالغة في المعنى المراد وجوز أن يراد انه حاسب ذلك حقيقة لفرط غروره واشتغاله بالجمع والتكاثر عما امامه من قوارع الآخرة أو لزعمه إن الحياة والسلامة عن الأمراض والآفات تدور على مراعاة الأسباب الظاهرة وإن المال هو المحور لكرتها والملك المطاع في مدينتها وقيل المراد انه يحسب المال من المخلدات ولا نظر فيه إلى أن الخلود دنيوي أو أخروي ذكراً أو عيناً إنما النظر في إثباتا هذه الخاصة للمال والغرض منه التعريض بأن ثم مخلداً ينبغي للعاقل أن يكب عليه وهو السعي للآخرة وهو بعيد جداً ولذا لم يجعل بعض الأجلة التعريض وجهاً مستقلاً وزعم عصام الدين أنه يحتمل أن يكون فاعل أخلد الحاسب ومفعوله المال أن يظن أن يحفظ ماله أبداً ولا يعرف أنه مرعض للحوادث أو للمفارقة بالموت كما قيل بشر مال البخيل بحادث أو وارث وهو لعمري مما لا عصام له .

﴿ كَلَّا ﴾ ردع له عن ذلك الحسبان الباطل أو عنه وعن جمع المال وحبه المفرط على ما قيل واستظهر أنه ردع عن الهمز واللمز وتعقب بأنه بعيد لفظاً ومعنى وأنا لا أرى بأساً في كون ذلك ردعاً له عن كل ما تضمنته الجمل السابقة من الصفات القبيحة وقوله تعالى : ﴿

لَيُنبَذَنَّ ﴾ جواب قسم مقدر والجملة استئناف مبين لعلة الردع أي والله ليطرحن بسبب أفعاله المذكورة ﴿ فِى الحطمة ﴾ أي في النار التي من شأنها أن تحطم كل من يلقي فيها وبناء فعلة لتنزيل الفعل لكونه طبيعياً منزلة المعتاد .

(232/830)

والحطم كسر الشيء كالهشم ثم استعمل لكل كسر متناه وأنشدوا

: انا حطمنا بالقضيب مصعبا . . .

يوم كسرنا أنفه ليغضبا

ويقال رجل حطمة أي أكول تشبيهاً له بالنار ولذا قيل في أكول .

كأنما في جوفه تنور ، وفسر الضحاك الحطمة هنا بالدرك الرابع من النار وقال الكلبي هي الطبقة السادسة من جهنم وحكى القشيري عنه أنها الدرك الثاني وقال الواحدي هي باب من أبواب جهنم وزعم أبو صالح انها النار التي في قبورهم وليس بشيء وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحطمة ﴾ لتهويل أمرها ببيان انها ليست من الأمور التي تنالها عقول الخلق وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه والحسن بخلاف عنه وابن حيصن وحميد وهرون عن أبي عمرو ﴿ لينبذان ﴾ بضمير الاثنين العائد على الهمزة وماله وعن الحسن أيضاً لينبذن

بضم الذال وحذف ضمير الجمع فقيل هو راجع لكل همزة باعتبار أنه متعدد وقيل له ولعدده أي اتباعه وانصاره بناء على ما سمعت في قراءته هناك وعن أبي عمرو لننبذنه بنون العظمة وهاء النصب ونون التأكيد وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنه في الحاطمة وما أدراك ما الحاطمة.

﴿ نَارُ اللَّهِ ﴾ خبر مبتدأ محذوف والجملة لبيان شان المسؤول عنها أي هي نار الله ﴿ الموقدة ﴾ بأمر الله عز وجل وفي إضافتها إليه سبحانه ووصفها بالايقاد من تهويل ما لا مزيد عليه.

الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7)

(233/830)

أي تعلو أوساط القلوب وتغشاها وتخصيصها بالذكر لما أن الفؤاد الطف ما في الجسد وأشده تالما بادنى أذى يمسه أو لأنه محل العقائد الزائغة والنيات الخبيثة والملكات القبيحة ومنشأ الأعمال السيئة فهو أنسب بما تقدم من جميع أجزاء الجسد وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب انه قال في الآية تأكل كل شيء منه حتى تنتهي إلى فؤاد فإذا بلغت فؤاده ابتدأ خلقه وجوز أن يراد الإطلاع العلمي والكلام على سبيل المجاز وذلك

أنه لما كان لكل من المعذبين عذاب من النار على قدر ذنبه المتولد من صفات قلبه قيل اناه تطالع الأفئدة التي هي معادن الذنوب فتعلم ما فيها فتجازي كلا بحسب ما فيه من الصفة المقتضية للعذاب .

وأرباب الإشارة يقولون ان ما ذكر إشارة إلى العذاب الروحاني الذي هو أشد العذاب .

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي مطبقة وتمام الكلام مر في سورة البلد .

(234/830)

﴿ فِى عَمَدٍ ﴾ جمع عمود كما قال الراغب والفراء وقال أبو عبيدة جمع عماد وفي البحر وهو اسم جمع الواحد عمود وقرأ الإخوان وأبو بكر عمد بضمتين وهارون عن أبي عمرو بضم العين وسكون الميم وهو في القراءتين جمع عمود بلا خلاف وقوله تعالى : ﴿ مُّمَدَّدَةِ ﴾ ضفة عمد في القراآت الثلاث أي طوال والجار والمجرور في موضع الحال من الضمير المجرور في عليهم أي كائنين في عمد ممددة أي موثقين فيها مثل المقطر وهي خشب أو جذوع كبار فيها خروق يوضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص ونحوهم أو خبر لمبتدأ محذوف أي هم كائنون في عمد موثقون فيها وهي والعياذ بالله تاعلى على ما روي عن ابن زيد عمد من حديد وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس أنها من نار واستظهر بعضهم أن العمد

تمدد على الأبواب بعد أن تؤصد عليهم تأكيداً ليأسهم واستيثاقاً في استيثاق وفي حديث طويل أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة مرفوعاً أن الله تعالى بعد أن يخرج من النار عصاة المؤمنين وأطولهم مكثا فيها من يمكث سبعة آلاف سنة يبعث عز وجل إلى أهل النار ملائكة باطباق من نار ومسامير من نار وعمد من نار فيطبق عليهم بتلك الأطباق ويشد بتلك المسامير وتمدد تلك العمد ولا يبقى فيها خلل يدخل فيه روح ولا يخرج منه غم وينساهم الجبار عز وجل على عرشه ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم ولا يستغيثون بعدها أبداً وينقطع الكلام فيكون كلامهم زفيراً وشهيقاً وفيه فذلك قوله تعالى إنها عليهم مؤصدة في عمد ممدة اللهم أجرنا من النار يا خير مستجار وعلى هذا يكون الجار والمجرور متعلقاً بمؤصدة حالا من الضمير فيها كما قال صاحب الكشف وحكان الطيبي وفي الإرشاد عن أبي البقاء أنه صفة لمؤصدة وقال بعض لا مانع عليه أن يكون صلة مؤصدة على معنى أن الأبواب أوصدت بالعمد وسدت بها وأيد بما أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال في الآية أدخلهم في عمد وتمددت عليهم في أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب ثم أن

ما ذكر لإشعاره بالخلود وأشدية العذاب يناسب كون المحدث عنهم كفاراً همزوا ولمزوا خير البشر صلى الله عليه وسلم وما تقدم من حمل العمد على المقاطر قيل يناسب العموم لأن المغتاب كأنه سارق من أعراض الناس فيناسب أن يعذب بالمقاطر كاللصوص فلا يلزم الخلود وقد يقال من تأمل في هذه السورة ظهر له العجب العجاب من التناسب فإنه لما بولغ في الوصف في قوله تعالى همزة لمزة قيل ﴿ الحطمة ﴾ للتعادل ولما أفاد ذلك كسر الأعراض قوبل بكسر الاضلاع المدلول عليه بالحطمة وجيء بالنبيذ المنبىء عن الاستحقار في مقابلة ما ظن الهامز اللامز بنفسه من الكرامة ولما كان منشأ جمع المال استيلاء حبه على القلب جيء في مقابله ﴿ تطلع على الأفئدة ﴾ [الهمزة : 7] ولما كان من شأن جامع المال المحب له أن ياصد عليه قيل في مقابله إنها عليهم مؤصدة ولما تضمن ذلك طول الأمل قيل في عمد ممددة وقد صرح بذلك بعض الأجلة فليتأمل والله تعالى أعلم . انتهى ا . هـ ﴿روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(236/830)

وقال الشوكانى :

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) ﴾

الويل : هو مرتفع على الابتداء ، وسوّغ الابتداء به مع كونه نكرة كونه دعاء عليهم ، وخبره : ﴿ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ والمعنى : خزي ، أو عذاب ، أو هلكة أو واد في جهنم لكل همزة لمزة .

قال أبو عبيدة ، والزجاج : الهمزة اللمزة الذي يغتاب الناس ، وعلى هذا هما بمعنى وقال أبو العالية ، والحسن ، ومجاهد ، وعطاء بن أبي رباح : الهمزة الذي يغتاب الرجل في وجهه ، واللمزة : الذي يغتابه من خلفه .

وقال قتادة عكس هذا .

وروي عن قتادة ، ومجاهد أيضاً أن الهمزة : الذي يغتاب الناس في أنسابهم .

وروي عن مجاهد أيضاً أن الهمزة : الذي يهمز الناس بيده .

واللمزة الذي يلمزهم بلسانه .

وقال سفيان الثوري : يهمزهم بلسانه ، ويلمزهم بعينه .

وقال ابن كيسان الهمزة : الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ ، واللمزة : الذي يكسر عينه على جليسه ، ويشير بيده وبرأسه وبحاجبه ، والأوّل أولى ، ومنه قول زياد الأعجم :

تدلي بودّي إذا لاقيتني كذبا . . . وإن أغيب فأنت الهامز اللمزه

وقول الآخر :

إذا لقيتك عن سخط تكاشرني . . . وإن تغيبت كنت الهامز اللمزه

وأصل الهمز : الكسر .

يقال : همز رأسه كسره ، ومنه قول العجاج :

ومن همزنا رأسه تهشما . . . وقيل : أصل الهمز واللمز : الضرب والدفع .

يقال : همزه يهمزه همزاً ، ولمزه يلمزه لمزاً : إذا دفعه وضربه ، ومنه قول الشاعر ؛

ومن همزنا عزه تبركعا . . . على أسته زوبعة أو زوبعا

البركعة : القيام على أربع .

يقال بركعه ، فتبركع ، أي : صرعه ، فوقع على أسته .

كذا في الصحاح ، وبناء فعلة يدلّ على الكثرة ، ففيه دلالة على أنه يفعل ذلك كثيراً ، وأنه قد صار ذلك عادة له ، ومثله ضحكة ولعنة .

قرأ الجمهور : ﴿ همزة لمزة ﴾ بضم أوّلهما ، وفتح الميم فيهما .

وقرأ الباقر ، والأعرج بسكون الميم فيهما .

وقرأ أبو وائل ، والنخعي ، والأعمش : (ويل للهمزة اللمزة) والآية تعمّ كلّ من كان متصفاً بذلك ، ولا ينافيه نزولها عل سبب خاص ، فإن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص

السبب .

﴿ الذي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ الموصول بدل من كلّ ، أو في محل نصب على الذمّ ، وهذا أرجح ؛ لأن البدل يستلزم أن يكون المبدل منه في حكم الطرح ، وإنما وصفه سبحانه بهذا الوصف ؛ لأنه يجري مجرى السبب ، والعلة في الهمز واللمز ، وهو إعجابه بما جمع من المال ، وظنه أنه الفضل ، فلأجل ذلك يستقصر غيره .

قرأ الجمهور : ﴿ جمع ﴾ مخففاً .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي بالتشديد .

وقرأ الجمهور : ﴿ وعدّده ﴾ بالتشديد .

وقرأ الحسن ، والكلبي ، ونصر بن عاصم ، وأبو العالية بالتخفيف ، والتشديد في الكلمتين يدلّ على التكثير وهو جمع الشيء بعد الشيء ، وتعديده مرّة بعد أخرى .

قال الفراء : معنى : ﴿ عدّده ﴾ أحصاه .

وقال الزجاج : وعدّده لنوائب الدّهور .

يقال : أعددت الشيء وعددته : إذا أمسكته .

قال السديّ : أحصى عدده .

وقال الضحاك : أعدّ ماله لمن يرثه .

وقيل : المعنى فاخر بكثرته وعدده ، والمقصود ذمه على جمع المال ، وإمساكه ، وعدم

إنفاقه في سبيل الخير .

وقيل : المعنى على قراءة التخفيف في "عدّده" : أنه جمع عشيرته وأقاربه .

قال المهدوي : من خفف "وعدّده" ، فهو معطوف على المال ، أي : وجمع عدده .

وجملة : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ مستأنفة : لتقرير ما قبلها ، ويجوز أن تكون في محل نصب على الحال ، أي : يعمل عمل من يظنّ أن ماله يتركه حياً مخلداً لا يموت .

وقال عكرمة : يحسب أن ماله يزيد في عمره ، والإظهار في موضع الإضمار للتقريع والتوبيخ .

وقيل : هو تعريض بالعمل الصالح ، وأنه الذي يخلد صاحبه في الحياة الأبدية لا المال .

وقوله : ﴿ كَلَّا ﴾ ردع له عن ذلك الحسبان أي : ليس الأمر على ما يحسبه هذا الذي جمع المال وعدده ، واللام في : ﴿ لَيُنبَذَنَّ فِى الحطمة ﴾ جواب قسم محذوف ، أي : ليطرحنّ في النار ، وليلقينّ فيها .

قرأ الجمهور : ﴿ لينبذنّ ﴾ وقرأ عليّ ، والحسن ، ومحمد بن كعب ، ونصر بن عاصم ، ومجاهد ، وحميد ، وابن محيصن : (لينبذانّ) بالتثنية ، أي : لينبذ هو وماله في النار .

وقرأ الحسن أيضاً : ﴿ لينبذنّ ﴾ أي : لينبذن ماله في النار .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الحطمة ﴾ ؟ هذا الاستفهام للتهويل والتفظيع حتى كأنها ليست مما تدركه العقول ، وتبلغه الأفهام .

ثم بيّنها سبحانه فقال : ﴿ نَارُ اللهِ الموقدة ﴾ أي : هي نار الله الموقدة بأمر الله سبحانه ، وفي إضافتها إلى الاسم الشريف تعظيم لها وتفخيم ، وكذلك في وصفها بالإيقاد .

وسميت " حطمة " ؛ لأنها تحطم كل ما يلقى فيها وتهشمه ، ومنه :

إنا حطمنا بالقضيب مصعبا . . . يوم كسرنا أنفه ليغضبا

قيل : هي الطبقة السادسة من طبقات جهنم .

وقيل : الطبقة الثانية منها .

وقيل : الطبقة الرابعة ﴿ التى تَطَّلِعُ عَلَى الأفئدة ﴾ أي : يخلص حرّها إلى القلوب فيعلوها ويغشاها ، وخصّ الأفئدة مع كونها تغشى جميع أبدانهم ؛ لأنها محلّ العقائد الزائغة ، أو لكون الألم إذا وصل إليها مات صاحبها ، أي : إنهم في حال من يموت ، وهم لا يموتون .

وقيل معنى : ﴿ تَطَّلِعُ عَلَى الأفئدة ﴾ أنها تعلم بمقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب ، وذلك بأمارات عرّفها الله بها .

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي : مطبقة مغلقة ، كما تقدّم بيانه في سورة البلد ، يقال أصدت

الباب : إذا أغلقته ، ومنه قول قيس بن الرقيات :

إن في القصر لو دخلنا غزالا . . . مصفقاً موصداً عليه الحجاب

(239/830)

﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةِ ﴾ في محل نصب على الحال من الضمير في ﴿ عليهم ﴾ ، أي : كائنين في عمد ممدّدة موثقين فيها ، أو في محلّ رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : هم في عمد ، أو صفة لمؤصدة ، أي : مؤصدة بعمد ممدّدة .

قال مقاتل : أطبقت الأبواب عليهم ، ثم شدّت بأوتادٍ من حديد ، فلا يفتح عليهم باب ، ولا يدخل عليهم روح .

ومعنى كون العمد ممدّدة : أنها مطوّلة ، وهي : أرسخ من القصيرة .

وقيل : العمد أغلال في جهنم ، وقيل : القيود .

قال قتادة : المعنى : هم في عمد يعذّبون بها ، واختار هذا ابن جرير .

قرأ الجمهور : ﴿ في عمد ﴾ بفتح العين ، والميم .

وقيل : هو اسم جمع لعمود .

وقيل : جمع له .

قال الفرّاء : هي جمع لعمود كأديم وأدم .

وقال أبو عبيدة : هي جمع عماد .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر بضم العين ، والميم جمع عمود .

قال الفرّاء : هما جمعان صحيحان لعمود .

واختار أبو عبيد ، وأبو حاتم وقراءة الجمهور .

قال الجوهري : العمود عمود البيت ، وجمع القلة أعمدة ، وجمع الكثرة عمد وعمد ، وقرىء بهما .

قال أبو عبيدة : العمود كل مستطيل من خشب أو حديد .

وقد أخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾ قال : هو المشاء بالنميمة ، المفرّق بين الجمع ، المغري بين الإخوان .

وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ ﴾ قال : طعان .

﴿ لُّمَزَةٍ ﴾ قال : مغتاب .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر عنه أيضاً في قوله : ﴿ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ﴾ قال : مطبقة .

﴿ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴾ قال : عمد من نار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : هي الأدهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : الأبواب هي الممدّدة .

(240/830)

وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : أدخلهم في عمد ، فمدّت عليهم في أعناقهم ، فشدّت بها الأبواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 492.594 ﴾

(241/830)

وقال القاسمى :

سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾

أي : لكل من يطعن في أعراض الناس ويغتابهم . أصله من الهمز بمعنى الكسر ، ومن اللمز بمعنى الطعن الحقيقيين ، ثم استعير لذلك ثم صار حقيقة عرفية فيه . قال زياد الأعجم :

~تُدْلى بوُدِّ إذا لاقيتَني كذِباً وإن أُغَيَّبْ فأنت الهامِزُ اللُّمَزَهْ

وبناء فُعَلَة يدل على أن ذلك عادة منهُ قد ضَرِيَ بها ، لأنه من صيغ المبالغة ، والآية عني بها من كان من المشركين بمكة ، همازاً لمازاً . كما في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴾ [المطففين : 29 - 30] ، وقوله :

﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ ﴾ [القلم : 11] الآيات ؛ فالسبب وإن يكن خاصاً ، إلا أن الوعيد عام يتناول كل من باشر ذلك القبيح . وسرّ وروده عاماً ليكون جارياً مجرى التعريض بالوارد فيه ، فإن ذلك أزجر له وأنكى فيه .

﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ أي : أحصى عدده ولم ينفقه في وجوه البر .

قال الإمام : أي : أن الذي يحمله على الحط من أقدار الناس ، هو جمعه المال وتعديده . أي : عده مرة بعد أخرى ، شغفاً به وتلذذاً بإحصائه ؛ لأنه لا يرى عزاً ولا شرفاً ولا مجداً في سواه ، فكلما نظر إلى كثرة ما عنده منه ، انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة ، بحيث يكون كل ذي فضل ومزيه دونه ، فهو يهزأ به ويهمزه ويلمزه ، ثم لا يخشى أن تصيبه عقوبة على الهمز واللمز وتمزيق العرض ؛ لأن غروره بالمال أنساه الموت وصرف عنه ذكر المآل فهو ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أي : يظن أن ماله الذي جمعه وأحصاه وبخل بإنفاقه ، مخلدهُ في الدنيا ، فمزيل عنه الموت .

﴿ كَلَّا ﴾ أي : فليرتدع عن هذا الحسبان ، فإن الأمر ليس كما ظن ، بل لابد أن يفارق هذه الحياة إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سيىء الأعمال ، كما قال : ﴿ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴾ أي : ليلقين وليقذفن يوم القيامة في النار التي من شأنها أن تحطم كل ما يلقى فيها ، أي : تكسرهُ . وكلمة النبذ تفيد التحقير والتصغير .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ استفهام عنها لتهويل أمرها ، كأنها ليست من الأمور التي تدركها العقول .

﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴾ أي : هي النار التي لا تنسب إلا إليه سبحانه ، لأنه هو مُنشئُها في عالم لا يعلمهُ سواهُ .

قال أبو السعود : وفي إضافتها إليه سبحانهُ ، ووصفها بالايقاد ، من تهويل أمرها ما لا مزيد عليه .

﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ قال ابن جرير : أي : التي يطلع ألمها ووهجها على القلوب ، والاطلاع والبلوغ قد يكونان بمعنى ؛ حكي عن العرب سماعاً : متى طَلَعت أرضنا ، و : طلعتُ أرضي ، بلغتُ .

وقال الزمخشري : يعني أنها تدخل في أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم وتطلع على أفئدتهم ، وهي أوساط القلوب . ولا شيء في بدن الْإِنْسَانْ ألطف من الفؤاد ، ولا أشد تألماً منهُ بأدنى أذى يمسه ، فكيف إذا اطلعت عليه نار جهنم واستولت عليه ! ! ويجوز أن يخص الأفئدة لأنها موطن الكفر والعقائد الفاسدة والنيات الخبيثة ، أو تطالع ، على سبيل المجاز معادن موجبها .

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أي : مغلقة مطبقة لا مخلص لهم منها .

﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ صفة لمؤصدة ، أو حال من الضمير المجرور ، وإلى الوجهين أشار الزمخشري بقوله : والمعنى أنه يؤكد يأسهم من الخروج ، وتيقنهم بحبس الأبد ، فتؤصد عليهم الأبواب ، وتمدد على العمد ، استيثاقاً في استيثاق . ويجوز أن يكون المعنى أنها عليهم مؤصدة ، موثقين في عمد ممدة ، مثل المقاطر التي تقطر فيها اللصوص .

والمقاطر جمع مَقطرة ، بالفتح ، وهي جذع كبير فيه خروق يوضع فيها أرجل المحبوسين من اللصوص ونحوهم ، وتقطر ، أي : يجعل كلٌّ بجنب آخر ، و ﴿ عَمَدٍ ﴾ قرئ بضم العين والميم وفتحهما .

قال ابن جرير : وهما قراءتان معروفتان ، قد قرأ بكل واحدة منهما علماء من القراء ، ولغتان صحيحتان ، والعرب تجمع العمود عُمُداً وعَمَداً ، بضم الحرفين وفتحهما ، كما تفعل في جمع إهاب تجمعهُ أُهُباً وأَهَباً .

تنبيه :

قال القاشاني في بيان آفات رذيلتي الهمز واللمز اللتين نزلت في وعيدهما السورة ، ما مثاله : الهمز أي : الكسر من أعراض الناس واللمز ، أي : الطعن فيهم ، رذيلتان مركبتان من الجهل والغضب والكبر ؛ لأنهما يتضمنان الإيذاء وطلب الترفع على الناس ، وصاحبهما يريد أن يتفضل على الناس ، ولا يجد في نفسه فضيلة يترفع بها . فينسب العيب والرذيلة إليهم ليظهر فضله عليهم ، ولا يشعر أن ذلك عين الرذيلة ، فهو مخدوع من نفسه وشيطانه موصوف برذيلتي القوة النطقية والغضبية .

ثم قال : وفي قوله :

﴿ وَعَدَّدَهُ ﴾ إشارة أيضاً إلى الجهل ؛ لأن الذي جعل المال عدة للنوائب لا يعلم أن نفس ذلك المال يجر إليه النوائب ؛ لاقتضاء حكمة الله تفريقه في النائبات ، فكيف يدفعها ؟

وكذا في قوله :

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ أي : لا يشعر أن المقتضيات المخلدة لصاحبها هي العلوم والفضائل النفسانية الباقية ، لا العروض والذخائر الجسمانية الفانية ولكنهُ مخدوع بطول

الأمل، مغرور بشيطان الوهم عن بغتة الأجل . والحاصل أن الجهل الذي هو رذيلة القوة الملكية، أصل جميع الرذائل، ومستلزم لها . فلا جرم أنه يستحق صاحبه المغمور فيها العذاب الأبديّ المستولي على القلب المبطل لجوهره . انتهى انتهى . اهـ ﴿محاسن التّأويل حـ 17 صـ 476.478﴾

(244/830)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(104) سورة الهمزة

نزولها : نزلت بمكة . . بعد سورة القيامة .

عدد آياتها : تسع آيات .

عدد كلماتها : ثلاث وثلاثون كلمة .

عدد حروفها : مائة وثلاثون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

فى سورة العصر أقسم الحقّ جلّ وعلا « بالعصر » على أن الإنسان فى خسر، مستثنيا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر .

وفى هذه السورة (سورة الهمزة) عرض للإنسان الخاسر ، ومن أبن كان خسرانه ، وإلى أين يكون مصيره .

بسم اللّه الرحمن الرّحيم

الآيات : (1. 9) [سورة الهمزة (104) : الآيات 1 إلى 9]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4)

وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)

قوله تعالى : «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ» .

«الهمزة» هو الذي يهمز الناس ، أي يؤذبهم بقوارص الكلم جهرة ، فيخدش حياءهم ، ويمتهن كرامتهم ، ليزداد هو علوّا وتطاولا على الناس ، ولتخفّ موازينهم إزاء ميزانه ، فلا يرتفع أمامه رأس ، ولا يشمخ أنف .

و« اللمزة » هو الذي ينقص من أقدار ذوى الأقدار ، فى غير مواجهتهم ، إذ كان لا يستطيع أن يلقاهم وجها لوجه . فيشيع الفاحشة فيهم ، ويذيع قالة السوء عنهم .

فالهمز واللّمز غايتهما واحدة ، وهى الحطّ من أقدار الناس ، ومحاولة إنزالهم منازل الدّون فى الحياة . . وإن كان الهمز بأسلوب العلانية ، واللمز بأسلوب السرّ والخفاء . . ومن كان من شأنه الهمز كان من شأنه اللمز كذلك ، والعكس صحيح . . إذ هما ينبعان من طبيعة واحدة .

وقوله تعالى : « الَّذِي جَمَعَ مالًا وَعَدَّدَهُ » هو من أوصاف هذا الهمزة اللّمزة ، الذي توعّده اللّه سبحانه وتعالى بالويل والعذاب . .

فأكثر الناس همزا ولمزا للناس ، هو الذي يحرص على جمع المال ، ويجعل هذا الجمع كلّ همّه فى الدنيا . .

وإنه لكى ينفسح له طريق الجمع ، ويخلوله ميدان الكسب ، يحارب الناس بكل سلاح ، فلا يدع فى الميدان الذي يعمل فيه إنسانا إلا طعنه

الطعنات القاتلة متى أمكنته الفرصة فيه . . بالهمز حينا ، وباللمز أحيانا .

ثم إنه من جهة أخرى ـ إذ يجمع ما يجمع من مال ـ حريص على أن يدفع عن هذا المال كل عادية يراها بأوهامه وظنونه ، فهو لشدة حرصه على ما جمع ، يحسب أن كل الناس لصوص يريدون أن يسرقوه ، أو قطاع طرق يتربصون به . . وهو لهذا يرمى الناس بكل سلاح ، ويطعنهم بكل ما يقع ليده . . وكأنهم متلبسون بسرقة ماله الذي جمع ! ! ثم هو من جهة ثالثة ، حريص على أن يقيم له من هذا المال الذي جمعه ، سلطانا على الناس ، لا بما ينفق عليهم منه فى وجوه الخير ، ولا بما يمدّ به يده إليهم من معروف ، بل بما يرى الناس من غناه وكثرة أمواله . . وهو لهذا يعمل على إعلاء نفسه بهدم غيره ، والحطّ من منزلته . . وهذا هو الإنسان فى أسوأ أحواله ، وأخسّ منازله . . إنه لا يسمو بذاتيته ، ولا يرتفع بسعيه فى وجوه الخير والفلاح ، بل إنه يرتفع على حطام الناس ، ويعلو على جثث ضحاياه ، الذين يريق دمهم بهمزه ولمزه .

وهذا هو السرّ ـ والله أعلم ـ فى الجمع هنا بين الهمزة ، اللّمزة ، وجامع المال ومكتنزه .

فالهمز واللمز ، وإن كان طبيعة غالبة فى الناس من أغنياء وفقراء ، إلّا أنه عند الذين همّهم كلّه هو المال ، يعدّ سلاحا من الأسلحة العاملة لهم فى جمع المال ، وفى حراسته ، وفى التمكين لهم من التسلط على الناس به .

وعدّد المال : جمع بعضه إلى بعض فى صفوف مترصّة ، وفى صنوف متعددة ، كل صنف

منها يأخذ مكانا خاصّا به، فهذا ذهب، وذاك فضة، وذا جواهر ولآلىء، وتلك أنعام وزروع، ورياض، وهذه دور وقصور، وأثاث ورياش، إلى غير ذلك مما يعدّ من عالم المال، ويحسب بحسابه.

(247/830)

وقوله تعالى: «يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ» جملة حالية تكشف عن ظنون هذا الإنسان وأوهامه، وهو أنه على ظنّ من أن هذا المال الذي جمعه، سيخلّده، ويمدّ له فى الحياة، وأنه بقدر ما يستكثر من المال بقدر ما يكون له من بقاء فى هذه الدنيا.. هكذا شأن الحريصين على المال، الذين اتجه همهم كلّه إلى جمعه.. إنهم لا يذكرون الموت أبدا، ولا يغشون مكانا يذكّرهم به، ولا يستمعون إلى حديث يذكر فيه.. إن الموت عندهم هو عدوّ قد قتلوه بأمانيّهم الباطلة، وأراحوا أنفسهم منه، فما لهم والحديث عنه؟ وما لهم وما يذكّرهم به؟

وقوله تعالى: «كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ».

أي كلّا، إنه فى وهم خادع، وفى ضلال مبين، إذ يحسب أن المال يخلّد صاحبه ويمدّ له فى العمر.. وكلا إنه سيموت، وسيبعث، وسينبذ أي يرمى فى الحطمة، أي جهنّم،

التي تحطمه حطما ، وتدقّه دقّا ، وتهشمه هشما . .

ونبذ الشيء : طرحه فى غير مبالاة ، هوانا له واستخفافا به . . كما تنبذ النواة من التمرة بعد أن تؤكل .

وقوله تعالى : « وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ ؟ نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ » .

استفهام عن الحطمة ، يلفت النظر إليها ، ويدير العقل للبحث عن حقيقتها . .

وجواب يجيب عن هذا السؤال ، ليكشف عن حقيقة هذه الحطمة ، ليلتقى مع ما وقع فى النفس من تصورات لها ، فتزداد حقيقتها وضوحا وبيانا .

إنها نار اللّه الموقدة . . قد أوقدها اللّه فكانت نار للّه ، وليست من تلك النار التي يوقدها الناس ! .

وقوله تعالى : « الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ » .

أي أنها نار ذات شأن عجيب ، ليس فى نار الدنيا شىء من صفاتها وآثارها . . إنها تطلع على الأفئدة ، أي أنها لا تتسلط على الأجسام وحسب ، بل إنها تتسلط كذلك على المشاعر والوجدانات ، فتشتعل بها المشاعر ، وتحترق بها الوجدانات . . وقد يكون فى

هذا ما يشير. والّله أعلم. إلى أن عذاب أهل النار نفسىّ ، أكثر منه مادىّ .

وقد قيل إن معنى الاطلاع على الأفئدة ، هو أن هذه النار العجيبة تعرف أهلها ، وكأنّها اطلعت على سرائرهم ، وما عملوا من منكرات ، فتدعوهم إليها ، وتمسك بهم ، وتشتمل عليهم ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى وَجَمَعَ فَأَوْعى » (17. 18 المعارج) وقوله سبحانه : « إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً » (12 : الفرقان) .

قوله تعالى : « إِنَّها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ » .

أي أن هذه النار مؤصدة ، أي مغلقة على أهلها ، مطبقة عليهم ، لا يجدون لهم فيها منفذا إلى العالم الخارجي . . أما هم ، فهم مشدودون إلى عمد ممددة ، قد شدت أغلالهم إليها . . فهم بهذه القيود فى سجن ، داخل هذا السجن !

(249/830)

وقد قلنا فى غير موضع إن هذه الأوصاف التي توصف بها أدوات العذاب ، فى النار ، وتلك الأوصاف التي توصف بها ألوان النعيم فى الجنة ، هى مما فتمثله فى الدنيا ، ونرى مشابه منه كما نطق به القرآن الكريم ، أما كنه هذه الأشياء وحقيقتها ، فلا يعلمها إلا الّله ،

سبحانه ، وعلينا أن نصدق بها كما وردت ، دون أن نبحث عن صفاتها ، وحدودها .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن جـ 16 صـ 1670 . 1675 ﴾

(250/830)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) ﴾

كلمة (ويل له) دُعاء على المجرور اسمُه باللام بأن يناله الويل وهو سوء الحال كما تقدم غير مرة منها قوله تعالى : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند اللَّه ﴾ في سورة البقرة (79) .

والدعاء هنا مستعمل في الوعيد بالعقاب .

وكلمة (كُلّ) تشعر بأن المهددين بهذا الوعيد جماعة وهم الذين اتخذوا همز المسلمين ولمزهم ديدناً لهم أولئك الذين تقدم ذكرهم في سبب نزول السورة .

وهُمَزَة ولُمزة : بوزن فُعَلَة صيغة تدل على كثرة صدور الفعل المصاغ منه .

وأنه صار عادة لصاحبه كقولهم : ضُحَكَة لكثير الضحك ، ولُعَنَة لكثير اللعن ، وأصلها : أن صيغة فُعَل بضم ففتح ترد للمبالغة في فَاعل كما صرح به الرضيّ في شرح الكافية ﴾

يقال : رجل حُطَم إذا كان قليل الرحمة للماشية ، أي والدواب .

ومنه قولهم : خُتَع (بخاء معجمة ومثناة فوقية) وهو الدليل الماهر بالدلالة على الطريق فإذا أريدت زيادة المبالغة في الوصف أُلحق به الهاء كما أُلحقت في : علاّمة ورحّالة ، فيقولون : رجل حُطمة وضُحكة ومنه هُمزة ، وبتلك المبالغة الثانية يفيد أن ذلك تفاقم منه حتى صار له عادة قد ضري بها كما في "الكشاف" ، وقد قالوا : إن عُيَبَة مساوٍ لعيابة ، فمن الأمثلة ما سمع فيه الوصف بصيغتي فُعَل وفُعَلَة نحو حُطم وحطمة بدون هاء وبهاء ، ومن الأمثلة ما سمع فيه فُعلة دون فُعل نحو رجل ضُحَكة ، ومن الأمثلة ما سمع فيه فُعَل دون فُعَلَة وذلك في الشتم مع حرف النداء يا غُدَر ويا فُسق ويا خُبَث ويا لُكع .

قال المرادي في "شرح التسهيل" قال : بعضهم ولم يسمع غيرها ولا يقاس عليها ، وعن سيبويه أنه أجاز القياس عليها في النداء أ هـ .

قلت : وعلى قول سيبويه بنى الحريري قوله في "المقامة السابعة والثلاثين" : "صَهْ يا عُقَق ، يا من هو الشّجَا والشرَق" .

وهُمزة : وصف مشتق من الهَمز .

وهو أن يعيب أحدٌ أحداً بالإِشارة بالعين أو بالشِّدق أو بالرأس بحضرته أو عند توليه ،

ويقال : هَامز وهمَّاز ، وصيغة فُعلة يدل على تمكن الوصف من الموصوف .

ووقع ﴿ همزة ﴾ وصفاً لمحذوف تقديره : ويل لكل شَخْص هُمزة ، فلما حذف موصُوفه

صار الوصف قائماً مقامه فأضيف إليه (كُلّ) .

ولمزة : وصف مشتق من اللمز وهو المواجعة بالعيب ، وصيغته دالة على أن ذلك الوصف

ملكة لصاحبه كما في هُمزة .

وهذان الوصفان من معاملة أهل الشرك للمؤمنين يومئذ ، ومَن عامَلَ من المسلمين أحداً من

أهل دينه بمثل ذلك كان له نصيب من هذا الوعيد .

فمن اتصف بشيء من هذا الخُلق الذميم من المسلمين مع أهل دينه فإنها خصلة من خصال

أهل الشرك .

وهي ذميمة تدخل في أذى المسلم وله مراتب كثيرة بحسب قوة الأذى وتكرره ولم يُعد من

الكبائر إلا ضربُ المسلم .

وسبُّ الصحابة رضي الله عنهم وإدمان هذا الأذى بأن يتخذه ديدناً فهو راجع إلى إدمان

الصغائر وهو معدود من الكبائر .

وأتبع ﴿ الذي جمع مالاً وعدده ﴾ لزيادة تشنيع صفتيه الذميمتين بصفة الحرص على

المال .

وإنما ينشأ ذلك عن بخل النفس والتخوف من الفقر ، والمقصود من ذلك دخول أولئك الذين عُرفوا بهمز المسلمين ولمزهم الذين قيل إنهم سبب نزول السورة لتعيينهم في هذا الوعيد .

واسم الموصول من قوله : ﴿ الذي جمع مالاً ﴾ نعت آخر ولم يعطف ﴿ الذي ﴾ بالواو لأن ذكر الأوصاف المتعددة للموصوف الواحد يجوز أن يكون بدون عطف نحو قوله تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم ﴾ [القلم : 10 13] .

والمال : مكاسب الإِنسان التي تنفعه وتكفي مؤونة حاجته من طعام ولباس وما يتخذ منه ذلك كالأنعام والأشجار ذات الثمار المثمرة .

وقد غلب لفظ المال في كل قوم من العرب على ما هو الكثير من مشمولاتهم فغلب اسم المال بين أهل الخيام على الإِبل قال زهير :

فكُلاًّ أراهم أصبحوا يعقلونه

(252/830)

صحيحاتتِ مال طالعات بمخرم . . .

يريد إبل الدية ولذلك قال : طالعات بمخرم .

وهو عند أهل القرى الذين يتخذون الحوائط يغلب على النخل يقولون خرج فلان إلى مَاله ، أي إلى جناته ، وفي كلام أبي هريرة : " وإن أخواني الأنصار شغلهم العمل في أموالهم " وقال أبو طلحة : "وإن أحب أموالي إليّ بئرُحاء " .

وغلب عند أهل مكة على الدراهم لأن أهل مكة أهل تجر ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم للعباس : " أينَ المال الذي عند أم الفضل " .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ سورة آل عمران (92) .

ومعنى : عدده ﴾ أكْثر من عدِّه ، أي حسابه لشدة ولعه بجمعه فالتضعيف للمبالغة في (عدَّ) ومعاودته .

وقرأ الجمهور ﴿ جمع مالاً ﴾ بتخفيف الميم ، وقرأه ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر ورويس عن يعقوب وخلفٌ بتشديد الميم مزاوجاً لقوله : ﴿ عدده ﴾ وهو مبالغة في ﴿ جمع ﴾ .

وعلى قراءة الجمهور دل تضعيف ﴿ عدده ﴾ على معنى تكلف جمعه بطريق الكناية لأنه لا يكرر عده إلا ليزيد جمعه .

ويجوز أن يكون ﴿ عدده ﴾ بمعنى أكثر إعداده ، أي إعداد أنواعه فيكون كقوله تعالى : ﴿ والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ [آل عمران : 14] .

وجملة : ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ يجوز أن تكون حالاً من هُمَزة فيكون مستعملاً في التَّهكم عليه في حرصه على جمع المال وتعديده لأنه لا يُوجد من يَحْسب أن ماله يُخلده ، فيكون الكلام من قبيل التمثيل ، أو تكون الحال مراداً بها التشبيه وهو تشبيه بليغ .

ويجوز أن تكون الجملة مستأنفة والخبر مستعملاً في الإِنكار ، أو على تقدير همزة استفهام محذوفة مستعملاً في التهكم أو التعجيب .

وجيء بصيغة المضي في ﴿ أخلده ﴾ لتنزيل المستقبل منزلة الماضي لتحققه عنده ، وذلك زيادة في التهكم به بأنه موقن بأن ماله يخلده حتى كأنه حصل إخلاده وثبت .

والهَمزة في ﴿ أخلده ﴾ للتعدية ، أي جعله خالداً .

وقرأ الجمهور : ﴿ يحسِب ﴾ بكسر السين .

وقرأه ابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر بفتح السين وهما لغتان .

ومعنى الآية : أن الذين جمعوا المال يشبه حالهم حال من يحسب أن المال يقيهم الموت ويجعلهم خالدين لأن الخلود في الدنيا أقصى متمناهم إذ لا يؤمنون بحياة أخرى خالدة .

و﴿ كلاّ ﴾ إبطال لأن يكون المال مُخلدّاً لهم .

وزجر عن التلبس بالحالة الشنيعة التي جعلتهم في حال من يحسب أن المال يخلد صاحبه ، أو إبطال للحرص في جمع المال جمعاً يمنع به حقوق الله في المال من نفقات وزكاة .

﴿ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِى ﴾ ﴿ الحطمة * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الحطمة * نَارُ الله الموقدة * التى تَطَّلِعُ عَلَى الافئدة ﴾ .

استئناف بياني ناشىء عن ما تضمنته جملة : ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ من التهكم والإِنكار ، وما أفاده حرف الزجر من معنى التوعد .

والمعنى : ليَهْلِكَنّ فَلَيُنْبَذَنَّ في الحُطمة .

واللام جواب قسم محذوف .

والضمير عائد إلى الهمزة .

والنبذ : الإِلقاء والطرح ، وأكثر استعماله في إلقاء ما يكره .

قال صاحب "الكشاف" في قوله تعالى : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ [القصص : 40] شبههم استحقاراً لهم بحَصَيات أخذَهُن آخذ بكفه فطرحهن أ هـ .

والحُطمة : صفة بوزن فُعَلَة ، مثل ما تقدم في الهُمزة ، أي لينبذن في شيء يحطمه ، أي يكسره ويدقه .

والظاهر أن اللام لتعريف العهد لأنه اعتبر الوصف علماً بالغلبة على شيء يحطم وأريد

بذلك جهنم ، وأن إطلاق هذا الوصف على جهنم من مصطلحات القرآن .

وليس في كلام العرب إطلاق هذا الوصف على النار .

فجملة : ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ في موضع الحال من قوله : ﴿ الحطمة ﴾ والرابط إعادة لفظ الحطمة ، وذلك إظهار في مقام الإِضمار للتهويل كقوله : ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ﴾ [الحاقة : 31] وما فيها من الاستفهام ، وفعل الدراية يفيد تهويل الحطمة ، وقد تقدم ﴿ ما أدراك ﴾ غير مرة منها عند قوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ في سورة الانفطار (17) .

وجملة : نار الله الموقدة ﴾ جواب عن جملة ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ مفيد مجموعهما بيان الحطمة ما هي ، وموقع الجملة موقع الاستئناف البياني ، والتقدير هي ، أي الحطمة نار الله ، فحُذف المبتدأ من الجملة جرياً على طريقة استعمال أمثاله من كل إخبار عن شيء بعد تقدم حديث عنه وأوصاف له ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ صم بكم عمي ﴾ في سورة البقرة (18) .

وإضافة نار ﴾ إلى اسم الجلالة للترويع بها بأنها نار خلقها القادر على خلق الأمور

العظيمة .

ووصف ﴿ نار ﴾ ب"موقدة" ، وهو اسم مفعول من : أوقد النار ، إذا أشعلها وألهبَها .

والتوقد : ابتداء التهاب النار فإذا صارت جمراً فقد خفّ لهبها ، أو زال ، فوصف ﴿ نار ﴾ ب"موقدة" يفيد أنها لا تزال تلتهب ولا يزول لهيبها .

وهذا كما وُصفت نار الأخدود بذات الوَقود (بفتح الواو) في سورة البروج ، أي النار التي يُجدد اتقادها بوقود وَهو الحَطب الذي يُلقَى في النار لتتقد فليس الوصف بالموقَدة هنا تأكيداً .

ووصفت ﴿ نار اللَّه ﴾ وصفاً ثانياً بـ ﴿ التي تطلع على الأفئدة ﴾ .

والاطلاع يجوز أن يكون بمعنى الإتيان مبالغة في طلع ، أي الإتيان السريع بقوة واستيلاء ، فالمعنى : التي تنفذ إلى الأفئدة فتحرقها في وقت حرق ظاهر الجسد .

(255/830)

وأن يكون بمعنى الكشف والمشاهدة قال تعالى : ﴿ فاطلع فرآه في سواء الجحيم ﴾ [الصافات : 55] فيفيد أن النار تحرق الأفئدة إحراق العالِم بما تحتوي عليه الأفئدة من الكفر فتصيب كل فؤاد بما هو كِفاؤه من شدة الحرق على حسب مبلغ سوء اعتقاده ،

وذلك بتقدير من الله بين شدة النار وقابلية المتأثر بها لا يعلمه إلا مُقدِّره .

إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)

هذه جملة يجوز أن تكون صفة ثالثة ل ﴿ نار اللَّه ﴾ [الهمزة : 6] بدون عاطف ، ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافاً ابتدائياً وتأكيدها بـ (إنّ) لتهويل الوعيد بما ينفي عنه احتمال المجاز أو المبالغة .

وموصدة : اسم مفعول من أوصد الباب ، إذا أغلقه غلقاً مطبقاً .

ويقال : آاصد بهمزتين إحداهما أصلية والأخرى همزة التعدية ، ويقال : أصَدَ الباب فعلاً ثلاثياً ، ولا يقال : وصَد بالواو بمعنى أغلق .

وقرأ الجمهور : ﴿ موصدة ﴾ بواو بعد الميم على تخفيف الهمزة ، وقرأه أبو عمرو وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب وخلف بهمزة ساكنة بعد الميم المضمومة .

ومعنى إيصادها عليهم : ملازمة العذاب واليأسُ من الإِفلات منه كحال المساجين الذين أغلق عليهم باب السجن تمثيلَ تقريب لشدة العذاب بما هو متعارف في أحوال الناس ، وحالُ عذاب جهنم أشد مما يبلغه تصور العقول المعتاد .

وقوله : ﴿ في عمد ممددة ﴾ حال : إما من ضمير ﴿ عليهم ﴾ أي في حال كونهم في عَمَد ، أي موثوقين في عمد كما يوثق المسجون المغلظ عليه من رجليه في فَلْقَة ذاتِ ثَقب يدخل في رجله أو في عنقه كالقرام .

وإمّا حال من ضمير ﴿ إنها ﴾ ، أي أن النار الموقدة في عمد ، أي متوسطة عَمداً كما تكون نار الشواء إذ توضع عَمَد وتجعل النار تحتها تمثيلاً لأهلها بالشواء .

و﴿ عمد ﴾ قرأه الجمهور بفتحتين على أنه اسم جمع عمود مثل : أديم وأدم .

(256/830)

وقرأه حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم وخلف "عُمَد" بضمتين وهو جمع عمود ، والعمود : خشبة غليظة مستطيلة .

والممدَّدة : المجعولة طويلة جدّاً ، وهو اسم مفعول من مدده ، إذا بالغ في مده ، أي الزيادة فيه .

وكل هذه الأوصاف تقوية لتمثيل شدة الإغلاظ عليهم بأقصى ما يبلغه متعارف الناس من الأحوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(257/830)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الهمزة

تعكس هذه السورة صورة من الصور الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول . وهي في الوقت ذاته نموذج يتكرر في كل بيئة . . صورة اللئيم الصغير النفس , الذي يؤتى المال فتسيطر نفسه به , حتى ما يطيق نفسه ! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة . القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار : أقدار الناس . وأقدار المعاني . وأقدار الحقائق . وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب !

كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كل شيء ; لا يعجز عن فعل شيء ! حتى دفع الموت وتخليد الحياة . ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه إن كان هناك في نظره حساب وجزاء !

ومن ثم ينطلق في هوس بهذا المال يعده ويستلذ تعداده ; وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة , تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم . ولمزهم وهمزهم . . يعيبهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته . سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم , أو بتحقير صفاتهم وسماتهم . . بالقول والإشارة . بالغمز واللمز . باللفتة الساخرة والحركة الهازئة !

وهي صورة لئيمة حقيرة من صور النفس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان . والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفعه الأخلاقي . وقد نهى

عن السخرية واللمز والعيب في مواضع شتى . إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح مع الوعيد والتهديد , يوحي بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتجاه المؤمنين . . فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد , والتهديد الرعيب . وقد وردت روايات بتعيين بعض الشخصيات . ولكنها ليست وثيقة . فنكتفي نحن بما قررناه عنها . .

والتهديد يجيء في صورة مشهد من مشاهد القيامة يمثل صورة للعذاب مادية ونفسية , وصورة للنار حسية ومعنوية . وقد لوحظ فيها التقابل بين الجرم وطريقة الجزاء وجو العقاب . فصورة الهمزة اللمزة , الذي يدأب على الهزء بالناس وعلى لمزهم في أنفسهم وأعراضهم , وهو يجمع المال فيظنه كفيلا بالخلود ! صورة هذا المتعالي الساخر المستقوي بالمال , تقابلها صورة "المنبوذ" المهمل المتردي في (الحطمة) التي تحطم كل ما يلقى إليها , فتحطم كيانه وكبرياءه . وهي (نار الله الموقدة) وإضافتها لله وتخصيصها هكذا يوحي بأنها نار فذة , غير معهودة , ويخلع عليها رهبة مفزعة رعيبة . وهي (تطلع) على فؤاده الذي ينبعث منه الهمز واللمز , وتكمن فيه السخرية والكبرياء والغرور . . وتكملة لصورة

المحطم المنبوذ المهمل . . هذه النار مغلقة عليه , لا ينقذه منها أحد , ولا يسأل عنه فيها أحد ! وهو موثق فيها إلى عمود كما توثق البهائم بلا احترام ! وفي جرس الألفاظ تشديد : عدده . كلا . لينبذن . تطلع . ممددة وفي معاني العبارات توكيد بشتى أساليب التوكيد : (لينبذن في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة ? نار الله الموقدة . .)فهذا الإجمال والإبهام . ثم سؤال الاستهوال . ثم الإجابة والبيان . . كلها من أساليب التوكيد والتضخيم . . وفي التعبير تهديد (ويل . لينبذن . الحطمة . . . نار الله الموقدة . التي تطلع على الأفئدة . إنها عليهم مؤصدة . في عمد ممددة) . .

وفي ذلك كله لون من التناسق التصويري والشعوري يتفق مع فعلة(الهمزة اللمزة) !

لقد كان القرآن يتابع أحداث الدعوة ويقودها في الوقت ذاته . وكان هو السلاح البتار الصاعق الذي يدمر كيد الكائدين , ويزلزل قلوب الأعداء ويثبت أرواح المؤمنين .

وإنا لنرى في عناية الله سبحانه بالرد على هذه الصورة معنيين كبيرين :

الأول : تقبيح الهبوط الأخلاقي وتبشيع هذه الصورة الهابطة من النفوس .

والثاني : المنافحة عن المؤمنين وحفظ نفوسهم من أن تتسرب إليها مهانة الإهانة , وإشعارهم بأن الله يرى ما يقع لهم , ويكرهه , ويعاقب عليه . . وفي هذا كفاية لرفع أرواحهم واستعلائها على الكيد اللئيم . . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3973.3972 ﴾

(260/830)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سورة الهمزة

﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) ﴾

هذا الوصف يشعر بأنه علة فيما قبله ، إذ الموصول هنا بدل من كل المتقدمة ، وليس العيب في جمع مالاً بل في عدده . يحسب أن ماله أخلده . وفي عدده عدة معان :

قيل : عده كل وقت وآخر ، تحفظاً عليه .

وقيل : عدده كنزه .

وقيل : عدده أعده للحاجة .

وقرئ : جمع وعدد بالتشديد وبالتخفيف . والمراد به من لم يؤد حق الله فيه شحاً وبخلا ،

كما تقدم في سورة ﴿ أَلْهَاكُمُ التكاثر ﴾ [التكاثر : 1] .

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3)

هذا الحسبان هو المذموم عليه ، والمنصب عليه الوعيد ، لأنه كفر بالبعث . كما قال صاحب الجنة في الكهف ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هذه أَبَداً وَمَا أَظُنُّ الساعة قَائِمَةً ﴾ [الكهف : 35-36] .

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4)

كلا : ردع وزجر له على حسبانه الباطل ، ولينبذن في جوارب قسم محذوف دل عليه قوله : كلا .

وهذا يفسره ما تقدم في قوله : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة : 9] ، أي ينبذ نبذاً ، فيهوي على أم رأسه .

عياذاً بالله .

والحطمة : فعلة من الحطم ، وهو الكسر ، ثم الأكل الكثير .

وقد فسرت بما بعدها ﴿ نَارُ الله الموقدة ﴾ [الهمزة : 6] ، وسميت " حطمة " لأنها تحطم كل ما ألقي فيها ، وتقول : هل من مزيد .

إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)

قيل : مؤصدة في عمد . بأن العمد صارت رصداً للباب كالقفل ، والفلق له . وقيل : في

عمد : أنهم يدخلون في عمد كالقصبة ، مجوفة الداخل .

وقيل : في عمد : أي توضع أرجلهم في العمد على صورة القيد في الخشبة الممتدة ، يشد فيها عدد من الأشخاص في أرجلهم .

وكنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في ذلك : أن العمد بمعنى القصبة المجوفة تضيق عليهم ، كما في قوله : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان : 13] .

فيكون أرجح في هذا المعنى .

وقد نص عليه في إملائه رحمة الله تعالى علينا وعليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت ﴿ ويل لكل همزة ﴾ بمكة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر أنه قيل له : نزلت هذه الآية في أصحاب محمد ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ قال : ابن عمر : ما عنينا بها ولا عنينا بعشر القرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عمر قال : ما زلنا نسمع أن ﴿ ويل لكل همزة ﴾ قال : ليست بحاجبة لأحد نزلت في جميل بن عامر زعم الرقاشي .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ ويل لكل همزة ﴾ في الأخنس بن شريق .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن راشد بن سعد المقدامي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لما عرج بي مررت برجال تقطع جلودهم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين يتزينون . قال : ثم مررت بجب منتن الريح فسمعت فيه أصواتاً شديدة ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : نساء كن يتزين بزينة ويعطين ما لا يحل لهن ، ثم مررت على نساء ورجال معلقين بثديهن ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الهمازون والهمازات ، ذلك بأن الله قال : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن ابن عباس أنه سئل عن قوله : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ قال : هو المشاء بالنميمة المفرق بين الجمع المغري بين الأخوان .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قي قوله : ﴿ ويل لكل همزة ﴾ قال : طعان ﴿ لمزة ﴾ قال : مغتاب .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في شعب الإِيمان عن مجاهد في الآية قال : الهمزة الطعان في الناس ، واللمزة الذي يأكل لحوم الناس .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ قال : يأكل لحوم الناس ويطعن عليهم .

وأخرج عبد بن حميد عن أبي العالية ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ قال : تهمزه في وجهه وتلمزه من خلفه .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة ﴿ ويل لكل همزة ﴾ قال : يهمزه ويلمزه

بلسانه وعينيه ، ويأكل لحوم الناس ويطعن عليهم .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ابن جريج قال : الهمز بالعينين والشدق واليد واللمز باللسان .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله : ﴿ جمع مالاً وعدده ﴾ قال : أحصاه .

وأخرج ابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه والخطيب في تاريخه عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ بكسر السين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ قال : يزيد في عمره .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي ﴿ كلا لينبذن ﴾ قال : ليلقين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسين بن واقد قال : الحطمة باب من أبواب جهنم .

وأخرج عبد بن حميد وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب في قوله : ﴿ التي تطلع على الأفئدة ﴾ قال : تأكل كل شيء منه حتى تنتهي إلى فؤاده فإذا بلغت فؤاده ابتدىء خلقه .

وأخرج ابن عساكر عن محمد بن المنكدر في قوله : ﴿ التي تطلع على الأفئدة ﴾ قال : تأكله النار حتى تبلغ فؤاده وهو حيّ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ قال : مطبقة ﴿ في عمد ممددة ﴾ قال : عمد من نار .

وأخرج عبد بن حميد عن عليّ بن أبي طالب أنه قرأ ﴿ في عمد ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن مسعود أنه قرأ : " بعمد ممددة " قال : وهي الأدهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ في عمد ﴾ قال : الأبواب .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ في عمد ممددة ﴾ قال : أدخلهم في عمد فمدت عليهم في أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية ﴿ في عمد ﴾ قال : عمد من حديد في النار .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ في عمد ﴾ قال : كنا نحدث أنها عمد يعذبون بها في النار .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي صالح ﴿ في عمد ممددة ﴾ قال : القيود الطوال .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : من قرأها ﴿ في عمد ﴾ فهو عمد من نار ومن قرأها ﴿ في عمد ﴾ فهو حبل ممدود .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : في النار رجل في شعب من شعابها ينادي مقدار ألف عام يا حنان يا منان ، فيقول رب العزة لجبريل : أخرج عبدي من النار فيأتيها فيجدها مطبقة فيرجع ، فيقول يا رب ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ فيقول يا جبريل :

فكها واخرج عبدي من النار فيفكها ويخرج مثل الفحم فيطرحه على ساحل الجنة حتى ينبت الله له شعراً ولحماً ودماً .

(265/830)

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمتي ثم ماتوا عليها فهم في الباب الأول من جهنم لا تسود وجوههم ، ولا تزرق أعينهم ، ولا يغلون بالأغلال ، ولا يقرنون مع الشياطين ، ولا يضربون بالمقامع ، ولا يطرحون في الأدراك . منهم من يمكث فيها ساعة ، ومنهم من يمكث يوماً ثم يخرج ، ومنهم من يمكث شهراً ثم يخرج ، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج ، وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا منذ يوم خلقت إلى يوم أفنيت ، وذلك سبعة آلاف سنة ، ثم إن الله عز وجل إذا أراد أن يخرج الموحدين منها قذف في قلوب أهل الأديان ، فقالوا لهم : كنا نحن وأنتم جميعاً في الدنيا فآمنتم وكفرنا ، وصدقتم وكذبنا وأقررتم وجحدنا فما أغنى ذلك عنكم ، نحن وأنتم فيها جميعاً سواء تعذبون كما نعذب وتخلدون كما نخلد ، فيغضب الله عند ذلك غضباً لم يغضبه من شيء فيما مضى ، ولا يغضب من شيء فيما بقي ، فيخرج أهل التوحيد منها إلى عين الجنة والصراط يقال لها نهر الحياة ،

فيرش عليهم من الماء فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل ، ما يلي الظل منها أخضر وما يلي الشمس منها أصفر ، ثم يدخلون الجنة فيكتب في جباههم عتقاء الله من النار إلا رجلاً واحداً فإنه يمكث فيها بعدهم ألف سنة ، ثم ينادي يا حنان يا منان ، فيبعث الله إليه ملكاً ليخرجه فيخوض في النار في طلبه سبعين عاماً لا يقدر عليه ، ثم يرجع فيقول : يا رب إنك أمرتني أن أخرج عبدك فلاناً من النار ، وإني طلبته في النار منذ سبعين سنة فلم أقدر عليه ، فيقول الله عز وجل : انطلق فهو في وادي كذا وكذا تحت صخرة فأخرجه . فيذهب فيخرجه منها فيدخله الجنة ، ثم إن الجهنميين يطلبون إلى الله أن يمحى ذلك الإسم عنهم ، فيبعث الله إليهم ملكاً فيمحو عن جباههم ، ثم إنه يقال لأهل الجنة ومن دخلها من الجهنميين اطلعوا إلى أهل النار فيطلعون

إليهم فيرى الرجل أباه ويرى أخاه ويرى جاره ويرى صديقه ويرى العبد مولاه ، ثم إن الله عز وجل يبعث إليهم ملائكة بأطباق من نار ومسامير من نار وعمد من نار فيطبق عليهم بتلك الأطباق وتسمر بتلك المسامير وتمد بتلك العمد ، ولا يبقى فيها خلل يدخل فيه روح ولا يخرج منه غم ، وينساهم الجبار على عرشه ، ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم ، ولا يستغيثون

بعدها أبداً ، وينقطع الكلام فيكون كلامهم زفيراً وشهيقاً ، فذلك قوله : ﴿ إنها عليهم مؤصدة في عمد ممددة ﴾ "

يقول : مطبقة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 8 صـ 623.626 ﴾

(267/830)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الهمزة

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1)

قوله : ﴿ هُمَزَةٍ ﴾ : أي : كثيرُ الهَمْزِ ، وكذلك " اللُّمَزَة " الكثيرُ اللَّمْزِ . وتقدَّم معنى الهَمْزِ في ن ، واللَّمْزِ في براءة . والعامَّةُ على فتحِ ميمِها على أنَّ المرادَ الشخصُ الذي كَثُرَ منه ذلك الفعلُ . قال زياد الأعجم :

4640 تُدْلِي بوُدّيْ إذا لاقَيْتني كَذِباً . . . وإنْ أُغَيَّبْ فأنت الهامِزُ اللُّمَزَةْ

وقرأ الباقر بالسكون ، وهو الذي يَهْمِزُ ويَلْمِزُ ، أي : يأتي بما يَهْمِزُ به ويَلْمِزُ كالضُّحَكَةِ لمَنْ يَكْثُرُ ضَحِكُه ، والضُّحْكَة لِمَنْ يأتي بما يُضْحَكُ منه . وهو مُطَّرِدٌ ، أعني أنَّ فُعَلَة بفتح العين

لَمَنْ يَكْثُرُ منه الفِعْلُ ، وبسكونِها لَمَنْ يكونُ الفعلُ بسببه .

الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2)

قوله : ﴿ الذى جَمَعَ ﴾ : يجوزُ جرُّه بدلاً ، ونصبُه ورفعُه على القطع . ولا يجوزُ جرُّه نعتاً ولا بياناً لتغايُرِهما تعريفاً وتنكيراً . وقولُه : " جَمَعَ " قرأ الأخَوان وابن عامر بتشديدِ الميم على المبالغةِ والتكثيرِ ، ولأنَّه يوافِقُ " عَدَّدَه " والباقون " جَمَعَ " مخففاً وهي محتمِلَةٌ للتكثيرِ وعدمِه .

قوله : " وعَدَّدَه " العامَّةُ على تثقيل الدالِ الأول ، وهو أيضاً للمبالغةِ . وقرأ الحسن والكلبِّي بتخفيفِها . وفيه أوجهٌ ، أحدُها : أنَّ المعنى : جَمَعَ مالاً وعَدَدَ ذلك المالَ ، أي : وجَمَعَ عَدَدَه ، أي : أحصاه . والثاني : أنَّ المعنى : وجَمَعَ عَدَدَ نفسِه مِنْ عَشيرَتِهِ وأقاربِه ، و " عَدَدَه " على هذَيْنِ التأويلَيْنِ اسمٌ معطوفٌ على " مالاً " أي : وجَمَعَ عَدَدَ المالِ أو عَدَدَ نفسِه . الثالث : أنَّ " عَدَدَه " فعلٌ ماضٍ بمعنى عَدَّه ، إلاَّ أنَّه شَذَّ في إظهارِه كما شَذَّ في قولِه :

4641 إني أَجُودُ لأَقْوامٍ وإنْ ضَنِنُوا . . . .

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3)

قوله: ﴿ يَحْسَبُ ﴾ : يجوزُ أَنْ تكونَ مستأنفةً، وأنْ تكونَ حالاً مِنْ فاعل "جَمَعَ" و "أَخْلَدَه" يعني يُخْلِدُه، فأوقع الماضيَ موقعَ المضارعِ. وقيل: هو على أصلِه، أي: أطال عُمْرَه.

كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4)

قوله: ﴿ لَيُنبَذَنَّ ﴾ : جوابُ قسمٍ مقدرٍ. وقرأ عليٌّ رضي الله عنه والحسن بخلافٍ عنه وابنُ محيصن وأبو عمروٍ في روايةٍ "لَيُنْبَذانِّ" بألفِ التثنيةِ، أي: لَيُنْبَذانِّ، أي: هو ومالُه. وعن الحسن أيضاً: "لَيُنْبَذُنَّ" بضمِّ الذالِ، وهو مُسْنَدٌ لضميرِ جماعةٍ، أي: لنطْرَحَنَّ الهُمَزَةَ وأنصارَه.

والحُطَمَةُ: الكثيرُ الحَطْمِ. يقال: رجلٌ حُطَمَةٌ، أي: أَكُولٌ وحَطَمْتُه: كَسَرْتُه. والحُطام منه قال:

4642 قد لَفَّها الليلُ بسَوَّاقٍ حُطَمْ . . . وقال آخر:

4643 إنَّا حَطَمْنا بالقضيبِ مُصْعَباً . . . يومَ كَسَرْنا أَنْفَه لِيَغْضَبا

قوله: "نارُ الله"، أي: هي نارُ الله.

الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7)

قوله : ﴿ التي تَطَّلِعُ ﴾ يجوز أَنْ تكونَ تابعةً ل " نارُ الله " ، وأَنْ تكونَ مقطوعةً . . .

فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)

(269/830)

قوله : ﴿ فِي عَمَدٍ ﴾ : قرأ الأخوان وأبو بكر بضمتين جمعَ " عَمُود " نحو : " رَسُول ورُسُل " . وقيل : جمعُ عِماد نحو : كِتاب وكُتُب . ورُوِي عن أبي عمروٍ الضمُّ والسكونُ ، وهو تخفيفٌ لهذهِ القراءةِ . والباقون " عَمَد " بفتحتَيْن . فقيل : اسمُ جَمْعٍ لعَمود . وقيل : بل هو جمعٌ له ، قال الفراء : كأَدِيْم وأَدَم " وقال ابو عبيدة : " هو جمعُ عِماد " و " في عَمَدٍ " يجوز أَنْ يكونَ حالاً مِنْ الضميرِ في " عليهم " ، أي : مُوْثَقِين ، وأَنْ يكونَ خبراً لمبتدأ مُضمرٍ ، أي : هم في عَمَدٍ ، وأَنْ يكونَ صفةً لمُؤْصَدَة ، قال أبو البقاء " يعني : فتكون النارُ داخلَ العَمَدِ " .

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 11 صـ 105 . 108 ﴾

(270/830)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الهمزة

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم من لا غرض له في أفعاله ، اسم من لا عوض عنه في جلاله وجماله ، اسم من لا يصبر العبد عن مختارا ، اسم من لا يجد الفقير من دونه قرارا اسم من لا يجد أحد من حكمه فرارا

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ .

يقال : رجلٌ هُمَزَةٌ لُمَزة : أي كثيرُ الهَمْزِ واللَّمزِ للناس وهو العيب والغيبة .

ويقال : الهُمَزَة الذي يقول في الوجه ، واللُّمزة الذي يقول مِنْ خَلْفِه .

ويقال : الهَمْزُ الإشارةُ بالرأس والجَفْنِ وغيره ، واللَّمْزُ باللسان .

ويقال : الهُمَزَة الذي يقول ما في الإنسان ، واللُّمَزَة الذي يقول ما ليس فيه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ﴾ .

" جمَّع " بالتشديد على التكثير ، وبالتخفيف .

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴾ .

أي : يُبْقِيه في الدنيا . كلاّ ليس كذلك :

﴿ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ ﴾ .

لَيُطْرَحَنَّ في جهنَّم . ﴿ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴾ ؟ على جهة التهويل لها .

فهم في نار الله الموقدة التي يبلغ أَلَمُها الفؤاد .

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ .

مُطْبَقة .

﴿ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ .

" عَمَد " : جمع عماد . وقيل : إنها عُمُدٌ من نارٍ تُمدَّدُ وتُضْرَبُ عليهم ؛ كقوله : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف : 29] .

ويقال : الغِنَى بغيرِ اللَّهِ فقْرٌ ، والأُنس بغيره وَحْشَة ، والعِزُّ بغيره ذُلٌّ .

ويقال : الفقيرُ مَنْ استغنى بمالِه ، والحقيرُ : مَنْ استغنى بجاهِه ، والمُفْلِسُ : مَنْ استغنى بطاعته ، والذليلُ : من استغنى بغير الله ، والجليل : من استغنى بالله .

ويقال : بَيِّنَ أن المعرفة إذا اتّقَدتْ في قلب المؤمن أحرقت كلّ سُؤْلٍ وأَرَبٍ فيه ، ولذلك تقول جهنّمُ - غداً - للمؤمن : " جُزْ ، يا مؤمن . . . فإنّ نورَك قد أَطْفَأَ لَهَبي " ! . انتهى ا . هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 766 . 767﴾

(272/830)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الهمزة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3)

الإعراب :

(ويل) مبتدأ مرفوع " 1 " ، (لكلّ) متعلّق بخبر المبتدأ ، (لمزة) نعت لهمزة مجرور مثله " 2 "
. .

جملة : " ويل لكلّ . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

2 - 3 (الذي) موصول بدل من (كلّ) " 3 " في محلّ جرّ . .

وجملة : " جمع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة: " عدّده . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة.

---

(1) اللفظ دال على دعاء فصحّ الابتداء بالنكرة.

(2) قيل هو توكيد لفظيّ بالترادف كقولهم عفريت نفريت.

(3) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هو، والجملة استئناف بيانيّ.

(273/830)

وجملة: " يحسب . . . " في محلّ نصب حال ممن فاعل عدّد " 1 " . .

والمصدر المؤوّل (أنّ ماله أخلده . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يحسب.

وجملة: " أخلده " في محلّ رفع خبر أنّ.

الصرف:

(1) همزة: صيغة مبالغة أي المكثر من الهمز، والتاء فيه للمبالغة، وزنه فعلة بضمّ وفتحتين " 2 " .

(لمزة)، مثل همزة صيغة ومعنى . . وفي المختار: الهمز كاللمز وزنا ومعنى وبابه ضرب، وفيه أيضا اللمز العيب وأصله الإشارة بالعين وبابه ضرب ونصر.

الفوائد:

- العبرة بعموم المعنى، لا بخصوص السبب: اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه السورة، فقيل: نزلت في الأخنس بن شريق بن وهب، كان يقع في الناس ويغتابهم وقال محمد بن إسحاق: ما زلنا نسمع سورة الهمزة، نزلت في أمية بن خلف الجمحي وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة، كان يغتاب النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) من ورائه ويطعن عليه في وجهه وقيل نزلت في العاص بن وائل السهمي. وقيل: هي عامة في كل شخص هذه صفته، كائنا من كان، وذلك لأن خصوص السبب لا يقدح في عموم اللفظ والحكم.

---

(1) أو استئناف بيانيّ لا محلّ لها. [.....]

(2) اطّرد بناء فعلة - بضمّ وفتح - على مبالغة الفاعل، وفعلة - بضمّ فسكون - على مبالغة المفعول.

يقال: رجل لعنة - بضمّ ففتح لمن يكثر لعن غيره، ورجل لعنة - بضمّ فسكون - لمن يلعنه الناس ويكثرون.

[سورة الهمزة (104): الآيات 4 إلى 9]

كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ

عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (8)

فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)

الإعراب:

(كلّا) للردع والزجر (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (ينبذنّ) مضارع مبنيّ للمجهول مبنيّ على الفتح في محلّ رفع، و(النون) نون التوكيد، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي الهمزة اللمزة (في الحطمة) متعلّق بـ (ينبذنّ).

جملة: "ينبذنّ ... " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر.. وجملة القسم المقدّرة لا محلّ لها استئنافيّة.

5 - 7 (الواو) اعتراضيّة (ما) اسم استفهام في محلّ رفع مبتدأ في الموضعين (نار) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هي (الموقدة) نعت لنار (التي) موصول في محلّ رفع نعت ثان لنار (على الأفئدة) متعلّق بـ (تطّلع)..

وجملة: "ما أدراك ... " لا محلّ لها اعتراضيّة.

وجملة : " أدراك . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (ما) .

وجملة : " ما الحطمة " في محلّ نصب مفعول به ثان لفعل أدراك .

وجملة : " (هي) نار الله . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " تطّلع . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (التي) .

8 - 9 (عليهم) متعلّق بـ (مؤصدة) ، (في عمد) متعلّق بمحذوف خبر ثان لـ (إنّ) . .

وجملة : " إنّها . . . مؤصدة " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(4) الحطمة : صيغة مبالغة وزنه فعلة بضمّ وفتحتين من الثلاثيّ حطم باب ضرب بمعنى كسر ، واستعمل في الآية الكريمة اسما للنار لأنها تحطم ما تلتقمه .

(6) الموقدة : مؤنّث الموقد ، اسم مفعول من الرباعيّ أوقد ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين .

(9) ممدّدة : مؤنّث الممدّد ، اسم مفعول من الرباعيّ مدّد ، وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين المشدّدة .

البلاغة :

المقابلة : في قوله تعالى " لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ " . بعد قوله تعالى " وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ " . مقابلة لفظية رائعة البلاغة ، فإنه لما وسمه بهذه السمة ، بصيغة دلت على أنها راسخة فيه

، ومتمكنة منه ، أتبع المبالغة المتكررة في الهمزة واللمزة بوعيده بالنار التي سمّاها الحطمة ،
لما يكابد فيها من هول ، ويلقى فيها من عذاب . واختار في تعيينها صيغة مبالغة على وزن
الصيغة التي ضمنها الذنب المقترف حتى يحصل التعادل بين الذنب والجزاء . انتهى انتهى .
اهـ ﴿الجدول حـ 30 صـ 402. 405﴾

(276/830)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(104) سورة الهمزة

مكيّة وآياتها تسع

[سورة الهمزة (104) : الآيات 1 إلى 9]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مالاً وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلاَّ
لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4)
وَما أَدْراكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّها عَلَيْهِمْ
مُؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (9)

اللغة :

(هُمَزَةٍ) في المختار : " الهمز كاللمز وزنا ومعنى وبابه ضرب " وفيه أيضا " واللمز : العيب وأصله الإشارة بالعين ونحوها وبابه ضرب ونصر " والتاء فيهما للمبالغة في الوصف وقد تقدم أن بناء فعلة بضم الفاء وفتح العين لمبالغة الفاعل أي المكثرة لمأخذ الاشتقاق وبناء فعلة بضم الفاء وسكون العين لمبالغة المفعول يقال : رجل لعنة بضم اللام وفتح العين لمن كان يكثر لعن غيره ولعنة بضم اللام وسكون العين إذا كان ملعونا للناس يكثرون لعنه وعبارة السمين : " والعامة على فتح ميميهما على أن
المراد الشخص الذي يكثر منه ذلك الفعل ، وقرأ الباقون بالسكون وهو الذي يهمز ويلمز أي يأتي بما يهمز به ويلمز كالضحكة لمن يكثر ضحكه والضحكة لمن يأتي بما يضحك منه وهو مطّرد أعني أن فعله بفتح العين لمن يكثر منه الفعل وبسكونها لمن يكثر الفعل بسببه " .

وعبارة ابن خالويه " والهاء في همزة دخلت للمبالغة في الذم كقولهم رجل همزة لمزة أي عياب مغتاب ورجل فروقة صخابة جخّابة : كثير الكلام والخصومات نقّاقة مهذارة هلباجة .

قال الأصمعي : سألت أعرابيا عن الهلباجة فقال : هو الطويل الضخم الأحمق الكثير

الفضول الكثير الأكل السيّء الأدب وإن وقفت نعتّه إلى غد فليس في العيوب شيء أسوأ من الهلباجة. فلما دخلت الهاء لذلك استوى المذكر والمؤنث فقيل امرأة همزة ورجل همزة وامرأة فروقة ورجل فروقة ولا يثنى ولا يجمع يقال: رجال همزة ونساء همزة، قال النحويون : إذا أدخلوا الهاء في الممدوح ذهبوا به مذهب الداهية ذي الإربة وهو العقل كما قيل رجل علّامة ونسّابة فإذا أدخلوا الهاء في المذموم ذهبوا به مذهب البهيمة ومثله قوله " بل الإنسان على نفسه بصيرة" الهاء للمبالغة ومثله قوله تعالى: ولا تزال تطلع على خائنة منهم ، الهاء للمبالغة وأنشد :

تدلي بودّي إذا لاقيتني كذبا وإن أغيب فأنت الهافر اللمزه

فالهافر المغتاب واللامز العيّاب قال اللّه تعالى: ومنهم من يلمزك في الصدقات، أي يصيبك " والذي استخلصناه من كتب اللغة هو التصريف التالي لكليهما .

يقال: همزه يهمزه بضم الميم وبكسرها همزا غمزه وضغطه ونخسه ودفعه وضربه وعضّه واغتابه في غيبته فهو همّاز وهمزة كسرة

وهمز الشيطان الإنسان: همس في قلبه وسواسا وهمز به الأرض صرعه وهمز الفرس: نخسه بالمهماز ليعدو وهمز العنب أو رأسه عصره وهمز الكلمة أو الحرف نطق بها بالهمز أو وضع لها علامة الهمز.

ويقال : لمزه يلمزه بضم الميم وبكسرها لمزا : عابه وأشار إليه بعينه ونحوها مع كلام خفي ودفعه وضربه ولمزه الشيب : ظهر فيه وقال سعيد بن جبير : " الهمزة الذي يهمز الناس بيده ويضربهم واللمزة الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم . وقال ابن كيسان : الهمزة الذي يؤذي جليسه بسوء اللفظ واللمزة الذي يكسر عينه ويشير برأسه ويرمز بحاجبه ، وهناك أقوال أخرى ترجع كلها إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب .

(عَدَّدَهُ) قال الشهاب الحلبي المعروف بالسمين : " العامة على تثقيل الدال الأولى وهو أيضا للمبالغة وقرأ الحسن والكلبي بتخفيفها فمن شدّد ميمه نظر للمبالغة والتكثير ومن خفف ميمه جعله محتملا للتكثير وعدمه " والمعنى جمعه وضبط عدده وأحصاه .

(لَيُنْبَذَنَّ) ليطرحنّ وعبارة ابن خالويه " ومعنى ينبذن يتركن في جهنم قال اللّه تعالى : فنبذوه وراء ظهورهم أي تركوه والصبيّ المنبوذ المتروك وهو ولد الحركة والمدغدغ وابن الليل وهو ولد الخبيثة وهو النّفل وابن المساعاة كله ولد الزناء .

(الْحُطَمَةِ) من أسماء النار أي التي تحطم كل ما ألقي فيها ، وفي المختار : " حطمه من باب ضرب أي كسره فانحطم وتحطم والتحطيم التكسير والحطمة من أسماء النار لأنها تحطم ما تلتقم " .

(مُؤْصَدَةٌ) مطبقة قال :

تحنّ إلى جبال مكة ناقتي ومن دونها أبواب صنعاء مؤصدة

(279/830)

(عَمَدٍ) قرئ بفتحتين وبضمتين وبضم فسكون أما الأولان فهما جمعان لعمود ، ففي كتب اللغة : العمود ما يقوم عليه البيت وغيره وقضيب الحديد والجمع أعمدة وعمد وعمد وأما الثالث فهو تخفيف لقراءة عمد بضمتين ، وعبارة ابن خالويه : " والعمد جمع عمود ولم يأت في كلام العرب على هذا الوزن إلا أحرف أربعة : أديم وأدم وعمود وعمد وأفيق وأفق وإهاب وأهب ، وزاد الفراء خامسا قضيم وقضم يعني الصحكاك والجلود وقرأ أهل الكوفة في عمد بضمتين وهو أيضا جمع عمود مثل رسول ورسل وروى هارون عن أبي عمرو في عمد بسكون الميم تخفيفا مثل رسول ورسل " .

الإعراب :

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ) ويل مبتدأ ولكل همزة خبره وسوّغ الابتداء به مع أنه نكرة ما تضمنه من معنى الدعاء عليهم بالهلكة ، وعبارة ابن خالويه " فإن سأل سائل : فقال : ويل نكرة والنكرة لا يبتدأ بها فما وجه الرفع ؟ فقل النكرة إذا قربت من

المعرفة صلح الابتداء بها نحو خير من زيد رجل من بني تميم ورجل في الدار قائم وكذلك ألف الاستفهام مسهلة الابتداء بالنكرة نحو قوله أمنطلق أخوك هذا قول ، وقال آخرون : ويل معرفة لأنه اسم واد في جهنم نعوذ باللّه منه فإن قيل : وهل تعرف العرب ذلك ؟ فقل إن ألفاظ القرآن تجيء لفظا عربيا مستعارا كما سمى اللّه تعالى الصنم بعلا حيث اتخذ ربا والصنم عذابا ورجزا . فقال : والرجز فاهجر لأن من عبد الصنم أصابه الرجز فسمي باسم مسبّبه فلما كان الويل هلاكا وثبورا ومن دخل النار فقد هلك جاز أن يسمّى المصير إلى الويل ويلا وكذلك فسوف يلقون غيا قيل واد في جهنم نعوذ باللّه منه . ويجوز في النحو ويلا لكل همزة

على الدعاء أي ألزمه اللّه ويلا قال جرير :

كسا اللؤم تيما خضرة في جلودها فويلا لتيم من سرابيلها الخضر

بالنصب الرواية الصحيحة وأجاز الكوفيون : ويل وويل وويل وويلا على حسم الإضافة على إرادتها والويس كلمة أخف من الويل والويح كلمة أخفّ من الويس والويب كلمة أخف من الويح . ويل لزيد وويله وويحه وويسه ويبه فمتى انفرد جاز فيه الرفع والنصب ومتى

أضيف لم يكن إلا منصوبا لأنه يبقى بلا خبر ومتى انفصل جعلت اللام خبرا وقال الحسن : ويح كلمة رحمة فإن قيل : كيف تصرف الفعل من ويح وويس وويل ؟ فقل : ما صرّفت العرب منها فعلا ، فأما هذا البيت المعمول :

فما وال وما واح وما واس أبو زيد

فلا تلتفتنّ إليه فإنه مصنوع خبيث " ولمزة بدل من همزة وهذه عبارة ابن خالويه " لمزة بدل منه والمهمزة عصا في رأسها حديدة تكون مع الرائض يهمز بها الدابة والجمع مهامز ، قال عدي يصف فرسا :

نصفه جوزه نصير شواه مكرم من مهامز الرّوّاض

وأنشد أبو محلّم :

هل غير همز ولمز للصديق ولا ينكي عدوكم منكم أظافير "

وقيل تأكيد لهمزة تأكيدا لفظيا بالمرادف والذي بدل من كل بدل المعرفة من النكرة أو نصب بفعل محذوف على الذم وأعربها ابن خالويه نعتا لكل همزة لمزة وليس ببعيد ، وجملة جمع صلة للذي لا محل له وفاعل جمع مستتر تقديره هو يعود على كل همزة لمزة وما لا مفعول به وعدده عطف على جمع وعبارة ابن خالويه " وعدده نسق عليه والمصدر

عدّد يعدّد تعديدا فهو معدّد والهاء مفعول به وقرأ الحسن : جمع مالا وعدّده بالتخفيف أي جمع مالا وعرف عدده وأحصاه فمن خفّف جعل العدد مصدرا واسما ومن شدّد جعله فعلا ماضيا " وهذا قول في معنى التخفيف وقيل وجمع عدد نفسه من عشيرته وأقاربه وعدده وهي على هذا التأويل اسم أيضا معطوف على مالا أي وجمع عدد المال أو عدد نفسه وقيل أيضا إن عدده فعل ماض بمعنى عدّه إلا أنه شذّ في إظهاره والقياس الإدغام كما شذّ الشاعر في قوله : " إني أجود لأقوام وإن ضنّوا " أي بخلوا (يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) الجملة حال من فاعل جمع أي حاسبا ظانّا أن المال سيخلده أي يوصله إلى رتبة الخلود فلا يموت ويجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيا واقعا في سؤال كأنه قيل : ما باله يجمع المال ويهتم به ، وأن واسمها وجملة أخلده خبرها وأن وما في حيّزها سدّت مسدّ مفعولي يحسب وفي المختار : " الخلد بالضم البقاء وبابه دخل وأخلده اللّه وخلد تخليدا " (كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ) كلا ردع وزجر له عن حسبانه أي ليس الأمر كما دار في خلده من أن المال يخلده واللام جواب قسم محذوف وينبذنّ فعل مضارع مبني للمجهول ومبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة ونائب الفاعل مستتر تقديره هو والجملة لا محل لها لأنها جواب القسم وفي الحطمة متعلقان بينبذنّ والواو حرف عطف وما اسم استفهام في محل رفع مبتدأ وجملة أدراك جملة فعلية في محل رفع خبر وما

اسم استفهام مبتدأ والحطمة خبر والجملة الاسمية المعلقة بالاستفهام سدّت مسدّ مفعول أدراك الثاني وقد تقدمت له نظائر كثيرة ونار اللّه خبر لمبتدأ محذوف أي هي نار اللّه والموقدة نعت للنار ، وأجاز ابن خالويه أن تكون بدلا من الحطمة والموقدة نعت لنار اللّه وعبارته :

(282/830)

" نار اللّه الموقدة : إن شئت جعلت النار بدلا وإن شئت رفعتها بخبر مبتدأ مضمر أي هي نار اللّه واسم اللّه تعالى جر بالإضافة والموقدة نعت

للنار وزنها مفعلة من أوقدت أوقد إيقادا فأنا موقد والنار موقدة وقد وقدت النار نفسها تقد وقدا ووقودا بضم الواو فهي واقدة قال اللّه تعالى :

وقودها الناس والحجارة ، يعني حجارة الكبريت والوقود بالفتح الحطب وقرأ طلحة وقودها بضم الواو وجعله مصدرا قال الشاعر - حاتم الطائي - :

ليلك يا موقد ليل قرّ والريح مع ذلك ريح صرّ

أوقد يرى نارك من يمرّ إن جلبت ضيفا فأنت حر

وهذا أحسن ما قيل في معناه " .

(الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ) التي نعت للنار ويجوز أن تكون في محل رفع أيضا خبرا لمبتدأ محذوف وجملة تطّلع صلة التي لا محل لها وفاعل تطّلع هي يعود على النار وعلى الأفئدة متعلقان بتطّلع ووزن تطّلع تفتعل أبدلت تاء الافتعال طاء لوقوعها بعد طاء وكذلك تبدل طاء إذا وقعت صاد أو ضاد أو ظاء قال عروة بن أدينة :

عاود القلب خيال ردعه كلما قلت تناهى اطلعه

يا له داء ترى صاحبه ساهم الوجه له ممتقعه

(إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ) إن واسمها وعليهم متعلقان بمؤصدة وفي عمد صفة لمؤصدة وإليه ذهب أبو البقاء فتكون النار داخل العمد وقيل بمحذوف خبر لمبتدأ مضمر ورجح السمين أن يكون حالا من الضمير في عليهم أي موثقين وممددة نعت للعمد .

البلاغة :

في قوله " لينبذنّ في الحطمة " بعد " ويل لكل همزة لمزة " مقابلة لفظية رائعة البلاغة فإنه لما وسمه بهذه السمة بصيغة دلّت على أنها راسخة فيه ومتمكنة منه اتبع المبالغة المتكررة في الهمزة واللمزة بوعيده

بالنار التي سمّاها الحطمة لما يكابد فيها من هول ويلقى فيها من عذاب واختار في تعيينها صيغة مبالغة على وزن الصيغة التي ضمنها الذنب المقترف حتى يحصل التعادل بين الذنب والجزاء فهذا الذي ضري بالذنب جزاؤه هذه الحطمة التي هي ضارية أيضا تحطم كل ما يلقى فيها ، قيل نزلت هذه السورة في الأخنس بن شريق وكان من عادته الغيبة والوقيعة وقيل في أمية بن خلف وقيل في الوليد بن المغيرة واغتيابه لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وغضّه منه ولئن كان السبب خاصّا فإن الوعيد كان عامّا يتناول كلّ من اتّسم بهذه السمة الموهونة ليكون جاريا مجرى التعريض بالوارد فيه فإن ذلك أزجر له وأنكى فيه وقد مرّ بحث التعريض وهو عبارة عن أن يكني الإنسان بشيء عن آخر ولا يصرّح به لئلا يأخذه السامع لنفسه ويعلم المقصود منه كقول القائل ما أقبح البخل فيعلم أنك أردت أن تقول له : أنت بخيل ، وكقول بعضهم للآخر : لم تكن أمّي زانية ، يعرض بأن أمه زانية . والتعريض على كل حال نوع من الكناية ومن أمثلته الشعرية قول الحجّاج يعرض بمن تقدمه من الأمراء :

لست براعي إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 574 . 581 ﴾

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الْهُمَزَة

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

فَصْلٌ

قَوْلُهُ : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾ هُوَ الطَّعَّانُ الْعَيَّابُ كَمَا قَالَ : (﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَالْهَمْزُ : أَشَدُّ ؛ لِأَنَّ الْهَمْزَ الدَّفْعُ بِشِدَّةِ وَمِنْهُ الْهَمْزَةُ مِنْ الْحُرُوفِ وَهِيَ نَقْرَةٌ فِي الْحَلْقِ وَمِنْهُ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ ﴾ وَقَالَ : " هَمْزُهُ الموتة " وَهِيَ الصَّرْعُ فَالْهَمْزُ مِثْلُ الطَّعْنِ لَفْظًا وَمَعْنًى . وَاللَّمْزُ كَالذَّمِّ وَالْعَيْبِ وَإِنَّمَا ذُمَّ مَنْ يُكْثِرُ الْهَمْزَ . [وَاللَّمْزَ فَإِنَّ الْهُمَزَةَ وَاللُّمَزَةَ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ كَثِيرًا و (الْهُمْزَةِ) و (اللُّمْزَةِ)

(285/830)

الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ بِهِ . كَمَا فِي نَظَائِرِهِ مِثْلُ الضُّحْكَةِ وَالضُّحَكَةِ وَاللُّعْبَةِ وَاللُّعَبَةِ] (*) وَقَوْلُهُ : ﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴾ وَصَفَهُ بِالطَّعْنِ فِي النَّاسِ وَالْعَيْبِ لَهُمْ وَبِجَمْعِ الْمَالِ

وَتَعْدِيدِهِ وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ فِي " الْحَدِيدِ " وَنَظِيرُهَا فِي الْمَعْنَى فِي " النِّسَاءِ " فَإِنَّ الْهُمَزَةَ اللُّمَزَةَ يُشْبِهُ الْمُخْتَالَ الْفَخُورَ وَالْجَمَّاعُ الْمُحْصِي نَظِيرُ الْبَخِيلِ . وَكَذَلِكَ نَظِيرُهُمَا : قَوْلُهُ ﴿ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ ﴿ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ ﴿ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾ وَصَفَهُ بِالْكِبْرِ وَالْبُخْلِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴾ فَهَذِهِ خَمْسُ مَوَاضِعَ وَذَلِكَ نَاشِئٌ عَنْ حُبِّ الشَّرَفِ وَالْمَالِ فَإِنَّ مَحَبَّةَ الشَّرَفِ تَحْمِلُ عَلَى انْتِقَاصِ غَيْرِهِ بِالْهَمْزِ وَاللَّمْزِ وَالْفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ وَمَحَبَّةُ الْمَالِ تَحْمِلُ عَلَى الْبُخْلِ وَضِدُّ ذَلِكَ مَنْ أَعْطَى فَلَمْ يَبْخَلْ وَاتَّقَى فَلَمْ يَهْمِزْ وَلَمْ يَلْمِزْ وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمُعْطِي نَفَعَ النَّاسَ وَالْمُتَّقِي لَمْ يَضُرَّهُمْ فَنَفَعَ وَلَمْ يَضُرَّ وَأَمَّا الْمُخْتَالُ الْفَخُورُ الْبَخِيلُ فَإِنَّهُ بِبُخْلِهِ مَنَعَهُمْ الْخَيْرَ وَبِفَخْرِهِ سَامَهُمْ الضُّرَّ فَضَرَّهُمْ وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ وَكَذَلِكَ " الْهُمَزَةُ الَّذِي جَمَعَ مَالًا " وَنَظِيرُهُ قَارُونُ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَكَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ . وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ وَجَدَ بَعْضَهُ يُفَسِّرُ بَعْضًا فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي رِوَايَةِ

الوالبي : مُشْتَمِلٌ عَلَى الْأَقْسَامِ وَالْأَمْثَالِ وَهُوَ تَفْسِيرُ : مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ .

وَلِهَذَا جَاءَ كِتَابُ اللَّهِ جَامِعًا . كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ﴿ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ﴾ " وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾ فَالتَّشَابُهُ يَكُونُ فِي الْأَمْثَالِ وَالْمَثَانِي فِي الْأَقْسَامِ فَإِنَّ التَّثْنِيَةَ فِي مُطْلَقِ التَّعْدِيدِ . كَمَا قَدْ قِيلَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ وَكَمَا فِي قَوْلِ حُذَيْفَةَ " كُنَّا نَقُولُ بَيْنَ السَّجْدَتَيْنِ : رَبِّ اغْفِرْ لِي رَبِّ اغْفِرْ لِي " وَكَمَا يُقَالُ : فَعَلْت هَذَا مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فَتَثْنِيَةُ اللَّفْظِ يُرَادُ بِهِ التَّعْدِيدُ ؛ لِأَنَّ الْعَدَدَ مَا زَادَ عَلَى الْوَاحِدِ وَهُوَ أَوَّلُ التَّثْنِيَةِ وَكَذَلِكَ ثَنَيْت الثَّوْبَ أَعَمُّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَرَّتَيْنِ فَقَطْ أَوْ مُطْلَقَ الْعَدَدِ فَهُوَ جَمِيعُهُ مُتَشَابِهٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا لَيْسَ مُخْتَلِفًا بَلْ كُلُّ خَبَرٍ وَأَمْرٍ مِنْهُ يُشَابِهُ الْخَبَرَ لِاتِّحَادِ مَقْصُودِ الْأَمْرَيْنِ وَلِاتِّحَادِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي إلَيْهَا مَرْجِعُ الْمَوْجُودَاتِ . فَلَمَّا كَانَتْ الْحَقَائِقُ الْمَقْصُودَةُ وَالْمَوْجُودَةُ تَرْجِعُ إلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ . كَانَ الْكَلَامُ الْحَقُّ فِيهَا خَبَرًا وَأَمْرًا مُتَشَابِهًا لَيْسَ بِمَنْزِلَةِ الْمُخْتَلِفِ الْمُتَنَاقِضِ . كَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ أَكْثَرِ الْبَشَرِ وَالْمُصَنِّفُونَ الْكِبَارُ مِنْهُمْ يَقُولُونَ شَيْئًا ثُمَّ يَنْقُضُونَهُ وَهُوَ جَمِيعُهُ مَثَانِي ؛ لِأَنَّهُ اُسْتُوْفِيَتْ فِيهِ الْأَقْسَامُ الْمُخْتَلِفَةُ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ فَذِكْرُ الزَّوْجَيْنِ مَثَانِي وَالْإِخْبَارُ عَنْ الْحَقَائِقِ بِمَا هِيَ عَلَيْهِ

بِحَيْثُ يَحْكُمُ عَلَى الشَّيْءِ بِحُكْمِ نَظِيرِهِ وَهُوَ حُكْمٌ عَلَى الْمَعْنَى الْوَاحِدِ الْمُشْتَرَكِ خَبَرًا أَوْ طَلَبًا خِطَابٌ مُتَشَابِهٌ فَهُوَ مُتَشَابِهٌ مَثَانِي .

(289/830)

وَهَذَا فِي الْمَعَانِي مِثْلُ الْوُجُوهِ وَالنَّظَائِرِ فِي الْأَلْفَاظِ فَإِنَّ كُلَّ شَيْئَيْنِ مِنْ الْأَعْيَانِ وَالْأَعْرَاضِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إمَّا أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا مِثْلَ الْآخَرِ أَوْ لَا يَكُونَ مِثْلَهُ فَهِيَ الْأَمْثَالُ وَجَمْعُهَا هُوَ التَّأْلِيفُ وَإِذَا جَاءَتْ بِلَفْظِ وَاحِدٍ كَانَتْ نَظَائِرَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِثْلَهُ فَهُوَ خِلَافُهُ سَوَاءٌ كَانَ ضِدًّا أَوْ لَمْ يَكُنْ وَقَدْ يُقَالُ : إمَّا أَنْ يَجْمَعَهُمَا جِنْسٌ أَوْ لَا فَإِنْ لَمْ يَجْمَعْهُمَا جِنْسٌ فَأَحَدُهُمَا بَعِيدٌ عَنْ الْآخَرِ وَلَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَهُمَا وَإِنْ جَمَعَهُمَا جِنْسٌ فَهِيَ الْأَقْسَامُ وَجَمْعُهَا هُوَ التَّصْنِيفُ وَدَلَالَةُ اللَّفْظِ الْوَاحِدِ عَلَى الْمَعَانِي الْمُخْتَلِفَةِ تُسَمَّى الْوُجُوهَ . وَالْكَلَامُ الْجَامِعُ هُوَ الَّذِي يَسْتَوْفِي الْأَقْسَامَ الْمُخْتَلِفَةَ وَالنَّظَائِرَ الْمُتَمَاثِلَةَ جَمْعًا بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ وَفَرْقًا بَيْنَ الْمُخْتَلِفَيْنِ . بِحَيْثُ يَبْقَى مُحِيطًا وَإِلَّا فَذِكْرُ أَحَدِ الْقِسْمَيْنِ أَوْ الْمِثْلَيْنِ لَا يُفِيدُ التَّمَامَ وَلَا يَكُونُ الْكَلِمُ مُحِيطًا وَلَا الْكَلِمُ جَوَامِعَ وَهُوَ فِعْلُ غَالِبِ النَّاسِ فِي كَلَامِهِمْ . وَالْحَقَائِقُ فِي نَفْسِهَا : مِنْهَا الْمُخْتَلِفُ وَمِنْهَا الْمُؤْتَلِفُ وَالْمُخْتَلِفَانِ بَيْنَهُمَا اتِّفَاقٌ مِنْ وَجْهٍ وَافْتِرَاقٌ مِنْ وَجْهٍ فَإِذَا أَحَاطَ

الْكَلَامُ بِالْأَقْسَامِ الْمُخْتَلِفَةِ وَالْأَمْثَالِ الْمُؤْتَلِفَةِ كَانَ جَامِعًا وَبِاعْتِبَارِ هَذِهِ الْمَعَانِي كَانَتْ ضُرُوبُ الْقِيَاسِ الْعَقْلِيِّ الْمَنْطِقِيِّ ثَلَاثَةً: الْحَمْلِيَّاتُ وَالشَّرْطِيَّاتُ الْمُتَّصِلَةُ وَالشَّرْطِيَّاتُ الْمُنْفَصِلَةُ. فَالْأَوَّلُ لِلْحَقَائِقِ

الْمُتَمَاثِلَةِ الدَّاخِلَةِ فِي الْقَضِيَّةِ الْجَامِعَةِ. وَالثَّانِي لِلْمُخْتَلِفَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ مُتَضَادَّةً بَلْ تَتَلَازَمُ تَارَةً وَلَا تَتَلَازَمُ أُخْرَى.

وَالثَّالِثُ لِلْحَقَائِقِ الْمُتَضَادَّةِ الْمُتَنَافِيَةِ إمَّا وُجُودًا أَوْ عَدَمًا وَهِيَ النَّقِيضَانِ وَإِمَّا وُجُودًا فَقَطْ وَهُوَ أَعَمُّ مِنْ النَّقِيضَيْنِ وَإِمَّا عَدَمًا فَقَطْ وَهُوَ أَخَصُّ مِنْ النَّقِيضَيْنِ. فَالْحَمْلِيَّاتُ لِلْمِثْلَيْنِ وَالْأَمْثَالِ وَالشَّرْطِيَّاتُ الْمُنْفَصِلَةُ لِلْمُتَضَادَّيْنِ وَالْمُتَضَادَّاتِ وَيُسَمَّى التَّقْسِيمَ وَالسَّبْرَ وَالتَّرْدِيدَ وَالْبَيَانِيَّ وَالْمُتَّصِلَةُ لِلْخِلَافَيْنِ غَيْرِ الْمُتَضَادَّيْنِ وَيُسَمَّى التَّلَازُمَ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى جـ 16 صـ 521. 525 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والثلاثون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى والثلاثون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الفيل)

(4/831)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الفيل)

(5/831)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الفيل

مقصودها الدلالة على آخر الهمزة من إهلاك المكاثرين في دار التعاضد والتناصر بالأسباب ، فعند انقطاعها أولى لأختصاصه سبحانه وتعالى بتمام القدرة دون التمكن

بالمال والرجال ، واسمها الفيل ظاهر الدلالة على ذلك بتأمل سورته ، وما حصل في سيرة جيشه وصورته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 528 ﴾

(6/831)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . ألم تر كيف)

السّورة مكِّيّة آياتها خمس إِجماعاً .

وكلماتها ثلاث وعشرون .

وحروفها ثلاث وتسعون .

فواصل آياتها على اللاَّم .

سمّيت سورة الفيل ؛ لقوله : ﴿ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ .

معظم مقصود السّورة : بيان جزاءِ الأَجانب ، ومكرهم ، وردُّ كيدهم فى نحرهم ، وتسليط أَنواع العقوبة على العصاة والمجرمين ، وسوء عاقبتهم بعد حين فى قوله :

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ .

السّورة محكمة.

المتشابهات:

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ﴾ أَتى فى مواضع وهذا آخرها.

ومفعولاه محذوفان و ﴿كَيْفَ﴾ مفعلو ﴿فَعَلَ﴾ لا يعمل فيه ما قبله؛ لأَنه استفهام، والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله.

فضل السّورة

فيه عن أُبىّ: مَنْ قرأَ سورة الفيل عافاه الله أَيّام حياته فى الدّنيا من القَذْف والمسْخ، وحديث علىّ: يا علىّ مَن قرأَها فكأَنَّما تصدّق بوزنه ذهبا، وله بكلّ آية قرأَها شربة يشربها إِذا خرج من قبره، وأَعطاه الله ثواب الصدّيقين. انتهى انتهى. اهـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 544﴾

(7/831)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور:

سورة الفيل

وردت تسميتها في كلام بعض السلف سورة) ألم تر . روى القرطبي في تفسير سورة قريش عن عمرو بن ميمون قال : صليت المغرب خلف عمر بن الخطاب فقرأ في الركعة الثانية ألم تر ((الفيل : 1) و) لإيلاف قريش ((قريش : 1) . وكذلك عنونها البخاري . وسميت في جميع المصاحف وكتب التفسير : سورة الفيل .

وهي مكية بالاتفاق .

وقد عدت التاسعة عشرة في ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة) قل يا أيها الكافرون ((الكافرون : 1) وقبل سورة الفلق . وقيل : قبل سورة قريش لقول الأخفش إن قوله تعالى :) لإيلاف قريش ((قريش : 1) متعلق بقوله :) فجعلهم كعصف مأكول ((الفيل : 5) ، ولأن أبي بن كعب جعلها وسورة قريش سورة واحدة في مصحفه ولم يفصل بينهما بالبسملة ولِخَبَرِ عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب المذكور آنفاً رَوى أن عمر بن الخطاب قرأ مرة في المغرب في الركعة الثانية سورة الفيل وسورة قريش ، أي ولم يكن الصحابة يقرأون في الركعة من صلاة الفرض سورتين لأن السنة قراءة الفاتحة وسورة فدل أنهما عنده سورة واحدة . ويجوز أن تكون سورة قريش نزلت بعد سورة الفلق وأُلحقت بسورة الفيل فلا يتم الاحتجاج بما في مصحف أبي بن كعب ولا بما رواه عَمرو بن ميمون .

وآيها خمس .

أغراضها

وقد تضمنت التذكير بأن الكعبة حرَم الله وأن الله حَماه ممن أرادوا به سوءاً أو

(8/831)

أظهر غضبه عليهم فعذبهم لأنهم ظلموا بطمعهم في هدم مسجد إبراهيم وهو عندهم في كتابهم ، وذلك ما سماه الله كيداً ، وليكون ما حلّ بهم تذكرة لقريش بأن فاعل ذلك هو رب ذلك البيت وأن لا حظّ فيه للأصنام التي نصبوها حوله .

وتنبيه قريش أو تذكيرهم بما ظهر من كرامة النبي (صلى الله عليه وسلم) عند الله إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته .

ومن وراء ذلك تثبيت النبي (صلى الله عليه وسلم) بأن الله يدفع عنه كيد المشركين فإن الذي دفع كيد من يكيد لبيته لأحَقّ بأن يدفع كيد من يكيد لرسوله (صلى الله عليه وسلم) ودينه ويشعر بهذا قوله : (ألم يجعل كيدهم في تضليل ((الفيل : 2) .

ومن وراء ذلك كله التذكير بأن الله غالب على أمره ، وأن لا تغُر المشركين قُوتهم ووفرة عددهم ولا يوهن النبي (صلى الله عليه وسلم) تألُب قبائلهم عليه فقد أهلك الله من هو أشد منهم قوة وأكثرُ جمعاً .

ولم يتكرر في القرآن ذكر إهلاك أصحاب الفيل خلافاً لقصص غيرهم من الأمم لوجهين: أحدهما أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من الله، وثانيهما أن لا يَتخذ منه المشركون غروراً بمكانةٍ لهم عند الله كغرورهم بقولهم المحكي في قوله تعالى: (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر) (التوبة: 19) الآية وقوله: (وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) (الأنفال: 34). انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير جـ 30 صـ 544.543﴾

(9/831)

وقال الشيخ الصابونى:

سورة الفيل

مكية وأياتها خمس أيات

بين يدي السورة

* سورة الفيل مكية، وهي تتحدث عن قصة "اصحاب الفيل" حين قصدوا هدم الكعبة المشرفة، فرد الله كيدهم في نحورهم، وحمى بيته من تسلطهم وطغيانهم، وأرسل

على جيش "أبرهة الأشرم" وجنوده أضعف مخلوقاته ، وهي الطير التي تحمل في أرجلها ومناقيرها حجارة صغيرة ، ولكنها أشد فتكا وتدميرا من الرصاصات القاتلة ، حتى أهلكهم الله وأبادهم عن آخرهم ، وكأن ذلك الحدث التاريخى الهام ، في عام ميلاد سيد الكائنات (محمد بن عبد الله) صلوات الهن وسلامه عليه ، سنة سبعين وخمسمائة ميلادية ، وكان من أعظم الإرهاصات الدالة على صدق نبوته (صلى الله عليه وسلم) .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿صفوة التفاسير حـ 3 صـ 604﴾

(10/831)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الفيل

الكيد : إرادة وقوع ضر بغيرك على وجه الخفاء ، والتضليل : التضييع والإبطال تقول ضلّلت كيد فلان إذا جعلته باطلا ضائعا ، والطير : كل ما صار فى الهواء ، صغيرا كان أو كبيرا ، والأبابيل : الجماعات ، لا واحد له من لفظه ، والسجيل : الطين الذي تحجر ، والعصف : ورق الزرع الذي يبقى بعد الحصاد ، وتعصفه الرياح : فتأكله الماشية ، مأكول :

أي أكلت الدواب بعضه وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 241 ﴾

(11/831)

وقال الفراء :

سورة (الفيل)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . . . ﴾ .

يقول : ألم تُخبَر عن الحبشة ، وكانوا غزوا البيت وأهلَ مكة ، فلما كانوا بذى المجاز مروا براعٍ لعبد المطلب فاستاقوا إبله ، فركب دابته وجاء إلى مكة ، فصرخ بصراخ الفزع ثم أخبرهم الخبر ، فجال عبد المطلب فى متن فرسه ثم لحقهم ، فقال له رجلان من كندة وحضرموت : ارجع [١/أ] ، وكانا صديقين له ، فقال : والله لا أبرح حتى آخذ أبلى ، أو أُوخَذَ معها ، فقالوا لأَصْحمة رئيس الحبشة : ارددها عليه ؛ فإنه آخذها غدوة ، فرجع بإبله ، وأخبر أهل مكة الخبر ، فمكثوا أياما لا يرون شيئًا ، فعاد عبد المطلب إلى مكانهم فإذا هم كما قال الله تبارك وتعالى : "كَالْعَصْفِ الْمَأْكُولِ" قد بعث الله تبارك وتعالى عليهم طيرا فى

مناقيرها الحجارة كبعر الغنم ، فكان الطائر يرسل الحجر فلا يخطىء رأس صاحبه ، فيخرج من دبره فقتلتهم جميعا ، فأخذ عبد المطلب من الصفراء والبيضاء يعنى : الذهب والفضة ما شاء ، ثم رجع إلى أهل مكة فأخبرهم ، فخرجوا إلى عسكرهم فانتبهوا ما فيه .

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ أَبَابِيلَ . . . ﴾ .

لا واحد لها مثل : الشماطيط ، والعباديد ، والشعارير كل هذا لا يفرد له واحد ، وزعم لى الرؤاسى وكان ثقة مأمونا : أنه سمع واحدها : إِبَّالة لا ياء فيها . ولقد سمعت من العرب من يقول : "ضِغث على إِبَّالة" يريدون : خِصب على خِصب . وأمّا الإيبالة : فهى الفضلة تكون على حمل الحمار أو البعير من العلف ، وهو مثل الخِصب على الخصب ، وحمل فوق حمل ، فلو قال قائل : واحد الأبابيل إيبالة كان صوابا ، كما قالوا : دينار دنانير . وقد قال بعض النحويين ، وهو الكسائى : كنت أسمع النحويين يقولون : أبوك مثل العِجّول والعجاجيل .

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾

ويقال: ﴿ سِجِّيلٍ . . . ﴾ كالآجر مطبوخ من طين، فقال الكلبى: حدثنى أبو صالح قال: رأيت فى بيت أم هانىء بنت أبى طالب، نحوا من قفيز من تلك الحجارة سودا مخططة بحمرة.

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ كَعَصْفٍ . . . ﴾.

والعصف: أطراف الزرع قبل أن يدرك ويسنبل. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 291.292 ﴾

(13/831)

وقال الأخفش:

سورة (الفيل)

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾

[186] قال ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 585 ﴾

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الفيل «1»

3 - أَبابِيلَ : جماعات متفرّقة .

4 - مِنْ سِجِّيلٍ قال ابن عباس : [من] آجرّ .

5 - كَعَصْفٍ يعني : ورق الزّرع .

ومَأْكُولٍ فيه قولان :

(أحدهما) : أن يكون أراد : أنه أخذ ما فيه - من الحب - فأكل ، وبقي هو لا حبّ فيه .

(والآخر) : أن يكون أراد : العصف مأكولا للبهائم ، كما تقول للحنطة : «هذا المأكول»

ولّما يؤكل . وللماء : «هذا المشروب» ولّما يشرب .

يريد : أنهما مما يؤكل ويشرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 471 ﴾

---

(1) هي مكية بالإجماع .

وقال الغزنوى :

[سورة الفيل]

1 «أصحاب الفيل» «1» : قوم من الحبشة رئيسهم أبرهة «2» .

2 فِي تَضْلِيلٍ : عمّا قصدوا له .

3 أَبابِيلَ : جماعات «3» ، واحدها : «إبّول» «4» ، والإبل المؤبلة :

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ [آية : 1] .

(2) ينظر خبر أبرهة وجيشه وهلاكهم في السيرة لابن هشام : (1/ 52 - 54) ،

وتفسير الطبري :

(30/ 300 - 304) ، وتفسير ابن كثير : (8/ 504 - 506) .

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 2/ 312 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 539 ،

ومعاني الزجاج : 5/ 363 ، واللسان : 11/ 6 (أبل) .

(4) وقيل : «إبّالة» ، وقيل : «إيبالة» ، وقيل : «إبّيل» ، وقيل : «إبّال» ، وقيل : لا

واحد لها .

ينظر معاني الفراء : 3/ 292 ، وتفسير الطبري : 30/ 296 ، ومعاني الزجاج : 5/

364 ، وتفسير المشكل لمكي : 397 .

وقال النحاس في إعراب القرآن : 5/ 292 : «وأصح ما قيل في واحد «الأبابيل» ما قاله محمد بن يزيد قال : واحدها «إبّيل» ك «سكّين» وسكاكين .

(16/831)

الكثيرة «1» .

[قالت] «2» عائشة رضي اللّه عنها : رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان» «3» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 891 .
892﴾

---

(1) ينظر تفسير القرطبي : 20/ 198 ، واللسان : 11/ 4 (أبل) .

(2) ما بين معقوفين عن «ك» و«ج» .

(3) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة لابن هشام : 1/ 57 ، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد :

3/ 288 وقال : رواه البزار ورجاله ثقات ، وأورده - أيضا - السيوطي الدر المنثور :

633/8 ، وزاد نسبته إلى الواقدي ، وابن مردويه ، وأبي نعيم ، والبيهقي عن عائشة رضي اللّه تعالى عنها .

(17/831)

وقال ملاحويش :

تفسير سورة الفيل

عدد 19 - 105

نزلت بعد (الكافرون) بمكة وهي خمس آيات ، وثلاث وعشرون كلمة ، وستة وتسعون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها ، لأنها من الاخبار ولا يدخلها النسخ .

"بسم اللّه الرّحمن الرّحيم"

قال تعالى : "أَلَمْ تَرَ" يا سيد الرسل رؤية علم لا رؤية بصر ، لانه لم يحضر هذه الحادثة وكانت ولادته في سنتها "كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ 1" عجب اللّه نبيه لصنعه فيهم وعدم اعتبار كفار العرب الذين شاهدوا تلك الآية العظيمة التي أوقعها اللّه عليهم وبقيت أخبارها متواترة مستفيضة كأنها مشاهدة رأي العين إذ لا يستطيع أحد إنكارها لوقوعها

سنة 571 من ميلاد عيسى عليه السلام وذلك على ملأ من أهل مكة ومجاوريها وكثير منهم ان لم نقل كلهم رآها بأم عينه من غير نكير من أحد ما ، ولهذا قال تعالى :

(18/831)

"أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ" الذي كادوه وسعيهم الذي جاءوا من أجله لتخريب الكعبة "فِي تَضْلِيلٍ 2" تضييع وخسران إذ لم يتمكنوا من تنفيذ ما صمموا عليه لأن اللّه تعالى أبطله باهلاكهم المبيّنة كيفته بقوله "وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ" عند ما وصلوا إلى حرم مكة وجزموا على دخولها وتخريب البيت ولم تنههم حرمته وتعظيمه ولم يبالوا بسكانه وسدنته "طَيْراً أَبابِيلَ 3" مثال الخطاف وهو جند من جنود اللّه صارت "تَرْمِيهِمْ" بما في منقارها وأرجلها "بِحِجارَةٍ" كأنها "مِنْ سِجِّيلٍ 4" طين متحجر كالآجر أي اللبن المحرق بقصد اشتداد قوته وسمى سجيلا لأن سجيل علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفّار كما سيأتي في سورة المطففين في ج 2 ، أي أن تلك الطير رمت أبرهة وجيشه بعذاب من جملة العذاب المدون لأهل النار "فَجَعَلَهُمْ" ربك يا سيد الرسل "كَعَصْفٍ" زرع وتبن مهشم بوطئه "مَأْكُولٍ 5" من الدواب ثم راثت به وفرقت أجزاءه ، شبه تفرق القوم وتقطع أوصالهم بتفرق الروث بعد فتاته بجامع عدم الاجتماع في كل ، أي أنهم صاروا كالروث ولكن لهجنته لم يذكره فجاء به

بلفظ آخر يدل عليه على نمط الآداب القرآنية ليتعلم عباده التأديب عن مثلها ، ولهذا ترى كثيرا من العارفين ينزهون ألسنتهم عن النطق بما يستهجن .

مطلب آداب العارفين وقصة الفيل :

وقد شاهدت شيخنا الشيخ بدر الدين الحسني شيخ دار الحديث بدمشق رحمه الله حين سأله أحد تلامذته في شهر رمضان سنة 1343 عن معنى القذرة إذ مرت ت (12) لنا أثناء الدرس الذي كنا نتلقاه عنه ، فقال هي مثل ونيم الذباب ، فسأله عنه فقال كرجيع الكلاب ، فسأله عنه فقال كخشي البقر ، فسأله عنه فقال كزرق الحمام ولم يزل يسأل حتى قال له مثل بعر الغنم والإبل ، والروث للحمار والفرس هو الغائط للانسان محاولا بذلك عدم النطق بلفظها المشهور .

(19/831)

وأظن أن هذا الطالب أراد إلجاء الشيخ للنطق بها فلم يفلح ، وما قيل إن الله سلط عليهم الجدري أو ردهم بما يشبه التسمم (ميكروب) ينافي صراحة الآية وحقيقتها .

اللهم إلا أن يقال ان ذلك نشأ عن رميهم والله أعلم ، وخلاصة قصة الفيل هي أن أبرهة الحبشي لما ولي اليمن ورأى الناس يتجهزون أيام الموسم لزيارة الكعبة المشرفة ، بنى كنيسة

في صنعاء ودعا العرب لحجها وكتب إلى النجاشي بذلك ، فسمع مالك بن كنانة فذهب إليها وتفوط فيها ، وزعم مقاتل أن فئة من قريش أجّجوا نارا في يوم عاصف فهاجت الريح واضطرم الهيكل أي في البيعة المذكورة التي بناها أبرهة وسماها القليس ، فاغتاظ أبرهة وعزم على هدم الكعبة انتقاما ، فسار بجيشه نحوها وكان دليله أبو رغال الثقفي جد الحجاج فمات بالمغمس - محل قريب من مكة على طريق الطائف كان نزل به أبرهة بجيشه ودفن فيه - وصارت العرب ترجم قبره كلما مروا به جزاء لفعله حتى صار مثلا قال جرير :

إذا مات الفرزدق فارجموه كرجم الناس قبر أبي رغال

هذا ، وما يقوله البعض من أن رمي الجمار الثلاث بمنى كناية عن رجم قبر المذكور ، ليذوم ذكر فعله القبيح على ألسنة الناس فقد اخطأ ، لأن الرمي في منى من المواضع التي تمثل بها إبليس عليه اللعنة لسيدنا ابراهيم عليه السلام حينما ذهب بابنه إسماعيل ليقربه إلى اللّه تصديقا لرؤياه ، والرمي معروف قبل الإسلام وقبل ابرهة لأنه من شعائر الحج ، وقبر أبي رغال ليس في محل الرجم في منى ، بل هو على طريق الطائف للقادم منه إلى مكة وقد أجمع الفقهاء والمحدثون والمفسرون عل هذا وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية 113 من سورة الصافات في ج 2

والآية 97 من آل عمران والآية 25 من الحج في ج 3 فراجعها ففيها الكفاية .

على أن ما بين حادثة ذبح إسماعيل عليه السلام وحادث ابرهة وموت أبي رغال ما يقارب الفين وثمنمئة سنة فأي عقل يقبل هذا ، وأي عاقل يقول ان الرمي الذي أحدث من زمن الذبح أحدث عند موت ابي رغال ، عليك بالمرجفين بإذا الجلال فانا أحلناهم إليك يا اللّه .

هذا ولما دخل ابرهة حرم مكة عسكر بالمحصب بالشعب الذي مخرجه إلى الأبطح قريب من منى وأرسل الأسود بن مسعود فجمع نعم أهل مكة وأتى به اليه ثم أرسل حناطة الحميري ليخبر شريف مكة بأنه لم يأت لقتال بل لهدم الكعبة فقط فجاءه شريفها عبد المطلب بن هاشم جد محمد صلّى اللّه عليه وسلم فاحترمه أبرهة ونزل عن كرسيه وجلس معه على البساط لئلا يترفع عليه ، ثم انه طلب من ابرهة أن يرد عليه الإبل قبل أن يفاتحه بأمر الكعبة فقال له ابرهة : زهدت فيك لأنك لم تطلب أولا الكف عن التعرض للبيت الذي هو شرفكم وعصمتكم وأعطاه الإبل لأنه يعلم أن مثله لا يرد ، ولكن أثرت كلمة ابرهة فيه فقال له : إنك لا تستطيع أن تعمل شيئًا في البيت لأن له ربا يحميه منك ومن غيرك ، وبما أني رب الإبل طلبتها منك لقدرتك على إتلافها .

ثم تركه وذهب إلى البيت وأخذ بحلقة بابه وقال :

لا هم أن المرء يمنع رحله فامنع رحالك (1)

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك (2)

جرّوا جميع بلادهم والفيل كي يسبوا عيالك

عمدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمر ما بدا لك

ثم قال :

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع عنهمو حماكا

إن عدو البيت من عاداكا امنعهمو أن يخربوا فناكا

ثم انطلق إلى شعف الجبال ينظر ما اللّه فاعل بأبرهة وجيشه فأصبح ابرهة وقد تهيأ للدخول إلى مكة ووجه الفيل نحوها وكان نفيل بن حبيب الخثعمي رأس خثعم لما رأى ابرهة متوجها إلى الكعبة بذلك القصد ، قاتله مع عشيرته فقهره ابرهة لكثرة عدده وعدده وأخذه معه أسيرا إلى مكة ، ولما رأى الفيل توجه نحو الكعبة أخذ

---

(1) يروى :

لا هم إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك

(2) الرواية الجيدة :

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك

(21/831)

بإذنه وقال له : أبرك أبا محمود وارجع راشدا فإنك ببلد اللّه الحرام ، من حيث لم يعلم ابرهة بذلك ، فألقى اللّه في قلب الفيل البروك ، كما ألقى في قلب نفيل أن يقول له ذلك ، فبرك واستعصى فضربوه بالمعاول فأبى التوجه نحو الكعبة فوجهوه نحو اليمن فقام يهرول ، فوجهوه نحو الشمال فقام يهرول ، ثم صعد نفيل إلى الجبل وتركهم يعالجون أمر الفيل فرأى طيرا كثيرا أقبل من نحو البحر ، وغشي القوم وصار يرميهم بأحجار من منقاره ورجليه ، فتصيب الرجل فتخرقه وتنزل إلى الأرض ، ولم يزل ذلك الطير يرميهم حتى بدد اللّه الجيش بأجمعه وحمى حماه .

قالوا إن الأحجار كانت ما بين العدسة والحمّصة وإن من هرب من الجيش عند ما صار الرمي من قبل الطير لم يهتد إلى الطريق فصاروا يصيحون نفيلا ليدلهم عليه فقال نفيل في ذلك :

فإنك ما رأيت ولن تراه لدى حين المحضب ما رأينا

حمدت اللّه إذ أبصرت طيرا وحصب حجارة تلقى علينا

وكلهم يسائل عن نفيل كأن عليّ للحبشان دينا

وقال نفيل وصاروا يتساقطون على الطريق ويهلكون .

وأرسل اللّه على ابرهة داء فتساقطت أنامله ولم يصل إلى صنعاء إلا وهو مثل الطير

فانصدع صدره عن قلبه ومات فيه ، قال ابن الزبعرى :

سائل امير الجيش عنا ما ترى ولسوف ينبي الجاهلين عليمها

ستون الفا لم يؤبوا أرضهم بل لم يعش بعد الإياب سقيمها

وقال أمية بن الصلت :

إن آيات ربنا ساطعات ما يماري فيهن إلا الكفور

حبس الفيل بالمغمس حتى ظل يعوي كأنه معقور

فلما بلغ هذا عبد المطلب رفع رأسه إلى السماء وقال مخاطبا ربه عز وجل :

أنت منعت الجيش والأفياله شكرا وحمدا لك ذا الجلالة

هذا وإنه جل شأنه لم يفعل ذلك لنصرة قريش لأنهم كانوا كفارا بل صيانة لبيته المعظم مما عزم

عليه ابرهة ، وتكريما لنبيه المكرم إذ ولد فيه إذ ذاك فهو

أول خير اتي قريشا منه .

هذا وإن المغمس المذكور في شعر أمية آنفا دفن فيه أبو رغال المار ذكره ، والمحصب الذي نزل فيه ابرهة دار بين مكة ومنى ، عن يمينه غار ثور الذي تخبأ به حضرة الرسول وأبو بكر وقت الهجرة وعن يساره غار حراء الذي نزل أول وحي به ، ووقعت حادثة الفيل فيه بعد موت أبي رغال .

مطلب رمي الجمار بمنى :

ورمي الجمار بمواقع مخصوصة في منى ، فكيف تلوك بعض الألسن بما هو خلاف المحسوس ، قاتل اللّه أهل السمعة الذين يريدون أن يعرفوا بالمخالفة على حد خالف تعرف .

ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به هذه السورة في القرآن العظيم هذا .

وأستغفر اللّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم وصلّى اللّه وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 176.181 ﴾

(23/831)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الفيل

مكية

بأصحاب الفيل صالح وكذا أبابيل والأول اصلح آخر سورة تام إن علقت لام لئلاف قريش بقوله فيهل فليعبدوا أي ليجعلوا عبادتهم شكرا لهذه النعمة أو بمحذوف أي عجبوا لئلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة رب هذا البيت وليس بوقف إن علقت بسورة الفيل إما بقوله فعل ربك أو بقوله ألم يجعل كيدهم في تضليل أو بقوله فجعلهم كعصف وعليه ويحمل قول أبي حاتم ليس آخر السورة الفيل وقف والإجماع على انهما سورتان قد يبعد هذا القول بل قال أبو عمرو وان القول به خطأ بين اذ يلزم عليه أن يكون لئلاف قريش بعض آيات سورة الفيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(24/831)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الفيل

مكية

بأصحاب الفيل (جائز) فصلاً بين الاستفهامين

في تضليل ليس بوقف لعطف ما بعده على ما قبله ومثله في عدم الوقف أبابيل لأنَّ الجملة بعده صفة وهكذا إلى آخر السورة والإجماع على أنَّهما سورتان وإن اللام في لإيلاف في معنى التعجب والتقدير أعجب يا محمد لنعم الله على قريش لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ولذلك فصل بين السورتين بالبسملة وقيل لا وقف في سورة الفيل ولا في آخرها بل هي متصلة بقوله لإيلاف قريش وإن اللام متعلقة بتركيف أو بقوله فجعلهم والمعنى أهلكنا أصحاب الفيل لتبقى قريش وتألف رحلتيها وذلك أنَّه كانت لهم رحلتان رحلة في الشتاء إلى اليمن ورحلة في الصيف إلى الشام فجعل الله هذا منة على قريش لأن يشكروه عليها فعلى هذا لا يجوز الوقف على مأكول وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه قرأ السورتين متصلتين في ركعة من المغرب وعن جماعة من التابعين أيضاً

والصيف (كاف) إن لم تتعلق لام لئلاف بقوله فليعبدوا على معنى التأخير أي فليعبدوا رب هذا البيت لئلاف قريش فعلى هذا لا يكون في هذه السورة وقف لاتصال الكلام بعضه ببعض ولا يوقف على البيت ولا على من جوع لقطع الصفة عن موصوفها في الأول وللعطف في الثاني

وآخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة الفيل :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قرأ أبو عبد الرحمن : "أَلَمْ تَرْ كَيْف1" ، ساكنة الراء .

قال أبو الفتح : هذا السكون إنما بابه الشعر ، لا القرآن ؛ لما فيه من استهلاك الحرف والحركة قبله ، يعني الألف والفتحة من "ترا" أنشد أبو زيد في نوادره :

قالت سليمى اشترلنا سويقا2

يريد : اشتر ، فحذف الياء من يشتري والكسرة وفيها أيضا :

قالت له كليمة تلجلجا لو طبخ النئ بها لأنضجا

يا شيخ لا بد لنا أن نحجحا قد حج في ذا العام من كان رجا

فاكتر لنا كرى صدق فالنجا واحذر فلا تكثر كريا أعوجا

علجا إذا ساق بنا عفنججا3

فحذف كسرة "اكتر" في الموضعين جميعا كما ترى .

وروينا عن أبي بكر محمد بن الحسن بن يعقوب بن مقسم :

ومن يتق فإن الله معه ورزق الله مؤتاب وغادي3

يريد : "يتق" ، فحذف الكسرة بعد الياء .

وقرأ أبو المليح الهذلي : "فَتَرَكَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ4" .

---

1 سورة الفيل : 1 .

2 انظر الصفحة 360 من الجزء الأول .

3 انظر الصفحة 361 من الجزء الأول .

4 سورة الفيل : 5 .

(26/831)

قال أبو الفتح : هذا على إقامة المسبب مكان السبب ، إذ المراد به معنى القراءة العامة :

﴿ فَجَعَلَهُم ﴾ ، وذلك أنه ليس كل من جعل شيئًا على صورة تركه عليها ، بل قد يجوز أن

يجعله عليها ، ثم ينقله عقيب جعله إياه عنها . فقوله "تعالى" : "فتركهم1" يدل على أنه

بقاهم على ما أصارهم إليه ، من الإجحاف بهم وغلظ المنال منهم ، كذا توجب اللغة .

ثم إنه قد يجوز مع هذا أن يريد به معنى الجعل الذي من حصل عليه كان معرضا لبقائه بعد على تمادي الحال به.

وقرأ: "تَرَؤُنَّ2" بالهمز ابن أبي إسحاق والأشهب العقيلي.

قال أبو الفتح: قد فرط. آنفا من القول على همز هذه الواو ما فيه كاف بمشيئة الله3.

انتهى انتهى. اهـ ﴿المحتسب حـ 2 صـ 372﴾

---

1 في ك: تركهم.

2 كذا في نسختي الأصل، وليس في سورة الفيل من أفعال الرؤية سوى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ، وقد بدأ أبو الفتح بها كلامه على السورة.

3 انظر الصفحة 371 من هذا الجزء.

(27/831)

وقال العلامة الدمياطى:

سورة الفيل

مكية وآيها خمس وتقدم ضم الهاء في عليهم لحمزة ويعقوب وفي ترميهم ليعقوب كإبدال همزة

مأكول لورش من طريقيه وأبي عمرو بخلفه وأبي جعفر ولحمزة وقفا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(28/831)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الفيل "

" عليهم " طيرا ، ترميهم ، مأكول ، لا يخفى حاله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 357 ﴾

(29/831)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الفيل 105

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير المكي والشامي ونظيرتها في المكي قريش والإخلاص وتبت

والفلق وفي الشامي تبت والإخلاص والفلق

وكلمها ثلاث وعشرون كلمة ككلم المسد والفلق

وحروفها ستة وتسعون حرفا

وهي خمس آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف ورؤوس الآي

الفيل

1 تضليل

2 أبابيل

3 سجيل

4 مأكول

5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 289 ﴾

(30/831)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (أبابيل) قيل هو جمع لا واحد له من لفظه، وقيل واحده أبول كعجول، وقيل واحده أبيل، وقيل أبال، و (ترميهم) نعت الطير، والكاف مفعول ثان، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(31/831)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة الفيل

[سورة الفيل (105) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (1)

"أَلَمْ تَرَ" الهمزة حرف استفهام تقريري ومضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره والفاعل مستتر "كَيْفَ" اسم استفهام مفعول مطلق "فَعَلَ رَبُّكَ" ماض وفاعله والجملة سدت مسد مفعولي ترى "بِأَصْحابِ" متعلقان بالفعل "الْفِيلِ" مضاف إليه.

[سورة الفيل (105) : آية 2]

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2)

"أَلَمْ يَجْعَلْ" الهمزة حرف استفهام تقريري ومضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر "كَيْدَهُمْ" مفعول به "فِي تَضْلِيلٍ" متعلقان بالفعل والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الفيل (105) : آية 3]

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (3)

"وَأَرْسَلَ" ماض فاعله مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالفعل "طَيْراً" مفعول به "أَبابِيلَ" صفة والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الفيل (105) : آية 4]

تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4)

"تَرْمِيهِمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر "بِحِجارَةٍ" متعلقان بالفعل "مِنْ سِجِّيلٍ" صفة حجارة والجملة صفة ثانية لطيرا .

[سورة الفيل (105) : آية 5]

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)

"فَجَعَلَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر "كَعَصْفٍ" متعلقان بالفعل وهما في موضع المفعول

الثاني "مَأْكُولٍ" صفة عصف والجملة معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 469 ﴾

(32/831)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْفِيل

1535 - خبر أَبْرَهَة وَالنَّجَاشِي وقصة الْفِيل

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ من قَول ابْن إِسْحَاق أَن أَبْرَهَة بنى كَنِيسَة بِصَنْعَاء وَكَانَ نَصْرَانِيّا وَسَماهُ الْقليس . . . فَذكره

1536 - قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْفِيل أَعْفَاهُ الله من الْخَسْف وَالْمَسْخ

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا بَاقِل بن أَرقم ثَنَا مُحَمَّد بن شَاذَّة ثَنَا احْمَد ابْن الْحسن ثَنَا مُحَمَّد بن يَحْيَى ثَنَا سلم بن قُتَيْبَة عَن شُعْبَة عَن عَاصِمَة عَن زر عَن أبي مَرْفُوعا . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيطِ بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 289 ﴾

(33/831)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الفيل

أعد الأحباش جيشا لغزو الكعبة ، وتدميرها وإبطال العبادة حولها ، وخرجوا من ديارهم على نحو ما قال الله " . . بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله " . وضموا إلى جيشهم جملة من الفيلة التى تشارك فى المعركة لأول مرة فى الجزيرة العربية . وشعر أهل مكة بالعجز عن مقاومة هذه الحملة ، ففروا إلى رءوس الجبال تاركين بيت الله وبيوتهم لحكم القدر . كان نصارى الحبشة مخطئين فى توجيه هذه الحملة إلى البيت الحرام ، ماذا عليهم لو تركوه للعرب يقيمون فيه شعائرهم ، كما يقيمون هم شعائرهم فى كنيستهم بصنعاء ؟ لا يقبل للأحباش عذر فى هذا المسلك . على أن هذه الغزوة لقيت مصيرا فاجعا ، فقد هاجمتها أسراب من الطير تقذف الرجال بالحجارة . ويفهم من القرآن الكريم

أنها حجارة من النوع الذى قذف به قوم لوط، فدمر المدينة وجعل عاليها سافلها . ويحكى المؤرخون أن هذه الأسراب نشرت وباء الجدرى، فأفنى المهاجمين، ومات به قائد الحملة " أبرهة " وهو عائد إلى صنعاء بعد هزيمته الماحقة . وفى ذلك يقول الله تعالى : " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيرا أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل " . والأبابيل (الجماعات) . والمحفوظ عند الرواة أن خاتم المرسلين ولد عام الفيل، كأن الله حمى مكة ببركته . وبقاء قريش فى مكة مكفولة العيش موفورة الأمن . كان تمهيدا إلهيا لظهور الإسلام من أم القرى إلى أنحاء العالم . وإلى هذا تشير السورة التالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 541﴾

(34/831)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(35/831)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الفيل

ظهر لي في وجه اتصالها بعد الفكرة : أنه تعالى لما ذكر حال الهمزة اللمزة ، الذي جمع مالاً وعدده ، وتعزز بماله وتقوى ، عقب ذلك بذكر قصة أصحاب الفيل ، الذين كانوا أشد منهم قوة ، وأكثر أموالاً وعتوا ، وقد جعل كيدهم في تضليل ، وأهلكهم بأصغر الطير وأضعفه ، وجعلهم كعصف مأكول ، ولم يغن عنهم مالهم ولا عزهم ولا شوكتهم ، ولا فيلهم شيئاً فمن كان قصارى تعزُّزه وتقوِّيه بالمال ، وهَمز الناس بلسانه ، أقرب إلى الهلاك ، وأدنى إلى الذلة والمهانة . انتهى انتهى . اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 157 ﴾

(36/831)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي له الإحاطة فقدرته في كل شيء عاملة (الرحمن) الذي له النعمة الشاملة (الرحيم) الذي يختص أهل الاصطفاء بالنعمة الكاملة .

لما قدم في الهمزة أن كثرة الأموال المسببة بالقوة بالرجال ربما أعقبت الوبال ، دل عليه في هذه بدليل شهودي وصل في تحريقه وتغلغله في الأجسام وتجريفه إلى القلوب في العذاب الأدنى كما ذكر فيما قبلها للعذاب الأكبر الأخفى ، محذراً من الوجاهة في الدنيا وعلو الرتبة ، مشيراً إلى أنها كلما عظمت زاد ضررها بما يكسبه من الطغيان حتى ينازع صاحبها الملك الأعلى ، ومع كونه شهودياً فللعرب ولا سيما قريش به الخبرة التامة ، فقال مقرراً منكراً على من يخطر له خلاف ذلك : ﴿ ألم تر ﴾ أي تعلم علماً هو في تحققه كالحاضر المحسوس بالبصر ، وذلك لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن لم يشهد تلك الوقعة فإنه شاهد آثارها ، وسمع بالتواتر مع إعلام الله له أخبارها ، وخصه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إعلاماً بأن ذلك لا يعلمه ويعمل به إلا هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن وفقه الله الحسن اتباعه ، لما للإنسان من علائق النقصان ، وعلائق الحظوظ والنسيان ، وقرىء " تر " باسكان الراء ، قالوا جداً في إظهار أثر الجازم ، وكان السر في هذه القراءة الإشارة إلى الحث في الإسراع بالرؤية إيماء إلى أن أمرهم على كثرتهم كان كلمح البصر ، من لم يعتن به ويسارع إلى تعمده لا يدركه حق إدراكه .

ولما كان للناظر في الكيفية من التدقيق والوقوف على التحقيق في وجوه الدلالات على كمال علم الله وقدرته وإعزاز نبيه بالإرهاص لنبوته والتمكين لرسالته لتعظيم بلده وتشريف قومه ما ليس للناظر إلى مطلق الفعل قال : ﴿ كيف ﴾ دون أن يقول : ما ﴿ فعل ﴾ أي فعل من له أتم داعية إلى ذلك الفعل ، وفعل الرؤية معلق عن "كيف " لما فيه من معنى الاستفهام فلا يتقدم عامله عليه ، بل ناصبه فعل ، وجملة الاستفهام في موضع نصب بالفعل المعلق ﴿ ربك ﴾ أي المحسن إليك ومن إحسانه إحسانه إلى قومك بك وبهذه الواقعة الخارقة للعادة إرهاصاً لنبوتك كما – هو معلوم من أخبار الأنبياء المتقدمين فيما يقع بين أيدي نبواتهم من مثل ذلك ليكون مؤيداً لادعائهم النبوة بعد ذلك ، وفي تخصيصه. صلى الله عليه وسلم. بالخطاب والتعبير بالرب مع التشريف له والإشارة بذكره التعريض بحقارة الأصنام التي سموها أرباباً لهم ، يعلم ذلك منهم علم اليقين من آمن ، ومن استمر على كفره فسيعلم ذلك حق اليقين عندما يسلط الله عليهم رسوله. صلى الله عليه وسلم. بالبلد الحرام ، ويحلها له على أعلى حال ومرام ﴿ بأصحاب الفيل ﴾ أي الذين قصدوا انتهاك حرمات الله سبحانه وتعالى فيخربوا بيته ويمزقوا جيرانه بما أوصلهم إلى

البطر من الأموال والقوة التي منّ عليهم سبحانه وتعالى بها ، فحسبوا أنها تخلدهم فبان أنها توردهم المهالك ضد ما حسبوه ، وهم الحبشة الذين كانوا غلبوا على بلاد اليمن ، بنى أميرهم وهو أبو يكسوم أبرهة بن الصباح الأشرم بيعة بصنعاء وسماها القليس وزن قبيط ، وأراد أن يصرف إليها - فيما زعم - حج العرب ، فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلاً - يعني تغوط ولطخها به ، فأغضب ذلك الأشرم فسأل فقيل له : نرى الفاعل من أهل البيت الذي بمكة - فحلف : ليهدمنَّ الكعبة ، ومن عجائب صنع الله أنه ألهمه سبحانه وتعالى تسميتها هذا الاسم الذي هو مشتق من القلس الذي أحد معانيه أنه ماء خرج من الحلق ملء

(38/831)

الفم ، فهو مبدأ القيء الذي هو أخو الغائط الذي آل أمرها إليه ، فكان سبب هلاكها بهلاك بانيها ، وذلك أنه غضب من ذلك فخرج بجيشه لهدم بيت الله الكعبة ومعه أفيال كثيرة منها فيل عظيم اسمه محمود ، فقاتله بعض العرب فهزمهم وقتل منهم ، فلما دوّخهم دانوا له ، فلما وصل إلى المغمس خرج إليه عبد المطلب جد النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فعرض عليه ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم ، وقيل : بل كانت طلائعه أخذت له مائتي بعير فطلبها

منه فقال : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ، فزهدت فيك حين تكلمني في مائتي بعير ، وتترك كلامي في بيت هو دينكم وفي عزكم ؟ فقال : أنت وذاك ، فرد عليه إبله فساقها ومضى ، وأمر قريشاً أن يتفرقوا في الشعاب ويتحرزوا في الجبال ، وأتى عبد المطلب الكعبة فأخذ بحلقة الباب وجعل يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا . . .

فامنعهم أن يقربوا قراكا

– وقال :

لا هم إن المرء يم . . .

نع رحله فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم . . .

ومحالهم عدواً محالك

جروا جميع تلادهم . . .

في الفيل كي يسبوا عيالك

عمدوا حماك بكيدهم . . .

جهلاً وما رقبوا جلالك

إن كنت تاركهم وكع . . .

بتنا فأمر ما بدا لك

(39/831)

ثم ترك الحلقة وتوجه في بعض تلك الوجوه فلما أصبح أبرهة تهيأ للدخول إلى الحرم وعبأ جيشه وقدم الفيل فبرك فعالجوه فلم تفد فيه حيلة ، فوجهوه إلى غير الحرم فقام يهرول فوجهوه إلى الحرم فبرك ، وكان هذا دأبه في ذلك اليوم فبينما هم كذلك إذا أرسل الله تعالى عليهم طيراً أبابيل ، كل طائر منها في منقاره حجر ، وفي رجليه حجران ، الحجر منها أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة ، فرمتهم بها ، فكان الحجر منها يقع في رأس الرجل فيخرج من دبره فهلكوا جميعاً ، وأهل مكة ومن حضر من العرب في رؤوس الجبال - ينظرون إلى صنع الله تعالى بهم وإحسانه إليهم - أي أهل مكة - وكان ذلك إرهاصاً لنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فإن ذلك كان عام مولده ، وقال حمزة الكرماني : وفي رواية : يوم مولده ، وكأنه كان سبباً لضعفهم حتى ذهب سيف بن ذي يزن إلى كسرى وأتى منه بجيش فاستأصل بقيتهم - كما هو مشهور في السير ، ومأثور في الخبر ، ووفدت قريش لتهنئته بالنصرة عليهم ، وكان رئيسهم عبد المطلب جد النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وبشره

سيف بأنه يولد له ولد اسمه محمد فأعلمه بأن ولد وأن أباه توفي ، فأخبره سيف بأنه النبي المبعوث في آخر الزمان ، وأن يثرب مهاجره ، وأنه لو علم أنه يعيش إلى زمن بعثته لأتى يثرب وجعلها قراره حتى ينصر النبي -صلى الله عليه وسلم- بها - ويظهر نبوته .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تضمنت سورة الهمزة ذكر اغترار من فتن بماله حتى ظن أنه يخلده وما أعقبه ذلك ، أتبع هذا أصحاب الفيل الذين غرهم تكاثرهم ، وخدعهم امتدادهم في البلاد واستيلاؤهم حتى هموا بهدم البيت المكرم ، فتعجلوا النقمة ، وجعل الله كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، أي جماعات متفرقة ، ترميهم بحجارة من سجيل حتى استأصلتهم وقطعت دابرهم فجعلهم كعصف مأكول ، وأثمر لهم ذلك اغترارهم بتوفر حظهم من الخسر المتقدم - انتهى .

(40/831)

ولما قرره بالكيفية تنبيهاً على ما فيها من وجوه الدلالة على مقدمات الرسالة ، أشار إلى تلك الوجوه مقدماً عليها تقريراً آخر جامعاً لقصتهم ومعلماً بغصتهم فقال : ﴿ألم يجعل﴾ أي بما له من الإحسان إلى العرب لا سيما قريش ﴿كيدهم﴾ أي في تعطيل الكعبة بتخريبها وبصرف الحج إلى كنيستهم على زعمهم وقد كان كيدهم عظيماً غلبوا به من

ناوأهم من العرب ﴿في تضليل﴾ أي مظروفاً لتضييع عما قصدوا له من نسخ الحج إلى الكعبة أولاً ومن هدمها ثانياً وإبطال وبعد عن السداد وإهمال بحيث صار بكونه مظروفاً لذلك معموراً به لا مخلص له منه ، وهذا مشير إلى أن كل من تعرض لشيء من حرمات الله كبيت من بيوته أو ولي من أوليائه أو عالم من علماء الدين وإن كان مقصراً نوع تقصير وقع في مكره ، وعاد عليه وبال شره " من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب " وإلى أن من جاهر بالمعصية أسرع إليه الهلاك بخلاف من تستر ، وإلى أن الله تعالى يأتي من يريد عذابه من حيث لا يحتسب ليدوم الحذر منه ولا يؤمن مكره ولو كان الخصم أقل عباده ، لم يخطر للحبشة ما وقع لهم أصلاً ولا خطر لأحد سواهم أن طيوراً تقتل جيشاً دوّخ الأبطال ودانت له غلب الرجال ، يقوده ملك جبار كتيبته في السهل تمشي ورجله على القاذفات في رؤوس المناقب .

(41/831)

ولما كان التقدير : فمنعهم من الدخول إلى حرم إبراهيم عليه الصلاة والسلام فضلاً عن الوصول إلى بلده الرسول. صلى الله عليه وسلم. ، عطف عليه أو على " يجعل " معبراً بالماضي لأنه بمعناه وهو أصرح والتعبير به أقعد قوله : ﴿وأرسل﴾ وبين أنه إرسال

عذاب بقوله : ﴿ عليهم ﴾ أي خاصة من بين من كان هناك من كفار العرب ، وأشار إلى تحقيرهم وتخسيسهم عن أن يعذبهم بشيء عظيم لكونهم عظموا أنفسهم وتجبروا على خالقهم بالقصد القبيح لبيته فقال تعالى معلماً بأنه سلط عليهم ما لا يقتل مثله في العادة : ﴿ طيراً ﴾ وهو اسم جمع يذكر على اللفظ ، ويؤنث على المعنى ، وقد يقع على الواحد ، ولذلك قال مبيناً الكثرة ﴿ أبابيل ﴾ أي جماعات كثيرة جداً متفرقة يتبع بعضها بعضاً من نواحي شتى فوجاً فوجاً وزمرة زمرة ، أمام كل فرقة منها طير يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق ، قال أبو عبيدة : يقال : جاءت الخيل أبابيل من هاهنا وهاهنا ، وهو جمع إبالة بالكسر والتشديد وهي الحزمة الكبيرة - شبهت بها الجماعة من الطير في تضامّها ، وفي أمثالهم : ضغث على إبالة ، أي بلية على أخرى .

ولما تشوف السامع إلى فعل الطير بهم ، قال مستأنفاً : ﴿ ترميهم ﴾ أي الطير ﴿ بحجارة ﴾ أي عظيمة في الكثرة والفعل ، صغيرة في المقدار والحجم ، كان كل واحد - منها في نحو مقدار العدسة ، في منقار كل طائر منها واحد وفي كل رجل واحد .

ولما كان الشيء إذا كان مصنوعاً للعذاب كان أشد فعلاً فيه قال : ﴿ من سجيل ﴾ أي طين متحجر مصنوع للعذاب في موضع هو في غاية العلو كما بين في سورة هود عليه الصلاة والسلام ، قال حمزة الكرماني : قال أبو صالح : رأيت تلك الحجارة مخططة بالحمرة .

ولما تسبب عن هذا المرمى هلاكهم ، وكان ذلك بفعل الله سبحانه وتعالى القادر على ما أراد لأنه الذي خلق الأثر قطعاً لأن مثله لا ينشأ عنه ما نشأ من الهلاك ، قال :

﴿ فجعلهم ﴾ أي ربك المحسن إليك بإحسانه إلى قومك لأجلك بذلك ﴿ كعصف مأكول ﴾ أي ورق زرع وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود ويجوفه لأن الحجر كان يأتي في الرأس فيخرق بما له من الحرارة وشدة الوقع كل ما مر به حتى يخرج من الدبر ويصير موضع تجويفه أسود لما له من النارية ، أو أكل حبة فبقي صفراً منه أو كتبن أكلته الدواب وراثته ، ولكنه جاء على ما عليه آداب القرآن كقوله تعالى : ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ [المائدة : 75] وهذا الإهلاك في إعجابه هو من معاني الاستفهام التقريري في أولها ، فقد تعانق طرفاها ، والتف أخراها بأولاها – والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 532.528 ﴾

(43/831)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) ﴾

روي أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس وأراد أن يصرف إليها الحاج فخرج من بني كنانة رجل وتغوط فيها ليلاً فأغضبه ذلك .

وقيل : أججت رفقة من العرب ناراً فحملتها الريح فأحرقتها فحلف ليهدمن الكعبة فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه محمود وكان قوياً عظيماً ، وثمانية أخرى ، وقيل : اثنا عشر ، وقيل : ألف ، فلما بلغ قريباً من مكة خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى وعبأ جيشه ، وقدم الفيل فكانوا كلما وجهوه إلى جهة الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى جهة اليمن أو إلى سائر الجهات هرول ، ثم إن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير فخرج إليهم فيها فعظم في عين أبرهة وكان رجلاً جسيماً وسيماً ، وقيل : هذا سيد قريش ، وصاحب عير مكة فلما ذكر حاجته ، قال : سقطت من عيني جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك فألهاك عنه ذود أخذ لك ، فقال أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعك عنه ، ثم رجع وأتى البيت وأخذ بحلقته وهو يقول :

لاهم إن المرء يم . . نع حله فامنع حلالك

وانصر على آل الصلي . . ب وعابديه اليوم آلك

لا يغلبن صليبهم . . ومحالهم عدوا محالك

إن كنت تاركهم وكع . . بتنا فأمر ما بدالك

ويقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكايا . . رب فامنع عنهم حماكا

(44/831)

فالتفت وهو يدعو ، فإذا هو بطير من نحو اليمن ، فقال : والله إنها لطير غريبة ما هي بنجدية ولا تهامية ، وكان مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة وعن ابن عباس أنه رأى منها عند أم هاني ء نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفارى ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه فهلكوا في كل طريق ومنهل ، ودوى أبرهة فتساقطت أنامله ، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه ، حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة ، فلما أتمها وقع عليه الحجر وخر ميتاً بين يديه ، وعن عائشة قالت : رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان ، ثم في الآية سؤالات .

الأول : لم قال : ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مع أن هذه الواقعة وقعت قبل المبعث بزمان طويل ؟ الجواب : المراد من الرؤية العلم والتذكير ، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر فكان العلم الحاصل به

ضروريا مساويا في القوة والجلاء للرؤية ، ولهذا السبب قال لغيره على سبيل الذم : ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ ﴾ [يس : 31] لا يقال : فلم قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[البقرة : 106] لأنا نقول : الفرق أن ما لا يتصور إدراكه لا يستعمل فيه إلا العلم لكونه قادرا ، وأما الذي يتصور إدراكه كفرار الفيل ، فإنه يجوز أن يستعمل فيه الرؤية .

(45/831)

السؤال الثاني : لم قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ ولم يقل : ألم تر ما فعل ربك ؟ الجواب : لأن الأشياء لها ذوات ، ولها كيفيات باعتبارها يدل على مداومتها وهذه الكيفية هي التي يسميها المتكلمون وجه الدليل ، واستحقاق المدح إنما يحصل برؤية هذه الكيفيات لا برؤية الذوات ولهذا قال : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ [ق : 6] ولا شك أن هذه الواقعة كانت دالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته ، وكانت دالة على شرف محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن مذهبنا أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيسا لنبوتهم وإرهاصا لها ، ولذلك قالوا : كانت الغمامة تظله ، وعند المعتزلة أن ذلك لا يجوز ، فلا جرم زعموا أنه لا بد وأن يقال : كان في ذلك الزمان نبي (أو

خطيب) كخالد بن سنان أو قس بن ساعدة ، ثم قالوا : ولا يجب أن يشتهر وجودهما ، ويبلغ إلى حد التواتر ، لاحتمال أنه كان مبعوثاً إلى جمع قليلين ، فلا جرم لم يشتهر خبره .

واعلم أن قصة الفيل واقعة على الملحدين جدا ، لأنهم ذكروا في الزلازل والرياح والصواعق وسائر الأشياء التي عذب الله تعالى بها الأمم أعذاراً ضعيفة ، أما هذه الواقعة فلا تجري فيها تلك الأعذار ، لأنها ليس في شيء من الطبائع والحيل أن يقبل طير معها حجارة ، فتقصد قوماً دون قوم فتقتلهم ، ولا يمكن أن يقال : إنه كسائر الأحاديث الضعيفة لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول إلا نيف وأربعون سنة (1) ويوم تلا الرسول هذه السورة كان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة ، ولو كان النقل ضعيفاً لشافهوه بالتكذيب ، فلما لم يكن كذلك علمنا أنه لا سبب للطعن فيه .

---

(1) كيف يقول : إلا نيف وأربعون ، والرسول ولد عام الفيل فلا معنى لذكر النيف .

[. . . . .]

(46/831)

السؤال الثالث : لم قال : ﴿ فِعْلَ ﴾ ولم يقل : جعل ولا خلق ولا عمل ؟ الجواب : لأن خلق يستعمل لابتداء الفعل ، وجعل للكيفيات قال تعالى : ﴿ خُلِقَ السموات والأرض وَجَعَلَ

الظلمات والنور ﴾ [الأنعام : 1] وعمل بعد الطلب وفعل عام فكان أولى لأنه تعالى خلق الطيور وجعل طبع الفيل على خلاف ما كانت عليه ، وسألوه أن يحفظ البيت ، ولعله كان فيهم من يستحق الإجابة ، فلو ذكر الألفاظ الثلاثة لطال الكلام فذكر لفظاً يشمل الكل .

السؤال الرابع : لما قال : ﴿ ربك ﴾ ، ولم يقل : الرب ؟ الجواب : من وجوه أحدها : كأنه تعالى قال : إنهم لما شاهدوا هذا الانتقام ثم لم يتركوا عبادة الأوثان ، وأنت يا محمد ما شاهدته ثم اعترفت بالشكر والطاعة ، فكأنك أنت الذي رأيت ذلك الانتقام ، فلا جرم تبرأت عنهم واخترتك من الكل ، فأقول : ربك ، أي أنا لك ولست لهم بل عليهم وثانيها : كأنه تعالى قال : إنما فعلت بأصحاب الفيل ذلك تعظيماً لك وتشريفاً لمقدمك ، فأنا كنت مربياً لك قبل قومك ، فكيف أترك تربيتك بعد ظهورك ، ففيه بشارة له عليه السلام بأنه سيظفر .

السؤال الخامس : قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ مذكور في معرض التعجب وهذه الأشياء بالنسبة إلى قدرة الله تعالى ليست عجيبة ، فما السبب لهذا التعجب ؟ الجواب : من وجوه أحدها : أن الكعبة تبع لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن العلم يؤدى بدون المسجد أما لا مسجد بدون العالم فالعالم هو الدر والمسجد هو الصدف ، ثم الرسول الذي هو الدر همزه الوليد ولمزه حتى ضاق قلبه ، فكأنه تعالى يقول : إن الملك العظيم لما طعن في المسجد هزمته وأفنيته ، فمن طعن فيك وأنت المقصود من الكل ألا

أفنيه وأعدمه ! إن هذا لعجيب وثانيها : أن الكعبة قبلة صلاتك وقلبك قبلة معرفتك ، ثم أنا حفظت قبلة عملك عن الأعداء ، أفلا تسعى في حفظ قبلة دينك عن الآثام والمعاصي ! .

(47/831)

السؤال السادس : لم قال : ﴿ أصحاب الفيل ﴾ ولم يقل : أرباب الفيل أو ملاك الفيل ؟ الجواب : لأن الصاحب يكون من الجنس ، فقوله : ﴿ أصحاب الفيل ﴾ يدل على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل في البهيمية وعدم الفهم والعقل ، بل فيه دقيقة ، وهي : أنه إذا حصلت المصاحبة بين شخصين ، فيقال : للأدون إنه صاحب الأعلى ، ولا يقال : للأعلى إنه صاحب الأدون ، ولذلك يقال : لمن صحب الرسول عليه السلام : إنهم الصحابة ، فقوله : ﴿ أصحاب الفيل ﴾ يدل على أن أولئك الأقوام كانوا أقل حال وأدون منزلة من الفيل ، وهو المراد من قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف : 179] ومما يؤكد ذلك أنهم كلما وجهوا الفيل إلى جهة الكعبة كان يتحول عنه ويفر عنه ، كأنه كان يقول : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عزمي حميد فلا أتركه (1) وهم ما كانوا يتركون تلك العزيمة الردية فدل ذلك على أن الفيل كان أحسن حالاً منهم .

السؤال السابع : أليس أن كفار قريش كانوا ملأوا الكعبة من الأوثان من قديم الدهر ، ولا شك أن ذلك كان أقبح من تخريب جدران الكعبة ، فلم سلط الله العذاب على من قصد التخريب ، ولم يسلط العذاب على من ملأها من الأوثان ؟

والجواب : لأن وضع الأوثان فيها تعد على حق الله تعالى ، وتخريبها تعد على حق الخلق ، ونظيره قاطع الطريق ، والباغي والقاتل يقتلون مع أنهم مسلمون ، ولا يقتل الشيخ الكبير والأعمى وصاحب الصومعة والمرأة ، وإن كانوا كفاراً ، لأنه لا يتعدى ضررهم إلى الخلق .

السؤال الثامن : كيف القول في إعراب هذه الآية ؟ الجواب : قال الزجاج : ﴿ كيف ﴾ في موضع نصب بفعل لا بقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ لأن كيف من حروف الاستفهام واعلم أنه تعالى ذكر .

---

(1) هذه حكاية لسان الفيل والعزم بمعنى العزيمة ، يقال : بين عزمه وعزيمتهم .

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية ، إن قيل : فلم سماه كيداً وأمره كان ظاهراً ، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت ؟ قلنا : نعم ، لكن الذي كان في قلبه شر مما أظهر ، لأنه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته .

المسألة الثانية :

قالت المعتزلة : إضافة الكيد إليهم دليل على أنه تعالى لا يرضى بالقبيح ، إذ لو رضي لأضافه إلى ذاته ، كقوله : الصوم لي والجواب : أنه ثبت في علم النحو أنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب ، فلم لا يكفي في حسن هذه الإضافة وقوعه مطابقاً لإرادتهم واختيارهم ؟ .

المسألة الثالثة :

﴿ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ أي في تضييع وإبطال يقال : ضلل كيده إذا جعله ضالاً ضائعاً ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَا دُعَاء الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ [الرعد : 14] وقيل لامرىء القيس الملك الضليل ، لأنه ضلل ملك أبيه أي ضيعه بمعنى أنهم كادوا البيت أولاً ببناء القليس وأرادوا أن يفتتحوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه ، فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه ، ثم كادوه ثانياً بإرادة هدمه فضلل بإرسال الطير عليهم ، ومعنى حرف الظرف كما يقال : سعى فلان في ضلال ، أي سعيهم كان قد ظهر لكل عاقل أنه كان ضلالاً وخطأ .

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3)

سؤالات :

السؤال الأول : لم قال : ﴿ طَيْراً ﴾ على التنكير ؟ والجواب : إما للتحقير فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر ، أو للتفخيم كأنه يقول : طيراً وأي طير ترمى بحجارة صغيرة فلا تخطىء المقتل .

(49/831)

السؤال الثاني : ما الأبابيل الجواب : أما أهل اللغة قال أبو عبيدة : أبابيل جماعة في تفرقة ، يقال : جاءت الخيل أبابيل أبابيل من ههنا وههنا ، وهل لهذه اللفظة واحد أم لا ؟ فيه قولان : الأول : وهو قول الأخفش والفراء : أنه لا واحد لها وهو مثل الشماطيط والعباديد ، لا وحد لها والثاني : أنه له واحد ، ثم على هذا القول ذكروا ثلاثة أوجه أحدها : زعم أبو جعفر الرؤاسي وكان ثقة مأموناً أنه سمع واحدها إبالة ، وفي أمثالهم : ضغث على إبالة ، وهي الحزمة الكبيرة سميت الجماعة من الطير في نظامها بالإبالة وثانيها : قال الكسائي : كنت أسمع النحويين يقولون : إبول وأبابيل كعجول وعجاجيل وثالثها : قال الفراء : ولو قال قائل : واحد الأبابيل إبيالة كان صواباً كما قال : دينار ودنانير .

السؤال الثالث : ما صفة تلك الطير ؟ الجواب : روى ابن سيرين عن ابن عباس قال : كانت طيراً لها خراطيم كخراطيم الفيل وأكف كأكف الكلاب ، وروى عطاء عنه قال : طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً ، ولعل السبب أنها أرسلت إلى قوم كان في صورتهم سواد اللون وفي سرهم سواد الكفر والمعصية ، وعن سعيد بن جبير أنها بيض صغار ولعل السبب أن ظلمة الكفر انهزمت بها ، والبياض ضد السواد ، وقيل : كانت خضراً ولها رءوس مثل رءوس السباع ، وأقول : إنها لما كانت أفواجاً ، فلعل كل فوج منها كان على شكل آخر فكل أحد وصف ما رأى ، وقيل : كانت بلقاء كالخطاطيف .

تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4)

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ أبو حيوة : (يرميهم) أي الله أو الطير لأنه اسم جمع مذكر ، وإنما يؤنث على المعنى .

المسألة الثانية :

ذكروا في كيفية الرمي وجوهاً أحدها : قال مقاتل : كان كل طائر يحمل ثلاثة أحجار ، واحد في منقاره واثنان في رجليه يقتل كل واحد رجلاً ، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه ما وقع منها حجر على موضع إلا خرج من الجانب الآخر ، وإن وقع على رأسه خرج من دبره وثانيها : روى عكرمة عن ابن عباس ، قال : لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفط جلده وثار به الجدري ، وهو قول سعيد بن جبير ، وكانت تلك الأحجار أصغرها مثل العدسة ، وأكبرها مثل الحمصة .

واعلم أن من الناس من أنكر ذلك ، وقال : لو جوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله ، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خالياً عن الثقل وأن يكون في وزن التبنة ، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات ، فإنه متى جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار ولا نراها ، وأن يحصل الإدراك في عين الضرير حتى يكون هو بالمشرق ويرى بقعة في الأندلس ، وكل ذلك محال .

واعلم أن ذلك جائز على مذهبنا إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع .

المسألة الثالثة :

ذكروا في السجيل وجوهاً أحدها : أن السجيل كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجيناً علم لديوان أعمالهم ، كأنه قيل : بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون ، واشتقاقه من الإسجال ، وهو الإرسال ، ومنه السجل الدلو المملوء ماء ، وإنما سمي ذلك الكتاب بهذا الاسم لأنه كتب فيه العذاب ، والعذاب موصوف بالإرسال لقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل : 3] وقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطوفان ﴾ [الأعراف : 133] فقوله : ﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي مما كتبه الله في ذلك الكتاب وثانيها : قال ابن عباس : سجيل معناه سنك وكل ، يعني بعضه حجر وبعضه طين وثالثها : قال أبو عبيدة : السجيل الشديد ورابعها : السجيل اسم لسماء الدنيا وخامسها : السجيل حجارة من جهنم ، فإن سجيل اسم من أسماء جهنم فأبدلت النون باللام .

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا في تفسير العصف وجوهاً ذكرناها في قوله : ﴿ والحب ذُو العصف ﴾ [الرحمن : 12] وذكروا ههنا وجوهاً : أحدها : أنه ورق الزرع الذي يبقى في الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله المواشي وثانيها : قال أبو مسلم : العصف التبن لقوله : ﴿ ذُو

العصف والريحان ﴾ [الرحمن : 12] لأنه تعصف به الريح عند الذر فتفرقه عن الحب ، وهو إذا كان مأكولاً فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه وثالثها : قال الفراء : هو أطراف الزرع قبل أن يدرك السنبل ورابعها : هو الحب الذي أكل لبه وبقي قشره .

المسألة الثانية :

ذكروا في تفسير المأكول وجوهاً أحدها : أنه الذي أكل ، وعلى هذا الوجه ففيه احتمالان :

أحدهما : أن يكون المعنى كزرع وتبن قد أكلته الدواب ، ثم ألقته روثاً ، ثم يجف وتتفرق أجزاؤه ، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث ، إلا أن العبارة عنه جاءت على ما عليه آداب القرآن ، كقوله : ﴿ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطعام ﴾ [المائدة : 75] وهو قول مقاتل ، وقتادة وعطاء عن ابن عباس .

والاحتمال الثاني : على هذا الوجه أن يكون التشبيه واقعاً بورق الزرع إذا وقع فيه الأكال ، وهو أن يأكله الدود الوجه الثاني : في تفسير قوله : ﴿ مَّأْكُولٍ ﴾ هو أنه جعلهم كزرع قد أكل حبه وبقي تبنه ، وعلى هذا التقدير يكون المعنى : كعصف مأكول الحب كما يقال : فلان حسن أي حسن الوجه ، فأجرى مأكول على العصف من أجل أنه أكل حبه لأن هذا المعنى

معلوم وهذا قول الحسن الوجه الثالث : في التفسير أن يكون معنى : مأكول أنه مما يؤكل ، يعني تأكله الدواب يقال : لكل شيء يصلح للأكل هو مأكول والمعنى جعلهم كتبن تأكله الدواب وهو قول عكرمة والضحاك .

المسألة الثالثة :

قال بعضهم : إن الحجاج خرب الكعبة ، ولم يحدث شيء من ذلك ، فدل على أن قصة الفيل ما كانت على هذا الوجه وإن كانت هكذا إلا أن السبب لتلك الواقعة أمر آخر سوى تعظيم الكعبة والجواب : أنا بينا أن ذلك وقع إرهاصاً لأمر محمد صلى الله عليه وسلم ، والإرهاص إنما يحتاج إليه قبل قدومه ، أما بعد قدومه وتأكد نبوته بالدلائل القاطعة فلا حاجة إلى شيء من ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 91. 96 ﴾

(53/831)

وقال السمرقندى

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾

يعني : ألم تخبر بالقرآن .

ويقال : ألم تر ، يعني : ألم يبلغك الخبر .

ويقال : اللفظ لفظ الاستفهام ، والمراد به الإخبار ، يعني : اعلم واعتبر بصنيع ربك ﴿ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾ يعني : كيف عذب ربك ﴿ بأصحاب الفيل ﴾ وكان بدء أصحاب الفيل ، ما ذكرناه في سورة البروج ، أن زرعة قتل المسلمين بالنار ، فهرب رجل منهم إلى ملك الحبشة ، وأخبره بذلك .

فبعق ملك الحبشة جيشاً إلى أرض اليمن ، فأمّر عليهم أرياطاً ، ومعه في جنده أبرهة الأشرم ، فركب البحر بمن معه ، حتى أتوا ساحلاً ، مما يلي أرض اليمن ، فدخلوها ومع أرياط سبعون ألفاً من الحبشة ، وهزم جنود زرعة ، وألقى زرعة نفسه في الماء ، فهلك وأقام أرياط باليمن سنين في سلطانه .

ذلك ثم نازعه في أمر الحبشة أبرهة ، وكان من أصحابه ، ممن وجّهه معه النجاشي إلى اليمن وخالفه أبرهة وتفرق الجند في أرض اليمن ، وصار إلى كل واحد منهما طائفة منهم .

ثم خرجوا للقتال ، فلما تقارب الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، أرسل أبرهة إلى أرياط ، أن لا تصنع شيئاً ، بأن تلقي الحبشة بعضها في بعض ، حتى تفنيها .

فأبرز لي وأبرز لك ، فأينا أصاب صاحبه انصرف إلى جنده ، فأرسل إليه أرياط أن قد أنصفت فاخرج ، فخرج إليه أبرهة ، وكان رجلاً قصيراً ، وخرج إليه أرياط وكان رجلاً

طويلاً عظيماً ، في يده حربة ، وخلف أبرهة عبداً يقال له عنودة وروي عن بعضهم عيودة بالياء ، فلما دنا أحدهما من صاحبه ، رفع أرياط الحربة ، فضرب بها على رأس أبرهة يريد يافوخة ، فوقعت الحربة على جبهة أبرهة ، فخدشت حاجبيه وعينه وأنفه وشفتيه .

فلذلك سمي أبرهة الأشرم ، وحمل عيودة على أرياط من خلف أبرهة ، فقتل أرياط ، وانصرف جند أرياط إلى أبرهة فاجتمعت عليه الحبشة باليمن .

وكل ما صنع أبرهة من غير علم النجاشي ملك الحبشة ، فلما بلغه ذلك ، غضب غضباً شديداً .

وقال : عدا على أميري ، فقتله بغير أمري .

(54/831)

ثم حلف أن لا يدع أبرهة ، حتى يطأ بلاده ، ويجز ناصيته .

فلما بلغ ذلك أبرهة ، حلق رأسه ، وملأ جراباً من تراب أرض اليمن .

ثم بعث إلى النجاشي ، وكتب إليه ، أيها الملك : إنما كان أرياط عبدُك ، وأنا عبدك ، واختلفنا في أمرك ، وكل طاعة لك .

إلا أني قد كنت أقوى على أمر الجيش منه ، وأضبط له ، وقد حلقت رأسي حين بلغني قسم الملك ، وبعثت إليه بجراب من تراب أرضي ، ليضعه تحت قدميه ، فيبر قسمه .

فلما وصل كتاب أبرهة إلى النجاشي رضي عنه وكتب إليه ، أن أثبت بأرض اليمن ، حتى يأتيك أمري .

وقال أبرهة لعتودة حين قتل أرياط : حكمك يعني : أحكم عليّ بما شئت ، فقال : حكمي أن لا تدخل عروس من نساء أهل اليمن على زوجها ، حتى أصيبها قبله .

قال : ذلك لك .

فأقام أبرهة باليمن ، وغلامه عنودة يصنع باليمن ما كان أعطاه في حكمه .

ثم عدل عليه رجل من حمير ، أو من خَثْعم فقلته ، فلما بلغ أبرهة قتله ، وكان أبرهة رجلاً حليماً ، ودعا في دينه من النصرانية .

فقال : قد آن لكم يا أهل اليمن ، أن يكون منكم رجل حازم ، يأنف مما يأنف منه الرجال ، إني والله لو علمت حين حكمته ، أنه يسأل من الذي سأل ما حكمته ، وأيم الله لا يؤخذ منكم فيه عقل ، ولا قود .

ثم إن أبرهة بنى بصنعاء كنيسة ، لم يُر مثلها في زمانه في أرض الروم ، ولا في أرض الشام .

ثم كتب إلى النجاشي الأكبر ، ملك الحبشة ، أني قد بنيت لك كنيسة ، لم يكن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العرب ، فلما علمت العرب بكتاب أبرهة

إلى النجاشي ، خرج رجل من بني كنانة من الحمس ، حتى قدم اليمن ، فدخل الكنيسة ، فنظر فيها ، ثم خرى فيها فدخلها أبرهة ، فوجد تلك العذرة فيها فقال : من اجترأ عليّ بهذا ، فقال له أصحابه : أيها الملك ، رجل من أهل ذلك البيت الذي يحجه العرب .

فقال : أعليّ اجْتَرأ بهذا .

ثم قال بالنصرانية : لأهْدِمَنّ ذلك البيت ولأُخَرِّبنه ، حتى لا يحجه حاج أبداً .

(55/831)

فدعا بالفيل وأذن قومه بالخروج .

وروي في رواية أُخرى أن فئة من قريش ، خرجوا إلى أرض النجاشي ، فأوقدوا ناراً ، فلما رجعوا ، تركوا النار في يوم ريح عاصف ، حتى وقعت النار في الكنيسة ، فأحرقتها .

فعزم أبرهة ، وهو خليفة النجاشي .

أن يخرج إلى مكة فيهدم الكعبة ، وينقل أحجارها إلى اليمن ، فيبني هناك بيتاً ليحج الناس إليه .

وروي في رواية أُخرى ، أن رجلاً من أهل مكة ، خرج إلى اليمن ، فأخذ جزعة من القصب ذات ليلة ، وأضرم النار في الكنيسة فأحرقها ثم هرب .

فبناها أبرهة مرة أخرى، فحلف بعيسى ابن مريم بأن يهدم الكعبة، لكي يتحول الحج إلى كنيسته، فتجهز فخرج معه حتى إذا كان في بعض طريقه، بعث رجلاً من بني سليم، ليدعو الناس في حج بيته الذي بناه، فتلقاه رجل من اليمن بني كنانة، فقتله.

فازداد أبرهة بذلك غضباً، وحث على المسير والانطلاق، حتى إذا كان بأرض جعم فخرج إليه رجل من أشراف اليمن وملوكهم، يقال له ذو يفن.

فدعا القوم، وأحبا به من سائر العرب، إلى حرب أبرهة، وصده عن بيت الله، فقاتله فهرب ذو يفن وأصحابه، وأخذوا ذا يفن، وأتى به أسيراً.

فلما أراد قتله قال: أيها الملك، لا تقتلني، فإنه عسى أن أكون معك خير لك من قتلي، فتركه وحبسه عنده في وثاقه.

ثم مضى على وجهه ذلك، حتى إذا كان بأرض خشعم، عرض له فقيل ابن حبيب الخشعي، فقاتله فهزمه، وأخذ أسيراً.

فلما أتي به، وهم بقتله فقال: أيها الملك لا تقتلني، فإني دليلك بأرض العرب، فتركه وخلى سبيله، وخرج به معه يدله على أرض العرب.

حتى إذا مر بالطائف فخرج إليه مسعود بن مغيث ، التقى في رجال من ثقيف فقالوا : أيها الملك إنما نحن عبيدك ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا الذي تريد ، يعنون اللات والعزى ، وليست بالتي يحج إليه العرب ، وإنما ذلك بيت قريش الذي بمكة ، فنحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم فبعثوا معه أبا رغال ، فخرج يهديهم الطريق ، حتى أنزلهم بالمغمس وهي على ستة أميال من مكة ، فمات أبو رغال هناك ، فرجمت العرب قبره ، فهو القبر الذي ترجمه الناس بالمغمس .

ثم إن قريشاً لما علموا ، أن لا طاقة لهم بالقتال مع هؤلاء القوم ، لم يبق بمكة أحد ، إلا خرج إلى الشعاب والجبال ، ولم يبق أحد إلا عبد المطلب على سقايته وشيبه ، أقام على حجابة البيت ، فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادتي البيت ويقول : اللهم إن المرء يمنع رحله ، فامنع رحالك لا يغلبوا بصليبهم ، فأمر ما بدا لك .

ثم إن أبرهة بعث رجلاً من الحبشة على جمل له ، حتى انتهى إلى مكة ، وساق إلى أبرهة أموال قريش وغيرها .

فأصاب مائتي بعير لعبد المطلب ، وهو يومئذٍ كبير قريش وسيدها .

ثم بعثت أبرهة رجلاً من أهل حمير إلى مكة ، وقال أرسل إلى سيد هذا البيت وشريفهم .

ثم قال له : إن الملك يقول لك ، إني لم آت لأخرجكم ، وإنما جئت لأهدم هذا البيت ، فإن لم تتعرضوا إلى دونه بحرب ، فلا حاجة لي بدمائكم .

فلما دخل الرسول مكة ، جاء إلى عبد المطلب ، وأدى إليه الرسالة ، فقال له عبد المطلب : ما نريد حربه ، وما لنا بنيه ، حتى أتى العسكر فسأل عن ذي يفن ، وكان صديقاً له ، فجاءه وهو في مجلسه فقال له : هل عندك من عناء بما نزل بنا ، فقال له ذو يفن : ما عناء رجل أسير بيد ملك ينتظر بأن يقتله ، عدواً أو مشياً ألا إن صاحب الفيل صديق لي ، فأرسل إليه فأوصيه لك ، وأعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك ، فتكلمه أنت بما بدا لك .

فقال حسبي ففعل ذلك ، فلما دخل عبد المطلب على الملك وكلمه ، فأعجبه كلامه .

(57/831)

ثم قال لترجمانه : قل له ما حاجتك ، قال عبد المطلب : حاجتي إليك ، أن ترد إلي مائتي بعير لي ، فلما قال ذلك ، قال له أبرهة : لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم إني رجوت . يعني : كرهت فيك حيث كلمتني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه .

لا تكلمني فيه .

قال عبد المطلب : أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه .

فقال : ما كان يمنع مني ، قال : أنت وذلك فرد عليه الإبل ، فانصرف عبد المطلب إلى قريش ، وأخبرهم الخبر ، وأمر بالخروج لمن بقي من أهل مكة إلى الجبال ، وفي بطون الشعاب .

ثم إن عبد المطلب ، أخذ بحلقتي باب الكعبة ، وقال : اللهم إن المرء يمنع رحله ، وذكر كلمات في ذلك .

ثم أرسل حلقتي الباب ، وانطلق ومن معه إلى الجبال ، ينتظرون ما يصنع أبرهة بمكة .

فلما أصبح أبرهة ، تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله وجيشه ، وكان اسم الفيل محموداً ، وكنيته أبو العباس .

وكتبه أبو البكشوم ، فلما وجهوا الفيل إلى مكة ، أقبل نفيل بن حبيب الخثعمي ، حتى جاء إلى جنب الفيل .

ثم أخذ بأذنه فقال أبرك محموداً ، وارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك والله في بلد الله الحرام .

ثم أرسل أذنه فاضطجع ، فضربه ليقوم فأبى ، فضربوه ليقوم فأبى وضربوا بالطبرزين فوجهوه راجعاً إلى اليمن ، فقام يهرول ووجهوه إلى الشام ، ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة ، فبرك وأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر ، أمثال الخطاطيف .

مع كل طير منها ثلاثة أحجار ، حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحمصة والعدسة ، لا تصيب أحداً منهم إلا هلك .

فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي جاؤوا منه ، ويتساءلون عن نفل بن حبيب ، ليدلهم على الطريق ، فخرج نفيل يشتد ، حتى صعد الجبل ، فخرجوا معه يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون على كل منهل ، فأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا معه فيسقط من جسده أنملة أنملة ، كلما سقطت منه أنملة ، خرجت منه مدة قيح ودم ، حتى قدموا به صنعاء ، وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ثم مات ، فملك ابنه يكثوم بن أبرهة ملك اليمن .

وروي في الخبر ، أنه أول ما وقعت الحصبة ، والجدري بأرض العرب ذلك العام .

وقال بعضهم : كان أمر أصحاب الفيل ، قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، بثلاث وعشرين سنة .

وقال بعضهم : كان ذلك في عام مولده عليه السلام .

وروي عن قيس بن مخرمة أنه قال : ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم في عام الفيل .

فنزل قوله ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ يعني : كيف عاقب ربك أصحاب

الفيل ، بالحجارة ، حين أرادوا هدم الكعبة .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ يعني : في خسارة .

ويقال : معناه ألم يجعل صنيعهم في أباطيل ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ يعني : متتابعاً بعضها على أثر بعض ، أرسل عليهم الله طيوراً بيضاً صغاراً .

وقال عبيد بن عمير : أرسل عليهم طيراً بلقا من البحر ، كأنها الخطاطيف .

وروى عطاء عن ابن عباس قال : طيراً سوداً ، جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً .

ثم قال ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قال سعيد بن جبير ، الحجارة أمثال الحمصة .

وروي عن ابن عباس قال : رأيت عند أم هانىء من تلك الحجارة ، مثل بعر الغنم ، مخططة بحمرة .

(59/831)

وروى إسرائيل ، عن جابر بن أسباط قال : طيراً كأنها رجال الهند ، جاءت من قبل البحر ، تحمل الحجارة في مناقيرها وأظافيرها ، أكبرها كمبارك الإبل ، وأصغرها كرؤوس الإنسان ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ يعني : من طين خلط بالحجارة ، ويقال : طين مطبوخ كما يطبخ الآجُرُ .

وذكر مقاتل، عن عكرمة قال: هي طير جاءت من قبل البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع، لم تر قبل يومئذ ولا بعده، فجعلت ترميهم بالحجارة، فتجدر جلودهم.

وكان أول يوم رأى فيه الجدري.

ويقال: مكتوب في كل حجر اسم الرجل، واسم أبيه، ولا يصيب الرجل شيء، إلا نفذه فيها وقع على رأس رجل، إلا خرج من دبره، وما وقعت على جانبه، إلا خرجت من الجانب الآخر.

وقال وهب بن منبه ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قال بالفارسية سنك وكل يعني: حجارة وطين.

وروى موسى بن بشار عن عكرمة ﴿ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قال: سنك وكل.

ثم قال عز وجل: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ يعني: كزرع بالٍ، فأخبر الله تعالى أنه سلط على الجبابرة أضعف خلقه، كما سلط على النمرود بعوضة، فأكلت من دماغه أربعين يوماً، فمات من ذلك. والله أعلم بالصواب. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 597.593 ﴾

وقال الثعلبي :

سورة الفيل

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ .

القصة وبالله التوفيق .

قال محمد بن إسحاق : كان من قصة أصحاب الفيل فيما ذكر بعض أهل العلم عن سعيد ابن جُبير وعكرمة عن ابن عباس ، وعمّن لقي من علماء أهل اليمن وغيرهم أن ملكاً من ملوك حمير يقال له زرعة ذو نواس كان قد تهوّد واستجمعت معه حمير على ذلك ، إلاّ ما كان من أهل نجران ، فإنّهم كانوا على النصرانيّة على أصل حكم الإنجيل ، ولهم رأس يقال له عبد الله بن التامر ، فدعاهم إلى اليهوديّة فأبوا فخيّرهم فاختاروا القتل فخدّ له أخدوداً وصنّف لهم أصناف القتل .

فمنهم من قتل صبراً ، ومنهم من خدّ لهم فألقاه في النار إلاّ رجلا من أهل سبأ يقال له دوس بن ثعلبان ، فذهب على فرس له فركض حتى أعجزهم في الرمل ، فأتى قيصر فذكر له ما بلغ منهم واستنصره فقال : بعدت بلادك عنّا ولكنّي سأكتب لك إلى مَلِك الحبشة ، فإنّه على ديننا فينصرك ، فكتب إلى النجاشي يأمره بنصره .

فلمّا قدم على النجاشي بعث معه رجلا من أهل الحبشة يقال له : ارياط ، فلمّا بعثه قال : إنْ دخلت اليمن فاقتل ثلث رجالها ، واضرب ثلث بلادها وابعث إليّ بثلث سباياها ،

فلمّا دخلها ناوش شيئاً من قتال فتفرّقوا عن ذي نواس وخرج به فرسه ، فاستعرض به البحر فضربه فهلكا جميعاً فكان آخر العهد ، ودخلها أرياط فعمل بما أمر به النجاشي ، فقال ذو حدر الحميري فيما أصاب أهل اليمن وترابهم :

وعيني لا أباً لك لم تُطيقي . . . نجاك الله قد أنزفت ريقي

لدى عزف القيان إذ انتشينا . . . وإذ نسقى من الخمر الرحيق

وشرب الخمر ليس عليّ [عاراً] . . . إذا لم يشكني فيها رفيقي

وغمدان الذي حدثت عنه . . . بنوه ممسكاً في رأس نيق

مصابيح السليط تلوح فيه . . . إذا يمسي كتوماض البروقِ

فأصبح بعد جدّتهِ رماداً . . . وغيّر حسنه لهب الحريق

واسلم ذو نواس مستميتاً . . . وحذّر قومه ضنك المضيق

قال : فأقام أرياط باليمن ، وكتب إليه النجاشي : أن اثبت بجندك ومن معك ، فأقام حيناً ثم إنّ إبرهة بن الصباح ساخطه في أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين فكانت معه طائفة ومع إبرهة طائفة ، ثم تراجفا ، فلمّا دنا بعضهم من بعض أرسل إبرهة إلى أرياط : لا تصنع

بأن تلقى الحبشة بعضها بعضاً شيئاً حتى تلقاني ، ولكن اخرج إليّ فأينا قتل صاحبه انضمّ إليه الجند ، فأرسل إليه : إنّك قد أنصفت .

وكان أرياط جسيماً عظيماً وسيماً ، في يده حربته ، وكان إبرهة رجلا قصيراً حاذراً لحيماً ، وكان ذا دين في النصرانيّة وخلّف إبرهة [فيها غلام] يقال له : عتودة ، فلمّا دنوا رفع أرياط الحربة فضرب بها رأس إبرهة فوقعت على جبينه فشرمت عينه وجبينه وأنفه وشفته فبذلك سُمّي الأشرم .

وحمل عتودة على أرياط فقتله ، فاجتمعت الحبشة لإبرهة وقال عتودة : أنا عتودة من خلفه ارده لا أب ولا أُم بجده ، وقال إبرهة : ما كان لك قبله يا عتودة ولا ديته قال : فبلغ النجاشي ما صنع إبرهة فغضب وحلف لا يدع إبرهة حتى يجزّ ناصيته ويطأ بلاده ، وكتب إلى إبرهة : إنّك عدوت على أميري فقتلته بغير أمري .

وكان إبرهة رجلا مارداً ، فلمّا بلغه ما كان من قول النجاشي حلق رأسه وملأ جراباً من تراب أرضه وكتب إلى النجاشي : أيها الملك إنما كان أرياط عبدك وأنا عبدك ، اختلفنا في أمرك وكنت أعلم بالحبشة وأسوس لها ، وقد كنت أردته أن يعتزل وأكون أنا أسوسه فأبى فقتلته ، وقد بلغني الذي حلف عليه الملك ، وقد حلقت رأسي فبعثت به إليه ، وبعثت إليه بجراب من تراب أرضه ؛ ليضعه تحت قدمه [ومن يهينه] ، فلمّا انتهى إليه ذلك رضي عنه فأقرّه على عمله ، وكتب إليه أن يثبت بمن معه من الجند .

ثم إن إبرهة بنى كنيسة بصنعاء يقال لها : الفليس ، وكتب إلى النجاشي : قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يُبنَ لملك مثلها قط ، ولستُ منتهياً حتى أصرف إليها حجيج العرب . فسمع بذلك رجل من بني مالك بن كنانة فخرج إلى القليس فدخلها ليلا وقعد فيها ، فبلغ إبرهة ذلك ، ويقال : إنه أتاها ناظراً إليها فدخلها أبرهة فوجد تلك العذرة ، فقال : من اجترأ عليّ ؟ فقيل صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت ، سمع بالذي قلت فصنع هذا ، فحلف إبرهة عند ذلك ليسيرنّ إلى الكعبة حتى يهدمها .

فخرج سائراً في الحبشة وخرج معه بالفيل ، فسمعت بذلك العرب فأعظموه [وفظعوا به] ورأوا جهاده حقّاً عليهم ، فخرج ملك من ملوك حمير يقال له : ذو نفر بمن أطاعه من قومه ، فقابله فهزمه وأخذ ذو نفر فأتى به ، فقال : أيها الملك لا تقتلني فإنّ استبقائي خير لك من قتلي ، فاستبقاه وأوثقه .

وكان إبرهة رجلا حليماً ، ثم خرج سائراً حتى دنا من بلاد خثعم فخرج نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم شهدان وأهش ومن اجتمع إليه من قبايل اليمن فقاتلوه فهزمهم وأخذ النفيل ، فقال نفيل : أيها الملك إني دليل بأرض العرب فلا تقتلني وهاتان يداي على

قومي بالسمع والطاعة ، فاستبقاه ، وخرج معه يدله حتى [إذا] مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن مغيث في رجال من ثقيف فقال : أيّها الملك إنّما نحن عبيدك ليس لك عندنا من خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد يعنون اللاّت إنما تريد البيت الذي بمكّة ، نحن نبعث من يدلّك عليه ، فبعثوا أبا رغال مولى لهم فخرج حتى إذا كان بالمغمس مات أبو رغال ، وهو الذي يرجم قبره .

وبعث إبرهة من المغمس رجلا من الحبس يقال له : الأسود بن مقصود على مقدّمة خيله فجمع إليه أموال الحرم وأصاب لعبد المطّلب مائتي بعير ، فقال عبد الله بن عمر بن مخزوم :

اللهم اخز الاسود بن مقصود . . . الآخذ الهجمة فيها التقليد

بين حراء وبثير فالبيد . . . يحبسها وهي أُولات التطريد

(63/831)

فضمها إلى طماطم سود . . . قد أجمعوا أو يكون معبود

ويهدموا البيت الحرام المعمود . . . والمروتين والمشاعر السود

أضفره يا رب وأنت محمود . . . ثم إن أبرهة بعث حائلة الحميري إلى أهل مكّة فقال : سل عن شريفها ، ثم أبلغه ما أرسلك به إليه ، أخبره أني لم آتِ لقتال وإنّما لأهدم هذا البيت ،

فانطلق حتى دخل مكّة فلقي عبد المطّلب بن هاشم فقال : إنّ الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأتِ لقتال إلاّ أن تقاتلوه ، وإنّما جاء لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم .

فقال عبد المطّلب : ماله عندنا ومالنا به نزال ، سنخلّي بينه وبين ما جاء له ، فإن هذا بيت اللّه الحرام ، وبيت خليله إبراهيم (عليه السلام) ، فإن يمسّه فهو بيته وحرمه وإن يخلّ بينه وبين ذلك فواللّه ما لنا به قوّة ، قال : فانطلقْ معي إلى الملك ، فزعم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة له كان عليها وركب معه بعض بنيه حتى قدم العسكر .

وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب فأتاه فقال : يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال : ما غناء رجل أسير لا يأمن أن يُقتل بكرة وعشية ، ولكنّي سأبعث لك إلى أنيس سائس الفيل فإنّه لي صديق فاسأله أن يصنع لك مثل الملك ما استطاع من خير ، ويعظّم خطرك ومنزلتك عنده .

قال : فأرسل إلى أنيس فأتاه فقال له : إن هذا سيّد قريش وصاحب عير مكّة ، يُطعم الناس في السهل والوحوش وفي رؤوس الجبل ، وقد أصاب له الملك مائتي بعير فإن استطعت أن تنفعه عنده فانفعه ، فإنه صديق لي أحبّ ما يوصل إليه من الخير ، فدخل أنيس على إبرهة فقال : أيّها الملك هذا سيّد قريش وصاحب عير مكّة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال ، يستأذن عليك ، وأنا أحب أن تأذن له فيكلّمك ، وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالفٍ عليك فأْذن له .

وكان عبد المطّلب جسيماً وسيماً عظيماً ، فلمّا رآه إبرهة أعظمه وأكرمه وكره أن يجلس معه على سريره وأن يجلس تحته ، فهبط إلى البساط فجلس عليه ، ثم دعاه فأجلسه معه ، ثم قال لترجمانه قل له : حاجتك إلى الملك ؟ فقال له الترجمان ذلك .

فقال عبد المطّلب : حاجتي إلى الملك أن يردّ علي مائتي بعير أصابها لي ، فقال إبرهة لترجمانه : أعْجَبْتَنِي حين رأيتك ، ولقد زهدت فيك . قال : لِمَ؟ قال : جئتُ إلى بيت هو دينك ودين آبائك وعصمتكم لأهدمه لم تكلّمني فيه ، وتكلّمني في مائتي بعير أصبتها ؟ قال عبد المطّلب : أنا ربّ هذه الإبل ولهذا البيت ربّ سَيمنَعَهُ .

قال : ما كان ليمنعه منّي ، قال : فأنت وذاك . فأمرَ بإبله فرُدّت عليه .

قال ابن إسحاق : وكان فيما زعم بعض أهل العلم قد ذهب إلى إبرهة بعمر بن ناثة بن عدي بن الويل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، وهو يومئذ سيد بني كنانة ، وخويلد بن وائلة الهذلي وهو يومئذ سيد بني هُذيل ، فعرضوا على إبرهة ثلث أموال أهل تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت ، فأبى عليه ، فلمّا رُدت الإبل على عبد المطّلب خرج فأخبر قريش الخبر ، وأخبرهم أن يتفرّقوا في الشعاب ، وتحرزوا في رؤوس الجبال تخوّفاً عليهم من معرّة الجيش

إذا دخل ، ففعلوا وأتى عبد المطّلب الكعبة فأخذ بحلقة الباب وجعل يقول :

يا ربّ لا أرجو لهم سواكا . . . يا ربّ فامنع منهم حماكا

لا يغلبنّ صليبهم . . . ومحالهم غدواً محالك

جروا جموع بلادهم . . . والفيل كي يسبوا عيالك

عمدوا حماك بكيدهم . . . جهلا وما رقبوا جلالك

إن كنت تاركهم وكعب . . . تنا فأمر ما بدالك

ثم ترك عبد المطّلب الحلقة وتوجّه في بعض تلك الوجوه مع قومه ، وأصبح إبرهة بالمغمس قد تهيّأ للدخول وعبّأ جيشه وهيّأ فيله وكان اسم الفيل محمود ، وكان فيل النجاشي بعثه إلى إبرهة ، وكان فيلا لم يُر مثله في الأرض عظماً وجسماً وقوّة .

ويقال : كانت معه اثنا عشر فيلا ، فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم ثم أخذ بأذنه وقال : ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد اللّه الحرام فبرك الفيل فبعثوه فأبى ، فضربوه بالمعول على رأسه فأبى ، فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه ومرافقه فنزعوه ليقوم فأبى ، فوجّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى

المشرق ففعل مثل ذلك ، فصرفوه إلى الحرم فبرك وأبى أن يقوم ، وخرج الفيل يشتد حتى أُصعد في الجبل .

وأرسل اللّه طيراً من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طاير منها ثلاثة أحجار : حجران في رجليه وحجر في منقاره أمثال الحمّص والعدس ، فلمّا أغشين أرسلها عليهم ، فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلاّ هلك .

وليس كلّ القوم أصابت وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلّهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل اللّه بهم من نقمته :

أين المفر والإله الطالب . . . والأشرم المغلوب غير الغالب ؟

وقال نفيل أيضاً في ذلك :

ألا حييت عنا يا ردّينا . . . نعمنا كم مع الإصباح عينا

ردُّينة لو رأيت ولم تريه . . . لدى جنب المحصّب ما رأينا

إذاً لغذرتني وحمدت رأيي . . . ولم تأسي على مافات بينا

حمدت اللّه إذ عاينت طيراً . . . وخفت حجارةً تُلقى علينا

فكلّ القوم يسألُ عن نفيل . . . كأن عليَّ للحبشانِ دينا

ونفيل ينظر إليهم من بعض الجبال وقد صرخ القوم وهاج بعضهم في بعض ، وخرجوا

يتساقطون بكلّ طريق ويهلكون على كل منهل ، وبعث على إبرهة داءً في جسده ، فجعل تتساقط أنامله ، كلّما سقطت أُنملة اتبعتها مدة من قيح ودم ، فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطير فيمن بقي من أصحابه ، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ثم هلك .

(66/831)

وزعم مقاتل بن سليمان أنّ السبب الذي جرّ حديث أصحاب الفيل هو أنّ قبيلة من قريش خرجوا تجّاراً إلى أرض النجاشي ، فساروا حتى دنوا من ساحل البحر وفي حقف من أحقافها بِيْعَة النصارى يسمّيها قريش : الهيكل ، ويسمّى النجاشي وأهل أرضة : اطاسر حنان ، فبرك القوم في سدّها فجمعوا حطباً ثم أجّجوا ناراً فاشتووا ، فلمّا ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم عاصف ، فعجّت الرياح فاضطرم الهيكل ناراً ، فانطلق الصريخ إلى النجاشي فأخبره فاسف عند ذلك غضباً للبيعة ، فبعث إبرهة لهدم الكعبة [وما لقيه] .

وكان بمكّة يومئذ أبو مسعود الثقفي ، وكان مكفوف البصر يصيّف بالطائف ويشتو بمكّة ، وكان رجلاً نبيهاً نبيلاً يستسقم الأمور برأيه ، وهو أول راتق وأول فاتق ، وكان خليلاً لعبد المطّلب ، فقال عبد المطلب : يا أبا مسعود ماذا عندك ؟ هذا يوم لا يستغنى فيه عن

رأيك .

فقال أبو مسعود لعبد المطّلب : اعمد إلى مائة من الإبل فاجعلها حرماً للّه ، وقلّدها نعلا ثم أثبتها في الحرم لعلّ بعض هذه السودان تعقُر منها فيغضب ربُّ هذا البيت فيأخذهم ، ففعل ذلك عبد المطّلب ، فعمد القوم إلى تلك الإبل فحملوا عليها وعقروا بعضها فجعل عبد المطلب يدعو .

فقال أبو مسعود : [قال عبد المطلب] : إنّ لهذا البيت لربّاً يمنعه ، فقد نزل تبع ملك اليمن بصخر هذا البيت وأراد هدمه ، فمنعه اللّه وابتلاه وأظلم عليه ثلاثة أيام ، فلمّا رأى ذلك تبّع كساه القباطي البيض وعظّمه ونحر له جزراً ، فانظر نحو البيت .

فنظر عبد المطّلب فقال : أرى طيراً بيضاً نشأت من شاطئ البحر قال : ارمقها ببصرك أين قرارها ؟ قال : أراها قد أزرّت على رؤوسنا . قال : هل تعرفها ؟ قال : واللّه ما أعرفها ما هي نجديّة ولا تهاميّة ولا عربية ولا شامية وإنها لطير بأرضنا غير مؤنسة .

قال : ما قدّها ؟ قال : أشباه اليعاسيب في منقارها حصى كأنها حصى الحذق قد أقبلت كالليل تكسع بعضها بعضاً ، أمام كل طير ، يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق ،

فجاءت حتى إذا حاذت بعسكر القوم ركدت فوق رؤوسهم .

فلمّا توافت الرعال كلها أهالت الطير ما في مناقيرها على من تحتها ، مكتوب في كلّ حجر اسم صاحبه ، ثم إنها انصاعت من حيث جاءت ، فلمّا أصبحا انحطّا من ذروة الجبل ، فمشيا رتوة فلم يؤنسا أحداً ثم دنيا رتوة فلم يسمعا حسّاً فقالا : بات القوم سامدين فاصبحوا نياماً ، فلمّا دنيا من عسكر القوم فإذا هم خامدون .

وكان يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها حتى تقع في دماغه وتخرق الفيل والدّابة ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقعه ، فعمد عبد المطّلب فأخذ فأساً من فؤوسهم فحفر حتى أعمق في الأرض فملأه من الذهب الأحمر والجوهر الجيّد ، وحفر لصاحبه فملأه ثم قال لأبي مسعود : هات خاتمك فاختر ، إن شئت أخذت حفرتي وإن شئت أخذت حفرتك وإن شئت فهما لك معاً .

فقال ابن مسعود : اخترتني على نفسك ، فقال عبد المطّلب : إني لم آل أن أجعل أجود المتاع في حفرتي فهو لك ، وجلس كل واحد منهم على حفرته ونادى عبد المطّلب في الناس فتراجعوا وأصابوا من فضلهما حتى ضاقوا به ذرعاً ، وساد عبد المطّلب بذلك قريش ، وأعطته المقادة فلم يزل عبد المطّلب وأبو مسعود في أهلهما في غنًى من ذلك المال ، ودفع اللّه عن كعبته وقبلته ، فسلّط جنوداً لا قبَلَ لهم بها .

وقال الواقدي بأسانيده : وجّه إبرهة أرياط أبا ضخمة في أربعة آلاف إلى اليمن فغلب

عليها ؛ فأكرم الملوك واستذلّ الفقراء ، فقام رجل من الحبشة يقال له : إبرهة الأشرم أبو يكسوم فدعا إلى طاعته فأجابوه ، فقتل أرياط وغلب على اليمن ، فرأى الناس يتجهّزون للحجّ فقال : أين يذهب الناس ؟ قال : يحجّون بيت اللّه بمكّة .

قال مما هو ؟ قال : من حجارة . قال فما كسوته ؟ قال مما يأتي من هنا وهناك .

(68/831)

قال : والمسيح لأبنينّ لكم خيراً منه فبنى لهم بيتاً عمله بالرخام الأبيض والأحمر والأصفر والأسود ، وحلاّه بالذهب والفضة ، وحفّه بالجواهر وجعل فيها ياقوتة حمراء عظيمة ، وجعل له حُجّاباً ، وكان يوقد بالمندلي ويلطخ جدره بالمسك فيسودها حتى تغيب الجواهر ، وأمر الناس بحجّه ، فحجّه كثير من قبائل العرب سنين ، ومكث فيه رجال يتعبّدون ويتألّهون ونسكوا له .

وكان نفيل الخثعمي يورّض له ما يكره فأمهل ، فلمّا كان ليلة من الليالي لم يَر أحداً يتحرّك ، فقام فجاء بعذرة فلطّخ بها جبهته ، وجمع جيفاً وألقاها فيه ، فأُخبر إبرهة بذلك فغضب غضباً شديد وقال : إنما فعلت العرب غضباً لبيتهم ، لأنقضنّه حجراً حجراً ، وكتب إلى النجاشي يخبره بذلك ويسأله أن يبعث إليه بفيله محمود ، وكان فيلا لم يُر مثله في الأرض

عظماً وجسماً وقوةً ، فبعث به إليه .

فلمّا قدم عليه الفيل سار إبرهة بالناس ومعه ملك حمير ونفيل بن حبيب الخثعمي ، فلمّا دنا من الحرم أمر أصحابه بالغارة على نعَم الناس ، فأصابوا إبلا لعبد المطّلب ، وكان نفيل صديقاً لعبد المطّلب فكلّمه في إبله ، فكلّم نفيل إبرهة فقال : أيّها الملك قد أتاك سيّد العرب وأفضلهم قدراً وأقدمهم شرفاً ، يحمل على الجياد ، ويعطي الأموال ، ويُطعم الناس ، فأدخله على إبرهة ، فقال : حاجتك ؟ قال : تردُّ عليّ إبلي . فقال ما أرى ما بلغني عنك إلاّ الغرور ، وقد ظننت أن تكلّمني في بيتكم الذي هو شرفكم . فقال عبد المطّلب : اردد عليَّ إبلي ودونك البيت فإن له ربّاً سيمنعه .

فأمر بردّ إبله عليه ، فلمّا قبضها قلّدها النعال وأشعرها وجعلها هدياً وثبتها في الحرم لكي يصاب منها شيء ، فيغضب ربّ الحرم ، وأوفى عبد المطّلب على خيل ومعه عمرو بن عابد بن عمران بن مخزوم بن مطعم بن عدي ، وأبو مسعود الثقفي ، فقال عبد المطّلب :

اللهم إن المرء يمنع رحله وحلاله فامنع حلالك .

قال : فأقبلت الطير من البحر أبابيل ، مع كل طير ثلاثة أحجار : حجران في رجليه وحجر في منقاره ، وقذفت الحجارة عليهم ، لا تصيب شيئاً إلاّ هشمته إلاّ فقط ذلك الموضع ، فكان ذلك أوّل ما رؤي من الجدري والحصبة والأشجار المرّة فأهمدتهم الحجارة ، وبعث اللّه سيلا عاتياً فذهب بهم إلى البحر فألقاهم فيه ، وولّى إبرهة ومن بقي معه هرابا ، فجعل إبرهة يسقط عضواً عضواً .

وأما محمود فيل النجاشي فربض ولم يشجع على الحرم فنجا ، وأمّا الفيل الآخر فشجع فحصب ، ويقال : كانت اثني عشر فيلا .

قال ابن إسحاق : ولمّا ردّ اللّه الحبشة عن مكّة عظمت العرب قريشاً وقالوا : أهل اللّه ، قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوّهم ، وقال عبد اللّه بن عمر بن مخزوم في قصة أصحاب الفيل :

أنت الجليل ربنا لم تدنسِ . . . أنت حبست الفيل بالمغمَّس

من بعد ما هم بشر مبلس . . . حبسته في هيئة المكركس

وما لهم من فرج ومنفس . . . والمكركس : المنكوس المطروح . وقال أبو الصلت بن أُميّة بن مسعود في ذلك أيضاً :

إن آيات ربنا باقياتٌ . . . ما يُماري فيهنّ إلاّ الكفورُ

حبس الفيل بالمغمس حتى . . . ظلّ يحبو كأنه معقور

حوله من ملوك كندة [أبطال] . . . ملاويث في الحروب صقور

غادروه ثم اذعروا سراعاً . . . كلّهم عظم ساقه مكسور

وقال الكلبي ومقاتل : كان صاحب الجيش إبرهة ، وكان أبو يكسوم من وزرائه وندمائه ، فلمّا أهلكهم اللّه سبحانه بالحجارة لم يفلت منهم إلاّ أبو يكسوم ، فسار وطاير يطير فوقه ولم يشعر به حتى دخل على النجاشي فأخبره بما أصابهم ، فلمّا استتمّ كلامه رماه الطائر فسقط فمات ، فأرى اللّه النجاشي كيف كان هلاك أصحابه .

(70/831)

وقال الآخرون : أبو يكسوم هو إبرهة بن الصباح . وقال الواقدي : كان إبرهة جدّ النجاشي الذي كان في زمن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم واختلفوا في تاريخ عام الفيل ، فقال مقاتل : كان أمر الفيل قبل مولد رسول اللّه (عليه السلام) بأربعين سنة ، وقال الكلبي وعبيد بن عمير : كان قبل مولد النبي (عليه السلام) بثلاث وعشرين سنة .

وروي أنّه كان في العام الذي ولد فيه رسول اللّه (عليه السلام) ، وعليه أكثر العلماء ، يدل عليه ما أخبرنا أبو بكر الخورقي قال : أخبرنا أبو العباس الدعولي قال : أخبرنا أبو بكر بن أبي خيثمة ، قال : حدّثنا إبراهيم بن المنذر الجراحي قال : حدّثنا عبد العزيز بن أبي ثابت

قال : حدّثنا الزبير بن موسى عن أبي الحويرث قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم الكناني الليثي : يا قباث ، أنت أكبر أم رسول اللّه ؟ قال : رسول اللّه أكبر منّي ، وأنا أسنّ منه ، ولد رسول اللّه صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، ووقفتْ بي أمّي على روث الفيل .

وقالت عائشة : رأيت قائد الفيل وسائسه بمكّة عميين مقعدين يستطعمان .

التفسير :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ قال مقاتل : كان معهم فيل واحد ، وقال الضّحاك : كانت ثمانية ، وإنّما وجد على هذا التأويل لوفاق رؤوس الآي ، أو يقال : نسبهم إلى الفيل الأعظم واسمه محمود .

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ عما أرادوا من تخريب الكعبة : وقيل : في بطلان وأباطيل ، وقال مقاتل : في خسار .

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ ﴾ من البحر ﴿ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴾ كثيرة متفرقة ، يتبع بعضها بعضاً .

قال عبد الرحمن بن ايزي : أقاطيع كالابل المقبلة . قال الأعشى :

طريق وجبار رواء أصوله . . . عليه أبابيل من الطير تنعب

وقال امرؤ القيس :

تراهم إلى الداعي سراعاً كأنهم . . . أبابيل طير تحت دجن مسخن

وقال آخر :

(71/831)

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي . . . أنْ سالت الأرض بالجرد الأبابيل

واختلفوا في واحدها ، فقال الفرّاء : لا واحد لها مثل الشماطيط والعباديد والشعارير ، كل هذا لا يفرد له واحد ، قال : وزعم أبو الرواسي وكان ثقة مأموناً أنه سمع واحدها إبالة ولقد سمعتُ من العرب من يقول : ضغث على إبالةٍ يُريدون خصب على خصب .

قال : ولو قال قائلٌ : واحدها إبالة كان صواباً مثل دينار ودنانير ، ويقال : للفضلة التي تكون على حمل الحمار أو علف البعير إبالة ، وقال الكسائي : كنت أسمع النحويين يقولون : واحدها أبوّل مثل عجوّل وعجاجيل . وحكى محمد بن جرير عن بعض النحويين أن واحدها أبيل ، يُقال : جاءت الخيل أُبابيل من ههنا وههنا .

قال ابن عباس : لها خراطيم كخراطيم الطير وأكفٌ كأكفّ الكلاب .

عكرمة : لها رؤوس كرؤس السباع لم تُر قبل ذلك ولا بعده .

ربيع : لها أنياب كأنياب السباع ، وقالت عائشة : أشبه شيء بالخطاطيف .

سعيد بن جبير : طيرٌ خضر لها مناقير صفر ، قال أبو الجوزاء : أنشأها اللّه سبحانه في الهواء في ذلك الوقت .

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ ﴾ قراءة العامة بالتاء للطير ، وقرأ طلحة وأشهب العقيلي يرميهم بالياء ، وهو اختيار أبي حنيفة ، يعنون اللّه سبحانه ، كقوله : ﴿ ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال : 17] ويجوز أن يكون راجعاً إلى الطير لخلوّها من علامات التأنيث .

﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قال ابن مسعود : صاحب الطير وترميهم بالحجارة ، وبعث اللّه سبحانه ريحاً فضربت الحجارة فزادتها شدّة ، فما وقع منها حجر على رجل إلاّ خرج من الجانب الآخر ، وإنْ وقع على رأسه خرج من دبره .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ كزرع أكلته الدواب فراثته فيبس وتفرّقت أجزاؤه ، شبّه تقطّع أوصالهم بفرق أجزاء الروث .

(72/831)

قال مجاهد : العصف : ورق الحنطة . قتادة : هو التبن ، قال الحسن : كنا ونحن غلمان بالمدينة نأكل الشعير إذا قصّب وكان يُسمّى العصف . سعيد بن جبير : هو الشعير النابت الذي يؤكل ورقه .

الفرّاء : أطراف الزرع قبل أن يُسنبل ويُبتك . عكرمة : كالجبل إذا أُكل فصار أجوف . ابن عباس : هو القشر الخارج الذي يكون على حبّ الحنطة كهيئة الغلاف له .

المؤرّخ : هو ما يقصف من الزرع فسقطت أطرافه ، وقال ابن السكّيت : هو العصف والعصيفة والجل ، وقيل : كزرع قد أكل حبّه وبقي تبنه ، وقال الضحّاك : كطعام مطعوم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشف والبيان حـ 10 صـ 288. 298﴾

(73/831)

وقال الزمخشرى :

سورة الفيل

مكية ، وآياتها 5 «نزلت بعد الكافرون» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفيل (105) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4)

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)

روى أنّ أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس «1» ، وأراد أن يصرف إليها الحاج ، فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلا «2» ، فأغضبه ذلك . وقيل : أججت رفقة من العرب نارا فحملتها الريح فأحرقتها ، فحلف ليهدمنّ الكعبة فخرج بالحبشة ومعه فيل له اسمه محمود ، وكان قويا عظيما ، واثنا عشر فيلا غيره . وقيل : ثمانية .

وقيل : كان معه ألف فيل ، وكان وحده ، فلما بلغ المغمس خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع ، فأبى وعبأ جيشه وقدّم الفيل ، فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هرول ، فأرسل اللّه طيرا سودا . وقيل خضرا وقيل : بيضا . مع كل طائر حجر في منقاره ، وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما أنه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفاري ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ، ففروا فهلكوا في كل طريق ومنهل ، ودوى أبرهة «3» فتساقطت أنامله وآرابه ، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه . وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائره يحلق فوقه ، حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة ، فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتا بين يديه . وقيل : كان أبرهة جدّ

---

(1) . قوله «وسماها القليس» بالتشديد ، مثل القبيط : بيعة كانت بصنعاء للحبشة :

بناها أبرهة، وهدمها حمير، كذا في الصحاح. (ع)

(2). قوله «فقعد فيها ليلا» كناية عن التغوط. وفي الخازن فتغوط فيها ولطخ قبلتها بالعذرة. (ع)

(3). قوله «ودوى أبرهة» أى مرض. وآرابه، أى: أعضاؤه. (ع)

(74/831)

النجاشي الذي كان في زمن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بأربعين سنة، وقيل: بثلاث وعشرين سنة «1». وعن عائشة رضى اللّه عنها: رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان. وفيه أن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير، فخرج إليه فيها، فجهره «2» وكان رجلا جسيما وسيما.

وقيل: هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال، فلما ذكر حاجته قال: سقطت من عينى، جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك وعصمتكم وشرفكم في قديم الدهر، فألهاك عنه ذود أخذ لك، فقال أنا رب الإبل، وللبيت رب سيمنعه، ثم رجع وأتى باب البيت فأخذ بحلقته وهو يقول:

لاهمّ إنّ المرء يمنع أهله فامنع حلالك

لا يغلبنّ صليبهم ومحالهم عدوا محالك

إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمر ما بدا لك «3»

---

(1) . قوله «بأربعين سنة ، وقيل بثلاث وعشرين» لعله وكان قبله بأربعين سنة . وفي الخازن : اختلفوا في عام الفيل ، فقيل : كان قبل مولد النبي صلى اللّه عليه وسلم بأربعين سنة اه . (ع)

(2) . قوله «فجهره» في القاموس «جهر الرجل» : عظم في عينه وراعه جماله ، كأجهره انتهى . (ع)

(3) لاهم إن المرء يمنع أهله فامنع حلالك

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدوا محالك

جروا جميع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك

عمدوا حماك بكيدهم جهلا وما رقبوا جلالك

إن كنت تاركهم وكعبتنا فأمر ما بدا لك

لعبد المطلب حين أراد أبرهة بن الصباح هدم الكعبة وأغار على مائتي بعير له ، فخرج إليه عبد المطلب في طلب الإبل ، وقد قيل لأبرهة : إنه سيد قريش ، يطعم الناس في السهل ، والوحوش في رءوس الجبال ، فلما طلب الإبل قال له : سقطت من عيني ، جئت لأهدم -

شرفكم فألهاك عنه طلب المال ، فقال : أنا رب الإبل ، وللبيت رب يحميه ، ثم رجع وأخذ بحلقة الباب وقال ذلك . ولاهم : أصله اللهم ، فخفف . إن المرء يمنع ، أى : يحفظ أهله ، وأنت اللّه فاحفظ حلالك ، أى : سكان حرمك الذين حلوا فيه . يقال : حى حلال ، أى : نزول ، وفيهم كثرة .

أو الذين هم في حل منك . ويجوز على بعد أنه أطلق الحلال على البيت ، أو أهله على سبيل المشاكلة التقديرية للأهل ، على أن معناه الزوجة . وروى : إن المرء يمنع حله فامنع حلالك . والحل والحلال : ما يحل التصرف فيه . وروى :

إن العبد يمنع وحله فامنع وحالك ، وهو يؤيد الأول . والآل لا يضاف إلا لذي شرف ، فاضافته للصليب ليشاكل ما بعده . أو على زعمهم أنه ذو شرف . وعابديه : جمع مضاف الضمير إضافة الوصف لمفعوله . واليوم : ظرف النصر . والمحال : مصدر ماحله إذا كايده بمكروه . والعدو : العدوان والظلم : وهو نصب على التمييز . أو على المفعول المطلق . ويروى : غدوا ، أى : في الغد ، فهو ظرف . ويروى : أبدا . ويروى : جموع ، بدل جميع ، وكان معهم اثنا عشر فيلا فيها فيل جسيم عظيم اسمه محمود ، فمراده بالفيل : الجنس ، أو المعهود . والعيال : مفرده عيل ، وجمعه عيائل ، كجيد وجياد وجيائد ، من قوله وتعهد شأنه عمدوا : قصدوا ، حماك ، أى : حرمك الذي حميته لجهلهم . أو جاهلين وما خافوا عظمتك ، إن كنت تاركهم مع كعبتنا يفعلون بها ما شاءوا فأمر عظيم ظهر لك

منا الآن من معاصينا . أو أمر تعلمه أنت ولا نعلمه من الحكمة والمصلحة . وفيه تفويض إلى اللّه وتسليم إليه .

(75/831)

يا ربّ أرجو لهم سواكا يا ربّ فامنع منهم حماكا «1»

فالتفت وهو يدعو فإذا هو بطير من نحو اليمن فقال : واللّه إنها لطير غريبة ما هي ببحرية ولا تهامية «2» . وفيه : أنّ أهل مكة قد احتووا على أموالهم ، وجمع عبد المطلب من جواهرهم وذهبهم الجور «3» ، وكان سبب يساره . وعن أبى سعيد الخدري رضى اللّه عنه أنه سئل عن الطير فقال : حمام مكة منها . وقيل جاءت عشية ثم صبحتهم . وعن عكرمة : من أصابته جدّرته وهو أوّل جدري ظهر . وقرئ : ألم تر ، بسكون الراء للجد في إظهار أثر الجازم : والمعنى :

أنك رأيت آثار فعل اللّه بالحبشة ، وسمعت الأخبار به متواترة ، فقامت لك مقام المشاهدة .

وكَيْفَ في موضع نصب بفعل ربك ، لا بألم تر ، لما في كَيْفَ من معنى الاستفهام فِي تَضْلِيلٍ في تضييع وإبطال . يقال : ضلل كيده ، إذا جعله ضالا ضائعا . ومنه قوله تعالى وَما كَيْدُ

الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ وقيل لامرئ القيس : الملك الضليل ، لأنه ضلل ملك أبيه ، أى . ضيعه ، يعنى : أنهم كادوا البيت أوّلا ببناء القليس ، وأرادوا أن ينسخوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه ، فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه ، وكادوه ثانيا بإرادة هدمه ، فضلل بإرسال الطير عليهم أَبابِيلَ حزائق ، الواحدة : إبالة . وفي أمثالهم : ضغث على إبالة ، وهي : الحزمة الكبيرة ، شبهت الحزقة من الطير في تضامّها بالإبالة . وقيل : أبابيل مثل عباديد ، وشماطيط لا واحد لها وقرأ أبو حنيفة رحمه اللّه ، يرميهم ، أى اللّه تعالى أو الطير ، لأنه اسم جمع مذكر ، وإنما يؤنث على المعنى . وسجيل : كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجينا علم لديوان أعمالهم ، كأنه قيل : بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدوّن ، واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ، لأنّ العذاب موصوف بذلك ، وأرسل عليهم طيرا ، فأرسلنا عليهم

---

(1) يا رب لا أرجو لهم سوا كا يا رب فامنع منهم حما كا

إن عدو البيت من عادا كا امنعهم أن يخربوا فنا كا

لعبد المطلب أيضا ، أى : لا أرجو لمنع الأعداء عنا غيرك ، وألف القوافي للإطلاق ، وتكرير النداء للاستعطاف .

والعدو : يطلق على الواحد والمتعدد ، أى : من كان عدوا لأهل بيتك فهو المعادى لك البالغ في العداوة . والفناء :

رحبة البيت . وروى بدله «قرا كا» جمع قرية ، وبدء المصراع الثاني بألف الوصل جائز ، لأنه محل ابتداء في الجملة ، كما نبه عليه الخليل .

(2) . قوله «ما هي ببحرية ولا تهامية» ببحرية : في أبى السعود : بنجدية . (ع)

(3) . قوله «و ذهبهم الجور» لعله الجرب : جمع جراب ، مثل : كتب ، جمع كتاب . (ع)

[. . . . . .]

(76/831)

الطوفان . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : من طين مطبوخ كما يطبخ الآجر . وقيل : هو معرب من سنككل . وقيل : من شديد عذابه ، ورووا بيت ابن مقبل :

ضربا تواصت به الأبطال سجّيلا «1»

وإنما هو سجينا ، والقصيدة نونية مشهورة في ديوانه ، وشبهوا بورق الزرع إذا أكل ، أى : وقع فيه الأكال : وهو أن يأكله الدود . أو بتبن أكلته الدواب وراثته ، ولكنه جاء على ما عليه آداب القرآن ، كقوله كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ أو أريد : أكل حبه فبقى صفرا منه .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الفيل أعفاه اللّه أيام حياته من الخسف والمسخ «2»» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 797. 800 ﴾

---

(1) ورجلة يضربون البيض عن عرج . ضربا تواصت به الأبطال سجيلا

لابن مقبل . والرجلة : جماعة الرجال . والبيض – بالكسر – : كناية عن السيوف ، أي : يضربون بها ، وإن قرئ بالفتح فهي المغافر على رؤس الفرسان . والعرج : الميل والاعوجاج . ويروى : عن عرض ، ولعله تحريف .

والمراد : اختلاف أحوال الضرب . والبطل : لشجاع . والسجيل : الشديد ، ولكن الرواية بالنون ، لأن القصيدة نونية ، وسنذكر بعضها في أواخر حرف النون .

(2) . أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي بالسند إلى أبى بن كعب .

(77/831)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الفِيل ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : ألم تخبر فتعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل .

الثاني : ألم ترَ آثار ما فعل ربك بأصحاب الفيل ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير أصحاب الفيل .

واختلف في مولده عليه السلام من عام الفيل على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن مولده بعد أربعين سنة من عام الفيل ، قاله مقاتل :

الثاني : بعد ثلاث وعشرين سنة منه ، قاله الكلبي وعبيد بن عمير .

الثالث : أنه عام الفيل ، روي ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وروي عنه أنه قال :

ولدت يوم الفيل .

واختلف في سبب الفيل على قولين :

أحدهما : ماحكاه ابن عباس : أن أبرهة بن الصباح بنى بيعة بيضاء يقال لها القليس ، وكتب إلى النجاشي إني لست منتهياً حتى أصرف إليها حج العرب ، فسمع ذلك رجل من كنانة ، فخرج إلى القليس ودخلها ليلاً فأحدث فيها ، فبلغ ذلك أبرهة فحلف بالله ليسيرن إلى الكعبة فيهدمها ، فجمع الأحابيش وجنّد الأجناد ، وسار ، ودليله أبو رغال ، حتى نزل بالمغمّس ، وجعل على مقدمته الأسود بن مقصود حتى سبى سرح مكة وفيه مائتا بعير لعبد المطلب قد قلّد بعضها ، وفيه يقول عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف :

لأهمّ أخْزِ الأسود بن مقصودِ . . . الآخذ الهجمة فيها التقليدْ

بين حراء ، وثبير فالبيد . . . يحبسها وفي أُولات التطريدْ

فضمّها إلى طماطم سُودْ . . . قد أجْمعوا ألا يكون معبودْ .

ويهْدموا البيت الحرام المعمود . . . والمروتين والمشاعر السودْ

اخْفره يا ربِّ وأنت محمودْ . . . وتوجه عبد المطلب وكان وسيماً جسيماً لا تأخذه العين إلى أبرهة ، وسأله في إبله التي أخذت ، فقال أبرهة : لقد كنت أعجبتني حين رأيتك وقد زهدت الآن فيك ، قال : ولم ؟ قال : جئت لأهدم بيتاً هو دينك ودين آبائك فلم تكلمني فيه ، وكلمتني في مائتي بعير لك ، فقال عبد المطلب : الإبل أنا ربها ، وللبيت رب سيمنعه ، فقال أبرهة : ما كان ليمنعه مني ، فقال عبد المطلب : لقد طلبته تبّع وسيف بن ذي يزن وكسرى فلم يقدروا عليه ، وأنت ذاك فرد عليه إبله ، وخرج عبد المطلب وعاد إلى مكة ، فأخبر قريشاً بالتحرز في الجبال ، وأتى البيت وأخذ بحلقة الباب وجعل يقول :

لاهمّ إنّ العبدَ يَمْ . . . نَعُ رحْلَهُ فامْنَع حَلالَكْ .

لا يَغْلِبنّ صَلِيبُهم . . . ومحالُهم غَدْواً مِحالَكْ .

إنْ كنتَ تاركَهم وقب . . . لَتَنا فأمْرٌ ما بدا لَكَ .

المحال : القوة . الثاني : ما حكاه الكلبي ومقاتل يزيد أحدهما وينقص أن فتية من قريش خرجوا إلى أرض الحبشة تجاراً ، فنزلوا على ساحل البحر على بيعة النصارى في حقف من أحقافها ، قال الكلبي تسمى البيعة ما سرجيان ، وقال مقاتل : تسمى الهيكل ، فأوقدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارتحلوا فهبت ريح عاصف فاضطرمت البيعة ناراً فاحترقت ، فأتى الصريخ إلى النجاشي فأخبره ، فاستشاط غضباً ، وأتاه أبرهة بن الصبّاح وحجر بن شراحبيل وأبو يكسوم الكِنْديون ، وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي مكة ، وكان النجاشي هو الملك ، وأبرهة صاحب الجيش ، وأبو يكسوم نديم الملك وقيل وزيره ، وحجر بن شراحبيل من قواده ، وقال مجاهد : أبو يكسوم هو أبرهة بن الصبّاح ، فساروا بالجيش ومعهم الفيل ، قال الأكثرون : هو فيل واحد ، وقال الضحاك : كانت ثمانية فيلة ، ونزلوا بذي المجاز ، واستاقوا سرح مكة ، وفيها إبل عبد المطلب ، وأتى الراعي نذيراً فصعد الصفا وصاح : واصباحاه ! ثم أخبر الناس بمجيء الجيش والفيل ، فخرج عبد المطلب وتوجه إلى أبرهة وسأله في إبله ، فردّها مستهزئاً ليعود لأخذها إذا دخل مكة .

واختلف في النجاشي هل كان معهم أم لا ، فقال قوم : كان معهم ، وقال الآخرون : لم يكن معهم .

وتوجه الجيش إلى مكة لإحراق الكعبة ، فلما ولى عبد المطلب بإبله احترزها في جبال

مكة ، وتوجه إلى مكة من طريق منى ، وكان الفيل إذا بعث إلى الحرم أحجم ، وإذا عدل به عنه أقدم ، قال محمد بن إسحاق : كان اسم الفيل محمود ، وقالت عائشة : رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين مقعدين يستطعمان أهل مكة .

ووقفوا بالمغمّس فقال عبد الله بن مخزوم :

أنت الجليل ربنا لم تدنس . . . أنت حبست الفيل بالمغمّس

حبسته في هيئة المكركس . . . وما لهم من فرجٍ ومنفسِ .

المكركس : المطروح المنكوس .

(80/831)

وبصر أهل مكة بالطير قد أقبلت من ناحية البحر ، فقال عبد المطلب : إن هذه لطير غريبة بأرضنا ، ما هي بنجدية ولا تهامية ولا حجازية ، وإنها أشباه اليعاسيب ، وكان في مناقيرها وأرجلها حجارة ، فلما أطلت على القوم ألقتها عليهم حتى هلكوا ، قال عطاء بن أبي رباح : جاءت الطير عشية فباتت ، ثم صبحتهم بالغداة فرمتهم ، وقال عطية العوفي : سألت عنها أبا سعيد الخدري : فقال : حمام مكة منها .

وأفلت من القوم أبرهة ورجع إلى اليمن فهلك في الطريق .

وقال الواقدي : أبرهة هو جد النجاشي الذي كان في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أيقنوا بهلاك القوم ، قال الشاعر :

أين المفر والإله الطالبْ . . . والأَشرمُ المغلوبُ ليس الغالبْ

يعني بالأشرم أبرهة ، سمي بذلك لأن أرياط ضربه بحربة فشرم أنفة وجبينه ، أي وقع بعضه على بعض .

وقال أبو الصلت بن مسعود ، وقيل بل قاله عبد المطلب :

إنّ آيات ربّنا ناطِقاتٌ . . . لا يُماري بهنّ إلا الكَفُور .

حَبَسَ الفيلَ بالمغّمس حتى . . . مَرّ يعْوي كأنه مَعْقورُ .

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهم في تَضْليل ﴾ لأنهم أرادوا كيد قريش بالقتل والسبي ، وكيد البيت بالتخريب والهدم .

يحكى عن عبد المطلب بعد ما حكيناه عنه أنه أخذ بحلقة الباب وقال :

يا رب لا نرجو لهم سواكا . . . يا رب فامنع منهم حماكا .

إن عدو البيت من عاداكا . . . امنعهم أن يخربوا قراكا .

ثم إن عبد المطلب بعث ابنه عبد الله على فرس له سريع ، ينظر ما لقوا فإذا القوم مشدخون ، فرجع يركض كاشفاً عن فخده ، فلما رأى ذلك أبوه قال : إن ابني أفرس العرب وما كشف عن فخذه إلا بشيراً أو نذيراً . فلما دنا من ناديهم بحيث يُسمعهم قالوا : ما

وراءك ؟ قال : هلكوا جميعاً ، فخرج عبد المطلب وأصحابه فأخذوا أموالهم ، فكانت أموال بني عبد المطلب ، وبها كانت رياسة عبد المطلب لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء ، ثم خرج أهل مكة بعده فنهبوا ، فقال عبد المطلب :

(81/831)

أنت مَنعْتَ الحُبْشَ والأَفْيالا . . . وقد رَعَوا بمكةَ الأَجيالا

وقد خَشِينا منهم القتالا . . . وكَلَّ أمرٍ لهمن مِعضالا

وشكراً وحمْداً لك ذا الجلالا . . . . ويحتمل تضليل كيدهم وجهين :

أحدهما : أن كيدهم أضلهم حتى هلكوا .

الثاني : أن هلاكهم أضل كيدهم حتى بطل .

﴿ وأرْسَلَ عليهم طَيْراً أَبابيلَ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنها من طير السماء ، قاله سعيد بن جبير : لم ير قبلها ولا بعدها مثلها ويروي جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنها طير بين السماء والأرض تعشعش وتفرخ " .

القول الثاني : أنها العنقاء المغرب التي تضرب بها الأمثال ، قاله عكرمة .

الثالث : أنها من طير الأرض ، أرسلها الله تعالى من ناحية البحر ، مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجران في رجليه ، وحجر في منقاره ، قاله الكلبي ، وكانت سوداً ، خضر المناقير طوال الأعناق ، وقيل : بل كانت أشباه الوطاويط ، وقالت عائشة : كن أشباه الخطاطيف .

واختلف في " أبابيل " على خمسة أقاويل :

أحدها : أنها الكثيرة ، قاله الحسن وطاوس .

الثاني : المتابعة التي يتبع بعضها بعضاً ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثالث : أنها المتفرقة من ها هنا وها هنا ، قاله ابن مسعود والأخفش ، ومنه قول الشاعر :

إن سلولاً عداك الموت عارفة . . . لولا سلول مشينا أبابيلا

أي متفرقين .

الرابع : أن الأبابيل المختلفة الألوان ، قاله زيد بن أسلم .

الخامس : أن تكون جمعاً بعد جمع ، قاله أبو صالح وعطاء ، ومنه قول الشاعر :

وأبابيل من خيول عليها . . . كأسود الأداء تحت العوالي .

وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث : الأبابيل مأخوذ من الإبل المؤبلة ، وهي الأقاطيع .

واختلف النحويون هل للأبابيل واحد من جنسه ، فذهب أبو عبيدة والفراء وثعلب إلى أنه لا واحد له كالعباديد والسماطيط ، وذهب آخرون إلى أن له واحد ، واختلفوا في واحده ، فذهب أبو جعفر الرؤاسي إلى أن واحدة إبّالة مشددة ، وقال الكسائي : واحدها إبول ، وقال ابن كيسان واحدة إبّيل .

﴿ تَرْميهم بحجارةٍ مِن سِجّيلٍ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : أن السجيل كلمة فارسية هي سنك وكل ، أولها حجر ، وآخرها : طين ، قال ابن عباس .

الثاني : أن السجيل هو الشديد ، قاله أبو عبيدة ، ومنه قول ابن مقبل :

ورجْلةٍ يضرِبون البَيْضَ عن عَرَضٍ . . . ضَرْباً تواصى به الأَبطالُ سِجّيلاً

الثالث : أن السجيل اسم السماء الدنيا ، فنسبت الحجارة إليها لنزولها منها ، قاله ابن زيد .

الرابع : أنه اسم بحر من الهواء ، منه جاءت الحجارة فنسبت إليه ، قاله عكرمة وفي مقدار الحجر قولان :

أحدهما : أنه حصى الخذف ، قاله مقاتل .

الثاني : كان الحجر فوق العدسة ودون الحمصة ، قاله أبو صالح : رأيت في دار أم هانىء نحو

قفيز من الحجارة التي رمي بها أصحاب الفيل مخططة بحمرة كأنها الجزع ، وقال ابن مسعود : ولما رمت الطير بالحجارة بعث الله ريحها فزادتها شدة ، وكانت لا تقع على أحد إلا هلك ولم يسلم منهم إلا رجل من كندة ، فقال :

فإنكِ لو رأيْتِ ولم تريهِ . . . لدى جنْب المغَمّسِ ما لَقينا

خَشيتُ اللهَ إذ قدْبثّ طَيْراً . . . وظِلَّ سَحابةٍ مرّتْ علينا

وباتت كلُّها تدْعو بحقّ . . . كأنّ لها على الحُبْشانِ دَيْنا

﴿ فجعَلَهم كعَصْفٍ مأكولٍ ﴾ فيه خمسة أقاويل :

أحدها : أن العصف ورق الزّرع ، والمأكول الذي قد أكله الدود ، قاله ابن عباس .

الثاني : أن العصف المأكول هو الطعام ، وهذا قول حسين بن ثابت .

الثالث : أنه قشر الحنطة إذا أكل ما فيه ، رواه عطاء بن السائب .

الرابع : أنه ورق البقل إذا أكلته البهائم فراثته ، قاله ابن زيد .

الخامس : أن العصف التين والمأكول القصيل للدواب ، قاله سعيد بن جبير والحسن ،

واختلف فيما فعله الله بهم ، فقال قوم : كان ذلك معجزة لنبيّ كان في ذلك الزمان ، وقيل إنه

كان خالد بن سنان .

وقال آخرون : بل كان تمهيداً وتوطيداً لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه ولد في عامه وقيل في يومه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 338.344 ﴾

(84/831)

وقال ابن عطية :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) ﴾

﴿ كيف ﴾ نصب بفعل والجمهور على أنه فيل واحد ، وقال الضحاك : ثمانية ، فهو اسم الجنس وقوله مردود ، وحكى النقاش : ثلاثة عشر ، وهذه السورة تنبيه على الاعتبار في أخذ الله تعالى لأبرهة ملك الحبشة ولجيشه حين أم به الكعبة ليهدمها ، وكان صاحب فيل يركبه ، وقصته مشروحة في السير الطويلة ، واختصاره أنه بنى في اليمن بيتاً وأراد أن يرد إليه حج العرب ، فذهب أعرابي فأحدث في البيت الذي بنى أبرهة فغضب لذلك واحتفل في جموعه وركب الفيل وقصد مكة ، وغلب من تعرضه في طريقه من قبائل العرب ، فلما وصل ظاهر مكة وفر عبد المطلب وقريش إلى الجبال والشعاب ، وأسلموا له البلد وغلب طغيانه ، ولم يكن للبيت من البشر من يعصمه ويقوم دونه ، جاءت قدرة الواحد

القهار وأخذ العزيز المقتدر ، فأصبح أبرهة ليدخل مكة ويهدم الكعبة فبرك فيله بذي الغميس ولم يتوجه قبل مكة فبضعوه بالحديد فلم يمش إلى ناحية مكة وكان إذا وجهوه إلى غيرها هرول ، فبينا هم كذلك في أمر الفيل بعث الله ﴿ عليهم طيراً ﴾ جماعات جماعات سوداً من البحر وقيل خضراً ، عند كل طائر ثلاثة أحجار في منقارة ورجليه وكل حجر فوق العدسة ودون الحمصة فرمتهم بتلك الحجارة ، فكان الحجر منها يقتل المرمي وتنهرى لحومهم جذرياً ، وأسقاماً ، فانصرف أبرهة بمن معه يريد اليمن فماتوا في طريقهم متفرقين في كل مرحلة ، وتقطع أبرهة أنملة أنملة حتى مات وحمى الله بيته المرفع ، فنزلت الآية منبهة على الاعتبار بهذه القصة ، ليعلم الكل أن الأمر كله لله ، ويستسلموا للإله الذي ظهرت في ذلك قدرته ، حين لم تغن الأصنام شيئاً ف ﴿ أصحاب الفيل ﴾ : أبرهة الملك ورجاله ، وقرأ أبو عبد الرحمن : " ألم ترْ " بسكون الراء ، و" التضليل " الخسار والتلف ، و" الأبابيل " : جماعات تجيء شيئاً بعد شيء ، قال أبو عبيدة : لا واحد له من لفظه وهذا هو الصحيح لا ما تكلفه بعض النحاة وقال [معبد بن أبي معبد الخزاعي] : [البسيط]

(85/831)

كادت تهد من الأصوات راحلتي . . . إذ سارت الأرض بالجرد الأبابيل

وقد تقدم تفسير " حجارة السجيل " غير مرة ، وهي من سنج وكل أي ماء وطين ، كأنها الآجر ونحوه مما طبخ ، وهي المسومة عند الله تعالى للكفرة الظالمين ، و" العصف " : ورق الحنطة وتبنه ومنه قول علقمة بن عبدة : [البسيط]

تسقى مذانب قد مالت عصيفتها . . . حدورها من أتيّ الماء مطموم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

والمعنى صاروا طيناً ذاهباً كورق حنطة أكلته الدواب وراثته فجمع المهانة والخسة وأتلف ، وقرأ أبو الخليج الهذلي " فتركهم كعصف " ، قال أبو حاتم ، وقرأ بعضهم : " فجعلتهم " يعنون الطير بفتح اللام وتاء ساكنة ، وقال عكرمة : العصف حب البر إذا أكل فصار أجوف ، وقال الفراء : هو أطراف الزرع قبل أن يسنبل ، وهذه السورة متصلة في مصحف أبي بن كعب بسورة ﴿ لإيلاف قريش ﴾ لا فصل بينهما ، وقال سفيان بن عيينة : كان لنا إمام يقرأ بهما متصلة سورة واحدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(86/831)

وقال ابن الجوزى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) ﴾

قوله تعالى : (ألم تر) فيه قولان .

أحدهما : ألم تُخْبَرْ ، قاله الفراء .

والثاني : ألم تَعْلَم ، قاله الزجاج .

ومعنى الكلام معنى التعجب .

وأصحاب الفيل هم الذين قصدوا تخريب الكعبة .

وفي سبب قصدهم لذلك قولان :

أحدهما : أن أبرهة بني بيعةً وقال : لست منتهياً حتى أضيف إليها حَجَّ العرب ، فسمع بذلك رجل من بني كنانة ، فخرج ، فدخلها ليلاً ، فأحدث فيها ، فبلغ ذلك أبرهة ، فحلف ليسيرنَّ إلى الكعبة فيهدِمَها ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن قوماً من قريش خرجوا في تجارة إلى أرض النجاشي فنزلوا في جنب بِيعَةٍ ، فأوقدوا ناراً ، وشَوَوْا لحماً ، فلما رَحَلُوا هَبَّت الرِّيح ، فاضطرم المكان ناراً ، فغضب النجاشي لأجل البِيعَة ، فقال له كبراء أصحابه – منهم حجر بن شراحيل ، وأبو يكسوم : لا تحزن ، فنحن نَهدِم الكعبة ، قاله مقاتل .

وقال ابن اسحاق : أبو يكسوم اسمه أبرهة بن الأشرم .

وقيل : وزيره ، وحِجْر من قُوَّادِه .

ذكر الإشارة إلى القصة

ذكر أهل التفسير أن أبرهة لما سار بجنوده إلى الكعبة ليهدِمها خرج معه بالفيل ، فلما دنا من مكة أمر أصحابه بالغارة على نَعَم الناس ، فأصابوا إبلاً لعبد المطلب ، وبعث بعض جنوده ، فقال : سل عن شريف مكة ، وأخبره أني لم آتِ لقتال ، وإنما جئت لأهدِم هذا البيت ، فانطلق حتى دخل مكة ، فلقيَ عبد المطلب بن هاشم ، فقال إن الملك أرسلني إليك لأخبركَ أنه لم يأتِ لقتال إلا أن تقاتلوه ، إنما جاء لهدم هذا البيت ، ثم ينصرف عنكم ، فقال عبد المطلب : ما له عندنا قتال ، وما لنا به يد ، إنا سنخلي بينه وبين ما جاء له ، فإن هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه ، فهو بيته وحرمه ، وإن يخلِّ بينه وبين ذلك ، فوالله ما لنا به قوة .

(87/831)

قال : فانطلق معي إلى الملك ، فلما دخل عبد المطلب على أبرهة أعظمه ، وكرمه ، ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك إلى الملك ؟ فقال له الترجمان ، فقال : حاجتي أن يردَّ عليَّ مائتي بعير أصابها .

فقال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ولقد زهدت الآن فيك ، جئت إلى بيت هو دينك لأهدمه ، فلم تكلّمني فيه ، وكلَّمتني لإبل أصبتُها .

فقال عبد المطلب : أنا ربُّ هذه الإبل ، ولهذا البيت ربٌّ سيمنعه .

فأمر بإبله فَرُدَّت عليه ، فخرج ، فأخبر قريشاً ، وأمرهم أن يتفرّقوا في الشعاب ورؤوس الجبال خوفاً من مَعَرَّة الجيش إذا دخل ، ففعلوا ، فأتى عبد المطلب الكعبة ، فأخذ بحلقة الباب ، وجعل يقول :

يَا ربِّ لا أَرْجُو لهم سِوَاكَا . . .

يَا ربِّ فامْنَعْ مِنْهُمُ حِمَاكَا

إنَّ عدُوَّ البيت مَنْ عادَاكا . . .

إمْنَعْهُمُ أن يُخْرِبُوا قُرَاكا

وقال أيضاً :

لاَ هُمَّ إنَّ المرْءَ يَمْ . . .

نَعُ رَحْلَه فامنع حِلاَلَكْ

لاَ يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ . . .

وَمِحَالُهم غَدْواً مِحَالَكْ

جَرُّوا جميعَ بلادهم . . .

والفيل كي يَسْبُوا عِيَالَكْ

عَمِدُوا حِمَاكَ بكيدِهم . . .

جهلاً وما رَقَبُوا جَلاَلَكْ

إنْ كنتَ تاركهم وكَعْ . . .

بَتَنا فَأَمْرٌ مَا بَدَالَكْ

ثم إن أبرهة أصبح متهيئاً للدخول ، فبرك الفيل ، فبعثوه فأبى ، فضربوه ، فأبى ، فوجّهوه إلى اليمن راجعاً ، فقام يهرول ، ووجّهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، وإلى المشرق ففعل مثل ذلك ، فوجّهوه إلى الحرم ، فأبى ، فأرسل الله طيراً من البحر .

واختلفوا في صفتها ، فقال ابن عباس : كانت لهم خراطيم كخراطيم الطير ، وأكفّ كأكفّ الكلاب .

وقال عكرمة : كانت لها رؤوس كرؤوس السباع .

وقال ابن إسحاق : كانت أمثال الخطاطيف .

واختلفوا في ألوانها على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها كانت خضراء ، قاله عكرمة ، وسعيد بن جبير .

والثاني : سوداء ، قاله عبيد بن عمير .

والثالث : بيضاء ، قاله قتادة .

قال : وكان مع كل طير ثلاثة أحجار ، حَجَرانِ في رجليه ، وحجر في منقاره .

واختلفوا في صفة الحجارة فقال بعضهم : كانت كأمثال الحمص والعدس .

وقال عبيد بن عمير : بل كان الحجر كرأس الرجل والجمل ، فلما غشيت القوم أرسلتها عليهم ، فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك .

وكان الحجر يقع على رأس الرجل ، فيخرج من دبره .

وقيل : كان على كل حجر اسم الذي وقع عليه ، فهلكوا ولم يدخلوا الحرم ، وبعث الله على أبرهة داء في جسده ، فتساقطت أنامله ، وانصدع صدره قطعتين عن قلبه ، فهلك ، ورأى أهل مكة الطير وقد أقبلت من ناحية البحر ، فقال عبد المطلب : إن هذه الطير غريبة .

ثم إن عبد المطلب بعث ابنه عبد الله على فرس ينظر إلى القوم ، فرجع يركض ويقول : هلك القوم جميعاً ، فخرج عبد المطلب وأصحابه فغنموا أموالهم .

وقيل : لم ينج من القوم إلا أبو يكسوم ، فسار ، وطائر يطير من فوقه ، ولا يشعر به حتى دخل على النجاشي ، فأخبره بما أصاب القوم ، فلما أتم كلامه رماه الطائر فمات ، فأرى الله تعالى النجاشي كيف كان هلاك أصحابه .

واختلفوا كم كان بين مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين هذه القصة على ثلاثة

أقوال .

أحدها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد عام الفيل ، وهو الأصح .

والثاني : كان بينهما ثلاث وعشرون سنة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : أربعون سنة ، حكاه مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ ألم يجعل كيدهم ﴾ وهو ما أرادوا من تخريب الكعبة ﴿ في تضليل ﴾ أي : في ذهاب .

والمعنى : أن كيدهم ضَلَّ عما قصدوا له ، فلم يصلوا إلى مرادهم ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ .

وفي "الأبابيل" خمسة أقوال .

أحدهما : أنها المتفرِّقة من هاهنا وهاهنا ، قاله ابن مسعود ، والأخفش .

والثاني : أنها المتتابعة التي يتبع بعضها بعضاً ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، ومقاتل .

والثالث : الكثيرة ، قاله الحسن ، وطاووس .

والرابع : أنها الجمع بعد الجمع ، قاله عطاء ، وأبو صالح ، وكذلك قال أبو عبيدة ، وابن قتيبة ، والزجاج ، "الأبابيل" : جماعات في تفرقة .

والخامس : المختلفة الألوان ، قاله زيد بن أسلم .

قال الفراء ، وأبو عبيدة : "الأبابيل" لا واحد لها .

قوله تعالى : ﴿ ترميهم ﴾ قرأ أبو عبد الرحمن السلمي "يرميهم" بالياء .

وقد بينا معنى "سجِّيل" في [هود : 82] ومعنى "العصف" في سورة [الرحمن : 12] عز وجل .

وفي معنى "مأكول" ثلاثة أقوال .

أحدهما : أن يكون أراد أنه أُخذ ما فيه من الحب فأكل ، وبقي هو لا حب فيه .

والثاني : أن يكون أراد أن العصف مأكول البهائم ، كما يقال للحنطة : هذا المأكول ولمَّا يؤكل .

وللماء : هذا المشروب ولمَّا يشرب .

يريد أنهما مما يؤكل ويشرب ، ذكرهما ابن قتيبة .

والثالث : أن المأكول هاهنا : الذي وقع فيه الأُكال .

فالمعنى : جعلهم كوَرَقِ الزَّرْعِ الذي جَفَّ وأُكل : أي : وقع فيه الأُكال ، قاله الزجاج . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 231 . 237 ﴾

وقال القرطبى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي ألم تُخْبَر .

وقيل : أَلَمْ تَعْلَم .

وقال ابن عباس : أَلَمْ تسمع ؟ واللفظ استفهام ، والمعنى تقرير .

والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولكنه عام ؛ أي ألم تَرَوْا ما فعلتُ بأَصْحَابِ الفيل ؛ أي قد رأيتم ذلك ، وعرفتم موضع مِنَّتي عليكم ، فما لكم لا تؤمنون ؟ و ﴿ كَيْفَ ﴾ في موضع نصب ب"فَعَلَ رَبُّك" لا ب"ألم تر كيف" من معنى الاستفهام .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ الفيل معروف ، والجمع أفيال : وفُيول ، وفِيَلَة .

قال ابن السكيت : ولا تقل أفيلة .

والأنثى فِيلة وصاحبه فَيَّال .

قال سيبويه : يجوز أن يكون أصل فِيل فُعْلاً ، فكُسِر من أجل الياء ؛ كما قالوا : أبيض وبِيض .

وقال الأخفش : هذا لا يكون في الواحد ، إنما يكون في الجمع .

ورجل فِيل الرأي ، أي ضعيف الرأي .

والجمع أفيال .

ورجل فال ؛ أي ضعيف الرأي ، مخطىء الفِراسة .

وقد فال الرأي يَفِيل فُيولة ، وفَيَّل رأيه تِفييلاً : أي ضعفه ، فهو فَيِّل الرأي .

الثالثة : في قصة أصحاب الفيل ؛ وذلك أن (أَبرهة) بنى القُلَّيس بصنعاء ، وهي كنيسة لم يُرَ مِثلها في زمانها بشيء من الأرض ، وكان نصرانياً ، ثم كتب إلى النجاشيّ : إني قد بنيت لك أيها المِلك كنيسة لم يُبْن مثلها لمِلك كان قبلك ، ولست بمنتهٍ حتى أصرِف إليها حج العرب فلما تحدّثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشيّ ، غضب رجل من النَّسَأة ، فخرج حتى أتى الكنيسة ، فقعد فيها أي أحدث ثم خرج فلحِق بأرضه فأُخْبِر بذلك أبرهة ، فقال : من صنع هذا ؟ فقيل : صنعه رجل من أهل هذا البيت ، الذي تحج إليه العرب بمكة ، لما سمِع قولك : "أَصْرِف إليها حَجَّ العرب" غضب ، فجاء فقعد فيها .

أي أنها ليست لذلك بأهل .

فغضب عند ذلك أبرهة ، وحلف ليسِيَرنّ إلى البيت حتى يهدِمه ، وبعث رجلاً كان عنده إلى بني كِنانة يدعوهم إلى حج تلك الكنيسة ؛ فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل ؛ فزاد أبرهةَ ذلك غضباً وحَنَقاً ؛ ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل ؛ وسمعت بذلك العرب ، فأعظموه وفَظِعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام .

فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم ، يقال له ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخرابه ؛ فأجابه من أجابه إلى ذلك ، ثم عرض له فقاتله ، فهزِم ذو نفر وأصحابه ، وأخِذ له ذو نفر فأُتِي به أسيراً ؛ فلما أراد قتله قال له ذو نَفْر : أيها الملك لا تقتلني ، فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي ؛ فتركه من القتل ، وحبسه عنده في وَثاق ، وكان أبرهة رجلاً حليماً .

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك ، يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خَثْعَم عرض له نُفَيل بن حبيب الخَثْعَمِيّ في قبيلتي خثعم : شَهران وناهِس ، ومن تبعه من قبائل العرب ؛ فقاتله فهزمه أبرهة ، وأُخِذ له نفيل أسيراً ؛ فأُتِي به ، فلما همّ بقتله قال له نُفَيل : أيها الملك لا تقتلني ، فإني دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم : شهران وناهِس ،

بالسمع والطاعة ؛ فخلى سبيله .

وخرج به معه يدله ، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجال من ثقيف ، فقالوا له : أيها الملك ، إنما نحن عبيدك ؛ سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد يعنون اللات إنما تريد البيت الذي بمكة ، نحن نبعث معك من يَدُلُّك عليه ؛ فتجاوز عنهم .

وبعثوا معه أبا رِغال ، حتى أنزله المغمِّس فلما أنزله به مات أبو رِغال هناك ، فَرَجَمت قبره العرب ؛ فهو القبر الذي يرجُم الناسُ بالمغمس ، وفيه يقول الشاعر :

وأرجُمُ قَبرَه في كل عامٍ . . .

كرجْمِ الناس قبرأبي رِغالِ

فلما نزل أبرهة بالمغمس ، بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له ، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذٍ كبير قريش وسيدها ؛ فهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ؛ ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة حُناطة الحِميِريّ إلى مكة، وقال له: سل عن سيد هذا البلد وشرِيفهم، ثم قل له: إن الملك يقول: إني لم آت لحربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تَعْرضوا لي بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم؛ فإن هو لم يُرِد حربي فأتني به.

فلما دخل حُناطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها؛ فقيل له: عبد المطلب بن هاشم؛ فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة؛ فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، أو كما قال، فإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخل بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه.

فقال له حُناطة: فانطلِق إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك؛ فانطلق معه عبد المطلب، ومعه بعض بنيه، حتى أتى العسكر؛ فسأل عن ذي نَفْر، وكان صديقاً له، حتى دخل عليه وهو في مَحْبِسه، فقال له: يا ذا نفْر، هل عندك من غَناء فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفْر: وما غَناء رجل أسير بيدي ملِك، ينتظر أن يقتله غُدُوًّا وعَشِيا! ما عندي غَناء في شيء مما نزل بك، إلا أنّ أُنَيْساً سائس الفيل صديق لي، فسأرسل إليه، وأوصِيه بك، وأُعْظِم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك، فتكلّمَه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قدَر على ذلك؛ فقال حسبي.

فبعث ذو نَفْر إلى أَنيس ، فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش ، وصاحب عَيْن مكة ، ويطعم الناس بالسهل ، والوحوش في رؤوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي بعير ، فاسْتَأْذنْ له عليه ، وانفعه عنده بما استطعت ؛ فقال : أَفْعَلُ .

فكلم أُنيس أبرهة ، فقال له : أيها الملك ، هذا سيد قريش ببابك ، يستأذن عليك ، وهو صاحب عَيْن مكة ، يطعم الناس بالسهل ، والوحوش في رؤوس الجبال ؛ فأْذَنْ له عليك ، فيكلمَك في حاجته .

قال : فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب أَوسم الناس ، وأعظمهم وأجملهم ، فلما رآه أبرهة أَجَلَّه ، وأعظمه عن أن يجلسه تحته ؛ فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه .

ثم قال لتَرجمانه : قل له : حاجَتك ؟ فقال له ذلك الترجمان ، فقال : حاجتي أن يردّ عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي .

فلما قال له ذلك ، قال أبرهة لترجمانه : قل له لقد كنتَ أعجبتَني حين رأيتك ، ثم قد زهِدْتُ فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، قد جئتُ لهدمه ؟ لا تكلمني فيه ! .

قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإنّ للبيت رباً سيمنعه .

قال : ما كان ليمتنع مني ! قال أنت وذاك .

فردّ عليه إبله .

وانصرف عبد المطلب إلى قريش ، فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرّز في شَعَف الجبال والشّعاب ، تخوفاً عليهم مَعرّة الجيش .

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلْقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هُمَّ إنَّ العَبْدَ يَمْ . . .

نَعُ رَحْلَهُ فامنعْ حِلالكْ

لا يَغْلِبَن صَلِيبُهُمْ . . .

ومِحالُهُمْ عَدْواً مِحالَكْ

إنْ يَدْخلوا البلد الحرا . . .

مَ فأمرٌ ما بَدَا لَكْ

يقول : أي : شيء ما بدا لك ، لم تكن تفعله بنا .

والحِلال : جمع حِلّ .

والمِحال : القوّة .

وقيل: إن عبد المطلب لما أخذ بحلقة باب الكعبة قال:

يا رَبِّ لا أرجُو لَهمْ سِواكا . . .

يا ربِّ فامنعْ منهُم حِماكا

إنّ عدوَّ البيت مَنْ عاداكا . . .

إنهُم لن يقهروا قُواكا

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي:

لا هُمَّ أخزِ الأسودَ بن مقصود . . .

الأخِذَ الهَجْمَةَ فيها التَّقْليدْ

بين حِراءٍ وثَبِيرٍ فالبيدْ . . .

يحبسها وهي أولات التطريدْ

فضمها إلى طَماطِمٍ سُودْ . . .

قَدْ أَجْمَعُوا أَلَّا يكون مَعْبُودْ

ويهدموا البيتَ الحرامَ المَعْمُودْ . . .

والمرْوَتَيْنِ والْمَشَاعِرَ السُّود

أخفِره يا رب وأنت محمود . . . .

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، ثم انطلق هو ومن معه من قريش إلى شَعَف الجبال ، فتحرّزوا فيها ، ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله ، وعبأ جيشه ، وكان اسم الفيل محموداً ، وأبرهة مجمع لهدم البيت ، ثم الانصراف إلى اليمن .

فلما وجهوا الفيل إلى مكة ، أقبل نُفَيْل بن حبيب ، حتى قام إلى جنب الفيل ، ثم أخذ بأُذنه فقال له : ابرك محمود ، وارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام .

ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل .

وخرج نُفَيل ابن حبيب يشتدّ ، حتى أصعد في الجبل .

وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا في رأسه بالطبرزِين ليقوم فأبى ؛ فأدخلوا محاجِن لهم في مراقه ، فبزغوه بها ليقوم ، فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن ، فقام يُهَروِل ، ووجهوه إلى الشام ، ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ، ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك .

وأرسل الله عليهم طيراً من البحر ، أمثال الخطاطيف والبَلَسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار : حجر في مِنقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحِمّص والعَدَس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ؛ وليس كلّهم أصابتْ .

وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي جاؤوا منها ، ويسألون عن نفيل بن حبيب ، ليدلهم على الطريق إلى اليمن .

فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

أَينَ المفرُّ والإلَهُ الطَّالبْ . . .

والأَشْرَمُ المغلوبُ ليسَ الغالبْ

وقال أيضاً :

حِمِدتُ اللهَ إذ أبصرتُ طَيْراً . . .

وخِفتُ حِجارَةً تُلْقَى علينا

فكلُّ القومِ يسألُ عن نُفَيلٍ . . .

كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْحُبْشانِ دَيْنا

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلِكون بكل مَهْلِك على كل سَهْل ، وأصيب أَبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أُنْمُلَةً أنملة ، كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مِدَّةٌ تمث قيحاً ودماً ؛ حتى قدِموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره

عن قلبه؛ فيما يزعمون.

وقال الكلبي ومقاتل بن سليمان يزيد أحدهما وينقص: سبب الفيل ما رُوي أن فِتْية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشيّ، فنزلوا على ساحل البحر إلى بيعة للنصارى، تسميها النصارى الهَيْكل، فأوقدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارتحلوا؛ فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البِيعة ناراً، فاحترقت؛ فأتى الصريخ إلى النجاشي فأخبره، فاستشاط غضباً.

فأتاه أبرهة بن الصَّبّاح وحُجْر بن شُرَحْبيل وأبو يَكْسومَ الكِنْديون؛ وضمنوا له إحراق الكعبة وسَبْي مكة.

وكان النجاشيّ هو الملك، وأبرهةُ صاحب الجيش، وأبو يكسوم نديم الملك، وقيل وزيره، وحُجْر بن شُرَحبيل من قوّاده.

وقال مجاهد: أبو يكسوم هو أبرهة ابن الصباح.

فساروا ومعهم الفيل.

قال الأكثرون: هو فيل واحد.

وقال الضحاك: هي ثمانية فِيَلَة.

ونزلوا بذي المَجاز، واستاقوا سَرْح مكة، وفيها إبل عبد المطلب.

وأتى الراعي نذيراً، فصعد الصفا، فصاح: واصباحاه! ثم أخبر الناس بمجيء الجيش

والفيل .

فخرج عبد المطلب ، وتوجه إلى أبرهة ، وسأله في إبله .

واختُلِف في النجاشيّ ، هل كان معهم ؛ فقال قوم كان معهم .

(96/831)

وقال الأكثرون : لم يكن معهم .

ونظر أهل مكة بالطير قد أقبلت من ناحية البحر ؛ فقال عبد المطلب : إن هذه الطير

غريبة بأرضنا ، وما هي بنَجدية ولا تِهامية ولا حجازية" وإنها أشباه اليعاسيب .

وكان في مناقيرها وأرجلها حجارة ؛ فلما أطلت على القوم ألقتها عليهم ، حتى هلكوا .

قال عطاء بن أبي رباح : جاءت الطير عشية ؛ فباتت ، ثم صبحتهم بالغداة فرمتهم .

وقال الكلبيّ : في مناقيرها حصًى كحصى الخَذْف ، أمام كل فرقة طائر يقودها ، أحمر

المِنقار ، أسود الرأس ، طويل العنق .

فلما جاءت عسكر القوم وتوافت ، أهالت ما في مناقيرها على من تحتها ، مكتوب على

كل حجر اسم صاحبه المقتول به .

وقيل : كان على كل حجر مكتوب : من أطاع الله نجا ، ومن عصاه غوَى .

ثم انصاعت راجعة من حيث جاءت .

وقال العَوفيّ : سألت عنها أبا سعيد الخدرِي ، فقال : حمام مكة منها .

وقيل : كان يقع الحجر على بيضة أحدهم فيخرقها ، ويقع في دِماغه ، ويخرق الفيلَ والدابة .

ويغيب الحجر في الأرض من شدّة وقعه .

وكان أصحاب الفيل ستين ألفاً ، لم يرجع منهم أحد إلا أميرهم ، رجع ومعه شِرذمة لطيفة .

فلما أخبروا بما رأوا هلكوا .

وقال الواقديّ : أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبرهة هو الأشرم ، سمي بذلك لأنه تفاتن مع أرياط ، حتى تزاحفا ، ثم اتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما ، فمن غَلَب فله الأمر .

فتبارزا وكان أَرْياط جسيماً عظيماً ، في يده حربة ، وأبرهة قصيراً حادِراً ، حليماً ذا دين في النصرانية ، ومع أبرهة وزير له يقال له عِتْوَدَة فلما دنوا ضرب أرياط بحربته رأس أبرهة ، فوقعت على جبينه ، فشرمت عينه وأنفه وجبينه وشفته ؛ فلذلك سُمِّي الأشرم .

وحمل عِتْودة على أرياط فقتله .

فاجتمعت الحبشة لأبرهة ؛ فغضب النجاشيّ ، وحلف ليَجُزّنّ ناصية أبرهة ، ويطأن بلاده .

فجز أبرهة ناصيته وملأ مِزوداً من تراب أرضه ، وبعث بهما إلى النجاشيّ ، وقال : إنما كان عبدَك ، وأنا عبدُك ، وأنا أقْوَمُ بأمر الحبشة ، وقد جزت ناصيتي ، وبعثت إليك بتراب أرضي ، لتطأه وتبرّ في يمينك ؛ فرضي عنه النجاشيّ .

ثم بنى أبرهة كنيسة بصنعاء ، ليصرف إليها حج العرب ؛ على ما تقدّم .

الرابعة : قال مقاتل : كان عام الفيل قبل مولد النبيّ صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة .

وقال الكلبي وعُبيد بن عمير : كان قبل مولد النبيّ صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة .

والصحيح ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ولدت عام الفِيل " وروي عنه أنه قال : " يومَ الفيل " حكاه الماورديّ في التفسير له .

وقال في كتاب أعلام النبوّة : وُلد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأوّل ، وكان بعد الفيل بخمسين يوماً .

ووافق من شهور الروم العشرين من أسباط ، في السنة الثانية عشرة من ملك هُرْمُز بن أنوشِروان .

قال : وحكى أبو جعفر الطبريّ أن مولد النبيّ صلى الله عليه وسلم كان لاثنتين وأربعين سنة من ملك أنوشروان .

وقد قيل : إنه عليه السلام حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرّم ، وولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ؛ فكانت مدّة حمله ثمانية أشهر كَمَلاً ويومين من التاسع .

وقيل : إنه ولد يوم عاشوراء من شهر المحرم ؛ حكاه ابن شاهين أبو حفص ، في فضائل يوم عاشوراء له .

ابن العربيّ : "قال ابن وهب عن مالك : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، وقال قيس بن مَخْرمة : ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل .

وقد روى الناس عن مالك أنه قال : من مروءة الرجل ألاّ يُخْبِر بسنه ؛ لأنه إن كان صغيراً استحقروه وإن كان كبيراً استهرموه .

وهذا قول ضعيف ؛ لأن مالكاً لا يخبر بسنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكتم سِنه ؛ وهو من أعظم العلماء قدوةً به .

فلا بأس بأن يخبر الرجل بسنه كان كبيراً أو صغيراً" .

وقال عبد الملك بن مروان لعتاب بن أَسِيد : أنت أكبر أم النبيّ صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : النبيّ صلى الله عليه وسلم أكبر مني ، وأنا أسنّ منه ؛ ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مُقْعدين يستطعمان الناس ، وقيل لبعض القضاة : كم سنك ؟ قال : سنّ عَتَّاب بن أَسِيد حين ولاه النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة ؛ وكان سنه يومئذٍ دون العشرين .

الخامسة : قال علماؤنا : كانت قصة الفِيل فيما بعدُ من معجزات النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت قبله وقبل التحدّي ؛ لأنها كانت توكيداً لأمره ، وتمهيداً لشأنه .

ولما تلا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه السورة ، كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة ؛ ولهذا قال : "ألم تر" .

ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس .

وقالت عائشة رضي الله عنها مع حداثة سنها : لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس .

وقال أبو صالح : رأيت في بيت أمّ هانىء بنت أبي طالب نحواً من قفيزين من تلك الحجارة ، سوداً مخططة بحمرة .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾

أي في إبطال وتضييع ؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قُريشاً بالقتل والسبي ، والبيت بالتخريب والهدم .

فحُكِي عن عبد المطلب أنه بعث ابنه عبد الله على فرس له ، ينظر ما لَقُوا من تلك الطير ، فإذا القوم مُشَدَّخين جميعاً ، فرجع يركض فرسه ، كاشفاً عن فخذه ، فلما رأى ذلك أبوه قال : إن ابني هذا أفرس العرب .

وما كشف عن فخذه إلا بشيراً أو نذيراً .

فلما دنا من ناديهم بحيث يُسْمِعهم الصوت ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : هلكوا جميعاً .

فخرج عبد المطلب وأصحابه ، فأخذوا أموالهم .

وكانت أموال بني عبد المطلب منها ، وبها تكاملت رياسة عبد المطلب ؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء ، ثم خرج أهل مكة بعده ونهبوا .

(99/831)

وقيل : إن عبد المطلب حفر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر ، ثم قال لأبي مسعود الثقفيّ وكان خليلاً لعبد المطلب : اختر أيهما شئت .

ثم أصاب الناس من أموالهم حتى ضاقوا ذرعاً ، فقال عبد المطلب عند ذلك :

أنت مَنَعْت الحُبْش والأفيالا . . .

وقد رَعَوْا بمكة الأجبالا

وقد خشِينا منهمُ القتالا . . .

وكلّ أمر لهم مِعضَالاَ

شكراً وحمداً لك ذا الجلالا . . .

قال ابن إسحاق : ولما ردّ الله الحَبَشة عن مكة عَظَّمت العرب قريشاً ، وقالوا : هم أهل الله ، قاتل الله عنهم ، وكفاهم مؤونة عدوّهم .

وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، في قصة أصحاب الفيل :

أنت الجليل رُبّنَا لم تدنِس . . .

أنت حبستَ الفِيل بالمُغَمّسِ

من بعد ما هَمَّ بشرّ مُبْلِس . . .

حبسته في هيئة المُكَرْكَسِ

وما لهم من فرج ومنفسِ . . .

والمكركس : المنكوس المطروح.

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3)

قال سعيد بن جبير : كانت طيراً من السماء لم يُرَ قبلها ولا بعدها مثلها .

وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنها طير بين السماء والأرض تَعَشّشُ وتُفَرّخِ " وعن ابن عباس : كانت لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب .

وقال عِكرمة : كانت طيراً خُضْراً ، خرجت من البحر ، لها رؤوس كرؤوس السباع .

ولم تُر قبل ذلك ولا بعده .

وقالت عائشة رضي الله عنها : هي أشبه شيء بالخطاطيف .

وقيل : بل كانت أشباه الوطاويط ، حمراء وسوداء .

وعن سعيد بن جبير أيضاً : هي طير خُضْر لها مناقير صُفْر .

وقيل : كانت بيضاً .

وقال محمد بن كعب : هي طير سود بحرية ، في مناقيرها وأظفارها الحجارة .

وقيل : إنها العنقاء المُغْرِب التي تضرب بها الأمثال ؛ قال عِكرمة : "أبابيل" أي مجتمعة .

وقيل : متتابعة ، بعضها في إثر بعض ؛ قاله ابن عباس ومجاهد .

وقيل مختلفة متفرّقة ، تجيء من كل ناحية ، من ها هنا وها هنا ؛ قاله ابن مسعود وابن زيد والأخفش .

قال النحاس : وهذه الأقوال متفقة ، وحقيقة المعنى : أنها جماعات عظام .

يقال : فلان يؤبِّل على فلان ؛ أي يعظم عليه ويكثر ؛ وهو مشتق من الإبل .

واختلف في واحد (أبابيل) ؛ فقال الجوهريّ : قال الأخفش يقال : جاءت إبلك أبابيل ؛ أي فِرقاً ، وطير أبابيل .

قال : وهذا يجيء في معنى التكثير ، وهو من الجمع الذي لا واحد له .

وقال بعضهم : واحده إبَّوْل ، مثل عِجَّوْل .

وقال بعضهم : وهو المبرّد : إِبِّيل مثل سِكِّين .

قال : ولم أجد العرب تعرِف له واحداً في غير الصحاح .

وقيل في واحده إبَّال .

وقال رؤبة بن العجاج في الجمع :

ولعبتْ طيرٌ بهمْ أَبابيلْ . . .

فصُيِّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ

وقال الأعشى :

طَرِيقٌ وجَبَّارٌ رِواءٌ أُصولُهُ . . .

عَلَيهِ أبابيلٌ مِن الطَّيْرِ تَنْعَبُ

وقال آخر :

كادت تُهَدُّ من الأصواتِ راحلَتي . . .

إذْ سالتِ الأَرضُ بالجُرْدِ الأَبابيلِ

وقال آخر :

تَراهُمْ إلى الداعي سِرَاعا كأَنَّهُمْ . . .

أبابيلُ طَيْرٍ تَحْتَ دَجْنٍ مُسَخَّنِ

قال الفرّاء : لا واحد له من لفظه .

وزعم الرؤاسِيّ وكان ثقة أنه سمع في واحدها "إبّالة" مشدّدة .

وحكى الفرّاء "إبالة" مخففاً .

قال : سمعت بعض العرب يقول : ضِغْث على إبَّالَة .

يريد : خِصبا على خِصب .

قال : ولو قال قائل إيبال كان صواباً ؛ مثل دينار ودنانير .

وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث ابن نوفل : الأبابيل : مأخوذ من الإبل المؤبلة ؛ وهي الأقاطيع .

تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4)

في الصحاح: "حِجارة مِن سِجيلٍ" قالوا: حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم؛ لقوله تعالى: ﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ * مُّسَوَّمَةً ﴾ [الذاريات: 33 34].

(101/831)

وقال عبد الرحمن بن أبزى: "مِن سِجيلٍ": من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط.

وقيل من الجحيم.

وهي "سِجّين" ثم أبدلت اللام نوناً؛ كما قالوا في أُصَيْلان أُصيلال.

قال ابن مقبل:

ضَرْباً تَوَاصَتْ به الأبطالُ سِجّينا . . .

وإنما هو: سِجيلاً.

وقال الزجاج: ﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي مما كُتب عليهم أن يُعَذّبوا به؛ مشتق من السجل.

وقد مضى القول في سِجّيل في "هود" مستوفى.

قال عِكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدَهم حجر منها خرج به

الجُدَرِيّ لم يُر قبلَ ذلك اليوم .

وكان الحجر كالحِمصَّة وفوق العدسة .

وقال ابن عباس : كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِط جلده ، فكان ذلك أول الجُدرِيّ .

وقراءة العامة ﴿ تَرْمِيهم ﴾ بالتاء ، لتأنيث جماعة الطير .

وقرأ الأعرج وطلحة "يَرْمِيهم" بالياء ؛ أي يرميهم الله ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال : 17] ويجوز أن يكون راجعاً إلى الطير ، لخلوّها من علامات التأنيث ، ولأن تأنيثها غير حقيقيّ .

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)

أي جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب ، فرمت به من أسفل .

شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه .

روُي معناه عن ابن زيد وغيره .

وقد مضى القول في العَصْف في سورة "الرحمن" .

ومما يدل على أنه ورق الزرع قول علقمة :

تَسْقِي مَذانِبَ قدْ مالتْ عَصِيفَتُها . . .

حَدُورُها من أَتيِّ الماءِ مَطْمُوم

وقال رؤبة بن العجاج :

وَمَسَّهُمْ ما مَسَّ أَصْحابَ الفِيلْ . . .

تَرْمِيهِمُ حِجارَةٌ مِنْ سِجِّيل

ولَعِبتْ طَيْرٌ بِهِمْ أَبابيل . . . .

فَصُيِّرُوا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ

العَصْف : جمع ، واحدته عَصْفة ، وعُصافة ، وعَصِيفة .

وأدخل الكاف في "كَعَصْف" للتشبيه مع مثل ، نحو قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] .

ومعنى "مأكولٍ" مأكول حبه .

كما يقال : فلان حسن ؛ أي حسن وجهه .

(102/831)

وقال ابن عباس ؛ "فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ" أن المراد به قشر البر ؛ يعني الغِلاف الذي تكون فيه حبة القمح .

ويروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه ، فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة .

وقال ابن مسعود : لما رمت الطير بالحجارة ، بعث الله ريحاً فضربت الحجارة فزادتها شدّة

، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك ، ولم يسلم منهم إلا رجل من كِندة ؛ فقال :

فَإنّكِ لَوْ رأيتِ ولم تَرِيهِ . . .

لدي جنب المُغَمّس ما لَقِينا

خَشِيتُ اللهَ إذْ قد بَثّ طَيْرا . . .

وظِلّ سحابةٍ مَرت عَلَينَا

وباتتْ كلُّها تدعو بِحَقٍّ . . .

كأن لها على الحُبْشان دَيْنَا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم ، لكنها أصابت من شاء الله منهم .

وقد تقدّم أن أميرهم رجع وشِرْذمة لطيفة معه ، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا .

فالله أعلم .

وقال ابن إسحاق : لما ردّ الله الحبشة عن مكة ، عَظّمت العرب قريشاً وقالوا : أَهلُ اللّهِ ،

قاتل عنهم ، وكفاهم مؤونة عدوّهم ؛ فكان ذلك نعمة من الله عليهم . انتهى . اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

وقال ابن كثير :

تفسير سورة الفيل

وهي مكية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) ﴾

هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش ، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل ، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود ، فأبادهم الله ، وأرغم آنافهم ، وخيب سعيهم ، وأضل عملهم ، وَرَدهم بشر خيبة . وكانوا قوما نصارى ، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان . ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ، ولسان حال القدر يقول : لم ننصركم - يا معشر قريش - على الحبشة لخيريتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد ، صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء .

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب ، قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود أن ذا نُوَاس – وكان آخر ملوك حمير ، وكان مشركًا – هو الذي قتل أصحاب الأخدود ، وكانوا نصارى ، وكانوا قريبًا من عشرين ألفًا ، فلم يفلت منهم إلا دَوس ذو ثعلبان ، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام – وكان نصرانيًا – فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة ؛ لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين : أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم في جيش كثيف ، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار ، واستلبوا الملك من حمير ، وهلك ذو نواس غريقا في البحر . واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران : أرياط وأبرهة ، فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا ، فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا ، ولكن أبرز إلي وأبرز إليك ، فأينا قتل الآخر ، استقل بعده بالملك . فأجابه إلى ذلك فتبارزا ، وخَلَفَ كل واحد منهما قناة ، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف ، فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، وحمل عَتَوْدَة مولى أبرهة على أرياط فقتله ، ورجع أبرهة جريحًا ، فداوى جرحه فبَرَأ ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن . فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه ، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزن ناصيته . فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه ، وبعث مع رسوله بهدايا

وتحف ، وبجراب فيها من تراب اليمن ، وجز ناصيته فأرسلها معه ، ويقول في كتابه : ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه ،

(105/831)

وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك . فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ، ورضي عنه ، وأقره على عمله . وأرسل أبرهة يقول للنجاشي : إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها . فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء ، رفيعة البناء ، عالية الفناء ، مزخرفة الأرجاء . سمتها العرب القُلَّيس ؛ لارتفاعها ؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها . وعزم أبرهة الأشرمُ على أن يصرف حَجّ العرب إليها كما يُحَج إلى الكعبة بمكة ، ونادى بذلك في مملكته ، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا ، حتى قصدها بعضهم ، وتوصل إلى أن دخلها ليلا . فأحدث فيها وكرّ راجعًا . فلما رأى السدنة ذلك الحدث ، رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة ، وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضبًا لبيتهم الذي ضاهيت هذا به ، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة ، وليخربنه حجرًا حجرًا .

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها نارًا ، وكان يومًا فيه هواء شديد فأحرقته ، وسقطت إلى الأرض .

(106/831)

فتأهب أبرهة لذلك ، وصار في جيش كثيف عَرَمرم ؛ لئلا يصده أحد عنه ، واستصحب معه فيلا عظيما كبير الجثة لم ير مثله ، يقال له : محمود ، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك . ويقال : كان معه أيضًا ثمانية أفيال . وقيل : اثنا عشر فيلا . وقيل غيره ، والله أعلم . يعني ليهدم به الكعبة ، بأن يجعل السلاسل في الأركان ، وتوضع في عُنُق الفيل ، ثم يزجر ليلقي الحائط جملة واحدة . فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جدًا ، ورأوا أن حقًا عليهم المحاجبة دون البيت ، ورَدّ من أراده بكيد . فخرج إليه رجل [كان] من أشراف أهل اليمن وملوكهم ، يقال له "ذو نَفْر" فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، وجهاده عن بيت الله ، وما يريد من هدمه وخرابه . فأجابوه وقاتلوا أبرهة ، فهزمهم لما يريده الله ، عز وجل ، من كرامة البيت وتعظيمه ، وأسر "ذو نُفْر" فاستصحبه معه . ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم ، عَرَض له نُفَيل بن حَبيب الخَثْعمي في قومه : شهران وناهس ، فقاتلوه ، فهزمهم أبرهة ، وأسر نُفَيل بن حبيب ، فأراد قتله ثم عفا

عنه ، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز . فلما اقترب من أرض الطائف ، خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم ، الذي عندهم ، الذي يسمونه اللات . فأكرمهم وبعثوا معه "أبا رغَال" دليلا . فلما انتهى أبرهة إلى المُغَمْس - وهو قريب من مكة - نزل به وأغار جيشه على سَرْح أهل مكة من الإبل وغيرها ، فأخذوه . وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب . وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة ، وكان يقال له : "الأسود بن مفصود" فهجاه بعض العرب - فيما ذكره ابن إسحاق (1) - وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة ، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش ، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تَصُدوه عن البيت . فجاء حناطة فدَل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد

حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو بيته

---

(4) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (51/1) .

وحرمه ، وإن يخلي بينه وبينه ، فوالله ما عندنا دَفْع عنه . فقال له حناطة : فاذهب معي إليه . فذهب معه ، فلما رآه أبرهة أجله ، وكان عبد المطلب رجلا جميلا حسن المنظر ، ونزل أبرهة عن سريره ، وجلس معه على البساط ، وقال لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال للترجمان : إن حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي . فقال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زَهِدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه ، لا تكلمني فيه ؟ ! فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع مني ! قال : أنت وذاك .

ويقال : إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت ، فأبى عليهم ، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة ، والتحصن في رءوس الجبال ، تخوفا عليهم من معرة الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهُمَّ إنَّ المرء يمـ . . . نَعُ رَحْلَه فامْنع حِلالَك . . .

لا يغلبنَّ صَلِيبُهم . . . ومِحَالُهم غدوًا مِحَالك . . .

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حَلْقة الباب ، ثم خرجوا إلى رءوس الجبال (1) .

وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مُقَلَّدة ، لعل بعض الجيش ينال منها شيئًا بغير حق ، فينتقم الله منه .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله - وكان اسمه محمودًا - وعبأ جيشه ، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى .

---

(1) انظر : السيرة النبوية لبن هشام (52/1) .

جنبه ثم أخذ بأذنه وقال ابرك محمود وارجع راشدا من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام" . ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل . وخرج نفيل بن حبيب يَشتد حتى أصعد في الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى . فضربوا في رأسه بالطْبرزين وأدخلوا محاجن لهم في مَرَاقه فبزغوه بها ليقوم ، فأبى ؛ فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول . ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان .

مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال

الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق هذا. ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول :

أينَ المَفَرُّ؟ والإلهُ الطَّالب والأشرمُ المغلوبُ غيرُ الغالب (1)

قال ابن إسحاق : وقال نُفَيل في ذلك أيضًا :

ألا حُييت عَنا يا رُدَينا . . . نَعِمْنا كُم مَعَ الأصباحِ عَينَا . . .

رُدَينةُ لو رأيت - ولا ترَيْه . . . لَدَى جَنْبِ المحصّب - ما رأَينَا . . .

إذا لَعَذَرتني وَحَمَدت أمْري . . . وَلَم تأسى عَلَى مَا فات بَيْنَا . . .

حَمِدتُ اللهَ إذ أبصرتُ طيرًا . . . وَخفْتُ حَجارة تُلقَى عَلَينا . . .

فَكُلُّ القومِ يَسأَلُ عَن نُفَيل . . . كأَنَّ عليَّ للحُبْشَانِ دَينَا ! . . .

وذكر الواقدي بأسانيده أنهم لما تعبئوا لدخول الحرم وهيئوا الفيل، جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب [فيها] فإذا وجهوه إلى الحرم رَبَض وصاح. وجعل أبرهة

يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ، ليقهر الفيل على دخول الحرم . وطال الفصل في ذلك . هذا وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة ، منهم المطعم بن عدي ، وعمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، ومسعود [بن عمرو] الثقفي ، على حراء ينظرون إلى ما الحبشة يصنعون ، وماذا يلقون من أمر الفيل ، وهو العجب العجاب . فبينما هم كذلك ، إذ بعث الله عليهم طيرًا أبابيل ، أي قَطَعًا قِطَعًا صفرا دون الحمام ، وأرجلها حمر ، ومع كل طائر ثلاث أحجار ، وجاءت فحلقت عليهم ، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا .

وقال محمد بن كعب : جاءوا بفيلين فأما محمود فَرَبض ، وأما الآخر فَشَجُع فحُصِب .

وقال وهب بن مُنَبِّه : كان معهم فيلة ، فأما محمود - وهو فيل الملك - فربض ، ليقتدي به بقية الفيلة ، وكان فيها فيل تَشَجَّع فحصب ، فهربت بقية الفيلة .

وقال عطاء بن يَسَار ، وغيره : ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة ، بل منهم من هلك سريعًا ، ومنهم من جعل يتساقط عضوًا عضوًا وهم هاربون ، وكان أبرهة ممن يتساقط عضوًا عضوًا ، حتى مات ببلاد خثعم .

---

(1) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (53/1) وتفسير الطبري (196/30) .

قال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون على كل منهل وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أُنْمُلة أُنمُلة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون .

وذكر مقاتل بن سليمان : أن قريشًا أصابوا مالا جزيلا من أسلابهم ، وما كان معهم ، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة .

(111/831)

وقال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عُتْبَة : أنه حدث أن أول ما رؤيت الحَصبة والجُدري بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رؤي به مَرائر الشجر الحَرْمل ، والحنظل والعُشر ، ذلك العام (1) .

وهكذا روي عن عكرمة ، من طريق جيد .

قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم كان فيما يَعُد به على قريش من نعْمَته عليهم وفضله ، ما رَدّ عنهم من أمر الحبشة ، لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ

الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ [سورة قريش] أي : لئلا يغير شيئًا من حالهم التي كانوا عليها ، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه.

قال ابن هشام : الأبابيل الجماعات ، ولم تتكلم العرب بواحدة. قال : وأما السجيل ، فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب : الشديد الصلب. قال : وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية ، جعلتهما العرب كلمة واحدة ، وإنما هو سنج وجل يعني بالسنج : الحجر ، والجل : الطين. يقول : الحجارة من هذين الجنسين : الحجر والطين. قال : والعصفُ : ورقُ الزرع الذي لم يُقضب ، واحدته عصفه. انتهى ما ذكره (2) .

وقد قال حماد بن سلمة : عن عاصم ، عن زر ، عن عبد الله – وأبو سلمة بن عبد الرحمن – : ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : الفرق.

وقال ابن عباس ، والضحاك : أبابيل يتبع بعضها بعضًا . وقال الحسن البصري ، وقتادة : الأبابيل : الكثيرة. وقال مجاهد : أبابيل : شتى متتابعة مجتمعة. وقال ابن زيد : الأبابيل : المختلفة ، تأتي من هاهنا ، ومن هاهنا ، أتتهم من كل مكان.

---

(1) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (54/1) .

(2) السيرة النبوية لابن هشام (55/1) .

(112/831)

وقال الكسائي : سمعت [النحويين يقولون : أبول مثل العجول . قال : وقد سمعت] (1) بعض النحويين يقول : واحد الأبابيل : إبيل .

وقال ابن جرير : [حدثنا ابن المثنى] (2) حدثني عبد الأعلى ، حدثني داود ، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل ؛ أنه قال في قوله : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ هي : الأقاطيع ، كالإبل المؤبلة .

---

(1) زيادة من تفسير الطبري (191/30) .

(2) زيادة من تفسير الطبري (191/30) .

(113/831)

وحدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن ابن عون ، عن ابن سيرين ، عن ابن عباس : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال : لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب .

وحدثنا يعقوب، حدثنا هشيم، أخبرنا حصين عن عكرمة في قوله: ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال: كانت طيرًا خضرا خرجت من البحر، لها رءوس كرءوس السباع.

وحدثنا ابن بشار، حدثنا ابن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن عبيد ابن عمير: ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ قال: هي طير سود بحرية، في منقارها وأظافيرها الحجارة.

وهذه أسانيد صحيحة.

وقال سعيد بن جبير: كانت طيرًا خضرا لها مناقير صفر، تختلف عليهم.

وعن ابن عباس، ومجاهد، وعطاء: كانت الطير الأبابيل مثل التي يقال لها عنقاء مُغْرب.

رواه عنهم ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن عبيد بن عمير، قال: لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل، بعث عليهم طيرا أنشئت من البحر، أمثال الخطاطيف. كل طير منها تحمل ثلاثة أحجار مجزعة: حجرين في رجليه وحجرا في منقاره. قال: فجاءت حتى صفت على رءوسهم، ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره، ولا يقع على شيء من جسده إلا وخرج من الجانب الآخر.

وبعث الله ريحا شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعا.

وقال السُّدِّي ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ قال : طين في حجارة : "سنك – وكل" وقد قدمنا بيان ذلك بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني التبن الذي تسميه العامة : هبور . وفي رواية عن سعيد : ورق الحنطة . وعنه أيضا : العصف : التبن . والمأكول : القصيل يجز للدواب . وكذلك قال الحسن البصري .

(114/831)

وعن ابن عباس : العصف : القشرة التي على الحبة ، كالغلاف على الحنطة .

وقال ابن زيد : العصف : ورق الزرع ، وورق البقل ، إذا أكلته البهائم فراثته ، فصار درينا .

والمعنى : أن الله ، سبحانه وتعالى ، أهلكهم ودمرهم ، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيرًا ، وأهلك عامتهم ، ولم يرجع منهم بخير إلا وهو جريح ، كما جرى لملكهم أبرهة ، فإنه انصدع صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء ، وأخبرهم بما جرى لهم ، ثم مات .

فملك بعده ابنه

(115/831)

يكسوم ، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة (1) ثم خرج سيف بن ذي يَزَن الحميري إلى كسرى فاستغاثه على الحبشة ، فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه ، فرد الله إليهم ملكهم ، وما كان في آبائهم من الملك ، وجاءته وفود العرب للتهنئة .

وقد قال محمد بن إسحاق : حدثنا عبد الله بن أبي بكر ، عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ، عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مُقْعَدَين ، يستطعمان (2) ورواه الواقدي ، عن عائشة مثله . ورواه أيضا عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت : كانا مقعدين يستطعمان الناس ، عند إساف ونائلة ، حيث يذبح المشركون ذبائحهم .

قلت : كان اسم قائد الفيل : أنيسا .

وقد ذكر الحافظ أبو نعيم في كتاب "دلائل النبوة" من طريق ابن وهب ، عن ابن لَهِيعة عن عقيل بن خالد ، عن عثمان بن المغيرة قصة أصحاب الفيل ، ولم يذكر أن أبرهة قدم من اليمن ، وإنما بعث على الجيش رجلا يقال له : شمر بن مفصود ، وكان الجيش عشرين ألفاً ، وذكر أن الطير طرقتهم ليلا فأصبحوا صرعى .

وهذا السياق غريب جدًا ، وإن كان أبو نعيم قد قواه ورجحه على غيره . والصحيح أن أبرهة الأشرم الحبشي قدم مكة كما دل على ذلك السياقات والأشعار . وهكذا روى ابن

لَهِيعة ، عن الأسود ، عن عُرْوَة : أن أبرهة بعث الأسود بن مفصود على كتيبة معهم الفيل ، ولم يذكر قدوم أبرهة نفسه ، والصحيح قدومه ، ولعل ابن مقصود كان على مقدمة الجيش ، والله أعلم .

ثم ذكر ابن إسحاق شيئًا من أشعار العرب ، فيما كان من قصة أصحاب الفيل ، فمن ذلك شعر عبد الله بن الزبعرى :

تَنَكَّلُوا عن بطن مَكَّةَ إنها . . . كانتْ قديمًا لا يُرام حَريمها . . .

لم تُخلَق الشِّعرَى ليالي حُرِّمتْ . . . إذ لا عزيزَ من الأنام يَرُومها . . .

سائل أميرَ الجيش عنها ما رأى؟ . . . فلسوف يُنبي الجاهلين عليمها . . .

ستونَ ألفًا لم يؤوبوا أَرْضهم . . . بل لم يعش بعد الإياب سقيمها . . .

كانتْ بها عادٌ وجُرْهُم قبلهم . . . واللهُ من فوق العباد يُقيمها (3)

وقال أبو قيس بن الأسلت الأنصاري المري :

---

(1) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (1/61 ، 62) .

(2) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (1/57) .

(3) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (1/58) .

ومن صُنْعه يوم فيل الحُبو . . . ش ، إذ كل ما بَعَثُوه رَزَمْ . . .

محاجنهم تحت أقرابه . . . وقد شرَموا أنفه فانخرم . . .

وقد جعلوا سوطه مغولا . . . إذا يَمَّمُوه قَفَاه كُليم . . .

فَسوَّل أدبر أدراجه . . . وقد باء بالظلم من كان ثمَّ . . .

فأرسل من فوقهم حاصبًا . . . يَلُفهُم مثْلَ لَفُ القزُم . . .

تحث على الصَّبر أحبارُهم . . . وقَد ثأجُوا كَثؤاج الغنَم . . .

وقال أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي ، ويروى لأمية بن أبي الصلت بن أبي ربيعة :

إن آيات ربِّنا بَاقياتٌ . . . مَا يُمَاري فيهنَّ إلا الكفورُ . . .

خُلِقَ الليلُ والنهارُ فَكُلّ . . . مستبينٌ حسابُه مَقْدُورُ . . .

ثمَّ يجلو النَّهارَ ربٌ رحيمٌ . . . بمهاة شُعَاعها منشورُ . . .

حُبسَ الفيلُ بالمُغمّس حتَّى . . . صار يَحْبُو ، كأنه معقورُ . . .

لازمًا حلقهُ الجرانَ كما قُطّر . . . من ظَهْر كَبْكَب مَحدُورُ . . .

حَوله من مُلوكِ كِندةَ أبطالُ . . . ملاويثُ في الحُرُوب صُقُورُ . . .

خلَّفُوه ثم ابذَعرّوا جَميعًا ، . . . كُلّهم عَظْمُ ساقه مَكْسُورُ . . .

كُلّ دين يَومَ القِيَامة عندَ الـ . . . له إلا دِينُ الحَنيفَة بورُ . . .

وقد قدمنا في تفسير "سورة الفتح" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش، بركت ناقته، فزجروها فألَّحت، فقالوا: خلأت القصواء، أي: حَرَنَت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل" ثم قال: "والذي نفسي بيده، لا يسألوني اليوم خطة يُعَظمون فيها حُرُمات الله، إلا أجبتهم إليها". ثم زجرها فقامت. والحديث من أفراد البخاري (1).

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة: "إن الله حبس عن مكة الفيل، وسَلَّط عليها رسوله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب" (2). آخر تفسير سورة "الفيل". انتهى انتهى. ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 8 صـ 483. 490 ﴾

---

(1) تقدم تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: 26 من سورة الفتح، وهو في صحيح البخاري برقم (2731، 2732).

(2) صحيح البخاري برقم (112) وصحيح مسلم برقم (1355) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾

كانت قصة أصحاب الفيل على ما ذكره محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم عن سعيد بن جبير ، وعكرمة عن ابن عباس ، وذكره الواقدي أن النجاشي ملك الحبشة كان بعث أرياط إلى اليمن ، فغلب عليها فقام رجل من الحبشة يقال له أبرهة بن الصّباح بن يكسوم ، فساخط أرياط في أمر الحبشة حتى انصدعوا صدعين ، فكان طائفة مع أرياط ، وطائفة مع أبرهة ، فتزاحفا فقتل أبرهة أرياط ، واجتمعت الحبشة لأبرهة ، وغلب على اليمن ، وأقره النّجاشي على عمله ، ثم إن أبرهة رأى النّاس يتجهزون أيام الموسم إلى مكة لحج بيت الله عزّ وجلّ ، فبنى كنيسة بصنعاء ، وكتب إلى النّجاشي إني قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن لملك مثلها ، ولست منتهياً حتى أصرف إليها حج العرب فسمع بذلك مالك بن كنانة فخرج لها ليلاً ، فدخل وتغوط فيها ولطّخ بالعذرة قبلتها ، فبلغ ذلك أبرهة فقال : من اجترأ عليّ ، فقيل صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت سمع بالذي قلت ، فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها ، فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك ، وسأله أن يبعث إليه بفيله ، وكان له فيل يقال له محمود ، وكان فيلاً لم ير مثله عظماً ، وجسماً ، وقوة ، فبعث به إليه ، فخرج أبرهة في الحبشة سائراً إلى مكة ، وخرج معهم الفيل

، فسمعت العرب بذلك ، فعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم ، فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له ذو نفر بمن أطاعه من قومه ، فقاتلوه فهزمه أبرهة ، وأخذ ذا نفر فقال يا أيها الملك استبقني فإن بقائي خير لك من قتلي فاستحياه وأوثقه وكان أبرهة رجلاً حليماً ، ثم سار حتى إذا دنا من بلاد خثعم ، خرج إليه نفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن ، فقاتلوه فهزمهم ، وأخذ نفيلاً فقال نفيل أيها الملك إني دليل بأرض العرب ، وهاتان يداي على قومي بالسمع والطّاعة ، فاستبقاه وخرج معه يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مغيث في رجال من ثقيف فقال : أيها الملك نحن عبيدك

ليس عندنا خلاف لك ، إنما تريد البيت الذي بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه ، فبعثوا معه أبا رغال مولى لهم ، فخرج حتى إذا كان بالمغمس مات أبو رغال وهو الذي يرجم قبره ، وبعث أبرهة رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مسعود على مقدمة خيله ، وأمره بالغارة على نعم الناس ، فجمع الأسود أموال أصحاب الحرم ، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير ، ثم إن أبرهة أرسل بحناطة الحميري إلى أهل مكة ، وقال له : سل عن شريفها ، ثم أبلغه ما أرسلك به إليه أخبره أني لم آت لقتال ، إنما جئت لأهدم هذا البيت ، فانطلق

حتى دخل مكة ، فلقي عبد المطلب بن هاشم فقال له إن الملك أرسلني إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال ، إلا أن تقاتلوه ، إنما جاء لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم ، فقال عبد المطلب : ما له عندنا قتال ولا لنا به يد إنا سنخلي بينه وبين ما جاء له ، فإن هذا بيت الله الحرام ، وبيت إبراهيم خليله عليه الصّلاة والسّلام ، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه وإن يخل بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به قوة قال فانطلق معي إلى الملك ، فزعم بعض العلماء أنه أردفه على بغلة كان عليها ، وركب معه بعض بنيه حتى قدم على العسكر ، وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب ، فأتاه فقال : يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ قال فما غناء رجل أسير لا يأمن من أن يقتل بكرة أو عشية ، ولكن سأبعث إلى أنيس سائس الفيل ، فإنه لي صديق ، فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ، ويعظم خطرك ، ومنزلتك عنده قال فأرسل إلى أنيس ، فأتاه فقال ، له إن هذا سيد قريش ، وصاحب عير مكة يطعم النّاس في السّهل ، والوحوش في رؤوس الجبال ، وقد أصاب الملك له مائتي بعير فإن استطعت أن تنفعه عنده ، فانفعه فإنه صديق لي أحب ما وصل إليه من الخير ، فدخل أنيس على أبرهة فقال : أيها الملك هذا سيد قريش ، وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السّهل ، والوحوش في رؤوس الجبال يستأذن عليك ، وأنا أحب أن تأذن

له ، فيكلمك فقد جاء غير ناصب ، ولا مخالف عليك ، فأذن له وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً ، وسيماً فلما رآه أبرهة عظمه ، وأكرمه ، وكره أن يجلس معه على السرير وأن يجلس تحته ، فهبط إلى البساط فجلس عليه ، ثم دعاه ، فأجلسه معه ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك إلى الملك فقال الترجمان : ذلك له فقال له عبد المطلب حاجتي إلى الملك أن يرد عليّ مائتي بعير أصابها لي ، فقال أبرهة لترجمانه قل له كنت أعجبتني حين رأيتك ، ولقد زهدت الآن فيك قال لم قال جئت إلى بيت هو دينك ، ودين آبائك ، وهو شرفكم ، وعصمتكم لأهدمه لم تكلمني فيه ، وتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، قال عبد المطلب : أنا رب هذه الإبل ، ولهذا البيت رب سيمنعه منك ، قال ما كان ليمنعه مني قال فأنت وذاك فأمر بإبله فردت عليه ، فلما ردت الإبل على عبد المطلب خرج ، فأخبر قريشاً الخبر وأمرهم أن يتفرقوا في الشّعاب ويتحرزوا في رؤوس الجبال تخوفاً عليهم من معرة الحبش ، ففعلوا وأتى عبد المطلب الكعبة ، وأخذ حلقة الباب وجعل يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا . . .

يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا . . .

امنعهم أن يخربوا قراكا

وقال أيضاً :

لا هم إن العبد يم . . .

نع رحله فامنع رحالك

وانصر على آل الصلي . . .

ب وعابديه اليوم آلك

لا يغلبن صليبهم . . .

ومحالهم عدواً محالك

جروا جموع بلادهم . . .

والفيل كي يسبوا عيالك

عمدوا حماك بكيدهم . . .

جهلاً وما رقبوا جلالك

إن كنت تاركهم وكع . . .

بتنا فأمر ما بدا لك

ثم ترك عبد المطلب الحلقة ، وتوجه في بعض تلك الوجوه مع قومه ، وأصبح أبرهة بالمغمس ، وقد تهيأ للدخول ، وهيأ جيشه ، وهيأ فيله ، وكان فيلاً لم ير مثله في العظم والقوة ، ويقال كان معه اثنا عشر فيلاً ، فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم ، ثم أخذ بإذنه ، وقال له أبرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك ببلد الله الحرام ، فبرك الفيل ، فبعثوه فأبى ، فضربوه بالمعول في رأسه ، فأدخلوا محاجنهم تحت مراقه ، ومرافقه ، ففزعوه ليقوم فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن ، فقام يهرول ووجهوه إلى الشام ، ففعل مثل ذلك ، ووجوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك فصرفوه إلى الحرم ، فبرك وأبى أن يقوم ، وخرج نفيل يشتد حتى صعد الجبل ، وأرسل الله عزّ وجلّ طيراً من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره أمثال الحمص ، والعدس ، فلما غشين القوم أرسلنها عليهم ، فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك ، وليس كل قوم أصابت وخرجوا هاربين لا يهتدون إلى الطريق الذي جاؤوا منه ويتساءلون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، ونفيل ينظر إليهم من بعض الجبال وفي ذلك يقول نفيل :

فإنك ما رأيت ولن تراه . . .

لدى حين المحصب ما رأينا

حمدت الله إذ أبصرت طيراً . . .

وحصب حجارة تلقى علينا

وكلهم يسائل عن نفيل . . .

كأن عليّ للحبشان دينا

(121/831)

وخرج القوم وماج بعضهم في بعض يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون في كل منهل ، وبعث الله على أبرهة داء في جسده ، فجعل تتساقط أنامله كلما سقطت أنملة تبعتها مدة من قيح ، ودم ، فانتهى إلى صنعاء ، وهو مثل فرخ الطّير ، فيمن بقي من أصحابه ، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، ثم هلك قال الواقدي : وأما محمود فيل النجاشي فربض ولم يشجع على الحرم ، والفيل الآخر شجعوا ، فحصبوا أي رموا بالحصباء ، وقال بعضهم أنفلت أبو يكسوم وزير أبرهة ، وتبعه طير ، فحلّق فوق رأسه حتى بلغ النّجاشي فقص عليه القصة ، فلما أنهاها وقع عليه حجر من ذلك الطير ، فخر ميتاً بين يدي النجاشي قال أمية بن أبي الصلت :

إن آيات ربنا ساطعات . . .

ما يماري فيهن إلا الكفور

حبس الفيل بالمغمس حتى . . .

ظل يعوي كأنه معقور

(122/831)

وروي عن عائشة قالت : رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة يستطعمان الناس ، وزعم مقاتل بن سليمان أن السبب الذي جرأ أصحاب الفيل ، أن فئة من قريش أججوا ناراً حين خرجوا تجاراً إلى أرض النّجاشي ، فدنوا من ساحل البحر ، وثم بيعة للنَّصارى تسميها قريش الهيكل ، فنزلوا فأججوا النّار واشتووا ، فلما ارتحلوا تركوا النار كما هي في يوم عاصف ، فهاجت الريح ، فاضطرم الهيكل ناراً فانطلق الصّريخ إلى النّجاشي فأسف غضباً للبيعة ، فبعث أبرهة لهدم الكعبة ، وكان في مكة يومئذ أبو مسعود الثقفي وكان مكفوف البصر يصيف بالطائف ويشتو بمكة ، وكان رجلاً نبيهاً نبيلاً تستقيم الأمور برأيه ، وكان خليلاً لعبد المطلب فقال له عبد المطلب : ماذا عندك فهذا يوم لا يستغنى فيه عن رأيك ؟ فقال أبو مسعود اصعد بنا إلى حراء ، فصعد الجبل فقال أبو مسعود لعبد المطلب اعمد إليّ مائة من الإبل ، فاجعلها لله وقلدها نعلاً ، واجعلها لله ثم أبثثها في الحرم ، فلعل بعض السودان يعقر منها شيئاً ، فيغضب رب هذا البيت ، فيأخذهم ففعل ذلك عبد

المطلب فعمد القوم إلى تلك الإبل ، فحملوا عليها ، وعقروا بعضها وجعل عبد المطلب يدعو فقال أبو مسعود إن لهذا البيت رباً يمنعه فقد نزل تبع ملك اليمن صحن هذا البيت ، وأراد هدمه فمنعه الله وابتلاه ، وأظلم عليه ثلاثة أيام ، فلما رأى تبع ذلك كساه القباطي البيض ، وعظمه ونحر له جزوراً ، فانظر نحو البحر ، فنظر عبد المطلب فقال : أرى طيراً بيضاء نشأت من شاطئ البحر فقال ارمقها ببصرك أين قرارها قال أراها قد دارت على رؤوسنا ، قال : هل تعرفها ؟ قال والله ما أعرفها ما هي بنجدية ، ولا بتهامية ، ولا عربية ، ولا شامية ، قال : ما قدرها ؟ قال : أشباه اليعاسيب في مناقيرها حصى ، كأنها حصى الخذف قد أقبلت كالليل يتبع بعضها بعضاً أمام كل رفقة طير يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق ، فجاءت حتى إذا حاذت عسكر القوم ركدت فوق رؤوسهم ، فلما

توافت الرجال كلهم أهالت الطير ما في مناقيرها على من تحتها مكتوب على كل حجر اسم صاحبه ، ثم إنها رجعت من حيث جاءت فلما أصبحا انحطا من ذورة الجبل ، فمشيا حتى صعدا ربوة ، فلم يؤنسا أحداً ثم دنوا فلم يسمعا حساً فقال بات القوم سامرين ، فأصبحوا نياماً فلما دنوا من عسكر القوم فإذا هم خامدون وكان يقع الحجر على بيضة

أحدهم فيخرقها حتى تقع في دماغه ، وتخرق الفيل والدّابة ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقعه ، فعمد عبد المطلب ، فأخذ فأساً من فؤوسهم ، فحفر حتى أعمق في الأرض ، فملأه من الذهب الأحمر ، والجواهر ، وحفر لصاحبه مثله فملاه ثم قال لأبي مسعود اختر إن شئت حفرتي وإن شئت حفرتك ، وإن شئت فهما لك معاً فقال أبو مسعود فاختر لي على نفسك ، فقال عبد المطلب إني أرى أجود المتاع في حفرتي فهي لك وجلس كل واحد منهما على حفرته ونادى عبد المطلب في الناس فتراجعوا ، وأصابوا من فضلهما حتى ضاقوا به ، وساد عبد المطلب بذلك قريشاً ، وأعطته القادة فلم يزل عبد المطلب وأبو مسعود في أهليهما في غنى من ذلك المال ، ودفع الله عزّ وجلّ عن كعبته ، واختلفوا في تاريخ عام الفيل ، فقيل كان قبل مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) بأربعين سنة وقيل بثلاث وعشرين سنة ، والأصح الذي عليه الأكثرون من علماء السير ، والتواريخ ، وأهل التفسير أنه كان في العام الذي ولد فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فإنهم يقولون ولد عام الفيل ، وجعلوه تاريخاً لمولده (صلى الله عليه وسلم) وأما التّفسير فقوله عزّ وجلّ ﴿ ألم تر ﴾ أي ألم تعلم ، وذلك لأن هذه الواقعة كانت قبل مبعثه بزمان طويل إلا أن العلم بها كان حاصلاً عنده لأن الخبر بها كان مستفيضاً معروفاً بمكة وإذا كان كذلك فكأنه (صلى الله عليه وسلم) علمه وشاهده يقيناً ، فلهذا قال تعالى ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ ، قيل كان معهم فيل واحد ، وقيل كانوا فيلة ثمانية ، وقيل اثني عشر وإنما

وحده لأنه نسبهم إلى الفيل الأعظم الذي كان يقال له محمود ، وقيل وإنما وحده لوفاق الآي ، وفي قصة أصحاب الفيل دلالة عظيمة على قدرة الله تعالى وعلمه ، وحكمته إذ يستحيل في العقل أن طيراً تأتي من قبل البحر تحمل حجارة ترمي بها ناساً مخصوصين ، وفيها دلالة عظيمة على شرف محمد (صلى الله عليه وسلم) ومعجزة ظاهرة له وذلك أن الله تعالى إنما فعل ذلك لنصر من ارتضاه ، وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) الدّاعي إلى توحيده ، وإهلاك من سخط عليه ، وليس ذلك لنصرة قريش ، فإنهم كانوا كفاراً لا كتاب لهم ، والحبشة لهم كتاب فلا يخفى على عاقل ، أن المراد بذلك نصر محمد (صلى الله عليه وسلم) فكأنه تعالى قال أنا الذي فعلت ما فعلت بأصحاب الفيل تعظيماً لك ، وتشريفاً لقدومك ، وإذ قد نصرتك قبل قدومك فكيف أتركك قبل ظهورك .

﴿ ألم يجعل كيدهم ﴾ يعني مكرهم ، وسعيهم في تخريب الكعبة ﴿ في تضليل ﴾ أي تضييع وخسار ، وإبطال ما أرادوا أضل كيدهم ، فلم يصلوا إلى ما أرادوا من تخريب البيت ، بل رجع كيدهم عليهم ، فخربت كنيستهم ، واحترقت ، وهلكوا وهو قوله تعالى : ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ يعني طيراً كثيرة متفرقة يتبع بعضها بعضاً ، وقيل أبابيل أقاطيع كالإبل المؤبلة ، وقيل أبابيل جماعات في تفرقة قيل لا واحد لها من لفظها ، وقيل واحدها أبالة ، وقيل أبيل ، وقيل أبول مثل عجول قال ابن عباس : كانت طيراً لها خراطيم ، كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب ، وقيل رؤوس كرؤوس السباع ، وقيل لها أنياب كأنياب السباع ، وقيل طير خضر لها مناقير صفر ، وقيل طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار ، حجران في رجليه ، وحجر في منقاره لا تصيب شيئاً إلا هشمته ، ووجه الجمع بين هذه الأقاويل في اختلاف أجناس هذه الطير أنه كانت فيها هذه الصفات كلها فبعضها على ما حكاه ابن عباس ، وبعضها على ما حكاه غيره ، فأخبر كل واحد بما بلغه من صفاتها ، والله أعلم .

قوله عزّ وجلّ : ﴿ ترميهم بحجارة ﴾ قال ابن مسعود : صاحت الطّير ، ورمتهم بالحجارة ، وبعث الله ريحاً ، فضربت بالحجارة ، فزادتها شدة ، فما وقع حجر منها على رجل إلا خرج من الجانب الآخر ، وإن وقع على رأسه خرج من دبره ﴿ من سجيل ﴾ قيل السّجيل اسم علم للدّيوان الذي كتب فيه عذاب الكفار ، واشتقاقه من الإسجال ،

وهو الإرسال ، والمعنى ترميهم بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون بما كتب الله في ذلك الكتاب ، وقيل معناه من طين مطبوخ كما يطبخ الأجر ، وقيل سجيل حجر ، وطين مختلط ، وأصله سنك ، وكل فارسي معرب ، وقيل سجيل الشّديد .

(126/831)

﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ يعني كزرع وتبن أكلته الدّواب ، ثم راثته ، فيبس ، وتفرقت أجزاؤه شبه تقطع أوصالهم ، وتفرقها بتفرق أجزاء الرّوث ، وقيل العصف ورق الحنطة ، وهو التبن ، وقيل كالحب إذا أكل ، فصار أجوف وقال ابن عباس : هو القشر الخارج الذي يكون على حب الحنطة كهيئة الغلاف ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 290.296 ﴾

(127/831)

وقال النسفى :

سورة الفِيل

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ﴾

﴿ كَيْفَ ﴾ في موضع نصب ب ﴿ فِعْلَ ﴾ لا ب ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ لما في ﴿ كَيْفَ ﴾ من معنى الاستفهام ، والجملة سدت مسد مفعولي ﴿ تَرَ ﴾ وفي ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تعجيب أي عجّب الله نبيه من كفر العرب وقد شاهدت هذه العظمة من آيات الله ، والمعنى إنك رأيت آثار صنع الله بالحبشة وسمعت الأخبار به متواتراً فقامت لك مقام المشاهدة ﴿ بأصحاب الفيل ﴾ روي أن أبرهة ابن الصباح ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي ، بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس ، وأراد أن يصرف إليها الحاج فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلاً فأغضبه ذلك .

وقيل : أججت رفقة من العرب ناراً فحملتها الريح فأحرقتها فحلف ليهد من الكعبه ، فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه محمود وكان قوياً عظيماً واثنا عشر فيلاً غيره ، فلما بلغ المغمس خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى ، وعبى جيشه وقدم الفيل ، وكان كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى اليمن هرول ، وأرسل الله طيراً مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وعلى كل حجر اسم من

يقع عليه ففروا وهلكوا ، وما مات أبرهة حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة ، فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتاً بين يديه .

وروي أن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير فخرج إليه فيها فعظم في عينه وكان رجلاً جسيماً وسيماً .

(128/831)

وقيل : هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رءوس الجبال ، فلما ذكر حاجته قال : سقطت من عيني جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك وشرفكم في قديم الدهر ، فألهاك عنه ذود أخذلك فقال : أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ في تضييع وإبطال .

يقال : ضلل كيده إذا جعله ضالاً ضائعا .

وقيل لامرىء القيس : الملك الضليل لأنه ضلل ملك أبيه أي ضيعه يعني أنهم كادوا البيت أوّلاً ببناء القليس ليصرفوا وجوه الحاج إليه فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه ، وكادوه ثانياً بإرادة هدمه فضلل كيدهم بإرسال الطير عليهم ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ حزائق

الواحدة إبالة .

قال الزجاج : جماعات من ههنا وجماعات من ههنا ﴿ تَرْمِيهِم ﴾ وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه ﴿ يرميهم ﴾ أي الله أو الطير لأنه اسم جمع مذكر وإنما يؤنث على المعنى ﴿ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ هو معرب من سنككل وعليه الجمهور أي الآجر ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ زرع أكله الدود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 376 .377 ﴾

(129/831)

وقال ابن جزى :

سورة الْفِيلِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾

معناه : ألم تعلم ، وكيف في موضع نصب بفعل ربك لا بألم تر ، والجملة معمول ألم تر ﴿ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ أي إبطال وتخسير ﴿ أَبَابِيلَ ﴾ معناها جماعات شيئًا بعد شيء قال الزمخشري : واحدها أبالة ، وقال جمهور الناس هو جمع لا واحد له من لفظه ﴿ بِحِجَارَةٍ ﴾ روي أن كل حجر منها كان فوق العدسة ودون الحمصة . قال ابن عباس : إنه أدرك

عند أم هانئ نحو قفتين من هذه الحجارة ، وأنها كانت مخططة بحمرة وروي أنه كان على كل حجر اسم من يقع عليه مكتوبا ﴿ سِجِّيلٍ ﴾ قد ذكر ﴿ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ العصف ورق الزرع وتبنه والمراد أنهم صاروا رميما ، وفي تشبيههم به ثلاثة أوجه الأول أنه شبههم بالتبن إذا أكلته الدواب ثم راثته فجمع التلف والخسة ، ولكن الله كنّى عن هذا على حسب آدب القرآن . الثاني أنه أراد ورق الزرع إذا أكلته الدود ، الثالث أنه أراد كعصف ماكول زرعه وبقي هو لا شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 217 ـ 218﴾

(130/831)

وقال البيضاوى :

سورة الْفِيلِ

مكية ، وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو وإن لم يشهد تلك الوقعة لكن شاهد آثارها

وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها ، وإنما قال ﴿ كَيْفَ ﴾ ولم يقل ما لأن المراد تذكير ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله تعالى وقدرته وعزة بيته وشرف رسوله عليه الصلاة والسلام فإنها من الإِرهاصات . إذ روي أنها وقعت في السنة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . قصتها أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس ، وأراد أن يصرف الحاج إليها ، فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلاً فأغضبه ذلك ، فحلف ليهدمن الكعبة فخرج بجيشه ومعه فيل قوي اسمه محمود ، وفيلة أخرى فلما تهيأ للدخول وعبى جيشه قدم الفيل ، وكان كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح ، وإذا رجعوه إلى اليمن أو إلى جهة أخرى هرول ، فأرسل الله تعالى طيراً مع كل واحد في منقاره حجر وفي رجليه حجران ، أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة ، فترميهم فيقع الحجر في رأس الرجل فيخرج من دبره فهلكوا جميعاً . وقرىء ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ جداً في إظهار أثر الجازم ، وكيف نصب بفعل لأبتر لما فيه من معنى الاستفهام .

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ ﴾ في تعطيل الكعبة وتخريبها . ﴿ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ في تضييع وإبطال بأن دمرهم وعظم شأنها .

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴾ جماعات جمع إبالة وهي الحزمة الكبيرة ، شبهت بها الجماعة من الطير في تضامها . وقيل لا واحد لها كعبابيد وشماطيط .

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ ﴾ وقرىء بالياء على تذكير الطير لأنه اسم جمع ، أو إسناده إلى ضمير ربك . ﴿ مِّن سِجّيلٍ ﴾ من طين متحجر معرب سنككل وقيل من السجل وهو الدلو الكبير ، أو الاسجال وهو الارسال ، أو من السجل ومعناه من جملة العذاب المكتوب المدون .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولِ ﴾ كورق زرع وقع فيه ، والآكال وهو أن يأكله الدود أو أكل حبه فبقي صفراً منه ، أو كتين أكلته الدواب وراثته .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ " . (1) انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 530 . 531 ﴾

---

(1) حديث موضوع.

وقال أبو حيان :

سورة الفِيْل

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) ﴾

ومعنى ﴿ ألم تر ﴾ : ألم تعلم قدره على وجود علمه بذلك ؟ إذ هو أمر منقول نقل التواتر ، فكأنه قيل : قد علمت فعل الله ربك بهؤلاء الذين قصدوا حرمه ، ضلل كيدهم وأهلكهم بأضعف جنوده ، وهي الطير التي ليست من عادتها أنها تقتل .

وقصة الفيل ذكرها أهل السير والتفسير مطولة ومختصرة ، وتطالع في كتبهم .

وأصحاب الفيل : أبرهة بن الصباح الحبشي ومن كان معه من جنوده .

والظاهر أنه فيل واحد ، وهو قول الأكثرين .

وقال الضحاك : ثمانية فيلة ، وقيل : اثنا عشر فيلاً ، وقيل : ألف فيل ، وهذه أقوال متكاذبة .

وكان العسكر ستين ألفاً ، لم يرجع أحد منهم إلا أميرهم في شرذمة قليلة ، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا .

وكان الفيل يوجهونه نحو مكة لما كان قريباً منها فيبرك ، ويوجهونه نحو اليمن والشام فيسرع .

وقال الواقدي : أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمن الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وقرأ السلمي : ألم تر بسكون ، وهو جزم بعد جزم .

ونقل عن صاحب اللوامح ترأ بهمزة مفتوحة مع سكون الراء على الأصل ، وهي لغة لتيم ، وتر معلقة ، والجملة التي فيها الاستفهام في موضع نصب به ؛ وكيف معمول لفعل .

وفي خطابه تعالى لنبيه (صلى الله عليه وسلم) بقوله : ﴿ فعل ربك ﴾ تشريف له (صلى الله عليه وسلم) وإشادة من ذكره ، كأنه قال : ربك معبودك هو الذي فعل ذلك لا أصنام قريش أساف ونائلة وغيرهما .

﴿ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴾ ، يقال : ضلل كيدهم ، إذا جعله ضالاً ضائعاً .

وقيل لامرئ القيس الضليل ، لأنه ضلل ملك أبيه ، أي ضيعه .

وتضييع كيدهم هو بأن أحرق الله تعالى البيت الذي بنوه قاصدين أن يرجع حج العرب إليه ، وبأن أهلكهم لما قصدوا هدم بيت الله الكعبة بأن أرسل عليهم طيراً جاءت من جهة البحر ، ليست نجدية ولا تهامية ولا حجازية سوداء .

وقيل : خضراء على قدر الخطاف .

(133/831)

وقرأ الجمهور : ﴿ ترميهم ﴾ بالتاء ، والطير اسم جمع بهذه القراءة ، وقوله :

كالطير ينجو من الشؤبوب ذي البرد . . .

وتذكر كقراءة أبي حنيفة وابن يعمر وعيسى وطلحة في رواية عنه : يرميهم .

وقيل : الضمير عائد على ﴿ ربك ﴾ .

﴿ بجارة ﴾ : كان كل طائر في منقاره حجر ، وفي رجليه حجران ، كل حجر فوق حبة العدس ودون حبة الحمص ، مكتوب في كل حجر اسم مرميه ، ينزل على رأسه ويخرج من دبره .

ومرض أبرهة ، فتقطع أنملة أنملة ، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، وانفلت أبو مكسوم وزيره ، وطائره يتبعه حتى وصل إلى النجاشي وأخبره بما جرى للقوم ، فرماه الطائر بحجره فمات بين يدي الملك .

وتقدم شرح سجيل في سورة هود ، والعصف في سورة الرحمن .

شبهوا بالعصف ورق الزرع الذي أكل ، أي وقع فيه الأكال ، وهو أن يأكله الدود والتبن الذي أكلته الدواب وراثته .

وجاء على آداب القرآن نحو قوله : ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ أو الذي أكل حبه فبقي فارغاً ، فنسبه أنه أكل مجاز ، إذ المأكول حبه لا هو .

وقرأ الجمهور : ﴿ مأكول ﴾ : بسكون الهمزة وهو الأصل ، لأن صيغة مفعول من فعل .

وقرأ أبو الدرداء ، فيما نقل ابن خالويه : بفتح الهمزة اتباعاً لحركة الميم وهو شاذ ، وهذا كما اتبعوه في قولهم : محموم بفتح الحاء لحركة الميم .

قال ابن إسحاق : لما رد الله الحبشة عن مكة ، عظمت العرب قريشاً وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوّهم ، فكان ذلك نعمة من الله تعالى عليهم .

وقيل : هو إجابة لدعاء الخليل عليه الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(134/831)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) ﴾

الوقوف ﴿ الفيل ﴾ ه ط ﴿ تضليل ﴾ ه لا ﴿ أبابيل ﴾ ه لا ﴿ سجيل ﴾ ه لا ﴿ مأكول ﴾ ه .

التفسير : روي أن أبرهة ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بني كنيسة بصنعاء وأراد أن يصرف إليها الحاج فخرج من كنانة فتغوط فيها ليلاً فأغضبه ذلك . وقيل : أججت رفقة من العرب ناراً فحملتها الريح فأحرقتها فحلف ليهدمنّ الكعبة ، فخرج بجيشه ومعه فيل له اسمه محمود وكان قوياً عظيماً . وقيل : كان معه اثنا عشر فيلاً غيره . وقيل : ألف فيل ، فلما بلغ قريباً من مكة خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى وعبى جيشه وقدم الفيل ، فكانوا كلما وجهوه إلى الحرم برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى اليمن أو إلى غيره من الجهات هرول ، فأرسل الله تعالى عليهم طيراً سوداً أو خضراً أو بيضاً

أو بلقاً كالخطاطيف على اختلاف الأقاويل مع كل طير حجر في منقاره وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة . قال ابن عباس : إني رأيت منها عند أم هانىء نحو قفيز مخططة محمرة كالجزع الظفاري ، وكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ، ففروا فهلكوا في كل طريق ومرض أبرهة فتساقطت أناملة وآرابه وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة ، فلما أتمها وقع عليه الحجر فخر ميتاً بين يديه . وعن عائشة رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان . قال أهل التاريخ : كان أبرهة جد النجاشي الذي عاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بين عام الفيل وبين المبعث نيف وأربعون سنة ، وكان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة وقد بلغت حد التواتر حينئذ فما ذاك إلا إرهاص للرسول صلى الله عليه وسلم . وزعمت المعتزلة أنها كانت معجزة لنبي قبله كخالد بن سنان أو قس ابن ساعدة . ويروى أن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير فخرج إليه يطلبها وقل لأبرهة : هذا سيد قريش وصاحب عير مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال . وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً فعظم في عين أبرهة ،

فلما ذكر حاجته قال : سقطت من عيني جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك وعصمتكم وشرفكم من قديم الدهر فألهاك عنه ذود أخذ لك فقال : أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه . ثم رجع وأتى باب البيت فأخذ بحلقته وهو يقول : لا هم أن المرء يمـنع رحله

فامنع حلالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدواً ومحالك

الحلال جمع حل وهو الموضع الذي يحل فيه الناس والمحال المماكرة كقوله

﴿ وهو شديد المحال ﴾ [الرعد : 13] ثم قال :

إن كنت تاركهم وكع . . . بتنا فأمر ما بدا لك

وقال أيضاً :

يا رب فامنع منهم حماكا . . . يا رب لا أرجو لهم سواكا

فالتفت فإذا هو بطير من نحو اليمن فقال : والله إنها لطير غريبة ما هي بنجدية ولا تهامية ، فأهلكتهم كما ذكرنا . ثم إن أهل مكة قد احتووا على أموالهم وجمع عبد المطلب منها ما صار سبب يساره . وسئل أبو سعيد الخدري عن الطير فقال : حمام مكة منها . وقيل : جاءت عشية ثم صبحتهم هلكى . وعن عكرمة : من أصابته أصابه جدري وهو أول جدري ظهر في الأرض . ولنرجع إلى تفسير الألفاظ . وإنما لم يقل " ألم تعلم " إما لأن الخطاب لكل راء ، أو لأنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم علماً كالمشاهد المرئي لتواتره ولقرب عهده به . قال النحويون : قوله ﴿ كيف ﴾ مفعول فعل لأن الاستفهام يقتضي صدر الكلام فيقدم على فعله بالضرورة . ثم إن قوله ﴿ ألم تر ﴾ وقع على مجموع تلك الجملة . وقال في الكشاف ﴿ كيف ﴾ في موضع نصب ب ﴿ فعل ربك ﴾ لا ﴿ بألم تر ﴾ لما في ﴿ كيف ﴾ من معنى الاستفهام . قلت : أما قول صاحب الكشاف في غاية الإجمال لأن المنصوبات بالفعل أنواع شتى . وأما قول غيره فقريب من الإجمال لأن المفاعيل خمسة ، والقول المبين فيه أنه مفعول مطلق والمعنى فعل أي فعل يعني فعلاً ذا عبرة لأولي الأبصار . وتقدير الكلام : ألم تر ربك أو إلى ربك كيف فعل بأصحاب الفيل فعلاً كاملاً في باب الاعتبار لأنه خلق الطيور وجعل طبع الفيل على خلاف ما كان عليه ، واستجاب دعاء أهل الشرك تعظيماً لبيته ، وإن أريد بالفعل المفعول لم يبعد أن يكون مفعولاً به كقولك " يفعل

ما يشاء " . وفي قوله ﴿ ربك ﴾ إشارة إلى أني ربيتك وحفظت البيت لشرف قومك وهم كفرة فكيف أترك تربيتك بعد ظهورك وإسلام أكثر قومك ؟ وفي القصة إشارة إلى أني حفظت البيت وهو موضع العلم للعالم أفلا أحفظ العالم وهو من المسجد كالدر من الصدف ؟ فمن أراد تخريب البيت وهدمه وكسره دمرته فالذي همزه ولمزه في العالم وهو المقصود من البيت أفلا أدمره ؟ وههنا تظهر المناسبة بين هذه السورة والسورة المتقدمة وهذه القصة تجري مجرى مثال آخر لخسران

(138/831)

الإنسان . قال بعضهم : إنما قال ﴿ أصحاب الفيل ﴾ ولم يقل أرباب الفيل أو ملاك الفيل لأن الصاحب يكون من جنس القوم فكأنه أشار إلى أنهم من جنس البهائم بل هم أضل لأن الفيل كان لا يقصد البيت ويقول بلسان الحال : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق وأنهم لم يفهموا رمزه سؤال ، أليس أن كفار مكة ملؤا البيت من الأوثان ؟ ألم يكن أفحش من تخريب الجدران ؟ ثم إنه تعالى لم يسلط عليهم الطير ؟ الجواب قال بعضهم : وضع الأوثان في البيت إضاعة حق الله وتخريب الجدران تعدٍ على الخلق وإنه تعالى يقدم حق العباد على حق

نفسه ولهذا أمر بقتل قاطع الطريق والقاتل وإن كانا مسلمين ، ولا يأمر بقتل الشيخ الكبير والأعمى وصاحب الصومعة والمرأة وإن كانوا كفاراً لأنهم لا يتعدى ضررهم إلى الخلق .

(139/831)

وأقول : لا نسلم أنه تعالى لم يسلط على كفار مكة عذابه لأنه أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بقتلهم وسبي ذراريهم ونسائهم ، ثم فصل الفعل المذكور المتعجب منه بقوله ﴿ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴾ أي في تضييع وإبطال يقال : ضلل كيده إذا جعله ضالاً ضائعاً ومنه قولهم لامرىء القيس " الملك الضليل " لأنه ضلل ملك أبيه أي ضيعه . كادوا البيت أولاً ببناء الكنيسة وصرف وجوه الحاج إليها فضلل الله كيدهم بأن أوقع الحريق فيه . وكادوه ثانياً بإرادة هدمه فضلل كيدهم بإرسال الطير عليهم . ومعنى أبابيل طرائق أي جماعات متفرقة الواحدة إبالة وفي أمثالهم " ضغث على إبالة " شبهت الطير في اجتماعها بالإبالة وهي الحزمة الكبيرة ، قال أبو عبيدة : وقيل أبابيل مثل عباديد لا واحد لها ، والعباديد الفرق الذاهبون في كل وجه قاله الأخفش والفراء . وقال الكسائي : سمعت بعضهم يقولون : واحدها أبول كعجول وعجاجيل . والتنكير في ﴿ طيراً ﴾ إما للتفخيم لأنها كانت طيراً أعاجيب أو للتحقير لأنها كانت صغار الجثة وهذا أدل على كمال القدرة . وذكروا

في وصفها عن ابن مسعود وعن ابن عباس أنها كانت لها خراطيم كخراطيم الفيل وأكف كاكف الكلاب . وفي ﴿ سجيل ﴾ أقوال أحدها : أن اللام مبدلة من النون وأصله سجين وقد مر أنه علم لديوان الشر كأنه قيل : بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون . وجوز في الكشاف أن يكون اشتقاقه من الإسجال والإرسال لأن العذاب موصوف بذلك . وعن ابن عباس أنه معرب سنك كل وقيل : هو طين مطبوخ والعصف ورق الزرع الذي يبقى في الأرض بعد الحصاد تفتته الرياح وتأكله المواشي . وقال أبو مسلم : هو التبن كقوله

﴿ والحب ذو العصف والريحان ﴾

[الرحمن : 12] وقال الفراء : هو أطراف الزرع . وقيل : هو الحب الذي أكل لبه وبقي قشره ، والمأكول الذي وقع فيه الأكال أي الدود ونحوه أي الذي أكلته الدواب وراثته إلا أنه جاء على آداب القرآن كقوله

﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾

[المائدة : 75] قاله مقاتل وقتادة وعطاء عن ابن عباس . وقيل : مأكول حبه كما مر .

وتشبيههم بورق الزرع المذكور إشارة إلى تدميرهم وتصييرهم أيادي سبا . قالوا : إن

الحجاج خرب البيت ولم يحدث شيء من ذلك. وأجيب بأن قصده لم يكن تخريب الكعبة وإنما كان شيئاً آخر. وأيضاً كان إرسال الطير عليهم، إرهاصاً للنبي صلى الله عليه آله وبعد تقرير نبوته لم يكن افتقار إلى الإرهاص والله تعالى عالم بحقائق أحكامه وبه التوفيق وعليه التكلان. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 564 . 567﴾

(141/831)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الفيل

مكية وهي خمس آيات وعشرون كلمة وستة وتسعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي قدّر به في كل شيء عاملة ﴿ الرحمن ﴾ الذي له النعمة الشاملة ﴿ الرحيم ﴾ الذي يخص أهل الاصطفاء بالنعمة الكاملة :

وقوله تعالى : ﴿ ألم تر ﴾ استفهام تعجب، أي : أعجب ﴿ كيف فعل ربك ﴾ أي : المحسن إليك ﴿ بأصحاب الفيل ﴾ فهو خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهو وإن لم يشهد تلك الواقعة لكن شاهد آثارها وسمع بالتواتر أخبارها فكأنه رآها، وإنما قال تعالى : كيف لأن المراد ذكر ما فيها من وجوه الدلالة على كمال علم الله وقدرته وعزة بيته،

وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم وكانت قصة الفيل ما روي أن أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس ، وأراد أن يصرف إليها الحاج ، وكتب إلى النجاشي إني قد بنيت لك بصنعاء كنيسة لم يبن لملك مثلها ، ولست منتهياً حتى أصرف إليها حج العرب فسمع بذلك رجل من بني مالك بن كنانة ، فخرج إليها فدخلها ليلاً فقعد فيها ولطخ بالعذرة قبلتها ، فبلغ ذلك أبرهة فقال : من أجترأ عليّ فقيل : صنع ذلك رجل من العرب من أهل ذلك البيت سمع الذي قلت ، فحلف أبرهة عند ذلك ليسيرن إلى الكعبة حتى يهدمها فكتب إلى النجاشي يخبره بذلك ، وسأله أن يبعث إليه بفيله ، وكان له فيل يقال له محمود ، وكان فيلاً لم ير مثله عظماً وجسماً وقوّة فبعث به إليه فخرج أبرهة في الحبشة سائراً إلى مكة ، وخرج معه بالفيل واثنى عشر فيلاً غيره ، وقيل : ثمانية عشر ، وقيل : كان معه ألف فيل .

وقيل : كان وحده ، فسمعت العرب بذلك فأعظموه ورأوا جهاده حقاً عليهم فخرج ملك من ملوك اليمن يقال له ذونفر بمن أطاعه من قومه فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ ذانفر ، فقال له : أيها الملك استبقني فإن استبقائي خير لك من قتلي فاستبقاه فأوثقه ، وكان أبرهة رجلاً

حليماً . ثم سار حتى إذا دنا من بلاد خثعم خرج له نفيل بن حبيب الخثعمي في خثعم ، ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن فقاتلوه فهزمهم وأخذ نفيلاً ، فقال نفيل : أيها الملك إني دليل بأرض العرب وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة فاستبقاه ، وخرج معه يدله حتى إذا مرّ بالطائف خرج إليه مسعود بن مغيث في رجال من ثقيف ، فقال : أيها الملك نحن عبيدك ليس عندنا خلاف لك إنما تريد البيت الذي بمكة نحن نبعث معك من يدلك عليه فبعثوا أبا رغال مولى لهم ، فخرج حتى إذا كان بالمغمس مات أبو رغال وهو الذي يرجم قبره ، وبعث أبرهة من المغمس رجلاً من الحبشة يقال له : الأسود بن مسعود على مقدمة خيله وأمره بالغارة على نعم الناس فجمع الأسود إليه أموال الحرم ، وأصاب لعبد المطلب مائتي بعير .

ثم إنّ أبرهة بعث بحناطة الحميري إلى أهل مكة فقال : سل عن شريفها ثم أبلغه ما أرسلك به إليه أخبره أني لم آت لقتال ، إنما جئت لأهدم هذا البيت . فانطلق حتى دخل مكة فلقي عبد المطلب بن هاشم فقال : إنّ الملك أرسلني إليك لأخبرك إنه لم يأت لقتال إنما جئت لأهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم ، فقال عبد المطلب : ما له عندنا قتال ، ولا لنا به يدانا سنخلي بينه وبين ما جاء إليه ، فإن هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه فهو بيته وحرمه ، وإن يخلّ بينه وبين ذلك فوالله ما لنا به قوّة .

قال : فانطلق معي إلى الملك ، قال بعض العلماء : أنه أردفه على بغلة كان عليها وركب معه بنيه حتى قدم العسكر ، وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب فأتاه فقال : يا ذا نفر هل عندك من غناء فيما نزل بنا ، فقال : ما غناء رجل أسير لا يأمن أن يقتل بكرة أو عشياً ، ولكن سأبعث إلى أنيس سائس الفيل ، فإنه صديق لي فأسأله أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير ويعظم خطرك ومنزلتك عنده ، فأرسل إلى أنيس فأتاه فقال له : إنّ هذا سيد قريش صاحب عين مكة يطعم الناس في السهل والوحوش في رؤوس الجبال ، وقد أصاب الملك له مائتي بعير ، فإن استطعت أن تنفعه عنده فانفعه فإنه صديق لي أحبّ ما وصل إليه من الخير .

فدخل أنيس على أبرهة فقال : أيها الملك هذا سيد قريش صاحب عين مكة يطعم الناس في السهل والوحوش على رؤوس الجبال يستأذن عليك ، وأنا أحبّ أن تأذن له فيكلمك وقد جاء غير ناصب لك ولا مخالف عليك فأذن له ، وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً وسيماً فلما رآه أبرهة أعظمه وأكرمه وكره أن يجلس معه على السرير ، وأن يجلس تحته فهبط إلى البساط فجلس عليه ، ثم دعاه فأجلسه معه .

ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك إلى الملك ؟ فقال الترجمان ذلك ، فقال عبد المطلب : حاجتي إلى الملك أن يردّ إليّ مائتي بعير أصابها لي . فقال أبرهة لترجمانه : قل له قد كنت

أعجبتني حين رأيتك ، ولقد زهدت فيك ، قال لِمَ ؟ قال : جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك ، وهو شرفكم وعصمتكم لأهدمه لم تكلمني فيه وتكلمني في مائتي بعير أصبتها ؟ قال عبد المطلب : أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعه . قال : ما كان ليمنعه مني ، قال : فأنت وذاك فأمر بإبله فردت عليه ، وقيل : عرض عليه عبد المطلب أموال تهامة ليرجع فأبى فلما ردت الإبل على عبد المطلب خرج فأخبر قريشاً الخبر ، وأمرهم أن يتفرّقوا في الشعاب ، ويتحرّزوا في رؤوس الجبال تخوّفاً عليهم من معرّة الجيش ، وأتى عبد المطلب الكعبة فأخذ بحلقة الباب وجعل يقول :

(144/831)

---

*يا رب لا أرجو سواكا ** يا ربّ فامنع منهم حماكا *

*إنّ عدوّ البيت من عاداكا ** أمنعهم أن يخربوا قراكا *

وقال أيضاً :

*لا هم إن المرء يمنع ** رحله فامنع حلالك*

*لا يغلبن صليبهم ** ومحالهم عدوا محالك*

*جروا جموع بلادهم

** والفيل كي يسبوا عيالك*

*عمدوا حماك بكيدهم ** جهلاً وما رقبوا جلالك*

*إن كنت تاركهم وكع ** بتنا فأمر ما بدا لك*

ثم ترك عبد المطلب الحلقة وتوجه في بعض تلك الوجوه مع قومه فأصبح أبرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول وهيأ جيشه وهيأ فيله ، فأقبل نفيل إلى الفيل الأعظم ثم أخذ بأذنه وقال : أبرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام فبرك الفيل فبعثوه فأبى ، فضربوه بالمعول في رأسه فأبى فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام مهرولاً ، فوجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك فضربوه إلى الحرم فبرك وأبى أن يقوم وخرج عبد المطلب يشتدّ حتى صعد الجبل فأرسل الله تعالى عليهم ما قصه في قوله سبحانه :

﴿ ألم يجعل ﴾ أي : جعل بما له من الإحسان إلى العرب لا سيما قريش ﴿ كيدهم ﴾ أي : في هدم الكعبة ﴿ في تضليل ﴾ أي : خسارة وهلاك .

﴿ وأرسل عليهم ﴾ أي : خاصة من بين ما هناك من كفار العرب ﴿ طيراً ﴾ أي : طيوراً سوداء ، وقيل : خضراء وقيل : بيضاء ﴿ أبابيل ﴾ أي : جماعات بكثرة متفرّقة يتبع بعضها بعضاً من نواحي شتى فوجاً فوجاً وزمرة زمرة أما كل فرقة منها طائر يقودها أحمر المنقار أسود الرأس طويل العنق . وقيل : أبابيل كالإبل المؤبلة . قال الفراء : لا واحد لها من

لفظها ، وقيل : واحدها إبالة . وقال الكسائي : كنت أسمع النحويين يقولون : واحدها أبول كعجول وعجاجيل . وقال ابن عباس : كانت طيراً لها خراطيم كخراطيم الطير وأكف كأكف الكلاب . وقال عكرمة لها رؤوس كرؤوس السباع . وقال سعيد بن جبير : خضر لها مناقير صفر وقال قتادة : طير سود .

(145/831)

﴿ ترميهم ﴾ أي : الطير ﴿ بحجارة ﴾ أي : عظيمة في الكثرة والفعل ، صغيرة في المقدار والحجم مع كل طائر حجر في منقاره ، وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة . وعن ابن عباس أنه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بالحمرة كالجزع الظفاري ، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره ، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه ففرّوا فهلكوا في كل طريق ومنهل وأمّا أبرهة فتساقطت أنامله كلها كلما سقطت أنملة اتبعها مدّة وقيح ودم ، فانتهى إلى صنعاء وهو مثل فرخ الطير ، وما مات حتى انصدع صدره من قلبه ، وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة فلما أتمها وقع عليه الحجر فخرّ ميتاً بين يديه لأن تلك الحجارة كانت ﴿ من سجيل ﴾ أي : طين متحجر مصنوع للعذاب في موضع هو في غاية العلو

ولما تسبب عن هذا الرمي هلاكهم ، وكان ذلك بفعل الله تعالى لأنه الذي خلق الأثر قطعاً ، لأنّ مثله لا ينشأ عنه ما نشأ من الهلاك قال الله تعالى :

﴿ فجعلهم ﴾ أي : ربك المحسن إليك بإحسانه على قومك لأجلك بذلك ﴿ كعصف مأكول ﴾ أي : كورق زرع أكلته فراثته فيبس وتفرّقت أجزاءه شبه قطع أوصالهم بتفرّق أجزاء الروث . قال مجاهد : العصف ورق الحنطة . وقال قتادة : هو التبن . وقال عكرمة كالحبّ إذا أكل وصار أجوف ، لأنّ الحجر كان يأتي في الرأس فيحرق بما له الحرارة وشدّة الوقع كلما مرّ به حتى يخرج من الدبر ، ويصير موضع تجويفه أسود لما له من من النارية .

وقال ابن عباس : هو القشر الخارج الذي يكون على حب الحنطة كهيئة الغلاف له ، وروي أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة وعن عكرمة : من أصابه جدره وهو أوّل جدري ظهر . وعن أبي سعيد الخدري أنه سئل عن الطير فقال : حمام مكة منها ، وقيل : جاءت عشية ثم صبحتهم .

واختلف في تاريخ عام الفيل ، فقيل : كان قبل مولد النبيّ صلى الله عليه وسلم بأربعين سنة وقيل : بثلاث وعشرين سنة .

والأكثرون على أنه كان في العام الذي ولد فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن عائشة قالت : رأيت سائس الفيل وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس ، وقال عبد الملك بن مروان : لعتاب بن أسيد : أنت أكبر أم النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : النبيّ صلى الله عليه وسلم أكبر مني ، وأنا أسنّ منه ، ولد صلى الله عليه وسلم عام الفيل وأنا أدركت سائسه وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس ، بل قيل : لم يكن بمكة أحد إلا رأى قائد الفيل وسائسه أعميين يتكففان الناس لأنّ عائشة مع صغر سنها رأتهما . وقال ابن إسحاق لما ردّ الله تعالى الحبشة عن مكة المشرّفة عظمت العرب قريشاً ، وقالوا : أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوّهم ، فكان ذلك نعمة من الله عليهم .

وقال بعض العلماء : كانت قصة الفيل مما نعدّه من معجزاته صلى الله عليه وسلم وإن كانت قبله ، لأنها كانت توكيداً لأمره وتمهيداً لشأنه . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشريّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة الفيل أعفاه الله أيام حياته من الخسف والمسخ" حديث موضوع . انتهى انتهى . اهـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 428 . 432 ﴾

(147/831)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصحاب الفيل ﴾

الخطابُ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم والهمزةُ لتقريرِ رؤيته عليه الصلاةُ والسلامُ بإنكارِ عَدَمِها وكيفَ معلقةٌ لفعلِ الرؤيةِ منصوبةٌ بما بعدَها والرؤيةُ عِلْميةٌ أيْ ألَمْ تعلَمْ علماً رصيناً متاخماً للمشاهدةِ والعيَانِ باستماعِ الأخبارِ المتواترةِ ومعاينةِ الآثارِ الظَّاهرةِ وتعليقُ الرؤيةِ بكيفيةِ فعلِه عزَّ وجَلَّ لاَ بنفسِه بأَنْ يقالَ ألَمْ ترَ ما فعلَ ربُّكَ الخ لتهويلِ الحادثةِ والإيذانِ بوقوعِها عَلَى كيفيةٍ هائلةٍ وهيئةٍ عجيبةٍ دالةٍ عَلَى عظمِ قُدرةِ الله تعالَى وكمالِ علمِه وحكمتِه وعزةِ بيتِه وشرفِ رسولِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ فإنَّ ذلكَ منَ الإرهاصاتِ لما رُوي أنَّ القصةَ وقعتْ في السنةِ التي ولدَ فيها النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وتفصيلُها أنَّ أبرهةَ بْنَ الصبَّاحِ الأشرمَ ملكَ اليمنِ مِنْ قبلِ أصحمةَ النجاشيِّ بنَى بصنعاءَ كنيسةً وسَمَّاها القُلَّيْسَ وأرادَ أنْ يصرفَ إليها الحاجَّ فخرجَ رجلٌ منْ كِنانةَ فقعدَ فيهَا ليلاً فأغضبَهُ ذلكَ وقيلَ أججتْ رفقةٌ منَ العربِ ناراً فحملتها الريحُ فأحرقتَها فحلفَ ليهدمنَّ الكعبةَ فخرجَ معَ جيشِه ومعه فيلٌ له اسمُه محمودٌ وكانَ قوياً عظيماً وإثنا عشرَ فيلاً غيرُه وقيل : ثمانيةٌ وقيل : ألفٌ وقيلَ : كانَ معه وَحْدَهُ فلما بلغَ المُغمَّسَ خرجَ إليه عبدُ المطلبِ وعرضَ عليه ثلثَ أموالِ تهامةَ ليرجعَ فأبَى وعبَّأَ جيشَهُ وقدَّمَ الفيلَ فكانَ كلمَا وجهوه إلى الحرمِ بركَ ولم يبرحْ وإذا وجهوه إلى اليمنِ أو إلى غيرِه من الجهاتِ هرولَ فأرسلَ الله تعالَى طيراً سُوداً وقيلَ

: خُضراً وقيل : بيضاً مع كُلِّ طائرٍ حجرٌ في منقارِه وحجران في رجليهِ أكبرُ من العدسةِ وأصغرُ من الحِمُصَةِ فكانَ الحجرُ يقعُ عَلى رأسِ الرجلِ فيخرجُ من دُبُرِه وعلى كُلِّ حجرٍ اسمُ من يقعُ عليهِ ففروا فهلكوا في كلِّ طريقٍ ومنهلٍ . ورويَ أنَّ أبرهةَ

(148/831)

تساقطتْ أناملُه وآرابُه وما ماتَ حتى انصدعَ صدرُهُ عن قلبهِ وانفلتَ وزيرُهُ أبو يكسومَ وطائرٌ يحلّقُ فوقَهُ حتى بلغَ النجاشيَّ فقصَّ عليهِ القصةَ فلما أتمَّها وقعَ عليهِ الحجرُ فخرَّ ميتاً بينَ يديه وقيل : إنَّ أبرهةَ أخذَ لعبدِ المطلب مائتي بعيرٍ فخرجَ إليهِ في شأنِها فلما رآه أبرهةُ عظُمَ في عينه وكانَ رجُلاً وسيماً جسيماً وقيل : هذا سيّدُ قُريشٍ وصاحبُ عِيرِ مكةَ الذي يطعمُ الناسَ في السهلِ والوحوشَ في رؤوسِ الجبالِ فنزلَ أبرهةُ عن سريرِه وجلسَ عَلَى بساطِه وقيل : أجلسه معَهُ على سريرِه ثم قالَ لترجمانِه قُلْ لهُ ما حاجتُكَ فلما ذكرَ حاجتَهُ قالَ : سقطتَ مِنْ عَيني حيثُ جئتُ لأهدمَ البيتَ الذي هُوَ دينُكَ ودينُ آبائِك وعصمتُكم وشرفُكم في قديمِ الدهرِ لا تكلمني فيهِ ألهاكَ عنْهُ ذودٌ أخذتُ لكَ فقالَ عبدُ المطلب أنا ربُّ الإبلِ وإنَّ للبيبِ رباً يحميه ثم رجعَ وأتى بابَ الكعبةِ فأخذَ بحلقتِه ومعهَ نفرٌ من قريشٍ يدعونَ اللهَ عزَّ وجلَّ فالتفتَ وهو يدعو فإذْ هو بطيرٍ منْ نحوِ اليمنِ فقالَ واللهِ إنها

لطيرٌ غريبةٌ مَا هي نجديةٌ ولا تهاميةٌ فأرسلَ حلقةَ البابِ ثمَّ انطلقَ معَ أصحابهِ ينتظرونَ ماذا يفعلُ أبرهةُ فأرسلَ اللهُ تعالَى عليهمُ الطيرَ فكانَ ما كانَ وقيلَ: كانَ أَبْرهةُ جدَّ النجاشيِّ الذي كانَ في زمنِ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ. وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عَنْهَا قالتْ: رأيتُ قائدَ الفيلِ وسائسَه أعميينِ مُقعدينِ يستطعمانِ وقُرِىءَ ألم تَرْ بسكونِ الراءِ للجدِّ في إظهارِ أثرِ الجازمِ.

وقولُه تعالَى ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ الخ

(149/831)

بيَانٌ إجْمَاليٌّ لمَا فعلَه اللهُ تعَالى بهمْ والهْمزةُ للتقريرِ كمَا سبقَ ولذلكَ عطفَ علَى الجُمْلةِ الاستفهاميةِ ما بعدَهَا كأنَّه قيلَ: قدْ جعلَ كيدَهُم في تعطيلِ الكعبةِ وتخريبِها في تضييعٍ وإبطالٍ بأنْ دمَّرهُم أشنعَ تدميرٍ ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ أيْ طوائفَ وجماعاتٍ جمعُ أبالةٍ وهيَ الحزمةُ الكبيرةُ شُبهتْ بهَا الجماعةُ من الطيرِ في تضامِّها وقيلَ: أبابيلُ مثلُ عباديدَ وشماطيطَ لا واحدَ لهَا ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ ﴾ صفةٌ لطيرًا. وقُرِىءَ يَرْميهمْ بالتذكيرِ لأنَّ الطيرَ اسمُ جمعٍ وتأنيثُه باعتبارِ المَعْنَى ﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ من طينٍ مُتحجرٍ مُعَرَّبُ سَنْك كِلْ وقيلَ كأنَّه عَلمٌ للديوانِ الذي كُتبَ فيهِ عذابُ الكفارِ كما أنَّ سجيناً علمٌ

للديوانِ الذي يكتبُ فيه أعمالهم كأنَّه قيل بحجارةٍ من جملةِ العذابِ المكتوبِ المدونِ ، وَاشتقاقُه منَ الإسجالِ وهوَ الإرسالُ ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ كورقِ زرعٍ وقعَ فيهِ الأكالُ وهوَ أنْ يأكُلهُ الدودُ أوْ أكلَ حبَّه فبقيَ صِفراً منْهُ أوْ كتبنٍ أكلتْهُ الدوابُّ ورَاثتْهُ أشيرَ إليهِ بأولِ أحوالِه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(150/831)

وقال النخجواني :

[سورة الفيل]

فاتحة سورة الفيل

لا يخفى على من انكشف بحيطة الأوصاف الإلهية وشمول أسمائه الحسنى وأمهات أوصافه السنى على عموم ذرائر الأكوان ان من جملتها القدرة الغالبة الإلهية المودعة في أجزاء العالم كلها متى تعلقت ارادته سبحانه بإظهار القدرة اظهر من كل ذرة ونملة حسب قدرته الغالبة افعالا عجيبة وآثارا بديعة تدهش العقول وتقرع الأسماع كما أخبر سبحانه في هذه السورة لحبيبه صلى اللّه عليه وسلم تثبيتا له وتوطينا تتميما لتربيته وتأييده صلى اللّه عليه وسلم فقال بعد التيمن بِسْمِ اللَّهِ القادر المقتدر على عموم ما دخل في حيطة

حضرة علمه المحيط وإراداته الكاملة الرَّحْمنِ لعموم عباده حيث دبر أمورهم حسب الحكمة المتقنة البالغة الرَّحِيمِ لهم يوصلهم إلى الدرجة الرفيعة اللاهوتية

[الآيات]

أَلَمْ تَرَ ولم تعلم يا أكمل الرسل يقينا علميا حاصلا لك من طريق السمع

(151/831)

إلى حيث قد وصل إلى مرتبة اليقين العيني من كثرة السماع والاستماع من الثقاة العدول وتكرره كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ الذي رباك يا أكمل الرسل لرسالته وأظهر دينك على الأديان كلها ونصرك على عموم أعدائك بقدرته الغالبة بِأَصْحابِ الْفِيلِ وهو جيش ابرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل اصحمة النجاشيّ قصد هدم الكعبة عمرها اللّه فخرج مع جيشه ومعه فيل كثير وفيها فيل عظيم جسيم في غاية الجسامة مسمى بمحمود قد كانوا يأمرون بهدم البنيان العظام فيهدمها في الحال ولذا سموه بهذا الاسم وسبب هذا القصد ان ابرهة بنى كنيسة بصنعاء فسماها القليس فعزم ان يصرف الحاج من مكة إليها فلما انتشر الخبر ذهب رجل من كنانة إلى القليس ذات ليلة فتغوط فيها ولطخ بها محاربها فوصل الخبر إلى ابرهة فغار غيرة شديدة فحلف واللّه لاهد من الكعبة فخرج مع جيشه وفيله حتى

وصل إلى حوالى الحرم وأراد ان يأمر الفيل بهدمها فبرك ولم يبرح فضربوه وشددوا عليه فلم

يفدوهم قد كانوا إذا وجهوه إلى جهة غير جهة البيت هرول واسرع واما إلى نحوها فلا

يمشى قط فصاروا متحيرين في شأنه كما قال سبحانه

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ الذي كادوا به لهدم البيت وصرف الزوار عنه نحو بيتهم الذي قد بنوا

كيف صار فِي تَضْلِيلٍ ضياع وهلاك وخسار وبوار

وكيف لا يكون سعيهم في الضياع والخسار إذ أَرْسَلَ سبحانه بمقتضى قدرته الغالبة عَلَيْهِمْ

طَيْراً أَبابِيلَ

أفواجا كثيرة متفرقة متفوجة من جنس واحد من الطير مع كل واحد منها ثلاثة أحجار

تَرْمِيهِمْ يعنى ترمى الطير جيش ابرهة بِحِجارَةٍ متخذة مِنْ سِجِّيلٍ هو معرب سنك وكل

فَجَعَلَهُمْ من كثرة ما ترميهم بها كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ أى كتبن يأكله الانعام ويدوس فيه فيفرقه

الرياح أى صاروا من شدة غضب اللّه عليهم هباء منثورا

خاتمة سورة الفيل

عليك أيها السالك الخائف عن بطش اللّه المحترز عن مقتضى قهره وجلاله ان تكون في عموم

احوالك واطوارك بين الخوف والرجاء عن جلاله وجماله بحيث لا يجرى عليك نفس من

أنفاسك وأنت فيه خال عن كلا النقيضين بل لك ان تحيط عموم أوقاتك بهما بلا إهمال

وقت منها وبالجملة لا تيأس عن روح اللّه ولا تتكل على كرمه وحلمه فاعلم انه سبحانه

يرقبك في جميع حالاتك ويعلم منك ما لم تعلم أنت من نفسك فكن في نفسك من الموقنين المخلصين ولا تكن من الشاكرين المترددين القانطين فان ناقدك خبير بصير. انتهى انتهى. ا. هـ ﴿ الفواتح الإلهية حـ 2 صـ 531.530 ﴾

(152/831)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾

الظاهر أن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة لتقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام بإنكار عدمها وهي بصرية تجوز بها عن العلم على سبيل الاستعارة التبعية أو المجاز المرسل لأنها سببية ويجوز جعلها علمية من أول الأمر إلا أن ذاك أبلغ وعلمه صلى الله عليه وسلم بذلك لما أنه سمعه متواتراً وكيف في محل نصب على المصدرية بفعل والمعنى أي فعل فعل وقيل على الحالية من الفاعل والكيفية حقيقة للفعل لا بألم تر لمكان الاستفهام والجملة سادة مسد المفعولين لتر وجوز بعضهم نصب كيف بتر لانسلاخ معنى الاستفهام عنه كما في "شرح المفتاح" الشريفي وصرح أبو حيان بامتناعه لأنه يراعي صدارته إبقاء لحكم أصله وتعليق الرؤية بكيفية فعله تعالى شأنه لا بنفسه بأن يقال : ألم تر ما فعل ربك الخ

لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وغريبته وشرف رسوله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك كما قال غير واحد من الإرهاصات لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم قال إبراهيم بن المنذر شيخ البخاري لا يشك في ذلك أحد من العلماء وعليه الإجماع وكل ما خالفه وهم أي من أنها كانت قبل بعشر سنين أو بخمس عشرة سنة أو بثلاث وعشرين سنة أو بثلاثين سنة أو بأربعين سنة أو بسبعين سنة الأقوال المذكورة في كتب السير وعلى الأول المرجح الذي عليه الجمهور قيل ولادته عليه الصلاة والسلام في اليوم الذي بعث الله تعالى فيه الطير على أصحاب الفيل من ذلك العام وهو المذكور في تاريخ ابن حبان وهو ظاهر قول ابن عباس ولد عليه الصلاة والسلام يوم الفيل وذهب السهيلي أنه صلى الله عليه وسلم ولد بعدها بخمسين يوماً وكانت في المحرم والولادة في شهر ربيع الأول وقال الحافظ الدمياطي بخمسة وخمسين يوماً وقيل بأربعين وقيل بشهر والمشهور ما ذهب إليه السهيلي وفي قوله تعالى : ﴿ رَبُّكَ ﴾ نوع رمز

إلى الإرهاص وكون ذلك لشرف البيت ودعوة الخليل عليه السلام لا ينافي الإرهاص وكذا لا ينافيه قوله صلى الله عليه وسلم في الحديبية لما بركت ناقته وقال الناس : خلأت أي حزنت ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل إذ لم يدع أن ما كان للإرهاص لا غير ومثل هذه العلل لا يضر تعددها ويؤيد الإرهاص قصة القرامطة وغيرهم وتفصيل القصة أن أبرهة الأشرم بن الصباح الحبشي كما قال ابن إسحاق وغيره وهو الذي يكنى بأبي يكسوم بالسين المهملة ولا يأباه التسمية بأبرهة بناءً على أن معناه بالحبشة الأبيض الوجه كما لا يخفى وقيل أنه الحميري خرج على ارباط ملك اليمن من قبل أصحمة النجاشي بكسر النون بعد سنتين من سلطانه فتبارزا وقد أرصد الأشرم خلفه غلامه عتورة فحمل عليه أرباط بحربة فضربه يريد يافوخه فوقعت على جبهته فشرمت حاجبه وأنفه وعينه وشفته ولذا سمي الأشرم فحمل عتورة من خلف أبرهة فقتله وملك مكانه فغضب النجاشي فاسترضاه فرضي فأثبته ثم أنه بنى بصنعاء كنيسة لم ير مثلها في زمانها سماها القليس بقاف مضمومة ولام مفتوحة مشددة كما في ديوان الأدب أو مخففة كما قيل وبعدها ياء مثناة سفلية ثم سين مهملة وكان ينقل إليها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب على ما يقال من قصر بلقيس زوج سليمان عليه السلام وكتب إلى النجاشي إنني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها قبلك ولست بمنته حتى أصرف إليها حجر العرب فلما تحدثت العرب بكتابه ذلك غضب رجل من النساءة أحد بني فقيم بن عدي من كنانة فخرج حتى أتاها فقعد

فيها أي أحدث ولطخ قبلتها بجد ثه ثم خرج ولحق بأرضه فأخبر أبرهة فقال من صنع هذا فقيل رجل من أهل هذا البيت الذي تحج إليه العرب بمكة غضب لما سمع قولك اصرف إليها حج العرب ففعل ذلك فاستشاط أبرهة غضباً وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهد مه وقيل أججت رفقة من العرب ناراً حولها فحملتها الريح فأحرقتها فغضب لذلك فأمر الحبشة فتهيأت وتجهزت فخرج في ستين ألفاً على

ما قيل منهم ومعه فيل اسمه محمود وكان قوياً عظيماً واثنا عشر فيلاً غيره وقيل ثمانية وروي ذلك عن الضحاك وقيل ألف فيل وقيل معه محمود فقط وهو قول الأكثرين الأوفق بظاهر الآية فسمعت العرب بذلك فأعظموه وقلقوا به ورأوا جهاده حقاً عليهم فخرج إليه رجل من أشراف اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر بمن أطاعه من قومه وسائر العرب فقاتله فهزم وأخذ أسيراً فأراد قتله فقال أيها الملك لا تقتلني فعسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي فتركه وحبسه عنده حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي بمن معه من قومه وغيرهم فقاتله فهزم وأخذ أسيراً فهم بقتله فقال نحو ما سبق فخلى سبيله وخرج به يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معيب بن مالك الثقفي في رجال

من ثقيف فقال له أيها الملك إنما نحن عبيدك سماعون لك مطيعون ليس لك عندنا خلاف
وليس بيتنا هذا الذي تريد يعنون بيت اللات إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك
من يدلك عليه فتجاوز عنهم فبعثوا معه أبا رغال فخرج ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس
كمعظم موضع بطريق الطائف معروف فلما نزله مات أبو رغال ودفن هناك فرجمت قبره
العرب كما قال ابن إسحاق وقيل القبر الذي هناك لأبي رغال رجل من ثمود وهو أبو ثقيف
كان بالحرم يدفع عنه فلما خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومه بالمغمس فدفن فيه
واختاره صاحب القاموس ذاكراً فيه حديثاً رواه أبو داود في سننه وغيره عن ابن عمر
مرفوعاً وقال فيما تقدم بعد نقله عن الجوهري ليس بجيد وجمع بعض بجواز أن يكون قبران
لرجلين كل منهما أبو رغال ثم أن أبرهة بعث وهو بالمغمس رجلاً من الحبشة يقال له الأسود
بن مقصور حتى انتهى إلى مكة فساق أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وأصاب فيها
مائتي بعير وقيل أربعمائة بعير لعبد المطلب وكان يومئذٍ سيد قريش فهمت قريش وكنانة
وهذيل ومن كان بالحرم بحربه فعرفوا أن لا طاقة لهم به فكفوا وبعث أبرهة حياطة الحميري
إلى

مكة وقال قل لسيد أهل هذا البلد أن الملك يقول : إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بد مائكم فإن هو لم يرد حربي فإنني به فلما دخل حياطة دل على عبد المطلب فقال له ما أمر به فقال عبد المطلب والله ما نريد حربه وما لنا به طاقة هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه وأن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه ثم انطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن ذي نفر وكان صديقه فدخل عليه فقال له هل عندك من غناء فيما نزل بنا فقال وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً وعشياً ما عندي غناءً في شيء مما نزل بك إلا أن أنيساً سائس الفيل سأرسل إليه فأوصيه بك وأعظم عليه حقك وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك فقال حسبي فبعث إليه فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة ويطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال وقد أصاب الملك له مائتي بعير فاستأذن له عليه وأنفعه عنده بما استطعت فقال افعل فكلم أبرهة ووصف عبد المطلب بما وصفه به ذو نفر فأذن له وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم فلما رآه أكرمه عن أن يجلس تحته وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه فنزل عن سريره فجلى على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه والقول بأنه أعظمه لما رأى من نور النبوة الذي كان في وجهه ضعيف لما فيه من الدلالة على كون القصة قبل ولادة عبد الله وهو

خلاف ما علمت من القول المرجح اللهم إلا أن يقال أنه تجلى فيه ذلك النور وإن كان قد انتقل ثم قال لترجمانه قل له ما حاجتك فقال حاجتي أن يرد علي الملك إبلي فقال أبرهة لترجمانه : قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه فلا تكلمني فيه فقال عبد المطلب :

إني رب الإبل وإن للبيت رباً سيمنعه قال ما كان ليمنع مني قال أنت وذاك ، وفي رواية أنه دخل عليه مع عبد المطلب نفاثة بن عدي سيد بني بكر وخويلد بن واثلة سيد هذيل فعرضا عليه ثلث أموال أهل تهامة على أن يرجع ولا يهدم البيت فأبى فرد الإبل على عبد المطلب فانصرف إلى قريش فأخبرهم الخبر فتحرزوا في شعف الجبال تخوفاً من معرة الجيش ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قريش يدعون الله عز وجل ويستنصرونه فقال وهو آخذ بالحلقة :

لا هم أن المرء يم . . .

نع رحله فامنع حلالك

وانصر على آل الصلي . . .

ب وعابديه اليوم آلك

لا يغلبن صليبهم . . .

ومحالهم غدوا محالك

جروا جموع بلادهم . . .

والفيل كي يسبوا عيالك

عمدوا حماك بكيدهم . . .

جهلاً وما رقبوا جلالك

إن كنت تاركهم وكعب . . .

تنا فأمر ما بدا لك

وقال أيضاً :

يا رب لا أرجو لهم سواكا . . .

يا رب فامنع عنهم حماكا

أن عدو البيت من عادا كا . . .

امنعهم أن يخربوا فناكا

ثم أرسل الحلقة وانطلق هو ومن معه إلى شعف الجبال ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها فلما أصبح تهيأ للدخول وعبى جيشه وهيأ الفيل فلما وجهوه إلى مكة أقبل نفيل بن جبيب حتى قام إلى جنبه فأخذ بإذنه فقال ابرك محمود وارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام ثم أرسل إذن فبرك أي سقط وخرج نفيل يشتد حتى أصعد في الجبل فضربوا الفيل وأوجعوه ليقوم فأبى ووجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول إلى الشام ففعل مثل ذلك فوجهوه إلى مكة فبرك فسقوه الخمر ليذهب تمييزه فلم ينجع ذلك وقيل إن عبد المطلب هو الذي عرك أذنه وقال له ما ذكر وكان ذلك عند وادي محسر وأرسل الله تعالى طيراً من البحر قيل سوداً وقيل خضراً وقيل بيضاً مثل الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس لا تصيب أحداً منهم إلا هلك ويروى أنه يلقيها على رأس أحدهم فتخرج من دبره ويتساقط لحمه فخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاؤا يسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق إلى اليمن فقال نفيل حين رأى ما نزل بهم :

أين المفر والاله الطالب . . .

والأشرم المغلوب ليس الغالب

وقال أيضاً :

ألا حييت عنا يا ردينا . . .

نعمنا كم عن الإصباح عينا

ردينة لو رأيت ولا تريه . . .

لدى جنب المحصب ما رأينا

إذا لعذرتني وحمدت أمري . . .

ولا تأسى على ما فات بينا

فكل القوم تسأل عن نفيل . . .

كأن عليه للحبشان دينا

وجعلوا يتساقطون بكل طريق ويهلكون في كل منهل وأصيب أبرهة في جسده وخرجوا به معهم تسقط أنملة أنملة كلما سقطت أنملة تبعها منه مدة ثم دم وقيح حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه وقد أشار إلى ذلك ابن الزبعرى بقوله من أبيات يذكر فيها مكة :

سائل أمير الحبش عنا ما ترى . . .

ولسوف يلبي الجاهلين عليمها

ستون ألفاً لم يؤبوا أرضهم . . .

بل لم يعش بعد الإياب سقيمها

ولهم في ذلك شعر كثير ذكر ابن هشام جملة منه في سيره وفيها أن الطير لم تصب كلهم وذكر بعضهم أنه لم ينج منهم غير واحد دخل على النجاشي فأخبره الخبر والطير على رأسه فلما فرغ ألقى عليه الحجر فخرقت البناء ونزلت على رأسه فألحقته بهم وقيل إن سائس الفيل وقائده تخلفاً في مكة فسلما فعن عائشة أنها قالت : أدركت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس وعن عكرمة أن من أصابه الحجر جدرته وهو أول جدري ظهر أي بأرض العرب فعن يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام وأنه أول ما رؤي بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام أيضاً ويروى أن عبد المطلب لما ذهب إلى شعف الجبال بمن معه بقي ينتظر ما يفعل القوم وما يفعل بهم فلما أصبح بعث أحد أولاده على فرس له سريع ينظر ما لقوا فذهب فإذا القوم مشدخين جميعاً فرجع رافعاً رأسه كاشفاً عن فخذه فلما رأى ذلك أبوه قال ألا إن ابني أفرس العرب وما كشف عن عورته إلا بشيراً أو نذيراً فلما دنا من ناديهم قالوا ما وراءك قال هلكوا جميعاً فخرج عبد المطلب وأصحابه إليهم فأخذوا أموالهم وقال عبد المطلب :

أنت منعت الحبش والافيالا . . .

وقد رعوا بمكة الاحبالا

وقد خشينا منهم القتالا . . .

وكل أمر منهم معضالا

شكراً وحمداً لك ذا الجلالا . . .

(159/831)

هذا ومن أراد استيفاء القصة على أتم مما ذكر فعليه بمطولات كتب السير وقرأ السلمي ألم تر بسكون الراء جداً في إظهار أثر الجازم لأن جزمه بحذف آخره فإسكان ما قبل الآخر للاجتهاد في إظهار أثر الجازم قيل والسر فيه هنا الإسراع إلى ذكر ما يهم من الدلالة على أمر الألوهية والنبوة أو الإشارة إلى الحث في الإسراع بالرؤية إيماءً إلى أن أمرهم على كثرتهم كان كلمح البصر من لم يسارع إلى رؤيته لم يدركه حق إدراكه وتعقب هذا بأن تقليل البنية يدل على قلة المعنى وهو الرؤية لا على قلة زمانه وقيل لعل السر فيه الرمز من أول الأمر إلى كثرة الحذف في أولئك القوم فتدبر وقوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ الخ

بيان إجمالي لما فعل الله تعالى بهم والهمزة للتقرير كما سبق ولذلك عطف على الجملة الاستفهامية ما بعدها كأنه قيل قد جعل كيدهم في تعطيل الكعبة وتخريبها وصرف شرف أهلها لهم في تضييع وإبطال بأن دمرهم أشنع تدمير وأصل التضليل من ضل عنه إذا ضاع فاستعير هنا للإبطال ومنه قيل لامرىء القيس الضليل لأنه ضلل ملك أبيه وضيعه.

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾

أي جماعات جمع إبالة بكسر الهمزة وتشديد الباء الموحدة وحكى الفراء إبالة مخففاً وهي حزمة الحطب الكبيرة شبهت بها الجماعة من الطير في تضامها وتستعمل أيضاً في غيرها ومنه قوله

: كادت تهد من الأصوات راحلتي . . .

إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل

(160/831)

وقيل واحده إبول مثل عجول وقيل إبيل مثل سكين وقيل أبال وقال أبو عبيدة والفراء لا واحد له من لفظه كعباديد الفرق من الناس الذاهبون في كل وجه والشماطيط القطع المتفرقة وجاءت هذه الطير على ما روي عن جمع من جهة البحر ولم تكن نجدية ولا تهامية

ولا حجازية وزعم بعض أن حمام الحرم من نسلها ولا يصح ذلك ومثله ما نقل عن حياة الحيوان من أنها تعشش وتفرخ بين السماء والأرض وقد تقدم الخلاف في لونها وعن عكرمة كأن وجوهها مثل وجوه السباع لم تر قبل ذلك ولا بعده .

(161/831)

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ ﴾ صفة أخرى لطير وعبر بالمضارع لحكاية الحال واستحضار تلك الصورة البديعة وقرأ أبو حنيفة وأبو يعمر وعيسى وطلحة في رواية يرميهم بالياء التحتية والضمير المستتر للطير أيضاً والتذكير لأنه اسم جمع وهو على ما حكى الخفاجي لازم التذكير فتأنيثه لتأويله بالجماعة وقيل يجوز الأمران وهو ظاهر كلام أبي حيان وقيل الضمير عائد على ﴿ ربك ﴾ وليس بذاك ونسبة القراءة المذكورة لأبي حنيفة رضي الله تعالى عنه حكاها في "البحر" وعن صاحب النشر أنه رضي الله تعالى عنه لا قراءة له وأن القرآت المنسوبة له موضوعة ﴿ مّن سِجّيلٍ ﴾ صفة حجارة أي كائنة من طين متحجر معرب سنك كل وقيل هو عربي من السجل بالكسر وهو الدلو الكبيرة ومعنى كون الحجارة من الدلو أنها متتابعة كثيرة كالماء الذي يصب من الدلو ففيه استعارة مكنية وتخييلية وقيل من الاسجال بمعنى الإرسال والمعنى من مثل شيء مرسل ومن في جميع ذلك ابتدائية وقيل

من السجل وهو الكتاب أخذ منه السجين وجعل علماً للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار والمعنى من جملة العذاب المكتوب المدون فمن تبعيضية واختلف في حجم تلك الطير وكذا في حجم تلك الحجارة فمن أنها مثل الخطاطيف وأن الحجارة أمثال الحمص والعدس وأخرج أبو نعيم عن نوفل بن أبي معاوية الديلمي أنه قال رأيت الحصى التي رمى بها أصحاب الفيل حصى مثل الحمص وأكبر من العدس حمر بجتمة كأنها جزع ظفار وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس أنه قال حجارة مثل البندق وفي رواية ابن مردويه عنه مثل بعر الغنم وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير أنه قال في الآية هي طير خرجت من قبلة البحر كأنها رجال السند معها حجارة أمثال الإبل الوارك وأصغرها مثل رؤوس الرجال لا تريد أحداً منهم إلا أصابته ولا أصابته إلا قتلته والمعول عليه أن الطير في الحجم كالخطاطيف وأن الحجارة منها ما هو كالحمصة ودوينها وفويقها وروى ابن مردويه

وأبو نعيم عن أبي صالح أنه مكتوب على الحجر اسم من رمى به واسم أبيه وأنه رأى ذلك عند أم هانىء .

﴿ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ﴾

كورق زرع وقع فيه الأكال وهو أن يأكله الدود أو أكل حبه فبقي صفراً منه والكلام على هذا على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه أو على الإسناد المجازي والتشبيه بذلك لذهاب أرواحهم وبقاء أجسادهم أو لأن الحجر بحرارته يحرق أجوافهم وذهب غير واحد إلى أن المعنى كتبن أكلته الدواب وراثته والمراد كروث إلا أنه لم يذكر بهذا اللفظ لهجنته فجاء على الآداب القرآنية فشبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث ففيه إظهار تشويه حالهم وقيل المعنى كتبن تأكله الدواب وتروثه والمراد جعلهم في حكم التبن الذي لا يمنع عنه الدواب أي مبتذلين ضائعين لا يلتفت إليهم أحد ولا يجمعهم ولا يدفنهم كتبن في الصحراء تفعل به الدواب ما شاءت لعدم حافظ له إلا أنه وضع مأكول موضع أكلته الدواب لحكاية الماضي في صورة الحال وهو كما ترى وكأنه لما أن مجيئهم لهدم الكعبة ناسب إهلاكهم بالحجارة ولما أن الذي أثار غضبهم عذرة الكناني شبههم فيما فعل سبحانه بهم على القول الأخير بالروث أو لما أن الذي أثاره احتراقها بما حملته الريح من نار العرب على ما سمعت شبههم عز وجل فيما فعل جل شأنه بهم بعصف أكل حبه على ما أشرنا إليه أخيراً وقرأ أبو الدرداء فيما نقل ابن خالويه مأكول بفتح الهمزة اتباعاً لحركة الميم وهو شاذ وهذا كما أتبعوا في قولهم محموم الحاء لحركة الميم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

وقال الشوكانى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) ﴾

الاستفهام في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ لتقرير رؤيته صلى الله عليه وسلم بإنكار عدمها .

قال الفراء : المعنى ألم تخبر .

وقال الزجاج : ألم تعلم .

وهو تعجيب له صلى الله عليه وسلم بما فعله الله ﴿ بأصحاب الفيل ﴾ الذين قصدوا تخريب الكعبة من الحبشة ، وكيف منصوبة بالفعل الذي بعدها ، ومعلقة لفعل الرؤية ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجوز أن يكون لكلّ من يصلح له .

والمعنى : قد علمت يا محمد ، أو علم الناس الموجودون في عصرك ، ومن بعدهم بما بلغكم من الأخبار المتواترة من قصة أصحاب الفيل ، وما فعل الله بهم ، فما لكم لا تؤمنون ؟

والفيل هو الحيوان المعروف ، وجمعه أفيال ، وفيول ، وفيلة .

قال ابن السكيت : ولا تقول أفيلة ، وصاحبه فيال ، وسيأتي ذكر قصة أصحاب الفيل إن شاء الله .

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ أي : ألم يجعل مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة ، واستباحة أهلها في تضليل عما قصدوا إليه حتى لم يصلوا إلى البيت ولا إلى ما أرادوه بكيدهم ، والهمزة للتقرير كأنه قيل : قد جعل كيدهم في تضليل ، والكيد : هو إرادة المضرّة بالغير ؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشاً بالقتل والسبي ، ويكيدوا البيت الحرام بالتخريب والهدم .

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴾ أي : أقاطيع يتبع بعضها بعضاً كالإبل المؤبلة .

قال أبو عبيدة : ﴿ أبابيل ﴾ جماعات في تفرقة ، يقال جاءت الخيل أبابيل ، أي : جماعات من هاهنا وهاهنا .

قال النحاس : وحقيقته أنها جماعات عظام ، يقال فلان ، توبل على فلان أي : تعظم عليه ، وتكبر ، وهو مشتق من الإبل ، وهو من الجمع الذي لا واحد له .

وقال بعضهم : واحده أبول مثل عجول .

وقال بعضهم : أبيل ، قال الواحدي : ولم نر أحداً يجعل لها واحداً .

قال الفراء : لا واحد له من لفظه .

وزعم الرؤاسي وكان ثقة أنه سمع في واحدها : أبالة مشدّداً .

وحكى الفرّاء أيضاً : أبالة بالتخفيف .

قال سعيد بن جبير : كانت طيراً من السماء لم ير قبلها ولا بعدها .

قال قتادة : هي : طير سود جاءت من قبل البحر فوجاً فوجاً مع كل طائر ثلاثة أحجار :

حجران في رجليه ، وحجر في منقاره لا يصيب شيئًا إلاّ هشمه .

وقيل : كانت طيراً خضراً خرجت من البحر لها رؤوس كرؤوس السباع .

وقيل : كان لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكفّ كأكف الكلاب .

وقيل : في صفتها غير ذلك ، والعرب تستعمل الأبابيل في الطير ، كما في قول الشاعر :

تراهم إلى الداعي سرعاً كأنهم . . . أبابيل طير تحت دجن مسجن

وتستعملها في غير الطير كقول الآخر :

كادت تهدّ من الأصوات راحلتي . . . أن سالت الأرض بالجرد الأبابيل

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ الجملة في محلّ نصب صفة لطير .

قرأ الجمهور : ﴿ ترميهم ﴾ بالفوقية .

وقرأ أبو حنيفة ، وأبو معمر ، وعيسى ، وطلحة بالتحتية ، واسم الجمع يذكر ويؤنث .

وقيل : الضمير في القراءة الثانية لله عزّ وجلّ .

قال الزجاج : ﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي : مما كتب عليهم العذاب به ، مشتقاً من السجل .

قال في الصحاح قالوا : هي حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم .

قال عبد الرحمن بن أبزى : ﴿ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ من السماء ، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط .

وقيل : من الجحيم التي هي سجين ، ثم أبدلت النون لاماً ، ومنه قول ابن مقبل :

ضرباً تواصت به الأبطال سجيلا . . . وإنما هو سجيناً .

قال عكرمة : كانت ترميهم بحجارة معها ، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجحدري ، وكان الحجر كالحمصة ، وفوق العدسة ، وقد قدّمنا الكلام في سجيل في سورة هود .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ أي : جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدّواب فرمت به من أسفل ، شبه تقطع أوصالهم بتفرّق أجزائه .

وقيل المعنى : أنهم صاروا كورق زرع قد أكلت منه الدّواب وبقي منه بقايا ، أو أكلت حبه ، فبقي بدون حبه .

والعصف جمع عصفة ، وعصافة ، وعصيفة ، وقد قدّمنا الكلام في العصف في سورة

الرحمن ، فارجع إليه .

وقد أخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي عن ابن عباس قال : جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح ، فأتاهم عبد المطلب فقال : إن هذا بيت الله لم يسلط عليه أحداً ، قالوا : لا نرجع حتى نهدمه ، وكانوا لا يقدّمون فيلهم إلاّ تأخر ، فدعا الله الطير الأبابيل ، فأعطاها حجارة سوداً عليها الطين ، فلما حاذتهم رمتهم ، فما بقي منهم أحد إلاّ أخذته الحكة ، فكان لا يحكّ الإنسان منهم جلده إلاّ تساقط لحمه .

وأخرج ابن المنذر ، والحاكم ، وأبو نعيم ، والبيهقي عنه قال : أقبل أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب ، فقال لملكهم : ما جاء بك إلينا ؟ ألا بعثت ، فنأتيك بكل شيء ؟ فقال : أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلاّ أمن ، فجئت أخيف أهله ، فقال : إنا نأتيك بكل شيء تريد ، فارجع ، فأبى إلاّ أن يدخله ، وانطلق يسير نحوه ، وتخلف عبد المطلب ، فقام على جبل فقال : لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله ، فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طير أبابيل التي قال الله : ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ فجعل الفيل يعجّ عجاً ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ .

وقصة أصحاب الفيل مبسوطة مطوّلة في كتب التاريخ والسير ، فلا نطوّل بذكرها .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس في قوله : ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ قال : حجارة مثل البندق ، وبها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة أحجار : حجران في رجليه

، وحجر في منقاره حلقت عليهم من السماء ، ثم أرسلت عليهم تلك الحجارة ، فلم تعد عسكرهم .

(166/831)

وأخرج أبو نعيم من طريق عطاء ، والضحاك عنه أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة ، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل بريد مجتمعة ، لها خراطيم تحمل حصاة في منقارها ، وحصاتين في رجليها ، ترسل واحدة على رأس الرجل ، فيسيل لحمه ودمه ويبقى عظاماً خاوية لا لحم عليها ولا جلد ولا دم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في الدلائل عنه أيضاً ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ يقول : كالتبن .

وأخرج ابن إسحاق في السيرة ، والواقديّ ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل ، وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان .

وأخرج الواقديّ نحوه عن أسماء بنت أبي بكر .

وأخرج أبو نعيم ، والبيهقي عن ابن عباس قال : ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم عام الفيل .

وأخرج ابن إسحاق ، وأبو نعيم ، والبيهقي عن قيس بن مخرمة قال : ولدت أنا ورسول الله

صلى الله عليه وسلم عام الفيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 495 .

497 ﴾

(167/831)

وقال القاسمى :

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾

يعني الذين قدموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحبشة ، ورئيسهم أبرهة الحبشي الأشرم . كما سيأتي .

قال أبو السعود : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والهمزة لتقرير رؤيته صلى الله عليه وسلم بإنكار عدمها . والرؤية علمية ، أي : ألم تعلم علماً رصيناً متاخماً للمشاهدة والعيان ، باستماع الأخبار المتواترة ، ومعاينة الآثار الظاهرة . وتعليق الرؤية بكيفية فعله عز وجل لا بنفسه ، بأن يقال : ألم تر ما فعل ربك إلخ ؛ لتهويل الحادثة والإيذان بوقوعها على كيفية هائلة وهيئة عجيبة دالة على عظم قدرة الله تعالى وكمال علمه وحكمته وعزة بيته

وشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإن ذلك من الإرهاصات ؛ لما روي أن القصة وقعت في السنة التي ولد فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، كما سنأثره .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ بيان إجمالي لما فعل بهم ، أي : ألم يجعل مكرهم وسعيهم لتخريب الكعبة في تضييع وإبطال لما حاولوا ، وتدميرهم أشد تدمير .

(168/831)

قال الرازي : اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية . إن قيل : لِمَ سماه كيداً وأمره كان ظاهراً ، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت ؟ قلنا : نعم ، لكن الذي كان في قلبه شر مما أظهر ؛ لأنه كان يضمر الحسد للعرب ، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة ، منهم ومن بلدهم ، إلى نفسه وإلى بلدته ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴾ أي : طوائف متفرقة ، يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى ، وأبابيل جمع لا واحد له ، على ما حكاه أبو عبيدة والفراء . وزعم أبو جعفر الرؤاسي – وكان ثقة – أنه سمع واحدها إبالة ، بكسر الهمزة وتشديد الموحدة . وهي حزمة الحطب ، استعير لجماعة الطير . وحكى الكسائي عن بعض النحويين في مفردها أبول ، وعن آخرين : أبيل ، سماعاً كما أثره ابن

جرير . والتنكير في ﴿ طَيْراً ﴾ إما للتحقير ، فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر ، أو للتفخيم ، كأنه يقول : وأي طير ترمي بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل ، أفاده الرازي .

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ أي : من طين متحجر . وروى ابن وهب عن ابن زيد أن المعني بالسجيل السماء الدنيا لأن اسمها سجيل .

قال ابن جرير : وهذا القول الذي قاله ابن زيد لا نعرف لصحته وجهاً في خبر ولا عقل ولا لغة . وأسماء الأشياء لا تدرك إلا من لغة سائرة أو خبر من الله تعالى ذكره .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ قال ابن جرير : كزرع أكلته الدواب فراثته ، فيبس وتفرقت أجزاؤه ، شبه تقطع أوصالهم بالعقوبة التي نزلت بهم ، وتفرق آراب أبدانهم بها ، بتفرق أجزاء الروث ، الذي حدث عن أكل الزرع .

قال الشهاب : ولم يذكر الروث لهُجنته ، فجاء على الآداب القرآنية . وفيه إظهار تشويه حالهم .

وقال أبو مسلم : العصف التين ، لقوله :

﴿ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴾ [الرحمن : 12] ، لأنه تعصف به الريح عند الذرّ ، فتفرقه عن الحب وهو إذا كان مأكولاً فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه . انتهى .

ومن الوجوه في الآية أن يكون المعنى : كزرع قد أكل حبهُ وبقي تبنه ، والتقدير كعصف مأكول الحب ، كما يقال فلان حسن الوجه ، فأجرى ﴿ مَّأْكُولٍ ﴾ على العصف من أجل أنه أكل حبه ؛ لأن هذا المعنى معلوم . ومنها أيضاً أن معنى ﴿ مَّأْكُولٍ ﴾ مما يؤكل ، يعني تأكله الدواب ، يقال لكل ما يصلح للأكل وهو مأكول ، والمعنى جعلهم كتبن تأكله الدواب في التفرق والتفتت والهلاك ، أشار له الرازي .

تنبيهات :

(170/831)

الأول : كان السبب الذي من أجله حلَّت عقوبة الله تعالى لأصحاب الفيل, مسير أبرهة الحبشي بجنده مع الفيل على بيت الله الحرام لتخريبه . وواقعة الفيل في ذاتها معروفة متواترة الرواية ، حتى إنهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث ؛ فيقولون : ولد عام الفيل ، وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ، ونحو ذلك . وتفصيل نبئها ما أثره ابن هشام : أن أبرهة الحبشي كان أمير صنعاء للنجاشي ، وكان ذا دين في النصرانية ، فبنى

بصنعاء كنيسة لم ير مثلها في زمانها ، ثم كتب للنجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك ، ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حج العرب . فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من كنانة فخرج حتى أتى الكنيسة فقعد فيها – أي : أحدث فيها – ثم خرج فلحق بأرضه . فأُخبر بذلك أبرهة ، فقال : من صنع هذا ؟ فقيل : صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي تحج العرب غليه بمكة ، لما سمع قولك : أصرف إليها حج العرب ؛ غضب فجاء فقعد فيها ، أي : أنها ليست لذلك بأهل . فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرنّ إلى البيت حتى يهدمه . ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل . وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام . فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له : ذو نفر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخرابه . فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله فهزم ذو نفر وأصحابه وأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر : أيها الملك ! لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي ، فتركه من القتل وحبسه عنده في وثاق – وكان أبرهة رجلاً حليماً – ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض نفيل ابن حبيب

الخثعميّ في قبيلي خثعم : شهران وناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة وأخذ له نفيل أسيراً ، فأتى به ، فلما همَّ بقتله ، قال له نفيل : أيها الملك ! لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداي لك على قبيلة خثعم : شهران وناهس ، بالسماع والطاعة . فخلى سبيله وخرج به معه يدله ، حتى إذا مرَّ بالطائف خرج له مسعد بن معتب الثقفي في رجاله ثقيف ، فقالوا له : أيها الملك ! إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة ونحن نبعث معك من يدلك عليه . فتجاوز عنهم - واللات بيت لهم بالطائف كانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة - فبعثوا معه أبا رغال يدلُّه على الطريق إلى مكة . فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمَّس ، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك : فرَجمت قبره العرب - فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس - فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له : الأسود بن مفصود على خيل له حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم ، وأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب ابن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمَّت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك

الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك . وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة وقال له : سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إني لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لي في دمائكم .

(172/831)

فإن هو لم يرد حربي فأتني به ، فلما دخل حناطة مكة سأل من سيد قريش وشريفها ؟ فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة . فقال له عبد المطلب : والله ! ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ؛ هذا بيت الله الحرام وبيت خليله عليه السلام – أو كما قال – فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخل بينه وبينه ، فوالله ! ما عندنا دفع عنه . فقال له حناطة : فانطلق معي إليه ، فإنه قد أمرني أن آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى المعسكر ، فسأل عن ذي نفر وكان له صديقاً حتى دخل عليه وهو في محبسه . فقال له : يا ذا نفر ! هل عندك من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غناء رجل أسير بيدي ملك ينتظر أن يقتله غدواً وعشياً ، ما عندي غناء في شيء مما نزل بك ، إلا أن أنيساً سائس الفيل صديق لي فسأرسل إليه وأوصيه بك

وأعظم عليه حقك ، وأسأله أن يستأذن لك على الملك فيكلمه بما بدا لك ويشفع لك عنده بخير ، إن قدر على ذلك . فقال : حسبي . فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة : يطعم الناس بالسهل ، والوحوش في رؤوس الجبال . وقد أصاب له الملك مائتي بعير ، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت . فقال : أفعل . فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك ! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة ، وهو يطعم الناس في السهل ، والوحوش في رؤوس الجبال ، فأذن له عليك فليكلمك في حاجته . قال : فأذن له أبرهة . قال : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه وأكرمه عن أن يجلس تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ؟ فقال له ذلك الترجمان . فقال : حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي ، فلما قال له ذلك قال أبرهة

لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ . قال عبد المطلب : إني أنا ربُّ الإبل وإن للبيت رباً سيمنعهُ . قال : وما كان ليمتنع مني ؟ قال : أنت وذاك . وكان ، فيما يزعم أهل العلم ، قد ذهب مع عبد المطلب إلى أبرهة حين بعث إليه حناطة – يعمر بن نفاثة سيد بني بكر وخويلد بن واثلة سيد هزيل – فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عنهم لا يهدم البيت ، فأبى عليهم . والله أعلم أكان ذلك أم لا .

فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له . فلما انصرفوا عنه ، انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعُف الجبال والشعاب ؛ تخوفاً عليهم من معرة الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

~لا هُمّ أن العبد يمـنع رَحْلَهُ فامنع حلالكْ

~لا يغلبنّ صَليبُهُم ومحالهُم عَدْواً مِحالك

~إن كنت تاركهم وقبـلتَنَا فأَمْرٌ ما بد لك

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال ، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيّأ فيله وعبّى جيشه ، وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمين ، فلمّا وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل فأخذ بأذنه ، فقال له : ابرُك ، أو : ارجع راشداً من حيث جئت فإنك في بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل : وخرج نفيل يشتد حتى أصعد في الجبل . وضربوا الفيل ليقوم ، فضربوا رأسه ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن لهم في مراقّه فبزغوه بها – أي : أدموه – ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمين فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجههوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله تعالى طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، لا تصيب أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاؤوا يسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق إلى اليمن ، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته :

~أين المفر والإله الطالبُ والأشرم المغلوبُ ليس الغالبْ

فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل . وأصيب أبرهة في

جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنمُلةً أنملة ، كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مدة تَمُثُّ – أي : تسيل – قيحاً ودماً حتى ، قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه ، فيما يزعمون .

قال ابن إسحاق : حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ، ذلك العام .

(175/831)

قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم كان مما يَعُدّ الله على قريش من نعمته عليهم وفضله ، ما رد عنهم من أمر الحبشة لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ السورة .

ثم قال ابن إسحاق : فلما ردّ الله الحبشة عن مكة ، وأصابهم بما أصابهم به من النقمة ، أعظمت العرب قريشاً وقالوا : أهل الله ؛ قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوّهم . فقالوا في ذلك أشعاراً يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة ، وما ردّ عن قريش من كيدهم . ثم ساق القصائد في ذلك .

وإنما آثرت في سياقها ما رواه ابن هشام عن ابن إسحاق ؛ لأنه أحسن اقتصاصاً وأبلغ

سبكاً ، لإثارته عن صميم العربية روايات نبغاء رجالها ، فرحمه الله ورضي عنه .

التنبيه الثاني : إنما أضيف أمر القصة إلى الفيل واشتهرت به ؛ لاصطحابهم الفيل معهم للبطش والتخريب ، فإنه لو تم لقائديه كيدهم ، لكان الفيل يدهم العاملة وسهمهم النافذ ؛ وذلك أن جبابرة البلاد التي يوجد فيها الفيل يتخذونه آلة بطش وانتقام ، فإذا غضبوا على محارب أسروه ، أو وزير أوثقوه ، أو بلد ونازلوا حصنه أرسلوا على دار المغضوب عليه أو حصنه الفيل ، فنطح برأسه ونابه الصرح فيدكه ، وقواعد البنيان فيهدمها ؛ فيكون أمضى من معاول وفؤوس ، وأعظم رعباً ورهبة في النفوس ، وربما ألقوا المسخوط عليه بين يديه ، فأعمل فيه نابه ، ولف عليه خرطومه وشاله ، ومثّل به تمثيلاً كان أشد بطشاً وتنكيلاً .

وقد حدثني بغرائب هذه الفظائع الجاهلية بعض آل ملوك الأفغان لما أقام مدة بالشام .

(176/831)

الثالث : قال القاشانيّ : قصة أصحاب الفيل مشهورة ، وواقعتهم قريبة من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وهي إحدى آيات الله ، وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حرمه ، وإلهام الطيور والوحوش أقرب من إلهام الْإِنْسَان لكون نفوسهم ساذجة . وتأثير الأحجار بخاصية أودعها الله تعالى فيها ليس بمستنكر . ومن اطلع على عالم القدرة ،

وكشف له حجاب الحكمة ، عرف لمية أمثال هذه .

قال : وقد وقع في زماننا مثلها من استيلاء الفأر على مدينة أبيورد وإفساد زروعهم ورجوعها في البرية إلى شط جيحون ، وأخذ كل واحدة منها خشبة من الأيكة التي على شط نهرها وركوبها عليها وعبورها بها من النهر .

الرابع : قال الإمام الماوردي في "أعلام النبوة" : آيات الملك باهرة ، وشواهد النبوات قاهرة ، تشهد مباديها بالعواقب فلا يلتبس بها كذب بصدق ، ولا منتحل بمحق ، وبحسب قوتها وانتشارها يكون بشائرها وإنذارها . ولما دنا مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تقاطرت آيات نبوته وظهرت آيات بركته ، فكان من أعظمها شأناً ، وأظهرها برهاناً ، وأشهرها عياناً وبياناً أصحاب الفيل ، أنفذهم النجاشي من أرض الحبشة في جمهور جيشه على مكة لقتل رجالها وسبي ذراريها وهدم الكعبة . وآية الرسول في قصة الفيل أنه كان في زمانها حملاً في بطن أمه بمكة ؛ لأنه ولد بعد خمسين يوماً من الفيل ، فكانت آيته في ذلك من وجهين :

أحدهما : أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا ؛ فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله أن يجري عليه السبي حملاً ووليداً . والثاني : أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقون به دفع أصحاب الفيل عنهم ، وما هم أهل كتاب لأنهم كانوا بين عابد صنم أو متدين وثن أو قائل بالزندقة أو

مانع من الرجعة ، ولكن لما أراده الله تعالى من ظهور الإسلام تأسيساً للنبوة وتعظيماً للكعبة ، وأن يجعلها قبلة للصلاة ومنسكاً للحج .

(177/831)

فإن قيل : فكيف منع عن الكعبة قبله مصيرها قبلة ومنسكاً ، ولم يمنع الحَجّاج من هدمها وقد صارت قبلة ومنسكاً حتى أحرقها ونصب المنجنيق عليها ؟

قيل : فعل الحَجاج كان بعد استقرار الدِّين ، فاستغنى عن آيات تأسيسه ، وأصحاب الفيل كانوا قبل ظهور النبوة فجعل المنع منها آية لتأسيس البنوة ومجيء الرسالة ، على أن الرسول < قد أنذر بهدمها > فصار الهدم آيةً بعد أن كان المنع آية ، فلذلك اختلف حكمها في الحالين ، والله تعالى اعلم .

ولما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى بجيش الفيل ، تهيبوا الحرم وأعظموه وزادت حرمته في النفوس ودانت لقريش بالطاعة وقالوا : أهل الله ، قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم ، فزادوهم تشريفاً وتعظيماً ، فصاروا أئمة ديانين ، وقادة متبوعين ، وصار أصحاب الفيل مثلاً في الغابرين . وكان شأن الفيل رادعاً لكل باغ ودافعاً لكل طاغ . وقد عاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمن نبوته وبعد هجرته ، جماعة شاهدوا الفيل وطير الأبابيل

، منهم حكيم بن حزام ، وحاطب بن عبد العزى ، ونوفل بن معاوية ؛ لأن كل واحد من هؤلاء عاش مائة وعشرين سنة : منها ستين سنة في الجاهلية ، وستين سنة في الإسلام ، انتهى .

الخامس : ورد في كثير من الأحاديث الصحيحة الإشارة إلى نبأ الفيل : روى البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أظل يوم الحديبية على الثنية التي نهبط به على قريش ، بركت ناقته فزجروها فألحت فقالوا : خلأت القصواء – أي : حرنت – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل > ، قال ابن الأثير في " النهاية " : هو فيل أبرهة الحبشي الذي جاء يقصد خراب الكعبة ، فحبس الله الفيل فلم يدخل الحرم ، وردّ رأسه راجعاً من حيث جاء . يعني أن الله حبس ناقة النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل إلى الحديبية ، فلم تتقدم ولم تدخل الحرم ؛ لأنه أراد أن يدخل مكة بالمسلمين . وفي الصحيحين أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة : < إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد

عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب > . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 479.486 ﴾

(179/831)

وقال الشيخ : دروزة :

سورة الفيل

في السورة تذكير بما كان من نكال اللّه في أصحاب الفيل في معرض الإنذار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفيل (105) : الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4)

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5) .

(1) أبابيل : جماعات وفرق يتبع بعضها بعضا . أو الجماعات الكثيرة وقيل إن واحدها أبيل ، وقيل إنها جمع إبّالة وهي الحزمة ، وهذا في نفس المعنى الأول .

(2) سجيل: الطين المتحجر وقيل إنها تعريب سنك كيل الفارسية التي تعني ذلك. وقد تكرر ورودها في القرآن مما يدل على أن دخولها في اللسان العربي قديم.

(3) العصف: ورق الزرع.

معنى آيات السورة واضح، وهي تذكر السامعين في معرض الإنذار بما كان من نكال اللّه في أصحاب الفيل فجعل كيدهم حابطا خاسرا حيث أرسل عليهم جماعات من الطير فرمتهم بحجارة طينية وجعلتهم كورق الزرع الممضوغ.

وجمهور المفسرين «1» على أن المقصد من أصحاب الفيل هم الأحباش الذين غزوا مكة فإذا كان هذا صحيحا فإنه يؤيد الروايات التي ترويها الكتب العربية القديمة عن الغزوة التي تعرف في تاريخ العرب قبل الإسلام بغزوة الفيل والتي قام بها الأحباش بقيادة أبرهة.

وسميت كذلك لأنه كان في الحملة الحبشية بعض الأفيال.

وملخص ما جاء في الروايات «2» أن الأحباش غزوا اليمن قبل البعثة النبوية بذريعة نصر النصارى الذين اضطهدهم الملك الحميري ذو نواس الذي كان يعتنق اليهودية وانتصروا على الدولة الحميرية ووطدوا سلطانهم في اليمن. وقد اضطهدوا بدورهم اليهود اليهودية

وأخذوا يدعون العرب إلى النصرانية وينشئون الكنائس في اليمن وقد أنشئوا كنيسة كبرى سمتها الكتب العربية باسم القليس . غير أن العرب لم يستجيبوا إلى الدعوة وظلوا متعلقين بتقاليدهم وبالحج إلى الكعبة في الحجاز حتى أن بعضهم نجّس القليس فغضب الأحباش وأرادوا أن يخضعوا الحجاز لحكمهم ويهدموا الكعبة التي يتعلق بها العرب فجاءوا بحملة كبيرة فلما وصلت قرب مكة شرد أهل مكة إلى الجبال لأنهم رأوا أن لا طاقة لهم بها .

ولكن اللّه حبس الفيل الكبير الذي كان في طليعة الحملة عن مكة فتوقفت الحملة ، فسلط اللّه عليها جماعات كثيرة من الطيور تحمل بمناقيرها حجارة صغيرة من طين متحجر وأخذت ترمي بالحجارة على الأحباش فلا يكاد الحجر يصيب جسم الحبشي حتى يتهرأ . وقد تمزق شمل الحملة نتيجة لذلك ونجا الحجاز والكعبة . وقد كان لهذا الحادث ونتيجته ردّ فعل عظيم في بلاد العرب حتى صاروا يؤرخون أحداثهم بعام الفيل . وقد روي فيما روي أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ولد في هذا العام كما روي أن الحادث كان قبل ولادته بمدة تراوحت بين ثلاث عشرة سنة وأربعين سنة على اختلاف

---

(1) انظر تفسير السورة في تفسير الطبري والنيسابوري وابن كثير والبغوي والزمخشري والخازن والطبرسي إلخ .

(2) انظر تاريخ الطبري مطبعة الاستقامة ج 1 ص 529 - 560 . وغزو الحبشة لليمن

وسيطرتهم عليها مما أيدته المنقوشات والآثار القديمة أيضا انظر الجزء الخامس من كتابنا الجنس العربي ص 76 وما بعدها .

(181/831)

الروايات ، ومما ذكرته الروايات أن عربيا اسمه أبو رغال صار دليلا للحملة فمات في مكان اسمه المغمس فصار العرب يرجمون قبره استنكارا لخيانته لقومه وظلوا على ذلك دهرا .

وأسلوب الآيات ومضمونها يدلان أولا على أن الحادث كان لا يزال صداه يتردد على الألسنة في بيئة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حينما نزلت السورة . وثانيا على أن العرب كانوا يعتقدون أن البلاء الذي وقع على الأحباش وهرّأ أجسامهم ومزق شملهم هو بلاء رباني . وثالثا على أن القصد من التذكير بالحادث الذي كان قريب العهد ، وكان ماثلا للأذهان هو الموعظة ودعوة السامعين أو زعماء قريش إلى الارعواء عن مواقف الأذى والجحود التي يقفونها . فاللّه الذي كان من قدرته أن يصب بلاءه على الأحباش ويمزقهم شرّ ممزق مع ما هم عليه من شدة البأس قادر على أن يصب بلاءه عليهم ويمزقهم . وهم يعرفون ذلك فعليهم أن يرعووا ويحذروا ويتركوا الأذى والعناد .

وهكذا يتسق الأسلوب والهدف القرآني في هذه القصة اتساقهما في القصص القرآنية عامة

، على ما شرحنا قبل، أما ماهية الطير والحجارة فقد ذكر المفسرون القدماء «1» في صددها أقوالا تجعل الحادث في نطاق المعجزات والخوارق. ورووا فيما رووه أن مرضي الحصبة والجدري ظهرا لأول مرة في الحجاز «2» عقب الحادث كأنما يريدون أن يقولوا إن الطير رمتهم بحجارة أصيبوا منها بأحد المرضين. وقد أوّل الإمام الشيخ محمد عبده «3» ذلك بأن الحجارة كانت ملقحة بجرثومة الجدري. ولسنا نرى كبير طائل في تحقيق ماهية الحادث لذاته لأنه خارج عن نطاق الهدف القرآني. ولكنا نقول إن حرفية آيات السورة وظاهرها على كل حال في جانب كون الحادث بلاء ربانيا خارقا كما أن أسلوبها يساعد على القول إنها في صدد التذكير بحادث عظيم، وإن سامعي القرآن الذين كانوا حديثي عهد

---

(1) انظر كتب التفسير المذكورة سابقا.

(2) انظر تفسيرها في تفسير الطبري والزمخشري.

(3) انظر تفسير السورة في تفسير جزء عم للإمام الشيخ محمد عبده.

بالحادث كانوا يعتقدون أن الذي وقع على الأحباش هو بلاء رباني خارق في صورة زحوف من الطير كانت ترميهم بحجارة من سجيل .

هذا ، ولقد أسهب المفسرون المطولون في صور الحادث وأوردوا روايات عديدة عن ماهية الطير والحجارة وأشكالها وكيفية رميها والإصابات التي كانت تحدثها ومقابلة عبد المطلب جد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لأبرهة قبل الحادث وما دار بينه وبينه في صدد مواشي أهل مكة والكعبة ، وأوردوا فيما أوردوه أن ابن عباس قال : إنه رأى من حجارة الطير قفيزا عند أم هانئ رضي اللّه عنها عمة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وهي مخططة بحمرة وأن عائشة رضي اللّه عنها قالت إنها رأت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين . . . إلخ «1» ومع أن هذا الإسهاب لا يدخل في غرض التفسير وأن الروايات تتحمل الشك والتوقف ، فإن هذا وذاك يدلان على أن العرب في بيئة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كانوا يتداولون أخبار الحادث العظيم ومشاهده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير الحديث ـ ج 2 ص 41.44 ﴾

---

(1) انظر كتب التفسير المذكورة سابقا .

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(105) سورة الفيل

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة «الكافرون» .

عدد آياتها : خمس آيات .

عدد كلماتها : ثلاث وعشرون كلمة .

عدد حروفها : ثلاثة وتسعون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

فى سورة «الهمزة» عرض لمن جمع المال ، واتخذ منه سلاحا يغمز به الناس ، ويهمزهم ، ويمزق أديمهم ، ويزيل وجودهم الإنسانى بين الناس . .

وسورة «الفيل» تعرض لجماعة من تلك الجماعات ، التي اجتمع ليدها قوة من تلك القوى المخيفة ، هى الفيل ، الذي يشبه قوة المال فى طغيانه ، حين يجتمع ليد إنسان جهول غشوم ، طاغية ، فيتسلط على الناس ، كما يتسلط صاحب الفيل على صاحب الحمار ، أو الحصان ، مثلا . . فكان عاقبة صاحب هذا الفيل الهلاك والدمار ، كما كان عاقبة صاحب هذا المال ، الذلّ والخزي ، والخسران . .

بسم اللّه الرحمن الرّحيم

الآيات : (5.1) [سورة الفيل (105) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (1)

التفسير :

فيما يحدث به التاريخ ، وتتوارد عليه الأخبار الصحيحة ، تلك الحادثة التي تسمى حادثة الفيل ، والتي أرخ بها العرب الجاهليون ، كما كانوا يؤرخون بالأحداث العظيمة ، التي تقع لهم فى مسيرة حياتهم . . فاتخذوا عام الفيل مبدأ لمرحلة من مراحل التاريخ عندهم . .

وحادثة الفيل. كما تروى كتب التاريخ والسير. كانت عام ميلاد النبي صلى اللّه عليه وسلم . . وأن مسرحها كان مكة ، البلد الحرام ، وأن مقصدها كان هدم الكعبة والبيت الحرام!

قيل إن قائدا حبشيا اسمه «أبرهة» ، كان قد غلب على اليمن ، ثم رأى تعظيم العرب للكعبة ، وإقبالهم عليها ، وتمسحهم بها ، فأراد أن يجعل وجهة العرب إليه ، فبنى بنيّة ، أراد بها أن يحج العرب إليها ، وأن ينصرفوا عن الكعبة . . فلما لم يجد منهم استجابة لدعوته ، ولا التفاتا إلى بنيته ، قرر أن يهدم الكعبة ، ويزيل معالمها ، حتى لا يكون للعرب

متجه إليها ، فيخلو بذلك وجههم لهذه البنية التي بناها . . فسار بجيش كثيف ، يتقدمه فيل عظيم ، كان

(185/831)

عدة له من عدد الحرب التي يرهب بها أعداءه . . فلما سمعت قريش بمقدم أبرهة بهذا الفيل الذي يتهددهم به ، فزعت ، وهالها الأمر . .

قالوا : ونزل أبرهة بجيشه وفيله بمكان اسمه « المغلّس » على مشارف مكة ، وحط رحاله هناك ، استعدادا لدخول مكة ، وهدم الكعبة . .

ثم إنه استدعى إليه صاحب كلمة قريش يومئذ ، وكان عبد المطلب بن هاشم ، جدّ النبي . . فجاء إليه ، فكلمه أبرهة فيما جاء له ، وأنه لا يريد شرا بالناس ، وإنما جاء ليهدم الكعبة ، فإن أخلت قريش بينه وبين الكعبة لم يعرض لهم بسوء ، وإلا فقد عرفوا ما سوف ينزل بهم من بلاء ! ! فقال له « عبد المطلب » :

دونك وما تشاء . . ولكن ردّ إلينا ما احتواه جيشك من أموالنا . . وكان جيش أبرهة قد ساق كل ما صادفه فى طريقه من إبل وشاء ، وعبيد ، مما كان على مواقع المراعى لقريش . . فقال أبرهة : أحدثك فى شأن الكعبة ، وتحدثنى عن الإبل والشاء ؟ أترى

هذه الأنعام أكرم عندكم وأغلى من هذا البيت الذي تعظمونه ؟ فقال « عبد المطلب » هذه الأنعام لنا ، أما البيت فله ربّ يحميه ! ! قالوا : ودعا عبد المطلب قريشا إلى أن يخرجوا من مكة إلى شعابها ، وجبالها ، وأن يدعوا أبرهة والبيت الحرام . .

وفى صبيحة اليوم الذي تأهب فيه أبرهة لدخول البلد الحرام ، فشا فى جيشه الجدري ، فهلك الجيش جميعه .

قالوا ، وكان ذلك أول عهد العرب بهذا الداء ، الذي لم تعرفه من قبل . .

وقالوا : إن هذا الداء كان يهرى جسد من يلمّ به ، حيث يتناثر لحمه ، ويتساقط ، قطعا قطعا ، كما تتساقط الرمم المتعفنة . .

وهكذا قضى على الجيش كله ، ولم تبق منه إلا تلك الأشلاء الممزقة ، المتناثرة .

(186/831)

والقرآن الكريم ، لا يشير إلى هذا الداء - داء الجدري - الذي يقال إنه هو الذي هلك به أبرهة وجيشه ، وإنما يتحدث عن طير أبابيل ، رمت القوم بحجارة من سجيل ، فجعلتهم كعصف مأكول ، كما يقول سبحانه :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ » وهو استفهام

تقريرى تنطق به الحال المشاهدة . .

والتضليل : الضياع ، والخيبة ، والبوار . .

وقوله تعالى : « وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ » . .

الأبابيل : الجماعات ، والأسراب التي يتبع بعضها بعضا . .

وقوله تعالى : « تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ . . » .

أي أن هذه الأسراب من الطير كانت ترمى القوم بحجارة من سجيل . .

وهذه الحجارة لا يدرى حقيقتها إلا اللّه سبحانه وتعالى ، والأوصاف التي يصفها بها المفسرون والمحدّثون لا ينبغى الوقوف عندها . . وهل يسأل عن عصا موسى وكيف كانت تنقلب حية ؟ وعن يد عيسى وكيف كانت تبرئ الأكمه والأبرص ، وعن كلمته ، وكيف كانت تحيى الموتى ؟ . . إنها آيات من عند اللّه ، وآيات اللّه ، وإن لبست فى الظاهر صورا حسية ، فإن فى كيانها أسرارا لا يعلمها إلا علام الغيوب . . وهذه الطير ، هى طير ، والذي كانت تحمله وترمى به القوم ، هو حجارة من سجيل . . أما جنس هذا الطير ، وصفته ، وأما الأحجار وصفتها فذلك ما لا يعلمه إلا اللّه ، والبحث عنه رجم بالغيب . .

هذا ، ويطلق الطير على كل ما طار بجناحين ، سواء أكان بعوضا ، أم ذبابا ، أم نسورا ، وعقبانا . .

والسجيل : الحجارة الصلدة ، وأصل السجيل ، الطين المطبوخ.

والعصف : الكمّ الذي يضم الحب فى كيانه ، كحب القمح ، والشعير ، ونحوه . . كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ » .

والعصف المأكول : أي الذي أكل منه الحب ، وبقي هذا القشر الرقيق الذي كان يغلّفه . .

ولا شك أن هذا الذي أخذ اللّه سبحانه وتعالى به هذا الطاغية الذي جاء ليهدم بيت اللّه ، هو آية من الآيات الدالة على ما لهذا البيت عند اللّه من حرمة ، وأنه بيته على هذه الأرض ، الذي كان أول بيت وضع للناس ، وسيكون آخر بيت يبقى على وجه الأرض . . وأنه لا يزول حتى تزول معالم الحياة من هذا العالم . . ثم إن وقوع هذه الآية مع مطلع ميلاد النبي ، هو آية من آيات اللّه ، على ما لرسول اللّه عند ربه من مقام كريم ، فلا ينزل سوء ببلد هو فيه . . إنه صلوات اللّه وسلامه عليه. رحمة حيث كان . . رحمة للناس ، وبركة على المكان والزمان . . فرحم اللّه قومه ، وأكرمهم من أجله ، فلم ينزل به ما نزل بالأقوام الضالين الذين عصوا رسلهم ، بل عافاهم اللّه سبحانه من هذا البلاء وأخذ بهم إلى طريق الهدى والإيمان. وكذلك فعل سبحانه بالبلد الحرام ، مطلع نبوته ، ومبدأ رسالته ،

فحماها من كل سوء ، ودفع عنها كل مكروه . . فى ماضيها ، وحاضرها ومستقبلها ، وستبقى هكذا إلى يوم الدين ، البيت المعمور ، الذي تتجه إليه أبدا قلوب الأمة الإسلامية ووجوهها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1675. 1679 ﴾

(188/831)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) ﴾

استفهام تقريري وقد بيّنا غير مرة أن الاستفهام التقريري كثيراً ما يكون على نفي المقرَّر بإثباته للثقة بأن المقرَّر لا يسعه إلا إثبات المنفي وانظر عند قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم ﴾ في سورة البقرة (243) .

والاستفهام التقريري هنا مجاز بعلاقة اللزوم وهو مجاز كثر استعماله في كلامهم فصار كالحقيقة لشهرته .

وعليه فالتقرير مستعمل مجازاً في التكريم إشارة إلى أن ذلك كان إرهاصاً للنبيء فيكون من باب قوله : ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ﴾ [البلد : 1 ، 2] ، وفيه مع

ذلك تعريض بكفران قريش نعمة عظيمة من نعم الله عليهم إذ لم يزالوا يعبدون غيره .

والخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم كما يقتضيه قوله : ﴿ ربك ﴾ .

فمهيع هذه الآية شبيه بقوله تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ [الضحى : 6] الآيات

وقوله : ﴿ لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد ﴾ [البلد : 1 ، 2] على أحد الوجوه المتقدمة .

فالرؤية يجوز أن تكون مجازية مستعارة للعلم البالغ من اليقين حد الأمر المرئي لتواتر ما فعل الله بأصحاب الفيل بين أهل مكة وبقاء بعض آثار ذلك يشاهدونه .

وقال أبو صالح : رأيت في بيت أم هاني بنتِ أبي طالب نحواً من قفيزين من تلك الحجارة سُوداً مخططة بحمرة .

وقال عتاب بن أسِيدْ : أدركت سائس الفيل وقائده أعميين مُقْعَدين يستطعمان الناس .

وقالت عائشة : لقد رأيتُ قائد الفيل وسائقه أعمَيين يستطعمان الناس .

وفعل الرؤية معلق بالاستفهام .

ويجوز أن تكون الرؤية بصرية بالنسبة لمن تجاوز سنهُ نيفاً وخمسين سنة عند نزول الآية ممن شهد حادث الفيل غلاماً أو فتى مثل أبي قحافة وأبي طالب وأبي بن خلف .

و ﴿ كيف ﴾ للاستفهام سَدّ مسدّ مفعوليْ أو مفعول ﴿ تَر ﴾ ، أي لم تر جواب هذا الاستفهام ، كما تقول : علمتُ هل زيد قائم ؟ وهو نصب على الحال من فاعل ﴿ تَر ﴾ .

ويجوز أن يكون ﴿ كيف ﴾ مجرداً عن معنى الاستفهام مراداً منه مجرد الكيفية فيكون نصباً على المفعول به .

وإيثار ﴿ كيف ﴾ دون غيره من أسماء الاستفهام أو الموصول فلم يقل : ألم تر ما فعل ربك ، أو الذي فعل ربك ، للدلالة على حالة عجيبة يستحضرها من يعلم تفصيل القصة .

وأوثر لفظ ﴿ فعل ربك ﴾ دون غيره لأن مدلول هذا الفعل يعم أعمالاً كثيرة لا يدل عليها غيره .

وجيء في تعريف الله سبحانه بوصف (رب) مضافاً إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم إيماء إلى أن المقصود من التذكير بهذه القصة تكريم النبي صلى الله عليه وسلم إرهاصاً لنبوءته إذ كان ذلك عام مولده .

وأصحاب الفيل : الحَبشة الذين جاءوا مكة غازين مضمِرين هدم الكعبة انتقاماً من العرب من أجل ما فعله أحد بني كنانة الذين كانوا أصحاب النسيء في أشهر الحج .

وكان خبر ذلك وسببه أن الحبشة قد ملكوا اليمن بعد واقعة الأخدود التي عَذَّب فيها الملكُ ذو نواس النصارى ، وصار أمير الحبشة على اليمن رجلاً يقال له : (أبرهة) وأن

أبرهة بنى كنيسة عظيمة في صنعاء دعاها القَلِيس (بفتح القاف وكسر اللام بعدما تحتية ساكنة ، وبعضهم يقولها بضم القاف وفتح اللام وسكون التحتية) .

وفي "القاموس" بضم القاف وتشديد اللام مفتوحة وسكون الياء .

وكتبه السهيلي بنون بعد اللام ولم يضبطه وزعم أنه اسم مأخوذ من معاني القَلْس للارتفاع .

(190/831)

ومنه القلنسوة واقتصر على ذلك ولم أعرف أصل هذا اللفظ فإما أن يكون اسم جنس للكنيسة ولعل لفظ كنيسة في العربية معرّب منه ، وإما أن يكون علماً وضعوه لهذه الكنيسة الخاصة وأراد أن يصرف حج العرب إليها دون الكعبة فروي أن رجلاً من بني فُقَيم من بني كنانة وكانوا أهل النسيء للعرب كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إنما النسيء زيادة في الكفر ﴾ في سورة براءة (37) ، قَصد الكنانيُّ صنعاء حتى جاء القليس فأحدث فيها تحقيراً لها ليتسامَعَ العربُ بذلك فغضب أبرهة وأزمع غزو مكة ليهدم الكعبة وسار حتى نزل خارج مكة ليلاً بمكان يقال له المُغَمِّس (كمعظم موضع قرب مكة في طريق الطائف) أو ذو الغميس (لم أر ضبطه) وأرسل إلى عبد المطلب ليحذره من أن يحاربوه وجرى بينهما كلام ، وأمر عبد المطلب آله وجميع أهل مكة بالخروج منها إلى الجبال المحيطة بها خشية من معرة

الجيش إذا دخلوا مكة .

فلما أصبح هيّأ جَيْشه لدخول مكة وكان أبرهة راكباً فيلاً وجيشه معه فبينا هو يَتهيّأ لذلك إذ أصاب جنده داء عضال هو الجُدريّ الفتاك يتساقط منه الأنامل ، ورأوا قبل ذلك طيراً ترميهم بحجارة لا تصيب أحداً إلا هلك وهي طير من جند الله فهلك معظم الجيش وأدبر بعضهم ومرض (أبرهة) فقفل راجعاً إلى صنعاء مريضاً ، فهلك في صنعاء وكفى الله أهل مكة أمر عدوّهم .

وكان ذلك في شهر محرم الموافق لشهر شباط (فبراير) سنة 570 بعد ميلاد عيسى عليه السلام ، وبعد هذا الحادث بخمسين يوماً ولد النبي على أصح الأخبار وفيها اختلاف كثير .

والتعريف في الفيل ﴿ للعهد ، وهو فيل أبرهة قائد الجيش كما قالوا للجيش الذي خرج مع عائشة أم المؤمنين أصحاب الجَمل يريدون الجمل الذي كانت عليه عائشة ، مع أن في الجيش جمالاً أخرى .

وقد قيل : إن جيش أبرهة لم يكن فيه إلا فيل واحد ، وهو فيل أبرهة ، وكان اسمه محمود .

وقيل : كان فيه فِيَلَة أخرى ، قيل ثمانية وقيل : اثنا عشر .

وقال بعضٌ : ألف فيل .

ووقع في رجز ينسب إلى عبد المطلب :

أنتَ منعتَ الحُبْشَ والأفْيالا . . .

فيكون التعريف تعريف الجنس ويكون العهد مستفاداً من الإضافة .

والفيل : حيوان عظيم من ذوات الأربع ذواتِ الخف ، من حيوان البلاد الحارة ذات الأنهار من الهند والصين والحبشة والسودان ، ولا يوجد في غير ذلك إلا مجلوباً ، وهو ذكي قابل للتأنس والتربية ، ضخم الجثة أضخم من البعير ، وأعلى منه بقليل وأكثر لحماً وأكبر بطناً .

وخف رجله يشبه خف البعير وعنقه قصير جداً له خرطوم طويل هو أنفه يتناول به طعامه وينتشق به الماء فيفرغه في فيه ويدافع به عن نفسه يختطف به ويلويه على ما يريد أذاه من الحيوان ، ويلقيه على الأرض ويدوسه بقوائمه .

وفي عينيه خزر وأذناه كبيرتان مسترخيتان ، وذَنبه قصير أقصر من ذنب البعير وقوائمه غليظة .

ومناسمه كمناسم البعير وللذكر منه نابان طويلان بارزان من فمه يتخِذ الناس منها العاجَ .

وجلده أجرد مثل جلد البقر ، أصهب اللون قاتم كلون الفار ويكون منه الأبيض الجلد .

وهو مركوبٌ وحامل أُثقال وأهل الهند والصين يجعلون الفيل كالحصن في الحرب يجعلون

محفة على ظهره تسع ستة جنود .

ولم يكن الفيل معروفاً عند العرب فلذلك قلّ أن يُذكر في كلامهم وأول فيل دخل بلاد العرب

هو الفيل المذكور في هذه السورة .

وقد ذكرت أشعار لهم في ذكر هذه الحادثة في السيرة .

ولكن العرب كانوا يسمعون أخبار الفيل ويتخيلونه عظيماً قوياً ، قال لبيد :

ومقامٍ ضيِّق فرَّجْتُه . . .

ببيانٍ ولسانٍ وجَدل

لو يقومُ الفيل أُو فَيَّالُه . . .

زل عن مثل مقامي ورحل

وقال كَعب بن زهير في قصيدته :

لقَدْ أقومُ مقاماً لو يقوم به . . .

أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل

لظلَّ يَرْعد إلا أنْ يكون له . . .

من الرسول بإذن الله تنويل

وكنت رأَيتُ أنّ . . .

.

قال إن أمه أرته أو حدثته أنها رأت روث الفيل بمكة حول الكعبة ولعلهم تركوا إزالته ليبقى تذكرة .

(192/831)

وعن عائشة وعتاب بن أسيد : رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس .

والمعنى : ألم تعلم الحالة العجيبة التي فعلها الله بأصحاب الفيل ، فهذا تقرير على إجمال يفسره ما بعده .

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)

هذه الجمل بيان لما في جملة ﴿ ألم تر كيف فعل ربك ﴾ [الفيل : 1] من الإجمال .

وسمى حربهم كيداً لأنه عمل ظاهره الغضب من فعل الكناني الذي قعد في القليس .

وإنما هو تعلة تعللوا بها لإيجاد سبب لحرب أهل مكة وهدم الكعبة لينصرف العرب إلى حجّ القليس في صنعاء فيتنصّروا .

أو أريد بكيدهم بناؤهم القليس مظهرين أنهم بنوا كنيسة وهم يريدون أن يبطلوا الحج إلى

الكعبة ويصرفوا العرب إلى صنعاء .

والكَيد : الاحتيال على إلحاق ضر بالغير ومعالجة إيقاعه .

والتضليل : جعل الغير ضالاً ، أي لا يهتدي لمراده وهو هنا مجاز في الإبطال وعدم نوال المقصود لأن ضلال الطريق عدم وصول السائر .

وظرفية الكيد في التضليل مجازية ، استعير حرف الظرفية لمعنى المصاحبة الشديدة ، أي أبطل كيدهم بتضليل ، أي مصاحباً للتضليل لا يفارقه ، والمعنى : أنه أبطله إبطالاً شديداً إذ لم ينتفعوا بقوتهم مع ضعف أهل مكة وقلة عددهم .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾ [غافر : 37] أي ضياع وتلف ، وقد شمل تضليل كُيدهم جميعَ ما حلّ بهم من أسباب الخيبة وسوء المنقلب .

(193/831)

وجملة : ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ يجوز أن تجعل معطوفة على جملة ﴿ فَعَل ربك بأصحاب الفيل ﴾ [الفيل : 1] ، أي وكيف أرسل عليهم طيراً من صفتها كَيْت وكَيْت ، فبعد أن وقع التقرير على ما فَعل الله بهم من تضليل كيدهم عطف عليه تقرير بعلم ما سُلط عليهم من العقاب على كيدهم تذكيراً بما حلّ بهم من نقمة الله تعالى ، لقصدهم تخريب

الكعبة ، فذلك من عناية الله ببيته لإظهار توطئته لبعثة رسوله صلى الله عليه وسلم بدينه في ذلك البلد ، إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام ، فكما كان إرسال الطير عليهم من أسباب تضليل كيدهم ، كان فيه جزاء لهم ، ليعلموا أن الله مانع بيته ، وتكون جملة : ﴿ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴾ معترضة بين الجملتين المتعاطفتين .

ويجوز أن تجعل ﴿ وأرسل عليهم ﴾ عطفاً على جملة ﴿ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴾ فيكون داخلاً في حيز التقرير الثاني بأن الله جعل كيدهم في تضليل ، وخص ذلك بالذكر لجمعه بين كونه مبطلاً لكيدهم وكونه عقوبة لهم ، ومَجيئُه بلفظ الماضي باعتبار أن المضارع في قوله : ﴿ ألم يجعل كيدهم في تضليل ﴾ قُلب زمانه إلى المضي لدخول حرف ﴿ لم ﴾ كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ﴾ في سورة الضحى (6 ، 7) ، فكأنه قيل : أليس جعَل كيدهم في تضليل .

والطير : اسم جمع طائر ، وهو الحيوان الذي يرتفع في الجو بعمل جناحيه .

وتنكيره للنوعية لأنه نوع لم يكن معروفاً عند العرب .

وقد اختلف القصّاصون في صفته اختلافاً خيالياً .

والصحيح ما رُوي عن عائشة : أنها أشبه شيء بالخطاطيف ، وعن غيرها أنها تشبه الوطواط .

وأبابيل ﴾ : جماعات .

قال الفراء وأبو عبيدة: أبابيل اسم جمع لا واحد له من لفظه مثل عباديد وشماطيط وتبعهما الجوهري، وقال الرُّؤَاسي والزمخشري: واحد أبابيل إبَّالة مشددة الموحدة مكسورة الهمزة.

ومنه قولهم في المثل: "ضِغث على إبّالة" وهي الحزمة الكبيرة من الحطب.

(194/831)

وعليه فوصف الطير بأبابيل على وجه التشبيه البليغ.

وجملة ﴿ ترميهم ﴾ حال من ﴿ طيراً ﴾ وجيء بصيغة المضارع لاستحضار الحالة بحيث تخيل للسامع كالحادثة في زمن الحال ومنه قوله تعالى: ﴿ واللَّه الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت ﴾ [فاطر: 9] الآية.

وحجارة: اسم جمع حَجر.

عن ابن عباس قال: طين في حجارة، وعنه أن سجيل معرب سَنْك كِل من الفارسية، أي عن كلمة (سنك) وضبط بفتح السين وسكون النون وكسر الكاف اسم الحجر وكلمة (كلْ) بكسر الكاف اسم الطين ومجموع الكلمتين يراد به الآجُر.

وكلتا الكلمتين بالكاف الفارسية المعمّدة وهي بين مخرج الكاف ومخرج القاف، ولذلك

تكون ﴿ من ﴾ بيانية ، أي حجارة هي سجيل ، وقد عد السبكي كلمة سجيل في "منظومته في المعرَّب الواقع في القرآن" .

وقد أشار إلى أصل معناه قوله تعالى : ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ﴾ [الذاريات : 33] مع قوله في آيات أُخر ﴿ حجارة من سجيل ﴾ فعلم أنه حجر أصله طين .

وجاء نظيره في قصة قوم لوط في سورة هود (82) : ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ وفي سورة الحجر (74) : فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل فتعين أن تكون الحجارة التي أرسلت على أصحاب الفيل من جنس الحجارة التي أمطرت على قوم لوط ، أي ليست حجراً صخرياً ولكنها طين متحجر دلالة على أنها مخلوقة لعذابهم .

قال ابن عباس : كانَ الحجر إذا وقع على أحدهم نفط جلده فكان ذلك أول الجُدري .

وقال عكرمة : إذا أصاب أحدَهم حجر منها خرج به الجدري .

وقد قيل : إن الجدري لم يكن معروفاً في مكة قبل ذلك .

وروي أن الحجر كان قدر الحِمَّص .

روى أبو نعيم عن نوفل بن أبي معاوية الديلمي قال : رأيت الحصَى التي رمي بها أصحاب الفيل حصى مثل الحمص حمراً بحُتْمَة (أي سواد) كأنها جِزع ظَفَار .

وعن ابن عباس : أنه رأى من هذه الحجارة عند أم هاني نحو قفيز مخططة بحُمرة بالجزع الظَّفاري .

(195/831)

والعصف : ورق الزرع وهو جمع عَصْفة .

والعصف إذا دخلته البهائم فأكلته داسته بأرجلها وأكلت أطرافه وطرحته على الأرض بعد أن كان أخضر يانعاً .

وهذا تمثيل لحال أصحاب الفيل بعد تلك النضرة والقوة كيف صاروا متساقطين على الأرض هالكين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير ـ 30 ص ﴾

(196/831)

وقال الشيخ سيد قطب :

تعريف بسورة الفيل

تشير هذه السورة إلى حادث مستفيض الشهرة في حياة الجزيرة العربية قبل البعثة , عظيم

الدلالة على رعاية الله لهذه البقعة المقدسة التي اختارها الله لتكون ملتقى النور الأخير , ومحضن العقيدة الجديدة , والنقطة التي تبدأ منها زحفها المقدس لمطاردة الجاهلية في أرجاء الأرض , وإقرار الهدى والحق والخير فيها . .

وجملة ما تشير إليها الروايات المتعددة عن هذا الحادث , أن الحاكم الحبشي لليمن - في الفترة التي خضعت فيها اليمن لحكم الحبشة بعد طرد الحكم الفارسي منها - وتسميه الروايات : "أبرهة" , كان قد بنى كنيسة في اليمن باسم ملك الحبشة وجمع لها كل أسباب الفخامة , على نية أن يصرف بها العرب عن البيت الحرام في مكة , وقد رأى مبلغ انجذاب أهل اليمن الذين يحكمهم إلى هذا البيت , شأنهم شأن بقية العرب في وسط الجزيرة وشماليها كذلك . وكتب إلى ملك الحبشة بهذه النية . .

ولكن العرب لم ينصرفوا عن بيتهم المقدس , فقد كانوا يعتقدون أنهم أبناء إبراهيم وإسماعيل صاحبي هذا البيت , وكان هذا موضع اعتزازهم على طريقتهم بالفخر والأنساب . وكانت معتقداتهم - على تهافتها - أفضل في نظرهم من معتقدات أهل الكتاب من حولهم , وهم يرون ما فيها من خلل واضطراب وتهافت كذلك .

عندئذ صح عزم "أبرهة" على هدم الكعبة ليصرف الناس عنها ; وقاد جيشا جرارا تصاحبه الفيلة , وفي مقدمتها فيل عظيم ذو شهرة خاصة عندهم . فتسامع العرب به وبقصده . وعز عليهم أن يتوجه لهدم كعبتهم . فوقف في طريقه رجل من أشراف أهل

اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر , فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن البيت الحرام , فأجابه إلى ذلك من أجابه . ثم عرض له فقاتله , ولكنه هزم وأخذه أبرهة أسيرا .

(197/831)

ثم وقف له في الطريق كذلك نفيل ابن حبيب الخثعمي في قبيلتين من العرب ومعهما عرب كثير , فهزمهم كذلك وأسر نفيلا , الذي قبل أن يكون دليله في أرض العرب .

حتى إذا مر بالطائف خرج إليه رجال من ثقيف فقالوا له : إن البيت الذي يقصده ليس عندهم إنما هو في مكة . وذلك ليدفعوه عن بيتهم الذي بنوه للات ! وبعثوا معه من يدله على الكعبة !

فلما كان أبرهة بالمغمس بين الطائف ومكة , بعث قائدا من قواده حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم , فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم , وهو يومئذ كبير قريش وسيدها . فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله . ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة رسولا إلى مكة يسأل عن سيد هذا البلد , ويبلغه أن الملك لم يأت لحربهم وإنما

جاء لهدم هذا البيت, فإن لم يتعرضوا له فلا حاجة له في دمائهم ! فإذا كان سيد البلد لا يريد الحرب جاء به إلى الملك . . فلما كلم عبد المطلب فيما جاء به قال له : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة . هذا بيت الله الحرام . وبيت خليله إبراهيم عليه السلام . . فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه, وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . . فانطلق معه إلى أبرهة . .

(198/831)

قال ابن إسحاق : وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم . فلما رآه أبرهة أجله وأعظمه, وأكرمه عن أن يجلسه تحته, وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه . فنزل أبرهة عن سريره, فجلس على بساطه وأجلسه معه إلى جانبه . ثم قال لترجمانه : قل له : ما حاجتك ? فقال : حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي . فلما قال ذلك, قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتني حين رأيتك, ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ! أتكلمني في مئتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ? قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل . وإن للبيت رب سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع مني . قال : أنت وذاك ! . . فرد عليه إبله .

ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر , وأمرهم بالخروج من مكة , والتحرز في شعف الجبال . ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة , وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه . وروي عن عبد المطلب أنه أنشد :

لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك .

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك !

فأما أبرهة فوجه جيشه وفيله لما جاء له . فبرك الفيل دون مكة لا يدخلها , وجهدوا في حمله على اقتحامها فلم يفلحوا . وهذه الحادثة ثابتة بقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم الحديبية حين بركت ناقته القصواء دون مكة , فقالوا : خلأت القصواء [أي حرنت] فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " ما خلأت القصواء , وما ذاك لها بخلق , ولكن حبسها حابس الفيل . . " وفي الصحيحين أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال يوم فتح مكة : " إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين , وإنه قد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس , ألا فليبلغ الشاهد الغائب " , فهي حادثة ثابتة أنه قد حبس الفيل عن مكة في يوم الفيل . .

ثم كان ما أراده الله من إهلاك الجيش وقائده , فأرسل عليهم جماعات من الطير تحصبهم بحجارة من طين وحجر , فتركتهم كأوراق الشجر الجافة الممزقة . كما يحكي عنهم القرآن الكريم . . وأصيب أبرهة في جسده ,وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة , حتى قدموا به صنعاء , فما مات حتى انشق صدره عن قلبه كما تقول الروايات . .

وتختلف الروايات هنا في تحديد نوع هذه الجماعات من الطير , وأشكالها , وأحجامها , وأحجام هذه الحجارة ونوعها وكيفية فعلها . كما أن بعضها يروي أن الجدري والحصبة ظهرا في هذا العام في مكة .

ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات , وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها , أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة أقرب وأولى . وأن الطير قد تكون هي الذباب والبعوض التي تحمل الميكروبات , فالطير هو كل ما يطير .

قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده في تفسيره للسورة في جزء عم :

"وفي اليوم الثاني فشا في جند الجيش داء الجدري والحصبة . . قال عكرمة : وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب . وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث : إن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام . وقد فعل الوباء بأجسامهم ما يندر وقوع مثله . فكان لحمهم يتناثر ويتساقط فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين , وأصيب الجيش , ولم يزل

يسقط لحمه قطعة قطعة , وأنملة أنملة حتى انصدع صدره ومات في صنعاء " .

"هذا أول ما اتفقت عليه الروايات , ويصح الاعتقاد به . وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح" .

(200/831)

"فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض , وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات , فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه , فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه . وأن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر , وأن هذا الحيوان الصغير - الذي يسمونه الآن بالمكروب - لا يخرج عنها . وهو فرق وجماعات لا يحصي عددها إلا بارئها . . ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى في قهر الطاغين , على أن يكون الطير في ضخامة رؤوس الجبال , ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب , ولا على أن يكون له ألوان خاصة به , ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها . . فلله جند من كل شيء " .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

"وليست في الكون قوة إلا وهي خاضعة لقوته . فهذا الطاغية الذي أراد أن يهدم البيت , أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدري أو الحصبة , فأهلكته وأهلكت قومه , قبل أن يدخل مكة . وهي نعمة غمر الله بها أهل حرمه – على وثنيتهم – حفظا لبيته , حتى يرسل من يحميه بقوة دينه (صلى الله عليه وسلم) وإن كانت نعمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت دون جرم اجترمه , ولا ذنب اقترفه" .

"هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة . وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل , إن صحت روايته . ومما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل – وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسما – ويهلك , بحيوان صغير لا يظهر للنظر , ولا يدرك بالبصر , حيث ساقه القدر . لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر ! ! " .

ونحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الاستاذ الإمام – صورة الجدري أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم – أو تلك التي جاءت بها بعض الروايات من أن الحجارة ذاتها كانت

تخرق الرؤوس والأجسام وتنفذ منها وتمزق الأجساد فتدعها كفتات ورق الشجر الجاف وهو (العصف) . . لا نرى أن هذه الصورة أو تلك أدل على قدرة الله , ولا أولى بتفسير الحادث . فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع . ومن حيث الدلالة على قدرة الله وتدبيره , ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس , المعهودة المكشوفة لعلمهم هي التي جرت فأهلكت قوما أراد الله إهلاكهم أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر , وغير المعهود المكشوف لعلمهم , فحققت قدره ذاك .

إن سنة الله ليست فقط هي ما عهده البشر وما عرفوه . وما يعرف البشر من سنة الله إلا طرفا يسيرا يكشفه الله لهم بمقدار ما يطيقون , وبمقدار ما يتهيأون له بتجاربهم ومداركهم في الزمن الطويل , فهذه الخوارق - كما يسمونها - هي من سنة الله . ولكنها خوارق بالقياس إلى ما عهدوه وما عرفوه !

(202/831)

ومن ثم فنحن لا نقف أمام الخارقة مترددين ولا مؤولين لها - متى صحت الرواية - أو كان في النصوص وفي ملابسات الحادث ما يوحي بأنها جرت خارقة , ولم تجر على مألوف الناس ومعهودهم . وفي الوقت ذاته لا نرى أن جريان الأمر على السنة المألوفة أقل وقعا ولا

دلالة من جريانه على السنة الخارقة للمألوف . فالسنة المألوفة هي في حقيقتها خارقة بالقياس إلى قدرة البشر . . إن طلوع الشمس وغروبها خارقة - وهي معهودة كل يوم - وإن ولادة كل طفل خارقة - وهي تقع كل لحظة , وإلا فليجرب من شاء أن يجرب ! وإن تسليط طير - كائنا ما كان - يحمل حجارة مسحوقة ملوثة بميكروبات الجدري والحصبة وإلقائها في هذه الأرض , في هذا الأوان , وإحداث هذا الوباء في الجيش , في اللحظة التي يهم فيها باقتحام البيت . . إن جريان قدر الله على هذا النحو خارقة بل عدة خوارق كاملة الدلالة على القدرة وعلى التقدير . وليست بأقل دلالة ولا عظمة من أن يرسل الله طيرا خاصا يحمل حجارة خاصة تفعل بالأجسام فعلا خاصا في اللحظة المقررة . . هذه من تلك . . هذه خارقة وتلك خارقة على السواء . .

فأما في هذا الحادث بالذات , فنحن أميل إلى اعتبار أن الأمر قد جرى على أساس الخارقة غير المعهودة , وأن الله أرسل طيرا أبابيل غير معهودة - وإن لم تكن هناك حاجة إلى قبول الروايات التي تصف أحجام الطير وأشكالها وصفا مثيرا , نجد له نظائر في مواضع أخرى تشي بأن عنصر المبالغة والتهويل مضاف إليها ! - تحمل حجارة غير معهودة , تفعل بالأجسام فعلا غير معهود . .

نحن أميل إلى هذا الاعتبار . لا لأنه أعظم دلالة ولا أكبر حقيقة . ولكن لأن جو السورة وملابسات الحادث تجعل هذا الاعتبار هو الأقرب . فقد كان الله - سبحانه - يريد بهذا البيت أمرا . كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمنا ; وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة , في أرض حرة طليقة , لا يهيمن عليها أحد من خارجها , ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة في محضنها . ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الأنظار في جميع الأجيال , حتى ليمتن بها على قريش بعد البعثة في هذه السورة , ويضربها مثلا لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها . . فمما يتناسق مع جو هذه الملابسات كلها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود , بكل مقوماته وبكل أجزائه . ولا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملابساته مفرد فذ . .

وبخاصة أن المألوف في الجدري أو الحصبة لا يتفق مع ما روي من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده , فإن الجدري أو الحصبة لا يسقط الجسم عضوا عضوا وأنملة أنملة , ولا يشق الصدر عن القلب . .

وهذه الصورة هي التي يوحي بها النص القرآني : (فجعلهم كعصف مأكول) . . إيحاء مباشرا قريبا .

ورواية عكرمة وما حدث به يعقوب بن عتبة ليست نصا في أن الجيش أصيب بالجدري . فهي لا تزيد على أن تقول : إن الجدري ظهر في الجزيرة في هذا العام لأول مرة . ولم ترد في أقوالهما أية إشارة لأبرهة وجيشه خاصة بالإصابة بهذا المرض . . ثم إن إصابة الجيش على هذا النحو وعدم إصابة العرب القريبين بمثله في حينه تبدو خارقة إذا كان الطير تقصد الجيش وحده بما تحمل . وما دامت المسألة خارقة فعلام العناء في حصرها في صورة معينة لمجرد أن هذه الصورة مألوفة لمدارك البشر ! وجريان الأمر على غير المألوف أنسب لجو الحادث كله ? !

إننا ندرك ونقدر دوافع المدرسة العقلية التي كان الأستاذ الإمام - رحمه الله - على رأسها في تلك الحقبة . . ندرك ونقدر دوافعها إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ , ومحاولة ردها إلى المألوف المكشوف من السنن الكونية . . فلقد كانت هذه المدرسة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التي تسيطر على العقلية العامة في تلك الفترة ; كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها , كتب التفسير والرواية في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها , وموجة الشك في

مقولات الدين إلى قمتها . فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل . ومن ثم تجتهد في تنقيته من الخرافات والأساطير . كما تحاول أن تنشئ عقلية دينية تفقه السنن الكونية , وتدرك ثباتها واطرادها , وترد إليها الحركات الإنسانية كما ترد إليها الحركات الكونية في الأجرام والأجسام - وهي في صميمها العقلية القرآنية - فالقرآن يرد الناس إلى سنن الله الكونية باعتبارها القاعدة الثابتة المطردة المنظمة لمفردات الحركات والظواهر المتناثرة .

ولكن مواجهة ضغط الخرافة من جهة وضغط الفتنة بالعلم من جهة أخرى تركت آثارها في تلك المدرسة . من المبالغة في الاحتياط , والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله . فشاع في تفسير الأستاذ الشيخ محمد عبده - كما شاع في تفسير تلميذيه الأستاذ الشيخ رشيد رضا والأستاذ الشيخ عبد القادر المغربي - رحمهم الله جميعا - شاع في هذا التفسير الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق إلى مألوف سنة الله دون الخارق منها , وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه "المعقول" ! وإلى الحذر والاحتراس الشديد في تقبل الغيبيات .

ومع إدراكنا وتقديرنا للعوامل البيئية الدافعة لمثل هذا الاتجاه, فإننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه, وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل . وهو طلاقة مشيئة الله وقدرته من وراء السنن التي اختارها - سواء المألوف منها للبشر أو غير المألوف - هذه الطلاقة التي لا تجعل العقل البشري هو الحاكم الأخير . ولا تجعل معقول هذا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل ما لا يوافقه - كما يتكرر هذا القول في تفسير أعلام هذه المدرسة .

هذا إلى جانب أن المألوف من سنة الله ليس هو كل سنة الله . إنما هو طرف يسير لا يفسر كل ما يقع من هذه السنن في الكون . وأن هذه كتلك دليل على عظمة القدرة ودقة التقدير . .

وكل ذلك مع الاحتياط من الخرافة ونفي الأسطورة في اعتدال كامل, غير متأثر بإيحاء بيئة خاصة, ولا مواجهة عرف تفكيري شائع في عصر من العصور ! ! !

إن هنالك قاعدة مأمونة في مواجهة النصوص القرآنية, لعل هنا مكان تقريرها . إنه لا يجوز لنا أن نواجه النصوص القرآنية بمقررات عقلية سابقة . لا مقررات عامة . ولا مقررات في الموضوع الذي تعالجه النصوص . بل ينبغي أن نواجه هذه النصوص لنتلقى منها مقرراتنا . فمنها نتلقى مقرراتنا الإيمانية, ومنها نكون قواعد منطقنا وتصوراتنا جميعا ; فإذا قررت لنا أمرا فهو المقرر كما قررته ! ذلك أن ما نسميه "العقل" ونريد أن نحاكم إليه

مقررات القرآن عن الأحداث الكونية والتاريخية والإنسانية والغيبية هو إفراز واقعنا البشري المحدود , وتجاربنا البشرية المحدودة .

(206/831)

وهذا العقل وإن يكن في ذاته قوة مطلقة لا تتقيد بمفردات التجارب والوقائع بل تسمو عليها إلى المعنى المجرد وراء ذواتها , إلا أنه في النهاية محدود بحدود وجودنا البشري . وهذا الوجود لا يمثل المطلق كما هو عند الله . والقرآن صادر عن هذا المطلق فهو الذي يحكمنا . ومقرراته هي التي نستقي منها مقرراتنا العقلية ذاتها . ومن ثم لا يصلح أن يقال : إن مدلول هذا النص يصطدم مع العقل فلا بد من تأويله - كما يرد كثيرا في مقررات أصحاب هذه المدرسة . وليس معنى هذا هو الإستسلام للخرافة . ولكن معناه أن العقل ليس هو الحكم في مقررات القرآن . ومتى كانت المدلولات التعبيرية مستقيمة واضحة فهي التي تقرر كيف تتلقاها عقولنا , ويكف تصوغ منها قواعد تصورها ومنطقها تجاه مدلولاتها , وتجاه الحقائق الكونية الأخرى . .

ونعود من هذا الاستطراد إلى سورة الفيل , وإلى دلالة القصة . .

(ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ?) . . وهو سؤال للتعجيب من الحادث , والتنبيه

إلى دلالته العظيمة . فالحادث كان معروفا للعرب ومشهورا عندهم , حتى لقد جعلوه مبدأ تاريخ . يقولون حدث كذا عام الفيل , وحدث كذا قبل عام الفيل بعامين , وحدث كذا بعد عام الفيل بعشر سنوات . . والمشهور أن مولد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان في عام الفيل ذاته . ولعل ذلك من بدائع الموافقات الإلهية المقدرة !

وإذن فلم تكن السورة للإخبار بقصة يجهلونها , إنما كانت تذكيرا بأمر يعرفونه , المقصود به ما وراء هذا التذكير . .

ثم أكمل القصة بعد هذا المطلع في صورة الاستفهام التقريري كذلك :

(207/831)

(ألم يجعل كيدهم في تضليل ?) . . أي ألم يضل مكرهم فلا يبلغ هدفه وغايته , شأن من يضل الطريق فلا يصل إلى ما يبتغيه . . ولعله كان بهذا يذكر قريشا بنعمته عليهم في حماية هذا البيت وصيانته , في الوقت الذي عجزوا هم عن الوقوف في وجه أصحاب الفيل الأقوياء . لعلهم بهذه الذكرى يستحون من جحود الله الذي تقدمت يده عليهم في ضعفهم وعجزهم , كما يطامنون من اغترارهم بقوتهم اليوم في مواجهة محمد (صلى الله عليه وسلم) والقلة المؤمنة معه . فقد حطم الله الأقوياء حينما شاءوا الاعتداء على بيته

وحرمته ; فلعله يحطم الأقوياء الذين يقفون لرسوله ودعوته .

فأما كيف جعل كيدهم في تضليل فقد بينه في صورة وصفية رائعة : (وأرسل عليهم طيرا أبابيل , ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول) . . والأبابيل : الجماعات . وسجيل كلمة فارسية مركبة من كلمتين تفيدان : حجر وطين . أو حجارة ملوثة بالطين . والعصف : الجاف من ورق الشجر . ووصفه بأنه مأكول : أي فتيت طحين ! حين تأكله الحشرات وتمزقه , أو حين يأكله الحيوان فيمضغه ويطحنه ! وهي صورة حسية للتمزيق البدني بفعل هذه الأحجار التي رمتهم بها جماعات الطير . ولا ضرورة لتأويلها بأنها تصوير لحال هلاكهم بمرض الجدري أو الحصبة .

فأما دلالة هذا الحادث والعبر المستفادة من التذكير به فكثيرة . .

وأول ما توحي به أن الله - سبحانه - لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين , ولو أنهم كانوا يعتزون بهذا البيت , ويحمونه ويحتمون به . فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية . وتدخلت القدرة سافرة لتدفع عن بيت الله الحرام , حتى لا تكون للمشركين يد على بيته ولا سابقة في حمايته , بحميتهم الجاهلية . ولعل هذه الملابسة ترجح ترجيحا قويا أن الأمر جرى في إهلاك المعتدين مجرى السنة الخارقة - لا السنة المألوفة المعهودة - فهذا أنسب وأقرب . .

ولقد كان من مقتضى هذا التدخل السافر من القدرة الإلهية لحماية البيت الحرام أن تبادر قريش ويبادر العرب إلى الدخول في دين الله حينما جاءهم به الرسول (صلى الله عليه وسلم) وألا يكون اعتزازهم بالبيت وسدانته وما صاغوا حوله من وثنية هو المانع لهم من الإسلام ! وهذا التذكير بالحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم , والتعجيب من موقفهم العنيد !

كذلك توحي دلالة هذا الحادث بأن الله لم يقدر لأهل الكتاب - أبرهة وجنوده - أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة . حتى والشرك يدنسه , والمشركون هم سدنته . ليبقي هذا البيت عتيقا من سلطان المتسلطين , مصونا من كيد الكائدين . وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة , لا يهيمن عليها سلطان , ولا يطغى فيها طاغية , ولا يهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد , ويقود البشرية ولا يقاد . وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام !

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن , إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية , ولا تني أو تهدأ في التمهيد الخفي اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة . فالله الذي حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته

مشركون , سيحفظه إن شاء الله , ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين !

(209/831)

والإيحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دور في الأرض . بل لم يكن لهم كيان . قبل الإسلام . كانوا في اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة . وكانت دولتهم حين تقوم هناك أحيانا تقوم تحت حماية الفرس . وفي الشمال كانت الشام تحت حكم الروم إما مباشرة وإما بقيام حكومة عربية تحت حماية الرومان . . ولم ينج إلا قلب الجزيرة من تحكم الأجانب فيه . ولكنه ظل في حالة بداوة أو في حالة تفكك لا تجعل منه قوة حقيقية في ميدان القوى العالمية . وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين سنة , ولكن لم تكن هذه القبائل متفرقة ولا مجتمعة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة . وما حدث في عام الفيل كان مقياسا لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبي .

(210/831)

وتحت راية الإسلام ولأول مرة في تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمي يؤدونه . وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب . قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العروش , وتتولى قيادة البشرية , بعد أن تزيح القيادات الجاهلية المزيفة الضالة . ولكن الذي هيأ للعرب هذا لأول مرة في تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب ! نسوا نعرة الجنس , وعصبية العنصر , وذكروا أنهم ومسلمون . مسلمون فقط . ورفعوا راية الإسلام , وراية الإسلاموحدها . وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلى البشرية رحمة وبرا بالبشرية ; ولم يحملوا قومية ولا عنصرية ولا عصبية . حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس بها لا مذهبا أرضيا يخضعون الناس لسلطانه . وخرجوا من أرضهم جهادا في سبيل الله وحده , ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها , ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها , ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم ! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة الله وحده , كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد : "الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده , ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة , ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام" . عندئذ فقط كان للعرب وجود , وكانت لهم قوة , وكانت لهم قيادة . ولكنها كانت كلها لله وفي سبيل الله . وقد ظلت لهم قوتهم . وظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على الطريقة . حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتهم وعصبيتهم , وتركوا راية الله ليرفعوا راية

العصبية نبذتهم الأرض وداستهم الأمم , لأن الله قد تركهم حيثما تركوه , ونسيهم مثلما نسوه !

(211/831)

وما العرب بغير الإسلام ؟ ما الفكرة التي قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها إذا هم تخلوا عن هذه الفكرة ؟ وما قيمة أمة لا تقدم للبشرية فكرة ؟ إن كل أمة قادت البشرية في فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة . والأمم التي لم تكن تمثل فكرة كالتتار الذين اجتاحوا الشرق , والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية في الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلا , إنما ذابوا في الأمم التي فتحوها . والفكرة الوحيدة التي تقدم بها العرب للبشرية كانت هي العقيدة الإسلامية , وهي التي رفعتهم إلى مكان القيادة , فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم في الأرض وظيفة , ولم يعد لهم في التاريخ دور . . وهذا ما يجب أن يذكره العرب جيدا إذا هم أرادوا الحياة , وأرادوا القوة , وأرادوا القيادة . . والله الهادي من الضلال . . انتهى

انتهى . اهـ ﴿الظلال جـ 6 صـ 3974 . 3981﴾

(212/831)

وقال الشيخ الشنقيطى :

سورة الفيل

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) ﴾

اختلف في معنى السجيل هنا .

فقال قوم : هو السجين ، أبدلت النون لاماً ، والسجين النار .

وقيل : إن السجيل من السجل ، كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجيناً لديون أعمالهم واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ، ومنه السجل الدلو المملوء ماء ، وهي حجارة مرسلة لقوله : ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴾ .

وقوله : إن سجيناً ، عن الديوان أعمالهم ، يعني قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الفجار لَفِي سِجِّينٍ ﴾ [المطففين : 7] .

وقيل : معنى سجيل ستك وطين ، يعني بعض حجر وبعض طين .

وقيل : معناه الشديد .

وقيل : السجيل اسم لسماء الدنيا .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ترجيح أنها من طين شديد القوة .

وهذا ما يشهد له القرآن لما في سورة الذاريات ﴿ قالوا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ

عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الذاريات : 32-34] فنص على أنها من طين .

والحجارة من الطين : هي الآجر وهو الطين المطبوخ حتى يتحجر .

وجاء النص الآخر أنها من سجيل منفوض في قوله : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴾ [هود : 82] .

وقيل فيهل : كالحمصة والعدسة ، والضمير في عليهم راجع لأصحاب الفيل ، وقصتهم طويلة مشهورة .

تنبيه

قد أوردنا نصوص معنى سجيل ، وترجيح الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : أنها حجارة من طين شديد القوة تنبيهاً على ما قيل من استبعاد ذلك ، ورداً على من صرف معناها إلى غير الحجارة المحسوسة .

أما من استبعدها ، فقد حكاه الفخر الرازي بقوله : واعلم أن من الناس من أنكر ذلك .

وقالوا : لو جوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله ، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خالياً عن الثقل ، وأن يكون في وزن التبنه ، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات .

فإنه متى جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار ، ولا نراها ، وأن يحصل الإدراك في عين الضرير ، حتى يكون هو بالمشرق ، ويرى قطعة من الأرض بالأندلس ، وكل ذلك محال .

ثم قال : واعلم أن ذلك جائز في مذهبنا ، إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع .

وهذا القول يحكيه الفخر الرازي المتوفي سنة 606 ستمائة وست ، فنرى استبعادهم إياها مبني على تحكيم العقل ، وهذا باطل لأن خوارق العادات دائماً فوق قانون العقل ، بل إن تصورات العقل نفسه منشؤها من تصوراتنا لما نشاهده .

وإذا حدث العقل بما لم يشهده أو يعلم كنه وجوده لاستبعده كما هو في واقعنا اليوم ، لو حدثت به العقول سابقاً من نقل الحديث ، والصورة على الأثير ، وتوجيه الطائرات وأمثالها ، لما قوي على تصورها لأنها فوق نطاق محسوساته ومشاهداته .

وحتى نحن لو لم يسايرها من علم بما يحمله الأثير من تيار كهربائي ، وما له من دور فعال في ذلك لما أمكننا تصوره ، ثم من يمنع شيئاً من ذلك علا قدرته تعالى .

وقد أخبرنا أن تلك الجبال سيأتي يوم تكون فيه كالعهن المنفوش أخف من التبنة ، التي مثلوا

بها ، بل ستكون أقل من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَسُيِّرَتِ الجبال فَكَانَتْ سَرَاباً ﴾ [النبأ : 20] ، فظهر بطلان هذا القول الذي استبعدها لعدم إدراك العقل لها .

أما من يؤول هذا المعنى إلى معنى آخر ، فهو قريب من الأول من حيث المبدأ ، إلا أنه أثبت الأصل وفسره بما يتناسب والعقل .

وهو محكي عن الإمام محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا ، إذ فسر الحجارة من سجيل ، بأنه وباء الجدريّ .

وبالتالي : فالطير الأبابيل : هي البعوض وما أشبهه .

وقد اعتذر له السيد قطب : بأن الدافع لذلك هو ما كان شائعاً في عصره من موجات متضاربة ، موجة انحراف في التفكير نحو الإسلام واستغلال الإسرائيليات ، كمثال على ما يشبه الأباطيل في تشويه حقائق الإسلام عند غير المسلمين .

ومن ناحية أخرى طوفان علمي حديث ، من إنتاج العقل البشري فبدلاً من أن ثبتت حادثة كهذه صرفت إلى ما يألفه العقل من إيقاع ميكروب الجدري بجيش أبرهة حتى أهلكه لكي لا يتصادم في إثبات الحادثة على ما نص عليه القرآن العقلية العلمانية الحديثة .

هذا ملخص ما اعتذر به السيد قطب عن هذا القول .

ولكن من الناحية العلمية والنصوص القرآنية ، فقد تقدم : أن الحجارة التي من سجيل ، جاء النص على أنها ليست خاصة بهؤلاء القوم ، بل ألقيت على قوم لوط ، بعد أن جعل عاليها سافلها ، فما موقع الجدريّ منهم بعد إهلاكهم بإفكها المذكور ؟

ثم جاء أيضاً : أنها من طين ، فأين الطينة من الجراثيم الجدرية ؟

ومن الناحية العلمية : من أين جيء بمكروب الجدريّ ؟ وأين كان قبل أن تأتي به الطير الأبابيل ؟

ومتى كان ميكروب الجدريّ أو غيره يميز بين قرشي وحبشي ؟

ومتى كان أي ميكروب يفتك بقوم بسرعة ، يجعلهم كعصف مأكول ، مع أن : فجعلهم ، تشعر بالسرعة في إهلاكهم ، والعصف اليابس الذي تعصف به الريح لخفته .

ومتى كان وجود الجدريّ طفرة وفجاءة ، إنه يظهر في حالات فردية ، ثم ينتشر هذا من الناحية العلمية ، وإدراك العقل ، لما عرف من ميكروب الجدري .

ولكن ملابسات الحادثة تمنع من تصور ذلك عقلاً لعدم انتشاره في جميع أفراد المنطقة ، ولعدم تأثيره فعلاً بهذه الصورة ، ولعدم أيضاً تصور مجيئه فجاءة ، فدل العقل نفسه على عدم صحة هذا القول .

ثم من ناحية أخرى إذا أردنا خوارق العادات لعدم تصور مجيئه فجاءة، فدل العقل نفسه على عدم صحة هذا القول.

(215/831)

ثم من ناحية أخرى إذا أردنا خوارق العادات لعدم تصور العقل لها ، فكيف نثبت مثل :

حنين الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك، وتسبيح الحصى في كفه صلوات الله وسلامه عليه؟

وقد شاهد العقل الصورة القصوى، وهي خروج الناقة من الصخرة لقوم صالح، بل إننا الآن بالحس والعقل نشاهد ما لا ندرك كنهه في وسائل الإعلام، ونسمع الصوت من الجماد مسجلاً على شريط بسيط جداً.

فهل ينفي الباقي؟ بل كيف أثبت النصارى لعيسى ابن مريم عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص. وإحياء الموتى، وعمل الطير من الطين، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله.

وكيف أثبت اليهود لموسى أمر العصا وشق البحر؟ وأين العقل من ذلك كله؟

الواقع أننا في زمان ومع كل قضية، يجب أن نلتزم جانب الاعتدال، لا هو جري وراس كل خبر، ولو كان إسرائيلياً ولا هو رد لكل نص ولو كان صريحاً قرآنياً، بل كما قال السيد

قطب في ذلك :

يجب أن نستمد فكرنا من نصوص القرآن ، وأن ما يقرره نعتقده ونقول به .

وقد ناقشنا هاتين الفكرتين القديمة التي استبعدت ذلك كلية ، والحديثة التي أولتها .

ونضيف شيئاً آخر في جانب الفكرة الثانية ، وهي لعل مما حدا بأصحابها إلى ذلك ما جاء عن قتادة قوله : إنه لم ير الجدريّ بأرض العرب مثل تلك السنة .

وقيل أيضاً : لم ير شجر الحنظل ، إلا في ذلك التاريخ .

فيقال أيضاً : إن العقل لا يستبعد هنا أن يكون إهلاك هذا الجيش الكبير بتلك الحجارة في مكان معسكره في بطن الوادي ، ووقوع الجثث مصابة بها ، لا يمنع أن تتعفن ثم يتولد منها مكروب الجدريّ ، ولا مانع من ذلك . والعلم عند الله تعالى .

تنبيه آخر

قالوا : إن أصحاب هذا الجيش نصارى وهم أهل دين وكتاب ، وأهل مكة وثنيون لا دين لهم ، والكعبة ممتلأة بالأصنام ، فكيف أهلك الله النصارى أصحاب الدين ولم يسلطهم على الوثنيين .

وأجيب عن ذلك بعدة أجوبة .

منها : أن الجيش ظالم باغ ، والبغي مرتعه وخيم ، ولو كان المظلوم أقل من الظالم ، ويشهد لذلك الحديث " في نصرة المظلوم ، واستجابة دعوته ولو كان كافراً " .

ومنها : أن الوثنية اعتداء على حق الله في العبادة ، وغزو هذا الجيش اعتداء على حقوق العباد . ومنها : إنه إرهاص لمولد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، إذ ولد في هذا العام نفسه .

وكلها وإن كانت لها وجه من النظر ، إلا أنه يبدو لي وجه ، وهو أن الأصل في نشأة البيت وإقامته ، إنما هو الله رفع قواعده وأقام الصلاة في رحابه ، وكان طاهراً مطهراً للعاكفين فيه والركع السجود ، وإنما الوثنية طارئة عليه وإلى أمد قصير مداه ودنا منتهاه ، لدين جديد .

والمسيحية بنفسها تعلم ذلك وتنص عليه وتبشر به ، فكانت متعدية على الحقين معاً ، حق الله في بيته ، والذي تعلم حرمته وماله ، وحق العباد الذين حوله .

وكانت لو سلطت عليه بمثابة المنتصرة على مبدأ صحيح ، مع فسادها مبدأ صحة وسلامة بناء البيت ، ووضعه البيت الذي من خصائصه أن يكون مثابة للناس وأمناً .

فكيف لا يأمن هو نفسه من غزو الغزاة وطغيان الطغاة ، فصانه الله تعالى صيانة لمبدأ وجوده ، وحفاظاً على أصل وضعه في الأرض ، ويكفي نسبته لله بين الله .

وقد أدرك أبو طالب هذا المعنى بعينه إذ قال لأبرهة :

أنا رب الإبل وللبيت رب يحميه . وأتى باب الكعبة فتعلق بها وقال :

لا هم إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك . . . لا يغلبن صليبهم . . . ومحالهم عدداً يوالك

إن يدخلوا البلد الحرا . . . م فأمر ما بدا لك

وقيل : إنه قال :

يا رب لا أرجو لهم سواكا . . . يا رب فامنع منهم حماكا

إن عدو البيت من عاداكا . . . إنهم لن يقهروا قواكا . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

(217/831)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزل ﴿ ألم تر كيف فعل ربك ﴾ بمكة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل عن عثمان بن المغيرة بن الأخنس قال : كان من حديث أصحاب الفيل أن أبرهة الأشرم الحبشي كان ملك اليمن ، وإن ابن ابنته أكسوم بن الصباح الحميريّ خرج حاجاً ، فلما انصرف من مكة نزل في كنيسة بنجران فغدا عليها

ناس من أهل مكة فأخذوا ما فيها من الحليّ وأخذوا متاع أكسوم ، فانصرف إلى جده مغضباً ، فبعث رجلاً من أصحابه يقال له شهر بن معقود على عشرين ألفاً من خولان والاشعريين فساروا حتى نزلوا بأرض خثعم فتنحت خثعم عن طريقهم ، فلما دنا من الطائف خرج إليه ناس من بني خثعم ونصر وثقيف فقالوا : ما حاجتك إلى طائفنا ، وإنما هي قرية صغيرة ، ولكنا ندلك على بيت بمكة يعبد وحرز من لجأ إليه من ملكه تم له ملك العرب ، فعليك به ودعنا منك فأتاه حتى إذا بلغ المغمس وجد إبلاً لعبد المطلب مائة ناقة مقلدة فانهبها بين أصحابه ، فلما بلغ ذلك عبد المطلب جاءه ، وكان جميلاً ، وكان له صديقاً من أهل اليمن يقال له ذو عمرو فسأله أن يرد عليه إبله ، فقال : إني لا أطيق ذلك ، ولكن إن شئت أدخلتك على الملك فقال عبد المطلب افعل . فأدخله عليه فقال له : إن لي إليك حاجة . قال : قضيت كل حاجة تطلبها . قال : أنا في بلد حرام وفي سبيل بين أرض العرب وأرض العجم ، وكانت مائة ناقة لي مقلدة ترعى بهذا الوادي بين مكة وتهامة عليها عير أهلها وتخرج إلى تجارتنا وتتحمل من عدوّنا عدا عليها جيشك فأخذوها ، وليس مثلك يظلم من جاوره . فالتفت إلى ذي عمرو ثم ضرب بإحدى يديه على الأخرى عجباً فقال : لو سألني كل شيء أحوزه أعطيته إياه أما ابلك فقد رددنا إليك ومثلها معها ، فما يمنعك أن تكلمني في بنيتكم هذه وبلدكم هذه فقال له عبد المطلب : أما بنيتنا هذه وبلدنا

هذه فإن لهما رباً إن شاء أن يمنعهما منعهما ، ولكنني إنما أكلمك في مالي فأمر عند ذلك بالرحيل وقال : لتهدمن الكعبة ولتنهبن مكة فانصرف عبد المطلب وهو يقول :

(218/831)

لا همّ إن المرء يمنع رحله فامنع حلالك . . . لا يغلبن صليبهم ومحالهم عدواً محالك

فإذا فعلت فربما تحمى فأمر ما بدا لك . . . فإذا فعلت فإنه أمر تتم به فعالك

وغدوا غداً بجموعهم والفيل كي يسبوا عيالك . . . فإذا تركتهم وكعبتنا فوا حرباً هنالك

فلما توجه شهر وأصحاب الفيل وقد أجمعوا ما أجمعوا طفق كلما وجهوه أناخ وبرك فإذا صرفوه عنها من حيث أتى أسرع السير ، فلم يزل كذلك حتى غشيهم الليل وخرجت عليهم طير من البحر لهم خراطيم كأنها البلس شبيهة بالوطواط حمر وسود ، فلما رأوها أشفقوا منها وسقط في أيديهم فرمتهم بحجارة مدحرجة كالبنادق تقع على رأس الرجل فتخرج من جوفه ، فلما أصبحوا من الغد أصبح عبد المطلب ومن معه على جبالهم فلم يروا أحداً غشيهم فبعث ابنه على فرس له سريع ينظر ما لقوا فإذا هم مشدخين جميعاً ، فرجع يرفع رأسه كاشفاً عن فخذه ، فلما رأى ذلك أبوه قال : إن ابني أفرس العرب وما كشف عن فخذه إلا بشيراً أو نذيراً ، فلما دنا من ناديهم قالوا ؟ ما وراءك ؟ قال : هلكوا

جميعاً .

فخرج عبد المطلب وأصحابه ، فأخذوا أموالهم وقال عبد المطلب شعراً في المعنى :

أنت منعت الجيش والأفيالا . . . وقد رعوا بمكة الأفيالا

وقد خشينا منهم القتالا . . . وكل أمر منهم معضالا

شكراً وحمداً لك ذا الجلالا . . . فانصرف شهر هارباً وحده ، فأول منزل نزله سقطت يده اليمنى ، ثم نزل منزلاً آخر فسقطت رجله اليمنى ، فأتى منزله وقومه وهو جسد لا أعضاء له ، فأخبرهم الخبر ثم فاضت نفسه وهم ينظرون .

(219/831)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن عباس قال : جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح ، فأتاهم عبد المطلب فقال : إن هذا بيت الله لم يسلط عليه أحد . قالوا : لا نرجع حتى نهدمه وكانوا لا يقدمون فيلهم إلا تأخر ، فدعا الله الطير الأبابيل ، فأعطاها حجارة سوداً عليهم الطين ، فلما حاذتهم رمتهم فما بقي منه أحد إلا أخذته الحكة ، فكان لا يحك إنسان منهم جلده إلا تساقط لحمه .

وأخرج ابن المنذر والحاكم وصححه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس قال : أقبل

أصحاب الفيل حتى إذا دنوا من مكة استقبلهم عبد المطلب فقال لملكهم : ما جاء بك إلينا ؟ ألا بعثت فنأتيك بكل شيء أردت ؟ فقال : أخبرت بهذا البيت الذي لا يدخله أحد إلا أمن فجئت أخيف أهله فقال : إنا نأتيك بكل شيء تريد فارجع ، فأبى أن يرجع إلا أن يدخله ، وانطلق يسير نحوه وتخلف عبد المطلب ، فقام على جبل فقال : لا أشهد مهلك هذا البيت وأهله . ثم قال : اللهم إن لكل إله حلالاً فامنع حلالك ، لا يغلبن محالهم أبداً محالك . اللهم فإن فعلت فأمر ما بدا لك . فأقبلت مثل السحابة من نحو البحر حتى أظلتهم طيراً أبابيل التي قال الله ترميهم بحجارة من سجيل فجعل الفيل يعج عجاً فجعلهم كعصف مأكول .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ قال : أقبل أبرهة الأشرم بالحبشة ومن تبعه من غواة أهل اليمن إلى بيت الله ليهدموه من أجل بيعة لهم أصابها العرب بأرض اليمن ، فأقبلوا بفيلهم حتى إذا كانوا بالصفاح فكانوا إذا وجهوه إلى بيت الله ألقى بجرانه إلى الأرض ، فإذا وجهوه قبل بلادهم انطلق وله هرولة ، حتى إذا كانوا ببجلة اليمانية بعث الله عليهم طيراً أبابيل بيضاً وهي الكبيرة ، فجعلت ترميهم بها حتى جعلهم الله كعصف مأكول ، فنجا أبو يكسوم فجعل كلما نزل أرضاً تساقط بعض لحمه حتى إذا أتى قومه فأخبرهم الخبر ثم هلك .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ قال : أبو يكسوم جبار من الجبابرة جاء بالفيل يسوقه معه الحبش ليهدم - زعم - بيت الله من أجل بيعة كانت هدمت باليمن ، فلما دنا الفيل من الحرم ضرب بجرانه ، فإذا أرادوا به الرجعة عن الحرم أسرع الهرولة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال : أقبل أبو يسكوم صاحب الحبشة ومعه الفيل فلما انتهى إلى الحرم برك الفيل فأبى أن يدخل الحرم ، فإذا وجه راجعاً أسرع راجعاً وإذا ارتد على الحرم أبى فأرسل الله عليهم طيراً صغاراً بيضاً في أفواهها حجارة أمثال الحمص لا تقع على أحد إلا هلك .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : جاء أصحاب الفيل حتى نزلوا الصفاح ، فأتاهم عبد المطلب فقال : إن هذا بيت لم يسلط عليه أحد . قالوا : لا نرجع حتى نهدمه ، وكانوا لا يقدمون فيلهم إلا تاخر فدعا الله الطير الأبابيل فأعطاها حجارة سوداً عليها الطين ، فلما حاذت بهم صفت عليهم ثم رمتهم فما بقي منهم أحد إلا أصابته الحكة . وكانوا لا يحك إنسان منهم جلده إلا تساقط جلده .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل جعل لا يقع منها حجر إلا سقط وذلك ما كان

الجدري ، ثم أرسل الله سيلاً فذهب بهم فألقاهم في البحر . قيل : فما الأبابيل ؟ قال : الفرق .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود ﴿ طيراً أبابيل ﴾ قال : هي الفرق .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ طيراً أبابيل ﴾ قال : فوجاً بعد فوج ، كانت تخرج عليهم من البحر .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله : ﴿ طيراً أبابيل ﴾ قال : خضر لها خراطيم كخراطيم الإبل وأنف كأنف الكلاب .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس ﴿ طيراً أبابيل ﴾ قال : لها أكفّ كأكفّ الرجل وأنياب كأنياب السباع .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن عبيد بن عمير الليثي قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل بعث الله

عليهم طيراً نشأت من البحر كأنها الخطاطيف بكف كل طير منها ثلاثة أحجار مجزعة في منقاره حجر وحجران في رجليه ، ثم جاءت حتى صفت على رؤوسهم ثم صاحت وألقت ما في أرجلها ومناقيرها فما من حجر وقع منها على رجل إلا خرج من الجانب الآخر ، وبعث الله ريحاً شديداً فضربت أرجلها فزادها شدة فأهلكوا جميعاً .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن عكرمة ﴿ طيراً أبابيل ﴾ قال : طير بيض ، وفي لفظ : خضر جاءت من قبل البحر كأن وجوهها وجوه السباع لم تر قبل ذلك ولا بعده ، فأثرت في جلودهم مثل الجدري ، فإنه أول ما رؤي الجدري .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ لما أقبل أصحاب الفيل يريدون مكة ورأسهم أبو يكسوم الحبشي حتى أتوا المغمس أتتهم طير في منقار كل طير حجر ، وفي رجليه حجران فرمتهم بها ، فذلك قوله : ﴿ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴾ يقول : يتبع بعضها بعضاً ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ يقول من طين . قال : وكانت من جزع أظفار مثل بعر الغنم فرمتهم بها ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ وهو ورق الزرع البالي المأكول : يقول : خرقتهم الحجارة كما يتخرق ورق الزرع البالي المأكول . قال : وكان إقبال هؤلاء إلى مكة قبل أو يولد النبي صلى الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة .

وأخرج ابن المنذر عن أبي الكنود ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ قال : دون الحمصة وفوق العدسة .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن عمران ﴿ طيراً أبابيل ﴾ قال : طير كثيرة جاءت بحجارة كثيرة أكبرها مثل الحمصة وأصغرها مثل العدسة .

(222/831)

وأخرج أبو نعيم في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس في قوله : ﴿ ترميهم بحجارة من سجيل ﴾ قال : بحجارة مثل البندق وبها نضح حمرة مختمة مع كل طائر ثلاثة أحجار حجران في رجليه وحجر في منقاره ، حلقت عليهم من السماء ثم أرسلت تلك الحجارة عليهم فلم تعد عسكرهم .

وأخرج أبو نعيم عن نوفل بن معاوية الديلمي قال : رأيت الحصى التي رمي بها أصحاب الفيل حصى مثل الحمص وأكبر من العدس حمر مختمة كأنها جزع ظفار .

وأخرج أبو نعيم عن حكيم بن حزام قال : كانت في المقدار من الحمصة والعدسة حصى به نضح أحمر مختمة كالجزع فلولا أنه عذب به قوم أخذت منه ما اتخذه لي مسجداً وهي بمكة كثير .

وأخرج أبو نعيم عن أم كرز الخزاعية قالت : رأيت الحجارة التي رمي بها أصحاب الفيل حمراً مختمة كأنها جزع ظفار فمن قال غير ذلك فلم ير منها شيئاً ، ولم يصبهم كلهم ، وقد أفلت منهم .

وأخرج أبو نعيم عن محمد بن كعب القرظي قال : جاؤوا بفيلين ، فأما محمود فربض ، وأما الآخر فشجع فحصب .

وأخرج أبو نعيم عن عطاء بن يسار قال : حدثني من كلم قائد الفيل وسائسه قال لهما : أخبراني خبر الفيل قالا : أقبلنا به وهو فيل الملك النجاشي الأكبر لم يسر به قط إلى جمع إلا هزمهم ، فلما دنا من الحرم جعلنا كلما نوجهه إلى الحرم يربض ، فتارة نضربه فيهبط وتاره نضربه حتى نمل ثم نتركه ، فلما انتهى إلى المغمس ربض فلم يقم فطلع العذاب فقلنا : نجا غيركما ؟ قالا : نعم . ليس كلهم أصابه العذاب . وولى أبرهة ومن تبعه يريد بلاده كلما دخلوا أرضاً وقع منهم عضو حتى انتهوا إلى بلاد خثعم وليس عليه غير رأسه فمات .

وأخرج أبو نعيم من طريق عطاء والضحاك عن ابن عباس أن أبرهة الأشرم قدم من اليمن يريد هدم الكعبة ، فأرسل الله عليهم ﴿ طيراً أبابيل ﴾ يريد مجتمعة لها خراطيم تحمل حصاة في منقارها وحصاتين في رجليها ترسل واحدة على رأس الرجل فيسيل لحمه ودمه وتبقى عظاماً خاوية لا لحم عليه ولا جلد ولا دم .

وأخرج أبو نعيم عن عثمان بن عفان أنه سأل رجلاً من هذيل قال : أخبرني عن يوم الفيل ، فقال : بعثت يوم الفيل طليعة على فرس لي أنثى فرأيت طيراً خرجت من الحرم في كل منقار طير منها حجر ، وفي رجل كل طير منها حجر ، وهاجت ريح وظلمة حتى قعدت بي فرسي مرتين فمسحتهم مسحة كلفته كرداك وانجلت الظلمة ، وسكنت الريح . قال : فنظرت إلى القوم خامدين .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم عن أبي صالح أنه رأى عند أم هانىء بنت أبي طالب من تلك الحجارة نحواً من قفيز مخططة بحمرة كأنها جزع ظفار مكتوب في الحجر اسمه واسم أبيه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ﴿ فجعلهم كعصف ﴾ يقول : كالتبن .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ قال : ورق الحنطة .

وأخرج الفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : العصف المأكول ورق الحنطة .

وأخرج عبد بن حميد عن طاوس ﴿ كعصف مأكول ﴾ قال : ورق الحنطة فيها النقب .

وأخرج عبد بن حميد عن عكرمة ﴿ كعصف مأكول ﴾ قال : إذا أكل فصار أجوف .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس ﴿ كعصف مأكول ﴾ قال : هو الطيور عصافة الزرع .

وأخرج ابن إسحق في السيرة والواقدي وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن عائشة قالت : لقد رأيت سائس الفيل وقائده بمكة أعميين مقعدين يستطعمان .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقي في الدلائل عن ابن أبزى قال : ولد النبي صلى الله عليه وسلم عام الفيل .

وأخرج ابن إسحق وأبو نعيم والبيهقي عن قيس بن مخرمة قال : ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل .

(224/831)

وأخرج البيهقي عن محمد بن جبير بن مطعم قال : ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفيل ، وكانت عكاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة ، وبني البيت على رأس خمس وعشرين سنة من الفيل ، وتنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأس أربعين من الفيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 627.633 ﴾

(225/831)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْفِيلِ

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ : وُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفِيلِ .

[وَقَالَ قَيْسُ بْنُ مَخْرَمَةَ : وُلِدْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفِيلِ] .

وَقَدْ رَوَى النَّاسُ عَنْ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ : لَيْسَ مِنْ مُرُوءَةِ الرَّجُلِ أَنْ يُخْبِرَ بِسِنِّهِ ؛ فَإِنَّهُ إنْ كَانَ صَغِيرًا اسْتَحْقَرُوهُ ، وَإِنْ كَانَ كَبِيرًا اسْتَهْرَمُوهُ .

وَهَذَا قَوْلٌ ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّ مَالِكًا لَا يُخْبِرُ بِسِنِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَكْتُمُ سِنَّهُ ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْعُلَمَاءِ قُدْوَةً بِهِ ؛ فَلَا بَأْسَ أَنْ يُخْبِرَ الْإِنْسَانُ بِسِنِّهِ ، كَانَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا .

قِيلَ لِبَعْضِ الْقُضَاةِ : كَمْ سِنُّك ؟ قَالَ : سِنُّ عَتَّابِ بْنِ أُسَيْدٍ حِينَ وَلَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ ، وَكَانَتْ سِنُّهُ يَوْمَئِذٍ دُونَ الْعِشْرِينَ . انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى جـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الفيل

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1)

يُجْمع على فُيول وفِيَلَة في الكثْرة ، وأَفْيال في القلة .

قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ : هذه قراءةُ الجمهورِ ، أعني فتحَ الراءِ ، وحَذْفُ الألفِ للجزم . وقرأ " السُّلَميُّ " تَرْ " بسكونِ الراءِ كأنه لم يَعْتَدَّ بحَذْفِ الألفِ كقولِهم : " لم أُبْلُه " وقرأ أيضاً " تَرْءَ " بسكونِ الراءِ وهمزةٍ مفتوحةٍ وهو الأصلُ و "كيف " مُعَلِّقَةٌ للرؤيةِ ، وهي منصوبةٌ بفعلٍ بعدها .

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3)

قوله : ﴿ أَبَابِيلَ ﴾ : نعتٌ لطير ، لأنَّه اسمُ جمعٍ . وأبابيل قيل : لا واحدَ له كأساطير وعَباديد ، وقيل : واحدُه إبَّوْل كعِجَّوْل . وقيل : إبَّال وقيل : إبِّيْل مثل سِكِّين . وحكى الرقاشي أنه سُمع إبَّالة بالتشديد . وحكى الفراء إبالة مخففة . والأبابيل : الجماعات شيئاً بعد شيء . وقال الشاعر :

4644 طريقٌ وَجبَّارٌ رِواءٌ أصولُهُ . . . عليه أبابيلٌ من الطيرِ تَنْعَبُ

وقد يُسْتعارُ لغيرِ الطَّيْرِ كقولِه :

4645 كادَتْ تُهَدُّ مِنَ الأصواتِ راحلتي . . . إذ سالَتِ الأرضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ

تَرْميهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيل (4)

قوله : ﴿ تَرْمِيهِم ﴾ : صفةٌ لطير . والعامَّةُ " تَرْميهم " بالتأنيثِ . وأبو حنيفة وابن يعمر وعيسى وطلحةُ بالياءِ مِنْ أسفلُ ، وهما واضحتان ؛ لأنَّ اسمَ الجمعِ يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ ومِنَ التأنيث قولُه :

4646 . . . . كالطَّيْرِ

تَنْجو مِنْ الشُّؤْبوبِ ذي البَرَدِ

(227/831)

وقيل : الضميرُ ل " ربُّك " أي : يَرْميهم ربُّك . و " مِنْ سِجِّيل " صفةٌ لِحجارة . " وكعَصْفٍ " هو المفعولُ الثاني للجَعْلِ معنى التَّصييرِ . وفيه مبالغةٌ حسنة . لم يَكْفِه أَنْ جَعَله أهونَ شيءٍ في الزَّرْع ، وهو ما لا يُجْدي طائلاً ، حتى جَعَلَه رَجيعاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 11 صـ 110.109 ﴾

(228/831)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الفيل

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم غني من أطاعه أغناه ، ومن خالفه أضله وأعماه .

اسم عزيز من وافقه رقاه إلى الرتبة العليا ، ومن خالفه ألقاه في المحنة الكبرى ،

قوله جل ذكره : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل)

أَلَمْ يَنْتَهِ إليكَ فيما أنزل عليك عِلْمُ ما فَعَلَ رَبُّكَ بأصحاب الفيل ؟ .

وفي قصة أصحاب الفيل دلالة على تخصيص اللَّهِ البيتَ العتيقَ بالحِفْظِ والكِلاءة . وذلك أنَّ أبرهة - مَلِكَ اليمن - كان نصرانياً ، وبنى بيعةً لهم بصنعاء . وأراد هَدْمَ الكعبة ليصرفَ الحجَّ إلى بيعتهم .

وقيل : نزل جماعةٌ من العرب ببلاد النجاشي ، وأوقدوا ناراً لحاجةٍ لهم ، ثم تغافلوا عنها ولم يُطفِئوها ، فهبَّت الريحُ وحَمَلَتْ النارَ إلى الكنيسة وأحرقتها ، فَقَصَد أبرهةُ الكعبةَ لِيَهْدِمها بجيشه .

فلمّا قَرُبَ من مكة أصاب مائتي جَمَلٍ لعبد المطلب ، فلمّا أُخْبِرَ بذلك ركب إليهم ، فَعَرَفَهُ

رجلان ، فقالا له :

ارجعْ . . فإنْ المَلِكَ غضبان .

فقال : واللاتِ والعُزّى لا أَرْجعُ إلاَّ بإبلي .

فقيل : لأبرهة : هذا سَيِّدُ قريش ببابِك ؛ فأَذِنَ له ، وسأله عن حاجته ؛ فأجاب أبرهة :

إنها لك غداً ، إذا تقدَّمْتُ إلى البيت .

فعاد عبد المطلب إلى قريش ، وأخبرهم بما حدث ، ثم قام وأخذ بحِلْقِه باب الكعبة ، وهو

يقول :

لا هُمَّ إِنَّ العَبْدَ يم . . . نعُ رَحْلَه فامنعُ حلالَك

لا يَغْلِبَنَّ صليبُهمْ . . . ومِحَالُهم عدْواً مِحالَكْ

إِنْ يدخلوا البلدَ الحرا . . . مَ فأمرٌ ما بدالك

فأرسل اللَّهُ عليهم طيراً أخضرَ من جهة البحر طِوالَ الأعناق ، في مناقر كل طائرٍ حَجَرٌ وفي

مخلبه حجران .

قيل : الحجَرةُ منها فوق العدس دون الحمص .

وقيل : فوق الحمص دون الفستق ، مكتوب على كل واحدة اسم صاحبها .

وقيل : مُخَطَّطَةٌ بالسَّواد . فأُمْطِرَتْ عليهم ، وماتوا كُلُّهم .

وقيل : كان الفيلُ ثمانيةً ؛ وقيل : كان فيلاً واحداً .

وقيل : رواية : إنه كان قبل مولده صلى الله عليه وسلم بأَربعين سنة .

وقيل : بثلاثة وعشرين سنة . وفي رواية " وُلِدْتُ عامَ الفيل " .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ .

أي : مَكرَهم في إبطال .

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴾ .

﴿ أَبَابِيلَ ﴾ : مجمعةً ومتفرّقةً .

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ .

قيل بالفارسية : سنكل أو كل - أي طينٌ طُبِخَ بالنار كالآجُر .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ .

﴿ كَعَصْفٍ ﴾ : كأطرافِ الزرع قبل أن يدرك . " مأكول " أي ثَمرُهُ مأكول .

ويقال : إذا كان عبد المطلب - وهو كافرٌ - أخلص في التجائه إلى الله في استدفاع البلاء عن البيت - فاللَّهُ لم يُخَيِّبْ رجاءَهُ - وسَمِعَ دُعاءَهُ . . . فالمؤمِنُ المخلصُ إذا دعا ربَّه لا يردُّهُ خائباً .

ويقال: إنما أُجيب لأنَّه لم يسألْ لِنَفْسِه، وإنما لأجْلِ البيت . . . وما كان الله لا يضيع. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 768. 770﴾

(230/831)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة:

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1)

الإعراب:

(الهمزة) للاستفهام التقريريّ " 1 "، (كيف) اسم استفهام في محلّ نصب مفعول مطلق نائب عن المصدر أي فعل فعلا عظيما " 2 "، (بأصحاب) متعلّق بـ (فعل) . .

جملة: " لم تر . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة.

وجملة: " فعل ربّك . . . " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي تر المعلّق بالاستفهام كيف.

الصرف:

(الفيل) اسم للحيوان المعروف وزنه فعل بكسر فسكون.

---

(1) أو التعجبيّ.

(2) أو في محلّ نصب حال عامله فعل.

(231/831)

الفوائد :

- أصحاب الفيل :

ذكر المؤرخون وأصحاب السير، أن أبرهة بن الصباح، ملك اليمن، بنى كنيسة بصنعاء وسماها (القلّيس)، وأراد أن يصرف إليها الحاج، فخرج رجل من كنانة فقعد فيها ليلا فخرقها، فأغضبه بذلك وقيل: أججت رفقة من العرب نارا، فحملتها الريح فأحرقتها، فحلف ليهدمن الكعبة، فخرج بالحبشة، ومعه فيل اسمه (محمود)، وكان قويا عظيما، واثنا عشر فيلا غيره. فلما جاء الجيش، خرج إليه عبد المطلب، وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى، وتوجه لهدم الكعبة. وكلما وجهوا الفيل إلى الحرم برك ولم يتزحزح، وإذا وجهوه إلى اليمن والشام هرول، فأرسل اللّه عز وجل طيرا مع كل طائر حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أصغر من الحمصة. فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره، ففروا وهلكوا، ومات أبرهة حتى انصدع صدره عن قلبه. ونجا وزيره

، وطائر يحلق فوقه حتى بلغ النجاشي، فقص عليه القصة، فلما أتمها وقع عليه الحجر، فخرّ ميتا بين يديه.

(232/831)

والذي عليه الأكثرون من علماء السير والتواريخ وأهل التفسير، أن حادث الفيل، كان في العام الذي ولد فيه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم)، ليكون تاريخا بارزا، وكرامة باقية للنبي صلى اللّه عليه وسلم.

[سورة الفيل (105) : الآيات 2 إلى 5]

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)

الإعراب:

(الهمزة) مثل الأولى (في تضليل) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان (عليهم) متعلّق بـ (أرسل)، (أبابيل) نعت لـ (طيرا) منصوب، ومنع من التنوين لصيغة منتهى الجموع (بحجارة) متعلّق بـ (ترميهم)، (من سجّيل) متعلّق بنعت لـ (حجارة)، (كعصف) متعلّق بمحذوف مفعول به ثان..

جملة: "لم يجعل . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "أرسل . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة يجعل.

وجملة: "ترميهم . . . "في محلّ نصب نعت ثان لـ (طيرا).

وجملة: "جعلهم . . . "لا محلّ لها معطوفة على جملة أرسل.

الصرف:

(2) تضليل: مصدر قياسيّ للرباعيّ ضلّل، وزنه تفعيل.

(3) أبابيل: اسم جمع لا واحد له من لفظه، وقيل واحده إبّول زنة سنّور أو أبّول زنة عصفور أو إبّيل زنة سكّين أو إبّال زنة مفتاح.

(5) عصف: اسم لورق الزرع أو حطامه على وزن المصدر فعل بفتح فسكون.

(5) مأكول: اسم مفعول من الثلاثيّ أكل، وزنه مفعول.

البلاغة

التشبيه: في قوله تعالى "فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ".

حيث شبههم بالعصف المأكول – وهو قش البر – لخلوه من ثمره وتطايره، أو شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث الذي أكلته الدواب وراثته، فهو من تشبيه المحسوس بالمحسوس. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 30 صـ 408.406﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(105) سورة الفيل

مكيّة وآياتها خمس

[سورة الفيل (105) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4)
فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)

اللغة :

(الْفِيلِ) حيوان من أضخم الحيوانات له خرطوم طويل يرفع به العلف والماء إلى فمه ويضرب به ، ويجمع على أفيال وفيلة وفيول ومؤنثه فيلة ، والفيل أيضا : الخسيس الثقيل وداء الفيل مرض يحدث منه غلظ كثيف في القدم والساق تتخلله عجر صغيرة ناتئة ، والفيّال صاحب الفيل والجمع فيّالة وفال الرأي وفائله وفيله : ضعيفه والفيالة ضعف الرأي .

(تَضْلِيلٍ) ضياع وخسار وهلاك وقيل لامرىء القيس الملك الضليل لأنه ضلّل ملك أبيه أي ضيّعه .

(طَيْراً) الطير اسم جنس يذكّر ويؤنّث ، وأنشد محمد بن القاسم في تذكير الطير :

لقد تركت فؤادك مستهاما مطوّقة على فنن تغنّى

تميل به وتركبه بلحن إذا ما عنّ للمحزون أنا

فلا يغررك أيام تولّى بذكراها ولا طير أرنّا

(أَبابِيلَ) قال ابن خالويه : "أبابيل نعت للطير أي جماعات واحدها إبّول مثل عجّول وعجاجيل ، وقال أبو جعفر الرؤاسي : واحدتها إبّيل وقال آخرون : أبابيل لا واحد لها ومثلها أساطير وذهب القوم شماطيط وعبابيد وعباديد كل ذلك لم يسمع واحده وقال آخرون : واحد الأساطير أسطورة والأبيل في غير هذا الراهب والوبيل العصا يقال : رأيت أبيلا أي راهبا متكئا على وبيل يسوق أفيلا . الأفيل ولد الناقة ، قال عدي :

أبلغ النعمان عنّي مالكا قول من خاف اظّنانا واعتذر

إنني والله ، فاقبل حلفتي بأبيل كلما صلّى جأر"

وعبارة الزمخشري : "أبابيل : خرائق الواحدة إبّاله وفي أمثالهم :

ضغث على إبالة وهي الحزمة الكبيرة شبهت الخرقة من الطير في تضامها بالإبالة وقيل أبابيل مثل عباديد وشماطيط لا واحد لها " وفي القاموس : " وأبابيل فرق جمع بلا واحد والإبالة كإجّانة ويخفف وكسكّيت وعجّول ودينار القطعة من الطير والخيل والإبل أو المتتابعة منها " .

(سِجّيلٍ) طين مطبوخ محرق كالآجر ، وعبارة الزمخشري :

" و سجيل كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفّار كما أن سجينا علم لديوان أعمالهم كأنه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدوّن واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال لأن العذاب موصوف

بذلك ، وأرسل عليهم طيرا ، فأرسلنا عليهم الطوفان ، وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما من طين مطبوخ كما يطبخ الآجر وقيل هو معرب من سنككل وقيل من شديد عذابه ورووا بيت ابن مقبل " ضربا تواصت به الأبطال سجيلا " وإنما هو سجينا والقصيدة نونية مشهورة في ديوانه " قلت وهي قصيدة جيدة وجاء في أولها :

طاف الخيال بنا ركبا يمانينا ودون ليلى عواد لو تعدينا

وإن فينا صبوحا إن رأيت به ركبا مهيبا وآلاما هما فينا

ورفقة يضربون البيض ضاحية ضربا تواصت به الأبطال سجينا

وأراد بالخيال طيف محبوبته ليلى وركبا حال من ضمير بنا ويمانين جمع يمان وأصله يماني فهجرت الياء لبقاء الألف الدالّة على النسب والحال إن بيننا وبين ليلى مسافة بعيدة وعوادي عادية ثم التفت إليها وقال لو تعديتها لوجدتها كثيرة مانعة من زيارتك والحال إن فينا فرسانا مستلئمة بأسلحتها واستعار لها الصبوح وهو اسم للخمر وقت الصباح بجامع أن كلّا منها يأتي صباحا وفيه تهكم بأعدائه وركبا وإن رأيت أي إن أردت أن تعلمي به اعتراض حذف جوابه لدلالة الكلام عليه والمهيب اسم مفعول الذي تهابه الناس وتخشاه وألام جمع لأم كشجر وواحده لامة كشجرة وهي درع صغيرة تلبس في الحرب والمراد حقيقتها أو الفرسان اللابسة لها وهما أي الألام والركب فينا ، ورفقة عطف على ركبا والبيض كناية عن السيوف وضاحية ظاهرة أي يضربون بها ويجوز قراءته بفتح الباء أي المغافر التي تلبس على الرءوس والمراد بها نفس الرءوس والسجين الشديد الذي يبطل حركة القتيل كأنه من السجن وهو الحبس وهكذا الرواية عن ابن مقبل وبعضهم رواه سجيلا باللام أي شديدا كأنه من التسجيل أي التقوية والتثبيت لكن القصيدة نونية كما رأيت . وقال البخاري في صحيحه : " سجين وسجيل واللام والنون أختان " ثم روى البيت .

أما ابن خالويه فزعم أن السجيل الشديد قال " وقيل حجر وطين والأصل سنك وكل

فعرّب" .

(عصف) العصف تقدم شرحه وهو ورق الزرع ودقاق التبن .

الإعراب :

(236/831)

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم وتر فعل مضارع مجزوم بلم وعلامة جزمه حذف حرف العلة وفيما نص عبارة ابن خالويه فهي وافية بالغرض : " وتر وزنه من الفعل تفعل وقد حذف من آخره حرفان : الألف والهمزة فالألف سقطت للجزم وهي لام الفعل مبدلة من ياء والهمزة هي عين الفعل سقطت تخفيفا والأصل تر أي فانقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها فصارت ألفا لفظا وياء خطا ونقلوا فتحة الهمزة إلى الراء وأسقطوها تخفيفا لأن الماضي من ترى رأيت مهموزا والمصدر من ذلك رأيت زيدا بعيني أراه رؤية فأنا راء ووزان راء فاعل والأصل رائي فاستثقلوا الضمة على الياء المتطرفة فحذفوها فالتقى ساكنان الياء والتنوين فأسقطوا الياء لالتقاء الساكنين فصار راء مثل راع وقاض فالهمزة في راء بإزالة العين في راع فإن شئت أثبته خطا فجعلت بعد الألف ياء عوضا عن الهمزة وإن شئت كتبته بألف ولم

تثبت الهمزة لأن الهمزة إذا جاءت بعد الألف تخفى وقفا فحذفوها خطا وكذلك جاء

وشاء وساء ومراء جمع مرآة كل ذلك أنت فيه مخيّر في الحذف والإثبات فإذا أمرت من

رأيت قلت : ريا زيد براء واحدة فإذا وقفت قلت : ره وإنما

(237/831)

صار الأمر على حرف واحد والأصل ثلاثة لأن الهمزة سقطت تخفيفا والألف سقطت

للجزم فبقي الأمر على حرف ومثله مما يعتلّ طرفاه فيبقى الأمر على حرف قول العرب : ع

كلامي وش ثوبك وق زيدا ول الأمر وف بالوعد ، وأصله من وفى يفي ووعى يعي ووشى

يشي وولي يلي فذهبت الياء للجزم والواو لوقوعها بين ياء وكسرة فبقي الأمر على حرف ،

قال اللّه تعالى : وقنا عذاب النار والأصل اوقينا ذهبت الياء للجزم والواو لوقوعها بين

كسرتين فبقيت قاف واحدة فتقول : ق يا زيد وقيا وقوا ، قال اللّه تعالى : يا أيها الذين آمنوا

قوا أنفسكم ، وكذلك تقول : ريا زيد وريا للاثنين وروا للجماعة وري يا هند وريا مثل

المذكرين ورين يا نسوة فإذا وقفت على كل ذلك قلت عه وقه بالهاء لا غير " .

وكيف اسم استفهام في محل نصب على المصدرية أو الحالية واختار الأول ابن هشام في

المغني قال وعندي بأنها تأتي في هذا النوع مفعولا مطلقا أيضا وإن منه : كيف فعل ربك إذ

المعنى " أي فعل فعل ربك ولا يتجه فيه أن يكون حالا من الفاعل " أي وهو ربك لأنه يقتضي أن الفاعل وهو الرب متّصف بالكيفيات والأحوال لأن المعنى فعل ربك حال كونه على أي حالة وكيفية واتصافه بها محال والجملة المعلقة بالاستفهام سدّت مسدّ مفعولي تر لأن الرؤية قلبية تفيد العلم الضروري المساوي في القوة والجلاء للمشاهدة والعيان ، وبأصحاب الفيل متعلقان بفعل (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم ويجعل فعل مضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر تقديره هو يعود على اللّه تعالى وكيدهم مفعول به أول وفي تضليل في موضع المفعول الثاني (وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ) الواو حرف عطف وأرسل عطف على ألم نجعل لأن الاستفهام فيه للتقرير فكان المعنى قد جعل ذلك وفاعله ضمير مستتر تقديره هو وعليهم متعلقان بأرسل وطيرا مفعول به وأبابيل نعت لطيرا لأنه اسم جمع

(238/831)

(تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ) الجملة نعت ثان لطيرا وترميهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به وبحجارة متعلقان بترميهم ومن سجّيل نعت لحجارة (فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) الفاء عاطفة وجعلهم فعل ماض وفاعل مستتر والهاء مفعول به أول وكعصف في موضع

المفعول الثاني وماأكول نعت لعصف .

الفوائد :

قصة أصحاب الفيل من القصص العربي الممتاز وهي مطوّلة ذكرها أهل التفسير والسير مطوّلة ومختصرة وخلاصتها أن النجاشي ملك الحبشة وهو أصحمة جدّ النجاشي الذي آمن بالنبي صلّى اللّه عليه وسلم كان بعث أبرهة أميرا على اليمن فأقام به واستقامت له الكلمة هناك وبنى كنيسة ليصرف إليها الحجاج من مكة فأحدث رجل من كنانة فيها فحلف أبرهة ليهدمنّ الكعبة فجاء مكة بجيشه على أفيال فحين توجهوا لهدم الكعبة أرسل اللّه عليهم ما قصته ، وارجع إلى المطولات وكان ذلك عام مولد النبي صلّى اللّه عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 582. 587﴾

(239/831)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ المَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والثلاثون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثانى والثلاثون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة قريش)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة قريش)

(5/832)

"فصل فى مقصود السورة الكريمة"

قال البقاعى :

سورة قريش

مقصودها الدلالة على ضد ما دلت عليه الفيل بأن إهلاك الجاحدين المعاندين لإصلاح المقربين العابدين ، وهو بشارة عظيمة لقريش خاصة بإظهار شرفهم في الدارين ، واسمها قريش ظاهر الدلالة على ذلك ، والتعبير بقريش دون قومك أو الحمس مثلا ونحوه دال على أنهم يغلبون الناس أجمع بقوة كما يدل عليه الاسم ، وبغير قوة كما دل عليه ما فعل لأجلهم من قصة الفيل . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 533﴾

(6/832)

"فصل"

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . لإيلاف قريش)

السّورة مَكِّيّة.

آياتها خمس فى عدّ الحجاز، وأَربع فى عدّ الباقين.

وكلماتها تسع عشرة.

وحروفها ثلاث وسبعون.

المختلف فيها آية: ﴿مِنْ جُوْعٍ﴾ فواصل آياتها (شَفَتْ).

سمّيت سورة قريش؛ لذكر أُلفتهم فيها.

معظم مقصود السّورة: ذكر المِنَّة على قريش، وتحضيضهم على العبادة، وشكر الإِحسان، ومعرفة قَدْر النِّعمة والعاقبة والأَمان، فى قوله: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

المتشابهات:

قوله: ﴿إيلافهم﴾ كرّر؛ لأَنَّ الثَّانى بدل من الأَوّل أَفاد بيان المفعول، وهو ﴿رِحْلَةَ الشِّتَآءِ﴾.

وعن الكسائى وغيره تَرْكُ التسمية بين السّورتين، على أَنَّ اللاَّم فى (لإِيلاف) متَّصل بآخر السّورة التى قبلها.

فضل السّورة

فيه من الأَحاديث الضعيفة : من قرأَها (أُعطى من الأَجر عشر حسنات بعدد مَنْ طاف بالكعبة واعتكف بها) ، وحديث على : يا علىّ من قرأَها فكأَنَّما قرأَ ثلث القرآن ، وكتب الله له بكلّ آية مائة حسنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 545 ﴾

(7/832)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة قريش

سميت هذه السورة في عهد السلف : سورة لِإِيلاف قريش قال عمرو بن ميمون الأودي صلَّى عمر بن الخطاب المغربَ فقرأ في الركعة الثانية : ألم تر كيف ولِإِيلاف قريش وهذا ظاهر في إرادة التسمية ، ولم يعدّها في الإِتقان ﴾ في السور التي لها أكثر من اسم .

وسميت في المصاحف وكتب التفسير (سورة قريش) لوقوع اسم قريش فيها ولم يقع في غيرها ، وبذلك عنونها البخاري في (صحيحه) .

والسورة مكية عند جماهير العلماء . وقال ابن عطية : بلا خلاف . وفي القرطبي عن

الكلبي والضحاك أنها مدنية ، ولم يذكرها في (الإِتقان) مع السور المختلف فيها .

وقد عدت التاسعة والعشرين في عداد نزول السور ، نزلت بعد سورة التين وقبل سورة القارعة .

وهي سورة مستقلة بإجماع المسلمين على أنها سورة خاصة .

وجعلها أبيّ بن كعب مع سورة الفيل سورة واحدة ولم يفصل بينهما في مصحفه بالبسملة التي كانوا يجعلونها علامة فصل بين السور ، وهو ظاهر خبر عمرو بن ميمون عن قراءة عمر بن الخطاب . والإِجماع الواقع بعد ذلك نقض ذلك .

وعدد آياتها أربع عند جمهور العادّين . وعدها أهل مكة والمدينة خمس آيات .

ورأيت في مصحف عتيق من المصاحف المكتوبة في القيروان عددها أربع آيات مع أن قراءة أهل القيروان قراءة أهل المدينة .

أغراضها

أمر قريش بتوحيد الله تعالى بالربوبية تذكيراً لهم بنعمةِ أنَّ الله مكّن لهم السير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف لا يخشون عادياً يعدُو عليهم .

وبأنه أمنهم من المجاعات وأمَّنهم من المخاوف لِما وقر في نفوس العرب من حرمتهم لأنهم سكان الحرَم وعُمّار الكعبة .

وبما ألهم الناس من جلب الميرة إليهم من الآفاق المجاورة كبلاد الحبشة .

وردِّ القبائل فلا يغير على بلدهم أحد قال تعالى : (أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة اللَّه يكفرون ((العنكبوت : 67) فأكسبهم ذلك مهابة في نفوس الناس وعطفاً منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 554.553 ﴾

(9/832)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة قريش

مكية وآياتها أربع آيات

بين يدي السورة

* تحدث هذه السورة عن نعم الله الجليلة على أهل مكة ، حيث كانت لهم رحلتان : رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام من أجل التجارة ، وقد اكرم الله

تعالى قريشا بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما : نعمة الأمن والإستقرار ، ونعمة الغنى واليسار [فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 606 ﴾

(10/832)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة قريش

تقول ألفت الشيء إلفا وإلافا ، وآلفته إيلافا : إذا لزمته وعكفت عليه مع الأنس به وعدم النفور منه ، وقريش : اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة ، والرحلة : ارتحال القوم أي شدهم الرحال للمسير ، أطعمهم : أي وسع لهم الرزق ، ومهّد لهم سبيله ، وآمنهم : أي جعلهم فى أمن من التعدي عليهم ، والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 245 ﴾

(11/832)

وقال الفراء :

سورة (قريش)

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . . . ﴾ .

يقول القائل : كيف ابتدىء الكلام بلام خافضة ليس بعدها شىء يرتفع بها ؟ فالقول فى ذلك على وجهين .

قال بعضهم : [/ب] كانت موصلة بألم تر كيف فعل ربك ، وذلك أنه ذكَّر أهل مكة عظيم النعمة عليهم فيما صنع بالحبشة ، ثم قال : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ أيضاً ، كأنه قال : ذلك إلى نعمته عليهم فى رحلة الشتاء والصيف ، فتقول : نعمة إلى نعمة ، ونعمة لنعمة سواء فى المعنى .

ويقال : إنه تبارك وتعالى عجَّب نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال : اعجب يا محمد لنعم الله تبارك وتعالى على قريش فى إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، ثم قال : فلا يتشاغلُن بذلك عن اتباعك وعن الإيمان بالله . ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَاذَا الْبَيْتِ . . . ﴾ و "الإيلاف" قرأ عاصم والأعمش بالياء بعد الهمزة ، وقرأه بعض أهل المدينة "إلا فِهم" مقصورة فى الحرفين جميعا ، وقرأ بعض القراء : (إلْفِهم) . وكل صواب . ولم يختلفوا فى نصب الرحلة

بإيقاع الإيلاف عليها ، ولو خفضها خافض يجعل الرحلة هى الإيلاف كقولك : العجبُ لرحلتهم شتاء وصيفا . ولو نصب ، إيلافهم ، أو إلفَهم على أن تجعله مصدرًا ولا تكرُّه على أول الكلام كان صوابا ؛ كأنك قلت : العجب لدخولك دخولا دارنَا يكون الإيلاف وهو مضاف مثل هذا المعنى كما قال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ .

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ . . . ﴾ .

بعد السنين التى أصابتهم ، فأكلوا الجيف والميتة ، فأخصبت الشام فحملوا إلى الأبطح ، فأخصبت اليمن فحُمِلت إلى جُدَّة . يقول : فقد أتاهم الله بالرزق من جهتين وكفاهم الرحلتين ، فإن اتبعوك ولزموا البيت كفاهم الله الرحلتين أيضا كما كفاهم .

(12/832)

وقوله عز وجل : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ . . . ﴾ .

يقال : إنها بلدة آمنة ، ويقال : من الخوف : من الجذام ، فكفوا ذلك ، فلم يكن بها حينئذ جذام . وكانت رحلة الشتاء [/ا] إلى الشام ، ورحلة الصيف إلى اليمن ، ومن قرأ : "إلفهم" فقد يكون مِن : يُؤلَفون ، وأجود من ذلك أن يكون من [يألفون رحلة الشتاء ورحلة

الصيف والإيلاف] من : يؤلفون ، أى : أنهم يهيئون ويجهزون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 293. 294 ﴾

(13/832)

وقال الأخفش :

سورة (قريش)

﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ ﴾

﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ ﴾ اي : فعَلَ ذلِكَ لايلافِ قُرَيْشٍ لتألّف ثم ابدل فقال ﴿ إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ ﴾ لأنها من "أَلِفَ" * وقال بعضهم ﴿ لإِيلاَفِ ﴾ جعلها من "آلَفُوا" .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 585 ﴾

(14/832)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة قريش«1»

1 - (الإيلاف) : مصدر «آلفت فلانا كذا إيلافا» ، كما تقول : ألزمته إيّاه إلزاما .

يقول : فعل هذا بأصحاب الفيل ليؤلف قريشا هاتين الرّحلتين ، فتقيم بمكة . وقد بينت هذا في «المشكل» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 472 ﴾

---

(1) هي مكية عند الجمهور ، ومدنية عند الضحاك والكلبي .

(15/832)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة قريش

عدد 29 - 109

نزلت بمكة بعد سورة التين وهي أربع آيات ، وسبع وعشرون كلمة ، وثلاثة وسبعون حرفا ، لا يوجد سورة مبدوءة أو مختومة بما بدئت وختمت به لا ناسخ ولا منسوخ فيها ، وتسمى سورة الإيلاف ومثلها في عدد الآي الإخلاص .

مطلب في قريش ومن خصهم بالعهد :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "لِإِيلافِ" أي عهد "قُرَيْشٍ 1" اسم لعشيرة الرسول صلّى اللّه عليه وسلم

والعهد بالبداوة شبه الاجازة بالخفارة ، وأول من أخذه منهم هاشم جد رسول اللّه محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم من ملك الشام كما سيأتي في الآية 67 من سورة العنكبوت في ج 2 واللام فيه للتعجيب أي أعجبوا أيها الناس بأهل مكة لهذا العهد الذي أخذته قريش بسبب سكناهم في الحرم الشريف وكيف صاروا به آمنين من كل أحد ببركة البيت الحرام وقد كثر خيرهم بسبب "إِيلافِهِمْ" وائتلافهم بصورة دائمة مطردة "رِحْلَةَ الشِّتاءِ" إلى اليمن "وَالصَّيْفِ 2" إلى الشام ليختاروا منها ويتجروا آمنين في تنقلاتهم هذه والناس يتخطفون من حولهم ، وإذا تعرض لهم من لا يعرفهم وقالوا نحن أهل حرم اللّه تركوهم واحترموهم ، وهذه ميزة عظيمة خاصة لهم لم يتحف بها غيرهم فإذا كانوا بعد هذا لا يؤمنون باللّه الذي أنعم عليهم بالعقل والسمع والبصر فجدير بهم أن يؤمنوا لهذه النعمة فقط التي خصوا بها دون غيرهم ، وإذا كان كذلك "فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ الَّذِي" بسبب وجودهم فيه "أَطْعَمَهُمْ" اللّه "مِنْ جُوعٍ 3" وكانوا في غاية الشدة منه قبل هذا العهد "وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ 4" عظيم كانوا عليه قبله والتنكير في الكلمتين يدل على أنهم كانوا في حاجة ماسة للأمن والطعام لأنهم كانوا قبل نزولهم الحرم الشريف وقبل أخذ هذا العهد الممتاز يقاسون الأمرين

فسخر اللّه لهم هاشما وألقى في قلبه أخذ هذا العهد وسخر له ملك الشام والقى في قلبه إعطاءه له لأنه سادن الكعبة المعظمة وذلك بسبب دعوة إبراهيم عليه السلام أولا ووجود المصطفى أخيرا (راجع تفسير الآية 128 من البقرة في ج 3) وسبب نزولها أن قريشا لما كذبت محمدا دعا عليهم فقال اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فاشتد عليهم القحط فقالوا يا محمد أدع لنا ربك فإنا مؤمنون فدعا فأخصبت بلادهم ثم أصروا على كفرهم.

وقريش ولد النضر بن كنانة فمن لم يلده النضر فليس بقريشي.

روى مسلم عن وائلة بن الأسقع قال صلّى اللّه عليه وسلم إن اللّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشا من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم وسموا قريشا لشدتهم ومنعتهم تشبيها بالقرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ولا تصاد إلا بالنار وقد يأتي التصغير للتعظيم وكانوا متفرقين فجمعهم اللّه بواسطته.

قص بن كلاب وهو الذي أنزلهم الحرم واتخذوه مسكنا ولذلك سمي مجمعا والتقرش التجمع قال شاعرهم:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا به جمع اللّه القبائل من فهر

روى البخاري ومسلم أن رسول اللّه قال إن الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم ، وعن جابر أن رسول اللّه قال : الناس تبع لقريش في الخير والشر ، قال الكلبي أول من حمل السمراء (القمح الحنطة) من الشام هاشم بن عبد مناف وفيه يقول شاعرهم :

قل للذي طلب السماحة والندى هلا مررت بآل عبد مناف

هلّا مررت بهم تريد قراهم منعوك من حر ومن اكفاف

الرائشين وليس يوجد رائش والقائلين هلمّ للأضياف

والخالطين غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافي

والقائمين بكل وعد صادق والراحلين برحلة الإيلاف

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

سفرين سنّهما له ولقومه سفر الشتاء ورحلة الأصياف

هذا ومما تفاخر به قريش قول القائل :

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم ألف وليس لكم إلاف

أولئك أومنوا جوعا وخوفا وقد جاعت بنو أسد وخافوا

قال ابن عباس رضي اللّه عنهما : الناس يتفاضلون بالدنيا بالشرف والبيوتات والإمارات والغنى والجمال والهيئة والمنطق ، ويتفاضلون في الآخرة بالتقوى واليقين وأتقاهم أحسنهم يقينا ، وأزكاهم عملا ، وأرفعهم درجة .

واعلم أن ما قاله أبي بن كعب بأن هذه السورة وسورة الفيل واحدة ، قول لا قيمة له ، كما أن ما قاله غيره من أن أحرف الجر من الإيلاف متعلق بكلمة مأكول من آخر سورة الفيل لأنه يخالف أقوال الجمهور وآرائهم بأنها منفصلة عنها وانها لم تنزل بعدها كما علمت مما تقدم ، وهو كالقول بأن الانشراح والضحى واحدة ، والأنفال والتوبة واحدة ، وانهما نزلتا سوية ولم يفصل بينهما بالبسملة ، بل القول المعتمد هو أن كلا من هذه السور الست نزلت منفردة عن الأخرى ، وهذه منفردة بالنزول وترتيب القرآن أيضا ، ولا يؤيد قول أبي رضي اللّه عنه قول من جعلهما سورة واحدة بأخبار القرآن كله ، كالسورة الواحدة من حيث انه يصدق ويبين بعضه بعضا لإطباق الصحابة على معارضته ، وإجماع القراء على مخالفته وعلى الفصل بينهما وأنهما سورتان ، وقد مرّ أول الضحى بعض ما يتعلق بهذا وله صلة أول سورة التوبة في ج 3 .

هذا ، واللّه أعلم ، واستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه وسلم

على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 232.234 ﴾

(18/832)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة قريش

مكية

وقد عرفت أن لام لئلاف قريش بماذا تتعلق والصيف كاف إن لم تتعلق اللام بقوله فليعبدوا لخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(19/832)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة قريش

قال الجمهور مكية وقيل مدنية وآيها أربع عراقي ودمشقي وخمس حجازي وحمصي

خلافها من جوع حجازي وحمصي

واختلف في ﴿ لإيلف ﴾ الآية 1 فابن عامر بالهمزة من غير ياء بوزن لعلاف مصدر ألف ثلاثيا ككتب كتابا قال ألف الرجل ألفا والإفا وقرأ أبو جعفر بياء ساكنة بلا همز وذلك أنه لما أبدل الثانية ياء حذف الأولى على غير قياس والباقون بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة مصدر آلف رباعيا على وزن أكرم

واختلف في ﴿ إلافهم ﴾ الآية 2 فأبو جعفر بهمزة مكسورة بلا ياء كقراءة ابن عامر في الأولى فهو ألف ثلاثيا والباقون بالهمزة وياء ساكنة بعدها فكلهم على إثبات الياء في الثاني غير أبي جعفر

المرسوم أجمع المصاحف على إثبات الياء في ليلف وحذفها في الفهم وحذف الألف قبل الفاء فيهما . انتهى انتهى . اهـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(20/832)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة قريش "

" لإيلاف " قرأ الشامي بهمزة مكسورة بعد اللام مع حذف الياء الساكنة بعد الهمزة .

وأبو جعفر بحذف الهمزة المكسورة مع إثبات الياء والباقون بإثبات الهمزة والياء .

" إيلافهم " قرأ أبو جعفر بحذف الياء بعد الهمزة وغيره باثباتها ولا تخفى ثلاثة البدل لورش في الكلمتين .

" وآمنهم " من خوف ، واضح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 357 ﴾

(21/832)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة قريش

قوله تعالى ﴿ لإيلاف قريش ﴾ اتفق القراء على كسر اللام وهمزة مكسورة بعدها وياء بعد الهمزة الا ابن عامر فإنه قرأ بلام مكسروة وهمزة بعدها مقصورة من غير ياء ولا مد فالاصل عند من همز ومد لائلاف قريش لعفلاف قريش فجعل الهمزة الساكنة ياء

لانكسار ما قبلها ثم لينها فالمد فيها لذلك كما قالوا ايمان في مصدر آمن والحجة لمن قصر انه اراد ايضا لإيلاف قريش فحذف المدة تخفيفا لمكان ثقل الهمزة فبقي على وزن لعلاف قريش فأما ايلافهم فلا خلف في همزة ومده واما اللام فقيل هي لام التعجب ومعناها اعجب يا محمد لايلاف الله عز وجل لقريش رحلتهم في الشتاء ورحلتهم في الصيف لان الله كفاهم ذلك وجبى اليهم ثمرات كل شيء

وقيل لام اضافة وصلت آخر ﴿ ألم تر ﴾ بأول ﴿ لإيلاف ﴾ فكأنه قال فجعلهم كعصف مأكول لايلاف قريش

وقيل هي متصلة بقوله ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ لايلافه لهم ذلك على معنى التقديم والتأخير وكل حسن محتمل. انتهى انتهى. اهـ ﴿الحجة فى القراءات السبعة صـ 377.376﴾

(22/832)

وقال ابن زنجلة :

106 - سورة قريش

لإيلاف قريش إي لفهم رحلة الشتاء والصيف 2 , 1

روي يحيى عن أبي بكر لإيلاف قريش إئلافهم بهمزتين الهمزة الثانية ساكنة قيل ثم رجع عنه

وروي عن الأعشى إإيلافهم بهمزتين مكسورتين بعدهما ياء قال النحويون تحقيق الهزتين في

إئلافهم لا وجه له ألا ترى أنا لم نعلم أحدا حقق الهمزتين في نحو هذا ولو جاز هذا الجاز في

إيمان إئمان إذا أردت مصدر آمن يؤمن إيمانا فلما لم يجز في إيمان إئمان كذلك لم يجز في مصدر

آلف يؤلف إيلافا إئلاف بهمزتين ومثل ذلك في البعد ما روي عن الأعشى فإن ذلك أبعد من

الأول لأنه حقق الهمزتين وألحق ياء لا مذهب لها ولا في وجه قوله إيلافهم ألا ترى أن الهمزة

الأولى هي همزة الافعال الزائدة والثانية التي هي فاء الفعل من ألف والياء لا وجه له لأن بعد

الهمزة التي هي الفاء ينبغي أن تكون اللام التي هي العين من آلف فالياء لا مذهب لها إلا

على وجد وهو أن تشبع الكسرة فتزيد ياء

فإن قيل ما وجه تحقيق الهمزتين في إألافهم قلت وجه تحقيقها أنه شبهها بالهمزتين في أأنت

في أن الثانية منهما أصيلة والأولى عليها داخلة ليست في الأصل إلا أنهما تخالفان أأنت من

جهة أن الهمزة الأولى لم تدخل في بنية الكلمة وهي في إألافه داخلة في البنية ولأجل ذلك ألزم

النحويون الهمزة الثانية التخفيف لاجتماع همزتين في بنية واحدة ولا اعتبار بكون الأولى

زائدة كما لم يكن بها اعتبار في آدم ولا يجوز أحد همز الألف من آدم فيقول أأدم مع ما أن

الساكنة أخف من المتحركة فلذلك بعد تحقيق لهمزتين وروى الأعشى أيضا عن أبي بكر

إإلافهم بهمزتين مكسورتين ليس بعدهما ياء

قرأ ابن فليح عن ابن كثير لإيلاف قريش إلفهم ساكنة اللام وليس قبلها ياء جعله مصدر ألف يألف إلفا المعنى أن الله آلفهم

(23/832)

فألفوا قال محمد بن يزيد المبرد كأنه لما قال آلفهم جاء بالثاني على ألفوا إلفا وإلافا كما قال جل وعز والله أنبتكم من الأرض نباتا أي أنبتكم فنبتم نباتا قال ابن نوفل . . . زعمتم أن إخوتكم قريش . . . لهم إلف وليس لكم إلاف . . .

والمعنى فيهما واحد إلفهم وإلافهم إنما هو مصدر على وزن فعل وفعال وهما مصدران فأما ما جاء من المصادر على فعال فنحو لقيته لقاء وكتبته كتابا وأما ما كان على فعل فنحو علمته علما يجعل بعد الأول مصدر ألف إيلافا فإذا عديته إلى مفعولين قلت وكذا فمصدره إفعال لا غير مثل

وقرأ الباقون لإيلاف قريش إيلافهم من يؤلف إيلافا وأصل الساكنة ياء لانكسار ما قبلها فإن قيل لم رد الألف رحلة الشتاء والصيف الجواب إنما رد لأن الأول كان غير متعد فأتى بالثاني معدى إحسانك إحسانك إلى عمرو أشكرك الإحسان الأول

فأما اللام في قوله لإيلاف ذكر النحويون منها ثلاثة أوجه فجعلهم كعصف مأكول لإلف قريش

أي الفيل لتبقى قريش وما ألفوا من رحلة الشتاء والصيف هذا لام الإضافة وقال آخرون هذا كان المعنى اعجبوا الإيلاف قريش وقال معناه متصل بما بعده فليعبدوا أي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 773.776﴾

(24/832)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة قريش 106

مكية وقد ذكر نظيرتها في المدنيين وفي المكي ونظيرتها في الكوفي والبصري الإخلاص ولا نظير لها في الشامي

وكلمها سبع عشرة كلمة

وحروفها ثلاثة وسبعون حرفا

وهي أربع آيات في الكوفي والبصري والشامي وخمس في المدنيين والمكي

اختلافها آية (﴿ من جوع ﴾) عدها المدنيان والمكي ولم يعدها الباقون ورؤوس الآي

قريش

1 والصيف

2 البيت

3 من جوع

* من خوف

4 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 290 ﴾

(25/832)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هو تصغير الترخيم ، لأن القرش الجمع ، والفاعل على قارش ، فقياسه قويرش فرخم وصغر ، واللام متعلقة بقوله تعالى " فليعبدوا " أي ليعبدوا الله تعالى من أجل الفهم ، ولا تمنع الفاء من ذلك ، وقيل تتعلق بجعلهم من السورة قبلها لأنهما كالسورة الواحدة ، وقيل التقدير : اعجبوا لإيلاف ، وفيه قراءات : إحداها إلف وهو مصدر ألف يألف .

والثانية إلاف مثل كتاب وقيام .

والثالثة إيلاف ، والفعل منه آلف ممدودا .

والرابعة إئلاف بهمزتين خرج على الأصل ، وهو شاذ في الاستعمال والقياس .

والخامسة بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة بعدها همزة مكسورة وهو بعيد ، ووجهه أنه أشبع الكسرة فنشأت الياء ، وقصد بذلك الفصل بين الهمزتين كالألف في أنذرتهم ، وإيلاف بدل من الأولى ، و (رحلة) معمول المصدر .

قوله تعالى (من جوع) و (من خوف) أي من أجل جوع ، ويجوز أن يكون حالا : أي أطعمهم جائعين ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(26/832)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة قريش

[سورة قريش (106) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (1)

"لِإِيلافِ" الجار والمجرور متعلقان بالفعل المتأخر ليعبدوا "قُرَيْشٍ" مضاف إليه .

[سورة قريش (106) : آية 2]

إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ (2)

"إِيلافِهِمْ" بدل مما قبله "رِحْلَةَ" مفعول به للمصدر "الشِّتاءِ" مضاف إليه "وَالصَّيْفِ" معطوف على الشتاء .

[سورة قريش (106) : آية 3]

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (3)

"لْيَعْبُدُوا"

الفاء الفصيحة ومضارع مجزوم باللام والواو فاعله "رَبَّ هذَا"

مفعول به مضاف إلى اسم الإشارة "الْبَيْتِ"

بدل من اسم الإشارة والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها .

[سورة قريش (106) : آية 4]

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)

"الَّذِي" اسم موصول بدل من رب "أَطْعَمَهُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "مِنْ جُوعٍ" متعلقان بالفعل "وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ" معطوف على ما قبله . انتهى انتهى . ا هـ

﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 470﴾

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة قُرَيْش

حَدِيث وَاحِد

1537 - قَوْله

عَن عمر رَضِي اللَّهُ عَنْه أَنه قَرَأَ سُورَة قُرَيْش مَع سُورَة أَرَأَيْت فِي الرَّكْعَة الثَّانِيَة من الْمغرب وَقَرَأَ فِي الأولى والتين

قلت رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق وَابْن أبي شيبَة فِي مصنفيهما فِي الصَّلَاة قَالَ عبد الرَّزَّاق أَنا سُفْيَان بن عُيَيْنَة وَقَالَ ابْن أبي شيبَة ثَنَا أَبُو الْأَحْوَص كِلَاهُمَا عَن أبي إِسْحَاق عَن عَمْرو بن مَيْمُون قَالَ صَلَّى بنَا عمر الْمغرب فَقَرَأَ فِي الأولى بالتِّين وَالزَّيْتُون وَفِي الثَّانِيَة أَلم تَر كَيفَ وَلإِيلَاف قُرَيْش انْتَهَى

وَذكره الثَّعْلَبِيّ مَوْقُوفا مَقْطُوعًا فَقَالَ قَالَ عَمْرو بن مَيْمُون صليت الْمغرب خلف عمر . . . فَذكره

1538 - حَدِيث فَضِيلَة السُّورَة

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ من قَرَأَ سُورَة لإيلاف قُرَيْش أعطَاهُ الله عشر حَسَنَات بِعَدَد من طَاف بِالْكَعْبَةِ واعْتَكف بهَا

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث نوح بن أبي مَرْيَم عَن عَلّي بن زيد عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا . . . فَذكره سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 293﴾

(28/832)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة قريش

" لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف " . إن جزيرة العرب تقع بين أوروبا وآسيا ، وقد اشتغل أهلها بالتجارة بين هاتين القارتين ، وكانوا همزة وصل بين الرومان فى

الشام والهنود فى الجنوب . وانتظمت رحلاتهم تنقل السلع بين هؤلاء وأولئك . وقد امتن الله على العرب ـ فى مكة وحولها ـ بهذا الوضع الذى انتفعوا منه كثيرا : " فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" وهذه الكلمات تشير إلى استتباب الأمن وانتفاء الخوف ، وهما أساس الحرية السياسية ووفرة الأقوات وسهولة التبادل ، وهما أساس الحرية الاقتصادية . ونستطيع القول بأن العربى فى أرجاء الجزيرة كان أقوى شخصية وأوسع استقلالا من غيره . وهذا ما رشح العرب لحمل رسالة الإسلام والتطواف جها فى المشارق والمغارب . ومن العلماء من يرى سورة الإيلاف امتدادا لسورة الفيل ، ويجعلهما سورة واحدة . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى ص 542﴾

(29/832)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(30/832)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة قريش

هي شديدة الاتصال بما قبلها ، لتعلق الجار والمجرور في أولها بالفعل في آخر تلك ولهذا كانتا في مصحف أبي سورة واحدة . انتهى انتهى . اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 157 ﴾

(31/832)

قوله تعالى ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) ذي السبحات والحمد فله جميع الكمال (الرحمن) ذي النعم العامة بالإيجاد والبيان فهو ذو الأفضال (الرحيم) ذي الانتقام بالإبعاد والاختصاص بمن يشاء بالإسعاد بالتقريب والإجلال .

(32/832)

لما كان ما فعله سبحانه - من منع هذا الجيش العظيم - الذي من قوته طاعة أكبر ما خلق الله من الحيوان البري فيما نعلمه له - من دخول الحرم الذي هو مظهر قدرته ومحل عظمته الباهرة وعزته والمذكر بخليله عليه الصلاة والسلام وما كان من الوفاء بعظيم خلته - كرامة لقريش عظيمة ظاهره عاجلة حماية لهم عن أن تستباح ديارهم وتسبى ذراريهم لكونهم أولاد خليله وخدام بيته وقطان حرمه ومتعززين به ومنقطعين إليه ، وعن أن يخرب موطن عزهم ومحل أمنهم وعيشهم وحرزهم ، ذكرهم سبحانه وتعالى ما فيه من النعمة الآجلة إكراماً ثانياً بالنظر في العاقبة ، فقال مشيراً إلى أن من تعاظم عليه قصمه ، ومن ذل له وخدمه أكرمه وعظمه : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ أي لهذا الأمر لا غيره فعلنا ذلك وهو إيقاعهم الإيلاف وهو ألفهم لبلدهم الذي ينشأ عنه طمأنينتهم وهيبة الناس لهم ، وذلك ملزوم لألفهم أولاً في أنفسهم ، فإذا كان لهم الألف بحرمهم بما حصل لهم من العز والمكنة به بما دافع عنهم فيه مع ما له من بعد الآفات عنه ، وكان لهم الألف بينهم ، فكان بعضهم يألف بعضاً ، قوي أمرهم فألفوا غيرهم أي جعلوه يألف ما ألفوه إياه أي سنوه له وأمروه به ، أو يكون اللام متعلقاً بفعل العبادة بدلالة ﴿ فليعبدوا ﴾ أي ليعبدونا لأجل ما أوقعنا من ألفهم وإيلافهم ، وعلى التقديرين الألف علة للعبادة أو لما يوجب الشكر بالعبادة ، وفي هذا إشارة إلى تمام قدرته سبحانه وتعالى وأنه إذا أراد شيئاً يسر سببه لأن التدبير كله له

يخفض من يشاء وإن عز ، ويرفع من يشاء وإن ذل ، ليثمر اعتقاد ذلك حبه والانقطاع لعبادته والاعتماد عليه في كل نفع ودفع ، وقريش ولد النضر ابن كنانة واسمهم واسم قبيلتهم مشتق من القرش والتقرش وهو التكسب والجمع ، يقال : فلان يقرش لعياله ويقترش أي يكتسب ، وقال البغوي : وقال أبو ريحانة : سأل معاوية ابن عباس -رضى الله عنهما- : لم سموا بهذا ؟ فقال : لدابة تكون في البحر هي أعظم دوابه ،

(33/832)

يقال لها القرش ، لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته ، وهي تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى ، قال : وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم ، وأنشد للجمحي :

وقريش هي التي تسكن البحر بها . . .

سميت قريش قريشا

سلطت بالعلو في لجة البحر على . . .

سائر الجيوش جيوشا

وقال الزمخشري : هي دابة عظيمة تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار ، والتصغير للتعظيم -انتهى .

وقيل : سموا بذلك لتجمعهم إلى الحرم بعد تفرقهم ، فإن القرش - كما تقدم - الجمع ، وكان المجمع لهم قصياً ، والقرش أيضاً الشديد ، وقيل : هو من تقرش الرجل - إذا تنزه عن مدانيس الأمور ، ومن تقارشت الرماح في الحرب - إذا دخل بعضها في بعض .

والمادة كلها للشدة والاختلاط ، والتعبير بهذا الاسم لمدحهم .

(34/832)

وكما أجرى سبحانه وتعلى مدحهم على الألسنة جعلهم موضعاً للمدح ، قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى بني هاشم من قريش واصطفاني من بني هاشم " وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " الأئمة من قريش " قال العلماء : وذلك أن طيب العنصر يؤدي إلى محاسن الأخلاق ، ومحاسن الأخلاق تؤدي إلى صفاء القلب ، وصفاء القلب عون على إدراك العلوم ، وبإدراك العلوم تنال الدرجات العلا في الدنيا والآخرة ، وصرف الاسم هنا على معنى الحي ليكون الاسم بمادته دالاًّ على الجمع ، وبصرفه دالاًّ على الحياة إشارة إلى كمال حياتهم ظاهراً وباطناً ، قال سيبويه في معد وقريش وثقيف : صرف هذه الأحياء أكثر ، وإن جعلتها اسماً للقبائل - يعني فمنعتها - فجائز حسن ، والذي يدل على تعلق اللام بفعل دلت

عليه الفيل أن السورتين في مصحف أبيّ ـ رضى الله عنه ـ سورة واحدة من غير فصل ، وأن عبد الرزاق وابن أبي شيبة رويا عن أبي إسحاق عن عمرو بن ميمون قال : صلى بنا عمر ـ رضى الله عنه ـ المغرب فقرأ في الأولى بالتين والزيتون ، وفي الثانية ألم تر كيف ولئيلاف قريش .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لا خفاء في اتصالهما أي أنه سبحانه وتعالى فعل ذلك بأصحاب الفيل ومنعهم عن بيته وحرمه لانتظام شمل قريش ، وهم سكان الحرم وقطان بيت الله الحرام ، وليؤلفهم بهاتين الرحلتين فيقيموا بمكة وتأمن ساحتهم – انتهى .

ولما علل بالإيلاف وكان لازماً ومتعدياً ، تقول : آلفت المكان أولفه إيلافاً فأنا مؤلف وآلفت فلاناً هذا الشيء أي جعلته آلفاً له ، وكان الإتيان بالشيء محتملاً لشيئين ثم إبدال أحدهما منه أضخم لشأنه وأعلى لأمره ، أبدل منه قوله : ﴿ إلافهم ﴾ أي إيلافنا إياهم ﴿ رحلة الشتاء ﴾ التي يرحلونها في زمنه إلى اليمن لأنها بلاد حارة ينالون بها متاجر الجنوب ﴿ والصيف ﴾ التي يرحلونها إلى الشام في زمنه لأنها بلاد باردة ينالون فيها منافع الشمال ، وهم آمنون من سائر العرب لأجل عزهم بالحرم المكرم المعظم ببيت الله والناس يتخطفون

من حولهم ، ففعل الله تعالى بأصحاب الفيل ما فعل ليزداد العرب لهم هيبة وتعظيماً فتزيد في إكرامهم لما رأت من إكرام الله تعالى لهم فيكون لهم غاية التمكن في رحلتهم ، والرحلة بالكسر هيئة الرحيل ، وقرىء بالضم وهي الجهة التي يرحل إليها ، وكانوا معذورين لذلك لأن بلدهم لا زرع به ولا ضرع ، فكانوا إذا ضربوا في الأرض قالوا : نحن سكان حرم الله وولاة بيته ، فلا يعرض أحد بسوء ، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة ، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف ، وأول من سن لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف ، وكان يقسم ربحهم بين الغني والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم ، وفي ذلك يقول الشاعر :

قل للذي طلب السماحة والندى . . .

هلا مررت بآل عبد مناف

الرائشين وليس يوجد رائش . . .

والقائلين هلم للإضياف

والخالطين فقيرهم بغنيهم . . .

حتى يكون فقيرهم كالكاف

القائلين بكل وعد صادق . . .

والراحلين برحلة الإيلاف

عمرو العلا هشم الثريد لقومه . . .

ورجال مكة مسنتون عجاف

سفرين سنّهما له ولقومه . . .

سفر الشتاء ورحلة الأصياف

(36/832)

وتبع هاشماً على ذلك إخوته ، فكان هاشم يؤلف إلى الشام وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس ، وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبال هذه الإخوة - أي عهودهم - التي أخذوها بالأمان لهم من ملك كل ناحية من هذه النواحي ، وأفرد الرحلة في موضع التثنية لتشمل كل رحلة - كما هو شأن المصادر وأسماء الأجناس ، إشارة لهم بالبشارة بأنهم يتمكنون عن قريب من الرحلة إلى أي بلد أرادوا لشمول الأمن لهم وبهم جميع الأرض بما نشره الله سبحانه وتعالى من الخير في قلوب عباده في سائر الأرض بواسطة هذا النبي الكريم الذي هو أشرفهم وأعظمهم وأجلهم وأكرمهم .

(37/832)

ولما كان هذا التدبير لهم من الله كافياً لهمومهم الظاهرة بالغنى والباطنة بالأمن ، وكان شكر المنعم واجباً ، فإذا أنعم بما يفرغ المنعم عليه للشكر كان وجوبه عليه أعظم ، سبب عن الإنعام عليهم بذلك قوله : ﴿ فليعبدوا ﴾ أي قريش على سبيل الوجوب شكراً على هذه النعمة خاصة إن لم يشكروه على جميع نعمه التي لا تحصى لأنهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان وأبعدهم عن الكفران ﴿ رب هذا البيت ﴾ أي الموجد له والمحسن إلى أهله بتربيتهم به وبحفظه من كل طاغ ، وتأثيره لأجل حرمته في كل باغ ، وبإذلال الجبابرة له ليكمل إحسانه إليهم وعطفه عليهم بإكمال إعزازه لهم في الدنيا والآخرة وجعل ما داموا عابدين له موصولاً بعز الآخرة ، فتتم النعمة وتكمل الرحمة ، والمراد به الكعبة ، عبر عنها بالإشارة تعظيماً إشارة إلى أن ما تقدم في السورة الماضية من المدافعة عنهم معروف أنه بسببه لا يحتاج إلى تصريح ، وأن ذلك جعله متصوراً في كل ذهن حاضراً مشاهداً لكل مخاطب ، وفي هذا التلويح من التعظيم ما ليس للتصريح ، ثم وصف نفسه الأقدس بما هو ثمرة الرحلتين ومظهر لزيادة شرف البيت فقال تعالى : ﴿ الذي أطعمهم ﴾ أي قريشاً بحمل الميرة إلى مكة بالرحلتين آمنين من أن يهاجوا ، وبإهلاك الذين أرادوا إخراب البيت الذي به نظامهم ، إطعاماً مبتدئاً ﴿ من جوع ﴾ أي عظيم فيه غيرهم من العرب ، أو كانوا هم فيه قبل ذلك لأن بلدهم مهيأ لذلك لأنه ليس بذي زرع ، فهم عرضة للفقر الذي ينشأ عنه الجوع ، فكفاهم ذلك وحده ولم يشركه أحد في كفايتهم ، فليس من الشكر إشراكهم في عبادته

ولا من البر بأبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي دعا لهم بالرزق ونهى أشد النهي عن عبادة الأصنام ، ولم يقل : أشبعهم لأنه ليس كلهم كان يشبع ، ولأن من كان يشبع منهم طالب لأكثر مما هو عنده

" ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب " .

(38/832)

ولما ذكر السبب في إقامة الظاهر ، ذكر السبب في إقامة العيش بنعمة الباطن فقال :

﴿ وآمنهم ﴾ أي تخصيصاً لهم ﴿ من خوف ﴾ أي شديد جداً من أصحاب الفيل ومما ينال من حولهم من التخطف بالقتل والنهب والغارات وبالأمن من الجذام بدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ومن الطاعون والدجال بتأمين النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعن ذلك تسبب الاتحاف بما خصهم به من الإيلاف ، فعلم أن آخرها علة لأولها ، ويجوز أن يكون إلفهم للبلد وقع أولاً فحماه الله لهم مما ذكر ، فيكون ذلك مسبباً عن الإلف فيكون أولها علة لآخرها ، فقد التقى الطرفان ، والتأم البحران المغترفان ، وكما التقى آخر كل سورة مع أولها فكذلك التقى آخر القرآن العظيم بأوله بالنسبة إلى تسع سور هذه أولها إذا عددت من الآخر إليها ، فإن حاصلها المن على قريش بالإعانة على المتجر إيلافاً لهم

بالرحلة فيه والضرب في الأرض بسببه واختصاصهم بالأمر بعبادة الذي منّ عليهم بالبيت الحرام وجلب لهم به الأرزاق والأمان ، ومن أعظم مقاصد التوبة - المناظرة لهذه بكونها التاسعة من الأول - البراءة من كل مارق ، وأن فعل ذلك يكون سبباً للألفة بعد ما ظن أنه سبب الفرقة ، وذكر مناقب البيت ومن يصلح لخدمته ، والفوز بأمانه ونعمته ، والبشارة بالغنى على وجه أعظم من تحصيله بالمتجر وأبهى وأبهر ، وأوفى وأوفر ، وأزهى وأزهر ، وأجل وأفخر ، بقوله تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم ﴾ الآيات ، [التوبة : 17] وقوله تعالى : ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ [التوبة : 28] فعلم بهذا علماً جلياً أنه شرع سبحانه في رد المقطع على المطلع من سورة قريش الذين أكرمهم الله بإنزال القرآن بلسانهم وأرسل به النبي .صلى الله عليه وسلم .إليهم كما أكرمهم ببناء البيت في شأنهم ، وتعظيمه لغناهم وأمانهم ، ومن أعظم المناسبات في ذلك كون أول السورة التي أخذ فيها في رد المقطع على المطلع

(39/832)

شديد المشابهة للسورة المناظرة لها حتى أن في كل منهما مع التي قبلها كالسورة الواحدة فإن براءة مع الأنفال كذلك حتى قال عثمان رضي الله تعالى عنه إن النبي .صلى الله عليه

وسلم ـ توفي ولم يبين أمرها ، فلم يتحرر له أنها مستقلة عنها ، ولذلك لم يكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، وكانت هذه التي من الآخر مقطوعاً بأنها مستقلة مع ما ورد من كونها مع التي قبلها سورة واحدة في مصحف أبيّ رضي الله تعالى عنه ، وقراءة عمر ـ رضى الله عنه ـ لهما على وجه يشعر بذلك كما مضى إشارة إلى أن الآخر يكون أوضح من الأول ، ومن أغرب ذلك أن السورتين اللتين قبل سورتي المناظرة بين أمريهما طباق ، فالأولى في الآخر وهي الفيل أكرم الله فيها قريشاً بإهلاك أهل الإنجيل ، والأولى في الأول وهي الأنفال أكرمهم الله فيها بنصر أهل القرآن عليهم بإهلاك جبابرتهم ، فكان ذلك سبباً لكسر شوكتهم وسقوط نخوتهم المفضي إلى سعادتهم ، وعلم أن البراءة وغيرها إنما عمل لإكرامهم لأنهم المقصودون بالذات وبالقصد الأول بالإرسال والناس لهم تبع كما أن جميع الرسل تبع للرسول الفاتح الخاتم الذي شرفوا بإرساله إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان عدد التسع مشيراً إلى أن قريشاً أهل لأن يتصلوا بعروج الأسرار في الملكوت إلى الفلك التاسع ، وهو العرش الذي هو مقلوب الشرع ، فهم يصعدون بأسرار الشرع – التي من أعظمها الصلاة – من الأسفل إلى الأعلى من الطرفين معاً كما أنه يتنزل عليهم بالبركات من الجانبين ، وإذا ضممت التسع الأولى إلى الأخرى كانت ثمان عشرة ، فكانت مشيرة إلى ركعات الصلوات مضموماً إليها الوتر ، وإلى ظهور الدين ظهوراً كاملاً على غالب أقطار الأرض كما كان في سنة ثمان وعشرين ، وهي الثامنة عشر من موت النبي ـ صلى الله عليه

وسلم- ، وذلك في أثناء خلافة عثمان -رضى الله عنه- فإنه كان فيها قد تمزق ملك كسرى وضعف جداً ، وكذا ملك الروم مع ما كان من زوال أمر

(40/832)

القبط بالكلية ، ومن بديع الإشارات أيضاً أنك إذا نظرت إلى نزول براءة وجدته سنة تسع من الهجرة في غزوة تبوك وعقب الرجوع منها ، فكان كونها تاسعة ونزولها في السنة التاسعة مشيراً إلى كون الدين يظهر على كل مخالف بعد تسع سنين ، وهي السنة الثامنة من موت النبي -صلى الله عليه وسلم- في وسط خلافة الفاروق حين ظهر المسلمون على الفرس والروم ، فقتلوا رجالهم ، وانتثلوا أموالهم ، كما كان قد ظهر عند نزولها على عباد الأوثان من العرب ، ومن الغريب أن قصة الفيل كانت سنة مولد النبي -صلى الله عليه وسلم- ، فهي قبل النبوة بأربعين سنة بعدد كلمات السورتين : الفيل وقريش ، فإن الفيل ثلاث وعشرون وقريش سبع عشرة ، وذلك - والله أعلم - إشارة إلى أن ابتداء الأمن - بإهلاكهم والإشباع بنهب ما كان معهم من أموالهم ومتاعهم - كان لمولده -صلى الله عليه وسلم- وتشريف الوجود بوجوده ، ويكون ذلك ظاهراً كما كان السبب - الذي هو وجوده -صلى الله عليه وسلم- - ظاهراً ، وإلى أن وسطه يكون بنبوته -صلى الله عليه وسلم- ،

ويكون ذلك باطناً كما أن السبب – وهو الوحي باطن ، ثم كان أمن الصحابة رضي الله تعالى عنهم في السنة الثامنة الموازية لعدد كلمات البسملتين على يد النجاشي ملك الحبشة الذين كان الأمن أولاً بإهلاكهم ، وإذا ضممت إليها أحد عشر ضميراً – سبعة في الفيل وأربعة في قريش – كانت تسعاً وخمسين توازيها إذا حسبت من المولد سنة ست من الهجرة ، وفيها كانت عمرة الحديبية وهي الفتح السببي الخفي ، وإلى ذلك أشار -صلى الله عليه وسلم- بقوله في بروك ناقته الشريفة حين بركت فقالت الصحابة رضي الله تعالى عنهم : خلأت القصوى – أي حرنت :

(41/832)

" ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل " وفيها نزلت سورة الفتح ، فكان سبب الأمن العظيم والغنى ، وعقبها في سنتها كان البعث إلى ملوك الأمصار ، وفتح خيبر وانبساط ذكر الإسلام في جميع الأقطار ، وكذا كان عقبها قبل عمرة القضية إسلام عمرو بن العاص على يد النجاشي لما سأله أن يعطيه عمرو بن أميه الضمري -رضى الله عنه- ليقتله ، وذلك حين أرسله النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى النجاشي -رضى الله عنهما - يدعوه إلى الإسلام فأنكر النجاشي ذلك على ابن العاص وشهد للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

بالرسالة وأمره بأن يؤمن به ، ففعل فكان ملك الحبشة بدعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- ناجياً هادياً ، وإلى النبي -صلى الله عليه وسلم- داعياً ، عكس ما كان لملك الحبشة بمولده -صلى الله عليه وسلم- من أنه كان هالكاً ، وإلى الجحيم هاوياً ، وإن حسبت من سنة بنيان الكعبة في الخامسة والعشرين من مولده -صلى الله عليه وسلم- كانت السنة التاسعة والخمسون هي الحادية والثلاثون بعد الهجرة ، وهي سنة استئصال ملك الفرس بقتل آخر ملوكهم يزدجرد ، والفرس هم الذين أزالوا الحبشة عن بلاد اليمن وطهروا منهم أرض العرب ، ولعل قسمة السورتين إلى ثلاث وعشرين وسبع عشرة إشارة إلى أن هذا المولد الشريف الذي حرست الكعبة بمولده -صلى الله عليه وسلم- وحصل الأمن والعز ببركته تبنى الكعبة وتجدد بعد بضع وعشرين سنة من مولده ، قالوا : كان بنيانها وسنه خمس وعشرون سنة ، فلعله كان في آخر الرابعة والعشرين ، ولعل قصة الفيل كانت وله نحو سنة من حين الولادة ، وبه حين البنيان ألف الله بين قريش بعد أن كانوا تنافروا أشد المنافرة وتعاقدوا على الحرب في أمر الحجر الأسود من يضعه في موضعه حتى أصلح الله بينهم به -صلى الله عليه وسلم- فوضعه بيده الشريفة في ثوب ، وأمرهم فأمسكت جميع القبائل بأطرافه ، ثم رفعوه حتى وازوا به موضعه فأخذه هو -صلى الله عليه وسلم- فوضعه في

مكانه ، فكان الشرف له خاصة في الإصلاح والبنيان ، وتشير مع ذلك إلى أنه يبقى في النبوة ثلاثاً وعشرين سنة ، ثم يتوفاه الله سبحانه وتعالى بعد أن جعل الله كيد جميع الكفرة في تضليل من عباد الأوثان والفرس والروم وغيرهم بما فتح الله عليه من جزيرة العرب التي ألف الله بها بين كلمتهم حتى انسابوا على غيرهم فما وافقهم أحد ناوشوه القتال وساوموه النضال والنزال ، ولعل الإشارة بكون قريش سبع عشرة كلمة إلى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد سبع عشرة سنة من بنيان البيت يبعثه الله سبحانه وتعالى لأمر قريش بالعبادة التي أجلّها الصلاة التي أعظمها الفرائض التي هي سبع عشرة ركعة شكراً لنعمة من آمنهم من خوف وأطعمهم من جوع بأعظم العبادة ، وإلى أن ابتداء ألفة قريش بالقوة القريبة من الفعل بعد الشتات العظيم الظاهر وجعل كيد الكفار في تضليل يكون في السنة السابعة عشرة من النبوة ، وذلك سنة أربع من الهجرة فإن فيها كان إجلاء بني النضير من اليهود من المدينة الشريفة وإخلاف قريش الموعد في بدل الموعد وهناً منهم عن لقاء جيش النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكانت بعد بيسير غزوة الأحزاب ، ولذلك قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد انصرافهم :

" الآن نغزوهم ولا يغزونا " يعني أن نخوة الشيطان منهم وحمية الجاهلية أخذت في الاضمحلال لانتهاء قوتهم في الباطل الذي كان سبب عزهم الظاهري الذي هو الذل في الباطن ، وكان ذلك ابتداء عزهم في الباطن الذي هو ذلهم لأهل الإسلام في الظاهر ، وفي أثر الأحزاب كانت غزوة بني قريظة ، فإذا ضممت إلى الكلمات الضمائر الأربعة كانت إحدى وعشرين توازيها سنة ثمان من الهجرة وهي سنة الفتح الأعظم الذي وقعت به الألفة العظمى بين قريش وأمنهم وغناهم الذي وعدهم الله به في السورة المناظرة لها - وهي براءة - بائتلاف جميع العرب وانبعاثهم لاجتماع كلمتهم إلى جهاد الفرس والروم والقبط وأخذهم لبلادهم ، وانتثالهم لكنوزهم وتحكمهم في نسائهم وأولادهم ، فسبحان من هذا كلامه ، وتعالى شأنه وعز مرامه . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 540.533﴾

(44/832)

فصل

قال الفخر :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) ﴾

اعلم أن ههنا مسائل :

المسألة الأولى :

اللام في قوله : ﴿ لإيلاف ﴾ تحتمل وجوهاً ثلاثة ، فإنها إما أن تكون متعلقة بالسورة التي قبلها أو بالآية التي بعدها ، أو لا تكون متعلقة لا بما قبلها ، ولا بما بعدها أما الوجه الأول : وهو أن تكون متعلقة بما قبلها ، ففيه احتمالات :

الأول : وهو قول الزجاج وأبي عبيدة أن التقدير : فجعلهم كعصف مأكول لإلف قريش أي أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش ، وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف ، فإن قيل : هذا ضعيف لأنهم إنما جعلوا : كعصف مأكول لكفرهم ولم يجعلوا كذلك لتأليف قريش ، قلنا هذا السؤال ضعيف لوجوه أحدها : أنا لا نسلم أن الله تعالى إنما فعل بهم ذلك لكفرهم ، فإن الجزاء على الكفر مؤخر للقيامة ، قال تعالى : ﴿ اليوم تجزى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [غافر : 17] وقال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ الله الناس بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ على ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فاطر : 45] ولأنه تعالى لو فعل بهم ذلك لكفرهم ، لكان قد فعل ذلك بجميع الكفار ، بل إنما فعل ذلك بهم : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ ولتعظيم منصبهم وإظهار قدرهم وثانيها : هب أن زجرهم عن الكفر مقصود لكن لا ينافي كون شيء آخر مقصود حتى يكون الحكم واقعاً بمجموع الأمرين معاً وثالثها : هب أنهم أهلكوا لكفرهم فقط ، إلا أن ذلك الإهلاك لما أدى

إلى إيلاف قريش ، جاز أن يقال : أهلكوا لإيلاف قريش ، كقوله تعالى : ﴿ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ [القصص : 8] وهم لم يلتقطوه لذلك ، لكن لما آل الأمر إليه حسن أن يهد عليه الالتقاط .

الاحتمال الثاني : أن يكون التقدير : ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل لإيلاف قريش كأنه تعالى قال : كل ما فعلنا بهم فقد فعلناه ، لإيلاف قريش ، فإنه تعالى جعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، حتى صاروا كعصف مأكول ، فكل ذلك إنما كان لأجل إيلاف قريش .

(45/832)

الاحتمال الثالث : أن تكون اللام في قوله : ﴿ لإيلاف ﴾ بمعنى إلى كأنه قال : فعلنا كل ما فعلنا في السورة المتقدمة إلى نعمة أخرى عليهم وهي إيلافهم : رحلة الشتاء والصيف تقول : نعمة الله نعمة ونعمة لنعمة سواء في المعنى ، هذا قول الفراء : فهذه احتمالات ثلاثة توجهت على تقدير تعليق اللام بالسورة التي قبل هذه ، وبقي من مباحث هذا القول أمران :

الأول : أن للناس في تعليق هذه اللام بالسورة المتقدمة قولين : أحدهما : أن جعلوا السورتين

سورة واحدة واحتجوا عليه بوجوه : أحدها : أن السورتين لا بد وأن تكون كل واحدة منهما مستقلة بنفسها ، ومطلع هذه السورة لما كان متعلقاً بالسورة المتقدمة وجب أن لا تكون سورة مستقلة وثانيها : أن أبي بن كعب جعلهما في مصحفه سورة واحدة وثالثها : ما روي أن عمر قرأ في صلاة المغرب في الركعة الأولى ﴿ والتين ﴾ ، وفي الثانية ﴿ ألم تر ﴾ و ﴿ لإيلاف قريش ﴾ معاً ، من غير فصل بينهما ببسم الله الرحمن الرحيم القول الثاني : وهو المشهور المستفيض أن هذه السورة منفصلة عن سورة الفيل ، وأما تعلق أول هذه السورة بما قبلها فليس بحجة على ما قالوه ، لأن القرآن كله كالسورة الواحدة وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضاً ويبين بعضها معنى بعض ، ألا ترى أن الآيات الدالة على الوعيد مطلقة ، ثم إنها متعلقة بآيات التوبة وبآيات العفو عنه من يقول به ، وقوله :

﴿ إِنَّا أنزلناه ﴾ [القدر : 1] متعلق بما قبله من ذكر القرآن ، وأما قوله : إن أبياً لم يفصل بينهما فهو معارض بإطباق الكل على الفصل بينهما ، وأما قراءة عمر فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الإمام قد يقرأ سورتين .

البحث الثاني : فيما يتعلق بهذا القول بيان أنه لم صار ما فعله الله بأصحاب الفيل سبباً لإيلاف قريش ؟ فنقول : لا شك أن مكة كانت خالية عن الزرع والضرع على ما قال تعالى : ﴿ بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مّنَ الناس تَهْوِى إِلَيْهِمْ وارزقهم مّنَ الثمرات ﴾ [إبراهيم : 37] فكان أشراف أهل مكة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين ، ويأتون لأنفسهم ولأهل بلدهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب ، وهم إنما كانوا يربحون في أسفارهم ، ولأن ملوك النواحي كانوا يعظمون أهل مكة ، ويقولون : هؤلاء جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة حتى إنهم كانوا يسمون أهل مكة أهل الله ، فلو تم للحبشة ما عزموا عليه من هدم الكعبة ، لزال عنهم هذا العز ولبطلت تلك المزايا في التعظيم والاحترام ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحي يتخطفون من كل جانب ويتعرض لهم في نفوسهم وأموالهم ، فلما أهلك الله أصحاب الفيل ورد كيدهم في نحرهم ازداد وقع أهل مكة في القلوب ، وازداد تعظيم ملوك الأطراف لهم فازدادت تلك المنافع والمتاجر ، فلهذا قال الله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل لإيلاف قريش . . . رحلة الشتاء والصيف ﴾ .

والوجه الثاني : فيما يدل على صحة هذا القول أن قوله تعالى في آخر هذه السورة : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت الذى ﴾ [قريش : 3 ، 4] إشارة إلى أول سورة الفيل ، كأنه قال : فليعبدوا رب هذا البيت الذي قصده أصحاب الفيل ، ثم إن رب البيت دفعهم عن

مقصودهم لأجل إيلافكم ونفعكم لأن الأمر بالعبادة إنما يحسن مرتباً على إيصال المنفعة ، فهذا يدل على تعلق أول هذه السورة بالسورة المتقدمة .

(47/832)

القول الثاني : وهو أن اللام في : ﴿ لإِيلاف ﴾ متعلقة بقوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ ﴾ وهو قول الخليل وسيبويه والتقدير : فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش أي : ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة واعترافاً بها ، فإن قيل : فلم دخلت الفاء في قوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ ﴾ ؟ قلنا : لما في الكلام من معنى الشرط ، وذلك لأن نعم الله عليهم لا تحصى ، فكأنه قيل : إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبده لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة .

القول الثالث : أن تكون هذه اللام غير متعلقة ، لا بما قبلها ولا بما بعدها ، قال الزجاج : قال قوم : هذه اللام لام التعجب ، كأن المعنى : اعجبوا لإيلاف قريش ، وذلك لأنهم كل يوم يزدادون غياً وجهلاً وانغماساً في عبادة الأوثان ، والله تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم ، وينظم أسباب معايشهم ، وذلك لا شك أنه في غاية التعجب من عظيم حلم الله وكرمه ، ونظيره في اللغة قولك لزيد وما صنعنا به ولزيد وكرامتنا إياه وهذا اختيار الكسائي والأخفش والفراء .

المسألة الثانية :

ذكروا في الإيلاف ثلاثة أوجه أحدها : أن الإيلاف هو الإلف قال علماء اللغة : ألفت الشيء وألفته إلفاً وإلافاً وإيلافاً بمعنى واحد ، أي لزمته فيكون المعنى لإلف قريش هاتين الرحلتين فتتصلا ولا تنقطعا ، وقرأ أبو جعفر : (لإلف قريش) .

(48/832)

وقرأ الآخرون (لإلاف قريش) ، وقرأ عكرمة (ليلاف قريش) وثانيها : أن يكون هذا من قولك : لزمت موضع كذا وألزمنيه الله ، كذا تقول : ألفت كذا ، وألفنيه الله ويكون المعنى إثبات الألفة بالتدبير الذي فيه لطف ألف بنفسه إلفاً وآلفه غيره إيلافاً ، والمعنى أن هذه الألفة إنما حصلت في قريش بتدبير الله وهو كقوله : ﴿ ولكن الله أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال : 63] وقال : ﴿ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : 13] وقد تكون المسرة سبباً للمؤانسة والاتفاق ، كما وقعت عند انهزام أصحاب الفيل لقريش ، فيكون المصدر ههنا مضافاً إلى المفعول ، ويكون المعنى لأجل أن يجعل الله قريشاً ملازمين لرحلتيهم وثالثها : أن يكون الإيلاف هو التهيئة والتجهيز وهو قول الفراء وابن الأعرابي فيكون المصدر على هذا القول مضافاً إلى الفاعل ، والمعنى لتجهيز قريش رحلتيها حتى

تتصلا ولا تنقطعا ، وقرأ أبو جعفر (ليلاف) بغير همز فحذف همزة الإفعال حذفاً كلياً وهو كمذهبه في ﴿ يستهزءون ﴾ [الأنعام : 5] وقد مر تقريره .

المسألة الثالثة :

(49/832)

التكرير في قوله : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ ﴾ هو أنه أطلق الإيلاف أولاً ثم جعل المقيد بدلاً لذلك المطلق تفخيماً لأمر الإيلاف وتذكيراً لعظيم المنة فيه ، والأقرب أن يكون قوله : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ عاماً يجمع كل مؤانسة وموافقة كان بينهم ، فيدخل فيه مقامهم وسيرهم وجميع أحوالهم ، ثم خص إيلاف الرحلتين بالذكر لسبب أنه قوام معاشهم كما في قوله : ﴿ وَجِبْرِيلَ وميكائيل ﴾ [البقرة : 98] وفائدة ترك واو العطف التنبيه على أنه كل النعمة ، تقول العرب : ألفت كذا أي لزمته ، والإلزام ضربان إلزام بالتكليف والأمر ، وإلزام بالمودة والمؤانسة فإنه إذا أحب المرء شيئاً لزمه ، ومنه : ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التقوى ﴾ [الفتح : 26] كما أن الإلجاء ضربان أحدهما : لدفع الضرر كالهرب من السبع والثاني : لطلب النفع العظيم ، كمن يجد مالاً عظيماً ولا مانع من أخذه لا عقلاً ولا شرعاً ولا حساً فإنه يكون كالملجأ إلى الأخذ ، وكذا الدواعي التي تكون دون الالجاء ، مرة تكون لدفع

الضرر وأخرى لجلب النفع ، وهو المراد في قوله : ﴿ إيلافهم ﴾ .

المسألة الرابعة :

اتفقوا على أن قريشاً ولد النضر بن كنانة ، قال عليه الصلاة والسلام : " إنا بني النضر بن كنانة لا نفقو أمناً ولا ننتفي من أبينا " وذكروا في سبب هذه التسمية وجوهاً أحدها : أنه تصغير القرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ، ولا تنطلق إلا بالنار وعن معاوية أنه سأل ابن عباس : بم سميت قريش ؟ قال : بدابة في البحر تأكل ولا تؤكل ، تعلو ولا تعلى ، وأنشد :

وقريش هي التي تسكن البح . . ر بها سميت قريش قريشاً

(50/832)

والتصغير للتعظيم ، ومعلوم أن قريشاً موصوفون بهذه الصفات لأنها تلي أمر الأمة ، فإن الأئمة من قريش وثانيها : أنه مأخوذ من القرش وهو الكسب لأنهم كانوا كاسبين بتجاراتهم وضربهم في البلاد وثالثها : قال الليث : كانوا متفرقين في غير الحرم ، فجمعهم قصي بن كلاب في الحرم حتى اتخذوها مسكناً ، فسموا قريشاً لأن التقرش هو التجمع ، يقال : تقرش القوم إذا اجتمعوا ، ولذلك سمي قصي مجمعاً ، قال الشاعر :

أبوكم قصي كان يدعى مجمعاً . . به جمع الله القبائل من فهر

ورابعها : أنهم كانوا يسدون خلة محاويج الحاج ، فسموا بذلك قريشاً ، لأن القرش التفتيش

قال ابن حرة :

أيها الشامت المقرش عنا . . عند عمرو وهل لذاك بقاء

قوله تعالى : ﴿ رِحْلَةَ الشتاء والصيف ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(51/832)

قال الليث : الرحلة اسم الارتحال من القول للمسير ، وفي المراد من هذه الرحلة قولان :

الأول : وهو المشهور ، قال المفسرون : كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء إلى اليمن لأن اليمن أدفأ وبالصيف إلى الشأم ، وذكر عطاء عن ابن عباس أن السبب في ذلك هو أن قريشاً إذا أصاب واحداً منهم مخمصة خرج هو وعياله إلى موضع وضربوا على أنفس خباء حتى يموتوا ، إلى أن جاء هاشم بن عبد مناف ، وكان سيد قومه ، وكان له ابن يقال له : أسد ، وكان له ترب من بني مخزوم يحبه ويلعب معه فشكا إليه الضرر والمجاعة فدخل أسد على أمه يبكي فأرسلت إلى أولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياماً ، ثم أتى ترب

أسد إليه مرة أخرى وشكا إليه من الجوع فقام هاشم خطيباً في قريش ، فقال : إنكم أجدبتم جدباً تقلون فيه وتذلون ، وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم والناس لكم تبع قالوا : نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف فجمع كل بني أب على الرحلتين في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وهم على ذلك ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش ، قال الشاعر فيهم :

الخالطين فقيرهم بغنيهم . . حتى يكون فقيرهم كالكافي

(52/832)

واعلم أن وجه النعمة والمنة فيه أنه لو تم لأصحاب الفيل ما أرادوا ، لترك أهل الأقطار تعظيمهم وأيضاً لتفرقوا وصار حالهم كحال اليهود المذكور في قوله : ﴿ وقطعناهم فِي الأرض أُمَمًا ﴾ [الأعراف : 168] واجتماع القبيلة الواحدة في مكان واحد أدخل في النعمة من أن يكون الاجتماع من قبائل شتى ، ونبه تعالى أن من شرط السفر المؤانسة والألفة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلاَ جِدَالَ فِي الحج ﴾ [الحج : 197] والسفر أحوج إلى مكارم الأخلاق من الإقامة القول الثاني : أن المراد ، رحلة الناس إلى أهل مكة فرحلة

الشتاء والصيف عمرة رجب وحج ذي الحجة لأنه كان أحدهما شتاء والآخر صيفاً وموسم منافع مكة يكون بهما ، ولو كان يتم لأصحاب الفيل ما أرادوا لتعطلت هذه المنفعة .

المسألة الثانية :

نصب الرحل بلإيلافهم مفعولاً به ، وأراد رحلتي الشتاء والصيف ، فأفرد لأمن الإلباس كقوله : كلوا في بعض بطنكم ، وقيل : معناه رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، وقرىء (رحلة) بضم الراء وهي الجهة .

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3)

قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البيت ﴾ اعلم أن الإنعام على قسمين أحدهما : دفع الضرر والثاني : جلب النفع والأول أهم وأقدم ، ولذلك قالوا : دفع الضرر عن النفس واجب أما جلب النفع (فإنه) غير واجب ، فلهذا السبب بين تعالى نعمة دفع الضرر في سورة الفيل ونعمة جلب النفع في هذه السورة ، ولما تقرر أن الإنعام لا بد وأن يقابل بالشكر والعبودية ، لا جرم أتبع ذكر النعمة بطلب العبودية فقال : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾ وههنا مسائل :

المسألة الأولى :

ذكرنا أن العبادة هي التذلل والخضوع للمعبود على غاية ما يكون .

ثم قال بعضهم : أراد فليوحدوا رب هذا البيت لأنه هو الذي حفظ البيت دون الأوثان ، ولأن التوحيد مفتاح العبادات ، ومنهم من قال : المراد العبادات المتعلقة بأعمال الجوارح ثم ذكر كل قسم من أقسام العبادات ، والأولى حمله على الكل لأن اللفظ متناول للكل إلا ما أخرجه الدليل ، وفي الآية وجه آخر ، وهو أن يكون معنى فليعبدوا أي فليتركوا رحلة الشتاء والصيف وليشتغلوا بعبادة رب هذا البيت فإنه يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف ، ولعل تخصيص لفظ الرب تقرير لما قالوه لأبرهة : إن للبيت رباً سيحفظه ، ولم يعولوا في ذلك على الأصنام فلزمهم لإقرارهم أن لا يعبدوا سواه ، كأنه يقول : لما عولتم في الحفظ علي فاصرفوا العبادة والخدمة إلي .

المسألة الثانية :

الإشارة إلى البيت في هذا النظم تفيد التعظيم فإنه سبحانه تارة أضاف العبد إلى نفسه فيقول : ﴿ يا عبادي ﴾ [العنكبوت : 56] وتارة يضيف نفسه إلى العبد فيقول : ﴿ وإلهكم ﴾ [البقرة : 163] كذا في البيت (تارة) يضيف نفسه إلى البيت وهو قوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت ﴾ وتارة يضيف البيت إلى نفسه فيقول : ﴿ طَهّرَا بَيْتِىَ . ﴾ [البقرة : 125]

ثم قال تعالى : ﴿ الذى أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ ﴾ وفي هذه الإطعام وجوه أحدها : أنه تعالى لما آمنهم بالحرم حتى لا يتعرض لهم في رحلتيهم كان ذلك سبب إطعامهم بعد ما كانوا فيه من الجوع ثانيها : قال مقاتل : شق عليهم الذهاب إلى اليمن والشام في الشتاء والصيف لطلب الرزق ، فقذف الله تعالى في قلوب الحبشة أن يحملوا الطعام في السفن إلى مكة فحملوه ، وجعل أهل مكة يخرجون إليهم بالإبل والخمر ، ويشترون طعامهم من جدة على مسيرة ليلتين وتتابع ذلك ، فكفاهم الله مؤونة الرحلتين ثالثها : قال الكلبي : هذه الآية معناها أنهم لما كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم دعا عليهم ، فقال : " اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف " فاشتد عليهم القحط وأصابهم الجهد فقالوا : يا محمد ادع الله فإنا مؤمنون ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخصبت البلاد وأخصب أهل مكة بعد القحط ، فذاك قوله : ﴿ أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ ﴾ ثم في الآية سؤالات :

السؤال الأول : العبادة إنما وجبت لأنه تعالى أعطى أصول النعم ، والإطعام ليس من أصول النعم ، فلما علل وجوب العبادة بالإطعام ؟ والجواب : من وجوه أحدها : أنه تعالى لما ذكر إنعامه عليهم بحبس الفيل وإرسال الطير وإهلاك الحبشة ، وبين أنه تعالى فعل ذلك لإيلافهم

، ثم أمرهم بالعبادة ، فكان السائل يقول : لكن نحن محتاجون إلى كسب الطعام والذب عن النفس ، فلو اشتغلنا بالعبادة فمن ذا الذي أيطعمنا ، فقال : الذي أطعمهم من جوع ، قبل أن يعبدوه ، ألا يطعمهم إذا ! وثانيها : أنه تعالى بعد أن أعطى العبد أصول النعم أساء العبد إليه ، ثم إنه يطعمهم مع ذلك ، فكأنه تعالى يقول : إذا لم تستح من أصول النعم ألا تستحي من إحساني إليك بعد إساءتك وثالثها : إنما ذكر الإنعام ، لأن البهيمة تطيع من يعلفها ، فكأنه تعالى يقول : لست دون البهيمة .

(55/832)

السؤال الثاني : أليس أنه جعل الدنيا ملكاً لنا بقوله : ﴿ خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الأرض جَمِيعاً ﴾ [البقرة : 29] فكيف تحسن المنة علينا بأن أعطانا ملكنا ؟ الجواب : أنظر في الأشياء التي لا بد منها قبل الأكل حتى يتم الطعام ويتهيأ ، وفي الأشياء التي لا بد منها بعد الأكل حتى يتم الانتفاع بالطعام المأكول ، فإنك تعلم أنه لا بد من الأفلاك والكواكب ، ولا بد من العناصر الأربعة حتى يتم ذلك الطعام ، ولا بد من جملة الأعضاء على اختلاف أشكالها وصورها حتى يتم الانتفاع بالطعام ، وحينئذ تعلم أن الإطعام يناسب الأمر بالطاعة والعبادة .

السؤال الثالث : المنة بالإطعام لا تليق بمن له شيء من الكرم ، فكيف بأكرم الأكرمين ؟

الجواب : ليس الغرض منه المنة ، بل الإرشاد إلى الأصلح ، لأنه ليس المقصود من الأكل تقوية الشهوة المانعة عن الطاعة ، بل تقوية البنية على أداء الطاعات ، فكأن المقصود من الأمر بالعبادة ذلك .

السؤال الرابع : ما الفائدة في قوله : ﴿مِن جُوعٍ﴾ ؟ الجواب : فيه فوائد أحدها : التنبيه على أن أمر الجوع شديد ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الذى يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ [الشورى : 28] وقوله صلى الله عليه وسلم : " من أصبح آمناً في سربه " الحديث وثانيها : تذكيرهم الحالة الأولى الرديئة المؤلمة وهي الجوع حتى يعرفوا قدر النعمة الحاضرة وثالثها : التنبيه على أن خير الطعام ما سد الجوعة ، لأنه لم يقل : وأشبعهم لأن الطعام يزيل الجوع ، أما الإشباع فإنه يورث البطنة .

(56/832)

أما قوله تعالى : ﴿وآمنهم من خوف﴾ ففي تفسيره وجوه أحدها : أنهم كانوا يسافرون آمنين لا يتعرض لهم أحد ، ولا يغير عليهم أحد لا في سفرهم ، ولا في حضرهم وكان غيرهم لا يأمنون من الغارة في السفر والحضر ، وهذا معنى قوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءامِناً﴾ [العنكبوت : 67]

ثانيها : أنه آمنهم من زحمة أصحاب الفيل

وثالثها : قال الضحاك والربيع : وآمنهم من خوف الجزام ، فلا يصيبهم ببلدتهم الجذام

ورابعها : آمنهم من خوف أن تكون الخلافة في غيرهم (1)

وخامسها : آمنهم بالإسلام ، فقد كانوا في الكفر يتفكرون ، فيعلمون أن الدين الذي هم عليه ليس بشيء ، إلا أنهم ما كانوا يعرفون الدين الذي يجب على العاقل أن يتمسك به

وسادسها : أطعمهم من جوع الجهل بطعام الوحي ، وآمنهم من خوف الضلال ببيان الهدى ، كأنه تعالى يقول : يا أهل مكة كنتم قبل مبعث محمد تسمون جهال العرب وأجلافهم ، ومن كان ينازعكم كانوا يسمون أهل الكتاب ، ثم أنزلت الوحي على نبيكم ، وعلمتكم الكتاب والحكمة حتى صرتم الآن تسمون أهل العلم والقرآن ، وأولئك يسمون جهال اليهود والنصارى ، ثم إطعام الطعام الذي يكون غذاء الجسد يوجب الشكر ، فإطعام الطعام الذي هو غذاء الروح ، ألا يكون موجباً للشكر ! وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : لم لم يقل : عن جوع وعن خوف ؟ قلنا : لأن معنى عن أنه جعل الجوع بعيداً عنهم ، وهذا يقتضي أن يكون ذلك التبعيد مسبوقاً بمقاساة الجوع زماناً ، ثم يصرفه عنه ، و (من) لا تقتضي ذلك ، بل معناه أنهم عندما يجوعون يطعمون ، وحين ما يخافون يؤمنون .

السؤال الثاني : لم قال : من جوع ، من خوف على سبيل التنكير ؟ الجواب : المراد من

التنكير التعظيم .

أما الجوع فلما روينا : أنه أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة .

---

(1) قال مصحح الكتاب

أقول والأسف يملأ الفؤاد ويقض الجوانح ويمزق الأكباد : إن هذا الوجه الرابع لا محل لذكره الآن ، فقد أصبحت الخلافة الإسلامية أثرا بعد عين ، وانقرض ظلها وزوى ، فلم يعد للمسلمين خليفة من قريش ولا من غيرهم ، والأمل معقود في الجامعة العربية أن توفق إلى رد هذا الحق المسلوب ، وإعادة هذا السلطان الضائع الذي قضى عليه الاستعمار والمستعمرون ، ليشيع التفكك والاضطراب ، وتعم الفوضى بين المسلمين والعياذ بالله (عبد الله الصاوي) .

أقول : جامعة الدول العربية تساند اليهود الآن وتخذل المجاهدين ، والحل فى عودة الأمة إلى تحكيم الشرع فقط . والله ناصر دينه كما وعد ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (54) ﴾ ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (38) ﴾

اللهم رد المسجد الأقصى إلى ديار المسلمين وردنا إلى دينك مردا جميلا .

وأما الخوف ، فهو الخوف الشديد الحاصل من أصحاب الفيل ، ويحتمل أن يكون المراد من التنكير التحقير ، يكون المعنى أنه تعالى لما لم يجوز لغاية كرمه إبقاءهم في ذلك الجوع القليل والخوف القليل ، فكيف يجوز في كرمه لو عبدوه أن يهمل أمرهم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه : أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ دون جوع : وآمنهم من خوف دون خوف ، ليكون الجوع الثاني ، والخوف الثاني مذكراً ما كانوا فيه أولاً من أنواع الجوع والخوف ، حتى يكونوا شاكرين من وجه ، وصابرين من وجه آخر ، فيستحقوا ثواب الخصلتين .

السؤال الثالث : أنه تعالى إنما أطعمهم وآمنهم إجابة لدعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام أما في الإطعام فهو قوله : ﴿ وارزق أَهْلَهُ ﴾ [البقرة : 126] وأما الأمان فهو قوله : ﴿ اجعل هذا البلد امِنًا ﴾ [إبراهيم : 35] وإذا كان كذلك كان ذلك منة على إبراهيم عليه السلام ، فكيف جعله منة على أولئك الحاضرين ؟ والجواب : أن الله تعالى لما قال : ﴿ إِنّى جاعلك لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ قال إبراهيم : ﴿ وَمِن ذُرّيَّتِى ﴾ فقال الله تعالى : ﴿ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظالمين ﴾ [البقرة : 124] فنادى إبراهيم بهذا الأدب ، فحين قال : ﴿ رَبّ اجعل هذا البلد امِنًا وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات ﴾ قيده بقوله : ﴿ مَنْ ءامَنَ بالله ﴾ فقال

الله : لا حاجة إلى هذا التقيد ، بل ومن كفر فأمتعه قليلاً ، فكأنه تعالى قال : أما نعمة الأمان فهي دينية فلا تحصل إلا لمن كان تقياً ، وأما نعمة الدنيا فهي تصل إلى البر والفاجر والصالح والطالح ، وإن كان كذلك كان إطعام الكافر من الجوع ، وأمانه من الخوف إنعاماً من الله ابتداء عليه لا بدعوة إبراهيم ، فزال السؤال .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 103.97 ﴾

(58/832)

وقال السمرقندى

قوله تعالى : ﴿ لإيلاف قُرَيْشٍ إيلافهم ﴾

قرأ ابن عامر لإلاف قريش ، بغير ياء بعد الهمزة ، والباقون بياء قبلها همزة ، ومعناهما واحد ، وهذا موصول بما قبله .

يعني : أن الله تعالى ، أهلك أصحاب الفيل لإيلاف قريش ، يعني : لتقر قريش بالحرم ، ويجاورون البيت .

فقال عز وجل : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ لإيلاف قريش يعني : فعل ذلك ، ليؤلف

قريشاً بهاتين الرحلتين ، اللتين بهما عيشهم ومقامهم بمكة .

وقال أهل اللغة : ألفت موضع كذا ، أي : لزمته وألفنيه الله .

كما يقال : لزمته موضع كذا ، ألزمنيه الله .

وكرر لإيلاف على معنى التأكيد ، كما يقال : أعطيتك المال لصيانة وجهك ، وصيانتك عن جميع الناس .

وقال مجاهد : لئلاف قريش ، يعني : لنعمتي على قريش ، وقال سعيد بن جبير ، أذكر نعمتي على قريش ، ويقال : معناه لا يشق عليهم التوحيد ، كما لا يشق عليهم ﴿ رِحْلَةَ الشتاء والصيف ﴾ قال مقاتل وذلك أن قريشاً ، كانوا تجاراً ، وكانوا يمتارون في الشتاء من الأردن وفلسطين ، لأن ساحل البحر كان أدناها ، فإذا كان الصيف تركوا طريق الشام ، وأخذوا طريق اليمن ، فشق ذلك عليهم ، فقذف الله تعالى في قلوب الحبشة ، حتى حملوا الطعام في السفن إلى مكة للبيع ، وجعل أهل مكة يخرجون إليهم على مسيرة ليلة ، ويشترون فكفاهم الله تعالى مؤونة الشتاء والصيف .

﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت ﴾ لأن رب هذا البيت ، كفاهم مؤونة الخوف والجوع ، فليألفوا العبادة ، كما ألفوا رحلة الشتاء والصيف وقال الزجاج : كانوا يترحلون في الشتاء إلى الشام ، وفي الصيف إلى اليمن .

وهذا موافق لما قال مقاتل : وقال السدي في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام ،

وهكذا قال القتبي .

وروي عن أبي العالية ، أنه قال : كانوا لا يقيمون بمكة صيفاً ولا شتاءً ، فأمرهم الله تعالى بالمقام عند البيت ، في العبادة .

ويقال معناه : قل لهم يا محمد صلى الله عليه وسلم حتى يجتمعوا على الإيمان والتوحيد ، وعبادة رب هذا البيت ، كاجتماعهم على رحلة الشتاء والصيف ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت ﴾ يعني : سيد وخالق هذا البيت ، الذي صنع هذا الإحسان إليكم ، حتى يكرمكم في الآخرة ، كما أكرمكم في الدنيا ﴿ الذى أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ ﴾ يعني : أشبعهم بعد الجوع الذي أصابهم ، حتى جهدوا ﴿ الذى أَطْعَمَهُم مّن ﴾ يعني : من خوف الجهد ، والعدو والغارة .

وقال السدي ﴿ وَءامَنَهُم مّنْ خوْفٍ ﴾ يعني : من خوف الجذام ، والله تعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 598 . 599 ﴾

وقال الثعلبى :

سورة قريش

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ ﴾ .

اختلفت القرّاء فيها فقرأ عبد اللّه بن عامر (لألاف) مهموزاً مختلساً بلا ياء ، وقرأ أبو جعفر (ايلاف) بغير همز وإنما ذهب إلى طلب الخفّة (لايلاف) بالياء مهموزة مشبعة ، وأما قولهم : (إيلاف) فروى العمري عن أبي جعفر والبلخي عن ابن كثير (إلفهمْ) ساكنة اللام بغير ياء وتصديق هذه القراءة ما أخبرنا الحسين بن فنجويه قال : حدّثنا ابن خنيس قال : حدّثنا أبو خديجة أحمد ابن داود قال : حدّثنا محمد بن حميد قال : حدّثنا مهران عن سفيان بن ليث عن شمر بن حوشب عن أسماء قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم [يقرأ] : " إلفهم رحلة الشتاء والصيف " .

وروى الفضل بن شاذان بإسناده عن أبي جعفر ، والوليد عن أهل الشام (إلافهم) مهموزة مختلسة بلا ياء ، وروى محمد بن حبيب الحموي عن أبي يوسف الأعشى عن أبي بكر عن عاصم (إلأْفهم) بهمزتين الأُولى مكسورة والثانية ساكنة الباقون (إيلافهم) .

وأخبرني سعيد بن المعافى ، أخبرهم عن محمد بن جرير قال : حدّثنا أبو كرنب قال : حدّثنا وكيع عن أبي مكّي عن عكرمة أنه كان يقرأ (إليالف قريش الفهم) .

وعدّ بعضهم السورتين واحدة منهم أُبيّ بن كعب ولا فصل بينهما في مصحفه .

وقال سفيان بن عيينة : كان لنا امام لا يفصل بينهما ويقرأهما معاً ، وقال عمرو بن ميمون الاودي صلّيت المغرب خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقرأ في الأُولى والتين والزيتون ، وفي الثانية ألم ترّ ولإيلاف قريش .

واختلفوا في العلّة الجالبة لهذه اللام فقال الفرّاء : هي متّصلة بالسورة الأُولى وذلك أنه [تعالى] ذكّر أهل مكّة عظيم نعمته عليهم في ما صنع بالحبشة ، ثم قال : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمةً منّا على قريش أي نعمتنا عليهم في رحلتهم الشتاء والصيف ، فكأنّه قال : نعمةٌ إلى نعمة فتكون اللام بمعنى (إلى) .

(61/832)

وقال الرازي والأخفش : هي لام التعجب يقول : عجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف ، وتركهم عبادة ربّ هذا البيت ، ثم أمرهم بعبادته .

وهذا كما يقول في الكلام : لزيد وإكرامنا إيّاه ، على وجه التعجب أي : أعجبُ لذلك ، والعرب إذا جاءت بهذه اللام اكتفوا بها دليلا على التعجّب لإظهار الفعل فيه كقول الشاعر

:

أغرَّكَ أن قالوا لقرة شاعرٌ . . . افياك أباه من عريف وشاعرُ

أي أعجبوا لقرة شاعراً .

وقيل هي لام (كي) مجازها ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ ليؤلف قريشاً ، فكان هلاك أصحاب الفيل سبباً لبقاء إيلاف قريش ، ونظام حالهم واقوام ما لهم ، وقال الزجّاج : هي مردودة إلى ما بعدها ، تقديرهُ : فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف رحلة الشتاء والصيف .

وقريش هم ولد النضر بن كنانة ، فمن وَلَده النضر فهو قرشي ، ومن لم يلده النضر فليس بقرشي .

قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : " نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفو أمّنا ، ولا ننتفي من أبينا " .

وأخبرنا أبو بكر الجوزي قال : أخبرنا الرعولي قال : حدّثنا محمد بن يحيى قال : حدّثنا أبو المغيرة قال : حدّثنا الأوزاعي قال : حدّثنا أبو عمار شداد عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول اللّه (عليه السلام) : " إن اللّه عزّ وجلّ اصطفى بني كنانة من بني إسماعيل ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم " .

وسمّوا قريشاً من التقرش ، وهو التكسّب والتقلّب والجمع والطلب ، وكانوا قوماً على المال والإفضال حراصاً .

وسأل معاوية عبد اللّه بن عباس : لِمَ سمّيت قريش قريشاً ؟ فقال : لدابّة في البحر يقال لها : القرش ، تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلا . قال : وهل يعرف العرب ذلك في أشعارهم ؟

قال : نعم :

وقريش هي التي تسكن البحر بها . . . سميت قريش قريشا

سلطت بالعلو في لجّةِ الب . . . حر على ساير البحور جيوشا

تأكل الغثّ والسمين ولا تترك فيه . . . لذي جناحين ريشا

(62/832)

هكذا في البلاد حي قريش . . . يأكلون البلاد أكلا كميشا

ولهم آخر الزمان نبيٌّ . . . يُكثر القتل فيهمُ والخموشا

يملأ الأرض خيله ورجالا . . . يحسرون المطيّ حسراً كشيشا

وقوله : ﴿ إِيلاَفِهِمْ ﴾ بدل من الإيلاف الأوّل ويرخمه له ، ومن أسقط الياء من الايلاف احتجَ بقول ابي طالب يوصي أبا لهب برسول اللّه صلى الله عليه وسلم :

ولا تتركنه ما حييت لمعظم . . . وكن رجلا ذا نجدة وعفافِ

تذود العدا عن عصبة هاشمية . . . إلافهم في الناس خيرُ إلافِ

﴿ رِحْلَةَ الشتآء والصيف ﴾ اختلفوا في وجه انتصاب الرحلة فقيل : نصبت على المصدر أي ارتحالهم رحلة ، وإنْ شئت نصبته بوقوع إيلافهم عليه ، وإنْ شئت على الظرف بمعنى : على رحلة ، وإنْ شئت جعلتهما في محل الرفع على معنى هما رحلتا الشتاء والصيف ، والأول أعجب وأحبّ إليّ لأنّها مكتوبة في المصاحف بغير ياء .

وأمّا التفسير : فروى عكرمة وسعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانوا يشتون بمكّة ويصيفون بالطائف ، فأمرهم اللّه سبحانه أن يشتوا بالحرم ويعبدوا ربّ البيت .

وقال أبو صالح : كانت الشام فيها أرضٌ باردة وفيها أرض حارة ، وكانوا يرتحلون في الشتاء إلى الحارة ، وفي الصيف إلى الباردة وكانت لهم رحلتان كلّ عام للتجارة : أحدهما في الشتاء إلى اليمن ؛ لأنها أدفأ ، والأُخرى في الصيف إلى الشام ، وكان الحرم وادياً جدباً لا زرع فيه ولا ضرع ، ولا ماء ولا شجر ، وإنّما كانت قريش تعيش بها بتجارتهم ورحلتهم ، وكانوا لا يُتعرض لهم بسوء .

وكانوا يقولون : قريش سكان حرم اللّه وولاة بيته ، فلولا الرحلتان لم يكن لأحد بمكّة مقام ، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرّف ، فشقّ عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام

، وأخصبت تبالة وجرش والجند من بلاد اليمن ، فحملوا الطعام إلى مكّة ، أهل الساحل في البحر على السفن ، وأهل البر على الإبل والحمر ، فألقى أهل الساحل بجدّة وأهل البرّ بالمحصّب ، وأخصبت الشام فحملوا الطعام إلى مكّة ، فحمل أهل الشام إلى الأبطح ، وحمل أهل اليمن إلى الجدّة ، فامتاروا من قريب وكفاهم اللّه مؤونة الرحلتين وأمرهم بعبادة ربّ البيت .

أخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد قال : أخبرنا أبو الوليد حسان بن محمد قال : حدّثنا القاسم بن زكريّا المطرّز قال : حدّثنا محمد بن سليمان قال : حدّثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جُبير قال : " مرَّ رسول اللّه (عليه السلام) ومعه أبو بكر بملَئِهم ينشدون :

يا ذا الذي طلب السماحة والندى * هلاّ مررت بآل عبد الدارِ

هلاّ مررت بهم تريد قِراهمُ * منعوك من جهد ومن إقتار

فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : " أهكذا قال الشاعر يا أبا بكر ؟ " قال : لا ، والذي بعثك بالحق ، بل قال :

يا ذا الذي طلب السماحة والندى * هلاّ مررت بآل عبد منافِ

لو أنْ مررت بهم تريد قِراهمُ * منعوك من جهد ومن إيجاف

الرائشين وليس يوجد رائش * والقائلين هلُمَّ للأضياف

والخالطين غنَّيهم بفقيرهم * حتى يصير فقيرُهم كالكافي

والقائلين بكل وعد صادق * ورجال مكّة مسنتين عجاف

سفرين سنّهما له ولقومه * سفر الشتاء ورحلة الأصياف "

قال الكلبي : وكان أوّل من حمل السمراء من الشام ورحل اليها الإبل هاشم بن عبد مناف .

﴿ فَلْيَعْبُدُواْ ﴾ لام الأمر ﴿ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ .

(64/832)

أخبرنا أبو عبد اللّه الحسين بن محمد قال : حدّثنا أبو الفضل عبيد اللّه بن عبد الرحمن بن محمد قال : حدّثنا جعفر قال : سمعت ابن ملك بن دينار يقول : ما سقطت أُمة من عين اللّه سبحانه إلاّ ضرب أكبادها بالجوع .

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ وذلك أنهم كانوا يقولون : نحن قُطّان حرم اللّه سبحانه ، فلا يعرض لهم أحد في الجاهلية ، وإنْ كان الرجل ليصاب في الحي من أحياء العرب فقال : حرمي حرمي فيُخلّى عنه وعن ماله تعظيماً للحرم ، وكان غيرهم من قبائل العرب إذا خرج أُغير عليه .

وقال الضحّاك والربيع وشريك وسفيان : وآمنهم من الجذام ، فلا يصيبهم ببلدهم الجذام .

وأخبرنا أيضاً أبو الحسن المقري قال : حدّثنا أبو عبد الله محمد بن عيسى المقري

البروجردي ببغداد قال: حدّثنا أبو سعيد عمر بن مرداس قال: حدّثنا محمد بن بكير الحضرمي قال: حدّثنا القاسم بن عبد الله عن [أبي] بكر بن محمد عن سالم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "غبار المدينة يُبرئ من الجذام".

وقال علي كرم الله وجهه: وآمنهم من [خوف] أن تكون الخلافة إلاّ فيهم. انتهى ا. هـ ﴿الكشف والبيان حـ 10 صـ 299. 303﴾

(65/832)

وقال الزمخشرى:

سورة قريش

مكية، وآياتها 4 «نزلت بعد التين» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة قريش (106) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (3)

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ متعلق بقوله لْيَعْبُدُوا

أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين فإن قلت : فلم دخلت الفاء ؟ قلت : لما في الكلام من معنى الشرط لأن المعنى : إما لا فليعبدوه لإيلافهم ،

(66/832)

على معنى : أنّ نعم اللّه عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة . وقيل المعنى : عجبوا لإيلاف قريش . وقيل : هو متعلق بما قبله ، أى : فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش ، وهذا بمنزلة التضمين في الشعر : وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقا لا يصح إلا به ، وهما في مصحف أبىّ سورة واحدة بلا فصل . وعن عمر : أنه قراهما في الثانية من صلاة المغرب ، وقرأ في الأولى : والتين «1» . والمعنى أنه أهلك الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك ، فيتهيبوهم زيادة تهيب ، ويحترموهم فضل احترام ، حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتيهم ، فلا يجترئ أحد عليهم . وكانت لقريش رحلتان : يرحلون في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا في رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم اللّه وولاة بيته ، فلا يتعرّض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون ويغار عليهم . والإيلاف من قولك : آلفت المكان أولفه إيلافا : إذا ألفته ، فأنا مؤلف . قال :

من المؤلفات الرّهو غير الأوارك «2»

وقرئ: لئلاف قريش، أى: لمؤالفة قريش. وقيل: يقال ألفته إلفا وإلافا. وقرأ أبو جعفر: لإلف قريش، وقد جمعهما من قال:

زعمتم أنّ إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف «3»

---

(1) . هكذا وقع في الثعلبي. وقال عمرو بن ميمون: صليت خلف عمر المغرب. فذكر الحديث. وكذا وصله عبد الرزاق وابن أبى شيبة من رواية أبى إسحاق عن عمرو بن ميمون قال «صلى بنا عمر المغرب. فقرأ في الأولى بالتين. وفي الثانية ألم تر ولإيلاف قريش» .

(2) شددت إليك الرحل فوق شملة من المؤلفات الرهو غير الأوارك

الشملة بالتشديد. والشملال والشميل: الخفيفة السريعة السير، أى: شددت الرحل فوق ناقة سريعة السير ذاهبا إليك، وتلك الناقة من النوق المؤلفات المعتادات الرهو، أى: السير السهل المستقيم. ويروى: الزهو، بالزاي وهو سيرها بعد ورودها الماء. والأوارك: جمع آركة: المقيمات موضع الأراك، ترعاه. أو ترعى نبتا يقال له الحمض، أى: ليست كذلك يلي معلوفة ومكرمة السفر.

(3) زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف

أولئك أومنوا جوعا وخوفا وقد جاعت بنو أسد وخافوا

لمساور بن هند بن قيس يخاطب بنى أسد . وقريش خبر . وقولهم «لهم إلف» استئناف لبيان كذبهم . والالف والالاف : مصدر ألفه ، إذا أحبه واعتاده ولم ينفر منه . وآلف إيلافا بينهما : جعل بينهما إلفا . وقد جمعت قريش بين رحلة الشتاء والصيف ، فتارة فرحل هذه وتارة هذه بلا خوف ولا فزع «أولئك» إشارة لقريش «أومنوا» مبنى للمجهول ، أى آمنهم ربهم عن الجوع والخوف ، وقد جاعت وخافت بنو أسد : التفت إلى الغيبة دلالة على الاعراض عنهم ، وتعجيب غيرهم من شأنهم .

(67/832)

وقرأ عكرمة : ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف . وقريش : ولد النضر بن كنانة سموا بتصغير القرش : وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ، ولا تطاق إلا بالنار . وعن معاوية أنه سأل ابن عباس رضى اللّه عنهما : بم سميت قريش ؟ قال : بدابة في البحر تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلى . وأنشد :

وقريش هي الّتي تسكن البحر بها سمّيت قريش قريشا «1»

والتصغير للتعظيم . وقيل : من القرش وهو الكسب : لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد . أطلق الإيلاف ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين ، تفخيما لأمر الإيلاف ،

وتذكيرا بعظيم النعمة فيه ، ونصب الرحلة بإيلافهم مفعولا به ، كما نصب يَتيماً بإطعام ، وأراد رحلتي الشتاء والصيف ، فأفرد لأمن الإلباس ، كقوله .

كلوا في بعض بطنكم . . . . «2» . .

---

(1) وقريش هي التي تسكن البحر بها سميت قريش قريشا

تأكل الغث والسمين ولا تترك يوما لذي جناحين ريشا

هكذا في الكتاب نالت قريش يأكلون البلاد أكلا كشيشا

ولهم آخر الزمان نبى يكثر القتل فيهم والخموشا

يملأ الأرض خيلة ورجالا يحشرون المطر حشرا كميشا

لتبع . وقريش : تصغير قرش . قال ابن عباس : اسم دابة في البحر تأكل ولا تؤكل اه فصغر وسمي به النضر بن كنانة ، ثم سمى به أولاده . والمحدثون على أنه اسم لفهر بن مالك بن النضر ، وقال الروافض : هو اسم لقصي بن كلاب ، وتوصلوا بذلك إلى نفى إمامة أبى بكر وعمر لكونهما ليسا قرشيين ، لأنهما يجتمعان معه صلى اللّه عليه وسلم بعد قصي ، والامامة من قريش ، وقريش مبتدأ ، والجملة بعدها مستأنفة مبينة لها ، وبها سميت خبر ، أى : بسببها ، سميت هذه القبيلة قريشا تأكل ، أى قريش البحرية . ويؤيده ما روى قبل هذا البيت وهو :

سلطت بالعلو في لجة البحر على سائر البحور جيوشا . . . تأكل

ويحتمل أنها الضبيلة. والغث الخبيث. والسمين، الطيب وصاحب الجناحين، كناية عن

الطير. أو استعارة الغنى، وبالغ في أنها لا تبقى ولا تذر شيئًا مما تظفر به بقوله: إنها لا تترك

ريش ذي الجناحين. ويروى «فيه» بدل يوما وهو يعنى قريش البحرية. وهكذا: إشارة

لحال دابة البحر، أو لما قاله هو. والكتاب: التوراة أو الإنجيل.

أو كتب التاريخ. وقريش هنا: القبيلة، ويروى:

هكذا في البلاد حى قريش يأكلون البلاد . . . . . .

أى: يأخذون أموالها. والكشيش في الأصل: الصوت الخفي، أى: أكلا بسهولة، بلا

إرهاب ولا إنعاب، فهو مجاز، والنبي محمد صلى اللّه عليه وسلم. وخمشه خمشا:

خدشه. والخموش: الخدوش. والخيلة: الشبح البعيد.

والخيل: الخيالة. والرجال: المشاة على أرجلهم. ويحشرون: صفة لرجال، وبعد

رجوعه لقريش، والكميش:

السريع. والمنضم: القاطع، أى: يجمعونها بسرعة، لكن المراد بالخموش هنا: الجروح.

(2). قوله «كلوا في بعض بطنكم» بقيته: «تعفوا» وقد تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء

الأول صفحة 479 فراجعه إن شئت اه مصححه. (ع)

وقرئ : رحلة ، بالضم : وهي الجهة التي يرحل إليها : والتنكير في جُوعٍ وخَوْفٍ لشدتهما ، يعنى : أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما ، وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل ، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم . وقيل : كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة ، وآمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدهم . وقيل ذلك كله بدعاء إبراهيم صلوات اللّه عليه . ومن بدع التفاسير : وآمنهم من خوف ، من أن تكون الخلافة في غيرهم . وقرئ : من خوف ، بإخفاء النون .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة لإيلاف قريش أعطاه اللّه عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 803.800 ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

وقال الماوردى :

وفي قوله تعالى ﴿ لِإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴾

الإيلاف مأخوذ من أَلِف يألَف ، وهي العادة المألوفة ، ومنه قولهم ائتلف القوم .

وفي قوله ﴿ لإيلاف قريش ﴾ أربعة أقاويل :

أحدها : نعمتي على قريش ، لأن نعمة الله عليهم أن ألفه لهم ، قاله ابن عباس ومجاهد .

الثاني : لإيلاف الله لهم لأنه آلفهم إيلافاً ، قاله الخليل بن أحمد .

الثالث : لإيلاف قريش حَرَمي وقيامهم ببيتي ، وهذا معنى قول الحسن .

الرابع : لإيلاف ما ذكره من رحلة الشتاء والصيف في معايشهم ، قاله مكحول .

وفي اللام التي في " لإيلاف قريش " قولان :

أحدهما : أنه صلة يرجع إلى السورة المتقدمة من قولهم ﴿ ألم تر كيف ﴾ إلى أن قال : ﴿ فجعلهم كعصْف مأكولٍ ﴾ لإيلاف قريش ، فصار معناه أن ما فعله بأصحاب الفيل لأجل إيلاف قريش ، قاله ثعلب ، وكان عمر وأبيّ بن كعب لا يفصلان بين السورتين ويقرآنهما كالسورة الواحدة ، ويريان أنهما سورة واحدة ، أي : ألم تر لإيلاف قريش .

الثاني : أن اللام صلة ترجع إلى ما بعدها من قوله ﴿ فَلْيَعْبُدوا رب هذا البَيْتِ ﴾ ويكون معناه لنعمتي على قريش فَلْيَعْبُدوا رَبَّ هذا البيت ، قاله أهل البصرة ، وقرأ عكرمة ، ليألف قريش ، وكان يعيب على من يقرأ " لإيلاف قريش " .

وقرأ بعض أهل مكة : إلاف قريش ، واستشهد بقول أبي طالب يوصي أخاه أبا لهب برسول الله صلى الله عليه وسلم :

فلا تَتْرُكَنْهُ ما حَيِيتَ لمعظمٍ . . . وكن رجلاً ذا نَجدةٍ وعفافِ

تَذودُ العِدا عن عُصْبةٍ هاشميةٍ . . . ألافُهُمُ في الناس خيرُ إلافِ

وأما قريش تلده فهم بنو النضير بن كنانة ، وقيل بنو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، ومن لم تلده فهر فليس من قريش ، وعلى المشهور أن بني النضر بن كنانة ومن تلده : من قريش ، وإن لم يكونوا من بني فهر ، وقد كانوا متفرقين في غير الحرم فجمعهم قصي بن كلاب في الحرم حتى اتخذوه مسكناً ، قال الشاعر :

(70/832)

أبونا قصيٌّ كان يُدْعى مجمّعاً . . . به جمع الله القبائلَ مِن فهر

واختلفوا في تسميتهم قريشاً على أربعة أقاويل :

أحدها : لتجمعهم بعد التفرق ، والتقريش التجميع ، ومنه قول الشاعر :

إخوةٌ قرّشوا الذنوب علينا . . . في حَديثٍ مِن دَهْرِهِم وقَديمِ

الثاني : لأنهم كانوا تجاراً يأكلون من مكاسبهم ، والتقريش التكسب .

الثالث : أنهم كانوا يفتشون الحاج عن ذي الخلة فيسدون خلته ، والقرش : التفتيش ، قال الشاعر :

أيها الشامتُ المقِّرشُ عَنّا . . . عند عَمرو فهل له إبْقاءُ

الرابع : أن قريشاً اسم دابة في البحر ، من أقوى دوابه ، سميت قريشاً لقوتها وأنها تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلى ، قاله ابن عباس واستشهد بقول الشاعر :

هكذا في العباد حيُّ قريش . . . يأكلون البلادَ أكْلاً كشيشاً

ولهم آخرَ الزمان نبيٌّ . . . يَكثر القتل فيهمُ والخموشا

يملأُ الأرضَ خَيلةً ورجالاً . . . يحشُرون المطيَّ حشْراً كميشاً

تأكل الغثَّ والسَمينَ ولا تت . . . رُكُ يوماً في جناحين ريشاً .

وقريش هي التي تسكن البح . . . ر بها سميت قريش قريشاً .

سلّطت بالعلو في لجج البحر . . . على سائر البحور جيوشاً .

﴿ إيلافِهِم رِحْلَةَ الشتاءِ والصَّيْفِ ﴾ كانت لقريش في كل عام رحلتان والرحلة السفرة ، لما يعانى فيها من الرحيل والنزول ، رحلة في الصيف ورحلة في الشتاء طلباً للتجارة والكسب .

واختلف في رحلتي الشتاء والصيف على قولين :

أحدهما : أن كلتا الرحلتين إلى فلسطين ، لكن رحلة الشتاء في البحر ، طلباً للدفء ،

ورحلة الصيف على بصرى وأذرعات، طلباً للهواء، قاله عكرمة.

الثاني: أن رحلة الشتاء إلى اليمن لأنها بلاد حامية، ورحلة الصيف إلى الشام لأنها بلاد باردة، قاله ابن زيد.

فإن قيل فما المعنى في تذكيرهم رحلة الشتاء والصيف؟ ففيه جوابان:

أحدهما: أنهم كانوا في سفرهم آمنين من العرب لأنهم أهل الحرم، فذكرهم ذلك ليعلموا نعمته عليهم في أمنهم مع خوف غيرهم.

(71/832)

الثاني: لأنهم كانوا يكسبون فيتوسعون ويطعمون ويصلون، كما قال الشاعر فيهم:

يا أيها الرجلُ المحوّلِ رَحْلَه... هلاّ نَزَلْتَ بآلِ عبدِ مَنافِ.

الآخذون العهدَ من آفاقِها... والراحلون لرحلة الإيلافِ.

والرائشون وليس يُوجد رائشٌ... والقائلون هَلُمَّ للأضْيافِ.

والخالطون غنيَّهم بفقيرهم... حتى يصير فقيرُهم كالكافي.

عمرو العلا هشم الثريد لقومه... ورجال مكة مسنتون عجافِ.

فذكرهم الله تعالى هذه النعمة.

ولابن عباس في رحلة الشتاء والصيف قول ثالث : أنهم كانوا يشتون بمكة لدفئها ،

ويصيفون بالطائف لهوائها ، كما قال الشاعر :

تَشْتي بِمكة نعمةً . . . ومَصيفُها بالطائِف

وهذه من جلائل النعم أن يكون للقوم ناحية حر تدفع عنهم برد الشتاء وناحية برد تدفع

عنهم حر الصيف ، فذكرهم الله تعالى هذه النعمة .

﴿ فَلْيَعْبدوا ربَّ هذا البَيْتِ ﴾ أمرهم الله تعالى بعبادته ، وفي تعريف نفسه لهم بأنه رب

هذا البيت وجهان :

أحدهما : لأنه كانت لهم أوثان ، فميز نفسه عنها .

الثاني : أنهم بالبيت شرفوا على سائر العرب ، فذكر لهم ذلك تذكيراً بنعمته .

وفي معنى هذا الأمر والضمير في دخول الفاء على قوله " فليعبدوا " أربعة أوجه :

أحدها : فليعبدوا رب هذا البيت بأنه أنعم عليهم برحلة الشتاء والصيف .

الثاني : فليألفوا عبادة رب هذا البيت كما ألفوا رحلة الشتاء والصيف .

الثالث : فليعبدوا رب هذا البيت لأنه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

الرابع : فليتركوا رحلة الشتاء والصيف بعبادة رب هذا البيت ، فإنه يطعمهم من جوع

ويؤمنهم من خوف ليتوفروا بالمقام على نصرة رسوله والذب عن دينه .

﴿ الذي أطْعَمَهم من جُوعٍ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أطعمهم من جوع بما أعطاهم من الأموال وساق إليهم من الأرزاق ، قاله ابن عيسى .

الثاني : أطعمهم من جوع بما استجاب فيهم دعوة إبراهيم عليه السلام . حين قال : ﴿ وارْزُقهم من الثمرات ﴾ قاله ابن عباس .

(72/832)

الثالث : أن جوعاً أصابهم في الجاهلية ، فألقى الله في قلوب الحبشة أن يحملوا إليهم طعاماً ، فحملوه ، فخافت قريش منهم وظنوا أنهم قدموا لحربهم ، فخرجوا إليهم متحرزين ، فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام وأعانوهم بالأقوات ، فهو معنى قوله ﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ .

﴿ وآمَنَهُم مِنْ خوْفٍ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : آمنهم من خوف العرب أن يسبوهم أو يقاتلوهم تعظيماً لحرمة الحرم ، لما سبقت لهم من دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال :

﴿ ربِّ اجْعَلْ هذا بلداً آمِناً ﴾ ، قاله ابن عباس .

الثاني : من خوف الحبشة مع الفيل ، قاله الأعمش .

الثالث : آمنهم من خوف الجذام ، قاله الضحاك والسدي وسفيان الثوري .

الرابع : يعني آمن قريشاً ألا تكون الخلافة إلا فيهم ، قاله علّي رضي الله عنه . انتهى ا . هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 345. 349 ﴾

(73/832)

وقال ابن عطية :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) ﴾

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم ﴾ على إفعال والهمزة الثانية ياء ، وقرأ ابن عامر " لألآف " على فعال ﴿ إيلافهم ﴾ على أفعال بياء في الثانية ، وقرأ أبو بكر عن عاصم : بهمزتين فيهما الثانية ساكنة ، قال أبو علي : وتحقيق عاصم هاتين الهمزتين لا وجه له ، وقرأ أبو جعفر : " إلْفهم " بلام ساكنة ، و ﴿ قريش ﴾ ولد النضر بن كنانة ، والتقرش : التكسب ، وتقول ألف الرجل الأمر وآلفه غيره ، فالله عز وجل آلف قريشاً أي جعلهم يألفون رحلتين في العام ، رحلة في الشتاء وأخرى في الصيف ، ويقال أيضاً ألف بمعنى آلف ، وأنشد أبو زيد : [الطويل]

من المؤلفات الرمل أدماء حرة . . . شعاع الضحى في جيدها يتوضح

فألف وإلاف مصدر ألف ، و" إيلاف " مصدر آلف ، قال بعض الناس : كانت الرحلتان إلى الشام في التجارة ، وقيل الأرباح ، ومنه قول الشاعر : [الكامل]

سفرين بينهما له ولغيره . . . سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وقال ابن عباس : كانت ﴿ رحلة الشتاء ﴾ إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى بصرى من أرض الشام ، قال أبو صالح : كانت جميعاً إلى الشام ، وقال ابن عباس أيضاً : كانوا يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماء والظل ، ويرحلون في الشتاء إلى مكة للتجارة وسائر أغراضهم ، فهاتان رحلتا الشتاء والصيف ، قال الخليل بن أحمد فمعنى الآية : لأن فعل الله بقريش هذا ومكنهم من الفهم هذه النعمة ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ .

(74/832)

قال القاضي أبو محمد : وذكر البيت هنا متمكن لتقدم حمد الله في السورة التي قبل ، وقال الأخفش ، وغيره : ﴿ لإيلاف ﴾ ، متعلقة بقوله : ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ [الفيل : 5] ، أي ليفعل بقريش هذه الأفاعيل الجميلة ، وقال بعض المفسرين معنى الآية : أعجبوا ﴿ لإيلاف قريش ﴾ ، هذه الأسفار وإعراضهم عن عبادة الله ، ثم أمرهم بالعبادة بعد وأعلمهم أن الله تعالى هو الذي ﴿ أطعمهم ﴾ ﴿ وآمنهم ﴾ لا سفرهم ، المعنى :

فليعبدوا الذي أطعمهم بدعوة إبراهيم حيث قال : وارزقهم من الثمرات ، وآمنهم بدعوته حيث قال : ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ [إبراهيم : 35] ولا يشتغلوا بالأسفار التي إنما هي طلب كسب وعرض دنيا ، وقال النقاش : كانت لهم أربع رحل ، وهذا قول مردود ، وقال عكرمة : معنى الآية كما ألفوا هاتين الرحلتين لدنياهم ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ لآخرتهم ، وقال قتادة : إنما عددت عليهم الرحلتان لأنهم كانوا يأمنون الناس في سفرتهم ، والناس بغير بعضهم على بعض ، ولا يمكن قبيلاً من العرب أن يرحل آمناً ، كما تفعل قريش ، فالمعنى فليعبدوا الذي خصهم بهذه الحال فأطعمهم وآمنهم ، وقوله تعالى : ﴿ من جوع ﴾ معناه أن أهل مكة قاطنون بواد غير ذي زرع عرضة للجوع والجدب لولا لطف الله تعالى ، وأن جعلها بدعوة إبراهيم تجبى إليها ثمرات كل شيء ، وقوله تعالى : ﴿ من خوف ﴾ أي جعلهم لحرمة البيت مفضلين عند العرب يأمنون والناس خائفون ، ولولا فضل الله تعالى في ذلك لكانوا بمدارج المخاوف ، وقال ابن عباس والضحاك : ﴿ من خوف ﴾ معناه من الجذام فلا ترى بمكة مجذوماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(75/832)

وقال ابن الجوزي :

قوله تعالى : ﴿ إيلافهم ﴾

قرأ أبو جعفر وابن فليح عن ابن كثير ، والوليد بن عتبة عن ابن عامر ، والتغلبي عن ابن ذكوان ، عنه "إلافهم" بهمزة مكسورة من غير ياءٍ بعدها ، مثل : علافهم .

وروى الخزاعي عن ابن فليح ، وأبان بن تغلب عن عاصم "إلفهم" بسكون اللام أيضاً .

ورواه الشموني إلا حماداً بهمزتين مكسورتين بعدهما ياء ساكنة ، ورواه حماد كذلك إلا أنه حذف الياء .

وقرأ الباقون بهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة مثل "عيلافهم" .

وجمهور العلماء على أن الرّحلتين كانتا للتجارة ، وكانوا يخرجون إلى الشام في الصيف ، وإلى اليمن في الشتاء لشدة برد الشام .

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانوا يشتون بمكة ، ويصيفون بالطائف .

قال الفراء : والرحلة منصوبة بايقاع الفعل عليها .

قوله تعالى : ﴿ فليعبدوا ربَّ هذا البيت ﴾ أي : ليوحِّدوه ﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ أي : بعد الجوع ، كما تقول : كسوتك من عُرْيٍ ، وذلك أن الله تعالى آمَنَهم بالحرم ، فلم يُتَعَرَّض لهم في رحلتهم ، فكان ذلك سبباً لإطعامهم بعدما كانوا فيه من الجوع .

وروى عطاء عن ابن عباس قال : كانوا في ضُرٍّ ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرّحلتين ،

فكانوا يقسمون ربحهم بين الغني والفقير حتى استغنوا .

قوله تعالى : ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ وذلك أنهم كانوا آمنين بالحرم ، إن حضروا حماهم ، وإن سافروا قيل : هؤلاء أهل الحرم ، فلا يَعْرِضُ لهم أحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 238.242 ﴾

(76/832)

وقال القرطبى :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) ﴾

قيل : إن هذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى .

يقول : أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش ؛ أي لتأتلف ، أو لتتفق قريش ، أو لكي تأمن قريش فتؤْلِف رحلتيها .

وممن عدّ السورتين واحدة أبيّ بن كعب ، ولا فصل بينهما في مصحفه .

وقال سفيان بن عيينة : كان لنا إمام لا يفصل بينهما ، ويقرؤهما معاً .

وقال عمرو بن ميمون الأَوْدِيّ : صلينا المغرب خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ فقرأ في الأولى : ﴿ والتين والزيتون ﴾ [التين : 1] وفي الثانية ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ﴾ [الفيل :

1]و ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش : 1] .

وقال الفراء : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى ؛ لأنه ذكَّر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال : "لإيلاف قُريش" أي فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نِعْمَةً منا على قريش .

وذلك أن قريشاً كانت تخرج في تجارتها ، فلا يُغار عليها ولا تُقْرب في الجاهلية .

يقولون : هم أهل بيت الله جلّ وعزّ ؛ حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ؛ ويأخذ حجارتها ، فيبني بها بيتاً في اليمن يَحُج الناس إليه ؛ فأهلكهم الله عز وجل ، فذكَّرهم نِعْمته .

أي فجعل الله ذلك لإيلاف قريش ؛ أي ليألفوا الخروج ولا يُجْتَرَأ عليهم ؛ وهو معنى قول مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبير عنه .

ذكره النحاس : حدّثنا أحمد بن شُعيب قال أخبرني عمرو بن عليّ قال : حدّثني عامر بن إبراهيم وكان ثقة من خيار الناس قال حدّثني خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة ، قال : حدّثني أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، في قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ قال : نعمتي على قريش إيلافُهُمْ رحلة الشتاء والصيف .

قال : كانوا يَشْتون بمكة ، ويَصِيفون بالطائف .

وعلى هذا القول يجوز الوقف على رؤوس الآي وإن لم يكن الكلام تاماً ؛ على ما نبينه أثناء السورة .

(77/832)

وقيل : ليست بمتصلة ؛ لأن بين السورتين "بسم الله الرحمن الرحيم" وذلك دليل على انقضاء السورة وافتتاح الأخرى ، وأن اللام متعلقة بقوله تعالى : "فلْيعبدوا" أي فليعبدوا هؤلاء ربَّ هذا البيت ، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للامتيار .

وكذا قال الخليل : ليست متصلة ؛ كأنه قال : أَلَّف الله قريشاً إيلافاً فليعبدوا ربَّ هذا البيت .

وعمِل ما بعد الفاء فيما قبلها لأنها زائدة غير عاطفة ؛ كقولك : زيداً فاضرب .

وقيل : اللام في قوله تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ لام التعجب ؛ أي اعجبوا لإيلاف قريش ؛ قاله الكسائيّ والأخفش .

وقيل : بمعنى إلى .

وقرأ ابن عامر : "لإِئلافِ قريش" مهموزاً مختلساً بلا ياء .

وقرأ أبو جعفر والأعرج "لِيلاَف" بلا همز طلباً للخفة .

الباقون "لإِيلاف" بالياء مهموزاً مشبعاً ؛ من آلَفْتُ أُولِفُ إيلافاً .

قال الشاعر :

المُنْعِمين إذا النجوم تغيرتْ . . .

والظاعنين لرحلةِ الإِيلافِ

ويقال : أَلِفْتُه إلْفاً وإلافا .

وقرأ أبو جعفر أيضاً : "لإِلْفِ قُرَيش" وقد جمعهما من قال :

زَعَمْتُمْ أنّ إخوتَكُمْ قُرَيْشٌ . . .

لهم إلف وليس لكم إلاف

قال الجوهريّ : وفلان قد أَلِف هذا الموضعَ (بالكسر) يألَفُه إلْفاً ، وآلفه إياه غيره .

ويقال أيضاً : آلَفت الموضع أُولِفه إيلافاً .

وكذلك : آلفت الموضع أُؤلِفُه مُؤالفة وإلافا ؛ فصار صورة أفعل وفاعل في الماضي واحدة .

وقرأ عِكرمة "لِيَأْلَفْ" بفتح اللام على الأمر .

وكذلك هو في مصحف ابن مسعود .

وفتح لام الأمر لغة حكاها ابن مجاهد وغيره .

وكان عكرمة يعيب على من يقرأ "لإِيلاف" .

وقرأ بعض أهل مكة "إلاف قريش" واستشهد بقول أبي طالب يوصي أخاه أبا لهب برسول

الله صلى الله عليه وسلم :

فَلا تُتْرَكَنْه ما حييت لِمُعْظَمٍ . . .

وكنْ رجلاً ذا نَجْدةٍ وعَفافِ

تذود العِدا عن عُصْبة هاشميةٍ . . .

إلافُهم في الناس خيرُ إلافِ

(78/832)

وأما قريش فهم بنو النضر بن كِنانة بن خزيمة بن مدرِكة بن إلياس بن مضر .

فكل من كان من ولد النضر فهو قرشيّ دون بني كِنانة ومن فوقه .

وربما قالوا : قُرَيْشِيّ ، وهو القياس ؛ قال الشاعر :

بكل قُرَيْشِيّ عليه مَهابة . . .

فإن أردت بقريش الحيّ صرفته ، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه ؛ قال الشاعر :

وكَفَى قُرَيْشَ المُعْضِلاتِ وسادَها . . .

والتقريش : الاكتساب ، وتقرّشوا أي تجمعوا .

وقد كانوا متفرّقين في غير الحرم ، فجمعهم قُصَيّ بن كلاب في الحرم ، حتى اتخذوه مَسْكناً .

قال الشاعر :

أبونا قُصَيّ كان يُدْعَى مُجَمِّعاً . . .

به جمع الله القبائل من فِهرِ

وقد قيل : إن قريشاً بنو فِهر بن مالك بن النضر .

فكل من لم يلده فِهر فليس بقرشيّ والأوّل أصح وأثبت .

وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنا ولد النضر بن كنانة لا نقفو أُمنا ، ولا ننتفي من أبينا " وقال وائلة بن الأسْقَع : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله اصطفى كِنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى من بني كِنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم " صحيح ثابت ، خرّجه البخاريّ ومسلم وغيرهما .

واختلِف في تسميتهم قريشاً على أقوال : أحدها : لتجمُّعهم بعد التفرق ، والتقرش : التجمع والالتئام .

قال أبو جِلْدَة اليَشْكُري :

إخوة قَرّشُوا الذنوبَ علينا . . .

في حديثٍ مِن دهرهمْ وقديم

الثاني : لأنهم كانوا تِجاراً يأكلون من مكاسبهم .

والتَّقرُّش : التكسُّب .

وقد قَرَشَ يَقْرُشُ قَرْشاً : إذا كسب وجمع .

قال الفرّاء : وبه سميت قُريش .

الثالث : لأنهم كانوا يفتشون الحاج من ذي الخَلة ، فيسدّون خَلته .

والقَرْش : التفتيش .

قال الشاعر :

أيُّها الشامتُ المقرش عنا . . .

عند عمرو فهلْ له إبقاء

(79/832)

الرابع : ما روي أن معاوية سأل ابن عباس لم سميت قريش قريشاً ؟ فقال : لدابة في البحر من أقوى دوابه يقال لها القِرش ؛ تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تُعْلَى .

وأنشد قول تُبَّع :

وقريش هي التي تسكن البح . . .

ر بها سميت قريش قريشا

تأكل الرث والسمين ولا تت . . .

رك فيها لذي جناحين رِيشا

هكذا في البلاد حيّ قُرَيشٍ . . .

يأكلون البلاد أكلاً كميشا

ولهم آخر الزمانِ نبيٌّ . . .

يكثر القتل فيهم والخُموشا

إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2)

قرأ مجاهد وحميد "إلفِهم" ساكنة اللام بغير ياء .

وروي نحوه عن ابن كثير .

وكذلك روت أسماء : أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ "إلفِهم" .

وروي عن ابن عباس وغيره .

وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حيوة "إِلَافَهم" مهموزاً مختلساً بلا ياء .

وقرأ أبو بكر عن عاصم "إئْلافهم" بهمزتين ، الأولى مكسورة والثانية ساكنة .

والجمع بين الهمزتين في الكلمتين شاذ .

الباقون "إيلافهم" بالمدّ والهمز ؛ وهو الاختيار ، وهو بدل من الإيلاف الأول للبيان .

وهو مصدر آلف : إذا جعلته يألف .

وأَلِف هو إلفاً ؛ على ما تقدّم ذكره من القراءة ؛ أي وما قد ألفوه من رحلة الشتاء

والصيف .

روى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى : ﴿ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصيف ﴾ قال : لا يشُق عليهم رحلة شتاءٍ ولا صيفٍ ؛ مِنَّةٌ منه على قريش .

وقال الهَرَوِيّ وغيره : وكان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة : هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل ؛ بنو عبد مناف .

فأما هاشم فإنه كان يُؤْلف مَلِكَ الشام ؛ أي أخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به في تجارته إلى الشام .

وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى الحَبشة .

والمطلب إلى اليمن .

ونوفل إلى فارس .

ومعنى يُؤْلف يُجير .

فكان هؤلاء الإخوة يسمَّون المُجِيرين .

فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة ، فلا يُتَعَرَّض لهم .

قال الأزهريّ : الإيلاف : شبه الإجارة بالخَفارة ؛ يقال : آلف يُؤْلِف : إذا أجار الحمائل بالخَفارة .

والحمائل : جمع حَمولة .

قال : والتأويل : أن قُريشاً كانوا سكان الحرم ، ولم يكن لهم زرع ولا ضَرْع ، وكانوا يَمِيرون في الشتاء والصيف آمنين ، والناس يُتَخَطَفون من حولهم ، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حَرَم الله ، فلا يَتَعرضُ الناس لهم .

وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره : حدّثنا سعيد بن محمد ، عن بكر بن سهل الدِّمياطي ، بإسناده إلى ابن عباس ، في قول الله عز وجل : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ إلَفهم رحلة الشتاء والصيف .

وذلك أن قريشاً كانوا إذا أصابت واحداً منهم مخمصة ، جرى هو وعياله إلى موضع معروف ، فضربوا على أنفسهم خِباء فماتوا ؛ حتى كان عمرو بن عبد مناف ، وكان سيداً في زمانه ، وله ابن يقال له : أسَد ، وكان له تِرْب من بني مخزوم ، يحبه ويلعب معه .

فقال له : نحن غداً نعتفد " قال ابن فارس : هذه لفظة في هذا الخبر لا أدري : بالدال هي أم بالراء ؛ فإن كانت بالراء فلعلها من العفر ، وهو التراب ، وإن كانت بالدال ، فما أدري معناها ، وتأويله على ما أظنه : ذهابهم إلى ذلك الخباء ، وموتهم واحداً بعد واحد .

قال : فدخل أسد على أمّه يبكي ، وذكر ما قاله تِربه .

قال : فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق ، فعاشوا به أياماً .

ثم إن تربه أتاه أيضاً فقال : نحن غداً نعتفد ، فدخل أسد على أبيه يبكي ، وخبره خبر تربه ، فاشتدّ ذلك على عمرو بن عبد مناف ، فقام خطيباً في قريش وكانوا يطيعون أمره ، فقال : إنكم أحد ثتم حد ثاً تقِلون فيه وتكثر العرب ، وتذِلون وتعز العرب ، وأنتم أهل حرم الله جل وعز ، وأشرف ولد آدم ، والناس لكم تبع ، ويكاد هذا الاعتفاد يأتي عليكم .

فقالوا : نحن لك تبع .

قال : ابتدئوا بهذا الرجل يعني أبا ترِب أسد فأغنوه عن الاعتفاد ، ففعلوا .

(81/832)

ثم إنه نحر البدن ، وذبح الكِباش والمعز ، ثم هشم الثرِيد ، وأطعم الناس ؛ فسمي هاشماً .

وفيه قال الشاعر :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه . . .

ورجال مكة مسنِتون عِجاف

ثم جمع كل بني أب على رحلتين : في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام للتجارات ، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير ، حتى صار فقيرهم كغنيهم ؛ فجاء الإسلام وهم على

هذا ، فلم يكن في العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعز من قريش ، وهو قول شاعرهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم . . .

حتى يصير فقيرهم كالكافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فقال : ﴿ ليعبدوا رب هذا البيتِ الذي أَطعمهم مِن جوعٍ ﴾ بصنيع هاشم "وآمنهم مِن خوفٍ" أن تكثر العرب ويقِلوا .

قوله تعالى : ﴿ رِحْلَةَ الشتآء والصيف ﴾ "رِحلَةَ" نصب بالمصدر ؛ أي ارتحالهم رِحلة ، أو بوقوع "إيلافهم" عليه ، أو على الظرف .

ولو جعلتها في محل الرفع ، على معنى هما رِحلة الشتاء والصيف ؛ لجاز .

والأوّل أولى .

والرحلة الارتحال .

وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء ، لأنها بلاد حامية ، والرحلة الأخرى في الصيف إلى الشام ، لأنها بلاد باردة .

وعن ابن عباس أيضاً قال : كانوا يَشْتون بمكة لدِفئها ، ويَصِيفون بالطائف لهوائها .

وهذه من أجلّ النعم أن يكون للقوم ناحية حَرّ تدفع عنهم برد الشتاء ، وناحية بردٍ تدفع عنهم حر الصيف ؛ فذكرهم الله تعالى هذه النعمة .

وقال الشاعر :

تَشْتي بمكة نَعْمَةً . . .

ومَصِيفُها بالطّائِف

وهنا أربع مسائل :

الأولى : اختار القاضي أبو بكر بن العربيّ وغيره من العلماء : أن قوله تعالى : ﴿ لإِيلاَفِ ﴾ متعلق بما قبله .

(82/832)

ولا يجوز أن يكون متعلقاً بما بعده ، وهو قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت ﴾ قال : وإذا ثبت أنه متعلق بالسورة الأخرى وقد قطع عنه بكلام مبتدأ ، واستئناف بيان وسطر (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فقد تبين جواز الوقف في القراءة للقرّاء قبل تمام الكلام ، وليست المواقف التي ينتزع بها القُرّاء شرعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم مروياً ، وإنما أرادوا به تعليم الطلبة المعاني ، فإذا عِلموها وقفوا حيث شاؤوا .

فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه ، ولا تُعِد ما قبله إذا اعتراك ذلك ، ولكن ابدأ من حيث وقف بك نَفَسك .

هذا رأيي فيه ، ولا دليل على ما قالوه بحال ، ولكني أعتمد الوقف على التمام ، كراهية الخروج عنهم .

قلت : ومن الدليل على صحة هذا ، قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ ثم يقف .

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ ثم يقف .

وقد مضى في مُقَدّمة الكتاب .

وأجمع المسلمون أن الوقف عند قوله : ﴿ كَعَصْفٍ مَّأْكُولِ ﴾ ليس بقبيح .

وكيف يقال إنه قبيح وهذه السورة تُقْرأ في الركعة الأولى والتي بعدها في الركعة الثانية ، فيتخللها مع قطع القراءة أركان ؟ وليس أحد من العلماء يكره ذلك ، وما كانت العلة فيه إلاّ أنَّ قوله تعالى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولِ ﴾ انتهاء آية .

فالقياس على ذلك : ألا يمتنع الوقف عند أعجاز الآيات سواء كان الكلامُ يتم ، والغرض ينتهي ، أو لا يتم ، ولا ينتهي .

وأيضاً فإن الفواصل حِلية وزِينة للكلام المنظوم ، ولولاها لم يتبين المنظوم من المنثور .

ولا خفاء أن الكلام المنظوم أحسن ؛ فثبت بذلك أن الفواصل من محاسن الكلام المنظوم ، فمن أظهرَ فواصله بالوقوف عليها فقد أبدى محاسنه ، وترك الوقوفِ يُخفي تلك المحاسن ، ويُشبّهِ المنثور بالمنظوم ، وذلك إخلال بحق المقروء .

الثانية : قال مالك : الشتاء نصف السنة ، والصيف نصفها ، ولم أزل أرى ربيعة بن أبي عبد الرحمن ومن معه ، لا يخلَعون عمائمهم حتى تطلع الثُّريا ، وهو يوم التاسعَ عشَرَ من بشنس ، وهو يوم خمسة وعشرين من عدد الروم أو الفرس .

وأراد بطلوع الثريا أن يخرج السُّعاة ، ويسير الناس بمواشيهم إلى مياههم ، وأن طلوع الثريا أوّل الصيف ودُبُرَ الشتاء .

وهذا مما لا خلاف فيه بين أصحابه عنه .

وقال عنه أشهب وحده : إذا سقطَتِ الهَقْعَة نقص الليل ، فلما جُعل طلوع الثريا أوّل الصيف ، وجب أن يكون له في مطلق السنة ستة أشهر ، ثم يستقبل الشتاء من بعد ذهاب الصيف ستة أشهر .

وقد سئل محمد بن عبد الحكم عمن حلف ألا يكلم امرأ حتى يدخل الشتاء ؟ فقال : لا يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من هاتور .

ولو قال حتى يدخل الصيف ؛ لم يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من بشنس .

قال القُرَطِيّ : أما ذكر هذا عن محمد في بشنس ، فهو سهو ، إنما هو تسعة عشر من بشنس

، لأنك إذا حسبت المنازل على ما هي عليه ، من ثلاث عشرة ليلة كل منزلة ، علمت أن ما بين تسع عشرة من ها تور لا تنقضي منازله إلا بدخول تسع عشرة من بشنس .

والله أعلم .

الثالثة : قال قوم : الزمان أربعة أقسام : شتاء ، وربيع ، وصيف ، وخريف .

وقال قوم : هو شتاء ، وصيف ، وقَيظ ، وخريف .

والذي قاله مالك أصح ؛ لأن الله قسم الزمان قسمين ولم يجعل لهما ثالثاً .

الرابعة : لما امتن الله تعالى على قريش برحلتين ، شتاء وصيفاً ، على ما تقدّم ، كان فيه دليل على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلّين ، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر ؛ كالجلوس في المجلس البحْري في الصيف ، وفي القبلي في الشتاء ، وفي اتخاذ البادَهنَجات والخيَش للتبريد ، واللبِّد واليانوسة للدّفء .

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3)

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده ، لأجل إيلافهم رحلتين .

ودخلت الفاء لأجل ما في الكلام من معنى الشرط ؛ لأن المعنى : إمّا لا فليعبدوه لإيلافهم ؛ على معنى أن نعم الله تعالى عليهم لا تُحْصَى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه ، فليعبدوه لشأن هذه الواحدة ، التي هي نعمة ظاهرة .

والبيت : الكعبة .

وفي تعريف نفسه لهم بأنه رب هذا البيت وجهان : أحدهما : لأنه كانت لهم أوثان فميز نفسه عنها .

الثاني : لأنهم بالبيت شُرِّفوا على سائر العرب ؛ فذكر لهم ذلك ، تذكيراً لنعمته .

وقيل : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت ﴾ أي ليألفوا عبادة رب الكعبة ، كما كانوا يألفون الرحلتين .

قال عكرمة : كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بُصْرَى ورحلة إلى اليمن ، فقيل لهم : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت ﴾ أي يقيموا بمكة .

رحلة الشتاء ، إلى اليمن ، والصيف : إلى الشام .

قوله تعالى : ﴿ الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾

أي بعدَ جوعٍ .

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ قال ابن عباس : وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال : ﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات ﴾ [البقرة : 126] .

وقال ابن زيد : كانت العرب يُغير بعضها على بعض ، ويَسْبى بعضها من بعض ، فأمَنتْ قُرَيش من ذلك لمكان الحرم – وقرأ – ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجبى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [القصص : 57] .

وقيل : شق عليهم السفر في الشتاء والصيف ، فألقى الله في قلوب الحَبَشة أن يحملوا إليهم طعاما في السفن ، فحملوه ؛ فخافت قريش منهْم ، وظنوا أنهم قدموا لحربهم ، فخرجوا إليهم مُتَحَرّزين ، فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام ، وأغاثوهم بالأقوات ؛ فكان أهل مكة يخرجون إلى جُدّة بالإبل والحُمُر ، فيشترون الطعام ، على مسيرة ليلتين .

(85/832)

وقيل : هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا عليهم ، فقال : " اللهُمْ اجْعَلها عليهمْ سِنِينَ كسِنِى يُوسُف " فاشتد القَحْط ، فقالوا : يا محمدُ ادعُ الله لنا فإنا مؤمنون .

فدعا فأخصبَتْ تَبَالة وجُرَشُ من بلاد اليمن ؛ فحملوا الطعام إلى مكة ، وأخصب أهلها .

وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ أي من خوف الجُذام ، لا يصيبهم ببلدهم الجُذام .

وقال الأعمش : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ أي من خوف الحَبَشة مع الفيل .

وقال عليّ رضى الله عنه : وآمنهم مِن خوف : أن تكون الخلافة إلا فيهم .

وقيل : أى كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك .

فالله أعلم ، واللفظ يعم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(86/832)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ لإيلاف قريش ﴾

(87/832)

اختلفوا في هذه اللام ، فقيل هي متعلقة بما قبلها وذلك أن الله تعالى ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم بما صنع بالحبشة ، فقال فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش ، أي هلك أصحاب الفيل لتبقى قريش ، وما ألفوا من رحلة الشتاء والصيف ، ولهذا جعل أبي بن كعب هذه السّورة وسورة الفيل واحدة ولم يفصل بينهما في مصحفه ببسم الله الرحمن

الرحيم والذي عليه الجمهور من الصحابة وغيرهم ، وهو المشهور أن هذه السّورة منفصلة عن سورة الفيل وأنه لا تعلق بينهما وأجيب عن مذهب أبي بن كعب في جعل هذه السّورة ، والسورة التي قبلها سورة واحدة بأن القرآن كالسورة الواحدة يصدق بعضه بعضاً ويبين بعضه معنى بعض وهو معارض أيضاً بإطباق الصّحابة ، وغيرهم على الفصل بينهما ، وأنهما سورتان فعلى هذا القول اختلفوا في العلة الجالبة للام في قوله ﴿ لإيلاف ﴾ ، فقيل هي لام التعجب ، أي اعجبوا الإيلاف قريش رحلة الشّتاء والصّيف ، وتركهم عبادة رب هذا البيت ، ثم أمرهم بعبادته ، فهو كقوله على وجه التعجب اعجبوا لذلك ، وقيل هي متعلقة بما بعدها تقديره ، فليعبدوا رب هذا البيت لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، أي ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة والإيلاف من ألفت الشيء إلفاً وهو بمعنى الإئتلاف فيكون المعنى لإيلاف قريش هاتين الرحلتين فتتصلا ولا تنقطعا ، وقيل هو من ألفت كذا ، أي لزمته وألفنيه الله ألزمنيه الله ، وقريش هم ولد النضر بن كنانة ، فكل من ولده النضر ، فهو من قريش ، ومن لم يلده النضر ، فليس بقرشي (م) عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم " (م) عن جابر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " الناس تبع لقريش في الخير والشر " (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إن الناس تبع لقريش في هذا

الشّأن مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم " عن سعيد بن زيد قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من أراد هوان قريش أهانه الله " أخرجه التّرمذي وقال حديث حسن غريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " اللهم أذقت أول قريش نكالاً ، فأذق آخرهم نوالاً " أخرجه التّرمذي وقال حديث حسن صحيح غريب .

النكال : العذاب ، والمشقة ، والشّدة والنّوال : العطاء ، والخير ، وسموا قريشاً من القرش ، والتقريش وهو الجمع ، والتكسب ، يقال فلان يقرش لعياله ، ويقترش لهم ، أي يكتسب وذلك لأن قريشاً كانوا قوماً تجاراً وعلى جمع المال ، والأفضال حراصاً ، وقال أبو ريحانة سأل معاوية عبد الله بن عباس لم سميت قريش قريشاً قال لدابة تكون في البحر هي من أعظم دوابه يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته ، وهي تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلى ، قال وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها قال نعم وأنشده شعر الجمحي .

وقوله تعالى : ﴿ إيلافهم ﴾ هو بدل من الأول تفخيماً لأمر الإيلاف ، وتذكيراً لعظم المنة فيه .

﴿ رحلة الشتاء والصيف ﴾ قال ابن عباس كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف فأمرهم الله تعالى أن يقيموا بالحرم ، ويعبدوا رب هذا البيت ، وقال الأكثرون كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة : رحلة في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، وكان الحرم وادياً مجدباً لا زرع فيه ، ولا ضرع ، وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم ، وكانوا لا يتعرض لهم أحد بسوء ، وكانوا يقولون قريش سكان حرم الله وولاة بيته وكانت العرب تكرمهم وتعزهم ، وتعظمهم لذلك ، فلولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف ، فشق عليهم الاختلاف إلى اليمن والشام ، فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن ، فحملوا الطعام إلى مكة ، أهل الساحل حملوا طعامهم في البحر على السفن إلى مكة وأهل البر حملوا على الإبل والحمير فألقى أهل الساحل بجدة وأهل البر بالمحصب وأخصب الشام فحملوا الطعام إلى مكة وألفوا بالأبطح فامتار أهل مكة من قريب ، وكفاهم الله مؤنة الرحلتين جميعاً وقال ابن عباس : كانوا في ضر ومجاعة حتى جمعهم هاشم على الرحلتين ، فكانوا يقسمون ربحهم بين الغني ، والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم ، وقال الكلبي : كان أول من حمل السمراء يعني القمح إلى الشام ،

ورحل إليها الإبل هاشم بن عبد مناف وفيه يقول الشاعر :

قل للّذي طلب السّماحة والنّدى . . .

هلاّ مررت بآل عبد مناف

هلا مررت بهم تريد قراهم . . .

منعوك من ضر ومن إكفاف

الرّائشين وليس يوجد رائش . . .

والقائلين هلم للأضياف

والخالطين غنيهم بفقيرهم . . .

حتى يكون فقيرهم كالكافي

والقائمين بكل وعد صادق . . .

والرّاحلين برحلة الإيلاف

عمرو العلا هشيم الثّريد لقومه . . .

ورجال مكة مسنتون عجاف

سفرين سنهما له ولقومه . . .

سفر الشتاء ورحلة الأصياف

قوله عزّ وجلّ : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ يعني الكعبة ، وذلك أن الإنعام على قسمين أحدهما : دفع ضر ، وهو ما ذكره في سورة الفيل ، والثاني جلب نفع ، وهو ما ذكره في هذه السّورة ، ولما دفع الله عنهم الضّر ، وجلب لهم النفع ، وهما نعمتان عظيمتان أمرهم بالعبودية ، وأداء الشكر ، وقيل إنه تعالى لما كفاهم أمر الرّحلتين أمرهم أن يشتغلوا بعبادة رب هذا البيت .

فإنه هو ﴿ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ ومعنى الذي أطعمهم من جوع ، أي من بعد جوع بحمل الميرة إليهم من البلاد في البر والبحر ، وقيل في معنى الآية أنهم لما كذبوا محمداً (صلى الله عليه وسلم) دعا عليهم ، فقال اللّهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف فاشتد عليهم القحط ، وأصابهم الجوع ، والجهد ، فقالوا : يا محمد ادع الله لنا فإنا مؤمنون فدعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأخصبت البلاد ، وأخصب أهل مكة بعد القحط ، والجهد ، فذلك قوله تعالى ﴿ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ ، أي بالحرم وكونهم من أهل مكة حتى لم يتعرض لهم أحد في رحلتهم ، وقيل آمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدهم الجذام ، وقيل آمنهم بمحمد (صلى الله عليه وسلم) وبالإسلام والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن جـ 7 صـ 296 . 299 ﴾

وقال النسفى :

سورة قُرَيْشٍ

مكية وهي أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾

متعلق بقوله ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين .

ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط أي إن نعم الله عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة ، أو بما قبله أي ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ يعني أن ذلك الإتلاف لهذا الإيلاف وهذا كالتضمين في الشعر ، وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به ، وهما في مصحف أبيّ سورة واحدة بلا فصل .

ويروى عن الكسائي ترك التسمية بينهما ، والمعنى أنه أهلك الحبشة الذين قصدوهم ليتسامع الناس بذلك فيحترموهم فضل احترام حتى ينتظم لهم الأمن في رحلتيهم فلا

يجترىء أحد عليهم .

وقيل : المعنى اعجبوا لإيلاف قريش ﴿ لِإِلاف قُرَيْشٍ ﴾ شامي أي لمؤالفة قريش .

وقيل : يقال ألفته ألفاً وإلافاً .

وقريش ولد النضر بن كنانة سموه بتصغير القرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار ، والتصغير للتعظيم فسموه بذلك لشدتهم ومنعتهم تشبيهاً بها .

وقيل : من القرش وهو الجمع والكسب لأنهم كانوا كسابين بتجاراتهم وضربهم في البلاد ﴿ إيلافهم رِحْلَةَ الشتاء والصيف ﴾ أطلق الإيلاف ثم أبدل عنه المقيد بالرحلتين تفخيماً لأمر الإيلاف وتذكيراً لعظيم النعمة فيه .

ونصب الرحلة ب ﴿ إيلافهم ﴾ مفعولاً به وأراد رحلتي الشتاء والصيف فأفرد لأمن الإلباس .

(92/832)

وكانت لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا في رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله فلا يتعرض لهم وغيرهم يغار عليهم ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت الذى أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ وَءامَنَهُم مّنْ خوْفٍ ﴾ والتنكير في

﴿ جُوعٍ ﴾ و ﴿ خوْفٍ ﴾ لشدتهما يعني أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما ، وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل ، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم .

وقيل : كانوا قد أصابتهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة ، وآمنهم من خوف الجذام لا يصيبهم ببلدهم .

وقيل : ذلك كله بدعاء إبراهيم عليه السلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 378 ﴾

(93/832)

وقال ابن جزى :

سورة قُرَيْش

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ والصيف ﴾

قريش هم حيّ من عرب الحجاز الذين هم من ذرية معد بن عدنان ، إلا أنه لا يقال قريشيّ إلا لمن كان من ذرية النضر بن كنانة ، وهنم ينقسمون إلى أفخاذ وبيوت نحو بني هاشم ، وبني أمية ، وبني مخزوم ، وغيرهم وإنما سميت القبيلة قريشاً لتقرشهم ، والتقرّش التكسب

وكانوا تجاراً ، وعن معاوية أنه سأل ابن عباس لم سميت قريش قريشاً ؟ قال : لدابة في البحر تأكل ولا تؤكل ، وتعلوا ولا تعلى ، وكانوا ساكنين بمكة ، وكان لهم رحلتان في كل عام للتجارة : رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، وقيل : كان الرحلتان جميعاً إلى الشام ، وقيل : كانوا يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماء والظل ، فيقيمون بها ويرحلون في الشتاء إلى مكة لسكناهم بها ، والإيلاف مصدر من قولك آلفت المكان إذا ألفته وقيل : هو منقول منه بالهمزة يقال ألف الرجل الشيء ، وأُلفه إياه غيره ، فالمعنى على القول الأول أن قريشاً ألفوا رحلة الشتاء والصيف ، وعلى الثاني أن الله ألّفهم الرحلتين . واختلف في تعلق قوله لإيلاف قريش على ثلاثة أقوال : أحدهما أنه يتعلق بقوله : فليعبدوا والمعنى فليعبدوا الله من أجل إيلافهم الرحلتين فإن ذلك نعمة من الله علهيم : الثاني أنه يتعلق بمحذوف تقديره : أعجبوا لإيلاف قريش : الثالث أنه يتعلق بسورة الفيل ، والمعنى أن الله أهلك أصحاب الفيل لإيلاف قريش ، فهو يتعلق بقوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ ﴾ [الفيل : 5] أو بما قبله من الأفعال . ويؤيد هذا أن السورتين في مصحف أبيّ بن كعب سورة واحدة لا فصل بينهما ، وقد قرأهما عمر في ركعة واحدة من المغرب ، وذكر الله الإيلاف مطلقاً ثم أبدل منه الإيلاف المقيّد بالرحْلتين تعظيماً للأمر ، ونصب رحلة لأنه مفعول بإيلافهم وقال : رحلة وأراد رحلتين ، فهو كقول الشاعر :

كلوا في بعض بطنكم تعفوا . . . .

(94/832)

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذا البيت ﴾ هذا إقامة حجة عليهم بملاطفة واستدعاء لهم وتذكير بالنعم ، والبيت هو المسجد الحرام ﴿ الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ يحتمل أن يريد إطعامهم بسبب الرحلتين ، فقد روي أنهم كانوا قبل ذلك في شدة وضيق حال حتى أكلوا الجيف ويحتمل أن يريد إطعامهم على الإطلاق ، فقد كان أهل مكة ساكنين بواد غير ذي زرع ، ولكن الله أطعمهم مما يجلب إليهم من البلاد ، بدعوة أبيهم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وهو قوله : ﴿ وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات ﴾ [البقرة : 126] ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ يحتمل أن يريد : آمنهم من خوف أصحاب الفيل ، ويحتمل أن يريد آمنهم في بلدهم بدعوة إبراهيم في قوله : ﴿ رَبِّ اجعل هذا بَلَداً آمِناً ﴾ [البقرة : 126] وقد فسرناه في موضعه ، أو يعني آمنهم في أسفارهم لأنهم كانوا في رحلتهم آمنين ، لا يتعرض لهم أحد بسوء ، وكان غيرهم من الناس تؤخذ أموالهم وأنفسهم . وقيل : آمنهم من الجذام فلا يرى بمكة مجذوماً . قال الزمخشري : التنكير في جوع وخوف ؛ لشدتهما . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التسهيل حـ 4 صـ 218.219 ﴾

(95/832)

وقال البيضاوى :

سورة قُرَيْشٍ

مكية ، وآيها أربع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴾

متعلق بقوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت ﴾ والفاء لما في الكلام من معنى الشرط ، إذ المعنى أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لأجل :

﴿ إيلافهم رِحْلَةَ الشتاء والصيف ﴾ أي الرحلة في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام فيمتارون ويتجرون ، أو بمحذوف مثل أعجبوا أو بما قبله كالتضمين في الشعر أي ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ ﴿ لإيلاف قُرَيْشٍ ﴾ ، ويؤيده أنهما في مصحف أُبيِّ سورة واحدة ، وقرىء "ليألف قريش إلفهم رحلة الشتاء" ، وقريش ولد النضر بن كنانة منقول من تصغير قرش ، وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن فلا تطاق إلا بالنار ، فشبهوا بها لأنها تأكل ولا تؤكل ، وتعلو ولا تعلى ، وصغر الاسم للتعظيم وإطلاق الإِيلاف ، ثم إبدال المقيد عنه للتفخيم . وقرأ ابن عامر "لئلاف" بغير ياء بعد الهمزة .

﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت الذى أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ ﴾ أي بالرحلتين والتنكير للتعظيم ،

وقيل المراد به شدة أكلوا فيها الجيف والعظام . ﴿ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ أصحاب الفيل أو التخطف في بلدهم ومسايرهم ، أو الجذام فلا يصيبهم ببلدهم .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة لإيلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 532. 533 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(96/832)

وقال أبو حيان :

سورة قُرَيْشٍ

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) ﴾

وقرأ الجمهور : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ ، مصدر آلف رباعياً ؛ وابن عامر : لالاف على وزن فعال ، مصدر ألف ثلاثياً .

يقال : ألف الرجل الأمر إلفاً وإلافاً ، وآلفه غيره إياه إيلافاً ، وقد يأتي ألف متعدياً لواحد كإلف ، قال الشاعر :

من المؤلفات الرمل أدماء حرة . . .

شعاع الضحى في متنها يتوضح

ولم يختلف القراء السبعة في قراءة إيلافهم مصدراً للرباعي .

وروي عن أبي بكر ، عن عاصم أنه قرأ بهمزتين ، فيهما الثانية ساكنة ، وهذا شاذ ، وإن كان الأصل أبدلوا الهمزة التي هي فاء الكلمة لثقل اجتماع همزتين ، ولم يبدلوا في نحو يؤلف على جهة اللزوم لزوال الاستثقال بحذف الهمزة فيه ، وهذا المروي عن عاصم هو من طريق الشمني عن الأعشى عن أبي بكر .

وروى محمد بن داود النقار عن عاصم : إإيلافهم بهمزتين مكسورتين بعدهما ياء ساكنة ناشئة عن حركة الهمزة الثانية لما أشبع كسرتها ، والصحيح رجوع عاصم عن الهمزة الثانية ، وأنه قرأ كالجماعة .

وقرأ أبو جعفر فيما حكى الزمخشري : لإلف قريش ؛ وقرأ فيما حكى ابن عطية الفهم .

قال الشاعر :

زعمتم أن إخوتكم قريشاً . . .

لهم إلف وليس لكم إلاف

جمع بين مصدري ألف الثلاثي .

وعن أبي جعفر وابن عامر : إلافهم على وزن فعال .

وعن أبي جعفر وابن كثير : إلفهم على وزن فعل ، وبذلك قرأ عكرمة .

وعن أبي جعفر أيضاً : ليلاف بياء ساكنة بعد اللام اتبع ، لما أبدل الثانية ياء حذف الأولى حذفاً على غير قياس .

وعن عكرمة : ليألف قريش ؛ وعنه أيضاً : لتألف قريش على الأمر ، وعنه وعن هلال بن فتيان : بفتح لام الأمر ، وأجمعوا هنا على صرف قريش ، راعوا فيه معنى الحي ، ويجوز منع صرفه ملحوظاً فيه معنى القبيلة للتأنيث والعلمية .

قال الشاعر :

وكفى قريش المعضلات وسادها . . .

جعله اسماً للقبيلة سيبويه في نحو معد وقريش وثقيف ، وكينونة هذه للإحياء أكثر ، وإن جعلتها اسماً للقبائل فجائز حسن .

وقرأ الجمهور : ﴿ رحلة ﴾ بكسر الراء ؛ وأبو السمال : بضمها ، فبالكسر مصدر ، وبالضم الجهة التي يرحل إليها ، والجمهور على أنهما رحلتان .

فقيل : إلى الشام في التجارة ونيل الأرباح ، ومنه قول الشاعر :

سفرين بينهما له ولغيره . . .

سفر الشتاء ورحلة الأصياف

وقال ابن عباس : رحلة إلى اليمن ، ورحلة إلى بصرى .

وقال : يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماء والظل ، ويرحلون في الشتاء إلى مكة للتجارة وسائر أغراضهم .

وقال الزمخشري : وأراد رحلتي الشتاء والصيف ، فأفرد لأمن الإلباس ، كقوله :

كلوا في بعض بطنكم تعفوا . . .

فإن زمانكم زمن خميص

انتهى ، وهذا عند سيبويه لا يجوز إلا في الضرورة ، ومثله :

حمامة بطن الواديين ترنمي . . .

يريد : بطني الواديين ، أنشده أصحابنا على الضرورة .

وقال النقاش : كانت لهم أربع رحل .

قال ابن عطية : وهذا قول مردود .

انتهى ، ولا ينبغي أن يرد ، فإن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة وهم : بنو عبد مناف هاشم ، كان يؤلف ملك الشام ، أخذ منه خيلاً ، فأمن به في تجارته إلى الشام ، وعبد شمس يؤلف إلى الحبشة ؛ والمطلب إلى اليمن ؛ ونوفل إلى فارس .

فكان هؤلاء يسمون المجبرين ، فتختلف تجر قريش إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة ، فلا يتعرض لهم .

قال الأزهري : الإيلاف شبه الإجارة بالخفارة ، فإذا كان كذلك جاز أن يكون لهم رحل أربع ، باعتبار هذه الأماكن التي كانت التجار في خفارة هؤلاء الأربعة فيها ، وفيهم يقول الشاعر يمدحهم :

يا أيها الرجل المحول رحله . . .

هلا نزلت بآل عبد مناف

الآخذون العهد من آفاقها . . .

والراحلون لرحلة الإيلاف

والرائشون وليس يوجد رائش . . .

والقائلون هلمّ للأضياف

والخالطون غنيهم لفقيرهم . . .

حتى يصير فقيرهم كالكاف

فتكون رحلة هنا اسم جنس يصلح للواحد وللأكثر ، وإيلافهم بدل من ﴿ لإيلاف قريش ﴾ ، أطلق المبدل منه وقيد البدل بالمفعول به ، وهو رحلة ، أي لأن ألفوا رحلة تفخيماً لأمر الإيلاف وتذكيراً بعظيم النعمة فيه .

﴿ هذا البيت ﴾ : هو الكعبة ، وتمكن هنا هذا اللفظ لتقدم حمايته في السورة التي قبلها ، ومن هنا للتعليل ، أي لأجل الجوع .

كانوا قطاناً ببلد غير ذي زرع عرضة للجوع والخوف لولا لطف الله تعالى بهم ، وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ : فضلهم على العرب بكونهم يأمنون حيث ما حلوا ، فيقال : هؤلاء قطان بيت الله ، فلا يتعرض إليهم أحد ، وغيرهم خائفون .

وقال ابن عباس والضحاك : ﴿ ىمنهم من خوف ﴾ : معناه من الجذام ، فلا ترى بمكة مجذوماً .

قال الزمخشري : والتنكير في جوع وخوف لشدتهما ، يعني أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما ، وآمنهم من خوف عظيم ، وهو خوف أصحاب الفيل ، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم .

وقرأ الجمهور : ﴿ من خوف ﴾ ، بإظهار النون عند الخاء ، والمسيبي عن نافع : بإخفائها

، وكذلك مع العين ، نحو من على ، وهي لغة حكاها سيبويه .

وقال ابن الأسلت يخاطب قريشاً :

فقوموا فصلوا ربكم وتمسحوا . . .

بأركان هذا البيت بين الأخاشب

فعندكم منه بلاء ومصدق . . .

غداة أبي مكسوم هادي الكتائب

كتيبة بالسهل تمشي ورحلة . . .

على العادقات في رؤوس المناقب

فلما أتاكم نصر ذي العرش ردهم . . .

جنود المليك بين ساق وحاجب

فولوا سراعاً هاربين ولم يؤب . . .

إلى أهله ملجيش غير عصائب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) ﴾

القراءات : ﴿ لإيلاف ﴾ بتخفيف الهمزة : يزيد ﴿ إلافهم ﴾ بطرح الياء : يزيد ﴿ لألاف ﴾ بطرح الياء ﴿ إيلافهم ﴾ بإثباتها : ابن عامر . الباقون : بإثبات الياء فيهما وحمزة يقف بتليين الهمزة ﴿ وإلفهم ﴾ بوزن العلم : ابن فليح ﴿ الشتاء ﴾ ممالة : قتيبة ونصير وهبيرة .

الوقف ﴿ قريش ﴾ ه لا ﴿ والصيف ﴾ ه لا لاحتمال تعلق اللام بما قبلها وبما بعدها كما يجيء ﴿ البيت ﴾ ه لا ﴿ من خوف ﴾ ه .

(100/832)

التفسير : في هذه اللام ثلاثة أقوال : الأول أنها لا تتعلق بظاهر وإنما هي لام العجب يقولون " لزيد وما صنعنا به " أي أعجبوا له عجب الله تعالى من عظيم حلمه وكرمه بهم فأنهم كل يوم يزدادون جهلاً وإنغماساً في عبادة الأوثان والله تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم وينظم أسباب معاشهم ، وهذا القول اختيار الكسائي والأخفش والفراء . والثاني أنها متعلقة بما بعدها وهو قول الخليل وسيبويه والتقدير : فليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف

قريش أي ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة واعترافاً بها . وفي الكلام معنى الشرط وفائدة الفاء وتقديم الجار أن نعم الله تعالى لا تحصى فكأنه قيل : إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة ، والقول الثالث أنها متعلقة بالسورة المتقدمة أي جعلهم كعصف مأكول لأجل إيلاف قريش ، وهذا لا ينافي أن يكونوا قد أهلكوا لأجل كفرهم أيضاً . ويجوز أن يكون الإهلاك لأجل الإيلاف فقط ويكون جزاء الكفر مؤخراً إلى يوم القيامة ، ويجوز أن تكون هذه اللام لام العاقبة ، ويحتمل أن تتعلق اللام بقوله ﴿ فعل ربك ﴾ كأنه قال : كل ما فعلنا بهم من تضليل كيدهم وإرسال الطير عليهم حتى تلاشوا إنما كان لأجل إيلاف قريش . ولا يبعد أن تكون اللام بمعنى " إلى " أي فعلنا كل ما فعلنا مضمومة إلى نعمة أخرى وهي إيلافهم الرحلتين تقول : نعمة إلى نعمة ونعمة لنعمة . قال الفراء : ومما يؤيد هذا القول الثالث ما روي أن أبي بن كعب جعلهما في مصحفه سورة واحدة بلا فصل . وعن عمر أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب من غير فصل بينهما بالبسملة . والمشهور المستفيض هو الفصل بينهما بالبسملة فإن لم تكن اللام متعلقة بما قبلها فلا إشكال ، وإن تعلقت بما قبلها من السورة فالوجه فيه أن القرآن كله بمنزلة كلام واحد والفصل بين طائفة وطائفة منه لا يوجب انقطاع إحدى الطائفتين عن الأخرى بالكلية . ثم إن هؤلاء قالوا : لا شك أن مكة كانت

خالية عن الزرع والضرع ، وكان أشرف مكَّة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين ويأتون لأنفسهم ولأهل بلدهم بما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب ، وأن ملوك النواحي كانوا يعظمونهم ويقولون : هؤلاء جيران بيت الله وقطان حرمه فلا يجترىء أحد عليهم ، فلو تم لأهل الحبشة ما عزموا عليهم من هدم الكعبة لزال منهم هذا العز فصار سكان مكة كسكان سائر النواحي يتخطفون ويغار عليهم ولا يتيسر لهم تجارة ولا ربح ، فلما أهلك الله أصحاب الفيل ورد كيدهم في نحورهم ازداد وقع أهل مكة في القلوب واحترمهم الملوك فضل احترام وازدادت تلك المنافع والمتاجر .

(102/832)

أما في رجب فللعمرة ، وأما في ذي الحجة فللحج ، وكانت إحداهما في الشتاء ، والأخرى في الصيف وموسم منافع مكة يكون بهما . فلو كان تم لأصحاب الفيل ما أرادوه لتعطلت هذه المنفعة والتقدير : رحلتي الشتاء والصيف أو رحلة الشتاء ورحلة الصيف فاقتصر لعدم الإلباس . وفي قوله ﴿ فليعبدوا ﴾ وجهان أحدهما : أن العبادة مأمور بها شكراً لما فعل بأعدائهم ولما حصل لهم من إيلافهم الذي صار سبباً لطعامهم وأمنهم كما مر . وقوله

﴿ من جوع ﴾ كقولهم " سقاه من العيمة " وهي من التعليلية أي الجوع صار سبباً للإطعام . وقوله ﴿ من خوف ﴾ هي للتعدية يقال " آمنه الله الخوف ومن الخوف " .

الوجه الثاني : أن معناه فليتركوا رحلة الشتاء والصيف وليشتغلوا بعبادة رب هذا البيت فإنه يطعمهم من جوع ويؤمنهم من خوف . ولعل في تخصيص لفظ الرب إشارة إلى ما قالوه لأبرهة " إن للبيت رباً سيحفظه " ولم يعولوا في ذلك على الأصنام فلزمهم لإقرارهم أن لا يعبدوا سواه كأنه يقول : لما عولتم في الحفظ عليّ فاصرفوا العبادة إليّ ، وفي الإطعام وجوه أحدها : ما مر . والثاني : قول مقاتل : شق عليهم الذهاب إلى اليمن والشام في الشتاء والصيف لطلب الرزق فقذف الله تعالى في قلوب الحبشة أن حملوا الطعام إلى مكة حتى خرجوا إليهم بالإبل والحمر واشتروا طعامهم من جدة على مسيرة ليلتين ، وتتابع ذلك فكفاهم الله مؤنة الرحلتين . والثالث : قال الكلبي : معنى الآية أنهم لما كذبوا محمد صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال : اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف . فاشتد عليهم القحط وأصابهم الجهد فقالوا : يا محمد ادع الله فإنّا مؤمنون فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخصب أهل مكة فذلك قوله ﴿ أطعمهم من جوع ﴾ ووجه المنة بالإطعام مع أنه ليس من أصول النعم في الظاهر أنه سبب الفراغ للعبادة ، وفيه أن البهيمة تطيع من يعلفها ولا يليق بالإنسان أن يكون دون الأنعام ، على أنه يندرج في الإطعام النعم السابقة

التي لا يحصل الغذاء إلا بعد وجودها كالأفلاك والعناصر وغيرها ، والنعم اللاحقة التي لا يتم الانتفاع بالأكل إلا بها من القوى والآلات البدنية والخارجية . وفي قوله ﴿ من جوع ﴾ إشارة إلى أن فائدة الطعام والغاية منه سد الجوعة لا الإشباع التام . وأما الأمن فهو قصة أصحاب الفيل أو تعرض أهل النواحي لهم وكانوا بعد وقعة أصحاب الفيل يعظمونهم ولا يتعرّضون لهم . وقال الضحاك والربيع : آمنهم من خوف الجذام . وقيل : من أن تكون الخلافة في غيرهم وفيه تكلف . وقيل : أطعمهم من جوع الجهل بطعام الإسلام والوحي وآمنهم من خوف الضلال ببيان الهدى . وقيل : إشارة إلى ما دعا به إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿ ربّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم ﴾ [البقرة : 126] فأجاب الله تعالى بقوله ﴿ ومن كفر ﴾ [البقرة : 126] والتنكير في ﴿ جوع ﴾ و ﴿ خوف ﴾ للتعظيم . وقد روي أنه أصابهم شدة حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة ، وأما الخوف فهو الخوف الشديد الحاصل من أصحاب الفيل . ويحتمل أن يكون المراد التقليل أي أطعمهم من جوع دون جوع ليكون الجوع الثاني والخوف الثاني مذكراً لما كانوا فيه أولاً فيكونوا شاكرين تارة وصابرين أخرى فيستحقوا ثواب الخصلتين . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 568 . 571 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

سورة قريش

مكية في قول الجمهور ومدنية في قول الضحاك والكلبيوهي أربع آيات وسبع عشرة كلمة

وثلاثة وسبعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي له جميع الكمال ﴿ الرحمن ﴾ ذي النعم والأفضال ﴿ الرحيم ﴾

الذي خص أولياءه بالقرب والإجلال .

وقوله تعالى : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ في متعلقه أوجه أحدها : أنه ما في السورة قبلها من قوله تعالى : ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ . قال الزمخشري : وهذا بمنزلة التضمين في الشعر ، وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلا به ، وهما في مصحف أبيّ سورة واحدة بلا فصل ، وعن عمر أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب ، وقرأ في الأولى والتين اه . وإلى هذا ذهب الأخفش . وقال الرازي : المشهور أنهما سورتان ولا يلزم من التعلق الاتحاد لأنّ القرآن كسورة واحدة .

ثانيها : أنه مضمر تقديره فعلنا ذلك ، وهو إيقاعهم للإيلاف وهو الفهم لبلدهم الذي ينشأ

عنه طمأنينتهم وهيبة الناس لهم وقيل : تقديره اعجبوا لئلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة رب هذا البيت .

(105/832)

ثالثها : أنه متعلق بقوله تعالى : ﴿ فليعبدوا ﴾ أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين لأنهما أظهر نعمة عليهم ، وهذا هو الذي صدر به الزمخشري كلامه ، وفي هذا إشارة إلى تمام قدرته سبحانه ، وأنه إذا أراد شيئاً يسر سببه لأنّ التدبير كله له يخفض من يشاء ، وإن عز ، ويرفع من يشاء وإن ذل ، وقريش هم ولد النضر بن كنانة ومن ولده النضر فهو قرشيّ ، ومن لم يلده النضر فليس بقرشيّ . قال صلى الله عليه وسلم "إن الله اصطفى كنانة من بني إسماعيل ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم" وأخرج الحاكم وصححه البيهقي عن أم هانئ بنت أبي طالب أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "فضل الله قريشاً بسبع خلال أني منهم ، وأنّ النبوّة فيهم ، وأنّ الله نصرهم على الفيل ، وأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده غيرهم وأنّ الحجابة والسقاية فيهم ، وأنّ الله أنزل فيهم سورة من القرآن" وسموا قريشاً من القرش وهو التكسب والجمع ، يقال : فلان يقرش لعياله ويقترش ، أي : يكتسب ، وهم كانوا تجاراً حرّاصاً على

جمع المال ، وقا أبو ريحانة : سأل معاوية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : لم سميت قريش قريشاً ؟ قال : لدابة تكون في البحر من أعظم دوابه تعبث بالسفن ، ولا تطاق إلا بالنار يقال لها : القرش ، ولا تمرّ بشيء من الغث والسمين إلا أكلته ، وهي تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى ، . قال : وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها ، قال : نعم فأنشده شعر الجمحي :

*وقريش هي التي تسكن البح ** ربها سميت قريش قريشاً*

*تأكل الغث والسمين فلا تت ** رك فيه لذي الجناحين ريشاً*

*هكذا في الكتاب حي قريش ** يأكلون البلاد أكلاً كميشا*

*ولهم آخر الزمان نبيّ ** يكثر القتل منهموا والخموشا*

وقيل : هو من تقرش الرجل إذا تنزه عن مدانس الأمور ، أومن تقارشت الرماح في الحرب إذا دخل بعضها في بعض .

وقوله تعالى : ﴿ إيلافهم ﴾ بدل من الإيلاف الأول ، وقرأ ابن عامر لإلاف بغير ياء بعد الهمزة ، والباقون لإيلاف بياء بعدها ، وأجمع الكل على إثبات الياء في الثاني وهو إيلافهم

بالياء بعد الهمزة. قال ابن عادل: ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين أن القراء اختلفوا في سقوط الياء، وثبوتها في الأول مع اتفاق المصاحف على إثباتها خطاً، واتفقوا على إثبات الياء في الثاني مع اتفاق المصاحف على سقوطها منها خطاً، وهذا أدل دليل على أنّ القراء متبعون الأثر والرواية لا مجرّد الخط. وقوله تعالى: ﴿ رحلة الشتاء ﴾ منصوب بإيلافهم مفعول به كما نصب يتيماً بإطعام، وهي التي يرحلونها في زمنه إلى اليمن لأنها بلاد حارة ينالون منها متاجر الحبوب. ﴿ والصيف ﴾ التي يرحلونها إلى الشام في زمنه؛ لأنها بلاد باردة ينالون فيها منافع الثمار، وهم آمنون من سائر العرب لأجل عزهم بالحرم المعظم وبيت الله، والناس يتخطفون من حولهم ولا يجترىء أحد عليهم.

والإيلاف من قولك: آلفت المكان أولفه إيلافاً إذا بلغته فأنا مؤلف، والأصل رحلتي الشتاء والصيف ولكنه أفرد ليشمل كل رحلة كما هو شأن المصادر وأسماء الأجناس، وفي ذلك إشارة إلى أنهم يتمكنون من الرحلة إلى أي بلاد أرادوا لشمول الأمن لهم. قال مالك: الشتاء نصف السنة والصيف نصفها.

وقال قوم : الزمان أربعة أقسام شتاء وربيع وصيف وخريف ، وقيل : شتاء وصيف وقيظ وخريف . قال القرطبي : الذي قاله مالك أصح لأنّ الله تعالى قسم الزمان قسمين ، ولم يجعل لهما ثالثاً ، وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنهم كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف ، وقال آخرون : كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة إحداهما : في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ ، والأخرى في الصيف إلى الشام ، وكان الحرم وادياً جدباً لا زرع فيه ولا ضرع ، وكانت قريش تعيش بتجارتهم ورحلتهم ولولا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة ، ولولا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف ، وأول من سنّ لهم الرحلة هاشم بن عبد مناف ، وكانوا يقسمون ربحهم بين الغني والفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم ، وفي ذلك يقول الشاعر :

*قل للذي طلب السماحة والندى ** هلا مررت بآل عبد مناف*

*هلا مررت بهم تريد قراهم ** منعوك من ضر ومن اتلاف*

*الرائشين وليس يوجد رائش ** والقائلين هلم للأضياف*

*والخالطين فقيرهم بغنيهم ** حتى يكون فقيرهم كالكافي*

*والقائلين بكل وعد صادق ** والراحلين برحلة الإيلاف*

*عمرو العلا هشم الثريد لقومه ** ورجال مكة مسنتون عجاف*

*سفرين سنهما له ولقومه ** سفر الشتاء ورحلة الأصياف*

وتبع هاشماً على ذلك إخوته فكان هاشم يؤالف إلى الشام ، وعبد شمس إلى الحبشة ، والمطلب إلى اليمن ، ونوفل إلى فارس ، وكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بجاه هذه الإخوة ، أي : بعهودهم التي أخذوها بالأمان لهم من ملك كل ناحية من هذه النواحي .

(108/832)

ولما كان هذا التدبير لهم من الله تعالى كافياً لهمومهم الظاهرة بالغنى والباطنة بالأمن ، وكان شكر المنعم واجباً ، قال تعالى : ﴿ فليعبدوا ﴾ أي : قريش على سبيل الوجوب شكراً على هذه النعمة خاصة إن لم يشكروه على جميع نعمه التي لا تحصى ، لأنهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان وأبعدهم عن الكفران ﴿ رب هذا البيت ﴾ أي : الموجد له والمحسن إلى أهله بحفظه من كل طاغ ، وبإذلال الجبابرة له ليكمل إحسانه إليهم ، وعطفه عليهم بإكمال إعزازه لهم في الدنيا والآخرة ، والمراد به الكعبة عبر عنها بالإشارة تعظيماً لشأنها .

ثم وصف نفسه الأقدس بما هو ثمرة الرحلتين ومظهر لزيادة شرف البيت بقوله تعالى :

﴿ الذي أطعمهم ﴾ أي : قريشاً بحمل الميرة إلى مكة بالرحلتين إطعاماً مبتدأ ﴿ من

جوع ﴾ أي : عظيم فيه غيرهم من العرب ، أو كانوا هم فيه قبل ذلك ؛ لأنّ بلدهم ليس بذي زرع فهم عرضة للفقر الذي ينشأ عنه الجوع فكفاهم ذلك وحده ، ولم يشركه أحد في كفايتهم فليس من الشكر إشراكهم غيره معه في عبادته ، ولا من البر بأبيهم إبراهيم عليه السلام الذي دعا لهم بالرزق بقوله عليه السلام : ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ (إبراهيم :) ونهى أشدّ النهي عن عبادة الأصنام ولم يقل أشبعهم لأنه ليس كلهم كان يشبع منهم طالب لأكثر مما هو عنده ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ﴿ وآمنهم ﴾ أي : تخصيصاً لهم ﴿ من خوف ﴾ أي : شديد جداً من أصحاب الفيل الذين أرادوا خراب البيت الذي به نظامهم ، وما ينال من حولهم من التخطف بالقتل والنهب والغارات ، ومن الجذام بدعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام ، ومن الطاعن والدخان بتأمين النبيّ صلى الله عليه وسلم

(109/832)

وعن ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ، ويسبي بعضهم بعضاً فأمنت قريش ذلك لمكان الحرم . وقيل : شق عليهم السفر في الشتاء والصيف فألقى الله تعالى في قلوب الحبشة أن يحملوا إليهم طعاماً في السفن ، فحملوا فخافت قريش منهم وظنوا أنهم قدموا لحربهم ، فخرجوا إليهم متحرزين فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام وأعانوهم بالأقوات ،

فكان أهل مكة يخرجون إلى جدّة بالإبل والحمر فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين . وقيل : إنّ قريشاً لما كذبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا عليهم فقال : "اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف" فاشتدّ القحط فقالوا : يا محمد ، ادع الله لنا فإنا مؤمنون . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمن فحملوا الطعام إلى مكة وأخصب أهلها" . وقال الضحاك والربيع في قوله تعالى : ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ ، أي : من خوف الحبشة . وقال عليّ : ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أن تكون الخلافة إلا فيهم . قال الزمخشريّ : من بدع التفاسير ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أن تكون الخلافة في غيرهم اه . لكن إن ثبت ذلك عن علي كرم الله وجهه فليس كما قال وقيل : كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك . وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة لإيلاف قريش أعطاه الله عشر حسنات بعدد من طاف بالكعبة واعتكف بها" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 433 . 437 ﴾

(110/832)

وقال أبو السعود :

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴾

متعلقٌ بقوله تعالَى فليعبدُوا ، والفاءُ لما في الكلامِ منْ مَعْنى الشّرطِ إذِ المعْنى أنّ نعمَ اللهِ تعالَى عليهمْ غيرُ محصورةٍ فإنْ لَمْ يعبدُوه لسائرِ نعمِه فليعبدُوه لهذهِ النعمةِ الجليلةِ وقيلَ بمضمرةٍ تقديرُهُ فعلنَا مَا فعلنَا منْ إهلاكِ أصحابِ الفيلِ لإيلافِ الخ وقيلَ : تقديرُهُ أعْجَبُوا لإيلافِ الخ وقيلَ : بمَا قَبْلَهُ منْ قولِه تعالَى : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ ويؤيدُهُ أنهُمَا في مُصْحفِ أُبَي سورةٌ واحدةٌ بلاَ فصلٍ ، والَمعْنى أهلكَ مَنْ قصدَهُم منَ الحبشةِ ليتسامعَ النّاسُ بذلكَ فيتهيبُوا لَهُمْ زيادةَ تهيبٍ ويحترمُوهم فضلَ احترامٍ حَتَّى ينتظَم لهُمْ الأمنُ في رحلتيهِمْ فَلاَ يجترىءُ عليهمْ أحدٌ وكانتْ لقريشٍ رحلتانِ يرحلونَ في الشتاءِ إلى اليمنِ وفي الصيفِ إلى الشامِ فيمتارونَ ويتجرونَ وكانُوا في رحلتيهِمْ آمنينَ لأنَّهُم أهلُ حرمِ اللهِ تعالَى وولاةُ بيتِه العزيزِ فَلاَ يُتعرضُ لهُمْ والنّاسُ بينَ مُتخطفٍ ومنهوبٍ . والإيلافُ منْ قولِكَ آلفتُ المكانَ إيلافاً إذا أَلْفتَهُ وقُرِىءَ لإلافِ قُريشٍ أيْ لمؤالفتِهمْ ، وقيلَ : يقالُ ألفتُهُ إلفاً وإلافاً وَقُرِىءَ لإلفِ قريشٍ ، وقريشٌ ولدُ النّضرِ بنِ كنَانَةَ سُمُّوا بتصغيرِ القِرشِ وهُوَ دابةٌ عظيمةٌ في البحرِ تعبثُ بالسفنِ ولاَ تُطاقُ إلاَّ بالنارِ ، والتصغيرُ للتعظيمِ وقيلَ : منَ القَرْشِ وهُوَ الكسبُ لأنهمْ كانُوا كسَّابينَ بتجاراتِهمْ وضربِهمْ في البلادِ . وقولُه تعالَى :

﴿ إيلافهم رِحْلَةَ الشتاء والصيف ﴾ بدلٌ من الأول ، ورحلةَ مفعول لإيلافِهم وإفرادُهَا مع أنَّ المرادَ رحْلَتي الشتاءِ والصيفِ لأمنِ الإلباسِ ، وفي إطلاقِ الإيلافِ عنِ المفعولِ أولاً وإبدالُ هَذا منْهُ تفخيمٌ لأمرِه وتذكيرٌ لعظيمِ النعمةِ فيهِ . وقُرِىءَ ليألفَ قريشٌ إلْفُهُمْ رحلةَ الشتاءِ والصيفِ ، وقُرِىءَ رُحلةَ بالضمِّ وهيَ الجهةُ التي يُرحل إليها ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذى أَطْعَمَهُم ﴾ بسببِ تينكِ الرحلتينِ اللتينِ تمكنُوا فيهمَا بواسطةِ كونِهم منْ جيرانِهِ ﴿ مِن جُوعٍ ﴾ شديدٍ كانُوا فيهِ قبْلَهُما ، وقيلَ : أُريدَ بهِ القحطُ الذي أكلُوا فيهِ الجيفَ والعظامَ ﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ عظيمٍ لاَ يُقَادرُ قدرُهُ وهُوَ خوفُ أصحابِ الفيلِ أوْ خوفُ التخطفِ في بلدِهم وفي مسايرِهم وقيل : خوفُ الجُذَامِ فلاَ يصيبُهمْ في بلدِهِم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(112/832)

وقال الجاوى :

سورة قريش

مكية ، أربع آيات ، سبع عشرة كلمة ، ثلاثة وسبعون حرفا

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (1) واللام إما متعلقة بالسورة التي قبل هذه السورة ، وإما متعلقة بالآية التي

بعد هذه اللام ، وإما متعلقة بمحذوف فعلى الأول ، فإن التقدير فجعلهم كعصف مأكول لحب قريش إلخ أي أهلك اللّه أصحاب الفيل لتبقى قريش وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف .

روي أن عمر رضي اللّه عنه قرأ في صلاة المغرب في الركعة الأولى والتين ، وفي الثانية ألم تر ، ولإيلاف قريش معا من غير فصل بينهما ببسم اللّه الرحمن الرحيم وإن أبي بن كعب جعلهما في مصحفه سورة واحدة ، وعلى الثاني فالتقدير فليعبدوا رب هذا البيت الذي قصده أصحاب الفيل ، ثم إن رب البيت دفعهم عن مقصودهم لأجل إيلاف قريش ونفعهم أي ليجعلوا عبادتهم شكرا لهذه النعمة ، وعلى الثالث فإن هذه اللام لام التعجب فكأن المعنى : أعجبوا لإيلاف قريش ، وذلك لأنهم كل يوم يزدادون غيا وانغماسا في عبادة الأوثان ، واللّه تعالى يؤلف شملهم ويدفع الآفات عنهم وينظم أسباب معايشهم وذلك لا شك أنه في غاية التعجب من عظيم حلم اللّه وكرمه . إِيلافِهِمْ بدل من إيلاف الأول لأن المبدل منه مطلق والبدل مقيد بالمفعول به ، أو توكيد لفظي ف «رحلة» مفعول لإيلاف الأول .

وقرأ ابن عامر «لإلاف» قريش بغير ياء بعد الهمزة ، والباقون بياء بعدها ، وأجمع الكل على إثبات الياء في الثاني أي لمؤالفتهم . قال ابن عادل : ومن غريب ما اتفق في هذين الحرفين أن القراء اختلفوا في سقوط الياء وثبوتها في الأول مع اتفاق المصاحف على إثباتها خطا ، واتفقوا على إثبات الياء في الثاني مع اتفاق المصاحف على سقوطها منه خطا ، فهذا أدل دليل على أن القراء متبعون الأثر والرواية لا مجرد الخط ، وقرأ أبو جعفر «لإلف قريش إلفهم» بكسر الهمزة وسكون اللام بزنة حمل وعن ابن عامر «لالفهم» بزنة كتابهم كما روي عن ابن كثير أيضا وروي عن ابن عامر أيضا ، كما روي عن عكرمة «ليلاف» قريش بياء ساكنة بعد اللام ، وقرأ عكرمة «ليألف» قريش فعلا مضارعا وعنه أيضا «ليألف» على الأمر رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ (2) أي انتقالهما أي كانت لقريش رحلتان رحلة بالشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ وبالصيف إلى الشام فكانت أشراف أهل

(114/832)

مكة يرتحلون للتجارة هاتين الرحلتين ، ويأتون لأهل بلدهم ما يحتاجون إليه من الأطعمة والثياب ، وإنما كانوا يربحون في أسفارهم لأن ملوك النواحي كانوا يعظمون أهل مكة ، ويقولون هؤلاء جيران بيت اللّه ، وسكان حرمه ، وولاة الكعبة حتى إنهم كانوا يسمون أهل

مكة أهل الله ، فلو تم للحبشة ما عزموا عليه من هدم الكعبة لزال عنهم هذا العز ولبطلت تلك المزايا من التعظيم والاحترام ، ولصار سكان مكة كسكان سائر النواحي يتخطفون من كل جانب ويتعرض لهم في نفوسهم وأموالهم ، فلما أهلك الله أصحاب الفيل ازدادت قيمة أهل مكة في القلوب وازداد تعظيم ملوك الأطراف لهم ، فازدادت تلك المنافع والمتاجر حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الإسلام وهم على ذلك فلهذا قال الله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ [الفيل : 1] لِإِيلافِ قُرَيْشٍ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ هذا وتعلق أول هذه السورة بما قبلها من قوله تعالى : فَعَلَ رَبُّكَ أو من قوله تعالى : فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ [الفيل : 5] ليس بحجة على أنهما سورة واحدة لأن القرآن كله كالسورة الواحدة ، وكالآية الواحدة يصدق بعضها بعضا ، ويبين بعضها معنى بعض ألا ترى أن قوله تعالى : إِنَّا أَنْزَلْناهُ [القدر : 1] متعلق بما قبله من ذكر القرآن وأما قراءة سيدنا عمر رضي الله عنه فإنها لا تدل على أنهما سورة واحدة لأن الإمام قد يقرأ سورتين في ركعة واحدة ، وقيل : إن المراد رحلة الناس إلى أهل مكة فرحلة الشتاء والصيف عمرة رجب وحج ذي الحجة لأنه كان أحدهما شتاء والآخر صيفا ، وموسم منافع مكة يكون بهما ولو كان ثمّ لأصحاب الفيل ما أرادوا لتعطلت هذه المنفعة .

وقرئ «رحلة» بضم الراء وهي الجهة التي يرحل إليها ، لْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (3) قال الخليل وسيبويه : إن اللام في «لإيلاف» متعلقة بقوله : لْيَعْبُدُوا

(115/832)

ودخول الفاء فيه لما في الكلام من معنى الشرط وذلك لأن نعم اللّه عليهم لا تحصى ، فكأنه قيل : إن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة وهي إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف والمعنى لجعلهم محبين لهما مسترزقين بهما لتيسيرهما عليهم فليعبدوه تعالى الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ أي من بعد جوع بحمل الميرة إليهم من البلاد في البر والبحر بواسطة كونهم جيران البيت وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4) أي من خوف دخول العدو عليهم ، ومن خوف زحمة أصحاب الفيل ، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم ، وقال الضحاك والربيع : أي آمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدتهم جذام ، وقيل : آمنهم من خوف الضلال بالإسلام ، فقد كانوا في الكفر يتفكرون فيعلمون أن الدين الذي هم عليه ليس بشيء إلا أنهم ما كانوا يعرفون الدين الذي يجب على العاقل أن يتمسك به فكانت نعمة الأمانة دينية فلا تحصل إلا لمن كان تقيا أما نعمة الدنيا فهي تصل إلى البر والفاجر والصالح والطالح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مراح لبيد حـ 2 صـ 665. 666 ﴾

(116/832)

وقال النخجواني :

[سورة قريش]

فاتحة سورة قريش

لا يخفى على من تفطن بسرائر العبودية المستلزمة لأنواع التذلل والخضوع والانكسار التام والخشوع المفرط ان الباعث عليها والداعي إليها انما هو الانعام العام والإحسان التام الذي هو القيام بعموم الحوائج اللازمة للهوية الشخصية المقومة لها المبقية لماهيتها كما قيل الإنسان عبيد الإحسان ولا شك ان المتكفل المستقل لحوائج عموم المظاهر والمجالى هو اللّه الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقتدر على جميع المقدورات بالاستقلال والاختيار ، المربى للكل بأنواع اللطف والكرم فهو المستحق للاطاعة والانقياد استحقاقا ذاتيا ووصفيا وكيف لا إذ لا معبود سواه ولا إله غيره

(117/832)

لذلك امر سبحانه في هذه السورة عباده بعبوديته وانقياده فقال بعد التيمن بِسْمِ اللَّهِ المظهر للكل من كتم العدم الرَّحْمنِ على الكل بأنواع الكرم الرَّحِيمِ عليهم بالزام العبودية والذمم تعجبوا أيها المعتبرون

[الآيات]

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ أي ائتلافهم وتألفهم فيما بينهم واتفاقهم على ان ينصرفوا عن حوالى بيت الله حين

إِيلافِهِمْ واتفاقهم على الظعن والارتحال رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ يعنى يرتحلون في كل سنة مرتين مرة في الشتاء نحو اليمن ومرة في الصيف إلى الشام وما كان الباعث على ترحالهم الا فقد الزاد في مكة إذ هي بواد غير ذي زرع فيشق عليهم الأمر فيتجرون في كل سنة مرتين فكره الله منهم هذا وأمرهم بالعكوف والاقامة حول بيته بقوله

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ

وليعتكفوا في حواليه وليتوكلوا عليه ولا يتجروا إذ هو القادر المقتدر

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ واشبعهم مِنْ جُوعٍ قد شملهم وأحاط بهم حتى أكلوا الجيف والعظام المحرقة

وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ لحقهم من أعدائهم مرارا ببركة هذا البيت فلهم ان يسكنوا في حواليه متوكلين على ربهم وهو يكفى لهم مؤنة أرزاقهم أيضاً بحوله وقوته فيما سيأتى كما قد كفى لهم فيما مضى

خاتمة سورة قريش

عليك أيها المتوجه إلى الله المتوكل على كرمه وإحسانه ان تمتثل لجميع ما أمرك الحق عليه وتفوض أمورك كلها إليه وترضى بعموم ما جرى عليك من القضاء وتعتقد ان الأمر كله لله

يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عن فعله انه حكيم حميد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الفواتح الإلهية حـ 2 ص 532.531 ﴾

(118/832)

وقال الآلوسى :

﴿ لإِيلاف قُرَيْشٍ ﴾

الإيلاف على ما قال الخفاجي مصدر ألفت الشيء وآلفته من الألف وهو كما قال الراغب اجتماع مع التئام وقال الهروي في الغريبين الإيلاف عهود بينهم وبين الملوك فكان هاشم يؤلف ملك الشام والمطلب كسرى وعبد شمس ونوفل يؤالفان ملك مصر والحبشة قال ومعنى يؤالف يعاهد ويصالح وفعله آلف على وزن فاعل ومصدره آلاف بغير ياء بزنة قبال أو ألف الثلاثي ككتب كتاباً ويكون الفعل منه أيضاً على وزن أفعل مثل آمن ومصدره إيلاف كإيمان وحمل الإيلاف على العهود خلاف ما عليه الجمهور كما لا يخفى على المتتبع وفي "البحر" إيلاف مصدر آلف رباعياً والآف مصدر ألف ثلاثياً يقال ألف الرجل الأمر ألفاً وآلافاً وآلف غيره إياه وقد يأتي آلف متعدياً لواحد كآلف ومنه قوله :

من المؤلفات الرمل أدماء حرة . . .

شعاع الضحى في جيدها يتوضح

وسيأتي إن شاء الله تعالى ما في ذلك من القراآت وقريش ولد النضر بن كنانة وهو أصح الأقوال وأثبتها عند القرطبي قيل وعليه الفقهاء لظاهر ما روي أنه عليه الصلاة والسلام سئل من قريش فقال من ولد النضر وقيل ولد فهر بن مالك بن النضر وحكي ذلك عن الأكثرين بل قال الزبير بن بكار أجمع النسابون من قريش وغيرهم على أن قريشاً إنما تفرقت عن فهر واسمه عند غير واحد قريش وفهر لقبه ويكنى بأبي غالب وقيل ولد مخلد بن النضر وهو ضعيف وفي بعض السير أنه لا عقب للنضر بن كنانة إلا مالك وأضعف من ذلك بل هو قول رافضي يريد بن نفي حقية خلافة الشيخين أنهم ولد قصي بن حكيم وقيل عروة المشهور بلقبه كلاب لكثرة صيده أو لمكالبته أي مواثبته في الحرب للأعداء نعم قصي جمع قريشاً في الحرم حتى اتخذوه مسكناً بعد أن كانوا متفرقين في غيره وهذا الذي عناه الشاعر بقوله :

أبونا قصي كان يدعي مجمعا . . .

به جمع الله القبائل من فهر

فلا يدل على ما زعمه أصلاً وهو في الأصل تصغير قرش بفتح القاف اسم لدابة في "البحر" أقوى دوابه تأكل ولا تؤكل وتعلو ولا تعلى وبذلك أجاب ابن عباس معاوية لما سأله لم سميت قريش قريشاً وتلك الدابة تسمى قرشاً كما هو المذكور في كلام الحبر وتسمى قريشاً وعليه قول تبع كما حكاه عنه أبو الوليد الأزرقي وأنشده أيضاً الحبر لمعاوية إلا أنه نسبه للجمحي :

وقريش هي التي تسكن البح . . .

ر بها سميت قريش قريشا

تأكل الغث والسمين ولا تت . . .

رك يوماً لذي جناحين ريشاً

هكذا في البلاد حي قريش . . .

يأكلون البلاد أكلاً كميشا

ولهم آخر الزمان نبي . . .

يكثر القتل فيهم والخموشا

وقال الفراء هو من التقرش بمعنى التكسب سموا بذلك لتجارتهم وقيل من التقريش وهو التفتيش ومنه قول الحرث بن حلزة :

أيها الشامت المقرش عنا . . .

عند عمرو فهل لنا إبقاء

سموا بذلك لأن أباهم كان يفتش عن أرباب الحوائج ليقضي حوائجهم وكذا كانوا هم يفتشون على ذي الخلة من الحاج ليسدوها وقيل من التقرش وهو التجمع ومنه قوله :

اخوة قرشوا الذنوب علينا . . .

في حديث من دهرهم وقديم

سموا بذلك لتجمعهم بعد التفرق والتصغير إذا كان من المزيد تصغير ترخيم وإذا كان من ثلاثي مجرد فهو على أصله وأياً ما كان فهو للتعظيم مثله في قوله :

وكل أناس سوف تدخل بينهم . . .

دويهية تصفر منها الأنامل

والنسبة إليه قرشي وقريشي كما في "القاموس" وأجمعوا على صرفه هنا راعوا فيه معنى الحي ويجوز منع صرفه ملحوظاً فيه معنى القبيلة للعلمية والتأنيث وعليه قوله :

وكفى قريش المعضلات وسادها . . .

(120/832)

وعن سيبويه أنه قال في نحو معد وقريش وثقيف هذه الأحياء أكثر وإن جعلت أسماء للقبائل فجائز حسن واللام في لإيلاف للتعليل والجار والمجرور متعلق عند الخليل بقوله ﴿

فليعبدوا ﴾ والفاء لما في الكلام من معنى الشرط إذ المعنى أن نعم الله تعالى غير محصورة فإن لم يعبدوا لسائر نعمه سبحانه فليعبدوا لهذه النعمة الجليلة ولما لم تكن في جواب شرط محقق كانت في الحقيقة زائدة فلا يمتنع تقديم معمول ما بعدها عليها وقوله تعالى :

(121/832)

﴿ إيلافهم رِحْلَةَ الشتاء والصيف ﴾ بدل من ﴿ إيلاف قريش ﴾ [قريش : 1] ورحلة مفعول به لإيلافهم على تقدير أن يكون من الألفة أما إذا كان من المؤالفة بمعنى المعاهدة فهو منصوب على نزع الخافض أي معاهدتهم على أو لأجل رحلة الخ وإطلاق لإيلاف ثم أبدل المقيد منه للتفخيم وروي عن الأخفش أن الجار متعلق بمضمر أي فعلنا ما فعلنا من إهلاك أصحاب الفيل لإيلاف قريش وقال الكسائي والفراء كذلك إلا أنهما قدرا الفعل بدلالة السياق اعجبوا كأنه قيل أعجبوا لإيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف وتركهم عبادة الله تعالى الذي أعزهم ورزقهم وآمنهم فلذا أمروا بعبادة ربهم المنعم عليهم بالرزق والأمن عقبه وقرن بالفاء التفريعية وعن الأخفش أيضاً أنه متعلق ب ﴿ جعلهم كعصف ﴾ [الفيل : 5] في السورة قبله والقرآن كله كالسورة الواحدة فلا يضر الفصل بالبسملة خلافاً لجمع والمعنى أهلك سبحانه من قصدهم من الحبشة ولم يسلطهم عليهم ليبقوا على ما كانوا

عليه من إيلافهم رحلة الشتاء والصيف أو أهلك عز وجل من قصدهم ليعتبر الناس ولا يجترىء عليهم أحد فيتم لهم الأمن في رحلتهم ولا ينافي هذا كون إهلاكهم لكفرهم باستهانة البيت لجواز تعليله بأمرين فإن كلاً منهما ليس علة حقيقية ليمتنع التعدد وقال غير واحد أن اللام للعاقبة وكان لقريش رحلتان رحلة في الشتاء إلى اليمن ورحلة في الصيف إلى بصرى من أرض الشام كما روي عن ابن عباس وكانوا في رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم الله تعالى وولاة بيته العزيز فلا يتعرض لهم والناس بين متخطف ومنهوب وعن ابن عباس أيضاً أنهم كانوا يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماء والظل يرحلون في الشتاء إلى مكة للتجارة وسائر أغراضهم وأفردت الرحلة مع أن المراد رحلتا الشتاء والصيف لا من اللبس وظهور المعنى ونظيره قوله :

حمامة بطن لوادين ترنمي . . .

كلوا في بعض بطنكم تعفوا . . .

فإن زمانكم زمن خميص

حيث لم يقل بطونكم بالجمع لذلك وقول سيبويه : إن ذلك لا يجوز إلا في الضرورة فيه نظر

وقال النقاش كانت لهم أربع رحل وتعقبه ابن عطية بأنه قول مردود وفي "البحر" لا ينبغي أن يرد فإن أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة وهم بنو عبد مناف هاشم كان يؤالف ملك الشام أخذ منه خيلاً فأمن به في تجارته إلى الشام وعبد شمس يؤالف إلى الحبشة والمطلب إلى اليمن ونوفل إلى فارس فكان هؤلاء يسمون المتجرين فيختلف تجر قريش بخيل هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم قال الأزهري الإيلاف شبه الإجارة بالخفارة فإن كان كذلك جاز أن يكون لهم رحل أربع باعتبار هذه الأماكن التي كانت التجارة في خفارة هؤلاء الأربعة فيها فيكون رحلة هنا اسم جنس يصلح للواحد وللأكثر وفي هؤلاء الإخوة يقول الشاعر :

يا أيها الرجل المحول رحله . . .

هلا نزلت بآل عبد مناف الآخذون العهد من آفاقها

والراحلون لرحلة الإيلاف . . .

والرائشون وليس يوجد رائش

والقائلون هلم للأضياف . . .

والخالطون غنيهم بفقيرهم

حتى يصير فقيرهم كالكافي . . .

انتهى وفيه مخالفة لما نقلناه سابقاً عن الهروي ثم إن إرادة ما ذكر من الرحل الأربع غير ظاهرة كما لا يخفى وقرأ ابن عامر لالاف قريش بلا ياء ووجه ذلك ما مر ولم تختلف السبعة في قراءة إيلافهم بالياء كما اختلف في قراءة الأول ومع هذا رسم الأول في المصاحف العثمانية بالياء ورسم الثاني بغير ياء كما قاله السمين وجعل ذلك أحد الأدلة على أن القراء يتقيدون بالرواية سماعاً دون رسم المصحف وذكر في وجه ذلك أنها رسمت في الأول على الأصل وتركت في الثاني اكتفاءً بالأول وهو كما ترى فتدبر وروي عن أبي بكر عن عاصم أنه قرأ بهمزتين فيهما الثانية ساكنة وهذا شاذ وإن كان الأصل وكأنهم إنما أبدلوا الهمزة التي هي فاء الكلمة لثقل اجتماع همزتين وروى محمد بن داود النقار عن عاصم ائيلافهم بهمزتين مكسورتين بعدهما ياء ساكنة ناشئة عن حركة الهمزة الثانية لما أشبعت والصحيح رجوعه عن القراءة بهمزتين وأنه قرأ كالجماعة وقرأ أبو جعفر فيما حكى الزمخشري لألف قريش وقرأ فيما حكى ابن عطية الفهم وحكيت عن عكرمة وابن كثير وأنشدوا :

زعمتم أن إخوتكم قريش . . .

لهم إلف وليس لكم إلاف

وعن أبي جعفر أيضاً وابن عامر إلافهم على وزن فعال وعن أبي جعفر أيضاً ليلاف بياء

ساكنة بعد اللام ووجه بأنه لما أبدل الثانية ياء حذف الأولى حذفاً على غير قياس وعن عكرمة ليألف قريش على صيغة المضارع المنصوب بأن مضمرة بعد اللام ورفع قريش على الفاعلية وعنه أيضاً لتالف على الأمر وعنه وعن هلال بن فتيان بفتح لام الأمر والظاهر أن إيلافهم على جميع ذلك منصوب على المصدرية ولم أر من تعرض له وقرأ أبو السمال رحلة بضم الراء وهي حينئذٍ بمعنى الجهة التي يرحل إليها وأما مكسور الراء فهو مصدر على ما صرح به في البحر.

(124/832)

﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت ﴾ هو الكعبة التي حميت من أصحاب الفيل وعن عمر أنه صلى بالناس بمكة عند الكعبة فلما قرأ فليعبدوا رب هذا البيت جعل يومي بإصبعه إليها وهو في الصلاة بين يدي الله تعالى:

﴿ الذى أَطْعَمَهُم ﴾ بسبب تينك الرحلتين اللتين تمكنوا منهما بواسطة كونهم من جيرانه ﴿ مِن جُوعٍ ﴾ شديد كانوا فيه قبلهما وقيل أريد به القحط الذي أكلوا فيه الجيف والعظام ﴿ الذى أَطْعَمَهُم مّن ﴾ عظيم لا يقادر قدره وهو خوف أصحاب الفيل أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم أو خوف الجذام كما أخرج ذلك ابن جرير وغيره عن

ابن عباس فلا يصيبهم في بلدهم فضلاً منه تعالى كالطاعون وعنه أيضاً أنه قال اطعمهم من جوع بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ [إبراهيم : 37] وآمنهم من خوف حيث قال إبراهيم عليه السلام ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ [إبراهيم : 35] .

ومن قيل تعليلية أي أنعم عليهم وأطعمهم لإزالة الجوع عنهم ويقدر المضاف لتظهر صحة التعليل أو يقال الجوع علة باعثة ولا تقدير وقيل بدلية مثلها في قوله تعالى : ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ [التوبة : 38] وحكى الكرماني في غرائب التفسير أنه قيل في قوله تعلى : ﴿ الذى أَطْعَمَهُم مّن ﴾ أن الخلافة لا تكون إلا فيهم وهذا من البطلان بمكان كما لا يخفى وقرأ المسيبي عن نافع من خوف بإخفاء النون في الخاء وحكى ذلك عن سيبويه وكذا إخفاؤها مع العين نحو من على مثلاً والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(125/832)

وقال الشوكانى :

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3)

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)

اللام في قوله : ﴿ لإيلاف ﴾ قيل : هي متعلقة بآخر السورة التي قبلها .

كأنه قال سبحانه : أهلكت أصحاب الفيل لأجل تألف قريش .

قال الفرّاء : هذه السورة متصلة بالسورة الأولى ؛ لأنه ذكر سبحانه أهل مكة بعظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة .

ثم قال : ﴿ لإيلاف قُرَيْشٍ ﴾ أي : فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش ، وذلك أن قريشاً كانت تخرج في تجارتها ، فلا يغار عليها في الجاهلية ، يقولون : هم أهل بيت الله عزّ وجلّ ، حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة ، ويأخذ حجارتها فيبني بها بيتاً في اليمن يحجّ الناس إليه ، فأهلكهم الله عزّ وجلّ ، فذكرهم نعمته ، أي : فعل ذلك لإيلاف قريش ، أي : ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم ، وذكر نحو هذا ابن قتيبة .

قال الزجاج : والمعنى : فجعلهم كعصف مأكول ﴿ لإيلاف قُرَيْشٍ ﴾ أي : أهلك الله أصحاب الفيل لتبقى قريش ، وما قد ألفوا من رحلة الشتاء والصيف .

وقال في الكشاف : إن اللام متعلق بقوله : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا ﴾ .

أمرهم أن يعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين ، ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط ؛ لأن المعنى : أما لا ، فليعبدوه .

وقد تقدّم صاحب الكشاف إلى هذا القول الخليل بن أحمد ، والمعنى : إن لم يعبدوه لسائر

نعمه ، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة .

وقال الكسائي والأخفش : اللام لام التعجب ، أي اعجبوا لإيلاف قريش .

وقيل : هي بمعنى إلى .

قرأ الجمهور : (لإئلاف) بالياء مهموزاً من ألفت أؤلف إئلافاً .

يقال : ألفت الشيء ألافاً وألفاً .

وألفته إيلافاً بمعنى ، ومنه قول الشاعر :

المنعمين إذا النجوم تغيرت . . . والظاعنين لرحلة الإيلاف

وقرأ ابن عامر : (لإلاف) بدون الياء .

وقرأ أبو جعفر : (لإلف) .

(126/832)

وقد جمع بين هاتين القراءتين الشاعر ، فقال :

زعمتم أن إخوتكم قريش . . . لهم إلف وليس لكم إلاّف

وقرأ عكرمة : (ليألف قريش) بفتح اللام على أنها لام الأمر ، وكذلك هو : في مصحف ابن مسعود ، وفتح لام الأمر لغة معروفة .

وقرأ بعض أهل مكة : (إلاّف قريش) واستشهد بقول أبي طالب :

تذود الورى من عصبة هاشمية . . . إلاّفهم في الناس خير إلاّف

وقريش هم : بنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي ، ومن لم يلده النضر فليس بقرشي ، وقريش يأتي منصرفاً إن أريد به الحيّ ، وغير منصرف إن أريد به القبيلة ومنه قول الشاعر :

وكفى قريش المعضلات وسادها . . . وقيل إنّ قريشاً بنو فهر بن مالك بن النضر .

والأوّل أصح .

وقوله : ﴿ إيلافهم ﴾ بدل من إيلاف قريش .

و ﴿ رِحْلَةَ ﴾ مفعول به لإيلافهم وأفردها ، ولم يقل رحلتي الشتاء والصيف لأمن الإلباس .

وقيل : إن إيلافهم تأكيد للأوّل لا بدل ، والأوّل أولى .

ورجحه أبو البقاء .

وقيل : إن رحلة منصوبة بمصدر مقدّر ، أي : ارتحالهم رحلة ﴿ الشتاء والصيف ﴾

وقيل : هي منصوبة على الظرفية والرحلة : الارتحال ، وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء ؛ لأنها بلاد حارّة ، والرحلة الأخرى إلى الشام في الصيف ؛ لأنها بلاد باردة .

وروي أنهم كانوا يشتون بمكة ، ويصيفون بالطائف ، والأوّل أولى ، فإن ارتحال قريش

للتجارة معلوم معروف في الجاهلية والإسلام.

قال ابن قتيبة: إنما كانت تعيش قريش بالتجارة، وكانت لهم رحلتان في كل سنة: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، ولولا هاتان الرحلتان لم يمكن بها مقام، ولولا الأمن بجوارهم البيت لم يقدروا على التصرّف.

﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت ﴾ أمرهم سبحانه بعبادته بعد أن ذكر لهم ما أنعم به عليهم أي: إن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الخاصة المذكورة، والبيت الكعبة.

(127/832)

وعرّفهم سبحانه بأنه ربّ هذا البيت؛ لأنها كانت لهم أوثان يعبدونها، فميز نفسه عنها.

وقيل: لأنهم بالبيت تشرفوا على سائر العرب، فذكر لهم ذلك تذكيراً لنعمته.

﴿ الذى أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ ﴾ أي: أطعمهم بسبب تينك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما.

وقيل: إن هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا عليهم، فقال: اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، فاشتد القحط، فقالوا: يا محمد ادع الله لنا فإنا مؤمنون، فدعا، فأخصبوا وزال عنهم الجوع، وارتفع القحط.

﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أي : من خوف شديد كانوا فيه .

قال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبي بعضها بعضاً ، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم .

وقال الضحاك ، والربيع ، وشريك ، وسفيان : آمنهم من خوف الحبشة مع الفيل .

وقد أخرج أحمد ، وابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ﴿ لإِيلاف قُرَيْشٍ * إيلافهم رِحْلَةَ الشتاء والصيف ﴾ ويحكم يا قريش ، اعبدوا ربّ هذا البيت الذي أطعمكم من جوع ، وآمنكم من خوف " وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لإِيلاف قُرَيْشٍ ﴾ قال : نعمتي على قريش .

﴿ إيلافهم رِحْلَةَ الشتاء والصيف ﴾ كانوا يشتون بمكة ، ويصيفون بالطائف .

﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت ﴾ قال : الكعبة .

﴿ الذى أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ وَءامَنَهُم مّنْ خوْفٍ ﴾ قال : الجذام .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عنه : ﴿ لإِيلاف قُرَيْشٍ * إيلافهم ﴾ قال : لزومهم .

﴿ الذى أَطْعَمَهُم مّن جُوعٍ ﴾ يعني قريشاً أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال : ﴿ وارزق أَهْلَهُ مِنَ الثمرات ﴾ [البقرة : 126] ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ حيث قال

إبراهيم ﴿ رَبّ اجعل هذا البلد امِنًا ﴾ [البقرة : 35] وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عنه أيضاً في قوله : ﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ .

. .

(128/832)

﴾ الآية ، قال : نهاهم عن الرحلة ، وأمرهم أن يعبدوا ربّ هذا البيت ، وكفاهم المؤنة ، وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف ، ولم يكن لهم راحة في شتاء ولا صيف ، فأطعمهم الله بعد ذلك من جوع ، وآمنهم من خوف ، فألفوا الرحلة ، وكان ذلك من نعمة الله عليهم .

وأخرج ابن جرير عنه أيضاً في الآية قال : أمروا أن يألفوا عبادة ربّ هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف ، وقد وردت أحاديث في فضل قريش ، وإن الناس تبع لهم في الخير والشرّ ، وإن هذا الأمر يعني الخلافة لا يزال فيهم ما بقي منهم اثنان ، وهي في دواوين الإسلام .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 497 . 499 ﴾

(129/832)

وقال القاسمى :

سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾

قال ابن هشام : إيلاف قريش إلفهم الخروجَ إلى الشام في تجارتهم . وكانت لهم خرجتان : خرْجة في الشتاء وخرجة في الصيف . قال : أخبرني أبو زيد الأنصاري أن العرب تقول : ألفت الشيء إلفاً ، وآلفته إيلافاً ، في معنى واحد ، وأنشدني لذي الرمة :

~من المُؤْلفات الرمْل إدماءُ حرةٌ شُعاعُ الضُّحى في لونها يتوَضَّحُ

والإيلاف أيضاً أن يكون للإنسان ألف من الإبل أو البقر أو الغنم أو غير ذلك ، ويقال : آلف فلان إيلافاً ، قال الكميت بن زيد :

~بعَامٍ يقول له المُؤْلِفُون هذا المُعيمُ لنا المُرْجِلُ

والمعيم العام الذي قل فيه اللبن . والإيلاف أيضاً أن يصير القوم ألفاً يقال : آلف القوم إيلافاً .

قال الكميت :

~وآل مُزَيْقياءَ غداةَ لاقَوْا بني سعد بن ضَبَّةَ مُؤْلِفينا

والإيلاف أيضاً أن يُؤلف الشيء فيألفه ويلزمه ، يقال : آلفته إياهُ إيلافاً . والإيلاف أيضاً أن تصيّر ما دون الألف ألفاً ، يقال : آلفته إيلافاً . انتهى . ولورود الإيلاف بهذه المعاني ، ظهر

سر إبداله بالمقيد منه بعد إطلاقه، مع ما في الإبهام، ثم التفسير من التفخيم والتقرير.

روى ابن جرير عن عكرمة قال: كانت قريش قد ألفوا بصرى واليمن، يختلفون إلى هذه في الشتاء وإلى تلك في الصيف. وعن ابن زيد قال: كانت لهم رحلتان: الصيف إلى الشام والشتاء إلى اليمن في التجارة، إذا كان الشتاء امتنع الشام منهم لمكان البرد. وكانت رحلتهم في الشتاء إلى اليمن.

(130/832)

وعن ابن عباس قال: كانوا يُشتون بمكة ويصيّفون بالطائف. والأكثرون على الأول.

واللام في قول ﴿ لِإِيلَافِ ﴾ متعلق بقوله: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ أي: فليعبدوه لأجل إيلافهم الرحلتين. ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط؛ إذ المعنى: أن نعم الله تعالى عليهم غير محصورة، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة.

والبيت هو الكعبة المشرفة ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ أي: مما يخاف منه من لم يكن من أهل الحرم من الغارات والحروب والقتال والأمور التي كانت العرب يخاف بعضها بعضاً؛ فأمنوا من ذلك لمكان الحرم وقرأ ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [القصص: 57]، ونظيره أيضاً قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ

النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] .

تنبيه :

زعم بعض الناس أن اللام في ﴿ لِإِيلَافِ ﴾ متعلق بما قبله ، أي : فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش . قال الشهاب : وعلى هذا لا بد من تأويله ، والمعنى : أهلكهم ولم يسلط على أهل حرمه ليبقوا على ما كانوا عليه ، أو أهلك من قصدهم ليعتبر الناس ولا يجترئ عليهم أحد ، فيتم لهم الأمن في الإقامة والسفر . أو هي لام العاقبة . انتهى .

ولا يخفى ما فيه من التكلف ؛ ولذا قال ابن جرير في رده : وأما القول الذي قاله من حكينا قوله أنه من صلة قوله :

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ فإن ذلك لو كان كذلك لوجب أن يكون ﴿ لِإِيلَافِ ﴾ بعض ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ، وأن لا تكون سورة منفصلة من ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ؛ وفي إجماع جميع المسلمين على أنهما سورتان تامتان ، كل واحدة منهما منفصلة عن الأخرى ، ما يبين عن فساد القول الذي قاله من قال ذلك . ولو كان قوله : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ من صلة قوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ لم تكن ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تامة حتى توصل بقوله : ﴿ لِإِيلَافِ

قُرَيْشٍ ﴾ لأن الكلام لا يتم إلا بانقضاء الخبر الذي ذكر. انتهى. انتهى. اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 487. 489 ﴾

(132/832)

وقال الشيخ : دروزة :

سورة قريش

في السورة تذكير لقريش بنعم اللّه عليهم ودعوة لهم إلى عبادته وقد روي أنها مدنية ، غير أن أسلوبها يلهم مكيتها كما أن أكثر الروايات متفقة على ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة قريش (106) : الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4).

(1) الإيلاف : بمعنى التهيؤ والاتجاه أو الألفة والاعتياد أو الإعداد ومن أوجه الأقوال في اللام التي بدئت بها السورة أنها متعلقة بكلمة فليعبدوا وأن في الآيات تقديما وتأخيرا

مقدرين . ونصب (رحلة) هو بمصدر إيلافهم .

(2) البيت : كناية عن الكعبة . وفي سورة المائدة آية ذكر البيت فيها بدلا من الكعبة وهي : جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ [97] .

في السورة هتاف بقريش أن يعبدوا اللّه ربّ البيت الذي هم في جواره . فقد يسّر اللّه لهم ببركته الأمن من الخوف والوقاية من الجوع كما يسّر لهم رحلتي الشتاء والصيف اللتين كانوا يتهيأون لهما كل عام ويعدون لهما العدة ويجنون منهما أسباب الرخاء والرفاه ، فمن واجبهم شكر أفضاله عليهم بالإيمان وعبادته وحده .

(133/832)

تعليق على قريش والبيت والرحلات التجارية

واختصاص قريش بالذكر إما لأنهم أول من وجهت إليهم الدعوة أو لأنهم كانوا قدوة العرب بسبب جوارهم وسدانتهم للكعبة التي كانت تسمى بيت اللّه وكانت محجا للعرب أجمع والتي كان لهم بسببها المركز المحترم بين العرب ، أو لأن زعماء قريش وأثرياءهم كانوا يقفون متمردين في وجه الدعوة ويحولون دون استجابة الناس إليها ، وينالون بالأذى من قدروا عليه من المستجيبين إليها ، ومن الجائز أن يكون كل هذا مما قصد إليه بهذا الاختصاص

الذي فيه شيء من التنديد كأنما يقال لهم إن عليكم بدلا من أن تفعلوا ذلك أن تكونوا أولى الناس بالاستجابة إلى دعوة الله شكرا على نعمته واعترافا بفضله.

ولقد كانت قريش تدرك خطورة مركزها وتدرك أنها مدينة به وبما تتمتع به من خيرات وبركات وأمن ورغد رزق للكعبة، على ما يمكن أن تدل عليه آية سورة المائدة هذه: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (97) وآية سورة القصص هذه: وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (57) وآية سورة العنكبوت هذه: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) وآيات سورة الحج هذه:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (25) وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (26) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا

رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (28) .

ولقد ظل معظم العرب من بدو وحضر منقبضين عن الدعوة إلى السنّة الهجرية الثامنة فلما يسّر اللّه سبحانه وتعالى لنبيه صلّى اللّه عليه وسلّم فتح مكة ودخل أهلها في الإسلام أخذ الناس يدخلون في دين اللّه أفواجا على ما جاء في سورة النصر : إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (3) حيث يبدو من هذا أثر الموقف الذي وقفته قريش بزعامة سادتها وكبرائها وأغنيائها في سيرة الدعوة الإسلامية الذي يدل على ما كان لها من خطورة في المجتمع العربي ، وعلى هدف هذه السورة التي اختصتهم بالهتاف وذكرتهم بأفضال اللّه عليهم ونبهتهم إلى وجوب مقابلة ذلك بالشكر والاستجابة لدعوته .

ولقد تعددت الأقوال في معنى قريش واشتقاقها ، فهناك قول بأن هذا الاسم مقتبس من اسم دابة بحرية قوية تظهر في سواحل البحر الأحمر الحجازية وهي القرش . وهناك قول بأنه من التقرش بمعنى التجمع ، أو التقرش بمعنى التجارة ، وهناك قول بأن هذا الاسم أطلق على بطون قريش قبل قصي الجد الرابع للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم الذي اجتمعت هذه البطون تحت لوائه ، والإجماع منعقد على أن هذه القبيلة تمتّ إلى عدنان أولا ومضر ثانيا من الأجداد الأولين . وقد كان من المتداول قبل البعثة النبوية أن عدنان من أنسال إسماعيل

بن إبراهيم عليهما السلام الذي أسكنه أبوه في وادي مكة وتزوج من جرهم إحدى قبائل العرب فيه . وإسكان إبراهيم لابنه إسماعيل في وادي مكة مشار إليه في القرآن في آية سورة إبراهيم هذه : رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) .

ولقد ذكر في الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين المتداول اليوم وهو أول أسفار العهد القديم أن إبراهيم عليه السلام صرف إسماعيل مع أمه تلبية لطلب سارة زوجته التي غارت منهما وإن هاجر تاهت مع ابنها في برية بئر سبع ونفد الماء

منها وخشيت أن يموت الصبي من العطش وبكت ورفعت صوتها فأرسل اللّه إليها ملاكا طمأنها ووعدها بأنه سيجعله أمة كبيرة وكشف لها عن بئر ماء . وأن اللّه كان مع الغلام وأمامه مع أمه في برية فاران واتخذت له أمه امرأة من أرض مصر .

وباستثناء الخبر الأخير فإن نفس القصة مما كان متداولا في بيئة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ومن جملة ذلك أن البئر الذي كشفه لها الملاك هو بئر زمزم أو ماء زمزم . وعلماء المسلمين

بناء على ذلك يفسرون فاران بوادي مكة. ويوردون بعض الأدلة على صحة تفسيرهم. والنص القرآني يؤيد ذلك. وسفر التكوين وسائر الأسفار المتداولة الأخرى قد كتبت بعد موسى عليه السلام بمدة طويلة وطرأ عليها تحريفات وتشويهات متنوعة على ما سوف نشرحه في مناسبات أخرى. والواجب على المسلم أن يؤمن بما جاء في القرآن. وليس هناك أي دليل تاريخي يقيني أو أي دليل عقلي صحيح يناقضه «1». ونرجح إلى هذا أنه كان في أيدي اليهود أسفار ذكرت ما هو متطابق مع القرآن الكريم وضاعت كما ضاع كثير غيرها على ما سوف نشرحه كذلك في مناسبة آتية.

ومهما يكن من أمر فإن اسم قريش كان يطلق على القبيلة المسماة به قبل البعثة بمدة غير قصيرة على ما تؤيده الروايات وعلى ما يلمح في سورة قريش التي نحن في صددها.

ولقد كانت قريش قبل البعثة مؤلفة من عدة بطون، وكان في مكة من رؤساء بطون قريش البارزة حكومة أو شبه حكومة أو حكومة شيوخ، لكن بطن أو عشيرة مركز معين فيها ينتقل في زعماء العشيرة أو البطن جيلا بعد جيل، ومن هذه المراكز ما هو ديني مثل سدانة الكعبة وحجابتها وسقاية الحج ورفادته (ضيافته وقراه) ومنها ما هو سياسي مثل اللواء وقيادة الجيش والسفارة ومنها ما هو اجتماعي مثل الأنساب والأشناق أي تأمين الديات التي تطلب من بطون القبيلة،

---

(1) انظر تفسير سورة التين في تفسير القاسمي وتفسير سورة إبراهيم في تفسير البغوي

والطبري وابن كثير، وانظر الفصل الأول من كتابنا عصر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وبيئته قبل البعثة.

(136/832)

وكان بين أصحاب المراكز تضامن وتساند، وكان لهم دار ندوة قرب الكعبة يجتمعون فيها للمداولة في مختلف شؤون القبيلة، وقد كان هذا مع كونهم أهل حرم اللّه وسدنته وسقايته وعمارته مما جعل لهذه القبيلة خطورة واحتراما بين سائر العرب، وسيدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم من أحد بطون قريش البارزة وهو بطن هاشم. وكان عمه العباس صاحب مركز هذا البطن وكان يتولى سقاية الحج أي أمر توفير المياه للحجاج في موسم الحج «1».

والمتبادر أن تعبير «البيت» والإشارة القريبة إليه وتذكير قريش بما كان من أفضال اللّه عليهم متصل بتلك الخطورة وإدراكها، والتعبير يلهم أن قريشا كانوا يعتقدون أن الكعبة بيت اللّه، والآيات التي أوردناها تلهم أن العرب كانوا يشاركون قريشا في هذه العقيدة. ويحجون الكعبة وهي المرادف القرآني للبيت على ما جاء في الآية [97] من سورة المائدة. ويحترمون حرمها وقدسيتها وأمنها على أساس هذه العقيدة. وكانت الحرمة والقدسية شاملة لجميع منطقة مكة على ما تفيده الآيات العديدة التي منها آية سورة النمل هذه: إِنَّما

أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) ومنها آيات سورة القصص [57] وسورة العنكبوت [67] التي أوردناها آنفا .

وعلى هذا فإن الكعبة وحجها كان نوعا ما مظهرا لوحدة عربية دينية قبل البعثة . وقد اقتضت حكمة اللّه عز وجل أن يبقى تقليد الحج وحرمة الحرم المكي ومعظم طقوسه بعد تنقيتها من شوائب الشرك في الإسلام بسبب ذلك على ما هو المتبادر واللّه أعلم .

والكعبة غرفة مثمنة الأضلاع تقوم في وسط الحرم المكي . ولها باب مرتفع عن الأرض بنحو متر ثم يرتفع البناء إلى نحو خمسة أمتار ويقوم السقف على ستة أسطوانات مرمرية . ويبلغ مسطحها الداخلي نحو ثلاثين مترا ، والبناء الحاضر هو بناء إسلامي وقد تجدد ورمّم في الإسلام أكثر من مرة . وهو مكان بناء قديم وعلى صورته التي كان عليها قبل البعثة . وهذه الصورة ليست هي القديمة الأولى وإنما

---

(1) انظر كتاب المؤلف : عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة ص 215 وما بعدها .

كانت تجديدا لها أيضا في حياة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قبل بعثته حيث تروي روايات السيرة أن البناء القديم تصدّع فهدمه القرشيون وجددوه . ومما روته هذه الروايات أن

زعماء قريش اختلفوا على من يضع الحجر الأسود في ركنه المعتاد وهو حجر صواني لامع بقدر بلاطة عادية كانوا يقدسونه ويستلمونه أو يقبلونه عند الطواف حول الكعبة فحكموا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في الأمر ، لأنه كان مشهورا عندهم بالأمانة ورجحان العقل فوضعه في رداء ، وطلب من الزعماء أن يحملوا الرداء ويرفعوه جميعا حتى إذا بلغ مستوى مكانه وضعه فيه بيده الشريفة «1» .

وروايات المفسرين متعددة في أصل هذا الحجر حيث يذكر بعضها أن الحجر من زمن إبراهيم وبعضها أنه هدية من السماء . وليس هذا واردا في كتب الأحاديث الصحيحة . والاحتمال الأقوى أن يكون قطعة من نيزك سقط من السماء على أرض مكة فاعتبروه هدية سماوية وقدسوه ووضعوه في ركن بيت عبادتهم المقدس . وقد هدم البناء من قبل عبد اللّه بن الزبير لما أعلن خلافته في سنة 62 ه ووسعه وأدخل فيه المقام المسمّى بحجر إبراهيم وجعل له بابين لأن هناك حديثا رواه البخاري عن عائشة قالت : «قال لي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ألم تري أن قومك بنوا الكعبة واقتصروا عن قواعد إبراهيم . فقلت يا رسول اللّه ألا تردّها على قواعد إبراهيم قال لولا حدثان قومك بالكفر . فقال ابن عمر لئن كانت عائشة سمعت هذا من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ما أراه ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلّا أن البيت لم يتمّم على قواعد إبراهيم» «2» .

وفي الجزء الأول من طبقات ابن سعد ورد هذا النص مع زيادة جاء فيه : «فإن بدا لقومك

من بعدي أن يبنوه فهلم أريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبع أذرع في الحجر ، قالت عائشة وقال رسول اللّه : وجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقا وغربا » «3» .

ثم تصدع في زمن ابن الزبير نتيجة لضرب مكة بالمجانيق من قبل الحجاج

---

(1) انظر طبقات ابن سعد ج 1 ص 126 - 128 .

(2) التاج 4 ص 43 .

(3) الطبقات الكبرى ج 1 ص 129 .

قائد عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الذي قاد حملة لإرغام ابن الزبير ، حيث كان يعتبر خارجا متمردا على الدولة . فلما تمت الغلبة له على ابن الزبير هدم الكعبة وأعاد بناءها إلى الصورة التي كانت عليها قبيل البعثة ، ثم في حياة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم . وتصدع البناء ورمم وجدد بعد ذلك وكان يعاد إلى هذه الصورة التي هو عليها الآن .

وهناك أحاديث أخرى وردت في الكتب الخمسة في صدد الكعبة غير التي أوردناها فيها بعض الصور التي كانت وتأييد لما ذكرناه استنادا إلى الروايات . منها حديث رواه البخاري وأبو داود عن ابن عباس قال : «إنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لما قدم أبى أن يدخل

البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم قاتلهم اللّه أما واللّه لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قطّ. فدخل البيت فكبّر في نواحيه» «1».

وحديث رواه الخمسة عن ابن عمر قال: «دخل رسول اللّه البيت هو وأسامة وبلال وعثمان بن طلحة فأغلقوا عليهم فلما فتحوا كنت أول من ولج فلقيت بلالا فسألته هل صلّى فيه رسول اللّه؟ قال: نعم بين العمودين اليمانيين وفي رواية جعل عمودا عن يساره وعمودين عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة ثم صلّى» «2». وحديث رواه أصحاب السنن وصححه الترمذي عن عائشة قالت: «كنت أحبّ أن أدخل البيت وأصلّي فيه فأخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بيدي فأدخلني في الحجر فقال صلّي في الحجر إن أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت فإنّ قومك اقتصروا حين بنوا الكعبة فأخرجوه من البيت» «3». وحديث رواه الخمسة عنها قالت: «سألت رسول اللّه عن الجدار أمن البيت هو قال نعم، قلت فلم يدخلوه في البيت قال إن قومك قصّرت بهم النفقة قلت فما شأن بابه مرتفعا، قال فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا. ولولا أن

---

(1) التاج 2 ص 162 - 163.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه ص 163 - 164.

(139/832)

قومك حديث عهدهم في الجاهلية فأخاف أن تنكر قلوبهم لنظرت أن أدخل الجدر في البيت وأن ألزق بابه بالأرض. وفي رواية لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابين بابا شرقيا وبابا غربيا. باب يدخلون منه وباب يخرجون منه وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة» «1».

أما بناء الكعبة (البيت) وقدسيتها وجعل حرمها آمنا لا يقع فيه قتال ولا يسفك فيه دم. وحجها فالقرآن يقرر أن ذلك يرجع إلى عهد إبراهيم عليه السلام الذي يخمن وجوده في القرن الثالث والثلاثين أو الرابع والثلاثين قبل الهجرة النبوية. والقرن التاسع عشر أو العشرين قبل الميلاد المسيحي على ما تفيد آيات سورة الحج [25 - 28] التي أوردناها قبل وآيات سورة البقرة هذه: وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ

السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) . وآيات سورة آل عمران هذه : إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) .

والمرجح أن العرب كانوا يعتقدون ذلك قبل البعثة ويتناقلونه جيلا عن جيل ويشيرون إلى علامات موجودة في حرم الكعبة تدل عليه . وهي ما عبر عنه في آيات

---

(1) التاج 2 ص 163 - 164 .

البقرة وآل عمران بجملة مَقامِ إِبْراهِيمَ وجملة آياتٌ بَيِّناتٌ مَقامُ إِبْراهِيمَ حيث كانوا يرون أثرا في حجر كبير لقدم إنسانية ويتداولون أنه الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم فيما كان يرفع قواعد البيت مع إسماعيل على ما ذكرته آيات البقرة وانطبع عليه أثر قدمه فسموه مقام إبراهيم، وقد أقر القرآن التسمية وأمر المسلمين باتخاذه مصلى.

ولقد أشار ديودور الصقلي من أهل القرن الأول قبل الميلاد إلى الكعبة في سياق كلام عن الأنباط حيث قال: «ووراء أرض الأنباط بلاد فيها هيكل يحترمه العرب كافة احتراما كبيرا» «1» وحيث يدل هذا على تقدم وجود الكعبة على زمنه بمدة طويلة وعلى ما كان لها من احترام شامل.

والقرآن يقرر أنه أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ آل عمران [96]. والمؤولون «2» يؤولون الجملة بأنها أول بيت قام في الأرض لعبادة اللّه. ويروي المفسرون «3» في سياق ذلك روايات كثيرة عن هذه الأولية. منها أن اللّه قد خلق الكعبة قبل الأرض بألفي سنة إذ كان عرشه على الماء ودحيت الأرض من تحته. وإن اللّه بعث الملائكة فبنتها على مثال بيت لعبادتهم في السماء اسمه البيت المعمور. وإنها كانت موجودة قبل آدم أو أن آدم هو أول من بناها بأمر اللّه على مثال ذلك البيت وطاف بها. وأنها رفعت زمن الطوفان إلى السماء أو هدمت به فأمر اللّه إبراهيم وإسماعيل بإعادة بنائها في مكانها الذي كشف اللّه لهما عنه وعلى مثالها الأول.

وهناك من قال إن هذه الأولية تعني كون الكعبة أول مكان جعل للناس قبلة ومحجا وأمانا لمن يدخله أو أول بيت وضعت فيه البركة. وليس شيء من هذه الروايات واردا في كتب الأحاديث المعتبرة وإن كان القولان الأخيران هما على ما يتبادر الأكثر ورودا ووجاهة.

---

(1) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ص 244.

(2) انظر تفسير آيات البقرة وآل عمران والحج المذكورة وآيات سورة إبراهيم [25-40] في كتب تفسير الطبري والبغوي والخازن وابن كثير والقاسمي وغيرهم.

(3) المصدر نفسه.

(141/832)

وهناك حديث رواه الشيخان والنسائي عن أبي ذر قال: «سألت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عن أول مسجد وضع في الأرض، قال المسجد الحرام، قلت ثم أيّ قال المسجد الأقصى، قلت كم بينهما؟ قال أربعون عاما. ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصلّ» «1». والمسجد الأقصى تسمية إسلامية والمراد بها لغة المسجد البعيد جدا. والمتفق عليه أن المقصد منها مسجد بيت المقدس، وقد قام على أنقاض معبد اليهود القديم الذي دمره الرومان في القرن الأول بعد الميلاد «2». ولم يكن

مسجد قائم في مكانه حينما نزل القرآن فتكون التسمية على اعتبار ما كان قبل وبعد .

والمعروف المتداول أن الذي أنشأ ذلك المعبد هو سليمان بن داود عليهما السلام «3» الذي عاش على وجه التخمين القريب في القرن العاشر قبل الميلاد أي بعد الزمن الذي يخمن أن إبراهيم عاش فيه بألف عام . وهذا يثير إشكالا بالنسبة للحديث كما هو المتبادر . ويزداد هذا الإشكال بحديث رواه النسائي عن عبد اللّه بن عمرو عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «إن سليمان بن داود عليهما السلام لمّا بنى بيت المقدس سأل اللّه عزّ وجلّ خلالا ثلاثة حكما يصادف حكمه فأوتيه . وملكا لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه وسأل اللّه تعالى حين فرغ من بنائه ألا يأتيه أحد لا ينهزه إلا الصلاة فيه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمّه» «4» حيث ينطوي في الحديث خبر نبوي بأن الذي بنى المسجد هو سليمان عليه السلام لأن الفقرة الثالثة قوية الدلالة على أن المراد بها هو المسجد .

ولقد حاول ابن القيم في كتابه زاد المعاد أن يحلّ الإشكال فقال إن المستشكلين لا يعرفون أن سليمان ليس هو الباني الأول للمسجد وإنما هو مجدد له وأن الباني الأول هو يعقوب حفيد إبراهيم عليهما السلام وتكون المسافة بين

---

(1) التاج 1 ص 209 . [. . . . .]

(2) انظر كتابنا الجزء الرابع من تاريخ الجنس العربي ص 241 وما بعدها .

(3) انظر الإصلاحات 2 و3 و4 و5 و7 و8 و9 من سفر الملوك الثالث في الطبعة

الكاثوليكية والأول في الطبعة البروتستانتية.

(4) التاج 1 ص 210.

(142/832)

الجد وحفيده صحيحة كما في الحديث «1». ولم يذكر ابن القيم من أين استقى هذا والراجح أنه قرأ سفر التكوين المتداول اليوم. وفي الإصحاح (33) من هذا السفر خبر بناء يعقوب مذبحا للرب وأنه دعاه باسم القدير إله إسرائيل في قطعة حقل اشتراها عند شليم مدينة أهل شليم، وشليم هذه كانت عاصمة ملك اسمه ملكيصادق على ما جاء في الإصحاح (14) من السفر المذكور. وشراح الأسفار يراوحون الظن في شليم بين أن تكون مدينة أورشليم التي عرفت باسم بيت المقدس أو مدينة يقوم مكانها اليوم قرية اسمها سالم قريبة من نابلس. والظاهر أن ابن القيم رجح الظن الأول واعتبر يعقوب هو المنشئ الأول لمسجد بيت المقدس الذي سمي في القرآن والحديث المسجد الأقصى.

وعلى كل حال فإن من واجب المسلم الإيمان بكل ما يثبت صدوره عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، وهذا يشمل حديث أبي ذر إذا كان صادرا يقينا عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وليس فيه ما يمنع ذلك. وليس هناك من دليل تاريخي يقيني وعقلي صحيح ينفي ما

جاء فيه.

وفيه تساوق مع كلام اللّه الذي يقرر السبق والأولوية للبيت. ومن الحكمة التي قد تلمح فيه بالإضافة إلى ذلك توكيد فضل البيت الذي صار حجه واستقباله في الصلاة من أركان دين المسلمين وصلاتهم على كل بيت آخر من بيوت اللّه تعالى.

ولقد روى الشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في سواه، إلّا المسجد الحرام» «2». وفي رواية ابن ماجه: «وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مئة ألف صلاة فيما سواه» «3» مما فيه توكيد لذلك الفضل الذي تلمح حكمة توكيده في الحديث الأول، واللّه تعالى أعلم.

وهناك أحاديث وروايات وشروح أخرى متصلة بظروف وكيفية بناء الكعبة

---

(1) انظر تفسير آية سورة آل عمران 96 في تفسير القاسمي.

(2) التاج ج 1 ص 210.

(3) المصدر نفسه.

لأول مرة من قبل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبمناسك الحج جاءت في سياق آيات أخرى في سور أخرى فرأينا أن نؤجلها إلى مناسباتها .

وجملة وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ تعني ما كان يتمتع به أهل مكة من أمن بسبب وجود بيت اللّه في مدينتهم . وهو ما ذكر في آيات القصص [67] والنمل [91] والبقرة [125 - 129] وآل عمران [97] التي قرر بعضها أن هذا الأمن كان من لدن إبراهيم عليه السلام حين أنشأ الكعبة حيث دعا اللّه بأن يجعل البلد آمنا . وقد جاء هذا الدعاء أيضا في آية سورة إبراهيم هذه : وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (35) . ولقد كان من مظاهر هذا الأمن أن كل إنسان يكون فيه آمنا على دمه وماله من غيره مهما كان بينه وبين هذا الغير من عداء وإحن وثارات وسواء أكان من أهل مكة أم غريبا عنها . وكان لمكة أو لما كان يسمى الحرم حدود معينة تشمل جميع منطقة مكة إلى مسافة أميال من جميع جوانبها . ولقد كان زعماء مكة يدركون في قرارة أنفسهم أن رسالة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حق وهدى ولكنهم كانوا يخافون أن تنسف هذا التقليد الذي كانوا يتمتعون في ظله بالأمن والرفاه فيما تنسفه من عادات جاهلية فقالوا للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ما حكته عنه آية القصص [57] : وَقالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا وقد طمأنتهم الآية على ذلك إذ قالت : أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ القصص [57] لأن حكمة اللّه اقتضت أن

تبقى معظم تقاليد الحج ومن جملته أمن مكة بسبب وجود بيت اللّه فيها على ما ذكرناه قبل قليل . ولقد أشارت آية في سورة العنكبوت إلى نفس المعنى الذي أشارت إليه هذه الجملة من آية القصص وهي : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (67) .

ولقد وقعت بعض الأحداث التي اعتدي فيها على بعض الناس في حرم مكة أي أخل بها في تقليد أمن الحرم فنشبت بسبب ذلك وبسبيل تأديب المخلّين حروب عرفت بحروب الفجار أو أيام الفجار وسميت بهذا الاسم لأنها وقعت في منطقة

حرم مكة وفي الأشهر الحرم وقد شهد أحد الأيام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مع أعمامه وكان ينبل عليهم أي يرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها على ما رواه ابن هشام عن أبي عبيدة النحوي عن أبي عمرو بن العلاء «1» . وقد روى ابن هشام رواية أخرى في حادث متصل بأمن مكة شهده رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم جاء فيها أن بني هاشم وبني عبد المطلب وبني أسد بن عبد العزى وبني زهرة بن كلاب وبني تميم بن مرة اجتمعوا في دار عبد اللّه بن جدعان فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها

وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلّا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته وسمّوا حلفهم هذا حلف الفضول. وكان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ممن شهد هذا الحدث. وقد روى ابن هشام هذه الرواية عن زياد بن عبد اللّه البكائي عن محمد بن اسحق. وأورد في سياقها حديثا عن محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمي أنه سمع طلحة بن عبد اللّه بن عوف الزهري يقول: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم لقد شهدت في دار عبد اللّه بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم. ولو أدعى به في الإسلام لأجبت» «2».

وهناك أحاديث نبوية عديدة صحيحة في حرمة بيت اللّه ومكة التي هو فيها.

من ذلك ما جاء في حديث رواه مسلم وأبو داود عن جابر بن عبد اللّه عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم:

«إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا» «3». وحديث رواه الخمسة عن أبي هريرة عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: «إنّ اللّه عزّ وجلّ

---

(1) انظر الجزء الرابع من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي ص 372 - 374 وابن هشام ج 1 ص 184.

(2) ابن هشام ج 1 ص 133 وانظر طبقات ابن سعد ج 1 ص 108 - 110 حيث

ذكر خبر اشتراك النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في أحد أيام الفجار وذكر في رواية هذا الخبر قول النبي صلّى اللّه عليه وسلّم: «قد حضرته ورميت مع عمومتي فيه بأسهم وما أحب أني لم أكن فعلت» وذكر خبر شهوده عهد حلف الفضول وقوله: ما أحب أن لي بحلف حضرته بدار ابن جدعان حمر النعم وإني أغدر به ولو دعيت به لأجبت» . وروى ابن سعد هذين الخبرين عن راو عن راو إلى حكيم بن حزام أحد أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم.

(3) التاج ج 2 ص 143.

(145/832)

حبس عن مكة الفيل وسلّط عليها رسوله والمؤمنين. ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي. ألا وإنها أحلّت لي ساعة من النهار. ألا وإنها ساعتي هذه حرام. لا يخبط شوكها ولا يعضد شجرها وزاد في رواية ولا ينفّر صيدها ولا يلتقط ساقطتها إلّا منشد» «1» . وحديث رواه الشيخان عن ابن عباس عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: «إنّ هذا البلد حرّمه اللّه يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة اللّه إلى يوم القيامة» «2» وحديث رواه الشيخان والترمذي عن أبي شريح العدوي عن رسول اللّه صلّى اللّه

عليه وسلّم : «إنّ مكة حرّمها اللّه ولم يحرّمها الناس فلا يحلّ لامرئ يؤمن باللّه واليوم الآخر أن يسفك بها دما ولا يعضد بها شجرة. فإن أحد ترخّص بقتال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فيها فقولوا له إنّ اللّه أذن لرسوله ولم يأذن لكم وإنّما أذن لي فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلّغ الشاهد الغائب» «3».

ورحلتا الشتاء والصيف هما رحلتان تجاريتان كان القرشيون يقومون بهما : واحدة إلى اليمن جنوبا في الشتاء ، وأخرى إلى الشام شمالا في الصيف. وكانوا يصلون إلى بلاد الصومال والحبشة في رحلة الجنوب وإلى فلسطين ومصر وربما إلى بلاد العراق وفارس في رحلة الشمال على ما ذكرته الروايات العربية «4» ، وأشارت إلى شيء منه آيات سورة الصافات هذه في معرض ذكر مساكن قوم لوط التي كانت في تخوم فلسطين : وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (133) إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (134) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (135) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (136) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (137) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (138) وكانت هذه الرحلات وسائل عظيمة لتنمية ثروة القرشيين واكتسابهم المهارة التجارية واقتباسهم كثيرا من معارف العالم المتحضر الذي كان يحيط بالجزيرة ووسائل حضارته ومعيشته. وكانت مواسم الحج والأسواق التي كانت تقام فيها مجالا واسعا لأعمالهم التجارية أيضا فضلا عما كان يعقد في هذه

---

(1) التاج 2 ص 157 - 159 .

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) انظر كتاب تاريخ حياة عمرو بن العاص للدكتور حسن إبراهيم ص 24 وما بعدها .

(146/832)

المواسم والأسواق من مجالس قضائية وندوات شعرية وخطابية يشهدها وفود من مختلف أنحاء جزيرة العرب وأطرافها التي كان ينتشر فيها العرب ويقوم لهم فيها ممالك ، ونعني بلاد الشام حيث كان فيها مملكة الغساسنة وبلاد العراق حيث كان فيها مملكة المناذرة أو اللخميين . وكل هذا مما جعل كذلك لقريش خطورتهم واحترامهم ومما ساعدهم على الاستنارة والتفوق الاجتماعي والاقتصادي والثقافي .

فالدعوة المحمدية انبثقت في هذا الوسط الذي كانت له زعامة موطدة وخطورة مفروضة وحرمات محترمة ومصالح متنوعة في الحجاز بنوع خاص ، وفي خارجها بنوع عام . وقد توهم الزعماء في هذه الدعوة تهديدا لزعامتهم وخطورتهم ومصالحهم وحرماتهم ، فكان منهم المواقف المناوئة التي حكت فصول القرآن عنها الشيء الكثير فاقتضت حكمة التنزيل توجيه الهتاف في هذه السورة إلى قريش وزعمائهم في الجملة للكف عنها وشكر الله

على نعمه وأفضاله التي يسّرها لهم والاستجابة لدعوته وعبادته بدلا منها . انتهى ا .
هـ ﴿ التفسير الحديث ـ 2 صـ 167 . 181 ﴾

(147/832)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(106) سورة قريش

نزولها : مكية . . نزلت بعد سورة التين . .

عدد آياتها : أربع آيات . .

عدد كلماتها : تسع عشرة كلمة . .

عدد حروفها : ثلاثة وسبعون حرفا . .

مناسبتها لما قبلها

أشارت سورة « الفيل » إلى هذه المنّة العظيمة التي امتن بها اللّه سبحانه وتعالى على « قريش » إذ دفع عن بلدهم الحرام ، وعن بيته الحرام هذا المكروه ، وردّ عنهم هذا البلاء ، وأخذ المعتدى على حرمة هذا البيت أخذ عزيز مقتدر . . وبهذا وجدت قريش فى هذا البلد أمنها ، ووجدت فى جوار البيت الحرام حماها ، وصار لها فى قلوب العرب

مكانة عالية، وقدر عظيم، لا يستطيع أحد أن يحدّث نفسه بسوء ينال به أحدا من أهل هذا البلد الحرام، وقد رأى ما صنع اللّه بمن أراد به أو بأهله سوءا . .

وجاءت سورة «قريش» بعد هذا، وكأنها تعقيب على حادثة الفيل، ونتيجة لازمة من نتائج هذه الحادثة . . ولهذا وصل كثير من العلماء هذه السورة بسورة الفيل، وجعل اللام فى قوله تعالى: «لِإِيلافِ قُرَيْشٍ» لام تعليل، متعلقا بقوله تعالى «فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ» .

. أي جعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش . . كما سنرى ذلك بعد . .

(148/832)

بسم اللّه الرحمن الرّحيم

الآيات: (1 - 4) [سورة قريش (106) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (3)

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)

التفسير:

الإيلاف : من التأليف ، والجمع ، فى تجانس وألفة ، ومودة . .

فقوله تعالى : « لِإِيلافِ قُرَيْشٍ » أي لأجل أن تألف قريش رحلة الشتاء والصيف ، ولكى تعتاد تنظيم حياتها على هاتين الرحلتين. كان هذا الذي صنعه اللّه بهذا العدوّ صاحب الفيل ، الذي جاء يبغى إزعاجهم عن البلد الحرام ، ونزع ما فى القلوب من مكانة لهم ، وتعظيم لشأنهم ، باعتبارهم سدنة البيت الحرام الذي كانت تعظمه العرب ، وتعظم ساكنيه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنَّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالْبادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ » (25 : الحج) .

وقوله تعالى : « إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ » .

. هو بدل من قوله تعالى : « لِإِيلافِ قُرَيْشٍ » .

. أي لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، كان هذا الذي فعلناه بهذا العدو المغير الذي جاء يزعج أهل هذا البلد الآمن . . فكانوا فى رحلتيهم التجاريتين ، فى الشتاء والصيف ، فى أمن وسلام ، لا يعرض لهم أحد «

بسوء ، فحيث نزلوا وجدوا الألفة والمودة من كل من يلقاهم ، ويعرف أنهم أهل هذا البلد الحرام . .

فقوله تعالى : « رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ » مفعول به للمصدر « إيلافهم » .

وقد كان لقريش رحلتان للتجارة . . رحلة فى الشتاء ، إلى اليمين ، ورحلة فى الصيف ، إلى الشام . .

والذي يعرف الحياة الجاهلية ، وما كان يعرض للمسافرين فى طرقها وشعابها من أخطار ، وما يترصدهم على طريقهم من المغيرين وقطاع الطرق ، يدرك قيمة هذا الأمن الذي كان يصحب قريشا فى قوافلها المتجهة إلى اليمن أو الشام ، محملة بالأمتعة ، والبضائع ، دون أن يعرض لها أحد . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » (67 : العنكبوت) ولهذا جاء قوله تعالى : « فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ » .جاء تعقيبا على هذه النعمة العظيمة التي أنعمها اللّه على قريش ، وجعل من حقّ شكرها أن يعبدوا رب هذا البيت ، فهو .سبحانه .الذي حفظه لهم مما كان يراد به من سوء ، وحفظ عليهم أمنهم وسلامتهم فيه . . فلقد أطعمهم اللّه سبحانه من جوع ، بما فتح لهم من طرق آمنة يغدون فيها ويروحون بتجاراتهم ، وألبسهم لباس الأمن حيث كانوا ، داخل هذا البلد الحرام أو خارجه . . وإنه لا أجلّ من نعمة الأمن بجده الإنسان وسط غابة ، تزأر فيها الأسود ،

وتعوى الذئاب ! وفى إضافة البيت إلى الله سبحانه وتعالى ، تشريف لهذا البيت ، ورفع لقدره وتنويه به . .

فالله سبحانه وتعالى ، هو رب هذا البيت ، ورب كل شىء فى هذا الوجود ، ولكن إضافة هذا البيت وحده إلى ربوبيته سبحانه وتعالى ، تجعل لهذا البيت

(150/832)

شأنا غير شأن عوالم المخلوقات كلها . . فهل يعرف المشركون قدر هذا البيت ؟ وهل يحفظون حرمته ، ويرعونها حق رعايتها ؟

وقد أشرنا من قبل - فى تفسير سورة القدر - إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يضف إلى ذاته سبحانه فى مقام القسم - من عالم البشر غير النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن هذه الإضافة ، تضع النبي - صلوات الله وسلامه عليه - فى كفة ، وعالم المخلوقات كلها فى كفة ، وأن كفته ترجح كفة المخلوقات جميعها ، فى سمائها وأرضها ، وما فى سمائها وأرضها .

ونقول هنا ، إن الله سبحانه لم يضف إلى ذاته الكريمة - فى مقام الربوبية - بيتا ، غير هذا البيت الحرام . . «رَبَّ هذَا الْبَيْتِ»

. . وهذا يعنى أن هذا البيت ، يرجح فى ميزانه بيوت اللّه جميعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1683.1680 ﴾

(151/832)

وقال ابن عاشور :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) ﴾

افتتاح مُبدع إذ كان بمجرور بلام التعليل وليس بإثْره بالقرب ما يصلح للتعليق به ففيه تشويق إلى متعلق هذا المجرور .

وزاده الطول تشويقاً إذ فصل بينه وبين متعلَّقه (بالفتح) بخمس كلمات ، فيتعلق ﴿ لإيلاف ﴾ بقوله : ﴿ فليعبدوا ﴾ .

وتقديم هذا المجرور للاهتمام به إذ هو من أسباب أمرهم بعبادة الله التي أعرضوا عنها بعبادة الأصنام والمجرور متعلق بفعل "ليعبدوا" .

وأصل نظم الكلام : لتَعْبُدْ قريشٌ ربَّ هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فلما اقتضى قصدُ الاهتمام بالمعمول تقديمه على عامله ، تولَّدَ من تقديمه معنى جعله شرطاً لعامله فاقترن عامله بالفاء التي هي من شأن جواب

الشرط، فالفاء الداخلة في قوله: ﴿ فليعبدوا ﴾ مؤذنة بأن ما قبلها في قوة الشرط، أي مؤذنة بأن تقديم المعمول مقصود به اهتمام خاص وعناية قوية هي عناية المشترط بشرطه، وتعليق بقية كلامه عليه لما ينتظره من جوابه، وهذا أسلوب من الإِيجاز بديع.

قال في "الكشاف": دخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط لأن المعنى إمَّا لاَ فليعبدوه لإِيلافهم، أي أن نعم الله عليهم لا تحصى فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة أ هـ.

وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿ وربك فكبر ﴾ [المدثر: 3] دخلت الفاء لمعنى الشرط كأنه قيل: وما كان فلا تَدَعْ تكبيره أ هـ.

وهو معنى ما في "الكشاف".

وسكتا عن منشإ حصول معنى الشرط وذلك أن مثل هذا جار عند تقديم الجار والمجرور، ونحوه من متعلقات الفعل وانظر قوله تعالى: ﴿ وإياي فارهبون ﴾ في سورة البقرة (40)، ومنه قوله تعالى: ﴿ فبذلك فليفرحوا ﴾ في سورة يونس (58) وقوله: ﴿ فلذلك فادع واستقم ﴾ في سورة الشورى (15).

وقول النبي للذي سأله عن الجهاد فقال له: ألك أبوان؟ فقال: نعم.

قال: ففيهما فجاهدْ.

ويجوز أن تجعل اللام متعلقة بفعل (اعْجَبوا) محذوفاً ينبىء عنه اللام لكثرة وقوع مجرور بها بعد مادة التعجب ، يقال : عجباً لك ، وعجباً لتلك قضية ، ومنه قول امرىء القيس : فيا لَكَ من ليل لأن حرف النداء مراد به التعجب فتكون الفاء في قوله : فليعبدوا ﴾ تفريعاً على التعجيب .

وجوّز الفراء وابن إسحاق في "السيرة" أن يكون ﴿ لإيلاف قريش ﴾ متعلقاً بما في سورة الفيل (5) من قوله : ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ قال القرطبي : وهو معنى قول مجاهد ورواية ابن جبير عن ابن عباس .

قال الزمخشري : وهذا بمنزلة التضمين في الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقاً لا يصح إلاّ به اه .

يعنون أن هذه السورة وإن كانت سورة مستقلة فهي ملحقة بسورة الفيل فكما تُلحق الآية بآية نزلت قبلها ، تلحق آيات هي سورة فتتعلق بسورة نزلت قبلها .

والإِيلاف : مصدر آألف بهمزتين بمعنى ألف وهما لغتان ، والأصل هو ألف ، وصيغة الإفعال فيه للمبالغة لأن أصلها أن تدل على حصول الفعل من الجانبين ، فصارت تستعمل في إفادة قوة الفعل مجازاً ، ثم شاع ذلك في بعض الأفعال حتى ساوى الحقيقة مثل سَافَر ، وعافَاه الله ، وقاتَلَهُم الله .

وقرأه الجمهور في الموضعين لإيلاف ﴾ بياء بعد الهمزة وهي تخفيف للهمزة الثانية .

وقرأ ابن عامر "لإلاف" الأول بحذف الياء التي أصلها همزة ثانية ، وقرأه ﴿ إيلافهم ﴾ بإثبات الياء مثل الجمهور .

وقرأ أبو جعفر "لِيلاَف قريش" بحذف الهمزة الأولى .

وقرأ "إلافهم" بهمزة مكسورة من غير ياء .

وذكر ابن عطية والقرطبي أن أبا بكر عن عاصم قرأ بتحقيق الهمزتين في "لإِأْلاَفِ" وفي "إِأْلافهم" ، وذكر ابن عطية عن أبي علي الفارسي أن تحقيق الهمزتين لا وجه له .

قلت : لا يوجد في كتب القراءات التي عرفناها نسبة هذه القراءة إلى أبي بكر عن عاصم .

والمعروف أن عاصماً موافق للجمهور في جعل ثانية الهمزتين ياء ، فهذه رواية ضعيفة عن أبي بكر عن عاصم .

(153/832)

وقد كُتب في المصحف "إلافهم" بدون ياء بعد الهمزة وأما الألف المدّة التي بعد اللام التي هي عين الكلمة فلم تكتب في الكلمتين في المصحف على عادة أكثر المدّات مثلها ، والقراءات روايات وليس خط المصحف إلا كالتذكرة للقارىء ، ورسم المصحف سُنّة

متَّبعة سنَّها الصحابة الذين عُيِّنوا لنسخ المصاحف وإضافة "إيلاف" إلى ﴿ قريش ﴾ على معنى إضافة المصدر إلى فاعله وحذف مفعوله لأنه هنا أطلق بالمعنى الاسمي لتلك العادة فهي إضافة معنوية بتقدير اللام .

وقريش : لقب الجد الذي يجمع بطوناً كثيرة وهو فهر بن مالك بن النضر بن كِنانة .

هذا قول جمهور النّسابين وما فوق فِهر فهم من كنانة ، ولُقِّب فهرٌ بلقب قريش بصيغة التصغير وهو على الصحيح تصغير قَرْش (بفتح القاف وسكون الراء وشين معجمة) اسم نوع من الحوت قوي يعدو على الحيتان وعلى السفن .

وقال بعض النسابين : إن قريشاً لقب النضر بن كنانة .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم "أنه سئل منْ قريشٌ ؟ فقال : مَنْ وَلَدَ النضْرُ" .

وفي رواية أنه قال : "إنّا وَلَدُ النضر بن كنانة لا نقفو أمّنا ولا ننتفي من أبينا " .

فجميع أهل مكة هم قريش وفيهم كانت مناصب أهل مكة في الجاهلية موزعة بينهم وكانت بنو كنانة بخِيف منى .

ولهم مناصب في أعمال الحج خاصة منها النَّسِيء .

وقوله : ﴿ إيلافهم ﴾ عطف بيان من "إيلاف قريش" وهو من أسلوب الإجمال ، فالتفصيل للعناية بالخبر ليتمكن في ذهن السامع ومنه قوله تعالى : ﴿ لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات ﴾ [غافر : 36] حكاية لكلام فرعون ، وقول امرىء القيس :

ويومَ دخلتُ الخِدْرَ خِدرَ عُنَيْزَة . . .

والرحلة بكسر الراء : اسم للارتحال ، وهو المسير من مكان إلى آخر بعيد ، ولذلك سمي البعير الذي يسافَر عليه راحلة .

(154/832)

وإضافة رحلة إلى الشتاء من إضافة الفعل إلى زمانه الذي يقع فيه فقد يكون الفعل مستغرقاً لزمانه مثل قولك : سَهَر الليل ، وقد يكون وقتاً لابتدائه مثل صلاة الظهر ، وظاهر الإِضافة أن رحلة الشتاء والصيف معروفة معهودة ، وهما رحلتان .

فعطف ﴿ والصيف ﴾ على تقدير مضاف ، أي ورحلة الصيف ، لظهور أنه لا تكون رحلة واحدة تبتدأ في زمانين فتعين أنهما رحلتان في زمنين .

وجوز الزمخشري أن يكون لفظ ﴿ رحلة ﴾ المفرد مضافاً إلى شيئين لظهور المراد وأمن اللبس .

وقال أبو حيان : هذا عند سيبويه لا يجوز إلا في الضرورة .

و﴿ الشتاء ﴾ : اسم لفصل من السنة الشمسية المقسمة إلى أربعة فصول .

وفصل الشتاء تسعة وثمانون يوماً وبضع دقائق مبدؤها حلول الشمس في برج الجَدْي ،

ونهايتها خروج الشمس من بُرج الحوت ، وبروجه ثلاثة : الجَدْي ، والدَّلْوُ ، والحوت .

وفصل الشتاء مُدة البرد .

و ﴿ الصيف ﴾ : اسم لفصل من السنة الشمسية ، وهو زمن الحرّ ومدته ثلاثة وتسعون يوماً وبضع ساعات ، مبدؤها حلول الشمس في برج السَرَطان ونهايته خروج الشمس من برج السُّنْبُلَة ، وبروجه ثلاثة : السرطان ، والأسد ، والسنبلة .

قال ابن العربي : قال مالك : الشتاء نصف السنة والصيف نصفها ولم أزل أرى ربيعة ابن أبي عبد الرحمان ومن معه لا يخلعون عمائمهم حتى تطلع الثريا (يعني طلوع الثريا عند الفجر وذلك أول فصل الصيف) وهو اليوم التاسع عشر من (بشنس) وهو يوم خمسة وعشرين من عدد الروم أو الفرس أ هـ .

وشهر بشنس هو التاسع من أشهر السنة القبطية المجزأة إلى اثني عشر شهراً .

وشهر بشنس يبتدىء في اليوم السادس والعشرين من شهر نيسان (أبريل) وهو ثلاثون يوماً ينتهي يوم 25 من شهر (أيار مايه) .

وطلوع الثريا عند الفجر وهو يوم تسعة عشر من شهر بشنس من أشهر القبط .

قال أئمة اللغة : فالصيف عند العامة نصف السنة وهو ستة أشهر والشتاء نصف السنة وهو ستة أشهر .

والسنة بالتحقيق أربعة فصول : الصيف : ثلاثة أشهر ، وهو الذي يسميه أهل العراق وخراسان الربيع ، ويليه القَيْظ ثلاثة أشهر ، وهو شدة الحر ، ويليه الخريف ثلاثة أشهر ، ويليه الشتاء ثلاثة أشهر .

وهذه الآية صالحة للاصطلاحين .

واصطلاح علماء الميقات تقسيم السنة إلى ربيع وصيف وخريف وشتاء ، ومبدأ السنة الربيع هو دخول الشمس في بُرج الحَمَل ، وهاتان الرحلتان هما رحلتا تجارة ومِيرة كانت قريش تجهزهما في هذين الفصلين من السنة إحداهما في الشتاء إلى بلاد الحبشة ثم اليمن يبلغون بها بلاد حمير ، والأخرى في الصيف إلى الشام يبلغون بها مدينة بُصرى من بلاد الشام .

وكان الذين سنّ لهم هاتين الرحلتين هاشم بن عبد مناف ، وسبب ذلك أنهم كانوا تعتريهم خصاصة فإذا لم يجد أهل بيت طعاماً لقوتهم حمل ربُّ البيت عياله إلى موضع معروف فضرب عليهم خباء وبقوا فيه حتى يموتوا جوعاً ويسمى ذلك الاعتفار (بالعين المهملة وبالراء وقيل بالدال عوض الراء وبفاء) فحدث أن أهل بيت من بني مخزوم أصابتهم فاقة شديدة فهموا بالاعتفار فبلغ خبرهم هاشماً لأن أحد أبنائهم كان تِرباً لأسد بن هاشم ، فقام هاشم خطيباً في قريش وقال : إنكم أحدثتم حدثاً تِقلون فيه وتكثر العرب وتذلون

وتعزّ العرب وأنتم أهل حرم الله والناس لكم تُبّع ويكاد هذا الاعتقار يأتي عليكم ، ثم جمع كل بني أب على رحلتين للتجارات فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير من عشيرته حتى صار فقيرهم كغنيهم ، وفيه يقول مطرود الخزاعي :

يا أيها الرجُلُ المحوِّل رَحْله . . .

هلا نزلتَ بآل عبد مناف

الآخذون العُهد من آفاقها . . .

والراحلون لرِحلة الإِيلاف

والخالطون غنِيّهم بفقيرهم . . .

حتى يصير فقيرهم كالكافي

ولم تزل الرحلتان من إيلاف قريش حتى جاء الإِسلام وهم على ذلك .

(156/832)

والمعروف المشهور أن الذي سنّ الإِيلاف هو هاشم ، وهو المروي عن ابن عباس ، وذكر ابن العربي عن الهروي : أن أصحاب الإِيلاف هاشم ، وإخوته الثلاثة الآخرون عبدُ شمس ، والمطلب ، ونوفل ، وأن كان واحد منهم أخذ حبلاً ، أي عهداً من أحد الملوك الذين

يمرون في تجارتهم على بلادهم وهم مَلِك الشام ، وملك الحَبشة ، وملك اليمن ، ومَلِك فارس ، فأخذ هاشم هذا من ملك الشام وهو ملك الروم ، وأخذ عبد شمس من نجاشي الحبشة وأخذ المطلب من ملك اليمن وأخذ نوفل من كسرى ملك فارس ، فكانوا يجعلون جُعلاً لرؤساء القبائل وسادات العشائر يسمى الإيلاف أيضاً يعطونهم شيئاً من الربح ويحملون إليهم متاعاً ويسوقون إليهم إبلاً مع إبلهم ليكفوهم مؤونة الأسفار وهم يكفون قريش دفع الأعداء فاجتمع لهم بذلك أمن الطريق كله إلى اليمن وإلى الشام وكانوا يسمَّوْن المُجِيرين .

وقد توهم النقاش من هذا أن لكل واحد من هؤلاء الأربعة رحلة فزعم أن الرِحَل كانت أربعاً ، قال ابن عطية : وهذا قول مردود ، وصدق ابن عطية ، فإن كون أصحاب العهد الذي كان به الإيلاف أربعة لا يقتضي أن تكون الرحلات أربعاً ، فإن ذلك لم يقله أحد ، ولعل هؤلاء الأخوة كانوا يتداولون السفر مع الرحلات على التناوب لأنهم المعروفون عند القبائل التي تمر عليهم العِير ، أو لأنهم توارثوا ذلك بعد موت هاشم فكانت تضاف العِير إلى أحدهم كما أضافوا العير التي تَعرّض المسلمون لها يوم بدر عيرَ أبي سفيان إذ هو يومئذ سيد أهل الوادي بمكة .

ومعنى الآية تذكير قريش بنعمة الله عليهم إذ يسر لهم ما لم يتأت لغيرهم من العرب من الأمن من عدوان المعتدين وغارات المغيرين في السنة كلها بما يسر لهم من بناء الكعبة وشرعة

الحج وأن جعلهم عمار المسجد الحرام وجعل لهم مهابة وحرمة في نفوس العرب كلهم في الأشهر الحرم وفي غيرها .

وعند القبائل التي تحرِّم الأشهر الحُرم والقبائلِ التي لا تحرّمها مثل طيء وقضاعة وخثعم ، فتيسرت لهم الأسفار في بلاد العرب من جنوبها إلى شمالها ، ولاذ بهم أصحاب الحاجات يسافرون معهم ، وأصحاب التجارات يحمِّلونهم سلعهم ، وصارت مكة وسطاً تُجلب إليها السلع من جميع البلاد العربية فتوزع إلى طالبيها في بقية البلاد ، فاستغنى أهل مكة بالتجارة إذ لم يكونوا أهل زرع ولا ضرع إذ كانوا بوادٍ غير ذي زرع وكانوا يجلبون أقواتهم فيجلبون من بلاد اليمن الحبوب من بُرّ وشعير وذُرة وزبيب وأديم وثياب والسيوف اليمانية ، ومن بلاد الشام الحبوب والتمر والزيت والزبيب والثياب والسيوف المشرفية ، زيادة على ما جعل لهم مع معظم العرب من الأشهر الحرم ، وما أقيم لهم من مواسم الحج وأسواقه كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ .

فذلك وجه تعليل الأمر بتوحيدهم الله بخصوص نعمة هذا الإِيلاف مع أن الله عليهم نعماً كثيرة لأن هذا الإِيلاف كان سبباً جامعاً لأهم النعم التي بها قوام بقائهم .

وقد تقدم آنفاً الكلام على معنى الفاء من قوله : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ على الوجوه كلها .

والعبادة التي أُمروا بها عبادة الله وحده دون إشراك الشركاء معه في العبادة لأن إشراك من لا يستحق العبادة مع الله الذي هو الحقيق بها ليس بعبادة أو لأنهم شُغلوا بعبادة الأصنام عن عبادة الله فلا يذكرون الله إلا في أيام الحج في التلبية على أنهم قد زاد بعضهم فيها بعد قولهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تَمِلكُه ومَا مَلَك .

وتعريف ﴿ رب ﴾ بالإضافة إلى ﴿ هذا البيت ﴾ دون أن يقال : فليعبدوا الله لما يومىء إليه لفظ ﴿ رب ﴾ من استحقاقه الإِفراد بالعبادة دون شريك .

(158/832)

وأوثر إضافة ﴿ رب ﴾ إلى ﴿ هذا البيت ﴾ دون أن يقال : ربهم للإِيماء إلى أن البيت هو أصل نعمة الإِيلاف بأن أمر إبراهيم ببناء البيت الحرام فكان سبباً لرفعة شأنهم بين العرب قال تعالى : ﴿ جعل اللَّه الكعبة البيت الحرام قياماً للناس ﴾ [المائدة : 97]

وذلك إدماج للتنويه بشأن البيت الحرام وفضله .

والبيت معهود عند المخاطبين .

والإشارة إليه لأنه بذلك العهد كان كالحاضر في مقام الكلام على أن البيت بهذا التعريف باللام صار علماً بالغلبة على الكعبة ، و"رب البيت" هو الله والعرب يعترفون بذلك .

وأجري وصف الرب بطريقة الموصول ﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ لما يؤذن به من التعليل للأمر بعبادة رب البيت الحرام بعلة أخرى زيادة على نعمة تيسير التجارة لهم ، وذلك مما جعلهم أهل ثراء ، وهما نعمة إطعامهم وأمنهم .

وهذا إشارة إلى ما يُسّر لهم من ورود سفن الحبشة في البحر إلى جدة تحمل الطعام ليبيعوه هناك .

فكانت قريش يخرجون إلى جدة بالإبل والحمر فيشترون الطعام على مسيرة ليلتين .

وكان أهل تبالة وجُرَش من بلاد اليمن المخصبة يحملون الطعام على الإبل إلى مكة فيباع الطعام في مكة فكانوا في سعة من العيش بوفر الطعام في بلادهم ، وكذلك يسر لهم إقامة الأسواق حول مكة في أشهر الحج وهي سوق مجنَّة ، وسوق ذي المَجاز ، وسوق عُكاظ ، فتأتيهم فيها الأرزاق ويتسع العيش ، وإشارة إلى ما ألقي في نفوس العرب من حرمة مكة وأهلها فلا يريدهم أحد بتخويف .

وتلك دعوة إبراهيم عليه السلام إذ قال : ﴿ رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات ﴾ [البقرة : 136] فلم يتخلف ذلك عنهم إلا حين دعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم بدعوته : " اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف " فأصابتهم مجاعة وقحط

سبع سنين وذلك أوّل الهجرة .

و ﴿ مِن ﴾ الداخلة على ﴿ جوع ﴾ وعلى ﴿ خوف ﴾ معناها البدلية ، أي أطعمهم بدلاً من الجوع وآمنهم بدلاً من الخوف .

(159/832)

ومعنى البدلية هو أن حالة بلادهم تقتضي أن يكون أهلها في جوع فإطعامُهم بدلٌ من الجوع الذي تقتضيه البلاد ، وأن حالتهم في قلة العدد وكونهم أهل حضر وليسوا أهل بأس ولا فروسية ولا شكّة سلاح تقتضي أن يكونوا معرضين لغارات القبائل فجعل الله لهم الأمن في الحرم عوضاً عن الخوف الذي تقتضيه قلتهم قال تعالى : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ﴾ [العنكبوت : 67] .

وتنكير ﴿ جوع ﴾ و ﴿ خوف ﴾ للنوعية لا للتعظيم إذ لم يحلّ بهم جوع وخوف من قبلُ ، قال مساور بن هند في هجاء بني أسد :

زعمتم أن إخوتكم قريش . . .

لهم إلْفٌ وليس لكم إلاَف

أولئك أُومِنوا جُوعاً وخَوفاً . . .

وقد جاعت بنو أسد وخافوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(160/832)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة قريش

استجاب الله دعوة خليله إبراهيم ، وهو يتوجه إليه عقب بناء البيت وتطهيره : (رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات) . . فجعل هذا البيت آمنا ، وجعله عتيقا من سلطة المتسلطين وجبروت الجبارين ؛ وجعل من يأوي إليه آمنا والمخافة من حوله في كل مكان . . حتى حين انحرف الناس وأشركوا بربهم وعبدوا معه الأصنام . . لأمر يريده سبحانه بهذا البيت الحرام .

ولما توجه أصحاب الفيل لهدمه كان من أمرهم ما كان ، مما فصلته سورة الفيل . وحفظ الله للبيت أمنه ، وصان حرمته ؛ وكان من حوله كما قال الله فيهم : (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ?) .

وقد كان لحادث الفيل أثر مضاعف في زيادة حرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة

, وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش , مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين , حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية , وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة - عن طريق القوافل - إلى اليمن في الجنوب , وإلى الشام في الشمال . وإلى تنظيم رحلتين تجاريتين ضخمتين : إحداهما إلى اليمن في الشتاء , والثانية إلى الشام في الصيف . ومع ما كانت عليه حالة الأمن في شعاب الجزيرة من سوء ; وعلى ما كان شائعا من غارات السلب والنهب , فإن حرمة البيت في أنحاء الجزيرة قد كفلت لجيرته الأمن والسلامة في هذه التجارة المغرية , وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة ; وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول , في أمان وسلام وطمأنينة . وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الرابحتين , فصارتا لهم عادة وإلفا !

(161/832)

هذه هي المنة التي يذكرهم الله بها - بعد البعثة - كما ذكرهم منة حادث الفيل في السورة السابقة , منة إيلافهم رحلتي الشتاء والصيف , ومنة الرزق الذي أفاضه عليهم بهاتين الرحلتين - وبلادهم قفرة جفرة وهم طاعمون هانئون من فضل الله . ومنة أمنهم الخوف . سواء في عقر دارهم بجوار بيت الله , أم في أسفارهم وترحالهم في رعاية حرمة البيت التي

فرضها الله وحرسها من كل اعتداء .

يذكرهم بهذه المنن ليستحيوا مما هم فيه من عبادة غير الله معه ; وهو رب هذا البيت الذي يعيشون في جواره آمنين طاعمين ; ويسيرون باسمه مرعيين ويعودون سالمين . .

يقول لهم : من أجل إيلاف قريش : رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي كفل لهم الأمن فجعل نفوسهم تألف الرحلة , وتنال من ورائها ما تنال (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع) . . وكان الأصل - بحسب حالة أرضهم - أن يجوعوا , فأطعمهم الله وأشبعهم من هذا الجوع (وآمنهم من خوف) . . وكان الأصل - بحسب ما هم فيه من ضعف وبحسب حالة البيئة من حولهم - أن يكونوا في خوف فآمنهم من هذا الخوف !

وهو تذكير يستجيش الحياء في النفوس . ويثير الخجل في القلوب . وما كانت قريش تجهل قيمة البيت وأثر حرمته في حياتها . وما كانت في ساعة الشدة والكربة تلجأ إلا إلى رب هذا البيت وحده . وها هو ذا عبد المطلب لا يواجه أبرهة بجيش ولا قوة . إنما يواجهه برب هذا البيت الذي يتولى حماية بيته ! لم يواجهه بصنم ولا وثن , ولم يقل له . . إن الآلهة ستحمي بيتها . إنما قال له : "أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه" . . ولكن انحراف الجاهلية لا يقف عند منطق , ولا يثوب إلى حق , ولا يرجع إلى معقول .

وهذه السورة تبدو امتدادا لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها . وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة , والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة قريش تسع سور . ولكن ترتيبهما في المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب . .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3982 . 3983 ﴾

(163/832)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) ﴾

اختلف في اللام في لإيلاف قريش ، هل هي متعلقة بما قبلها ، وعلى أي معنى . أم متعلقة بما بعدها ، وعلى أي معنى .

فمن قال : متعلقة بما قبلها ، قال متعلقة بجعل في قوله : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ [الفيل : 5] .

وتكون بمعنى لأجل إيلاف قريش يدوم لهم ويبقى تعظيم العرب إياهم ، لأنهم أهل حرم الله ، أو بمعنى إلى أي جعلنا العدو كعصف مأكول ، هزيمة له ونصرة لقريش نعمة عليهم ، إلى نعمة

إيلافهم رحلة الشتاء والصيف .

ومن قال : متعلقة بما بعدها ، قال لإيلاف قريش إيلافهم الذي ألفوه أي بمثابة التقرير له ، ورتب عليه ، فليعبدوا رب هذا البيت . أي أثبته إليهم وحفظه لهم .

وهذا القول الأخير هو اختيار ابن جرير ، ورواه ابن عباس ، ورد جواز القول الأوّل ، لأنه يلزمه فصل السورتين عن بعض .

وقيل : إنها للتعجب ، أي أعجبوا لإيلاف قريش ، حكاه القرطبي عن الكسائي والأخفش ، والقول الأول لغيره .

وروي أيضاً عن ابن عباس وغيره ، واستدلوا بقراءة السورتين معاً في الصلاة في ركعة قرأ بهما عمر بن الخطاب ، وبأي السورتين في أُبي بن كعب متصلتان ، ولا فصل بينهما .

وحكى القرطبي القولين ، ولم يرجح أحدهما ، ولا يبعد اعتبار الوجهين لأنه لا يعارض بعضها بعضاً .

وما اعترض به ابن جرير بأنه يلزم عليه اتصال السورتين فليس بلازم ، لأنه إن أراد اتصالهما في المعنى ، فالقرآن كله متصلة سورة معنى .

ألا ترى إلى فاتحة الكتاب وفيها ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [الفاتحة : 6] ، فجاءت سورة البقرة : ﴿ ذَٰلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : 2] ، وبعدها ذكر أوصافهم وقال : ﴿ أولئك على هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة : 5] ، فأي أرتباط أقوى من هذا ، كأنه يقول : الهدى الذي تطلبونه في هذا الكتاب فهو هدى للمتقين ، وإن أراد اتصالاً حساً بعدم البسملة ، فنظيرها سورة براءة مع الأنفال ، ولكن لا حاجة إلى ذلك ، لأن إجماع القراء على إقبات البسملة بينهما ، اللهم إلا مصحف أُبي بن كعب ، وليس في هذين الوجهين وجه أرجح من وجه .

ولذا لم يرجع بينهما أحد من المفسرين ، سوى ابن جرير رحمه الله :

وصحة الوجهين أقوى وأعم في الامتنان وتعداد النعم .

والإيلاف : قيل من التأليف ، إذ كانوا في رحلتيهم يألفون الملوك في الشام واليمن ، أو كانوا هم في أنفسهم مؤلفين ومجمعين ، وهو امتنان عليهم بهذا التجمع والتألف ، ولو سلط عليهم لفرقهم وشتتهم ، وأنشدوا :

أبونا قصي كان يدعي مجمعاً . . . به جمع الله القبائل من فهر

وقيل : من الألف والتعود ، أي ألفوا الرحلتين .

فللإبقاء لهم على ما ألفوه وقريش قال أبو حيان : علم على القبلية .

وقيل : أصلها من النقرش ، وهو الاجتماع أو التكسب والجمع .

وقيل : من دابة البحر المسماة بالقرش وهي أخطر حيواناته ، وهو مروي عن ابن عباس في جوابه لمعاوية .

وأنشد في قول الشاعر :

وقريش هي التي تسكن الب . . . بحر بها سميت قريش قريشا

تأكل الرث والسمين ولا تترك . . . فيها لذي جناحين ريشا

هكذا في البلاد حي قريش . . . يأكلون البلاد أكلاً كميشا

ولهم آخر الزمان نبي . . . يكثر القتل فيهم والخموشا

وقوله تعالى : ﴿ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ والصيف ﴾ ، هو تفسير لإيلاف سواء على ما كانوا يؤالفون بين الملوك في تلك الرحلات ، أو ما كانوا يألفونه فيهما .

(165/832)

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)

المراد بالبيت : البيت الحرام ، كما جاء في دعوة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ﴿ رَّبَّنَآ إني أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم ﴾ [إبراهيم : 37] .

وقوله تعالى : ﴿ الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ .

بمثابة التعليل لموجب أمرهم بالعبادة ، لأنه سبحانه الذي هيأ لهم هاتين الرحلتين اللتين كانتا سبباً في تلك النعم عليهم ، فكان من واجلهم أن يشكروه على نعمه ويعبدوه وحده .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان هذا المعنى ، عند قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النّاس مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ [العنكبوت : 67] وساق النصوص بهذا المعنى بما أغنى عن إعادته .

تنبيه

في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ ، ربط بين النعمة وموجبها ، كالربط بين السبب والمسبب .

ففيه بيان لموجب عبادة الله تعالى وحده ، وحقه في ذلك على عباده جميعاً ، وليس خاصاً بقريش . وهذا الحق قرره أول لفظ في القرآن ، وأول نداء في المصحف ، فالأول قوله تعالى : ﴿ الحمد للهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] ، كأنه يقول هو سبحانه مستحق للحمد ، لأنه رب العالمين ، أي خالقهم ورازقهم ، وراحمهم إلى آخره .

والثاني : ﴿ يَاأَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة : 21] .

ثم بين الموجب بقوله : ﴿ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : 21] .

ثم عدد عليهم نعمه بقوله : ﴿ الذي جَعَلَ لكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 22] .

(166/832)

فهذه النعم تعادل الإطعام من جوع ، والأمن من خوف ، في حق قريش ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ [الكوثر : 1-2] .

وقد بين تعالى أن الشكر يزيد النعم والكفر يذهبها ، إلا ما كان استدراجاً ، فقال في شكر النعمة : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : 7] .

وقال في الكفران وعواقبه : ﴿ وَضَرَبَ الله مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الجوع والخوف بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : 112] .

وبهذه المناسبة إن على كل مسلم أفراداً من خوف ، نعمة عظمى لأن الإنسان لا ينعم ولا يسعد إلا بتحصيل النعمتين هاتين معاً ، إذ لا عيش مع الجوع ، ولا أمن مع الخوف ، وتكمل النعمة باجتماعهما .

ولذا جاء الحديث " من أصبح معافى بدنه آمناً في سربه عنده قوت يومه ، فقد اجتمعت

عنده الدنيا بحذافيرها " .

تنبيه آخر

إن في هذه السورة دليلاً على أن دعوة الأنبياء مستجابة ، لأن الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام دعا لأهل الحرام بقوله : ﴿ فاجعل أَفْئِدَةً مِّنَ الناس تهوي إِلَيْهِمْ وارزقهم مِّنَ الثمرات ﴾ [إبراهيم : 37] .

وقال : ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ [البقرة : 129] ، فأطعمهم الله من جوع وآمنهم من خوف ، وبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليه آياته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

(167/832)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت ﴿ لإِيلاف قريش ﴾ بمكة .

وأخرج البخاري في تاريخه والحاكم وصححه والطبراني وابن مردويه والبيهقي في

الخلافيات عن أم هانئ بنت أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : " فضل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطها أحداً قبلهم ، ولا يعطيها أحداً بعدهم : إني فيهم وفي لفظ النبوّة فيهم ، والخلافة فيهم ، والحجابة فيهم ، والسقاية فيهم ، ونصروا على الفيل ، وعبدوا الله سبع سنين ، وفي لفظ عشر سنين لم يعبده أحد غيرهم ، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ " .

وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه وابن عساكر عن الزبير بن العوّام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فضل الله قريشاً بسبع خصال . فضلهم بأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قريش ، وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون ، وفضلهم بأنه نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين غيرهم وهي ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ وفضلهم بأن فيهم النبوّة والخلافة والحجابة والسقاية " .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله فضل قريشاً بسبع خصال : أنا منهم ، وأن الله أنزل فيهم سورة كاملة من كتابه لم يذكر فيها أحداً غيرهم ، وأنهم عبدوا الله عشر سنين لا يعبده أحد غيرهم ، وأن الله نصرهم يوم الفيل ، وأن الخلافة والسقاية والسدانة فيهم " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر عن إبراهيم قال : صلى عمر بن

الخطاب بالناس بمكة عند البيت فقرأ ﴿ لِإِيلاف قريش ﴾ قال : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ وجعل يومىء بأصبعه إلى الكعبة وهو في الصلاة .

(168/832)

وأخرج الفريابي وابن جرير والطبراني والحاكم وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ويل أمكم يا قريش ﴿ لِإِيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ " .

وأخرج أحمد وابن أبي حاتم عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " ﴿ لِإِيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ ويحكم يا قريش اعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف " .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة أنه كان يقرأ : " لِإِيلاف قريش الفهم رحلة الشتاء والصيف " .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة أنه كان يعيب ﴿ لِإِيلاف قريش ﴾ ويقول انما هي لتألف قريش ، وكانوا يرحلون في الشتاء والصيف إلى الروم والشام ، فأمرهم الله أن يألفوا عبادة رب هذا البيت .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله : ﴿ لإِيلاف قريش ﴾ قال : نعمتي على قريش ﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ قال : كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ قال : الكعبة ﴿ الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ قال : الجذام .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ لإِيلاف قريش ﴾ قال : نعمتي على قريش ﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ قال : إيلافهم ذلك فلا يشق عليهم رحلة شتاء ولا صيف ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ قال : من كل عدوّ في حرمهم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لإِيلاف قريش إيلافهم ﴾ يقول لزومهم ﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ يعني قريشاً أهل مكة بدعوة إبراهيم حيث قال : ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ [ابراهيم : 37] ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ حيث قال ابراهيم : ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ [ابراهيم : 35] .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد أنه سئل عن قوله : ﴿ لإِيلاف قريش ﴾ فقرأ ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ إلى آخر السورة . قال : هذا لإِيلاف قريش صنعت هذا بهم

لألفة قريش لئلا أفرق إلفهم وجماعتهم إنما جاء صاحب الفيل يستبيد حرمهم فصنع الله ذلك بهم .

(170/832)

وأخرج ابن الزبير بن بكار في الموفقيات عن عمر بن عبد العزيز قال : كانت قريش في الجاهلية تحتفد ، وكان احتفادها أن أهل البيت منه كانوا إذا سافت يعني هلكت أموالهم خرجوا إلى براز من الأرض فضربوا على أنفسهم الأخبية ثم تناوبوا فيها حتى يموتوا من قبل أن يعلم بخلتهم ، حتى نشأ هاشم بن عبد مناف ، فلما نبل وعظم قدره في قومه قال : يا معشر قريش إن العز مع الكثرة ، وقد أصبحتم أكثر العرب أموالاً وأعزهم نفراً ، وإن هذا الإحتفاد قد أتى على كثير منكم ، وقد رأيت رأياً . قالوا : رأيك راشد فمرنا نأتمر . قال : رأيت أن أخلط فقراءكم بأغنيائكم فأعمد إلى رجل غني فأضم إليه فقيراً عياله بعدد عياله ، فيكون يوازره في الرحلتين رحلة الصيف إلى الشام ورحلة الشتاء إلى اليمن ، فما كان في مال الغني من فضل عاش الفقير وعياله في ظله ، وكان ذلك قطعاً للاحتفاد قالوا : نعم ، ما رأيت فألف بين الناس . فلما كان من أمر الفيل وأصحابه ما كان وأنزل الله ما أنزل وكان ذلك مفتاح النبوة وأول عز قريش حتى أهابهم الناس كلهم وقالوا أهل الله والله معهم ،

وكان مولد النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك العام ، فلما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم كان فيما أنزل الله عليه يعرف قومه وما صنع إليهم وما نصرهم من الفيل وأهله ﴿ ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل ﴾ [الفيل : 1] إلى آخر السورة ثم قال : ولم فعلت ذلك يا محمد بقومك وهم يومئذ أهل عبادة أوثان فقال لهم : ﴿ لإِيلاف قريش ﴾ إلى آخر السورة أي لتراحمهم وتواصلهم ، وكانوا على شرك ، وكان الذي آمنهم منه من الخوف خوف الفيل وأصحابه واطعامهم إياهم من الجوع من جوع الاحتفاد .

(171/832)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ لإِيلاف قريش ﴾ الآية ، قال : نهاهم عن الرحلة ، وأمرهم أن يعبدوا رب هذا البيت ، وكفاهم المؤنة ، وكانت رحلتهم في الشتاء والصيف ، ولم يكن لهم راحة في شتاء ولا صيف ، فأطعمهم الله بعد ذلك من جوع وآمنهم من خوف فألفوا الرحلة ، وكان ذلك من نعمة الله عليهم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ لإِيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ قال : ألفوا ذلك فلا يشق عليهم .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ لإِيلاف

قريش ﴾ قال: عادة قريش رحلة في الشتاء ورحلة في الصيف، وفي قوله: ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ قال: كانوا يقولون: نحن من حرم الله فلا يعرض لهم أحد في الجاهلية يأمنون بذلك، وكان غيرهم من قبائل العرب إذا خرج أغير عليهم.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿ لِإِيلاف قريش ﴾ قال: كان أهل مكة يتعاورون البيت شتاء وصيفاً تجاراً آمنين لا يخافون شيئاً لحرمهم، وكانت العرب لا يقدرون على ذلك ولا يستطيعونه من الخوف، فذكرهم الله ما كانوا فيه من الأمن حتى إن كان الرجل منهم ليصاب في الحيّ من أحياء العرب فيقال حرمي. قال: ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أذل قريشاً أذله الله" وقال: "ارقبوني وقريشاً فإن ينصرني الله عليهم فالناس لهم تبع" فلما فتحت مكة أسرع الناس في الإِسلام فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الناس تبع لقريش في الخير والشر كفارهم تبع لكفارهم ومؤمنوهم تبع لمؤمنيهم".

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ لِإِيلاف قريش ﴾ الآية، قال: أمروا أن يألفوا عبادة رب هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف.

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر عن أبي صالح قال: علم الله حب قريش الشام فأمروا أن يألفوا عبادة رب هذا البيت كإيلافهم رحلة الشتاء والصيف.

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن أبي مالك في قوله : ﴿ لإِيلاف قريش ﴾ قال : كانوا يتجرون في الشتاء والصيف فألفتهم ذلك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : كانت قريش تتجر شتاء وصيفاً فتأخذ في الشتاء على طريق البحر وإيلة إلى فلسطين يلتمسون الدفء وأما الصيف فيأخذون قبل بصرى وأذرعات يلتمسون البرد فذلك قوله : ﴿ إيلافهم ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : كانت لهم رحلتان الصيف إلى الشام والشتاء إلى اليمن في التجارة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله : ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ قال : لا يخطفون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأعمش ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ قال : خوف الحبشة .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الضحاك ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ قال : من الجذام .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن أبي ريحانة العامري أن معاوية قال لابن عباس : لم سميت قريش قريشاً ؟ قال : بدابة تكون في البحر أعظم دوابه يقال لها القرش لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته . قال : فأنشدني في ذلك شيئاً فأنشده شعر الجمحي إذ يقول :

وقريش هي التي تسكن البحر . . . بها سميت قريش قريشا

تأكل الغث والسمين ولا تترك . . . منها لذي الجناحين ريشا

هكذا في البلاد حي قريش . . . يأكلون البلاد أكلاً كميشا

ولهم آخر الزمان نبي . . . يكثر القتل فيهم والخموشا

وأخرج ابن سعد عن سعيد بن محمد بن جبير بن مطعم أن عبد الملك بن مروان سأل محمد بن جبير متى سميت قريش قريشاً ؟ قال : حين اجتمعت إلى الحرم من تفرقها ، فذلك التجمع التقرش ، فقال عبد الملك ما سمعت هذا ، ولكن سمعت أن قصياً كان يقال له القرشي ولم تسم قريش قبله .

وأخرج ابن سعد عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال : لما نزل قصيّ الحرم وغلب عليه فعل أفعالاً جميلة فقيل له القرشي ، فهو أول من سمي به .

(173/832)

وأخرج أحمد عن قتادة بن النعمان أنه وقع بقريش فكأنه نال منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا قتادة لا تسبن قريشاً ، فإنه لعلك أن ترى منهم رجالاً تزدري عملك مع أعمالهم وفعلك مع أفعالهم ، وتغبطهم إذا رأيتهم لولا أن تطغى قريش لأخبرتهم بالذي لهم

عند الله " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن معاوية سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " الناس تبع لقريش في هذا الأمر خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، والله لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لخيارها عند الله " قال : وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " خير نسوة ركبن الإبل صالح نساء قريش أرعاه على زوج في ذات يده وأحناه على ولد في صغره " .

وأخرج أحمد وابن أبي شيبة والنسائي عن أنس قال : كنا في بيت رجل من الأنصار فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف فأخذ بعضادتي الباب فقال : " الأئمة من قريش ، ولهم عليكم حق ، ولكم مثل ذلك ما إن استحكموا عدلوا وإن استرحموا رحموا وإذا عاهدوا أوفوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن للقرشي مثلي قوة الرجل من غير قريش "

قيل للزهري : ما عني بذلك ؟ قال : نبل الرأي .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سهل بن أبي حثمة أن رسول صلى الله عليه وسلم قال : " تعلموا من قريش ولا تعلموها ، وقدموا قريشاً ولا تؤخروها ، فإن للقرشي قوة الرجلين من غير قريش " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي جعفر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تقدموا قريشاً فتضلوا، ولا تأخروا عنها فتضلوا، خيار قريش خيار الناس، وشرار قريش شرار الناس، والذي نفس محمد بيده لولا أن تبطر قريش لأخبرتها ما لها عند الله".

وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الناس تبع لقريش في الخير والشر إلى يوم القيامة".

وأخرج ابن أبي شيبة عن إسماعيل بن عبد الله بن رفاعة عن أبيه عن جده قال: "جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فقال: "هل فيكم من غيركم؟ قالوا: لا إلا ابن أختنا ومولانا وحليفنا، فقال: ابن أختكم منكم ومولاكم منكم إن قريشاً أهل صدق وأمانة فمن بغى لهم الغواء أكبه الله على وجهه"".

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والناس تبع لقريش في هذا الأمر خيارهم تبع لخيارهم وشرارهم تبع لشرارهم".

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب

فيه نفر من قريش فقال : " إن هذا الأمر في قريش " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقريش : " إن هذا الأمر فيكم وأنتم ولاته " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان " وحرك أصبعيه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الملك في قريش ، والقضاء في الأنصار ، والأذان في الحبشة " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبيد بن عمير قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقريش فقال : " اللهم كما أذقت أولهم عذاباً فأذق آخرهم نوالاً " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعد بن أبي وقاص أن رجلاً قتل فقيل للنبي صلى الله عليه وسلم فقال " أبعده الله أنه كان يبغض قريشاً " .

وأخرج الترمذي وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم " أذقت أول قريش نكالاً فأذق آخرهم نوالاً " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 634.640 ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ قُرَيْشٍ

[فِيهَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ]

وَهِيَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ إيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ :

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْلُهُ ﴿ إيلَافِ ﴾ وَهُوَ مَصْدَرُ أَلِفَ يَأْلَفُ عَلَى غَيْرِ الْمَصْدَرِ ، وَقِيلَ : آلَفَ يُؤَالِفُ ؛ قَالَهُ الْخَلِيلُ ، وَإِيلَافِهِمْ هَذَا يَدُلُّ مِنْ الْأَوَّلِ عَلَى مَعْنَى الْبَيَانِ .

وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِمَا بَعْدَهُ ، وَهُوَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْمُلْجِئَةِ ، فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِالسُّورَةِ الْأُخْرَى ، وَقَدْ قُطِعَ عَنْهُ بِكَلَامٍ مُبْتَدَإٍ وَاسْتِئْنَافِ بَيَانٍ ، وَسَطْرٍ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [فَقَدْ تَبَيَّنَ] وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ جَوَازُ الْوَقْفِ فِي الْقِرَاءَةِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ تَمَامِ الْكَلَامِ ، وَلَيْسَتْ الْمَوَاقِفُ الَّتِي تَنْزِعُ بِهَا الْقُرَّاءُ شَرْعًا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرْوِيًّا ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا بِهِ تَعْلِيمَ الطَّلَبَةِ الْمَعَانِيَ ، فَإِذَا عَلِمُوهَا وَقَفُوا حَيْثُ شَاءُوا ؛ فَأَمَّا الْوَقْفُ عِنْدَ انْقِطَاعِ النَّفَسِ فَلَا خِلَافَ فِيهِ ، وَلَا تُعِدْ مَا قَبْلَهُ إذَا اعْتَرَاك ذَلِكَ ، وَلَكِنْ ابْدَأْ مِنْ حَيْثُ وَقَفَ بِك نَفَسُك ، [هَذَا رَأْيِي

فِيه ، ولَا دَلِيل عَلَى مَا قَالُوه بِحَال ، ولَكِنّي أَعْتَمِدُ الْوَقْف عَلَى] التَّمَام ، كَرَاهِيَةَ الْخُرُوجِ عَنْهُمْ ، وَأَطْرُقُ الْقَوْلَ مِنْ عِيٍّ .

(176/832)

الْمَسْأَلَة الثَّالِثَة قَالَ مَالِكٌ : الشّتَاءُ نِصْفُ السَّنَةِ ، وَالصّيْفُ نِصْفُهَا .

ولَمْ أَزَلْ أَرَى رَبِيعَةَ بْنَ أَبِي عَبْدِ الرّحْمَنِ وَمَنْ مَعَهُ لَا يَخْلَعُونَ عَمَائِمَهُمْ حَتّى تَطْلُعَ الثُّرَيّا ، وَهُوَ يَوْمُ التَّاسِعَ عَشَرَ مِنْ بَشَنْسَ ، وَهُوَ يَوْمُ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ مِنْ عَدَدِ الرُّومِ أَوْ الْفُرْسِ ، وَأَرَادَ بِطُلُوعِ الثُّرَيّا أَنْ يَخْرُجَ السُّعَاةُ وَتَسِيرَ النَّاسُ بِمَوَاشِيهِمْ إلَى مِيَاهِهِمْ .

وَأَنّ طُلُوعَ الثُّرَيّا قَبْلُ الصّيْفِ وَدُبُرُ الشّتَاءِ ، وَهَذَا مِمّا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ أَصْحَابِهِ عَنْهُ .

وَقَالَ أَشْهَبُ عَنْهُ وَحْدَهُ : إذَا سَقَطَتْ الْهَقْعَةُ نَقَصَ اللّيْلُ ، فَلَمّا جَعَلَ طُلُوعَ الثُّرَيّا أَوّلَ الصّيْفِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَطْرُ السّنَةِ سِتّةُ أَشْهُرٍ ، ثُمّ يَسْتَقْبِلُ الشّتَاءَ مِنْ بَعْدِ ذَهَابِ الصّيْفِ سِتّةَ أَشْهُرٍ .

وَقَدْ سُئِلَ مُحَمّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ عَمّنْ حَلَفَ أَلّا يُكَلّمَ امْرَأً حَتّى يَدْخُلَ الشّتَاءُ .

فَقَالَ : لَا يُكَلّمُهُ حَتّى يَمْضِيَ سَبْعَةَ عَشَرَ مِنْ هَاتُورَ .

وَلَوْ قَالَ : حَتّى يَدْخُلَ الصّيْفُ لَمْ يُكَلّمْهُ حَتّى يَمْضِيَ سَبْعَةَ عَشَرَ مِنْ بَشَنْسَ ؛ فَهُوَ سَهْوٌ ؛

إِنَّمَا هُوَ تِسْعَةَ عَشَرَ مِنْ بَشَنْسَ ؛ لِأَنَّكَ إِذَا حَسَبْتَ الْمَنَازِلَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ ثَلَاثَ عَشْرَ لَيْلَةً كُلَّ مَنْزِلَةٍ ، عَلِمْتَ أَنَّ مَا بَيْنَ تِسْعَ عَشْرَةَ مِنْ هَاتُورَ لَا تَنْقَضِي مَنَازِلُهُ إِلَّا بِتِسْعَ عَشْرَةَ مِنْ بَشَنْسَ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ قَالَ قَوْمٌ : الزَّمَانُ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ : شِتَاءٌ [وَرَبِيعٌ ، وَصَيْفٌ ، وَخَرِيفٌ .

(177/832)

وَقَالَ قَوْمٌ : هُوَ شِتَاءٌ] وَصَيْفٌ ، وَقَيْظٌ ، وَخَرِيفٌ .

وَاَلَّذِي قَالَ مَالِكٌ أَصَحُّ لِأَجْلِ قِسْمَةِ اللَّهِ الزَّمَانَ قِسْمَيْنِ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمَا ثَالِثًا .

وَقَدْ حَقَّقْنَاهُ فِي مَسَائِلِ الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ لَمَّا امْتَنَّ اللَّهُ عَلَى قُرَيْشٍ بِرِحْلَتَيْنِ : [رِحْلَةِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ؛ رِحْلَةُ الشِّتَاءِ] إلَى الْيَمَنِ ؛ لِأَنَّهَا بِلَادٌ حَامِيَةٌ ، وَرِحْلَةُ الصَّيْفِ إلَى الشَّامِ ؛ لِأَنَّهَا بِلَادٌ بَارِدَةٌ ، وَقِيلَ بِتَنَقُّلِهَا بَيْنَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ إلَى مَكَّةَ وَالطَّائِفِ كَانَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى جَوَازِ تَصَرُّفِ الرَّجُلِ فِي الزَّمَانَيْنِ بَيْنَ مَحَلَّيْنِ يَكُونُ حَالُهُمَا فِي كُلِّ زَمَانٍ أَنْعَمَ مِنْ الْآخَرِ ، كَالْجُلُوسِ فِي الْمَجْلِسِ الْبَحْرِيِّ فِي الصَّيْفِ ، وَفِي الْقِبْلِيِّ فِي الشِّتَاءِ ، وَفِي اتِّخَاذِ البادهنجات وَالْخَيْشِ لِلتَّبْرِيدِ

، وَاللِّبَدِ وَالْيَانُوسَةِ لِلدِّفْءِ .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(178/832)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة قريش

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2)

قوله : ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ ﴾ : في متعلَّق هذه اللامِ ، أوجهٌ ، أحدُها : أنه ما في السورةِ قبلَها مِنْ قولِه ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ ﴾ [قريش : 5] . قال الزمخشري : " وهذا بمنزلةِ التَّضْمينِ في الشِّعْرِ " وهو أَنْ يتعلَّقَ معنى البيتِ بالذي قبلَه تَعَلُّقاً لا يَصِحُّ إلاَّ به ، وهما في مصحفِ أُبَي سورةٌ واحدٍ بلا فَصْلٍ . وعن عُمَرَ أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب وفي الأولى بسورةِ " والتين " انتهى . وإلى هذا ذهبَ أبو الحسنِ الأخفشُ إلاَّ أنَّ الحوفيَّ قال : " ورَدَّ هذا القولَ جماعةٌ : بأنَّه لو كان كذا لكان " لإِيلافِ " بعضَ سورةِ " ألم تَرَ " وفي إجماعِ الجميعِ على الفَصْلِ بينهما ما يدلُّ على عَدَمِ ذلك "

الثاني : أَنَّه مضمرٌ تقديرُه : فَعَلْنا ذلك ، أي : إهلاكَ أصحابِ الفيل لإِيلافِ قريش . وقيل : تقديرُه اعْجَبوا . الثالث : أنه قولُه " فَلْيَعْبُدوا " .

وإنما دَخَلَتْ الفاءُ لِما في الكلامِ مِنْ معنى الشرطِ ، أي : فإنْ لم يَعْبُدوه لسائرِ نعمِه فَلْيَعْبدوه لإِيلافِهم فإنَّها أَظْهَرُ نعمِه عليهم ، قاله الزمخشري وهو قولُ الخليلِ قبلَه .

وقرأ ابن عامر " لإِلافِ " دونَ ياءٍ قبل اللامِ الثانيةِ ، والباقون " لإِيلافِ " بياءٍ قبلَها ، وأَجْمَعَ الكلُّ على إثباتِ الياءِ في الثاني ، وهو " إيلافِهِمْ " ومِنْ غريبِ ما اتَّفَقَ في هذَيْن الحرفَيْن أنَّ القرَّاءَ اختلفوا في سقوطِ الياءِ وثبوتِها في الأولِ ، مع اتفاقِ المصاحفِ على إثباتِها خَطَّاً ، واتفقوا على إثباتِ الياءِ في الثاني مع اتفاقِ المصاحفِ على سقوطِها فيه خَطَّاً ، فهو أَدَلُّ دليلٍ على أنَّ القرَّاءَ مُتَّبِعون الأثرَ والروايةَ لا مجرَّدَ الخطِّ .

(179/832)

فأمَّا قراءةُ ابنِ عامرٍ ففيها وجهان ، أحدُهما : أنه مصدرٌ لأَلِف ثلاثياً يُقال : أَلِفْتُه إلافاً ، نحو : كَتَبْتُه كِتاباً ، يُقال : أَلِفْتُه إلْفاً وإلافاً . وقد جَمَعَ الشاعرُ بينَهما في قولِه :

4647 زَعَمْتُمْ أنَّ إخْوتَكُمْ قُرَيْشٌ . . . لهم إلْفٌ وليس لكُمْ إلافُ

والثاني : أنَّه مصدرُ آلَفَ رباعياً نحو : قاتَلَ قِتالاً . وقال الزمخشري : " أي : لِمُؤالَفَةِ قريشٍ "

.

وأمَّا قراءةُ الباقين فمصدرُ آلَفَ رباعياً بزنةِ أَكْرَم يقال: آلَفْتُه أُوْلِفُه إيْلافاً . قال الشاعر:

4648 مِنَ المُؤْلِفاتِ الرَّمْلِ أَدْماءُ حُرَّةٍ . . . شعاعُ الضُّحى في مَتْنِها يَتَوَضَّحُ

وقرأ عاصمٌ في روايةٍ "إِئْلافِهم" بهمزتين: الأولى مسكورةٌ والثانية ساكنةٌ، وهي شاذَّةٌ، لأنه يجب في مثلِه إبدالُ الثانيةِ حرفاً مجانساً كإيمان. ورُوِيَ عنه أيضاً بهَمْزَتين مَكْسورتَيْن بعدهما ياءٌ ساكنةٌ. وخُرِّجَتْ على أنه أَشْبَعَ كسرةَ الهمزةِ الثانية فتولَّد منها ياءٌ، وهذه أَشَذُّ مِنْ الأولى ونَقَلَ أبو البقاء أَشَذَّ منها فقال: "بهمزةٍ مكسورةٍ بعدها ياءٌ ساكنةٌ، بعدها همزةٌ مسكورةٌ، وهو بعيدٌ. ووَجْهُها أنه أشبعَ الكسرةَ فنشَأَتْ الياءُ، وقَصَدَ بذلك الفصلَ بين الهمزتَيْن كالألفِ في

﴿ أَأَنذَرْتَهُمْ ﴾ [البقرة: 6].

وقرأ أبو جعفر "لإِلْفِ قُرَيْشٍ" بزنة قِرْد. وقد تقدَّم أنه مصدرٌ لأَلِفَ كقوله:

4649 . . . . لهم إلْفٌ وليس لكم إلافُ

وعنه أيضاً وعن ابن كثير "إلْفِهم" وعنه أيضاً وعن ابن عامر "إلا فِهِمْ" مثل: كِتابهم.

وعنه أيضاً "لِيْلافِ" بياءٍ ساكنةٍ بعد اللامِ؛ وذلك أنه لمَّا أبدل الثانيةَ حَذَفَ الأولى على غير قياسٍ. وقرأ عكرمةُ "لِتَأْلُفْ قُرَيْش" فعلاً مضارعاً وعنه "لِيَأْلَفْ على الأمر، واللامُ مكسورةٌ، وعنه فَتْحُها مع الأمرِ وهي لُغَيَّةٌ.

وقُرَيْش اسمٌ لقبيلةٍ. قيل: هم وَلَدُ النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ، وكلُّ مَنْ وَلَدُه النَّضْرُ فهو قُرَشِيٌّ دونَ كِنانَةَ، وهو الصحيحُ وقيل: هم وَلَدُ فِهْرِ بن مالك ابن النَّضْرِ بنِ كِنانَةَ. فَمَنْ لم يَلِدْه فِهْرٌ فليس بقُرَشيٍّ، فوقع الوِفاقُ على أنَّ بني فِهْرٍ قرشيُّون. وعلى أنَّ كنانةَ ليسوا بقرشيين. ووقع الخلافُ في النَّضْرِ ومالكٍ.

واخْتُلِفَ في اشتقاقِه على أوجه، أحدها: أنه من التَّقَرُّشِ وهو التجمُّعُ سُمُّوا بذلك لاجتماعِهم بعد افترِاقهم. قال الشاعر:

4650 أبونا قُصَيٌّ كان يدعى مُجَمِّعاً ... به جَمَّعَ اللَّهُ القبائلَ مِنْ فِهْرِ

والثاني: أنه من القَرْشِ وهو الكَسْبُ. وكانت قريشٌ تُجَّاراً. يقال: قَرَشَ يَقْرِشُ أي: اكتسب. والثالث: أنه مِنْ التفتيش. يقال قَرَّشَ يُقَرِّشُ عني، أي: فَتَّش. وكانت قريشٌ يُفَتِّشون على ذوي الخُلاَّن لِيَسُدُّوا خُلَّتَهم. قال الشاعر:

4651 أيُّها الشامِتُ المُقَرِّشُ عنا ... عند عمروٍ فهَلْ له إبْقاءُ

وقد سأل معاويةُ ابنَ عباس. فقال: سُمِّيَتْ بدابةٍ في البحرِ يقال لها: القِرْش، تأكل ولا

تُؤكَل ، وتَعْلو ولا تعلى وأنشد قول تُبَّعٍ :

4652 وقُرَيْشٌ هي التي تَسْكُنُ البَحْ . . . رَ سُمّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشَا

تأكُلُ الغَثَّ والسَّمينَ ولا تتْ . . . رُكُ فيها لذي جناحَيْنِ رِيشا

هكذا في البِلادِ حَيُّ قُرَيْشٍ . . . يأكلونَ البِلادَ أَكْلاً كَميشا

(181/832)

ولهم آخِرَ الزمانِ نبيٌّ . . . يُكْثِرُ القَتْلَ فيهم والخُموشا

ثم قريشٌ : إمَّا أَنْ يكونَ مصغراً مِنْ مزيدٍ على الثلاثةِ ، فيكونَ تصغيرُه تصغيرَ ترخيمٍ .

فقيل : الأصلُ : مُقْرِش . وقيل : قارِش ، وإمَّا أَنْ يكونَ مُصَغَّراً مِنْ ثلاثيٍّ نحوَ القَرْشِ .

وأجمعوا على صَرْفِه هنا مُراداً به الحيُّ ولو أُريد به القبيلةُ لامتنعَتْ مِنْ الصرفِ كقولِ

الشاعر :

4653- غَلَبَ المَساميحَ الوليدُ سَماحةً . . . وكفى قُرَيْشَ المُعْضِلاتِ وسادَها

قال سيبويه في مَعَدّ وقُرَيْش وثَقِيْف وكِنانَة : " هذه للأحياءِ " وإنْ جعلتَها اسماً للقبائلِ فهو

جائزٌ حَسَنٌ " .

قوله : ﴿ إِيلاَفِهِمْ ﴾ مُؤَكِّدٌ للأولِ تأكيداً لفظياً ؛ ولذلك اتَّصَلَ بضميرِ ما أُضيف إليه الأولُ

كما تقولَ : لِقيامِ زيدٍ لقيامِه أكرِمْتُه " وأعربه أبو البقاء بدلاً والأول أولى .

قوله : ﴿ رِحْلَةَ ﴾ معفولٌ به بالمصدرِ ، والمصدرُ مضافٌ لفاعِله ، أي : لأَنْ أَلِفوا رحلةَ .

والأصلُ : رحلَتْي الشتاءِ والصيفِ ، ولكنه أُفْرِدَ لأَمْنِ اللَّبْسِ كقولِه :

4654 كُلوا في بَعْضِ بطنِكُمُ تَعِفُّوا . . . .

. . . .

قاله الزمخشري وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ سيبويهِ يجعلُ هذا ضرورةً كقولِه :

4655 حمامةَ بَطْنِ الوادِيَيْنِ تَرَنَّمي . . . .

. . . .

وقيل : " رِحْلة " اسمُ جنسٍ . وكانت لهم أربعُ رِحَلٍ . وجعلَه بعضُهم غَلَطاً وليس كذلكَ

. وقرأ العامَّةُ بكسرِ الراءِ وهي مصدرٌ . وأبو السَّمَّال بضمِّها وهي الجهةُ التي يُرْحَلُ إليها .

والشتاءُ لامُه واوٌ لقولِهم : الشَّتْوَةُ وشتا يَشْتُو . وشَذُّوا في النسبِ إليه فقالوا فيه : شَتَوِيّ .

والقياس : شِتائيّ أو شِتاويّ كَكِسائيّ وكِساوِيّ .

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)

قوله : ﴿ مِّن جُوعٍ ﴾ : و ﴿ مِّنْ خَوْفٍ ﴾ : للتعليلِ ، أي : مِنْ أجلِ جوعٍ وخوفٍ ، والتنكيرُ للتعظيمِ . أي : مِنْ جوعٍ عظيمٍ وخوفٍ عظيمٍ . وقال أبو البقاء : " ويجوزُ أَنْ يكونَ في موضعِ الحالِ مِنْ مفعولِ أَطْعَمهم " وأخفى نونَ " مِنْ " في الخاء نافعٌ في روايةٍ ، وكذلك في الغينِ ، وهي لغةٌ حكاها سيبويه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 11 صـ 111.118 ﴾

(183/832)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة قريش

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

بسم : الباء في " بسم " سر الموحدين عن حسبان الحدثان ، وعن كل شيء مما لم يكن فكان ، وتشير إلى الانقطاع إلى الله في السراء والضراء ، والشدة والرخاء .

والسين تشير إلى سكونهم في جميع أحوالهم تحت جريان ما يبدو من الغيب بشرط مراعاة الأدب .

والميم تشير إلى منة الله عليهم بالتوفيق لما تحققوا به من معرفته وتخلوفا به من طاعته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِۦلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ ﴾ .

" الإيلاف " : مصدر آلفَ ، إذا جعلْتَه يألف . . . وهو ألِفَ إلْفاً .

والمعنى : جعلهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قريْشْ ، أي ليأْلفوا رحلتهم في الشتاء والصيف .

وكانت لهم رحلتان للامتيار : رحلةٌ إلى الشام في القيظ ، ورحلة إلى اليمن في الشتاءِ

والمعنى : أنعم اللَّهُ عليهم بإهلاكِ عدوّهم ليؤلِّفَهم رحلتيهم .

وقيل : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴾ ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ كأنه أعْظَمَ المِنَّةَ عليهم .

وأَمرَهم بالعبادة :

﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ .

فليعبدوه لِمَا أنعم به عليهم .

وقيل : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ ﴾ بعد ما أصابهم من القحط

حينما دعا عليهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ .

حين جعَلَ الحرَمَ آمِناً ، وأجارهم من عدوّهم .

ويقال : أنعم عليهم بأن كفاهم الرحلتين بجلْبِ الناسِ الميرةَ إليهم من الشام ومن اليمن .

وَوجْهِ المِنّةِ في الإطعام والأمان هو أن يتفرّغوا إلى عبادة الله ؛ فإنَّ مَنْ لم يكن مكْفِيَّ الأمور

لا يتفرَّغُ إلى الطاعة ، ولا تساعده القوة ولا القلبُ - إلاَّ عند السلامة بكلِّ وجهٍ وقد قال تعالى :

(184/832)

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ﴾ [البقرة : 155] فقدَّم الخوف على جميع أنواع البلاءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 772.771 ﴾

(185/832)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة قريش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (3)

الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)

الإعراب :

(لإيلاف) متعلّق بـ (يعبدوا) الآتي "1" ، (إيلافهم) بدل من الأول مجرور (رحلة) مفعول به للمصدر إيلافهم (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اللام) لام الأمر (الذي) موصول في محلّ نصب نعت لربّ (من جوع) متعلّق بـ (أطعمهم) و(من) سببيّة "2" (من خوف) متعلّق بـ (آمنهم) . .

جملة : "يعبدوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي : إن لم يعبدوه لأيّة نعمة فليعبدوه لإيلافهم فإنّها أظهر نعمة .

وجملة : "أطعمهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

---

(1) أي من أجل إيلاف قريش . . ليعبد القرشيون ربّ هذا البيت – وهذا قول الخليل والزمخشريّ من بعده – ويجعل الطبريّ اللام للتعجّب فتتعلّق بفعل محذوف تقديره اعجبوا لإيلاف قريش وتركهم عبادة ربّ البيت . . ويجوز أن يتعلّق الجارّ بمحذوف تقديره فعل ذلك أي إهلاك أصحاب الفيل .

(2) أو بتضمين أطعمهم بمعنى أشبعهم و(من) لابتداء الغاية .

وجملة : " آمنهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

الصرف :

(1) إيلاف : مصدر قياسيّ للرباعيّ آلف ، أصله أألف زنة أفعل ، أو مصدر أولف زنة أفعل ، فعلى الأول خفّفت الهمزة فقلبت ياء لانكسار ما قبلها ، وعلى الثاني جرى إعلال بالقلب ، أصله أولاف ، تحرّك ما قبل الواو بالكسر فقلبت ياء . . ووزن إيلاف إفعال .

(قريش) ، اسم علم للقبيلة العربيّة المشهورة ، قيل هو تصغير ترخيم من قويرش تصغير قارش ، جمعه قرش بضمّتين .

(2) رحلة : قيل هو اسم جنس ، ولهذا أفرده ، أو اسم مصدر بمعنى الارتحال وقد أفرد لأمن اللبس ، وزنه فعلة بكسر فسكون .

(187/832)

(الشتا) ، اسم للفصل المعروف مشتقّ من شتا يشتو باب نصر ، وفيه إبدال الواو همزة لتطرّفها بعد ألف ساكنة ، أصله شتاو ، وزنه فعال بكسر الفاء .

(الصيف) ، اسم للفصل المعروف مشتّق من صاف يصيف باب ضرب ، وزنه فعل بفتح فسكون .

الفوائد :

- رحلة الشتاء والصيف :

قال ابن عباس : كانوا يشتون بمكة ويصيفون بالطائف ، فأمرهم اللّه تعالى أن يقيموا بالحرم ، ويعبدوا رب هذا البيت وقال الأكثرون : كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة : رحلة في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفأ ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، وكان الحرم واديا مجدبا لا زرع فيه ولا ضرع ، وكانت قريش تعيش بتجارتها ورحلتها ، ولا يتعرض أحد لهم بسوء ، وكانوا يقولون : قريش مكان حرم اللّه وولاة بيته ، وكانت العرب تقرهم وتكرمهم ، لذلك فلو لا الرحلتان لم يكن لهم مقام بمكة ، ولو لا الأمن بجوار البيت لم يقدروا على التصرف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 409. 410 ﴾

(188/832)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(106) سورة قريش

مكيّة وآياتها أربع

[سورة قريش (106) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (4)

الإعراب :

(لِإِيلافِ قُرَيْشٍ) اضطربت أقوال المعربين والمفسرين في متعلق هذه اللام التي هي مستهل السورة اضطرابا شديدا لا نملك معه إمكانية البتّ في القول الحاسم ولكننا سنختار ما جنحنا إليه ثم نورد لك بعض أقوال المعربين لأنهم أفرغوا كل طاقاتهم العلمية وملكاتهم الذهنية في توجيه هذا المتعلق ، فنقول : لإيلاف متعلق بقوله فيما بعد فليعبدوا كأنه قال : فإن لم يعبدوا اللّه لسائر نعمه السابغة المترادفة فليعبدوه لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف وهي نعمة سابغة أتاحت لهم الاتجار وضمنت لهم ميسور الرزق. وإيلاف مصدر آلف رباعيا بوزن أكرم يقال آلفته أولفه إيلافا ، وكانت لقريش رحلتان يرحلون في الشتاء إلى اليمن وفي

الصيف إلى الشام فيمتارون ويتجرون وكانوا في رحلتيهم آمنين لأنهم أهل حرم اللّه وسدنة بيته فيهابهم الناس ولا يتعرض لهم أحد بينما كان المتجرون وأرباب القوافل يستهدفون للمخاطر ويتخطفهم الناس. تقول آلفت المكان أولفه إيلافا إذا ألفته فأنا مولف قال :

شددت إليك الرحيل فوق شملة من المؤلفات الرهو غير الأوارك

و الشملال بالتشديد الناقة الخفيفة السريعة السير أي شددت الرحل فوق ناقة سريعة السير ذاهبا إليك وتلك الناقة من النوق المؤلفات المعتادات الرهو أي السير السهل المستقيم ، ويروى الزهو بالزاي وهو سيرها بعد ورودها الماء والأوارك جمع آركة وهي المقيمات موضع الأراك ترعاه أو ترعى نبتا آخر يقال له الحمض أي ليست ناقتي كذلك بل هي معلوفة ومعدّة للسفر ، وينسب هذا القول الذي اخترناه إلى الخليل بن أحمد وناهيك به ، وأورده الزمخشري فيما أورده من أوجه وبدأ به ولكن يرد عليه إشكال وهو دخول الفاء على فليعبدوا قال الزمخشري : " فإن قلت : " فلم دخلت الفاء ؟ قلت لما في الكلام من معنى الشرط لأن المعنى إما لا فليعبدوه لهذه الواحدة التي هي نعمة ظاهرة " . وبدأ الشهاب السمين بقوله : " في متعلق هذه الآية أوجه :

أحدها أنه ما في السورة قبلها من قوله فجعلهم كعصف مأكول قال الزمخشري وهذا بمنزلة التضمين في الشعر وهو أن يتعلق معنى البيت بالذي قبله تعلقا لا يصحّ إلا به وهما في مصحف أبيّ سورة واحدة بلا فصل وعن عمر أنه قرأهما في الركعة الثانية من المغرب وقرأ في الأولى بسورة والتين ، وإلى هذا ذهب أبو الحسن الأخفش إلا أن الحوفي قال :

وردّ هذا القول جماعة بأنه لو كان كذلك لكان لإيلاف بعض سورة ألم تر ، وفي إجماع الجميع على الفصل بينهما ما يدل على عدم ذلك " وأقول : لقد اتفق علماء البلاغة ونقّاد الشعر القدامى على أن التضمين

(190/832)

من عيوب الشعر فكيف تحمل القراءة عليه وأسلوب القرآن أبلغ من أن يتسامى إليه النقد والتجريح ، وقيل هي متعلقة بأعجبوا محذوفا وقد يكون في هذا الرأي مندوحة عن التقدير والتأويل هذا وكما اختلف المعربون في الإعراب اختلف القرّاء في القراءات مما يرجع إليه في المطولات . أما ابن خالويه فقد قال " وهو مصدر آلف يؤلف إيلافا فهو مؤلف مثل آمن يؤمن إيمانا فهو مؤمن ومن قرأ إلفهم جعله مصدرا لألف يألف إلفا فهو آلف مثل علم يعلم علما فهو عالم والأمر من الممدود آلف يا زيد ومن المقصور إيلف يا زيد ، واختلف العلماء في لإيلاف فقال قوم هي وألم تر سورة واحدة ، منهم الفراء وسفيان بن عيينة قالا : والتقدير فجعلهم كعصف مأكول لإيلاف قريش فعلى هذا تكون اللام لام الخفض متصلة ب ألم تر وقال الخليل والبصريون : اللام لام الإضافة متصلة ب فليعبدوا والتقدير : فليعبدوا رب هذا البيت لأن منّ عليهم بإيلاف قريش وصرف عنهم شرّ أصحاب الفيل ، وحدّثني

ابن مجاهد عن السّمّري عن الفراء قال : يجوز أن تكون اللام لام التعجب كأنه قال : أعجبنا

محمد لإيلاف قريش كما قال الشاعر – النابغة الذبياني – :

أتخذل ناصري وتعزّ عبسا أيربوع بن غيظ للمعنّي

معناه أعجبوا للمعنّي " . وقريش مضاف إليه وهي قبيلة تمتّ إلى النضر بن كنانة سمّوا

بتصغير القرش وهو دابة عظيمة في البحر تعبث بالسفن ولا تطاق إلا بالنار ، وعن معاوية

أنه سأل ابن عباس رضي اللّه عنهما : بم سمّيت قريش قال بدابة البحر تأكل ولا تؤكل وتعلو

ولا تعلى وأنشد :

وقريش هي التي تسكن البح ر بها سمّيت قريش قريشا

تأكل الغثّ والسمين ولا تت رك يوم لذي جناحين ريشا

ولهم آخر الزمان نبي يكثر القتل فيهم والخموشا

و قال ابن خالويه : وقيل سمّوا قريشا بتقارش الرماح . والتصغير للتعظيم وقيل من القرش

وهو الكسب لأنهم كانوا يكتسبون بتجارتهم وضربهم في البلاد ، وقد صرفت قريش لأنه

أريد بها الحي ولو أريد القبيلة لامتنعت من الصرف ، قال سيبويه في معد وثقيف وقريش

وكنانة هذه للأحياء أكثر وإن جعلتها أسماء للقبائل فهو جائز وحسن (إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتاءِ وَالصَّيْفِ) إيلافهم بدل من لإيلاف بدل مقيد من مطلق أطلق الإيلاف في الأول وقيده في الثاني برحلتي الشتاء والصيف تفخيما لأمر الإيلاف وتعظيما له وتذكيرا بسوابغ النعم والهاء مضاف إليه ورحلة الشتاء والصيف مفعول به لإيلافهم لأنه مصدر لْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ)

الفاء الفصيحة لأنها وقعت في جواب شرط مقدّر واللام لام الأمر ويعبدوا فعل مضارع مجزوم باللام والواو فاعل ورب مفعول به وهذا مضاف إليه والبيت بدل من هذا وأعربها ابن خالويه نعتا ولست أحب ذلك وإن قاله النحاة ولكني أرى أن الجامد بعد اسم الإشارة لا يسوغ إعرابه نعتا مطلقا فالأحسن أن يكون المشتق نعتا والجامد بدلا (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) الذي نعت لرب أو بدل منه وجملة أطعمهم صلة لا محل لها ومن جوع متعلق بأطعمهم ومن تعليلية أي أنعم عليهم وأطعمهم لإزالة الجوع عنهم فلا بدّ من تقدير مضاف أي من أجله، وكذلك آمنهم من خوف. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه جـ 10 صـ 588. 591﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والثلاثون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثالث والثلاثون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الماعون)

(4/833)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الماعون)

(5/833)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الماعون

وتسمى الدين وتسمى أرأيت والتكذيب .

مقصودها التنبيه على أن التكذيب بالبعث لأجل الجزاء أبو الخبائث ، فإنه يجزئ المكذب

على مساوئ الأخلاق ومنكرات الأ " مال حتى تكون الاستهانة بالعظام خلقا له فيصير ممن ليس له خلاق ، وكل من اسمائها الأربعة في غاية الظهور في الدلالة على ذلك بتأمل السورة لتعرف هذه الأشياء المذكورة ، فهي ناهية عن المنكرات بتصريحها ، داعية إلى المعالي بإفهامها وتلويحها . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 541﴾

(6/833)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . أرأيت)

السّورة مكِّيّة .

آياتها سبع فى عدّ العراقى ، وستُ عند الباقين .

وكلماتها خمس وعشرون (وحروفها مائة وخمس وعشرون) .

المختلف فيها آية ﴿يُرَآءُونَ﴾ فواصل آياتها على النون .

سمّيت سورة الماعون ، لمفتتحها .

معظم مقصود السّورة : الشكاية من الجافين على الأَيتام والمساكين ، وذمّ المقصّرين والمرائين

، وما نعى نفع المعونة عن الخيرات والمساكين، فى قوله: ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .

السّورة محكمة.

المتشابهات:

قوله: ﴿ الَّذِينَ هُمْ ﴾ كرّره ولم يقتصر على مرّة واحدة؛ لامتناع عطف الفعل على الاسم.

ولم يقل: الَّذين هم يمنعون؛ لأَنَّه فعل، فحسن العطف على الفعل.

فضل السّورة

فيه حديثان ضعيفان: مَنْ قرأَها غفر الله له إِن كان للزّكاة مؤدّيا، وحديث علىّ: يا علىّ مَنْ قرأَها جعل الله قبره روضة من رياض الجنَّة، وله بكلّ آية قرأَها ثواب حِجّة وعمرة.

انتهى انتهى. ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 546 ﴾

(7/833)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور:

سورة الماعون

سميت هذه السورة في كثير من المصاحف وكتب التفسير (سورة الماعون) لورود لفظ الماعون فيها دون غيرها .

وسميت في بعض التفاسير (سورة أرأيت) وكذلك في مصحف من مصاحف القيروان في القرن الخامس ، وكذلك عنونها في (صحيح البخاري) .

وعنونها ابن عطية ب (سورة أرأيتَ الذي) . وقال الكَواشي في (التلخيص) (سورة الماعون والدين وأرأيت) ، وفي (الإِتقان) : وتسمى (سورة الدين) وفي (حاشيتي الخفاجي وسَعدي) تسمى (سورة التكذيب) وقال البِقاعي في (نظم الدرر) تسمى (سورة اليتيم) . وهذه ستة أسماء .

وهي مكية في قول الأكثر . وروي عن ابن عباس ، وقال القرطبي عن قتادة : هي مدنية . وروي عن ابن عباس أيضاً . وفي (الإِتقان) : قيل نزل ثلاثٌ أولها بمكة إلى قوله : (المسكين ((الماعون : 3) وبقيتها نزلت بالمدينة ، أي بناء على أن قوله : (فويل للمصلين ((الماعون : 4) إلى آخر السورة أريد به المنافقون وهو مروي عن ابن عباس وقاله هبة الله الضرير وهو الأظهر .

وعدت السابعة عشرة في عداد نزول السور بناء على أنها مكية ، نزلت بعد سورة التكاثر وقبل سورة الكافرون .

وعُدت آياتها ستاً عند معظم العادين . وحكى الآلوسي أن الذين عدّوا آياتها ستّاً أهل العراق (أي البصرة والكوفة) ، وقال الشيخ علي النوري الصفاقسي

(8/833)

في (غيث النفع) : وآيها سبع حِمصي (أي شامي) وست في الباقي . وهذا يخالف ما قاله الآلوسي .

أغراضها

من مقاصدها التعجيب من حال من كذبوا بالبعث وتفظيع أعمالهم من الاعتداء على الضعيف واحتقاره والإِمساك عن إطعام المسكين ، والإِعراض عن قواعد الإِسلام من الصلاة والزكاة لأنه لا يخطر بباله أن يكون في فعله ذلك ما يجلب له غضب الله وعقابه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ 563.564﴾

(9/833)

وقال الشيخ الصابوني :

سورة الماعون

مكية وأياتها سبع أيات

بين يدي السورة

* هذه السورة مكية ، وقد تحدثت بأيجاز عن فريقين من البشر هما :

أ- الكافر الجاحد لنعم الله ، المكذب بيوم الحساب والجزاء .

ب - المنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الهل ، بل يرائي في أعماله وصلاته .

* أما الفريق الأول : فقد ذكر تعالى من صفاتهم الذميمة ، أنهم يهينون اليتيم ويزجرونه ، غلظة لا تأديبا ، ولا يفعلون الخير ، حتى ولو بالتذكير بحق المسكين والفقير ، فلا هم أحسنوا في عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه [أرأيت الذي يكذب بالدين ؟ فذلك الذي يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين . .] الأيات .

* وأما الفريق الثاني : فهم المنافقون ، الغافلون عن صلاتهم ، الذين لا يؤدونها في أوقاتها ، والذين يقومون بها " صورة " لا (معنى) المراءون بأعمالهم ، وقد توعدت الفريقين بالويل والهلإلي ، وشنعت عليهم أعظم تشنيع ، بأسلوب الاستغراب والتعجب من ذلك الصنيع ! ! . (فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 607 ﴾

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الماعون

أرأيت : أي هل عرفت وعلمت والمراد بذلك تشويق السامع إلى تعرّف ما يذكر بعده مع تضمنه التعجب منه ، كما تقول : أرأيت فلانا ماذا صنع ، وأ رأيت فلانا كيف عرّض نفسه للمخاطر – أنت فى كل ذلك تريد بعث المخاطب على التعجب مما فعل ، والدين : هو الخضوع لما وراء المحسوس من الشؤون الإلهية التي لا يمكن الإنسان أن يعرف حقيقتها ، وإنما يجد آثارها فى الكون باعثة على الإذعان والتصديق ، كوجود اللّه ووحدانيته ، وبعثه الرسل مبشرين ومنذرين ، والتصديق بحياة أخرى يعرض الناس فيها على ربهم للجزاء ، يدعّ اليتيم : أي يدفعه ويزجره زجرا عنيفا كما جاء فى قوله : "يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا " يحض : أي يحث ويدعو الناس إلى ذلك ، يراءون : أي يفعلون بقدر ما يرى الناس أنهم يفعلون ذلك من غير أن تستشعر قلوبهم خشية اللّه بها وحقيقة الرياء طلب ما فى الدنيا بالعبادة وطلب المنزلة فى قلوب الناس ، ويكون فعل ذلك على ضروب (1)

بتحسين السمت مع إرادة الجاه وثناء الناس .

(2) بلبس الثياب القصار أو الخشنة ليأخذ بذلك هيبة الزهاد فى الدنيا .

(3) بإظهار السخط على الدنيا ، وإظهار التأسف على ما يفوته من فعل الخير.

(4) بإظهار الصلاة والصدقة ، أو بتحسين الصلاة لرؤية الناس له .

والماعون : ما جرت العادة بأن يسأله الفقير والغنى كالقدر والدلو والفأس .

وقال جار اللّه : ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة ، فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها

لقوله عليه الصلاة والسلام : " ولا غمّة فى فرائض اللّه "

لأنها أعلام الإسلام ، وشعائر الدين ، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ، فوجب إماطة التهمة بالإظهار ، وإن كان تطوعا فحقه أن يخفى ، لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه ، فإن أظهره قاصدا الاقتداء به كان جميلا ، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فيثنى عليه بالصلاح ، وعن بعضهم أنه رأى رجلا فى المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها فقال : ما أحسن هذا لو كان فى بيتك ؟

وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة .

على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص ، ومن ثم قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : " الرياء أخفى من ديب النملة السوداء فى الليلة الظلماء على المسح الأسود " ا ه .

المسح : كساء خشن من صوف يلبسه الزهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 247.248 ﴾

(12/833)

وقال الفراء :

سورة (الماعون)

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ . . . ﴾ .

وهى فى قراءة عبد الله : "أرأيتك الذى" ، والكاف صلة تكون ولا تكون ، والمعنى واحد .

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ...﴾ .

من دععت وهو يُدعّ: يدفعه عن حقه، ويظلمه. وكذلك: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ .

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾

وقوله عز وجل: ﴿وَلَا يَحُضُّ...﴾ .

أى: لا يحافظ على إطعام المسكين ولا يأمر به.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾

وقوله عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ...﴾ يعنى: المنافقين ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يقول: لاهون كذلك فسّرها ابن عباس، وكذلك رأيتها فى قراءة عبد الله.

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾

فقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ...﴾ .

إن أبصرهم الناس صلّوا، وإن لم يرهم أحد تركوا الصلاة. ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ...﴾

قال: وحدثنا الفراء قال: وحدثنى حِبَّان بإسناده قال: "الماعون": المعروف كله حتى ذكر: القصعة، والقدر، والفأس.

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال] قال: حدثنا الفراء قال: وحدثنى قيس ابن الربيع عن السُّدى عن عبد خير عن على قال: "الماعون": الزكاة.

[حدثنا أبو العباس قال: حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال: وحدثنى قيس بن الربيع عن خصيفٍ عن مجاهد عن على رحمه الله بمثله قال: وسمعت بعض العرب يقول: الماعون: هو الماء،

وأنشدنى فيه:

* يَمجُّ صَبيرهُ الماعُونَ صبًا *

قال الفراء: ولست أحفظ أوله الصبير: السحاب. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 294. 295 ﴾

(13/833)

وقال الأخفش:

سورة (الماعون)

﴿ أَرَأَيتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّين ﴾

قال ﴿ أَرَأَيتَ الَّذِي ﴾ تقرأ بالهمز وغير الهمز، [و] هما لغتان، تحذف الهمزة لكثرة استعمال هذه الكلمة.

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾

وقال ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ يقول: "يدفعه عن حقه" تقول: "دَعَعْتُه" "أَدُعُّه" دَعّاً". انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 586 ﴾

(14/833)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة الماعون «1»

2 - يَدُعُّ الْيَتِيمَ: يدفعه. وكذلك قوله: يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا [سورة الطور آية: 13].

7 - والْماعُونَ: الزكاة.

ويقال: هو الماء والكلا.

[و] قال الفراء: «يقال: إنه الماء [بعينه]»، وأنشد:

يمجّ صبيره الماعون صبّا.

«الصبير»: السحاب. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 473 ﴾

---

(1) هي مكية عند عطاء، ومدنية عند قتادة.

وقال الغزنوى :

[سورة الماعون]

1 يُكَذِّبُ بِالدِّينِ : بالجزاء .

2 يَدُعُّ الْيَتِيمَ : يدفعه عن حقه «1» .

7 الْماعُونَ : الزّكاة «2» . فاعول من «المعن» الشّيء

(1) معاني القرآن للفراء : 3/ 294 ، وتفسير الطبري : 30/ 310 ، ومعاني القرآن للزجاج :
5/ 367 . [.....]

(2) روى هذا القول عن جماعة من الصحابة والتابعين كما في تفسير القرطبي : (30/ 314 - 316) ، وتفسير الماوردي : 4/ 530 ، وتفسير البغوي : 4/ 532 ، وتفسير ابن كثير :
8/ 516 ، والدر المنثور : (8/ 644 ، 645) .

وقيل : المراد ب «الماعون» : الطاعة ، وقيل : المعروف ، وقيل : المال . . . وغير ذلك

وعقّب الطبري – رحمه اللّه – على الأقوال التي وردت فيه بقوله : «و أولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب . . . أن يقال : إن اللّه وصفهم بأنهم يمنعون ما يتعاورونه بينهم ، ويمنعون أهل الحاجة والمسكنة ما أوجب اللّه لهم في أموالهم من الحقوق لأن كل ذلك من المنافع التي ينتفع بها الناس بعضهم من بعض» .

(16/833)

القليل «1» .

وعن عكرمة «2» : رأس الماعون زكاة مالك ، وأدناه المنخل والإبرة والدلو تعيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 893.892 ﴾

---

(1) تفسير الفخر الرازي : (32/ 115 ، 116) ، وتفسير القرطبي : 20/ 214 ، واللسان :

13/ 409 (معن) .

(2) أورده الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 518 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن عكرمة ، وكذا السيوطي في الدر المنثور : 8/ 645 .

وقال ملاحويش :

تفسير سورة الماعون

عدد 17 و107

نزلت بعد التكاثر في مكة وهي سبع آيات ، الثلاث الأول نزلت في مكة في العاص بن وائل والأربع الأخر نزلت في المدينة في عبد اللّه بن أبي بن سلول ، وتسمى سورة أرأيت ، ويوجد في القرآن خمس سور مبدوءة بهمزة الاستفهام هذه والإنسان والغاشية والانشراح والفيل ، ولا يوجد سورة بسبع آيات إلا هذه والفاتحة ، وهي خمس وعشرون كلمة ، ومائة وخمسة وعشرون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ .

قال تعالى "أَ رَأَيْتَ" من رأي البصرية تنزيلا للمعقول منزلة المحسوس إشعارا بأن ذلك المعقول صار أمرا محققا لا شبهة فيه أي أأبصرت أيها العاقل هذا "الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ 1" بعد ظهور دلائله ووضوح بيانه وقرىء أريت بلا همز بحمل الماضي على المضارع المطرد فيه حذف الهمزة "فَذلِكَ" المكذب الكافر هو الّذي "يَدُعُّ" يدفع بعنف وجفاء "الْيَتِيمَ 2" عن

حقه ويرده ردا قبيحا بزجرا وخشونة ليزيد في قهره "وَلَا يَحُضُّ" مع ذلك الردع ولا يحث "عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ 3" فضلا عن انه

لا يطعمه هو فلو كان هذا يؤمن بالحساب والجزاء لما فعل ذلك وانما نزلت هذه الآيات في العاص المذكور لاتصافه بهذه الأخلاق الذميمة .

(18/833)

وقيل إنها نزلت في الوليد بن المغيرة أو عمر بن عائد المخزومي وهي صادقة في كل من هذا ديدنه عامة إلى يوم الدين وهذه الآيات المدنيات التي نزلت بالمنافق المذكور آنفا وتشمل أضرابه الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ولا يتقيدون بأمور الدين إلا رياء وتقية فقال جل قوله "فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ 4 الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ 5" لا يلقون لها بالا ولا حرمة ولا يخشعون فيها خضوعا لربهم لأنهم يراءون بها رياء إذا حضرهم المؤمنون ويتركونها إذا غابوا عنهم لعدم اعتقادهم بها وعدم رجاء الثواب على فعلها وهذا شأن المنافقين كلهم فيما يتعلق بأمور الدين وقد نصحهم اللّه بقوله عز قوله "الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ 6" الناس بجميع أعمالهم ولا يعملون شيئا خالصا للّه فيدخلون أنفسهم في زمرة المصلين وطائفة المتصدقين وجماعة المتقين تقية وإلا فهم غافلون عن حقيقة الصلاة ولا يعلمون ماهية التقوى

"وَيَمْنَعُونَ" مع ذلك كله أن يعيروا جارهم أو غيره "الْماعُونَ 7" الذي من شأنه ألا يمنع كالقدر والدلو والقدحة والماء والملح والنار والبئر والتنور مما يتساهل الناس في طلبه واستعماله ولم تكرر هذه الكلمة في القرآن كله وفي هذه الآية حث على إعارة هذه الأشياء وشبهها وإباحة استعمالها وزجر عن منعها والبخل بمثلها لحقارتها وتفاهتها ، لذلك قال العلماء يستحب للقادر أن يكثر في بيته مما يحتاجه الجيران ليعيرها ويتفضل عليهم بما فضله اللّه به ولا يقتصر على حاجته من ذلك قال انس والحسن الحمد للّه الذي قال عن صلاتهم ولم يقل في صلاتهم لأن معنى أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة مبالاة والتفات إليها وهو فعل المنافقين الذين يجب الابتعاد عنهم .

مطلب السهو بالصلاة ولزوم الخشوع فيها :

معلوم أن السهو قد يعتريهم بوسوسة أو حديث نفس وهذا لا يخلو المسلم ، منه حتى أن الرسول كان يقع منه سهو فيها لغيبوبته عن نفسه الطاهرة عما سوى اللّه تعالى وفيه قيل :

(19/833)

يا سائلي عن رسول اللّه كيف سها والسهو في كل قلب غافل لاهي

قد غاب عن كل شيء سوه فها عما سوى اللّه فالتعظيم للّه

وليعلم أن الخشوع من واجبات الصلاة وعدمة يفضي إلى التهاون بها فينبغي للمصلي أن يجتهد لاحضار قلبه فيها ويخطر فيه أنه واقف بين يدي اللّه عز وجل فجدير به أن يكون خاضعا خاشعا له حاصرا فكره فيما يقرأه فيها من كلام اللّه ليؤديها بوجه كامل ولئلا يدخل في قول القائل :

تصلي بلا قلب صلاة بمثلها يكون الفتى مستوجبا للعقوبة

أما تستحي من خالق الملك أن يرى صدودك عنه يا قليل المروءة

فعلى العاقل أن يعلم حين صلاته بين يدي من هو واقف ، وليجتهد بإفراغ قلبه عما سوى اللّه ، فيلازم الخشوع والخضوع والخوف ويتذكر وقوفه في موقف القيامة لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم ولهذا البحث صلة في أول سورة المؤمنين في ج 2 ، وليعلم أن اللّه لا يقبل عملا من قلب غافل لاه هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 172. 174 ﴾

(20/833)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الدين

مكية أو مدنية أو نصفها كذا ونصفها كذا

طعام المسكين تام ساهون كاف إن لم يجعل ما بعده صفة لما قبله آخر السورة تام . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(21/833)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الماعون

مكية أو مدنية وقيل نصفها كذا ونصفها كذا

بالدين (حسن) لتناهى الاستفهام وعلى أنَّ جواب الاستفهام مقدر تقديره إن لم تبصره وتعرفه فهو ذلك ومن وصل فللفاء والأول أقعد ولا يوقف على اليتيم و الدَّع الدفع ومنه فذلك الذي يدع اليتيم أي يدفعه عن حقه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم أنكم مدعون يوم القيامة مقدمة أفواهكم بالفدام وفي القاموس و الفدامة و الفدام بكسر الفاء شيء تشده

العجم والمجوس على أفواهها عند السقي و قرئ يدع اليتيم بفتح الدال وتخفيف العين أي يتركه ويهمله وقرىء ولا يحاض من المحاضة أي لا يحض نفسه

المسكين (تام) والوقف على المصلين قبيح فإنَّه يوهم غير ما أراده الله تعالى وهو أن الوعيد الشديد بالويل للفريقين الطائع والعاصي والحال أنَّه لطائفة موصوفة بوصفين مذكورين بعده ومثله في القبح لا تقربوا الصلاة فإنَّه يوهم إباحة ترك الصلاة بالكلية وتقدم ما يغني عن إعادة ذلك صدر الكتاب

ساهون في محل الذين الحركات الثلاث الرفع والنصب والجر فكاف إن جعل في محل رفع خبر مبتدأ محذوف وكذا إن نصب بتقدير أعنى أو أذام وليس بوقف أن جعل نعتاً أو بدلاً أو بياناً

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

(22/833)

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة أرأيت :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أبو رجاء : "الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيم" .

قال أبو الفتح : معناه – والله أعلم – يعرض عنه ويجفوه ، فهو صائر إلى معنى القراءة العامة : ﴿ يَدُعُّ الْيَتِيم ﴾ ، أي : يدفعه ، ويجفوه عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 374 ﴾

(23/833)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة أرأيت

مكية وآيها ست حجازي ودمشقي وسبع عراقي وحمصي خلافها آية يراؤون عراقي وحمصي

وقرأ (أرأيت) بتسهيل الثانية نافع وأبو جعفر زاد الأزرق إبدالها ألفا مع المد للساكنين وحذفها الكسائي ووقف حمزة بالتسهيل بين بين فقط وغلظ الأزرق لام صلاتهم ويوقف لحمزة على يراؤن بالتسهيل كالواو مع المد والقصر والرسم متحد حيث لم تصور فلا يوقف بالواو

المرسوم أرأيت بحذف الألف بعد الراء في بعض المصاحف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(24/833)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الماعون "

" أرأيت " صلاتهم " يراءون ، تقدم مرارا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 357 ﴾

(25/833)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة أرأيت الماعون

قوله تعالى ﴿ أرأيت ﴾ يقرأ بتحقيق الهمزتين وبتحقيق الاولى وتليين الثانية وبتحقيق

الاولى وحذف الثانية فالحجة لمن حققهما انه اتى باللفظ على الاصل والحجة لمن لين الثانية انه كره حذفها فأبقى دليلا عليها والحجة لمن حذف الثانية أنه اجتزأ بهمزة الاستفهام من همزة الاصل لانها في الفعل المضارع ساقطة بإجماع. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 377 ﴾

(26/833)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة أرأيت 107

مكية ونظيرتها في المدنيين الكافرون والناس وفي المكي والشامي الكافرون فقط وفي الكوفي والبصري فاتحة الكتاب وقد ذكر ذلك

وكلمها خمس وعشرون كلمة ككلم أم القرآن

وحروفها مئة وخمسة وعشرون حرفا كذا قال عطاء وهو وهم والصحيح أن حروفها مئة واثنا عشر حرفا وثلاثة عشر لاختلاف المصاحف في إثبات الألف وحذفها في قوله تعالى (﴿ أرأيت ﴾) والصواب مئة وثلاثة عشر حرفا مع رسم الألف في (﴿ أرأيت ﴾) و

(﴿ صلاتهم ﴾) وأحد عشر حرفا دونهما واثنا عشر حرفا مع حذف أحدهما

وصلاتهم مرسومة بغير واو في كل المصاحف

وهي سبع آيات في الكوفي والبصري وست في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ يراؤون ﴾) عدها الكوفي والبصري ولم يعدها الباقون ورؤوس الآي

بالدين

1 اليتيم

2 المسكين

3 للمصلين

4 ساهون

5 الماعون

7 . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 291 ﴾

(27/833)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة اليتيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (فذلك) الفاء جواب شرط مقدر، تقديره: إن تأملته، أو إن طلبت علمه، و (يدع) بالتشديد: يدفع، وقرئ بفتح الدال وتخفيف العين: أي يهمله، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(28/833)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة الماعون

[سورة الماعون (107): آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1)

"أَرَأَيْتَ" الهمزة حرف استفهام وماض وفاعله "الَّذِي" مفعول به والجملة ابتدائية لا محل لها "يُكَذِّبُ" مضارع فاعله مستتر "بِالدِّينِ" متعلقان بالفعل والجملة صلة.

[سورة الماعون (107): آية 2]

فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2)

"فَذلِكَ" الفاء الفصيحة واسم الإشارة مبتدأ "الَّذِي" خبره والجملة جواب شرط مقدر لا محل لها .

"يَدُعُّ" مضارع فاعله مستتر "الْيَتِيمَ" مفعول به والجملة صلة .

[سورة الماعون (107) : آية 3]

وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (3)

"وَلا" الواو حرف عطف "لا" نافية "يَحُضُّ" مضارع فاعله مستتر "عَلى طَعامِ" متعلقان بالفعل "الْمِسْكِينِ" مضاف إليه . والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الماعون (107) : آية 4]

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4)

"فَوَيْلٌ" الفاء للسببية "ويل" مبتدأ "لِلْمُصَلِّينَ" خبر المبتدأ .

[سورة الماعون (107) : آية 5]

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (5)

"الَّذِينَ" صفة المصلين "هُمْ" مبتدأ "عَنْ صَلاتِهِمْ" متعلقان بالخبر "ساهُونَ" خبر والجملة صلة .

[سورة الماعون (107) : آية 6]

الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (6)

"الَّذِينَ" بدل من الذين السابقة "هُمْ" مبتدأ "يُراؤُنَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة الفعلية خبر المبتدأ والجملة الاسمية صلة.

[سورة الماعون (107) : آية 7]

وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ (7)

"وَيَمْنَعُونَ" مضارع وفاعله والمفعول الأول محذوف تقديره الناس "الْماعُونَ" مفعول به ثان والجملة معطوفة على ما قبلها. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس جـ 3 صـ 471﴾

(29/833)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله:

سُورَةَ أَرَأَيْت

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة أَحَادِيث

1539 - الحَدِيث الأول

كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقع لَهُ السَّهْو فِي صلَاته

قلت ورد فِي ذَلِك خَمْسَة أَحَادِيث

الحَدِيث الأول حَدِيث ذِي الْيَديْنِ رَوَاهُ الْأَئِمَّة السِّتَّة فِي كتبهمْ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِحْدَى صَلَاتي الْعشي الظّهْر أَو الْعَصْر فَصلى بِنَا رَكْعَتَيْنِ ثمَّ سلم ثمَّ قَامَ إِلَى خَشَبَة فِي مقدم الْمَسْجِد فَوضع يَدَيْهِ عَلَيْهَا يعرف فِي وَجهه الْغَضَب ثمَّ خرج سرعَان النَّاس وهم يَقُولُونَ قصرت الصَّلَاة قصرت الصَّلَاة وَفِي النَّاس أَبُو بكر وَعمر فهابا أَن يكلماه فَقَامَ رجل كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يُسَمِّيه ذَا الْيَديْنِ فَقَالَ يَا رَسُول الله أنسيت أم قصرت الصَّلَاة قَالَ لم أنس وَلم تقصر الصَّلَاة قَالَ بل نسيت يَا رَسُول الله فَأقبل عَلَى الْقَوْم وَقَالَ أصدق ذُو الْيَديْنِ فَأَوْمَئُوا أَي نعم فَرجع رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِلَى مقَامه فَصَلى الرَّكْعَتَيْنِ الْبَاقِيَتَيْنِ ثمَّ سلم ثمَّ كبر وَسجد مثل سُجُوده أَو أطول ثمَّ رفع وَكبر ثمَّ كبر وَسجد مثل سُجُوده أَو أطول ثمَّ رفع وَكبر ثمَّ سلم انْتَهَى

الحَدِيث الثَّانِي رَوَاهُ الْأَئِمَّة السِّتَّة أَيْضا عَن عبد الله بن بُحَيْنَة قَالَ صَلَّى لنا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رَكْعَتَيْنِ ثمَّ قَامَ فَلم يجلس فَقَامَ النَّاس مَعَه فَلَمَّا قضى صلَاته وانْتَظرْنَا التَّسْلِيم كبر فَسجدَ سَجْدَتَيْنِ وَهُوَ جَالس قبل التَّسْلِيم ثمَّ سلم انْتَهَى

وَهَذَا رَوَاهُ أَبُو يعْلى الْموصِلِي فِي مُسْنده بزِيَادَة فَقَالَ ثنَا شُرَيْح ثَنَا مُعَاوِيَة ثنَا إِسْمَاعِيل بن أبي خَالِد عَن قيس بن أبي حَازِم عَن سعد انه نَهَضَ فِي الرَّكْعَتَيْنِ فَسَبحُوا بِهِ فَاسْتَتَمَّ قَائِما فَلَمَّا فرغ سجد سَجْدَتي السَّهْو ثمَّ قَالَ أكُنْتُم ترَوْنَ أَنِّي أَجْلس إِنَّمَا صنعت كَمَا صنع رَسُول الله صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسلم انْتهى

الحَدِيث الثَّالِث حَدِيث ابْن مَسْعُود أخرجه الْأَئِمَّة السِّتَّة أَيْضا عَنهُ قَالَ صلى رَسُول الله صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسلم الظّهْر خمْسا فَقيل لَهُ أَزِيد فِي الصَّلَاة قَالَ وَمَا ذَاك قَالَ صليت خمْسا فَسجدَ سَجْدَتَيْنِ بَعْدَمَا سلم انْتهى

قَالَ القَاضِي عِيَاض فِي كتاب الشِّفَاء وَالصَّحِيح من الْأَحَادِيث الْوَارِدَة فِي سَهْوه صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسلم فِي الصَّلَاة ثَلَاثَة أَحَادِيث أَولهَا حَدِيث ذِي الْيَدَيْنِ وَالثَّانِي حَدِيث ابْن بُحَيْنَة وَالثَّالِث حَدِيث ابْن مَسْعُود انْتهى كَلَامه

وَهَذَا الْكَلَام مَدْخُول بِالْحَدِيثين الآخرين

الحَدِيث الرَّابِع حَدِيث عمرَان بن حُصَيْن رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه عَنهُ أَن رَسُول الله صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسلم صلى الْعَصْر فَسلم فِي ثَلَاث رَكْعَات فَقَامَ رجل يُقَال لَهُ الْخِرْبَاق فَقَالَ لَهُ يَا رَسُول الله فَذكر لَهُ صَنِيعه فَقَالَ أصدق هَذَا قَالُوا نعم فَصلى رَكْعَة ثمَّ سلم ثمَّ سجد سَجْدَتي السَّهْو ثمَّ سلم انْتهى

الحَدِيث الْخَامِس رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّامِن عشر من الْقسم الْخَامِس عَن ابْن خُزَيْمَة بسَنَدِهِ إِلَى مُعَاوِيَة بن خديج رَضِيَ اللَّهُ عَنْه قَالَ صليت مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْمغرب فسَهَا فَسلم فِي الرَّكْعَتَيْنِ ثمَّ انْصَرف فَقَالَ لَهُ رجل يَا رَسُول الله إِنَّك سَهَوْت فسلمت فِي رَكْعَتَيْنِ قَالَ فَأمر بِلَالًا فَأَقَامَ الصَّلَاة ثمَّ أتم تِلْكَ الرَّكْعَة وَسَأَلت عَن هَذَا الرجل فَقَالُوا هُوَ طَلْحَة بن عبيد الله انْتَهَى

قَالَ ابْن حبَان وَلَا تضَاد فِي هَذِه الْأَخْبَار فَإِنَّهَا صلوَات مُتَغَايِرَة فِي أَوْقَات مُخْتَلفَة فَفِي حَدِيث أبي هُرَيْرَة أَن الَّذِي أعلمهُ بسهوه ذُو الْيَدَيْنِ وَفِي خبر عمرَان

ابْن حُصَيْن الَّذِي أعلمهُ الْخِرْبَاق وَفِي حَدِيث مُعَاوِيَة بن خديج الَّذِي أعلمهُ طَلْحَة ابْن عبيد الله انْتَهَى كَلَامه

وَفِي الْمعرفَة للبيهقي رَوَاهُ أَبُو دَاوُد فِي سنَنه

1540 - الحَدِيث الثَّانِي

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا غمَّة فِي فَرَائض الله

قلت تقدم فِي سُورَة يُونُس أَيْضا وَذكره القَاضِي عِيَاض فِي الشِّفَاء

1541 - الحَدِيث الثَّالث

وَعَن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ الرِّيَاء أَخْفَى من دَبِيب النملة فِي اللَّيْلَة الْمظْلمَة على الْمسْح الْأسود

1542 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة أَرَأَيْت غفر الله لَهُ إِن كَانَ لِلزَّكَاةِ مُؤديا

(32/833)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ أخبرنَا أَبُو الْحسن مُحَمَّد بن الْقَاسِم الْقَارئ الْفَقِيه ثَنَا أَبُو مُحَمَّد بن أبي حَامِد ثَنَا أَبُو جَعْفَر مُحَمَّد بن الْحسن الْأَصْبَهَانِيّ ثَنَا مُؤَمل بن إِسْمَاعِيل ثَنَا سُفْيَان الثَّوْريّ ثَنَا أسلم الْمنْقري عَن عبد الله بن عبد الرَّحْمَن بن أَبْزَى عَن أَبِيه عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ فِي يُونُس. انْتهى انتهى. اهـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار جـ 4 صـ 297. 299﴾

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة أرأيت

سبع آيات

ويقال : سورة الماعون ، وسورة اليتيم ، وسورة الدّين «1» .

وهي مكيّة في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس . ومدنية في قول قتادة وآخرين .

[الآية الأولى]

وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ (7) .

وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ (7) قال أكثر المفسرين : هو اسم لما يتعاوزه الناس بينهم من الدلو ، والفأس ، والقدر ، ولا يمنع عادة كالماء والملح .

وقيل : هو الزكاة ، أي يمنعون زكاة أموالهم .

قال الزجاج وأبو عبيد والمبرد : الماعون في الجاهلية ما فيه منفعة من قليل أو كثير ، وأنشدوا قول الأعشى :

بأجود منه بما عونه إذا ما سماؤهم لم تغم

وقالوا أيضا : هو في الإسلام الطاعة والزكاة ، وأنشدوا قول الراعي :

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى للّه في أموالنا حقّ الزكاة منزّلا تنزيلا

قوم على الإسلام لمّا يمنعوا ماعونهم ويضيّعوا التهليلا

وقال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الماعون الماء .

---

(1) انظر : زاد المسير لابن الجوزي (9/ 243) .

(34/833)

وقيل : هو الحق على العبد على العموم .

وقيل : هو المستغل من منافع الأموال ، مأخوذ من المعن وهو القليل .

قال قطرب : أصل الماعون من قلة ، والمعن الشيء القليل ، فسمى اللّه الصدقة والزكاة ونحو ذلك من المعروف ماعونا لأنه قليل من كثير «1» . انتهى . ا هـ ﴿نيل المرام ص 468.467﴾

---

(1) انظر في تفسير هذه الآية : الطبري (30/ 203) ، النكت (4/ 529) ، الزّاد (9/ 245) ، القرطبي (20/ 213) ، الدر المنثور (6/ 401) .

(35/833)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الماعون

أهل الدين يتعرفون على حاجات الآخرين ويسارعون فى قضائها . فالدين مع الضعيف حتى يقوى ، ومع الفقير حتى يستغنى ، ومع اليتيم حتى يكبر ، ومع الهائم حتى يستقر . وقد فرط بعض المنتميين إلى الدين فى هذه الواجبات فتولدت فلسفات تكفر بالله واليوم الآخر . كانت الشيوعية آخرها ، استطاعت أن تحكم نصف العالم أو تؤثر فى النصف الباقى . ولو أن أهل الدين لاسيما المسلمون ارتبطوا بدينهم وساروا به سيرة حسنة ، ما ظهر هذا الإلحاد . إن الإيمان أخو العطاء والعدالة ، والشرك أخو الأثرة والقسوة . وتدبر قوله تعالى : " أرأيت الذي يكذب بالدين * فذلك الذي يدع اليتيم * ولا يحض على طعام المسكين " . وسورة الماعون ، على وجازتها ، ترفض العبادة الصورية ، وترى أن إعانة

محتاج شرط فى الإيمان كإقامة الصلاة وأدائها بخشوع ، وتهدد بالويل مانع الماعون عن محتاج إليه . . . ! ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 543 ﴾

(36/833)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(37/833)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الماعون

أقول : لما ذكر تعالى في سورة قريش : (الذي أطعمَهُم مِن جوعٍ) ذكر هنا ذم من لم يُحض على طعام المسكين ولما قال هناك : (فليعبدوا رب هذا البيت) ذكر هنا من سها عن صلاته .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أسرار ترتيب القرآن صـ 158 ﴾

(38/833)

قوله تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي تعالت عظمته عن كل شائبة نقص فكان له كل كمال (الرحمن) الذي عمت نعمته المحسن والمسئ فغمر الكل بالنوال (الرحيم) الذي خص أولياءه بإتمام النعمة فحباهم بنعيم الاتصال .

لما أخبر سبحانه وتعالى عن فعله معهم من الانتقام ممن تعدى حدوده فيهم ، ومن الرفق بهم بما هو غاية في الحكمة ، فكان معرفاً بأن فاعله لا يترك الناس سدى من غير جزاء ، وأمرهم آخر قريش بشكر نعمته بإفراده بالعبادة ، عرفهم أول هذه أن ذلك لا يتهيأ إلا بالتصديق بالجزاء الحامل على معالي الأخلاق الناهي عن مساوئها ، وعجب ممن يكذب بالجزاء مع وضوح الدلالة عليه بحكمة الحكيم ، ووصف المكذب به بأوصاف هم منها في غاية النفرة ، وصوّره بأشنع صورة بعثاً لهم على التصديق وزجراً عن التكذيب ، فقال خاصاً بالخطاب رأس الأمة إشارة إلى أنه لا يفهم هذا الأمر حق فهمه غيره : ﴿ أرأيت ﴾

أي أخبرني يا أكمل الخلق ﴿ الذي يكذب ﴾ أي يوقع التكذيب لمن يخبره كائناً من كان ﴿ بالدين ﴾ أي الجزائي الذي يكون يوم البعث الذي هو محط الحكمة وهو غاية الدين التكليفي الآمر بمعالي الأخلاق الناهي عن سيئها ، ومن كذب بأحدهما كذب بالآخر : ولما كان فعل الرؤية بمعنى أخبرني ، المتعدي إلى مفعولين ، كان تقدير المفعول الثاني : أليس جديراً بالانتقام منه .

(39/833)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تضمنت السور المتقدمة من الوعيد لمن انطوى على ما ذكر فيها مما هو جارٍ على حكم الجهل والظلم الكائنين في جبلة الإنسان ما تضمنت كقوله : ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ ﴿ إن الإنسان لفي خسر ﴾ ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ وانجر أثناء ذلك مما تثيره هذه الصفات الأولية ما ذكر فيها أيضاً كالشغل بالتكاثر ، والطعن على الناس ولمزهم والاغترار المهلك أصحاب الفيل أتبع ذلك بذكر صفات قد توجد في المنتمين إلى الإسلام أو يوجد بعضها أو أعمال من يتصف بها وإن لم يكن من أهلها كدع اليتيم ، وهو دفعه عن حقه وعدم الرفق به ، وعدم الحض على طعام المسكين ، والتغافل عن الصلاة والسهو عنها ، والرياء بالأعمال والزكاة والحاجات التي يضطر فيها الناس

بعضهم إلى بعض ، ويمكن أن يتضمن إبهام الماعون هذا كله ، ولا شك أن هذه الصفات توجد في المتسمين بالإسلام ، فأخبر سبحانه وتعالى أنه من صفات من يكذب بيوم الدين ولا ينتظر الجزاء والحساب ، أي إن هؤلاء هم أهلها ، ومن هذا القبيل قوله عليه الصلاة والسلم " أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً " وقوله عليه الصلاة والسلام " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن " وهذا الباب كثير في الكتاب والسنة ، وقد بسطته في كتاب " إيضاح السبيل من حديث سؤال جبريل " فمن هذا القبيل عندي – والله أعلم – قوله تعالى :

﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ أي أن هذه الصفات من دفع اليتيم وبعد الشفقة عليه ، وعدم الحض على إطعامه والسهو عن الصلاة والمراءاة بالأعمال ومنع الحاجات إن هذه كلها من شأن المكذب بالحساب والجزاء لأن نفع البعد عنها إنما يكون إذ ذاك ، فمن صدق به جرى في هذه الخصال على السنن المشكور والسعي المبرور ، ومن كذب به لم يبال بها وتأبط جميعها ، فتنزهوا أيها المؤمنون عنها ، فليست من صفاتكم في أصل إيمانكم الذي بايعتم عليه ، فمن تشبه بقوم فهو منهم ، فاحذروا هذه الرذائل فإن دع

اليتيم من الكبر الذي أهلك أصحاب الفيل ، وعدم الحض على إطعامه فإنما هو فعل البخيل الذي يحسب أن ماله أخلده ، والسهو عن الصلوات من ثمرات إلهاء التكاثر ، والشغل بالأموال والأولاد ، فنهى عباده عن هذه الرسائل التي يثمرها ما تقدم والتحمت السور - انتهى .

ولما كان المراد بهذا الجنس ، وكان من المكذبين من يخفي تكذيبه ، عرفهم بأمارات تنشأ من عمود الكفر الذي صدر به ويتفرع منه تفضحهم ، وتدل عليهم وإن اجتهدوا في الإخفاء وتوضحهم ، فقال مسبباً عن التكذيب ما هو دال عليه : ﴿ فذلك ﴾ أي البغيض البعيد من كل خير ﴿ الذي يدع ﴾ أي يدفع دفعاً عنيفاً بغاية القسوة ﴿ اليتيم ﴾ ويظلمه ولا يحث على إكرامه لأن الله تعالى نزع الرحمة من قلبه ، ولا ينزعها إلا من شقي لأنه لا حامل على الإحسان إليه إلا الخوف من الله سبحانه وتعالى ، فكان التكذيب بجزائه سبباً للغلظة عليه .

ولما كانت رحمة الضعفاء علامة على الخير ، ولذلك قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين " كانت القسوة عليهم علامة على الشر ، وكان من بخل باللين في قاله أشد بخلاً بالبذل من ماله ، قال معرفاً لأن المكذب ينزله تكذيبه إلى أسفل الدركات ، وأسوإ الصفات الحامل على شر الحركات : ﴿ ولا يحض ﴾ أي يحث نفسه وأهله ولا غيرهم حثاً عظيماً يحمى فيبعث على المراد

﴿ على طعام المسكين ﴾ أي بذله له وإطعامه إياه بل يمقته ولا يكرمه ولا يرحمه ، وتعبيره عن الإطعام - الذي هو المقصود - بالطعام الذي هو الأصل وإضافته المسكين للدلالة على أنه يشارك الغني في ماله بقدر ما فرض الله من كفايته ، وقد تضمن هذا أن علامة التكذيب بالبعث - إيذاء الضعيف والتهاون بالمعروف ، والآية من الاحتباك : الدع في الأول يدل على المقت في الثاني : والحض في الثاني يدل على مثله في الأول .

(41/833)

ولما كان هذا حاله مع الخلائق ، أتبعه حاله مع الخالق إعلاماً بأن كلاًّ منهما دالّ على خراب القلب وموجب لمقت الرب ، وأعظم الإهانة والكرب ، وأن المعاصي شؤم مهلك ، تنفيراً عنها وتحذيراً منها ، فسبب عنه قوله معبراً بأعظم ما يدل على الإهانة : ﴿ فويل ﴾ ولما كان الأصل : له - بالإضمار والإفراد ، وكان المراد ب " الذي " الجنس الصالح للواحد وما فوقه .

وكان من يستهين بالضعيف لضعفه يعرض عما لا يراه ولا يحسه لغيبته ، وكان من أضاع الصلاة كان لما سواها أضيع ، وكان من باشرها ربما ظن النجاة ولو كانت مباشرته لها على وجه الرياء أو غيره من الأمور المحيطة للعمل ، عبر بالوصف تعميماً وتعليقاً للحكم به

وشقه من الصلاة تحذيراً من الغرور ، وإشارة إلى أن الذي أثمر له تلك الخساسة هو ما تقدم من الجري مع الطبع الرديء ، وأتى بصيغة الجمع تنبيهاً على أن الكثرة ليست لها عنده عزة لأن إهانة الجمع مستلزمة لإهانة الأفراد من غير عكس فقال : ﴿ للمصلين ﴾ ولما كان الحكم إنما هو على ذات الموضع من غير اعتبار لوصفه بالفعل علم أن المقصود إنما هو من كان مكلفاً بالصلاة لأن من كان متلبساً بها مثل قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار " فلذلك وصفهم بقوله : ﴿ الذين هم ﴾ أي بضمائرهم وخالص سرائرهم .

(42/833)

ولما كان المراد تضييعهم قال : ﴿ عن ﴾ دون في ﴿ صلاتهم ﴾ أي هي جديره بأن تضاف إليهم لوجوبها عليهم وإيجابها لأجل مصالحهم ومنافعهم بالتزكية وغيرها ﴿ ساهون ﴾ أي عريقون في الغفلة عنها وتضييعها وعدم المبالاة بها وقلة الالتفات إليها ، ويوضح ذلك أن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قرأ " لاهون " وفائدة التعبير بالوصف الدلالة على ثبوته لهم ثبوتاً يوجب أن لا يذكروها من ذات أنفسهم أصلاً ، ولذلك كشفه بما بعده ، روى البغوي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل عن الآية فقال : " هو إضاعة الوقت "

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا ويصلونها إذا حضروا مع الناس .

ولما كان من كان بهذه الصفة لا نظر له لغير الحاضر كالبهائم ، قال دالاًّ على أن المراد بالسهو ههنا تضييعها عند الانفراد بالترك حساً ومعنى وعند الاجتماع بالإفساد في المعنى :

﴿ الذين هم ﴾ أي بجملة سرائرهم ﴿ يراؤن ﴾ أي بصلاتهم وغيرها يرون الناس أنهم يفعلون الخير ليراهم الناس فيروهم الثناء عليهم والإحسان إليهم ولو بكف ما هم يستحقونه من السيف عنهم ، لا لرجاء الثواب ولا لمخوف العقاب من الله سبحانه وتعالى ، ولذلك يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس .

(43/833)

ولما كان من كان بهذه الصفة ربما فعل قليل الخير دون جليله رياء ، بين أنهم غلب عليهم الشح حتى أنهم مع كثرة الرياء منهم لم يقدروا على أن يراؤوا بهذا الشيء التافه ، فانسلخوا من جميع خلال المكارم ، فقال إبلاغاً في ذمهم إشعاراً بأن أحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله : ﴿ ويمنعون ﴾ أي على تجدد الأوقات ، وحذف المفعول الأول تعمماً حتى يشمل كل أحد وإن جل وعظمت منزلته ولطف محله من قلوبهم تعريفاً بأنهم بلغوا من الرذالة دركة

ليس وراءها للحسد موضع ﴿ الماعون ﴾ أي حقوق الأموال والشيء اليسير من المنافع مثل إعارة التافه من متاع البيت التي جرت عادة الناس أن يتعاوروه بينهم ، ويمنعون أهل الحاجة ما أوجب الله لهم في أموالهم من الحقوق ، والحاصل أنه ينبغي حمل ذلك على منع ما يجب بذله مثل فضل الكلأ والماء والزكاة ونحوه ليكون موجباً للويل ، وعلى الزكاة حمله علي وابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ والحسن وقتادة ، قال العلماء : هو مأخوذ من المعن ، وهو في اللغة الشيء اليسير ، ولذلك فسره بعضهم بالماء وبعضهم بما يعار من المتاع نحو القدر والفأس .

والدلو ، وبعضهم بالزكاة لأنه لا يؤخذ من المال على وجه الزكاة إلا شيء يسير جداً بالنسبة إليه ، وقيل : هو كل عطية أو منفعة ، وقال قطرب : هو فاعول من المعن ، والمعن : المعروف ، وقال أبو عبيدة : الماعون في الجاهلية العطاء والمنفعة وفي الإسلام الزكاة ، وقال الهروي : قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : هو العارية – ذكر هذا الأستاذ عبد الحق الإشبيلي في كتابه الواعي ، وقال ابن جرير : وأصل الماعون من كل شيء منفعته .

فدل ذلك على أنهم بلغوا نهاية التكذيب باستهانتهم بأعظم دعائم الدين واستعظامهم لأدنى أمور الدنيا ، وهذا الآخر كما ترى هو الأول لأن الذي جر إليه هو التكذيب ، ومن منع هذه الأشياء التافهة كان جديراً بأن يمنع ورود الكوثر في يوم المحشر ، وكما التقى آخرها بأولها التقت السورة كلها مع مناظرتها في العدد من أول القرآن ، وذلك أنه قد علم أن حاصل هذه السورة الإبعاد عن سفساف الأخلاق ورديها ودنيها من التكذيب بالجزاء الذي هو حكمة الوجود المثمر للإعراض عن الوفاء بحق الخلائق وطاعة الخالق ، والانجذاب مع النقائص إلى الاستهانة بالضعيف الذي لا يستهين به إلا أنذل الناس وأرذلهم ، والرياء الذي لا يلم به إلا من كان في غاية الدناءة ، فكان ذلك موجباً للميل إلى أعظم الويل ، وفي ذلك أعظم مرغب في معالي الأخلاق التي هي أضداد ما ذكر في السورة وكلا الأمرين موجود في الأنفال المناظرة لها في رد المقطع على المطلع على أتم وجه ، ليكون ذلك إشارة إلى أنها شارحة لهذا ففيه الإيماء إلى ملاحظتها عند قراءتها ، انظر إلى قوله تعالى :

﴿ الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ [الأنفال : 4] الآية ﴿ وإذا قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ﴾ [الأنفال : 32] الآية ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلاّ مكاء وتصدية ﴾ [الأنفال : 35] ﴿ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾ [الأنفال : 36] الآية ﴿ فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [الأنفال : 41] الآية ولقد انطبقت السورة بمعانيها

وتراكيبها العظيمة ونظومها ومبانيها على الأراذل الأدنياء الأسافل ، وأحاطت برؤوسهم بعد كلماتها مفردة قبل حروفها ، وأدارت عليهم كؤوس حتوفها من نوافذ الرماح بأيدي جنودها ومواضي سيوفها ، وذلك أن عدة كلماتها خمس وعشرون كلمة فإذا اعتبرتها من أول سني النبوة وازت السنة الثانية عشرة من الهجرة ، وذلك أواخر خلافة الصديق .

(45/833)

رضى الله عنه . ، وفيها لم يبق على يده أحد من المصلين الذين ارتدوا عن الإسلام بعد وفاة النبي . صلى الله عليه وسلم . أو منعوا الزكاة ، فتبين أنهم ما كانوا يصلون في حياته . صلى الله عليه وسلم . ويزكون إلا رياء الناس فعل الأدنياء الأنجاس حتى حل بهم الويل بأيدي جنود الصديق الذين جاؤوهم بالرجل والخيل فمزقوهم عن آخرهم ، ولم تمض تلك السنة إلا وقد فرغ منهم بالفراغ من بني حنيفة باليمامة وأطراف بلاد اليمن من أهل النجير ببلاد كندة والأسود العنسي من صنعاء ، وما مضت سنة ست عشرة الموازية لعدد الكلمات بالبسملة – وذلك في أوائل خلافة الفاروق – حتى زالوا من جميع جزيرة العرب وهم مشركو العرب ومتنصروهم ومتمجسوهم الذين كانوا بنواحي العراق والشام والبحرين فأسلم أكثرهم ، وذهب الباقون إلى بلاد الروم ، فحل الويل بالمرائين من أهل الصلاة فإنهم

الذين أتى إليهم نبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالصلاة فأعرضوا عنها والناس لهم تبع ، ولم يصح في هذه السورة اعتبار الضمائر لأن الدين في هذا الحد كان قد ظهر على كل ظاهر ، إلى حد لا إضمار فيه بوجه ولا عائق له ولا ساتر ، وكما أنه لا حاجة إلى الرمز بالضمائر ، لما دقت له في الخافقين من البشائر ، على رؤوس المنابر والمنائر ، فكذلك لم يناسب بعد الوصول إلى هذا الحال المكشوف ، للإيماء بالدلالة بإعداد الحروف – والله أعلم بالصواب ، وإليه المرجع والمآب . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 541 . 546﴾

(46/833)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ بعضهم (أريت) بحذف الهمزة ، قال الزجاج : وهذا ليس بالاختيار ، لأن الهمزة إنما طرحت من المستقبل نحو يرى وأرى وترى ، فأما رأيت فليس يصح عن العرب فيها ريت ،

ولكن حرف الاستفهام لما كان في أول الكلام سهل إلغاء الهمزة ، ونظيره :

صاح هل ريت أو سمعت براع . . رد في الضرع ما قرى في العلاب

وقرأ ابن مسعود (أرأيتك) بزيادة حرف الخطاب كقوله : ﴿ أَرَءيْتَكَ هذا الذى كرمت على ﴾ [الإسراء : 62] .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ معناه هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو ، فإن لم تعرفه : فهوالذى يَدُعُّ اليتيم .

واعلم أن هذا اللفظ وإن كان في صورة الاستفهام ، لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب كقولك : أرأيت فلاناً ماذا ارتكب ولماذا عرض نفسه ؟ ثم قيل : إنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وقيل : بل خطاب لكل عاقل أي أرأيت يا عاقل هذا الذي يكذب بالدين بعد ظهور دلائله ووضوح تبيانه أيفعل ذلك لا لغرض ، فكيف يليق بالعاقل جر العقوبة الأبدية إلى نفسه من غير غرض أو لأجل الدنيا ، فكيف يليق بالعاقل أن يبيع الكثير الباقي بالقليل الفاني .

المسألة الثالثة :

في الآية قولان : أحدهما : أنها مختصة بشخص معين ، وعلى هذا القول ذكروا أشخاصاً ، فقال ابن جريج : نزلت في أبي سفيان كان ينحر جزورين في كل أسبوع ، فأتاه يتيم فسأله لحماً فقرعه بعصاه ، وقال مقاتل : نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة ، والإتيان بالأفعال القبيحة ، وقال السدي : نزلت في الوليد بن المغيرة ، وحكى الماوردي أنها نزلت في أبي جهل ، وروي أنه كان وصياً ليتيم ، فجاءه وهو عريان يسأله شيئاً من مال نفسه ، فدفعه ولم يعبأ به فأيس الصبي ، فقال له أكابر قريش : قل لمحمد يشفع لك ، وكان غرضهم الاستهزاء ولم يعرف اليتيم ذلك ، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم والتمس منه ذلك ، وهو عليه الصلاة والسلام ما كان يرد محتاجاً فذهب معه إلى أبي جهل فرحب به وبذل المال لليتيم فعيره قريش ، فقالوا : صبوت ، فقال : لا والله ما صبوت ، لكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجبه يطعنها في ، وروي عن ابن عباس أنها نزلت في منافق جمع بين البخل والمراءاة والقول الثاني : أنه عام لكل من كان مكذباً بيوم الدين ، وذلك لأن إقدام الإنسان على الطاعات وإحجامه عن المحظورات إنما يكون للرغبة في الثواب والرهبة عن العقاب ، فإذا كان منكراً للقيامة لم يترك شيئاً من المشتهيات واللذات ، فثبت أن إنكار القيامة كالأصل لجميع أنواع الكفر والمعاصي .

المسألة الرابعة :

في تفسير الدين وجوه أحدها : أن يكون المراد من يكذب بنفس الدين والإسلام إما لأنه كان منكراً للصانع ، أو لأنه كان منكراً للنبوة ، أو لأنه كان منكراً للمعاد أو لشيء من الشرائع ، فإن قيل : كيف يمكن حمله على هذا الوجه ، ولا بد وأن يكون لكل أحد دين والجواب : من وجوه أحدها : أن الدين المطلق في اصطلاح أهل الإسلام ، والقرآن هو الإسلام قال : الله تعالى :

(48/833)

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] أما سائر المذاهب فلا تسمى ديناً إلا بضرب من التقييد كدين النصارى واليهود وثانيها : أن يقال : هذه المقالات الباطلة ليست بدين ، لأن الدين هو الخضوع لله وهذه المذاهب إنما هي خضوع للشهوة أو للشبهة وثالثها : وهو قول أكثر المفسرين .

أن المراد أرأيت الذي يكذب بالحساب والجزاء ، قالوا : وحمله على هذا الوجه أولى لأن من ينكر الإسلام قد يأتي بالأفعال الحميدة ويحترز عن مقابحها إذا كان مقراً بالقيامة والبعث ، أما المقدم على كل قبيح من غير مبالاة فليس هو إلا المنكر للبعث والقيامة .

فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3)

ثم قال تعالى : ﴿ فَذَلِكَ الذى يَدُعُّ اليتيم * وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ .

واعلم أنه تعالى ذكر في تعريف من يكذب الدين وصفين أحدهما : من باب الأفعال وهو قوله : ﴿ فَذَلِكَ الذى يَدُعُّ اليتيم ﴾ والثاني : من باب التروك وهو قوله : ﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ والفاء في قوله ﴿ فذلك ﴾ للسببية أي لما كان كافراً مكذباً كان كفره سبباً لدع اليتيم ، وإنما اقتصر عليهما على معنى أن الصادر عمن يكذب بالدين ليس إلا ذلك ، لأنا نعلم أن المكذب بالدين لا يقتصر على هذين بل على سبيل التمثيل ، كأنه تعالى ذكر في كل واحد من القسمين مثالاً واحداً تنبيهاً بذكره على سائر القبائح ، أو لأجل أن هاتين الخصلتين ، كما أنهما قبيحان منكران بحسب الشرع فهما أيضاً مستنكران بحسب المروءة والإنسانية ، أما قوله : ﴿ يَدُعُّ اليتيم ﴾ فالمعنى أنه يدفعه بعنف وجفوة كقوله : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور : 13] وحاصل الأمر في دع اليتيم أمور أحدها : دفعه / عن حقه وماله بالظلم والثاني : ترك المواساة معه ، وإن لم تكن المواساة واجبة .

وقد يذم المرء بترك النوافل لاسيما إذا أسند إلى النفاق وعدم الدين والثالث : يزجره ويضربه ويستخف به ، وقرئ (يدع) أي يتركه ، ولا يدعوه بدعوة ، أي يدعوا جميع الأجانب ويترك اليتيم مع أنه عليه الصلاة والسلام قال : " ما من مائدة أعظم من مائدة عليها يتيم " وقرئ يدعو اليتيم أي يدعوه رياء ثم لا يطعمه وإنما يدعوه استخداماً أو قهراً أو استطالة .

واعلم أن في قوله : ﴿ يَدُعُّ ﴾ بالتشديد فائدة ، وهي أن يدع بالتشديد معناه أنه يعتاد ذلك فلا يتناول الوعيد من وجد منه ذلك وندم عليه ، ومثله قوله تعالى : ﴿ الذين يَجْتَنِبُونَ كبائر الإثم والفواحش إِلاَّ اللمم ﴾ [النجم : 32] سمى ذنب المؤمن لمماً لأنه كالطيف والخيال يطرأ ولا يبقى ، لأن المؤمن كما يفرغ من الذنب يندم ، إنما المكذب هو الذي يصر على الذنب .

أما قوله : ﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ ففيه وجهان أحدهما : أنه لا يحض نفسه على طعام المسكين وإضافة الطعام إلى المسكين تدل على أن ذلك الطعام حق المسكين ، فكأنه منع المسكين مما هو حقه ، وذلك يدل على نهاية بخله وقساوة قلبه وخساسة طبعه والثاني : لا يحض غيره على إطعام ذلك المسكين بسبب أنه لا يتقد في ذلك الفعل ثواباً ، والحاصل أنه تعالى جعل علم التكذيب بالقيامة الإقدام على إيذاء الضعيف ومنع المعروف ، يعني أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لما صدر عنه ذلك ، فموضع الذنب هو التكذيب

بالقيامة ، وههنا سؤالان :

السؤال الأول : أليس قد لا يحض المرء في كثير من الأحوال ولا يكون آثماً ؟ الجواب : لأنه غيره ينوب منابه أو لأنه لا يقبل قوله أو لمفسدة أخرى يتوقعها ، أما ههنا فذكر أنه لا يفعل ذلك (إلا) لما أنه مكذب بالدين .

(50/833)

السؤال الثاني : لم لم يقل : ولا يطعم المسكين ؟ والجواب : إذا منع اليتيم حقه فكيف يطعم المسكين من مال نفسه ، بل هو بخيل من مال غيره ، وهذا هو النهاية في الخسة ، فلأن يكون بخيلاً بمال نفسه أولى ، وضده في مدح المؤمنين : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالمرحمة ﴾ [البلد : 17] ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر .

﴾ [العصر : 3]

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5)

ثم قال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لّلْمُصَلّينَ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

في كيفية اتصال هذه الآية بما قبلها وجوه أحدها : أنه لا يفعل إيذاء اليتيم والمنع من الإطعام

دليلاً على النفاق فالصلاة لا مع الخضوع والخضوع أولى أن تدل على النفاق ، لأن الإيذاء والمنع من النفع معاملة مع المخلوق ، أما الصلاة فإنها خدمة للخالق ، وثانيها : كأنه لما ذكر إيذاء اليتيم وتركه للحض كأن سائلاً قال : أليس إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ؟ فقال له : الصلاة كيف تنهاه عن هذا الفعل المنكر وهي مصنوعة من عين الرياء والسهو وثالثها : كأنه يقول : إقدامه على إيذاء اليتيم وتركه للحض ، تقصير فيما يرجع إلى الشفقة على خلق الله ، وسهوه في الصلاة تقصير فيما يرجع إلى التعظيم لأمر الله ، فلما وقع التقصير في الأمرين فقد كملت شقاوته ، فلهذا قال : ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ واعلم أن هذا اللفظ إنما يستعمل عند الجريمة الشديدة كقوله : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [المطففين : 1] ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة : 79] ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة : 1] ويروى أن كل أحد ينوح في النار بحسب جريمته ، فقائل يقول : ويلي من حب الشرف ، وآخر يقول : ويلي من الحمية الجاهلية ، وآخر يقول : ويلي من صلاتي ، فلهذا يستحب عند سماع مثل الآية ، أن يقول : المرء ويلي إن لم يغفر لي .

المسألة الثانية :

الآية دالة على حصول التهديد العظيم بفعل ثلاثة أمور أحدها : السهو عن الصلاة وثانيها : فعل المراءاة وثالثها : منع الماعون ، وكل ذلك من باب الذنوب ، ولا يصير المرء به منافقاً فلم حكم الله بمثل هذا الوعيد على فاعل هذه الأفعال ؟ ولأجل هذا الإشكال ذكر المفسرون فيه وجوهاً أحدها : أن قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ أي فويل للمصلين من المنافقين الذين يأتون بهذه الأفعال ، وعلى هذا التقدير تدل الآية على أن الكافر له مزيد عقوبة بسبب إقدامه على محظورات الشرع وتركه لواجبات الشرع ، وهو يدل على صحة قول الشافعي : إن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع ، وهذا الجواب هو المعتمد وثانيها : ما رواه عطاء عن ابن عباس أنه لو قال الله : في صلاتهم ساهون ، لكان هذا الوعيد في المؤمنين لكنه قال : ﴿ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ والساهي عن الصلاة هو الذي لا يتذكرها ويكون فارغاً عنها ، وهذا القول ضعيف لأن السهو عن الصلاة لا يجوز أن يكون مفسراً بترك الصلاة ، لأنه تعالى أثبت لهم الصلاة بقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ وأيضاً فالسهو عن الصلاة بمعنى الترك لا يكون نفاقاً ولا كفراً فيعود الإشكال ، ويمكن أن يجاب عن الاعتراض الأول بأنه تعالى حكم عليهم بكونهم مضلين نظراً إلى الصورة وبأنهم نسوا الصلاة بالكلية نظراً إلى المعنى كما قال :

﴿ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى يُرَاءونَ الناس ولا يذكرون الله إلاَّ قليلاً ﴾ [النساء : 142] ويجاب عن الاعتراض الثاني بأن النسيان عن الصلاة هو أن يبقى ناسياً لذكر الله في جميع أجزاء الصلاة وهذا لا يصدر إلا عن المنافق الذي يعتقد أنه لا فائدة في الصلاة ، أما المسلم الذي يعتقد فيها فائدة عينية يمتنع أن لا يتذكر أمر الدين والثواب والعقاب في شيء من أجزاء الصلاة ، بل قد يحصل له السهو في الصلاة بمعنى أنه يصير ساهياً في بعض أجزاء الصلاة ، فثبت أن السهو في الصلاة من أفعال المؤمن والسهو عن الصلاة من أفعال الكافر وثالثها : أن يكون معنى : ﴿ ساهون ﴾ أي لا يتعهدون أوقات صلواتهم ولا شرائطها ، ومعناه أنه لا يبالي سواء صلى أو لم يصل ، وهو قول سعد بن أبي وقاص ومسروق والحسن ومقاتل .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في سهو الرسول عليه الصلاة والسلام في صلاته ، فقال كثير من العلماء : إنه عليه الصلاة والسلام ما سها ، لكن الله تعالى أذن له في ذلك الفعل حتى يفعل ما يفعله الساهي فيصير ذلك بياناً لذلك الشرع بالفعل والبيان بالفعل أقوى ، ثم بتقدير وقوع السهو منه فالسهو على أقسام أحدها : سهو الرسول والصحابة وذلك منجبر تارة بسجود السهو وتارة بالسنن والنوافل والثاني : ما يكون في الصلاة من الغفلة وعدم استحضار المعارف والنيات والثالث : الترك لا إلى قضاء والإخراج عن الوقت ، ومن ذلك صلاة المنافق وهي

شر من ترك الصلاة لأنه يستهزىء بالدين بتلك الصلاة .

أما قوله تعالى : ﴿ الذين هُمْ يُرَاءُونَ ﴾

فاعلم أن الفرق بين المنافق والمرائي ؛ أن المنافق هو المظهر للإيمان المبطن للكفر ، والمرائي المظهر ما ليس في قلبه من زيادة خشوع ليعتقد فيه من يراه أنه متدين ، أو تقول : المنافق لا يصلي سراً والمرائي تكون صلاته عند الناس أحسن .

(53/833)

اعلم أنه يجب إظهار الفرائض من الصلاة والزكاة لأنها شعائر الإسلام وتاركها مستحق للعن فيجب نفي التهمة بالإظهار .

إنما الإخفاء في النوافل إلا إذا أظهر النوافل ليقتدى به ، وعن بعضهم أنه رأى في المسجد رجلاً يسجد للشكر وأطالها ، فقال : ما أحسن هذا لو كان في بيتكا لكن مع هذا قالوا : لا يترك النوافل حياء ولا يأتى بها رياء ، وقلما يتيسر اجتناب الرياء ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : " الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على المسح الأسود "

فإن قيل : ما معنى المراءاة ؟ قلنا هي مفاعلة من الإراءة لأن المرائي يرى الناس عمله ، وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به .

واعلم أن قوله : ﴿ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ يفيد أمرين : إخراجها عن الوقت ، وكون الإنسان غافلاً فيها ، قوله : ﴿ الذين هُمْ يُرَاءونَ ﴾ يفيد المراءاة ، فظهر أن الصلاة يجب أن تكون خالية عن هذه الأحوال الثلاثة .

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7)

ثم لما شرح أمر الصلاة أعقبه بذكر الصلاة فقال : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ وفيه أقوال :

الأول : وهو قول أبي بكر وعلي وابن عباس وابن الحنفية وابن عمر والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والضحاك : هو الزكاة ، وفي حديث أبي : " من قرأ سورة أَرَأَيْتَ غفر الله له إن كان للزكاة مؤدياً " وذلك يوهم أن الماعون هو الزكاة ، ولأن الله تعالى ذكره عقيب الصلاة ، فالظاهر أن يكون ذلك هو الزكاة والقول الثاني : وهو قول أكثر المفسرين ، أن الماعون اسم لما لا يمنع في العادة ويسأله الفقير والغني ، ينسب مانعه إلى سوء الخلق ولؤم الطبيعة كالفأس والقدر والدلو والمقدحة والغربال والقدوم ، ويدخل فيه الملح والماء والنار .

فإنه روي : " ثلاثة لا يحل منعها ، الماء والنار والملح " ومن ذلك أن يلتمس جارك أن يخبز في تنورك ، أو يضع متاعه عندك يوماً أو نصف يوم ، وأصحاب هذا القول قالوا : الماعون فاعول من المعن .

وهو الشيء القليل ومنه ماله سعته ولا معنة أي كثير و (لا) قليل ، وسميت الزكاة ماعوناً ، لأنه يؤخذ من المال ربع العشر ، فهو قليل من كثير ، ويسمى ما يستعار في العرف كالفأس والشفرة ماعوناً ، وعلى هذا التقدير يكون معنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة ، فإن البخل بها يكون في نهاية الدناءة والركاكة ، والمنافقون كانوا كذلك ، لقوله تعالى : ﴿ الذين يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ الناس بالبخل ﴾ [النساء : 37] وقال : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ [القلم : 12] قال العلماء : ومن الفضائل أن يستكثر الرجل في منزله مما يحتاج إليه الجيران ، فيعيرهم ذلك ولا يقتصر على الواجب والقول الثالث : قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الماعون هو الماء وأنشدني فيه :

يمج بعيره الماعون مجاً . . ولعله خصه بذلك لأن أعز مفقود وأرخص موجود ، وأول شيء يسأله أهل النار الماء ، كما قال : ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الماء ﴾ [الأعراف : 50] وأول لذة يجدها أهل الجنة هو الماء ، كما قال : ﴿ وسقاهم رَبُّهُمْ ﴾ [الإنسان : 21] القول الرابع : الماعون حسن الانقياد ، يقال : رض بعيرك حتى يعطيك الماعون ، أي حتى يعطيك الطاعة .

واعلم أن الأولى أن يحمل على كل طاعة يخف فعلها لأنه أكثر فائدة ، ثم قال المحققون في الملاءمة : بين قوله : ﴿ يُرَاءونَ ﴾ وبين قوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ كأنه تعالى يقول الصلاة لي والماعون للخلق ، فما يجب جعله لي يعرضونه على الخلق وما هو حق الخلق يسترونه عنهم فكأنه لا يعامل الخلق والرب إلا على العكس فَإن قِيلَ لم لم يذكر الله اسم الكافر بعينه ؟ فإن قلت للستر عليه ، قلت لم لم يستر على آدم بل قال : ﴿ وعصى ءادَمَ رَبَّهُ ﴾ [طه : 121] ؟ والجواب : أنه تعالى ذكر زلة آدم لكن بعد موته مقروناً بالتوبة ليكون لطفاً لأولاده ، أنه أخرج من الجنة بسبب الصغيرة فكيف يطمعون في الدخول مع الكبيرة ، وأيضاً فإن وصف تلك الزلة رفعة له فإنه رجل لم يصدر عنه إلا تلك الزلة الواحدة ثم تاب عنها مثل هذه التوبة .

ولنختم تفسير هذه السورة بالدعاء : إلهنا ، هذه السورة في ذكر المنافقين والسورة التي بعدها في صفة محمد صلى الله عليه وسلم فنحن وإن لم نصل في الطاعة إلى محمد عليه الصلاة والسلام وإلى أصحابه ، لم نصل في الأفعال القبيحة إلى هؤلاء المنافقين ، فاعف عنا بفضلك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 104 . 109 ﴾

وقال السمرقندى

قوله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ الذى يُكَذِّبُ بالدين ﴾

قرأ الكسائي ، ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ بغير ألف .

وقرأ نافع بالألف بغير همزة ، والباقون بالألف والهمزة ، ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ .

وهذه كلها لغات العرب ، واللغة المعروفة بالألف والهمزة ، ومعناه ألا ترى يا محمد صلى الله عليه وسلم هذا الكافر الذي يكذب بالدين يعني : بيوم القيامة .

وقال : معناه ما تقول يا محمد في هذا الكافر ، الذي يكذب بيوم القيامة ، فكيف يكون حاله يوم القيامة .

وقال قتادة : نزلت في وهب بن عايل ، وقال جعدة بن هبيرة : نزلت في العاص بن وائل ، ويقال : هذا تهديد لجميع الكفار .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَذَلِكَ الذى يَدُعُّ اليتيم ﴾ يعني : يدفع اليتيم عن حقه ، ويقال : يمنع اليتيم حقه ويظلمه ﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ يعني : لا يحث على طعام المسكين ، ويقال : لا يطعم المسكين .

ثم قال عز وجل : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ يعني : للمنافقين ﴿ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ يعني : لاهين عنها حتى يذهب وقتها .

﴿ الذين هُمْ ﴾ الناس بالصلاة ، ولا يريدون بها وجه الله تعالى ، حتى إذا رأوا الناس صلوا ، وإذا لم يروا الناس لم يصلوا .

قوله تعالى : ﴿ يُرَاءونَ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ قال مقاتل : يمنعون الزكاة ، والماعون بلغة الحبش المال .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : يراؤون بصلاتهم ، ويمنعون الزكاة .

ويقال : الماعون يعني : المعروف كله ، الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم .

وعن أبي عبيد قال : سألت عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه عن الماعون ، قال : الماعون ما يتعاطاه الناس فيما بينهم ، مثل الفأس والقدوم والقدر والدلو ونحو ذلك .

وروى وكيع ، عن سالم بن عبد الله .

قال : سمعت عكرمة يقول : الماعون : الفأس ، والقدوم ، والقدر ، والدلو .

قلت : من منع هذا فله الويل .

قال من راءى بصلاة وسها عنها ، ومنع هذا فله الويل .

وقال القتبي : الماعون الزكاة ، ويقال : الماعون هو الماء والكلأ .

وروي عن الفراء أنه قال : هو المال ، والله تعالى أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 600. 601 ﴾

(58/833)

وقال الثعلبى :

سورة الماعون

﴿ أَرَأَيْتَ الذي يُكَذِّبُ بالدين ﴾

قال مقاتل والكلبي : نزلت في العاص بن وائل السهمي ، السدي ومقاتل بن حيان وابن كيسان : يعني الوليد بن المغيرة ، الضحاك : في عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم ، وقيل : هبيرة بن أبي وهب المخزومي ، ابن جريج : كان أبو سفيان بن حرب ينحر كل أسبوع جزورين فأتاه يتيم فسأله شيئاً فقرعه بعصاه ، فأنزل الله سبحانه فيه ﴿ أَرَأَيْتَ الذي يُكَذِّبُ بالدين ﴾ ﴿ فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ اليتيم ﴾ أي يقهره ويزجره ويدفعه عن حقّه ، الدع : الدفع في جفوة .

قرأ أبو رجاء يدع اليتيم أي يتركه ويقصر في حقه ﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الذين هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ حدّثنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا ابن الشرقي قال : حدّثنا محمد ابن إسحاق الصعالي ببغداد قال : حدّثنا عمرو بن الربيع بن طارق قال : حدّثنا عكرمة بن إبراهيم عن عبد الملك بن عمير عن مصعب بن سعيد عن سعيد قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله سبحانه : ﴿ الذين هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ قال ابن عباس : هم المنافقون يتركون الصلاة في السرّ إذا غاب الناس ويصلونها في العلانية إذا حضروا . بيانه قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى يُرَآءُونَ الناس ﴾ [النساء : 142] الآية ، مجاهد : لاهون غافلون عنها متهاونون بها ، وقال قتادة : ساه عنها لا يبالي صلى أم لم يصل .

(59/833)

وأخبرني عقيل أن أبا الفرج أخبرهم عن ابن جرير قال : حدّثنا أبو كريب قال : حدّثنا معاوية بن هشام عن شيبان النحوي عن جابر الجعفي قال : حدّثني رجل عن أبي بردة الأسلمي قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية ﴿ الذين هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ : " الله أكبر هذه خير لكم من أن لو أعطى كل رجل منكم مثل جميع

الدنيا هو الذي إن صلى لم يرج خير صلواته وأن تركها لم يخف ربه " وبه عن ابن جرير قال : حدّثني أحمد بن عبد عبد الرحيم البرقي قال : حدّثنا عمرو بن أبي مسلمة قال سمعت عمر بن سليمان يحدّث عن عطاء بن دينار أنه قال : الحمد لله الذي قال : و ﴿ الذين هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ولم يقل في صلاتهم ، الحسن : هو الذي إن صلاّها صلاها رياء وأن فاته لم يندم ، أبو العالية : لا يصلونها لمواقيتها ولا يتمّون ركوعها ولا سجودها ، وعنه أيضاً : هو الذي إذا سجد قال برأسه هكذا وهكذا ملتفتاً ، الضحاك : هم الذين يتركون الصلاة . ﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ أخبرنا أبو بكر الجمشادي حدّثنا أبو بكر القطيعي قال : حدّثنا إبراهيم بن عبد الله بن مسلم قال : حدّثنا أبو عمر الضرير قال : حدّثنا أبو عوانة عن إسماعيل السهمي عن أبي صالح عن علي رضي الله عنه ﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ قال : هي الزكاة ، وإليه ذهب ابن عمر والحسن وقتادة وابن الحنفية والضحاك .

وأخبرنا الجمشادي قال : أخبرنا العطيفي قال : حدّثنا إبراهيم بن عبد الله بن مسلم قال : حدّثنا أبو عمر الضرير قال : حدّثنا حماد عن عاصم عن زر عن عبد الله في الماعون قال : الفاس والدلو والقدر وأشباه ذلك وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس ، مجاهد عنه : هو العارية ومتاع البيت ، عطية عنه : هو الطاعة ، محمد بن كعب والكلبي : الماعون المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم ، سعيد بن المسيب والزهري ومقاتل : الماعون : المال بلغة قريش ، قال الأعشى :

بأجود منه بماعونه . . . إذا ما سماؤهم لم تغم

وأخبرنا محمد بن عبدوس في آخرين قالوا : حدّثنا محمد بن يعقوب قال : حدّثنا محمد بن الجهم قال : حدّثنا الفراء قال : سمعت بعض العرب يقول : الماعون هو الماء ، وأنشدني فيه :

يمج صَبَيْرة الماعون صباً . . . والصبير : المنجاب .

وقال أبو عبيد والمبرد : الماعون في الجاهلية : كلّ منفعة وعطية وعارية ، وهو في الإسلام : الطاعة والزكاة ، قال حسان بن قحافة : لا يحرم الماعون منه الخابطاً ، ويقول العرب : [ولقد نزلنا لصنعت بناقتك صنيعاً] تعطيك الماعون ، أي الطاعة والإنقياد ، قال الشاعر :

متى يجاهدهن بالبرين . . . يخضعن أو يعطين بالماعون

وحكى الفراء أيضاً عن بعضهم أنه قال : ماعون من الماء المعين ، وقال قطرب : أصل الماعون من القلّة ، يقول العرب : ماله سعنة ولا معنة أي شيء قليل ، فسمّى الزكاة والصدقة والمعروف ماعوناً ، لأنه قليل من كثير ، وقيل : الماعون ما لا يحل منعه مثل الماء والملح والنار ، يدل عليه ما أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا عمرو بن مرداس قال : حدّثنا

محمد بن بكر قال: حدّثنا عثمان بن مطر عن الحسن بن أبي جعفر عن علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيّب "عن عائشة أنّها قالت: يا رسول الله ما الذي لا يحلّ منعه قال: "الماء والملح والنار".

فقالت: يا رسول الله هذا الماء فما بال النار والملح؟ فقال لها: يا حميراء "من أعطى نارا فكأنما تصدّق بجميع ما طبخ بذلك النار، ومن أعطى ملحا فكأنما تصدق بجميع ما طيّب بذلك الملح، ومن سقى شربة من الماء حيث يوجد الماء فكأنما أعتق (ستين نسمة)، ومن سقى شربة ماء حيث لا يوجد الماء فكأنما إحيا نفسا" قال الراعي:

قومٌ على الاسلام لمّا يمنعوا . . . ماعونهم ويمنعوا التهليلا. انتهى انتهى. اهـ ﴿الكشف والبيان حـ 10 صـ 304.306﴾

(61/833)

وقال الزمخشرى:

سورة الماعون

مكية ثلاث آيات الأول، مدنية البقية، وآياتها 7 «نزلت بعد التكاثر» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الماعون (107) : الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4)

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ (7)

قرئ: أريت، بحذف الهمزة، وليس بالاختيار، لأن حذفها مختص بالمضارع، ولم يصح عن العرب: ريت، ولكن الذي سهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام في أوّل الكلام. ونحوه:

صاح هل ريت أو سمعت براع ردّ الضّرع ما قرى في الحلاب «1»

---

(1). لإسماعيل بن بشار، وفي حياة الحيوان ما هو صريح في أنه لنفيلة بن عبد المدان بن خرشم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان ابن هود عليه السلام وصاح مرخم، فان كان أصله يا صاحبي، فترخيمه شاذ من وجهين، لأن فيه حذف المضاف إليه وحذف بعض المضاف وكلاهما شاذ وإن كان أصله يا صاحب بلا إضافة. فهو شاذ من جهة أنه ليس علما ولا مؤنثا بالهاء. وقيل: ترخيم النكرة المقصودة جائز، وريت: أصله رأيت، فخفف بحذف الهمزة للضرورة، وكان قياس تخفيفها جعلها بين بين. لعدم سكون ما قبلها. وقرى يقرى قريا: جمع جمعا. ويروى: ثوى، أى تمكن واستقر.

والحلاب : إناء الحلب ، وروى : العلاب ، جمع علبة ، وهي محلب من جلد . يقول : يا صاحبي هل رأيت أو سمعت أن راعيا رجع في الضرع ما جمع في المحلب من اللبن . وعدى لفعلين ، أو بأحدهما بالباء ، لتضمين معنى المعلم ويجوز أن الباء زائدة . وحسن حذف همزة رأيت أن «هل» بمعنى «قد» في الأصل وهمزة الاستفهام منوية قبله وورد ذكرها قبلها قليلا ، بل قيل إنها مقدرة أيضا قيل أسماء الاستفهام كلها ، والبيت من باب التمثيل ، والمعنى :

أن الماضي لا يعود ، والواقع لا يرتفع .

(62/833)

وقرأ ابن مسعود : أرأيتك ، بزيادة حرف الخطاب ، كقوله أَرَأَيْتَكَ هذا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ والمعنى : هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو؟ إن لم تعرفه فَذلِكَ الَّذِي يكذب بالجزاء ، هو الذي يَدُعُّ الْيَتِيمَ أى : يدفعه دفعا عنيفا بجفوة وأذى ، ويرده ردّا قبيحا بزجر وخشونة . وقرئ : يدع ، أى : يترك ويجفو وَلا يَحُضُّ ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين ، جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف ، يعنى : أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد ، لخشى اللّه تعالى وعقابه ولم يقدم على ذلك ، فحين أقدم

عليه :

علم أنه مكذب ، فما أشده من كلام ، وما أخوفه من مقام ، وما أبلغه في التحذير من المعصية وأنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين ، ثم وصل به قوله فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ كأنه قال : فإذا كان الأمر كذلك ، فويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة قلة مبالاة بها ، حتى تفوتهم أو يخرج وقتها ، أو لا يصلونها كما صلاها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والسلف ولكن ينقرونها نقرا من غير خشوع وإخبات ، ولا اجتناب لما يكره فيها : من العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات ، لا يدرى الواحد منهم عن كم انصرف ، ولا ما قرأ من السور ، كما ترى صلاة أكثر من ترى الذين عادتهم الرياء بأعمالهم ومنع حقوق أموالهم .

والمعنى : أنّ هؤلاء أحق بأن يكون سهوهم عن الصلاة - التي هي عماد الدين ، والفارق بين الإيمان والكفر والرياء الذي هو شعبة من الشرك ، ومنع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام - علما على أنهم مكذبون بالدين . وكم ترى من المتسمين بالإسلام ، بل من العلماء منهم من هو على هذه الصفة ، فيا مصيبتاه . وطريقة أخرى : أن يكون فَذلِكَ عطفا على الَّذِي يُكَذِّبُ إمّا عطف ذات على ذات ، وصفة على صفة ، ويكون جواب أَرَأَيْتَ محذوفا لدلالة ما بعده عليه ، كأنه قيل : أخبرنى ، وما تقول فيمن يكذب بالجزاء ؟ وفيمن يؤذى اليتيم ولا يطعم المسكين ؟ أنعم ما يصنع ؟ ثم قال فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ أى إذا علم أنه

مسيء ، فويل للمصلين ، على معنى : فويل لهم ، إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم ، لأنهم كانوا مع التكذيب وما أضيف

إليهم ساهين عن الصلاة مرائين ، غير مزكين أموالهم . فإن قلت : كيف جعلت المصلين قائما مقام ضمير الذي يكذب ، وهو واحد ؟ قلت : معناه الجمع ، لأنّ المراد به الجنس .

فإن قلت :

أىّ فرق بين قوله عَنْ صَلاتِهِمْ وبين قولك فِي صَلاتِهِمْ ؟ قلت : معنى عَنْ : أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها ، وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشطار من المسلمين . ومعنى فِي : أنّ السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم ، وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقع له السهو في صلاته فضلا عن غيره «1» ، ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم . وعن أنس رضى اللّه عنه : الحمد للّه على أن لم يقل في صلاتهم . وقرأ ابن مسعود : لاهون . فإن قلت : ما معنى المراءاة ؟ قلت : هي مفاعلة من الإراءة ، لأنّ المرائى يرى الناس عمله ، وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به ، ولا يكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة ، فمن حق

الفرائض الإعلان بها وتشهيرها ، لقوله عليه الصلاة والسلام «ولا غمة في فرائض «2» اللّه ، لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ، فوجب إماطة التهمة بالإظهار ، وإن كان تطوعا ، فحقه أن يخفى ، لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه ، فإن أظهره قاصدا للاقتداء به كان جميلا ، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين ، فيثنى عليه بالصلاح. وعن بعضهم : أنه رأى رجلا في المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها ، فقال : ما أحسن هذا لو كان في بيتك ، وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة ، على أن اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص. ومن ثم قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على المسح.

الأسود «3»» الْماعُونَ الزكاة ، قال الراعي :

قوم على الإسلام لمّا يمنعوا ماعونهم ويضيّعوا التّهليلا «4»

---

(1) . قال المخرج : ورد في ذلك خمسة أحاديث «الأولى» قصة ذى اليدين. متفق عليها من حديث أبى هريرة من طرق عنه ومحصله أنه صلى ركعتين في الظهر أو العصر ثم سلم سهوا «الثاني» حديث عبد اللّه بن بجينة. متفق عليه أيضا في قيامه بغير تشهد أول وسجوده للسهو قبل السلام. وفيه عن سعد عن أبى يعلى «الثالث» حديث ابن مسعود متفق عليه أيضا أنه صلى اللّه عليه وسلم صلى الظهر خمسا . فقيل له في ذلك. فسجد

سجدتين بعد ما سلم» «الرابع» حديث عمران بن حسين «أنه صلى اللّه عليه وسلم صلى العصر ثلاث ركعات فقام رجل يقال له الخرباق – الحديث» «الخامس» حديث معاوية بن خديج قال «صليت مع النبي صلى اللّه عليه وسلم المغرب . فسها فيها . فسلم في ركعتين ثم انصرف» الحديث أخرجه ابن خزيمة وأبو داود وابن حبان وجزم بأن هذه القصة مغايرة لقصة عمران . وأنهما مغايرتان لقصة أبى هريرة : قلت وقد بسط العلائى القول فيه في جزء مفرد .

(2) . هو في الحديث المتقدم في سورة يونس .

(3) . لم أجده .

(4) . يقول : هم قوم ثابتون على الإسلام ، أو مع إسلامهم وزيادة عليه ، لم يمنعوا الزكاة ولا غيرها من الخيرات ، فلما لاستغراق النفي في الماضي ، وإما ترقب حصول المنفي بها فهو غالب وليس مرادا هنا ، ولم يضيعوا التهليلا : أى الصلاة ، لاشتمالها على لا إله إلا اللّه .

(64/833)

وعن ابن مسعود : ما يتعاون في العادة من الفأس والقدر والدلو والمقدحة ونحوها . وعن عائشة الماء والنار والملح ، وقد يكون منع هذه الأشياء محظورا في الشريعة إذا استعيرت

عن اضطرار ، وقبيحا في المروءة في غير حال الضرورة .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة أرأيت غفر اللّه له إن كان للزكاة مؤديا «1»» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 803. 806﴾

---

(1) . أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي باسنادهم إلى أبى بن كعب . [. . . . .]

(65/833)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ أرأيتَ الذي يُكَذِّبُ بالدِّين ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : يعني بالحساب ، قاله عكرمة ومجاهد .

الثاني : بحكم الله تعالى ، قاله ابن عباس .

الثالث : بالجزاء الثواب والعقاب .

واختلف فيمن نزل هذا فيه على خمسة أوجه :

أحدها : أنها نزلت في العاص بن وائل السهمي ، قاله الكلبي ومقاتل .

الثاني : في الوليد بن المغيرة ، قاله السدي .

الثالث : في أبي جهل .

الرابع : في عمرو بن عائذ ، قاله الضحاك .

الخامس : في أبي سفيان وقد نحر جزوراً ، فأتاه يتيم ، فسأله منها ، فقرعه بعصا ، قاله ابن جريج .

﴿ فذلك الذي يَدُعُّ اليتيمَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : بمعنى يحقر البيت ، قاله مجاهد .

الثاني : يظلم اليتيم ، قاله السدي .

الثالث : يدفع اليتيم دفعاً شديداً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يوم يُدَعُّونَ إلى نارِ جهنّمَ دعّاً ﴾ أي يُدفعون إليها دفعاً .

وفي دفعه اليتيم وجهان :

أحدهما : يدفعه عن حقه ويمنعه من ماله ظلماً له وطمعاً فيه ، قاله الضحاك .

الثاني : يدفعه إبعاداً له وزجراً ، وقد قرىء "يَدَعُ اليَتيم" مخففة ، وتأويله على هذه القراءة يترك اليتيم فلا يراعيه اطراحاً له وإعراضاً عنه .

ويحتمل على هذه القراءة تأويلاً ثالثاً : يدع اليتيم لاستخدامه وامتهانه قهراً واستطالة .

﴿ ولا يَحُضُّ على طعامِ المِسْكِين ﴾ أي لا يفعله ولا يأمر به ، وليس الذم عاماً حتى يتناول من تركه عجزاً ، ولكنهم كانوا يبخلون ويعتذرون لأنفسهم يقولون ﴿ أنطعم من لو

يشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ﴾ فنزلت هذه الآية فيهم ، ويكون معنى الكلام لا يفعلونه إن قدروا ، ولا يحثون عليه إن عجزوا .

﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ الآية ، وفي إطلاق هذا الذم إضمار ، وفيه وجهان :

أحدهما : أنه المنافق ، إن صلاها لوقتها لم يرج ثوابها ، وإن صلاها لغير وقتها لم يخش عقابها ، قاله الحسن .

(66/833)

الثاني : أن إضماره ظاهر متصل به ، وهو قوله تعالى : ﴿ الذين هم ﴾ الآية . وإتمام الآية في قوله : ﴿ فويل للمصلين ﴾ ما بعدها من قوله : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ إضماراً فيها وإن كان نطقاً ظاهراً .

وليس السهو الذي يطرأ عليه في صلاته ولا يقدر على دفعه عن نفسه هو الذي ذم به ، لأنه عفو .

وفي تأويل ما استحق به هذا الذم ستة أوجه :

أحدها : أن معنى ساهون أي لاهون ، قاله مجاهد .

الثاني : غافلون ، قاله قتادة .

الثالث : أن لا يصلّيها سراً ويصليها علانية رياء للمؤمنين ، قاله الحسن .

الرابع : هو الذي يلتفت يمنة ويسرة وهواناً بصلاته ، قاله أبو العالية .

الخامس : هو ألا يقرأ ولا يذكر الله ، قاله قطرب .

السادس : هو ما روى مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن " الذين هم عن صلاتهم ساهون " فقال : " هم الذين يؤخرون الصلاة عن مواقيتها " .

﴿ الذين هم يُراءونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : المنافقون الذين يراءون بصلاتهم ، يصلّونها مع الناس إذا حضروا ، ولا يُصلّونها إذا غابوا ، قاله علي وابن عباس .

الثاني : أنه عامّ في ذم كل من راءى لعمله ولم يقصد به إخلاصاً لوجه ربه . روي عن النبي صلى الله عيله وسلم أنه قال : " يقول الله تعالى : مَن عَمِل عملا لغيري فقد أشرك بي وأنا أغنى الشركاء عن الشرك " .

﴿ ويَمْنَعُونَ الماعونَ ﴾ فيه ثمانية تأويلات :

أحدها : أن الماعون الزكاة ، قاله علي وابن عمر والحسن وعكرمة وقتادة ، قال الراعي :

أخليفة الرحمن إنا مَعْشَرٌ . . . حُنَفاءُ نسجُد بكرةً وأصيلاً .

عَرَبٌ نرى لله في أمْوالِنا . . . حقّ الزكاة مُنزّلا تنزيلاً

قَوْمٌ على الإسلام لمّا يَمْنعوا . . . ماعونَهم ويضيّعوا التهْليلا

الثاني : أنه المعروف ، قاله محمد بن كعب .

الثالث : أنه الطاعة ، قاله ابن عباس .

الرابع : أنه المال بلسان قريش ، قاله سعيد بن المسيب والزهري .

(67/833)

الخامس : أنه الماء إذا احتيج إليه ومنه الماء المعين وهو الجاري ، قال الأعشى :

بأجود منا بماعونه . . . إذا ما سماؤهم لم تغِم

السادس : أنه ما يتعاوره الناس بينهم ، مثل الدلو والقدر والفاس ، قاله ابن عباس ، وقد روي مأثوراً .

السابع : أنه منع الحق ، قاله عبد الله بن عمر .

الثامن : أنه المستغل من منافع الأموال ، مأخوذ من المعنى وهو القليل ، قاله الطبري وابن عيسى .

ويحتمل تاسعاً : أنه المعونة بما خف فعله وقل ثقله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿النكت والعيون حـ 6 صـ 353.350﴾

وقال ابن عطية :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) ﴾

هذا توقيف وتنبيه لتتذكر نفس السامع كل من يعرفه بهذه الصفة ، وهمز أبو عمرو : " أرأيت " بخلاف عنه ولم يهمزها نافع وغيره ، و ﴿ الدين ﴾ الجزاء ثواباً وعقاباً ، والحساب هنا قريب من الجزاء ثم قال تعالى : ﴿ فذلك الذي يدعُّ اليتيم ﴾ أي ارقب فيه هذه الخلال السيئة تجدها ، ودع اليتيم : دفعه بعنف ، وذلك إما أن يكون المعنى عن إطعامه والإحسان إليه ، وإما أن يكون عن حقه وماله ، فهذا أشد ، وقرأ أبو رجاء : " يدَع " ، بفتح الدال خفيف بمعنى لا يحسن إليه ، وقوله تعالى : ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي لا يأمر بصدقة ولا يرى ذلك صواباً ، ويروى أن هذه السورة نزلت في بعض المضطرين في الإسلام بمكة الذين لم يحققوا فيه وفتنوا فافتتنوا ، وكانوا على هذه الخلق من الغشم وغلظ العشرة والفظاظة على المسلمين ، وربما كان بعضهم يصلي أحياناً مع المسلمين مدافعة وحيرة فقال تعالى فيهم : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ . قال ابن جريج : كان أبو سفيان ينحر كل أسبوع جزوراً فجاءه يتيم ، فقرعه بعصا

فنزلت السورة فيه ، وقال سعد بن أبي وقاص : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ ، فقال : هم الذين يؤخرونها عن وقتها ، يريد والله أعلم تأخير ترك وإهمال ، وإلى هذا نحا مجاهد ، وقال قتادة ﴿ ساهون ﴾ ، هو الترك لها وهم الغافلون الذين لا يبالي أحدهم صلى أو لم يصل ، وقال عطاء بن يسار : الحمد لله الذي قال ﴿ عن صلاتهم ﴾ ولم يقل في صلاتهم ، وفي قراءة ابن مسعود : "لاهون" بدل ﴿ ساهون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الذين هم يراؤون ﴾ بيان أن صلاة هؤلاء ليست لله تعالى بينة إيمان ، وإنما هي رياء للبشر فلا قبول لها ، وقرأ ابن أبي إسحاق وأبو الأشهب : "يرؤن" مهموزة مقصورة مشددة الهمزة ، وروي عن ابن أبي إسحاق : "يرؤون" بغير شد في الهمزة ، وقوله تعالى : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ وصف لهم بقلة النفع لعباد الله ، وتلك شر خلة ، وقال

(69/833)

علي بن أبي طالب وابن عمر : ﴿ الماعون ﴾ ، الزكاة ، وقال الراعي : [الكامل]

قوم على الإسلام لما يمنعوا . . . ماعونهم ويضيعوا التهليلا

وقال ابن مسعود : هو ما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والآنية والمقص ونحوه ، وقاله

الحسن وقتادة وابن الحنفية وابن زيد والضحاك وابن عباس ، وقال ابن المسيب : ﴿ الماعون ﴾ بلغة قريش : المال ، وسئل النبي صلى الله عليه وسلم : ما الشيء الذي لا يحل منعه ؟ قال : " الماء والنار والملح " روته عائشة رضي الله عنها ، وفي بعض الطرق زيادة الإبرة والخمير ، وحكى الفراء عن بعض العرب أن ﴿ الماعون ﴾ الماء : وقال ابن مسعود : كنا نعد ﴿ الماعون ﴾ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عارية القدر والدلو ونحوها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(70/833)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾

اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على ستة أقوال .

أحدها : نزلت في رجل من المنافقين ، قاله ابن عباس .

والثاني : نزلت في عمرو بن عائذ ، قاله الضحاك .

والثالث : في الوليد بن المغيرة ، قاله السدي .

والرابع : في العاص بن وائل ، قاله ابن السائب .

والخامس : في أبي سفيان بن حرب ، قاله ابن جريج .

والسادس : في أبي جهل ، حكاه الماوردي .

وفي "الدين" أربعة أقوال .

أحدها : أنه حكم الله عز وجل ، قاله ابن عباس .

والثاني : الحساب ، قاله مجاهد ، وعكرمة .

والثالث : الجزاء ، حكاه الماوردي .

والرابع : القرآن ، حكاه بعض المفسرين .

و"يَدُعُّ" بمعنى يدفع .

وقد ذكرناه في قوله تعالى : ﴿ يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم ﴾ [الطور : 13] والمعنى : أنه يدفع اليتيم عن حقه دفعاً عنيفاً ليأخذ ماله ، وقد بينا فيما سبق أنهم كانوا لا يورِّثون الصغير ، وقيل : يدفع اليتيم إبعاداً له ، لأنه لا يرجو ثواب إطعامه ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي : لا يطعمه ، ولا يأمر بإطعامه ، لأنه مكذِّب بالجزاء .

قوله تعالى : ﴿ فويل للمصلين .

الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ نزل هذا في المنافقين الذين لا يرجون لصلاتهم ثواباً ، ولا يخافون على تركها عقاباً .

فإن كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم صلوا رياءً ، وإن لم يكونوا معه لم يصلوا ، فذلك قوله

تعالى : ﴿ الذين هم يراؤون ﴾ وقال ابن مسعود : والله ما تركوها البتَّة ولو تركوها البتة كانوا كفاراً ، ولكن تركوا المحافظة على أوقاتها .

وقال ابن عباس : يؤخِّرونها عن وقتها .

ونقل عن أبي العالية أنه قال : هو الذي لا يدري عن كم انصرف ، عن شفع ، أو عن وتر .

وردَّ هذا بعض العلماء فقال : هذا ليس بشيء ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سها في صلاته ، ولأنه قال تعالى : ﴿ عن صلاتهم ﴾ ولم يقل : في صلاتهم ، ولأن ذاك لا يكاد يدخل تحت طوق ابن آدم .

(71/833)

قال الشيخ رحمه الله : قلت : ولا أظن أبا العالية أراد السهو النادر ، وإنما أراد السهو الدائم ، وذلك ينبئنا عن التفات القلب عن احترام الصلاة ، فيتوجَّه الذمُّ إلى ذلك لا إلى السهو .

وفي "الماعون" ستة أقوال .

أحدها : أنه الإبرة ، والماء ، والنار ، والفأس ، وما يكون في البيت من هذا النحو ، رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى نحوه ذهب ابن مسعود وابن عباس في رواية .

وروى عنه أبو صالح أنه قال : الماعون : المعروف كلُّه حتى ذَكَرَ القِدر ، والقصعة ،

والفأس .

وقال عكرمة : ليس الويل لمن منع هذا ، إنما الويل لمن جمعهن ، فراءى في صلاته ، وسها

عنها .

ومنع هذا .

قال الزجاج : والماعون في الجاهلية : كل ما كان فيه منفعة كالفأس ، والقدر ، والدلو ،

والقداحة ، ونحو ذلك ، وفي الإسلام أيضاً .

والثاني : أنه الزكاة ، قاله علي ، وابن يعمر ، والحسن ، وعكرمة ، وقتادة .

والثالث : أنه الطاعة ، قاله ابن عباس في رواية .

والرابع : المال ، قاله سعيد بن المسيب ، والزهري .

والخامس : المعروف ، قاله محمد بن كعب .

والسادس : الماء ذكره الفراء عن بعض العرب قال : وأنشدني :

يمج صَبِيرُهُ الماعونَ صَبّاً . . .

والصبير : السحاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿زاد المسير ـ 9 صـ 243 ـ 246﴾

(72/833)

وقال القرطبى :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الذي يُكَذِّبُ بالدين ﴾ أي بالجزاء والحساب في الآخرة ؛ وقد تقدّم في "الفاتحة" .

و ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ بإثبات الهمزة الثانية ؛ إذ لا يُقال في أرأيت : رَيْت ، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفاً ؛ ذكره الزّجاج.

وفي الكلام حذف ؛ والمعنى : أرأيت الذي يكذب بالدين : أَمُصيب هو أم مُخْطىء .

واختلِف فيمن نزل هذا فيه ؛ فذكر أبو صالح عن ابن عباس قال : نزلت في العاص بن وائل السَّهْمِيّ ؛ وقاله الكلبيّ ومقاتل .

وروى الضحاك عنه قال : نزلت في رجل من المنافقين .

وقال السُّدّيّ : نزلت في الوليد بن المغيرة .

وقيل في أبي جهل .

الضحاك : في عمرو بن عائذ .

قال ابن جريج : نزلت في أبي سفيان ، وكان ينحر في كل أسبوع جَزُوراً ، فطلب منه يتيم شيئاً ، فقَرعه بعصاه ؛ فأنزل الله هذه السورة .

و﴿ يَدُعُّ ﴾ أي يدفع، كما قال: ﴿ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور: 13] وقد تقدّم.

وقال الضحاك عن ابن عباس.

﴿ فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ اليتيم ﴾ أي يدفعه عن حَقّه.

قتادة: يقهره ويظلمه.

والمعنى متقارِب.

وقد تقدّم في سورة "النساء" أنهم كانوا لا يُورّثون النساء ولا الصغار، ويقولون: إنما يحوز المال من يَطْعُن بالسنان، ويضرب بالحُسام.

ورُوِي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَنْ ضمّ يتيماً من المسلمين حتى يسْتَغْنِي، فقد وجبتْ له الجنة" وقد مضى هذا المعنى في غير موضع.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ أي لا يأمُرُ به، من أجل بخله وتكذيبه بالجزاء.

وهو مِثْل قوله تعالى في سورة الحاقة: ﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ [الحاقة: 34] وقد تقدّم.

وليس الذم عامّا حتى يتناول من تركه عجزاً ، ولكنهم كانوا يَبْخَلُون ويعتذرون لأنفسهم ، ويقولون : ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ اللهُ أَطْعَمَهُ ﴾ [ياس : 47] ، فنزلت هذه الآية فيهم ، وتوجه الذم إليهم .

فيكون معنى الكلام : لا يفعلونه إن قَدَرُوا ، ولا يحثُّون عليه إن عسِروا .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ أي عذاب لهم .

وقد تقدّم في غير موضع .

﴿ الذين هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ، فروى الضحاك عن ابن عباس قال : هو المصلّي الذي إن صلى لم يَرْجُ لها ثواباً ، وإن تركها لم يخشَ عليها عقاباً .

وعنه أيضاً : الذين يؤخرونها عن أوقاتها .

وكذا رَوى المغيرة عن إبراهيم ، قال : سَاهونَ بإضاعة الوقت .

وعن أبي العالية : لا يصلونها لِمَوَاقِيتِهَا ، ولا يُتِمُّون ركوعها ولا سجودها .

قلت : ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة ﴾ [مريم : 59] حَسْبَ ما تقدّم بيانه في سورة "مريم" عليها السلام .

وروي عن إبراهيم أيضاً : أنه الذي إذا سجد قام برأسه هكذا ملتفتاً .

وقال قطرب : هو ألا يقرأ ولا يذكر الله .

وفي قراءة عبد الله "الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاَتِهِمْ لاَهُون" .

وقال سعد بن أبي وقَّاص : " قال النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الذين هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ قال "الذين يُؤخِّرون الصلاة عن وقتها ، تهاوناً بها" "

وعن ابن عباس أيضاً : هم المنافقون يتركون الصلاة سِرًّا ، يصلونها علانية ﴿ وَإِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى ﴾ [النساء : 142] . . .

الآية .

ويدل على أنها في المنافقين قوله : ﴿ الذين هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ ، وقاله ابن وهب عن مالك .

قال ابن عباس : ولو قال في صلاتهم ساهون لكانت في المؤمنين .

وقال عطاء : الحمد لله الذي قال : "عَنْ صلاِتِهم" ولم يقل في صلاتهم .

(74/833)

قال الزَمَخْشَرِيُّ : فإن قلت : أيّ فرق بين قوله : "عن صلاِتهم" ، وبين قولك : في صلاتهم ؟

قلتُ : معنى "عن" أنهم ساهون عنها سهو تركٍ لها وقلةِ التفات إليها ، وذلك فعل المنافقين ، أو الفَسَقة الشُّطَّار من المسلمين .

ومعنى "في" أن السهو يعتريهم فيها ، بوسوسة شيطان ، أو حديث نفس ، وذلك لا يكاد

يخلو منه مسلم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السهو في صلاته ، فضلاً عن غيره ؛ ومِن ثمّ أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم .

قال ابن العَرَبيّ : لأن السلامة من السهو محال ، وقد سها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاته والصحابة .

وكل من لا يسهو في صلاته ، فذلك رجل لا يتدبَّرُها ، ولا يعقِل قراءتها ، وإنما همه في أعدادها ؛ وهذا رجل يأكل القشور ، ويرمِي اللب .

وما كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يسهو في صلاته إلا لفكرته في أعظم منها ؛ اللهم إلا أنه قد يسهو في صلاته من يقبل على وسواس الشيطان إذا قال له : اذكر كذا ، اذكر كذا ؛ لِما لم يكن يذكر ، حتى يضِلّ الرجل أن يدري كم صلى .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ الذين هُمْ يُرآءُونَ ﴾ أي يُرِي الناس أنه يصلي طاعة وهو يصلي تَقِيَّة ؛ كالفاسق ، يري أنه يصلي عبادة وهو يصلي ليقال : إنه يصلي .

وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة ، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس .

وأولها تحسين السَّمْت ؛ وهو من أجزاء النبوّة ، ويريد بذلك الجاهَ والثناء .

وثانيها : الرياء بالثياب القصار والخشِنة ؛ ليأخذ بذلك هيئة الزهد في الدنيا .

وثالثها : الرياء بالقول ، بإظهار التسخط على أهل الدنيا ؛ وإظهار الوعظ والتأسف على

ما يفوت من الخير والطاعة .

ورابعها : الرياء بإظهار الصلاة والصدقة أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس ؛ وذلك يطول ، وهذا دليله ؛ قاله ابن العربي .

قلت : قد تقدم في سورة "النساء وهود وآخر الكهف" القول في الرياء وأحكامه وحقيقته بما فيه كفاية .

والحمد لله .

(75/833)

الخامسة : ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة ؛ فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها ، لقوله عليه السلام : " ولا غُمة في فرائض الله "

لأنها أعلام الإسلام ، شعائر الدين ، ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ؛ فوجب إماطة التهمة بالإظهار ، وإن كان تطوّعاً فحقه أن يُخْفَى ؛ لأنه لا يلام بتركه ولا تهمة فيه ، فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً .

وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين ، فتثني عليه بالصلاح .

وعن بعضهم أنه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدة الشكر فأطالها ؛ فقال : ما

أحسن هذا لو كان في بيتك .

وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة .

وقد مضى هذا المعنى في سورة "البقرة" عند قوله تعالى : "إِن تبدوا الصدقاتِ" ، وفي غير موضع .

والحمد لله على ذلك .

السادسة : قوله تعالى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ فيه اثنا عشر قولاً : الأول : أنه زكاة أموالهم .

كذا روى الضحاك عن ابن عباس .

ورُوِي عن عليّ رضي الله عنه مثل ذلك ، وقاله مالك .

والمراد به المنافق يمنعها .

وقد رَوَى أبو بكر بن عبد العزيز عن مالك قال : بلغني أن قول الله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الذين هُمْ عَن صلاَتِهِمْ ساهُونَ * الذين هُمْ يُرآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ قال : إن المنافق إذا صلَّى صلَّى رياء ، وإن فاتته لم يندم عليها ، "ويمنعون الماعون" الزكاة التي فرض الله عليهم .

قال زيد بن أسلم : لو خَفِيت لهم الصلاة كما خفيت لهم الزكاة ما صلوا .

القول الثاني : أن "الماعون" المال ، بلسان قريش ؛ قاله ابن شهاب وسعيد بن المسيب .

وقول ثالث : أنه اسم جامع لمنافع البيت كالفأس والقدر والنار وما أشبه ذلك ؛ قاله ابن مسعود ، وروي عن ابن عباس أيضاً .

قال الأعشى :

بِأَجْوَدَ مِنهُ بماعونِهِ . . .

إِذا ما سَمَاؤُهُمُ لَمْ تَغِمِ

(76/833)

الرابع : ذكر الزجاج وأبو عُبيد والمبرّد أن الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة ، حتى الفأس والقدر والدلو والقدّاحة ، وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير ؛ وأنشدوا بيت الأعشى .

قالوا : والماعون في الإسلام : الطاعة والزكاة ؛ وأنشدوا قول الراعي :

أَخَلِيفَةَ الرحمن إنَّا مَعْشَرٌ . . .

حُنَفاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وأَصِيلاَ

عَرَبٌ نَرَى لِلَّهِ مِن أَمْوالِنا . . .

حَقَّ الزكاةِ مُنَزَّلاً تَنْزِيلاَ

قَوْمٌ على الإسلامِ لَمّا يَمْنَعُوا . . .

ماعُونَهُمْ ويُضَيِّعُوا التهليلا

يعني الزكاة.

الخامس: أنه العارِيَّة؛ روي عن ابن عباس أيضاً.

السادس: أنه المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم؛ قاله محمد بن كعب والكلبيّ.

السابع: أنه الماء والكَلأَ.

الثامن: الماء وحده.

قال الفراء: سمِعت بعض العرب يقول: الماعون: الماء؛ وأنشدني فيه:

يَمَجّ صَبِيرُه الماعونَ صَبًّا . . .

الصَّبير: السحاب.

التاسع: أنه منع الحق؛ قاله عبد الله بن عمر.

العاشر: أنه المستغل من منافع الأموال؛ مأخوذ من المَعْن وهو القليل؛ حكاه الطبريّ وابن عباس.

قال قطرب: أصل الماعون من القلة.

والمعن: الشيء القليل؛ تقول العرب: ماله سَعْنة ولا معنة؛ أي شيء قليل.

فسمى الله تعالى الزكاة والصدقة ونحوهما من المعروف ماعوناً؛ لأنه قليل من كثير.

ومن الناس من قال: الماعون: أصله مَعُونة، والألف عوض من الهاء؛ حكاه الجوهريّ.

ابن العربيّ : الماعون : مفعول من أعان يعين ، والعَوْن : هو الإمداد بالقوّة والآلات والأسباب الميسرة للأمر .

الحادي عشر : أنه الطاعة والانقياد .

حكى الأخفش عن أعرابي فصيح : لو قد نزلنا لصنعت بناقتك صنيعاً تعطيك الماعون ؛ أي تنقاد لك وتطيعك .

قال الراجز :

مَتَى تصادِفْهُنَّ في الْبرِينِ . . .

يَخْضعن أو يُعطِين بالماعونِ

(77/833)

وقيل : هو ما لا يحل منعه ، كالماء والملح والنار ؛ لأن " عائشة رضوان الله عليها قالت : قلت : يا رسول الله ، ما الشيء الذي لا يحل منعه ؟ قال : "الماء والنار والملح" قلت : يا رسول الله هذا الماء ، فما بال النار والملح ؟ فقال : "يا عائشة من أعطى ناراً فكأنما تصدّق بجميع ما طبخ بتلك النار ، ومن أعطى ملحاً فكأنما تصدق بجميع ما طيب به ذلك الملح ، ومن سَقى شَربة من الماء حيث يوجد الماء ، فكأنما أعتق ستين نسمة .

ومن سقَى شربة من الماء حيث لا يوجد ، فكأنما أحيا نَفْساً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً " " ذكره الثعلبيّ في تفسيره ، وخرّجه ابن ماجه في سننه .

وفي إسناده لِين ؛ وهو القول الثاني عشر .

الماورديّ : ويحتمل أنه المعونة بما خف فعله وقد ثقله الله .

والله أعلم .

وقيل لِعكرمة مولى ابن عباس : من منع شيئاً من المتاع كان له الويل ؟ فقال : لا ، ولكن من جمع ثلاثهن فله الويل ؛ يعني : ترك الصلاة ، والرياء ، والبُخْل بالماعون .

قلت : كونها في المنافقين أشبه ، وبهم أَخْلَق ؛ لأنهم جمعوا الأوصاف الثلاثة : ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالمال ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى يُرَآءُونَ الناس وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : 142] ، وقال : ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة : 54] .

وهذه أحوالهم ، ويبعد أن توجد من مسلم محقق ، وإن وجد بعضها فيلحقه جزء من التوبيخ ، وذلك في منع الماعون إذا تعين ؛ كالصلاة إذا تركها .

والله أعلم .

إنما يكون منعاً قبيحاً في المروءة في غير حال الضرورة .

والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾

قيل نزل في العاص بن وائل السّهمي ، وقيل في الوليد بن المغيرة ، وقيل في عمرو بن عائذ المخزومي ، وفي رواية عن ابن عباس أنها في رجل من المنافقين ، ومعنى الآية هل عرفت الذي يكذب بيوم الجزاء ، والحساب ، فإن لم تعرفه .

﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ ولفظ أرأيت استفهام ، والمراد به المبالغة في التّعجب من حال هذا المكذب بالدّين وهو خطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، وقيل هو خطاب لكل واحد ، والمعنى أرأيت يا أيها الإنسان أو يا أيّها العاقل هذا الذي يكذب بالدين بعد ظهور دلائله ، ووضوح بيانه ، فكيف يليق به ذلك الذي يدع اليتيم ، أي يقهره ، ويدفعه عن حقه ، والدع الدفع بعنف ، وجفوة ، والمعنى أنه يدفعه عن حقه ، وماله بالظلم ، وقيل يترك المواساة له وإن لم تكن المواساة واجبة ، وقيل يزجره ، ويضربه ، ويستخف به ، وقرىء يدعو بالتخفيف ، أي يدعوه ليستخدمه قهراً واستطالة .

﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي لا يطعمه ولا يأمر بإطعامه لأنه يكذب بالجزاء ،

وهذا غاية البخل ، لأنه يبخل بماله وبمال غيره بالإطعام .

قوله تعالى : ﴿ فويل للمصلين ﴾ يعني المنافقين ، ثم نعتهم فقال تعالى : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ روى البغوي بسنده عن سعد قال " سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الذين هم عن صلاتهم ساهون قال إضاعة الوقت " وقال ابن عباس : هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس .

(79/833)

ويصلون في العلانية إذا حضروا معهم لقوله تعالى ﴿ الذين هم يراؤون ﴾ وقال تعالى في وصف المنافقين ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ﴾ وقيل ساه عنها لا يبالي صلى أو لم يصل ، وقيل لا يرجون لها ثواباً إن صلوا ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا ، وقيل غافلون عنها ويتهاونون بها ، وقيل هم الذين إن صلوا صلوها رياء وإن فاتتهم لم يندموا عليها وقيل هم الذين لا يصلونها لمواقيتها ، ولا يتمون ركوعها ، ولا سجودها ، وقيل لما قال تعالى عن صلاتهم ساهون بلفظة عن علم أنها في المنافقين ، والمؤمن قد يسهو في صلاته والفرق بين السهوين أن سهو المنافق هو أن لا يتذكرها ، ويكون فارغاً عنها ، والمؤمن إذا سها في صلاته تداركه في الحال ، وجبره بسجود السهو فظهر الفرق بين السّهوين

، وقيل السّهو عن الصّلاة هو أن يبقى ناسياً لذكر الله في جميع أجزاء الصّلاة ، وهذا لا يصدر إلا من المنافق الذي يعتقد أنه لا فائدة في الصّلاة ، فأما المؤمن الذي يعتقد فائدة صلاته ، وأنها عليه واجبة ، ويرجو الثواب على فعلها ، ويخاف العقاب على تركها ، فقد يحصل له سهو في الصّلاة يعني أن يصير ساهياً في بعض أجزاء الصّلاة بسبب وارد يرد عليه بوسوسة الشّيطان أو حديث النّفس ، وذلك لا يكاد يخلو منه أحد ، ثم يذهب ذلك الوارد عنه ، فثبت بهذا الفرق أن السّهو عن الصّلاة من أفعال المنافق والسّهو في الصّلاة من أفعال المؤمن .

﴿ الذين هم يراؤون ﴾ يعني يتركون الصّلاة في السّر ويصلونها في العلانية ، والفرق بين المنافق ، والمرائي أن المنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإيمان ، والمرائي يظهر الأعمال مع زيادة الخشوع ليعتقد فيه من يراه أنه من أهل الدّين والصّلاح أما من يظهر النّوافل ليقتدى به ويأمن على نفسه من الرّياء ، فلا بأس بذلك وليس بمراء ثم وصفهم بالبخل .

(80/833)

فقال تعالى : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ روي عن علي أنه قال هي الزكاة ، وهو قول ابن عمر والحسن ، وقتادة ، والضحاك ووجه ذلك أن الله تعالى ذكرها بعد الصلاة فذمهم على ترك

الصّلاة ومنع الزكاة ، وقال ابن مسعود : الماعون الفاس والدلو والقدر ، وأشباه ذلك ، وهي رواية عن ابن عباس ، ويدل عليه ما روي عنه قال كنا نعد الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عارية الدّلو ، والقدر ، أخرجه أبو داود ، وقال مجاهد : الماعون العارية وقال عكرمة : الماعون أعلاه الزكاة المفروضة ، وأدناه عارية المتاع ، وقال محمد بن كعب القرظي : الماعون المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم وقيل أصل الماعون من القلة فسمي الزّكاة والصّدقة ، والمعروف ماعوناً لأنه قليل من كثير ، وقيل الماعون ما لا يحل منعه مثل الماء ، والملح ، والنار ، ويلتحق بذلك البئر ، والتنور في البيت فلا يمنع جيرانه من الانتفاع بهما ، ومعنى الآية الزجر عن البخل بهذه الأشياء القليلة الحقيرة ، فإن البخل بها في نهاية البخل قال العلماء ويستحب أن يستكثر الرجل في بيته مما يحتاج إليه الجيران فيعيرهم ويتفضل عليهم ولا يقتصر على الواجب ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 299. 300 ﴾

(81/833)

وقال النسفي :

سورة الماعون

مختلف فيها وهي سبع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَءيْتَ الذى يُكَذّبُ بالدين ﴾

أي هل عرفت الذي يكذب بالجزاء من هو إن لم تعرفه ﴿ فَذلِكَ الذى ﴾ يكذب بالجزاء هو الذي ﴿ يَدُعُّ اليتيم ﴾ أي يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى ويرده رداً قبيحاً بزجر وخشونة ﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ ولا يبعث أهله على بذل طعام المسكين، جعل علم التكذيب الجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف أي لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد لخشي الله وعقابه ولم يقدم على ذلك، فحين أقدم عليه دل أنه مكذب بالجزاء.

ثم وصل به قوله ﴿ فَوَيْلٌ لّلْمُصَلّينَ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ الذين هُمْ يُرَاءونَ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ يعني بهذا المنافقين لا يصلونها سراً لأنهم لا يعتقدون وجوبها ويصلونها علانية رياء.

وقيل: فويل للمنافقين الذين يدخلون أنفسهم في جملة المصلين صورة وهم غافلون عن صلاتهم، وأنهم لا يريدون بها قربة إلى ربهم ولا تأدية للفرض فهم ينخفضون ويرتفعون ولا يدرون ماذا يفعلون، ويظهرون للناس أنهم يؤدون الفرائض ويمنعون الزكاة وما فيه منفعة.

وعن أنس والحسن قالا: الحمد لله الذي قال ﴿ عَن صلاتهم ﴾ ولم يقل "في صلاتهم" لأن

معنى "عن" أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها ذلك فعل المنافقين ، ومعنى "في" أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس وذلك لا يخلو عنه مسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره .

والمراءاة مفاعلة من الإراءة لأن المرائي يرائي الناس عمله وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به ، ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار الفرائض فمن حقها الإعلان بها لقوله صلى الله عليه وسلم : " ولا غمة في فراض الله " والإخفاء في التطوع أولى فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً ، والماعون : الزكاة .

(82/833)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه : ما يتعاور في العادة من الفأس والقدر والدلو والمقدحة ونحوها ، وعن عائشة رضي الله عنها : الماء والنار والملح والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 379 ﴾

(83/833)

وقال ابن جزى :

سورة الماعون

﴿ أَرَأَيتَ الذي يُكَذِّبُ بالدين ﴾

قيل : إن هذه نزل في أبي جهل وأبي سفيان بن حرب ، وقيل : هو مطلق والدين هنا الملة أو الجزاء ﴿ فَذَلِكَ الذي يَدُعُّ اليتيم ﴾ أي يدفعه بعنف ، وهذا الدفع يحتمل أن يكون عن إطعامه ، والإحسان إليه أو عن ماله وحقوقه ، وهذا أشدّ والذي لا يحض على طعام المسكين لا يطعمه من باب أولى . وهذه الجملة هي جواب أرأيت لأن معناها : أخبرني ، فكأنه سؤال وجواب والمعنى : انظر الذي كذب بالدين ، تجد فيه هذه الأخلاق القبيحة ، والأعمال السيئة ، وإنما ذلك لأن الدين يحمل صاحبه على فعل الحسنات . وترك السيئات فمقصود الكلام ذمّ الكفار وأحوالهم ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ قيل : إن هذا نزل في عبد الله بن أبيّ بن سلول المنافق ، والسورة على هذا نصفها مكي ونصفها مدني قاله أبو زيد السهيلي . وذلك أن ذكر أبي جهل وغيره من الكفار أكثر ما جاء في السور المكية ، وذكر السهو عن الصلاة والرياء فيها ، إنما هو من صفة الذين كانوا بالمدينة ، لا سيما على قول من قال : أنها في عبد الله بن أبيّ ، وقيل : إنها مكية كلها وهو الأشهر ، ونزل آخرها على هذا في رجل أسلم بمكة ولم يكن صحيح الإيمان ، وقيل : مدنية ، والسهو عن الصلاة هو تركها أو تأخيرها تهاوناً بها .

(84/833)

وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الذين هم عن صلاتهم ساهون ، قال : الذين يؤخرونها عن وقتها . وقال عطاء بن يسار : الحمد لله الذي قال : ﴿ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ ﴾ ولم يقل في صلاتهم . ﴿ الذين هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ هو من الرياء أي صلاتهم رياء للناس لا لله ﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ وصف لهم بالبخل وقلة المنفعة للناس . وي الماعون أربعة أقوال : الأول أنه الزكاة ، والثاني أنه المال بلغة قريش . الثالث أنه الماء ، الرابع أنه ما يتعاطاه الناس بينهم كالآنية والفأس والدلو والمقص ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما الشيء الذي لا يحل منعه ؟ فقال الماء والنار والملح وزاد في بعض الطرق : الإبرة والخميرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 219 . 220﴾

(85/833)

وقال البيضاوى :

سورة الماعون

مختلف فيها ، وآيها سبع آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ استفهام معناه التعجب ، وقرئ "أريت" بلا همز إلحاقاً بالمضارع ، ولعل تصديرها بحرف الاستفهام سهل أمرها و"أرأيتك" بزيادة الكاف . ﴿ الذى يُكَذِّبُ بالدين ﴾ بالجزاء أو الإسلام والذي يحتمل الجنس والعهد ويؤيد الثاني قوله :

﴿ فَذَلِكَ الذى يَدُعُّ اليتيم ﴾ يدفعه دفعاً عنيفاً . وهو أبو جهل كان وصياً ليتيم فجاءه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه ، أو أبو سفيان نحر جزوراً فسأله يتيم لحماً فقرعه بعصاه ، أو الوليد بن المغيرة ، أو منافق بخيل . وقرئ "يَدع" أي يترك .

﴿ وَلاَ يَحُضُّ ﴾ أهله وغيرهم . ﴿ على طَعَامِ المسكين ﴾ لعدم اعتقاده بالجزاء ولذلك رتب الجملة على ﴿ يُكَذِّبُ ﴾ بالفاء .

﴿ فَوَيْلٌ لّلْمُصَلّينَ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ أي غافلون غير مبالين بها .

﴿ الذين هُمْ يُرَاءونَ ﴾ يرون الناس أعمالهم ليروهم الثناء عليهم .

﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ الزكاة أو ما يتعاور في العادة والفاء جزائية . والمعنى إذا كان عدم المبالاة باليتيم من ضعف الدين والموجب للذم والتوبيخ فالسهو عن الصلاة التي هي عماد الدين والرياء الذي هو شعبة من الكفر ، ومنع الزكاة التي هي قنطرة الإسلام أحق بذلك ولذلك رتب عليها الويل ، أو للسببية على معنى ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ لهم ، وإنما وضع المصلين

موضع الضمير للدلالة على سوء معاملتهم مع الخالق والخلق .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة أرأيت غفر له أن كان للزكاة مؤدياً " . (1)

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 534.535 ﴾

---

(1) حديث موضوع.

(86/833)

وقال أبو حيان :

سورة الماعون

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) ﴾

الظاهر أن ﴿ أرأيت ﴾ هي التي بمعنى أخبرني ، فتتعدى لاثنين ، أحدهما الذي ، والآخر محذوف ، فقدره الحوفي : أليس مستحقاً عذاب الله ، وقدره الزمخشري : من هو ، ويدل على أنها بمعنى أخبرني .

قراءة عبد الله أرأيتك بكاف الخطاب ، لأن كاف الخطاب لا تلحق البصرية .

قال الحوفي : ويجوز أن تكون من رؤية البصر ، فلا يكون في الكلام حذف ، وهمزة الاستفهام تدل على التقرير والتفهيم ليتذكر السامع من يعرفه بهذه الصفة .

والدين: الجزاء بالثواب والعقاب.

وقال الزمخشري: والمعنى هل عرفت الذي يكذب بالجزاء؟ هو الذي ﴿ يدع اليتيم ﴾: أي يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة أو أذى، ﴿ ولا يحض ﴾: أي ولا يبعث أهله على بذل الطعام للمسكين.

جعل علم التكذيب بالجزاء، منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف، انتهى.

وقرأ الجمهور: ﴿ يدع ﴾ بضم الدال وشد العين؛ وعليّ والحسن وأبو رجاء واليماني: بفتح الدال وخف العين، أي يتركه بمعنى لا يحسن إليه ويجفوه.

وقرأ الجمهور: ﴿ ولا يحض ﴾ مضارع حض؛ وزيد بن علي: يحاض مضارع حاضضت.

وقال ابن عباس: ﴿ بالدين ﴾: بحكم الله.

وقال مجاهد: بالحساب، وقيل: بالجزاء، وقيل: بالقرآن.

وقال إبراهيم ابن عرفة: ﴿ يدع اليتيم ﴾: يدفعه عن حقه.

وقال مجاهد: يدفعه عن حقه ولا يطعمه، وفي قوله: ﴿ ولا يحض ﴾ إشارة إلى أنه هو لا يطعم إذا قدره، وهذا من باب الأولى، لأنه إذا لم يحض غيره بخلاً، فلان يترك هو ذلك فعلاً أولى وأحرى، وفي إضافة طعام إلى المسكين دليل على أنه يستحقه.

ولما ذكر أولاً عمود الكفر، وهو التكذيب بالدين، ذكر ما يترتب عليه مما يتعلق بالخالق،

وهو عبادته بالصلاة ، فقال : ﴿ فويل للمصلين ﴾ .

والظاهر أن المصلين هم غير المذكور .

(87/833)

وقيل : هو داع اليتيم غير الحاض ، وأن كلاًّ من الأوصاف الذميمة ناشىء عن التكذيب بالدين ، فالمصلون هنا ، والله أعلم ، هم المنافقون ، ثبت لهم الصلاة ، وهي الهيئات التي يفعلونها .

ثم قال : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ ، نظراً إلى أنهم لا يوقعونها ، كما يوقعها المسلم من اعتقاد وجوبها والتقرب بها إلى الله تعالى .

وفي الحديث عن صلاتهم ساهون : " يؤخرونها عن وقتها تهاوناً بها " قال مجاهد : تأخير ترك وإهمال .

وقال إبراهيم : هو الذي إذا سجد قال برأسه هكذا ملتفتاً .

وقال قتادة : هو الترك لها ، أو هم الغافلون الذين لا يبالي أحدهم أصلى أم لم يصل .

وقال قطرب : هو الذي لا يقر ولا يذكر الله تعالى .

وقال ابن عباس : المنافقون يتركون الصلاة سراً ويفعلونها علانية ، ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة

قاموا كسالى ﴾ ويدل على أنها في المنافقين قوله تعالى : ﴿ الذين هم يراءون ﴾ ، وقاله ابن وهب عن مالك .

قال ابن عباس : ولو قال في صلاتهم لكانت في المؤمنين .

وقال عطاء : الحمد لله الذي قال عن صلاتهم ولم يقل في صلاتهم .

وقال الزمخشري : بعد أن قدم فيما نقلناه من كلامه ما يدل على أن ﴿ فذلك الذي يدع ﴾ في موضع رفع ، قال : وطريقة أخرى أن يكون ﴿ فذلك ﴾ عطفاً على ﴿ الذي يكذب ﴾ ، إما عطف ذات على ذات ، أو عطف صفة على صفة ، ويكون جواب ﴿ أرأيت ﴾ محذوفاً لدلالة ما بعده عليه ، كأن قال : أخبرني وما تقول فيمن يكذب بالجزاء ، وفيمن يؤذي اليتيم ولا يطعم المسكين ، أنعم ما يصنع ؟ ثم قال : ﴿ فويل للمصلين ﴾ : أي إذا علم أنه مسيء ، ﴿ فويل للمصلين ﴾ على معنى : فويل لهم ، إلا أنه وضع صفتهم موضع ضميرهم لأنهم كانوا مع التكذيب ، وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة مرائين غير مزكين أموالهم .

فإن قلت : كيف جعلت المصلين قائماً مقام ضمير ﴿ الذي يكذب ﴾ ، وهو واحد ؟

قلت : معناه الجمع ، لأن المراد به الجنس ، انتهى .

فجعل فذلك في موضع نصب عطفاً على المفعول ، وهو تركيب غريب ، كقولك : أكرمت الذي يزورنا فذلك الذي يحسن إلينا ، فالمتبادر إلى الذهن أن فذلك مرفوع بالابتداء ، وعلى تقدير النصب يكون التقدير : أكرمت الذي يزورنا فأكرمت ذلك الذي يحسن إلينا . فاسم الإشارة في هذا التقدير غير متمكن تمكن ما هو فصيح ، إذ لا حاجة إلى أن يشار إلى الذي يزورنا ، بل الفصيح أكرمت الذي يزورنا فالذي يحسن إلينا ، أو أكرمت الذي يزورنا فيحسن إلينا .

وأما قوله : إما عطف ذات على ذات فلا يصح ، لأن فذلك إشارة إلى الذي يكذب ، فليسا بذاتين ، لأن المشار إليه بقوله : ﴿ فذلك ﴾ هو واحد .

وأما قوله : ويكون جواب ﴿ أرأيت ﴾ محذوفاً ، فلا يسمى جواباً ، بل هو في موضع المفعول الثاني لأرأيت .

وأما قوله : أنعم ما يصنع ، فهمزة الاستفهام لا نعلم دخولها على نعم ولا بئس ، لأنهما إنشاء ، والاستفهام لا يدخل إلى على الخبر .

وأما وضعه المصلين موضع الضمير ، وأن المصلين جمع ، لأن ضمير الذي يكذب معناه الجمع ، فتكلف واضح ولا ينبغي أن يحمل القرآن إلا على ما اقتضاه ظاهر التركيب ، وهكذا عادة هذا الرجل يتكلف أشياء في فهم القرآن ليست بواضحة .

وتقدّم الكلام في الرياء في سورة البقرة .

وقرأ الجمهور : يراءون مضارع راأى ، على وزن فاعل ؛ وابن أبي إسحاق والأشهب : مهموزة مقصورة مشدّدة الهمزة ؛ وعن ابن أبي إسحاق : بغير شد في الهمزة .

فتوجيه الأولى إلى أنه ضعف الهمزة تعدية ، كما عدوا بالهمزة فقالوا في رأى : أرى ، فقالوا : راأى ، فجاء المضارع بأرى كيصلى ، وجاء الجمع يروّون كيصلون ، وتوجيه الثانية أن استثقل التضعيف في الهمزة فخففها ، أو حذف الألف من يراءون حذفاً لا لسبب .

﴿ ويمنعون الماعون ﴾ ، قال ابن المسيب وابن شهاب : الماعون ، بلغة قريش : المال .

وقال الفرّاء عن بعض العرب : الماعون : الماء .

(89/833)

وقال ابن مسعود وابن عباس وابن الحنفية والحسن والضحاك وابن زيد : ما يتعاطاه الناس بينهم ، كالفأس والدلو والآنية .

وفي الحديث : " سئل (صلى الله عليه وسلم) عن الشيء الذي لا يحل منعه فقال : الماء والملح والنار " وفي بعض الطرق : الإبرة والخمير .

وقال عليّ وابن عمر وابن عباس أيضاً : الماعون : الزكاة ، ومنه قول الراعي :

أخليفة الرحمن إنا معشر . . .

حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله من أموالنا . . .

حق الزكاة منزلاً تنزيلا

قوم على الإسلام لما يمنعوا . . .

ما عونهم ويضيعوا التهليلا

يعني بالماعون : الزكاة ، وهذا القول يناسبه ما ذكره قطرب من أن أصله من المعن ، وهو الشيء القليل ، فسميت الزكاة ماعوناً لأنها قليل من كثير ، وكذلك الصدقة غيرها .

وقال ابن عباس : هو العارية .

وقال محمد بن كعب والكلبي : هو المعروف كله .

وقال عبد الله بن عمر : منع الحق .

وقيل : الماء والكلأ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) ﴾

الوقوف : ﴿ بالدين ﴾ ه ط لأن قوله ﴿ فذلك ﴾ كالجزاء لشرط محذوف أي إن لم تعرفه فهو فلان ﴿ اليتيم ﴾ ه لا ﴿ المسكين ﴾ ه ج ﴿ للمصلين ﴾ ه لا ﴿ ساهون ﴾ ه لا ﴿ يراءون ﴾ ه لا ﴿ الماعون ﴾ ه.

التفسير : هذا مثال آخر لكون الإنسان في خسر . قال ابن جريج : نزلت في أبي سفيان كان ينحر جزورين في كل أسبع فأتاه يتيم فسأله لحماً فقرعه بعصاه . وقال مقاتل : نزلت في العاص بن وائل السهمي وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة والإتيان بالأفعال القبيحة . وعن السدي : نزلت في الوليد بن المغيرة وقيل : في أبي جهل . حكى الماوردى أنه كان وصياً ليتيم فجاءه وهو عريان أن يسأله شيئاً من مال نفسه فدفعه ولم يعبأ به فأيس الصبي فقال له أكابر قريش استهزاء : قل لمحمد يشفع لك فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم والتمس منه الشفاعة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لا يرد محتاجاً فذهب معه إلى أبي جهل فقام أبو جهل ورحب به وبذل المال لليتيم فعيره قريش فقالوا : صبأت فقال : لا والله ما صبأت لكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم يطعنها فيّ . وقال كثير من المفسرين : إنه عام لكل من كان مكذباً بيوم الدين والمعنى : هل عرفت الذي يكذب الجزاء من هو فإن لم تعرفه فهو الذي يدع اليتيم ، وذلك لأن إقدام الإنسان على الطاعات

وإحجامه عن المحظورات إنما يكون للرغبة في الثواب أو الرهبة من العقاب . فإذا كان منكراً للقيامة لم يترك شيئاً من المشتهيات واللذات ، فإنكار المعاد كالأصل لجميع أنواع الكفر والمعاصي ، والغرض منه لتعجيب كقولك " أرأيت فلاناً ماذا ارتكب " والخطاب لكل عاقل ، أو للرسول صلى الله عليه وسلم . وقيل : الدين ههنا هو الإسلام لأنه عند الإطلاق يقع عليه وسائر الأديان كلادين ، أو يتناولها مع التقييد كقولك " دين النصارى أو اليهود " والدع الدفع بالعنف كما مر في الطور ذكر شيئين من قبائح أفعال المكذب بالجزاء على سبيل التمثيل وسبب تخصيصهما أنهما منكران بحسب الشرع وبحسب العقل والمروءة أيضاً . وفي لفظ ﴿ يدع ﴾ بالتشديد رحمة من الله على عباده وإشارة إلى أنه إن صدر أدنى استخدام له أو شيء مما يكرهه الطبع دون الاستفخاف التام والزجر العنيف كان

معفواً عند الله ولم يكتب في زمرة المكذبين بالدين ، ولا سيما إذا كان بغير اختيار والحض الحث وقد مر في " الفجر " . ولما كان إيذاء اليتيم والمنع من الإطعام دليلاً على النفاق فالصلاة لا مع الخشوع كانت أولى بأن تدل على النفاق قال ﴿ فويل للمصلين ﴾ وجوز

جار الله أن يكون فذلك عطفاً على الذي يكذب إما عطف ذات على ذات، أو صفة على صفة، ويكون جواب ﴿ أرأيت ﴾ محذوفاً لدلالة ما بعده عليه كأنه قيل: أخبرني ما تقول فيمن يكذب بالجزاء وفيمن يؤذي اليتيم ولا يطعم المسكين، أنعم ما يصنع أو أخبرني ما تقول في وصف هذين الشخصين أمرضيّ ذلك؟ ثم قال ﴿ فويل للمصلين ﴾ أي إذا علم أنه مسيء فويل لهم، فوضع صفتهم موضع ضميرهم.

(92/833)

وجمع. لأن المراد بالذي هو الجنس ووجه الاتصال أنهم كانوا مع التكذيب وما أضيف إليهم ساهين عن الصلاة مرائين غير مزكين أموالهم. وفيه أنهم كما قصروا في شأن المخلوق حيث زجروا اليتيم ولم يحضوا على إطعام المسكين فقد قصروا في طاعة الخالق فما صلوا وما زكوا. والسهو عن الصلاة تركها رأساً أو فعلها مع قلة مبالاة بها كقوله

﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ﴾

[النساء: 142] وهو قول سعد بن أبي وقاص ومسروق والحسن ومقاتل: وفائدة عن المفيدة للبعد والمجاوزة هذه. وأما السهو في الصلاة فذلك أمر غير اختياري فلا يدخل تحت التكليف، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم سها في الصلاة، وقد أثبت الفقهاء لسجود

السهو باباً في كتبهم . وعن أنس : الحمد لله الذي لم يقر " في صلاتهم " ولعل في إضافة الصلاة إليهم إشارة إلى أن تلك الصلاة لا تليق إلا بهم لأنها كلا صلاة من حيث إنهم تركوا شرائطها وأركانها فلم يكن هناك إلا صورة صلاة صح باعتبارها إطلال المصلين عليهم في الظاهر .

ويجوز أن يطلق لفظ المصلين على تاركي الصلاة بناء على أنهم من جملة المكلفين بالصلاة ومعنى المفاعلة في المرآة أن المرائي يرى الناس عمله وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به وقد مر في قوله

﴿ رئاء الناس ﴾

[النساء : 142] و

﴿ يراءون الناس ﴾

(93/833)

[البقرة : 264] ولا بأس بالإراءة إذا كان الغرض الاقتداء أو نفي التهمة واجتناب الرياء صعب إلا على من راض نفسه وحملها على الإخلاص ومن هنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على المسح الأسود " وفي ﴿ الماعون ﴾ أقوال : فأكثر المفسرين على أنه اسم جامع لما لا يمنع في العادة ويسأله

الفقير والغني في أغلب الأحوال ولا ينسب سائله إلى لؤم بل ينسب مانعه إلى اللؤم والبخل كالفأس والقدر والدلو والمقدحة والغربال والقدوم ، ويدخل فيه الماء والملح والنار لما روي " ثلاثة لا يحل منعها الماء والنار والملح " ومن ذلك أن يلتمس جارك الخبز في تنورك أو أن يضع متاعه عندك يوماً أو نصف يوم . قالوا : هو " فاعول " من المعن وهو الشيء القليل ولا منه ماله سعنة ومعنة أي كثير وقليل . وقد تسمى الزكاة ماعوناً لأنه يؤخذ من المال ربع العشر وهو قليل من كثير .

(94/833)

قال العلماء : ومن الفضائل أن يستكثر الرجل في منزله مما يحتاج إليه الجيران فيعيرهم ذلك ولا يقتصر على قدر الضرورة ، وقد يكون منع هذه الأشياء محظوراً في الشريعة إذا استعيرت عن اضطرار . وعن أبي بكر وعلي رضي الله عنهم وابن عباس وابن الحنيفة وابن عمرو والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والضحاك : هو الزكاة لأنه تعالى ذكرها عقيب الصلاة . وقال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الماعون هو الماء ولعله خص بالذكر لأنه أعز مفقود وأرخص موجود وأول آلام أهل النار

﴿ أفيضوا علينا من الماء ﴾

[الأعراف : 50] وأول لذات أهل الجنة

﴿ وسقاهم ربهم شرابا ً ﴾

[الدهر : 21] وقيل : هو حسن الانقياد والطاعة . وفي الآيتين إشارة إلى أن الصلاة لي والماعون للخلق ، فالذي يجب أن يفعل لأجلي يرونه الناس والذي هو حق الخلق يمنعونه منهم فلا يراعون جانب التعظيم لأمر الله ولا جانب الشفقة على خلق الله وهذه كمال الشقاوة نعوذ بالله منها والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 574.572 ﴾

(95/833)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الدين وتسمى

سورة الماعون

مكية في قول عطاء وجابر وأحد قولي ابن عباس رضي الله عنهما ، ومدنية في قول له آخر وهو قول قتادة وغيره ، وهي سبع آيات وخمس وعشرون كلمة ومائة وثلاثة وعشرون حرفا ً. t

﴿ بسم الله ﴾ الذي له كل كمال ﴿ الرحمن ﴾ الذي عم جميع عباده بالنوال ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أولياءه بنعمة الإفضال.

وقوله تعالى: ﴿ أرأيت ﴾ استفهام معناه التعجب. وقرأ نافع بتسهيل الهمزة بعد الراء ولورش أيضاً إبدالها ألفاً، وأسقطها الكسائيّ. قال الزمخشريّ: وليس بالاختيار لأن حذفها مختص بالمضارع، ولم يصح عن العرب ريت، ولكن الذي سهل من أمرها وقوع حرف الاستفهام في أول الكلام، ونحوه:

*صاح هل ريت أو سمعت براع ** رد في الضرع ما قرى في الحلاب*

وخففها الباقون، والمعنى: أرأيت ﴿ الذي يكذب ﴾ أي: يوقع التكذيب لمن يخبره كائناً من كان ﴿ بالدين ﴾ أي: بالجزاء والحساب، أي: هل عرفته أم لم تعرفه.

﴿ فذلك ﴾ بتقدير هو بعد الفاء، أي: البغيض البعيد المبعد من كل خير ﴿ الذي يدُّع ﴾ أي: يدفع دفعاً عظيماً بغاية القسوة ﴿ اليتيم ﴾ ولا يحث على إكرامه لأنّ الله تعالى نزع الرحمة من قلبه، ولا ينزعها إلا من شقي لأنه لا حامل على الإحسان إليه إلا الخوف من الله تعالى، فكان التكذيب بجزائه مسبباً للغلظة عليه. وقال قتادة: يقهره ويظلمه فإنهم كانوا لا يورّثون النساء ولا الصغار، ويقولون: إنما يحوز المال من يطعن بالسنان ويضرب بالحسام. وقال صلى الله عليه وسلم "من ضم يتيماً من المسلمين حتى يستغني فقد وجبت له الجنة".

واختلف فيمن نزل ذلك فيه، فقال مقاتل: في العاص بن وائل السهمي. وقال السديّ: في الوليد بن المغيرة. وقال الضحاك: في عمرو بن عابد المخزومي. وقال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: في رجل من المنافقين. وقيل: في أبي جهل.

(96/833)

﴿ ولا يحض ﴾ أي: يحث نفسه ولا غيره ﴿ على طعام المسكين ﴾ أي: بذله له وإطعامه إياه، بل يمقته ولا يكرمه ولا يرحمه، وقد تضمن هذا أنّ علامة التكذيب بالبعث إيذاء الضعيف، والتهاون بالمعروف

ولما كان هذا مع الخلائق أتبعه حاله مع الخالق بقوله تعالى:

﴿ فويل ﴾ أي: عذاب، أو واد في جهنم ﴿ للمصلين الذين هم ﴾ أي: بضمائرهم وخالص سرائرهم ﴿ عن صلاتهم ﴾ التي هي جديرة بأن تضاف إليهم لوجوبها عليهم وإيجابها لأجل مصالحهم ومنافعهم بالتزكية وغيرها ﴿ ساهون ﴾ أي: عريقون في الغفلة عنها وتضييعها، وعدم المبالاة بها، وقلة الالتفات إليها. وروى البغويّ بسنده أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن هذه الآية فقال: "هو إضاعة الوقت". وعن ابن عباس

رضي الله عنهما أنه قال : "هم المنافقون يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس ويصلونها في العلانية مع الناس إذا حضروا" لقوله تعالى :

(97/833)

﴿ الذين هم ﴾ أي : بجملة سرائرهم ﴿ يراؤون ﴾ أي : بصلاتهم وغيرها الناس ، لأنهم يفعلون الخير ليراهم الناس لا لرجاء الثواب ، ولا لخوف العقاب من الله تعالى ، ولذلك يتركون الصلاة إذا غابوا عن الناس . وقال إبراهيم : هو الذي يلتفت في صلاته . وقال قطرب : هو الذي لا يقرأ ولا يذكر الله تعالى . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : لو قال في صلاتهم ساهون لكانت في المؤمنين . وقال عطاء : الحمد لله الذي قال تعالى : ﴿ عن صلاتهم ساهون ﴾ ولم يقل في صلاتهم ساهون فدل على أنّ الآية في المنافقين وقال قتادة : ساه عنها لا يبالي صلى أم لم يصلّ . وقال مجاهد : غافلون عنها متهاونون بها . وقال الحسن : هو الذي إن صلاها صلاها رياء ، وإن فاتته لم يندم ، وقيل : هم الذي يسهون عنها قلة مبالاة بها حتى تفوتهم ، أو يخرج وقتها ، أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف ، ولكن ينقرونها نقراً من غير خشوع ، ولا اجتناب لما يكره فيها من العبث باللحية والثياب وكثرة التثاؤب والالتفات ، لا يدري الواحد منهم عن كم انصرف ، ولا ما

قرأ من السورة ، وكما ترى صلاة أكثر من ترى من الذين عادتهم الرياء بأعمالهم ، ومنع حقوق أموالهم والمعنى : أنّ هؤلاء أحق أن يكون سهوهم عن الصلاة التي هي عماد الدين . والفارق بين الإيمان والكفر والرياء الذي هو شعبة من الشرك ومنع الزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام علماً على أنهم مكذبون بالدين ، وكم ترى من المتسمين بالإسلام بل بالعلم من هو منهم على هذه الصفة فيا مصيبتاه .

فإن قيل : كيف جعل المصلين قائماً مقام ضمير الذي يكذب ، وهو واحد ؟

أجيب : بأن معناه الجمع لأنّ المراد به الجنس . فإن قيل : أي : فرق بين قوله تعالى : ﴿ عن صلاتهم ﴾ وقولك في صلاتهم ؟

أجيب : بأن معنى عن أنهم ساهون عنها سهو ترك وقلة التفات إليها وذلك فعل المنافقين أو الفسقة الشياطين من المسلمين ، ومعنى في أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس ، وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقع له السهو في صلاته فضلاً عن غيره ، ومن ثم أثبت الفقهاء باب سجود السهو في كتبهم . وعن أنس الحمد لله على أن لم يقل في صلاتهم ،

وقد مرّت الإشارة إلى بعض ذلك . فإن قيل : ما معنى المرآة ؟

أجيب : بأنها مفاعلة من الإراءة ، لأن المرائي يري الناس عمله وهم يرونه الثناء عليه والإعجاب به ، ولا يكون الرجل مرائياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها لقوله صلى الله عليه وسلم "ولا غمة في فرائض الله" لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ، ولأنّ تاركها يستحق الذم والمقت فوجب إناطة الهمة بالإظهار ، وإن كان تطوّعاً فحقه أن يخفي لأنه مما لا يلام بتركه ولا تهمة فيه ، فإن أظهره قاصداً للاقتدار به كان جميلاً .

وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فتثني عليه بالصلاح . وعن بعضهم : أنه رأى رجلاً في المسجد قد سجد سجدة الشكر فأطال ، فقال : ما أحسن هذا لو كان في بيتك ، وإنما قال هذا لأنه توسم فيه الرياء والسمعة على أنّ اجتناب الرياء صعب إلا على المرتاضين بالإخلاص . ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم "الرياء أخفى من دبيب النملة السوداء في الليلة المظلمة على المسح الأسود " .

ثم بين أن من هو بهذه الصفة يغلب عليه الشح بقوله تعالى :

﴿ ويمنعون ﴾ أي: على تجدد الأوقات ﴿ الماعون ﴾ أي: حقوق الأموال والشيء اليسير من المنافع، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: الماعون الفأس والدلو والقدر وأشباه ذلك وهي رواية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال مجاهد: الماعون أعلاها الزكاة المفروضة، وأدناها عارية المتاع. وعن عليّ أنها الزكاة. وقال محمد بن كعب الكلبيّ: الماعون المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم. وقال قطرب: أصل الماعون من القلة، تقول العرب: ما له سعنة ولا معنة، أي: شيء قليل فسمى الزكاة والصدقة والمعروف ماعوناً لأنه قليل من كثير وقيل: الماعون ما لا يحل منعه مثل الماء والملح والنار. وقول البيضاويّ تبعاً للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة أرأيت غفر له إن كان للزكاة مؤدّياً" حديث موضوع. انتهى ا. هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 438. 441 ﴾

(100/833)

وقال أبو السعود:

﴿ أَرَءيْتَ الذى يُكَذّبُ بالدين ﴾

استفهامٌ أُريدَ بِهِ تشويقُ السامعِ إلى معرفةِ مَنْ سيقَ لَهُ الكلامُ، والتعجيبُ منْهُ. والخطابُ

لرسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم . وقيلَ : لكُلِّ عاقلٍ والرؤيةُ بمَعْنى المَعْرفةِ وقُرِئَ أرأيتَكَ بزيادةِ حَرْفِ الخطابِ والفاءُ في قولِه تعالَى : ﴿ فَذَلِكَ الذى يَدُعُّ اليتيم ﴾ جوابُ شرطٍ محذوفٍ على أنَّ ذلكَ مُبتدأٌ والموصولُ خبرُهُ والمَعْنى هَلْ عرفتَ الذي يكذبُ بالجزاءِ أو بالإسلامِ إنْ لَمْ تعرفْهُ أو إنْ أردتَ أنْ تعرفَهُ فهُوَ الذي يدفعُ اليتيمَ دفعاً عنيفاً ويزجرُهُ زَجْراً قَبيحاً ووضعُ اسمِ الإشارةِ المتعرضِ لوصفِ المشارِ إليهِ موضعَ الضميرِ للإشعارِ بعلةِ الحكمِ والتنبيهِ بمَا فيهِ من مَعْنى البُعدِ على بُعْدِ منزلتِهِ في الشرِّ والفسادِ . قيلَ : هُوَ أبو جهلٍ كانَ وصياً ليتيمٍ فأتاهُ عُرياناً يسألُهُ من مالِ نفسِه فدفعَهُ دفعاً شنيعاً ، وقيلَ : أبو سفيانَ نحرَ جزوراً فسألَهُ يتيمٌ لحماً فقرعَهُ بعصاهُ ، وقيلَ : هُوَ الوليدُ بنُ المُغيرةِ وقيلَ : هُوَ العَاصُ بنُ وائلٍ السَّهْمِيُّ ، وقيلَ : هُوَ رجُلٌ بخيلٌ مِنَ المنافقينَ ، وقيلَ : الموصولُ على عمومِهِ . وقُرِئَ يَدَعُ اليتيمَ أيْ يتركُه ويجفُوهُ ﴿ وَلاَ يَحُضُّ ﴾ أيْ أهلَهُ وغيرَهُم مِنَ الموسرينَ ﴿ على طَعَامِ المسكين ﴾ وإذَا كانَ حالُ من تركَ حَثَّ غيرِه على ما ذُكِرَ فمَا ظَنُّكَ بحالِ من تركَ ذلكَ معَ القُدرةِ عليهِ . والفاءُ في قولِه تعالَى : ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ الخ ، إما لربطِ مَا بعدَهَا بشرطٍ محذوفٍ كأنَّه قيلَ : إذَا كانَ مَا ذُكِرَ من عدمِ المُبالاةِ باليتيمِ والمسكينِ مِنْ دلاَئلِ التكذيبِ بالدِّينِ وموجباتِ الذمِّ والتوبيخِ فويلٌ ﴿ لّلْمُصَلّينَ * الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ غافلونَ غيرُ مبالينَ بهَا ﴿ الذين هُمْ يُرَاءونَ ﴾ أيْ يرونَ النَّاسَ أعمالَهُم ليروهُمْ الثناءَ عَلَيهَا ﴿ وَيَمْنَعُونَ

(101/833)

الماعون ﴾ أي الزكاةَ أو مَا يُتعَاورُ عادةً فإنَّ عدمَ المبالاةِ باليتيمِ والمسكينِ حيثُ كانَ كمَا ذُكِرَ فعدمُ المبالاةِ بالصلاةِ التي هي عمادُ الدينِ والرياءُ الذي هُوَ شعبةٌ منَ الكفرِ ومنعُ الزكاةِ التي هي قنطرةُ الإسلامِ وسوءُ المعاملةِ معَ الخلقِ أحقُّ بذلكَ وإمَّا لترتيبِ الدعاءِ عليهم بالويلِ على ما ذكرَ من قبائحِهم ووضعُ المصلينَ موضعَ ضميرِهم ليتوسلَ بذلكَ إلى بيانِ أنَّ لهُم قبائحَ أُخرَ غيرَما ذكرَ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(102/833)

وقال النخجواني :

[سورة الماعون]

فاتحة سورة الماعون

لا يخفى على من انكشف له سرائر الدين القويم وحكم الاحكام الموردة في الشرع المستقيم ومصالح التكاليف الواردة من العليم الحكيم ان سر العبودية والتدين والانقياد إنما هو

التأدب مع اللّه وحسن القيام على أداء حقوق ربوبيته ومقتضيات ألوهيته ولا شك ان من تقاصر فيه وتهاون عليه فقد انحرف عن جادة العدالة وانصرف عن طريق العبودية والتحق الويل والثبور من الله المنتقم الغيور كما أشار سبحانه في هذه السورة مستفهما على سبيل التعجب والاستبعاد فقال متيمنا بِسْمِ اللَّهِ الذي وضع الدين بين الأنام ليهديهم إلى دار السلام الرَّحْمنِ عليهم بانزال التكاليف والاحكام الرَّحِيمِ إليهم يوصلهم إلى أعلى المكانة وارفع المقام

[الآيات]

أَرَأَيْتَ أى هل عرفت وأبصرت يا أكمل الرسل المعاند المكابر الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ أى بيوم الجزاء والحساب الموعود لتنقيد الأعمال والأفعال الجارية في نشأة الاختبار

فَذلِكَ المكذب المنكر هو الَّذِي يَدُعُّ ويدفع بالعنف المفرط الْيَتِيمَ الذي جاءه لينفق من ماله الذي قد كان عنده لكونه قيما وصيا له قيل هو الوليد بن المغيرة وقيل غيره

وَما ذلك الا من غاية بخله وخساسته وإمساكه المفرط لا يَحُضُّ ولا يحث أحدا عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ وإطعامه يعنى هو لا يطعم أحدا ولا يرضى أيضاً باطعام الغير إياه من شدة شحه وإمساكه هذا امارة تكذيبه وتكذيب أمثاله بالدين والجزاء بحسب الظاهر واما بحسب الباطن

فَوَيْلٌ عظيم وعذاب اليم لِلْمُصَلِّينَ المكذبين بيوم الجزاء المنكرين بمعالم الدين المستبين لأنهم هم

(103/833)

المسرفون المفرطون

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ المفروضة لهم في الأوقات المحفوظة ساهُونَ غافلون لا يحافظون عليها في أوقاتها المعهودة المحفوظة لها ولا يواظبون على إقامتها فيها بل هم المنافقون

الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ بها على رؤس الملأ ويتركونها في خلواتهم لعدم اعتدادهم واعتقادهم بها وبما يترتب عليها من الجزاء

وَمع تهاونهم وتكاسلهم في الصلاة التي هي من أقوى اعمدة الدين وأعلى مراسم التوحيد واليقين يَمْنَعُونَ الْماعُونَ أى الزكاة المهذبة لنفوسهم عن الشح المستهجن والتقتير المستقبح المسقط للمروات والفتوات المؤدية إلى عموم الخيرات والحسنات

خاتمة سورة الماعون

عليك أيها الطالب لطريق الحق الحقيق بالاطاعة والاتباع ان تهذب ظاهرك وباطنك عن مطلق الرذائل المنافية للعدالة الإلهية وتخلى سرك وسريرتك عن الالتفات إلى ما سوى الحق

لتكون صلاتك منك ميلا حقيقيا إلى اللّه ومعراجا معنويا موصلا إلى توحيده وإياك إياك المراء والمجادلة مع بنى نوعك والاستكبار عليهم واظهار الثروة والسيادة فيما بينهم بالمال والجاه فإنها تميت قلبك وتزيد في هواك وتبعدك عن مولاك وبالجملة تضرك في أولاك وأخراك. انتهى انتهى. اهـ ﴿الفواتح الإلهية حـ 2 صـ 532. 533﴾

(104/833)

وقال الآلوسى :

﴿ أَرَءَيْتَ الذى يُكَذّبُ بالدين ﴾

استفهام أريد بن تشويق السامع إلى تعرف المكذب وإن ذلك مما يجب على المتدين ليحترز عنه وعن فعله وفيه أيضاً تعجيب منه والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له والرؤية بمعنى المعرفة المتعدية لواحد وقال الحوفي يجوز أن تكون بصرية وعلى الوجهين يجوز أن يتجوز بذلك عن الاخبار فيكون المراد بأرأيت أخبرني وحينئذ تكون متعدية لاثنين أولهما الموصول وثانيهما محذوف تقديره من هو أو أليس مستحقاً للعذاب والقول بأنه لا تكون الرؤية المتجوز بها إلا بصرية فيه نظر وكذا إطلاق القول بأن كاف الخطاب لا تلحق البصرية إذ لا مانع من ذلك بعد التجوز فلا يرجح كونها علمية قراءة عبد

الله أرأيتك بكاف الخطاب المزيدة لتأكيد التاء .

والدين الجزاء وهو أحد معانيه ومنه كما تدين تدان وفي معناه قول مجاهد الحساب أو الإسلام كما هو الأشهر ولعله مراد من فسره بالقرآن وكذا من فسره كابن عباس بحكم الله عز وجل وقرأ الكسائي أرأيت بحذف الهمزة كأنه حمل الماضي في حذف همزته على مضارعه المطرد فيه حذفها وهذا كما ألحق تعد بيعد في الإعلال ولعل تصدير الفعل هنا بهمزة الاستفهام سهل أمر الحذف فيه لمشابهته للفظ المضارع المبدوء بالهمزة ومن هنا كانت هذه القراءة أقوى توجيهاً مما في قوله

: صاح هل رأيت أو سمعت براع . . .

رد في الضرع ما قرى في العلاب

وقيل ألحق بهد همزة الاستفهام باري ماضي الأفعال لشدة مشابهته به وعدم التفاوت إلا بفتحة هي لخفتها في حكم السكون وليس بذاك وإن زعم أنه الأوجه والفاء في قوله تعالى :

﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ قيل للسببية وما بعدها مسبب عن التشويق الذي دل عليه الكلام السابق وقيل واقعة في جواب شرط محذوف على أن ذلك مبتدأ والموصول خبره

والمعنى هل عرفت الذي يكذب بالجزاء أو بالإسلام إن لم تعرفه فذلك الذي يكذب بذلك هو الذي يدع اليتيم أي يدفعه دفعاً عنيفاً ويزجره زجراً قبيحاً ووضع اسم الإشارة موضع الضمير للدلالة على التحقير وقيل للإشعار بعلة الحكم أيضاً وفي الإتيان بالموصول من الدلالة على تحقق الصلة ما لا يخفى وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه والحسن وأبو رجاء واليماني يدع بالتخفيف أي يترك اليتيم لا يحسن إليه ويجفوه.

﴿ وَلَا يَحُضُّ ﴾ أي ولا يبعث أحداً من أهله وغيرهم من الموسرين ﴿ على طَعَامِ المسكين ﴾ أي بذل طعام المسكين وهو ما يتناول من الغذاء والتعبير بالطعام دون الإطعام مع احتياجه لتقدير المضاف كما أشرنا إليه للاشعار بأن المسكين كأنه مالك لما يعطى له كما في قوله تعالى: ﴿ فِى أموالهم حَقٌّ لّلسَّائِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات: 19] فهو بيان لشدة الاستحقاق وفيه إشارة للنهي عن الامتنان وقيل الطعام هنا بمعنى الإطعام وكلام الراغب محتمل لذلك فلا يحتاج إلى تقدير لمضاف وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ولا يحاض مضارع حاضضت وهذه الجملة عطف على جملة الصلة داخلة معها في حيز التعريف للمكذب فيكون سبحانه وتعالى قد جعل علامته الإقدام على إيذاء الضعيف وعدم بذل المعروف على معنى أن ذلك من شأنه ولوازم جنسه.

﴿ فَوَيْلٌ لّلْمُصَلّينَ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾

أي غافلون غير مبالين بها حتى تفوتهم بالكلية أو يخرج وقتها أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف ولكن ينقرونها نقراً ولا يخشعون ويتجدون فيها ويتهمون وفي كل واد من الأفكار الغير المناسبة لها يهيمون فيسلم أحدهم منها ولا يدري ما قرأ فيها إلى غير ذلك مما يدل على قلة المبالاة بها وللسلف أقوال كثيرة في المراد بهذا السهو ولعل كل ذلك من باب التمثيل فعن أبي العالية هو الالتفات عن اليمين واليسار وعن قتادة عدم مبالاة المرء أصلي أم لم يصل وعن ابن عباس وجماعة تأخيرها عن وقتها وفيه حديث أخرجه غير واحد عن سعد بن أبي وقاص مرفوعاً وقال الحاكم والبيهقي وقفه أصح وعن أبي العالية هو أن لا يدري المرء عن كم انصرف عن شفع أو عن وتر وفسر بعضهم السهو عنها بتركها وقال المراد بالمصلين المتسمون بسمة أهل الصلاة إن أريد بالترك الترك رأساً وعدم الفعل بالكلية أو المصلون في الجملة إن أريد بالترك الترك أحياناً .

﴿ الذين هُمْ ﴾ الناس فيعملون حيث يروا الناس ويرونهم طلباً للثناء عليهم .

﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ أي الزكاة كما جاء عن علي كرم الله تعالى وجهه وابنه محمد بن الحنفية وابن عباس وابن عمر وزيد بن أسلم والضحاك وعكرمة ومنه قول الراعي :

أخليفة الرحمن أنا معشر . . .

حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً

عرب نرى لله من أموالنا . . .

حق الزكاة منزلاً تنزيلاً

قوم على الإسلام لما يمنعوا . . .

ما عونهم ويضيعوا التهليلا

(107/833)

وعن محمد بن كعب والكلبي المعروف كله وأخرج جماعة عن ابن مسعود تفسيره بما يعاوره الناس بينهم من القدر والدلو والفاس ونحوها من متاع البيت وجاء ذلك عن ابن عباس أيضاً في خبر رواه عنه الضياء في المختارة والحاكم وصححه والبيهقي وغيرهم ورووا فيه عدة أحاديث مرفوعة ومنع ذلك قد يكون محظوراً في الشريعة كما إذا استعير عن اضطرار وقبيحاً في المروءة كما إذا استعير في غير حال الضررة وهو على ما أخرج ابن أبي شيبة عن الزهري المال بلسان قريش وقال أبو عبيدة والزجاج والمبرد هو في الجاهلية كل ما فيه منفعة من قليل أو كثير وأريد به في الإسلام الطاعة .

واختلف في أصله فقال قطرب أصله فاعول من المعن وهو الشيء القليل وقالوا ماله معنة أي شيء قليل وقيل أصله معونة والألف عوض من الهاء فوزنه مفعل في الأصل كمكرم

فتكون الميم زائدة ووزنه بعد زيادة الألف عوضاً ما فعل وقيل هو اسم مفعول من أعان يعين وأصله معوون فقلبت فصارت عينه مكان فائه فصار موعون ثم قلبت الواو ألفاً فصار ماعوناً فوزنه معفول بتقديم العين على الفاء والفاء في قوله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ الخ جزائية والكلام ترق من ذلك المعرف إلى معرف أقوى أي إذا كان دع اليتيم والحض بهذه المثابة فما بال المصلي الذي هو ساه عن صلاته التي هي عماد الدين والفارق بين الايمان والكفر مرتكب للرياء في أعماله الذي هو شعبة من الشرك ومانع للزكاة التي هي شقيقة الصلاة وقنطرة الإسلام أو مانع لإعارة الشيء الذي تعارف الناس إعارته فضلاً عن إخراج الزكاة من ماله فذاك العلم على التكذيب الذي لا يخفى والمعرف له الذي لا يوفي والغرض التغليظ في أمر هذه الرذائل التي ابتلى بها كثير من الناس وأنها لما كانت من سماء المكذب بالدين كان على المؤمن المعتقد له أن يبعد عنها بمراحل ويتبين أن أم كل معصية التكذيب بالدين والمراد بالمكذب على هذا الجنس والإشارة لا تمنع منه كما لا يخفى.

(108/833)

وقيل هو أبو جهل وكان وصياً ليتيم فأتاه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه دفعاً شنيعاً وقال ابن جريج هو أبو سفاين نحر جزوراً فسأله يتيم لحماً فقرعه بعصاه وقيل الوليد بن

المغيرة وقيل العاص بن وائل وقيل عمرو بن عائد وقيل منافق بخيل وعلي جميع هذه الأقوال يكون معيناً وحينئذ فالقول بأن الساهين عن الصلاة المرائين أيضاً معرف قال "صاحب الكشف" غير ملائم بل يكون شبه استطراد مستفاد من الوصف المعرف أعني دع اليتيم على معنى أن الدع إذا كان حاله أنه علم المكذب فما حال السهو عن الصلاة وما عطف عليه وهما أشد من ذلك وأشد وإنما جعل شبه استطراد على ما قال لأن الكلام في التكذيب لا في التحذير من الدع بالأصالة والمراد الجنس الصادق بالجمع وكون ذلك تكلفاً واضحاً كما قيل غير واضح فكأنه قيل أخبرني ما تقول فيمن يكذبون بالدين وفيمن يؤذون اليتيم أحسن حالهم وما يصنعون أم قبيح والغرض بت القول بالقبح على أسلوب قوله تعالى :

﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة : 61] ثم قيل فويل للمصلين على معنى إذا علم أن حالهم قبيح فويل لهم فوضع المصلين موضع الضمير دلالة على أنهم مع الاتصاف بالتكذيب متصفون بهذه الأشياء أيضاً وجعل بعضهم الفاء في فويل على العطف المذكور للسببية وهذا الوجه يقتضي اتحاد المصلين والمكذبين وعليه قيل المراد بهم المنافقون بل روى

إطلاق القول بأنهم المرادون عن ابن عباس ومجاهد والإمام مالك وقال في "البحر" يدل عليه الذين هم يراؤن ويصح أن يراد بالمصلين على الاتحاد المكلفون بالصلاة ولو كفاراً غير منافقين وبسهوهم عن الصلاة تركه إياها بالكلية ويلتزم القول بأن الكفار مكلفون بالفروع مطلقاً واعترض أبو حيان ذلك الوجه بأن التركيب عليه تركيب غريب وهو كقولك أكرمت الذي يزورني فذاك الذي يحسن إلي والمتبادر إلى الذهن منه أن فذلك مرفوع بالابتداء وعلى تقدير النصب بالعطف يكون التقدير أكرمت الذي يزورني فأكرمت ذلك الذي يحسن إلي واسم الإشارة فيه غير متمكن تمكن ما هو فصيح إذ لا حاجة إليه بل الفصيح أكرمت الذي يزورني فالذي يحسن إلي أو أكرمت الذي يزورني فيحسن إلي وقيل إن اسم الإشارة هنا مقحم للإشارة إلى بعد المنزلة في الشر والفساد فتأمل وجوز أيضاً أن يكون العطف عطف ذات على ذات فالاستخبار عن حال المكذبين وحال الداعين أحسن هو أم قبيح على قياس ما مر وتعقبه في الكشف بأنه لا يلائم المقام رجوع الضمير إلى الطائفتين حتى يوضع موضع المصلين فافهم وقرأ ابن إسحاق والأشهب يرؤون بالقصر وتشديد الهمزة وفي رواية أخرى عن ابن إسحاق أنه قرأ بالقصر وترك التشديد والله تعالى أعلم.

انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 30 ص﴾

وقال الشوكانى :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) ﴾

الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلح له .

والاستفهام لقصد التعجيب من حال من يكذب بالدين .

والرؤية : بمعنى المعرفة ، والدين : الجزاء والحساب في الآخرة .

قيل : وفي الكلام حذف ، والمعنى : أرأيت الذي يكذب بالدين أمصيب هو أم مخطىء .

قال مقاتل ، والكلبي : نزلت في العاص بن وائل السهمي .

وقال السديّ : في الوليد بن المغيرة .

وقال الضحاك : في عمرو بن عائذ .

وقال ابن جريج في أبي سفيان .

وقيل : في رجل من المنافقين .

قرأ الجمهور : ﴿ أرأيت ﴾ بإثبات الهمزة الثانية .

وقرأ الكسائي بإسقاطها .

قال الزجاج : لا يقال في " رأيت " : ريت ، ولكن ألف الاستفهام سهلت الهمزة ألفاً .

وقيل الرؤية : هي البصرية ، فيتعدّى إلى مفعول واحد ، وهو الموصول ، أي : أبصرت

المكذب .

وقيل : إنها بمعنى أخبرني ، فيتعدى إلى اثنين .

الثاني محذوف ، أي من هو ؟

﴿ فَذَلِكَ الذى يَدُعُّ اليتيم ﴾ الفاء جواب شرط مقدّر ، أي إن تأملته أو طلبته ، فذلك الذي يدعّ اليتيم ، ويجوز أن تكون عاطفة على الذي يكذب : إما عطف ذات على ذات ، أو صفة على صفة .

فعلى الأوّل يكون اسم الإشارة مبتدأ ، وخبره الموصول بعده ، أو خبر لمبتدأ محذوف ، أي : فهو ذلك ، والموصول صفته .

وعلى الثاني يكون في محل نصب لعطفه على الموصول الذي هو في محل نصب .

ومعنى ﴿ يدعّ ﴾ : يدفع دفعاً بعنف ، وجفوة ، أي : يدفع اليتيم عن حقه دفعاً شديداً ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور : 13] وقد قدّمنا أنهم كانوا لا يورّثون النساء والصبيان ﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ أي : لا يحضّ نفسه ، ولا أهله ، ولا غيرهم على ذلك بخلاً بالمال ، أو تكذيباً بالجزاء ، وهو مثل قوله في سورة الحاقة : ﴿ وَلاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ [الحاقة : 34] .

﴿ فَوَيْلٌ ﴾ يومئذ ﴿ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل : إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة باليتيم والمسكين ، فويل للمصلين ﴿ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ أي : عذاب لهم ، أو هلاك ، أو واد في جهنم لهم ، كما سبق الخلاف في معنى الويل ، ومعنى ساهون : غافلون غير مبالين بها ، ويجوز أن تكون الفاء ؛ لترتيب الدعاء عليهم بالويل على ما ذكر من قبائحهم ، ووضع المصلين موضع ضميرهم للتوصل بذلك إلى بيان أن لهم قبائح أخر غير ما ذكر .

قال الواحدي : نزلت في المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثواباً إن صلوا ، ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا ، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها ، وإذا كانوا مع المؤمنين صلوا رياء ، وإذا لم يكونوا معهم لم يصلوا ، وهو معنى قوله : ﴿ الذين هُمْ يُرَاءونَ ﴾ أي : يراءون الناس بصلاتهم إن صلوا ، أو يراءون الناس بكل ما عملوه من أعمال البرّ ؛ ليثنوا عليهم .

قال النخعي : ﴿ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ هو الذي إذا سجد قال برأسه هكذا ، وهكذا ملتفتاً .

وقال قطرب : هو الذي لا يقرأ ولا يذكر الله .

وقرأ ابن مسعود الذين هم عن صلاتهم لاهون .

﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ .

قال أكثر المفسرين : ﴿ الماعون ﴾ : اسم لما يتعاوزه الناس بينهم : من الدلو ، والفأس ، والقدر .

وما لا يمنع كالماء ، والملح .

وقيل هو الزكاة ، أي : يمنعون زكاة أموالهم .

وقال الزجاج ، وأبو عبيد ، والمبرّد : الماعون في الجاهلية كل ما فيه منفعة حتى الفأس ، والدلو ، والقدر ، والقداحة وكل ما فيه منفعة من قليل وكثير ، وأنشدوا قول الأعشى :

بأجود منه بماعونه . . . إذا ما سماؤهم لم تغم

قال الزجاج ، وأبو عبيد ، والمبرّد أيضاً : والماعون في الإسلام : الطاعة والزكاة ، وأنشدوا قول الراعي :

أخليفة الرحمن إنا معشر . . . حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله من أموالنا . . . حقّ الزكاة منزلا تنزيلا

قوم على الإسلام لما يمنعوا . . . ماعونهم ويضيعوا التهليلا

وقيل : ﴿ الماعون ﴾ الماء .

قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : الماعون الماء ، وأنشدني :

تمجّ صبيرة الماعون صبا . . . والصبيرة : السحاب .

وقيل : الماعون : هو الحق على العبد على العموم .

وقيل : هو المستغلّ من منافع الأموال ، مأخوذ من المعن ، وهو القليل .

قال قطرب : أصل الماعون من القلة ، والمعن : الشيء القليل ، فسمى الله الصدقة والزكاة ، ونحو ذلك من المعروف ماعوناً ؛ لأنه قليل من كثير .

وقيل : هو ما لا يبخل به كالماء ، والملح ، والنار .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ أَرَءَيْتَ الذى يُكَذّبُ بالدين ﴾ قال : يكذب بحكم الله .

﴿ فَذَلِكَ الذى يَدُعُّ اليتيم ﴾ قال : يدفعه عن حقه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الشعب عنه ﴿ فَوَيْلٌ لّلْمُصَلّينَ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ قال : هم المنافقون يراءون الناس بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية بغضاً لهم ، وهي الماعون .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عنه أيضاً : ﴿ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ قال : هم : المنافقون يتركون الصلاة في السرّ ، ويصلون في العلانية .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن

المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن مصعب بن سعد قال : قلت لأبيّ : أرأيت قول الله : ﴿ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ أينا لا يسهو ؟ أينا لا يحدّث نفسه ؟ قال : إنه ليس ذلك ، إنه إضاعة الوقت .

وأخرج أبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن سعد بن أبي وقاص قال : سألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ قال : " هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها "

قال الحاكم ، والبيهقي : الموقوف أصح .

قال ابن كثير : وهذا يعني الموقوف أصح إسناداً .

قال : وقد ضعف البيهقي رفعه وصحّح وقفه ، وكذلك الحاكم .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه قال السيوطي بسند ضعيف عن أبي برزة الأسلمي قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر ، هذه الآية خير لكم من أن يعطى كلّ رجل منكم جميع الدنيا ، هو الذي

إن صلى لم يرج خير صلاته ، وإن تركها لم يخف ربه " وفي إسناده جابر الجعفي ، وهو ضعيف ، وشيخه مبهم لم يسمّ .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في الآية قال : هم الذين يؤخرونها عن وقتها .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وأبو داود ، والنسائي ، والبزار ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه من طرق عن ابن مسعود قال : كنا نعدّ الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عارية الدلو ، والقدر ، والفأس ، والميزان ، وما تتعاطون بينكم .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : كان المسلمون يستعيرون من المنافقين القدر ، والفأس ، وشبهه ، فيمنعونهم ، فأنزل الله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ .

وأخرج أبو نعيم ، والديلمي ، وابن عساكر عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في الآية قال : " ما تعاون الناس بينهم الفأس ، والقدر ، والدلو ، وأشباهه " وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن قرّة بن دعموص النميري : أنهم وفدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله ما تعهد إلينا ؟ قال : " لا تمنعوا الماعون " قالوا : وما الماعون ؟ قال : " في الحجر ، والحديدة ، وفي الماء " قالوا : فأيّ الحديدة ؟ قال : " قدوركم النحاس ، وحديد الفأس الذي تمتهنون به " قالوا : وما الحجر ؟ قال : " قدوركم الحجارة " قال ابن كثير : غريب جداً ، ورفعه منكر ، وفي إسناده من لا يعرف .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير عن سعيد بن عياض عن أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ الماعون ﴾ : الفأس ، والقدر ، والدلو .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، والبيهقي ، والضياء في المختارة من طرق عن ابن عباس في الآية قال : عارية متاع البيت .

وأخرج الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، والبيهقي في سننه عن عليّ بن أبي طالب قال : الماعون الزكاة المفروضة ﴿ يُرَاءونَ ﴾ بصلاتهم ﴿ وَيَمْنَعُونَ ﴾ زكاتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 499 . 501 ﴾

وقال القاسمي :

سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾

أي : بثواب الله وعقابه ، فلا يطيعه في أمره ونهيه ، قال أبو السعود : استفهام أريد به تشويق السامع إلى معرفة من سيق له الكلام والتعجيب منه . والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، أو لكل عاقل . والرؤية بمعنى العلم .

والفاء في قوله تعالى : ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ جواب شرط محذوف ، على أن ذلك مبتدأ والموصول خبره ، والمعنى : هل عرفت الذي يكذب بالجزاء أو بالإسلام ، أن لم تعرفه أو إن أردت أن تعرفه فهو الذي يدفع اليتيم دفعاً عنيفاً ويزجره زجراً قبيحاً . يقال : دفعت فلاناً عن حقه : دفعت عنه وظلمته .

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ أي : لا يحث غيره من ذوي اليسار على إطعام المحتاج وسدّ خلته ، بل يبخل بسعيه عند الأغنياء لإغاثة البؤساء .

قال الشهاب : إن كان الطعام بمعنى الإطعام – كما قاله الراغب – فهو ظاهر ، وإلا ففيه مضاف مقدر ، أي : بذل طعام المسكين . واختياره على الإطعام للإشعار بأنه كأنه مالك لما يعطى له كما في قوله :

﴿ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ* لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج: 24 – 25] ، فهو بيان لشدة الاستحقاق . وفيه إشارة للنهي عن الامتنان .

قال أبو السعود : وإذا كان حال من ترك حث غيره على ما يذكر ، فما ظنك بحال من ترك ذلك مع القدرة ؟

قال الزمخشري : جعل علم التكذيب بالجزاء منع المعروف والإقدام على إيذاء الضعيف ، يعني أنه لو آمن بالجزاء وأيقن بالوعيد ، لخشي الله تعالى وعقابه ، ولم يقدم على ذلك ، فحين أقدم عليه علم أنه مكذب ، فما أشده من كلام ! وما أخوفه من مقام ! وما أبلغه في التحذير من المعصية وإنها جديرة بأن يستدل بها على ضعف الإيمان ورخاوة عقد اليقين .

(116/833)

وقوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ* الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ قال ابن جرير : أي : لاهُون يتغافلون عنها وذلك باللهو عنها والتشاغل بغيرها ، وتضييعها أحياناً وتضييع وقتها أخرى . وقال القاشانيّ : أي : فويل لهم ، أي : للموصوفين بهذه الصفات ، من دعّ اليتيم وعدم الحث على طعام المسكين الذي إن صلّوا غفلوا عن صلاتهم لاحتجابهم عن

حقيقتها بجهلهم وعدم حضورهم . و المصلين من باب وضع الظاهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بأن أشرف أفعالهم وصور حسناتهم سيئات وذنوب ، لعدم ما هي به معتبرة من الحضور والإخلاص ، وأورد على صيغة الجمع لأن المراد بالذي يكذب هو الجنس .

﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ ﴾ أي : يراؤون الناس بصلاتهم إذا صلوا لأنهم لا يصلون رغبة في ثواب ، ولا رهبة من عقاب ، وإنما يصلونها ليراهم المؤمنون فيظنوهم منهم فيكفوا عنهم . وأصل المراءاة أن ترى غيرك ويراك ، أريد به العمل عند الناس ليثنوا عليهم ، أوضحه الشهاب .

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ أي : ما يعان به الخلق ويصرف في معونتهم من الأموال والأمتعة وكل ما ينتفع به ، لكون الجهل حاكماً عليهم بالاستئثار بالمنافع وحرمانهم عن النظر التوحيدي وعدم اعتقادهم بالجزاء ؛ فلا محبة لهم للحق للركون إلى العالم الفاني ، ولا عدالة في أنفسهم للاتصاف بالرذائل والبعد عن الفضائل ، فلا يعاونون أحداً فلن يفلحوا أبداً ، قاله القاشاني .

تنبيه :

المعني بهذه الآيات أولاً وبالذات المنافقون في عهد النبوة ، ويدخل فيها ثانياً وبالعرض كل من

وجد فيهم تلك الخلال الذميمة اعتبارا ً بالعموم ؛ فالسورة مدنية ونظيرها في المنافقين قوله تعالى :

(117/833)

﴿ وَإِذَا قَامُواْ إِلَى الصَّلاَةِ قَامُواْ كُسَالَى يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : 142] ، ولذا قال ابن عباس فيما رواه ابن جرير : هم المنافقون كانوا يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ، ويتركونها إذا غابوا ، ويمنعونهم العارية بغضا ً لهم ، وهو الماعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 490 . 491 ﴾

(118/833)

وقال الشيخ : دروزة :

سورة الماعون

تضمنت السورة نعيا وتنديدا بالذين يكذبون بالآخرة ويقسون على اليتيم ويحرمون المسكين من الطعام ويراؤون في صلاتهم وأعمالهم ويمنعون ماعونهم عن ذوي الحاجة إليه ،

وقد روي أن السورة مدنية كما روي أن آياتها الثلاث الأخيرة فقط هي مدنية . ومع احتمال صحة الرواية الأخيرة استلهاما من مضمون الآيات ، فإننا نميل إلى ترجيح كونها مكية جميعها وكونها عرضا عاما لأهداف الدعوة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الماعون (107) : الآيات 1 الى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4)

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ (7) .

(1) الدين : كناية عن يوم الآخرة والحساب .

(2) يدعّ : يدفع بشدة .

(3) ساهون : هنا بمعنى لاهون وغافلون وقيل إنها بمعنى تفويت وقت الصلاة . والمعنى الأول أوجه على ضوء الآية السادسة فإن المرائي لا يلهم الجد في الصلاة فيؤديها وهو غافل لاهي القلب .

(4) ويل : وردت هذه الكلمة مرارا في القرآن . وأكثر ورودها في معنى إنذار

رباني لمن يستحقها من الكفار والمشركين والظالمين والكذابين والمعتدين .

ووردت على لسان الظالمين في معنى التندم والتحسر والهلع من عذاب اللّه مثل :

يا وَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلًا الفرقان [28] ، ومثل : يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظالِمِينَ الأنبياء [14] . ووردت على لسان زوجة إبراهيم في معنى التعجب : يا وَيْلَتى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخاً هود [72] وهي هنا من الباب الأول . ويروي الطبري في سياق الآية [79] من سورة البقرة حديثين أحدهما عن عثمان بن عفان عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم جاء فيه : «الويل جبل في النار» وثانيهما عن أبي سعيد عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم جاء فيها : «ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره» .

وهذان الحديثان لم يردا في كتب الأحاديث الصحيحة . وقد روى الطبري عن ابن عباس أن الويل هو العذاب مطلقا . حيث يبدوا أنه لم يثبت عنده الأحاديث . ويتبادر لنا أن هذا هو الأوجه واللّه أعلم .

(5) يراؤون : يتظاهرون بغير حقيقتهم أو ينافقون .

(6) الماعون : روى المفسرون أنها المعونة إطلاقا أو أنها الزكاة أو أنها أدوات البيت كالقدر والدلو والفأس ونحو ذلك وكل ذلك وارد .

في الآيات الثلاث الأولى :

1 – سؤال تنديدي موجه للسامع عن ذلك الذي يكذب بالحساب والجزاء الأخرويين.

2 – وتقرير بمثابة الجواب بأنه هو الذي لا تأخذه الشفقة على اليتيم فينتهره ويدفعه بشدة والذي لا تأخذه الرأفة بالمسكين فلا يطعمه ولا يحض غيره على إطعامه.

وفي الآيات الأربع التالية:

إنذار وسوء دعاء على الذين يصلون وقلوبهم لاهية عما هم فيه. والذين يصدرون في عبادتهم وأعمالهم أمام اللّه والناس عن رياء وخداع. والذين يمنعون عونهم وبرّهم أو ماعونهم عن المحتاجين إليه.

(120/833)

وقد روي أن السورة جميعها مدنية «1» كما روي أن الآيات الثلاث الأخيرة فقط هي المدنية، وطابع الآيات الأربع الأولى مكي، وقد تكررت ألفاظها ومعانيها في السور المكية كثيرا وفيما سبق من السور وقد روي أنها نزلت في أبي جهل حيث كان وصيا على يتيم فسأله شيئا من ماله فدفعه ولم يعبأ به، كما روي أنها نزلت في أبي سفيان الذي كان ينحر في الأسبوع جزورين فأتاه يتيم فسأله لحما فقرعه بالعصا «2». أما الآيات الثلاث الأخيرة فإن الصورة التي انطوت فيها قد تكون مدنية من الوجهة الزمنية، لأن صورة المسلم

المتظاهر بالإسلام واللاهي عن الصلاة، هي صورة من صور المنافقين في المدينة الذين وصفوا في القرآن المدني بهذه الصفة كما جاء في آية سورة النساء هذه: إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ وَإِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا

(142).

غير أن الآيات من جهة أخرى متسقة في الوزن ومنسجمة مع الآيات السابقة لها كما هو ظاهر. وحرف الفاء في بدء الآية الرابعة قد يسوغ القول إن الآيات الثلاث جاءت معقبة على الآيات الأربع السابقة لها.

وعلى هذا فإما أن يكون التنديد في الآيات الثلاث الأخيرة تنديدا بالإنسان المرائي في صلاته وعمله ودينه، المانع معونته عن المحتاج إليها إطلاقا، ومثل هذا يكون في أي مجتمع وظرف. ويكون من هدف الآيات تحذير المؤمنين الأولين من هذا الخلق، وإما أن تكون رواية مدنية الآيات الثلاث صحيحة وقد أضيفت إلى الأربع حينما أوحي بها لحكمة متصلة بهذه الآيات بدت للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم.

ونحن نميل إلى ترجيح الاحتمال الأول بسبب التوازن والانسجام وعدم وضوح الحكمة في إضافة آيات قليلة مدنية إلى آيات قليلة مكية وتكوين سورة قصيرة من هذه وتلك.

---

(1) انظر الإتقان للسيوطي ج 1 ص 15 - 18 الطبعة المذكورة سابقا وتفسير الآلوسي

ج 3 ص 241 .

(2) انظر تفسير السورة في تفسير الخازن والطبرسي والنيسابوري .

(121/833)

وأسلوب الآيات قد جاء مطلقا فيكون ما احتوته مستمر المدى والتلقين .

وهو ما جرى عليه النظم القرآني بسبيل ذلك مما مرت منه أمثلة عديدة . ولا يتعارض هذا مع ما يمكن أن يصح من نزولها أو نزول بعضها في مناسبة حادث وقع من بعض الأشخاص ، فكثير من آيات القرآن وفصوله نزلت في مناسبات معينة بأسلوب مطلق ليكون مستمر المدى والتلقين .

مدى وتلقينات آيات السورة

ومن تلقينات السورة الرئيسية تقريرها لكون جحود الإنسان للآخرة هو الذي يشجعه على اقتراف الآثام في الدنيا وعلى قسوة القلب إزاء الضعفاء واليتامى والمساكين ، إذا أمن الجزاء والمقابلة ، وفي هذا توكيد لتقريرات قرآنية سابقة ، ولحكمة اللّه التي جعلت للحياة الدنيا تتمة في حياة أخرى لجزاء كل امرئ بما عمل . كما أن فيه مظهرا من مظاهر حكمة التنزيل في تكرار الإنذار بالحياة الأخرى وجعل الإيمان بها ركنا من أركان الإسلام على ما

شرحناه في سياق سورة الفاتحة .

وتخصيص اليتيم والمسكين بالذكر لا يعني كما هو المتبادر أن قهر الأول وحرمان الثاني هما عنوان التكذيب بالآخرة وجزائها حصرا . فهذا أسلوب من أساليب القرآن وهناك آيات قرآنية كثيرة منها مما سبق تذكر آثاما أخرى عامة وخاصة يقترفها الإنسان نتيجة لجحوده ذلك . وقد يعني تخصيص ذلك بالذكر هنا قصد التنويه بخطورة أمر اليتيم والمسكين . وهو ما تكرر كثيرا في القرآن وقد سبق منه أمثلة عديدة وعلقنا عليه بما يغني عن التكرار .

وفي التنديد بالمصلين اللاهية قلوبهم عن صلاتهم تنبيه لوجوب تذكر المصلي الله ، وإفراغ قلبه له حينما يقف أمامه متعبدا ، وتقرير ضمني بأنه بذلك فقط يتأثر بصلاته تأثرا يبعث فيه السكينة والطمأنينة ويرتفع به إلى أفق الروحانية العلوية كما هو مجرب عند كل من يفعل ذلك حقا . ويوقظ فيه الضمير فيبتعد عن الفحشاء والمنكر ويندفع نحو الخير والصلاح .

وكل هذا من مقاصد الصلاة بالإضافة إلى

(122/833)

كونها واجب العبادة ومظهر الخضوع لله على ما شرحناه في سياق سورة العلق . أما اللاهون فلا يتأثرون ذلك التأثير الباعث الموقظ الوازع الدافع فتكون صلاتهم عملا آليا لا

روح فيها ولا حياة ويكون القصد منها الرياء والخداع ولا تكون بعد مقبولة عند اللّه .

وجملة يُراؤُنَ [6] جاءت مطلقة لتنعى الرياء على الإنسان إطلاقا سواء أكان يرائي في صلاته أم في أي موقف وعمل آخر . وتتضمن بناء على ذلك تنديدا بخطورة خلق الرياء وبشاعته حيث يكون المتخلق به أمام اللّه مخادعا وأمام الناس كاذبا مضللا ساخرا ، وتنبيها إلى ما في انتشار هذا الخلق في مجتمع من المجتمعات من الشر العام .

ولقد تكرر النعي القرآني على هذا الخلق والنهي عنه كما جاء في سورة البقرة هذه : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (264) وآية سورة النساء هذه : وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطانُ لَهُ قَرِيناً فَساءَ قَرِيناً (38) وآية سورة الأنفال هذه : وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بَطَراً وَرِئاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47) وآية سورة النساء هذه : إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ وَإِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى يُراؤُنَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) .

ولقد أثرت أحاديث نبوية عديدة في ذمّ الرياء والمرائين منها حديث أخرجه الترمذي عن أبي هريرة قال : «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم تعوّذوا باللّه من جبّ الحزن قالوا يا

رسول اللّه وما جبّ الحزن؟ قال: واد في جهنّم تتعوّذ منه جهنّم كلّ يوم ألف مرة. قيل يا رسول اللّه من يدخله قال القرّاء المراءون بأعمالهم» «1». وحديث رواه

(1) التاج ج 1 ص 50. [.....]

(123/833)

البغوي بطرقه أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا يا رسول اللّه وما الشرك الأصغر قال الرياء». وحديث رواه الترمذي ومسلم عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: «قال النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم إذا جمع اللّه الناس يوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمل عمله اللّه أحدا فليطلب ثوابه من عند غير اللّه فإنّ اللّه أغنى الشركاء عن الشرك» «1». ولمسلم عن أبي هريرة حديث آخر عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم جاء فيه: «قال اللّه تبارك وتعالى أنا أغنى الشركاء عن الشّرك. من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» «2».

وحديث رواه مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال:

«إنّ أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما

عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ، ثمّ أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النّار . ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها ، قال تعلّمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن . قال كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسّع اللّه عليه وأعطاه من أصناف المال كلّه فأتي به فعرّفه نعمه فعرفها قال ما عملت فيها ، قال ما تركت من سبيل تحبّ أن ينفق فيها المال إلا أنفقت فيها لك . قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار» «3» .

ونبه على أن هناك حديثا فيه استدراك يحسن سوقه في هذا المساق رواه الترمذي جاء فيه : «قال رجل يا رسول اللّه الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه ذلك ، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم له أجران أجر السرّ وأجر العلانية» «4» . حيث يفيد

---

(1) التاج 4 ص 154 .

(2) التاج 1 ص 49 .

(3) المصدر نفسه ص 50 - 51 .

(4) المصدر نفسه .

هذا أن الرياء المعاقب عليه هو ما قصد صاحب العمل أن يقال عنه وليس خالصا للّه .

وأنه إذا كان عمل المرء عملا بنية خالصة وعرفه الناس وأعجبوا به لا يعد من هذا الباب .

والتنديد بما نعى الماعون سواء أكان المعونة عامة أم الزكاة أم أدوات البيت جدير بالتنويه من حيث كون منع الماعون مظهرا من مظاهر عدم التعاون وعدم تبادل المعروف أو عدم بذل ما يكون الآخر في حاجة إليه من عون . ومن حيث تضمنه حقا لكل مسلم على تجنبه وعلى بذل كل عون يقدر عليه إلى من هو في حاجة إليه وهو ما تكرر تقريره في آيات عديدة مرت أمثلة منها .

ولقد روى مسلم وأبو داود والترمذي حديثا عن أبي هريرة قال : «قال النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس اللّه عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن ستر مسلما ستره اللّه في الدنيا والآخرة . ومن يسّر على معسر يسّر اللّه عليه في الدّنيا والآخرة . واللّه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» «1» . حيث يتساوق التلقين النبوي مع التلقين القرآني في هذا الشأن كما هو في كل شأن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التفسير الحديث حـ 2 صـ 18. 24﴾

(1) التاج ج 5 ص 68.

(125/833)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب:

(107) سورة الماعون

نزولها: مكية.. نزلت بعد سورة التكاثر.

عدد آياتها: سبع آيات..

عدد كلماتها: خمس وعشرون كلمة..

عدد حروفها: مائة وخمسة وعشرون حرفا..

مناسبتها لما قبلها

جاء فى سورة «قريش» تنويه عظيم بشأن الشّبع من الجوع، والأمن من الخوف، حيث لا حياة بغير طعام، ولا طعم لحياة بغير أمن! وجاءت سورة «الماعون» لتضرب- والحديد ساخن- كما يقولون- على أوتار هذه القلوب الجافية، ولتهزّ تلك المشاعر الجامدة، التي عرفت طعم الشّبع بعد الجوع، وذاقت هناءة الأمن بعد الخوف، حتى تندّ بالمعروف، وتسخو بالخير، قبل أن تنسى لذعة الجوع، ورعدة الخوف.

«أَرَأَيتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ؟ » .

خطاب للنبى ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، ولكل من هو أهل للخطاب ، ولتلّقى العبرة والعظة منه . .

والاستفهام هنا يراد به إلفات الأنظار والعقول إلى هذا الإنسان الذي يكذب بالدين . . إنه إنسان عجيب ، لا ينبغى لعاقل أن يفوته النظر إلى هذا الكائن العجيب وتلك الظاهرة النادرة ! ففيه عبرة لمن يعتبر ، وفيه ملهاة لمن يريد أن يتلّهى . .

والدين : هو الدينونة ، أي الحساب والجزاء فى الحياة الآخرة . .

والذين يكذبون بالدينونة ، والبعث ، والحساب ، والجنة ، والنار ، لا يؤمنون باللّه ، وإن آمنوا به فهم لا يوقرونه ، ولا يعرفون قدره . ومن هنا فهم

لا يعلمون حسابا للقاء الله ، ولا يقدّمون شيئا لليوم الآخر ، فإنّ من خلت نفسه من شعور الثواب أو العقاب من الجهة التي يتعامل معها ، فإنه لا يلقاها إلا فى تراخ وفتور ، وعدم مبالاة.

وقوله تعالى : « فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ » .

الفاء واقعة فى جواب شرط مقدر ، يدل عليه الاستفهام فى قوله تعالى : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ » ؟ أي إذا لم تكن رأيته ، فها هو ذا ، فانظر إليه ، وشاهد أحواله ، فهو ذلك الذي يدعّ اليتيم . .

والإشارة مشار بها إلى هذا الذي يكذب بالدين . . إنه ذلك الذي « يَدُعُّ الْيَتِيمَ » أي يقهره ، ويذله ، وينزع عنه لباس الأمن والطمأنينة إذا وقع ليده ، وعاش فى ظله . . إن اليتيم ضعيف ، عاجز ، أشبه بالطير المقصوص الجناح ، يحتاج إلى اللطف ، والرعاية ، والحنان . . فإذا وقع ليد إنسان قد خلا قلبه من الرحمة ، وجفت عواطفه من الحنان والعطف. كان أشبه بفرخ الطير وقع تحت مخالب نسر كاسر ، فيموت فزعا وخوفا ، قبل أن يموت تمزيقا ونهشا . .

وقوله تعالى : « وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ » .

أي لا يدعو إلى إطعام المسكين ، ولا يجعل من رسالته فى الناس إطعام الجياع . . فإن من لا يحمل همّ الجياع ، ولا يدعو الناس إلى إطعامهم ، لا يجد من نفسه الدافع الذي يدفعه إلى

إطعامهم من ذات يده . . ذلك أن الذي يعرف عنه فى الناس أنه يحضّ على هذه المكرمة وينادى بها فيهم ـ يستحى أن يدعو إلى فعل ولا يفعله . .

(128/833)

وإنك لن تجد بخيلا أبدا يدعو إلى الإحسان ، لأن كلمة الإحسان تفزعه ، حتى لو نطق بها زورا وبهتانا . . فإذا دعا داع إلى الإحسان كان معنى هذا أنه يمكن أن يكون فى المحسنين يوما ما . . وهذا هو السرّ فى احتفاء القرآن الكريم بالحضّ على فعل المكارم ، فمن حضّ على مكرمة ، وجعلها دعوة له ، كان قمينا بأن يكون من أهلها عملا ، بعد أن كان من دعاتها قولا . .

وإذا جاز لإنسان أن يدعّ اليتيم ، ويزعج أمنه ، أو يضن على جائع بلقمة يتبلغ بها ـ وهو غير جائز ، ولا مقبول على أي حال ـ فإنه لا يجوز ولا يقبل أن يكون ذلك من أحد من قريش ، الذين أطعمهم اللّه من جوع ، وآمنهم من خوف ، من بين العرب جميعا . .

إنهم يشهدون ذلك فى كل لحظة من لحظات حياتهم : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » (67 : العنكبوت) .

وقوله تعالى : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ وَيَمْنَعُونَ

الْماعُونَ » .

مناسبة هذه الآيات لما قبلها ، هى أن الصلاة فى حقيقتها نور يضىء ظلام القلوب ، ويجلّى غشاوة النفوس ، لأنها أوثق الصلات التي تصل العبد بربه ، وتقرّبه منه ، وتعرضه لنفحات الرحمة ، فتشيع فى كيانه الحب والحنان ، حيث يضفيهما على عباد اللّه ، وخاصة الضعفاء والفقراء ، الذين وصّى اللّه سبحانه وتعالى بهم الأقوياء والأغنياء ، واسترعاهم إياهم .

والصلاة لا تثمر هذا الثمر الطيب ، ولا تؤتى هذا الأكل الكريم ، إلا إذا كانت خالصة للّه ، يشهد فيها المصلّى جلال خالقه ، وعظمة ربه . . وذلك

(129/833)

لا يكون حتى تصدق النية ، وتخلص الرغبة ، ويعظم اليقين فى لقاء اللّه ، والثقة فى أنّ من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

والذين يسهون عن الصلاة ، أي يغفلون عنها ، ولا يشغلون أنفسهم بها ، وبانتظار أوقاتها ليهيئوا أنفسهم لها ، ويعدوها للقاء اللّه فى محرابها ـ هؤلاء ليسوا مصلين فى الحقيقة ، وإن ركعوا ، وسجدوا ، لأن صلاتهم تلك إنما تقع عفوا ، وتجىء حسب ما اتفق ، كأن يكونوا

فى جماعة ، وقد أذّن المؤذن للصلاة ، فيمنعهم الحياء ، أو الخوف من قالة السوء فيهم أن تصلى الجماعة ولا يصلون ، أو أنهم يصلون فى الأوقات التي لا يشغلهم فيها شىء ، ولو كان تافها .

أما إذا شغلهم عمل ، أو لهو ، فلا يذكرون الصلاة ، ولا يؤثرونها على ما بين أيديهم من عمل ، أو لهو ، حتى لكأن الصلاة نافلة من نوافل الحياة ، لا قدر لها ولا وزن ! فهذا هو السهو ، وهؤلاء هم الساهون عن الصلاة الذين توعدهم اللّه سبحانه وتعالى بالويل ، لأنهم يراءون الناس ، وينافقونهم أو ينافقون أنفسهم بها ، وهم لهذا لا ينتفعون بالصلاة ، فلا يأتمرون منها بمعروف ، ولا ينتهون بها عن منكر . .

وقوله تعالى : « وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ » .

الماعون : من العون ، وهو ما يجد فيه الإنسان عونا على ما يلمّ به من حاجة وعوز . . والمراد بالماعون هنا الزكاة ، لأنها أوسع الأبواب ، وأجداها فى إسداء العون ، للفقير ، والمسكين ، وابن السبيل . .

فالويل إنما يتجه الوعيد به هنا ، إلى الذين لا يقيمون الصلاة على وجهها ، ولا يؤدّون الزكاة على تمامها وكمالها ، طيبة بها أنفسهم ، منشرحة بها صدورهم . .

فهم يمنعون الزكاة ما استطاعوا منعها ، ويؤدونها إذا قام عليهم سلطان قاهر ، يرصد أموالهم ، ويستخرج منها زكاتهم ، كما يستخرج رجال الأمن المال المسروق من جيب السارق ! ! وفى قوله تعالى : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ » . وفى جعل هاتين الكلمتين آية ذات دلالة مستقلة ، مستوفية أركان الجملة المفيدة من مبتدأ وخبر . فى هذا إعجاز من إعجاز البلاغة القرآنية ، حيث تهزّ هاتين الكلمتين أقطار النفس ، وتستثير دواعى الفكر ، حين يجد المرء نفسه بين يدى هذه الحقيقة الغريبة المذهلة :

« ويل للمصلين » ! ! وكيف يكون الويل للمصلين ، والصلاة عماد الدين ، وركنه المتين ، وعليها يقوم بناؤه ، وبها تشتد أركانه ، وتثبت دعائمة ؟ أهذا ممكن أن يكون ؟ ويجىء الجواب نعم ! وكيف ؟ إنها صلاة الساهين عنها ، المستخفين بها ، الذين يأتونها رياء ونفاقا . . وإن الذين لا يؤدون الصلاة أصلا ، ممن يؤمنون بالله ، لهم أحسن حالا ، من هؤلاء المصلين المرائين ، لأن الذين لا يؤدونها أصلا ، لم يتعاملوا بالصلاة بعد ، ولم يزنوها بهذا الميزان البخس ، ولو أنهم صلّوا فقد يقيمونها على ميزان يعرف قدرها ، ويبين عن جلالها ، وعظمة شأنها . . أما الذي يصلى ساهيا عن الصلاة متغافلا عنها ، مستخفّا بها . فقد بان قدر الصلاة عنده ووزنها فى مشاعره . . وهو قدر هزيل ، ووزن لا وزن له ، ومن هنا

كان جزاؤه هذا الوعيد بالويل والعذاب الشديد . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1683.1688 ﴾

(131/833)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) ﴾

الاستفهام مستعمل في التعجيب من حال المكذبين بالجزاء ، وما أورثهم التكذيب من سوء الصنيع .

فالتعجيب من تكذيبهم بالدين وما تفرع عليه من دَعّ اليتيم وعدم الحضّ على طعام المسكين ، وقد صيغ هذا التعجيب في نظم مشوِّق لأن الاستفهام عن رؤية من ثبتت له صلة الموصول يذهب بذهن السامع مذاهب شتى من تعرف المقصد بهذا الاستفهام ، فإن التكذيب بالدين شائع فيهم فلا يكون مثاراً للتعجب فيترقب السامع ماذا يَرِد بعده وهو قوله : ﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ .

وفي إقحام اسم الإِشارة واسم الموصول بعد الفاء زيادة تشويق حتى تقرع الصلة سمع السامع فتتمكن منه كَمَال تَمَكُّن .

وأصل ظاهر الكلام أن يقال : أرأيت الذي يكذب بالدين فَيدُع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين .

والإشارة إلى الذي يكذب بالدين باسم الإِشارة لتمييزه أكملَ تمييز حتى يتبصر السامع فيه وفي صفته ، أو لتنزيله منزلة الظاهر الواضح بحيث يشار إليه .

والفاء لعطف الصفة الثانية على الأولى لإفادة تسبب مجموع الصفتين في الحكم المقصود من الكلام ، وذلك شأنها في عطف الصفات إذا كان موصوفها واحداً مثل قوله تعالى : ﴿ والصافات صفاً فالزاجرات زجراً فالتاليات ذكراً ﴾ [الصافات : 1 3] .

فمعنى الآية عطفُ صفتي : دَعِ اليتيم ، وعدم إطعام المسكين على جزم التكذيب بالدين .

وهذا يفيد تشويه إنكار البعث بما ينشأ عن إنكاره من المذام ومن مخالفة للحق ومنَافياً لما تقتضيه الحكمة من التكليف ، وفي ذلك كناية عن تحذير المسلمين من الاقتراب من إحدى هاتين الصفتين بأنهما من صفات الذين لا يؤمنون بالجزاء .

وجيء في ﴿ يكذب ﴾ ، و ﴿ يدُعّ ﴾ ، و ﴿ يَحُضّ ﴾ بصيغة المضارع لإفادة تكرر ذلك منه ودوامه .

وهذا إيذان بأن الإيمان بالبعث والجزاء هو الوازع الحق الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة حتى يصير ذلك لها خلقاً إذا شبت عليه ، فزكت وانساقت إلى الخير بدون كلفة ولا احتياج إلى آمر ولا إلى مخافة ممن يقيم عليه العقوبات حتى إذا اختلى بنفسه وآمن الرقباء جاء بالفحشاء والأعمال النّكراء .

والرؤية بصرية يتعدى فعلها إلى مفعول واحد ، فإن المكذبين بالدين معروفون وأعمالهم مشهورة ، فنزّلت شهرتهم بذلك منزلة الأمر المبصَر المشاهد .

وقرأ نافع بتسهيل الهمزة التي بعد الراء من ﴿ أرأيت ﴾ ألفاً .

وروى المصريون عن ورش عن نافع إبدالها ألفاً وهو الذي قرأنا به في تونس ، وهكذا في فعل (رأى) كلما وقع بعد همزة استفهام ، وذلك فرار من تحقيق الهمزتين ، وقرأه الجمهور بتحقيقهما .

وقرأه الكسائي بإسقاط الهمزة التي بعد الراء في كل فعل من هذا القبيل .

واسم الموصول وصلتُه مراد بهما جنس من اتصف بذلك .

وأكثر المفسرين درجوا على ذلك .

وقيل : نزلت في العاص بن وائل السهمي ، وقيل : في الوليد بن المغيرة المخزومي ، وقيل : في عمرو بن عائذ المخزومي ، وقيل : في أبي سفيان بن حرب قبل إسلامه بسبب أنه كان يَنحر كل أسبوع جَزوراً فجاءه مرة يتيم فسأله من لحمها فقرعه بعصا .

وقيل : في أبي جهل : كان وصياً على يتيم فأتاه عرياناً يسأله من مال نفسه فدفعه دفعاً شنيعاً .

والذين جعلوا السورة مدنية قالوا : نزلت في منافق لم يسموه ، وهذه أقوال معزو بعضها إلى بعض التابعين ولو تعينت لشخص معين لم يكن سبب نزولها مخصِّصاً حكمَها بمن نزلتْ بسببه .

ومعنى ﴿ يدع ﴾ يدفع بعنف وقهر ، قال تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً ﴾ [الطور : 13] .

والحض : الحث ، وهو أن تطلب غيرك فعلاً بتأكيد .

والطعام : اسم الإِطعام ، وهو اسم مصدر مضاف إلى مفعوله إضافة لفظية .

(133/833)

ويجوز أن يكون الطعام مراداً به ما يطعم كما في قوله تعالى : ﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك ﴾ [البقرة : 259] فتكون إضافة طعام إلى المسكين معنوية على معنى اللام ، أي الطعام الذي هو حقه على الأغنياء ويكون فيه تقدير مضاف مجرور بـ (على) تقديره : على إعطاء طعام المسكين .

وكنى بنفي الحضّ عن نفي الإطعام لأن الذي يشحّ بالحض على الإطعام هو بالإطعام أشح كما تقدم في قوله : ﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ في سورة الفجر (18) وقوله : ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ في سورة الحاقة (34) .

والمسكين : الفقير ، ويطلق على الشديد الفقر ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ في سورة التوبة (60) .

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5)

موقع الفاء صريح في اتصال ما بعدها بما قبلها من الكلام على معنى التفريع والترتب والتسبب .

فيجيء على القول : إن السورة مكية بأجمعها أن يكون المراد بالمصلين عينَ المراد بالذي يكذب بالدين ، ويدُعّ اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فقوله ﴿ للمصلين ﴾ إظهار في مقام الإضمار كأنه قيل : فويل له على سهوه عن الصلاة ، وعلى الرياء ، وعلى منع الماعون ، دعا إليه زيادة تعداد صفاته الذميمة بأسلوب سليم عن تتابع ستِّ صفات لأن ذلك التتابع لا يخلو من كثرة تكرار النظائر فيشبه تتابع الإضافات الذي قيل إنه مُناكد للفصاحة ، مع الإشارة بتوسط ويل له إلى أن الويل ناشىء عن جميع تلك الصفات التي هو أهلها وهذا المعنى أشار إليه كلام "الكشاف" بغموض .

فوصفهم ب"المصلين" إذَنْ تهكم ، والمراد عدمه ، أي الذين لا يصلون ، أي ليسوا بمسلمين

كقوله تعالى : ﴿ قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين ﴾ [المدثر : 43، 44]

وقرينة التهكم وصفهم بـ ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ .

(134/833)

وعلى القول بأنها مدنية أو أن هذه الآية وما بعدها منها مدنية يكون المراد ﴿ بالمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ المنافقين .

وروى هذا ابنُ وهب وأشهبُ عن مالك ، فتكون الفاء في قوله : ﴿ فويل للمصلين ﴾ من هذه الجملة لربطها بما قبلها لأن الله أراد ارتباط هذا الكلام بعضه ببعض .

وجيء في هذه الصفة بصيغة الجمع لأن المراد بـ ﴿ الذي يكذب بالدين ﴾ : جنس المكذبين على أظهر الأقوال .

فإن كان المراد به معيناً على بعض تلك الأقوال المتقدمة كانت صيغة الجمع تذييلاً يشمله وغيره فإنه واحد من المتصفين بصفة ترك الصلاة ، وصفة الرياء ، وصفة منع الماعون .

وقوله : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ صفة ﴿ للمصلين ﴾ مقيِّدة لحكم الموصوف فإن الويل للمصلي الساهي عن صلاته لا للمصلي على الإطلاق .

فيكون قوله ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ ترشيحاً للتهكم الواقع في إطلاق

وصف المصلين عليهم .

وعدي ﴿ ساهون ﴾ بحرف ﴿ عن ﴾ لإفادة أنهم تجاوزوا إقامة صلاتهم وتركوها ولا علاقة لهذه الآية بأحكام السهو في الصلاة .

وقوله : ﴿ الذين عن صلاتهم ساهون ﴾ يجوز أن يكون معناه الذين لا يؤدون الصلاة إلاّ رياء فإذا خلوا تركوا الصلاة .

ويجوز أن يكون معناه : الذين يصلون دون نية وإخلاص فهم في حالة الصلاة بمنزلة الساهي عما يفعل فيكون إطلاق ﴿ ساهون ﴾ تهكماً كما قال تعالى : ﴿ يراءون الناس ولا يذكرون اللَّه إلا قليلاً في المنافقين ﴾ في سورة النساء (142) .

و (يراءون) يقصدون أن يَرى الناسُ أنهم على حال حسن وهم بخلافه ليتحدث الناس لهم بمحاسنَ ما هم بموصوفين بها ، ولذلك كَثُر أن تعطف السُّمعة على الرياء فيقال : رياء وسُمعة .

وهذا الفعل وارد في الكلام على صيغة المفاعلة ولم يسمع منه فعل مجرد لأنه يلازمه تكرير الإِراءة .

والماعون ﴾ : يطلق على الإِعانة بالمال ، فالمعنى : يمنعون فضلهم أو يمنعون الصدقة على الفقراء .

فقد كانت الصدقة واجبة في صدر الإِسلام بغير تعيين قبل مشروعية الزكاة .

وقال سعيد بن المسيب وابن شهاب : الماعون : المال بلسان قريش .

وروى أشهب عن مالك : الماعون : الزكاة ، ويشهد له قول الراعي :

قوم على الإِسلام لمّا يمنعوا

ماعونهم ويضيِّعوا التهليلا . . .

لأنه أراد بالتهليل الصلاة فجمع بينها وبين الزكاة .

ويطلق على ما يستعان به على عمل البيت من آنية وآلات طبخ وشدّ وحفر ونحو ذلك مما لا خسارة على صاحبه في إعارته وإعطائه .

وعن عائشة : الماعون الماء والنار والملح .

وهذا ذم لهم بمنتهى البخل .

وهو الشح بما لا يرزئهم .

وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله : ﴿ هم يراءون ﴾ لتقوية الحكم ، أي تأكيده .

فأما على القول بأن السورة مدنية أو بأن هذه الآيات الثلاث مدنية يكون المراد بالمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون والصلاتتِ بعدها : المنافقين ، فإطلاق المصلين عليهم

بمعنى المتظاهرين بأنهم يصلون وهو من إطلاق الفعل على صورته كقوله تعالى : ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة ﴾ [التوبة : 64] أي يظهرون أنهم يحذرون تنزيل سورة .

﴿ ويمنعون الماعون ﴾ أي الصدقة أو الزكاة ، قال تعالى في المنافقين : ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ [التوبة : 67] فلما عُرفوا بهذه الخلال كان مفاد فاء التفريع أن أولئك المتظاهرين بالصلاة وهم تاركوها في خاصتهم هم من جملة المكذبين بيوم الدين ويدُعُّون اليتيم ولا يحضّون على طعام المسكين .

وحكى هبة الله بن سَلاَمَة في كتاب "الناسخ والمنسوخ" : أن هذه الآيات الثلاث نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول ، أي فإطلاق صيغة الجمع عليه مراد بها واحد على حد قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ [الشعراء : 105] أي الرسول إليهم .

(136/833)

والسهو حقيقته : الذهول عن أمر سبق عِلمُه ، وهو هنا مستعار للإعراض والترك عن عمد استعارة تهكمية مثل قوله تعالى : ﴿ وتنسون ما تشركون ﴾ [الأنعام : 41] أي تعرضون عنهم ، ومثله استعارة الغفلة للإعراض في قوله تعالى : ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ في سورة الأعراف (136) وقوله تعالى : ﴿ والذين هم عن آياتنا

غافلون ﴾ في سورة يونس (7) ، وليس المقصود الوعيد على السهو الحقيقي عن الصلاة لأن حكم النسيان مرفوع على هذه الأمة ، وذلك ينادي على أن وصفهم بالمصلين تهكم بهم بأنهم لا يصلون .

واعلم أنه إذا أراد الله إنزال شيء من القرآن ملحقاً بشيء قبله جعَل نظم الملحق مناسباً لما هو متصل به ، فتكون الفاء للتفريع .

وهذه نكتة لم يسبق لنا إظهارها فعليك بملاحظتها في كل ما ثبت أنه نزل من القرآن ملحقاً بشيء نزل قبله منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(137/833)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الماعون

هذه السورة مكية في بعض الروايات , ومكية مدنية في بعض الروايات [الثلاث الآيات الأولى مكية والباقيات مدنية] وهذه الأخيرة هي الأرجح . وإن كانت السورة كلها وحدة متماسكة , ذات اتجاه واحد , لتقرير حقيقة كلية من حقائق هذه العقيدة , مما يكاد يميل بنا إلى اعتبارها مدنية كلها , إذ أن الموضوع التي تعالجه هو من موضوعات القرآن المدني -

وهو في جملته يمت إلى النفاق والرياء مما لم يكن معروفا في الجماعة المسلمة في مكة . ولكن قبول الروايات القائلة بأنها مكية مدنية لا يمتنع لاحتمال تنزيل الآيات الأربع الأخيرة في المدينة وإلحاقها بالآيات الثلاث الأولى لمناسبة التشابه والاتصال في الموضوع . . وحسبنا هذا لنخلص إلى موضوع السورة وإلى الحقيقة الكبيرة التي تعالجها . .

إن هذه السورة الصغيرة ذات الآيات السبع القصيرة تعالج حقيقة ضخمة تكاد تبدل المفهوم السائد للإيمان والكفر تبديلا كاملا . فوق ما تطلع به على النفس من حقيقة باهرة لطبيعة هذه العقيدة , وللخير الهائل العظيم المكنون فيها لهذه البشرية , وللرحمة السابغة التي أرادها الله للبشر وهو يبعث إليهم بهذه الرسالة الأخيرة . .

إن هذا الدين ليس دين مظاهر وطقوس ; ولا تغني فيه مظاهر العبادات والشعائر , ما لم تكن صادرة عن إخلاص لله وتجرد , مؤدية بسبب هذا الإخلاص إلى آثار في القلب تدفع إلى العمل الصالح , وتتمثل في سلوك تصلح به حياة الناس في هذه الأرض وترقى .

كذلك ليس هذا الدين أجزاء وتفاريق موزعة منفصلة , يؤدي منها الإنسان ما يشاء , ويدع منها ما يشاء . . إنما هو منهج متكامل , تتعاون عباداته وشعائره , وتكاليفه الفردية والاجتماعية , حيث تنتهي كلها إلى غاية تعود كلها على البشر . . غاية تتطهر معها القلوب , وتصلح للحياة , ويتعاون الناس ويتكافلون في الخير والصلاح والنماء . . وتتمثل فيها رحمة الله السابغة بالعباد .

ولقد يقول الإنسان بلسانه : إنه مسلم وإنه مصدق بهذا الدين وقضاياه . وقد يصلي , وقد يؤدي شعائر أخرى غير الصلاة ولكن حقيقة الإيمان وحقيقة التصديق بالدين تظل بعيدة عنه ويظل بعيدا عنها , لأن لهذه الحقيقة علامات تدل على وجودها وتحققها . وما لم توجد هذه العلامات فلا إيمان ولا تصديق مهما قال اللسان , ومهما تعبد الإنسان !

إن حقيقة الإيمان حين تستقر في القلب تتحرك من فورها [كما قلنا في سورة العصر] لكي تحقق ذاتها في عمل صالح . فإذا لم تتخذ هذه الحركة فهذا دليل على عدم وجودها أصلا . وهذا ما تقرره هذه السورة نصا . .

(أرأيت الذي يكذب بالدين ? فذلك الذي يدع اليتيم , ولا يحض على طعام المسكين) . .

إنها تبدأ بهذا الاستفهام الذي يوجه كل من تتأتى منه الرؤية ليرى : (أرأيت الذي يكذب بالدين ?) وينتظر من يسمع هذا الاستفهام ليرى إلى أين تتجه الإشارة وإلى من تتجه ? ومن هو هذا الذي يكذب بالدين , والذي يقرر القرآن أنه يكذب بالدين . . وإذا الجواب :

(فذلك الذي يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين) !

وقد تكون هذه مفاجأة بالقياس إلى تعريف الإيمان التقليدي . . ولكن هذا هو لباب الأمر

وحقيقته . . إن الذي يكذب بالدين هو الذي يدفع اليتيم دفعا بعنف - أي الذي يهين اليتيم ويؤذيه . والذي لا يحض على طعام المسكين ولا يوصي برعايته . فلو صدق بالدين حقا , ولو استقرت حقيقة التصديق في قلبه ما كان ليدع اليتيم , وما كان ليقعد عن الحض على طعام المسكين .

إن حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان ; إنما هي تحول في القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه في البشرية , المحتاجين إلى الرعاية والحماية . والله لا يريد من الناس كلمات . إنما يريد منهم معها أعمالا تصدقها , وإلا فهي هباء , لا وزن لها عنده ولا اعتبار .

وليس أصرح من هذه الآيات الثلاث في تقرير هذه الحقيقة التي تمثل روح هذه العقيدة وطبيعة هذا الدين أصدق تمثيل .

ولا نحب أن ندخل هنا في جدل فقهي حول حدود الإيمان وحدود الإسلام . فتلك الحدود الفقهية إنما تقوم عليها المعاملات الشرعية . فأما هنا فالسورة تقرر حقيقة الأمر في اعتبار الله وميزانه . وهذا أمر آخر غير الظواهر التي تقوم عليها المعاملات ! !

ثم يرتب على هذه الحقيقة الأولى صورة تطبيقية من صورها :

فويل للمصلين , الذين هم عن صلاتهم ساهون , والذين هم يراؤون ويمنعون الماعون إنه دعاء أو وعيد بالهلاك للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . فمن هم هؤلاء الذين هم عن صلاتهم ساهون !

إنهم (الذين يراءون ويمنعون الماعون) . .

إنهم أولئك الذين يصلون , ولكنهم لا يقيمون الصلاة . الذين يؤدون حركات الصلاة , وينطقون بأدعيتها , ولكن قلوبهم لا تعيش معها , ولا تعيش بها , وأرواحهم لا تستحضر حقيقة الصلاة وحقيقة ما فيها من قراءات ودعوات وتسبيحات . إنهم يصلون رياء للناس لا إخلاصا لله . ومن ثم هم ساهون عن صلاتهم وهم يؤدونها . ساهون عنها لم يقيموها . والمطلوب هو إقامة الصلاة لا مجرد أدائها . وإقامتها لا تكون إلا باستحضار حقيقتها والقيام لله وحده بها .

ومن هنا لا تنشئ الصلاة آثارها في نفوس هؤلاء المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . فهم يمنعون الماعون . يمنعون المعونة والبر والخير عن إخوانهم في البشرية . يمنعون الماعون عن عباد الله . ولو كانوا يقيمون الصلاة حقا لله ما منعوا العون عن عباده , فهذا هو محك العبادة الصادقة المقبولة عند الله . .

وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام حقيقة هذه العقيدة , وأمام طبيعة هذا الدين . ونجد

نصا قرآنيا ينذر مصلين بالويل . لأنهم لم يقيموا الصلاة حقا . إنما أدوا حركات لا روح فيها . ولم يتجردوا لله فيها . إنما أدوها رياء . ولم تترك الصلاة أثرها في قلوبهم وأعمالهم فهي إذن هباء . بل هي إذن معصية تنتظر سوء الجزاء !

(140/833)

وننظر من وراء هذه وتلك إلى حقيقة ما يريده الله من العباد , حين يبعث إليهم برسالاته ليؤمنوا به وليعبدوه . . .

إنه لا يريد منهم شيئا لذاته سبحانه – فهو الغني – إنما يريد صلاحهم هم أنفسهم . يريد الخير لهم . يريد طهارة قلوبهم ويريد سعادة حياتهم . يريد لهم حياة رفيعة قائمة على الشعور النظيف , والتكافل الجميل , والأريحية الكريمة والحب والإخاء ونظافة القلب والسلوك .

فأين تذهب البشرية بعيدا عن هذا الخير ? وهذه الرحمة ? وهذا المرتقى الجميل الرفيع الكريم ? أين تذهب لتخبط في متاهات الجاهلية المظلمة النكدة وأمامها هذا النور في مفرق الطريق ? . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3984. 3986 ﴾

(141/833)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) ﴾

الذي يكذب بالدين ، فيه اسم الموصول مبهم بينه ما بعده ، وهو الذي يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين .

وقد بين تعالى في آية أخرى ، أن الإيمان الدين يحمل صاحبه على إطعام اليتيم والمسكين في قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطعام على حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ [الإنسان : 8] .

ثم قال مبيناً الدافع على إطعامهم إياهم : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ الله لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلاَ شُكُوراً إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ [الإنسان : 9-10] .

وهنا سؤال : وهو لم خص المكذبين بيوم الدين عمن يرتكب هذين الأمرين دع اليتيم ، وهو دفعه وزجره ، وعدم الحض على إطعام المسكين ، وبالتالي عدم إطعامه هو من عنده ؟

والجواب : أنهما نموذجان ، ومثالان فقط .

والأول منهما : مثال للفعل القبيح .

والثاني : مثال للترك المذموم .

ولأنهما عملان إن لم يكونا إسلاميين فهما إنسانيان ، قبل كل شيء .

وفي الآية الأخرى توجيه للجواب ، وهو أن المؤمن يخاف من الله يوماً عبوساً ، وعبر

بالعبوس في حق يوم القيامة ، لئلا يعبس في وجه اليتيم والمسكين لضعفهما .

ومن جانب آخر فإن كان التكذيب بيوم الدين ، يحمل على كل الموبقات ، إلا أنها قد تجد ما يمنع منها ، كالقتل والزنى والخمر لتعلق حق الآخرين ، وكذلك السرقة والنهب .

أما إيذاء اليتيم وضياع المسكين ، فليس هناك من يدفع عنه ، ولا يمنع إيذاء هؤلاء عنهما ، وليس لديهما الجزاء الذي ينتظره أولئك منهم على الإحسان إليهم .

وجبلت النفوس على ألا تبدل إلا بعوض ، ولا تكف إلا عن خوف ، فالخوف مأمون من جانبي اليتيم والمسكين ، والجزاء غير مأمول منهما ، فلم يبق دافع للإحسان إليهما ، ولا رادع عن الإساءة لهما إلا الإيمان بيوم الدين والجزاء ، فيحاسب الإنسان على مثقال الذرة من الخير .

وقيل : إن دع اليتيم : هو طرده عن حقه وعدم الحض على طعام المسكين : عدم إخراج الزكاة .

ولكن في الآية ما يمنع ذلك ، لأن الزكاة إنما يطالب بها المؤمن والسياق فيمكن يكذب بيوم الدين فلا زكاة .

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7)

اختلف في المصلين الذين توجه إليهم الوعيد بالويل هنا .

والجمهور : على أنهم الذين يسهون عن أدائها ، ويتساهلون في أمر المحافظة عليها .

وقيل : عن الخشوع فيها وتدبر معانيها .

ولكن الصحيح أنه الأول .

وقد جاء عن عطاء وعن ابن عباس أنهما قالا : الحمد لله الذي قال عن صلاتهم ، ولم يقل في صلاتهم ، كما أن السهو في الصلاة لم يسلم منه أحد ، حتى أنه وقع من النَّبي صلى الله عليه وسلم لما سلم من ركعتين في الظهر كما هو معلوم من حديث ذي اليدين ، وقال : " إني لا أنسى ، ولكني أنسى لأسنَّ " فكيف ينسيه الله ليسنَ للناس أحكام السهو ، ويقع الناس في السهو بدون عمد منهم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه " .

وقد عقد الفقهاء باب سجود السهو تصحيحاً لذلك .

لذلك بقي من المراد بالذين هم عن صلاتهم ساهون .

قيل : نزلت في أشخاص بأعيانهم .

وقيل : في كل من أخَّر الصلاة عن أول وقتها ، أو عن وقتها كله ، إلى غير ذلك ، أو عن أدائها

في المساجد وفي الجماعة.

وقيل: في المنافقين.

وفي لسورة تفسير صريح لهؤلاء، وهو قوله تعالى: ﴿ الذين هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ [الماعون: 6-7].

والمرائي في صلاته قد يكون منافقاً، وقد يكون غير منافق.

فالرياء أعم من جهة، والنفاق أعم من جهة أخرى، أي قد يرائي في عمل ما، ويكون مؤمناً بالبعث والجزاء وبكل أركان الإيمان، ولا يرائي في عمل آخر، بل يكون مخلصاً فيه كل الإخلاص.

(143/833)

والمنافق دائماً ظاهره مخالف لباطنه في كل شيء، لا في الصلاة فقط.

ولكن جاء النص: بأن المراءاة في الصلاة، من أعمال المنافقين.

وجاء النص أيضاً. بأن منع الماعون من طبيعة الإنسان إلا المصلين، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الإنسان خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الخير مَنُوعاً إِلاَّ المصلين ﴾ [المعارج: 19-22].

وقد تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه، بيان السهو عنها وإضاعتها عند قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصلاة واتبعوا الشهوات فَسَوْفَ يَلْقُونَ غَيّاً إِلاَّ مَن تَابَ ﴾ [مريم : 59-60] الآية.

وبين في آخر المبحث تحت عنوان : مسألة في حكم تاركي الصلاة جحداً أو كسلاً. وزاده بياناً، عند قوله تعالى : ﴿ والذين هُمْ على صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون : 9] في دفع إيهام الاضطراب للجمع بين هذه الآية وآية ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ [المدثر : 42].

وذكر قول الشاعر :

دع المساجد للعباد تسكنها . . . على ما سنذكره بعد، ثم نبه قائلاً : إذا كان الوعيد عمن يسهو عنها فكيف بمن يتركها ؟ اه.

وقد تساءل بعض المفسرين عن موجب اقتران هذه الآية بالتي قبلها.

وأجابوا : بأن الكل من دوافع عدم الإيمان بالبعث، ومن موجبات التكذيب بيوم الدين، فهي مع ما قبلها في قوة، فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين، وعن صلاتهم ساهون، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون.

فجمعهم مع الأول، ونص على وعيده الشديد، وبين وصفاً ولهم، وهو أنهم يمنعون الماعون.

تنبيه

في هذه السورة ، وفي آية ﴿ والذين هُمْ على صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون : 9] ، التي هي من صفات المؤمنين معادلة كبيرة .

إحداهما : في المنافقين تاركي الصلاة أو مضيعيها .

والأخرى في المؤمنين المحافظين عليها ، أي أن الصلاة هي المقياس والحد الفاصل . وعليه قوله صلى الله عليه وسلم : " العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن ترك الصلاة فقد كفر " .

أما أثر الصلاة في الإسلام ، وعلى الفرد والجماعة ، فهي أعظم من أن تذكر .

وقد وجدنا بعض آثارها وهو المراءاة في العمل ، أي ازدواج الشخصية والانعزال في منع الماعون ، أي لا يمد يد العون ولو باليسير لمجتمعه الذي يعيش فيه ، وقد جاءت نصوص صريحة في مهمة الصلاة عاجله وآجله .

ففي العاجل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصلاة تنهى عَنِ الفحشآء والمنكر ﴾ [العنكبوت : 45] ، ومن الفحشاء : دع اليتيم وعد إطعام المسكين ، وفي الدرجة الأولى .

ومنها : كل رذيلة . منكرة ، فهي إذن سياج يصونه عن كل رذيلة . وهي عون على كل

شديدة ، كما قال تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة : 45] ، فجعلها قرينة الصبر في التغلب على الصعاب ، وهي في الآخرة نور ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ [الحديد : 12] ، الآية ، مع قوله صلى الله عليه وسلم : " إن أمتي يأتون يوم القيامة غراً محجلين من أثر الوضوء " .

وقوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ [الماعون : 7] ، قيل : في الماعون الزكاة لقلتها ، والماعون : القليل ، والماعون : المال في لغة قريش .

وقيل : هو ما يعين على أي عمل ، ومنه الدلو والفأس والإبرة والقدر . ونحو ذلك .

وإذا كان السهو عن الصلاة يحمل على منع الماعون ، فإن من يمنع الماعون وهو الآلة أو الإناء يقضي به الحاجة ثم يرد ، كما هو بدون نقصان ، فلأن يمنع الصدقة أو الزكاة من باب أولى .

ومن هنا : لم يكن المنافق ليزكي ماله ولا يتصدق على محتاج ، بل ولا يقرض آخر قرضاً حسناً . ولذا نجد تفشي الربا في المنافقين أشد وأكثر .

وهنا يأتي مبحثان :

الأول منهما : حكم الرياء وما حده ؟

والثاني : حكم العارية .

أما الرياء : فقيل وهو مشتق من الرؤية ، والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمد عليها ، وقد جاء في الحديث تسميته الشرك الخفي : " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي ، قالوا : وما الشرك الخفي يا رسول الله ؟ قال : الرياء ، فإنه أخفى في نفوسكم من دبيب النمل " .

وجاء قوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : 110] .

وبيان الشرك فيه أنه يعمل العمل مما هو أصلاً لله ، كالصلاة أو الصدقة أو الحج ، ولكنه يظهره لقصد أن يحمده الناس عليه .

فكأن هذا الجزء منه مشاركة مع الله ، حيث أصبح من عمله جزء لطلب الثناء من الناس عليه .

وقد جاء حديث أبي هريرة عند مسلم : يقول الله تعالى : " أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك معي غيري تركته وشركه " .

أما حكم الرياء في العمل ، ففي هذا النص دلالة على رد العمل على صاحبه ، وتركه له .

فقيل : إنه يكون لا له فيه ، ولا عليه منه .

فقيل : لا يخلو من ذم ، كما حذر الله تعالى منه بقوله : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالذين خَرَجُواْ مِن

دِيَارِهِم بَطَراً وَرِئَآءَ النَّاس ﴾ [الأنفال : 47] .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من راءى الله به ، ومن سمع سمع الله به " رواه مسلم .

والتسميع : هو العمل ليسمع الناس به كما في حديث الوليمة " في اليوم الأول والثاني والثالث سمعة . ومن سمّع سمّع به " .

فالرياء مرجعه إلى الرؤية ، والتسميع مرجعه إلى السماع .

ومعلوم أنها نزلت في قريش يوم بدر ، وقد أحبط الله عملهم ، وردهم على أعقابهم .

وفي حديث أبي هريرة ، وقيل : إنه محبط للأعمال لمسمى الشرك لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : 48] .

(146/833)

وأجيب : بأنه يحبط العمل الذي هو فيه فقط ، فإن راءى في الصلاة أحبطها ولا يتعدى إلى الصوم ، وإن راءى في صلاة نافلة لا يتعدى إحباطها إلى صلاة فريضة ، وهكذا ، قد يبدأ عملاً خالصاً لله ، ثم يطرأ عليه شبح الرياء ، فهل يسلم له عمله أو يحبطه ما طرأ عليه من الرياء ؟

فقالوا : إن كان خاطراً ودفعه عنه فلا يضره ، وإن استرسل معه . فقد رجح أحمد وابن جرير ، عدم بطلان العمل نظراً لسلامة القصد ابتداء .

ودليلهم في ذلك : ما روى أبو داود في مراسيله عن عطاء الخراساني أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن بني سلمة كلهم يقاتل ، فمنهم من يقاتل للدنيا ، ومنهم من يقاتل نجدة ، ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله تعالى قال : "كلهم إذا كان أصل أمره ، أن تكون كلمة الله هي العليا ".

وذكر عن ابن جرير : أن هذا في العمل الذي يرتبط آخره بأوله ، كالصلاة والصيام .

أما ما كان مثل القراءة والعلم . فإنه يلزمه تجديد النية الخالصة لله ، أي لأن كل جزء من القراءة ، وكل جزء من طلب العلم مستقل بنفسه ، فلا يرتبط بما قبله .

وهناك مسألة : وهي أن العبد يعمل العمل لله خالصاً ، ثم يطلع عليه بعض الناس ، فيحسنون الثناء عليه فيعجبه ذلك . فلا خوف أنه ليس من الرياء في شيء لما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه ، أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الرجل يعمل من الخير يحمده الناس عليه ، فقال صلى الله عليه وسلم

"عاجل بشرى المسلم" رواه مسلم .

وقد ذكر بعض العلماء : أن من كان يعمل عملاً خفياً ، ثم حضر الناس فتركه من أجلهم خشية الرياء ، أنه يدخل في الرياء ، لأنه يضعف في نفسه أن يخلص النية لله ، وفي هذا بُعد

ومشقة .

أما منع الماعون وإعطاؤه ، وهو العارية كما تقدم .

فإن مبحث العارية في ناحيتين : ما هي العارية ، والثاني : حكمها أواجب أم مباح ، وحكم ضمانها مضمونة أم لا ؟

أما تعريفها عند الفقهاء : هي إباحة الانتفاع بعين من أعيان المال ، مع بقاء عينه .

(147/833)

وقولهم مع بقاء عينه : كالقدر والفأس والإبرة والمنخل ، ونحو ذلك ، بخلاف ما يكون إتلافه في استعماله ، كالشمع للإضاءة ، والزيت للدهن ، والكحل للاكتحال ، ونحو ذلك ، مما تنفذ عينه باستعماله ، فلا يكون عارية ، ولكن يكون قرضاً ، والقرض يكون معاوضته بمثله .

أما حكم العارية . فقيل : جائز .

وقيل : بل واجب .

وقيل : مستحب .

وحكى ابن قدامة الإجماع على استحبابها ، ودليل من قال بالوجوب بنص الآية : ﴿

وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ [الماعون : 7] ، ولحديث أبي هريرة رضي الله عنه في حق الإبل لما ذكره الزكاة " وأن حقها إعارة دلوها ، وإطراق فحلها ، ومنحه لبنها ، يوم ورودها " .

والواقع أن هذا الحديث ذكر فيه ما ليس بعارية قطعاً ، مثل طرق الفحل ومنح اللبن ، مما يضعف الاستدلال به .

وقد ساق المجد في المنتقى برواية أحمد ولهم .

أما الوعيد في الآية فقالوا : هو منصب على الصفات الثلاث : السهو عن الصلاة ، والرياء في العمل ، ومنع الماعون جميعاً ، ومن اتصف بواحدة فله قدرة من الوعيد بحبسه .

وأقل ما يقال فيها ما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى البر والتقوى ﴾ [المائدة : 2] ، والحديث الصحيح في حق الزكاة ، لما ذكر صلى الله عليه وسلم الذهب والفضة والإبل والبقر والخيل ، وقال : " ولا ينسى حق الله في ظهرها " .

ثم سئل عن الحمر ، فقال : " لم أجد إلا الآية الشاذة الفاذة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7] .

وإعارة المتاع إباحة المنفعة وهي خير كثير .

والحديث الآخر : " لا يحل مال امرئ مسلم إلا عن طيب نفس " .

ونقل الشوكاني عن الكشاف قولاً : أنها تكون واجبة عند الاضطرار ، وقبيح في غير الضرورة مروءة . اه .

والضرورة : مثل الدلو إذا وردت الماء دلو معك ، وفي اضطرار إلى الماء .

وقياس الفقهاء : أنه لو تلف شيء بسبب ذلك لضمن المانع .

(148/833)

كما قالوا في الامتناع في بعض الصور : هل هو فعل أو ترك ؟ مثل من كان عنده خيط ، واحتيج إليه في خياطة جرح إنسان ، أو قطنة فمات ، فهل يعد ترك إعطاء الخيط مجرد ترك لا يؤاخذ عليه ، أو يعتبر فعلاً لأنه تسبب عنه موت إنسان . ومثله منع الدلو ليروي أو يسقي إبله أو يشرب هو ؟

والصحيح عندهم : أن الترك في مثل هذه الحالة يؤاخذ الفعل ، كما قال صاحب مراقي السعود .

والترك فعل في صحيح المذهب . . . وهنا ما يشهد له الاستعمال العربي الصحيح ، كما قيل في بناء المسجد :

لئن قعدنا والنّبي يعمل . . . لذاك منا العمل المضلل

فسمي القعود عن العمل عملاً مضللاً ، فتحصل من هذا أن العارية مستحبة شرعاً ومروءة وعرفاً في حالة الاختيار ، وواجبة في حالة الاضطرار ، مع ملاحظة أن حالات

الاستعارة أغلبها اضطرار ، إلاَّ أن حالات الاضطرار تتفاوت ظروفها .

وقد امتدح الله الأنصار بأنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، فالعارية من باب أولى ، لأنه ينتفع بها وترد لصاحبها .

وقد امتدح الشاعر القوم بعدم منعهم الماعون ، بقوله :

قوم على الإسلام ولما يمنعوا . . . ماعونهم ويضيع التهليلا

وإن كان بعض الناس حمل الماعون هنا على الزكاة ، ولكن قول الشاعر : قوم على الإسلام ، يتضمن إخراجهم الزكاة ضمن إسلامهم ، فيكون الباقي امتداد حالهم في خصوص الماعون .

بقي مبحث ضمانها : تختلف الأقوال في ضمان العارية ، فبعضهم يعتبرها أمانة ، وعليه فلا تكون مضمونة وهذا مذهب الحنفية والمالكية ، إذا لم يحصل منه تعد .

وعند الشافعي واحمد : أنها مضمونة ، إلا إذا كانت على الوجه المأذون فيه .

كما قالوا في السيف : يستعيره فينكسر في القتال فلا ضمان فيه .

واستدل من قال بضمانها بالحديث العام " على اليد ما أخذت ، حتى تؤديه " رواه المجد في المنتقى ، وقال : رواه الخمسة إلا النسائي .

وبحديث صفوان بن أمية ، أن النبيِّ صلى الله عليه وسلم استعار منه يوم حنين أذرعاً قيل ثلاثين ، وقيل ثمانين ، وقيل مائة . فقال : أغصباً يا محمد ؟ قال : " بل عارية مضمونة " فقال : فضاع بعضها ، فعرض عليه النبيِّ صلى الله عليه وسلم أن يضمنها له ، فقال : " أنا اليوم في الإسلام أرغب " رواه أحمد وأبو داود .

ونص الفقهاء : أن ضمانها بقيمتها يوم تلفت أو بمثلها ، إن كانت مثيلة ، ويستدل له بما جاء في قصعة حفصة لما ضربتها عائشة فسقطت على الأرض فانكسرت ، وانتثر الطعام ، فأخذ صلى الله عليه وسلم قصعة عائشة وردها إلى حفصة ، وقال : " قصعة بقصعة ، وطعام بطعام " أي أن الضمان إما بالمثل إن كان مثلياً ، أو بالقيمة إن كان مقوما .

وإذا كانت العارية مضمونة وحكمها الجواز ، فللمستعير طلب ردها متى شاء ، إلا إذا تعلقت بها مصلحة المستعير ، ولا يمكن ردها إلا بمضرة عليه .

قالوا : كمن أعار سفينة وتوسط بها المستعير عرض البحر ، فلا يملك المعير ردها لتعذر ذلك وسط البحر .

وقيل : له طلبها ، وتكون بالأجرة على المستعير ، والأول أرجح .

وكالذي أعار أرضاً للزرع ، وقبل أن يستحصد الزرع يطلبها صاحبها ، هكذا . والله تعالى أعلم .

حكم من جحد العارية

إن حديث المرأة المخزومية مشهور ، وهو أنها كانت تستعير المتاع وتجحده ، فاشتهرت بذلك ، ثم إنها سرقت فقطعت في السرقة ، لا في جحد المتاع المستعار ، وهذا هو الأصح .

لأن السرقة لا تكون إلا على وجه التخفي ومن حرز .

والاستعارة خلاف ذلك ، وإنما تدخل في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّوا الأَمانات إلى أَهْلِهَا ﴾ [النساء : 58] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " على اليد ما أخذت حتى تؤديه " .

وحديث " أدّ الأَمَانَة لمن ائتمنك ، ولا تخُن من خانَك " رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن .

(150/833)

وهذا مجمل مباحث العارية ، وتفصيل فروعها في كتب الفقه أوجزنا منه ما يتعلق بمنع الماعون وعدم جواز منعه ، وما يتعلق ببذله ، وبالله تعالى التوفيق .

تنبيه

في هذه السورة بيان منهج علمي يلزم كل باحث ، وهو جمع أطراف النصوص وعدم الاقتصار على جزء منه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ [الماعون : 4] ، وهي أية مستقلة ، ولو أخذت وحدها لكانت وعيداً للمصلين .

كما قال الشاعر الماجن في قوله :

دع المساجد للعباد تسكنها . . . وسر إلى خانة الخمار يسقينا

ما قال ربك ويل للألى سكروا . . . وإنما قال ويل للمصلينا

ولذا لا بد من ضميمة ما بعدها للتفسير والبيان ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، ثم فسر هذا التفسير أيضاً بقوله : ﴿ الذين هُمْ يُرَآءُونَ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ [الماعون : 6-7] .

ومثل هذه الآية من الحديث ، ما جاء عند ابن ماجه ما نصه بسنده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : " إن مسيرة المسجد تعطلت : فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من عمر مسيرة المسجد كتب له كفلان من الأجر " .

هذا الحديث وإن كان في الزوائد ، قال عنه : في إسناده ليث بن أبي سليم ضعيف ، إلا أنه نص فيما نمثل له لأن من اقتصر على جوابه صلى الله عليه وسلم اعتبر مسيرة المسجد أفضل ، ومن جمع طرفي الحديث عرف المقصود منه .

ويتفرع على هذا ما أخذه مالك رحمه الله في باب الشهادة : أن الشخص لا يحق له أن يشهد على مجرد قول سمعه ، إلا إذا استشهدوه عليه ، وقالوا : أشهد عليه ، أو إلا إذا سمع

الحديث من أوله مخافة أن يكون في أوله ما هو مرتبط بآخره ، كما لو قال المتكلم للآخر : لي عندك فرس ، ولك عندي مائة درهم ، فيسمع قوله : لك عندي مائة درهم ، ولم يسمع ما قبلها ، فإذا شهد على ما سمع كان إضرارا ً بالمشهود عليه ، وهذه السورة تدل لهذا المأخذ ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

(151/833)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ الآية ،

هذه الآية يتوهم منها الجاهل أن الله توعد المصلين بالويل ، وقد جاء في آية أخرى أن عدم الصلاة من أسباب دخول سقر وهي قوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴾ ، والجواب عن هذا في غاية الظهور ، وهو أن التوعد بالويل منصب على قوله : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ الآية ، وهم المنافقون على التحقيق ، وإنما ذكرنا هذا الجواب مع ضعف الإشكال وظهور الجواب عنه ؛ لأن الزنادقة الذين لا يصلون يحتجون لترك الصلاة بهذه الآية ، وقد سمعنا من ثقات وغيرهم أن رجلا قال لظالم تارك الصلاة مالك لا تصلي ؟

فقال : لأن الله توعد على الصلاة بالويل في قوله ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ فقال له : اقرأ ما بعدها ، فقال : لا حاجة لي فيما بعدها فيها كفاية في التحذير من الصلاة ، ومن هذا القبيل قول الشاعر :

دع المساجد للعباد تسكنها

وسر إلى حانة الخمار يسقينا

ما قال ربك ويل للأولى سكروا

وإنما قال ويل للمصلينا

فإذا كان تعالى توعد بالويل المصلى الذي هو ساه عن صلاته ويراءي فيها فكيف بالذي لا يصلي أصلاً فالويل كل الويل له وعليه لعائن الله إلى يوم القيامة ما لم يتب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 348 ﴾

(152/833)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزلت ﴿ أرأيت الذي يكذب ﴾ بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾ قال : الكافر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج ﴿ أرأيت الذي يكذب بالدين ﴾ قال : بالحساب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ أرأيت الذي بالدين ﴾ قال : يكذب بحكم الله ﴿ فذلك الذي يدعّ اليتيم ﴾ قال : يدفعه عن حقه .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عز وجل ﴿ فذلك الذي يدعّ اليتيم ﴾ قال : يدفعه عن حقه . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت أبا طالب يقول :

يقسم حقاً لليتيم ولم يكن . . . يدعّ لذي يسارهن الأصاغر

وأخرج سعيد بن منصور عن محمد بن كعب ﴿ يدع اليتيم ﴾ قال : يدفعه .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ يدع اليتيم ﴾ قال : يظلمه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : هم المنافقون يراؤون الناس بصلاتهم إذا حضروا ويتركونها إذا غابوا ويمنعونهم العارية بغضاً لهم وهي الماعون .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : هم المنافقون يتركون الصلاة في السر ، ويصلون في العلانية .

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : هم المنافقون .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه عن مصعب بن سعد قال : قلت لأبي : أرأيت قول الله : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ أينا لا يسهو ، وأينا لا يحدث نفسه ؟ قال : إنه ليس ذلك ، إنه إضاعة الوقت .

(153/833)

وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه والبيهقي في سننه عن سعد بن أبي وقاص قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها قال الحاكم والبيهقي الموقوف أصح .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه بسند ضعيف عن أبي برزة الأسلمي قال : " لما نزلت هذه

الآية ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر هذه الآية خير لكم من أن يعطى كل رجل منكم جميع الدنيا ، هو الذي إن صلى لم يرج خير صلاته ، وإن تركها لم يخف ربه " " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : الذين يؤخرونها عن وقتها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مسروق ﴿ عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : تضييع ميقاتها .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن مالك بن دينار قال : سأل رجل أبا العالية عن قوله : ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ ما هو ؟ فقال أبو العالية : هو الذي لا يدري عن كم انصرف عن شفع أو عن وتر ، فقال الحسن : مه هو الذي يسهو عن ميقاتها حتى تفوت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : لاهون .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف والبيهقي في سننه والخطيب في تالي التلخيص عن ابن مسعود أنه قرأ : " الذين هم عن صلاتهم لاهون " .

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : الحمد لله الذي قال ﴿ هم عن صلاتهم ساهون ﴾ ولم يقل في صلاتهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية ﴿ عن صلاتهم ساهون ﴾ قال : هو الذي يصلي

ويقول: هكذا وهكذا يعني يلتفت عن يمينه وعن يساره.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم ﴿ عن صلاتهم ساهون ﴾ قال: يصلون رياء وليس الصلاة من شأنهم.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة ﴿ عن صلاتهم ساهون ﴾ قال: لا يبالي عنها أصلى أم لم يصلّ.

(154/833)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب ﴿ الذين هم يراؤون ﴾ قال: يراؤون بصلاتهم.

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي والبزار وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه والبيهقي في سننه من طرق عن ابن مسعود قال: كنا نعد الماعون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم عارية الدلو والقدر والفأس والميزان وما تتعاطون بينكم.

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود قال: كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نتحدث أن الماعون الدلو والقدر والفأس ولا يستغني عنهن.

وأخرج الفريابي والبيهقي عن ابن مسعود في قوله : ﴿ الماعون ﴾ قال : الفأس والقدر والدلو ونحوها .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : كان المسلمون يستعيرون من المنافقين الدلو والقدر والفأس وشبهه فيمنعونهم فأنزل الله ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ .

وأخرج أبو نعيم والديلمي وابن عساكر " عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ قال : ما تعاون الناس بينهم الفأس والقدر والدلو وأشباهه " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه " عن قرة بن دعموص النميري أنهم وفدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ما تعهد إلينا ؟ قال : لا تمنعوا الماعون . قالوا : وما الماعون ؟ قال : في الحجر وفي الحديدة وفي الماء . قال : فأي الحديدة ؟ قال : قدوركم النحاس وحديد الناس الذي يمتهنون به . قالوا : ما الحجر ؟ قال : قدوركم الحجارة " .

وأخرج الباوردي عن الحرث بن شريح قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " المسلم أخو المسلم لا يمنعه الماعون ، قالوا : يا رسول الله ، ما الماعون ؟ قال : في الحجر وفي الماء وفي الحديد ، قالوا أي الحديد ؟ قال : قدر النحاس وحديد الفأس الذي تمتهنون به . قالوا : فما هذا الحجر ؟ قال : القدر الذي من الحجارة " .

وأخرج ابن قانع عن علي بن أبي طالب سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " المسلم أخو المسلم إذا لقيه حياه بالسلام ويرد عليه ما هو خير منه ، لا يمنع الماعون . قلت : يا رسول الله ما الماعون ؟ قال : الحجر والحديد والماء وأشباه ذلك " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه بسند ضعيف عن حفصة بنت سيرين : قالت لنا أم عطية : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نمنع الماعون . قلت : وما الماعون ؟ قالت : هو ما يتعاطاه الناس بينهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن سعيد بن عياض عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : الماعون الفأس والقدر والدلو .

وأخرج آدم وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه والبيهقي والضياء في المختارة عن ابن عباس في قوله ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ قال : عارية متاع البيت .

وأخرج الفريابي عن سعيد بن جبير قال : الماعون العارية .

وأخرج الفريابي وابن المنذر والبيهقي عن عكرمة أنه سئل عن الماعون فقال : هي العارية ، فقيل : فمن يمنع متاع بيته فله الويل ؟ قال : لا ولكن إذا جمعهن ثلاثهن فله الويل إذا سهى عن الصلاة ورايا ومنع الماعون .

وأخرج الفريابي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال: الماعون الزكاة المفروضة يراؤون بصلاتهم ويمنعون زكاتهم.

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله: ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ قال: أولئك المنافقون ظهرت الصلاة فصلوها وخفيت الزكاة فمنعوها.

وأخرج البيهقي عن ابن عباس ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ قال: الزكاة.

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر عن أبي المغيرة قال: قال ابن عمر: المال الذي لا يعطى حقه. قلت له: إن ابن مسعود قال: هو ما يتعطاه الناس بينهم من الخير. قال: ذلك ما أقول لك.

(156/833)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: رأس الماعون زكاة المال وأدناه المنخل والدلو والإبرة.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال: الماعون بلسان قريش المال.

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك وابن الحنفية قالا: الماعون الزكاة.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب قال : الماعون المعروف .

وأخرج ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ قال : اختلف الناس في ذلك ، فمنهم من قال : يمنعون الزكاة ، ومنهم من قال : يمنعون الطاعة ، ومنهم من قال : يمنعون العارية .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ قال : ما جاء هؤلاء بعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 8 صـ 641.645 ﴾

(157/833)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ أَرَأَيْت الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ؛

قَالَ ابْنُ عَبَّاس : "يُؤَخِّرُونَهَا عَنْ وَقْتِهَا " ، وَكَذَلِكَ قَالَ مُصْعَبُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ سَعْدٍ وَرَوَى مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : "يَسْهُونَ عَنْ مِيقَاتِهَا حَتَّى يَفُوتَ " .

وَرَوَى إسْمَاعِيلُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : هُمْ الْمُنَافِقُونَ يُؤَخِّرُونَهَا عَنْ وَقْتِهَا يُرَاءُونَ

بِصَلَاتِهِمْ إِذَا صَلَّوْا " .

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : " هُوَ الَّذِي لَا يَدْرِي أَعَلَى شَفْعٍ انْصَرَفَ أَوْ عَلَى وِتْرٍ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَشْهَدُ لِهَذَا التَّأْوِيلِ مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا غِرَارَ فِي الصَّلَاةِ وَلَا تَسْلِيمَ ﴾ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَنْصَرِفُ مِنْهَا عَلَى غِرَارٍ وَهُوَ شَاكٌّ فِيهَا .

وَنَظِيرُهُ مَا رَوَى أَبُو سَعِيدٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ شَكَّ فِي صَلَاتِهِ فَلَمْ يَدْرِ أَثَلَاثًا صَلَّى أَمْ أَرْبَعًا فَلْيُصَلِّ رَكْعَةً أُخْرَى ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَمَّتْ صَلَاتُهُ فَالرَّكْعَةُ وَالسَّجْدَتَانِ لَهُ نَافِلَةٌ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ : سَاهُونَ قَالَ : " لَاهُونَ " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : كَأَنَّهُ أَرَادَ أَنَّهُمْ يَسْهُونَ لِلَهْوِهِمْ عَنْهَا ، فَإِنَّمَا اسْتَحَقُّوا اللَّوْمَ لِتَعَرُّضِهِمْ لِلسَّهْوِ لِقِلَّةِ فِكْرِهِمْ فِيهَا ؛ إِذْ كَانُوا مُرَائِينَ فِي صَلَاتِهِمْ ؛ لِأَنَّ السَّهْوَ الَّذِي لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِقَابَ عَلَيْهِ .

وقَوْله تعَالَى : ﴿ يدُعُّ الْيَتِيم ﴾ قَال ابْنُ عَبَّاس ومُجاهِدٌ وقَتَادَةُ : "يدْفَعُهُ عَنْ حَقِّهِ" .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قَال عَلِيٌّ وابْنُ عَبَّاسٍ رِوَايَةً وابْنُ عُمرَ وابْنُ الْمُسَيِّب : "الْمَاعُونُ الزَّكَاةُ" .

ورَوَى الْحَارِثُ عَنْ عَلِيٍّ : "الْمَاعُونُ مَنْعُ الْفَأْسِ والْقِدْرِ والدَّلْو" ، وكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ .

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رِوَايَةً أُخْرَى : "الْعَارِيَّةُ" .

وقَالَ ابْنُ الْمُسَيِّب : "الْمَاعُونُ الْمَالُ" .

وقَالَ أَبو عُبَيْدَةَ : "كُلُّ مَا فِيهِ مَنْفَعَةٌ فَهُوَ الْمَاعُونُ" .

قَالَ أَبو بَكْرٍ : يَجُوز أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ مَا رُوِيَ فِيهِ مُرَادًا ؛ لِأَنَّ عَارِيَّةَ هَذِهِ الْآلَاتِ قَدْ تَكُونُ وَاجِبَةً فِي حَالِ الضَّرُورَةِ إلَيْهَا ومَانِعُهَا مَذْمُومٌ مُسْتَحِقٌّ للذَّمِّ ، وقَدْ يَمْنَعُهَا الْمَانِعُ لِغَيْرِ ضَرُورَةٍ فَيُنْبِئُ ذَلِكَ عَنْ لُؤْمٍ وَمُجَانَبَةِ أَخْلَاقِ الْمُسْلِمِينَ ؛ وقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ﴾ .

آخِرُ السُّورَةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْمَاعُونِ

[فِيهَا ثَلَاثُ آيَاتٍ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ : فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ النِّسْيَانَ هُوَ التَّرْكُ ، وَقَدْ يَكُونُ بِقَصْدٍ ، وَقَدْ يَكُونُ بِغَيْرِ قَصْدٍ ؛ فَإِنْ كَانَ بِقَصْدٍ فَاسْمُهُ الْعَمْدُ ، وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ قَصْدٍ فَاسْمُهُ السَّهْوُ ، وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ تَكْلِيفٌ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فَإِنَّ تَكْلِيفَ السَّاهِي مُحَالٌ ؛ لِأَنَّ مَنْ لَا يَعْقِلُ الْخِطَابَ كَيْفَ يُخَاطَبُ ؟ فَإِنْ قَالَ : فَكَيْفَ ذَمَّ مَنْ لَا يَعْقِلُ الذَّمَّ ؛ أَوْ كَلَّفَ مَنْ لَا يَصِحُّ مِنْهُ التَّكْلِيفُ ؟ قُلْنَا : إنَّمَا ذَلِكَ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يَعْقِدَ نِيَّتَهُ عَلَى تَرْكِهَا ، فَيَتَعَلَّقُ بِهِ الذَّمُّ إذَا جَاءَ الْوَقْتُ .

وَإِنْ كَانَ حِينَئِذٍ غَافِلًا أَوْ لِمَنْ يَكُونُ التَّرْكُ لَهَا عَادَتَهُ ، فَهَذَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الذَّمُّ دَائِمًا ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ يَسْهُو فِي صَلَاتِهِ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ لِأَنَّ السَّلَامَةَ عَنْ السَّهْوِ مُحَالٌ فَلَا تَكْلِيفَ .

وَقَدْ سَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَلَاتِهِ وَالصَّحَابَةُ ، وَكُلُّ مَنْ لَا يَسْهُو فِي صَلَاتِهِ فَذَلِكَ رَجُلٌ لَا يَتَدَبَّرُهَا وَلَا يَعْقِلُ قِرَاءَتَهَا ، وَإِنَّمَا هَمُّهُ فِي إِعْدَادِهَا وَهَذَا رَجُلٌ يَأْكُلُ الْقُشُورَ وَيَرْمِي اللُّبَّ ، وَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْهُو فِي صَلَاتِهِ إِلَّا لِفِكْرَتِهِ فِي أَعْظَمَ مِنْهَا ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَسْهُو فِي صَلَاتِهِ مَنْ يُقْبِلُ عَلَى وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ إِذَا قَالَ لَهُ : اُذْكُرْ كَذَا [لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُهُ] حَتَّى يَضِلَّ الرَّجُلُ أَنْ يَدْرِيَ كَمْ صَلَّى .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .

قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : قَالَ مَالِكٌ : هُمْ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ يُرَاءُونَ بِصَلَاتِهِمْ ؛ يُرِي الْمُنَافِقُ النَّاسَ أَنَّهُ يُصَلِّي طَاعَةً وَهُوَ يُصَلِّي تَقِيَّةً ، وَالْفَاسِقُ أَنَّهُ يُصَلِّي عِبَادَةً وَهُوَ يُصَلِّي لِيُقَالَ إِنَّهُ يُصَلِّي .

وَحَقِيقَةُ الرِّيَاءِ طَلَبُ مَا فِي الدُّنْيَا بِالْعِبَادَاتِ ، وَأَصْلُهُ طَلَبُ الْمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ ؛

فَأَوَّلُهَا تَحْسِينُ السَّمْتِ ؛ وَهُوَ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ ، وَيُرِيدُ بِذَلِكَ الْجَاهَ وَالثَّنَاءَ .

ثَانِيهِمَا الرِّيَاءُ بِالثِّيَابِ الْقِصَارِ وَالْخَشِنَةِ ، لِيَأْخُذَ بِذَلِكَ هَيْئَةَ الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا .

ثَالِثُهُمَا الرِّيَاءُ بِالْقَوْلِ بِإِظْهَارِ التَّسَخُّطِ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَإِظْهَارِ الْوَعْظِ وَالتَّأَسُّفِ عَلَى مَا يَفُوتُ مِنْ الْخَيْرِ وَالطَّاعَةِ .

رَابِعُهُمَا الرِّيَاءُ بِإِظْهَارِ الصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ ، أَوْ بِتَحْسِينِ الصَّلَاةِ لِأَجْلِ رُؤْيَةِ النَّاسِ ، وَذَلِكَ يَطُولُ ؛ وَهَذَا دَلِيلُهُ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ : فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي تَحْقِيقِ الْكَلِمَةِ : الْمَاعُونَ : مَفْعُولٌ مِنْ أَعَانَ يُعِينُ ، وَالْعَوْنُ هُوَ الْإِمْدَادُ بِالْقُوَّةِ وَالْآلَةِ وَالْأَسْبَابِ الْمُيَسِّرَةِ لِلْأَمْرِ الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِيهِ ، وَذَلِكَ سِتَّةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ مَالِكٌ : هِيَ الزَّكَاةُ ، وَالْمُرَادُ بِهَا الْمُنَافِقُ يَمْنَعُهَا .

وَقَدْ رَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : بَلَغَنِي أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ قَالَ : إنَّ الْمُنَافِقَ إذَا صَلَّى صَلَّى لَا لِلَّهِ ، بَلْ رِيَاءً ، وَإِنْ فَاتَتْهُ لَمْ يَنْدَمْ عَلَيْهَا ؛ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ : الزَّكَاةَ الَّتِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ : لَوْ خُفِّفَتْ لَهُمْ الصَّلَاةُ كَمَا خُفِّفَتْ لَهُمْ الزَّكَاةُ مَا صَلَّوْهَا .

الثَّانِي : قَالَ ابْنُ شِهَابٍ : الْمَاعُونُ الْمَالُ .

الثَّالِثُ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ مَا يَتَعَاطَاهُ النَّاسُ بَيْنَهُمْ .

الرَّابِعُ هُوَ الْقِدْرُ وَالدَّلْوُ وَالْفَأْسُ وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ الْخَامِسُ هُوَ الْمَاءُ وَالْكَلَأُ .

السَّادِسُ هُوَ الْمَاءُ وَحْدَهُ، وَأَنْشَدَ الْفَرَّاءُ: يَمُجُّ صَبِيرُهُ الْمَاعُونَ صَبًّا الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ لَمَّا بَيَّنَّا أَنَّ الْمَاعُونَ مِنْ الْعَوْنِ كَانَ كُلُّ مَا ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي تَفْسِيرِهِ عَوْنًا ، وَأَعْظَمُهُ الزَّكَاةُ إلَى الْمِحْلَابِ ، وَعَلَى قَدْرِ الْمَاعُونِ وَالْحَاجَةِ إلَيْهِ يَكُونُ الذَّمُّ فِي مَنْعِهِ ، إلَّا أَنَّ الذَّمَّ إنَّمَا هُوَ عَلَى مَنْعِ الْوَاجِبِ ، وَالْعَارِيَّةُ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ عَلَى التَّفْصِيلِ ؛ بَلْ إنَّهَا وَاجِبَةٌ عَلَى الْجُمْلَةِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ ؛ لِأَنَّ الْوَيْلَ لَا يَكُونُ إلَّا لِمَنْ مَنَعَ الْوَاجِبَ ، فَاعْلَمُوهُ وَتَحَقَّقُوهُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(163/833)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة أرأيت (الماعون)

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1)

قرأ الكسائي ﴿ أرْيْتَ ﴾ بسقوطِ الهمزة . وقد تقدَّم تحقيقُه في سورة الأنعام . وقال الزمخشري : " وليس بالاختيارِ ؛ لأنَّ حَذْفَها مختصٌّ بالمضارعِ ، ولم يَصِحَّ عن العرب " رَيْت " . والذي سَهَّلَ مِنْ أمرها وقوعُ حرفِ الاستفهامِ في أولِ الكلامِ ونحوُه :

4656 صاحِ هل ريْتَ أو سَمِعْتَ براعٍ . . . ردَّ في الضَّرْعِ ما قرى في العِلابِ

وفي " أرَأَيتَ " هذه وجهان ، أحدهما : أنَّها بَصَرِيَّة فتتعدى لواحدٍ وهو الموصولُ ، كأنه [قال] : أبْصرْتَ المكذِّبَ . والثاني : أنَّها بمعنى : أَخْبِرْني ، فتتعدى لاثنين ، فقدَّره الحوفيُّ : " أليس مُسْتَحِقّاً للعذاب " . والزمخشريُّ " مَنْ هو " . ويَدُلُّ على ذلك قراءةُ عبدِ الله " أَرَأَيْتَك " بكافِ الخطاب والكافُ لا تَلْحَقُ البَصَرِيَّة .

فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2)

قوله : ﴿ فَذَلِكَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنَّ الفاءَ جوابُ شرطٍ مقدرٍ ، أي : إن تأمَّلْتَه ، أو إنْ طَلَبْتَ عِلْمَه فذلك . والثاني : أنَّها عاطفةٌ " فذلك " على " الذي يَكَذِّبُ " إمَّا عَطْفَ ذاتٍ على ذاتٍ ، أو صفةٍ على صفةٍ . ويكونُ جوابُ أَرَأَيت " محذوفاً لدلالةِ ما بعدَه عليه . كأنه قيل : أَخْبِرْني ، وما تقولُ فيمَنْ يُكَذِّبُ بالجزاءِ وفيمَنْ يُؤْذِي اليتيمَ ولا يُطْعِمُ المسكينَ أَنِعْمَ ما يصنعُ ؟ فعلى الأول يكونُ اسمُ الإِشارةِ في محلِّ رَفْعٍ بالابتداءِ ، والخبرُ الموصولُ بعده ، وإمَّا على أنه خبرٌ لمبتدأ مضمرٍ ، أي : فهو ذاك والموصولُ نعتُه . وعلى الثاني يكونُ منصوباً لِنَسَقِه على ما هو منصوبٌ .

إلاَّ أنَّ الشيخَ رَدَّ الثاني فقال : " فجعل ذلك " في موضعِ نصبٍ عطفاً على المفعولِ ، وهو تركيبٌ غريبٌ كقولِك : " أَكْرَمْتُ الذي يَزورُنا فذلك الذي يُحْسِنُ إلينا " فالمتبادَرُ إلى الذهنِ أنَّ " فذلك " مرفوعٌ بالابتداء . وعلى تقديرِ النصبِ يكونُ التقديرُ : أَكرمْتُ الذي يزورُنا فأكْرَمْتُ ذلك الذي يُحْسِنُ إلينا . فاسمُ الإِشارةِ في هذا التقديرِ غيرُ متمكّنٍ تَمَكُّنَ ما هو فصيحٌ ؛ إذ لا حاجةَ أَنْ يُشارَ إلى الذي يزورُنا ؛ بل الفصيحُ : أَكْرَمْتُ الذي يزورُنا ، فالذي يُحْسِن إلينا ، أو أَكَرَمْتُ الذي يزورُنا فيُحْسِنُ إلينا . وأمَّا قولُه " إمَّا عَطْفُ ذاتٍ على ذاتٍ " فلا يَصِحُّ لأنَّ " فذلك " إشارةٌ إلى الذي يُكَذِّبُ فليسا بذاتَيْنِ ؛ لأنَّ المشارَ إليه ب " ذلك " واحدٌ . وأمَّا قولُه : " ويكونُ جوابُ أرأيتَ محذوفاً " فهذا لا يُسَمَّى جواباً بل هو في موضعِ المفعولِ الثاني ل " أرَأَيْتَ " وأمَّا تقديرُه " أَنِعْمَ ما يصنعُ " ؟ فهمزةُ الاستفهام لا نعلُم دخولَها على نِعْم ولا بئسَ ؛ لأنهما إنشاءٌ ، والاستفهامُ لا يدخل إلاَّ على الخبرِ " انتهى .

والجوابُ عن قولِه : " فاسمُ الإِشارةِ غيرُ متمكّنٍ " إلى آخره : أنَّ الفرقَ بينهما أنَّ في الآيةِ الكريمةِ استفهاماً وهو " أرأيتَ " فحَسُنَ أَنْ يُفَسِّرَ ذلك المُسْتَفْهَمَ عنه ، بخلافِ المثالِ الذي

مَثَّل به ، فمِنْ ثَمَّ حَسُنَ التركيبُ المذكورُ وعن قولِه : "لأنَّ" فذلك "إشارةٌ إلى" الذي يُكَذِّب" بالمنعِ" بل مُشارٌ به إلى ما بعدَه كقولِك : "اضْرِبْ زيداً ، فذلك القائمُ" إشارةٌ إلى القائمِ لا إلى زيد ، وإنْ كان يجوز أَنْ يكونَ إشارةً إليه . وعن قولِه "فلا يسمى جواباً" أنَّ النحاةَ يقولون : جوابُ الاستفهام ، وهذا قد تَقَدَّمه استفهامٌ فَحَسُنَ ذلك . وعن قولِه : " والاستفهامُ لا يَدْخُل إلاَّ على الخبر" ؛ بالمعارضةِ بقولِه تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ ﴾ [محمد : 22] فإنَّ "عسى "إنشاءٌ ، فما كان جواباً له فهو جوابٌ لنا .

وقرأ العامَّةُ بضمِّ الدال وتشديد العينِ مِنْ دَعَّه ، أي : دَفَعه وأمير المؤمنين والحسن وأبو رجاء "يَدَعُ" بفتحِ الدالِ وتخفيفِ العين ، أي : يَتْرُك ويُهْمِل وزيدُ بن علي "ولا يُحاضُّ" مِن المَحَاضَّةِ وتقدَّم في الفجر .

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4)

(166/833)

قوله : ﴿ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ خبرٌ لقولِه : "فويْلٌ" والفاءُ للتسبُّب ، أي : تَسَبَّبَ عن هذه الصِّفاتِ الذَّميمةِ الدعاءُ عليهم بالوَيْلِ لهم . قال الزمخشري بعد قولِه : "كأنَّه قيل : أَخْبِرْني ، وما تقول فيمَنْ يُكذِّبُ بالدين إلى قوله : أَنِعْمَ ما يصنعُ" ثم قال الله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ

﴾ ، أي : إذا عُلِمَ أَنَّه مُسِيْءٌ فوَيْلٌ للمُصَلِّيْنَ على معنى فوَيْلٌ لهم ، إلَّا أنَّه وَضَعَ صفتَهم موضعَ ضميرِهم ، لأنهم كانوا مع التكذيب وما أُضيفَ إليه ساهين عن الصلاة مُرائين غيرَ مُزَكِّيْنَ أموالَهم . فإنْ قلتَ : كيف جَعَلْتَ المُصَلِّين قائماً مَقامَ ضميرِ الذي يُكَذِّبُ وهو واحدٌ ؟ قلت : لأنَّ معناه الجمعُ ، لأنَّ المرادَ به الجنسُ " .

قال الشيخ : " وأمَّا وَضْعُه المُصَلِّين موضعَ الضميرِ ، وأنَّ المُصَلِّيْنَ جمعٌ ؛ لأنَّ ضميرَ الذي يُكَذِّبُ معناه الجمعُ فتكلُّفٌ واضحٌ . ولا يَنْبغي أَنْ يُحْمَلَ القرآنُ إلَّا على ما عليه الظاهرُ ، وعادةُ هذا الرجلِ تكلُّفُ أشياءَ في فَهْمِ القرآنِ ليسَتْ بواضحةٍ " انتهى . قلت : وعادةُ شيخِنا - رحمه الله - التَّحامُلُ على الزمخشري حتى يَجْعَلَ حسنَه قبيحاً . وكيف يُرَدُّ ما قاله وفيه ارتباطُ الكلامِ بعضِه ببعضٍ ، وجَعْلُه شيئاً واحداً ، وما تضمَّنه من المبالغةِ في الوعيدِ في إبرازِ وَصْفِهم الشَّنيع ؟ ولا يُشَكُّ أنَّ الظاهرَ من الكلامِ أن السورةَ كلَّها في وصفِ قومٍ جَمَعوا بين هذه الأوصافِ كلِّها : من التكذيبِ بالدِّين ودَفْعِ اليتيمِ وعَدَمِ الحَضِّ على طعامِه ، والسَّهْوِ في الصلاة ، والمُراءاةِ ومَنْعِ الخيرِ .

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5)

قوله : ﴿ الذين هُمْ ﴾ : يجوز أُنْ يكونَ مرفوعَ المَحَلّ ، وأَنْ يكونَ منصوبَه ، وأَنْ يكونَ مجرورَه تابعاً . نعتاً أو بدلاً أو بياناً ، وكذلك الموصولُ الثاني ، إلاَّ أنَّه يُحْتمل أَنْ يكونَ تابعاً للمُصَلِّيْنَ ، وأَنْ يكونَ تابعاً للموصولِ الأولِ . وقوله : "يُراؤُون" أصلُه يُرائِيُوْنَ كيُقاتِلون . ومعنى المُراءاة ، أنَّ المُرائيَ يُري الناسَ عملَه ، وهم يُرُونَه الثناءَ عليه ، فالمفاعَلَةُ فيها واضحةٌ . وقد تقدَّم تحقيقُ ذلك .

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7)

قوله : ﴿ الماعون ﴾ : أوجهٌ ، أحدُها : أنه فاعُول من المَعْنِ وهو الشيءُ القليل . يُقال : " ماله مَعْنَةٌ " أي : قليلٌ ، قاله قطرب . الثاني : أنَّه اسمُ مفعولٍ مِنْ أعانه يُعينه . والأصلُ : مَعْوُوْن . وكان مِنْ حقِّه على هذا أَنْ يقال : مَعُوْن كمَقُوْل ومَصُون اسمَيْ مفعولٍ مِنْ قال وصان ، ولكنه قُلِبَتِ الكلمةُ : بأَنْ قُدِّمَتْ عينُها قبل فائِها فصار مَوْعُوْن ، ثم قُلِبَتِ الواوُ الأولى ألفاً كقولِهم " تابَةٌ " و " صامَةٌ " في تَوْبة وصَوْمَة ، فوزنُه الآن مَعْفُوْل . وفي هذا الوجه شذوذٌ من ثلاثةِ أوجهٍ ، أوَّلُها : كَوْنُ مَفْعول جاء من أَفْعَل وحقُّه أَنْ يكونَ على مُفْعَل كمُكْرَم فيقال : مُعان كمُقام . وإمَّا مَفْعول فاسمُ مفعولِ الثلاثي . الثاني : القَلْبُ وهو خلافُ الأصلِ : الثالث : قَلْبُ حرفِ العلةِ ألفاً ، وإنْ لم يتحرَّكْ ، وقياسُه على تابة وصامة بعيدٌ لشذوذِ المَقيسِ عليه . وقد يُجاب عن الثالث : بأنّ الواوَ متحركةٌ في الأصل قبل القلبِ فإنه بزنةِ مَعْوُوْن .

الثالث : من الأوجه الأُوَل : أنَّ أصله مَعُوْنَة والألفُ عوضٌ من الهاء ، ووزنُه مَفُعْل كمَلُوْم ووزنُه بعد الزيادة : ما فُعْل . واختلفَتْ عباراتُ أهلِ التفسير فيه ، وأحسنُها : أَنَّه كلُّ ما يُستعان به ويُنتفع به كالفأْس والدَّلْو والمِقْدحة وأُنْشِد قولُ الأعشى :

4657 بأَجْوَدَ مِنْه بماعُوْنِه . . . إذا ما سماؤُهُم لم تَغِمّْ

ولم يَذْكُرِ المفعولَ الأولَ للمَنْع : إمَّا للعِلْمِ به ، أي : يَمْنعون الناسَ أو الطالبين ، وإمَّا لأنَّ الغرَضَ ذِكْرُ ما يمنعونه لا مَنْ يمنعون ، تنبيهاً على خساسَتِهم وضَنِّهم بالأشياءِ التافهةِ المُسْتَقْبَحِ مَنْعُها عند كلِّ أحدٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 11 صـ 119 . 124﴾

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الدون والدين)

يقال للقاصر عن الشئ : دُون .

وقال بعضهم : هو مقلوب من الدنوّ .

والأَدون الدّنئ .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ﴾ أَى ممّن لم تبلغ منزلتُه منزلتكم فى الدّيانة ،

وقيل فى القرابة .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ أَى ما كان أَقلّ من ذلك .

وقيل : ما سوى ذلك .

والمعنيان يتلازمان .

وقوله تعالى : ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ أَى غير الله ، وقيل

: معناه إِلهين متوسّلًا بهما إِلى الله .

وقوله : ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ ﴾ أَى ليس لهم من يُواليهم من دون الله .

وقد يُغْرَى بلفظ دون فيقال : دونك كذا أَى تناوله .

وقال بعض أَئمة اللغة : دون نقيض فوق ، ويكون ظرفاً ، وبمعنى أَمَام ووراءَ وفوق ، وبمعنى

الشريف والخسيس ، وبمعنى الأَمر وبمعنى الوعيد .

وقال بعضهم : الدُون : الحقير الخسيس ، وقد دان وأُدِين .

أَمّا الدِّين فيقال للطّاعة والجزاء واستعير للشريعة .

والدّين كالملة لكنه يقال اعتبارا بالطّاعة والانقياد للشريعة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً ﴾ أى طاعة وقوله ﴿ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ ﴾ حثّ على

اتّباع دين النبىّ صلّى الله عليه وسلّم الّذى هو أوسط الأديان وخيرها ، كما قال :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ قيل يعنى فى

الطّاعة ، فإِنّ ذلك لا يكون فى الحقيقة إِلاّ بالإِخلاص ، والإِخلاصُ لا يتأَّتى فيه الإِكراه .

وقيل إِنّ ذلك مختصّ بأَهل الكتاب الباذلين للجزية .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ يعنى الإِسلام كقوله ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً

فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ .

(170/833)

وقوله ﴿ فَلَوْلاَ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ أَى غير مجزِيين .

وقال بعضهم : الدِّين : الجزاءُ ، دِنته دَيْنا ودِينا ، والإِسلام [وقد] دِنتُ

به ، والعادة ، قال :

*تقول إِذا درَأْتُ لها وضِينى * أَهذا دينُه أَبداً ودينى*

والطاعة كالدينة فيهما بالهاءِ ، والذل ، والذّلّ ، والداءُ ، والحساب ، والقهر والغلبة ، والسّلطان

والحكم ، والتَّوحيد ، واسم جميع ما يُتعبّد الله به ، والمِلَّة ، والورَع ، والمعصية ، والإِكراه ، ومن الأَمطار : ما تعاهد موضعاً فصار ذلك له عادة .

وفى الحديث "إن الدّين يسرٌ" وفيه "إِنّ دين الله الحنيفية السّمحة" وقال "إِنّ الدّين متين فأَوْغِل فيه برفق" ومن كلام العلماءِ كُلْ من كَدّ يمينيك .

ولا تأْكل بدِينك وقال الشاعر :

*عجبتُ لمبتاع الضَّلالة بالهدى * وللمشترى دنياه بالدّين أَعجب*

*وأَعجبُ من هذين مَن باع دينه * بدنياه سواه فهْو من ذين أَخيب*

والدّين ورد فى القرآن بمعنى التَّوحيد والشهادة ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ ﴾ ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ أَى التوحيد وله نظائر ، وبمعنى الحساب والمناقشة ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ أَى الحساب وله نظائر أَيضاً ، وبمعنى حكم الشريعة ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أَى فى حكمه ، وبمعنى الإِيالة والسّياسة ﴿ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ أَى فى سياسته ، وبمعنى المِلَّة ﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ أَى الملَّة المستقيمة ، وبمعنى الإِسلام ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 617.615 ﴾

من لطائف الإمام القشيري فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الماعون (الدين)

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة سماعها غذاء أرواح المحبين ، ضياء أسرار الواجدين ، شفاء قلوب المتيمين ، بلاء مهج المساكين ، دواء كل فقير مسكين .

قولهّ جل ذكره : ﴿ أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ .

نزلت الآية على جهة التوبيخ ، والتعجُّبِ من شأن تظلُّم اليتيمِ من الكفار .

فقال : ﴿ أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ ، وبالحساب والجزاء ؟

﴿ فَذَالِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ .

يدفعه بجفوة ، ويقال : يدفعه عن حقّه .

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينَ ﴾ .

أي : لا يَحُثُّ على إطعام المسكين ، وإنما يدعُّ اليتيم ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى قد نزع الرحمةَ من قلبه " ولا تنزع الرحمة إلاَّ من قلبِ شقيٍّ " .

وهو لا يحث على طعام المسكين ، لأنه في شُحِّ نَفْسِه وأَمْرِ بُخْلِه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ .

السَّاهي عن الصلاة الذي لا يُصَلّي . ولم يقل : الذين هم في صلاتهم ساهون . . ولو قال ذلك لكان الأمرُ عظيماً .

﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ : أي يصلون ويفعلون ذلك على رؤية الناس - لا إخلاصَ لهم .

وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7)

الماعون : مثل الماء ، والنار ، والكلأ ، والفأس ، والقِدْر وغير ذلك من آلةِ البيت .

ويدخل في هذا : البُخْلُ ، والشُّحّ بما ينفع الخَلْقَ مما هو مُمْكِنٌ ومُسْتَطاع . انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 773 . 774 ﴾

(172/833)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام (بالدين) متعلّق بـ (يكذّب) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (الذي) موصول في محلّ رفع خبر المبتدأ (ذلك) ، (لا) نافية (على طعام) متعلّق بـ (يحضّ) . .

جملة : " رأيت . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " يكذّب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " ذلك الذي . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن سألت عنه فذلك الذي . . .

وجملة : " يدعّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) الثاني .

وجملة : " لا يحضّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يدعّ .

[سورة الماعون (107) : الآيات 4 إلى 7]

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ (7)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة (ويل) مبتدأ مرفوع (للمصلين) متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ ويل (الذين) موصول في محلّ جرّ نعت للمصلين - أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم - (عن صلاتهم)

متعلّق بـ (ساهون) ، (الذين) الثاني مثل الأول - أو هو تابع للأول بالبدليّة - . .

جملة : " ويل للمصلّين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هم . . . ساهون " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " هم يراءون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " يراءون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

وجملة : " يمنعون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يراءون .

الصرف :

(173/833)

---

(7) الماعون : اسم للحاجة ممّا ينتفع به في البيت حقيرا كان أو ذا قيمة ، قيل وزنه فاعول من المعن وهو الشيء القليل - قاله قطرب - أو هو على وزن مفعول - على القلب - والأصل اسم مفعول من عان يعون وحقّه أن يكون معون والأصل معوون ثمّ قدّمت عين الكلمة على فائها فقيل موعون ثمّ قلبت الواو ألفا لفتح ما قبلها ماعون .

الفوائد :

- الحضّ على الماعون :

اختلف العلماء في الماعون، فروي عن علي أنه الزكاة. وقال ابن مسعود: الماعون: الفأس والدلو والقدر وقال مجاهد: الماعون العارية، وقال عكرمة: الماعون أعلاه الزكاة المفروضة، وأدناه عارية المتاع وقال محمد بن كعب القرظي: الماعون المعروف كله الذي يتعاطاه الناس فيما بينهم. ومعنى الآية: منع البخل والزجر عنه.

قال العلماء: يستحبّ أن يستكثر الرجل في بيته مما يحتاج إليه الجيران، فيعيرهم، ويتفضل عليهم، ويجوز الثواب. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 30 صـ 411. 412﴾

(174/833)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(107) سورة الماعون

مكيّة وآياتها سبع

[سورة الماعون (107): الآيات 1 إلى 7]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4)

الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ (7)

اللغة :

(يَدُعُّ) يدفع بعنف وجفوة وفي المختار : " دعّ من باب رد " قال ابن دريد : دعّه ودحّه بمعنى واحد وامرأة دعوع ودحوح وأنشد :

قبيح بالعجوز إذا تغدّت من البرنيّ واللبن الصريح

بتغّيها الرجال وفي صلاها مواقع كل فيشلة دحوح

وأنشد ثعلب عن ابن الأعرابي :

قد أغتدي والليل في حريمه معسكرا في الغرّ من نجومه

والصبح قد نسّم في أديمه يدعّه بضفّتي حيزومه

دعّ الربيب لحيتي يتيمه (الْماعُونَ) في المختار : " الماعون اسم جامع لمنافع البيت كالقدر والفأس ونحوهما " وعبارة ابن خالويه : " والماعون : الطاعة والماعون الزكاة والماعون الماء والماعون الحال والماعون الدلو والقداحة والفأس والنار والملح وما أشبه ذلك من المحلّات ، وإنما سمّيت المحلات ماعونا لأن المسافر إذا كانت معه هذه الأشياء حلّ حيث شاء قال الراعي :

قوم على الإسلام لما يمنعوا ماعونهم ويضيعوا التهليلا "

الإعراب :

(175/833)

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) الهمزة للاستفهام وهي مع رأيت بمعنى أخبرني وقد تقدم ذلك كثيرا ويجوز أن تكون الرؤية قلبية فتتعدى لمفعولين أحدهما الموصول والثاني محذوف والمعنى هل عرفت الذي يكذب بالدين من هو وقيل الرؤية بصرية فلا حاجة إلى تقدير مفعول به (فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ) الفاء الفصيحة لأنها جواب شرط مقدّر والتقدير إن لم تعرفه فذلك ، وقدّره السمين " إن طلبت علمه فذلك " وذلك مبتدأ والذي خبره وجملة يدعّ اليتيم صلة ، ومن الغريب أن ابن خالويه أعرب الذي نعتا لذلك ولم يشر إلى الخبر مطلقا مع أنه قال إن ذلك مبتدأ ، وهناك أقوال وأعاريب أخرى ذكرها المفسرون طوينا عنها صفحا لأنها مجرد تكلف (وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) الواو عاطفة ولا نافية ويحضّ فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره هو أي الذي يدع اليتيم وعلى طعام المسكين متعلقان بيحضّ (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ) الفاء الفصيحة

أيضا أي إذا علمت أنه متّصف بهذه الصفات فويل أو فإذا كان الأمر كذلك فويل وهذا أولى من قول السمين إنها للسببية وقد فسّره بقوله :

(176/833)

" و الفاء للسببية أي إن الدعاء عليهم بالويل متسبّب عن هذه الصفات الذميمة " وويل مبتدأ وللمصلين خبره (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ) الذين نعت للمصلّين وهم مبتدأ وعن صلاتهم متعلق بساهون والجملة الاسمية لا محل لها لأنها صلة الذين . ونستبعد قول من تأولوا السهو عن الصلاة في الآية بأنه سهو في الصلاة ، فليس السهو فيها بخطيئة ولا منكر ينذر معه الساهي بويل وكل مؤمن عرضة لأن يسهو في صلاته فينجبر هذا السهو فيها بسجود السهو أو بالسنن والنوافل على ما هو مقرر في الفقه (الَّذِينَ هُمْ يُراؤُنَ وَيَمْنَعُونَ الْماعُونَ) الذين بدل من الذين الأولى وهم مبتدأ وجملة يراءون خبر والجملة صلة الذين وجملة يمنعون الماعون عطف على يراءون داخلة في حيّز الصلة ومفعول يمنعون الأول محذوف أي الناس أو الطالبين والماعون مفعوله الثاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 592 . 594﴾

(177/833)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وسمى (جنة المشتاق فى تفسير كلام الملك الخلاق)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بورسلى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والثلاثون بعد الثمانمائة

حقوق النسخ والطبع والنشر مسموح بها لكل مسلم

﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجرا ﴾

الجزء الرابع والثلاثون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الكوثر)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الكوثر)

(5/834)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الكوثر

وتسمى النحر .

مقصودها المنحة بكل خير يمكن أن يكون ، واسمها الكوثر واضح في ذلك وكذا النحر لأنه معروف في نحر الإبل ، وذلك غاية الكرم عند العرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 547﴾

(6/834)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . إنا أعطيناك الكوثر)

السّورة مكّيّة .

آياتها ثلاث بالإِجماع .

وكلماتها عشر .

وحروفها ثنتان وأَربعون .

فواصل آياتها على الرّاءِ .

سمّيت سورة الكوثر ؛ لذكره فيها .

معظم مقصود السّورة : بيان المِنّة على سيّد المرسلين ، وأَمره بالصّلاة والقُرْبان ، وإِخباره بإِهلاك أَعدائه أَهل الخيبة والخذلان .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ وبعده : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ قيد الخبرين بإِنَّ ، والخبر إذا قيّد بإِنّ قارب الاسم .

فضل السّورة

فيه حديثان متروكان : مَنْ قرأَها سقاه الله من أَنهار الجنّة ، وأُعطى من الأَجر عشر

حسنات بعدد كلّ قُرْبان قربه العِباد فى يوم عيد ، ويقرّبون من أَهل الكتاب والمشركين ، وحديث على : يا علىّ مَنْ قرأ ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أَعطاه الله ثواب حَمَلة القرآن ، وله بكلّ آية قرأَها ثواب الذاكرين لله على كلّ حال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 547 ﴾

(7/834)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الكوثر

سميت هذه السورة في جميع المصاحف التي رأيناها وفي جميع التفاسير أيضاً سورة الكوثر وكذلك عنونها الترمذي في كتاب التفسير من جامعه) . وعنونها البخاري في (صحيحه) سورة : (إنا أعطيناك الكوثر (ولم يعدّها في (الإتقان) مع السور التي لها أكثر من اسم .

ونقل سعد الله الشهير بسعْدِي في (حاشيته على تفسير البيضاوي) عن البِقاعي أنها تسمى (سورة النحر) .

وهل هي مكية أو مدنية ؟ تعارضت الأقوال والآثار في أنها مكية أو مدنية تعارضاً

شديداً ، فهي مكية عند الجمهور واقتصر عليه أكثر المفسرين ، ونقل الخفاجي عن كتاب (النشر) قال : أجمعَ من نعرفه على أنها مكية . قال الخفاجي : وفيه نظر مع وجود الاختلاف فيها .

وعن الحسن وقتادة ومجاهد وعكرمة : هي مدنية ويشهد لهم ما في (صحيح مسلم) عن أنس بن مالك : (بينا رسول الله ذات يوم بين أظهرنا إذْ أغفَى إغْفاءة ثم رفع رأسه وقال : أُنزلت عليّ آنفاً سورةُ فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم : (إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر ((الكوثر : 1 3) ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه نهر وعَدَنِيه رَبِّي عز وجل ، عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة) الحديث . وأنسٌ أسْلم في صدر الهجرة فإذا كان لفظ (آنفاً) في كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) مستعملاً في ظاهر معناه وهو الزمن القريب ، فالسورة نزلت منذ وقت قريب من حصول تلك الرؤيا .

ومقتضى ما يروى في تفسير قوله تعالى : (إن شانئك هو الأبتر أن تكون السورة مكية ، ومقتضى ظاهر تفسير قوله تعالى : وانحر من أن النحر في الحج أو يومَ الأضحى تكون السورة مدنية ويبعث على أن قوله تعالى : إن شانئك هو

الأبتر (ليس ردّاً على كلام العاصي بن وائل كما سنبين ذلك .

والأظهر أن هذه السورة مدنية ، وعلى هذا سنعتمد في تفسير آياتها .

وعلى القول بأنها مكية عدُّوها الخامسة عشرة في عداد نزول السور ، نزلت بعد سورة العاديات وقبل سورة التكاثر . وعلى القول بأنها مدنية فقد قيل : إنها نزلت في الحديبية .

وعدد آيها ثلاث بالاتفاق .

وهي أقصر سُور القرآن عدَد كلمات وعدَد حروف ، وأما في عدد الآيات فسورة العصر وسورة النصر مثلها ولكن كلماتُهما أكثر .

أغراضها

اشتملت على بشارة النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه أُعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة .

وأمره بأن يشكر الله على ذلك بالإِقبال على العبادة .

وأن ذلك هو الكمال الحق لا ما يتطاول به المشركون على المسلمين بالثروة والنعمة وهم مغضوب عليهم من الله تعالى لأنهم أبغضوا رسوله ، وغضب الله بَتْرٌ لهم إذا كانوا بمحل السخط من الله .

وأن انقطاع الولد الذكر ليس بترًا لأن ذلك لا أثر له في كمال الإِنسان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 572.571 ﴾

(9/834)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الكوثر

مكية وأياتها ثلاث أيات

بين يدي السورة

* سورة الكوثر مكية ، وقد تحدثت عن فضل الله العظيم على نبيه الكريم ، بإعطائه الخير الكثير ، والنعم العظيمة في الدنيا والآخرة ، ومنها [نهر الكوثر] وغير ذلك من الخير العظيم العميم ، وقد دعت الرسول إلى إدامة الصلاة ، ونحر الهدي شكرا لله [إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وإنحر] .

* وختمت السورة ببشارة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بخزي أعدائه ، ووصفت مبغضيه بالذلة والحقارة ، والإنقطاع من كل خير في الدنيا والآخرة ، بينما ذكر الرسول

مرفوع على المنائر والمنابر ، واسمه الشريف على كل لسان ، خالد إلى آخر الدهر والزمان [إن شانئك هو الأبتر] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 610 ﴾

(10/834)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة الكوثر

الكوثر : المفرط فى الكثرة ، قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر : بم آب ابنك ؟ قالت : آب بكوثر ، ويقال للرجل الكثير العطاء هو كوثر ، قال الكميت الأسدى :

وأنت كثير يا ابن مروان طيّب وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

والمراد به هنا النبوة والدين الحق والهدى وما فيه سعادة الدنيا والآخرة ، والشانئ : المبغض ، وأصل الأبتر : الحيوان المقطوع الذنب ، والمراد به هنا ما لا يبقى له ذكر ولا يدوم له أثر – شبه بقاء الذكر الحسن واستمرار الأثر الجميل بذنب الحيوان من حيث إنه يتبعه وهو زينة له . وشبه الحرمان منه ببتر الذنب وقطعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 253 ﴾

وقال الفراء :

سورة (الكوثر)

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ . . . ﴾ .

قال ابن عباس : هو الخير الكثير . ومنه القرآن .

[حدثنا أبو العباس قال : حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال : وحدثنى مندل بن على العنزى بإسناد رفعه إلى عائشة قال : "الكوثر" نهر فى الجنة . فمن أحب أن يسمع صوته فليدخل أصبعيه فى أذنيه .

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ . . . ﴾ .

يقال : فصل لربك يوم العيد ، ثم انحر .

[حدثنا أبو العباس قال : حدثنا محمد قال] حدثنا الفراء قال : وحدثنى قيس عن يزيد بن يزيد ابن جابر عن رجل عن على قال فيها : النحر أخذك شمالك بيمينك فى الصلاة ، وقال

: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ استقبل القبلة بنحرك، وسمعت بعض العرب يقول: منازلنا تتناحر هذا بنحر هذا أي: قبالته. وأنشدني بعض بني أسد:

أبا حَكَم ها أنت عَمُّ مُجالِدٍ * وسيِّدُ أهلِ الأَبطَحِ المتناحرِ

فهذا من ذلك ينحر بعضه بعضا.

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾

وقوله عز وجل: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ... ﴾.

كانوا يقولون: الرجل إذا لم يكن له ولد ذكر ـ أبتر ـ [/ب] أي: يموت فلا يكون له ذِكر. فقالها بعض قريش للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ مبغضك، وعدوك هو الأبتر الذي لا ذكر له بعمل خير، وأما أنت فقد جعلت ذكرك مع ذكري، فذلك قوله: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معاني القرآن / للفراء حـ 3 صـ 295 ـ 296 ﴾

(12/834)

وقال الأخفش:

سورة (الكوثر)

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾

قال ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ تقول : "شَنِئْتَه" فَ"أَنا أَشنَؤُه" شَنَآنا" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 586 ﴾

(13/834)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الكوثر «1»

1 - الْكَوْثَرَ : الخير الكثير . قال ذلك ابن عباس .

وقال ابن عيينة : «قال عبد الكريم أو أمية : قالت عجوز : قدم فلان بكوثر كثير» .

وأحسبه «فوعلا» من الكثرة . وكذلك يقال للغبار - إذا ارتفع وكثر - :

كوثر ، قال الهذلي يذكر الحمار :

يحامي الحقيق إذا ما احتدمن حمحم في كوثر كالجلال

أي في غبار كثير كأنه جلال [السفينة أو الدوابّ] .

ويقال : «الكوثر» : نهر في الجنة .

2 - فَصَلِّ لِرَبِّكَ : يوم النحر ، وَانْحَرْ : اذبح .

ويقال: «انحر»: رفع يديك بالتكبير إلى نحرك.

3 - إِنَّ شانِئَكَ أي إن مبغضك، هُوَ الْأَبْتَرُ أي لا عقب له.

وكانت قريش قالت: «إن محمدا لا ذكر له، فإذا مات: ذهب ذكره»، فأنزل الله هذا، وأنزل: وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ [سورة الشرح آية: 4]. انتهى انتهى. اهـ ﴿تأويل مشكل القرآن صـ 474﴾

---

(1) هي مكية عند الجمهور.

(14/834)

وقال الغزنوى:

[سورة الكوثر]

1 الْكَوْثَرَ: «فوعل» من الكثرة «1». ك «الجوهر» من الجهر.

2 وَانْحَرْ: استقبل القبلة بنحرك «2». وقيل «3»: هو الاستواء جالسا

---

(1) نص هذا القول في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 541، وذكره - أيضا - النحاس في إعراب القرآن: 5/ 298، والزمخشري في الكشاف: 4/ 290.

وثبت في الصحيح أنه نهر في الجنة كما في صحيح البخاري : 6/ 92 ، كتاب التفسير ، تفسير سورة الكوثر ، وصحيح مسلم : 1/ 300 حديث رقم (400) كتاب الصلاة ، باب «حجة من قال : البسملة آية من كل سورة سوى براءة» .

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 523 : «أي : كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك النهر» .

(2) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 296 ، وذكره الطبري في تفسيره : 3/ 328 ، عن بعض أهل العربية .

ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 532 عن أبي الأحوص .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 8/ 651 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن أبي الأحوص .

(3) نقله القرطبي في تفسيره : (20/ 219 ، 220) عن عطاء .

وقول عامة المفسرين أن المراد هو نحر البدن ، كما في تفسير الفخر الرازي : 32/ 129 ، والبحر المحيط : 8/ 520 .

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره : 8/ 524 : «والصحيح . . . أن المراد بالنحر ذبح المناسك ، ولهذا كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصلي العيد ثم ينحر نسكه . . .» .

بين السّجدتين حتى يستوي نحرك .

3 شانِئَكَ : العاص «1» بن وائل .

[108/ ب] هُوَالْأَبْتَرُ : المقطوع عن كلّ/ خير «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 893 . 894 ﴾

---

(1) كما في تفسير الطبري : 30/ 329 ، وأسباب النزول للواحدي : 541 .

والتعريف والإعلام للسهيلي : 187 ، والدر المنثور : 8/ 652 .

قال السيوطي : «والمشهور أنها نزلت في العاصي بن وائل» .

(2) ينظر معاني القرآن للزجاج : 5/ 370 ، وتفسير الماوردي : 4/ 532 ، واللسان : 4/ 37 (بتر) .

وقال ملاحويش :

تفسير سورة الكوثر

عدد 15 - 108

نزلت بمكة بعد العاديات وهي ثلاث آيات ، وعشر كلمات ، واثنان وأربعون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها ، ويوجد في القرآن أربع سور مبدوءة بما بدئت به هذه والفتح ونوح والقدر ، ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به ولم تكرر بالقرآن كله .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "إِنَّا" نحن إله السموات والأرض وما فيهما وما فوقهما وتحتهما "أَعْطَيْناكَ" يا أكمل الرسل "الْكَوْثَرَ 1" نهرا في الجنة يدعى بهذا الاسم روى البخاري ومسلم عن أنس قال بينما رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما فقلت ما أضحكك يا رسول اللّه قال أنزلت علي آنفا سورة فقرأ (إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ) إلخ قال : أتدرون ما الكوثر قلنا اللّه ورسوله أعلم : قال فإنه نهر في الجنة وعدنيه ربي عز وجل ، خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد نجوم السماء فيختلج (أي يذاد عنه ويمنع) العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي ، فيقول ما تدري ما أحدث بعدك .

وقد ذكرنا في تفسير الآية 6 من سورة المزمل المارة أنها نزلت في اليقظة وأن حضرة الرسول

حينما أغفى هذه الاغفاءة رأى نفس النهر الذي أخبره به ربه في هذه السورة فذكره لأصحابه ويؤيد هذا قوله في الحديث (آنفا) أي قبل الوقت الذي ذكر لهم الحديث عنه، لأن هذه اللفظة تفال على ما قبل المتكلم ويطلق الكوثر على الخير الكثير أي أن اللّه تعالى إعطاء خيرا كثيرا جزيلا في جملة نهر الكوثر، قالت عائشة: ليس أحد يدخل إصبعيه في أذنه إلا يسمع خرير ذلك النهر وهو على التشبيه البليغ وإذا كان كذلك وهو كذلك "فَصَلِّ" يا حبيبي وادع واذكر وتفرغ "لِرَبِّكَ" الذي رباك وأغدق عليك نعمه وأعزّك بعطائه وشرفك بانتسابك اليه وصانك من منن الخلق مراغما لقومك

(17/834)

الذين يعبدون غيري "وَانْحَرْ 2" ما تذبحه من الأنعام لوجهي وباسمي مخالفا عادة قومك الذين يذبحون للأوثان ويذكرون أسمائها على ذبائحهم "إِنَّ شانِئَكَ" مبغضك "هُوَ الْأَبْتَرُ 3" المنقطع عن الخير الذي لا يذكر بعد موته بخير ما والأبتر في عرفهم الذي لا عقب له.

نزلت في العاص بن وائل إذ أطلق على حضرة الرسول لفظ الأبتر بسبب موت أولاده الذكور فرد اللّه عليه بأنه هو الأبتر المنقطع دابره وأنت الأعز الأشرف الذي يبقى ذكره مرفوعا لآخر الدهر، وقد ذكرنا عدم اتجاه قول من نسى هذه الصلاة وفي كافة السور التي نزلت قبل

الاسراء بالصلاة المفروضة أو بصلاة العيد لأنهما لم يفرضا بعد ولم يكن في مكة صلاة عيد البتة والقول بأن السورة مدنية ضعيف مخالف لما عليه الجمهور وأضعف منه القول بأنها نزلت مرتين وأن تلاوتها عند وجوب صلاة العيد ونحر الضحايا لا يعني أنها نزلت ثانيا ولا مانع أن يقال أنها من المقدم نزوله على حكمه المار ذكره في الآية 10 من سورة الأعلى ، واللفظ يحتمل ذلك وفيها من الأخبار بالغيب بأن اللّه تعالى يوسع على نبيه صلّى اللّه عليه وسلم ويكثر من النحر ، وأنها ستكون صلاة تسمى صلاة العيد ، وتكون بعكس ما تأخر حكمه عن نزوله كما في الآية 15 من سورة الأعلى المارة.

وما قيل إنها نزلت في أبي جهل عند وفاة ابراهيم ابن حضرة الرسول لا صحة له لأن الخبيث قتل قبل وفاته على التحقيق لأنه من مارية القبطية وقد أهديت للرسول وهو بالمدينة.

(18/834)

وكذلك القول بنزولها في أبي لهب غير صحيح للعلة نفسها وقد فندنا القول بنزول بعض القرآن مرتين من سورة الفاتحة المارة ، هذا وهذه أقصر سورة في القرآن من حيث الآيات والكلمات وقد جرى على ألسنة بعض الجهلة (أقصر من سورة الكوثر) وهذا لا يجوز البته

لأن القرآن عبره ومواعظه جليلة في قليله وكثيره ، وهو انما أنزل ليعتبر ويتعظ به لا ليتمثل به فحسب مما هو غير لائق بجلالته راجع سورة الفيل الآتية تجد ما يتعلق بهذا البحث .

هذا واللّه أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين وسلم كثيرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 168. 169 ﴾

(19/834)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الكوثر

مكية أو مدنية

وانحر جائز وقال أبو عمرو تام آخرها تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(20/834)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الكوثر

مكية أو مدنية

(الكوثر) لم ينص عليه أحد وله حيثيتان فمن حيث الابتداء بالفاء ليس بوقف لأنَّ الفاء السببية في مقام لام العلة ولو كان بدل الفاء واو لحسن الابتداء بما بعده وذكر بعضهم الوقف على نظيره لأنهم يشترطون لصحة الوقف صحته على نظيره كما في قوله ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه هنا الوقف لأنَّ الأمر يبتدأ بالفاء ومثله الوقف على الغيب لله لأنَّ جواب الأمر منقطع لفظاً متصل معنى ولا بعد لأنَّ يوسم هنا بالجواز لكونه رأس آية وفيه أيضاً التفات من التكلم إلى الغيبية وذلك من مقتضيات الابتداء ومن هذه الحيثية يجوز الوقف على الكوثر والابتداء بما بعده ولو مع الفاء يقال أعطيت وأنطيت وقرأ الحسن وغيره إنَّا أنطيناك الكوثر

وانحر (جائز) وقال أبو عمرو تام للابتداء ب

أن آخرها (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(21/834)

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة الدمياطى:

سورة الكوثر

مدنية وقيل مكية وآيها ثلاث وقرأ ﴿ شانيك ﴾ الآية 3 بإبدال الهمزة ياء مفتوحة أبو جعفر كوقف حمزة. انتهى انتهى. اهـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(22/834)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى:

"سورة الكوثر"

"وانحر إن" لا يخفى ما فيه من النقل لورش ومن السكت وغيره لحمزة وصلا ووقفا.

"شانئك" أبدل أبو جعفر الهمزة ياء خالصة في الحالين وكذلك حمزة إن وقف. انتهى انتهى. اهـ ﴿البدور الزاهرة صـ 357﴾

(23/834)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الكوثر 108

مكية وقد ذكر نظيرتها في جميع العدد

وكلمها عشر كلمات

وحروفها اثنان وأربعون حرفا

وهي ثلاث آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف ورؤوس الآي

الكوثر

1 وانحر

2 الأبتر

3 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 292 ﴾

(24/834)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (فصل) الفاء للتعقيب: أي عقب انقضاء الصلاة، و (هو) مبتدأ أو توكيد أو فصل، والله أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(25/834)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة الكوثر

[سورة الكوثر (108): آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ (1)

"إِنَّا" إن واسمها "أَعْطَيْناكَ" ماض وفاعله ومفعوله الأول "الْكَوْثَرَ" مفعول به ثان والجملة الفعلية خبر إن والجملة الاسمية ابتدائية لا محل لها.

[سورة الكوثر (108): آية 2]

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2)

"فَصَلِّ" الفاء حرف عطف وأمر مبني على حذف حرف العلة والفاعل مستتر "لِرَبِّكَ" متعلقان بالفعل والجملة معطوفة على ما قبلها "وَانْحَرْ" معطوف على ما قبله .

[سورة الكوثر (108) : آية 3]

إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

"إِنَّ شانِئَكَ" إن واسمها "هُوَ" ضمير فصل "الْأَبْتَرُ" خبر إن والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن / لـ دعاس حـ 3 صـ 472 ﴾

(26/834)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْكَوْثَر

ذكر فِيهَا خَمْسَة أَحَادِيث

1543 - الحَدِيث الأول

قَرَأَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم إِنَّا أعطيناك الْكَوْثَر

قلت رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْقرَاءَات من حَدِيث عَمْرو بن عبيد عَن

الْحسن عَن أمه عَن أم سَلمَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَرَأَ إِنَّا أعطيناك انْتهى وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ وتعقبه الذَّهَبِيّ فِي مُخْتَصره وَقَالَ عَمْرو بن عبيد واه وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالدَّارَقُطْنِيّ فِي المؤتلف والمختلف والثعلبي فِي تَفْسِيره وَكَذَلِكَ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره

1544 - الحَدِيث الثَّانِي

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام وأنطوا الثبجة

قلت ذكره القَاضِي عِيَاض فِي الشِّفَاء فِي كتاب النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لِوَائِل بن حجر وَقد تقدم

1545 - الحَدِيث الثَّالِث

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَرَأَهَا حِين أنزلت فَقَالَ أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَر إِنَّه نهر فِي الْجنَّة وعدنيه رَبِّي فِيهِ خير كثير

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي أَوَائِل الصَّلَاة من حَدِيث الْمُخْتَار بن فلفل عَن أنس قَالَ بَيْنَمَا نَحن ذَات يَوْم وَرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بَين أظهرنَا إِذْ أغفى إغفاءة ثمَّ رفع رَأسه مُتَبَسِّمًا فَقُلْنَا لَهُ مَا أضْحكك يَا رَسُول الله قَالَ أنزلت عَليّ آنِفا سُورَة فقرأها حَتَّى خَتمهَا ثمَّ قَالَ هَل تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَر قَالُوا الله وَرَسُوله أعلم قَالَ فَإِنَّهُ نهر وعدنيه رَبِّي فِي

1546 - الحَدِيث الرَّابِع

(27/834)

ورُوِيَ فِي صفته يَعْنِي الْكَوْثَر أَحْلَى من الْعَسَل وَأَشد بَيَاضًا من اللَّبن وأبرد من الثَّلج وألين من الزّبد حافتاه الزبرجد وَأَوَانيهِ من فضَّة عدد نُجُوم السَّمَاء

ورُوِيَ لَا يظمأ من شرب مِنْهُ أبدا أول وَارِد بِهِ فُقَرَاء الْمُهَاجِرين الدنس الثِّيَاب الشعث الرُّءُوس الَّذين لَا يَتَزَوَّجُونَ الْمُنَعَّمَاتِ وَلَا يفتح لَهُم أَبْوَاب السدد يَمُوت أحدهم وَحَاجته تتلجلج فِي صَدره لَو أقسم عَلَى الله لأبره

قلت الأول رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي كتاب الْإِيمَان بنقص يسير من حَدِيث أبي بَرزَة قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول حَوْضِي مَا بَين أَيْلَة إِلَى صنعاء عرضه كطُوله فِيهِ مِيزَابَان يصبَّان من الْجنَّة أَحْلَى من الْعَسَل وأبرد من الثَّلج وَأَشد بَيَاضًا من اللَّبن والين من الزّبد فِيهِ أَبَارِيق عدد نُجُوم السَّمَاء من شرب مِنْهُ لم يظمأ حَتَّى يدْخل الْجنَّة انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَلَى شَرط مُسلم

وروى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدِيث الْإِسْرَاء حَدثنَا سُلَيْمَان بن احْمَد وَهُوَ الطَّبَرَانِيّ ثَنَا

عبد الله بن احْمَد بن أسيد الْأَصْبَهَانِي ّثنَا مُحَمَّد بن عِيسَى بن يزِيد السَّعْدِي ّثنَا سُلَيْمَان بن عمر بن سيار التَّيْمِي ّثني أبي ثنَا شُعَيْب بن رزين
ثنَا عمر بن سُلَيْمَان عَن الضَّحَّاك بن مُزَاحم عَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لما أسري بِي إِلَى السَّمَوَات رَأَيْت فِيهَا أَعَاجِيب . . . فَذكره طَويلا نَحْو عشر ورقات وَفِيه ثمَّ نظرت فَإِذا نهر يجْرِي من أصل شَجَرَة مَاؤُهَا أَشد بَيَاضًا من اللَّبن وَأحْلَى من الْعَسَل وَمَجْرَاهُ عَلَى رَضْرَاض در وَيَاقُوت وحافتها زبرجد وَذكر فِيهِ أَشْيَاء اثر الْوَضع عَلَيْهَا

(28/834)

وَالثَّانِي رَوَاهُ ابْن ماجة فِي سنَنه فِي كتاب الزّهْد بنقص يسير أَيْضا من حَدِيث ثَوْبَان مولى رَسُول الله أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِن حَوْضِي مَا بَين عدن إِلَى أَيْلَة أَشد بَيَاضًا من اللَّبن وَأَحْلَى من الْعَسَل أَكَاوِيبه عدد نُجُوم السَّمَاء من شرب مِنْهُ شربة لم يظمأ بعْدهَا أبدا وَأول من يردهُ عَلّي من الْمُهَاجِرين الدنس ثيابًا الشعث رُءُوسًا الَّذين لَا ينْكحُونَ الْمُنَعَّمَاتِ وَلَا تفتح لَهُم السدد مُخْتَصر
وَرَوَاهُ احْمَد فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَقَالَا فِيهِ أول من يردهُ فُقَرَاء الْمُهَاجِرين

1547 - الحَدِيث الْخَامِس

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْكَوْثَر سقَاهُ الله من كل نهر فِي الْجنَّة وَيكْتب لَهُ عشر حَسَنَات بِعَدَد كل قرْبَان قربه الْعباد يَوْم النَّحْر أَو يقربونه

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن اسْلَمْ عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب مَرْفُوعا . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بِسَنَدِهِ الثَّانِي فِي آل عمرَان إِلَّا أَنه قَالَ أَو يقربونه من أهل الْكتاب وَالْمُشْرِكين

وَروى الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم صَدره لم يقل فِيهِ وَيكْتب لَهُ عشر حَسَنَات إِلَى آخِره. انتهى انتهى. ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 303. 305﴾

(29/834)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة القنوجى :

سورة الكوثر

هي ثلاث آيات

وهي مكيّة ، في قول ابن عباس والكلبي ومقاتل ، ومدنية في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة «1» .

[الآية : الأولى]

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) .

فَصَلِّ لِرَبِّكَ المراد الأمر له صلّى اللّه عليه وآله وسلّم بالدوام على إقامة الصلاة المفروضة .

وَانْحَرْ (2) : البدن التي هي خيار أموال العرب .

قال محمد بن كعب : إن ناسا كانوا يصلون لغير اللّه ، فأمر اللّه سبحانه نبيه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أن تكون صلاته ونحره له .

وقال قتادة وعطاء وعكرمة : المراد صلاة العيد ونحر الأضحية .

وقال سعيد بن جبير : صلّ لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع «2» ، وانحر البدن في منى .

وقيل : وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة حذاء النحر ، قاله محمد بن كعب .

وقيل : هو أن يرفع يديه في الصلاة عند التكبيرة إلى نحره ، وقيل : هو أن يستقبل القبلة بنحره ، قاله الفراء والكلبي وابن الأحوص .

قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول : تتناحر ، أي نتقابل : نحر هذا إلى نحر هذا : أي قبالته .

---

(1) انظر: الطبري (30/ 207)، زاد المسير (9/ 247، 249)، القرطبي (20/ 216، 218).

(2) يقصد: جمع المزدلفة. [.....]

(30/834)

وقال ابن الأعرابي: هو انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب من قولهم: منازلهم تتناحر أي تتقابل.

وروي عن عطاء أنه قال: أمره أن يستوي بين السجدتين جالسا حتى يبدو نحره.

وقال سليمان التيمي: المعنى وارفع يديك بالدعاء إلى نحرك. وظاهر الآية الأمر له صلّى اللّه عليه وآله وسلّم بمطلق الصلاة ومطلق النحر وأن يجعلهما للّه عز وجل لا لغيره، وما ورد في السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص فهو في حكم التقييد له.

وقد أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في «سننه» والحاكم وابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه السورة على النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم لجبريل: «ما هذه [النحيرة] التي أمرني بها ربي؟ فقال: إنها ليست بنحيرة ولكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا رفعت رأسك من

الركوع، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع، وإن لكل شيء زينة وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة»، قال النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: «رفع اليدين من الاستكانة التي قال اللّه: فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76) [المؤمنون: 76]». وهو من طريق مقاتل بن حيان عن الأصبغ عن بنانة عن علي «1».

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: «إن اللّه أوحى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم أن ارفع يديك حذاء نحرك إذا كبرت للصلاة فذاك النحر» «2».

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري في «تاريخه» وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني في «الأفراد»، وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في «سننه» عن علي بن أبي طالب في قوله: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) قال: «وضع يديه اليمنى على وسط ساعد اليسرى ثم وضعهما على صدره في الصلاة» «3».

---

(1) موضوع: رواه الحاكم في «المستدرك» (2/ 537، 538)، والبيهقي في «الكبرى» (2/ 75، 76) وصححه الحاكم، وتعقبه الذهبي بقوله: إسرائيل صاحب عجائب، لا يعتمد عليه، وأصبغ شيعي متروك عند النسائي.

(2) أورده السيوطي في «الدر» (8/ 650) وعزاه لابن مردويه.

(3) إسناده ضعيف: رواه ابن جرير (30/ 325) وابن أبي شيبة في «المصنف» (1/ 427)، والبخاري في «الكبير» (6/ 437)، وابن المنذر في «الأوسط» (3/ 91)

، وابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (6/ 313) ، والحاكم (2/ 537) ، والبيهقي (2/ 29 ، 30) ، وضعف ابن كثير إسناد هذا

(31/834)

وأخرج أبو الشيخ والبيهقي في «سننه» عن أنس عن النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم مثله «1» .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن شاهين في «سننه» وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس : فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) قال : [وضع اليمنى على الشمال عند التحريم في الصلاة] «2» .

[وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء : فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) قال] «3» : «إذا صليت فرفعت رأسك قائما من الركوع فاستو قائما» «4» .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال : «الصلاة المكتوبة ، والذبح يوم الأضحى» «5» .

وأخرج البيهقي في «سننه» عنه وَانْحَرْ (2) قال : يقول : واذبح يوم النحر «6» .

إلى غير ذلك مما نقله المفسرون .

واللفظ وإن كان واسعا يحتمل الكل إلا أن المتعين هو ما ثبت بالأخبار والآثار كما هو المقرر

عند الكبار والأخيار «7» .

وبالله التوفيق ومنه الوصول إلى التحقيق «8» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نيل المرام صـ 469 . 471 ﴾

الأثر في «تفسيره» (4/ 597) .

(1) إسناده ضعيف : رواه البيهقي (2/ 30 ، 31) ، عن أنس . وعلقه : جهالة حال شيخ عاصم الأحول .

(2) ما بين [المعقوفين] سقط من المطبوعة ، واستدرك من الدر (8/ 650 ، 651) .

والأثر إسناده ضعيف جدا : رواه البيهقي في «الكبرى» (2/ 31) ، وعلته : روح بن المسيب الكلبي . يروي الموضوعات عن الثقات ، لا تحل الرواية عنه .

وفيه عمر بن مالك النكري : صدوق له أوهام . وكذا زيد بن حباب : صدوق يخطىء في حديث الثوري .

(3) ما بين [المعقوفين] سقط من المطبوعة واستدرك من «الدر» (8/ 651) .

(4) أورده السيوطي في «الدر» (8/ 651) .

(5) أثر ضعيف : رواه ابن جرير (30/ 326) . وسنده مسلسل بالرواة الضعفاء .

(6) أثر ضعيف : رواه البيهقي (9/ 259) ، وفيه انقطاع بين عليّ بن أبي طلحة وابن عباس . ومعاوية الحضرمي : صدوق له أوهام .

وعبد اللّه بن صالح : صدوق كثير الغلط ، وفيه غفلة .

(7) انظر : الفراء (3/ 296) ، النكت (4/ 532) زاد المسير (9/ 250) ،

القرطبي (20/ 22) ، اللباب (235) ، ابن كثير (4/ 597 ، 598) .

(8) انتهيت أحمد المزيدي من تحقيقه من عند الآية 92 من سورة النساء إلى سورة

الكوثر . واللّه الموفق لما يحبه ويرضاه .

(32/834)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الكوثر

عندما أتلو سورة الكوثر التى لا تزيد عن سطر واحد أشعر كأنها تهنئة سريعة ببشرى حسنة . المعروف أن أبناء النبى صلى الله عليه وسلم ماتوا ، ولم يبق له إلا الإناث . وفى الجاهلية تعد هذه الحال نكبة ، لأن الرجل فقد من ينتسب إليه ويطيل ذكره ، وقد يسميه السفهاء الأبتر ! وقد نزلت هذه السورة تؤكد أن الله أوسع العطاء لنبيه . فمن مثله فى الناس ؟ أنزل على قلبه القرآن ، واصطفاه رسولا للعالمين ، وألهج أهل الأرض والسماء

بذكره والثناء عليه . وما أحسب ساعة تمر من الزمان إلا وصلاة تنبعث من ملك أو بشر تضاعف أجره وترفع ذكره . إن محمدا أسعد مخلوقات الله بفضل الله وإكرامه . إنه سيد ولد آدم ، وإمام الأولين والآخرين . "إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر" . التحقيق أن المقصود صلاة العيد . تذبح الأضاحى بعد الصلاة ، وتقسم على الفقراء . والتضحية كما تكون بالغنم تكون بالبدن . ثم يقول الله لنبيه : "إن شانئك هو الأبتر" . إن كارهك هو المقطوع الذكر الممحو الأثر . أما أنت ، فإن الملائكة الحافين بالعرش يسبحون بحمد ربهم ، يشاركونك وأنت تهتف بأمجاد الله وتثنى على آلائه . إن الله يلهمك محامد ما ينطق بها غيرك ، لفرط حفاوته بعبوديتك له وجهادك فى سبيله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 544﴾

(33/834)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(34/834)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الكوثر

قال الإمام فخر الدين : هي كالمقابلة للتي قبلها ، لأن السابقة وصف الله سبحانه فيها المنافقين بأربعة أمور : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة وذكر في هذه السورة في مقابلة البخل : (إِنّا أَعطيناك الكوثَر) أي : الخير الكثير وفي مقابلة ترك الصلاة (فصَلِّ) أي دُم عليها وفي مقابلة الرياء : (لربك) أي : لرضاه ، لا للناس وفي مقابلة منع الماعون : (وانحر) وأراد به : التصدق بلحوم الأضاحي قال : فاعتبر هذه المناسبة العجيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 158﴾

(35/834)

قوله تعالى ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الملك الأعظم الجواد الأكرم الذي لا لفائض فضله (الرحمن) الذي شمل الخلائق بجوده وفاوت بينهم في صوب وبله (الرحيم) الذي خص حزبه بالاهتداء بهديه والاعتصام بحبله .

لما كانت سورة الدين بإفصاحها ناهية عن مساوىء الأخلاق ، كانت بإفهامها داعية إلى معالي الشيم ، فجاءت الكوثر لذلك ، وكانت الدين قد ختمت بأبخل البخلاء وأدنى الخلائق : المنع تنفيراً من البخل ومما جره من التكذيب ، فابتدئت الكوثر بأجود الجود . العطاء لأشرف الخلائق ترغيباً فيه وندباً إليه ، فكان كأنه قيل : أنت يا خير الخلق غير متلبس بشيء مما نهت عنه تلك المختتمة بمنع الماعون : ﴿ إنا ﴾ بما لنا من العظمة وأكد لأجل تكذيبهم : ﴿ أعطيناك ﴾ أي خولناك مع التمكين العظيم ، ولم يقل : آتيناك ، لأن الإيتاء أصله الإحضار وإن اشتهر في معنى الإعطاء ﴿ الكوثر ﴾ الذي هو من جملة الجود على المصدقين بيوم الدين .

(36/834)

ولما كان كثير الرئيس أكثر من كثير غيره ، فكيف بالملك فكيف بملك الملوك ، فكيف إذا أخرجه في صيغة مبالغة فكيف إذا كان في مظهر العظمه ، فكيف إذا بنيت الصيغة على

الواو الذي له العلو والغلبة فكيف إذا أتت إثر الفتحة التي لها من ذلك مثل ذلك بل أعظم ، كان المعنى : أفضنا عليك وأبحناك من كل شيء من الأعيان والمعاني من العلم والعمل وغيرهما من معادن الدارين ومعاونهما الخير الذي لا غاية له ، فلا يدخل تحت الوصف ، فأغنيناك عن أن تؤثر بذلك أو توفر مالك بجلب نفع أو دفع ضر ، ومنه النهر الذي في الجنة ويسقي المؤمنين من الحوض الممدود منه في المحشر الذي مثاله في الدنيا شريعته ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي عراها وأسبابها عدد النجوم الذين هم علماء أمته المقتدى بهم ، فقد اجتمع لك الغبطتان : أشرف العطاء من أكرم المعطين وأعظمهم .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما نهى عباده عما يلتذ به من أراد الدنيا وزينتها من الإكثار والكبر والتعزز بالمال والجاه وطلب الدنيا ، أتبع ذلك بما منح نبيه مما هو خير مما يجمعون ، وهو الكوثر وهو الخير الكثير ، ومنه الحوض الذي ترده أمته في القيامة ، لا يظمأ من شرب منه ، ومنه مقامه المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون عند شفاعته العامة للخلق وإراحتهم من هول الموقف ، ومن هذا الخير ما قدم له في دنياه من تحليل الغنائم والنصر بالرعب والخلق العظيم إلى ما لا يحصى من خيري الدنيا والآخرة مما بعض ذلك خير من الدنيا وما فيها إذ لا تعدل الدنيا وما فيها واحدة من هذه العطايا ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾ [يونس : 58] ومن الكوثر والخير الذي أعطاه الله كتابه المبين ، الجامع لعقل الأولين والآخرين ، والشفاء لما في الصدور .

ولما كمل له سبحانه من النعم ما لا يأتي عليه حصر مما لا يناسب أدناه نعيم الدنيا بجملتها ، قال مبيناً له منبهاً على عظيم ما أعطاه

(37/834)

﴿ لا تمدن عينيك إلى ما متعنا ﴾ [الحجر : 88] إلى قوله ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ فقد اضمحل في جانب نعمة الكوثر الذي أوتي كلُّ ما ذكره الله تعالى في الكتاب من نعيم أهل الدنيا وتمكن من تمكن منهم ، وهذا أحد موجبات تأخير هذه السورة ، فلم يقع بعدها ذكر شيء من نعيم الدنيا ولا ذكر أحد من المتنعمين بها لانقضاء هذا الغرض وتمامه ، وسورة الدين آخر ما تضمن الإشارة إلى شيء من ذلك كما تقدم من تمهيد إشاراتها ، وتبين بهذا وجه تعقيبها بها - والله تعالى أعلم - انتهى .

ولما أعطاه ما فرغه به للعبادة وأكسبه غنى لا حاجة معه ، سبب عنه قوله آمراً بما هو جامع لمجامع الشكر : ﴿ فصل ﴾ أي بقطع العلائق من الخلائق بالوقوف بين يدي الله في حضرة المراقبة شكراً لإحسان المنعم خلافاً للساهي عنها والمرائي فيها .

ولما أتى بمظهر العظمة لتكثير العطاء فتسبب عنه الأمر بما للملك من العلو ، وكان أمره - صلى الله عليه وسلم - تكوينياً لا إباء معه ، وقع الالتفات إلى صفة الإحسان المقتضي

للترغيب والإقبال لما يفيد من التحبيب ، مع التصريح بالتوحيد ، وإفادة أن العبادة لا تقع إلا شكراً فقال تعالى : ﴿ لربك ﴾ أي المحسن إليك بذلك سراً وعلناً مراغماً من شئت فلا سبيل لأحد عليك ﴿ وانحر ﴾ أي أنفق له الكوثر من المال على المحاويج خلافاً لم يدعهم ويمنعهم الماعون لأن النحر أفضل نفقات العرب لأن الجزور الواحد يغني مائة مسكين ، وإذا أطلق العرب المال انصرف إلى الإبل ، ولذا عبر عن هذا المراد بالنحر ليفهم الزجر عما كانوا يفعلونه من الذبح للأوثان ، ومن معناه أيضاً أظهر الذل والمسكنة والخشوع في الصلاة بوضع اليمنى على اليسرى تحت النحر هيئة الذليل الخاضع ، وقد قابل في هذا أربعاً من سورة الدين بأربع ، وهي البخل بالإعطاء ، وإضاعة الصلاة بالأمر بها ، والرياء بالتخصيص بالرب ، ومنع الزكاة بالنحر .

ولما أمره باستغراق الزمان في عبادة الخالق ، والإحسان إلى الخلائق بأعلى الخلائق ، علله بما حاصله أنه لا شاغل له ولا حاجة أصلاً تلم به فقال : ﴿ إن شانئك ﴾ أي مبغضك والمتبرىء منك والمستهين بك مع ما أوتيت من الجمال ، والخصال الفاضلة والكمال ﴿ هو ﴾ أي خاصة ﴿ الأبتر ﴾ أي المقطوع من أصله والمقطوع النسل والمعدم والمنقطع

الخير والبركة والذكر ، لا يعقبه من يقوم بأمره ويذكر به وإن جمع المال ، وفرغ بدنه لكل جمال ، وأنت الموصول الأمر ، النابه الذكر ، المرفوع القدر ، فلا تلتفت إليهم بوجه من الوجوه ، فإنهم أقل من أن يبالي بهم من يفرغ نفسه للفوز بالمثول في حضراتنا الشريفة ، والافتخار بالعكوف في أبوابنا العالية المنيفة ، لك ما أنت عليه ، ولهم ما هم فيه ، فالآية الأخيرة النتيجة لأن من الكوثر علو أمره وأمر محبيه وأتباعه في ملكوت السماء والأرض ونهر الجنة وسفول شأن عدوه فيهما ، فقد التف كما ترى مفصلها بموصلها ، وعرف آخرها من أولها ، وعرف أن وسطاها كالحدود الوسطى معانقة للأولى بكونها من ثمارها ، ومتصلة بالأخرى لأنها من غايات مضمارها ، وقد صدق الله ومن أصدق من الله قيلاً ، لم يبق لأحد من مبغضيه ذكر بولد ولا تابع ، ولا يوجد لهم شاكر ولا مادح ولا رافع ، وأما هو - صلى الله عليه وسلم - فقد ملأت ذريته من فاطمة الزهراء الأرض ، وهم الأشرف مع مبالغة الملوك في قتلهم ، وإخلاء الأرض من نسلهم ، خوفاً من شرفهم العالي على شرفهم ، ورفعتهم بالتواضع الغالب لصلفهم ، وإذا راجعت آية

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله ﴾ [الأحزاب : 40] من الأحزاب علمت أن توفي بنيه عليهم السلام قبله من إعلاء قدره ومزيد تشريفه بتوحيد ذكره ، وأما اتباعه فقد استولوا على أكثر الأرض وهم أولو الفرقان ، والعلم الباهر والعرفان ، ويؤخذ منها أن من فرغ نفسه لربه أهلك عدوه وكفاه كل واحد منهم ، وقد علم أن حاصل هذه السورة المن عليه . صلى الله عليه وسلم . بالخير العظيم الذي من جملته النهر المادّ من الجنة في المحشر المورود لمن اتبعه ، الممنوع ممن تأبى عنه وقطعه ، وأمره بالصلاة والنحر للتوسعة على المحاويج ، والبشارة بقطع دابر أعدائه ونصر جماعة أوليائه ، كما أن من مقاصد الأعراف المناظرة لها في رد المقطع على المطلع تهديد الظالمين بالإهلاك في قوله ﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ [الأعراف : 4] ، وتصوير ذلك بذكر مصارع الماضين لمخالفتهم الرسل عليهم الصلاة والسلام والأمر بالصلاة وستر العورة وما يقصد بالنحر بقوله : ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ﴾ الآيات [الأعراف : 31] ، وذكر من يمنح ماء الجنة ومن يمنعه بقوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾ الآيات [الأعراف : 50] ، وقوله تعالى : ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم ﴾ [الأعراف : 157] هذا ما يتعلق بتفسير تراكيبها وجملها ، وتأويل تفاصيلها ومجملها ، وكذا نظيرتها في

مبادىء أمرها ومكملها ، ثم إن هذه السورة عشر كلمات في الكتابة إشارة إلى أن تمام بتر شانئه يكون مع تمام السنة العاشرة من الهجرة ، وكذا كان ، لم تمض السنة الحادية عشر من الهجرة وفي جزيرة العرب إلا من يرى أشرف أحواله بذل نفسه وماله في حبه ، وإذا أضفنا إليها الضميرين المستترين كانت اثنتا عشرة ، وفي السنة الثانية عشرة من النبوة

بايعه ـ صلى الله عليه وسلم ـ الأنصار على منابذة الكفار ، وإذا أضيف إلى العشرة الضمائر البارزة الخمسة كانت خمس عشرة ، فتكون إشارة إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند تمام السنة الخامسة عشر من نبوته يبسط يده العالية لبتر أعدائه وكذا كان في وقعة بدر الرفيعة القدر ، ففي ضمائر الاستتار كانت البيعة وهي مستترة ، وفي الضمائر البارزة كانت بدر وهي مشتهرة ، وإذا أضيف إلى ذلك الضميران المستتران كانت سبع عشرة ، وفي السنة السابعة عشرة من نبوته كانت غزوة بدر الموعد ، وفى فيها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالوعد في الإتيان إلى بدر للقاء قريش للقتال ومقارعة الأبطال ، فآذنهم الله فلم يأتوا ، وإنما اعتبر ما بعد الهجرة من أحوال النبوة عندما عدت الكلمات الخطية العشر لكونها أقوى أحوال النبوة كما أن الكلمات الخطية أقوى من الضمائر وإن اشترك الكل في اسم

الكلمات ، فلذلك أخذ تمام البتر للشانىء وهو ما كان في السنة الحادية عشرة من هلاك أهل الردة وثبات العرب في صفة الإسلام ، ولما ضمت الضمائر البارزة الخمسة – التي هي أقرب من المستترة – إلى الكلمات الخطية وأضعف من الكلمات الخطية اعتبر من أول السورة لمناسبة ما كان من ضعف الحال فيما كان قبل الهجرة ، فوازى ذلك السنة الثانية من الهجرة التي كانت فيها غزوة بدر الكبرى ، وهي وإن كانت من العظم على أمر بالغ جداً لكنها كانت على وجه مخالف للقياس ، فإن حال الصحابة -رضى الله عنه-م كان فيها في غاية الضعف ، ولكونها أول ما وقع فيه النصر من الغزوات لم تكن نفوس المخالفين مذعنة لأن ما بعدها يكون مثلها ، فإذا ضم إلى ذلك الضميران المستتران – وهما أضعف من البارز – انطبق العدد على سنة غزوة بدر الموعد في سنة أربع ، وهي وإن كانت قوية لكون قريش ضعفوا عن اللقاء لكن كان حالها أضعف من بدر التي وقع فيها القتال وأسترٍ ، وكون كلماتها الخطية والاصطلاحية التي هي أبعاض الكلمات الخطية سبع عشرة

(41/834)

مؤذن بأن الأمر في ﴿ فصلِّ ﴾ مصوب بالذات بالقصد الأول إلى الصلوات الخمس التي هي سبع عشرة ركعة ، وأن من ثابر عليها كان مصلياً خارجاً من عهدة الأمر ، فإذا قصدت في

السفر بما اقتضته صفة التربية بالإحسان نقصت بقدر عدة الضمائر سوى الذي وفى الأمر بها لأن الأمر الناشىء عن مظهر العظمة لا يليق فيه التخفيف بنفسه كلمة الأمر ، وإذا أضفنا إليها كلمات البسملة الأربعة كان لها أسرار كبرى من جهة أخرى ، وذلك أن الكلمات الخطية تكون أربع عشرة إشارة إلى أن ابتداء البتر للأضداد يكون بالقوة القريبة من الفعل بالتهيىء له في السنة الرابعة عشرة من النبوة ، وذلك عام الهجرة ، فإذا أضفنا إليها الضمائر البارزة التي هي أقرب إلى الكلمات الخطية وهي خمسة كانت تسع عشرة ، وفي السنة التاسعة عشرة من النبوة وهي السادسة من الهجرة كان الفتح المبين على الشانئين الذي أنزل الله فيه سورة الفتح ، فإذا أضفنا إليها الضميرين المستترين كانت إحدى وعشرين وهي سنة ثمان من الهجرة سنة الفتح الأكبر الذي عم العلم فيه بأن الشانىء هو الأبتر ، وإذا اعتبرت حروفها المتلفظ بها كانت أربعة وأربعين حرفاً ، فإذا ناظرتها بالسنين من أول حين النبوة كان آخرها سنة إحدى وثلاثين من الهجرة ، وهي سنة البتر الأعظم لشانئه الأكبر الذي مزق كتابه ، وكان مالكاً لبلاد اليمن ، وهو قدر كبير من بلاد العرب وكذا لغيرهم مما قارب بلاده ، وكانت قريش تجعله من عدادهم كما مضى بيانه في سورة الروم وهو كسرى ملك الفرس ، ففيها كان انقراض ملكهم بقتل آخر ملوكهم يزدجرد ، كما أنك إذا اعتبرت كلماتها الخطية مع الضمائر البارزة التي هي كلمات اصطلاحية دون ما استتر – فإن وجوب استتاره منع من عده – كانت تسع عشرة كلمة ، فإن اعتبرت بها ما

بعد الهجرة وازت وقت موت قيصر طاغية الروم في سنة تسع عشرة من الهجرة أهلكه الله ، وقد تجهز إلى قتال العرب بالإسكندرية بنفسه ، وأمر ألا يتخلف عنه أحد من

الروم فكسر الله بموته شوكة الروم ، واستأسدت العرب عند ذلك ، فكانت الأحرف مشيرة إلى بتر الشانئ من الفرس ، والكلمات مشيرة إلى بتر الشانئ من الروم والفرس أولى بإشارة الأحرف لأنهم ليسوا بذوي علم ، والروم بالكلمات لأنهم أهل علم ، والكلمات أقرب إلى العلم ، وإذا اعتبرت أحرف البسملة اللفظية كانت ثمانية عشر حرفاً ، فإذا جعلتها سنين من أول النبوة كان آخرها سنة خمس من الهجرة ، وفيها كانت غزوة الأحزاب ، قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد انصرافهم منها

" الآن نغزوهم ولا يغزونا " فهو أول أخذ الشانئ في الانبتار ، وإذا اعتبرت الأحرف بحسب الرسم كانت تسعة عشر آخرها سنة ست ، وهي عمرة الحديبية سنة الفتح

السببي وهو الصلح الذي نزلت فيه سورة الفتح وسماه الله فتحاً ، وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إنه أعظم الفتح " فكان سبب الفتح الأعظم بخلطة الكفار لأهل الإسلام بالصلح ، فأسرعوا إلى الإسلام بالدخول فيه لما رأوا من محاسن الدين وإعجاز القرآن ، فكانوا يوم الفتح عشرة آلاف بعد أن كانوا قبل ذلك بسنتين يوم الحديبية ألفاً وأربعمائة – والله الموفق ، هذا يسير من أسرار هذه السورة وقد علم منه من إعجازها ما يشرح الخواطر ويبهج النواظر ، لأنه يفوق حسناً على الرياض النواضر ، وعلم أيضاً جنون الخبيث المسخرة مسيلمة الكذاب – عليه اللعنة والتباب ، وله سوء المنقلب والمآب ، حيث قال في معارضتها : إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وهاجر ، إنا كفيناك المكابر أو المجاهر ، لأنه كلام ، مع أنه قصير المدى ، ركيك اللحمة والسدى ، غريق الساحة والفنا في الهلك والفنا ، ليس فيه غنى ، بل كله نصب وعنا ، هلهل النسج رث القوى ، منفصم العرى ، مخلخل الأرجا ، فاسد المعنى والبنا ، سافل الألفاظ مر الجنى ، لأن العلل منافية للمعلولات ، والشوامل منافرة للمشمولات ، ثم رأيت في دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني أن الوسطى من قال : العاهر وجاهر فإن كان بالدين لم يمنع الصدح بالباطل ، وذلك لا يرضى به عاقل ، وإن كان بالحرب كان على النصف لكل من تدبر فعرف ، ولا نص فيه على الغلب بمطلوبيه ، ولا طلب مع نقص الجود على كل تقدير ، الذي هو المقصود للغني والفقير ، والمأمور والأمير ، هذا مع الإغارة على الأسلوب والحذو على المعهود غير محاذ

(44/834)

﴿ في القصاص حياة ﴾ [البقرة : 179] في إسقاط " القتل أنفى للقتل " بالرشاقة مع الوجازة ، والعذوبة مع البلاغة ، في إصابة حاق المعنى بما يقود إلى السماح بالنفس ، ويحمل على المبادرة إلى امتثال الأمر ، والأولى من سخيف عقل الخسيف ، وأكله ؟ إلى الخلق مع نقصان المعنى السار للإسرار والأخرى مهملة لذوي الشبه والستر مع ما فاتها من قصر الخسار وخصوص التبار إلى ما حوت من بيان الكذب البتار للأعمار المخرب للديار تصديقاً للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ البار بأيدي صحابته الأخيار ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ـ فسبحان من علا فعلا كلامه كل كلام والسلام والحمد لله على كل حال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 547 . 552 ﴾

(45/834)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) ﴾

اعلم أن هذه السورة على اختصارها فيها لطائف :

إحداها : أن هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة ، وذلك لأن في السورة المتقدمة وصف الله تعالى المنافق بأمور أربعة : أولها : البخل وهو المراد من قوله : ﴿ يَدُعُّ اليتيم ولَا يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ [الماعون : 2 ، 3] الثاني : ترك الصلاة وهو المراد من قوله : ﴿ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ [الماعون : 5] والثالث : المراءاة في الصلاة هو المراد من قوله : ﴿ الذين هُمْ يُرَاءونَ ﴾ [الماعون : 6] والرابع : المنع من الزكاة وهو المراد من قوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ [الماعون : 7] فذكر في هذه السورة في مقابلة تلك الصفات الأربع صفات أربعة ، فذكر في مقابلة البخل قوله : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ أي إنا أعطيناك الكثير ، فأعط أنت الكثير ولا تبخل ، وذكر في مقابلة : ﴿ الذين هُمْ عَن صلاتهم سَاهُونَ ﴾ قوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ أي دم على الصلاة ، وذكر في مقابلة : ﴿ الذين هُمْ يُرَاءونَ ﴾ قوله : ﴿ لِرَبّكِ ﴾ أي ائت بالصلاة لرضا ربك ، لا لمراءاة الناس ، وذكر في مقابلة : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ قوله : ﴿ وانحر ﴾ وأراد به التصدق بلحم الأضاحي ، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة ، ثم ختم السورة بقوله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ أي المنافق الذي يأتي بتلك الأفعال القبيحة المذكورة في تلك السورة سيموت ولا يبقى من دناه أثر ولا خبر ، وأما أنت فيبقى لك في الدنيا الذكر الجميل ، وفي الآخرة الثواب الجزيل .

والوجه الثاني : في لطائف هذه السورة أن السالكين إلى الله تعالى لهم ثلاث درجات :

أعلاها أن يكونوا مستغرقين بقلوبهم وأرواحهم في نور جلال الله وثانيها : أن يكونوا مشتغلين بالطاعات والعبادات البدنية وثالثها : أن يكونوا في مقام منع النفس عن الانصباب إلى اللذات المحسوسة والشهوات العاجلة ، فقوله : ﴿ إِنَّآ أعطيناك الكوثر ﴾ إشارة إلى المقام الأول وهو كون روحه القدسية متميزة عن سائر الأرواح البشرية بالكم والكيف .

أما بالكم فلأنها أكثر مقدمات ، وأما بالكيف فلأنها أسرع انتقالاً من تلك المقدمات إلى النتائج من سائر الأرواح ، وأما قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ فهو إشارة إلى المرتبة الثانية ، وقوله : ﴿ وانحر ﴾ إشارة إلى المرتبة الثالثة ، فإن منع النفس عن اللذات العاجلة جار مجرى النحر والذبح ، ثم قال : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ ومعناه أن النفس التي تدعوك إلى طلب هذه المحسوسات والشهوات العاجلة ، أنها دائرة فانية ، وإنما الباقيات الصالحات خير عند ربك ، وهي السعادات الروحانية والمعارف الربانية التي هي باقية أبدية .

ولنشرع الآن في التفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أعطيناك الكوثر ﴾ اعلم أن فيه فوائد :

الفائدة الأولى : أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها من السور .

أما أنها كالتتمة لما قبلها من السور ، فلأن الله تعالى جعل سورة والضحى في مدح محمد عليه الصلاة والسلام وتفصيل أحواله ، فذكر في أول السورة ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته أولها : قوله : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ ، وثانيها : قوله :

﴿ وَلَلأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ [الضحى : 4] وثالثها : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله عليه السلام فيما يتعلق بالدنيا وهي قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فاوى وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فهدى وَوَجَدَكَ عَائِلاً فأغنى ﴾

(47/834)

[الضحى : 6-8] ثم ذكر في سورة : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ أنه شرفه بثلاثة أشياء أولها : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ وثانيها : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الذى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ ، وثالثها : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

ثم إنه تعالى شرفه في سورة : التين بثلاثة أنواع من التشريف أولها : أنه أقسم ببلده وهو قوله : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ ، وثانيها : أنه أخبر عن خلاص أمته عن النار وهو قوله : ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ ، وثالثها : وصولهم إلى الثواب وهو قوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ .

ثم شرفه في سورة اقرأ بثلاثة أنواع من التشريفات أولها : ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ ﴾ أي اقرأ القرآن على الحق مستعيناً باسم ربك وثانيها : أنه قهر خصمه بقوله : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزبانية ﴾ ، وثالثها : أنه خصه بالقربة التامة وهو : ﴿ واسجد واقترب ﴾ .

وشرفه في سورة القدر بليلة القدر التي لها ثلاثة أنواع من الفضيلة أولها : كونها : خَيْرًا مِّن أَلْفِ شَهْرٍ ، وثانيها : نزول : الملائكة والروح فِيهَا وثالثها : كونها : سَلاَمًا حتى مَطْلَعِ الفجر .

وشرفه في سورة : لَمْ يَكُنِ بأن شرف أمته بثلاثة تشريفات أولها : أنهم : خَيْرُ البرية وثانيها : أن جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جنات ، وثالثها : رضا الله عنهم .

(48/834)

وشرفه في سورة إذا زلزلت بثلاث تشريفات : أولها : قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ وذلك يقتضي أن الأرض تشهد يوم القيامة لأمته بالطاعة والعبودية والثاني : قوله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ الناس أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أعمالهم ﴾ وذلك يدل على أنه تعرض عليهم طاعاتهم فيحصل لهم الفرح والسرور ، وثالثها : قوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ ومعرفة الله لا شك أنها أعظم من كل عظيم فلا بد وأن يصلوا إلى ثوابها ثم شرفه في سورة العاديات

بأن أقسم بخيل الغزاة من أمته فوصف تلك الخيل بصفات ثلاث : ﴿ والعاديات ضَبْحاً فالموريات قَدْحاً فالمغيرات صُبْحاً ﴾ .

ثم شرف أمته في سورة القارعة بأمور ثلاثة أولها : فمن ثقلت موازينه وثانيها : أنهم في عيشة راضية وثالثها : أنهم يرون أعداءهم في نار حامية .

في شرفه ثم سورة الهاكم بأن بين أن المعرضين عن دينه وشرعه يصيرون معذبين من ثلاثة أوجه أولها : أنهم يرون الجحيم وثانيها : أنهم يرونها عين اليقين وثالثها : أنهم يسألون عن النعيم .

ثم شرف أمته في سورة والعصر بأمور ثلاثة أولها : الإيمان : ﴿ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ ﴾ ، وثانيها : ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ وثالثها : إرشاد الخلق إلى الأعمال الصالحة ، وهو التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

ثم شرفه في سورة الهمزة بأن ذكر أن من همز ولمز ، فله ثلاثة أنواع من العذاب أولها : أنه لا ينتفع بدنياه ألبتة ، وهو قوله : ﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلاَّ ﴾ وثانيها : أنه ينبذ في الحطمة ، وثالثها : أنه يغلق عليه تلك الأبواب حتى لا يبقى له رجاء في الخروج ، وهو قوله : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ .

ثم شرف في سورة الفيل بأن رد كيد أعدائه في نحرهم من ثلاثة أوجه أولها : جعل كيدهم في تضليل وثانيها : أرسل عليهم طيراً أبابيل وثالثها : جعلهم كعصف مأكول .

ثم شرفه في سورة قريش بأنه راعى مصلحة أسلافه من ثلاثة أوجه أولها : جعلهم مؤتلفين متوافقين لإيلاف قريش وثانيها : أطعمهم من جوع وثالثها : أنه آمنهم من خوف .

وشرفه في سورة الماعون ، بأن وصف المكذبين بدينه بثلاثة أنواع من الصفات المذمومة أولها : الدناءة واللؤم ، وهو قوله : ﴿ يَدُعُّ اليتيم ولاَ يَحُضُّ على طَعَامِ المسكين ﴾ وثانيها : ترك تعظيم الخالق ، وهو قوله : ﴿ عَن صلاتهم سَاهُونَ * الذين هُمْ يُرَاءونَ ﴾ وثالثها : ترك انتفاع الخلق ، وهو قوله : ﴿ وَيَمْنَعُونَ الماعون ﴾ .

ثم إنه سبحانه وتعالى لما شرفه في هذه السور من هذه الوجوه العظيمة ، قال بعدها : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ أي إنا أعطيناك هذه المناقب المتكاثرة المذكورة في السوره المتقدمة التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها ، فاشتغل أنت بعبادة هذا الرب ، وبإرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم ، أما عبادة الرب فإما بالنفس ، وهو قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبّكَ ﴾ وإما بالمال ، وهو قوله : ﴿ وانحر ﴾ وأما إرشاد عباده إلى ما هو الأصلح لهم في دينهم ودنياهم ، فهو قوله : ﴿ يا أَيُّهَا الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فثبت أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور ، وأما أنها كالأصل لما بعدها ، فهو أنه تعالى يأمره بعد هذه

السورة بأن يكفر جميع أهل الدنيا بقوله : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ومعلوم أن عسف الناس على مذاهبهم وأديانهم أشد من عسفهم على أرواحهم وأموالهم ، وذلك أنهم يبذلون أموالهم وأرواحهم في نصرة أديانهم ، فلا جرم كان الطعن في مذاهب الناس يثير من العداوة والغضب ما لا يثير سائر المطاعن ، فلما أمره بأن يكفر جميع أهل الدنيا ، ويبطل أديانهم لزم أن يصير جميع أهل الدنيا في غاية العداوة له ، وذلك مما يحترف عنه كل أحد من الخلق فلا يكاد يقدم عليه ، وانظر إلى موسى عليه السلام كيف كان يخاف من فرعون وعسكره .

(50/834)

وأما ههنا فإن محمداً عليه السلام لما كان مبعوثاً إلى جميع أهل الدنيا ، كان كل واحد من الخلق ، كفرعون بالنسبة إليه ، فدبر تعالى في إزالة هذا الخوف الشديد تدبيراً لطيفاً ، وهو أنه قدم على تلك السورة هذه السورة فإن قوله : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ يزيل عنه ذلك الخوف من وجوه أحدها : أن قوله : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ أي الخير الكثير في الدنيا والدين ، فيكون ذلك وعداً من الله إياه بالنصرة والحفظ ، وهو كقوله :

(51/834)

﴿ يا أيها النبي حسبك الله ﴾ [الأنفال : 64] وقوله : ﴿ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس ﴾ [المائدة : 67] وقوله : ﴿ إلا تنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ الله ﴾ [التوبة : 4] ومن كان الله تعالى ضامناً لحفظه ، فإنه لا يخشى أحداً وثانيها : أنه تعالى لما قال : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ وهذا اللفظ يتناول خيرات الدنيا وخيرات الآخرة ، وأن خيرات الدنيا ما كانت واصلة إليه حين كان بمكة ، والخلف في كلام الله تعالى محال ، فوجب في حكمة الله تعالى إبقاؤه في دار الدنيا إلى حيث يصل إليه تلك الخيرات ، فكان ذلك كالبشارة له والوعد بأنهم لا يقتلونه ، ولا يقهرونه ، ولا يصل إليه مكرهم بل يصير أمره كل يوم في الازدياد والقوة وثالثها : أنه عليه السلام لما كفروا وزيف أديانهم ودعاهم إلى الإيمان اجتمعوا عنده ، وقالوا : إن كنت تفعل هذا طلباً للمال فنعطيك من المال ما تصير به أغنى الناس ، وإن كان مطلوبك الزوجة نزوجك أكرم نسائنا ، وإن كان مطلوبك الرياسة فنحن نجعلك رئيساً على أنفسنا ، فقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ أي لما أعطاك خالق السموات والأرض خيرات الدنيا والآخرة ، فلا تغتر لما لهم ومراعاتهم ورابعها : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ يفيد أن الله تعالى تكلم معه لا بواسطة ، فهذا يقوم مقام قوله : ﴿ وَكَلَّمَ الله موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء : 164] بل هذا أشرف لأن المولى إذا شافه عبده بالتزام التربية والإحسان كان ذلك أعلى مما إذا شافهه في غير هذا المعنى ، بل يفيده قوة في القلب ويزيل

الجبن عن النفس ، فثبت أن مخاطبة الله إياه بقوله : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ مما يزيل الخوف عن القلب والجبن عن النفس ، فقدم هذه السورة على سورة : ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ حتى يمكنه الاشتغال بذلك التكليف الشاق والإقدام على تكفير جميع العالم ، وإظهار البراءة عن معبودهم فلما امتثلت أمري ، فانظر كيف أنجزت لك الوعد ، وأعطيتك كثرة

(52/834)

الأتباع والأشياع ، إن أهل الدنيا يدخلون في دين الله أفواجاً ، ثم إنه لما تم أمر الدعوة وإظهار الشريعة ، شرع في بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن ، وذلك لأن الطالب إما أن يكون طلبه مقصوراً على الدنيا ، أو يكون طالباً للآخرة ، أما طالب الدنيا فليس له إلا الخسار والذل والهوان ، ثم يكون مصيره إلى النار ، وهو المراد من سورة تبت ، وأما طالب الآخرة فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرآة التي تنتقش فيها صور الموجودات ، وقد ثبت في العلوم العقلية أن طريق الخلق في معرفة الصانع على وجهين : منهم من عرف الصانع ، ثم توسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته ، وهذا هو الطريق الأشرف الأعلى ، ومنهم من عكس وهو طريق الجمهور .

ثم إنه سبحانه ختم كتابه الكريم بتلك الطريق التي هي أشرف الطريقين ، فبدأ بذكر صفات الله وشرح جلاله ، وهو سورة : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته في سورة : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ ثم ختم بذكر مراتب النفس الإنسانية ، وعند ذلك ختم الكتاب ، وهذه الجملة إنما يتضح تفصيلها عند تفسير هذه السورة على التفصيل ، فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هذه الأسرار الشريفة المودعة في كتابه الكريم .

الفائدة الثانية : في قوله : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ هي أن كلمة : ﴿ إِنَّا ﴾ تارة يراد بها الجمع وتارة يراد بها التعظيم .

أما الأول : فقد دل على أن الإله واحد ، فلا يمكن حمله على الجمع ، إلا إذا أريد أن هذه العطية مما سعى في تحصيلها الملائكة وجبريل وميكائيل والأنبياء المتقدمون ، حين سأل إبراهيم إرسالك ، فقال : ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة : 129] وقال موسى : رب اجعلني من أمة أحمد .

وهو المراد من قوله : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربى إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الامر ﴾ [القصص : 44] وبشر بك المسيح في قوله : ﴿ وَمُبَشّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسمه أَحْمَدُ ﴾

[الصف : 6] وأما الثاني : وهو أن يكون ذلك محمولاً على التعظيم ، ففيه تنبيه على عظمة العطية لأن الواهب هو جبار السموات والأرض والموهوب منه ، هو المشار إليه بكاف الخطاب في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أعطيناك ﴾ والهبة هي الشيء المسمى بالكوثر ، وهو ما يفيد المبالغة في الكثرة ، ولما أشعر اللفظ بعظم الواهب والموهوب منه والموهوب ، فيالها من نعمة ما أعظمها ، وما أجلها ، وياله من تشريف ما أعلاه .

الفائدة الثالثة : أن الهدية وإن كانت قليلة لكنها بسبب كونها واصلة من المهدي العظيم تصير عظيمة ، ولذلك فإن الملك العظيم إذا رمى تفاحة لبعض عبيده على سبيل الإكرام يعد ذلك إكراماً عظيماً ، لا لأن لذة الهدية في نفسها ، بل لأن صدورها من المهدي العظيم يوجب كونها عظيمة ، فههنا الكوثر وإن كان في نفسه في غاية الكثرة ، لكنه بسبب صدوره من ملك الخلائق يزداد عظمة وكمالاً .

الفائدة الرابعة : أنه لما قال : ﴿ أعطيناك ﴾ قرن به قرينة دالة على أنه لا يسترجعها ، وذلك لأن من مذهب أبي حنيفة أنه يجوز للأجنبي أن يسترجع موهوبه ، فإن أخذ عوضاً وإن قل لم يجز له ذلك الرجوع ، لأن من وهب شيئاً يساوي ألف دينار إنساناً ، ثم طلب منه مشطاً يساوي فلساً فأعطاه ، سقط حق الرجوع فههنا لما قال : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ طلب منه الصلاة والنحر وفائدته إسقاط حق الرجوع .

الفائدة الخامسة : أنه بنى الفعل على المبتدأ ، وذلك يفيد التأكيد والدليل عليه أنك لما

ذكرت الاسم المحدث عنه عرف العقل أنه يخبر عنه بأمر فيصير مشتاقاً إلى معرفة أنه بماذا يخبر عنه، فإذا ذكر ذلك الخبر قبله قبول العاشق لمعشوقه، فيكون ذلك أبلغ في التحقيق ونفي الشبهة ومن ههنا تعرف الفخامة في قوله:

﴿ فَإِنَّهَا لاَ تعمى الأبصار ﴾ [الحج: 46] فإنه أكثر فخامة مما لو قال: فإن الأبصار لا تعمى، ومما يحقق قولنا قول الملك العظيم لمن يعده ويضمن له: أنا أعطيك، أنا أكفيك، أنا أقوم بأمرك.

(54/834)

وذلك إذا كان الموعود به أمراً عظيماً.

فلما تقع المسامحة به فعظمه يورث الشك في الوفاء به، فإذا أسند إلى المتكفل العظيم، فحينئذ يزول ذلك الشك، وهذه الآية من هذا الباب لأن الكوثر شيء عظيم، قلما تقع المسامحة به.

فلما قدم المبتدأ، وهو قوله: ﴿ إنا ﴾ صار ذلك الإسناد مزيلاً لذلك الشك ودافعاً لتلك الشبهة.

الفائدة السادسة: أنه تعالى صدر الجملة بحرف التأكيد الجاري مجرى القسم، وكلام

الصادق مصون عن الخلف ، فكيف إذا بالغ في التأكيد .

الفائدة السابعة : قال : ﴿ أعطيناك ﴾ ولم يقل : سنعطيك لأن قوله : ﴿ أعطيناك ﴾ يدل على أن هذا الإعطاء كان حاصلاً في الماضي ، وهذا فيه أنواع من الفوائد

إحداها : أن من كان في الزمان الماضي أبداً عزيزاً مرعي الجانب مقضي الحاجة أشرف ممن سيصير كذلك ، ولهذا قال عليه السلام : "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين" وثانيها : أنها إشارة إلى أن حكم الله بالإسعاد والإشقاء والإغناء والإفقار ، ليس أمراً يحدث الآن ، بل كان حاصلاً في الأزل وثالثها : كأنه يقول : إنا قد هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في الوجود فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية ! ورابعها : كأنه تعالى يقول : نحن ما اخترناك وما فضلناك ، لأجل طاعتك ، وإلا كان يجب أن لا نعطيك إلا بعد إقدامك على الطاعة ، بل إنما اخترناك بمجرد الفضل والإحسان منا إليك من غير موجب ، وهو إشارة إلى قوله عليه الصلاة والسلام : " قبل من قبل لا لعلة ، ورد من رد لا لعلة "

الفائدة الثامنة : قال : ﴿ أعطيناك ﴾ ولم يقل أعطينا الرسول أو النبي أو العالم أو المطيع ، لأنه لو قال ذلك لأشعر أن تلك العطية وقعت معللة بذلك الوصف ، فلما قال :

﴿ أعطيناك ﴾ علم أن تلك العطية غير معللة بعلة أصلاً بل هي محض الاختيار والمشيئة ، كما قال : ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا ﴾ [الزخرف : 32] ﴿ اللهُ يَصْطَفِى مِنَ الملائكة رُسُلاً وَمِنَ الناس ﴾ [الحج : 75]

الفائدة التاسعة: قال أولاً: ﴿إِنَّا أعطيناك﴾ ثم قال ثانياً: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر﴾ وهذا يدل على أن إعطاؤه للتوفيق والإرشاد سابق على طاعاتنا، وكيف لا يكون كذلك وإعطاؤه إيانا صفته وطاعتنا له صفتنا، وصفة الخلق لا تكون مؤثرة في صفة الخالق إنما المؤثر هو صفة الخالق في صفة الخلق، ولهذا نقل عن الواسطي أنه قال: لا أعبد رباً يرضيه طاعتي ويسخطه معصيتي.

ومعناه أن رضاه وسخطه قديمان وطاعتي ومعصيتي محدثتان والمحدث لا أثر له في قديم، بل رضاه عن العبد هو الذي حمله على طاعته فيما لا يزال، وكذا القول في السخط والمعصية.

الفائدة العاشرة: قال: ﴿أعطيناك الكوثر﴾ ولم يقل: آتيناك الكوثر، والسبب فيه أمران الأول: أن الإيتاء يحتمل أن يكون واجباً وأن يكون تفضلاً، وأما الإعطاء فإنه بالتفضل أشبه فقوله: ﴿إِنَّا أعطيناك الكوثر﴾ يعني هذه الخيرات الكثيرة وهي الإسلام والقرآن والنبوة والذكر الجميل في الدنيا والآخرة، محض التفضل منا إليك وليس منه شيء على سبيل الاستحقاق والوجوب، وفيه بشارة من وجهين أحدهما: أن الكريم إذا شرع في

التربية على سبيل التفضل ، فالظاهر أنه لا يبطلها ، بل كان كل يوم يزيد فيها الثاني : أن ما يكون سبب الاستحقاق ، فإنه يتقدر بقدر الاستحقاق ، وفعل العبد متناه ، فيكون الاستحقاق الحاصل بسببه متناهياً ، أما التفضل فإنه نتيجة كرم الله غير متناه ، فيكون تفضله أيضاً غير متناه ، فلما دل قوله : ﴿ أعطيناك ﴾ على أنه تفضل لا استحقاق أشعر ذلك بالدوام والتزايد أبداً .

(56/834)

فإن قيل : أليس قال : ﴿ آتيناك سَبْعًا مّنَ المثاني ﴾ ؟ قلنا : الجواب من وجهين الأول : أن الإعطاء يوجب التمليك ، والملك سبب الاختصاص ، والدليل عليه أنه لما قال سليمان : ﴿ هَبْ لِى مَلَكًا ﴾ فقال [ص : 35] : ﴿ هذا عَطَاؤُنَا فامنن أَوْ أَمْسِكْ ﴾ [ص : 39] ولهذا السبب من حمل الكوثر على الحوض قال : الأمة تكون أضيافاً له ، أما الإيتاء فإنه لا يفيد الملك ، فلهذا قال في القرآن : ﴿ ءاتيناك ﴾ فإنه لا يجوز للنبي أن يكتم شيئاً منه الثاني : أن الشركة في القرآن شركة في العلوم ولا عيب فيها ، أما الشركة في النهر ، فهي شركة في الأعيان وهي عيب الوجه الثاني : في بيان أن الإعطاء أليق بهذا المقام من الإيتاء ، هو أن الإعطاء يستعمل في القليل والكثير ، قال الله تعالى : ﴿ وأعطى قَلِيلاً وأكدى ﴾ [

النجم : 34] أما الإيتاء ، فلا يستعمل إلا في الشيء العظيم ، قال الله تعالى : ﴿ وآتاه الله الملك ﴾ [البقرة : 251] ﴿ وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُودُ مِنَّا فَضْلاً ﴾ [سبأ : 10] والأتي السيل المنصب ، إذا ثبت هذا فقوله : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ يفيد تعظيم حال محمد صلى الله عليه وسلم من وجوه أحدها : يعني هذا الحوض كالشيء القليل الحقير بالنسبة إلى ما هو مدخر لك من الدرجات العالية والمراتب الشريفة ، فهو يتضمن البشارة بأشياء هي أعظم من هذا المذكور وثانيها : أن الكوثر إشارة إلى الماء ، كأنه تعالى يقول : الماء في الدنيا دون الطعام ، فإذا كان نعيم الماء كوثراً ، فكيف سائر النعيم وثالثها : أن نعيم الماء إعطاء ونعيم الجنة إيتاء ورابعها : كأنه تعالى يقول : هذا الذي أعطيتك ، وإن كان كوثراً لكنه في حقك إعطاء لا إيتاء لأنه دون حقك ، وفي العادة أن المهدي إذا كان عظيماً فالهدية وإن كانت عظيمة ، إلا أنه يقال : إنها حقيرة أي هي حقيرة بالنسبة إلى عظمة المهدي له فكذا ههنا وخامسها : أن نقول : إنما قال فيما أعطاه من الكوثر أعطيناك لأنه

(57/834)

دنيا ، والقرآن إيتاء لأنه دين وسادسها : كأنه يقول : جميع ما نلت مني عطية وإن كانت كوثراً إلا أن الأعظم من ذلك الكوثر أن تبقى مظفراً وخصمك أبتر ، فإنا أعطيناك بالتقدمة

هذا الكوثر ، أما الذكر الباقي والظفر على العدو فلا يحسن إعطاؤه إلا بعد التقدمة بطاعة تحصل منك : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانحر ﴾ أي فاعبد لي وسل الظفر بعد العبادة فإني أوجبت على كرمي أن بعد كل فريضة دعوة مستجابة ، كذا روى في الحديث المسند ، فحينئذ أستجيب فيصير خصمك أبتر وهو الإيتاء ، فهذا ما يخطر بالبال في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أعطيناك ﴾ أما الكوثر فهو في اللغة فوعل من الكثرة وهو المفرط في الكثرة ، قيل : لأعرابية رجع ابنها من السفر ، بم آب ابنك ؟ قالت : آب بكوثر ، أي بالعدد الكثير ، ويقال للرجل الكثير العطاء : كوثر ، قال الكميت :

وأنت كثير يا ابن مروان طيب . . وكان أبوك ابن الفضائل كوثرا

ويقال للغبار إذا سطع وكثر كوثر هذا معنى الكوثر في اللغة ، واختلف المفسرون فيه على وجوه الأول : وهو المشهور والمستفيض عند السلف والخلف أنه نهر في الجنة ، روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "رأيت نهراً في الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فضربت بيدي إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسك أذفر ، فقلت : ما هذا ؟ قيل : الكوثر الذي أعطاك الله" وفي رواية أنس : "أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، فيه طيور خضر

لها أعناق كأعناق البخت من أكل من ذلك الطير وشرب من ذلك الماء فاز بالرضوان "

ولعله إنما سمي ذلك النهر كوثراً إما لأنه أكثر أنهار الجنة ماء وخيراً أو لأنه انفجر منه أنهار الجنة ، كما روي أنه ما في الجنة بستان إلا وفيه من الكوثر نهر جار ، أو لكثر الذين يشربون منها ، أو لكثرة ما فيها من المنافع على ما قال عليه السلام : " إنه نهر وعدنيه ربي فيه خير كثير " القول الثاني : أنه حوض والأخبار فيه مشهورة ووجه التوفيق بين هذا القول ، والقول الأول أن يقال : لعل النهر ينصب في الحوض أو لعل الأنهار إنما تسيل من ذلك الحوض فيكون ذلك الحوض كالمنبع

والقول الثالث : الكوثر أولاده (1)

قالوا : لأن هذه السورة إنما نزلت رداً على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد ، فالمعنى أنه يعطيه نسلاً يبقون على مر الزمان ، فانظر كم قتل من أهل البيت ، ثم العالم ممتلىء منهم ، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به ، ثم انظر كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم

القول الرابع : الكوثر علماء أمته وهو لعمري الخير الكثير لأنهم كأنبياء بني إسرائيل ، وهم يحبون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشرون آثار دينه وأعلام شرعه ، ووجه التشبيه أن الأنبياء كانوا متفقين على أصول معرفة الله مختلفين في الشريعة رحمة على الخلق ليصل كل أحد إلى ما هو صلاحه ، كذا علماء أمته متفقون

---

(1) فسره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحوض ، لذا يجب القول به والتوقف عنده ، ولا يجوز العدول عن قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى قول غيره . والله أعلم .

(59/834)

بأسرهم على أصول شرعه ، لكنهم مختلفون في فروع الشريعة رحمة على الخلق ، ثم الفضيلة من وجهين أحدهما : أنه يروى أنه يجاء يوم القيامة بكل نبي ويتبعه أمته فربما يجيء الرسول ومعه الرجل والرجلان ، ويجاء بكل عالم من علماء أمته ومعه الألوف الكثيرة فيجتمعون عند الرسول فربما يزيد عدد متبعي بعض العلماء على عدد متبعي ألف من الأنبياء الوجه الثاني : أنهم كانوا مصيبين لأتباعهم النصوص المأخوذة من الوحي ، وعلماء هذه الأمة يكونون مصيبين مع كد الاستنباط والاجتهاد ، أو على قول البعض : إن كان بعضهم مخطئاً لكن المخطىء يكون أيضاً مأجوراً القول الخامس : الكوثر هو النبوة ، ولا شك أنها الخير الكثير لأنها المنزلة التي هي ثانية الربوبية ولهذا قال :

﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 8] وهو شطر الإيمان بل هي كالغصن في معرفة الله تعالى ، لأن معرفة النبوة لا بد وأن يتقدمها معرفة ذات الله وعلمه وقدرته وحكمته ، ثم إذا حصلت معرفة النبوة فحينئذ يستفاد منها معرفة بقية الصفات كالسمع

والبصر والصفات الخبرية والوجدانية على قول بعضهم ، ثم لرسولنا الحظ الأوفر من هذه المنقبة ، لأنه المذكور قبل سائر الأنبياء والمبعوث بعدهم ، ثم هو مبعوث إلى الثقلين ، وهو الذي يحشر قبل كل الأنبياء ، ولا يجوز ورود الشرع على نسخه وفضائله أكثر من أن تعد وتحصى .

(60/834)

ولنذكر ههنا قليلاً منها ، فنقول : إن كتاب آدم عليه السلام كان كلمات على ما قال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى ءادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ ﴾ [البقرة : 37] وكتاب إبراهيم أيضاً كان كلمات على ما قال : ﴿ وَإِذِ ابتلى إبراهيم رَبُّهُ بكلمات ﴾ [البقرة : 124] وكتاب موسى كان صحفاً ، كما قال : ﴿ صُحُفِ إِبراهيم وموسى ﴾ [الأعلى : 19] أما كتاب محمد عليه السلام ، فإنه هو الكتاب المهيمن على الكل ، قال : ﴿ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : 48] وأيضاً فإن آدم عليه السلام إنما تحدى بالأسماء المنثورة ﴿ فقال أَنبِئُونِى بِأَسْمَاء هَؤُلاء ﴾ [البقرة : 35] ومحمد عليه الصلاة والسلام إنما تحدى بالمنظوم : ﴿ قُل لَّئِنِ اجتمعت الإنس والجن ﴾ [الإسراء : 88] وأما نوح عليه السلام ، فإن الله أكرمه بأن أمسك سفينته على الماء ، وفعل في محمد صلى الله عليه وسلم ما هو أعظم منه .

روي أن النبي عليه الصلاة والسلام : "كان على شط ماء ومعه عكرمة بن أبي جهل ، فقال : لئن كنت صادقاً فادع ذلك الحجر الذي هو في الجانب الآخر فليسبح ولا يغرق ، فأشار الرسول إليه ، فانقلع الحجر الذي أشار إليه من مكانه ، وسبح حتى صار بين يدي الرسول عليه السلام وسلم عليه ، وشهد له بالرسالة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم يكفيك هذا ؟ قال : حتى يرجع إلى مكانه ، فأمره النبي عليه الصلاة والسلام ، فرجع إلى مكانه " ، وأكرم إبراهيم فجعل النار عليه برداً وسلاماً ، وفعل في حق محمد أعظم من ذلك .

(61/834)

عن محمد بن حاطب قال : "كنت طفلاً فانصب القدر علي من النار ، فاحترق جلدي كله فحملتني أمي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت : هذا ابن حاطب احترق كما ترى فتفل رسول الله صلى الله عليه وسلم على جلدي ومسح بيده على المحترق منه ، وقال : أذهب البأس رب الناس ، فصرت صحيحاً لا بأس بي " وأكرم موسى ففلق له البحر في الأرض ، وكرم محمداً ففلق له القمر في السماء ، ثم أنظر إلى فرق ما بين السماء والأرض ، وفجر له الماء من الحجر ، وفجر لمحمد أصابعه عيوناً ، وأكرم موسى بأن ظلل عليه الغمام ، وكذا أكرم محمداً بذلك فكان الغمام يظلله ، وأكرم موسى باليد البيضاء ،

وأكرم محمداً بأعظم من ذلك وهو القرآن العظيم ، الذي وصل نوره إلى الشرق والغرب ، وقلب الله عصا موسى ثعباناً ، ولما أراد أبو جهل أن يرميه بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين ، فانصرف مرعوباً ، وسبحت الجبال مع داود وسبحت الأحجار في يده ويد أصحابه ، وكان داود إذا مسك الحديد لان ، وكان هو لما مسح الشاة الجرباء درت ، وأكرم داود بالطير المحشورة ومحمداً بالبراق ، وأكرم عيسى عليه السلام بإحياء الموتى ، وأكرمه بجنس ذلك حين أضافه اليهود بالشاة المسمومة ، فلما وضع اللقمة في فمه أخبرته ، وأبرأ الأكمه والأبرص ، روي أن امرأة معاذ بن عفراء أتته وكانت برصاء ، وشكت ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فمسح عليها رسول الله بغصن فأذهب الله البرص ، وحين سقطت حدقة الرجل يوم أحد فرفعها وجاء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فردها إلى مكانها ، وكان عيسى يعرف ما يخفيه الناس في بيوتهم ، والرسول عرف ما أخفاه عمه مع أم الفضل ، فأخبره فأسلم العباس لذلك ، وأما سليمان فإن الله تعالى رد له الشمس مرة ، وفعل ذلك أيضاً للرسول حين نام ورأسه في حجر علي فانتبه وقد غربت الشمس ، فردها حتى صلى ، وردها مرة أخرى لعلي فصلى العصر في وقته ، وعلم سليمان منطق الطير ، وفعل ذلك في حق محمد ،

روي أن طيراً فجع بولده فجعل يرفرف على رأسه ويكلمه فقال : أيكم فجع هذه بولدها ؟ فقال رجل : أنا ، فقال : أردد إليها ولدها وكلام الذئب معه مشهور ، وأكرم سليمان بمسيرة غدوة شهراً وأكرمه بالمسير إلى بيت المقدس في ساعة ، وكان حماره يعفور يرسله إلى من يريد فيجيء به ، وقد شكوا إليه من ناقة أنها أغيلت ، وأنهم لا يقدرون عليها فذهب إليها ، فلما رأته خضعت له ، وأرسل معاذاً إلى بعض النواحي ، فلما وصل إلى المفازة ، فإذا أسد جاثم فهاله ذلك ولم يستجر (ىء) أن يرجع ، فتقدم وقال : إني رسول رسول الله فتبصبص ، وكما انقاد الجن لسليمان ، فكذلك انقادوا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وحين جاء الأعرابي بالضب ، وقال لا أؤمن بك حتى يؤمن بك هذا الضب ، فتكلم الضب معترفاً برسالته ، وحين كفل الظبية حين أرسلها الأعرابي رجعت تعدو حتى أخرجته من الكفالة وحنت الحنانة لفراقه ، وحين لسعت الحية عقب الصديق في الغار ، قالت : كنت مشتاقة إليه منذ كذا سنين فلم حجبتني عنه ! وأطعم الخلق الكثير ، من الطعام القليل ومعجزاته أكثر من أن تحصى وتعد ، فلهذا قدمه الله على الذين اصطفاهم ، فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ ﴾ [الأحزاب : 7] فلما كانت رسالته كذلك جاز أن يسميها الله تعالى كوثراً ، فقال : ﴿ إِنَّآ أعطيناك الكوثر ﴾ القول السادس : الكوثر هو القرآن ، وفضائله لا تحصى ، ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ ﴾ [لقمان

: 27] ﴿ قُل لَّوْ كَانَ البحر مِدَادًا لكلمات رَبِّى ﴾ [الكهف : 109] القول السابع :

الكوثر الإسلام ، وهو لعمري الخير الكثير ، فإن به يحصل خير الدنيا والآخرة .

(63/834)

وبفواته يفوت خير الدنيا وخير الآخرة ، وكيف لا والإسلام عبارة عن المعرفة ، أو ما لا بد فيه من المعرفة ، قال : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الحكمة فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ وإذا كان الإسلام خيراً كثيراً فهو الكوثر ، فإن قيل : لم خصه بالإسلام ، مع أن نعمه عمت الكل ؟ قلنا : لأن الإسلام وصل منه إلى غيره ، فكان عليه السلام كالأصل فيه القول الثامن : الكوثر كثرة الأتباع والأشياع ، ولا شك أن له من الأتباع ما لا يحصيهم إلا الله ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام ، قال : " أنا دعوة خليل الله إبراهيم ، وأنا بشرى عيسى ، وأنا مقبول الشفاعة يوم القيامة ، فبينا أكون مع الأنبياء ، إذ تظهر لنا أمة من الناس فنبتدرهم بأبصارنا ما منا من نبي إلا وهو يرجو أن تكون أمته ، فإذا هم غر محجلون من آثار الوضوء ، فأقول : أمتي ورب الكعبة فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يظهر لنا مثلاً ما ظهر أولاً فنبتدرهم بأبصارنا ما من نبي إلا ويرجو أن تكون أمته فإذا هم غر محجلون من آثار الوضوء فأقول : أمتي ورب الكعبة ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يرفع لنا ثلاثة أمثال ما قد رفع فنبتدرهم ، وذكر كما

ذكر في المرة الأولى والثانية ، ثم قال : ﴿ ليدخلن ﴾ ثلاث فرق من أمتي الجنة قبل أن يدخلها أحد من الناس " ولقد قال عليه الصلاة والسلام : " تناكحوا تناسلوا تكثروا ، فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ، ولو بالسقط " فإذا كان يباهي بمن لم يبلغ حد التكليف ، فكيف بمثل هذا الجم الغفير ، فلا جرم حسن منه تعالى أن يذكره هذه النعمة الجسيمة فقال : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ القول التاسع : الكوثر الفضائل الكثيرة التي فيه ، فإنه باتفاق الأمة أفضل من جميع الأنبياء ، قال المفضل بن سلمة : يقال رجل كوثر إذا كان سخياً كثير الخير ، وفي " صحاح اللغة " : الكوثر السيد الكثير الخير ، فلما رزق الله تعالى محمداً هذه الفضائل العظيمه حسن منه تعالى أن يذكره تلك النعمة الجسيمة

فيقول : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ القول العاشر : الكوثر رفعة الذكر ، وقد مر تفسيره في قوله :

﴿ ورَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : 4] القول الحادي عشر : أنه العلم قالوا : وحمل الكوثر على هذا أولى لوجوه أحدها : أن العلم هو الخير الكثير قال : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ [النساء : 113] وأمره بطلب العلم ، فقال : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ [طه : 114] وسمى الحكمة خيراً كثيراً ، فقال : ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : 269] وثانيها : أنا إما أن نحمل الكوثر على نعم الآخرة ، أو على نعم الدنيا ، والأول غير جائز لأنه قال : أعطينا ، ونعم الجنة سيعطيها لا أنه أعطاها ، فوجب حمل الكوثر على ما وصل إليه في الدنيا ، وأشرف الأمور الواصلة إليه في الدنيا هو العلم والنبوة داخلة في العلم ، فوجب حمل اللفظ على العلم وثالثها : أنه لما قال : ﴿ أعطيناك الكوثر ﴾ قال عقيبه : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ والشيء الذي يكون متقدماً على العبادة هو المعرفة ، ولذلك قال في سورة النحل (2) : ﴿ أَنْ أَنذِرُواْ أَنَّهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاتقون ﴾ وقال في طه (14) : ﴿ إِنَّنِى أَنَا اللهُ لا إله إِلاَّ أَنَاْ فاعبدنى ﴾ فقدم في السورتين المعرفة على العبادة ، ولأن فاء التعقيب في قوله ﴿ فصل ﴾ تدل على أن إعطاء الكوثر كالموجب لهذه العبادة ، ومعلوم أن الموجب للعبادة ليس إلا العلم ، القول الثاني عشر : أن الكوثر هو الخلق الحسن ، قالوا : الانتفاع بالخلق الحسن عام ينتفع به العالم والجاهل والبهيمة والعاقل ، فأما الانتفاع بالعلم ، فهو مختص بالعقلاء ، فكان نفع الخلق الحسن أعم ، فوجب حمل الكوثر عليه ، ولقد كان عليه السلام كذلك كان للأجانب كالوالد يحل عقدهم

ويكفي مهمهم، وبلغ حسن خلقه إلى أنهم لما كسروا سنه، قال: " اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون " القول الثالث عشر: الكوثر هو المقام المحمود الذي هو الشفاعة، فقال في الدنيا:

﴿ وَمَا كَانَ

(66/834)

اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: 33] وقال في الآخرة: " شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي " وعن أبي هريرة قال عليه السلام: " إن لكل نبي دعوة مستجابة وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة " القول الرابع عشر: أن المراد من الكوثر هو هذه السورة، قال: وذلك لأنها مع قصرها وافية بجميع منافع الدنيا والآخرة، وذلك لأنها مشتملة على المعجز من وجوه أولها: أنا إذا حملنا الكوثر على كثرة الأتباع، أو على كثرة الأولاد، وعدم انقطاع النسل كان هذا إخباراً عن الغيب، وقد وقع مطابقاً له، فكان معجزاً وثانيها: أنه قال:

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ وهو إشارة إلى زوال الفقر حتى يقدر على النحر، وقد وقع فيكون هذا أيضاً إخباراً عن الغيب وثالثها: قوله: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ وكان الأمر على ما أخبر فكان معجزاً ورابعها: أنهم عجزوا عن معارضتها مع صغرها، فثبت أن وجه الإعجاز في كمال القرآن، إنما تقرر بها لأنهم لما عجزوا عن معارضتها مع صغرها

فبأن يعجزوا عن معارضة كل القرآن أولى ، ولما ظهر وجه الإعجاز فيها من هذه الوجوه فقد تقررت النبوة وإذا تقررت النبوة فقد تقرر التوحيد ومعرفة الصانع ، وتقرر الدين والإسلام ، وتقرر أن القرآن كلام الله وإذا تقررت هذه الأشياء تقرر جميع خيرات الدنيا والآخرة فهذه السورة جارية مجرى النكتة المختصرة القوية الوافية بإثبات جميع المقاصد فكانت صغيرة في الصورة كبيرة في المعنى ، ثم لها خاصية ليست لغيرها وهي أنها ثلاث آيات ، وقد بينا أن كل واحدة منها معجز فهي بكل واحدة من آياتها معجز وبمجموعها معجز وهذه الخاصية لا توجد في سائر السور فيحتمل أن يكون المراد من الكوثر هو هذه السورة القول الخامس عشر : أن المراد من الكوثر جميع نعم الله على محمد عليه السلام ، وهو المنقول عن ابن عباس لأن لفظ الكوثر يتناول الكثرة الكثيرة ، فليس حمل الآية على بعض هذه النعم أولى من

حملها على الباقي فوجب حملها على الكل ، وروي أن سعيد بن جبير ، لما روى هذا القول عن ابن عباس قال له بعضهم : إنا ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه ، وقال بعض العلماء ظاهر قوله : ﴿إِنَّا أعطيناك

الكوثر ﴾ يقتضي أنه تعالى قد أعطاه ذلك الكوثر فيجب أن يكون الأقرب حمله على ما آتاه الله تعالى من النبوة والقرآن والذكر الحكيم والنصرة على الأعداء ، وأما الحوض وسائر ما أعد له من الثواب فهو وإن جاز أن يقال : إنه داخل فيه لأن ما ثبت بحكم وعد الله فهو كالواقع إلا أن الحقيقة ما قدمناه لأن ذلك وإن أعد له فلا يصح أن يقال : على الحقيقة إنه أعطاه في حال نزول هذه السورة بمكة ، ويمكن أن يجاب عنه بأن من أقر لولده الصغير بضيعة له يصح أن يقال : إنه أعطاه تلك الضيعة مع أن الصبي في تلك الحال لا يكون أهلاً للتصرف ، والله أعلم .

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2)

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ وجوه الأول : أن المراد هو الأمر بالصلاة ، فإن قيل : اللائق عند النعمة الشكر ، فلم قال : فصل ولم يقل : فاشكر ؟ الجواب : من وجوه الأول : أن الشكر عبارة عن التعظيم وله ثلاثة أركان أحدها : يتعلق بالقلب وهو أن يعلم أن تلك النعمة منه لا من غيره والثاني : باللسان وهو أن يمدحه والثالث : بالعمل وهو أن يخدمه ويتواضع له ، والصلاة مشتملة على هذه المعاني ، وعلى ما هو أزيد منها فالأمر بالصلاة أمر بالشكر وزيادة فكان الأمر بالصلاة أحسن وثانيها أنه لو قال فاشكر لكان ذلك يوهم أنه ما كان

شاكراً لكنه كان من أول أمره عارفاً بربه مطيعاً له شاكراً لنعمه ، أما الصلاة فإنه إنما عرفها بالوحي ، قال : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكتاب وَلاَ الإيمان ﴾ [الشورى : 52] الثالث : أنه في أول ما أمره بالصلاة .

(68/834)

قال محمد عليه الصلاة والسلام : كيف أصلي ولست على الوضوء ، فقال الله : ﴿ إِنَّآ أعطيناك الكوثر ﴾ ثم ضرب جبريل بجناحه على الأرض فنبع ماء الكوثر فتوضأ فقيل له عند ذلك : ﴿ فصل ﴾ ، فأما إذا حملنا الكوثر على الرسالة ، فكأنه قال : أعطيتك الرسالة لتأمر نفسك وسائر الخلق بالطاعات وأشرفها الصلاة فصل لربك القول الثاني : ﴿ فصل لربك ﴾ أي فاشكر لربك ، وهو قول مجاهد وعكرمة ، وعلى هذا القول ذكروا في فائدة الفاء في قوله ﴿ فصل ﴾ وجوهاً أحدها : التنبيه على أن شكر النعمة يجب على الفور لا على التراخي وثانيها : أن المراد من فاء التعقيب ههنا الإشارة ، إلى ما قرره بقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] ثم إنه خص محمداً صلى الله عليه وسلم في هذا الباب بمزيد مبالغة ، وهو قوله : ﴿ واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين ﴾ [الحجر : 99] ولأنه قال له : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فانصب ﴾ أي فعليك بأخرى

عقيب الأولى فكيف بعد وصول نعمتي إليك ، ألا يجب عليك أن تشرع في الشكر عقيب ذلك القول الثالث : ﴿ فصل ﴾ أي فادع الله لأن الصلاة هي الدعاء ، وفائدة الفاء على هذا التقدير كأنه تعالى يقول : قبل سؤالك ودعائك ما بخلنا عليك : ﴿ بالكوثر ﴾ فكيف بعد سؤالك لكن : "سل تعطه واشفع تشفع" وذلك لأنه كان أبداً في هم أمته ، واعلم أن القول الأول أولى لأنه أقرب إلى عرف الشرع .

المسألة الثانية :

في قوله : ﴿ وانحر ﴾ قولان :

الأول : وهو قول عامة المفسرين : أن المراد هو نحر البدن والقول الثاني : أن المراد بقوله : ﴿ وانحر ﴾ فعل يتعلق بالصلاة ، إما قبلها أو فيها أو بعدها ، ثم ذكروا فيه وجوهاً : أحدها : قال الفراء : معناها استقبل القبلة وثانيها : روى الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام قال : لما نزلت هذه السورة قال النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل :

(69/834)

"ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ؟ قال ليست بنحيرة ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع وإذا سجدت فإنه

صلاتنا ، وصلاة الملائكة الذين في السموات السبع وإن لكل شيء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة " وثالثها : روي عن علي بن أبي طالب أنه فسر هذا النحر بوضع اليدين على النحر في الصلاة ، وقال : رفع اليدين قبل الصلاة عادة المستجير العائذ ، ووضعها على النحر عادة الخاضع الخاشع ورابعها : قال عطاء : معناه اقعد بين السجدتين حتى يبدو نحرك وخامسها : روي عن الضحاك ، وسليمان التيمي أنهما قالا : ﴿ وانحر ﴾ معناه ارفع يديك عقيب الدعاء إلى نحرك ، قال الواحدي : وأصل هذه الأقوال كلها من النحر الذي هو الصدر يقال لمذبح البعير النحر لأن منحره في صدره حيث يبدو الحلقوم من أعلى الصدر فمعنى النحر في هذا الموضع هو إصابة النحر كما يقال : رأسه وبطنه إذا أصاب ذلك منه .

وأما قول الفراء إنه عبارة عن استقبال القبلة فقال ابن الأعرابي : النحر انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب وهو أن ينصب نحره بإزاء القبلة ، ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً ، وقال الفراء : منازلهم تتناحر أي تتقابل وأنشد :

أبا حكم هل أنت عم مجالد . . وسيد أهل الأبطح المتناحر

والنكتة المعنوية فيه كأنه تعالى يقول الكعبة بيتي وهي قبلة صلاتك وقلبك وقبلة رحمتي ونظر عنايتي فلتكن القبلتان متناحرتين قال : الأكثرون حمله على نحر البدن أولى لوجوه أحدها : هو أن الله تعالى كلما ذكر الصلاة في كتابه ذكر الزكاة بعدها وثانيها : أن القوم كانوا يصلون وينحرون للأوثان فقيل له : فصل وانحر لربك وثالثها : أن هذه الأشياء آداب الصلاة وأبعاضها فكانت داخلة تحت قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ فوجب أن يكون المراد من النحر غيرها لأنه يبعد أن يعطف بعض الشيء على جميعه ورابعها : أن قوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، وقوله : ﴿ وانحر ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله وجملة العبودية لا تخرج عن هذين الأصلين وخامسها : أن استعمال لفظة النحر على نحر البدن أشهر من استعماله في سائر الوجوه المذكورة ، فيجب حمل كلام الله عليه ، وإذا ثبت هذا فنقول استدلت الحنفية على وجوب الأضحية بأن الله تعالى أمره بالنحر ، ولا بد وأن يكون قد فعله ، لأن ترك الواجب عليه غير جائز ، وإذا فعله النبي عليه الصلاة والسلام وجب علينا مثله لقوله : ﴿ واتبعوه ﴾ [الأعراف : 158] ولقوله : ﴿ فاتبعونى يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ [آل عمران : 31] وأصحابنا قالوا : الأمر بالمتابعة مخصوص بقوله : " ثلاث كتبت علي ولم تكتب عليكم الضحى والأضحى والوتر "

المسألة الثالثة :

اختلف من فسر قوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ بالصلاة على وجوه الأول : أنه أراد بالصلاة جنس الصلاة لأنهم كانوا يصلون لغير الله ، وينحرون لغير الله فأمره أن لا يصلي ولا ينحر إلا لله تعالى ، واحتج من جوز تأخير بيان المجمل بهذه الآية ، وذلك لأنه تعالى أمر بالصلاة مع أنه ما بين كيفية هذه الصلاة أجاب أبو مسلم ، وقال : أراد به الصلاة المفروضة أعني الخمس وإنما لم يذكر الكيفية ، لأن الكيفية كانت معلومة من قبل القول الثاني : أراد صلاة العيد والأضحية لأنهم كانوا يقدمون الأضحية على الصلاة فنزلت هذه الآية ، قال المحققون : هذا قول ضعيف لأن عطف الشيء على غيره بالواو لا يوجب الترتيب القول الثالث : عن سعيد بن جبير صل الفجر بالمزدلفة وانحر بمنى ، والأقرب القول الأول لأنه لا يجب إذا قرن ذكر النحر بالصلاة أن تحمل الصلاة على ما يقع يوم النحر .

المسألة الرابعة :

اللام في قوله : ﴿ لِرَبِّكِ ﴾ فيها فوائد الفائدة الأولى : هذه اللام للصلاة كالروح للبدن ، فكما أن البدن من الفرق إلى القدم ، إنما يكون حسناً ممدوحاً إذا كان فيه روح أما إذا كان ميتاً فيكون مرمياً ، كذا الصلاة والركوع والسجود ، وإن حسنت في الصورة وطالت ، لو لم يكن فيها لام لربك كانت ميتة مرمية ، والمراد من قوله تعالى لموسى : ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ [طه : 14] وقيل : إنه كانت صلاتهم ونحرهم للصنم فقيل له : لتكن صلاتك ونحرك

لله .

الفائدة الثانية : كأنه تعالى يقول : ذكر في السورة المتقدمة أنهم كانوا يصلون للمراءآة فصل أنت لا للرياء لكن على سبيل الإخلاص .

المسألة الخامسة :

الفاء في قوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ تفيد سببية أمرين أحدهما : سببية العبادة كأنه قيل : تكثير الإنعام عليك يوجب عليك الاشتغال بالعبودية والثاني : سببية ترك المبالاة كأنهم لما قالوا له : إنك أبتر فقيل له : كما أنعمنا عليك بهذه النعم الكثيرة ، فاشتغل أنت بطاعتك ولا تبال بقولهم وهذيانهم .

واعلم أنه لما كانت النعم الكثيرة محبوبة ولازم المحبوب محبوب ، والفاء في قوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ اقتضت كون الصلاة من لوازم تلك النعم ، لا جرم صارت الصلاة أحب الأشياء للنبي عليه الصلاة والسلام فقال : " وجعلت قرة عيني في الصلاة " ولقد صلى حتى تورمت قدماه ، فقيل له : أوليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : " أفلا أكون عبداً شكوراً " فقوله : " أفلا أكون عبداً شكوراً " إشارة إلى أنه يجب على الاشتغال بالطاعة

بمقتضى الفاء في قوله: ﴿ فَصَلِّ ﴾.

المسألة السادسة:

كان الأليق في الظاهر أن يقول: إن أعطيناك الكوثر، فصل لنا وانحر.

لكنه ترك ذلك إلى قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ لفوائد إحداها: أن وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة وثانيها: أن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة، ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم: يأمرك أمير المؤمنين، وينهاك أمير المؤمنين وثالثها: أن قوله: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ﴾ ليس في صريح لفظه أن هذا القائل هو الله أو غيره، وأيضاً كلمة ﴿ إنا ﴾ تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه، فلو قال: صل لنا، لنفي ذلك الاحتمال وهو أنه ما كان يعرف أن هذه الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التشريك، فلهذا ترك اللفظ، وقال: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال وتصريحاً بالتوحيد في الطاعة والعمل لله تعالى.

المسألة السابعة:

قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ أبلغ من قوله: فصل لله لأن لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها بقوله: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ويفيد الوعد الجميل في المستقبل أنه يربيه ولا يتركه.

المسألة الثامنة:

في الآية سؤالان : أحدهما : أن المذكور عقب الصلاة هو الزكاة ، فلم كان المذكور ههنا هو النحر ؟ والثاني : لما لم يقل : ضحي حتى يشمل جميع أنواع الضحايا ؟ والجواب : عن الأول ، أما على قول من قال : المراد من الصلاة صلاة العيد ، فالأمر ظاهر فيه ، وأما على قول من حمله على مطلق الصلاة ، فلوجوه أحدها : أن المشركين كانت صلواتهم وقرابينهم للأوثان ، فقيل له : اجعلهما لله وثانيها : أن من الناس من قال : إنه عليه السلام ما كان يدخل في ملكه شيء من الدنيا ، بل كان يملك بقدر الحاجة ، فلا جرم لم تجب الزكاة عليه ، أما النحر فقد كان واجباً عليه لقوله : " ثلاث كتبت علي ولم تكتب على أمتي ؛ الضحى والأضحى والوتر " وثالثها : أن أعز الأموال عند العرب ، هو الإبل فأمره بنحرها وصرفها إلى طاعة الله تعالى تنبيهاً على قطع العلائق النفسانية عن لذات الدنيا وطيباتها ، روي أنه عليه السلام أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب فنحر هو عليه السلام حتى أعيا ، ثم أمر علياً عليه السلام بذلك ، وكانت النوق يزدحمن على رسول الله ، فلما أخذ على السكين تباعدت منه والجواب عن الثاني : أن الصلاة أعظم العبادات البدنية فقرن بها أعظم أنواع الضحايا ، وأيضاً فيه إشارة إلى أنك بعد فقرك تصير بحيث تنحر المائة من الإبل .

المسألة التاسعة :

دلت الآية على وجوب تقديم الصلاة على النحر ، لا لأن الواو توجب الترتيب ، بل لقوله عليه السلام : " ابدؤا بما بدأ الله به " .

المسألة العاشرة :

السورة مكية في أصح الأقوال ، وكان الأمر بالنحر جارياً مجرى البشارة بحصول الدولة ، وزوال الفقر والخوف .

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا في سبب النزول وجوهاً أحدها : أنه عليه السلام كان يخرج من المسجد ، والعاص بن وائل السهمي يدخل فالتقيا فتحدثا ، وصناديد قريش في المسجد ، فلما دخل قالوا من الذي كنت تتحدث معه ؟ فقال : ذلك الأبتر ، وأقول : إن ذلك من إسرار بعضهم مع بعض ، مع أن الله تعالى أظهره ، فحينئذ يكون ذلك معجزاً ، وروى أيضاً أن العاص بن وائل كان يقول : إن محمداً أبتر لا ابن له يقوم مقامه بعده ، فإذا مات انقطع ذكره واسترحم منه ، وكان

قد مات ابنه عبد الله من خديجة، وهذا قول ابن عباس ومقاتل والكلبي وعامة أهل التفسير القول الثاني: روي عن ابن عباس لما قدم كعب بن الأشرف مكة أتاه جماعة قريش فقالوا: نحن أهل السقاية والسدانة وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الأبتر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ فقال: بل أنتم خير منه فنزل: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر﴾ ونزل أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيباً مّنَ الكتاب يُؤْمِنُونَ بالجبت والطاغوت﴾ [النساء: 51] والقول الثالث: قال عكرمة وشهر بن حوشب: لما أوحى الله إلى رسوله ودعا قريشاً إلى الإسلام، قالوا: بتر محمد أي خالفنا وانقطع عنا، فأخبر تعالى أنهم هم المبتورون القول الرابع: نزلت في أبي جهل فإنه لما مات ابن رسول الله قال أبو جهل: إن أبغضه لأنه أبتر، وهذا منه حماقة حيث أبغضه بأمر لم يكن باختياره فإن موت الابن لم يكن مراده القول الخامس: نزلت في عمه أبي لهب فإنه لما شافهه بقوله: تباً لك كان يقول في غيبته: إنه أبتر والقول السادس: أنها نزلت في عقبة بن أبي معيط، وإنه هو الذي كان يقول ذلك، واعلم أنه لا يبعد في كل أولئك الكفرة أن يقولوا مثل ذلك فإنهم كانوا يقولون فيه ما هو أسوأ من ذلك، ولعل العاص بن وائل كان أكثرهم مواظبة على هذا القول فلذلك اشتهرت الروايات بأن الآية نزلت فيه.

المسألة الثانية:

الشنآن هو البغض والشانىء هو المبغض ، وأما البتر فهو في اللغة استئصال القطع يقال : بترته أبتره بتراً وبتر أي صار أبتر وهو مقطع الذنب ، ويقال : الذي لا عقب له أبتر ، ومنه الحمار الأبتر الذي لا ذنب له ، وكذلك لمن انقطع عنه الخير .

ثم إن الكفار لما وصفوه بذلك بين تعالى أن الموصوف بهذه الصفة هو ذلك المبغض على سبيل الحصر فيه ، فإنك إذا قلت : زيد هو العالم يفيد أنه لا عالم غيره ، إذا عرفت هذا فقول الكفار فيه عليه الصلاة والسلام : إنه أبتر لا شك أنهم لعنهم الله أرادوا به أنه انقطع الخير عنه .

(76/834)

ثم ذلك إما أن يحمل على خير معين ، أو على جميع الخيرات أما الأول : فيحتمل وجوهاً أحدها : قال السدي : كانت قريش يقولون لمن مات الذكور من أولاده بتر ، فلما مات ابنه القاسم وعبد الله بمكة وإبراهيم بالمدينة قالوا : بتر فليس له من يقوم مقامه ، ثم إنه تعالى بين أن عدوه هو الموصوف بهذه الصفة ، فإنا نرى أن نسل أولئك الكفرة قد انقطع ، ونسله عليه الصلاة والسلام كل يوم يزداد وينمو وهكذا يكون إلى قيام القيامة وثانيها : قال الحسن

: عنوا بكونه أبتر أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه ، والله تعالى بين أن خصمه هو الذي يكون كذلك ، فإنهم صاروا مدبرين مغلوبين مقهورين ، وصارت رايات الإسلام عالية ، وأهل الشرق والغرب لها متواضعة وثالثها : زعموا أنه أبتر لأنه ليس له ناصر ومعين ، وقد كذبوا لأن الله تعالى هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين ، وأما الكفرة فلم يبق لهم ناصر ولا حبيب ورابعها : الأبتر هو الحقير الذليل ، روي أن أبا جهل اتخذ ضيافة لقوم ، ثم إنه وصف رسول الله بهذا الوصف ، ثم قال : قوموا حتى نذهب إلى محمد وأصارعه وأجعله ذليلاً حقيراً ، فلما وصلوا إلى دار خديجة وتوافقوا على ذلك أخرجت خديجة بساطاً ، فلما تصارعا جعل أبو جهل يجتهد في أن يصرعه ، وبقي النبي عليه الصلاة والسلام واقفاً كالجبل ، ثم بعد ذلك رماه النبي صلى الله عليه وسلم على أقبح وجه ، فلما رجع أخذه باليد اليسرى ، لأن اليسرى للاستنجاء ، فكان نجساً فصرعه على الأرض مرة أخرى ووضع قدمه على صدره ، فذكر بعض القصاص أن المراد من قوله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ هذه الواقعة وخامسها : أن الكفرة لما وصفوه بهذا الوصف ، قيل : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ أي الذي قالوه فيك كلام فاسد يضمحل ويفنى ، وأما المدح الذي ذكرناه فيك ، فإنه باق على وجه الدهر وسادسها : أن رجلاً قام إلى الحسن بن علي عليهما السلام ، وقال : سودت وجوه المؤمنين بأن تركت الإمامة

لمعاوية، فقال: لا تؤذيني يرحمك الله، فإن رسول الله رأى بني أمية في المنام يصعدون منبره رجلاً فرجلاً فساءه ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّا أعطيناك الكوثر﴾ ﴿إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةِ القدر﴾ فكان ملك بني أمية كذلك، ثم انقطعوا وصاروا مبتورين.

المسألة الثالثة:

الكفار لما شتموه، فهو تعالى أجاب عنه من غير واسطة، فقال: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر﴾ وهكذا سنة الأحباب، فإن الحبيب إذا سمع من يشتم حبيبه تولى بنفسه جوابه، فههنا تولى الحق سبحانه جوابهم، وذكر مثل ذلك في مواضع حين قالوا: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ على رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أفترى عَلَى الله كَذِباً أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: 7، 8] فقال سبحانه: ﴿بَلِ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة فِى العذاب والضلال البعيد﴾

(78/834)

[سبأ: 8] وحين قالوا: هو مجنون أقسم ثلاثاً، ثم قال: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ و[القلم: 2] لما قالوا: ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ [الرعد: 43] أجاب فقال:

﴿ يس والقرءان الحكيم إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين ﴾ [يس : 1 - 3] وحين قالوا : ﴿ أَئِنا لَتَارِكُو ءالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾ [الصافات : 36] رد عليهم وقال : ﴿ بَلْ جَاء بالحق وَصَدَّقَ المرسلين ﴾ [الصافات : 37] فصدقه ، ثم ذكر وعيد خصمائه ، وقال : ﴿ إنكم لذائقوا العذاب الأليم ﴾ [الصافات : 38] وحين قال حاكياً : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ﴾ [الطور : 30] قال : ﴿ وَمَا علمناه الشعر ﴾ [يس : 69] ولما حكى عنهم قوله : ﴿ إِنْ هذا إِلاَّ إِفْكٌ افتراه وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوم آخَرُونَ ﴾ [الفرقان : 4] سماهم كاذبين بقوله : ﴿ فَقَدْ جَاءوا ظُلْماً وَزُوراً ﴾ [الفرقان : 4] ولما قالوا : ﴿ مالِ هذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطعام وَيَمْشِى فِى الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] أجابهم فقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المرسلين إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطعام وَيَمْشُونَ فِى الاسواق ﴾ [الفرقان : 20] فما أجل هذه الكرامة .

المسألة الرابعة :

(79/834)

اعلم أنه تعالى لما بشره بالنعم العظيمة ، وعلم تعالى أن النعمة لا تهنأ إلا إذا صار العدو مقهوراً ، لا جرم وعده بقهر العدو ، فقال : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ وفيه لطائف

إحداها : كأنه تعالى يقول : لا أفعله لكي يرى بعض أسباب دولتك ، وبعض أسباب محنة نفسه فيقتله الغيظ وثانيها : وصفه بكونه شانئاً ، كأنه تعالى يقول : هذا الذي يبغضك لا يقدر على شيء آخر سوى أنه يبغضك ، والمبغض إذا عجز عن الإيذاء ، فحينئذ يحترق قلبه غيظاً وحسداً ، فتصير تلك العداوة من أعظم أسباب حصول المحنة لذلك العدو وثالثها : أن هذا الترتيب يدل على أنه إنما صار أبتر ، لأنه كان شانئاً له ومبغضاً ، والأمر بالحقيقة كذلك ، فإن من عادى محسوداً فقد عادى الله تعالى ، لاسيما من تكفل بإعلان شأنه وتعظيم مرتبته ورابعها : أن العدو وصف محمداً عليه الصلاة والسلام بالقلة والذلة ، ونفسه بالكثرة والدولة ، فقلب الله الأمر عليه ، وقال العزيز من أعزه الله ، والذليل من أذله الله ، فالكثرة والكوثر لمحمد عليه السلام ، والأبترية والدناءة والذلة للعدو ، فحصل بين أول السورة وآخرها نوع من المطابقة لطيف .

المسألة الخامسة :

اعلم أن من تأمل في مطالع هذه السورة ومقاطعها عرف أن الفوائد التي ذكرناها بالنسبة إلى ما استأثر الله بعلمه من فوائد هذه السورة كالقطرة في البحر .

روي عن مسيلمة أنه عارضها فقال : إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وجاهر ، إن مبغضك رجل كافر ، ولم يعرف المخذول أنه محروم عن المطلوب لوجوه أحدها : أن الألفاظ والترتيب مأخوذان من هذه السورة ، وهذا لا يكون معارضة وثانيها : أنا ذكرنا أن هذه السورة كالتتمة لما قبلها ، وكالأصل لما بعدها ، فذكر هذه الكلمات وحدها يكون إهمالاً لأكثر لطائف هذه السورة وثالثها : التفاوت العظيم الذي يقر به من له ذوق سليم بين قوله : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبتر ﴾ وبين قوله : إن مبغضك رجل كافر ، ومن لطائف هذه السورة أن كل أحد من الكفار وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصف آخر ، فوصفه بأنه لا ولد له ، وآخر بأنه لا معين له ولا ناصر له ، وآخر بأنه لا يبقى منه ذكر ، فالله سبحانه مدحه مدحاً أدخل فيه كل الفضائل ، وهو قوله : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكَوثَر ﴾ لأنه لما لم يقيد ذلك الكوثر بشيء دون شيء ، لا جرم تناول جميع خيرات الدنيا والآخرة ، ثم أمره حال حياته بمجموع الطاعات ، لأن الطاعات إما أن تكون طاعة البدن أو طاعة القلب ، أما طاعة البدن فأفضله شيئان ، لأن طاعة البدن هي الصلاة ، وطاعة المال هي الزكاة ، وأما طاعة القلب فهو أن لا يأتي بشيء إلا لأجل الله ، واللام في قوله : ﴿ لِرَبِّكِ ﴾ يدل على هذه الحالة ، ثم كأنه نبه على أن طاعة القلب لا تحصل إلا بعد حصول طاعة البدن ، فقدم طاعة البدن في الذكر ، وهو قوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ وأخر اللام الدالة على طاعة القلب تنبيهاً على فساد مذهب أهل الإباحة في أن العبد قد يستغني بطاعة قلبه عن طاعة جوارحه ، فهذه

اللام تدل على بطلان مذهب الإباحة ، وعلى أنه لا بد من الإخلاص ، ثم نبه بلفظ الرب على علو حاله في المعاد ، كأنه يقول : كنت ربيتك قبل وجودك ، أفأترك تربيتك بعد مواظبتك على هذه الطاعات ، ثم كما تكفل أولاً بإفاضة النعم عليه تكفل في آخر السورة بالذب عنه وإبطال قول أعدائه ، وفيه إشارة إلى أنه سبحانه

(81/834)

هو الأول بإفاضة النعم ، والآخر بتكميل النعم في الدنيا والآخرة ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 110.126 ﴾

(82/834)

وقال السمرقندى

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾

يعني الخير الكثير لفضيلة القرآن ، ويقال العلم ، وقال القتبي أحسبه "فَوْعَلَ" من الكثرة والخير الكثير ، وقال مقاتل : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ أراد به نهراً في الجنة طينه مسك

أزفد ورضراضه اللؤلؤ أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، وروى عطاء بن السائب عن محمد بن زياد عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الكوثر نهر في الجنة حافتاه الذهب ومجراه على الدر والياقوت ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، تربته أطيب من المسك وروي عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ فَإِذَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ مِنَ اللُّؤْلُؤِ المُجَوَّفِ يَعْنِي الخِيَامَ قُلْتُ مَا هذا يَا جِبْرِيل ؟ قَالَ : هذا الكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ" .

ثُمَّ قال عز وجل ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ يعني صل لله الصلوات الخمس ﴿ وانحر ﴾ قال بعضهم : انحر نفسك يعني اجتهد في الطاعة ، وقال بعضهم : انحر يعني : استقبل بنحرك القبلة وقال بعضهم : وانحر يعني : البدنة يعني : اعرف هذه الكرامة من الله تعالى وأطعم ، انحر يعني : استقبل بنحرك القبلة وقال بعضهم : وانحر يعني : البدنة يعني : اعرف هذه الكرامة من الله تعالى وأطعم ، وقال بعضهم : صل صلاة العيد يوم العيد وانحر البدنة ثم قال عز وجل : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الابتر ﴾ يعني : مبغضك وهو "العاص بن وائل السهمي" هو الأبتر يعني : الأبتر من الخير وذلك أن العاص بن وائل السهمي كان يقول لأصحابه : هذا الأبتر الذي لا عقب له .

وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاغتم لذلك فنزل إن شانئك هو الأبتر وأنت يا محمد صلى الله عليه وسلم ستذكر معي إذا ذكرت فرفع الله ذكره في كل مواطن ويقال : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ بأن يستوي بين السجدتين حتى يبدي نحره فخاطب بذلك النبي صلى الله عليه وسلم والمراد به جميع الأمة كما قال : ﴿ لَمَّا كَذَّبُواْ الرسل ﴾ وأراد به هو وأصحابه ، وروي عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه في قوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ قال يعني : ضع اليمين على الشمال في الصلاة ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الابتر ﴾ في ماله وولده وأهله والبتر : في اللغة الاستئصال والقطع وقال قتادة الأبتر الحقير الرقيق الذليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 602 . 603 ﴾

(84/834)

وقال الثعلبى :

سورة الكوثر

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر ﴾

قال ابن عباس : نزلت هذه السورة في العاص بن وائل ابن هشام بن سعيد بن سهم أنه رأى

رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من المسجد وهو يدخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدّثا وأناس من صناديد قريش في المسجد جلوس ، فلما دخل العاص قالوا له : من الذي كنت تحدث ؟ قال : ذاك الأبتر ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد توفى قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من خديجة ، وكانوا يسمّون من ليس له ابن أبتر ، فسمّته قريش عند موت إبنه أبتر وصنبوراً فأنزل الله سبحانه ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر ﴾ .

قراءة العامة بالعين ، وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف (أنطيناك) بالنون ، وروى ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم .

أخبرناه أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن أحمد بن علي المطوعي بقرأتي عليه قال : حدّثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار الأصفهاني قال : أخبرنا أبو المثنى معاذ بن المثنى بن معاذ ابن نصر العبيدي قال : حدّثنا عمرو بن المحرّم أبو قتادة البصري قال : حدّثنا عبد الوارث بن عمرو عن الحسن عن أمّه عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ : إنّا أنطيناك الكوثر .

والكوثر فوعل من الكثرة كنوفل من النفل وحوقر من الحقر ، والعرب يسمي كل شيء كثير في العدد أو كثير في المقدار الخطر : كوثراً . قال سفيان بن عيينة : قيل لعجوز رجع ابنها من السفر بم آب أبنك ؟ قالت آب بكوثر ، يعني بمال كثير .

وأختلفوا في المراد به ها هنا فحدّثنا أبو محمد المخلدي قال: أخبرنا أبو العباس الثقفي قال: حدّثنا أبو همام الوليد بن شجاع السكوني وعبد الله بن عمر بن أبان قالا: حدّثنا عبد الرحمن بن سلمان عن المختار بن فلفل عن أنس بن مالك قال: " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنا إذا غفى أغفاءة أو أغمى عليه، فرفع رأسه مبتسماً فقال: " هل تدرون ممن ضحكت " فقالوا الله ورسوله أعلم، قال: " إنه نزل عليّ سورة " فقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ *إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر ﴾ فقرأ حتى ختم السورة فلما قرأها قال: " أتدرون ما الكوثر؟ أنه نهر في الجنة وعدنيه ربّي عز وجلّ فيه خير كثير، لذلك النهر حوض يرد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب [فيختلج] منهم فأقول: ربِّ إنَّه من أمتي فيقال: أنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ".

وأخبرنا أبو سعيد بن حمدون قال: أخبرنا أبو بكر محمد بن حمدون بن خالد قال: حدّثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحمصي قال: حدّثنا أيوب بن سويد قال: حدّثنا محمد بن إبراهيم عن عمّه العباس بن عبد الله بن معيد عن ابن عباس قال:

" لما نزلت ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر ﴾ صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها على

الناس ، فلما نزل قالوا : يا رسول الله ما هذا الذي قد أعطاكه الله سبحانه ؟ قال : " نهر في الجنة أشدّ بياضاً من اللبن ، وأشد أستقامة من القدح حافتاه قباب الدر الدر والياقوت ترده طير خضر لها أعناق كأعناق البخت " قالوا : يارسول الله ما أنعم هذا لطائر ؟ قال " أفلا أخبركم بأنعم منه ؟ " قالوا بلى : قال : " من أكل الطائر وشرب الماء فاز برضوان الله سبحانه " .

(86/834)

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن جعفر المطيري قال : حدّثنا علي بن حرب قال : حدّثنا ابن فضيل قال : حدّثنا عطاء عن محارب بن دثار عن ابن عمر قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الكوثر نهر في الجنة حافتاه من الذهب ومجراه على الدر والياقوت وتربته أطيب من المسك وماءُه أحلى من العسل وأشد بياضاً من الثلج " وقالت عائشة رضى الله عنها : الكوثر نهر في الجنّة يخرخر في الحوض فمن أحب أن يسمع خريره فليجعل أصبعيه في أذنيه .

وقال بعضهم : هو الحوض بعينه ، وصفته على ما جاء في الأخبار أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وصف حوض الكوثر فقال : " حصباؤه الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر

والدر والمرجان وحمأتهُ المسك الأذفر وترابه الكافور ، وماءه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأبرد من الثلج ، يخرج : من أصل السدرة عرضه وطوله ما بين المشرق والمغرب ، حافتاه الزعفران وقباب الدر والمرجان ، من دخله أمن من الغرق ، ولا يشرب منه أحد فيظمأ ، ولا يتوضأ منه أحد فيشعث ، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر " فقال أبو بكر وعمر : إنها لناعمة فقال : " أَكَلُها أنعم منها " .

وفي خبر آخر : " لتزدحمنّ هذه الأمة على الحوض أزدحام واردات الحمر " .

(87/834)

وأخبرنا أبو القاسم بن حبيب في سنة ست وثلثمائة : قال : حدّثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد الصفار الأصفهاني قال : أخبرنا أبو عبد الله العمري الكوفي بالكوفة قال : حدّثنا بشر بن داود القرشي قال : حدّثنا مسعود بن سابور عن علي بن عاصم عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنَّ لحوضي أربعة أركان : فأول ركن منها في يد أبي بكر والثاني في يد عمر والثالث في يد عثمان والرابع في يد علي ، فمن أحب أبا بكر وأبغض عمر لم يسقه أبو بكر ومن أحب عمر وأبغض أبا بكر لم يسقه عمر ومن أحب عثمان وأبغض علياً لم يسقه عثمان ومن أحب علياً وأبغض

عثمان لم يسقه علي ، ومن أحسن القول في أبي بكر فقد أقام الدين ، ومن أحسن القول في عمر فقد أوضح السبيل ، ومن أحسن القول في عثمان فقد أستنار بنور الله ، ومن أحسن القول في علي فقد أستمسك بالعروة الوثقى ، من أحسن القول في أصحابي فهو مؤمن ومن أساء القول في أصحابي فهو منافق " .

وقال قطر بن خليفة : سألت عطاء عن الكوثر ونحن نطوف في البيت فقال : حوض أعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم في الجنة ، وروى حميد عن أنس قال : دخلنا على عبيد الله بن زياد وهم يتذاكرون الحوض فقلت : ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون في الحوض ، لقد تركت خلفي عجائز ما تصلي امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض محمد وفيه يقول الشاعر :

يا صاحب الحوض من يدانيكا . . . وأنت حقاً حبيب باريكا

وقال سعيد بن جبير ومجاهد : هو الخير الكثير ، وقال الحسن : هو القرآن العظيم ، عكرمة : النبوة والكتاب ، محمد بن إسحاق هو العظيم من الأمر وذكر بيت لبيد

صاحب ملحوب فجعنا بفقده . . . وعند الرداع بيت آخر كوثر

يقول : أي عظيم .

وقال أبو بكر بن عباس ويمان بن ذياب : هو كثرة الأصحاب والاشياع ، ابن كيسان : هو كلمة من الكتب الأولى ومعناها الإيثار ، الحسين بن الفضل : الكوثر شيئان تيسير القرآن وتخفيف الشرائع ، جعفر الصادق : الكوثر نور في قبلك دّلك عليّ ، وقطعك عما سواي ، وعنه أيضاً : الشفاعة ، وقيل : معجزات أكثرت بها أهل الإجابة لدعوتك ، هلال بن يساق : هو قول لا اله الله محمد رسول الله ، وقيل : الفقه في الدين ، وقيل : الصلوات الخمس .

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ قال محمد بن كعب : يقول : إن ناساً يصلّون لغير الله وينحرون لغير الله فإنّا أعطيناك الكوثر فلا تكن صلاتك ونحرك إلاّ لي ، وقال عكرمة وعطاء وقتادة : فصلِّ لربك صلاة العيد يوم النحر ، قال سعيد بن جبير ومجاهد : فصل لربّك صلاة الغداة المفروضة بجَمْع وأنحر البدن بمنى .

وقال بعضهم : نزلت هذه الآية يوم الحديبية حين حضر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وصدّوا عن البيت فأمره الله سبحانه أن يصلي وينحر البدن وينصرف ، وفعل ذلك ، وهو رواية أبي معاوية البجلي عن سعيد بن جبير .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن الحسين قال : حدّثنا أحمد بن يوسف قال : حدّثنا حجاج قال : حدّثنا حماد عن عاصم الجحدري عن أبيه عن عقبة بن طبيان عن

علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ قال : وضع اليد اليمنى على ساعده اليسرى ثم وضعها على صدره .

وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا علي ابن إبراهيم بن أحمد العطار قال : حدّثنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز قال : حدّثنا هاشم بن الحرث المروزي قال : حدّثنا محمد بن ربيعة قال : حدّثنا يزيد بن ذياب بن أبي السعد عن عاصم الجحدري عن عقبة بن ظهير عن علي بن أبي طالب في قوله ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ قال : وضع اليمين على الشمال في الصلاة .

(89/834)

وأخبرنا عبد الخالق قال : حدّثنا ابن جنب قال : حدّثنا يحيى بن أبي طالب قال : أخبرنا يزيد بن هارون قال : حدّثنا روح بن المسيّب قال : أخبرني عمرو بن مالك البكري عن أبي الجوزاء عن ابن عباس في قوله الله سبحانه ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ قال : وضع اليمين على الشمال في الصلاة عند النحر .

يدلّ عليه ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن جعفر قال : حدّثنا علي بن حرب قال : حدثنا المعافى بن داود قال : حدثنا إسرائيل عن سماك بن حرب عن قبيصة

بن هلب عن أبيه قال : "كان النبي صلى الله عليه وسلم يضرب بأحدى يديه على الأخرى في الصلاة" .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا مكي قال : حدّثنا عبد الله بن هاشم قال : حدّثنا عبد الرحمن قال : أخبرنا سفيان عن سماك عن قبيصة بن هلب عن أبيه قال : " رأيت النبي صلى الله عليه وسلم واضعاً يمينه على شماله في الصلاة" ، هلب لقب وأسمه يزيد بن قتادة .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا مكي قال : حدّثنا ابراهيم بن الحرث قال : حدّثنا يحيى بن أبي بكر قال : حدّثنا زهير بن معاوية قال : حدّثنا أبو إسحاق عن عبد الجبار بن وائل عن وائل بن حجر قال : " رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يضع يده اليمنى على اليسرى في الصلاة قريباً من الرفع ، ويرفع يديه حتى يبلغا أذنيه" .

وأخبرنا عبد الله قال : أخبرنا محمد بن الحسين قال : حدّثنا أحمد بن يوسف قال : حدّثنا حجاج قال : حدّثنا هشيم عن الحجاج بن أبي زينب السلمي قال : حدّثنا أبو عثمان النهدي عن ابن مسعود "أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا وهو يصلي واضعاً يده اليسرى على اليمنى فنزع اليسرى عن اليمنى ووضع اليمنى على اليسرى" .

وأخبرنا أبو محمد المخلدي قال : أخبرنا أبو الفضل يعقوب بن يوسف بن عاصم البخاري الفقيه قال : حدّثنا الحسين بن الفضل النصراني قال : حدّثنا وهب بن إبراهيم الرازي قال : حدّثنا أبو عبد الله إسرائيل بن حاتم المروزي وكان ثقة مأموناً قال : أخبرنا مقاتل بن حيان عن أصبغ ابن نباتة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : " لما نزلت هذه السورة ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبرائيل : " ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ؟

" قال : ليست بنحيرة ولكنه يأمرك اذا تحرمت للصلاة أن ترفع يدك إذا كبرت ، وإذا ركعت ، وإذا رفعت رأسك من الركوع ، وإذا سجدت ، فإنه صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السماوات السبع وإن لكل شيء زينة وأن زينة الصلاة رفع الأيدي عند التكبيرة " .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رفع الأيدي في الصلاة من الأستكانة " قلت : فما الاستكانة ؟ قال : " ألا تقرأ هذه الآية : ﴿ فَمَا استكانوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون : 76] " قال : هو الخضوع " .

يدل عليه ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن بلال قال : حدّثنا أبو زرعة الرازي قال : حدّثنا عبد الجبار بن سعيد بن سليمان بن نوفل بن مساحق العامري قال : حدّثنا ابن أبي الزياد عن موسى بن عقبة عن عبد الله بن الفضل عن عبد

الرحمن الأعرج عن عبيد الله بن أبي رافع عن علي بن أبي طالب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه كان إذا قام الى الصلاة المكتوبة كبّر ورفع يديه حذو منكبيه ويصنع مثل ذلك إذا قضى قراءته وأراد أن يركع ويضعه إذا رفع من الركوع ، ولا يرفع يديه في شيء من صلاته وهو قاعد .

(91/834)

وأخبرنا الشيخ الصالح أبو الحسن أحمد بن أبراهيم بن علوية بن سلوس العبدوي في رجب سنة أربع وثمانين وثلاثمائة قال : أخبرنا أبو العباس أحمد بن محمد بن الأزهر الأزهري وعبد الله بن يحيى بن أحمد بن مهران المذكر قالا : سمعنا أبا إسماعيل الترمذي وحدّثنا أبو محمّد المخلدي إملاء قال : أخبرنا أبو محمّد عبد الله بن يحيى بن أحمد المذكر قال : حدّثنا أبو اسماعيل محمد بن إسماعيل السلمي قال : صليّت خلف أبي عارم أبي النعمان فرأيته يرفع يديه حين أفتتح الصلاة وحين ركع وحين رفع رأسه من الركوع ، فقلت ما هذا ؟ فقال : صليت خلف حماد بن زيد فرأيته يرفع يديه حين أفتتح الصلاة وحين ركع وحين رفع رأسه من الركوع ، فقلت له : ما هذا ؟ فقال : صليت خلف أيوب السجستاني فرأيته يرفع يديه حين أفتتح الصلاة وحين ركع وحين رفع رأسه من الركوع ، فقلت له : ماهذا ؟ قال :

صلّيت الى جنب عطاء بن أبي رباح فرأيته يرفع يديه حين أفتتح الصلاة وحين ركع وحين رفع رأسه من الركوع، فقلت له: ما هذا؟ قال: صليت خلف أبي بكر الصديق فرأيته يرفع يديه حين أفتتح الصلاة وحين ركع وحين رفع رأسه من الركوع، فقلت له: ما هذا؟ قال: صلّيت خلف النبي صلى الله عليه وسلم فرأيته يرفع يديه حين أفتتح الصلاة وحين ركع وحين رفع رأسه من الركوع.

وأنبأني عقيل قال: أخبرنا المعافى قال: أخبرنا ابن جرير قال: حدّثنا أبو كريب قال: حدّثنا وكيع عن أسرائيل عن جابر عن أبي جعفر ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ قال: يرفع يديه أول ما يكبّر في الإفتتاح الى النحر.

وأخبرنا محمد بن عبدوس قال: حدّثنا محمد بن يعقوب قال: أخبرنا محمد بن الجهم قال: حدّثنا الفراء قال: يقال: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ أي أستقبل القبلة بنحرك، سمعت بعض العرب يقول: منازلنا تتناحر، أي هذا ينحر هذا، أي قبالته، وأنشدني بعض أسد:

أبا حكم هل أنت عم مجالد ... وسيّد أهل الأبطح المتناحر

أي ينحر بعضه بعضاً ، وإليه ذهب الضحاك والكلبي ، وقال واصل بن السائب : سألت عطاء عن قوله سبحانه ﴿ وانحر ﴾ قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستوي بين السجدتين جالساً حتى يبدوا نحره ، سليمان التيمي : يعني وأرفع يديك بالدعاء الى نحرك ، ذو النون : أي أذبح هواك في قلبك .

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبتَر ﴾ يعني أن عدوك ومبغضك هو الأقل الأذلّ المنقطع دابره ، نزلت في العاص بن وائل ، وقال شمر بن عطية : هو عقبة بن أبي معيط ، وقال عكرمة عن ابن عباس : نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من قريش ، وذلك أنه لما قدم كعب مكّة قالت له قريش : نحن أهل السقاية والسدانة وأنت سيّد أهل المدينة فنحن خير أم هذا الصنبور المنبتر من قومه ؟ فقال : بل أنتم خير منه . فنزلت في كعب ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكتاب ﴾ [آل عمران : 23] الآية ونزلت في الذين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم أبتر .

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبتَر ﴾ يعني المنقطع من كل خير ، قال الجنيد : المنقطع عن بلوغ أمله فيك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 307 . 313 ﴾

(93/834)

وقال الزمخشرى :

سورة الكوثر

مكية ، وآياتها 3 «نزلت بعد العاديات» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الكوثر (108) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

في قراءة رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : إنا أعطيناك ، بالنون «1» . وفي حديثه صلى اللّه عليه وسلم «2» : «و أنطوا الثبجة» «3» والكوثر : فوعل من الكثرة وهو المفرط الكثرة . قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر : بم آب ابنك ؟ قالت : آب بكوثر . وقال :

وأنت كثير يا ابن مروان طيّب وكان أبوك ابن العقائل كوثرا «4»

---

(1) . أخرجه الطبراني والدارقطني في المؤتلف والحاكم وابن مردويه والثعلبي من رواية عمرو بن عبيد عن الحسن عن أمه عن أم سلمة وعمرو بن عبيد واهى الحديث .

(2) . هو في الحديث المتقدم في سورة يونس .

(3) . قوله «و أنطوا الثبجة» في القاموس «الشبجة» محركة : المتوسطة بين الخيار والرذال اه . (ع)

(4) . للكميت . وأنت كثير : أى كثير الخير والبر . ويروى بدله : كوثر . وفي الهداء تنويه

باسمه وتعظيم لقدره. واستعار الطيب لحسن السيرة. ويجوز أنه ضد الخبيث. والعقائل : خيار النساء، والمراد جنسهن أو ما يشمل الجدات. والكوثر : بليغ النهاية في الخير.

(94/834)

وقيل الْكَوْثَرَ نهر في الجنة. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قرأها حين أنزلت عليه فقال :

«أ تدرون ما الكوثر؟ إنه نهر في الجنة وعدنيه ربى، فيه خير كثير «1»» وروى في صفته :

أحلى من العسل، وأشد بياضا من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزبد ، حافتاه الزبرجد ، وأوانيه من فضة عدد نجوم السماء «2». وروى : لا يظمأ من شرب منه أبدا : أول وارديه :

فقراء المهاجرين : الدنسو الثياب، الشعث الرؤوس، الذين لا يزوجون المنعمات، ولا تفتح لهم أبواب السدد ، يموت أحدهم وحاجته تتلجلج في صدره، لو أقسم على اللّه لأبرّه»

«3» وعن ابن عباس أنه فسر الكوثر بالخير الكثير، فقال له سعيد بن جبير : إن ناسا يقولون : هو نهر في الجنة! فقال : هو من الخير الكثير. والنحر : نحر البدن، وعن عطية :

هي صلاة الفجر بجمع ، والنحر بمنى . وقيل : صلاة العيد والتضحية . وقيل . هي جنس الصلاة . والنحر : وضع اليمين على الشمال ، والمعنى : أعطيت مالا غاية لكثرته من خير الدارين الذي لم يعطه أحد غيرك ، ومعطى ذلك كله أنا إله العالمين ، فاجتمعت لك الغبطتان السنيتان «4» : إصابة أشرف عطاء وأوفره ، من أكرم معط وأعظم منعم ، فاعبد ربك الذي أعزك بإعطائه ، وشرفك وصانك من منن الخلق ، مراغما لقومك الذين يعبدون غير اللّه ، وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرت ، مخالفا لهم في النحر للأوثان إِنَّ من أبغضك من قومك لمخالفتك لهم هُوَ الْأَبْتَرُ لا أنت ، لأنّ كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك ، وذكرك مرفوع على المنابر والمنار ، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر ، يبدأ بذكر اللّه ويثنى بذكرك ، ولك في الآخرة مالا يدخل تحت الوصف ، فمثلك لا يقال له أبتر : وإنما الأبتر هو شانئك المنسى في

---

(1) . أخرجه مسلم من رواية المختار بن فلفل عن أنس في أثناء حديث ذكره في أوائل الصلاة .

(2) . أخرجه الحاكم من حديث أبى برزة رفعه «حوضي ما بين أيلة إلى صنعاء : عرضه كطوله . فيه ميزابان يصبان من الجنان أحلى من العسل ، وأبرد من الثلج وأشد بياضا من اللبن ، وألين من الزبد فيه أباريق عدد نجوم السماء - الحديث» وفي ابن مردويه من حديث ابن عباس في قصة الاسراء - فذكر حديثا طويلا جدا . وفيه ذكر الكوثر وحافتاه من

زبرجد .

(3) . أخرجه ابن ماجة وأحمد والطبراني من حديث ثوبان . وفيه «أن حوضي ما بين عدن إلى أيلة . أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، أكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدا وأول من يدخل عليه فقراء المهاجرين الدنس ثيابا الشعث رءوسا الذين لا ينكحون المنعمات ولا يفتح لهم السدد»

(4) . قال محمود : «أى جمعنا لك الغبطتين السنيتين أحدهما إصابة أشرف عطاء وهو الكوثر . . . الخ» قال أحمد » جعل الزمخشري توسط الضمير بين الجزءين مقيد للاختصاص لأن إفادته هاهنا لذلك بينة مكشوفة .

(95/834)

الدنيا والآخرة ، وإن ذكر ذكر باللعن . وكانوا يقولون : إنّ محمدا صنبور «1» : إذا مات مات ذكره . وقيل : نزلت في العاص بن وائل ، وقد سماه الأبتر ، والأبتر : الذي لا عقب له . ومنه :

الحمار الأبتر الذي لا ذنب له .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الكوثر سقاه اللّه من كل نهر في الجنة

ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في يوم النحر أو يقربونه «2»» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 806 . 808 ﴾

---

(1) . قوله «إن محمدا صنبور» ذكر في القاموس معانيه : الرجل الفرد الضعيف الذليل بلا أهل وعقب وناصر اه . (ع)

(2) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه بسندهم إلى أبى بن كعب .

(96/834)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ إِنّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ ﴾

فيه تسعة تأويلات :

أحدها : أن الكوثر النبوة ، قاله عكرمة .

الثاني : القرآن ، قاله الحسن .

الثالث : الإسلام ، حكاه المغيرة .

الرابع : أنه نهر في الجنة ، رواه ابن عمر وأنس مرفوعاً .

الخامس : أنه حوض النبي صلى الله عليه وسلم الذي يكثر الناس عليه يوم القيامة قاله

عطاء .

السادس : أنه الخير الكثير ، قاله ابن عباس .

السابع : أنه كثرة أمته ، قاله أبو بكر بن عياش .

الثامن : أنه الإيثار ، قاله ابن كيسان .

التاسع : أنه رفعة الذكر ، وهو فوعل من الكثرة .

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : الصلاة المكتوبة ، وهي صلاة الصبح بمزدلفة ، قاله مجاهد .

الثاني : صلاة العيد ، قاله عطاء .

الثالث : معناه اشكر ربك ، قاله عكرمة .

﴿ وَانْحَرْ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : وانحر هديك أو أضحيتك ، قاله ابن جبير وعكرمة ومجاهد وقتادة .

الثاني : وانحر أي وسل ، قاله الضحاك .

الثالث : معناه أن يضع اليمين على الشمال عند نحره في الصلاة ، قاله عليّ وابن عباس رضي الله عنهما .

الرابع : أن يرفع يديه في التكبير ، رواه عليّ .

الخامس : أنه أراد واستقبل القبلة في الصلاة بنحرك ، قاله أبو الأحوص ومنه قول الشاعر :

أبا حَكَمٍ هَلْ أَنْتَ عَمٌّ مُجالدٍ . . . وسيدُ أهْلِ الأبطحِ المتناحرِ

أي المتقابل .

﴿ إنّ شانِئَكَ هو الأَبْتَرُ ﴾ في شانئك وجهان :

أحدهما : مبغضك ، قاله ابن شجرة .

الثاني : عدوّك ، قاله ابن عباس .

وفي " الأبتر " خمسة تأويلات :

أحدها : أنه الحقير الذليل ، قاله قتادة .

الثاني : معناه الفرد الوحيد ، قاله عكرمة .

(97/834)

الثالث : أنه الذي لا خير فيه حتى صار مثل الأبتر ، وهذا قول مأثور الرابع : أن قريشاً كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده ، قد بتر فلان فلما مات لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه القاسم بمكة ، وابراهيم بالمدينة ، قالوا بتر محمد فليس له من يقوم بأمره من بعده ، فنزلت الآية ، قاله السدي وابن زيد .

الخامس : أن الله تعالى لما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا قريش إلى

الإيمان ، قالوا ابتتر منا محمد ، أي خالفنا وانقطع عنا ، فأخبر الله تعالى رسوله أنهم هم المبترون ، قاله عكرمة وشهر بن حوشب .

واختلف في المراد من قريش بقوله ﴿ إنّ شانئك هو الأبتر ﴾ على ثلاثة أقاويل : أحدها : أنه أبو لهب ، قاله عطاء .

الثاني : أبو جهل ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه العاص بن وائل ، قاله عكرمة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 354.356 ﴾

(98/834)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) ﴾

قرأ الحسن : " إنا أنطيناك " ، وهي لغة في أعطى ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " واليد المنطية خير من السفلى " ، وقال الأعشى : [المتقارب]

جيادك خير جياد الملوك . . . تصان الجلال وتنطى الشعير

قال أنس وابن عمر وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين : ﴿ الكوثر ﴾ : نهر في

الجنة ، حافتاه قباب من در مجوف وطينه مسك وحصباؤه ياقوت ، ونحو هذا من صفاته ، وإن اختلفت ألفاظ الرواة ، وقال ابن عباس أيضاً : ﴿ الكوثر ﴾ : الخير الكثير.

(99/834)

قال القاضي أبو محمد : كوثر : بناء مبالغة من الكثرة ، ولا مجال أن الذي أعطى الله محمداً عليه السلام من النبوة والحكمة العلم بربه والفوز برضوانه والشرف على عباده هو أكثر الأشياء وأعظمها كأنه يقول في هذه الآية : ﴿ إنا أعطيناك ﴾ الحظ الأعظم ، قال سعيد بن جبير : النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أعطاه الله إياه ، فنعم ما ذهب إليه ابن عباس ، ونعم ما تمم ابن جبير رضي الله عنهم ، وأمر النهر ثابت في الآثار في حديث الإسراء وغيره صلى الله عليه وسلم على محمد ونفعنا بما منحنا من الهداية ، قال الحسن : ﴿ الكوثر ﴾ ، القرآن ، وقال أبو بكر بن عياش : هو كثرة الأصحاب والأتباع ، وقال جعفر الصادق : نور في قلبه ودله عليه وقطعه عما سواه ، وقال أيضاً : هو الشفاعة ، وقال هلال بن يساف : هو التوحيد ، وقوله تعالى : ﴿ فصلّ لربك وانحر ﴾ أمر بالصلاة على العموم ، ففيه المكتوبات بشروطها والنوافل على ندبها ، والنحر : نحر البدن والنسك في الضحايا في قول جمهور الناس ، فكأنه قال : ليكن شغلك هذين ، ولم يكن في ذلك الوقت

جهاد ، وقال أنس بن مالك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم : ينحر يوم الأضحى قبل الصلاة ، فأمر أن يصلي وينحر وقاله قتادة ، والقرطبي وغيره في الآية طعن على كفار مكة ، أي إنهم يصلون لغير الله مكاء وتصدية ، وينحرون للأصنام ونحوه ، فافعل أنت هذين لربك تكن على صراط مستقيم ، وقال ابن جبير : نزلت هذه الآية يوم الحديبية وقت صلح قريش قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : صل وانحر الهدي ، وعلى هذا تكون الآية من المدني ، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : معنى الآية : صل لربك وضع يمينك على شمالك عند نحرك في الصلاة ، فالنحر على هذين ليس بمصدر نحر بل هو الصدر ، وقال آخرون المعنى : ارفع يدك في استفتاح صلاتك عند نحرك ، وقوله تعالى : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ رد على مقالة كان كثير من سفهاء قريش يقولها لما لم

يكن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولد فكانوا يقولون : هو أبتر يموت فنستريح منه ويموت أمره بموته ، فقال الله تعالى وقوله الحق : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ ، أي المقطوع المبتور من رحمة الله تعالى ولو كان له بنون فهم غير نافعيه ، "والشانىء" : المبغض ، وقال قتادة ﴿ الأبتر ﴾ هنا يراد به الحقير الذليل ، وقال عكرمة : مات ابن للنبي صلى الله عليه وسلم

فخرج أبو جهل يقول : بتر محمد ، فنزلت السورة ، وقال ابن عباس : نزلت في العاصي بن وائل سمى النبي صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه عبد الله أبتر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(101/834)

وقال ابن الجوزى :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) ﴾

وفي "الكوثر" ستة أقوال .

أحدها : أنه نهر في الجنة .

روى البخاري في أفراده من حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " بينا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب الدُّرِّ المجوَّف .

قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك عز وجل ، فإذا طِينُه ، أو طيبه ، مسك أذفر " .

وروى مسلم أيضاً في أفراده من حديث أنس أيضاً قال : " أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة ، ثم رفع رأسه متبسِّماً إما قال لهم ، وإما قالوا له : لِمَ ضَحِكْتَ ؟ فقال : "إنه

أُنزل عليَّ الآن آنفاً سورة" فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ حتى ختمها .

وقال : "هل تدرون ما الكوثر ؟" فقالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : "هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة عليه خير كثير تَرِدُ عليه أُمتي يوم القيامة آنيته عدد كواكب السماء ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يا رب إنه من أمتي ، فيقال لي : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك" " .

والثاني : أن الكوثر : الخير الكثير الذي أُعْطِيَ نبيُّنا صلى الله عليه وسلم ، قاله ابن عباس .

والثالث : العلم والقرآن ، قاله الحسن .

والرابع : النبوة ، قاله عكرمة .

والخامس : أنه حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يكثر الناس عليه ، قاله عطاء .

والسادس : أنه كثرة أتباعه ، وأمته ، قاله أبو بكر بن عياش .

قوله تعالى : ﴿ فصل لربك ﴾ في هذه الصلاة ثلاثة أقوال .

أحدها : صلاة العيد .

وقال قتادة : صلاة الأضحى .

والثاني : صلاة الصبح بالمزدلفة ، قاله مجاهد .

والثالث : الصلوات الخمس ، قاله مقاتل .

وفي قوله تعالى : ﴿ وانحر ﴾ خمسة أقوال .

أحدها : اذبح يوم النحر ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال عطاء ، ومجاهد ، والجمهور .

والثاني : وضع اليمين على اليسرى عند النحر في الصلاة .

(102/834)

والثالث : أنه رفع اليدين بالتكبير إلى النحر ، قاله أبو جعفر محمد بن علي .

والرابع : أن المعنى : صل لله ، وانحر لله ، فإن ناساً يصلون لغيره ، وينحرون لغيره ، قاله القرظي .

والخامس : أنه استقبال القبلة بالنحر ، حكاه الفراء .

قوله تعالى : ﴿ إن شانئك ﴾ اختلفوا فيمن عنى بذلك على خمسة أقوال .

أحدها : أنه العاص بن وائل السهمي ، قاله ابن عباس : نزلت في العاص ابن وائل ، لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب المسجد فوقف يحدثه حتى دخل العاص

المسجد ، وفيه أُناس من صناديد قريش ، فقالوا له : مَن الذي كنت تُحَدِّث ؟ قال : ذاك الأبتر ، يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان قد توفي قبل ذلك عبد الله ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يسمون من ليس له ابن : أبتر ، فأنزل الله عز وجل هذه السورة .

وممن ذهب إلى أنها نزلت في العاص سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنه أبو جهل ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أبو لهب ، قاله عطاء .

والرابع : عقبة بن أبي معيط ، قاله شمر بن عطية .

والخامس : أنه عنى به جماعة من قريش ، قاله عكرمة .

والشانىء : المبغض ، والأبتر : المنقطع عن الخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 247 . 251 ﴾

(103/834)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر ﴾ قراءة العامة .

"إِنا أَعْطيناك" بالعين .

وقرأ الحسن وطلحة بن مصرف : "أَنْطَيْنَاكَ" بالنون ؛ وروته أمّ سلمة عن النبيّ صلى الله

عليه وسلم ؛ وهي لغة في العطاء ؛ أنطيته : أعطيته .

و"الكوثر" : فوعل من الكثرة ؛ مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر .

والعرب تسمي كل شيء كثيرٍ في العدد والقدر والخطر كوثراً .

قال سفيان : قيل لعجوز رجع ابنها من السفر : بم آب ابنك ؟ قالت : بكوثر ؛ أي بمال

كثير .

والكوثر من الرجال : السيد الكثير الخير .

قال الكميت :

وأنت كثيرٌ يا بن مَرْوان طَيِّبٌ . . .

وكان أبوك ابنُ العقائِل كَوْثرا

والكوثر : العدد الكثير من الأصحاب والأشياع .

والكوثر من الغبار : الكثير .

وقد تكوثر (إذا كثر) ؛ قال الشاعر :

وقد ثارَ نقع الموتِ حتى تَكَوثرا . . .

الثانية : واختلف أهل التأويل في الكوثر الذي أعطِيه النبي صلى الله عليه وسلم على ستة عشر قولاً : الأوّل : أنه نهر في الجنة ؛ رواه البخاريّ عن أنس والترمذيّ أيضاً وقد ذكرناه في كتاب التذكرة .

وروى الترمذي أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الكَوْثر : نهر في الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدرّ والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج " هذا حديث حسن صحيح .

الثاني : أنه حوض النبيّ صلى الله عليه وسلم في الموقف ؛ قاله عطاء .

وفي صحيح مسلم " عن أنس قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أغفى إغفاءة ، ثم رفع رأسه متبسما فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : "نزلت عليّ آنفاً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ ثم قال أتدرون ما الكوثر " ؟ قلنا الله ورسوله أعلم .

قال : "فإنّه نَهرٌ وَعَدنِيهِ رَبّي عزّ وجَلَ ، عليه خَيرٌ كَثِير هُو حَوْضٌ تَرِد عَلَيْهِ أمّتي يَوْمَ القيامة آنِيَتُهُ عددُ النُّجُوم ، فيُخْتَلَجُ العبدُ منهمْ فأقول إنَّهُ من أمّتي ، فيقال إنك لا تَدْرِي ما أَحْدَثَ بَعْدَكَ" " .

والأخبار في حوضه في الموقف كثيرة ، ذكرناها في كتاب "التذكرة" .

وأن على أركانه الأربعة خُلفَاءَه الأربعة ؛ رضوان الله عليهم .

وأنَّ من أبغض واحداً منهم لم يسقِه الآخر ، وذكرنا هُناكَ من يُطْرَد عنه .

فمن أراد الوقوف على ذلك تأمله هناك .

ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر أو الحوض كوثراً ، لكثرة الواردة والشاربة من أمّة محمد عليه السلام هناك .

ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير .

الثالث : أن الكوثر النبوّةُ والكتابُ ؛ قاله عكرمة .

الرابع : القرآن ؛ قاله الحسن .

الخامس : الإسلام ؛ حكاه المغيرة .

السادس : تيسير القرآن وتخفيف الشرائع ؛ قاله الحسين بن الفضل .

السابع : هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياع ؛ قاله أبو بكر بن عياش ويمان بن رِئاب .

الثامن : أنه الإيثار ؛ قاله ابن كَيْسان .

التاسع : أنه رِفعة الذكر .

حكاه الماورديّ .

العاشر : أنه نور في قلبك دلك عليّ ، وقطعك عما سوايَ .

وعنه : هو الشفاعة ؛ وهو الحادي عشر .

وقيل : معجزات الربّ هُدِيَ بها أهلُ الإجابة لدعوتك ؛ حكاه الثعلبيّ ، وهو الثاني عشر .

الثالث عشر : قال هلال بن يساف : هو لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وقيل : الفقه في الدين .

وقيل : الصلوات الخمس ؛ وهما الرابع عشر والخامس عشر .

وقال ابن إسحاق : هو العظيم من الأمر ؛ وذكر بيت لبِيد :

وصاحب مَلْحوب فُجِعْنا بفقدِهِ . . .

وعِندَ الرِّداعِ بيت آخرَ كَوْثَر

أي عظيم .

قلت : أصح هذه الأقوال الأوّل والثاني ؛ لأنه ثابت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم نص في الكوثر .

وسمع أنس قوماً يتذاكرون الحوض فقال : ما كنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يَتَمارَوْن في الحوض ، لقد تركت عجائز خلفي ، ما تصلِّي امرأة منهنّ إلا سألت الله أن يسقِيها من حوض النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وفي حوضه يقول الشاعر :

يا صاحبَ الحوضِ مَنْ يُدَانيكَا . . .

وأنتَ حَقّاً حبيبُ بارِيكا

وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أُعْطيه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيادة على حوضه صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2)

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ ﴾ أي أقم الصلاة المفروضة عليك ؛ كذا رواه الضحاك عن ابن عباس .

وقال قتادة وعطاء وعِكرمة : "فصل لربك" صلاة العيد يوم النحر .

"وانْحَرْ" نُسُكك .

وقال أنس : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم ينحر ثم يصلي ، فأُمِر أن يُصَلِّي ثم يَنْحَر .

وقال سعيد بن جبير أيضاً : صَلِّ لربك صلاة الصبح المفروضة بَجْمعٍ ، وانْحرِ البُدْن بِمنًى .

وقال سعيد بن جبير أيضاً : نزلت في الحُدَيْبِيَةِ حين حُصِر النبيّ صلى الله عليه وسلم عن البيت ، فأمره الله تعالى أن يُصلِّيَ ويَنْحَرَ البُدْنَ وينصرف ؛ ففعل ذلك .

قال ابن العربيّ : "أما من قال : إن المراد بقوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ ﴾ الصلوات الخمس ؛ فلأنها ركن العبادات ، وقاعدة الإسلام ، وأعظم دعائم الدين .

وأما من قال : إنها صلاة الصبح بالمزدَلِفة ؛ فلأنها مقرونة بالنحْر ، وهو في ذلك اليوم ، ولا صلاة فيه قبل النحر غيرَها ؛ فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنحْر" .

قلت : وأما من قال إنها صلاة العِيد ؛ فذلك بغير مكة ؛ إذ ليس بمكة صلاة عيدٍ بإجماع ، فيما حكاه ابن عمر .

قال ابن العربيّ : "فأما مالك فقال : ما سمعت فيه شيئاً ، والذي يقع في نفسي أن المراد بذلك صلاة يوم النحْر ، والنحْر بعدها" .

وقال عليّ رضي الله عنه ومحمد بن كعب : المعنى ضع اليُمْنَى على اليسرى حِذاء النحْر في الصلاة .

ورُوِي عن ابن عباس أيضاً .

وروي عن عليّ أيضاً : أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره .

وكذا قال جعفر بن عليّ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ قال : يرفع يديه أوّلَ ما يُكَبِّر للإحرام إلى النحر .

وعن عليّ رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ " قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لجبريل : "ما هذه النحِيرة التي أمرني الله بها" ؟ قال : "ليست بنحيرة ، ولكنه يأمرك إذا تحرّمت للصلاة ، أن ترفع يديكَ إذا كَبَّرت ، وإذا رفعت رأسك من الركوع ، وإذا سجدت ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع ، وإن لكل شيء زينة ، وإن زينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة" " وعن أبي صالح عن ابن عباس قال : اسْتَقْبِلِ القبلة بنحرك ؛ وقاله الفرّاء والكلبيّ وأبو الأحوص .

ومنه قول الشاعر :

أبا حكم ما أَنْتَ عَمُّ مُجالِدٍ . . .

وسَيِّدُ أهلِ الأَبطَحِ المُتَناحِرِ

أي المتقابل .

قال الفرّاء : سمعت بعض العرب يقول : منازلنا تتناحر ؛ أي نتقابل ، نحر هذا بنحر هذا ؛

أي قُبالتِه .

وقال ابن الأعرابيّ : هو انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المِحراب ؛ من قولهم : منازلهم تتناحر ؛ أي تتقابل .

ورُوي عن عطاء قال : أمره أن يستوي بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحره .

وقال سليمان التَّيمِيّ : يعني وارفع يدك بالدعاء إلى نحرك .

وقيل : "فَصلِّ" معناه : واعبد .

وقال محمد بن كعب القُرَظيّ : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ يقول : إن ناساً يصلون لغير الله ، وينحرون لغير الله ؛ وقد أعطيناك الكوثر ، فلا تكن صلاتك ولا نحرك إلا لله .

قال ابن العربي : "والذي عندي أنه أراد : اعبد ربك ، وانحر له ، فلا يكن عملك إلا لمن خصك بالكوثر ، وبالْحَرَى أن يكون جميع العمل يوازي هذه الخُصوصية من الكوثر ، وهو الخير الكثير ، الذي أعطاكه الله ، أو النهر الذي طِينه مسك ، وعدد آنيته نجوم السماء ؛ أما أن يوازِيَ هذا صلاة يوم النحر ، وذبح كبش أو بقرة أو بدَنَة ، فذلك يبعد في التقدير

والتدبير، وموازنة الثواب للعبادة".

والله أعلم.

الثانية: قد مضى القول فى سورة "الصَّافَّات" في الأُضحِية وفضلها، ووقت ذبحها؛ فلا معنى لإعادة ذلك.

وذكرنا أيضاً في سورة "الحج" جملة من أحكامها.

قال ابن العربيّ: "ومن عجيب الأمر: أن الشافعي قال: إن من ضحَّى قبل الصلاة أجزأه، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾، فبدأ بالصلاة قبل النحر، وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم (في البخاريّ وغيره، عن البراء بن عازب، قال): "أوّل ما نبْدأ به في يومنا هذا: أن نُصلِّيَ، ثم نرجعَ فننحر، من فعل فقد أصاب نُسُكاً، ومن ذَبَح قبل، فإنما هو لحم قدّمه لأهله، ليس من النُّسك في شيء" وأصحابه ينكرونه، وحبذا الموافقة".

الثالثة: وأما ما روي عن عليّ عليه السلام "فصل لربك وانحر" قال: وضع اليمين على الشمال في الصلاة (خرّجه الدارَقُطْنيّ)، فقد اختلف علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال:

الأوّل: لا توضع فريضة ولا نافلة؛ لأن ذلك من باب الاعتماد.

ولا يجوز في الفرض، ولا يستحب في النفل.

الثاني: لا يفعلها في الفريضة، ويفعلها في النافلة استعانة؛ لأنه موضع ترخص.

الثالث : يفعلها في الفريضة والنافلة .

وهو الصحيح ؛ لأنه ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده اليمنى على اليسرى من حديث وائل بن حجر وغيره .

قال ابن المنذر : وبه قال مالك وأحمد وإسحاق ، وحكي ذلك عن الشافعيّ .

واستحب ذلك أصحاب الرأي .

ورأت جماعة إرسال اليد .

(108/834)

وممن روينا ذلك عنه ابن المنذر والحسن البصريّ وإبراهيم النخعِيّ .

قلت : وهو مَرْوِيّ أيضاً عن مالك .

قال ابن عبد البر : إرسال اليدين ، ووضع اليمنى على الشمال ، كل ذلك من سنة الصلاة .

الرابعة : واختلفوا في الموضع الذي توضع عليه اليد ؛ فروِي عن عليّ بن أبي طالب : أنه وضعهما على صدره .

وقال سعيد بن جُبير وأحمد بن حنبل : فوق السرّة .

وقال : لا بأس إن كانت تحت السرّة .

وقالت طائفة : توضع تحت السرّة .

وروي ذلك عن عليّ وأبي هُريرة والنخعيّ وأبي مِجلَز .

وبه قال سفيان الثوريّ وإسحاق .

الخامسة : وأما رفع اليدين في التكبير عند الافتتاح والركوع والرفع من الركوع والسجود ، فاختلف في ذلك ؛ فروى الدّارقطِنيُّ من حديث حميد عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع يديه إذا دخل في الصلاة ، وإذا ركع ، وإذا رفع رأسه من الركوع ، وإذا سجد .

لم يروِه عن حميد مرفوعاً إلا عبد الوهاب الثقفيّ .

والصواب : من فعل أنس .

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام إلى الصلاة رفع يديه ، حتى تكونا حذو منكِبيه ، ثم يكبر ، وكان يفعل ذلك حين يكَبِّر للركوع ، ويفعل ذلك حين يرفع رأسه من الركوع ، ويقول سمِع الله لمن حمِده .

ولا يفعل ذلك حين يرفع رأسه من السجود .

قال ابن المنذر : وهذا قول الليث بن سعد ، والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبي ثور .

وحكى ابن وهب عن مالك هذا القول .

وبه أقول ؛ لأن الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقالت طائفة : يرفع المصلي يديه حين يفتتح الصلاة ، ولا يرفع فيما سوى ذلك .

هذا قول سفيان الثوريّ وأصحاب الرأي .

(109/834)

قلت : وهو المشهور من مذهب مالك ؛ لحديث ابن مسعود ، (خرّجه الدّارقطِنيّ من حديث إسحاق بن أبي إسرائيل) ، قال : حدّثنا محمد بن جابر عن حماد عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال : صليت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ومع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ؛ فلم يرفعوا أيديهم إلا أوّلاً عند التكبيرة الأولى في افتتاح الصلاة .

قال إسحاق : به نأخذ في الصلاة كلها .

قال الدّارقطِنيّ : تفرّد به محمد بن جابر (وكان ضعيفاً) عن حماد عن إبراهيم .

وغير حماد يروِيه عن إبراهيم مرسلاً عن عبد الله ، من فعله ، غير مرفوع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وهو الصواب .

وقد روى يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن البَرَاء : أنه رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم حين افتتح الصلاة رفع يديه حتى يحاذِيَ بهما أُذنيه ، ثم لم يعد إلى شيء من ذلك حتى فرغ من الصلاة .

قال الدّارقطنيّ : وإنما لقن يزيد في آخر عمره : "ثُمَّ لَمْ يَعُدْ" ؛ فتلقنه وكان قد اختلط .

وفي (مختصر ما ليس في المختصر) عن مالك : لا يرفع اليدين في شيء من الصلاة .

قال ابن القاسم : ولم أر مالكاً يرفع يديه عند الإحرام .

قال : وأَحبُّ إليّ ترك رفع اليدين عند الإحرام .

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

أي مبغِضك ؛ وهو العاص بن وائل .

وكانت العرب تسمي من كان له بنون وبنات ، ثم مات البنون وبقي البنات : أبتر .

فيقال : إن العاص وقف مع النبيّ صلى الله عليه وسلم يكلمه ، فقال له جمع من صناديد

قريش : مع من كنت واقفاً ؟ فقال : مع ذلك الأبتر .

وكان قد تُوُفّي قبل ذلك عبد الله بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من خديجة ؛

فأنزل الله جل شأنه : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ أي المقطوع ذِكره من خير الدنيا

والآخرة .

وذكر عكرمة عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية إذا مات ابن الرجل قالوا : بُتِر فلان .

فلما مات إبراهيم ابن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال: بُتِر محمد؛ فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ يعني بذلك أبا جهل.

وقال شِمر بن عطية: هو عقبة بن أبي مُعَيط.

وقيل: إن قريشاً كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده: قد بُتِر فلان.

فلما مات لرسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه القاسم بمكة، وإبراهيم بالمدينة، قالوا: بتر محمد، فليس له من يقوم بأمره من بعده؛ فنزلت هذه الآية؛ قاله السدّي وابن زيد.

وقيل: إنه جواب لقريش حين قالوا لكعب بن الأشرف لما قدم مكة: نحن أصحاب السقاية والسَّدانة والحِجابة واللّواء، وأنت سيد أهل المدينة، فنحن خير أم هذا الصُّنَيْبِرُ الأُبَيْتِرُ من قومه؟ قال كعب: بل أنتم خير؛ فنزلت في كعب: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الكتاب يُؤْمِنُونَ بالجبت والطاغوت ﴾ [النساء: 51] . . .

الآية.

ونزلت في قريش: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾؛ قاله ابن عباس أيضاً وعكرمة.

وقيل: إن الله عز وجل لما أوحى إلى رسوله، ودعا قريشاً إلى الإيمان، قالوا: انبتر منا محمد؛ أي خالفنا وانقطع عنا.

فأخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أنهم هم المبتورون؛ قاله أيضاً عِكرمة وشَهْر بن حَوْشَب.

قال أهل اللغة : الأبتر من الرجال : الذي لا ولد له ، ومن الدوابّ الذي لا ذنب له .

وكل أمرٍ انقطع من الخير أثره ، فهو أبتر .

والبَتْر : القطع .

بَتَرْت الشيء بَتْراً : قطعته قبل الإتمام .

والانبتار : الانقطاع .

والباتر : السيف القاطع .

والأَبتر : المقطوع الذَّنب .

تقول منه : بَتِر (بالكسر) يُبْتَرُ بَتْراً .

وفي الحديث : " ما هذه البُتَيراء " وخطب زياد خُطبته البتراء ؛ لأنه لم يحمد الله فيها ، ولم يصل على النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ابن السكيت : الأبتران : العَيْر والعَبْد ؛ قال سميا أبترين لقلة خيرهما .

(111/834)

وقد أبتره الله : أي صيره أبتر .

ويقال : رجل أُباتِرُ (بضم الهمزة) : الذي يقطع رحِمه .

قال الشاعر :

لَئِيمٌ نَزَتْ في أَنْفِهِ خُنْزُوانَةٌ . . .

على قَطعِ ذِي القُرْبى أَحذُّ أُبَاتِرُ

والبُتْرية : فِرقة من الزيدية ؛ نسبوا إلى المغيرة بن سعد ، ولقبه الأبتر .

وأمّا الصُّنبور فلفظ مشترك .

قيل : هو النخلة تبقى منفردة ، ويدِق أسفلها ويتقشر ؛ يقال : صَنْبَرَ أسفلُ النخلة .

وقيل : هو الرجل الفرد الذي لا ولد له ولا أخ .

وقيل : هو مَثْعَب الحوضِ خاصّة ؛ حكاه أبو عبيد .

وأنشد :

ما بين صُنْبورٍ إلى الإزاءِ . . .

والصُّنبور : قَصَبة تكون في الإداوة من حديد أو رصاص يشرب منها .

حكى جميعه الجوهريّ رحمه الله .

والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

وقال الخازن:

قوله عزّ وجلّ: ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾

نهر في الجنة أعطاه الله محمداً (صلى الله عليه وسلم)، وقيل الكوثر القرآن العظيم، وقيل هو النّبوة، والكتاب، والحكمة، وقيل هو كثرة أتباعه، وأمته، وقيل الكوثر الخير الكثير كما فسره ابن عباس (خ) عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير أن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة، فقال سعيد النهر الذي في الجنة من الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه، وأصل الكوثر فوعل من الكثرة، والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو كثير القدر والخطر كوثراً، وقيل الكوثر الفضائل الكثيرة التي فضل بها على جميع الخلق فجميع ما جاء في تفسير الكوثر فقد أعطيه النبي (صلى الله عليه وسلم) أعطي النبوة، والكتاب، والحكمة، والعلم، والشفاعة، والحوض المورود، والمقام المحمود، وكثرة الأتباع، والإسلام، وإظهاره على الأديان كلها، والنّصر على الأعداء، وكثرة الفتوح في زمنه وبعده إلى يوم القيامة.

وأولى الأقاويل في الكوثر الذي عليه جمهور العلماء، أنه نهر في الجنة كما جاء مبيناً في الحديث (ق) عن أنس قال " بينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءه ثم رفع رأسه متبسماً، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال أنزلت عليّ آنفاً سورة، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن

شانئك هو الأبتر ﴾ ، ثم قال أتدرون ما الكوثر ، قلنا الله ورسوله أعلم قال : فإنه نهر وعدنيه ربي عزّ وجلّ فيه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة .
آنيته عدد نجوم السماء ، فيختلج العبد منهم ، فأقول رب إنه من أمتي .

(113/834)

فيقول ما تدري ما أحدث بعدك " لفظ مسلم وللبخاري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لما عرج بي إلى السّماء أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طينه أو طينته مسك أذفر " شك الراوي عن أنس قال " سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما الكوثر قال ذلك نهر أعطانيه الله يعني في الجنة أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزور ، قال عمر إن هذه لناعمة فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أكلتها أنعم منها " أخرجه التّرمذي ، وقال حديث حسن صحيح .
عن ابن عمر قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر ، والياقوت تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج "

أخرجه التّرمذي ، وقال حديث حسن صحيح (خ) " عن عامر بن عبد الله بن مسعود قال سألت عائشة عن قوله تعالى ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ ، فقالت الكوثر نهر أعطيه نبيكم (صلى الله عليه وسلم) شاطئاه در مجوف آنيته كعدد نجوم السماء " (ق) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء من شرب منها لا يظمأ أبداً " زاد في رواية " وزواياه سواء " (ق) عن ابن عمر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " أمامكم حوضي ما بين جنبيه كما بين جربا وأذرح " قال بعض الرواة هما قريتان بالشام بينهما مسيرة ثلاثة أيام ، وفي رواية " فيه أباريق كنجوم السّماء من ورده فشرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً " (ق) عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " ما بين ناحيتي وفي رواية لابتي حوضي كما بين صنعاء والمدينة " وفي رواية " مثل ما بين المدينة وعمان " وفي رواية قال " إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن ، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء " (م) عن أبي ذر قال " قلت يا رسول الله ما آنية الحوض قال والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء ،

وكواكبها ألا في الليلة المظلمة المصحية آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ عرضه ، مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل " (م) عن ثوبان أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إني لبعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمن أضرب بعصاي ، أي حتى يرفض عليهم ، فسئل عن عرضه فقال من مقامي إلى عمان وسئل عن شرابه فقال أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل يغت فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما : من ذهب ، والآخر من الورق " (ق) عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " أنا

(115/834)

فرطكم على الحوض وليرفعن إلى رجال منكم حتى إذا أهويت إليهم لأنا ولهم اختلجوا دوني ، فأقول أي ربي أصحابي ، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك " (ق) عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " قال ليردن عليّ الحوض رجال ممن صاحبني حتى إذا رفعوا إليّ اختلجوا دوني ، فلأقولن أي رب أصحابي أصحابي فليقالن لي إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك "

وفي رواية " يردن عليّ ناس من أمتي الحديث " وفي آخره " فأقول سحقاً لمن بدل بعدي " (

ق) عن أبي هريرة قال إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " يرد عليّ يوم القيامة رهطان من أصحابي أو قال من أمتي فيجلون عن الحوض ، فأقول رب أصحابي ، فيقول إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقرى " ولمسلم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " ترد عليّ أمتي الحوض ، وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله قالوا أيا نبي الله تعرفنا قال نعم لكم سيما ليست لأحد غيركم تردون على غرّاً محجلين من آثار الوضوء وليصدن عني طائفة منكم فلا يصلون إليّ فأقول يا رب هؤلاء من أصحابي فيجيبني ملك فيقول وهل تدري ما أحدثوا بعدك " (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " والذي نفسي بيده لأذودن رجالاً عن حوضي كما تذاد الغريبة من الإبل عن الحوض " (م) عن حذيفة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن ، والذي نفسي بيده لأذودن عنه الرجل كما يذود الرجل الإبل الغريبة عن إبله قالوا يا رسول الله وتعرفنا ؟ قال نعم تردون على غرّاً محجلين من آثار الوضوء ليس لأحد غيركم " عن زيد بن أرقم قال " كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنزلنا منزلاً فقال ما أنتم إلا جزء من مائة ألف جزء ممن يرد على الحوض ، قيل كم كنتم يومئذ قال سبعمائة أو ثمانمائة " أخرجه أبو داود .

(فصل في شرح هذه الأحاديث وذكر ما يتعلق بالحوض)

قال الشّيخ محيي الدّين النّووي : قال القاضي عياض أحاديث الحوض صحيحة ، والإيمان به فرض ، والتصديق به من الإيمان ، وهو على ظاهره عند أهل السنة ، والجماعة لا يتأول ، ولا يختلف فيه ، وحديثه متواتر النقل رواه الخلائق من الصحابة ، فذكره مسلم من رواية ابن عمر وأبي سعيد ، وسهل بن سعد ، وجندب بن عبد الله ، وعبد الله بن عمر وعائشة وأم سلمة ، وعقبة بن عامر ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وحارثة بن وهب ، والمستورد وأبي ذر وثوبان ، وأنس ، وجابر بن سمرة ، ورواه غير مسلم من رواية أبي بكر الصّديق وزيد بن أرقم وأبي أمامة وعبد الله بن زيد وأبي برزة وسويد بن حبلة وعبد الله بن الصنابحي والبراء بن عازب وأسماء بنت أبي بكر الصّديق وخولة بنت قيس وغيرهم ، قال الشيخ محيي الدّين ، ورواه البخاري ومسلم أيضاً من رواية أبي هريرة ورواه غيرهما في رواية عمر بن الخطاب وعائذ بن عمرو وآخرين ، وقد جمع ذلك كله الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه البعث والنشور بأسانيده وطرقه المتكاثرة قلت وقد اتفقا على إخراج حديث الحوض وعن جماعة ممن تقدم ذكرهم من الصّحابة على ما سبق ذكره في الأحاديث ، وفيه بيان ما اتفقا عليه ، وانفرد به كل واحد منهما ، وأخرجا أيضاً حديث الحوض عن أسماء بنت أبي بكر الصّديق وذكرها القاضي عياض ، فيمن خرج له في غير الصحيحين

قال القاضي عياض وفي بعض هذا ما يقتضي كون الحديث متواتراً ، وأما صفة الحوض ومقداره فقد قال في رواية

(117/834)

" حوضي مسيرة شهر وفي رواية ما بين جنبيه كما بين جرباء ، وأذرح ، وفي رواية كما بين أيلة ، وصنعاء اليمن ، وفي رواية عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة ، وفي رواية إن حوضي لأبعد من أيلة إلى عدن " فهذا الاختلاف في هذه الروايات في قدر الحوض ليس موجباً للاضطراب فيها لأنه لم يأت في حديث واحد بل في أحاديث مختلفة الرواة عن جماعات من الصّحابة سمعوها من النبي (صلى الله عليه وسلم) في مواطن مختلفة ضربها النبي (صلى الله عليه وسلم) مثلاً لبعد أقطار الحوض وسعته وقرب ذلك على أفهام السامعين لبعد ما بين هذه البلاد المذكورة لأعلى التقدير الموضوع للتحديد بل لإعلام السامعين عظم بعد المسافة وسعة الحوض وليس في ذكر القليل من هذه المسافة منع من الكثير ، فإن الكثير ثابت على ظاهره ، وصحت الرواية به ، والقليل داخل فيه فلا معارضة ، ولا منافاة بينهما وكذلك القول في آنية الحوض من أن العدد المذكور في الأحاديث على ظاهره ، وأنها أكثر عدداً من نجوم السّماء ولا مانع يمنع من ذلك إذ قد وردت

الأحاديث الصّحيحة الثّابتة بذلك وكذلك القول في الواردين إلى الحوض الشّاربين منه ، وكثرتهم وقوله (صلى الله عليه وسلم) " ما أنتم إلا جزء من مائة ألف جزء ممن يرد الحوض " لم يرد به الحصر بهذا العدد المذكور وإنما ضربه مثلاً لأكثر العدد المعروف للسّامعين ويدل على هذا قوله (صلى الله عليه وسلم) " من ورد شرب منه " فهذا صريح في أن جميع الواردين يشربون ، وإنما يمنع منه الذين يزدادون ، ويمنعون الورود لارتدادهم ، وتبديلهم وهو قوله (صلى الله عليه وسلم) " فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمتي ، فيقول ما تدري ما أحدث بعدك ، وفي رواية وليرفعن إلى رجال منكم حتى إذا أهويت لأناولهم اختلجوا دوني ، فأقول أي رب أصحابي ، فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك " ونحو هذا من الروايات المذكورة في الأحاديث السابقة ، وهذا مما اختلف العلماء في معناه

، وفي المراد به من هم ، فقيل المراد بهم المنافقون ، والمرتدون في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) فيحتمل أنهم إذا حشروا عرفهم النبي (صلى الله عليه وسلم) للسيما التي عليهم فيناديهم ، فيقال له ليس هؤلاء ممن وعدت بهم إنهم قد بدلوا بعدك ، أي لم يكونوا على ما ظهر من إسلامهم ، وقيل المراد بهم من أسلموا في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم

ارتدوا بعده في زمن أبي بكر الصّديق وهم الذين قاتلهم على الردة ، وهم أصحاب مسيلمة الكذاب ، فيناديهم النبي (صلى الله عليه وسلم) لما كان يعرفه من إيمانهم في حياته فيقال له قد ارتدوا بعدك ، وقيل المراد بهم أصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام ، وأصحاب المعاصي ، والكبائر الذين ماتوا على التّوحيد ، ولم يتوبوا من بدعتهم ومعاصيهم فعلى هذا القول لا يقطع لهؤلاء المطرودين عن الحوض بالنّار بل يجوز أن يزادوا عنه عقوبة لهم ثم يرحمهم الله ، فيدخلهم الجنة من غير عذاب ، وقال ابن عبد البر كل من أحدث في الدين كالخوارج والروافض وسائر أصحاب الأهواء فهو من المطرودين عن الحوض قال وكذلك الظلمة المسرفون في الجور ، وغمط الحق ، والمعلنون بالكبائر فكل هؤلاء يخاف أن يكونوا ممن عنى بهذا الحديث وقوله من شرب منه لم يظمأ أبداً قال القاضي عياض : ظاهر هذا الحديث أن الشرب منه يكون بعد الحساب ، والنجاة من النار ، ويحتمل أن من شرب منه من هذه الأمة وقدر عليه دخول النار لا يعذب فيها بالظمأ بل يكون عذابه بغير ذلك لأن ظاهر الحديث أن جميع الأمة تشرب منه إلا من ارتد ، وصار كافراً ، وقيل إن جميع المؤمنين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، ثم يعذب الله من شاء من عصاتهم ، وقيل إنما يأخذ بيمينه الناجون منهم خاصة ، والشرب من الحوض مثله .

(شرح غريب ألفاظ الأحاديث)

قوله فيختلج العبد منهم ، أي ينتزع ويجذب منهم ، قوله ما بين جنبيه كما بين جربا ، وأذرح أما جربا فبجيم ثم راء ساكنة ثم باء موحدة ثم ألف مقصورة ، ووقع عند بعض رواة البخاري فيها المد والقصر أولى ، وهي قرية من الشام ، وأما أذرح فبهمزة ثم ذال معجمة ثم راء ثم حاء مهملة ، وهي في طرف الشام قريب من الشّوبك ، وأما عمان فبفتح العين وتشديد الميم بليدة بالبلقاء من أرض الشّام ، وأما أيلياء فبفتح الهمزة وإسكان المثناة تحت وفتح اللام مدينة معروفة في طرف الشام على ساحل البحر متوسطة بين دمشق ومصر بينها وبين المدينة نحو خمس عشرة مرحلة وبينها وبين مصر ثمان مراحل وإلى دمشق اثنا عشر مرحلة وهي آخر الحجاز وأول الشّام ، وأما صنعاء فهي قاعدة اليمن ، وأكبر مدنه ، وإنما قيد باليمن في الحديث لأن بدمشق موضعاً يعرف بصنعاء دمشق وقد تقدم الكلام على اختلاف هذه المسافات والجمع بين رواتها قوله يشخب فيه ميزابان هو بفتح الياء المثناة تحت وبالشين والخاء المعجمتين ، أي يسيل فيه وفي الحديث الآخر يغت بفتح الياء وبالغين المعجمة وكسرها ، وتشديد التاء المثناة فوق ، أي يدفق منه ميزابان تدفقاً شديداً متتابعاً قوله إني لبعقر حوضي هو بضم العين المهملة ، وإسكان القاف وهو موقف الإبل من الحوض إذا وردته للشرب ، وقيل هو مؤخر الحوض قوله أذود الناس ، أي أضرب الناس لأهل اليمن بعصاي حتى يرفض عليهم ، معناه أطرد الناس عنه غير أهل اليمن ، ومعنى

يرفض أي يسيل عليهم ، وفيه منقبة عظيمة لأهل اليمن قوله أنا فرطكم على الحوض الفرط بفتح الفاء والراء هو الذي يتقدم على الواردين ليصلح لهم الحياض ، والدّلاء ونحوها من آلات الاستقاء ، والمعنى أنا سابقكم على الحوض كالمهيىء له قوله سحقاً ، أي بعداً وفيه دليل لمن قال إنهم أهل الردة إذ لا يقال للمؤمن سحقاً بل يشفع قلت في حديث أنس الأول دليل لمن يقول أن سورة الكوثر مدنية وهو الأظهر لقوله بينا رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) بين أظهرنا إذا أغفى إغفاءه يعني نام نومة ثم رفع رأسه متبسماً والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ معناه أن ناساً كانوا يصلون لغير الله تعالى وينحرون لغير الله فأمر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يصلي له وينحر له متقرباً إلى ربه بذلك ، وقيل معناه فصل لربك صلاة العيد يوم النحر ، وانحر نسكك ، وقيل معناه فصل الصّلاة المفروضة بجمع ، وانحر البدن بمنى وقال ابن عباس : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ أي ضع يدك اليمنى على اليسرى في الصّلاة عند النّحر ، وقيل هو رفع اليدين مع التكبير إلى النّحر حكاه ابن الجوزي ، ومعنى الآية قد أعطيتك ما لا نهاية لكثرته من خير الدّارين

وخصصتك بما لم أخص به أحداً غيرك ، فاعبد ربك الذي أعطاك هذا العطاء الجزيل ، والخير الكثير ، وأعزك ، وشرفك على كافة الخلق ، ورفع منزلتك فوقهم فصل له واشكره على إنعامه عليك ، وانحر البدن متقرباً إليه ﴿ إن شانئك ﴾ يعني عدوك ومبغضك ﴿ هو الأبتر ﴾ يعني هو الأذل المنقطع دابره نزلت في العاص بن وائل السهمي وذلك أنه رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) خارجاً من المسجد وهو داخل فالتقيا عند باب بني سهم وتحدثا وأناس من صناديد قريش جلوس في المسجد فلما دخل العاص قالوا له من الذي كنت تتحدث معه فقال ذلك الأبتر يعني به النبي (صلى الله عليه وسلم) وكان قد توفي ابن لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) من خديجة ، وقيل إن العاص بن وائل كان إذا ذكر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره ، فأنزل الله تعالى هذه السّورة وقال ابن عباس : نزلت في كعب بن الأشرف ، وجماعة من قريش ، وذلك أنه لما قدم كعب بن الأشرف مكة قالت له قريش نحن أهل السقاية والسدانة وأنت سيد أهل المدينة فنحن خير أم هذا الصّنبور المنبتر من قومه ، فقال أنتم فنزلت فيه

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ [النساء : 51]

ونزلت في الذين قالوا إنه أبتر ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ أي المنقطع من كل خير قولهم في النبي صلى الله عليه وسلم هذا الصّنبور أرادوا أنه فرد ليس له ولد ، فإذا مات انقطع ذكره شبهوه بالنخلة المفردة يدق أسفلها ، وتسمى الصنبور ، وقيل هي النّخلة التي تخرج في أصل أخرى تغرس ، وقيل الصّنابر سعفات تنبت من جذع النّخلة تضربها ودواؤها أن تنقطع تلك الصّنابر منها فأراد كفار مكة أن محمداً صلى الله عليه وسلم بمنزلة الصّنابر تنبت في جذع نخلة فإذا انقلع استراحت النّخلة فكذا محمد إذا مات انقطع ذكره ، وقيل الصّنبور الوحيد الضعيف الذي لا ولد له ولا عشيرة ولا ناصر من قريب ولا غريب فأكذبهم الله تعالى في ذلك ورد عليهم أشنع رد فقال إن شانئك يا محمد هو الأبتر الضعيف الوحيد ، الحقير ، وأنت الأعز ، الأشرف الأعظم ، والله أعلم بمراده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 300. 305 ﴾

(122/834)

وقال النسفى :

سورة الكَوْثَرِ

مكية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾

هو فوعل من الكثرة وهو المفرط الكثرة ، وقيل : هو نهر في الجنة أحلى من العسل ، وأشد بياضاً من اللبن ، وأبرد من الثلج ، وألين من الزبد ، حافتاه الزبرجد وأوانيه من فضة ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : هو الخير الكثير فقيل له : إن ناساً يقولون هو نهر في الجنة فقال : هو من الخير الكثير ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ فاعبد ربك الذي أعزك بإعطائه وشرفك وصانك من منن الخلق مراغماً لقومك الذين يعبدون غير الله ﴿ وانحر ﴾ لوجهه وباسمه إذا نحرت مخالفاً لعبدة الأوثان في النحر لها ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ أي من أبغضك من قومك بمخالفتك لهم ﴿ هُوَ الابتر ﴾ المنقطع عن كل خير لا أنت ، لأن كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك ، وذكرك مرفوع على المنابر وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر ، يبدأ بذكر الله ويثني بذكرك ، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف ، فمثلك لا يقال له أبتر إنما الأبتر هو شانئك المنسي في الدنيا والآخرة .

قيل : نزلت في العاص بن وائل سماه الأبتر ، والأبتر الذي لا عقب له وهو خبر "إن" و"هو" فصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 380 ﴾

وقال ابن جزى :

سورة الكَوْثَر

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر ﴾

هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والكوثر بناء مبالغة من الكثرة وفي تفسيره سبعة أقوال : الأول حوض النبي صلى الله عليه وسلم : الثاني أنه الخير الكثير الذي أعطاه الله [له] في الدنيا والآخرة . قاله ابن عباس وتبعه سعيد بن جبير ، فإن قيل : إن النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله فالمعنى أنه على العموم . الثالث أن الكوثر القرآن . الرابع أنه كثرة الأصحاب والأتباع . الخامس أنه التوحيد . السادس أنه الشفاعة ، السابع أنه نور وضعه الله في قلبه ، ولا شك أن الله أعطاه هذه الأشياء كلها ، ولكن الصحيح أن المراد بالكوثر الحوض لما ورد في الحديث الصحيح "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أتدرون ما الكوثر هو نهر أعطانيه الله وهو الحوض آنيته عدد نجوم السماء " .

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ فيه خمسة أقوال : الأول أنه أمره بالصلاة على الاطلاق وينحر الهدي والضحايا ، الثاني أنه صلى الله عليه وسلم كان يضحي قبل صلاة العيد فأمره أن يصلي ثم ينحر ، فالمقصود على هذا تأخير نحر الأضاحي عن الصلاة الثالث أن الكفار يصلون مكاء وتصدية وينحرون للأصنام فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : صل لربك وحده وانحر له ، أي ولجهه لا لغيره ، فهو على هذا أمر بالتوحيد والإخلاص . الرابع أن معنى انحر ضع يدك اليمنى على اليسى عند صدرك في الصلاة فهو على هذا من النحر وهو الصدر . الخامس أن معاه ارفع يديك عند نحرك في افتتاح الصلاة ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ الشانئ هو المبغض ، وهو الشنآن بمعنى العداوة ، نزلت هذه الآية في العاصي بن وائل ، وقيل : في أبو جهل على وجه الرد عليه إذ قال : إن محمداً أبتر أي لا ولد له ذكر ، فإذا مات استرحنا منه وانقطع أمره بموته ، فأخبر الله أن هذا الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد لأنه مبتور من رحمة الله أي مقطوع عنها ، ولأنه لا يذكر إذا ذكر إلا باللعنة بخلاف النبي صلى الله عليه وسلم فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر ، مرفوع على المنابر والصوامع مقرون بذكر الله والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه فهو كوالدهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 220 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة الْكَوْثَرِ

مكية ، وآيها ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ﴾

وقرىء "أنطيناك" . ﴿ الكوثر ﴾ الخير المفرط الكثرة من العلم والعمل وشرف الدارين .

" وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه نهر في الجنة وعدنيه ربي فيه خير كثير أحلى من العسل وأبيض من اللبن وأبرد من الثلج وألين من الزبد ، حافتاه الزبرجد وأوانيه من فضة لا يظمأ من شرب منه" وقيل حوض فيها وقيل أولاده وأتباعه ، أو علماء أمته والقرآن العظيم .

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ فَدُمْ على الصلاة خالصاً لوجه الله تعالى خلاف الساهي عنها المرائي فيها شكراً لإنعامه ، فإن الصلاة جامعة لأقسام الشكر . ﴿ وانحر ﴾ البدن التي هي خيار أموال العرب وتصدق على المحاويج خلافاً لمن يدعهم ويمنع عنهم الماعون ، فالسورة كالمقابلة للسورة المتقدمة وقد فسرت الصلاة بصلاة العيد والنحر بالتضحية .

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ إن من أبغضك لبغضه الله . ﴿ هُوَ الأبتر ﴾ الذي لا عقب له إذ لا يبقى

له نسل ولا حسن ذكر ، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة ، ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر له في الجنة ، ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قربه العباد في يوم النحر العظيم " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 536 . 537 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(126/834)

وقال أبو حيان :

سورة الْكَوْثَر

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) ﴾

وقرأ الجمهور : ﴿ أعطيناك ﴾ بالعين ؛ والحسن وطلحة وابن محيصن والزعفراني : أنطيناك بالنون ، وهي قراءة مروية عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

قال التبريزي : هي لغة للعرب العاربة من أولي قريش .

ومن كلامه (صلى الله عليه وسلم) : " اليد العلياء المنطية واليد السفلى المنطاة " ومن

كلامه أيضاً ، عليه الصلاة والسلام : " وأنطوا النيحة " وقال الأعشى :

جيادك خير جياد الملوك . . .

تصان الحلال وتنطى السعيرا

قال أبو الفضل الرازي وأبو زكريا التبرزي : أبدل من العين نوناً ؛ فإن عنيا النون في هذه اللغة مكان العين في غيرها فحسن ، وإن عنيا البدل الصناعي فليس كذلك ، بل كل واحد من اللغتين أصل بنفسها لوجود تمام التصرّف من كل واحدة ، فلا يقول الأصل العين ، ثم أبدلت النون منها .

وذكر في التحرير : في الكوثر ستة وعشرين قولاً ، والصحيح هو ما فسره به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقال : " هو نهر في الجنة ، حافتاه من ذهب ، ومجراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج " قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

وفي صحيح مسلم ، واقتطعنا منه ، قال : " أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم " انتهى .

قال ذلك عليه الصلاة والسلام عندما نزلت هذه السورة وقرأها .

وقال ابن عباس : الكوثر : الخير الكثير .

وقيل لابن جبير : إن ناساً يقولون : هو نهر في الجنة ، فقال : هو من الخير الكثير .

وقال الحسن : الكوثر : القرآن .

وقال أبو بكر بن عباس ويمان بن وثاب : كثرة الأصحاب والأتباع .

وقال هلال بن يساف : هو التوحيد .

وقال جعفر الصادق : نور قلبه دله على الله تعالى وقطعه عما سواه .

وقال عكرمة : النبوّة .

وقال الحسن بن الفضل : تيسير القرآن وتخفيف الشرائع .

وقال ابن كيسان : الإيثار .

وينبغي حمل هذه الأقوال على التمثيل ، لا أن الكوثر منحصر في واحد منها .

والكوثر فوعل من الكثرة ، وهو المفرط الكثرة .

قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر : بم آب ابنك ؟ قالت : آب بكوثر .

وقال الشاعر :

وأنت كثير يا ابن مروان طيب . . .

وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

﴿ فصل لربك وانحر ﴾ : الظاهر أن فصل أمر بالصلاة يدخل فيها المكتوبات والنوافل.

والنحر : نحر الهدى والنسك والضحايا ، قاله الجمهور ؛ ولم يكن في ذلك الوقت جهاد فأمر بهذين.

قال أنس : كان ينحر يوم الأضحى قبل الصلاة ، فأمر أن يصلي وينحر ، وقاله قتادة.

وقال ابن جبير : نزلت وقت صلح الحديبية.

قيل له : صل وانحر الهدى ، فعلى هذا الآية من المدني.

وفي قوله : ﴿ لربك ﴾ ، تنذير بالكفار حيث كانت صلاتهم مكاء وتصدية ، ونحرهم للأصنام.

وعن علي ، رضي الله تعالى عنه : صل لربك وضع يمينك على شمالك عند نحرك في الصلاة.

وقيل : ارفع يديك في استفتاح صلاتك عند نحرك.

وعن عطية وعكرمة : هي صلاة الفجر بجمع ، والنحر بمنى.

وقال الضحاك : استو بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحرك.

وقال أبو الأحوص : استقبل القبلة بنحرك.

﴿ إن شانئك ﴾ : أي مبغضك ، تقدم أنه العاصي بن وائل.

وقيل : أبو جهل .

وقال ابن عباس : لما مات إبراهيم ابن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال : بتر محمد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ .

وقال شمر بن عطية : هو عقبة بن أبي معيط .

وقال قتادة : الأبتر هنا يراد به الحقير الذليل .

وقرأ الجمهور : ﴿ شانئك ﴾ بالألف ؛ وابن عباس : شينك بغير ألف .

فقيل : مقصور من شاني ، كما قالوا : برر وبر في بارر وبار .

ويجوز أن يكون بناء على فعل ، وهو مضاف للمفعول إن كان بمعنى الحال أو الاستقبال ؛ وإن كان بمعنى الماضي فتكون إضافته لا من نصب على مذهب البصريين .

(128/834)

وقد قالوا : حذر أموراً ومزقون عرضي ، فلا يستوحش من كونه مضافاً للمفعول ، وهو مبتدأ ، والأحسن الأعرف في المعنى أن يكون فصلاً ، أي هو المنفرد بالبتر المخصوص به ، لا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

فجميع المؤمنين أولاده ، وذكره مرفوع على المنائر والمنابر ، ومسرود على لسان كل عالم

وذاكر إلى آخر الدهر .

يبدأ بذكر الله تعالى ويثني بذكره (صلى الله عليه وسلم) ، وله في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف (صلى الله عليه وسلم) وعلى آله وشرف وكرم. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(129/834)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) ﴾

القرآات ﴿ شانيك ﴾ بالياء : يزيد والشموني وحمزة في الوقف . وقرأ قتيبة ونصير مهموزاً ممالة . الوقوف ﴿ الكوثر ﴾ ه ط ﴿ وانحر ﴾ ه ط ﴿ الأبتر ﴾ ه .

التفسير : هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة ، لأن تلك مثال لكون الإنسان في خسر ، وهذه للمستثنين منهم بل لأشرفهم وأفضلهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم بل له ولشانيه ، فكأنها مثال للفريقين جميعاً . هذا وجه إجمالي وأما الوجه التفصيلي فقوله ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ أي الخير الكثير وقع في مقابلة الدع والمنع من الإطعام وقوله ﴿ فصل ﴾ أي دم على الصلاة وقع بإزاء قوله ﴿ عن صلاتهم ساهون ﴾ [الماعون : 5] وقوله ﴿ لربك

﴿ مكان قوله ﴿ يراءون ﴾ [الماعون : 6] وقوله ﴿ وانحر ﴾ والمراد به التصدق بلحوم الأضاحي بحذاء قوله ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ [الماعون : 7] ثم ختم السورة بقوله ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ أي الذي تضاد طريقته طريقتك سيزول عنه ما يفتخر به من المال والجاه والأحساب والأنساب ويبقى لك ولمتابعيك الذكر الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى ، بل يدوم لك النسب الصوري بسبب أولادك الشرفاء والنسب المعنوي بواسطة أتباعك العلماء ، ثم في الآية أصناف من المبالغة منها : التصدير ب " إن " ومنها الجمع المفيد للتعظيم ، ومنها لفظ الإعطاء دون الإيتاء ففي الإعطاء دليل التمليك دون الإيتاء ولهذا حين قال ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني ﴾ [الحجر : 7] كان أمته مشاركين له في فوائدها ولم يكن له منعهم منها . ومنها صيغة المضي الدالة على التحقيق في وعد الله تعالى كما هي عادة القرآن ، ومنها لفظ الكوثر وهو مبالغة في الكثرة بزيادة الواو كجدول فيشمل خيرات الدنيا والآخرة ، إلا أن أكثر المفسرين خصوه فحملوه على أنه اسم نهر في الجنة . عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم " رأيت نهراً في الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فضربت بيدي إلى مجرى الماء فإذا أنا بمسك أذفر فقلت : ما هذا ؟ فقيل : هو الكوثر الذي أعطاك الله " وفي رواية " ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل فيه طيور خضر لها أعناق كأعناق البخت من أكل من ذلك الطير وشرب من

ذلك الماء فاز بالرضوان " قال أهل المعنى : ولعله إنما سمى كوثراً لأنه أكثر أنهار الجنة ماء وخيراً ، أو لأن أنهار الجنة تتفجر منه كما روي أنه ما في الجنة بستان إلا وفيه من الكوثر نهر جار أو لكثرة شاربيه . وقد يقال : إن الكوثر حوض في الجنة على ما ورد في الأخبار فلعل منبعه حوض ومنه تسيل الأنهار ، والقول الثالث أن الكوثر أولاده لأن هذه السورة نزلت رداً على من زعم أنه الأبتر كما يجيء والمعنى أنه يعطيه بفاطمة نسلاً يبقون على مر الزمان . فانظر كم قتل من أهل البيت ثم العالم مملوء منهم ، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحد يعبأ به ، والعلماء الأكابر منهم لا حد ولا حصر لهم .

(131/834)

وقلب الله عصى موسى ثعباناً . ولما أراد أبو جهل أن يرميه بالحجر رأى على كتفيه ثعبانين فانصرف مرعوباً . وسبحت الجبال مع داود عليه السلام وسبحت الأحجار في يده ويد أصحابه . وكان داود عليه السلام إذا مسح الحديد لان ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم حين مسح الشاة الجدباء درت . وأكرم داود بالطير المحشورة ومحمداً صلى الله عليه وسلم بالبراق ، وأكرم عيسى بإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . وأكرمه صلى الله عليه

وسلم بإحياء الشاة المسمومة وبتكلمها أنها مسمومة . وروي أن معاذ بن عفراء كانت له امرأة برصاء فشكت ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فمسح عليها بغصن فأذهب الله عنها البرص ، وحين سقطت حدقة رجل يوم أحد رفعها رسول الله صلى الله عيله وسلم فردها إلى مكانها . وكان عيسى يخبر بما في بيوت الناس والرسول صلى الله عليه وسلم عرف ما أخفته أم الفضل فأسلم العباس لذلك ، ورد الشمس لسليمان مرة والرسول كان نائماً ورأسه في حجر علي عليه السلام فانتبه وقد غربت الشمس فردّها حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردها مرة أخرى لعلي عليه السلام فصلى العصر لوقته . وعلم سليمان منطق الطير وفعل ذلك في حق محمد صلى الله عليه وسلم ، روي أن طائراً فجع بولده فجعل يرفرف على رأسه ويكلمه فقال : أيكم فجع هذه بولدها ؟ فقال رجل : أنا فقال : أردد ولدها ، وكلام الذئب والناقة معه مشهور . وأكرم سليمان بمسير غدو شهر وأكرمه بالمسير إلى بيت المقدس في ساعة ، وكان له صلى الله عليه وسلم يعفور يرسله إلى من يريد فيجيء به . وأرسل معاذاً إلى بعض النواحي فلما وصل إلى المفازة فإذا أسد جاثٍ فهاله ذلك ولم يستجرىء أن يرجع فتقدم وقال : إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم فتبصبص ، وكما انقاد الجن لسليمان انقادوا لمحمد صلى الله عليه وسلم . وحين جاء الأعرابي بالضب تكلم الضب معترفاً برسالته ، وحين كفل الظبية حتى أرسلها الأعرابي رجعت تعدو حتى أخرجته من

الكفالة ، وحين لسعت الحية عقب الصديق في الغار قالت : كنت مشتاقة إليه . منذ كذا سنين فلم حجبتني عنه . وأطعم الخلق الكثير من الطعام القليل . ومعجزاته صلى الله عليه وسلم أكثر من أن تحصى خصوصاً في هذا المقام فثبت صحة قوله ﴿ إِنَّا أَعطيناك الكوثر ﴾ قيل : هو القرآن لأن فوائده عديد الحصى . وقيل : الإسلام أو الشفاعة أو رفع الذكر أو العلم ﴿ وعلمت ما لم تكن تعلم ﴾ [النساء : 113] أو الخلق الحسن ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [القلم : 4] وقد يقال : إن هذه السورة مع قصرها معجزة من وجوه لما فيها من الإخبار بالغيوب وهو الوعد بكثرة الأتباع والأولاد وزوال الفقر حتى نحر مائة بدنة في يوم واحد وقد وقع مطابقاً ، ولأنهم عجزوا عن معارضتها مع قصرها فإنها أقصر سورة من القرآن .

"كل حسب ونسب ينقطع إلا حسبي ونسبي " وإن دين الإسلام لا يزال يعلو ويزيد والكفر يعلى ويقهر إلى أن يبلغ الدين مشارق الأرض ومغاربهما كما قال ﴿ أو لم يروا إنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ [الرعد : 41] قال بعض أهل العلم : إن الكفار لما شتموه بأنه أبتر أجاب الله عنه من غير واسطة فقال ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ وهكذا سنة الأحباب إذا سمعوا من يشتم حبيبهم تولوا بأنفسهم جوابه ، ونظيره في القرآن كثير ﴿ قالوا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم ﴾ [سبأ : 7] إلى قوله ﴿ أم به جنة ﴾ [سبأ : 8] فقال سبحانه ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾ [سبأ : 8] وقالوا هو مجنون فأقسم الله ﴿ ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ [القلم : 1 ، 2] وقالوا لست مرسلاً فقال ﴿ يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم ﴾ [يس : ١ ، 3] ﴿ وقالوا أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ [الصافات : 36] فرد عليهم بقوله ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾ [الصافات : 36] ثم ذكر وعيد خصمائه بقوله ﴿ إنكم لذائقوا العذاب الأليم ﴾ [الصافات : 38] وحين قال حاكياً ﴿ أم يقولون شاعر ﴾ [الطور : 30] قال ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ [يس : 69] وقالوا ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ [الفرقان : 4] فأجابهم بقوله ﴿ فقد جاؤا ظلماً وزوراً ﴾ [الفرقان : 4] ﴿ وقالوا أساطير الأولين ﴾ [الفرقان : 5 ، 6] فقال ﴿ قل أنزله الذي يعلم السر ﴾ [الفرقان : 5 ، 6] ﴾

وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] فأجابهم بقوله ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ [الفرقان : 20] فما أجل هذه الكرامة ! وقال أهل التحقيق السالكون : بل الواصلون لهم ثلاث درجات أعلاها أن يكونوا مستغرقين بقلوبهم وأرواحهم في نور جلال الله وأشار إليهما بقوله ﴿ إنا

أعطيناك الكوثر ﴾ فإن روحه القدسية متميزة في الكثرة عن سائر الأرواح البشرية بالكم لأنها أكثر مقدمات ، وبالكيف لأنها أسرع انتقالاً من المقدمات إلى النتائج . وأوسطها أن يكونوا مشتغلين بالطاعات والعبادات البدنية وأشار إليها بقوله ﴿ فصل لربك ﴾ وأدناها أن يكونوا في مقام منع النفس عن الانتصاب إلى اللذات العاجلة وهي قوله ﴿ وانحر ﴾ فإن منع النفس الشهوية جارية مجرى الذبح والنحر . ومن البيان أن ترتيب السالك هو الأخذ من الأدون إلى الأعلى ، وإنما ورد القرآن بما ورد تنبيهاً على أنه صلى الله عليه وسلم كان في نهاية الوصول . وأن هذا الترتيب بالنسبة إليه ينعكس وذلك أنه جاء من الحق إلى الخلق . ثم أشار بقوله ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ إلى أن دواعي النفس التي هي أعدى الأعداء لا

بقاء لها ، وإنما هي لذات زائلة وتخيلات فانية ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملاً ﴾ [الكهف : 46] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 580.575 ﴾

(135/834)

وقال الثعالبى :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) ﴾

قال جماعة من الصحابة والتابعين : ﴿ الكوثر ﴾ نَهْرٌ في الجنةِ حافَّتَاه قِبَابٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ مجوَّفٍ ، وطينُه مِسْكٌ وحَصْبَاؤه يَاقُوتٌ ، ونحوُ هذا مِنْ صفاتِه ، وإن اختلفتْ أَلْفَاظُ رُوَاتِه ، وقال ابن عباس : الكَوْثَرُ : الخَيْرُ الكَثِيرُ قال ابن جُبَيْرٍ : النَّهْرُ الذي في الجنةِ هو من الخيرِ الذي أعْطَاه اللَّهُ إياه * ت * : وخرَّجَ مسلمٌ عَنْ أنسٍ قَال : " بينَما رسولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم ذاتَ يومٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ؛ إذْ أغفى إغْفَاءَةً ، ثُمَّ رفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّماً ، فَقَالَ : نَزَلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ ، فَقَرَأَ : ﴿ إنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ إلى آخرِها ، ثُمَّ قَالَ : أَتَدْرُونَ مَا الكَوْثَرُ ؟ قُلْنَا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فَإنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ " الحديثُ ، انتهى ، وخرَّجَ ابنُ ماجه من حديث ثَوْبَانَ عن النبي

صلى الله عليه وسلم قال: "أَوَّلُ مَنْ يَرِدُ عَلَى الحَوْضِ فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ الدُّنْسُ ثِيَاباً الشُّعْثُ رُؤُوساً، الَّذِينَ لاَ يَنْكِحُونَ المُتَنَعِّمَاتِ، وَلاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السُّدَدِ"، قال الراوي: فبكى عمرُ بن عبدِ العزيزِ حتى اخضلَ لِحْيَتُهُ، حِينَ بلغهُ الحديثُ، وقال: لاَ جَرَمَ، إِنّي لاَ أَغْسِلُ ثَوْبِي الَّذِي يَلِي جَسَدِي حتى يَتَّسِخَ، وَلاَ أَدْهِنُ رَأْسِي حتى يَشْعَثَ، وخَرَّجَه أبو عيسى الترمذيُّ عن ثَوْبَانَ عنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بمعناه، ونَقَلَ صاحبُ «التذكرة» عن أنس بن مالك قال: أَوَّلُ مَنْ يَرِدُ الحَوْضَ عَلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم الذابلونَ النَّاحِلُونَ السَّائِحُونَ الَّذِينَ إذا أَجَنَّهُمُ اللَّيْلُ استقبلوه بالحُزْنِ، انتهى من

(136/834)

«التذكرة»، "وروى أبو داودَ في سننه عن أبي حمزةَ عن زيد بن أرقم قال: كنا مع رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فنزَلْنَا مَنْزِلاً، فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ جُزْءٌ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ جُزْءٍ مِمَّنْ يَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ، قَالَ: قُلْتُ: كَمْ كُنْتُمْ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: سَبْعُمَائَةٍ، أَوْ ثَمَانِمَائَةٍ"، انتهى.

وقوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أمرٌ بالصلاةِ على العموم، والنَّحْرُ نَحْرُ الهَدْيِ، والنُّسُكِ، والضَّحَايَا على قول الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ ردٌّ على مقالةِ بعضِ سفهاءِ قريشٍ كأبي جهل

وغيرِه ، قال عكرمةُ وغيره : مَاتَ وَلَدٌ للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال أَبو جَهْلٍ : بُتِرَ مُحَمَّدٌ ، فنزلت السُّورةُ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ أي : المَقْطُوعُ المَبْتُورُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، والشَّانىءُ المُبْغِضُ ، قال الداووديُّ : كل شَانِىء لرسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فهو أَبْتَرُ ، لَيْسَ لَه يَوْمَ القيامة شَفِيعٌ ولا حَمِيمٌ يطاعُ ، انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(137/834)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الكوثر

وتسمى سورة النحر

مكية في قول ابن عباس رضي الله عنهما والكلبي ومقاتل ، ومدنية في قول الحسن وعكرمة ومجاهد وقتادة ، وهي ثلاث آيات وعشر كلمات واثنان وأربعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي لا حد لفائض فضله ﴿ الرحمن ﴾ الذي شمل الخلائق بجوده فلا رادّ لأمره ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص حزبه بالاعتصام بحبله

وقوله تعالى : ﴿ إنا ﴾ أي : بما لنا من العظمة ﴿ أعطيناك ﴾ أي : خوّلناك مع التمكين

العظيم يا أشرف الخلق ﴿الكوثر﴾ أي: نهراً في الجنة هو حوضه صلى الله عليه وسلم ترد عليه أمّته، لما روي عن أنس أنه قال: "بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ غفا إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: أنزل عليّ آنفاً سورة فقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر﴾ إلى آخرها، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم؟ قال: فإنه نهر وعدنيه ربي خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم فأقول رب إنه من أمّتي، فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك". وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج". وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "دخلت الجنة فإذا أنا بنهر يجري بياضه بياض اللبن، وأحلى من العسل، وحافتاه خيام الدر، فضربت بيدي فإذا الثرى مسك أذفر، . فقلت لجبريل: ما هذا؟ قال: الكوثر أعطاكه الله تعالى". وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء من شرب منها لا يظمأ أبداً".

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنا فرطكم على الحوض ، وليرفعن إليّ رجال منكم حتى إذا أهويت إليهم لأنا ولهم اختلجوا دوني ، فأقول : إي : رب أصحابي ، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك" . وعن ثوبان أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن عرضه فقال : "من مقامي إلى عمان" وسئل عن شرابه فقال : "أشدّ بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل فيه ميزابان يمدانه من الجنة أحدهما من ذهب والآخر من ورق" . وعن أبي هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يرد عليّ يوم القيامة رهطان من أصحابي" ، أو قال : "من أمتي فيجلون عن الحوض فأقول : أي : رب أصحابي ، فيقول إنه لا علم لك بما أحدثوا بعدك كإنهم ارتدّوا على ادبارهم القهقرى" .

ولمسلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ترد عليّ أمّتي الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله ، قالوا : يا نبيّ الله تعرفنا قال : نعم لكم سيما ليست لأحد غيركم تردون عليّ غرّاً محجلين من آثار الوضوء ، وليصدنّ عني طائفة منكم فلا يصلون ، فأقول : يا رب هؤلاء أصحابي فيجيبني فيقول : وهل تدري ما أحدثوا بعدك" . وأحاديث الحوض كثيرة ، وفيما ذكرناه كفاية لأولي الألباب فنسأل الله تعالى أن يروينا منه نحن وأحبابنا ، ويدخلنا وإياهم الجنة بغير حساب .

قال القاضي عياض : أحاديث الحوض صحيحة ، والإيمان به فرض ، والتصديق به من الإيمان . وقال ابن عادل : وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة لا يتأوّل ولا يختلف فيه ، وحديثه متواتر النقل رواه خلائق من الصحابة اه . وقيل : الكوثر القرآن العظيم ، وقيل : : هو النبوّة والكتاب والحكمة وقيل : هو كثرة أتباعه .

وقيل : الكوثر الخير الكثير الذي أعطاه الله تعالى إياه . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما : الكوثر الخير الكثير . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : إن ناساً يزعمون أن الكوثر نهر في الجنة ؟ فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الكثير الذي أعطاه الله تعالى إياه .

وأصل الكوثر فوعل من الكثرة والعرب تسمي كل شيء كثير في العدد أو كثير القدر والخطر كوثراً قيل : لأعرابية رجع ابنها من السفر : آب ابنك ، قالت : آب بكوثر ، وقال الشاعر :

*وأنت كثير يا ابن مروان طيب ** وكان أبوك ابن العقائل كوثرا*

وقيل : الكوثر الفضائل الكثيرة التي فضلها على جميع الخلائق .

تنبيه : لا منافاة بين هذه الأقوال كلها فقد أعطيها النبيّ صلى الله عليه وسلم وأعطي صلى الله عليه وسلم النبوّة والحكمة والعلم والشفاعة والحوض المورود ، والمقام المحمود ، وكثرة الاتباع ، وإظهاره على الأديان كلها ، والنصر على الأعداء ، وكثرة الفتوح في زمنه إلى يوم القيامة ، وأولى الأقاويل في الكوثر وهو الذي عليه جمهور العلماء أنه نهر في الجنة .

ولما كمل له سبحانه من النعم ما لا يأتي عليه حصر مما لا يناسب أدناه نعيم الدنيا بجملتها سبب عنه قوله تعالى آمراً بما هو جامع لمجامع الشكر :

﴿ فصلِّ ﴾ أي : بقطع العلائق عن الخلائق بالوقوف بين يدي الله تعالى في حضرة المراقبة شكراً لإحسان المنعم ، خلافاً للساهي عنها والمرائي فيها . ﴿ لربك ﴾ أي : المحسن إليك بأنواع النعم مراغماً من شئت فلا سبيل لأحد عليك ﴿ وانحر ﴾ أي : أنفق له الكوثر من المال على المحاويج خلافاً لمن يدعهم ويمنعهم الماعون ، والنحر أفضل نفقات العرب لأنّ الجزور الواحد يغني مائة مسكين ، وإذا أطلق العرب المال انصرف إلى الإبل .

وقال محمد بن كعب : إن ناساً كانوا يصلون لغير الله تعالى ، وينحرون لغير الله فأمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم أن يصلي وينحر لله عز وجل . وقال عكرمة

وعطاء وقتادة : ﴿ فصل لربك ﴾ صلاة العيد يوم النحر ، وانحر نسكك ، واقتصر على هذا الجلال المحلي وقال سعيد بن جبير ومجاهد : فصل الصلاة المفروضة بجمع ، أي : مزدلفة ، وانحر البدن بمنى . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : وضع اليمين على الشمال في الصلاة عند النحر . وعن علي : أنّ معناه أن يرفع يديه في التكبير إلى نحره . وقال الكلبيّ : استقبل القبلة بنحرك . وعن عطاء أمره أن يستوي بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحره .

(141/834)

﴿ إنّ شانئك ﴾ أي : مبغضك والشانىء المبغض ، يقال : شناه يشنؤه ، أي : أبغضه ﴿ هو الأبتر ﴾ أي : المنقطع عن كل خير ، وأما أنت فقد أعطيت ما لا غاية لكثرته من خير الدارين الذي لم يعطه أحد غيرك فمعطي ذلك كله هو الله رب العالمين فاجتمعت لك العطيتان السنيتان إصابة أشرف عطاء وأوفره من أكرم معط وأعظم منعم ، أو المنقطع العقب لا أنت لأنّ كل من يولد إلى يوم القيامة من المؤمنين فهم أعقابك وأولادك وذكرك مرفوع على المنابر والمنائر وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر يبدأ بذكر الله تعالى ويثني بذكرك ولك في الآخرة ما لا يدخل تحت الوصف فمثلك لا يقال له أبتر إنما الأبتر هو شانئك

المسيء في الدنيا والآخرة وقال الرازي : هذه السورة كالمقابلة للتي قبلها فإنه ذكر في الأولى البخل وترك الصلاة والرياء ومنع الماعون وذكر ههنا في مقابلة البخل ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ وفي مقابلة الصلاة ﴿ فصلّ ﴾ أي : دم على الصلاة وفي مقابلة الرياء ﴿ لربك ﴾ أي : لرضاه خالصاً ، وفي مقابلة منع الماعون ﴿ وانحر ﴾ أي : تصدّق بلحم الأضاحي ثم ختم السورة بقوله تعالى : ﴿ إنّ شانئك هو الأبتر ﴾ أي : أنّ المشاقق الذي اتى بتلك الأفعال القبيحة سيموت ولا يبقى له أثر وأما أنت فيبقى لك في الدنيا الذكر الجميل وفي الآخرة الثواب الجزيل .

واختلف المفسرون في الشانىء فقيل : هو العاص بن وائل وكانت العرب تسمي من كان له بنون وبنات ثم مات البنون وبقي البنات أبتر فقيل : إنّ العاص وقف مع النبيّ صلى الله عليه وسلم يكلمه فقال له جمع من صناديد قريش : مع من كنت واقفاً مع ذلك الأبتر ، وكان قد توفيّ قبل ذلك عبد الله ابن النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان أهل الجاهلية إذا مات ابن الرجل قالوا أبتر فلان فلما توفي عبد الله ابن النبيّ صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل على أصحابه فقال : بتر

محمد فنزلت . وقال السديّ : إنّ قريشاً كانوا يقولون لمن مات ذكور ولده بتر فلان فلما مات لرسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم بمكة وإبراهيم بالمدينة قالوا بتر محمد فليس له من يقوم بأمره من بعده فنزلت .

وقيل : لما أوحى الله تعالى إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم دعا قريش إلى الإيمان قالوا : أبتر منا محمد ، أي : خالفنا وانقطع عنا فنزلت .

تنبيه : قال أهل العلم قد احتوت هذه السورة على قصرها على معان بليغة وأساليب بديعة منها دلالة استهلال السورة على أنه تعالى أعطاه كثيراً من كثير ومنها إسناد الفعل إلى المتكلم المعظم نفسه ، ومنها إيراده بصيغة الماضي تحقيقاً لوقوعه كما في قوله تعالى :

﴿ أتى أمر الله ﴾ (النحل :)

ومنها : تأكيد الجملة بأن . ومنها بناء الفعل على الاسم ليفيد الإسناد مرّتين .

ومنها : الإتيان بصيغة تدل على مبالغة الكثرة .

ومنها : حذف الموصوف بالكوثر لأنّ في حذفه من فرط الشياع والإبهام ما ليس في إثباته ، ومنها تعريفه بأل الجنسية الدالة على الاستغراق .

ومنها : فاء التعقيب الدالة على السبب فإنّ الإنعام سبب للشكر والعبادة ، ومنها التعريض بمن كانت صلاته ونحره لغير الله تعالى ، ومنها أنّ الأمر بالصلاة إشارة إلى الأعمال الدينية التي الصلاة قوامها وأفضلها والأمر بالنحر إشارة إلى الأعمال البدينة التي النحر أسناها ، ومنها حذف متعلق انحر إذ التقدير فصل لربك وانحر له ، ومنها مراعاة السجع فإنه من صناعة البديع العاري عن التكلف ، ومنها قوله تعالى : ﴿ لربك ﴾ في الإتيان بهذه الصفة دون سائر صفاته الحسنى دلالة على أنه المربي له والمصلح بنعمه ، فلا يلتمس كل خير إلا منهن ومنها الالتفات من ضمير المتكلم إلى الغائب في قوله تعالى : ﴿ لربك ﴾ ومنها الأمر بترك الاهتمام بشانئه للاستئناف ، وجعله خاتمة للإعراض عن الشانئ ، ولم يسمه ليشمل كل من اتصف بهذه الصفة القبيحة ، ولو كان المراد شخصاً معيناً لعينه الله تعالى .

ومنها : التنبيه بذكر هذه الصفة القبيحة على أنه لم يتصف إلا بمجرّد قيام الصفة به من غير أن تؤثر فيمن يشنؤه شيئاً البتة ، لأنّ من يشنأ شخصاً قد يؤثر شنؤه شيئاً .

ومنها : تأكيد الجملة بأن المؤذنة بتأكيد الخبر ، ولذلك يتلقى بها القسم وتقدير القسم يصلح هنا . ومنها الإتيان بضمير الفصل المؤذن بالاختصاص والتأكيد إن جعلنا فصلاً ، وإن جعلناه مبتدأ فكذلك يفيد التأكيد ؛ إذ يصير الإسناد مرّتين .

ومنها : تعريف الأبتر بأل المؤذنة بالخصوصية بهذه الصفة كأنه قيل : الكامل في هذه الصفة . ومنها إقباله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بالخطاب من أوّل السورة إلى

آخرها . وقول البيضاويّ تبعاً للزمخشريّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة الكوثر سقاه الله من كل نهر في الجنة ، ويكتب له عشر حسنات بعدد كل قربان قرّبه العباد في يوم النحر ، أو يقرّبونه" حديث موضوع. انتهى انتهى . اهـ ﴿السراج المنير حـ 8 صـ 446.442﴾

(144/834)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّا أَعطيناكَ ﴾

وقُرِىءَ أَنطَيْنَاكَ ﴿ الكوثر ﴾ أي الخيرُ المفرطُ الكثيرُ من شرفِ النبوةِ الجامعةِ لخيريّ الدارينِ والرياسةِ العامةِ المستتبعةِ لسعادةِ الدُّنيا والدين ، فوعلٌ منَ الكثرةِ وقيلَ : هُوَ نهرٌ في الجنةِ وعنِ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أنه قرأهَا فقالَ : "أتدرونَ ما الكوثَرُ ؟ إنَّه نهرٌ في الجنةِ وَعَدنيه ربّي فيهِ خيرٌ كثيرٌ" ورُوِيَ في صفتِهِ أنَّه أَحْلَى من العسلِ وأشدُّ بياضاً من اللبنِ وأبردُ من الثلجِ وألينُ من الزبدِ حافتاهُ الزبرجدُ وأوانيهِ من فضةٍ عددَ نجومِ السماءِ . ورُوِي لا يظمأُ من شربَ منْهُ أبداً أولُ وارديهِ فقراءُ المهاجرينَ الدَّنسُو الثيابِ الشُّعْثُ الرؤوسِ الذينَ لا يزوجونَ المنعمّاتِ ولا تفتحُ لهم أبوابُ السُّدَدِ يموتُ أحدُهم وحاجتُهُ تتلجلجُ في

صدره لو أقسمَ على الله لأبرَّه. وعن ابن عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنه فسرَ الكوثرَ بالخيرِ الكثيرِ فقالَ له سعيدُ بنُ جُبيرٍ: فإنَّ ناساً يقولونَ: هُوَ نهرٌ في الجنةِ فقالَ: هُو منَ الخيرِ الكثيرِ وقيلَ: هو حوضٌ فيهَا وقيل: هو أولادُه وأتباعُه أو علماءُ أمتِه أو القرآنُ الحاوي لخيرِ الدُّنيا والدينِ. والفاءُ في قولِه تعَالَى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ لترتيبِ ما بعدَهَا على ما قبلَها فإنَّ إعطاءَهُ تعالَى إيَّاهُ عليهِ السلامُ ما ذكرَ من العطيةِ التي لم يُعطِهَا ولنْ يعطيهَا أحداً منَ العالمينَ مستوجبٌ للمأمورِ بهِ أيَّ استيجابٍ أي فدُمْ على الصلاةِ لربكَ الذي أفاضَ عليكَ هذه النعمةَ الجليلةَ التي لاَ يضاهيهَا نعمةٌ خالصةً لوجهِه خلافَ الساهينَ عنهَا المرائينَ فيهَا أداءً لحقوقِ شكرِهَا فإنَّ الصلاةَ جامعةٌ لجميعِ أقسامِ الشكرِ ﴿ وانحر ﴾ البدنَ التي هي خيارُ أموالِ العربِ باسمِه تعالَى وتصدقْ على المحاويجِ خلافاً لمن يدعهُمْ ويمنعُ عنهُم الماعونَ. وعن عطيةَ: هيَ صلاةُ الفجرِ بجمعٍ والنحرُ بمنًى

(145/834)

وقيلَ: صلاةُ العيدِ والتضحيةُ وقيلَ: هيَ جنسُ الصلاةِ والنحرُ وضعُ اليمينِ على الشمالِ وقيلَ: هُوَ أنْ يرفعَ يديهِ في التكبيرِ إلى نحرِه هُوَ المرويُّ عنِ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ. وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا: استقبلِ القبلةَ بنحرِك وهُو قولُ الفرَّاءِ والكلْبي وأبي الأَحْوَص

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ أيْ مبغضك كائناً منْ كانَ ﴿ هُوَ الأبتر ﴾ الذي لا عِقِب لَهُ حيث لا يبقَى منهُ نسلٌ ولا حُسنُ ذكرٍ ، وأمّا أنت فتبقَى ذريتُك وحسن صيتك وآثارُ فضلك إلى يومِ القيامةِ ولكَ في الآخرةِ ما لا يندرجُ تحتَ البيانِ وقيل : نزلتْ في العاصِ بنِ وائلٍ وأياً ما كانَ فلا ريبَ في عمومِ الحكمِ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(146/834)

وقال النخجواني :

[سورة الكوثر]

فاتحة سورة الكوثر

لا يخفى على من وصل إلى بحر الحقيقة وورد على الحوض المورود والمقام المحمود الذي هو ينبوع الوجود الإلهي المترشح المنبسط بمقتضى الجود الذاتي إلى عموم الموجود ان الوصول إلى هذا المطلب الأعلى والمقصد الأقصى الذي هو التوحيد الذاتي المعبر بالحوض الكوثر الذي هو عبارة عن كثرة الخير والبركة ما تيسر هذا الشأن وما اتفق حصوله بحقيقته لجماهير الأنبياء والرسل الا للحضرة الختمية المحمدية صلوات اللّه عليه وسلامه وهو صلى اللّه عليه وسلم قد خصص بهذه الكرامة الكبرى والموهبة العظمى لذلك ختم ببعثته امر

الإرسال والتشريع وتم بظهوره صلى اللّه عليه وسلم مكارم الأخلاق ولهذا نبه سبحانه في هذه السورة على عظم شأنه صلى اللّه عليه وسلم وجلالة قدره ومكانته فقال بعد التيمن بِسْمِ اللَّهِ المتجلى على حبيبه صلى اللّه عليه وسلم بعموم كمالاته ليكون هو مرآة له سبحانه كي يتراءى منه صلى اللّه عليه وسلم آثار جميع أسمائه الحسنى وصفاته العلياء الرَّحْمنِ على عموم الأنام ببعثته صلى اللّه عليه وسلم إليهم حتى يهديهم إلى دار السلام الرَّحِيمِ للخواص منهم يرشدهم إلى التوحيد الذاتي الذي هو المنجى من ظلمات الأوهام

[الآيات]

إِنَّا من مقام عظيم جودنا ومحض كرامتنا أَعْطَيْناكَ يا أكمل الرسل إعطاء وهب وكرامة وفضل وامتنان الْكَوْثَرَ الذي هو عبارة عن التحقيق بوحدة الذات والانكشاف بها والوقوف عليها وبعد ما أعطيناك وخصصناك بالكرامة التي لم نعط أحدا من الأنبياء والرسل الذين مضوا قبلك

فَصَلِّ لِرَبِّكَ ودم أنت على التوجه نحونا وأخلص فيه واستقم عليه وَانْحَرْ بدنة ناسوتك بعد ما وصلت إلى كعبة الذات وفزت بعرفات الأسماء والصفات تقربا إلينا وتوصلا لحمى قدس لاهوتنا ولا تلتفت في ميلك وتوجهك إلى هذيانات من يشينك ويعيبك من الجهلة المكابرين

إِنَّ شَانِئَكَ الذي يشينك ويبغضك في شأنك وأمرك هذا هُوَ الْأَبْتَرُ المقطوع العقب منقطع الأثر والذكر واثرك يبقى ويدوم إلى قيام الساعة

(147/834)

خاتمة سورة الكوثر

عليك أيها المحمدي القاصد للورود إلى الحوض الكوثر والشرب منها ان تتوجه في عموم أوقاتك وحالاتك إلى اللّه على وجه التبتل والإخلاص وتميت بهيمة بدنك بالموت الإرادي وتهذبها في طريق الحق تقربا إليه سبحانه لتنال خير الدارين وفلاح النشأتين . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ الفواتح الإلهية حـ 2 صـ 533. 534 ﴾

(148/834)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّا أعطيناك ﴾

وقرأ الحسن وطلحة وابن محيصن والزعفراني أنطيناك بالنون وهي على ما قال التبريزي لغة

العرب العرباء من أولى قريش وذكر غيره أنها لغة بني تميم وأهل اليمن وليست من الإبدال الصناعي في شيء ومن كلامه صلى الله عليه وسلم " اليد العليا المنطية واليد السفلى المنطاة " وكتب عليه الصلاة والسلام لوائل أنطوا الثيجة أي الوسط في الصدقة ﴿ الكوثر ﴾ فيه أقوال كثيرة فذهب أكثر المفسرين إلى أنه نهر في الجنة لقوله صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث المتقدم آنفاً المروي عن الإمام أحمد ومسلم ومن معهما هل تدرون ما الكوثر قالوا الله تعالى ورسوله أعلم قال هو نهر أعطانيه ربي في الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول يا رب إنه من أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك وقوله عليه الصلاة والسلام على ما أخرجه الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه وآخرون عن أنس عنه صلى الله عليه وسلم " دخلت الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء فإذا مسك إذ فر قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذي أعطاكه الله تعالى " وجاء في حديث عن أنس أيضاً قال دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قد أعطيت الكوثر قلت يا رسول الله وما الكوثر قال نهر في الجنة عرضه وطوله ما بين المشرق والمغرب لا يشرب منه أحد فيظمأ ولا يتوضأ منه أحد فيشعث أبداً لا يشرب منه من أخفر ذمتي ولا من قتل أهل بيتي وروى عن عائشة أنها قالت هو نهر في الجنة عمقه سبعون ألف فرسخ ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل شاطئاه الدر والياقوت والزبرجد خص الله تعالى به نبيه

محمد صلى الله عليه وسلم من بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وقالت ليس أحد يدخل اصبعيه في أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر وهو على التشبيه البليغ وقيل هو حوض له عليه الصلاة والسلام في المحشر .

(149/834)

وقول بعضهم الاختلاف في الروايات سببه ملاحظة اختلاف سرعة السير وعدمها وهو قبل الميزان والصراط عند بعض وبعدهما قريباً من باب الجنة حيث يحبس أهلها من أمته صلى الله عليه وسلم ليتحاللوا من المظالم التي بينهم عند آخرين ويكون على هذا في الأرض المبدلة .

(150/834)

وقيل له صلى الله عليه وسلم حوضان حوض قبل الصراط وحوض بعده ويسمى كل منهما على ما حكاه القاضي زكريا كوثراً وصحح رحمه الله تعالى أنه بعد الصراط وأن الكوثر في الجنة وإن ماءه ينصب فيه ولذا يسمى كوثراً وليس هو من خواصه عليه الصلاة

والسلام كالنهر السابق بل يكون لسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يرده مؤمنو أممهم ففي حديث الترمذي أن لكل نبي حوضاً وأنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وأني أرجو أن أكون أكثرهم واردة وهو كما قال حديث حسن غريب وهذا الحياض لا يجب الايمان بها كما يجب الايمان بحوضه عليه الصلاة والسلام عندنا خلافاً للمعتزلة النافين له لكون أحاديثه بلغت مبلغ التواتر بخلاف أحاديثها فإنها آحاد بل قيل لا تكاد تبلغ الصحة ورأيت في بعض الكتب أن الكوثر هو النهر الذي ذكره أولاً وهو الحوض وهو على ظهر ملك عظيم يكون مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث يكون فيكون في المحشر إذ يكون عليه الصلاة والسلام فيه وفي الجنة إذ يكون عليه الصلاة والسلام فيها ولا يعجز الله تعالى شيء وقيل هو أولاده عليه الصلاة والسلام لأن السورة نزلت رداً على ما عابه صلى الله عليه وسلم وهم الحمد لله تعالى كثيرون قد ملؤا البسيطة وقال أبو بكر بن عباس ويمان بن وثاب أصحابه وأشياعه صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة وقيل علماء أمته صلى الله عليه وسلم وهم أيضاً كثيرون في كل قطر وإن كانوا اليوم في بعض الأقطار والأمر لله تعالى أقل قليل وعن الحسن أنه القرآن وفضائله لا تحصى وقال الحسين بن الفضل هو تيسير القرآن وتخفيف الشرائع وقيل هو الإسلام وقال هلال هو التوحيد وقال عكرمة هو النبوة وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه هو نور قلبه صلى الله عليه وسلم وقيل هو العلم والحكمة وقال ابن كيسان هو

الايثار وقيل هو الفضائل الكثيرة المتصف بها عليه الصلاة والسلام وقيل المقام المحمود وقيل غير ذلك وقد ذكر في التحرير ستة وعشرين قولاً فيه وصحح في "البحر"

(151/834)

قول النهر وجماعة أنه الخير الكثير والنعم الدنيوية والأخروية من الفضائل والفواضل ورواه ابن جرير وابن عساكر عن مجاهد وهو المشهور عن الحبر ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقد أخرج البخاري وابن جرير والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال الكوثر الخير الذي أعطاه الله تعالى إياه عليه الصلاة والسلام قال أبو بشر قلت لسعيد فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة قال النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله عز وجل إياه صلى الله عليه وسلم وحكى هذا الجواب عن ابن عباس نفسه أيضاً وفيه إشارة إلى أن ما صح في الأحاديث من تفسيره صلى الله عليه وسلم إياه بالنهر من باب التمثيل والتخصيص لنكتة وإلا فبعد أن صح الحديث في ذلك بل كاد يكون متواتراً كيف يعدل عنه إلى تفسير آخر وكذا يقال في سائر ما في الأقوال السابقة وغيرها .

وهو فوعل من الكثرة صيغة مبالغة الشيء الكثير كثرة مفرطة قيل زعرابية رجع ابنها من السفر بم آب ابنك قالت بكوثر وقال الكميت

: وأنت كثير يا ابن مروان طيب . . .

وكان أبوك ابن العقائل كوثرا

(152/834)

وفي حذف موصوفه ما لا يخفى من المبالغة على ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية وفي إسناد الإعطاء إليه دون الإيتاء إشارة إلى أن ذلك إيتاء على جهة التمليك فإن الإعطاء دونه كثيراً ما يستعمل في ذلك ومنه قوله تعالى لسليمان عليه السلام : ﴿ هذا عَطَاؤُنَا فامنن أَوْ أَمْسِكْ ﴾ [ص : 39] بعد قوله ﴿ هَبْ لِى مَلَكاً ﴾ [ص : 35] وقيل فيه إشارة إلى أن المعطي وإن كان كثيراً في نفسه قليل بالنسبة إلى شأنه عليه الصلاة والسلام بناء على أن الإيتاء لا يستعمل إلا في الشيء العظيم كقوله تعالى : ﴿ وآتاه الله الملك ﴾ [البقرة : 251] ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً ﴾ [سبأ : 10] ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ [الحجر : 87] والإعطاء يستعمل في القليل والكثير كما قال تعالى ﴿ أعطي قليلاً وأكدي ﴾ [النجم : 34] ففيه من تعظيمه عليه الصلاة والسلام ما فيه وقيل التعبير بذلك لأنه بالتفضل أشبه بخلاف الايتاء فإنه قد يكون واجباً ففيه إشارة إلى الدوام والتزايد أبداً لأن التفضل نتيجة كرم الله تعالى الغير المتناهي وفي جعل

المفعول الأول ضمير المخاطب دون الرسول أو نحوه إشعار بأن الإعطاء غير معلل هو من محض الاختيار والمشيئة وفيه أيضاً من تعظيمه عليه الصلاة والسلام بالخطاب ما لا يخفى وجوز أن يكون في إسناد الإعطاء إلى ن إشارة إلى أنه مما سعى فيه الملائكة والأنبياء المتقدمون عليهم السلام وفي التعبير بالماضي قيل إشارة إلى تحقق الوقوع وقيل إشارة إلى تعظيم الإعطاء وأنه أمر مرعى لم يترك إلى أن يفعل بعد و قيل إشارة إلى بشارة أخرى كأنه قيل إنا هيؤنا أسباب سعادتك قبل دخولك في الوجود فكيف نهمل أمرك بعد وجودك واشتغالك بالعبودية وقيل إشارة إلى أن حكم الله تعالى بالإغناء والإفقار والإسعاد والإشقاء ليس أمراً محدثاً بل هو حاصل في الأزل .

(153/834)

وبنى الفعل على المبتدأ للتأكيد والتقوى وجوز أن يكون للتخصيص على بعض الأقوال السابقة في الكوثر وفي تأكيد الجملة بأن ما لا يخفى من الاعتناء بشأن الخبر وقيل لرد استبعاد السامع الإعطاء لما أنه لم يعلل والمعطى في غاية الكثرة وجوز أن يكون لرد الانكار على بعض الأقوال في الكوثر أيضاً والفاء في قوله تعالى :

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾

لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن إعطاءه تعالى إياه عليه الصلاة والسلام ما ذكر من العطية التي لم يعطها أحداً من العالمين مستوجب للمأمور به أي استيجاب أي فدم على الصلاة لربك الذي أفاض عليك ما أفاض من الخير خالصاً لوجهه عز وجل خلاف الساهين عنها المرائين فيها أداه لحق شكره تعالى على ذلك فإن الصلاة جامعة لجميع أقسام الشكر ولذا قيل فصل دون فاشكر وانحر البدن التي هي خيار أموال العرب باسمه تعالى وتصدق على المحاويج خلافاً لمن يدعهم ويمنع منهم الماعون كذا قيل وجعل السورة عليه كالمقابلة لما قبلها كما فعل الإمام ولم يذكروا مقابل التكذيب بالدين وقال الشهاب الخفاجي أن الكوثر بمعنى الخير الكثير الشامل للأخروي يقابل ذلك لما فيه من إثباته ضمناً وكذا إذا كان بمعنى النهر والحوض والأمر على تفسير بالإسلام وتفسير الدين به أيضاً في غاية الظهور والمراد بالصلاة عند أبي مسلم الصلاة المفروضة وأخرج ذلك ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك وأخرجه الأول وابن المنذر عن ابن عباس وذهب جمع إلى أنها جنس الصلاة وقيل المراد بها صلاة العيد وبالنحر التضحية أخرج ابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال كانت هذه الآية يوم الحديبية أتاه جبريل عليهما الصلاة والسلام فقال انحر وارجع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب خطبة الأضحى ثم ركع ركعتين ثم انصرف إلى البدن فنحرها فذلك قوله تعالى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ واستدل به على وجوب تقديم الصلاة على التضحية وليس بشيء وأخرج عبد الرزاق وغيره عن مجاهد وعطاء وعكرمة أنهم قالوا المراد صلاة الصبح بمزدلفة والنحر بمنى والأكثرون على أن المراد بالنحر نحر الأضاحي واستدل به بعضهم على وجوب الأضحية لمكان الأمر مع قوله تعالى ﴿ واتبعوه ﴾ وأجيب بالتخصص بقوله صلى الله عليه وسلم " ثلاث كتبت علي ولم تكتب عليكم الضحى والأضحية والوتر " وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الأحوص أنه قال وانحر أي استقبل

القبلة بنحرك وإليه ذهب الفراء وقال يقال منازلهم تتناحر أي تتقابل وأنشد قوله :

أبا حكم هل أنت عم مجالد . . .

وسيد أهل الأبطح المتناحر

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في "سننه" عن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال لما نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إِنَّا أعطيناك ﴾ الخ قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي فقال إنها ليست بنحيرة ولكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذي هم في السموات السبع وإن لكل شيء زينة وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة وأخرج ابن جرير عن أبي جعفر رضي الله تعالى عنه أنه قال في ذلك ترفع يديك أول ما تكبر في الافتتاح وأخرج البخاري في "تاريخه" والدارقطني في "الأفراد" وآخرون عن الأمير كرم الله تعالى وجهه أنه قال ضع يدك اليمنى على ساعد اليسرى ثم ضعهما على صدرك في الصلاة وأخرج نحوه أبو الشيخ والبيهقي في "سننه" عن أنس مرفوعاً ورواه جماعة عن ابن عباس وروى عباس وروى عن عطاء إن معناه اقعد بين السجدتين حتى يبدو نحرك وعن الضحاك وسليمان التيمي أنهما قالا معناه ارفع يديك عقيب الصلاة عند الدعاء إلى نحرك ولعل في صحة الأحاديث عند الأكثرين مقالاً وإلا فما قالوا الذي قالوا وقد قال الجلال السيوطي في حديث علي كرم الله تعالى وجهه الأول أنه أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم في "المستدرك" بسند ضعيف وقال فيه ابن كثير أنه حديث منكر جداً بل أخرجه ابن الجوزي في

الموضوعات وقال الجلال في الحديث الآخر عن الأمير كرم الله تعالى وجهه أخرجه ابن أبي حاتم والحاكم بسند لا بأس به ويرجح قول الأكثرين إن لم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يخالفه أن الأشهر استعمال النحر في نحر الإبل دون تلك المعاني وإن سنة القرآن ذكر الزكاة بعد الصلاة وما ذكر بذلك المعنى قريب منها بخلافه على تلك المعاني وإن ما ذكروه من المعاني يرجع إلى آداب الصلاة أو إبعاضها فيدخل تحت فصل لربك ويبعد عطفه عليه

(157/834)

دون ما عليه الأكثر مع أن القوم كانوا يصلون وينحرون للأوثان فالأنسب أن يؤمر صلى الله عليه وسلم في مقابلتهم بالصلاة والنحر له عز وجل هذا واعتبار الخلوص في ﴿ فَصَلِّ ﴾ الخ كما أشرنا إليه لدلالة السياق عليه وقيل لدلالة لأم الاختصاص وفي الالتفات عن ضمير العظمة إلى خصوص الرب مضافاً إلى ضميره عليه الصلاة والسلام تأكيد لترغيبه صلى الله عليه وسلم في أداء ما أمر به على الوجه الأكمل.

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾

أي مبغضك كائناً من كان ﴿ هُوَ الابتر ﴾ الذي لا عقب له حيث لا يبقى منه نسل ولا

حسن ذكر وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة ولك في الآخرة ما لا يندرج تحت البيان وأصل البتر القطع وشاع في قطع الذنب وقيل لمن لا عقب له أبتر على الاستعارة شبه الولد والأثر الباقي بالذنب لكونه خلفه فكأنه بعده وعدمه بعدمه وفسره قتادة بالحقير الذليل وليس بذاك كما يفصح عنه سبب النزول وفيها عليه دلالة على أن أولاد البنات من الذرية كما قال غير واحد واسم الفاعل أعني شانىء ههنا قيل بمعنى الماضي ليكون معرفة بالإضافة فيكون الأبتر خبره ولا يشكل ذلك بمن كان يبغضه عليه الصلاة والسلام قبل الايمان من أكابر الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم هداه الله تعالى للايمان وذاق حلاوته فكان صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه وأعز عليه من روحه ولم يكن أبتر لما أن الحكم على المشتق يفيد علية مأخذه فيفيد الكلام إن الأبترية معللة بالبغض فتدور معه وقد زال في أولئك الأكابر رضي الله تعالى عنهم واختار بعضهم في دفع ذلك حمل اسم الفاعل على الاستمرار فهم لم يستمروا على البغض والظاهر أنه انقطع نسل كل من كان مبغضاً له عليه الصلاة والسلام حقيقة وقيل انقطع حقيقة أو حكماً لأن من أسلم من نسل المبغضين انقطع انتفاع أبيه من بالدعاء ونحوه لأنه لا عصمة بين مسلم وكافر .

ما أشرنا إليه من أن هو ضمير فصل هو الأظهر وجوز أن يكون مبتدأ خبره الأبتر والجملة خبر شانئك وحينئذ يجوز صناعة أن يكون بمعنى الحال أو الاستقبال وحمل شانئك على الجنس الظاهر وخصه بعضهم بمن جاء في سبب النزول واحداً أو متعدداً وفيه روايات أخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال كان أكبر ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية فمات القاسم عليه السلام وهو أول ميت من ولده عليه الصلاة والسلام بمكة ثم مات عبد الله عليه السلام فقال العاص بن وائل السهمي قد انقطع نسله فهو أبتر فأنزل الله تعالى إن شانئك هو الأبتر وأخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن شمر بن عطية قال كان عقبة بن أبي معيط يقول إنه لا يبقى للنبي صلى الله عليه وسلم عقب وهو أبتر فأنزل الله فيه ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الابتر ﴾ وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب قال لما مات إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا إن هذا الصابىء قد بتر الليلة فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّا أعطيناك ﴾ السورة وأخرج عبد بن حميد وغيره عن ابن عباس أنه قال في الآية هو أبو جهل أي لأنها نزلت فيه وهذا المقدار في الرواية عن ابن عباس لا بأس به وحكية أبي حيان عنه أنه لما مات إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال بتر محمد عليه الصلاة والسلام فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الابتر ﴾ لا تكاد تصح لأن هلاك اللعين أبي جهل على التحقيق قبل وفاة

إبراهيم عليه السلام وعن عطاء أنها نزلت في أبي لهب والجمهور على نزولها في العاص بن وائل وأياً ما كان فلا ريب في ظهور عموم الحكم والجملة كالتعليل لما يفهمه الكلام فكأنه قيل ﴿ إِنَّا أعطيناك ﴾ ما لا يدخل تحت الحصر من النعم فصل وانحر خالصاً لوجه ربك ولا تكترث بقول الشانيء الكريه فإنه هو

(159/834)

الأبتر لا أنت وتأكيدها قيل للاعتناء بشأن مضمونها وقيل هو مثله في نحو قوله تعالى :

(160/834)

﴿ وَلاَ تخاطبنى فِى الذين ظَلَمُواْ إِنَّهُمْ مغرقون ﴾ [هود : 37] وذلك لمكان فلا تكترث الخ المفهوم من السياق وفي التعبير بالأبتر دون على ما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ما لا يخفى من المبالغة وعمم هذا الشيخ عليه الرحمة كلا من جزأى الجملة فقال إنه سبحانه يبتر شانيء رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل خير فيبتر أهله وماله فيخسر ذلك في الآخرة ويبتر حياته فلا ينتفع بها ولا يتزود فيها صالحاً لمعاده ويبتر قلبه فلا يعي الخير ولا

يؤهله لمعرفته تعالى ومحبته والايمان برسله عليهم السلام ويبتر أعماله فلا يستعمله سبحانه في طاعته ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصراً ولا عوناً ويبتره من جميع القرب فلا يذوق لها طعماً ولا يجد لها حلاوة وإن باشرها بظاهره فقلبه شارد عنها وهذا جزاء كل من شنأ ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم لأجل هواه كمن تأول آيات الصفات أو أحاديثها على غير مراد الله تعالى ومراد رسوله عليه الصلاة والسلام أو تمنى أن لا تكون نزلت أو قيلت ومن أقوى العلامات على شنآنه نفرته عنها إذا سمعها حين يستدل بها السلفي أو تمنى أن لا تكون نزلت أو قيلت ومن أقوى العلامات على شنآنه نفرته عنها إذا سمعها حين يستدل بها السلفي على ما دلت عليه من الحق وأي شنآن للرسول عليه الصلاة والسلام أعظم من ذلك وكذلك أهل السماع الذين يرقصون على سماع الغناء والدفوف والشبابات فإذا سمعوا القرآن يتلى أو قرىء في مجلسهم استطالوه واستثقلوه وكذلك من آثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسنة إلى غير ذلك ولكل نصيب من الانبتار على قدر شنآنه وفي بعضه نظر لا يخفى وقرأ ابن عباس شنيك بغير ألف فقيل مقصور من شانى كما قالوا برد في بارد وبر في بار وجوز أن يكون بناءً على فعل هذا واعلم أن هذه السورة الكريمة على قصرها وإيجازها قد اشتملت على ما ينادي على عظيم إعجازها وقد أطال الإمام فيها الكلام وأتى بكثير مما يستحسنه ذوو الأفهام وذكر

أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ متضمن الإخبار بالغيب وهو سعة ذات يده صلى الله عليه وسلم وأمته وقيل مثله في ذلك ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الابتر ﴾ .

وذكر أنه روى أن مسيلمة الكذاب عارضها بقوله : إنا أعطيناك الزماجر فصل لربك وهاجر إن مبغضك رجل كافر .

ثم بين الفرق من عدة أوجه وهو لعمري مثل الصبح ظاهر ومن أراد الاطلاع على أزيد مما ذكر فليرجع إلى تفسير الإمام والله تعالى ولي التوفيق والإنعام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(162/834)

وقال الشوكانى :

قرأ الجمهور : ﴿ إنا أعطيناك ﴾

وقرأ الحسن ، وابن محيصن ، وطلحة ، والزعفراني : (أنطيناك) بالنون .

قيل : هي لغة العرب العاربة .

قال الأعشى :

حباؤك خير حبا الملوك . . . يصان الحلال وتنطى الحلولا

و﴿ الكوثر ﴾ فوعل من الكثرة وصف به للمبالغة في الكثرة ، مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر .

العرب تسمي كلّ شيء كثير في العدد ، أو القدر ، أو الخطر كوثراً ، ومنه قول الشاعر :

وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا . . . فالمعنى على هذا : إنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير البالغ في الكثرة إلى الغاية .

وذهب أكثر المفسرين ، كما حكاه الواحدي إلى أن الكوثر نهر في الجنة .

وقيل : هو حوض النبيّ صلى الله عليه وسلم في الموقف قاله عطاء .

وقال عكرمة : الكوثر النبوّة .

وقال الحسن : هو القرآن .

وقال الحسن بن الفضل : هو تفسير القرآن ، وتخفيف الشرائع .

وقال أبو بكر بن عياش : هو كثرة الأصحاب والأمة .

وقال ابن كيسان : هو الإيثار .

وقيل هو الإسلام .

وقيل : رفعة الذكر .

وقيل : نور القلب .

وقيل : الشفاعة .

وقيل : المعجزات .

وقيل : إجابة الدعوة .

وقيل : لا إله إلاّ الله .

وقيل : الفقه في الدين .

وقيل : الصلوات الخمس ، وسيأتي بيان ما هو الحق ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، والمراد الأمر له صلى الله عليه وسلم بالدوام على إقامة الصلوات المفروضة .

﴿ وانحر ﴾ البدن التي هي خيار أموال العرب .

قال محمد بن كعب : إن ناساً كانوا يصلون لغير الله ، وينحرون لغير الله ، فأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن تكون صلاته ونحره له .

وقال قتادة ، وعطاء ، وعكرمة : المراد صلاة العيد ، ونحر الأضحية .

وقال سعيد بن جبير : صلّ لربك صلاة الصبح المفروضة بجمع .

وانحر البدن في منى .

وقيل : النحر وضع اليمنى على اليسرى في الصلاة حذاء النحر قاله محمد بن كعب .

وقيل : هو أن يرفع يديه في الصلاة عند التكبيرة إلى حذاء نحره .

وقيل : هو أن يستقبل القبلة بنحره قاله الفراء ، والكلبي ، وأبو الأحوص .

قال الفراء : سمعت بعض العرب يقول تتناحر ، أي : تتقابل : نحر هذا ، إلى نحر هذا أي : قبالته ، ومنه قول الشاعر :

أبا حكم ما أنت عمّ مجالد . . . وسيد أهل الأبطح المتناحر

أي : المتقابل .

وقال ابن الأعرابي : هو : انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب .

من قولهم : منازلهم تتناحر تتقابل .

وروي عن عطاء أنه قال : أمره أن يستوي بين السجدتين جالساً حتى يبدو نحره .

وقال سليمان التيمي : المعنى : وارفع يديك بالدعاء إلى نحرك ، وظاهر الآية الأمر له صلى الله عليه وسلم بمطلق الصلاة ، ومطلق النحر ، وأن يجعلهما لله عزّ وجلّ لا لغيره ، وما ورد في السنة من بيان هذا المطلق بنوع خاص ، فهو في حكم التقييد له ، وسيأتي إن شاء الله .

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ أي : إن مبغضك هو المنقطع عن الخير على العموم .

فيعمّ خيري الدنيا والآخرة ، أو الذي لا عقب له ، أو الذي لا يبقى ذكره بعد موته ، وظاهر

الآية العموم ، وأن هذا شأن كل من يبغض النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولا ينافي ذلك كون سبب النزول هو العاص بن وائل ، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، كما مرّ غير مرّة .

قيل : كان أهل الجاهلية إذا مات الذكور من أولاد الرجل قالوا : قد بتر فلان ، فلما مات ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم خرج أبو جهل إلى أصحابه فقال : بتر محمد ، فنزلت الآية .

وقيل : القائل بذلك عقبة بن أبي معيط .

قال أهل اللغة : الأبتر من الرجال : الذي لا ولد له ، ومن الدوابّ : الذي لا ذنب له ، وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر ، وأصل البتر القطع ، يقال بترت الشيء بتراً : قطعته .

(164/834)

وقد أخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن أنس قال : أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة ، فرفع رأسه مبتسماً فقال : " إنه أنزل عليّ آنفاً سورة " فقرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم ﴾ ﴿ إِنَّآ أعطيناك الكوثر ﴾ حتى ختمها قال : " هل تدرون ما الكوثر ؟ " قالوا : الله

ورسوله أعلم ، قال : " هو نهر أعطانيه ربي في الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته كعدد الكواكب يختلج العبد منهم فأقول يا ربّ إنه من أمتي ، فيقال إنك لا تدري ما أحدث بعدك " وأخرجه أيضاً مسلم في صحيحه .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دخلت الجنة ، فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء ، فإذا مسك أذفر ، قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاكه الله " وقد روي عن أنس من طرق كلها مصرحة بأن الكوثر هو النهر الذي في الجنة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، والبخاري ، وابن جرير ، وابن مردويه عن عائشة أنها سئلت عن قوله : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ قالت : هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم في بطنان الجنة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أنه نهر في الجنة .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن حذيفة في قوله : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ قال : نهر في الجنة .

وحسن السيوطي إسناده .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه عن أسامة بن زيد مرفوعاً : أنه قيل لرسول الله صلى الله

عليه وسلم إنك أعطيت نهراً في الجنة يدعى الكوثر ، فقال : " أجل ، وأرضه ياقوت ، ومرجان ، وزبرجد ، ولؤلؤ "

وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رجلاً قال : يا رسول الله ما الكوثر ؟ قال : " هو نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله " فهذه الأحاديث تدلّ على أن الكوثر هو النهر الذي في الجنة ، فيتعين المصير إليها ، وعدم التعويل على غيرها ، وإن كان معنى الكوثر : هو الخير الكثير في لغة العرب ، فمن فسره بما هو أعمّ مما ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغويّ .

كما أخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي وصححه ، وابن ماجه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عطاء بن السائب قال : قال محارب بن دثار : قال سعيد بن جبير في الكوثر : قلت حدّثنا عن ابن عباس أنه قال : هو الخير الكثير ، فقال : صدق إنه للخير الكثير ، ولكن حدّثنا ابن عمر قال : نزلت : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب يجري على الدرّ ، والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل " وأخرج

البخاري ، وابن جرير ، والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله إياه .

قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير ، فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة ، قال : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه .

وهذا التفسير من حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنه ناظر إلى المعنى اللغويّ كما عرّفناك ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فسّره فيما صح عنه أنه النهر الذي في الجنة ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل .

(166/834)

وأخرج ابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه عن عليّ بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبيّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : " ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ؟ " فقال : إنها ليست بنحيرة ، ولكن يأمرك إذا تحرّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت ، وإذا ركعت ، وإذا رفعت رأسك من الركوع ، فإنها صلاتنا ، وصلاة الملائكة الذين هم في السماوات السبع ، وإن لكل شيء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين

عند كل تكبيرة، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله: ﴿ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾" [المؤمنون: 76] هو من طريق مقاتل بن حيان عن الأصبغ بن نباتة عن عليّ.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في الآية قال: "إن الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرك إذا كبرت للصلاة، فذاك النحر".

وأخرج ابن أبي شيبة، والبخاري في تاريخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني في الأفراد، وأبو الشيخ، والحاكم، وابن مردويه، والبيهقي في سننه عن عليّ بن أبي طالب في قوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ قال: وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى، ثم وضعهما على صدره في الصلاة.

وأخرج أبو الشيخ، والبيهقي في سننه عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابن شاهين في سننه، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحر ﴾ قال: إذا صليت، فرفعت رأسك من الركوع، فاستو قائماً.

وأخرج ابن جرير، وابن المنذر عن ابن عباس في الآية قال: الصلاة المكتوبة، والذبح يوم الأضحى.

وأخرج البيهقي في سننه عنه: ﴿ وانحر ﴾ قال: يقول: واذبح يوم النحر.

وأخرج البزار ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة .

فقالت له قريش : أنت خير أهل المدينة وسيدهم ، ألا ترى إلى هذا الصابىء المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السقاية ، وأهل السدانة ، قال : أنتم خير منه ، فنزلت : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ ونزلت : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الكتاب ﴾ [النساء : 51] إلى قوله : ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾ [النساء : 52] .

قال ابن كثير : وإسناده صحيح .

وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عن أبي أيوب قال : لما مات إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا : إن هذا الصابىء قد بتر الليلة ، فأنزل الله : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج ابن سعد ، وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان أكبر ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم ، ثم زينب ، ثم عبد الله ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة ، ثم رقية ، فمات القاسم ، وهو : أوّل ميت من أهله ، وولده بمكة ، ثم مات عبد الله ، فقال العاص بن وائل السهمي : قد انقطع نسله فهو أبتر ، فأنزل الله ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ .

وفي إسناده الكلبي .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَر ﴾ قال : أبو جهل .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عنه ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ يقول : عدوّك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 502.504 ﴾

(168/834)

وقال القاسمى :

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾

أي : الخير الكثير من القرآن والحكمة والنبوة والدين الحقّ والهدى وما فيه من سعادة الدارين . روى ابن جرير عن أبي بشر قال : سألت سعيد بن جبير عن الكوثر ، فقال : هو الخير الكثير الذي آتاه الله إياه ، فقلت لسعيد : إنا كنا نسمع أنه نهر في الجنة ؟ فقال : هو من الخير الذي أعطاه الله إياه .

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ قال الإمام : أي : فاجعل صلاتك لربك وحده ، وانحر ذبيحتك مما هو نُسك لك لله وحده ، فإنه هو مربيك ومسبغ نعمه عليك دون سواه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : 162 - 163] ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ قال ابن جرير : أي : مبغضك يا محمد ، وعدوك هو الأبتر ، يعني الأقل الأذل المنقطع دابره الذي لا عقب له .

روى ابن إسحاق عن يزيد بن رومان قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له . فإذا هلك انقطع ذكره ؛ فأنزل الله هذه السورة . وعن عطاء قال : نزلت في أبي لهب ، وذلك حين مات ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بُتر محمد الليلة . فأنزل الله في ذلك السورةَ . وقال شمر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي معيط . قال ابن كثير : والآية تعم جميع من اتصف بذلك ، ممن ذكر وغيرهم .

وقال الإمام : كان المستهزئون من قريش كالعاص بن وائل وعقبة بن أبي معيط وأبي لهب وأمثالهم ، إذا رأوا أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم يموتون ، يقولون : بتر محمد ، أي : لم يبق له ذكر في أولاده من بعده ، ويعدون ذلك عيباً يلمزونه به وينفرون به الناس من أتباعه ، وكانوا إذا رأوا ضعف المسلمين وفقرهم وقلتهم يستخفون بهم ويهونون أمرهم ، ويعدّون ذلك مغمزاً في الدين ، ويأخذون القلة والضعف دليلاً على أن الدين ليس بحق ، ولو كان حقاً لنشأ مع الغنى والقوة شأن السفهاء مع الحق في كل زمان أو مكان غلب فيه الجهل .

وكان المنافقون إذا رأوا ما فيه المؤمنون من الشدة والبأساء يمنّون أنفسهم بغلبة إخوانهم القدماء من الجاحدين ، وينتظرون السوء بالمسلمين لقلة عددهم وخلوّ أيديهم من المال .

وكان الضعفاء من حديثي العهد بالإسلام من المؤمنين ، تمُرُ بنفوسهم خواطر السوء عندما تشتد عليهم حلقات الضيق ؛ فأراد الله سبحانه أن يمحص من نفوس هؤلاء ، ويبكّت الآخرين ، ليؤكد له الوعد بأنه هو الفائز وأن متبعه هو الظافر ، وإن عدوه هو الخائب الأبتر الذي يُمحى ذِكره ويعفى أثره .

تنبيه :

لما روي من سبب نزول هذه السورة مما رويناه ، ذهب إمام اللغة ابن جنّي إلى تأويل الكوثر بالذرية الكثيرة ، وهو معنى بديع فيه مناسبة لسبب النزول .

قال ابن جنّي في " شرح ديوان المتنبي " في قوله يمدح طاهر بن الحسين العلوّي :

~وأبهرُ آيات التهامي أنهُ أبوك وأجْدى ما لكم من مناقبِ

وفي جملة ما أملاه عليّ أبو الفضل العروضي : أن قريشاً وأعداء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : إن محمداً أبتر لا عقب له ، فإذا مات استرحنا منه ؛ فأنزل الله تعالى :

(170/834)

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أي : العدد الكثير ، ولست الأبتر الذي قالوه . ومراده بالعدد الكثير الذرية وهو أولاد فاطمة . قال العروضي : فإن قيل : الْإِنْسَانْ بالأبناء والآباء والأمهات . قلنا : هذا خلاف حكم الله تعالى فإنه قد قال :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ ﴾ إلى قوله ﴿ وَيَحْيَى وَعِيسَى ﴾ [الأنعام : 84] ، فجعل عيسى من أولاد إبراهيم ومن ذريته ، ولا خلاف في أنه لم يكن لعيسى أب . انتهى . وقد بسطنا أدلة انتساب الأسباط إلى أجدادهم في كتاب " شرف الأسباط " بما لا مزيد عليه ، فراجعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 492 . 493 ﴾

(171/834)

وقال الشيخ : دروزة :

سورة الكوثر

في السورة بشرى وتطمئن للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وتنديد بمبغضيه . وقد روي أنها مدنية ومضمونها وأسلوبها يلهمان مكيتها وهو ما عليه الجمهور .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الكوثر (108) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3) .

(1) الكوثر : على وزن فوعل : الكثير جدا . وقيل إنه نهر في الجنة . وأوّل ابن عباس الكلمة بالخير الكثير «1» .

(2) انحر : اذبح الضحية ، وقيل : ارفع يدك إلى نحرك «2» . والمعنى الأول أوجه وعليه الجمهور .

(3) الشانئ : المبغض أو العدو .

(4) الأبتر : المقطوع وهنا بمعنى مقطوع النسل .

الخطاب في الآيات موجه إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بسبيل البشرى والتطمين . فقد أعطاه اللّه الكوثر ، فعليه أن يصلي لربه ويقرب إليه القرابين شكرا . ويتأكد أن عدوه

ومبغضه هو الأبتر.

---

(1) انظر تفسير السورة في الطبري.

(2) المصدر نفسه.

(172/834)

و قد روى المفسرون «1» أن وائل بن العاص أو عقبة بن معيط قال على أثر وفاة عبد اللّه بن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم: إن محمدا أبتر، فإذا مات انقطع ذكره واسترحنا منه، فأنزل اللّه السورة.

ومضمون الآيات وروحها يلهمان صحة الرواية ويلهمان أن قول الكافر ونعته النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالنعت المؤذي قد أثارا في نفسه أزمة، فأنزل اللّه السورة ترد عليه وتحمل البشرى والتطمين للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالأسلوب القوي الذي جاءت به حيث تقول له إن اللّه قد أعطاه الكوثر ومن أعطي الكوثر فلن يكون أبتر وأن مبغضه المقطوع من رحمة اللّه لهو الحري بهذا النعت وعليه أن يشكر اللّه بالصلاة وذبح القرابين تقربا إليه.

ومما روي أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان مستغرقا في النوم فأفاق ضاحكا مستبشرا ثم قال نزلت عليّ هذه السورة «2». وهذه الرواية لم ترد في كتب الصحاح. وإن صحت

ففيها صورة من صور الوحي القرآني . وهناك رواية تذكر أن السورة نزلت يوم الحديبية بسبيل التنويه بما تم للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم والمسلمين في ذلك اليوم من الفتح وبشرى وأمر بالصلاة ونحر الهدي في الحديبية «3» . وكان إذ ذاك عيد الفطر ، ولم ترد هذه الرواية في كتب الصحاح ولا في كتب السيرة القديمة التي روت تفاصيل يوم الحديبية . على أن جمهور الرواة والمفسرين على أن السورة مكية ومن السور المبكرة جدا في النزول .

وقد تعددت الأقوال في معنى الكوثر وفي المقصود من الصلاة والنحر . ففي صدد الكوثر روى البخاري والترمذي عن أنس أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «لمّا عرج بي إلى السماء أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوّفا فقلت ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر» . وروى البخاري عن عائشة رضي اللّه عنها سئلت عن قوله تعالى

---

(1) انظر تفسير السورة في تفسير الطبري والنيسابوري وابن كثير والبغوي والطبرسي والزمخشري فقد رووا ذلك جميعهم .

(2) الإتقان للسيوطي ج 1 ص 24 وتفسير الآلوسي للسورة .

(3) الإتقان ج 1 ص 15 وتفسير الآلوسي .

إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ الكوثر [1] فقالت : «نهرا أعطيه نبيّكم صلّى اللّه عليه وسلّم شاطئاه عليه درّ مجوّف آنيته كعدد النجوم» . وروى الترمذي وأبو داود عن أنس أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال :

«بينا أنا أسير في الجنة إذ عرض لي نهر حافتاه قباب اللؤلؤ قلت للملك ما هذا قال هذا الكوثر الذي أعطاكه اللّه ثم ضرب بيده إلى طينه فاستخرج مسكا ثمّ رفعت لي سدرة المنتهى فرأيت عندها نورا عظيما» . وروى الترمذي عن ابن عمر عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدرر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج» «1» . وإلى جانب هذه الأحاديث التي رواها الطبري بنصوصها أو نصوص مقاربة أورد هذا المفسر أقوالا رواها عن رواة عن ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير من علماء أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وتابعيهم تذكر أن معنى الكلمة الخير الكثير الذي أعطاه اللّه لنبيه والنبوة والحكمة والقرآن . ومما أورده الطبري أن سائلا سأل سعيد بن جبير عن معناها فلما قال له الخير الكثير قال السائل كنا نسمع أنه نهر في الجنة ؟ فقال : هو الخير الكثير الذي أعطاه اللّه لنبيه وفي رواية أخرى أنه نهر وغيره . . . «2» .

فيمكن والحالة هذه أن يقال إن ابن عباس وتلامذته لم يثبت عندهم تلك الأحاديث ففسروا الكلمة بهذه التفسيرات الوجيهة المتسقة مع ظروف الدعوة الأولى التي كان يلقى

النبي فيها المواقف الشديدة فتقتضي حكمة التنزيل تثبيته وتطمينه وتذكيره بما أنعم اللّه عليه من نعم عظمى وحثه على التقرب إليه بالصلاة والشكر مما تكرر في السور السابقة.

ومما يلحظ أن ترتيب هذه السورة سابق على سورة النجم التي تروي مشاهد الإسراء والمعراج في سياق آياتها الأولى. وقد يكون في هذا تدعيم لذلك التفسير والتوجيه.

---

(1) الأحاديث الأربعة في التاج الجامع ج 4 ص 266.

(2) استوعب الطبري جميع الأقوال وليس في كتب التفسير الأخرى أقوال مغايرة لها.

ولقد جمع سعيد بن جبير مع ذلك في جوابه بين القولين. وقد يكون في هذا توفيق موفق واللّه تعالى أعلم.

وأما الصلاة والنحر فليس فيهما حديث صحيح. وقد قيل إن الصلاة هي صلاة الفجر يوم عيد النحر كما قيل إنها صلاة ذلك العيد وإن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قد أمر في الآية بنحر القربان عقب الصلاة على اختلاف الوقتين المرويين. وهناك من قال إنهما أمران مطلقان للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالصلاة والتقرب إليه بالقرابين شكرا على نعمه الكثيرة التي والاها عليه. كما أن هناك من قال إنها تأمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بأن تكون

صلاته ونحره للّه وحده إذا كان قومه يصلون وينحرون لغيره وقد أعطاه الخير الكثير «1» .

ونحن نميل إلى ترجيح أحد القولين الأخيرين واللّه أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير الحديث حـ 2 صـ 14.11 ﴾

---

(1) استوعب الطبري جميع الأقوال وليس في كتب التفسير الأخرى أقوال مغايرة لها .

(175/834)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(108) سورة الكوثر

نزولها : مكية نزلت بعد سورة العاديات عدد آياتها : ثلاث آيات عدد كلماتها : عشر كلمات عدد حروفها : اثنان وأربعون حرفا

مناسبتها لما قبلها

فى سورة « الماعون » ، توعد اللّه الذين لا يقيمون الصلاة ، ولا يؤدّون الزكاة لأنهم مكذبون بالدين ، غير مؤمنين بالبعث والحساب ، والجزاء - توعد اللّه سبحانه هؤلاء ، بالويل والهلاك ، والعذاب الشديد فى نار جهنم . .

وفى مقابل هذا ، جاءت سورة الكوثر تزفّ إلى سيد المؤمنين باللّه واليوم الآخر ، هذا العطاء الجزيل ، وذلك الفضل الكبير من ربه . . ومن هذا العطاء ، وذلك الفضل ، ينال كلّ مؤمن ومؤمنة نصيبه من فضل الله ، وعطائه على قدر ما عمل . .

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الآيات : (1.3) [سورة الكوثر (108) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

التفسير :

الكوثر : مبالغة فى الكثرة ، والمراد بالكثرة هنا ، الكثرة فى العطاء من الخير والإحسان ، والخطاب هنا للنبى صلوات اللّه وسلامه عليه .

والمراد بهذا الخبر هو التنويه بمقام النبىّ الكريم عند ربه جلّ وعلا ، وبرضاه عنه ، ذلك الرضا الذي لا حدود له ، والذي تملأ القطرة منه وجوه الوجود ، بشاشة ، ومسرّة ، وإسعادا . .

وفى إطلاق لفظ الكوثر ، دون قيده بنوع ، أو قدر .إشارة إلى تناوله كل ما هو خير ، وبلوغه إلى ما لا يعرف له نهاية أو حدّ ، كما أنه إشارة أخرى إلى أنه خير ، وخير مطلق ، مصفّى من كل شائبة ، خالص من كل كدر . . ذلك أنه عطاء ، والعطاء لا يكون إلا مما هو خير ، وإحسان ، فكيف إذا كان عطاء من يد اللّه سبحانه وتعالى ؟ . . إن صفة هذا العطاء هى من صفات المعطى جلّ وعلا . . فلا تسل بعد هذا ما يكون هذا العطاء ! « هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ » .

. وإنه لحسب المؤمن إذا دعا ربه أن يقول : « اللهم أعطنى ، ولا تحرمنى » .

. فإذا اللّه دعاءه ، فليسعد السعادة كلها بما أعطى من عطاء ربه ! فاللهم أعطنا ولا تحرمنا ، واللهم استجب لنا ولا تردنا ، فأنت خير من أعطى ، وأكرم من سئل . .

ولعلك تسأل : وماذا أعطى النبي الكريم ؟ .

لقد أعطى اللّه سبحانه وتعالى النبي الكريم خير ما أعطى عبدا من عباده . .

وحسبه أنه خاتم النبيين ، وحسبه القرآن الذي كمل به دين اللّه ، وتمت به شريعته ، وحسبه الدعوة التي قام عليها ، وبلغ بها غايتها ، وأقام بها دين اللّه فى الأرض ، وغرس مغارسه فى مشارقها ومغاربها . . وحسبه أن رفع اللّه

تعالى ذكره فى العالمين إلى يوم الدين . وحسبه أن أسرى به مولاه إلى السموات العلا ، واستضافه فى الملأ الأعلى ، وأراه من آيات ربه الكبرى . . «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ، وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ» . .

«أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوى ، وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى ، وَوَجَدَكَ عائِلًا فَأَغْنى» . .

«وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً

»

(113 : النساء) . . «وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى» . .

هذا بعض ما أعطى اللّه سبحانه نبيّه الكريم ، وإنّ عطية واحدة من هذه العطايا لنملأ الدنيا كلها خيرا وبركة ، وتسع الناس جميعا سعادة ورضا ! وهذا هو ميزان الرسول الكريم عند ربه ، دون الناس جميعا . . وإنه ميزان ليرجح كل ما أعطى الناس من جزيل عطايا اللّه سبحانه وتعالى ومننه . .

فكل ما أعطى الناس بعد هذا ، أو قبل هذا ، من مال وبنين ، ومن علم ومعرفة ، ومن هدى ونور ، وكل ما أصابوا من خير مادى أو معنوى. هو من بعض هذا الذي أعطى رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه . . فما أعظم هذا الغنى وما أطيبه ، وما أبقاه وأخلده . . «وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ

وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » (131 : طه) وهل يلتفت رسول اللّه بعد هذا إلى ما عند

الناس مما رزقهم اللّه من مال وبنين ؟ وهل يرى شيئا من حطام الدّنيا يجرى مع هذا الذي

أعطاه اللّه ، ويأخذ له مكانا فيه ؟ وهل تشتهى نفس بين يديها مائدة حافلة بطيب الطعام

، وصنوف المآكل ، إلى فتات فى مزبلة يتداعى عليها الذباب ؟

وقوله تعالى : « فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ » .

الفاء هنا للسببية ، والتعقيب على هذه البشرى المسعدة التي شرح سبحانه

(178/834)

وتعالى بها صدر النبي الكريم ، وملأ قلبه بها سعادة ورضا . . وإذن فليشكر ربّه ،

وليسبح بحمده ، عرفانا بهذا العطاء الجزيل ، وتقديرا لقدره . .

والصلاة ، هى أفضل القربات إلى اللّه ، وأعظم وسائل الزّلفى إليه ، والولاء له . . واللام فى

قوله تعالى : « لربك » لام الملكية ، أي صل الصلاة للّه وحده ، واجعلها خالصة له سبحانه

، لا يدخل عليها شىء من الغفلة ، أو الاشتغال بغير اللّه . .

وقوله تعالى : « وانحر » أي أطعم الفقراء والمساكين . . فهذا من الزكاة التي هى أخت

الصلاة . .

وقد اختلف المفسرون فى هذه الصلاة : أهي صلاة عيد الأضحى ، أم هى الصلاة على إطلاقها . . وكذلك اختلفوا فى النحر ، وهل هو ما ينحر من الأضاحى ، يوم عيد النحر ، بعد الصلاة ، أم هو النحر إطلاقا ؟ والأولى عندنا أن تكون الصلاة مطلقة ، لا يراد بها صلاة عيد الأضحى ، بل المراد بالأمر بها المداومة عليها ولو كانت صلاة عيد الأضحى ، لخفّ فى مقابلها وزن هذا العطاء الجزيل الذي أعطاه اللّه نبيه ، فى قوله تعالى : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » .

. فصلاة عيد الأضحى ركعتان لا غير فى كل عام . . ثم إن صلاة العيد هذه ليست فرضا ، وإنما هى سنة ! ! فهل هاتان الركعتان تتوازنان مع هذا العطاء الجزيل ، وهل يقومان بواجب الشكر عليه ؟

فالمراد بالصلاة إذن هى الصلاة مطلقة فى فرائضها ، وسننها . . ونوافلها . .

وهى صلاة تكاد تكون مستغرقة معظم الأيام والليالى مدى العمر . . وهذا ما يمكن أن يكون فى مقام الحمد والشكر على ما أعطى النبي الكريم من ربه ، هذا العطاء الجليل الكثير ، الذي لا حدود له . .

وعلى هذا ، فالقول بأن المراد بالنحر ، هو نحر الأضحية بعد صلاة العيد ،

قول متهافت ، وأولى منه أن يراد به مطلق النحر ، وأن يراد بمطلق النحر ، إطعام الفقراء والمساكين ، وأن يراد بإطعام الفقراء والمساكين الزكاة ، إذ كان من بعضها ما يطعم منه الفقراء والمساكين . . وعبّر عن إطعامهم بما ينحر من ذبائح ، لأن ذلك خير ما يطعمونه إذ كان اللحم هو الطعام الذي يتشهاه الفقراء والمحرمون ، ولا يجدون سبيلا إليه ، وإن وجدوا السبيل إلى لقمة العيش ! ! وقوله تعالى : «إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ» .

الشانئ : هو المبغض ، والمعادى ، والمتجنب لمن يبغضه ويعاديه . .

والأبتر : المنقطع عن كل خير ، المحروم من كل ما فيه غناء ونفع . .

وشانىء النبىّ ، هو المكذّب له ، الكافر بما يدعو إليه من الإيمان باللّه ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح الذي يرضى اللّه ، ويقرّب العبد من رحمته ، فيخلص بهذا من عذاب الآخرة ، وينجو من أهوالها وشدائدها . .

وشانىء النبي ، محروم من كل خير ، منقطع عن موارد الهدى والنور ، فهو إلى ضياع وهلاك ، وإلى عذاب جهنم خالدا فيها أبدا . . إن شانىء النبي ومبغضه مصروف عن الإيمان باللّه ، واليوم الآخر . . وحسبه بهذا هلاكا وضياعا ، وحرمانا من كل خير . .

هذا هو حظ شانىء النبي ومبغضه ، فى كل زمان ومكان . . إنه البعد عن كل خير ، والحرمان من كل طيّب ، ثم العذاب الأليم فى نار جهنم . .

والروايات التي تحدّث عن أن هذه السورة نزلت فى العاص بن وائل ، أو عقبة بن أبى معيط ، أو أبى جهل ، أو أبى لهب ، وأنهم كانوا يعيّرون النبي صلى اللّه عليه وسلم بموت ولديه ، القاسم ، وعبد اللّه ، وأنه لا نسل له غيرهما من

الذكور ، وأن عقبه قد بتر وانقطع. هذه الروايات إن دلت على شىء ، فإنما تدل على أن نزول هذه السورة الكريمة ، كان فى هذا الوقت الذي تتحدث به قريش بهذا الحديث المنكر ، وأن ذلك كان مناسبة جاءت فى وقتها ، لا أن هذا الحديث كان سببا باعثا لنزولها ، إذ كانت محامل السورة أعظم قدرا ، وأكبر شأنا ، من أن تلتقى مع هذا الحديث عن الولد ، وحفظ النسل به ، وإن كان ذلك مما تعنزّ به قريش ، وتحرص عليه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1694.1698 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) ﴾

افتتاح الكلام بحرف التأكيد للاهتمام بالخبر .

والإِشعار بأنه شيء عظيم يستتبع الإِشعار بتنويه شأن النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم في ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ [القدر : 1] .

والكلام مسوق مساق البشارة وإنشاء العطاء لا مساق الإخبار بعطاء سابق .

وضمير العظمة مشعر بالامتنان بعطاء عظيم .

و ﴿ الكوثر ﴾ : اسم في اللغة للخير الكثير صيغ على زِنة فوْعل ، وهي من صيغ الأسماء الجامدة غالباً نحو الكوكب ، والجورب ، والحوشب والدوسر ، ولا تدل في الجوامد على غير مسماها ، ولما وقع هنا فيها مادة الكَثْر كانت صيغته مفيدة شدة ما اشتقت منه بناء على أن زيادة المبنى تؤذن بزيادة المعنى ، ولذلك فسره الزمخشري بالمفرط في الكثرة ، وهو أحسن ما فُسر به وأضبطُه ، ونظيره : جَوْهر ، بمعنى الشجاع كأنه يجاهر عدوّه ، والصومعة لاشتقاقها من وصف أصمع وهو دقيق الأعضاء لأن الصومعة دقيقة لأن طولها أفرط من غلظها .

ويوصفُ الرجل صاحب الخير الكثير بكَوثر من باب الوصف بالمصدر كما في قول لبيد في رثاء عوف بن الأحوص الأسدي :

وصاحب ملحوب فُجعنا بفقده

وعند الرّداع بيتُ آخر كوثر . . .

(ملحوب والرداع) كلاهما ماء لبني أسد بن خزيمة ، فوصف البيت بكوثر ولاحظ الكميت هذا في قوله في مدح عبد الملك بن مروان :

وأنت كثيرٌ يا ابنَ مروان طيبٌ

وكان أبوكَ ابنُ العقايل كَوْثرا . . .

وسمي نهر الجنة كوثراً كما في حديث مسلم عن أنس بن مالك المتقدم آنفاً .

وقد فسر السلف الكوثر في هذه الآية بتفاسير أعمها أنه الخير الكثير ، وروي عن ابن عباس ، قال سعيد بن جبير فقلت لابن عباس : إن ناساً يقولون هو نهر في الجنة ، فقال : هو من الخير الكثير .

(182/834)

وعن عكرمة : الكوثر هنا : النبوءة والكتاب ، وعن الحسن : هو القرآن ، وعن المغيرة : أنه الإسلام ، وعن أبي بكر بن عَيَّاش : هو كثرة الأمة ، وحكى الماوردي : أنه رفعة الذكر ، وأنه نور القلب ، وأنه الشفاعة ، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم المروي في حديث أنس لا

يقتضي حصر معاني اللفظ فيما ذكره .

وأريد من هذا الخبر بشارة النبي صلى الله عليه وسلم وإزالةُ ما عسى أن يكون في خاطره من قول من قال فيه : هو أبتر ، فقوبل معنى الأبتر بمعنى الكوثر ، إبطالاً لقولهم .

وقوله : ﴿ فصل لربك ﴾ اعتراض والفاء للتفريع على هذه البشارة بأن يشكر ربه عليها ، فإن الصلاة أفعال وأقوال دالة على تعظيم الله والثناء عليه وذلك شكر لنعمته .

وناسب أن يكون الشكر بالازدياد مما عاداه عليه المشركون وغيرهم ممن قالوا مقالتهم الشنعاء : إنه أبتر ، فإن الصلاة لله شكر له وإغاظة للذين ينهونه عن الصلاة كما قال تعالى : ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ [العلق : 9 ، 10] لأنهم إنما نَهَوْه عن الصلاة التي هي لوجه الله دون العبادة لأصنامهم ، وكذلك النحر لله .

والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله : ﴿ فصل لربك ﴾ دون : فصلِّ لنا ، لما في لفظ الرب من الإِيماء إلى استحقاقه العبادة لأجل ربوبيته فضلاً عن فرط إنعامه .

وإضافة (رب) إلى ضمير المخاطب لقصد تشريف النبي صلى الله عليه وسلم وتقريبه ، وفيه تعريض بأنه يربُّه ويرأف به .

ويتعين أن في تفريع الأمر بالنحر مع الأمر بالصلاة على أن أعطاه الكوثر خصوصية تناسب الغرض الذي نزلت السورة له ، ألا ترى أنه لم يذكر الأمر بالنحر مع الصلاة في قوله تعالى : ﴿

ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ في سورة الحجر [97 ، 98] .

(183/834)

ويظهر أن هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صدّ المشركين إيّاه عن البيت في الحديبية ، فأعلمه الله تعالى بأنه أعطاه خيراً كثيراً ، أي قدره له في المستقبل وعُبر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه ، فيكون معنى الآية كمعنى قوله تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ [الفتح : 1] فإنه نزل في أمر الحديبية فقد قال له عمر بن الخطاب : أفتح هذا ؟ قال : نعم .

وهذا يرجع إلى ما رواه الطبري عن قول سعيد بن جبير : أن قوله : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ أمر بأن يصلي وينحر هديه وينصرفَ من الحديبية .

وأفادت اللام من قوله : ﴿ لربك ﴾ أنه يخُص الله بصلاته فلا يصلي لغيره .

ففيه تعريض بالمشركين بأنهم يصلون للأصنام بالسجود لها والطواف حولها .

وعطف ﴿ وانحر ﴾ على ﴿ فصل لربك ﴾ يقتضي تقدير متعلِّقه مماثلاً لمتعلّق ﴿ فصل لربك ﴾ لدلالة ما قبله عليه كما في قوله تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر ﴾ [مريم : 38] أي

وأبصر بهم ، فالتقدير : وانحر له .

وهو إيماء إلى إبطال نحر المشركين قرباناً للأصنام فإن كانت السورة مكية فلعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اقترب وقت الحج وكان يحج كل عام قبلَ البعثة وبعدها قد تردد في نحر هداياه في الحج بعد بعثته ، وهو يود أن يُطعم المحاويج من أهل مكة ومن يحضر في الموسم ويتحرجُ من أن يشارك أهل الشرك في أعمالهم فأمره الله أن ينحر الهدي لله ويطعمها المسلمين ، أي لا يمنعك نحرهم للأصنام أن تنحر أنت ناوياً بما تنحره أنه لله .

وإن كانت السورة مدنية ، وكان نزولها قبل فرض الحج كان النحر مراداً به الضحايا يومَ عيد النحر ولذلك قال كثير من الفقهاء إن قوله : ﴿ فصل لربك ﴾ مراد به صلاة العيد ، ورُوي ذلك عن مالكٍ في تفسير الآية وقال : لم يبلغني فيه شيء .

(184/834)

وأخذوا من وقوع الأمر بالنحر بعد الأمر بالصلاة دلالةً على أن الضحية تكون بعد الصلاة ، وعليه فالأمر بالنحر دون الذبح مع أن الضأن أفضل في الضحايا وهي لا تنحر وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يضحّ إلا بالضأن تغليب للفظ النحر وهو الذي روعي في تسمية يوم الأضحى يومَ النحر وليشمل الضحايا في البدن والهدايا في الحج أو ليشمل الهدايا التي عُطل

إرسالها في يوم الحديبية كما علمت آنفاً .

ويرشح إيثارَ النحر رَعْيُ فاصلة الراء في السورة .

وللمفسرين الأولين أقوال أخر في تفسير "انحر" تجعله لفظاً غريباً .

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

استئناف يجوز أن يكون استئنافاً ابتدائياً .

ويجوز أن تكون الجملة تعليلاً لحرف ﴿ إنّ ﴾ إذا لم يكن لرد الإنكار يكثر أن يفيد التعليل كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ في سورة البقرة (32) .

واشتمال الكلام على صيغة قصر وعلى ضمير غائب وعلى لفظ الأبتر مؤذن بأن المقصود به ردّ كلام صادر من معيَّن ، وحكايةُ لفظٍ مرادٍ بالرد ، قال الواحدي : قال ابن عباس : إن العاصي بن وائل السهمي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الحرام عند باب بني سهم فتحدث معه وأناسٌ من صناديد قريش في المسجد فلما دخل العاصي عليهم قالوا له : من الذي كنت تتحدث معه فقال : ذلك الأبترُ ، وكان قد توفّي قبل ذلك عبدُ الله ابنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن مات ابنه القاسم قبلَ عبد الله فانقطع بموت عبد الله الذكورُ من ولده صلى الله عليه وسلم يومئذ ، وكانوا يَصِفون من ليس له ابن بأبتر فأنزل الله هذه السورة ، فحصل القصر في قوله ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ لأن ضمير

الفصل يفيد قصر صفة الأبتر على الموصوف وهو شانئ النبي صلى الله عليه وسلم قصرَ المسند على المسند إليه، وهو قصر قلب، أي هو الأبتر لا أنت.

(185/834)

و ﴿ الأبتر ﴾ : حقيقته المقطوع بعضه وغلب على المقطوع ذَنبه من الدواب ويستعار لمن نقص منه ما هو من الخير في نظر الناس تشبيهاً بالدَّابة المقطوع ذَنَّبها تشبيه معقول بمحسوس كما في الحديث : "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر" يقال : بَتر شيئًا إذا قطع بعضَه وبَتر بالكسر كفرِح فهو أبتر، ويقال للذي لا عقب له ذكوراً، هو أبتر على الاستعارة تشبيه متخيل بمحسوس شبهوه بالدابة المقطوع ذنبها لأنه قُطع أثره في تخيُّل أهلِ العرف.

ومعنى الأبتر في الآية الذي لا خير فيه وهو رد لقول العاصي بن وائل أو غيره في حق النبي صلى الله عليه وسلم فبهذا المعنى استقام وصف العاصي أو غيره بالأبتر دون المعنى الذي عناه هو حيث لمز النبي صلى الله عليه وسلم بأنه أبتر، أي لا عقب له لأن العاصي بن وائل له عقب، فابنه عمرو الصحابي الجليل، وابن ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص الصحابي الجليل ولعبد الله عقب كثير.

قال ابن حزم في "الجمهرة" عقبه بمكة وبالرهط.

فقوله تعالى: ﴿ هو الأبتر ﴾ اقتضت صيغة القصر إثبات صفة الأبتر لشانىء النبي صلى الله عليه وسلم ونفيها عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو الأبتر بمعنى الذي لا خير فيه.

ولكن لما كان وصف الأبتر في الآية جيء به لمحاكاة قول القائل: "محمد أبتر" إبطالاً لقوله ذلك، وكانَ عرفهم في وصف الأبتر أنه الذي لا عقب له تعيّن أن يكون هذا الإبطال ضرباً من الأسلوب الحكيم وهو تلقي السامع بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أن الأحقَّ غيرُ ما عناه من كلامه كقوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ [البقرة: 189].

وذلك بصرف مراد القائل عن الأبتر الذي هو عديم الابن الذكر إلى ما هو أجدر بالاعتبار وهو الناقص حظّ الخير، أي ليس ينقص للمرء أنه لا ولد له لأن ذلك لا يعود على المرء بنقص في صفاته وخلائقه وعقله.

(186/834)

وهب أنه لم يولد له البتة، وإنما اصطلح الناس على اعتباره نقصاً لرغبتهم في الولد بناء على ما كانت عليه أحوالهم الاجتماعية من الاعتماد على الجهود البدنية فهم يبتغون الولد الذكور رجاء الاستعانة بهم عند الكبر وذلك أمر قد يعرض، وقد لا يعرض أو لمحبة ذِكر

المرء بعد موته وذلك أمر وهمي، والنبي صلى الله عليه وسلم قد أغناه الله بالقناعة، وأعزّه بالتأييد، وقد جعل الله له لسان صدق لم يجعل مثله لأحد من خلقه، فتمحض أن كماله الذاتي بما عَلِمه الله فيه إذ جعل فيه رسالته، وأن كماله العرضي بأصحابه وأمته إذ جعله الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

وفي الآية محسن الاستخدام التقديري لأن سوق الإبطال بطريق القصر في قوله: ﴿ هو الأبتر ﴾ نفيُ وصف الأبتر عن النبي صلى الله عليه وسلم لكن بمعنًى غير المعنى الذي عناه شانئه فهو استخدام ينشأ من صيغة القصر بناء على أن ليس الاستخدام منحصراً في استعمال الضمير في غير معنى معاده، على ما حققه أستاذنا العلامة سالم أبو حاجب وجعله وجهاً في واو العطف من قوله تعالى: ﴿ وجاء ربك والملك ﴾ [الفجر: 22] لأن العطف بمعنى إعادة العامل فكأنه قال: وجاء الملك وهو مجيء مغاير لمعنى مجيء الله تعالى، قال: وقد سَبَقنا الخفاجي إلى ذلك إذ أجراه في حرف الاستثناء في "طراز المجالس" في قول محمد الصالحي من شعراء الشام:

وحديثُ حُبّي ليسَ بالْ

مَنْسُوخِ إلاّ في الدّفاتر...

والشانئ: المبغض وهو فاعل من الشناءة وهي البغض ويقال فيه: الشنآن، وهو يشمل كل مبغض له من أهل الكفر فكلهم بتر من الخير ما دام فيه شنآن للنبيء صلى الله عليه

وسلم فأما من أسلموا منهم فقد انقلب بعضهم محبة له واعتزازاً به . انتهى . ا هـ

﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(187/834)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الكوثر

هذه السورة خالصة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) كسورة الضحى , وسورة الشرح . يسري عنه ربه فيها , ويعده بالخير , ويوعد أعداءه بالبتر , ويوجهه إلى طريق الشكر .

ومن ثم فهي تمثل صورة من حياة الدعوة , وحياة الداعية في أول العهد بمكة . صورة من الكيد والأذى للنبي (صلى الله عليه وسلم) ودعوة الله التي يبشر بها ; وصورة من رعاية الله المباشرة لعبده وللقلة المؤمنة معه ; ومن تثبيت الله وتطمينه وجميل وعده لنبيه ومرهوب وعيده لشانئه .

كذلك تمثل حقيقة الهدى والخير والإيمان . وحقيقة الضلال والشر والكفران . . الأولى كثرة وفيض وامتداد . والثانية قلة وانحسار وانبتار . وإن ظن الغافلون غير هذا وذاك .

.

ورد أن سفهاء قريش ممن كانوا يتابعون الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودعوته بالكيد والمكر وإظهار السخرية والاستهزاء . ليصرفوا جمهرة الناس عن الاستماع للحق الذي جاءهم به من عند الله , من أمثال العاص ابن وائل , وعقبة بن أبي معيط , وأبي لهب , وأبي جهل , وغيرهم , كانوا يقولون عن النبي (صلى الله عليه وسلم) إنه أبتر . يشيرون بهذا إلى موت الذكور من أولاده . وقال أحدهم : دعوه فإنه سيموت بلا عقب وينتهي أمره !

وكان هذا اللون من الكيد اللئيم الصغير يجد له في البيئة العربية التي تتكاثر بالأبناء صدى ووقعا . وتجد هذه الوخزة الهابطة من يهش لها من أعداء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وشانئيه , ولعلها أوجعت قلبه الشريف ومسته بالغم أيضا .

ومن ثم نزلت هذه السورة تمسح على قلبه (صلى الله عليه وسلم) بالروح والندى , وتقرر حقيقة الخير الباقي الممتد الذي اختاره له ربه ; وحقيقة الانقطاع والبتر المقدر لأعدائه .

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2)

(188/834)

(إنا أعطيناك الكوثر) . . والكوثر صيغة من الكثرة . . وهو مطلق غير محدود . يشير إلى عكس المعنى الذي أطلقه هؤلاء السفهاء . . إنا أعطيناك ما هو كثير فائض غزير . غير ممنوع ولا مبتور . . فإذا أراد أحد أن يتتبع هذا الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه فهو واجده حيثما نظر أو تصور .

هو واجده في النبوة . في هذا الاتصال بالحق الكبير , والوجود الكبير . الوجود الذي لا وجود غيره ولا شيء في الحقيقة سواه . وماذا فقد من وجد الله ؟

وهو واجده في هذا القرآن الذي نزل عليه . وسورة واحدة منه كوثر لا نهاية لكثرته , وينبوع ثر لا نهاية لفيضه وغزارته !

وهو واجده في الملأ الأعلى الذي يصلي عليه , ويصلي على من يصلي عليه في الأرض , حيث يقترن اسمه باسم الله في الأرض والسماء .

وهو واجده في سنته الممتدة على مدار القرون , في أرجاء الأرض . وفي الملايين بعد الملايين السائرة على أثره , وملايين الملايين من الألسنة والشفاه الهاتفة باسمه , وملايين الملايين من القلوب المحبة لسيرته وذكراه إلى يوم القيامة .

وهو واجده في الخير الكثير الذي فاض على البشرية في جميع أجيالها بسببه وعن طريقه . سواء من عرفوا هذا الخير فآمنوا به , ومن لم يعرفوه ولكنه فاض عليهم فيما فاض !

وهو واجده في مظاهر شتى , محاولة إحصائها ضرب من تقليلها وتصغيرها !

إنه الكوثر , الذي لا نهاية لفيضه , ولا إحصاء لعوارفه , ولا حد لمدلوله . ومن ثم تركه النص بلا تحديد , يشمل كل ما يكثر من الخير ويزيد . .

وقد وردت روايات من طرق كثيرة أن الكوثر نهر في الجنة أوتيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولكن ابن عباس أجاب بأن هذا النهر هو من بين الخير الكثير الذي أوتيه الرسول . فهو كوثر من الكوثر ! وهذا هو الأنسب في هذا السياق وفي هذه الملابسات .

(فصل لربك وانحر) .

(189/834)

بعد توكيد هذا العطاء الكثير الفائض الكثرة , على غير ما أرجف المرجفون وقال الكائدون , وجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى شكر النعمة بحقها الأول . حق الإخلاص والتجرد لله في العبادة وفي الاتجاه . . في الصلاة وفي ذبح النسك خالصا لله : (فصل لربك وانحر) . . غير ملق بالا إلى شرك المشركين , وغير مشارك لهم في عبادتهم أو في ذكر غير اسم الله على ذبائحهم .

وفي تكرار الإشارة إلى ذكر اسم الله وحده على الذبائح , وتحريم ما أهل به لغير الله , وما لم يذكر اسم الله عليه . . ما يشي بعناية هذا الدين بتخليص الحياة كلها من عقابيل الشرك

وآثاره . لا تخليص التصور والضمير وحدهما . فهو دين الوحدة بكل معنى من معانيها , وكل ظل من ظلالها ; كما أنه دين التوحيد الخالص المجرد الواضح . ومن ثم فهو يتتبع الشرك في كل مظاهره , وفي كل مكامنه ; ويطارده مطاردة عنيفة دقيقة سواء استكن في الضمير , أم ظهر في العبادة , أم تسرب إلى تقاليد الحياة فالحياة وحدة ما ظهر منها وما بطن , والإسلام يأخذها كلا لا يتجزأ , ويخلصها من شوائب الشرك جميعا , ويتجه بها إلى الله خالصة واضحة

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

ناصعة , كما نرى في مسألة الذبائح وفي غيرها من شعائر العبادة أو تقاليد الحياة . .

(إن شانئك هو الأبتر) . .

في الآية الأولى قرر أنه ليس أبتر بل هو صاحب الكوثر . وفي هذه الآية يرد الكيد إلى كائديه , ويؤكد - سبحانه - أن الأبتر ليس هو محمد , إنما هم شانئوه وكارهوه .

ولقد صدق فيهم وعيد الله . فقد انقطع ذكرهم وانطوى . بينما امتد ذكر محمد وعلا . ونحن نشهد اليوم مصداق هذا القول الكريم , في صورة باهرة واسعة المدى كما لم يشهدوه سامعوه الأولون !

إن الإيمان والحق والخير لا يمكن أن يكون أبتر . فهو ممتد الفروع عميق الجذور . وإنما الكفر والباطل والشر هو الأبتر مهما ترعرع وزها وتجبر . .

إن مقاييس الله غير مقاييس البشر . ولكن البشر ينخدعون ويغترون فيحسبون مقاييسهم هي التي تقرر حقائق الأمور ! وأمامنا هذا المثل الناطق الخالد . . فأين الذين كانوا يقولون عن محمد (صلى الله عليه وسلم) قولتهم اللئيمة , وينالون بها من قلوب الجماهير , ويحسبون حينئذ أنهم قد قضوا على محمد وقطعوا عليه الطريق ? أين هم ? وأين ذكراهم , وأين آثارهم ? إلى جوار الكوثر من كل شيء , ذلك الذي أوتيه من كانوا يقولون عنه : الأبتر ? !

إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء ولا أن يكون صاحبها أبتر , وكيف وهي موصولة بالله الحي الباقي الأزلي الخالد ? إنما يبتر الكفر والباطل والشر ويبتر أهله , مهما بدا في لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور . .

وصدق الله العظيم . وكذب الكائدون الماكرون . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 3987.3989﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) ﴾

الكوثر فوعل من الكثرة ، وأعطيناك قرئ : أعطيناك ، بإبدال العين نوناً ، وليست النون مبدلة عن العين ، كإبدال الألف من الواو أو العين في الأجوف ونحوه ، ولكن كلاً منهما أصل بذاته ، وقراءة مستقلة . قاله أبو حيان .

وتختلف في الكوثر .

فقيل : علم .

وقيل : وصف .

وعلى العلمية قالوا : إنه علم على نهر في الجنة ، وعلى الوصف قالوا : الخير الكثير .

ومما استدل به على العلمية ، ما جاء في السنة من الأحاديث الصحاح ، ذكرها ابن كثير وغيره .

وفي صحيح البخاري عن أنس قال : لما عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال : " أتيت نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوف . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر " .

وبسنده أيضاً عن عائشة رضي الله عنها " سئلت عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر ﴾ [الكوثر : 1] ، قالت : هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم ، شاطئاه عليهما

در مجوف ، آنيته كعدد النجوم " .

وبسنده أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الكوثر : هو الخير الذي أعطاه الله إياه .

قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن الناس يزعمون أنه نهر في الجنة ، فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير ، الذي أعطاه الله إياه .

(192/834)

وذكر ابن كثير هذه الأحاديث وغيرها عن أحمد رحمه الله : ومنها بسند أحمد إلى أنس بن مالك قال : " أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة ، فرفع رأسه مبتسماً إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنه نزلت عليَّ أنفاً سورة " فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، حتى ختمها ، فقال : " هل تدرون ما الكوثر " قالوا : الله ورسوله أعلم ؟ قال : " نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أميت يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب يختلج العبد منهم ، فأقول : يا رب إنه من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك " .

وذكر ابن كثير ما جاء في صفة الحوض ، وهذه النصوص على أن الكوثر نهر في الجنة ،

أعطاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم .

وفي الحديث الأخير عن الإمام أحمد قوله : " عليه خير كثير " يشعر بأن معنى الوصفية موجود .

ولذا قال بعض المفسرين : إنه الخير الكثير .

وممن قال ذلك ابن عباس ، كما تقدم في حديث البخاري عنه .

واستدلوا على المعنى ، بقول الشاعر الكميت :

وأنت كثير يا ابن مروان طيب . . . وكان أبوك ابن الفضائل

والذي تطمئن إليه النفس أن الكوثر : هو الخير الكثير ، وأن الحوض أو النهر من جملة ذلك .

وقد أتت آيات تدل على إعطاء الله لرسوله الخير الكثير ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المثاني والقرآن العظيم ﴾ [الحجر : 87] الآية .

وفي القريب سورة الضحى وفيها : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 5] ، أعقبها بنعم جليلة من شرح الصدور ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، واليسر بعد العسر .

وبعدها في سورة التين جعل بلده الأمين ، وأعطى المؤمنين الذين يعملون الصالحات أجراً غير ممنون .

وبعدها سورة اقرأ . امتن عليه القرآن ، وعلمه ما لم يكن يعلم .

وبعدها سورة القدر : أعطاه ليلة خيراً من ألف شهر .

وبعدها سورة البينة : جعل أمته خير البرية ، ومنحهم رضاه عنهم ، وأرضاهم عنه .

وبعدها سورة الزلزلة : حفظ لهم أعمالهم ، فلم يضيع عليهم مثقال الذرة من الخير .

وفي سورة العاديات : أكبر عمل الجهاد ، فأقسم بالعاديات في سبيل الله ، والنصر على الأعداء .

وفي سورة التكاثر : تربيتهم على نعمه ليشكروا ، فيزيدهم من فضله .

وفي سورة العصر : جعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، تؤمن بالله وتعمل الصالحات وتتواصى بالحق وتدعو إليه ، وتتواصى بالصبر ، وتصبر عليه .

وبعدها في سورة قريش : أكرم الله قومه ، فآمنهم وأعطاهم رحلتيهم .

وفي السورة التي قبلها مباشرة ، وهي سورة الماعون : يمكن عمل مقارنة تامة أولاً .

وفي الجملة ، لئن كان المنافقون يمنعون الماعون ، فقد أعطيناك الخير الكثير ، ثانياً .

وعلى التفصيل ففي الأولى ، وصف المنافقين والمكذبين بدع اليتيم ، وفي الضحى قد بين له حق اليتيم ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ [الضحى : 9] ، فكان هو خير موكل ، وخير كافل ، ووصفهم هنا بأنهم لا يحضون على طعام المسكين .

وقد أوضح له في الضحى ، ﴿ وَأَمَّا السآئل فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ [الضحى : 10] ، فكان يؤثر السائل على نفسه ، وهؤلاء ساهون عن صلاتهم يراءون بأعمالهم .

وفي هذه السورة ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ [الكوثر : 2] ، أداء الصلاة وخالصة لربه ، وإطعام المسكين بنحر الهدى والضحية والصدقة ، وكل ذلك خير كثير ، يضاف إلى ما جاءت به السنة ، كما في حديث : " أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة ، وكحلت لي الغنائم ، ولم تكن تحل لأحد قبلي . وكان النَّبي يبعث لقومه خاصة ، فبعث للناس كافة ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل " .

وقوله : " رفع لي عن أمتي الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه " .

(194/834)

وفي قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذين مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ واعف عَنَّا واغفر لَنَا وارحمنآ أَنتَ مَوْلاَنَا فانصرنا عَلَى القوم الكافرين ﴾ [البقرة : 286] .

قال صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى قال : قد فعلت ، قد فعلت " .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عسى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً ﴾ [الإسراء : 79] ، وهو المقام الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون .

إلى غير ذلك من النصوص ، بما يؤكد قول ابن عباس ، عند البخاري : إن الكوثر : الخير الكثير .

وأن النهر في الجنة من هذا الكوثر الذي أعطيه صلى الله عليه وسلم .

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2)

في هذا مع ما قبله ربط بين النعم وشكرها ، وبين العبادات وموجبها ، فكما أعطاه الكوثر فليصل لربه سبحانه ولينحر له ، كما تقدم في سورة لإيلاف قريش ، في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 3-4] .

وهناك ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر ﴾ [الكوثر : 1] ، وهو أكثر من رحلتيهم وأمنهم ، ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ مقابل ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت ﴾ [قريش : 3] .

وقيل : إنه لما كان في السورة قبلها بيان حال المنافقين في السهو عن الصلاة والرياء في العمل ، جاء هنا بالقدوة الحسنة ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ مخلصاً له في عبادتك ، كما تقدم في السورة قبلها ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَا ﴾ [الكهف : 110] .

وقوله تعالى في تعليم الأمة ، في خطاب شخصه صلى الله عليه وسلم ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : 65] ، مع عصمته صلى الله عليه وسلم من أقل من ذلك ، والصلاة عامة والفريضة أخصها .

وقيل : صلاة العيد ، والنحر : قيل فيه أقوال عديدة :

أولها : في نهر الهدى أو نحر الضحية : وهي مرتبطة بقول من حمل الصلاة على صلاة العيد ، وأن النحر بعد الصلاة كما في حديث البراء بن عازب " لما ضحى قبل أن يلي ، وسمع النّبي صلى الله عليه وسلم يحث على الضحية بعد الصلاة ، فقال : إني علمت اليوم يوم لحم فعجلت بضحيتي ، فقال له : " شاتك شاة لحم ؟ " فقال : إن عندنا لعناقاً أحب إلينا من شاة ، أتجزئ عني ؟ قال : " اذبحها ، ولن تجزئ عن أحد غيرك " .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مبحث الضحية وافياً عند قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾ [الحج : 28] ، وقد ذكروا في معاني : وانحر : أي ضع يدك اليمنى على اليسرى على نحرك في الصلاة ، وهذا مروي عن علي رضي الله عنه .

وأقوال أخرى ليس عليها نص.

والنحر: هو طعن الإبل في اللبة عند المنحر ملتقى الرقبة، بالصدر.

وأصح الأقوال في الصلاة.

وفي النحر هو ما تقدم من عموم الصلاة وعموم النحر أو الذبح لما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الأنعام: 162].

واتفق الفقهاء أن النحر للإبل، والذبح للغنم، والبقر متردد فيه بين النحر والذبح، وأجمعوا على أن ذلك هو الأفضل، ولو عمم النحر في الجميع، أو عمم الذبح في الجميع لكان جائزاً، ولكنه خلاف السنة.

(196/834)

وقالوا: إن الحكمة في تخصيص الإبل بالنحر، وهو طول العنق، إذ لو ذبحت لكان مجرى الدم من القلب إلى محل الذبح بعيداً فلا يساعد على إخراج جميع الدم بيسر، بخلاف النحر في المنحر، فإنه يقرب المسافة ويساعد القلب على دفع الدم كله، أما الغنم فالذبح مناسب لها، والعلم عند الله تعالى.

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

قال البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما : شانؤك : عدوك اه .

والأبتر : هو الأقطع الذي لا عقب له .

وأنشد أبو حيان، قول الشاعر :

لئيم بدت في أنفه خنزوانة . . . على لاقطع ذي القربى أجذ أباتر

وقال : شانئك : مبغضك .

وفي هذه الآية يخبر سبحانه وتعالى : أن مبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الأقطع .

فقيل : نزلت في العاصي بن وائل .

قال لقريش : دعوة، فإنه أبتر لا عقب له، إذا مات استرحم، فأنزلها الله تعالى رداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء مصداقها بالفعل في قوله تعالى : في غزوة بدر في قوله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكافرين ﴾ [الأنفال : 7] .

فقتل صناديد قريش، وصدق الوعيد فيهم .

ومثله عموم قوله تعالى : ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القوم الذين ظَلَمُواْ والحمد للَّهِ رَبِّ العالمين ﴾ [الأنعام : 45] .

وجاء : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : 1] .

فهي في معناها أيضاً .

وبقي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في عقبه من آل بيته ، وفي أمته كلها .

كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح: 4] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

(197/834)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمرو بن ميمون قال : لما طعن عمر وماج الناس تقدم عبد الرحمن بن عوف فقرأ بأقصر سورتين في القرآن ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ و ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ [النصر : 1] .

وأخرج البيهقي عن ابن شبرمة قال : ليس في القرآن سورة أقل من ثلاث آيات .

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال: نهر في بطنان الجنة حافتاه قباب الدر والياقوت فيه أزواجه وخدمه. قال: وبأي شيء ذكر ذلك؟ قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل من باب الصفا وخرج من باب المروة، فاستقبله العاص بن واثل السهمي، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له قريش: من استقبلك يا أبا عمرو آنفاً؟ قال: ذلك الأبتر، يريد به النبي صلى الله عليه وسلم، حتى أنزل الله هذه السورة ﴿ إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر ﴾ يعني عدوك العاص بن وائل هو الأبتر من الخير لا أذكر في مكان إلا ذكرت معي يا محمد، فمن ذكرني ولم يذكرك ليس له في الجنة نصيب، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت حسان بن ثابت يقول:

وحباه الإِله بالكوثر... الأكبر فيه النعيم والخيرات

(198/834)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال: "أغفي رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة، فرفع رأسه متبسماً فقال: "إنه نزلت عليّ آنفاً سورة فقرأ ﴿ بسم الله الرحمن

الرحيم إنا أعطيناك الكوثر ﴾ حتى ختمها ، قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : هو نهر أعطانيه ربي في الجنة عليه خير كثير ترده أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم فأقول يا رب إنه من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدث بعدك " " .

وأخرج مسلم والبيهقي من وجه آخر بلفظ ثم رفع رأسه فقرأ إلى آخر السورة ، قال البيهقي والمشهور فيما بين أهل التفاسير والمغازي أن هذه السورة مكية وهذا اللفظ لا يخالفه فيشبه أن يكون أولى .

وأخرج الطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ .

وأخرج أحمد وابن المنذر وابن مردويه عن أنس أنه قرأ هذه الآية ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" أعطيت الكوثر فإذا هو نهر في الجنة يجري ولم يشق شقاً ، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ فضربت بيدي إلى تربته فإذا هو مسكة ذفرة وإذا حصاه اللؤلؤ " .

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دخلت الجنة فإذا أنا بنهر

حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء ، فإذا مسك اذفر . قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاكه الله " .

(199/834)

وأخرج أحمد والترمذي وابن جرير وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن أنس : " أن رجلاً قال يا رسول الله : ما الكوثر ؟ قال : نهر في الجنة أعطانيه ربي لهو أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر . قال عمر : يا رسول الله إنها لناعمة . قال : آكلها أنعم منها يا عمر " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : " دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قد أعطيت الكوثر ، قلت يا رسول الله : ما الكوثر ؟ قال : نهر في الجنة عرضه وطوله ما بين المشرق والمغرب لا يشرب منه أحد فيظمأ ولا يتوضأ منه أحد فيتشعث أبداً ، لا يشرب منه من أخفر ذمتي ولا من قتل أهل بيتي " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عطاء بن السائب قال : قال لي محارب بن دثار ما قال سعيد بن جبير في الكوثر ؟ قلت : حدثنا عن ابن عباس أنه الخير الكثير . فقال : صدقت والله إنه للخير

الكثير، ولكن حدثنا ابن عمر قال: نزلت ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب يجري على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل".

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وابن جرير وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عن قوله تعالى: ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قالت: هو نهر أعطيه نبيكم صلى الله عليه وسلم في بطنان الجنة شاطئاه عليه در مجوّف فيه من الآنية والأباريق عدد النجوم.

وأخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال: الخير الكثير. وقال أنس بن مالك: نهر في الجنة، وقالت عائشة: هو نهر في الجنة ليس أحد يدخل أصبعيه في أذنيه إلا سمع خرير ذلك النهر.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أوتيت الكوثر آنيته عدد النجوم".

(200/834)

وأخرج ابن مردويه عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله.

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾

قال : نهر أعطاه الله محمداً في الجنة .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب وفضة يجري على الياقوت والدر ، وماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال : نهر في الجنة عمقه سبعون ألف فرسخ ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، شاطئاه الدر والياقوت والزبرجد خص الله به نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم دون الأنبياء .

وأخرج البخاري وابن جرير والحاكم من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : الكوثر الخير الذي أعطاه الله إياه . قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جبير : فإن ناساً يزعمون أنه نهر الجنة قال : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه .

وأخرج الطبراني في الأوسط عن حذيفة في قوله : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال : نهر في الجنة أجوف فيه آنية من الذهب والفضة لا يعلمها ألا الله .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أسامة بن زيد : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى حمزة بن عبد المطلب يوماً فلم يجده فسأل امرأته عنه ؟ فقالت : خرج آنفاً أو لا تدخل يا رسول الله ؟ فدخل فقدمت له حيساً فأكل فقالت : هنيئاً لك يا رسول الله ومريئاً لقد

جئت وأنا أريد أن آتيك فأهنيك وأمريك ، أخبرني أبو عمارة أنك أعطيت نهراً في الجنة يدعى الكوثر فقال : أجل وأرضه ياقوت ومرجان وزبرجد ولؤلؤ " .

(201/834)

وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده : " أن رجلاً قال يا رسول الله : ما الكوثر ؟ قال : نهر من أنهار الجنة أعطانيه الله عرضه ما بين إيلة وعدن . قال : يا رسول الله أله طين أو حال . قال : نعم المسك الأبيض . قال : له رضراض حصى ؟ قال : نعم رضراضه الجوهر وحصباؤه اللؤلؤ . قال : أله شجر ؟ قال : نعم ، حافتاه قضبان ذهب رطبة شارعة عليه . قال : ألتلك القضبان ثمار ؟ قال : نعم تنبت أصناف الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر ، فيه أكواب وآنية وأقداح تسعى إلى من أراد أن يشرب منها منتشرة في وسطه كأنها الكوكب الدري " .

وأخرج ابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه في قوله : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال : نهر في الجنة حافتاه قباب الدر فيه أزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج هناد وابن جرير عن عائشة رضي الله عنها قالت : من أحب أن يسمع خرير الكوثر فليجعل أصبعيه في أذنيه .

وأخرج ابن جرير وابن عساكر عن مجاهد رضي الله عنه قال : الكوثر خير الدنيا والآخرة .

وأخرج هناد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن عساكر عن عكرمة رضي الله عنه قال : الكوثر ما أعطاه الله من النبوّة والخير والقرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : الكوثر القرآن .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب قال : " لما نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال : النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل : ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي ؟ قال : إنها ليست بنحيرة ، ولكن يأمرك إذا تحرمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من الركوع ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين هم في السموات السبع ، وإن لكل شيء زينة وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة . قال النبي صلى الله عليه وسلم : رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله : ﴿ فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ [المؤمنون : 76] " .

وأخرج ابن جرير عن أبي جعفر في قوله : ﴿ فصل لربك ﴾ قال : الصلاة ﴿ وانحر ﴾ قال : يرفع يديه أول ما يكبر في الافتتاح .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قال : إن الله أوحى إلى رسوله أن ارفع يديك حذاء نحرك إذا كبرت للصلاة فذاك النحر .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف والبخاري في تاريخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني في الافراد وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قال : وضع يده اليمنى على وسط ساعده اليسرى ثم وضعهما على صدره في الصلاة .

وأخرج أبو الشيخ والبيهقي في سننه عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن شاهين في السنة وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قال : وضع اليمنى على الشمال عند التحرم في الصلاة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قال : إذا صليت فرفعت رأسك من الركوع فاستو قائماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي الأحوص ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قال : استقبل القبلة بنحرك .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قال : صلي لربك الصلاة المكتوبة واسأل .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عكرمة رضي الله عنه ﴿ فصل لربك ﴾ قال : اشكر لربك .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال : كانت هذه الآية يوم الحديبية أتاه جبريل فقال انحر وارجع ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب خطبة الأضحى ، ثم ركع ركعتين ، ثم انصرف إلى البدن فنحرها ، فذلك حين يقول : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد وعطاء وعكرمة ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قالوا : صلاة الصبح بجمع ونحر البدن بمنى .

(203/834)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ وانحر ﴾ قال : الصلاة المكتوبة والذبح يوم الأضحى .

وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ قال : الأضحى والنحر نحر البدن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء ﴿ فصل لربك ﴾ قال : صلاة العيد .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ﴿ وانحر ﴾ قال : البدن .

وأخرج ابن جرير عن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم ينحر قبل أن يصلي فأمر أن يصلي ثم ينحر .

وأخرج البيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وانحر ﴾ قال : يقول فادع يوم النحر .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : لما أوحى الله تعالى إلى النبي صلى الله عليه وسلم قالت قريش : بتر محمد منا فنزلت ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ .

وأخرج البزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت خير أهل المدينة وسيدهم ألا ترى إلى هذا الصابىء المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة ؟ قال : أنتم خير منه . فنزلت ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ ونزلت ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ﴾ [النساء : 51] إلى قوله : ﴿ فلن تجد له نصيراً ﴾ [النساء : 52] .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أبي أيوب قال : لما مات إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم مشى المشركون بعضهم إلى بعض فقالوا : إن هذا الصابىء قد بتر الليلة ، فأنزل الله ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج ابن سعد وابن عساكر من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : كان

أكبر ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم القاسم ثم زينب ثم عبد الله ثم أم كلثوم ثم فاطمة ثم رقية ، فمات القاسم وهو أول ميت من ولده بمكة ، ثما مات عبد الله ، فقال العاصي بن وائل السهمي : قد انقطع نسله فهو أبتر ، فأنزل الله ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ .

(204/834)

وأخرج ابن عساكر من طريق ميمون بن مهران عن ابن عباس قال : ولدت خديجة من النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ، ثم أبطأ عليه الولد من بعده ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يكلم رجلاً والعاصي بن وائل ينظر إليه إذ قال له رجل : من هذا ؟ قال : هذا الأبتر يعني النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانت قريش إذا ولد للرجل ثم أبطأ عليه الولد من بعده قالوا هذا الأبتر ، فأنزل الله ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ أي مبغضك هو الأبتر الذي بتر من كل خير .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن محمد بن علي قال : كان القاسم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بلغ أن يركب على الدابة ويسير على النجيبة ، فلما قبضه الله قال عمرو بن العاصي : لقد أصبح محمد أبتر من ابنه ، فأنزل الله ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ عوضاً يا محمد عن مصيبتك بالقاسم ﴿ فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر ﴾ قال البيهقي :

هكذا روي بهذا الإِسناد وهو ضعيف والمشهور أنها نزلت في العاصي بن وائل .

وأخرج الزبير بن بكار وابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : توفي القاسم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو آت من جنازته ، على العاصي بن وائل وابنه عمرو فقال حين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأشنؤه فقال العاصي بن وائل : لا جرم لقد أصبح أبتر ، فأنزل الله ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ قال : هو العاصي بن وائل .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه قال : كانت قريش تقول إذا مات ذكور الرجل : بتر فلان ، فلما مات ولد النبي صلى الله عليه وسلم قال العاصي بن وائل : بتر ، والأبتر الفرد .

وأخرج ابن المنذر وابن جرير وعبد الرزاق وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ إن شانئك ﴾ يقول : عدوّك .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطاء ﴿ إن شانئك ﴾ قال : أبو جهل .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن شهر بن عطية عن إبراهيم قال : كان عقبة بن أبي معيط يقول : إنه لا يبقى للنبي صلى الله عليه وسلم ولد وهو أبتر ، فأنزل الله فيه ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 646.653 ﴾

(206/834)

من فوائد الإمام الجصاص في السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْكَوْثَرِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّك وَانْحَرْ ﴾ ؛

قَالَ الْحَسَنُ : " صَلَاةُ يَوْمِ النَّحْرِ وَنَحْرُ الْبُدْنِ " وَقَالَ عَطَاءٌ وَمُجَاهِدٌ : " صَلِّ الصُّبْحَ بِجَمْعٍ وَانْحَرْ الْبُدْنَ بِمِنًى " .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَهَذَا التَّأْوِيلُ يَتَضَمَّنُ مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : إيجَابُ صَلَاةِ الْأَضْحَى ، وَالثَّانِي : وُجُوبُ الْأُضْحِيَّةِ ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ فِيمَا سَلَفَ .

وَرَوَى حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ الْجَحْدَرِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيٍّ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّك وَانْحَرْ ﴾ قَالَ : وَضْعُ الْيَدِ الْيُمْنَى عَلَى السَّاعِدِ الْأَيْسَرِ ثُمَّ وَضْعُهُ عَلَى صَدْرِهِ " .

وروى أبو الْجوزاء عن ابن عبّاس: ﴿ فصل لربّك وانحر ﴾ قال: "وضع اليمين على الشّمال عند النّحر في الصّلاة".

وروي عن عطاء أنّه رفع اليدين في الصّلاة.

وقال الفرّاء: "يقال: استقبل القبلة بنحرك".

(207/834)

فإن قيل: يبطل التّأويل الأوّل حديث البراء بن عازب قال: ﴿ خرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يوم الأضحى إلى البقيع، فبدأ فصلّى ركعتين، ثمّ أقبل علينا بوجهه وقال: إنّ أوّل نسكنا في يومنا هذا أن نبدأ بالصّلاة ثمّ نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد وافق سنّتنا، ومن ذبح قبل ذلك فإنّما هو لحم عجّله لأهله ليس من النّسك في شيء ﴾، فسمّى صلاة العيد والنّحر سنّة، فدلّ على أنّه لم يؤمر بهما في الكتاب.

قيل له: ليس كما ظننت؛ لأنّ ما سنّه اللّه وفرضه فجائز أن نقول: هذا سنّتنا وهذا فرضنا كما نقول: هذا ديننا، وإن كان اللّه فرضه علينا، وتأويل من تأوّله على حقيقة نحر البدن أولى؛ لأنّه حقيقة اللّفظ ولأنّه لا يعقل بإطلاق اللّفظ غيره؛ لأنّ من قال: نحر فلان اليوم؛ عقل منه

نَحْرُ الْبُدْنِ وَلَمْ يُعْقَلْ مِنْهُ وَضْعُ الْيَمِينِ عَلَى الْيَسَارِ ؛ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ الْأَوَّلُ اتِّفَاقُ الْجَمِيعِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَضَعُ يَدَهُ عِنْدَ النَّحْرِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَضْعُ الْيَمِينِ عَلَى الْيَسَارِ أَسْفَلَ السُّرَّةِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَضَعُ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ فِي الصَّلَاةِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ .

آخِرُ السُّورَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(208/834)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

[فِيهَا آيَتَانِ]

الْآيَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّا أَعْطَيْنَاك الْكَوْثَرَ ﴾ : ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ جِبْرِيلَ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ إنَّا أَعْطَيْنَاك الْكَوْثَرَ ﴾ ﴾ .

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَيْسَتْ آيَةً مِنْ الْفَاتِحَةِ وَلَا مِنْ سُوَرِ الْقُرْآنِ ، وَإِنَّمَا هِيَ

وَاحِدَةٌ مِنْ الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ النَّمْلِ قَوْلُهُ : ﴿ إنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَائْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ بِمَا يُغْنِي عَنْ إعَادَتِهِ هَاهُنَا ، وَاسْتَوْفَيْنَاهُ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ مِنْ التَّلْخِيصِ وَالْإِنْصَافِ .

الْآيَةُ الثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّك وَانْحَرْ ﴾ فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَصَلِّ ﴾ فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ اُعْبُدْ .

الثَّانِي : صَلِّ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ .

الثَّالِثُ : صَلِّ يَوْمَ الْعِيدِ .

الرَّابِعُ : صَلِّ الصُّبْحَ بِجَمْعٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا اجْعَلْ يَدَك عَلَى نَحْرِك إذَا صَلَّيْت .

الثَّانِي : انْحَرْ الْبُدْنَ وَالضَّحَايَا .

(209/834)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ فِي تَحْقِيقِ الْمُرَادِ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لِهَذِهِ الْآيَةِ : أَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهَا الْعِبَادَةُ فَاحْتَجَّ بِأَنَّهَا أَصْلُ الصَّلَاةِ لُغَةً وَحَقِيقَةً عَلَى كُلِّ مَعْنًى ، وَبِكُلِّ اشْتِقَاقٍ ، فَكَأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى لَهُ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَاعْبُدْ رَبَّكَ وَلَا تَعْبُدْ غَيْرَهُ ، وَانْحَرْ لَهُ وَلَا تَنْحَرْ لِسِوَاهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْأَنْصَابِ حَسْبَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ الْعَرَبُ وَقُرَيْشٌ فِي جَاهِلِيَّتِهَا .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهَا الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فَلِأَنَّهَا رُكْنُ الْعِبَادَاتِ ، وَقَاعِدَةُ الْإِسْلَامِ ، وَأَعْظَمُ دَعَائِمِ الدِّينِ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إِنَّهَا صَلَاةُ الصُّبْحِ بِالْمُزْدَلِفَةِ فَلِأَنَّهَا مَقْرُونَةٌ بِالنَّحْرِ ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَلَا صَلَاةَ فِيهِ قَبْلَ النَّحْرِ غَيْرَهَا ، فَخَصَّصَهَا مِنْ جُمْلَةِ الصَّلَوَاتِ لِاقْتِرَانِهَا بِالنَّحْرِ ، فَأَمَّا مَالِكٌ فَقَالَ : مَا سَمِعْتُ فِيهِ شَيْئًا .

وَالَّذِي يَقَعُ فِي نَفْسِي أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ صَلَاةُ الصُّبْحِ يَوْمَ النَّحْرِ وَالنَّحْرُ بَعْدَهَا .

قَالَ الْقَاضِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَدْ سَمِعْنَا فِيهِ أَشْيَاءَ ، وَرَوَيْنَا مَحَاسِنَ : قَالَ عَلِيٌّ : قَوْلُهُ : فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ .

قَالَ : ضَعْ يَدَكَ الْيُمْنَى عَلَى سَاعِدِكَ [الْيُسْرَى] ثُمَّ ضَعْهُمَا عَلَى نَحْرِكَ قَالَهُ [ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَقَالَهُ] أَبُو الْجَوْزَاءِ .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : قَوْلُهُ : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ يَوْمَ النَّحْرِ .

وَقَالَ الْحَكَمُ : قَوْلُهُ : ﴿ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ صَلَاةُ الْفَجْرِ وَالنَّحْرِ .

وَعَنْ جعْفَرِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ ، النَّحْرُ النَّحْرُ .

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ : الصَّلَاةُ رَكْعَتَانِ يَوْمَ النَّحْرِ بِمِنًى ثُمَّ اذْبَحْ .

وَقَالَ عَطَاءٌ : مَوْقِفُهُمْ بِجَمْعٍ صَلَاتِهِمْ ، وَالنَّحْرُ النَّحْرُ .

قَالَ مُجَاهِدٌ : النَّحْرُ لَنَا وَالذَّبْحُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ .

وَقَالَ عَطَاءٌ : إِنْ شَاءَ ذَبَحَ ، وَإِنْ شَاءَ نَحَرَ .

وَقَالَ عَطَاءٌ أَيْضًا : فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ : إِذَا صَلَّيْتَ الصُّبْحَ فَانْحَرْ .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ : إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَلَا تَكُنْ صَلَاتُكَ وَلَا نَحْرُكَ إِلَّا لِلَّهِ .

وَرَوَى أَبُو مُعَاوِيَةَ الْبَجَلِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّ سَبَبَ هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ يَوْمُ الْحُدَيْبِيَةِ ؛ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ : انْحَرْ وَارْجِعْ .

فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَطَبَ خُطْبَةَ الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى ، ثُمَّ رَكَعَ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْبُدْنِ فَنَحَرَهَا ؛ فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ ﴾ .

قَالَ قَتَادَةُ : صَلَاةُ الْأَضْحَى وَالنَّحْرُ نَحْرُ الْبُدْنِ .

فَهَذِهِ أَقْوَالُ أَقْرَانِ مَالِكٍ وَمُتَقَدِّمِيهِ فِيهَا كَثِيرٌ .

وَقَدْ تَرَكْنَا أَمْثَالَهَا .

وَالَّذِي أَرَادَ مَالِكٌ أَنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ الْأَقْرَانِ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالنَّحْرِ ، وَلَا يَقْرُنَانِ إلَّا يَوْمَ النَّحْرِ ، وَالِاسْتِدْلَالُ بِالْقُرْآنِ ضَعِيفٌ فِي نَفْسِهِ مَا لَمْ يَعْتَضِدْ بِدَلِيلٍ مِنْ غَيْرِهِ .

(211/834)

وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّهُ أَرَادَ : اُعْبُدْ رَبَّك وَانْحَرْ لَهُ ، وَلَا يَكُنْ عَمَلُك إلَّا لِمَنْ خَصَّك بِالْكَوْثَرِ ، وَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ الْعَمَلِ يُوَازِي هَذِهِ الْخَصِيصَةَ مِنْ الْكَوْثَرِ ، وَهُوَ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ الَّذِي أَعْطَاك اللَّهُ إيَّاهُ ، أَوْ النَّهْرُ الَّذِي طِينَتُهُ مِسْكٌ ، وَعَدَدُ آنِيَتِهِ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ ، أَمَّا أَنْ يُوَازِيَ هَذَا صَلَاةَ يَوْمِ النَّحْرِ وَذَبْحَ كَبْشٍ أَوْ بَقَرَةٍ أَوْ بَدَنَةٍ فَذَلِكَ بَعِيدٌ فِي التَّقْدِيرِ وَالتَّدْبِيرِ وَمُوَازَنَةِ الثَّوَابِ لِلْعِبَادِ .

إذَا ثَبَتَ هَذَا فَلَا بُدَّ أَنْ نُفَرِّغَ عَلَى قَالَبِ الْقَوْلَيْنِ وَنَنْسِجَ عَلَى مِنْوَالِ الْفَرِيقَيْنِ ، فَنَقُولُ : أَمَّا إذَا قُلْنَا إنَّ الْمُرَادَ بِهِ النَّحْرُ يَوْمَ الضُّحَى فَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ وَسَبَبُهُ فِي سُورَةِ " وَالصَّافَّاتِ " وَغَيْرِهَا .

وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ قِصَّةُ إبْرَاهِيمَ فِي وَلَدِهِ إسْمَاعِيلَ ، وَمَا بَيَّنَهُ اللَّهُ فِيهِ لِلْأُمَّةِ ، وَجَعَلَهُ لَهُمْ قُدْوَةً ، وَشَرَعَ تِلْكَ الْمِلَّةَ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ : الْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَنَّهَا وَاجِبَةٌ ؛ قَالَهُ أَبُو حَنِيفَةَ ، وَابْنُ

حَبِيبٍ .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ : إنْ اشْتَرَاهَا وَجَبَتْ .

وَهُوَ الثَّانِي .

الثَّالِثِ أَنَّهَا سُنَّةٌ وَاجِبَةٌ ؛ قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْمَوَّازِ .

الرَّابِعِ أَنَّهَا سُنَّةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ ، وَهُوَ أَشْهَرُ الْأَقْوَالِ عِنْدَنَا .

(212/834)

وَقِيلَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ : الْأُضْحِيَّةُ وَاجِبَةٌ هِيَ ؟ فَقَالَ : ضَحَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَحَّى الْمُسْلِمُونَ ، كَمَا قَالَ : أَوْتَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَوْتَرَ الْمُسْلِمُونَ .

وَتَعَلَّقَ مَنْ أَوْجَبَهَا بِقَوْلِهِ : { فَصَلِّ لِرَبِّك وَانْحَرْ } ، وَبِقَوْلِهِ : { مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبْرَاهِيمَ } .

وَقَدْ تَقَرَّبَ بِدَمٍ وَاجِبٍ فِي يَوْمِ النَّحْرِ ، فَلْيَتَقَرَّبْ كُلُّ مَنْ كَانَ عَلَى مِلَّتِهِ بِدَمٍ وَاجِبٍ ؛ لِأَنَّ الْجَمِيعَ قَدْ أُلْزِمَ الْمِلَّةَ الْمَذْكُورَةَ .

وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ : { عَلَى أَهْلِ كُلِّ بَيْتٍ أَضْحَاةٌ وَعَتِيرَةٌ } .

وَالْعَتِيرَةُ هِيَ الرَّجَبِيَّةُ .

﴿ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي بُرْدَةَ بْنِ نِيَارٍ حِينَ ذَبَحَ الْجَذَعَةَ فِي الْأُضْحِيَّةِ : تَجْزِيك ، وَلَنْ تَجْزِيَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَك ﴾ .

وَلَا يُقَالُ تَجْزِي إلَّا فِي الْوَاجِبِ .

قُلْنَا : أَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّك وَانْحَرْ ﴾ فَقَدْ بَيَّنَّا اخْتِلَافَ النَّاسِ فِيهِ ، وَمَا اخْتَرْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ فَلِاحْتِمَالِهِ تَسْقُطُ الْحُجَّةُ مِنْهُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ ﴾ فَمِلَّةُ أَبِينَا إبْرَاهِيمَ تَشْتَمِلُ عَلَى فَرَائِضَ وَفَضَائِلَ وَسُنَنٍ ، وَلَا بُدَّ فِي تَعْيِينِ كُلِّ قِسْمٍ مِنْهَا مِنْ دَلِيلٍ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ تَجْزِيك وَلَنْ تَجْزِيَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَك ﴾ ، فَكَذَلِكَ يُقَالُ تَجْزِيك فِي السُّنَّةِ كَمَا يُقَالُ فِي الْفَرْضِ ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ شَرْعُهُ ، وَفِيهِ شَرْطُهُ ، وَمِنْهُ إجْزَاؤُهُ أَوْ رَدُّهُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ عَلَى أَهْلِ كُلِّ بَيْتٍ أَضْحَاةٌ وَعَتِيرَةٌ ﴾ فَيُعَارِضُهُ حَدِيثُ شُعْبَةَ عَنْ مَالِكٍ خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ : ﴿ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ هِلَالَ ذِي الْحِجَّةِ ، وَأَرَادَ أَنْ يُضَحِّيَ فَلَا يَحْلِقَنَّ شَعْرًا ، وَلَا يَقْلِمَنَّ ظُفُرًا حَتَّى يَنْحَرَ ضَحِيَّتَهُ ﴾ .

فَعَلَّقَ الْأُضْحِيَّةَ بِالْإِرَادَةِ ، وَالْوَاجِبُ لَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا ؛ بَلْ هُوَ فَرْضٌ أَرَادَ الْمُكَلَّفُ أَوْ لَمْ يُرِدْ .

وَقَدْ رَوَى النَّسَائِيّ ، وَأَبُو دَاوُد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ أُمِرْت بِيَوْمِ الْأَضْحَى ، عِيدٌ جَعَلَهُ اللَّهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ .

قَالَ رَجُلٌ : أَرَأَيْت إنْ لَمْ أَجِدْ إلَّا مَنِيحَةَ أَهْلِي أُضَحِّي بِهَا ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِك وَأَظَافِرِك ، وَتَقُصُّ شَارِبَك ، وَتَحْلِقُ عَانَتَك ؛ فَذَلِكَ تَمَامُ أُضْحِيَّتِك ﴾ .

قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْعَرَبِيِّ : أَنْبَأَنَا قِرَاءَةً عَلَيْهِ عَنْ أَبِي يُوسُفَ الْبَغْدَادِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ عُثْمَانَ ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ هَارُونَ الْحَضْرَمِيُّ ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ ، حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ عَنْ مُطَرِّفٍ ، عَنْ عَامِرِ بْنِ حُذَيْفَةَ بْنِ أُسَيْدَ ، قَالَ : لَقَدْ رَأَيْت أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَهُمَا يُضَحِّيَانِ عَنْ أَهْلِهِمَا خَشْيَةَ أَنْ يُسْتَنَّ بِهِمَا .

(214/834)

قَالَ : فَلَمَّا جِئْت بِلَادَكُمْ هَذِهِ حَمَلَنِي أَهْلِي عَلَى الْجَفَاءِ بَعْدَ مَا عَلِمْت السُّنَّةَ ، فَقَدْ تَعَارَضَتْ الْأَدِلَّةُ ، وَالْأَصْلُ بَرَاءَةُ الذِّمَّةِ ، وَهَذَا مُحَقَّقٌ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَهَذَا الْقَدْرُ يَكْفِي مِنْ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ عَجِيبِ الْأَمْرِ أَنَّ الشَّافِعِيَّ قَالَ : إنَّ مَنْ ضَحَّى قَبْلَ الصَّلَاةِ أَجْزَأَهُ ، وَاَللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّك وَانْحَرْ ﴾ فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ النَّحْرِ .

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْضًا فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ ، وَعَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ، قَالَ : ﴿ أَوَّلُ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ ، ثُمَّ نَرْجِعَ فَنَنْحَرَ ؛ مَنْ فَعَلَ فَقَدْ أَصَابَ نُسُكَنَا ، وَمَنْ ذَبَحَ قَبْلُ فَإِنَّمَا هُوَ لَحْمٌ قَدَّمَهُ لِأَهْلِهِ ، لَيْسَ مِنْ النُّسُكِ فِي شَيْءٍ ﴾ .

وَأَصْحَابُهُ يُنْكِرُونَهُ ، وَحَبَّذَا الْمُوَافَقَةُ ؛ وَبَقِيَّةُ مَسَائِلِ الْأَضَاحِيِّ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ ، وَشَرْحِ الْحَدِيثِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ وَأَمَّا [إنْ قُلْنَا] إنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ وَانْحَرْ ﴾ ضَعْ يَدَك عَلَى نَحْرِك ، فَقَدْ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ عُلَمَاؤُنَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ لَا تُوضَعُ فِي فَرِيضَةٍ وَلَا نَافِلَةٍ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الِاعْتِمَادِ ، وَلَا يَجُوزُ فِي الْفَرْضِ ، وَلَا يُسْتَحَبُّ فِي النَّفْلِ .

الثَّانِي : أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهَا فِي الْفَرِيضَةِ ، وَيَفْعَلُهَا فِي النَّافِلَةِ ، اسْتِعَانَةً ، لِأَنَّهُ مَوْضِعُ تَرَخُّصٍ .

(215/834)

الثَّالِثُ يَفْعَلُهَا فِي الْفَرِيضَةِ وَفِي النَّافِلَةِ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ وَائِلِ بْنِ الْأَوْزَاعِيِّ أَنَّهُ ﴿ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ حِينَ يَدْخُلُ فِي الصَّلَاةِ حِيَالَ أُذُنَيْهِ ، ثُمَّ الْتَحَفَ بِثَوْبِهِ ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَى الْيُسْرَى ﴾ الْحَدِيثَ .

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ ، ﴿ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ : كَانَ النَّاسُ يُؤْمَرُونَ أَنْ يَضَعَ الرَّجُلُ يَدَهُ

الْيُمْنَى عَلَى ذِرَاعِهِ الْيُسْرَى فِي الصَّلَاةِ ﴾ .

قَالَ أَبُو حَازِمٍ : لَا أَعْلَمُهُ يَنْمِي ذَلِكَ إِلَّا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(216/834)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الكوثر

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1)

قوله : ﴿ أَعْطَيْنَاكَ ﴾ : قرأ الحسن وابن محيصن وطلحة والزعفراني " أَنْطَيْناك " قال الرازيُّ والتبريزيُ : " أبدل من العين نوناً ، فإنْ عَنَيا البدل الصناعيَّ فليس بمُسَلَّمٍ ؛ لأنَّ كلاً من المادتَيْن مستقلةٌ بنفسِها بدليل كمال تَصْريفِهما ، وإنْ عَنَيا بالبدل أنَّ هذه وقعَتْ موقعَ هذه لغةً فقريبٌ ، ولا شك أنها لغةٌ ثابتةٌ . قال التبريزي : " هي لغةُ العرب العاربةِ مِنْ أُوْلي قُرَيْشٍ " وفي الحديث عنه صلَّى الله عليه وسلَّم : " اليدُ العليا المُنْطِيَةُ ، واليدُ السفلى المُنْطاة " وقال الشاعر - هو الأعشى - :

4658 جِيادُكَ خيرُ جيادِ الملوكِ . . . تُصانُ الجِلالَ وتُنْطِي الشَّعيرا

والكَوْثر : فَوْعَل من الكَثْرَة ، وصفُ مبالغةٍ في المُفْرِطِ الكثرة . قال الشاعر :

4659 وأنت كثيرُ يا بنَ مروانَ طَيِّبٌ . . . وكان ابوكَ ابنَ العَقائلِ كَوْثَرا

وسُئِلَتْ أعرابيَّةٌ عن ابنها : بِمَ آبَ ابْنُكِ ؟ فقالت : " آب بكَوْثَرٍ " أي : بخيرٍ كثيرٍ .

فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2)

قوله : ﴿ وانحر ﴾ : أمرٌ من النَّحْر وهو الإِبِلِ بمنزلة الذَّبْحِ في البقر والغنم . وقيل : اجعَلْ يديك عند نَحْرِك أو تحت نَحْرِك في الصلاة والشانِئُ : المُبْغِضُ . يُقال : شَنَأه يَشْنَؤُه ، أي : أَبْغضَه . وقد تقدَّم في المائدة .

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

(217/834)

قوله : ﴿ هُوَ الأبتر ﴾ : يجوز أَنْ يكونَ " هو " مبتدأً ، و " الأبترُ " خبرُه والجملةُ خبرُ " إنَّ " ، وأَنْ يكون فصلاً وقال أبو البقاء : " أو توكيدٌ " وهو غَلَطٌ منه لأنَّ المُظْهَرَ لا يُؤَكَّدُ بالمضمر . والأبترُ : الذي لا عَقِبَ له ، وهو في الأصلِ الشيءُ المقطوع ، مِنْ بَتَرَه ، أي : قطعه .

وحمارٌ ابترُ : لا ذَنَبَ له . ورجل أُباتِرٌ بضم الهمزة : قاطعُ رَحِمِه قال :

4660 لَئيمٌ نَزَتْ في أَنْفِه خُنْزُوانَةٌ . . . على قَطْعِ ذي القربى أَحَدُّ أُباتِرُ

وبِتَر هو بالكسرِ : انقطعَ ذَنَبُه .

وقرأ العامة " شانِئَك " بالألفِ اسمُ فاعل بمعنى الحالِ أو الاستقبالِ أو الماضي . وقرأ ابن عباس " شَنِئَك " بغيرِ ألفٍ . فقيل : يجوزُ أَنْ يكونَ بناءَ مبالغةٍ كفَعَّال ومِفْعال . وقد أثبته سيبويهِ ، وأنشد :

4661 حَذِرٌ أُموراً لا تَضِيرُ وآمِنٌ . . . ما ليس مُنْجِيَه من الأَقْدارِ

وقال زيد الخيل :

4662 أتاني أنهم مَزِقون عِرْضي . . . جِحاشُ الكِرْمَلَيْنِ لها فَديدُ

فإنْ كان بمعنى الحالِ أو الاستقبالِ فإضافتُه لمفعولِه مِنْ نصبٍ . وإن كان بمعنى المُضِيِّ فهي لا مِنْ نصبٍ . وقيل : يجوزُ أن يكونَ مقصوراً مِنْ فاعِل كقولِهم : " بَرٌّ وبارٌّ ، وبَرِدٌ وبارِدٌ " .

قوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ الفاء للتعقيب والتسبيبِ ، أي : تَسَبَّبَ عن هذه المِنَّةِ العظيمة وعَقَبها أَمْرُك بالتخلِّي لعبادةِ المُنْعِمِ عليكَ وقَصْدِك إليه بالنَّحْرِ ، لا كما تفعل قُرَيْشٌ مِنْ صَلاتِها ونَحْرِها لأصنامِها .

وقال أهل العلم: قد احتوَتْ هذه السورةُ، على كونها أَقْصَرَ سورةٍ في القرآن، على معانٍ بليغةٍ وأساليبَ بديعةٍ وهي اثنان وعشرون. الأول: دلالةُ استهلالِ السورةِ على أنه إعطاءُ كثيرٍ من كثيرٍ. الثاني: إسنادُ الفعلِ للمتكلمِ المعظّمِ نفسَه. الثالث: إيرادُه بصيغةِ الماضي تحقيقاً لوقوعِه ﴿ أتى أَمْرُ اللهِ ﴾ [النحل: 1]. الرابع: تأكيدُ الجملةِ بـ إنَّ. الخامس: بناءُ الفعلِ على الاسمِ ليُفيدَ الإسنادَ مرتين. السادس: الإتيانُ بصيغةٍ تَدُلُّ على مبالغةِ الكثرةِ. السابع: حَذْفُ الموصوفِ بالكَوْثَرِ؛ لأنَّ في حَذْفِه مِنْ فَرْطِ الشّياعِ والإبهامِ ما ليس في إثباتِه. الثامن: تعريفُه بأل الجنسيةِ الدالَّةِ على الاستغراق. التاسع: فاءُ التَّعْقيب، فإنّها كما تقدّم دالّةٌ على التَّسْبيب، فإنَّ الإنعامَ سببٌ للشُّكرِ والعبادةِ. العاشر: التَّعْريضُ بمَنْ كانَتْ صلاتُه ونَحْرُه لغيرِ اللّهِ تعالى. الحادي عشر: أنَّ الأمرَ بالصَّلاةِ إشارةٌ إلى الأعمالِ الدينيةِ التي الصلاةُ قِوامُها وأفضلُها، والأمرُ بالنَّحْرِ إشارةٌ إلى الأعمالِ البدنيةِ التي النَّحْرُ أَسْناها. الثاني عشر: حَذْفُ متعلَّقِ "انحَرْ" إذ التقديرُ: فَصَلِّ لربّك وانْحَرْ له. الثالثَ عشرَ: مراعاةُ السَّجْعِ فإنَّه من صناعةِ البديعِ العاري عن التَّكَلُّفِ. الرابعَ عشرَ قولُه: ﴿ ربّك ﴾ في الإتْيانِ بهذه الصفةِ دونَ سائرِ صفاتِه الحسنى دلالةُ على أنَّه هو المُصْلِحُ له المُرَبِّي لنِعَمِه فلا تلتمِسْ كلَّ خيرٍ إلاَّ منه. الخامسَ عشرَ: الالتفاتُ من ضميرِ المتكلمِ إلى الغائبِ في قولِه: "لربّك" السادسَ عشرَ: جَعْلُ الأمرِ بتَرْكِ الاهتبالِ

بشانِئيه للاستئناف ، وجَعْلُه خاتمةً للإعراضِ عن الشانئ ، ولم يُسَمّه ليشمل كلَّ مَنْ اتَّصفَ - والعياذُ بالله - بهذه الصفةِ القبيحة ، وإن كان

المرادُ به شخصاً مَعْنِيّاً .

السابعَ عشرَ : التنبيه بذِكْرِ هذه الصفةِ القبيحةِ على أنه لم يَتَّصِفْ إلا بمجرَّدِ قيامِ الصفةِ به ، مِنْ غيرِ أَنْ يُؤَثِّرَ في مَنْ يَشْنَؤُه شيئاً البتةَ ؛ لأنَّ مَنْ يَشْنَأُ شخصاً قد يُؤَثِّر فيه شَنَآنُه شيئاً .

الثامنَ عشرَ : تأكيدُ الجملةِ ب " إنَّ " المُؤْذِنَةِ بتأكيدِ الخبرِ ، ولذلك يتلقى بها القسمُ ، وتقديرُ القسمِ يَصْلُح هنا . التاسعَ عشرَ : الإتيانُ بضميرِ الفَصْلِ المؤْذِنِ بالاختصاصِ والتأكيدِ إنْ جَعَلْنا " هو " فصلاً ، وإنْ جَعَلْناه مبتدأً فكذلك يُفيد التأكيدَ إذ يصيرُ الإسنادُ مَرَّتَيْن

العشرون : تعريفُ الأبترِ بأل المُؤْذِنَةِ بالخصوصيَّةِ بهذه الصفةِ ، كأنه قيل : الكامِلُ في هذه الصفةِ الحادي والعشرون : الإتيانُ بصيغة أَفْعَل الدالَّةِ على التناهي في هذه الصفةِ . الثاني والعشرون : إقبالُه على رسولِه عليه السلام بالخطاب مِنْ أول السورةِ إلى آخرها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 11 صـ 125.129﴾

فصل

قال القرطبى :

باب منه وذكر الولاة

ذكر الغيلاني أبو طالب قال : حدثنا أبو بكر الشافعي قال : حدثنا محمد بن غالب قال : حدثنا أمية بن بسطام ، حدثنا يزيد بن زريع ، حدثنا روح بن القاسم ، عن ابن عجلان ، عن أبيه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة حتى يفكه الله بعدله أو يوبقه بجرمه وقال عمر لأبي ذر رضي الله عنهما : حدثني بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعته يقول : يجاء بالوالي يوم القيامة فينبذ به على جسر جهنم فيرتج به الجسر ارتجاجة لا يبقى منه مفصل إلا زال عن مكانه ، فإن كان مطيعاً لله في عمله عما مضى فيه ، وإن كان عاصياً لله عز وجل انخرف به الجسر فهوى به في جهنم مقدار خمسين عاماً فقال عمر : من يطلب العمل بعد هذا يا أبا ذر ؟ قال : من سلت الله أنفه وألصق خده بالتراب ذكره أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله .

وروى الأئمة ، عن أبي حميد الساعدي ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه استعمل رجلاً من بني أسد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدي لي ، فقام

النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : ما بال العامل نبعثه فيجيء فيقول هذا لكم وهذا أهدي لي أفلا أجلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدي إليه أم لا لا يأتي أحد منكم بشيء من ذلك إلا جاء به يوم القيامة إن كان بعيراً فله رغاء ، وإن كان بقرة فلها خوار أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ، ثم قال : اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت وروى أبو داود عن بريدة عن

النبي صلى الله عليه وسلم من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول .

باب ما جاء في حوض النبي صلى الله عليه وسلم في الموقف وسعته وكثره أوانيه وذكر أركانه ومن عليها

ذهب صاحب القوت وغيره إلى أن حوض النبي صلى الله عليه وسلم إنما هو بعد الصراط ، والصحيح أن للنبي صلى الله عليه وسلم حوضين : أحدهما في الموقف قبل الصراط ، والثاني في الجنة وكلاهما يسمى كوثرا على ما يأتي ، والكوثر في كلام العرب الخير الكثير ، واختلف في الميزان والحوض أيهما قبل الآخر ، فقيل : الميزان قبل ، وقيل : الحوض . قال

أبو الحسن القابسي : والصحيح أن الحوض قبل .

قلت : والمعنى يقتضيه فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم كما تقدم ، فيقدم قبل الصراط والميزان والله أعلم ، وقال أبو حامد في كتاب كشف علوم الآخرة ، وحكى بعض السلف من أهل التصنيف : أن الحوض يورد بعد الصراط وهو غلط من قائله . قال المؤلف : هو كما قال . وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال بينا أنا قائم على الحوض إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل رجل من بيني وبينهم فقال : هلم فقلت إلى أين ؟ فقال : إلى النار والله ، قلت ما شأنهم فقال إنهم قد ارتدوا على أدبارهم القهقرى ، ثم إذا زمرة أخرى حتى إذا عرفتهم خرج من بيني وبينهم رجل فقال لهم : هلم فقلت إلى أين ؟ قال إلى النار والله . قلت : ما شأنهم قال إنهم ارتدوا على أدبارهم فلا أراه يخلص منهم إلا مثل همل النعم .

قلت : فهذا الحديث مع صحته أدل دليل على أن الحوض يكون في الموقف قبل الصراط ، لأن الصراط إنما هو جسر على جهنم ممدود يجاز عليه ، فمن جازه سلم من النار على ما يأتي ، وكذا حياض الأنبياء عليهم السلام تكون أيضاً في الموقف على ما يأتي .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوقوف بين يدي الله تعالى هل فيه ماء

؟ قال : أي والذي نفسي بيده إن فيه لماء وإن أولياء الله تعالى ليردون حياض الأنبياء ويبعث الله سبعين ألف ملك بأيديهم عصي من نار يذودون الكفار عن حياض الأنبياء .

(222/834)

مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله ما آنية الحوض ؟ قال : والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية ، آنية الجنة من شرب منها لم يظمأ ، آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ ، عرضه مثل طوله ، ما بين عمان إلى أيلة ماؤه أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل .

وعن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إني لبعقر حوضي أذود الناس لأهل اليمين أضرب بعصاي حتى يرفض عليهم فسئل عن عرضه فقال : من مقامي إلى عمان . وسئل عن شرابه فقال : أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل ، يغت فيه ميزابان من الجنة أحدهما من ذهب والأخر من ورق . في غير كتاب مسلم يعب فيه ميزابان من الكوثر الحديث . وفي أخرى ما يبسط أحد منكم يده إلا وقع عليه قدح .

مسلم عن أنس قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفي إغفاءه ، ثم رفع رأسه متبسماً فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : نزلت علي آنفاً

سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد النجوم ، فيختلج العبد منهم فأقول : يا رب إنه من أمتي ، فيقال : ما تدري ما أحدث بعدك . وفي رواية أخرى : ما أحدث .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حوضي مسيرة شهر ، وزواياه سواء ، وماؤه من الورق ، وريحه أطيب من المسك ، كيزانه كنجوم السماء من ورد فشرب منه لم يظمأ بعده أبداً . أخرجه البخاري .

وعن

ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن أمامكم حوضاً كما بين جرباً وأذرح فيه أباريق كنجوم السماء من ورد فشرب منه لم يظمأ بعدها أبداً .

(223/834)

قال عبيد الله فسألته فقال قريتين بالشام بينهما مسيرة ثلاث . أخرجه البخاري .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن حوضي أبعد

من أيلة إلى عدن لهو أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل باللبن ، ولآنيته أكثر من عدد النجوم وإني لأصد الناس كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه ، قالوا : يا رسول الله أتعرفنا يومئذ ؟ قال : نعم لكم سيما ليست لأحد من الأمم تردون علي غير محجلين من أثر الوضوء .

ابن ماجه ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن لي حوضاً ما بين الكعبة ، وبيت المقدس أبيض مثل اللبن آنيته عدد نجوم السماء ، وإني لأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة .

فصل : ظن بعض الناس أن هذه التحديات في أحاديث الحوض اضطراب واختلاف وليس كذلك ، وإنما تحدث النبي صلى الله عليه وسلم بحديث الحوض مرات عديدة وذكر فيها تلك الألفاظ المختلفة مخاطباً لكل طائفة بما كانت تعرف من مسافات مواضعها ، فيقول لأهل الشام ما بين أذرح وجرباً ، ولأهل اليمن من صنعاء إلى عدن . وهكذا وتارة آخرى يقدر بالزمان فيقول : مسيرة شهر ، والمعنى المقصود أنه حوض كبير متسع الجوانب والزوايا فكان ذلك بحسب من حضره ممن يعرف تلك الجهات فخاطب كل قوم بالجهة التي يعرفونها ، والله أعلم .

ولا يخطر ببالك أو يذهب وهمك إلى أن الحوض يكون على وجه هذه الأرض وإنما يكون وجوده في الأرض المبدلة على مسامتة هذه الأقطار أو في الموضع تكون بدلاً من هذه

المواضع في هذه الأرض وهي أرض بيضاء كالفضة لم يسفك فيها دم ، ولم يظلم على ظهرها أحد قط كما تقدم ، تطهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء ، ويغت : معناه يصب ، ويشخب أي يسيل ، والعقر مؤخر

(224/834)

الحوض حيث تقف الإبل إذا وردته ، وتسكن قافه وتضم فيقال : عقر وعقر كعسر وعسر قاله في الصحاح . والهمل من النعم الضوال من الإبل واحدها هامل قاله الهروي والمعنى أن الناجي منهم قليل كهمل النعم ، ويقال : إن على أحد أركانه أبا بكر ، وعلى الثاني عمر ، وعلى الثالث عثمان ، وعلى الرابع عليا .

قلت : هذا لا يقال من جهة الرأي فهو مرفوع وقد رفعه صاحب الغيلانيات من حديث حميد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن على حوضي أربعة أركان . فأول ركن منها في يد أبي بكر ، والركن الثاني في يد عمر ، والركن الثالث في يد عثمان ، والركن الرابع في يد علي رضي الله عنهم أجمعين .

فمن أحل أبا بكر وأبغض عمر لم يسقه أبو بكر ومن أحب عمر وأبغض أبا بكر لم يسقه عمر ، ومن أحب عثمان وأبغض علياً لم يسقه عثمان ، ومن أحب علياً وأبغض عثمان لم يسقه

علي . وذكر الحديث .

باب منه

ذكر أبو داود الطيالسي : قال : حدثنا شعبة قال : أخبرني عمرو بن مرة قال : سمعت أبا حمزة عن زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما أنتم بجزء من مائة ألف أو سبعين ألف جزء ممن يرد على الحوض ، وكانوا يومئذ ثمانمائة أو تسعمائة . والله أعلم .

باب فقراء المهاجرين أول الناس ورود الحوض على النبي صلى الله عليه وسلم

ابن ماجه عن الصنابجي الأحمسي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا إني فرطكم على الحوض وإني مكاثر بكم الأمم فلا تقتتلن بعدي .

وخرج عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن حوضي ما بين عدن إلى إيلة أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل أكاويبه كعدد نجوم السماء من شرب منه لم يظمأ بعدها أبداً ، وأول الناس من يرد على الحوض فقراء المهاجرين : الدنس ثيابا الشعث رؤوساً الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد قال : فبكى عمر حتى ابتلت لحيته فقال : لكني نكحت المتنعمات وفتحت لي أبواب السدد ، لا جرم أني لا

أغسل ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ ، ولا أدهن رأسي حتى تشعث . خرجه الترمذي .

عن أبي سلام الحبشي قال : بعث إلي عمر بن عبد العزيز فحملت على البريد ، قال : فلما دخل عليه ، قال يا أمير المؤمنين : لقد شق مركبي البريد فقال : يا أبا سلام ما أردت أن أشق عليك ولكن بلغني عنك حديث تحدثه عن ثوبان عن النبي في الحوض فأحببت أن تشافهني به .

قال أبو سلام : حدثني ثوبان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن حوضي من عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد فذكره بمعناه وقال حديث حسن غريب .

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه : [أول من يرد الحوض على رسول الله صلى الله عليه وسلم الذابلون الناحلون السائحون الذي إذا جنهم الليل استقبلوه بالحزن] .

باب ذكر من يطرد عن الحوض

البخاري عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ليردن علي ناس من أصحابي الحوض حتى إذا عرفتهم اختلجوا دوني فأقول أصحابي ، فيقال لي : لا تدرلي ما أحدثوا بعدك .

وعن أبي هريرة أنه كان يتحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يرد علي الحوض

رهط من أصحابي فيخلون عن الحوض فأقول يا رب أصحابي ، فيقول : إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك إنهم ارتدوا على أدبارهم القهقري .

(226/834)

مسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني على الحوض حتى أنظر من يرد علي منكم ، وسيؤخذ ناس دوني فأقول : يا رب مني ومن أمتي فيقال : أما شعرت ما عملوا بعدك ؟ والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم . وفي حديث أنس فيختلج العبد منهم فأقول : يا رب من أمتي فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، وقد تقدم . وكذلك حديث البخاري إذا زمرة حتى إذا عرفتهم تقدم أيضاً . وفي الموطأ وغيره من حديث أبي هريرة فقالوا : كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك يا رسول الله ؟ الحديث . وفيه قال : فإنهم يأتون غراً محجلين من أثر الوضوء .

فصل : قال علماؤنا رحمة الله عليهم أجمعين : فكل من ارتد عن دين الله أو أحدث فيه ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله ، فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين عنه ، وأشدهم طرداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها ، والروافض على تباين ضلالها ، والمعتزلة على أصناف أهوائها فهؤلاء كلهم مبدلون ، وكذلك الظلمة

المسرفون في الجور والظلم وتطميس الحق ، وقتل أهله وإذلالهم ، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي . وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع . ثم البعد قد يكون في حال ويقربون بعد المغفرة إن كان التبديل في الأعمال ولم يكن في العقائد ، وعلى هذا التقدير يكون نور الوضوء يعرفون به ، ثم يقال لهم سحقاً ، وإن كانوا من

المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهرون الإيمان ويسرون الكفر فيأخذهم بالظاهر . ثم يكشف لهم الغطاء فيقول لهم : سحقاً سحقاً ، ولا يخلد في النار إلا كافر جاحد مبطل ليس في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان .

وقد يقال : إن من أنفذ الله عليه وعيده من أهل الكبائر إنه ، وإن ورد الحوض وشرب منه فإنه إذا دخل النار بمشيئة الله تعالى لا يعذب بعطش ، والله أعلم .

(227/834)

وروى الترمذي عن كعب بن عجرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعيذك بالله يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون من بعدي فمن غشى أبوابهم فصدقهم في كذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ، ولا يرد على الحوض ، ومنه غشى أبوابهم ولم يصدقهم في كذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه ، وسيرد على الحوض ، يا كعب بن

عجرة : الصلاة برهان ، والصبر جنة حصينة ، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار ، يا كعب بن عجرة إنه لا يربو لحم نبت من سحت إلا كانت النار أولى به . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وخرجه أيضاً في كتاب الفتن وصححه .

وخرج الأوزاعي أبو عمر في مسنده قال : حدثني عمرو بن سعد قال : حدثني يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : حوضي ما بين أيلة إلى مكة ، أباريقه كنجوم السماء أو كعدد نجوم السماء ، له ميزابان من الجنة كلما نضب أمداه ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، وسيأتيه قوم ذابلة شفاههم ، لا يطعمون منه قطرة واحدة ، من كذب به اليوم لم يصب منه الشرب يومئذ .

وخرج الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث عثمان بن مظعون ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في آخره : يا عثمان لا ترغب عن سنتي فمن رغب عن سنتي ثم مات قبل أن يتوب ضربت الملائكة وجهه عن حوضي يوم القيامة ، وقد ذكرناه بكماله في آخر كتاب قمع الحرص بالزهد والقناعة .

باب ما جاء أن لكل نبي حوضاً

الترمذي عن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لكل نبي حوضاً ، وأنهم يتباهون أيهم أكثر وارده وإني أرجو أن أكون أكثرهم وارده . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . رواه قتادة عن الحسن عن سمرة ، وقد رواه الأشعث ابن عبد الملك عن الحسين رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يذكر فيه غير سمرة . وقال البكري المعروف با بن الواسطي : لكل نبي حوض إلا صالحاً فإن حوضه ضرع ناقته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

باب ما جاء في الكوثر الذي أعطيه صلى الله عليه وسلم في الجنة

البخاري عن أنس بن مالك عن النبي قال : بينا أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر في الجنة حافتاه قباب الدر المجوف ، قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فإذا طينه أو طينته مسك أذفر . شك هدبة . خرجه أبو عيسى الترمذي بمعناه وزاد ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فرأيت عندها نوراً عظيماً .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وخرجه ابن وهب قال : أخبرني شبيب عن أبان عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : حين عرج به إلى السماء قال : رأيت نهراً عجاجاً مثل السهم يطرد أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل حافتاه قباب من در مجوف فقلت : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا نهر الكوثر الذي أعطاك ربك ، قال : فضربت بيدي إلى حمأته فإذا هو مسك أذفر ، ثم ضربت بيدي إلى رضواضه

فإذا هو در .

الترمذي عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الكوثر نهر في الجنة حافتاه من ذهب ومجراه الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج . هذا حديث حسن والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التذكرة فى أحوال الموتى صـ 347.355 ﴾

(229/834)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الكوثر

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم يجل العبد بإجلاله ولا يجل هو إلا باستحقاق علوه في آزاله اسم عزيز أعز من شاء بأفضاله وإقباله ، وأذل أعداءه بسلاسله وأغلاله ، والتخليد في جحيمه وأنكاله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ .

﴿ الْكَوْثَرَ ﴾ : أي الخير الكثير . ويقال : هو نَهْرٌ في الجنة .

ويقال : النبوّةَ والكتابُ . وقيل : تخفيف الشريعة .

ويقال : كثرة أُمّتِه .

ويقال : الأصحابُ والأشياع . ويقال : نورٌ في قلبه .

ويقال : معرفته بربوبيته .

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ .

أي صَلِّ صلاةَ العيد ﴿ وَانْحَرْ ﴾ النُّسُك .

ويقال : جمع له في الأمرين : العبادة البدنية ، والمالية .

ويقال " وانحر " أي استقبِلْ القبلة بنحرك . أو ارفع يديك في صلاتك إلى نحرك .

ويقال : ضَعْ يمينك على يسارك في الصلاة واجعلها تحت نَحْرِك .

﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ .

أي : لا يُذْكَرُ بخيرٍ ، مُنْقَطِعٌ عنه كل خير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 776.775 ﴾

(230/834)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الكوثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

الإعراب :

(الفاء) عاطفة للربط السببيّ (لربّك) متعلّق بـ (صلّ) ، (هو) ضمير فصل " 1 " .

جملة : " إنّا أعطيناك . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " أعطيناك . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " صلّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف مقدّر أي انتبه لهذا فصلّ " 2 "

.

وجملة : " انحر . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلّ .

وجملة : " إنّ شانئك هو الأبتر " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو ضمير منفصل في محلّ رفع مبتدأ خبره الأبتر ، والجملة الاسميّة خبر إنّ .

(2) يجوز أن تكون الجملة جوابا لشرط مقدّر .

الصرف :

(الكوثر) ، اسم علم لنهر في الجنّة ، وزنه فوعل من الكثرة ، والعرب تسمّي كلّ شيء كثير العدد أو كثير القدر والخطر كوثر ، أو هو وصف لموصوف محذوف أي الخير الكوثر . .

وفي التفسير لمعنى الكوثر ستة عشر قولا . . كالحوض والنبوّة والقرآن . . . إلخ .

(شانئك) ، اسم فاعل من شنأ بمعنى أبغض ، وزنه فاعل .

(الأبتر) ، صفة مشبهة من بتر بمعنى قطع باب نصر متعدّ ، ومن باب فرح بمعى انقطع لازم ، وزنه أفعل أي منقطع العقب .

البلاغة :

1 - فن المذهب الكلامي : في قوله تعالى "إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ" .

والمذهب الكلامي أنواع ، منه نوع منطقي تستنتج فيه النتائج الصحيحة من المقدمات الصادقة . فإن هاتين الآيتين تضمنتا نتيجة من مقدمتين صادقتين ، وبيان ذلك أنّا نقول : إن عطية الكوثر تعدل جميع العطيات ، وإنما قلنا ذلك لأن الشكر على مقادير النعم ، وقد أمر

الرسول (صلّى اللّه عليه وسلّم) بأن يقابل هذه النعمة بجميع العبادات البدنية والمالية شكرا عليها ، والصلاة جامعة لكثير من العبادات ، ثم أمر عليه الصلاة والسلام مع الصلاة بالنحر ، ولا يخلو من أن يراد به الحج الجامع لبعض العبادات ، فما تضمنته هاتان الآيتان ، على قصرهما ، من الإشارة التي دلّت بألفاظها القليلة على معان ، لو عبّر عنها بألفاظها الموضوعة لها بطريق البسط لملأت الصحائف والأجلاد .

2 - الالتفات : في قوله تعالى " فَصَلِّ لِرَبِّكَ " .

في هذا الالتفات عن ضمير العظمة ، إلى خصوص الرب ، مضافا إلى ضميره عليه الصلاة والسلام ، تأكيد لترغيبه (صلّى اللّه عليه وسلّم) في أداء ما أمر به على الوجه الأكمل .

3 - الاستعارة : في قوله تعالى " إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ " .

قيل لمن لا عقب له أبتر ، على الاستعارة ، حيث شبه الولد والأثر الباقي بالذنب ، لكونه خلفه ، فكأنه بعده ، وعدمه بعدمه .

الفوائد :

قرأ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) هذه السورة ، ثم قال لأصحابه : أ تدرون ما الكوثر ؟ قلنا :

اللّه ورسوله أعلم . قال : فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد نجوم السماء ، فيختلج العبد منهم ، فأقول : رب إنه من أمتي .

فيقول : ما تدري ما أحدث بعدك . هذا لفظ مسلم . والبخاري قال : قال رسول الّله (صلّى اللّه عليه وسلّم) : لما عرج بي إلى السماء ، أتيت على نهر ، حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، فقلت :

(233/834)

ما هذا يا جبريل ؟ فقال : هذا الكوثر الذي أعطاك ربك ، فإذا طينة مسك أذفر . عن أنس رضي الّله عنه قال : سئل رسول الّله (صلّى اللّه عليه وسلّم) ما الكوثر ؟ قال : ذلك نهر أعطانيه الله – يعني في الجنة – أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل . فيه طير أعناقها كأعناق الجزور . قال عمران : هذه لناعمة ، فقال رسول الّله (صلّى اللّه عليه وسلّم) : أكلتها أنعم منها . أخرجه الترمذي

وقال : حديث حسن صحيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول جـ 30 صـ 413.

415 ﴾

(234/834)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(108) سورة الكوثر

مكيّة وآياتها ثلاث

[سورة الكوثر (108) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْناكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)

اللغة :

(الْكَوْثَرَ) في القاموس : " والكوثر الكثير من كل شيء والكثير الملتف من الغبار والإسلام والنبوّة وقرية بالطائف كان الحجاج معلما بها والرجل الخير المعطاء كالكثير كصيقل والسيد والنهر ونهر في الجنة تتفجر منه جميع أنهارها " وعبارة الزمخشري : " والكوثر فوعل من الكثرة قيل لأعرابية رجع ابنها من السفر بم آب ابنك؟ قالت آب بكوثر وقال :

وأنت كثير يا ابن مروان طيب وكان أبوك ابن العقائل كوثرا "

والبيت للكميت والعقائل خيار النساء والكوثر بليغ النهاية في الخير.

وعبارة ابن خالويه : " والكوثر نهر في الجنة حافتاه الذهب وحصباؤه المرجان والدرّ وحاله المسك يعني الحمأة وماؤه أشد بياضا من الثلج وأحلى من العسل من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا وقيل الكوثر الخير الكثير

ومنه القرآن وهو فوعل من الكثرة والواو زائدة مثل كوسج ونوفل ، والكوثر في غير هذا الرجل السخي قال الشاعر :

وأنت كثير يا ابن مروان (البيت) " وأورد القرطبي للكوثر ستة عشر قولا في الكوثر وقال وأصحّها الأول يعني أنه نهر في الجنة لأنه ثابت عن النبي صلّى اللّه عليه وسلم نصا .

(شانِئَكَ) مبغضك وفي المصباح " شنئه كسمعه ومنعه شنئًا مثل فلس وشنآنا بفتح النون وسكونها أبغضه والفاعل شانىء في المذكر وشانئة في المؤنث وشنئت بالأمر اعترفت به " وقال ابن خالويه :

" الشانئ : المبغض قال الأعشى :

ومن شانىء كاسف وجهه إذا ما انتسبت له أنكرن "

(235/834)

(الْأَبْتَرُ) هو الذي لا عقب له وهو في الأصل الشيء المقطوع من بتره أي قطعه وحمار أبتر لا ذنب له ورجل أباتر بضم الهمزة أي قاطع رحمه ، وعبارة ابن خالويه : " معناه إن مبغضك يا محمد هو الأبتر أي لا ولد له والأبتر الحقير والأبتر الذليل والأبتر من الحيات المقطوع الذنب والأبتر ذنب الفيل ، كانت قريش والشانئون لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يقولون : إن

محمدا صنبور أي فرد لا ولد له فإذا مات انقطع ذكره فأكذبهم اللّه تعالى وأعلمهم أن ذكر محمد مقرون بذكره إلى يوم القيامة إذا قال المؤذن أشهد أن لا إله إلا اللّه قال : أشهد أن محمدا رسول اللّه . والصنبور النخلة تبقى منفردة ويدق أسفلها ، قال : ولقي رجل رجلا فسأله عن نخلة فقال صنبر أسفله وعشش أعلاه ، والصنبور أيضا ما في فم الإداوة من حديد أو رصاص ، والصنبور الصبي الصغير ، قال

أوس بن حجر :

مخلّفون ويقضي الناس أمرهم غشّ الأمانة صنبور فصنبور "

وفي المختار : " بتره قبل التمام وبابه نصر والانبتار الانقطاع والأبتر المقطوع الذنب وبابه طرب والأبتر أيضا الذي لا عقب له وكل أمر انقطع من الخير أثره فهو أبتر " .

الإعراب :

(إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) إن واسمها وجملة أعطيناك خبرها وفي قراءة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم إنّا أنطيناك بالنون قال التبريزي هي لغة للعرب العاربة وقال في الحديث " وأنطوا الثبجة " محركة المتوسطة بين الخيار والرذال والكوثر مفعول به ثان

والفاء حرف عطف للتعقيب وصل فعل أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر تقديره أنت ولربك متعلقان بصل ووضع الظاهر موضع المضمر وكان المقتضى أن يقول فصل لنا ولكنه انتقل من المضمر إلى المظهر على سبيل الالتفات اهتماما بذكر ربك وتعظيما له ، وانحر عطف على صل أي صل صلاة عيد النحر وهذا يقتضي أن تكون السورة مدنيّة لا مكيّة وقيل الأمر عام في كل صلاة ونحر (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) الجملة مستأنفة مؤكدة وإن واسمها وهو مبتدأ ثان أو ضمير فصل والأبتر خبر هو والجملة خبر إن أو الأبتر خبر إن ، ولا أدري كيف أجاز أبو البقاء أن يعرب هو تأكيدا لأن المظهر لا يؤكد بالمضمر وعبارة ابن هشام " ووهم أبو البقاء فأجاز في إن شانئك هو الأبتر التوكيد ، وقد يريد أنه توكيد لضمير مستتر في شانئك لا لنفس شانئك ، وذلك لأن شانىء اسم فاعل بمعنى مبغض .

البلاغة :

1- في قوله تعالى : " إنّا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر " فن المذهب الكلامي وقد تقدمت الإشارة إليه كما تقدم أن منه نوعا منطقيا تستنتج فيه النتائج الصحيحة من

المقدمات الصادقة ، فإن هاتين الآيتين تضمنتا نتيجة من مقدمتين صادقتين ، وبيان ذلك أنّا نقول : إن عطية الكوثر تعدل جميع العطيات وإنما قلنا ذلك لأن الشكر على مقادير النعم ، وقد أمر الرسول صلّى اللّه عليه وسلم بأن يقابل هذه النعمة بجميع العبادات البدنية والمالية شكرا عليها ، والصلاة جامعة لجميع العبادات فهي تعدل جميع العطيات وإنما قلنا إن المأمور به جميع العبادات البدنية لجمعها بين القيام والقعود والركوع والسجود وقراءة القرآن والأذكار والصمت عن غير ذلك من الكلام وتحريم الطعام والشراب والبقاء على الطهارة الكاملة والخضوع والخشوع والدعاء والابتهال ، يحرم فيها ما يحرم على الصائم من الأكل والشرب والجماع والرفث وجميع الحركات والسكنات الخارجة عنها فهي جامعة لفضيلتي الصلاة والصيام وأعمال الظاهر وأعمال الباطن ، ثم أمر عليه الصلاة والسلام مع الصلاة بالنحر ولا يخلو من أن يراد به الحج الجامع بين العبادتين أو يراد مطلق النحر الذي يدخل تحته نحر الهدي في الحج والنحر للضيفان وافتقاد الجيران والإطعام في الأزمات ، فقد تبين أنه سبحانه أمر رسوله صلّى اللّه عليه وسلم بجميع العبادات شكرا على عطية الكوثر فدلّ ذلك على أن عطية الكوثر تعدل جميع العطيات وإنما كانت لهذه العطية هذه المزية لكونه صلّى اللّه عليه وسلم أعطي بها الفضل والفخر على جميع الأنبياء صلوات اللّه عليهم حيث تسأل الأمم أنبياءهم في الشفاعة لهم ليرووا من العطش الأكبر فيعتذرون عن ذلك بما ورد عنهم في حديث الشفاعة الصحيح المشهور فلا تجد جميع

(238/834)

الأمم حينئذ من يشفع لها ولا يسقيها سوى محمد صلّى اللّه عليه وسلم. فالحظ ما تضمنته ها تان الآيتان على قصرهما من الإشارة التي دلّت بألفاظها القليلة على معان لو عبّر عنها بألفاظها الموضوعة لها بطريق البسط لملأت الصحائف والأجلاد.

2- وفي قوله " فصل لربك " التفات من التكلّم إلى الغيبة، والأصل فصّل لنا ولكنه عدل عن ذلك لأن في لفظ الرب حثّا على فعل المأمور به لأن من يربيك يستحق العبادة. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 595. 599﴾

(239/834)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَد بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ تَيْمِيَّةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ :-

"سُورَةُ الْكَوْثَرِ" مَا أَجَلَّهَا مِنْ سُورَةٍ وَأَغْزَرُ فَوَائِدِهَا عَلَى اخْتِصَارِهَا وَحَقِيقَةُ مَعْنَاهَا تُعْلَمُ مِنْ آخِرِهَا فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَتَرَ شَانِئَ رَسُولِهِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ فَيَبْتُرُ ذِكْرَهُ وَأَهْلَهُ وَمَالَهُ فَيَخْسَرُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ وَيَبْتُرُ حَيَاتَهُ فَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا وَلَا يَتَزَوَّدُ فِيهَا صَالِحًا لِمَعَادِهِ وَيَبْتُرُ قَلْبَهُ فَلَا يَعِي الْخَيْرَ وَلَا يُؤَهِّلُهُ لِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالْإِيمَانِ بِرُسُلِهِ وَيَبْتُرُ أَعْمَالَهُ فَلَا يَسْتَعْمِلُهُ فِي طَاعَةٍ وَيَبْتُرُهُ مِنْ الْأَنْصَارِ فَلَا يَجِدُ لَهُ نَاصِرًا وَلَا عَوْنًا . وَيَبْتُرُهُ مِنْ جَمِيعِ الْقُرَبِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَلَا يَذُوقُ لَهَا طَعْمًا وَلَا يَجِدُ لَهَا حَلَاوَةً وَإِنْ بَاشَرَهَا بِظَاهِرِهِ فَقَلْبُهُ شَارِدٌ عَنْهَا . وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ شَنَأَ بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَدَّهُ لِأَجْلِ هَوَاهُ أَوْ مَتْبُوعِهِ أَوْ شَيْخِهِ أَوْ أَمِيرِهِ أَوْ كَبِيرِهِ . كَمَنْ شَنَأَ آيَاتِ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثِ الصِّفَاتِ وَتَأَوَّلَهَا عَلَى غَيْرِ مُرَادِ اللَّهِ

(240/834)

وَرَسُولِهِ مِنْهَا أَوْ حَمَلَهَا عَلَى مَا يُوَافِقُ مَذْهَبَهُ وَمَذْهَبَ طَائِفَتِهِ أَوْ تَمَنَّى أَنْ لَا تَكُونَ آيَاتُ الصِّفَاتِ أُنْزِلَتْ وَلَا أَحَادِيثُ الصِّفَاتِ قَالَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَمِنْ أَقْوَى عَلَامَاتِ شَنَاءَتِهِ لَهَا وَكَرَاهَتِهِ لَهَا أَنَّهُ إذَا سَمِعَهَا حِينَ يَسْتَدِلُّ بِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ الْحَقِّ اشْمَأَزَّ مِنْ ذَلِكَ وَحَادَ وَنَفَرَ عَنْ ذَلِكَ لِمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ الْبُغْضِ لَهَا وَالنُّفْرَةِ عَنْهَا

فَأَيُّ شَانِئٍ لِلرَّسُولِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاعِ الَّذِينَ يَرْقُصُونَ عَلَى سَمَاعِ الْغَنَاءِ وَالْقَصَائِدِ وَالدُّفُوفِ وَالشَّبَّابَاتِ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ يُتْلَى وَيُقْرَأُ فِي مَجَالِسِهِمْ اسْتَطَالُوا ذَلِكَ وَاسْتَثْقَلُوهُ فَأَيُّ شَنَآنٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا وَقِسْ عَلَى هَذَا سَائِرَ الطَّوَائِفِ فِي هَذَا الْبَابِ .

وَكَذَا مَنْ آثَرَ كَلَامَ النَّاسِ وَعُلُومَهُمْ عَلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فَلَوْلَا أَنَّهُ شَانِئٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مَا فَعَلَ ذَلِكَ حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لِيَنْسَى الْقُرْآنَ بَعْدَ أَنْ حَفِظَهُ وَيَشْتَغِلُ بِقَوْلِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ وَلَكِنَّ أَعْظَمَ مَنْ شَنَأَهُ وَرَدَّهُ : مَنْ كَفَرَ بِهِ وَجَحَدَهُ وَجَعَلَهُ أَسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ وَسِحْرًا يُؤْثَرُ فَهَذَا أَعْظَمُ وَأَطَمُّ انْبِتَارًا وَكُلُّ مَنْ شَنَأَهُ لَهُ نَصِيبٌ مِنَ الِانْبِتَارِ عَلَى قَدْرِ شَنَاءَتِهِ لَهُ فَهَؤُلَاءِ لَمَّا شَنَئُوهُ وَعَادُوهُ جَازَاهُمُ اللَّهُ بِأَنْ جَعَلَ الْخَيْرَ كُلَّهُ مُعَادِيًا لَهُمْ فَبَتَرَهُمْ مِنْهُ وَخَصَّ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِضِدِّ ذَلِكَ وَهُوَ أَنَّهُ

أَعْطَاهُ الْكَوْثَرَ وَهُوَ مِنَ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ فَمِمَّا أَعْطَاهُ فِي الدُّنْيَا الْهُدَى وَالنَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ وَقُرَّةَ الْعَيْنِ وَالنَّفْسِ وَشَرْحَ الصَّدْرِ وَنَعْمَ قَلْبِهِ بِذِكْرِهِ وَحُبِّهِ بِحَيْثُ لَا يُشْبِهُ نَعِيمَهُ نَعِيمٌ فِي الدُّنْيَا أَلْبَتَّةَ وَأَعْطَاهُ فِي الْآخِرَةِ الْوَسِيلَةَ وَالْمَقَامَ الْمَحْمُودَ وَجَعَلَهُ أَوَّلَ مَنْ يُفْتَحُ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ بَابُ الْجَنَّةِ وَأَعْطَاهُ فِي الْآخِرَةِ لِوَاءَ الْحَمْدِ وَالْحَوْضَ الْعَظِيمَ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَجَعَلَ الْمُؤْمِنِينَ كُلَّهُمْ أَوْلَادَهُ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ وَهَذَا ضِدُّ حَالِ الْأَبْتَرِ الَّذِي يَشْنَؤُهُ وَيَشْنَأُ مَا جَاءَ بِهِ . وَقَوْلُهُ ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ ﴾ أَيْ مُبْغِضَكَ وَالْأَبْتَرُ الْمَقْطُوعُ النَّسْلِ الَّذِي لَا يُولَدُ لَهُ خَيْرٌ وَلَا عَمَلٌ صَالِحٌ فَلَا يَتَوَلَّدُ عَنْهُ خَيْرٌ وَلَا عَمَلٌ صَالِحٌ . قِيلَ لِأَبِي بَكْرِ بْنِ عَيَّاشٍ : إنَّ بِالْمَسْجِدِ قَوْمًا يَجْلِسُونَ وَيُجْلَسُ إلَيْهِمْ فَقَالَ : مَنْ جَلَسَ لِلنَّاسِ جَلَسَ النَّاسُ إلَيْهِ . وَلَكِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَمُوتُونَ وَيَحْيَى ذِكْرُهُمْ وَأَهْلَ الْبِدْعَةِ يَمُوتُونَ وَيَمُوتُ ذِكْرُهُمْ ؛ لِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ أَحْيَوْا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ وَأَهْلَ الْبِدْعَةِ شَنَئُوا مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْ أَنْ تَكْرَهَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ تَرُدَّهُ لِأَجْلِ هَوَاك أَوْ

انْتِصَارًا لِمَذْهَبِكَ أَوْ

لِشَيْخِكَ أَوْ لِأَجْلِ اشْتِغَالِكَ بِالشَّهَوَاتِ أَوْ بِالدُّنْيَا فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُوجِبْ عَلَى أَحَدٍ طَاعَةَ أَحَدٍ إلَّا طَاعَةَ رَسُولِهِ وَالْأَخْذَ بِمَا جَاءَ بِهِ بِحَيْثُ لَوْ خَالَفَ الْعَبْدُ جَمِيعَ الْخَلْقِ وَاتَّبَعَ الرَّسُولَ مَا سَأَلَهُ اللَّهُ عَنْ مُخَالَفَةِ أَحَدٍ فَإِنَّ مَنْ يُطِيعُ أَوْ يُطَاعُ إنَّمَا يُطَاعُ تَبَعًا لِلرَّسُولِ وَإِلَّا لَوْ أَمَرَ بِخِلَافِ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ مَا أُطِيعَ . فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَاسْمَعْ وَأَطِعْ وَاتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ . تَكُنْ أَبْتَرَ مَرْدُودًا عَلَيْك عَمَلُك بَلْ لَا خَيْرَ فِي عَمَلٍ أَبْتَرَ مِنْ الِاتِّبَاعِ وَلَا خَيْرَ فِي عَامِلِهِ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(244/834)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ تَدُلُّ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى عَطِيَّةٍ كَثِيرَةٍ صَادِرَةٍ عَنْ مُعْطٍ كَبِيرٍ غَنِيٍّ وَاسِعٍ . وَأَنَّهُ تَعَالَى وَمَلَائِكَتُهُ وَجُنْدُهُ مَعَهُ : صَدَّرَ الْآيَةَ (بِإِنَّ) الدَّالَّةِ عَلَى التَّأْكِيدِ وَتَحْقِيقِ الْخَبَرِ وَجَاءَ الْفِعْلُ بِلَفْظِ الْمَاضِي الدَّالِّ عَلَى التَّحْقِيقِ وَأَنَّهُ أَمْرٌ ثَابِتٌ وَاقِعٌ وَلَا يَدْفَعُهُ مَا فِيهِ مِنْ الْإِيذَانِ بِأَنَّ إعْطَاءَ الْكَوْثَرِ سَابِقٌ فِي الْقَدَرِ الْأَوَّلِ حِينَ قُدِّرَتْ مَقَادِيرُ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَحَذَفَ مَوْصُوفَ الْكَوْثَرِ لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي الْعُمُومِ ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ عَدَمِ التَّعْيِينِ وَأَتَى بِالصِّفَةِ أَيْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ : ﴿ إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ فَوَصَفَهُ بِالْكَوْثَرِ وَالْكَوْثَرُ الْمَعْرُوفُ إنَّمَا هُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ كَمَا قَدْ وَرَدَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ

الصَّحِيحَةُ الصَّرِيحَةُ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ الْكَوْثَرُ إِنَّمَا هُوَ مِنْ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ

وَإِذَا كَانَ أَقَلُّ أَهْلِ

(245/834)

الْجَنَّةِ مَنْ لَهُ فِيهَا مِثْلُ الدُّنْيَا عَشْرُ مَرَّاتٍ فَمَا الظَّنُّ بِمَا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُ فِيهَا فَالْكَوْثَرُ عَلَامَةٌ وَأَمَارَةٌ عَلَى تَعَدُّدِ مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ الْخَيْرَاتِ وَاتِّصَالِهَا وَزِيَادَتِهَا وَسُمُوِّ الْمَنْزِلَةِ وَارْتِفَاعِهَا وَأَنَّ ذَلِكَ النَّهْرَ وَهُوَ الْكَوْثَرُ أَعْظَمُ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ وَأَطْيَبُهَا مَاءً وَأَعْذَبُهَا وَأَحْلَاهَا وَأَعْلَاهَا . وَذَلِكَ أَنَّهُ أَتَى فِيهِ بِلَامِ التَّعْرِيفِ الدَّالَّةِ عَلَى كَمَالِ الْمُسَمَّى وَتَمَامِهِ . كَقَوْلِهِ : زَيْدٌ الْعَالِمُ زَيْدٌ الشُّجَاعُ أَيْ لَا أَعْلَمُ مِنْهُ وَلَا أَشْجَعُ مِنْهُ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ . دَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَعْطَاهُ الْخَيْرَ كُلَّهُ كَامِلًا مُوَفَّرًا وَإِنْ نَالَ مِنْهُ بَعْضُ أُمَّتِهِ شَيْئًا كَانَ ذَلِكَ الَّذِي نَالَهُ بِبَرَكَةِ اتِّبَاعِهِ . وَالِاقْتِدَاءِ بِهِ مَعَ أَنَّ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ أَجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِ الْمُتَّبِعِ لَهُ شَيْءٌ فَفِيهِ الْإِشَارَةُ إلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُعْطِيهِ فِي الْجَنَّةِ بِقَدْرِ أُجُورِ أُمَّتِهِ كُلِّهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْتَقِصَ مِنْ أُجُورِهِمْ فَإِنَّهُ هُوَ السَّبَبُ فِي هِدَايَتِهِمْ وَنَجَاتِهِمْ فَيَنْبَغِي بَلْ يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ اتِّبَاعُهُ وَالِاقْتِدَاءُ بِهِ وَأَنْ يَمْتَثِلَ مَا أَمَرَهُ بِهِ وَيُكْثِرَ مِنْ

الْعَمَلِ الصَّالِحِ صَوْمًا وَصَلَاةً وَصَدَقَةً وَطَهَارَةً لِيَكُونَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ فَإِنَّهُ إذَا فَعَلَ الْمَحْظُورَاتِ فَاتَ الرَّسُولَ مِثْلُ أَجْرِ مَا فَرَّطَ فِيهِ مِنْ الْخَيْرِ فَإِنْ فَعَلَ

(246/834)

الْمَحْظُورَ مَعَ تَرْكِ الْمَأْمُورِ قَوِيَ وِزْرُهُ وَصَعُبَتْ نَجَاتُهُ لِارْتِكَابِهِ الْمَحْظُورَ وَتَرْكِهِ الْمَأْمُورَ وَإِنْ فَعَلَ الْمَأْمُورَ وَارْتَكَبَ الْمَحْظُورَ دَخَلَ فِيمَنْ يَشْفَعُ

(247/834)

فِيهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِكَوْنِهِ نَالَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَا فَعَلَهُ مِنْ الْمَأْمُورِ وَإِلَى اللَّهِ إيَابُ الْخَلْقِ وَعَلَيْهِ حِسَابُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِحَالِهِمْ : أَيْ بِأَحْوَالِ عِبَادِهِ فَإِنَّ شَفَاعَتَهُ لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِهِ وَالْمُحْسِنُ إنَّمَا أَحْسَنَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ لَهُ وَالْمُسِيءُ لَا حُجَّةَ لَهُ وَلَا عُذْرَ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْكَوْثَرَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ وَهُوَ مِنْ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهَذَا غَيْرُ مَا يُعْطِيهِ اللَّهُ مِنْ الْأَجْرِ الَّذِي هُوَ مِثْلُ أُجُورِ أُمَّتِهِ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَكُلُّ مَنْ قَرَأَ أَوْ عَلِمَ أَوْ عَمِلَ صَالِحًا أَوْ عَلَّمَ غَيْرَهُ أَوْ تَصَدَّقَ أَوْ حَجَّ أَوْ جَاهَدَ أَوْ رَابَطَ أَوْ

تَابَ أَوْ صَبَرَ أَوْ تَوَكَّلَ أَوْ نَالَ مَقَامًا مِنْ الْمَقَامَاتِ الْقَلْبِيَّةِ مِنْ خَشْيَةٍ وَخَوْفٍ وَمَعْرِفَةٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَهُ مِثْلُ أُجْرِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِ ذَلِكَ الْعَامِلِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . وَقَوْلُهُ : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْعِبَادَتَيْنِ الْعَظِيمَتَيْنِ وَهُمَا الصَّلَاةُ وَالنُّسُكُ الدَّالَّتَانِ عَلَى الْقُرْبِ وَالتَّوَاضُعِ وَالِافْتِقَارِ وَحُسْنِ الظَّنِّ وَقُوَّةِ الْيَقِينِ وَطُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ إلَى اللَّهِ وَإِلَى عُدَّتِهِ وَأَمْرِهِ وَفَضْلِهِ وَخُلْفِهِ عَكْسُ حَالِ أَهْلِ الْكِبْرِ وَالنُّفْرَةِ وَأَهْلِ الْغِنَى عَنْ اللَّهِ الَّذِينَ لَا حَاجَةَ فِي صَلَاتِهِمْ إلَى رَبِّهِمْ يَسْأَلُونَهُ إيَّاهَا وَاَلَّذِينَ لَا يَنْحَرُونَ لَهُ

(248/834)

خَوْفًا مِنْ الْفَقْرِ وَتَرْكًا لِإِعَانَةِ الْفُقَرَاءِ وَإِعْطَائِهِمْ وَسُوءِ الظَّنِّ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ وَلِهَذَا جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ قُلْ .

(249/834)

إنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَالنُّسُكُ هِيَ الذَّبِيحَةُ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ . وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ الصَّلَاةَ وَالنُّسُكَ هُمَا أَجَلُّ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إلَى اللَّهِ فَإِنَّهُ أَتَى فِيهِمَا بِالْفَاءِ

الدَّالَّةِ عَلَى السَّبَبِ ؛ لِأَنَّ فِعْلَ ذَلِكَ وَهُوَ الصَّلَاةُ وَالنَّحْرُ سَبَبٌ لِلْقِيَامِ بِشُكْرِ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ مِنْ الْكَوْثَرِ وَالْخَيْرِ الْكَثِيرِ فَشُكْرُ الْمُنْعِمِ عَلَيْهِ وَعِبَادَتُهُ أَعْظَمُهَا هَاتَانِ الْعِبَادَتَانِ بَلْ الصَّلَاةُ نِهَايَةُ الْعِبَادَاتِ وَغَايَةُ الْغَايَاتِ . كَأَنَّهُ يَقُولُ : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْك بِذَلِكَ لِأَجْلِ قِيَامِك لَنَا بِهَاتَيْنِ الْعِبَادَتَيْنِ شُكْرًا لِإِنْعَامِنَا عَلَيْك وَهُمَا السَّبَبُ لِإِنْعَامِنَا عَلَيْك بِذَلِكَ فَقُمْ لَنَا بِهِمَا فَإِنَّ الصَّلَاةَ وَالنَّحْرَ مَحْفُوفَانِ بِإِنْعَامٍ قَبْلَهُمَا وَإِنْعَامٍ بَعْدَهُمَا وَأَجَلُّ الْعِبَادَاتِ الْمَالِيَّةِ النَّحْرُ وَأَجَلُّ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ الصَّلَاةُ وَمَا يَجْتَمِعُ لِلْعَبْدِ فِي الصَّلَاةِ لَا يَجْتَمِعُ لَهُ فِي غَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ الْعِبَادَاتِ كَمَا عَرَفَهُ أَرْبَابُ الْقُلُوبِ الْحَيَّةِ وَأَصْحَابُ الْهِمَمِ الْعَالِيَةِ وَمَا يَجْتَمِعُ لَهُ فِي نَحْرِهِ مِنْ إيثَارِ اللَّهِ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِهِ وَقُوَّةِ الْيَقِينِ وَالْوُثُوقِ بِمَا فِي يَدِ اللَّهِ أَمْرٌ عَجِيبٌ إذَا قَارَنَ ذَلِكَ الْإِيمَانَ وَالْإِخْلَاصَ وَقَدْ امْتَثَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرَ رَبِّهِ فَكَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ لِرَبِّهِ كَثِيرَ النَّحْرِ حَتَّى نَحَرَ بِيَدِهِ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ

ثَلَاثًا وَسِتِّينَ بَدَنَةً وَكَانَ يَنْحَرُ فِي الْأَعْيَادِ وَغَيْرِهَا . وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ إشَارَةٌ إلَى

أَنَّك لَا تَتَأَسَّفُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا كَمَا ذُكِرَ ذَلِكَ فِي آخِرِ " طه " " وَالْحِجْرِ " وَغَيْرِهِمَا

وفيها الْإشارةُ إلى تركِ الالْتفات إلى النّاس وما ينالك منْهمْ بل صلِّ لربّك وانْحرْ . وفيها التّعْريض بحال الْأبْتر الشّانِئ الّذي صلاته ونسكه لغيْر اللّه . وفي قوْله : ﴿ إنّ شانئك هو الْأبْتر ﴾ أنْواعٌ من التّأْكيد : أحدها تصْدير الْجمْلة بإنّ . الثّاني : الْإتْيان بضمير الْفصْل الدّالّ على قوّة الْإسْناد والاخْتصاص . الثّالث : مجيء الْخبر على أفْعل التّفْضيل . دون اسْم الْمفْعول . الرّابع : تعْريفه باللّام الدّالّة على حصول هذا الْموْصوف له بتمامه . وأنّه أحقّ به منْ غيْره ونظير هذا في التّأْكيد قوْله : ﴿ لا تخفْ إنّك أنْت الْأعْلى ﴾ . ومنْ فوائدها اللّطيفة الالْتفات في قوْله : ﴿ فصلّ لربّك وانْحرْ ﴾ الدّالّة على أنّ ربّك مسْتحقٌّ لذلك وأنْت جديرٌ بأنْ تعْبده وتنْحر له . واللّه أعْلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16 صـ 526 . 533 ﴾

(251/834)

بسْم اللّه الرّحْمن الرّحيم

الكتاب : الحاوى فى تفْسير الْقرْآن الْكريم

ويسمّى (جنّة الْمشْتاق فى تفْسير كلام الْملك الْخلّاق)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والثلاثون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الخامس والثلاثون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الكافرون)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الكافرون

وتسمى الإخلاص والمقشقشة .

مقصودها إثبات مقصود الكوثر بالدليل الشهودي على منزلها كامل العلم شامل القدرة لأنه المنفرد بالوحدانية ، فلذلك لا يقاوي من كان معه ، ولذلك لما نزلت قرأها (صلى الله عليه وسلم) عليهم في المسجد أجمع ما كانوا ، وهذا المراد بكل من أسمائها . أما الكافرون فمن وجهين ، ناظر إلى إثبات ، وناظر إلى نفي ، أما المثبت فمن حيث أنه إشارة إلى تأمل جميع السورة من إطلاق البعض على الكل ، وأما النافي فمن جهة أنهم إنما كفروا بإنكار ما هو مقصودها إما صريحا كالوحدانية وتمام القدرة ، وإما لزوما وهو العم فإنه يلزم من نقص القدرة نقصه ، وأما الإخلاص فلأن من اعتقد ذلك كان مؤمنا مخلصا برئيا من كل شرك

وكل كفر ، وأما القشقشة فلأنها أبرأت من كل نفاق وكفر ، من قولهم : تقشقشت قروحه - إذا تقشرت للبرء ، وعندي أنه من الجمع أخذا من القش الذي هو تطلب المأكول من ههنا وههنا فإنها جمعت جميع أصول الدين ، فأثبتتها على أتم وجه ، فلزم من ذلك أنها جمعت جميع أنواع الكفر فحذفتها ونفتها ، وقد تقدم تمام توجيه ذلك في براءة فأمرهما دائر على الإخلاص ، ومن المعلوم أن من أخلص لله كان من أهل ولايته حقا ، فحق له ما يفعل الولي مع وليه ، ولذلك - والله أعلم - سمت قراءتها مع (قل هو الله أحد) في ركعتي الفجر ليجوز فاعل ذلك بالبراءة من الشرك والاتصاف بالتوحيد أول النهار ثمرة ما ورد أن من صلى الصبح كان في ذمة الله ، ومن كان كذلك كان جديرا بأن ينال ما أشارت إليه السورتان اللتان بين سورتي الإخلاص من الفتح له والنصر والخيبة لعدوه والخسر والحسرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 553﴾

(6/835)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . قل يا أيها الكافرون)

السّورة مكّيّة.

آياتها ستّ بالإِجماع.

وكلماتها ثمانٍ وعشرون.

وحروفها أَربع وتسعون.

فواصل آياتها على النّون.

سمّيت سورة (الكافرون)، لمفتتحها، وسورة الدّين، لقوله: ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾.

والمقشقشة.

قال أَبو عبيدة: سورتان من القرآن يقال لهما المقشقِشتان: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ تقشقشان الذنوب كما يقشقش الهناءُ الجَرَب.

معظم مقصود السّورة: يأْس الكافرين من موافقة النبىّ - صلَّى الله عليه وسلَّم - بالإِسلام والأَعمال، فى الماضى، والمستقبل، والحال، وبيان أَن كلّ أَحد مأْخوذ بماله عليه إِقبال، وعليه اشتغال.

المنسوخ منها ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ م آية السّيف ن.

من المتشابهات:

قوله: ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فى تكراره أَقوال خمسة، ومعانٍ كثيرة، ذكرت فى التفاسير.

وقال محمود بن حَمزة الكرمانىّ : هذا التكرار اختصار وإِيجاز ، هو إِعجاز ، لأَنه نفى عن نبيّه عبادة الأَصنام فى الماضى ، والحال ، والاستقبال ، ونفى عن الكفار المذكورين عبادة الله فى الأَزمنة الثلاثة أَيضاً .

فاقتضى القياس تكرار هذه اللفظة ستّ مرّات فذكر لفظ الحال ، لأَنّ الحال هو الزّمان الموجود .

واسم الفاعل واقع موقع الحال ، وهو صالح للأَزمنة .

واقتصر من الماضى على المسند إِليهم ، فقال : ﴿ وَلَآ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ ولأَنّ اسم الفاعل بمعنى الماضى فعل على مذهب الكوفيّين .

فاقتصر من المستقبل على المسند إِليه فقال : ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ وكان اسم الفاعلين بمعنى المستقبل .

وهذا معجزة للقرآن وبرهان .

فضل السّورة

فيه أَحاديث : مَنْ قرأَها فكأَنّما قرأَ ربع القرآن ، وتباعدت منه مَرَدة الشّياطين ، وبرئ من الشرك وتعافى من الفزع الأَكبر .

ويروى أَنَّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال لرجل : اقرأْ عند لُبس ثيابك : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ؛ فإِنها براءَة من الشّرك .

وقد سمّاها رسول الله صلَّى الله عليه وسلم مُقَشقِشةً أَى مُبرئة من النّفاق .

وفيه حديث علىّ الضعيف أَيضاً : يا علىّ مَنْ قرأَها أَنجاه الله من شدّة يوم القيامة ، وله بكلّ آية قرأَها ثوابُ المستغفرين بالأَسحار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 548.549 ﴾

(8/835)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الكافرين

476 – مسألة :

قوله تعالى : (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) إلى آخر السورة . هل هو تكرار الفائدة أم ليس بتكرار ؟

.

جوابه :

ليس بتكرار في المعنى ، فإن قوله تعالى ذلك جواب لقول أبى جهل (1) ومن تابعه للنبي صلى الله عليه وسلم :

" نشترك في عبادة إلهك وآلهتنا ، أعبد آلهتنا عاما ونعبد إلهك عاما "

فأخبر أن ذلك لا يكون ، فقوله : (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) صريح في الآن الحاضر فنفى المستقبل كالمسكوت عنه فصرح بنفي ذلك أيضا فيه بقوله تعالى : (وَلَا أَنَا عَابِدٌ) أي في المستقبل ، (مَا عَبَدْتُمْ) أي الآن ، (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ) في المستقبل ما أعبده في الحال والاستقبال . وهذا إعلام من الله تعالى له بعدم إيمان أولئك خاصة ، كما قال تعالى لنوح عليه السلام : (لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ) عامة ، فلا تكرار حينئذ ، وهذا من معجزاته – صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿كشف المعاني ص 381.379﴾

---

(1) المشهور في أسباب النزول أنها نزلت في الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف .

ولكن لا مانع من دخول أبى جهل دخولا حتميا لأن الآية لم تنزل بشأن هؤلاء فقط إنما نزلت بشأن من أمر الله تعالى نبيه بمخاطبتهم بقوله تعالى : (قل يا أيها الكافرون) أي الذين سيموتون وهم متلبسون بالكفر وعبادة الأصنام ، وأبو جهل كان رأسا فيهم ، ولم يقل

له : وقل للذين كفروا لأنه لا يفيد تلبس الكافر بكفره في المستقبل ، فدلت الآية بوصفها الثابت في المصحف على أن المعنى بهم قوم علم الله أزلا أنهم لن يؤمنوا وسيموتون بكفرهم ، وقد قال العلماء : بأن هذه الآية من معجزات القرآن لهذا المعنى .

فإن القائلين له ذلك ماتوا كفارا ، ولم يؤمن أحد منهم قط .

والله تعالى أعلم .

(9/835)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سوة الكافرون

عنونت هذه السورة في المصاحف التي بأيدينا قديمها وحديثها وفي معظم التفاسير (سورة الكافرون) بإضافة (سورة) إلى) الكافرون (وبثبوت واو الرفع في) الكافرون (على حكاية لفظ القرآن الواقع في أولها .

ووقع في (الكشاف) و (تفسير ابن عطية) و (حِرز الأماني) (سورة الكافرين) بياء الخفض في لفظ (الكافرين) بإضافة (سورة) إليه أن المراد سورة ذكر الكافرين ، أو نداء

الكافرين . وعنونها البخاري في كتاب التفسير من (صحيحه) سورة : (قل يأيها الكافرون) (الكافرون : 1) .

قال في (الكشاف) و (الإتقان) : وتسمى هي وسورة) قل هو الله أحد المقشقشتين لأنهما تقشقشان من الشرك أي تُبرئان منه يقال : قشقش : إذا أزال المرض .

وتسمى أيضاً سورةَ الإِخلاص فيكون هذان الاسمان مشتركين بينها وبين سورة قل هو الله أحد .

وقد ذُكر في سورة براءة أن سورة براءة تسمى المقشقشة لأنها تقشقش ، أي تبرىء من النفاق فيكون هذا مشتركاً بين السور الثلاث فيُحتاج إلى التمييز .

وقال سعد الله المعروفُ بسعدي عن جمال القراء (أنها تسمى (سورة العبادة) وفي (بصائر ذوي التمييز) للفيروزابادي تسمى (سورة الدين) .

وهي مكية بالاتفاق في حكاية ابن عطية وابن كثير ، وروي عن ابن الزبير أنها مدنية .

وقد عدت الثامنة عشرة في عداد نزول السور ، نزلت بعد سورة الماعون وقبل سورة الفيل

.

وعدد آياتها ست .

أغراضها

وسبب نزولها فيما حكاه الواحدي في (أسباب النزول) وابن إسحاق في (السيرة) أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يطوف بالكعبة فاعترضه الأسود بن المطلب بن أسد ، والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف ، والعاص بنُ وائل . وكانوا ذوي أسنان في قومهم فقالوا : يا محمد هلمّ فلنعبد ما تعبدُ سنةً وتعبدُ ما نعبد سنة فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله فيهم : (قل يأيها الكافرون (السورة كلها ، فغدا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقرأها عليهم فيئسوا منه عند ذلك (وإنما عرضوا عليه ذلك لأنهم رأوا حرصه على أن يؤمنوا فطمعوا أن يستنزلوه إلى الاعتراف بإلاهية أصنامهم) .

وعن ابن عباس : فيئسوا منه وآذوه وآذوا أصحابه .

وبهذا يعلم الغرض الذي اشتملت عليه وأنه تأييسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال وأن دين الإِسلام لا يخالط شيئاً من دين الشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ 579. 580﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الكافرون

مكية وآياتها ست آيات

بين يدي السورة

* سورة الكافرون مكية ، وهي سورة (التوحيد) و(البراءة من الشرك) والضلال ، فقد دعا المشركون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، إلى المهادنة ، وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، فنزلت السورة تقطع أطماع الكافرين ، وتفصل النزاع بين الفريقين : أهل الإيمان ، وعبدة الأوثان ، وترد على الكافرين تلك الفكرة السخيفة في الحال والاستقبال . انتهى انتهى . اهـ ﴿صفوة التفاسير حـ 3 صـ 613﴾

(12/835)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الفراء :

سورة (الكافرون)

﴿ لَاأَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ لَاأَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. . . ﴾ .

فقالوا للعباس بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم : قل لابن أخيك يستلم صنما من أصنامنا فنتبعه ، فأخبره بذلك العباس ، فأتاهم النبى ـ صلى الله عليه ـ وهم فى حلقة ؛ فاقترأ عليهم هذه السورة فيئسوا منه وآذوه ، وهذا قبل أن يؤمر بقتالهم ، ثم قال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ : الكفر ، ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ الإسلام . ولم يقل : دينى ؛ لأن الآيات بالنون فحذفت الياء ، كما قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ، والَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 297 ﴾

(13/835)

وقال الأخفش :

سورة (الكافرون)

﴿ لَاأَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَاأَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾

قال ﴿ لَاأَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَلَاأَنْتُمْ عَابِدُونَ ﴾ لأن ﴿ لا ﴾ تجري مجرى ﴿ ما ﴾

فرفعت على خبر الابتداء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 587 ﴾

(14/835)

وقال الغزنوى :

[سورة الكافرون]

6 لَكُمْ دِينُكُمْ : حين قالوا : تداول العبادة ، تعبد آلهتنا ونعبد إلهك .

وهو على الإنكار «1» ، كقوله «2» : اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ ، وليس في السّورة تكرير معنى ، وأَعْبُدُ ، أحدهما للحال ، والثاني للاستقبال «3» .

وسورتا الكافرين والإخلاص المقشقشتان لأنهما تبريان من النّفاق والشّرك «4» ، وتقشقش المريض من علته : أفاق «5» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 894 ﴾

---

(1) ينظر تفسير الماوردي : 4/ 534 ، وتفسير الفخر الرازي : 32/ 147 ، وتفسير القرطبي : 20/ 229 .

(2) سورة فصلت : آية : 40 .

(3) معاني القرآن للزجاج : 5/ 371 ، وتفسير الماوردي : 4/ 533 ، والبحر المحيط : 8/ 521 .

(4) تفسير الماوردي : 4/ 534 ، وتفسير الفخر الرازي : 32/ 136 ، وتفسير القرطبي :

2/ 225 .

(5) اللسان : 6/ 337 (قشش) .

(15/835)

وقال ملاحويش :

تفسير سورة الكافرون

عدد 18 - 109

نزلت في مكة بعد الماعون وهي ست آيات ، ومثلها سورة الناس فقط ، وعشرون كلمة ، وأربعة وتسعون حرفا ، ويوجد في القرآن خمس سور مبدوءة بما بدأت به هذه والجن والإخلاص والفلق والناس ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: "قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ 1" أمر اللّه رسوله أن يخاطب الرهط من قريش الذين قالوا له يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك بأن تعبد إلهنا سنة ونعبد إلهك سنة، وهم أناس مخصوصون، علم اللّه أنهم لا يؤمنون فأذن له أن يقول لهم "لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ 2" من الآلهة لأنها أوثان لا تضر ولا تنفع وهي من عمل البشر الذي هو من عمل اللّه ربي فمعاذ اللّه أن أشرك به غيره.

(16/835)

قالوا فاستلم لبعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك (الاستلام يكون باليد على طريق التبرك كاستلام الحجر الأسود" فلم يفعل وأنزل اللّه هذه السورة قال تعالى "وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ 3" لأنكم تعبدون الأوثان وأنا أعبد الرحيم الرحمن الواحد الذي لا شريك له ولا رب غيره "وَلا أَنا عابِدٌ" الآن ولا في المستقبل "ما عَبَدْتُّمْ 4" من الأصنام وغيرها "وَلا أَنْتُمْ" الآن "عابِدُونَ ما أَعْبُدُ 5" ولعل اللّه أن يهديكم فيما بعد إذا أراد بكم خيرا، أما إذا بقيتم مصرين على ما أنتم عليه ولم تتابعوني إلى ما أرشدكم إليه في الدين القويم فأقول "لَكُمْ دِينُكُمْ" الذي تدينون به هو الإشراك باللّه وعليكم وزره "وَلِيَ دِينِ 6" الذي أدين به وهو

الإخلاص للّه وحده ولي أجره ، ولم يقل ديني لأن الآيات قبلها مختومة بالنون ، ويجوز حذف الياء بلا حاذف مثل قوله تعالى يهدين ويحيين ويسقين ويشفين من سورة الشعراء ، وقوله (وَاللَّيْلِ إِذا يَسْرِ) من سورة الفجر وما أشبه ذلك ، فلما قرأها عليهم ايسوا منه وبادروا بأذاه ، وقد سمى كفرهم دينا على حسب اعتقادهم ، ولمشاكلة اللفظة وفي معنى الآية الأخيرة تهديد على حد قوله تعالى (اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ) الآية 20 من سورة فصلت في ج 2 والتكرار في الجملة الاولى يفيد التأكيد وكلما كانت الحاجة ماسة إلى التأكيد كان التكرار أحسن ولا موضع أحوج منه هنا ، وذلك لأن القرآن نزل بلسان العرب وعلى مجاري خطابهم ، وبما أنهم كانوا وثنيين ينكرون البعث والتوحيد والنبوة فلا جرم أن التكرار لازم لهم لأجل التقرير ، وقد تقربى في علم الاجتماع أن الدعوة تستدعي التأكيد والتكرار ، وإذا تأملت في نظم القرآن وجدت أن ما ذكر موضوع منه لنكتة ، لا يذكر في اخرى إلا لنكتة أخرى وإذا أمعنت النظر في قصة بدء الخليقة المكررة في مواقع كثيرة من القرآن عملت أنها في كل موقع لنكتة

لا تجدها في الموضع الآخر كما سيتضح لك من إنعامك النظر فيما سيأتي من هذا القبيل إذا تذكرت وأبقيت هذا في فكرك .

وأن العرب من مذاهبهم التكرار ارادة التوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار وارادة التخفيف ولا يجاز .

روي أن

ابن مسعود دخل المسجد والنبي صلّى اللّه عليه وسلم جالس فقال له نابذ يا ابن مسعود ، فقرأ هذه السورة في الركعة الأولى ، ثم قال له في الركعة الثانية أخلص ، فقرأ سورة الإخلاص ، فلما سلم قال يا ابن مسعود سل تجب .

وهذه السورة محكمة غير منسوخة لأن القصر المستفاد من تقديم المستند قصر إفراد حتما ، لأن المعنى فيه أن دينكم هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول إليّ ، فلا تعلقوا فيه أمانيكم الفارغة فإن ذلك محال وان ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لما لا يتجاوزه إلى الحصول لكم ، لأن اللّه تعالى ختم على قلوبكم فلا تنالونه ، وقد مر أنهم كفار مخصوصون سبق في علم اللّه عدم إيمانهم وهم على ما قيل قيس السهمي والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة والأسود بن عبد يغوث والأسود بن عبد المطلب بن أسد وأمية بن خلف وأضرابهم كأبي جهل وأبي لهب الذين ماتوا وقتلوا على كفرهم .

واعلم أن من الناس من يتمثل بالآية الأخيرة على معنى المتاركة وهو غير جائز لأن القرآن نزل ليتدبر ويعمل فيه لا ليتمثل به ، راجع سورة الكوثر المارة وسورة الطارق الآتية لنقف على مثل هذا ، وأعلم أن هذه السورة المبدوءة بلفظ قل يجوز قراءتها بغير قصد القرآن بلا لفظ قل ، كأن يقول عند الخطاب يا أيها الكافرون ، هو اللّه أحد ، أعوذ برب الفلق ، أعوذ برب الناس ، لأن الخطاب فيها وإن كان لسيد المخاطبين صلّى اللّه عليه وسلم فهي عامة لجميع المؤمنين ، أما قل أوحي فلا ، لأنها خاصة بحضرة الرسول فقط لأن اللّه خاطبه بها ليقصها على الجن والإنس و

(18/835)

إذا سأله قومه عما ذكر فيها يقول لهم إن اللّه تعالى أوحى إليّ بها ، تأمل هذا ، واللّه أعلم ، وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 174.176 ﴾

(19/835)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الكافرين

مكية أو مدنية

ما أعبد في الموضعين كاف آخرها تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(20/835)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الكافرون

مكية أو مدنية

ما تعبدون (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل توكيداً

ما أعبد في الموضعين (كاف)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(21/835)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة الكافرون

مكية وقيل مدنية وآيها ست مر للأزرق ترقيق الراء المضمومة في نحو الكافرون في أصح الوجهين وأمال عابدون و عابد كل ما فيها هشام من طريق الحلواني وفتحه من طريق الداجوني كالباقين وفتح ياء الإضافة من ولي دين نافع والبزي بخلفه وهشام وحفص والوجهان للبزي في الشاطبية وغيرها وصححهما في النشر لكن قال إن الإسكان أكثر وأشهر وأثبت الياء من دين يعقوب في الحالين وافقه الحسن وصلا ففيها ياء إضافة وزائدة (ولي دين ( ) الآية 6 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(22/835)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الكافرون "

" الكافرون " رقق الراء ورش .

" ولي دين " فتح ياء ولي نافع وهشام وحفص والبزي بخلف عنه وأسكنها الباقون وهو الوجه الثاني للبزي وأثبت ياء دين وصلا ووقفا يعقوب وحذفها غيره في الحالين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 357 ﴾

(23/835)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الكافرون

قوله تعالى ﴿ ولي دين ﴾ يقرأ بحركة الياء الى الفتح وسكونها فالحجة لمن حركها انها حرف واحد اتصلت بحرف مكسور فقويت بالحركة لانها اسم والحجة لمن اسكن انها ياء اضافة اتصلت بلام مكسورة وحركتها تثقل فخففت بالاسكان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 377 ﴾

(24/835)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الكافرون 109

مكية وقد ذكر نظيرتها في غير الكوفي والبصري ونظيرتها فيهما الناس فقط

وكلمها ست وعشرون كلمة

وحروفها أربعة وتسعون حرفا

وهي ست آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف ورؤوس الآي

الكافرون

1 تعبدون

2 أعبد

3 عبدتم

4 أعبد

5 دين

5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 293 ﴾

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (ما تعبدون) يجوز أن تكون " ما " بمعنى الذى، والعائد محذوف وأن تكون مصدرية ولا حذف، والتقدير : لا أعبد مثل عبادتكم، والله أعلم. انتهى. اهـ ﴿إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(26/835)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الكافرون

[سورة الكافرون (109) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (1)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها "يا" حرف نداء "أي" منادى نكرة مقصودة "ها" للتنبيه "الْكافِرُونَ" صفة أو بدل والجملة مقول القول .

[سورة الكافرون (109) : آية 2]

لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (2)

"لا أَعْبُدُ" لا نافية ومضارع فاعله مستتر "ما" اسم موصول مفعول به والجملة حال "تَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعله والجملة صلة .

[سورة الكافرون (109) : آية 3]

وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (3)

"وَلا" الواو حرف عطف "لا" نافية "أَنْتُمْ" مبتدأ "عابِدُونَ" خبر والجملة معطوفة على ما قبلها "ما" مفعول به لاسم الفاعل "أَعْبُدُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة ما .

[سورة الكافرون (109) : آية 4]

وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ (4)

"وَلا" الواو حرف عطف "لا" نافية "أَنا عابِدٌ" مبتدأ وخبره والجملة معطوفة على ما قبلها "ما" مفعول به "عَبَدْتُّمْ" ماض وفاعله والجملة صلة .

[سورة الكافرون (109) : آية 5]

وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (5)

انظر الآية - 3 - .

[سورة الكافرون (109) : آية 6]

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

"لَكُمْ دِينُكُمْ" لكم خبر مقدم ودينكم مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها "وَلِيَ دِينِ" معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / د دعاس حـ 3 صـ 473﴾

(27/835)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة الْكَافِرُونَ

حَدِيث وَاحِد

1548 - عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ من قَرَأَ سُورَة الْكَافِرُونَ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ربع الْقُرْآن وَتَبَاعَدت مِنْهُ مَرَدَة الشَّيَاطِين وبرىء من الشّرك وتعافى من الْفَزع الْأَكْبَر

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث مُحَمَّد بن عمرَان بن أبي لَيْلَى ثني أبي عَن مجالد عَن الْحجَّاج

بن عبد الله عَن أبي الْجَلِيل عَن زر بن حُبَيْش عَن أبي ابْن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم من قَرَأَ سُورَة الْكَافِرُونَ . . .

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسَنَدِهِ الثَّانِي إِلَّا أَنه قَالَ وَيُعَافَى من فزع الْيَوْم فَمروا صِبْيَانكُمْ أَن يَقْرَءُوهَا عِنْد الْمَنَام فَلَا يعرض لَهُم شَيْء انْتَهَى

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بسَنَدِهِ فِي يُونُس بِلَفْظ الْمُصَنّف . انتهى انتهى . اهـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 308. 309﴾

(28/835)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

«سورة قل يا أيها الكافرون» (109)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

«لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ «1»» (2 - 3) أي لا أعبد الآن ما تعبدون ولا أجيبكم فيما بقي أن أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ، إلا أنّه فى التمثيل أن الكافرين دعوا النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى أن يعبد آلهتهم ويعبدون هم إله

النبي صلى اللّه عليه وسلم ويؤمنون به فيما مضى والآن فأنزل اللّه عليه لا أعبد ما تعبدون فى الجاهلية ولا أنتم عابدون ما أعبد فى الجاهلية والإسلام . .

«وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ» (4) الآن ما أعبد ، أي لا أعبد الآن ما تعبدون ولا أجيبكم فيما بقي أن أعبد ما تعبدون .

«وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ» (5) . انتهى انتهى . اهـ ﴿مجاز القرآن حـ 2 صـ 314 ﴾

---

(1) . - 7 - 13 «كأنهم . . . ما أعبد» الذي ورد فى الفروق : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة (فتح الباري 8/ 564) .

(29/835)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الكافرون

" قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد " . هذا المعنى المقرر هنا يشبه ما تقرر فى سورة أخرى " ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض" . إن توحيد العقائد والمذاهب

مستحيل. ومن الخير الاعتراف بتعدد المشارب والنزعات، ومواجهة ذلك بالحكمة والوعى. وقد حكى القرآن الكريم زبدة تاريخ البشر فى سورة هود، والصراع الشديد بين المؤمنين والكفار على امتداد العصور. ثم قال للنبى الكريم. "ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين". "إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم...". إننا نحن المسلمين لا نسعى إلى محو الأديان المخالفة، وقد أجمع المحققون على أن الإسلام ما يقاتل إلا منعا للفتنة وردا للعدوان. وكل قتال للإكراه على عقيدة، فهو من نزغ الشياطين وجبروت السلاطين، ولا نتيجة له إلا مزيد من الأحقاد. ولذلك تكرر فى هذه السورة بعد ذلك " ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين". إن هذه السورة من أحكم ما تؤسس عليه العلاقات الدولية. فلنعترف بتعدد الأديان، ولندع للجدال! الحسن والحوار الهادئ أن يمتد وتعقد مجالسه. ولكننى مضطر هنا لإنكار ما تكنه بعض السلطات العالمية من ضيق بالإسلام وضن عليه بحق الحياة. ولابد من المصارحة بأن الدم لن يجف حتى تختفى هذه الرغبة الشريرة، ويسترد الإسلام قدرته على إثبات نفسه وحماية شرائعه وضمان تطبيقها على أتباعه. فهل يعقل ذلك الاستعماريون؟. انتهى انتهى. ا هـ ﴿نحو تفسير موضوعى صـ 545 ﴾

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(31/835)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الكافرون

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما قال : (فصل لربك) أمره أن يخاطب الكافرين بأنه لا يعبد إلا ربه ، ولا يعبد ما يعبدون ، وبالغ في ذلك فكرر ، وانفصل منهم على أن لهم دينهم وله دينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 159 ﴾

(32/835)

قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) المحيط علما وقدرة ، فهو الواحد الذي لا يستطيع أحد أن يقدر قدره (الرحمن) الذي عم برحمة البيان من أوجب عليهم شكره (الرحيم) الذي خص أهل وده فالتزموا نهيه وأمره .

لما أخبره في الكوثر أن العريق في شنآنه عدم ، وجب أن يعرض عنه ويقبل بكليته على من أنعم عليه بذلك ، فقال معلماً له ما يقول ويفعل : ﴿ قل ﴾ ولما كان شائنه أعرق الخلق في الضلال والبعد من الخير ، قال منادياً له بأداة البعد وإن كان حاضراً معبراً بالوصف المؤذن بالرسوخ : ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ أي الذين قد حكم بثباتهم على الكفر فلا انفكاك لهم عنه فستروا ما تدل عليه عقولهم من الاعتقاد الحق لو جردوها من أدناس الحظ ، وهم كفرة مخصوصون وهم من حكم بموته على الكفر بما طابقه من الواقع ، وبما دل عليه التعبير بالوصف دون الفعل ، واستغرقت اللام كل من كان على هذا الوصف في كل مكان وكل زمان ، وإنما عبر بالجمع الذي هو أصل في القلة وقد يستعار للكثرة إشارة إلى البشارة بقلة المطبوع على قلبه من العرب المخاطبين بهذا في حياته . صلى الله عليه وسلم . وإشارة إلى حقارة الكافر وذلته وإن كان كثيراً – كما يشير إليه جعل كل كلمة منها بحرف من الكوثر

كما سيأتي ، وفي مناداتهم بهذا الوصف الذي يسترذلونه في بلدتهم ومحل عزهم وحميتهم إيذان بأنه محروس منهم علماً من أعلام النبوة .

(33/835)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما انقضى ذكر الفريقين المتردد ذكرهما في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره على اختلاف أحوال كل فريق وشتى درجاتهم ، وأعني بالفريقين من أشير إليه في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ فهذا طريق أحد الفريقين ، وفي قوله : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ إشارة إلى طريق من كان في الطرف الآخر من حال أولئك الفريق إذ ليس إلا طريق السلامة أو طريق الهلاك ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ [الشورى : 7] ﴿ فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ [التغابن : 2] والسالكون طريق السلامة فأعلى درجاتهم مقامات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ثم يليهم أتباعهم من صالحي العباد وعلمائهم العاملين وعبادهم وأهل الخصوص منهم والقرب من أحوال من تنسك منهم ، ورتبتهم مختلفة وإن جمعهم جامع وهو قوله : ﴿ فريق في الجنة ﴾ وأما أهل التنكب عن هذا الطريق وهم الهالكون فعلى طبقات أيضاً ، ويضم جميعهم طريق واحد فكيفما تشعبت الطرق فإلى ما

ذكر من الطريقين مرجعهما ، وباختلاف سبل الجميع عرفت آي الكتاب وفصلت ، ذكر كله تفصيلاً لا يبقى معه ارتياب لمن وفق ، فلما انتهى ذلك كله بما يتعلق به ، وتداولت بيانه الآي من لدن قوله بعد أم القرآن ﴿ هدى للمتقين ﴾ [البقرة : 2] إلى قوله : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ أتبع ذلك بالتفاصيل والتسجيل فقال تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فبين سبحانه أن من قضي عليه بالكفر والوفاة عليه لا سبيل له إلى خروجه عن ذلك ، ولا يقع منه الإيمان أبداً

(34/835)

﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ [الأنعام : 111] ولو أنهم بعد عذاب الآخرة ومعاينة العذاب والبعث وعظيم تلك الأهوال وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا وقولهم : ﴿ ربنا فارجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ﴾ [السجدة : 12] فلو أجيبوا إلى هذا ورجعوا لعادوا إلى حالهم الأول ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾ [الأنعام : 128] تصديقاً لكلمة الله وإحكاماً لسابق قدره ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ﴾ [الزمر : 19] فقال لهم : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ إلى آخرها ، فبان أمر

الفريقين وارتفع الإشكال ، واستمر كل على طريقه ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر : 8] ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾ [الشورى : 48] فتأمل موقع هذه السورة وأنها الخاتمة لما قصد في الكتاب يلح لك وجه تأخيرها - والله أعلم - انتهى .

ولما كان القصد إعلامهم بالبراءة منهم من كل وجه ، وأنه لا يبالي بهم بوجه لأنه محفوظ منهم ، قال مؤذناً بصدق خبره تعالى آخر الكوثر من حيث إنه مع الجزم بالمنابذة لا يستطيعون له نوع مكابدة نافذة ، بادئاً بالبراءة من جهته لأنها الأهم : ﴿ لا أعبد ﴾ أي الآن ولا في مستقبل الزمان لأن ﴿ لا ﴾ للمستقبل و ﴿ ما ﴾ للحال ، كذا قالوا ، وظاهر عبارة سيبويه في قوله : ﴿ لن ﴾ نفي لقوله ﴿ سيفعل ﴾ ﴿ ولا ﴾ لقوله : ﴿ يفعل ﴾ ، ولم يقع : أنها تقع للمضارع الذي لم يقع سواء كان في غاية القرب من الحال أم لا ، كما نقلته عنه في أول البقرة عند ﴿ ولن تفعلوا ﴾ [البقرة : 24] على أن نطقنا بهذا الكلام لا يكاد يتحقق حتى يمضي زمن فيصير مستقبلاً ، فلذا عبر ب " لا " دون " ما " بشارة بأنه سبحانه يثبته على الصراط المستقيم ، ولا يظفرهم به - علماً من أعلام النبوة .

(35/835)

ولما كان في معبوداتهم ما لا يعقل ، وكان المقصود تحقير كل ما عبدوه سوى الله ، عبر ب " ما " فقال : ﴿ ما تعبدون ﴾ أي الآن وفي آتي الزمان من دون الله من المعبودات الظاهرة والباطنة بوجه من وجوه العبادة في سر ولا علن لأنه لا يصلح للعبادة بوجه .

ولما بدأ بما هو الأحق بالبداءة وهو البراءة من الشرك ، والطهارة من وضر الإفك ، لأنه من درء المفاسد ، فأبلغ في ذلك بما هو الحقيق بحاله. صلى الله عليه وسلم. ، وكانوا هم يعبدون الله تعالى على وجه الإشراك ، وكانت العبادة مع الشرك غير معتد بها بوجه ، نفى عبادتهم له في الجملة الاسمية الدالة على الثبات لا في الفعلية الدالة على نفي كل قليل وكثير من حيث إن الفعل نكرة في سياق النفي فقال : ﴿ ولا أنتم عابدون ﴾ أي عبادة معتداً بها بحيث يكون أهلاً لأن تكون وصفاً ثابتاً .

ولما كانوا لا نزاع لهم في أن معبوده عالم ، وكانت " ما " صالحة للإطلاق عليه سبحانه وتعالى ، عبر فيه أيضاً بها لأن ذلك – مع أنه لا ضرر فيه – أقرب إلى الإنصاف ، فهو أدعى إلى عدم المراء أو الخلاف – فقال : ﴿ ما أعبد ﴾ أي الآن وما بعده لأن معبودي – وله العلم التام والقدرة الشاملة – أبعد كم عنه فلا مطمع في الوفاق بيننا .

ولما كان ما نفى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يدخل فيه الماضي ، وكان عدم المشاركة بوجه من الوجوه في زمن من الأزمان أدل على البراءة وأقعد في دوام الاستهانة ، وكانوا يعدون سكوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنهم فيما قبل النبوة عبادة ، وكانوا غير مقتصرين على عبادة أصنامهم التي اتخذوها ، بل إذا خرجوا من الحرم فنزلوا منزلاً نظروا لهم حجراً ليستحسنوه فيعبدونه ، فإن لم يروا حجراً جمعوا شيئاً من تراب وحلبوا عليه شيئاً من لبن وعبدوه ما داموا في ذلك المنزل ، وكان ذلك من أشد ما يعاب به من جهة عدم الشباب وأنه لا معبود لهم معين ، قال منبهاً على ذلك كله : ﴿ ولا أنا عابد ﴾ أي متصف بعبادة ﴿ ما عبدتم ﴾ أي فيما سلف ، لم يصح وصفي قط بعبادة ذلك من أول زمانكم إلى ساعاتنا هذه ، فكيف ترجون ذلك مني وأنا لم أفعله ولا قبل النبوة ولا كان من شأني قط .

ولما كان هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثابتاً على إله واحد لم يعبد غيره ولم يلتفت يوماً لفت سواه ، وكان قد انتفى عنه بالجملتين هذه الماضية التي أول السورة أن يعبد باطلهم حالاً أو مآلاً ، وأن يكون عبده قبل ذلك ، وكان ربما ظن ظان أن النفي عنهم إنما هو لعبادة معبوده في الحال ، نفى ذلك في الاستقبال أيضاً علماً من أعلام النبوة مع تأكيد ما أفادته الجملة الماضية جرياً على مناهيج العرب في التأكيد قطعاً لآمالهم منه على أتم وجه وآكده لأنه على وجه لا يقدرون عليه لما تفيده كل جملة مع التأكيد من فائدة جديدة مهمة ، فقال : ﴿ ولا أنتم عابدون ﴾ أي عبادة هي لكم وصف معتد به في الحال أو الاستقبال .

(37/835)

ولما لم يكن قبل البعث مشهوراً عندهم بعبادة الله سبحانه وتعالى ، عبر بما لا يتوجه لهم إليه إنكار ، وهو المضارع الذي ظاهره الحال أو الاستقبال مراداً به ما يشمل الماضي لما ذكر أبو حيان وغيره في سورة الحج عند ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله ﴾ [الحج : 25] من أنه يطلق المضارع مراداً به مجرد إيقاع الفعل من غير نظر إلى زمان معين ، فقال : ﴿ ما أعبد ﴾ أي وجدت مني عبادته واتصفت بها الآن وفي ماضي الزمان ومستقبله اتصافاً يعتد به .

(38/835)

ولما كان ذلك كله ، وبدأ النفي في الجمل السابقة بالمنسوب إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إيذاناً بالاهتمام ببراءته منهم ، أنتج قطعاً مقدماً لما يتعلق بهم على وجه اختصاصهم به تأكيداً لما صرح به ما مضى من براءته منهم : ﴿ لكم ﴾ أي خاصة ﴿ دينكم ﴾ أي الذي تعلمون أنه لا أصل له يثبت عليه ، ولا دليل يرجع بوجه إليه ، لا أشارككم فيه بوجه ولا

ترجعون عنه بوجه بل تموتون عليه موتاً لبعضكم حتف الأنف والآخرين قتلاً على يدي بالسيف ﴿ ولي ﴾ أي خاصة ﴿ دين ﴾ من واسع روضة الإسلام إلى أعلى مقام : مقام الإيقان والإحسان ، وأنتم تعلمون - لو جردتم عقولكم عن الهوى وأخلصتم أفكاركم من الحمية والإبا - أنه كله دليل وفرقان ونور وحجة وبرهان ، لا تشاركونني فيه بوجه ، ولا تقدرون على ردّي عنه أصلاً ، فكانت هذه علماً من أعلام النبوة من حيث إنه مات منهم ناس كثير بعد ذلك على الكفر وأتم الله له هذا الدين ، فصدق سبحانه فيما قال ، وثبت مضمون الكوثر بأكمل استدلال ، وأما من آمن بعد ذلك فليس مراداً لأنه لم يكن عريقاً في وصف الكفران ، ولا راسخاً في الضلال والطغيان ، فأسعده وصف الإسلام والإيمان ، وساق الجمل كلها غير مؤكد إشارة إلى أنها من الوضوح في حد لا خفاء به أصلاً ، ولا شك أن آخرها الذي هو اختصاص كل بدينه هو أولها الذي أفاد أنه لا يعبد معبودهم ولا يعبدون معبوده فصار آخرها أولها ، ومفصلها موصلها - هذا هو الذي دل عليه السياق ، وليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد ليحتاج إلى نسخ ، ومن أعظم الدلائل إعجازها وجمعها للمعاني في إشارتها وإيجازها أن حاصلها قطع رجاء أهل الكفران من أن يقاربهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أن يعدل بربه أحداً في زمن من الأزمان ، وذلك من أعظم مقاصد المناظرة لها في رد الآخر على أول الأنعام لأنها السادسة في العد من الأول ، كما أن هذه السادسة في العد من الآخر ﴿ أغير الله اتخذ ولياً ﴾ [الأنعام : 14] ﴿ أفغير

الله ابتغي حكماً ﴾ [الأنعام : 114] ﴿ أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ﴾ [الأنعام : 164] إلى غير ذلك من الآيات ، والفواصل والغايات ، هذا ما يتعلق بمعاني تراكيبها ونظومها على ما هي عليه وتراتيبها وسياقاتها وأساليبها ، وكلماتها الخطية سبع وعشرون إلى أربع كلمات البسملة إحدى وثلاثون إلى أربعة ضمائر مستترة خمس وثلاثون إلى تسعة بارزة ، فتلك أربع وأربعون كلمة الضمائر منها ثلاثة عشر هي مدة الإقامة بمكة المشرفة قبل الهجرة لأنها في الخفاء كالضمائر في خزائن السرائر ، ولا سيما الأربع الأول منها الموازية لضمائر الاستتار وغير الضمائر إحدى وثلاثون المناظر لها من السنين سنة إحدى وثلاثين ، وهي سنة قتل يزدجرد ملك الفرس أكفر الكفرة من أهل ذلك الزمان وأعتاهم ، وموافقة كلماتها في العدة لأحرف الكوثر مشيرة إلى أن اليسير من أتباعه. صلى الله عليه وسلم. أكثر وأكبر من كثير شانئيه وأضداده وحاسديه ، وقد دل على ذلك شاهد الوجوه في يوم الفتح والمسلمون عشرة آلاف ، والكفار من قريش ومن حولهم لا يحصون كثرة ، وقد كان فعلهم في ذلك اليوم ما شهد به اعتذار حماس الذي كان يعد امرأته أن يخدمها بعض المسلمين في قوله وقد فر هارباً ولم يستطع أن يغلق وراءه ، بل قال لها : أغلقي بابي ، فقالت

له : أين ما كانت تعدني به ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمه . . .

إذ فر صفوان وفر عكرمه

واستقبلتهم بالسيوف المسلمه . . .

يقطعن كل ساعد وجمجمه

ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه . . .

بهم تهيب خلفنا وهمهمه

لم تنطقي باللوم أدنى كلمه . . .

هذا مع أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أوصاهم ألا يقاتلوا إلا من بدأهم بالقتال .

(40/835)

وهذا مع ما كان من أهل الإسلام حين قصدهم الكفار يوم الخندق والمشركون في عشرة آلاف وهم لا يبلغون ربعهم ولا مدد لهم ممن حولهم ولا ناصر إلا الله ، بل جاءتهم الأعداء – كما قال الله تعالى : ﴿ من فوقهم ومن أسفل منهم ﴾ [الأحزاب : 10] ﴿ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ [الأحزاب : 22] وإلى هذا أيضاً أشار بلوغ عدد كلمات النصر خطيها

واصطلاحيها ظاهرها ومستترها إلى عدد كلمات الكافرون الخطية ، فذلك رمز إلى أن أضعف أهل الإسلام لا يضعف عن مقاومة أهل الكفر وأرسخهم في كل صفة يريدها - والله هو الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 553.558 ﴾

(41/835)

فصل

قال الفخر :

سورة الكافرون

ست آيات مكية

اعلم أن هذه السورة تسمى سورة المنابذة وسورة الإخلاص والمقشقشة وروى أن من قرأها فكأنما قرأ ربع القرآن والوجه فيه أن القرآن مشتمل على الأمر بالمأمورات والنهي عن المحرمات وكل واحد منهما ينقسم إلى ما يتعلق بالقلوب وإلى ما يتعلق بالجوارح وهذه السورة مشتملة على النهي عن المحرمات المتعلقة بأفعال القلوب فتكون ربعاً للقرآن والله أعلم

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) ﴾

اعلم أن قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ : فيه فوائد :

(42/835)

أحدهما : أنه عليه السلام كان مأموراً بالرفق واللين في جميع الأمور كما قال : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فضاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ [آل عمران : 159] ﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ [التوبة : 128] ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] ثم كان مأموراً بأن يدعو إلى الله بالوجه الأحسن : ﴿ وجادلهم بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : 125] ولما كان الأمر كذلك ، ثم إنه خاطبهم بيا أيها الكافرون فكانوا يقولون : كيف يليق هذا التغليظ بذلك الرفق فأجاب بأني مأمور بهذا الكلام لا أني ذكرته من عند نفسي فكان المراد من قوله : قل تقرير هذا المعنى

وثانيها : أنه لما قيل له : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] وهو كان يحب أقرباءه لقوله : ﴿ قُل لاَّ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ المودة فِى القربى ﴾ [الشورى : 23] فكانت القرابة ووحدة النسب كالمانع من إظهار الخشونة فأمر بالتصريح بتلك الخشونة والتغليظ فقيل له : ﴿ قُلْ ﴾ ، وثالثها : أنه لما قيل له : ﴿ يا أيها الرسول بَلّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن

رَبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة : 67] فأمر بتبليغ كل ما أنزل عليه فلما قال الله تعالى له : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ نقل هو عليه السلام هذا الكلام بجملته كأنه قال : إنه تعالى أمرني بتبليغ كل ما أنزل علي والذي أنزل علي هو مجموع قوله : ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ فأنا أيضاً أبلغه إلى الخلق هكذا

ورابعها : أن الكفار كانوا مقرين بوجود الصانع ، وأنه هو الذي خلقهم ورزقهم ، على ما قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] والعبد يتحمل من مولاه ما لا يتحمله من غيره ، فلو أنه عليه السلام قال ابتداء : ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ لجوزوا أن يكون هذا كلام محمد ، فلعلهم ما كانوا يتحملونه منه وكانوا يؤذونه .

(43/835)

أما لما سمعوا قوله : ﴿ قُلْ ﴾ علموا أنه ينقل هذا التغليظ عن خالق السموات والأرض ، فكانوا يتحملونه ولا يعظم تأذيهم به

وخامسها : أن قوله : ﴿ قُلْ ﴾ يوجب كونه رسولاً من عند الله ، فكلما قيل له : ﴿ قُلْ ﴾ كان ذلك كالمنشور الجديد في ثبوت رسالته ، وذلك يقتضي المبالغة في تعظيم الرسول ، فإن الملك إذا فوض مملكته إلى بعض عبيده ، فإذا كان يكتب له كل شهر وسنة منشوراً جديداً

دل ذلك على غاية اعتنائه بشأنه ، وأنه على عزم أن يزيده كل يوم تعظيماً وتشريفاً

وسادسها : أن الكفار لما قالوا : نعبد إلهك سنة ، وتبعد آلتنا سنة ، فكأنه عليه السلام قال : استأمرت إليه فيه .

(44/835)

فقال : ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾

وسابعها : الكفار قالوا فيه السوء ، فهو تعالى زجرهم عن ذلك ، وأجابهم وقال : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ [الكوثر : 3] وكأنه تعالى قال : حين ذكروك بسوء ، فأنا كنت المجيب بنفسي ، فحين ذكروني بالسوء وأثبتوا لي الشركاء ، فكن أنت المجيب : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تعبدون ﴾

وثامنها : أنهم سموك أبتر ، فإن شئت أن تستوفي منهم القصاص ، فاذكرهم بوصف ذم بحيث تكون صادقاً فيه : ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ لكن الفرق أنهم عابوك بما ليس من فعلك وأنت تعيبهم بما هو فعلهم

وتاسعها : أن بتقدير أن تقول : يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدونه ، والكفار يقولون : هذا كلام ربك أم كلامك ، فإن كان كلام ربك فربك يقول : أنا لا أعبد هذه الأصنام ، ونحن لا

نطلب هذه العبادة من ربك إنما نطلبها منك ، وإن كان هذا كلامك فأنت قلت من عند نفسك إني لا أعبد هذه الأصنام ، فلم قلت : إن ربك هو الذي أمرك بذلك ، أما لما قال : قل ، سقط هذا الاعتراض لأن قوله : ﴿ قُلْ ﴾ يدل على أنه مأمور من عند الله تعالى بأن لا يعبدها ويتبرأ منها

وعاشرها : أنه لو أنزل قوله : ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ لكان يقرؤها عليهم لا محالة ، لأنه لا يجوز أن يخون في الوحي إلا أنه لما قال : ﴿ قُلْ ﴾ كان ذلك كالتأكيد في إيجاب تبليغ هذا الوحي إليهم ، والتأكيد يدل على أن ذلك الأمر أمر عظيم .

(45/835)

فبهذا الطريق تدل هذه الكلمة على أن الذي قالوه وطلبوه من الرسول أمر منكر في غاية القبح ونهاية الفحش الحادي عشر : كأنه تعالى يقول كانت التقية جائزة عند الخوف ، أما الآن لما قوينا قلبك بقولنا : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ وبقولنا : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ فلا تبال بهم ولا تلتفت إليهم و : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾

الثاني عشر : أن خطاب الله تعالى مع العبد من غير واسطة يوجب التعظيم ألا ترى أنه تعالى ذكر من أقسام إهانة الكفار ، إنه تعالى لا يكلمهم ، فلو قال : ﴿ فَأُوْلَئِكَ هُمُ

الكافرون ﴾ لكان ذلك من حيث إنه خطاب مشافهة يوجب التعظيم ، ومن حيث إنه وصف لهم بالكفر يوجب الإيذاء فينجبر الإيذاء بالإكرام ، أما لما قال : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ فحينئذ يرجع تشريف المخاطبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وترجع الإهانة الحاصلة لهم بسبب وصفهم بالكفر إلى الكفار ، فيحصل فيه تعظيم الأولياء ، وإهانة الأعداء ، وذلك هو النهاية في الحسن

الثالث عشر : أن محمداً عليه السلام كان منهم ، وكان في غاية الشفقة عليهم والرأفة بهم ، وكانوا يعلمون منه أنه شديد الاحتراز عن الكذب ، والأب الذي يكون في غاية الشفقة بولده ، ويكون في نهاية الصدق والبعد عن الكذب ثم إنه يصف ولده بعيب عظيم فالولد إن كان عاقلاً يعلم أنه ما وصفه بذلك مع غاية شفقته عليه إلا لصدقه في ذلك ولأنه بلغ مبلغاً لا يقدر على إخفائه ، فقال تعالى : قل يا محمد لهم : أيها الكافرون ليعلموا أنك لما وصفتهم بذلك مع غاية شفقتك عليهم وغاية احترازك عن الكذب فهم موصوفون بهذه الصفة القبيحة ، فربما يصير ذلك داعياً لهم إلى البراءة من هذه الصفة والاحتراز عنها

الرابع عشر : أن الإيذاء والايحاش من ذوي القربى أشد وأصعب من الغير فأنت من قبيلتهم ، ونشأت فيما بين أظهرهم فقل لهم : يا أيها الكافرون فلعله يصعب ذلك الكلام عليهم ، فيصير ذلك

داعياً لهم إلى البحث والنظر والبراءة عن الكفر

الخامس عشر : كأنه تعالى يقول : ألسنا بينا في سورة : ﴿ والعصر إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ إِلاَّ الذين ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ وفي سورة الكوثر : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ وأتيت بالإيمان والأعمال الصالحات ، بمقتضى قولنا : ﴿ فَصَلِّ لِرَبّكَ وانحر ﴾ بقي عليك التواصي بالحق والتواصي بالصبر ، وذلك هو أن تمنعهم بلسانك وبرهانك عن عبادة غير الله ، فقل : قل يا أيها الكافرون

السادس عشر : كأنه تعالى يقول : يا محمد أنسيت أنني لما أخرت الوحي عليك مدة قليلة ، قال الكافرون : إنه ودعه ربه وقلاه ، فشق عليك ذلك غاية المشقة ، حتى أنزلت عليك السورة ، وأقسمت بالضحى : والليل إذا سجى أنه ما ودعك ربك وما قلى فلما لم تستجز أن أتركك شهراً ولم يطب قلبك حتى ناديت في العالم بأنه : ما ودعك ربك وما قلى أفتستجيز أن تتركني شهراً وتشتغل بعبادة آلهتهم فلما ناديت بنفي تلك التهمة ، فناد أنت أيضاً في العالم بنفي هذه التهمة و : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ،

السابع عشر : لما سألوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ويعبدوا إلهه سنة ، فهو عليه السلام سكت ولم يقل شيئاً ، لا لأنه جوز في قلبه أن يكون الذي قالوه حقاً ، فإنه كان قاطعاً بفساد ما قالوه لكنه عليه السلام ، توقف في أنه بماذا يجيبهم ؟ أبأن يقيم الدلائل العقلية على امتناع

ذلك أو بأن يزجرهم بالسيف أو بأن ينزل الله عليهم عذاباً ، فاغتنم الكفار ذلك السكوت وقالوا : إن محمداً مال إلى ديننا ، فكأنه تعالى قال : يا محمد إن توقفك عن الجواب في نفس الأمر حق ولكنه أوهم باطلاً ، فتدارك إزالة ذلك الباطل ، وصرح بما هو الحق و : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون

الثامن عشر : أنه عليه السلام لما قال له ربه ليلة المعراج : أثن علي استولى عليه هيبة الحضرة الإلهية فقال : لا أحصي ثناء عليك ،

فوقع ذلك السكوت منه في غاية الحسن فكأنه قيل له : إن سكت عن الثناء رعاية لهيبة الحضرة فأطلق لسانك في مذمة الأعداء و : قل يا أيها الكافرون حتى يكون سكوتك الله وكلامك الله ، وفيه تقرير آخر وهو أن هيبة الحضرة سلبت عنك قدرة القول فقل : ههنا حتى إن هيبة قولك تسلب قدرة القول عن هؤلاء الكفار

التاسع عشر : لو قال له : لا تعبد ما يعبدون لم يلزم منه أن يقول بلسانه : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أما لما أمره بأن يقول بلسانه : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يلزمه أن لا يعبد ما يعبدون إذ لو فعل ذلك لصار كلامه كذباً ، فثبت أنه لما قال له قل : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا

تَعْبُدُونَ ﴾ فلزمه أن يكون منكراً لذلك بقلبه ولسانه وجوارحه .

ولو قال له : لا تعبد ما يعبدون لزمه تركه ، أما (1) لا يلزمه إظهار إنكاره باللسان ، ومن المعلوم أن غاية الإنكار إنما تحصل إذا تركه في نفسه وأنكره بلسانه فقوله له : ﴿ قُلْ ﴾ يقتضي المبالغة في الأنكار ، فلهذا قال : ﴿ . . . . . لاَّ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ،

---

(1) الكلام يقتضي (إذ) أو (لكن) ولعل (أما) محرفة عن كلمة أخرى .

(48/835)

العشرون : ذكر التوحيد ونفي الأنداد جنة للعارفين ونار للمشركين فاجعل لفظك جنة للموحدين وناراً للمشركين و : ﴿ قُلْ يا أَيُّها الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾

الحادي والعشرون : أن الكفار لما قالوا نعبد إلهك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة سكت محمد فقال : إن شافهتهم بالرد تأذوا ، وحصلت النفرة عن الإسلام في قلوبهم ، فكأنه تعالى قال له : يا محمد لم سكت عن الرد ، أما الطمع فيما يعدونك من قبول دينك ، فلا حاجة بك في هذا المعنى إليهم : فإنا أعطينك الكوثر وأما الخوف منهم فقد أزلنا عنك الخوف بقولنا : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأبتر ﴾ فلا تلتفت إليهم ، ولا تبال بكلامهم ، وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون

الثاني والعشرون : أنسيت يا محمد أني قدمت حقك على حق نفسي ، فقلت : ﴿ لَمْ يَكُنِ الذين كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الكتاب والمشركين ﴾ [البينه : 1] فقدمت أهل الكتاب في الكفر على المشركين لأن طعن أهل الكتاب فيك وطعن المشركين في ، فقدمت حقك على حق نفسي وقدمت أهل الكتاب في الذم على المشركين ، وأنت أيضاً هكذا كنت تفعل فإنهم لما كسروا سنك قلت : " اللهم اهد قومي " ولما شغلوك يوم الخندق عن الصلاة قلت : " اللهم املأ بطونهم ناراً " فههنا أيضاً قدم حقي على حق نفسك وسواء كنت خائفاً منهم ، أو لست خائفاً منهم فأظهر إنكار قولهم : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون

الثالث والعشرون : كأنه تعالى يقول : قصة امرأة زيد واقعة حقيرة بالنسبة إلى هذه الواقعة ، ثم إنني هناك ما رضيت منك أن تضمر في قلبك شيئاً ولا تظهره بلسانك ، بل قلت لك على سبيل العتاب : ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا الله مُبْدِيهِ وَتَخْشَى الناس والله أَحَقُّ أَن تخشاه ﴾ [الأحزاب : 37] فإذا كنت لم أرض منك في تلك الواقعة الحقيرة إلا بالإظهار ، وترك المبالاة بأقوال الناس فكيف أرضى منك في هذه المسألة ، وهي أعظم المسائل خطراً بالسكوت ، قل بصريح لسانك :

يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون

الرابع والعشرون : يا محمد ألست قلت لك :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾ [الفرقان : 51] ثم إني مع هذه القدرة راعيت جانبك وطيبت قلبك وناديت في العالمين بأني لا أجعل الرسالة مشتركة بينه وبين غيره ، بل الرسالة له لا لغيره حيث قلت : ﴿ ولكن رَّسُولَ الله وَخَاتَمَ النبيين ﴾ [الأحزاب : 40] فأنت مع علمك بأنه يستحيل عقلاً أن يشاركني غيري في المعبودية أولى أن تنادي في العالمين بنفي هذه الشركة .

(50/835)

فقل : ﴿ يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ﴾

الخامس والعشرون : كأنه تعالى يقول : القوم جاؤك وأطمعوك في متابعتهم لك ومتابعتك لدينهم فسكت عن الإنكار والرد ، ألست أنا جعلت البيعة معك بيعة معي حيث قلت :

﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ [الفتح : 10] وجعلت متابعتك متابعة لي حيث قلت : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ الله فاتبعونى يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ [آل عمران : 31] ثم إني ناديت في العالمين وقلت : ﴿ أَنَّ الله بَرِىء منَ المشركين وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : 3]

فصرح أنت أيضاً بذلك ، و : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ،

السادس والعشرون : كأنه تعالى يقول : ألست أرأف بك من الولد بولده ، ثم العرى والجوع مع الوالد أحسن من الشبع مع الأجانب ، كيف والجوع لهم لأن أصنامهم جائعة عن الحياة عارية عن الصفات وهم جائعون عن العلم عارون عن التقوى ، فقد جربتني ، ألم أجدك يتيماً وضالاً وعائلاً ، ألم نشرح لك صدرك ، ألم أعطك بالصديق خزينة وبالفاروق هيبة وبعثمان معونة ، وبعلي علماً ، ألم أكف أصحاب الفيل حين حاولوا تخريب بلدتك ، ألم أكف أسلافك رحلة الشتاء والصيف ، ألم أعطك الكوثر ، ألم أضمن أن خصمك أبتر ، ألم يقل جدك في هذه الأصنام بعد تخريبها : ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم : 42] فصرح بالبراءة عنها و : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون

السابع والعشرون : كأنه تعالى يقول : يا محمد ألست قد أنزلت عليك : ﴿فاذكروا الله كَذِكْرِكُمْ ءابَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة : 200] ثم إن واحداً لو نسبك إلى والدين لغضبت ولأظهرت الإنكار ولبالغت فيه ، حتى قلت : " ولدت من نكاح ولم أولد من سفاح " فإذا لم تسكت عند التشريك في الولادة ، فكيف سكت عند التشريك في العبادة ! (1) بل أظهر الإنكار ، وبالغ في التصريح به ، و : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ،

---

(1) ما سكت قط صلى الله عليه وسلم فى مثل هذه الأمور .

الثامن والعشرون : كأنه تعالى يقول يا محمد ألست قد أنزلت عليك : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يخلق عْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : 17] فحكمت بأن من سوى بين الإله الخالق وبين الوثن الجماد في المعبودية لا يكون عاقلاً بل يكون مجنوناً ، ثم إني أقسمت وقلت : ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : 1 ، 2] والكفار يقولون : إنك مجنون ، فصرح برد مقالتهم فإنها تفيد براءتي عن عيب الشرك ، وبراءتك عن عيب الجنون و : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون التاسع والعشرون : أن هؤلاء الكفار سموا الأوثان آلهة ، والمشاركة في الاسم لا توجب المشاركة في المعنى ، ألا ترى أن الرجل والمرأة يشتركان في الإنسانية حقيقة ، ثم القيمية كلها حظ الزوج لأنه أعلم وأقدر ، ثم من كان أعلم وأقدر كان له كل الحق في القيمية ، فمن لا قدرة له ولا علم ألبتة كيف يكون له حق في القيومية ، بل ههنا شيء آخر : وهو أن امرأة لو ادعاها رجلان فاصطلحا عليها لا يجوز ، ولو أقام كل واحد منها بينة على أنها زوجته لم يقض لواحد منهما ، والجارية بين اثنين لا تحل لواحد منهما ، فإذا لم يجز حصول زوجة لزوجين ، ولا أمة بين موليين في حل الوطء فكيف يعقل عابد واحد بين معبودينا بل من جوز أن يصطلح الزوجان على أن تحل الزوجة

لأحدهما شهراً ، ثم الثاني شهراً آخر كان كافراً ، فمن جوز الصلح بين الإله والصنم ألا يكون كافراً فكأنه تعالى يقول لرسوله : إن هذه المقالة في غاية القبح فصرح بالإنكار وقل : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الثلاثون : كأنه تعالى يقول أنسيت أني لما خيرت نساءك حين أنزلت عليك : ﴿ قُل لأزواجك إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا ﴾ إلى قوله :

(52/835)

﴿ أَجْراً عَظِيماً ﴾ [الأحزاب : 28 ، 29] ثم خشيت من عائشة أن تختار الدنيا ، فقلت لها : لا تقولي شيئاً حتى تستأمري أبويك ، فقالت : أفي هذا استأمر أبوي بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة

أفناقصة العقل ما توقفت فيما يخالف رضاي أتتوقف فيما يخالف رضاي وأمري مع أني جبار السموات والأرض : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (1)

الحادي والثلاثون : كأنه تعالى يقول : يا محمد ألست أنت الذي قلت : " من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يوقفن مواقف التهم " ، وحتى أن بعض المشايخ قال لمريده الذي يريد أن يفارقه : لا تخالف السلطان قال : ولم ؟ قال : لأنه يوقع الناس في أحد الخطأين ، وإما أن

يعتقدوا أن السلطان متدين ، لأنه يخالطه العالم الزاهد ، أو يعتقدوا أنك فاسق مثله ، وكلاهما خطأ ، فإذا ثبت أنه يجب البراءة عن موقف التهم فسكوتك يا محمد عن هذا الكلام يجر إليك تهمة الرضا بذلك ، لاسيما وقد سبق أن الشيطان ألقى فيما بين قراءتك تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجي (2) ، فأزل عن نفسك هذه التهمة : وقل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الثاني والثلاثون : الحقوق في الشاهد نوعان حق من أنت تحت يده ، وهو مولاك ، وحق من هو تحت يدك وهو الولد ، ثم أجمعنا على أن خدمة المولى مقدمة على تربية الولد ، فإذا كان حق المولى المجازي مقدماً ، فبأن يكون حق المولى الحقيقي مقدماً كان أولى ، ثم روي أن علياً عليه السلام إستأذن الرسول صلى الله عليه وسلم في التزوج بابنة أبي جهل فضجر وقال : لا آذن لا آذن لا آذن إن فاطمة بضعة مني يؤذيني ما يؤذيها ويسرني ما يسرها والله لا يجمع بين بنت عدو الله ، وبنت حبيب الله ، فكأنه تعالى يقول : صرحت هناك بالرد وكررته على سبيل المبالغة رعاية لحق الولد ، فههنا أولى أن تصرح بالرد ، وتكرره رعاية لحق المولى فقل : ﴿ يا أيها الكافرين لا أعبد ما تعبدون ﴾ ولا أجمع في القلب بين طاعة الحبيب

---

(1) أيضا لم يتوقف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الأمور .

(2) تقدم رد هذه الفرية التى لا أصل لها من المحققين ومنهم الإمام فخر الدين الرازى فى سورة الحج عند قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى

الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (52) ﴾

وهو مما يجعلنا نجزم بأن الإمام الرازى لم يصل إلى تفسير سورة الكافرون وهى من تفسير من أكمل هذا التفسير النفيس . والله أعلم .

(53/835)

وطاعة العدو

الثالث والثلاثون : يا محمد ألست قلت لعمر : رأيت قصراً في الجنة ، فقلت : لمن ؟ فقيل : لفتى من قريش ، فقلت : من هو ، فقالوا : عمر فخشيت غيرتك فلم أدخلها حتى قال عمر : أو أغار عليك يا رسول الله ، فكأنه تعالى قال : خشيت غيرة عمر فما دخلت قصره أفما تخشى غيرتي في أن تدخل قلبك طاعة غيري ، ثم هناك أظهرت الامتناع فههنا أيضاً أظهر الامتناع و : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، الرابع والثلاثون : أترى أن نعمتي عليك دون نعمة الوالدة ، ألم أربك ؟ ألم أخلقك ؟ ألم أرزقك ؟ ألم أعطك الحياة والقدرة والعقل والهداية والتوفيق ؟ ثم حين كنت طفلاً عديم العقل وعرفت تربية الأم فلو أخذتك امرأة أجمل وأحسن وأكرم من أمك لأظهرت النفرة ولبكيت ولو أعطتك الثدي لسددت

فمك تقول لا أريد غير الأم لأنها أول المنعم علي ، فههنا أولى أن تظهر النفرة فتقول : لا أعبد سوى ربي لأنه أول منعم علي فقل : ﴿ يا أَيُّهَا الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ الخامس والثلاثون : نعمة الإطعام دون نعمة العقل والنبوة ، ثم قد عرفت أن الشاة والكلب لا ينسيان نعمة الإطعام ولا يميلان إلى غير من أطعمهما فكيف يليق بالعاقل أن ينسى نعمة الإيجاد والإحسان فكيف في حق أفضل الخلق : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ السادس والثلاثون : مذهب الشافعي أنه يثبت حق الفرقة بواسطة الإعسار بالنفقة فإذا لم تجد من الأنصار تربية حصلت لك حق الفرقة لو كنت متصلاً بها ، لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً فبتقدير أن كنت متصلاً بها ، كان يجب أن تنفصل عنها وتتركها ، فكيف وما كنت متصلاً بها أيليق بك أن تقرب الاتصال بها قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون السابع والثلاثون : هؤلاء الكفار لفرط حماقتهم ظنوا أن الكثرة في الإلهية كالكثرة في المال يزيد به الغني وليس الأمر كذلك بل هو كالكثرة في العيال تزيد به الحاجة فقل

: يا محمد لي إله واحد أقوم له في الليل وأصوم له في النهار ، ثم بعد لم أتفرغ من قضاء حق ذرة من ذرات نعمه ، فكيف ألتزم عبادة آلهة كثيرة : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون

الثامن والثلاثون : أن مريم عليها السلام لما تمثل لها جبريل عليه السلام :

﴿ قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بالرحمن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ [مريم : 18] فاستعاذت أن تميل إلى جبريل دون الله أفتستجيز مع كمال رجوليتك أن تميل إلى الأصنام : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون

التاسع والثلاثون : مذهب أبي حنيفة أنه لا يثبت حق الفرقة بالعجز عن النفقة ولا بالعنة الطارئة يقول : لأنه كان قيماً فلا يحسن الإعراض عنه مع أنه تعيب فالحق سبحانه يقول : كنت قيماً ولم أتعيب ، فكيف يجوز الإعراض عني : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون

الأربعون : هؤلاء الكفار كانوا معترفين بأن الله خالقهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والارض لَيَقُولُنَّ الله ﴾ [لقمان : 25] وقال في موضع آخر : ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الارض ﴾ [فاطر : 40] فكأنه تعالى يقول : هذه الشركة إما أن تكون مزارعة وذلك باطل ، لأن البذر مني والتربية والسقي مني ، والحفظ مني ، فأي شيء للصنم ، أو شركة الوجوه وذلك أيضاً باطل أترى أن الصنم أكثر شهرة وظهوراً مني ، أو شركة الأبدان وذلك أيضاً باطل ، ون ذلك يستدعي الجنسية ، أو شركة العنان ، وذلك أيضاً باطل ، لأنه لا بد فيه من نصاب فما نصاب الأصنام ، أو يقول ليس هذه من باب الشركة لكن الصنم يأخذ

بالتغلب نصيباً من الملك ، فكأن الرب يقول : ما أشد جهلكم إن هذا الصنم أكثر عجزاً من الذبابة : ﴿ إِنَّ الذين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُواْ ذُبَاباً ﴾ [الحج : 73] فأنا أخلق البذر ثم ألقيه في الأرض ، فالتربية والسقي والحفظ مني .

(55/835)

ثم إن من هو أعجز من الذبابة يأخذ بالقهر والتغلب نصيباً مني ، ما هذا بقول يليق بالعقلاء : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الحادي والأربعون : أنه لا ذرة في عالم المحدثات إلا وهي تدعو العقول إلى معرفة الذات والصفات وأما الدعاة إلى معرفة أحكام الله فهم الأنبياء عليهم السلام ، ولما كان كل بق وبعوضة داعياً إلى معرفة الذاتي والصفات قال : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : 26] ، ذلك لأن هذه البعوضة بحسب حدوث ذاتها وصفاتها تدعو إلى قدرة الله بحسب تركيبها العجيب تدعوا إلى علم الله وبحسب تخصيص ذاتها وصفاتها بقدر معين تدعو إلى إرادة الله ، فكأنه تعالى يقول : مثل هذا الشيء كيف يتسحيا منه ، روي أن عمر رضي الله عنه كان في أيام خلافته دخل السوق فاشترى كرشاً وحمله بنفسه فرآه علي من بعيد فتنكب علي عن الطريق فاستقبله عمر وقال له : لم تنكبت عن الطريق ؟ فقال علي : حتى لا تستحي ،

فقال: وكيف أستحي من حمل ما هو غذائي! فكأنه تعالى يقول: إذا كان عمر لا يستحي من الكرش الذي هو غذاؤه في الدنيا فكيف أستحي عن ذكر البعوض الذي يعطيك غذاء دينك، ثم كأنه تعالى يقول: يا محمد إن نمروذ لما ادعى الربوبية صاح عليه البعوض بالإنكار، فهؤلاء الكفار لما دعوك إلى الشرك أفلا تصيح عليهم أفلا تصرح بالرد عليهم: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون وإن فرعون لما ادعى الإلهية فجبريل ملأ فاه من الطين فإن كنت ضعيفاً فلست أضعف من بعوضة نمروذ، وإن كنت قوياً فلست أقوى من جبريل، فأظهر الإنكار عليهم و: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الثاني والأربعون: كأنه تعالى يقول يا محمد: قل بلسانك لا أعبد ما تعبدون واتركه قرضاً علي فإني أقضيك هذا القرض على أحسن الوجوه، ألا ترى أن النصراني إذا قال: أشهد أن محمداً رسول الله فأقول أنا لا أكتفي بهذا ما لم تصرح

بالبراءة عن النصرانية، فلما أوجبت على كل مكلف أن يتبرأ بصريح لسانه عن كل دين يخالف دينك فأنت أيضاً أوجب على نفسك أن تصرح برد كل معبود غيري فقل: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون الثالث والأربعون: أن موسى عليه السلام كان في طبعه

الخشونة فلما أرسل إلى فرعون قيل له :

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه : 44] وأما محمد عليه السلام فلما أرسل إلى الخلق أمر بإظهار الخشونة تنبيهاً على أنه في غاية الرحمة ، فقيل له : قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون .

أما قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

﴿ يا أَيُّهَا ﴾ ، قد تقدم القول فيها في مواضع ، والذي نزيده ههنا ، أنه روي عن علي عليه السلام أنه قال : يا نداء النفس وأي نداء القلب ، وها نداء الروح ، وقيل : يا نداء الغائب وأي للحاضر ، وها للتنبيه ، كأنه يقول : أدعوك ثلاثاً ولا تجيبني مرة ما هذا إلا لجهلك الخفي ، ومنهم من قال : أنه تعالى جمع بين يا الذي هو للبعيد ، وأي الذي هو للقريب ، كأنه تعالى يقول : معاملتك معي وفرارك عني يوجب البعد البعيد ، لكن إحساني إليك ، ووصول نعمتي إليك توجب القرب القريب : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16] وإنما قدم يا الذي يوجب البعد على أي الذي يوجب القرب ، كأنه يقول : التقصير منك والتوفيق مني ، ثم ذكرها بعد ذلك لأن ما يوجب البعد الذي هو كالموت وأي يوجب القرب الذي هو كالحياة ، فلما حصلا حصلت حالة متوسطة بين الحياة والموت ، وتلك الحالة هي النوم ، والنائم لا بد وأن ينبه وها كلمة تنبيه ، فلهذا السبب ختمت حروف

النداء بهذا الحرف .

المسألة الثانية :

(57/835)

روي في سبب نزول هذه السورة أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، قالوا لرسول الله تعالى : حتى نعبد إلهك مدة ، وتعبد آلهتنا مدة ، فيحصل مصلح بيننا وبينك ، وتزول العداوة من بيننا ، فإن كان أمرك رشيداً أخذنا منه حظاً ، وإن كان أمرنا رشيداً أخذت منه حظاً ، فنزلت هذه السورة ونزل أيضاً قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون ﴾ [الزمر : 64] فتارة وصفهم بالجهل وتارة بالكفر ، واعلم أن الجهل كالشجرة ، والكفر كالثمرة ، فلما نزلت السورة وقرأها على رؤوسهم شتموه وأيسوا منه ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : لم ذكرهم في هذه السورة بالكافرين ، وفي الأخرى بالجاهلين ؟ الجواب : لأن هذه السورة بتمامها نازلة فيهم ، فلا بد وأن تكون المبالغة ههنا أشد ، وليس في الدنيا لفظ أشنع ولا أبشع من لفظ الكافر ، وذلك لأنه صفة ذم عند جميع الخلق سواء كان مطلقاً أو

مقيداً ، أما لفظ الجهل فإنه عند التقييد قد لا يذم ، كقوله عليه السلام في علم الأنساب : " علم لا ينفع وجهل لا يضر " .

السؤال الثاني : لما قال تعالى في سورة : (لم تحرم) ﴿ يا أيها الذين كفروا ﴾ [التحريم : 7] ، ولم يذكر قل ، وههنا ذكر قل ، وذكره باسم الفاعل والجواب : الآية المذكورة في سورة لم تحرم : إنما تقال لهم يوم القيامة وثمة لا يكون الرسول رسولاً إليهم فأزال الواسطة وفي ذلك الوقت يكونون مطيعين لا كافرين .

فلذلك ذكره بلفظ الماضي ، وأما ههنا فهم كانوا موصوفين بالكفر ، وكان الرسول رسولاً إليهم ، فلا جرم قال : ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ .

(58/835)

السؤال الثالث : قوله ههنا : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ خطاب مع الكل أو مع البعض ؟ الجواب : لا يجوز أن يكون قوله : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ خطاباً مع الكل ، لأن في الكفار من يعبد الله كاليهود والنصارى فلا يجوز أن يقول لهم : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ولا يجوز أيضاً أن يكون قوله : ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ خطاباً مع الكل ، لأن في الكفار من آمن وصار بحيث يعبد الله فإذن وجب أن يقال : إن قوله : ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ خطاب

مشافهة مع أقوام مخصوصين وهم الذين قالوا نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة ، والحاصل أنا لو حملنا الخطاب على العموم دخل التخصيص ، ولو حملنا على أنه خطاب مشافهة لم يلزمنا ذلك ، فكان حمل الآية على هذا المحمل أولى .

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5)

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في هذه الآية قولان : أحدهما : أنه لا تكرار فيها والثاني : أن فيها تكراراً أما الأول : فتقريره من وجوه أحدها : أن الأول للمستقبل ، والثاني للحال والدليل على أن الأول للمستقبل أن لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال ، أن ترى أن لن تأكيد فيما ينفيه لا ، وقال الخليل في لن أصله لا أن ، إذا ثبت هذا فقوله : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة إلهي ، ثم قال : ﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أي ولست في الحال بعابد معبودكم ولا

أنتم في الحال بعابدين لمعبودي الوجه الثاني : أن تقلب الأمر فتجعل الأول للحال والثاني للاستقبال والدليل على أن قول : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ للاستقبال أنه رفع لمفهوم قولنا : أنا عابد ما عبدتم ولا شك أن هذا للاستقبال بدليل أنه لو قال : أنا قاتل زيداً فهم منه الاستقبال الوجه الثالث : قال بعضهم : كل واحد منهما يصلح للحال وللاستقبال ، ولكنا نخص إحداها بالحال ، والثاني بالاستقبال دفعاً للتكرار ، فإن قلنا : إنه أخبر عن الحال ، ثم عن الاستقبال ، فهو الترتيب ، وإن قلنا : أخبر أولاً عن الاستقبال ، فلأنه هو الذي دعوه إليه ، فهو الأهم فبدأ به ، فإن قيل : ما فائدة الإخبار عن الحال وكان معلوماً أنه ما كان يعبد الصنم ، وأما الكفار فكانوا يعبدون الله في بعض الأحوال ؟ قلنا : أما الحكاية عن نفسه فلئلا يتوهم الجاهل أنه يعبدها سراً خوفاً منها أو طمعاً إليها وأما نفيه عبادتهم .

فلأن فعل الكافر ليس بعبادة أصلاً : الوجه الرابع وهو اختيار أبي مسلم أن المقصود من الأولين المعبود وما بمعنى الذي ، فكأنه قال : لا أعبد الأصنام ولا تعبدون الله ، وأما في الأخيرين فما مع الفعل في تأويل المصدر أي لا أعبد عبادتكم المبنية على الشرك وترك النظر ، ولا أنتم تعبدون عبادتي المبنية على اليقين ، فإن زعمتم أنكم تعبدون إلهي ، كان

ذلك باطلاً لأن العبادة فعل مأمور به وما تفعلونه أنتم ، فهو منهي عنه ، وغير مأمور به الوجه الخامس : أن تحمل الأولى على نفي الاعتبار الذي ذكروه ، والثانية على النفي العام المتناول لجميع الجهات فكأنه أولاً قال : لا أعبد ما تعبدون ررجاء أن تعبدوا الله ، ولا أنتم تعبدون الله رجاء أن أعبد أصنامكم ، ثم قال : ولا أنا عابد صنمكم لغرض من الأغراض ، ومقصود من المقاصد ألبتة بوجه من الوجوه : و لا أنتم عابدون ما أعبد بوجه من الوجوه ، واعتبار من الاعتبارات ، ومثاله من يدعو غيره إلى الظلم لغرض التنعيم ، فيقول : لا أظلم لغرض التنعم بل لا أظلم أصلا لا لهذا الغرض ولا لسائر الأغراض القول الثاني : وهو أن نسلم حصول التكرار ، وعلى هذا القول العذر عنه من ثلاثة أوجه الأول : أن التكرير يفيد التوكيد وكلما كانت الحاجة إلى التأكيد أشد كان التكرير أحسن ، ولا موضع أحوج إلى التأكيد من هذا الموضع ، لأن أولئك الكفار رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى مراراً ، وسكت رسول الله عن الجواب ، فوقع في قلوبهم أنه عليه السلام قد مال إلى دينهم بعض الميل ، فلا جرم دعت الحاجة إلى التأكيد والتكرير في هذا النفي والإبطال الوجه الثاني : أنه كان القرآن ينزل شيئًا بعد شيء ، وآية بعد آية جواباً عما يسألون فالمشركون قالوا : استلم بعد آلهتنا حتى نؤمن بإلهك فأنزل الله : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَا أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ ثم قالوا بعد مدة تعبد آلهتنا شهراً ونعبد إلهك

شهراً فأنزل الله : ﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ ولما كان هذا الذي ذكرناه محتملاً لم يكن التكرار على هذا الوجه مضراً ألبتة الوجه الثالث : أن الكفار ذكروا تلك الكلمة مرتين تعبد آلهتنا شهراً ونعبد إلهك شهراً وتعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة.

فأتى الجواب على التكرير على وفق قولهم وهو ضرب من التهكم فإن من كرر الكلمة الواحدة لغرض فاسد يجازي بدفع تلك الكلمة على سبيل التكرار استخفافاً به واستحقاراً لقوله.

المسألة الثانية :

في الآية سؤال وهو أن كلمة : ﴿ مَا ﴾ لا تتناول من يعلم فهب أن معبودهم كان كذلك فصح التعبير عنه بلفظ ما لكن معبود محمد عليه الصلاة والسلام هو أعلم العالمين فكيف قال : ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ أجابوا عنه من وجوه أحدها : أن المراد منه الصفة كأنه قال : لا أعبد الباطل وأنتم لا تعبدون الحق وثانيها : أن مصدرية في الجملتين كأنه قال : لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في المستقبل ، ثم قال : ثانياً لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي في الحال وثالثها : أن يكون ما بمعنى الذي وحينئذ يصح الكلام ورابعها : أنه لما قال أولاً : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ حمل الثاني عليه ليتسق الكلام كقوله :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] .

المسألة الثالثة :

احتج أهل الجبر بأنه تعالى أخبر عنهم مرتين بقوله : ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ والخبر الصدق عن عدم الشيء يضاد وجود ذلك الشي فالتكليف بتحصيل العبادة مع وجود الخبر الصدق بعدم العبادة تكليف بالجمع بين الضدين ، واعلم أنه بقي في الآية سؤالات :

(62/835)

السؤال الأول : أليس أن ذكر الوجه الذي لأجله تقبح عبادة غير الله كان أولى من هذا التكرير ؟ الجواب بل قد يكون التأكيد والتكرير أولى من ذكر الحجة ، إما لأن المخاطب بليد ينتفع بالمبالغة والتكرير ولا ينتفع بذكر الحجة أو لأجل أن محل النزاع يكون في غاية الظهور فالمناظرة في مسألة الجبر والقدر حسنة ، أما القائل : بالصنم فهو إما مجنون يجب شده أو عاقل معاند فيجب قتله ، وإن لم يقدر على قتله فيجب شتمه ، والمبالغة في الإنكار عليه كما في هذه الآية .

السؤال الثاني : أن أول السورة اشتمل على التشديد ، وهو النداء بالكفر والتكرير وآخرها على اللطف والتساهل ، وهو قوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ فكيف وجه الجمع بين

الأمرين ؟ الجواب : كأنه يقول : إني قد بالغت في تحذيركم على هذا الأمر القبيح ، وما قصرت فيه ، فإن لم تقبلوا قولي ، فاتركوني سواء بسواء .

السؤال الثالث : لما كان التكرار لأجل التأكيد والمبالغة فكان ينبغي أن يقول : لن أعبد ما تعبدون ، لأن هذا أبلغ ، ألا ترى أن أصحاب الكهف لما بالغوا قالوا : ﴿ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إلها ﴾ [الكهف : 14] والجواب : المبالغة إنما يحتاج إليها في موضع التهمة ، وقد علم كل أحد من محمد عليه السلام أنه ما كان يعبد الصنم قبل الشرع ، فكيف يعبده بعد ظهور الشرع ، بخلاف أصحاب الكهف فإنه وجد منهم ذلك فيما قبل .

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

(63/835)

قال ابن عباس : لكم كفركم بالله ولي التوحيد والإخلاص له ، فإن قيل : فهل يقال : إنه أذن لهم في الكفر قلنا : كلا فإنه عليه السلام ما بعث إلا للمنع من الكفر فكيف يأذن فيه ، ولكن المقصود منه أحد أمور أحدها : أن المقصود منه التهديد ، كقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ [

فصلت : 40] وثانيها : كأنه يقول : إني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة ، فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني فاتركوني ولا تدعوني إلى الشرك وثالثها : ﴿ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ فكونوا عليه إن كان الهلاك خيراً لكم ﴿ وَلِيَّ دِينِى ﴾ لأني لا أرفضه القول الثاني : في تفسير الآية أن الدين هو الحساب أي لكم حسابكم ولي حسابي ، ولا يرجع إلى كل واحد منا من عمل صاحبه أثر ألبتة القول الثالث : أن يكون على تقدير حذف المضاف أي لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني وحسبهم جزاء دينهم وبالاً وعقاباً كما حسبك جزاء دينك تعظيماً وثواباً القول الرابع : الدين العقوبة : ﴿ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ ﴾ [النور : 2] يعني الحد ، فلكم العقوبة من ربي ، ولي العقوبة من أصنامكم ، لكن أصنامكم جمادات ، فأنا لا أخشى عقوبة الأصنام ، وأما أنتم فيحق لكم عقلاً أن تخافوا عقوبة جبار السموات والأرض القول الخامس : الدين الدعاء ، فادعوا الله مخلصين له الدين ، أي لكم دعاؤكم ﴿ وَمَا دُعَاء الكافرين إِلاَّ فِى ضلال ﴾ [الرعد : 14] ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُواْ دُعَاءكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا استجابوا لَكُمْ ﴾ [فاطر : 14] ثم ليتها تبقى على هذه الحالة فلا يضرونكم ، بل يوم القيامة يجدون لساناً فيكفرون بشرككم ، وأما ربي فيقول : ﴿ وَيَسْتَجِيبُ الذين ءامَنُواْ ﴾ [الشورى : 26] ﴿ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : 60] ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ الداع إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : 186] القول السادس : الدين العادة

، قال الشاعر :

يقول لها وقد دارت وضيني . . أهذا دينها أبدأ وديني

(64/835)

معناه لكم عادتكم المأخوذة من أسلافكم ومن الشياطين ، ولي عادتي المأخوذة من الملائكة والوحي ، ثم يبقى كل واحد منا على عادته ، حتى تلقوا الشياطين والنار ، وألقى الملائكة والجنة .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ يفيد الحصر ، ومعناه لكم دينكم لا لغيركم ، ولي ديني لا لغيري ، وهو إشارة إلى قوله : ﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى وَأَن لَّيْسَ للإنسان إِلاَّ مَا سعى ﴾ [النجم : 38 ، 39] أي أنا مأمور بالوحي والتبليغ ، وأنتم مأمورون بالامتثال والقبول ، فأنا لما فعلت ما كلفت به خرجت من عهدة التكليف ، وأما إصراركم على كفركم فذلك مما لا يرجع إلي منه ضرر ألبتة .

المسألة الثانية :

جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة ، وذلك غير جائز لأنه تعالى ما أنزل

القرآن ليتمثل به بل ليتدبر فيه ، ثم يعمل بموجبه ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم ، وصلى الله على سيدنا ، وعلى آله وصحبه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 127.137 ﴾

(65/835)

وقال السمرقندى

قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾

وذلك أن قريشاً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إن يَسُرّك بأن نتبعك عاماً ونترك ديننا ونتبع دينك وترجع إلى ديننا عاماً .

(66/835)

فنزلت هذه السورة وقال مقاتل : نزلت في المستهزئين وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قرأ سورة النجم وجرى على لسانه ما جرى فقال أبو جهل أخزاه الله لا يفارقنا إلا على أحد أمرين ندخل معك في بعض ما تعبد وتدخل معنا في بعض ديننا أو نتبرأ من آلهتنا وتتبرأ

من إلهك فنزلت هذه السورة ، وقال الكلبي : إنهم أتوا العباس فقالوا له : لو أن ابن أخيك استلم بعض آلهتنا لصدقناه بما يقول وآمنا به فنزل ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ ، ويقال إنهم اجتمعوا إلى أبي طالب وقالوا له : إن ابن أخيك يؤذينا ونحن لا نؤذيه بحرمتك فدعاه أبو طالب وذكر ذلك له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِنَّما أَدْعُوهُمْ إِلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ " فقال ما هي ؟ قال : " لا إله إلاَّ الله " فنفروا عن هذه الكلمة فنزلت ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ يعني : قل يا محمد لأهل مكة ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني : ﴿ لاَ أَعْبُدُ ﴾ بعد هذا ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أنتم من الأوثان ولا أرجع إلى دينكم ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ يعني : لا تعبدون أنتم بعد هذا الرب الذي أعبده أنا حتى ترون ما يستقبلكم غداً وهذا كقوله عز وجل : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كالمهل يَشْوِى الوجوه بِئْسَ الشراب وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾ [الكهف : 29] قوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ يعني : لست أنا في الحال عابداً لأصنامكم وما كنت عابداً لها قبل هذا لأني علمت مضرة عبادتها ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ يعني : لستم عابدين في الحال لجهلكم وغفلتكم وقلة عقلكم .

ثم قال عز وجل : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ يعني : قد أكملت عليكم الحجة فليس عليّ أن أجبركم على الإسلام فاثبتوا على دينكم حتى تروا ماذا يستقبلكم غداً وأنا أثبت على ديني الذي أكرمني الله تعالى به ولا أرجع إلى دينكم أبداً وهذا قبل أن يؤمر بالقتال ثم نسخ بآية القتال ، فيها دليل أن الرجل إذا رأى منكراً أو سمع قولاً منكراً فأنكره فلم يقبلوا منه لا يجب عليه أكثر من ذلك وإنما عليه أن يحفظ مذهبه وطريقه ويتركهم على مذهبهم وطريقهم .

وقال الحسن سمعت شيخاً يحدث قال : بينما أسير مع النبي صلى الله عليه وسلم فسمع رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ فقال : "أَمَّا هذا فَقَدْ بَرِىء مِنَ الشِّرْكِ" وسمع رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الصمد : 1] فقال : "أَمَّا هذا فَقَدْ غَفَرَ اللهُ تَعَالَى لَهُ" والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 604 ﴾

(68/835)

وقال الثعلبى :

سورة الكافرون

﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾

الى آخر السورة نزلت في رهط من قريش منهم الحرث بن قيس السهمي والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة والأسود بن عبد يغوث الزهري والأسود بن المطلب بن أسد وأميّة بن خلف قالوا : " يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك ونشركك في أمرنا كلّه تعبد آلهتنا سنة ونعبد ألهك سنة فأن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وأن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه ، فقال : " معاذ الله أن أشرك به غيره " .

فقالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك ونعبد الهك فقال : حتى أنظر ما يأتي من عند ربي فانزل الله سبحانه : ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ الى آخر السورة فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤوسهم ثم قرأها عليهم حتى فرغ من السورة ، فيئسوا عنه عند ذلك وآذوه وآذوا أصحابه " .

(69/835)

وأما وجه تكرار الكلام فأن معنى الآية ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ في الحال ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ في الحال ﴿ وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ في الاستقبال ﴿ وَلاَ أَنتُمْ

عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ في الاستقبال وهذا خطاب لمن سبق في علم الله سبحانه أنهم لا يؤمنون ، وقال أكثر أهل المعاني : نزل القرآن بلسان العرب وعلى مجاري خطابهم ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام ، كما أن مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز لإن إتيان المتكلّم والخطيب وخروجه من شيء الى شيء آخر أفضل من اقتصاره في المقام على شيء واحد ، قال الله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن] ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : 15] في غير موضع من سورة واحدة وقال سبحانه : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ : 4 - 5] وقال : تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدين ﴾ [الانفطار : 17] وقال : ﴿ فَإِنَّ مَعَ العسر يُسْراً * إِنَّ مَعَ العسر يُسْراً ﴾ [الشرح : 5-6] كل هذا أراد به التأكيد ، ويقول القائل : ارم ارم ، عجّل عجل ، ومنه الحديث " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صعد المنبر ذات يوم فقال : " إن بني مخزوم استأذنوا أن ينكحوا فتاتهم علياً فلا اذن ثم لا آذن ، لأنَّ فاطمة بضعة مني يسرّها ما يسرّني ويسوءها ما يسوءني " .

ومنه قول الشاعر :

هلا سألت جموع كندة . . . يوم ولوا أين أينا

وقال آخر :

يا علقمه يا علقمه يا علقمه . . . خير تميم كلّها وأكرمه

وقال آخر :

قربا مربط النعامة مني . . . لقحت حرب وائل عن حيان

ثم قال في عدة أبيات من هذه القصيدة :

(70/835)

لقحت حرب وائل عن حيان . . . وأنشدني أبو القاسم بن حبيب قال : أنشدني أبو القاسم عبد الرحمن بن المظفر الأنباري قال : أنشدنا أبو بكر محمد بن أحمد بن القاسم الأنباري لبعض نساء الإعراب .

يقول رجال زوجها لعلها . . . تقر وترضى بعده بجليل

فأخفت في النفس التي ليس دونها . . . رجاء وان الصدق أفضل قيل

أبعد ابن عمي سيد القوم مالك . . . أزفّ الى بعل ألدّ كليل

وحدّثني أصحابه أن مالكاً . . . أقام ونادى صحبه برحيل

وحدّثني أصحابه أن مالكاً . . . صروم كماضي الشفرتين صقيل

وحدّثني أصحابه أن مالكاً . . . جواد بما في الرحل غير بخيل

وقال القتيبي : وفيه وجه آخر وهو أنّ قريشاً قالوا : إن سرّك أن ندخل في دينك عاماً

فأدخل في ديننا عاماً فنزلت هذه السورة ، فتكرار الكلام لتكرار الوقت ، وقال : فيه وجه آخر وهو أن القرآن نزل شيء بعد شيء وآية بعد آية فكأنهم قالوا اعبد آلهتنا سنة فقال الله سبحانه : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ثم قالوا بعد ذلك : استلم بعض آلهتنا فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ الشرك ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ الإسلام .

وهذه الآية منسوخة بآية السيف ، وقرأ أهل المدينة وعيسى بن عمر ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ بفتح الياء ومثله روى حفص عن عاصم وهشام عن أهل الشام ، غيرهم بجزمه وأبو حاتم بجره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 314.317 ﴾

(71/835)

وقال الزمخشرى :

سورة الكافرون

مكية ، وهي ست آيات «نزلت بعد الماعون» ويقال لها ولسورة الإخلاص : المقشقشتان ، أى المبرئتان من النفاق بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الكافرون (109) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4)

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم اللّه منهم أنهم لا يؤمنون. روى أنّ رهطا من قريش قالوا: يا محمد، هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك: تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فقال معاذ اللّه أن أشرك باللّه غيره: فقالوا: فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك، فنزلت، فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم، فأيسوا. لا أَعْبُدُ أريدت به العبادة فيما يستقبل، لأن «لا» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال، كما أن «ما» لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال، ألا ترى أن «لن» تأكيد فيما تنفيه «لا»

(72/835)

وقال الخليل في «لن»: أنّ أصله «لا أن» والمعنى: لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه منى من عبادة آلهتكم، ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهى وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ

أى :

وما كنت قط عابدا فيما سلف ما عبدتم «1» فيه ، يعنى لم تعهد منى عبادة صنم في الجاهلية ، فكيف ترجى منى في الإسلام وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ أى : وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته .

فإن قلت : فهلا قيل : ما عبدت ، كما قيل : ما عبدتم ؟ قلت : لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل المبعث ، وهو لم يكن يعبد اللّه تعالى في ذلك الوقت . فإن قلت : فلم جاء على «ما» دون «من» ؟

قلت ، لأن المراد الصفة ، كأنه قال : لا أعبد الباطل ، ولا تعبدون الحق . وقيل : إن «ما» مصدرية ، أى : لا أعبد عبادتكم ، ولا تعبدون عبادتي لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ لكم شرككم ، ولى توحيدي . والمعنى : أنى نبىّ مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة ، فإذا لم تقبلوا منى ولم تتبعوني ، فدعوني كفافا ولا تدعوني إلى الشرك .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الكافرين فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت منه مردة الشياطين ، وبريء من الشرك ويعافى من الفزع الأكبر» «2» . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 808 . 809﴾

---

(1) . قال محمود : «معناه في المستقبل ، لأن «لا» تنفى المستقبل ، ولا أنتم عابدون ما أعبد : كذلك ، ولا أنا عابد ما عبدتم : أى فيما سلف . . . الخ» قال أحمد : هذا الذي

قاله خطأ على الأصل والفرع جميعا : أما على أصله القدري ، فانه وان كان مقتضاه أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يكن قبل البعث على دين نبى قبله ، لاعتقاد القدرية أن ذلك غميزة في منصبه ، ومنفر من اتباعه ، فيستحيل وقوعه للمفسدة ، إلا أنهم يعتقدون أن الناس كلهم متعبدون بمقتضى العقل بوجوب النظر في آيات اللّه تعالى وأدلة توحيده ومعرفته ، وأن وجوب النظر بالعقل لا بالسمع فتلك عبادة قبل البعث يلزمهم ألا يظنوا به صلى اللّه عليه وسلم الإخلال بها ، فحينئذ يقتضى أصلهم أنه كان قبل البعث يعبد اللّه تعالى ، فالزمخشرى حافظ على الوفاء بأصله في عدم اتباعه لنبي سابق ، فأخل بالتفريع على أصله الآخر في وجوب العبادة بالعقل . والحق أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان يعبد قبل الوحى ويتحنث في غار حراء ، فان كان مجيء قوله أعبد - لأن الماضي لم يحصل فيه هذه العبادة المرادة في الآية - فيحمل الأمر فيها واللّه أعلم على مجموع العبادات الخاصة التي لم تعلم إلا بالوحي ، لا على مجرد توحيد اللّه تعالى ومعرفته فإن ذلك لم يزل ثابتا له صلى اللّه عليه وسلم قبل البعث ، واللّه أعلم . أو يكون مجيئه مضارعا لقصد تصوير عبادته في نفس السامع وتمكينها من فهمه ، كقوله أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً والأصل : فأصبحت ، وإنما عدل عنه للمعنى المذكور ، وهو وجه حسن ، فتأمله ، واللّه أعلم .

(2) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بسندهم إلى أبى بن كعب . قلت : وصدره

رواه الترمذي .

حديث أنس رضى اللّه عنه .

(73/835)

وقال الماوردى :

﴿ قُل يا أَيُّها الكافِرونَ ﴾ الآيات ،

ذكر محمد بن إسحاق أن سبب نزولها أن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد . ونعبد ما تعبد ، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله ، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا كنا قد كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيديك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فصار حرف الأمر في هذه السورة وسورة الإخلاص والمعوذتين متلوّاً ، لأنها نزلت جواباً ، عنى بالكافرين قوماً معينين ، لا جميع الكافرين ، لأن منهم من آمن ، فعبد الله ، ومنهم من مات أو قتل على كفره ، وهم المخاطبون بهذا القول فمنهم المذكورون .

﴿ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدونَ ﴾ يعني من الأوثان .

﴿ ولا أنتم عابدون ما أَعْبُدُ ﴾ يعني الله تعالى وحده ، الآيات .

فإن قيل : ما فائدة هذا التكرار ؟

قيل : فيه وجهان : أحدهما : أن قوله في الأول " لا أعبد " و " لا تعبدون " يعني في الحال ، وقوله الثاني : يعني في المستقبل ، قاله الأخفش .

الثاني : أن الأول في قوله " لا أعبد " و " لا أنتم " الآية يعني في المستقبل ، والثاني : إخبار عنه وعنهم في الماضي ، فلم يكن ذلك تكراراً لاختلاف المقصود فيهما .

فإن قيل : فلم قال " ما أَعْبُدُ " ولم يقل " من أَعبُدُ " ؟

قيل : لأنه مقابل لقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عَبَدْتُم ﴾ وهي أصنام وأوثان ، ولا يصلح فيها إلا " ما " دون " من " فحمل الثاني على الأول ليتقابل الكلام ولا يتنافى .

﴿ لكم دِينكم ولي دينِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لكم دينكم الذي تعتقدونه من الكفر ، ولي ديني الذي أعتقده من الإسلام ، قاله يحيى بن سلام .

الثاني : لكم جزاء عملكم ، ولي جزاء عملي .

(74/835)

وهذا تهديد منه لهم ، ومعناه وكفى بجزاء عملي ثواباً ، قاله ابن عيسى .

قال ابن عباس : ليس في القرآن سورة أشد لغيظ إبليس من هذه السورة ، لأنها توحيد وبراءة من الشرك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 357 . 358 ﴾

(75/835)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) ﴾

قرأ أبي بن كعب وابن مسعود : " قل للذين كفروا " ، وروي في سبب نزول هذه السورة عن ابن عباس وغيره أن جماعة من عتاة قريش ورجالاتها قالوا للنبي صلى الله عيله وسلم : دع ما أنت فيه ونحن نمولك ونزوجك من شئت من كرائمنا ونملكك علينا ، وإن لم تفعل هذا فلتعبد آلهتنا ولنعبد إلهك حتى نشترك ، فحيث كان الخير نلناه جميعاً ، هذا معنى قولهم ولفظهم ، لكن للرواة زيادة ونقص ، وروي أن هذه الجماعة المذكورة الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف وأبو جهل وابنا الحجاج ونظراؤهم ممن لم يسلم بعد ، ولرسول الله صلى الله عليه وسلم معهم في هذه المعاني مقامات نزلت السورة في إحداها بسبب قولهم هلم نشترك في عبادة إلهك وآلهتنا ، وروي أنهم قالوا :

اعبد آلهتنا عاماً ، ونعبد إلهك عاماً ، فأخبرهم عن أمره عز وجل أن لا يعبد ما يعبدون وأنهم غير عابدين ما يعبد ، فلما كان قوله : ﴿ لا أعبد ﴾ محتملاً أن يراد به الآن ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه من عبادته جاء البيان بقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ ، أي أبداً وما حييت ، ثم جاء قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون به أبداً كالذي كشف الغيب ، فهذا كما قيل لنوح صلى الله عليه وسلم : إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، وأما أن هذا في معنيين وقوم نوح عمموا بذلك ، فهذا ، معنى الترديد الذي في السورة وهو بارع الفصاحة وليس بتكرار فقط ، بل فيه ما ذكرته مع التأكيد والإبلاغ ، وزاد الأمر بياناً وتبرياً منهم ، وقوله : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ وفي هذا المعنى الذي عرضت قريش نزل أيضاً : ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ [الزمر : 64] وقرأ أبو عمرو " ولي ديني " ساكنة الياء ، من لي ونصبها الباقون بخلاف كل واحد منهم ، والقراءتان حسنتان ، وقرأ أبو عمرو : " عابد " و" عابدون " والباقون بفتح العين وهاتان حسنتان أيضاً ، ولم

تختلف السبعة في حذف الياء من دين ، وقرأ سلام ويعقوب : " ديني " بياء في الوصل والوقف ، وقال بعض العلماء في هذه الألفاظ مهادنة ما وهي منسوخة بآية القتال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(77/835)

وقال ابن الجوزى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) ﴾

وفيها قولان .

أحدهما : مكية ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، والجمهور .

والثاني : مدنية ، روي عن قتادة .

ذكر سبب نزولها .

اختلفوا على ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رهطاً من قريش منهم الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن عبد يغوث لقوا العباس بن عبد المطلب ، فقالوا : يا أبا الفضل : لو أن ابن أخيك أسلم بعض آلهتنا لصدقناه بما يقول ولآمنا بالاهه ، فأتاه العباس فأخبره ، فنزلت هذه السورة ، رواه أبو

صالح عن ابن عباس.

والثاني: أن عتبة بن ربيعة، وأميّة بن خَلَف لقيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا يا محمد: لا ندعك حتى تتبع ديننا، ونتبع دينك، فإن كان أمرنا رشداً كنتَ قد أخذتَ بحظّك منه، وإن كان أمرك رشداً كنا قد أخذنا بحظنا منه، فنزلت هذه السورة، قاله عبيد ابن عمير.

والثالث: أن قريشاً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إن سَرَّك أن نتبع دينك عاماً، وترجع إلى ديننا عاماً، فنزلت هذه السورة، قاله وهب.

قال مقاتل في آخرين: نزلت هذه السورة في أبي جهل وفي المستهزئين، ولم يبق من الذين نزلت فيهم أحد.

وأما قوله تعالى: ﴿ لا أَعْبُدُ ﴾ فهو في موضع "مَنْ" ولكنه جعل مقابلاً لقوله تعالى: ﴿ ما تعبدون ﴾ وهي الأصنام.

وفي تكرار الكلام قولان.

أحدهما: لتأكيد الأمر، وحسم أطماعهم فيه، قاله الفراء.

وقد أنعمنا شرح هذا في سورة [الرحمن: 13].

والثاني: أن المعنى ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ في حالي هذه ﴿ ولا أنتم ﴾ في حالكم هذه ﴿ عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ فيما أستقبل، وكذلك أنتم، فنفى

عنه وعنهم ذلك في الحال والاستقبال ، وهذا في قوم بأعيانهم ، أعلمه الله عز وجل أنهم لا يؤمنون ، كما ذكرنا عن مقاتل ، فلا يكون حيئذ تكراراً ، هذا قول ثعلب ، والزجاج.

وقوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ فتح ياء "وليَ" نافع ، وحفص ، وأبان عن عاصم.

(78/835)

وأثبت ياء "ديني" في الحالين يعقوب.

وهذا منسوخ عند المفسرين بآية السيف. انتهى انتهى. ا هـ ﴿زاد المسير حـ 9 صـ 254.252﴾

(79/835)

وقال القرطبى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) ﴾

ذكر ابن إسحاق وغيره عن ابن عباس : أن سبب نزولها أن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن

وائل ، والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خَلَف ؛ لقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، هَلُمَّ فلنعبدْ ما تعبد ، وتَعْبَدْ ما نَعْبد ، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله ؛ فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا ، كنا قد شاركناك فيه ، وأخذنا بحظنا منه .

وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك ، كنت قد شرِكتنا في أمرنا ، وأخذت بحظك منه ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ .

وقال أبو صالح عن ابن عباس : إنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لَوِ اسْتَلَمْت بعض هذه الآلهة لصدقناك ؛ فنزل جبريل على النبيّ صلى الله عليه وسلم بهذه السورة ، فيئسوا منه ، وآذَوه ؛ وآذَوا أصحابه .

والألف واللام ترجع إلى معنى المعهود وإن كانت للجنس من حيث إنها كانت صفة لأيّ ؛ لأنها مخاطبة لمن سبق في علم الله تعالى أنه سيموت على كفره ، فهي من الخصوص الذي جاء بلفظ العموم .

ونحوه عن الماورديّ : نزلت جواباً ، وعَنَى بالكافرينَ قوماً مُعَيَّنِين ، لا جميع الكافرين ؛ لأن منهم من آمن ، فعبد الله ، ومنهم من مات أو قُتِل على كفره ، وهم المخاطبون بهذا القول ، وهم المذكورون .

قال أبو بكر بن الأنباريّ : وقرأ من طعن في القرآن : قُلْ لِلَّذِين كَفَرُوا ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وزعم أن ذلك هو الصواب ، وذلك افتراء على رب العالمين ، وتضعيف لمعنى هذه

السورة ، وإبطال ما قصده الله من أن يُذِلّ نبيه للمشركين بخطا به إياهم بهذا الخطاب الزرِيّ ، وإلزامهم ما يأنف منه كل ذي لبِ وحِجاً .

وذلك أن الذي يدّعيه من اللفظ الباطل ، قراءتنا تشتمل عليه في المعنى ، وتزيد تأويلاً ليس عندهم في باطلهم وتحريفهم .

(80/835)

فمعنى قراءتنا : قل للذين كفروا : يا أيها الكافرون ؛ دليل صحة هذا : أن العربيّ إذا قال لمخاطبه قل لزيد أقبل إلينا ، فمعناه قلْ لزيد يا زيد أقبل إلينا .

فقد وقعت قراءتنا على كل ما عندهم ، وسقط من باطلهم أحسن لفظ وأبلغ معنى ؛ إذ كان الرسول عليه السلام يعتمدهم في ناديهم ، فيقول لهم : "يا أَيُّهَا الكافرون" .

وهو يعلم أنهم يغضبون من أن يُنْسبوا إلى الكفر ، ويدخلو في جملة أهله إلاّ وهو محروس ممنوع من أن تنبسط عليه منهم يد ، أو تقع به من جهتهم أذِية .

فمن لم يقرأ ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ كما أنزلها الله ، أسقط آية لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وسبيل أهل الإسلام ألا يسارعوا إلى مثلها ، ولا يعتمدوا نبيهم باختزال الفضائل عنه ، التي

منحه الله إياها ، وشرّفه بها .

وأما وجه التكرار فقد قيل إنه للتأكيد في قطع أطماعهم ؛ كما تقول : والله لا أفعل كذا ، ثم والله لا أفعله .

قال أكثر أهل المعاني : نزل القرآن بلسان العرب ، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التأكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز ؛ لأن خروج الخطيب والمتكلم من شيء إلى شيء ، أولى من اقتصاره في المقام على شيء واحد ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 45] .

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المطففين : 10] .

﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ : 54] .

و﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : 5-6] .

كل هذا على التأكيد .

وقد يقول القائل : إِرْمِ إِرْمِ ، اعجَلْ اعجَلْ ؛ ومنه قوله عليه السلام في الحديث الصحيح : " فلان آذن ، ثم لا آذن ، إنما فاطمة بضعة مني " خرّجه مسلم .

وقال الشاعر :

هلا سالتِ جموعَ كِندة . . .

يومَ ولَّوْا أَيْنَ أَيْنا

وقال آخر:

يا لَبَكْرٍ أَنْشِرُوا لِي كُلَيْبًا . . .

يا لَبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الفِرارُ

(81/835)

وقال آخر:

يا علقمهْ يا علقمهْ يا علقمهْ . . .

خيرَ تميمٍ كُلِّها وأَكْرَمَهْ

وقال آخر:

يا أَقرعُ بنُ حابسٍ يا أَقْرَعُ . . .

إنكَ إنْ يُصْرَعَ أَخوكَ تُصْرَعُ

وقال آخر:

ألاَ يا اسلَمِي ثم اسلَمِي ثُمَّتَ اسْلَمِي . . .

ثَلاَث تَحِيَّاتٍ وإنْ لمْ تَكَلَّمَ

ومثله كثير.

وقيل : هذا على مطابقة قولهم : تَعبُد آلهتنا ونعبُد إلهَكَ ، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك ، ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك ، فنجري على هذا أبداً سَنَة وسنة .

فأجيبوا عن كل ما قالوه بضدّه ؛ أي إن هذا لا يكون أبداً .

قال ابن عباس : قالت قريش للنبيّ صلى الله عليه وسلم : نحن نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجلٍ بمكة ، ونزوّجك مَنْ شئت ، ونطأ عقِبَك ؛ أي نمشِي خلفَك ، وتَكُفُّ عن شتم آلهتنا ، فإن لم تفعل فنحن نَعْرِض عليك خَصْلة واحدة هي لنا ولك صلاح ؛ تعبدُ آلهتنا (اللات والعُزّى) سنة ، ونحن نعبد إلهك سنة ؛ فنزلت السورة .

فكان التكرار في "لا أعبد ما تعبدون" ؛ لأن القوم كرّروا عليه مقالهم مرة بعد مرة .

والله أعلم .

وقيل : إنما كرّر بمعنى التغليظ .

وقيل : أي "لا أعبد" الساعة "ما تعبدون" .

ولا أنتم عابِدون" الساعة "ما أعبد" .

ثم قال : "ولا أنا عابِد" في المستقبل "ما عبدتم .

ولا أنتم" في المستقبل "عابِدون ما أعبد" .

قاله الأخفش والمبرّد .

وقيل : إنهم كانوا يعبدون الأوثان ، فإذا ملوا وثَنا ، وسئِموا العبادة له ، رفضوه ، ثم أخذوا

وثَنا غيره بشهوة نفوسهم ، فإذا مروا بحجارة تعجبهم ألقوا هذه ، ورفعوا تلك ، فعظموها ونصبوها آلهة يعبدونها ؛ فأُمِر عليه السلام أن يقول لهم : "لا أعبد ما تعبدون" اليوم من هذه الآلهة التي بين أيديكم.

ثم قال : "ولا أنتم عابِدون ما أعبد" وإنما تعبدون الوثن الذي اتخذتموه ، وهو عندكم الآن.

"ولا أنا عابِد ما عبدتم" أي بالأمس من الآلهة التي رفضتموها ، وأقبلتم على هذه.

(82/835)

﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ فإني أعبد إلهي.

وقيل : إن قوله تعالى : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ في الاستقبال.

وقوله : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ على نفي العبادة منه لِما عبدوا في الماضي.

ثم قال : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ على التكرير في اللفظ دون المعنى ، من قِبل أن التقابل يوجب أن يكون : ولا أنتم عابدون ما عبدت ، فعدل عن لفظ عبدت إلى أعبد ، إشعاراً بأن ما عبد في الماضي هو الذي يعبد في المستقبل ، مع أن الماضي والمستقبل قد يقع أحدهما موقع الآخر.

وأكثر ما يأتي ذلك في أخبار الله عز وجل .

وقال : "ما أعبدُ" ، ولم يقل : مَنْ أعبد ؛ ليقابل به "ولا أنا عابِد ما عبدتم" وهي أصنام وأوثان ، ولا يصلح فيها إلا "ما" دون "مَنْ" فحُمل الأوّل على الثاني ، ليتقابل الكلام ولا يتنافى .

وقد جاءت "ما" لمن يعقل .

ومنه قولهم : سبحان ما سخركنّ لنا .

وقيل : إن معنى الآيات وتقديرها : قل يا أيها الكافرون لا أَعبد الأصنام التي تعبدونها ، ولا أنتم عابدون الله عز وجل الذي أعبده ؛ لإشراككم به ، واتخاذكم الأصنام ، فإن زعمتم أنكم تعبدونه ، فأنتم كاذبون ؛ لأنكم تعبدونه مشركين .

فأنا لا أعبد ما عبدتم ، أي مثل عبادتكم ؛ ف"ما" مصدرية .

وكذلك "ولا أنتم عابِدون ما أعبد" مصدرية أيضاً ؛ معناه ولا أنتم عابدون مثل عبادتي ، التي هي توحيد .

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

فيه معنى التهديد ؛ وهو كقوله تعالى : ﴿ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ [القصص : 55] أي إن رضيتم بدينكم ، فقد رضينا بديننا .

وكان هذا قبل الأمر بالقتال ، فنسخ بآية السيف .

وقيل : السورة كلها منسوخة .

وقيل : ما نسخ منها شيء لأنها خبر .

ومعنى "لكم دينكم" أي جزاء دينكم ، ولي جزاء ديني .

وسمى دينهم ديناً ، لأنهم اعتقدوه وَتَوَلَّوه .

وقيل : المعنى لكم جزاؤكم ولي جزائي ؛ لأن الدِّين الجزاء .

وفتح الياء من "وِلِيَ دِينِ" نافع ، والبزي عن ابن كثير باختلاف عنه ، وهشام عن ابن عامر ، وحفص عن عاصم .

وأثبت الياء في "ديني" في الحالين نصر بن عاصم وسلام ويعقوب ؛ قالوا : لأنها اسم مثل الكاف في دينكم ؛ والتاء في قمت .

الباقون بغير ياء ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَهُوَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78] .

﴿ فاتقوا الله وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران : 50] ونحوه ، اكتفاء بالكسرة ، واتباعاً لخط المصحف ؛ فإنه وقع فيه بغير ياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ إلى آخر السّورة

نزلت في رهط من قريش منهم الحارث بن قيس السّهمي ، والعاص بن وائل السهمي ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، وأمية بن خلف قالوا يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، ونشركك في ديننا كله تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه ، وأخذنا حظنا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا ، وأخذت بحظك منه فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " معاذ الله أن أشرك به غيره " قالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ، ونعبد إلهك قال " حتى أنظر ما يأتي من ربي " فأنزل الله ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ إلى آخر السورة فغدا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المسجد الحرام وفيه أولئك الملأ من قريش ، فقام على رؤوسهم ثم قرأها عليهم حتى فرغ من السّورة فأيسوا منه عند ذلك وآذوه وأصحابه ، وقيل إنهم لقوا العباس ، فقالوا يا أبا الفضل لو أن ابن أخيك استلم بعض آلهتنا لصدقناه فيما يقول ، ولآمنّا بإلهه ، فأتاه العباس ، فأخبره بقولهم ، فنزلت هذه السّورة وقيل نزلت في أبي جهل والمستهزئين ومن لم يؤمن منهم .

ومعنى ذلك ، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان مأموراً بتبليغ الرّسالة بجميع ما أوحي إليه فلما قال الله تعالى ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ أداه النبي (صلى الله عليه وسلم) كما سمعه من جبريل عليه السّلام فكأنه (صلى الله عليه وسلم) قال أمرت بتبليغ جميع ما أنزل الله عليّ ، وكان فيما نزل عليه ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وقيل إن النّفوس تأبى سماع الكلام الغليظ الشّنيع من النّظير ، ولا أشنع ولا أغلظ من المخاطبة بالكفر فكأنه (صلى الله عليه وسلم) قال ليس هذا من عندي إنما هو من عند الله عزّ وجلّ وقد أنزل الله عليّ قل يا أيها الكافرون والمخاطبون بقوله يا أيّها الكافرون كفرة مخصوصون قد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ في معنى الآية قولان : أحدهما أنه لا تكرار فيها ، فيكون المعنى لا أعبد ما تعبدون لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلبه منكم من عبادة إلهي ثم قال ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ أي ولست في الحال بعابد معبودكم ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي ولا أنتم في الحال بعابدين معبودي وقيل يحتمل أن يكون الأول للحال ، والثاني للاستقبال ، وقيل يصلح كل واحد منهما أن يكون للحال ، والاستقبال ،

ولكن يختص أحدهما بالحال والثاني للاستقبال لأنه أخبر أولاً عن الحال ثم أخبر ثانياً عن الاستقبال ، فيكون المعنى لا أعبد ما تعبدون في الحال ولا أنتم عابدون ما أعبد في الاستقبال وما بمعنى من أي من أعبد ويحتمل أن تكون بمعنى الذي أي الذي أعبد .

(86/835)

القول الثاني : حصول التكرار في الآية ، وعلى هذا القول يقال إن التكرار يفيد التّوكيد ، وكلما كانت الحاجة إلى التّوكيد أشد كان التكرار أحسن ، ولا موضع أحوج إلى التوكيد من هذا الموضع لأن الكفار راجعوا النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى مراراً فحسن التوكيد ، والتكرار في هذا الموضع لأن القرآن نزل بلسان العرب وعلى مجاري خطابهم ، ومن مذاهبهم التكرار إرادة التّوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار إرادة التّخفيف ، والإيجاز ، وقيل تكرار الكلام لتكرار الوقت ، وذلك أنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم إن سرك أن ندخل في دينك عاماً فادخل في ديننا عاماً ، فنزلت هذا السّورة جواباً لهم على قولهم ﴿ لكم دينكم ولي ديني ﴾ أي لكم كفركم ولي إخلاصي وتوحيدي ، والمقصود منه التّهديد فهو كقوله : اعملوا ما شئتم وهذه الآية منسوخة بآية القتال ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 305 . 307 ﴾

وقال النسفى :

سورة الْكَافِرُونَ

ست آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾

المخاطبون كفرة مخصوصون قد علم الله أنهم لا يؤمنون .

روي أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فقال : معاذ الله أن أشرك بالله غيره ، قالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك فنزلت ، فغدا إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقرأها عليهم فآيسوا ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي لست في حالي هذه عابداً ما تعبدون ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون ﴾ الساعة ﴿ مَا أَعْبُدُ ﴾ يعني الله ﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ ولا أعبد فيما أستقبل من الزمان ما عبدتم ﴿ وَلاَ أَنتُمْ ﴾ فيما تستقبلون ﴿ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ وذكر بلفظ ما لأن المراد به الصفة أي لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق ، أو ذكر بلفظ "ما" ليتقابل اللفظان

ولم يصح في الأول "من" وصح في الثاني "ما" بمعنى "الذي" ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ لكم شرككم ولي توحيدي ، وبفتح الياء : نافع وحفص ، وروي أن ابن مسعود رضي الله عنه دخل المسجد والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فقال له : " نابذ يا ابن مسعود فقرأ ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ ثم قال له في الركعة الثانية : أخلص .

فقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ فلما سلم ، قال يا ابن مسعود سل تجب " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 380 . 381 ﴾

(88/835)

وقال ابن جزى :

سورة الْكَافِرُونَ

سبب هذه السورة " أن قوماً من قريش منهم الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاصي بن وائل وأبو جهل ونظراؤهم قالوا : يا محمد اتبع ديننا ونتبع دينك ، أعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة . فقال : معاذ الله أن نشرك بالله شيئاً ، ونزلت السورة " في معنى البراءة من آلهتهم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأها برئ من الشرك ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ هذا إخبار أنه لا يعبد أصنامهم ، فإن قيل : لم كرر هذا المعنى بقوله : ﴿

﴿ وَلَآ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ ؟ فالجواب من وجهين أحدهما قاله الزمخشري وهو أن قوله : ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يريد في الزمان المستقبل وقوله : ﴿ وَلَآ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ يريد به فيما مضى ، أي ما كنت قط عابداً ما عبدتم فيما سلف ، فكيف تطلبون ذلك مني الآن . الثاني قاله ابن عطية : وهو أن قوله : لا أعبد ما تعبدون لما كان يحتمل أن يراد به زمان الحال خاصة قال : ﴿ وَلَآ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أي : أبداً ما عشت . لأن لا النافية إذا دخلت على الفعل المضارع خلصته للاستقبال فقوله : لا أعبد لا يحتمل أن يراد به الحال . ويحتمل عندي أن يكون قوله : ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يراد به في المستقبل . على حسب ما تقتضيه لا من الاستقبال ، ويكون قوله : ﴿ وَلَآ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ يريد به في الحال ، فيحصل من المجموع نفي عبادته الأصنام في الحال والاستقبال . ومعنى الحال في قوله ﴿ وَلَآ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ ثم أظهر من معنى المضي الذي قاله الزمخشري ، ومن معنى الاستقبال فإن قولك : ما زيد بقائم ينفي الجملة الاسمية يقتضي الحال .

(89/835)

﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ هذا إخبار أن هؤلاء الكفار لا يعبدون الله ، كما قيل لنوح : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود : 36] إلا أن هذا في حق قوم

مخصوصين ماتوا على الكفر ، وقد روي أن هؤلاء الجماعة المذكورين هم أبو جهل والوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف وأبيّ بن خلف وابن الحجاج وكلهم ماتوا كفاراً ، فإن قيل : لم قال ما أعبد بما دون من التي هي موضوعة لمن يعقل ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه : أحدهما أن ذلك لمناسبة قوله : ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فإن هذا واقع على الأصنام التي لا تعقل ثم جعل ما أعبد على طريقته لتناسب اللفظ . الثاني أنه أراد الصفة كأنه قال : لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق ، قال الزمخشري . الثالث أن ما مصدرية والتقدير : لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي وهذا ضعيف ، فإن قيل لم كرّر هذا المعنى واللفظ فقال بعد ذلك : ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ مرة أخرى ؟ فالجواب من وجهين : أحدهما قول الزمخشري : وهو أن الأوّل في المستقبل والثاني فيما مضى والآخر قاله ابن عطية وهو أن الأول في الحال والثاني في الاستقبال فهو حتم عليهم أن لا يؤمنوا أبداً ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ أي لكم شرككم ولي توحيدي وهذه براءة منهم ، وفيها مسالمة منسوخة بالسيف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 221.220 ﴾

(90/835)

وقال البيضاوى :

سورة الْكَافِرُونَ

مكية ، وآيها ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكافرون ﴾

يعني كفرة مخصوصين قد علم الله منهم أنهم لا يؤمنون . " روي أن رهطاً من قريش قالوا يا محمد تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فنزلت " .

﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي فيما يستقبل فأن لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال كما أن ﴿ مَا ﴾ لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال .

﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ أي فيما يستقبل لأنه في قران ﴿ لاَ أَعْبُدُ ﴾ .

﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أي في الحال أو فيما سلف .

﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ أي وما عبدتم في وقت ما أنا عابده ، ويجوز أن يكونا تأكيدين على طريقة أبلغ وأما لم يقل ما عبدت ليطابق ﴿ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ لأنهم كانوا موسومين قبل المبعث بعبادة الأصنام ، وهو لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله ، وإنما قال ﴿ مَا ﴾ دون من لأن المراد الصفة كأنه قال : لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق أو للمطابقة . وقيل إنها مصدرية وقيل الأوليان بمعنى الذي والآخريان مصدريتان .

﴿ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ الذي أنتم عليه لا تتركونه . ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ ديني الذي أنا عليه لا أرفضه ، فليس فيه إذن في الكفر ولا منع عن الجهاد ليكون منسوخاً بآية القتال ، اللهم إلا إذا فسر بالمتاركة وتقرير كل من الفريقين الآخر على دينه ، وقد فسر ال ﴿ دِينِ ﴾ بالحساب والجزاء والدعاء والعبادة .

عَن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة الكافرون فكأنما قرأ ربع القرآن وتباعدت عنه مردة الشياطين وبرىء من الشرك " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 538.540 ﴾

---

(1) حديث موضوع إلا الجملة الأولى منه فرواها الترمذي .

(91/835)

وقال أبو حيان :

سورة الْكَافِرُونَ

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) ﴾

وفي قوله : ﴿ قل ﴾ دليل على أنه مأمور بذلك من عند الله ، وخطابه لهم بيا أيها الكافرون في ناديهم ، ومكان بسطة أيديهم مع ما في الوصف من الأرذال بهم دليل على أنه

محروس من عند الله تعالى لا يبالي بهم .

والكافرون ناس مخصوصون ، وهم الذين قالوا له تلك المقالة : الوليد بن المغيرة ، والعاصي بن وائل ، والأسود بن المطلب ، وأمية وأبيّ ابنا خلف ، وأبو جهل ، وابنا الحجاج ونظراؤهم ممن لم يسلم ، ووافى على الكفر تصديقاً للإخبار في قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ .

وللمفسرين في هذه الجمل أقوال :

أحدها : أنها للتوكيد .

فقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ توكيداً لقوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ ، وقوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ثانياً تأكيد لقوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أولاً .

والتوكيد في لسان العرب كثير جداً ، وحكوا من ذلك نظماً ونثراً ما لا يكاد يحصر .

وفائدة هذا التوكيد قطع أطماع الكفار ، وتحقيق الأخبار بموافاتهم على الكفر ، وأنهم لا يسلمون أبداً .

والثاني : أنه ليس للتوكيد ، واختلفوا .

فقال الأخفش : المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون السنة ما أعبد ، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد ، فزال التوكيد ، إذ قد تقيدت كل جملة بزمان مغاير .

وقال أبو مسلم : ما في الأولين بمعنى الذي ، والمقصود المعبود .

وما في الأخريين مصدرية ، أي لا أعبد عبادتكم المبنية على الشك وترك النظر ، ولا أنتم تعبدون مثل عبادتي المبنية على اليقين .

وقال ابن عطية : لما كان قوله : ﴿ لا أعبد ﴾ محتملاً أن يراد به الآن ، ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه ، جاء البيان بقوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ أبداً وما حييت .

ثم جاء قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ الثاني حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون به أبداً ، كالذي كشف الغيب .

(92/835)

فهذا كما قيل لنوح عليه السلام : ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ أما أن هذا في معينين ، وقوم نوح عموا بذلك ، فهذا معنى الترديد الذي في السورة ، وهو بارع الفصاحة ، وليس بتكرار فقط ، بل فيه ما ذكرته ، انتهى .

وقال الزمخشري : ﴿ لا أعبد ﴾ ، أريدت به العبادة فيما يستقبل ، لأن لا لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال ، كما أن ما لا تدخل إلا على مضارع في معنى الحال ، والمعنى : لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ، ولا أنتم فاعلون فيه ما

أطلب منكم من عبادة إلهي .

﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ : أي وما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه ، يعني : لم تعهد مني عبادة صنم في الجاهلية ، فكيف ترجى مني في الإسلام ؟ ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ : أي وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته .

فإن قلت : فهلا قيل ما عبدت كما قيل ما عبدتم ؟ قلت : لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل البعث ، وهو لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت ، انتهى .

أما حصره في قوله : لأن لا لا تدخل ، وفي قوله : ما لا تدخل ، فليس بصحيح ، بل ذلك غالب فيهما لا متحتم .

وقد ذكر النحاة دخول لا على المضارع يراد به الحال ، ودخول ما على المضارع يراد به الاستقبال ، وذلك مذكور في المبسوطات من كتب النحو ؛ ولذلك لم يورد سيبويه ذلك بأداة الحصر ، إنما قال : وتكون لا نفياً لقوله يفعل ولم يقع الفعل .

وقال : وأما ما فهي نفي لقوله هو يفعل إذا كان في حال الفعل ، فذكر الغالب فيهما .

وأما قوله : في قوله ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ : أي وما كنت قط عابداً فيما سلف ما عبدتم فيه ، فلا يستقيم ، لأن عابداً اسم فاعل قد عمل فيما عبدتم ، فلا يفسر بالماضي ، إنما يفسر بالحال أو الاستقبال ؛ وليس مذهبه في اسم الفاعل مذهب الكسائي وهشام من جواز إعماله ماضياً .

وأما قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ : أي وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته ، فعابدون قد أعمله فيما أعبد ، فلا يفسر بالماضي .

وأما قوله ، وهو لم يكن إلى آخره ، فسوء أدب منه على منصب النبوة ، وهو أيضاً غير صحيح ، لأنه (صلى الله عليه وسلم) لم يزل موحداً لله عز وجل منزهاً له عن كل ما لا يليق بجلاله ، مجتنباً لأصنامهم بحج بيت الله ، ويقف بمشاعر إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وهذه عبادة لله تعالى ، وأي عبادة أعظم من توحيد الله تعالى ونبذ أصنامهم ! والمعرفة بالله تعالى من أعظم العبادات ، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ قال المفسرون : معناه ليعرفون .

فسمى الله تعالى المعرفة به عباده .

والذي أختاره في هذه الجمل أنه أولاً : نفى عبادته في المستقبل ، لأن لا الغالب أنها تنفي المستقبل ، قيل : ثم عطف عليه ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ نفياً للمستقبل على سبيل المقابلة ؛ ثم قال : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ نفياً للحال ، لأن اسم الفاعل العامل

الحقيقة فيه دلالته على الحال ؛ ثم عطف عليه ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ نفياً للحال على سبيل المقابلة ، فانتظم المعنى أنه (صلى الله عليه وسلم) لا يعبد ما يعبدون ، لا حالاً ولا مستقبلاً ، وهم كذلك ، إذ قد حتم الله موافاتهم على الكفر .

ولما قال : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ ، فأطلق ما على الأصنام ، قابل الكلام بما في قوله : ﴿ ما أعبد ﴾ ، وإن كانت يراد بها الله تعالى ، لأن المقابلة يسوغ فيها ما لا يسوغ مع الانفراد ، وهذا على مذهب من يقول : إن ما لا تقع على آحاد من يعلم .

أما من جوّز ذلك ، وهو منسوب إلى سيبويه ، فلا يحتاج إلى استعذار بالتقابل .

وقيل : ما مصدرية في قوله : ﴿ ما أعبد ﴾ .

وقيل : فيها جميعها .

وقال الزمخشري : المراد الصفة ، كأنه قيل : لا أعبد الباطل ، ولا تعبدون الحق .

﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ : أي لكم شرككم ولي توحيدي ، وهذا غاية في التبرؤ .

ولما كان الأهم انتفاءه عليه الصلاة والسلام من دينهم ، بدأ بالنفي في الجمل السابقة بالمنسوب إليه .

ولما تحقق النفي رجع إلى خطابهم في قوله : ﴿ لكم دينكم ﴾ على سبيل المهادنة ، وهي منسوخة بآية السيف .

وقرأ سلام : ديني بياء وصلاً ووقفاً ، وحذفها القراء السبعة ، والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(95/835)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) ﴾

القراءات ﴿ عابدون ﴾ وما بعده بالإمالة قتيبة والحلواني عن هشام ﴿ ولي الدين ﴾ بالفتح : نافع غير إسماعيل وحفص والمفضل وهشام وزمعة عن ابن كثير ﴿ وديني ﴾ بالإسكان في الحالين : يعقوب وافق سهل وعباس في الوصل .

الوقوف : ﴿ الكافرون ﴾ ه لا ﴿ ما تعبدون ﴾ ه لا ﴿ أعبد ﴾ ه ج للتكرار مع العطف ﴿ عبدتم ﴾ ه لا ﴿ أعبد ﴾ ه ط ﴿ دين ﴾ ه .

التفسير : هذه السورة تسمى أيضاً سورة المنابذة وسورة الإخلاص والمقشقشة . وروي " من قرأها فكأنما قرأ ربع القرآن " فأوّلها العلماء بأن القرآن فيه مأمورات ومنهيات ، وكل

منهما إمّا أن يتعلق بالقلب والجوراح ، وإما أن يتعلق بالجوارح ، وهذه السورة تتضمن القسم الثالث أعني النهي المتعلق بالقلب فكانت ربعاً لما يتعلق بالتكاليف من القرآن بل ربعاً للقرآن لأن المقصود الأصلي من المواعظ والقصص وغيرها هو التزام التكاليف كما قال سبحانه

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾

[الذاريات : 56] يروى أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم تعال حتى نعبد إلهك مدّة وتعبد إلهنا مدّة فيحصل الصلح بيننا وبينك وتزول العداوة من بيننا ، فإن كان أمرك رشيداً أخذنا منه حظاً ، وإن كان أمرنا رشيداً أخذت منه حظاً فنزلت هذه السورة ونزل قوله

﴿ قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيها الجاهلون ﴾

[الزمر : 64] فتارة وصفهم بالجهل وتارة خاطبهم بالكفر ، فالجهل كالشجرة والكفر كالثمرة ، ولكن الكفر أشنع من الجهل ، فقد يكون الجهل غير ضارّ كما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال في علم الأنساب " علم لا ينفع ولا يضر " ولهذا خصت السورة بهذا الخطاب لأنها بأسرها فيهم . وروي عن علي عليه السلام أن " يا " نداء النفس " و " أي "

نداء القلب و " ها " نداء الروح. وبوجه آخر " يا " للغائب و " أي " للحاضر و " ها " للتنبيه . كان الله تعالى يقول أدعوك ثلاثاً ولا تجيبني مرة ما هذا إلا لجهلك بحقي . ثم الخطاب مع جميع الكفار أو مع بعضهم ، وعلى الأول يدخله التخصيص لا محالة لأن فيهم من يعبد الله كأهل الكتاب فلا يجوز أن يقول لهم ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ وفيهم من آمن بعد ذلك فلا يجوز أن يخبر عنهم بقوله ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ وعلى الثاني يكون خطاباً لبعض الكفرة المعهودين الحاضرين وهو الذين قالوا نعبد إلهك سنة وتعبد إلهنا سنة ، ولا يلزم التخصيص فيكون أولى . أما ظاهر التكرار الذي وقع في هذه السورة ففيه قولان : أحدهما أنه للتأكيد وأيّ موضع أحوج إلى التأكيد من هذا المقام فإنهم رجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما طلبوا منه مراراً ، وسكت الرسول صلى الله عليه وسلم عن الجواب فوقع في قلوبهم أنه قد مال إلى دينهم بعض الميل .

وروي أنهم ذكروا قولهم تعبد إلهنا مدة ونعبد إلهك مدة مرتين ، فأجيبوا مكرراً على وفق قولهم وهو نوع من التهكم فإن من كرر الكلمة الواحدة لغرض فاسد قد يجاب عنه بنفيه مكرراً للاستخفاف وحسم مادة الطمع . القول الثاني : إن الأول للمستقبل وعلامته لا التي

هي للاستقبال بدليل أن " لن " نفي للاستقبال على سبيل التوكيد أو التأبيد . وزعم الخليل أن أصله " لا أن " والثاني للحال والمعنى لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي . ثم قال ﴿ ولا أنا عابد ﴾ في الحال ﴿ ما عبدتم ولا أنتم ﴾ في الحال بعابدين لمعبودي . وعلى هذا القول زعم بعضهم أن الأمر بالعكس إذا الترتيب أن ينفى الحال أوّلاً ثم الاستقبال ، وللأولين أن يجيبوا بأنهم إنما دعوه إلى عبادة غير الله في الاستقبال فكان الابتداء به أهم . وفائدة الإخبار عن الحال وكان معلوماً أنه ما كان يعبد الصنم والكفار كانوا يعبدون الله في بعض الأحوال هي أن لا يتوهم أحد أنه يعبد غير الله سراً خوفاً أو طمعاً ، وعبادة الكفار لم تكن معتدّاً بها لأجل الشرك . ولأبي مسلم قول ثالث هو أن ما في الأولين بمعنى الذي ، وأما في الآخرين فمصدرية أي ولا أنا عابد عبادتكم المبنية على الإشراك ، ولا أنتم عابدون عبادتي المبنية على اليقين . ووجه رابع وهو أن يحمل الأول على نفي الالتماس الصادر عنهم ، والآخر على النفي المطلق العام المتناول لجميع الجهات كمن يدعو غيره إلى الظلم لغرض التنعم فيقول : لا أظلم لغرض التنعم بل لا أظلم رأساً لا لهذا الغرض ولا لسائر الأغراض . قوله ﴿ ما تعبدون ﴾ ليس فيه إشكال إنما الإشكال في قوله ﴿ ما أعبد ﴾ فأجيب بعد تسليم أن " ما " ليست أعم بأن المراد به الصفة كأنه قيل : لا أعبد الباطل

ولكن أعبد الحق أو هي " ما " المصدرية على نحو ما مر ، أو هي للطباق كقوله

﴿ وجزاء سيئة سيئة ﴾

(98/835)

[الشورى : 40] فإن قيل : لما كان المقام مقام التأكيد والمبالغة ولهذا كرر ما كرر فلم لم يقل

" لن أعبد " كما قال أصحاب الكهف

﴿ لن ندعو من دونه إلهاً ﴾

[الكهف : 14] قلت : إن أصحاب الكهف كانوا متهمين بعبادة الأصنام لأنه قد وجد منهم ذلك قبل أن أرشدهم الله ، وإن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن متهماً بذلك قط يحتج إلى المبالغة بـ " لن " ثم أوّل السورة لما اشتمل على التشديد البليغ وهو النداء بالكفر والتكرير فاشتمل آخرها على اللطف من بعض الوجوه كأنه قال : قد بالغت في منعكم من هذا الأمر القبيح فإن لم تقبلوا قولي فاتركوني سواء بسواء . قال ابن عباس : لكم كفركم بالله ولي التوحيد والإخلاص . ومن هنا ذهب بعضهم إلى أن السورة منسوخة بآية القتال . والمحققون على أنه لا نسخ بل المراد التهديد كقوله

﴿ اعملوا ما شئتم ﴾

[فصلت : 40] وقيل : الدين الجزاء . وقيل : المضاف محذوف أي لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني . وقيل : الدين العبادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 581 . 583 ﴾

(99/835)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الكافرون

مكية في قول ابن مسعود والحسن وعكرمة ، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك ، وتسمى أيضاً سورة المعابدة والإخلاص لأنها في إخلاص العبادة والدين كما أن ﴿ قل هو الله أحد ﴾ في إخلاص التوحيد ، واجتماع النفاق فيهما محال لمن اعتقدهما وعمل بهما . ويقال لها ولسورة الإخلاص : المقشقشتان ، أي : المبرئتان من النفاق . قال الشاعر :

*أعيذك بالمقشقشتين مما ** أحاذره ومن نظر العيون*

وهي ست آيات وستة وعشرون كلمة وأربعة وسبعون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الذي لا يستطيع أحد أن يقدره حق قدره ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ برحمته

من أوجب عليهم شكره ﴿ الرحيم ﴾ الذي وفق أهل ودّه فالتزموا نهيه وأمره

وقوله تعالى : ﴿ قل ﴾ أي : يا أشرف الخلق ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ إلى آخر السورة نزل في رهط من قريش منهم الحارث بن قيس السهمي ، والعاص بن وائل ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب بن أسد ، وأمية بن خلف . قالوا : يا محمد هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك ونشركك في امرنا كله ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيراً كنا قد شركناك فيه وأخذنا حظاً منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيراً كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه ، فقال : معاذ الله أن نشرك به غيره ، قالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدّقك ونعبد إلهك ، قال : حتى أنظر ما يأتي إليّ من ربي فأنزل الله تعالى هذه السورة ، فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام على رؤوسهم ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة فأيسوا منه عند ذلك وأذوه وأصحابه ، وفي مناداتهم بهذا الوصف الذي يسترذلونه في بلدهم ، ومحل عزهم وحميتهم إيذان بأنه محروس منهم علم من أعلام النبوّة .

فإن قيل : ما الحكمة في قوله تعالى في التحريم : ﴿ يا أيها الذين كفروا ﴾ (التحريم :) وههنا قال : ﴿ قل يا أيها الكافرون ؟ ﴾ .

أجيب : بأنّ في سورة التحريم إنما يقال لهم يوم القيامة ، وثم لا يكون رسولاً إليهم فأزال الواسطة فيكونون في ذلك الوقت مطيعين لا كافرين فلذلك ذكره تعالى بلفظ الماضي ، وأمّا هنا فكانوا موصوفين بالكفر ، وكان الرسول رسولاً إليهم فقال تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ، أي : الذي قد حكم بثباتهم على الكفر فلا انفكاك لهم عنه فستروا ما تدلّ عليه عقولهم من الاعتقاد الحق لو جردّوها من أدناس الحظ وهم كفرة مخصوصون ، وهم من حكم بموته على الكفر بما طابقه من الواقع ، ودل عليه التعبير بالوصف دون الفعل ، واستغرق اللام كل من كان على هذا الوصف في كل مكان وكل زمان ، والتعبير بالجمع الذي هو أصل في القلة ، وقد يستعار للكثرة إشارة إلى البشارة بقلة المطبوع على قلبه من العرب المخاطبين بهذا في حياته صلى الله عليه وسلم

وقال الله تعالى له : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ لأنه صلى الله عليه وسلم كان مأموراً بالرفق واللين في جميع الأمور كما قال تعالى : ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ (آل عمران :)

وقال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ (آل عمران :)

وقال تعالى : ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ (آل عمران :)

ثم كان مأموراً بأن يدعوهم إلى الله تعالى بالوجه الأحسن ، فلذا خاطبهم بيا أيها فكانوا

يقولون : كيف يليق هذا التغليظ بذلك الرفق ، فأجاب بأني مأمور بهذا الكلام لا أني ذكرته من عند نفسي .

ولما كان القصد إعلامهم بالبراءة منهم من كل وجه ، وأنه لا يبالي بهم بوجه لأنه محفوظ منهم قال :

﴿ لا أعبد ﴾ أي : الآن ﴿ ما تعبدون ﴾ من دون الله من المعبودات الظاهرة والباطنة بوجه من وجوه العبادات في سرّ ولا علن ؛ لأنه لا يصلح للعبادة بوجه .

﴿ ولا أنتم عابدون ﴾ أي : الآن ﴿ ما أعبد ﴾ وهو الله تعالى وحده .

﴿ ولا أنا عابد ﴾ ، أي : في الاستقبال ما عبدتم ﴾ من دون الله تعالى .

(101/835)

﴿ ولا أنتم عابدون ﴾ ، أي : في الاستقبال ﴿ ما أعبد ﴾ وهو الله وحده لا شريك له ، وهذا خطاب لمن علم الله تعالى منهم أنهم لا يؤمنون . وإطلاق ما على الله تعالى على جهة المقابلة ، وبهذا زال التكرار ووجه التكرار كما قال أكثر أهل المعاني : هو أن القرآن نزل بلسان العرب وعلى مجارى خطابهم ومن مذاهبهم التكرار لإرادة التأكيد والإفهام ، كما أنّ من مذاهبهم الاختصار لإرادة التخفيف والإيجاز فالقائل بالتأكيد يقول قوله تعالى : ﴿ ولا

أنا عابد ما عبدتم ﴾ تأكيد لقوله تعالى : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ (التكاثر : .)

وقوله تعالى : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ثانياً تأكيد لقوله تعالى : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ومثله ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ (الرحمن :)

و ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ (المرسلات :)

في سورتيهما و ﴿ كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ﴾ وفي الحديث : "فلا أذن ثم لا أذن إنما فاطمة بضعة مني" وفائدة التأكيد هنا قطع أطماع الكفار وتحقيق الأخبار وهو إقامتهم على الكفر ، وأنهم لا يسلمون أبداً وعلى الأوّل قد تقيدت كل جملة بزمان غير الزمان الآخر قال ابن عادل : وفيه نظر كيف يقيد رسول الله صلى الله عليه وسلم نفي عبادته لما يعبدون بزمان ، وهذا مما لا يصح اه . وقد يردّ هذا بأنه صلى الله عليه وسلم نفى في الجملة الأولى الحال ، وفي الثانية الاستقبال وقول البيضاوي : فإن لا ، لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال كما أنّ ما لا تدخل إلا على المضارع بمعنى الحال جرى على الغالب فيهما

ولما أيس منهم صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ لكم دينكم ﴾ أي : الذي أنتم عليه من الشرك ﴿ ولي دين ﴾ أي : الذي أنا عليه من التوحيد وهو دين الإسلام ، وفي هذا معنى التهديد كقوله تعالى : ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ (القصص :)

أي : إن رضيتم بدينكم فقد رضينا بديننا ، وهذا كما قال الجلال المحلي : قبل أن يؤمر بالحرب ، وقيل : السورة كلها منسوخة وقيل : ما نسخ منها شيء لأنها خبر ، ومعنى لكم دينكم ، أي : جزاء دينكم ولي دين ، أي : جزاء ديني وسمي دينهم ديناً لأنهم اعتقدوه ، وقيل : المعنى : لكم جزاؤكم ولي جزائي لأنّ الدين الجزاء ، وحذفت ياء الإضافة من دين للتبعية وقفاً ووصلاً . قرأ نافع وهشام وحفص والبزي بخلاف عنه بفتح الياء والباقون بإسكانها .

فائدة : قال الرازي : جرت العادة بأنّ الناس يتمثلون بهذه الآية عند المتاركة وذلك غير جائز ، لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به بل ليتدبر فيه فيعمل بموجبه .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشريّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة الكافرين فكأنما قرأ ربع القرآن ، وتباعدت منه مردة الشياطين ، وبرئ من الشرك ، ويعافى من الفزع الأكبر" حديث موضوع إلا الجملة الأولى منه فرواها الترمذي . انتهى . ا هـ

﴿السراج المنير حـ 8 صـ 447 . 449﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾

هم كفرةٌ مخصوصون قدْ علمَ اللهُ تعالَى أنَّه لا يتأَّتى منهمْ الإيمانُ أبداً . رُوِيَ أنَّ رهطاً مِنْ عُتاةِ قريشٍ قالُوا لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم : هلمَّ فاتبعْ دينَنَا ونتبعُ دينَكَ تعبدُ آلهتَنَا سنةً ونعبدُ إلهك سنةً ، فقالَ : " معاذَ اللهِ أنْ أشركَ باللهِ غيرَهُ " فقالُوا : فاستلمْ بعضَ آلهتِنَا نصدقكَ ونعبدَ إلهك فنزلتْ ، فغدَا إلى المسجدِ الحرامِ وفيهِ الملأُ من قريشٍ فقامَ على رؤوسِهِم فقرأَهَا عليهم فأيسوا ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أيْ فيمَا يُستقبلُ لأَنَّ "لاَ" لاَ تدخلُ غالباً إلاَّ على مُضَارعٍ في مَعْنى الاستقبالِ كما أنَّ مَا لاَ تدخلُ إلاَّ على مضارعٍ في مَعْنى الحالِ والمَعْنى لا أفعلُ في المستقبلِ ما تطلبونَهُ مِنِّي من عبادةِ آلهتكم ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ أيْ ولا أنتُم فاعلونَ فيهِ ما أطلبُ منكُم من عبادةِ إلهي ﴿ وَلاَ أَنَاْ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أيْ وما كنتُ قطُّ عابداً فيمَا سلفَ ما عبدتُم فيه أيْ لمْ يُعْهدْ مِنّي عبادةُ صنمٍ في الجاهليةِ فكيفَ تُرْجَى مِنّي في الإسلامِ ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ أيْ وما عبدتُم في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ مَا أنا على عبادتِهِ وقيلَ : هاتانِ الجملتانِ لنفيِ العبادةِ حالاً كما أنَّ الأولينِ لنفيِها استقبالاً وإنَّما لمْ يقُلْ ما عبدتُ ليوافقَ ما عبدتُم لأنَّهم كانُوا موسومينَ قبلَ البعثةِ بعبادةِ الأصنامِ ، وهُوَ عليهِ السلامُ لمْ يكُنْ حينئذٍ موسوماً بعبادةِ اللهِ تعَالَى وإيثارُ مَا في أعبدُ على مَنْ لأنَّ المرادَ هُوَ الوصفُ كأنَّه قيلَ : مَا أعبدُ مِنَ المعبودِ

العظيمِ الشأنِ الذي لا يُقادَرُ قدرُ عظمتِهِ وقيلَ: إنَّ مَا مصدريةٌ أيْ لا أعبدُه عبادتَكُم ولا تعبدونَ عبادَتِي وقيلَ: الأوليانِ بمَعْنى الذي والأخريانِ مصدريتانِ وقيلَ: قولُه تعالَى:

﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾

(104/835)

تأكيدٌ لقولِه تعالَى: ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وقولُه تعالَى: ﴿ وَلَا أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ ثانياً تأكيدٌ لمثلِه المذكورِ أولاً وقولُه تعالَى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ تقريرٌ لقولِه تعالَى: ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وقولِه تعالَى: ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ كَمَا أنَّ قولَه تعالَى: ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ تقريرٌ لقولِه تعالَى: ﴿ وَلَا أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ والمَعْنى أنَّ دينَكُم الذي هُوَ الإشراكُ مقصورٌ على الحصولِ لكُم لا يتجاوزُهُ إلى الحصولِ لِي أيضاً كما تطمعونَ فيهِ فلاَ تعلقُوا بهِ أمانيَّكُم الفارغةَ فإنَّ ذلكَ مِنَ المُحالاتِ وأنَّ دينيَ الذي هُوَ التوحيدُ مقصورٌ على الحصولِ لِي لا يتجاوزُه إلى الحصولِ لكُم أيضاً لأنَّكم علقتمُوه بالمحالِ الذي هُوَ عبادتِي لآلهتِكُم أو استلامِي إيَّاها ولأنَّ ما وعدتمُوه عينُ الإشراكِ، وحيثُ كانَ مَبْنى قولِهم: تعبدُ آلهتَنَا سنةً ونعبدُ إلهكَ سنةً على شركةِ الفريقينِ في كلتا العبادتينِ كانَ القصرُ المستفادُ من تقديمِ المسندِ قصرَ إفرادٍ حتماً ويجوزُ أنْ يكونَ هذا تقريراً لقولِه تعالَى: ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا

عَبَدتُّمْ ﴾ أيْ ولِي دِينِي لا دينُكم كمَا هُوَفي قولِه تعَالَى : ﴿ ولَكُم مَّا كَسَبْتُم ﴾ وقيلَ : المَعْنى إنّي نبيٌّ مبعوثٌ إليكُم لأدعوكَم إلى الحقّ والنجاةِ فإذَا لم تقبلُوا مِنّي ولَمْ تتبعِونِي فدعونِي كَفافاً ولا تدعونِي إلى الشركِ فتأملْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(105/835)

وقال النخجواني :

[سورة الكافرون]

فاتحة سورة الكافرون

لا يخفى على ارباب الخبرة والوقوف بأمارات مقصد التوحيد الذاتي وعلامات مسلك الفناء في اللّه والبقاء ببقائه ان الطريق إلى اللّه متفاوتة والمعارج نحوه متنوعة متخالفة إذ لكل وجهة هو موليها وأكمل الطرق وأشملها وأسلمها وأوضحها هو الذي قد سلكه واستقام عليه بتوفيق اللّه الحضرة الختمية الخاتمية صلى اللّه عليه وسلم إذ طريقه صلى اللّه عليه وسلم مستوعب لعموم الطرق والسبل لكونه مبنيا على التوحيد الذاتي المشتمل على توحيد الصفات والأفعال مطلقا ولا يهتدى إليه احد من الخلق الا بجذب من جانب الحق

وتوفيق من لدنه ومن لم يؤيد من قبل الحق ولم تدركه العناية الإلهية ما اهتدى إليه سبحانه سبيلا لذلك امر سبحانه في هذه السورة حبيبه صلى اللّه عليه وسلم حين دعاه الكفرة ليعبد صلى اللّه عليه وسلم سنة إلى ما عبدوا من آلهتهم الباطلة حتى يعبدوا بعد تلك السنة للّه الواحد الأحد الفرد الصمد المستحق للعبودية والتذلل سنة اخرى مجازاة لها ومقابلة إياها بان لا يلتفت صلى اللّه عليه وسلم إلى قولهم الباطل ورأيهم الزائغ الزائل فقال بعد ما تيمن وتبرك بِسْمِ اللَّهِ المطلع لما في ضمائر عموم عباده من الهداية والضلال الرَّحْمنِ عليهم بإرسال الرسل يدعوهم إلى سبيل السلامة والرشد الرَّحِيمِ لهم يوصلهم إلى خير المنقلب والمآب

[الآيات]

قُلْ يا أكمل الرسل مناديا لمن دعاك إلى عبادة الآلهة الباطلة يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ الساترون شمس الحق الظاهرة في الأنفس والآفاق بغيوم هوياتكم الباطلة

لا أَعْبُدُ أي لا انقاد ولا أتوجه انا سيما بعد ما وفقني اللّه إلى توحيده الذاتي وهداني نحو شمس ذاته وشرفني بمطالعة وجهه الكريم وخصصنى من بين عموم مظاهره ومصنوعاته بهذه الكرامة العلية ما تَعْبُدُونَ أنتم أيها الجاهلون من الآلهة الباطلة والاظلال الهالكة العاطلة قد اتخذتموها آلهة من تلقاء انفسكم أنتم وآباؤكم مع انه ما انزل اللّه بها من سلطان حجة وبرهان بل ما تتبعون أنتم وآباؤكم في اتخاذكم هذا الا الظن وما تهوى الأنفس من غير

ورود الهداية والإرشاد من قبل الحق

وَلا أَنْتُمْ أيصاً عابِدُونَ ما أَعْبُدُ من الحق الوحيد الفريد الحقيق بالاطاعة والعبادة بالاستحقاق إذ لا إله في الوجود معه ولا شيء يماثله حتى يشارك معه في أخص أوصافه التي هي الألوهية والربوبية ووجوب الوجود إذ ليس في وسعكم واستعداداتكم الايمان به والإيقان بوحدته وباستقلاله في ملكه وملكوته ومع ذلك ما وفقكم الحق عليه وما أقدركم به

وَبالجملة لا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ إذ هي لا يليق بالعبودية والمعبودية حتى اعبد له

وَلا أَنْتُمْ أيصاً عابِدُونَ ما أَعْبُدُ إذ لا يتيسر لكم الايمان به والاطلاع على وجوده والاتصاف بمعرفته وشهوده فكيف تعبدون أنتم للّه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد بلا جذب من جانبه وتوفيق من لدنه وانا أيصاً لا اعبد لمعبوداتكم الباطلة التي هي بمراحل عن رتبة الألوهية والمعبودية وبالجملة

(106/835)

لَكُمْ دِينُكُمْ الذي أنتم عليه وطريقكم الذي تتوجهون إليه بعد ما لم يوفقكم الحق على الهداية والايمان وَلِيَ دِينِ الذي انا عليه وبالجملة لا تتركون دينكم بديني وما انا أيصاً بتارك ديني

بدينكم بل لكم دينكم ولى ديني والتوفيق بيد اللّه والهداية والضلال

خاتمة سورة الكافرون

عليك أيها الموحد المحمدي الحنيف المائل عن عموم الأديان والمذاهب الباطلة المنافية لصرافة مشرب التوحيد الذاتي ان لا تجالس مع اهل الغفلة والضلال المترددين في اودية الجهالات بأنواع الخيالات الباطلة والأوهام العاطلة المترتبة على هوياتهم العدمية وتعيناتهم الوهمية ولا تصاحبهم في حال من الأحوال فان صحبتك معهم تبعدك عن الحق وتغريك نحو الباطل فان النفوس الانسانية سارقة طبعا مائلة نحو الباطل قطعا ولهذا صارت اسرع عدوا وأشد ميلا إلى البدع والأهواء الفاسدة والآراء الباطلة . أعاذنا اللّه وعموم عباده منها بمنه وجوده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفواتح الإلهية حـ 2 صـ 534 . 535 ﴾

(107/835)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ يا أهل أَيُّهَا الكافرون ﴾

قال أجلة المفسرين المراد بهم كفرة من قريش مخصوصون قد علم الله تعالى أنهم لا يتأتى منهم الإيمان أبداً أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن سعيد بن

ميناء مولى أبي البختري قال لقي الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد وتشترك نحن وأنت في أمرنا كله فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً فأنزل الله تعالى: ﴿ قُلْ يا أهل أَيُّهَا الكافرون ﴾ حتى انقضت السورة وفي رواية أن رهطاً من عتاة قريش قالوا له صلى الله عليه وسلم هلم فاتبع ديننا ونتبع دينك تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة فقال عليه الصلاة والسلام معاذ الله تعالى أن أشرك بالله سبحانه غيره فقالوا فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك فنزلت فعدا صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش فقام عليه الصلاة والسلام على رؤوسهم فقرأها عليهم فأيسوا ولعل نداءهم بيا أيها للمبالغة في طلب إقبالهم لئلا يفوتهم شيء مما يلقى إليهم وبالكافرون دون الذين كفروا لأن الكفر كان دينهم القديم ولم يتجدد لهم أو لأن الخطاب مع الذين يعلم استمرارهم على الكفر فهو كاللازم لهم أو للمسارعة إلى ذكر ما يقال لهم لشدة الاعتناء به وبه دون المشركين مع أنهم عبدة أصنام والأكثر التعبير عنهم بذلك لأن ما ذكر أنكى لهم فيكون أبلغ في قطع رجائهم الفارغ وقيل هذا للإشارة إلى أن الكفر كله ملة واحدة ولا يبعد أن يكون في هذه الإشارة إنكاءً لهم أيضاً وفي ندائه عليه الصلاة والسلام بذلك في ناديهم ومكان بسطة أيديهم دليل على عدم اكتراثه عليه الصلاة والسلام

بهم إذ المعنى قل يا محمد والمراد حقيقة الأمر خلافاً لصاحب التأويلات للكافرين يا أيها الكافرون.

(108/835)

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5)

يتراءى أن فيه تكراراً للتأكيد فالجملة الثالثة المنفية على ما في "البحر" توكيد للأولى على وجه أبلغ لإسمية المؤكدة والرابعة توكيد للثانية وهو الذي اختاره الطيبي وذهب إليه الفراء وقال إن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادتهم تكرار الكلام للتأكيد والإفهام فيقول المجيب بلى بلى والممتنع لالا وعليه قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر: 3، 4] وأنشد قوله

: كائن وكم عندي لهم من صنيعة . . .

أيادي سنوها على وأوجبوا

وقوله

نعق الغراب ببين ليلى غدوة . . .

كم كم وكم بفراق ليلى ينعق

وقوله

: هلا سألت جموع كن . . .

دة يوم ولوا أين أينا

(109/835)

وهو كثير نظماً ونثراً وفائدة التأكيد ههنا قطع أطماع الكفار وتحقيق أنهم باقون على الكفر أبداً واعترض بأن تأكيد الجمل لا يكون مع العاطف إلا بثم وكأن القائل بذاك قاس الواو على ثم والظاهر أن من قال بالتأكيد جعل الجملة الرابعة معطوفة على الثالثة وجعل المجموع معطوفاً على مجموع الجملتين الأوليين فهناك مجموعان متعاطفان يؤكد ثانيهما أولهما ولمغايرة الثاني للأول بما فيه من الاستمرار عطف عليه بالواو فلا يرد ما ذكر ويتضمن ذلك معنى تأكيد الجزء الأول من الثاني للجزء الأول من الأول وتأكيد الجزء الثاني من الثاني للجزء الثاني من الأول وإلا فظاهر ما في "البحر" مما لا يكاد يجوز كما لا يخفى والذي عليه الجمهور أنه لا تكرار فيه لكنهم اختلفوا فقال الزمخشري لا أعبد أريد به نفي العبادة فيما يستقبل لأن لا لا تدخل إلا على مضارع في معنى الاستقبال كما أن ما لا تدخل إلا على

مضارع في معنى الحال والمعنى لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلب منكم من عبادة إلهي وما كنت عابداً قط فيما سلف ما عبدتم فيه وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته والظاهر أنه اعتبر في الجملة الأخيرة استمرار النفي وأنه حمل المضارع فيها على إفادة الاستمرار والتصوير وفي الثانية استغرق النفي للأزمنة الماضية وقال الطيبي أنه جعل القرينتين للأوليين للاستقبال والآخريين للماضي واعترض عليه بأن الحصرين اللذين ذكرهما في لا وما غير صحيح وإن كانا يشعر بهما ظاهر كلام سيبويه وقال الخفاجي ما ذكر أغلبي أو مقيد بعدم القرينة القائمة على ما يخالفه أو هو كلي ولا حجر في التجوز والحمل على غيره لمقتض كدفع التكرار هنا وإن قيل بتحقق الاستغراب على القول باشتراطه في الحكاية في عابد الأول وعدم ضرر فقده في الثاني لأن النصب به للمشاكلة وقيل القرينتان الأوليان للاستقبال كما مر والأخريان للحال واختاره أبو حيان أي ولست في الحال

بعابد معبوديكم ولا أنتم في الحال بعابدي معبودي وقيل بالعكس وعليه كلام الزجاج ومحيي السنة وقيل الأوليان للماضي والأخريان للمستقبل نقله ابن كثير عن حكاية البخاري

وغيره ونقل أيضاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية أن المراد بقوله سبحانه: ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ نفي الفعل لأنها جملة فعلية وبقوله تعالى: ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ نفى قبوله صلى الله عليه وسلم لذلك بالكلية لأن النفي بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل وكونه عليه الصلاة والسلام قابلاً لذلك ومعناه نفي الوقوع ونفي إمكانه الشرعي ونوقش في إفادة الجملة الاسمية نفي القبول ولا يبعد أن يقال إن معنى الجملة الفعلية نفي الفعل في زمان معين والجملة الاسمية معناها نفي الدخول تحت هذا المفهوم مطلقاً من غير تعرض للزمان كأنه قيل أنا ممن لا يصدق عليه هذا المفهوم أصلاً وأنتم ممن لا يصدق عليه ذلك المفهوم فتدبر وقيل الأوليان لنفي الاعتبار الذي ذكره الكافرون والأخريان للنفي على العموم أي لا أعبد ما تعبدون رجاء أن تعبدوا الله تعالى ولا أنتم عابدون رجاء أن أعبد صنمكم ثم قيل ولا أنا عابد صنمكن لغرض من الأغراض بوجه من الوجوه وكذا أنتم لا تعبدون الله تعالى لغرض من الأغراض وإيثار ما في ما أعبد قيل على جميع الأقوال السابقة على من لأن المراد الصفة كأنه قيل ما أعبد من المعبود العظيم الشأن الذي لا يقادر قدر عظمته وجوز أن يقال لما أطلقت ما على الأصنام أولاً وهو إطلاق في محزه أطلقت على المعبود بحق للمشاكلة ومن يقول أن ما يجوز أن تقع على من يعلم ونسب إلى سيبويه لا يحتاج إلى ما ذكر وقال أبو مسلم ما في الأولين بمعنى الذي مفعول به والمقصود المعبود أي لا أعبد الأصنام ولا تعبدون

الله تعالى وفي الآخرين مصدرية أي ولا أنا عابد مثل عبادتكم المبنية على الشك وإن شئت قلت على الشرك المخرج لها عن كونها عبادة حقيقة ولا أنتم عابدون مثل عبادتي

(111/835)

المبنية على اليقين وإن شئت قلت على التوحيد والإخلاص وعليه لا يكون تكرار أيضاً وقال بعض الأجلة في هذا المقام أن قوله تعالى : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أما كلاهما نفي الحال أو كلاهما نفي الاستقبال أو أحدهما للحال والآخر للاستقبال وعلى التقادير فلفظ ما إما مصدرية في الموضعين وإما موصولة أو موصوفة فيهما وأما مصدرية في أحدهما وموصولة أو موصوفة في الآخر وهذه ستة احتمالات حاصلة من ضرب الثلاثة في الاثنين ولم يلتفت إلى تقسيم صورة الاختلاف إلى الفرق بين الأولى والأخرى ولا إلى الفرق بين الموصولة والموصوفة لتكثر الإقسام لأن صور الاختلاف متساوية الأقدام في دفع التكرار ومؤدى الموصولة والموصوفة متقاربان فيكتفي بإحداهما وكذا الحال في قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ في الموضعين ومعلوم أنه لا تكرار في صورة الاختلاف سواء كان باعتبار الحال والاستقبال أو باعتبار كون ما في أحدهما موصولة أو موصوفة وفي الآخر مصدرية ونفى عبادتهم في الحال أو الاستقبال

معبوده عليه الصلاة والسلام بناءً على عدم الاعتداد بعبادتهم لله تعالى مع الإشراك المحبط لها وجعلها هباءً منثوراً كما قيل

: إذا صافى صديقك من تعادى . . .

فقد عاداك وانقطع الكلام

(112/835)

ومن هنا قال بعض الأفاضل في إخراج الآية عن التكرار يحتمل أن يكون المراد من قوله تعالى : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ نفى عبادة الأصنام ومن قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ نفى عبادة الله تعالى من غير تعرض لشيء آخر ولما كان مظنة أن يقولوا لغفلة عن المراد أو نحوها كيف يسوغ لك أن تنفي عنك عبادة ما نعبد وعنا عبادة ما تعبد ونحن أيضاً نعبد الله تعالى غاية ما في الباب أنا نعبد معه غيره أردف ذلك بقوله سبحانه : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ الخ للإشارة إلى أنهم ما عبدوا الله حقيقة وإنما عبدوا شيئاً قالوا إنه الله والله عز وجل وراء ذلك أي ولا أنا عابد في وقت من الأوقات الاله الذي عبدتم لأنكم عبدتم شيئاً تخيلتموه وذلك بعنوان ما تخيلتم ليس بالإله الذي أعبده ولا أنتم عابدون في وقت من الأوقات ما أنا على عبادته لأني إنما أعبد الإله المتصف بالصفات التي قام البرهان

على أنها صفات الإله النفس الامرى ويعلم منه وجه غير ما تقدم للتعبير بالكافرون دون المشركون وكأنه لم يؤت بالقرينتين الأوليين بهذا المعنى ويكتفي بهما عن الأخريين لأنهما أوفق بجوابهم مع أن هذا الأسلوب أنكى لهم فلا تغفل ومن الناس من اختار كون ما في القرينتين الأوليين موصولة مفعولاً به لما قبلها والمراد بها أولاً آلهتهم وثانياً إلهه عليه الصلاة والسلام والمراد نفي العبادة ملاحظاً معها التعلق بما تعلقت به من المفعول بل هو المقصود ومحط النظر كما يقتضي ذلك وقوع القرينتين في الجواب ويعتبر الاستقبال رعاية للغالب في استعمال لا داخلة على المضارع مع كونه أوفق بالجواب أيضاً ويكون قد تم بهما فكأنه قيل لا أعبد في المستقبل ما تعبدون في الحال من الآلهة أي لا أحدث ذلك حسبما تطلبونه مني وتدعوني إليه ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد في الحال وكونها في الأخريين مصدرية مؤولة مع ما بعدها بمصدر وقع مفعولاً مطلقاً لما قبل

كما فعل أبو مسلم ليتضمن الكلام الإشارة إلى بيان حال العبادة في نفسها من غير نظر إلى تعلقها بالمفعول وإن كانت لا تخلو عنه في الواقع أثر الإشارة إلى بيان حالها مع ملاحظة تعلقها بالمفعول ويراد استمرار النفي في كلتيهما كما في قوله تعالى :

﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62] وفي ذلك من إنكائهم ما ليس في الاقتصار على ما تم به الجواب فكأنه قيل ولا أنا عابد على الاستمرار عبادة مثل عبادتكم التي أذهبتم بها أعماركم لأن عبادتي مأمور بها وعبادتكم منهي عنها ولا أنتم عابدون على الاستمرار عبادة مثل عبادتي التي أنا مستمر عليها لأنكم الذين خذلهم الله تعالى وختم على قلوبهم وإني الحبيب المبعوث بالحق فلا زلتم في عبادة منهي عنها ولا زلت في عبادة مأمور بها ولك أن تعتبر الفرق بين العبادتين بوجه آخر واعتبار الاستمرار في ما أعبد يشعر به العدول عن ما عبدت الذي يقتضيه ما عبدتم قبله إليه وعن العدول في الثانية إلى ذلك لأن أنواع عبادته عليه الصلاة والسلام لم تكن تامة بعد بل كانت تتجدد لها أنواع أخر فأتى بما يفيد الاستمرار التجددي للإشارة إلى حقية جميع ما يأتي به صلى الله عليه وسلم من ذلك وقال الزمخشري لم يقل ما عبدت كما قيل ما عبدتم لأنهم كانوا يعبدون الأصنام قبل البعث وهو عليه الصلاة والسلام لم يكن يعبد الله تعالى في ذلك الوقت وتعقب بأن فيه نظراً لما ثبت أنه عليه الصلاة والسلام كان يتحنث في غار حراء قبل البعثة ونص أبو الوفاء على ابن عقيل على أنه صلى الله عليه وسلم كان متديناً قبل بعثه بما يصح عنه أنه من شريعة

إبراهيم عليه السلام وأما بعد البعث فقال ابن الجوزي في كتاب الوفاء فيه روايتان عن الإمام أحمد إحداهما أنه كان متعبداً بما صح من شرائع من قبله بطريق الوحي لا من جهتهم ولا نقلهم ولا كتبهم المبدلة واختارها أبو الحسن التميمي وهو قول أصحاب أبي حنيفة الثانية إن لم يكن متعبد إلا بما يوحى إليه من شريعته وهو قول المعتزلة والأشعرية ولأصحاب الشافعي وجهان كالروايتين والقائلون بأنه عليه الصلاة والسلام متعبد بشرع من قبله اختلفوا في التعيين فقيل وجهان كالروايتين والقائلون بأنه عليه الصلاة والسلام متعبد بشرع من قبله

(115/835)

اختلفوا في التعيين فقيل كان متعبداً بشريعة إبراهيم السلام وعليه أصحاب الشافعي وقيل بشريعة موسى عليه السلام إلا ما نسخ في شرعنا وظاهر كلام أحمد أنه صلى الله عليه وسلم كان متعبداً بكل ما صح أنه شريعة لنبي قبله ما لم يثبت نسخه لقوله تعالى:

﴿ أولئك الذين هَدَى اللهُ فبِهُدَاهُمُ اقتده ﴾ [الأنعام : 90] وقال ابن قتيبة لم تزل العرب على بقايا دين إسماعيل عليه السلام كالحج والختان وإيقاع الطلاق الثلاث والدية والغسل من الجنابة وتحريم المحرم بالقرابة والصهر وكان عليه الصلاة والسلام على ما كانوا عليه من

الإيمان بالله تعالى والعمل بشرائعهم.

انتهى.

(116/835)

والمعتزلة لم يجوزوا ذلك لزعمهم أن فيه مفسدة وهو إيجاب النفرة نعم من أصولهم وجوب التعبد العقلي بالنظر في آيات الله تعالى وأدلة توحيده سبحانه ومعرفته عز وجل ولا يمكن أن يخل صلى الله عليه وسلم بذلك وفي "الكشف" العبادة قد تطلق على أعمال الجوارح الناقعة على سبيل القربة فالإيمان والنية والإخلاص شروط ومنه لفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد واختلف أنه عليه الصلاة والسلام كان متعبداً بهذا المعنى قبل نبوته بشرع أولاً فميل الإمام فخر الدين وجماعة من الشافعية وأبي الحسين البصري وأتباعه إلى أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن متعبداً وأجابوا عن الطواف والتحنث وغيرهما من المكارم أنها لا تحرم من غير شرع حتى يقال الآتي بها لا بد أن يكون متعبداً بل هي من اقتضاء العادات المستمرة والمكارم الغريزية دون نظر إلى قربة والزمخشري اختار ذلك القول وعليه بنى تفسيره وقد ظهر أنه لم يخالف أصله في وجوب التعبد العقلي بالنظر في الآيات وأدلة التوحيد والمعرفة ثم قال والظاهر حمل ما أعبد على إفادة الاستمرار والتصوير على

أنهم ما كانوا ينكرون ما كان عليه صلى الله عليه وسلم فيما مضى عبادة كانت أولاً بل كانوا يعظمونه ويلقبونه بالأمين إنما كان المنكر ما كان عليه بعد النبوة فلذلك قيل ثانياً ولا أنتم عابدون ما أعبد إذ لو قيل ما عبدت لم يطابق المقام وفيه أن ما كانوا يتوهمونه من موافقته عليه الصلاة والسلام قبل النبوة لم يكن صحيحاً بل إنما كان ذلك لأنه لم يكن صلى الله عليه وسلم مأموراً بالدعوة انتهى فتدبره وزعم بعضهم أن تغاير الأساليب في هذه السورة لتغاير أحوال الفريقين وليس بشيء وفي تكليف مثل هؤلاء المخاطبين بما ذكر على القول بإفادته الاستمرار على الكفر بالإيمان بحث مذكور في كتب الأصول إن أردته فارجع إليه وسيأتي إن شاء الله تعالى في سورة تبت إشارة ما إلى ذلك وقوله تعالى :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ هو عند الأكثرين تقرير لقوله تعالى : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون : 2] وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ كما أن قوله تعالى : ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ عندهم تقرير لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 3] والمعنى أن دينكم وهو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول كما تطمعون فيه فلا تعلقوا به أمانيكم الفارغة فإن ذلك من المحالات وأن ديني الذي هو التوحيد

مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم أيضاً لأن الله تعالى قد ختم على قلوبكم لسوء استعدادكم أو لأنكم علقتموه بالمحال الذي هو عبادتي لآلهتكم أو استلامي لها أو لأن ما وعدتموه عين الإشراك وحيث إن مقصودهم شركة الفريقين في كلتا العبادتين كان القصر المستفاد من تقديم المسند قصر إفراد حتماً وجوز أن يكون هذا تقريراً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ والآية على ما ذكر محكمة غير منسوخة كما لا يخفى أو المراد التاركة على معنى أني نبي مبعوث إليكم لأدعوكم إلى الحق والنجاة فإذا لم تقبلوا مني ولم تتبعوني فدعوني كفافاً ولا تدعوني إلى الشرك فهي على هذا كما قال غير واحد منسوخة بآية السيف وفسر الدين بالحساب أي لكم حسابكم ولي حسابي لا يرجع إلى كل منا من عمل صاحبه أثر وبالجزاء أي لكم جزاؤكم ولي جزائي قيل والكلام على الوجهين استئناف بياني كأنه قيل فما يكون إذا بقينا على عبادة آلهتنا وإذا بقيت على عبادة إلهك فقيل لكم الخ والمراد يكون لهم الشر ويكون له عليه الصلاة والسلام الخير لكن أتى باللام في لكم للمشاكلة وعليه لا نسخ أيضاً ويحتمل أن يكون المراد غير ذلك مما تكون عليه الآية منسوخة ولعله لا يخفى وقد يفسر الدين بالحال كما هو أحد معانيه حسبما ذكره القالي في أماليه وغيره أي لكم حالكم اللائق بكم الذي يقتضيه سوء استعدادكم ولي حالي اللائق بي

الذي يقتضيه حسن استعدادي والجملة عليه كالتعليل لما تضمنه الكلام السابق فلا نسخ والأولى أن تفسر بما لا تكون عليه منسوخة لأن النسخ خلاف الظاهر فلا يصار إليه إلا عند الضرورة وللإمام الرازي أوجه في تفسيرها لا يخلو بعضها عن نظر وذكر عليه الرحمة أنه جرت العادة بأن الناس يتمثلون بهذه الآية عند المتاركة وذلك لا يجوز لأن القرآن ما أنزل ليتمثل به بل ليهتدي به وفيه ميل إلى سد باب الاقتباس والصحيح جوازه فقد وقع في كلامه عليه الصلاة والسلام وكلام كثير من الصحابة والأئمة والتابعين وللجلال السيوطي رسالة وافية كافية في إزالة الالتباس عن وجه جواز الاقتباس عن وجه جوازاً الاقتباس وما ذكر من الدليل فأظهر من أن ينبه على ضعفه وقرأ سلامخ ويعقوب ديني بياء وصلاً ووقفاً وحذفها القراء السبعة والله تعالى أعلم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(119/835)

وقال الشوكانى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) ﴾

الألف، واللام في : ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ للجنس، ولكنها لما كانت الآية خطاباً لمن

سبق في علم الله أنه يموت على كفره كان المراد بهذا العموم خصوص من كان كذلك ؛ لأن من الكفار عند نزول هذه الآية من أسلم وعبد الله سبحانه .

وسبب نزول هذه السورة أن الكفار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، فأمره الله سبحانه أن يقول لهم : ﴿ لَاأَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي : لا أفعل ما تطلبون مني من عبادة ما تعبدون من الأصنام .

قيل : والمراد فيما يستقبل من الزمان ؛ لأن "لا" النافية لا تدخل في الغالب إلاّ على المضارع الذي في معنى الاستقبال ، كما أن "ما" لا تدخل إلاّ على مضارع في معنى الحال .

﴿ وَلَاأَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ أي : ولا أنتم فاعلون في المستقبل ما أطلب منكم من عبادة إلهي .

﴿ وَلَاأَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أي : ولا أنا قط فيما سلف عابد ما عبدتم فيه ، والمعنى : أنه لم يعهد مني ذلك .

﴿ وَلَاأَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ أي : وما عبدتم في وقت من الأوقات ما أنا على عبادته ، كذا قيل ، وهذا عل قول من قال إنه لا تكرار في هذه الآيات ؛ لأن الجملة الأولى لنفي العبادة في المستقبل لما قدّمنا من أن "لا" لا تدخل إلاّ على مضارع في معنى الاستقبال ، والدليل على ذلك أن "لن" تأكيد لما تنفيه "لا" .

قال الخليل في "لن" : إن أصله "لا" ، فالمعنى : لا أعبد ما تعبدون في المستقبل ، ولا أنتم

عابدون في المستقبل ما أطلبه من عبادة إلهي .

ثم قال : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أي : ولست في الحال بعابد معبودكم ، ولا أنتم في الحال بعابدين معبودي .

(120/835)

وقيل : بعكس هذا ، وهو أن الجملتين الأوليين للحال ، والجملتين الأخريين للاستقبال بدليل قوله : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ كما لو قال القائل : أنا ضارب زيداً ، وأنا قاتل عمراً ، فإنه لا يفهم منه إلاّ الاستقبال .

قال الأخفش ، والفرّاء : المعنى لا أعبد الساعة ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد ، ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد .

قال الزجاج : نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه السورة عبادة آلهتهم عن نفسه في الحال وفيما يستقبل ، ونفى عنهم عبادة الله في الحال وفيما يستقبل .

وقيل : إن كل واحد منهما يصلح للحال ، والاستقبال ، ولكنا نخص أحدهما بالحال ، والثاني بالاستقبال رفعاً للتكرار .

وكل هذا فيه من التكلف والتعسف ما لا يخفى على منصف ، فإن جعل قوله : ولا ﴿

أعبد ما تعبدون ﴾ للاستقبال ، وإن كان صحيحاً على مقتضى اللغة العربية ، ولكنه لا يتمّ جعل قوله : ﴿ وَلَا أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ للاستقبال ؛ لأن الجملة اسمية تفيد الدوام ، والثبات في كل الأوقات ، فدخول النفي عليها يرفع ما دلت عليه من الدوام ، والثبات في كل الأوقات ، ولو كان حملها على الاستقبال صحيحاً للزم مثله في قوله : ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ وفي قوله : ﴿ وَلَا أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ فلا يتمّ ما قيل من حمل الجملتين الأخريين على الحال ، وكما يندفع هذا يندفع ما قيل من العكس ، لأن الجملة الثانية ، والثالثة ، والرابعة كلها جمل اسمية مصدرة بالضمائر التي هي المبتدأ في كل واحد منها مخبر عنها باسم الفاعل العامل فيما بعده منفية كلها بحرف واحد ، وهو لفظ لا في كل واحد منها ، فكيف يصح القول مع هذا الاتحاد بأن معانيها في الحال والاستقبال مختلفة .

وأما قول من قال : إن كل واحد منها يصلح للحال والاستقبال ، فهو إقرار منه بالتكرار ؛ لأن حمل هذا على معنى ، وحمل هذا على معنى مع الاتحاد يكون من باب التحكم الذي لا يدلّ عليه دليل .

وإذا تقرّر لك هذا ، فاعلم أن القرآن نزل بلسان العرب ، ومن مذاهبهم التي لا تجحد ،

واستعمالاتهم التي لا تنكر أنهم إذا أرادوا التأكيد كرّروا ؛ كما أن مذاهبهم أنهم إذا أرادوا الاختصار أوجزوا ، هذا معلوم لكل من له علم بلغة العرب ، وهذا مما لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه ؛ لأنه إنما يستدل على ما فيه خفاء ، ويبرهن على ما هو متنازع فيه .

وأما ما كان من الوضوح ، والظهور والجلاء بحيث لا يشك فيه شاك ، ولا يرتاب فيه مرتاب ، فهو مستغن عن التطويل غير محتاج إلى تكثير القال والقيل .

وقد وقع في القرآن من هذا ما يعلمه كل من يتلو القرآن ، وربما يكثر في بعض السور ، كما في سورة الرحمن ، وسورة المرسلات ، وفي أشعار العرب من هذا ما لا يأتي عليه الحصر ،

ومن ذلك قول الشاعر :

يا لبكر انشروا لي كليبا . . . يا لبكر أين أين الفرار

وقول الآخر :

هلا سألت جموع كن . . . دة يوم ولوا أين أينا

وقول الآخر :

يا علقمة يا علقمة يا علقمه . . . خير تميم كلها وأكرمه

وقول الآخر :

ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى . . . ثلاث تحيات وإن لم تكلم

وقول الآخر :

يا جعفر يا جعفر يا جعفر . . . إن أك دحداحاً فأنت أقصر

وقول الآخر :

أتاك أتاك اللاحقون احبس احبس . . . وقد ثبت عن الصادق المصدوق ، وهو أفصح من نطق بلغة العرب أنه كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاث مرات ، وإذا عرفت هذا ، ففائدة ما وقع في السورة من التأكيد هو قطع أطماع الكفار عن أن يجيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ما سألوه من عبادته آلهتهم ، وإنما عبر سبحانه بما التي لغير العقلاء في المواضع الأربعة ؛ لأنه يجوز ذلك كما في قوله : سبحان ما سخركن لنا ، ونحوه ، والنكتة في ذلك أن يجري الكلام على نمط واحد ، ولا يختلف .

وقيل : إنه أراد الصفة كأنه قال : لا أعبد الباطل ، ولا تعبدون الحق .

وقيل : إن "ما" في المواضع الأربعة هي : المصدرية لا الموصولة ، أي : لا أعبد عبادتكم ، ولا أنتم عابدون عبادتي إلخ ، وجملة : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ مستأنفة ؛ لتقرير قوله : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ .

كما أن قوله : ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ تقرير لقوله : ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ في الموضعين ،

أي : إن رضيتم بدينكم ، فقد رضيت بديني ، كما في قوله : ﴿ لَنَا أعمالنا وَلَكُمْ أعمالكم ﴾ [الشورى : 15] والمعنى : أن دينكم الذي هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه إلى الحصول لي ، كما تطمعون .

وديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لي لا يتجاوزه إلى الحصول لكم .

وقيل المعنى : لكم جزاؤكم ولي جزائي ؛ لأن الدين الجزاء .

قيل : وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

وقيل : ليست بمنسوخة ؛ لأنها أخبار ، والأخبار لا يدخلها النسخ .

قرأ الجمهور بإسكان الياء من قوله : ﴿ ولي ﴾ وقرأ نافع ، وهشام ، وحفص ، والبزي بفتحها .

وقرأ الجمهور أيضاً بحذف الياء من ديني وقفاً ووصلاً ، وأثبتها نصر بن عاصم ، وسلام ، ويعقوب ، وصلاً ووقفاً .

قالوا : لأنها اسم ، فلا تحذف .

ويجاب بأن حذفها لرعاية الفواصل سائغ ، وإن كانت اسماً .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني عن ابن عباس : "أن قريشاً دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ، ويزوّجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد ، وكفّ عن شتم آلهتنا ، ولا تذكرها بسوء ، فإن لم تفعل ، فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ، ولك فيها صلاح ، قال : ما هي ؟ قالوا : تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، قال : حتى أنظر ما يأتيني من ربي ، فجاء الوحي من عند الله : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ إلى آخر السورة ، وأنزل الله : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ الله تَأْمُرُونّى أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهلون ﴾ إلى قوله : ﴿ بَلِ الله فاعبد وَكُن مّنَ الشاكرين ﴾ [الزمر : 64- 66] .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في المصاحف عن سعيد بن مينا مولى أبي البختري قال : "لقي الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب ، وأمية بن خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا محمد هلمّ ، فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، ونشترك نحن ، وأنت في أمرنا كله ، فإن كان الذي نحن عليه أصحّ من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً ، وإن كان الذي أنت عليه أصحّ من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس أن قريشاً قالت : لو

استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك ، فأنزل الله : ﴿ قُلْ يأَيّهَا الكافرون ﴾ السورة كلها . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 505.508 ﴾

(124/835)

وقال القاسمي :

سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾

أي : المشركون الجاحدون للحق ، الذي وضحت حجتهُ واتضحت محجتهُ .

﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي : من الآلهة والأوثان الآن .

﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أي : الآن .

﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ ﴾ أي : فيما أستقبل ﴿ مَّا عَبَدتّمْ ﴾ أي : فيما مضى .

(125/835)

﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ ﴾ أي: فيما تستقبلون أبداً ﴿ مَا أَعْبُدُ ﴾ أي: فيما أستقبل ﴿ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أي: الآن وفيما أستقبل، هكذا فسره الإمام ابن جرير رحمه الله، ثم قال: وإنما قيل ذلك كذلك، لأن الخطاب من الله كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أشخاص بأعيانهم من المشركين، قد علم أنهم لا يؤمنون أبداً، وسبق لهم ذلك في السابق من علمه، فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يؤيسهم من الذين طمعوا فيه وحدّثوا به أنفسهم. وإن ذلك الغير كائن منه ولا منهم في وقت من الأوقات. وآيس نبي الله صلى الله عليه وسلم مع الطمع في إيمانهم، ومن أن يفلحوا أبداً، فكانوا كذلك لم يفلحوا ولم ينجحوا، إلى أن قتل بعضهم يوم بدر بالسيف، وهلك بعضٌ قبل ذلك كافراً. ثم روى رحمه الله عن ابن إسحاق عن سعيد بن مينا قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد! هلم، فلنعبد ما تعبد وتعبدَ ما نعبد، ونشركك في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يديك كنت قد شركتنا في أمرنا واخذ منه بحظك؛ فأنزل الله ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ السورة، وفي رواية: وأنزل الله في ذلك هذه السورة، وقوله: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر: 64 – 66]، انتهى.

وقيل : الجملتان الأخيرتان لنفي العبادة حالاً كما أن الأوليين لنفسها استقبالاً ، قال أبو السعود : وإنما لم يقل : ما عبدتُ ؛ ليوافق ما عَبَدتُّم ؛ لأنهم كانوا موسومين قبل البعثة بعبادة الأصنام وهو عليه السلام لم يكن حينئذ موسوماً بعبادة الله تعالى . وإيثار ما في ﴿ مَا أَعْبُدُ ﴾ على من ؛ لأن المراد هو الوصف ، كأنه قيل :

﴿ مَا أَعْبُدُ ﴾ من المعبود العظيم الشأن الذي لا يقادر قدر عظمته . وقيل : أن ﴿ مَا ﴾ مصدرية ، أي : لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي . وقيل : الأوليان بمعنى الذي ، والأخريان مصدريتان .

وقيل : قوله تعالى : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ تأكيد لقوله تعالى : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ثانياً تأكيداً لمثله المذكور أولاً . انتهى .

ونقل ابن كثير عن الإمام ابن تيمية أن المراد بقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ نفي الفعل ، لأنها جملة فعلية ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ نفي قبوله لذلك بالكلية ، لأن النفي بالجملة الاسمية آكد ، فكأنه نفى الفعل وكونه قابلاً لذلك ، ومعناه نفي الوقوع ونفي الإمكان الشرعي أيضاً ، وهو قول حسن .

واختار الإمام كون ﴿ مَّا ﴾ في الأولين موصولة وفيما بعدها مصدرية، قال: فمفاد الجملتين الأولين الاختلاف التام في المعبود، ومفاد الجملتين الأخريين تمام الاختلاف في العبادة، فلا معبودنا واحد ولا عبادتنا واحدة؛ لأن معبودي ذلك الإله الواحد المنزه عن الند والشفيع، المتعالي عن الظهور في شخص معين، الباسط فضلَه لكل من أخلص له، الآخذ قهره بناصية كل من نابذ المبلغين الصادقين عنه، والذي تعبدونه على خلاف ذلك . وعبادتي مخلصة لله وحده، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة عن الله تعالى؛ فلا تسمى على الحقيقة عبادة . فأين هي من عبادتي ؟ وقوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ كما أن قوله تعالى: ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ تقرير لقوله تعالى: ﴿ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ والمعنى أن دينكم الذي هو الإشراك مقصورٌ على الحصول لكم، لا يتجاوزه إلى الحصول لي أيضاً، كما تطمعون فيه؛ فإن ذلك من المحالات، وأن ديني الذي هو التوحيد، مقصور على الحصول لي، لا يتجاوزه إلى الحصول لكم، فلا مشاركة بينه وبين ما أنتم عليه .

تنبيه :

قال ابن كثير استدل الإمام الشافعيّ وغيره بهذه الآية الكريمة ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ على أن الكفر كلُّه ملة واحدة فورّث اليهود من النصارى وبالعكس ، إذا كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ؛ لأن الأديان – ما عدا الإسلام – كلها كالشيء الواحد في البطلان .

وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود ، وبالعكس ؛ لحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم < لا يتوارث أهل ملتين شتَّى > . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 494. 497 ﴾

(128/835)

وقال الشيخ المراغى :

سورة الكافرون

هى مكية ، وآياتها ستّ ، نزلت بعد سورة الماعون .

ومناسبتها لما قبلها – أنه فى السورة السابقة أمر رسوله صلى اللّه عليه وسلم بعبادته ، والشكر له على نعمه الكثيرة ، بإخلاص العبادة له ، وفى هذه السورة التصريح بما أشير إليه فيما سلف .

أسباب نزول السورة

روى أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي والأسود بن عبد المطلب وأمية بن خلف فى جماعة آخرين من صناديد قريش وساداتهم أتوا النبي صلى اللّه عليه وسلم فقالوا له : هلمّ يا محمد فاتبع ديننا ونتبع دينك ، ونشركك فى أمرنا كله . تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيرا كنا قد شركناك فيه ، وأخذنا حظا منه ، وإن كان الذي بأيدينا خيرا كنت قد شركتنا فى أمرنا ، وأخذت حظك منه ، فقال : معاذ اللّه أن نشرك به غيره ، وأنزل اللّه ردا على هؤلاء هذه السورة فغدا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش ، فقام على رءوسهم ، ثم قرأ عليهم حتى فرغ من السورة ، فأيسوا منه عند ذلك ، وطفقوا يؤذونه ويؤذون أصحابه حتى كانت الهجرة .

[سورة الكافرون (109) : الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (1) ﴾

الإيضاح

(قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ. لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ) أي قل لهم: إن الإله الذي تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذي أعبده، لأنكم تعبدون من يتخذ الشفعاء أو الولد، أو يتجلى فى شخص أو يتجلى فى صورة معينة أو نحو ذلك مما تزعمون، وأنا أعبد إلها لا مثيل له ولا ندّ، وليس له ولد ولا صاحبة، ولا يحل فى جسم، ولا تدرك

كنهه العقول، ولا تحويه الأمكنة، ولا تمر به الأزمنة، ولا يتقرّب إليه بالشفعاء، ولا تقدم إليه الوسائل.

وعلى الجملة فبين ما تعبدون وما أعبد، فارق عظيم، وبون شاسع، فأنتم تصفون معبودكم بصفات لا يجمل بمعبودى أن يتصف بها.

(وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ) أي إنكم لستم بعابدين إلهى الذي أدعو إليه لمخالفة صفاته لإلهكم، فلا يمكن التوفيق بينهما بحال.

وبعد أن نفى الاختلاف فى المعبود نفى الاختلاف فى العبادة، من قبل أنهم كانوا يظنون أن عبادتهم التي يؤدونها أمام شفعائهم. أو فى المعابد التي أقاموها لها أو فى خلواتهم وهم على اعتقادهم بالشفعاء عبادة خالصة للّه، وأن النبي صلى اللّه عليه وسلم لا يفضلهم فى شىء فقال:

(وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ. وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ) أي ولا أنا بعابد عبادتكم ولا أنتم عابدون عبادتى قاله أبو مسلم الأصفهانى.

وخلاصة ما سلف – الاختلاف التامّ فى المعبود ، والاختلاف البيّن فى العبادة فلا معبودنا واحد ، ولا عبادتنا واحدة ، لأن معبودى منزه عن الندّ والنظير ، متعال عن الظهور فى شخص معين ، وعن المحاباة لشعب أو واحد بعينه ، والذي تعبدونه أنتم على خلاف ذلك .

(130/835)

كما أن عبادتى خالصة للّه وحده ، وعبادتكم مشوبة بالشرك ، مصحوبة بالغفلة عن اللّه تعالى ، فلا تسمى على الحقيقة عبادة .

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) أي لكم جزاؤكم على أعمالكم ولى جزائى على عملى كما جاء فى قوله تعالى : «لَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ» .

وصل ربنا على محمد الذي جعل الدين لك خالصا ، وعلى آله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير المراغى حـ 30 صـ 255.256﴾

(131/835)

وقال الشيخ : دروزة :

سورة الكافرون

في السورة أمر للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم بإعلان الكفار أنه لا يعبد ما يعبدون ، ولهم إذا شاءوا أن يظلوا على ما هم عليه فلا يعبدون ما يعبد ، ولكل من الفريقين دينه ، وقد تضمنت مبدأ حرية التدين الذي ظلت الآيات القرآنية تقرره في المكي منها والمدني .

ولقد روى الترمذي عن أنس عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «من قرأ إذا زلزلت عدلت له بنصف القرآن ومن قرأ قل يا أيها الكافرون عدلت له بربع القرآن ومن قرأ قل هو اللّه أحد عدلت له بثلث القرآن» «1» . وروى الترمذي عن أنس أيضا : «أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال لرجل من أصحابه هل تزوّجت يا فلان قال لا واللّه يا رسول اللّه ولا عندي ما أتزوّج به ، قال : أليس معك قل هو اللّه أحد ، قال : بلى ، قال : ثلث القرآن ، قال : أليس معك إذا جاء نصر اللّه والفتح ، قال : بلى ، قال : ربع القرآن ، قال : أليس معك قل يا أيها الكافرون ، قال : بلى ، قال : ربع القرآن . قال : أليس معك إذا زلزلت ، قال : بلى ، قال : ربع القرآن ، تزوّج تزوّج» «2» .

ومن الحكمة الملموحة في الحديثين التنويه والترغيب والتيسير ، واللّه تعالى أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الكافرون (109) : الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (1) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (2) وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (3) وَلا أَنا

عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ (4)

وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

---

(1) التاج 4 ص 21 .

(2) المصدر نفسه .

في الآيات أمر للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم بأن يعلن جاحدي رسالته بخطته بالنسبة لدينهم وعبادتهم . وبأن لهم إذا شاءوا أن يسيروا على نفس الخطة فهو يعبد غير ما يعبدون . ويخضع لغير ما يخضعون ، ويتجه إلى غير ما يتجهون . وهو مسؤول عن تبعة موقفه ، وهم مسؤولون عن تبعة موقفهم ، ولكل من الفريقين دينه الذي ارتضاه لنفسه .

وقد روي أن السورة نزلت بمناسبة مراجعة بعض زعماء قريش للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وطلبهم التشارك في عبادة الآلهة ، فيصلي إلى آلهتهم ويصلون إلى إلهه ، ويحترم آلهتهم

ويحترمون إلهه إلى أن يتحقق الفريقان أيّ الدينين خير فيتبعونه «1» .

والرواية محتملة الصحة على ما تلهمه روح الآيات ، ويؤيدها آية سورة القلم : وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (9) التي مر تفسيرها قبل في سياق السورة المذكورة .

على أن من المحتمل أيضا أن تكون نزلت بمناسبة موقف حجاجي بين النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والكفار ، ظل هؤلاء معاندين مكابرين فيه فنزلت لإنهاء الموقف . وقد تكرر مثل ذلك في مواقف ومناسبات مماثلة كما جاء في آية سورة يونس هذه :

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41) وفي آية سورة يونس هذه أيضا : قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108) وفي آية سورة الكهف هذه : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ [29] وفي آيات سورة سبأ هذه : قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ

---

(1) انظر تفسيرها في تفسير الطبري وابن كثير والطبرسي وغيرهم .

السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (24) قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (25) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (26) .

وقد يفسر هذا التوجيه أسلوب السورة من حيث خلوه من الحملة على عبادة الكفار الضالة. ولعلها استهدفت فيما استهدفته درء الأذى عن المسلمين المستضعفين الذين كان زعماء الكفار ينالونهم به وخاصة في أوائل عهد الدعوة حيث تدعوهم إلى الإنصاف، فإن كانوا يريدون أن يثبتوا على دينهم ويرون ذلك من حقهم فعليهم أن يحترموا هذا للمسلمين أيضا .

مبدأ حرية التدين في النظام الإسلامي

ومع خصوصية الخطاب وزمنيته فالمتبادر أن السورة تضمنت مبدأ قرآنيا جليلا منذ عهد مبكر من الدعوة، في تقرير حرية التدين والعبادة والدعوة إلى احترامها واستشعار الناس بشعور الإنصاف والعدل فيما بينهم في صددها ، باعتبار هذه المسألة مسألة وجدان ويقين وطمأنينة قلب وروح وانشراح صدر ، لا يجوز أن تكون معرضة لأي تأثير أو تابعة لأي اعتبار .

ومن الجدير بالذكر أن هذا المبدأ لم يقرر في هذه السورة فحسب أو في العهد المكي الذي كان فيه النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ضعيفا والمسلمون قلة مستضعفة، بل قررته آيات

القرآن المكي في مختلف أدوار التنزيل مرات كثيرة وبأساليب متنوعة، كما يفهم من الآيات التي أوردناها آنفا ومن آيات سورة النمل هذه: إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (92) ومن آيات سورة الأنبياء هذه: قُلْ إِنَّما يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (108) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلى سَواءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ ما تُوعَدُونَ (109) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ ما تَكْتُمُونَ (110) وَإِنْ

(134/835)

أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتاعٌ إِلى حِينٍ (111)

ثم قررته آيات عديدة من القرآن المدني في مختلف أدوار التنزيل كذلك كما يفهم من آية سورة البقرة هذه: لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى لَا انْفِصامَ لَها وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256) وآية سورة آل عمران هذه: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

(64) وآية سورة آل عمران هذه : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20) وآية سورة النساء هذه : إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90) وآية سورة المائدة هذه : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (19) وآيات سورة التوبة هذه : إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4) وإِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (7) وآيات سورة الممتحنة هذه : لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) وهكذا يكون هذا المبدأ من المبادئ المحكمة . وفي هذا ما فيه من بليغ التلقين وبعد المدى ومؤيدات الخلود للإسلام ومبادئه .

ولقد يرد أنه ورد في القرآن آيات كثيرة تدل على أن كفار العرب لم يكونوا ينكرون ربوبية الله

ولم يكونوا منصرفين عن عبادته ودعائه بالمرة مثل ما جاء في آية سورة الزخرف هذه : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87) وفي آية

(135/835)

سورة لقمان هذه : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (25) ، وإن في هذا ما يتناقض مع مضمون السورة . ومع أن الشق الأول صحيح فليس هناك من تناقض . فقد كانوا يشركون مع اللّه غيره ويتخذون الأصنام رموزا لشركائهم فيسجدون لها ويقربون القرابين عندها ، وكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات اللّه ويعبدونهم ويدعونهم ولو ليكونوا شفعاءهم عند اللّه وفي هذا كفر صريح بحق اللّه وواجبه على خلقه وتناقض صريح بين ما يعبد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ويدعوا إليه وهو اللّه وحده لا شريك له ولا كفؤ له ولا ولد له وبين ما يعبدونه ويتجهون إليه ، وهذا هو المراد في آيات السورة كما هو المتبادر .

ونحن نعرف أنه يورد على هذا أقوال من جانب المسلمين وغير المسلمين على السواء . فإن كثيرا من علماء المسلمين ومفسري القرآن قالوا إن الآيات التي تأمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالاكتفاء بإنذار المشركين وهجرهم وتركهم وشأنهم وإعلانهم أنه ليس إلّا منذر لهم

وأنه ليس عليهم مسيطر ولا جبار أو التي تأمر بقتال المقاتلين للمسلمين منهم دون سواهم مما جاء في سور كثيرة مكية ومدنية مثل الآيات التالية في السور المكية :

1 - قُلْ يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ سورة يونس [108] .

2 - فَاصْدَعْ بِما تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ سورة الحجر [94] .

3 - وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ سورة النحل [127] .

4 - إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَها وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّما أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ سورة النمل [91 - 92] .

---

5 - وَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلًا سورة المزمل [10] .

6 - فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ سورة الغاشية [21 - 22] .

ومثل الآيات التالية في السور المدنية :

1 – وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ البقرة [190].

2 – وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ البقرة [193].

3 – لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ البقرة [256].

4 – إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا النساء [90].

وأمثالها الكثير في السور المكية والمدنية قد نسخت بآيات سورة التوبة هذه:

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (1) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (2) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (4) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ

وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5) التي تأمر بقتال المشركين بدون هوادة إلى أن

(137/835)

يسلموا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. ثم بآية سورة التوبة [36] التي جاء فيها: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً والتي ينعتها بعض العلماء والمفسرين بآية السيف. وقد فسر كثير من مفسري القرآن وعلمائهم كلمة فتنة الواردة في آية سورة البقرة هذه: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193) بمعنى الشرك وقالوا إنها توجب قتال المشركين حتى لا يبقى شرك ومشركون ويسود دين اللّه الإسلام. ومما قاله المفسرون في سياق تفسير آية البقرة لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ البقرة [256] إن هذه الآية منسوخة بالنسبة للعرب المشركين دون غير العرب. وإن العرب المشركين لا يقبل منهم إلّا الإسلام أو السيف وإن غير العرب يقبل منهم الجزية دون السيف.

وأما من ناحية غير المسلمين فإن كثيرا من المبشرين والمستشرقين قالوا إن محمدا صلّى اللّه عليه وسلّم لم يقف عند مبدأ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ الكافرون [6] إلّا في ظروف ضعفه، وإنه حالما قوي بعد الهجرة أخذ يقاتل الكفار ولم يكن يقبل من المشركين إلّا الإسلام ومن

الكتابيين إلّا الاستسلام والجزية . واستمر على ذلك إلى النهاية وكان يغري المسلمين بالغنائم .

وشرح الموضوع على وجهه الحق الذي يتبادر من نصوص القرآن ووقائع السيرة النبوية كفيل بالإجابة على الطرفين .

إن القتال في الإسلام إنما شرع للدفاع عن حرية الدعوة والمسلمين ومقابلة الأذى والعدوان والصدّ إلى أن تضمن الحرية والسلامة للمسلمين ، والحرية والانطلاق للدعوة ويمتنع الأذى والعدوان على المسلمين والإسلام ، وظل هذا المبدأ محكما إلى النهاية .

(138/835)

وأول آيات وردت في هذا الصدد آيات سورة الحج هذه : إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) . ثم نزلت آيات سورة البقرة هذه : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ

ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194) .

والأساس في هذه الآيات وتلك هو ذلك المبدأ ، وفيها صراحة أن المشركين كانوا يقاتلون المسلمين . وكانوا إلى هذا يفتنون المسلمين عن دينهم بالجبر والإكراه ويصدون عن سبيل اللّه ويعطلون سير الدعوة . ويضطرون المسلمين إلى الخروج من موطنهم مرغمين . وكل هذا سبب مشروع لقتالهم متسق مع ذلك المبدأ . وفي تأويل كلمة «الفتنة» بالشرك تجوّز كبير . فالفتنة هي إرغام المسلمين على الارتداد عن الإسلام الذي كان يمارسه زعماء المشركين في مكة ضد ضعفاء المسلمين . والدليل على ذلك آية سورة البروج هذه : إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) وآية سورة النحل هذه :

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (110) والكلمة في الآية الثانية من سلسلة آيات البقرة [190 - 194] والتي

هي في جملة وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ البقرة [191] تعني نفس الشيء حينما يتروى فيها .

ولا يصح في حال أن تؤول بالشرك . ونزول

(139/835)

آية : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ البقرة [193] دليل قوي بل حاسم على أن معنى الآية هو قتال المعتدين إلى أن ينتهوا عن موقف العدوان وفتنة المسلمين وتغدو حرية الدعوة وحرية المسلمين في دينهم ودمائهم وأموالهم وحقوقهم مضمونة . وقد جاء في سورة الأنفال آية مثلها تقريبا وهي : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) ولعل في مقطع هذه الآية الأخير قرينة أقوى على أن المقصد من جملة «فإن انتهوا» الانتهاء من موقف العدوان وفتنة المسلمين .

ومن الأدلة اليقينية على أن جملة فَإِنِ انْتَهَوْا الأنفال [93] في هذه الآية وفي آية سورة البقرة [193] ليست الانتهاء بالإسلام فقط وإن من الممكن أن يكون بوقف حالة الحرب بالصلح أيضا صلح الحديبية الذي جرى بين النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقريش في السنة الهجرية السادسة حيث أنهى هذا الصلح حالة الحرب ووقف القتال ضد قريش .

والآيتان نزلتا قبل هذا الصلح على الأرجح . ومما يسوغ تخمينه بقوة أن آية البقرة نزلت قبل وقعة بدر وآية الأنفال نزلت بعد هذه الوقعة على ما سوف نشرحه في مناسباتهما .

وفي سورة الإسراء آية فيها دليل حاسم على معنى كلمة الفتنة وهو الرد والارتداد والإرجاع وهي هذه : وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (73) .

وآيات سورة التوبة التي تعلن البراءة من المشركين وتأمر بقتالهم إلى أن يتوبوا ويؤمنوا ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة والتي أوردناها آنفا تخللها وجاء معها استثناءات تجعل ذلك الإعلان والأمر محصورا في المشركين المعتدين والناكثين لعهودهم كما جاء في عبارة إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَداً التوبة [4] وكما جاء في الآيات التالية التي هي جزء من السلسلة : وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ

مَأْمَنَهُ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْلَمُونَ (6) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ فَمَا اسْتَقامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

(7) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (8) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (9) لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (10) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (11) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (12) أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (13) .

وآيتا فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ في سلسلة آيات التوبة ليستا المخرج الوحيد كما قد يتبادر . فالآيات في جملتها تعني أنهم إن آمنوا فبها ونعمت ويصبحوا إخوانا للمسلمين ، ويهدر كل ما فعلوه معهم قبل . وإن لم يؤمنوا وحافظوا على عهدهم واستقاموا عليه فلا مانع . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في الدين فيقاتلون حتى ينتهوا من هذا الموقف العدواني .

وجملة وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً في آية التوبة [36] ليست منفردة . فإن لها تتمة وهي كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً التوبة [36] وهذه التتمة تزيل اللبس في الجملة وتعيد الأمر إلى أصله من وجوب قتال المشركين الذين يقاتلون المسلمين وتظهر مقدار ما في الاستناد إليها من تجوز كبير أيضا .

وفحوى القول إن آية سورة النساء [90] منسوخة تجوز كبير أيضا إزاء ما فيها من صراحة وحسم. ويدعم هذا آية في سورة الممتحنة التي نزلت قبيل الفتح المكي فيها مثل هذه الصراحة والحسم بل وأكثر حيث إنها تحض على البرّ والإقساط للذين لا يقاتلون المسلمين ولا يشتركون في إخراجهم من ديارهم وهي:

لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) وقد فند الطبري قول من قال إن هذه الآية منسوخة وقال إن برّ المؤمن لأهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غير محرم ولا منهي عنه أصلا إذا لم يكن في ذلك دلالة لهم على دعوة لأهل الإسلام أو تقوية لهم بكراع أو سلاح. وفي سورة البقرة آية أخرى تدعم ذلك وتدعم أو توضح مدى آية الممتحنة في الوقت نفسه وهي: لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ (272) وقد روى الطبري وغيره روايتين في نزولها واحدة تذكر أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان يمنع الصدقات عن فقراء المشركين وثانية أن المسلمين كانوا يمنعون صدقاتهم

عن المشركين من أقاربهم وأنسبائهم فنزلت الآية مؤذنة بأن النبي والمسلمين غير مسؤولين عن هداهم الذي هو في يد اللّه وأن الصدقات هي قربة من المتصدق للّه عن نفسه فلا مانع من إعطائهم منها على شركهم . . . وليس هناك أي قول فيما اطلعنا عليه بنسخ هذه الآية الرائعة في مداها الذي نحن في صدده .

ولقد حدث مرة سوء تفاهم بين قائد إحدى السرايا وبعض العرب الذين أظهروا الإسلام أو المسالمة ، فظن القائد أن ذلك خدعة ، وقتل بعضهم وأخذ ماشيتهم فغضب النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أشد الغضب ولم يلبث أن أوحى اللّه بآية قوية رائعة فيها عتاب على عدم قبول ظواهر الناس كما ترى فيها : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ كَذلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً سورة النساء [94] ، وفي آية سورة الأنفال هذه : وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61) أمر صريح بأن يسالم كل من جنح إلى المسالمة من الأعداء . وفي آيات سورة محمد هذه : الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ

أَعْمالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ (2) ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ (3) فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها

[4] آمر بقتال الكفار الصادّين عن سبيل اللّه إلى أن تخضد شوكتهم ثم يؤسر الباقون إلى أن يفتدوا أنفسهم أو يطلق سراحهم منّا دون إرغام على الإسلام لأن المقصود من القتال قد حصل.

ولم يرد أي خبر بأن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم رفض في أي وقت طلب صلح أو عهد أمان من أعداء محاربين، كما أنه لم يرد أي خبر بأنه قاتل أو أمر بقتال أناس مسالمين أو حياديين أو معتزلين. والذي يدرس وقائع الجهاد «1» يرى أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لم يبعث سرية ولم يباشر غزوة ولم يشتبك بقتال مع فئة إلّا ردا على عدوان أو انتقاما من عدوان أو دفعا لأذى أو تنكيلا بغادر أو تأديبا لباغ أو ثأرا لدم إسلامي أهدر أو ضمانة لحرية الدعوة والاستجابة إليها، أو بناء على نكث عهد أو بسبب مظاهرة لعدو أو تآمر معه على المسلمين.

وكل هذا متسق مع النصوص القرآنية التي لا يمكن أن يصدر منه ما ينقضها بطبيعة الحال.

وكل هذا ينطبق على وقائع القتال مع اليهود والنصارى الكتابيين أيضا . فكل عملية تأديب أو تنكيل أو غزوة ضد يهود يثرب والقرى اليهودية الأخرى في طريق الشام كانت ردا على عدوان أو مؤامرة ضد الإسلام والمسلمين «2» . وحملات مؤتة وتبوك كانت مقابلة على عدوان القبائل العربية النصرانية في طريق الشام والبلقاء

---

(1) انظر وقائع الجهاد وغزوات النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وسراياه في طبقات ابن سعد وسيرة ابن هشام وفي الجزء الثاني من الطبرسي .

(2) اقرأ الوقائع من الكتب الثلاثة السابقة الذكر وكتابنا القرآن واليهود .

على رسل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقوافل المسلمين «1» .

وآية التوبة هذه : قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ (29) تضمنت إشارة إلى ذلك وحصرت أمر القتال في الفئات التي لا تدين دين الحق ولا تحرم ما حرم اللّه ورسوله من الكتابيين دون سائرهم وحملات الفتح التي سيرها أبو بكر رضي اللّه عنه وما بعدها هي امتداد لهذه الحملات حيث كانت حالة الحرب التي نشأت

عن العدوان قائمة. ووصايا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم والخلفاء رضي اللّه عنهم لقواد هذه الحملات بألّا يقاتلوا إلّا من يقاتلهم وبأن يسالموا من يسالمهم وبأن يتركوا من لا يتعرض لهم ومن يعتزلهم وشأنه وأن لا يقتلوا النساء والصبيان معروفة مشهورة «2». ولو كان قتال كل كافر وكل مشرك مبدأ إسلاميا لاقتضى أن يقاتل كل كافر وكل مشرك مهما كانت حالته وسنه وموقفه وهذا لم يحصل إطلاقا لا في زمن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ولا في زمن خلفائه الراشدين رضي اللّه عنهم. وقتال أبي بكر للمرتدين وعدم قبوله منهم إلّا الإسلام والاستسلام حالة أخرى لأن الارتداد كان ضد الدولة الإسلامية والنظام الإسلامي في الدرجة الأولى «3».

---

(1) اقرأ الجزء الثاني من كتابنا سيرة النبي عليه السلام ص 161 وما بعدها وطبقات ابن سعد ج 3 ص 103 - 104 و174 - 178 و218 - 221.

(2) طبقات ابن سعد ج 3 ص 132 والطبرسي ج 2 ص 520 وما بعدها وأشهر مشاهير الإسلام ج 1 ص 66 وما بعدها. ولقد روى الإمام مالك في الموطأ عن يحيى بن سعيد أن أبا بكر قال ليزيد بن أبي سفيان حين بعثه على رأس جيش إلى الشام «إني موصيك بعشر لا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا تقطعن شجرا مثمرا ولا تخربن عامرا ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ولا تحرقن نخلا ولا تغلل ولا تجبن وإنك ستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم للّه فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له».

(3) انظر تفسير آية سورة البقرة [190] : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ في تفسير الخازن والطبرسي والزمخشري وتفسير آية سورة البقرة [193] : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ في تفسير الطبرسي والزمخشري وتفسير آيات سورة التوبة [1 - 13] في تفسير الخازن . ففي أقوال هؤلاء المفسرين في تفسير هذه الآيات نماذج لأقوال المفسرين وتأويلاتهم التي ذكرناها في مطلع البحث ، وانظر تفسير آية [190] : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وآية [193] : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ في تفسير المنار للسيد رشيد رضا ، فهو مطابق لما قلناه من عدم إساغته لتأويل الفتنة بالشرك وعدم إساغته لنسخ الاية الأولى . وعزا إلى الإمام محمد عبده أنه ردهما . ج 2 ص 209 الطبعة الأولى لسنة 1352 هـ - 1934 م .

(144/835)

وفي موطأ الإمام مالك حديث عن يحيى بن سعيد احتوى وصية أبي بكر ليزيد بن أبي سفيان حين بعثه على رأس جيش إلى الشام جاء فيها : «إني موصيك بعشر لا تقتلنّ امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرما ولا تقطعنّ شجرا مثمرا ولا تخربنّ عامرا ولا تعقرنّ شاة ولا بعيرا إلّا لمأكلة ولا تحرقنّ نخلا ولا تفرّقنّه ولا تغلل ولا تجبن . وإنك ستجد قوما زعموا أنهم

حبسوا أنفسهم للّه فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له» .

ويورد فيما يورد حديث صحيح جاء فيه : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا اللّه فمن قال لا إله إلّا اللّه فقد عصم مني نفسه وماله إلّا بحقّه وحسابه على اللّه» «1» .

ونكرر هنا ما قلناه تعليقا على هذا الحديث في سياق التعليق على (سبيل اللّه) والخطة القرآنية للدعوة إلى سبيل اللّه في سورة المزمل من أن ذلك يحمل على قصد قتال الذين يستحقون القتال حسب المبادئ التي قررها القرآن وليس قتل الكفار والمشركين بسبب كفرهم وحسب . لأنه لم يرد كما قلنا أي خبر عن قتال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لكفار ومشركين موادين ومسالمين ومحايدين وغير معتدين وغير متآمرين وغير ناقضين بشكل ما .

وهناك أحاديث صحيحة عديدة تدعم ما ذكرناه . منها حديث رواه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي عن بريدة قال : «كان النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم إذا أمّر أميرا على جيش أو سريّة أوصاه في خاصّته بتقوى اللّه ومن معه من المسلمين خيرا ثم قال اغزوا باسم اللّه في سبيل اللّه قاتلوا من كفر باللّه اغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا

---

(1) التاج ج 4 ص 326 . [. . . . .]

تمثلوا ولا تقتلوا وليدا وإذا لقيت عدوّك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيّتهنّ ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم. ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحوّلوا فأخبرهم أنّهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم اللّه الذي يجري على المؤمنين. ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلّا أن يجاهدوا مع المسلمين.

فإن أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم فإن هم أبوا فاستعن باللّه وقاتلهم» «1». وحديث رواه أبو داود عن أنس قال: «إن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال انطلقوا باسم اللّه وباللّه وعلى ملّة رسول اللّه ولا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا صغيرا ولا امرأة ولا تغلّوا وضمّوا غنائمكم وأصلحوا وأحسنوا إن اللّه يحبّ المحسنين» «2».

وحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن ابن عمر قال: «وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فنهى عن قتل النساء والصبيان. وسئل النبيّ عن أهل الدار يبيّتون من المشركين فيصاب من نسائهم وذراريّهم قال هم منهم» «3». وحديث رواه الترمذي والنسائي عن عطية القرظي قال: «عرضنا على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يوم قريظة فكان من أنبت قتل ومن لم ينبت خلّي سبيله فكنت ممّن لم ينبت فخلّي سبيلي» «4».

وفي الحديث الأول بخاصة نقض لما قاله بعض المفسرين في سياق جملة لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ في الآية [256] من سورة البقرة وذكرناه قبل من أن هذه

---

(1) التاج 4 ص 327 - 329 .

(2) المصدر نفسه .

(3) المصدر نفسه ، ص 333 والمتبادر أن جملة (هم منهم) بسبيل عذر من يقتل بعض النساء والأولاد في التبييت العام الذي لا يمكن التمييز فيه بين الكبار والصغار والرجال والنساء ويظل الأصل وهي النهي عن قتل النساء والصبيان محكما . ويوم قريظة هو يوم قتل النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يهود بني قريظة عقب وقعة الخندق مما سوف نشرحه في سياق سورة الأحزاب .

(4) المصدر نفسه .

(146/835)

الجملة منسوخة بالنسبة للمشركين من العرب ولا يقبل منهم غير الإسلام أو السيف .

فليس في القرآن على ضوء ما قدمناه ما ينسخ ذلك بالنسبة للمشركين العرب . وفي هذا الحديث الصحيح إجازة بقبول الجزية من الأعداء المشركين ومعظم الجيوش والسرايا التي

سيرها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كانت على الأعداء المشركين من العرب. بل وإن صلح الحديبية الذي أشرنا إليه دليل على جواز الصلح مع المشركين العرب بدون جزية إذا ما كان في ذلك من مصلحة المسلمين. وفي سورة الأنفال آية تأمر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالجنوح إلى السلم إذا جنح إليها الكفار الأعداء. وهي الآية [61] وهي مطلقة لا تشترط جزية ولا شرطا آخر، وفي هذا دليل على ما تقدم أيضا، واللّه تعالى أعلم. انتهى. ا هـ ﴿التفسير الحديث حـ 2 صـ 40.25﴾

(147/835)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب:

(109) سورة الكافرون

نزولها: مكية.. نزلت بعد سورة الماعون..

عدد آياتها: ست آيات..

عدد كلماتها: ثمان وعشرون كلمة..

عدد حروفها: أربعة وتسعون حرفا..

مناسبتها لما قبلها

الكوثر الذي أعطاه اللّه سبحانه وتعالى النبىّ صلوات اللّه وسلامه عليه. كان فى مقابله البتر والحرمان من كل خير لمن يشنأ هذا النبي، الذي وضع اللّه سبحانه وتعالى، الخير كله فى يده.. وهذا مجمل ما تحدثت عنه سورة «الكوثر» وفى سورة «الكافرون» التي تأتى بعد هذه السورة، موقف بين النبي. صلوات اللّه وسلامه عليه. وما أعطاه اللّه سبحانه من خير كثير، يفيض من النبع الأعظم، وهو الإيمان باللّه. وبين المشركين الذين عزلوا أنفسهم عن هذا الخير، وحرموا أن ينالوا شيئا منه.. وفى هذا الموقف يعلن النبي عن هذا الخير الذي من اللّه به عليه، وأنه ممسك به، مقيم عليه، لا يصرفه عنه شىء من هذه الدنيا..

فهو لا يعبد غير اللّه سبحانه وتعالى، ولا يتحول عن عبادته أبدا، ولا ينظر إلى شىء وراءه من مال وبنين!!

(148/835)

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الآيات: (1.6) [سورة الكافرون (109): الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (1)

التفسير:

كان مما يلقى به المشركون النبىّ لصرفه عن دعوته ـ أن يجمعوا له مالا، إن كان يريد مالا، حتى يكون أكثرهم مالا، وأوسعهم غنى، أو يقيموه رئيسا عليهم، إن كان يطمع فى الرياسة، أو يزوجوه أجمل بناتهم، وأكرمهم نسبا، إن كان يرغب فى ذلك.. فلما لم يلقوا من النبي الكريم إلا تساميا عن هذه المطالب الرخيصة، وإلا إعراضا عنها، وأنه لا يتحول عن الدّين الذي يدعو إليه، ولو وضعوا الشمس فى يمينه، والقمر فى يساره! ـ لمّا لم يجدوا استجابة من النبىّ فى ترك دعوته، جاءوه يعرضون عليه أن يخلطوا دينهم بدينه، وأن يجمعوا بينهما، فيعبدون هم ما يعبده النبىّ إلى جانب ما يعبدون ويعبد هو ما يعبد المشركون إلى جانب معبوده الذي يعبده فإن كان الذي جاء به خيرا مما معهم شاركوه فيه، وأخذوا حظهم منه، وإن كان الذي هم عليه خيرا مما جاء به شاركهم فيه، وأخذ حظه منه.. وبهذا تنقطع أسباب الشقاق، والعداوة، بينهم وبينه، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجاهِلُونَ» (64: الزمر)..

وهذا من ضلال القوم وسفه أحلامهم ، وسوء معتقدهم . . فإن الحق كلّ لا يتجزأ ، ولا يتبعّض . . فإما أن يكون ما يعبدون حقا ، وإذن فإنّ خلطه بشيء دخيل عليه يغيّر من صورته ، ويفسد حقيقته ، فلا يكون حقا ، ولا يكون باطلا ، وإنما هو حق وباطل معا . . وإما أن يكون باطلا ، وإذن فلم يمسكون به ، ويحرصون عليه ؟ . . وإن فى تفريطهم فى معتقدهم على هذا الوجه لدليلا على أنه معتقد فاسد ، وأنهم هم أنفسهم لا يجدون فيه ما يقيمهم منه على يقين به ، واطمئنان إليه ، وأنه من السهل الميسور عندهم أن يبيعوه بالثمن البخس لأول عارض يعرض لهم .

فالمخاطبون من قريش هنا هم الكافرون الذين حكم عليهم بالكفر حكما مؤبّدا ، وأنهم لن يؤمنوا أبدا ، ولهذا أخذوا هذا الوضع فى سورة خاصة بهم . .

قوله تعالى : « قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ » . .

الكافرون هنا ، هم المشركون من قريش . .

وقوله تعالى : « لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ » أي أنا لا أعبد المعبودات التي تعبدونها . إن لى معبودا لا أعبد سواه . .

وقوله تعالى : « وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ » أي وأنتم لا تعبدون الإله الذي أعبده أنا . . إن لكم آلهة تعبدونها ، غير الإله الذي أعبده . .

فهناك إذن اختلاف بعيد بينى وبينكم ، فى ذات المعبود الذي أعبده ، وذوات المعبودات

التي تعبدونها . هذا هو حالى وحالكم الآن . . وهذا هو الحكم فيما أعبد ، وفيما تعبدون . . وتلك حقيقة لا خلاف بيننا عليها . . أنا لا أعبد

(150/835)

معبوداتكم ، وأنتم لا تعبدون معبودى . .

وقوله تعالى : « وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ » . .

هو تعقيب على هذا الحكم العام المطلق ، وينبنى عليه : أننى لا أنا عابد ما عبدتم ، فى أي حال من أحوالى ، لا حاضرا ولا مستقبلا . . ولا أنتم عابدون فى المستقبل الإله الذي أعبده . . فأنا على ما أنا عليه من عبادة الإله الذي أعبده ، لا أتحول عن عبادته ، وأنتم على ما أنتم عليه من عبادة ما تعبدون من معبودات لا تتحولون عن عبادتها . .

وهذا يعنى أن الذين خوطبوا بهذا الخطاب من المشركين ، لم يدخلوا فى الإسلام ، ولم يؤمنوا باللّه ، بل ماتوا على شركهم . . وهذا ما يفهم من قوله تعالى : « قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ » ففى وصف المشركين بالكفر إشارة إلى أنهم من الذين استبدّ بهم العناد ، وركبهم الضلال ، فانتقلوا - بدعوة النبىّ لهم إلى الإيمان باللّه - انتقلوا من الشرك إلى الكفر الصريح . .

يقول الطّبرسى فى تفسيره : يريد (أي بالكافرين) قوما معينين ، لأن الألف واللام للعهد . .

والقرآن الكريم ، حين يلقى رءوس المشركين ، ومن غلبت عليه الشّقوة منهم ممن لا يدخلون فى دين اللّه أبدا ـ كان يخاطبهم بوصف الكافرين لا المشركين ، ومن ذلك قوله تعالى : « إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً . فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً » (15.17 الطارق) . .

ويقول سبحانه فى أحد رءوس هؤلاء المشركين : « أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالًا وَوَلَداً أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا » (77.79 مريم) . .

(151/835)

فهؤلاء المخاطبون بوصف الكفر من المشركين ، قد ماتوا على الكفر ، وسيلقون جزاء الكافرين فى الآخرة . . إنهم قبل دعوتهم إلى الإسلام كانوا مشركين ، فلما لم يستجيبوا لهذه الدعوة انتقلوا من الشرك إلى الكفر . . وكذلك أهل الكتاب ، كانوا قبل دعوة النبىّ لهم ضلّالا ، فلما دعاهم وأبوا أن يؤمنوا ، صاروا كفارا .

وقوله تعالى : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ » .

هو فصل الخطاب ، ومقطع الأمر فيما بين النبىّ ، وهؤلاء الكافرين . .

إن لهم دينهم الذي يدينون به ويحاسبون عليه ، وهو له دينه الذي يدين به ، ويلقى ربه عليه .

« وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ »

(41 : يونس) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1694 . 1698 ﴾

(152/835)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) ﴾

افتتاحها بـ ﴿ قلْ ﴾ للاهتمام بما بعد القول بأنه كلام يراد إبلاغه إلى الناس بوجه خاص منصوص فيه على أنه مرسل بقول يبلغه وإلا فإن القرآن كله مأمور بإبلاغه ، ولهذه الآية نظائر في القرآن مفتتحة بالأمر بالقول في غير جوابٍ عن سؤال منها : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء للَّه ﴾ في سورة الجمعة (6) .

والسور المفتتحة بالأمر بالقول خمس سور : ﴿ قل أوحي ﴾ [الجن : 1] ، وسورة الكافرون ، وسورة الإخلاص ، والمعوّذتان ، فالثلاث الأول لقول يبلِّغه ، والمعوّذتان لقول يقوله لتعويذ نفسه .

والنداء موجه إلى الأربعة الذين قالوا للنبيء صلى الله عليه وسلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما

نعبد ، كما في خبر سبب النزول وذلك الذي يقتضيه قوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ كما سيأتي .

وابتدىء خطابهم بالنداء لإبلاغهم ، لأن النداء يستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقى عليهم .

ونُودوا بوصف الكافرين تحقيراً لهم وتأييداً لوجه التبرؤ منهم وإيذاناً بأنه لا يخشاهم إذا ناداهم بما يَكرهون مما يثير غضبهم لأن الله كفاه إياهم وعصمه من أذاهم .

قال القرطبي : قال أبو بكر بن الأنباري : إن المعنى : قل للذين كفروا يا أيها الكافرون أن يعتمدهم في ناديهم فيقول لهم : يا أيها الكافرون ، وهم يغضبون من أن ينسبوا إلى الكفر .

فقوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ إخبار عن نفسه بما يحصل منها .

والمعنى : لا تحصل مني عبادتي ما تعبدون في أزمنة في المستقبل تحقيقاً لأن المضارع يحتمل الحال والاستقبال فإذا دخل عليه (لا) النافية أفادت انتفاءه في أزمنة المستقبل كما درج عليه في "الكشاف" ، وهو قول جمهور أهل العربية .

ومن أجل ذلك كان حرف (لَن) مفيداً تأكيد النفي في المستقبل زيادة على مطلق النفي ، ولذلك قال الخليل : أصل (لن) : لا أنْ ، فلما أفادت (لا) وحدها نفي المستقبل كان تقدير (أنْ) بعد (لا) مفيداً تأكيد ذلك النفي في المستقبل فمن أجل ذلك قالوا إن (لن) تفيد تأكيد النفي في المستقبل فعلمنا أن (لا) كانت مفيدة نفي الفعل في المستقبل .

وخالفهم ابن مالك كما في "مغني اللبيب" ، وأبو حيان كما قال في هذه السورة ، والسهيلي عند كلامه على نزول هذه السورة في "الروض الأنف" .

ونفي عبادته آلهتهم في المستقبل يفيد نفي أن يعبدها في الحال بدلالة فحوى الخطاب ، ولأنهم ما عرضوا عليه إلا أن يعبد آلهتهم بعد سنة مستقبلة .

ولذلك جاء في جانب نفي عبادتهم لله بنفي اسم الفاعل الذي هو حقيقة في الحال بقوله : ﴿ ولا أنتم عابدون ﴾ ، أي ما أنتم بمغيِّرين إشراككم الآن لأنهم عرضوا عليه أن يبتدِئوا هُم فيعبدوا الرب الذي يعبده النبي صلى الله عليه وسلم سنة .

وبهذا تعلم وجه المخالفة بين نظم الجملتين في أسلوب الاستعمال البليغ .

وهذا إخباره إياهم بأنه يعلم أنهم غير فاعلين ذلك من الآن بإنباء الله تعالى نبيئه صلى الله عليه وسلم بذلك فكان قوله هذا من دلائل نبوءته نظير قوله تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ [البقرة : 24] فإن أولئك النفر الأربعة لم يُسلم منهم أحد فماتوا على شركهم .

ومَا صدقُ ﴿ ما أعبد ﴾ هو الله تعالى وعبر بـ ﴿ ما ﴾ الموصولة لأنها موضوعة للعاقل

وغيره من المختار وإنما تختص (مَن) بالعاقل ، فلا مانع من إطلاق (ما) على العاقل إذا كان اللبس مأموناً .

وقال السهيلي في "الروض الأنف" : إن (ما) الموصولة يؤتى بها لقصد الإبهام لتفيد المبالغة في التفخيم كقول العرب : سبحان ما سَبَّح الرعد بحمده ، وقوله تعالى : ﴿ والسماء وما بناها ﴾ كما تقدم في سورة الشمس (5) .

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4)

(154/835)

عطف على ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ [الكافرون : 3] عطفَ الجملة على الجملة لمناسبة نفي أو يعبدوا الله فأردف بنفي أن يعبد هو آلهتهم ، وعطفُه بالواو صارف عن أن يكون المقصود به تأكيدَ ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ فجاء به على طريقة : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ بالجملة الإسمية .

للدلالة على الثبات ، وبكَون الخبر اسم فاعل دالاًّ على زمان الحال ، فلما نفَى عن نفسه أن يعبد في المستقبل ما يعبدونه بقوله : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ كما تقدم آنفاً ، صرح هنا بما تقتضيه دلالة الفحوى على نفي أن يعبد آلهتهم في الحال ، بما هو صريح الدلالة على ذلك

لأن المقام يقتضي مزيد البيان ، فاقتضى الاعتمادَ على دلالة المنطوق إطنابا ً في الكلام ، لتأييسهم مما راودوه عليه ولمقابلة كلامهم المردود بمثله في إفادة الثبات .

وحصل من ذلك تقرير المعنى السابق وتأكيده ، تبعاً لمدلول الجملة لا لموقعها ، لأن موقعها أنها عطف على جملة : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ وليست توكيداً لجملة : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ بمرادفها لأن التوكيد للفظ بالمرادف لا يعرف إلا في المفردات ولأن وجود الواو يُعيِّن أنها معطوفة إذ ليس في جملة : ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ واو حتى يكون الواو في هذه الجملة مؤكداً لها .

ولا يجوز الفصل بين الجملتين بالواو لأن الواو لا يفصل بها بين الجملتين في التوكيد اللفظي .

والأجود الفصل بـ (ثم) كما في "التسهيل" مقتصراً على (ثُم) .

وزاد الرضي الفَاء ولم يأت له بشاهد ولكنه قال : "وقد تكون (ثم) والفاء لمجرد التدرج في الارتقاء وإن لم يكن المعطوف مترتباً في الذكر على المعطوف عليه وذلك إذا تكرر الأول بلفظه نحو : بالله ، فالله ، ونحو واللّهِ ثم واللّهِ" .

وجيء بالفعل الماضي في قوله : ﴿ ما عبدتم ﴾ للدلالة على رسوخهم في عبادة الأصنام من أزمان مضت ، وفيه رمز إلى تنزهه صلى الله عليه وسلم من عبادة الأصنام من سالف الزمان وإلا لقال : ولا أنا عابد ما كُنا نعبد .

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (5)

عطف على جملة : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ [الكافرون : 4] لبيان تمام الاختلاف بين حاله وحالهم وإخبار بأنهم لا يعبدون الله إخباراً ثانياً تنبيهاً على أن الله أعلمه بأنهم لا يعبدون الله ، وتقويةً لدلالة هذين الإخبار على نبوءته صلى الله عليه وسلم فقد أخبر عنهم بذلك فمات أولئك كلهم على الكفر وكانت هذه السورة من دلائل النبوءة .

وقد حصل من ذكر هذه الجملة بمثل نظيرتها السابقة توكيد للجملة السابقة توكيداً للمعنى الأصلي منها ، وليس موقعها موقع التوكيد لوجود واو العطف كما علمت آنفاً في قوله : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ .

ولذلك فالواو في قوله هنا : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ عاطفة جملة على جملة لأجل ما اقتضته جملة : ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ من المناسبة .

ويجوز أن تكون جملة ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ تأكيداً لفظياً لنظيرتها السابقة بتمامها بما فيها من واو العطف في نظيرتها السابقة وتكون جملة : ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ﴾ معترضة بين التأكيد والمؤكد .

والمقصود من التأكيد تحقيق تكذيبهم في عَرضهم أنهم يعبدون رب محمد صلى الله عليه وسلم

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

تذييل وفذلكة للكلام السابق بما فيه من التأكيدات ، وقد أُرسل هذا الكلام إرسالَ المثل وهو أجمع وأوجز من قول قيس بن الخطيم :

نَحْن بما عندنا وأنتَ بما

عنْدك راض والرأي مختلف . . .

ووقع في "تفسير الفخر" هنا : "جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المتاركة وذلك غير جائز لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به بل ليتدبَّر فيه ثم يعمل بموجبه" اه .

وهذا كلام غير محرر لأن التمثل به لا ينافي العمل بموجبه وما التمثل به إلا من تمام بلاغته واستعداد للعمل به .

وهذا المقدار من التفسير تركه الفخر في المسودة .

وقدم في كلتا الجملتين المسندُ على المسند إليه ليفيد قصر المسند إليه على المسند ، أي

دينكم مقصور على الكون بأنه لكم لا يتجاوزكم إلى الكون لي ، وديني مقصور على الكون بأنه لا يتجاوزني إلى كونه لكم ، أي لأنهم محقق عدم إسلامهم .

فالقصر قصر إفراد ، واللام في الموضعين لشِبه الملك وهو الاختصاص أو الاستحقاق .

والدين : العقيدة والملة ، وهو معلومات وعقائد يعتقدها المرء فتجري أعماله على مقتضاها ، فلذلك سمي دِيناً لأن أصل معنى الدين المعاملة والجزاء .

وقرأ الجمهور ﴿ دين ﴾ بدون ياء بعد النون على أن ياء المتكلم محذوفة للتخفيف مع بَقاء الكسرة على النون .

وقرأه يعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف .

وقد كتبت هذه الكلمة في المصحف بدون ياء اعتماداً على حفظ الحفاظ لأن الذي يُثبت الياء مثل يعقوب يُشبع الكسرة إذ ليست الياء إلا مَدّة للكسرة فعدم رسمها في الخط لا يقتضي إسقاطها في اللفظ .

وقرأ نافع والبزي عن ابن كثير وهشام عن ابن عامر وحفص عن عاصم بفتح الياء من قوله : ﴿ ولي ﴾ .

وقرأه قنبل عن ابن كثير وابنُ ذكوان عن ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف بسكون الياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الكافرون

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (3) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (4)

لم يكن العرب يجحدون الله ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه . أحد . صمد . فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره , ولا يعبدونه حق عبادته . كانوا يشركون به هذه الأصنام التي يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء . أو يرمزون بها إلى الملائكة . . وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله , وأن بينه - سبحانه - وبين الجنة نسبا , أو ينسون هذا الرمز ويعبدون هذه الآلهة , وفي هذه الحالة أو تلك كانوا يتخذونها لتقربهم من الله كما حكى عنهم القرآن الكريم في سورة الزمر قولهم : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) . .

ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسماوات والأرض , وتسخيره للشمس والقمر , وإنزاله الماء من السماء كالذي جاء في سورة العنكبوت : (ولئن سألتهم

من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) . . (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) . . وفي إيمانهم كانوا يقولون : والله . وتالله . وفي دعائهم كانوا يقولون : اللهم . . الخ .

(158/835)

ولكنهم مع إيمانهم بالله كان هذا الشرك يفسد عليهم تصورهم كما كان يفسد عليهم تقاليدهم وشعائرهم , فيجعلون للآلهة المدعاة نصيبا في زرعهم وأنعامهم ونصيبا في أولادهم . حتى ليقتضي هذا النصيب أحيانا التضحية بأبنائهم . وفي هذا يقول القرآن الكريم عنهم في سورة الأنعام : وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا هذا لله - بزعمهم - وهذا لشركائنا . فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله . وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم . ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم , وليلبسوا عليهم دينهم , ولو شاء الله ما فعلوه , فذرهم وما يفترون . وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها , وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون , وقالوا : ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا , ومحرم على أزواجنا , وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء .

(سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم .
وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله . قد ضلوا وما كانوا مهتدين) .

وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم , وأنهم أهدى من أهل الكتاب , الذين كانوا يعيشون معهم في الجزيرة العربية , لأن اليهود كانوا يقولون : عزير ابن الله . والنصارى كانوا يقولون : عيسى ابن الله . بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله - بزعمهم - فكانوا يعدون أنفسهم أهدى . لأن نسبة الملائكة إلى الله ونسبة الجن كذلك أقرب من نسبة عزير وعيسى . . وكله شرك . وليس في الشرك خيار . ولكنهم هم كانوا يحسبون أنفسهم أهدى وأقوم طريقا !

(159/835)

فلما جاءهم محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول : إن دينه هو دين إبراهيم - عليه السلام - قالوا : نحن على دين إبراهيم فما حاجتنا إذن إلى ترك ما نحن عليه واتباع محمد ؟ ! وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) خطة وسطا بينهم وبينه ; وعرضوا عليه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا هم لإلهه ! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم , وله فيهم وعليهم ما يشترط !

ولعل اختلاط تصوراتهم , واعترافهم بالله مع عبادة آلهة أخرى معه . . لعل هذا كان يشعرهم أن المسافة بينهم وبين محمد قريبة , يمكن التفاهم عليها , بقسمة البلد بلدين , والالتقاء في منتصف الطريق , مع بعض الترضيات الشخصية !

ولحسم هذه الشبهة , وقطع الطريق على المحاولة , والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة , ومنهج ومنهج , وتصور وتصور , وطريق وطريق . . نزلت هذه السورة . بهذا الجزم . وبهذا التوكيد . وبهذا التكرار . لتنهي كل قول , وتقطع كل مساومة وتفرق نهائيا بين التوحيد والشرك , وتقيم المعالم واضحة , لا تقبل المساومة والجدل في قليل ولا كثير :

(قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون , ولا أنتم عابدون ما أعبد , ولا أنا عابد ما عبدتم , ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولي دين) .

نفي بعد نفي . وجزم بعد جزم . وتوكيد بعد توكيد . بكل أساليب النفي والجزم والتوكيد . .

(قل) . . فهو الأمر الإلهي الحاسم الموحي بأن أمر هذه العقيدة أمر الله وحده . ليس لمحمد فيه شيء . إنما هو الله الآمر الذي لا مرد لأمره , الحاكم الذي لا راد لحكمه .

قل يا أيها الكافرون . . ناداهم بحقيقتهم , ووصفهم بصفتهم . . إنهم ليسوا على دين , وليسوا بمؤمنين وإنما هم كافرون . فلا التقاء إذن بينك وبينهم في طريق . .

وهكذا يوحي مطلع السورة وافتتاح الخطاب , بحقيقة الانفصال الذي لا يرجى معه اتصال

!

(لا أعبد ما تعبدون) . . فعبادتي غير عبادتكم , ومعبودي غير معبودكم . .

(160/835)

(ولا أنتم عابدون ما أعبد)فعبادتكم غير عبادتي , ومعبودكم غير معبودي .

(ولا أنا عابد ما عبدتم) . . توكيد للفقرة الأولى في صيغة الجملة الإسمية وهي أدل على ثبات الصفة واستمرارها

.(ولا أنتم عابدون ما أعبد) . . تكرار لتوكيد الفقرة الثانية . كي لا تبقي مظنة ولا شبهة , ولا مجال لمظنة أو شبهة بعد هذا التوكيد المكرر بكل وسائل التكرار والتوكيد !

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ(5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ(6)

ثم إجمال لحقيقة الافتراق الذي لا التقاء فيه , والاختلاف الذي لا تشابه فيه , والانفصال الذي لا اتصال فيه , والتمييز الذي لا اختلاط فيه :

(لكم دينكم ولي دين) . . أنا هنا وأنتم هناك , ولا معبر ولا جسر ولا طريق ! ! !

مفاصلة كاملة شاملة , وتميز واضح دقيق . .

ولقد كانت هذه المفاصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهري الكامل , الذي

يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق . الاختلاف في جوهر الاعتقاد , وأصل التصور , وحقيقة المنهج , وطبيعة الطريق .

إن التوحيد منهج , والشرك منهج آخر . . ولا يلتقيان . . التوحيد منهج يتجه بالإنسان - مع الوجود كله - إلى الله وحده لا شريك له . ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان , عقيدته وشريعته , وقيمه وموازينه , وآدابه وأخلاقه , وتصوراته كلها عن الحياة وعن الوجود . هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله , الله وحده بلا شريك . ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس . غير متلبسة بالشرك في أية صورة من صوره الظاهرة والخفية . . وهي تسير . . .

وهذه المفاصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية . وضرورية للمدعوين . .

(161/835)

إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان , وبخاصة في الجماعات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها . وهذه الجماعات هي أعصى الجماعات على الإيمان في صورته المجردة من الغبش والالتواء والانحراف . أعصى من الجماعات التي لا تعرف العقيدة أصلا . ذلك أنها تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافاتها وتتلوى ! واختلاط

عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها , قد يغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد . . وهذا الإغراء في منتهى الخطورة !

إن الجاهلية جاهلية , والإسلام إسلام . والفارق بينهما بعيد . والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته . هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه .

وأول خطوة في الطريق هي تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية : تصورا ومنهجا وعملا . الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق . والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام .

لا ترقيع . ولا أنصاف حلول . ولا التقاء في منتصف الطريق . . مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام , أو ادعت هذا العنوان !

وتميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس . شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء . لهم دينهم وله دينه , لهم طريقهم وله طريقه . لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم . ووظيفته أن يسيرهم في طريقه هو , بلا مداهنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير !

وإلا فهي البراءة الكاملة , والمفاصلة التامة , والحسم الصريح . . (لكم دينكم ولي دين) .

.

(162/835)

وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم . . ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة جاهلية منحرفة , وفي أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة , ثم طال عليهم الأمد (فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) .

. وأنه ليس هناك أنصاف حلول , ولا التقاء في منتصف الطريق ,

ولا إصلاح عيوب , ولا ترقيع مناهج . . إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان , الدعوة بين الجاهلية . والتميز الكامل عن الجاهلية . . (لكم دينكم ولي دين) . .

وهذا هو ديني : التوحيد الخالص الذي يتلقى تصوراته وقيمه , وعقيدته وشريعته . . كلها من الله . . دون شريك . . كلها . . في كل نواحي الحياة والسلوك .

وبغير هذه المفاصلة . سيبقى الغبش وتبقى المداهنة ويبقى اللبس ويبقى الترقيع . . والدعوة إلى الإسلام لا تقوم على هذه الأسس المدخولة الواهنة الضعيفة . إنها لا تقوم إلا على الحسم والصراحة والشجاعة والوضوح . . .

وهذا هو طريق الدعوة الأول : (لكم دينكم ولي دين) . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3990.3993 ﴾

(163/835)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) ﴾

نداء للمشركين بمكة ، لما عرضوا عليه أن يترك دعوته ويملّكوه عليهم أو يعطوهم المال ما يرضيه ونحوه فرفض ، فقالوا : تقبل منا ما نعرضه عليك : تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فسكت عنهم فنزلت ، وقالوا له : إن يكن الخير معنا أصبته ، وإن يكن معك أصبناه .

وفي مجيء : قل ، مع أن مقول القول كان قد يكفي في البلاغ ، ولكن مجيئها لغاية فما هي ؟

قال الفخر الرازي : إما لأنهم عابوه صلى الله عليه وسلم في السورة التي قبلها بقولهم : إنه أبتر فجاء قوله : ﴿ قُلْ ﴾ ، إشعاراً بأن الله يرد عن رسوله بهذا الخطاب ، الذي ينادي عليهم في ناديهم بأثقل الأوصاف عليهم ، فقال له : ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ .

أو أنه لما كان هذا الخطاب فيه مغايرة المألوف من تخاطبه معهم من أسلوب الحكمة

والموعظة الحسنة، وكان فيه من التقريع لهم ومجابهتهم، قال له: قل: إشعاراً بأنه مبلغ عن الله ما أمر به، وجاءت يا، وهي لنداء البعيد، لبعدهم في الكفر والعناد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2)

قيل، تكرار في العبادات للتوكيد، كتكرار ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: 15]، وتكرار: ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: 13].

ونظيره في الشعر أكثر من أن يحصر، من ذلك ما أورده القرطبي رحمه الله:

هل لا سألت جموع كندة... يوم ولوا أين أينا

وقول الآخر:

يا علقمة يا علقمة يا علقمة... خير تميم كلها وأكرمه

وقول الآخر:

يا أقرع بن حابس يا أقرع... إنك إن يصرع أخوك تصرع

وقول الآخر:

ألا يا سلمى ثم اسلمي ثمت اسلمي... ثلاث تحيات وإن لم تكلم

وقد جاءت في أبيات لبعض تلاميذ الشيخ رحمه الله تعالى، ضمن مساجلة له معه قال فيها

:

تالله إنك قد ملأت مسامعي . . . درّا عليه قد انطوت أحشائي

(164/835)

زدني وزدني ثم زدني ولتكن . . . منك الزيادة شافياً للداء

فكرر قوله : زدني ثلاث مرات

وقيل : ليس فيه تكرار ، على أن الجملة الأولى عن الماضي والثانية عن المستقبل .

وقيل : الأولى عن العبادة ، والثانية عن المعبود .

وقيل غير ذلك ، على ما سيأتي إن شاء الله .

والسورة في الجملة نص على أنه صلى الله عليه وسلم لا يعبد معبودهم ، ولا هم عابدون معبوده ، وقد فسره قوله تعالى : ﴿ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بريائون مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بريء مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 41] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه الكرم على هذا المعنى ، عند آية يونس تلك ، وذكر هذه السورة هناك .

وقد ذكر أيضاً في دفع إيهام الاضطراب جواباً على إشكال في السورة وهو قوله تعالى : ﴿

لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ ، نفى لعبادة ل منهما معبود الآخر مطلقاً ، مع أنه قد آمن بعضهم فيما بعد وعبد ما يعبده صلى الله عليه وسلم ، وأجاب عن ذلك بأحد أمرين : موجزهما أنهما من جنس الكفار ، وإن أسلموا فيما بعد فهو خطاب لهم ما داموا كفاراً إلى آخره ، أو أنها من العام المخصوص ، فتكون خاص بالحاضر ، لأن ما إذا دخلت على اسم الفاعل تعينه للحاضر .

وناقشه أبو حيان ، بأن ذلك في مغالب لا على سبيل القطع .

والذي يظهر من سياق السورة ، قد يشهد لما ذهب إليه الزمخشري ، وهو أن السورة تتكلم عن الجانبين على سبيل المقابلة جهة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجهة الكفار في عدم عبادة كل منهما معبود الآخر .

(165/835)

ولكنهما لم تساو في اللفظ بين الطرفين ، فمن جهة الرسول صلى الله عليه وسلم جاء في الجملة الأولى ﴿ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ عبر عن كل منهما بالفعل المضارع الدال على الحال : أي لا أعبد الآن ما تعبدون الآن بالفعل . ثم قال : ﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ فعبر عنهم بالاسمية وعنه هو بالفعلية ، أي ولا أنتم متصفون بعبادة ما أعبد الآن .

وفي الجملة الثانية قال : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 4-5] .

فعبر عنه بأنه ليس متصفاً بعبادة ما يعبدون ولا هم عابدون ما يعبد ، فكان وصفه هو صلى الله عليه وسلم في الجملتين بوصفين مختلفين بالجملة الفعلية تارة وبالجملة الاسمية تارة أخرى ، فكانت إحداهما لنفي الوصف الثابت ، والأخرى لنفي حدوثه فيما بعد .

أما هم فلم يوصفوا في الجملتين إلا بالجملة الاسمية الدالة على الوصف الثابت ، أي في الماضي إلى الحاضر ، ولم يكن فيما وصفوا به جملة فعلية من خصائصها التجدد والحدوث ، فلم يكن فيها ما يتعرض للمستقبل فلم يكن إشكال ، والله تعالى أعلم .

فإن قيل : إن الوصف باسم الفاعل يحتمل الحال والاستقبال ، فيبقى الإشكال محتملاً .

قيل : ما ذكره الزمخشري من أن دخول ما عليه تعينه للحال ، يكفي في نفي هذا الاحتمال ،

فإن قيل : قد ناقشه أبو حيان .

وقال : إنها أغلبية وليست قطعية .

قلنا : يكفي في ذلك حكم الأغلب ، وهو ما يصدقه الواقع ، إذ آمن بعضهم وعبد معبوده صلى الله عليه وسلم ، وما في قوله : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ، واقعة في الأولى على غير ذي علم ، وهي أصنامهم وهو استعمالهم الأساسي .

وفي الثانية : في حق الله تعالى وهو استعمالها في غير استعمالها الأستسي ، فقيل : من أجل المقابلة ، وقد استعملت فيمن يعلم ، كقوله تعالى : ﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآَء ﴾ [النساء : 3] ، لأنهن في معرض الاستمتاع بهن ، فللقرينة جاز ذلك .

وقيل : إنها مع ما قبلها مصدرية ، أي ما مصدرية بمعنى عبادتكم الباطلة ، ولا تعبدون عباداتي الصحيحة .

وهذا المعنى قوي ، وإن تعارض مع ما ذكر من سبب النزول ، إلا أن له شاهداً من نفس السورة ويتضمن المعنى الأول ، ودليله من السورة قوله تعالى في آخر السورة : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون : 6] ، فأحالهم على عبادتهم ، ولم يحلهم عهلى معبودهم .

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

هو نظير ما تقدم في سورة يونس ﴿ أَنتُمْ بريائون مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ بريء مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : 41] .

وكقوله : ﴿ وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ﴾ [البقرة : 139] .

وليس في هذا تقريرهم على دينهم الذي هم عليه ، ولكن من قبيل التهديد والوعيد كقوله :

﴿ وَقُلِ الحق مِن رَبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ

بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ [الكهف : 29] .

وفي هذه السورة قوله : ﴿ قُلْ يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] وصف يكفي بأن عبادتهم ودياناتهم كفر .

وقد قال لهم الحق ﴿ لَاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون : 2] ، لأنها عبادة باطلة .

عباد الكفار ، وبعد ذلك إن أبيتم إلا هي ، فلكم دينكم ولي دين .

تنبيه

في هذه السورة منهج إصلاحي ، وهو عدم قبول ولا صلاحية أنصاف الحلول ، لأن ما عرضوه عليه صلى الله عليه وسلم من المشاركة في العبادة ، يعتبر في مقياس المنطق حلاً وسطاً لاحتمال إصابة الحق في أحد الجانبين ، فجاء الرد حاسماً وزاجراً وبشدة ، لأن فيه أي فيما عرضوه مساواة للباطل بالحق ، وفيه تعليق المشكلة ، وفيه تقرير الباطل ، إن هو وافقهم ولو لحظة .

وقد تعتبر هذه السورة مميزة وفاصلة بين الطرفين ، ونهاية المهادنة ، وبداية المجابهة .

وقد قالوا : إن ذلك بناء على ما أرمه الله به في السورة قبلها ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ الكوثر ﴾ [

الكوثر : 1] ، أي وإن كنت وصحبك قلة ، فإن معك الخير الكثير ، ولمجيء قل لما فيها من إشعار بأنك مبلغ عن الله ، وهو الذي ينصرك ، ولذا جاء بعدها حالاً سورة النصر وبعد النصر : تبُّ العدو .

وهذا في غاية الوضوح ، ولله الحمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

(168/835)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله تعالى : ﴿ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾

يدل بظاهره على أن الكفار المخاطبين بها لا يعبدون الله أبدا مع أنه دلّت آيات أخر على أن منهم من يؤمن بالله تعالى كقوله ﴿ وَمِنْ هَؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ الآية .

والجواب من وجهين :

الأول : أنه خطاب لجنس الكفار وإن أسلموا فيما بعد فهو خطاب لهم ما داموا كفارا ، فإذا أسلموا لم يتنا ولهم ذلك لأنهم حينئذ مؤمنون لا كافرون وإن كانوا منافقين فهم كافرون

في الباطن فيتنا ولهم الخطاب ، واختار هذا الوجه أبو العباس بن تيمية رحمه الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 349 ﴾

(169/835)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : نزلت سورة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ بمكة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير رضي الله عنه قال : أنزلت بالمدينة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشاً دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يعطوه مالاً فيكون أغنى رجل بمكة ويزوّجوه ما أراد من النساء ، فقالوا : هذا لك يا محمد وكف عن شتم آلهتنا ولا تذكر آلهتنا بسوء ، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة ولك فيها صلاح . قال : ما هي ؟ قالوا : تعبد

آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة. قال: حتى أنظر ما يأتيني من ربي فجاء الوحي من عند الله ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ﴾ الآية. وأنزل الله ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ [الزمر: 64] إلى قوله: ﴿ الشاكرين ﴾ [الزمر: 66].

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن وهب قال: قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: إن سرك أن نتبعك عاماً وترجع إلى ديننا عاماً فأنزل الله ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ إلى آخر السورة.

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن سعيد بن ميناء مولى أبي البختري قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد هلم فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد، ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً، وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً فأنزل الله ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ﴾ حتى انقضت السورة.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشاً قالت : لو استلمت آلهتنا لعبدنا إلهك فأنزل الله ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ السورة كلها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زرارة بن أوفى قال : كانت هذه السورة تسمى المقشقشة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي رافع قال : طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبيت ثم جاء مقام إبراهيم فقرأ ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ [البقرة : 125] ثم صلى فقرأ بفاتحة الكتاب و ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ [الاخلاص : 1] فقال كذلك الله : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ قال : ذاك الله ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ قال : كذلك الله ثم ركع وسجد ثم قرأ بفاتحة الكتاب و ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ قال : لا أعبد إلا الله ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ فقال : لا أعبد إلا الله ﴿ لكم دينكم ولي دين ﴾ ثم ركع وسجد .

وأخرج ابن ماجة عن ابن عمر قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وأخرج ابن ماجة عن ابن مسعود ، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الركعتين بعد صلاة المغرب ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وأخرج البيهقي في سننه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت ثم صلى ركعتين قرأ فيهما ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوتر بسبح وقل للذين كفروا والله الواحد الصمد .

وأخرج مسلم والبيهقي في سننه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ في ركعتي الفجر ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجة وابن حبان وابن مردويه عن ابن عمر قال : رمقت النبي صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين مرة وفي لفظ شهراً فكان يقرأ في الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب ب ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وأخرج ابن الضريس والحاكم في الكنى وابن مردويه عن ابن عمر قال : رمقت النبي صلى الله عليه وسلم أربعين صباحاً في غزوة تبوك فسمعته يقرأ في ركعتي الفجر ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ويقول : نعم السورتان تعدل واحدة بربع القرآن والأخرى بثلث القرآن .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في

الركعتين بعد المغرب والركعتين قبل صلاة الفجر ب ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ كانت له عدل ربع القرآن " .

وأخرج الطبراني في الصغير والبيهقي في شعب الإيمان عن سعيد بن أبي العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فكأنما قرأ ربع القرآن ومن قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن " .

وأخرج مسدد عن رجل من الصحابة قال : سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعاً وعشرين مرة يقول : " نعم السورتان يقرأ بهما في الركعتين الأحد الصمد و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ " .

وأخرج أحمد وابن الضريس والبغوي وحميد بن زنجويه في ترغيبه عن شيخ أدرك النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فمر برجل يقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فقال : " أما هذا فقد برىء من الشرك ، وإذا آخر يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم بها وجبت له الجنة " ، وفي رواية : " أما هذا فقد غفر له " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن الأنباري في المصاحف والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن فروة بن نوفل بن معاوية الأشجعي عن أبيه أنه قال يا رسول الله علمني ما أقول إذا أويت إلى فراشي قال : " اقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم نم على خاتمتها فإنها براءة من الشرك " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن مردويه " عن عبد الرحمن بن نوفل الأشجعي عن أبيه قال : قلت يا رسول الله : إني حديث عهد بشرك فمرني بآية تبرئني من الشرك فقال : " اقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ " قال : فما أخطأها أبي من يوم ولا ليلة حتى فارق الدنيا .

وأخرج ابن مردويه عن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنوفل بن معاوية الأشجعي : " إذا أتيت مضجعك للنوم فاقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فإنك إذا قرأتها فقد برئت من الشرك " .

وأخرج أحمد والطبراني في الأوسط عن الحارث بن جبلة وقال الطبراني عن جبلة بن حارثة ، وهو أخو زيد بن حارثة قال : قلت يا رسول الله : علمني شيئاً أقوله : عند منامي قال : " إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ حتى تمر بآخرها فإنها براءة من الشرك " .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ: "اقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ عند منامك فإنها براءة من الشرك".

وأخرج الديلمي عن عبد الله بن جراد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المنافق لا يصلي الضحى ولا يقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ".

وأخرج أبو يعلى والطبراني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أدلكم على كلمة تنجيكم من الإِشراك بالله، تقرؤون ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ عند منامكم".

(173/835)

وأخرج البزار والطبراني وابن مردويه عن خباب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أخذت مضجعك فاقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ " وان النبي صلى الله عليه وسلم لم يأت فراشه قط إلا قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ حتى يختم.

وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لقي الله بسورتين فلا حساب عليه ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ".

وأخرج أبو عبيد في فضائله وابن الضريس عن أبي مسعود الأنصاري قال : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ في ليلة فقد أكثر وأطاب .

وأخرج الطبراني في الصغير عن علي قال : " لدغت النبي صلى الله عليه وسلم عقرب وهو يصلي ، فلما فرغ قال : " لعن الله العقرب لا تدع مصلياً ولا غيره " ثم دعا بماء وملح وجعل يمسح عليها ويقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ [الفلق : 1] و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ [الناس : 1] " .

وأخرج أبو يعلى عن جبير بن مطعم قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتحب يا جبير إذا خرجت سفراً أن تكون أمثل أصحابك هيئة وأكثرهم زاداً ؟ قلت : نعم بأبي أنت وأمي . قال : فاقرأ هذه السور الخمس ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ و ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ [النصر : 1] و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الاخلاص : 1] و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ وافتتح كل سورة ببسم الله الرحمن الرحيم " قال جبير : وكنت غنياً كثير المال ، فكنت أخرج في سفر فأكون من أبذهم هيئة وأقلهم زاداً ، فما زلت منذ علمنيهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأت بهن أكون من أحسنهم هيئة وأكثرهم زاداً حتى أرجع من سفري .

وأخرج ابن الضريس عن عمرو بن مالك قال : كان أبو الجوزاء يقول : أكثروا من قراءة ﴿

قل يا أيها الكافرون ﴾ وابرأوا منهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 8 صـ 654.
658 ﴾

(174/835)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله:

وَمِنْ سُورَةِ الْكَافِرِينَ

قَوْله تَعَالَى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: هَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ خَاصَّةً فِي بَعْضِ الْكُفَّارِ دُونَ بَعْضٍ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا، وَقَدْ قَالَ: ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾، فَإِنَّهَا قَدْ دَلَّتْ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ كُلَّهُ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ؛ لِأَنَّ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ مِنْهُمْ مَعَ اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ مُرَادُونَ بِالْآيَةِ، ثُمَّ جَعَلَ دِينَهُمْ دِينًا وَاحِدًا وَدِينَ الْإِسْلَامِ دِينًا وَاحِدًا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ مَعَ اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِ مِلَّةٌ وَاحِدَةٌ.

آخِرُ السُّورَةِ. انتهى. ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(175/835)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الكافرون

لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (2)

[قوله] : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ : " ما " في هذه السورةِ يجوزُ فيها وجهان ، أحدُهما : أنها بمعنى الذي . فإنْ كان المرادُ الأصنامَ - كما في الأولى والثالثة - فالأمرُ واضحٌ لأنهم غيرُ عقلاءَ . و " ما " أصلُها أَنْ تكونَ لغيرِ العقلاءِ . وإذا أُريد بها الباري تعالى ، كما في الثانيةِ والرابعةِ ، فاسْتَدَلَّ به مَنْ جوَّز وقوعَها على أولي العلمِ . ومَنْ مَنَعَ جَعَلَها مصدريةً . والتقديرُ : ولا أنتم عابدون عبادتي ، أي : مثلَ عبادتي . وقال أبو مسلم : " ما " في الأوَّلَيْن بمعنى الذي ، والمقصودُ المعبودُ و " ما " في الأخيرَيْن مصدريةٌ ، أي : لا أَعْبُدُ عبادتَكم المبنيَّةَ على الشكِّ وتَرْكِ النظرِ ، ولا أنتم تعبدون مثلَ عبادتي المبنيةِ على اليقين . فتحصَّل مِنْ مجموعِ ذلك ثلاثةُ أقوالٍ : أنها كلَّها بمعنى الذي أو مصدريةٌ ، أو الأُوْلَيان بمعنى الذي ، والأخيرتان مصدريَّتان ولِقائلٍ أَنْ يقولَ : لو قيل : بأنَّ الأولى والثالثةَ بمعنى الذي ، والثانيةَ والرابعةَ مصدريةٌ ، لكان حسناً حتى لا يَلْزَمَ وقوعُ " ما " على أولي العلمِ ، وهو مقتضى قولِ مَنْ يمنعُ وقوعَها على أولي العلمِ كما تقدَّم .

واختلف الناسُ : هل التَّكرارُ في هذه السورةِ للتأكيد أم لا ؟ وإذا لم يكنْ للتأكيدِ فبأيِّ طريقٍ حَصَلَتِ المغايرةُ حتى انتفى التأكيدُ ؟ ولا بُدَّ مِنْ إيرادِ أقوالِهم في ذلك فقال جماعة : هو للتوكيدِ . فقولُه ﴿ وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ تأكيدٌ لقولِه ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ ثانياً توكيدٌ لقولِه ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ أولاً ، ومثلُه قولُه ﴿ فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 13] و ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات : 15] في سورتَيْهما ، و ﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر : 34] و ﴿ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ﴾ [النبأ : 45] .

وفي الحديث : " فلا آذَنُ ثم لا آذَنُ ، إنما فاطمةُ بَضْعَةٌ مني " قال الشاعر :

4663 هلاَّ سَأَلْتَ جنودَ كِنْ . . . دَةَ يومَ وَلَّوْا أين أَيْنا

وقال آخر :

4664 يا علقمَهْ يا عَلْقَمَهْ يا علقمَهْ . . . خيرَ تميمٍ كلِّها وأكرمَهْ

وقال آخر :

4665 يا أقرعُ بنَ حابسٍ يا أقرعُ . . . إنك إنْ يُصْرَعْ أخوكَ تُصْرَعُ

وقال آخر :

4666 ألا يا اسْلَمي ثُمَّ اسْلَمي ثُمَّتَ اسْلَمي . . . ثلاثُ تحيَّاتٍ وإن لم تَكَلَّمِ

وقال آخر :

4667 يا لَبَكْرٍ أَنْشِرُوا لي كُلَيْباً . . . يا لَبَكْرٍ أينَ أينَ الفِرارُ

قالوا : والقرآنُ جاء على أساليبِ كلامِ العربِ . وفائدةُ التوكيد هنا قَطْعُ أَطْماعِ الكفارِ وتحقيقُ الإِخبارِ بموافاتِهم على الكفرِ ، وأنَّهم لا يُسْلِمون إبداً .

(177/835)

وقال جماعةٌ : ليس للتوكيدِ فقال الأخفش : " لا أعبد الساعةَ ما تعبدون ، ولا أنتم عابِدون السنةَ ما أعبدُ ، ولا أنا عابدٌ في المستقبلِ ما عَبَدْتُم ، ولا أنتم عابدون في المستقبلِ ما أعبد ، فزال التوكيدُ ، إذ قد تقيَّدَتْ كلُّ جملةٍ بزمانٍ غيرِ الزمانِ الآخر " انتهى .

وفيه نظرٌ كيف يُقَيِّدُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نَفْيَ عبادتِه لِما يَعْبُدون بزمانٍ ، هذا لا يَصِحُّ . وفي الأسبابِ : أنهم سَأَلوه أنْ يَعْبُدَ آلهتَهم سنةً ويَعْبُدون إلهَه سنةً ، فنزَلَتْ فكيف يَسْتقيم هذا ؟ وجعل أبو مسلمٍ التغايُرَ بما قَدَّمْتُه عنه : وهو كونُ " ما " في الأوَّلَيْن

بمعنى الذي ، وفي الآخِرَيْن مصدرية . وفيه نظرٌ أيضاً : مِنْ حيث إنّ التكرارَ إنما هو مِنْ حيث المعنى وهذا موجودٌ كيف قَدَّرَتْ " ما " .

وقال ابن عطية : " لَمَّا كان قولُه " لا أَعْبُدُ " محتمِلاً أَنْ يُرادَ به الآن ويبقى المستقبلُ منتظراً ما يكونُ فيه جاء البيانُ بقولِه ﴿ وَلاَ أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أي : أبداً وما حَيِيْتُ ، ثم جاء قولُه ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ الثاني حَتْماً عليهم أنهم لا يُؤمنون أبداً كالذي كَشَفَ الغيبَ ، كما قيل لنوح عليه السلام : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود : 36] فهذا معنى الترديدِ في هذه السورةِ وهو بارعُ الفصاحةِ ، وليس بتَكْرارٍ فقط ، بل فيه ما ذكْرتُه " .

(178/835)

وقال الزمخشريُّ : " لا أعبدُ أُريد به العبادةُ فيما يُسْتقبل ؛ لأنَّ " لا " لا تدخُلُ إلاَّ على مضارعٍ في معنى الاستقبال ، كما أنَّ " ما " لا تدخُلُ إلاَّ على مضارعٍ في معنى الحال .

والمعنى : لا أفعلُ في المستقبل ما تَطْلبونه مني مِنْ عبادةِ آلهتِكم ، ولا أنتم فاعلونَ فيه ما أَطْلُبُه منكم مِنْ عبادةِ إلهي ، ولا أنا عابدٌ ما عبدُتُمْ ، أي : وما كنتُ قطُّ عابداً فيما سَلَفَ ما عبدتُمْ فيه ، يعني ما عُهِدَ مني قَطُّ عبادةُ صنمٍ في الجاهلية . فكيف ترجى مني في

الإِسلامِ؟ ولا أنتم عبادون ما أعبدُ، أي: وما عبَدْتُم في وقتٍ ما أنا على عبادتِه. فإنْ قلتَ: فهلاّ قيل: ما عَبَدْتُ كما قيل ما عبدتُمْ. قلت: لأنهم كانوا يَعْبُدون الأصنامَ قبل المَبْعَثِ، وهو لم يَكُنْ يعبدُ اللَّهَ تعالى في ذلك الوقتِ. فإن قلت: فِلَمَ جاء على "ما" دون مَنْ؟ قلت: لأنَّ المرادَ الصفةُ كأنه قيل: لا أعبدُ الباطلَ، ولا تعبدون الحقَّ. وقيل: إن "ما" مصدريةٌ، أي: لا أعبد عبادتَكم ولا تعبُدون عبادتي" انتهى. يعني بقولِه "لأن المرادَ الصفةُ" يعني أنه أُريدُ ب "ما" الوصفُ، وقد قَدَّمْتُ تحقيقَ هذا قريباً في سورةِ والشمس وضحاها، واعتراضَ الشيخِ عليه، والجوابَ عنه، وأصلُه في سورة النساء عند قوله:

﴿ فانكحوا مَا طَابَ لَكُمْ مِّنَ النسآء ﴾ [النساء: 3].

وناقشه الشيخ هنا فقال: "أمَّا حَصْرُه في قولِه: "لأن "لا" لا تَدْخُل" إلى آخره. وفي قوله: "كما أن "ما" "لا تَدْخُلُ" إلى آخرِه؛ فليس بصحيحٍ، بل ذلك غالِبٌ فيها لا مُتحتِّمٌ.

(179/835)

وقد ذكر النحاةُ دخولَ "لا" على المضارعِ يُرادُ به الحالُ، ودخول "ما" على المضارعِ يُراد به الاستقبالُ. وذلك مذكورٌ في المبسوطاتِ مِنْ كتب النحوِ، ولذلك لم يَذْكُرْ سيبويه ذلك بأداةِ الحصرِ إنما قال: "وتكونُ "لا" نفياً لقولِه يَفْعَلُ ولم يقع الفعلُ" وقال: "وأمَّا "ما" فهي

نفيٌ لقولِه : هو يفعل إذا كان في حالِ الفعل " فذكر الغالبَ فيهما . وأمّا قولُه ، في قولِه : ﴿ وَلَا أَنَآ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ أي : وما كنت قطُّ عابداً فيما سلفَ ما عبدتُمْ فيه ، فلا يَسْتقيم لأنّ َعباداً اسمُ فاعلٍ قد عَمِلَ في " ما عَبَدْتُمْ " فلا يُفَسَّر بالماضي إنما يُفَسَّر بالحالِ أو الاستقبال ، وليس مذهبُه في اسمِ الفاعلِ مذهبَ الكسائي وهشام مِنْ جوازِ إعمالِه ماضياً . وأمّا قولُه : " ولا أنتم عابدون ما أعبدُ " ، أي : وما عَبَدْتُمْ في وقتٍ ما أنا على عبادتِه فعابدون قد أعمله في " ما أعبد " فلا يُفَسَّر بالماضي .

وأمّا قولُه " وهو لم يكن " إلى آخره فسوءُ أدبٍ على منصبِ النبوةِ ، وغيرُ صحيح ، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يَزَلْ مُوَحِّداً لله تعالى ، مُنَزِّهاً عن كلِّ ما لا يليق بجلالِه ، مُجْتنباً لأصنامِهم ، يقفُ على مشاعرِ أبيه إبراهيمَ عليه السلام ويَحُجُّ البيتَ ، وهذه عبادةٌ ، وأيُّ عبادةٍ أعظمُ مِنْ توحيدِ اللَّهِ تعالى ونَبْذِ أصنامِهم ؟ ومعرفةُ اللَّهِ تعالى أعظمُ العباداتِ . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] . قال المفسِّرون : إلاَّ ليَعْرِفونِ ، فسمى المَعْرِفَةَ بالله تعالى عبادةً " انتهى ما ناقَشَه به وردَّه عليه .

ويُجابُ عن الأولِ: أنه بنى أمرَه على الغالبِ فلذلك أتى بالحَصْرِ وأمَّا ما حكاه عن سيبويهِ فظاهرُه معه حتى يقومَ دليلٌ على غيرِه . وعن إعمالِه اسمَ الفاعل مُفَسّرًا له بالماضي بأنه على حكايةِ الحالِ كقوله تعالى: ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾ [الكهف: 18] وقوله: ﴿ واللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: 72] نحوُه .

وأمَّا قولُه: "كان مُوحّدًا مُنزِّهًا" فمُسَلَّمٌ . وقوله: "وهذه أعظمُ العباداتِ" مُسَلَّمٌ أيضًا . ولكنَّ المرادَ في الآيةِ عبادةٌ مخصوصةٌ، وهي الصلاةُ المخصوصةُ؛ لأنَّها يُقابِلُ بها ما كان المشركون يَفْعَلونه من سجودِهم لأصنامِهم وصلاتِهم لها، فقابَلَ هذا صلى الله عليه وسلم بصَلاتِه لله تبارَكَ تعالى . ولكنَّ نَفْيَ كلامِ الزمخشريّ يُفْهِمُ أنه صلى الله عليه وسلم لم يكُنْ مُتعبّدًا قبل المبعَثِ، وهو مذهبٌ مرجوحٌ جدًا ساقطُ الاعتبارِ؛ لأنَّ الأحاديث الصحيحة تَرُدُّه وهي: كان يتحنّث، كان يتعبّدُ، كان يصومُ، كان يطوفُ كان يَقفُ، ولم يَقُلْ بخلافه إلاَّ شذوذٌ مِنْ الناسِ . وفي الجملةِ فالمسألةُ خلافيةٌ . وإذا كان متعبّدًا فبأيِّ شَرْعٍ كان يتعبَّد؟ قيل: بشرعِ نوحٍ: وقيل: إبراهيم . وقيل: موسى . وقيل: عيسى، ودلائلُ هذه في الأصولِ فلا نتعرّضُ لها .

ثم قال الشيخ : " والذي أَختارُ في هذه الجملِ أنه نفى عبادتَه في المستقبل ؛ لأن الغالِبَ في " لا " أَنْ تنفي المستقبلَ ، ثم عَطَفَ عليه ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ نَفْياً للمستقبلِ ، على سبيلِ المقابلةِ . ثم قال : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴾ نَفْياً للحال ؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ العاملَ الحقيقةُ فيه دلالتُه على الحالِ ، ثم عَطَفَ عليه ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ نَفْياً للحال على سبيلِ المقابلةِ ، فانتظم المعنى أنَّه عليه السلام لا يَعْبُدُ ما يعبدون حالاً ولا مستقبلاً . وهم كذلك إذ حَتَمَ الله تعالى موافاتَهم على الكفر . ولَمَّا قال : " لا أعبدُ ما تبعدون " فأطلق " ما " على الأصنامِ قابلَ الكلام ب " ما " في قولِه " ما أعبد " وإنْ كان المرادُ بها اللَّهَ تعالى ؛ لأنَّ المقابلةَ يسوغُ فيها ما لا يَسُوغ في الانفرادِ . وهذا على مذهبِ مَنْ يقول : إنَّ " ما " لا تقع على آحادِ أولي العلمِ . أمَّا مَنْ يُجوِّزُ ذلك – وهو مذهبُ سيبويهِ – فلا يَحْتاج إلى الاستعذارِ بالتقابلِ " .

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

قوله : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ أتى بهاتَيْنِ الجملتين الإِثباتِيَّتَيْن بعد جملٍ منفيةٍ ؛ لأنه لَمَّا كان الأهمُّ انتفاءَه عليه السلام مِنْ دينهم بدأ بالنفي في الجملِ السابقةِ بالمنسوب إليه ، فلمَّا تحقَّقَ النفيُ رَجَعَ إلى خطابِهم بقولِه ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ مهادنةً لهم ، ثم نَسَخَ ذلك بالأمرِ بالقتال .

وفتح الياءَ مِنْ " لي " نافعٌ وهشامٌ وحفصٌ والبزيُّ بخلافٍ عنه ، وأسكنها الباقون ،

وحذَف ياءَ الإضافةِ مِنْ " ديني " وقفاً ووَصْلاً السبعةُ وجمهور القراء ، وأثبتها في الحالَيْن سلامٌ ويعقوب ، وأمرُها واضحٌ مِمَّا تقدَّم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 11 صـ 138.131 ﴾

(182/835)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الكافرون

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة من آمن بها أمن من زوال النعمى ، وحظي بنعيم الدنيا والعقبى وسعد سعادة لا يشقى ، ووجد ملكا لا يفنى ، وبقي في العز والعلى

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ يا أيها الكافِرُونَ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ .

من أصنامكم .

﴿ وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴾ .

" ما " أعبد أي " من " أعبد .

﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾ .

في زمانكم .

﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ .

كَرَّرَ اللفظ على جهة التأكيد .

﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ .

أي : لكم جزاؤكم على دينكم ، ولي الجزاءُ على ديني .

والعبودية القيام بأمره على الوجه الذي به أَمَرَ ، وبالقَدْر الذي به أمَرَ ، وفي الوقت الذي فيه أمَر .

ويقال : صِدْقُ العبودية في تَرْكِ الاختيار ، ويظهر ذلك في السكون تحت تصاريف الأقدار من غير انكسار .

ويقال : العبودية انتفاء الكراهية بكلِّ وجهٍ من القلب كيفما صرَّفَك مولاك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 777 . 778﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (1) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (2) وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (3) وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ (4)

وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

الإعراب :

(أيها) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب (الكافرون) بدل من أيّ - أو عطف بيان عليه - تبعه في الرفع لفظا (لا) نافية (ما) موصول " 1 " في محلّ نصب مفعول به والعائد محذوف . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " النداء . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) أو نكرة موصوفة . . أو حرف مصدريّ والعائد محذوف ، أي : لا أعبد عبادتكم المبنيّة على الشك .

وجملة : " لا أعبد . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " تعبدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

3 - (الواو) عاطفة (لا) الثانية نافية مهملة (ما) موصول " 1 " في محلّ نصب مفعول به . .

وجملة : " لا أنتم عابدون . . . " لا محل لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " أعبد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثاني .

4 - 6 (لا أنا . . . عبدتم) مثل لا أنتم . . . أعبد ، وقد تكرّرت مرة ثانية (لكم) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (دينكم) ، (لي) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (دين) ، وهو مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء المحذوفة للتخفيف .

وجملة : " لا أنا عابد . . . " لا محل لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " عبدتم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الثالث .

وجملة : " لا أنتم عابدون . . . " لا محل لها معطوفة على جملة جواب النداء .

وجملة : " أعبد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) الرابع .

وجملة : " لكم دينكم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لي دين " لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

البلاغة

التكرار : في الآيات الكريمات ، للتأكيد . فقوله تعالى " وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ " تأكيد

---

(1) وذلك عند من يجيز وقوع (ما) على أولي العلم . . أو هو حرف مصدريّ ، والمصدر المؤوّل مفعول به .

(186/835)

لقوله " لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ " وقوله " وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ " تأكيد لقوله " وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ " - وإن القرآن نزل بلغة العرب ومن عادتهم تكرار الكلام للتأكيد والإفهام ، فيقول المجيب : بلى بلى ، والممتنع لا لا . وعليه قوله تعالى "كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ " .

الفوائد :

- لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ :

نزلت هذه السورة في رهط من قريش ، منهم الحرث بن قيس السهميّ ، والعاص بن وائل السهميّ ، والوليد بن المغيرة ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، قالوا : يا محمد ، هلّم اتبع ديننا ونتبع دينك ونشركك في ديننا كله ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذي جئت به خيرا كنا قد شركناك فيه ، وأخذنا حظنا منه وإن كان الذي بأيدينا خيرا كنت قد شركتنا في أمرنا ، وأخذت بحظك منه فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : معاذ اللّه أن أشرك به غيره ، قالوا : فاستلم بعض آلهتنا نصدقك ونعبد إلهك ، قال : حتى أنظر ما يأتي من ربي ، فأنزل اللّه هذه السورة ، فمضى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) إلى الحرم ، وفيه هؤلاء النفر ، فقرأ السورة فوق رؤوسهم ، فعند ذلك أيسوا منه وآذوه مع أصحابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الجدول حـ 30 صـ 416 . 418﴾

(187/835)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(109) سورة الكافرون

مكيّة وآياتها ستّ

[سورة الكافرون (109) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ (1) لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ (2) وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (3) وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ (4)

وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ (5) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (6)

الإعراب:

(قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ) قال رهط من المشركين للنبي صلّى اللّه عليه وسلم: هلمّ فلتعبد ما نعبد ونعبد ما تعبد ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله فإن كان الذي جئت به خيرا مما بأيدينا كنّا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه وإن كان الذي بأيدينا خيرا مما بيدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه فأنزلها اللّه عزّ وجلّ. وقل فعل أمر وفاعل مستتر تقديره أنت ويا حرف نداء للمتوسط وأي منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب وها للتنبيه والكافرون بدل من أي أو نعت لها، قال ابن خالويه: "فإن سأل سائل فقال: التنبيه يدخل قبل الاسم المبهم نحو هذا فلم دخل هاهنا بعد أي؟ فقال: لأن أيا تضاف إلى ما بعدها فلولا أن التنبيه فصل بين الكافرين وأي لذهب الوهم إلى أنه مضاف"

(لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ)

لا نافية وأعبد فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنا وما موصول بمعنى الذي في محل نصب مفعول به وجملة تعبدون صلة لا محل لها والعائد محذوف أي تعبدونه ويجوز أن تكون مصدرية فتكون مؤولة مع ما بعدها بمصدر مفعول مطلق (وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ) الواو عاطفة ولا نافية وأنتم مبتدأ وعابدون خبر وما اسم موصول ووقعت للعقلاء على سبيل التعظيم مفعول به وجملة أعبد صلة أو ما مصدرية فتكون مع ما في حيّزها مفعولا مطلقا (وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدْتُمْ وَلا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ) عطف أيضا ويتحصل مما أورده المعربون في ما أنها بمعنى الذي فإن ان المراد بها الأصنام كما في الأولى والثالثة فالأمر واضح لأنهم غير عقلاء وما أصلها أن تكون لغير العقلاء وإذا أريد بها البارئ تعالى كما في الثانية والرابعة فاستدل به من جوّز وقوعها على أولي العلم ومن منع جعلها مصدرية والتقدير ولا أنتم عابدون عبادتي وقال أبو مسلم: " ما في الأوليين بمعنى الذين والمقصود المعبود وما في الأخريين مصدرية أي لا أعبد عبادتكم المبنية على الشك وترك النظر ولا أنتم تعبدون مثل عبادتي المبنية على اليقين فتحصل من مجموع ذلك ثلاثة أقوال: 1- أنها كلها بمعنى الذي 2- أنها كلها مصدرية 3- أو الأوليان بمعنى الذي والأخريان مصدريتان، ولقائل أن يقول لو قيل بأن الأولى والثالثة بمعنى الذي والثانية والرابعة مصدرية لكان حسنا حتى لا يلزم وقوع ما على أولي العلم. وسيأتي معنى التكرار في باب البلاغة (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) لكم

خبر مقدّم ودينكم مبتدأ مؤخر ولي دين عطف على ما تقدم .

البلاغة :

اختلف علماء البلاغة والنحو : هل التكرار في هذه السورة للتأكيد أم لا وإذا لم يكن للتأكيد فبأي طريق حصلت المغايرة حتى انتفى التأكيد ، وسنورد أقوالهم مع إلماع لا بدّ منه إليها .

1- فقال جماعة : التكرار للتأكيد فقوله : ولا أنا عابد ما عبدتم تأكيد لقوله : لا أعبد ما تعبدون ، وقوله : ولا أنتم عابدون ما أعبد ، تأكيد لقوله : ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ومثله : فبأي آلاء ربكما تكذبان ، وويل يومئذ للمكذبين ، وكلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ، وكلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون ، وفائدة هذا التأكيد هنا قطع أطماع الكفار وتحقيق الإخبار بموافاتهم الكفر وأنهم لا يسلمون أبدا .

2- وقال جماعة : ليس التكرار للتوكيد ، قال الأخفش : "لا أعبد الساعة ما تعبدون ولا أنتم عابدون الساعة ما أعبد ولا أنا عابد في المستقبل ما عبدتم ولا أنتم عابدون في المستقبل ما أعبد فزال التوكيد وحصل التأسيس حيث تقيدت كل جملة بزمان غير الزمان

الآخر " وفي هذا القول نظر كيف يقيد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم نفي عبادته لما يعبدون، هذا مما لا يصحّ.

3- وقال ابن عطية: " لما كان قوله لا أعبد محتملا أن يراد به الآن ويبقى المستقبل منتظرا ما يكون فيه جاء البيان بقوله: ولا أنا عابد ما عبدتم أي أبدا ثم جاء قوله ولا أنتم عابدون ما أعبد الثاني حتما عليهم أنهم لا يؤمنون أبدا فهذا معنى الترديد في هذه السورة وهو بارع الفصاحة وليس بتكرار فقط بل فيه ما ذكرته " .

4- وقال الزمخشري: لا أعبد أريد به العبادة فيما يستقبل لأن " لا " لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الاستقبال كما أن " ما " لا تدخل إلا على مضارع بمعنى الحال والمعنى لا أفعل في المستقبل ما تطلبونه مني من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلبه منكم من عبادة إلهي ولا أنا

عابد ما عبدتم أي وما كنت قطّ عابدا فيما سلف ما عبدتم فيه يعني ما عهد منّي قطّ عبادة صنم في الجاهلية فكيف يرجى منّي في الإسلام، ولا أنتم عابدون ما أعبد أي وما عبدتم في وقت ما أنا على عبادته الآن.

5- وقال أبو حيان : والذي اختاره في هذه الجمل أنه نفى عبادته في المستقبل لأن الغالب في "لا" أن تنفي المستقبل ثم عطف عليه : ولا أنتم عابدون ما أعبد ، نفيا للمستقبل على سبيل المقابلة ثم قال : ولا أنا عابد ما عبدتم نفيا للحال لأن اسم الفاعل العامل الحقيقة فيه دلالته على الحال ثم عطف عليه ولا أنتم عابدون ما أعبد نفيا للحال على سبيل المقابلة فانتظم المعنى أنه عليه الصلاة والسلام لا يعبد ما يعبدون حالا ولا مستقبلا وهم كذلك إذ ختم اللّه موافاتهم على الكفر ، ولما قال : لا أعبد ما تعبدون وأطلق على الأصنام ما قابل الكلام بما في قوله ما أعبد وإن كان المراد بها اللّه تعالى لأن المقابلة يسوغ فيها ما لا يسوغ في الانفراد وهذا على مذهب من يقول إن ما لا تقع على آحاد أولي العلم أما من يجوّز ذلك وهو سيبويه فلا يحتاج إلى الاعتذار بالتقابل .

6- وقال القرطبي : " وقيل هذا أي التكرار مطابقة لقولهم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك فنجري على هذا أبدا سنة وسنة فأجيبوا عن كل ما قالوه بضده أي إن هذا لا يكون أبدا ، وقال ابن عباس قالت قريش للنبي صلّى اللّه عليه وسلم نحن نعطيك من المال ما تكون به أغنى رجل بمكة ونزوّجك من شئت ونطأ عقبك أي نمشي خلفك وتكفّ عن شتم آلهتنا فإن لم تفعل فنحن نعرض عليك خصلة واحدة وهي لنا ولك صلاح تعبد آلهتنا اللّات والعزّى سنة ونحن نعبد إلهك سنة ثم تعبد آلهتنا ونعبد إلهك فنجري

على هذا أبدا سنة وسنة

فنزلت السورة فكان التكرار في لا أعبد ما تعبدون لأن القوم كرروا مقالتهم مرة بعد مرة " .

(191/835)

7- وقال ابن الأثير في مثله السائر : " وقد ظن قوم أن هذه الآية تكرير لا فائدة فيه وليس الأمر كذلك فإن معنى قوله لا أعبد يعني في المستقبل من عبادة آلهتكم ولا أنتم فاعلون فيه ما أطلبه منكم من عبادة إلهي ولا أنا عابد ما عبدتم أي وما كنت عابدا قطّ فيما سلف ما عبدتم فيه يعني أنه لم يعهد منّي عبادة صنم في الجاهلية في وقت ما فكيف يرجى ذلك منّي في الإسلام ولا أنتم عابدون في الماضي في وقت ما ما أنا على عبادته الآن " وهذا ترديد لما قاله الزمخشري بنصّه وفصه .

8- وقال ابن خالويه : " فإن سأل سائل فقال : ما وجه التكرير في هذه السورة فقل معناه أن قوما من كفّار قريش صاروا إلى النبي فقالوا أنت سيد بني هاشم وابن ساداتهم ولا ينبغي أن تسفّه أحلام قومك ولكن نعبد نحن ربك سنة وتعبد أنت آلهتنا سنة فأنزل قل يا أيها الكافرون إلخ فإن قال قائل : فقد كان فيهم من أسلم بعد ذلك الوقت فلم قيل : ولا أنتم عابدون ؟ فالجواب في ذلك أن هذا نزل في قوم بأعيانهم ماتوا على الكفر وعلم اللّه تعالى

ذلك منهم فأخبر أنهم لا يؤمنون أبدا كما قال تعالى : سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون في قوم بأعيانهم وقد نفعت الموعظة قوما وفيه جواب آخر : أن يكون الخطاب عاما ويراد به الخاص لمن لا يؤمن وإن كان فيهم من قد آمن " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 600.604 ﴾

(192/835)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الْكَافِرُونَ

قَالَ الشَّيْخُ – رَحِمَهُ اللَّهُ – :

فَصْلٌ :

فِي سُورَةِ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لِلنَّاسِ فِي وَجْهِ تَكْرِيرِ الْبَرَاءَةِ مِنْ الْجَانِبَيْنِ طُرُقٌ حَيْثُ قَالَ : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ مِنْهَا قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ ذَكَرَهُمَا كَثِيرٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ هَلْ كَرَّرَ الْكَلَامَ لِلتَّوْكِيدِ أَوْ لِنَفْيِ الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ ؟ . قَالَ أَبُو الْفَرَجِ : فِي تَكْرَارِ الْكَلَامِ قَوْلَانِ . أَحَدُهُمَا أَنَّهُ لِتَأْكِيدِ الْأَمْرِ وَحَسْمِ أَطْمَاعِهِمْ فِيهِ قَالَهُ الْفَرَّاءُ . وَقَدْ أَفْعَمْنَا

هَذَا فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : التَّكْرِيرُ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ لِلتَّوْكِيدِ . قَالَ : وَهَذِهِ مَذَاهِبُ الْعَرَبِ أَنَّ التَّكْرِيرَ لِلتَّوْكِيدِ وَالْإِفْهَامِ كَمَا أَنَّ مَذَاهِبَهُمْ الِاخْتِصَارُ لِلتَّخْفِيفِ وَالْإِيجَازِ . لِأَنَّ افْتِنَانَ الْمُتَعَلِّمِ وَالْخَطِيبِ فِي الْفُنُونِ أَحْسَنُ مِنْ اقْتِصَادِهِ فِي الْمَقَامِ عَلَى فَنٍّ وَاحِدٍ . يَقُولُ الْقَائِلُ : وَاَللَّهِ لَا أَفْعَلُهُ ثُمَّ وَاَللَّهِ لَا أَفْعَلُهُ إذَا أَرَادَ التَّوْكِيدَ وَحَسْمَ الْأَطْمَاعِ مِنْ أَنْ يَفْعَلَهُ كَمَا يَقُولُ : وَاَللَّهِ أَفْعَلُهُ ؟ بِإِضْمَارِ " لَا " إذَا أَرَادَ الِاخْتِصَارَ . وَيَقُولُ لِلْمُرْسِلِ . الْمُسْتَعْجِلِ : اعْجَلْ اعْجَلْ وَالرَّامِي : ارْمِ ارْمِ ؛ قَالَ الشَّاعِرُ :

كَمْ نِعْمَةٍ كَانَتْ لَكُمْ وَكَمْ وَكَمْ ؟

وَقَالَ الْآخَرُ :

(193/835)

هَلْ سَأَلْت جُمُوعَ كِنْ ... دَةَ يَوْمَ وَلَّوْا أَيْنَ أَيْنَا ؟

وَرُبَّمَا جَاءَتْ الصِّفَةُ فَأَرَادُوا تَوْكِيدَهَا وَاسْتَوْحَشُوا مِنْ إعَادَتِهَا ثَانِيَةً لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ فَغَيَّرُوا مِنْهَا حَرْفًا . قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : فَلَمَّا عَدَّدَ اللَّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ إنْعَامَهُ وَذَكَّرَ عِبَادَهُ آلَاءَهُ وَنَبَّهَهُمْ عَلَى قُدْرَتِهِ جَعَلَ كُلَّ كَلِمَةٍ فَاصِلَةً بَيْنَ نِعْمَتَيْنِ لِتُفْهِيمِهِمْ النِّعَمَ وَتَقْرِيرِهِمْ بِهَا كَقَوْلِك

لِلرَّجُلِ : أَلَمْ أُنْزِلْكَ مُنْزَلًا وَكُنْتَ طَرِيدًا ؟ أَفَتُنْكِرُ هَذَا ؟ أَلَمْ أَحُجَّ بِكَ وَكُنْتَ صرورا ؟ أَفَتُنْكِرُ هَذَا ؟ . قُلْت قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : تَكْرَارُ الْكَلَامِ فِي ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ .

(194/835)

لِتَكْرَارِ الْوَقْتِ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا : إنْ سَرَّكَ أَنْ نَدْخُلَ فِي دِينِك عَامًا فَادْخُلْ فِي دِينِنَا عَامًا . فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ . قُلْت : هَذَا الْكَلَامُ الَّذِي ذَكَرَهُ بِإِعَادَةِ اللَّفْظِ وَإِنْ كَانَ كَلَامُ الْعَرَبِ وَغَيْرِ الْعَرَبِ فَإِنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ يُؤَكِّدُونَ إمَّا فِي الطَّلَبِ وَإِمَّا فِي الْخَبَرِ بِتَكْرَارِ الْكَلَامِ . وَمِنْهُ ﴿ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاَللَّهِ لَأَغْزُوَنَّ قُرَيْشًا ثُمَّ وَاَللَّهِ لَأَغْزُوَنَّ قُرَيْشًا ثُمَّ وَاَللَّهِ لَأَغْزُوَنَّ قُرَيْشًا . ثُمَّ قَالَ : إنْ شَاءَ اللَّهُ . ثُمَّ لَمْ يَغْزُهُمْ ﴾ " . وَرُوِيَ عَنْهُ ﴿ أَنَّهُ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ كَانَ يَقُودُ بِهِ حُذَيْفَةُ وَيَسُوقُ بِهِ عَمَّارٌ فَخَرَجَ بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا حَتَّى صَعِدُوا الْعَقَبَةَ رُكْبَانًا مُتَلَثِّمِينَ وَكَانُوا قَدْ أَرَادُوا الْفَتْكَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِحُذَيْفَةَ : قُدْ قُدْ وَلِعَمَّارِ : سُقْ سُقْ ﴾ . فَهَذَا أَكْثَرُ لَكِنْ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذَا شَيْءٌ . فَإِنَّ الْقُرْآنَ لَهُ شَأْنٌ اخْتَصَّ بِهِ لَا يُشْبِهُهُ كَلَامُ الْبَشَرِ لَا كَلَامُ نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ نَزَلَ بِلُغَةِ الْعَرَبِ . فَلَا يَقْدِرُ مَخْلُوقٌ أَنْ يَأْتِيَ بِسُورَةِ وَلَا بِبَعْضِ سُورَةٍ مِثْلِهِ . فَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ تَكْرَارٌ لِلَّفْظِ بِعَيْنِهِ عَقِبَ الْأَوَّلِ قَطُّ . وَإِنَّمَا فِي

سُورَةِ الرَّحْمَنِ خِطَابُهُ بِذَلِكَ بَعْدَ كُلِّ آيَةٍ لَمْ يَذْكُرْ مُتَوَالِيًا . وَهَذَا النَّمَطُ أَرْفَعُ مِنْ الْأَوَّلِ . وَكَذَلِكَ قَصَصُ الْقُرْآنِ لَيْسَ فِيهَا تَكْرَارٌ كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُهُمْ . و ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ لَيْسَ فِيهَا لَفْظُ تَكْرَارٍ إلَّا قَوْلُهُ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ وَهُوَ مَعَ الْفَصْلِ بَيْنَهُمَا بِجُمْلَةِ . وَقَدْ شَبَّهُوا مَا فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ بِقَوْلِ الْقَائِلِ لِمَنْ أَحْسَنَ إلَيْهِ وَتَابَعَ عَلَيْهِ بِالْأَيَادِي وَهُوَ يُنْكِرُهَا وَيَكْفُرُهَا : أَلَمْ تَكُ فَقِيرًا فَأَغْنَيْتُك ؟ أَفَتُنْكِرُ هَذَا ؟ أَلَمْ تَكُ عُرْيَانًا فَكَسَوْتُك ؟ أَفَتُنْكِرُ هَذَا ؟ أَلَمْ تَكُ خَامِلًا فَعَرَّفْتُك ؟ وَنَحْوُ ذَلِكَ . وَهَذَا أَقْرَبُ مِنْ التَّكْرَارِ الْمُتَوَالِي كَمَا فِي الْيَمِينِ الْمُكَرَّرَةِ . وَكَذَلِكَ مَا يَقُولُهُ بَعْضُهُمْ إنَّهُ قَدْ يَعْطِفُ الشَّيْءَ لِمُجَرَّدِ تَغَايُرِ اللَّفْظِ كَقَوْلِهِ : فَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِبًا وَمَيْنَا فَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذَا شَيْءٌ . وَلَا يَذْكُرُ فِيهِ لَفْظًا زَائِدًا إلَّا لِمَعْنَى زَائِدٍ وَإِنْ كَانَ فِي ضِمْنِ ذَلِكَ التَّوْكِيدِ وَمَا يَجِيءُ مِنْ زِيَادَةِ اللَّفْظِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فَالْمَعْنَى مَعَ هَذَا أَزْيَدُ مِنْ الْمَعْنَى بِدُونِهِ . فَزِيَادَةُ اللَّفْظِ لِزِيَادَةِ الْمَعْنَى وَقُوَّةُ اللَّفْظِ لِقُوَّةِ الْمَعْنَى . وَالضَّمُّ أَقْوَى

مِنْ الْكَسْرِ وَالْكَسْرُ أَقْوَى مِنْ الْفَتْحِ . وَلِهَذَا يَقْطَعُ عَلَى الضَّمِّ لِمَا هُوَ أَقْوَى مِثْلُ " الْكُرْه " و " الْكَرْه " . فَالْكُرْهُ هُوَ الشَّيْءُ الْمَكْرُوه كَقَوْلِهِ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ﴾ وَالْكَرْهُ الْمَصْدَرُ كَقَوْلِهِ ﴿ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ . وَالشَّيْءُ الَّذِي فِي نَفْسِهِ مَكْرُوهٌ أَقْوَى مِنْ نَفْسِ كَرَاهَةِ الْكَارِهِ . وَكَذَلِكَ " الذِّبْحُ " و " الذَّبْحُ " فَالذِّبْحُ : الْمَذْبُوحُ كَقَوْلِهِ ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ وَالذَّبْحُ : الْفِعْلُ . وَالذِّبْحُ . مَذْبُوحٌ وَهُوَ جَسَدٌ يُذْبَحُ فَهُوَ أَكْمَلُ مِنْ نَفْسِ الْفِعْلِ .

قَالَ أَبُو الْفَرَجِ : وَالْقَوْلُ الثَّانِي أَنَّ الْمَعْنَى : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فِي حَالِي هَذِهِ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ ﴾ فِي حَالِكُمْ هَذِهِ ﴿ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ فِي مَا اسْتَقْبَلَ وَكَذَلِكَ ﴿ أَنْتُمْ ﴾ فَنَفَى عَنْهُمْ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ . وَهَذَا فِي قَوْمٍ بِأَعْيَانِهِمْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ كَمَا ذَكَرْنَاهُ عَنْ مُقَاتِلٍ . فَلَا يَكُونُ حِينَئِذٍ تَكْرَارٌ . قَالَ : وَهَذَا قَوْلُ ثَعْلَبٍ وَالزَّجَّاجِ . قُلْت : قَدْ ذَكَرَ الْقَوْلَيْنِ جَمَاعَةٌ لَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ الْقَوْلَ الْأَوَّلَ قَوْلَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْمَعَانِي . فَقَالُوا وَاللَّفْظُ لِلْبَغَوِيِّ : مَعْنَى الْآيَةِ : لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ فِي الْحَالِ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ فِي الِاسْتِقْبَالِ

وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ فِي الِاسْتِقْبَالِ . وَهَذَا خِطَابٌ لِمَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . قَالَ وَقَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْمَعَانِي : نَزَلَ بِلِسَانِ الْعَرَبِ عَلَى مَجَارِي خِطَابِهِمْ . وَمِنْ مَذَاهِبِهِمُ التَّكْرَارُ إِرَادَةً لِلتَّوْكِيدِ وَالْإِفْهَامِ كَمَا أَنَّ مِنْ مَذَاهِبِهِمُ الِاخْتِصَارَ لِلتَّخْفِيفِ وَالْإِيجَازِ . قُلْت : وَمِنْ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ غَيْرَ الثَّانِي مِنْهُمْ المهدوي وَابْنُ عَطِيَّةَ . قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ : لَمَّا كَانَ قَوْلُهُ : ﴿ لَا أَعْبُدُ ﴾ مُحْتَمِلًا أَنْ يُرَادَ بِهِ الْآنَ وَيَبْقَى الْمُسْتَأْنَفُ مُنْتَظَرًا مَا يَكُونُ فِيهِ مِنْ عِبَادَتِهِ جَاءَ الْبَيَانُ بِقَوْلِهِ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ أَيْ أَبَدًا مَا حَيِيت . ثُمَّ جَاءَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ الثَّانِي حَتْمًا عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ أَبَدًا كَالَّذِينَ كَشَفَ الْغَيْبَ عَنْهُمْ كَمَا قِيلَ لِنُوحِ ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ أَمَا إنَّ هَذَا فَخِطَابٌ لِمُعَيَّنِينَ وَقَوْمُ نُوحٍ قَدْ عَمُوا بِذَلِكَ . قَالَ : فَهَذَا مَعْنَى التَّرْدِيدِ الَّذِي فِي السُّورَةِ وَهُوَ بَارِعُ الْفَصَاحَةِ . وَلَيْسَ هُوَ بِتَكْرَارِ فَقَطْ بَلْ فِيهِ مَا ذَكَرْته مَعَ الْإِبْلَاغِ وَالتَّوْكِيدِ وَزِيَادَةُ الْأَمْرِ بَيَانًا وَتَبَرِّيًا مِنْهُمْ . قُلْت : هَذَا الْقَوْلُ أَجْوَدُ مِنْ الَّذِي قَبْلَهُ مِنْ جِهَةِ بَيَانِهِمْ لِمَعْنَى زَائِدٍ عَلَى التَّكْرِيرِ . لَكِنْ فِيهِ نَقْصٌ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى . وَهُوَ جَعْلُهُمْ هَذَا خِطَابًا لِمُعَيَّنِينَ فَنَقَصُوا مَعْنَى السُّورَةِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَهَذَا غَلَطٌ .

فَإِنَّ قَوْلَهُ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ خِطَابٌ لِكُلِّ كَافِرٍ وَكَانَ يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَدِينَةِ بَعْدَ مَوْتِ أُولَئِكَ الْمُعَيَّنِينَ وَيَأْمُرُ بِهَا وَيَقُولُ هِيَ بَرَاءَةٌ مِنْ الشِّرْكِ . فَلَوْ كَانَتْ خِطَابًا لِأُولَئِكَ الْمُعَيَّنِينَ أَوْ لِمَنْ عَلِمَ مِنْهُمْ أَنَّهُ يَمُوتُ كَافِرًا لَمْ يُخَاطِبْ بِهَا مَنْ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ مِنْهُ . وَأَيْضًا فَأُولَئِكَ الْمُعَيَّنُونَ إنْ صَحَّ أَنَّهُ إنَّمَا خَاطَبَهُمْ فَلَمْ يَكُنْ إذْ ذَاكَ عَلِمَ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ عَلَى الْكُفْرِ . وَالْقَوْلُ بِأَنَّهُ إنَّمَا خَاطَبَ بِهَا مُعَيَّنِينَ قَوْلٌ لَمْ يَقُلْهُ مَنْ يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ . وَلَكِنْ قَدْ قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ : إنَّهَا نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ وَالْمُسْتَهْزِئِينَ وَلَمْ يُؤْمِنْ مِنْ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِيهِمْ أَحَدٌ . وَنَقْلُ مُقَاتِلٍ وَحْدَهُ مِمَّا لَا يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَدِيثِ كَنَقْلِ الْكَلْبِيِّ . وَلِهَذَا كَانَ الْمُصَنِّفُونَ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ أَهْلِ النَّقْلِ لَا يَذْكُرُونَ عَنْ وَاحِدٍ مِنْهُمَا شَيْئًا كَمُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبِي بَكْرِ بْنِ الْمُنْذِرِ فَضْلًا عَنْ مِثْلِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ . وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُهُ هَذَا عَنْ قُرَيْشٍ مُطْلَقًا كَمَا رَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حميد

(199/835)

عَنْ وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ : قَالَتْ قُرَيْشٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنْ سَرَّكَ أَنْ نَدْخُلَ فِي دِينِك عَامًا وَتَدْخُلَ فِي دِينِنَا عَامًا فَنَزَلَتْ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَتْ قُرَيْشٌ : يَا مُحَمَّدُ لَوْ اسْتَلَمْت آلِهَتَنَا لَعَبَدْنَا إلَهَك فَنَزَلَتْ السُّورَةُ . وَعَنْ

قتادة قال : أمره الله أن ينادي الكفار فناداهم بقوله ﴿ يا أيها ﴾ . وروى ابن أبي حاتم عن وهب بن منبه . قال كفار قريش فذكره . وقال عكرمة : برأه الله بهذه السورة من عبدة جميع الأوثان ودين جميع الكفار وقال قتادة : أمر الله نبيه أن يتبرأ من المشركين فتبرأ منهم . وروى قتادة عن زرارة بن أوفى : كانت تسمى " المقشقشة " . يقال : قشقش فلان إذا برئ من مرضه فهي تبرئ . صاحبها من الشرك . وبهذا نعتها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث المعروف في المسند والترمذي من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق عن ﴿ فروة بن نوفل عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : مجيء ما جاء بك ؟ قال : جئت يا رسول الله لتعلمني شيئا أقوله عند منامي . قال : إذا أخذت مضجعك فاقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم نم على

خاتمتها فإنها براءة من الشرك ﴾ " . رواه غير واحد عن أبي إسحاق وكان تارة يسنده وتارة يرسله رواه عنه زهير وإسرائيل مسندا ؛ ورواه عنه شعبة ولم يذكر عن أبيه وقال " عن أبي إسحاق عن رجل عن فروة بن نوفل " ولم يقل " عن أبيه " . قال الترمذي : وحديث زهير أشبه وأصح من حديث شعبة . قال : وقد روي هذا الحديث من غير

هَذَا الْوَجْهِ فَرَوَاهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَوْفَلٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَوْفَلٍ هُوَ أَخُو فَرْوَةَ بْنِ نَوْفَلٍ . قُلْت : وَقَدْ رَوَاهُ عَنْ أَبِي إسْحَاقَ إسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ قَالَ : ﴿ جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَشْجَعَ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِي كَلَامًا أَقُولُهُ عِنْدَ مَنَامِي . قَالَ : إنَّك لَنَا ظِئْرٌ اقْرَأْ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ عِنْدَ مَنَامِك فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنْ الشِّرْكِ ﴾ " . فَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاحِدًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَقْرَأَهَا وَأَخْبَرَهُ أَنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنْ الشِّرْكِ . فَلَوْ كَانَ الْخِطَابُ لِمَنْ يَمُوتُ عَلَى الشِّرْكِ كَانَتْ بَرَاءَةً مِنْ دِينِ أُولَئِكَ فَقَطْ لَمْ تَكُنْ بَرَاءَةً مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي يُسْلِمُ صَاحِبُهُ فِيمَا بَعْدُ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ بَرَاءَةً مِنْ كُلِّ شِرْكٍ اعْتِقَادِيٍّ وَعَمَلِيٍّ .

(201/835)

وَقَوْلُهُ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ خِطَابٌ لِكُلِّ كَافِرٍ وَإِنْ أَسْلَمَ فِيمَا بَعْدُ . فَدِينُهُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ لَهُ كَانَ وَالْمُؤْمِنُونَ بَرِيئُونَ مِنْهُ وَإِنْ غَفَرَهُ اللَّهُ لَهُ بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ كَمَا قَالَ لِنَبِيِّهِ ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فَإِنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ مَعَاصِي أَصْحَابِهِ وَإِنْ تَابُوا مِنْهَا . وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ حَدَّثَنَا أَبِي ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى الجرشي ثَنَا أَبُو

خَلَفٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عِيسَى ثَنَا دَاوُدُ بْنُ أَبِي هِنْدٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ﴿ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ قُرَيْشًا دَعَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَنْ يُعْطُوهُ مَالًا فَيَكُونَ أَغْنَى رَجُلٍ فِيهِمْ وَيُزَوِّجُوهُ مَا أَرَادَ مِنَ النِّسَاءِ وَيَطَئُوا عَقِبَهُ أَيْ يُسَوِّدُوهُ فَقَالُوا : هَذَا لَكَ عِنْدَنَا يَا مُحَمَّدُ وَكُفَّ عَنْ شَتْمِ آلِهَتِنَا فَلَا تَذْكُرْهَا بِسُوءٍ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَإِنَّا نَعْرِضُ عَلَيْكَ خَصْلَةً وَاحِدَةً وَهِيَ لَكَ وَلَنَا فِيهَا صَلَاحٌ . قَالَ : مَا هِيَ ؟ . قَالُوا : تَعْبُدُ آلِهَتَنَا سَنَةَ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَنَعْبُدُ إِلَهَكَ سَنَةً . قَالَ حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَأْتِينِي مِنْ رَبِّي . فَجَاءَهُ الْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ إِلَى آخِرِهَا وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ

(202/835)

أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ خِطَابٌ لِكُلِّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَتُوبَ فِيمَا بَعْدُ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مُؤْمِنٍ يُخَاطِبُ بِهَذَا مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ .

وَقَوْلُهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ " ﴿ حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَأْتِينِي مِنْ رَبِّي ﴾ " قَدْ يَقُولُ هَذَا مَنْ يَقْصِدُ بِهِ

دفْعَ الظَّالِمِينَ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ لِيَجْعَلَ حُجَّتَهُ أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ طَاعَتُهُ قَدْ مَنَعَ مِنْ ذَلِكَ فَيُؤَخِّرُ الْجَوَابَ حَتَّى يَسْتَأْمِرَهُ وَإِنْ كَانَ هُوَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ الَّذِي قَالُوهُ لَا سَبِيلَ إلَيْهِ . وَقَدْ تُخْطَبُ إلَى الرَّجُلِ ابْنَتُهُ فَيَقُولُ : حَتَّى أُشَاوِرَ أُمَّهَا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ لَا يُزَوِّجَهَا بِذَلِكَ وَيَعْلَمُ أَنَّ أُمَّهَا لَا تُشِيرُ لَهُ . وَكَذَلِكَ قَدْ يَقُولُ النَّائِبُ : حَتَّى أُشَاوِرَ السُّلْطَانَ . فَلَيْسَ فِي مِثْلِ هَذَا الْجَوَابِ تَرَدُّدٌ وَلَا تَجْوِيزٌ مِنْهُ أَنَّ اللَّهَ يُبِيحُ لَهُ ذَلِكَ وَقَدْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ الَّذِينَ يَأْمُرُونَهُ وَأَصْحَابَهُ أَنْ يَعْبُدُوا غَيْرَ اللَّهِ وَيُقَاتِلُونَهُمْ وَيُعَادُونَهُمْ عَدَاوَةً عَظِيمَةً عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ تَابُوا وَأَسْلَمُوا وَقَرَءُوا هَذِهِ السُّورَةَ . وَمِنْ النَّقَلَةِ مَنْ يُعَيِّنُ نَاسًا غَيْرَ الَّذِينَ عَيَّنَهُمْ غَيْرُهُ . مِنْهُمْ مَنْ يَذْكُرُ أَبَا جَهْلٍ وَطَائِفَةً وَمِنْهُمْ مَنْ يَذْكُرُ عتبة بْنَ رَبِيعَةَ وَطَائِفَةً وَمِنْهُمْ مَنْ

يَذْكُرُ الْوَلِيدَ بْنَ مُغِيرَةَ وَطَائِفَةً . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : طَلَبُوا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ مَعَهُ عَامًا وَيَعْبُدَ آلِهَتَهُمْ مَعَهُمْ عَامًا . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : طَلَبُوا أَنْ يَسْتَلِمَ آلِهَتَهُمْ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : طَلَبُوا الِاشْتِرَاكَ كَمَا رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ إسْحَاقَ قَالَ : حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ مِينَاءَ مَوْلَى أَبِي البختري قَالَ ﴿ لَقِيَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ والعاص بْنُ وَائِلٍ وَالْأُسُودُ بْنُ الْمُطَّلِبِ وَأُمَيَّةُ بْنُ خَلَفٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : هَلُمَّ فَلْنَعْبُدْ مَا تَعْبُدُ وَتَعْبُدْ مَا نَعْبُدُ

وَلْنَشْتَرِكْ نَحْنُ وَأَنْتَ فِي أَمْرِنَا كُلِّهِ . فَإِنْ كَانَ الَّذِي جِئْتَ بِهِ خَيْرًا مِمَّا بِأَيْدِينَا كُنَّا قَدْ شَرِكْنَاكَ فِيهِ وَأَخَذْنَا بِحَظِّنَا مِنْهُ . وَإِنْ كَانَ الَّذِي بِأَيْدِينَا خَيْرًا مِمَّا بِيَدِكَ كُنْتَ قَدْ شَرِكْتَنَا فِي أَمْرِنَا وَأَخَذْتَ بِحَظِّكَ مِنْهُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ السُّورَةَ ﴾ . وَهَذَا مَنْقُولٌ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ وَفِيهِ أَنَّ الْقَائِلَ لَهُ عُتْبَةُ وَأُمَيَّةُ . فَهَذِهِ الرِّوَايَاتُ مُتَطَابِقَةٌ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَدْخُلَ فِي شَيْءٍ مِنْ دِينِهِمْ وَيَدْخُلُوا فِي شَيْءٍ مِنْ دِينِهِ ثُمَّ إِنْ كَانَتْ كُلُّهَا صَحِيحَةً فَقَدْ طَلَبَ مِنْهُ تَارَةً هَذَا وَتَارَةً هَذَا وَقَوْمٌ هَذَا وَقَوْمٌ هَذَا . وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَالْخِطَابُ لِلْمُشْرِكِينَ كُلِّهِمْ مَنْ مَضَى وَمَنْ يَأْتِي إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

(204/835)

وَقَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ . وَهَذِهِ مِلَّةُ إبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ وَهُوَ مَبْعُوثٌ بِمِلَّتِهِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ إلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾ ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾ . وَقَالَ الْخَلِيلُ أَيْضًا : ﴿ يَا قَوْمِ إنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ إنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . وَقَالَ ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ

الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ . وَقَالَ لِنَبِيِّهِ : ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ . فَقَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَتَبَرَّأَ مِنْ عَمَلِ كُلِّ مَنْ كَذَّبَهُ وَتَبَرِّيهِ هَذَا يَتَنَاوَلُ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلَ الْكِتَابِ . وَقَدْ ذَكَرَ الْمَهْدَوِيُّ هَذَا الْقَوْلَ وَذَكَرَ مَعَهُ قَوْلَيْنِ آخَرَيْنِ . فَقَالَ : الْأَلِفُ وَاللَّامُ تَرْجِعُ إلَى مَعْهُودٍ وَإِنْ كَانَتْ لِلْجِنْسِ حَيْثُ كَانَتْ صِفَةً لِأَنَّ (أَيُّهَا) مُخَاطَبَةٌ لِمَنْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَنْ يَمُوتَ كَافِرًا . فَهِيَ مِنْ الْخُصُوصِ الَّذِي جَاءَ بِلَفْظِ الْعُمُومِ . وَتَكْرِيرُ مَا كَرَّرَ فِيهَا لَيْسَ بِتَكْرِيرٍ فِي الْمَعْنَى وَلَا فِي اللَّفْظِ سِوَى

(205/835)

مَوْضِعٍ وَاحِدٍ مِنْهَا . فَإِنَّهُ تَكْرِيرٌ فِي اللَّفْظِ دُونَ الْمَعْنَى . بَلْ مَعْنَى ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فِي الْحَالِ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ فِي الْحَالِ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ فِي الِاسْتِقْبَالِ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ فِي الِاسْتِقْبَالِ . قَالَ : فَقَدْ اخْتَلَفَ اللَّفْظُ وَالْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ ﴿ لَا أَعْبُدُ ﴾ وَمَا بَعْدَهُ ﴿ وَلَا أَنَا ﴾ . وَتَكَرَّرَ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ فِي اللَّفْظِ دُونَ الْمَعْنَى . قَالَ : وَقِيلَ إنَّ مَعْنَى الْأَوَّلِ : وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا عَبَدْت وَمَعْنَى الثَّانِي : وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . فَعَدَلَ عَنْ لَفْظِ " عَبَدْت " لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ مَا عَبَدَ

فِي الْمَاضِي هُوَ الَّذِي يَعْبُدُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ قَدْ يَقَعُ أَحَدُهُمَا مَوْقِعَ الْآخَرِ . وَأَكْثَرُ مَا يَأْتِي ذَلِكَ فِي إِخْبَارِ اللَّهِ تَعَالَى . وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ " مَا " وَالْفِعْلُ مَصْدَرًا وَقِيلَ إِنَّ مَعْنَى الْآيَاتِ وَتَقْدِيرَهَا : قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ الْأَصْنَامَ . الَّذِي تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ الَّذِي أَعْبُدُهُ لِإِشْرَاكِكُمْ بِهِ وَاتِّخَاذِكُمْ مَعَهُ الْأَصْنَامَ . فَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ تَعْبُدُونَهُ فَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ لِأَنَّكُمْ تَعْبُدُونَهُ مُشْرِكِينَ بِهِ . فَأَنَا لَا أَعْبُدُ مَا عَبَدْتُمْ أَيْ مِثْلَ عِبَادَتِكُمْ . فَهُوَ فِي الثَّانِي مَصْدَرٌ . وَكَذَلِكَ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ هُوَ فِي الثَّانِي مَصْدَرٌ أَيْضًا مَعْنَاهُ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مِثْلَ عِبَادَتِي الَّتِي هِيَ تَوْحِيدٌ .

(206/835)

قُلْت : الْقَوْلُ الثَّالِثُ هُوَ فِي مَعْنَى الثَّانِي لَكِنْ جَعَلَ قَوْلَهُ : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا بِمَعْنَى " مَا عَبَدْت " وَالْآخَرَ بِمَعْنَى " مَا أَعْبُدُ " لِيُطَابِقَ قَوْلَهُ لَهُمْ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ . فَلَمَّا تَبَرَّأَ مِنْ أَنْ يَعْبُدَ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ مَا يَعْبُدُونَهُ فِي الْمَاضِي وَالْحَالِ كَذَلِكَ بَرَّأَهُمْ مِنْ عِبَادَةِ مَا يَعْبُدُ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ . لَكِنَّ الْعِبَارَةَ عَنْهُمْ وَقَعَتْ بِلَفْظِ الْمَاضِي . قَالَ هَؤُلَاءِ : وَإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ فِي حَقِّهِ : " مَا عَبَدْت " لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ مَا أَعْبُدُهُ فِي الْمَاضِي هُوَ الَّذِي أَعْبُدُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . قُلْت :

أَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ أَرَادُوا الْمُطَابَقَةَ كَمَا تَقَدَّمَ . لَكِنْ إذَا أُرِيدَ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ مَا أُرِيدَ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا أَعْبُدُ ﴾ فِي أَحَدِ الْمَوْضِعَيْنِ الْمَاضِي كَانَ التَّقْدِيرُ عَلَى مَا ذَكَرُوهُ : لَا أَنَا عَابِدٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَا عَبَدْتُمْ فِي الْمَاضِي . فَيَكُونُ قَدْ نَفَى عَنْ نَفْسِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ عِبَادَةَ مَا عَبَدُوهُ فِي الْمَاضِي دُونَ مَا يَعْبُدُونَهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أَيْ فِي الْمَاضِي فَسَوَاءٌ أُرِيدَ بِمَا يَعْبُدُونَ الْحَالُ أَوْ الِاسْتِقْبَالُ إنَّمَا نَفَى عِبَادَةَ مَا عَبَدُوهُ فِي الْمَاضِي . وَهَذَا أَنْقَصُ لِمَعْنَى الْآيَةِ . وَكَيْفَ يَتَبَرَّأُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ عِبَادَةِ مَا عَبَدُوهُ فِي الْمَاضِي فَقَطْ ؟ وَكَذَلِكَ هُمْ ؟

وَإِنْ قِيلَ : فِي الْمُسْتَقْبَلِ قَدْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ بِالِانْتِقَالِ عَنْ الْكُفْرِ فَهُوَ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ لَا يَعْبُدُ مَا عَبَدُوهُ قِيلَ : فَعَلَى هَذَا لَا يُقَالُ لِهَؤُلَاءِ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَا عَبَدْت فِي الْمَاضِي بَلْ قَدْ يَعْبُدُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ إذَا انْتَقَلُوا رَبَّهُ الَّذِي عَبَدَهُ فِيمَا مَضَى . وَإِنْ قِيلَ : قَوْلُ هَؤُلَاءِ هُوَ الْقَوْلُ الثَّانِي لَا أَعْبُدُ فِي الْحَالِ مَا تَعْبُدُونَ فِي الْحَالِ وَلَا أَعْبُدُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَا تَعْبُدُونَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ قِيلَ : وَلَفْظُ الْآيَةِ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ لَيْسَ لَفْظُهَا " وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا تَعْبُدُونَ " . فَقَوْلُهُ : ﴿ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ إنْ أُرِيدَ بِهِ الْمَاضِي الَّذِي أَرَادَهُ هَؤُلَاءِ

فَسَدَ الْمَعْنَى وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ الْمُسْتَقْبَلُ بَطَلَ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ أَنَّ الْمُضَارِعَ بِمَعْنَى الْمَاضِي فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ فَإِنَّ الْمَاضِيَ هُنَا بِمَعْنَى الْمُضَارِعِ . فَإِذَا كَانَ الْمُضَارِعُ مُطَابِقًا لَهُ بَقِيَ مُضَارِعًا لَمْ يَنْتَقِلْ إلَى الْمَاضِي فَيَكُونُ عَكْسَ الْمَقْصُودِ . وَالْقَوْلُ الرَّابِعُ الَّذِي ذَكَرَهُ قَوْلُ مَنْ جَعَلَ " مَا " مَصْدَرِيَّةً فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ دُونَ الْأُخْرَى . وَهَذَا أَيْضًا لَيْسَ فِي الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا . وَإِذَا جُعِلَتْ فِي الْجُمَلِ كُلِّهَا مَصْدَرِيَّةً كَانَ أَقْرَبَ إلَى الصَّوَابِ مَعَ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي تَدُلُّ عَلَيْهِ " مَا " الْمَصْدَرِيَّةُ حَاصِلٌ بِقَوْلِهِ " مَا " . فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ " وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَنْ أَعْبُدُ " بَلْ قَالَ ﴿ مَا

أَعْبُدُ ﴾ .

وَلَفْظُ " مَا " يَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ بِخِلَافِ " مَنْ " . فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْعَيْنِ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ أَيْ الطَّيِّبَ ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ أَيْ وَبَانِيهَا . وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ : ﴿ إذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ " مَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي " . وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ سَوَاءٌ . فَالْمَعْنَى : لَا أَعْبُدُ مَعْبُودَكُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَعْبُودِي . فَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ يَتَنَاوَلُ

شِرْكَهُمْ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ لِلَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ الْعَمَلِ إلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ . فَإِذَا أَشْرَكُوا بِهِ لَمْ يَكُونُوا عَابِدِينَ لَهُ وَإِنْ دَعَوْهُ وَصَلَّوْا لَهُ . وَأَيْضًا فَمَا عَبَدُوا مَا يَعْبُدُهُ وَهُوَ الْمَوْصُوفُ بِأَنَّهُ مَعْبُودٌ لَهُ عَلَى جِهَةِ الِاخْتِصَاصِ . بَلْ هَذَا يَتَنَاوَلُ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ وَيَتَنَاوَلُ الرَّبَّ الَّذِي أَخْبَرَ بِهِ بِمَا لَهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ . فَمَنْ كَذَّبَ بِهِ فِي بَعْضِ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ فَمَا عَبَدَ مَا يَعْبُدُهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ . وَأَيْضًا فَالشَّرَائِعُ قَدْ تَتَنَوَّعُ فِي الْعِبَادَاتِ فَيَكُونُ الْمَعْبُودُ وَاحِدًا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ الْعِبَادَةُ مِثْلَ الْعِبَادَةِ . وَهَؤُلَاءِ لَا يُتَبَرَّأُ مِنْهُمْ . فَكُلُّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ .

(209/835)

مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ فَهُوَ مُسْلِمٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَلَكِنَّ عِبَادَتَهُ لَا تَكُونُ إلَّا بِمَا شَرَعَهُ . فَلَوْ قَالَ : لَا أَعْبُدُ عِبَادَتَكُمْ وَلَا تَعْبُدُونَ عِبَادَتِي فَقَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ تَدْخُلُ فِيهِ الْبَرَاءَةُ مِنْ كُلِّ عِبَادَةٍ تُخَالِفُ صُورَتُهَا صُورَةَ عِبَادَتِهِ . وَإِنَّمَا الْبَرَاءَةُ مِنْ الْمَعْبُودِ وَعِبَادَتِهِ .

فَصْلٌ :

إذَا تَبَيَّنَ هَذَا فَنَقُولُ : الْقُرْآنُ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ وَهُوَ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ . وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنْ بَنِي آدَمَ لَهُ عِلْمٌ أَوْ حِكْمَةٌ أَوْ خُطْبَةٌ أَوْ قَصِيدَةٌ أَوْ مُصَنَّفٌ فَهَذَّبَ أَلْفَاظَ ذَلِكَ وَأَتَى فِيهِ بِمِثْلِ هَذَا التَّغَايُرِ لَعُلِمَ أَنَّهُ قَصَدَ فِي ذَلِكَ حِكْمَةً وَأَنَّهُ لَمْ يُخَالِفْ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ مَعَ

اتِّحَادِ الْمَعْنَى سُدًى . فَكَيْفَ بِكَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ لَا سِيَّمَا وَقَدْ قَالَ فِيهِ ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ . فَنَقُولُ : الْفِعْلُ الْمُضَارِعُ هُوَ فِي اللُّغَةِ يَتَنَاوَلُ الزَّمَنَ الدَّائِمَ سِوَى الْمَاضِي فَيَعُمُّ الْحَاضِرَ وَالْمُسْتَقْبَلَ كَمَا قَالَ سِيبَوَيْهِ : وَبُنُوهُ لِمَا مَضَى مِنْ

(210/835)

الزَّمَانِ وَلِمَا هُوَ دَائِمٌ لَمْ يَنْقَطِعْ وَلِمَا لَمْ يَأْتِ بِمَعْنَى الْمَاضِي وَالْمُضَارِعِ وَفِعْلِ الْأَمْرِ . فَجُعِلَ الْمُضَارِعُ لِمَا هُوَ مِنَ الزَّمَانِ دَائِمًا لَمْ يَنْقَطِعْ وَقَدْ يَتَنَاوَلُ الْحَاضِرَ وَالْمُسْتَقْبَلَ . فَقَوْلُهُ ﴿ لَا أَعْبُدُ ﴾ يَتَنَاوَلُ نَفْيَ عِبَادَتِهِ لِمَعْبُودِهِمْ فِي الزَّمَانِ الْحَاضِرِ وَالزَّمَانِ الْمُسْتَقْبَلِ وَقَوْلُهُ ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يَتَنَاوَلُ مَا يَعْبُدُونَهُ فِي الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ كِلَاهُمَا مُضَارِعٌ . وَقَالَ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ عَنْ نَفْسِهِ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ . فَلَمْ يَقُلْ "لَا أَعْبُدُ" بَلْ قَالَ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ ﴾ . وَلَمْ يَقُلْ "مَا تَعْبُدُونَ" بَلْ قَالَ ﴿ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ . فَاللَّفْظُ فِي فِعْلِهِ وَفِعْلِهِمْ مُغَايِرٌ لِلَّفْظِ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى . وَالنَّفْيُ بِهَذِهِ الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ أَعَمُّ مِنَ النَّفْيِ بِالْأُولَى . فَإِنَّهُ قَالَ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ بِصِيغَةِ الْمَاضِي . فَهُوَ يَتَنَاوَلُ مَا عَبَدُوهُ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً شَتَّى . وَلَيْسَ مَعْبُودُهُمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ هُوَ الْمَعْبُودَ فِي الْوَقْتِ الْآخَرِ

كَمَا أَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ لَهَا مَعْبُودٌ سِوَى مَعْبُودِ الطَّائِفَةِ الْأُخْرَى . فَقَوْلُهُ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ بَرَاءَةٌ مِنْ كُلِّ مَا عَبَدُوهُ فِي الْأَزْمِنَةِ

الْمَاضِيَةِ كَمَا تَبَرَّأَ أَوَّلًا مِمَّا عَبَدُوهُ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ . فَتَضَمَّنَتْ الْجُمْلَتَانِ الْبَرَاءَةَ مِنْ كُلِّ مَا يَعْبُدُهُ الْمُشْرِكُونَ وَالْكَافِرُونَ فِي كُلِّ زَمَانٍ مَاضٍ وَحَاضِرٍ وَمُسْتَقْبَلٍ . وَقَوْلُهُ أَوَّلًا : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ لَا يَتَنَاوَلُ هَذَا كُلَّهُ . وَقَوْلُهُ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ ﴾ اسْمُ فَاعِلٍ قَدْ عَمِلَ عَمَلَ الْفِعْلِ لَيْسَ مُضَافًا فَهُوَ يَتَنَاوَلُ الْحَالَ وَالِاسْتِقْبَالَ أَيْضًا . لَكِنَّهُ جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ وَالنَّفْيُ بِمَا بَعْدَ الْفِعْلِ فِيهِ زِيَادَةُ مَعْنًى كَمَا تَقُولُ : مَا أَفْعَلُ هَذَا وَمَا أَنَا بِفَاعِلِهِ . وَقَوْلُك " مَا هُوَ بِفَاعِلِ هَذَا أَبَدًا " أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِك " مَا يَفْعَلُهُ أَبَدًا " . فَإِنَّهُ نَفَى عَنْ الذَّاتِ صُدُورَ هَذَا الْفِعْلِ عَنْهَا بِخِلَافِ قَوْلِك " مَا يَفْعَلُ هَذَا " فَإِنَّهُ لَا يَنْفِي إمْكَانَهُ وَجَوَازَهُ مِنْهُ . وَلَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لَهُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ ؛ بِخِلَافِ قَوْلِهِ " مَا هُوَ فَاعِلًا وَمَا هُوَ بِفَاعِلِ "كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ ﴾ ﴿

وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ . وَلَا يُقَالُ : الْجُمْلَةُ الِاسْمِيَّةُ تُرِكَ الثُّبُوتِ وَنَفْيُ ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي نَفْيَ

(212/835)

الْعَارِضِ . فَإِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ فِي مَعْنَى الْفِعْلِيَّةِ نَفْيٌ لِكَوْنِهَا عَمِلَتْ عَمَلَ الْفِعْلِ . لَكِنَّهَا دَلَّتْ عَلَى اتِّصَافِ الذَّاتِ بِهَذَا فَنَفَتْ عَنْ الذَّاتِ أَنْ يَعْرِضَ لَهَا هَذَا الْفِعْلُ تَنْزِيهًا لِلذَّاتِ وَنَفْيًا لِقَبُولِهَا لِذَلِكَ . فَالْأَوَّلُ نَفْيُ الْفِعْلِ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالثَّانِي نَفْيُ قَبُولِهِ فِي الْمَاضِي مَعَ الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ . فَقَوْلُهُ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ أَيْ نَفْسِي لَا تَقْبَلُ وَلَا يَصْلُحُ لَهَا أَنْ تَعْبُدَ مَا عَبَدْتُمُوهُ قَطُّ وَلَوْ كُنْتُمْ عَبَدْتُمُوهُ فِي الْمَاضِي فَقَطْ . فَأَيُّ مَعْبُودٍ عَبَدْتُمُوهُ فِي وَقْتٍ فَأَنَا لَا أَقْبَلُ أَنْ أَعْبُدَهُ فِي وَقْتٍ مِنْ الْأَوْقَاتِ . فَفِي هَذَا مِنْ عُمُومِ عِبَادَتِهِمْ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ وَمِنْ قُوَّةِ بَرَاءَتِهِ وَامْتِنَاعِهِ وَعَدَمِ قَبُولِهِ لِهَذِهِ الْعِبَادَةِ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَانِ مَا لَيْسَ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى . تِلْكَ تَضَمَّنَتْ نَفْيَ الْفِعْلِ فِي الزَّمَانِ غَيْرِ الْمَاضِي وَهَذِهِ تَضَمَّنَتْ نَفْيَ إمْكَانِهِ وَقَبُولِهِ لِمَا كَانَ مَعْبُودًا لَهُمْ وَلَوْ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ الْمَاضِي فَقَطْ . وَالتَّقْدِيرُ : مَا عَبَدْتُمُوهُ وَلَوْ فِي بَعْضِ الْأَزْمَانِ الْمَاضِيَةِ فَأَنَا لَا يُمْكِنُنِي وَلَا يَسُوغُ لِي أَنْ أَعْبُدَهُ أَبَدًا . وَلَكِنْ

لَمْ يَنْفِ إلَّا مَا يَكُونُ مِنْهُ فِي الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بَرَاءَتُهُ هُوَ فِي الْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ . وَهَذِهِ السُّورَةُ يُؤْمَرُ بِهَا كُلُّ مُسْلِمٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَشْرَكَ بِاَللَّهِ قَبْلَ قِرَاءَتِهَا .

(213/835)

فَهُوَ يَتَبَرَّأُ فِي الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ مِمَّا يَعْبُدُهُ الْمُشْرِكُونَ فِي أَيِّ زَمَانٍ كَانَ وَيَنْفِي جَوَازَ عِبَادَتِهِ لِمَعْبُودِهِمْ وَيُبَيِّنُ أَنَّ مِثْلَ هَذَا لَا يَكُونُ وَلَا يَصْلُحُ وَلَا يَسُوغُ . فَهُوَ يَنْفِي جَوَازَهُ شَرْعًا وَوُقُوعًا . فَإِنَّ مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ لَا يُقَالُ إلَّا فِيمَا يُسْتَقْبَحُ مِنْ الْأَفْعَالِ كَمَنْ دُعِيَ إلَى ظُلْمٍ أَوْ فَاحِشَةٍ فَقَالَ : " أَنَا أَفْعَلُ هَذَا ؟ مَا أَنَا بِفَاعِلِ هَذَا أَبَدًا " . فَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ " لَا أَفْعَلُهُ أَبَدًا " . وَهَذَا كَقَوْلِهِ ﴿ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ . فَهُوَ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الْفِعْلِ بُغْضًا فِيهِ وَكَرَاهَةً لَهُ بِخِلَافِ قَوْلِهِ " لَا أَفْعَلُ " . فَقَدْ يَتْرُكُهُ الْإِنْسَانُ وَهُوَ يُحِبُّهُ لِغَرَضِ آخَرَ . فَإِذَا قَالَ " مَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ " دَلَّ عَلَى الْبُغْضِ وَالْكَرَاهَةِ وَالْمَقْتِ لِمَعْبُودِهِمْ وَلِعِبَادَتِهِمْ إيَّاهُ . وَهَذِهِ هِيَ الْبَرَاءَةُ . وَلِهَذَا تُسْتَعْمَلُ فِي ضِدِّ الْوِلَايَةِ فَيُقَالُ : تَوَلَّ فُلَانًا وَتَبَرَّأْ مِنْ فُلَانٍ . كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الْآيَةَ . وَأَمَّا قَوْلُهُ عَنْ الْكُفَّارِ : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ فَهُوَ خِطَابٌ لِجِنْسِ الْكُفَّارِ

وَإِنْ أَسْلَمُوا فِيمَا بَعْدُ فَهُوَ خِطَابٌ لَهُمْ مَا دَامُوا كُفَّارًا . فَإِذَا أَسْلَمُوا لَمْ يَتَنَاوَلْهُمْ ذَلِكَ . فَإِنَّهُمْ حِينَئِذٍ مُؤْمِنُونَ لَا كَافِرُونَ .

وَإِنْ كَانُوا مُنَافِقِينَ فَهُمْ كَافِرُونَ فِي الْبَاطِنِ فَيَتَنَاوَلُهُمْ الْخِطَابُ . وَهَذَا كَمَا يُقَالُ : قُلْ يَا أَيُّهَا الْمُحَارِبُونَ وَالْمُخَاصِمُونَ وَالْمُقَاتِلُونَ وَالْمُعَادُونَ . فَهُوَ خِطَابٌ لَهُمْ مَا دَامُوا مُتَّصِفِينَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ . وَمَا دَامَ الْكَافِرُ كَافِرًا فَإِنَّهُ لَا يَعْبُدُ اللَّهَ وَإِنَّمَا يَعْبُدُ الشَّيْطَانَ ؛ سَوَاءٌ كَانَ مُتَظَاهِرًا أَوْ غَيْرَ مُتَظَاهِرٍ بِهِ كَالْيَهُودِ . فَإِنَّ الْيَهُودَ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَإِنَّمَا يَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ لِأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ إنَّمَا تَكُونُ بِمَا شَرَعَ وَأَمَرَ . وَهُمْ وَإِنْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهُ فَتِلْكَ الْأَعْمَالُ الْمُبَدَّلَةُ وَالْمَنْهِيُّ عَنْهَا هُوَ يَكْرَهُهَا وَيُبْغِضُهَا وَيَنْهَى عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِبَادَةً . فَكُلُّ كَافِرٍ بِمُحَمَّدِ لَا يَعْبُدُ مَا يَعْبُدُهُ مُحَمَّدٌ مَا دَامَ كَافِرًا . وَالْفِعْلُ الْمُضَارِعُ يَتَنَاوَلُ مَا هُوَ دَائِمٌ لَا يَنْقَطِعُ . فَهُوَ مَا دَامَ كَافِرًا لَا يَعْبُدُ مَعْبُودَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا فِي الْحَاضِرِ وَلَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ . وَلَمْ يَقُلْ عَنْهُمْ " وَلَا تَعْبُدُونَ مَا أَعْبُدُ " بَلْ ذَكَرَ الْجُمْلَةَ الِاسْمِيَّةَ لِيُبَيِّنَ أَنَّ نَفْسَ نُفُوسِكُمْ الْخَبِيثَةِ الْكَافِرَةِ بَرِيئَةٌ مِنْ عِبَادَةِ إلَهِ مُحَمَّدٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَعْبُدَهُ مَا دَامَتْ كَافِرَةً . إذْ لَا تَكُونُ عَابِدَتَهُ إلَّا بِأَنْ تَعْبُدَهُ

وَحْدَهُ بِمَا أَمَرَ بِهِ عَلَى لِسَانِ مُحَمَّدٍ . وَمَنْ كَانَ كَافِرًا بِمُحَمَّدٍ لَا يَكُونُ عَمَلُهُ عِبَادَةً لِلَّهِ قَطُّ . وَتَبَرُّؤُهُمْ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ جَاءَتْ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ بِجُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ تَقْتَضِي بَرَاءَةَ ذَوَاتِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ لَمْ تَقْتَصِرْ عَلَى نَفْيِ الْفِعْلِ . وَلَمْ يَحْتَجْ أَنْ يَقُولَ فِيهِمْ " وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا عَبَدْتُ " كَمَا قَالَ فِي نَفْسِهِ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ لِوَجْهَيْنِ . أَحَدُهُمَا : أَنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ فَهُوَ مَأْمُورٌ بِقِرَاءَةِ هَذِهِ السُّورَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ مَعْبُودُهُ غَيْرَ اللَّهِ . فَلَوْ قَالَ " وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا عَبَدْتُ " لَقَالُوا : بَلْ نَحْنُ نَعْبُدُ مَا كُنْتَ تَعْبُدُ لَمَّا كُنْتَ مُشْرِكًا بِخِلَافِ مَا إذَا قَالَ " وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُهُ فِي هَذَا الْوَقْتِ " . وَلَمْ يَقُلْ " مَا أَنَا عَابِدٌ لَهُ " إذْ نَفْسُهُ قَدْ لَا تَكُونُ عَابِدَةً لَهُ مُطْلَقًا . وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَعْبُدَ الْوَاحِدُ مِنْ النَّاسِ غَيْرَ اللَّهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَلَا يَكُونُ مَنْ لَمْ يَعْبُدْ مَا يَعْبُدُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مَذْمُومًا بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُخَاطِبُ بِهَذِهِ السُّورَةِ غَيْرَهُ فَإِنَّهُ حِينَ يَقُولُهَا مَا يَعْبُدُ إلَّا اللَّهَ . فَهُوَ يَقُولُ لِلْكُفَّارِ " وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُهُ الْآنَ " . وَذَكَرَ النَّفْيَ عَنْ الْكُفَّارِ فِي الْجُمْلَتَيْنِ لِتَقَارُبِ كُلِّ جُمْلَةٍ جُمْلَةً . فَلَمَّا قَالَ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فَنَفَى الْفِعْلَ قَالَ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ .

ثُمَّ لَمَّا زَادَ النَّفْيُ بِنَفْيِ جَوَازِ ذَلِكَ وَبَرَاءَةِ النَّفْسِ مِنْهُ ذَكَرَ مَا يَدُلُّ عَلَى كَرَاهَتِهِ لَهُ وَقُبْحِهِ وَنَفَى أَنْ يَعْبُدَ شَيْئًا مِمَّا عَبَدُوهُ وَلَوْ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ قَالَ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ بَلْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِنْ عِبَادَةِ مَا أَعْبُدُهُ . فَلَيْسَ لِبَرَاءَتِي وَكَمَالِ بَرَاءَتِي وَبُعْدِي مِنْ مَعْبُودِكُمْ وَكَمَالِ قُرْبِي إلَى اللَّهِ فِي عِبَادَتِي لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ يَكُونُ لَكُمْ نَصِيبٌ مِنْ هَذِهِ الْعِبَادَةِ . بَلْ أَنْتُمْ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْحَالِ لَا تَعْبُدُونَ مَا أَعْبُدُ لَا فِي الْحَالِ الْأُولَى وَلَا فِي الثَّانِيَةِ . وَلَوْ اقْتَصَرَ فِي تَبَرِّيهِمْ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ عَلَى الْجُمْلَةِ الْأُولَى لَمْ يَكُنْ فِيهَا تَبْرِئَةٌ لَهُمْ فِي هَذِهِ الْحَالِ الثَّانِيَةِ . فَبَرَّأَهُمْ مِنْ مَعْبُودِهِ حِينَ الْبَرَاءَةِ الْأُولَى الْخَاصَّةِ وَحِينَ الْبَرَاءَةِ الثَّانِيَةِ الْعَامَّةِ الْقَاطِعَةِ . وَهُمْ لَمْ يَخْتَلِفْ حَالُهُمْ فِي الْحَالَيْنِ بَلْ هُمْ فِيهِمَا لَا يَعْبُدُونَ مَا يَعْبُدُ . فَلَمْ يَكُنْ فِي تَغْيِيرِ الْعِبَارَةِ فَائِدَةٌ وَإِنَّمَا غُيِّرَتْ الْعِبَارَةُ فِي حَقِّهِ وَحَقِّ الْمُؤْمِنِينَ لِتَغْيِيرِ الْمَعْنَيَيْنِ . وَالْإِنْسَانُ يَقْوَى يَقِينُهُ وَإِخْلَاصُهُ وَتَوْحِيدُهُ وَبَرَاءَتُهُ مِنْ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ وَبُغْضُهُ لِمَا يَعْبُدُونَ وَلِعِبَادَتِهِمْ فَرَفَعَ دَرَجَتَهُ فِي ذَلِكَ .

وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَقُولُ لِلْكُفَّارِ : " لَا تَعْبُدُونَ مَا أَعْبُدُ " فِي هَذِهِ الْحَالِ سَوَاءٌ كَانُوا هُمْ قَدْ زَادَ كُفْرُهُمْ وَبُغْضُهُمْ لَهُ أَوْ لَمْ يَزِدْ .

فَالْمَقْصُودُ بِالسُّورَةِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنْهُ . وَتَبَرِّيهِ مِنْهُمْ إنْشَاءٌ يُنْشِئُهُ كَمَا يُنْشِئُ الْمُتَكَلِّمُ بِالشَّهَادَتَيْنِ . وَهَذَا يَزِيدُ وَيَنْقُصُ . وَيَقْوَى وَيَضْعُفُ . وَأَمَّا هُمْ فَهُوَ يُخْبِرُ بِبَرَاءَتِهِمْ مِنْهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ لَا يُنْشِئُ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ . فَخِطَابُ الْمُؤْمِنِ عَنْ حَالِهِمْ خَبَرٌ عَنْ حَالِهِمْ وَالْخَبَرُ مُطَابِقٌ لِلْمُخْبَرِ عَنْهُ فَلَمْ يَتَغَيَّرْ لَفْظُ خَبَرِهِ عَنْهُمْ إذَا كَانُوا فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ أَوْقَاتِ عِبَادَتِهِ لِلَّهِ لَا يَعْبُدُونَ مَا يَعْبُدُ . فَهَذَا اللَّفْظُ الْخَبَرِيُّ مُطَابِقٌ لِحَالِهِمْ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ زَادُوا أَوْ نَقَصُوا . وَلَا يَجُوزُ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُنْشِئَ زِيَادَةً فِي كُفْرِهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مُحَرَّمٌ . بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ بِدُعَائِهِمْ إلَى الْإِيمَانِ . وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يُنْقِصَهُمْ فِي خَبَرِهِ عَمَّا هُمْ مُتَّصِفُونَ بِهِ . فَلَمْ يَكُنْ فِي الْإِخْبَارِ عَنْ حَالِهِمْ زِيَادَةٌ فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ وَلَا نَقْصٌ . فَلَمْ يُغَيِّرْ لَفْظَ الْخَبَرِ فِي الْحَالَيْنِ بِلَفْظٍ وَاحِدٍ . وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ نَفْسُهُ فَهُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُنْشِئَ قُوَّةَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَعِبَادَتَهُ وَحْدَهُ وَالْبَرَاءَةَ مِنْ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ وَعِبَادَتِهِ وَبَرَاءَتَهُ مِنْهُ وَمِنْ عَابِدِيهِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ وَإِنْ كَانَ لَفْظُهَا خَبَرًا فَفِيهَا مَعْنَى الْإِنْشَاءِ كَسَائِرِ أَلْفَاظِ الْإِنْشَاءَاتِ كَقَوْلِهِ " أَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ " وَقَوْلِهِ ﴿ إنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ إلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾

وَقَوْلِهِ ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ فَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ فِيهَا مَعْنَى الْإِنْشَاءِ لَهَا يُنْشِئُهُ الْمُؤْمِنُ فِي

(219/835)

نَفْسِهِ مِنْ زِيَادَةِ الْبَرَاءَةِ مِنْ الشِّرْكِ وَهِيَ الْمُقَشْقِشَةُ الَّتِي تُقَشْقِشُ مِنْ الشِّرْكِ كَمَا يُقَشْقَشُ الْمَرِيضُ مِنْ الْمَرَضِ . فَإِنَّ الشِّرْكَ وَالْكُفْرَ أَعْظَمُ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ . فَأَمَرَ الْمُؤْمِنَ بِقَوْلٍ يُوجِبُ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْبَرَاءَةِ مِنْ الشِّرْكِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِهِ قَبْلَ ذَلِكَ . وَكُلَّمَا قَالَهُ ازْدَادَ بَرَاءَةً مِنْ الشِّرْكِ وَقَلْبُهُ شِفَاءً مِنْ الْمَرَضِ وَإِنْ كَانَ الْكَفَرَةُ الْمُخَاطَبُونَ لَا يَزْدَادُونَ بِالْإِخْبَارِ عَنْهُمْ إلَّا كُفْرًا . فَالْجُمَلُ الْخَبَرِيَّةُ تُطَابِقُ الْمُخْبَرَ عَنْهُ وَالْإِنْشَاءُ يُوجِبُ إحْدَاثَ مَا لَمْ يَكُنْ . فَقِيلَ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أَيْ أَنَا مُمْتَنِعٌ مِنْ هَذَا تَارِكٌ لَهُ ثُمَّ قَالَ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ أَيْ أَنَا بَرِيءٌ مِنْ هَذَا مُتَنَزِّهٌ عَنْهُ ؛ مُزَكٍّ لِنَفْسِي مِنْهُ فَإِنَّ الشِّرْكَ أَعْظَمُ مَا تَنْجُسُ بِهِ النَّفْسُ وَأَعْظَمُ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَتَطْهِيرِهَا تَزْكِيَتُهَا مِنْهُ وَتَطْهِيرُهَا مِنْهُ . فَمَا أَنَا عَابِدٌ قَطُّ مَا عَبَدْتُمْ فِي وَقْتٍ مِنْ الْأَوْقَاتِ . وَأَنْتُمْ مَعَ ذَلِكَ مَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ بَلْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْبُدُ . وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ مَأْمُورٌ بِالْبَرَاءَةِ مِنْهُ وَطَالِبٌ زِيَادَةَ الْبَرَاءَةِ مِنْهُ وَمُجْتَهِدٌ فِي ذَلِكَ . وَأَنَا أُخْبِرُ عَنْكُمْ بِأَنَّكُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْبُدُ إمَّا لِكَوْنِكُمْ تُؤْمَرُونَ بِذَلِكَ وَإِمَّا

لِكَوْنِكُمْ تَعْبُدُونَهُ فَلَا أُخْبِرُ بِهِ فَإِنَّهُ كَذِبٌ . وَإِمَّا لِكَوْنِكُمْ تَجْتَهِدُونَ فِي الْبَرَاءَةِ وَتُبَالِغُونَ فِيهَا فِيهَا

تَخْتَلِفُ فِيهِ أَحْوَالُكُمْ .

وَأَنَا لَا يَسُوغُ لِي أَنْ أَذْكُرَ مَا يُزِيلُ بَرَاءَتَكُمْ وَلَا أُكْذِبُ عَلَيْكُمْ فَإِنَّكُمْ تَنْقُصُونَ مِنْهَا إِذَا تَبَرَّأْتُ بَلْ التَّبَرِّي مِنْهَا دَاعٍ وَبَاعِثٌ لِمَنْ لَهُ عَقْلٌ أَنْ يَنْظُرَ فِي سَبَبِ هَذِهِ الْبَرَاءَةِ لَا سِيَّمَا فِي حَقِّ الرَّسُولِ الَّذِي خُوطِبَ أَوَّلًا . بِقَوْلِهِ ﴿ قُلْ ﴾ . فَلْيَنْظُرْ الْعَاقِلُ فِي سَبَبِ بَرَاءَتِي مِنْ الشِّرْكِ وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَاخْتِيَارِي بِهِ عَدَاوَتَكُمْ وَالصَّبْرَ عَلَى أَذَاكُمْ وَاحْتِمَالِي هَذِهِ الْمَكَارِهَ الْعَظِيمَةَ . بَعْدَ مَا كُنْتُمْ تُعَظِّمُونِي غَايَةَ التَّعْظِيمِ وَتَصِفُونِي بِالْأَمَانَةِ وَتُسَمُّونِي " الْأَمِينَ " وَتُفَضِّلُونِي عَلَى غَيْرِي وَنَسَبِي فِيكُمْ أَفْضَلُ نَسَبٍ وَتَعْرِفُونَ مَا جَعَلَ اللَّهُ فِيَّ مِنْ الْعَقْلِ وَالْمَعْرِفَةِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَحُسْنِ الْمَقَاصِدِ وَطَلَبِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَأَنِّي لَا أَخْتَارُ لِأَحَدِ مِنْكُمْ سُوءًا وَلَا أُرِيدُ أَنْ أُصِيبَ أَحَدًا بِشَرِّ . فَاخْتِيَارِي لِلْبَرَاءَةِ مِمَّا تَعْبُدُونَ وَإِظْهَارِي لِسَبِّهِمْ وَشَتْمِهِمْ . أَهُوَ سُدًى لَيْسَ لَهُ مُوجِبٌ أَوْجَبَهُ ؟ فَانْظُرُوا فِي ذَلِكَ . فَفِي السُّورَةِ دُعَاءٌ وَبَعْثٌ لِلْكُفَّارِ إلَى طَلَبِ الْحَقِّ وَمَعْرِفَتِهِ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ كَمَالِ الْبَرَاءَةِ مِنْهُمْ . وَمَعَانِيهَا كَثِيرَةٌ شَرِيفَةٌ يَطُولُ

وَصْفَهَا .

وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ يَتَنَاوَلُ كُلَّ كَافِرٍ . فَهُوَ لَا يَعْبُدُ مَا يَعْبُدُهُ أَحَدٌ مِنْ الْكُفَّارِ وَلَا مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَلَا غَيْرِهِمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ

وَالْكُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا الْيَهُودَ وَلَا النَّصَارَى وَلَا غَيْرَهُمْ مِنْ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ . فَذَكَرَ لَفْظَ " مَا " وَلَمْ يَقُلْ " مَنْ تَعْبُدُونَ " . و " مَا " تَدُلُّ عَلَى الصِّفَةِ كَمَا تَقَدَّمَ وَمَا ذَكَرَهُ الْمهدوي وَغَيْرُهُ مِنْ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَا أَعْبُدُ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ " مَنْ أَعْبُدُ " يُقَابِلُ بِهِ ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ الَّذِي يُرَادُ بِهِ الْأَصْنَامُ فَضَعِيفٌ جِدًّا يُغَيِّرُ اللُّغَةَ وَيَخُصُّ عُمُومَ الْقُرْآنِ وَهُوَ عُمُومٌ مَقْصُودٌ وَيُزِيلُ الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ تَعَلَّقَتْ هَذِهِ الْبَرَاءَةُ . فَإِنَّ " مَا " فِي اللُّغَةِ إمَّا لِمَا لَا يَعْلَمُ ، وَلِصِفَاتِ مَا يُعْلَمُ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ ﴾ ﴿ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ وَفِي التَّسْبِيحِ الْمَأْثُورِ أَنَّهُ يُقَالُ عِنْدَ سَمَاعِ الرَّعْدِ : " سُبْحَانَ مَا سَبَّحَتْ لَهُ " وَمِثْلُهُ كَثِيرٌ . فَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ جَارٍ عَلَى أَصْلِ اللُّغَةِ . وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ خِطَابٌ لِلْكُفَّارِ مُطْلَقًا فَهُوَ لَا يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ مَا عَبَدَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ

فَعَبَّرَ عَنْ ذَوَاتِهِمْ بِـ " مَنْ " فَتَخْصِيصُ الْبَرَاءَةِ مِنْ الشِّرْكِ بِشِرْكِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ غَلَطٌ عَظِيمٌ وَإِنَّمَا هِيَ بَرَاءَةٌ مِنْ كُلِّ شِرْكٍ . وَكَوْنُ الرَّبِّ يَتَّصِفُ بِمَا تَتَّصِفُ بِهِ الْأَصْنَامُ مِنْ عَدَمِ الْعِلْمِ مَا لَا

(222/835)

يَجُوزُ عَلَيْهِ وَلَا تَصِحُّ الْمُقَابَلَةُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ . بَلْ الْمَقْصُودُ ذِكْرُ الصِّفَاتِ وَالْإِخْبَارُ بِمَعْبُودِ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ لِيَتَبَرَّأَ مِنْ مَعْبُودِهِمْ وَيُبَرِّئَهُمْ مِنْ مَعْبُودِهِ . وَإِذَا قَالَ الْيَهُودُ : نَحْنُ نَقْصِدُ عِبَادَةَ اللَّهِ . كَانُوا كَاذِبِينَ سَوَاءٌ عَرَفُوا أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ أَوْ لَمْ يَعْرِفُوا كَمَا يَقُولُ النَّصَارَى : إنَّا نَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ وَمَا نَحْنُ بِمُشْرِكِينَ وَهُمْ كَاذِبُونَ . لِأَنَّهُمْ لَوْ أَرَادُوا عِبَادَتَهُ لَعَبَدُوهُ بِمَا أَمَرَ بِهِ وَهُوَ الشَّرْعُ لَا بِالْمَنْسُوخِ الْمُبَدَّلِ . وَأَيْضًا فَالرَّبُّ الَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ عِبَادَتَهُ هُوَ عِنْدَهُمْ رَبٌّ لَمْ يُنْزِلْ الْإِنْجِيلَ وَلَا الْقُرْآنَ وَلَا أَرْسَلَ الْمَسِيحَ وَلَا مُحَمَّدًا . بَلْ هُوَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ فَقِيرٌ وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ بَخِيلٌ وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ عَاجِزٌ وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُغَيِّرَ مَا شَرَعَهُ . وَعِنْدَ جَمِيعِهِمْ أَنَّهُ أَيَّدَ الْكَاذِبِينَ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُ وَلَيْسُوا رُسُلَهُ بَلْ هُمْ كَاذِبُونَ سَحَرَةٌ . قَدْ أَيَّدَهُمْ وَنَصَرَهُمْ : وَنَصَرَ أَتْبَاعَهُمْ عَلَى أَوْلِيَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّهُمْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ أَوْلِيَاؤُهُ دُونَ النَّاسِ . فَالرَّبُّ الَّذِي يَعْبُدُونَهُ هُوَ دَائِمًا يَنْصُرُ أَعْدَاءَهُ . فَهُمْ يَعْبُدُونَ

هَذَا الرَّبَّ وَالرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنُونَ لَا يَعْبُدُونَ هَذَا الْمَعْبُودَ الَّذِي تَعْبُدُهُ الْيَهُودُ . فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَمَّا وَصَفَتْ بِهِ الْيَهُودُ مَعْبُودَهَا

مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ مَعْبُودًا لَهُمْ مُنَزَّهٌ عَنْ هَذِهِ الْإِضَافَةِ . فَلَيْسَ هُوَ مَعْبُودًا لِلْيَهُودِ وَإِنَّمَا فِي جِبِلَّاتِهِمْ صِفَاتٌ لَيْسَتْ هِيَ صِفَاتُهُ زَيَّنَهَا لَهُمُ الشَّيْطَانُ . فَهُمْ يَقْصِدُونَ عِبَادَةَ الْمُتَّصِفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ وَإِنَّمَا هُوَ الشَّيْطَانُ . فَالرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ لَا يَعْبُدُونَ شَيْئًا تَعْبُدُهُ الْيَهُودُ وَإِنْ كَانُوا يَعْبُدُونَ مَنْ يَعْبُدُونَهُ . وَهَذَا مِمَّا يَظْهَرُ بِهِ فَائِدَةُ مَا ذَكَرْنَا . وَعَلَى هَذَا فَقَوْلُهُ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ خِطَابٌ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ . وَبِهَذَا يَظْهَرُ خَطَأُ مَنْ قَالَ إِنَّهُ خِطَابٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَى دُونَ الْيَهُودِ كَمَا فِي قَوْلِ ابْنِ زَيْدٍ : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ قَالَ لِلْمُشْرِكِينَ وَالنَّصَارَى وَالْيَهُودِ لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا يُشْرِكُونَ إِلَّا أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِبَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ بِمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَكْفُرُونَ " بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَقَتَلُوا طَوَائِفَ الْأَنْبِيَاءِ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا . قَالَ : إِلَّا الْعِصَابَةَ الَّتِي تَقُولُ حَيْثُ خَرَجَ بُخْتُ نَصَّرَ وَقِيلَ : مَنْ سَمَّوْا عُزَيْرًا " ابْنَ اللَّهِ " وَلَمْ يَعْبُدُوهُ . وَلَمْ يَفْعَلُوا كَمَا فَعَلَتْ النَّصَارَى قَالَتْ : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَعَبَدَتْهُ . فَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ أَنَّ الْيَهُودَ لَا تُشْرِكُ كَمَا أَشْرَكَتْ الْعَرَبُ

وَالنَّصَارَى صَحِيحٌ لَكِنَّهُمْ مَعَ هَذَا لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ . بَلْ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَعْبُدُونَ الشَّيْطَانَ لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ . وَمَنْ

قَالَ إنَّ الْيَهُودَ

تَعْبُدُ اللَّهَ فَقَدْ غَلِطَ غَلَطًا قَبِيحًا . فَكُلُّ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ كَانَ سَعِيدًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَكَانَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ . قَالَ تَعَالَى ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إلَى الْيَمَنِ : إنَّك تَأْتِي قَوْمًا هُمْ أَهْلُ كِتَابٍ فَأَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ : ﴿ فَادْعُهُمْ إلَى عِبَادَةِ اللَّهِ فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَعْلِمْهُمْ . . . ﴾ " فَلَا يُعْبَدُ إلَّا اللَّهُ بَعْدَ أَنْ أَرْسَلَ مُحَمَّدًا وَعُرِفَتْ رِسَالَتُهُ وَبُلِّغَتْ . وَلِهَذَا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ أَعْمَالَهُمْ حَابِطَةٌ . وَلَوْ عَبَدُوا اللَّهَ لَمْ تَحْبَطْ أَعْمَالُهُمْ . فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا . وَقَبْلَ إرْسَالِ مُحَمَّدٍ إنَّمَا كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مَنْ عَبَدَهُ بِمَا أَمَرَ بِهِ . فَأَمَّا مَنْ تَرَكَ عِبَادَتَهُ بِمَا أَمَرَ بِهِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَهُوَ لَا يَعْبُدُ اللَّهَ إنَّمَا يَعْبُدُ الشَّيْطَانَ وَيَعْبُدُ الطَّاغُوتَ . وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ عَبَدُوا الطَّاغُوتَ وَأَنَّهُ لَعَنَهُمْ

وَغَضِبَ عَلَيْهِمْ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ . وَهُوَ اسْمُ جِنْسٍ يَدْخُلُ فِيهِ الشَّيْطَانُ وَالْوَثَنُ وَالْكُهَّانُ

وَالدِّرْهَمُ وَالدِّينَارُ وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَقَالَ تَعَالَى . ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ وَقَالَ ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ الْآيَةَ وَهُمْ أَشَدُّ عَدَاوَةً لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ النَّصَارَى وَكُفْرُهُمْ أَغْلَظُ وَهُمْ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ . وَلِهَذَا قِيلَ : إنَّهُمْ تَحْتَ النَّصَارَى فِي النَّارِ . وَالْيَهُودُ إنْ لَمْ يَعْبُدُوا الْمَسِيحَ فَقَدْ افْتَرَوْا عَلَيْهِ وَعَلَى أُمِّهِ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُفْرِ النَّصَارَى . وَلِهَذَا جَعَلَ اللَّهُ النَّصَارَى فَوْقَهُمْ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . فَالنَّصَارَى مُشْرِكُونَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَيُشْرِكُونَ بِهِ . وَأَمَّا الْيَهُودُ فَلَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ بَلْ هُمْ مُعَطِّلُونَ لِعِبَادَتِهِ مُسْتَكْبِرُونَ عَنْهَا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ اسْتَكْبَرُوا فَفَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ . بَلْ هُمْ مُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ عَابِدُونَ لِلشَّيْطَانِ . فَالنَّبِيُّ وَالْمُؤْمِنُونَ لَا يَعْبُدُونَ مَا تَعْبُدُهُ الْيَهُودُ . وَهُمْ وَإِنْ وَصَفُوا اللَّهَ بِبَعْضِ مَا يَسْتَحِقُّهُ فَهُمْ

يَصِفُونَهُ بِمَا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ . وَلَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ عِبَادَةٌ لَهُ وَحْدَهُ . فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا لِمَنْ عَبَدَهُ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ . وَالسُّورَةُ لَمْ يَقُلْ فِيهَا : "يَا أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ" حَتَّى يُقَالَ فِيهَا إنَّهَا

إنَّمَا تَنَاوَلَتْ مَنْ أَشْرَكَ . بَلْ قَالَ ﴿ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ فَتَنَاوَلَتْ كُلَّ كَافِرٍ سَوَاءٌ كَانَ مِمَّنْ يُظْهِرُ الشِّرْكَ أَوْ كَانَ فِيهِ تَعْطِيلٌ لِمَا يَسْتَحِقُّهُ اللَّهُ وَاسْتِكْبَارٌ عَنْ عِبَادَتِهِ . وَالتَّعْطِيلُ شَرٌّ مِنْ الشِّرْكِ وَكُلُّ مُعَطِّلٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُشْرِكًا . وَالنَّصَارَى مَعَ شِرْكِهِمْ لَهُمْ عِبَادَاتٌ كَثِيرَةٌ وَالْيَهُودُ مِنْ أَقَلِّ الْأُمَمِ عِبَادَةً وَأَبْعَدِهِمْ عَنْ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ . لَكِنْ قَدْ يَعْرِفُونَ مَا لَا تَعْرِفُهُ النَّصَارَى لَكِنْ بِلَا عِبَادَةٍ وَعَمَلٍ بِالْعِلْمِ . فَهُمْ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأُولَئِكَ ضَالُّونَ . وَكِلَاهُمَا قَدْ بَرَّأَ اللَّهُ مِنْهُمْ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ . وَفِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ يَعْرِفُ مَا لَا تَعْرِفُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى بِلَا عَمَلٍ بِالْعِلْمِ . فَفِيهِمْ شَبَهٌ كَمَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَة : مَنْ فَسَدَ مِنْ عُلَمَائِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنْ الْيَهُودِ وَمَنْ فَسَدَ مِنْ عِبَادِنَا كَانَ فِيهِ شَبَهٌ مِنْ النَّصَارَى . بَلْ قَدْ قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : مَا أَقْرَبَ اللَّيْلَةَ مِنْ الْبَارِحَةِ أَنْتُمْ أَشْبَهُ النَّاسِ بِبَنِي إسْرَائِيلَ . بَلْ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرِ وَذِرَاعًا بِذِرَاعِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ .

قَالُوا : الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى . قَالَ : فَمَنْ ؟ وَفِي رِوَايَةٍ : فَارِسُ وَالرُّومُ ؟ قَالَ : وَمَنْ النَّاسُ إلَّا أُولَئِكَ ﴾ ؟ " . وَقَالَ : " ﴿ افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَافْتَرَقَتْ

(227/835)

النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَسَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلَّا وَاحِدَةً ﴾ " . وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبُيِّنَ فِيهِ حَالُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الَّذِينَ هُمْ عَلَى مِثْلِ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ . وَمِمَّا يُوَضِّحُ مَا تَقَدَّمَ أَنَّ قَوْلَهُ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ مَعْنَاهُ الْمَعْبُودُ . وَلَكِنْ هُوَ لَفْظٌ مُطْلَقٌ يَتَنَاوَلُ الْوَاحِدَ وَالْكَثِيرَ وَالْمُذَكَّرَ وَالْمُؤَنَّثَ . فَهُوَ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَعْبُودٍ لَهُمْ . وَالْمَعْبُودُ هُوَ الْإِلَهُ فَكَأَنَّهُ قَالَ : لَا أَعْبُدُ إلَهَكُمْ وَلَا تَعْبُدُونَ إلَهِي كَمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي قِصَّةِ يَعْقُوبَ . قَالَ تَعَالَى ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ وَاسْمُ الْإِلَهِ وَالْمَعْبُودِ يَتَضَمَّنُ إضَافَةً إلَى الْعَابِدِ . وَقَالَ : ﴿ إلَهَ آبَائِكَ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ هُوَ الَّذِي يَعْبُدُهُ هَؤُلَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ وَيُؤَلِّهُونَهُ . وَإِنَّمَا يَعْبُدُهُ مَنْ

كَانَ عَلَى مِلَّتِهِمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ ﴿ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ

(228/835)

وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . فَتَبَيَّنَ أَنَّ مِلَّةَ آبَائِهِ هِيَ عِبَادَةُ اللَّهِ . وَهِيَ مِلَّةُ إبْرَاهِيمَ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالْيَهُودُ وَالنَّصَارَى لَيْسُوا عَلَى مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ وَإِذَا لَمْ يَكُونُوا عَلَى مِلَّتِهِ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَ إلَهَ إبْرَاهِيمَ . فَإِنَّ مَنْ عَبَدَ إلَهَ إبْرَاهِيمَ كَانَ عَلَى مِلَّتِهِ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ فَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يُبَيِّنُ أَنَّ مَا عَلَيْهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى يُنَافِي مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ . وَهَذَا بَعْدَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ مِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي بُعِثَ بِمِلَّةِ إبْرَاهِيمَ . وَالطَّائِفَتَانِ كَانَتَا خَارِجَتَيْنِ عَنْهَا بِمَا وَقَعَ مِنْهُمْ مِنْ التَّبْدِيلِ . قَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وَقَالَ ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا

قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ الْآيَةَ . وَقَالَ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ .
وَقَوْلُهُ ﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا

(229/835)

مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ ، يُبَيِّنُ
أَنَّ كُلَّ مَنْ رَغِبَ عَنْهَا فَقَدْ سَفِهَ نَفْسَهُ . وَفِيهِ مِنْ جِهَةِ الْإِعْرَابِ وَالْمَعْنَى قَوْلَانِ . أَحَدُهُمَا وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَّاءِ وَغَيْرِهِ مِنْ نُحَاةِ الْكُوفَةِ وَاخْتِيَارُ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَغَيْرِهِ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ أَكْثَرِ السَّلَفِ أَنَّ النَّفْسَ هِيَ الَّتِي سَفِهَتْ . فَإِنَّ " سَفِهَ " فِعْلٌ لَازِمٌ لَا يَتَعَدَّى لَكِنَّ الْمَعْنَى : إلَّا مَنْ كَانَ سَفِيهًا فَجَعَلَ الْفِعْلَ لَهُ وَنَصَبَ النَّفْسَ عَلَى التَّمْيِيزِ لَا النَّكِرَةِ كَقَوْلِهِ ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ . وَأَمَّا الْكُوفِيُّونَ فَعَرَفُوا هَذَا وَهَذَا . قَالَ الْفَرَّاءُ : نَصْبُ النَّفْسِ عَلَى التَّشْبِيهِ بِالتَّفْسِيرِ كَمَا يُقَالُ : ضِقْت بِالْأَمْرِ ذَرْعًا مَعْنَاهُ : ضَاقَ ذَرْعِي بِهِ . وَمِثْلُهُ ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أَيْ اشْتَعَلَ الشَّيْبُ فِي الرَّأْسِ . قَالَ : وَمِنْهُ قَوْلُهُ : أَلِمَ فُلَانٌ رَأْسَهُ وَوَجِعَ بَطْنَهُ وَرَشَدَ أَمْرَهُ . وَكَانَ الْأَصْلُ : سَفِهَتْ نَفْسُ زَيْدٍ وَرَشَدَ أَمْرُهُ فَلَمَّا حَوَّلَ الْفِعْلَ إلَى زَيْدٍ انْتَصَبَ مَا بَعْدَهُ عَلَى التَّمْيِيزِ . فَهَذِهِ شَوَاهِدُ عَرَفَهَا الْفَرَّاءُ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : غَبَنَ فُلَانٌ رَأْيَهُ وَبَطِرَ عَيْشَهُ . وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُهُ ﴿ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ أَيْ بَطِرَتْ نَفْسُ

الْمَعِيشَةِ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ يَمَانِ بْنِ رِبَابٍ : حَمِقَ رَأْيُهُ وَنَفْسُهُ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ السَّائِبِ : ضَلَّ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ وَقَوْلِ

أَبِي رَوْقٍ : عَجَزَ رَأْيُهُ عَنْ نَفْسِهِ . وَالْبَصْرِيُّونَ لَمْ يَعْرِفُوا ذَلِكَ . فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : جَهِلَ نَفْسَهُ كَمَا قَالَهُ ابْنُ كَيسان وَالزَّجَّاجُ . قَالَ : لِأَنَّ مَنْ عَبَدَ غَيْرَ اللَّهِ فَقَدْ جَهِلَ نَفْسَهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ خَالِقَهَا . وَهَذَا الَّذِي قَالُوهُ ضَعِيفٌ . فَإِنَّهُ إِنْ قِيلَ إِنَّ الْمَعْنَى صَحِيحٌ فَهُوَ إِنَّمَا قَالَ (سَفِهَ و " سَفُهَ " فِعْلٌ لَازِمٌ لَيْسَ بِمُتَعَدٍّ و " جَهِلَ " فِعْلٌ مُتَعَدٍّ . وَلَيْسَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ " سَفَّهْتُ كَذَا " أَلْبَتَّةَ بِمَعْنَى : جهلته . بَلْ قَالُوا : سَفُهَ بِالضَّمِّ سَفَاهَةً أَيْ صَارَ سَفِيهًا وَسَفِهَ بِالْكَسْرِ أَيْ حَصَلَ مِنْهُ سَفَهٌ كَمَا قَالُوا فِي " فَقِهَ وَفَقُهَ " . وَنَقَلَ بَعْضُهُمْ : سَفِهْتُ الشُّرْبَ إِذَا أَكْثَرْتَ مِنْهُ . وَهُوَ يُوَافِقُ مَا حَكَاهُ الْفَرَّاءُ أَيْ صَارَ شُرْبُهُ سَفِيهًا فَسَفِهَ شُرْبُهُ لَمَّا جَاوَزَ الْحَدَّ . وَقَالَ الْأَخْفَشُ وَيُونُسُ : نُصِبَ بِإِسْقَاطِ الْخَافِضِ أَيْ سَفِهَ فِي نَفْسِهِ . وَقَوْلُهُمْ " بِإِسْقَاطِ الْخَافِضِ " لَيْسَ هُوَ أَصْلًا فَيُعْتَبَرُ بِهِ وَلَكِنْ قَدْ تُنْزَعُ حُرُوفُ الْجَرِّ فِي مَوَاضِعَ مَسْمُوعَةٍ فَيَتَعَدَّى الْفِعْلُ بِنَفْسِهِ . وَإِنْ كَانَ مَقِيسًا فِي بَعْضِ الصُّوَرِ . ف " سَفِهَ " لَيْسَ مِنْ هَذَا لَا

يُقَالُ : سَفِهْت أَمْرَ اللَّهِ وَلَا دِينَ الْإِسْلَامِ بِمَعْنَى : جَهِلْته أَيْ سَفِهْت فِيهِ . وَإِنَّمَا يُوصَفُ بِالسَّفَهِ وَيُنْصَبُ عَلَى التَّمْيِيزِ مَا خُصَّ بِهِ .

(231/835)

مِثْلُ نَفْسِهِ أَوْ شُرْبِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ كُلَّ مَنْ رَغِبَ عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ فَهُوَ سَفِيهٌ . قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : رَغِبَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى عَنْ مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ وَابْتَدَعُوا الْيَهُودِيَّةَ والنصرانية وَلَيْسَتْ مِنْ اللَّهِ وَتَرَكُوا دِينَ إبْرَاهِيمَ . وَكَذَلِكَ قَالَ قتادة : بَدَّلُوا دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاتَّبَعُوا الْمَنْسُوخَ . فَأَمَّا مُوسَى وَالْمَسِيحُ وَمَنْ اتَّبَعَهُمَا فَهُمْ عَلَى مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ مُتَّبِعُونَ لَهُ وَهُوَ إمَامُهُمْ . وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ ﴿ إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . فَهُوَ يَتَنَاوَلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمَّدٍ وَبَعْدَ مَبْعَثِهِ . وَقِيلَ إنَّهُ عَامٌّ قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : كُلُّ مُؤْمِنٍ وَلِيٌّ إبْرَاهِيمَ مِمَّنْ مَضَى وَمِمَّنْ بَقِيَ . وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ : هُمْ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ صَدَّقُوا نَبِيَّ اللَّهِ وَاتَّبَعُوهُ وَكَانَ مُحَمَّدٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ . وَهَذَا وَغَيْرُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَلَيْسُوا عَلَى مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ . فَإِنْ قِيلَ : فَالْمُشْرِكُ يَعْبُدُ اللَّهَ وَغَيْرَهُ بِدَلِيلِ قَوْلِ الْخَلِيلِ ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴾ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ . فَقَدْ اسْتَثْنَاهُ مِمَّا يَعْبُدُونَ

فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّه . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾

(232/835)

وَاسْتَثْنَاهُ

أَيْضًا . وَفِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرِهِ حَدِيثُ ﴿ حُصَيْنٍ الخزاعي لَمَّا قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ ؟ قَالَ : سَبْعَةَ آلِهَةٍ سِتَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدٌ فِي السَّمَاءِ . قَالَ : فَمَنْ الَّذِي تَعُدُّ لِرَغْبَتِك وَرَهْبَتِك ؟ قَالَ : الَّذِي فِي السَّمَاءِ ﴾ . قِيلَ : هَذَا قَوْلُ الْمُشْرِكِينَ كَمَا تَقُولُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى : نَحْنُ نَعْبُدُ اللَّهَ . فَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ عِبَادَتَهُ مَعَ الشِّرْكِ بِهِ عِبَادَةٌ وَهُمْ كَاذِبُونَ فِي هَذَا . وَأَمَّا قَوْلُ الْخَلِيلِ فَفِيهِ قَوْلَانِ . قَالَ طَائِفَةٌ : إنَّهُ اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ . وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ : كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ مَعَ آلِهَتِهِمْ . وَعَلَى هَذَا فَهَذَا لَفْظٌ مُقَيَّدٌ . فَإِنَّهُ قَالَ ﴿ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ . فَسَمَّاهُ عِبَادَةً إذَا عَرَفَ الْمُرَادَ لَكِنْ لَيْسَتْ هِيَ الْعِبَادَةُ الَّتِي هِيَ عِنْدَ اللَّهِ عِبَادَةٌ . فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : " ﴿ أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ . مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ كُلُّهُ لِلَّذِي أَشْرَكَ ﴾ " . وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ . سَمَّاهُ إيمَانًا مَعَ التَّقْيِيدِ وَإِلَّا

فَالْمُشْرِكُ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ لَا يَدْخُلُ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ . وَقَدْ قَالَ ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ . فَهَذَا مَعَ التَّقْيِيدِ . وَمَعَ الْإِطْلَاقِ فَالْإِيمَانُ هُوَ الْإِيمَانُ بِاَللَّهِ وَالْبِشَارَةُ بِالْخَيْرِ .

(233/835)

وَقَوْلُهُ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ نَفْيُ الْعِبَادَةِ مُطْلَقًا لَيْسَ هُوَ نَفْيٌ لِمَا قَدْ يُسَمَّى عِبَادَةً مَعَ التَّقْيِيدِ . وَالْمُشْرِكُ إذَا كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ وَيَعْبُدُ غَيْرَهُ فَيُقَالُ : إنَّهُ يَعْبُدُ اللَّهَ وَغَيْرَهُ أَوْ يَعْبُدُهُ مُشْرِكًا بِهِ . لَا يُقَالُ : إنَّهُ يَعْبُدُ مُطْلَقًا . وَالْمُعَطِّلُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ شَيْئًا شَرٌّ مِنْهُ . وَالْعِبَادَةُ الْمُطْلَقَةُ الْمُعْتَدِلَةُ هِيَ الْمَقْبُولَةُ وَعِبَادَةُ الْمُشْرِكِ لَيْسَتْ مَقْبُولَةً . وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا قَوْلُهُ : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾ الْآيَةَ . قَالُوا فِيهَا ﴿ نَعْبُدُ إلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ ﴾ ثُمَّ قَالُوا : ﴿ إلَهًا وَاحِدًا ﴾ . فَهَذَا بَدَلٌ مِنْ الْأَوَّلِ فِي أَظْهَرِ الْوَجْهَيْنِ . فَإِنَّ النَّكِرَةَ تُبْدَلُ مِنْ الْمَعْرِفَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ ﴾ ﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ فَذُكِرَتْ مُعَرَّفَةً وَمَوْصُوفَةً . كَذَلِكَ قَالُوا ﴿ نَعْبُدُ إلَهَكَ ﴾ فَعَرَّفُوهُ ثُمَّ قَالُوا ﴿ إلَهًا وَاحِدًا ﴾ فَوَصَفُوهُ . وَالْبَدَلُ فِي حُكْمِ تَكْرِيرِ الْعَامِلِ أَحْيَانًا كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ فَالتَّقْدِيرُ : نَعْبُدُ إلَهَكَ نَعْبُدُ إلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ

مُسْلِمونَ . فَجَمَعُوا بَيْنَ الْخَبَرَيْنِ بِأَمْرَيْنِ بِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ إِلَهَهُ وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ إِلَهًا وَاحِدًا . فَمَنْ عَبَدَ إِلَهَيْنِ لَمْ يَكُنْ عَابِدًا لِإِلَهِهِ وَإِلَهِ آبَائِهِ . وَإِنَّمَا يَعْبُدُ إِلَهَهُ مَنْ عَبَدَ إِلَهًا وَاحِدًا . وَلَوْ كَانَ مَنْ عَبَدَ اللَّهَ

وَعَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ عَابِدًا لَهُ لَكَانَتْ عِبَادَتُهُ نَوْعَيْنِ عِبَادَةَ إِشْرَاكٍ وَعِبَادَةَ إِخْلَاصٍ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ

قَوْلُهُ ﴿ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ بَدَلًا . لِأَنَّ هَذَا كُلٌّ مِنْ كُلٍّ لَيْسَ هُوَ بَدَلَ بَعْضٍ مِنْ كُلٍّ . فَعَلِمَ أَنَّ إِلَهَهُ وَإِلَهَ آبَائِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا إِلَهًا وَاحِدًا . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : قَوْلُهُ ﴿ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ نُصِبَ عَلَى الْحَالِ لَكِنَّهَا حَالٌ لَازِمَةٌ فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا إِلَهًا وَاحِدًا كَقَوْلِهِ ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا ﴾ وَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا مُصَدِّقًا . وَمِنْهُ ﴿ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ ﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ . فَمَنْ عَبَدَ مَعَهُ غَيْرَهُ فَمَا عَبَدَهُ إِلَهًا وَاحِدًا وَمَنْ أَشْرَكَ بِهِ فَمَا عَبَدَهُ . وَهُوَ لَا يَكُونُ إِلَّا إِلَهًا وَاحِدًا . فَإِذَا لَمْ يَعْبُدْهُ فِي الْحَالِ اللَّازِمَةِ لَهُ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَالٌ أُخْرَى يَعْبُدُهُ فِيهَا فَمَا عَبَدَهُ .

فَإِنْ قِيلَ : الْمُشْرِكُ يَجْعَلُ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى فَهُوَ يَعْبُدُ فِي حَالٍ لَيْسَ هُوَ فِيهَا الْوَاحِدُ قِيلَ : هَذَا غَلَطٌ مَنْشَؤُهُ أَنَّ لَفْظَ " الْإِلَهِ " يُرَادُ بِهِ الْمُسْتَحِقُّ لِلْإِلَهِيَّةِ وَيُرَادُ بِهِ مَا اتَّخَذَهُ النَّاسُ إلَهًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ إلَهًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَلْ هِيَ أَسْمَاءٌ سَمَّوْهَا هُمْ وَآبَاؤُهُمْ . فَتِلْكَ لَيْسَتْ فِي نَفْسِهَا آلِهَةً وَإِنَّمَا هِيَ آلِهَةٌ فِي أَنْفُسِ الْعَابِدِينَ . فَإِلَهِيَّتُهَا أَمْرٌ قَدَّرَهُ الْمُشْرِكُونَ وَجَعَلُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مُطَابِقًا لِلْخَارِجِ كَالَّذِي يَجْعَلُ مَنْ لَيْسَ بِعَالِمِ عَالِمًا وَمَنْ لَيْسَ بِحَيِّ حَيًّا وَمَنْ لَيْسَ بِصَادِقٍ وَلَا عَدْلٍ صَادِقًا وَعَدْلًا فَيُقَالُ : هَذَا عِنْدَك صَادِقٌ وَعَادِلٌ وَعَالِمٌ وَتِلْكَ اعْتِقَادَاتٌ غَيْرُ مُطَابِقَةٍ وَأَقْوَالٌ كَاذِبَةٌ غَيْرُ لَائِقَةٍ .

وَلِهَذَا يَجْعَلُ سُبْحَانَهُ ذَلِكَ مِنْ بَابِ الِافْتِرَاءِ وَالْكَذِبِ كَمَا قَالَ أَصْحَابُ الْكَهْفِ ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ . وَقَالَ الْخَلِيلُ ﴿ إنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إفْكًا ﴾ . وَقَالَ ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إنْ يَتَّبِعُونَ إلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ أَيْ أَيُّ شَيْءٍ يَتَّبِعُ الَّذِينَ يُشْرِكُونَ ؟ وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ الظَّنَّ وَالْخَرْصَ وَهُوَ الْحَزْرُ . هَذَا صَوَابٌ وَأَنَّ

مَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ . وَقَدْ قِيلَ إنَّهَا نَافِيَةٌ وَبَعْضُهُمْ لَمْ يَذْكُرْ غَيْرَهُ كَأَبِي الْفَرَجِ . وَهُوَ ضَعِيفٌ كَمَا قَدْ بُيِّنَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَقَالَ هُودٌ ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ إنْ أَنْتُمْ إلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ . وَإِذَا كَانَتْ إلَهِيَّةُ مَا سِوَى اللَّهِ أَمْرًا مُخْتَلَقًا يُوجَدُ فِي الذِّهْنِ وَاللِّسَانِ لَا وُجُودَ لَهُ فِي الْأَعْيَانِ . وَهُوَ مِنْ بَابِ الْكَذِبِ وَالِاعْتِقَادِ الْبَاطِلِ الَّذِي لَيْسَ بِمُطَابِقِ . وَمَا عِنْدَ عَابِدِيهَا مِنْ الْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ لَهَا تَابِعٌ لِذَلِكَ الِاعْتِقَادِ الْبَاطِلِ . كَمَنْ اعْتَقَدَ فِي شَخْصٍ أَنَّهُ صَادِقٌ فَصَدَّقَهُ فِيمَا يَقُولُ وَبَنَى عَلَى إخْبَارِهِ أَعْمَالًا كَثِيرَةً . فَلَمَّا تَبَيَّنَ كَذِبُهُ ظَهَرَ فَسَادُ تِلْكَ الْأَعْمَالِ كَأَتْبَاعِ مُسَيْلِمَةَ وَالْأُسُودِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَصْحَابِ الزَّوَايَا وَالتُّرَّهَاتِ وَمَا يَشْرَعُونَهُ لِأَتْبَاعِهِمْ مِمَّا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ

(237/835)

اللَّهُ بِخِلَافِ الصَّادِقِ وَالصِّدْقِ .

وَلِهَذَا كَانَتْ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ . وَقَالَ فِي كَلِمَةِ الشِّرْكِ ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ . فَلَيْسَ لَهَا أَسَاسٌ ثَابِتٌ وَلَا فَرْعٌ ثَابِتٌ إذْ كَانَتْ بَاطِلَةً كَأَقْوَالِ الْكَاذِبِينَ وَأَعْمَالِهِمْ . بَلْ هِيَ أَعْظَمُ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ مَعَ الْحُبِّ لَهَا . وَالشِّرْكُ أَعْظَمُ الظُّلْمِ . ﴿ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ قُلْت : يَا

رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ . قَالَ : أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ ﴾ " . فَنَفْسُ تَأَلُّهِهِمْ لَهَا وَعِبَادَتِهِمْ إِيَّاهَا وَتَعْظِيمِهَا وَحُبِّهَا وَدُعَائِهَا وَاعْتِقَادِهَا آلِهَةً وَالْخَبَرُ عَنْهَا بِأَنَّهَا آلِهَةٌ مَوْجُودٌ كَمَا كَانَ اعْتِقَادُ الْكَذَّابِينَ مَوْجُودًا . وَأَمَّا نَفْسُ اتِّصَافِهَا بِالْإِلَهِيَّةِ فَمَفْقُودٌ كَاتِّصَافِ مُسَيْلِمَةَ بِالنُّبُوَّةِ .

فَهُنَا حَالَانِ حَالٌ لِلْعَابِدِ وَحَالٌ لِلْمَعْبُودِ . فَأَمَّا الْعَابِدُونَ فَكُلُّهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِبَادَةٌ وَتَأَلُّهٌ لِمَنْ عَبَدُوهُ . وَأَمَّا الْمَعْبُودُونَ فَالرَّحْمَنُ لَهُ الْإِلَهِيَّةُ وَمَا سِوَاهُ لَا إِلَهِيَّةَ لَهُ بَلْ هُوَ مَيِّتٌ لَا يَمْلِكُ لِعَابِدِيهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ وَهُوَ فِي أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ ﴿ سَبِيلًا ﴾ بِالتَّقَرُّبِ بِعِبَادَتِهِ وَذِكْرِهِ . وَلِهَذَا قَالَ بَعْدَهَا ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ

إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ فَأَخْبَرَ عَنْ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا أَنَّهَا تُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ . فَقَوْلُهُ ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ ﴾ ﴿ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ إذَا قِيلَ إنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى الْحَالِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ الْفَاعِلِ الْعَابِدِ أَوْ مِنْ الْمَفْعُولِ الْمَعْبُودِ . فَالْأَوَّلُ : نَعْبُدُهُ فِي حَالِ كَوْنِنَا مُخْلِصِينَ لَا نَعْبُدُ إلَّا إيَّاهُ . وَالثَّانِي نَعْبُدُهُ فِي الْحَالِ اللَّازِمَةِ لَهُ وَهُوَ أَنَّهُ إلَهٌ وَاحِدٌ فَنَعْبُدُهُ

مُخْلِصِينَ مُعْتَرِفِينَ لَهُ بِأَنَّهُ الْإِلَهُ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ . فَإِنْ كَانَ التَّقْدِيرُ هَذَا الثَّانِي امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ الْمُشْرِكُ عَابِدًا لَهُ فَإِنَّهُ لَا يَعْبُدُهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَيْسَتْ لَهُ حَالٌ أُخْرَى نَعْبُدُهُ فِيهَا . وَإِنْ كَانَ التَّقْدِيرُ الْأَوَّلُ فَقَدْ يُمْكِنُ أَنْ نَعْبُدَهُ فِي حَالٍ أُخْرَى نَتَّخِذُ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى فِي أَنْفُسِنَا . لَكِنَّ قَوْلَهُ ﴿ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهَا حَالٌ مِنْ الْمَعْبُودِ بِخِلَافِ مَا إذَا قِيلَ : نَعْبُدُهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَإِنَّ هَذِهِ حَالٌ مِنْ الْفَاعِلِ . وَلِهَذَا يَأْتِي هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا كَقَوْلِهِ ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ . فَهَذَا حَالٌ مِنْ الْفَاعِلِ .

(239/835)

فَإِنَّهُ يَكُونُ تَارَةً مُخْلِصًا وَتَارَةً مُشْرِكًا . وَأَمَّا الرَّبُّ تَعَالَى فَإِنَّهُ لَا يَكُونُ إلَّا إلَهًا وَاحِدًا . وَالْحَالُ وَإِنْ كَانَتْ صِفَةً لِلْمَفْعُولِ فَهِيَ أَيْضًا حَالٌ لِلْفَاعِلِ . فَإِنَّهُمْ قَالُوا : نَعْبُدُهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ . فَلَزِمَ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لَهُ لَيْسَتْ فِي غَيْرِ هَذَا الْحَالِ . وَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ ﴿ نَعْبُدُ إلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ ﴾ . . . ﴿ إلَهًا وَاحِدًا ﴾ هِيَ حَالٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ جَمِيعًا بِالْعَابِدِ وَالْمَعْبُودِ . فَإِنَّ الْعَامِلَ فِيهَا الْمُتَعَلِّقَ بِهَا الْعِبَادَةُ وَهِيَ فِعْلُ الْعَابِدِ وَالَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمَفْعُولُ فِي الْعَرَبِيَّةِ هُوَ الْمَعْبُودُ . كَمَا قِيلَ فِي الْجُمْلَةِ ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ . قِيلَ : هِيَ وَاوُ

الْعَطْفِ وَقِيلَ وَاوُ الْحَالِ أَيْ نَعْبُدُهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ . قَالُوا : وَهِيَ حَالٌ مِنْ فَاعِلِ " نَعْبُدُ " أَوْ مَفْعُولِهِ لِرُجُوعِ الْهَاءِ إلَيْهِ فِي " لَهُ " وَهَذَا التَّرْدِيدُ غَلَطٌ إذْ هِيَ حَالٌ مِنْهُمَا جَمِيعًا . فَإِنَّهُمْ إذَا عَبَدُوهُ وَهُمْ مُسْلِمُونَ فَهُمْ مُسْلِمُونَ حَالَ كَوْنِهِمْ عَابِدِينَ وَحَالَ كَوْنِهِ مَعْبُودًا إذْ كَوْنُهُمْ عَابِدِينَ وَكَوْنِهِ مَعْبُودًا لَيْسَ مُخْتَصًّا بِمُقَارَنَةِ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ . فَالظَّرْفُ وَالْحَالُ هُنَا كَلِمَةٌ وَلَيْسَتْ مُفْرَدًا وَلِهَذَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ . فَإِنَّ الْمُفْرَدَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي اللَّفْظِ صِفَةً لِهَذَا وَهَذَا . فَإِذَا قُلْت : ضَرَبْت زَيْدًا قَاعِدًا فَالْقُعُودُ حَالٌ لِلْفَاعِلِ أَوْ الْمَفْعُولِ . وَإِذَا قُلْت : ضَرَبْته وَالنَّاسُ

(240/835)

قُعُودٌ فَلَيْسَ هَذِهِ الْحَالُ مِنْ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ بَلْ هِيَ مُقَارَنَةٌ لِلضَّرْبِ الْمُتَعَلِّقِ بِهَا كَأَنَّهُ قَالَ : ضَرَبْته فِي زَمَانِ قُعُودِ النَّاسِ . فَهُوَ ظَرْفٌ لِلْفِعْلِ الْمُتَعَلِّقِ بِالْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ بِخِلَافِ مَا إذَا قُلْت : ضَرَبْته فِي حَالِ قُعُودِي أَوْ قُعُودِهِ فَهَذَا يَخْتَلِفُ . وَالْآيَةُ فِيهَا ﴿ إلَهًا وَاحِدًا ﴾ . فَهَذِهِ حَالٌ مِنْ الْمَعْبُودِ بِلَا رَيْبٍ . فَلَزِمَ أَنَّهُمْ إنَّمَا عَبَدُوهُ فِي حَالِ كَوْنِهِ إلَهًا وَاحِدًا وَهَذِهِ لَازِمَةٌ لَهُ . وَإِذَا قِيلَ الْمُرَادُ : فِي حَالِ كَوْنِهِ مَعْبُودًا وَاحِدًا لَا نَتَّخِذُ مَعَهُ مَعْبُودًا آخَرَ فَهَذِهِ حَالٌ لَيْسَتْ لَازِمَةً لَكِنَّهُ صِفَةٌ لِلْعَابِدِينَ لَا لَهُ . قِيلَ : هَذَا لَيْسَ فِيهِ مَدْحٌ لَهُ وَلَا وَصْفٌ لَهُ بِأَنَّهُ

يَسْتَحِقُّ الْإِلَهِيَّةَ . لَكِنْ فِيهَا وَصْفُهُمْ فَقَطْ . وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ ﴿ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ كَقَوْلِهِ ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ فَهُوَ فِي نَفْسِهِ إلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ جَعَلَ مَعَهُ الْمُشْرِكُونَ آلِهَةً بِالِافْتِرَاءِ وَالْحُبِّ . فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الِاسْمُ . وَلَوْ أَرَادُوا ذَلِكَ الْمَعْنَى لَقَالُوا : نَعْبُدُهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ ذَكَرُوهُ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ وَهِيَ قَوْلُهُمْ ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ لَا سِيَّمَا إذَا جُعِلَتْ حَالًا أَيْ نَعْبُدُهُ إلَهًا وَاحِدًا فِي حَالِ إسْلَامِنَا لَهُ .

(241/835)

وَإِسْلَامِهِمْ لَهُ يَتَضَمَّنُ إخْلَاصَ الدِّينِ لَهُ وَخُضُوعَهُمْ وَاسْتِسْلَامَهُمْ لِأَحْكَامِهِ بِخِلَافِ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ . وَلِهَذَا قَالَ آمِرًا لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إلَى إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ . ثُمَّ قَالَ ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ ﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾ . وَفِي هَذِهِ الْآيَاتِ مَعَانٍ جَلِيلَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ اسْتِيفَائِهَا .

فَصْلٌ :

وَهَذَا النِّزَاعُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ هَلْ هُوَ خِطَابٌ لِجِنْسِ الْكُفَّارِ كَمَا قَالَهُ الْأَكْثَرُونَ أَوْ لِمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَمُوتُ كَافِرًا كَمَا قَالَهُ بَعْضُهُمْ يَتَعَلَّقُ بِمُسَمَّى " الْكَافِرِ " وَمُسَمَّى " الْمُؤْمِنِ " .

(242/835)

فَطَائِفَةٌ تَقُولُ : هَذَا إنَّمَا يَتَنَاوَلُ مَنْ وَافَى الْقِيَامَةَ بِالْإِيمَانِ . فَاسْمُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَهُمْ إنَّمَا هُوَ لِمَنْ مَاتَ مُؤْمِنًا . فَأَمَّا مَنْ آمَنَ ثُمَّ ارْتَدَّ فَذَاكَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ بِإِيمَانِ . وَهَذَا اخْتِيَارُ الْأَشْعَرِيِّ وَطَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَغَيْرِهِمْ . وَهَكَذَا يُقَالُ : الْكَافِرُ مَنْ مَاتَ كَافِرًا . وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : إنَّ حُبَّ اللَّهِ وَبُغْضَهُ وَرِضَاهُ وَسَخَطَهُ وَوِلَايَتَهُ وَعَدَاوَتَهُ إنَّمَا يَتَعَلَّقُ بِالْمُوَافَاةِ فَقَطْ . فَاَللَّهُ يُحِبُّ مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يَمُوتُ مُؤْمِنًا . وَيَرْضَى عَنْهُ وَيُوَالِيهِ بِحُبِّ قَدِيمٍ وَمُوَالَاةٍ قَدِيمَةٍ . وَيَقُولُونَ : إنَّ عُمَرَ حَالَ كُفْرِهِ كَانَ وَلِيًّا لِلَّهِ . وَهَذَا الْقَوْلُ مَعْرُوفٌ عَنْ ابْنِ كِلَابٍ وَمَنْ تَبِعَهُ كَالْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ . وَأَكْثَرُ الطَّوَائِفِ يُخَالِفُونَهُ فِي هَذَا فَيَقُولُونَ : بَلْ قَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ عَدُوًّا لِلَّهِ ثُمَّ يَصِيرُ وَلِيًّا لِلَّهِ وَيَكُونُ اللَّهُ يُبْغِضُهُ ثُمَّ يُحِبُّهُ . وَهَذَا مَذْهَبُ الْفُقَهَاءِ وَالْعَامَّةِ . وَهُوَ قَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْكَرَّامِيَةِ وَالْحَنَفِيَّةِ قَاطِبَةً وَقُدَمَاءِ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنْبَلِيَّةِ . وَعَلَى هَذَا

يدل القرآن كقوله ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ . وقوله ﴿ إن الذين آمنوا

ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ﴾ فوصفهم بكفر بعد إيمان وإيمان بعد كفر . وأخبر عن الذين كفروا أنهم كفار وأنهم إن انتهوا يغفر لهم ما قد سلف . وقال ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم ﴾ وقال ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ . وفي الصحيحين في حديث الشفاعة : تقول الأنبياء : " ﴿ إن ربي قد غضب غضبا لم يغضب قبله مثله . ولن يغضب بعده مثله ﴾ " . وفي دعاء الحجاج عند الملتزم عن ابن عباس وغيره : " فإن كنت رضيت عني فازدد عني رضا وإلا فمن الآن فارض عني " . وبعضهم حذف " فارض عني فظن بعض الفقهاء أنه " فمن الآن " أنه من " المن " . وهو تصحيف . وإنما هو من حروف الجر كما في تمام الكلام وإلا فمن الآن فارض عني . فبين أنه يزداد رضا وأنه يرضى في وقت محدود . وشواهد هذا كثيرة . وهو مبسوط في مواضع .

فصل :

وَنَظِيرُ الْقَوْلِ فِي ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ الْقَوْلَانِ فِي قَوْلِهِ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فَإِنَّ لِلنَّاسِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلَيْنِ .

(244/835)

أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا خَاصَّةٌ بِمَنْ يَمُوتُ كَافِرًا . وَهَذَا مَنْقُولٌ عَنْ مُقَاتِلٍ كَمَا قَالَ فِي قَوْلِهِ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ . وَكَذَلِكَ نُقِلَ عَنْ الضَّحَّاكِ . قَالَا : نَزَلَتْ فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ كَأَبِي جَهْلٍ وَأَبِي طَالِبٍ وَأَبِي لَهَبٍ مِمَّنْ لَمْ يُسْلِمْ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ وَخَمْسَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ . وَطَائِفَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ لَمْ يَذْكُرُوا غَيْرَ هَذَا الْقَوْلِ كَالثَّعْلَبِيِّ والبغوي وَابْنِ الْجَوْزِيِّ . قَالَ البغوي : هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَقْوَامٍ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الشَّقَاوَةِ فِي سَابِقِ عِلْمِ اللَّهِ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ قَالَ شَيْخُنَا عَلِيُّ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ : وَهَذِهِ الْآيَةُ وَرَدَتْ بِلَفْظِ الْعُمُومِ وَالْمُرَادُ بِهَا الْخُصُوصُ لِأَنَّهَا آذَنَتْ بِأَنَّ الْكُفَّارَ حِينَ إنْذَارِهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَقَدْ آمَنَ كَثِيرٌ مِنْ الْكُفَّارِ عِنْدَ إنْذَارِهِمْ . وَلَوْ كَانَتْ عَلَى ظَاهِرِهَا فِي الْعُمُومِ لَكَانَ خَبَرُ اللَّهِ بِخِلَافِ مُخْبَرِهِ فَلِذَلِكَ وَجَبَ نَقْلُهَا إلَى الْخُصُوصِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ الْآيَةَ عَلَى مُقْتَضَاهَا وَالْمُرَادُ بِهَا أَنَّ الْإِنْذَارَ وَعَدَمَهُ سَوَاءٌ بِالنِّسْبَةِ إلَى الْكَافِرِ مَا دَامَ كَافِرًا لَا يَنْفَعُهُ الْإِنْذَارُ وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ كَمَا قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ فِي

الْآيَاتِ أَنَّهَا غَيْرُ مُوجِبَةٍ لِلْإِيمَانِ . وَقَدْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

فَالْآيَاتُ أُفُقِيَّةٌ وَأَرْضِيَّةٌ وَقُرْآنِيَّةٌ وَهِيَ أَدِلَّةُ الْعِلْمِ . وَالْإِنْذَارُ يَقْتَضِي الْخَوْفَ . فَالْآيَاتُ لِمَنْ إذَا عَرَفَ الْحَقَّ عَمِلَ بِهِ فَهَذَا تَنْفَعُهُ الْحِكْمَةُ . وَالْإِنْذَارُ لِمَنْ يَعْرِفُ الْحَقَّ وَلَهُ هَوًى يَصُدُّهُ فَيُنْذَرُ بِالْعَذَابِ الَّذِي يَدْعُوهُ إلَى مُخَالَفَةِ هَوَاهُ وَهُوَ خَوْفُ الْعَذَابِ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحْتَاجُ إلَى الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ . وَآخَرُ لَا يَقْبَلُ الْحَقَّ فَيَحْتَاجُ إلَى الْجَدَلِ فَيُجَادِلُ بِاَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ وَقَالَ ﴿ إنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ ﴿ إنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ . فَالْمُرَادُ أَنَّ الْكَافِرَ مَا دَامَ كَافِرًا لَا يَقْبَلُ الْحَقَّ سَوَاءٌ أُنْذِرَ أَمْ لَمْ يُنْذَرْ وَلَا يُؤْمِنُ مَا دَامَ كَذَلِكَ . لِأَنَّ عَلَى قَلْبِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ مَوَانِعَ تَصُدُّ عَنْ الْفَهْمِ وَالْقَبُولِ . وَهَكَذَا حَالُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ هَوَاهُ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ " إنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ " . وَقِيلَ ذَلِكَ لِمَنْ سَبَقَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ أَوْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الْكَلِمَةُ كَقَوْلِهِ ﴿ إنَّ الَّذِينَ

حقَّتْ علَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَا يُؤْمِنُونَ إلَّا حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ إيمَانُهُمْ وَقْتَ

(246/835)

رُؤْيَةِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ كَإِيمَانِ فِرْعَوْنَ الْمَذْكُورِ قَبْلَهَا . وَمُوسَى قَدْ دَعَا عَلَيْهِ فَقَالَ ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ . وَأَمَّا إذَا أَطْلَقَ سُبْحَانَهُ الْكُفَّارَ فَهُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ﴾ الْآيَةَ . فَبَيَّنَ أَنَّهُمْ قَدْ يُؤْمِنُوا إذَا شَاءَ . وَآيَةُ الْبَقَرَةِ مُطْلَقَةٌ عَامَّةٌ . فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ أَرْبَعَ آيَاتٍ فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ . وَآيَتَيْنِ فِي صِفَةِ الْكَافِرِينَ وَبِضْعَ عَشْرَةَ آيَةً فِي الْمُنَافِقِينَ . فَبَيَّنَ حَالَ الْكَافِرِ الْمُصِرِّ عَلَى كُفْرِهِ أَنَّ الْإِنْذَارَ لَا يَنْفَعُهُ لِلْحُجُبِ الَّتِي عَلَى قَلْبِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ . وَلَيْسَ قَالَ : إنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي أَحَدًا مِنْ هَؤُلَاءِ فَيَسْمَعُ وَيَقْبَلُ . وَلَكِنْ هُوَ حِينَ يَكُونُ كَافِرًا لَا تَتَنَاوَلُهُ الْآيَةُ . وَهَذَا كَمَا يُقَالُ فِي الْكَافِرِ الْحَرْبِيِّ : لَا يَجُوزُ أَنْ تُعْقَدَ لَهُ الذِّمَّةُ وَلَا يَكُونُ قَطُّ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْإِسْلَامِ مَا دَامَ حَرْبِيًّا . فَالْكُفَّارُ مَا دَامُوا كُفَّارًا هُمْ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ . لَهُمْ مَوَانِعُ تَمْنَعُهُمْ مِنْ الْإِيمَانِ كَمَا أَنَّ لِلْمُنَافِقِينَ مَوَانِعَ تَمْنَعُهُمْ مَا دَامُوا كَذَلِكَ وَإِنْ

أُنْذِرُوا . وَهَذَا كَقَوْلِهِ ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فَهَذَا مِثْلُ كُلِّ كَافِرٍ مَا دَامَ كَافِرًا .

وَذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونُوا قَدْ يَسْمَعُونَ إذَا زَالَ الْغِطَاءُ الَّذِي عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ لِذَلِكَ الْمَعْنَى الْمُشْتَقِّ مِنْهُ وَهُوَ الْكُفْرُ . فَمَا دَامُوا هَذِهِ حَالُهُمْ فَهُمْ كَذَلِكَ وَلَكِنَّ تَغَيُّرَ الْحَالِ مُمْكِنٌ كَمَا قَالَ ﴿ إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ وَكَمَا هُوَ الْوَاقِعُ .

وَمِثْلُ هَذَا يُفِيدُ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ بِدُعَائِهِ وَإِنْذَارِهِ وَبَيَانِهِ يَحْصُلُ الْهُدَى وَلَوْ كَانَ أَكْمَلَ النَّاسِ وَأَنَّ الدَّاعِيَ وَإِنْ كَانَ صَالِحًا نَاصِحًا مُخْلِصًا فَقَدْ لَا يَسْتَجِيبُ الْمَدْعُوُّ لَا لِنَقْصٍ فِي الدُّعَاءِ لَكِنْ لِفَسَادٍ فِي الْمَدْعُوِّ . وَهَذَا لِأَنَّ حُصُولَ الْمَطْلُوبِ مُتَوَقِّفٌ عَلَى فِعْلِ الْفَاعِلِ وَقَبُولِ الْقَابِلِ كَالسَّيْفِ الْقَاطِعِ يُؤَثِّرُ بِشَرْطِ قَبُولِ الْمَحَلِّ فِيهِ لَا يَقْطَعُ الْحِجَارَةَ وَالْحَدِيدَ وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَالنَّفْخُ يُؤَثِّرُ إذَا كَانَ هُنَاكَ قَابِلٌ لَا يُؤَثِّرُ فِي الرَّمَادِ . وَالدُّعَاءُ وَالتَّعْلِيمُ وَالْإِرْشَادُ . وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ لَهُ فَاعِلٌ وَهُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِالْعِلْمِ وَالْهُدَى وَالنِّذَارَةِ وَلَهُ قَابِلٌ وَهُوَ الْمُسْتَمِعُ . فَإِذَا كَانَ الْمُسْتَمِعُ قَابِلًا حَصَلَ الْإِنْذَارُ التَّامُّ وَالتَّعْلِيمُ التَّامُّ وَالْهُدَى التَّامُّ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَابِلًا قِيلَ : عَلَّمْته فَلَمْ يَتَعَلَّمْ وَهَدَيْته فَلَمْ يَهْتَدِ وَخَاطَبْته فَلَمْ يُصْغِ وَنَحْوَ ذَلِكَ .

فَقَوْلُهُ فِي الْقُرْآنِ ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ هُوَ مِنْ هَذَا . إنَّمَا يَهْتَدِي مَنْ يَقْبَلُ الِاهْتِدَاءَ وَهُمْ الْمُتَّقُونَ لَا كُلُّ أَحَدٍ . وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَّقِينَ قَبْلَ اهْتِدَائِهِمْ بَلْ قَدْ يَكُونُوا كُفَّارًا . لَكِنْ إنَّمَا يَهْتَدِي بِهِ مَنْ كَانَ مُتَّقِيًا . فَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ اهْتَدَى بِالْقُرْآنِ . وَالْعِلْمُ وَالْإِنْذَارُ إنَّمَا يَكُونُ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْقُرْآنُ . وَهَكَذَا قَوْلُهُ ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ﴾ الْإِنْذَارَ التَّامَّ فَإِنَّ الْحَيَّ يَقْبَلُهُ . وَلِهَذَا قَالَ ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ فَهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا الْإِنْذَارَ . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ ﴿ إنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴾ . وَعَكْسُهُ قَوْلُهُ ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ أَيْ كُلُّ مَنْ ضَلَّ بِهِ فَهُوَ فَاسِقٌ . فَهُوَ ذَمٌّ لِمَنْ يَضِلُّ بِهِ فَإِنَّهُ فَاسِقٌ . لَيْسَ أَنَّهُ كَانَ فَاسِقًا قَبْلَ ذَلِكَ . وَلِهَذَا تَأَوَّلَهَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي الْخَوَارِجِ وَسَمَّاهُمْ " فَاسِقِينَ " لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا بِالْقُرْآنِ . فَمَنْ ضَلَّ بِالْقُرْآنِ فَهُوَ فَاسِقٌ . فَقَوْلُهُ ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ مِنْ هَذَا الْبَابِ . وَالتَّقْدِيرُ : مَنْ خَتَمَ عَلَى قَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ غِشَاوَةً فَسَوَاءٌ عَلَيْك أَأَنْذَرْته أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُ هُوَ لَا يُؤْمِنُ أَيْ مَا دَامَ كَذَلِكَ .

وَلَكِنْ هَذَا قَدْ يَزُولُ وَفِي صِفَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي سَمَّيْتُكَ " الْمُتَوَكِّلَ " لَسْتَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ . وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ . وَلَنْ أَقْبِضَهُ حَتَّى أُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ فَأَفْتَحُ بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا . وَقَدْ قَالَ ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ بَعْضَهُمْ يُؤْمِنُونَ . ثُمَّ قَالَ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا ﴾ إلَى قَوْلِهِ ﴿ إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ فَهَذَا هُوَ الْإِنْذَارُ التَّامُّ وَهُوَ الْإِنْذَارُ الَّذِي يَقْبَلُهُ الْمُنْذَرُ وَيَنْتَفِعُ بِهِ . وَقَوْلُهُ ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ﴾ هُوَ أَصْلُ الْإِنْذَارِ كَمَا يُقَالُ فِي الْبَلِيدِ وَالْمَشْغُولِ الذِّهْنِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَالشَّهَوَاتِ : سَوَاءٌ عَلَيْك أَعْلَمْته أَمْ لَمْ تُعَلِّمْهُ لَا يَتَعَلَّمُ وَلَا يَقْبَلُ الْهُدَى وَيُقَالُ فِي الذَّكِيِّ الْفَارِغِ : إنَّمَا يَتَعَلَّمُ مِثْلُ هَذَا . ثُمَّ الْمَشْغُولُ قَدْ يَتَفَرَّغُ . وَقَدْ يَصْلُحُ ذِهْنٌ بَعْدَ فَسَادِهِ وَيَفْسُدُ بَعْدَ صَلَاحِهِ لِفَسَادِ قَلْبِهِ وَصَلَاحِهِ . وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ أَكْثَرُ تَفْسِيرِ السَّلَفِ كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إسْحَاقَ وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَغَيْرُهُ . قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ حَدَّثَنِي

مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي

مُحَمَّدٍ عَنْ عِكْرِمَةَ أَوْ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أَيْ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَإِنْ قَالُوا : إِنَّا قَدْ آمَنَّا بِمَا جَاءَنَا قَبْلَكَ ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أَيْ إِنَّهُمْ قَدْ كَفَرُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْ ذِكْرِكَ وَجَحَدُوا مَا أُخِذَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْمِيثَاقِ فَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكَ وَبِمَا عِنْدَهُمْ مِمَّا جَاءَهُمْ بِهِ غَيْرُكَ . فَكَيْفَ يَسْمَعُونَ مِنْكَ إنْذَارًا وَتَحْذِيرًا ؟ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ الْإِنْذَارَ لِكُفْرِهِمْ بِمَا عِنْدَهُمْ وَمَا جَاءَهُمْ مِنْ الْحَقِّ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ مِنْهُمْ خَلْقًا تَابُوا بَعْدَ ذَلِكَ وَآمَنُوا . وَرُوِيَ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ : آيَتَانِ فِي قَادَةِ الْأَحْزَابِ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . قَالَ : هُمْ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ . (قُلْت : جَعَلَهُمْ قَادَةَ الْأَحْزَابِ لِكَوْنِهِمْ أَضَلُّوا الْأَتْبَاعَ فَأَحَلُّوهُمْ دَارَ الْبَوَارِ . وَالْأَحْزَابُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ قَدْ أَسْلَمَ عَامَّةُ قَادَتِهَا وَحَسُنَ إسْلَامُهُمْ مِثْلُ عِكْرِمَةَ بْنِ أَبِي جَهْلٍ وَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَأَبِي سُفْيَانَ . وَهَؤُلَاءِ أَسْلَمَ مِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ عَامَ الْفَتْحِ وَهُمْ الطُّلَقَاءُ . وَمِنْهُمْ مَنْ أَسْلَمَ قَبْلَ ذَلِكَ . وَالْحِزْبُ الْآخَرُ غطفان وَقَدْ أَسْلَمُوا أَيْضًا

.

وَالْآيَةُ لَا بُدَّ أَنْ تَتَنَاوَلَ كُفَّارَ أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا قَالَ ابْنُ إسْحَاقَ فَإِنَّ السُّورَةَ مَدَنِيَّةٌ وَإِنْ تَنَاوَلَتْ مَعَ ذَلِكَ الْمُشْرِكِينَ . فَهِيَ تَعُمُّ كُلَّ كَافِرٍ . وَمُقَاتِلٌ وَالضَّحَّاكُ يَخُصُّهَا بِبَعْضِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ . وَابْنُ السَّائِبِ يَقُولُ : هِيَ إنَّمَا نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ مِنْهُمْ حيي بْنُ أَخْطَبَ . وَكَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ إسْحَاقَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا فِي الْيَهُودِ . وَأَبُو الْعَالِيَةِ يَقُولُ : إنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَادَةِ الْأَحْزَابِ . وَالْآيَةُ تَعُمُّ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ وَغَيْرُهُمْ كَمَا أَنَّ آيَاتِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ كَانَ سَبَبُ نُزُولِهَا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ الْمَوْجُودِينَ وَقْتَ النُّزُولِ وَهِيَ تَعُمُّهُمْ وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إلَى قِيَامِ السَّاعَةِ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ قَوْلَهُ ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ كَقَوْلِهِ ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ ﴿ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ . وَكُلُّ هَذَا فِيهِ بَيَانُ أَنَّ مُجَرَّدَ دُعَائِك وَتَبْلِيغِك وَحِرْصِك عَلَى هُدَاهُمْ لَيْسَ مُوجِبُ ذَلِكَ وَإِنَّمَا يَحْصُلُ ذَلِكَ إذَا شَاءَ اللَّهُ هُدَاهُمْ فَشَرَحَ صُدُورَهُمْ لِلْإِسْلَامِ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿ إنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ

لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ فَفِيهِ تَعْزِيَةٌ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيَّنَتْ الْآيَةُ لَهُ أَنَّ تَبْلِيغَك وَإِنْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَفِيهِ مَصَالِحُ عَظِيمَةٌ غَيْرُ ذَلِكَ . وَفِيهِ بَيَانُ أَنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ . ف ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴾ وَقَدْ قَالَ لَهُ ﴿ إنَّك لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْت وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ . فَفِيهِ تَقْرِيرُ التَّوْحِيدِ وَتَقْرِيرُ مَقْصُودِ الرِّسَالَةِ . وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عَمَّنْ لَا يُؤْمِنُ فَقَالَ ﴿ إنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ . وَقَالَ ﴿ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ " ثُمَّ قَالَ ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . فَخَصَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَفِي تِلْكَ ﴿ إنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ . وَهُمْ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ أَيْ حَقَّ عَلَيْهِمْ مَا قَالَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَكَتَبَهُ وَقَدَّرَهُ . فَجَعَلَ الْمُوجِبَ هُوَ التَّقْدِيرُ السَّابِقُ وَهُوَ قَوْلُهُ . وَالْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكُونُ خَبَرًا مُجَرَّدًا بِمَا سَيَكُونُ وَقَدْ يَكُونُ قَوْلًا يَتَضَمَّنُ أَشْيَاءَ كَالْيَمِينِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلْحَضِّ وَالْمَنْعِ . فَقَدْ ذَكَرَ فِي مَوَاضِعَ تَقَدُّمَ الْيَمِينِ كَقَوْلِهِ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ وَنَحْوُ ذَلِكَ .

فَهُوَ خَبَرٌ عَمَّا قَالَهُ أَوْ قَالَهُ وَكَتَبَهُ . وَهُوَ التَّقْدِيرُ الَّذِي يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ قَدَّرَ مَا يَفْعَلُهُ وَعَلِمَهُ وَكَتَبَهُ كَمَا تَظَاهَرَتْ النُّصُوصُ بِأَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . وَالْقَدَرُ تَضَمَّنَ عِلْمَهُ بِمَا سَيَكُونُ وَمَشِيئَتَهُ لِوُجُودِ مَا قَدَّرَهُ وَعَلِمَ أَنْ سَيَخْلُقُهُ . وَالْقَوْلُ قَدْ يَكُونُ خَبَرًا وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ مَعْنَى الطَّلَبِ الْحَضِّ وَالْمَنْعِ بِالْقَسَمِ وَإِمَّا لِكِتَابَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَقَوْلِهِ ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ وَقَوْلِهِ ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وَقَوْلِهِ " ﴿ يَا عِبَادِي إنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْته بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا ﴾ " .

وَأَمَّا قَوْلُهُ ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ فَهَذَا مُخْتَصٌّ بِالْكُفَّارِ . وَهُوَ الْوَعِيدُ الْمُتَضَمِّنُ الْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ كَمَا قَالَ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْك وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وَقَوْلُهُ ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ﴾ أَيْ إنَّ عَذَابَهُمْ لَهُ أَجَلٌ مُسَمًّى إمَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِمَّا فِي الدُّنْيَا كَيَوْمِ بَدْرٍ وَإِمَّا عَقِبَ الْمَوْتِ وَقَدْ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ الْأَقْوَالَ الثَّلَاثَةَ . فَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّك إلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَكَانَ الْعَذَابُ لِزَامًا أَيْ لَازِمًا لَهُمْ . فَإِنَّ الْمُقْتَضِيَ لَهُ قَائِمٌ تَامٌّ وَهُوَ كُفْرُهُمْ .

وَأَمَّا إذَا أَطْلَقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ فَإِنَّهُ لَا يُرِيدُ مَنْ لَا يُؤْمِنُ مِنْهُمْ . فَإِنَّ اللَّفْظَ لَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ . وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ إذْ كَانَ أُولَئِكَ غَيْرَ مَعْرُوفِينَ وَإِنَّمَا هُمْ طَائِفَةٌ قَدْ حَقَّ عَلَيْهِمْ الْقَوْلُ وَهُمْ لَا يَتَمَيَّزُونَ مِنْ غَيْرِهِمْ . بَلْ هُوَ مَأْمُورٌ بِإِنْذَارِ الْجَمِيعِ وَفِيهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ وَمَنْ لَا يُؤْمِنُ . فَذَكَرَ اللَّفْظَ الْعَامَّ ؛ وَإِرَادَةُ أُولَئِكَ دُونَ غَيْرِهِمْ لَيْسَ فِيهِ بَيَانٌ لِلْمُرَادِ الْخَاصِّ . وَذَكَرَ الْمَعْنَى الَّذِي أَوْجَبَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ قَطُّ وَلَا فِيهِ تَعْلِيقُ الْحُكْمِ بِالْمَعْنَى الْعَامِّ . وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى يُصَانُ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ . وَمَا ذَكَرَ مِنْ الْمَوَانِعِ هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ الْإِنْذَارَ سَوَاءٌ كَانَ كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا أَوْ فَاسِقًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ لِسَبَبِ يُوجِبُ ذَلِكَ فَيَمْتَنِعُ قَبُولُ الْإِنْذَارِ بِسَبَبِ الْمَوَانِعِ . وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَوَانِعَ قَدْ تَزُولُ فَإِنَّهَا لَيْسَتْ لَازِمَةً لِكُلِّ كَافِرٍ . وَإِذَا كَانَ الْمَانِعُ مَا سَبَقَ مِنْ الْقَوْلِ الَّذِي حَقَّ عَلَيْهِمْ فَقَدْ لَا يَزُولُ أَبَدًا كَمَا قَالَ ﴿ إنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ . وَقَدْ يَذْكُرُ هَذَا وَهَذَا .

وَأَمَّا إِذَا اقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ الْمَوَانِعِ الَّتِي فِيهِمْ وَلَمْ يَذْكُرْ مَا سَبَقَ مِنْ الْقَوْلِ فَهَذِهِ الْمَوَانِعُ يُرْجَى زَوَالُهَا وَيُمْكِنُ مَا لَمْ يَذْكُرْ مَعَهَا مَا يَقْتَضِي امْتِنَاعَ تَغَيُّرِ حَالِهِمْ وَحُصُولِ الْهُدَى .

فَصْلٌ :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ . جَاءَ الْخِطَابُ فِيهَا بِـ " مَا " وَلَمْ يَجِئْ بِـ " مَنْ " فَقِيلَ : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ لَمْ يَقُلْ " لَا أَعْبُدُ مَنْ تَعْبُدُونَ " لِأَنَّ " مَنْ " لِمَنْ يَعْلَمُ وَالْأَصْنَامُ لَا تَعْلَمُ .

وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ جِدًّا ، فَإِنَّ مَعْبُودَ الْمُشْرِكِينَ يَدْخُلُ فِيهِ مَنْ يَعْلَمُ كَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ . وَعِنْدَ الِاجْتِمَاعِ تَغْلِبُ صِيغَةُ أُولِي الْعِلْمِ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ﴾ .

فَإِذَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ بِحَالِ مَنْ يَعْلَمُ عَبَّرَ عَنْهُمْ بِعِبَادَتِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ﴾ الْآيَةَ فَعَبَّرَ عَنْهُمْ بِضَمِيرِ الْجَمْعِ الْمُذَكَّرِ وَهُوَ لِأُولِي الْعِلْمِ .

وَأَمَّا مَا لَا يَعْلَمُ فَجَمْعُهُ مُؤَنَّثٌ كَمَا تَقُولُ: الْأَمْوَالُ جَمَعْتُهَا وَالْحِجَارَةُ قَذَفْتُهَا . ف " مَا " هِيَ لِمَا لَا يَعْلَمُ وَلِصِفَاتِ مَنْ يَعْلَمُ . وَلِهَذَا تَكُونُ لِلْجِنْسِ الْعَامِّ لِأَنَّ شُمُولَ الْجِنْسِ لِمَا تَحْتَهُ هُوَ بِاعْتِبَارِ صِفَاتِهِ كَمَا قَالَ ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ أَيْ الَّذِي طَابَ وَالطَّيِّبُ مِنْ النِّسَاءِ . فَلَمَّا قَصَدَ الْإِخْبَارَ عَنْ الْمَوْصُوفِ بِالطَّيِّبِ وَقَصَدَ هَذِهِ الصِّفَةَ دُونَ مُجَرَّدِ الْعَيْنِ عَبَّرَ بِـ " مَا " . وَلَوْ عَبَّرَ بِـ " مَنْ " كَانَ الْمَقْصُودُ مُجَرَّدَ الْعَيْنِ وَالصِّفَةُ لِلتَّعْرِيفِ حَتَّى لَوْ فُقِدَتْ لَكَانَتْ غَيْرَ مَقْصُودَةٍ كَمَا إذَا قُلْت: جَاءَنِي مَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ كَانَ أَمْسِ فِي الْمَسْجِدِ وَمَنْ فَعَلَ كَذَا وَنَحْوَ ذَلِكَ . فَالْمَقْصُودُ الْإِخْبَارُ عَنْ عَيْنِهِ وَالصِّلَةُ لِلتَّعْرِيفِ وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ الصِّفَةُ قَدْ ذَهَبَتْ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ عَلَى الْقَوْلِ الصَّحِيحِ إنَّهَا اسْمٌ مَوْصُولٌ وَالْمَعْنَى: وَبَانِيهَا وَطَاحِيهَا وَمُسَوِّيهَا وَلَمَّا قَالَ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ أَخْبَرَ بِـ " مَنْ " لِأَنَّ الْمَقْصُودَ الْإِخْبَارُ عَنْ فَلَاحِ عَيْنِهِ وَإِنْ كَانَ فِعْلُهُ لِلتَّزْكِيَةِ وَالتَّدْسِيَةِ قَدْ ذَهَبَ فِي الدُّنْيَا . فَالْقَسَمُ هُنَاكَ بِالْمَوْصُوفِ بِحَيْثُ إنَّهُ إنَّمَا أَقْسَمَ بِهَذَا الْمَوْصُوفِ وَالصِّفَةُ

لازمة . فإنه لا توجد مبنية إلا ببانيها ولا مطحية إلا بطاحيها ولا مسواة إلا بمسويها . وأما المرء المزكي نفسه والمدسيها فقد انقضى عمله في الدنيا وفلاحه وخيبته في الآخرة ليسا مستلزمين لذلك العمل . ونحو هذا قوله ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ . ولهذا يستفهم بها عن صفات من يعلم في قوله ﴿ وما رب العالمين ﴾ كما يستفهم على وجه بها في قوله ﴿ ماذا تعبدون ﴾ . وأما قوله ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ فالاستفهام عن عين الخالق للتمييز بينه وبين الآلهة التي تعبد . فإن المستفهمين بها كانوا مقرين بصفة الخالق وإنما طلب بالاستفهام تعيينه وتمييزه ولتقام عليهم الحجة باستحقاقه وحده العبادة . وأما فرعون فكان منكرا للموصوف المسمى فاستفهم بصيغة " ما " لأنه لم يكن مقرا به طالبا لتعيينه . ولهذا كان الجواب في هذا الاستفهام بقول موسى ﴿ رب السماوات والأرض ﴾ وبقوله ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ فأجاب أيضا بالصفة . وهناك قال ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ فكان الجواب بالاسم المميز للمسمى عن غيره . وكذلك قوله ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾ إلى تمام الآيات .

فَقَوْلُهُ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ يَقْتَضِي تَنْزِيهَهُ عَنْ كُلِّ مَوْصُوفٍ بِأَنَّهُ مَعْبُودُهُمْ . لِأَنَّ كُلَّ مَا عَبَدَهُ الْكَافِرُ وَجَبَتْ الْبَرَاءَةُ مِنْهُ لِأَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ كَافِرًا لَا يَكُونُ مَعْبُودُهُ الْإِلَهَ الَّذِي يَعْبُدُهُ الْمُؤْمِنُ . إذْ لَوْ كَانَ هُوَ مَعْبُودَهُ لَكَانَ مُؤْمِنًا لَا كَافِرًا . وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ أُمُورًا . أَحَدُهَا : أَنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ بَرَاءَتَهُ مِنْ أَعْيَانِ مَنْ يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ . الثَّانِي : أَنَّهُمْ إذَا عَبَدُوا اللَّهَ وَغَيْرَهُ فَمَعْبُودُهُمْ الْمَجْمُوعُ وَهُوَ لَا يَعْبُدُ الْمَجْمُوعَ لَا يَعْبُدُ إلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ . فَيَعْبُدُهُ عَلَى وَجْهِ إخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ لَا عَلَى وَجْهِ الشِّرْكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ . وَبِهَذَا يَظْهَرُ الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِ الْخَلِيلِ ﴿ إنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ إلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴾ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ بِأَنْ يُقَالَ : هُنَا نَفْيُ عِبَادَةِ الْمَجْمُوعِ وَذَلِكَ لَا يَنْفِي عِبَادَةَ الْوَاحِدِ الَّذِي هُوَ اللَّهُ . وَالْخَلِيلُ تَبَرَّأَ مِنْ الْمَجْمُوعِ وَذَلِكَ يَقْتَضِي الْبَرَاءَةَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ فَاسْتَثْنَى . أَوْ يُقَالُ : الْخَلِيلُ تَبَرَّأَ مِنْ جَمِيعِ الْمَعْبُودِينَ مِنْ الْجَمِيعِ فَوَجَبَ أَنْ يُسْتَثْنَى رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَلِهَذَا لَمَّا وَقَعَ مُسْتَثْنًى فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ لَمْ يَحْتَجْ إلَى اسْتِثْنَاءٍ آخَرَ . وَأَمَّا هَذِهِ السُّورَةُ فَإِنَّ فِيهَا التَّبَرِّي مِنْ عِبَادَةِ مَا يَعْبُدُونَ لَا مِنْ نَفْسِ مَا يَعْبُدُونَ . وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْهُمْ وَمِنْ عِبَادَتِهِمْ وَمِمَّا يَعْبُدُونَ . فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ بَاطِلٌ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ : " ﴿ أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنْ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ وَهُوَ كُلُّهُ لِلَّذِي أَشْرَكَ ﴾ " . فَعِبَادَةُ الْمُشْرِكِ كُلُّهَا بَاطِلَةٌ لَا يُقَالُ : نَصِيبُ اللَّهِ مِنْهَا حَقٌّ وَالْبَاقِي بَاطِلٌ بِخِلَافِ مَعْبُودِهِمْ . فَإِنَّ اللَّهَ إلَهٌ حَقٌّ وَمَا سِوَاهُ آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ . فَلَمَّا تَبَرَّأَ الْخَلِيلُ مِنْ الْمَعْبُودِينَ احْتَاجَ إلَى اسْتِثْنَاءِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَمَّا كَانَ فِي هَذِهِ تَبَرُّؤُهُ مِنْ أَنْ يَعْبُدَ مَا يَعْبُدُونَ فَكَانَ الْمَنْفِيُّ هُوَ الْعِبَادَةَ تَبَرَّأَ مِنْ عِبَادَةِ الْمَجْمُوعِ الَّذِينَ يَعْبُدُهُمْ الْكَافِرُونَ . الثَّالِثُ : إنْ كَانَ النَّفْيُ عَنْ الْمَوْصُوفِ بِأَنَّهُ مَعْبُودُهُمْ لَا عَنْ عَيْنِهِ فَهُوَ لَا يَعْبُدُ شَيْئًا مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُمْ . لِأَنَّهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَعْبُودُهُمْ هُمْ مُشْرِكُونَ بِهِ فَوَجَبَتْ الْبَرَاءَةُ مِنْ عِبَادَتِهِ عَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ . وَلَوْ قَالَ " مَنْ تَعْبُدُونَ " لَكَانَ يُقَالُ : إلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ لِأَنَّ النَّفْيَ وَاقِعٌ عَلَى

عَيْنِ الْمَعْبُودِ . وَلَيْسَ إذَا لَمْ يَعْبُدْ مَا يَعْبُدُونَ مُتَبَرِّئًا مِنْهُ وَمُعَادِيًا لَهُ حَتَّى يَحْتَاجَ إلَى الِاسْتِثْنَاءِ . بَلْ هُوَ تَارِكٌ لِعِبَادَةِ مَا يَعْبُدُونَ . وَهَذَا يَتَبَيَّنُ بِالْوَجْهِ الرَّابِعِ : وَهُوَ قَوْلُهُ ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ نَفَى عَنْهُمْ عِبَادَةَ مَعْبُودِهِ . فَهُمْ إذَا عَبَدُوا اللَّهَ مُشْرِكِينَ بِهِ لَمْ يَكُونُوا عَابِدِينَ مَعْبُودَهُ . وَكَذَلِكَ هُوَ إذَا عَبَدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ لَمْ يَكُنْ عَابِدًا مَعْبُودَهُمْ .

الْوَجْهُ الْخَامِسُ : أَنَّهُمْ لَوْ عَيَّنُوا اللَّهَ بِمَا لَيْسَ هُوَ اللَّهُ وَقَصَدُوا عِبَادَةَ اللَّهِ مُعْتَقِدِينَ أَنَّ هَذَا هُوَ اللَّهُ كَالَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْلَ وَالَّذِينَ عَبَدُوا الْمَسِيحَ وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ الدَّجَّالَ وَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُنْيَاهُمْ وَهَوَاهُمْ وَمَنْ عَبَدَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَهُمْ عِنْدَ نُفُوسِهِمْ إنَّمَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ لَكِنَّ هَذَا الْمَعْبُودَ الَّذِي لَهُمْ لَيْسَ هُوَ اللَّهَ . فَإِذَا قَالَ ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ كَانَ مُتَبَرِّئًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْمَعْبُودِينَ وَإِنْ كَانَ مَقْصُودُ الْعَابِدِينَ هُوَ اللَّهُ . الْوَجْهُ السَّادِسُ : أَنَّهُمْ إذَا وَصَفُوا اللَّهَ بِمَا هُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ كَالصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ وَأَنَّهُ فَقِيرٌ أَوْ بَخِيلٌ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ وَعَبَدُوهُ كَذَلِكَ . فَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ الْمَعْبُودِ الَّذِي لِهَؤُلَاءِ . فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ اللَّهَ

(261/835)

كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ﴿ أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي سَبَّ قُرَيْشٍ ؟ يَسُبُّونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ ﴾ " . فَهُمْ وَإِنْ قَصَدُوا عَيْنَهُ لَكِنْ لَمَّا وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ مُذَمَّمٌ كَانَ

سَبُّهُمْ وَاقِعًا عَلَى مَنْ هُوَ مُذَمَّمٌ وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَذَاكَ لَيْسَ هُوَ اللَّه .

فَالْمُؤْمِنُونَ بُرَآءُ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ . الْوَجْهُ السَّابِعُ : أَنَّ كُلَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا وَصَفَ بِهِ الرَّسُولُ رَبَّهُ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَعْبُدْ مَا عَبَدَهُ الرَّسُولُ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ . وَقِسْ عَلَى هَذَا فَلْتَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْمَعَانِي وَتُلَخِّصْ وَتُهَذِّبْ وَاَللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16صـ 534.601 ﴾

(262/835)

كلام نفيس للإمام ابن القيم فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

فوائد سورة الكافرون

وأما قوله عز وجل : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ فإن ما على بابها لأنها واقعة على معبوده صلى الله عليه وسلم على الإطلاق لأن امتناعهم من عبادة الله تعالى ليس لذاته بل كانوا يظنون أنهم يعبدون الله تعالى ولكنهم كانوا جاهلين به فقوله : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أي لا أنتم تعبدون معبودي ومعبوده هو صلى الله عليه وسلم كان عارفا به دونهم وهم جاهلون به هذا جواب بعضهم قال آخرون : إنها هنا

مصدرية لا موصولة أي لا تعبدون عبادتي ويلزم من تنزيههم عن عبادته تنزيههم عن المعبود لأن العبادة متعلقة به وليس هذا بشيء إذ المقصود براءته من معبوديهم وإعلامه أنهم بريئون من معبوده تعالى فالمقصود المعبود لا العبادة وقيل : إنهم كانوا يقصدون مخالفته صلى الله عليه وسلم حسدا له وأنفة من إتباعه فهم لا يعبدون معبوده لا كراهية لذات المعبود ولكن كراهية لاتباعه صلى الله عليه وسلم وحرصا على مخالفته في العبادة وعلى هذا فلا يصح في النظم البديع والمعنى الرفيع إلا لفظ ما لإبهامها ومطابقتها الغرض الذي تضمنته الآية

وقيل في ذلك وجه رابع : وهو قصد ازدواج الكلام في البلاغة والفصاحة مثل قوله : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ و : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ ﴾ فكذلك : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ ومعبودهم لا يعقل ثم ازدوج مع هذا الكلام قوله : ﴿ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ فاستوى اللفظان وإن اختلف المعنيان ولهذا لا يجيء في الإفراد مثل هذا بل لا يجيء إلا من كقوله : ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ ﴾ ﴿ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ ﴾ ﴿ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ ﴿ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ﴾ إلى أمثال ذلك وعندي فيه وجه خامس أقرب من

هذا كله وهو أن المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلا للعبادة مستحقا لها فأتى ب ما الدالة على هذا المعنى كأنه قيل : ولا أنتم عابدون معبودي الموصوف بأنه المعبود الحق ولو أتى بلفظة من لكانت إنما تدل على الذات فقط ويكون ذكر الصلة تعريفا لا أنه هو جهة العبادة ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهلا لأن يعبد تعريف محض أو وصف مقتضى لعبادته فتأمله فإنه بديع جدا وهذا معنى قول محققي النحاة : أن ما تأتي لصفات من يعلم ونظيره : ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ لما كان المراد الوصف وأن هو السبب الداعي إلى الأمر بالنكاح وقصده وهو الطيب فتنكح المرأة الموصوفة به أتى بما دون من وهذا باب لا ينخرم وهو من ألطف مسالك العربية وإذ قد أفضى الكلام بنا إلى هنا فلنذكر فائدة ثانية : تكرير الأفعال في هذه السورة ثم فائدة ثالثة : كونه كرر الفعل في حق نفسه بلفظ المستقبل في الموضعين وأتى في حقهم بالماضي ثم فائدة رابعة : وهي أنه جاء في نفي عبادة معبودهم عنه بلفظ الفعل المستقبل وجاء في نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل ثم فائدة خامسة : وهي كون إيراده النفي هنا ب لا دون لن ثم فائدة سادسة : وهي أن طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته وهذا هو حقيقة التوحيد والنفي المحض ليس بتوحيد وكذلك الإثبات بدون النفي فلا يكون التوحيد إلا متضمنا للنفي والإثبات وهذا حقيقة لا إله إلا الله فلم جاءت هذه السورة بالنفي المحض وما سر ذلك وفائدة سابعة : وهي ما حكمة تقديم نفي عبادته عن

معبودهم ثم نفي عبادتهم عن معبوده وفائدة ثامنة : وهي أن طريقة القرآن إذا خاطب الكفار أن يخاطبهم بالذين كفروا والذين هادوا كقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾ ولم يجيء يا أيها الكافرون إلا

في هذا الموضع فما وجه هذا الاختصاص وفائدة تاسعة : وهي هل في قوله : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ معنى زائد على النفي المتقدم فإنه يدل على اختصاص كل بدينه ومعبوده وقد فهم هذا من النفي فما أفاد التقسيم المذكور وفائدة عاشرة : وهي تقديم ذكرهم ومعبودهم في هذا

التقسيم والاختصاص وتقديم ذكر شأنه وفعله في أول السورة وفائدة حادية عشرة وهي أن هذه السورة قد اشتملت على جنسين من الأخبار أحدهما براءته من معبودهم وبراءتهم من معبوده وهذا لازم أبدا الثاني إخباره بأن له دينه ولهم دينهم فهل هذا متاركة وسكوت

عنهم فيدخله النسخ بالسيف أو التخصيص ببعض الكفار أم الآية باقية على عمومها وحكمها غير منسوخة ولا مخصوصة وبعد فهذه عشر مسائل في هذه السورة ذكرنا منها مسألة واحدة وهي : وقوع ما فيها بدل من فنذكر المسائل التسع مستمدين من فضل الله مستعينين بحوله وقوته متبرئين إليه من الخطأ فما كان من صواب فمنه وحده لا شريك له وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان والله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بريئان منه وأما المسألة الثانية وهي : فائدة تكرار الأفعال فقيل فيه وجوه أحدها : أن قوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ نفي للحال والمستقبل وقوله : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ مقابلة أي لا تفعلون ذلك وقوله : ﴿ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ أي لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي فقال ما عبدتم فكأنه قال : لم أعبد قط ما عبدتم وقوله : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ مقابله أي لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائما وعلى هذا فلا تكرار أصلا وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضيا وحالا ومستقبلا عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأحضره وأبينه وهذا إن شاء الله أحسن ما قيل فيها فلنقتصر عليه ولا نتعداه غيره فإن الوجوه التي قيلت في مواضعها فعليك بها وأما المسألة الثالثة : وهي تكريره الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه وبلفظ الماضي حين أخبر عنهم ففي ذلك سر وهو الإشارة والإيماء إلى عصمة الله تعالى له عن الزيغ والانحراف عن

عبادة معبوده والاستبدال به غيره وأن معبوده واحد في الحال والمال على الدوام لا يرضي به بدلا ولا يبغي عنه حولا بخلاف

(266/835)

الكافرين فإنهم يعبدون أهواءهم ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم فهم بصدد أن يعبدوا اليوم معبودا وغدا غيره فقال: ﴿ لا أَعْبُدُ

(267/835)

مَا تَعْبُدُونَ ﴾ يعني الآن ﴿ وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ أنا الآن أيضا ثم قال: ﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴾ يعني ولا أنا فيما يستقبل يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الكافرون وأشبهت ما هنا رائحة الشرط فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضي وهو مستقبل في المعنى كما يجيء ذلك بعد حرف الشرط كأنه يقول مهما عبدتم من شيء فلا أعبده أنا فإن قيل: وكيف يكون فيها الشرط وقد عمل فيها الفعل ولا جواب لها وهي موصولة فما أبعد الشرط منها قلنا لم نقل أنها شرط نفسها ولكن فيها رائحة منه وطرف من معناه لوقوعها

على غير معين وإبهامها في المعبودات وعمومها وأنت إذا ذقت معنى هذا الكلام وجدت معنى الشرط باديا على صفحاته فإذا قلت لرجل ما تخالفه في كل ما يفعل أنا لا أفعل ما تفعل ألست ترى معنى الشرط قائما في كلامك وقصدك وأن روح هذا الكلام مهما فعلت من شيء فإني لا أفعله وتأمل ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ كيف تجد معنى الشرطية فيه حتى وقع الفعل بعد من بلفظ الماضي والمراد به المستقبل وأن المعنى من كان في المهد صبيا فكيف نكلمه وهذا هو المعنى الذي حام حوله من قال من المفسرين والمعربين أنه كان نبيا بمعنى يكون لكنهم لم يأتوا إليه من بابه بل ألقوه عطلا من تقدير وتنزيل وعزب فهم غيرهم عن هذا للطفه ودقته فقالوا كان زائدة والوجه ما أخبرتك فخذه عفوا لك عزمه وعلى سواك غرمه إلا على من في الآية قد عمل فيها الفعل وليس لها جواب ومعنى الشرطية قائم فيها فكذلك في قوله ولا أنا عابد ما عبدتم وهذا كله مفهوم من كلام فحول النحاة كالزجاج وغيره فإذا ثبت هذا فقد صحت الحكمة التي من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضي من قوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ بخلاف قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ لبعد ما فيها عن معنى الشرط تنبيها من الله على عصمة نبيه أن يكون له

معبودا سواه وأن ينتقل في

(269/835)

المعبودات تنقل الكافرين أما المسألة الرابعة : وهي أنه لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل وفي جهته جاء بالفعل المستقبل تارة وباسم الفاعل أخرى فذلك والله أعلم لحكمة بديعة وهي أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفي كل وقت فأتى أولا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل الدالة على الوصف والثبوت فأفاد في النفي الأول أن هذا لا يقع مني وأفاد في الثاني أن هذا ليس وصفي ولا شأني فكأنه قال : عبادة غير الله لا تكون فعلا لي ولا وصفا فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي وأما في حقهم فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل أي أن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتف عنكم فليس هذا الوصف ثابتا لكم وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة لم يشرك معه فيها أحدا وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه وإن عبدوه في بعض الأحيان فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره كما قال أهل الكهف : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلا اللَّهَ ﴾ أي اعتزلتم معبودهم إلا الله فإنكم لم تعتزلوه

وكذا قال المشركون عن معبودهم: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ فهم كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره فلم ينتف عنهم الفعل لوقوعه منهم ونفي الوصف لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتا على عبادة الله موصوفا بها فتأمل هذه النكتة البديعة كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد الله وعبده المستقيم على عبادته إلا من انقطع إليه بكليته وتبتل إليه تبتيلا لم يلتفت إلى غيره لم يشرك به أحدا في عبادته وأنه وإن عبده وأشرك به غيره فليس عابدا لله ولا عبدا له وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة التي هي إحدى سورتي الإخلاص التي تعدل ربع القرآن كما جاء في بعض السنن وهذا لا يفهمه كل أحد ولا يدركه إلا من منحه الله فهما من عنده فلله الحمد والمنة وأما المسألة

الخامسة: وهي أن النفي في هذه السورة أتى بأداة لا دون لن وذلك لأن النفي ب لا أبلغ منه ب لن وأن لا أدل على دوام النفي

وطوله من لن وأنها للطول والمد الذي في نفيها طال النفي بها واشتد وأن هذا ضد ما فهمته الجهمية والمعتزلة من أن لن إنما تنفي المستقبل ولا تنفي الحال المستمر النفي في الاستقبال وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد تجده في غير هذا التعليق فالإتيان بلا متعين هنا والله أعلم

وأما المسألة السادسة : وهي اشتمال هذه السورة على النفي المحض فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء في وصفها أنها براءة من الشرك فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ولهذا أتى بالنفي في الجانبين تحقيقا للبراءة المطلوبة هذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحا فقوله : ﴿ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ براءة محضة ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ إثبات أن له معبودا يعبده وأنتم بريئون من عبادته فتضمنت النفي والإثبات وطابقت قول إمام الحنفاء : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ وطابقت قول فئة الموحدين : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله تعالى ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرنها بسورة قل هو الله أحد في سنة الفجر وسنة المغرب فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص صحيح وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح إلا بهما وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد وأنه إله أحد صمد لم يلد فيكون له فرع ولم يولد فيكون له أصل ولم يكن له كفوا أحد فيكون له نظير ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها فتضمنت السورة إثبات ما

يليق بجلاله من صفات الكمال ونفي ما لا يليق به من الشريك أصلا وفرعا ونظيرا فهذا توحيد العلم والاعتقاد والثاني توحيد القصد والإرادة وهو أن لا يعبد إلا إياه فلا يشرك به في عبادته سواه بل يكون وحده هو المعبود وسورة قل يا أيها

(272/835)

الكافرون مشتملة على هذا التوحيد فانتظمت السورتان نوعي التوحيد وأخلصتا له فكان صلى الله عليه وسلم يفتتح بهما النهار في سنة الفجر ويختم بهما في سنة المغرب وفي السنن أنه كان يوتر بهما فيكونان خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار ومن هنا تخريج جواب المسألة

(273/835)

السابعة وهي تقديم براءته من معبودهم ثم أتبعها ببراءتهم من معبوده فتأمله وأما المسألة الثامنة وهي إثباته هنا بلفظ يا أيها الكافرون دون يا أيها الذين كفروا فسره والله أعلم إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفا ثابتا لازما لا يفارقه فهو حقيق أن يتبرأ الله منه

ويكون هو أيضا بريئا من الله فحقيق بالموحد البراءة منه فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله التي هي غاية الكفر وهو الكفر الثابت اللازم في غاية المناسبة فكأنه يقول كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة دائما أبدا ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار مقابلة الكفر الثابت المستمر وهذا واضح المسألة التاسعة: وهي ما الفائدة في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ وهل أفاد هذا معنى زائدا على ما تقدم فيقال في ذلك من الحكمة والله أعلم أن النفي الأول أفاد البراءة وأنه لا يتصور منه ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم وهم أيضا لا يكونون عابدين لمعبوده وأفاد آخر السورة إثبات ما تضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضا فقال له لا تدخل في حدي ولا أدخل في حدك لك أرضك ولي أرضي فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا فأصابنا التوحيد والإيمان فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به لا تشركونا فيه وأصابكم الشرك بالله والكفر به فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصمون به لا نشرككم به فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه وهذه المعاني ونحوها إذا تجلت للقلوب رافلة في حللها فإنها تسبى القلوب وتأخذ بمجامعها ومن لم يصادف من قلبه حياة فهي خود تزف إلى ضرير مقعد فالحمد لله على مواهبه التي لا تنتهي ونسأله إتمام

نعمته وأما المسألة العاشرة: وهي تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه وفي أول السورة قدم ما يختص بهم فهذا من

أسرار الكلام وبديع الخطاب الذي لا يدركه إلا فحول البلاغة وفرسانها فإن السورة لما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم ورضي كل بقسمه

وكان المحق هو صاحب القسمة وقد برز النصيبين وميز القسمين وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون الذي لا أردا منه وأنه هو قد استولى على القسم الأشراف والحظ الأعظم بمنزلة من اقتسم هو وغيره سما وشفاء فرضي مقاسمه بالسم فإنه يقول له لا تشاركني في قسمي ولا أشاركك في قسمك لك قسمك ولي قسمي فتقديم ذكر قسمه ها هنا أحسن وأبلغ كأنه يقول هذا هو قسمك الذي آثرته بالتقديم وزعمت أنه أشرف القسمين وأحقهما بالتقديم فكان في تقديم ذكر قسمه من التهكم به والنداء على سوء اختياره وقبح ما رضيه

لنفسه من الحسن والبيان ما لا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه والحاكم في هذا هو الذوق والفطن يكتفي بأدنى إشارة وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه كثرة البيان ووجه ثان وهو أن مقصود السورة براءته صلى الله عليه وسلم من دينهم ومعبودهم هذا هو لبها ومغزاها وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني مكملا لبراءته ومحققا لها فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به في أول السورة ثم جاء قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ مطابقا لهذا المعنى أي لا أشارككم في دينكم ولا أوافقكم عليه بل هو دين تختصون أنتم به لا أشرككم فيه أبدا فطابق آخر السورة أولها فتأمله وأما المسألة الحادية عشرة: وهي أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه هل هو إقرار فيكون منسوخا أو مخصوصا أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص فهذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة: وقد غلط في السورة خلائق وظنوا أنها منسوخة بآية السيف لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب وكلا القولين غلط محض فلا نسخ في السورة ولا تخصيص بل هي محكمة عمومها نص محفوظ وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه وهذه السورة أخلصت التوحيد ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم ومنشأ الغلط ظنهم أن

الآية اقتضت إقرارهم على دينهم ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف فقالوا :

منسوخ وقالت طائفة : زال عن بعض الكفار وهم من لا كتاب لهم فقالوا هذا مخصوص ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريرا لهم أو إقرارا على دينهم أبدا بل لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه أشد على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنهي عنه والتهديد والوعيد كل وقت وفي كل ناد وقد سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم وعيب دينهم ويتركونه وشأنه فأبى إلا مضيا على الإنكار عليهم وعيب دينهم فكيف يقال إن الآية اقتضت تقريره لهم معاذ الله من هذا الزعم الباطل وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم وأن ما هم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبدا فإنه دين باطل فهو مختص بكم لا نشرككم فيه ولا أنتم تشركوننا في ديننا الحق فهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم فأين الإقرار حتى يدعي النسخ أو التخصيص أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يظهر الله منهم عباده وبلاده وكذلك

حكم هذه البراءة بين أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به الداعين إلى غير سنته إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته لكم دينكم ولنا ديننا لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم بل يقولون لهم هذه براءة منها وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان فهذا ما فتح الله العظيم به من هذه الكلمات اليسيرة والنبذة المشيرة إلى عظمة هذه السورة وجلالتها ومقصودها وبديع نظمها من غير استعانة بتفسير ولا تتبع لهذه الكلمات من مظان توجد فيه بل هي استملاء مما علمه الله وألهمه بفضله وكرمه والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها ولبالغت في استحسانها وعسى الله المان بفضله الواسع العطاء الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين أن يعين على تعليق تفسير هذا النمط وهذا الأسلوب وقد

(278/835)

كتبت على مواضع متفرقة من القرآن بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس والله

(279/835)

المرجو إتمام نعمته ولنذكر تمام الكلام على أقسام ما ومواقعها ما المصدرية فقد ذكرنا منها ما الموصولة ومن أقسامها المصدرية ومعنى وقوعها عليه أنها إذا دخلت على الفعل كان معها في تأويل المصدر هكذا أطلق النحاة وهنا أمور يجب التنبيه عليها والتنبه لها أحدها الفرق بين المصدر الصريح والمصدر المقدر مع ما والفرق بينهما أنك إذا قلت يعجبني صنعك فالإعجاب هنا واقع على نفس الحدث بقطع النظر عن زمانه ومكانه وإذا قلت يعجبني ما صنعت فالإعجاب واقع على صنع ماض وكذلك ما تصنع واقع على مستقبل فلم تتحد دلالة ما والفعل والمصدر الثاني أنه لا تقع مع كل فعل في تأويل المصدر وإن وقع المصدر في ذلك الموضع فإنك إذا قلت يعجبني قيامك كان حسنا فلو قلت يعجبني ما تقوم لم يكن كلاما حسنا وكذلك يعجبني ما تقوم وما تجلس أي قيامك وجلوسك ولو أتيت بالمصدر كان حسنا وكذلك إذا قلت يعجبني ما تذهب لم يكن في الجواز والاستعمال مثل يعجبني ذهابك قال أبو القاسم السهيلي الأصل في هذا أن ما لما كانت اسما مبهما لم يصح وقوعها إلا على جنس تختلف أنواعه فإن كان المصدر مختلف الأنواع جاز أن تقع عليه ويعبر بها عنه كقولك يعجبني ما صنعت وما عملت وما حكمت لاختلاف الصنعة والعلم والحكم فإن قلت يعجبني ما جلست وما قعدت وما انطلق زيد كان غثا من الكلام لخروج ما عن الإبهام ووقوعها على ما لا يتنوع من المعاني لأنه يكون التقدير يعجبني الجلوس الذي

جلست والقعود الذي قعدت فيكون آخر الكلام مفسرا لأوله رافعا للإبهام فلا معنى حينئذ ل ما فأما قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا ﴾ فلأن المعصية تختلف أنواعها وقوله: ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ فهو كقولك: لأعاقبنك بما ضربت زيدا وبما شتمت عمرا أوقعتها على الذنب والذنب مختلف الأنواع ودل ذكر المعاقبة والمجازاة على ذلك وكأنك قلت لأجزينك بالذنب الذي هو ضرب زيد أو شتم عمرو ف ما على

(280/835)

بابها غير خارجة عن بابها هذا كلامه وليس كما زعم رحمه الله فإنه لا يشترط في كونها مصدرية ما ذكر من الإبهام بل تقع على المصدر الذي لا تختلف أنواعه بل هو

(281/835)

نوع واحد فإن إخلافهم ما وعد الله كان نوعا واحدا مستمرا معلوما وكذلك كذبهم وأصرح من هذا كله قوله تعالى: ﴿ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ فهذا مصدر معين خاص لا إبهام فيه بوجه وهو علم

الكتاب ودرسه وهو فرد من أفراد العمل والصنع فهو كما منعه من الجلوس والقعود والانطلاق ولا فرق بينهما في إبهام ولا تعيين إذ كلاهما معين متميز غير مبهم ونظيره ﴿ بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ [الأنعام 93] فاستكبارهم وقولهم على الله غير الحق مصدران معينان غير مبهمين واختلاف أفرادهما كاختلاف أفراد الجلوس والانطلاق ولو أنك قلت في الموضوع الذي منعه هذا بما جلست وهذا بما نطقت كان حسنا غير غث ولا مستكره وهو المصدر بعينه فلم يكن الكلام غثا بخصوص المصدر وإنما هو لخصوص التركيب فإن كان بقدر امتناعه واستكراهه إذا صنعته في تركيب آخر زالت الكراهية والغثاثة عنه كما رأيت ما الموصولة والتحقيق أن قوله يعجبني ما تجلس وما ينطلق زيد إنما استكره وكان غثا لأن ما المصدرية والموصولة يتعاقبان غالبا ويصلح أحدهما في الموضع الذي يصلح فيه الآخر وربما احتملها كلام واحد ولا يميز بينهما فيه إلا بنظر وتأمل فإذا قلت يعجبني ما صنعت فهي صالحة لأن تكون مصدرية أو موصولة وكذلك والله عليم بما يفعلون والله بصير بما يعملون فتأمله تجده كذلك ولدخول إحداهما على الأخرى ظن كثير من الناس أن قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أنها مصدرية واحتجوا بها على خلق الأعمال وليست مصدرية وإنما هي موصولة والمعنى والله خلقكم وخلق الذي تعملونه وتنحتونه من الأصنام فكيف تعبدونه وهو

مخلوق لله ولو كانت مصدرية لكان الكلام إلى أن يكون حجة لهم أقرب من أن يكون حجة عليهم إذ يكون المعنى أتعبدون ما تنحتون والله خلق

عبادتكم لها فأي معنى في هذا وأي حجة عليهم والمقصود أنه كثيرا ما تدخل إحداهما على الأخرى ويحتملها الكلام سواء وأنت لو قلت يعجبني الذي يجلس لكان غثا من المقال إلا أن تأتي بموصوف يجري هذا صفة له فتقول يعجبني

الجلوس الذي تجلس وكذلك إذا قلت يعجبني الذي ينطلق زيد كان غثا فإذا قلت يعجبني الانطلاق الذي ينطلق زيد كان حسنا فمن هنا يعجبني ما ينطلق وما تجلس إذا أردت به المصدر وأنت لو قلت آكل ما يأكل كانت موصولة وكان الكلام حسنا فلو أردت بها المصدرية والمعنى آكل أكلك كان غثا حتى تأتي بضميمة تدل على المصدر فتقول آكل كما يأكل فعرفت أنه لم يكن الاستكراه الذي أشار إليه من جهة الإبهام والتعيين فتأمله وأما طالما

يقوم زيد وقل ما يأتي عمروف ما هنا واقعة على الزمان والفعل بعدها متعد إلى ضميره بحرف الجر والتقدير طال زمان يقوم فيه زيد وقل زمان يأتينا فيه عمرو ثم حذف الضمير فسقط الحرف هذا تقدير طائفة من النحاة منهم السهيلي وغيره ويحتمل عندي تقديرين آخرين هما أحسن من هذا أحدهما أن تكون مصدرية وقتية والتقدير طال قيام زيد وقل إتيان عمرو وإنما كان هذا أحسن لأن حذف العائد من الصفة قبيح بخلاف حذفه إذا لم يكن عائدا على شيء فإنه أسهل وإذا جعلت مصدرية كان حذف الضمير حذف فضلة غير عائد على موصوف والتقدير الثاني وهو أحسنها أن ما ها هنا مهيأة لدخول الفعل على الفعل ليست مصدرية ولا نكرة وإنما أتى بها لتكون مهيأة لدخول طال على الفعل فإنك لو قلت طال يقوم زيد وقل يجي عمرو لم يجز فإذا أدخلت ما استقام الكلام وهذا كما دخلت على رب مهيأة لدخولها على الفعل نحو قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ وكما دخلت على إن مهيأة لدخولها على الفعل نحو: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فإذا عرفت هذا فقول النبي صلى الله عليه وسلم: "صلوا كما رأيتموني أصلي" رواه البخاري ومسلم هو من هذا الباب ودخلت ما بين كاف التشبيه وبين الفعل مهيأة لدخولها عليه في كافة للخافض ومهيأة له أن تقع بعد الفعل وهذا قد خفي على أكثر النحاة حتى ظن كثير منهم أن ما ها هنا مصدرية وليس كما ظن فإنه لم يقع التشبيه

بالرؤية وأنت لو صرحت بالمصدر هنا لم يكن كلاما صحيحا فإنه لو قيل صلوا كرؤيتكم صلاتي لم يكن مطابقا للمعنى المقصود فلو قيل إنها موصولة والعائد محذوف والتقدير صلوا كالتي رأيتموني أصلي أي كالصلوات التي رأيتموني أصليها كان أقرب من المصدرية على كراهته فالصواب ما ذكرته لك ونظير هذه المسألة

قوله للصديق "كما أنت" رواه الطبراني فأنت مبتدأ والخبر محذوف فلا مصدر هنا إذ لا فعل فمن قال إنها مصدرية فقد غلط وإنما هي مهيأة لدخول الكاف على ضمير الرفع والمعنى كما أنت صانع أو كما أنت مصل فدم على حالتك ونظير ذلك أيضا وقوعها بين بعد والفعل نحو قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ﴾ ليست مصدرية كما زعم أكثر النحاة بل هي مهيأة لدخول بعد على فعل كاد إذ لا يصاغ من كاد وما مصدر إلا أن يتجشم له فعل بمعناه يسبك منها ومن ذلك الفعل مصدر وعلى ما قررناه لا يحتاج إلى ذلك ويؤيد هذا قول الشاعر:

أعلاقة أم الوليد بعدما . . . أفنان رأسك كالثغام المخلس

أفلا تراها ها هنا حيث لا فعل ولا مصدر أصلا فهي كقوله كما أنت مهيأة لدخول بعد على الجملة الابتدائية ولكن الخبر في البيت مذكور وهو في قوله كما أنت محذوف فإن قلت: فما بالهم لم يدخلوها في قبل كافة لها مهيأة لدخولها على الفعل والجملة قبلما يقوم زيد وقبل ما

زيد قائم قلت لا تكون ما كافة لأسماء الإضافة وإنما تكون كافة للحروف وبعد أشد مضارعة للحروف من قبل لأن قبل كالمصدر في لفظها ومعناها تقول جئت قبل الجمعة تريد الوقت الذي تستقبل في الجمعة فالجمعة بالإضافة إلى ذلك الوقت قابله كما قال الشاعر :

نحج معا قالت أعاما وقابله . . . فإذا كان العام الذي بعد عامك

(285/835)

يسمى قابلا فعامك الذي أنت فيه قبل ولفظه من لفظ قابل فقد بان لك من جهة اللفظ والمعنى أن قبل مصدر في الأصل والمصدر كسائر الأسماء لا يكف به ولا يهيأ لدخول الجمل بعد وإنما ذلك في بعض الحروف العوامل لا في شيء من الأسماء وأما بعد فهي أبعد عن شبه المصدر وإن كانت تقرب من لفظ بعد ومن معناه فليس قربها من لفظ المصدر كقرب قبل ألا ترى أنهم لم يستعملوا من لفظها اسم فاعل فيقولون للعام الماضي الباعد كما قالوا للمستقبل القابل فإن قلت : فما تقول في

قوله : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ فإنها لا يمتنع فيها تقدير المصدر في هذه المواضع كلها فهل هي كافة مهيأة أو مصدرية قلت التحقيق أنها كافة لحرف التشبيه عن عمله مهيأة

لدخوله على الفعل ومع هذا فالمصدر ملحوظ فيها وإن لم تكن مصدرية محضة ويدل على أن ما لا تقع مصدرية على حد أنك تجدها لا تصلح في موضع تصلح فيه أن فإذا قلت أريد أن تقوم كان مستقيما فلو قلت أريد ما تقوم لم يستقم وكذلك أحب أن تأتيني لا تقول موضعه أحب ما تأتيني وسر المسألة : أن المصدرية ملحوظ فيها معنى الذي كما تقدم بخلاف أن فإن قلت : فما تقول في كما قمت أكرمتك أمصدرية هنا أم كافة أم نكرة قلت هي ها هنا نكرة وهي ظرف زمان في المعنى والتقدير كل وقت تقوم فيه أكرمك فإن قلت : فهلا جعلتها كافة لإضافة كل إلى الفعل مهيأة لدخولها عليه قلت : ما أحراها بذلك لولا ظهور الظرف والوقت وقصده من الكلام فلا يمكن إلغاؤه مع كونه هو المقصود ألا ترى أنك تقول كل وقت يفعل كذا أفعل كذا فإذا قلت كلما فعلت وجدت معنى الكلامين واحدا وهذا قول أئمة العربية وهو الحق .

فصل :

قال أبو القاسم السهيلي : اعلم أن ما إذا كانت موصولة بالفعل الذي لفظه عمل أو صنع أو فعل وذلك الفعل مضاف إلى فاعل غير الباري سبحانه فلا يصح وقوعها إلا على مصدر

لإجماع العقلاء من الأنام في الجاهلية والإسلام على أن أفعال الآدميين لا تتعلق بالجواهر والأجسام لا تقول عملت جملا ولا صنعت جبلا ولا حديدا ولا حجرا ولا ترابا فإذا قلت : أعجبني ما عملت وما فعل زيد فإنما يعني الحدث فعلى هذا لا يصح في تأويل قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ إلا قول أهل السنة أن المعنى والله خلقكم وأعمالكم ولا يصح قول المعتزلة من جهة المنقول ولا من جهة المعقول لأنه زعموا أن ما واقعة على الحجارة التي كانوا ينحتونها أصناما وقالوا : تقدير الكلام خلقكم والأصنام التي تعملون إنكارا منهم أن تكون أعمالنا مخلوقة لله

سبحانه واحتجوا بأن نظم الكلام يقتضي ما قالوا لأنه تقدم قوله : ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ فما واقعة على الحجارة المنحوتة ولا يصح غير هذا من جهة النحو ولا من جهة المعنى أما النحو فقد تقدم أن ما لا تكون مع الفعل الخاص مصدرا وأما المعنى فإنهم لم يكونوا يعبدون النحت وإنما كانوا يعبدون المنحوتات فلما ثبت هذا وجب أن تكون الآية التي هي رد عليهم وتقييد لهم واقعة على الحجارة المنحوتة والأصنام المعبودة ويكون التقدير تعبدون حجارة منحوتة والله خلقكم وتلك الحجارة التي تعملون هذا كله معنى

قول المعتزلة وشرح ما شبهوا به والنظم على تأويل أهل الحق أبدع والحجة أقطع والذي ذهبوا إليه فاسد محال لأنهم أجمعوا معنا على أن أفعال العباد لا تقع على الجواهر والأجسام فإن قيل : فقد تقول عملت الصحيفة وصنعت الجفنة وكذلك الأجسام معمولة على هذا قلنا : لا يتعلق الفعل فيما ذكرتم إلا بالصورة التي هل التأليف والتركيب وهي نفس العمل وأما الجوهر المؤلف المركب فليس بمعمول لنا فقد رجع العمل والفعل إلى الأحداث دون الجواهر هذا إجماع منا ومنهم فلا يصلح حملهم على غير ذلك وأما ما زعموا من حسن النظم وإعجاز الكلام فهو ظاهر وتأويلنا معدوم في تأويلهم لأن الآية وردت في بيان استحقاق الخالق للعبادة لانفراده بالخلق وإقامة الحجة على من يعبد ما لا يخلق وهم يخلقون فقال : ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي من لا يخلق شيئا وهم يخلقون وتدعون عبادة من خلقكم وأعمالكم التي تعملون ولو لم يضف خلق الأعمال إليه في الآية وقد نسبها إليهم بالمجاز لما قامت له حجة من نفس الكلام لأنه كان يجعلهم خالقين لأعمالهم وهو خالق لأجناس أخرى فيشركهم معه في الخلق تعالى الله عن قول الزائغين ولا لعثرات المبطلين فما أدحض حجتهم وما أوهى قواعد مذهبهم وما أبين الحق لمن اتبعه جعلنا الله من أتباعه وحزبه وهذا الذي ذكرنا قاله أبو عبيد في قول حذيفة أن يخلق صانع

الجرم وصنعته واستشهد بالآية وخالفه القتيبي في إصلاح الغلط فغلط أشد الغلط ووافق المعتزلة في تأويلها وإن لم يقل بقيلها هذا آخر كلام أبي القاسم ولقد بالغ في رد ما لا

تحتمل الآية سواه أو ما هو أولى بحملها وأليق بها ونحن وكل محق مساعدوه على الله خالق العباد وأعمالهم وأن كل حركة في الكون فالله خالقها وعلى صحة هذا المذهب أكثر من ألف دليل من القرآن الكريم والسنة والمعقول والفطر ولكنه لا ينبغي أن تحمل الآية على غير معناها اللائق بها حرصا على جعلها عليهم حجة ففي سائر الأدلة غنية عن ذلك على أنها حجة عليهم من وجه آخر مع كون ما بمعنى الذي سنبينه إن شاء الله تعالى والكلام إن شاء الله تعالى في الآية في مقامين أحدهما في سلب دلالتها على مذهب القدرية والثاني في إثبات دلالتها على مذهب أهل الحق خلاف قولهم فهاهنا مقامان مقام إثبات ومقام سلب فأما مقام السلب فزعمت القدرية أن الآية حجة لهم في كونهم خالقين أعمالهم قالوا لأن الله سبحانه أضاف الأعمال إليهم وهذا يدل على أنهم هم المحدثون لها وليس المراد هاهنا نفس الأعمال بل الأصنام المعمولة فأخبر سبحانه أنه خالقهم وخالق تلك الأصنام التي

عملوها والمراد مادتها وهي التي وقع الخلق عليها وأما صورتها وهي التي صارت بها أصناما فإنها بأعمالهم وقد أضافها إليهم فتكون بأحداثهم وخلقهم فهذا وجه احتجاجهم بالآية وقابلهم بعض المثبتين للقدر وأن الله هو خالق أفعال العباد فقالوا الآية صريحة في كون أعمالهم مخلوقة لله فإن ما هاهنا مصدرية والمعنى والله خلقهم وخلق أعمالهم وقرروه بما ذكره السهيلي وغيره ولما أورد عليهم القدرية كيف تكون ما مصدرية هنا وأي وجه يبقى للاحتجاج عليهم إذا كان المعنى والله خلقكم وخلق عبادتكم وهل هذا إلا تلقين لهم الاحتجاج بأن يقولوا فإذا كان الله قد خلق عبادتنا للأصنام فهي مرادة له فكيف ينهانا عنها وإذا كانت مخلوقة فكيف يمكننا تركها فهل يسوغ أن يحتج على إنكار عبادتهم أجابهم المثبتون بأن قالوا لو تدبرتم سياق الآية ومقصودها لعرفتم صحة الاحتجاج فإن الله سبحانه أنكر عليهم عبادة من لا يخلق شيئا أصلا وترك عبادة من هو

خالق لذواتهم وأعمالهم فإذا كان الله خالقكم وخالق أعمالكم فكيف

تدعون عبادته وتعبدون من لا يخلق شيئًا لا ذواتكم ولا أعمالكم وهذا من أحسن الاحتجاج وقد تكرر في القرآن الإنكار عليهم أن يعبدوا ما لا يخلق شيئًا وسوى بينه وبين الخالق لقوله: ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ وقوله: ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ إلى أمثال ذلك فصح الاحتجاج وقامت الحجة بخلق الأعمال مع خلق الذوات فهذا منتهى إقدام الطائفتين في الآية كما ترى والصواب أنها موصولة وأنها لا تدل على صحة مذهب القدرية بل هي حجة عليهم مع كونها موصولة وهذا يبين بمقدمة نذكرها قبل الخوض في التقرير وهي أن طريقة الحجاج والخطاب أن يجرد القصد والعناية بحال ما يحتج له وعليه فإذا كان المستدل محتجا على بطلان ما قد ادعى في شيء وهو يخالف ذلك فإنه يجرد العناية إلى بيان بطلان تلك الدعوى وأن ما ادعى له ذلك الوصف هو متصف بضده لا متصف به فإما أن يمسك عنه ويذكر وصف غيره فلا وإذا تقرر هذا فالله سبحانه أنكر عليهم عبادتهم الأصنام وبين أنها لا تستحق العبادة ولم يكن سياق الكلام في معرض الإنكار عليهم ترك عبادته وأن ما هو في معرض الإنكار عبادة من لا يستحق العبادة فلو أنه قال لا تعبدون الله وقد خلقكم وما تعملون لتعينت المصدرية قطعا ولم يحسن أن يكون بمعنى الذي إذ يكون المعنى كيف لا تعبدونه وهو الذي أوجدكم

وأوجد أعمالكم فهو المنعم عليكم بنوعي الإيجاد والخلق فهذا وزان ما قرروه من كونها مصدرية فأما سياق الآية فإنه في معرض إنكاره عليهم عبادة من لا يستحق العبادة فلا بد أن يبين فيه معنى ينافي كونه معبودا فبين هذا المعنى بكونه مخلوقا له ومن كان مخلوقا من بعض مخلوقاته فإنه لا ينبغي أن يعبد ولا تليق به العبادة وتأمل مطابقة هذا المعنى لقوله :

﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ

(292/835)

دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ كيف أنكر عليهم عبادة آلهة مخلوقة له سبحانه وهي غير خالقة فهذا يبين المراد من قوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ

(293/835)

وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ونظيره قوله في سورة الأعراف : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أي هم عباد مخلوقون كما أنتم كذلك فكيف تعبدون المخلوق وتأمل طريقة القرآن لو أراد المعنى الذي ذكروه من حسن صفاته وانفراده بالخلق كقول صاحب يس :

﴿ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ فهنا لما كان المقصود إخبارهم بحسن عبادته واستحقاقه لها ذكر الموجب لذلك وهي كونه خالقا لعابده فاطرا له وهذا إنعام منه عليه فكيف يترك عبادته ولو كان هذا هو المراد من قوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ كان يقتضي أن يقال : ألا يعبدون الله وهو خالقهم وخالق أعمالهم فتأمل فإنه واضح وقول أبي القاسم في تقرير حجة المعتزلة من الآية أنه لا يصح أن تكون مصدرية وهو باطل من جهة النحو وليس كذلك أما قوله إن ما لا تكون مع الفعل الخاص مصدرا فقد تقدم بطلانه إذ مصدريتها تقع مع الفعل الخاص المبهم لقوله تعالى : ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ﴾ وقوله : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ إلى أضعاف ذلك فإن هذه كلها أفعال خاصة وهي أخص من مطلق العمل فإذا جاءت مصدرية مع هذه الأفعال فمجيئها مصدرية مع العمل أولى وقولهم إنهم لم يكونوا يعبدون النحت وإنما عبدوا المنحوت حجة فاسدة فإن الكلام في ما المصاحبة للفعل دون المصاحبة لفعل النحت فإنها لا تحتمل غير الموصولة ولا يلزم من كون الثانية مصدرية كون الأولى كذلك فهذا تقرير فاسد وأما تقريره كونها مصدرية أيضا بما ذكره فلا حجة له فيه أما قوله : أفعال العباد لا تقع على الجواهر والأجسام فيقال : ما معنى عدم وقوعها على الجواهر والأجسام أتعني به أن أفعالهم لا تتعلق بإيجادها أم تعني به أنها لا تتعلق بتغييرها وتصويرها أم تعني به أعم من ذلك

(294/835)

وهو المشترك بين القسمين فإن عنيت الأول فمسلم لكن لا يفيدك شيئًا فإن كونها موصولة لا تستلزم ذلك فإن كون الأصنام معمولة لهم لا يقتضي أن تكون مادتها معمولة لهم بل هو على حد قولهم عملت بيتا وعملت بابا وعملت حائطا وعملت ثوبا وهذا

(295/835)

إطلاق حقيقي ثابت عقلا ولغة وشرعا وعرفا لا يتطرق إليه رد فهذا ككون الأصنام معمولة سواء وإن عنيت أن أفعالهم لا تتعلق بتصويرها فباطل قطعا وإن عنيت القدر المشترك فباطل أيضا فإنه مشتمل على نفي حق وباطل فنفي الباطل صحيح ونفي الحق باطل ثم يقال إيقاع العمل منهم على الجواهر والأجسام يجوز أن يطلق فيه العمل الخاص وشاهده في الآية ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ فما هاهنا موصولة فقد أوقع فعلهم وهو النحت على الجسم وحينئذ فأي فرق بين إيقاع أفعالهم الخاصة على الجوهر والجسم وبين وإيقاع أفعالهم العامة عليه لا بمعنى أن ذاته مفعولة له بل بمعنى أن فعلهم هو الذي صار به

صنما واستحق أن يطلق عليه اسمه كما أنه بعملهم صار منحوتا واستحق هذا الاسم وهذا بين وأما قوله: بجواب النقض ب عملت الصحيفة وصنعت الجفنة أن الفعل متعلق بالصورة التي هي التأليف والتركيب وهي نفس العمل فكذلك هو أيضا متعلق بالتصوير الذي صار الحجر به صنما منحوتا سواء وأما قوله الآية في بيان استحقاق الخالق للعبادة لانفراده بالخلق فقد تقدم جوابه وأن الآية وردت لبيان عدم استحقاق معبوديهم للعبادة لأنها مخلوقة لله وذكرنا شواهده من القرآن فإن قيل: كان يكفي في هذا أن يقال أتعبدون ما تنحتون والله خالقه فلما عدل إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ علم أنه أراد الاحتجاج عليهم في ترك عبادته سبحانه وهو خالقهم وخالق أفعالهم قيل في ذكر خلقه سبحانه لآلهتهم ولعابديها من بيان تقبيح حالهم وفساد رأيهم وعقولهم في عبادتها دونه تعالى ما ليس في الاقتصار على ذكر خلق الآلهة فقط فإنه إذا كان الله تعالى هو الذي خلقكم وخلق معبوديكم فهي مخلوقة أمثالكم فكيف يعبد العاقل من هو مثله ويتألهه ويفرده بغاية التعظيم والإجلال والمحبة وهل هذا إلا أقبح الظلم في حق أنفسكم وفي حق ربكم وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ

أَمْثَالُكُمْ﴾ ومن حق المعبود أن لا يكون مثل العابد فإنه إذا كان مثله كان عبدا مخلوقا والمعبود ينبغي أن يكون ربا خالقا فهذا من أحسن الاحتجاج وأبينه فقد أسفر لك من المعنى المقصود بالسياق صحيحه ووضح لك شرحه وانجلى بحمد الله الإشكال وزال عن المعنى غطاء الإجمال وبان أن ابن قتيبة في تفسير الآية وفق للسداد كما وفق لموافقة أهل السنة في خلق أعمال العباد ولا تستطل هذا الفصل فإنه يحقق لك فصولا لا تكاد تسمعها في خلال المذكرات وتحصل لك قواعد وأصول لا تجدها في عامة المصنفات

فإن قيل: فأين ما وعدتم به من الاستدلال بالآية على خلق الله لأعمال العباد على تقدير كون ما موصولة قيل نعم قد سبق "الوعد" بذلك وقد حان إنجازه وآن إبرازه ووجه الاستدلال بها على هذا التقدير أن الله سبحانه أخبر أنه خالقهم وخالق الأصنام التي عملوها وهي إنما صارت أصناما بأعمالهم فلا يقع عليها ذلك الاسم إلا بعد عملهم فإذا كان سبحانه هو الخالق اقتضى صحة هذا الإطلاق أن يكون خالقها بجملتها أعني مادتها وصورتها فإذا كانت صورتها مخلوقة لله كما أن مادتها كذلك لزم أن يكون خالقا لنفس عملهم الذي حصلت به الصورة لأنه متولد عن نفس حركاتهم فإذا كان الله خالقها كانت

أعمالهم التي تولد عنها ما هو مخلوق لله مخلوقة له وهذا أحسن استدلالا وألطف من جعل ما مصدرية ونظيره من الاستدلال سواء قوله : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ والأصح أن المثل المخلوق هنا هو السفن وقد أخبر أنها مخلوقة وهي إنما صارت سفنا بأعمال العباد وأبعد من قال إن المثل هاهنا هو سفن البر وهي الإبل لوجهين أحدهما : أنها لا تسمى مثلا للسفن لا لغة ولا حقيقة فإن المثلين ما سد أحدهما مسد الآخر : وحقيقة المماثلة أن يكون بين فلك وفلك لا بين جمل وفلك الثاني أن قوله : ﴿ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ عقب ذلك دليل على أن المراد الفلك التي إذا ركبوها قدرنا على إغراقهم فذكرهم بنعمه عليهم من وجهين أحدهما : ركوبهم إياها والثاني : أن يسلمهم عند ركوبها من الغرق ونظير هذا الاستدلال أيضا قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ

جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ والسرابيل التي يلبسونها وهي مصنوعة لهم وقد أخبر بأنه سبحانه هو جاعلها وإنما صارت سرابيل بعملهم ونظيره : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ

سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴾ والبيوت التي من جلود الأنعام هي الخيام وإنما صارت بيوتا بعملهم فإن قلت : المراد من هذا كله المادة لا الصورة قلت : المادة لا تستحق هذه الأسماء التي أطلق الخلق عليها وإنما تستحق هذه الأسماء بعد عملها وقيام صورها بها وقد أخبر أنها مخلوقة له في هذه الحال والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بدائع الفوائد حـ 1 صـ 133.153 ﴾

(299/835)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والثلاثون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/836)

الجزء السادس والثلاثون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة النصر)

(4/836)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة النصر)

(5/836)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة النصر

وتسمى التوديع .

مقصودها الإعلام بتمام الدين اللازم عن مدلول اسمها النصر ، اللازم عنه موت النبي (صلى الله عليه وسلم) ، اللازم عنه العلم بأنه ما برز إلى عالم الكون والفساد إلا لإعلاء كلمة الله تعالى وإدحاض كلمة الشيطان – لعنة الله تعالى عليه – اللازم عنه أنه (صلى الله عليه وسلم) خلاصة الوجود ، وأعظم عبد للولي الودود ، وعلى ذلك أيضا دل اسمها التوديع وحال نزولها وهو أيام التشريق من سنة حجة الوداعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 559﴾

(6/836)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . إذا جاء نصر الله والفتح)

السّورة مدنيّة .

وآياتها ثلاث .

وكلماتها ستّ وعشرون .

وحروفها أَربع وسبعون .

فواصل آياتها على الحاءِ والأَلف .

وليس فى القرآن آية على الحاءِ غير الفتح .

سُمّيت سورة النّصر ؛ لقوله : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾ ، وسورة التَّوديع ، لما فيه من بيان نعى المصطفى صلى الله عليه وسلَّم .

معظم مقصود السّورة : بيان نعيه ، وذكر تمام نُصرة أَهل الإِسلام ، ورغبة الخلق فى الإِقوال على دِين الهدى ، وبيان وظيفة التسبيح والاستغفار ، والأَمر بالتّوبة فى آخر الحال بقوله : ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

السّورة محكمة .

وجواب إِذا مضمر تقديره : إِذا جاءَ نصر الله إِيّاك ، على من ناواك ، حضر أَجلك .

وكان صلَّى الله عليه وسلَّم يقول : لمّا نزلت هذه السّورة : نعى الله – تعالى – إِلىّ نفسى .

فضل السّورة

فيه أَحاديث واهية .

منها حديث أُبىّ مَنْ قرأَها فكأَنَّما شهِد مع محمّد فتح مكَّة ، وحديث علىّ : يا على مَنْ قرأَها أَنجاه الله من شِدّة يوم القيامة ، وله بكل آية قرأَها ثوابُ المستغفرين بالأَسحار .

يا علىّ مَنْ قرأَها كان فى الدّنيا فى حِرْز الله ، وكان آمنًا فى الآخرة من العذاب ، وإِذا جاءَه مَلَك الموت قال الله تعالى له : أَقْرِئ عبدى منى السّلام ، وقل له : عليك السّلام .

وله بكلّ آية قرأَها مثل ثواب مَن أَحسن إِلى ما ملكت يمينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 550 . 551 ﴾

(7/836)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة النصر

سميت هذه السورة في كلام السلف (سورةَ إذا جاء نصر الله والفتحُ) . روى البخاري : (أن عائشة قالت : لما نزلت سورة إذا جاء نصر الله والفتح) الحديثَ .

وسميت في المصاحف وفي معظم التفاسير (سورة النصر) لذكر نصر الله فيها ، فسميت

بالنصر المعهود عهداً ذكرياً .

وهي معنونة في (جامع الترمذي) (سورة الفتح) لوقوع هذا اللفظ فيها فيكون هذا الاسم مشتركاً بينها وبين سورة : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً .

وعن ابن مسعود أنها تسمى سورة التوديع في الإِتقان (لما فيها من الإِيماء إلى وَداعه (صلى الله عليه وسلم) ا هـ . يعني من الإِشارة إلى اقتراب لحاقه بالرفيق الأعلى كما سيأتي عن عائشة .

وهي مدنية بالاتفاق . واختلف في وقت نزولها فقيل : نزلت منصرَف النبي (صلى الله عليه وسلم) من خيبر (أي في سنة سبع) ، ويؤيده ما رواه الطبري والطبراني عن ابن عباس : (بينما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة نزلت) إذا جاء نصر الله والفتح قال رسول الله : الله أكبر جاَء نصر الله والفتحُ وجاء نصرُ أهل اليمن فقال رجل : يا رسول الله وما أهل اليمن ؟ قال : قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طباعهم ، الإِيمانُ يمانٍ والفقهُ يَمانٍ والحكمةُ يمانية اه ، ومجيء أهل اليمن أول مرة هو مجيء وفد الأشعريين عام غزوة خيبر .

ولم يختلف أهل التأويل أن المراد بالفتح في الآية هو فتح مكة ، وعليه فالفتح

مستقبل ودخول الناس في الدين أفواجاً مستقبل أيضاً وهو الأليق باستعمال (إذا) ويحمل قول النبي : جاء نصر الله والفتح على أنه استعمال الماضي في معنى المضارع لتحقق وقوعه أو لأن النصر في خيبر كان بادرةً لفتح مكة .

وعن قتادة : نزلت قبل وفاة رسول الله بسنتين . وقال الواحدي عن ابن عباس : نزلت مُنصرفَه من حُنين ، فيكون الفتح قد مضى ودخول الناس في الدين أفواجاً مستقبلاً ، وهو في سنة الوفود سنة تسع ، وعليه تكون (إذا) مستعملة في مجرد التوقيت دون تعيين .

وروى البزار والبيهقي وابن أبي شيبة وعبد بن حميد عن ابن عمر أنها نزلت أواسط أيام التشريق (أي عامَ حجة الوداع) . وضعفه ابن رجب بأن فيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف . وقال أحمد بن حنبل : لا تحل الرواية عنه وإن صحت هذه الرواية كان الفتح ودخول الناس في الدين أفواجاً قد مَضيا .

وعن ابن عمر أن رسول الله عاش بعد نزولها نحواً من ثلاثة أشهر وعليه تكون (إذا) مستعملة للزمن الماضي لأن الفتح ودخول الناس في الدين قد وقَعا .

وقد تظافرت الأخبار رواية وتأويلاً أن هذه السورة تشتمل على إيماء إلى اقتراب أجل رسول الله وليس في ذلك ما يرجح أحد الأقوال في وقت نزولها إذ لا خلاف في أن هذا الإِيماء يشير إلى توقيت بمجيء النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجاً فإذا حصل

ذلك حان الأجل الشريف .

وفي حديث ابن عباس في صحيح البخاري (: هو أجل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعلمه له قال : (إذا جاء نصر الله والفتح ((النصر : 1) وذلك علامة أجَلِك : (فسبح بحمد ربك واستغفره ((النصر : 3) .

(9/836)

وفي هذا ما يُؤَوِّل ما في بعض الأخبار من إشارة إلى اقتراب ذلك الأجل مثل ما في حديث ابن عباس عند البيهقي في (دلائل النبوة) والدّارمي وابن مردويه : لما نزلت : (إذا جاء نصر الله والفتح (دعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاطمة وقال : إنه قد نُعيَتْ إليّ نفْسي فبكتْ) الخ ، فإن قوله : (لَما نزلت) مُدرج من الراوي ، وإنما هو

(10/836)

إعلام لها في مرضه كما جاء في حديث الوفاة في (الصحيحين) فهذا جمع بين ما يَلُوح منه تعارض في هذا الشأن .

وعدها جابر بن زيد السورة المائة والثلاث في ترتيب نزول السور ، وقال : نزلت بعد سورة الحشر وقبل سورة النور . وهذا جار على رواية أنها نزلت عقب غزوة خيبر .

وعن ابن عباس أنها آخر سورة نزلت من القرآن فتكون على قوله السورة المائة وأربع عشرة نزلت بعد سورة براءة ولم تنزل بعدها سورة أخرى .

وعدد آياتها ثلاث وهي مساوية لسورة الكوثر في عدد الآيات إلا أنها أطول من سورة الكوثر عدَّةَ كلمات ، وأقصرُ من سورة العصر . وهاته الثلاث متساوية في عدد الآيات .

وفي حديث ابن أبي شيبة عن أبي إسحاق السبعي في حديث : (طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فصلى عبد الرحمن بن عوف صلاة خفيفة بأقصر سورتين في القرآن : (إنا أعطيناك الكوثر ((الكوثر : 1) و) إذا جاء نصر الله والفتح ((النصر : 1) .

أغراضها

والغَرض منها الوعد بنصر كامل من عند الله أو بفتح مكة ، والبشارة بدخول خلائق كثيرة في الإسلام بفتح وبدونه إن كان نزولها عند منصرف النبي (صلى الله عليه وسلم) من خيبر كما قال ابن عباس في أحد قوليه .

والإيماءُ إلى أنه حين يقع ذلك فقد اقترب انتقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الآخرة .

ووعدُه بأن الله غفر له مغفرة تامة لا مؤاخذة عليه بعدها في شيء مما يختلج في نفسه الخوف

أن يكون منه تقصير يقتضيه تحديد القوة الإنسانية الحدَّ الذي لا يفي بما تطلبه هِمَّتُه المَلَكية بحيث يكون قد ساوى الحد المَلَكي الذي وصفه الله تعالى في الملائكة بقوله : (يسبحون الليل والنهار لا يفترون ((الأنبياء : 20) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 587. 589 ﴾

(11/836)

وقال الشيخ الصابونى :

سورة النصر

مدنية وآياتها ثلاث

بين يدي السورة

* سورة النصر مدنية ، هي تتحدث عن " فتح مكة " الذي عز به المسلمون ، وإنتشر الإسلام في الجزيرة العربية ، وتقلمت أظافر الشرك والضلال ، وبهذا الفتح المبين ، دخل الناس في دين الله ، وإرتفعت راية الإسلام ، وإضمحلت ملة الأصنام ، وكان الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه ، من أظهر الدلائل على صدق نبوته ، عليه أفضل الصلاة والسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 615 ﴾

(12/836)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة النصر

النصر : العون يقال نصره على عدوه ينصره نصرا : أي أعانه ، ونصر الغيث الأرض : إذا أعان على إظهار نباتها ومنع من قحطها ، قال شاعرهم :

إذا دخل الشهر الحرام فجاوزى بلاد تميم وانصرى أرض عامر

والفتح : الفصل بينه وبين أعدائه وإعزاز دينه وإظهار كلمته ، والأفواج : واحدهم فوج وهو الجماعة والطائفة ، واستغفره : أي اسأله أن يغفر لك ذنوبك ولقومك الذين اتبعوك ، توّابا : أي كثير القبول لتوبة عباده . انتهى انتهى . اهـ ﴿تفسير المراغى حـ 30 صـ 257﴾

(13/836)

وقال الفراء :

سورة (النصر)

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾

قوله : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . . . ﴾ .

يعنى : فتح مكة ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً . . . ﴾ .

يقول : ورأيت الأحياء يسلم الحى بأسره ، وقيل ذلك إنما يسلم الرجل بعد الرجل .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾

وقوله عز وجلّ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ . . . ﴾ .

يقول : فصلّ . وذكروا أنه قال ـ صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه السورة : نُعِيَتْ إِلَيَّ نفسى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 297 ﴾

(14/836)

وقال الأخفش :

سورة (النصر)

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾

قال ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾ واحدهم: الفَوْجُ.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾

وقال ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يقول: "يَكُونُ تسبيحُك بالحَمْد" لأن "التَسْبيح" هو ذكر، فقال: "يكون ذكرك بالحمد على ما أعطيتك من فتح مكة وغيره" ويقول الرجل: "قَضَيْتُ سُبْحتي من الذكر". انتهى انتهى. ا هـ ﴿معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 587﴾

(15/836)

وقال الغزنوى:

[سورة النصر]

2 أَفْواجاً: زمرا، أمّة بعد أمّة «1».

3 وَاسْتَغْفِرْهُ: في ترك بعض ما لزمك من شكر نعمة الفتح «2». انتهى انتهى. ا هـ

﴿معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 895﴾

---

(1) ينظر تفسير الطبري: 30/ 333، وتفسير البغوي: 4/ 541، والمفردات للراغب: 386، وتفسير القرطبي: 20/ 386، واللسان: 2/ 350 (فوج).

[.....]

(2) ذكره الفخر الرازي في تفسيره : 32/ 162 ، وذكر أيضا وجوها أخرى في الجواب عما يرد على هذه الآية من شبه .

(16/836)

وقال ملا حويش :

(تفسير سورة النّصر

عدد 28 - 114 و110)

نزلت بالمدينة بعد التوبة في منى في حجة الوداع السّنة العاشرة من الهجرة .

وتعد مدنية للسبب المتقدم في مثلها .

وهي آخر سورة نزلت من القرآن على أصح الأقوال وأشهر الرّوايات .

وآخر آية نزلت منه آية (وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ) كما أشرنا بذلك في المقدمة ، وفي الآية الرّابعة من المائدة والآية 182 من البقرة وألمعنا إليه آنفا وذكرنا أيضا أن كلّ ما نزل بعد الهجرة يسمى مدنيا ولا يخر ؟ ؟ ؟ كونه مدنيا نزوله في غير المدينة ، كما أن كلّ ما نزل قبل الهجرة يسمى مكيا ؟ ؟ ؟ عن كونه مكيا نزوله بغيرها ، والعبرة بالهجرة لا بمواقع النزول .

وهي ؟ ؟ ؟ وسبع عشرة كلمة وسبعون حرفا .

لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

وتسمى سورة الفتح أيضا وبيّنا السّور المبدوءة بما بدئت به في سورة الانفطار ولا يوجد سورة مختومة بما ختمت به ، وبيّنا السّور الموافقة لها في عدد الآي في سورة الكوثر .

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ" قال تعالى

"إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ" (1) أي إذا جاء المدد الكوني والتأييد القدسي بالنصر العام والفتح الشّامل المطلق بعد فتح مكة وما وراءها من البلدان والقرى والمدن لا تقييد أو تخصيص بمكان دون مكان ولا بشيء دون شيء وهو فتح عام مادة ومعنى "وَرَأَيْتَ" يا أكمل الرّسل "النَّاسَ" على خلاف ألوانهم وأجناسهم ومللهم ونحلهم "يَدْخُلُونَ" طوعا ورضاءا واختيارا دون تكليف ولا إكراه "فِي دِينِ اللَّهِ" لسلوك طريقه المستقيم وتوحيد حضرته المقدسة وتصديق رسوله

(17/836)

وكتابه اللّذين جعلهما خاتمة لرسله وكتبه ويقبلون على الاعتراف بذلك كله "أَفْواجاً" (1) جماعات كثيرة وزمرا وإرسال القبيلة بأسرها والقوم بأجمعهم بحيث صاروا يتهافتون عن طيب نفس ورضاء خاطر ورغبة بهذا الدّين الحنيف رغبة نفس واحدة وصار

استعدادهم المتشوق بتعاليم الإسلام ودعائم الإيمان اختيارا وصار بينك وبينهم روابط قوية مستمدة من تقوية المناسبات الودية الخالصة بعد أن كانوا على خلاف ذلك من التردد بقبول الإيمان والكراهية لاتباعك والنّقمة من تعاليمك وكان يؤمن بك الواحد والاثنين بادىء الرّأي غير متمكن الإيمان بداهة قبل أن يعرفوا ماهيته وما يؤول الأمر فيه إليه وما هي عاقبته كالقادم على ما لا يعرفه فإنه يقدم رجلا ويوخر أخرى ، إذ كانوا مستضعفين لا يقدرون أن يجاهروا بإقامة الدّين .

أما الآن فقد ظهر نوره في الآفاق وعرفت نتائجه الرّائعة لدى الخاص والعام وغرزت محبته بالقلوب السّليمة وإذ تم لك يا سيد الأحرار والعبيد هذا الأمر على ما تريد وفق إرادة ربك الأزلية "فَسَبِّحْ" يا حبيبي "بِحَمْدِ رَبِّكَ" الذي رباك وأعلى كلمتك وبلغك مناك شكرا على هذا العطاء الجزيل من فيضه الهطال وحمدا على إفضاله الجليل بإظهار كمالاته من حتى اليقين إلى عين اليقين "وَاسْتَغْفِرْهُ" تواضعا وهضما للنفس وشرا لما كان هو خلاف الأولى "إِنَّهُ" جل جلاله وعز نواله "كانَ" من الأزل ولم يزل في الحال والمستقبل "تَوَّاباً" (3) على عباده الّذين هم في حيز قبوله منذ قالوا بلى كثير الغفران لهم ، جليل المنّ عليهم ، عظيم القبول ، يشملهم بعفوه ، ويغمرهم بعطفه ، وينشر عليهم رحمته ، ويكثر عليهم كرمه ، ويلطف بهم في كلّ أمورهم المادية والمعنوية ، لأن من عادته قبول من يرجع إليه بعد أن زاغ منهج صوابه ، والعفو عنه وإدخاله في جملة أحبابه .

هذا ولما كانت هذه السّورة الكريمة مشيرة إلى كمال الأمر لحضرة الرّسول وتمام الدّعوة التي خلق لأجلها قرأها على الأصحاب فاستبشر البعض منهم بما فيها من السّرور الذي ما بعده سرور ، وبكى ابن عباس رضي اللّه عنه فقال له صلّى اللّه عليه وسلم ما يبكيك (وهو قد عرف المرمى من بكائه) قال نعيت إليك نفسك ، فقال عليه السّلام لقد أوتي هذا الغلام علما كثيرا ، أي لما ألقي في روعه من مغزى هذه السّورة ، وعرفه حق معرفته .

وروي أنها لما نزلت خطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال إن عبدا خيّره اللّه بين الدّنيا وبين لقائه فاختار لقاء اللّه ، فعلم أبوبكر رضي اللّه عنه فقال فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا .

وعنه عليه السّلام أنه دعا فاطمة رضي اللّه عنها فقال يا بنتاه نعيت إليّ نفسي ، فبكت فقال لا تبكي فإنك أول أهلي لحوقا بي فضحكت .

وتسمى هذه السّورة سورة التوديع لأنها نزلت في حجة الوداع وآذنت بوداع المنزل عليه ووداع الوحي المقدس إذ لم ينزل بعدها سوى الآيتين المذكورتين آنفا .

روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي اللّه عنها قالت ما صلّى رسول اللّه صلّى اللّه

عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت إذا جاء إلخ إلّا ويقول فيها سبحانك ربنا وبحمدك اللّهم اغفر لي .

وقال ابن عباس لما نزلت هذه السّورة علم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أنه نعيت إليه نفسه ، أي قبل أن يبكي ويقول ما قال ، ولهذا سأله عن سبب بكائه عند ما تلاها صلّى اللّه عليه وسلم .

(19/836)

وقال الحسن علم أنه قد اقترب أجله ، فأمر بالتسبيح والقربة ليختم بالزيادة من العمل الصّالح أجله ، وإنما أمر بالتسبيح ليشتغل في أمور الآخرة ويصرف نفسه إليها ، لأن اللّه تعالى كفاه مؤنة الدّنيا والحرب والقتال ، لأن النّاس انهالوا على الإسلام فدخلوا فيه زرافات ووحدانا متسابقين عليه بدعوة عامة من اللّه تعالى لا تحتاج لترغيب ولا ترهيب وقد تعبده ربه بالاستغفار ليقتدي به النّاس وليعلموا أن حضرة الرّسول مع عصمته وشدة اجتهاده على عبادة ربه وإخباره بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، أول سورة الفتح المارة ما كان يستغني عن الاستغفار فكيف بمن هو دونه .

واعلم أنه عليه الصّلاة والسّلام إنما كان يستغفر ربه عن ترك الأفضل وما هو خلاف الأولى

لا لذنب صدر منه يشابه ذنوبنا حاشاء من ذلك وقد بينا ما يتعلق بهذا أول سورة الفتح المارة فراجعها هذا وما ذكره بعض المفسرين بأن المراد بهذا الفتح بهذه السّورة فتح مكة قد فنّدناه هناك أيضا وإنما هو الفتح العام لحضرة الرّسول ومن بعده من أصحابه وأتباعه كما أشرنا إليه أيضا في سورة الفتح ، وهذه السّورة سورة النّصر إنما تشير لهذا ولإتمام مهمّة الرسول من البعثة التي شرّفه اللّه بها وإلى دعوته لحظيرة القدس لتتغذّى روحه الطاهرة في جنّات خصصت لها وإلى انتهاء مدة مكثه في الأرض قال :

إذا تم أمر بدا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

وذلك أنه بفقد حضرة الرّسول ينقطع الوحي فيجعل نقصان في الأرض حال ضمه فيها .

(20/836)

هذا وبعد نزول هذه السّورة والآيتين المذكورتين من المائدة والبقرة ختم الوحي المقدس ولم يعش حضرة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم بعدها سوى واحد وعشرين يوما ، وقيل أحد عشر يوما ، وقيل سبعة أيّام ، وعلى الأوّل المعول لترادف الأقوال فيه ، وبعد أن أدّى رسالة ربه كما أراده منه ختم أجله المقدر له ، ثم لاقى وجه ربه عز وجل برحلته إلى حظيرة قدسه يوم الاثنين في 12 ربيع الأول سنة 64 من ولادته و24 من البعثة والحادية عشرة

من الهجرة ووقع ما وقع بعد وفاته ، ثم اتفقت الأصحاب على خلافة أبي بكر رضي اللّه عنه وكان ذلك ، ومن أراد الوقوف على تفصيل ما وقع بعد وفاته عليه الصّلاة والسّلام فليراجع السّير ففيها كفاية ، وقد رثاه بعض الأصحاب ببعض ما اختصه به من الصّفات الكريمة وما كان عليه من أخلاق عالية وأبدوا تأثرهم على فراقه مثبتة في السّير أيضا فمما قاله حسان رضي اللّه عنه وأرضاه :

كنت السّواد لناظري فعمى عليك النّاظر

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

وقالت فاطمة رضي اللّه عنها حينما وقفت على قبره الشّريف :

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها وغاب مذ غبت عنا الوحي والكتب

فليت قبلك كان الموت صادفنا لما نعيت وحالت دونك الكتب

وقالت أيضا :

ماذا على من شم تربة أحمد أن لا يشم مدى الدّهور غواليا

صبت عليّ مصائب لو أنها صبّت على الأيام صرن لياليا

وقال علي رضي اللّه عنه بعد أن علم بوفاة فاطمة بعد أبيها :

أرى علل الدّنيا عليّ كثيرة وصاحبها حتى الممات عليل

وإن افتقادي فاطما بعد أحمد دليل على ألا يدوم خليل

هذا واللّه أعلم.

وأستغفر اللّه.

ولا حول ولا قوّة إلّا باللّه العلي العظيم.

وصلّى اللّه وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

(21/836)

(الخاتمة نسأل اللّه حسنها لديه)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أحمدك يا ولي العطاء والإرشاد، وهادي الغواة، إلى سنن الرّشاد، يا بارى البرية، ومالك الرّقاب، يا من عليك التوكل، وإليك المرجع والمآب، يا مغيث كلّ حائر وملهوف، ومجير كلّ هائل مخوف، حمدا يوافي نعمك، ويكافي مزيدك، وأصلي وأسلم على النّور الموصوف بكل كمال، وآله وأصحابه وأتباعه إلى يوم المآل.

وبعد فأسألك يا إله كلّ موجود، ويا مغيث كل طائع، وعاص في الوجود، أن تأخذ بيدي لألوذ برحمتك وحرمك المأمون من غرائر وغوافل وبغتات ريب المنون، وألتجئ إلى عصمة حرزك الحصين، وآوي إلى ركنك المصون المتين، لتدرّ عليّ من خزائن برك وإحسانك،

ومن مكا من خزائنك ، وامتنانك ، وتمن علي بخير ما جرى به القلم من خير الدّين والدّنيا ويوم تزل به القدم ، وتعيذني من فتن العابثين وشر الأشرار ، ومن غرور الغرور والاغترار ، وتعصمني من الرّكون لزخارف الدّنيا وشهواتها ، وتحمني يا رب من كبواتها ، وتعينني بعنايتك ، وترعني برعايتك ، على كلّ ظالم ومن كلّ غاشم ، وتفيض علي من أنوار ربوبيتك ، وتغشني برحمتك ورأفتك ، وتقيني من العوائق وتخلصني من العلائق ، وتهذب نفسي من دنس الأوزار ورجس الأخلاق والآداب والأطوار ، وتنوّر قلبي بما يمحوا ظلمة الذنوب ويطرد ما يحوك فيه من خواطر العيوب ، وتلين قساوته ، وتطهره من الرّين وتدفع عنه صدأ الميل إلى المين ، وتثبتني على منهج الحق والهدى والرّشاد ، وتسلك بي سبل البر والتقى والسّداد ، وخصّ مرامي برضاك ولطفك ، واجعل همتي وهواي فيما ينشر علي عفوك وعطفك لأستميح لقاءك يوم اتقائك ، وأتشرف بنور قدسك وبهائك ، وأحصر خواطري فيما فيه رضاك ، وأجعل أشرف أيامي يوم لقاك مع الّذين أنعمت عليهم من الرّسل والأنبياء ، والّذين أكرمتهم من الصّديقين والشّهداء ، إنك على ما تشاء قدير ، وبالإجابة جدير .

(22/836)

وبعد تمّ بفضل اللّه ما أردت جمعه من هذا التفسير المبارك يوم الأربعاء في 1 رجب سنة 1358 الموافق ل 15 آب سنة 1939 ، وكان الفراغ منه بمثل اليوم والشّهر الذي بدأته به وهو من الاتفاقات الغريبة ، والشّكر للّه أولا وآخرا .

ربنا تقبل منا ما قدمناه من العمل ، ولا تؤاخذنا على ما وقع منا من الزلل ، واغفر لنا ما هفى به الرّأي أو زلّ به القلم وأخطأ به الفكر ، وانفع عبادك به كما وفقتنا إليه ، واجعله خالصا لوجهك الكريم ، وبوّئنا بكرمك وجودك جنّات النعيم ، واغفر لنا ولوالدينا وأحسن إليهما وإلينا ، ومتعنا اللّهم بالعافية في هذه الدّنيا ما أحييتنا ، والعفو بالآخرة عما سلف منا ، ووفقنا دائما لما تحبه وترضاه في القول والعمل والنّية ، واحشرنا في زمرة سيدنا سيد البرية ، سيدنا محمد صلّى اللّه عليه وعلى آله بكرة وعشية .

ثم أقول تحدثا بنعمة اللّه لا فخرا ولا ضجرا بأني قد قاسيت في جمع هذا السّفر الكريم والكتاب الجليل العظيم أتعابا جمة ومشاق مهمة ، ولكن بفضله ومنّه قد استعذبت كلّ مرارة وجدتها خلال تحريره ، وكلّ شدة قاومتها إبان تسطيره ، ويرحم اللّه ابن الفارض إذ يقول :

وتعذيبكم عذب لديّ وجوركم عليّ بما يقضي الهوى سهل

لأني وأيم اللّه كنت كثيرا ما أتوضا في الوقت الواحد خمس مرات لطرو الانطلاق ، لأني آليت على نفسي أن لا أخط خطا منه إلّا على وضوء كامل ، وبعد صلاة ركعتين على الأقل ، وكثيرا ما كنت أنام والقلم بيدي ، وكم مرّة نمت مهموما لعدم وقوفي على المعنى المراد من بعض الآيات والأحاديث ، فأراه بفضل اللّه في منامي ، وأفيق فرحا مسرورا بما منّ اللّه عليّ ، فأقوم فأتوضا وأراجعه فأجده مسطورا في بعض التفاسير وشروح الأحاديث كما رأيته ، فأثبته حالا بمحله ، هذه حالتي في اللّيل ، وأما في النّهار فكثيرا ما يؤتى لي صباحا بالشاي فأغفل عنه فيبدل لي المرة بعد الأخرى فأشربه باردا ، وكذلك حالتي في الشّراب والطّعام ، وذلك لأني أخاف الذهول عن بعض ما تصورته ، أو نسيان ما تخيّلته من المعاني المتعلقة بتأويل بعض الألفاظ ، أو غياب ما وقر في قلبي مما أريده من التفسير ، أو ما أريد تحريره على آية مضى البحث فيها ، أو مراجعة بعض الآيات التي مرّ تفسيرها لتعلقها في معنى البحث الذي أنا فيه ، وإبقاء الملاحظة عليها فيما حضر من المعنى الذي يناسبها حتى لا أترك آية لها مساس بمثلها إلّا أشرت إليها وبيّنات عددها

ورمزت إلى لزوم مراجعتها ، حتى لا أضطر إلى التكرار الذي تباعدت عنه جهد المستطاع خشية الإطالة ، ولذلك أثبت عدد الآيات في تفسيري هذا حتى إذا ما روت بما يتعلق بآية أشرت إليها بعددها وسورتها والجزء التي هي فيه كي يسهل على القاري مراجعتها دون كلفة ، وكذلك الآيات التي لها نظائر في القرآن أشرت إلى نظائرها على ذلك المنوال ، وفي كلّ هذا أراني منشرح الصّدر ، طيب النفس ، شديد الرّغبة ، لا تعتريني ملالة ولا ضجر ولا انقباض ولا انكماش ، لأني كلما أتيت شيئًا مهما كان تعبي فيه أعقبه سرور كثير ، ورحم اللّه شيخنا الشيخ حسين الأزهري إذ كان يقول لنا أثناء الدّرس : إن طالب العلم إذا وقف على مسألة لم يفهمها قبل ، يحصل له انبساط عظيم وفرح جزيل فيقول أين أبناء الملوك من هذه اللّذة ، وحقيقة واللّه ، وكم مرة قلتها وأنا منشرح الصّدر متسع الخاطر ، ولهذه اللّذة تزاحم المؤمنون على تفسير كلام اللّه الذي لا يمل رائده ولا يأم حتى صارت التفاسير لا تكاد تحصر عدا ، لأن من يمعن نظره وينعم ناظره لا يستطيع إهمال ما يظهر له من إضاءة قلبه ، وقد دوّنوا فيه ما يدهش لب العاقل ويذهل عقل اللّبيب ، ولكن النّفوس لم تشبع منه ، كما أنها لا تمل من قراءة القرآن مهما كررته ، ورحم اللّه الأبوصيري إذ يقول :

فلا تعد ولا تحصى عجائبها ولا تسام على الإكثار بالأم

ويعجبني ما قال العماد الكاتب ما ألف أحد كتابا إلّا قال في غده لو قدمت أو أخرت بما يدل على عجز عموم البشر والتفرد بالكمال لخالقهم .

لهذا فإني أتخيل بعد طبع هذا السّفر البديع الصّنع الذي لم يطرقه قلبي طارق عكوف العلماء على ما جريت عليه وإظهار تفاسير جمة من نوعه إن شاء اللّه تكون أكثر نفعا من غيرها ، إذ لا ترى سابقا إلّا وله لا حقا يهذّب ما صعب منه ، وينتقد ما ملح فيه ، فيعذب مرة ، ويزيد كرة ، ويثبت ما لم نقف عليه من تاريخ بعض السّور والآيات ، وما لم نعثر عليه من الوقائع والحوادث والغايات وأسباب النّزول حتى يبلغ الدّرجة القصوى في هذا الفنّ إن شاء اللّه .

وقد ألمعنا إلى بعض هذا وما يحتاجه القاري في خاتمة المطالب التي أثبتناها في الجزء الأوّل

،

والحمد للّه الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا اللّه .

وكان تسويده خلال ثلاث سنين اعتبارا من 1 رجب سنة 1359 الموافق 5 آب سنة 1940 وترتيبه قبل الشّروع فيه على الكيفية المبينة في المقدمة وتنظيم مدارجه والآيات المستثنيات من السّور على الوجه المذكور فيه ، واختيار الكتاب التي صمت على الأخذ منها المبينة في المقدمة أيضا ومطالعة الأبحاث اللازمة لدرجها فيه سنة كاملة وقضيت

ثلاث سنين في تبييضه وتدقيقه ومراجعة ما لا بد من مراجعته لتصليح مما زاغت به الأقلام ، أو زلت به الأفهام ، أو اشتبه به الفكر ، أو نسيه القلب ، وأخطأ به الرّأي ، وتردد به الفؤاد ، واعتمدت فيه على اللّه الجواد ، مستمدا من روحانية سيد أنبيائه عليه الصّلاة والسّلام وأحاديثه الصّحيحة ، ومراجعة العلماء الأعلام .

وعلى هذه الصّورة تم بتوفاق اللّه وتيسيره وعونه ، وفضله وتقديره ، فبلغ ثلاثة أجزاء ، الأوّل والثاني يشملان على ما نزل في مكة ، والثالث على ما نزل في المدينة ، وقد أثبت آخر الأولين عدد السّور المفسرة فيهما ومدة نزولها ، والثالث هذا يحتوي على ثمان وعشرين سورة أولها البقرة وآخرها سورة النّصر ، وقد استغرق نزولها تسع سنين وتسعة أشهر وتسعة أيّام .

(26/836)

وبينا في المقدمة مدة نزوله كله ، ومبدأ النزول وآخره ، فراجعه في بحث نزول القرآن ، وهذا ما قاله بفمه وكتبه بقلمه العبد الفقير إلى رحمة الرّاجي عفوه وستره ورضاه السّائل لخيره الطالب لبره الرّاغب في عطاه السّيد عبد القادر ابن السّيد محمد حويش ، ابن السّيد محمود ، ابن السّيد خضر ، ابن السّيد حديد ، ابن السّيد فهد ، ابن السّيد جاسم ، ابن

السّيد محمد ، ابن السّيد عبيد ، ابن السّيد حسين ، ابن السّيد جلال الدّين ، ابن السّيد عيسى المغربي آل السّيد غازي ، ابن السّيد يعقوب ، ابن السّيد محمد ، ابن السّيد حسين ، ابن السّيد شيخي ، ابن السّيد فضل الله ، ابن السّيد حامد ، ابن السّيد أبي بكر ، ابن السّيد صالح ، ابن السّيد رجب ، ابن السّيد محمد ، ابن السّيد المكي أحمد ، ابن السّيد عبد الله ، ابن السّيد حسني ، ابن السّيد يوسف ، ابن السّيد رجب ، ابن السّيد شمس الدّين ، ابن السّيد محمد ، ابن السّيد أحمد الرفاعي ، ابن السّيد علي المكي الكبير ، ابن السّيد يحيى ، ابن السّيد ثابت ، ابن السّيد حازم ، ابن السّيد أحمد ، ابن السّيد موسى الثاني ، ابن السّيد ابراهيم المجيب المشهور المرتضى ، ابن الإمام موسى الكاظم ، ابن الإمام جعفر الصادق ، ابن الإمام محمد الباقر ، ابن الإمام زين العابدين ، ابن الإمام أمير المؤمنين الذي امتحن بأنواع المحن والبلاء أبي عبد الله الحسين (الهند بادي) هكذا في الأصل ، ابن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وهو إمام الأولياء والصّالحين وقائد الأصفياء المخلصين المخصوص بقوله صلّى الله عليه وسلم أنا مدينة العلم وعلي بابها ، رضي الله عنه وأرضاه آمين تم تبييضه في غرة رجب سنة 1361 الموافق للثالث والعشرين تموز سنة 1963 وتمت طباعته في ربيع الآخر سنة 1388 الموافق لتموز سنة 1968 والحمد لله رب العالمين

أهـ ﴿ بيان المعاني حـ 6 صـ 525.517 ﴾

(27/836)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة النصر

مكية

واستغفره كاف آخرها تام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(28/836)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة النصر

مكية ليس فيها وقف تام لأنَّ قوله فسبح جواب إذا والعامل في إذا إذا كانت ظرفاً جوابها ولا تكون إلاَّ في الأمر المحقق وقوعه ولذلك لم تجزم إلاَّ في الشعر لمخالفتها أدوات الشرط وإذا تجردت عن الشرطية فلا جواب لها وهل الناصب لها فعل الشرط أو فعل الجواب قولان

أشهرهما الثاني وقيل الأول قاله الزمخشري و الحوفي ورد عليهما أبو حيان وقال ما بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها

واستغفره (كاف)

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى صـ ﴾

(29/836)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة الدمياطى :

سورة النصر

مدنية وعن أبي عمرو في أوسط أيام التشريق بمنى في حجة الوداع وآيها ثلاث فواصلها الفتح أفواجا توابا أمال جاء هشام بخلفه وابن ذكوان وحمزة وخلف ويوقف لحمزة على نحو أفواجا بالتحقيق وبإبدالها ياء مفتوحة لأنه متوسط بغيره المنفصل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(30/836)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة النصر "

" ورأيت " لا خلاف بينهم في تحقيق همزته إلا حمزة إن وقف فيسهلها بين بين .

" واستغفره " لا يخفى ما فيه من الصلة لابن كثير وصلا وحذفها وقفا مع إسكان الهاء ومن حذفها مطلقا للباقين ، مع إسكان الهاء وقفا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 358 ﴾

(31/836)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة النصر 110

مدنية وقد ذكر نظيرتها في جميع العدد

وكلمها تسع عشرة كلمة

وحروفها سبعة وسبعون حرفا كحروف المسد

وهي ثلاث آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف ورؤوس الآي

والفتح

1 أفواجا

2 توابا

3 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 294 ﴾

(32/836)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (يدخلون) حال من الناس ، و (أفواجا) حال من الفاعل في يدخلون . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(33/836)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة النصر

[سورة النصر (110): آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1)

"إِذا" ظرفية شرطية غير جازمة "جاءَ نَصْرُ اللَّهِ" ماض وفاعله ولفظ الجلالة مضاف إليه والجملة ابتدائية لا محل لها "وَالْفَتْحُ" معطوف على ما قبله.

[سورة النصر (110): آية 2]

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (2)

"وَرَأَيْتَ" ماض وفاعله "النَّاسَ" مفعول به والجملة معطوفة على ما قبلها "يَدْخُلُونَ" مضارع وفاعله "فِي دِينِ اللَّهِ" متعلقان بالفعل ولفظ الجلالة مضاف إليه "أَفْواجاً" حال والجملة حال.

[سورة النصر (110): آية 3]

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً (3)

"فَسَبِّحْ" الفاء رابطة وأمر فاعله مستتر والجملة جواب إذا لا محل لها "بِحَمْدِ" متعلقان

بالفعل "رَبِّكَ" مضاف إليه "وَاسْتَغْفِرْهُ" أمر ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها . "إِنَّهُ" إن واسمها "كانَ" كان واسمها المستتر "تَوَّابًا" خبرها والجملة الفعلية خبر إن . والجملة الاسمية تعليل لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 474﴾

(34/836)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةُ النَّصْر

ذكر فِيهَا اثْنَي عشر حَدِيثا

1549 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَن فتح مَكَّة كَانَ لعشر مضين من رَمَضَان سنة ثَمَان وَكَانَ مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرَة آلَاف من الْمُهَاجِرين وَالْأَنْصَار وَطَوَائِف الْعَرَب وَأقَام بهَا خمس عشرَة لَيْلَة ثمَّ خرج إِلَى هوَازن وَحين دخلهَا وقف عَلَى بَاب الْكَعْبَة ثمَّ قَالَ لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ صدق وعده وَنصر عَبده وَهزمَ الْأَحْزَاب وَحده ثمَّ قَالَ يَا أهل مَكَّة مَا ترَوْنَ أَنِّي

فَاعل بكم قَالُوا خيرا أَخ كريم وَابْن أَخ كريم ثمَّ قَالَ اذْهَبُوا فَأَنْتم الطُّلَقَاء فَأَعْتقهُمْ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

قلت أخرجه ابْن هِشَام فِي السِّيرَة فِي فتح مَكَّة من قَول ابْن إِسْحَاق إِلَّا أَنه قَالَ فِيهِ إِن فتح مَكَّة كَانَ لعشر لَيَال بَقينَ من رَمَضَان

وَفِي صَحِيح البُخَارِيّ فِي فتح مَكَّة عَن الزُّهْرِيّ عَن عبيد الله بن عبد الله ابْن عتبَة عَن ابْن عَبَّاس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج فِي رَمَضَان من الْمَدِينَة وَمَعَهُ عشرَة آلَاف من الْمُسلمين . . . إِلَى أَن قَالَ قَالَ الزُّهْرِيّ فَصبح رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّة لثلاث عشرَة لَيْلَة خلت من رَمَضَان

وَرَوَى الْبَيْهَقِيّ فِي دَلَائِل النُّبُوَّة من طَرِيق ابْن إِسْحَاق عَن الزُّهْرِيّ وَمُحَمّد ابْن عَليّ بن الْحُسَيْن وَعَاصِم بن عمر بن قَتَادَة وَعَمْرو بن شُعَيْب وَعبد الله بن أبي بكر وَغَيرهم قَالُوا كَانَ فتح مَكَّة سنة ثَمَان لعشر بقيت من شهر رَمَضَان انْتهى

وَهَذَا اخْتِلَاف رِوَايَة وَأخرج الْوَاقِدِيّ فِي كتاب الْمَغَازِي الرِّوَايَتَيْنِ ذكرهمَا فِي غَزْوَة حنين

1550 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن جَابر بن عبد الله أَنه بَكَى ذَات يَوْم فَقيل لَهُ فِي ذَلِك فَقَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول دخل النَّاس فِي دين الله أَفْوَاجًا وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا

قلت رَوَاهُ أَحْمد فِي مُسْنده حَدثنَا مُعَاوِيَة بن عَمْرو ثَنَا أَبُو إِسْحَاق عَن الْأَوْزَاعِيّ ثني أَبُو عمار ثني جَار لجَابِر بن عبد الله قَالَ قدمت من سفر فَجَاءَنِي جَابر بن عبد الله يسلم عَليّ فَجعلت أحدثه عَن افْتِرَاق النَّاس وَمَا أَحْدَثُوا فَجعل جَابر يبكي ثمَّ قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول إِن النَّاس دخلُوا فِي دين الله أَفْوَاجًا وَسَيَخْرُجُونَ مِنْهُ أَفْوَاجًا انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده ثَنَا أَبُو أُسَامَة حَدثنِي الْمفضل ابْن يُونُس عَن الْأَوْزَاعِيّ بِهِ

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من طَرِيق بَقِيَّة بن الْوَلِيد ثَنَا الْأَوْزَاعِيّ ثَنَا شَدَّاد بن عمار حَدثنِي جَار لجَابِر بن عبد الله . . . فَذكره

وَاخْتَصَرَهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فَرَوَاهُ فِي الْفِتَن من طَرِيق ابْن وهب ثني عبد الرَّحْمَن بن شُرَيْح عَن أبي الْأسود الْقرشِي عَن أبي قُرَّة مولى أبي جهل عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه لما أنزلت عَلَيْهِ هَذِه السُّورَة إِذا جَاءَ نصر الله وَالْفَتْح . . . إِلَى آخرهَا

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَام ليخرجن مِنْهُ أَفْوَاجًا كَمَا دخلُوهُ أَفْوَاجًا انْتَهَى وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

(36/836)

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث مُعَاوِيَة بن عَمْرو عَن أبي إِسْحَاق الْفَزارِيّ عَن الْأَوْزَاعِيّ بِسَنَد أَحْمد وَمَتنه

1551 - الحَدِيث الثَّالِث

قَالَ أَبُو هُرَيْرَة لما نزلت قَالَ رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم الله أكبر جَاءَ نصر الله وَالْفَتْح وَجَاء أهل الْيمن رقيقَة قُلُوبهم الْإِيمَان يمَان وَالْفِقْه يمَان وَالْحكمَة يَمَانِية

قلت غَرِيب من حَدِيث أبي هُرَيْرَة

وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ من حَدِيث ابْن عَبَّاس أخرجه من طَرِيق أبي عوَانَة عَن هِلَال ابْن خباب عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما نزلت إِذا جَاءَ نصر الله . . . إِلَى آخرهَا قَالَ نعيت لرَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم نَفسه حِين أنزلت فَأخذ فِي أَشد مَا كَانَ اجْتِهَادًا فِي أَمر الْآخِرَة وَقَالَ بعد ذَلِك جَاءَ الْفَتْح وَجَاء نصر الله وَجَاء أهل الْيمن فَقَالَ رجل يَا رَسُول الله وَمَا أهل الْيمن قَالَ رقيقَة قُلُوبهم الْإِيمَان يمَان وَالْحكمَة يَمَانِية وَالْفِقْه يمَان انْتَهَى

وروَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الْحَادِي عشر من الْقسم الثَّالِث

وَحَدِيث أبي هُرَيْرَة فِي صَحِيح البُخَارِيّ وَمُسلم مُخْتَصرا رَوَاهُ فِي كتاب الْإِيمَان من حَدِيث مُحَمَّد بن سِرين عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ أهل الْيمن لَهُم أرق أَفْئِدَة الْإِيمَان يمَان وَالْفِقْه يمَان وَالْحكمَة يَمَانِية انْتَهَى

وروَاهُ ابْن مرْدَوَيْه من حَدِيث أبي هُرَيْرَة أخرجه من طَرِيق عبد الرَّزَّاق ثَنَا هِشَام بن حسان عَن أَيُّوب عَن مُحَمَّد بن سِيرِين عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ لما نزلت إِذا جَاءَ نصر الله وَالْفَتْح . . . إِلَى آخر لفظ الْمُصَنّف

1552 - الحَدِيث الرَّابِع

(37/836)

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنِّي أجد نفَس ربكُم من قبل الْيمن)

قلت رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَزَّار فِي مُسْنده وَالْبَيْهَقِيّ فِي كتاب الْأَسْمَاء وَالصِّفَات من حَدِيث عبد الله بن سَالم الْحِمصِي ثَنَا إِبْرَاهِيم بن سُلَيْمَان الْأَفْطَس ثَنَا الْوَلِيد بن عبد الرَّحْمَن الجرشِي عَن جُبَير بن نفير عَن سَلمَة بن نفَيْل السكونِي قَالَ دَنَوْت من رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقلت يَا رَسُول الله تركت الْخَيل وَأُلْقِي السِّلَاح وَزعم قوم أَلا قتال

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَذَبُوا الْآنَ حَانَ الْقِتَالُ لَا تَزَالُ من أُمتِي أمة قَائِمَة عَلَى الْحق ظَاهِرَة قَالَ وَهُوَ مول ظَهره إِلَى الْيمن أَنِّي أجد نَفْسَ الرَّحْمَن من هَا هُنَا وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَة وَأَهْلُهَا مُعَانُونَ عَلَيْهَا انْتَهَى قَالَ الْبَزَّار هَذَا حَدِيث رجَاله شَامِيُّونَ مَشْهُورُونَ إِلَّا إِبْرَاهِيم ابْن سُلَيْمَان الْأَفْطَس انْتَهَى

وروى الطَّبَرَانِيّ فِي كِتَابه مُسْنَد الشاميين ثَنَا أَبُو زرْعَة أَحْمد بن مُحَمَّد بن يَحْيَى بن حَمْزَة قَالَا ثَنَا عَلّي بن عَيَّاش الْحِمصِي ثَنَا حريز بن عُثْمَان عَن شبيب أبي روح عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِيمَان يمَان وَالْحكمَة يَمَانِية وأجد نَفَسَ الرَّحْمَن من قبل الْيمن انْتَهَى

وَرَوَاهُ فِي المعجم الْوسط ثَنَا أَبُو زرْعَة عبد الرَّحْمَن بن عَمْرو ثَنَا أَبُو الْيَمَان ثَنَا حريز بن عُثْمَان عَن شبيب عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْإِيمَان يمَان وَالْحكمَة يَمَانِية وأجد نَفَسَ ربكُم من قبل الْيمن مُخْتَصر

(38/836)

قَالَ الْبَيْهَقِيّ وَهَذَا الْخَبَر إِن كَانَ مَحْفُوظًا فَمَعْنَاه أَلا إِنِّي أجد الْفرج من قبل الْيمن وَهُوَ كَقَوْلِه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نَفَّسَ عَن مُؤمن كربَة نَفَّسَ الله عَنهُ كربَة أَي فرج ثمَّ نقل عَن

الْأَزْهَرِي أَنه قَالَ فِيهِ وَفِي حَدِيث أبي بن كَعْب لَا تسبوا الرّيح فَإِنَّهَا من نَفْس الرَّحْمَن إِن النَّفس فِي هذَيْن الْحَدِيثين اسْم وضع مَوضِع الْمصدر لِأَن مصدر نَفَّس تَنْفِيس فَوضع النَّفس مَوضِع التَّنْفِيس كَمَا وضع الْفرج مَوضِع التَّفْرِيج انْتَهَى

والْحَدِيث بِلَفْظ الْكتاب فِي الفردوس من رِوَايَة أبي هُرَيْرَة وَأنس

1553 - الحَدِيث الْخَامِس

روت أم هَانِئ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ لما فتح بَاب الْكَعْبَة صَلَّى صَلَاة الضُّحَى ثَمَان رَكْعَات

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم فِي صَحِيحَيْهِمَا من حَدِيث ابْن أبي لَيْلَى قَالَ مَا أخبرنَا أحد أَنه رَأَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ صَلَّى الضُّحَى غير أم هَانِئ فَإِنَّهَا ذكرت أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ يَوْم فتح مَكَّة اغْتسل فِي بَيتهَا وَصلى ثَمَانِي رَكْعَات فَلم يره أحد صَلَّاهُنَّ بعد انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالتِّرْمِذِيّ فِي سُنَنهمَا وَرَوَاهُ بن حبَان فِي صَحِيحه وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَرَوَاهُ احْمَد فِي مُسْنده وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَأَبُو يعْلى الْموصِلِي من نَحْو ثَلَاثِينَ طَرِيقا وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي سنَنه وَابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه والطبري فِي تَفْسِيره وَلَيْسَ عِنْد أحد مِنْهُم أَنه صلاهَا لما فتح بَاب الْكَعْبَة وَإِنَّمَا يَقُولُونَ يَوْم الْفَتْح أَو يَوْم فتح مَكَّة وَالله أعلم

وَفِي سنَن أبي دَاوُد انه عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ يسلم يَوْم الْفَتْح من كل رَكْعَتَيْنِ وَهَذَا يَنْفِي انه صلاهَا بِتَسْلِيمَة وَاحِدَة رَوَاهُ من حَدِيث كريب عَن أم هَانِئ

وَبَعض الْعلمَاء أنكر أَن هَذِه الصَّلَاة صَلَاة الضُّحَى قَالُوا لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام لم يواظب عَلَيْهَا كَيفَ يُصليهَا فِي ذَلِك الْيَوْم مَعَ أَنه لم ينْو الْإِقَامَة بِمَكَّة وَمكث بهَا تِسْعَة عشر يَوْمًا من رَمَضَان يقصر الصَّلَاة ويفْطر هُوَ وَجَمِيع الْجَيْش وَكَانُوا نَحوا من عشرَة آلَاف قَالُوا وَإِنَّمَا كَانَت صَلَاة الْفَتْح وَاسْتَحَبُّوا لأمير الْجَيْش إِذا فتح بَلَدا أَن يُصَلِّي فِيهَا ثَمَان رَكْعَات وَهَكَذَا فعل سعد بن أبي وَقاص يَوْم فتح الْمَدَائِن لَكِن يرد هَذَا تَسْمِيَتهَا فِي الحَدِيث صَلَاة الضُّحَى كَمَا تقدم فِي لفظ البُخَارِيّ وَمُسلم لكنه من كَلَام الرَّاوِي

وَقد ورد من كَلَام النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي تَارِيخ أَصْبَهَان الثَّاء الْمُثَلَّثَة بِسَنَدِهِ إِلَى أم هَانِئ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى حِين فتح مَكَّة ثَمَان رَكْعَات قَالَت فَقلت يَا رَسُول الله مَا هَذِه الصَّلَاة قَالَ هَذِه صَلَاة الضُّحَى

وَيُؤَيّدهُ أَيْضا أَنه قد رُوِيَ من حَدِيث عَائِشَة أَيْضا رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الثَّالِث عشر من الْقسم الْخَامِس من حَدِيث عَائِشَة قَالَت دخل النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْتِي فصلى الضُّحَى ثَمَان رَكْعَات انْتهى

فقد اتفقا فِي التَّسْمِيَة وَالْوَقْت وَالْعد

قَالَ السُّهيْلي فِي الرَّوْض الْأنف هَذِه صَلَاة الضُّحَى وَقد صَلَّى سعد بن أبي وَقاص حِين افْتتح الْمَدَائِن وَدخل إيوان كسْرَى صَلَاة الْفَتْح قَالَ وَهِي ثَمَان رَكْعَات لَا يفصل بَينهَا وَلَا يُصَلِّي بإِمَام وَلَا يجْبر فِيهَا بِقِرَاءَة قَالَه الطَّبَرِيّ انْتَهَى

وَلَفظ أبي دَاوُد أَيْضا يرد هَذَا عَن أم هَانِئ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْم الْفَتْح صَلَّى سبْحَة الضُّحَى ثَمَان رَكْعَات يسلم من كل رَكْعَتَيْنِ انْتَهَى

قَالَ النَّوَوِيّ فِي الْخُلَاصَة سَنَده عَلَى شَرط البُخَارِيّ

1554 - الحَدِيث السَّادِس

عَن عَائِشَة كَانَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر قبل مَوته أَن يَقُول سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِك أستغفرك وَأَتُوب إِلَيْك

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي أَوَائِل الصَّلَاة فِي بَاب مَا يُقَال فِي الرُّكُوع وَالسُّجُود وَاللَّفْظ لمُسلم عَن مَسْرُوق عَن عَائِشَة قَالَت كَانَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أَن يَقُول قبل أَن يَمُوت سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِك أستغفرك وَأَتُوب إِلَيْك

قَالَت فَقلت يَا رَسُول الله مَا هَذِه الْكَلِمَات

الَّتِي أَرَاكَ تَقُولهَا قَالَ قد جعلت لي عَلامَة فِي أمتِي إِذا رَأَيْتهَا قلتهَا إِذا جَاءَ نصر الله وَالْفَتْح . . . إِلَى آخر السُّورَة انْتَهَى

وَلَفظ البُخَارِيّ قَالَت مَا صلى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاة بعد أَن نزلت عَلَيْهِ إِذا جَاءَ نصر الله وَالْفَتْح إِلَّا يَقُول فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ رَبنَا اللَّهُمَّ اغْفِر لي انْتَهَى

1555 - الحَدِيث السَّابِع

وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه قَالَ إِنِّي لأستغفر الله فِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة مائَة مرّة

(41/836)

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي كتاب الذّكر وَالدُّعَاء من حَدِيث أبي بردة عَن الْأَغَر الْمُزنِيّ وَكَانَت لَهُ صُحْبَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّه ليغان عَلَى قلبِي وَإِنِّي لأستغفر الله فِي الْيَوْم مائَة مرّة انْتَهَى

1556 - الحَدِيث الثَّامِن

رُوِيَ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قَرَأَ هَذِه السُّورَة اسْتَبْشَرُوا وَبكى الْعَبَّاس فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام مَا يبكيك يَا عَم قَالَ نعيت إِلَيْك نَفسك قَالَ إِنَّهَا لكما تَقول فَعَاشَ بعْدهَا سنتَيْن لم ير فِيهَا ضَاحِكا مُسْتَبْشِرًا

وَقيل إِن ابْن عَبَّاس هُوَ الَّذِي قَالَ ذَلِك فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَام لقد أُوتِيَ هَذَا الْغُلَام علما كَبِيرا

قلت الأول ذكره الثَّعْلَبِيّ من قَول مقَاتل قَالَ لما نزلت هَذِه السُّورَة قَرَأَهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَلَى أَصْحَابه وَفِيهِمْ أَبُو بكر وَعمْرو وَسعد بن أبي وَقاص فَفرحُوا وَاسْتَبْشَرُوا . . . إِلَى آخِره وَسَنَده إِلَى مقَاتل أول كِتَابه

1557 - الحَدِيث التَّاسِع

رُوِيَ أَن السُّورَة لما نزلت خطب رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ إِن عبدا خَيره الله بَين الدُّنْيَا وَبَين لِقَائِه فَاخْتَارَ لِقَاء الله فَعلم أَبُو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْه فَقَالَ فديْنَاك بِأَنْفُسِنَا وَأَمْوَالنَا وَآبَائِنَا وَأَوْلَادنَا

(42/836)

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ وَمُسلم فِي صَحِيحَيْهِمَا فِي الْفَضَائِل من حَدِيث عبيد ابْن حنين عَن أبي سعيد الْخُدْرِيّ أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم خطب النَّاس يَوْمًا فَقَالَ إِن عبدا خَيره الله بَين الدُّنْيَا وَأَن يعِيش فِيهَا مَا شَاءَ وَبَين لِقَائِه فَاخْتَارَ لِقَاء الله فَبَكَى أَبُو بكر وَبكى وَقَالَ فديْنَاك بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتنَا وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَام هُوَ الْمُخَير وَكَانَ أَبُو بكر أعلمنَا بِهِ

وَرَوَاهُ البُخَارِيّ أَيْضا من حَدِيث بسر بن سعيد عَن الْخُدْرِيّ نَحوه ووقع لَهُ فِي الصَّلَاة عَن

عبيد بن حنين عَن بسر بن سعيد عَن الْخُدْرِيّ قَالَ الْفربرِي الرِّوَايَة هَكَذَا وَصَوَابه عَن عبيد بن حنين وَبسر بن سعيد

1558 - الحَدِيث الْعَاشِر

عَن ابْن عَبَّاس أَن عمر رَضِي اللَّهُ عَنْهما كَانَ يُدْنِيه وَيَأْذَن لَهُ مَعَ أهل بدر فَقَالَ عبد الرَّحْمَن رَضِي اللَّهُ عَنْه أيأذن لهَذَا الْفَتى مَعنا وَفِي أَبْنَائِنَا من هُوَ مثله فَقَالَ إِنَّه مِمَّن قد علمْتُم قَالَ ابْن عَبَّاس فَأذن لَهُم ذَات يَوْم وَأذن لي مَعَهم فَسَأَلَهُمْ عَن قَوْله تَعَالَى إِذا جَاءَ نصر . . . وَلَا أرَاهُ سَأَلَهُمْ إِلَّا من أَجلي فَقَالَ بَعضهم أَمر الله تَعَالَى نبيه إِذا فتح عَلَيْهِ أَن يَسْتَغْفِرهُ وَيَتُوب إِلَيْهِ فَقلت لَيْسَ كَذَلِك وَلَكِن نعيت إِلَيْهِ نَفسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عمر مَا أعلم فِيهَا إِلَّا كَمَا تعلم

ثمَّ قَالَ كَيفَ تَلُومُونِي عَلَيْهِ بعد مَا ترَوْنَ

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه بتغيير يسير من حَدِيث سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ كَانَ عمر يدخلني مَعَ أَشْيَاخ بدر فَكَأَن بَعضهم وجد فِي نَفسه فَقَالَ لم تدخل هَذَا مَعنا وَلنَا أَبنَاء مثله فَقَالَ عمر إِنَّه من قد علمْتُم قَالَ فدعاني ذَات يَوْم فأدخلني مَعَهم فَأريت أَنه

إِنَّمَا دَعَانِي يَوْمئِذٍ إِلَّا لِيُرِيَهُمْ فَسَأَلَ مَا تَقولُونَ فِي قَول الله عَزَّ وَجَلَّ إِذا جَاءَ نصر الله وَالْفَتْح فَقَالَ بَعضهم أمرنَا بِحَمْد الله وَنَسْتَغْفِرهُ إِذا نصرنَا وَفتح علينا وَسكت بَعضهم فَلم يقل شَيْئا فَقَالَ لي أَكَذَلِك تَقول يَا ابْن عَبَّاس فَقلت لَا قَالَ فَمَا تَقول قلت هُوَ أجل رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أعلمهُ لَهُ قَالَ إِذا جَاءَ نصر الله وَالْفَتْح وَذَلِكَ عَلامَة أَجلك فسبح بِحَمْد رَبك وَاسْتَغْفرهُ إِنَّه كَانَ تَوَّابًا فَقَالَ عمر مَا أعلم مِنْهَا إِلَّا مَا تَقول انْتَهَى

وَوهم الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فَرَوَاهُ فِي الْفَضَائِل وَقَالَ عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ وَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده وَزَاد فِيهِ ثمَّ قَالَ عمر كَيفَ تلومُونَنِي عَلَيْهِ بعد مَا ترَوْنَ انْتَهَى وَكَذَلِكَ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات

1559 - الحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه دَعَا فَاطِمَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فَقَالَ لَهَا يَا ابنتاه إِنَّه قد نعيت إِلَيّ نَفسِي فَبَكَتْ فَقَالَ لَا تبكي فَإنَّك أول أَهلِي لُحُوقا بِي

قلت رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي أَوَاخِر كِتَابه دَلَائِل النُّبُوَّة من حَدِيث هِلَال بن خباب عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما نزلت إِذا جَاءَ نصر الله وَالْفَتْح دَعَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

فَاطِمَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَقَالَ لَهَا إِنَّه قد نعيت إِلَيّ نَفسِي فَبَكَتْ فَقَالَ لَهَا اصْبِرِي فَإنَّك أول أَهلِي لُحُوقا بِي

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا سُلَيْمَان بن احْمَد ثَنَا احْمَد بن يحيى الْحلْوانِي ثَنَا سعيد بن سُلَيْمَان عَن عباد بن الْعَوام عَن هِلَال بن خباب بِهِ سندا ومتنا زَاد فِيهِ فَقَالَ لَهَا بعض أَزوَاج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم رَأَيْتُك بَكَيْت ثمَّ ضَحِكت قَالَت إِنَّه قَالَ قد نعيت إِلَيّ نَفسِي فَبَكَيْت فَقَالَ لَا تبْكي فَإنَّك أول أَهلِي لُحُوقا بِي فَضَحكت انْتَهَى

(45/836)

وَبَعضه فِي الصَّحِيحَيْنِ رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي عَلَامَات النُّبُوَّة وَمُسلم فِي الْفَضَائِل من حَدِيث مَسْرُوق عَن عَائِشَة قَالَت اجْتَمعْنَ نسَاء النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَلم يُغَادر مِنْهُنَّ امْرَأَة فَجَاءَت فَاطِمَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَأَن مشيتهَا مشْيَة النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ مرْحَبًا بابْنَتي ثمَّ أَجْلسهَا عَن شِمَاله وَأسر إِلَيْهَا حَدِيثا فَبَكَتْ فَاطِمَة ثمَّ سَارهَا فَضَحكت فَقلت لَهَا مَا رَأَيْت كَالْيَوْمِ فَرحا اقْرَبْ من حزن فَقَالَت مَا كنت لأفشي سر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لأحد حَتَّى إِذا قبض سَأَلتهَا فَقَالَت إِنَّه قَالَ إِن جِبْرِيل كَانَ يُعَارضهُ بِالْقُرْآنِ فِي كل عَام مرّة وَإنَّهُ عَارضه بِهِ الْعَام مرَّتَيْنِ وَلَا أَرَانِي إِلَّا قد حضر أَجلي

وَإنَّك لأوّل أَهلِي لُحُوقا بِي وَنعم السّلف أَنا لَك فبكيت ثمَّ إِنَّه سارني فَقَالَ أَلا ترْضين أَن تكوني سيدة نسَاء الْمُؤمنِينَ أَو نسَاء هَذِه الْأمة فَضَحكت لذَلِك انْتهى

وَقد تعَارض هَذَا بِمَا رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي الْفَضَائِل من حَدِيث عَائِشَة بنت طَلْحَة عَن عَائِشَة أم الْمُؤمنِينَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ أسرعكن لَحَاقًا بِي أَطْولكُنَّ يدا قَالَت فَكُن يتطاولن أيتهن أطول يدا حَتَّى توفيت زَيْنَب فعرفنا أَنه الصَّدَقَة وَكَانَت زَيْنَب امْرَأَة صناعًا تعْمل بِيَدَيْهَا وتتصدق وَالْجَوَاب أَن المُرَاد بِالْأَهْلِ فِي الأول الْأَقَارِب وَالْخطاب فِي الثَّانِي للزوجات

(46/836)

ووَقع فِي البُخَارِيّ أَن سَوْدَة كَانَت أول أَهله لُحُوقا بِهِ رَوَاهُ فِي الزَّكَاة من حَدِيث مَسْرُوق عَن عَائِشَة أَن بعض أَزوَاج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قُلْنَ لَهُ أَيّنَا أسْرع بك لُحُوقا فَقَالَ أَطْولكُنَّ يدا فَأخذُوا قَصَبَة يذرعونها فَكَانَت سَوْدَة أطولهن يدا فَقُلْنَا بعد إِنَّمَا كَانَ طول يَدهَا الصَّدَقَة وَكَانَت أسرعنا لُحُوقا بِهِ وَكَانَت تحب الصَّدَقَة انْتهى بحروفه

وَإِذا تأملت تَجدهُ غير مُنْتَظم فَإِن سَوْدَة كَانَت أطولهن يدا من حَيْثُ الْخلقَة وَزَيْنَب كَانَت أطولهن يدا من حَيْثُ الصَّدَقَة فَجمع بَينهمَا لسودة فِي متن البُخَارِيّ وَهَذَا وهم ظَاهر

وَنسب إِلَى البُخَارِيّ نَفسه وَقد رَوَاهُ مُسلم عَن الصَّوَاب وَالله أعلم

وَرَوَاهُ ابْن سعد فِي الطَّبَقَات أخبرنَا عَفَّان بن مُسلم ثَنَا أَبُو عوَانَة عَن فراس عَن عَامر عَن عَائِشَة . . . فَذكره بِلَفْظ البُخَارِيّ ثمَّ قَالَ قَالَ مُحَمَّد بن عمر يَعْنِي الْوَاقِدِيّ هَذَا الحَدِيث وَهل فِي سَوْدَة وَإِنَّمَا هُوَ فِي زَيْنَب بنت جحش فَإِنَّهَا كَانَت أول نِسَائِهِ لُحُوقا بِهِ توفيت فِي خلَافَة عمر بن الْخطاب وبقيت سَوْدَة بنت زَمعَة فِيمَا حَدثنَا بِهِ مُحَمَّد بن عبد الله بن مُسلم عَن أَبِيه أَن سَوْدَة توفيت فِي شَوَّال سنة أبع وَخمسين بِالْمَدِينَةِ فِي خلَافَة مُعَاوِيَة بن أبي سُفْيَان وَهُوَ الثبت عندنَا انْتَهَى

قَالَ ابْن الْجَوْزِيّ وَهَذَا بِلَا شكّ وهم من بعض الروَاة قَالَ وَالْعجب من البُخَارِيّ كَيفَ لم يُغَيِّرهُ وَلَا نبه عَلَيْهِ وَإِنَّمَا هِيَ زَيْنَب فَإِنَّهَا كَانَت أطولهن يدا فِي الصَّدَقَة وَالعطاء وَزَيْنَب توفيت سنة عشْرين وَسَوْدَة إِنَّمَا توفيت سنة أَربع وَخمسين انْتَهَى

(47/836)

وَقَالَ عبد الْحق فِي الْجمع بَين الصَّحِيحَيْنِ لما ذكر حَدِيث البُخَارِيّ فِي الْفَضَائِل وَالْمَعْرُوف أَن زَيْنَب كَانَت أول من مَاتَ من أَزوَاج النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم مَاتَت أَيَّام عمر

ابْن الْخطاب انْتَهَى

والْحميدِي عده فِيمَا اتّفق الشَّيْخَان عَلَى مَتنه بِسَنَدَيْنِ ولم يبين وهم الْبُخَارِيّ فِيهِ

1560 - الحَدِيث الثَّانِي عشر

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ من قَرَأَ سُورَة إِذا جَاءَ نصر الله وَالْفَتْح أعطي من الْأجر كمن شهد مَعَ مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتح مَكَّة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَبِسَنَد الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط . انتهى انتهى . اهـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 313.324﴾

(48/836)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة النصر

(49/836)

" إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا " . هذه السورة نزلت فى أواخر عمر النبى عليه الصلاة والسلام . وقد فهم منها ـ كما فهم حذاق الصحابة منها ـ أنها تنعى إليه نفسه ، وتشعره بقرب الرحيل عن هذه الدنيا ، فليستعد لذلك بطول التسبيح والاستغفار . . والنصر الذى جاء وقع بعد تساقط الأصنام وذهاب دولتها ، وامتلاء الآفاق بالمؤذنين يعلنون ليلا ونهارا ، أن الله واحد ، وأن الحجارة المعبودة قد تصلح لرصف الطرق أو بناء الدور . . لقد أدى محمد رسالته فى إعلاء كلمة الله ومحو الخرافات السائدة ، وبقى أن يعود إلى ربه ليجزيه خيرا عن جهاده الطويل . إنه تعب كما لم يتعب أحد . انتصب تهجدا حتى تورمت قدماه وهو من استغراقه فى المناجاة لا يدرى ! ولبس لامة الحرب حتى أجهدته الجراحات . وأحرجه هوانه على الناس ، ثم صاح : إن لم يك بك على غضب فلا أبالى ! ! قد تقول : وماذا لو طال عمره حتى يستمتع بالنصر الذى

أحرز؟ أقول: إنما يتمتع بالنصر طالب علو فى الدنيا . إنه فى أواخر عمره طلب طعاما لبيته من تاجر يهودى ، فأبى اليهودى إلا أن يعطيه برهن . وكان النبى يومئذ فى قمة السلطة؟ انكسرت جميع القوى أمام جيشه ، وانحسر المد الرومانى وراء حدود الجزيرة ، واستسلمت كل المستوطنات اليهودية . ولو أن الرسول كلف أحد الأغنياء من أتباعه أن يدفع ثمن القوت المطلوب ، لعد ذلك شرف الدنيا والآخرة . لكن الرسول لم يفعل ، وقال لليهودى : أنا أمين فى الأرض والسماء ، وخذ الرهن الذى تطلب . وأعطاه درعه ! ومات النبى والدرع مرهونة عند اليهودى فى قوت بيته . ماذا نال محمد من دنيا الناس؟ ثم يجىء الوحى يعرض عليه البقاء هنا أو لقاء الله ! فيقول : بل الرفيق الأعلى ! إن محمدا لقى ربه ونعم بجواره ، وهو الآن مع المرسلين الأولين والملائكة المقربين " في مقعد صدق عند مليك مقتدر" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 546 ﴾

(50/836)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(51/836)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة النصر

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه قال في آخر ما قبلها : (ولي دين) فكان فيه إشعار بأنه خلص له دينه ، وسلم من شوائب الكفار والمخالفين ، فعقب ببيان وقت ذلك ، وهو مجئ الفتح والنصر ، فإن الناس حين دخلوا في دين الله أفواجاً ، فقد تم الأمر ، وذهب الكفر ، وخلص دين الإسلام ممن كان يناوئه ، ولذلك كانت السورة إشارة إلى وفاته صلى الله عليه وسلم وقال الإمام فخر الدين : كأنه تعالى يقول : لما أمرتك في السورة المتقدمة بمجاهدة جميع الكفار ، بالتبرى منهم ، وإبطال دينهم ، جزيتك على ذلك بالنصر والفتح ، وتكثير الأتباع

قال : ووجه آخر ، وهو : أنه لما أعطاه الكوثر ، وهو : الخير الكثير ، ناسب تحميله مشقاته وتكاليفه ، فعقبها بمجاهدة الكفار ، والتبرى منهم فلما امتثل ذلك أعقبه بالبشارة بالنصر والفتح ، وإقبال الناس أفواجاً إلى دينه ، وأشار إلى دنو أجله ، فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال

توقع زوالا إذا قيل تم . انتهى انتهى . اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 159﴾

قوله تعالى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي له الأمر كله ، فهو العليم الحكيم (الرحمن) الذي أرسلك رحمة للعالمين ، فعمهم بعد نعمة الإيجاد بأن بين لهم إقامة لمعاشهم ومعادهم بك طريق النجاة غاية البيان ، بما أنزل عليك من معجز القرآن الذي من سمعه فكأنما سمعه من العلي العظيم (الرحيم) الذي خص من أراده بالإقبال به إلى حزبه وجعله من أهل قربه بلزوم الصراط المستقيم .

لما دلت التي قبلها على أن الكفار قد صاروا إلى حال لا عبرة بهم فيه ولا التفات ولا خوف بوجه منهم ما دام الحال على المتاركة ، كان كأنه قيل : فهل يحصل نصر عليهم وظفر بهم بالمعاركة ، فأجاب بهذه السورة بشارة للمؤمنين ونذارة للكافرين ، ولكنه لما لم يكن هذا بالفعل إلا عام حجة الوداع بعد فتح مكة بسنتين كان كأنه لم يستقر الفتح إلا حينئذ ، فلم ينزل سبحانه وتعالى هذه السورة إلا في ذلك الوقت وقبل منصرفه من غزوة حنين ، فقال

تعالى تحقيقاً لأنه ينصر المظلوم ويعلي دينه ويمهل ولا يهمل ، فإنه لا يعجزه شيء ، حثاً على التفويض له والاكتفاء به ، مقدماً معمول "سبح" تعجيلاً للبشارة : ﴿ إذا ﴾ .

ولما كانت المقدرات متوجهة من الأزل إلى أوقاتها المعينة لها ، يسوقها إليها سائق القدرة ، فتقرب منها شيئاً فشيئاً ، كانت كأنها آتية إليها ، فلذلك حصل التجوز بالمجيء عن الحصول فقال : ﴿ جاء ﴾ أي استقر وثبت في المستقبل بمجيء وقته المضروب له في الأزل ، وزاد في تعظيمه بالإضافة ثم بكونها اسم الذات فقال : ﴿ نصر الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا مثل له ولا أمر لأحد معه على جميع الناس في كل أمر يريده .

(53/836)

ولما كان للنصر درجات ، وكان قد أشار سبحانه بمطلق الإضافة إليه ثم بكونها إلى الاسم الأعظم إلى أن المراد أعلاها ، صرح به فقال : ﴿ والفتح ﴾ أي المطلق الصالح لكل فتح الذي نزلت فيه سورته بالحديبية مبشرة له بغلبة حزبه الذين أنت قائدهم وهاديهم ومرشدهم ، لا سيما على مكة التي بها بيته ومنها ظهر دينه ، وبها كان أصله ، وفيها استقر عموده ، وعز جنوده ، فذل بذلك جميع العرب ، وقالوا : لا طاقة لنا بمن أظفره الله بأهل الحرم ، فعزوا بهذا الذل حتى كان ببعضهم تمام هذا الفتح ، ويكون بهم كلهم فتح جميع

البلاد ، وللإشارة إلى الغلبة على جميع الأمم ساقه تعالى في أسلوب الشرط ، ولتحققها عبر عنه ب ﴿ إذا ﴾ إعلاماً بأنه لا يخلف الوعد ولا ينقص ما قدره وإن توهمت العقول أنه فات وقته ، وإيذاناً بأن القلوب بيده يقلبها كيف يشاء ليحصل لمن علم ذلك الإخلاص والخوف والرجاء ، فأشعرت العبارة بأن الوقت قد قرب ، فكان المعنى : فكن مترقباً لوروده ومستعداً لشكره .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما كمل دينه واتضحت شريعته واستقر أمره .صلى الله عليه وسلم .وأدى أمانة رسالته حق أدائها عرف عليه صلى الله عليه الصلاة والسلام نفاد عمره وانقضاء أجله ، وجعلت له على ذلك علامة دخول الناس في دين الله جماعات بعد التوقف والتثبط ﴿ حكمة بالغة فما تغني النذر ﴾ [القمر : 5] ﴿ لو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾

(54/836)

[الأنعام : 35] وأمر بالإكثار من الاستغفار المشروع في أعقاب المجالس وفي أطراف النهار وخواتم المآخذ مما عسى أن يتخلل من لغو أو فتور ، فشرع سبحانه وتعالى الاستغفار ليحرز لعباده من حفظ أحوالهم ورعي أوقاتهم ما يفي بعليّ أجورهم كما وعدهم

﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته ﴾ [الأنعام: 115] وقد بسطت ما أشارت إليه هذه السورة العظيمة – وكل كلام ربنا عظيم – فيما قيدته في غير هذا، وأن أبا بكر -رضى الله عنه- عرف منها أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- نعيت إليه نفسه الكريمة على ربه وعرف بدنو أجله، وقد أشار إلى هذا الغرض أيضاً بأبعد من الواقع في هذه السورة قوله تعالى: ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [المائدة: 3] وسورة براءة وأفعاله عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع لكن لم يبلغنا استشعار أحد من الصحابة -رضى الله عنه- م تعيين الأمر إلا من هذه السورة.

وقد عرفت بإشارة براءة وآية المائدة تعريفاً شافياً، واستشعر الناس عام حجة الوداع وعند نزول براءة ذلك لكن لم يستيقنوه وغلبوا رجاءهم في حياته -صلى الله عليه وسلم-، ومنهم من توفي، فلما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ استيقن أبو بكر -رضى الله عنه- ذلك استيقاناً حمله على البكاء لما قرأها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- – انتهى.

(55/836)

ولما عبر عن المعنى بالمجيء ، عبر عن المرئي بالرؤية فقال : ﴿ ورأيت ﴾ أي بعينيك ﴿ الناس ﴾ أي العرب الذين كانوا حقيرين عند جميع الأمم ، فصاروا بك هم الناس - كما دلت عليه لام الكمال ، وصار سائر أهل الأرض لهم أتباعاً ، وبالنسبة إليهم رعاياً ، حال كونهم ﴿ يدخلون ﴾ شيئاً فشيئاً متجددا دخولهم مستمراً ﴿ في دين الله ﴾ أي شرع من لم تزل كلمته هي العليا في حال إباء الخلق - بقهره لهم على الكفر الذي لا يرضاه لنفسه عاقل - ترك الحظوظ ، وفي حال طواعيتهم بقسره لهم على الطاعة ، وعبر عنه بالدين الذين معناه الجزاء لأن العرب كانوا لا يعتقدون القيامة التي لا يتم ظهور الجزاء إلا بها ﴿ أفواجاً ﴾ أي قبائل قبائل وزمراً زمراً وجماعات كثيفة كالقبيلة بأسرها أمة بعد أمة كأهل مكة والطائف وهوازن وهمدان وسائر القبائل من غير قتال في خفة وسرعة ومفاجأة ولين بعد دخولهم واحداً واحداً ونحو ذلك لأنهم قالوا : أما إذا ظفر بأهل الحرم وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل الذين لم يقدر أحد على ردهم فليس لنا بهم يدان .

فتبين أن هذا القياس المنتج هذه النتيجة البديهية بقصة أصحاب الفيل ما رتبه الله إلا إرهاصاً لنبوته وتأسيساً لدعوته فألقوا بأيديهم ، وأسلموا قيادهم حاضرهم وباديهم .

ولما كان التقدير : فقد سبح الله نفسه بالحمد بإبعاد نجس الشرك عن جزيرة العرب بالفعل ، قال إيذاناً بأنه منزه عن النقائص التي منها إخلاف الوعد ، وأن له مع ذلك الجلال والجمال ، معبراً بما يفيد التعجب لزيادة التعظيم للمتعجب منه ليثمر ذلك الإجلال والتعظيم والتذلل والتقبل لجميع الأوامر ، ويفهم أمره تعالى للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالاشتغال بخاصة نفسه بدنو أجله ، وأن اشتغاله بالناس قد انتهى ، لأن الدين قد كمل فلم يبق له ـ صلى الله عليه وسلم ـ شغل في دار الكدر : ﴿ فسبح ﴾ أي نزه أنت بقولك وفعلك بالصلاة وغيرها موافقة لمولاك فيما فعل ، وزد في جميع أنواع العبادة ، تسبيحاً متلبساً ﴿ بحمد ﴾ أي بكمال وإجلال وتعظيم ﴿ ربك ﴾ أي الذي أنجز لك الوعد بإكمال الدين وقمع المعتدين ، المحسن إليك بجميع ذلك ، لأنه كله لكرامتك ، وإلا فهو عزيز حميد على كل حال ، تعجباً لتيسير الله من هذا الفتح مما لم يخطر بالبال ، وشكراً لما أنعم به سبحانه وتعالى عليه من أنه أراه تمام ما أرسل لأجله ، ولأن كل حسنة يعملها أتباعه له مثلها .

ولما أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتنزيهه عن كل نقص ، ووصفه تنزلاً عن غيب الغيب إلى الغيب بكل كمال مضافاً إلى الرب تدلياً إلى مشاهدة الأفعال ، وصل إلى نهاية التنزل من الخالق إلى المخلوق مخاطباً لأعلى الخلائق كلهم فأمره بما يفهم العجز عن الوفاء بحقه لما له من العظمة المشار إليها بذكره مرتين بالاسم الأعظم الذي له من الدلائل على العظم والعلو إلى محل الغيب الذي لا مطمع في دركه ما تنقطع الأعناق دونه ليفهم عجز غيره من باب الأولى ، فقال معلماً بأن من كماله أن يأخذ بالذنب إن شاء ويغفر إن شاء وإن عظم الذنب ، ليحث ذلك على المبادرة إلى التوبة وتكثير الحسنات وحسن الرجاء : ﴿ واستغفره ﴾ أي اطلب غفرانه إنه كان غفاراً إيذاناً بأنه لا يقدر أحد أن يقدره حق قدره كما أشار إلى ذلك الاستغفار عقب الصلاة التي هي أعظم العبادات لتقتدي بك أمتك في المواظبة على الأمان الثاني لهم ، فإن الأمان الأول – الذي هو وجودك بين أظهرهم قد دنا رجوعه إلى معدنه في الرفيق الأعلى والمحل الأقدس الأولى ، وكذا فعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ – كان يقول : " سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك " ودخل يوم الفتح مكة مطأطئاً رأسه حتى إنه ليكاد يمس واسطة الرحل تواضعاً لله سبحانه وتعالى إعلاماً لأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أن ما وقع إنما هو بحول الله ، لا بكثرة مع معه من الجمع ، وإنما جعلهم سبباً لطفاً منه بهم ، ولذلك نبه من ظن منهم أو هجس في خاطره أن للجمع مدخلاً بما وقع من الهزيمة في حنين أولاً ، وما وقع بعد من النصرة بمن ثبت مع النبي ـ

صلى الله عليه وسلم ـ وهم لا يبلغون ثلاثين نفساً ثانياً ، فالتسبيح الذي هو تنزيه عن النقص إشارة إلى إكماله الدين تحقيقاً لما كان تقدم به وعده الشريف .

(58/836)

والاستغفار إشارة إلى أن عبادته ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي هي أعظم العبادات قد شارفت الانقضاء ، ولا يكون ذلك إلا بالموت ، فلذلك أمر بالاستغفار لأنه يكون في خاتمة المجالس والأعمال جبراً لما لعله وقع فيها على نوع من الوهن واعترافاً بذل العبودية والعجز .

(59/836)

ولما أمر بذلك فأرشد السياق إلى أن التقدير : وتب إليه ، علله مؤكداً لأجل استبعاد من يستبعد مضمون ذلك من رجوع الناس في الردة ومن غيره بقوله : ﴿ إنه ﴾ أي المحسن إليك غاية الإحسان بخلافته لك في أمتك ، ويجوز أن يكون التأكيد لأجل دلالة ما تقدم من ذكر الجلالة مرتين على غاية العظمة والفوت عن الإدراك بالاحتجاب بإرادته الكبرياء والعز والتجبر والقهر مع أن المألوف أن من كان على شيء من ذلك كان بحيث لا يقبل عذراً ولا

يقبل نادماً ﴿كان﴾ أي لم يزل على التجدد والاستمرار ﴿توابا﴾ أي رجاعاً بمن هذب به الشيطان من أهل رحمته فهو، الذي رجع بأنصارك عما كانوا عليه من الاجتماع على الكفر والاختلاف والعداوات فأيدك بدخولهم في الدين شيئًا فشيئاً حتى أسرع بهم بعد سورة الفتح إلى أن دخلت مكة في عشرة آلاف، وهو أيضاً يرجع بك إلى الحال التي يزداد بها ظهور رفعتك في الرفيق الأعلى ويرجع عن تخلخل من أمتك في دينه بردة أو معصية دون ذلك إلى ما كان عليه من الخير، ويسير بهم أحسن سير، فقد رجع آخر السورة إلى أولها لأنه لولا تحقق وصفه بالتوبة لما وجد الناصر الذي وجد به الفتح والتحم مقطعها أي التحام بمطلعها، وعلم أن كل جملة منها مسببة عما قبلها، فتوبة الله على عبده نتيجة توبته باستغفاره الذي هو طلب المغفرة بشروطه، وذلك ثمرة اعتقاده الكمال في ربه، وذلك ما دل عليه إعلاؤه لدينه، وقسره للداخلين فيه على الدخول مع أنهم أشد الناس شكائم وأعلاهم همماً وعزائم، وقد كانوا في غاية الإباء له والمغالبة للقائم به، وذلك هو فائدة الفتح هو آية النصر، وقد علم أن الآية الأخيرة من الاحتباك: دل بالأمر بالاستغفار على الأمر بالتوبة، وبتعليل الأمر بالتوبة على تعليل الأمر بالاستغفار، وعلم أن السورة أشارة إلى وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحث على الاستغفار الذي هو الأمان الثاني، ومن شأنه أن تختم به الأعمال والمجالس بعد ما أشار إليه

إعلامها بظهور الدين على الدين كله ونزولها في أوسط أيام التشريق من حجته عليه أفضل الصلاة والسلام سنة عشر كما ذكرته في كتابي " مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور " وكتابي " الاطلاع على حجة الوداع " وذلك بعد نزول آية المائدة – التي هي نظيرتها في رد المقطع على المطلع – في يوم عرفة

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ [المائدة : 3] ومن المعلوم أنه لا يكون في هذه الدار كمال إلا بعده نقصان ، ولذلك سماها النبي . صلى الله عليه وسلم . حجة الوداع وخطب الناس فيها ، فعلّمهم أمور دينهم وأشهدهم على أنفسهم وأشهد الله عليهم بأنه بلغهم ، وودعهم وقال : لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا ، وأشار إلى ذلك أيضاً بالتوبة وإلى وقوع الردة بعده . صلى الله عليه وسلم . ورجوع من ارتد إلى أحسن ما كانوا عليه من اعتقادهم في الدين وثباتهم عليه بقتل من كان مطبوعاً على الكفر المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿ ولو أسمعهم ﴾ [الأنفال : 23] – أي إسماع قهر وغلبة وقسر – ﴿ لتولوا وهم معرضون ﴾ [الأنفال : 23] فكان وجودهم ضرراً صرفاً من غير منفعة وقتلهم نفعاً لا ضرر فيه بوجه ، ولأجل إفهامها حلول الأجل للإيذان بالتمام بكى العباس رضي الله تعالى عنه – وفي رواية : ولده عبد الله – عند نزولها فسأله النبي . صلى الله عليه وسلم . فقال : " نعيت إليك نفسك " فقال : إنه لكما تقول .

كما بكى عمر -رضى الله عنه- عند نزول آية المائدة ، وعلل بهذا – والله الهادي ، وقد ظهر بهذا أن حاصلها الإيذان بكمال الدين ودنو الوفاة لخاتم النبيين ، والنصر على جميع الظالمين الطاغين الباغين ، وذلك من أعظم مقاصد المائدة ، المناظرة لهذه في التطبيق بين البادئة والعائدة ، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ [الأنعام : 3] وقوله تعالى : ﴿ ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ [المائدة : 56] وقوله تعالى : ﴿ لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير ﴾ [المائدة : 120] ومن أعظم لطائف هذه السورة ودقيق بدائعها ولطيف منازعها أن كلماتها تدل بأعدادها على أمور جليلة وأسرار جميلة ، فإنها تسع عشرة كلمة ، وقد كان في سنة تسع عشرة من الهجرة موت قيصر طاغية الروم ، وذلك أن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه لما فتح الإسكندرية قال قيصر : لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم ، فتجهز ليباشر قتالهم بنفسه ، فعندما فرغ من جهازه صرعه الله فمات وكفى الله المسلمين شره ، وذل الروم بذلك ذلاً كبيراً ، واستأسدت العرب ، وفي هذه السنة أيضاً فتح الله قيسارية من بلاد الشام فلم يبق بالشام أقصاها وأدناها عدو ، وفرح

المسلمون بذلك فرحاً شديداً ، وكان فيها أيضاً فتح جلولاء ، من بلاد فارس ، وكان فتحها يسمى فتح الفتوح ، لأن الفرس لم ينجبروا بعده ، هذا إن عددنا ما يوازي كلماتها من سنة الهجرة ، وإن عددنا من سنة نزول السورة في سنة عشر فقد فتحت سنة تسع وعشرين من الهجرة – وهي التاسعة عشرة من نزولها – مدينة اصطخر ، واشتد ضعف الفرس ، وأمر ملكهم يزدجرد واجتهاده في الهرب من العرب حتى قتل سنة إحدى وثلاثين من الهجرة بعد ذلك بسنتين ، وذلك هو العد الموازي لعد كلماتها ظواهر وضمائر مع كلمات البسملة ، وإذا نظرت إلى ما هنا من هذا وطبقت بينه وبين ما ذكر في سورة الفتح من مثله زاد

عجبك من باهر هذه الآيات – والله الموفق ، ثم إنك إذا اعتبرت اعتباراً آخر وجدت هذه السورة كا دلت بجملتها على انقضاء زمن النبوة بموت النبي - صلى الله عليه وسلم - دلت بمفردات كلماتها على انقضاء خلافة النبوة لتمام ثلاثين سنة كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه عن سفينة مولى النبي - صلى الله عليه وسلم - ورضي عنه

" خلافة النبوة ثلاثون ، ثم يؤتي الله الملك من يشاء " وذلك أنك إذا عددت كلماتها مع البسملة كانت باعتبار الرسم ثلاثاً وعشرين كلمة ، وذلك مشيراً إلى انقضاء الخلافة التي لم تكن قط خلافة مثلها ، وهي خلافة الفاروق عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- باستشهاده في ذي الحجة سنة ثلاثة وعشرين من الهجرة ، فإذا ضممت إلى ذلك الضمائر البارزة وهي خمسة ، والمستترة وهي ثلاثة ، فكانت أحداً وثلاثين ، وحسبت من حين نزول السورة على النبي -صلى الله عليه وسلم- في ذي الحجة سنة عشر كان ذلك مشيراً إلى انقضاء خلافة النبوة كلها بإصلاح أمير المؤمنين الحسن بن علي -رضى الله عنهما- في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ، وذلك عند مضي ثلاثين سنة من موت النبي -صلى الله عليه وسلم- في شهر ربيع الأول سنة عشر من الهجرة لا تزيد شهراً ولا تنقصه ، وإن أخذت الضمائر وحدها بارزها ومستترها دلت على فتح مكة المشرفة بعينه ، فإنها -كما مضى- ثمانية وقد كان الفتح سنة ثمان من الهجرة ، ومن لطائف الأسرار وبدائع الأنظار أنها تدل على السنين بحسب التفصيل ، فالبارز يدل على سنة النصر والظهور على قريش لأنهم المقصودون بالذات لأن العرب لهم تبع ، والمستتر يدل على ضد ذلك ،

وشرح هذا أنه لما كانت قد خفقت في السنة الأولى من الهجرة رايات الإسلام في كل وجه ، وانتشرت أسده في كل صوب ، وانبثت سراياه في كل قطر ، أشار إليها التاء في ﴿ ورأيت ﴾ التي هي ضميره ـ صلى الله عليه وسلم ـ إشارة إلى ما يختص بفهمه من البشارة .

(64/836)

ولما كان في السنة الثانية بغزوة بدر من واضح الظفر وعظيم النصر ما هدّ قلوب الكفار ، وشد قلوب الأنصار في سائر الأمصار ، وأعلى لهم القدر ، أشار إلى ذلك واو ﴿ يدخلون ﴾ ، ولما حصل في السنة الثالثة ما لم يخف من المصيبة في غزوة أحد التي ربما أوهمت بعض من لم يرسخ نقصاً ، أشار إلى ذلك الضمير المستتر في ﴿ فسبح ﴾ ، ولما كان الخبر في الرابعة بأجلاء بني النضير وإخلاف قريش للوعد في بدر جبناً وعجزاً حيث وفى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم شجاعة وقوة بحول الله وانقلبوا ، منها بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء ، أشار إلى ذلك الكاف في ﴿ ربك ﴾ ولما كان في الخامسة غزوة الأحزاب أشار إليها المستتر في ﴿ واستغفره ﴾ ولما كان في السادسة عمرة الحديبية التي سماها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتحاً ، أنزل الله فيها

سورة الفتح لكونها كانت سبباً للفتح ، فكان ذلك علماً من أعلام النبوة ، ولبعث النبي صلى الله عليه وسلم فيها إلى الملوك يدعوهم إلى الله تعالى أشار إلى ذلك الضمير البارز في ﴿ واستغفره ﴾ وأكد قوته كونه للرب تعالى ، ولما كان في السابعة غزوة خيبر وعمرة القضاء أشار إليها الضمير الظاهر في ﴿ إنه ﴾ ولما كان ضمير ﴿ كان ﴾ لله ، وكان له سبحانه حضرتان : حضرة غيب وبطون ، وحضرة شهادة وظهور ، وكانت حضرة الغيب هي حضرة الجلال والكبرياء والعظمة والتعالي ، وحضرة الشهادة حضرة التنزل بالأفعال والاستعطاف بالأقوال ، كانت الحضرتان للنصر ، وكانت حضرة الغيب أعظمهما نصراً وأشدهما أزراً ، فلذلك كان ضمير الاستتار دالاًّ على الفتح الأكبر بالانتصار على السكان والديار بسطوة الواحد القهار ، على أنا إذا نظرنا إليه من حيث كونه جائز البروز كان البارز فله حكمه - فسبحان من شمل علمه ، ودقت حكمته فنفذ حكمه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 559 . 566 ﴾

(65/836)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾

في الآية لطائف :

(66/836)

إحداها : أنه تعالى لما وعد محمداً بالتربية العظيمة بقوله : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 5] وقوله : ﴿ إِنَّا أعطيناك الكوثر ﴾ [الكوثر : 1] لا جرم كان يزداد كل يوم أمره ، كأنه تعالى قال : يا محمد لم يضيق قلبك ، ألست حين لم تكن مبعوثاً لم أضيعك بل نصرتك بالطير الأبابيل ، وفي أول الرسالة زدت فجعلت الطير ملائكة ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بخمسة آلاف ثم الآن أزيد فأقول إني أكون ناصراً لك بذاتي : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾ فقال : إلهي إنما تتم النعمة إذا فتحت لي دار مولدي ومسكني فقال : ﴿ والفتح ﴾ فقال : إلهي لكن القوم إذا خرجوا ، فأي لذة في ذلك فقال : ﴿ وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ فِى دِينِ الله أفواجا ﴾ ثم كأنه قال : هل تعلم يا محمد بأي سبب وجدت هذه التشريفات الثلاثة إنما وجدتها لأنك قلت في السورة المتقدمة : ﴿ يا أيُّها الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون : 1] يشتمل على أمور ثلاثة أولها : نصرتني بلسانك فكان جزاؤه : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾ وثانيها : فتحت مكة قلبك بعسكر التوحيد

فأعطيناك فتح مكة وهو المراد من قوله ، ﴿ والفتح ﴾ والثالث : أدخلت رعية جوارحك وأعضائك في طاعتي وعبوديتي فأنا أيضاً أدخلت عبادي في طاعتك ، وهو المراد من قوله : ﴿ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أفواجا ﴾ ثم إنك بعد أن وجدت هذه الخلع الثلاثة فابعث إلى حضرتي بثلاث أنواع من العبودية تهادوا تحابوا ، إن نصرتك فسبح ، وإن فتحت مكة فاحمد وإن أسلموا فاستغفر ، وإنما وضع في مقابلة : نصر الله تسبيحه ، لأن التسبيح هو تنزيه الله عن مشابهة المحدثات ، يعني تشاهد أنه نصرك ، فإياك أن تظن أنه إنما نصرك لأنك تستحق منه ذلك النصر ، بل اعتقد كونه منزهاً عن أن يستحق عليه أحد من الخلق شيئاً ، ثم جعل في مقابل فتح مكة الحمد لأن النعمة لا يمكن أن تقابل إلا بالحمد ، ثم جعل في مقابلة دخول الناس في الدين الاستغفار وهو

المراد من قوله : ﴿ واستغفر لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ [محمد : 19] أي كثرة الأتباع مما يشغل القلب بلذة الجاه والقبول ، فاستغفر لهذا القدر من ذنبك ، واستغفر لذنبهم فإنهم كلما كانوا أكثر كانت ذنوبهم أكثر فكان احتياجهم إلى استغفارك أكثر الوجه الثاني : أنه عليه السلام لما تبرأ عن الكفر وواجههم بالسوء في قوله : ﴿ يا أيها الكافرون ﴾ كأنه

خاف بعض القوم فقلل من تلك الخشونة فقال : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ فقيل : يا محمد لا تخف فإني لا أذهب بك إلى النصر بل أجيء بالنصر إليك : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾ نظيره : "زويت لي الأرض" يعني لا تذهب إلى الأرض بل تجيء الأرض إليك ، فإن سئمت المقام وأردت الرحلة ، فمثلك لا يرتحل إلا إلى قاب قوسين :

﴿ سُبْحَانَ الذى أسرى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : 16] بل أزيد على هذا فأفضل فقراء أمتك على أغنيائهم ثم آمر الأغنياء بالضحايا ليتخذوها مطايا فإذا بقي الفقير من غير مطية أسوق الجنة إليه : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الجنة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الشعراء : 90] الوجه الثالث : كأنه سبحانه قال : يا محمد إن الدنيا لا يصفو كدرها ولا تدوم محنها ولا نعيمها فرحت بالكوثر فتحمل مشقة سفاهة السفهاء حيث قالوا : أعبد آلهتنا حتى نعبد إلهك فلما تبرأ عنهم وضاق قلبه من جهتهم قال : أبشر فقد جاء نصر الله فلما استبشر قال : الرحيل الرحيل أما علمت أنه لا بد بعد الكمال من الزوال ، فاستغفره أيها الإنسان لا تحزن من جوع الربيع فعقيبه غنى الخريف ولا تفرح بغنى الخريف فعقيبه وحشة الشتاء ، فكذا من تم إقباله لا يبقى له إلا الغير ومنه :

إذا تم أمر دنا نقصه . . توقع زوالا إذا قيل تم

إلهي لم فعلت كذلك قال : حتى لا نضع قلبك على الدنيا بل تكون أبداً على جناح الارتحال والسفر الوجه الرابع : لما قال في آخر السورة المتقدمة : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ فكأنه قال : إلهي وما جزائي فقال : نصر الله فيقول : وما جزاء عمي حين دعاني إلى عبادة الأصنام فقال : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ [المسد : 1] فإن قيل : فلم بدأ بالوعد قبل الوعيد ، قلنا : لوجوه أحدها : لأن رحمته سبقت غضبه والثاني : ليكن الجنس متصلاً بالجنس فإنه قال : ﴿ وَلِىَ دِينِ ﴾ وهو النصر كقوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الذين اسودت وُجُوهُهُمْ ﴾ [آل عمران : 106] ، وثالثها : الوفاء بالوعد أهم في الكرم من الوفاء بالانتقام ، فتأمل في هذه المجانسات الحاصلة بين هذه السور مع أن هذه السور مع أن هذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة وتلك السورة من أوائل ما نزل بمكة ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله وبأمره الوجه الخامس : أن في السورة المتقدمة لم يذكر شيئاً من أسماء الله ، بل قال : ما أعبد بلفظ ما ، كأنه قال : لا أذكر اسم الله حتى لا يستخفوا فتزداد عقوبتهم ، وفي هذه السورة ذكر أعظم أساميه لأنها منزلة على الأحباب ليكون ثوابهم بقراءته أعظم فكأنه سبحانه قال لا تذكر اسمي مع الكافرين حتى لا يهينوه واذكره مع الأولياء حتى يكرموه الوجه السادس : قال النحويون : ﴿ إذاً ﴾ منصوب بسبح ، والتقدير : فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله ، كأنه سبحانه يقول : جعلت الوقت ظرفاً لما تريده

وهو النصر والفتح والظفر وملأت ذلك الظرف من هذه الأشياء ، وبعثه إليك فلا ترده علي فارغاً ، بل املأه من العبودية ليتحقق معنى : "تهادوا تحابوا" فكأن محمداً عليه السلام قال : بأي شيء أملأ ظرف هديتك وأنا فقير ، فيقول الله في المعنى : إن لم تجد شيئاً آخر فلا أقل من تحريك اللسان بالتسبيح والحمد والاستغفار ، فلما فعل محمد عليه الصلاة

والسلام ذلك حصل معنى تهادوا ، لا جرم حصلت المحبة ، فلهذا كان محمد حبيب الله

الوجه السابع : كأنه تعالى يقول : إذا جاءك النصر والفتح ودخول الناس في دينك ، فاشتغل أنت أيضاً بالتسبيح والحمد والاستغفار ، فإني قلت :

﴿ لئن شكرتم لأزدينكم ﴾ [إبراهيم : 7] فيصير اشتغالك بهذه الطاعات سبباً لمزيد درجاتك في الدنيا والآخرة ، ولا تزال تكون في الترقي حتى يصير الوعد بقولي : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ الوجه الثامن : أن الإيمان إنما يتم بأمرين : بالنفي والإثبات وبالبراءة والولاية ، فالنفي والبراءة قوله : ﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ والإثبات والولاية قوله : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ الله ﴾ فهذه هي الوجوه الكلية المتعلقة بهذه السورة .

واعلم أن في الآية أسراراً ، وإنما يمكن بيانها في معرض السؤال والجواب .

السؤال الأول : ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف الفتح على النصر ؟ الجواب : من وجوه أحدها : النصر هو الإعانة على تحصيل المطلوب ، والفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان متعلقاً ، وظاهر أن النصر كالسبب الفتح ، فلهذا بدأ يذكر النصر وعطف الفتح عليه وثانيها : يحتمل أن يقال : النصر كمال الدين ، والفتح الإقبال الدنيوي الذي هو تمام النعمة ، ونظير هذه الآية قوله : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾ [المائدة : 3] وثالثها : النصر هو الظفر في الدنيا على المنى ، والفتح بالجنة ، كما قال : ﴿ وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ [الزمر : 73] وأظهر الأقوال في النصر أنه الغلبة على قريش أو على جميع العرب .

(70/836)

السؤال الثاني : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبداً منصوراً بالدلائل والمعجزات ، فما المعنى من تخصيص لفظ النصر بفتح مكة ؟ والجواب : من وجهين أحدهما : المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع ، إنما جعل فظ النصر المطلق دالاً على هذا النصر المخصوص ، لأن هذا النصر لعظم موقعه من قلوب أهل الدنيا جعل ما قبله كالمعدوم ، كما أن المثاب عند دخول الجنة يتصور كأنه لم يذق نعمة قط ، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله

تعالى : ﴿ وَزُلْزِلُوا حتى يَقُولَ الرسول والذين ءامَنُوا مَعَهُ متى نَصْرُ الله ﴾ [البقرة : 214]

وثانيهما : لعل المراد نصر الله في أمور الدنيا الذي حكم به لأنبيائه كقوله : ﴿ إِنَّ أَجَلَ الله إِذَا جَاء لاَ يُؤَخَّرُ ﴾ [نوح : 4]

السؤال الثالث : النصر لا يكون إلا من الله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا النصر إِلاَّ مِنْ عِندِ الله ﴾ [آل عمران : 126] فما الفائدة في هذا التقييد وهو قوله : ﴿ نَصْرُ الله ﴾ ؟ والجواب معناه نصر لا يليق إلا بالله ولا يليق أن يفعله إلا الله أو لا يليق إلا بحكمته ويقال : هذا صنعة زيد إذا كان زيد مشهوراً بإحكام الصنعة ، والمراد منه تعظيم حال تلك الصنعة ، فكذا ههنا ، أو نصر الله لأنه إجابة لدعائهم : ﴿ متى نَصْرُ الله ﴾ فيقول هذا الذي سألتموه .

السؤال الرابع : وصف النصر بالمجيء مجاز وحقيقته إذا وقع نصر الله فما الفائدة في ترك الحقيقة وذكر المجاز ؟ الجواب فيه إشارات : إحداها : أن الأمور مربوطة بأوقاتها وأنه سبحانه قدر لحدوث كل حادث أسباباً معينة وأوقاتاً مقدرة يستحيل فيها التقدم والتأخر والتغير والتبدل فإذا حضر ذلك الوقت وجاء ذلك الزمان حضر معه ذلك الأثر وإليه الإشارة بقوله :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : 21] ، وثانيها : أن اللفظ دل على أن النصر كان كالمشتاق إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن ذلك النصر كان مستحقاً له بحكم الوعد فالمقتضى كان موجوداً إلا أن تخلف الأثر كان لفقدان الشرط فكان كالثقيل المعلق فإن ثقله يوجب الهوى إلا أن العلاقة مانعة فالثقيل يكون كالمشتاق إلى الهوى ، فكذا ههنا النصر كان كالمشتاق إلى محمد صلى الله عليه وسلم وثالثها : أن عالم العدم عالم لا نهاية له وهو عالم الظلمات إلا أن في قعرها ينبوع الجود والرحمة وهو ينبوع جود الله وإيجاده ، ثم انشعبت بحار الجود والأنوار وأخذت في السيلان ، وسيلانها يقتضي في كل حين وصولها إلى موضع ومكان معين فبحار رحمة الله ونصرته كانت آخذة في السيلان من الأزل فكأنه قيل : يا محمد قرب وصولها إليك ومجيئها إليك فإذا جاءتك أمواج هذا البحر فاشتغل بالتسبيح والتحميد والاستغفار فهذه الثلاثة هي السفينة التي لا يمكن الخلاص من بحار الربوبية إلا بها ، ولهذا السبب لما ركب أبوك نوح بحر القهر والكبرياء استعان بقوله : ﴿ بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود : 41] السؤال الخامس : لا شك أن الذين أعانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة هم الصحابة من المهاجرين والأنصار ، ثم إنه سمى نصرتهم لرسول الله : ﴿ نَصْرُ اللهِ ﴾ فما السبب في أن صار الفعل الصادر عنهم مضافاً إلى الله ؟ الجواب : هذا بحر يتفجر منه بحر سر القضاء والقدر ، وذلك لأن فعلهم فعل الله ، وتقريره أن أفعالهم مسندة إلى ما في قلوبهم

من الدواعي والصوارف ، وتلك الدواعي والصوارف أمور حادثة فلا بد لها من محدث وليس هو العبد ، وإلا لزم التسلسل ، فلا بد وأن يكون الله تعالى ، فيكون المبدأ الأول والمؤثر الأبعد هو الله تعالى ، ويكون المبدأ الأقرب هو العبد .

(72/836)

فمن هذا الاعتبار صارت النصرة المضافة إلى الصحابة بعينها مضافة إلى الله تعالى ، فإن قيل : فعلى هذا التقدير الذي ذكرتم يكون فعل العبد مفرعاً على فعل الله تعالى ، وهذا يخالف النص ، لأنه قال : ﴿ إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد : 7] فجعل نصرنا له مقدماً على نصره لنا والجواب : أنه لا امتناع في أن يصدر عن الحق فعل ، فيصير ذلك سبباً لصدور فعل عنا ، ثم الفعل عنا ينساق إلى فعل آخر يصدر عن الرب ، فإن أسباب الحوادث ومسبباتها متسلسلة على ترتيب عجيب يعجز عن إدراك كيفيته أكثر العقول البشرية .

السؤال السادس : كلمة : ﴿ إِذَا ﴾ للمستقبل ، فههنا لما ذكر وعداً مستقبلاً بالنصر ، قال : ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ ﴾ فذكر ذاته باسم الله ، ولما ذكر النصر الماضي حين قال :

﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ ﴾ [العنكبوت : 10] فذكره بلفظ الرب ، فما السبب في ذلك ؟ الجواب : لأنه تعالى بعد وجود الفعل صار رباً ، وقبله ما كان رباً لكن كان إلهاً .

(73/836)

السؤال السابع : أنه تعالى قال : ﴿ إِن تَنصُرُواْ اللهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [محمد : 7] وإن محمداً عليه السلام نصر الله حين قال : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فكان واجباً بحكم هذا الوعد أن ينصره الله ، فلاجرم قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾ فهل تقول بأن هذا النصر كان واجباً عليه ؟ الجواب : أن ما ليس بواجب قد يصير واجباً بالوعد ، ولهذا قيل : وعد الكريم ألزم من دين الغريم ، كيف ويجب على الوالد نصرة ولده ، وعلى المولى نصرة عبده ، بل يجب النصر على الأجنبي إذا تعين بأن كان واحداً اتفاقاً ، وإن كان مشغولاً بصلاة نفسه ، ثم اجتمعت هذه الأسباب في حقه تعالى فوعده مع الكرم وهو أرأف بعبده من الوالد بولده والمولى بعبده وهو ولي بحسب الملك ومولى بحسب السلطنة ، وقيوم للتدبير وواحد فرد لا ثاني له فوجب عليه وجوب الكرم نصرة عبده ، فلهذا قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾ .

أما قوله تعالى : ﴿ والفتح ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

نقل عن ابن عباس أن الفتح هو فتح مكة وهو الفتح الذي يقال له : فتح الفتوح .

(74/836)

روي أنه لما كان صلح الحديبية وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أغار بعض من كان في عهد قريش على خزاعة وكانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء سفير ذلك القوم وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم ذلك عليه ، ثم قال : " أما إن هذا العارض ليخبرني أن الظفر يجيء من الله ، ثم قال لأصحابه : أنظروا فإن أبا سفيان يجيء ويلتمس أن يجدد العهد فلم تمض ساعة أن جاء الرجل ملتمساً لذلك فلم يجبه الرسول ولا أكابر الصحابة فالتجأ إلى فاطمة فلم ينفعه ذلك ورجع إلى مكة آيساً وتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسير لمكة ، ثم يروى أن سارة مولاة بعض بني هاشم أتت المدينة فقال عليه السلام لها : جئت مسلمة ؟ قالت : لا لكن كنتم الموالي وبي حاجة ، فحث عليها رسول الله بني عبد المطلب فكسوها وحملوها وزودوها فأتاها حاطب بعشرة دنانير واستحملها كتاباً إلى مكة نسخته : اعلموا أن رسول الله يريد كم فخذوا حذركم ، فخرجت سارة ونزل جبريل بالخبر ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم

علياً عليه السلام وعماراً في جماعة وأمرهم أن يأخذوا الكتاب وإلا فاضربوا عنقها ، فلما أدركوها جحدت وحلفت فسل علي عليه السلام سيفه ، وقال : الله ما كذبنا فأخرجته من عقيصة شعرها ، واستحضر النبي حاطباً وقال : ما حملك عليه ؟ فقال : والله ما كفرت منذ أسلمت ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، لكن كنت غريباً في قريش وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم فخشيبت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً ، فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال : وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر ، ثم خرج رسول الله إلى أن نزل بمر الظهران ، وقدم العباس وأبو سفيان إليه فاستأذنا فأذن لعمه خاصة فقال أبو سفيان : إما أن تأذن لي وإلا أذهب بولدي إلى المفازة فيموت جوعاً وعطشاً فرق قلبه ، فأذن له وقال له

: ألم يأن أن تسلم وتوحد ؟ فقال : أظن أنه واحد ، ولو كان ههنا غير الله لنصرنا ، فقال : ألم يأن أن تعرف أني رسوله ؟ فقال : إن لي شكاً في ذلك ، فقال العباس : أسلم قبل أن يقتلك عمر ، فقال : وماذا أصنع بالعزى ، فقال عمر : لولا أنك بين يدي رسول الله لضربت عنقك

، فقال : يا محمد أليس الأولى أن تترك هؤلاء الأوباش وتصالح قومك وعشيرتك ، فسكان مكة عشيرتك وأقارب ، و (لا) تعرضهم للشن والغارة ، فقال عليه السلام : هؤلاء نصروني وأعانوني وذبوا عن حريمي ، وأهل مكة أخرجوني وظلموني ، فإن هم أسروا فبسوء صنيعهم ، وأمر العباس بأن يذهب به ويوقفه على المرصاد ليطالع العسكر ، فكانت الكتيبة تمر عليه ، فيقول من هذا ؟ فيقول العباس هو فلان من أمراء الجند إلى أن جاءت الكتيبة الخضراء التي لا يرى منها إلا الحدق ، فسأل عنهم ، فقال العباس : هذا رسول الله ، فقال : لقد أوتي ابن أخيك ملكاً عظيماً ، فقال العباس : هو النبوة ، فقال هيهات النبوة ، ثم تقدم ودخل مكة ، وقال : إن محمداً جاء بعسكر لا يطيقه أحد ، فصاحت هند وقالت : اقتلوا هذا المبشر ، وأخذت بلحيته فصاح الرجل ودفعها عن نفسه ، ولما سمع أبو سفيان أذان القوم للفجر ، وكانوا عشرة آلاف فزع لذلك فزعاً شديداً وسأل العباس ، فأخبره بأمر الصلاة ، ودخل رسول الله مكة على راحلته ولحيته على قربوس سرجه كالساجد تواضعاً وشكراً ، ثم التمس أبو سفيان الأمان ، فقال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، فقال : ومن تسع داري ، فقال : ومن دخل المسجد فهو آمن فقال : ومن يسع المسجد ؟ فقال : من ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ثم وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب المسجد ، وقال : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم قال : يا أهل مكة ما ترون إني فاعل بكم ،

فقالوا : خير أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء فأعتقهم ، فلذلك سمي أهل مكة

(76/836)

الطلقاء ومن ذلك كان علي عليه السلام يقول لمعاوية : أنى يستوي المولى والمعتق يعني أعتقناكم حين مكننا الله من رقابكم ولم يقل : اذهبوا فأنتم معتقون ، بل قال : الطلقاء ، لأن المعتق يجوز أن يرد إلى الرق ، والمطلقة يجوز أن تعاد إلى رق النكاح وكانوا بعد على الكفر ، فكان يجوز أن يخونوا فيستباح رقهم مرة أخرى ولأن الطلاق يخص النسوان ، وقد ألقوا السلاح وأخذوا المساكن كالنسوان ، ولأن المعتق يخلى سبيله يذهب حيث شاء ، والمطلقة تجلس في البيت للعدة ، وهم أمروا بالجلوس بمكة كالنسوان ، ثم إن القوم بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، فصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً ، روي أنه عليه السلام صلى ثمان ركعات : أربعة صلاة الضحى ، وأربعة أخرى شكراً لله نافلة ، فهذه هي قصة فتح مكة "

، والمشهور عند المفسرين أن المراد من الفتح في هذه السورة هو فتح مكة ، ومما يدل على أن المراد بالفتح فتح مكة أنه تعالى ذكره مقروناً بالنصر .

وقد كان يجد النصر دون الفتح كبدر ، والفتح دون النصر كإجلاء بني النضير ، فإنه فتح البلد لكن لم يأخذ القوم ، أما يوم فتح مكة اجتمع له الأمران النصر والفتح ، وصار الخلق له كالأرقاء حتى أعتقهم القول الثاني : أن المراد فتح خيبر ، وكان ذلك على يد علي عليه السلام ، والقصة مشهورة ، روي أنه أستصحب خالد بن الوليد ، وكان يساميه في الشجاعة ، فلما نصب السلم قال لخالد : أتتقدم ؟ قال : لا ، فلما تقدم علي عليه السلام سأله كم صعدت ؟ فقال : لا أدري لشدة الخوف ، وروي أنه قال : لعلي عليه السلام ألا تصارعني ، فقال : ألست صرعتك ؟ فقال : نعم لكن ذاك قبل إسلامي ، ولعل علياً عليه السلام إنما امتنع عن مصارعته ليقع صيته في الإسلام أنه رجل يمتنع عنه علي ، أو كان علي يقول صرعتك حين كنت كافراً ، أما الآن وأنت مسلم فلا يحسن أن أصرعك القول الثالث : أنه فتح الطائف وقصته طويلة والقول الرابع : المراد النصر على الكفار ، وفتح بلاد الشرك على الإطلاق ، وهو قول أبي مسلم والقول الخامس : أراد بالفتح ما فتح الله عليه من العلوم ، ومنه قوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ [طه : 114] لكن حصول العلم لا بد وأن يكون مسبوقاً بانشراح الصدر وصفاء القلب ، وذلك هو المراد من قوله : ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ

الله ﴾ ويمكن أن يكون المراد بنصر الله إعانته على الطاعة والخيرات ، والفتح هو انتفاع عالم المعقولات والروحانيات .

المسألة الثانية :

(78/836)

إذا حملنا الفتح على فتح مكة ، فللناس في وقت نزول هذه السورة قولان : أحدهما : أن فتح مكة كان سنة ثمان ، ونزلت هذه السورة سنة عشر ، وروي أنه عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً ، ولذلك سميت سورة التوديع والقول الثاني : أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله أن ينصره على أهل مكة ، وأن يفتحها عليه ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذى فَرَضَ عَلَيْكَ القرءان لَرَادُّكَ إلى مَعَادٍ ﴾ [القصص : 85] وقوله : ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ الله والفتح ﴾ يقتضي الاستقبال ، إذ لا يقال فيما وقع : إذا جاء وإذا وقع ، وإذا صح هذا القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات من حيث إنه خبر وجد مخبره بعد حين مطابقاً له ، والإخبار عن الغيب معجز فإن قيل : لم ذكر النصر مضافاً إلى الله تعالى ، وذكر الفتح بالألف واللام ؟ الجواب : الألف واللام للمعهود السابق ، فينصرف إلى فتح مكة .

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(رأيت) يحتمل أن يكون معناه أبصرت ، وأن يكون معناه علمت ، فإن كان معناه أبصرت كان يدخلون في محل النصب على الحال ، والتقدير : ورأيت الناس حال دخولهم في دين الله أفواجاً ، وإن كان معناه علمت كان ﴿ يدخلون في دين الله ﴾ مفعولاً ثانياً لعلمت ، والتقدير : علمت الناس داخلين في دين الله .

المسألة الثانية :

(79/836)

ظاهر لفظ الناس للعموم ، فيقتضي أن يكون كل الناس كانوا قد دخلوا في الوجود مع أن الأمر ما كان كذلك الجواب : من وجهين الأول : أن المقصود من الإنسانية والعقل ، إنما هو الدين والطاعة ، على ما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] فمن أعرض عن الدين الحق وبقي على الكفر ، فكأنه ليس بإنسان ، وهذا المعنى هو المراد من قوله : ﴿ أُوْلَئِكَ كالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف : 179] وقال :

﴿آمنوا كما آمن الناس﴾ [البقرة : 13] وسئل الحسن بن علي عليه السلام من الناس ؟ فقال : نحن الناس ، وأشياعنا أشباه الناس ، وأعداؤنا النسناس ، فقبله علي عليه السلام بين عينيه ، وقال : الله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإن قيل : إنهم إنما دخلوا في الإسلام بعد مدة طويلة وتقصير كثير ، فكيف استحقوا هذا المدح العظيم ؟ قلنا : هذا فيه إشارة إلى سعة رحمة الله ، فإن العبد بعد أن أتى بالكفر والمعصية طول عمره ، فإذا أتى بالإيمان في آخر عمره يقبل إيمانه ، ويمدحه هذا المدح العظيم ، ويروى أن الملائكة يقولون لمثل هذا الإنسان : أتيت وإن كنت قد أبيت .

ويروى أنه عليه السلام قال : " لله أفرح بتوبة أحدكم من الضال الواجد ، والظمآن الوارد " والمعنى كان الرب تعالى يقول : ربيته سبعين سنة ، فإن مات على كفره فلا بد وأن أبعثه إلى النار ، فحينئذ يضيع إحساني إليه في سبعين سنة ، فكلما كانت مدة الكفر والعصيان أكثر كانت التوبة عنها أشد قبولاً الوجه الثاني : في الجواب ، روى أن المراد بالناس أهل اليمن ، قال أبو هريرة : لما نزلت هذه السورة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية ، وقال : أجد نفس ربكم من قبل اليمن " .

المسألة الثالثة :

قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمون : إن إيمان المقلد صحيح ، واحتجوا بهذه الآية ، قالوا : إنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج وجعله من أعظم المنن على محمد عليه السلام ، ولو لم يكن إيمانهم صحيحاً لما ذكره في هذا المعرض ، ثم إنا نعلم قطعاً أنهم ما كانوا عالمين حدوث الأجساد بالدليل ولا إثبات كونه تعالى منزهاً عن الجسمية والمكان والحيز ولا إثبات كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات التي لا نهاية لها ولا إثبات قيام المعجز التام على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا إثبات أن قيام المعجز كيف يدل على الصدق والعلم بأن أولئك الأعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضروري ، فعلمنا أن إيمان المقلد صحيح ، ولا يقال : إنهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه المسائل لأن أصول هذه الدلائل ظاهرة ، بل إنما كانوا جاهلين بالتفاصيل إلا أنه ليس من شرط كون الإنسان مستدلاً كونه عالماً بهذه التفاصيل ، لأنا نقول : إن الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان ، فإن الدليل إذا كان مثلاً مركباً من عشر مقدمات ، فمن علم تسعة منها ، وكان في المقدمة العاشرة مقلداً كان في النتيجة مقلداً لا محالة لأن فرع التقليد أولى أن يكون تقليداً وإن كان عالماً بمجموع تلك المقدمات العشرة استحال كون غيره أعرف منه بذلك الدليل ، لأن تلك الزيادة إن كانت جزأً معتبراً في دلالة هذا الدليل لم تكن المقدمات العشرة الأولى تمام الدليل ، فإنه لا بد معها من هذه المقدمة الزائدة ، وقد كنا فرضنا تلك العشرة كافية ، وإن لم تكن الزيادة معتبرة في دلالة ذلك

الدليل كان ذلك أمراً منفصلاً عن ذلك الدليل غير معتبر في كونه دليلاً على ذلك المدلول ، فثبت أن العلم بكون الدليل دليلاً لا يقبل الزيادة والنقصان ، فأما أن يقال : إن أولئك الأعراب كانوا عالمين بجميع مقدمات دلائل هذه المسائل بحيث ما شذ عنهم من تلك المقدمات واحدة ، وذلك مكابرة أو ما كانوا كذلك .

(81/836)

فحينئذ ثبت أنهم كانوا مقلدين ، ومما يؤكد ما ذكرنا ما روى عن الحسن أنه قال : لما فتح رسول الله مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا : إذا ظفر بأهل الحرم وجب أن يكون على الحق ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، وكل من أرادهم بسوء ثم أخذوا يدخلون في الإسلام أفواجاً من غير قتال ، هذا ما رواه الحسن ، ومعلوم أن الاستدلال بأنه لما ظفر بأهل مكة وجب أن يكون على الحق ليس بجيد ، فعلمنا أنهم ما كانوا مستدلين بل مقلدين .

المسألة الرابعة :

دين الله هو الإسلام لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإسلام ﴾ [آل عمران : 19]

ولقوله : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإسلام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : 85] وللدين أسماء

أخرى ، منها الإيمان قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ المؤمنين فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ المسلمين ﴾ [الذاريات : 35 ، 36] ومنها الصراط قال تعالى : ﴿ صراط الله الذى لَهُ مَا فِى السموات وَمَا فِي الارض ﴾ [الشورى : 53] ومنها كلمة الله ، ومنها النور : ﴿ لِيُطْفِئُواْ نُورَ الله ﴾ [الصف : 8] ومنها الهدي لقوله : ﴿ يَهْدِى بِهِ مَن يَشَاء ﴾ [الأنعام : 88] ومنها العروة : ﴿ فَقَدِ استمسك بالعروة الوثقى ﴾ [لقمان : 22] ومنها الحبل : ﴿ واعتصموا بِحَبْلِ الله ﴾ [آل عمران : 103] ومنها صبغة الله ، وفطرة الله ، وإنما قال : ﴿ فِى دِينِ الله ﴾ ولم يقل : في دين الرب ، ولا سائر الأسماء لوجهين الأول : أن هذا الاسم أعظم الأسماء لدلالته على الذات والصفات ، فكأنه يقول : هذا الدين إن لم يكن له خصلة سوى أنه دين الله فإنه يكون واجب القبول والثاني : لو قال : دين الرب لكان يشعر ذلك بأن هذا الدين إنما يجب عليك قبوله لأنه رباك ، وأحسن إليك وحينئذ تكن طاعتك له معللة بطلب النفع ، فلا يكون الإخلاص حاصلاً ، فكأنه يقول أخلص الخدمة بمجرد أني إله لا لنفع يعود إليك .

(82/836)

المسألة الخامسة :

الفوج : الجماعة الكثيرة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً وإثنين اثنين ، وعن جابر بن عبد الله أنه بكى ذات يوم فقيل له : ما يبكيك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " دخل الناس في دين الله أفواجاً ، وسيخرجون منه أفواجاً " نعوذ بالله من السلب بعد العطاء .

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)

قوله تعالى : فيه مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى أمره بالتسبيح ثم بالحمد ثم بالاستغفار ، ولهذا الترتيب فوائد :

(83/836)

الفائدة الأولى : اعلم أن تأخير النصر سنين مع أن محمداً كان على الحق مما يثقل على القلب ويقع في القلب أني إذا كنت على الحق فلم لا تنصرني ولم سلطت هؤلاء الكفرة علي فلأجل الاعتذار عن هذا الخاطر أمر بالتسبيح ، أما على قولنا : فالمراد من هذا التنزيه أنك منزه عن أن يستحق أحد عليك شيئاً بل كل ما تفعله فإنما تفعله بحكم المشيئة الإلهية فلك أن

تفعل ما تشاء كما تشاء ففائدة التسبيح تنزيه الله عن أن يستحق عليه أحد شيئاً ، وأما على قول المعتزلة : ما فائدة التنزيه هو أن يعلم العبد أن ذلك التأخير كان بسبب الحكمة والمصلحة لا بسبب البخل وترجيح الباطل على الحق ، ثم إذا فرغ العبد عن تنزيه الله عما لا ينبغي فحينئذ يشتغل بحمده على ما أعطى من الإحسان والبر ، ثم حينئذ يشتغل بالاستغفار لذنوب نفسه الوجه الثاني : أن للسائرين طريقين فمنهم من قال : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده ، ومنهم من قال : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله ، ولا شك أن هذا الطريق أكمل ، أما بحسب المعالم الحكمية ، فلأن النزول من المؤثر إلى الأثر أجل مرتبة من الصعود من الأثر إلى المؤثر ، وأما بحسب أفكار أرباب الرياضات فلأن ينبوع النور هو واجب الوجود وينبوع الظلمة ممكن الوجود ، فالاستغراق في الأول يكون أشرف لا محالة ، ولأن الاستدلال بالأصل على التبع يكون أقوى من الاستدلال بالتبع على الأصل ، وإذا ثبت هذا فنقول : الآية دالة على هذه الطريقة التي هي أشرف الطريقين وذلك لأنه قدم الاشتغال بالخالق على الاشتغال بالنفس فذكر أولاً من الخالق أمرين أحدهما : التسبيح والثاني : التحميد ، ثم ذكروا في المرتبة الثالثة الاستغفار وهو حالة ممزوجة من الالتفات إلى الخالق وإلى الخلق .

واعلم أن صفات الحق محصورة في السلب والإيجاب والنفي والإثبات ، والسلوب مقدمة على الإيجابات فالتسبيح إشارة إلى التعرض للصفات السلبية التي لواجب الوجود وهي صفات الجلال ، والتحميد إشارة إلى الصفات الثبوتية له ، وهي صفات الإكرام ، ولذلك فإن القرآن يدل على تقدم الجلال على الإكرام ، ولما أشار إلى هذين النوعين من الاستغفار بمعرفة واجب الوجود نزل منه إلى الاستغفار لأن الاستغفار فيه رؤية قصور النفس ، وفيه رؤية جود الحق ، وفيه طلب لما هو الأصلح والأكمل للنفس ، ومن المعلوم أن بقدر اشتغال العبد بمطالعة غير الله يبقى محروماً عن مطالعة حضرة جلال الله ، فلهذه الدقيقة أخر ذكر الاستغفار عن التسبيح والتحميد الوجه الثالث : أنه إرشاد للبشر إلى التشبه بالملكية ، وذلك لأن أعلى كل نوع أسفل متصل بأسفل النوع الأعلى ولهذا قيل : آخر مراتب الإنسانية أول مراتب الملكية ثم الملائكة ذكروا في أنفسهم

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : 30] فقوله ههنا : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ إشارة إلى التشبه بالملائكة في قولهم : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ وقوله ههنا :

﴿ واستغفره ﴾ إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ لأنهم فسروا قوله : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أي نجعل أنفسنا مقدسة لأجل رضاك والاستغفار يرجع معناه أيضاً إلى تقديس النفس ، ويحتمل أن يكون المراد أنهم ادعوا لأنفسهم أنهم سبحوا بحمدي ورأوا ذلك من أنفسهم ، وأما أنت فسبح بحمدي واستغفر من أن ترى تلك الطاعة من نفسك بل يجب أن تراها من توفيقي وإحساني ، ويحتمل أن يقال : الملائكة كما قالوا : في حق أنفسهم : ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ قال الله في حقهم : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [غافر : 7] فأنت يا محمد استغفر للذين جاؤوا أفواجاً كالملائكة يستغفرون للذين آمنوا ويقولون : ﴿ رَبَّنَا فاغفر لِلَّذِينَ تَابُواْ واتبعوا سَبِيلَكَ ﴾ [غافر : 7] الوجه الرابع : التسبيح هو التطهير ، فيحتمل أن يكون المراد طهر الكعبة من الأصنام وكسرها ثم قال : ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أن ينبغي أن يكون إقدامك على ذلك التطهير بواسطة الاستغفار بحمد ربك ، وإعانته وتقويته ، ثم إذا فعلت ذلك فلا ينبغي أن ترى نفسك آتياً بالطاعة اللائقة به ، بل يجب أن ترى نفسك في هذه الحالة مقصرة ، فاطلب الاستغفار عن تقصيرك في طاعته والوجه الخامس : كأنه تعالى يقول يا محمد إما أن تكون معصوماً أو لم تكن معصوماً فإن كنت معصوماً فاشتغل بالتسبيح والتحميد ، وإن لم تكن معصوماً فاشتغل بالاستغفار فتكون الآية كالتنبيه على أنه لا فراغ عن التكليف في العبودية كما قال : ﴿ واعبد رَبَّكَ

حتى يَأْتِيَكَ اليقين﴾ [الحجر: 99].

المسألة الثانية:

(86/836)

في المراد من التسبيح وجهان الأول: أنه ذكر الله بالتنزه سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فقال تنزيه الله عن كل سوء وأصله من سبح فإن السابح يسبح في الماء كالطير في الهواء ويضبط نفسه من أن يرسب فيه فيهلك أو يتلوث من مقر الماء ومجراه والتشديد للتبعيد لأنك تسبحه أي تبعده عما لا يجوز عليه، وإنما حسن استعماله في تنزيه الله عما لا يجوز عليه من صفات الذات والفعل نفياً وإثباتاً لأن السمكة كما أنها لا تقبل النجاسة فكذا الحق سبحانه لا يقبل ما لا ينبغي ألبتة فاللفظ يفيد التنزيه في الذات والصفات والأفعال والقول الثاني: أن المراد بالتسبيح الصلاة لأن هذا اللفظ وارد في القرآن بمعنى الصلاة قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الله حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: 17] وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشمس﴾ [طه: 130] والذي يؤكده أن هذه السورة من آخر ما نزل، وكان عليه السلام في آخر مرضه يقول: "الصلاة وما ملكت أيمانكم"

جعل يلجلجها في صدره وما يقبض بها لسانه ، ثم قال بعضهم : عنى به صلاة الشكر صلاها يوم الفتح ثمان ركعات وقال آخرون : هي صلاة الضحى ، وقال آخرون : صلى ثمان ركعات أربعة للشكر وأربعة الضحى وتسمية الصلاة بالتسبيح لما أنها لا تنفك عنه وفيه تنبيه : على أنه يجب تنزيه صلاتك عن أنواع النقائص في الأقوال والأفعال ، واحتج أصحاب القول الأول بالأخبار الكثيرة الواردة في ذلك ، روت عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة يكثر أن يقول : " سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك وأتوب إليك " ، وقالت أيضاً : كان الرسول يقول كثيرا في ركوعه " سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي " وعنها أيضاً كان نبي الله في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال " سبحان الله وبحمده فقلت يا رسول الله إنك تكثر من قولة سبحان الله وبحمده قال : إني أمرت بها " ، وقرأ : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ﴾ وعن ابن مسعود : "لما نزلت هذه السورة كان عليه السلام يكثر أن يقول : " سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الغفور " وروى أنه قال : " إني لأستغفر الله كل يوم مائة مرة " .

المسألة الثالية : الآية تدل على فضل التسبيح والتحميد حيث جعل كافياً في أداء ما

وجب عليه من شكر نعمة النصر والفتح ، ولم لا يكون كذلك وقوله : " الصوم لي " من أعظم الفضائل للصوم فإنه أضافه إلى ذاته ، ثم إنه جعل صدف الصلاة مساوياً للصوم في هذا التشريف : ﴿ وَأَنَّ المساجد لِلَّهِ ﴾ [الجن : 18] فهذا يدل على أن الصلاة أفضل من الصوم بكثير ، ثم إن الصلاة صدف للأذكار ولذلك قال : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : 45] وكيف لا يكون كذلك ، والثناء عليه مما مدحه معلوم عقلاً وشرعاً أما كيفية الصلاة فلا سبيل إليها إلا بالشرع ولذلك جعلت الصلاة كالمرصعة من التسبيح والتكبير .

فإن قيل : عدم وجوب التسبيحات يقتضي أنها أقل درجة من سائر أعمال الصلاة .

(88/836)

قلنا الجواب عنه من وجوه : أحدها : أن سائر أفعال الصلاة مما لا يميل القلب إليه فاحتيج فيها إلى الإيجاب أما التسبيح والتهليل فالعقل داع إليه والروح عاشق عليه فاكتفى بالحب الطبيعي ولذلك قال : ﴿ والذين ءامَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً ﴾ [البقرة : 165] ، وثانيها : أن قوله : ﴿ فَسَبّحْ ﴾ أمر والأمر المطلق للوجوب عند الفقهاء ، ومن قال : الأمر المطلق للندب قال : إنه ههنا للوجوب بقرينة أنه عطف عليه الاستغفار والاستغفار واجب ومن حق

العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه وثالثها : أنها لو وجبت لكان العقاب الحاصل بتركها أعظم إظهاراً لمزيد تعظيمها فترك الإيجاب خوفاً من هذا المحذور .

المسألة الرابعة :

(89/836)

أما الحمد فقد تقدم تفسيره ، وأما تفسير قوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فذكروا فيه وجوهاً : أحدها : قال صاحب " الكشاف " أي قل : سبحان الله والحمد لله متعجباً مما أراك من عجيب أنعامه أي اجمع بينهما تقول : شربت الماء باللبن إذا جمعت بينهما خلطاً وشرباً وثانيها : أنك إذا حمدت الله فقد سبحته لأن التسبيح داخل في الحمد لأن الثناء عليه والشكر له لا بد وأن يتضمن تنزيهه عن النقائص لأنه لا يكون مستحقاً للثناء إلا إذا كان منزهاً عن النقص ولذلك جعل مفتاح القرآن بالحمد لله وعند فتح مكة قال : الحمد لله الذي نصر عبده ، ولم يفتتح كلامه بالتسبيح فقوله : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ معناه سبحه بواسطة أن تحمده أي سبحه بهذا الطريق وثالثها : أن يكون حالاً ، ومعناه سبح حامداً كقولك : اخرج بسلاحك أي متسلحاً ورابعها : يجوز أن يكون معناه سبح مقدراً أن تحمد بعد التسبيح كأنه يقول : لا يتأتى لك الجمع لفظاً فاجمعهما نية كما أنك يوم النحر تنوي الصلاة

مقدراً أن تنحر بعدها ، فيجتمع لك الثوابان في تلك الساعة كذا ههنا وخامسها : أن تكون هذه الباء هي التي في قولك : فعلت هذا بفضل الله ، أي سبحه بحمد الله وإرشاده وإنعامه ، لا بحمد غيره ، ونظيره في حديث الإفك قول عائشة : "بحمد الله لا بحمدك" والمعنى : فسبحه بحمده ، فإنه الذي هداك دون غيره ، ولذلك روي أنه عليه السلام كان يقول :

(90/836)

"الحمد لله على الحمد لله" وسادسها : روى السدي بحمد ربك ، أي بأمر ربك وسابعها : أن تكون الباء صلة زائدة ، ويكون التقدير : سبح حمد ربك ، ثم فيه احتمالات أحدها : اختر له أطهر المحامد وأزكاها والثاني : طهر محامد ربك عن الرياء والسمعة ، والتوسل بذكرها إلى الأغراض الدنيوية الفاسدة والثالث : طهر محامد ربك عن أن تقول : جئت بها كما يليق به وإليه الإشارة بقوله : ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام : 91] وثامنها : أي ائت بالتسبيح بدلاً عن الحمد الواجب عليك ، وذلك لأن الحمد إنما يجب في مقابلة النعم ، ونعم الله علينا غير متناهية ، فحمدها لا يكون في وسع البشر ، ولذلك قال : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : 34] فكأنه تعالى يقول : أنت عاجز

عن الحمد ، فأت بالتسبيح والتنزيه بدلاً عن الحمد وتاسعها : فيه إشارة إلى أن التسبيح والحمد أمران لا يجوز تأخير أحدهما عن الثاني ، ولا يتصور أيضاً أن يؤتى بهما معاً ، فنظيره من ثبت له حق الشفعة وحق الرد بالعيب ، وجب أن يقول : اخترت الشفعة بردي ذلك المبيع ، كذا قال : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ليقعا معاً ، فيصير حامداً مسبحاً في وقت واحد معاً وعاشرها : أن يكون المراد سبح قلبك ، أي طهر قلبك بواسطة مطالعة حمد ربك ، فإنك إذا رأيت أن الكل من الله ، فقد طهرت قلبك عن الالتفات إلى نفسك وجهدك ، فقوله : ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ إشارة إلى نفي ما سوى الله تعالى ، وقوله : ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ إشارة إلى رؤية كل الأشياء من الله تعالى .

(91/836)

المسألة الخامسة : في قوله : ﴿ واستغفره ﴾ وجوه أحدها : لعله عليه السلام كان يتمنى أن ينتقم ممن آذاه ، ويسأل الله أن ينصره ، فلما سمع : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾ استبشر ، لكن لو قرن بهذه البشارة شرط أن لا ينتقم لتنغصت عليه تلك البشارة ، فذكر لفظ الناس وأنهم يدخلون في دين الله وأمره بأن يستغفر للداخلين لكن من المعلوم أن الاستغفار لمن لا ذنب له لا يحسن فعلم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الطريق أنه تعالى ندبه إلى العفو وترك

الانتقام ، لأنه لما أمره بأن يطلب لهم المغفرة فكيف يحسن منه أن يشتغل بالانتقام منهم ؟ ثم ختم بلفظ التواب كأنه يقول : إن قبول التوبة حرفته فكل من طلب منه التوبة أعطاه كما أن البياع حرفته بيع الأمتعة التي عنده فكل من طلب منه شيئاً من تلك الأمتعة باعه منه ، سواء كان المشتري عدواً أو ولياً ، فكذا الرب سبحانه يقبل التوبة سواء كان التائب مكياً أو مدنياً ، ثم إنه عليه السلام امتثل أمر الرب تعالى فحين قالوا له : أخ كريم وابن أخ كريم قال لهم : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ [يوسف : 92] أي أمرني أن استغفر لكم فلا يجوز أن يردني وثالثها : أن قوله : ﴿ واستغفره ﴾ إما أن يكون المراد واستغفر الله لنفسك أو لأمتك ، فإن كان المراد هو الأول فهو يتفرع على أنه هل صدرت عنه معصية أم لا فمن قال : صدرت المعصية عنه ذكر في فائدة الاستغفار وجوهاً : أحدها : أنه لا يمتنع أن تكون كثرة الاستغفار منه تؤثر في جعل ذنبه صغيرة وثانيها : لزمه الإستغفار لينجو عن ذنب الإصرار ، وثالثها : لزمه الاستغفار ليصير الاستغفار جابراً للذنب الصغير فلا ينتقض من ثوابه شيء أصلاً ، وأما من قال : ما صدرت المعصية عنه فذكر في هذا الاستغفار وجوهاً : أحدها : أن استغفار النبي جار مجرى التسبيح وذلك لأنه وصف الله بأنه غفار وثانيها : تعبده الله بذلك ليقتدي به غيره إذ لا يأمن كل مكلف عن تقصير يقع منه في

عبادته ، وفيه تنبيه على أنه مع شدة اجتهاده وعصمته ما كان يستغني عن الاستغفار فكيف من دونه وثالثها : أن الاستغفار كان عن ترك الأفضل ورابعها : أن الاستغفار كان بسبب أن كل طاعة أتى بها العبد فإذا قابلها بإحسان الرب وجدها قاصرة عن الوفاء بأداء شكر تلك النعمة ، فليستغفر الله لأجل ذلك وخامسها : الاستغفار بسبب التقصير الواقع في السلوك لأن السائر إلى الله إذا وصل إلى مقام في العبودية ، ثم تجاوز عنه فبعد تجاوزه عنه يرى ذلك المقام قاصراً فيستغفر الله عنه ، ولما كانت مراتب السير إلى الله غير متناهية لا جرم كانت مراتب هذا الاستغفار غير متناهية ، أما الاحتمال الثاني : وهو أن يكون المراد واستغفره لذنب أمتك فهو أيضاً ظاهر ، لأنه تعالى أمره بالاستغفار لذنب أمته في قوله :

﴿ واستغفر لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمنات ﴾ [محمد : 19] فههنا لما كثرت الأمة صار ذلك الاستغفار أوجب وأهم ، وهكذا إذا قلنا : المراد ههنا أن يستغفر لنفسه ولأمته .

المسألة السادسة :

في الآية إشكال ، وهو أن التوبة مقدمة على جميع الطاعات ، ثم الحمد مقدم على التسبيح ، لأن الحمد يكون بسبب الإنعام ، والإنعام كما يصدر عن المنزه فقد يصدر عن غيره ، فكان ينبغي أن يقع الابتداء بالاستغفار ، ثم بعده يذكر الحمد ، ثم بعده يذكر التسبيح ، فما السبب في أن صار مذكوراً على العكس من هذا الترتيب ؟ وجوابه : من وجوه أولها : لعله ابتدأ بالأشرف ، فالأشرف نازلاً إلى الأخس فالأخس ، تنبيهاً على أن النزول من الخالق إلى الخلق أشرف من الصعود من الخلق إلى الخالق وثانيها : فيه تنبيه على أن التسبيح والحمد الصادر عن العبد إذا صار مقابلاً بجلال الله وعزته صار عين الذنب ، فوجب الاستغفار منه وثالثها : للتسبيح والحمد إشارة إلى التعظيم لأمر الله ، والاستغفار إشارة إلى الشفقة على خلق (الله) ، والأول كالصلاة ، والثاني كالزكاة ، وكما أن الصلاة مقدمة على الزكاة ، فكذا ههنا .

المسألة السابعة :

الآية تدل على أنه عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه الإعلان بالتسبيح والاستغفار ، وذلك من وجوه أحدها : أنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بإبلاغ السورة إلى كل الأمة حتى يبقى نقل القرآن متواتراً ، وحتى نعلم أنه أحسن القيام بتبليغ الوحي ، فوجب عليه الإتيان بالتسبيح والاستغفار على وجه الإظهار ليحصل هذا الغرض وثانيها : أنه من جملة المقاصد أن يصير الرسول قدوة للأمة حتى يفعلوا عند النعمة والمحنة ، ما فعله الرسول من

تجديد الشكر والحمد عند تجديد النعمة وثالثها : أن الأغلب في الشاهد أن يأتي بالحمد في ابتداء الأمر ، فأمر الله رسوله بالحمد والاستغفار دائماً ، وفي كل حين وأوان ليقع الفرق بينه وبين غيره ، ثم قال : واستغفره حين نعيت نفسه إليه لتفعل الأمة عند اقتراب آجالهم مثل ذلك .

المسألة الثامنة :

(94/836)

في الآية سؤالات أحدها : وهو أنه قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوابًا ﴾ على الماضي وحاجتنا إلى قبوله في المستقبل وثانيها : هلا قال : غفاراً كما قاله : في سورة نوح وثالثها : أنه قال : ﴿ نَصْرُ اللهِ ﴾ وقال : ﴿ فِى دِينِ اللهِ ﴾ فلم لم يقل : بحمد الله بل قال : ﴿ بِحَمْدِ رَبّكَ ﴾

والجواب : عن الأول من وجوه أحدها : أن هذا أبلغ كأنه يقول : ألست أثنيت عليكم بأنكم : خير أمة أخرجت للناس ثم من كان دونكم كنت أقبل توبتهم كاليهود فإنهم بعد ظهور المعجزات العظيمة ، وفلق البحر ونتق الجبل ، ونزول المن والسلوى عصوا ربهم .

وأتوا بالقبائح ، فلما تابوا قبلت توبتهم فإذا كنت قابلاً للتوبة ممن دونكم أفلا أقبلها منكم

وثانيها : منذ كثير كنت شرعت في قبول توبة العصاة والشروع ملزم على قبول النعمان

فكيف في كرم الرحمن وثالثها : كنت تواباً قبل أن آمركم بالاستغفار أفلا أقبل وقد أمرتكم بالاستغفار ورابعها : كأنه إشارة إلى تخفيف جنايتهم أي لستم بأول من جنى وتاب بل هو حرفتي ، والجناية مصيبة للجاني والمصيبة إذا عمدت خفت وخامسها : كأنه نظير ما يقال :

لقد أحسن الله فيما مضى . . كذلك يحسن فيما بقي

(95/836)

والجواب : عن السؤال الثاني من وجوه أحدها : لعله خص هذه الأمة بزيادة شرف لأنه لا يقال في صفات العبد غفار ، ويقال : تواب إذا كان آتياً بالتوبة ، فيقول تعالى : كنت لي سمياً من أول الأمر أنت مؤمن ، وأنا مؤمن ، وإن كان المعنى مختلفاً فتب حتى تصير سمياً لي آخر الأمر ، فأنت تواب ، وأنا تواب ، ثم إن التواب في حق الله ، هو أنه تعالى يقبل التوبة كثيراً فنبه على أنه يجب على العبد أن يكون إتيانه كثيراً وثانيها : إنما قيل : تواباً لأن القائل قد يقول : أستغفر الله وليس بتائب ، ومنه قوله : " المستغفر بلسانه المصر بقلبه كالمستهزىء بربه " إن قيل : فقد يقول : أتوب ، وليس بتائب ، قلنا : فإذاً يكون كاذباً ، لأن التوبة اسم للرجوع والندم ، بخلاف الاستغفار فإنه لا يكون كاذباً فيه ، فصار تقدير الكلام ، واستغفره بالتوبة

، وفيه تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار ، وكذا خواتيم الأعمال ، وروي أنه لم يجلس مجلساً إلا ختمه بالاستغفار والجواب : عن السؤال الثالث أنه تعالى راعى العدل فذكر اسم الذات مرتين وذكر اسم الفعل مرتين أحدهما : الرب والثاني : التواب ، ولما كانت التربية تحصل أولاً والتوابية آخراً ، لا جرم ذكر اسم الرب أولاً واسم التواب آخراً .

المسألة التاسعة :

(96/836)

الصحابة اتفقوا على أن هذه السورة دلت على أنه نعي لرسول الله صلى الله عليه وسلم روي أن العباس عرف ذلك وبكى فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك فقال : نعيت إليك نفسك فقال : الأمر كما تقول ، وقيل : إن ابن عباس هو الذي قال ذلك فقال عليه الصلاة والسلام : " لقد أوتي هذا الغلام علماً كثيراً " روي أن عمر كان يعظم ابن عباس ويقربه ويأذن له مع أهل بدر ، فقال عبد الرحمن : أتأذن لهذا الفتى معنا ، وفي أبنائنا من هو مثله ؟ فقال : لأنه ممن قد علمتم قال ابن عباس : فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم فسألهم عن قول الله : ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ ﴾ وكأنه ما سألهم إلا من أجلي فقال بعضهم :

أمر الله نبيه إذا فتح أن يستغفره ويتوب إليه ، فقلت : ليس كذلك ولكن نعيت إليه نفسه فقال عمر : ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم ، ثم قال : كيف تلومونني عليه بعد ما ترون ، وروي أنه لما نزلت هذه السورة خطب وقال :

"إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين لقائه والآخرة فاختار لقاء الله" فقال السائل : وكيف دلت هذه السورة على هذا المعنى ؟ الجواب : من وجوه أحدها : قال بعضهم : إنما عرفوا ذلك لما روينا أن الرسول خطب عقيب السورة وذكر التخيير وثانيها : أنه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجاً دل ذلك على حصول الكمال والتمام ، وذلك يعقبه الزوال كما قيل :

إذا تم شيء دنا نقصه . . توقع زوالاً إذا قيل تم

(97/836)

وثالثها : أنه أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقاً واشتغاله به يمنعه عن الاشتغال بأمر الأمة فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تم وكمل ، وذلك يوجب الموت لأنه لو بقي بعد ذلك لكان كالمعزول عن الرسالة وأنه غير جائز ورابعها : قوله : ﴿واستغفره﴾ تنبيه على قرب الأجل كأنه يقول قرب الوقت ودنا الرحيل فتأهب للأمر ، ونبهه به على أن سبيل

العاقل إذا قرب أجله أن يستكثر من التوبة وخامسها : كأنه قيل له : كان منتهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجدته ، وهو النصر والفتح والاستيلاء ، والله تعالى وعدك بقوله : ﴿ والأخرة خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ﴾ [الضحى : 4] فلما وجدت أقصى مرادك في الدنيا فانتقل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادات العالية .

المسألة العاشرة :

ذكرنا أن الأصح هو أن السورة نزلت قبل فتح مكة .

وأما الذين قالوا : إنها نزلت بعد فتح مكة ، فذكر الماوردي أنه عليه السلام لم يلبث بعد نزول هذه السورة إلا ستين يوماً مستديماً للتسبيح والاستغفار ، وقال مقاتل : عاش بعدها حولاً ونزل : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : 3] فعاش بعده ثمانين يوماً ثم نزل آية الكلالة ، فعاش بعدها خمسين يوماً ، ثم نزل : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : 128] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً ثم نزل : ﴿ واتقوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ﴾ [البقرة : 281] فعاش بعدها أحد عشر يوماً وفي رواية أخرى عاش بعدها سبعة أيام ، والله أعلم كيف كان ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 138 . 151 ﴾

(98/836)

وقال السمرقندي

قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾

وروى عبد الملك بن سليمان قال : سمعت سعيد بن جبير يقول كان أناس من المهاجرين قد وجدوا عمر وفي إدنائه ابن عباس رضي الله عنهما دونهم وكان يسأله فقال عمر : أما إني سأريكم منه اليوم ما تعرفون به فضله فسأله عن هذه السورة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ قال بعضهم : أمر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم إذا رأى الناس يدخلون في دين الله أفواجاً أن يحمده ويستغفره فقال لابن عباس تكلم ، فقال أعلمه الله متى يموت فقال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ فهي آيتك من الموت ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، قال مقاتل لما نزلت هذه السورة قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فاستبشروا فسمع بذلك ابن عباس فبكى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك فقال نعيت نفسك فقال : " صَدَقْتَ " فعاش بعد هذه السورة سنتين .

وروى أبو عبيد بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكثر أن يقول : " سُبْحَانَكَ رَبِّي وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي " وقال علي رضي الله عنه لما نزلت هذه السورة مرض النبي صلى الله عليه وسلم فخرج إلى الناس فخطبهم وودعهم ثم دخل المنزل وتوفي بعد أيام .

(99/836)

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ يعني إذا أتاك نصر من الله تعالى على الأعداء من قريش وغيرهم ، ﴿ والفتح ﴾ يعني : فتح مكة والطائف وغيرها ﴿ وَرَأَيتَ الناس يَدْخُلُونَ فِى دِينِ الله أفواجا ﴾ يعني : جماعة جماعة وقبيلة قبيلة ، وكان قبل ذلك يدخلون واحداً واحداً فدخلوا فوجاً فوجاً فإذا رأيت ذلك فاعلم أنك ميت فاستعد للموت بكثرة التسبيح والاستغفار فذلك قوله : ﴿ فَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ ﴾ يعني : سبحه ، ويقال : يعني : سبح صل لربك ﴿ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوابَا ﴾ يعني : مسبحاً وذلك لمن تاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 605 ﴾

(100/836)

وقال الثعلبى :

سورة النصر

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾

على من عاداك وناوءك ﴿ والفتح ﴾ قال يمان : فتح المدائن والقصور ، وقال عامة المفسرين : فتح مكة ، وكانت قصته على ما ذكره محمد بن إسحاق بن بشار والعلماء من أصحاب الأخبار : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صالح قريش عام الحديبية كان فيما أشترطوا أنه من أحب أن يدخل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش ودخلت خزاعة في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بينهما شرّ قديم ، وكان السبب الذي هاج ما بين بكر وخزاعة أن رجلا من بلحضرمي يقال له مالك بن عماد خرج تاجراً ، فلما توسّط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه ، فعدت خزاعة قبيل الإسلام على بني الأسود بن رزين الديلي وهم من أشراف بكر فقتلوه بعرفة عند أنصاب الحرم ، فبينا بكر وخزاعة على ذلك من الشر حجز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به ، فلما كان صلح الحديبيّة ووقعت تلك الهدنة أغتنمها بنو الديل من بني بكر من خزاعة وأرادوا أن يصيبوا منهم بأولئك النفر الذين أصابوا منهم بني الأسود بن رزين ، فخرج نوفل بن معونة الديلي في بني الديل ، وهو يومئذ قائدهم حتى بيّت خزاعة وهم على الوتير ماء لهم بأسفل مكة ، فأصابوا منهم رجلا وتحاوروا واقتتلوا ، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً حتى جاوزوا خزاعة الى الحرم ، وكان ممن أعان

من قريش بني بكر على خزاعة ليلتين بأنفسهم مشتكرين صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ومع عبيدهم قالوا : فلما أنتهوا الى الحرم قالت بنو بكر : يا نوفل إنا دخلنا الحرم ، إلهك الهك ، فقال كلمة عظيمة : أنه لا إله اليوم [يا بني بكر] أصيبوا ثأركم فيه فلعمري إنكم لتسرقون في الحرم أفلا تصيبون ثأركم فيه .

(101/836)

فلما دخلت خزاعة مكة لجأوا الى دار بديل بن ورقاء الخزاعي ودار مولى لهم يقال له رافع ، فلما تظاهرت قريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد لما أستحلّوا من خزاعة ، وكانوا في عقدة ، " خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان ذلك مما هاج فتح مكة فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين ظهراني الناس فقال لهم : إني بايعت محمداً وذكر الأبيات كما ذكرها في سورة التوبة الى قوله :

*هم بيتونا بالوتير هجّدا * فقتلونا ركعاً وسجدا*

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قد نصرت يا عمرو بن سالم " ، ثم عرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم عنان من السماء فقال : " إن هذه السحابة لتستهلّ بنصر بني

كعب " [وأمر رسول الله الناس بالجهاز وكتمهم مخرجه] " .

وقد قال حسن : بلغه إسلام أم هاني بنت أبي طالب وأسمها هند :

أشاقتك هند أم ناك سؤالها . . . كذاك النوى أسبابها وأنفتالها

القصيدة .

قال ابن إسحاق ، وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف من بني غفار أربعمائة ومن أسلم أربعمائة ومن مزينة ألف ومن بني سلم سبعمائة ومن جهينة ألف وأربعمائة رجل وسائرهم من قريش والأنصار وحلفائهم وطوائف العرب من تميم وقيس واسد .

قالوا : وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد فتحها خمس عشر ليلة يقصر الصلاة ، ثم خرج الى هوازن وثقيف وقد نزلوا حنين .

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾ زمراً وأرسالا القبيلة بأسرّها ، والقوم بأجمعهم من غير قتال .

قال الحسن : لمّا فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قالت العرب بعضها لبعض : أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم وقد كان الله سبحانه أجارهم من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان ، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً ، وقال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن ، قال ابن عباس وأبو هريرة : " لما نزلت هذه السورة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر جاء نصر الله والفتح "

وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم لينة طاعتهم الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شبنة قال : حدّثنا محمد بن مصفر قال : حدّثنا بقيّة بن الوليد قال : حدّثنا الأوزاعي قال : حدّثنا شدّاد أبو عمار قال : حدّثني جار لجابر قال : غدا جابر ليسلم عليّ فجعل يسألني عن حال الناس فجعلت أخبره نحواً مما رأيت من أختلافهم وفرقتهم فجعلت أخبره وهو يبكي فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون من دين الله أفواجاً " .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ فإنك حينئذ لاحق به وذائق الموت كما ذاق من قبلك من الرسل ، وعند الكمال يرتقب الزوال كما قيل .

إذا تم أمرٌ نقصه . . . توقع زوالا إذا قيل تم

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب كان يأذن لأهل بدر ويأذن لي معهم فقال عبد الرحمن بن عوف : أتأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثله ، فقال : إنه

ممن قد علمتم ، قال ابن عباس : فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم فسألهم عن قول الله سبحانه : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح ﴾ الآية ولا أراه سألهم إلاّ من أجلي ، فقال بعضهم : أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه ، فسألني فقلت : ليس كذلك ولكن أخبر نبي الله صلى الله عليه وسلم بحضور أجله ونعيت إليه نفسه ، فذلك علامة موته .

(103/836)

فقال عمر : ما أعلم منها إلاّ مثل ما تعلم ، ثم قال : كيف تلومونني عليه بعد ما ترون .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن جعفر المطيري قال : حدّثنا ابن فضل قال : حدّثنا عطاء عن سعيد عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم : "نعيت إليّ نفسي" بأنّه مقبوض في تلك السنة ، وقال مقاتل وقتادة : عاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة سنتين .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا محمد بن جعفر قال : حدّثنا علي بن حرب قال : حدّثنا أبو عامر العقدي عن سفيان عن أبي إسحاق عن أبي عبدة عن عبد الله قال : لما نزلت ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَّابَا ﴾ "كان النبي صلى الله عليه وسلم

يكثر أن يقول : " سبحانك اللهم وبحمدك أغفر لي إنك أنت التواب " .

وأخبرنا عبد الله قال : أخبرني مكي قال : حدّثنا عبد الله بن هاشم قال : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مسلم عن مسروق " عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول قبل أن يموت : " سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك " فقلت : يا رسول الله ما هؤلاء الكلمات التي أراك قد أحدثتها بقولها ؟ قال : " جعلتها علامة في أمتي أذا رأيتها قلتها ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح ﴾ " الى آخر السورة " .

وبه عن ابن هاشم قال : حدّثنا عبد الله بن نمير قال : أخبرنا الأعمش عن مسلم وهو ابن صبيح عن مسروق " عن عائشة رضى الله عنها وعن أبيها قالت : لما نزلت ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح ﴾ الى آخرها ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم صلّى صلاة ألا قال : " سبحانك اللهم وبحمدك اللّهم أغفر لي " .

(104/836)

وأخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن حمدان قال : حدثنا إبراهيم بن سهلويه قال : حدثنا علي بن محمد الطنافسي قال : حدّثنا حفص بن غياث عن عاصم الأحول عن الشعبي عن

أم سلمة قالت : "كان النبي صلى الله عليه وسلم بآخره لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال : " سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه " فقلنا : يا رسول الله لا تقوم ولا تقعد ولا تجيء ولا تذهب إلا قلت : سبحان الله أستغفر الله وأتوب إليه قال : " فإني أُمرت بها " ثم قرأ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ حتى ختمها " .

وقال : مقاتل : " لما نزلت هذه الآية قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وفيهم أبو بكر وعمر وسعيد بن أبي العاص ففرحوا واستبشروا ، وسمعها العباس فبكى فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " وما يبكيك يا عم " قال : نعيت إليك نفسك قال : " إنه لكما تقول " فعاش بعدها سنتين ما رُئي فيهما ضاحكاً مستبشراً " ، وهذه السورة تسمّى سورة التوديع .

أخبرنا ابن فنجويه قال : حدّثنا عبد الله بن يوسف قال : حدّثنا محمد بن عمران قال : حدّثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب قال : حدّثنا إسحاق بن عبد الله بن كيسان قال : حدّثني أبي عن عكرمة عن ابن عباس قال : " أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة حنين فنزل عليه ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ السورة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا علي ويا فاطمة بنت محمد قد جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً سبحان ربي وبحمده وأستغفره أنه كان تواباً ويا علي بن أبي طالب إنه يكون من بعدي في المؤمنين الجهاد " ، فقال علي : ما نجاهد المؤمنين الذين يقولون آمنا ؟ قال

: " على الإحداث في الدين إذا عملوا بالرأي ، ولا رأي في الدين إنَّما الدين من الرب أمره ونهيه " .

(105/836)

فقال علي : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت إن عرض لنا أمر لم يبيّن الله فيه قرآناً ولم ينصّ فيه سنّة منك ؟ قال : " تجعلونه شورى بين العابدين ولا تقضون برأي خاصة ولو كنت مستخلفاً أحداً لم يكن أحد أحق منك لقدمك في الإسلام وقرابتك من رسول الله وصهرك وعندك فاطمة سيدة نساء المؤمنين ، وقبل ذلك ما كان من بلاء أبي طالب إياي حين نزل القرآن فأنا حريص على أن أرعى ذلك في ولده " .

وأخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا مكّي قال : حدّثنا أحمد بن منصور المروزي أبو صالح قال : حدّثني أحمد بن المصعب المروزي قال : حدّثنا عمر بن إبراهيم قال : حدّثنا عيسى ابن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال : " لما نزلت ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح ﴾ جاء العباس الى علي رضي الله عنه فقال : أدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كان هذا الأمر من بعده لنا لم تشاحنا عليه قريش ، وإن كان للغير سألته الوصاة بنا ، قال : سأفعل ، قال : فدخل العباس على رسول الله صلى الله عليه وسلم

مسّراً فذكر ذلك له فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " يا عباس يا عم رسول الله إن الله جعل أبا بكر خليفتي على دين الله سبحانه ووحيه فأسمعوا له تفلحوا وأطيعوه تُرشدوا " .

قال ابن عباس : فقعدوا والله فرشدوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشف والبيان حـ 10 صـ 322.318﴾

(106/836)

وقال الزمخشرى :

سورة النصر

نزلت بمنى في حجة الوداع ، فتعد مدنية ، وهي آخر ما نزل من السور وآياتها 3 «نزلت بعد التوبة» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النصر (110) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً (3)

إِذا جاءَ منصوب بسبح ، وهو لما يستقبل . والاعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوّة . روى

أنها نزلت في أيام التشريق بمنى في حجة الوداع. فإن قلت: ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه؟ قلت: النصر الاغاثة والاظهار على العدوّ. ومنه: نصر اللّه الأرض غاثها. والفتح: فتح البلاد. والمعنى: نصر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على العرب. أو على قريش وفتح مكة. وقيل: جنس نصر اللّه للمؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم، وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان، ومع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب، وأقام بها خمس عشرة ليلة، ثم خرج إلى هوازن، وحين دخلها وقف على باب الكعبة، ثم قال: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ثم قال: يا أهل مكة، ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، فأعتقهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «1»، وقد كان اللّه تعالى أمكنه من رقابهم عنوة، وكانوا له فيئا، فلذلك سمى أهل مكة الطلقاء، ثم بايعوه على الإسلام فِي دِينِ اللَّهِ في ملة الإسلام التي لا دين له يضاف إليه غيرها وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ. أَفْواجاً جماعات كثيفة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها

---

(1). أخرجه ابن إسحاق في السيرة. وروى البخاري عن ابن عباس «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم خرج من مكة في رمضان - الحديث، قال: فصبحها لثلاث عشرة خلت من رمضان» وفي الدلائل من طريق ابن إسحاق عن الزهري وغيره قال: فتحت لعشر بقين».

بعد ما كانوا يدخلون فيه واحدا واحدا واثنين اثنين. وعن جابر بن عبد الّله رضى الّله عنه أنه بكى ذات يوم، فقيل له «1». فقال سمعت رسول الّله صلى الّله عليه وسلم يقول: «دخل الناس في دين الّله أفواجا وسيخرجون منه أفواجا «2»» وقيل: أراد بالناس أهل اليمن. قال أبو هريرة:

لما نزلت قال رسول الّله صلى الّله عليه وسلم: «الّله أكبر جاء نصر الّله والفتح، وجاء أهل اليمن: قوم رقيقة قلوبهم، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية» «3»» وقال أجد نفير ربكم من قبل اليمن» «4» وعن الحسن: لما فتح رسول الّله صلى الّله عليه وسلم مكة أقبلت العرب بعضها على بعض، فقالوا: أما إذ ظفر بأهل الحرم فليس به يدان، وقد كان الّله أجارهم من أصحاب الفيل وعن كل من أرادهم، فكانوا يدخلون في الإسلام أفواجا من غير قتال. وقرأ ابن عباس: فتح الّله والنصر: وقرئ: يدخلون، على البناء للمفعول. فإن قلت: ما محل يدخلون؟ قلت: النصب إما على الحال، على أن رأيت بمعنى أبصرت أو عرفت. أو هو مفعول ثان على أنه بمعنى علمت فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ فقل سبحان الّله: حامدا له، أى: فتعجب لتيسير الّله ما لم يخطر ببالك وبال أحد من أن

يغلب أحد على أهل الحرم ، واحمده على صنعه . أو : فاذكره مسبحا حامدا ، زيادة في عبادته والثناء عليه ، لزيادة إنعامه عليك . أو فصل له . روت أمّ هانئ : أنه لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى ثماني ركعات «5» وعن عائشة : كان عليه الصلاة والسلام يكثر قبل موته أن يقول : «سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك» «6» والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين : من الجمع بين الطاعة والاحتراس

---

(1) . قوله «فقيل له» لعله : فقيل له في ذلك . (ع) [. . . . .]

(2) . أخرجه أحمد وإسحاق وابن مردويه والثعلبي من رواية الأوزاعي : حدثني أبو عمار حدثني جار لجابر ابن عبد اللّه قال «قدمت من سفر فجاءني جابر بن عبد اللّه فسلم عليّ فجعلت أحدثه عن افتراق الناس وما أحدثوا .

فجعل يبكى . ثم قال : سمعت - فذكره» وله شاهد عن أبى هريرة في العين من المستدرك .

(3) . أخرجه ابن مردويه من طريق عبد الرازق أخبرنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عنه . وأصله في مسلم دون ما في أوله . وله شاهد في ابن حبان والنسائي من حديث ابن عباس رضى اللّه عنهما .

(4) . أخرجه الطبراني في الأوسط ومسند الشاميين من طريق جرير بن عثمان عن

شبيب بن روح عن أبى هريرة به في حديث أوله «الايمان يمان» ولا بأس بإسناده . وله شاهد من حديث سلمة بن نفيل السكوني في مسند البزار والطبراني الكبير والبيهقي في الأسماء . وفي إسناده إبراهيم بن سليمان الأفطس . قال البزار : إنه غير مشهور .

(5) . لم أجده هكذا : فان ظاهره يوهم أنه صلاها داخل الكعبة وفي الصحيحين من حديث أم هانئ «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم يوم فتح مكة اغتسل في بيتها وصلى ثمان ركعات» ورواه أبو داود بلفظ «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم صلى سبحة الضحى ثماني ركعات يسلم في كل ركعتين» إسناده صحيح ، وأخرجه أحمد وابن أبى شيبة والطبراني وابن حبان وأبو يعلى والبيهقي والحاكم والطبري من طرق كثيرة تزيد على ثلاثين وجها ، لم يذكر أحد منهم هذه الزيادة .

(6) . متفق عليه واللفظ لمسلم .

(108/836)

من المعصية ، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفا لأمته ، ولأنّ الاستغفار من التواضع للّه وهضم النفس ، فهو عبادة في نفسه . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «إنى لأستغفر في اليوم والليلة مائة مرة «1»» وروى أنه لما قرأها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم على

أصحابه استبشروا وبكى العباس ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «ما يبكيك يا عم» ؟ قال :

نعيت إليك نفسك . قال : «إنها لكما تقول» «2» فعاش بعدها سنتين لم ير فيهما ضاحكا مستبشرا .

وقيل : إن ابن عباس هو الذي قال ذلك ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، «لقد أوتى هذا الغلام علما كثيرا» «3» وروى أنها لما نزلت خطب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : «إن عبدا خيره اللّه بين الدنيا وبين لقائه ، فاختار لقاء اللّه» فعلم أبو بكر رضى اللّه عنه ، فقال :

فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا «4» . وعن ابن عباس أن عمر رضى اللّه عنهما كان يدنيه ويأذن له مع أهل بدر ، فقال عبد الرحمن : أتأذن لهذا الفتى معنا وفي أبنائنا من هو مثله ؟

«فقال إنه ممن قد علمتم «5»» قال ابن عباس : فأذن لهم ذات يوم ، وأذن لي معهم ، فسألهم عن قول اللّه تعالى إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ ولا أراه سألهم إلا من أجلى ، فقال بعضهم : أمر اللّه نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه ، فقلت : ليس كذلك ، ولكن نعيت إليه نفسه ، فقال عمر :

ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم ، ثم قال : كيف تلومونني عليه بعد ما ترون ؟ وعن النبي صلى

اللّه عليه وسلم أنه دعا فاطمة رضى اللّه عنها فقال : «يا بنتاه إنه نعيت إلىّ نفسي ، فبكت ، فقال : لا تبكى ، فإنك أوّل أهلى لحوقا بي «6»» وعن ابن مسعود أنّ هذه السورة تسمى سورة التوديع كانَ تَوَّاباً أى كان في الأزمنة الماضية منذ خلق المكلفين توابا عليهم إذا استغفروا ، فعلى كل مستغفر ، أن يتوقع مثل ذلك .

---

(1) . أخرجه مسلم من حديث الأغر المزني .

(2) . ذكره الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه دون الكتاب .

(3) . لم أجده .

(4) . متفق عليه أصله من حديث أبى سعيد الخدري دون أوله من كونه كان عند نزول السورة . نعم فيه ما يشعر بأن ذلك كان في أواخر عمره ونزولها كان في أواخر عمره بلا نزاع .

(5) . أخرجه البخاري من حديث ابن عباس معناه . وليس فيه تعيين عبد الرحمن بن عوف . واستدركه الحاكم فوهم . وأخرجه البزار وآخر لفظه موافق لآخر لفظ المصنف .

(6) . أخرجه البيهقي في أواخر الدلائل وابن مردويه من رواية هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال «لما نزلت إذا جاء نصر اللّه والفتح دعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فاطمة فقال لها إنه قد نعيت إلى نفسي فبكت فقال لها : اصبري فإنك أول أهلى لحوقا بى . فقال لها بعض أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم .

الحديث وشاهده في الصحيحين من حديث عائشة رضى اللّه عنها من رواية مسروق عنها مطولا .

(109/836)

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة إذا جاء نصر اللّه أعطى من الأجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة» «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 810 813. ﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بالسند إلى أبى بن كعب .

(110/836)

وقال الماوردى :

قوله تعالى ﴿ إذا جاءَ نَصْرُ اللِّهِ والفتحُ ﴾

أما النصر فهو المعونة مأخوذ من قولهم قد نصر الغيث الأرض إذا أعان على نباتها ومنع من قحطها ، قال الشاعر :

إذا انسلخَ الشهرُ الحرامُ فَودِّعي . . . بلادَ تميمٍ وانْصُري أرضَ عامِرِ

وفي المعنيّ بهذا النصر قولان :

أحدهما : نصر الرسول على قريش ، قاله الطبري .

الثاني : نصره على كل من قاتله من أعدائه ، فإن عاقبة النصر كانت له .

وقيل : إذا جاء نصره بإظهاره إياك على أعدائك ، والفتح : فتحه مكة وقيل المراد حين نصر الله المؤمنين وفتح مكة وسائر البلاد عليهم . وإنما عبر عن الحصول بالمجيء تجوزاً للإشعار بأن المقدرات متوجهة حين إلى أوقاتها المعينة لها ، فتعرف منها شيئاً فشيئاً ، وقد قرب النصر من قوته فكن مترقباً لوروده مستعداً لشكره .

وفي هذا الفتح قولان :

أحدهما : فتح مكة ، قاله الحسن ومجاهد .

الثاني : فتح المدائن والقصور ، قاله ابن عباس وابن جبير ، وقيل ما فتحه عليه من العلوم .

﴿ ورأيتَ الناسَ يَدْخُلون في دِيْنِ اللهِ أَفْواجاً ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم أهل اليمن ، وروى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الدين يمانٍ والفقه يمانٍ والحكمة يمانية " وروي عنه عليه السلام أنه قال : " إني لأجد نَفَس ربكم مِن قِبل اليمن " وفيه تأويلان :

أحدهما : أنه الفرج لتتابع إسلامهم أفواجاً .

الثاني : معناه أن الله تعالى نفس الكرب عن نبيه بأهل اليمن ، وهم الأنصار .

القول الثاني : أنهم سائر الأمم الذين دخلوا في الإسلام ، قاله محمد بن كعب .

وقال الحسن : لما فتح الله على رسوله مكة ، قالت العرب بعضهم لبعض : أيها القوم ليس لكم به ولا بالقوم يد ، فجعلوا يدخلون في دين الله أفواجاً أمة أمة .

قال الضحاك : والأمة أربعون رجلاً ، وقال ابن عباس : الأفواج " الزمر " ، وقال الكلبي : الأفواج القبائل .

(111/836)

وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنّ الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون أفواجاً " .

" أفواجاً " جماعات كثيفة كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وقبائل سائر العرب .

" يدخلون " حال ، على أن " رأيت " بمعنى أبصرت ، أو مفعول ثان على أن رأيت بمعنى علمت .

﴿ فسبّحْ بحْمد ربِك واسْتَغْفِره إنه كان توّاباً ﴾ في أمره بهذا التسبيح والاستغفار وجهان : أحدهما : أنه أراد بالتسبيح الصلاة ، قاله ابن عباس ، وبالاستغفار مداومة الذكر .

الثاني : أنه أراد صريح التسبيح ، الذي هو التنزيه والاستغفار من الذنوب .

روت عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يكثر أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك ، أستغفرك وأتوب إليك ، فقلت : يا رسول الله ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها ؟ فقال :

" جعلت لي علامة في أمتي إذا رأيتها قلتها "

وفي قوله ﴿ إنه كان توّاباً ﴾ وجهان :

أحدهما : قابل التوبة .

والثاني : متجاوز عن الصغائر .

وفي أمره بهذا بعد النصر والفتح وجهان :

أحدهما : ليكون ذلك منه شكراً لله تعالى على نعمه ، لأن تجديد النعم يوجب تجديد الشكر .

الثاني : أنه نعى إليه نفسه ، ليجد في عمله .

قال ابن عباس : وداعٌ من الله ، ووداعٌ من الدنيا ، فلم يعش بعدها إلا سنتين مستديماً التسبيح والاستغفار كما أُمِرَ ، وكان قد لبث أربعين سنة لم يوح إليه ، ورأى رؤيا النبوة سنتين ، ومات في شهر ربيع الأول وفيه هاجر .

وقال مقاتل : نزلت هذه السورة بعد فتح الطائف ، والفتح فتح مكة ، والناس أهل اليمن ،

وهي آية موت النبي صلى الله عليه وسلم فلما نزلت قرأها على أبي بكر وعمر ففرحا بالنصر وبدخول الناس أفواجاً في دين الله عز وجل ، وسمعها العباس فبكى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما يبكيك يا عم ؟ " فقال : نعيت إليك نفسك ، قال : " إنه لكما تقول " .

(112/836)

وهذه السورة تسمى التوديع ، عاش النبي بعدها حولاً على قول مقاتل ، وحولين على قول ابن عباس ، ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم من قابل ، فنزل ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ الآية ، فعاش بعدها ثمانين يوماً ، ثم نزلت " لقد جاءكم رسول " فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً ، ثم نزلت ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ فعاش بعدها واحداً وعشرين يوماً .

وقال مقاتل : عاش بعدها سبعة أيام ، والله أعلم وصلوات الله عليه متتابعة لا تنقطع على مر الأزمان وكر الأوان ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 359 . 362 ﴾

(113/836)

وقال ابن عطية :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) ﴾

قرأ ابن عباس : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جمعاً من الصحابة الأشياخ وبالحضرة لابن عباس عن معنى هذه السورة وسببها ، فقالوا كلهم بمقتضى ظاهر ألفاظها ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر عند الفتوح التي فتحت عليه مكة وغيرها بأن يسبح ربه ويحمده ويستغفره ، فقال لابن عباس : ما تقول أنت يا عبد الله ؟ فقال : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله بقربه إذا رأى هذه الأشياء ، فقال عمر ما أعلم منها إلا ما ذكرت ، وهذا المنزع الذي ذكره ابن عباس ذكره ابن مسعود وأصحابه ومجاهد وقتادة والضحاك ، وروت معناه عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم وأنه عليه السلام لما فتحت مكة وأسلمت العرب جعل يكثر أن يقول " سبحان الله وبحمده ، اللهم إني أستغفرك " يتأول القرآن في هذه السورة ، وقال لها مرة : " ما أراه إلا حضور أجلي " وتأوله عمر والعباس بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصدقهما . و" النصر " الذي رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم : هو غلبته لقريش ولهوازن وغير ذلك ، ﴿ والفتح ﴾ : هو فتح مكة والطائف ومدن الحجاز وكثير من اليمن ودخول الناس في الإسلام ﴿ أفواجاً ﴾ ، كان بين فتح مكة إلى موته صلى الله عليه

وسلم ، قال أبو عمر بن عبد البر النمري رحمه الله في كتاب الاستيعاب في الصحابة في باب أبي خراش الهذلي : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي العرب رجل كافر ، بل دخل الكل في الإسلام بعد حنين والطائف ، منهم من قدم ومنهم من قدم وفده ، ثم كان بعده من الردة ما كان ورجعوا كلهم إلى الدين .

(114/836)

قال القاضي أبو محمد : والمراد والله أعلم عرب عبدة الأوثان ، وأما نصارة بني تغلب فما أراهم أسلموا قط في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن أعطوا الجزية ، والأفواج : الجماعة أثر الجماعة ، كما قال تعالى : ﴿ ألقي فيها فوج ﴾ [الملك : 8] وقال مقاتل : المراد بالناس أهل اليمن وفد منهم سبعمائة رجل ، وقاله عكرمة ، وقال الجمهور : المراد جميع وفود العرب لأنهم قالوا : إذا فتح الحرم لمحمد عليه السلام وقد حماه الله من الحبشة وغيرهم فليس لكم به يدان ، وذكر جابر بن عبد الله فرقة الصحابة فبكى وقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " دخل الناس في الدين أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً " وقوله : ﴿ إنه كان تواباً ﴾ يعقب ترجية عظيمة للمستغفرين ، جعلنا الله منهم ، وحكى النقاش عن ابن عباس أن " النصر " صلح الحديبية ، وأن ﴿ الفتح ﴾ فتح مكة ،

وقال ابن عمر : نزلت هذه السورة على النبي صلى الله عليه وسلم بمنى في وسط أيام التشريق في حجة الوداع وعاش بعدها ثمانين يوماً أو نحوها صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(115/836)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾

أي : معونته على الأعداء .

والفتح : فتح مكة .

قال الحسن : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قالت العرب : أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم ، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان فدخلوا في دين الله أفواجاً .

قال أبو عبيدة : والأفواج : جماعات في تفرقة .

قوله تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ فيه قولان .

أحدهما : أنه الصلاة ، قاله ابن عباس .

والثاني : التسبيح المعروف ، قاله جماعة من المفسرين .

قال المفسرون : نُعِيَتْ إليه نفسُهُ بنزول هذه السورة ، وأُعْلِم أنه قد اقترب أجله ، فأُمر بالتسبيح والاستغفار ليختم له عمره بالزيادة في العمل الصالح .

قال ابن عباس : إذا جاء نصر الله والفتح : داعٍ من الله ، وَوَدَاع من الدنيا .

قال قتادة : وعاش بعد نزول هذه السورة سنتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 255.257 ﴾

(116/836)

وقال القرطبى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) ﴾

النصر : العَوْن ؛ مأخوذ من قولهم : قد نَصَرَ الغيثُ الأرض : إذا أعان على نباتها ، من قَحْطِها .

قال الشاعر :

إذا انسلخ الشهر الحرام فودِّعي . . .

بلادَ تميمٍ وانْصُرِي أرض عامِرِ

ويروى :

إذا دخلَ الشهرُ الحرامُ فجاوِزِي . . .

بلادَ تميم وانصري أرضَ عامِرِ

يقال : نصره على عدوّه ينصره نصراً ؛ أي أعانه .

والاسم النُّصْرة .

واستنصره على عدوّه : أي سأله أن ينصره عليه .

وتناصروا : نصر بعضهم بعضاً .

ثم قيل : المراد بهذا النصر نصر الرسول على قريش ؛ الطبريّ .

وقيل : نصره على من قاتله من الكفار ؛ فإن عاقبة النصر كانت له .

وأما الفتح فهو فتح مكة ؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما .

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : هو فتح المدائن والقصور .

وقيل : فتح سائر البلاد .

وقيل : ما فتحه عليه من العلوم .

و"إذا" بمعنى قد ؛ أي قد جاء نصر الله ؛ لأن نزولها بعد الفتح .

ويمكن أن يكون معناه ؛ إذا يجيئك .

قوله تعالى : ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ ﴾

أي العرب وغيرهم .

﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً ﴾ أي جماعات : فوجاً بعد فوج.

وذلك لما فتحت مكة قالت العرب : أمّا إذا ظفِر محمد بأهل الحرم ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان .

فكانوا يُسْلِمون أفْواجاً : أمّةً أمّةً .

قال الضحاك : والأمّة : أربعون رجلاً .

وقال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن .

وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين .

بعضهم يؤذنون ، وبعضهم يقرؤون القرآن وبعضهم يُهَلّلون ؛ فسُرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، وبكى عمر وابن عباس .

ورَوى عكرمة عن ابن عباس : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ وجاء أهل اليمَن رَقيقةً أفْئِدَتُهُمْ ، لَيِّنةً طِباعهم ، سَخِيةً قُلوبهم ، عظيمةً خشيتُهم ، فدخلوا في دين الله أفواجاً .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أتاكم أهل اليمن ، هم أضعف قلوباً ، وأرق أفئدة ، الفِقه يمَانٍ ، والحكمة يَمَانِية " وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " إني لأجدُ نَفَس ربكم مِن قِبلِ اليَمَنْ " وفيه تأويلان : أحدهما : أنه الفرج ؛ لتتابع إسلامهم أفواجاً .

والثاني : معناه أن الله تعالى نَفَّس الكرب عن نبيه صلى الله عليه وسلم بأهل اليمن ، وهم الأنصار .

وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً ، وسيخرجون منه أفواجاً " ذكره الماورديّ ، ولفظ الثعلبيّ : وقال أبو عمار حدّثني جار لجابر ، قال : سألني جابر عن حال الناس ، فأخبرته عن حال اختلافهم وفُرْقتهم ؛ فجعل يبكي ويقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الناسَ دَخَلُوا في دين الله أفواجاً ، وسيَخْرُجونَ من دينِ اللَّهِ أَفْواجاً "

قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره ﴾

أي إذا صليت فأكثر من ذلك .

وقيل : معنى سبح : صَلِّ ؛ عن ابن عباس .

"بِحَمْدِ ربك" أي حامداً له على ما آتاك من الظفر والفتح .

"واسْتَغْفِرْهُ" أي سلِ الله الغفران .

وقيل : "فسبح" المراد به : التنزيه ؛ أي نزهه عما لا يجوز عليه مع شكرك له .

"واسْتَغْفِرْهُ" أي سَلِ الله الغفران مع مداومة الذكر .

والأوّل أظهر .

روى الأئمة (واللفظ للبخاريّ) عن عائشة رضي الله عنها قالت : " ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح ﴾ إلا يقول : "سُبْحانَكَ رَبَّنا وبِحَمْدك ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي" " وعنها قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكْثِر أن يقول في ركوعه وسجوده : "سُبحانكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وبِحَمدِك ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي" " يتأوّل القرآن .

(118/836)

وفي غير الصحيح : وقالت أمّ سَلَمة : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال : " سُبْحانَ اللَّهِ وبحمدِهِ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وأَتُوبُ إليه قال فإنّي أُمِرت بها ثم قرأ ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله والفتح ﴾ " إلى آخرها .

وقال أبو هريرة : اجتهدَ النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد نزولها ، حتى تَوَرَّمت قدماه ، ونَحَل جسمه ، وقل تبسمه ، وكثر بكاؤه .

وقال عِكرمة : لم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم قَطُّ أشد اجتهاداً في أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها .

وقال مقاتل : " لما نزلت قرأها النبيّ صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص ، ففرحوا واستبشروا ، وبكى العباس ؛ فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ما يُبْكيك يا عمّ ؟" قال : نُعِيَتْ إليك نَفْسُك .

قال : "إنه لكما تقول" " ؛ فعاش بعدها ستين يوماً ، ما رُئِي فيها ضاحكاً مستبشراً .

وقيل : نزلت في مِنًى بعد أيام التشريق ، في حِجة الوداع ، فبكى عُمر والعباس ، فقيل لهما : إن هذا يوم فرح ، فقالا : بل فيه نَعْي النبيّ صلى الله عليه وسلم .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " صَدَقتما ، نُعِيت إليّ نفسي " وفي البخاريّ وغيره عن ابن عباس قال : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ، ويأذن لي معهم .

قال : فوجِد بعضهم من ذلك ، فقالوا : يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثله ! فقال لهم عمر : إنه من قد علمتم .

قال : فأذن لهم ذات يوم ، وأذن لي معهم ، فسألهم عن هذه السورة ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فقالوا : أمر الله جل وعز نبيه صلى الله عليه وسلم إذا فتح عليه أن يستغفره ، وأن يتوب إليه .

فقال : ما تقول يا ابن عباس ؟ قلت : ليس كذلك ، ولكن أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم حضورَ أجله ، فقال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ ، فذلك علامة موتك .

(119/836)

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

فقال عمر رضي الله عنه : تلومونني عليه ؟ وفي البخاريّ فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول .

ورواه الترمذيّ ، قال : كان عمر يسألني مع أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتسأله ولنا بنون مثله ؟ فقال له عمر : إنه من حيث نعلم .

فسأله عن هذه الآية : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ .

فقلت : إنما هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعلمه إياه ؛ وقرأ السورة إلى آخرها .

فقال له عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تعلم .

قال : هذا حديث حسن صحيح .

فإن قيل : فماذا يغفر للنبيّ صلى الله عليه وسلم حتى يؤمر بالاستغفار ؟ قيل له : كان النبيّ

صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : " رَبِّ اغفرْ لي خَطيئَتي وجَهْلي ، وإسْرافِي في أَمْرِي كُلِّه ، وما أنت أعلم به مني .

اللهم اغفْر لي خَطَئي وعَمْدِي ، وجهلِي وهَزْلي ، وكل ذلك عندي .

اللهم اغفر لي ما قدّمت وما أخرتُ ، وما أعلَنْت وما أسْرَرْت ، أنت المقدِّم وأنت المُوَخِّر ، إنكَ على كلِّ شيءٍ قَدِير " فكان صلى الله عليه وسلم يستقصر نفسه لعظم ما أنعم الله به عليه ، ويرى قصوره عن القيام بحق ذلك ذنُوباً .

ويحتمل أن يكون بمعنى : كُنْ متعَلقاً به ، سائلاً راغباً ، متضرعاً على رؤية التقصير في أداء الحقوق ؛ لئلا ينقطع إلى رؤية الأعمال .

وقيل : الاستغفار تَعَبُّد يجب إتيانه ، لا للمغفرة ، بل تعبداً .

وقيل : ذلك تنبيه لأمته ، لكيلا يأمنوا ويتركوا الاستغفار .

وقيل : "واستغفره" أي استغفر لأمتك .

﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ : أي على المسبحين والمستغفرين ، يتوب عليهم ويرحمهم ، ويقبل توبتهم .

وإذا كان عليه السلام وهو معصوم يؤمر بالاستغفار ، فما الظن بغيره ؟ روى مسلم عن عائشة قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُكْثِر من قول : "سُبحَانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ ، أَسْتغفِرُ اللَّهَ وأَتُوبُ إليهِ" .

قالت : فقلت يا رسول الله ، أراك تكثر من قول "سُبْحان اللَّهِ وبِحَمْدِه ، أستغفر الله وأتوب إليه" ؟ فقال : "خَبَّرَنِي رَبِّي أني سأرى علامة في أمتي ، فإذا رأَيتها أكثرت من قول سُبْحان اللَّهِ وبِحَمْدِهِ ، أستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها : ﴿ إذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ فتح مكة ﴿ ورَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ " " وقال ابن عمر : نزلت هذه السورة بِمِنًى في حِجَّة الوداع ، ثم نزلت ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴾ [المائدة : 3] فعاش بعدهما النبي صلى الله عليه وسلم ثمانين يوماً .

ثم نزلت آية الكَلالَة ، فعاش بعدها خمسين يوماً .

ثم نزل : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : 128] فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً .

ثم نزل ﴿ واتقوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ﴾ [البقرة : 281] فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً .

وقال مقاتل سبعة أيام .

وقيل غير هذا مما تقدّم في "البقرة" بيانه ، والحمد لله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(121/836)

وقال الخازن :

قوله عزّ وجلّ : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾

يعني فتح مكة وكانت قصة الفتح على ما ذكره محمد بن إسحاق ، وأصحاب الأخبار " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما صالح قريشاً عام الحديبية اصطلحوا على وضع الحرب بين الناس عشرين سنة ، وقيل عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد (صلى الله عليه وسلم) وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش ، وعهدهم دخل فيه .

فدخلت بنو بكر في عهد قريش ، ودخلت خزاعة في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) وكان بينهما شر قديم ثم إن بني بكر عدت على خزاعة ، وهم على ماء لهم أسفل مكة يقال له الوتير ، فخرج نوفل بن معاوية الدؤلي في بني الدئل من بني بكر حين بقيت خزاعة على الوتير ، فأصابوا منهم رجلاً ، وتحاوروا واقتتلوا ، وردفت قريش بني بكر بالسلاح ، وقاتل

معهم من قريش من قاتل بالّليل مستخفياً حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، وكان ممن أعان بني بكر من قريش على خزاعة ليلتئذ بأنفسهم بكر بن صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو مع عبيدهم ، فلما انتهوا إلى الحرم قالت بنو بكر يا نوفل إنا قد دخلنا إلى إلهك فقال كلمة عظيمة إنه لا إله اليوم يا بني بكر أصيبوا ثأركم فلعمري إنكم لتسرفون في الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه قال : فلما تظاهر بنو بكر وقريش على خزاعة ، وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، وكانوا في عقده خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة ، وكان ذلك مما أهاج فتح مكة فوقف عليه وهو في المسجد جالس بين ظهراني الناس فقال :

يا رب إني ناشد محمدا . . .

حلف أبينا وأبيه الأتلدا

قد كنتمو ولداً وكنا والدا . . .

ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصراً أعتدا . . .

وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا . . .

إن سيم خسفاً وجهه تربدا

في فيلق كالبحر يجري مزبدا . . .

إن قريشاً أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا . . .

وجعلوا لي في كداء رصدا

وزعموا أن لست أدعو أحدا . . .

وهم أذل وأقل عددا

هم بيتونا بالوتير هجدا . . .

وقتلونا ركعاً وسجدا

فانصر هداك الله نصراً أيدا . . .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " قد نصرت يا عمرو بن سالم ثم عرض لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) عنان من السماء ، فقال إن هذه السحابة لتشهد بنصر بني كعب "

، وهم رهط عمرو بن سالم ، ثم خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة فأخبروه بما أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ثم انصرفوا راجعين إلى مكة ، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال للناس "كأنكم بأبي سفيان قد جاء يشدد في العقد ويزيد في المدة" ، ومضى بديل بن ورقاء وأصحابه حتى لقوا أبا سفيان بعسفان قد بعثته قريش إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يشدد في العقد ويزيد في المدة وقد رهبوا من الذي صنعوا ، فلما لقي أبو سفيان بديلاً قال : من أين أقبلت يا بديل وظن أنه أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : سرت في خزاعة في هذا الساحل ، وفي بطن هذا الوادي قال : وهل أتيت محمداً قال : لا فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان لئن كان جاء المدينة لقد علف منها النوى فعمد إلى مبرك ناقته فأخذ من بعرها ففته فرأى فيه النوى فقال أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المدينة فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) طوته عنه فقال : أي بنية أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني

فقالت بل هو فراش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأنت رجل مشرك نجس لم أحب أن تجلس على فراش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر ، ثم خرج حتى أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكلمه ، فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر ، فكلمه أن يكلم له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب ، فكلمه فقال انا لا أشفع لك إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) .

فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به ، ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب ، وعنده فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعندها الحسن بن علي غلاماً يدب بين يديها فقال : يا علي إنك أمس القوم بي رحماً ، وأقربهم مني قرابة ، وقد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً ، فاشفع لي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : ويحك يا أبا سفيان لقد أرى عزم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه .

فالتفت إلى فاطمة وقال : يا بنت محمد هل لك أن تأمري بنيك هذا فيجير بين الناس

فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر .

فقالت : والله ما بلغ بني أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ ، فانصحني قال والله لا أعلم شيئاً يغني عنك ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك قال : وترى ذلك مغنياً عني شيئاً قال لا والله ما أظن ذلك ولكن لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان في المسجد ، فقال أيها الناس إني قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره ، فانطلق فلما قدم على قريش قالوا ما رواءك قال : جئت محمداً فكلمته فوالله ما رد علي شيئاً ثم جئت ابن أبي قحافة ، فلم أجد عنده خيراً ، ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم ، ثم أتيت علي بن أبي طالب فوجدته ألين القوم وقد أشار عليّ بشيء صنعته فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا قالوا : وما ذاك قال أمرني أن أجير بين الناس ، ففعلت قالوا فهل أجاز ذلك محمد قال لا قالوا ويلك والله ما زاد على أن لعب بك فما يغني عنك ما قلت قال لا والله ما وجدت غير ذلك قال : وأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه ، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة ، وهي تصلح بعض

جهاز رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال أي بنية أمركم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن تجهزوه ، قالت نعم .

قال فأين ترينه يريد قالت لا والله ما أدري ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها ، فتجهز الناس وكتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقد تقدمت قصته في تفسير سورة الممتحنة ثم مضى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لسفره ، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري وخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عامداً إلى مكة لعشر بقين من رمضان سنة ثمان من الهجرة فصام النبي (صلى الله عليه وسلم) وصام الناس معه حتى إذا كان بالكديد بين عسفان ، وأمج أفطر ثم مضى حتى نزل بمر الظّهران في عشرة آلاف من المسلمين .

ولم يتخلف من الأنصار والمهاجرين عنه أحد فلما نزل بمر الظّهران ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، ولا يأتيهم خبر عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ولا يدرون ما هو

فاعل خرج في تلك اللّيالي أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به وقد كان العباس بن عبد المطلب لقي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ببعض الطريق قال ابن عشام : لقيه بالجحفة مهاجراً بعياله ، وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته ، ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) عنه راض فلما نزل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مر الظّهران قال العباس بن عبد المطلب ليلتئذ وا صباح قريش ، والله لئن دخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه الهلاك لقريش إلى آخر الدهر .

قال فجلست على بغلة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) البيضاء ، فخرجت عليها حتى جئت الأراك لعلي أجد حاطباً ، أو صاحب لبن أو ذا حاجة يدخل مكة ، فيخبرهم بمكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة قال العباس : فوالله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول ما رأيت كالليلة نيراناً قط .

فقال بديل هذه والله نيران خزاعة حمشتها الحرب ، فقال أبو سفيان خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها ، فعرفت صوته فقلت يا أبا حنظلة فعرف صوتي ، فقال يا أبا الفضل فقلت نعم قال ما لك فداك أبي وأمي قلت : ويحك يا أبا سفيان هذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد جاء بما لا قبل لكم به بعشرة آلاف من المسلمين قال : وما الحيلة قلت والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأستأمنه لك فردفني ، ورجع صاحباه فخرجت أركض به على بغلة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كلما مررت بنار من نيران المسلمين ينظرون إليّ ، ويقولون عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على بغلة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال من هذا فقام إليّ فلما رأى أبا سفيان على عجز البغلة ، قال أبو سفيان عدو الله الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ، ولا عهد ثم خرج يشتد نحو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وركضت البغلة فسبقته كما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء قال فاقتحمت عن البغلة سريعاً ، فدخلت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ودخل عليه عمر فقال : يا رسول الله هذا عدو الله أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ، ولا عهد فدعني أضرب عنقه قال فقلت يا رسول الله إني قد أجرته ثم جلست إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأخذت برأسه ، وقلت والله لا ينجيك الليلة أحد دوني فلما أكثر عمر في شأنه قلت مهلاً يا عمر .

فوالله ما تصنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف ، ولو كان من بني عدي بن كعب ما قلت هذا ، فقال مهلاً يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما ذاك إلا لأني أعلم أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من إسلام الخطاب لو أسلم فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) اذهب به يا عباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فائتني به قال فذهبت به إلى رحلي فبات عندي ، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فلما رآه قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله وأني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد قال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ، قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك ، وأوصلك أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً فقال العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك فتشهد شهادة الحق وأسلم قال العباس : فقلت يا رسول الله إن أبا سفيان هذا رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئاً قال " نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه

فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن " فلما ذهب لينصرف قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " يا عباس احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله " قال فخرجت به حيث أمرني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن أحبسه قال ومرت به القبائل على راياتها كلما مرت به قبيلة قال من هؤلاء يا عباس ، فأقول سليم فيقول ما لي ولسليم ، ثم القبيلة فيقول من هؤلاء ، فأقول مزينة فيقول ما لي ولمزينة حتى نفدت القبائل . لا تمر قبيلة إلا سألني عنها ، فإذا أخبرته عنها .

فيقول ما لي ، ولبني فلان حتى مر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في كتيبته الخضراء ، وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد ، وظهوره فيها وفيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد فقال سبحان الله من هؤلاء يا عباس ؟ قلت هذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في المهاجرين ، والأنصار .

قال ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً

قلت ويحك إنها النبوة ، قال فنعم إذا فقلت الحق الآن بقومك فحذرهم ، فخرج سريعاً

حتى أتى مكة ، فصرخ في المسجد بأعلى صوته يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به قالوا فمه قال : قال من دخل دار أبي سفيان فهو آمن .

(130/836)

قالوا ويحك ، وما تغني عنا دارك قال من دخل المسجد ، فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم ، وإلى المسجد قال وجاء حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) م فأسلما وبايعاه ، فلما بايعاه بعثهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين يديه إلى قريش يدعوانهم إلى الإسلام ، ولما خرج حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء من عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عامدين إلى مكة بعث في أثرهما الزبير وأعطاه رايته وأمره على خيل المهاجرين والأنصار وأمره أن يركز رايته بأعلى مكة بالحجون ، وقال لا تبرح حيث أمرتك أن تركز رايتي حتى آتيك ، ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما انتهى إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً بشقه عليه برد حبرة ، وإن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليضع رأسه تواضعاً لله حين رأى ما أكرمه به من الفتح حتى أن عثنونه ليكاد يمس واسطة الرحل ، ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دخل مكة وضرب قبته بأعلى مكة ، وأمر خالد بن الوليد ، فيمن أسلم من

قضاعة ، وبني سليم أن يدخلوا من أسفل مكة وبها بنو بكر ، وقد استنفرتهم قريش ، وبنو الحارث بن عبد مناف ومن كان من الأحابيش أمرتهم قريش أن يكونوا بأسفل مكة ، وأن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناساً بالخندمة ليقاتلوا وقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لخالد والزبير حين بعثهما " لا تقاتلا إلا من قاتلكما " ، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كدى فقال سعد : حين توجه داخلاً اليوم يوم الملحمة اليوم يوم تستحل الحرمة فسمعها رجل من المهاجرين قيل : هو عمر بن الخطاب فقال : لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) اسمع ما قال سعد بن عبادة ، وما نأمن أن يكون له في قريش صولة فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لعلي بن أبي طالب أدركه بهذه الراية .

فكن أنت الذي تدخل بها ، فلم يكن بأعلى مكة من قبل الزبير قتال ، وأما خالد بن الوليد ، فقدم على قريش وبني بكر ، والأحابيش بأسفل مكة ، فقاتلوه فهزمهم الله ، ولم يكن بمكة قتال غير ذلك ، وقتل من المشركين اثنا عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً ، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل من جهينة يقال له سلمة بن الميلاء من خيل خالد بن الوليد ورجلان يقال

لهما كرز بن جابر ، وخنيس بن خالد بن الوليد شذا وسلكا طريقاً غير طريقه ، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم إلا نفراً منهم سماهم أمر بقتلهم ، وإن وجدوا تحت أستار الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وإنما أمر بقتله لأنه كان قد أسلم فارتد مشركاً ففر إلى عثمان ، وكان أخاه من الرضاعة فغيبه حتى أتى به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد أن اطمأن أهل مكة فاستأمنه له وعبد الله بن خطل رجل من بني تميم بن غالب ، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلماً فبعثه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مصدقاً ، وكان له مولى يخدمه ، وكان مسلماً فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً ونام فاستيقظ ، ولم يصنع له شيئاً فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركاً ، وكان له قينتان يغنيان بهجاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأمر بقتلهما معه والحويرث بن نقيد بن وهب ، وكان ممن يؤذيه بمكة ومقيس صبابة ، وإنما أمر بقتله لقتله الأنصاري الذي قتل أخاه خطأً ، ورجوعه إلى قريش مرتداً ، وسارة مولاة لبني عبد المطلب ، وكانت ممن يؤذيه بمكة ، وعكرمة بن أبي جهل فأما عكرمة فهرب إلى اليمن ، وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، فاستأمنت له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأمنه فخرجت في طلبه حتى أتت به رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأما عبد الله بن خطل فقتله سعيد بن الحارث المخزومي وأبو برزة الأسلمي

اشتركا في دمه وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبد الله رجل من قومه وأما قينتا ابن خطل فقتلت إحداهما ، وهربت الأخرى حتى استؤمن لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأمنها وأما سارة فتغيبت حتى استؤمن لها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فعاشت حتى أوطأها رجل من الناس فرساً له في زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها ، وأما الحويرث ابن نقيد فقتله علي بن أبي طالب قالت أم هانىء : لما نزل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأعلى مكة فر إليّ رجلين من أحمائي من بني مخزوم ، وكانت عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي قالت : فدخل عليّ علي بن أبي طالب أخي فقال : والله لأقتلنهما ، فأغلقت عليهما باب بيتي ، ثم جئت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل من جفنة وإن فيها لأثر العجين ، وفاطمة ابنته تستره بثوبه فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثمان ركعات الضحى ، ثم انصرف إليّ فقال مرحباً وأهلاً بأم هانىء ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي بن أبي طالب فقال : قد أجرنا من أجرت وأمنّا من أمنت فلا نقتلهما ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خرج لما اطمأن الناس حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن

في يده فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ، وأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة ، وقد استكف له الناس في المسجد فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهي تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت ، وسقاية الحاج ألا قتل الخطأ شبه العمد بالسوط ، والعصا ، ففيه الدية مغلظة مائة من الإبل أربعون منها خلفة في بطونها أولادها .

(133/836)

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾ الآية ثم قال يا معشر قريش ما ترون إني فاعل فيكم ، قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم قال فاذهبوا فأنتم الطلقاء ، فأعتقهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في المسجد ، وكان الله أمكنه منهم عنوة فبذلك سموا أهل مكة الطلقاء ، ثم جلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة بيده فقال : يا رسول الله اجمع لنا بين الحجابة ، والسقاية فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أين عثمان بن طلحة فدعي له فقال

هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم وفاء وبر ، قال واجتمع الناس للبيعة فجلس إليهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على الصفا ، وعمر بن الخطاب أسفل منه يأخذ على الناس.

فبايعونه على السمع والطاعة فيما استطاعوا ، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء قال عروة بن الزبير : خرج صفوان بن أمية يريد جدة ليركب منها إلى اليمن فقال عمير بن وهب الجمحي يا رسول الله إن صفوان بن أمية سيد قومي قد خرج هارباً منك ليقذف بنفسه في البحر ، فأمنه يا رسول الله ، فقال هو آمن قال : يا رسول الله أعطني شيئاً يعرف به أمانك ، فأعطاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عمامته التي دخل بها مكة ، فخرج بها عمير حتى أدركه بجدة ، وهو يريد أن يركب البحر فقال يا صفوان فداك أبي وأمي أذكرك الله في نفسك أن تهلكها ، فهذا أمان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جئتك به ؟ فقال ويلك أغرب عني لا تكلمني قال : فداك أبي وأمي أفضل الناس ، وأبر النّاس وأحلم الناس ، وخير الناس ابن عمتك عزه عزك وشرفه شرفك ، وملكه ملكك ، قال إني أخافه على نفسي قال : هو أحلم من ذلك ، وأكرم فرجع به معه حتى وقف به على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فقال صفوان : إن هذا يزعم أنك آمنتني قال صدق ، قال فاجعلني في ذلك

بالخيار شهرين قال : أنت بالخيار أربعة أشهر

" قال ابن هشام وبلغني أن النبي (صلى الله عليه وسلم) حين افتتح مكة ، ودخلها قام على الصّفا يدعو ، وقد أحدقت به الأنصار فقالوا فيما بينهم أترون أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا فتح الله عليه مكة أرضه ، وبلاده يقيم بها فلما فرغ من دعائه قال ماذا قلتم قالوا لا شيء يا رسول الله فلم يزل بهم حتى أخبروه .

(135/836)

فقال النّبي (صلى الله عليه وسلم) معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم " قال ابن إسحاق : وكان جميع من شهد فتح مكة من المسلمين عشرة آلاف ، وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من رمضان سنة ثمان ، وأقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمكة بعد فتحها خمس عشرة ليلة يقصر الصلاة ثم خرج إلى هوازن وثقيف ، وقد نزلوا حنيناً (ق) عن أبي هريرة " أن خزاعة قتلوا رجلاً من بني ليث عام الفتح بقتيل لهم في الجاهلية فقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في الناس فحمد الله ، وأثنى عليه وقال : إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلط عليها رسوله والمؤمنين ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ، ولا تحل لأحد من بعدي ، ألا وإنما أحلت لي ساعة من نهار إلا ، وإنها ساعتي هذه فلا ينفر صيدها ولا يختلى

خلاها ، ولا يقطع شوكها ، ولا تحل ساقطتها لا لمنشد ، ومن قتل له قتيل ، فهو بخير النظرين .

إما أن يفتدي وإما أن يقيد فقال العباس : إلا الإذخر فإنا نجعله لقبورنا وبيوتنا ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلا الإذخر ، فقام أبو شاه رجل من أهل اليمن فقال اكتبوا لي يا رسول الله فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : اكتبوا لأبي شاه قال الأوزاعي : يعني الخطبة التي سمعها من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " .

(وأما التفسير)

فقوله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ يعني إذا جاءك يا محمد نصر الله ، ومعونته على من عاداك وهم قريش .

ومعنى مجيء النصر أن جميع الأمور مرتبطة بأوقاتها يستحيل تقدمها عن وقتها أو تأخرها عنه فإذا جاء ذلك الوقت المعين حضر معه ذلك الأمر المقدر ، فلهذا المعنى قال ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ يعني فتح مكة في قول جمهور المفسرين ، وقيل هو جنس نصر الله المؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم على الإطلاق ، والفرق بين النصر والفتح .

أن النصر هو الإعانة والإظهار على الأعداء وهو تحصيل المطلوب ، وهو كالسبب للفتح .

فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف عليه الفتح ، وقيل النصر هو إكمال الدين وإظهاره ، والفتح هو الإقبال الذي هو تمام النعمة .

﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ﴾ يعني زمراً وأرسالاً القبيلة بأسرها .

والقوم بأجمعهم من غير قتال قال الحسن : لما فتح الله على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مكة قالت العرب بعضها لبعض إذا ظفر الله محمد بأهل الحرم ، وكان قد أجارهم من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً .

بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين .

وقيل أراد بالناس أهل اليمن (ق) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً ، وأرق أفئدة الإيمان يمان ، والحكمة يمانية ودين الله هو الإسلام " وأضافه إليه تشريفاً وتعظيماً ، كبيت الله وناقة الله قوله ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ يعني فإنك حينئذ لاحق به (ق) عن ابن عباس : قال كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فقال : بعضهم لم يدخل هذا الفتى معنا ، ولنا أبناء مثله فقال إنه ممن قد علمتم قال فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم .

قال وما رأيت أنه كان دعاني يومئذ إلا ليريهم مني .

قال ما تقولون في قول الله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ حى ختم السورة ، فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ، ونستغفره إذ نصرنا ، وفتح علينا ، وسكن بعضهم فلم يقل شيئاً فقال لي أكذلك تقول يا ابن عباس ، قال : قلت ؛ لا قال فما هو قلت هو أجل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعلمه ، فقال ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ، قال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم (ق) عن عائشة قالت : " ما صلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صلاة بعد أن أنزلت عليه إذا جاء نصر الله والفتح ، إلا يقول فيها سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي ، وفي رواية قالت : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن ، وفي رواية قالت كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يكثر القول من سبحان الله ، وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه ، وقال أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي .

فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه قد رأيتها إذا جاء نصر الله والفتح فتح مكة ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك

واستغفره إنه كان توابا ً " قال ابن عباس : لما نزلت هذه السورة علم النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه نعيت إليه نفسه .

وقال الحسن : أعلم أنه قد اقترب أجله فأمر بالتسبيح والتوبة ، ليختم بالزيادة في العمل الصالح قيل عاش النبي (صلى الله عليه وسلم) بعد نزول هذه السورة سنتين ، وقيل في معنى السورة إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ً فاشتغل أنت بالتسبيح والتحميد ، والاستغفار ، فالاشتغال بهذه الطاعة يصير سببا ً لمزيد درجاتك في الدنيا والآخرة .

(138/836)

وفي معنى التسبيح وجهان :

أحدهما نزه ربك عما لا يليق بجلاله ثم احمده .

والثاني فصل لربك لأن التسبيح جزء من أجزاء الصلاة ، ثم قيل عني به صلاة الشكر ، وهو ما صلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ثمان ركعات .

وقيل هي صلاة الضحى . وفي الآية دليل على فضيلة التسبيح ، والتحميد حيث جعل ذلك كافياً في أداء ما وجب عليه من شكر نعمة النصر والفتح .

فإن قلت ما معنى هذا الاستغفار ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

قلت إنه تعبد الله بذلك ليقتدي به غيره . إذ لا يأمن كل واحد من نقص يقع في عبادته واجتهاده ففيه تنبيه على أن النبي صلى الله عليه وسلم مع عصمته وشدة اجتهاده ما كان يستغني عن الاستغفار فكيف بمن هو دونه وقيل هو ترك الأفضل والأولى لا عن ذنب صدر منه صلى الله عليه وسلم وعلى قول من جوز الصغائر على الأنبياء يكون المعنى ، واستغفره لما عسى أن يكون قد وقع من تلك الأمور منه ، وقيل المراد منه الاستغفار لذنوب أمته ، وهذا ظاهر لأن الله تعالى أمره بذلك في قوله

﴿ واستغفر لذنبك ، وللمؤمنين ، والمؤمنات ﴾

[محمد : 19] والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 317.307 ﴾

(139/836)

وقال النسفى :

سورة النصر

مدنية وهي ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا ﴾ منصوب ب ﴿ سَبِّحِ ﴾ وهو لما يستقبل ، والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة .

وروي أنها نزلت في أيام التشريق بمنى في حجة الوداع ﴿ جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ النصر الإغاثة والإظهار على العدو ، والفتح فتح البلاد ، والمعنى نصر الله صلى الله عليه وسلم على العرب أو على قريش وفتح مكة ، أو جنس نصر الله المؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم ﴿ وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ ﴾ هو حال من ﴿ الناس ﴾ على أن ﴿ رَأَيْتُ ﴾ بمعنى أبصرت أو عرفت ، أو مفعول ثانٍ على أنه بمعنى علمت ﴿ فِى دِينِ الله أفواجا ﴾ هو حال من فاعل يدخلون ، وجواب "إذا" ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أي إذا جاء نصر الله إياك على من ناواك وفتح البلاد ، ورأيت أهل اليمن يدخلون في ملة الإسلام جماعات كثيرة بعدما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً واثنين اثنين ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فقل : سبحان الله حامداً له أو فصل له ﴿ واستغفره ﴾ تواضعاً وهضماً للنفس أو دم على الاستغفار ﴿ إِنَّهُ كَانَ ﴾ ولم يزل ﴿ تَوَبَا ﴾ التواب الكثير القبول للتوبة وفي صفة العباد الكثير الفعل للتوبة .

ويروى أن عمر رضي الله عنه لما سمعها بكى وقال : الكمال دليل الزوال ، وعاش رسول

الله صلى الله عليه وسلم بعدها سنتين والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 381 ﴾

(140/836)

وقال ابن جزى :

سورة النصر

﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾

يعني بالفتح فتح مكة والطائف وغيرهما من البلاد التي فتحها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن عباس : إن النصر صلح الحديبية ، والفتح فتح مكة ، وقيل : النصر إسلام أهل اليمن ، والإخبار بذلك كله قبل وقوعه إخباره بغيب ، فهو من أعلام النبوّة ﴿ وَرَأَيْتَ الناس يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفْوَاجاً ﴾ أي جماعات ، وذلك أنه أسلم بعد فتح مكة بشر كثير ، فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان معه في فتح مكة عشرة آلاف ، وكان معه في غزوة تبوك سبعون ألفاً وقال أبو عمر بن عبد البر : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي العرب رجل كافر . وقد قيل : إن عدد المسلمين عند موته مائة ألف وأربعة عشر ألفاً بل أكثر ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره ﴾ قد ذكر التسبيح

والاستغفار ومعنى بحمد ربك فيما تقدم ، فإن قيل : لم أمره الله بالتسبيح والحمد والاستغفار عند رؤية النصر والفتح ، وعند اقتراب أجله ؟ فالجواب : أنه أمر بالتسبيح والحمد ليكون شكراً على النصر والفتح وظهور الإسلام وأمره بذلك وبالاستغفار عند اقتراب أجله ليكون ذلك زاداً للآخرة وعدة للقاء الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 221 . 222 ﴾

(141/836)

وقال البيضاوى :

سورة النصر

مدنية ، وآيها ثلاث آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾

إظهاره إياك على أعدائك . ﴿ والفتح ﴾ وفتح مكة ، وقيل المراد جنس نصر الله المؤمنين وفتح مكة وسائر البلاد عليهم ، وإنما عبر عن الحصول بالمجيء تجوزاً للإشعار بأن المقدرات متوجهة من الأزل إلى أوقاتها المعينة لها فتقرب منها شيئاً فشيئاً ، وقد قرب

النصر من وقته فكن مترقباً لوروده مستعداً لشكره .

﴿ وَرَأَيتَ الناس يَدْخُلونَ فِى دِينِ الله أفواجا ﴾ جماعات كثيفة كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب ، و﴿ يَدْخُلونَ ﴾ حال على أن ﴿ رَأَيتُ ﴾ بمعنى أبصرت أو مفعول ثان على أنه بمعنى علمت .

(142/836)

﴿ فَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ ﴾ فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر ببال أحد حامداً له ، أو فصل له حامداً على نعمه . " روي أنه صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة بدأ بالمسجد فدخل الكعبة وصلى ثمان ركعات " أو فنزهه تعالى عما كانت الظلمة يقولون فيه حامداً له على أن صدق وعده ، أو فأثن على الله تعالى بصفات الجلال حامداً له على صفات الإكرام .

﴿ واستغفره ﴾ هضماً لنفسك واستقصاراً لعملك واستدراكاً لما فرط منك من الالتفات إلى غيره . وعنه عليه الصلاة والسلام " إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة " وقيل استغفره لأمتك ، وتقديم التسبيح على الحمد ثم الحمد على الاستغفار على طريق النزول من الخالق إلى الخلق . كما قيل ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله . ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابا ﴾ لمن استغفره مذ خلق المكلفين ، والأكثر على أن السورة نزلت قبل فتح مكة ، وأنه نعي

لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه لما قرأها بكى العباس رضي الله عنه ، فقال عليه الصلاة والسلام ما يبكيك ، فقال : نعيت إليك نفسك ، فقال " إنها لكما تقول " ولعل ذلك لدلالتها على تمام الدعوة وكمال أمر الدين فهي كقوله تعالى : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ أو لأن الأمر باستغفار تنبيه على دنو الأجل ، ولهذا سميت سورة التوديع .

وعنه عليه الصلاة والسلام " من قرأ سورة إذا جاء أعطي من الأجر كمن شهد مع محمد عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة شرفها الله تعالى " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 451.543 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(143/836)

وقال أبو حيان :

سورة النصر

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) ﴾

قال الزمخشري : ﴿ إذا ﴾ منصوب بسبح ، وهو لما يستقبل ، والإعلام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة ، انتهى .

وكذا قال الحوفي ، ولا يصح إعمال ﴿ فسبح ﴾ في ﴿ إذا ﴾ لأجل الفاء ، لأن الفاء في جواب الشرط لا يتسلط الفعل الذي بعدها على اسم الشرط ، فلا تعمل فيه ، بل العامل في إذا الفعل الذي بعدها على الصحيح المنصور في علم العربية ، وقد استدللنا على ذلك في شرح التسهيل وغيره ، وإن كان المشهور غيره .

والنصر : الإعانة والإظهار على العدو ، والفتح : فتح البلاد .

ومتعلق النصر والفتح محذوف ، فالظاهر أنه نصر رسوله (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين على أعدائهم ، وفتح مكة وغيرها عليهم ، كالطائف ومدن الحجاز وكثير من اليمن .

وقيل : نصره (صلى الله عليه وسلم) على قريش وفتح مكة ، وكان فتحها لعشر مضين من رمضان ، سنة ثمان ، ومعه عليه الصلاة والسلام عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار .

وقرأ الجمهور : ﴿ يدخلون ﴾ مبنياً للفاعل ؛ وابن كثير في رواية : مبنياً للمفعول .

﴿ في دين الله ﴾ : في ملة الإسلام الذي لا دين له يضاف غيرها .

﴿ أفواجاً ﴾ أي جماعات كثيرة ، كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحداً بعد واحد ، واثنين اثنين .

قال الحسن : لما فتح عليه الصلاة والسلام مكة ، أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا : أما الظفر بأهل الحرم فليس به يدان ، وقد كان الله تعالى أجارهم من أصحاب الفيل .

وقال أبو عمر بن عبد البر : لم يمت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وفي العرب رجل كافر ، بل دخل الكل في الإسلام بعد حنين .

منهم من قدم ، ومنهم من قدّم وافده .

قال ابن عطية : والمراد ، والله أعلم ، العرب عبدة الأوثان .

وأما نصارى بني ثعلب فما أراهم أسلموا قط في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، لكن أعطوا الجزية .

وقال مقاتل وعكرمة : المراد بالناس أهل اليمن ، وفد منهم سبعمائة رجل .

وقال الجمهور : وفود العرب ، وكان دخولهم بين فتح مكة وموته (صلى الله عليه وسلم) .

و﴿ أفواجاً ﴾ : جمع فوج.

قال الحوفي : وقياس جمعه أفوج ، ولكن استثقلت الضمة على الواو فعدّل إلى أفواج ، كأنه يعني أنه كان ينبغي أن يكون معتل العين كالصحيح .

فكما أن قياس فعل صحيحها أن يجمع على أفعل لا على أفعال ، فكذلك هذا ؛ والأمر في هذا المعتل بالعكس .

القياس فيه أفعال ، كحوض وأحواض ، وشذ فيه أفعل ، كثوب وأثوب ، وهو حال .

ويدخلون حال أو مفعول ثان إن كان ﴿ أرأيت ﴾ بمعنى علمت المتعدية لاثنين .

وقال الزمخشري : إما على الحال على أن أرأيت بمعنى أبصرت أو عرفت ، انتهى .

ولا نعلم رأيت جاءت بمعنى عرفت ، فنحتاج في ذلك إلى استثبات .

﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ : أي ملتبساً بحمده على هذه النعم التي خولكها ، من نصرك على الأعداء وفتحك البلاد وإسلام الناس ؛ وأي نعمة أعظم من هذه ، إذ كل حسنة يعملها المسلمون فهي في ميزانه .

وعن عائشة : كان (صلى الله عليه وسلم) يكثر قبل موته أن يقول : " سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك " قال الزمخشري : والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين من الجمع بين الطاعة والاحتراس من المعصية ، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفاً لأمته ، ولأن الاستغفار من التواضع وهضم النفس ، فهو عبادة في نفسه .

وعن النبي (صلى الله عليه وسلم) : " إني لأستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة " ، انتهى .

وقد علم هو (صلى الله عليه وسلم) من هذه السورة دنو أجله ، " وحين قرأها عليه الصلاة والسلام استبشر الصحابة وبكى العباس ، فقال : "وما يبكيك يا عم ؟" قال :

نعيت إليك نفسك ، فقال : "إنها لكما تقول" ، فعاش بعدها سنتين " ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ : فيه ترجئة عظيمة للمستغفرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(145/836)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) ﴾

الوقوف : ﴿ والفتح ﴾ ه ﴿ أفواجاً ﴾ ه لا ﴿ واستغفره ﴾ ط ﴿ تواباً ﴾ ه .

التفسير : السورة المتقدمة اشتملت على نصرة الله بقوله

﴿ يا أيها الكافرون ﴾

[الكافرون : 1] وعلى فتح مكة القلب بعسكر التوحيد ، وعلى تسخير جميع القوى البدنية في طاعة خالقها بقوّة البراءة عن الأديان الباطلة كلها فقال الله سبحانه : نصرتني بلسانك فكان جزاؤه ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ فتح مكة في الظاهر وسخرت قواك لطاعتي فجازيناك بدخول الناس في دين الله أفواجاً . ثم إنه قابل هذه الخلع الثلاث بحكم تهادوا تحابوا بثلاثة أنواع العبودية إن نصرتك فسبح تنزيهاً لفعلي عن مشابهة المحدثات وتنبيهاً على أن لا يستحق أحد عليّ شيء ، وإذا فتحت مكة فاحمد لأن النعمة يجب

مقابلتها بالحمد ، وإذا رأيت الناس قد أطاعوك فاستغفر لذنبك وهو الاشتغال بما عسى أن يقع من لذة الجاه والقبول وللمؤمنين والمؤمنات ، لأنهم كلما كانوا أكثر كانت ذنوبهم أكثر وكان احتياجهم إلى الاستغفار أشد . وقوله ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ معناه لا تذهب إلى النصر بل النصر يجيء إليك نظيره " زويت لي الأرض " يعني لا تذهب إلى الأرض بل تجيء الأرض إليك ، ولا ترحل إلا إلى مقام قاب قوسين

﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً ﴾

[الإسراء : 1] بل أزيد على هذا فأفضل فقراء أمتك على أغنيائهم ثم آمر الأغنياء بالضحايا ليتخذوها مطايا ، فإذا بقي الفقراء من غير مطية أسوق الجنة إليهم

﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾

[ق : 31] وإنما قال في السورة المتقدّمة

﴿ ما أعبد ﴾

[الكافرون : 3] وههنا قال ﴿ نصر الله ﴾ إشارة إلى أنه يجب أن لا يذكر اسمي مع الأعداء حتى لا يهينوه ولكن اذكر اسمي مع الأحباب حتى يكرموه . والفرق بين النصر والفتح أن النصر أي الإعانة على تحصيل المطلوب هو الطريق ، والفتح هو المقصود ، ولهذا قدم الأول على الثاني . وقيل : النصر كمال الدين والفتح الإقبال الدنيوي له ولأمته كقوله

﴿ أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾

(146/836)

[المائدة : 3] وقيل : النصر هو الظفر على المنى في الدنيا والفتح في الآخرة

﴿ وفتحت أبوابها ﴾

[الزمر : 73] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبداً منصوراً بالدلائل والمعجزات إلا أن الغلبة على قريش بل على أكثر العرب لما حصلت في هذا التاريخ صح التقييد به . ثم إن جمهور المفسرين ومنهم ابن عباس ذكروا أن الفتح هو فتح مكة الذي يقال له فتح الفتوح . يروى أن فتح مكة كان سنة ثمان ونزول السورة سنة عشر ولم يعش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزولها إلا سبعين يوماً ولذلك تسمى سورة التوديع ، وقد اتفق أكثر الصحابة على أنها دلت على نعي الرسول صلى الله عليه وسلم وفهمه بعض الصحابة منها ، وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزولها فقال : إن عبداً خيّره الله بين الدنيا وبين لقائه في الآخرة فاختار لقاء الله .

(147/836)

قالوا : ومما يدل عليه أنه ذكر مقروناً بالنصرة وقد كان يجد النصر دون الفتح كبدر ، والفتح دون النصر كإجلاء بني النضير فإن فتح البلد لكن لم يأخذ القوم . أما يوم فتح مكة فاجتمع له الأمران ، وصار الخلق له كالأرقاء حتى أعتقهم " وذلك أنه صلى الله عليه وسلم وقف على باب المسجد وقال : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . ثم قال : يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم ؟ فقالوا : خير ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء " فسموا بذلك . وقيل : فتح خيبر . وقيل : فتح الطائف . وعن أبي مسلم : النصر على الكفار وفتح بلاد الشرك على الإطلاق . وقيل : انشراح الصدر للخيرات والأعمال الفاضلة ، والفتح انفتاح أبواب المعارف والكشوف . أما الذين قالوا إن الفتح فتح مكة وكان نزول السورة قبله على ما يدل عليه ظاهر صيغة إذاً فالآية من جملة المعجزات لأنها إخبار بالغيب وقد وقع . واللام في الفتح بدل من الإضافة كأنه قيل : وفتح الله . قوله ﴿ ورأيت ﴾ ظاهره أنها رؤية القلب ، وجوز أن تكون رؤية البصر فيكون ﴿ يدخلون ﴾ حالاً . وظاهر لفظ الناس يقتضي العموم فيجيب أن يقدر غيرهم كالنسناس بدليل قوله

﴿ أولئك كالأنعام ﴾

[الأعراف : 79] وسئل الحسن بن عليّ فقال : نحن الناس وأشياعنا أشباه الناس

وأعداؤنا النسناس ، فقبّله عليّ بين عينينه وقال

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾

(148/836)

[الأنعام : 124] قيل : إنهم لما دخلوا في الإسلام بعد مدة طويلة وتقصير كثير فكيف استحقوا المدح بأنهم الناس ؟ وأجيب بأنه إشارة إلى سعة رحمة الله فإن العبد بعد أن أتى بالكفر والمعصية سبعين سنة فإذا أتى بالإيمان في آخر عمره قبل إيمانه كأن الرب تعالى يقول : ربيته سبعين سنة مات على كفره وقع في النار وضاع إحساني إليه في سبعين سنة . ويروى أن الملائكة تقول لمثل هذا الإنسان : أتيت وإن كنت قد أبيت . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " الله أفرح بتوبة أحدكم من الضال الواجد والظمآن الواردة " ويجوز أن يكون المراد بالناس أهل اليمن على ما روي عن أبي هريرة انه لما نزلت السورة قال النبي صلى الله عليه وسلم : " الله أكبر جاء نصر الله والفتح . وجاء " أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم " الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية " وقال " إني لأجد نفس الرحمن من جانت اليمن " قال جمهور الفقهاء وكثير من المتكلمين : إن إيمان المقلد صحيح لأنه تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج وجعله من أعظم المنن على نبيه . ثم إنا نعلم قطعاً أنهم ما كانوا

يعرفون حدوث الأجسام بالدلائل ولا صفات الكمال ونعوت الجلال ، وكونه سبحانه متصفاً بها منزهاً عن غيرها ولا ثبوت المعجز التام على يد محمد صلى الله عليه وسلم ولا وجه دلالة المعجزة على النبوة .

(149/836)

وعن الحسن : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قالت العرب : لا يدي لنا به فقد ظفر بأهل مكة وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل وكل من أرادهم بسوء فأخذوا يدخلون في الإسلام أفواجاً من غير قتال . ولا شك أن هذا القدر مما يفيد غلبة الظن فقط . والفوج الجماعة الكثيرة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعدما كانوا يدخلون فيه واحداً واحداً واثنين اثنين . وروي أن جابر بن عبد الله بكى ذات يوم فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : دخل الناس في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً . ثم إنه أمره بالتسبيح ثم بالحمد ثم بالاستغفار فكأنه صلى الله عليه وسلم ضاق قلبه عن تأخير النصر كما قال

﴿ وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ﴾

[البقرة : 214] فأمر بالتسبيح تنزيهاً لله عما لا يليق بكماله وحكمته وعنايته بخلقه ،

وأمر أن يكون التسبيح مقروناً بالحمد لأن المقام يستدعي تذكير النعمة وهي الفتح والنصر ودخول الناس في الدين من غير متاعب الجهاد ومؤن القتال ، ثم أمر بالاستغفار كفارة لما عسى أن يبدو ويدور في الخلد من ملاحظة حاله بعين الكمال ، وكما أن التسبيح المقرون بالحمد نظر من الحق إلى الخلق فالاستغفار عكسه وهو التفات عن الخلق إلى الحق . وإنما فهمت الصحابة من السورة نعي النبي صلى الله عليه وسلم لأن كل كمال فإنه يدل على زوال كما قيل : إذا تم أمر بدا نقصه توقع زوالاً إذا قيل تم

ويمكن أن يقال : إنه أمر بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقاً . ولا يخفى أن الاشتغال بهذه الأعمال يمنع من الاشتغال بأعباء التبليغ وبأداء ما كان يواظب عليه من رعاية مصالح الأمة ، فكان هذا كالتنبيه على أن أمر الرسالة قد تم وكمل بسبب الموت والإلزام العزل . " روت عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة كان يكثر أن يقول : سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك " وفي رواية : "كان يكثر أن يقول في ركوعه : سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي " وفي رواية أخرى "كان نبي الله صلى الله عليه وسلم في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال : سبحان الله وبحمده .

فقلت : يا رسول الله إنك تكثر من قول " سبحان الله وبحمده " قال : إني أمرت بها وقرأ السورة " وعن ابن مسعود أنه لما نزلت هذه السورة كان صلى الله عليه وسلم

(151/836)

" يكثر أن يقول : سبحانك الله وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم " وفي الآية تنبيه على أن العاقل إذا قرب أجله وأنذره الشيب أقبل على التوبة والاستغفار وتدارك بعض ما فات في أوان الغفلة والاغترار . وفي معنى الباء في قوله ﴿ بحمد ربك ﴾ وجوه للمفسرين منها : أن المراد قل سبحان الله والحمد لله تعجباً مما أراك من مقصودك . يقال : شربت اللبن بالعسل أي خلطتهما فشربت المخلوط . ومنها أن الباء للآلة أي سبحه بواسطة تحميده لأن الثناء يتضمن التنزيه عن النقائص ، والدليل عليه أنه صلى الله عليه وسلم عند فتح مكة بدأ بالتحميد قائلاً الحمد لله الذي نصر عبده . ومنها أن المراد فسبح متلبساً بالحمدنية لأنك لا يتأتى لك الجمع بينهما لفظاً فاجمعهما نية . وقيل : سبحه مقروناً بحمد الله على ما هداك إلى تسبيحه كما روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : الحمد لله على الحمد لله . وقيل : الباء للبدل أي ائت بالتسبيح بدل الحمد الواجب عليك في

مقابلة نعمة النصر والفتح لأن الحمد لا حصر له

﴿ وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها ﴾

(152/836)

[إبراهيم : 34] وقيل : فيه إشارة إلى أن التسبيح والحمد لله أمر أن لا يجوز تأخير أحدهما عن الآخر لوجوب الإتيان بكل منهما على الفور كما لو ثبت له حق الشفعة وحق الرد بالعيب وجب أن يقول اخترت الشفعة بردّي ذلك المبيع . وقيل : الباء صلة أي طهر محامد ربك عن النقائض والرياء . وفي تخصيص الرب بالمقام إشارة إلى أن التربية هي الموجبة للحمد ، أما الاستغفار فإن كان لأجل الأمة فلا إشكال ، وإن كان لأجل نفسه فإما للاقتداء وإما لترك الأولى والأفضل ، وإما بالنظر إلى المرتبة المتجاوز عنها فإن السالك يلزمه عند الارتقاء في كل درجة يصل إليها أن يستغفر عما يخلفها . وفي قوله ﴿ تواباً ﴾ دون أن يقول " غفاراً كما في سورة نوح إشارة إلى أن هذا النبي صلى الله عليه وسلم بل هذه الأمة امتثلوا فاستغفروا وتابوا فوجب على فضل الله قبول توبتهم بخلاف قوم نوح . انتهى انتهى . اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 584 . 587﴾

(153/836)

وقال الخطيب الشربيني :

سورة النصر

مدنية بالإجماع وتسمى سورة التوديع ، وهي ثلاث آيات وستة عشر كلمة وتسعة وسبعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ الذي له الأمر كله فهو العليم الحكيم ﴿ الرحمن ﴾ الذي أرسلك رحمة من الله العليّ العظيم ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل ودّه بفضله العميم .

وقوله تعالى : ﴿ إذا ﴾ منصوب بسبح ﴿ جاء نصر الله ﴾ ، أي : الملك الأعظم الذي لا مثل له ، ولا أمر لأحد معه بإظهاره إياك على أعدائك ومعنى جاء استقرّ وثبت في المستقبل بمجيء وقته المضروب له في الأزل ، وزاد في تعظيمه بالإضافة ثم بكونها إلى اسم الذات .

وقرأ حمزة وابن ذكوان بإمالة الألف بعد الجيم محضة والباقون بالفتح ، والإعلام به قبل كونه من أعلام النبوّة ، روي أنها نزلت أيام التشريق بمنى في حجة الوداع ﴿ والفتح ﴾ ، أي : فتح مكة وهو الفتح الذي يقال له فتح الفتوح ، وقصته مشهورة في البغوي وغيره فلا نطيل بذكرها ، وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب ، وأقام بها خمس عشرة

ليلة ، ثم خرج إلى هوزان وحين دخلها وقف على باب الكعبة ثم قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ثم قال : يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم ، ثم قال : "اذهبوا فأنتم الطلقاء" فأعتقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الله تعالى قد أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فيأ فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء ثم بايعوه على الإسلام في دين الله تعالى في ملة الإسلام التي لا دين له يضاف إليه غيرها ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ (آل عمران :) وقيل : المراد جنس نصر الله تعالى المؤمنين وفتح بلاد الشرك عليهم . فإن قيل : ما الفرق بين النصر والفتح حتى عطف عليه ؟

أجيب : بأنّ النصر الإعانة والإظهار على العدوّ ، ومنه نصر الله تعالى الأرض أغاثها قال الشاعر :

---

*إذا انسلخ الشهر الحرام فودّعي ** بلاد تميم وانصري آل عامر*

ويروى :

*إذا دخل الشهر الحرام فجاوزي ** بلاد تميم وانصري أرض عامر*

والفتح فتح البلاد ، وقال الرازي : الفرق بين النصر والفتح أنّ الفتح هو الإعانة على تحصيل المطلوب الذي كان متعلقاً به ، والنصر كالسبب فلهذا بدأ بذكر النصر وعطف الفتح عليه .

فإن قيل : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان دائماً منصوراً بالدلائل والمعجزات فما المعنى : بتخصيص لفظ النصر بفتح مكة ؟ .

أجيب : بأنّ المراد من هذا النصر هو النصر الموافق للطبع . فإن قيل : النصر لا يكون إلا من الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ (آل عمران :) فما فائدة التقييد بنصر الله ؟

أجيب : بأنّ معناه نصر لا يليق إلا بالله تعالى ، كما يقال هذا صنعة زيد إذا كان مشهوراً بإحكام الصنعة والمقصود منه تعظيم حال تلك الصنعة فكذا ههنا . فإن قيل : الذين أعانوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة هم أصحابه من المهاجرين والأنصار ، ثم إنه تعالى سمى نصرتهم لرسوله صلى الله عليه وسلم نصر الله فما السبب في ذلك ؟

أجيب : بأنّ النصر وإن كان على يد الصحابة لكن لا بدّ له من داع وباعث وهو من الله تعالى ، فإن قيل : فعلى هذا الجواب يكون فعل العبد مقدّماً على فعل الله تعالى ، وهذا بخلاف النصر لأنه تعالى قال : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾ (محمد :) فجعل نصره مقدّماً على نصره لنا ؟

أجيب : بأنه لا امتناع في أن يكون فعل العبد سبباً لفعل آخر يصدر عن الله تعالى ، فإنّ أسباب الحوادث ومسبباتها على ترتيب عجيب تعجز عن إدراكه العقول البشرية .

ولما عبر عن المعنى : بالمجيء عبر عن المرئي بالرؤية فقال تعالى :

(155/836)

﴿ ورأيت ﴾ ، أي : ببصرك (الناس) ، أي : العرب الذي كانوا حقيرين عند جميع الأمم فصاروا بك هم الناس كما دلت عليه لام الكمال ، وصار سائر أهل الأرض لهم أتباعاً بالنسبة إليهم رعاعاً حال كونهم ﴿ يدخلون ﴾ شيئاً فشيئاً متجدّداً دخولهم مستمرّاً ﴿ في دين الله ﴾ ، أي : شرع من لم تزل كلمته هي العليا ﴿ أفواجاً ﴾ ، أي : جماعات كثيفة كانت تدخل فيه القبيلة بأسرها بعد ما كانوا يدخلون واحداً واحداً واثنين اثنين . وعن جابر بن عبد الله أنه بكى ذات يوم ، فقيل له في ذلك فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "دخل الناس في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً" . وقال عكرمة ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين طائعين بعضهم يؤذنون ، وبعضهم يقرؤون القرآن ، وبعضهم يهللون فسر النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك . قال أبو هريرة لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الله أكبر جاء

نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن قوم رقيقة قلوبهم الإيمان يمان ، والفقه يمان والحكمة يمانية" وقال : "أجد نفس ربكم من قبل اليمن" وفي هذا تأويلات :

أحدها : أنه الفرج لتتابع إسلامهم أفواجاً .

الثاني : أنّ الله تعالى نفس الكرب عن نبيه صلى الله عليه وسلم بأهل اليمن وهم الأنصار .

وعن الحسن لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة أقبلت العرب بعضها على بعض ، فقالوا : أمّا إذ ظفر بأهل الحرم فليس به يدان ، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ومن كل من أرادهم فكانوا يدخلون في الإسلام أفواجاً من غير قتال أمّة بعد أمّة . قال الضحاك : والأمة أربعون رجلاً .

تنبيه : دين الله تعالى هو الإسلام لقوله تعالى : ﴿ إنّ الدين عند الله الإسلام ﴾ (آل عمران :)

وقال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ (آل عمران :)

وإضافة الدين إلى الاسم الدال على الإلهية إشارة على أنه يجب أن يعبد لكونه إلهاً وللدّين أسماء أخر منها الصراط قال تعالى : ﴿ صراط الله ﴾ (الشورى :)

ومنها النور ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله ﴾ (التوبة :)

ومنها الهدى قال تعالى : ﴿ هدى الله يهدي به من يشاء ﴾ (الأنعام :)

ومنها العروة الوثقى قال تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ (البقرة :)

ومنها الحبل المتين قال تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ (آل عمران :)

ومنها صبغة الله ، ومنها فطرة الله .

تنبيه : جمهور الفقهاء وأكثر المتكلمين على أنّ إيمان المقلد صحيح ، واحتجوا بهذه الآية قالوا : إنّ الله تعالى حكم بصحة إيمان أولئك الأفواج وجعله من أعظم المنن على نبيه صلى الله عليه وسلم فلو لم يكن إيمانهم صحيحاً لما ذكره في هذا المعرض ، ثم إنا نعلم قطعاً أنهم كانوا يعرفون حدوث الأجسام بالدليل ولإثبات كونه تعالى عالماً بجميع المعلومات التي لا نهاية لها ولإثبات الصفات والتنزيهات بالدليل والعلم بأنّ أولئك الأعراب ما كانوا عالمين بهذه الدقائق ضروري فعلمنا أنّ إيمان المقلد صحيح .

فإن قيل : إنهم كانوا عالمين بأصول دلائل هذه المسائل لأنّ أصول هذه الدلائل ظاهرة ، بل كانوا جاهلين بالتفاصيل ؟ .

أجيب : بأنّ الدليل لا يقبل الزيادة والنقصان ، فإنّ الدليل إذا كان مثلاً من عشر مقدمات

فمن علم تسعة منها وكان في المقدّمة العاشرة مقلداً كان في النتيجة مقلداً لا محالة .

ولما كمل الدين أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يشتغل بنفسه فقال عز من قائل :

(157/836)

﴿ فسبح ﴾ ، أي : نزه بقولك وفعلك بالصلاة وغيرها تسبيحاً ملتبساً ﴿ بحمد ربك ﴾ ، أي : الذي أنجز لك الوعد بإكمال الدين وقمع المعتدين المحسن إليك بجميع ذلك ، لأنّ هذا كله لكرامتك وإلا فهو عزيز حميد على كل حال تعجباً لتيسير الله تعالى لهذا الفتح الذي لم يخطر ببال أحد حامداً له عليه ، أو فصل له حامداً على نعمه قاله ابن عباس . روي أنه صلى الله عليه وسلم "لما دخل مكة بدأ بالسجود فدخل الكعبة وصلى ثمان ركعات" .

﴿ واستغفره ﴾ ، أي : اطلب غفرانه لتقتدي بك أمّتك في المواظبة على الأمان الثاني ، فإنّ الأمان الأول الذي هو وجودك بين أظهرهم قد دنا رجوعه إلى معدنه في الرفيق الأعلى ، والمحل الأقدس ، وفي ذلك إشارة إلى أنه لا يقدر أحد أن يقدر الله تعالى حق قدره كما أشار إلى ذلك الاستغفار عقب الصلاة التي هي أعظم العبادات وفي الصحيحين عن عائشة أنها قالت : "ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة إذا جاء نصر الله والفتح إلا يقول : استغفر الله وأتوب إليه ، قال : فإني أمرت بها ، ثم

قرأ ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلى آخرها" . وقال عكرمة : لم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم قط أشد اجتهاداً في أمور الآخرة ما كان عند نزولها . وقال مقاتل : لما نزلت قرأها النبيّ صلى الله عليه وسلم على أصحابه ، وفيهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبي وقاص والعباس ففرحوا واستبشروا ، وبكى العباس فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم "ما يبكيك يا عمّ ؟ قال : نعيت إليك نفسك ، . قال : إنه كما قلت ، فعاش بعدها ستون يوماً ما رؤى ضاحكاً مستبشراً" وقيل : نزلت في منى بعد أيام التشريق في حجة الوداع فبكى عمر والعباس ، فقيل لهما : هذا يوم فرح ، فقالا : لا بل فيه نعي النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن ابن عمر نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ثم نزل ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ﴾ (المائدة :)

فعاش صلى الله عليه وسلم بعدها ثمانين يوماً ، ثم نزلت آية الكلالة فعاش بعدها خمسين يوماً ، ثم نزلت ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ (التوبة :)

فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوماً ، ثم نزل : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ (البقرة :)

فعاش بعدها أحداً وعشرين يوماً . وقال مقاتل : سبعة أيام ، وقيل : غير ذلك . وقال الرازي : اتفق الصحابة على أنّ هذه السورة دلت على نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك لوجوه :

أحدها : أنهم عرفوا ذلك لما خطب صلى الله عليه وسلم عقب السورة وذكر التخيير ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته لما نزلت هذه السورة : "إنّ عبداً خيره الله بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء الله فقال أبو بكر رضي الله عنه : فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا " .

ثانيها : أنه لما ذكر حصول النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجاً دل ذلك على حصول الكمال والتمام ، وذلك يستعقبه الزوال كما قيل : :

*إذا تمّ أمر بدا نقصه ** توقع زوالاً إذا قيل تم*

(159/836)

ثالثها : أنه تعالى أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار مطلقاً ، واشتغاله بذلك يمنعه من الاشتغال بأمر الأمة فكان هذا كالتنبيه على أنّ أمر التبليغ قد تم وكمل ، وذلك يقتضي انقضاء الأجل إذ لو بقي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك لكان كالمعزول من الرسالة وذلك

غير جائز وعن ابن عباس : أن عمر كان يدنيه ويأذن له مع أهل بدر ، فقال عبد الرحمن : أتأذن لهذا الفتى معنا وفي أبنائنا من هو مثله ؟ فقال : إنه من قد علمتم . قال ابن عباس : فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم فسألهم عن قول الله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ولا أراه سألهم إلا من أجلي ، فقال بعضهم : أمر الله تعالى نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه فقلت ليس كذلك ولكن نعيت إليه نفسه ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا مثل ما تعلم ، ثم قال : كيف تلومونني عليه بعد ما ترون . وروي أنه صلى الله عليه وسلم "دعا فاطمة رضي الله عنها فقال : يا بنتاه إني نعيت إلى نفسي فبكت ، فقال : لا تبكي فإنك أوّل أهلي لحوقاً بي" وعن عائشة "كان صلى الله عليه وسلم يكثر قبل موته أن يقول : "سبحانك اللهمّ وبحمدك اشتغفرك وأتوب إليك" وعنها أيضاً "ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلا يقول فيها : سبحانك اللهمّ وبحمدك اللهمّ اغفر لي" . وقالت أم سلمة رضي الله عنها : "كان النبيّ صلى الله عليه وسلم آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلا قال : "سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه . قال : فإني أمرتُ بها ثم قرأ ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلا آخرها" . وقيل : استغفره هضماً لنفسك واستصغاراً لعملك واستدراكاً لما فرط منك بالالتفات على غيره وعنه عليه الصلاة والسلام : "إني استغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة"

وقيل : استغفر لأمّتك وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار على طريق النزول من الخالق إلى الخلق ، كما قيل : ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله

(160/836)

قبله .

ولما أمره الله تعالى بالتسبيح والاستغفار أرشده إلى التوبة بقوله تعالى : ﴿ إنه ﴾ ، أي : المحسن إليك بالنصر والفتح وغير ذلك مما لا يدخل تحت الحصر ﴿ كان ﴾ ، أي : ولم يزل ﴿ تواباً ﴾ ، أي : رجاعاً بمن ذهب به الشيطان من أهل رحمته ، فهو الذي رجع بأنصارك عما كانوا عليه من الاجتماع على الكفر والاختلاف والعداوات ، فأيدك الله تعالى بدخولهم في الدين شيئاً فشيئاً إلى أن دخلت مكة بعشرة آلاف ، وهو أيضاً يرجع بك إلى الحالة التي يزداد بها ظهور رفعتك في الرفيق الأعلى . قال الله تعالى : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ (الضحى :)

فتفوز بتلك السعادات العالية . وعن ابن مسعود : أنّ هذه السورة تسمى سورة التوديع .

قال قتادة ومقاتل : عاش النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة سنتين وهذا بناء على أنها نزلت قبل فتح مكة ، وهو قول الأكثر فإنّ الفتح كان في سنة ثمان ، وأمّا من

قال : عاش دون ذلك كما مر فبناء على أنها نزلت في حجة الوداع كما مرّ أيضاً .

تنبيه : في الآية سؤالات أحدها أنّ قوله تعالى : ﴿ كان توابا ً ﴾ يدل على الماضي وحاجتنا إلى قبوله في المستقبل . ثانيها : هلا قال غفارا ً كما قال في سورة نوح عليه السلام . ثالثها : أنه قال تعالى : ﴿ نصر الله ﴾ وقال تعالى : ﴿ في دين الله ﴾ وقال تعالى ﴿ بحمد ربك ﴾ ولم يقل بحمد الله ؟

أجيب : عن الأوّل بوجوه :

أحدها : أنّ هذا أبلغ كأنه يقول إني تبت على من هو أقبح فعلاً منكم كاليهود ، فإنهم بعد ظهور المعجزات العظيمة كفلق البحر ونتق الجبل ونزول المنّ والسلوى عصوا ربهم وأتوا بالقبائح ، ولما تابوا قبلت توبتهم فإذا كنت قابلاً لتوبة أولئك وهم دونكم أفلا أقبل توبتكم وأنتم خير أمّة أخرجت للناس .

ثانيها : إني شرعت في توبة العصاة ، والشروع ملزم على قول النعمان فكيف في كرم الرحمن .

ثالثها : كنت توابا ً قبل أمركم بالاستغفار ، أفلا أقبل وقد أمرتكم .

رابعها : كأنه أشار إلى تخفيف جنايتهم ، أي : لستم أوّل من جنى وتاب ، والمعصية إذا عمت خفت .

خامسها : كأنه نظير ما يقال لقد أحسن الله إليك فيما مضى ، كذلك يحسن إليك فيما بقي . وأجيب : عن الثاني بوجهين : أحدهما لعله خص هذه الأمة بزيادة الشرف لأنه لا يقال في صفات العبد : غفار ، ويقال : تواب إذا كان آتياً بالتوبة فيقول تعالى : كنت لي سمياً من أوّل الأمر أنت مؤمن وأنا مؤمن ، وإن كان المعنى : مختلفاً فتب حتى تصير سمياً في آخر الأمر ، وأنت تواب وأنا تواب ثم التوّاب في حق الله تعالى إنه يقبل التوبة كثيراً . فيجب على العبد أن يكون إتيانه بالتوبة كثيراً . وثانيهما : أنه تعالى إنما قال تواباً لأنّ القائل قد يقول استغفر الله وليس بتائب كقوله عليه الصلاة والسلام : "المستغفر بلسانه المصر بقلبه كالمستهزئ بربه" .

فإن قيل : قد يقول أتوب وليس بتائب ؟

أجيب : بأن ذا يكون كاذباً لأنّ التوبة اسم للرجوع والندم ، بخلاف الاستغفار فإنه لا يكون كاذباً فيه فصار تقدير الكلام : واستغفره بالتوبة ، وفيه تنبيه على أنّ خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار فكذا خواتيم الأعمار . وأجيب عن الثالث : بأنه تعالى راعى العدل فذكر اسم الذات مرّتين ، وذكر اسم الفعل مرّتين أحدهما الرب ، والثاني التوّاب . ولما كانت التربية تحصل أولاّ والتوبة آخراً ، لا جرم ذكر اسم الرب أولاً واسم التوبة آخراً

فنسأل الله تعالى من فضله وكرمة أن يمنّ علينا بتوبة نصوح لا ننكث بعدها أبداً ، فإنه كريم رحيم .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة ﴿ إذا نصر الله ﴾ "أعطي من الأجر كمن شهد مع محمد يوم فتح مكة" حديث موضوع . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 450.457 ﴾

(162/836)

وقال أبو السعود :

﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ الله ﴾

أيْ إعانتُه تعالى وإظهارُه إياكَ على عدوكَ ﴿ والفتح ﴾ أيْ فتحُ مكةَ وقيلَ : جنسُ نصرِ الله تعالَى ومطلقُ الفتحِ فإنَّ فتحَ مكةَ لَمَّا كانَ مِفْتَاحَ الفتوحِ ومناطَهَا كمَا أنَّ نفسَها أمُّ القُرَى وإمامُها جُعلَ مجيئُهُ بمنزلةِ مجيءِ سائرِ الفتوحِ وعلقَ بهِ أمرُهُ عليهِ السلامُ بالتسبيحِ والحمدِ والتعبيرُ عنْ حصولِ النصرِ والفتحِ بالمجيءِ للإيذانِ بأنهمَا متوجهانِ نحوَهُ عليهِ السلامُ وأنهُمَا على جناحِ الوصولِ إليهِ عليهِ السلامُ عن قريبٍ . رُوي أنها نزلتْ قبلَ الفتحِ وعليهِ الأكثرُ . وقيلَ : في أيامِ التشريقِ بِمنًى في حجةِ الوداعِ ، فكلمةُ إذَا حينئذٍ باعتبارِ أنَّ بعضَ مَا في

حيزِهَا أَعْنِي رؤيةَ دخولِ الناسِ الخ، غيرُ منقضٍ بعدُ وكانَ فتحُ مكةَ لعشرٍ مضينَ من شهرِ رمضانَ سنةَ ثمانٍ ومعَ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ عشرةُ آلافٍ منَ المهاجرينَ والأنصارِ وطوائفِ العربِ وأقامَ بهَا خمسَ عشرةَ ليلةً وحينَ دخلَها وقفَ على بابِ الكعبةِ ثمَّ قالَ: " لاَ إلهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شريكَ لَهُ صدقَ وعدَهُ ونصرَ عبدَهُ وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ". ثمَّ قالَ: "يا أهلَ مكةَ ما ترونَ أني فاعلٌ بكُم؟" قالُوا: خيراً أَخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ، قالَ: " اذهبُوا فأنتُمْ الطلقاءُ" فأعتقهُمْ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وقدْ كانَ اللهُ تعالَى أمكنَهُ من رقابِهم عنوةً وكانُوا له فياءً ولذلكَ سميَ أهلُ مكةَ الطلقاءَ ثمَّ بايعُوه على الإسلامِ ثمَّ خرجَ إلى هوازنَ ﴿ ورَأَيتَ الناس ﴾ أيْ أبصرتهُمْ أو علمتهُمْ ﴿ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ الله ﴾ أيْ ملةِ الإسلامِ التي لا دينَ يضافُ إليهِ تعالَى غيرُهَا والجملةُ على الأولِ حالٌ من الناسِ وعلى الثاني مفعولٌ ثانٍ لرأيتَ وقولُه تعالَى: ﴿ أَفْوَاجاً ﴾ حالٌ من فاعلِ يدخلونَ أيْ يدخلونَ فيهِ جماعاتٍ كثيفةً كأهلِ مكةَ والطائفِ واليمنِ وهوازنَ وسائرِ

قبائلِ العربِ وكانُوا قبلَ ذلكَ يدخلونَ فيهِ واحِداً واحِداً واثنينِ اثنينِ. رُويَ أنَّه عليهِ السلامُ لما فتحَ مكةَ أقبلتِ العربُ بعضُها على بعضٍ فقالوا: إذَا ظفرَ بأهلِ الحرمِ فلنْ يقاومَهُ أحدٌ

وقدْ كانَ اللهُ تعالَى أجارَهُم من أصحابِ الفيلِ ومن كُلّ من أرادهُم فكانُوا يدخلونَ في دينِ الإسلامِ أفواجاً من غيرِ قتالٍ وقرىءَ فتحُ اللهِ والنصرُ وقُرِىءَ يُدخلونَ على البناءِ للمفعولِ .

(164/836)

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ فقُلْ : سبحانَ اللهِ حامداً لهُ أو فتعجبَ لتيسيرِ اللهِ تعالَى ما لَمْ يخطُرْ ببالِ أحدٍ من أنْ يغلبَ أحدٌ على أهْلِ حرمِهِ المحترمِ واحمدْهُ على جميلِ صُنعِه ، هذا على الروايةِ الأُولى ظاهرٌ وأمّا على الثانيةِ فلعلّهُ عليهِ السلامُ أُمرَ بأنْ يداومَ على ذلكَ استعظاماً لنعمهِ لا لإِحداثِ التعجبِ لما ذُكرَ فإنَّهُ إنما يناسبُ حالةَ الفتحِ أو فاذكُرْهُ مسبحاً حامداً زيادةً في عبادتِهِ والثناءِ عليهِ لزيادةِ إنعامِه عليكَ أو فصلِّ لهُ حامداً على نعمِه . رُويَ أنَّه لما فتحَ بابَ الكعبةِ صلَّى صلاةَ الضحى ثمانِ ركعاتٍ . أو فنزههُ عما يقولُه الظلمةُ حامداً لهُ على أنْ صدقَ وعدَهُ أو فاثنِ على اللهِ تعالَى بصفاتِ الجلالِ حَامِداً له على صفاتِ الإكرامِ ﴿ واستغفره ﴾ هضْماً لنفسكَ واستقصاراً لعملكَ واستعظاماً لحقوقِ اللهِ تعالَى واستدراكاً لما فرطَ منكَ من تركِ الأَولَى . عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا (أنه كانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يكثرُ قبلَ موتِه أنْ يقولَ : " سُبْحانكَ اللهمَّ وبحمدكَ استغفركَ وأتوبُ إليكَ " وعنهُ عليهِ السلامُ : " إنّي لأستغفرُ في اليومِ والليلةِ مائةَ مرةٍ " ورُويَ أنَّه لمَّا قرأَها النبيُّ

عليهِ الصلاةُ والسلامُ على أصحابه استبشرُوا وبكَى العباسُ فقالَ عليهِ السلامُ : " ما يبكيكَ يا عمُّ ؟ " فقالَ : نعيتْ إليكَ نفسُكَ ، قالَ عليهِ السلامُ : " إنَّها لكما تقولُ " فلَمْ يُرَ عليهِ السلامُ بعدَ ذلكَ ضاحكاً مستبشراً وقيل : إنَّ ابنَ عباسٍ هُو الذي قالَ ذلكَ فقالَ عليهِ السلامُ : " لقدْ أُوتي هذا الغلامُ علماً كثيراً " أو لعلَّ ذلكَ للدلالةِ على تمامِ أمرِ الدعوةِ وتكاملِ أمرِ الدينِ كقولِه تعالَى : ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ ورُوِيَ أنَّها لمَّا نزلتْ خطبَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقالَ : " إنَّ عبداً خيرهُ اللهُ تعالَى

بينَ الدُّنيا وبينَ لقائِه فاختارَ لقاءَ اللهِ تعَالَى " فعلَمَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنه فقالَ : فدينَاكَ بأنفسِنا وآبائِنا وأولادِنا . وعنْهُ عليهِ السلامُ أنهُ دعَا فاطمةَ رضيَ اللهُ عنْهَا فقالَ : " يا بنتَاهُ إنَّه نعيتْ إليَّ نفسِي " فبكتْ فقالَ : " لا تبكِي فإنكِ أولُ أهْلي لحوقاً بي " وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنْهُ أنَّ هذه السورةَ تُسمَّى سورةَ التوديعِ ، وقيلَ : هو أمرٌ بالاستغفارِ لأمتِه ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ منذُ خلقَ المكلفينَ أيْ مبالغاً في قبولِ توبتِهم فليكُنْ كُلُّ تائبٍ مستغفرٍ متوقعاً للقبولِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 9 صـ ﴾

وقال الجاوى:

سورة النصر

وتسمى سورة التوديع لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا وهي آخر سورة نزلت - قاله ابن عباس - مدنية، هي ثلاث آيات وثلاث، عشرون كلمة، تسعة وسبعون حرفا

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ إن كان نزول هذه السورة قبل فتح مكة، ف «إذا» ظرف مستقبل جوابه فسبح، فإن كان النزول بعد الفتح ف «إذا» بمعنى إذ التي للماضي، فهي على هذا متعلقة بمقدر، أي أكمل اللّه الأمر وأتم النعمة إذ حصل إعانة اللّه تعالى على عدوك، وَالْفَتْحُ (1) أي فتح مكة، وهو الفتح الذي يقال له: فتح الفتوح، وكان لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان،

فقد خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم من المدينة ومعه عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وطوائف العرب إلى أن نزل بمر الظهران، وقدم العباس وأبو سفيان إليه، فاستأذنا، فأذن لعمه خاصة، فقال أبو سفيان: إما أن تأذن لي، وإلا أذهب بولدي إلى المفازة، فنموت جوعا وعطشا، فرق قلبه، فأذن له وقال له: «ألم يأن أن تسلم وتوحد؟» فقال: أظن أنه واحد ولو كان هاهنا غير اللّه لنصرنا، فقال:

«ألم يأن أن تعرف أني رسوله؟» فقال: إن لي شكا في ذلك، فقال العباس: أسلم قبل أن

يقتلك عمر فقال : وماذا أصنع بالعزى ؟ فقال عمر : لولا أنك بين يدي رسول اللّه لضربت عنقك ، فقال :

يا محمد ، أليس الأولى أن تترك هؤلاء الأوباش ، وتصالح قومك وعشيرتك ، فسكان مكة عشيرتك وأقاربك وتعرضهم للشن والغارة ، فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «هؤلاء نصروني وأعانوني وذبوا عن حريمي ، وأهل مكة أخرجوني وظلموني فإن هم أسروا فبسوء صنيعهم» . وأمر العباس بأن يذهب به ويوقفه على المرصاد ليطالع العسكر ، ثم تقدم أبو سفيان ودخل مكة وقال : إن محمدا جاء

بعسكر لا يطيقه أحد ولما سمع أبو سفيان أذان القوم للفجر وكانوا عشرة آلاف فزع من ذلك فزعا شديدا ، وسأل العباس ، فأخبره بأمر الصلاة ، ودخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم مكة على راحلته ولحيته على قربوس سرجه ، كالساجد تواضعا وشكرا ، ثم التمس أبو سفيان الأمان فقال : «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» . فقال : ومن تسع داري فقال : «ومن دخل المسجد فهو آمن» فقال : ومن يسع المسجد فقال : «من ألقى سلاحه فهو آمن ومن أغلق بابه فهو آمن» ، ثم وقف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم على

باب المسجد وقال : «لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده» ثم قال : «يا أهل مكة ما ترون أني فاعل بكم» ، فقالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم فقال : «اذهبوا ، فأنتم الطلقاء»

«1» ، فأعتقهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وقد كان اللّه تعالى أمكنه من رقابهم عنوة ، وكانوا له فيئا ، فلذلك سمي أهل مكة الطلقاء ، ثم بايعوه على الإسلام ، وأقام صلّى اللّه عليه وسلّم في مكة خمس عشرة ليلة ، ثم خرج إلى هوازن .

---

(1) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (2 : 127) .

(168/836)

وقرئ «فتح اللّه» و«النصر» . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (2) ، أي وأبصرت الناس يدخلون في ملة الإسلام جماعات كثيفة كأهل مكة ، والطائف ، واليمن ، وهوازن ، وسائر قبائل العرب ، وكانوا قبل ذلك فيه واحدا واحدا ، واثنين اثنين . وقرئ «يدخلون» على البناء للمفعول فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ . أي فقل سبحان اللّه حامدا له ، وَاسْتَغْفِرْهُ أي واطلب غفرانه هضما لنفسك واستقصارا لعملك ، واستعظاما ، لحقوق اللّه ، واستدراكا لما فرط منك من ترك الأولى ، وكأنه تعالى يقول : إذا جاء نصر اللّه إياك

والمؤمنين، والفتح، ودخول الناس في دينك فاشتغل أنت بالتسبيح والحمد والاستغفار إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (3) أي إنه تعالى يكثر قبول التوبة لكثير من التائبين، والتوبة اسم للرجوع والندم، والإنسان قد يقول: أستغفر اللّه وليس بتائب، فيكون كاذبا وكان تقدير الكلام: واستغفره بالتوبة، وفي هذا تنبيه على أن خواتيم الأعمال يجب أن تكون بالتوبة والاستغفار، وكذا خواتيم الأعمار.

وروي أنه صلّى اللّه عليه وسلّم لم يجلس مجلسا إلا ختمه بالاستغفار.

وعن عائشة: كان نبي اللّه في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب، ولا يجيء إلا قال: «سبحان اللّه وبحمده» فقلت: يا رسول اللّه إنك تكثر من قول سبحان اللّه وبحمده؟ قال: «إني أمرت بها» وقرأ إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ.

وعن ابن مسعود لما نزلت هذه السورة كان صلّى اللّه عليه وسلّم يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الغفور» «1».

---

(1) رواه أحمد في (م 1/ ص 281)، والبيهقي في السنن الكبرى (9: 7)، وابن كثير في التفسير (8: 534)، والبغوي في شرح السنة (5: 128)، والطبري في التفسير (30: -)

قال مقاتل : لما نزلت هذه السورة قرأها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم على أصحابه ، وفيهم أبو بكر وعمر ، وسعد بن أبي وقاص والعباس ، ففرحوا ، واستبشروا ، وبكى العباس فقال له النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «ما يبكيك يا عم» قال : نعيت إليك نفسك ، أي أخبرت بموتك قال : «إنه كما قلت» ، فعاش بعدها ستين يوما ما رؤي فيها ضاحكا مستبشرا

، وعن ابن عمر نزلت هذه السورة بمنى في حجة الوداع ، ثم نزل الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي [المائدة : 3] فعاش النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بعدها ثمانين يوما ، ثم نزلت آية الكلالة ، فعاش بعدها خمسين يوما ، ثم نزل لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، فعاش بعدها خمسة وثلاثين يوما ، ثم نزل وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ [البقرة : 281] فعاش بعدها أحدا وعشرين يوما ، وقيل : أحد عشر يوما ، وقيل : سبعة أيام واللّه أعلم ، وتوفي صلّى اللّه عليه وسلّم في ربيع الأول لاثني عشر خلت منه من هجرته إلى المدينة والهجرة ، كانت لاثني عشر خلت من ربيع الأول كما أن مولده كذلك على المشهور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مراح لبيد حـ 2 صـ 673 . 675 ﴾

- 218) ، والسيوطي في الدر المنثور (5 : 96) ، وابن حجر في الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف (123) . [. . . . .]

(170/836)

وقال النخجواني :

[سورة النصر]

فاتحة سورة النصر

لا يخفى على من فتح عليه الحق باب العناية وكشف له سبيل الهداية والكرامة ان كل من دخل في كنف حفظ الحق وجواره وتوكل عليه وفوض أموره كلها إليه فقد أعانه اللّه ونصره على جميع أعاديه وأنجح عموم مطالبه ومآربه وجميع ما قدر له من الكمالات التي اودعها الحق في استعداده الفطري وقابليته الجبلية ولا شك ان أكمل الناس استعدادا وأتمهم قابلية وأفضلهم شرفا وكمالا هو الحضرة الختمية الخاتمية صلى اللّه عليه وسلم إذ قد طويت المراتب كلها دون مرتبته صلى اللّه عليه وسلم ولهذا كمل جميع مكارمه وكمالاته المنتظرة له صلى اللّه عليه وسلم في نشأته الأولى ليكون مقدمة وعنوانا على تكميل كمالاته الأخروية كما نبه سبحانه في هذه السورة بعد التيمن والتبرك بِسْمِ اللَّهِ المدبر لأمور حبيبه

صلى اللّه عليه وسلم على الوجه الأكمل الأحكم الرَّحْمنِ عليه بنصر أوليائه وقهر أعدائه الرَّحِيمِ له حيث فتح عليه أبواب الفتوحات الغيبية والشهادية والفيوضات اللدنية الفائضة عليه من عالم اللاهوت

[الآيات]

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ أى إذا جاءك يا أكمل الرسل وعد اللّه الذي قد وعدك به ان ينصرك على جميع أعدائك ويظهر دينك على الأديان كلها وقد جاءك أيضاً الفتح الذي أخبرك الحق بقوله انا فتحنا لك فتحا مبينا وبعد ما جاءك النصر وَالْفَتْحُ الموعود آن لك وكمل ظهورك واستيلاؤك على عموم الأعادي وظهر دينك على سائر الأديان الباطلة والآراء الفاسدة وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ حينئذ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً فوجا فوجا فرقة فرقة بعد ما كانوا يدخلون فيه فرادى

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ يا أكمل الرسل شكرا لما اعطاك جميع ما وعدك وفتح عليك الآفاق وأتم ببعثتك وظهورك محاسن الشيم ومكارم الأخلاق على الإطلاق وَاسْتَغْفِرْهُ واطلب منه الرجوع إلى من عن نوره صدرت لأنك مظهر اسراره وانواره واليه يرجع الأمر كله بعد إظهاره إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً رجاعا لأوليائه إلى مستقر قدسه وحضرة أنسه وبعد ما نزلت هذه السورة وامر سبحانه حبيبه صلى اللّه عليه وسلم فيها بالحمد والاستغفار اغتم الأصحاب وحزنوا إذ قد فهموا منها ان أجل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد قرب

فودعه الحق وأمره بالحمد والاستغفار وما عاش صلى اللّه عليه وسلم بعد نزوله الا أياما قلائل لذلك سموا هذه السورة سورة التوديع أيضا

خاتمة سورة النصر

عليك أيها الطالب للنجاة الأخروية والراغب إلى اللذات اللدنية الروحانية الموعودة ان تسترجع إلى اللّه وتستغفره في عموم أوقاتك وحالاتك وتفوض أمورك كلها إليه وتتخذه وكيلا وتجعله حسيبا وكفيلا فعليك ان تواظب على الطاعات والعبادات وتجتنب عن مطلق المحارم والمنكرات يحفظك الحق عن جميع المصائب والملمات ويوصلك إلى عموم المطالب والمهمات بفضله ولطفه. انتهى انتهى. اهـ ﴿الفواتح الإلهية حـ 2 صـ 535 - 536﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾

أي إعانته تعالى وإظهاره إياك على عدوك وهذا معنى النصر المعدي بعلى وفسر به لأنه أوفق بقوله تعالى : ﴿ والفتح ﴾ وجوز أن يراد به المعدي بمن ومعناه الحفظ والفتح يتضمن النصر بالمعنى الأول فحينئذٍ يكون الكلام مشتملاً على إفادة النصرين والأول هو الظاهر وإذا منصوب بسبح والفاء غير مانعة على ما عليه الجمهور في مثل ذلك وأبو حيان على أنها معمولة للفعل بعدها وليست مضافة إليه وسيأتي إن شاء الله تعالى قول آخر والمراد بهذا النصر ما كان في أمر مكة من غلبته عليه الصلاة والسلام على قريش وذكر النقاش عن ابن عباس أن النصر هو صلح الحديبية وكان في آخر سنة ست وأما الفتح فقد أخرج جماعة عنه وعن عائشة أن المراد به فتح مكة وروي ذلك عن مجاهد وغيره وصححه الجمهور وكان في السنة الثامنة وقال ابن شهاب لثلاث عشرة بقيت من شهر رمضان على رأس ثمان سنين ونصف من الهجرة وخرج عليه الصلاة والسلام على ما أخرجه أحمد بسند صحيح عن أبي سعيد لليلتين خلتا من شهر رمضان وفي رواية أخرى عن أحمد لثمان عشرة وفي أخرى لثنتي عشرة وعند مسلم لست عشرة وقال الواقدي خرج صلى الله عليه وسلم يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان بعد العصر وضعفه القسطلاني وكان المسلمون في تلك الغزوة عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف من العرب وفي

الإكليل اثني عشر ألفاً وجمع بأن العشرة خرج بها عليه الصلاة والسلام من المدينة ثم تلاحق الألفان والأولى أن يحمل النصر على ما كان مع الفتح المذكور فإن كانت السورة الكريمة نازلة قبل ذلك فالأمر ظاهر وتتضمن الإعلام بذلك قبل كونه وهو من أعلام النبوة وإذا كانت نازلة بعده فقال الماتريدي في التأويلات أن إذا بمعنى إذ التي للماضي ومجيئها بهذا المعنى كثير في القرآن وعليه تكون متعلقة بمقدر ككمل الأمر أو أتم النعمة على العباد أو نحو ذلك لا بسبح لأن الكلام حينئذٍ نحو أضرب زيداً أمس وقال بعض الأجلة هي لما يستقبل كما هو الأكثر في

استعمالها وحينئذٍ لم يكن بد من أن يجعل شيء من ذلك مستقبلاً مترقباً باعتبار أن فتح مكة كان أم الفتوح والدستور لما يكون من بعده فهو مترقب باعتبار ما يدل عليه وإن كان متحققاً باعتباره في نفسه وجوز أن يكون الاستقبال باعتبار مجموع ما في حيز إذا فمنه ما هو مستقبل وهو ما تضمنه قوله سبحانه :

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾

ولو باعتبار آخر داخل وهو مما لا بأس به إن لم يكن النزول بعد تمام الدخول وقيل المراد جنس نصر الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وجنس الفتح فيعم ما كان في أمر مكة زادها الله تعالى شرفاً وغيره وأمر الاستقبال عليه ظاهر وأياً ما كان فالمراد بالمجيء الحصول وهو حقيقة فيه على ما يقتضيه ظاهر كلام الراغب وقال القاضي مجاز والظاهر أن الخطاب في رأيت للنبي عليه الصلاة والسلام والرؤية بصرية أو علمية متعدية لمفعولين والناس العرب ودين الله ملة الإسلام التي لا دين له تعالى يضاف إليه غيرها والأفواج جمع فوج وهو على ما قال الراغب الجماعة المارة المسرعة ويراد به مطلق الجماعة قال الحوفي وقياس جمعه أفوج ولكن استثقلت الضمة على الواو فعدل إلى أفواج وفي "البحر" قياس فعل صحيح العين أن يجمع على أفعل لا على أفعال ومعتل العين بالعكس فالقياس فيه أفعال كحوض وأحواض وشذ فيه أفعل كثوب وأثوب ونصب أفواجاً على الحال من ضمير يدخلون وأما جملة يدخلون فهي حال من الناس على الاحتمال الأول في الرؤية ومفعول ثان على الاحتمال الثاني فيها وكونها حالاً أيضاً بجعل رأيت بمعنى عرفت كما قال الزمخشري تعقبه أبو حيان بقوله لا نعلم أن رأيت جاءت بمعنى عرفت فيحتاج في ذلك إلى استثبات والمراد بدخول الناس في دينه تعالى أفواجاً أي جماعات كثيرة إسلامهم من غير قتال وقد كان ذلك بين فتح مكة وموته عليه الصلاة والسلام وكانوا قبل الفتح يدخلون فيه واحداً

واحداً واثنين اثنين أخرج البخاري عن عمرو بن سلمة قال لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة فيقولون دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي وعن الحسن قال لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قالت الأعراب أما إذ ظفر بأهل مكة وقد أجارهم الله تعالى من أصحاب الفيل فليس لكم به يدان فدخلوا في دين الله تعالى أفواجاً وقال أبو

عمر بن عبد البر لم يتوف رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي العرب رجل كافر بل دخل الكل في الإسلام بعد حنين والطائف منهم من قدم ومنهم من قدم وافده وتأول ذلك ابن عطية فقال ، المراد والله تعالى أعلم ، العرب عبدة الأوثان فإن نصارى بني تغلب ما أراهم أسلموا في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أعطوا الجزية ونص بعضهم على أنهم لم يسلموا إذ ذاك فالمراد بالناس عبدة الأوثان من العرب كأهل مكة والطائف واليمن وهوازن ونحوهم وقال عكرمة ومقاتل المراد بالناس أهل اليمن وفد منهم سبعمائة رجل وأسلموا واحتج له بما أخرجه ابن جرير من طريق الحصين بن عيسى عن معمر عن الزهري عن أبي حازم عن أبي عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة إذ قال :

الله أكبر الله أكبر جاء نصر الله والفتح وجاء أهل اليمن قيل يا رسول الله وما أهل اليمن قال قوم رقيقة قلوبهم لينة طاعتهم الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية وأخرجه أيضاً من طريق عبد الأعلى عن معمر عن عكرمة مرسلاً وقوله عليه الصلاة والسلام الإيمان يمان جاء في حديث أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ

(176/836)

" أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة والين قلوباً الإيمان يمان والحكمة يمانية " فقيل قال صلى الله عليه وسلم ذلك لأن مكة يمانية ومنها بعث صلى الله عليه وسلم وفشا الإيمان وقيل أراد عليه الصلاة والسلام مدح الأنصار لأنهم يمانون وقد تبوؤا الدار والإيمان وقول ابن عباس في الخبر في المدينة يعارض قول من قال إن ذلك إنما قاله صلى الله عليه وسلم بتبوك وكان بينه وبين اليمن مكة والمدينة وهما دار الإيمان ومظهراه ويحتمل تكرر القول والظاهر أنه ثناء على أهل اليمن لإسراعهم إلى الإيمان وقبولهم له بلا سيف ويشمل الأنصار من أهل اليمن وغيرهم فكان الإيمان كان في سنخ قلوبهم فقبلوه كما أنهى إليهم كمن يجد ضالته ومثله في الثناء عليهم قوله عليه الصلاة والسلام " أجد نفس ربكم من قبل اليمن " وقال عصام الدين يحتمل أن يكون الخطاب في رأيت الناس عاماً لكل مؤمن ثم قال ومما يختلج في القلب أن

المناسب بقوله تعالى يدخلون في دين الله أفواجاً أن يحمل قوله سبحانه والفتح على فتح باب الدين عليهم انتهى وكلا الأمرين كما ترى وقرأ ابن عباس كما أخرج أبو عبيدة وابن المنذر عنه إذا جاء فتح الله والتصر وقرأ ابن كثير في رواية يدخلون بالبناء للمفعول .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾

(177/836)

أي فنزهه تعالى بكل ذكر يدل على التنزيه حامداً له جل وعلا زيادة في عبادته والثناء عليه سبحانه لزيادة انعامه سبحانه عليك فالتسبيح التنزيه لا التلفظ بكلمة سبحان الله والباء للملابسة والجار والمجرور في موضع الحال والحمد مضاف إلى المفعول والمعنى على الجمع بين تسبيحه تعالى وهو تنزيهه سبحانه عما لا يليق به عز وجل من النقائص وتحميده وهو إثبات ما يليق به تعالى من المحامد له لعظم ما أنعم سبحانه به عليه عليه الصلاة والسلام وقيل أي نزهه تعالى عن العجز في تأخير ظهور الفتح واحمده على التأخير وصفه تعالى بأن توقيت الأمور من عنده ليس إلا لحكمة لا يعرفها إلا هو عز وجل وهو كما ترى وايد ذلك بما في الصحيحين عن مسروق عن عائشة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن تعني هذا

مع قوله تعالى : ﴿ واستغفره ﴾ أي أطلب منه أن يغفر لك وكذا بما في مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم عن عائشة أيضاً قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر في آخر أمره من قول سبحان الله وبحمده استغفر الله وأتوب إليه وقال أن ربي كان أخبرني أن سأرى علامة في أمتي وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده واستغفره الخ وروي ابن جرير من طريق حفص بن عاصم عن الشعبي عن أم سلمة قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال سبحان الله وبحمده قال إني أمرت بها وقرأ السورة وهو غريب وفي المسند عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ [الفتح : 1] كان يكثر إذا قرأها وركع أن يقول سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم ثلاثاً وجوز أن تكون الباء للاستعانة والحمد مضاف إلى الفاعل أي سبحه بما حمد سبحانه به نفسه قال ابن رجب إذ ليس كل تسبيح بمحمود

فتسبيح المعتزلة يقتضي تعطيل كثير من الصفات وقد كان بشر المريسي يقول سبحان ربي الأسفل تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً والظاهر الملابسة وجوز أن يكون التسبيح مجازاً عن

التعجب بعلاقة السببية فإن من رأى أمراً عجيباً قال سبحان الله أي فتعجب لتيسير الله تعالى ما لم يخطر ببالك وبال أحد من أن يغلب أحد على أهل الحرم وأحمده تعالى على صنعه وهذا التعجب تعجب متأمل شاكر يصح أن يأمر به وليس الأمر بمعنى الخبر بأن هذه القصة من شأنها أن يتعجب منها كما زعم ابن المنير والتعليل بأن الأمر في صيغة التعجب ليس أمراً بين السقوط نعم هذا الوجه ليس بشيء والأخبار دالة على أن ذلك أمر له صلى الله عليه وسلم بالاستعداد للتوجه إلى ربه تعالى والاستعداد للقائه بعد ما أكمل دينه وأدى ما عليه من البلاغ وأيضاً ما ذكرناه من الآثار آنفاً لا يساعد عليه وقيل المراد بالتسبيح الصلاة لاشتمالها عليه ونقله ابن الجوزي عن ابن عباس أي فصل له تعالى حامداً على نعمه وقد روي صلى الله عليه وسلم لما دخل مكة صلى في بيت أم هانىء ثمان ركعات وزعم بعضهم أنه صلاها داخل الكعبة وليس بالصحيح وأياً ما كان فهي صلاة الفتح وهي سنة وقد صلاها سعد يوم فتح المدائن وقيل صلاة الضحى وقيل أربع منها للفتح وأربع للضحى وعلى كل ليس فيها دليل على أن المراد بالتسبيح الصلاة والأخبار أيضاً تساعد على خلافه واستغفار صلى الله عليه وسلم لأنه كان دائماً في الترقي فإذا ترقى إلى مرتبة استغفر لما قبلها وقيل مما هو في نظره الشريف خلاف الأولى بمنصبه المنيف وقيل عما كان من سهو ولو قبل النبوة وقيل لتعليم أمته صلى الله عليه وسلم وقيل هو استغفار لأمته عليه الصلاة والسلام أي واستغفره لأمتك وجوز بعضهم كون الخطاب في رأيت عاما وقال ههنا

يجوز حينئذ أن يكون الأمر بالاستغفار لمن سواه عليه الصلاة والسلام وادخاله صلى الله عليه وسلم في الأمر تغليب وهذا خلاف الظاهر جداً وأنت تعلم أن كل

أحد مقصر عن القيام بحقوق الله تعالى كما ينبغي وادائها على الوجه اللائق بجلاله جل جلاله وعظمته سبحانه وإنما يؤديها على قدر ما يعرف والعارف يعرف أن قدر الله عز وجل أعلى وأجل من ذلك فهو يستحى من عمله ويرى أنه مقصر وكلما كان الشخص بالله تعالى أعرف كان له سبحانه أخوف وبرؤية تقصيره أبصر وقد كان كهمس يصلي كل يوم ألف ركعة فإذا صلى أخذ بلحيته ثم يقول لنفسه قومي يا مأوى كل سوء فوالله ما رضيتك لله عز وجل طرفة عين وعن مالك بن دينار لقد هممت أن أوصي إذا مت أن ينطلق بي كما ينطلق بالعبد الآبق إلى سيده فإذا سألني قلت يا رب أني لم أرض لك نفسي طرفة عين فيمكن أن يكون استغفاره عليه الصلاة والسلام لما يعرف من عظيم جلال الله تعالى وعظمته سبحانه فيرى أن عبادته وان كانت أجل من عبادة جميع العابدين دون ما يليق بذلك الجلال وتلك العظمة التي هي وراء ما يخطر بالبال فيستحي ويهرع إلى الاستغفار وقد صح أنه عليه الصلاة والسلام كان يستغفر الله في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة

وللاشارة إلى قصور العابد عن الإتيان بما يليق بجلال المعبود وإن بذل المجهود شرع الاستغفار بعد كثير من الطاعات فذكروا إنه يشرع لمصلي المكتوبة أن يستغفر عقبها ثلاثاً وللمتهجد في الاسحار أن يستغفر ما شاء الله تعالى وللحاج أن يستغفر بعد الحج فقد قال تعالى ثم

(180/836)

﴿ أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ [البقرة : 199] وروي أنه يشرع لختم الوضوء وقالوا يشرع لختم كل مجلس وقد كان صلى الله عليه وسلم يقول : إذا قام من المجلس " سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك وأتوب إليك " ففي الأمر بالاستغفار رمز من هذا الوجه على ما قيل إلى ما فهم من النعي والمشهور أن ذلك للدلالة على مشارفة تمام أمر الدعوة وتكامل أمر الدين والكلام وإن كان مشتملاً على التعليق وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار قيل على طريقة النزول من الخالق إلى الخلق كما قيل ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله تعالى قبله لأن جميع الأشياء مرايا لتجيله جل جلاله وذلك لأن في التسبيح والحمد توجهاً بالذات لجلال الخالق وكماله وفي الاستغفار توجهاً بالذات لحال العبد وتقصيراته ويجوز أن يكون تأخير الاستغفار عنهما لما أشرنا إليه في

مشروعية تعقيب العبادة بالاستغفار وقيل في تقديمها عليه تعليم أدب الدعاء وهو أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسؤول منه ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا ﴾ أي منذ خلق المكلفين أي مبالغاً في قول توبتهم فليكن المستغفر التائب متوقعاً للقبول فالجملة في موضع التعليل لما قبلها واختيار توابا على غفاراً مع أنه الذي يستدعيه استغفره ظاهراً للتنبيه كما قال بعض الأجلة على أن الاستغفار إنما ينفع إذا كان مع التوبة وذكر ابن رجب أن الاستغفار المجرد هو التوبة مع طلب المغفرة بالدعاء والمقرون بالتوبة فاستغفر الله تعالى وأتوب إليه سبحانه هو طلب المغفرة بالدعاء فقط وقال أيضاً أن المجرد طلب وقاية شر الذنب الماضي بالدعاء والندم عليه ووقاية شر الذنب المتوقع بالعزم على الإقلاع عنه وهذا الذي يمنع الاصرار كما جاء ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة ولا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار والمقرون بالتوبة مختص بالنوع الأول فإن لم يصحبه الندم على الذنب الماضي فهو دعاء محض وإن

صحبه ندم فهو توبة انتهى والظاهر أن ذلك الدعاء المحض غير مقبول وفيه من سوء الأدب مع الله تعالى ما فيه وقال بعض الأفاضل إن في الآية احتباكاً والأصل واستغفره إنه كان

غفاراً وتب إليه إنه كان تواباً وأيد بما قدمناه من حديث الإمام أحمد ومسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها وحمل الزمان الماضي على زمان خلق المكلفين هو ما ارتضاه غير واحد وقال الماتريدي في "التأويلات" أي لم يزل تواباً لا أنه سبحانه تواب بأمر اكتسبه وأحدثه على ما يقوله المعتزلة من أنه سبحانه صار تواباً إذ أنشأ الخلق فتابوا فقبل توبتهم فأما قبل ذلك فلم يكن تواباً ورد عليه بأن قبول التوبة من الصفات الإضافية ولا نزاع في حدوثها واختار بعضهم ما ذهب إليه الماتريدي على أن المراد أنه تعالى لم يزل بحيث يقبل التوبة ومآله قدم منشأ قبولها من الصفات اللائقة به جل شأنه وفي ذلك مما يقوي الرجاء به عز وجل ما فيه وصح لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقوم يذنبون ثم يستغفرون فيغفر لهم وفي الاستغفار خير الدنيا والآخرة أخرج الإمام أحمد من حديث عطية عن أبي سعيد مرفوعاً من قال حين يأوى إلى فراشه استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر وإن كانت مثل رمل عالج وإن كانت عدد ورق الشجر وأخرج أيضاً من حديث ابن عباس " من أكثر من الاستغفار جعل الله تعالى له من كل هم فرجاً " وأنا أقول سبحان الله وبحمده استغفر الله تعالى وأتوب إليه واسأله أن يجعل لي من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً بحرمة كتابه وسيد أحبابه صلى الله تعالى عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

وقال الشوكاني :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) ﴾

النصر : العون ، مأخوذ من قولهم : قد نصر الغيث الأرض : إذا أعان على نباتها ، ومنع من قحطها ، ومنه قول الشاعر :

إذا انصرف الشهر الحرام فودّعي . . . بلاد تميم وانصري أرض عامر

يقال نصره على عدوّه ينصره نصراً : إذا أعانه .

والاسم النصرة .

واستنصره على عدوّه : إذا سأله أن ينصره عليه .

قال الواحدي : قال المفسرون : ﴿ إِذَا جَاءَ ﴾ ك يا محمد ﴿ نَصْرُ اللهِ ﴾ على من عاداك ، وهم : قريش ﴿ والفتح ﴾ فتح مكة .

وقيل : المراد نصره صلى الله عليه وسلم على قريش من غير تعيين .

وقيل : نصره على من قاتله من الكفار .

وقيل : هو فتح سائر البلاد .

وقيل : هو ما فتحه الله عليه من العلوم ، وعبر عن حصول النصر ، والفتح بالمجيء للإيذان بأنهما متوجهان إليه صلى الله عليه وسلم .

وقيل : " إذا " بمعنى قد .

وقيل : بمعنى " إذ " .

قال الرازي : الفرق بين النصر والفتح : أن الفتح هو تحصيل المطلوب الذي كان منغلقاً ، والنصر كالسبب للفتح ، فلهذا بدأ بذكر النصر ، وعطف عليه الفتح .

أو يقال النصر كمال الدين ، والفتح إقبال الدنيا الذي هو تمام النعمة .

أو يقال : النصر الظفر ، والفتح الجنة ، هذا معنى كلامه .

ويقال : الأمر أوضح من هذا وأظهر ، فإن النصر هو التأييد الذي يكون به قهر الأعداء وغلبهم ، والاستعلاء عليهم ، والفتح هو فتح مساكن الأعداء ، ودخول منازلهم .

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ أي : أبصرت الناس من العرب ، وغيرهم يدخلون في دين الله الذي بعثك به جماعات فوجاً بعد فوج .

قال الحسن : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة قال العرب : أما إذ ظفر محمد بأهل الحرم ، وقد أجارهم الله من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان ، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجاً ، أي : جماعات كثيرة بعد أن كانوا يدخلون واحداً واحداً ، واثنين اثنين ،

فصارت القبيلة تدخل بأسرها في الإسلام .

قال عكرمة ، ومقاتل : أراد بالناس أهل اليمن ، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين .

وانتصاب ﴿ أفواجاً ﴾ على الحال من فاعل يدخلون ، ومحل قوله : يدخلون في دين الله النصب على الحال إن كانت الرؤية بصرية ، وإن كانت بمعنى العلم ، فهو في محل نصب عى أنه المفعول الثاني .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ هذا جواب الشرط ، وهو العامل فيه ، والتقدير : فسبح بحمد ربك إذا جاء نصر الله .

وقال مكي : العامل في " إذا " هو ﴿ جاء ﴾ .

ورجحه أبو حيان ، وضعف الأوّل بأن ما جاء بعد فاء الجواب لا يعمل فيما قبلها ، وقوله : ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي : فقل سبحان الله ملتبساً بحمده ، أو حامداً له .

وفيه الجمع بين تسبيح الله المؤذن بالتعجب مما يسره الله له مما لم يكن يخطر بباله ولا بال أحد من الناس ، وبين الحمد له على جميل صنعه له ، وعظيم منته عليه بهذه النعمة التي هي النصر ، والفتح لأمّ القرى التي كان أهلها قد بلغوا في عداوته إلى أعلى المبالغ حتى أخرجوه منها بعد أن افتروا عليه من الأقوال الباطلة ، والأكاذيب المختلفة ما هو معروف من قولهم :

هو مجنون ، هو ساحر ، هو شاعر ، هو كاهن .

ونحو ذلك .

ثم ضم سبحانه إلى ذلك أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالاستغفار ، أي : اطلب منه المغفرة لذنبك هضماً لنفسك ، واستقصاراً لعملك ، واستدراكاً لما فرط منك من ترك ما هو الأولى .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يرى قصوره عن القيام بحق الله ، ويكثر من الاستغفار والتضرّع ، وإن كان قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر .

وقيل : إن الاستغفار منه صلى الله عليه وسلم ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبدهم الله به ، لا لطلب المغفرة لذنب كائن منهم .

وقيل : إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيهاً لأمته ، وتعريضاً بهم فكأنهم هم المأمورون بالاستغفار .

وقيل : إن الله سبحانه أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه .

وقيل : المراد بالتسبيح هنا الصلاة .

والأولى حمله على معنى التنزيه مع ما أشرنا إليه من كون فيه معنى التعجب سروراً بالنعمة ، وفرحاً بما هيأه الله من نصر الدين ، وكبت أعدائه ، ونزول الذلة بهم ، وحصول القهر لهم .

قال الحسن : أعلم الله رسوله صلى الله عليه وسلم أنه قد اقترب أجله ، فأمر بالتسبيح ، والتوبة ؛ ليختم له في آخر عمره بالزيادة في العمل الصالح ، فكان يكثر أن يقول : " سبحانك اللّهم وبحمدك اغفر لي إنك أنت التوّاب " قال قتادة ، ومقاتل : وعاش صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة سنتين .

وجملة : ﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوابًا ﴾ تعليل لأمره صلى الله عليه وسلم بالاستغفار ، أي : من شأنه التوبة على المستغفرين له يتوب عليهم ، ويرحمهم بقبول توبتهم ، وتوّاب من صيغ المبالغة ، ففيه دلالة على أنه سبحانه مبالغ في قبول توبة التائبين .

وقد حكى الرازي في تفسيره اتفاق الصحابة على أن هذه السورة دلت على نعي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن عمر سألهم عن قول الله : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فقالوا : فتح المدائن والقصور ، قال : فأنت يا ابن عباس ما تقول ؟ قال : قلت مثل ضرب لمحمد صلى الله عليه وسلم نعيت له نفسه .

وأخرج البخاري ، وغيره عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد في نفسه ، فقال : لم يدخل هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم ، فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلاّ ليريهم ، فقال : ما تقولون في قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم ، فلم يقل شيئًا ، فقال لي : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له ، قال : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ فذلك : علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا ﴾ فقال عمر : لا أعلم منها إلاّ ما تقول .

وأخرج ابن النجار عن سهل بن سعد عن أبي بكر أن سورة : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ حين أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نفسه نعيت إليه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول : " سبحان الله وبحمده ، وأستغفره وأتوب إليه " فقلت : يا رسول الله أراك تكثر من قول سبحان الله وبحمده ، وأستغفر الله وأتوب إليه فقال : " خبرني ربي أني سأرى علامة من أمتي ، فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان

اللہ وبحمده ، وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ فتح مكة .

(186/836)

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللهِ أفواجا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفره إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا ﴾ " وأخرج البخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، وغيرهم عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : " سبحانك اللهم وبحمدك ، اللَّهم اغفر لي " يتأوّل القرآن يعني : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، وفي الباب أحاديث .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : لما نزلت : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جاء أهل اليمن هم أرقّ قلوباً ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية " وأخرج الطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة إذ قال : " الله أكبر قد جاء نصر الله والفتح ، وجاء أهل اليمن ، قوم رقيقة قلوبهم لينة طاعتهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية " وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول : " إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً ، وسيخرجون منه أفواجاً " وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ قال : " ليخرجنّ منه أفواجاً ، كما دخلوا فيه أفواجاً " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 508. 511 ﴾

(187/836)

وقال صاحب روح البيان :

تفسير سورة النصر

ثلاث آيات مدنية

﴿ إذ جاء نصر الله ﴾

أي أعانته تعالى وإظهاره إياك على أعدائك فإن قلت لا شك إن ما وقع من الفتوح كان بنصرة المؤمنين فما وجه أضافتها إلى الله قلت لأن أفعالهم مستندة إلى دواعي قلوبهم وهي أمور حادثة لا بد لها من محدث وهو الله تعالى فالعبد هو المبدأ الأقرب والله هو المبدأ الأول والخالق للدواعي وما يبتني عليها من الأفعال والعامل في إذا هو سبح أي فسبح إذا جاء نصر الله ولا يمنع الفاء عن العمل على قول الأكثرين أو فعل الشرط وليس إذا مضافاً إليه على

مذهب المحققين وإذا لما يستقبل واولام بذلك قبل كونه من أعلام النبوة لما روى أن السورة نزلت قبل فتح مكة كما عليه الأكثر ﴿ وَالْفَتْحُ ﴾ أي فتح مكة على أن الإضافة واللام للعهد وهو الفتح الذي تطمح إليه الأبصار ولذلك سمى فتح الفتوح ووقع الوعد به في أول سورة الفت وقد سبقت قصة الفتح في تلك السورة وقيل جنس نصر الله ومطلق الفتح على أن الإضافة واللام للاستغراق فإن فتح مكة لما كان مفتاح الفتوح ومناطها كما أن نفسها أم القرى وأمامها جعل مجيئه بمنزلة مجيء سائر الفتوح وعلق به أمره عليه السلام وإنهما على جناح الوصول إليه عن قريب ويمكن أن يقال التعبير للإشارة إلى حصول نصر الله بمجيء جند بهم النصر وقيل نزلت السورة في أيام التشريق بمنى في حجة الوداع وعاش عليه السلام بعدها ثمانين يوماً أو نحوها فكلمة إذا حينئذٍ باعتبار أن بعض ما في حيزها أعني رؤيته دخول الناس . . الخ .

(188/836)

غير منقض بعد وقال سعدى المفتي وعلى هذه الرواية فكلمة إذا تكون خارجة عن معنى الاستقبال فإنها قد تخرج عنه كما قيل في قوله تعالى : [الجمعة : 11-5]

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً ﴾ الآية وفي المصطلحات إن الفتوح كل ما يفتح على العبد من الله تعالى

بعد ما كان مغلقاً عليه من النعم الظاهرة والباطنة كالأرزاق والعبادات والعلوم والمعارف والمكاشفات وغير ذلك والفتح القريب هو ما انفتح على العبد من مقام القلب وظهور صفاته وكمالاته عند قطع منازل النفس وهو المشار إليه بقوله نصر من الله وفتح قريب والفتح المبين هو ما يفتح على العبد من مقام الولاية وتجليات أنوار الأسماء الإلهية المفنية لصفات القلب وكمالاته المشار إليه بقوله : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر يعني من الصفات النفسانية والقلبية والفتح المطلق هو أعلى الفتوحات وأكملها وهو ما انفتح على العبد من تجلى الذات الأحدية والاستغراق في عين الجمعب فناء الرسوم الخلقية كلها وهو المشار إليه بقوله : إذا جاء نصر الله والفتح انتهى .

(189/836)

وقد سبق بعبارة أخرى في سورة الفتح وعلى هذا فالمراد بالنصر هو المدد الملكوتي والتأييد القدسي بتجليات الأسماء والصفات وبالفتح هو الفتح المطلق الذي لا فتح وراءه وهو فتح باب الحضرة الإلهية الأحدية والكشف الذاتي ولا شك إن الفتح الأول هو فتح ملكوت الأفعال في مقام القلب بكشف حجاب حس النفس بإفناء أفعالها في أفعال الحق والثاني هو فتح جبروت الصفات في مقام الروح بكشف حجاب خيالها بإفناء صفاتها في

صفاته والثالث هو فتح لاهوت الذات في مقام السر بكشف حجاب وهمها بإفناء ذاتها في ذاته ومن حصل له هذا النصر والفتح الباطني حصل له النصر والفتح الظاهري أيضاً لأن النصر والفتح من باب الحرمة وعند الوصول إلى نهاية النهايات لا يبقى من السخط أثر أصلاً ويستوعب الظاهر والباطن أثر الرحمة مطلقاً ومن ثمة تفاوت أحوال الكمل بداية ونهاية فظهر من هذا إن كلا من النصر والفتح في الآية ينبغي أن يحمل على ما هو المطلق لكنى اقتفيت أثر أهل التفسير في تقديم ما هو المقيد لكنه قول مرجوح تسامح الله عن قائله ﴿ ورأيت الناس ﴾ أبصرتهم أو علمتهم يعني العرب واللام للعهد أو الاستغراق العرفي جعلوه خطاباً للنبي عليه السلام ، بالاستغفار مع إنه لا تقصير له إذ الخطاب لا يخصه فالأمر بالاستغفار لمن سواه وإدخاله في الأمر تغليب ﴿ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ ﴾ أي ملة الإسلام التي لا دين يضاف إليه تعالى غيرها والجملة على تقدير الرؤية البصرية حال وعلى تقدير الرؤية القلبية مفعول ثان وقال بعضهم : ومما يختلج في القلب إن المناسب لقوله يدخلون . الخ

.

إن يحمل قوله ﴿ والفتح ﴾ على فتح باب الدين عليهم ﴿ أَفْوَاجًا ﴾ حال من فاعل يدخلون أي يدخلون فيه جماعات كثيرة كأهل مكة والطائف واليمن وهو أزن وسائر قبائل العرب وكانوا قبل ذلك يدخلون فيه واحداً واحداً واثنين اثنين روى إنه عليه السلام لما فتح مكة أقبلت الرعب بعضها على بعض فقالوا إذا ظفر بأهل الحرم فلن يقاومه أحد وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ومن كل من أرادهم فكانوا يدخلون في دين الإسلام أفواجاً من غير قتال .

(191/836)

قال أبو عمر ابن عبد البر لم يمت رسول الله عليه السلام وفي العرب رجل كافر بل دخل الكل وفي الإسلام بعد حنين منهمن قدم ومنهم من قدم وافده وقال ابن عطية والمراد والله أعلم العرب عبدة الأوثان وإما نصارى بني تغلب

(192/836)

فما أسلموا في حياته عليه السلام ، ولكن أعطوا الجزية وفي "عين المعاني" الناس أهل البحر

، قال عليه السلام : "الإيمان يماني والحكمة يمانية" وقال وجدت نفس ربكم من جانب

اليمن أي تنفيسه من الكرب وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه إنه بكى ذات يوم فقيل

لهفي ذلك فقال سمعت رسول الله عليه السلام ، يقول دخل الناس في دين الله أفواجاً

وسيخرجون منه أفواجا ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ التسبيح مجاز عن التعجب بعلاقة

السببية فإن من رأ أمر أعجبياً يقول سبحان الله قال ابن الشيخ لعل الوجه في إطلاق هذه

الكلمة عند التعجب كما ورد في الأذكار ولكل أعجوبة سبحان الله هو أن الإنسان عدن

مشاهدة الأمر العجيب الخارج عن حد أمثاله يستبعد وقوعه وتنفعل نفسه منه كأنه

استقصر قدرة الله فلذلك خطر على قلبه أن يقول من قدر عليه وأوجده ثم إنه في هذا

الزعم مخطىء فقال سبحان الله تنزيهاً عن العجز عن خلق أمر عجيب يستبعد وقوعه

لتيقنه بأن الله على كل شيء قدير قال الامام السهيلي رحمه الله ، سر اقتران الحمد

بالتسبيح أبداً نحو سبح بحمد ربك وإن من شيء ألا يسبح بحمده إن معرفة الله تنقسم

قسمين معرفة ذاته ومعرفة أسمائه وصفاته ولا سبيل إلى إثبات أحد القسمين دون الآخر

وإثبات وجود الذات من مقتضى العقل وإثبات الأسماء والصفات من مقتضى الشرع

فبالعقل عرف المسمى وبالشرع عرفت الأسماء ولا يتصور في العقل إثبات الذات إلا مع نفي

سمات الحدوث عنها وذلك هو التسبيح ومقتضى العقل مقدم على مقتضى الشرع وإنما

جاء الشرع المنقول بعد حصول النظر والعقول فنبه العقول على النظر فعرفت ثم علمها ما لم تكن تعلم من الأسماء فانضاف لها التسبيح والحدم والثناء فما أمرنا تسبيحه إلا بحمده انتهى.

(193/836)

ومعنى الآية فقل سبحان الله حال كونك ملتبساً بحمده أي فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر ببال أحد من أن يغلب أحد على أهل حرمه المحترم وأحمده على جميع صنعه هذا على الرواية الأولى ظاهر وإما على الثانية فلعله أمر بأن يداوم على ذلك استعظاماً لنعمته لا بأحداث التعجب لما ذكر فإنه إنما يناسب حالة الفتح.

وقال بعضهم: والأشبه أن يراد نزهه عن العجز في تأخير ظهور الفتح وأحمده على التأخير وصفه بأن توقيت الأمور من عنده ليس إلا بحكم لا يعرفها إلا هو. انتهى.

أو فاذكره مسبحاً حامداً وزد في عبادته والثناء عليه لزيادة إنعامه عليك أو فصل له حامداً على نعمه فالتسبيح مجاز عن الصلاة بعلاقة الجزئية لأنها تشتمل عليه في الأكثر روى إنه عليه السلام لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى ثماني ركعات وحملها بعضهم على صلاة الشكر لا على صلاة الضحى وبعضهم على أن أربعاً منها للشكر وأربعاً

للضحى أو فنزهه عما يقول الظلمة حامداً له على أن صدق وعده أو فأثن على الله بصفات الجلال يعني الصفات السلبية حامداً له على صفات الإكرام يعني الصفات الثبوتية أي على آثرها أو على تنزيلها منزلة الأوصاف الاختيارية لكفاية الذات المقدس في الاتصاف بها فإن المحمود عليه يجب أن يكون أمراً اختيارياً .

وقال القاشاني : نزه ذاتك عن الاحتجاجات بمقام القلب الذي هو معدن النبوة بقطع علاقة البدن والترقي إلى مقام حق اليقين الذي هو معدن الولاية حامداً له بإظهار كمالاته

(194/836)

وأوصافه التامة عند التجريد بالحمد الفعلي ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ هضماً لنفسك واستقصاراً لعملك واستعظاماً لحقوق الله واستدراكاً لما فرط منك من ترك الأولى أو استغفر لذنبك وللمؤمنين وهو المناسب لما في سورة محمد وتقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار على طريقة النزول من الخالق إلى الخلق حيث لم تشتغل على رؤية الناس باستغفارهم أولاً مع إن رؤيتهم تستدعى ذلك بل اشتغل أولاً بتسبيح الله وحمده لأنه رأى الله قبل رؤية الناس كما قيل ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وذلك لأن الناس مرآة العارف وصاحب المرآة يتوه أولاً إلى المرئي وبرؤية المرئي تلتفت نفسه إلى المرآة ولك أن تقول إن في التقديم المذكور تعليم

أدب الدعاء وهو أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسؤول عنه عن عائشة رضي الله عنها ، إنه كان عليه السلام يكثر قبل موته أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك استغفرك وأتوب إليك وعنه عليه السلام ، إني لاستغفر الله في اليوم والليلة مائة مرة ومنه يعلم إن ورد الاستغفار لا يسقط أبداً لأنه لا يخلو الإنسان عن الغين والتلوين وروى إنه لما قرأها النبي عليه السلام على أصحابه استبشروا وبكى العباس فقال عليه السلام ما يبكيك يا عم قال نعيت إليك نفسك أي ألقى إليك خبر موت نفسك والنعي ألقاء خبر الموت قال عليه السلام ، إنها لكما تقول فلم ير عليه السلام ، بعد ذلك ضاحكاً مستبشراً وقيل إن ابن عباس رضي الله عنهما هو الذي قال ذلك فقال عليه اسلام لقد أوتى هذا الغلام علماً كثيراً ولذلك كان عمر يدنيه ويأذن له مع أهل بدر ولعل ذلك للدلالة على تمام أمر الدعوة وتكامل أمر الدين كقوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ والكمال دليل الزوال كما قيل .

توقع زوالاً إذا قيل تم .

(195/836)

أو لأن الأمر بالاستغفار تنبيه على قرب الأجل كأنه قال قرب الوقت ودنا الرحيل فتأهب للأمر ونبه به على أن العاقل إذا قرب أجله ينبغي أن يستكثر من التوبة وروى إنها لما نزلت خطب رسول الله فقال إن عبداً خيره الله بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء الله فعلم أبو بكر رضي الله عنه فقال فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا وعنه عليه السلام إنه دعا فاطمة رضي الله عنها ، فقال : يا بنتاه إنه نعيت إلى نفسي

فبكت فقال لا تبكي فإنك أول أهلي لحوقاً بي فضحكت وعن ابن مسعود إن هذه السورة تسمى سورة التوديع لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا قال علي رضي الله عنه لما نزلت هذه السورة مرض رسول الله عليه السلام ، فخرج إلى الناس فخطبهم وودعهم ثم دخل المنزل فتوفى بعد أيام قال الحسن رحمه الله أعلم إنه قد اقتر أجله فأمر بالتسبيح والتوبة ليختم له بالعمل الصالح وفيه تنبيه لكل عاقل إنه كان توابا ً﴾ مبالغاً في قبول توبتهم منذ خلق المكلفين فليكن كل تائب مستغفر متوقعاً للقبول وذلك إن قبول التوبة من الصفات الإضافية ولا منازعة في حدوثها فاندفع ما يرد إن المفهو من الآية إنه تعالى تواب في الماضي

وكونه توابا : الماضي كيف يكون علة للاستغفار في الحال والمستقبل وفي اختيار إنه كان تواباً على غفاراً مع أنه الذي يستدعيه قوله واستغفر حتى قيل وتب مضمر بعده وإلا لقال غفاراً تنبيه على أن الاستغفار إنما ينفع إذا كان مع التوبة والندم والعزم على عدم العود ثم إن

من أضمر وتب يحتمل إنه جعل الآية من الاحتباك حيث دل بالأمر بالاستغفار على التعليل بأنه كان غفاراً وبالتعليل بأنه كان تواباً على الأمر بالتوبة أي استغفره وتب.

(196/836)

ذكر البرهان الرشيدي إن صفات الله تعالى التي على صيغة المبالغة كلها مجاز لأنها موضوعة للمبالغة ولا مبالغة فيها لأن المبالغة أن يثبت للشيء أكبر أكثر مماله وصفاته تعالى منزهة عن ذلك واستحسنه الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله وقال الزركشي في البرهان التحقيق إن صيغة المبالغة قسمان أحدهما ما تحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل والثاني بحسب تعدد المفعولات ولا شك إن تعددها لا يوجب للفعل زيادة إذ الفعل الواحد قد يقع على جماعة متعددين وعلى هذا القسم تنزل صفاته ويرفع الأشكال ولهذا قال بعضهم: في حكيم معنى المبالغة فيه تكرار حكمه بالنسبة إلى الشرائع وقال في الكشاف المبالغة في التواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه أو لأنه بليغ في قبول التوبة بحيث ينزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿روح البيان حـ 10 صـ 645.640﴾

(197/836)

وقال القاسمي :

سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ﴾

أي : لدينه الحق على الباطل ﴿ وَالْفَتْحُ ﴾ أي : فتح مكة الذي فتح الله بينه وبين قومه صلوات الله عليه ، فجعل له الغلبة عليهم وضعف أمرهم في التمسك بعقائدهم الباطلة .

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾ أي : ورأيت الناس من صنوف العرب وقبائلها عند ذلك يدخلون في دين الله ، وهو دينك الذي جئتهم به لزوال ذلك الغطاء الذي كان يحول بينهم وبينه ، وهو غطاء قوة الباطل فيقبلون عليه أفواجاً طوائف وجماعات لا آحاداً ، كما كان في بدء الأمر أيام الشدة ؛ إذ حصل ذلك كله وهو لا ريب حاصل .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي : فنزِّه ربك عن أن يهمل الحق ويدعه للباطل يأكله ، وعن أن يخلف وعده في تأييده ، وليكن هذا التنزيه بواسطة حمده والثناء عليه بأنه القادر الذي لا يغلبه غالب ، والحكيم الذي إذا أمهل الكافرين ليمتحن قلوب المؤمنين ، فلن يضيع أجر العاملين ولا يصلح عمل المفسدين . والبصير بما في قلوب المخلصين والمنافقين ، فلا يذهب عليه رياء المفسدين ، والبصير بما في قلوب المخلصين والمنافقين ، فلا يذهب عليه رياء

المرائين ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ أي : اسأله أن يغفر لك ولأصحابك ما كان من القلق والضجر والحزن ، لتأخر زمن النصر والفتح . والاستغفار إنما يكون بالتوبة الخالصة . والتوبة من القلق إنما تكون بتكميل الثقة بوعد الله ، وتغليب هذه الثقة على خواطر النفس التي تحدثها الشدائد ، وهو وإن كان مما يشق على نفوس البشر ، ولكن الله علم أن نفس نبيه صلى الله عليه وسلم قد تبلغ ذلك الكمال ؛ فلذلك أمره به ، وكذلك تقاربه قلوب الكمّل من أصحابه وأتباعه عليه السلام . والله يتقبل منهم

(198/836)

﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ أي : إنه سبحانه لا يزال يوصف بأنه كثير القبول للتوبة ، لأنه ربٌّ يربي النفوس بالمحن ، فإذا وجدتْ الضعف أنهضها إلى طلب القوة ، وشدد همها بحسن الوعد ، ولا يزال بها حتى تبلغ الكمال ، وهي في كل منزلة تتوب عن التي قبلها ، وهو سبحانه يقبل توبتها فهو التواب الرحيم . وكأن الله يقول : إذا حصل الفتح وتحقق النصر وأقبل الناس على الدين الحق ، فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن ، فلم يبق إلا تسبيح الله وشكره والنزوع إليه عما كان من خواطر النفس ، فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ما داموا على تلك الكثرة في ذلك الإخلاص . ومن هذا أخذ النبي صلى الله عليه وسلم أن الأمر

قد تم ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه ، فقال فيما روي عنه : < إنه قد نعيت إليه نفسه > .

هذا ملخص ما أورده الإمام في تفسيره .

تنبيهات :

الأول : قال ابن كثير : المراد بالفتح هاهنا فتح مكة قولاً واحداً ؛ فإن أحياء العرب كانت تتلوّم بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبيّ . فلما فتح الله عليه مكة ، دخلوا في دين الله أفواجاً ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيماناً ، ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهِر للإسلام ولله الحمد والمنة . وقد روى البخاري في " صحيحه " عن عمرو بن سلمة : كنا بماءٍ ممرَّ الناس ، وكان يمرُ بنا الركبان فنسألهم : ما للناس ؟ ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله تعالى أرسله أوحى إليه ، أو أوحى الله بكذا ، فكنت أحفظ ذلك الكلام وكأنما يُغزى في صدري . وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامهم الفتح ، فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق . فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم وبدر أبي قومي بإسلامهم . . . . الحديث .

الثاني : قال الرازي : إذا حملنا الفتح على فتح مكة ، فللناس في وقت النزول هذه السورة قولان :

أحدهما : أن فتح مكة كان سنة ثمان . ونزلت هذه السورة سنة عشر ، وروي أنه < عاش بعد نزول هذه السورة سبعين يوماً > ؛ ولذلك سميت سورة التوديع .

ثانيهما : أن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وهو وعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينصره على أهل مكة وأن يفتحها عليه . ونظيره ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [القصص : 85] ، وقوله : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ يقتضي الاستقبال ؛ إذ لا يقال فيما وقع : ﴿ إِذَا جَاءَ ﴾ و : إذا وقع ، وإذا صح القول صارت هذه الآية من جملة المعجزات ؛ من حيث إنه خبر وجد مخبره بعد حين مطابقاً له ؛ والإخبار عن الغيب معجزة . انتهى .

قال الحافظ ابن حجر في " فتح الباري " : ولأبي يعلى ، من حديث ابن عمر : نزلت هذه السورة في أوسط أيام التشريق ، في حجة الوداع < فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه الوداع > .

ثم قال : وسئلت عن قول " الكشاف " : أن سورة النصر نزلت في حجة الوداع أيام التشريق ، فكيف صدرت بـ : إذا الدالة على الاستقبال ؟ فأجبت بضعف ما نقله . وعلى تقدير صحته ، فالشرط لم يتكمل بالفتح ؛ لأن مجيء الناس أفواجاً لم يكن كمل ، فبقية الشرط مستقبل .

وقد أورد الطيبي السؤال ، وأجاب بجوابين :

أحدهما : أن إذا قد ترد بمعنى إذ كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً ﴾ [الجمعة : 11] الآية .

ثانيهما : أن كلام الله قديم . وفي كل من الجوابين نظر لا يخفى . انتهى كلامه .

الثالث : قال الشهاب : المراد بالناس العرب . فأل عهدية . أو المراد الاستغراق العرفيّ والمراد عبدة الأصنام منهم ؛ لأن نصارى تغلب لم يسلموا في حياته صلى الله عليه وسلم وأعطوا الجزية .

(200/836)

الرابع : روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما صلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن نزلت عليه : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إلا يقول فيها : < سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي > .

وفيه عنها أيضاً : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : < سبحانك اللهم ربّنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي > ، يتأول القرآن .

قال الحافظ ابن حجر : معنى يتأول القرآن ، يجعل ما أمر به من التسبيح والتحميد

والاستغفار ، في أشرف الأوقات والأحوال .

وقال ابن القيم في " الهدى "كأنه أخذه من قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ لأنه كان يجعل الاستغفار في خواتم الأمور ؛ فيقول إذا سلم من الصلاة : < أستغفر الله > ثلاثاً . وإذا خرج من الخلاء قال : < غفرانك > . وورد الأمر بالاستغفار عند انقضاء المناسك : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ﴾ [البقرة : 199] الآية. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 498. 501 ﴾

(201/836)

وقال الشيخ : دروزة :

سورة النصر

فيها أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالتسبيح بحمد اللّه واستغفاره إذا ما جاء نصر اللّه وفتحه ورأى الناس يدخلون في دينه .

والمصحف الذي اعتمدناه يروي أنها نزلت بعد سورة التوبة وبكلمة أخرى آخر السور المدنيّة نزولا . ومع أن روايات الترتيب الأخرى تذكر ترتيبها كسابعة السور المدنيّة نزولا أو كسادسة عشرة أو كثامنة عشرة «1» بل إن هناك رواية بأنها مكيّة «2» فإن هناك

روايات وأحاديث عديدة بطرق مختلفة تؤيد ترتيب المصحف الذي اعتمدناه. ففي فصل التفسير من صحيح البخاري في سياق هذه السورة حديث عن ابن عباس جاء فيه «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله فقال عمر إنه من قد علمتم فدعاه ذات يوم فأدخله معهم فما رئيت أنه دعاني يومئذ إلّا ليريهم. قال ما تقولون في قول اللّه تعالى: إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فقال بعضهم أمرنا أن نحمد اللّه ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم. فقال لي أكذلك تقول يا ابن عباس فقلت لا. فما تقول. قلت هو أجل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعلمه به قال إذا جاء نصر اللّه والفتح وذلك علامة أجلك فسبّح بحمد ربك واستغفر. إنه كان توابا فقال عمر ما أعلم منها إلّا ما تقول» «3». وقد روى الطبري في سياقها حديثا عن ابن عباس

---

(1) انظر جدول ترتيب نزول السور المدنيّة في كتابنا سيرة الرسول ج 2 ص 9.

(2) انظر تفسير النيسابوري.

(3) التاج ج 4 ص 267 والحديث من مرويات الترمذي وأحمد أيضا.

جاء فيه «لما نزلت قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نعيت إليّ نفسي كأني مقبوض في تلك السنة» . وروى الطبري والبغوي أحاديث بطرق مختلفة عن ابن عباس بالمعنى نفسه بدون عزو إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم . وروى الطبري عن الضحاك قوله كانت هذه السورة آية لموت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وروي مثل هذا عن مجاهد وعطاء أيضا . وقد ذكر الزمخشري أنها آخر السور نزولا وأنها نزلت في حجة الوداع في منى وذكر النيسابوري – مع ذكره القول إنها مكيّة – أنها نزلت في أواسط أيام التشريق «1» في منى في حجة الوداع وأن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يعش بعدها إلّا سبعين يوما وأن السورة تسمى لذلك سورة التوديع وأن أكثر الصحابة متفقون على أنها دلت على نعي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وروى ابن كثير حديثا عن ابن عمر أخرجه البزار والبيهقي أنها نزلت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أيام التشريق فعرف أنه الوداع فأمر براحلته وخطب خطبته الشهيرة بخطبة الوداع .

ولقد روى الطبري بطرقه عن عائشة قالت : «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يكثر قبل أن يموت من قوله سبحانك اللّهمّ وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك . فقلت يا رسول اللّه ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها قال قد جعلت لي علامة في أمتي إذا رأيتها قلتها إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ إلى آخر السورة» وعن أم سلمة قالت : «كان رسول اللّه في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال سبحان اللّه وبحمده فقلت يا رسول اللّه إنك

تكثر من سبحان اللّه وبحمده. لا تذهب ولا تجيء ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت سبحان اللّه وبحمده قال: إني أمرت بها فقال إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ إلى آخر السورة» والحديثان يؤيدان إذا صحّا كون السورة نزلت بين يدي موت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فضلا عما انطوى فيهما من صورة رائعة لعمق شعوره بواجبه نحو اللّه تسبيحا وحمدا واستغفارا.

وبناء على ذلك كلّه رجحنا ترتيب المصحف الذي اعتمدناه وجعلنا ترتيب هذه السورة بعد سورة التوبة وآخر السور المدنيّة.

---

(1) أيام عيد الأضحى.

ونصّ السورة وروحها يؤيدان ذلك على ما سوف يأتي شرحه. أما القول إنها مكيّة فهو غريب ينقضه نصّها وروحها والروايات الكثيرة الأخرى التي أوردناها.

وما قلناه من أن السورة هي آخر السور نزولا لا يعني أن لا يكون نزل بعدها قرآن. وكل ما هناك أنه لم ينزل سور جديدة تامة. وأن ما يحتمل أن يكون من قرآن قد نزل بعدها قد ألحق بسور أخرى بأمر النبي صلى اللّه عليه وسلم واللّه أعلم.

وترجيح كون هذه السورة آخر السور نزولا وترجيح كون سورة الفاتحة أولى السور نزولا يدعمان بعضهما ويلهمان معجزة قرآنية ربانية. ففي سورة الفاتحة براعة استهلال للدعوة الإسلامية والقرآن وفي سورة النصر هتاف رباني بما تمّ من نصر اللّه للدعوة الإسلامية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النصر (110) : الآيات 1 الى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً (3).

تعليق على آيات السورة ومداها وما روي في صددها

عبارة الآيات واضحة. والخطاب فيها موجه إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم على ما عليه الجمهور بدون خلاف. وقد ذكرنا ما ورد في صدد نزولها في المقدمة فلا ضرورة للإعادة.

وواجب التسبيح للّه وحمده واستغفاره أصلي غير منوط بوقت. وليس الذي هنا بسبيل ذلك كما هو المتبادر وإنما هو على سبيل تلقين توكيد وجوبه إذا ما أتمّ اللّه على نبيه نعمته ويسّر له الفتح والنصر وأقبل الناس على دين اللّه أفواجا.

وكل هذا خطير يستوجب مضاعفة ذلك الواجب من دون ريب، والآيات

بهذا الاعتبار تنطوي على تلقين مستمر المدى للمسلمين كجماعات بمقابلة نعم اللّه عزّ وجلّ بالشكر والحمد والاستغفار وبخاصة إذا كانت عامة متصلة بمصلحة المسلمين ونصرهم وتوطد أمرهم وانتشار دين اللّه وكلمته. ثم لكل مسلم إذا ما صار في ظرف من الظروف موضع رعاية اللّه وعنايته في تحقيق أمر خطير في دينه ودنياه.

وأسلوب الآيات توقيتي إذا صح التعبير، أي أنه يوجب التسبيح والاستغفار حينما يجيء نصر اللّه وفتحه ويدخل الناس في دين اللّه أفواجا. غير أن روحها يلهم أن ذلك الواجب قد وجب وأن ذلك المجيء قد جاء. والروايات والأحاديث التي أوردناها في صدد نزولها تؤيد ذلك كما هو المتبادر.

ومعظم المفسرين على أن الفتح المذكور في السورة هو فتح مكة حتى إنهم جعلوا تفسيرها وسيلة لإيراد قصة هذا الفتح. ولقد تمّ هذا الفتح في رمضان في السنة الثامنة للهجرة على ما شرحناه في سياق تفسير سورة الحديد في حين أن النبي صلى اللّه عليه وسلم انتقل إلى الرفيق الأعلى في أوائل السنة الحادية عشرة.

والروايات التي أوردناها في المقدمة ذكر فيها أن السورة قد نزلت قبل وفاته بمدة قصيرة أقل من ثلاثة أشهر وهذا يجعلنا نرجح أن يكون ما عنته الآيات ليس فتح مكة وحسب بل مجموعة الانتصارات والفتوحات الضخمة التي يسرها اللّه لنبيه صلى اللّه عليه وسلم إلى

قبيل وفاته والتي بلغت ذروتها بفتح مكة الذي شرحنا قصته في سورة الحديد وبغزوة تبوك الكبرى التي شرحنا قصتها في سورة التوبة وبفتح الطائف التي ظلت مستعصية إلى السنة الهجرية التاسعة والتي لم تقتض حكمة التنزيل أن يشار إليها في القرآن ثم بسبيل الوفود التي أخذت تتدفق من جميع أنحاء جزيرة العرب على المدينة المنورة خلال السنتين التاسعة والعاشرة لمبايعة النبي صلى اللّه عليه وسلم والدخول في دين اللّه أفواجا واستمر تدفقها إلى قبيل وفاة الرسول صلى اللّه عليه وسلم ثم بتوطد سلطان النبي والإسلام في جميع أنحاء الجزيرة العربية يمنها وتهامتها وحجازها وشرقها وشمالها مما ذكرنا بعض فصوله في سياق تفسير سورة التوبة ومما أطنبت به كتب السيرة

(205/836)

والتاريخ القديمة «1» ، وإعلان كون المشركين نجسا وحظر دخولهم المسجد الحرام ، وحج النبي صلى اللّه عليه وسلم على رأس حشد عظيم من المسلمين روي أنه بلغ أربعين ألفا أو أكثر - وهذا رقم عظيم في ذلك الوقت - حتى هتف اللّه تعالى بالمؤمنين أو هتف النبي صلى اللّه عليه وسلم مرددا هتاف اللّه - الذي نزل قبل هذا اليوم على ما محصناه في سياق أوائل سورة المائدة - الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً [3] .

نبذة عن حجة الوداع النبوية

وحجة الوداع المشار إليها قد تمّت في أواخر السنة الهجرية العاشرة . فلقد فتح اللّه تعالى على رسوله مكة في رمضان في السنة الثامنة . ولم يكن الشرك قد اندحر بالمرة عن ربوعها . وكان المشركون ما يزالون يقومون بطقوس حجهم فيها .

فلم تشأ حكمة اللّه ورسوله أن يحج النبي صلى اللّه عليه وسلم حجته التامة والمشركون شركاء في حجه . ولما كانت مكة وما جاورها قد دخلت في سلطانه فقد عيّن وزيره الصدّيق أبا بكر رضي اللّه عنه أميرا على الحجّ في السنة التاسعة وأمره أن يعلن للملأ حظر دخول منطقة المسجد الحرام على المشركين وبراءة اللّه ورسوله منهم على ما شرحناه في سورة التوبة . فلما كانت السنة العاشرة خرج على رأس حشد عظيم من المسلمين من أهل المدينة وقبائلها ليحج بالناس حجة لا يشهدها إلّا المسلمون وهي التي عرفت بحجة الوداع لأنه مات صلى اللّه عليه وسلم بعدها بمدة قصيرة ونزلت فيها هذه السورة التي احتوت نعيا له وسميت سورة التوديع بسبب ذلك . وقد وافاه إلى مكة حشود عظيمة أخرى من المسلمين من مختلف أنحاء الجزيرة فكان أعظم حجّ تمّ في عهده بل نعتقد أنه كان أعظم حجّ وقع إلى عهده . وإذا كان عدد الذين اشتركوا في غزوة تبوك بلغ ثلاثين ألفا كما ذكرنا في سياق سورة التوبة فلا مبالغة في تخمين

---

(1) انظر طبقات ابن سعد ج 2 ص 25 - 121 وج 3 ص 166 - 241 وابن هشام ج 4 جميعه وتاريخ الطبري ج 2 ص 315 وما بعدها وملخص ذلك في الجزء السادس من كتابنا تاريخ الجنس العربي .

(206/836)

عدد الذين شهدوا هذا الحج بضعف هذا العدد وهو رقم عظيم جدّا في ذلك الوقت . وخبر حجة الوداع ورد مطولا بطرق مختلفة في كتب الحديث والسيرة والتاريخ القديمة مرويّا عن التابعين من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وقد روى مسلم وأبو داود حديثا طويلا فيه وصف شائق لموكب الحجّ وكثير من أفعال وأقوال ومواقف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم التعليمية والتوضيحية والتشريعية والتهذيبية . فرأينا إيراده برمته . وهو مروي عن صاحب رسول اللّه جابر بن عبد اللّه في أيام شيخوخته جوابا على سؤال من أحد التابعين . وهذا نصه «1» «إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مكث تسع سنين لم يحجّ «2» ثم أذّن في الناس في العاشرة أن رسول اللّه حاج فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتّم برسول اللّه ويعمل مثل عمله . وخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة فولدت أسماء بنت عميس «3» محمد بن أبي بكر فأرسلت إلى رسول اللّه كيف أصنع ؟

قال : اغتسلي واستثفري «4» بثوب وأحرمي . فصلّى رسول اللّه في المسجد ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت إلى مدّ بصري بين يديه من راكب وماش وعن يمينه مثل ذلك وعن يساره مثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك ورسول اللّه بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملنا به . فأهلّ لبّيك اللّهمّ لبّيك لبّيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . وأهلّ الناس بهذا الذي يهلّون به فلم يردّ رسول اللّه عليهم شيئًا منه . ولزم رسول اللّه تلبيته . قال جابر : لسنا ننوي إلّا الحج لسنا نعرف العمرة «5» حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثا ومشى

---

(1) التاج 2 ص 140 - 145 .

(2) المحقق أن النبي صلى اللّه عليه وسلم زار الكعبة في السنة السابعة الهجرية بناء على اتفاقه مع قريش . ولم يكن وقت الزيارة وقت الحج .

(3) زوجة أبي بكر الصديق .

(4) بمعنى تحفظي من وسخ الدم .

(5) هذا غريب لأن العمرة ذكرت في الآيتين [158 و196] من سورة البقرة . والعمرة هي زيارة الكعبة والطواف حولها والأمر الرئيسي للحج هو الوقوف في عرفة فلعله أراد أن خروج الناس إنما كان للحج في الدرجة الأولى .

أربعا ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ : وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى [البقرة : 125] فجعل المقام بينه وبين البيت وكان يقرأ في الركعتين قل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) وقُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (1) ثم رجع إلى الركن فاستلمه ثم خرج من الباب إلى الصفا فلما دنا من الصفا قرأ : إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ [البقرة : 158] ابدأوا بما بدأ اللّه فبدأ بالصفا فرقي عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحّد اللّه وكبّره وقال : «لا إله إلّا اللّه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . لا إله إلّا اللّه وحده . أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات . ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبّت قدماه في بطن الوادي سعى حتى إذا صعدنا مشى حتى أتى المروة ففعل عليها كما فعل على الصفا . حتى إذا كان آخر طوافه على المروة قال :

«لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدى وجعلتها عمرة . فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة ، فقام سراقة بن مالك فقال : يا رسول اللّه العامنا هذا أم لأبد ؟ فشبّك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أصابعه واحدة في الأخرى وقال : دخلت العمرة في الحج ، مرتين . لا بل لأبد أبد» «1» . وقدم عليّ من اليمن ببدن النبي

صلى اللّه عليه وسلم فوجد فاطمة ممن حلّ ولبست ثيابا صبيغا واكتحلت فأنكر عليها

فقالت :

إن أبي أمرني بهذا ، قال : فكان عليّ يقول بالعراق «2» فذهبت إلى رسول اللّه محرّشا

على فاطمة للذي صنعت مستفتيا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيما ذكرت عنه

فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها فقال : صدقت صدقت ماذا قلت حين فرضت الحج ؟

قلت : اللّهمّ إني أهلّ بما أهلّ به رسولك قال : فإن معي الهدي فلا تحلّ . قال : فكان جماعة

الهدي الذي قدم به عليّ من اليمن والذي أتى به النبي صلى اللّه عليه وسلم مائة . قال :

فحلّ الناس كلهم

---

(1) أراد على ما هو المتبادر عدم القرآن بين العمرة والحج حتى يستمتع بينهما على ما

شرحناه في سياق آيات البقرة [196 ، 197] ومع ذلك فهناك حديث رواه الخمسة عن

عائشة أن رسول اللّه أفرد للحج وفي رواية أهلّ بالحجّ مفردا (انظر التاج ج 2 ص 112) .

(2) حينما كان في العراق في أيام خلافته . [. . . . .]

وقصّروا إلّا النبي صلى اللّه عليه وسلم ومن كان معه هدي. فلما كان يوم التروية «1» توجّهوا إلى منى فأهلّوا بالحج وركب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فصلّى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس وأمر بقبّة من شعر تضرب له بنمرة «2» فسار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولا تشكّ قريش إلّا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت تصنع في الجاهلية «3» فأجاز رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى أتى عرفة فوجد القبّة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له «4» فأتى بطن الوادي «5» فخطب الناس وقال: «إن دماءكم وأموالكم «6» حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع. ودماء الجاهلية موضوعة. وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن سبيعة بن الحارث «7» كان مسترضعا في بني سعد فقتلته هذيل «8».

وربا الجاهلية موضوع. وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كلّه.

اتقوا اللّه في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان اللّه واستحللتم فروجهن بكلمة اللّه.

ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح «9». ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لم تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب اللّه. وأنتم تسألون عني. فما أنتم قائلون؟ قالوا

(1) هو اليوم الثامن من شهر ذي الحجة.

(2) موضع قبيل عرفات وليس منها .

(3) كان هذا شأن فريق من قريش يسمّون الأحماس على ما شرحناه في سياق تفسير الآية [199] من سورة البقرة.

(4) وضع رحلها عليها ليركبها .

(5) وادي عرفة على ما ذكره شارح الحديث.

(6) في رواية ابن سعد زيادة وأعراضكم.

(7) من بني عبد المطلب.

(8) قبيلة كانت نازلة بين مكة والطائف.

(9) المتبادر أن المقصد هو إدخال ناس عليهن لا يرضى أزواجهن عن دخولهن عليهن وحسب وليس هو الفاحشة لأن عقاب ذلك الرجم على ما شرحناه في سياق الآيات الأولى من سورة النور.

نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللّهمّ اشهد ثلاث مرات «1» . ثم أذن ثم أقام فصلّى الظهر ثم أقام فصلّى العصر ولم يصل بينهما شيئًا ثم ركب حتى أتى الموقف «2» فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس . وأردف أسامة خلفه ودفع رسول اللّه وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله «3» ويقول أي يشير بيده اليمنى أيها الناس السكينة السكينة كلّما أتى حبلا من الحبال «4» أرخى لها قليلا حتى تصعد إلى المزدلفة فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبّح بينهما شيئًا .

ثم اضطجع رسول اللّه حتى طلع الفجر وصلّاه حين تبيّن له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا اللّه وكبّره وهلّله ووحّده فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا فدفع قبل أن تطلع الشمس وأردف الفضل بن العباس وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما ، فلما دفع رسول اللّه مرّت به ظعن «5» يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع النبي يده على وجه الفضل فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر فحوّل رسول اللّه يده إلى الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه حتى أتى بطن محسر «6» فحرك قليلا ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبّر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف

«7» رمى من بطن الوادي ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثا وستين بيده ثم أعطى عليّا فنحر ما غبر وأشركه في هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها . ثم

---

(1) أي يردها إليهم .

(2) هو جوار الصخرات في أسفل جبل الرحمة في عرفات .

(3) مقدمه .

(4) الحبل بمعنى التلّ الخفيف .

(5) جمع ظعينة وهي المرأة في الهودج . [. . . . .]

(6) موضع قبل منى بعد عرفات .

(7) حب الفول .

ركب رسول اللّه فأفاض إلى البيت وصلّى بمكة الظهر فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم فقال انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم «1» فناولوه دلوا فشرب منه» .

وروى الشيخان وأحمد عن ابن عباس حديثا فيه بعض أقوال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في حجة وداعه جاء فيه : «إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خطب الناس يوم النحر فقال يا أيها الناس أيّ يوم هذا قالوا يوم حرام . قال فأيّ بلد هذا قالوا بلد حرام . قال فأيّ شهر هذا قالوا شهر حرام قال فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا فأعادها مرارا ثم رفع رأسه فقال اللّهمّ هل بلّغت اللّهمّ هل بلّغت فليبلّغ الشاهد الغائب . لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض . قال ابن عباس فو الذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته» «2» .

وفي رواية «وقف النبي صلى اللّه عليه وسلم يوم النحر بين الجمرات في حجّته التي حجّ بها وقال هذا يوم الحجّ الأكبر . وطفق يقول اللّهمّ اشهد . وودّع الناس فقالوا هذه حجّة الوداع» «3» .

وفي كل من سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد «4» فصل طويل مسلسل الرواة إلى أحد أصحاب رسول اللّه أو تابعيهم متطابق مع هذا الحديث مع بعض زيادات مهمة فيها تعليم وتشريع وتهذيب . فمما جاء في فصله في طبقات ابن سعد أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حينما شاهد الكعبة عند قدومه إلى مكة قال : «اللّهمّ زد هذا البيت تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وزد من عظّمه ممن حجّه واعتمره تشريفا وتكريما ومهابة وتعظيما وبرّا» وأنه وقف بالهضاب في عرفات وقال : «كل عرفة موقف إلا بطن عرفة» . وحينما

جاء إلى المزدلفة قال : «كل المزدلفة موقف إلا بطن محسر»

---

(1) كانت وظيفة السقاية بيد العباس بن عبد المطلب والمتبادر أن النبي صلى اللّه عليه وسلم خشي أن يعتبر المسلمون ذلك سنّة لهم أيضا .

(2) التاج 2 ص 135 و136 .

(3) المصدر نفسه .

(4) الجزء الرابع من سيرة ابن هشام ص 272 - 277 والجزء الثالث من ابن سعد ص 225 - 240 .

وأنه بعد نحر الهدي حلق رأسه وأخذ شاربه وعارضيه وقلّم أظفاره وأمر بشعره وأظفاره أن تدفن ثم أصاب الطيب ولبس القميص ونادى مناديه «إن أيام منى هي أيام أكل وشرب» ثم أقام ثلاث ليال في مكة وقال : إنما هن ثلاث يقيمهن المهاجر بعد الصدر . ثم ودّع البيت وانصرف راجعا إلى المدينة . وروي في الفصل جواب لأنس بن مالك على سؤال عمّا إذا كان النبي صلى اللّه عليه وسلم أهلّ بالعمرة والحجّ معا أم أفرد ؟ فقال إنه أهلّ بهما معا . وهذا هو المستفاد من الحديث الطويل السابق . ومما ورد في الفصل

أن النبي صلى اللّه عليه وسلم جعل للمسلمين الخيار بالإفراد بين العمرة والحجّ أو القران بينهما . وقال لمن سألوه : من لم يكن معه هدي فليجعلها عمرة . وتمتّعوا بالعمرة إلى الحج . وأنه دخل الكعبة بعد أن خلع نعليه ولما عاد إلى أهله قال لعائشة فعلت أمرا ليتني لم أفعله دخلت البيت ولعلّ الرجل من أمتي لا يقدر على أن يدخله فينصرف وفي نفسه حزازة . إنما أمرنا بالطواف ولم نؤمر بالدخول . وقال حين وقف في عرفات «الحجّ عرفات أو يوم عرفة . من أدرك ليلة جمع «1» قبل الصبح فقد تمّ حجّه» وقال في موقف آخر «أيام منى ثلاثة فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه . وإنها ليست أيام صيام إنما هي أيام أكل وشرب وذكر» ومما روي من أقواله في خطبة الوداع «إن اللّه قسم لكل إنسان نصيبه من الميراث فلا يجوز لوارث وصية . ألا وإن الولد للفراش وللعاهر الحجر . ألا ومن ادّعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه رغبة عنهم فعليه لعنة اللّه والملائكة والناس أجمعين . يا أيها الناس اسمعوا وأطيعوا وإن أمّر عليكم عبد حبشي مجدع إذا أقام فيكم كتاب اللّه . أرقّاءكم أرقّاءكم . أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون .

وإن جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه فبيعوا عباد اللّه ولا تعذبوهم . ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب فلعلّ بعض من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه» وقال لبعض المسلمين حين رآه يتشدد في اختيار الجمرات «إيّاكم والغلوّ في الدين إنما أهلك من كان قبلكم . بالغلوّ في الدين» .

(1) ليلة العيد .

ومما رواه ابن هشام من زيادة في خطبته : «أيها الناس إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا . ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم . فاحذروه على دينكم . أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضلّ به الذين كفروا يحلّونه عاما ويحرّمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم اللّه فيحلوا ما حرم اللّه ويحرموا ما أحل اللّه . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللّه السموات والأرض . وإن عدة الشهور عند اللّه اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى ورجب . أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدا . من كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه . أيها الناس لتعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين أخوة . فلا يحلّ لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه . فلا تظلمن أنفسكم . ألا إني تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلّوا أبدا . أمرا بينا . كتاب اللّه وسنّة نبيه . وهتف في آخر خطبته اللّهمّ هل بلّغت فهتف الناس نعم فقال اللّهمّ فاشهد» ومما رواه ابن هشام وفيه تعليم لمناسك الحج أن رسول اللّه صلى اللّه عليه

وسلم خرج لخمس بقين من ذي القعدة . وأن عائشة رضي اللّه عنها حاضت وبكت وقالت واللّه لوددت أني لم أخرج معكم عامي هذا فقال لا تقولن ذلك فإنك تقضين كلّ ما يقضى الحج . إلا أنك لا تطوفين بالبيت «1» . وإن النبي حلّ كل من كان لا هدي له معه وحل نساءه بعمرة . ولم يحلّ هو معهم وقال إني أهديت ولبّدت فلا أحلّ حتى أنحر هديي وأن هدي رسول اللّه كان من البقر وقد نحره يوم النحر . وأن عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه رجع من بعثه الذي بعثه به إلى اليمن أثناء الحجّ فأمره النبي أن يطوف ويحل كما فعل أصحابه . فقال له إني أهللت يا رسول اللّه كما أهللت فأعاد عليه القول فقال يا رسول اللّه إني قلت حين أحرمت اللّهمّ إني أهلّ بما أهلّ به نبيك وعبدك ورسولك . فقال فهل معك من هدي قال لا فأشركه رسول اللّه في هديه وثبت على إحرامه . وإن رسول اللّه قال حين وقف على المرتفع الذي

---

(1) روى ابن هشام أنها أدت العمرة قضاء بعد طهرها .

وقف عليه هذا الموقف ثم قال وكل عرفة موقف . وقال حين وقف على هضبة صبيحة المزدلفة هذا الموقف ثم قال وكل المزدلفة موقف . ولما نحر بالمنحر بمنى قال هذا المنحر

وكل منى منحر .

وهكذا كانت هذه الحجّة المباركة من أعظم مشاهد الرسالة المحمدية وتتويجا رائعا لها .

نبذة في مرض النبي صلى اللّه عليه وسلم ووفاته ولحظاته الأخيرة وصفته

وأما وفاته صلى اللّه عليه وسلم فقد كانت على أشهر الروايات «1» في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة عن ثلاث وستين سنة «2» . ولا تذكر الروايات المرض الذي مات به . وكل ما جاء فيها أنه ألّمت به حمّى رافقها صداع . وأن العباس عمّه رضي اللّه عنه ظنّ أنها ذات الجنب ولكن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال ما كان اللّه ليقذفني بهذا الداء . ولم يطل مرضه إلّا نحو أسبوعين . ولما شعر بثقل وجعه استأذن من نسائه بالانتقال إلى بيت عائشة تحقيقا لفكرة العدل بينهن فأذنّ له حيث مات في بيتها ودفن فيه وهو المكان المدفون فيه إلى اليوم على التحقيق صلوات اللّه وسلامه عليه .

ومما رواه ابن هشام أن النبي صلى اللّه عليه وسلم خرج في جوف الليل مع أبي مويهبة مولاه

---

(1) انظر ابن هشام ج 4 ص 319 - 345 وتاريخ الطبري ج 2 ص 430 - 444 وكل من المؤلفين يسند رواياته إلى راو بعد راو وإلى أحد أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

(2) هناك حديث رواه الشيخان والترمذي عن ابن عباس قال : «بعث رسول اللّه

لأربعين سنة فمكث في مكة ثلاث عشرة سنة يوحى إليه ثم أمر بالهجرة إلى المدينة فهاجر إليها فأقام عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة» . وحديث رواه مسلم عن أنس قال : «قبض رسول اللّه وهو ابن ثلاث وستين سنة» . وحديث رواه مسلم والترمذي عن عائشة قالت «توفي رسول اللّه وهو ابن ثلاث وستين سنة» . ومع ذلك فهناك حديث رواه مسلم والترمذي عن ابن عباس قال : «توفي رسول اللّه وهو ابن خمس وستين سنة» انظر التاج 5 ص 229 .

(214/836)

وقال له إني أمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معي فلما وقف بين أظهرهم قال السلام عليكم يا أهل المقابر . ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه .

أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها والآخرة شرّ من الأولى ثم قال يا أبا مويهبة .

إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة فخيّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة فقال أبو مويهبة بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة قال لا واللّه يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة .

ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف فبدأ برسول اللّه وجعه الذي قبضه اللّه فيه . ولقد خرج

في بعض مرضه عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر فصلّى على أصحاب أحد واستغفر لهم فأكثر من الصلاة عليهم. ثم قال: يا معشر المهاجرين استوصوا بالأنصار خيرا فإنّ الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد وإنهم كانوا عيبتي التي أويت إليها فأحسنوا إلى محسنيهم وتجاوزوا عن مسيئيهم. ثم قال أيها الناس: إن عبدا من عباد اللّه خيّره اللّه بين الدنيا وما عنده فاختار ما عنده، ففهمها أبو بكر فبكى وقال بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا فقال على رسلك يا أبا بكر ثم قال انظروا هذه الأبواب اللافظة في المسجد فسدّوها إلّا باب أبي بكر فإني لا أعلم أحدا كان أفضل من الصحبة عندي يدا منه. وإني لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع اللّه بيننا عنده «1».

ولما اشتد برسول اللّه الوجع وجاء بلال يدعوه إلى الصلاة فقال مروا من يصلي بالناس فخرج فإذا عمر في الناس وكان أبو بكر غائبا فقلت قم يا عمر فصلّ بالناس فقام فلما كبّر سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم صوته وكان رجلا مجهرا فقال فأين أبو بكر يأبى اللّه ذلك والمسلمون. يأبى اللّه ذلك والمسلمون. ثم بعث إلى أبي بكر فجاء بعد أن صلّى عمر الصلاة فصلّى بالناس. وكان النبي صلى اللّه عليه وسلم قد هيأ جيشا وعين لقيادته أسامة بن زيد ليذهب إلى مؤتة في البلقاء لينتقم لجيش ذهب بقيادة أبي أسامة في

(1) ورد معظم ما أوردناه من خطبة رسول اللّه وبكاء أبي بكر وكلامه وردّ النبي عليه في

حديث رواه الشيخان والترمذي عن أبي سعيد وأوردناه في سياق تفسير الآية [40] من سورة التوبة. انظر التاج 3 ص 273.

(215/836)

السنة السابعة الهجرية واستشهد أبوه مع عدد من المسلمين فاستبطأ حركة سير الجيش وسمع أن بعض الناس ينتقدون قيادة أسامة لأنه لا يزال فتى يافعا. فخرج مرة أخرى عاصبا رأسه حتى جلس على المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال أيها الناس أنفذوا بعث أسامة. فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله. وإنه لخليق بالإمارة. وإن كان أبوه لخليقا بها ووصف له بعضهم دواء يسقونه إياه وهو غائب عن وعيه من الحمّى فقال عمّه لألدنه (أي لأسقينه الدواء بالقوة) فلدّوه فلما أفاق قال من صنع بي هذا قالوا عمك. فقال العباس هذا دواء أتى به نساء جئن من الحبشة. قال ولم فعلتم ذلك؟ فقال عمّه خشينا يا رسول اللّه أن يكون بك ذات الجنب. فقال إن ذلك لداء ما كان اللّه ليقذفني به. لا يبق في البيت أحد إلّا لدّ إلّا عمي فلدّوا عقوبة لهم بما صنعوا به. وفي يوم الاثنين الذي قبض فيه خرج إلى الناس وهم يصلّون الصبح بإمامة أبي بكر فكاد المسلمون يفتتنون في صلاتهم حين رأوه فرحا به فتبسم صلوات اللّه عليه فرحا من هيئتهم

في صلاتهم . وتفرجوا له (أوسعوا له) فأشار أن اثبتوا . وشعر أبو بكر بالحركة فعرف أنه النبي صلى اللّه عليه وسلم فأراد أن يتأخر له فأشار له أن يبقى ثم صلى جالسا إلى جانبه وقال أنس راوي هذا إنه لم ير رسول اللّه أحسن هيئة منه في تلك الساعة وقد أقبل على الناس يكلمهم بصوت مرتفع فقال : «يا أيها الناس سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم . وإني واللّه ما تمسكون علي بشيء . إني لم أحلّ إلّا ما أحلّ القرآن .

ولم أحرّم إلّا ما حرّم القرآن» وقد اطمأن أبو بكر واستأذنه بالذهاب إلى بيته في محلة السنح قائلا له إني أراك بفضل اللّه ونعمته قد أصبحت بخير فأذن له . غير أن الضحاء لم يكد يشتد حتى توفاه اللّه .

ومما رواه ابن هشام متسلسلا إلى عائشة أنها قالت «كان آخر عهد لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن لا يترك بجزيرة العرب دينان . وآخر كلمة سمعتها منه لما حضرته الوفاة قوله «بل الرفيق الأعلى» قالت ففهمت أن اللّه تعالى خيّره فاختاره لأنه كان يقول إن اللّه لم يقبض نبيا حتى يخيّره . وما كان إلّا أن يختار اللّه علينا . وكان آخر ما فعله أنه رأى عود أراك في يد قريب لعائشة فنظر إليه فعرفت أنه يحبّ أن يستنّ فمضغته

له حتى لان ثم أعطته إياه فاستنّ كأشد ما رأته يستنّ بسواك قط «1» . ومما رواه ابن هشام مسلسلا إلى عبد الله بن عباس أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند رسول الله في وجعه فسأله الناس كيف أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أصبح بحمد الله بارئا فأخذ العباس بيده وقال له : أحلف بالله لقد عرفت الموت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كنت أعرفه في وجوه بني عبد المطلب . فانطلق بنا إلى رسول الله فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه ولئن كان في غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس . فقال عليّ إني والله لا أفعل . والله لئن منعناه لا يؤتيناه أحد بعد . فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الضّحاء من ذلك اليوم . كان مما رواه ابن هشام أنه لما مات النبي صلى الله عليه وسلم قام عمر فقال إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفي . وإن رسول الله ما مات . ولكنه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران . فقد غاب أربعين ليلة عن قومه ثم رجع إليهم بعد أن قيل مات . والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات . وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد وعمر يكلم الناس فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول

---

(1) رويت أحاديث صحيحة عديدة عن آخر لحظات النبي صلى الله عليه وسلم . منها حديث رواه مسلم عن عائشة قالت : «سمعت رسول الله يقول قبل أن يموت وهو مسند

إلى صدرها اللّهمّ اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى» وحديث رواه مسلم كذلك عن عائشة قالت: «كنت أسمع أنه لن يموت نبي حتى يخيّر بين الدنيا والآخرة فسمعت النبي صلى اللّه عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه وأخذته بحّة يقول مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا قالت فظننته خيّر حينئذ». وحديث رواه الشيخان عنها قالت: «كان رسول اللّه يقول وهو صحيح إنه لم يقبض نبيّ قط حتى يرى مقعده في الجنة ثم يخيّر. قالت فلما نزل برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ورأسه على فخذي غشي عليه ساعة ثم أفاق فأشخص بصره إلى السقف ثم قال اللّهمّ الرفيق الأعلى قلت إذا لا يختارنا وعرفت الحديث الذي كان يذكره وهو صحيح فكان آخر كلمة تكلّم بها رسول اللّه اللّهمّ الرفيق الأعلى» وحديث رواه البخاري عنها أيضا قالت: «إنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فجعل يدخل يده في الماء ويمسح بها وجهه ويقول لا إله إلا اللّه إن للموت سكرات ثم نصب يده فجعل يقول في الرفيق الأعلى حتى قبض ومالت يده» الأحاديث من التاج ج 3 ص 261.

اللّه وهو مسجى في ناحية البيت عليه برد حبرة فأقبل حتى كشف عن وجهه ثم قبّله وقال بأبي أنت وأمي . أما الموتة التي كتب اللّه عليك فقد ذقتها ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا . ثم ردّ البردة على وجهه ثم خرج وعمر يكلّم الناس فقال : على رسلك يا عمر أنصت فأبى إلّا أن يتكلّم ، فأقبل على الناس فلما سمعوا كلامه أقبلوا عليه فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات . ومن كان يعبد اللّه فإن اللّه حي لا يموت . ثم تلا قول اللّه : وَما مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144) [آل عمران] . فواللّه لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ وأخذها الناس عن أبي بكر فإنما هي في أفواههم . قال أبو هريرة : قال عمر : فواللّه ما هو إلّا أن سمعت أبا بكر تلاها حتى عقرت ووقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي وعرفت أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد مات . وقد تولى غسل النبي صلى اللّه عليه وسلم عليّ بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب والفضل بن عباس وقثم بن العباس وأسامة بن زيد وشقران مولى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رضوان اللّه عليهم . ولم يجردوه بتاتا بل أبقوا قميصه عليه وغسلوه من تحته . ثم كفن في ثلاثة أثواب ثوبين صحاريين «1» وبرد حبرة أدرج فيه إدراجا . ثم وضع على سريره . وأدخل الناس عليه للصلاة أرسالا . فصلّى عليه الرجال حتى إذا فرغوا أدخل النساء ثم الصبيان . ولم يؤمّ

الناس أحد . واختلفوا في محل دفنه فقال أبو بكر سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : «ما قبض نبي إلّا دفن حيث يقبض» فدفن في بيت عائشة وسط الليل ليلة الأربعاء . وقد تولّى دفنه عليّ بن أبي طالب والفضل بن عباس وقثم بن عباس وشقران مولى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم رضوان اللّه عليهم .

وما تقدم كلّه مقتبس من ابن هشام . وكثير منه وارد في تاريخ الطبري . وفي هذا بعض روايات لم ترد في ابن هشام . وهي مسلسلة الرواة إلى أحد أصحاب رسول اللّه . من ذلك عن عائشة والفضل بن عباس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم اشتد به الوجع

---

(1) نسبة إلى صحار بلدة في اليمن .

فقال أهريقوا عليّ من سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد عليهم فأقعدناه في مخضب ثم صببنا عليه الماء حتى قال حسبكم حسبكم ثم خرج وقد عصب رأسه وأخذ الفضل بن العباس بيده حتى جلس على المنبر وأمر بنداء الناس فاجتمعوا فقال أما بعد أيها الناس فإني أحمد إليكم اللّه الذي لا إله إلا هو وإنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم فمن كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهري فليستقد منه ومن كنت شتمت له عرضا فهذا

عرضي فليستقد منه . ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني . ألا وإن أحبّكم إليّ من أخذ مني حقا إن كان له أو حللني فلقيت اللّه وأنا طيّب الناس . وقد أرى أن هذا غير مغن عني حتى أقوم فيكم مرارا .

ثم نزل فصلى الظهر ورجع فجلس على المنبر فعاد لمقالته الأولى فقام رجل فقال يا رسول اللّه إنّ لي عندك ثلاثة دراهم قال أعطه يا فضل ثم قال يا أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل فضوح الدنيا ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة فقام رجل فقال يا رسول اللّه عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل اللّه . قال ولم غللتها ؟ قال كنت إليها محتاجا ، قال خذها منه يا فضل . ثم قال أيها الناس من خشي من نفسه شيئًا فليقم أدع له فقام رجل فقال يا رسول اللّه إني لكذاب إني لفاحش وإني لنؤوم فقال اللّهمّ ارزقه صدقا وإيمانا وأذهب عنه النوم إذا أراد . ثم قام رجل فقال واللّه يا رسول اللّه إني لكذاب وإني لمنافق . وما من شيء إلا قد جنيته فقام عمر بن الخطاب فقال فضحت نفسك أيها الرجل فقال النبي يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة . اللّهمّ ارزقه صدقا وإيمانا وصيّر أمره إلى خير .

ومن ذلك عن عبد اللّه بن مسعود أن نبينا وحبيبنا نعى إلينا نفسه قبل موته بشهر فلما دنا الفراق جمعنا في بيت أمنا عائشة فنظر إلينا وشدد فدمعت عينه وقال مرحبا بكم رحمكم اللّه آواكم اللّه حفظكم اللّه رفعكم اللّه نفعكم اللّه وفقكم اللّه نصركم اللّه سلمكم

اللّه قبلكم اللّه . أوصيكم بتقوى اللّه وأوصي اللّه بكم وأستخلفه عليكم وأؤديكم إليه .

إني لكم نذير وبشير لا تعلوا على اللّه في عباده وبلاده فإنه قال لي ولكم :

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [القصص : 83] . وقال : أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ [الزمر : 60] .

(219/836)

فقلنا : متى أجلك ؟ قال : قد دنا الفراق والمنقلب إلى اللّه إلى سدة المنتهى . قلنا : فمن يغسلك يا نبي اللّه ؟ قال : أهلي الأدنى فالأدنى . قلنا : ففيم نكفنك ؟ قال : في ثيابي هذه إن شئتم أو في بياض مصر أو حلة يمانية . قلنا : فمن يصلي عليك .

قال : مهلا غفر اللّه لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا ، فبكينا وبكى ، وقال : إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلي عليّ جليسي وخليلي جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك الموت مع جنود كثيرة من الملائكة بأجمعها . ثم ادخلوا عليّ فوجا فوجا فصلّوا عليّ وسلّموا تسليما ولا تؤذوني بتزكية ولا برنّة ولا صيحة .

وليبدأ بالصلاة عليّ رجال أهل بيتي ثم نساؤهم ثم أنتم بعد ، اقرأوا أنفسكم السلام فإني

أشهدكم أني قد سلمت على من بايعني على ديني من اليوم إلى يوم القيامة .

قلنا : فمن يدخلك في قبرك يا نبي اللّه ؟ قال : أهلي مع ملائكة كثيرين يرونكم من حيث لا ترونهم . ومن ذلك عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : اشتدّ برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وجعه فقال : ائتوني أكتب لكم كتابا لا تضلّوا بعدي أبدا . فتنازعوا ولا ينبغي أن يتنازع عند نبي فقالوا : ما شأنه أهجر (يعني هل يهذي من شدة الوجع) استفهموه فذهبوا يعيدون عليه فقال : دعوني فما أنا فيه خير مما تدعونني إليه .

وأوصى بثلاث قال : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب ، وأجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم ، وسكت عن الثالثة عمدا أو قال فنسيتها » .

أما صفته صلى اللّه عليه وسلم فهناك روايات عديدة متقاربة بعضها مقتضب وبعضها مسهب وقد روى ابن سعد عن أبي هالة التميمي وصفا رواه عن ابن أخته الحسن بن علي الذي سأل خاله عن صفته وكان وصّافا فقال : «1» «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر . أطول من المربوع وأقصر من المشذب «2» .

عظيم الهامة رجل الشعر إن انفرقت عقيصته «3» فرق وإلّا فلا ، يجاوز شعره شحمة

---

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد ج 2 ص 183 - 188 . [. . . . .]

(2) الطويل النحيف.

(3) ضفيرته.

(220/836)

أذنيه إذا هو وفّره «1» أزهر اللون. واسع الجبين. أزج الحواجب سوابغ في غير قرن. بينهما عرق يديره الغضب أقنى «2» العرنين. له نور تعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم. كثّ اللحية. ضليع الفهم. مفلج الأسنان دقيق المسربة. كأن عنقه جيد دمية «3». في صفاء الفضة. معتدل الخلق. بادنا متماسكا سواء البطن والصدر.

عريض الصدر. بعيد ما بين المنكبين. ضخم الكراديس «4». أنور المتجرد «5». موصول ما بين اللبة «6» والسرّة بشعر يجري كالخط. عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك. أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر. طويل الزندين. رحب الراحة سبط القصب. شثن الكفين والقدمين. سائل الأطراف. خمصان الأخمصين. مسيح القدمين ينبو عنهما الماء. إذا زال زال قلعا «7». يخطو تكفؤا ويمشي هونا. ذريع المشية إذا مشى كأنما ينحط من صبب. وإذا التفت التفت جميعا. خافض الطرف. نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء. يعني جلّ نظره الملاحظة. يسبق أصحابه. يبدر من

لقي بالسلام . وكان رسول اللّه صلى الله عليه وسلم متواصلا للأحزان . دائم الفكرة . ليست له راحة . لا يتكلم في غير حاجة . طويل السكت يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه . ويتكلم بجوامع الكلم فصل لا فضول ولا تقصير . دمثا ليس بالجافي ولا المهين . يعظم النعمة وإن دقت . لا يذم منها شيئًا .

لا يذم ذواقا . ولا يمدحه . لا تغضبه الدنيا وما كان لها فإذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له . لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها . إذا أشار أشار بكفه كلها . إذا تعجب قلبها . وإذا تحدث اتصل بها . يضرب براحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى . وإذا غضب أعرض وأشاح . وإذا فرح غضّ طرفه . جلّ

---

(1) إذا لم يقصه .

(2) طويل مع رقة الأرنبة وحدب في الوسط .

(3) الصورة المبالغ في صنعها .

(4) رؤوس العظام أو ملتقاها .

(5) مشرق الجسد .

(6) المنحر .

(7) مثبتا .

ضحكه التبسم . ويفتر عن مثل حبّ الغمام . وكان إذا أوى إلى منزله جزّأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءا للّه وجزءا لأهله وجزءا لنفسه . ثم جزّأ جزءه بينه وبين الناس فيسرد ذلك على العامة بالخاصة . ولا يدّخر عنهم شيئا . يؤثر أهل الفضل ناديه .

وقسمه على قدر فضلهم في الدين . وكان يقول : «ليبلغ الشاهد الغائب . وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته . فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع إبلاغها إياه ثبت اللّه قدميه يوم القيامة» . لا يذكر عنده إلّا ذلك ولا يقبل من أحد غيره . لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك . يعطي كل جلسائه بنصيبه لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه . من جالسه أو قاومه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف . ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول . قد وسع الناس منه بسطه وخلقه فصار لهم أبا وصاروا في الحق عنده سواء . مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة . لا ترفع فيه الأصوات . ولا تؤبن «1» فيه الحرم ولا تثنى فلتاته «2» متعادلين . يتفاضلون فيه بالتقوى . متواضعين يوقرون فيه الكبير . ويرحمون فيه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة . ويحفظون أو يحوطون

الغريب. وكان دائم البشر سهل الخلق. ليّن الجانب. ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخّاب ولا فحّاش ولا عيّاب يتغافل عما لا يشتهي. ولا يدنس منه ولا يجنب فيه. قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار ومما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث. لا يذم أحدا ولا يعيره، ولا يطلب عورته. ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه.

إذا تكلّم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير. فإذا سكت تكلموا. ولا يتنازعون عنده من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده. فكان يضحك مما يضحكون ويتعجب مما يتعجبون منه ويصبر للغريب على الجفوة في منطقة ومسألته ويقول: «إذا رأيتم طالب الحاجة بطلبها فأردفوه» ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام. وكان سكوته على

---

(1) لا تذكر فيه الحرم بقبيح.

(2) الفلتات: الزلات أي لم تكن في مجلسه زلات فتحكى.

أربع: على الحلم والحذر والتقرير والتفكير. فأما تقريره ففي تسوية النظر والاستماع من الناس. وأما تذكره أو تفكره ففيما يبقى ويفنى. وجمع الحلم والصبر وكان لا يغضبه شيء

ولا يستفزه. وجمع له الحذر في أربع: أخذه بالحسنى ليقتدى به. وتركه القبيح ليتناهى عنه، واجتهاده الرأي فيما أصلح أمته. والقيام فيما جمع لهم الدنيا والآخرة. صلى اللّه عليه وسلم صلاة وتسليما دائمين متناسبين مع جلالة قدره وعظمة أخلاقه وبالغ جهده في سبيل تبليغ رسالة ربّه ونشر دينه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿التفسير الحديث حـ 9 صـ 573 ـ 594.﴾

(223/836)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب:

(110) سورة النصر

نزولها: مدنية.. اختلف فى ترتيب نزولها، والرأى عندنا أنها نزلت قبل فتح مكة عدد آياتها: ثلاث آيات عدد كلماتها: ست وعشرون كلمة عدد حروفها: أربعة وسبعون حرفا

مناسبتها لما قبلها

آذن النبي ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ المشركين فى سورة «الكافرون» التي سبقت هذه السورة ـ آذانهم بكلمة الفصل بينه وبينهم «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ»

.. ووراء هذه الكلمة الحاسمة القاطعة، التي أخذ بها النبي طريقه إلى ربه ومعبوده، واتخذ بها المشركون طريقهم إلى آلهتهم ومعبوداتهم. وراء هذه الكلمة تشخص الأبصار إلى مسيرة كلّ من النبي والمشركين الذين أخذوا طريقا غير طريقه، لترى ماذا ينتهى إليه الطريق بكل منهما ..

وتختفى عن الأبصار طريق أهل الشرك، وتبتلعهم رمال العواصف الهابّة عليهم من صحراء ضلالهم ..

أما الطريق الذي أخذه النبي صلوات اللّه وسلامه عليه، فها هو ذا النصر العظيم يلقاه عليه، وها هو ذا الفتح المبين ترفرف أعلامه بين يديه، وها هو ذا دين اللّه الذي يدعو إليه، قد فتحت أبوابه، ودخل الناس فيه أفواجا ..

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الآيات: (1- 3) [سورة النصر (110): الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ

رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (3)

التفسير:

قوله تعالى: «إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً».

إذا ظرف، شرطىّ، لما يستقبل من الزمان.. وهذا يعنى أن ما بعدها

لم يتحقق بعد، وهو إذا كان وعدا من اللّه سبحانه وتعالى، فإن تحققه أمر لا شك فيه، وهو واقع موقع اليقين من المؤمنين قبل أن يتحقق.

ونصر اللّه والفتح، هو نصر دين اللّه، بنصر النبي والمؤمنين على المشركين، ومن اجتمعوا معهم على حرب النبىّ والمؤمنين، والوقوف فى وجه دين اللّه، الذي يدعو إليه رسول اللّه.. والفتح، هو فتح مكة، التي كان مشركوها هم القوة المحركة لكل عدوان على النبىّ والمؤمنين.. فإذا فتحت كان فتحها هو النصر المبين، والفتح العظيم..

وهذا يعنى أن هذه السورة، نزلت قبل فتح مكة، فكانت من أنباء الغيب، ومن البشريات التي بشر بها النبي والمسلمون، فى وسط هذا الصراع الدائر بينه وبين المشركين..

وتكاد الأخبار التي يرويها المفسرون. تجمع على أن هذه السورة كانت من أواخر ما نزل من

القرآن ، وأنها نزلت بعد سورة الفتح ، وقبيل وفاة النبي صلوات اللّه وسلامه عليه بأيام ، قيل عنها فى أكثر الروايات إنها كانت ثمانين يوما ! ! وهذا ما نخالفهم فيه .

فالقرآن الكريم صريح فى أن قوله تعالى : « إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً » هو وعد ، يتحقق فى زمن مستقبل . . فهذا ما ينطق به صريح النظم القرآنى . . ولن يعدل بنا شىء عن الأخذ بمنطوق الآية الكريمة . ولهذا فإنا نقول ـ فى ثقة واطمئنان ، وفى قطع ويقين : إن هذه السورة نزلت قبل فتح مكة ، وفى أشد مواقف النبي حرجا وضيقا ، وهو فى مواجهة أهل الشرك والضلال ـ فكانت مددا من أمداد السماء ، وزادا من عند اللّه ، يتزود به النبي وأصحابه ، فيما امتحنوا به فى أنفسهم

وأموالهم . . إنها طاقة من النور السماوي ، فى وسط هذا الظلام الكثيف ، يرى المؤمنون على ضوئها وجه المستقبل المشرق ، الذي وعدهم اللّه فيه بالنصر ، والفتح ! وقوله تعالى : « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً » .

والتسبيح أولا ، لأنه المطلوب فى مقام الشكر ، على هذه النعمة العظيمة ، بالنصر والفتح . . ثم الاستغفار ثانيا ، مما وقع من تقصير فى حق اللّه على مسيرة الجهاد ، حتى جاء يوم

النصر، والفتح . .

فعلى مسيرة الجهاد، وفى أوقات الشدة والضيق، وفى مواقع الهزيمة، وفقد الأحباب والأعزاء، تتغير مواقف المجاهدين، وتحوم حول مشاعرهم خواطر تهز إيمانهم، على درجات مختلفة، حسب ما فى النفوس من إيمان، وما فى القلوب من يقين . .

فالنفس البشرية - أيا كانت من وثاقة الإيمان بالله - تعرض لها فى الشدائد والمحن، عوارض، من الخواطر، والتصورات، لا ترضاها لدينها، وإيمانها بربها فى ساعة اليسر، وفى أوقات السلام والأمن . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا» (110: يوسف) وقوله تعالى عن النبي وأصحابه: «وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ: مَتَى نَصْرُ اللَّهِ؟» (214: البقرة) ويقول سبحانه عن المؤمنين فى غزوة الأحزاب: «إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» (10: الأحزاب). وقد صرح المنافقون والذين فى قلوبهم مرض من المؤمنين - صرحوا عن ظنونهم بالله يومئذ، فقالوا ما ذكره الله تعالى عنهم من قولهم: «ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً» (12: الأحزاب).

فدعوة النبي إلى الاستغفار ، هى دعوة له ، وللمؤمنين معه ـ من باب أولى ـ إلى لقاء اللّه تعالى تائبين مستغفرين ، بعد أن يتم اللّه عليهم نعمة النصر والفتح ، ويبلغ بهم منزل السلامة والأمن . . وإنه ليس فى هذا الاستغفار إلا مراجعة لما وقع فى النفوس من ظنون باللّه عند بعض المؤمنين ، أو ضجر من الصبر على البلاء عند بعض آخر ، أو شعور بشىء من الأسى والحزن عند فريق ثالث . .

وهكذا وذلك فى مسيرتهم على طريق الضرّ والأذى ، إلى أن لقيهم نصر اللّه والفتح .

وقوله تعالى : « إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً » أي كثير التوبة على عباده ، واسع المغفرة لذنوبهم . . وفى المبالغة فى التوبة دلالة على كثرتها ، والدلالة على كثرتها ، دلالة على كثرة ذنوب العباد ، وما وقع لهم فى مسيرتهم على الجهاد ، مما ينبغى أن يتطهر منه المجاهدون ، وأن يصفّو حسابهم معه بالتوبة والاستغفار ، بعد أن رأوا ما رأوا من قدرة اللّه ، ومن إحسانه وفضله عليهم . . وهذا مثل قوله تعالى : « لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ » (117 : التوبة) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1702.1698 ﴾

(228/836)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) ﴾

﴿ إذا ﴾ اسم زمان مبهم يتعين مقداره بمضمون جملة يضاف إليها هو .

ف ﴿ إذا ﴾ اسمُ زمان مطلق ، فقد يستعمل للزمن المستقبل غالباً .

ولذلك يضمَّن معنى الشرط غالباً ، ويكون الفعل الذي تضاف إليه بصيغة الماضي غالباً لإفادة التحقق ، وقد يكون مضارعاً كقوله تعالى : ﴿ وهو على جمعهم إذا يشاء قدير ﴾ [الشورى : 29] .

ويستعمل في الزمن الماضي وحينئذ يتعين أن تقع الجملة بعده بصيغة الماضي ، ولا تضمن ﴿ إذا ﴾ معنى الشرط حينئذ وإنما هي لمجرد الإخبار دون قصد تعليق نحو : ﴿ وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضوا إليها ﴾ [الجمعة : 11] .

و ﴿ إذا ﴾ هنا مضمنة الشرط لا محالة لوجود الفاء في قوله : ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ وقضية الاستقبال وعدمه تقدمت .

والنصر : الإِعانة على العدوّ .

ونصر الله يعقبه التغلب على العدو .

و ﴿ الفتح ﴾ : امتلاك بلد العدوّ وأرضِه لأنه يكون بفتح باب البلد كقوله تعالى : ﴿

ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ﴾ [المائدة : 23] ، ويكون باقتحام ثغور الأرض ومحارسها فقد كانوا ينزلون بالأَرضين التي لها شعاب وثغور قال لبيد :

وأَجَنَّ عوراتتِ الثغور ظَلاَمُها

وقد فتح المسلمون خيْبر قبل نزول هذه الآية فتعين أن الفتح المذكور فيها فتح آخر وهو فتح مكة كما يشعر به التعريف بلام العهد ، وهو المعهود في قوله تعالى : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك اللَّه ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك اللَّه نصراً عزيزاً ﴾ [الفتح : 31] .

فإضافة ﴿ نصر ﴾ إلى ﴿ اللَّه ﴾ تشعر بتعظيم هذا النصر وأنه نصر عزيز خارق للعادة اعتنى الله بإيجاد أسبابه ولم تجر على متعارف تولد الحوادث عن أمثالها .

و﴿ جاء ﴾ مستعمل في معنى : حصَل وتحقق مجازاً .

(229/836)

والتعريف في "الفتح" للعهد وقد وعد الله رسوله صلى الله عليه وسلم به غير مرة من ذلك قوله تعالى : ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ [القصص : 85] وقوله : ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء اللَّه آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما

لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ [الفتح : 27] .

وهذه الآية نزلت عام الحديبية وذلك قبل نزول سورة ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ على جميع الأقوال .

وقد اتفقت أقوال المفسرين من السلف فمَن بعدهم على أن الفتح المذكور في هذه السورة هو فتح مكة إلا رواية عن سعيد بن جبير عن ابن عباس هو فتح المدائن والقصور ، يعنون الحصون .

وقد كان فتح مكة يخالج نفوس العرب كلهم فالمسلمون كانوا يرجونه ويعلمون ما أشار به القرآن من الوعد به وأهل مَكة يتوقعونه وبقية العرب ينتظرون ماذا يكون الحال بين أهل مكة وبين النبي صلى الله عليه وسلم ويتلومون بدخولهم في الإِسلام فتحَ مكة يقولون : إنْ ظهر محمد على قومه فهو نبيء .

وتكرر أنْ صَدَّ بعضُهم بعضاً ممن يريد اتباع الاسلام عن الدخول فيه وإنظاره إلى ما سيظهر من غلب الإِسلام أو غلب الشرك .

أخرج البخاري عن عمرو بن سلمة قال : "لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة فيقولون دَعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبيء" .

وعن الحسن : لما فتحت مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا : أما إذ ظفر بأهل

الحرم فليس لنا به يَدانِ فكانوا يدخلون في الإِسلام أفواجاً .

فعلى قول الجمهور في أن الفتح هو فتح مكة يستقيم أن تكون هذه السورة نزلت بعد فتح خيبر وهو قول الأكثرين في وقت نزولها .

(230/836)

ويحتمل على قول القائلين بأنها نزلت عقب غزوة حنين أن يكون الفتح قد مضى ويكون التعليق على مجموع فتح مكة ومجيء نصر من الله آخر ودخول الناس في الإِسلام وذلك بما فتح عليه بعد ذلك ودخول العرب كلهم في الإِسلام سنة الوفود .

وعلى ما روي عن ابن عمر : "أنها نزلت في حجة الوداع" يكون تعليق جملة : ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ على الشرط الماضي مراداً به التذكير بأنه حصل ، أي إذا تحقق ما وعدناك به من النصر والفتح وعموم الإِسلام بلادَ العرب فسبح بحمد ربك ، وهو مراد مَن قال من المفسرين ﴿ إذا ﴾ بمعنى (قد) ، فهو تفسير حاصل المعنى ، وليست ﴿ إذا ﴾ مما يأتي بمعنى (قد) .

والرؤية في قوله : ﴿ ورأيت الناس ﴾ يجوز أن تكون علمية ، أي وعلمت علم اليقين أن الناس يدخلون في دين الله أفواجاً وذلك بالأخبار الواردة من آفاق بلاد العرب ومواطن

قبائلهم وبِمَنْ يحضر من وفودهم .

فيكون جملة ﴿ يدخلون ﴾ في محل المفعول الثاني ل ﴿ رأيت ﴾ .

ويجوز أن تكون رؤية بصرية بأن رأى أفواج وفود العرب يردون إلى المدينة يدخلون في الإِسلام وذلك سنة تسع ، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ببصره ما علم منه دخولهم كلهم في الإِسلام بمن حضر معه الموقف في حجة الوداع فقد كانوا مائة ألف من مختلف قبائل العرب فتكون جملة ﴿ يدخلون ﴾ في موضع الحال من الناس .

و﴿ دين اللَّه ﴾ هو الإِسلام لقوله تعالى : ﴿ إن الدين عند اللَّه الإسلام ﴾ [آل عمران : 19] وقوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت اللَّه التي فطر الناس عليها ﴾ [الروم : 30] .

والدخول في الدين : مستعار للنطق بكلمة الشهادة والتزام أحكام الدين الناشئة عن تلك الشهادة .

فشُبه الدين ببيت أو حظيرة على طريقة المكنية ورمز إليه بما هو من لوازم المشبه به وهو الدخول ، على تشبيه التلبس بالدين بتلبس المظروف بالظرف ، ففيه استعارة أخرى تصريحية .

و ﴿ الناس ﴾ : اسم جمع يدل على جماعة من الآدميين ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ﴾ في سورة [البقرة : 8] .

وإذا عُرِّف اسم ناس باللام احتملت العهد نحو : ﴿ الذين قال لهم الناس ﴾ [آل عمران : 173] ، واحتملت الجنس نحو : ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم ﴾ [آل عمران : 173] واحتملت الاستغراق نحو : ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ [البقرة : 8] ونحو : ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ [الناس : 1] .

والتعريف في هذه الآية للاستغراق العرفي ، أي جميع الناس الذين يخطرون بالبال لعدم إرادة معهودين معينين ولاستحالة دخول كل إنسان في دين الله بدليل المشاهدة ، فالمعنى : ورأيتَ ناساً كثيرين أو ورأيت العرب .

قال ابن عطية : "قال أبو عُمر بن عبد البر النمري رحمه الله في كتاب "الاستيعاب" في باب خراش الهذلي : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي العرب رجل كافر بل دخل الكل في الإِسلام بعد حُنين والطائِف ، منهم من قدِم ومنهم من قدِم وافده" اه .

وإنما يراد عرب الحجاز ونجد واليمن لأن مِن عرب الشام والعراق من لم يدخلوا في الإِسلام ، وهم : تَغلب وغسان في مشارف الشام والشامِ ، وكذلك لخم وكلب من العراق فهؤلاء كانوا نصارى ولم يسلم من أسلم منهم إلا بعد فتح الشام والعراق بعد رسول الله صلى الله

عليه وسلم فلم يرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلون في دين الله رؤية بصرية .

ويجوز أن يكون اللَّهُ أعلمه بذلك إن جعلنا الرؤية علمية .

والأفواج : جمع فوج وهو الجماعة الكثيرة ، وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ هذا فوج مقتحم معكم ﴾ في سورة [ص : 59] ، أي يدخلون في الإِسلام قبائل ، وانتصب أفواجاً ﴿ على الحال من ضمير ﴿ يدخلون ﴾ .

وجملة : ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ باعتبار ما تضمنته من معنى الشرط ، وفعل ﴿ فسبح ﴾ هو العامل في ﴿ إذا ﴾ النصبَ على الظرفية ، والفاء رابطة للجواب لأنه فعل إنشاء .

وقَرن التسبيح بالحمد بباء المصاحبة المقتضية أن التسبيح لاحقٌ للحمد لأن باء المصاحبة بمعنى (مع) فهي مثل (مع) في أنها تدخل على المتبوع فكان حمد الله على حصول النصر والفتح ودخول الناس في الإِسلام شيئاً مفروغاً منه لا يحتاج إلى الأمر بإيقاعه لأن شأن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قد فعله ، وإنما يحتاج إلى تذكيره بتسبيح خاص لم يحصل من قبل في تسبيحاته وباستغفار خاص لم يحصل من قبل في استغفاره .

ويجوز أن يكون التسبيح المأمور به تسبيحَ ابتهاج وتعجب من تيسير الله تعالى له ما لا يخطر ببال أحد أن يتم له ذلك ، فإن سبحان الله ونحوه يستعمل في التعجب كقول الأعشى :

قد قلتُ لما جاءني فخرُه

سبحانَ من علقمةَ الفاخِر . . .

وفي تقديم الأمر بالتسبيح والحمد على الأمر بالاستغفار تمهيد لإجابة استغفاره على عادة العرب في تقديم الثناء قبل سؤال الحاجة كما قال ابن أبي الصلت :

إذا أثنى عليك المرء يوماً

كفاه عن تعرضه الثناء . . .

فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يخلو عن تسبيح الله فأريد تسبيح يقارن الحمد على ما أعطيه من النصر والفتح ودخول الأمة في الإِسلام .

وعطف الأمر باستغفار الله تعالى على الأمر بالتسبيح مع الحمد يقتضي أنه من حَيِّز جواب ﴿ إذا ﴾ ، وأنه استغفار يحصل مع الحمد مثل ما قرر في ﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ فيدل على أنه استغفار خاص لأن الاستغفار الذي يعم طلب غفران التقصير ونحوه مأمور به من

قبل وهو من شأن النبي صلى الله عليه وسلم فقد قال : " إنه لَيُغَانُ على قلْبي فأستغفر اللَّه في اليوم والليلة مائة مرة " فكان تعليق الأمر بالتسبيح وبالاستغفار على حصول النصر والفتح إيماءً إلى تسبيح واستغفار يحصل بهما تقرب لم يُنْوَ من قبل ، وهو التهيّؤ للقاء الله ، وأن حياته الدنيوية أوشكت على الانتهاء ، وانتهاء أعمال الطاعات والقربات التي تزيد النبي صلى الله عليه وسلم في رفع درجاته عند ربه فلم يبق إلا أن يسأل ربه التجاوز عما يعرض له من اشتغال ببعض الحظوظ الضرورية للحياة أو من اشتغال بمهم من أحوال الأمة يفوته بسببه أمر آخر هو أهم منه ، مثل فِداء أسرى بدر مع فوات مصلحة استئصالهم الذي هو أصلح للأمة فعوتِبَ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : ﴿ ما كان لنبيء أن يكون له أسرى ﴾ [الأنفال : 67] الآية ، أو من ضرورات الإِنسان كالنوم والطعام التي تنقص من حالة شبهه بالملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فكان هذا إيذاناً باقتراب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بانتقاله من حياة تحمل أعباء الرسالة إلى حياة أبدية في العلويات الملكية .

والكلام من قبيل الكناية الرمزية وهي لا تنافي إرادة المعنى الصريح بأن يحمل الأمر بالتسبيح والاستغفار على معنى الإِكثار من قول ذلك .

وقد دل ذوق الكلام بعضَ ذوي الأفهام النافذة من الصحابة على هذا المعنى وغاصت عليه مثل أبي بكر وعمر والعباس وابنه عبد الله وابن مسعود ، فعن مقاتل : " لما نزلت قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه ففرحوا واستبشروا وبكى العباس فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك يا عم ؟ قال : نُعيتْ إليك نفسك .

فقال : إنه لكَما تقول " .

وفي رواية : " نزلت في منى فبكى عمر والعباس فقيل لهما ، فقالا : فيه نُعي رسول الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدقتما نُعِيَتْ إليّ نفسي " .

وفي "صحيح البخاري" وغيره عن ابن عباس : "كان عمر يأذن لأهل بدر ويأذن لي معهم فوجد بعضهم من ذلك ، فقال لهم عمر : إنه مَن قد علمتم .

قال : فأذن لهم ذات يوم وأذن لي معهم ، فسألهم عن هذه السورة : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فقالوا : أمر الله نبيئه إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه فقال : ما تقول يا ابن عباس ؟ قلت : ليس كذلك ولكن أخبر الله نبيئه حضور أجله فقال : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ، فذلك علامة موتك ؟ فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول" فهذا فهم عمر والعباس وعبد الله ابنه .

وقال في "الكشاف" : روي أنه لما نزلت خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "

إن عبداً خيّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله عز وجل .

فعلم أبو بكر فقال : فديناك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا " أ هـ .

قال ابن حجر في "تخريج أحاديث الكشاف" : الحديث متفق عليه إلا صدره دون أوله من كونه كان عند نزول السورة ا ه .

ويحتمل أن يكون بكاء أبي بكر تكرر مرتين أولاهما عند نزول سورة النصر كما في رواية "الكشاف" والثانية عند خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه .

وعن ابن مسعود أن هذه السورة "تسمى سورة التوديع" أي لأنهم علموا أنها إيذان بقرب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وتقديم التسبيح والحمد على الاستغفار لأن التسبيح راجع إلى وصف الله تعالى بالتنزه عن النقص وهو يجمع صفات السلب ، فالتسبيح متمحض لجانب الله تعالى ، ولأن الحمد ثناء على الله لإنعامه ، وهو أداء العبد ما يجب عليه لشكر المنعم فهو مستلزم إثبات صفات الكمال لله التي هي منشأ إنعامه على عبده فهو جامع بين جانب الله وحظ العبد ، وأما الاستغفار فهو حظ للعبد وحده لأنه طلبه الله أن يعفو عما يؤاخذه عليه .

ومقتضى الظاهر أن يقول : فسبح بحمده ، لتقدم اسم الجلالة في قوله : ﴿ إذا جاء نصر اللَّه ﴾ فعدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر وهو ﴿ ربك ﴾ لما في صفة (رب) وإضافتها إلى ضمير المخاطب من الإيماء إلى أن من حكمة ذلك النصر والفتح ودخول الناس في الإسلام نعمةً أنعم الله بها عليه إذا حصل هذا الخير الجليل بواسطته فذلك تكريم له وعناية به وهو شأن تلطف الرب بالمربوب ، لأن معناه السيادة المرفوقة بالرفق والإبلاغ إلى الكمال .

وقد انتهى الكلام عند قوله : ﴿ واستغفره ﴾ .

وقد روي : "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في قراءته يقف عند ﴿ واستغفره ﴾ ثم يكمل السورة" .

﴿ واستغفره إِنَّهُ كَانَ ﴾ .

تذييل للكلام السابق كله وتعليل لما يقتضي التعليل فيه من الأمر باستغفار ربه باعتبار الصريح من الكلام السابق كما سيتبين لك .

وتوّاب : مثال مبالغة من تاب عليه .

وفعل تاب المتعدي بحرف (على) يطلق بمعنى : وفّق للتوبة ، أثبته في "اللسان" و"القاموس" ، وهذا الإطلاق خاص بما أسند إلى الله .

وقد اشتملت الجملة على أربع مؤكدات هي : إنّ ، وكانَ ، وصيغة المبالغة في التوّاب ،

وتنوين التعظيم فيه .

وحيث كان توكيد بـ (إنَّ) هنا غير مقصودٍ به ردُّ إنكار ولا إزالة تردد إذ لا يفرضان في جانب المخاطب صلى الله عليه وسلم فقد تمحض (إنَّ) لإفادة الاهتمام بالخبر بتأكيده .

(236/836)

وقد تقرر أن من شأن (إنَّ) إذا جاءت على هذا الوجه أن تغني غَناء فاء الترتيب والتسبب وتفيد التعليل وربط الكلام بما قبله كما تفيده الفاء ، وقد تقدم غير مرة ، منها عند قوله تعالى : ﴿ إنك أنت العليم الحكيم ﴾ في سورة [البقرة : 32] ، فالمعنى : هو شديد القبول لتوبة عباده كثير قبوله إياها .

وإذ قد كان الكلام تذييلاً وتعليلاً للكلام السابق تعين أن حذف متعلق ﴿ تواباً ﴾ يُقدر بنحو : على التائبين .

وهذا المقدر مراد به العموم ، وهو عموم مخصوص بالمشيئة تخصصه أدلة وصف الربوبية ، ولما ذكر دليل العموم عَقب أمرِه بالاستغفار أفاد أنه إذا استغفره غفر له دلالة تقتضيها مستتبعات التراكيب ، فأفادت هذه الجملة تعليل الأمر بالاستغفار لأن الاستغفار طلب لغفر ، فالطالب يترقب إجابة طلبه ، وأما ما في الجملة من الأمر بالتسبيح والحمد فلا يحتاج

إلى تعليل لأنهما إنشاء تنزيه وثناء على الله .

ومن وراء ذلك أفادت الجملة إشارة إلى وعدٍ بحسن القبول عند الله تعالى حينما يقدم على العالم القدسي ، وهذا معنى كنائي لأن من عُرف بكثرة قبول توبة التائبين شأنه أن يكرم وفادة الوافدين الذين سَعوْا جهودهم في مرضاته بمنتهى الاستطاعة ، أو هو مجاز بعلاقة اللزوم العرفي لأن منتهى ما يخافه الأحبة عند اللقاء مرارة العتاب ، فالإِخبار بأنه توّاب اقتضى أنه لا يخاف عتاباً .

(237/836)

فهذه الجملة بمدلولها الصريح ومدلولها الكنائي أو المجازي ومستتبعاتها تعليل لما تضمنته الجملة التي قبلها من معنى صريح أو كنائي يناسبه التعليل بالتسبيح والحمد باعتبارهما تمهيداً للأمر بالاستغفار كما تقدم آنفاً لا يحتاجان إلى التعليل ، أو يغني تعليل الممهد له بهما عن تعليلهما ولكنهما باعتبار كونهما رمزاً إلى مداناة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون ما في قوله : ﴿ إنه كان تواباً ﴾ من الوعد بحسن القبول تعليلاً لمدلولهما الكنائي ، وأما الأمر بالاستغفار فمناسبة التعليل له بقوله : ﴿ إنه كان تواباً ﴾ ناهضة باعتبار كلتا دلالتيه الصريحة والكنائيّة ، أي إنه متقبل استغفارك ومتقبلك بأحسن قبول ، شأنَ من

عهد من الصفح والتكرم.

وفعل ﴿ كان ﴾ هنا مستعمل في لازم معنى الاتصاف بالوصف في الزمن الماضي.

وهو أن هذا الوصف ذاتي له لا يتخلف معموله عن عباده فقد دل استقراء القرآن على إخبار الله عن نفسه بذلك من مبدأ الخليقة قال تعالى: ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ [البقرة: 37].

ومقتضى الظاهر أن يقال: إنه كان غفّاراً، كما في آية: ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ [نوح: 10] فيُجرى الوصف على ما يناسب قوله: ﴿ واستغفره ﴾، فعُدل عن ذلك تلطفاً مع النبي صلى الله عليه وسلم بأنَّ أمره بالاستغفار ليس مقتضياً إثبات ذنب له لما علمت آنفاً من أن وصف (تواب) جاء من تاب عليه الذي يستعمل بمعنى وفقه للتوبة إيماء إلى أن أمره بالاستغفار إرشاد إلى مقام التأدب مع الله تعالى، فإنه لا يُسأل عما يفعل بعباده، لولا تفضله بما بيَّن لهم من مراده، ولأن وصف (توّاب) أشد ملاءمة لإقامة الفاصلة مع فاصلة ﴿ أفواجاً ﴾ لأن حرف الجيم وحرف الباء كليهما حرف من الحروف الموصوفة بالشدة، بخلاف حرف الراء فهو من الحروف التي صفتها بين الشدة والرِّخوة.

وروي في "الصحيح" عن عائشة قالت : "ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاةً بعد أن نزلت عليه سورة : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلا يقول : " سبحانك ربّنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي يتأول القرآن " أي يتأول الأمر في قوله : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ على ظاهره كما تأوله في مقام آخر على معنى اقتراب أجله صلى الله عليه وسلم. انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 ص ﴾

(239/836)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة النصر

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً (3)

هذه السورة الصغيرة . . كما تحمل البشرى لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بنصر الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجا ; وكما توجهه (صلى الله عليه وسلم) حين يتحقق نصر الله وفتحه واجتماع الناس على دينه إلى التوجه إلى ربه بالتسبيح والحمد والاستغفار . .

كما تحمل إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) البشرى والتوجيه . . تكشف في الوقت ذاته عن طبيعة هذه العقيدة وحقيقة هذا المنهج, ومدى ما يريد أن يبلغ بالبشرية من الرفعة والكرامة والتجرد والخلوص, والانطلاق والتحرر . . هذه القمة السامقة الوضيئة, التي لم تبلغها البشرية قط إلا في ظل الإسلام . ولا يمكن أن تبلغها إلا وهي تلبي هذا الهدف العلوي الكريم .

وقد وردت روايات عدة عن نزول هذه السورة نختار منها رواية الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبي عدي, عن داود, عن الشعبي, عن مسروق, قال : قالت عائشة : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يكثر في آخر أمره من قوله : "سبحان الله وبحمده, أستغفر الله وأتوب إليه" وقال : "إن ربي كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي, وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره إنه كان توابا ; فقد رأيتها" . . (إذا جاء نصر الله والفتح, ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا, فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) . .

[ورواه مسلم من طريق داود بن أبي هند بهذا النص] . .

وقال ابن كثير في التفسير : والمراد بالفتح ها هنا فتح مكة . قولا واحدا . فإن أحياء العرب كانت تتلوم [أي تنتظر] بإسلامها فتح مكة يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي , فلما فتح الله عليه مكة دخلوا في دين الله أفواجا , فلم تمض سنتان حتى استوسقت جزيرة العرب إيمانا , ولم يبق في سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ولله الحمد والمنة , وقد روى البخاري في صحيحه عن عمرو بن سلمة قال : لما كان الفتح بادر كل قوم بإسلامهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكانت الأحياء تتلوم بإسلامها فتح مكة يقولون : دعوه وقومه فإن ظهر عليهم فهو نبي . . . "الحديث" . .

فهذه الرواية هي التي تتفق مع ظاهر النص في السورة : (إذا جاء نصر الله والفتح) . . الخ فهي إشارة عند نزول السورة إلى أمر سيجيء بعد ذلك , مع توجيه النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى ما يعمله عند تحقق هذه البشارة وظهور هذه العلامة .

وهناك رواية أخرى عن ابن عباس ; لا يصعب التوفيق بينها وبين هذه الرواية التي اخترناها .

قال البخاري : حدثنا موسى بن إسماعيل , حدثنا أبو عوانة , عن أبي بشر , عن سعيد بن جبير , عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر , فكأن بعضهم وجد في نفسه , فقال : لم يدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ? فقال عمر : إنه ممن قد علمتم . فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم . فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليريهم فقال : ما تقولون في قول الله

عز وجل : (إذا جاء نصر الله والفتح) ? فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا . وسكت بعضهم فلم يقل شيئًا . فقال لي : أكذلك تقول يا بن عباس ? "فقلت لا . فقال : ما تقول ? فقلت : هو أجل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعلمه له . قال : (إذا جاء نصر الله والفتح) فذلك علامة أجلك (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) . فقال عمر ابن الخطاب : لا أعلم منها إلا ما تقول [تفرد به البخاري] .

(241/836)

فلا يمتنع أن يكون الرسول (صلى الله عليه وسلم) حين رأى علامة ربه أدرك أن واجبه في الأرض قد كمل , وأنه سيلقى ربه قريبا . فكان هذا معنى قول ابن عباس : هو أجل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أعلمه له . . الخ . .

ولكن هناك حديث رواه الحافظ البيهقي - بإسناده - عن ابن عباس كذلك : قال : لما نزلت : (إذا جاء نصر الله والفتح) . . دعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاطمة وقال : " إنه قد نعيت إلي نفسي " فبكت . ثم ضحكت . وقالت أخبرني : أنه نعيت إليه نفسه فبكيت , ثم قال : " اصبري فإنك أول أهلي لحوقا بي " فضحكت .

ففي هذا الحديث تحديد لنزول السورة . فكأنها نزلت والعلامة حاضرة . أي أنه كان

الفتح قد تم ودخول الناس أفواجا قد تحقق . فلما نزلت السورة مطابقة للعلامة علم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه أجله . . إلا أن السياق الأول أوثق وأكثر اتساقا مع ظاهر النص القرآني . وبخاصة أن حديث بكاء فاطمة وضحكها قد روي بصورة أخرى تتفق مع هذا الذي نرجحه . . عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت : " دعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فاطمة عام الفتح فناجاها , فبكت , ثم ناجاها فضحكت . قالت : فلما توفي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سألتها عن بكائها وضحكها . قالت : أخبرني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه يموت , فبكيت , ثم أخبرني أني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران . فضحكت . . " [أخرجه الترمذي] .

فهذه الرواية تتفق مع ظاهر النص القرآني , ومع الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأخرجه مسلم في صحيحه . من أنه كانت هناك علامة بين الرسول (صلى الله عليه وسلم) وربه هي : (إذا جاء نصر الله والفتح . .)فلما كان الفتح عرف أن قد قرب لقاؤه لربه فناجى فاطمة رضي الله عنها بما روته عنها أم سلمة رضي الله عنها .

ونخلص من هذا كله إلى المدلول الثابت والتوجيه الدائم الذي جاءت به هذه السورة الصغيرة . . فإلى أي مرتقى يشير هذا النص القصير :

(إذا جاء نصر الله والفتح , ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا , فسبح بحمد ربك واستغفره , إنه كان توابا) . . .

في مطلع الآية الأولى من السورة إيحاء معين لإنشاء تصور خاص , عن حقيقة ما يجري في هذا الكون من أحداث , وما يقع في هذه الحياة من حوادث . وعن دور الرسول (صلى الله عليه وسلم) ودور المؤمنين في هذه الدعوة , وحدهم الذي ينتهون إليه في هذا الامر . . هذا الإيحاء يتمثل في قوله تعالى: (إذا جاء نصر الله . . .) . . فهو نصر الله يجيء به الله : في الوقت الذي يقدره . في الصورة التي يريدها . للغاية التي يرسمها . وليس للنبي ولا لأصحابه من أمره شيء , وليس لهم في هذا النصر يد . وليس لإشخاصهم فيه كسب . وليس لذواتهم منه نصيب . وليس لنفوسهم منه حظ ! إنما هو أمر الله يحققه بهم أو بدونهم . وحسبهم منه أن يجريه الله على أيديهم , وأن يقيمهم عليه حراسا , ويجعلهم عليه أمناء . . هذا هو كل حظهم من النصر ومن الفتح ومن دخول الناس في دين الله أفواجا .

.

وبناء على هذا الإيحاء وما ينشئه من تصور خاص لحقيقة الأمر يتحدد شأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومن معه بإزاء تكريم الله لهم , وإكرامهم بتحقيق نصره على أيديهم . إن شأنه - ومن معه - هو الإتجاه إلى الله بالتسبيح وبالحمد والاستغفار في لحظة

الانتصار .

التسبيح والحمد على ما أولاهم من منة بأن جعلهم أمناء على دعوته حراسا لدينه .

وعلى ما أولى البشرية كلها من رحمة بنصره لدينه , وفتحه على رسوله ودخول الناس أفواجا في هذا الخير الفائض العميم , بعد العمى والضلال والخسران .

والاستغفار لملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل : الاستغفار من الزهو الذي قد يساور القلب أو يتدسس إليه من سكرة النصر بعد طول الكفاح , وفرحة الظفر بعد طول العناء . وهو مدخل يصعب توقيه في القلب البشري . فمن هذا يكون الاستغفار .

(243/836)

والاستغفار مما قد يكون ساور القلب أو تدسس إليه في فترة الكفاح الطويل والعناء القاسي , والشدة الطاغية والكرب الغامر . . من ضيق بالشدة , واستبطاء لوعد الله بالنصر , وزلزلة كالتي قال عنها في موضع آخر : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ؟ ألا إن نصر الله قريب) فمن هذا يكون الاستغفار .

والاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره . فجهد الإنسان , مهما كان , ضعيف

محدود , وآلاء الله دائمة الفيض والهملان . . (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) . . فمن هذا التقصير يكون الاستغفار . .

وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار . . ففيه إيحاء للنفس واشعار في لحظة الزهو والفخر بأنها في موقف التقصير والعجز . فأولى أن تطامن من كبريائها . وتطلب العفو من ربها . وهذا يصد قوى الشعور بالزهو والغرور . .

ثم إن ذلك الشعور بالنقص والعجز والتقصير والإتجاه إلى الله طلبا للعفو والسماحة والمغفرة يضمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين . ليرقب المنتصر الله فيهم , فهو الذي سلطه عليهم , وهو العاجز القاصر المقصر . وإنها سلطة الله عليهم تحقيقا لأمر يريده هو . والنصر نصره , والفتح فتحه , والدين دينه , وإلى الله تصير الأمور .

إنه الأفق الوضيء الكريم , الذي يهتف القرآن الكريم بالنفس البشرية لتتطلع إليه , وترقى في مدارجه , على حدائه النبيل البار . الأفق الذي يكبر فيه الإنسان لأنه يطامن من كبريائه , وترف فيه روحه طليقة لانها تعنو لله !

إنه الانطلاق من قيود الذات ليصبح البشر أرواحا من روح الله . ليس لها حظ في شيء إلا رضاه . ومع هذا الانطلاق جهاد لنصرة الخير وتحقيق الحق ; وعمل لعمارة الأرض وترقية الحياة ; وقيادة للبشرية قيادة رشيدة نظيفة معمرة , بانية عادلة خيرة , . . الإتجاه فيها إلى الله .

وعبثا يحاول الإنسان الانطلاق والتحرر وهو مشدود إلى ذاته , مقيد برغباته , مثقل بشهواته . عبثا يحاول ما لم يتحرر من نفسه , ويتجرد في لحظة النصر والغنم من حظ نفسه ليذكر الله وحده .

وهذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائما , يريد الله أن ترتفع البشرية إلى آفاقه , أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائما . .

كان هذا هو أدب يوسف - عليه السلام - في اللحظة التي تم له فيها كل شيء , وتحققت رؤياه : (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا , وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا . وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي . إن ربي لطيف لما يشاء , إنه هو العليم الحكيم) . .

وفي هذه اللحظة نزع يوسف - عليه السلام - نفسه من الصفاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر . كل دعوته وهو في أبهة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام :

(رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث , فاطر السماوات والأرض , أنت

وليي في الدنيا والآخرة , توفني مسلما , وألحقني بالصالحين) . . وهنا يتوارى الجاه والسلطان , وتتوارى فرحة اللقاء وتجمع الأهل ولمة الإخوان , ويبدو المشهد الأخير مشهد إنسان فرد يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه , وأن يلحقه بالصالحين عنده . من فضله ومنه وكرمه . .

وكان هذا هو أدب سليمان عليه السلام وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضرا بين يديه قبل أن يرتد إليه طرفه : (فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر , ومن شكر فإنما يشكر لنفسه , ومن كفر فإن ربي غني كريم) . .

(245/836)

وهذا كان أدب محمد (صلى الله عليه وسلم) في حياته كلها , وفي موقف النصر والفتح الذي جعله ربه علامة له . . انحنى لله شاكرا على ظهر دابته ودخل مكة في هذه الصورة . مكة التي آذته وأخرجته وحاربته ووقفت في طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة . . فلما أن جاءه نصر الله والفتح , نسي فرحة النصر وانحنى انحناءة الشكر , وسبح وحمد واستغفر كما لقنه ربه , وجعل يكثر من التسبيح والحمد والاستغفار كما وردت بذلك الآثار . وكانت هذه سنته في أصحابه من بعده , رضي الله عنهم أجمعين .

وهكذا ارتفعت البشرية بالإيمان بالله , وهكذا أشرقت وشفت ورفرفت , وهكذا بلغت من العظمة والقوة والانطلاق . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 6 صـ 3994 . 3998 ﴾

(246/836)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) ﴾

فيه ذكر النصر والفتح ، مع أن كلاًّ كمهما مرتبط بالآخر : فمع كل نصر فتح ، ومع كل فتح نصر .

فهل هما متلازمان أم لا ؟

كما جاء النصر مضافاً إلى الله تعالى ، والفتح مطلقاً .

أولاً اتفقوا على نزول هذه السورة بعد فتح مكة .

ومعلوم : أنه سبق فتح مكة عدة فتوحات .

منها فتح خيبر ، ومنها صلح الحديبية ، سماه الله تعالى فتحاً في قوله : ﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ [الفتح : 27] .

والنصر يكون في معارك القتال ويكون بالحجة والسلطان ، ويكون بكف العدو ، كما في الأحزاب . ﴿ وَرَدَّ اللهُ الذين كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ المؤمنين القتال وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب : 25] .

وكما في اليهود قوله : ﴿ وَأَنْزَلَ الذين ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الكتاب مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرعب فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللهُ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ [الأحزاب : 26-27] .

فالنصر حق من الله ، ﴿ وَمَا النصر إِلَّا مِنْ عِندِ اللهِ العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران : 126] .

وقد علم المسلمون ذلك ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ مَّسَّتْهُمُ البأساء والضراء وَزُلْزِلُوا حتى يَقُولَ الرسول والذين آمَنُوا مَعَهُ متى نَصْرُ اللهِ ﴾ [البقرة : 214] ، فهم يتطلعون إلى النصر .

ويأتيهم الجواب ﴿ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : 214] .

وجاء قوله صلى الله عليه وسلم : "نصرت بالرعب مسيرة شهر" .

وقد قال تعالى لموسى وأخيه ﴿ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وأرى ﴾ [طه : 46] ، فهو نصر معية وتأييد ، فالنصر هنا عام .

وكذلك الفتح في الدين بانتشار الإسلام ، وأعظم الفتح فتحان : فتح الحديبية ، وفتح مكة .

إذ الأول تمهيد للثاني ، والثاني قضاء على دولة الشرك في الجزيرة ، ويدل لإرادة العموم في النصر والفتح .

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2)

فأن الناس يأتون من كل جهة حتى من اليمن ، وهذا يدل على كمال الدعوة ونجاح الرسالة .

ويدل لهذا مجيء آية ﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الأسلام دِيناً ﴾ [المائدة : 3] ، وكان نزولها في حج تلك السنة .

ويلاحظ أن النصر هنا جاء بلفظ نصر الله ، وفي غير هذا جاء نصر الله ، وما النصر إلا من عند الله .

ومعلوم أن هذه الإضافة هنا لها دلالة تمام وكمال ، كما في بيت الله . مع أن المساجد كلها بيوت لله ، فهو مشعر بالنصر كل النصر ، أو بتمام النصر كله لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

والفتح ، هنا قيل : هو فتوح مكة ، وقيل فتح المدائن وغيرها .

وتقدمت الإشارة إلى فتوحات عديدة ، قبل مكة .

وهناك فتوحات موعود بها بعد فتح مكة نص صلى الله عليه وسلم عليها منها في غزوة الأحزاب وهم يحفرون الخندق ، لما اعترضتهم كدية وأعجزتهم ، ودعى إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأخ ماء وتمضمض ودعا ما شاء الله أن يدعو ثم ضرب ، فكانت كالكثيب .

وقد جاء فيها ابن كثير بعدة روايات وطرق مختلفة ، وكلها تذكر أنه صلى الله عليه وسلم ضرب ثلاث ضربات ، فأبرقت تحت مل ضربة برقى ، وكبَّر صلى الله عليه وسلم عند كل واحدة منها ، فسألوه فقال " في الأولى : أعطيت مفاتيح فارس " وذكر اليمن والشام ، وكلها روايات لا تخلو من نقاش ، ولكن لكثرتها يقوي بعضها بعضاً .

وأقواها رواية النسائي بسنده قال : " لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق ، عرضت لهم صخرة حالت بينهم وبين الحفر ، فقام النَّبي صلى الله عليه وسلم وأخذ المعول ووضع رداءه ناحية الخندق ، وقال : " وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ، " فندر ثلث الحجر وسلمان الفارسي قائم ينظر ، فبرق مع ضربة رسول الله صلى الله عليه وسلم برقة ثم ضرب الثانية ، وقرأ ما قرأه أولاً ، وبرقت

أيضاً . ثم الثالثة ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد تكسرت ، فأخذ رداءه صلى الله عليه وسلم وجلس ، فسأل سلمان لما رأى من البرقات الثلاث : فقال له : " أرأيت ذلك ؟ " قال : أي والذي بعثك بالحق يا رسول الله ، فأخبرهم أنه رفعت له في الأولى مدائن كسرى وما حولها ومدائن كثيرة حتى رآها بعينه ، فقالوا : ادعو الله لنا أن يفتح علينا .

فدعا لهم ، وفي الثانية : رفعت له مدائن قيصر وما حولها ، وفي الثالثة مدائن الحبشة ، وكلها يطلبون منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم ففتح عليهم ، فدعا لهم إلا في الحبشة ، فقال صلى الله عليه وسلم : " دعوا الحبشة ما ودعوكم ، واتركوا الترك ما تركوكم " انتهى ملخصاً .

وقد رواه كل من ابن كثير والنسائي مطولاً ، فهذه الروايات وإن كانت تحتمل مقالاً .

فقد جاء في الموطإ ما لا يحتمل مقالاً ، ولا شك في صحته ، ولا في دلالته ، وهو ما رواه مالك عن هشام عن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير عن سفيان بن أبي زهير أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه سولم يقول : " يفتح اليمن فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم لو كانو يعلمون ، ويفتح العراق فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم ، والمدينة خير لهم وكانوا يعلمون " .

فهذا نص صحيح صريح منه صلى الله عليه وسلم في حياته بفتح اليمن والشام والعراق ، وما فتحت كلها إلا من بعده صلى الله عليه وسلم إلا اليمن .

ويؤيد هذا القول ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس قال : " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، إذ قال : " الله أكبر ، الله أكبر ، جاء نصر الله والفتح ، جاء أهل اليمن ، جاء أهل اليمن ، " قيل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : " قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طباعهم ، الإيمان يمان ، والحكمة يمانية " رواه ابن كثير عنه .

وقد كان فتح مكة عام ثمان من الهجرة ، وجاءت الوفود في دين الله أفواجاً عام تسع منها ، وجاء وفد اليمن وأرسل صلى الله عليه وسلم عماله إلى اليمن بعد فتح مكة ، وقدم عليه علي رضي الله عنه من اليمن في العام العاشر في موسم الحج ، ففتحت اليمن بعد فتح مكة في حياته صلى الله عليه وسلم .

وعليه : تكون فتوحات قد وقعت بعد فتح مكة ، يمكن أن يشملها هنا قوله تعالى : ﴿ والفتح ﴾ [النصر : 1] ، وليس مقصوراً على فتح مكة كما قالوا .

وقد يؤخذ بدلالة الإيماء : الوعد بفتوحات شاملة ، لمناطق شاسعة من قوله تعالى : ﴿

وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : 27] ، لأن الإتيان من كل فج عميق ، يدل على الإتيان إلى الحج من بعيد ، والإتيان إلى الحج يدل على الإسلام ، وبالتالي يدل على مجيء المسلمين من بعيد ، وهو محل الاستدلال والله تعال أعلم .

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)

تقدم الكلام على التسبيح ومتعلقه وتصريفه .

وهنا قرن التسبيح بحمد الله ، وفيه ارتباط لطيف بأول السورة وموضوعها ، إذ هي في الدلالة على كمال مهمة الرسالة بمجيء نصر الله لنبيه صلى الله عله وسلم وللمؤمنين ولدينه . ومجيء الفتح العام على المسلمين لبلاد الله بالفعل أو بالفعل أو بالوعد الصادق كما تقدم ، وهي نعمة تستوجب الشكر ويستحق موليها الحمد .

فكان التسبيح مقترناً بالحمد في مقابل ذلك وقوله : ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ ، ليشعر أنه سبحانه المولى للنعم ، كما جاء في سورة الضحى في قوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 3] .

وقوله في سورة اقرأ : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق : 1] ، وتكرارها ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ [العلق : 3] ، لأن صفة الربوبية مشعرة بالإنعام .

وقوله : ﴿ واستغفره ﴾ ، قال البعض : إن الاستغفار عن ذنب فما هو . وتقدم الكلام على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند قوله تعالى : ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ [الشرح : 2] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن التوبة دعوة الرسل ، ولو بدأنا من آدم عليه السلام مع قصته ففيها ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ [البقرة : 37] ، ومعلوم موجب تلك التوبة .

ثم نوح عليه السلام يقول : ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ [نوح : 28] الآية .

وإبراهيم عليه السلام يقول : ﴿ وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾ [البقرة : 128] .

وبناء عليه قل بعض العلماء : إن الاستغفار نفسه عبادة كالتسبيح ، فلا يلزم منه وجود ذنب .

وقيل : هو تعلم لأمته .

وقيل : رفع لدرجاته صلى الله عليه وسلم .

وقد جاء في السنة ، أنه صلى الله عليه وسلم قال : " توبوا إلى الله ، فإني أتوب إلى الله في

اليوم مائة مرة " ، فتكون أيضاً من باب الاستكثار من الخير ، والإنابة إلى الله تعالى .

تنبيه

جاء في التفسير عند الجميع أنه صلى الله عليه وسلم منذ أن نزلت هذه السورة وهو لم يكن يدع قوله : " سبحانك اللهم وبحمدك " تقول عائشة رضي الله عنها : " يتأول القرآن " أي يفسره ، ويعمل به .

(251/836)

ونقل أبو حيان عن الزمخشري أنه قال : والأمر بالاستغفار مع التسبيح تكميل للأمر بما هو قوام أمر الدين ، من الجمع بين الطاعة والاحتراز من المعصية ، وليكون أمره بذلك مع عصمته لطفاً لأمته ، ولأن الاستغفار من التواضع وهضم النفس فهو عبادة في نفسه .

وفي هذا لفت نظر لأصحاب الأذكار والأوراد الذين يحرصون على دوام ذكر الله تعالى ، حيث هذا كان من أكثر ما يداوم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في أذكار الصباح والمساء دون الملازمة على ذكر اسم من أسماء الله تعالى وحده ، منفرداً مما لم يرد به نص صحيح ولا صريح .

ولا شك أن الخير كل الخير في الاتباع لا في الابتداع ، وأي خير أعظم مما اختاره الله لنبيه

صلى الله عليه وسلم في آخر حياته، ويأمر به، ويلازم هو عليه.

وفي هذه الآية دلالة الإيمان، كما قالوا: ودلالة الالتزام كما جاء عن ابن عباس في قصة عمر رضي الله عنه مع كبار المهاجرين وال، صار، حينما كان يسمح له بالجلوس معهم، ويرى في وجوههم، وسألوه وقالوا:

إن لنا أولاداً في سنه، فقال: إنه من حيث علمتم.

وفي يوم اجتمعوا عنده فدعاه عمر، قال ابن عباس، فعلمت أنه ما دعاني إلا لأمر فسألهم عن قوله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ﴾ [النصر: 1]، السورة.

فقالوا: إنها بشرى بالفتح وبالنصر، فقال: ما تقول أنت يا ابن عباس؟

قال: فقلت، لا والله، إنها نعت إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين أظهرنا.

فقال عمر: وأنا لا أعرف فيها إلا كما قلت: أي أنه صلى الله عليه وسلم جاء لمهمة، وقد تمت بمجيء النصر والفتح والدخول في الدين أفواجاً.

وعليه يكون قد أدى الأمانة وبلّغ الرسالة. فعليه أن يتأهب لملاقاة ربه ليلقى جزاء عمله، وهو مأخذ في غاية الدقة، وبيان لقول علي رضي الله عنه: أو فهم أعطاه الله من شاء في كتاب الله. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ الله ﴾ [1]

قال : إذا جاء نصر الله لدينك والفتح لدينك .

﴿ وَرَأَيْتَ الناس ﴾ [2] وهم أهل اليمن .

﴿ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ الله أَفْوَاجاً ﴾ [2] زمراً ، القبيلة بأسرها ، والقوم بأجمعهم ، فانصر روحك على نفسك بالتهيؤ للآخرة لأنه منها ، فالنفس تريد الدنيا لأنها منها ، والروح تريد الآخرة لأنه منها ، فانصر على النفس وافتح له باب الآخرة بالتسبيح والاستغفار لأمتك .

وكان يستغفر بعد ذلك ويسبح بالغداة مائة مرة ، وبالعشي مائة مرة ، واجتهدَ في العبادة ليلاً ونهاراً حتى تورمت قدماه ، واحمرت عيناه ، واصفرت وجنتاه ، وقلّ تبسمه ، وكثر بكاؤه وفكرته .

وقد حكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما نزلت هذه السورة واستبشر بها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بكى أبو بكر رضي الله عنه بكاء شديداً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما يبكيك ؟ قال : نعيت لك نفسك يا رسول الله .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : صدقت " ، ثم قال : " اللهم فقهه في الدين وعلمه

التأويل " ، وهذا تعليم لأمته بالدين والتسبيح .

وقد قال الربيع بن خيثم رحمه الله تعالى : أقلوا الكلام إلا من تسع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وقراءة القرآن ، وأمر بالمعروف ، ونهي عن المنكر ، ومسألة خير ، وتعوذ من شر .

﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [3] أي رجاعاً يقبل التوبة ، كلما تاب العبد إليه .

(253/836)

واعلم أن إلهنا أكرم من أن يكون معك على نفسك ، فإنه قال : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التوابين ﴾ [البقرة : 222] فإن كنت عليها كان معها بالعفو ، وإن كنت معها على أمر الله ونهيه كان عليك ، فمن وافق أمر الله على هواه كان ناجياً ، ومن وافق هواه على أمر الله كان هالكاً ، وإنّ أمر الله تعالى مرّ وهوى النفس حلو ، فما مثالها إلا كالأطعمة اللذيذة قد يحصل فيها الصبر ، والدواء يشرب مع مرارته لما جعل فيه من المنافع .

وكان بعض الصالحين يقول : واسوأتاه ، وإن عفوت .

فمنهم من يحذر الرد ، ومنهم من يبكي خجلاً ، وإن عفي عنه . والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 2089 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : أنزل بالمدينة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير قال : أنزل ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ بالمدينة .

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال : نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ كلها بالمدينة بعد فتح مكة ودخول الناس في الدين ينعى إليه نفسه .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والبزار وأبو يعلى وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال : هذه السورة نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم أوسط أيام التشريق بمنى وهو في حجة الوداع ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ حتى ختمها ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه الوداع .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس أنه قرأ : " إذا جاء فتح الله والنصر " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال :

فتح مكة ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّاباً ﴾ قال: أعلم أنك ستموت عند ذلك.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿ أفواجاً ﴾ قال: الزمر من الناس.

وأخرج ابن جرير عن الضحاك في قوله: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال: كانت هذه السورة آية لموت النبي صلى الله عليه وسلم.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن وابن المنذر عن قتادة في قوله: ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال: ذكر لنا أن ابن عباس قال: هذه السورة علم وحد حده الله لنبيه ونعى نفسه أي إنك لن تعيش بعدها إلا قليلاً. قال قتادة: والله ما عاش بعدها إلا قليلاً سنتين ثم توفي.

وأخرج أحمد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس قال: "لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعيت إلى نفسي إني مقبوض في تلك السنة".

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: "لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم نعيت إلى نفسي وقرب أجلي".

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ علم أنه نعيت إليه نفسه.

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري قال: "لما نزلت هذه السورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ختمها ثم قال: أنا وأصحابي خير والناس خير لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية".

وأخرج النسائي وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ نعيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه حين أنزلت فأخذني أشد ما يكون اجتهاداً في أمر الآخرة.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أم حبيبة قالت: "لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله لم يبعث نبياً إلا عمر في أمته شطر ما عمر النبي الماضي قبله، وإن عيسى ابن مريم كان أربعين سنة في بني إسرائيل، وهذه لي عشرون سنة وأنا ميت في هذه السنة" فبكت فاطمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أنت أول أهل بيتي لحوقاً بي" فتبسمت".

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : " لما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة حنين أنزل عليه ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا علي بن أبي طالب ، يا فاطمة بنت محمد جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبحان ربي وبحمده واستغفره إنه كان توابا " " .

(256/836)

وأخرج الخطيب وابن عساكر عن علي قال : " نعى الله لنبيه صلى الله عليه وسلم نفسه حين أنزل عليه ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فكان الفتح سنة ثمان بعدما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما طعن في سنة تسع من مهاجره تتابع عليه القبائل تسعى فلم يدر متى الأجل ليلاً أو نهاراً ، فعمل على قدر ذلك فوسع السنن ، وشدد الفرائض ، وأظهر الرخص ، ونسخ كثيراً من الأحاديث ، وغزا تبوك ، وفعل فعل مودع .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : " لما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة حنين أنزل عليه ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلى آخر القصة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا علي بن أبي طالب ، ويا فاطمة بنت محمد ، جاء نصر الله والفتح إلى آخر القصة ، سبحان ربي وبحمده وأستغفره إنه كان توّاباً ، ويا علي إنه يكون بعدي في

المؤمنين الجهاد . قال : علام نجاهد المؤمنين الذين يقولون آمنا ؟ قال : على الاحداث في الدين إذا عملوا بالرأي ، ولا رأي في الدين ، إنما الدين من الرب أمره ونهيه " قال علي : يا رسول الله أرأيت إن عرض علينا أمر لم ينزل فيه قرآن ولم يقض فيه سنة منك . قال : تجعلونه شورى بين العابدين من المؤمنين ولا تقضونه برأي خاصة ، فلو كنت مستخلفاً أحداً لم يكن أحد أحق منك لقربك في الإِسلام ، وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصهرك ، وعندك سيدة نساء المؤمنين ، وقبل ذلك ما كان بلاء أبي طالب إياي ، ونزل القرآن وأنا حريص على أن أرعى له في ولده " .

وأخرج أحمد والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : " لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة فقال : إنه قد نعيت إلى نفسي " .

(257/836)

وأخرج سعيد بن منصور وابن سعد والبخاري وابن جرير وابن المنذر والطبراني وابن مردويه والبيهقي وأبو نعيم معاً في الدلائل عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلني وأشياخ بدر ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله فقال : إنه ممن

قد علمتم ، فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني ، فقال : ما تقولون في قوله : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ حتى ختم السورة فقال بعضهم : أمرنا الله أن نحمده ونستغفره إذا جاء نصر الله وفتح علينا وقال بعضهم : لا ندري وبعضهم لم يقل شيئاً فقال لي يا ابن عباس : أكذاك تقول ؟ قلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله أعلمه الله ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون ﴾ والفتح فتح مكة ، فذلك علامة أجلك ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن عمر سألهم عن قول الله ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فقالوا : فتح المدائن والقصور ، قال : فأنت يا ابن عباس ما تقول ؟ قال : قلت مثل ضرب لمحمد نعيت له نفسه .

وأخرج ابن مردويه وأبو نعيم في فضائل الصحابة والخطيب في تالي التلخيص عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ جاء العباس إلى عليّ فقال : انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن كان هذا الأمر لنا من بعده لم تشاحنا فيه قريش ، وإن كان لغيرنا سألناه الوصاة لنا . قال : لا ، قال العباس : جئت فذكرت ذلك له ، فقال : " إن الله جعل أبا بكر خليفتي على دين الله ووحيه وهو مستوص فاسمعوا له وأطيعوا تهتدوا وتفلحوا ، واقتدوا به ترشدوا " قال ابن عباس : فما وافق أبا بكر على رأيه ولا وازره على

أمره ولا أعانه على شأنه إذ خالفه أصحابه في ارتداد العرب إلا العباس . قال : فوالله ما عدل رأيهما وحزمهما رأي أهل الأرض أجمعين .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال : ذاك حين نعى لهم نفسه يقول : إذا رأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً يعني إسلام الناس يقول فذلك حين حضر أجلك ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توّاباً ﴾ .

وأخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن أبي هريرة في قوله : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال : علم وحد حده الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ونعى إليه نفسه أنك لا تبقى بعد فتح مكة إلا قليلاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عباس قال : آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ .

وأخرج البخاري عن سهل بن سعد الساعدي عن أبي بكر أن سورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ حين أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم علم أن نفسه نعيت إليه .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة

الفتح فتح مكة فخرج من المدينة في رمضان ومعه من المسلمين عشرة آلاف ، وذلك على رأس ثمان سنين ونصف سنة من مقدمة المدينة ، وافتتح مكة لثلاث عشرة بقيت من رمضان .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، عن عائشة قالت : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول : سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقلت يا رسول الله : أراك تكثر من قول : سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقال : خبرني أني سأرى علامة في أمتي فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فتح مكة ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ " .

(259/836)

وأخرج عبد الرزاق وأحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده . " سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي " يتأول

القرآن يعني ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن عائشة قالت : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أنزلت عليه هذه السورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلا يقول مثلهما : " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أم سلمة قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر عمره لا يقوم ولا يقعد ولا يذهب ولا يجيء إلا قال : " سبحانك اللهم وبحمدك ، استغفرك وأتوب إليك " فقلت له : قال : " إني أمرت بها " وقرأ ﴿ إذا جاء نصر الله ﴾ " إلى آخر السورة .

وأخرج عبد الرزاق ومحمد بن نصر وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود قال : " لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : "سبحانك اللهم وبحمدك اغفر لي إنك أنت التواب الغفور " " .

وأخرج الحاكم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : " سبحانك ربنا وبحمدك " فلما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال : " سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم " " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : " لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جاء أهل اليمن هم أرقْ قلوباً الإِيمان يمان والفقه يمان

والحكمة يمانيه " . وأخرج الحاكم وصححه عن أبي هريرة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ﴾ فقال : "ليخرجن منه أفواجاً كما دخلوا فيه أفواجاً " " .

(260/836)

وأخرج الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن الفضيل بن عياض قال : " لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ إلى آخر السورة قال محمد صلى الله عليه وسلم : "يا جبريل نعيت إليَّ نفسي " قال جبريل : الآخرة خير لك من الأولى " .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً " .

وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ وجاء أهل اليمن رقيقة أفئدتهم وطباعهم سجية قلوبهم عظيمة حسنتهم دخلوا في دين الله أفواجاً " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 659 . 664 ﴾

(261/836)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ؛

رُوِيَ أَنَّهُ فَتْحُ مَكَّةَ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا فُتِحَتْ عَنْوَةً ؛ لِأَنَّ إطْلَاقَ اللَّفْظِ يَقْتَضِيهِ وَلَا يَنْصَرِفُ إلَى الصُّلْحِ إلَّا بِتَقْيِيدٍ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ ؛ رَوَى أَبُو الضُّحَى عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ ﴾ .

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ مُسْلِمٍ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ : " سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إلَيْك " قَالَتْ : قُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَرَاكَ قَدْ أَحْدَثْتهَا ؟ قَالَ : ﴿ جُعِلَتْ لِي عَلَامَةٌ فِي أُمَّتِي إذَا رَأَيْتهَا قُلْتهَا إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ إلَى آخِرِهَا ﴾ .

آخِرُ السُّورَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ النَّصْرِ

[فِيهَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ]

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّك وَاسْتَغْفِرْهُ إنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ : الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى رَوَى الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ نَفْسَهُ ، فَقَالَ : لِمَ يَدْخُلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : إنَّهُ مَنْ قَدْ عَلِمْتُمْ .

فَدَعَانِي ذَاتَ يَوْمٍ فَأَدْخَلَنِي مَعَهُمْ ، فَمَا رَأَيْت أَنَّهُ دَعَانِي يَوْمَئِذٍ إلَّا لِيُرِيَهُمْ ، فَقَالَ : مَا تَقُولُونَ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : أُمِرْنَا أَنْ نَحْمَدَ اللَّهَ ، وَنَسْتَغْفِرَهُ إذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ ، وَفَتَحَ عَلَيْنَا .

وَسَكَتَ بَعْضُهُمْ ، فَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا .

فَقَالَ لِي : كَذَلِكَ تَقُولُ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ؟ قُلْت : لَا .

قَالَ: فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ بِهِ؛ قَالَ لَهُ: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فِي ذَلِكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا.

فَقَالَ: لَا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلَّا مَا تَقُولُ.

(263/836)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ رَوَى الْأَئِمَّةُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ قَالَتْ: ﴿ مَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةً بَعْدَ إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ سُورَةُ: ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ إِلَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ﴾.

وَعَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: ﴿ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ ﴾.

﴿ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي.

قَالَ: قُلْ سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، رَبِّي إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي

ظُلْمًا كَثِيرًا، وَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي

إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ مَاذَا يُغْفَرُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ رَوَى الْأَئِمَّةُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَئِي وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي ، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْت وَمَا أَخَّرْت ، وَمَا أَسْرَرْت وَمَا أَعْلَنْت ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

قَالَ الْقَاضِي : وَأَنَا أَقُولُ : كُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي مُضَاعَفٌ ، وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ بَرِيءٌ .

وَلَكِنْ كَانَ يَسْتَقْصِرُ نَفْسَهُ لِعَظِيمِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَيَرَى قُصُورَهُ عَنْ الْقِيَامِ بِحَقِّ ذَلِكَ ذُنُوبًا ؛ فَأَمَّا أَنَا فَإِنَّمَا ذُنُوبِي بِالْعَمْدِ الْمَحْضِ ، وَالتَّرْكِ التَّامِّ ، وَالْمُخَالَفَةِ الْبَيِّنَةِ ، وَاَللَّهُ يَفْتَحُ بِالتَّوْبَةِ وَيَمُنُّ بِالْعِصْمَةِ بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، لَا رَبَّ سِوَاهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى جـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة النصر

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1)

قوله : ﴿ نَصْرُ الله ﴾ : مصدرٌ مضافٌ لفاعِله ، ومفعولُه محذوفٌ لفَهْمِ المعنى ، أي : نَصْرُ اللَّهِ إياك والمؤمنين . وكذلك مفعولَيْ " الفتح " ومُتَعَلَّقُهُ . والفتح ، أي : فَتْحُ البلادِ عليك وعلى أمتِك . أو المقصود : إذ جاء هذان الفعلان ، مِنْ غير نظرٍ إلى متعلَّقَيْهما كقوله : ﴿ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ [النجم : 44] . وأل في الفتح عِوَضٌ مِنْ الإضافة ، أي : وفَتْحُه ، عند الكوفيين ، والعائدُ محذوفٌ عند البصريين ، أي : والفتحُ مِنْه ، للدلالةِ على ذلك . والعاملُ في " إذا " : إمَّا " جاء " وهو قولُ مكي ، وإليه نحا الشيخ ونَصَرَه في مواضعَ وقد تقدَّم ذلك كما نَقَلْتُه عن مكيّ وعنه . والثاني : أنه " فَسَبِّحْ " وإليه نحا الزمخشريُّ والحوفيُّ . وقد رَدَّ الشيخُ عليهما : بأنَّ ما بعد فاءِ الجواب لا يعمل فيما قبلَها . وفيه بحثٌ تقدَّم بعضُه في سورةِ " والضُّحى " .

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2)

قوله : ﴿ يَدْخُلُونَ ﴾ إمَّا حالٌ إنْ كان " رأَيْتَ " بَصَريةً وفي عبارة الزمخشري : " إنْ كانَتْ

بمعنى أَبصَرْتَ أو عَرَفْتَ" وناقشه الشيخُ: بأنّ رَأَيتَ لا يُعْرَفُ كونُها بمعنى عَرَفْتَ. قال: "فيَحْتاج في ذلك إلى استثباتٍ. وإمّا مفعولٌ ثانٍ إن كانت بمعنى عَلِمْتَ المتعدية لاثنين.

وهذه قراءةُ العامّةِ أعني: يَدْخُلون مبنياً للفاعل. وابن كثير في روايةٍ "يُدْخلون" مبنياً للمفعول و "في دين" ظرفٌ مجازيٌّ، وهو مجازٌ فصيحٌ بليغٌ هنا.

(266/836)

قوله: ﴿ أَفْوَاجاً ﴾ حالٌ مِنْ فاعل "يَدْخُلون" قال مكي: "وقياسُه أَفْوُج. إلاّ أنّ الضمةَ تُسْتثقل في الواوِ، فشبَّهوا فَعْلاً يعني بالسكون بفَعَل يعني بالفتح، فجمعوه جَمْعَه" انتهى. أي: إنّ فَعْلاً بالسكون قياسُه أَفْعُل كفَلْس وأَفْلُس، إلاّ أنه اسْتُثْقِلت الضمةُ على الواو فجمعوه جَمْعَ فَعَل بالتحريكِ نحو: جَمَل وأَجْمال؛ لأنّ فَعْلاً بالسُّكون على أَفْعال ليس بقياسٍ إذا كان فَعْلٌ صحيحاً نحو: فَرْخ وأفراخ، وزَنْد وأزناد، ووردَتْ منه ألفاظٌ كثيرةٌ، ومع ذلك فلم يَقيسوه، وقد قال الحوفيُّ شيئاً مِنْ هذا.

قوله: ﴿ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ حالٌ، أي: مُلْتبساً بحمده، وتقدَّم تحقيقُ هذا في البقرة عند قوله: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ [البقرة: 30]. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 11 صـ 139.140﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة النصر

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم كريم يبصر ويستر ، ويعلم ويحلم ويمدح ولا يفضح ، ويعفو عن جميع ما يجترم العبد ويصفح ، يعصى العبد على التوالي ن ويغفر الحق ولا يبالي

قولهِ جلّ ذكره : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ .

النصرُ الظَّفَرُ بالعدوّ ، و ﴿ الفتح ﴾ فتح مكة .

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ﴾ .

يُسْلِمون جماعاتٍ جماعاتٍ .

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ .

أَكْثِرْ حَمْدَ رَبِّكَ ، وصلِّ له ، وقَدِّسْه .

ويقال : صَلِّ شكراً لهذه النعمة .

﴿ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ وسَلْ مغفرته.

﴿ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ .

لِمَنْ تاب؛ فإنه يقبل توبته.

ويقال: نصرة الله – سبحانه – له بأنْ أفناه عن نَفْسِه، وأبعد عنه أحكامَ البشرية، وصفَّاه من الكدورات النفسانية. وأمَّا "الفتح": فهو أنْ رقَّاه إلى محلِّ الدنو، واستخلصه بخصائص الزلفة، والبسه لِباسَ الجمع، واصطلمه عنه، كان له عنه، ولنَفْسِه – سبحانه – منه، وأظهر عليه ما كان مستوراً من قَبْلُ من أسرارِ الحقِّ، وعَرَّفَه – من كمال معرفته به – ما كان جميعُ الخَلْقِ متعطشاً إليه. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 779﴾

(268/836)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة:

سورة النصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ

رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (3)

الإعراب:

(في دين) متعلّق بـ (يدخلون) ، (أفواجا) حال منصوبة من فاعل يدخلون (الفاء) رابطة لجواب الشرط (بحمد) متعلّق بحال من فاعل سبّح أي متلبسا بحمد . .

جملة: "جاء نصر الّله" في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "رأيت . . ." في محلّ جرّ معطوفة على جملة جاء نصر . . .

وجملة: "يدخلون . . ." في محلّ نصب حال من الناس "1" .

---

(1) أو مفعول به ثان إذا كانت الرؤية قلبيّة.

(269/836)

وجملة: "سبّح . . ." لا محلّ لها جواب شرط غير جازم.

وجملة: "استغفره . . ." لا محلّ لها معطوفة على جملة سبّح.

وجملة: "إنّه كان توابا . . ." لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "كان توّابا" في محلّ رفع خبر إنّ.

البلاغة

الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ " .

حيث شبّه المقدور وهو النصر والفتح ، بكائن حيّ ، يمشي متوجها من الأزل إلى وقته المحتوم ، فشبّه الحصول بالمجي ء ، وحذف المشبه به ، وأخذ شيئًا من خصائصه وهو المجي ء .

الفوائد :

- العلم يرفع صاحبه :

عن ابن عباس - رضي اللّه عنهما - قال : كان عمر رضي اللّه عنه يدخلني مع أشياخ بدر ، فقال بعضهم : لم يدخل هذا الفتى معنا ؟ فقال : إنه ممن علمتم ، قال فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم ، ثم قال : ما تقولون في قول اللّه تعالى (إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) إلى ختام السورة ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لي : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟

قلت : لا ، قال : فما هو ؟ قلت : هو أجل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) أعلمه (إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) فذلك علامة أجلك (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً)

قال عمر :

وما أعلم منها إلا ما تعلم.

قال ابن عباس : لما نزلت هذه السورة علم النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) أنه نعيت إليه نفسه. انتهى انتهى. اهـ ﴿الجدول حـ 30 صـ 419. 420﴾

(271/836)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(110) سورة النصر

مدنيّة وآياتها ثلاث

[سورة النصر (110) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْواجاً (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوَّاباً (3)

الإعراب :

(إِذا جاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) إذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط متعلق بسبّح الذي هو

جوابها وجملة جاء في محل جر بإضافة الظرف إليها ونصر الله فاعل جاء والفتح عطف على نصر والمصدر مضاف لفاعله ومفعوله محذوف أي إياك والمؤمنين . وقال أبو حيان : ولا يصح إعمال فسبّح في إذا لأجل الفاء لأن الفاء في جواب الشرط لا يتسلط الفعل الذي بعدها على اسم الشرط ، فلا يعمل فيه بل العامل في إذا الفعل الذي بعدها على الصحيح (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً) الواو عاطفة ورأيت الناس فعل ماض وفاعل ومفعول به والرؤية يجوز أن تكون بصرية فتكون جملة يدخلون حالية ويجوز أن تكون علمية فتكون الجملة مفعولا به ثانيا لرأيت وفي دين الله متعلقان

(272/836)

بيدخلون وأفواجا حال من الواو في يدخلون وهو جمع فوج بسكون الواو وقد تقدم شرحها (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً) الفاء رابطة لجواب الشرط وسبّح فعل أمر وفاعله مستتر فيه وجوبا تقديره أنت وبحمد ربك حال ، وقد اختلف في الباء فقيل : للمصاحبة والحمد مضاف للمفعول أي فسبّحه حامدا له أي نزهه عمّا لا يليق به وأثبت له ما يليق به فهي داخلة في حيّز الأمر ، فإن قلت من أين يلزم بالحمد وهو إنما وقع حالا مقيدة للتسبيح ولا يلزم من الأمر بالشيء الأمر بحاله المقيد له وأجيب بأنه إنما يلزم ذلك إذا لم يكن

الحال من نوع الفعل المأمور به ولا من فعل الشخص المأمور نحو اضرب هندا ضاحكة وإلا لزم نحو ادخل مكة محرما فهي مأمور بها وهنا من هذا القبيل وقيل للاستعانة والحمد مضاف إلى الفاعل أي سبّحه بما حمد به نفسه كقوله الحمد للّه . واستغفره : الواو حرف عطف واستغفره فعل أمر وفاعل مستتر ومفعول به وجملة إنه كان توّابا تعليلية وإن واسمها وجملة كان خبرها وتوّابا خبر كان .

البلاغة :

في قوله " إذا جاء نصر اللّه والفتح " استعارة مكنية تبعية شبّه المقدور وهو النصر والفتح بكائن حيّ يمشي متوجها من الأزل إلى وقته المحتوم ، فشبّه الحصول بالمجيء وحذف المشبّه به وأخذ شيئا من خصائصه وهو المجيء .

هذا وقد أورد الإمام الرازي فصلا ممتعا نورده لك فيما يلي لنفاسته وفائدته ، قال : " اتفق الصحابة على أن هذه السورة دلّت على نعي رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم وذلك لوجوه :

أولا : أنهم عرفوا ذلك لما خطب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم

عقب السورة وذكر التخيير وهو قوله صلّى اللّه عليه وسلم في خطبته لما نزلت هذه السورة : إن عبدا خيّره اللّه تعالى بين الدنيا وبين لقائه فاختار لقاء اللّه تعالى فقال أبو بكر فدنياك بأنفسنا وأموالنا وآبائنا وأولادنا .

ثانيها : أنه لما ذكر حصور النصر والفتح ودخول الناس في الدين أفواجا دلّ ذلك على حصول الكمال ، والتمام يعقبه الزوال والنقصان كما قيل :

إذا تمّ أمر بدا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

ثالثها : أنه تعالى أمره بالتسبيح والحمد والاستغفار واشتغاله بذلك يمنعه من اشتغاله بأمر الأمة فكان هذا كالتنبيه على أن أمر التبليغ قد تمّ وكمل وذلك يقتضي إنجاز الأجل إذ لو بقي صلّى اللّه عليه وسلم بعد ذلك لكان كالمعزول من الرسالة وذلك غير جائز " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 605.607﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيم

وِيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ المَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والثلاثون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء السابع والثلاثون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المسد)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة المسد)

(5/837)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة المسد

مقصودها البت والقطع الحتم بخسران الكافر ولو كان أقرب الخلق إلى أعظم الفائزين ، اللازم عنه أن شارع الدين له من العظمة ما يقصر عنه الوصف ، فهو يفعل ما يشاء لأنه لا كفو - له أصلا ، حثا على التوحيد من سائر العبيد ولذلك بين سورة الإخلاص المقرون بضمان النصر وكثرة الأنصار ، واسمها تبت واضح الدلالة على ذلك بتأمل السورة على هذه الصورة. انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 567 ﴾

(6/837)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . تبت)

السّورة مكّيّة .

وآياتها خمس بالإِجماع .

وكلماتها ثلاث وعشرون .

وحروفها سبع وسبعون .

فواصل آياتها (دبّ) وتسمّى سورة تبّت ، وسورة أَبى لَهَب ، وسورة المَسد ؛ لذكرها فيها .

مقصود السّورة : تهديد أَبى لَهَب على الجفاءِ والإِعراض ، وضياع كَسْبه وأَمره ، وبيان ابتلائه يوم القيامة ، وذمّ زَوْجه فى إِيذاءِ النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وبيان ما هو مدّخَر لها من سوءِ العاقبة .

السّورة محكمة .

ومن المتشابه .

قوله تعالى : (﴿ تَبَّتْ ﴾ وبعده : ﴿ وَتَبّ ﴾ هذا ليس بتكرار ؛ لأَنَّ الأَوّل جرى مجرى

الدّعاءِ ، والثّانى خَبَر ، أَى وقد تبّ .

وقيل تبت يدا أَبى لهب أَعملُه ، وتبّ أَبو لهب .

وقال مجاهد : وتبّ ابنه (وتبّ ابنه) .

فضل السّورة

فيه حديثان ضعيفان : منْ قرأَها رجوت أَلاَّ يجمع الله بينه وبين أَبى لهب فى دار واحدة ، وحديث علىّ : يا علىّ مَنْ قرأَها أَعطاه الله ثواب الصّالحين ، وله بكلّ آية قرأَها ثواب عِتق رقبة . انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 552 ﴾

(7/837)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة المسد

سميت هذه السورة في أكثر المصاحف (سورة تبَّت) وكذلك عنونها الترمذي في (جامعه) وفي أكثر كتب التفسير ، تسمية لها بأول كلمة فيها .

وسميت في بعض المصاحف وبعض التفاسير (سورة المَسَد) . واقتصر في (الإِتقان)

على هذين .

وسماها جمع من المفسرين (سورة أبي لهب) على تقدير : سورة ذِكْر أبي لهب . وعنونها أبو حيان في (تفسيره) (سورة اللهب) ولم أره لغيره .

وعنونها ابن العربي في (أحكام القرآن) (سورة ما كان من أبي لهب) وهو عنوان وليس باسم .

وهي مكية بالاتفاق .

وعدّت السادسة من السور نزولاً ، نزلت بعد سورة الفاتحة وقبل سورة التكوير .

وعدد آيها خمس .

روي أن نزولها كان في السنة الرابعة من البعثة . وسبب نزولها على ما في (الصحيحين) عن ابن عباس قال : (صعِد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات يوم على الصفا فنادى : (يا صَبَاحَاهْ) (كلمة ينادَى بها للإنذار من عدوّ يصبّح القوم) فاجتمعت إليه قريش فقال : إني نذير لكم بين يديْ عذاب شديد أرأيتم لوْ أني أخبرتكم أن العدوّ مُمسيكم أو مصبّحكم أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : ما جرَّبنا عليك كذباً ، فقال أبو لهب : تبّاً لك سائرَ اليوم ألهذا جَمعتنا ؟ فنزلت : (تبت يدا

أبي لهب ((المسد : 1) . ووقع في (الصحيحين) من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت : (وأنذر عشيرتك الأقربين وقومك منهم المخلصين (خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى صعد الصفا) إلى آخر الحديث المتقدم .

ومعلوم أن آية : (وأنذر عشيرتك الأقربين (من سورة الشعراء ، وهي متأخرة النزول عن سورة تبت ، وتأويل ذلك أن آية تشبه آية سورة الشعراء نزلت قبل سورة أبي لهب لما رواه أبو أسامة يبلغ ابن عباس لما نزلت : (وأنذر عشيرتك الأقربين وقومك منهم المخلصين ((ولم يقل من سورة الشعراء) خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى صعد الصفا) فتعين أن آية سورة الشعراء تشبه صدر الآية التي نزلت قبل نزول سورة أبي لهب .

أغراضها

زجر أبي لهب على قوله : (تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ ووعيده على ذلك ، ووعيد امرأته على انتصارها لزوجها ، وبغضها النبي (صلى الله عليه وسلم) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 599 . 600 ﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة المسد

مكية وأياتها خمس أيات

بين يدي السورة

* سورة المسد مكية ، وتسمى سورة اللهب ، وسورة تبت ، وقد تحدثت عن هلاك " أبي لهب " عدو الله ورسوله ، الذي كان شديد العداوة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، يترك شغله ويتبع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ليفسد عليه دعوته ، ويصد الناس عن الأيمان به ، وقد توعدته السورة في الآخرة ، بنار موقدة يصلاها ويشوى بها ، وقرنت زوجته به في ذلك ، واختصتها بلون من العذاب شديد ، هو حبل من ليف تجذب به في النار ، زيادة في التنكيل والدمار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿صفوة التفاسير حـ 3 صـ 617﴾

(10/837)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة المسد

التباب : الهلاك والخسران : قال تعالى : " وَما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ " وأبو لهب : أحد أعمام النبي صلى اللّه عليه وسلم ، واسمه عبد العزّى بن عبد المطلب ، وتبّ : أي قد تبّ وخسر ، يصلى نارا : أي يجد حرها ويذوقه ، ولهب النار :

ما يسطع منها عند اشتعالها وتوقدها ، والجيد : العنق ، والمسد : الليف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 261 ﴾

(11/837)

وقال الفراء :

سورة (المسد)

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ . . . ﴾ .

ذكروا أن النبى صلى الله عليه وسلم قام على المروة ، فقال : يا آل غالب ، فاجتمعت إليه ، ثم قال : يا آل لؤى ، فانصرف ولد غالب سوى لؤى ، ثم قال ذلك حتى انتهى إلى قصى .

فقال أبو لهب : فهذه قصى قد أتتك فما لهم عندك ؟ فقال : إن الله تبارك وتعالى قد أمرنى

أن أنذر عشيرتى الأقربين ، فقد أبلغتكم ، فقال أبو لهب : أما دعوتنا إلّا لهذا ؟ تبّاً لك ،

فأنزل الله عز وجل : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ وفى قراءة عبد الله : "وقد تب"

فالأول : دعاء ، والثانى : خبر. قال الفراء : "تب" : خسر ، كما تقول للرجل ، أهلكك

الله ، وقد أهلكك ، أو تقول : جعلك الله صالحا ، وقد جعلك .

﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . . . ﴾ ، ترفع الحمّالةُ وتنصب ، فمن رفعها

فعلى جهتين : يقول : سيصلى نار جهنم هو وامرأته حمالةُ الحطب تجعله من نعتها ، والرفع

الآخر وامرأتُه حمالةُ الحطب ، تريد : وامرأته حمالة الحطب فى النار ، فيكون فى جيدها

هو الرافع ، وإن شئت رفعتها بالحمالة ، كأنك قلت : ما أغنى عنه ماله وامرأته هكذا .

وأما النصب فعلى جهتين :

إحداهما [/ا] أن تجعل الحمالة قطعا ؛ لأنها نكرة ؛ ألا ترى أنك تقول : وامرأته الحمالة

الحطب ، فإذا ألقيت الألف واللام كانت نكرة ، ولم يستقم أن تنعت معرفة بنكرة .

والوجه الآخر : أن تشتمها بحملها الحطب ، فيكون نصبها على الذم ، كما قال صلى الله

عليه وسلم سيّد المرسلين سمعها الكسائى من العرب . وقد ذكرنا [مثله] فى غير موضع .

وفى قراءة عبد الله : "وامرأته حمالةً للحطب" نكرة منصوبة ، وكانت تنُم بين الناس ،

فذلك حملها الحطب يقول: تُحرِّش بين الناس، وتقود بينهم العداوة.

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾

(12/837)

وقوله جل وعز: ﴿فِى جِيدِهَا ﴾: فى عنقها ﴿ حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ . . . ﴾ .

وهى: السلسلة التى فى النار، ويقال: من مَسد: هو ليف المُقْل. انتهى انتهى. اهـ

﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 298. 299 ﴾

(13/837)

وقال الأخفش:

سورة (المسد)

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾

قال ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ "تبّت" جزم لأن تاء المؤنث اذا كانت في الفعل فهو جزم نحو "ضَرَبَ" و"ضَرَبْتُ"* وأما قوله ﴿ وتّب ﴾ فهو مفتوح لأنه فعل مذكر قد مضى.

﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾

وقال ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ [186 ب] يقول: "وَتَصْلَى امرأتُه حمالةِ الحَطَب" و ﴿ حمالةُ الحَطَبِ ﴾ من صفتها. ونصب بعضهم ﴿ حمّالةَ الحَطَبِ ﴾ على الذم كأنه قال "ذكرتُها حمالةَ الحطبِ" ويجوز ان تكون ﴿ حمالةَ الحطبِ ﴾ نكرة نوى بها التنوين فتكون حالا "امرأته" وتنتصب بقوله ﴿ تَصْلَى ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 588 ﴾

(14/837)

وقال الإمام ابن قتيبة:

سورة اللهب «1»

1 - تَبَّتْ: خسرت. وقد تقدم ذكر هذا.

2 - وَما كَسَبَ يعني: وما ولد.

4 - حَمَّالَةَ الْحَطَبِ يعني: النّميمة. ومنه يقال: فلان يحطب عليّ، إذا أغرى به.

5 - فِي جِيدِها أي في عنقها، حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ أي فتل [منه]. يقال: هو السّلسلة التي ذكرها اللّه في «الحاقّة». انتهى انتهى. اهـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 475 ﴾

(1) هي مكية بالإجماع.

(15/837)

وقال الغزنوى:

[سورة المسد]

1 تَبَّتْ: خابت وخسرت «1» والإضافة إلى اليد لأنّ العمل باليد.

وَتَبَّ: أي: وقد تب، فالأول دعاء والثاني خبر «2».

4 حَمَّالَةَ الْحَطَبِ: تمشي بالنّمائم فتشعل بين النّاس نار العداوة «3».

5 مِنْ مَسَدٍ: مسدت وفتلت «4». انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 895 ﴾

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء: 3/ 298، وتفسير الطبري: 30/ 336، ومعاني الزجاج:

5/ 375، والمفردات للراغب: 72.

(2) نص هذا القول في معاني الفراء: 3/ 298، وانظر إعراب القرآن للنحاس: 5/

305 ، وتفسير القرطبي : 20/ 236 .

(3) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 30/ 339 ، عن مجاهد ، وقتادة ، وعكرمة .

وقيل : إنها كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وهو أولى الأقوال عند الطبري بالصواب .

(4) كذا في الأصل ، وفي «ج» : مسد وفتل .

وفي معاني القرآن للفراء : 3/ 299 : «ويقال : (من مسد) هو ليف المقل» .

وفي اللسان : 3/ 402 (مسد) عن ابن سيده قال : «المسد : حبل من ليف أو خوص أو شعر أو وبر أو صوف أو جلود الإبل . . . » .

وحبل من مسد أي : حبل مسد أي مد ، أي فتل فلوي ، أي أنها تسلك في النار ، أي في سلسلة ممسود ، وانظر تفسير الطبري : 30/ 340 ، ومعاني القرآن للزجاج : 5/ 376 .

وقال ملا حويش :

تفسير سورة المسد

عدد 6 - 111

ومثلها في العدد الفلق والفيل نزلت بمكة بعد الفاتحة ، وهي خمس آيات ، وعشرون كلمة ، وسبعة وسبعون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها ، وتسمى سورة تبّت ، وسورة أبي لهب ، ولا يوجد في القرآن سورة مبدوءة أو مختومة بما بدأت وختمت به .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى : "تَبَّتْ" أي هلكت وخسرت وخابت "يَدا أَبِي لَهَبٍ 1" عبد العزّى بن عبد المطلب بن هاشم عم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمراد هو ذاته لأن العرب تعبر عن كل الشيء ببعضه ، وكنّي بأبي لهب لحسنه واشراق وجهه ، وكناه اللّه بذلك لشهرته بها دون الاسم لا لتكريمه ولأن في تسمينه باسمه نسبة العبد للشرك ، والكل عبيد اللّه لا يشاركه فيهم أحد ، واخبار بأنه من أهل النار ذات اللهب لتوافق كنيته بما يؤول إليه حاله ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه لم يرد اللّه له الخير ، وهو عم حبيبه وصفيه ، وأراده لصهيب وعمار وبلال وسلمان ، ورحم اللّه من قال :

لعمرك ما الإنسان الا ابن دينه فلا تترك التقوى اتّكالا على النسب

لقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك الحسيب أبا لهب

وهكذا يفعل اللّه ما يشاء ويحكم ما يريد "وَتَبَّ 1" وكان يقول ابن مسعود وقد تبّ لأنه هلك حقيقة ، ولا تجوز القراءة بها لما فيها من الزيادة وهي عبارة عن كلمة قالها ليست من القرآن ، راجع بحث القراءات في المقدمة ويقال عن هكذا زيادات (سيف خطيب) وقد جاء في التأويلات النجمية أن أبا لهب كان بداية أمر النبي صلى اللّه عليه وسلم يحسن إليه ويكرمه ويقول إلى قريش : إن كان الأمر إلى محمد فلي عنده يد ، وإن كان لقريش فلي عندها يد أيضا ، لأنه كان يحسن إليها ، وبعد أن ظهر أمر الرسول أظهر له العداوة وصار يهينه ويؤذيه ، فأنزل اللّه فيه هذه السورة إعلاما بخسران يده عنده لتكذيبه إياه وخسران يده عند قريش أيضا لعدم بقاء يد لهم عند الرسول وإذلالهم لعدم الإيمان به وهذا أحسن ما قيل في أسباب نزول

هذه السورة أما ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت "وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" الآية 215 من سورة الشعراء الآتية صعد النبي صلى اللّه عليه وسلم على الصفا ونادى : يا بني فهر ، يا بني عدي ، (بطون من قريش) ، حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولا لينظر ما هو الخبر ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال :

أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا نعم ما جرّبنا عليك إلا صدقا ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

فقال أبو لهب تبّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ! فنزلت السورة ، ونقله أكثر المفسرين .

مطلب سبب نزول السورة :

فلا يصح هذا أن يكون سببا لنزولها ، لأن هذه الآية لم تنزل بعد ولا يصح أن يكون المؤخر سببا للمقدم كما لا يصح أن يكون المقدم ناسخا للمؤخر .

(18/837)

على أن هذا لا يقدح في صحة الحديث لأنه صحيح لا غبار عليه وواقع عند نزول هذه الآية حقا إلا أنه لم يكن سببا لنزول السورة هذه ، ولا يبعد أن يكون قول أبي لهب لحضرة الرسول (تبّا لك سائر اليوم) ردا على ما جاء في هذه السورة المتقدمة على هذه الحادثة ، والأجدر أن يكون كذلك ، لأن العرب قد ترد على كلمة قيلت لهم ولو بعد حين ، ألم تر أن المعرّي حين قال للشاعر مهيار الديلمي لما سمع شعره بالعراق بعد أن سمعه في الشام "و أشعر من في العراق" عطفا على قوله قبل عشرين سنة وهو في الشام "أنت أشعر من في الشام" وهذا الشاعر له ديوان يحتوي على ثمانية عشر الف بيت ، وهو مطبوع وموجود في

مكاتب مصر وغيرها وهذا من بعض ذكاء المعرّي.

وحين سقط في يدي أبي لهب يقول اللّه تعالى "ما أَغْنى عَنْهُ" أي لم ينجه من عذاب اللّه "مالُهُ وَما كَسَبَ 2" في دنياه وولد الرجل من كسبه أي ولا ولده.

أخرج أبو داود عن عائشة قالت إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه أي من ربحه.

وأخرجه الترمذي بلفظ الجمع أي إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أولادكم من كسبكم وكان لأبي لهب ثلاثة أولاد عتبة ومتعب أسلما، وعتيبة أهان حضرة الرسول صلى اللّه عليه وسلم وأساء الأدب معه بأمر أبيه وطلق ابنته أم كلثوم، فقال صلى اللّه عليه وسلم: أللهم سلط عليه كلبا من كلابك.

فقتله السبع على طريق الشام ومن أسماء السبع الكلب، ثم هلك أبو لهب بالعدسة أي مرض الطاعون بعد وقعة بدر، وهذا المرض يجتنب مخافة العدوى فاستأجروا له بعض السودان، فدفنوه مخافة العار وإلا لتركوه وهذه العادة توجد حتى الآن عند بعض البدو، فانهم إذا مات أحدهم بمرض يزعمون أنه يعدي فإنهم يتباعدون عنه ويتركونه، وقد يهجرونه إبّان مرضه مخافة العدوى كالجدري والطاعون وغيره، هذا وقد صدق اللّه فلم يغن عنه ماله ولا كسبه، ولم يحل بينه وبين ما حل به، وكان صاحب مواشي.

قال ابن مسعود : ولما دعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أقرباءه إلى اللّه ، قال أبو لهب : إن كان ما تقول يا ابن أخي حقا فأنا افتدي نفسي بمالي وولدي ، فأنزل اللّه هذه السورة وهذا يصح إذا وقع منه نزولها لا عند نزول آية الشعراء الآنفة الذكر .

وبعد أن حقق اللّه وعده فيه بهلاكه في الدنيا على الصورة المذكورة أوعده بانه في الآخره أيضا (سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ 3) تتوقد وتتلهب في قلبه لشدة حسده له في الدنيا وفي الآخرة تحرقه (وَامْرَأَتُهُ) أم جميل المتقدم ذكرها في بحث فترة الوحي في المقدمة وصفها بقوله "حَمَّالَةَ" "الْحَطَبِ 4" في جهنم ، ذمها مع ما هي عليه من الشرف وكريم المحتد ، لأنها كانت تحمل الشوك والحسك وتطرحه في طريق رسول اللّه وأصحابه وتنم عليهم لشدة عداوتها لهم .

مطلب ما قالت أم جميل وما قيل فيها :

ولما نزلت هذه الآية جاءت حاملة فهرا (حجرا صغيرا) وقالت لأبي بكر والنبي بجانبه : لأفعلن كذا وكذا بصاحبك لأنه هجاني وأنا أماثله بالشعر وأنشدت :

مذمما أبينا ودينه قلينا

وأمره عصينا

وقد أعمى اللّه بصرها عن رؤية محمد صلى اللّه عليه وسلم ولما سأله أبو بكر قال :

حجبتني عنها الملائكة "فِي جِيدِهَا" عنقها "حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ 5" ليف كانت تنقل فيه الحطب ، فأبدلها اللّه سلسلة من حديد محماة في عنقها تعذب فيها في نار جهنم .

هذا وقد عيّر بعض الناس الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بحمالة الحطب فرد عليه بقوله :

ماذا أردت بشتمي أو بمنقصي أم ما تعيّر من حمالة الحطب

غراء شادخة في المجد غرتها كانت سليلة شيخ ثاقب الحسب

أي وقد وقع منها ما وقع من قومها فذمها اللّه لا غير ، أي لم تنتقد في شيء تعاب به عند العرب إذ ذاك ولا بعد هذا واللّه أعلم .

أستغفر اللّه العظيم ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 120 . 123 ﴾

(20/837)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة تبت

مكية

وتب تام وكذا وما كسب وامرأته كاف لمن رفعها بالعطف على الضمير في سيصلى ورفع حمالة الحطب خبر المبتدأ محذوف أو نصبها بأعنى مقدر أو ليست بوقف لمن رفعها مبتدأ خبره حمالة الحطب أو رفع حمالة بجلا من امرأته بل الوقف على ذات لهب وهو كاف آخر السورة تام. انتهى انتهى. اهـ ﴿المقصد صـ﴾

(21/837)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة تبت

مكية ولا وقف من أولها إلى وتب

ولهب قرئ بفتح الهاء وسكونها ولم يقرأ ناراً ذات لهب إلاَّ بالفتح فقط لمراعاة الفاصلة وتب (كاف) ومثله وما كسب للابتداء بالتهديد وكذا وامرأته لمن رفعها عطفاً على الضمير في سيصلي أي سيصلي هو وامرأته وعلى هذا لا يوقف على ذات لهب لأنَّ الكلام قد انتهى إلى وامرأته فيكون الوقف عليها حسناً وحسن ذلك الفصل بينهما وقام مقام التوكيد فجاز عطف الصريح على الضمير المرفوع بلا توكيد وعلى هذا تكون حمالة خبر

مبتدأ محذوف تقديره هي حمالة أو نصبها على الذم وبها قرأ عاصم وليس بوقف إن جعل وامرأته مبتدأ وحمالة خبرا أو رفع حمالة بدلاً من امرأته وكان الوقف على قوله ذات لهب كافياً وكذا الحطب إن جعل ما بعده مبتدأ وخبرا و قرىء شاذاً و مريأته مصغراً آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

(22/837)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة تبت : 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ابن مسعود : "ومريئته حَمَّالَةَ لِلْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ 2" .

قال أبو الفتح : "حمالة" خبر عن "مريئته" ، و"حبل" : غليظ ، ومنه قولهم : رجل حبل الوجه ، أي : الغليظ بشرته . وحبل الرأس : أي قوى غليظ . وكذلك قوله : ﴿ حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ ، أي : غليظ من ذلك . وقيل : المسد : سلسلة في النار . وقيل : المسد : ليف المقل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 374 ﴾

وقال العلامة الدمياطى :

سورة تبت

مكية وآيها خمس

واختلف في (لهب) الآية 1 الأول فابن كثير بإسكان الهاء وافقه ابن محيصن والباقون بفتحها لغتان كالنهر والنهر والفتح أكثر استعمالا وخرج بالأول الثاني المتفق على الفتح

وأمال) ما أغنى (و (سيصلى) الآية 3 حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والصغرى الأزرق وحيث فتح سيصلى غلظ لامها وحيث قلل رققها حتما فيهما لما مر أن التغليظ والإمالة ضدان

واختلف في (حمالة) الآية 4 فعاصم بالنصب على الذم وقيل على الحال من وامرأته لأنها فاعل لعطفها عليه وحمالة حينئذ نكرة حيث أريد بها الاستقبال أي حالها في النار كذلك وافقه ابن محيصن والباقون بالرفع خبر محذوف أو خبر امرأته وفي جيدها خبر ثان ومن جعله صفة لامرأته قدر المضي فيه لأنه قد وقع على الحقيقة فتتعرف حينئذ بالإضافة وجعلها بعضم بدل كل منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر ص ﴾

(24/837)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة المسد "

" أبي لهب " أسكن الهاء المكي وفتحها غيره ولا خلاف بين العشرة في فتح ها ذات لهب .

" سيصلى " غلظ ورش اللام إن فتح ورققها إن قلل .

" حمالة " قرأ عاصم بنصب التاء وغيره برفعها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 358 ﴾

(25/837)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة تبت

قوله تعالى ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ يقرأ بإسكان الهاء وفتحها وهما لغتان كما قالوا وهب

ووهب ونهر ونهر والاختيار الفتح لموافقة رؤوس الآي فأما ﴿ ذات لهب ﴾ فلا خلف في تحريكه

قوله تعالى ﴿ حمالة الحطب ﴾ يقرأ بالرفع والنصب فالحجة لمن رفع انه جعله خبر الابتداء والحجة لمن نصب انه اراد الذم والعرب تنصب بالذم والمدح والترحم بإضمار اعني ومعناه انها كانت تمشي بالنميمة فذمت بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 377 ﴾

(26/837)

وقال ابن زنجلة :

111 - سورة تبت المسد

تبت يدا أبي لهب وتب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد 5 , 4 , 1

قرأ ابن كثير تبت يدا أبي لهب ساكنة الهاء

وقرأ الباقون بفتح الهاء وهما لغتان كالشمع والشمع والنهر والنهر واتفاقهم على الفتح يدل على أنه أجود من الإسكان

قرأ عاصم حمالة الحطب بالنصب على الذم لها والمعنى

وقرأ الباقون حمالة بالرفع فمن رفع على أن يجعله وصفا لقوله وامرأته وعلى الخبر أي هي حمالة الحطب ويكون حبل من مسد خبرا بعد خبر. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ حجة القراءات صـ 776.777 ﴾

(27/837)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة المسد 111

مكية وقد ذكر نظيرتها في جميع العدد

وكلمها ثلاث وعشرون كلمة ككلم الفيل والفلق

وحروفها سبعة وسبعون حرفا كحروف النصر

وهي خمس آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف

وفيها مما يشبه الفواصل وليس بها موضع واحد وهو قوله عز وجل (﴿ يدا أبي لهب ﴾) ورؤوس الآي

وتب

1 وما كسب

2 ذات لهب

3 الحطب

4 من مسد

5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 295 ﴾

(28/837)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة تبت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (أبى لهب) يقرأ بفتح الهاء وإسكانها ، وهما لغتان .

قوله تعالى (ما أغنى) يجوز أن يكون نفيا وأن يكون استفهاما ، ولا يكون بمعنى الذى .

قوله تعالى (وامرأته) فيه وجهان : أحدهما هو معطوف على الضمير في يصلى ، فعلى هذا

في (حمالة) وجهان : أحدهما هو نعت لما قبله .

والثانى تقديره : هي حمالة و (في جيدها حبل) مبتدأ وخبر في موضع الحال من الضمير في حمالة ، ويقرأ " حمالة " بالنصب على الحال : أي تصلى النار مقولا لها ذلك ، والجيد أن ينتصب على الذم : أي أذم أو أعنى .

والوجه الآخر أن تكون امرأته مبتدأ ، وحمالة خبره ، وفى جيدها حبل حال من الضمير في حمالة أو خبر آخر ، ويجوز أن يرتفع حبل بالظرف لأنه قد اعتمد ، ومن نصب حمالة جعل الجملة بعده خبرا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(29/837)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة المسد

[سورة المسد (111) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1)

"تَبَّتْ" ماض والتاء للتأنيث "يَدا" فاعل مرفوع بالألف لأنه مثنى "أَبِي" مضاف إليه "لَهَبٍ" مضاف إليه أيضا والجملة ابتدائية لا محل لها "وَتَبَّ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة

على ما قبلها .

[سورة المسد (111) : آية 2]

ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ (2)

"ما" نافية "أَغْنى" ماض "عَنْهُ" متعلقان بالفعل "مالُهُ" فاعل والجملة مستأنفة لا محل لها

"وَما" اسم موصول معطوف على ماله "كَسَبَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة .

[سورة المسد (111) : آية 3]

سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ (3)

"سَيَصْلى" السين للاستقبال ومضارع فاعله مستتر "ناراً" مفعول به "ذاتَ" صفة نارا

"لَهَبٍ" مضاف إليه . والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة المسد (111) : آية 4]

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4)

"وَامْرَأَتُهُ" الواو حرف استئناف ومبتدأ "حَمَّالَةَ" مفعول به لفعل محذوف تقديره : أذم

حمالة "الْحَطَبِ" مضاف إليه .

[سورة المسد (111) : آية 5]

فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)

"فِي جِيدِها" الجار والمجرور خبر مقدم "حَبْلٌ" مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر المبتدأ

"مِنْ مَسَدٍ" صفة حبل وجملة امرأته . . مستأنفة لا محل لها . والجملة الفعلية "أذم حمالة الحطب" معترضة لا محل لها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 475﴾

(30/837)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة تبت

فِيهَا ثَلَاثَة أَحَادِيث

1561 - الحَدِيث الأول

رُوِيَ أَنه لما نزلت وأنذر عشيرتك الْأَقْرَبين رقى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّفَا وَقَالَ يَا صبَاحَاه فَاسْتَجْمَعَ إِلَيْهِ النَّاس من كل أَوب فَقَالَ يَا بني عبد الْمطلب يَا بني فهر أَن أَخْبَرتكُم إِن بسفح هَذَا الْجَبَل خيلا أَكُنْتُم مصدقي قَالُوا نعم قَالَ فَإِنِّي نَذِير لكم بَين يَدي السَّاعَة فَقَالَ أَبُو لَهب تَبًّا لَك أَلِهَذَا دعوتنا فَنزلت

قلت رَوَاهُ البُخَارِيّ فِي صَحِيحه فِي التَّفْسِير وَمُسلم فِي الْإِيمَان من حَدِيث سعيد بن

جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لما نزلت وانذر عشيرتك الْأَقْرَبين خرج رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى صعد الصَّفَا فهتف يَا صَبَاحَاه فَقَالُوا من هَذَا الَّذِي يهْتف قَالُوا مُحَمَّد فَاجْتمعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ يَا بني فلَان يَا بني فلَان يَا بني عبد منَاف يَا بني عبد الْمطلب فَاجْتمعُوا إِلَيْهِ فَقَالَ أَرَأَيْتكُم لَو أَخْبَرتكُم أَن خيلا تخرج بسفح هَذَا الْجَبَل أكُنْتُم مصدقي قَالُوا مَا جربنَا عَلَيْك كذبا قَالَ فَإِنِّي نَذِير لكم بَين يَدي عَذَاب شَدِيد قَالَ فَقَالَ أَبُو لَهب تَبًّا لَك أما جمعتنَا إِلَّا لهَذَا ثمَّ قَالَ فنزلت تبت يدا أبي لَهب . . . إِلَى آخرهَا انْتهى

1562 - الحَدِيث الثَّانِي

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِن أطيب مَا يَأْكُل الرجل من كَسبه وَإِن وَلَده من كَسبه

قلت رَوَاهُ أَصْحَاب السّنَن الْأَرْبَعَة وَغَيرهم وَقد تقدم فِي آخر سُورَة النُّور

1563 - الحَدِيث الثَّالِث

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ من قَرَأَ سُورَة تبت رَجَوْت الا يجمع الله بَينه وَبَين أبي لَهب فِي دَار وَاحِدَة

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره من حَدِيث سَلام بن سليم ثَنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قَرَأَ سُورَة تبت . . . إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان وبِسَنَد الثَّعْلَبِيّ رَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 327. 328﴾

(32/837)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة المسد

" تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب " هذا دعاء بالهلاك على أبى لهب ، استجاب به الله ، فلم تغن عنه ثروته الطائلة ولا جاهه الواسع . وأبو لهب عم رسول الله ! ولكنه كان أجرأ الناس عليه ، وأسرعهم إلى تكذيبه . قال الرواة : صعد النبى على الصفا ، ونادى : يا بنى فهر ، يا بنى عدى .لبطون قريش كلها .حتى اجتمعوا . ومن عجز عن المجيء بعث مكانه من يأتيه بالخبر ! وجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبى : أرأيتم . لو

أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك إلا صدقا ! قال : فإنى لكم نذير بين يدى عذاب شديد – وذكر أن الله أرسله – فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ ! فنزلت السورة . . قيل : إنه أخذ يقذفه بالحجارة حتى أدمى عقبيه ، وسواء صح ذلك أم لم يصح ، فإن أبا لهب دون سائر الأعمام انفرد بالخصومة العنيفة ، ولزمها إلى أن مات ! وامتدت الخصومة إلى أولاده ، فطلقوا زوجاتهم من بنات محمد ! ! وامتدت إلى زوجته ، وكانت امرأة سليطة شريرة لدود العداوة ، فبسطت لسانها فى محمد ، وتنقلت بين البيوت تهجوه . وزوجة أبى لهب أخت أبى سفيان سيد مكة وصاحب لوائها فى الحروب . . وقد نزلت " تبت يدا أبي لهب وتب " . فى الأيام الأولى للإسلام . وكان الرجل يستطيع تكذيبها بالدخول فى الإسلام بعد ذلك ، ولكنه بقى إلى أن مات عدوا للدين ومعتنقيه ، فصدقت فيه .

"سيصلى نارا ذات لهب * وامرأته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد" والمرأة من بيت سيادة ، فيبعد أن تشغل نفسها بحمل الحطب ! والمقصود أنها تنقل ما يثير الوقيعة ويحرك الخصومات . وكذلك يفعل النمامون ومثيرو الفتن . .

ويظهر أن أبا لهب حتى موته لم يكن يرى فى رسول الله إلا أنه اليتيم الضعيف الذى كفله أبو طالب أخوه ، فما لمح فيه ميراثا سماويا ولا سيرة ربانية ، ولا تدبر ما يقرأ من آيات الله فتستنير بصيرته . لقد عاش أبو لهب أعمى ومات أعمى . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 547.548 ﴾

(34/837)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(35/837)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة تبت

قال الإمام : وجه اتصالها بما قبلها : أنه لما قال : (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) فكأنه قيل : إلهي ، وما جزائي ؟ فقال الله له : النصر والفتح فقال : وما جزاء عمي الذي دعاني إلى عبادة

الأصنام؟ فقال: (تبت يدا أَبي لهبٍ) وقدم الوعد على الوعيد ليكون النصر معللاً بقوله: (ولي دين) ويكون الوعيد راجعاً إلى قوله: (لَكُم دينكم) على حد قوله: (يومَ تبيض ُوجوه وتَسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم) قال: فتأمل في هذه المجانسة الحافلة بين هذه السور، مع أن سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدينة، والكافرون وتبت من أوائل ما نزل بمكة، ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله، وبأمره قال: ووجه آخر، وهو: أنه لما قال (لَكُم دينكُم ولي دين) كأنه قيل: يا إلهي، ما جزاء المطيع؟ قال: حصول النصر والفتح فقيل: وما ثواب العاصي؟ قال: الخسارة في الدنيا، والعقاب في العقبى، كما دلت عليه سورة تبت. انتهى. اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 160 ﴾

(36/837)

قوله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى:

(بسم الله) الجبار المتكبر المضل الهاد (الرحمن) الذي عم الولي والعدو بنعمة البيان بعد

الإكرام بالإيجاد (الرحيم) الذي خص بالتوفيق أهل الوداد .

لما قدم سبحانه وتعالى في سورة النصر القطع بتحقيق النصر لأهل هذا الدين بعد ما كانوا فيه من الذلة ، والأمر الحتم بتكثيرهم بعد الذي مر عليهم مع الذلة من القلة ، وختمها بأنه التواب ، وكان أبو لهب - من شدة العناد لهذا الدين والأذى لإمامة النبي .صلى الله عليه وسلم .سيد العالمين مع قربه منه - بالمحل الذي لا يجهل ، بل شاع واشتهر ، وأحرق الأكباد وصهر ، كان بحيث يسأل عن حاله إذ ذاك هل يثبت عليه أو يذل ، فشفى غلَّ هذا السؤال ، وأزيل بما يكون له من النكال ، وليكون ذلك بعد وقوع الفتح ونزول الظفر والنصر ، والإظهار على الأعداء بالعز والقهر ، مذكراً له .صلى الله عليه وسلم .بما كان أول الأمر من جبروتهم وأذاهم وقوتهم بالعَدد والعُدد ، وأنه لم يغن عنهم شيء من ذلك ، بل صدق الله وعده في قوله سبحانه وتعالى ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جنهم وبئس المهاد ﴾ [آل عمران : 12] وكذبوا فيما كانوا فيه من التعاضد والتناصر والتحالف والتعاقد ، فذكر تعالى أعداهم له وأقربهم إليه في النسب إشارة إلى أنه لا فرق في تكذيبه لهم بين القريب والبعيد .

وإلى أنه لم ينفعه قربه له ليكون ذلك حاملاً لأهل الدين على الاجتهاد في العمل من غير ركون إلى سبب أو نسب غير ما شرعه سبحانه ، فقال تعالى معبراً بالماضي دلالة على أن الأمر قد قضى بذلك وفرغ منه ، فلا بد من كونه ولا محيص : ﴿ تبت ﴾ أي حصل القطع الأعظم والحتم الأكمل ، فإنها خابت وخسرت غاية الخسارة ، وهي المؤدية إلى الهلاك لأنه لا نجاة إلا نجاة الآخرة ، وجعل خطاب هذه السورة عن الله ولم يفتتحها ب " قل " كأخواتها لأن هذا أكثر أدباً وأدخل في باب العذر وأولى في مراعاة ذوي الرحم ، ولذلك لم يكرر ذكرها في القرآن ، وأشد في انتصار الله سبحانه وتعالى له . صلى الله عليه وسلم . وأقرب إلى التخويف وتجويز سرعة الوقوع .

ولما كانت اليد محل قدرة الإنسان ، فإذا اختلت اختل أمره ، فكيف إذا حصل الخلل في يديه جميعاً ، قال مشيراً بالتثنية إلى عموم هلاكه بأن قوته لم تغن عنه شيئاً ، ولأن التثنية يعبر بها عن النفس ، ومشيراً بالكنية وإن كان يؤتى بها غالباً للتشريف إلى مطابقة اسمه لحاله ، ومجانسته الموجبة لعظيم نكاله : ﴿ يدا أبي لهب ﴾ فلا قدرة له على إعطاء ولا منع ، ولا على جلب ولا دفع ، وإشارة إلى أن حسن صورته لم تغن عنه شيئاً من قبيح سيرته لقوله . صلى الله عليه وسلم . " إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم "

لأنه إنما كني بهذا لإشراق وجهه وتوقد وجنتيه ، ولأنها أشهر ، فالبيان بها أقوى وأظهر ،

والتعبير بها – مع كونه أوضح – أقعد في قول التي هي أحسن .

لأن اسمه عبد العزى وهو قبيح موجب للعدول عنه غيرة على العبودية أن تضاف إلى غير مستحقها .

(38/837)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : هذه السورة وإن نزلت على سبب خاص وفي قصة معلومة فهي مع ما تقدمها واتصل بها في قوة أن لو قيل : قد انقضى عمرك يا محمد ، وانتهى ما قلدته من عظيم أمانة الرسالة أمرك ، وأديت ما تحملته وحان أجلك ، وأمارة ذلك دخول الناس في دين الله أفواجاً ، واستجابتهم بعد تلكؤهم ، والويل لمن عاندك وعدل عن متابعتك وإن كان أقرب الناس إليك .

فقد فصلت سورة ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ بين أوليائك وأعدائك ، وبان بها حكم من اتبعك من عاداك ، ولهذا سماها عليه الصلاة والسلام المبرئة من النفاق ، وليعلم كفار قريش وغيرهم أنه لا اعتصام لأحد من النار إلا بالإيمان ، وأن القرابات غير نافعه ولا مجدية شيئاً إلا مع الإيمان ﴿ لكم دينك ولي دين ﴾ ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ [يونس : 41] ، ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ [التوبة :

71] وههنا انتهى الكتاب بجملته – انتهى .

ولما كان ربما خص التباب بالهلاك ، وحمل على هلاك اليدين حقيقة ، وكان الإنسان لا يزول جميع منفعته بفوات يديه وإن كان قد يعبر بهما عن النفس ، قال مصرحاً بالمقصود : ﴿ وتب ﴾ أي هو بجملته بتمام الهلاك والخسران ، فحقق بهذا ما أريد من الإسناد إلى اليدين من الكناية عن الهلاك الذي لا بقاء بعده ، والظاهر أن الأول دعاء والثاني خبر ، وعرف بهذا أن الانتماء إلى الصالحين لا يغني إلا إن وقع الاقتداء بهم في أفعالهم لأنه عم النبي .صلى الله عليه وسلم. .

(39/837)

ومادة " تب " و " بتّ " – الجامعة بجمع التاء والباء للسببين الأدنى الباطني والأعلى الظاهري – تدور على القطع المؤدي في أغلب أحواله إلى الهلاك ، لأن من انقطع إلى الأسباب معرضاً عن مسببها كان في أعظم تباب ، وربما كان القطع باستجماع الأسباب ، فحصل العوز بالمقاصد والمحابّ ، قال ابن مكتوم في الجمع بين المحكم والعباب : التب والتباب : الخسار ، وتباً له – على الدعاء ، وتباً تبيباً – على المبالغة ، قال الإمام أبو عبد الله القزاز : كأنك قلت : خسراناً له ، وهو المصدر ، نصب نصب سقياً له ، قال ابن دريد

: وكأن التب المصدر والتباب الاسم ، والتبب والتباب والتبيب : الهلاك ، والتتبيب النقص والخسار ، وكل هذا واضح في القطع عن الخير والفوز ، قال : والتابّ : الكبير من الرجال ، والأنثى تابة ، وقال القزاز : إذا سألت الرجل عن المرأة قلت : أشابة هي أم تابة ، أي أم عجوز فانية ، ومعلوم أن كبر السن مقرب من القطع والهلاك ، والتاب : الضعيف ، والجمع أتباب - هذلية ، وحمار تاب الظهر - إذا دبر ، وجمل تاب كذلك نادرة ، ولا شك أن الدبر والضعف هلاك في المعنى .

وتب : قطع مثل بت ، أي بتقديم الموحدة ووقعوا في تبوب منكرة ، وهو بتبة أي بحالة شديدة ، والتبي - بالفتح والكسر : ضرب من تمر البحرين ، قيل : هو رديء يأكله سقاط الناس ، وأتب الله قوته : أضعفها ، وتببوهم تتبيباً : أهلكوهم ، وتبتب : شاخ ، وكل ذلك واضح في القطع بالهلاك والخسار ، والتبوب يعني بالضم : ما انطوت عليه الأضلاع كالصدر والقلب ، وهذا يحتمل الخير والشر ، فإن القلب إذا فسد فسد الجسد كله ، وإذا صلح صلح الجسد كله ، فيكون حينئذ القطع ، بالفوز والنجاة ، أو لأن انطواء الأضلاع عليه قطعة عن الخارج ، واستتب الأمر : تهيأ واستوى .

وقال القزاز : ويقال : هذه العلة لا تستتب في نظار هذا القول ، أي لا تجري في نظائره ، كأنه من باب الإزالة إذ إن السين لما جامعت حرف السببين آذنت بالنجاح والفوز والفلاح ، فإنها حرف تدل على الاستيفاء في الإنباء عن الشيء والتتمة والألفة ، وأحسن من هذا أنها إذا جرت في النظائر أوضحتها وكشفت معانيها ففصلتها وأبانتها وقطعتها عن غير النظائر بما أزالت من الإلباس بها ، والذي يحقق معاني التب ويظهر أنه يؤول إلى القطع مقلوبه ، وهو البت – بتقديم الموحدة التي هي السبب الظاهر الذي هو أقوى من حيث إنه لا يتحقق إلا بكمال السبب الباطني ، يقال : بت الشيء يبته بتاً ، وأبته : قطعه قطعاً مستأصلاً ، وبت هو يُبت ويبِت بتاً وانبت ، ولعله استوى فيه المجرد والمزيد في التعدية دلالة على أن ما حصل بالمجرد من القطع هو من الكمال بحيث لا مزيد عليه ، وكذا استوى القاصر مجرداً ومطاوعاً مع المتعدي في أصل المعنى .

(41/837)

وصدقه بتة : بتلة باينة من صاحبها ، وطلقها ثلاثاً بتة وإبتاتاً ، أي قطعاً لا عود فيه ، ولا أفعله ألبتة – كأنه قطع فعله ، قال سيبويه : وقالوا : قعد ألبتة – مصدر مؤكد ، ولا يستعمل إلا بالألف واللام ، وبت عليه القضاء بتاً وأبته : قطعه ، وسكران ما يُبت كلاماً وما يُبت

أي ما يقطعه، قال القزاز: يُبت من أبت، ويَبت من بَتّ، وسكران باتّ: منقطع عن العمل بالسكر، وأبت يمينه: أمضاها، أي قطعها عن الحنث، وبتت هي: وجبت وحلت بتاً وبتة وبتاتاً، وكل ذلك من القطع، وأبت بعيره، أي قطعه بالسير، والمنبت في الحديث: الذي أتعب دابته حتى عطب ظهره فبقي منقطعاً به، وقال القزاز: هو الذي أتعب دابته حتى قطع ظهرها فبقي منبتاً به، أي منقطعاً به، وبت عليه الشهادة وأبتها: قطع عليه بها وألزمه إياها، وبت عليه القضاء وأبته، قطعه، والبات: المهزول الذي لا يقدر أن يقوم – كأنه قد انقطعت قوته، وفي الحديث "لا صيام لمن لم يبت الصيام من الليل" فمعناه: يوجبه، أي يقطعه على نفسه قبل الفجر، من أبت عليه الحكم – إذا قطعه، وروي: يبت، من بت – إذا قطع، وكلاهما بمعنى، وهما لغتان فصيحان.

(42/837)

وروي في حديث "من لم يبت" من البيات، وأحمق بات: شديد الحمق – كذا قاله الليث، وقال الأزهري: هو تاب – بتأخير الموحدة، والبت: كساء غليظ مهلهل مربع أخضر، وقيل: هو من وبر وصوف، والجمع بتوت، والبتات أي بالتخفيف: متاع البيت والزاد، كأن ذلك يقطع صاحبه عن الحاجة، وبتتوه: زودوه، أو أن ذلك من الإزالة لأنه صلة

لصاحبه ورفد لأن الاستقراء حاصل بأن كل مادة لها معنى غالب تدور عليه وفيها شيء لإزالة ذلك المعنى ، وفلان على بتات أمر - إذا أشرف على فراغه ، فإنه ينقطع حينئذ ، وتقول : طحنت بالرحى بتاً - إذا ابتدأت الإدارة عن يسارك ، كأنه دال على القطع بتمام العزيمة لأن ذلك أقوى للطاحن وأمكن ، وانبت الرجل : انقطع ماء ظهره ، ويقال : هذا حبل بتّ : إذا كان طاقاً واحداً ، كأنه لما كان كذلك فكان سهل القطع أطلق عليه القطع مبالغة مثل عدل ، وقد انبت فلان عن فلان - إذا انقطع وانقبض .

ولما أوقع سبحانه الإخبار بهلاكه على هذا الوجه المؤكد لما كان لصاحب القصة وغيره من الكفار من التكذيب بلسان حاله وقاله لما له من المال والولد ، وما هو فيه من القوة بالعَدد والعُدد ، زاد الأمر تحققاً إعلاماً بأن الأحوال الدنيوية لا غناء لها فقال مخبراً ، أو مستفهماً منكراً ﴿ ما أغنى ﴾ أي أجزى وناب وسد ﴿ عنه ﴾ أي عن أبي لهب الشقي الطريد المبعود عن الرحمة مع العذاب ﴿ ماله ﴾ أي الكثير الذي جرت العادة بأنه ينجي من الهلاك .

ولما كان الكسب أعم من المال ، وكان المال قد يكسب منافع هي أعظم منه من الجاه وغيره ، وكان الإنسان قد يكون فائزاً ولا مال له بأمور أثلها بسعيه خارجة عن المال ، قال مفيداً لذلك مبيناً أنه لا ينفع إلا ما أمر الله به ﴿ وما كسب ﴾ أي وإن كان ذلك على وجه هائل من الولد والأصحاب والعز بعشيرته التي كان يرضيها باتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- في المحافل يؤذيه ويكذبه وينهى الناس عن تصديقه مع أنه كان قبل ذلك يناديه بالصادق الأمين ، وكان ابنه عتبة شديد الأذى للنبي -صلى الله عليه وسلم- حتى قال النبي -صلى الله عليه وسلم- " اللهم سلط عليه كلباً من كلابك " فكان أبو لهب يعرف أن هذه الدعوة لا بد أن تدركه ، فلما حان الأمر وكان قد آن ما أراد صاحب العز الشامخ ، سبب له أن سافر إلى الشام فأوصى به أبوه الرفاق لينجوه رغم من هذه الدعوة ، فكانوا يحدقون به إذا نام ليكون وسطهم ، والحمول محيطة به وهم محيطون بها والركاب محيطة بهم ، فلم ينفعه ذلك بل جاء الأسد فتشمم الناس حتى وصل إليه فاقتلع رأسه ولم ينفع أباه ذلك ، بل استمر على ضلاله لما سبق في علم الله تعالى حتى كانت وقعة بدر فلم يخرج فيها فلما جاء الفلال كان منهم ابن أخيه أبو سفيان بن الحارث فقال : هلم يا ابن أخي فعندك الخبر : فقال نعم ! فوالله ما هو إلا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يفتلوننا كيف شاؤوا ويأسروننا كيف شاؤوا ، ومع ذلك والله مللت الناس لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض ما تليق شيئاً – أي ما تبقيه – ولا يقوم لها شيء ، قال أبو رافع غلام العباس بن

عبد المطلب ـ رضى الله عنه ـ وكان جالساً في حجرة في المسجد يبري نبلاً ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت وكنا نكتم إسلامنا ، فما ملكت نفسي أن قلت : تلك والله الملائكة ، قال : فرفع أبو لهب يده فضرب وجهي ضربة شديدة ، قال : وثاورته فاحتملني فضرب بي الأرض ثم برك عليّ يضربني وكنت رجلاً ضعيفاً

(44/837)

، فقامت أم الفضل – يعني سيدته – زوجة العباس ـ رضى الله عنه ـا إلى عمود الحجرة – أي الخيمة – فضربته به ضربة فلقت في رأسه شجة منكرة وقالت : استضعفته أي عدو الله إن غاب عنه سيده ، فقام مولياً ذليلاً فوالله ما عاش إلا سبع ليال أو ستاً حتى رماه الله بالعدسة فقتله وما نفعه إبعاده عن الخطر بتخلفه عن بدر ، والعدسة بثرة تشبه العدسة تخرج في مواضع من الجسد من جنس الطاعون تقتل غالباً ، قال القزاز : كانت تعدي في الجاهلية قلما يسلم منها أحد ، تقول : عدس الرجل فهو معدوس ، كما تقول : طعن فهو مطعون – إذا أصابه الطاعون – انتهى .

ولأجل تشاؤم العرب بها ترك أبو لهب من غير دفن ثلاثاً حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه ، ويقال : إنهم حفروا له حفرة بعيدة عنه من شدة نتنه ثم دفعوه

بخشب طوال حتى رموه فيها ورجموه بالحجارة والتراب من بعيد حتى طموه ، فكان ذلك سنة في رجمه فهو يرجم إلى الآن ، وذلك من أول إعجاز هذه الآيات أن كان سبة في العرب دون أن يغني عنه شيء مما يظن أنه يغني عنه .

ولما أخبر سبحانه وتعالى بوقوع هذا التبار الأعظم به ، وكان لا عذاب يداني عذاب الآخرة ، بينه بقوله : ﴿ سيصلى ﴾ أي عن قرب بوعد لا خلف فيه ﴿ ناراً ﴾ أي فيدس فيها وتنعطف عليه وتحيط به .

(45/837)

ولما كان المقصود شدة نكايته بأشد ما يكون من الحرارة كما أحرق أكباد الأولياء ، وكانت النار قد تكون جمراً ثم تنطفىء عن قرب قال : ﴿ ذات لهب ﴾ أي لا تسكن ولا تخمد أبداً لأن ذلك مدلول الصحبة المعبر عنها ب " ذات " ، وذلك بعد موته وليس في السورة دليل قاطع على أنه لا يؤمن لجواز أن يكون الصلي على الفسق ، فلا دليل فيها لمن يقول : إن فيها التكليف بما علم أنه محال ليكون قد كلف بأن يؤمن وقد علم أنه حكم بأنه لا يؤمن ، وإن كان الله قد حقق هذا الخبر بموته كافراً في الثانية من الهجرة عقب غزوة بدر وهي الخامسة عشرة من النبوة ، لكن ما عرف تحتم كفره إلا بموته كافراً لا بشيء في هذه السورة

ولا غيرها ، ومن الغرائب أن الكلمات المتعلقة به في هذه السورة خمس عشرة كلمة ، فكانت مشيرة إلى سنة موته بعد أن رأى تبابه في وقعة بدر وغيرها بعينه ، فإذا ضممنا إليها كلمات البسملة الأربع وازت سنة ست من الهجرة ، وهي سنة عمرة الحديبية سنة الفتح السببي التي تحقق فيها تبابه وخساره عند كل من عنده إيمان بالغيب ودفع للريب ، فإذا ضممت إليها الضميرين البارزين اللذين هما أقرب إلى الكلمات الاصطلاحية من المستترة وازت سنة ثمان من الهجرة التي كان فيها الفتح الحقيقي ، فتحقق عند قريش كافة ما أنزل فيه في هذه السورة ، فإذا ضممت إليها الضمائر الثلاثة المستترة وازت سنة إحدى عشرة على أنك إذا بدأت بالضمائر المستترة حصلت المناسبة أيضاً ، وذلك أنها توازي سنة تسع وهي سنة الوفود التي دخل الناس فيها في الدين أفواجاً وحج فيها بالناس أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أميراً ، ونودي في الموسم ببراءة ، وأن لا يحج بعد العام مشرك ، فتحققت خيبة أبي لهب عند كل من حضر الموسم لا سيما من كان يعلم دورانه وراء النبي - صلى الله عليه وسلم - وتكذيبه له من مسلم وغيره ، فإذا ضممنا إلى ذلك الضميرين البارزين وازت سنة إحدى عشرة أول سني خلافة الصديق - رضى الله

عنه-التي فتحت فيها جميع جزيرة العرب بعد أن لعب الشيطان بكثير من أهلها .

فرجعوا بعد أن قتل الله منهم من علم أنه مخلوق لجهنم ، وتحقق حينئذ ما لأبي لهب من التباب والنار ذات الالتهاب عند العرب كافة بإيمانهم عامة في السنة الحادية عشرة من الهجرة بعد مضي ثلاث وعشرين سنة من النبوة ، واستقر الأمر حينئذ ، وعلم أن الدين قد رسخت أوتاده وثبت عماده ، وأن الذي كان يحميه في حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- قد حماه بعده وهو سبحانه حي لا يموت وقادر لا يعجزه شيء ، وعدد كلمات السورة ثلاث وعشرون وهي توازي سنة حجة الوداع سنة عشر ، فإنها السنة الثالثة والعشرون من المبعث وفيها كمل الدين ونزلت آية المائدة .

وأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن الشيطان قد أيس أن يعبد بأرض العرب ، فتحقق كل الناس لا سيما من حضر الموسم تباب أبي لهب الذي كان يدور في تلك المشاهد وراء النبي -صلى الله عليه وسلم- يكذبه ويؤذيه

﴿ إن في ذلك لعبرة ﴾ [آل عمران : 13 - والنور : 44] .

ولما أخبر سبحانه وتعالى عنه بكمال التباب الذي هو نهاية الخسار ، وكان أشق ما على الإنسان هتك ما يصونه من حريمه حتى أنه يبذل نفسه دون ذلك لا سيما العرب ، فإنه لا يدانيهم في ذلك أحد ، زاده تحقيراً بذكر من يصونها معبراً عنها بما صدرها بازراً صورة وأشنعها ، فقال مشيراً إلى أن خلطة الأشرار غاية الخسار ، فإن الطبع وإن كان جيداً يسرق من الرديء ، فكيف إذا كان رديئاً وإن أرضى الناس بما يسخط الله أعظم الهلاك ﴿ وامرأته ﴾ أي أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي مثل زوجها في التباب والصلي من غير أن يغني عنها شيء من مال ولا حسب ولا نسب ، وعدل عن ذكرها بكنيتها لأن صفتها القباحة وهي ضد كنيتها ، ومن هنا تؤخذ كراهة التلقيب بناصر الدين ونحوها لمن ليس متصفاً بما دل عليه لقبه ، ثم وصفها بما أشار إليه ذنبها وأكمل قبيح صورتها فقال : ﴿ حمالة الحطب ﴾ أي الحاملة أقصى ما يمكن حمله من حطب جهنم بما كانت تمشي به وتبالغ فيه من حمل حطب البهت والنميمة الذي تحمل به على معاداة النبي - صلى الله عليه وسلم - وشدة أذاه وإيقاد نار الحرب والخصومة عليه - صلى الله عليه وسلم - ، من قول الشاعر :

من البيض لم تصطد على ظهر لأمه . . .

ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب

أراد النميمة ، وعبر بالرطب للدلالة على زيادة الشر بما فيه من التدخين وشبهت النميمة بالحطب لأنها توقد الشر فتفرق بين الناس كما أن الحطب يكون وقوداً للنار فتفرقه ، وكذا بما كانت تحمل من الشوك وتنثره ليلاً في طريق النبي -صلى الله عليه وسلم- لتؤذيه ، وكانت تفعله بنفسها من شدة عداوتها وتباشره ليلاً لتستخفي به لأنها كانت شريفة ، فلما نزلت سورة صوّرتها بأقبح صورة فكان ذلك - أعظم فاضح لها ، وقراءة عاصم بالنصب للقطع على الشتم تؤدي أن امرأته مبتدأ وأن الخبر ﴿ في جيدها ﴾ أي عنقها وأجود ما فيها - هو حال على التقدير الأول ﴿ حبل ﴾ كالحطابين تخسيساً لأمرها وتحقيراً لحالها ﴿ من مسد ﴾ أي ليف أو ليف المقل أو من شيء قد فتل وأحكم فتله ، من قولهم : رجل ممسود الخلق ، أي مجدوله - وقد رجع آخرها على أولها ، فإن من كانت امرأته مصورة بصورة حطابة على ظهرها حزمة حطب معلق حبلها في جيدها فهو في غاية الحقارة ، والتباب والخساسة والخسارة وحاصل هذه السورة أن أبا لهب قطع رحمه وجار عن قصد السبيل واجتهد بعد ضلاله في إضلال غيره ، وظلم الناصح له الرؤوف به الذي لم يأل جهداً في نصحه على ما تراه من أنه لم يأل هو - جهداً في أذاه واعتمد على ماله وأكسابه فهلك وأهلك امرأته معه ومن تبعه من أولاده ، ومن أعظم مقاصد سورة النساء المناظرة لها في رد المقطع على المطلع التواصل والتقارب والإحسان لا سيما لذوي الأرحام ،

والعدل في جميع الأقوال والأفعال ، فكان شرح حال الناصح الذي لا ينطق عن الهوى ، وحال الضال الذي إنما ينطق عن الهوى - قوله تعالى :

(49/837)

﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ [النساء : 26] وختمها إشارة إلى التحذير من مثل حاله ، فكأنه قيل : يبين الله لكم أن تضلوا فكونوا كأبي لهب في البوار ، وصلي النار - كما تبين لكم ، فكونوا على حذر من كل ما يشابه حاله وإن ظهر لكم خلاف ذلك ، فأنا أعلم منكم ، والله بكل شيء عليم " والحمد لله رب العالمين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 574.567 ﴾

(50/837)

فصل

قال الفخر :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ﴾

سورة المسد

خمس آيات مكية بالاتفاق

اعلم أنه تعالى قال

اعلم أنه تعالى قال ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾

ثم بين في سورة ﴿ قُلْ يا أَهْلَ أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ أن محمداً عليه الصلاة والسلام أطاع ربه وصرح بنفي عبادة الشركاء والأضداد وأن الكافر عصى ربه واشتغل بعبادة الأضداد والأنداد فكأنه قيل إلهنا ما ثواب المطيع وما عقاب العاصي فقال ثواب المطيع حصول النصر والفتح والاستيلاء في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى كما دل عليه سورة إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وأما عقاب العاصي فهو الخسار في الدنيا والعقاب العظيم في العقبى كما دلت عليه سورة تُبَّتْ ونظيره قوله تعالى في آخر سورة الأنعام وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ فكأنه قيل إلهنا أنت الجواد المنزه عن البخل والقادر المنزه عن العجز فما السبب في هذا التفاوت فقال لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا ءاتَاكُمُ فكأنه قيل إلهنا فإذا كان العبد مذنباً عاصياً فكيف حاله فقال في الجواب إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وإن كان مطيعاً

منقاداً كان جزاؤه أن الرب تعالى يكون غفوراً لسيئاته في الدنيا رحيماً كريماً في الآخرة

وذكروا في سبب نزول هذه السورة وجوهاً أحدها قال ابن عباس كان رسول الله يكتم أمره في أول المبعث ويصلي في شعاب مكة ثلاث سنين إلى أن نزل قوله تعالى وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ فصعد الصفا ونادى يا آل غالب فخرجت إليه غالب من المسجد فقال أبو لهب هذه غالب قد أتتك فما عندك ثم نادى يا آل لؤي فرجع من لم يكن من لؤي فقال أبو لهب هذه لؤي قد أتتك فما عندك ثم قال يا آل مرة فرجع من لم يكن من مرة فقال أبو لهب هذه لؤي قد أتتك فما عندك ثم قال يا آل مرة فرجع من لم يكن من مرة فقال أبو لهب هذه مرة قد أتتك فما عندك ثم قال يا آل كلاب ثم قال بعده يا آل قصي فقال أبو لهب هذه قصي قد أتتك فيما عندك فقال إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وأنتم الأقربون اعلموا أني لا أملك لكم من الدنيا حظاً ولا من الآخرة نصيباً

إلا أن تقولوا لا إله إلا الله فأشهد بها لكم عند ربكم فقال أبو لهب عند ذلك تباً لك ألهذا دعوتنا فنزلت السورة

وثانيها روى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صعد الصفا ذات يوم وقال يا صباحاه

فاجتمعت إليه قريش فقالوا مالك قال أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوني قالوا بلى قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال عند ذلك أبو لهب ما قال فنزلت السورة وثالثها أنه جمع أعمامه وقدم إليهم طعاماً في صحفة فاستحقروه وقالوا إن أحدنا يأكل كل الشاة فقال كلوا فأكلوا حتى شبعوا ولم ينقص من الطعام إلا اليسير ثم قالوا فما عندك فدعاهم إلى الإسلام فقال أبو لهب ما قال وروى أنه قال أبو لهب فما لي إن أسلمت فقال ما للمسلمين فقال أفلا أفضل عليهم فقال النبي عليه الصلاة والسلام بماذا تفضلا فقال تباً لهذا الدين يستوي فيه أنا وغيري ورابعها كان إذا وفد على النبي وفد سألوا عمه عنه وقالوا أنت أعلم به فيقول لهم إنه ساحر فيرجعون عنه ولا يلقونه فأتاه وفد فقال لهم مثل ذلك فقالوا لا ننصرف حتى نراه فقال إنا لم نزل نعالجه من الجنون فتباً له وتعساً فأخبر النبي (صلى الله عليه وسلم) بذلك فحزن ونزلت السورة

(53/837)

اعلم أن قوله : ﴿ تَبَتْ ﴾ فيه أقاويل

أحدها : التباب الهلاك ، ومنه قولهم شابة أم تابة أي هالكة من الهرم ، ونظيره قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر : 37] أي في هلاك ، والذي يقرر ذلك أن

الأعرابي لما واقع أهله في نهار رمضان قال : هلكت وأهلكت ، ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام ما أنكر ذلك ، فدل على أنه كان صادقاً في ذلك ، ولا شك أن العمل إما أن يكون داخلاً في الإيمان ، أو إن كان داخلاً لكنه أضعف أجزائه ، فإذا كان بترك العمل حصل الهلاك ، ففي حق أبي لهب حصل ترك الاعتقاد والقول والعمل ، وحصل وجود الاعتقاد الباطل ، والقول الباطل ، والعمل الباطل ، فكيف يعقل أن لا يحصل معنى الهلاك ، فلهذا قال : ﴿ تَبَتْ ﴾ وثانيها : تبت خسرت ، والتباب هو الخسران المفضي إلى الهلاك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود : 101] أي تخسير بدليل أنه قال في موضع آخر : ﴿ غير تخسير ﴾ [هود : 63] وثالثها : تبت خابت ، قال ابن عباس : لأنه كان يدفع القوم عنه بقوله : إنه ساحر ، فينصرفون عنه قبل لقائه لأنه كان شيخ القبيلة وكان له كالأب فكان لا يتهم ، فلما نزلت السورة وسمع بها غضب وأظهر العداوة الشديدة فصار متهماً فلم يقبل قوله في الرسول بعد ذلك ، فكأنه خاب سعيه وبطل غرضه ، ولعله إنما ذكر اليد لأنه كان يضرب بيده على كتف الوافد عليه ، فيقول : انصرف راشداً فإنه مجنون ، فإن المعتاد أن من يصرف إنساناً عن موضع وضع يده علي كتفه ودفعه عن ذلك الموضع ورابعها : عن عطاء تبت أي غلبت لأنه كان يعتقد أن يده هي العليا وأنه يخرجه من مكة ويذله ويغلب عليه وخامسها : عن ابن وثاب ؛ صفرت يداه على كل خير ، وإن قيل : ما فائدة ذكر اليد ؟ قلنا : فيه وجوه أحدها : ما يروى أنه أخذ حجراً ليرمي به رسول الله

، روي عن طارق المحاربي أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في السوق يقول :

" يا أيها

(54/837)

الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقد أدمى عقبيه ، لا تطيعوه فإنه كذاب ، فقلت : من هذا ، فقالوا : محمد وعمه أبو لهب " وثانيها : المراد من اليدين الجملة كقوله تعالى : ﴿ ذلك بمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج : 10] ومنه قولهم : يداك أوكتا ، وقوله تعالى : ﴿ مِمَّا عَمِلَتْ أَيدِينَا ﴾ [يس : 71] وهذا التأويل متأكد بقوله : ﴿ وَتَبَّ ﴾ وثالثها : تبت يداه أي دينه ودنياه أولاه وعقباه ، أو لأن بإحدى اليدين تجر المنفعة ، وبالأخرى تدفع المضرة ، أو لأن اليمنى سلاح والأخرى جنة ورابعها : روي أنه عليه السلام لما دعاه نهاراً فأبى ، فلما جن الليل ذهب إلى داره مستناً بسنة نوح ليدعوه ليلاً كما دعاه نهاراً ، فلما دخل عليه قال له : جئتني معتذراً فجلس النبي عليه السلام أمامه كالمحتاج ، وجعل يدعوه إلى الإسلام وقال :

" إن كان يمنعك العار فأجبني في هذا الوقت واسكت ، فقال : لا أومن بك حتى يؤمن بك هذا الجدي ، فقال عليه الصلاة والسلام للجدي : من أنا ؟ فقال رسول الله : وأطلق لسانه

يثني عليه، فاستولى الحسد على أبي لهب، فأخذ يدي الجدي ومزقه وقال: تباً لك أثر فيك السحر، فقال الجدي: بل تباً لك" فنزلت السورة على وفق ذلك: تبت يدا أبى لهب لتمزيقه يدي الجدي وخامسها: قال محمد بن إسحق: يروى أن أبا لهب كان يقول: يعدني محمد أشياء، لا أرى أنها كائنة يزعم أنها بعد الموت، فلم يضع في يدي من ذلك شيئاً، ثم ينفخ في يديه ويقول: تباً لكما ما أرى فيكما شيئاً، فنزلت السورة.

(55/837)

أما قوله تعالى: ﴿ وَتَبَّ ﴾ ففيه وجوه أحدها: أنه أخرج الأول مخرج الدعاء عليه كقوله: ﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس: 17] والثاني مخرج الخبر أي كان ذلك وحصل، ويؤيده قراءة ابن مسعود وقد تب وثانيها: كل واحد منهما إخبار ولكن أراد بالأول هلاك عمله، وبالثاني هلاك نفسه ووجهه أن المرء إنما يسعى لمصلحة نفسه وعمله، فأخبر الله تعالى أنه محروم من الأمرين وثالثها: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ يعني ماله ومنه يقال: ذات اليد ﴿ وَتَبَّ ﴾ هو بنفسه كما يقال: ﴿ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ﴾ [الزمر: 15] وهو قول أبي مسلم ورابعها: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ يعني نفسه: ﴿ وَتَبَّ ﴾ يعني ولده عتبة على ما روي أن عتبة بن أبي لهب خرج إلى الشام مع أناس من قريش فلما هموا أن يرجعوا قال لهم

عتبة : بلغوا محمداً عني أني قد كفرت بالنجم إذا هوى ، وروي أنه قال ذلك في وجه رسول الله وتفل في وجهه ، وكان مبالغاً في عداوته ، فقال : " اللهم سلط عليه كلباً من كلابك فوقع الرعب في قلب عتبة وكان يحترز فسار ليلة من الليالي فلما كان قريباً من الصبح ، فقال له أصحابه : هلكت الركاب فما زالوا به حتى نزل وهو مرعوب وأناخ الإبل حوله كالسرادق فسلط الله عليه الأسد وألقى السكينة على الإبل فجعل الأسد يتخلل حتى افترسه ومزقه " ، فإن قيل : نزول هذه السورة كان قبل هذه الوقعة ، وقوله : ﴿ وَتَبَّ ﴾ إخبار عن الماضي ، فكيف يحمل عليه ؟ قلنا : لأنه كان في معلومه تعالى أنه يحصل ذلك وخامسها : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ حيث لم يعرف حق ربه ﴿ وَتَبَّ ﴾ حيث لم يعرف حق رسوله وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : لماذا كناه مع أنه كالكذب إذ لم يكن له ولد اسمه لهب ، وأيضاً فالتكنية من باب التعظيم ؟ والجواب : عن الأول أن التكنية قد تكون اسماً ، ويؤيده قراءة من قرأ (تبت يدا أبو لهب) كما يقال : علي بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان ، فإن هؤلاء أسماؤهم كناهم ، وأما معنى التعظيم فأجيب عنه من وجوه أحدها : أنه لما كان اسماً خرج عن

إفادة التعظيم والثاني : أنه كان اسمه عبد العزي فعدل عنه إلى كنيته والثالث : أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته ، فكان جديراً بأن يذكر بها ، ويقال أبو لهب : كما يقال : أبو الشر للشرير وأبو الخير للخير الرابع : كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما ، فيجوز أن يذكر بذلك تهكماً به واحتقاراً له .

(57/837)

السؤال الثاني : أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان نبي الرحمة والخلق العظيم ، فكيف يليق به أن يشافه عمه بهذا التغليظ الشديد ، وكان نوح مع أنه في نهاية التغليظ على الكفار قال في ابنه الكافر ﴿ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق ﴾ [هود : 45] ، وكان إبراهيم عليه السلام يخاطب أباه بالشفقة في قوله : يا أبت يا أبت وأبوه كان يخاطبه بالتغليظ الشديد ، ولما قال له : ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ واهجرنى مَلِيّاً ﴾ [مريم : 46] قال : ﴿ سلام عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ﴾ [مريم : 47] وأما موسى عليه السلام فلما بعثه إلى فرعون قال له ولهرون : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ [طه : 44] مع أن جرم فرعون كان أغلظ من جرم أبي لهب ، كيف ومن شرع محمد عليه الصلاة والسلام أن الأب لا يقتل بابنه قصاصاً ولا يقيم الرجم عليه وإن خاصمه أبوه وهو كافر في الحرب فلا يقتله بل يدفعه عن نفسه حتى يقتله

غيره والجواب : من وجوه أحدها : أنه كان يصرف الناس عن محمد عليه الصلاة والسلام بقوله : إنه مجنون والناس ما كانوا يتهمونه ، لأنه كان كالأب له ، فصار ذلك كالمانع من أداء الرسالة إلى الخلق فشافهه الرسول بذلك حتى عظم غضبه وأظهر العداوة الشديدة ، فصار بسبب تلك العداوة متهماً في القدح في محمد عليه الصلاة والسلام ، فلم يقبل قوله فيه بعد ذلك وثانيها : أن الحكمة في ذلك ، أن محمداً لو كان يداهن أحداً في الدين ويسامحه فيه ، لكانت تلك المداهنة والمسامحة مع عمه الذي هو قائم مقام أبيه ، فلما لم تحصل هذه المداهنة معه انقطعت الأطماع وعلم كل أحد أنه لا يسامح أحداً في شيء يتعلق بالدين أصلاً وثالثها : أن الوجه الذي ذكرتم كالمتعارض ، فإن كونه عماً يوجب أن يكون له الشفقة العظيمة عليه ، فلما انقلب الأمر وحصلت العداوة العظيمة ، لا جرم استحق التغليظ العظيم .

(58/837)

السؤال الثالث : ما السبب في أنه لم يقل قل تبت يدا أبى لهب وتب وقال في سورة الكافرون : ﴿ قُلْ يا أَيُّها الكافرون ﴾ ؟ الجواب : من وجوه الأول : لأن قرابة العمومة تقتضي رعاية الحرمة فلهذا السبب لم يقل له : قل ذلك لئلا يكون مشافهاً لعمه بالشتم بخلاف السورة

الأخرى فإن أولئك الكفار ما كانوا أعماماً له الثاني : أن الكفار في تلك السورة طعنوا في الله فقال الله تعالى : يا محمد أجب عنهم : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا ***الكافرون ﴾ وفي هذه السورة طعنوا في محمد ، فقال الله تعالى أسكت أنت فإني أشتمهم : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ الثالث : لما شتموك ، فاسكت حتى تندرج تحت هذه الآية :

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً ﴾ [الفرقان : 63] وإذا سكت أنت أكون أنا المجيب عنك ، يروى أن أبا بكر كان يؤذيه واحد فبقي ساكتاً ، فجعل الرسول يدفع ذلك الشاتم ويزجره ، فلما شرع أبو بكر في الجواب سكت الرسول ، فقال أبو بكر : ما السبب في ذلك ؟ قال : " لأنك حين كنت ساكتاً كان الملك يجيب عنك ، فلما شرعت في الجواب انصرف الملك وجاء الشيطان .

"

واعلم أن هذا تنبيه من الله تعالى على أن من لا يشافه السفيه كان الله ذاباً عنه وناصراً له ومعيناً .

السؤال الرابع : ما الوجه في قراءة عبد الله بن كثير المكي حيث كان يقرأ : ﴿ أَبِى لَهَبٍ ﴾ ساكنة الهاء ؟ الجواب : قال أبو علي : يشبه أن يكون لهب ولهب لغتين كالشمع والشمع والنهر والنهر ، وأجمعوا في قوله : ﴿ سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد : 3] على فتح الهاء ، وكذا قوله : ﴿ وَلاَ يُغْنِى مِنَ اللهب ﴾ [المراسلات : 31] وذلك يدل على أن

الفتح أوجه من الإسكان ، وقال غيره : إنما اتفقوا على الفتح في الثانية مراعاة لوفاق الفواصل .

مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2)

في الآية مسائل :

(59/837)

المسألة الأولى : ما في قوله : ﴿ مَا أغنى ﴾ يحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الإنكار ، ويحتمل أن يكون نفياً ، وعلى التقدير الأول يكون المعنى أي تأثير كان لماله وكسبه في دفع البلاء عنه ، فإنه لا أحد أكثر مالاً من قارون فهل دفع الموت عنه ، ولا أعظم ملكاً من سليمان فهل دفع الموت عنه ، وعلى التقدير الثاني يكون ذلك إخباراً بأن المال والكسب لا ينفع في ذلك .

المسألة الثانية : (ما كسب) مرفوع وما موصولة أو مصدرية يعني مكسوبه أو كسبه ، يروى أنه كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وأولادي ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، ثم ذكروا في المعنى وجوهاً : أحدها : لم ينفعه ماله وما كسب بماله يعني رأس المال والأرباح وثانيها : أن المال هو الماشية وما كسب من نسلها ، ونتاجها ،

فإنه كان صاحب النعم والنتاج وثالثها : ﴿ مَالُهُ ﴾ الذي ورثه من أبيه والذي كسبه بنفسه ورابعها : قال ابن عباس : ﴿ ما كسب ﴾ ولده ، والدليل عليه قوله عليه السلام : " إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه " وقال عليه السلام : " أنت ومالك لأبيك " وروي أن بني أبي لهب احتكموا إليه فاقتتلوا فقام يحجز بينهم فدفعه بعضهم فوقع : فغضب فقال : أخرجوا عني الكسب الخبيث وخامسها : قال الضحاك : ما ينفعه ماله وعمله الخبيث يعني كيده في عداوة رسول الله وسادسها : قال قتادة : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ أي عمله الذي ظن أنه منه على شيء كقوله : ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ ﴾ [الفرقان : 23] وفي الآية سؤالات :

السؤال الأول : قال ههنا : ﴿ مَا أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ وقال في سورة : ﴿ والليل إِذَا يغشى ﴾ ﴿ وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾ [الليل : 1] فما الفرق ؟ الجواب : التعبير بلفظ الماضي يكون آكد كقوله : ﴿ مَا أغنى عَنّى مَالِيَه ﴾ [الحاقة : 28] وقوله : ﴿ أتى أَمْرُ الله ﴾ [النحل : 1] .

السؤال الثاني : ما أغنى عنه ماله وكسبه فيماذا ؟ الجواب : قال بعضهم في عداوة الرسول : فلم يغلب عليه ، وقال بعضهم : بل لم يغنيا عنه في دفع النار ولذلك قال : ﴿ سيصلى ﴾ .

سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3)

وفيه مسائل .

المسألة الأولى :

لما أخبر تعالى عن حال أبي لهب في الماضي بالتباب وبأنه ما أغنى عنه ماله وكسبه ، أخبر عن حاله في المستقبل بأنه سيصلى ناراً .

المسألة الثانية :

﴿ سيصلى ﴾ قرىء بفتح الياء وبضمها مخففاً ومشدداً .

المسألة الثالثة :

هذه الآيات تضمنت الإخبار عن الغيب من ثلاثة أوجه أحدها : الإخبار عنه بالتباب والخسار ، وقد كان كذلك وثانيها : الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده ، وقد كان كذلك .

روى أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب وكان الإسلام دخل بيتنا ، فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت أنا ، وكان العباس يهاب القوم ويكتم إسلامه ، وكان أبو لهب تخلف عن بدر ، فبعث مكانه العاص بن هشام ، ولم يتخلف رجل منهم إلا بعث مكانه رجلاً آخر ، فلما جاء الخبر عن واقعة أهل بدر وجدنا في أنفسنا قوة ، وكنت رجلاً ضعيفاً وكنت أعمل القداح أنحيها في حجرة زمزم ، فكنت جالساً هناك وعندي أم الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر إذا أقبل أبو لهب يجر رجليه ، فجلس على طنب الحجرة وكان ظهري إلى ظهره ، فبينا هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ، فقال له أبو لهب : كيف الخبر يا ابن أخي ؟ فقال : لقينا القوم ومنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف أرادوا ، وأيم الله مع ذلك تأملت الناس ، لقينا رجال بيض على خيل بلق بين السماء والأرض ، قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة ، ثم قلت : أولئك والله الملائكة ، فأخذني وضربني على الأرض ، ثم برك علي فضربني وكنت رجلاً ضعيفاً ، فقامت أم الفضل إلى عمود فضربته على رأسه وشجته ، وقالت : تستضعفه إن غاب سيده ، والله نحن مؤمنون منذ أيام كثيرة ، وقد صدق فيما قال : فانصرف ذليلاً ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة فقتلته ، ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثاً ما يدفناه حتى أنتن في بيته ، وكانت قريش تتقي

العدسة وعدواها كما يتقي الناس الطاعون ، وقالوا نخشى هذه القرحة ، ثم دفنوه وتركوه ، فهذا معنى قوله : ﴿ مَا أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ وثالثها : الإخبار بأنه من أهل النار ، وقد كان كذلك لأنه مات على الكفر .

المسألة الرابعة :

احتج أهل السنة على وقوع تكليف ما لا يطاق بأن الله تعالى كلف أبا لهب بالإيمان ، ومن جملة الإيمان تصديق الله في كل ما أخبر عنه ، ومما أخبر عنه أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار ، فقد صار مكلفاً بأنه يؤمن بأنه لا يؤمن ، وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال .

وأجاب الكعبي وأبو الحسين البصري بأنه لو آمن أبو لهب لكان لهذا الخبر خبراً بأنه آمن ، لا بأنه ما آمن ، وأجاب القاضي عنه فقال : متى قيل : لو فعل الله ما أخبر أنه لا يفعله فكيف يكون ؟ فجوابنا : أنه لا يصح الجواب عن ذلك بلا أو نعم .

واعلم أن هذين الجوابين في غاية السقوط ، أما الأول : فلأن هذه الآية دالة على أن خبر الله عن عدم إيمانه واقع ، والخبر الصدق عن عدم إيمانه ينافيه وجود الإيمان منافاة ذاتية ممتنعة الزوال فإذا كان كلفه أن يأتي بالإيمان مع وجود هذا الخبر فقد كلفه بالجمع بين المتنافيين .

وأما الجواب الثاني : فأرك من الأول لأنا لسنا في طلب أن يذكروا بلسانهم لا أو نعم ، بل صريح العقل شاهد بأن بين كون الخبر عن عدم الإيمان صدقاً ، وبين وجود الإيمان منافاة ذاتية ، فكان التكليف بتحصيل أحد المتضادين حال حصول الآخر تكليفاً بالجمع بين الضدين ، وهذا الإشكال قائم سواء ذكر الخصم بلسانه شيئاً أم بقي ساكتاً .

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4)

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرئ (ومريئته) بالتصغير وقرئ (حمالة الحطب) بالنصب على الشتم ، قال صاحب الكشاف : وأنا أستحب هذه القراءة وقد توسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميل من أحب شتم أم جميل وقرئ بالنصب والتنوين والرفع .

المسألة الثانية :

أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية ، وكانت في غاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذكروا في تفسير كونها حمالة الحطب وجوهاً : أحدها : أنها كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتنثرها بالليل في طريق رسول الله ، فإن قيل : إنها كانت من بيت العز فكيف يقال : إنها حمالة الحطب ؟ قلنا : لعلها كانت مع كثرة مالها خسيسة أو كانت لشدة عداوتها تحمل بنفسها الشوك والحطب ، لأجل أن تلقيه في طريق رسول الله وثانيها : أنها كانت تمشي بالنميمة يقال : للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس : يحمل الحطب بينهم ، أي يوقد بينهم النائرة ، ويقال للمكثار : هو حاطب ليل وثالثها : قول قتادة : أنها كانت تعير رسول الله بالفقر ، فعيرت بأنها كانت تحتطب والرابع : قول أبي مسلم وسعيد بن جبير : أن المراد ما حملت من الآثام في عداوة الرسول ، لأنه كالحطب في تصيرها إلى النار ، ونظيره أنه تعالى شبه فاعل الإثم بمن يمشي وعلى ظهره حمل ، قال تعالى : ﴿ فَقَدِ احتملوا بهتانا وَإِثْماً مُّبِيناً ﴾ [الأحزاب : 58] وقال تعالى : ﴿ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنعام : 31] وقال تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإنسان ﴾ [الأحزاب : 72] .

المسألة الثالثة :

(امرأته) إن رفعته ، ففيه وجهان أحدهما : العطف على الضمير في ﴿ سيصلى ﴾ ، أي سيصلى هو وامرأته .

و ﴿ في جيدها ﴾ في موضع الحال والثاني : الرفع على الابتداء ، وفي جيدها الخبر .

المسألة الرابعة :

عن أسماء لما نزلت ﴿ تَبَتْ ﴾ جاءت أم جميل ولها ولولة وبيدها حجر ، فدخلت المسجد ، ورسول الله جالس ومعه أبو بكر ، وهي تقول :

مذمماً قلينا . . ودينه أبينا

(64/837)

وحكمه عصينا . . فقال أبو بكر : يا رسول الله قد أقبلت إليك فأنا أخاف أن تراك ، فقال عليه السلام : " إنها لا تراني " وقرأ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقرءان جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالآخرة حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء : 45] وقالت لأبي بكر : قد ذكر لي أن صاحبك هجاني ، فقال أبو بكر : لا ورب هذا البيت ما هجاك ، فولت وهي تقول :

قد علمت قريش أني بنت سيدها . . وفي هذه الحكاية أبحاث :

الأول : كيف جاز في أم جميل أن لا ترى الرسول ، وترى أبا بكر والمكان واحد ؟ الجواب : أما على قول أصحابنا فالسؤال زائل ، لأن عند حصول الشرائط يكون الإدراك جائزاً لا واجباً ، فإن خلق الله الإدراك رأى وإلا فلا ، وأما المعتزلة فذكروا فيه وجوهاً أحدها : لعله عليه السلام أعرض وجهه عنها وولاها ظهره ، ثم إنها كانت لغاية غضبها لم تفتش ، أو لأن الله ألقى في قلبها خوفاً ، فصار ذلك صارفاً لها عن النظر وثانيها : لعل الله تعالى ألقى

شبه إنسان آخر على الرسول ، كما فعل ذلك بعيسى وثالثها : لعل الله تعالى حول شعاع بصرها عن ذلك السمت حتى أنها ما رأته .

واعلم أن الإشكال على الوجوه الثلاثة لازم ، لأن بهذه الوجوه عرفنا أنه يمكن أن يكون الشيء حاضر ولا نراه ، وإذا جوزنا ذلك فلم لا يجوز أن يكون عندنا فيلات وبوقات ، ولا نراها ولا نسمعها . (1)

البحث الثاني : أن أبا بكر حلف أنه ما هجاك ، وهذا من باب المعاريض ، لأن القرآن لا يسمى هجواً ، ولأنه كلام الله لا كلام الرسول ، فدلت هذه الحكاية على جواز المعاريض .

بقي من مباحث هذه الآية سؤالان :

السؤال الأول : لم لم يكتف بقوله : ﴿ وامرأته ﴾ بل وصفها بأنها حمالة الحطب ؟ الجواب : قيل : كان له امرأتان سواها فأراد الله تعالى أن لا يظن ظان أنه أراد كل من كانت امرأة له ، بل ليس المراد إلا هذه الواحدة .

---

(1) إنما يرد الإشكال عند من لا يقولون بالمعجزات وخوارق العادات وهي أمور لا يستطاع مع العقل جحدها ولا إنكارها ، أما من يقول بها ، فلا إشكال .

السؤال الثاني : أن ذكر النساء لا يليق بأهل الكرم والمروءة ، فكيف يليق ذكرها بكلام الله ، ولا سيما امرأة العم ؟ الجواب : لما لم يستبعد في امرأة نوح وامرأة لوط بسبب كفر تينك المرأتين ، فلأن لا يستعبد في امرأة كافرة زوجها رجل كافر أولى .

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)

قال الواحدي : المسد في كلام العرب الفتل ، يقال مسد الحبل يمسده مسداً إذا أجاد فتله ، ورجل ممسود إذا كان مجدول الخلق ، والمسد ما مسد أي فتل من أي شيء كان ، فيقال لما فتل من جلود الإبل ، ومن الليف والخوص مسد .

ولما فتل من الحديد أيضاً مسد ، إذا عرفت هذا فنقول ذكر المفسرون وجوهاً أحدها : في جيدها حبل مما مسد من الحبال لأنها كانت تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون ، والمقصود بيان خساستها تشبيهاً لها بالحطابات إيذاء لها ولزوجها وثانيها : أن يكون المعنى أن حالها يكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل الحزمة من الشوك ، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم وفي جيدها حبل من سلاسل النار .

فإن قيل : الحبل المتخذ من المسد كيف يبقى أبداً في النار ؟ قلنا : كما يبقى الجلد واللحم والعظم أبداً في النار ، ومنهم من قال : ذلك المسد يكون من الحديد ، وظن من ظن أن المسد لا يكون من الحديد خطأ ، لأن المسد هو المفتول سواء كان من الحديد أو من غيره ،

والله سبحانه وتعالى أعلم، والحمد لله رب العالمين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 152.159 ﴾

(66/837)

وقال السمرقندى

قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾

يعني : خسر أبو لهب وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين نزل قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ [الشعراء : 214] صعد على الصفا ونادى فاجتمعوا فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ أُنْذِرَ عَشِيرَتِي الأَقْرَبِينَ وَأَدْعُوهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لاَ إله إلاَّ الله، فَقُولُوا أَشْهَدُ لَكُمْ بِهَا عِنْدَ رَبِّي " فأنكروا ذلك فقال أبو لهب : تباً لك سائر الأيام ألهذا دعوتنا، وروي في خبر آخر أنه اتخذ طعاماً ودعاهم ثم قال : " أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا وَأَطِيعُوا تَهْتَدُوا " فقال أبو لهب : تبّاً لك سائر الأيام ألهذا دعوتنا فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ يعني : خسرت يدا أبي لهب عن التوحيد ﴿ وَتَبَّ ﴾ يعني : وقد خسر ويقال : إنما ذكر اليد وأراد به هو وقال مقاتل : تبت يدا أبي لهب وتب يعني : خسر نفسه وكان أبو لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم واسمه "عبد العزى" ولهذا ذكره بالكنية ولم يذكر اسمه

لأن اسمه كان منسوباً إلى صنم وقال بعضهم : كنيته كان اسمه ثم قال عز وجل : ﴿ مَا أغنى عَنْهُ مَالُهُ ﴾ يعني : ما نفعه ماله في الآخرة إذ كفر في الدنيا ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يعني : ما ينفعه ولده في الآخرة إذا كفر في الدنيا والكسب أراد به الولد لأن ولد الرجل من كسبه ثم قال عز وجل : ﴿ سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ يعني : يدخل في النار ذات لهب يعني ذات شعل ثم قال عز وجل : ﴿ وامرأته ﴾ يعني : امرأته تدخل النار معه ﴿ حَمَّالَةَ الحطب ﴾ قرأ عاصم حمالة الحطب بنصب الهاء ويكون على معنى الذم والشين ومعناه أعني حمالة الحطب والباقون بالضم على معنى الابتداء وحمالة الحطب جعل نعتاً لها فقال : ﴿ حَمَّالَةَ الحطب ﴾ يعني : حمالة الخطايا والذنوب .

ويقال : ﴿ حَمَّالَةَ الحطب ﴾ يعني : تمشي بالنميمة فسمى النميمة حطباً لأنه يلقي بني القوم العداوة والبغضاء وكانت تمشي بالنميمة في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويقال : كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالليل من بغضها لهم حتى بلغ النبي عليه السلام شدة وعناء فحملت ذات ليلة حزمة شوك لكي تطرحها في طريقهم فوضعتها على جدار وشدتها بحبل من ليف على

صدرها فأتاها جبريل عليه السلام ومده خلف الجدار وخنقها حتى ماتت فذلك قوله :

﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أي من ليف وقال أكثر أهل التفسير ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ يعني : في الآخرة في عنقها سلسلة من حديد وتحتها نار وفوقها نار ،

وروى سعيد بن جبير رضي الله عنه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : لما نزلت تبت يدا أبي لهب جاءت امرأة أبي لهب فقال أبو بكر رضي الله عنه لو تنحَّيْتَ يا رسول الله فإنها امرأة بذية فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

" سَيُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا " فدخلت فلم تره فقالت لأبي بكر رضي الله عنه هجانا صاحبك فقال والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله قالت إنك لمصدق فاندفعت راجعة فقال أبو بكر رضي الله عنه يا رسول الله ما رأتك فقال : " لَمْ يَزَلْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا مَلَكٌ يَسْتُرُنِي عَنْهَا حَتَّى رَجَعَتْ " .

(68/837)

وروى إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي يزيد بن زيد قال لما نزلت هذه السورة قيل لامرأة أبي لهب أن النبي صلى الله عليه وسلم قد هجاك فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في الخلاء وقالت يا محمد صلى الله عليه وسلم على ماذا تهجوني فقال : " أَمَا

وَللهِ مَا أَنَا هَجَوْتُكِ مَا هَجَاكِ إِلاَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ " قالت هل رأيتني أحمل الحطب أو رأيت في جيدي حبلها من مسد ؟ وقال مجاهد : ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ مثل حديد البكرة ، وقال غيره يعني عروة سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعاً والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 606. 607 ﴾

(69/837)

وقال الثعلبى :

سورة المسد

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ .

أخبرنا عبد الله بن حامد قال : أخبرنا مكي قال : حدثنا عبد الله بن هاشم قال : حدثنا عبد الله بن نمير قال : حدّثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : " لما أنزل الله سبحانه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفا فصعد عليه ثم نادى : يا صباحاه ، فأجتمع إليه الناس بين رجل يجيء وبين رجل يبعث رسوله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا بني عبد المطلب يا بني فهر يا بني عدي أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذ الجبل يريد

أن تغير عليكم صدّقتموني ؟ " قالوا : نعم ، قال : " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " فقال أبو لهب : تباً لكم سائر هذا اليوم ، وما دعوتموني إلا لهذا ؟ فأنزل ﴿ تَبَّتْ ﴾ " أي خابت وخسرت ، ﴿ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ أي تب هو أخبر عن يديه والمراد به نفسه على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كلّه كقوله سبحانه : ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيدِيكُمْ ﴾ [الشورى : 30] و ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيدِيهِمْ ﴾ [البقرة : 95] ونحوها ، وقيل : اليد صلة يقول العرب : يد الدّهر ويد الرزايا والمنايا ، قال الشاعر :

لما أكبّت يد الرزايا . . . عليه نادى ألا مجير

وقيل : المراد به ماله وملكه يقال : فلان قليل ذات اليد ، يعنون به المال .

والتباب الخسار والهلاك ، سمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت محمد بن مسعود السوري قال : سمعت نفطويه قال : سمعت المنقري عن الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال : لما قتل عثمان رضي الله عنه سمعوا صوت هاتف من الجن يبكي .

لقد خلّوك وأنصرفوا . . . فما عطفوا ولا رجعوا

ولم يوفوا بنذرهم . . . فتبّاً للذي صنعوا

وأبو لهب هو ابن عبد المطلب واسمه عبد العزي فلذلك لم يسمّه، وقيل اسمه كنيبة، قال: مقاتل كنّي أبا لهب لحسنه وأشراق وجهه، وكانت وجنتاه كأنهما تلتهبان.

﴿ وَتَبَّ ﴾ أبو لهب الواو فيه واو العطف، وقرأ عبد الله وأُبي (وقد تب) فالأول دعاء والثاني كما يقال غفر الله لك، وقد فعل وأهلكه الله وقد فعل، والواو فيه واو الحال.

وقراءة العامة ﴿ أَبِي لَهَبٍ ﴾ بفتح الهاء، وقرأ أهل مكة بجزمها، ولم يختلفوا في قوله: ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أنه مفتوح الهاء؛ لأنهم راعوا فيه روس الأي.

أخبرنا الحسين بن محمد قال: حدّثنا السني قال: حدّثنا حامد بن محمد بن شعيب البلخي قال: حدّثنا شريح بن يونس قال: حدّثنا هشيم قال: أخبرنا منصور عن الحكم عن أبي ظبيان عن ابن عباس قال: لما خلق الله القلم قال: أكتب ما هو كائن فكتب فمما كتب: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾.

وأخبرنا أبو القاسم الحسن بن محمد بن الحسن قال: أخبرنا أبو الطيب محمد بن عبد الله ابن المبارك الثغيري قال: حدّثنا محمد بن أشرس السلمي قال: حدّثنا عبد الصمد بن حسان المروِّ الروذيّ عن سفيان عن منصور قال: سئل الحسن عن قوله: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ هل كان في أم الكتاب وهل كان يستطيع أبو لهب أن لا يصلى النار؟ فقال الحسن: والله ما كان يستطيع أن لا يصليها وإنها لفي كتاب الله قبل أن يخلق أبو لهب وأبواه.

ويؤيد هذا ما أخبرنا أبو طاهر بن خزيمة في شعبان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة قال : أخبرنا جدّي أمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة قال حدّثنا محمد بن يحيى قال : حدثنا معاوية بن عمرو قال : حدثنا زائدة عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " احتج آدم وموسى فقال موسى : يا آدم أنت الذي خلقك الله سبحانه بيده ونفخ فيك من روحه أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة ، فقال آدم : وأنت موسى الذي أصطفاك الله بكلامه تلومني على عمل أعمله كتبه الله عليّ قبل أن يخلق السموات والأرض ، قال : فحج آدم موسى " .

وأخبرنا محمد بن الفضل قال : أخبرنا جدي قال : حضر مجلس إسحاق بن إبراهيم وأنا على نمير الركاب فقرأ علينا قال : أخبرنا النظر بن شميل قال : حدّثنا حماد بن سلمة عن عمار ابن أبي عمار مولى بني هاشم عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لقي موسى آدم فقال : أنت آدم الذي خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وأسكنك جنته فأخرجت ولدك من الجنة ، قال له : يا موسى أنت الذي أصطفاك برسالته وكلّمك ، فأنا أقدّم أم الذكر ؟ قال : الذكر ، فحجّ آدم موسى فحج آدم موسى " .

وأخبرنا محمد بن الفضل قال : أخبرنا جدّي قال : حدّثنا عبد الله بن محمد الزهري قال : حدّثنا سفيان قال : حدّثنا أبو الزياد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه

وسلم قال : " أحتج آدم وموسى فقال موسى : يا آدم أنت أبونا خيّبتنا وأخرجتنا من الجنة قال : آدم : يا موسى أصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده أتلومني على أمر قدّره الله تعالى قبل أن يخلقني بأربعين سنة ، فحج آدم موسى فحج آدم موسى " .

(72/837)

﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ قال : ابن مسعود : " لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرباءه الى الله سبحانه قال أبو لهب لأصحابه : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأني أفتدي نفسي وملكي وولدي ، فأنزل الله سبحانه ﴿ مَا أَغْنَى ﴾ " أي ما يغني ، وقيل : أي شيء أغنى عنه ماله من عذاب الله .

قال : أبو العالية : يعني أغنامه ، وكان صاحب سائمة ومواش ، وما كسب : يعني ولده .

قرأ الأعمش (وما أكتسب) ، ورواه عن ابن مسعود .

أخبرنا الحسين بن محمد قال : حدّثنا أحمد بن حنبل قال : أخبرنا عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر عن ابن خيثم عن أبي الطفيل قال : كنت عند ابن عباس يوماً فجاء بنو أبي لهب يختصمون في شيء بينهم فاقتتلوا عنده في البيت فقام يحجز بينهم فدفعه بعضهم فوقع على الفراش فغضب ابن عباس فقال : أخرجوا عني الكسب الخبيث ، يعني ولده أنهم كسبة .

دليل هذا التأويل ما أخبرني ابن فنجويه [. . . . .] .

أبو حمزة قال : حدّثني عمارة بن عمير التميمي عن عمته سودة قال : " قالت لعائشة آكل من مال ولدي فقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أطيب ما أكل أحدكم من كسبه وأن ولده من كسبه " .

﴿ سيصلى ﴾ هو سين سوف وقيل سين الوعد .

وقراءة العامة بفتح الياء الاولى وقرأ أبو رجاء بضم الياء ، وقرأ شهب العقيلي بضم الياء وتشديد اللام .

﴿ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .

﴿ وامرأته ﴾ أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان ، وكانت عوراء . ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ يقال : الحديث والكذب قال : ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي : كانت تمشي بالنميمة ، يقول العرب : فلان يحطب على فلان إذا ورشى وأغزى ، قال : شاعرهم :

من البيض لم يصطد على ظهر لامة . . . ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب

يعني لم يمش بالنمائم ، وقال آخر :

فلسنا كمن يرجى المقالة شطره . . . يفرق العصاه الرطب والغيل اليبس

وروى معمر عن قتادة قال : كانت تعيّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر وكانت تحتطب فعيّرت بذلك ، وهذا قول غير قوي ، لأن الله سبحانه وصفهم بالمال والولد وحمل الحطب ليس بعيب ، وقال : الضحاك وابن زيد : كانت تأتي بالشوك والعصاة فتطرحها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعقرهم ، وهي رواية عطية عن ابن عباس ، قال الربيع بن أنس : كانت تنشر السعدان على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيطأه كما يطأ الحرير والفرند .

مرة الهمداني : كانت أم جميل تأتي كل يوم بأبالة من الحسك فتطرحه على طريق المسلمين فبينما هي ذات يوم حاملة حزمة أعيت فقعدت على حجر تستريح فأتاها ملك فحدّثها من خلفها فأهلكها .

وقال سعيد بن جبير : حمالة الخطايا . دليله قوله سبحانه : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنعام : 31] ، وقول العرب : فلان يحطب على ظهره إذا أساء ، فلان حاطب قرينه إذا كان الجاني فيهم ، وفلان محطوب عليه إذا كان مجنياً عليه .

وقراءة العامة بالرفع فيهما واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ولها وجهان : أحدهما : سيصلى ناراً هو وامرأته حمالة الحطب ، والثاني : وامرأته حمالة الحطب في النار أيضاً .

وحجّة الرافعين ما أخبرنا محمد بن نعيم قال : أخبرنا الحسين بن أيوب قال : أخبرنا علي ابن

عبد العزيز قال : أخبرنا أبو عبيد قال : حدّثنا حجاج بن هارون قال : في قراءة عبد الله وامرأته حمالة للحطب ، وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وابن محتضر والأعرج وعاصم ﴿ حَمَّالَةَ ﴾ بالنصب ولها وجهان : أحدهما الحال والقطع لأن أصله وامرأته الحمالة الحطب فلما القيت الألف واللام نصب الكلام ، والثاني على الذم والشتم كقوله سبحانه : ﴿ مَّلْعُونِينَ ﴾ [الأحزاب : 61] .

وروى ابن أبي الزياد عن أبيه قال : كان عامة العرب يقرؤون حمالة الحطب وقرأ أبو قلابة وامرأته حمالة الحطب على فاعله ، والحطب جمع واحدتها حطبة .

(74/837)

وقال : بعض أهل اللغة : الحطب ها هنا جمع الحاطب وهو الجانب المذنب يعني أنَّها كانت تحملهم بالنميمة على معاداته ، ونظيره من الكلام راصد و رصد و حارس وحرس وطالب وطلب وغائب وغيب ، والعلة في تشبيههم النميمة بالحطب هي أن الحطب يوقد ويضرم كذلك النميمة ، قال : أكثم بن صيفي لبنيه : أياكم والنميمة فأنَّها نار محرقة وأن النمام ليعمل في ساعة مالا يعمل الساحر في شهر ، فاخذه الشاعر فقال :

أن النميمة نار ويك محرقة . . . فعد عنها وحارب من تعاطاها

ولذلك قيل : نار الحقد لا تخبوا .

والعلة الثانية : أن الحطب يصير ناراً والنار سبب التفريق فكذلك النميمة ، وأنشدني وأبو القاسم [الحبيبي] قال : أنشدني أبو محمد الهاراني الجويني قال :

إنّ بني الأدرم حمالوا الحطب . . . هم الوشاة في الرضا وفي الغضب

عليهم اللعنة تترى والحَرَبَ .

﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ عنقها ، قال ذو الرمة :

فعينك عينها ولونك لونها . . . وجيدك الا أنها غير عاطل

وجمعها أجياد ، قال : الأعمش :

وبيداء تحسب آرامها . . . رجال إياد بأجيادها

(75/837)

﴿ حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أختلفوا فيه فقال ابن عباس وعروة بن الزبير : سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعاً يدخل من فيها فيخرج من دبرها ويلوى سائرها في عنقها ، وقال السدي : خلق الحديد وهي السلسلة تختلف في جهنم كما يختلف الحبل والدلو في البئر ، وروى الأعمش عن مجاهد : من حديد ، منصور عنه : المسد : الحديدة التي تكون في

البكرة ، ويقال له المحور ، وإليه ذهب عطاء وعكرمة ، الشعبي ومقاتل : من ليف ، ضحاك وغيره : في الدنيا من ليف وهو الحبل الذي كانت تحطب به فخنقها الله تعالى به فأهلكها ، وفي الآخرة من نار ، قتادة : قلادة من ودع ، الحسن : إنما كانت خرزات في عنقها ، سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة في عنقها فاخرة فقالت لأنفقها في عداوة محمد ، ابن زيد : حبال من شجر ينبت في اليمن يقال لها : المسد وكانت تفتل ، المروج من شهر الحرم والسلم والمسد في كلام العرب كل حبل غيروا أمر ليفاً كان أو غيره ، وأصله من المسد وهو الفتل ، ودابة ممسودة الخلق إذا كانت شديدة الأسر ، قال : الشاعر :

مسد أمر من أيانق . . . ليس بأنياب ولا حقائق

وجمعها أمساد قال : الأعشى :

تمسي فيصرف بابها من دوننا . . . غلقاً صريف محالة الأمساد

وسمعت أبا القاسم الحسن بن محمد النيسابوري يقول : سمعت أبا نصر أحمد بن محمد ابن ملجان البصري يقول : سمعت بشر بن موسى الأسدي يقول : سمعت الأصمعي يقول : صلّى أربعة من الشعراء خلف إمام اسمه يحيى فقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 1] فيتعتع فيها فقال أحدهم :

أكثر يحيى غلطاً . . . في ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

فقال الثاني :

قام طويلا ساكتاً . . . حتى إذا أعيا سجد

فقال الثالث :

يزجر في محرابه . . . زجير حبلى لولد

فقال الرابع :

كأنّما لسانه . . . شدّ بحبل من مسد

وفي هذه السورة دلالة واضحة على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وذلك أن الله سبحانه أخبر عن مصير أبي لهب وامرأته الى النار وكانا من أحرص الناس على تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم فلم يحملهما ذلك على اظهار الإيمان حتى يكذبا رسول الله صلى الله عليه وسلم بل داما على كفرهما حتى علم أن وعيد الله سبحانه إياهما وإخباره عن مصيرهما إلى النار حق وصدق . انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 329.323 ﴾

وقال الزمخشري :

سورة المسد

مكية ، وآياتها 5 [نزلت بعد الفاتحة] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المسد (111) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ (2) سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4)

فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)

التباب : الهلاك . ومنه قولهم : أشابة أم تابة ، أى : هالكة من الهرم والتعجيز . والمعنى : هلكت يداه ، لأنه فيما يروى : أخذ حجرا ليرمى به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وَتَبَّ وهلك كله . أو جعلت يداه هالكتين . والمراد : هلاك جملته ، كقوله تعالى بِما قَدَّمَتْ يَداكَ ومعنى وَتَبَّ : وكان ذلك وحصل ، كقوله :

جزانى جزاه اللّه شرّ جزائه جزاء الكلاب العاويات وقد فعل «1»

---

(1) . كأن قد فعل به خيرا فجزاء شرا ، فدعا عليه بقوله : جزاه اللّه شر جزائه . جزاء

الكلاب : بدل من «شر جزائه» وضمير «جزائه» للّه . أو للرجل المدعو عليه . وجزاء الكلاب العاويات : رجمها . ويروى «العاديات» بالدال ، بدل الواو . وقد فعل : أي فعل اللّه ذلك الجزاء في الواقع ، حيث أوقعه . وفيه من أنواع البديع :

الرجوع ، وهو العود إلى الكلام السابق بالنقض لنكتة ، لأن مقتضى الدعاء أن المدعو به لم يحصل ، فنقضه بقوله «وقد فصل» . ويروى بدل الشطر الأول : جزى ربه عنى عدى بن حاتم . وضمير «ربه» لحاتم ، وإن تأخر لفظا ورتبة للضرورة ، وأجازه الأخفش وابن جنى وابن مالك في السعة ، لأن المفعول به كان متقدما لشدة اقتضاء الفعل إياه . وقيل عائد الجزاء المعلوم من جزى . ويروى بدل الشطر الأول أيضا : جزى اللّه عبسا عبس آل بغيض . وهي قبيلة معروفة ، ولعل شاعر متعدد ، وما حكاه بعض شراح شواهد الجامى من أن عدى بن حاتم رجل روى بنى قصرا النعمان بن امرئ القيس بظهر الكوفة ، فأعجبه فسأله : هل بنيت مثله فقال : لا ، وبنيته على حجر لو سقط سقط القصر ، فألقاه من أعلاه فخر ميتا : فهو خطأ . والصواب أن هذه الحكاية إنما وقعت لسنمار المذكور في قوله :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

لأن عدى بن حاتم صحابى من لب العرب ، وضمير «بنوه» : لأبى الغيلان بالكسر . وسنمار بكسرتين فتشديد .

و«عن» متعلقة بجزى ، أي : جزاء ناشئا عن كبر ، وفيه معنى التهكم . ويجوز أنها بمعنى البدل ، والأوجه أنها بمعنى بعد . وقيل : إنها بمعنى في ، وليس بشيء ، وعبر بالمضارع بدل الماضي استحضارا لما مضى ، لأنه عجيب .

(78/837)

ويدل عليه قراءة ابن مسعود : وقد تب ، وروى أنه لما نزل وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ رقى الصفا وقال . يا صباحاه ، فاستجمع إليه الناس من كل أوب . فقال : يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، إن أخبرتكم أنّ بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقىّ ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنى نذير لكم بين يدي الساعة ، فقال أبو لهب : تبا لك ، ألهذا دعوتنا «1» ؟ فنزلت . فإن قلت : لم كناه ، والتكنية تكرمة ؟ قلت : فيه ثلاثة أوجه ، أحدها : أن يكون مشتهرا بالكنية دون الاسم ، فقد يكون الرجل معروفا بأحدهما ، ولذلك تجرى الكنية على الاسم ، أو الاسم على الكنية عطف بيان ، فلما أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له ، ذكر الأشهر من علميه ويؤيد ذلك قراءة من قرأ ، يدا أبو لهب «2» ، كما قيل ، على بن أبو طالب . ومعاوية بن أبو سفيان ، لئلا يغير منه شيء فيشكل على السامع ، ولفليتة بن قاسم أمير مكة ابنان ، أحدهما : عبد اللّه - بالجرّ ، والآخر عبد اللّه - بالنصب . كان

بمكة رجل يقال له : عبد اللّه - بجرّة الدال ، لا يعرف إلا هكذا . والثاني : أنه كان اسمه عبد العزى ، فعدل عنه إلى كنيته . والثالث : أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب ، وافقت حاله كنيته ، فكان جديرا بأن يذكر بها . ويقال : أبو لهب ، كما يقال : أبو الشر للشرير . وأبو الخير للخير ، وكما كنى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أبا المهلب : أبا صفرة ، بصفرة في وجهه . وقيل كنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما ، فيجوز أن يذكر بذلك تهكما به ، وبافتخاره بذلك . وقرئ أبى لهب ، بالسكون . وهو من تغيير الأعلام ، كقولهم : شمس بن مالك بالضم ما أَغْنى استفهام في معنى الإنكار ، ومحله النصب أو نفى وَما كَسَبَ مرفوع . وما موصولة أو مصدرية بمعنى : ومكسوبه . أو : وكسبه . والمعنى : لم ينفعه ماله وما كسب بماله ، يعنى : رأس المال والأرباح . أو ماشيته وما كسب من نسلها ومنافعها ، وكان ذا سابياء «3» . أو ماله الذي ورثه

---

(1) . متفق عليه من حديث ابن عباس رضى اللّه عنهما . [. . . . .]

(2) . قال محمود : «ويؤيد ذلك قراءة من قرأ يدا أبو لهب» قال أحمد : وفي هذا دليل لأن الرفع أسبق وجوه الإعراب وأولها . ألا تراهم إنما حافظوا على صيغته التي بها اشتهر الاسم ، وكانت أول أحواله .

(3) . قوله «وكان ذا سابياء» ذكر في القاموس من هاتبها : المال الكثير والنتاج ، والإبل النتاج والغنم التي كثر نسلها . «التالد» القديم . والطارق المستحدث (ع)

من أبيه والذي كسبه بنفسه . أو ماله التالد والطارف . وعن ابن عباس : ما كسب ولده . وحكى أن بنى أبى لهب احتكموا إليه ، فاقتتلوا ، فقام يحجز بينهم ، فدفعه بعضهم فوقع ، فغضب ، فقال : أخرجوا عنى الكسب الخبيث : ومنه قوله عليه السلام «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه» وعن الضحاك : ما ينفعه ماله وعمله الخبيث ، يعنى كيده في عداوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وعن قتادة : عمله الذي ظن أنه منه على شيء ، كقوله وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ وروى أنه كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخى حقا فأنا أفتدى منه نفسي بمالي وولدى سَيَصْلى قرئ بفتح الياء وبضمها : مخففا ومشددا ، والسين للوعيد ، أى : هو كائن لا محالة وإن تراخى وقته وَامْرَأَتُهُ هي أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان ، وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك «1» والسعدان فتنثرها بالليل في طريق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . وقيل : كانت تمشى بالنميمة : ويقال للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس : يحمل الحطب بينهم ، أى : يوقد بينهم النائرة ويورّث الشر . قال :

من البيض لم تصطد على ظهر لأمة ولم تمش بين الحىّ بالحطب الرّطب «2»

جعله رطبا ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر ، ورفعت عطفا على الضمير في

سَيَصْلى أى : سيصلى هو وامرأته . وفِي جِيدِها في موضع الحال . أو على الابتداء ، وفي

جيدها :

الخبر . وقرئ : حمالة الحطب ، بالنصب على الشتم ، وأنا أستحب هذه القراءة ، وقد

توسل إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بجميل : من أحب شتم أم جميل . وقرئ : حمالة

للحطب . وحمالة للحطب : بالتنوين ، والرفع والنصب . وقرئ : ومريته بالتصغير . المسد

: الذي فتل من الحبال فتلا شديدا ، من ليف كان أو جلد ، أو غيرهما . قال :

---

(1) . قوله «من الشوك والحسك» في الصحاح «الحسك» : حسك السعدان . وفيه

«السعدان» : نبت شوك ، ولهذا النبت شوك يقال : حسك السعدان . (ع)

(2) . أنشده يعقوب . والبياض : مجاز عن الخلوص من أسباب الذم . وتصطد من الصيد

، أى : الوجدان والإدراك ، وزنه يفتعل : قلبت تاء الافتعال طاء على القياس . ورواه

بعضهم يضدد . وبعضهم : يضطد ، بالضاد المعجمة فيهما ، على أنه من الضد ، ولينظر

وجه الثاني ، لأن الدال فيه حقها التشديد ، فلعله خففها للضرورة . واللامة :

اللوم وسببه : شبهها بالمطية التي اعتاد صاحبها ركوبها على طريق المكنية ، فأثبت لها

الظهر تخييلا لذلك . وروى ، بالخطر ، بدل الحطب : وهو الخشب ، والحطب الذي يحظر

به ، والمراد النميمة : استعير لها ذلك بجامع ثوران المكروه من كل ، لأن الحطب الرطب إذا أوقدت فيه النار كثر دخانه . وروى : لم يضدد ، ولم يمش بالياء على أنها صفة لمذكر .

(80/837)

ومسد أمرّ من أيانق «1»

ورجل ممسود الخلق مجدوله . والمعنى : في جيدها حبل مما مسد من الحبال ، وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون : تخسيسا لحالها ، وتحقيرا لها ، وتصويرا لها بصورة بعض الحطابات من المواهن ، لتمتعض «2» من ذلك ويمتعض بعلها ، وهما في بيت العز والشرف . وفي منصب الثروة والجدة . ولقد عير بعض الناس الفضل بن العباس ابن عتبة ابن أبى لهب بحمالة الحطب ، فقال :

ما ذا أردت إلى شتمي ومنقصتي أم ما تعيّر من حمّالة الحطب

غرّاء شادخة في المجد غرّتها كانت سليلة شيخ ناقب الحسب «3»

---

(1) إن سرك الارواء غير سائق فاعجل بغرب مثل غرب طارق

ومسد أمر من أيانق ليس بأنياب ولا حقائق

ولا ضعاف مخهن زاهق

لعمارة بن طارق . يقول : إن سرك الاستسقاء حال كونك غير سائق للإبل التي يسقى عليها ، فأسرع إلى ماء بئر بدلو عظيمة مثل دلو طارق أبى . ومجبل أمر : بالبناء للمجهول ، أى : فتل فتلا شديدا . من أيافق ، أى : من أوبارها ، أو من جلودها . والأيانق : جمع أينق . والأينق : جمع نوق والنوق : جمع ناقة ، ليس ذلك الحبل أنيابا ، أى ، نوقا مسنة ، ولا حقائق : أى فتيات ، ولا ضعافا : أى ليس من هذه الأنواع التي تساق بمشقة ففي هذا التنويع تغير عنها . ويروى : لسن ، أى : النوق التي يفتل منها . والأشبه : أن حق الرواية مع أيانق ، أى : أعجل بحبل مفتول من الليف الأبيض . ونوق شداد : لا تحتاج إلى السوق . ومخهن زاهق : قال الفراء : هو مرفوع ، والشعر مكفا . يقول : بل مخهن مكتنز سمين على الابتداء ، وهذا مما يؤيد رواية : لسن بالنوق . وقال غيره : الزاهق هنا الذاهب ، وهو مجرور بالعطف ، أى : ولا ضعاف مخهن . وزاهق بالجر ردا على ضعاف ، فكأنه رفع مخهن بضعاف .

(2) . قوله «من المواهن لتمعض» جمع ماهن وهي الخادم . والامتعاض : الغضب . أفاده الصحاح . (ع)

(3) . هو تعبير الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب . وحمالة الحطب : زوجة أبى لهب ، فهي جدته . والغراء البيضاء . والشادخة : المتسعة ، وذلك مجاز عن الظهور وارتفاع المقدار . والسليلة من سل من غيره ، والمراد بالشيخ : أبوها حرب ، لأنها أم جميل أخت أبى سفيان بن حرب ، كانت عوراء ، وماتت مخنوقة بحبلها الذي كانت تحمل فيه

الحطب . وقيل : حمل الحطب مجاز عن إثارة الفتنة ، لأنها كانت نمامة . وإلى شتمي : متعلق بمحذوف أو بأردت على طريق التضمين ، أي : أي شيء أردته مائلا أنت إلى شتمي ، أو منضما هو إلى شتمي . أو ما الذي أردته من شتمي أو مع شتمي ؟ هل أردت أنك شريف لا عيب فيك . ويجوز أن إلى بمعنى من كما قال النحاة ، واشتشهدوا عليه بقوله :

تقول وقد عاليت بالكور فوقها السقي فلا يروى إلى ابن أحمرا

ويمكن أنها للمصاحبة ، كما قالوه أيضا في قوله تعالى وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إِلى أَمْوالِكُمْ وتعير : أصله تتعير ، فحذف منه إحدى التائين . أما تعير من جدتك التمامة لا ينبغي عدم ذلك . وروى : ثاقب الحسب . والمعنى : أن حسبه أصيل ، فكأنه داخل في أجداد السابقين «أو سائر بين الناس ، وذمها الآن مع رفعة شأنها فيما كان : أشد في الامتهان .

ويحتمل أن يكون المعنى : أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك ، فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع ، وفي جيدها حبل من ما مسد من سلاسل النار : كما يعذب كل مجرم بما

يجانس حاله في جرمه .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع اللّه بينه وبين أبى لهب في دار واحدة «1»» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 813. 817﴾

---

(1) . أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه من حديث أبى بن كعب .

(82/837)

وقال الماوردى :

قوله تعالى : ﴿ تبّتْ يدا أبي لهب ﴾

اختلف في سبب نزولها في أبي لهب على ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما حكاه عبد الرحمن بن زيد أن أبا لهب أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ماذا أُعطَى إن آمنتُ بك يا محمد ؟ قال : ما يعطَى المسلمون ، قال : ما عليهم فضل ؟ قال : وأي شيء تبتغي ؟ قال : تبًّا لهذا من دين أن أكون أنا وهؤلاء سواء ، فأنزل الله فيه : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ .

الثاني : ما رواه ابن عباس أنه لما نزل ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ أتى رسول الله صلى

الله عليه وسلم الصفا فصعد عليها ، ثم نادى يا صباحاه ! فاجتمع الناس إليه ، فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟ قالوا : نعم ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبّا لك سائر اليوم أما دعوتنا إلا لهذا ؟ ! فأنزل الله تعالى هذه السورة .

الثالث : ما حكاه عبد الرحمن بن كيسان أنه كان إذا وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفْدٌ انطلق إليهم أبو لهب ، فيسألونه عن رسول الله ويقولون : أنت أعلم به ، فيقول لهم أبو لهب : إنه كذاب ساحر ، فيرجعون عنه ولا يلقونه ، فأتاه وفد ، ففعل معهم مثل ذلك ، فقالوا : لا ننصرف حتى نراه ونسمع كلامه ، فقال لهم أبو لهب : إنا لم نزل نعالجه من الجنون فتبّاً له وتعساً ، فأخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم فاكتأب له ، فأنزل الله تعالى " تَبّتْ " السورة ، وفي " تبّتْ " خمسة أوجه :

أحدها : خابت ، قاله ابن عباس .

الثاني : ضلّت ، وهو قول عطاء .

الثالث : هلكت ، قاله ابن جبير .

الرابع : صفِرت من كل خير ، قاله يمان بن رئاب .

حكى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه لما قتل عثمان بن عفان سمع الناس هاتفاً يقول :

لقد خلّوْك وانصدعوا . . . فما آبوا ولا رجعوا

ولم يوفوا بنذرِهمُ . . . فيا تبّا لما صَعنوا

والخامس : خسرت ، قاله قتادة ، ومنه قول الشاعر :

(83/837)

تواعَدَني قوْمي ليَسْعوْا بمهجتي . . . بجارية لهم تَبّا لهم تبّاً

وفي قوله ﴿ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ وجهان :

أحدهما : يعني نفس أبي لهب ، وقد يعبر عن النفس باليد كما قال تعالى ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ أي نفسك .

الثاني : أي عمل أبي لهب ، وإنما نسب العمل إلى اليد لأنه في الأكثر يكون بها .

وقيل إنه كني أبا لهب لحُسنه وتلهّب وجنته ، وفي ذكر الله له بكنيته دون اسمه ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه .

الثاني : لأنه كان مسمى بعبد هشم ، وقيل إنه عبد العزى فلذلك عدل عنه .

الثالث : لأن الاسم أشرف من الكنية ، لأن الكنية إشارة إليه باسم غيره ، ولذلك دعا الله أنبياءه بأسمائهم .

وفي قوله ﴿ وتَبَّ ﴾ أربعة أوجه :

أحدها : أنه تأكيد للأول من قوله ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ فقال بعده " وتب " تأكيداً .

الثاني : يعني تبت يدا أبي لهب بما منعه الله تعالى من أذى لرسوله ، وتب بما له عند الله من أليم عقابه .

الثالث : يعني قد تبّ ، قاله ابن عباس .

الرابع : يعني وتبّ ولد أبي لهب ، قاله مجاهد .

وفي قراءة ابن مسعود : تبت يدا أبي لهبٍ وقد تب ، جعله خبراً ، وهي على قراءة غيره تكون دعاء كالأول .

وفيما تبت عنه يدا أبي لهب وجهان :

أحدهما : عن التوحيد ، قاله ابن عباس .

الثاني : عن الخيرات ، قاله مجاهد .

﴿ ما أَغْنَى عَنْه مالُه وما كَسَب ﴾ في قوله " ما أغنى عنه " وجهان :

أحدهما : ما دفع عنه .

الثاني : ما نفعه ، قاله الضحاك .

وفي ﴿ مالُه ﴾ وجهان :

أحدهما : أنه أراد أغنامه ، لأنه كان صاحب سائمة ، قاله أبو العالية .

الثاني : أنه أراد تليده وطارفه ، والتليد : المورث ، والطارف : المكتسب .

وفي قوله ﴿ وما كَسَبَ ﴾ وجهان :

أحدهما : عمله الخبيث ، قاله الضحاك .

الثاني : ولده ، قاله ابن عباس .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أولادكم من كسبكم "

(84/837)

وكان ولده عتبة بن أبي لهب مبالغاً في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم كأبيه ، فقال حين نزلت ﴿ والنجم إذا هوى ﴾ كفرت بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى ، وتفل في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الشام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهم سلط عليه كلباً من كلابك " فأكله الأسد .

وفيما لم يغن عنه ماله وما كسب وجهان :

أحدهما : في عداوته النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : في دفع النار عنه يوم القيامة .

﴿ سَيَصْلَى ناراً ذاتَ لَهَبٍ ﴾ في سين سيصلى وجهان :

أحدهما : أنه سين سوف .

الثاني : سين الوعيد ، كقوله تعالى ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ﴾ و ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا ﴾ وفي ﴿ يَصْلَى ﴾ وجهان :

أحدهما : صلي النار ، أي حطباً ووقوداً ، قاله ابن كيسان .

الثاني : يعني تُصليه النار ، أي تنضجه ، وهو معنى قول ابن عباس ، فيكون على الوجه الأول صفة له في النار ، وعلى الوجه الثاني صفة للنار .

وفي ﴿ ناراً ذاتَ لَهَبٍ ﴾ وجهان :

أحدهما : ذات ارتفاع وقوة واشتعال ، فوصف ناره ذات اللهب بقوتها ، لأن قوة النار تكون مع بقاء لهبها .

الثاني : ما في هذه الصفة من مضارعة كنيته التي كانت من نذره ووعيده .

وهذه الآية تشتمل على امرين :

أحدهما : وعيد من الله حق عليه بكفره .

الثاني : إخبار منه تعالى بأنه سيموت على كفره ، وكان خبره صدقاً ، ووعيده حقاً .

﴿ وامرأتُهُ حَمّالَةَ الحَطَبِ ﴾ وهي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان .

وفي ﴿ حمالة الحطب ﴾ أربعة أوجه : أحدها : أنها كانت تحتطب الشوك فتلقيه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنها كانت تعيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر ، فكان يحتطب فعيرت بأنها كانت تحتطب ، قاله قتادة .

الثالث : أنها كانت تحتطب الكلام وتمشي بالنميمة ، قاله الحسن والسدي فسمي الماشي بالنميمة حمال الحطب لأنه يشعل العداوة كما تشعل النار الحطب ، قال الشاعر :

(85/837)

إنّ بني الأَدْرَم حَمّالو الحَطَبْ . . . هم الوُشاةُ في الرِّضا وفي الغَضَبْ .

عليهمُ اللعْنة تَتْرى والحرَبْ . . . . وقال آخر :

مِنَ البيضِ لم تُصْطَدْ على ظهر لأمةٍ . . . ولم تمشِ بَيْنَ الحيّ بالحَطَبِ والرطْبِ .

الرابع : أنه أراد ما حملته من الآثام في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كالحطب في مصيره إلى النار .

﴿ في جيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدِ ﴾ جيدها : عنقها .

وفي ﴿ حبل من مسد ﴾ سبعة أقاويل :

أحدها : أنه سلسلة من حديد ، قاله عروة بن الزبير ، وهي التي قال الله تعالى فيها : ﴿ ذرعها سبعون ذراعاً ﴾ قال الحسن : سميت السلسلة مسداً لأنها ممسودة ، أي مفتولة .

الثاني : أنه حبل من ليف النخل ، قاله الشعبي ، ومن قول الشاعر :

أعوذ بالله مِن لَيْل يُقرّبني . . . إلى مُضاجعةٍ كالدّلْكِ بالمسَدِ .

الثالث : أنها قلادة من ودع ، على وجه التعيير لها ، قاله قتادة .

الرابع : أنه حبل ذو ألوان من أحمر وأصفر تتزين به في جيدها ، قاله الحسن ، ذكرت به على وجه التعيير أيضاً .

الخامس : أنها قلادة من جوهر فاخر ، قالت لأنفقنها في عداوة محمد ، ويكون ذلك عذاباً في جيدها يوم القيامة .

السادس : أنه إشارة إلى الخذلان ، يعني أنها مربوطة عن الإيمان بما سبق لها من الشقاء كالمربوطة في جيدها بحبل من مسد .

السابع : أنه لما حملت أوزار كفرها صارت كالحاملة لحطب نارها التي تصلى بها .

روى الوليد بن كثير عن ابن تدرس عن أسماء بنت أبي بكر أنه لما نزلت " تبت يدا " في أبي لهب وامرأته أم جميل أقبلت ولها ولولة وفي يدها فهر وهي تقول :

مُذَمَّماً عَصَيْنَا . . . وأَمْرَهُ أَبَيْنا

ودِينَه قَلَيْنا . . . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ، ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله قد أقبلت وإني أخاف أن تراك ، فقال : إنها لن تراني ، وقرأ قرآناً اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ فأقبلت على أبي بكر ، ولم تر رسول الله ، فقالت : يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني ، فقال : لا ورب هذا البيت ، ما هجاك ، فولت فعثرت في مرطها ، فقالت : تعس مذمم ، وانصرفت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 363.368 ﴾

(87/837)

وقال ابن عطية :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ﴾

روي في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] قال : " يا صفية بنت عبد المطلب ، ويا فاطمة بنت محمد لا أملك لكما من الله شيئاً سلاني من مالي ما شئتما " ثم صعد الصفا فنادى بطون قريش : " يا بني فلان ، يا بني فلان " وروي أنه صاح بأعلى صوته : " يا صباحاه "

فاجتمعوا إليه من كل وجه ، فقال لهم : " أرأيتم لو قلت لكم إني أنذركم خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ " قالوا : نعم ، قال : " فإني نذير بين يدي عذاب شديد ، " فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، ألهذا ، جمعتنا " ؟ فافترقوا عنه ونزلت السورة ، و ﴿ تبت ﴾ معناه : خسرت ، والتباب : الخسار والدمار ، وأسند ذلك إلى اليدين من حيث اليد موضع الكسب والربح وضم ما يملك ، ثم أوجب عليه أنه قد تب أي حتم ذلك عليه ، ففي قراءة عبد الله بن مسعود : " تبت يدا أبي لهب وقد تب " ، و " أبو لهب " : هو عبد العزى بن عبد المطلب ، وهو عم النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن سبقت له الشقاوة ، وقرأ ابن كثير وابن محيصن : " أبي لهْب " بسكون الهاء ، وقرأ الباقون : بتحريك الهاء ، ولم يختلفوا في فتحها في ﴿ ذات لهب ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ نافية ، ويكون الكلام خبراً عن أن جميع أحواله الدنياوية لم تغن عنه شيئاً حين حتم عذابه بعد موته ، ويحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ استفهاماً على وجه التقرير أي أين الغناء الذي لماله ولكسبه ؟ ﴿ وما كسب ﴾ : يراد به عرض الدنيا من عقار ونحوه ، أو ليكون الكلام دالاً على أنه أتعب فيه نفسه لم يجئه عفوا لا بميراث وهبة ونحوه ، وقال كثير من المفسرين : المراد ب ﴿ ما كسب ﴾ بنوه ، فكأنه قال : ﴿ ما أغنى عنه ماله ﴾ وولده ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خير ما كسب الرجل

من عمل يده وإن ولد الرجل من كسبه " ، وروي أن أولاد أبي لهب اختصموا عند ابن عباس فتنازعوا

(88/837)

وتدافعوا ، فقام ابن عباس ليحجز بينهم ، فدفعه أحدهم ، فوقع على فراشه ، وكان قد كف بصره فغضب وصاح : أخرجوا عني الكسب الخبيث ، وقرأ الأعمش وأبي بن كعب : " وما اكتسب " وقوله : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ حتم عليه بالنار وإعلام بأنه يوافي على كفره ، وانتزع أهل الأصول من هذه الآية تكليف ما لا يطاق ، وأنه موجود في قصة أبي لهب ، وذلك أنه مخاطب مكلف أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ومكلف أن يؤمن بهذه السورة وصحتها ، فكأنه قد كلف أن يؤمن ، وأن يؤمن أنه لا يؤمن ، قال الأصوليون ومتى ورد تكليف ما لا يطاق فهي أمارة من الله تعالى أنه قد حتم عذاب ذلك المكلف كقصة ﴿ أبي لهب ﴾ ، وقرأ الجمهور " سيَصلى " بفتح الياء ، وقرأ ابن كثير والحسن وابن مسعود بضمها ، وقوله تعالى : ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ هي أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية بن أبي سفيان ، وعطف قوله ﴿ وامرأته ﴾ على المضمر المرفوع دون أن يؤكد الضمير بسبب الحائل الذي ناب مناب التأكيد ، وكانت أم جميل هذه

مؤذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين بلسانها وغاية قدرتها ، وقال ابن عباس : كانت تجيء بالشوك فتطرحه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم وطريق أصحابه ليعقرهم ، فلذلك سميت ﴿ حمالة الحطب ﴾ ، وعلى هذا التأويل ، ف ﴿ حمالة ﴾ معرفة يراد به الماضي ، وقيل إن قوله ﴿ حمالة الحطب ﴾ استعارة لذنوبها التي تحطبها على نفسها لآخرتها ، ف ﴿ حمالة ﴾ على هذا نكرة ، يراد بها الاستقبال ، وقيل هي استعارة لسعيها على الدين والمؤمنين ، كما تقول : فلان يحطب على فلان وفي حبل فلان ، فكانت هي تحطب على المؤمنين وفي حبل المشركين ، وقال الشاعر : [الرجز]

(إن بني الأدرم حمالو الحطب

هم الوشاة في الرضى وفي الغضب)

وقرا ابن مسعود (ومرياته) وقرا الجمهور (حمالة) بالرفع وقرا عاصم (حمالة) بالنصب على الذم وهي قراءة الحسن والأعرج وابن محيصن وقرا ابن مسعود (حمالة للحطب) بالرفع ولام الجر وقرا أبو قلابة (حاملة) الميم بعد الألف

المسد : (5) في جيدها حبل . . . . . وقوله " في جيدها حبل من مسد " قال ابن

عباس والضحاك والسدي وابن زيد الإشارة الى الحبل حقيقة الذي ربطت به الشوك

وحطبه قال السدي (المسد) الليف وقيل ليف المقل ذكره أبو الفتح وغيره وقال ابن زيد

هو شجر باليمن يسمى المسد تصنع منه الجبال وقال النابغة

(مقذوفة بدخيس النحض بازلها

له صريف صريف القعو بالمسد) البسيط

القعو البكرة والمسد الحبل

وقال عروة بن الزبير وسفيان ومجاهد وغيرهم هذا الكلام استعارة والمراد سلسلة من

حديد في جهنم ذرعها سبعون ذراعا ونحو هذا من العبارات وقال قتادة " حبل من مسد "

قلادة من ودع قال ابن المسيب كان لها قلادة فاخرة فقالت لأنفقنها على عداوة محمد

قال القاضي أبو محمد فإنما عبر عن قلادتها ب " حبل من مسد " على جهة التفاؤل لها

وذكر تبرجها في هذا السعي الخبيث وروي في هذا الحديث ان هذه السورة لما نزلت

وقرئت بلغت ام جميل فجاءت أبا بكر وهو مع النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد

فقالت يا أبا بكر بلغني ان صاحبك هجاني ولأفعلن وأفعلن وإني شاعرة وقد قلت فيه

(مذمما قلينا

ودينه أبينا)

فسكت أبو بكر ومضت هي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لقد حجبني عنها ملائكة فما راتني وكفى الله شرها) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(90/837)

وقال ابن الجوزى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ﴾

وسبب نزولها ما روى البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : "لما نزل ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] صَعِدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا فقال : "يا صباحاه" .

فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ فقال : "أرأيتُكم إن أخبرتكم أن العدوَّ مصبِّحكم ، أو ممسِّيكم ، أما كنتم تصدقوني ؟" قالوا : بلى .

قال : "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" .

قال أبو لهب : تَباً لك ، ألهذا دَعوتَنا ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ "

ومعنى تبت : خسرت يدا أبي لهب ﴿ وتب ﴾ أي : وخسر هو .

قال الفراء : الأول : دعاء ، والثاني : خبر ، كما يقول الرجل : أهلكك الله وقد أهلكك ،

وجعلك الله صالحاً وقد جعلك.

وقيل: ذكر يديه، والمراد نفسه، ولكن هذا عادة العرب يعبِّرون ببعض الشيء عن جميعه، كقوله تعالى: ﴿ ذلك بما قدَّمت يداك ﴾ [الحج: 10].

وقال مجاهد: "تبت يدا أبي لهب وتب" ولد أبي لهب.

فأما أبو لهب فهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقيل: إن اسمه عبد العزى.

وقرأ ابن كثير وحدهُ "أبي لَهْبٍ" بإسكان الهاء.

قال أبو علي: يشبه أن يكون لغة كالشَّمْعِ، والشَّمْعِ والنَّهْرِ، والنَّهَرِ.

فإن قيل: كيف كناه الله عز وجل، وفي الكنية نوع تعظيم؟

فعنه جوابان.

أحدهما: أنه إن صح أن اسمه عبد العُزَّى، فكيف يذكره الله بهذا الاسم وفيه معنى الشرك؟!

والثاني: أن كثيراً من الناس اشتهروا بكناهم، ولم يعرف لهم أسماء.

قال ابن قتيبة: خبِّرني غير واحد عن الأصمعي أن أبا عمرو بن العلاء، وأبا سفيان ابن العلاء أسماؤهما كناهما، فإن كان اسم أبي لهب كنيته، فإنما ذكره بما لا يعرف إلا به.

قوله تعالى : ﴿ ما أغنى عنه ماله ﴾ قال ابن مسعود : لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أقربيه إلى الله عز وجل قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً ، فإني أفتدي بمالي ، وولدي ، فقال الله عز وجل : ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ قال الزجاج : و "ما" في موضع رفع .

المعنى : ما أغنى عنه ماله وكسبه أي : ولده .

وكذلك قال المفسرون : المراد بكسبه ها هنا : ولده .

و "أغنى" بمعنى يغني ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ أي : تلتهب عليه من غير دخان ﴿ وامرأته ﴾ أي : ستصلى امرأته ، وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان .

وفي هذا دلالة على صحة نُبوَّة نبينا عليه الصلاة والسلام ، لأنه أخبر بهذا المعنى أنه وزوجته يموتان على الكفر ، فكان كذلك .

إذ لو قالا بألسنتهما : قد أسلمنا ، لوجد الكفار متعلقاً في الرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، غير أن الله علم أنهما لا يسلمان باطناً ولا ظاهراً ، فأخبره بذلك .

قوله تعالى : ﴿ حمَّالة الحطب ﴾ فيه أربعة أقوال .

أحدهما : أنها كانت تمشي بالنميمة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والسدي ، والفراء ، وقال ابن قتيبة : فشبَّهوا النميمة بالحطب ، والعداوة والشحناء بالنار ، لأنهما يقعان

بالنميمة ، كما تلتهب النار بالحطب .

والثاني : أنها كانت تحتطب الشوك ، فتلقيه في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلاً ، رواه عطية عن ابن عباس .

وبه قال الضحاك ، وابن زيد .

والثالث : أن المراد بالحطب : الخطايا ، قاله سعيد بن جبير .

والرابع : أنها كانت تُعيِّرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر ، وكانت تحتطب فَعُيِّرتْ بذلك ، قاله قتادة .

وليس بالقوي ، لأن الله تعالى وصفه بالمال .

وقرأ عاصم وحده ﴿ حمالةَ الحطب ﴾ بالنصب .

قال الزجاج : من نصب "حمالةَ" فعلى الذَّم .

والمعنى : أعني : حمالةَ الحطب .

والجيد : العُنُق .

والمَسَدُ في لغة العرب : الحَبْل إذا كان من ليف المُقْل .

وقد يقال لما كان من أوبار الإبل من الحبال : المَسَد .

قال الشاعر :

وَمَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانُقِ . . .

[صُهْبٍ عِتاقٍ ذات مُخٍّ زَاهِقِ]

وقال ابن قتيبة : المَسَد عند كثير من الناس : اللِّيف دون غيره ، وليس كذلك ، إنما المسد : كُلُّ ما ضُفِرَ وفُتِل من اللِّيف وغيره .

واختلف المفسرون في المراد بهذا الحبل على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها حبال كانت تكون بمكة ، رواه العوفي عن ابن عباس .

وقال الضحاك : حبل من شجر كانت تحتطب به .

والثاني : أنه قلادة من وَدَع ، قاله قتادة .

والثالث : أنه سلسلة من حديد ذَرْعُها سبعون ذراعاً ، قاله عروة بن الزبير .

وقال غيره : المراد بهذا الحبل : السلسلة التي ذكرها الله تعالى في النار ، طولها سبعون ذراعاً ، والمعنى : أن تلك السلسلة قد فتلت فتلاً مُحْكَماً ، [فهي] في عنقها تعذَّب بها في النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 258 . 263 ﴾

(93/837)

وقال القرطبى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ في الصحيحين وغيرهما (واللفظ لمسلم)

عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقرَبِين ﴾ [الشعراء : 214] .

"ورهطك منهم المخلصين" " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صَعِد الصَّفا ،

فهَتَفَ : يا صباحاه ! فقالوا : من هذا الذي يهتف ؟ قالوا : محمد .

فاجتمعوا إليه .

فقال : "يا بَني فُلان ، يا بني فلان ، يا بني فُلان ، يا بني عبد مناف ، يا بني عبدِ المطلب !"

فاجتمعوا إليه .

فقال : "أَرَأَيْتَكُمْ لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصَدِّقِي ؟" قالوا : ما جربنا عليك كذباً .

قال "فإِنِّي نذيرٌ لَكُمْ بينَ يَديّ عَذاب شَدِيد " " فقال أبو لهب : تَبًّا لك ، أما جمعتنا إلاَّ لهذا ! ثم قام ، فنزلت هذه السورة ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ كذا قرأ الأعمش إلى آخر السورة .

زاد الحميدي وغيره : فلما سمعت امرأته ما نزل في زوجها وفيها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، وفي يدها فِهر من حجارة ، فلما وقفتْ عليه أخذ الله بصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ترى إلا أبا بكر .

فقالت : يا أبا بكر ، إن صاحبك قد بلغني أنه يهجوني ، والله لو وجدته لضربت بهذا الفِهر فاه ، والله إني لشاعرة :

مُذَمَّماً عَصَيْنَا . . .

وأمْرَهُ أَبَيْنا وَدِينَه قَلَيْنَا

ثم انصرفت .

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ قال : "ما رأتني ، لقد أخذ الله بصرها عني" .

وكانت قريش إنما تسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم مُذَمَّماً ، يسبونه ، وكان يقول : " ألا تعجبونَ لما صرف الله عني من أذى قريش ، يَسُبّون ويهجون مذمماً وأنا محمد " وقيل :

إن سبب نزولها ما حكاه عبد الرحمن بن زيد " أن أبا لهب أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : ماذا أُعْطَى إن آمنتُ بك يا محمد ؟ فقال : "كما يُعْطَى المسلمون" قال ما لي عليهم فضل ؟ ! .

قال : "وأيّ شيء تَبْغي ؟" قال : تبًّا لهذا من دين ، أن أكون أنا وهؤلاء سواء ؛ فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ " وقول ثالث حكاه عبد الرحمن بن كيسان قال : كان إذا وفد على النبيّ صلى الله عليه وسلم وفد انطلق إليهم أبو لهب ، فيسألونه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون له : أنت أعلم به منا .

فيقول لهم أبو لهب : إنه كَذَّاب ساحر .

فيرجعون عنه ولا يَلْقونه .

فأتى وفد ، ففعل معهم مثل ذلك ، فقالوا : لا ننصرف حتى نراه ، ونسمع كلامه .

فقال لهم أبو لهب : إنا لم نزل نعالجه فتبًّا له وتَعْساً .

فأُخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاكتأب لذلك ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ . . .

" السورة .

وقيل : إن أبا لهب أراد أن يرمي النبي صلى الله عليه وسلم بحجر ، فمنعه الله من ذلك ، وأنزل الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ للمنع الذي وقع به .

ومعنى "تَبّتْ" : خَسِرت ؛ قاله قتادة .

وقيل : خابت ؛ قال ابن عباس .

وقيل : ضلّت ؛ قاله عطاء .

وقيل : هلكت ؛ قاله ابن جبير .

وقال يمان بن رِئاب : صَفِرت من كل خبر .

حكى الأصمعيّ عن أبي عمرو بن العلاء أنه لما قتل عثمان رحمه الله سمع الناس هاتفاً يقول :

لَقَدْ خَلَّوْكَ وَانْصَرَفُوا . . .

فما أَبُوا ولا رَجَعُوا

ولم يُوفُوا بنَذْرِهِم . . .

فَيَا تبًّا لِمَا صَنَعُوا

وخص اليدين بالتباب ، لأن العمل أكثر ما يكون بهما ؛ أي خسرتا وخسر هو .

وقيل : المراد باليدين نفسه .

وقد يعبَّر عن النفس باليد .

كما قال الله تعالى : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج : 10] أي نفسك .

وهذا مَهْيَع كلامِ العرب ؛ تعبِّر ببعض الشيء عن كله ؛ تقول : أصابته يد الدهر ، ويد الرزايا والمنايا ؛ أي أصابه كل ذلك .

قال الشاعر :

لَمَّا أَكَبَّتْ يَدُ الرَّزَايا . . .

عَلَيهِ نادَى أَلاَ مُجِيرُ

﴿ وَتَبَّ ﴾ قال الفرّاء : التبُّ الأول : دعاء والثاني خبر ، كما يقال : أهلكه الله وقد هلك .

وفي قراءة عبد الله وأبيّ "وَقَدْ تَبَّ" .

وأبو لهب اسمه عبد العُزَّى ، وهو ابن عبد المطلب عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وامرأته العوراء أم جميل ، أخت أبي سفيان بن حرب ، وكلاهما ، كان شديد العداوة للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قال طارق بن عبد الله المحاربيّ : إني بسوق ذي المجَاز ، إذ أنا بإنسان يقول : "يا أيها الناس ، قولُوا لا إله إلاّ الله تفْلِحُوا " ، وإذا رجل خلفه يرميه ، قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول : يا

أيها الناس، إنه كذاب فلا تصدقوه.

فقلت: مَنْ هذا؟ فقالوا: محمد، زعم أنه نبي.

وهذا عمه أبو لهب يزعم أنه كذاب.

وروى عطاء عن ابن عباس قال: قال أبو لهب: سَحَرَكم محمد! إن أحدنا ليأكل الجَذَعة، ويشرب العُسّ من اللبن فلا يشبع، وإن محمداً قد أشبعكم من فخِذ شاة، وأرواكم من عُسّ لبن.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ أَبِي لَهَبٍ ﴾ قيل: سمي باللَّهب لحسنه، وإشراق وجهه.

وقد ظن قوم أن في هذا دليلاً على تكنِية المشرك؛ وهو باطل، وإنما كناه الله بأبي لهب عند العلماء لمعان أربعة: الأول: أنه كان اسمه عبد العزى، والعُزَّى: صنم، ولم يضف الله في كتابه العبودية إلى صنم.

الثاني: أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه؛ فصرح بها.

(96/837)

الثالث: أن الاسم أشرف من الكنية، فحطه الله عز وجل عن الأشرف إلى الأنقص؛ إذا لم يكن بُدٌّ من الإخبار عنه، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم، ولم يَكنِ عن أحد

منهم .

ويدلك على شرف الاسم على الكنية : أن الله تعالى يُسَمَّى ولا يُكنَّى ، وإن كان ذلك لظهوره وبيانه ؛ واستحالة نسبة الكنية إليه ، لتقدّسه عنها .

الرابع : أن الله تعالى أراد أن يحقق نسبته ؛ بأن يدخله النار ، فيكون أبا لها ؛ تحقيقاً للنسب ، وإمضاء للفأل والطيرة التي اختارها لنفسه .

وقد قيل : اسمه كنيته .

فكان أهله يسمونه (أبا لهب) ، لتلهب وجهه وحسنه ؛ فصرفهم الله عن أن يقولوا : أبو النُّور ، وأبو الضياء ، الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه ، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى (لَهَبٍ) الذي هو مخصوص بالمكروه المذموم ، وهو النار .

ثم حقق ذلك بأن يجعلها مقرّه .

وقرأ مجاهد وحميد وابن كثير وابن مُحَيْصِن .

"أَبِي لَهبٍ" بإسكان الهاء .

ولم يختلفوا في "ذَاتَ لَهَبٍ" أنها مفتوحة ؛ لأنهم راعَوْا فيها رؤوس الآي .

الثالثة : قال ابن عباس : لما خلق الله عز وجل القلم قال له : اكتب ما هو كائن ؛ وكان فيما كتب ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ .

وقال منصور : سُئِلَ الحسن عن قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ هل كان في أم

الكتاب ؟ وهل كان أبو لهب يستطيع ألا يَصْلَى النار ؟ فقال : والله ما كان يستطيع ألاّ يصلاها ، وإنها لفي كتاب الله من قبل أن يُخْلَق أبو لهب وأبواه .

ويؤيده قول موسى لآدم :

أنت الذي خلقَكَ اللّهُ بيده ، ونفخ فيك من رُوحه ، وأسكنك جَنَّته ، وأسْجَدَ لك ملائكته ، خَيَّبْتَ الناس ، وأَخْرجتهم من الجنة .

قال آدم : وأنت موسى الذي اصطفاك بكلامه ، وأعطاك التوراة ، تَلُومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلق الله السموات والأرض .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " فحجّ آدمُ مُوسَى " ، وقد تقدّم هذا .

(97/837)

وفي حديث هَمَّام عن أبي هريرة أن آدم قال لموسى : " بِكَمْ وجدتَ الله كَتَبَ التوراةَ قبل أَنْ يَخْلُقَنِي " ؟ قال : " بألفي عام " قال : " فهل وجدت فيها : وعَصَى آدمُ رَبَّهُ فغَوَى " قال : " نعم " قال : " أفتلومني على أمر وكتب الله عليّ أن أفعله من قبل أن أخلق بألفي عام " .

فحَجَّ آدمُ موسى .

وفي حديث طاوُوس وابن هُرْمز والأعرج عن أبي هريرة : " بأربعين عاما "

مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2)

أي ما دفَعَ عنه عذاب الله ما جمع من المال ، ولا ما كسب من جاه .

وقال مجاهد : من الولد ؛ وولَد الرجل من كَسْبه .

وقرأ الأعمش "وَمَا اكْتَسَبَ" ورواه عن ابن مسعود .

وقال أبو الطُّفَيل : جاء بنو أبي لهب يختصمون عند ابن عباس ، فاقتتلوا ، فقام ليحْجُزَ بينهم ، فدفعه بعضهم ، فوقع على الفِراش ، فغضب ابن عباس وقال : أَخرجوا عني الكسبَ الخبيثَ ؛ يعني ولده .

وعن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولدي من كسبه " خرّجه أبو داود .

وقال ابن عباس : لما أنذر رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته بالنار ، قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفدي نفسي بمالي وولدي ؛ فنزل : ﴿ مَا أَغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

و"ما" في قوله : ﴿ مَا أَغنى ﴾ : يجوز أن تكون نفياً ، ويجوز أن تكون استفهاماً ؛ أي أيّ شيء أغنى (عنه) ؟ و"ما" الثانية : يجوز أن تكون بمعنى الذي ، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً ؛ أي ما أغنى عنه ماله وكسبه .

سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3)

أي ذات اشتعال وتلهُّب .

وقد مضى في سورة "المرسلات" القول فيه .

وقراءة العامة : "سَيَصْلَى" بفتح الياء .

وقرأ أبو رجاء والأعمش : بضم الياء .

ورواها محبوب عن إسماعيل عن ابن كثير ، وحسين عن أبي بكر عن عاصم ، ورويت عن الحسن .

(98/837)

وقرأ أشهب العُقيلي وأبو سَمَّال العَدَوي ومحمد بن السَّمَيْقع "سَيُصَلَّى" بضم الياء ، وفتح الصاد ، وتشديد اللام ؛ ومعناها سَيُصْليه الله ؛ من قوله : ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [الواقعة : 94] .

والثانية من الإصلاء ؛ أي يصليه الله ؛ من قوله : ﴿ فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً ﴾ [النساء : 30] .

والأُولَى هي الاختيار ؛ لإجماع الناس عليها ؛ وهي من قوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الجحيم ﴾ [الصافات : 163] .

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4)

قوله تعالى : ﴿ وامرأته ﴾ أم جميل .

وقال ابن العربيّ : العوراء أم قبيح ، وكانت عَوْراء .

﴿ حَمَّالَةَ الحطب ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدّيّ : كانت تمشي بالنميمة بين الناس ؛ تقول العرب : فلان يَحْطِب على فلان : إذا ورّش عليه .

قال الشاعر :

إن بني الأَدْرَمِ حَمَّالو الحَطَبْ . . .

هُمُ الوُشاةُ في الرِّضا وفي الغَضَبْ

عَليهِمُ اللَّعنَة تُتْرَى والْحَرَب . . .

وقال آخر :

مِنَ البيضِ لَمْ تُصْطَدْ عَلَى ظَهْرِ لأْمَةٍ . . .

ولَم تَمْشِ بينَ الحيّ بالحَطَبِ الرطْبِ

يعني : لم تمش بالنمائم ، وجعل الحطب رطْباً ليدل على التدخين ، الذي هو زيادة في الشرّ .

وقال أكثم بن صَيْفِيّ لبنيه : إياكُمْ والنَّميمة ! فإنها نارٌ مُحْرِقَة ، وإنّ النمّام ليَعْمل في ساعة ما لا يَعْمَل الساحر في شهر .

أخذه بعض الشعراء فقال :

إنَّ النميمةَ نارٌ وَيْكَ مُحْرِقَةٌ . . .

فَفِرَّ عَنها وجانبْ مَنْ تَعاطَاهَا

ولذلك قيل : نار الحقد لا تخبو .

(99/837)

وثَبَتَ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يَدْخُلُ الجنة نَمَّام " وقال : " ذُو الوَجْهَين لا يكون عند الله وجيهاً " وقال عليه الصلاة والسلام : " مِنْ شَرِّ الناسِ ذُو الوَجْهَيْنِ : الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاَءِ بوَجْهٍ ، وهَأُلاَءِ بوَجْهٍ " وقال كعب الأحبار : أصاب بني إسرائيل قحط ، فخرج بهم موسى عليه السلام ثلاث مرات يَسْتَسْقُون فلم يُسْقَوا .

فقال موسى : "إلهي عبادُك" فأوحى الله إليه : "إني لا أستجيب لك ولا لمن معك ، لأن فيهم رجلاً نماماً ، قد أَصرَّ على النميمة" .

فقال موسى : "يا ربِّ مَنْ هُو حتّى نخرجه من بيننا" ؟ فقال : "يا موسى ، أنهاك عن النميمةِ وأكون نَماماً" قال : فتابوا بأجمعهم ، فسُقوا .

والنميمة من الكبائر ، لا خلاف في ذلك ؛ حتى قال الفُضَيل بن عِياض : ثلاث تهدّ العمل الصالح ويُفْطِرن الصائم ، وينقُضْن الوضوء : الغِيبة ، والنميمة ، والكذب .

وقال عطاء بن السائب : ذكرت للشعبيّ قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ سافكُ دمٍ ، ولا مشاء بنميمة ، ولا تاجر يُرْبِي " فقلت : يا أبا عمرو ، قَرَن النمام بالقاتل وآكل الربا ؟ فقال : وهل تسفك الدماء ، وتنتهب الأموال ، وتهيج الأمور العظام ، إلا من أجل النميمة .

وقال قتادة وغيره : كانت تُعَيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر .

ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها ؛ لشدة بخلها ، فعُيِّرَتْ بالبخل .

وقال ابن زيد والضحاك : كانت تحمل العِضاه والشوك ، فتطرحه بالليل على طريق النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ وقاله ابن عباس .

قال الربيع : فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يَطأه كما يطأ الحرير .

وقال مُرَّة الهَمْدَانيّ : كانت أم جميل تأتي كل يوم بإبالة من الحَسَك ، فتطرحها على طريق المسلمين ، فبينما هي حاملة ذات يوم حُزْمة أَعْيَتْ ، فقعدت على حجر لتستريح ، فجذبها المَلَك من خلفها فأهلكها .

وقال سعيد بن جُبير : حمالة الخطايا والذنوب ؛ من قولهم : فلان يحتطب على ظهره ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنعام : 31] .

وقيل : المعنى حمالة الحطب في النار ؛ وفيه بُعْد .

وقراءة العامة "حَمَّالَةُ" بالرفع ، على أن يكون خبراً "وامرأته" مبتدأ .

ويكون في "جِيدِها حبلٌ من مَسَدِ" جملة في موضع الحال من المضمر في "حَمّالة" .

أو خبراً ثانياً .

أو يكون "حمالة الحطب" نعتاً لامرأته .

والخبر ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ ؛ فيوقف (على هذا) على "ذَاتَ لَهَب" .

ويجوز أن يكون "وامرأته" معطوفة على المضمر في "سَيَصْلَى" فلا يوقف على "ذَاتَ لَهَبٍ" ويوقف على "وامْرَأَته" وتكون "حَمَّالَة الحَطَبَ" خبر ابتداء محذوف .

وقرأ عاصم "حمالةَ الحَطَب" بالنصب على الذم ، كأنها اشتهرتْ بذلك ، فجاءت الصفة للذم لا للتخصيص ، كقوله تعالى : ﴿ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثقفوا ﴾ [الأحزاب : 61] .

وقرأ أبو قِلابة "حامِلَةَ الحَطَب" .

قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا ﴾

أي عنقِها .

وقال امرؤ القيس :

وجيدٍ كجيدِ الرِّيمِ لَيْسَ بفاحشٍ . . .

إذَا هِي نصَّتْهُ ولاَ بمُعَطلِ

﴿ حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أي من ليف ؛ قال النابغة :

مَقْذُوفةٍ بدَخيسِ النَّحْضِ بازلُها . . .

له صَرِيفٌ صَرِيفُ القَعْوِ بالمَسَد

وقال آخر :

يا مَسَدَ الخُوص تَعَوَّذْ مِنّي . . .

إنْ كُنْتُ لَدْناً لَيِّناً فإنّي

ما شِئْتَ مِنْ أَشْمَطَ مُقْسَئِنّ . . .

وقد يكون من جلود الإبل ، أو من أوبارها ؛ قال الشاعر :

ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيانِق . . .

لَسْنَ بأنْيابٍ ولاَ حَقَائِق

وجمع الجيد أجياد ، والمسدِ أمساد .

أبو عبيدة : هو حَبْل يكون من صوف .

قال الحسن : هي حبال من شجر تَنبتُ باليمن تسمى المَسَد ، وكانت تُفْتَل .

قال الضحاك وغيره : هذا في الدنيا ؛ فكانت تُعَيِّر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف ، فخنقها الله جل وعزّ به فأهلكها ؛ وهو في الآخرة حبْل من نار .

وقال ابن عباس في رواية أبي صالح : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ قال : سلسلة ذرْعُها سبعون ذراعاً وقاله مجاهد وعروة بن الزبير : تَدْخُل مِنْ فيها ، وتَخْرُج من أسفلها ، ويُلْوَى سائِرها على عنقها .

وقال قتادة .

"حبْل مِن مَسَدٍ" قال : قِلادة من وَدَع .

الوَدَع : خرز بيض تخرج من البحر ، تتفاوت في الصغر والكبر .

قال الشاعر :

والحِلم حِلْمُ صبيٍّ يَمْرِث الوَدَعَهْ . . .

والجمع : وَدَعات .

الحسن : إنما كان خَرَزاً في عنقها .

سعيد بن المسيب : كانت لها قِلادة فاخرة من جوهر ، فقالت : واللاتِ والعُزّى لأنفِقنها في عداوة محمد .

ويكون ذلك عذاباً في جيدها يوم القيامة .

وقيل : إن ذلك إشارة إلى الخِذلان ؛ يعني أنها مربوطة عن الإيمان بما سبق لها من الشقاء ، كالمربوط في جيده بحبل من مسد .

والمَسَد : الفتل .

يقال : مَسَد حَبْلَه يَمْسِده مَسْداً ؛ أي أجاد فتله .

قال :

يَمْسِد أَعْلَى لحمِهِ ويأرِمُهْ . . .

يقول : إن البقل يقوّي ظهر هذا الحمار ويشدّه .

ودابة مَمْسودة الخَلْق : إذا كانت شديدة الأَسْر .

قال الشاعر :

ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانِقِ . . .

صُهْبٍ عِتاقٍ ذاتِ مُخٍّ زاهِقِ

لَسْنَ بأنيابٍ ولاَ حقَائِق . . .

ويروى :

ولا ضعافٍ مُخُّهُنَّ زاهِقِ . . .

قال الفراء : هو مرفوع والشعر مُكْفأ .

يقول : بل مخهن مكتنِز ؛ رفعه على الابتداء .

قال : ولا يجوز أن يريد ولا ضعافٍ زاهقٍ مخهنّ .

كما لا يجوز أن تقول : مررت برجل أبوه قائمٍ ؛ بالخفض .

وقال غيره : الزاهق هنا : بمعنى الذاهب ؛ كأنه قال : ولا ضعافً مُخُهُنَّ ، ثم ردّ الزاهق .

على الضعاف .

ورجل ممسود : أي مجدول الخلق .

(102/837)

وجارية حسنة المَسْد والعَصْبِ والجَدْلِ والأَرْم ؛ وهي ممسودة ومعصوبة ومجدولة

ومأرومة .

والمِساد ، على فِعال : لغة في المِسَاب ، وهي نِحى السمن ، وسِقاء العسل .

قال جميعه الجوهريّ .

وقد اعْتُرِض فقيل : إن كان ذلك حبلها الذي تحتطب به ، فكيف يبقى في النار ؟ وأجيب

عنه بأن الله عزّ وجلّ قادر على تجديده كلما احترق .

والحكم ببقاء أبي لهب وامرأته في النار مشروط ببقائهما على الكفر إلى الموافاة ؛ فلما ماتا

على الكفر صدق الإخبار عنهما .

ففيه معجزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

فامرأته خنقها الله بحبلها ، وأبو لهب رماه الله بالعَدَسة بعد وقعة بدر بسبع ليال ، بعد أن شَجَّتْه أمّ الفضل .

وذلك أنه لما قدم الحَيْسُمانُ مكةَ يخبر خبر بدر ، قال له أبو لهب : أَخْبِرني خبر الناس .

قال : نعم ، والله ما هو إلا أَن لقِينا القوم ، فمنحناهم أكتافنا ، يضعون السلاح منا حيث شاؤوا ، ومع ذلك ما لَمَسْتُ الناس .

لقِينا رجالاً بيضاً على خيل بُلْق ، لا والله ما تُبْقِي منا ؛ يقول : ما تُبْقِي شيئاً .

قال أبو رافع : وكنت غلاماً للعباس أَنحِت الأَقداح في صُفَّةِ زمزم ، وعندي أمّ الفضل جالسة ، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر ، فرفعت طُنُبَ الحجرة ، فقلت : تلك والله الملائكة .

قال : فرفع أبو لهب يده ، فضرب وجهي ضَرْبةً مُنْكرة ، وثَاوَرْتُه ، وكنت رجلاً ضعيفاً ، فاحتملني ، فضرب بي الأرض ، وبَرَكَ على صدري يضربني .

وتقدّمت أمّ الفضل إلى عمود من عُمُد الحُجْرة ، فتأخذه وتقول : استضعفتَه أن غاب عنه سيده ! وتضربه بالعمود على رأسه فتفلِقه شَجَّةً مُنْكَرة .

فقام يجر رجليه ذليلاً ، ورماه الله بالعَدَسة ، فمات ، وأقام ثلاثة أيام لم يُدْفن حتى أنتن ؛ ثم

إن ولده غَسّلوه بالماء ، قَذْفاً من بعيد ، مخافة عَدْوَى العَدَسة .

وكانت قريشٌ تَتَّقيها كما يُتَّقَى الطاعون .

ثم احتملوه إلى أعلى مكة ، فأسندوه إلى جدار ، ثم رَضموا عليه الحجارة . انتهى . ا

هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(103/837)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾

(ق) " عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ صعد النبي (صلى الله عليه وسلم) على الصفا ، ونادى يا بني فهر يا بني عدي لبطون من قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولاً لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش ، فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ ، قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً قال فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب تبّاً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ " وفي رواية " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) خرج إلى البطحاء فصعد الجبل ،

فنادى يا صباحاه فاجتمعت عليه قريش " الحديث وذكر نحوه ومعنى تبت خابت وخسرت ، والتباب هو الخسار المفضي إلى الهلاك ، والمراد من اليد صاحبها وجملة بدنه ، وذلك على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله ، وجميعه ، وقيل إنه رمى النبي (صلى الله عليه وسلم) بحجر ، فأدمى عقبه فلهذا ذكرت اليد ، وإن كان المراد جملة البدن فهو كقولهم خسرت يده ، وكسبت يده فأضيفت الأفعال إلى اليد ، وأبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم عم النبي (صلى الله عليه وسلم) وكني بأبي لهب لحسنه وإشراق وجهه .

فإن قلت لم كناه وفي الكنية تشريف وتكرمة قلت فيه وجوه أحدها أنه كان مشتهراً بالكنية دون الاسم ، فلو ذكره باسمه لم يعرف الثاني أنه كان اسمه عبد العزى ، فعدل عنه إلى الكنية لما فيه من الشّرك الثالث .

أنه لما كان من أهل النّار ومآله إلى النار ، والنار ذات لهب وافقت حاله كنيته ، وكان جديراً بأن يذكر بها .

﴿ وتب ﴾ قيل الأول أخرج مخرج الدعاء عليه ، والثاني أخرج مخرج الخبر كما يقال أهلكه الله ، وقد هلك وقيل تبت يدا أبي لهب ، يعني ماله وملكه ، كما يقال فلان قليل ذات اليد يعنون به المال ، وتب يعني نفسه أي وقد أهلكت نفسه ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ قال ابن مسعود : لما دعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أقرباءه إلى الله تعالى قال أبو لهب : إن كان ما تقول يا ابن أخي حقاً ، فأنا أفتدي نفسي بمالي وولدي ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ما أغنى عنه ماله ﴾ ، أي شيء يغني عنه ماله ، أي ما يدفع عنه عذاب الله ، وما كسب يعني من المال ، وكان صاحب مواشٍ ، أي ما جمع من المال أو ما كسب من المال ، أي الربح بعد رأس ماله ، وقيل وما كسب يعني ولده لأن ولد الإنسان من كسبه ، كما جاء في الحديث

" إن أطيب ما أكلتم من كسبكم ، وإن أولادكم من كسبكم " أخرجه التّرمذي ثم أوعده بالنّار فقال تعالى : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ أي ناراً تلتهب عليه ﴿ وامرأته ﴾ يعني أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية بن أبي سفيان ، وكانت في نهاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ حمالة الحطب ﴾ قيل

كانت تحمل الشّوك ، والحسك والعضاه باللّيل ، فتطرحه في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لتؤذيهم بذلك وهي رواية عن ابن عباس فإن قلت إنها كانت من بيت العز والشرف فكيف يليق بها حمل الحطب ؟ قلت يحتمل أنها كانت مع كثرة مالها ، وشرفها في نهاية البخل والخسة ، فكان يحملها بخلها على حمل الحطب بنفسها ، ويحتمل أنها كانت تفعل ذلك لشدّة عداوتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا ترى أنها تستعين في ذلك بأحد بل تفعله هي بنفسها ، وقيل كانت تمشي بالنميمة وتنقل الحديث وتلقي العداوة بين النّاس وتوقد نارها ، كما توقد النار الحطب يقال فلان يحطب على فلان إذا كان يغري به ، وقيل حمالة الخطايا والآثام التي حملتها في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها كانت كالحطب في مصيرها إلى النار . ﴿ في جيدها ﴾ أي عنقها ﴿ حبل من مسد ﴾ قال ابن عباس : سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعاً تدخل من فيها ، وتخرج من دبرها ، ويكون سائرها في عنقها . فتلت من حديد فتلاً محكماً وقيل هو حبل من ليف ، وذلك الحبل هو الذي كانت تحتطب به ، فبينما هي ذات يوم حاملة الحزمة أعيت ، فقعدت على حجر تستريح أتاها ملك ، فجذبها من خلفها ، فأهلكها ، وقيل هو حبل من شجر ينبت باليمن يقال له المسد ، وقيل قلادة من ودع ، وقيل كانت لها خرزات في عنقها ، وقيل كانت لها قلادة فاخرة . قالت لأنفقنها في عداوة محمد صلى الله عليه وسلم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن جـ 7 صـ 317 . 319 ﴾

وقال النسفى :

سورة المسد

مكية وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾

التباب : الهلاك ومنه قولهم أشابّة أم تابّة أي هالكة من الهرم ؟ والمعنى هلكت يداه لأنه فيما يروى أخذ حجراً ليرمي به رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَتَبَّ ﴾ وهلك كله أو جعلت يداه هالكتين والمراد هلاك جملته كقوله ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج : 10] ومعنى ﴿ وَتَبَّ ﴾ وكان ذلك وحصل ، كقوله :

جزائي جزاء الله شر جزائه . . .

جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

وقد دلت عليه قراءة ابن مسعود رضي الله عنه : ﴿ وَقَدْ تَبَّ ﴾ ، روي أنه لما نزل ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ رقى الصفا " وقال : يا صباحاه فاستجمع إليه الناس من كل

أوب .

فقال عليه الصلاة والسلام : يا بني عبد المطلب يا بني فهر إن أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلاً أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم .

قال : "فإني نذير لكم بين يدي الساعة" فقال أبو لهب : تباً لك ألهذا دعوتنا فنزلت .

وإنما كناه والتكنية تكرمة لاشتهاره بها دون الاسم ، أو لكراهة اسمه فاسمه عبد العزى ، أو لأن مآله إلى نار ذات لهب فوافقت حاله كنيته ، ﴿ أَبِى لَهَبٍ ﴾ مكي ﴿ مَا أَغنى عَنْهُ مَالُهُ ﴾ "ما" للنفي ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ مرفوع و"ما" موصولة أو مصدرية أي ومكسوبه أو وكسبه أي لم ينفعه ماله الذي ورثه من أبيه ، أو الذي كسبه بنفسه ، أو ماله التالد والطارف ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ما كسب ولده .

وروي أنه كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي ﴿ سيصلى نَاراً ﴾ سيدخل ﴿ سيصلى ﴾ البرجمي عن أبي بكر ، والسين للوعيد أي هو كائن لا محالة وإن تراخى وقته ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ توقد ﴿ وامرأته ﴾ هي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ﴿ حَمَّالَةَ الحطب ﴾ كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك فتنثرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : كانت تمشي بالنميمة فتشعل نار العداوة بين الناس .

ونصب عاصم ﴿ حَمَّالَةَ الحطب ﴾ على الشتم وأنا أحب هذه القراءة ، وقد توسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بجميل من أحب شتم أم جميل .

وعلى هذا يسوغ الوقف على ﴿ امرأته ﴾ لأنها عطفت على الضمير في ﴿ سيصلى ﴾ أي سيصلى هو وامرأته والتقدير : أعني حمالة الحطب ، وغيره رفع ﴿ حَمَّالَةَ الحطب ﴾ على أنها خبر وامرأته أو هي حمالة ﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مّن مَّسَدٍ ﴾ حال أو خبر آخر .

والمسد الذي فتل من الحبال فتلاً شديداً من ليف كان أو جلد أو غيرهما ، والمعنى في جيدها حبل مما مسد من الحبال وأنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها كما يفعل الحطابون تحقيراً لها وتصويراً لها بصورة بعض الحطابات لتجزع من ذلك ويجزع بعلها ، وهما في بيت العز والشرف وفي منصب الثروة والجدة والله أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 382 . 383 ﴾

وقال ابن جزى :

سورة المسد

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾

معنى تبت خسرت والتباب هو : الخسران ، وأبو لهب هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم وهو عمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من أشد الناس عداوة له . فإن قيل : لم ذكره الله بكنيته دون اسمه ؟ فالجواب : من ثلاثة أوجه أحدها : أن كنيته كانت أغلب عليه من اسمه كأبي بكر وغيره ويقال : أنه كُني بأبي لهب لتلهب وجهه جمالاً . الثاني : أنه لما كان اسمه عبد العزى عدل عنه إلى الكنية . الثالث : أنه لما كان من أهل النار واللهب ، كنَّها أبا لهب وليناسب ذلك قوله : سيصلى ناراً ذات لهب .

(109/837)

﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ يحتمل أن تكون ما نافية أو استفهامية يراد بها النفي ، وماله : وهو رأس ماله وما كسب : الربح أو ماله : ما ورث ، وما كسب : هو ما اكتسبه لنفسه ، وقيل : جميع ماله وما كسب ﴿ سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ هذا حتم عليه بدخول النار ومات بعد ذلك كافراً ﴿ وامرأته حَمَّالَةَ الحطب ﴾ اسم امرأته أم جميل بنت

حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان ، وفي وصفها بحمالة الحطب أربعة أقوال . أحدها

: أنها تحمل حطباً وشوكاً فتلقيه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم . الثاني : أن ذلك

عبارة عن مشيها بالنميمة يقال : فلان يحمل الحطب بين الناس أي : يوقد بينهم نار العداوة

بالنمائم . الثالث : أنه عبارة عن سعيها بالمضرة على المسلمين يقال : فلان يحطِب على

فلان إذا قصد الإضرار به . الرابع : أنه عبارة عن ذنوبها وسوء أعمالها ﴿ فِي جِيدِهَا

حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ الجِيد : العنق والمسَد الليف ، وقيل : الحبل المفتول ، وفي المراد به ثلاثة

أقوال : الأول : أنه إخبار عن حملها الحطب في الدنيا على القول الأول ، وفي ذلك تحقير لها

وإظهار لخساسة حالها . والآخر : أنه حالها في جنهم يكون كذلك أي يكون في عنقها

حبل . الثالث : أنها كانت قلادة فاخرة ، فقالت لأنفقنها على عداوة محمد ، فأخبر عن

قلادتها بحبل المسد على جهة التفاؤل والذم لها بتبرجها ، ويحتمل قوله : وامرأته وما بعده

وجوها من الإعراب يختلف الوقف باختلافها وهي : أن يكون امرأته وحمالة الحطب خبره

، أو يكون حمالةَ الحطب نعت والخبر : في جيدها حبل من مسد أو يكون امرأته معطوفاً

على الضمير في يصلى وحمالة الحطب نعت ، أو خبر ابتداء مضمر . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التسهيل حـ 4 صـ 222 . 223 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة المسد

مكية ، وآيها خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ ﴾

هلكت أو خسرت والتباب خسران يؤدي إلى الهلاك . ﴿ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ نفسه كقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ وقيل إنما خصتا لأنه عليه الصلاة والسلام لما نزل عليه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقربين ﴾ جمع أقاربه فأنذرهم فقال أبو لهب : تباً لك ألهذا دعوتنا ، وأخذ حجراً ليرميه به فنزلت . وقيل المراد بهما دنياه وأخراه ، وإنما كناه والتكنية تكرمة لاشتهاره بكنيته ولأن اسمه عبد العزى فاستكره ذكره ، ولأنه لما كان من أصحاب النار كانت الكنية أوفق بحاله ، أو ليجانس قوله : ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ وقرىء "أبو لهب" كما قيل علي بن أبو طالب . ﴿ وَتَبَّ ﴾ إخبار بعد دعاء والتعبير بالماضي لتحقق وقوعه كقوله :

جَزَانِي جَزَاهُ اللهُ شَرَّ جَزَائِه . . . جَزَاءَ الكِلاَبِ العَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَل

ويدل عليه أنه قرىء "وقد تب" أو الأول إخبار عما كسبت يداه والثاني عن عمل نفسه .

﴿ مَا أغنى عَنْهُ مَالُهُ ﴾ نفي لإغناء المال عنه حين نزل به التباب أو استفهام إنكار له ومحلها النصب . ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ وكسبه أو مكسوبه بماله من النتائج والأرباح والوجاهة والإتباع ، أو عمله الذي ظن أنه ينفعه أو ولده عتبة ، وقد افترسه أسد في طريق الشام وقد أحدق به العير ومات أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدر بأيام معدودة ، وترك ثلاثاً حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه ، فهو إخبار عن الغيب طابقه وقوعه .

﴿ سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ اشتعال يريد نار جهنم ، وليس فيه ما يدل على أنه لا يؤمن لجواز أن يكون صليها للفسق ، وقرىء ﴿ سيصلى ﴾ بالضم مخففاً و ﴿ سيصلى ﴾ مشدداً .

(111/837)

﴿ وامرأته ﴾ عطف على المستتر في ﴿ سيصلى ﴾ أو مبتدأ وهي أم جميل أخت أبي سفيان . ﴿ حَمَّالَةَ الحطب ﴾ يعني حطب جهنم فإنها كانت تحمل الأوزار بمعاداة الرسول صلى الله عليه وسلم وتحمل زوجها على إيذائه ، أو اليميمة فإنها كانت توقد نار الخصومة ، أو حزمة الشوك أو الحسك ، فإنها كانت تحملها فتنثرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقرأ عاصم بالنصب على الشتم .

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ أي مِمّا مُسِّدَ أي فُتِلَ ، ومنه رجل ممسود الخلق أي مجدوله ، وهو ترشيح للمجاز أو تصوير لها بصورة الحطابة التي تحمل الحزمة وتربطها في جيدها تحقيراً لشأنها ، أو بياناً لحالها في نار جهنم حيث يكون على ظهرها حزمة من حطب جهنم كالزقوم ، والضريع وفي جيدها سلسلة من النار ، والظرف في موضع الحال أو الخبر وحبل مرتفع به .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 544. 546 ﴾

---

(1) حديث موضوع .

(112/837)

وقال أبو حيان :

سورة المسد

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ﴾

وتقدم الكلام على التباب في سورة غافر ، وهنا قال ابن عباس : خابت ، وقتادة : خسرت

، وابن جبير : هلكت ، وعطاء : ضلت ، ويمان بن رياب : صفرت من كل خير ، وهذه الأقوال متقاربة في المعنى .

وقالوا فيما حكى إشابة : أم تابة : أي هالكة من الهرم والتعجيز .

وإسناد الهلاك إلى اليدين ، لأن العمل أكثر ما يكون بهما ، وهو في الحقيقة للنفس ، كقوله : ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ وقيل : أخذ بيديه حجراً ليرمي به الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فأسند التب إليهما .

والظاهر أن التب دعاء ، وتب : إخبار بحصول ذلك ، كما قال الشاعر :

جزاني جزاه الله شرّ جزائه . . .

جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

ويدل عليه قراءة عبد الله : وقد تب .

روي أنه لما نزل : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قال : "يا صفية بنت عبد المطلب ، يا فاطمة بنت محمد ، لا أغني لكما من الله شيئاً ، سلاني من مالي ما شئتما " ثم صعد الصفا ، فنادى بطون قريش : "يا بني فلان يا بني فلان" وروي أنه صاح بأعلى صوته : " "يا صباحاه" .

فاجتمعوا إليه من كل وجه ، فقال لهم : "أرأيتم لو قلت لكم إني أنذركم خيلاً بسفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقي ؟" قالوا : نعم ، قال : "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد" .

فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فافترقوا عنه ، ونزلت هذه السورة"

وأبو لهب اسمه عبد العزى ، ابن عم المطلب عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقرأ ابن محيصن وابن كثير : أبي لهب بسكون الهاء ، وفتحها باقي السبعة ولم يختلفوا في ذات لهب ، لأنها فاصلة ، والسكون يزيلها على حسن الفاصلة .

قال الزمخشري : وهو من تغيير الأعلام ، كقولهم : شمس مالك بالضم .

انتهى ، يعني : سكون الهاء في لهب وضم الشين في شمس ، ويعني في قول الشاعر :

وإني لمهد من ثنائي فقاصد . . .

به لابن عمي الصدق شمس بن مالك

(113/837)

فأما في لهب ، فالمشهور في كنيته فتح الهاء ، وأما شمس بن مالك ، فلا يتعين أن يكون من تغيير الأعلام ، بل يمكن أن يكون مسمى بشمس المنقول من شمس الجمع ، كما جاء أذناب خيل شمس .

قيل : وكني بأبي لهب لحسنه وإشراق وجهه ، ولم يذكره تعالى باسمه لأن اسمه عبد العزى ، فعدل عنه إلى الكنية ، أو لأن الكنية كانت أغلب عليه من الاسم ؛ أو لأن مآله إلى النار ،

فوافقت حالته كنيته ، كما يقال للشرير : أبو الشر ، وللخير أبو الخير ؛ أو لأن الاسم أشرف من الكنية ، فعدل إلى الأنقص ؛ ولذلك ذكر الله تعالى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم ولم يكنّ أحداً منهم .

والظاهر أن ما في ﴿ ما أغنى عنه ماله ﴾ نفي ، أي لم يغن عنه ماله الموروث عن آبائه ، وما كسب هو بنفسه أو ماشيته ، وما كسب من نسلها ومنافعها ، أو ما كسب من أرباح ماله الذي يتجر به .

ويجوز أن تكون ما استفهاماً في موضع نصب ، أي : أيّ شيء يغني عنه ماله على وجه التقرير والإنكار ؟ والمعنى : أين الغني الذي لماله ولكسبه ؟ والظاهر أن ما في قوله : ﴿ وما كسب ﴾ موصولة ، وأجيز أن تكون مصدرية .

وإذا كانت ما في ﴿ ما أغنى ﴾ استفهاماً ، فيجوز أن تكون ما في ﴿ وما كسب ﴾ استفهاماً أيضاً ، أي : وأي شيء كسب ؟ أي لم يكسب شيئاً .

وعن ابن عباس : ﴿ وما كسب ﴾ ولده .

وفي الحديث : " ولد الرجل من كسبه " وعن الضحاك : ﴿ وما كسب ﴾ هو عمله الخبيث في عداوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

وعن قتادة : وعمله الذي ظن أنه منه على شيء .

وروي عنه أنه كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخي حقاً ، فأنا أفتدي منه نفسي بمالي

وولدي .

وقرأ عبد الله : وما اكتسب بتاء الافتعال .

وقرأ أبو حيوة وابن مقسم وعباس في اختياره ، وهو أيضاً سيصلى بضم الياء وفتح الصاد وشد اللام ، ومريئته ؛ وعنه أيضاً : ومريته على التصغير فيهما بالهمز وبإبدالها ياء وإدغام ياء التصغير فيها .

(114/837)

وقرأ أيضاً : حمالة للحطب ، بالتنوين في حمالة ، وبلام الجر في الحطب .

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق : سيصلى بضم الياء وسكون الصاد ؛ وأبو قلابة : حاملة الحطب على وزن فاعلة مضافاً ، واختلس حركة الهاء في وامرأته أبو عمرو في رواية ؛ والحسن وزيد بن علي والأعرج وأبو حيوة وابن أبي عبلة وابن محيصن وعاصم : حمالة بالنصب .

وقرأ الجمهور : { سيصلى } بفتح الياء وسكون الصاد ، { وامرأته } على التكبير ، { حمالة } على وزن فعالة للمبالغة مضافاً إلى الحطب مرفوعاً ، والسين للاستقبال وإن تراخى الزمان ، وهو وعيد كائن إنجازه لا محالة .

وارتفع ﴿ وامرأته ﴾ عطفاً على الضمير المستكن في ﴿ سيصلى ﴾ ، وحسنه وجود الفصل بالمفعول وصفته ، ﴿ وحمالة ﴾ في قراءة الجمهور خبر مبتدأ محذوف ، أو صفة لامرأته ، لأنه مثال ماض فيعرف بالإضافة ، وفعال أحد الأمثلة الستة وحكمها كاسم الفاعل .

وفي قراءة النصب ، انتصب على الذم .

وأجازوا في قراءة الرفع أن يكون ﴿ وامرأته ﴾ مبتدأ ، وحمالة ، واسمها أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان ، وكانت عوراء .

والظاهر أنها كانت تحمل الحطب ، أي ما فيه شوك ، لتؤذي بإلقائه في طريق الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه لتعقرهم ، فذمت بذلك وسميت حمالة الحطب ، قاله ابن عباس .

فحمالة معرفة ، فإن كان صار لقباً لها جاز فيه حالة الرفع أن يكون عطف بيان ، وأن يكون بدلاً .

قيل : وكانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنشرها بالليل في طريق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وقال ابن عباس أيضاً ومجاهد وقتادة والسدي : كانت تمشي بالنميمة ، ويقال للمشاء بها : يحمل الحطب بين الناس ، أي يوقد بينهم النائرة ويورث الشر .

قال الشاعر :

من البيض لم يصطد على ظهر لامه . . .

ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب

جعله رطباً ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر .

وقال الراجز :

إن بني الأرزم حمالو الحطب . . .

هم الوشاة في الرضا وفي الغضب

(115/837)

وقال ابن جبير : حمالة الخطايا والذنوب ، من قولهم : يحطب على ظهره .

قال تعالى : ﴿ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ .

وقيل : الحطب جمع حاطب ، كحارس وحرس ، أي يحمل الجناة على الجنايات ، والظاهر أن الحبل من مسد .

وقال عروة بن الزبير ومجاهد وسفيان : استعارة ، والمراد سلسلة من حديد في جهنم .

وقال قتادة : قلادة من ودع .

وقال ابن المسيب : قلادة فاخرة من جوهر ، فقالت : واللات والعزى لأنفقنها على عداوة محمد .

قال ابن عطية : وإنما عبر عن قلادتها بحبل من مسد على جهة التفاؤل لها ، وذكر تبرجها في هذا السعي الخبيث ، انتهى .

وقال الحسن : إنما كانت خرزاً .

وقال الزمخشري : والمعنى في جيدها حبل مما مسد من الحبال ، وأنها تحمل الحزمة من الشوك وتربطها في جيدها ، كما يفعل الحطابون تحسيساً لحالها وتحقيراً لها بصورة بعض الحطابات من المواهن لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها وهما في بيت العز والشرف وفي منصب الثروة والجدة .

ولقد عير بعض الناس الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب بحمالة الحطب ، فقال :

ماذا أردت إلى شتمي ومنقصتي . . .

أم ما تعير من حمالة الحطب

غرساء شاذخة في المجد سامية . . .

كانت سليلة شيخ ثاقب الحسب

ويحتمل أن يكون المعنى : إن حالها يكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك ، فلا يزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجر الزقوم أو

الضريع ، وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار ، كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه ، انتهى .

ولما سمعت أم جميل هذه السورة أتت أبا بكر ، وهو مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في المسجد وبيدها فهر ، فقالت : بلغني أن صاحبك هجاني ، ولأفعلنّ وأفعلن ؛ وأعمى الله تعالى بصرها عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

فروي أن أبا بكر ، رضي الله تعالى عنه ، قال لها : هل تري معي أحداً ؟ فقالت : أتهزأ بي ؟ لا أرى غيرك .

وإن كان شاعراً فأنا مثله أقول :

مذمماً أبينا . . .

ودينه قلينا

وأمره عصينا . . .

فسكت أبو بكر ومضت هي ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " لقد حجبتني عنها ملائكة فما رأتني وكفى الله شرها " وذكر أنها ماتت مخنوقة بحبلها ، وأبو لهب رماه

الله تعالى بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال. انتهى انتهى. اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(117/837)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ﴾

القراءات ﴿ أبي لهب ﴾ بسكون الهاء: ابن كثير ﴿ سيصلى ﴾ بضم الياء: البرجمي ﴿ حمالة ﴾ بالنصب: عاصم ﴿ جيدها ﴾ ممالة: نصير.

الوقوف: ﴿ وتب ﴾ ه ﴿ كسب ﴾ ه ﴿ لهب ﴾ ج ه لاحتمال كون ﴿ وامرأته ﴾ مبتدأ خبره ﴿ حمالة الحطب ﴾ أو ﴿ في جيدها ﴾ إلى آخره واحتمال كونه عطفاً على ضمير ﴿ سيصلى ﴾ والأوجه الوصل ﴿ وامرأته ﴾ ه لمن قرأ ﴿ حمالة ﴾ بالنصب على الذم، ويجوز الوقف لمن قرأ بالرفع أيضاً على تقدير هي حمالة الحطب. ومن قرأ ﴿ حمالة ﴾ بالنصب فله أن يصل ﴿ ذات لهب ﴾ بما بعده ويقف على ﴿ مسد ﴾ ﴿ مسد ﴾ ه.

(118/837)

التفسير : لما أخبر عن فتح الولي وهو النبي صلى الله عليه وسلم نبه على مآل حال العدو في الدارين . قال ابن عباس : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتم أمره في أول المبعث ويصلي في شعاب مكة ثلاث سنين إلى أن نزل قوله ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] فصعد الصفا ونادى : يا آل غالب فخرجت إليه من المسجد . فقال أبو لهب : هذه غالب قد أتتك فما عندك ؟ ثم نادى يا آل لؤي فرجع من لم يكن من لؤي فقال : هذه لؤي قد أتتك فما عندك ؟ فقال يا آل - كلاب ثم قال بعده : يا آل قصي فقال أبو لهب : هذه قصي قد أتتك فما عندك ، ثم قال : إن الله قد أمرني أن أنذر عشيرتك الأقربين وأنتم الأقربون ، إني لا أملك لكم من الدنيا حظاً ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله فأشهد لكم بها عند ربكم . فقال أبو لهب عليه اللعنة : تباً لك ألهذا دعوتنا ؟ فنزلت السورة" وقيل : "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع أعمامه وقدم إليهم طعاماً في صحفة فاستحقروه وقالوا : إن أحدنا يأكل الشاة فقال : كلوا فأكلوا فشبعوا ولم ينتقص من الطعام إلا قليل . ثم قالوا فما عندك ؟ فدعاهم إلى الإسلام . فقال أبو لهب ما قال" وروي أنه قال أبو لهب : "فما لي إن أسلمت ؟ فقال : ما للمسلمين . فقال : أفلا أفضل عليهم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وبماذا تفضل ؟ فقال : تباً لهذا الدين الذي يستوي فيه أنا وغيري فنزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ " التباب الهلاك كقوله

﴿ وما كيد فرعون إلا في تباب ﴾

[غافر : 37] وقيل : الخسران المفضي إلى الهلاك . وقيل : الخيبة . وقال ابن عباس : لأنه كان يدفع قائلاً إنه ساحر فينصرفون عنه قبل لقائه لأنه كان شيخ القبيلة وكان له كالأب فكان لا يتهم ، فلما نزلت السورة وسمع بها غضب وأظهر العداوى الشديدة فصار متهماً فلم يقبل قوله في الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فكأنه خاب سعيه وبطل غرضه .

(119/837)

قالوا : ولعله إنما ذكر اليد لأنه كان يضرب بيده على كتف الوافد عليه فيقول : انصرف راشداً فإنه مجنون . ويروى أنه أخذ حجراً ليرمي به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن طارق المحاربي أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في السوق يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقد ادمى عقيبة وقال : لا تطيعوه إنه كذاب . فقلت : من هذا ؟ فقالوا : محمد وعمه أبو لهب . وقال أهل المعاني : أراد باليدين الجملة كقوله

﴿ ذلك بما قدّمت يداك ﴾

(120/837)

[الحج : 10] لأن أكثر الأعمال إنما تعمل باليد ، فاليمين كالسلاح واليسار كالجنة ، بالأولى يجر المنفعة وبالأخرى يدفع المضرة ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم لما دعاه نهاراً فأبى ذهب إلى داره ليلاً مستناً بسنة نوح ليدعوه ليلاً كما دعاه نهاراً ، فلما دخل عليه قال له : جئتني معتذراً . فجلس النبي صلى الله عليه وسلم أمامه كالمحتاج وجعل يدعوه إلى الإسلام وقال : ن كان يمنعك العار فأجبني في هذا الوقت واسكت . فقال : لا أومن بك أو يؤمن هذا الجدي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم للجدي . من أنا ؟ فقال : أنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأطلق لسانه يثني عليه فاستولى الحسد على أبي لهب وأخذ يدي الجدي ومزقه وقال : تباً لك أثر فيك السحر . فقال الجدي : بل تبت يداك فنزلت السورة على وفق ذلك لتمزيقه يدي الحيوان الشاهد بالحق الناطق بالصدق . وفي ذكر أبي لهب بالكنية الدالة على التعظيم المنبئة عن شبهة الكذب إذ لم يكن له ولد مسمى بلهب وجوه منها : أن الكنية قد تصير اسماً بالغلبة فلا تدل على التعظيم ، وإيهام الكذب منتف لأنهم يريدون بها التفاؤل فلا يلزم منه أن يحصل له ولد يسمى بلهب . ومناه أن اسمه كان عبد العزي فكان الاحتراز عن ذكره أولى . ومنها أنه إشارة إلى أنه من أهل النار كما يقال " أبو الخير " لمن يلازمه . وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه " يا أبا تراب " لتراب لصق بظهره . وقيل : سمي بذلك لتلهب وجنتيه فسماه الله تعالى بذلك

تهكماً ورمزاً إلى مآل حاله وفي قوله ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ قال أهل الخطابة: إنام لم يقل في أوّل هذه السورة "قل تبت" كما قال

﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾

[الكافرون: 1] لئلا يشافه عمه بما يشتد غضبه رعاية للحرمة وتحقيقاً لقوله

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾

[آل عمران: 159] وأيضاً إن الكفار في تلك السورة طعنوا في الله فقال الله: يا محمد أجبهم عني

﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾

(121/837)

[الكافرون: 1] وفي هذ السورة طعنوا في حق محمد صلى الله عليه وسلم فقال الله تعالى اسكت أنت فإنيّ أشتمهم ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ وفيه تنبيه على أن الذي لا يشافه السفيه كان الله ذاباً عنه وناصراً له.

(122/837)

يروى أن أبا بكر كان يؤذيه واحد فبقي ساكتاً فجعل الرسول يذ به عنه ويزجر ذلك المؤذي فشرع أبو بكر في الجواب فسكت الرسول فقال أبو بكر : ما السبب في ذلك ؟ فقال : لإنك حين كنت ساكتاً كان الملك يجيب عنك ، فلما شرعت في الجواب انصرف الملك وجاء الشيطان . قال أبو الليث : اللهب واللهب لغتان كالنهر والنهر ولكن الفتح أوجه ، ولهذا قرأ به أكثر القراء . وأجمعوا في قوله ﴿ ذات لهب ﴾ على الفتح رعاية للفاصلة . وفي دفع التكرار عن قوله ﴿ وتب ﴾ وجوه منها : أن الأول دعاء والثاني إخبار ويؤيده قراءة ابن مسعود و " قد تب " ، ومنها أن الأول إخبار عن هلاك عمله لأن المرء إنما يسعى لمصلحة نفسه باليد ، والثاني إخبار عن هلاك نفسه وهو قول أبي مسلم . وقيل : الأول إهلاك ما له فقد يقال للمال ذات اليد ، والآخر هلاك نفسه وهو قول أبي مسلم . وقيل : الأول نفسه والثاني ولده عتبة على ما روي أن عتبة ابن أبي لهب خرج إلى الشام مع ناس من قريش فلما هموا أن يرجعوا قال لهم عتبة : بلغوا عني محمداً أني كفرت بالنجم إذا هوى . وروى أنه قال ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفل في جهه وكان مبالغاً في عداوته فقال : الله سلط عليه كلباً من كلابك . فوقع الرعب في قلب عتبة وكان يحترز دائماً فسار ليلة من الليالي إلى قريب من الصبح فقال له أصحابه : هلكت الركاب . فما زالوا به حتى نزل وهو مرعوب فأناح الإبل حوله كالسرادق فسلط الله الأسد وألقى السكينة على الإبل فجعل

الأسد يتخلل حتى افترسه . فقوله ﴿ تبت ﴾ قبل هذه الواقعة على عادة إخبار الله تعالى في جعل المستقبل كالماضي المحقق . والفرق بين المال والكسب من وجوه أحدها : أن المال عني به رأس المال والمكسوب هو الربح . وثانيها أراد الماشية والذي كسبه من نسلها وكان صاحب النعم والنتاج . وثالثها أريد ماله الموروث والذي كسبه بنفسه . وعن ابن عباس : المكسوب الولد لقوله صلى الله عليه وسلم " إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وإن ولده

(123/837)

من كسبه " روي أنه لما مات تركه أبناؤه ليلتين أو ثلاثاً حتى أنتن في بيته لعلة كانت به خافوا عدواها . وقال الضحاك وقتادة : ما ينفعه ماله وعمله الخبيث يعني كيده في عداوة الرسول وسائر أعماله التي ظن أنه منها على شيء كقوله

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل ﴾

[الفرقان : 23] وفي قوله ﴿ أغنى ﴾ بلفظ الماضي تأكيد وتحقيق على عادة إخبار الله تعالى وقد زاده تأكيداً بقوله ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ وطالما استدل به أهل السنة في وقوع تكليف ما لا يطاق قائلين إنه تعالى كلف أبا لهب بالإيمان ، ومن جملة الإيمان

تصديق الله في كل ما أخبر عنه ، ومما خبر عنه أنه لا يؤمن وأنه من أهل النار ، فقد صار مكلفاً بأن يؤمن وبأن لا يؤمن وهو تكليف بالجمع بين النقيضين .

(124/837)

وأجيب بأنه كلف بتصديق الرسول صلى الله عليه وسلم فقط لا بتصديقه وعدم تصديقه حتى يجتمع النقيضان ، وغاية ذلك أنهم كلفوا بالإيمان بعد علمهم بأنهم لا يؤمنون وليس فيه إلا انتفاء فائدة التكليف ، لأن فائدة التكليف بما علم الله لا يكون هو الابتلاء وإلزام الحجة وهذا لا يتصور بعد أن يعلم المكلف حاله من امتناع صدور الفعل عنه ، والتكليف من غير فائدة جائز عندكم لأن أفعاله تعالى غير معللة بغرض وفائدة على معتقدكم . ثم إن امرأة أبي لهب أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب عمة معاوية كانت في غاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن المفسرين من قال : كانت تحمل الشوك والحطب وتلقيهما بالليل في طريق النبي صلى الله عليه وسلم ، فلعلها مع كونها من بيت العز كانت خسيسة أو كانت لشدة عداوتها تحمل بنفسها الشوك والحطب لتلقيه في طريق الرسول صلى الله عليه وسلم . ثم من هؤلاء من زعم أن الحبل اشتد في جيدها فماتت بسبب الاختناق ، فقوله ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ يحتمل على هذا أن يكون دعاء عليها

وقد وقع كما أريد وكان معجزاً . ومنهم من قال : عيرها بذلك تشبيهاً لها بالحطابات وإيذاء لها ولزوجها . وعن قتادة أنها كانت تعير رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقر فعيرها بأنها كانت تحتطب . والأكثرون على أن المراد بقوله ﴿ حمالة الحطب ﴾ أنها كانت تمشي بالنميمة يقال للنمام المفسد بين الناس إنه يحمل الحطب بينهم أي يوقد بينهم النائرة . ويقال للمكثار هو كحاطب ليل . وقال أبو مسلم وسعيد بن جبير : أراد ما حملت من الآثام في عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه كان كالحطب في مصيره إلى النار نظيره

﴿ فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾

[الأحزاب : 58]

﴿ وليحملن أثقالهم ﴾

(125/837)

[العنكبوت : 13] "يروى عن أسماء أنه لما نزلت السورة جاءت أم جميل ولها ولولة وبيدها حجر فدخلت المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أبو بكر وهي تقول : مذمماً قلينا . ودينه أبينا . وحكمه عصينا فقال أبو بكر : يا رسول الله قد أقبلت إليك فأنا أخاف أن تراك . فقال صلى الله عليه وسلم : إنها لا تراني وقرأ ﴿ وإذا

قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً ﴾ [الإسراء : 45] فقالت لأبي بكر : قد ذكر لي أن صاحبك هجاني فقال أبو بكر : لا ورب الكعبة ما هجاك "

(126/837)

قالت العلماء : لعل أبا بكر عني بذلك أن الله تعالى قد هجاها ولم يهجها الرسول ، أو اعتقد أن القرآن لا يسمى هجواً . ثم إن أم جميل ولت وهي تقول : قد علمت قريش أني بنت سيدها . قال الواحدي : المسد في كلام العرب الفتل . يقال : مسد الحبل مسداً إذا أجاد فتله . ورجل ممسود إذا كان مجدول الخلق . والمسد بالتحريك ما مسد أي فتل من أي شيء كان كالليف والخوص وجلود الإبل والحديد . وقد عرفت معنى قوله ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ على رأي بعض أهل التفسير . وقال الآخرون : المعنى أن حالها تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها في المعنى عند النميمة ، أو في الظاهر حين كانت تحمل الحزمة من الشوك فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم وفي جيده حبل من سلاسل النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 588 .

592 ﴾

وقال الخطيب الشربينى :

سورة تبت

مكية وهي خمس آيات وثلاث وعشرون كلمة وسبعة وسبعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ المتكبر الجبار المضل الهاد ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمّ خلقه بنعمه بعد الإكرام بالإيجاد ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص بتوفيقه أهل الوداد

وقوله تعالى : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ دعاء عليه ، وسبب نزول ذلك ما روي عن ابن عباس أنه قال : لما نزل قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ (الشعراء :)

صعد صلى الله عليه وسلم الصفا جعل ينادي : "يا بني فهر يا بني عدي لبطون قريش حتى اجتمعوا عنده ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولاً لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش ، فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أنّ العدوّ مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدّقون ؟

قالوا : بلى/. ٢

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبا لك لهذا دعوتنا جميعاً فنزلت" .

وفي رواية أنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى البطحاء فصعد الجبل ونادى : "يا صباحاه فاجتمعت إليه قريش وذكر نحوه" .

وفي رواية فصعد الصفا فهتف : "يا صباحاه فقالوا : من هذا الذي يهتف ؟ فقالوا : محمد فاجتمعوا إليه فقال صلى الله عليه وسلم أرأيتم لو أخبرتكم أنّ خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدّقيّ ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا فنزلت" .

(128/837)

وعن أبي زيد أنّ ابا لهب أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : ماذا أعطى إن آمنت بك يا محمد فقال صلى الله عليه وسلم "كما يعطى المسلمون فقال ما لي عليهم فضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم وأيّ شيء تبتغي قال : تباً لهذا من دين أن أكون وهؤلاء سواء فنزلت" . ومعنى تبت قال ابن عباس : خابت . وقال قتادة : خسرت . وقال عطاء : صلت . وقال ابن جبير : هلكت والتباب الهلاك ، ومنه قولهم : أشابة أم تابة ، أي : هالكة من الهرم والتعجيز ، والمعنى : هلكت يداه لأنه فيما يروى أخذ حجراً ليرمي به النبيّ صلى الله عليه وسلم وقيل : رماه به فأدمى عقبه فلهذا ذكرت اليد وإن كان المراد جملة البدن

فهو كقولهم : خسرت يده ، وكسبت يده فأضيفت الأفعال إلى اليد ، وذلك على عادة العرب في التعبير ببعض الشيء عن كله وجميعه ، أو عبر باليدين لأنّ الغالب أنّ الأعمال تزاول بهما . وقال يمان بن رباب : صفرت من كل خير حكى الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه لما قتل عثمان سمع الناس هاتفاً يقول :

*لقد خلوك وانصرفوا ** فما آبوا ولا رجعوا*

*ولم يوافوا نذورهم ** فتباً للذي صنعوا*

وقيل : المراد باليدين دينه ودنياه ، أو أولاه وعقباه ، أو المراد بأحدهما جرّ المنفعة وبالأخرى دفع المضرّة ، أو لأنّ اليمين سلاح واليسرى جنة . وأبو لهب هو ابن عبد المطلب عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم واسمه عبد العزى . فإن قيل : : لماذا كني بذلك ولم يكن له ولد اسمه لهب ، وأيضاً فالتكنية من باب التعظيم ؟

أجيب : عن الأوّل بأنّ الكنية قد تكون اسماً كما سمي أبو سفيان وأبو طالب ونحو ذلك ، فإنّ هؤلاء أسماؤهم كناهم ، أو لتلهب وجنتيه وكان مشرق الوجه أحمره ؟ وأجيب عن الثاني بوجوه : أحدها : أنه لما كان اسماً خرج عن إفادة التعظيم ، ثانيها : أن اسمه ، كان

عبد العزى كما مرّ فعدل عنه إلى كنيته لقبح اسمه لأنّ الله تعالى لم يضف العبودية في كتابه إلى صنم. ثالثها: أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب، وافقت حاله كنيته فكان جديراً بأن يذكر بها، كقولهم: أبو الخير وأبو الشر لصدورهما منه، أو لأنّ الكنية كانت أغلب من الاسم، أو لأنها أنقص منه، ولذلك ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأسمائهم دون كناهم.

وقال الزمخشري: فإن قلت: لما كناه والكنية تكرمة، ثم ذكر ثلاثة أجوبة إمّا لشهرته بكنيته، وإمّا لقبح اسمه كما تقدّم، وإمّا لأنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب وافقت حالته كنيته اه. وهذا يقتضي أنّ الكنية أشرف من اللقب لا أنقص وهو عكس قول تقدّم. وقرأ ابن كثير بإسكان الهاء، والباقون بفتحها وهما لغتان بمعنى نحو: النهر والنهر

وقوله تعالى: ﴿وتب﴾ خبر كما يقال: أهلكه الله وقد هلك، فالأول: أخرج مخرج الدعاء عليه، والثاني: أخرج مخرج الخبر فحقق به ما أريد من الإسناد إلى اليدين من الكناية عن الهلاك الذي لا بقاء بعده، وقيل: المراد ماله وملكه كما يقال فلان قليل ذات اليد يعنون به المال، وبالثاني نفسه.

ولما دعا صلى الله عليه وسلم أقربيه إلى الله تعالى وخوّفهم، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فإني أفتدي نفسي بمالي وولدي فأنزل الله تعالى:

﴿ ما أغنى عنه ﴾ أي : عن أبي لهب ﴿ ماله ﴾ ، أي : الكثير الذي جرت العادة أنه منج من الهلاك ، فإنه كان صاحب مواش كثيرة . ﴿ وما كسب ﴾ ، أي : من الولد والأصحاب والعز بعشيرته التي كان يؤذي بها النبيّ صلى الله عليه وسلم وكان ابنه عتبة شديد الأذى للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم "اللهمّ سلط عليه كلباً من كلابك فكان أبو لهب يعرف أن هذه الدعوة ، لا بدّ أن تدركه فسافر إلى الشأم فأوصى به الرفاق لينجوه من هذه الدعوة فكانوا يحدقون به إذا نام ليكون وسطهم والحمول محيطة به وهم محيطون بها ، والركاب محيطة بهم ، فلم ينفعهم بل جاء الأسد فتشمم الناس حتى وصل إليه فاقتلع رأسه" وإنما كان الولد من الكسب لقوله صلى الله عليه وسلم "أطيب ما يأكل أحدكم من كسبه ، وإنّ ولده من كسبه" .

تنبيه : ما في ﴿ ما أغنى ﴾ يجوز فيها النفي والاستفهام فعلى الاستفهام ، تكون منصوبة المحل بما بعدها التقدير : أي شيء أغنى المال وقدم لكونه له صدر الكلام ، ويجوز في ما في قوله تعالى : ﴿ وما كسب ﴾ أن تكون بمعنى الذي فالعائد محذوف ، وأن تكون مصدرية ، أي : وكسبه وأغنى بمعنى يغني . ثم أوعده سبحانه بالنار فقال تعالى :

﴿ سيصلى ﴾ أي : عن قريب بوعد لا خلف فيه ﴿ ناراً ﴾ يندس فيها وتنعطف عليه وتحيط به ﴿ ذات لهب ﴾ ، أي : لا تسكن ولا تخمد أبداً لأنّ ذلك مدلول الصحبة المعبر عنها بذات وذلك بعد موته .

ولما أخبر تعالى عنه بكمال التباب الذي هو نهاية الخسار زاده تحقيراً بذكر من يصونها بأزرى صورة وأشنعها بقوله تعالى :

﴿ وامرأته ﴾ وهو عطف على ضمير يصلى سوغه الفصل بالمفعول وصفته ، وهي أمّ جميل وهي أخت أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، مثل زوجها في التباب والصليّ من غير أن يغني عنها شيء من مال ولا حسب ولا نسب ، وعدل عن ذكرها لأنّ صفتها القباحة وهي ضدّ كنيتها .

قال البقاعي : ومن هنا يؤخذ كراهة التلقيب بناصر الدين ونحوها لمن ليس متصفاً بما دل عليه لقبه . وقوله تعالى : ﴿ حمالة الحطب ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : هو حقيقة . قال قتادة : وكانت تعير النبيّ صلى الله عليه وسلم بالفقر ، ثم كانت مع كثرة مالها تحمل الحطب على ظهرها لشدّة بخلها فعيرت بالبخل ، وقال ابن زيد : كانت

تحمل العضاه والشوك تلقيه في الليل في طريق النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يطؤه كما يطأ الحرير ، وقال برّة الهمداني : كانت أمّ جميل تأتي في كل يوم بإبالة من الحسك فتطرحها في طريق المسلمين فبينما هي ذات ليلة حاملة حزمة عييت فقعدت على حجر تستريح فجذبها الملك من خلفها فأهلكها .

الوجه الثاني : أنّ ذلك مجاز عن المشي بالتسمية ورمي الفتن بين الناس ، ويقال للمشاء بين الناس بالنمائم المفسد بين الناس يحمل الحطب منهم ، أي : يوقد بينهم ويثير الشر قال الشاعر :

*من البيض لم تصطد على ظهر لأمة ** ولم تمش بين الناس بالحطب الرطب*

جعله رطباً ليدلّ على التدخين الذي هو زيادة في الشرّ . وقال سعيد بن جبير : حمالة الخطايا والذنوب من قولهم : فلان يحتطب على ظهره قال تعالى : ﴿ يحملون أوزارهم على ظهورهم ﴾ (الأنعام :)

وقرأ عاصم بنصب التاء من حمالة على الشتم ، قال الزمخشري : وأنا أستحب هذه القراءة ، وقد توسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحب شتم أمّ جميل اه .

والباقون برفعها على أنها صفة امرأته فإنها مرفوعة باتفاق إما بالعطف على الضمير في سيصلى كما مرّ ، ويكون قوله تعالى :

﴿ في جيدها حبل ﴾ حالاً من امرأته ، أو على الابتداء ففي جيدها حبل هو الخبر وحبل فاعل به ، ويجوز أن يكون في جيدها خبراً مقدّماً وحبل مبتدأ مؤخراً ، والجملة حالية أو خبر ثان . والجيد العنق ويجمع على أجياد .

وقوله تعالى : ﴿ من مسد ﴾ صفة لحبل والمسد ليف المقل ، وقيل : الليف مطلقاً ، وقال أبو عبيد : هو حبل يكون من صوف ، وقال الحسن : هي حبال من شجر ينبت باليمن يسمى المسدد ، وكانت تفتله . وقال الضحاك وغيره : هذا في الدنيا وكانت تعير النبيّ صلى الله عليه وسلم بالفقر وهي تحتطب في حبل تجعله في جيدها من ليف فخنقها الله عز وجل به فأهلكها ، وهو في الآخرة حبل من نار . فإن قيل : إن كان ذلك حبلها فكيف يبقى في النار ؟

أجيب : بأنّ الله تعالى قادر على تجدده كلما احترق كما يبقي اللحم والعظم أبداً في النار . وعن ابن عباس قال : هو سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً تدخل فيها وتخرج من أسفلها ، ويلوي سائرها على عنقها .

وقال قتادة : هو قلادة من ودع . وقال الحسن : إنما كان خرزاً في عنقها . وقال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة من جوهر فقالت : واللات والعزى لانفقنها في عداوة محمد ، ويكون ذلك عذاباً في جيدها يوم القيامة . وقيل : إنّ ذلك إشارة إلى الخذلان يعني

أنها مربوطة عن الإيمان لما سبق لها من الشقاء كالمربوط في جيده بحبل من مسد والمسد الفتل، يقال: مسد حبله يمسده مسداً، أي: أجاد فتله والجمع أمساد. وروي أنها لما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر، وفي يدها فهر من حجارة تريد أن ترميه به فلما وقفت عليه أخذ الله تعالى بصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، والله إني لشاعرة:

* ** مذمما عصينا وأمره أبينا ودينه قلينا

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما ترى ما رأتك قال صلى الله عليه وسلم "ما رأتني لقد أخذ الله تعالى بصرها" عني وكانت قريش إنما تسمي محمداً صلى الله عليه وسلم مذمما ثم يسبونه، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا تعجبوا لما صرف الله تعالى عني من أذى قريش يهجون مذمماً وأنا محمداً". انظر كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحمل هذا الأذى ويحلم عليهم فينبغي لغيره أن يكون له به أسوة قال الله تعالى:

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ (الأحزاب :)

تنبيه : احتج أهل السنة على تكليف ما لا يطاق بأنه تعالى كلف أبا لهب بالإيمان بتصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه أنه لا يؤمن من أهل النار ، فإنه قد صار مكلفاً بأن يؤمن بأنه لا يؤمن ، وهذا تكليف بالجمع بين النقيضين وهو محال وذلك مذكور في أصول الفقه . وقد تضمنت هذه الآيات الأخبار عن الغيب بثلاثة أوجه :

أحدها : الإخبار عنه بالتباب والخسران وقد كان ذلك .

ثانيها : الإخبار عنه بعدم الانتفاع بماله وولده وقد كان ذلك .

ثالثها : الإخبار عنه بأنه من أهل النار وقد كان ذلك ، لأنه مات على الكفر هو وامرأته ففي ذلك معجزة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وامرأته خنقها الله تعالى بحبلها كما مرّ ، وأبو لهب رماه الله تعالى بالعدسة بعد وقعة بدر بسبع ليال فمات ، وأقام ثلاثة أيام لا يدفن حتى أنتن ثم إنّ ولده غسله بالماء قذفاً من بعيد مخافة عدوى العدسة وكانت قريش تتقيها كما تتقي الطاعون ، ثم احتملوه إلى أعلى مكة وأسندوه إلى جدار ثم رضموا عليه الحجارة . وقيل : إنّ الله تعالى يدخل امرأته جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الحطب ، ولا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من أصل شجرة الزقوم ، أو من الضريع وفي جيدها حبل من مسد من سلاسل النار ، كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه .

وقول البيضاوي تبعاً للزمخشري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ سورة تبت رجوت أن لا يجمع الله بينه وبين أبي لهب في دار واحدة" . حديث موضوع. انتهى انتهى. اهـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 458. 463 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ تُبْتُ ﴾

أيْ هلكَتْ ﴿ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ هُو عبدُ العُزَّى بنُ عبدِ المطلبِ وإيثارُ التبابِ على الهلاكِ وإسنادُهُ إلى يديهِ لما رُوِيَ أنَّهُ لما نزلَ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقربين ﴾ رَقَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الصَّفَا وجمعَ أقاربَهُ فأنذرهُم فقالَ أبو لهبٍ : تباً لكَ ألِهذَا دعوتَنَا ؟ وأخذَ حجراً ليرميهِ عليهِ السلامُ بهِ ﴿ وَتَبَّ ﴾ أيْ وهلكَ كُلُّه وقيل : المرادُ بالأولِ هلاكُ جملتِه كقولِه تعالَى : ﴿ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة ﴾ ومَعْنى وتبَّ وكانَ ذلكَ وحصلَ كقولِ

من قالَ :

جزَاني جزَاهُ اللهُ شرَّ جزائِه . . . جزاءَ الكلابِ العاوياتِ وَقَدْ فَعَلْ

(136/837)

ويؤيدُه قراءةُ من قَرأ وقَدْ تبَّ وقيلَ : الأولُ إخبارٌ عن هلاكِ عملِه لأنَّ الأعمالَ تزاولُ غالباً بالأيدِي والثانِي إخبارٌ عن الهلاكِ نفسه وقيل كلاهما دعاء عليه بالهلاك وقيل الأول دعاء والثاني إخبار وذِكرُ كنيتِه للتعريضِ بكونِه جُهنمياً ولاشتهارِه بهَا ولكراهةِ ذكرِ اسمِه القبيحِ وقُرِىءَ أبُو لهب كما قيلَ : عليُّ بنُ أبو طالبٍ وقرىءَ أبي لَهْبٍ بسكونِ الهاء ﴿ مَا أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ أي لَمْ يُغنِ عنْهُ حينَ حَلَّ بِهِ التبابُ على أنَّ ما نافيةٌ أو أيُّ شيءٍ أغنَى عنْهُ على أنَّها استفهاميةٌ في مَعْنى الإنكارِ منصوبةٌ بمَا بعدَها أصلُ مالِه وما كسبَهُ مِنَ الأرباحِ والنتائجِ والمنافعِ والوجاهةِ والأتباعِ أو مالُه الموروثُ من أبيهِ والذي كسبَهُ بنفسِه أو عملُه الخبيثُ الذي هُو كيدُه في عداوةِ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ أو عملُه الذي ظَنَّ أنَّه منْهُ على شيءٍ كقولِه تعَالَى : ﴿ وَقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً ﴾ وعَنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهمَا ما كسبَ ولدُه ورُوِيَ أنَّه كانَ يقولُ : إنْ كانَ ما يقولُ ابنُ أخِي حقاً فأنَا أفتدِي منْهُ نفسِي بمالِي وولدِي فأستخلصُ منهُ وقد خابَ مرجاهُ وما حصلَ ما

تمناهُ فافترسَ ولدَهُ عتبةَ أسدٌ في طريقِ الشامِ بينَ العيرِ المكتنفةِ بِهِ وقدْ كانَ عليهِ السلامُ دعَا عليهِ وقالَ : " اللهمَّ سلطْ عليهِ كلباً من كلابكَ " وهلكَ نفسه بالعدسةِ بعدَ وقعةِ بدرٍ لسبعِ ليالٍ فاجتنبَهُ أهلُهُ مخافةَ العدوى وكانتْ قريشٌ تتقيهَا كالطاعونِ فبقَي ثلاثاً حتى أنتنَ ثم استأجرُوا بعضَ السودانِ فاحتملُوه ودفنُوه فكانَ الأمرُ كما أخبرَ بِهِ القرآنُ .

(137/837)

﴿ سيصلى ﴾ بفتحِ الياءِ وقُرِىءَ بضمِّها وفتحِ اللامِ بالتخفيفِ والتشديدِ والسينُ لتأكيدِ الوعيدِ وتشديدِه أيْ سيدخلُ لا محالةَ بعدَ هذا العذابِ العاجلِ في الآخرة ﴿ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أيْ ناراً عظيمةً ذاتَ اشتعالٍ وتوقدٍ وهيَ نارُ جهنمَ وليسَ هذا نصاً في أنَّه لا يؤمنُ أبداً حتَّى يلزمَ تكليفُه الإيمانَ بالقرآنِ مكلفاً بأنْ يؤمنَ بأنَّهُ لاَ يؤمنُ أبداً فيكونَ مأموراً بالجمعِ بينَ النقيضينِ كما هُوَ المشهورُ فإنَّ صِلِيَ النارِ غيرُ مختصٍ بالكفارِ فيجوزُ أنْ يفهمَ أبُو لهبٍ من هذا أنَّ دخولَهُ النارَ لفسقِه ومعاصيهِ لا لكفرِه فلا اضطرارَ إلى الجوابِ المشهورِ من أنَّ ما كلفَهُ هُوَ الإيمانُ بجميعِ ما جاءَ بِهِ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ إجمالاً لا الإيمانُ بتفاصيلِ ما نطقَ بِهِ القرآنُ حتَّى يلزمَ أنْ يكلفَ الإيمانَ بعدمِ إيمانِه المستمرِ ﴿ وامرأته ﴾ عطفٌ على المستكنّ في سيصلَى لمكانِ الفصلِ بالمفعولِ وهيَ أمُّ جميلٍ بنتُ حربٍ أختُ أبي سفيانَ

وكانتْ تحملُ حزمةً من الشوكِ والحَسَكِ والسعدانِ فتنثرَها بالليلِ في طريقِ النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ وكانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ يطؤه كمَا يطأُ الحريرَ وقيلَ : كانتْ تمشِي بالنميمةِ ويقالُ لمنْ يمشِي بالنمائمِ ويفسدُ بينَ الناسِ يحملُ الحطبَ بينهُمْ أيْ يوقدُ بينهُم النارَ ﴿ حَمَّالَةَ الحطبِ ﴾ بالنصبِ على الشتمِ والذمِّ وقيلَ : على الحاليةِ بناءً على أنَّ الإضافةَ غيرُ حقيقيةٍ إذِ المرادُ أنَّها تحملُ يومَ القيامةِ حزمةً من حطبِ جهنمَ كالزقومِ والضريعِ . وعن قتادةَ أنَّها مع كثرةِ مالِها كانتْ تحملُ الحطبَ على ظهرِهَا لشدةِ بُخْلِها فعيرتْ بالبخلِ فالنصبُ حينئذٍ على الشتمِ حتماً وقرِىءَ بالرفعِ على أنَّه خبرٌ وامرأتُه مبتدأٌ وقرِىءَ حمالةٌ للحطبِ بالتنوينِ نصباً ورفعاً وقُرِىءَ مُرَيَّتُهُ بالتصغيرِ للتحقيرِ ﴿ فِى جِيدِهَا

(138/837)

حَبْلٌ مّن مَّسَدٍ ﴾ جملةٌ من خبرٍ مقدمٍ ومبتدأ مؤخرٍ والجملةُ حاليةٌ وقيلَ : الظرفُ خبرٌ لامرأتِه وحبلٌ مرتفعٌ بِه على الفاعليةِ وقيلَ : هُو حالٌ من امرأتِه على تقديرِ عطفِها على ضميرِ سيصلَى وحبلٌ فاعلٌ كما ذُكرَ والمسدُ ما يُفتلُ من الحبالِ فتلاً شديداً من ليفِ المقلِ وقيلَ : من أيِّ ليفٍ كانَ وقيلَ : من لحاءِ شجرٍ باليمنِ وقدْ يكونُ من جلودِ الإبلِ وأوبارِها والمَعْنى في عنقِها حبلٌ ممَّا مسدَ من الحبالِ وأنها تحملُ تلكَ الحزمةَ من الشوكِ وتربطُها في

جيدِها كما يفعلُ الحطابونَ تخسيساً بحالِها وتصويراً لهَا بصورةِ بعضِ الحطاباتِ من المواهنِ لتمتعضَ من ذلكَ ويتمعضَ بعلُها وهُما في بيتِ العزِّ والشرفِ . قال مُرةُ الهَمْدانيُّ : كانتْ أمُّ جميلٍ تأتِي كُلَّ يومٍ بإبالةٍ من حسَكٍ فتطرحُها على طريقِ المسلمينَ فبينَا هي ذاتَ ليلةٍ حاملةٌ حزمةً أعيتْ فقعدتْ على حجرٍ لتستريحَ فجذبَها الملكُ من خلفِها فاختنقتْ بحبلِها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 9 صـ ﴾

(139/837)

وقال الجاوى :

سورة أبي لهب

وتسمى سورة تبت ، مكية ، خمس آيات ، ثلاث وعشرون كلمة ، سبعة وسبعون حرفا

تَبَّتْ أي هلكت يَدا أَبِي لَهَبٍ هو عبد العزى بن عبد المطلب ، وَتَبَّ (1) أي هلك هو ، فالأولى : مشت تمشية الدعاء عليه . والثانية : أخرجت مخرج الخبر ، أي وقد حصل الهلاك عليه ، فهذه الجملة على هذا على تقدير : قد ، ويؤيده قراءة ابن مسعود وقد تب بالتصريح بقد ، وقيل : كل واحد من الجملتين أخبار ولكن أريد بالجملة الأولى هلاك عمله ، وبالثانية هلاك نفسه ، فإن المرء إنما يسعى لمصلحة نفسه وعمله ، فأخبر اللّه تعالى أنه

محروم من الأمرين .

روي أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم صعد الصفا ذات يوم وقال : «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش فقالوا : ما لك ؟ قال : «أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقونني ؟» قالوا : بلى ، قال : «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»

«1» ، فقال : عند ذلك أبو لهب : تبا لك ألهذا دعوتنا ! فنزلت هذه السورة .

وروي أنه قال : فما لي إن أسلمت ؟ فقال : «ما للمسلمين» فقال : أفلا أفضل عليهم ؟ فقال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «بما ذا تفضل ؟» فقال : تبا لهذا الدين أستوي فيه أنا وغيري .

روي أنه صلّى اللّه عليه وسلّم لما دعاه نهارا فأبى ، فلما جن الليل ذهب إلى داره مستنا بسنة نوح ليدعوه ليلا كما دعاه نهارا فلما دخل عليه قال له : جئتني معتذرا ، فجلس النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أمامه كالمحتاج وجعل يدعوه إلى الإسلام وقال : «إن كان يمنعك العار فأجبني في هذا الوقت واسكت» . فقال : لا أؤمن بك حتى يؤمن بك هذا الجدي . فقال صلّى اللّه عليه وسلّم للجدي : «من أنا ؟» «2» فقال : رسول اللّه . وأطلق لسانه يثني عليه صلّى اللّه عليه وسلّم ، فاستولى الحسد على أبي لهب ، فأخذ بيدي الجدي ومزقه وقال : تبا لك أثر فيك السحر ! فقال الجدي : بل تبا لك . فنزلت هذه السورة على وفق

ذلك تبت يدا أبي لهب لتمزيقه

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (14 : 345) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (8 : 293) ، والمتقي الهندي في كنز العمال (35632) .

(2) رواه ابن حجر في تلخيص الحبير (4 : 9) .

يدي الجدي

، وقد حصل له وجود الاعتقاد الباطل ، والقول الباطل ، والعمل الباطل ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ (2) أي أيّ تأثير كان لماله وكسبه في دفع البلاء عنه ، فإنه لا أحد أكثر مالا من قارون ، فهل دفع الموت عنه ؟ ولا أعظم ملكا من سليمان فهل دفع الموت عنه ؟ أو لا ينفع أبا لهب ماله وكسبه عند ذلك ، ف «ما » في «ما أغنى» للنفي ؟ أو للاستفهام و«ما » في «ما كسب» إما مصدرية أو موصولة حذف عائدها ، أو استفهامية أي أيّ شيء كسب فينفعه . روي أن أبا لهب كان يقول : إن كان ما يقول ابن أخي حقا فأنا أفتدي منه نفسي بمالي وولدي فاستخلص منه ، وقد خاب مرجاه وما حصل ما تمناه ، فافترس أسد ولده عتيبة بالتصغير في طريق الشام فأنزل اللّه تعالى هذه الآية . والكسب : هو أرباح ماله .

وقيل : نتاج ماشيته. وقال ابن عباس : وما كسب هو ولده والدليل عليه قوله صلّى اللّه عليه وسلّم : «إن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وإن ولده من كسبه» «1» وقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «أنت ومالك لأبيك» «2». ومات أبو لهب بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال. والعدسة : بثرة تخرج بالبدن فتقتل، سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ (3) أي سيدخل أبو لهب في الآخرة نارا عظيمة ذات اشتعال. وقرئ بضم الياء وفتح اللام مخففا ومشددا، وَامْرَأَتُهُ معه أم جميل العوراء بنت حرب أخت أبي سفيان صخر بن حرب، واسمها العواء. وقيل : اسمها أروى. وقرئ و«مريئته» بالتصغير للتحقير، حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) وماتت مخنوقة بحبلها وكانت لشدة عداوتها للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم تحمل بنفسها الشوك والحطب، فتنثره بالليل في طريق النبي صلّى اللّه عليه وسلّم، وكان عليه السلام يطؤه كما يطأ الحرير. وقرأ عاصم بالنصب على الشتم، أو على الحال إذا أريد بحمل الحطب في مطلق الزمن، وقرأ الباقون بالرفع على أنه نعت لامرأته إذا أريد به المضي. وقرئ «حمالة للحطب» بالتنوين نصبا ورفعا فالرفع على الخبر لامرأته، والنصب على الشتم أو على الحال من «امرأته» إن جعلناها مرفوعة بالعطف على الضمير المستتر، فإنها تحمل يوم القيامة حزمة من حطب النار كما كانت تحمل الحطب في الدنيا لأذية الرسول، وحينئذ فجملة «في جيدها» في موضع الحال من «امرأته» وإن جعلناها مرفوعة بالابتداء فجملة «في جيدها» إلخ هو الخبر. فِي جِيدِها

حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5) أي من حديد في الآخرة، فقد قال ابن عباس: هو سلسلة من حديد ذرعها سبعون ذراعا تدخل من فيها، وتخرج من دبرها، ويكون سائرها في عنقها،

---

(1) رواه أبو داود في السنن (3530)، وابن ماجة في السنن (2291)، وأحمد في (م 2/ص 204)، والبيهقي في السنن الكبرى (7: 480)، والهيثمي في مجمع الزوائد (4:

154)، وابن حجر في تلخيص الحبير (3: 189)، وعبد الرزاق في المصنف (16628)، والسيوطي في الدر المنثور (1: 347)، والقرطبي في التفسير (5: 412).

(2) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (3: 82)، والحاكم في المستدرك (3: 74)، وأحمد في (م 4/ص 161).

(141/837)

فتلت من حديد فتلا محكما ويقال: أي في عنقها رسن من ليف المقل وهو شجر الدوم الذي اختنقت به وماتت.

قال قتادة والضحاك: إن العواء كانت تعيّر رسول اللّه بالفقر فعيّرها اللّه بأنها كانت

تحتطب في حبل من ليف تجعله في جيدها ، فخنقها اللّه تعالى به ، فأهلكها . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مراح لبيد حـ 2 صـ 678.676 ﴾

(142/837)

وقال النخجواني :

[سورة تبت]

فاتحة سورة تبت

لا يخفى على من كشف له الغناء الذاتي الإلهي وظهر عنده أن الدنيا وما فيها ما هي إلا سراب باطل وظل زاهق زائل لا ثبات لنعيمها ولا قرار لمقيمها وان الاغترار بها وبما يترتب على حطامها وأمتعتها الفانية انما هو من كمال الجهل والغفلة عن اللّه وعن اللذات الأخروية المعدة عنده سبحانه لأرباب العناية والكرامة كما أخبر سبحانه في هذه السورة عن بعض المسرفين المحتجبين عن اللّه المشتغلين عن مقتضيات ألوهيته وربوبيته من غاية اغتراره بماله وجاهه وثروته ونخوته وسيادته بين الأنام فقال بعد التيمن بِسْمِ اللَّهِ الغنى بذاته عن عموم مظاهره ومصنوعاته الرَّحْمنِ عليهم بافاضة الوجود الرَّحِيمِ عليهم حيث يوصلهم إلى مرتبة الكشف والشهود في اليوم الموعود لو أخلصوا في التوجه والطاعات نحو الخلاق الودود

[الآيات]

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ أى قد خابت وخسرت خيبة ابدية وخسرانا سرمديا بحيث قد هلكت في نار القطيعة نفس الجهنمى الذي يداه كناية عن نفسه وذلك لأنه من غاية نخوته وغروره وشدة بطره وشروره ظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنواع المنكر والمكروه وعارضه على وجه لا يليق بشأنه صلى الله عليه وسلم اتكالا على ماله وجاهه ورئاسته بين أمته وذلك انه لما نزل الآية الكريمة وانذر عشيرتك الأقربين صعد رسول الله صلى الله عليه ذات يوم إلى الصفا فنادى يا بنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فقال أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلا بالوادي يريد ان يغير عليكم أكنتم مصدقي قالوا نعم ما جربنا عليك الا صدقا قال فانى نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال ابو لهب على سبيل الاستهزاء تبا لك يا محمد لهذا جمعتنا فنزلت تبت يدا ابى لهب بمجادلته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرائه معه وقصد استحقاره واستهانته إياه صلى الله عليه وسلم وَقد تَبَّ وهلك ذلك اللعين المفرط على الوجه الذي أخبر الله بهلاكه إلى حيث ما أَغْنى ودفع عَنْهُ مالُهُ الذي اتكل عليه واستظهر به شيأ من غضب الله وَما نفع له ونصره ما كَسَبَ وجمع وادخر من الأموال والأولاد والأعوان والاتباع قيل مات بالعدسة بعد وقعة بدر بأيام معدودة وترك ثلاثة ايام حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه فهو اخبار عن الغيب وقد وقع هذا على وجهه في النشأة الاولى

سَيَصْلى ويدخل ذلك اللعين نارا ذاتَ لَهَبٍ واشتعال من شدة سورتها والتهابها وصولتها وفظاعتها

وَامْرَأَتُهُ التي كانت تمشى بالنميمة بين الناس وتوقد نيران الفتن والعداوة بينهم أيضا معه بل تصير هي حينئذ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ لنار جهنم تحتطب لها من الضريع والزقوم او هي حمالة الحطب فيها على قراءة الرفع يعنى صورت نميمتها التي قد مشيت بها في دار الدنيا بايقاد نار الفتن على هذه الصورة فتلازمها دائما

فِي جِيدِها وعنقها

حَبْلٌ أى سلسلة متخذة مِنْ مَسَدٍ مفتول قد فتل من الحديد تحمل بها الحطب مع انها من اشرف قريش أى وزوجها ايضا

خاتمة سورة تبت

عليك أيها المريد المعتبر المستبصر عصمك اللّه عن تباب الدارين وخسارهما وبوارهما ان تتأمل في رموزات القرآن من القصص والاحكام والعبر والأمثال فتأخذ حظك منها مقدار ما يسر اللّه لك وأودعه في وسعك وطاقتك واعلم ان كل ما ذكر في القرآن انما نزل للإرشاد

والتكميل فلك ان تأخذ من إشارات هذه السورة حسن المعاشرة وآداب المصاحبة سيما مع الاخوان والجيران وارباب العرفان وتتفطن منها بحقارة مزخرفات الدنيا وما يترتب عليها من اللذات البهيمية الساقطة عن رتبة الاعتبار الزائغة الزائلة بلا قرار ومدار . انتهى انتهى . اهـ ﴿الفوائح الإلهية حـ 2 صـ 536.537﴾

(144/837)

وقال الآلوسى :

﴿تَبَّتْ﴾

أي هلكت كما قال ابن جبير وغيره ومنه قولهم أشابة أم تابة يريدون أم هالكة من الهرم والتعجيز أي خسرت كما قال ابن عباس وابن عمر وقتادة وعن الأول أيضاً خابت وعن يمان بن وثاب صفرت من كل خير وهي على ما في البحر أقوال متقاربة وقال الشهاب أن مادة التباب تدور على القطع وهو مؤد إلى الهلاك ولذا فسر به وقال الراغب هو الاستمرار في الخسران ولتضمنه الاستمرار قيل استتب لفان كذا أي استمر ويرجع هذا المعنى إلى الهلاك ﴿يَدَا أَبِى لَهَبٍ﴾ هو عبد العزى بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان شديد المعاداة والمناصبة له عليه الصلاة والسلام ومن ذلك ما في الجمع عن

طارق المحاربي قال بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا برجل حديث السن يقول أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وإذا رجل خلفه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول يا أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه فقلت من هذا فقالوا هو محمد صلى الله عليه وسلم يزعم أنه نبي وهذا عمه أبو لهيب يزعم أنه كذاب وأخرج الإمام أحمد والشيخان والترمذي عن ابن عباس قال لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ [الشعراء : 214] صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدى لبطنون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو فجاء أبو لهب وقريش فقال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا نعم ، ما جربنا عليك الآَّ صدقاء قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تبّاً لك سائر الأيام ألهذا جمعتنا فنزلت ويروى أنه مع ذلك القول أخذ بيديه حجراً ليرمي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن هذا يعلم وجر إيثار التباب على الهلاك ونحوه مما تقدم واسناده إلى يديه وكذا مما روى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس أيضاً أن أبا لهب قال لما خرج من الشعب وظاهر قريشاً أن محمداً يعدنا أشياء لا نراها

كائنة يزعم أنها كائنة بعد الموت فماذا وضع في يديه ثم نفخ في يديه ثم قال تبا لكما ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد صلى الله عليه وسلم فنزلت تبت يدا أبي لهب ومما روي عن طارق يعلم وجه الثاني فقط فاليدان على المعنى المعروف والكلام دعاء بهلاكهما وقوله سبحانه ﴿ وَتَبَّ ﴾ دعاء بهلاكه كله وجوزان يكونا أخبارين بهلاك ذينك الأمرين والتعبير بالماضي في الموضعين لتحقق الوقوع وقال الفراء الأول دعاء بهلاك جملته على أن اليدين اما كناية عن الذات والنفس بما بينهما من اللزوم في الجلمة أو مجاز من إطلاق الجزء على الكل كما قال محيي السنة والقول في رده أنه يشترك أن يكون الكل يعدم بعدمه كالرأس والرقبة واليد ليست كذلك غير مسلم لتصريح فحول بخلافه هنا وفي قوله تعالى ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ [البقرة : 195] أو المراد على ما قيل بذلك الشرط بعدم حقيقة أو حكما كما في إطلاق العين على الربيئة واليد على المعطي أو المتعاطى لبعض الأفعال فإن الذات من حيث اتصافها بما قصد اتصافها به تعدم بعدم ذلك العضو والثاني أخبار بالحصول أي وكان ذلك وحصل كقول النابغة :

جزاني جزاه الله شر جزائه . . .

جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

واستظهر أن هذه الجملة حالية وقد مقدرة على المشهور كما قرأ به ابن مسعود وفي الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس في سبب النزول فنزلت هذه السورة تبت يدا أبي لهب وقد تب وعلى هذه القراءة يمتنع أن يكون ذلك دعاء لأن قد لا تدخل على أفعال الدعاء وقيل الأول أخبار عن هلاك عمله حيث لم يفده ولم ينفعه لأن الأعمال تزاول بالأيدي غالباً والثاني أخبار عن هلاك نفسه وفي التأويلات اليد بمعنى النعمة وكان يحسن إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى قريش ويقول إن كان الأمر لمحمد فلي عنده يد وإن كان لقريش فكذلك فأخبر أنه خسرت يده التي كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم بعناده له ويده التي عند قريش أيضاً بخسران قريش وهلاكهم في يد النبي عليه الصلاة والسلام فهذا معنى تبت يدا أبي لهب والمراد بالثاني الأخبار بهلاكه نفسه وذكر بكنيته لاشتهاره بها وقد أريد تشهيره بدعوة السوء وإن تبقى سمة له وذكره بأشهر علميه أوفق بذلك ويؤيد ذلك قراءة من قرأ يدا أبو لهب كما قيل علي بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان لئلا يغير منه شيء فيشكل على السامع أو لكراهة ذكر اسمه القبيح أو لأنهلأكما روي عن مقاتل كان يكنى بذلك لتلهب وجنتيه واشراقهما فذكر بذلك تهكماً به وبافتخاره بذلك أو لتجانس ذات لهب ويوافقه لفظاً ومعنى والقول بأنه ليس بتجنيس لفظي لأنه ليس في الفاصلة وهم فانهم لم يشترطوه فيه أو لجعله كناية عن الجهنمي فكأنه قيل تبت يدا جهنمي

وذلك لأن انتسابه إلى اللهب كانتساب الأب إلى الولد يدل على ملابسته له وملازمته إياه كما يقال هو أبو الخير وأبو الشر وأخو الفضل وأخو الحرب لمن يلابس هذه الأمور ويلازمها وملازمته لذلك تستلزم كونه جهنميا لزوماً عرفياً فإن اللهب الحقيقي هو لهب جهنم فالانتقال من أبي لهب إلى جهنمي انتقال من الملزوم إلى اللازم أو بالعكس على اختلاف الرأيين في الكناية فإن التلازم بينهما في الجملة متحقق في الخارج والدهن إلا أن هذا

(147/837)

اللزوم إنما هو بحسب الوضع الأول أعني الإضافي دون الثاني أعني العلمي وهم يعتبرون في الكنى المعاني الأصلية فأبو لهب باعتبار الوضع العلمي مستعمل في الشخص المعين وينتقل منه باعتبار وضعه الأصلي إلى ملابس اللهب وملازمه لينتقل منه إلى أنه جهنمي فهو كناية عن الصفة بالواسطة وهذا ما اختاره العلامة الثاني فعنده كناية بلا واسطة لأن معناه الأصلي أعني ملابس اللهب ملحوظ مع معناه العلمي واحق مع العلامة لأن أبا لهب يستعمل في الشخص المعين والمتكلم بناء على اعتبارهم المعاني الأصلية في الكنى ينتقل منه إلى المعنى الأصلي ثم ينتقل منه إلى الجهنمي ولا يلاحظ معه معناه الأصلي وإلا لكان لفظ أبي لهب في الآية مجازاً سواء لوحظ معه معناه الأصلي بطريق الجزئية أو التقييد لكونه

غير موضوع للمجموع وما قيل إن المعنى الحقيقي لا يكون مقصوداً في الكناية وإن مناط الفائدة والصدق والكذب فيها هو المعنى الثاني وههنا قصد الذات المعين فليس بشيء لأن الكناية لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادته معه فيجوز ههنا أن يكون كلا المعنيين مراداً وفي المفتاح تصريح بأن المراد في الكناية هو المعنى الحقيقي ولازمه جميعاً وزعم السيد أيضاً أن الكناية في أبي لهب لأنه اشتهر بهذا الاسم وبكونه جهنمياً فدل اسمه على كونه جهنمياً دلالة حاتم على أنه جواد فإذا أطلق وقصد به الانتقال إلى هذا المعنى يكون كناية عنه وفيه أنه يلزم منه أن تكون الكناية في مثله موقوفة على اشتهار الشخص بذلك العلم وليس كذلك فانهم ينتقلون من الكنية إلى ما يلزم مسماها باعتبار الأصل من غير توقف على الشهرة قال الشاعر :

قصدت أنا المحاسن كي أراه . . .

لشوق كاد يجذبني إليه

فلما أن رأيت رأيت فردا . . .

ولم أر من بنيه ابنا لديه

على أن فيه بعد ما فيه وقرأ ابن محيصن وابن كثير أبي لهب بسكون الهاء وهو من تغيير الاعلام على ما في الكشاف وقال أبو البقاء الفتح والسكون لغتان وهو قياس على المذهب الكوفي .

﴿ مَا أغنى عَنْهُ مَالُهُ ﴾ أي لم يغن عنه ماله حين حل به التباب على أن ما نافية ويجوز أن تكون استفهامية في محل نصب بما بعدها على أنها مفعول به أو مفعول مطلق أي أي اغناه أو أي شيء أغنى عنه ماله ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ أي والذي كسبه على أن ما موصولة وجوز أن تكون مصدرية أي وكسبه وقال أبو حيان إذا كان ما الأولى استفهامية فيجوز أن تكون هذه كذلك أي وأي شيء كسب أي لم يكسب شيئاً وقال عصام الدين يحتمل أن تكون نافية والمعنى ما أعبد عنه ماله مضرة وما كسب منفعة وظاهره أنه جعل فاعل كسب ضمير المال وهو كما ترى واستظهر في البحر موصوليتها فالعائد محذوف أي ولذي كسبه به من الأرباح والنتائج والمنافع والوجاهة والاتباع أو ما أغنى عنه ماله الموروث من أبيه والذي كسبه بنفسه أو ماله والذي كسبه من عمله الخبيث الذي هو كيده في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم كما قال الضحاك أو من عمله الذي يظن انه منه على شيء كقوله تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما علموا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ [الفرقان : 23] كما قال قتادة وعن ابن عباس ومجاهد ما كسب من الولد أخرج أبو داود عن عائشة مرفوعاً أن أطيب ما يأكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه وروي أنه كان يقول إن كان ما يقول ابن

أخي حقاً فإنا أفتدى منه نفسي بمالي وولدي وكان له ثلاثة أبناء عتبة ومعتب وقد أسلما يوم الفتح وسر النبي عليه الصلاة والسلام بإسلامهما ودعا لهما وشهدا حنيناً والطائف وعتيبة بالتصغير ولم يسلم وفي ذلك يقول صاحب كتاب الالباء .

كرهت عتيبة إذ أجرما . . .

وأحببت عتبة إذ أسلما

كذا معتب مسلم فاحترز . . .

وخف أن تسب فتى مسلماً

(149/837)

وكانت أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند عتيبة ورقية أختها عند أخيه عتبة فلما نزلت السورة قال أبو لهب لهما رأسي ورأسكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد صلى الله عليه وسلم فطلقاهما إلا أن عتيبة المصغر كان قد أراد الخروج إلى الشام مع أبيه فقال لآتين محمداً عليه الصلاة والسلام وأوذينه فأتاه فقال يا محمد أني كافر بالنجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى ثم تفل تجاه رسول الله : صلى الله عليه وسلم ولم يصبه عليه الصلاة والسلام شيء وطلق ابنته أم كلثوم فأغضبه عليه الصلاة والسلام بما قال وفعل فقال صلى

الله عليه وسلم اللهم سلط عليه كلبا من كلابك وكان أبو طالب حاضراً فكره ذلك وقال له ما أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة فرجع إلى أبيه ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً فأشرف عليهم راهب من دير وقال لهم إن هذه أرض مسبعة فقال أبو لهب أغيثوني يا معشر قريش في هذه الليلة فإني أخاف على ابني دعوة محمد صلى الله عليه وسلم فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم خوفاً من الأسد فجاء أسد يتشمم وجوههم حتى أتى عتيبة فقتله وفي ذلك يقول حسان :

من يرجع العام إلى أهله . . .

فما أكيل السبع بالراجع

وهلك أبو لهب نفسه بالعدسة بعد وقعة بدر لسبع ليال فاجتنبه أهله مخافة العدوى وكانت قريش تتقيها كالطاعون فبقي ثلاثاً حتى انتن فلما خافوا العار استأجروا بعض السودان فاحتملوه ودفنوه وفي رواية حفروا له حفرة ودفعوه بعود حتى وقع فيها فقذفوه بالحجارة حتى واروه وفي أخرى انهم لم يحفروا له وإنما أسندوه لحائط وقذفوا عليه الحجارة من خلفه حتى توارى فكان الأمر كما أخبر به القرآن وقرأ عبد الله وما اكتسب بناء الافتعال .

﴿ سيصلى نَاراً ﴾ سيدخلها لا محالة في الآخرة ويقاسي حرها والسين لتأكيد الوعيد والتنوين للتعظيم أي ناراً عظيمة ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ ذات اشتعال وتوقد عظيم وهي نار جهنم وجملة ﴿ ما أغنى ﴾ [المسد : 2] الخ قال في الكشف استئناف جواباً عما كان ياول أنا افتدى بمالي ويتوهم من صدقه وفيه تحسير له وتهكم بما كان يفتخر به من المال والبنين وهذه الجملة تصوير للهلاك بما يظهر معه عدم اغناء المال والولد وهو ظاهر على تفسير ما كسب بالولد وقال بعض الأفاضل الأولى اشارة لهلاك عمله وهذه اشارة لهلاك نفسه وهو أيضاً على بعض الأوجه السابقة فتذكر ولا تغفل وقوله تعالى :

(151/837)

﴿ وامرأته ﴾ عطف على المستكن في ﴿ سيصلي ﴾ لمكان الفصل بالمفعول وقوله تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ الحطب ﴾ نصب على الشتم والذم وقيل على الحالية بناء على أن الإضافية غير حقيقية للاستقبال على ما ستسمعه إن شاء الله تعالى وهي أم جميل بنت حرب أخت أبي سفيان أخرج ابن عساكر عن جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر رضي الله تعالى عنهما أن عقيل بن أبي طالب دخل على معاوية فقال معاوية له : أين ترى عمك

أبا لهب من النار ، فقال له عقيل : إذا دخلتها فهو على يسارك مفترش عمتك حمالة الحطب والراكب خير من المركوب ولا أظن صحة هذا الخبر عن الصادق لأن فيه ما فيه وكانت على ما في "البحر" عوراء ووسمت بذلك لأنها على ما أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن زيد كانت تأتي بأغصان الشوك تطرحها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كانت تحمل حزمة الشوك والحسك والسعدان فتنشرها بالليل في طريقة عليه الصلاة والسلام وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطؤه كما يطأ الحرير وروي عن قتادة أنها مع كثرة مالها كانت تحمل الحطب على ظهرها لشدة بخلها فعيرت بالبخل وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه وعن مجاهد أنها كانت تمشي بالنميمة وأخرجه ابن أبي حاتم عن الحسن أيضاً وروي عن ابن عباس والسدى ويقال لمن يمشي بها يحمل الحطب بين الناس أي يوقد بينهم النائرة ويؤرث الشر فالحطب مستعار للنميمة وهي استعارة مشهورة ومن ذلك قوله

: من البيض لم تصطد على ظهر لأمة . . .

ولم تمش بين الحسن بالحطب الرطب

وجعله رطبا ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر ففيه إيغال حسن وكذا قول الراجز

: ان بني الأدرم حمالو الحطب . . .

هم الوشاة في الرضاء والغضب

وقال ابن جرير حمالة الخطايا والذنوب من قولهم فلان يحطب على ظهره إذا كان يكتسب الآثام والخطايا والظاهر أن الحطب عليه مستعار للخطايا بجامع أن كلاً منها مبدى للاحراق وقيل الحطب جمع حاطب كحارس وحرس أي تحمل الجناة على الجنايات وهو محمل بعيد وقرأ أبو حيوة وابن مقسم سيصلي بضم الياء وفتح الصاد وشد اللام ومريئته بالتصغير والهمز وقرىء ومريته بالتصغير وقلب الهمزة ياء وادغامها وقرأ الحسن وابن اسحق سيصلي بضم الياء وسكون الصاد واختلس حركة الهاء في امرأته أبو عمرو وفي رواية وقرى أبو قلابة حاملة الحطب على وزن فاعله مضافاً وقرأ الأكثرون حمالة الحطب بالرفع والإضافة وقرىء حمالة للحطب بالتنوين رفعاً ونصباً وبلام الجر في الحطب وقوله تعالى :

﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾

جملة من خبر مقدم ومبتدأ مؤخر في موضع الحال من الضمير في حالة وقيل من امرأته المعطوف على الضمير وقيل الظرف حال منها وحبل مرتفع به على الفاعلية وقيل هو خبر لامرأته وهي مبتدأ لا معطوفة على الضمير وحبل فاعل وعلى قراءة حمالة بالرفع قيل

امرأته مبتدأ وحمالة خبر وفي جيدها حبل خبر ثان أو حال من ضمير حمالة أو الظرف كذلك وحبل مرتفع به على الفاعلية أو امرأته مبتدأ وحمالة صفته لأنه للماضي فيتعرف بالإضافة والخبر على ما سمعت أو امرأته عطف على الضمير وحمالة خبر مبتدأ محذوف أي هي حمالة ما بعد خبر ثان أو حال من ضمير حمالة على نظير ما مر وفي التركيب غير ذلك من أوجه الإعراب سيذكران إن شاء الله تعالى وبعض ما ذكرناه ههنا غير مطرد على جميع الأوجه في معنى الآية كما لا يخفى عند الاطلاع عليها على المتأمل والمسد ما مسد أي فتل من الحبال فتلا شديداً من ليف المقل على ما قال أبو الفتح ومن أي ليف على ما قيل وقيل من لحاء شجر باليمن يسمى المسد وروي ذلك عن ابن زيد وقد يكون كما في البحر من جلود الإبل أو أوبارها ومنه قوله :

ومسد أمر من أيانق . . .

ليست بأنياب ولا حقائق

أي في عنقها حبل مما مسد من الحبال والمراد تصويرها بصور الحطابة التي تحمل الحزمة وتربطها في جيدها تخسيساً لحالها وتحقيراً لها لتمتعض من ذلك ويمتعض بعلها إذا كانا في

بيت العز والشرف وفي منصب الثروة والجدة ولقد عير بعض الناس الفضل بن العباس بن

عتبة بن أبي لهب بحاله الحطب فقال :

ما ذا أردت إلى شتمى ومنقصتي . . .

أم ما تعير من حمالة الحطب

غراء شادخة في المجد غرتها . . .

كانت سليلة شيخ ثاقب الحسب

وقد أغضبها ذلك فيروى أنها لما سمعت السورة أتت أبا بكر رضي الله تعالى عنه وهو مع

رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وبيدها فهر ، فقالت بلغني أن صاحبك

هجاني ولا فعلن وأفعلن وان كان شاعراً فإنا مثله أقول :

مذمما أبينا ودينه . . .

قلينا وأمره عصينا

وأعمى الله تعالى بصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فروي أن أبا بكر قال لها هل

ترى معي أحداً فقالت أتهزأ بي لا أرى غيرك فسكت أبو بكر ومضت وهي تقول قريش

تعلم أني بنت سيدها فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام لقد حجبني عنها ملائكة فما

رأتني وكفى الله تعالى شرها وقيل إن ذلك ترشيح للمجاز بناء على اعتباره في

﴿ حمالة الحطب ﴾ [المسد : 4] وفي الكشاف يحتمل أن يكون المعنى تكون في نار جهنم على الصورة التي كانت عليها حين كانت تحمل حزمة الشوك فلا تزال على ظهرها حزمة من حطب النار من شجرة الزقوم أو من الضريع وفي جيدها حبل مما مسد من سلاسل النار كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله في جرمه وعليه فالحبل مستعار للسلسلة وروي هذا عن عروة بن الزبير ومجاهد وسفيان وأمر الاعراب على ما في الكشف انه إن نصب حمالة يكون حالا هو والجملة أعني في جيدها حبل عن المعطوف على ضمير سيصلي أي ستصلي امرأته على هذه الحالة أو يكون حمالة نصبا على الذم والجملة وحدها حالا أو امرأته في جيدها حبل جملة وقعت حالا عن الضمير ويحتمل عطف الجملة على الجملة على ضعف وعلى الرفع يحتمل أن تكون الجملة حالا وإن يكون امرأته عطفاً على الفاعل وحمالة الحطب في جيدها جملة لا محل لها من الإعراب وقعت بياناً لكيفية صليها أي هي حمالة الحطب انتهى فتأمل ولا تغفل وعلى جميع الأوجه والاحتمالات إنما لم يقل سبحانه في عنقها والمعروف أن يذكر العنق مع الغل ونحوه مما فيه امتهان كما قال تعالى ﴿ في أعناقهم أغلالا ﴾ [يس : 8] والجيد مع الحلي كقوله :

وأحسن من جيد المليحة حليها . . .

ولو قال عنقها كان غثا من الكلام قال في الروض الانف لأنه تهكم نحو ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ [آل عمران : 21] أي لا جيد لها فيحلى ولو كان لكانت حليته هذه ولتحقيرها قيل امرأته ولم يقل زوجه انتهى وهو بديع جداً إلا أنه يعكر على آخره قوله تعالى ﴿ وامرأته قائمة ﴾ [هود : 71] ولعله استعان ههنا على ما قال بالمقام وعن قتادة انه كان في جيدها قلادة من ودع وفي معناه قول الحسن من خرز وقال ابن المسيب كانت قلادة فاخرة من جوهر وأنها قالت واللات والعزى لانفقنها على عداوة محمد صلى الله عليه وسلم ولعل المراد على هذا أنها تكون في نار جهنم ذات قلادة من حديد ممسود بدل قلادتها التي كانت تقول فيها لأنفقنها الخ وعلى ما قبله تهجين أمر قلادتها لتأكيد ذمها بالبخل الدال عليه قوله تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ الحطب ﴾ [المسد : 4] على ما نقلناه سابقاً عن قتادة ويحتمل غير ذلك ووجه التعبير بالجيد على ما ذكر مما لا يخفى وزعم بعضهم أن الكلام يحتمل أن يكون دعاء عليها بالخنق بالحبل وهو عن الذهن مناط الثريا نعم ذكر أنها ماتت يوم ماتت مخنوقة بحبل حملت به حزمة حطب لكن هذا لا يستدعي حمل ما ذكر على الدعاء هذا .

واستشكل أمر تكليف أبي لهب بالايمان مع قوله تعالى : ﴿ سيصلى ﴾ الخ بأنه بعد أن

أخبر الله تعالى عنه بأنه سيصلى النار لا بد أن يصلاها ولا يصلاها إلا الكافر فالاخبار بذلك يتضمن الاخبار بأنه لا يؤمن أصلاً فمتى كان مكلفاً بالايمان بما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ومنه ما ذكر لزم أن يكون مكلفاً بأن يؤمن بأن لا يؤمن أصلاً وهو جمع بين النقيضين خارج عن حد الامكان وأجيب عنه بأن ما كلفه هو الايمان بجميع ما جاء النبي عليه الصلاة والسلام إجمالاً لا الايمان بتفاصيل ما نطق به القرآن الكريم حتى يلزم أن يكلف الايمان بعدم إيمانه المستمر ويقال نحو هذا في الجواب عن تكليف الكافرين المذكورين في قوله تعالى :

(156/837)

﴿ قُلْ يا أهل أَيُّهَا الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] الخ بالايمان بناء على تعينهم مع قوله تعالى : ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عابدون مَا أَعْبُدُ ﴾ [الكافرون : 3] الخ بناء على دلالته على استمرار عدم عبادتهم ما يعبد عليه الصلاة والسلام وأجاب بعضهم بأن قوله تعالى : ﴿ سيصلى ﴾ الخ ليس نصاً في أنه لا يؤمن أصلاً فإن صلى النار غير مختص بالكفار فيجوز أن يفهم أبو لهب منه أن دخوله النار لفسقه ومعاصيه لا لكفره ولا يجري هذا في الجواب عن تكليف أولئك الكافرين بناء على فهمهم السورة إرادة الاستمرار وأجاب بعض آخر بأن من جاء

فيه مثل ذلك وعلم به مكلف بأن يؤمن بما عداه مما جاء به صلى الله عليه وسلم وأجاب الكعبي وأبو الحسين البصري وكذا القاضي عبد الجبار بغير ما ذكر مما رده الإمام وقيل في خصوص هذه الآية أن المعنى سيصلى ناراً ذات لهب ويخلد فيها إن مات ولم يؤمن فليس ذلك مما هو نص في أنه لا يؤمن وما لهذه الأجوبة وما عليها يطلب من مطولات كتب الأصول والكلام واستدل بقوله تعالى : ﴿ وامرأته ﴾ على صحة أنكحة الكفار والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(157/837)

وقال الشوكانى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ﴾

معنى : ﴿ تَبَّت ﴾ هلكت .

وقال مقاتل : خسرت .

وقيل : خابت .

وقال عطاء : ضلت .

وقيل : صفرت من كل خير ، وخصّ اليدين بالتباب ، لأن أكثر العمل يكون بهما .

وقيل : المراد باليدين نفسه ، وقد يعبر باليد عن النفس ، كما في قوله : ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج : 10] أي : نفسك .

والعرب تعبر كثيراً ببعض الشيء عن كله ، كقولهم : أصابته يد الدهر ، وأصابته يد المنايا ، كما في قول الشاعر :

لما أكبت يد الرزايا . . . عليه نادى ألا مخبر

وأبو لهب : اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم .

وقوله : ﴿ وَتَبَّ ﴾ أي : هلك .

قال الفراء : الأوّل دعاء عليه ، والثاني خبر ، كما تقول : أهلكه الله وقد هلك .

والمعنى : أنه قد وقع ما دعا به عليه ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : (وقد تبّ) .

وقيل : كلاهما إخبار ، أراد بالأوّل هلاك عمله ، وبالثاني هلاك نفسه .

وقيل : كلاهما دعاء عليه ، ويكون في هذا شبه من مجيء العامّ بعد الخاص ، وإن كان حقيقة اليدين غير مرادة ، وذكره سبحانه بكنيته لاشتهاره بها ، ولكون اسمه ، كما تقدّم عبد العزى ، والعزّى اسم صنم ، ولكون في هذه الكنية ما يدلّ على أنه ملابس للنار ؛ لأن اللهب هي لهب النار ، وإن كان إطلاق ذلك عليه في الأصل لكونه كان جميلاً ، وأن وجهه يتلهب لمزيد حسنه ، كما تتلهب النار .

قرأ الجمهور : ﴿ لهب ﴾ بفتح اللام ، والهاء .

وقرأ مجاهد ، وحميد ، وابن كثير وابن محيصن بإسكان الهاء ، واتفقوا على فتح الهاء في قوله : ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .

وروى صاحب الكشاف أنه قرىء : " تبت يدا أبو لهب " وذكر وجه ذلك .

﴿ مَا أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ أي : ما دفع عنه ما حلّ به من التباب ، وما نزل به من عذاب الله ما جمع من المال ، ولا ما كسب من الأرباح والجاه ؛ أو المراد بقوله : ﴿ ماله ﴾ ما ورثه من أبيه ، وبقوله : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ الذي كسبه بنفسه .

(158/837)

قال مجاهد : وما كسب من ولد ، وولد الرجل من كسبه ، ويجوز أن تكون "ما" في قوله : ﴿ مَا أغنى ﴾ استفهامية ، أي : أيّ شيء أغنى عنه؟ وكذا يجوز في قوله : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ أن تكون استفهامية ، أي : وأيّ شيء كسب؟ ويجوز أن تكون مصدرية ، أي : وكسبه .

والظاهر أن "ما" الأولى نافية ، والثانية موصولة .

ثم أوعده سبحانه بالنار فقال : ﴿ سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .

قرأ الجمهور : ﴿ سيصلى ﴾ بفتح الياء ، وإسكان الصاد ، وتخفيف اللام ، أي :

سيصلى هو بنفسه ، وقرأ أبو رجاء ، وأبو حيوة ، وابن مقسم ، والأشهب العقيلي ، وأبو السماك ، والأعمش ، ومحمد بن السميفع بضم الياء ، وفتح الصاد ، وتشديد اللام ، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير ، والمعنى سيصليه الله ، ومعنى ﴿ ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ ذات اشتعال وتوقد ، وهي : نار جهنم .

﴿ وامرأته حَمَّالَةَ الحطب ﴾ معطوف على الضمير في "يصلى" .

وجاز ذلك للفصل .

أي : وتصلى امرأته ناراً ذات لهب .

وهي أمّ جميل بنت حرب أخت أبي سفيان .

وكانت تحمل الغضى والشوك ، فتطرحه بالليل على طريق النبيّ صلى الله عليه وسلم ، كذا قال ابن زيد ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، ومرّة الهمداني .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والسديّ : إنها كانت تمشي بالنميمة بين الناس .

والعرب تقول : فلان يحطب على فلان : إذا نمّ به ، ومنه قول الشاعر :

إن بني الأدرم حمالوا الحطب . . . هم الوشاة في الرضا والغضب

عليهم اللعنة تترى والحرب . . . وقال آخر :

من البيض لم يصطد على ظهر لأمة . . . ولم يمش بين الناس بالحطب الرطب

وجعل الحطب في هذا البيت رطباً لما فيه من التدخين الذي هو زيادة في الشرّ ، ومن

الموافقة للمشي بالنميمة .

وقال سعيد بن جبير : معنى حمالة الحطب أنها حمالة الخطايا والذنوب ، من قولهم : فلان يحتطب على ظهره ، كما في قوله : ﴿ وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ على ظُهُورِهِمْ ﴾ [الأنعام : 31] .

وقيل : المعنى حمالة الحطب في النار .

(159/837)

قرأ الجمهور : (حمالة) بالرفع على الخبرية على أنها جملة مسوقة للإخبار بأن امرأة أبي لهب حمالة الحطب ، وأما على ما قدّمنا من عطف ، ﴿ وامرأته ﴾ على الضمير في ﴿ تصلى ﴾ ، فيكون رفع حمالة على النعت لامرأته ، والإضافة حقيقية ؛ لأنها بمعنى المضيّ ، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف أي : هي حمالة .

وقرأ عاصم بنصب : ﴿ حمالة ﴾ على الذمّ ، أو على أنه حال من امرأته .

وقرأ أبو قلابة (حاملة الحطب) .

﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مّن مَّسَدٍ ﴾ الجملة في محل نصب على الحال من ﴿ امرأته ﴾ .

والجيد العنق ، والمسد الليف الذي تفتل منه الحبال ، ومنه قول النابغة :

مقذوفة بدخيس النحض بازلها . . . له صريف صريف القعو بالمسد

وقول الآخر :

يا مسد الخوص تعوّذ مني . . . إن كنت لدنا لينا فإني

وقال أبو عبيدة : المسد هو الحبل يكون من صوف .

وقال الحسن : هي حبال تكون من شجر ينبت باليمن تسمى بالمسد .

وقد تكون الحبال من جلود الإبل أو من أوبارها .

قال الضحاك ، وغيره : هذا في الدنيا ، كانت تعير النبيّ صلى الله عليه وسلم بالفقر ، وهي تحتطب في حبل تجعله في عنقها فخنقها الله به فأهلكها .

وهو في الآخرة حبل من نار .

وقال مجاهد ، وعروة بن الزبير : هو سلسلة من نار تدخل في فيها وتخرج من أسفلها .

وقال قتادة : هو قلادة من ودع كانت لها .

قال الحسن : إنما كان خرزاً في عنقها .

وقال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة من جوهر ، فقالت : واللات والعزّى ، لأنفقنها في عداوة محمد ، فيكون ذلك عذاباً في جسدها يوم القيامة .

والمسد الفتل يقال : مسد حبله يمسده مسداً : أجاد فتله .

وقد أخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما عن ابن عباس قال : "لما نزلت :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقرَبِين ﴾ [الشعراء : 214] خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا ، فهتف : " يا صباحاه " فاجتمعوا إليه ، فقال : " أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدّقيّ ؟ " قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : " فإني نذير لكم بني يدي عذاب شديد " فقال أبو لهب : تباً لك إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قام فنزلت هذه السورة : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ " .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ .

قال : خسرت .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ابنه من كسبه .

ثم قرأت : ﴿ مَا أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ قالت : وما كسب ولده .

وأخرج عبد الرزاق ، والحاكم ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾

قال : كسبه ولده .

وأخرج ابن جرير ، والبيهقي في الدلائل ، وابن عساكر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وامرأته حَمَّالَةَ الحطب ﴾ قال : كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق النبيّ صلى الله عليه وسلم ليعقره وأصحابه ، وقال : ﴿ حَمَّالَةَ الحطب ﴾ نقالة الحديث .

﴿ حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ قال : هي حبال تكون بمكة .

ويقال : المسد العصا التي تكون في البكرة .

ويقال : المسد قلادة من ودع .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو زرعة عن أسماء بنت أبي بكر ، قالت : "لما نزلت : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ولها ولولة ، وفي يدها فهر ، وهي تقول :

مذمما أبينا . . . ودينه قلينا وأمره عصينا

ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد ، ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال يا رسول الله قد أقبلت ، وأنا أخاف أن تراك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنها لن تراني " وقرأ قرآناً اعتصم به ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ القرءان جَعَلْنَا بَيْنَكَ

وَبَيْنَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالأخرة حِجَاَبًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء : 45] فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ، ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا أبا بكر إني أخبرت أن صاحبك هجاني ، قال : لا ، وربّ البيت ما هجاك فولت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدها .

وأخرجه البزار بمعناه ، وقال : لا نعلمه يروى بأحسن من هذا الإسناد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 511.513 ﴾

(162/837)

وقال القاسمى :

سورة المسد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾

أي : خسرت يداه ، وخسر هو . واليدان كناية عن الذات والنفس ، لما بينهما من اللزوم في الجملة ، أو مجاز من باب إطلاق الجزء على الكل . وجملة ﴿ وَتُبْ ﴾ مؤكدة لما قبلها ، أو المراد بالأولى خسرانه في نفسه وذاته ؛ لأن سعي المرء لإصلاح نفسه وعمله . فأخبر

بأن محروم منهما ، كما تشير له الآيتان بعد : أعني هلاك عمله وهلاك نفسه .

وقال ابن جرير : كان بعض أهل العربية يقول قوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ دعاء عليه من الله . وأما قوله : ﴿ وَتَبَّ ﴾ فإنه خبر ، أي : عما سيحقق له في الدنيا والآخرة . وعبر عنه بالماضي لتحققه .

وأبو لهب أحد عمومة النبي صلى الله عليه وسلم ، واسمه عبد العزى ، وقد اشتهر بكنيته وعرف بها لولد له يقال : له لهب ؛ أو لتلهب وجنتيه وإشراقهما ، مع الإشارة إلى أنه من أهل النار ، وأن مآله إلى نار ذات لهب ، فوافقت حاله كنيته ، فحسن ذكره بها .

قال الرواة : كان أبو لهب من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وأذية له وبغضة له وازدراء به وتنقصاً له ولدعوته ، ومات على كفره بعد وقعة بدر ولم يحضرها ، بل أرسل عنه بديلاً ، فلما بلغه ما جرى لقريش مات غماً ؛ وقد روى الشيخان عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : 214] ، صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا ونادى : < يا بني فهر ! يا بني عديّ ! > - لبطون من قريش - حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولاً ؛ لينظر ما هو ، فجاء أبو لهب وقريش فقال : < أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقيّ > ؟ قالوا : نعم . ما جربنا عليك إلا صدقاً . قال : < فإني لكم نذير بين يدي عذاب شديد > . فقال أبو لهب : تبّاً لك سائرَ اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت السورة .

وروى الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد الديلي قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : < يا أيها الناس ! قولوا : لا إله إلا الله ، تفلحوا > . والناس مجتمعون عليه . ووراءه رجل وضيء الوجه أحول ، ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب . وفي رواية له : يتبعه من خلفه يقول : يا بني فلان ! هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة . فلا تسمعوا له ولا تتبعوه .

﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ أي : أي : شيء أغنى عنه ماله وما كسبه من سخط الله عليه وخسرانه . فكسبه هو عمله الذي يظن أنه منه على شيء . وقيل : ولده ؛ لقرن الأولاد بالأموال في كثير من الآيات ، وكانت العرب تعد أولادها للنائبات كالأموال ، فنفى إغناءهما عنه حين حلَّ به التباب .

قال الشهاب : والذي صححه أهل الأثر أن أولاده ، لعنه الله ، ثلاثة : متعب وعتبة وهما أسلما ، وعتيبة - مصغراً - وهذا هو الذي دعا النبي صلى الله عليه وسلم لما جاهر بإيذائه وعداوته ، ورد ابنته وطلقها ؛ وقال صلوات الله عليه وسلامه : < اللهم سلِّط

عليه كلباً من كلابك > . فأكله السبع في خرجة خرجها إلى الشام . وفيه يقول حسان رضي الله عنه :

~من يرجعُ العامَ إلى أهلِهِ فما أُكِيلُ السَّبْعِ بالراجعِ

ثم قال : ولهب هو أحد هؤلاء فيما قيل ، قال الثعالبي : ومنه يعلم أن الأسد يطلق عليه كلب . ولما أضيف إلى الله ، كان أعظم أفراده .

﴿ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ أي : توقّد واشتعال ، وهي نار الآخرة ، جزاء ما كان يأتيه من مقاومة الحق ومجاهدته .

﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ أي : وسيصلاها معه امرأته أيضاً : ف ﴿ امْرَأَتُهُ ﴾ مرفوع عطفاً على الضمير في ﴿ سَيَصْلَى ﴾ أو على الابتداء ، و

﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ الخبر . وقرئ : حَمَّالَةَ بالنصب على الشتم والذم ، وبالرفع نعتاً أو بدلاً أو عطف بيان . إنما قيل لها ذلك لأنها كانت تحطب الكلام وتمشي بالنميمة ، كما قاله مجاهد وعكرمة وقتادة .

قال الزمخشري : ويقال للمشّاء بالنمائم المفسد بين الناس ، يحمل الحطب بينهم ، أي : يوقد

بينهم ويورث الشر ، قال :

~البيض لم تُصْطَدْ على ظهر لأُمة ولَمْ تَمْشِ بين الحيّ بالحطَبِ الرَّطْبِ

يمدحها بأنها من البيض الوجوه وأنها بريئة من أن تصطاد على سوء ولؤم فيها ، ومن أن تمشي بالسعاية والنميمة بين الناس . وإنما جعل رطباً ليدل على التدخين الذي هو زيادة الشر . ويقال : فلان يحطب على فلان ، إذا أغرى به .

قال الشهاب : وهي استعارة مشهورة لطيفة ، كاستعارة حطب جهنم للأوزار .

قال ابن كثير : وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهي أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب بن أمية ، وهي أخت أبي سفيان وعمة معاوية ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده .

﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ قال الإمام رحمه الله : أي : في عنقها حبل من الليف ، أي : أنها في تكليف نفسها المشقة الفادحة ، للإفساد بين الناس وتأريث نيران العداوة بينهم ، بمنزلة حامل الحطب الذي في عنقه حبل خشن ، يشدّ به ما حمله إلى عنقه ، حتى يستقل به . وهذه أشنع صورة تظهر بها امرأة تحمل الحطب ، وفي عنقها حبل من الليف ، تشد به الحطب إلى كاهلها ، حتى تكاد تختنق به .

وقال أيضاً : قد أنزل الله في أبي لهب وفي زوجته هذه السورة ، ليكون مثلاً يعتبر به من يعادي ما أنزل الله على نبيِّه ؛ مطاوعة لهواه وإيثاراً لما ألفه من العقائد والعوائد والأعمال ،

واغترارا بما عنده من الأموال، وبما له من الصولة أو من المنزلة في قلوب الرجال، وأنه لا تغني عنه أمواله ولا أعماله شيئاً، وسيصلى ما يصلى. نسأل الله العافية. انتهى انتهى. ا هـ

﴿محاسن التأويل حـ 17 صـ 502.504﴾

(165/837)

وقال الشيخ: دروزة:

سورة المسد

فيها دعاء على أبي لهب وإنذار له ولامرأته بالنار. ورواية سبب نزولها لا تتسق مع رواية تبكير نزولها. ورواية تبكير نزولها أكثر اتساقا مع مضمونها. ولعلها تلهم أن يكون موقف أبي لهب وامرأته من أبكر وأول مواقف الصدّ والمناوأة التي واجهها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأنه كان لهذا الموقف أشد الأثر في نفس النبي وسير الدعوة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة المسد (111): الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ (2) سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ

(3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4)

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5) .

(1) تبت : خسرت أو هلكت ، والمصدر تبّ وتباب ، والكلمة دعاء بالخسران أو الهلاك .

(2) الجيد : العنق .

(3) مسد : ليف أو حديد أو نار على اختلاف الأقوال . ومما قيل إن المسد نبات ذو ألياف تجدل منه حبال متينة .

في آيات السورة دعاء على أبي لهب بالهلاك والخسران ، وتقرير بأنه لن يغني عنه ماله وما كسبه شيئا ، وأنه سيصلى نارا عظيمة هو وامرأته حمالة الحطب التي سوف يكون في جيدها حبل من مسد ، تقاد به .

والروايات مجمعة على أن أبا لهب هذا هو عم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وأن اسمه عبد العزى وأن امرأته هي أم جميل أخت أبي سفيان «1» والمرجح أن كنية «أبي لهب» هي كنية قرآنية على سبيل الهجو فصارت له علما .

ولقد روى الشيخان والترمذي عن ابن عباس قال: «لمّا نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [الشعراء/ 214] خرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم حتّى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فاجتمعوا إليه فقال أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟ قالوا: ما جرّبنا عليك كذبا. قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قال أبو لهب تبا لك ما جمعتنا إلّا لهذا، ثم قام فنزلت تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [المسد/ 1]» «2».

وإلى هذا الحديث الذي أورده أيضا الطبري والمفسرون الآخرون «3» رووا روايات أخرى كسبب نزول السورة منها «أنّ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لما نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ [214] جمع أقاربه فدعاهم إلى الإسلام فقال له أبو لهب تبا لك سائر اليوم ألهذا دعوتنا؟» ومنها: «أن أبا لهب قال للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم: ماذا أعطى يا محمد إن آمنت بك؟ قال: كما يعطى المسلمون. فقال: ما لي عليهم فضل. قال: وأيّ فضل تبتغي؟ قال: تبا لهذا من دين أن أكون أنا وهؤلاء سواء فأنزل اللّه سورة تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [1]».

ونلحظ في صدد الرواية الأولى والثانية أنهما تقتضيان أن تكون سورة المسد نزلت بعد سورة الشعراء التي منها آية: وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ مع أن الروايات مجمعة تقريبا على وضع سورة المسد كسادس سورة أو خامس سورة في ترتيب النزول بينما تأتي سورة

الشعراء كرابعة وأربعين أو خامسة وأربعين في هذا

---

(1) انظر تفسير السورة في تفسير ابن كثير والبغوي وغيرهما .

(2) التاج 4 ص 268 .

(3) انظر تفسير النيسابوري والطبرسي وابن كثير والبغوي والخازن أيضا .

الترتيب «1» أي أنها نزلت بعد سورة المسد بثلاث سنين على الأقل . وروح آية وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ تلهم أنها لم تنزل مبكرة «2» . لذلك فنحن نتوقف في الروايات ، وإشراك امرأة أبي لهب مما يقوي صواب توقفنا إن شاء اللّه .

ولقد ذكرت الروايات «3» أن إحدى بنات النبي كانت مخطوبة أو زوجة لعتبة بن أبي لهب وأن بيت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان مجاورا لبيت أبي لهب . فمما يمكن أن يرد على البال بقوة أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قد اتصل بعمه عقب نزول الوحي عليه في أول من اتصل بهم ودعاه في أول من دعا . فالرجل عمه وجار بيته وصهره ، ولعله كان يكثر التردد على بيته . ومن المعقول أن يفاتحه قبل الناس وأن يفضي إليه بأمره وأن يطلب منه التصديق والتعضيد ولعله كان واثقا كل الثقة بأنه سيقابل بالحسنى والإجابة ، وبأنه واجد في عمه

العضد القوي والسند الأمين. فلم يلبث أن خاب أمله فقوبل أسوأ مقابلة، وكان من عمه وزوجته أشد موقف في الأذى والعناد والتعطيل، والقطيعة حتى لقد روي «4» أن أبا لهب كان يسير وراء النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فكلما رآه يكلم أحدا جاء إليه وقال له: أنا عمه فلا تصدقه فإنه ذاهب العقل، وأن زوجته كانت تضع الأقذار أمام بيته وتشيع عنه الإشاعات السيئة. وأن الزوجين حملا ابنهما على تطليق بنت النبي صلّى اللّه عليه وسلّم. وعمومة أبي لهب للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم مما يزيد في شدة موقفه في نفس النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وفي الغرباء كما هو بدهي. ونعت امرأة أبي لهب بحمالة الحطب يلهم أنها كانت ذات تأثير قوي في الموقف فيزداد شدة ولعلها كانت تقوي زوجها وتنفخ في روحه كلما أنست فيه جنوحا إلى الفتور والتروي، بسبب ما كان

---

(1) انظر تراتيب النزول المروية في كتابنا سيرة الرسول ج 1 ص 134 - 135 والإتقان في علوم القرآن ج 1، ص 26.

(2) يذكر الطبري في تاريخه ج 2 ص 61.

(3) انظر مجمع الزوائد، مكتبة القدسي ج 9 ص 213 - 214.

(4) انظر سيرة ابن هشام ج 2 ص 32 مطبعة حجازي وتفسير السورة في تفسير ابن كثير والبغوي والطبري والنيسابوري وابن عباس، والجزء والصحف المذكورة آنفا من مجمع الزوائد. [.....]

يربطه بالنبي صلّى اللّه عليه وسلّم من روابط العصبية التي كانت تقاليدها شديدة الرسوخ في بيئة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، فكان تأثيرها عاملا قويا في شذوذ هذا العم عن سائر أعمامه وسائر أفراد عشيرته الذين كانوا يحمون النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وينصرونه بقوة العصبية برغم أن أكثرهم ظلوا في العهد المكي نائين عن اعتناق الإسلام .

وإذا صحت رواية كون أم جميل هي أخت أبي سفيان - وليس هناك ما ينفيها - فلا يبعد أن يكون موقفها متأثرا بموقف أخيها الذي كان من أبرز الزعماء وذوي الشأن في قريش والذي كانت لأسرته المكانة البارزة في مكة ، والذي ظل هو وأسرته يناوئون النبي صلّى اللّه عليه وسلّم نحو عشرين سنة أي إلى فتح مكة في العام الثامن من الهجرة مناوأة عنيفة ، وقد قاد زعيمهم أبو سفيان الجيوش التي غزت المدينة دار هجرة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم مرتين . ولا يبعد أن تكون فكرة النضال الأسروي بين الأسرة الأموية صاحبة الشأن والبروز في مكة والأسرة الهاشمية التي ترشحت للبروز والخلود بدعوة النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وحركته حافزا أو مقويا لموقف أبي سفيان المناوىء من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وموقف أخته زوجة أبي لهب منه أيضا .

وأبو لهب وامرأته هما الشخصان الوحيدان اللذان اختصهما القرآن بالذكر وسوء الدعاء وبصراحة ، وسجل عليهما اللعنة الخالدة على مرّ الدهور . ولا شك في أن هذا يدل على أن موقفهما كان شديد الأثر في نفس النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وسير دعوته وخاصة في أول أمرها فاستحقا من أجله هذا التخصيص .

وإننا لنرجو أن تكون هذه البيانات والتوجيهات هي المتسقة مع حقيقة الموقف لأنها هي المتسقة مع روح الآيات ومضمونها وإشراك زوجة أبي لهب ثم مع رواية تبكير نزول السورة. انتهى انتهى . ا هـ ﴿التفسير الحديث حـ 1 صـ 495. 498﴾

(169/837)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(111) سورة المسد

نزولها : نزلت بمكة . . بعد الفاتحة . .

عدد آياتها : خمس آيات . .

عدد كلماتها : ثلاث وعشرون كلمة . .

عدد حروفها : سبعة وسبعون حرفا . .

مناسبتها لما قبلها

كانت سورة «النصر» ـ كما قلنا ـ مددا من أمداد السماء، تحمل بين يديها هذه البشريات المسعدة للنبىّ وللمؤمنين، وتريهم رأى العين عزّة

(170/837)

الإسلام، وغلبته، وتخلع عليهم حلل النصر، وتعقد على جبينهم إكليل الفوز والظفر.

وتحت سنابك خيل الإسلام المعقود بنواصيها النصر، والتي هى على وعد من اللّه به.

حطام هذا الطاغية العنيد الذي يمثّل ضلال المشركين كلّهم، ويجمع فى كيانه وحده، سفههم، وعنادهم، وما كادوا به للنبىّ والمؤمنين..

إنه أبو لهب.. وامرأته حمالة الحطب..

[سورة اللهب.. ونظمها] بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الآيات: (1ـ5) [سورة المسد (111): الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ (2) سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4)

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)

التفسير:

«أبو لهب» ـ كما أشرنا من قبل، كان أبرز معلم من معالم الجاهلية، التي واجهتها الدعوة الإسلامية، بما كان عليه هذا الجهول من طيش طاغ، وضلال مبين . .

ومع أنه كان عمّ النبي صلى اللّه عليه وسلم، وكان مما تقضى به التقاليد العربية الجاهلية الانتصار للقريب، ظالما أو مظلوما، كما كان ذلك شأنهم ـ

(171/837)

فإن هذا الشقي كان من أسفه السفهاء على النبي، وأشدهم عدوانا عليه، وأكثرهم أذى له، حتى إنه ـ وعلى غير تقاليد الجاهلية ـ يدخل معه امرأته فى هذه العداوة، ويجرها جرّا إلى تلك المعركة التي يخوضها ضد النبىّ، ولهذا كان لرجل الوحيد من قريش الذي ذكره القرآن باسمه، وأعلن فى العالمين عداوته للّه، وغضب اللّه عليه، ووقوع بأسه وعذابه به، وذلك ليكون لعنة على كل لسان إلى يوم الدين، لا يذكر اسمه إلا ذكر مدموغا باللعنة، مرجوما بالشماتة والازدراء، تتبعه امرأته مشدودة إليه بحبل من مسد، كما كانت مشدودة إليه فى الدنيا بحبل عداوتهما للنبى، وحسدهما له . .

وقوله تعالى : « تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » .

التب : القطع للشىء . . وهو كالبت . . ولفظه يدل على القطع والحسم ، ويحكى الصوت الذي يحدث عند فصل الشيء عن الشيء . .

والمفسرون مجمعون على أن هذا دعاء على أبى لهب من اللّه سبحانه وتعالى ، بقطع يديه ، أي قطع القوى العاملة فيه ، الممكّنة له من الشر والعدوان ، وهما يداه اللتان يبطش بهما ، إذ كان اليد دائما هى مظهر آثار الإنسان ، بها يأخذ ، وبها يعطى . . فإذا ذهبت اليد اليمنى ، قامت اليسرى مقامها ، فإذا ذهبت اليدان أصبح الإنسان معطل الحركة ، عاجزا عن أن يحصّل خيرا ، أو يتناول خيرا ، أشبه بالطائر الذي فقد جناحيه ، إنه هالك لا محالة ، ولهذا جاء بعد ذلك قوله تعالى : « وتب » أي هلك هو ، بعد أن قطعت يداه . .

والرأى عندنا ـ واللّه أعلم ـ أن هذا الخبر على حقيقته ، وأنه خبر مطلق ، لم يخرج عن حقيقته إلى الدعاء . . فأبو لهب قد وقع عليه الهلاك فعلا ، وحل به البلاء منذ اتخذ من النبي ، ومن الدعوة الإسلامية ، هذا الموقف الأثيم الضال . .

لقد ركب الطريق الذي لا نجاة لسالكه ، ولا سلامة لسائر فيه ، وكذلك امرأته التي ركبت معه هذا الطريق ، وعلقت فيه حبالها بحباله . .

والإخبار بالماضي عما لم يقع بعد ، إشارة تحقق وقوعه ، وأنه وإن لم يقع فهو فى حكم الواقع ، إذ تقدمته أسبابه ، وقامت علله ، التي تدفع به دفعا إلى الواقع المحتوم . . وفى هذا الخبر إلفات للأنظار إلى هذا الطاغية الأثيم ، وهو يلبس رداء الهلاك والضياع ، على حين لا يزال شبحا يتحرك بين الناس . . إنه أشبه بالمحكوم عليه بالموت ، ينتظر ساعة التنفيذ فيه ! !

وقوله تعالى : « ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ » .

هو تعقيب على هذا الخبر ، فقد هلك أبو لهب ، ونزل به ما نزل من هوان وخسران ، دون أن ينفعه هذا المال الذي جمعه ، واعتز به ، ولا هؤلاء الأبناء الذين اشتد ظهره بهم . . لقد تخلى عنه ماله وولده جميعا ، وتركوه لمصيره الذي هو صائر إليه . . إنه فى قيد الهلاك وهو بين أيديهم . . فهل يستطيع أحد أن يمد يده إلى نجاته ؟ إنه بين مخالب عقاب محلق به فى السماء . . إن سقط من بين مخالبه هلك ، وإن مضى به هلك ! ! وما كسبه أبو لهب ، هو أولاده ، لأن الولد من كسب أبيه ، ومن تثميره ، كما يقول النابغة الذبياني .

مهلا فداء لك الأقوام كلّهم وما أثمر من مال ومن ولد

قيل إن أبا لهب قد أصيب بداء يسمى العدسة . ولعله الطاعون . وكانت العرب تخشى

هذا الداء ، وتتحاشى المصاب به ، وكان ذلك بعد غزوة بدر ببضعة أيام ، فلما مات بدائه هذا ، لم يقترب أحد من أبنائه لمواراته فى التراب ، خوفا من

(173/837)

هذا الداء ، بل ألقوا عليه الحجارة من بعيد حتى أخفوا جثته ، وكأنهم يرجمونه ، ويشيعونه بهذه الرجوم ، وهم يذرفون الدمع الحزين عليه ! ! وقوله تعالى : « سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ » . .

هذا وعيد من اللّه سبحانه وتعالى لما سيلقى أبو لهب فى الآخرة ، بعد أن عرف مصيره فى الدنيا ، وأن كل ما كان يكيد به للنبى ، قد ردت سهامه إليه ، فرأى بعينيه فى الدنيا ، كيف حلت الهزيمة بقريش يوم بدر ، وكيف قتل صناديدها ، وأسر زعماؤها . .

وفى وصف النار بأنها ذات لهب ، إشارة إلى شؤم هذا الاسم الذي تسمى به ، أو الكنية التي تكنّى بها « أبو لهب » .

. فقد ولد ، وهو يلبس هذا الثوب الناري ، الذي جعل منه وقودا يشتعل ، ويتلهب ، وكأنه شارة من شارات جهنم ذات اللهب التي يلقاها فى الآخرة ، ويصلى جحيمها . . إنه من لهب ، وإلى اللهب . .

وقوله تعالى : « وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ » . .

معطوف على فاعل « سيصلى » أي سيصلى هو نارا ذات لهب ، وستصلى امرأته معه هذا النار ، ذات اللّهب . .

وقوله تعالى : « حَمَّالَةَ الْحَطَبِ » منصوب على الذّم ، بفعل محذوف قصد به التخصيص للصفة الغالبة عليها ، وتقديره : أعنى ، أو أقصد . . حمالة الحطب .

و« حَمَّالَةَ الْحَطَبِ » أي حمالة الفتنة ، التي تؤجج بها نار العداوة ، وتسعى بها بين الناس ، لتثير النفوس على النبي ، وتهيج عداوة المشركين له . . فقد كانت

امرأة أبى لهب . واسمها أم جميل بنت حرب ، أخت أبى سفيان . كانت أشدّ نساء قريش عداوة للنبى ، وسلاطة لسان ، وسوء قالة فيه ، كما كان ذلك شأن زوجها أبى لهب من بين مشركى قريش كلهم . . وهكذا تتآلف النفوس الخبيثة ، وتتزاوج ، وتتوافق ، وتتجاذب ! وقيل حمالة الحطب : أي حمالة الذنوب ، التي أشبه بالحطب الذي يتخذ وقودا ، والذي يتعرض لأية شرارة تعلق به فتأتى على كل ما اتصل من أثاث وغيره ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يَحْمِلُونَ أَوْزارَهُمْ عَلى ظُهُورِهِمْ » (31 : الأنعام) .

وانظر إلى الإعجاز القرآنى فى وصف امرأة أبى لهب ، وسعيها بالفتنة ، وإغراء الصدور على النبي . بأنها حمالة الحطب . . فهذا الحطب الذي تحمله ، مع مجاورته للهب الذي هو كيان زوجها كله ، لا بد أن يشتعل يوما ، وقد كان . .

فأصبح الرجل وزوجه وقودا لنار جهنم . .

وانظر مرة أخرى إلى هذا الإعجاز فى التفرقة بين « أبى لهب » وحمالة الحطب . . إنه هو الذي أوقد فيها هذه النار ، بما تطاير من شرره إلى هذا الحطب الذي تحمله ، وهو الذي أوقع بها هذا البلاء . . إنها كانت تحمل حطبا ، وحسب . . وهذا الحطب . وإن كان من وقود النار . إلا أنه قد يسلم منها ، لو لم يخالطها ، ويعلق بها . . وأما وقد خالطها « أبو لهب » فلا بد أن تشتعل ، وتحترق ! وقوله تعالى : « فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ » .

الجيد : العنق ، والجيد من محاسن المرأة ، وسمى جيدا من الجودة ، وفيه تضع المرأة أجمل ما تتزين به من حلى وجواهر . .

والمسد : الليف ، أو ما يشبهه ، مما تتخذ منه الحبال . .

وفى تعليق هذا الحبل فى جيد أم جميل ، تصوير بليغ معجز لشناعة هذه المرأة ، وفى تشويه خلقها . . فما أبشع « جيد » امرأة كان من شأنه أن يتحلى

بعقد من كريم الجواهر ، يشدّ إليه حبل من ليف . . إنه إهانة لعزيز ، وإذلال لكريم . . وإن الإهانة للعزيز ، والإذلال للكريم ، لأقتل للنفس ، وأنكى للقلب ، من إهانة المهين ، وإذلال الذليل ! فكلمة « جيد » هنا مقصودة لذاتها ، إنه يراد بها ما لا يراد بلفظ رقبة ، أو عنق . . إنها تنزل امرأة من عقائل قريش ، ومن بيوتاتها المعدودة فيها ، لتلقى بها فى عرض الطريق ، وهى تحمل على ظهرها حزم الحطب ، وتشدها إلى جيدها بحبل من ليف ! !

ولهذا فزعت المرأة ، وولولت حين سمعت هذا الوصف الذي وصفها القرآن الكريم به ، فخرجت ـ كما يقول الرواة ـ فى جنون مسعور ، تستعدى قريشا على النبي الذي هجاها ـ كما تزعم ـ هذا الهجاء الفاضح ، وعرضها عارية على الملأ ! وحق للمرأة أن تفزع وأن تجنّ ، فلقد كانت هذه الصورة التي رسمها القرآن لها ، وعرضها هذا العرض المذل المهين لها ، حديث قريش ـ نسائها ورجالها ـ ومادة تندرها ، ومعابثها ، زمنا طويلا . .

وأكثر من هذا . .

فإن النظم الذي جاءت عليه السورة الكريمة ، قد جاء فى صورة تغرى بأن تكون أغنية يتغنى بها الولدان ، ويحدو بها الركبان ، ويتناشد بها الرعاة . .

إنها تصلح أن تكون ـ فى نظمها ـ غناء ، أو نشيدا ، أو حداء . . ولا نحسب إلا أنها كانت ، بعد أيام قليلة من نزولها ، نشيدا مرددا فى طرقات مكة ، على ألسنة الصبيان ، وفى

البوادي على أفواه الرعاة، والحداة، وأنها قد أخذت صورا وأشكالا من الأوزان، والأنغام، التي تولدت من نظمها العجيب المعجز . .

(176/837)

أنظر . .

ألا يمكن أن تنشد هكذا :

تبت يدا أبى لهب / وتبّا ما أغنى عنه ماله / وما كسبا سيصلى نارا / ذات لهب وامرأته / حمالة الحطب فى جيدها / حبل من مسد ثم ألا يمكن أن تكون صوت حداء . . هكذا . .

تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب

سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب

فى جيدها حبل من مسد ؟

ثم ألا يمكن أن تكون نشيد رعاة . . هكذا :

تبّت يدا / أبى لهب / وتب ما أغنى عنه / ماله / وما كسب سيصلى / نارا / ذات لهب

وامرأته / حمالة / الحطب فى جيدها / حبل / من مسد ؟

وهكذا ، يمكن أن تتوالد منها الصور ، وتتعدد ! وفى الإخبار عن أبى لهب وامرأته بأنهم من أهل النار ، وفى مواجهتهم بهذا الخبر ، ثم موتهم بعد هذا على الكفر. فى هذا إعجاز من إعجاز القرآن ، الذي ساق أبا لهب وامرأته إلى النار وهما حيان يرزقان . . ولو أن أبا لهب آمن بالله. ولو حتى عن نفاق. لأقام حجة قاطعة على كذب النبي ، وافتراء ما جاء

(177/837)

به ، لأن النار التي توعدها الله إنما هى لكفره ، فلو أعلن الإيمان لما كان لهذا الوعيد حجة عليه ، بل كان حجة على القرآن بأنه مفترى . ولكن أنّى يكون هذا ، وقد قضى الله بعذابه فى جهنم ، ونزل القرآن بالخبر القاطع بهذا ؟

إنها كلمة واحدة كانت تخرج من فم أبى لهب أو امرأته ، بإعلان إسلامهما ، فيقضى بها على محمد ودعوته . . وهذه معجزة متحدية من معجزات القرآن ، الذي أمسك لسان الرجل والمرأة عن أن ينطقا بهذه الكلمة ، بكلمة الإسلام ، فى أوضح صورة ، وأكملها وأصرحها ، كما جاءت بها سورة « الإخلاص » .

وتلك شهادة قائمة على الدهر ، بأن هذا القرآن كلام الله ، وأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل

من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1702.1710 ﴾

(178/837)

وقال ابن عاشور :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ﴾

افتتاح السورة بالتبات مشعر بأنها نزلت لتوبيخ ووعيد ، فذلك براعة استهلال مثل ما تفتتح أشعار الهجاء بما يؤذن بالذم والشتم ومنه قوله تعالى : ﴿ ويل للمطففين ﴾ [المطففين : 1] إذ افتتحت السورة المشتملة على وعيد المطففين للفظ الويل ومن هذا القبيل قول عبد الرحمان بن الحكم من شعراء "الحماسة

" :

لَحَا اللهُ قَيْساً قيسَ عَيلان إنها

أضاعت ثُغور المسلمين وولَّتِ . . .

وقول أبي تمام في طالعةِ هجاء :

النارُ والعارُ والمكروه والعطب

ومنه أخذ أبو بكر بن الخازن قوله في طالع قصيدة هناء بمولد :

مجشري فقد أنجز الإقبال ما وعد

والتَّبُّ : الخسران والهلاك ، والكلام دعاء وتقريع لأبي لهب دافع الله به عن نبيئه بمثل اللفظ الذي شَتَم به أبو لهب محمداً صلى الله عليه وسلم جزاءً وفاقاً .

وإسناد التبّ إلى اليدين لِما روي من أن أبا لهب لما قال للنبيء : "تباً لك سائرَ اليوم ألهذا جمعتنا" أخذ بيده حجراً ليرميه به .

وروي عن طارق المحاربي قال : "بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا برجل حديث السن يقول : أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، وإذا رجل خلفَه يرميه قد أدمى ساقيه وعرقوبيه ويقول : "يا أيها الناس إنه كذاب فلا تصدقوه" .

فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هذا محمد يزعم أنه نبيء ، وهذا عمه أبو لهب ، فوقع الدعاء على يديه لأنهما سبب أذى النبي صلى الله عليه وسلم كما يقال للذي يتكلم بمكروه : "بفيك الحجارة أو بفيك الكثكث" .

وقول النابغة :

قعود الذي أبياتهم يثمدونهم

رمى الله في تلك الأكف الكوانع . . .

ويقال بضد ذلك للذي يقول كلاماً حسناً : لا فُضَّ فُوك ، وقال أعرابي من بني أسد :

دَعَوْتُ لِمَا نَابِني مِسْوَرًا

فلبّى فلبّي يَدَيْ مِسْوَرِ . . .

لأنه دعاه لِما نابه من العدوّ للنّصر ، والنصر يكون بعمل اليد بالضرب أو الطعن .

(179/837)

وأبو لهب : هو عبد العزى بن عبد المطلب وهو عمّ النبي صلى الله عليه وسلم وكنيته أبو عتبة تكنية باسم ابنه ، وأمّا كنيته بأبي لهب في الآية فقيل : كان يكنّى بذلك في الجاهلية (لحسنه وإشراقِ وجهه) وأنه اشتهر بتلك الكنية كما اقتضاه حديث طارق المحاربي ، ومثله حديث عن ربيعة بن عباد الديلي في "مسند أحمد" ، فسماه القرآن بكنيته دون اسمه لأن في اسمه عبادة العزى ، وذلك لا يُقره القرآن ، أو لأنه كان بكنيته أشهر منه باسمه العَلَمِ ، أو لأن في كنيته ما يتأتى به التوجيه بكونه صائراً إلى النار ، وذلك كناية عن كونه جهنمياً ، لأن اللهب ألسنةُ النار إذا اشتعلت وزال عنها الدخان .

والأبُ : يطلق على ملازم ما أضيف إليه كقولهم : "أبوها وكَيَّالها" وكما كني إبراهيم عليه السلام : أبا الضيفان وكنّى النبي صلى الله عليه وسلم عبدَ الرحمان بن صَخْر الدَّوْسي : أبا هريرة لأنه حمل هِرَّةً في كم قميصه ، وكُني شهرُ رمضان : أَبَا البَركات ، وكني الذئب : أبا

جَعدةٍ والجعدة سخلة المعز لأنه يلازم طلبها لافتراسها ، فكانت كنية أبي لهب صالحة موافقة لحاله من استحقاقه لهب جهنم فصار هذا التوجيه كناية عن كونه جهنمياً لينتقل من جعل أبي لهب بمعنى ملازم اللهب إلى لازم تلك الملازمة في العرف ، وهو أنه من أهل جهنم وهو لزوم ادعائي مبني على التفاؤل بالأسماء ونحوها كما أشار إليه التفتازاني في مبحث العَلَمِيَّة من "شرح المفتاح" وأنشد قول الشاعر

:

قصدت أبا المحاسن كي أراه

لشوق كان يجذبني إليه . . .

فلما أن رأيتُ رأيت فرداً

ولم أر من بنيه ابنا لديه . . .

وقد يكون أبو لهب كنيته الحطب كما أنبأ عنه ما روي عن أبي هريرة : " إن ابنة أبي لهب قالت للنبيء صلى الله عليه وسلم إن الناس يصيحون بي ويقولون إني ابنةُ حطب النار " الحديث .

وقرأ الجمهور لفظ ﴿ لهب ﴾ بفتح الهاء ، وقرأه ابن كثير بسكون الهاء وهو لغة لأنهم كثيراً ما يسكنون عين الكلمة المتحركة مع الفاء ، وقد يكون ذلك لأن ﴿ لهب ﴾ صار جزءَ عَلَم والعرب قد يغيرون بعض حركات الاسم إذا نقلوه إلى العلمية كما قالوا : شُمْس بضم الشين ، لشَمْس بن مالك الشاعر الذي ذكره تأبط شراً في قوله :

إنّي لمُهْدٍ من ثَنائِي فقاصد

به لابن عَمِّ الصدقِ شُمْس بنِ مالك . . .

قال أبو الفتح بن جنّيّ في كتاب "إعراب الحماسة" : "يجوز أن يكون ضم الشين على وجه تغيير الأعلام نحو مَعدِ يكرب .

وتَهْلُك ومَوْهَب وغير ذلك مما غُيِّر عن حال نظائره لأجل العلمية الحادثة فيه أ هـ .

وكما قالوا : أبو سُلْمى بضم السين كُنية والدِ زهير بن أبي سُلمى لأنهم نقلوا اسم سَلمى بفتح السين من أسماء النساء إلى جعله اسم رجل يكنى به لأنهم لا يكنون بأسماء النساء غالباً .

ولذلك لم يسكن ابن كثير الهاء من قوله تعالى : ﴿ ذات لهب ﴾ وقراءةُ ابن كثير قراءة أهل مكة فلعل أهل مكة اشتهرت بينهم كنية أبي لهب بسكون الهاء تحقيقاً لكثرة دورانها على الألسنة في زمانه .

وجملة : ﴿ وتب ﴾ إما معطوفة على جملة : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ عطف الدعاء

على الدعاء إذا كان إسناد التبات إلى اليدين لأنهما آلة الأذى بالرمي بالحجارة كما في خبر طارق المحاربي، فأعيد الدعاء على جميعه إغلاظاً له في الشتم والتقريع، وتفيدُ بذلك تأكيداً لجملة: ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ لأنها بمعناها، وإنما اختلفتا بالكلية والجزئية، وذلك الاختلاف هو مقتضِي عطفها، وإلا لكان التوكيد غير معطوف لأن التوكيد اللفظي لا يعطف بالواو كما تقدم في سورة الكافرون.

وإمّا أن تكون في موضع الحال، والواو واوَ الحال ولا تكون دعاء إنما هي تحقيق لحصول ما دُعي عليه به كقول النابغة:

جزَى ربُّه عني عديَّ بن حاتمٍ

جزَاء الكلاب العاويات وقدْ فعَلْ . . .

(181/837)

فيكون الكلام قبله مستعملاً في الذم والشماتة به أو لطلب الازدياد، ويؤيد هذا الوجه قراءة عبد الله بن مسعود "وقد تَب" فيتمحض الكلام قبله لمعنى الذم والتحقير دون معنى طلب حصول التبات له، وذلك كقول عبد الله بن رواحة حين خروجه إلى غزوة مُؤتة التي استشهد فيها:

حتَّى يقولوا إذا مَرُّوا على جَدَثي

أرْشَدَكَ اللَّهُ من غَازٍ وقَدْ رَشِدا . . .

يعني ويقولوا : وقد رشدا ، فيصير قوله : أرشدك الله من غازٍ ، لمجرد الثناء والغبطة بما حصّله من الشهادة .

مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2)

استئناف ابتدائي للانتقال من إنشاء الشتم والتوبيخ إلى الإِعلام بأنه آيس من النجاة من هذا التبات ، ولا يغنيه ماله ، ولا كسبه ، أي لا يغني عنه ذلك في دفع شيء عنه في الآخرة .

والتعبير بالماضي في قوله : ﴿ ما أغنى ﴾ لتحقيق وقوع عدم الإِغناء .

و﴿ ما ﴾ نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية للتوبيخ والإِنكار .

والمال : الممتلكات المتمولة ، وغلب عند العرب إطلاقه على الإِبل ، ومن كلام عمر : "لولاَ المال الذي أحمل عليه في سبيل الله" الخ في اتقاء دعوة المظلوم ، من "الموطأ" ، وقال زهير :

صحيحات مالٍ طالعات بمخرَم

وأهل المدينة وخيبر والبحرين يغلب عندهم على النخيل ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ في سورة النساء (29) وفي مواضع .

﴿ وما كسب ﴾ موصول وصلته والعائد محذوف جوازاً لأنه ضمير نصب ، والتقدير :

وما كسبه، أي ما جمعه.

والمراد به: ما يملكه من غير النعَم من نقود وسلاح وربْع وعُروض وطعام، ويجوز أن يراد بماله: جميع ماله، ويكون عطف ﴿ وما كسب ﴾ من ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به، أي ما أغنى عنه ماله التالد وهو ما ورثه عن أبيه عبد المطلب وما كسبه هو بنفسه وهو طريفُه.

(182/837)

وروي عن ابن مسعود أن أبا لهب قال: "إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا أفتدي نفسي يوم القيامة بمالي وولدي" فأنزل الله: ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ وقال ابن عباس: ﴿ ما كسب ﴾ هو ولده فإن الولد من كسب أبيه.

سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3)

بيان لجملة: ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ أي لا يغني عنه شيء من عذاب جهنم.

ونزل هذا القرآن في حياة أبي لهب.

وقد مات بعد ذلك كافراً، فكانت هذه الآية إعلاماً بأنه لا يُسلم وكانت من دلائل النبوءة.

والسين للتحقيق مثل قوله تعالى: ﴿ قال سوف أستغفر لكم ربي ﴾ [يوسف: 98].

و"يصلى ناراً"يُشوَى بها ويحس بإحراقها .

وأصل الفعل : صلاهُ بالنار ، إذا شواه ، ثم جاء منه صَلي كأفعال الإِحساس مثل فرِح ومرِض .

ونُصب ﴿ ناراً ﴾ على نزع الخافض .

ووصف النار بـ ﴿ ذات لهب ﴾ لزيادة تقرير المناسبة بين اسمه وبين كفره إذ هو أبو لهب والنار ذات لهب .

وهو ما تقدم الإِيماء إليه بذكر كنيته كما قدمناه آنفاً ، وفي وصف النار بذلك زيادة كشف لحقيقة النار وهو مِثل التأكيد .

وبين لَفضي ﴿ لهب ﴾ الأول و ﴿ لهب ﴾ الثاني الجناس التام .

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4)

أعقب ذم أبي لهب ووعيده بمثل ذلك لامرأته لأنها كانت تشاركه في أذى النبي صلى الله عليه وسلم وتعينه عليه .

وامرأته : أي زوجُه ، قال تعالى في قصة إبراهيم : ﴿ وامرأته قائمة ﴾ [هود : 71] وفي قصة لوط : ﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ [الأعراف : 83] وفي قصة نسوة يوسف : ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ [يوسف : 30] .

وامرأة أبي لهب هي أم جَميل ، واسمها أرْوَى بنتُ حرب بن أمية وهي أخت أبي سفيان

بن حرب ، وقيل : اسمها العَوراء ، فقيل هو وصف وأنها كانت عوراء ، وقيل : اسمها ، وذكر بعضهم : أن اسمها العَوّاء بهمزة بعد الواو .

(183/837)

وكانت أم جميل هذه تحمل حطب العضاه والشوكِ فتضعه في الليل في طريق النبي صلى الله عليه وسلم الذي يسلك منه إلى بيته ليعقِر قدميه .

فلما حصل لأبي لهب وعيد مقتبس من كنيته جُعل لامرأته وعيد مقتبَس لفظُه من فِعلها وهو حَمْل الحطب في الدنيا ، فأُنذرت بأنها تحمل الحطب في جهنم ليوقَد به على زوجها ، وذلك خزي لها ولزوجها إذ جعل شدة عذابه على يد أحب الناس إليه ، وجعلها سبباً لعذاب أعز الناس عليها .

فقوله : ﴿ وامرأته ﴾ عطف على الضمير المستتر في ﴿ سيصلى ﴾ [المسد : 3] أي وتصلى امرأته ناراً .

وقوله : ﴿ حمالةُ الحطب ﴾ قرأه الجمهور برفع ﴿ حمالةُ ﴾ على أنه صفة لامرأته فيَحتمل أنها صفتها في جهنم ويحتمل أنها صفتها التي كانت تعمل في الدّنيا بجلب حطب العضاه لتضعه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم على طريقة التوجيه والإِيماء إلى تعليل

تعذيبها بذلك.

وقرأه عاصم بنصب ﴿ حمالة ﴾ على الحال من ﴿ امرأته ﴾ .

وفيه من التوجيه والإيماء ما في قراءة الرفع.

وجملة: ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ صفة ثانية أو حال ثانية وذلك إخبار بما تعامل به في الآخرة، أي جعل لها حبل في عنقها تحمِل فيه الحطب في جهنم لإسعار النار على زوجها جزاء مماثلاً لعملها في الدنيا الذي أغضب الله تعالى عليها.

والجِيد: العُنق، وغلَب في الاستعمال على عنق المرأة وعلى محل القلادة منه فَقَلّ أن يذكر العُنق في وصف النساء في الشعر العربي إلا إذا كان عُنُقاً موصوفاً بالحسن وقد جمعهما امرؤ القيس في قوله:

وجيدٍ كجيد الرِئم ليس بفاحش
إذا هي نَصّتْه ولا بمُعَطَّل...

قال السهيلي في "الروض": "والمعروف أن يذكر العنق إذا ذكر الحَلي أو الحُسن فإنما حَسُن هنا ذِكر الجيد في حكم البلاغة لأنها امرأة والنساء تحلي أجيادَهن وأم جميل لا حلي لها في الآخرة إلا الحَبل المجعول في عنقها فلما أقيم لها ذلك مقام الحَلي ذُكر الجيد معه، ألا ترى إلى قول الأعشى:

يومَ تبدي لنا قتيلةُ عن جي

د أسيل تزينُه الأطواق . . .

ولم يقل عن عنق ،

وقول الآخر :

وأحسن من عقد المليحة جيدُها

ولم يقل عنقها ولو قال لكان غثاً من الكلام .

اهـ .

قلت : وأما قول المعري :

الحَجْلُ للرِّجْلِ والتاجُ المُنيفُ لما

فوقَ الحِجَاج وعقْد الدرّ للعنق . . .

فإنما حسنه ما بين العقد والعنق من الجناس إتماماً للمجانسة التي بين الحَجْل والرجل ، والتاج والحجاج ، وهو مقصود الشاعر .

والحبْل : ما يربط به الأشياء التي يراد اتصالُ بعضها ببعض وتقيدُ به الدابة والمسجون كيلا يبرح من المكان ، وهو ضفير من الليف أو من سُيور جلد في طول متفاوت على حسب قوة ما يشد به أو يربط في وتدٍ أو حلقة أو شجرة بحيث يمنع المربوط به من مغادرة موضعه إلى

غيره على بعد يراد ، وتربط به قلوع السفن وتشد به السفن في الأرض في الشواطىء ،

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل اللَّه جميعاً ﴾ وقوله : ﴿ إلا بحبل من اللَّه وحبل من الناس ﴾ كلاها في سورة آل عمران (103 112) ، ويقال : حبله إذا ربطه.

والمسدّ : ليف من ليف اليمن شديد ، والحِبال التي تفتل منه تكون قوية وصُلبة.

وقدم الخبر من قوله : ﴿ في جيدها ﴾ للاهتمام بوصف تلك الحالة الفظيعة التي عوضت فيها بحبل في جيدها عن العقد الذي كانت تحلي به جيدها في الدنيا فتربط به إذ قد كانت هي وزوجها من أهل الثراء وسادة أهل البطحاء ، وقد ماتت أم جميل على الشرك. انتهى انتهى. اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(185/837)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة المسد

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1)

أبو لهب - [واسمه عبد العزى بن عبد المطلب] هو عم النبي (صلى الله عليه وسلم)

وإنما سمي أبو لهب لإشراق وجهه, وكان هو وامرأته "أم جميل" من أشد الناس إيذاء

لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وللدعوة التي جاء بها . .

قال ابن اسحاق : "حدثني حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة بن عباد الديلي يقول : "إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتبع القبائل , ووراءه رجل أحول , وضيء الوجه ذو جمة , يقف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على القبيلة فيقول : "يا بني فلان . إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا , وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به" وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان . هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أقمس , إلى ما جاء به من البدعة والضلالة , فلا تسمعوا له , ولا تتبعوه . فقلت لأبي : من هذا ؟ قال عمه أبو لهب . [ورواه الإمام أحمد والطبراني بهذا اللفظ] .

فهذا نموذج من نماذج كيد أبي لهب للدعوة وللرسول (صلى الله عليه وسلم) , وكانت زوجته أم جميل في عونه في هذه الحملة الدائبة الظالمة . [وهي أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان] .

ولقد اتخذ أبو لهب موقفه هذا من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منذ اليوم الأول للدعوة . أخرج البخاري – بإسناده – عن ابن عباس , أن النبي (صلى الله عليه وسلم) خرج إلى البطحاء , فصعد الجبل فنادى : "يا صباحاه" فاجتمعت إليه قريش , فقال : أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ? أكنتم مصدقي ? قالوا : نعم . قال : " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " . فقال أبو لهب . ألهذا جمعتنا ? تبا لك . فأنزل الله(تبت يدا أبي لهب وتب . . .)الخ . وفي رواية فقام ينفض يديه وهو يقول : تبا لك سائر اليوم ! ألهذا جمعتنا ? ! فأنزل الله السورة .

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبي طالب على حماية النبي (صلى الله عليه وسلم) ولو لم يكونوا على دينه , تلبية لدافع العصبية القبلية , خرج أبو لهب على إخوته , وحالف عليهم قريشا , وكان معهم في الصحيفة التي كتبوها بمقاطعة بني هاشم وتجويعهم كي يسلموا لهم محمدا (صلى الله عليه وسلم) .

وكان قد خطب بنتي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رقية وأم كلثوم لولديه قبل بعثة النبي (صلى الله عليه وسلم) فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما حتى يثقل كاهل محمد بهما !

وهكذا مضى هو وزوجته أم جميل يثيرانها حربا شعواء على النبي (صلى الله عليه وسلم) وعلى الدعوة , لا هوادة فيها ولا هدنة . وكان بيت أبي لهب قريبا من بيت رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) فكان الأذى أشد . وقد روي أن أم جميل كانت تحمل الشوك فتضعه في طريق النبي ; وقيل : إن حمل الحطب كناية عن سعيها بالأذى والفتنة والوقيعة . نزلت هذه السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته . وتولى الله - سبحانه - عن رسوله (صلى الله عليه وسلم) أمر المعركة !

(187/837)

(تبت يدا أبي لهب وتب) . . والتباب الهلاك والبوار والقطع . (وتبت) الأولى دعاء . (وتب) الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء . ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق , وتنتهي المعركة ويسدل الستار !

فأما الذي يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان .

(ما أغنى عنه ماله وما كسب) . . لقد تبت يداه وهلكتا وتب هو وهلك . فلم يغن عنه ماله وسعيه ولم يدفع عنه الهلاك والدمار .

ذلك - كان - في الدنيا . أما في الآخرة فإنه : (سيصلى نارا ذات لهب) . . ويذكر اللهب تصويرا وتشخيصا للنار وإيحاء بتوقدها وتلهبها .

(وامرأته حمالة الحطب) . . وستصلاها معه امرأته حالة كونها حمالة للحطب . . وحالة

كونها : (في جيدها حبل من مسد) . . أي من ليف . . تشد هي به في النار . أو هي الحبل الذي تشد به الحطب . على المعنى الحقيقي إن كان المراد هو الشوك . أو المعنى المجازي إن كان حمل الحطب كناية عن حمل الشر والسعي بالأذى والوقيعة .

وفي الأداء التعبيري للسورة تناسق دقيق ملحوظ مع موضوعها وجوها , نقتطف في بيانه سطورا من كتاب : "مشاهد القيامة في القرآن" نمهد بها لوقع هذه السورة في نفس أم جميل التي ذعرت لها وجن جنونها :

"أبو لهب . سيصلى نارا ذات لهب . . وامرأته حمالة الحطب . ستصلاها وفي عنقها حبل من مسد . .

"تناسق في اللفظ , وتناسق في الصورة . فجنهم هنا نار ذات لهب . يصلاها أبو لهب ! وامرأته تحمل الحطب وتلقيه في طريق محمد لإيذائه (بمعناه الحقيقي أو المجازي" . .

والحطب مما يوقد به اللهب . وهي تحزم الحطب بحبل . فعذابها في النار ذات اللهب أن تغل بحبل من مسد . ليتم الجزاء من جنس العمل , وتتم الصورة بمحتوياتها الساذجة : الحطب والحبل . والنار واللهب . يصلى به أبو لهب وامرأته حمالة الحطب ! وتناسق من لون آخر

. في جرس الكلمات , مع الصوت الذي يحدثه شد أحمال الحطب وجذب العنق بحبل من مسد . اقرأ : (تبت يدا أبي لهب وتب) تجد فيها عنف الحزم والشد ! الشبيه بحزم الحطب وشده . والشبيه كذلك بغل العنق وجذبه . والشبيه بجو الحنق والتهديد الشائع في السورة .

"وهكذا يلتقي تناسق الجرس الموسيقي , مع حركة العمل الصوتية , بتناسق الصور في جزئياتها المتناسقة , بتناسق الجناس اللفظي ومراعاة النظير في التعبير , ويتسق مع جو السورة وسبب النزول . ويتم هذا كله في خمس فقرات قصار , وفي سورة من أقصر سور القرآن" .

هذا التناسق القوي في التعبير جعل أم جميل تحسب أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد هجاها بشعر . وبخاصة حين انتشرت هذه السورة وما تحمله من تهديد ومذمة وتصوير زري لأم جميل خاصة . تصوير يثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها , مدلة بحسبها ونسبها . ثم ترتسم لها هذه الصورة : (حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد) ! في هذا الأسلوب القوي الذي يشيع عند العرب !

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن أم جميل حمالة الحطب حين سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن , أتت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو جالس في المسجد عند الكعبة , ومعه أبو بكر الصديق , وفي يدها فهر [أي بمقدار ملء الكف] من حجارة . فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلا ترى إلا أبا بكر . فقالت : يا أبا بكر . أين صاحبك ? قد بلغني أنه يهجوني . والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه . أما والله واني لشاعرة ! ثم قالت :

مذمما عصينا وأمره أبينا

ثم انصرفت . فقال أبو بكر : يا رسول الله , أما تراها رأتك ? فقال : ما رأتني , لقد أخذ الله ببصرها عني . .

وروى الحافظ أبو بكر البزار - بإسناده - عن ابن عباس قال : لما نزلت : (تبت يدا أبي لهب) جاءت امرأة أبي لهب , ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالس ومعه أبو بكر . فقال له أبو بكر : لو تنحيت لا تؤذيك بشيء ! فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إنه سيحال بيني وبينها " . . فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر , فقالت : يا أبا بكر , هجانا صاحبك . فقال أبو بكر : لا ورب هذه البنية ما ينطق بالشعر ولا يتفوه به , فقالت : إنك لمصدق . فلما ولت قال أبو بكر : ما رأتك ? قال : " لا . ما زال ملك يسترني حتى ولت " . .

فهكذا بلغ منها الغيظ والحنق , من سيرورة هذا القول الذي حسبته شعرا [وكان الهجاء لا يكون إلا شعرا] مما نفاه لها أبو بكر وهو صادق ! ولكن الصورة الزرية المثيرة للسخرية التي شاعت في آياتها , قد سجلت في الكتاب الخالد , وسجلتها صفحات الوجود أيضا تنطق بغضب الله وحربه لأبي لهب وامرأته جزاء الكيد لدعوة الله ورسوله , والتباب والهلاك والسخرية والزراية جزاء الكائدين لدعوة الله في الدنيا , والنار في الآخرة جزاء وفاقا , والذل الذي يشير إليه الحبل في الدنيا والآخرة جميعا . . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 3999 . 4001 ﴾

(190/837)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ﴾

التب : القطع .

ومن المادة : بت بتقديم الباء ، فهي تدور على معنى القطع ، كما يفيده فقه اللغة في دوران المادة على معنى واحد .

وقال : التب ، والتبب ، والتباب ، والتبيب ، والتتبيب ، النقص والخسار ، إلى أن قال :

وتبت يداه : ضلتا وخسرتا .

وقال الفخر الرازي : التباب : الهلاك ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر : 37] ، أي في هلاك .

وذلك لأن أبا لهب أهلك نفسه بفساد اعتقاده وسوء فعاله ، كما جاء في السنة قول الأعرابي : هلكت وأهلكت : أي بوقاعه أهله في رمضان ، وجاء قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود : 101] .

فقالوا : غير خسران ، والخسران يؤدي إلى الهلاك ، والقطع .

كما جاء في معناه في قصة صالح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . قوله تعالى : ﴿ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود : 63] ، فظهر من هذا كله أن معنى : تبت يدا أبي لهب ، دائر بين معنى القطع والهلاك والخسران .

أما قطعها فلم يقدر عليه قطع يديه قبل موته .

وأما الهلاك والخسران : فقد هلك بالغدة .

وأما الخسران : فما أشد خسرانه بعد هذا الحكم عليه من الله تعالى .

وإذا كان المعنى قد تعين بنص القرآن في الهلاك والخسران ، فما معنى إسناد التب لليدين ؟

الجواب : أن ذلك من باب إطلاق البعض وإرادة الكل كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ نَاصِيَةٍ

كَاذِبَةٍ ﴾ [العلق : 16] ، مع أن الكاذب هو صاحبها .

وقد قدمنا هناك أن مثل هذا الأسلوب لا بد فيه من زيادة اختصاص للجزء المنطوق في المعنى المراد .

(191/837)

فلما كان الكذب يسوّد الوجه ويذل الناصية ، وعكسه الصدق يبيّض الوجه ويعر الناصية ، أسند هناك الكذب إلى الناصية لزيادة اختصاصها بالكذب عن اليد مثلاً .

ولما كان الهلاك والخسران غالباً بما تكسبه الجوارح ، واليد أشد اختصاصاً في ذلك أسند إليها البت .

ومما يدل على أن المراد صاحب اليدين ، ما جاء بعدها ، قوله تعالى : ﴿ وَتَبَّ ﴾ ، أي أبو لهب نفسه .

وسواء كان قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ، على سبيل الإخبار أو الإنشاء ، فإنه محتمل من حيث اللفظ .

ولكن قوله تعالى بعده : ﴿ وَتَبَّ ﴾ ، فهو إخبار ، فيكون الأول للإنشاء كقوله : ﴿ قُتِلَ الإنسان مَا أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس : 17] .

ثم جاءء الثاني تصديقاً له ، وجاءت قراءة سعيد ابن مسعود ﴿ وَتَبَّ ﴾ .

مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2)

سواء كانت ما استفهامية فهو استفهام إبكار ، أو كانت نافية فإنه نص ، على أن ماله لم يغن عنه شيئاً .

وقوله : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

فقيل : أي من المال الأول ما ورثه أو ما كسب من عمل جرّ عليه هذا الهلاك ، وهو عداؤه لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونظير هذه الآية المتقدمة ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تردى ﴾ [الليل : 11] .

وتقدم الكلام عليه هناك .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان معنى ﴿ مَا أغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ ، عند قوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْئاً وَلاَ مَا اتخذوا مِن دُونِ الله أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الجاثية : 10] .

وساق كل النصوص في هذا المعنى بتمامها .

تنبيه

في هذه الآية سؤالان هما :

أولاً : لقد كان صلى الله عليه وسلم مع قومه في مكة ملاطفاً حليماً ، فكيف جاء به عمه بهذا الدعاء : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ؟ والجواب : أنه كان يلاطفهم ما دام يطمع في إسلامهم ، فلما يئس من ذلك ، كان هذا الدعاء في محله ، كما وقع من إبراهيم عليه السلام ، كان يلاطف أباه ﴿ ياأبت لا تَعْبُدِ الشيطان ﴾ [مريم : 44] ، ﴿ ياأبت إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ العلم مَا لَمْ يَأْتِكَ فاتبعني أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ [مريم : 43] ، فلما يئس منه تبرأ منه كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 114] .

والسؤال الثاني : وهو مجيء قوله تعالى : ﴿ وَتَبَّ ﴾ ، بعد قوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، مع أنها كافية سواء كانت إنشاء للدعاء عليه أو إخباراً بوقوع ذلك منه .

والجواب ، والله تعالى أعلم ، أن الأول لما كان محتملاً الخبر ، وقد يمحو الله ما يشاء ويثبت ، أو إنشاء وقد لا ينفذ كقوله : ﴿ قُتِلَ الإنسان مَآ أَكْفَرَهُ ﴾ [عبس : 17] ، أو يحمل على الذم فقط ، والتقبيح فجاء " وتب " لبيان أنه واقع به لا محالة ، وأنه ممن حقت عليهم ربك ليبأس صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون من إسلامه . وتنقطع الملاطفة معه ، والله تعالى أعلم .

وقد وقع ما أخبر الله به ، فهو من أعجاز القرآن أن ما وقع ما أخبر به ، كما أخبر ولم

يتخلف.

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام: 115]، وقوله: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الذين فسقوا أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: 33].

نسأل الله العافية، إنه سميع مجيب. انتهى انتهى. اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

(193/837)

" فصل "

قال السيوطي:

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: أنزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ بمكة.

وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير وعائشة مثله.

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال: ما كان أبو لهب إلا من كفار قريش، ما هو حتى خرج من الشعب حين تمالأت قريش حتى حصرونا في الشعب وظاهرهم، فلما خرج أبو لهب من الشعب وظاهرهم، فلما خرج أبو لهب من الشعب لقي هنداً بنت عتبة بن ربيعة حين فارق قومه، فقال: يا ابنت عتبة هل نصرت اللات والعزى؟ قالت:

نعم فجزاك الله خيراً يا أبا عتبة . قال : إن محمداً يعدنا أشياء لا نراها كائنة ، يزعم أنها كائنة بعد الموت ، فما ذاك وصنع في يدي ، ثم نفخ في يديه ثم قال : تباً لكما ما أرى فيكما شيئاً مما يقول محمد ، فنزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ قال ابن عباس : فحصرنا في الشعب ثلاث سنين ، وقطعوا عنا الميرة حتى إن الرجل ليخرج منا بالنفقة فما يبايع حتى يرجع حتى هلك فينا من هلك .

وأخرج سعيد بن منصور والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال : " لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين ﴾ [الشعراء : 214] خرج النبي صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف : يا صباحاه فاجتمعوا إليه فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبًّا لك إنما جمعتنا لهذا ؟ ثم قام فنزلت هذه السورة ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ " .

وأخرج ابن المنذر وابن مردويه عن ابن عمر في قوله : ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ قال : خسرت .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ قال : خسرت ﴿ وتب ﴾ قال : خسر .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ قال : خسرت يدا أبي لهب وخسر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : إنما سمي أبا لهب من حسنه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وان ابنه من كسبه ، ثم قرأ ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ قالت : وما كسب ولده .

وأخرج عبد الرزاق عن عطاء قال : كان يقال : ما أإنى عنه ماله وما كسب وولده كسبه ومجاهد وعائشة قالاه .

وأخرج الطبراني عن قتادة قال : كانت رقيه بنت النبي صلى الله عليه وسلم عند عتبة بن أبي لهب ، فلما أنزل الله ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ سأل النبي صلى الله عليه وسلم طلاق رقية فطلقها فتزوّجها عثمان .

وأخرج الطبراني عن قتادة قال : تزوّج أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عتيبة بن أبي لهب ، وكانت رقية عند أخيه عتبة بن أبي لهب ، فلما أنزل الله ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ قال أبو لهب لابنيه عتيبة وعتبة : رأسي من رأسكما حرام إن لم تطلقا بنتي محمد

، وقالت أمهما بنت حرب بن أميه ، وهي حمالة الحطب : طلقاهما فإنهما قد صبتا ، فطلقاهما .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد أن امرأة أبي لهب كانت تلقي في طريق النبي صلى الله عليه وسلم الشوك ، فنزلت ﴿ تبت يدا أبي لهب ، وامرأته حمالة الحطب ﴾ فلما نزلت بلغ امرأة أبي لهب أن النبي يهجوك ، قالت : علام يهجوني ؟ هل رأيتموني كما قال محمد أحمل حطباً في جيدي حبل من مسد ؟ فمكثت ثم أتته فقالت : إن ربك قلاك وودعك ، فأنزل الله ﴿ والضحى ﴾ [الضحى : 1] إلى ﴿ وما قلى ﴾ [الضحى : 3] .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ قال : كانت تأتي بأغصان الشوك تطرحها بالليل في طريق رسول الله .

وأخرج ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ قال : كانت تمشي بالنميمة ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ من نار .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ قال : كانت تنقل الأحاديث من بعض الناس إلى بعض ﴿ في جيدها حبل ﴾ قال : عنقها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن ﴿ حمالة الحطب ﴾ قال : كانت تحمل النميمة فتأتي بها بطون قريش .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن عروة بن الزبير ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ قال : سلسلة من حديد من نار ذرعها سبعون ذراعاً .

وأخرج ابن الأنباري عن قتادة رضي الله عنه ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ قال : من الودع .

وأخرج ابن جرير والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ قال : كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق النبي صلى الله عليه وسلم ليعقره وأصحابه ، ويقال ﴿ حمالة الحطب ﴾ نقالة الحديث ﴿ حبل من مسد ﴾ قال : هي حبال تكون بمكة ، ويقال المسد العصا التي تكون في البكرة ، ويقال : المسد قلادة لها من ودع .

وأخرج ابن عساكر بسند فيه الكديمي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بعثت ولي أربع عمومة ، فأما العباس فيكنى بأبي الفضل ، ولولده الفضل إلى يوم القيامة ، وأما حمزة فيكنى بأبي يعلى ، فأعلى الله قدره في

الدنيا والآخرة ، وأما عبد العزى فيكنى بأبي لهب ، فأدخله الله النار وألهبها عليه ، وأما عبد مناف فيكنى بأبي طالب فله ولولده المطاولة والرفعة إلى يوم القيامة " .

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه رضي الله عنه قال : مرت درة ابنة أبي لهب برجل فقال : هذه ابنة عدو الله أبي لهب ، فأقبلت عليه فقالت ذكر الله أبي لنسابته وشرفه وترك أباك لجهالته ، ثم ذكرت للنبي صلى الله عليه وسلم ، فخطب الناس فقال : " لا يؤذين مسلم بكافر " .

(196/837)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر وأبي هريرة وعمار بن ياسر رضي الله عنهم قالوا : قدمت درة بنت أبي لهب مهاجرة فقال لها نسوة : أنت درة بنت أبي لهب الذي يقول الله ﴿ تبت يدا أبي لهب ﴾ فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فخطب فقال : " يا أيها الناس مالي أوذى في أهلي فوالله إن شفاعتي لتنال بقرابتي حتى إن حكما وحاء وصدا وسلهبا تنالها يوم القيامة بقرابتي " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 665 . 668 ﴾

(197/837)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ تَبَّتْ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ ؛

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاس : " وَمَا كَسَبَ يَعْنِي وَلَدَهُ " وَسَمَّاهُمْ ابْنُ عَبَّاس الْكَسْبَ الْخَبِيثَ .

وَرَوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ أَفْضَلَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : هُوَ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيك ﴾ وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ اسْتِيلَادِ الْأَبِ لِجَارِيَةِ ابْنِهِ وَأَنَّهُ مُصَدَّقٌ عَلَيْهِ وَتَصِيرُ أُمَّ وَلَدِهِ .

وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَالِدَ لَا يُقْتَلُ بِوَلَدِهِ ؛ لِأَنَّهُ سَمَّاهُ كَسْبًا لَهُ كَمَا لَا يُقَادُ لِعَبْدِهِ الَّذِي هُوَ كَسْبُهُ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ .

إحْدَى الدَّلَالَاتِ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ بِأَنَّهُ وَامْرَأَتَهُ سَيَمُوتَانِ عَلَى الْكُفْرِ وَلَا يُسْلِمَانِ ، فَوُجِدَ مُخْبَرُهُ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ ، وَقَدْ كَانَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ سَمِعَا بِهَذِهِ السُّورَةِ وَلِذَلِكَ قَالَتْ امْرَأَتُهُ : إنَّ مُحَمَّدًا هَجَانَا ، فَلَوْ أَنَّهُمَا قَالَا : قَدْ أَسْلَمْنَا وَأَظْهَرَا ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يَعْتَقِدَاهُ لَكَانَا قَدْ رَدَّا هَذَا الْقَوْلَ وَلَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَجِدُونَ مُتَعَلَّقًا ،

وَلَكِنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنَّهُمَا لَا يُسْلِمَانِ لَا بِإِظْهَارِهِ وَلَا بِاعْتِقَادِهِ فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ وَكَانَ مُخْبَرُهُ عَلَى مَا أَخْبَرَ بِهِ .

(198/837)

وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ : إنَّكُمَا لَا تَتَكَلَّمَانِ الْيَوْمَ ، فَلَمْ يَتَكَلَّمَا مَعَ ارْتِفَاعِ الْمَوَانِعِ وَصِحَّةِ الْآلَةِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْ أَظْهَرِ الدَّلَالَاتِ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ .

وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ أَبَا لَهَبٍ بِكُنْيَتِهِ وَذَكَرَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاسْمِهِ ، وَكَذَلِكَ زَيْدٌ وَكُلُّ مَنْ ذَكَرَهُ فِي الْكِتَابِ فَإِنَّمَا ذَكَرَهُمْ بِالِاسْمِ دُونَ الْكُنْيَةِ ؛ لِأَنَّ أَبَا لَهَبٍ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ الْعُزَّى ، وَغَيْرُ جَائِزٍ تَسْمِيَتُهُ بِهَذَا الِاسْمِ ، فَلِذَلِكَ عَدَلَ عَنْ اسْمِهِ إلَى كُنْيَتِهِ .

آخِرُ السُّورَةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(199/837)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ تَبَّتْ

[وَفِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ] .

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رَوَى الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ [عَنْهُ] قَالَ : ﴿ لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا وَهَتَفَ : يَا صَبَاحَاهُ فَقَالُوا : مَنْ هَذَا ؟ فَاجْتَمَعُوا إلَيْهِ ، فَقَالَ : أَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، أَرَأَيْتُكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ ، وَأَنَّ الْعَدُوَّ مُصْبِحُكُمْ أَوْ مُمْسِيكُمْ ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ ؟ قَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْك كَذِبًا .

قَالَ : فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ .

فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ : أَلِهَذَا جَمَعْتنَا ؟ تَبًّا لَك ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .

إلَى آخِرِهَا ﴾ .

هَكَذَا قَرَأَهَا الْأَعْمَشُ عَلَيْنَا يَوْمَئِذٍ ، زَادَ الْحُمَيْدِيُّ وَغَيْرُهُ : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ امْرَأَتُهُ مَا نَزَلَ فِي زَوْجِهَا وَفِيهَا مِنْ الْقُرْآنِ ، أَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ ، وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَفِي يَدِهَا فِهْرٌ مِنْ حِجَارَةٍ ، فَلَمَّا وَقَفَتْ عَلَيْهِ أَخَذَ اللَّهُ بِبَصَرِهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ تَرَ إلَّا أَبَا بَكْرٍ .

فَقَالَتْ : يَا أَبَا بَكْرٍ ، أَيْنَ صَاحِبُك ؟ فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّهُ يَهْجُونِي ، فَوَاَللَّهِ لَوْ وَجَدْته لَضَرَبْت بِهَذَا الْفِهْرِ فَاهُ ، وَاَللَّهِ إنِّي لَشَاعِرَةٌ : مُذَمَّمًا عَصَيْنَا وَأَمْرُهُ أَبَيْنَا وَدِينُهُ قَلَيْنَا ثُمَّ انْصَرَفَتْ .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَمَا تَرَاهَا رَأَتْك ؟ قَالَ : مَا رَأَتْنِي ، لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ بِبَصَرِهَا عَنِّي ﴾ .

وَكَانَتْ قُرَيْشٌ إنَّمَا تُسَمِّي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُذَمَّمًا ، ثُمَّ يَسُبُّونَهُ ، فَكَانَ يَقُولُ : أَلَا تَعْجَبُونَ لِمَا يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي مِنْ أَذَى قُرَيْشٍ يَسُبُّونَ وَيَهْجُونَ مُذَمَّمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ : اسْمُهُ عَبْدُ الْعُزَّى ، وَاسْمُ امْرَأَتِهِ الْعَوْرَاءُ أُمُّ جَمِيلٍ ، أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ ، فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ تَكْنِيَةِ الْمُشْرِكِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي سُورَةِ طَه فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ "يَعْنِي كَنِّيَاهُ عَلَى أَحَدِ الْأَقْوَالِ .

وَهَذَا بَاطِلٌ ؛ إنَّمَا كَنَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ الْعُلَمَاءِ بِمَعَانٍ أَرْبَعَةٍ : الْأَوَّلُ أَنَّهُ [لَمَّا] كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ

الْعُزَّى ، فَلَمْ يُضِفْ اللَّهُ الْعُبُودِيَّةَ إلَى صَنَمٍ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ .

الثَّانِي : أَنَّهُ كَانَ تَكْنِيَتُهُ أَشْهُرَ مِنْهُ بِاسْمِهِ ؛ فَصَرَّحَ بِهِ .

(201/837)

الثَّالِثُ أَنَّ الِاسْمَ أَشْرَفُ مِنْ الْكُنْيَةِ ، فَحَطَّهُ اللَّهُ عَنْ الْأَشْرَفِ إلَى الْأَنْقَصِ ؛ إذْ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ الْخِيَارِ عَنْهُ ، وَلِذَلِكَ دَعَا اللَّهُ أَنْبِيَاءَهُ بِأَسْمَائِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ .

وَيَدُلُّك عَلَى شَرَفِ الِاسْمِ [عَلَى الْكُنْيَةِ] أَنَّ اللَّهَ يُسَمِّي وَلَا يُكَنِّي وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لِظُهُورِهِ وَبَيَانِهِ وَاسْتِحَالَةِ نِسْبَةِ الْكُنْيَةِ إلَيْهِ لِتَقَدُّسِهِ عَنْهَا .

الرَّابِعُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرَادَ أَنْ يُحَقِّقَ نَسَبَهُ بِأَنْ يُدْخِلَهُ النَّارَ ، فَيَكُونَ أَبًا لَهَا ، تَحْقِيقًا لِلنَّسَبِ ، وَإِمْضَاءً لِلْفَأْلِ وَالطِّيَرَةِ الَّتِي اخْتَارَ لِنَفْسِهِ [لِذَلِكَ] .

وَقَدْ قِيلَ : إنَّ أَهْلَهُ إنَّمَا كَانُوا سَمَّوْهُ أَبَا لَهَبٍ لِتَلَهُّبِ وَجْهِهِ وَحُسْنِهِ ؛ فَصَرَفَهُمْ اللَّهُ عَنْ أَنْ يَقُولُوا لَهُ : أَبُو نُورٍ ، وَأَبُو الضِّيَاءِ ، الَّذِي هُوَ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْمَحْبُوبِ وَالْمَكْرُوهِ وَأَجْرَى عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ أَنْ يُضِيفُوهُ إلَى اللَّهَبِ الَّذِي هُوَ مَخْصُوصٌ بِالْمَكْرُوهِ وَالْمَذْمُومِ ، وَهُوَ النَّارُ ، ثُمَّ تَحَقَّقَ ذَلِكَ فِيهِ بِأَنْ جَعَلَهَا مَقَرَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ مَرَّتْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قِرَاءَتَانِ : إحْدَاهُمَا قَوْلُهُ : " وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَك

الْأَقْرَبِينَ .

وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ " .

وَالثَّانِيَةُ قَوْله تَعَالَى : تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَقَدْ تَبَّ .

وَهُمَا شَاذَّتَانِ ، وَإِنْ كَانَ الْعَدْلُ رَوَاهُمَا عَنْ الْعَدْلِ ، وَلَكِنَّهُ كَمَا بَيَّنَّا لَا يُقْرَأُ إلَّا بِمَا بَيْنَ الدَّفَّتَيْنِ وَاتَّفَقَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْإِسْلَامِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(202/837)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة المسد

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1)

قوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾ : أي : خَسِرَتْ ، وتقدَّم تفسيرُ هذه المادةِ في سورة غافر في قولِه : ﴿ إِلاَّ فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر : 37] ، وأسند الفعلَ إلى اليدَيْن مجازاً لأنَّ أكثرَ الأفعالِ تُزاوَلُ بهما ، وإنْ كان المرادُ جملةَ المَدْعُوِّ عليه . وقوله : " تَبَّتْ " دعاءٌ ، و " تَبَّ "

إخبارٌ، أي: قد وقع ما دُعِيَ به عليه. كقول الشاعر:

4668 جَزاني جَزاه اللَّهُ شرَّ جَزائِه ... جزاءَ الكِلابِ العاوياتِ وقد فَعَلْ

ويؤيِّده قراءةُ عبد الله "وقد تَبَّ" والظاهرُ أنَّ كليهما دعاءٌ، ويكونُ في هذا شَبَهٌ مِنْ مجيءِ العامِّ بعد الخاصّ؛ لأنَّ اليدَيْن بعضٌ، وإن كان حقيقةُ اليدَيْن غيرَ مرادٍ، وإنما عَبَّر باليدَيْنِ؛ لأن الأعمال غالِبًا تُزاوَلُ بهما.

وقرأ العامة "لَهَبٍ" بفتح الهاء. وابنُ كثيرٍ بإسكانِها. فقيل: لغتان بمعنىً، نحو النَّهْر والنَّهَر، والشَّعْر والشَّعَر، والنَّفَر والنَّفْر، والضَّجَر والضَّجْر. وقال الزمخشري: "وهو مِنْ تغييرِ الأعلامِ كقوله: "شُمْس ابن مالك" بالضم، يعني أنَّ الأصلَ شَمْسِ بفتح الشين فَغُيِّرَتْ إلى الضمِّ، ويُشير بذلك لقول الشاعر:

4669 وإنِّي لَمُهْدٍ مِنْ ثَنَائِي فَقَاصِدٌ بِهِ ... لابنِ عَمِّ الصِّدْقِ شُمْسِ بنِ مالكِ

وجوَّزَ الشيخُ في "شُمْس" أَنْ يكونَ منقولاً مِنْ "شُمْس" الجمع مِنْ قوله: "أذنابُ خيلٍ شُمْسٍ" فلا يكونُ من التغيير في شيءٍ. وكنى بذلك: إمَّا لالتهاب وجنَتَيْه، وكان مُشْرِقَ الوجهِ أحمرَه، وإمَّا لِما يُؤُول إليه مِنْ لَهَبِ جنهمَ، كقولهم: أبو الخيرِ وأبو الشَّرِّ لصُدورِهما

منه . وإمّا لأنَّ الكُنيةَ أغلبُ من الاسم ، أو لأنَّها أنْقصُ منه ، ولذلك ذكرَ الأنبياءَ بأسمائِهم دون كُناهم ، أو لقُبْحِ اسمِه ، فإنَّ اسمَه "عبد العزى" فعَدَلَ إلى الكُنْية ، وقال الزمخشري : "فإنْ قلتَ : لِمَ كَناه والكُنية تَكْرُمَةٌ؟ ثم ذكرَ ثلاثةَ أجوبةٍ : إمَّا لشُهْرَته بكُنْيته ، وإمَّا لقُبْحِ اسمِه كما تقدَّم ، وإمَّا لأنَّ مآلَه إلى لهبِ جهنمِ" . انتهى . وهذا يقتضي أنَّ الكُنيةَ أشرفُ وأكملُ لا أنقصُ ، وهو عكسُ قولٍ تقدَّمَ آنفاً .

وقُرِئَ : "يدا أبو لَهَبٍ" بالواوِ في مكانِ الجرِّ . قال الزمخشري : "كما قيل : عليُّ بن أبو طالب ، ومعاويةُ بنُ أبو سفيان ، لئلا يتغيَّرَ منه شيءٌ فيُشْكِلَ على السامعِ ولِفَلِيْتَةَ بنِ قاسمٍ أميرِ مكة ابنان ، أحدُهما : عبدِ الله بالجرِّ ، والآخرُ عبدَ الله بالنصب" ولم يَختلف القُرَّاءُ في قولِه : ﴿ ذاتَ لَهَبٍ ﴾ أنها بالفتح . والفرقُ أنها فاصلةٌ فلو سَكَنَتْ زال التَّشاكلُ .

مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2)

قوله : ﴿ مَآ أغنى ﴾ : يجوزُ في "ما" النفيُ والاستفهامُ ، وعلى الثاني تكون منصوبةَ المحلِّ بما بعدَها التقدير : أيَّ شيءٍ أغنى المالُ؟ وقُدِّمَ لكونِه له صَدْرُ الكلامِ .

قوله : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يجوز في " ما " هذه أَنْ تكونَ بمعنى الذي ، فالعائد محذوفٌ ، وأَنْ تكونَ مصدريةً ، أي : وكَسْبُه ، وأَنْ تكونَ استفهاميةً يعني : وأيَّ شيءٍ كَسَبَ؟ أي : لم يَكْسَبْ شيئاً ، قاله الشيخُ ، فجعل الاستفهامَ بمعنى النفيِ ، فعلى هذا يجوزُ أَنْ تكونَ نافيةً ، ويكونَ المعنى على ما ذَكَرَ ، وهو غيرُ ظاهرٍ وقرأ عبد الله : " وما اكْتَسَبَ " .

سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3)

قوله : ﴿ سيصلى ﴾ العامَّةُ على فتحِ الياءِ وإسكانِ الصادِ وتخفيفِ اللامِ ، أي : يصلى هو بنفسِه . وأبو حيوةَ وابنُ مقسمٍ وعباسٌ في اختيارِه بالضمِّ والفتحِ والتشديدِ . والحسن وأبن أبي إسحاق بالضمِ والسكون .

وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4)

قوله : ﴿ وامرأته حَمَّالَةَ الحطب ﴾ : قراءةُ العامَّةِ بالرفع على أنهما جملةٌ مِنْ مبتدأ وخبرٍ سِيْقَتْ للإخبار بذلك . وقيل : " وامرأتُه " عطفٌ على الضميرِ في " سَيَصْلى " ، سَوَّغَه الفصلُ بالمفعولِ . و " حَمَّالةُ الحطبِ " على هذا فيه أوجهٌ : كونُها نعتاً ل " امرأتُه " .

وجاز ذلك لأن الإِضافةَ حقيقيةٌ؛ إذا المرادُ المضيُّ ، أو كونُها بياناً أو كونُها بدلاً لأنها قريبٌ مِنْ الجوامدِ لِتَمَحُّضِ إضافتِها ، أو كونُها خبراً لمبتدأ مضمرٍ ، أي : هي حَمَّالةُ . وقرأ ابنُ عباس " ومُرَيَّتُهُ " و " مُرَيْئَتُهُ " على التصغير ، إلاَّ أنَّه أقرَّ الهمزةَ تارةً وأبدلَها ياءً ، وأدغم فيها أخرى .

وقرأ العامةُ ﴿ حَمَّالَةُ ﴾ بالرفع . وعاصمٌ بالنصب فقيل : على الشَّتْم ، وقد أتى بجميلٍ مَنْ سَبَّ أمِّ جميل . قاله الزمخشري ، وكانت تُكْنَى بأمِّ جميل . وقيل : نُصِبُ على الحالِ مِنْ " أمرأتُه " إذا جَعَلْناها مرفوعةً بالعطفِ على الضَّميرِ . ويَضْعُفُ جَعْلُها حالاً عند الجمهور من الضميرِ في الجارِّ بعدها إذا جَعَلْناه خبراً ل " امرأتُه " لتقدُّمها على العاملِ المعنويِّ . واستشكل بعضُهم الحاليةَ لِما تقدَّم من أنَّ المرادَ به المُضِيُّ ، فيتعرَّفُ بالإِضافةِ ، فكيف يكونُ حالاً عند الجمهور؟ ثم أجابَ بأنَّ المرادَ الاستقبالُ لأنَّه وَرَدَ في التفسير : أنها تحملُ يومَ القيامةِ حُزْمَةً مِنْ حَطَبِ النار ، كما كانت تحملُ الحطبَ في الدنيا .

وفي قوله : ﴿ حَمَّالَةَ الحطب ﴾ قولان . أحدُهما : هو حقيقةٌ . والثاني : أنه مجازٌ عن المَشْيِ بالنميمةِ ورَمْيِ الفِتَنِ بين الناس . قال الشاعر :

4670 إنَّ بني الأَدْرَمِ حَمَّالو الحَطَبْ ... هُمُ الوشاةُ في الرِّضا وفي الغضبْ

وقال آخر :

4671 مِنْ البِيْضِ لم تُصْطَدْ على ظَهْرِ لأْمَةٍ ... ولم تَمْشِ بين الحَيِّ بالحطبِ الرَّطْبِ

جَعَلَه رَطْباً تنبيهاً على تَدْخينه ، وهو قريبٌ مِنْ ترشيحِ المجاز . وقرأ أبو قلابة ﴿ حاملةَ

الحطبِ ﴾ على وزن فاعِلَة . وهي محتملة لُقراءة العامَّةِ . وعباس " حَمَّالةٌ للحطَبِ " بالتنوين وجَرِّ المفعولِ بلامٍ زائدةٍ تقويةً للعاملِ ، كقولِه تعالى : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : 107] وأبو عمروٍ في روايةٍ " وامرأتُه " باختلاسِ الهاءِ دونَ إشباعٍ .

فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)

(206/837)

قوله : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونَ " في جيدِها " خبراً ل " امرأتُه " و " حبلٌ " فاعلٌ به ، وأَنْ يكونَ حالاً مِنْ " امرأتُه " على كونِها فاعلة . و " حبلٌ " مرفوعٌ به أيضاً ، وأَنْ يكونَ خبراً مقدَّماً . و " حَبْلٌ " مبتدأٌ مؤخرٌ . والجملةُ حاليةٌ أو خبرٌ ثانٍ ، والجِيْدُ : العُنُق ، ويُجْمع على أجيادُ . قال امرؤ القيس :

4672 وجِيْدٍ كجِيْدِ الرِّئم ليس بفاحِشٍ . . . إذا هي نَصَّتْهُ ولا بُمعَطَّلِ

و ﴿ مِّن مَّسَدٍ ﴾ صفةٌ ل " حَبْل " والمَسَدُ : لِيْفُ المُقْلِ : وقيل : اللِّيفُ مطلقاً . وقيل : هو لحاءُ شَجَرٍ باليمن . قال النابغة :

4673 مَقْذُوْفَةٍ بدَخِيْسِ النَّحْضِ بازِلُها . . . له صريفٌ صَرِيفُ القَعْوِ بالمَسَدِ

وقد يكونُ مِنْ جلود الإِبلِ وأَوْبارِها . وأنشد :

4647 ومَسَدٍ أُمِرَّ مِنْ أَيَانِقِ . . . ويقال : رجلٌ مَمْسود الخَلْق ، أي : شديدُه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 11 صـ 141. 147 ﴾

(207/837)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى اليد)

اليَدُ : الكَفُّ ، وقيل : اليَدُ من أَطْرافِ الأَصابع إِلى الكَتِفِ وأَصلُها يَدْيٌ ، والجَمْعُ يُدِيٌّ ، وجمع الجمع أَيادٍ .

وفيها لُغات : اليَدُ بالتخفيف ، واليَدُّ بالتشديد ، واليَدَى كفَتَى ، واليَدَه .

وإِنَّما قلنا أَصلها يَدْيٌ لأَنهم يجمعونها على أَيْدٍ ، وأَيْدٍ أَفْعُلٌ ، وأَفعُلٌ فى جمع فَعْلٍ أَكثرُ نحو أَظْبٍ وأَفْلُس ، قال الله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ وقولهم : يَدَيان يدلّ على أَنّ أَصله فَعْلٌ .

ويَدَيْتُه : ضربتُ يَدَه .

واستُعِير اليَدُ للجاهِ ، والوَقارِ ، والطَّرِيق ، ومَنْع الظُّلْم ، والقُوَّة ، والقُدْرَة ، والسُّلْطان ،

والمِلْكِ – بكسر الميم – والجماعَةِ ، والأَكل ، والنّدَم ، والغِياثِ ، والإِسْلامِ ، والذُلّ ،

والنّعْمَة ، والإِحسان ، والجمع : يُدِىٌّ مثلّثة الأوّل ، وأَيدٍ .

ويُدِى كَعُنَى ، ويَدِى كَرَضِىَ ، وهذه ضعيفة : أُولِىَ برًّا .

ويَدَيْتُه : أَصبْتُ/يَدَه ؛ واتَّخَذْتَ عنده يدا كأَيْدَيْتُ عِنْدَه ، وهذه أَكثر ، فأَنا مُودٍ ، وهو

مُودًى إِليه .

ويقال : هذا فى يَدِ فُلان ، أَى فى حَوْزه ومِلْكه ، قال الله تعالى : ﴿ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ .

ولفُلان يَدٌ على كذا ، أَى قُوَّةٌ وتسلّطٌ .

ومالِى بكذا يَدٌ ، ومالى به يَدانِ . . ويَدُه مُطْلَقَة ، عبارة عن بَثّ النّعْمة ، ويَدُه مَغْلُولَة ،

عبارة عن إِمْساك النِّعَم ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ تنبيها على التوسّط بين طَرَفى التبذير والتَّقتير .

ويُقال : نَفَضْتُ يَدِى عن كذا ، أَى خَلَّيْتُه وتَرَكْتُه .

وقولُه تعالى : ﴿ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ أَى قَوَّيتُ يَدكَ وقوله : ﴿ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ تنبيه أنَّهم

اخْتَلَقُوه ، وذلك كنسبة القول إلى أفواهِهم فى قوله : ﴿ ذلك قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ تنبيهاً على

اختلاقِهم .

وقوله تعالى : ﴿ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ ﴾ إشارةٌ إلى القُوَّةِ الموجودة لهم .

وقولُه : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ ﴾ أَى القَوِىّ .

وقوله : ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ أَى يُعْطُون ما يُعْطُون عن مُقابَلَةِ

نِعْمَة عليهم فى مُقارَّتهم .

ومَوْضِعُ قولِه عن يَد حالٌ .

وقيل : بعد اعْتِرافِ أَنَّ أَيديكم فَوْق أَيدِيهم ، أَى يُلْزَمون الذلُ .

ويقال : فلانٌ يَدُ فُلان ، أَى وَلِيُّه وناصِرُه .

ويقال لأَولِياءِ الله هم أَيدِى الله ، وعلى هذا الوجه قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ

إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ فإذا يدُه صلَّى الله عليه وسلَّم يدُ الله ، وإذا كان يَدُه

فوق أُيدِيهم فيدُ الله فوق أيدِيهم .

ويؤيِّد ذلك ما فى الصَّحيحين من الحديث القدسىّ : "لا يزال العَبْدُ يَتَقَرَّب إِلَىّ بالنَّوافل

حَتَّى أُحِبَّه ، فإِذا أَحْبَبْتُه كنتُ سَمْعَه الَّذى يَسْمَع به ، وبصره الذى يُبْصر بهِ ، ويَدُه الَّتى

يَبْطِشُ بها" .

وقوله تعالى : ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ عبارةٌ عن تَوَلّيهِ لخَلْقه باختراعه الذى ليس إلا له تعالى .

وخُصَّ لفظُ اليَد إذ هى أَجَلُّ الجوارح الَّتى يُتَوَلَّى بها الفعل فيما بيننا لِيُتَصَوَّر لنا اختصاصُ المعنَى ، لا لنَتَصَوَّر منه تَشْبيهاً .

وقيل : معناه بِنِعْمَتى التى رشَّحْتُها لهم .

(209/837)

والباءُ فيه ليس كالباءِ فى قَطَعْتُه بالسِكين ، بل هو كقولهم : خرجَ بسَيْفه ، أَى ومَعَه سَيْفُه ، أَى خلقتُه ومعه نِعْمتاىَ الدُّنْيَوِيّة والأُخْروِيّة اللّتان إذا رعاهُما بلغ بهما السّعادة الكبرى .

وقولُه : ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ، قيل : نِعْمَتُه ونُصْرَتُه وقُوَّته .

ورجُلٌ يَدِىٌّ ، وامرأةٌ يَدِيَّةٌ ، أَى صَناعٌ .

وقولُه : ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أَى نَدِمُوا ، يقال : سُقِط (فى يده وأُسْقِط) ، وذلك عبارة عن المُتَحَسِّر أَو عمّن يُقلِّب كَفَّيه كما قال تعالى : ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ

فِيهَا ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أَى كَفُّوا عمّا أُمِرْوا بقَبُوله من الحقّ ، يقال رَدَّ يَدَه فى فَمِهِ ، أَى أَمْسَك ولم يُجبْ .

وقيل : رَدُّوا أَيْدِى الأَنبياءِ فى أَفْواههم ، أَى قالوا ضَعُوا أَنامِلَكم على أَفواهكم واسْكُتُوا .

وقيل : رَدُّوا نِعَمَ الله بأَفْواههم ، أَى بتكذيبهم .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ، أَى يد نِعْمَته ويَد مِنَّته .

وفى الحديث "اليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ من اليَدِ السُّفْلَى" .

وقيل فى قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ إِنَّها على الأَصل ، لأَنَّ يَدًا لغة فى اليَد ، أَوْ هى الأَصل وحُذِف أَلِفُه كما قدّمناه ، وقيل بل هى تَثْنِيَة اليَدِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 5 صـ 380.384 ﴾

(210/837)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة المسد

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة جبارة للمذنبين ، تجبر أعمالهم ، وتحقق آمالهم ، وهي للعارفين تصغر في أ

" ينهم أحوالهم ، وتكمل عن شواهدهم امتحاءهم واستئصالهم وتحقق لهم بعد فنائهم

عنهم وصالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ .

أي : خَسِرَت يداه .

﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴾ .

ما أغنى عنه مالُه ولا كَسْبُه الخبيثُ – شيئاً .

وقيل : ﴿ ما كسب ﴾ : وَلَدُه .

قوله جل ذكره : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ .

يلزمها إذا دَخَلَها ؛ فلا براحَ له منها . وامرأَتُه أيضاً ستَصْلَى النارَ معه .

﴿ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ .

" مَسَدٌ " شيءٌ مفتول ، وكانت تحمل الشوك وتنقله وتبثه في طريقِ رسول الله عليه الصلاة

والسلام .

ويقال : سُحْقاً لِمَنْ لا يعرف قَدْرَكَ – يا محمد . وبُعْداً لِمَنْ لم يشهد ما خصصناكَ به مِنْ

رَفْعِ محلِّك ، وإكبار شأنِك . . . ومَنْ ناصبَكَ كيف ينفعه مالُه ؟ والذي أقميناه لأجلِكَ

وقد (أساء) أعماله . . فإنَّ إلى الهوانِ والخِزْيِ مآله ، وإنَّ على أقبحِ حالٍ حالَ امرأتِه وحالَه . انتهى انتهى . اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 3 صـ 780 . 781﴾

(211/837)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة اللهب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ (2) سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ

(3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4)

فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)

الإعراب :

(ما) نافية " 1 " ، (عنه) متعلّق بـ(أغنى) ، (ما) حرف مصدريّ . .

والمصدر المؤوّل (ما كسب . .) في محلّ رفع معطوف على ماله .

جملة : " تبّت يدا . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " تبّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على الابتدائيّة .

وجملة: " ما أغنى عنه ماله . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "كسب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما).

---

(1) أو اسم استفهام مفعول به مقدّم.

(212/837)

---

3 - 5 (السين) للاستقبال (ذات) نعت لـ (نارا) منصوب (الواو) عاطفة - أو استئنافيّة - (امرأته) معطوف على الضمير الفاعل في (يصلى) " 1 "، (حمّالة) مفعول به لفعل محذوف تقديره أذمّ " 2 "، (في جيدها) متعلّق بخبر مقدّم للمبتدأ (حبل) (من مسد) متعلّق بنعت لـ (حبل) . .

وجملة: " سيصلى . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: " في جيدها حبل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ آخر.

الصرف:

(أبو لهب) ، كنية عبد العزّى عمّ النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم، كنّي بذلك لتلهّب وجهه بالحمرة.

(حمّالة) ، مؤنّث حمّال صيغة مبالغة اسم الفاعل من الثلاثيّ حمل، وزنه فعّالة.

(جيد) ، اسم جامد لمعنى العنق ، وزنه فعل بكسر فسكون .

(مسد) ، اسم جامد لمعنى ليف ، وزنه فعل بفتحتين ، وفي القاموس :

المسد بفتح السين المحور من الحديد أو حبل من ليف أو كلّ حبل محكم الفتل ، والجمع مساد وأمساد .

البلاغة

1 - الاستعارة : في قوله تعالى " وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ " .

يقال لمن يمشي بالنميمة : يحمل الحطب بين الناس ، أي يوقد بينهم التباعد ، ويورث الشر ، فالحطب مستعار للنميمة ، وهي استعارة مشهورة . ومن ذلك قوله :

إن بني الادرم حمالو الحطب هم الوشاة في الرضاء والغضب

---

(1) الذي سوّغ العطف من غير ذكر الضمير المنفصل وجود المفعول به . . ويجوز أن يكون (امرأته) مبتدأ خبره جملة في جيدها حبل .

(2) أو حال من امرأته - أجازه العكبريّ -

2 – فن التهكم : في قوله تعالى "فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ" .

حيث صوّرها تصويرا في منتهى الخسّة ، والمراد : أنها تحمل تلك الحزمة من الشوك ، وتربطها في جيدها ، كما يفعل الحطابون ، تخسيسا بحالها ، وتصويرا لها بصورة بعض الحطابات من المواهن ، لتمتعض من ذلك ، ويمتعض بعلها ، وهما في بيت العز والشرف .

الفوائد :

1 – أسلوب الاختصاص هو أسلوب يذكر فيه اسم ظاهر (أي ليس ضميرا) بعد ضمير المتكلم ، ليتبين المقصود منه . ويسمى هذا الاسم "المختص" .

2 – يكون الاسم المختص معرفا (بال) ، مثل : (نحن – العرب – نكرم الضيف) . أو بالإضافة مثل : (نحن – معاشر الأنبياء – لا نورث) 3 – ينصب المختص بفعل محذوف تقديره أخص أو أعني ، وجملة الاختصاص اعتراضية لا محلّ لها من الإعراب .

4 – قد يأتي أسلوب الاختصاص مع (أيّها أو أيتها) متلوتين باسم معرف بال مثل :

(أنا – أيها العبد – فقير إلى اللّه) (إنني – أيتها العجوز – أشكو ضعفي إلى اللّه) ونعرب (أيها أو أيتها) : اسم مبني على الضم ، في محلّ نصب على الاختصاص ، و(ها) حرف تنبيه ، والاسم بعدها يعرب بدلا إن كان جامدا كما في المثال الأول ، ويعرب صفة إن كان مشتقا كما في مثال (أيتها) المثال الثاني .

2 – إعجاز القرآن :

قال العلماء : في هذه السورة معجزة ، وهي : أن اللّه عز وجل قد حسم وبت بأن مصير أبي لهب وامرأته إلى النار ، وكان من الممكن والمحتمل أن يدخل أبو لهب وامرأته في الإسلام ، كما دخل عمر رضي اللّه عنه وغيره من الكفار أما إصرار أبي لهب وامرأته وموتهما على الكفر ، فدليل على أن القرآن ليس قول بشر ، وإنما هو من عند علام الغيوب . الذي يعلم ما عليه الإنسان وما ذا سيصير إليه .

3 - سبب نزول السورة :

عن ابن عباس قال : لما نزلت (وانذر عشيرتك الأقربين) صعد النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) على الصفا ونادى : يا بني فهر ، يا بني عدي ، لبطون من قريش حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أرسل رسولا ، فجاء أبو لهب وقريش فقال (صلّى اللّه عليه وسلّم) : أ رأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي ، تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا : نعم ، ما جرّبنا عليك كذبا ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك سائر النهار ، ألهذا جمعتنا . فنزلت هذه السورة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 30 صـ 524.521 ﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(111) سورة المسد

مكيّة وآياتها خمس

[سورة المسد (111) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ (2) سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ

(3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4)

فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5)

اللغة :

(تَبَّتْ) خسرت قال الزمخشري " والتباب الهلاك ومنه قولهم :

أشابة أم تابة أي هالكة من الهرم والتعجيز والمعنى هلكت يداه لأنه فيما يروى أخذ حجرا

ليرمي به رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم " وعبارة ابن خالويه " ومعناه خسرت يداه

والمصدر تبّ يتبّ تبّا فهو تاب والمفعول به متبوب والأمر تبّ وإن شئت كسرت وللمرأة تبي

وتبا وأتبين لما خرج التضعيف سكن أول الفعل فجئت بألف الوصل ويقال امرأة تاّبه أي عجوز قد هلك شبابها والتباب الهلاك ، قال اللّه : وما كيد فرعون إلا في تباب ، قال عدي :

اذهبي إنّ كل دنيا ضلال والأمانيّ عقرها للتباب

لا يروقنك صائر لفناه كل دنيا مصيرها للتراب

وقال جرير :

عرادة من بقية قوم لوط ألا تبّا لما عملوا تبابا

وقال كعب بن مالك يمدح النبي صلّى اللّه عليه وسلم :

الحق منطقه والعدل سيرته فمن يعنه عليه ينج من تبب

والتاء الثانية تاء التأنيث لأن اليد مؤنثة ومعن تبّت يداه أي تب هو لأن العرب تنسب الشدة والقوة والأفعال إلى اليدين إذ كان بهما يقع كل الأفعال " .

(سَيَصْلى) أي يحترق بها وصلي من باب تعب ، وعبارة ابن خالويه جيدة وهي : " ويقال : صليت الشاة إذا شويتها فأنا صال والشاة مصلية ومن ذلك حديث رسول اللّه صلّى اللّه

عليه وسلم أنه أهديت إليه شاة مصلية ، وأجاز الفراء شاة مصلاة لأنك تقول أصليتها أيضا ويقال للشّواء : الصّلاء والمضهّب والرّشراش والرّوذق والمشنّط والمرموض والرّميض والمحنوذ والحنيذ والسّويد أو الشويذ والمحسوس والمحاش والسحساح والأنيض والمفلّس والمخدّع كله الشواء " .

(جِيدِها) الجيد : العنق وجمعه أجياد والجيد بفتح الياء طول العنق .

(مَسَدٍ) المسد الذي فتل من الحبال فتلا شديدا من ليف كان أو جلد أو غيرهما ، وفي القاموس : " المسد بسكون السين مصدر بمعنى الفتل وبفتحها المحور من الحديد أو حبل من ليف أو كل حبل محكم الفتل والجمع مساد وأمساد يقال مسد حبله يمسده مسدا من باب نصر أي أجاد فتله " .

الإعراب :

(تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) تبت فعل ماض والتاء للتأنيث ويدا أبي لهب فاعل وتب عطف على تبت أي وكان ذلك وحصل كقوله :

جزاني جزاه اللّه شرّ جزائه جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

والجملة دعائية لا محل لها ، روي في الصحيحين وغيرهما واللفظ لمسلم عن ابن عباس قال : لما نزلت : وأنذر عشيرتك الأقربين خرج صلّى اللّه عليه وسلم حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فقالوا من هذا الذي يهتف ؟ قالوا محمد فاجتمعوا إليه فقال : يا بني فلان يا بني

عبد مناف يا بني عبد المطلب فاجتمعوا إليه فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح الجبل أكنتم مصدقيّ ؟ قالوا ما جربنا عليك كذبا قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك ما جمعتنا إلا لهذا ثم قام فنزلت السورة ، وقال الزمخشري : " فإن قلت :

لم كناه والكنية تكرمة ؟ قلت : فيه ثلاثة أوجه أحدها أن يكون مشتهرا بالكنية دون الاسم فقد يكون الرجل معروفا بأحدهما ولذلك تجري الكنية على الاسم والاسم على الكنية عطف بيان فلما أريد تشهيره بدعوة السوء وأن تبقى سمة له ذكر الأشهر من علميه ويؤيد ذلك قراءة من قرأ يدا أبو لهب كما قيل علي بن أبو طالب ومعاوية بن أبو سفيان لئلا يغيّر منه شيء فيشكل على السامع " إلى أن يقول : " والثاني أنه كان اسمه عبد العزّى فعدل عنه إلى كنيته والثالث أنه لما كان من أهل النار ومآله إلى نار ذات لهب وافقت حاله كنيته فكان جديرا بأن يذكر بها ، ويقال أبو لهب كما يقال أبو الشر للشرير وأبو الخير للخيّر وكما كنّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أبا المهلب أبا صفرة بصفرة كانت في وجهه وقيل

كني بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما فيجوز أن يذكر ذلك تهكما به وبافتخاره بذلك " (ما أَغْنى عَنْهُ مالُهُ وَما كَسَبَ) ما يجوز فيها

(218/837)

النفي والاستفهام وعلى الثاني تكون منصوبة المحل بما بعدها والتقدير أي شيء أغنى عنه المال ومن الغريب أن ابن خالويه أعربها رفعا على الابتداء ، وعنه متعلقان بأغنى وماله فاعل والواو حرف عطف وما يجوز فيها أن تكون مصدرية أو موصولة بمعنى كسبه أو مكسوبه ويجوز أن تكون استفهامية منصوبة المحل بما بعدها أي أيّ شيء كسب ؟ وعبارة ابن هشام " تحتمل ما الأولى النافية أي لم يغن والاستفهامية فتكون مفعولا مطلقا التقدير أي إغناء أغنى عنه ماله ويضعف كونه مبتدأ " (سَيَصْلى ناراً ذاتَ لَهَبٍ) السين حرف استقبال ويصلى فعل مضارع وفاعله هو أي أبو لهب ونارا مفعول به وذات لهب نعت لنارا لأنها مآل كنيته ومثابتها (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ) وامرأته عطف على ضمير يصلى سوغه الفصل بالمفعول وصفته وهي أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب وكانت عوراء وماتت مخنوقة بحبلها ، قالوا :

"كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنثرها بالليل في طريق رسول اللّه

صلّى اللّه عليه وسلم وقيل كانت تمشي بالنميمة ويقال للمشاء بالنمائم المفسد بين الناس يحمل الحطب بينهم أي يوقد النائرة بينهم ويؤرث الشر ، قال :

من البيض لم تصطد على ظهر لأمة ولم تمش بين الحي بالحطب الرطب

وجعل الحطب رطبا ليدل على التدخين الذي هو زيادة في الشر ، وحمّالة الحطب قرىء بالنصب على الشتم ، قال الزمخشري : "وأنا أستحب هذه القراءة" وقرىء بالرفع على النعت لامرأته وجاز ذلك لأن الإضافة حقيقته إذ المراد المضي أو على أنها بدل لأنها تشبه الجوامد بسبب تمحض الإضافة أو على أنها خبر لمبتدأ محذوف ، وقال ابن خالويه : "وفي حرف ابن مسعود مريئته مصغرا والعرب تقول هذه مرأتي وامرأتي وزوجي وزوجتي وحنّتي وطلّتي وشاعتي وإزاري ومحل إزاري وفضلتي وحرثي ، قال الشاعر :

إذا أكل الجراد حروث قوم فحرثي همّه أكل الجراد

و تسمى المرأة بينا والعرب تكنّي عن المرأة باللؤلؤة والبيضة والسّرحة والأثلة والنخلة والشاة والبقرة والنعجة والودعة والعيبة والقوارير والرّبض والفراش والريحانة والظبية

والدّمية وهي الصورة والنعل والغلّ والقباء والجارة والمزخّة والقومدّة ، وكنى الفرزدق عن المرأة بالجفن فجعلها جفنا لسلاحه ، وكانت ماتت وهي حبلى فقال :

وجفن سلاح قد رزئت ولم أنح عليه ولم أبعث عليه البواكيا

وفي جوفه من دارم ذو حفيظة لو أن المنايا أنسأته لياليا

وكنى عنها آخر بموضع السرج من الفرس فقال يخاطب امرأته :

فإما زال سرج عن معدّ فأجدر بالحوادث أن تكونا

يقول : ربما متّ فزلت عنك فانظري كيف تكونين بعدي " . وفي جيدها خبر مقدّم وحبل مبتدأ مؤخر ومن مسد نعت لحبل .

البلاغة :

في قوله " في جيدها حبل من مسد " فن التهكم وقد تقدم ذكره ، فقد صوّرها تصويرا فيه منتهى الخسّة والقماءة ، والمعنى في جيدها حبل من مسد : من الحبال وأنها تحمل تلك الحزمة وتربطها في جيدها تخسيسا لحالها وتصويرا لها بصورة بعض الحطابات من المواهن جمع ماهن وهي الخادم لتمتعض من ذلك ويمتعض زوجها وهما في بيت العز والشرف وفي منصب الثروة والجدّة ، وقد تعلق الشعراء بأذيال هذه

السخرية فعيّر أحدهم الفضل بن العباس ، ابن عتبة بن أبي لهب بحمالة الحطب فقال :

ماذا أردت إلى شتمي ومنقصتي أم ما تعير من حمّالة الحطب

غراء شادخة في المجد عزّتها كانت سليلة شيخ ثاقب الحسب

(220/837)

والغراء البيضاء ، والشادخة المتسعة وذلك مجاز عن الظهور وارتفاع المقدار ، والسليلة من سلّ من غيره ، والمراد بالشيخ أبوها حرب لأنها أم جميل أخت أبي سفيان بن حرب . وقيل حمل الحطب حقيقة وقيل مجاز عن إثارة الفتنة لأنها كانت نمّامة . وإلى شتمي متعلق بمحذوف أو بأردت على طريق التضمين أي أيّ شيء أردته مائلا أنت إلى شتمي أو منضما هو إلى شتمي أو ما الذي أردته من شتمي أو مع شتمي هل أردت أنك شريف لا عيب فيك ويجوز أن إلى بمعنى من كما قال النحاة ويمكن أنها للمصاحبة كما قالوا أيضا في قوله تعالى :

ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم . وتعير أصله تتعير فحذف منه إحدى التاءين . انتهى

انتهى . اهـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 608. 613﴾

(221/837)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ تَبَّتْ

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - :

"سُورَةُ تَبَّتْ" نَزَلَتْ فِي هَذَا وَامْرَأَتِهِ وَهُمَا مِنْ أَشْرَفِ بَطْنَيْنِ فِي قُرَيْشٍ وَهُوَ عَمُّ عَلِيٍّ وَهِيَ عَمَّةُ مُعَاوِيَةَ وَاَللَّذَانِ تَدَاوَلَا الْخِلَافَةَ فِي الْأُمَّةِ هَذَانِ الْبَطْنَانِ : بَنُو أُمَيَّةَ وَبَنُو هَاشِمٍ وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَمِنْ قَبِيلَتَيْنِ أَبْعَدَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتُّفِقَ فِي عَهْدِهِمَا مَا لَمْ يُتَّفَقْ بَعْدَهُمَا . وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ ذَمُّ مَنْ كَفَرَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاسْمِهِ إلَّا هَذَا وَامْرَأَتَهُ فَفِيهِ أَنَّ الْأَنْسَابَ لَا عِبْرَةَ بِهَا بَلْ صَاحِبُ الشَّرَفِ يَكُونُ ذَمُّهُ عَلَى تَخَلُّفِهِ عَنْ الْوَاجِبِ أَعْظَمَ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ﴾ الْآيَةَ . قَالَ النَّحَّاسُ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ دُعَاءٌ عَلَيْهِ بِالْخُسْرِ وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ : وَقَدْ تَبَّ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ أَيْ وَلَدُهُ . فَإِنَّ قَوْلَهُ :

﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ يتناوله كما في الْحَدِيثِ وَلَدُهُ مِنْ كَسْبِهِ . واسْتُدِلَّ بها عَلَى جوازِ الْأَكْلِ مِنْ مَالِ الْوَلَدِ . ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّهُ : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ﴾ أَخْبَرَ بزوالِ الْخَيْرِ وَحُصُولِ الشَّرِّ و " الصِّلِيّ " الدُّخُولُ وَالِاحْتِرَاقُ جَمِيعًا . وقَوْلُهُ : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ إنْ كَانَ مَثَلًا لِلنَّمِيمَةِ ؛ لِأَنَّهَا تُضْرِمُ الشَّرَّ فَيَكُونُ حَطَبَ الْقُلُوبِ وقَدْ يُقَالُ : ذَنْبُهَا أَعْظَمُ وَحَمْلُ النَّمِيمَةِ لَا يُوصَفُ بِالْحَبْلِ فِي الْجِيدِ وَإِنْ كَانَ وَصْفًا لِحَالِهَا فِي الْآخِرَةِ كَمَا وَصَفَ بَعْلَهَا وَهُوَ يَصْلَى وَهِيَ تَحْمِلُ الْحَطَبَ عَلَيْهِ كَمَا أَعَانَتْهُ عَلَى الْكُفْرِ . فَيَكُونُ مِنْ حَشْرِ الْأَزْوَاجِ وَفِيهِ عِبْرَةٌ لِكُلِّ مُتَعَاوِنَيْنِ عَلَى الْإِثْمِ أَوْ عَلَى إثْمٍ مَا أَوْ عُدْوَانٍ مَا . وَيَكُونُ الْقُرْآنُ قَدْ عَمَّمَ الْأَقْسَامَ الْمُمْكِنَةَ فِي الزَّوْجَيْنِ وَهِيَ أَرْبَعَةٌ إمَّا كَإِبْرَاهِيمَ وَامْرَأَتِهِ وإمّا هذا وامرأته وإمّا فِرْعَوْنُ وَامْرَأَتُهُ وإمّا نُوحٌ وَامْرَأَتُهُ وَلُوطٌ وَيَسْتَقِيمُ أَنْ يُفَسِّرَ حَمْلَ الْحَطَبِ بِالنَّمِيمَةِ بِحَمْلِ الْوَقُودِ فِي الْآخِرَةِ كَقَوْلِهِ : " ﴿ مَنْ كَانَ لَهُ لِسَانَانِ ﴾ إلخ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 16 صـ 602 . 603 ﴾

(223/837)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فِى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والثلاثون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الثامن والثلاثون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الإخلاص)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الإخلاص)

(5/838)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

(سورة الإخلاص)

وتسمى الأساس والمقشقشة وقل هو الله أحد .

مقصودها بيان الحقيقة الذات الأقدس ببيان اختصاصه بالاتصاف بأقصى الكمال للدلالة على صحيح الإعتقاد للإخلاص في التوحيد بإثبات الكمال ، ونفي الشوائب النقص والاختلال ، المثمر لحسن الأقوال والأفعال ، وثبات اللجاء والاعتماد في جميع الأحوال ، وعلى ذلك دل اسمها الإخلاص الموجب للخلاص ، وكذا الأساس والمقشقشة ، قال في القاموس : المقشقشتان الكافرون والإخلاص أي المبرئتان من النفاق والشرك كما يقشقش الهناء الجرب ، الهناء : القطران ، وقال الإمام عبد الحق في كتابه الواعي : كما يبرئ المريض

من علته إذا برئ منها – انتهى . وهو مأخوذ من القش بمعنى الجمع ، فسميتا بذلك لأنها تتبعنا النفاق بجميع أنواعه ، وكذا الشرك والكفر فجمعتاله ونفتاه بذلك لأنها تتبعنا النفاق بجميع أنواعه ، وكذا الشرك والكفر فجمعناه ونفتاه عن قارئهما حق القراءة ، وقد تقدم الكلام على هذا الاسم مبسوطا في براءة وكذا اسمها " قل هو الله أحد " دال على مقصوزدها بتأمل جميع السورة وما دعت إليه من معاني التبرئة اليسيرة الكثيرة ، وهذه السورة أعظم مفيد للتوحيد في القرآن ، قال الرازي : والتوحيد مقام يضيق عنه نطاق النطق لأنك إذا أخبرت عن الحق فهنالك مخبر عنه ومخبر به مجموعهما ، وذلك ثلاث ، فالعقل يعرفه ولكن النطق لا يصل إليه سئل الجنيد عن التوحيد فقال : معنى تضمحل فيه الرسوم وتتشوش فيه العلوم ويكون الله كما لم يزل وقال الجنيد أيضا : أشرف كلمة في التوحيد ما قاله الصديق رضي الله عنه : سبحانه من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 575 ﴾

(6/838)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . قل هو الله أحد)

السّورة مكِّيّة.

وآياتها خمس فى عدّ المكِّيِّين، والشّاميّين، وأَربع عند الباقين.

وكلماتها إِحدى عشرة وحروفها سبع وأَربعون.

المختلف فيها آية ﴿لَمْ يَلِدْ﴾.

فواصل آياتها على الدال.

ولها عشرون اسماً: سورة التوحيد، وسورة التفريد، وسورة التجريد، وسورة الإِخلاص، وسورة النجاة، وسورة الولاية، السّابع نسبة الرّب، لقوله (لكل شىء نِسْبة ونسبة [الرّب] قل هو).

الثّامن سورة المعرفة.

التّاسع سورة الجمال.

العاشر المقشقشة.

وقد سبق فى ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ الحادى عشرة: المعوّذة.

الثّانى عشر سورة الصّمد.

الثّالث عشر الأَساس.

الرّابع عشر المانعة.

الخامس عشر المَحْضِرة؛ لأَنَّ الملائكة تحضر لاستماعها من القارئ.

السّادس عشر المنفِّرة، لأَنَّها تنفِّر الشَّيطان.

السّابع عشر البراءَة، أَى من النّفاق.

الثامن عشر المذكّورة.

التَّاسع عشر الشافعية.

العشرون سورة النور؛ لما فى الخبر: إِنّ لكلّ شىء نوراً، ونورُ القرآن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

معظم مقصود السّورة: بيان الوحدانيّة، وذكر الصّمد، وتنزيه الحقّ من الولد والوالد والولادة، والبراءَة من الشركة والشريك فى المملكة.

السّورة محكمة.

ومن المتشابه: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ كُرِّر ليكون كلّ جملة بها مستقلَّة بذاتها، غير محتاجة إِلى ما قبلها.

ثمّ نَفَى عنه سبحانه الولَد بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، والصّاحبة بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

فضل السّورة

صحّ عن النبى صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : " ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يعدل ثلث القرآن " ، وصحّ أنّ بعض الصّحابة كان إذا صلّى أضاف ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إلى السّورة الّتى يقرؤها بعد الفاتحة ، فسأله النبىّ صلّى الله عليه وسلّم عن سبب ذلك فقال : إنى أُحبّها يا رسول الله ، فقال صلّى الله عليه وسلّم : حُبّك إيّاها أدخلك الجنّة .

وفيه من الضّعيف حديث أُبىّ : مَنْ قرأ هذه السّورة حين يدخل منزله نُفِى الفقرُ عن منزله . وقال : مَنْ قرأها مرّة بورِك عليه ، ومَنْ قرأها مرّتين بورك عليه وعلى أهل بيته ، ومن قرأها ثلاثا بورك عليه وأهله وماله ، ومَنْ قرأها اثنتى عشرة مرّة بُنى له بكلّ مرّة قصرٌ فى الجنّة ، ومَنْ قرأها مائة مرّة كفِّر عنه ذنب خمس وعشرين سنة ، ومَنْ قرأها أربعمائة مَرّة كُفِّر عنه جميع ذنوبه – ما خلا الدّماءَ والأموال ، ومَنْ قرأها ألف مرّة لم يمت حتى يرَى مكانه فى الجنّة .

وقال جبريل : ما زلت خائفا على أُمّتك حتى نزلت ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فَأَمِنْتُ عليهم . وقال : رأيتُ ليلة أُسْرِى بى ملائكة يبنون قصرًا فى الجَنّة ، فأمسكوا عن البناءِ ، فقلت لماذا أمسكتم ؟ فقالوا نفِدتِ النفقة .

فقلتُ وما النفقة ؟ قالوا قراءَة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فإذا أمسكوا عن القراءَة أمسكنا عن البناءِ .

وفيه حديث عليّ : يا عليّ مَنْ قرأَها ضحك الله إِليه يوم يلقاه ، ويُدخله الجنَّة آمِنًا ، وأَعطاه الله بكلّ آية قرأَها ثواب نبىٍّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 555.553 ﴾

(8/838)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الإخلاص

المشهور في تسميتها في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) وفيما جرى من لفظه وفي أكثر ما روي عن الصحابة تسميتُها (سورة قل هو الله أحد) .

روى الترمذي عن أبي هريرة ، وروى أحمد عن أبي مسعود الأنصاري وعن أم كلثوم بنت عقبة (أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : (قل هو الله تعدِل ثلث القرآن) وهو ظاهر في أنه أراد تسميتها بتلك الجملة لأجل تأنيث الضمير من قوله : (تَعدل) فإنه على تأويلها بمعنى السورة .

وقد روي عن جمع من الصحابة ما فيه تسميتها بذلك ، فذلك هو الاسم الوارد في السنة .

ويؤخذ من حديث البخاري عن إبراهيم عن أبي سعيد الخدري ما يدل على أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: (اللَّهُ الواحد الصمد) ثُلُثُ القرآن فذكر ألفاظاً تخالف ما تقرأ به، ومحمله على إرادة التسمية. وذكر القرطبي أن رجلاً لم يسمه قرأ كذلك والناس يستمعون وادعى أن ما قرأ به هو الصواب وقد ذمه القرطبي وسبّه.

وسميت في أكثر المصاحف وفي معظم التفاسير وفي (جامع الترمذي): (سورة الإخلاص) واشتهر هذا الاسم لاختصاره وجمعه معاني هذه السورة لأن فيها تعليم الناس إخلاص العبادة لله تعالى، أي سلامة الإعتقاد من الإِشراك بالله غَيرَه في الإِلاهية.

وسميت في بعض المصاحف التونسية (سورة التوحيد) لأنها تشتمل على إثبات أنه تعالى واحد.

وفي (الإِتقان) أنها تسمى (سورة الأساس) لاشتمالها على توحيد الله وهو

(9/838)

أساس الإِسلام. وفي (الكشاف): روى أبي وأنس عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أُسِّسَتْ السماوات السبع والأرضون السبع على) قل هو الله أحد. يعني ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته.

وذكر في الكشاف (: أنها وسورة الكافرون تسميان المقشقشتين ، أي المبرئتين من الشرك ومن النفاق .

(10/838)

وسماها البقاعي في (نظم الدرر) (سورة الصمد) ، وهو من الأسماء التي جمعها الفخر .
وقد عقد الفخر في (التفسير الكبير) فصلاً لأسماء هذه السورة فذكر لها عشرين اسماً بإضافة عنوان سورة إلى كل اسم منها ولم يذكر أسانيدها فعليك بتتبعها على تفاوت فيها وهي : التفريد ، والتجريد (لأنه لم يذكر فيها سوى صفاته السلبية التي هي صفات الجلال) ، والتوحيد (كذلك) ، والإخلاص (لما ذكرناه آنفاً) ، والنجاة (لأنها تنجي من الكفر في الدنيا ومن النار في الآخرة) ، والولاية (لأن من عرف الله بوحدانيته فهو من أوليائه المؤمنين الذين لا يتولون غير الله) والنِّسبة (لما روي أنها نزلت لما قال المشركون : أنسُب لنا ربك ، كما سيأتي) ، والمعرفة (لأنها أحاطت بالصفات التي لا تتم معرفة الله إلا بمعرفتها) والجَمال (لأنها جمعت أصول صفات الله وهي أجمل الصفات وأكمَلها ، ولما روي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (إن الله جميل يحب الجمال) فسألوه عن ذلك فقال : أحد صمد لم يلد ولم يولد) ، والمُقَشْقِشَة (يقال : قشقش الدواءُ الجربَ إذا أبرأه لأنها

تقشقش من الشرك ، وقد تقدم آنفاً أنه اسم لسورة الكافرون أيضاً) ، والمعوِّذة (لقول النبي (صلى الله عليه وسلم) لعثمان بن مظعون وهو مريض فعوّذه بها وبالسورتين اللتين بعدها وقال له : (تعوّذ بها) . والصمد (لأن هذا اللفظ خص بها) ، والأساس (لأنها أساس العقيدة الإسلامية) والمانعة (لما روي : أنها تمنع عذابَ القبر ولفحات النار) والمَحْضَرْ (لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قُرئت) . والمنفِّرة (لأن الشيطان ينفر عند قراءتها) والبرّاءة (لأنها تبرّىءُ من الشرك) ، والمُذَكِّرة (لأنها تذكر خالص التوحيد الذي هو مودَع في الفطرة) ، والنور (لما روي : أن نور القرآن قل هو الله أحد) ، والأمان (لأن من اعتقد ما فيها أمن من العذاب) .

(11/838)

وبضميمة اسمها المشهور : (قل هو الله أحد (تبلغ أسماؤها اثنين وعشرين . وقال الفيروز آبادي في (بصائر التمييز) : إنها تسمى الشافية فتبلغ واحداً وعشرين اسماً .

وهي مكية في قول الجمهور ، وقال قتادة والضحاك والسدي وأبو العالية والقرظي : هي مدنية ونسب كلا القولين إلى ابن عباس .

ومنشأ هذا الخلاف الاختلاف في سبب نزولها فروى الترمذي عن أبيّ بن كعب ، وروى

عبيد العطار عن ابن مسعود ، وأبو يعلى عن جابر بن عبد الله : (أن قريشاً قالوا للنبيء (صلى الله عليه وسلم) (انْسُبْ لنا ربك) فنزلت قل هو الله أحد إلى آخرها) فتكون مكية .

وروى أبو صالح عن ابن عباس : (أن عامر بن الطفيل وأرْبد بن ربيعة (أخا لبيد) أتيا النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال عامر : إلاَمَ تدعونا ؟ قال : إلى الله ، قال : صفه لنا أمن ذهب هُو ، أم من فضة ، أم من حديد ، أم من خشب ؟ (يحسب لجهله أن الإلاه صنم كأصنامهم من معدن أو خشب أو حجارة) فنزلت هذه السورة ، فتكون مدنية لأنهما ما أتياه إلا بعد الهجرة .

وقال الواحدي : (إن أحبار اليهود (منهم حُيَيْ بن أخطب وكعب بن الأشرف) قالوا للنبيء (صلى الله عليه وسلم) صِف لنا ربّك لعلنا نؤمن بك ، فنزلت) .

والصحيح أنها مكية فإنها جمعت أصل التوحيد وهو الأكثر فيما نزل من القرآن بمكة ، ولعل تأويل من قال : إنها نزلت حينما سأل عامر بن الطفيل وأربدُ ، أو حينما سأل أحبارُ اليهود ، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قرأ عليهم هذه السورة ، فظنها الراوي من الأنصار نزلت ساعتئذ أو لم يضبط الرواة عنهم عبارتهم تمام الضبط .

قال في (الإتقان) : وجمع بعضهم بين الروايتين بتكرر نزولها ثم ظهر لي ترجيح أنها مدنية كما بينته في (أسباب النزول) اه .

وعلى الأصح من أنها مكية عُدّت السورة الثانية والعشرين في عداد نزول السور نزلت بعد سورة الناس وقبل سورة النجم .

وآياتها عند أهل العدد بالمدينة والكوفة والبصرة أربع ، وعند أهل مكة والشام خمس باعتبار) لم يلد (آية) ولم يولد (آية .

أغراضها

إثبات وحدانية الله تعالى .

وأنه لا يقصد في الحوائج غيره وتنزيهه عن سمات المحدثات .

وإبطال أن يكون له ابن .

وإبطال أن يكون المولود إلاهاً مثل عيسى عليه السلام .

والأحاديث في فضائلها كثيرة وقد صح أنها تعدل ثلث القرآن . وتأويل هذا الحديث مذكور في شرح (الموطأ) و (الصحيحين) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ 612.609﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الإخلاص

مكية وأياتها أربع أيات

بين يدي السورة

* سورة الإخلاص مكية ، وقد تحدثت عن صفات الله جل وعلا الواحد الأحد ، الجامع لصفات الكمال ، المقصود على الدوام ، الغني عن كل ما سواه ، المتنزه عن صفات النقص ، وعن المجانسة والمماثلة ، وردت على النصارى القائلين بالتثليث ، وعلى المشركين الوثنئين ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، الذين جعلوا لله الذرية والبنين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 620 ﴾

(14/838)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الفراء :

سورة (الإخلاص)

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . . . ﴾ .

سألوا النبى صلى الله عليه وسلم : ما ربك ؟ أيأكل أم يشرب ؟ أم من ذهَب أم من فضة ؟ فأنزل الله جل وعز : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ ﴾ . ثم قالو : فما هو ؟ فقال : ﴿ أَحَدٌ ﴾ . وهذا من صفاته : أنه واحد ، وأحد وإن كان نكرة . قال أبو عبد الله : يعنى فى اللفظ ، فإنه مرفوع بالإستئناف كقوله : ﴿ هَذَا بَعْلِى شَيْخٌ ﴾ . وقد قال الكسائى قولا لا أراه شيئًا . قال : هو عماد . مثل قوله : ﴿ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ ﴾ . فجعل "أحد" مرفوعا بالله ، وجعل هو بمنزلة الهاء فى (أنه) ، ولا يكون العمادُ مستأنفا به حتى يكون قبله إن أو بعض أخواتها ، أو كان أو الظن .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ كُفُوًا أَحَدٌ . . . ﴾ .

يثقل ويخفف ، وإذا كان فعل النكرة بعدها أتبعها فى كان وأخواتها فتقول : لم يكن لعبد الله أحد نظير ، فإذا قدمت النظير نصبوه ، ولم يختلفوا فيه ، فقالوا : لم يكن لعبد الله نظيرا أحد . وذلك أنه إذا كان بعدها فقد أتبع الاسم فى رفعه ، فإذا تقدم فلم يكن قبله شىء يتبعه رجع إلى فعل كان فنصب . والذى قرأ "أحدُ اللهُ الصمدُ" بحذف النون من (أحد) يقول : النون نون الإعراب إذا استقبلتها الألف واللام حذفت . وكذلك إذا استقبلها ساكن ، فربما

حذفت وليس بالوجه قد قرأت القراء : ﴿ وقالت اليهود عُزَيْرُ ابنُ اللهِ ﴾ ، و "عزيرٌ ابن الله" .

والتنوين أجود ، وأنشدنى بعضهم :

لَتَجِدَنِّى بالأميرِ بَرّا * وبالقناةِ مِدْعَسًا مِكَرّا

* إذا غُطَيْفُ السُّلَمِىُّ فَرّا *

وأنشدنى آخر :

كيْفَ نَومى على الفراشِ ولمّا * تَشْمَلِ الشّامَ غارةٌ شعواءُ

تُذْهِلُ الشّيْخَ عن بَنيهِ وتُبدى * عن خِدامِ العقيلةُ العذراءُ

أراد عن خدامٍ العقيلةُ العذراء ، وليس قولهم عن خدامٍ [عقيلة] عذراء بشىء . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 299 . 300 ﴾

(15/838)

وقال الأخفش :

سورة (الإخلاص)

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

أما قوله ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فان قوله ﴿ أَحدُ ﴾ بدل من قوله ﴿ الله ﴾ كأنه قال "هُوَ أَحَدٌ" ومن العرب من لا ينون، يحذف لاجتماع الساكنين.

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

وقوله ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ﴿ أَحَدٌ ﴾ هو الاسم و﴿ كُفُوًا ﴾ هو الخبر. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 589 ﴾

(16/838)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الإخلاص «1».

2 - الصَّمَدُ : السّيد الذي قد انتهى سودده، لأن الناس يصمدونه في حوائجهم. قال الشاعر :

خذها حذيف فأنت السّيد الصّمد وقال عكرمة «2» ومجاهد : هو الذي لا جوف له.

وهو - على هذا التفسير - كأن الدال فيه مبدلة من تار. و«المصمت» من هذا.

4 - كُفُواً : مثلا. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 476 ﴾

---

(1) هي مكية عند ابن مسعود ومدنية عند قتادة.

(2) هو مولى ابن عباس، أحد فقهاء مكة من التابعين الأعلام أصله من البربر وهب لإبن عباس فاجتهد في تعليمه ورحل إلى مصر وخراسان واليمن وأصبهان والمغرب وغيرهما، وكانت الأمراء تكرمه واذن له مولاه بالفتوى، قيل لسعيد بن جبير: هل تعلم أحدا أعلم منك فقال: عكرمة.

توفي سنة وخمس ومائة للهجرة. (انظر شذرات الذهب ص 128 ج 1). [.....]

(17/838)

وقال الغزنوى:

[سورة الإخلاص]

1 قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ: أَحَدٌ ليس بنعت بل ابتداء بيان «1» كقوله «2»: إِنَّمَا اللَّهُ إِلهٌ واحِدٌ، وأَحَدٌ أبلغ من واحِدٌ لأنّه لا يدخل في العدد، وإذا قلت: لا يقاومه واحد يجوز أن يقاومه اثنان «3».

والصَّمَدُ: السيّد يصمد إليه في الحوائج «4».

وانتصاب كُفُواً على خبر يَكُنْ قدّم على الاسم وهو أَحَدٌ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿معانى القرآن/ للغزنوى حـ 2 صـ 896﴾

---

(1) ينظر معاني القرآن للفراء: 3/ 299، وتفسير الطبري: 30/ 343، ومعاني الزجاج:

5/ 377، وإعراب القرآن للنحاس: 5/ 308.

(2) سورة النساء: آية: 171.

(3) عن تفسير الماوردي: 4/ 545، وقال مكي في مشكل إعراب القرآن: 2/ 853: «وفي أَحَدٌ فائدة ليست في (واحد) لأنك إذا قلت: لا يقوم لزيد واحد، جاز أن يقوم له اثنان فأكثر، وإذا قلت: لا يقوم له أحد، نفيت الكل، وهذا إنما يكون في النفي خاصة، فأما في الإيجاب فلا يكون فيه ذلك المعنى.

وأَحَدٌ إذا كان بمعنى «واحد» وقع في الإيجاب، تقول: مرّبنا أحد، أي: واحد، فكذا قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، أي: «واحد» اهـ.

(4) هذا قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن: 542، ونقله الماوردي في تفسيره: 4/ 546 عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وانظر المفردات للراغب: 286، وزاد المسير: 9/ 368، وتفسير القرطبي: 20/ 254.

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الإخلاص

عدد 22 - 112

نزلت بمكة بعد سورة الناس وهي أربع آيات وخمس عشرة كلمة ، وسبعة وأربعون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها .

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ"

قال تعالى : "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ 1" أي واحد من حيث العدد بل واحد في الإلهية والربوبية من حيث لا شريك له ولا معين ولا وزير وهو جل شأنه فرد في الكمالية والخالقية ، موصوف بصفات العظمة والجلالة ، منفرد عن الشريك مبرأ عن الضد والند ، منزه عن الشبيه والمثيل والنظير ، لا يوصف بالأحدية غيره لأن كلمة أحد من صفاته تعالى استأثر بها نفسه والواحد يدخل في الأحد من غير عكس ، ولهذا قال تعالى : إذا أردت يا سيد الرسل أن تنزه ربك الذي اختارك حبيبا ، له فقل (هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ، روى مسلم عن أبي الدرداء أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال إن اللّه تعالى جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ جزءا من القرآن .

وروى أبو هريرة ما بمعناه بلفظ اقرأ عليكم ثلث القرآن أي قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ كما سيأتي

وروى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري أن رجلا سمع رجلا يقرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يرددها فلما أصبح جاء إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فذكر ذلك له وكأن الرجل يتقللها فقال صلّى اللّه عليه وسلم والذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن وذلك أن القرآن أما ارشاد إلى معرفة اللّه أو تقديس أوصافه وأسمائه ، أو معرفة أفعاله وسنته مع عباده .

(19/838)

ولما اشتملت هذه السورة على التقديس وازنها الرسول بثلث القرآن وسبب نزولها ، قال ابن عباس ، قالت قريش صف لنا ربك الذي تدعوا اليه فأنزل اللّه هذه السورة أي أن الذي سألتموني عنه هو اللّه أحد إلخ "اللَّهُ الصَّمَدُ 2" الذي يصمد اليه كل مخلوق ، الغني عن كل شيء وهو من صفات الكمال ، روى البخاري في أفراده عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال الصمد السيد الذي انتهى سؤدده وفي راوية عن ابن عباس السيد الذي كمل فيه جميع أوصاف السؤدد وهو السيد المقصود في جميع الحوائج المرغوب اليه في الرغائب المستعان به عند المصائب وتفريج الكروب .

ومعناه لغة هو الذي لا جوف له والشيء

الصمد الصلب الذي ليس فيه رطوبة ولا رخاوة ، وهذه من صفات الأجسام تعالى اللّه

عنها ، ووجهه على هذا أن الصمد الذي لا يأكل ولا يشرب وهو الغني عن كل شيء فعلى هذا الاعتبار يكون أيضا من صفات الكمال ، والقصد من قوله الصمد التنبيه على أنه تعالى بخلاف من أثبتوا ، له الإلهية واليه الإشارة بقوله (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) الآية 75 من سورة المائدة في ج 3 ، وقالوا الصمد الذي ليس بأجوف شيئان أحدهما دون الإنسان وأسفل منه وهو سائر الجمادات الصلبة ، والثاني أشرف من الإنسان وأعلى وأكمل منه وهو الباري جل جلاله ، وقال أبيّ ابن كعب هو الذي "لَمْ يَلِدْ" أحدا "وَلَمْ يُولَدْ" منه أحد ، وفيه رد على قول العرب القائلين أن الملائكة بنات الله ، وعلى اليهود القائلين أن عزيرا ابن اللّه وعلى النصارى القائلين ان المسيح ابن اللّه ، راجع تفسير الآية 27 من سورة التوبة في ج 3 تر تكذيب زعمهم وافترائهم .

(20/838)

هذا إذ قالوا ، ومن المعلوم أنه إذا لم يكن له ولد ينفى عنه اسم الوالد والصاحبة ، لأن الولد يكون منهما أو من أحدهما كآدم وحواء والمسيح ، واللّه تعالى هو الأول الذي لم يتقدمه والد والآخر الذي لا يتفرع عنه ولد ومن كان كذلك صح أن يقال "وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ 3"

يكافئه في كونه لأن كل ما فيه خلقه ولن يكافيء المخلوق خالقه قال تعالى "لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" الآية 11 من سورة الشورى في ج 2 ، ولا يخفى أنه ليس شيء يولد إلا سيموت وليس شيء يموت إلا سيورث والله جل شأنه لا يموت ولا يورث فلا يعوله أو يضاهيه أحد من خلقه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال الله تعالى عز وجل كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولدا وإني أنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

وقد جاء في فضل

هذه السورة وتلاوتها

أحاديث كثيرة أعرضنا عنها لعدم الحاجة ولأن في بعضها مبالغة لم نعتمد صحتها وقد اكتفينا بما ذكرناه مما هو صحيح لا غبار عليه وللشيخ الرئيس أبي الحسين علي بن سينا كراسة لطيفة فسّر بها المعوذتين والإخلاص على طريقة الصوفية أبدع فيها رحمه الله ، وهو في كل فن مبدع فمن أراد الوقوف عليها والتمتع بما فيها من الإبداع الذي تلذّ به الأسماع وينشرح له الصدر ، فليراجعها فإني وأمثالي عيال عليه ، هذا والله أعلم واستغفر الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وأصحابه

وأتباعه أجمعين إلى يوم الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 188 . 190 ﴾

(21/838)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الإخلاص

هي واللتان بعدها مكيات أو مدنيات

الله أحد حسن وقال أبو عمرو كاف الصمد وكذا ولم يولد آخرها تام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المقصد صـ ﴾

(22/838)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة الإخلاص

مكية أربع آيات قال الأخفش وغيره لا وقف فيها دون آخرها لأنَّ الله أمر نبيه أن يقرأها كلها فهي جواب ومقصود الجواب والوقف على رأس كل آية حسن

قل هو الله أحد (حسن) عند أبي عمرو وقال العرب لا تصل قل هو الله أحد بقوله الله الصمد وكان لا يستحب الوصل وذلك أن ضمير هو مبتدأ أول والله مبتدأ ثان وأحد خبر الثاني والجملة خبر الضمير أو هو مبتدأ وهو اسم مبهم فجعل الله بياناً وتفسيراً وترجمة عنه وأحد خبر المبتدأ أو هو مبتدأ والله خبره وأحد بدل من الخبر والتقدير هو أحد أو هو مبتدأ والله بدل منه وأحد رفع على الخبر والتقدير الله أحد أو هو مبتدأ والاسمان بعده خبران له أو هو مبتدأ والله خبره واحد خبر مبتدأ محذوف أي هو أحد وقيل هو عبارة عن الأمر والشأن والقصة والله مبتدأ وأحد خبر وهذا يقتضي الفصل وقيل الوصل أولى و استحبه جمع ومن وصل نوَّن أحد ووجه الوصل إن جملة قوله الله الصمد بدل من الجملة الأولى في تتمة البيان ومقصوداً لجواب فهما كالشيء الواحد

الصمد (كاف) على استئناف ما بعده ومثله لم يلد ولم يولد كذا وسمه بعضهم بالكافي ولعله لكونه من عطف الجمل وإلاَّ فقوله ولم يكن له كفواً أحد معطوف على ما قبله

آخرها (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى ص ﴾

(23/838)

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة الدمياطى :

سورة الإخلاص

مكية في قول الحسن ومجاهد وقتادة مدنية في قول ابن عباس وغيره وآيها أربع عراقي ومدني وخمس مكي وشامي خلافها آية لم يلد مكي وشامي وقرأ (كفوا) الآية 4 بإبدال الهمزة واوا في الحالين حفص والباقون بالهمز وأسكن الفاء حمزة ويعقوب وخلف وضمها الباقون لغتان ويوقف عليه لحمزة بالنقل على القياس المطرد وبالإبدال واوا مفتوحة مع إسكان الفاء على الرسم والوجهان صحيحان وحكي ثالث بين بين وهو ضعيف ورابع ضم الفاء مع إبدال الهمزة واوا كقراءة حفص والعمل على خلافه كما في النشر نقلا عن الداني. انتهى انتهى. اهـ ﴿إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(24/838)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

"سورة الإخلاص"

"كفوا " قرأ حفص بإبدال الهمزة واوا وصلا ووقفا وغيره بالهمز وقرأ خلف ويعقوب وحمزة بإسكان الفاء وغيرهم بضمها ولحمزة فيه وقفا وجهان الأول نقل حركة الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة الثاني إبدال الهمزة واوا على الرسم ولا يخفى أن التنوين يبدل ألفا عند الوقف لجميع القراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 358 ﴾

(25/838)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الإخلاص

معنى قوله في اول هذه السورة قل وما شاكلها ان الله تعالى انزل القرآن الكريم على نبيه بلسان جبريل عليهما السلام فحكى لفظه فقال ان جبريل قال لي ﴿ قل هو الله أحد ﴾ قوله تعالى ﴿ كفوا أحد ﴾ يقرأ بضم الكاف والفاء والهمز وطرحه وبضم الكاف واسكان الفاء والهمز وقد ذكرت علله في البقرة ذكرا يغني عن اعادته ها هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 378 ﴾

(26/838)

وقال ابن زنجلة :

112 - سورة الإخلاص

ولم يكن له كفوا أحد 4

قرأ حمزة وإسماعيل كفئا ساكنة الفاء وقرأ الباقون بضم الفاء وهما لغتان مثل رسل ورسل وكتب وكتب

وقرأ حفص كفوا مضمومة الفاء مفتوحة الواو غير مهموزة أبدل من الهمزة واوا والعرب تقول ليس لفلان كفو ولا مثل ولا نظير والله جل وعز لا نظير له ولا مثل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ حجة القراءات صـ 777 ﴾

(27/838)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الصمد 112

مكية هذا قول مجاهد وعطاء وقتادة وقال ابن عباس مدنية وقد ذكر نظيرتها في غير

المدنيين ولا نظير لها فيهما

وكلمها خمس عشرة كلمة

وحروفها سبعة وأربعون حرفا

وهي خمس آيات في المكي والشامي وأربع في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ لم يلد ﴾) عدها المكي والشامي ولم يعدها الباقون ورؤوس الآي

أحد

1 الصمد

2 ولم يولد

3 أحد

4 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 296 ﴾

(28/838)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (هو) فيه وجهان : أحدهما هو ضمير الشأن ، و (الله أحد) ، مبتدأ وخبر في موضع خبر هو والثانى هو مبتدأ بمعنى المسئول عنه ، لأنهم قالوا : أربك من نحاس أم من ذهب ؟ فعلى هذا يجوز أن يكون الله خبر المبتدأ ، وأحد بدل أو خبر مبتدأ محذوف ، ويجوز أن يكون الله بدلا وأحد الخبر ، وهمزة أحد بدل من واو لأنه بمعنى الواحد ، وإبدال الواو المفتوحة همزة قليل جاء منه أمرأة أناة : أي وناة لأنه من الونى ، وقيل الهمزة أصل كالهمزة في أحد المستعمل للعموم ومن حذف التنوين من أحد فلالتقاء الساكنين .

قوله تعالى (كفوا أحد) اسم كان .

وفى خبرها وجهان : أحدهما كفوا ، فعلى هذا يجوز أن يكون له حالا من كفوا لأن التقدير : ولم يكن أحد كفوا له ، وأن يتعلق بيكن ، والوجه الثاني أن يكون الخبر له ، وكفوا حال من أحد : أي ولم يكن له أحد كفوا ، فلما قدم النكرة نصبها على الحال ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(29/838)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الإخلاص

[سورة الإخلاص (112) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها "هُوَ" ضمير الشأن مبتدأ "اللَّهُ أَحَدٌ" مبتدأ وخبره والجملة خبر هو وجملة هو . . مقول القول .

[سورة الإخلاص (112) : آية 2]

اللَّهُ الصَّمَدُ (2)

"اللَّهُ الصَّمَدُ" مبتدأ وخبره والجملة مستأنفة لا محل لها .

[سورة الإخلاص (112) : آية 3]

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3)

"لَمْ يَلِدْ" مضارع مجزوم بلم والفاعل مستتر والجملة مستأنفة لا محل لها "وَلَمْ يُولَدْ" الواو حرف عطف ومضارع مبني للمجهول مجزوم بلم ونائب الفاعل مستتر والجملة معطوفة على ما قبلها .

[سورة الإخلاص (112) : آية 4]

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)

"وَلَمْ يَكُنْ" الواو حرف عطف ومضارع ناقص مجزوم بلم "لَهُ" متعلقان بكفوا "كُفُواً" خبر يكن مقدم "أَحَدٌ" اسمه المؤخر . والجملة معطوفة على ما قبلها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 476 ﴾

(30/838)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةَ الْإِخْلَاص

فِيهَا حديثان

1564 - الحَدِيث الأول

رَوَى أنس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انه قَالَ أسست السَّمَوَات السَّبع والأرضون السَّبع عَلَى قل هُوَ الله أحَدٌ

قلت غَرِيب

وروى ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي فَضَائِل الْقُرْآن وَهُوَ مُجَلد لطيف ثَنَا

الْحسن بن مُوسَى ثَنَا أَبُو هِلَال عَن قَتَادَة عَن عبد الله بن غيلَان الثَّقَفِيّ انه كَانَ أَمِيرا عَلَى الْبَصْرَة فَقَالَ حَدثنِي هَذَا الرجل الصَّالح كَعْب الْأَحْبَار أَن الله تبَارك وَتَعَالَى أسس الْأَرْضين عَلَى قل هُوَ الله أحد انْتَهَى

1565 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ انه سمع رجلا يقْرَأ قل هُوَ الله أحد فَقَالَ وَجَبت قيل يَا رَسُول الله وَمَا وَجَبت قَالَ وَجَبت لَهُ الْجنَّة

قلت رُوِيَ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَمن حَدِيث أبي أُمَامَة

أما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فَضَائِل الْقُرْآن وَالنَّسَائِيّ فِي الصَّلَاة وَفِي التَّفْسِير وَفِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة من حَدِيث عبيد بن حنين عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ أَقبلنَا مَعَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ فَسمع رجلا يقْرَأ قل هُوَ الله أحد . . . إِلَى آخرهَا فَقَالَ وَجَبت فسألنا يَا رَسُول الله مَاذَا وَجَبت قَالَ الْجنَّة انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح غَرِيب لَا نعرفه إِلَّا من حَدِيث مَالك بن انس انْتَهَى

وَرَوَاهُ مَالك فِي موطئِهِ عَن عبيد الله بن عبد الرَّحْمَن عَن عبيد بن حنين بِهِ

وَمن طَرِيق مَالك أَيْضا رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك فِي فَضَائِل الْقُرْآن وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع عشر بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَأما حَدِيث أبي أُمَامَة فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث معَاذ بن رِفَاعَة ثَنَا عَلّي بن يزِيد عَن الْقَاسِم عَن أبي أُمَامَة قَالَ مر رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَجُل وَهُوَ يقْرَأ قل هُوَ الله أحد فَقَالَ أوجب هَذَا قيل مَا أوجب قَالَ وَجَبت لَهُ الْجنَّة. انْتَهَى. انتهى. ا هـ

﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 331. 332 ﴾

(32/838)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الإخلاص

رب العالمين واحد ، لا ثانى له ولا ثالث ، لا صاحبة له ولا ولد . والصفات التى أسندها لذاته العليا ، تجعل ماعداه صفرا ، وتجعل القول به عبثا " وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون " ، " . . . ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد " . والتوحيد روح الإسلام ولباب القرآن. وما نسبه الله

إلى نفسه من صفات يجعل ما عداه عبدا عاجزا لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرا ولا نفعا ، فأين هو؟ ولماذا لم يقبل التحدى؟ وننبه هنا إلى ما سقناه من قبل من أدلة عقلية على التوحيد " ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون " . وفى موضع آخر يقول : " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون * لا يسأل عما يفعل وهم يسألون " . والقائلون بالتثليث يرون أن الآلهة ثلاثة ، وإن كانوا فى الحقيقة إلها واحدا ، فهم أب وابن وروح قدس ، ولا يتصور بينهم خلاف ! فما يقولون فى قضية الصلب؟ إذا كان الثلاثة واحدا ، فإن المصلوب هم الجميع ، وفقد العالم ربه حينا من الدهر . وإن كان المصلوب الابن وحده ، فليس بإله يقينا ! ولمن شاء أن يعتنق ما شاء . ما نحجر على إيمان أحد ، ولكننا فقط ننصف كتابنا وعقيدتنا ، فنحن نتلقى التهم من كل جهة . . ! ! وسورة الإخلاص سطر واحد : " قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد " . وهى تعدل ثلث القرآن لأنها لخصت أصل الاعتقاد عندنا .

فالله ليس كمثله شىء . ولم يكن له أحد كفء ويستحيل أن يكون أبا أو ابنا . وهو الصمد أى السيد الذى يقصده كل من فى السموات والأرض . ماذا يملك غيره ؟ إن النظام العالمى السارى فى الملكوت لا يتحمل تعدد الآلهة . ومن السخف أن تحسب للشمس إلها ، وللأرض إلها ، أو أن للحيوان إلها وللنبات إلها ، أو أن لإفريقية إلها ولأوروبا إلها . إن النظام الكونى واحد تضبطه إرادة واحدة وتصوغه قدرة واحدة . والذى يشرف على إفرازات الهضم فى أمعاء الأحياء هو الذى يشرف على مسارات الأفلاك فى أقاصى الآفاق . وفالق الحب والنوى فى الحقول والحدائق هو فالق الإصباح فى عالمنا ، وفالق الشروق والغروب فى المجرات التى لا نراها ! إننا بعد إعمال الفكر وإدمان النظر ، لا نملك إلا نقول : "لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد . وهو على كل شىء قدير" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 549 . 550 ﴾

(34/838)

(35/838)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة الإخلاص

قال بعضهم : وضعت ههنا للوزان في اللفظ بين فواصلها ومقطع سورة تَّبت وأقول : ظهر لي هنا غير الوزان في اللفظ : أن هذه السورة متصلة بقل يا أيها الكافرون في المعنى ولهذا قيل : من أسمائها أيضاً الإخلاص وقد قالوا : إنها اشتملت على التوحيد ، وهذه أيضاً مشتملة عليه ولهذا قرن بينهما في القراءة في الفجر ، والطواف ، والضحى ، وسنة المغرب ، وصبح المسافر ، ومغرب ليلة الجمعة وذلك أنه لما نفى عبادة ما يعبدون ، صرح هنا بلازم ذلك ، وهو أن معبوده أحد ، وأقام الدليل عليه بأنه صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ولا يستحق العبادة إلا من كان كذلك ، وليس في معبوداتهم ما هو كذلك وإنما فصل بين النظيرتين بالسورتين لما تقدم من الحكمة ، وكأن إيلاءها سورة تبت ورد عليه بخصوصه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 160.161 ﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) الذي له جميع الكمال بالجلال والجمال (الرحمن) الذي أفاض منت طوله على جميع الموجودات عموم الأفضال (الرحيم) الذي خص أهل وداده من نور الإنعام بالإتمام والإكمال .

(37/838)

لما كانت الكوثر علة للنهي عما تضمنه التكذيب من مساوئ الأفعال ، وعلم بها أنه (صلى الله عليه وسلم) مختص بالخير المستلزم لأن شانئه هو الأبتر ، فكان موضع السؤال عما يفعل مع الشانئين من معاركه أو متاركة ، جاءت الكافرون للمتاركة لقلة أهل الدين إذ ذاك ، إشارة إلى أن هذه الدار مبنية على الأسباب ، فعلم بالكافرون أن الشانئ مما لا يعبأ به ، فتحركت النفس إلى سؤال عن وقت الصلاحية للمعاركة بعد هذه التاركة ، وما يترتب على المعاركة من قهر الشانئ بالفعل ، فجاءت سورة النصر لذلك الإشارة إلى أنه مما لا يسأل

عنه بمتى ، لتغيير ذلك في وجه الإحسان في التسليم ، وإنما يسأل عما يفعل عند وعه من الإحسان في التعبد ، معبرا بأداة التحقق إعلاما بأنه آت لا محالة ، فالسؤال عن وقته ليس من دأب السائرين ، ولما ظهرت ذخائر هذه الكنوز بدقائق تلك الرموز ، وما انضم إليها من القرائن الظاهرة ، استحضرت حال أبي لهب لما كان فيه مع قرابته القريبة من شدة العناد ، والاجتهاد ج العظيم في كل ما يضاد أشرف العباد واشتد التشوف إلى انقلاب حاله إذا ذاك هل يكون بما ختمت به النصر من التوبة أو بخذلانه وانقلابه بأعظم الخيبة والحوبة ؟ فجاءت سورته لذلك بينا لأنه غلب عليه الشقاء فنزل به في دركاته مانعا من معالي درج الارتقاء ، فلما بين سبحان بذلك إهلاكه عدوه (صلى الله عليه وسلم) ، وختم بأعدى أعدائه فحكم بهلاكه ، وهلاك زوجه هلاكا لا جبر له على وجه مبين أنه في أدنى دركات الحقارة ، وأعظم أنواع الخسارة ، فرقص الفكر طربا من هذه الأمور ، وسكر اللب من عجائب المقدور ، واهتز السامع غاية الاهتزاز إلى وصف الفاعل لذلك الذي هو خارج عن طوق البشر ، وخارق للعوائد ، وهو إظهار شخص واحد على الناس كافة مع شدة عداوتهم له ، جاءت الإخلاص كاشفة لما ثبت من العظمة لولي النبي (صلى الله عليه وسلم) سبحانه وتعالى الذي أمره بهذا الدين وفعل له هذه الأمور - العظيمة

الموجبة لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، لئلا يستبعد عليه سبحانه وتعالى شيئاً من ذلك ولا غيره ، وإن تمثيل جميع ما يأم ربه كلائنا ما كان وكائنا فيه ما كان على أن يوجه كان موافقة لأمره وطاعة له ومنبئة للاعتقاد الحق الذي أوجب هذه النصرة ، واردة على جميع فرق الضلال ، هذا في انعطاف الآخر على الأول بالنسبة إلى السور - من أعظم المناسبات في ذلك بالنظر إلى الآيات أنه سبحانه شرح بالفيل وما بعدها من السور آيات الفاتحة كلها ثم - من أول البقرة إلى آية التوحيد ، فأشار بالفيل إلى استجماعه لصفات الكمال بأن له الحمد بما حرس من بيته من الملوك ووحماه من كيد الجبابرة وأحسن التربية لقريش الذين هم أشرف العالمين وبصلاحهم صلاح بلدتهم أم القرى ، وبصلاحها صلاحها فدل ذلك " لى أنه يدين العباد يوم التناد ، ولذلك أعطى رأس الهداة الدين الذي أفرده العبادة ولاستعانة بالكوثر ، وهداه إلى الصراط المستقيم وأعاذه من طريق الكافرين المعاندين والضالين ، وأشار أول البقرة إلى دخول المتقين - الذين الكتاب هدى لهم - في الدين أفواجا وإن أغنى أهل الكفر وأعتاهم سواء عليهم الإنذار وعدمه في لانه لا يؤمن وهو أبو لهب ومن سار بسيره من 0 مجاهر ومساتر ويعمهم الخسار ، ويشملهم الهلاك والتبار ، بحكم الواحد القهار المأمور بعبادته وتوحيده في الآية الجامعة لدعوات التوحيد) يا أيها الناس اعبدوا ربكم) [البقرة : 21] المتصف بما في سورة الصمد التي لم ينزل في وصفه مثلها ، فتم الدين

عند ذلك بما له سبحانه من كمال الأوصاف ، وجلال النعوت بالجبروت والألطاف فلم يبق إلا تعويذ أهل الدين من أن يدخل عليهم خلل ، أو يلحقهم نزع أو زلل ، فختم بالمعوذتين لذلك ، والله المسؤول في الإنعام بعائد السؤل لكل سالك .

(39/838)

ولما كان المقصود من القرآن دعوة العباد إلى المعبود ، وكان المدعو إلى شيء أحوج ما يكون إلى معرفته ، وكان التعريف تارة للذات وتارة للصفات وتارة للأفعال ، وكانت هذه الأمة - أشرف الأمم لأن نبيها أعلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكان هي الختام ، أشبع الكلام في تعريفه سبحانه في القرآن ، وأنهى البيان في ذلك إلى حد لا مزيد عليه ولم يقاربه في ذلك كتاب من الكتب السالفة ، ولكنه لما كان الكبير إذا تناهى كبره عزت معرفة ذاته ، وكان الله تعالى هو الأكبر مطلقاً ، وكانت معرفة ذاته - كما أشار إليه الغزالي في الجواهر ، والفخر الرازي في كتبه - أضيق ما يكون مجالاً وأعسره مقالاً ، وأعصاه على الفكر منالاً ، وأبعده عن قبول الذكر استرسالاً لأن القرآن لا يشتمل من ذلك إلا على تلويحات وإشارات أكثرها رجع إلى ذكر التقديس المطلق كقوله تعالى ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ [الشورى : 112] وإلى التعظيم المطلق كقوله ﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ فكام

القياس أن يقتصر على ذلك مع التعريف بالصفات والأفعال ، لكن لما كانت هذه الأمة في الذروة من حسن الأفهام مع ما نالته من الشرف ، حباها سبحانه وتعالى بسورة الإخلاص كاملة ببيان لا يمكن أن تحتمل عقول البشر زيادة عليه ، وذلك ببيان أنه ثابت ثباتاً لا يشبهه ثبات على وجه لا يكون لغيره أصلاً ، وأنه سبحانه وتعالى منزه عن الشبيه والنظير والمكافىء والمثيل ، فلا زوجة له ولا ولد ، ولا حاجة بوجه إلى أحد ، بل له الخلق والأمر ، فهو يهلك من أراد ويسعد من شاء ، فقال آمراً لنبيه -صلى الله عليه وسلم- ليكون أول كلمة فيها دالة على رسالته رداً على من كذبه في خاصة نفسه وعلى البراهمة القائلين : إن في العقل غنى عن الرسل .

(40/838)

ويكون البيان جارياً على لسانه -صلى الله عليه وسلم- ليكون إلى فهم الخلق عنه لتلك الصفات العلى أقرب لما لهم به من المجانسة : ﴿ قل ﴾ أي يا أكرم الخلائق ومن لا يفهم عن مرسله حق الفهم سواه ، وإطلاق الأمر بعدم التقييد بمقول له يفهم عموم الرسالة ، وأن المراد كل من يمكن القول له سواء كان سائلاً عن ذلك بالفعل أو بالقوة حثاً على استحضار - ما لرب هذا الدين - الذي حاطه هذه الحياطة ورباه هذه التربية - من العظمة والجلال ،

والكبرياء والكمال ، ففي الإطلاق المشير إلى التعميم رد على من أقر بإرساله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى العرب خاصة ، ويدل على أن مقول القول لا ضرر فيه على أحد فإن ظواهره مفهومة لكل أحد لا فتنة فيها بوجه ، وإنما تأتي الفتنة عند تعمق الضال إلى ما لا - يحتمله عقله .

(41/838)

ولما كان أهم المقاصد الرد على المعطلة الذين هم ضرب ممن يقول ﴿ نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ [الجاثية : 24] أثبت وجوده سبحانه على أتم الوجوه وأعلاها وأوفاها وأجلاها بما معناه أن حقيقته ثابتة ثباتاً لا يتوجه نحوه شك بوجه من الوجوه ، فقال مكاشفاً للأسرار - فإنه لا يمكن غيبته عنها أصلاً - وللوالهين : ﴿ هو ﴾ فابتدأ بهذا الاسم الشريف الذي هو أبطن الأسماء إشارة إلى أنه غيب الغيب بالنظر إلى ذاته كالألف ، وإلى أنه واجب الوجود لذاته - وأن هويته ليست مستفادة من شيء سواها ولا موقوفة على شيء سواها ، فإن كل ما كانت هويته مستفادة من غيره أو موقوفة عليه فمتى لم يتعبر غيره فلم يكن هو هو ، وما كانت هويته لذاته فهو هو سواء اعتبر غير أو لم يعتبر ، فإذاً لا يستحق هذا الاسم غيره أصلاً على أن الهاء بمفردها مشيرة - بكونها من أبطن - الحلق

إلى أنه هو الأول والباطن المبدع لما سواه ، والواو – بكونها من أظهر حروف الشفة – إلى أنه الآخر والظاهر ، وأن إليه المنتهى ، وليس وراءه مرمى ، وأنه المبدئ المعيد – كما يشير إلى ذلك تكرير الواو في اسمها ، وإلى أنه محيط بكل شيء لما فيها من الإحاطة .

(42/838)

ولما كان وجوده سبحانه لذاته ، ولم يكن مستفاداً من غيره ، فإن ما استفيد وجوده من غيره كان ممكناً ، كان لا يمكن شرح اسمه الذي هو هو ، لا اسم لحقيقة غيره يقوم من جنس ولا نوع ولا فصل لأنه لا جنس له ولا نوع له ولا سبب يعرف به ، والذي لا سبب له لا يمكن معرفته إلا بلوازمه ، واللوازم منها سلبية ومنها إضافية ومنها قريبة ومنها بعيدة ، والتعريف بالإضافية وبالقريبة أتم من التعريف بالسلبية وبالبعيدة ، لأن البعيد كالضاحك الذي هو بعد المتعجب بالنسبة إلى الإنسان لا يكون معلولاً لشيء بل معلولاً لمعلوله ، وبالجمع بين السلبية والإضافية أتم من الاقتصار على أحدهما ، فلذلك اختير اسم جامع للنوعين ليكون التعريف أتم ، وذلك هو كون تلك الهوية إلهاً ، فاختير لذلك اسم دال عليها وهو مختص غير مشترك ، وهو أول مظاهر الضمير كما أن الهمزة أول مظاهر الألف ، ولهذا قال بعضهم : الاسم الأعظم آخر الظواهر من الأسماء ، ولهذا كانت كلها صفات له وهو أول

البواطن ، فقال مكاشفاً للأرواح وللموحدين : ﴿ الله ﴾ أي الموجود الذي لا موجود في الحقيقة سواه ! هو المسمى بهذا الاسم ، واختير هذا الاسم للإخبار عنه لدلالته على جميع صفات الكمال : الجلال والجمال ولأنه اسم جامع لجميع معاني الأسماء الحسنى ، وهو أقرب اللوازم إلى الهوية الهوية لأنه لا لازم لها أقرب من وجوب الوجود الذي هو مقتضى الذات على ما هي عليه من الصفات ، لا بواسطة شيء آخر ، وبواسطة وجوب وجوده كان مفيضاً باختياره الإيجاد على كل شيء أراده ، ومجموع الوجوب الذي هو سلب وحده الإيجاد الذي هو اختيار للجود بإضافة الوجود وإضافة للإلهية التي جمعتها الجلالة ، وهي أقرب اللوازم إلى الذات الأقدس ، ودل التعبير به على أنه لا مقوم للهوية من جنس ولا غيره ولا سبب ، وإلا لكان العدول عنه إلى التعريف باللازم قاصراً ، وعلى أن إلهيته على الإطلاق لجميع الموجودات ، فكان شرح تلك الهوية باللازم أبلغ

البلاغة وأحكم الحكمة ، لأنه - مع كونه هو الحق - مشيراً إلى ما ذكر من الدقائق .

ولما ذكرت الذات التي لا سبب لها ولا مقوم من جنس ونوع وغيره أصلاً بل هي مجرد وحدة وتنزه عن تركب لا كثرة لها ولا اثنينية بوجه ، وعرفها باسم جامع الأنواع السلوب والإضافات اللازمة له هو أقرب اللوازم إليها ، فانشرح وجودها المخصوص على ما هو عليه ، فكان ذلك تعريفاً كاملاً لأن تعريف ما لا تركب فيه باللوازم القريبة في الكمال كتعريف المركبات بمقوماتها ، فإن التعريف البالغ هو أن يحصل في النفس صورة مطابقة للمعقول ، وكانت الزيادة في الشرح مطلوبة لأنها أكمل لا سيما في الأمور الباطنة الخفية ، أتبع ذلك باسم سلبي إشارة إلى أن النظر في هذه الدار إلى جانب الجلال ينبغي كونه أعظم ، وذلك الاسم قربه من الجلالة كقربتها من الهوية ، فإنه دال على الوحدة الكاملة المجردة وهو متنزل الجلالة كما أنها متنزل الهوية ، وهو كما أن الجلالة لم يقع فيها شركة أصلاً قد ضاهاها في أنه لا شركة لغيره تعالى فيه عند استعماله مفرداً بمعناه الحقيقي إلا أن في النفي إشارة إلى أن كل ما عداه سبحانه عدم ، فقال مكاشفاً للقلوب وللعارفين مكذباً للنصارى القائلين بالأب والابن وروح القدس ، ولليهود القائلين بأنه جسم ، وللمجوس الذين يقولون بأنه اثنان : نور يخلق الخير ، وظلام يخلق الشر ، وللصابئة الذين يعبدون النجوم ، وللمشركين القائلين بإلهية الأصنام ، مخبراً خبراً آخر ، أو مبدلاً من الجلالة ، أو مخبراً عن مبتدأ محذوف :

﴿ أحد ﴾ وهو لأجل كونه خاصة في الإثبات حال الانفراد به تعالى معرفة غني عن " آل "

المعرفة ، وهو أعرق في الدلالة على صفات الجلال كما أن الجلالة أعرق في الدلالة على صفات الكمال لأن الواحد الحقيقي ما يكون منزه الذات عن أنحاء التركيب والتعدد وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الكاملة والحكمة التامة المقتضية للألوهية من غير لزوم دور ولا تسلسل من جهة تركب أو غيره ، وقرئ بإسقاط "

(45/838)

قل " هنا وفي المعوذتين مع الاتفاق على إثباتها في الكافرون ونفيها في تبت ، ولعل الحكمة أن الكافرون مخاطبة للكفار بما بين مشاقة ومتاركة ، فناسب الحال أن يكون ذلك منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتبت معاتبة عم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوبيخه فلا يناسب أن يكون ذلك من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والباقيات ما بين توحيد وتعوذ ، فناسب أن يؤمر بتبليغه وأن يدعو به ، ورتب الأحدية على الإلهية دون العكس ، لأن الإلهية عبارة عن استغنائه عن الكل ، واحتياج الكل إليه ، وكل ما كان كذلك كان واحداً مطلقاً ، وإلا لكان محتاجاً إلى أجزائه ، فالإلهية من حيث هي تقتضي الوحدة ، والوحدة لا تقتضي الإلهية ، وعبر به دون " واحد " لأن المراد الإبلاغ في الوصف بالوحدة إلى حد لا يكون

شيء أشد منه ، والواحد – قال ابن سينا – مقول على ما تحته بالتشكيك ، والذي لا ينقسم بوجه أصلاً أولى بالواحدية مما ينقسم من بعض الوجوه ، والذي ينقسم انقساماً عقلياً أولى مما ينقسم بالحس والذي ينقسم بالحس وهو بالقوة أولى من المنقسم بالحس بالفعل ، وإذا ثبت أن الوحدة قابلة للأشد والأضعف .

(46/838)

وأن الواحد مقول على ما تحته بالتشكيك كان الأكمل في الوحدة الذي لا يمكن أن يكون شيء آخر أقوى منه فيها ، وإلا لم يكن بالغاً أقصى المرام ، والأحد جامع لذلك دال على الواحدية من جميع الوجوه ، وأنه لا كثرة هناك أصلاً ، لا معنوية من المقومات من الأجناس والفصول ولا بالأجزاء العقلية كالمادة والصورة ، ولا حسية بقوة ولا فعل كما في الأجسام ، وذلك لكونه سبحانه منزهاً عن الجنس والفصل والمادة والصورة والأعراض والأبعاض والأعضاء والأشكال والألوان وسائر وجوه التثنية التي تثلم الوحدة الكاملة الحقة اللائقة بكرم وجهه وعز جلاله أن يشبهه شيء أو يساويه لأن كل ما كانت هويته إنما تحصل من اجتماع أجزاء كانت هويته موقوفة على حصول تلك الأجزاء ، فلا يكون هو هو لذاته بل لغيره ، فلذا كان منزهاً عن الكثرة بكل اعتبار ، ومتصفاً بالوحدة من كل الوجوه ، فقد بلغ

هذا النظم من البيان أعظم شأن ، فسبحان من أنزل هذا الكلام ما أعظم شأنه وأقهر سلطانه ، فهو منتهى الحاجات ، ومن عنده نيل الطلبات ، ولا يبلغ أدنى ما استأثره من الجلال والعظم والبهج أقصى نعوت الناعتين وأعظم وصف الواصفين ، بل القدر الممكن منه الممتنع أزيد منه هو الذي ذكره في كتابه العزيز ، وأودعه وحيه المقدس الحكيم ، وبالكلام على معناه ومعنى الواحد تحقق ما تقدم ، قال الإمام أبو العبا الإقليشي في شرح الأسماء : فمن أهل اللسان من ساوى بينهما جعلهما مترادفين ، فمنهم من قال : أصل أحد واحد سقطت منه الألف ثم أبدلت الهمزة من الواو المفتوحة ، ومنهم من قال : ليس أصله واحد وإن كانا بمعنى واحد ، بل أصله وحد - من الوحدة - يحد فهو وحد - مثل حسن يحسن فهو حسن - من الحسن ، أبدلت الواو همزة ، وأما من فرق بينهما فمنهم من قال : أحد اسم على حياله لا إبدال فيه ولا تغيير ، ومنهم من قال : أصله وحد ، أبدلت الواو همزة - انتهى ، وقد استخلصت الكلام على الاسمين الشريفين من عدة شروح

(47/838)

للأسماء الحسنى وغيرها منها شرح الفخر الرازي والفخر الحرالي وغيرهما ، قالوا : الواحد الذي لا كثرة فيه بوجه لا بقسمة ولا بغيرها مع اتصافه بالعظمة ليخرج الجوهر الفرد وهو

أيضاً الذي لا يتثنى ، أي لا ضد له ولا شبيه ، فهو سبحانه واحد بالمعنيين على الإطلاق لا بالنظر على حال ولا شيء ، قال الإمام أبو العباس الاقليشي في شرح الأسماء : هذه حقيقة الوحدة عند المحققين ، فلا يصح أن يوصف شيء مركب بها إلا مجازاً ، كما تقول : رجل واحد ، ودرهم واحد ، وإنما يوصف بها حقيقة ما لا جزء له كالجوهر الفرد عند الأشعرية غير أنك إذا نظرت فوجدت وجوده من غيره علمت أن استحقاقه لهذا الوصف ليس كاستحقاق موجده له ، وهو أيضاً إنما يوصف به لحقارته ، وموجده سبحانه موصوف به مع الاتصاف بالعظمة ، فاتصافه بالوحدة على الإطلاق ، واتصاف الجوهر بالنظر إلى عدم التركب من الجسم مع أن صحة اتصافه بأنه جزء يزيل عنه حقيقة ذلك ، والوحدة أيضاً بالنظر إلى المعنى الثاني وهو ما لا نظير له لا تصح بالحقيقة إلا له سبحانه ، وكل ما نوعيته في شخصيته كالعرش والكرسي والشمس والقمر يصح أن يقدر لها نظائر ، وله معنى ثالث وهو التوحد بالفعل والإيجاد ، فيفعل كل ما يريد من غير توقف على شيء ، والفرق بين هذا الوجه والذي قبله أن الأول ناظر إلى نفي إله ثان ، وهذا ناف لمعين ووزير ، وكلاهما وصف ذاتي سلبي ، والحاصل أن النظر الصحيح دل على أن لنا موجداً واحداً بمعنى أنه لا يصح أن يلحقه نقص القسمة بوجه من الوجوه وبمعنى أنه معدوم النظير بكل اعتبار ، وبمعنى أنه مستبد بالفعل مستقل بالإيجاد ومتوحد بالنصع متفرد بالتدبير ، قضى بهذا شاهد العقل المعصوم من ظلمة الهوى وكثافة الطبع ، وورد به قواطع النقل ونواطق

السمع ، ولهذا كان من أعظم الحق دعاؤه سبحانه لجميع الخلق ، وكانت دعوة رسوله الخاتم ـ صلى الله عليه وسلم ـ للخلق كافة ، وقال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في

(48/838)

آخر شرحه للأسماء في بيان رد الأسماء الكثيرة إلى ذات واحدة وسبع صفات : الأحد المسلوب عنه النظير ، وقال في الشرح المذكور : الواحد هو الذي لا يتجرى ولا يتثنى ، أما الذي لا يتجزى فكالجوهر الواحد الذي لا ينقسم فقال : إنه واحد – بمعنى أنه لا جزء له ، ولذلك النقطة لا جزء لها ، والله تعالى واحد – بمعنى أنه يستحيل تقدير الانقسام في ذاته ، وأما الذي لا يتثنى فهو الذي لا نظير له كالشمس مثلاً فإنها وإن كانت قابلة للانقسام بالوهم متحيزة في ذاتها لأنها من قبيل الأجسام فهي لا نظير لها إلا أنه يمكن أن يكون لها نظير ، وليس في الوجود موجود يتفرد بخصوص وجوده تفرداً لا يتصور أن يشاركه فيه غيره أصلاً إلا الواحد المطلق أزلاً وأبداً ، والعبد إنما يكون واحداً إذا لم يكن له في أبناء جنسه نظير في خصلة من خصال الخير ، وذلك بالإضافة إلى أبناء جنسه وبالإضافة إلى الوقت إذ يمكن أن يكون في وقت آخر مثله ، وبالإضافة إلى بعض الخصال دون الجميع ، فلا وحدة على الإطلاق إلا لله تعالى ، وقال الإمام محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في مقدمة كتابه الملل

والنحل : واختلفوا في الواحد أهو من العدد أم هو مبدأ العدد وليس داخلاً في العدد ، وهذا الاختلاف إنما ينشأ من اشتراك لفظ الواحد ، فالواحد يطلق ويراد به ما يتركب منه العدد ، فإن الاثنين لا معنى له إلا واحد ، تكرر أول تكرير ، وكذا الثلاثة والأربعة ، ويطلق ويراد به ما يحصل منه العدد ، أي هو علته ولا يدخل في العد أي لا يتركب منه العدد ، وقد تلازم الواحدية جميع الأعداد لا على أن العدد تركب منها بل وكل موجود فهو جنسه أو نوعه أو شخصه واحد يقال : إنسان واحد ، وشخص واحد ، وفي العدد كذلك فإن الثلاثة في أنها ثلاثة واحدة ، فالواحدة بالمعنى الأول داخلة في العدد ، وبالمعنى الثاني علة العدد ، وبالمعنى الثالث ملازمة للعدد ، وليس من الأقسام الثلاثة قسم يطلق على البارىء تعالى معناه : فهو

(49/838)

واحد لا كالآحاد أي هذه الوحدات والكثرة منه وجدت ويستحيل عليه الانقسام بوجه من وجوه القسمة – انتهى ، وهو واحد أيضاً بنفسه لا بالنسبة إلى ثان بوجه من الوجوه ، وقال بعضهم : الواحد يدل على الأزلية والأولية ، لأن الواحد في الأعداد ركنها وإظهار مبدئها ، والأحد يدل على بينونته من خلقه في جميع صفاته ونفي أبواب الشرك عنه ،

فالأحد بني لنفي ما ذكر معه من العدد ، والواحد اسم لمفتتح العدد ، وقال الإمام أبو حاتم محمد بن مهران الرازي في كتابه الزينة ، قال بعض الحكماء : إنما قيل له سبحانه " واحد " لأنه عز وجل لم يزل قبل الخلائق متوحداً بالأزل لا ثاني معه ولا خلق ، ثم أبدع الخق ، فكان الخلق كله مع احتياجه إليه سبحانه محتاجاً بعضه إلى بعض ممسكاً بعضه بعضاً متعادياً ومتضاداً ومتشاكلاً ومزدوجاً ومتصلاً ومنفصلاً ، واستغنى عز وجل عن الخلائق فلم يحتج إلى شيء فيكون ذلك الشيء مقروناً به لحاجته إليه ولا ناواه شيء فيكون ذلك الشيء ضداً له نصراً به ، فيكون ذلك الضد والقرين له ثانياً ، بل توحد بالغنى عن جميع خلقه لأنه كان قبل كل شيء ، والأولية دلت على الوحدانية ، فالواحد اسم يدل على نظام واحد يعلم باسمه أنه واحد ليس قبله شيء :

وفي كل شيء له آية . . .

تدل على أنه واحد

والواحد من العدد في الحساب ليس قبله شيء ، بل هو قبل كل عدد وهو خارج عن العدد ، والواحد كيفما أدرته لم يزد فيه شيء ولم ينقص منه شيء ، تقول : واحد في واحد بواحد

- فلم يزد على الواحد شيء ، فدل على أنه لا شيء قبله ، وإذا دل على أنه لا شيء قبله دل على أنه محدث الشيء ، فإذا دل على أنه محدث الشيء دل على أنه مغني الشيء ، وإذا كان مغني الشيء دل على أنه لا شيء بعده ، فإذا لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء فهو المتوحد بالأزل ، يعني فهو الواحد الذي لا نظير له فهو الأحد ، قال : فلذلك قيل : هو واحد وأحد ، وقلنا : إن الأحد هو اسم أكمل - أي أعم - من الواحد ، ألا ترى أنك إذا قلت : فلان لا يقوم له واحد ، جاز في المعنى أن يقوم له اثنان أو ثلاثة فما فوقها ، وإذا قلت : فلان لا يقوم له أحد ، فقد جزمت بأنه لا يقوم له واحد ولا اثنان ولا ما فوقهما ، فصار الأحد أكمل من الواحد ، وفي الأحد خصوصية ليست في الواحد ، تقول : ليس في الدار واحد ، يجوز أن يكون واحداً من الدواب أو الطير أو الوحش أو الإنس ، فكان الواحد يعم الناس وغير الناس ، وإذا قلت : ليس في الدار أحد ، فهو مخصوص للآدميين دون سائرهم ، والأحد ممتنع من الدخول في الضرب وفي العدد وفي القسمة وفي شيء من الحساب ، وهو منفرد بالأحدية ، والواحد منقاد للعدد والقسمة وغيرها داخل في الحساب ، تقول : واحد واثنان وثلاثة ، فهذا وإن لم يكن من العدد فهو علة العدد ، وداخل في العدد ، لأنك إذا ضربت واحداً في واحد لم يزد ، واثنان هو جذر الحساب ، وتقول في القسمة ، واحد بين اثنين أو ثلاثة ، لكل واحد من الاثنين نصف ، ومن الثلاثة ثلث ، فهذه القسمة ، والأحد ممتنع من هذا ، لا يقال : أحد واثنان ولا أحد في أحد ولا أحد في واحد ولا في اثنين أو ثلاثة

، والواحد وإن لم يتجزأ من الواحد فهو يتجزأ من الاثنين والثلاثة فما فوقهما ، تقول : جزء واحد من جزأين أو ثلاث فما فوقها ، ولا يجوز :

(51/838)

جزء أحد من جزأين فما فوقهما ، وقد سمى الله نفسه واحداً أحداً ووصف نفسه بالوحدانية والأحدية ، فالواحد نعت يلزمه على الحقيقة لأنه كان قبل ولا ثاني معه ، والثاني خلال الواحد ، فهو واحد لاتحاده في القدم ، والخلق اثنان لاقترانه بالحدث لأن الحدث ثان للقدم ، وبه ظهرت التثنية ، فالواحد هو الأحد في ذاته فهو لا شيء قبله ولا من شيء ولا في شيء ولا على شيء ولا لشيء ولا مع شيء ، فيكون ذاك الشيء ثانياً معه بل هو الواحد منشىء والأشياء كلها له ، وهو المتحد بذاته ممتنع من أن يكون له شيء ثانياً بوجه من الوجوه والخلق كله له ، وإن كان يسمى بالواحد ، أو كانت هذه الصفة قد لزمت جميع الأشياء في وجه فإنها تزول عنها في وجه .

كما قيل : إنسان واحد وفرس واحد وبعير واحد ، وكذلك يقال لسائر الأشياء ، وهذه صفة تلزمها في اللفظ ، والمسمى لا يخلو من معان كثيرة مجتمعة فيه كالجسم والعرض ، وهو واحد مجموع من أشياء متفرقة ، وكل شيء لا يخلو من ازدواج وتضاد وتشاكل وحد وعد

، وهذه الصفات كلها تنفي عنه معنى الأحدية والواحدية ، وفي الواحد عن العرب لغات كثيرة ، يقال : واحد وأحد ووحد ووحيد وحاد وأحاد وموحد وأوحد - وهذا كله راجع إلى معنى الواحد ، وإن كان في ذلك معان لطيفة ولم يجىء في صفة الله عز وجل إلا الواحد والأحد ، قلت : والوحيد على بعض الإعرابات في المدثر ، قال : وكلها مشتقة من الواحد ، وكأن ذلك مأخوذ من الحد .

(52/838)

كأن الأشياء كلها إليه انتهاؤها وهي محدودة كلها غيره عز وجل وهو محدود ، بل هو غاية المحدودين وغاية الغايات لا غاية له ، والأحد يجيء في الكلام بمعنى الأول وبمعنى الواحد ، فإذا جاء بمعنى الأول وبمعنى الواحد جاز أن يتكلم به في الخبر كقولك : هذا واحد أحد ، والعرب كانت تسمي يوم الأحد في الجاهلية أولاً ، وقولك " يوم الأحد " دليل على أنه اليوم الأول من الأسبوع ، والاثنين دليل على أنه اليوم الثاني ، وفي التوراة أن الله عز وجل أول ما خلق من الأيام " يوم الأحد " قلت : يمكن أن يكون معنى يوم الأحد يوم الله ، أضيف إليه لكونه أول مخلوقاته من الأيام ، فلما أوجد الثاني سمي يوم الاثنين ، لأنه ثاني يوم الأحد ، قال : وضد الواحد اثنان ، وضد الأحد الآخر ، قال الله تعالى : ﴿ قال أحدهما إني أراني

أعصر خمراً ﴾ [يوسف : 36] ثم قال في ضده " وقال الآخر " فهذا دليل على أن معنى قولهم " يوم الأحد " اليوم الأول : لأنهم قالوا لما بعده اثنان ، ولم يقولوا : الآخر ، لأن الأحد إذا لم يكن بمعنى الأول فضده الآخر ، وإذا كان الأحد بمعنى الأول جاز الخبر والجحد ، وإذا لم يكون بمعنى الأول وكان بمعنى الواحد جاز في الخبر وجاز في الجحد ، قال الله تعالى : ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم هذه ﴾ [الكهف : 19] فهذه من الخبر ، فإذا لم يكن أحد بمعنى الأول وبمعنى الواحد لم يجز أن يتكلم به إلا في الجحد ، تقول : ما جاءني أحد ، ولا يجوز : جاءني أحد ، وكلمني أحد ، قال الله تعالى في معنى الجحد ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ [البلد : 5] وأحد يستوي فيه المذكر والمؤنث ، قال الله تعالى : ﴿ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء ﴾

(53/838)

[الأحزاب : 32] وواحد لا يستوي فيه المذكر والمؤنت حتى يدخل فيه الهاء فيقال " واحدة " لا يجوز " كواحد من النساء " وأحد يكون بمعنى الجمع ، تقول العرب : يظل أحدنا الأيام لا يأكل ، بمعنى كلنا لا يأكل ، فاحتمل معنى الواحد والجماعة – انتهى ، فالواحد من الأسماء الثبوتية الإضافية ، يكون في أصل اللغة بالنسبة إلى ثان هو نصفه ،

وثالث هو ثلثه ، وهكذا هو صفة الله تعالى بمعنى المتوحد في الاتصاف بالألوهية حتى لا يقبلها غيره بوجه ، فلا شريك له ، والأحد من النعوت السلبية ، بل هو مجمعها ، هو أحد في نفسه لا يقبل العدد ولا التركيب بوجه لا بالقسمة ولا بغيرها سواء نظر إليه بالنسبة إلى الغير أو لا ، فهو متمحض للسلب ، فهو وصف راجع إلى نفس الذات بمعنى أنه كامل في ذاته لا يؤثر في مفهومه النظر إلى شيء أصلاً ، والفرد ناظر إلى نفي العدد ، فافترقت الأوصاف الثلاثة وإن كانت متقاربة في المعنى .

(54/838)

وقال الإمام أبو الخير القزويني الشافعي في كتابه " العروة الوثقى في أصول الدين " ناقلاً عن بعض من فرق بينه وبين الواحد : إن الأحد اسم لنفي ما يذكر معه ، وعن بعضهم أنه الذي لا يجوز له التبعيض لا فعلاً ولا وهماً ، فهو أحد بذاته وأحد بصفاته ، وتوحيد الله تعالى لنفسه علمه بأنه واحد ، وإخباره بذلك وتوحيد العبد له علمه بذلك مع إقراره به ، وقال الإمام فخر الدين الرازي في شرح الأسماء الحسنى : فالله سبحانه وتعالى أحد في ذاته ، أحد في صفاته ، أحد في أفعاله ، أحد لا عن أحد غير متجزىء ولا متبعض ، أحد غير مركب ولا مؤلف ، أحد لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئاً ، أحد غني عن كل أحد – انتهى ،

وهذا معنى ما نقله المعربون عن ثعلب أنه فرق بينهما بأن واحداً يدخله العدد ، وأحد لا يدخله ذلك ، يقال : الله أحد ، ولا يقال : زيد أحد ، لأن الأحد خصوصية الله تعالى ، زيد يكون منه حالات ، ونقض عليه بالعدد المعدد المعطوف ، يقال : أحد وعشرون واثنان وعشرون ، ورد بأن أحداً فيه بمعنى واحد ، وقال الإمام فخر الدين في شرح الأسماء : إنه اختص به الباريء سبحانه ، أما الواحد فيحصل فيه المشاركة ، ولهذا السبب أعري من لام التعريف لأنه صار نعتاً لله عز وجل على الخصوص ، فصار معرفة ، وقال الأزهري : سئل أحمد بن يحيى عن الأحاد هل هي جمع أحد ، فقال : معاذ الله ليس للأحد جمع ، ولا يبعد أن يقال إنه جمع واحد كالأشهاد جمع شاهد - انتهى ، وقال الإقليشي في شرح الأسماء : الأحد هو الذي ليس بمنقسم ولا متجزىء ، فهو على هذا اسم لعين الذات ، فيه سلب الكثرة عن ذاته ، فتقدس بهذا الوصف عن صفات الأجسام القابلة للتجزي والانقسام ، والنقطة والجوهر الفرد عن مثبته - يعني من المتكلمين ، والجوهر البسيط عند مدعيه - يعني من الفلاسفة ، وإن كانت هذه لا تتجزى ولا تنقسم وإنما مخالفة للباريء تعالى في أحديته ، أما النقطة فعرض عند بعضهم إذ هي عبارة عن طرف الخط ،

وإذا كان الخط عرضاً فالنقطة أولى بالعرضية ، وأما الجوهر الفرد فإنه وإن كان لا ينقسم فهو مقدر بجزء ، وكل ما قدر بجزء فلا يخلو من الأكوان وهو كيفما كان على رأي من أثبته من المتكلمين وإن كانوا في أوصافه متنازعين فلا يخلو من الأعراض ، وأما الجوهر البسيط عند من أثبته فوجوده عندهم ليس عينه إذا اثنينيته غير ماهيته ، وما هو بهذا الوصف عندهم ففيه اثنينية ، ففارق الباريء سبحانه وتعالى بأحديته هذه الموجودات كما فارق بذاته الأجسام ، فوجوده عن ذاته وليست صفاته تعالى مغايرة لذاته ، وأما الواحد فهو وصف لذاته ، فيه سلب الشريك والنظير عنه ، فافترقا - يعني بأن الأحد ناظر إلى نفس الذات ، والواحد إلى أمر خارج عنها ، وقال البيهقي في كتاب الأسماء والصفات : الأحد فيما يدعوه المشركون إلهاً من دونه لا يجوز أن يكون إلهاً إذ كانت إمارات الحدث من التجزي والتناهي قائمة فيه لازمة له ، والباريء سبحانه وتعالى لا يتجزى ولا يتناهى ، فقد مر أن الأحد خاص بالله سبحانه وتعالى : إنه لا فرق في إطلاقه عليه سبحانه وتعالى بين تعريفه وتنكيره لأنه معرفة في نفسة ، فطاح اعتراض من قال من الملحدين : الجلالة معرفة وأحد نكرة لا ينعت به .

وعلى تقدير التسليم يجوز جعله بدلاً كما تقدم ولا مانع من إبدال النكرة من المعرفة مثل لنسفعاً بالناصية ناصية كاذبة، قال صاحب كتاب الزينة: وعلى هذه القراءة - أي قراءة التنكير - أجمعت الأمة، وروى قوم عن أبي عبد الله بن جعفر بن محمد الصادق أنه قرأ قل هو الله أحد الله الواحد الأحد الصمد ، وقال الإمام أبو الحسن الحرالي في شرح الأسماء الحسنى: الأحد اسم أعجز الله العقول عن إدراك آيته في الخلق إثباتاً فلم تستعمله العرب مفرداً قط أي وهو بمعناه الحقيقي لا بمعنى واحد ولا بمعنى أول مثلاً إلا في النفي لما علموا أنه مفصح عن إحاطة جامعة لا يشذ عنها شيء، وذلك مما تدركه العقول والحواس في النفي ولا تدركه في الإثبات فيقولون: ما في الدار أحد - نفياً لكل ولا يسوغ في عقولهم أن يقولوا: في الدار أو في الوجود أحد - ، إذ لا يعقل عندهم ذات إنسان هي جامعة لكل إنسان، فلما ورد عن الله اسمه في القرآن تلقاه المؤمنون بالإيمان وأحبت قلوبهم سورة ذكره لجمعها لما لا يحصى من ثناء الرحمن وهي أحد الأنوار الثلاثة في القرآن، القرآن - نور

﴿ ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ [الشورى : 52] ونور نوره سورة ذكر الأحد في ختمه وآية الكرسي في ابتدائه وسورة يس التي هي قبله في محلها منه واحد مبين عن اسم الله الذي هو بكل شيء محيط ، لا يتطرق إليه شرك في حق ولا باطل ، وهو واحد مبين عن اسم الإله الذي لا يصح فيه الشرك حقاً ، وقد يتطرق إليه باطلاً ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ﴾ [يس : 74] وذلك لأن الواحد يضائف الثاني ، وأحد جامع محيط لم يبق خارج عنه فيضايفه يعني أن مفهومه ناظر إلى كونه سبحانه وتعالى الآن كما كان في الأزل وحده ، فإن الخلق فانٍ فهو في الحقيقة عدم ، وكأنه ما كان لإحاطته به وكونه في قبضته وطوع مشيئته ، فلا خارج يكون مضايفاً له لأنه لا يضايف الشيء إلا مناظر لمساواة أو مباراة بمعاندة أو غيرها ، فالكل بالنسبة إليه عدم ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ [الزمر : 30] ﴿ كل من عليها فان ﴾ [الرحمن : 26] ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [القصص : 88] هذا مراده بدليل سابقه ولاحقه فلا شبهة فيه لأهل الوحدة عليهم الخزي واللعنة ، قال : والوحدة من الواحد هي حد النهاية ، والغاية مما هي وحدته ، وما دون الوحدة التي هي الغاية ثانية ودونه وجماع إحاطات كل ذلك أعلى وأدنى هي الأحدية التي لا يشذ عنها شاذ ولا يخرج عنها خارج ، فمن الأسماء معلوم لخليفة من خليقته بما أتاهم منه كالرحيم والعليم ، ومنها ما يعجز عنه خلافتهم كالأسماء المتقدمة من اسمه المحصي ، ولكن ينال مثلاً من قولهم ، ومنها ما لم ينله العلم ولا أدركت مثله العقول وهو

اسمه الأحد ، فالله هو الأحد الذي لا أحد إلا هو – انتهى ، وقال الإمام أبو الحكم بن برجان في شرح الأسماء الحسنى : وهو – أي الأحد – أصل لباب الوحدة ، يدل على محض الوحدة ، ألا ترى أنه نافٍ يأتي معه ، إذا قلت : لم يأتني أحد ، انتفى الاثنان ، ولا تقول : جاءني أحد كما تقول ! جاءني واحد ، لأن واحداً تزول عنه الواحدية بضم ثان إليه

بخلاف الأحدية فإنها لازمة الواحد لا يفارقه حكمها بعد ضم الثاني بل لها من جهة محفوظة عليها يظهر ذاك بالأشفاع والأوتار ، فإنك تقول ما جاءني أحد ، فتنتفي الأشفاع كما تنتفي الأوتار ، وهذا دليل على زيادة شرفه فإن الاسم كلما غمضت دلالته وتعذرت معرفته عن الأفهام وعزب عن العقول علمه كان ذلك دليلاً على قربه من الاسم الأعظم – انتهى ، وقال بعض العارفين في كشف معنى الأحد ورتبته : إن الذات الأعظم غيب محض والأحد أول تعيناتها ، ولذلك بدىء بالهمزة التي هي أول تعينات الألف التي هي لهيب محض وذلك سر مخالفتها للأحرف في أن كل حرف يدل على مسماه أول حروف اسمه إلا الألف لكونها غيباً ، فكان أول اسمها الهمزة التي هي أول تعيناتها ، والهمزة لكونها مرقى إلى غيب الألف كان أول اسمها أيضاً غير دال على مسماها .

ثم بعد التعيين بالأحدية الشاملة المستغرقة يتنزل إلى الإلهية ثم منها إلى الواحدية ، ولذلك ابتدىء الواحد بالواو التي هي وصلة إلى ما فيه من الألف الذي هو غيب ، فإن الواحد مرقى إلى فهم الإله ، والإله مرقى إلى تعقل الأحد ، والأحد مرقى إلى التعبد للذات الأقدس الأنزه ، ومن اعتقد أحديته سبحانه وتعالى ، أنتج له ذلك حبه وتعظيمه ، وهو توحيد الألوهية لأن التفرد بذلك يقتضي الكمال والجمال - والله الموفق .

(59/838)

قال الإمام جعفر بن الزبير : لما انقضى مقصود الكتاب العزيز بجملته عاد الأمر إلى ما كان ، وأشعر العالم بحالهم من ترددهم بين عدمين ﴿ ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ﴾ [العنكبوت : 20] فوجودهم منه سبحانه وتعالى وبقاؤهم به وهم وجميع ما يصدر عنهم من أقوالهم وأفعالهم كل ذلك خلقه واختراعه ، وقد كان سبحانه وتعالى ولا عالم ولا زمان ولا مكان ، وهو الآن على ما عليه كان ، لا يفتقر إلى أحد ولا يحتاج إلى معين ، ولا يتقيد بالزمان ، ولا يتحيز بالمكان ، فالحمد لله رب العالمين ، أهل الحمد ومستحقه مطلقاً ، له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه المصير ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ هو الموجود الحق ، وكلامه الصدق ، ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب

والدار الآخرة خير للذين يتقون ﴾ [العنكبوت : 64] فطوبى لمن استوضح آي كتاب الله ، وأتى الأمر من بابه وعرف نفسه ودنياه ، وأجاب داعي الله ولم ير فاعلاً في الوجود حقيقة إلا هو سبحانه وتعالى والحمد لله رب العالمين ، ولما كمل مقصود الكتاب ، واتضح عظيم رحمة الله به لمن تدبر واعتبر وأناب ، كان مظنة الاستعاذة واللجأ من شر الحاسد وكيد الأعداء فختم بالمعوذتين من شر ما خلق وذرأ وشر الثقلين - انتهى .

(60/838)

ولما تم البيان لهويته سبحانه وتعالى على هذا الوجه الذي أنهاه بالأحدية المعلمة بالتنزه عن القسمة والنظير ، وكان بيان القرآن بالغاً أقصى نهايات البيان ، وكان الأحد من النعوت المتوغلة في السلب ، وكانت الشركة تقع في التعبير به في النفي وهو بمعناه الحقيقي وتقع فيه بالإثبات والسلب على حد سواء ، أو دلالته على الكمال والإضافة أكمل ، وبناه على الاسم الأعظم الذي هو آخر الأسماء الظاهرة وأول الأسماء الباطنة ، ولم يقع فيه شركة بوجه دفعاً لكل تعنت ، وإشعاراً بأن لم يسم به لم يستحق الألوهية ، وأخلى الجملة عن عاطف لأنها كالنتيجة للأولى والدليل عليها ، فقال مكاشفاً لنفوس المؤمنين وللعلماء معيداً الاسم ولم يضمر لئلا يظن تقيد بحيثية غيب أو غيرها : ﴿ الله ﴾ أي الذي ثبتت

إلهيته وأحديته ، لا غيره ﴿ الصمد ﴾ الذي تناهى سؤدده المطلق في كل شيء إلى حد تنقطع دونه الآمال ، فكان بحيث لا يحتاج إلى شيء وكل شيء إليه محتاج ، وتنزه عن الجوفية فلم تدن من جنابه بفعل ولا قوة لأنه تنزه عن القسمة بكل اعتبار مع العظمة التي لا يشببها عظمة ، فكان واحداً بكل اعتبار ، وذلك هو مفهوم الأحدية عبارة وإشارة ، فكان مصموداً إليه في الحوائج أي مقصوداً لأجلها ، فهو الموصوف بهذا الاسم على الإطلاق ، وبكل اعتبار ، فكان موجداً للعالم لأن العالم مركب بدليل المشاهدة فكان ممكناً فكان محدثه واجباً قديماً ، نفياً للدور والتسلسل المحالين ، وخلقه له بالقدرة والاختيار لأنه لو كان بالطبع والإيجاب لكان وجوده مع وجوده لأن العلة لا تنفك عن المعلول ، فيلزم من قدم البارىء عز وجل قدم العالم ، ومن حدوث العالم حدوث البارىء جل وعز ، وذلك جمع بين النقيضين وهو محال ، وقصر الصمدية عليه لأن اشتداد الألف لحاجة الشيء إلى غيره ربما كان موجباً لخفاء اختصاصه به ، ولم يقصر الأحدية إما للتنبيه على أن ذلك لشدة ظهوره غني عن التأكيد ، وإما استئلافاً لهم لئلا ينفروا

قبل سماع تمام السورة على أنه بظهور قصر الصمدية التي أحد معنييها لازم الأحدية ظهر

الاختصاص بالأحدية ، قال العلماء رحمهم الله تعالى : والصمد من صمد إليه - إذا قصده ، وهو كالأحد ، بني على هذا الوزن لأنه لا تلحقه المضارعة ولا تدن منه المشابهة لأنه اسم خاص فهو السيد المصمود إليه ، وهو أيضاً الذي لا جوف له ولا رخاوة بوجه فيه ، لأن الأجواف وعاء ، وكل وعاء محتاج إلى موعيه ، يقال : شيء مصمد ، أي صلب ، وحجر صمد : أملس لا يقبل الغبار ولا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء ، قال ابن قتيبة : وهو على هذا الدال فيه مبدله من التاء وهو المصمت ، وهو أيضاً العالي الذي تناهى علوه ، تقول العرب لما أشرف من الأرض : صمد - بإسكان الميم ، وبناء صمد أي معلى ، فهو على التفسير الأول من الصفات الإضافية بمعنى أنه سيد لكل موجود ، والكل محتاجون إليه في ابتداء إيجادهم وفي تربيتهم ، فهم يصمدون إليه في الحوائج ويقصدون إليه في جميع الرغائب ، وهو غني على الإطلاق ، وذلك هو اتصافه بصفات الإلهية ، قال الإقليشي فعلى هذا أي أنه الذي يلجأ إليه ويعتمد عليه لتناهي سؤدده - يتشعب من صفة الصمد صفات السؤدد كلها من الجود ، والحلم وغير ذلك وإذا قلنا : إن الصمد العالي تشعبت منه صفات التعالي كلها من العزة والقهر والعلو ونحوها - انتهى ، وقد روى البيهقي رحمة الله تعالى بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ في قوله " الصمد " قال : هو السيد الذي كمل في سؤدده ، والشريف الذي كمل في شرفه ، والعظيم الذي كمل في عظمته ، والحليم

الذي قد كمل في حلمه ، والغني الذي كمل في غناه ، والجبار الذي كمل في جبروته ، والعالم الذي قد كمل في علمه ، والحكم الذي قد كمل في حكمه ، وهو الذي كمل في أنواع الشرف والسؤدد وهو الله عز وجل ، هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفوء ، وليس كمثله شيء ، فسبحان الله الواحد القهار وقال أبو العباس بن تيمية الحنبلي في كتابه "

(62/838)

الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان " : أجمع سلف الأمة وأئمتها أن الرب سبحانه وتعالى بائن من مخلوقاته ، يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل بوصف من صفات الكمال دون صفات النقص ، ونعلم أنه ليس كمثله شيء ولا كفوء له في شيء من صفات الكمال كما قال الله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ – إلى آخرها ، قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : الصمد إلى آخر ما مضى عنه ، وقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ وغيره : هو الذي لا جوف له ، والأحد الذي لا نظير له .

(63/838)

فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائص عنه ، واسمه الأحد يتضمن أنه لا مثل له ، وقال الحرالي : الصمد - يعني بالسكون : - التوجه بالحاجات إلى مليّ بقضائها لا يحتاج إلى سواه ، فلذلك يكون الصمد سيداً لا يساد ، السيد الله - انتهى ، وعلى التفسير الثاني : هو من النعوت السلبية ، فهو دال على نفي الماهية التي تعنت بها فرعون لاقتضائها المقومات المستلزمة للحاجة إلى ما به التقويم ، وعلى إثبات الهوية المنزهة عن كل شائبة نقص ، فإن كل ما له ماهية كان له جوف وباطن ، وهو تلك الماهية ، وهو ما لا باطن له ، وهو موجود فلا جهة ولا اعتبار في ذاته إلا الوجود ، فهو واجب الوجود غير قابل للعدم ، وقد علم بهذا أنه جامع لما ذكر فيما قبله ، فإن هذا التفسير الثاني يتشعب منه من الأسماء ما ينظر إلى نفي التركيب كالأحد ونحوه وهذان التفسيران الأول والثاني جامعان لجميع ما فسر به ولما عسى أن يقال فيه سبحانه من صفات الكمال ، ونعوت العظمة والجلال ، فمن كان مصموداً إليه في جميع الحاجات ومتعالياً عن كل سمت حدث وشائبة نقص كان موجداً لكل ما يريد من نفع وضر ونافع وضار قادراً على حفظ ما يريد ، وكان معلوماً كالشمس أنه لا شريك له ، وأنه هو وحده المستحق للعبادة لاحتياج الكل إليه الاحتياج المطلق وغناه عنهم الغنى المطلق ، وتفرده بصفات الكمال والانقطاع عن قرين وإلى الصمدانية ينتهي التوجه وهو الإقبال بالكلية ، وهي ترد على الفلاسفة القائلين بتدبير

القول ، والصابية القائلين بتدبير النجوم ، وعلى غيرهم من كل من ادعى تدبيراً لغير الله سبحانه وتعالى ، ومن اعتقد صمديته المقتضية لكمال الذات والصفات وشمول التدبير ، أنتج له كمال التفويض والتوكل وهو توحيد الربوبية ، وهذه الأسماء الأربعة مشيرة إلى مقامات السائرين ومرامات الحائرين والجائرين ، فالمقربون نظروا إلى الأشياء فوجدوا كل ما سواه سبحانه وتعالى معدوماً بالذات ، فكان ذكرهم

" هو " وأصحاب اليمين نظروا إلى وجود الممكنات فعينوا مرادهم وميزوا مذكورهم بالجلالة ، وأصحاب الشمال جوزوا الكثرة في الإله فاحتاجوا في تذكيرهم إلى الوصف بالأحدية والصمدية وهي رادة على أهل الاتحاد أعظم رد ، فإنهم يقولون : إن الإله هو هذا العالم ، وهو منقسم بالحس فضلاً عما عداه ومحتاج أشد احتياج .

ولما انتهى بيان حقيقته سبحانه وتعالى ، وأنه غير مركب أصلاً ، وبين سبحانه بصمديته المستلزمة لوحدانيته أن الكل مستند إليه ومحتاج إليه ، وأنه المعطي لوجود جميع الموجوات ، والمفيض للجود على كل الماهيات فلا يجانس شيئاً ولا يجانسه شيء ، ولا يكون له نظير في شيء من ذلك .

وكان ربما تعلق بوهم واهم أن تولد غيره عنه يكون من تمام سؤدده المعبر به عن قدرته ، بين أن ذلك محال لاقتضائه الحاجة مما لا تعلق له بالقدرة لأن القدرة من شأنها أنها لا تتعلق بالمحال ، وهذا محال ، لأنه سبحانه صمد ، فكان ذاك بياناً للصمدية في كلا معنييها ، فقال من غير عاطف دالاًّ على انتفاء الجوف الذي هو أحد مدلولي " صمد " مكاشفاً للعقلاء شارحاً لأنه لا يساويه شيء من نوع يتولد عنه ولا جنس يولد هو عنه ، ولا غير ذلك يوازيه في وجود ولا غيره ﴿ لم يلد ﴾ أي يصح ولم ينبغ بوجه من الوجوه أن يقع تولد الغير عنه مرة من المرات ، فكيف بما فوقها لأن ذلك مستلزم للجوف وهو صمد لا جوف له ، لأن الجوف من صفات النفس المستلزم للحاجة وهو مستغن بدوامه في أبديته عمن يخلفه أو يعينه لامتناع الحاجة والفناء عليه ، فهو رد على من قال : الملائكة بنات الله أو عزير أو المسيح أو غيره .

(65/838)

ولما بين أنه لا فصل له ، ظهر أنه لا جنس له ، فدل عليه بقوله : ﴿ ولم يولد ﴾ لأنه لو تولد عنه غيره تولد هو عن غيره كما هو المعهود والمعقول ، فهو قديم لا أول له بل هو الأول الذي لم يسبقه عدم ، أن الولادة لا تكون ولا تتشخص إلا بواسطة المادة وعلاقتها ، وكل ما كان

مادياً أو كان له علاقة بالمادة ، كان متولداً عن غيره فكان لا يصح أن يتولد عنه شيء لأنه لا يصح أن يكون هو متولداً عن غيره لأنه لا ماهية له ولا اعتبار لوجوده سوى أنه هو ، فهويته لذاته ، ومن كانت هويته لذاته لم يصح بوجه أن يتولد عن غيره لأنه لو تولد عن غيره لم يكن هو هو لذاته ، ولا يكون أحداً حقيقياً ولا صمداً ، فينتفي من أصله ، ولا يكون له من ذاته إلا العدم ، فقد تبين أنه واجب الوجود ، فوضح كالشمس أنه ليس مادياً لأنه غير محتاج بوجه ، فلا يصح أن يتولد عنه غيره ، لأنه لم يصح أن يتولد هو عن غيره ، ومن كان كذلك لم يكن له مثل ، فلا يصح بوجه أن يساويه شيء ليصح أن يقوم مقامه فيما بين ما انتفى في الأول والآخر ، فدل على ذلك إتماماً لشرح حقيقته المعبر عنها بهو بقوله : ﴿ ولم يكن ﴾ أي لم يتحقق ولم يوجد بوجه من الوجوه ولا بتقدير من التقادير ﴿ له ﴾ أي خاصة ﴿ كفواً ﴾ أي مثلاً ومساوياً ﴿ أحد ﴾ على الإطلاق ، أي لا يساويه في قوة الوجود لأنه لو ساواه في ذلك لكانت مساواته باعتبار الجنس والفصل ، فيكون وجوده متولداً عن الازدواج الحاصل من الجنس الذي يكون كالأم ، والفصل الذي يكون كالأب ، وقد ثبت أنه لا يصح بوجه أن يكون في شيء من الولادة ، لأن وجوب وجوده لذاته ، فانتفى أن يساويه شيء في قوة وجوده ، فانتفى قطعاً أن يساويه أحد في شيء من قوة أفعاله ، فعطف هاتين الجملتين على الجملة التي قبلها لأن الثلاث شرح الصمدية النافية لأقسام الأمثال ، فهي كالجملة الواحدة ، وقدم

الظرف في الثالثة لأن المقصود الأعظم نفي المكافأة عن الذات الأعظم ، فكان أهم " وكفواً " حال من

(66/838)

أحد .

ويجوز أن يكون "كان" ناقصة ويكون "كفواً" خبرها ، وسوغ خبريته تخصيصه ب "له" كما قالوا في "إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله" وقد وضح أن هذه السورة أعظم مبين للذات الأقدس بترتيب لا يتصور في العقل أن يكون شيء يساويه ، وكلمات لا تقع في الوهم أن يكون شيء يساويها أو يساوي شيئاً منها ، فأثبت أولاً حقيقته المحضة وهويته بأنه هو ، لا اسم لتلك الحقيقة من حيث هي إلا ذلك ، فعلم أنه واجب الوجود لذاته لا لشيء آخر أصلاً ، ثم عقب ذلك بياناً له بذكر الإلهية التي هي أقرب اللوازم لتلك الحقيقة وأشدها تعريفاً .

ولما اقتضت الإلهية الوحدة لأنها عبارة عن الاستغناء المطلق واحتياج الغير إليه الاحتياج المطلق ، دل عليها بالأحد ، ودل على تحقيق معنى الإلهية والواحدة معاً بالصمدية لما لها من المعنيين : وجوب الوجود بعدم الجوف وجوداً أو تقديراً والسيادة المفيضة لكل وجود

على كل موجود وجوداً لا يشبه وجوده سبحانه :

" وأين الثريا من يد المتناول " . . .

" الأمر أعظم من مقالة قائل "

(67/838)

وبين المعنيين كليهما بعدم صحة التوليد منه وله وعدم المساوي ، فمن أول السورة إلى آخر الأسماء في بيان حقيقته سبحانه وتعالى ولوازمها الأقرب فالأقرب ووحدتها بكل اعتبار ، ومن ثم إلى آخرها في بيان أن لا مساوي له لأنه لا جنس له ولا نوع حتى يكون هو متولداً عن شيء أو يكون متولداً عنه شيء ، أو يكون شيء موازياً له في الوجود ، وبهذا القدر حصل تمام معرفة ذاته ، وأنه لا يساويه شيء في قوة وجوده فلا يساويه في تمام أفعاله بدلالة شاهد الوجود الذي كشف عنه والشهود بنصر نبيه -صلى الله عليه وسلم- الذي كان يدعو أبا لهب وجميع الكافرين الشانئين وحده وهم ملء الأرض ويخبرهم مع تحاملهم كلهم عليه أنهم مغلوبون ، وأنه أتاهم بالذبح لأن لمن أرسله الإحاطة الكاملة بجميع الكمال ، وقد كان الأمر كما قال -صلى الله عليه وسلم- ، فقد صدقت مقالاته ، فثبتت إلى الخلق كافة رسالاته ، وثبت مضمون جميع السورة بما ثبت من هذه الأدلة المشهورة ، والبراهين القاطعة المنصورة

، وقد ثبت أنه صمد بما دل على أحد معنييه الذي هو انتفاء الجوفية بعدم التولد ، وعلى المعنى الآخر الذي هو بلوغ المنتهى من السيادة بعدم المكافىء فبان أنه هو لذاته فلا إله غيره ، فانطبق آخرها على أولها ، والتحم أيّ التحام مفصلها بموصلها ، فعلم أنه هو هو لا غيره بزيادة أنه الأحد ولا أحد حقاً غيره ، ومن تحقق آخرها أقبل بكليته إليه سبحانه ، فلم يلتفت إلى غيره لأن الكل في قبضته ، وقد نقلت في كتابي مصاعد النظر عن الإحياء للإمام الغزالي رحمة الله تعالى عليه في شيء من أسرار هذه السورة كلاماً هو في غاية النفاسة .

وروى الترمذي عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه أن المشركين قالوا : يا محمد انسب لنا ربك ، فأنزل الله تعالى : قل هو الله أحد إلى آخرها ، قال : لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث ، ولم يكن له كفواً أحد - انتهى .

(68/838)

ومن كان كذلك فهو الجامع للأسماء الحسنى والصفات العلى كلها ، وعلم أن حاصلها تنزيه المعبود عن أن يكون له مجانس ، أو يكون له مكافىء ، والرد على كل من يخالف في شيء من ذلك ، وأعظم مقاصد آل عمران المناظرة لها في رد المقطع على المطلع ، المفتتحة بالحي

القيوم ، المودعة أوضح الأدلة على كفر من كفر بالله سبحانه وتعالى لا سيما من ادعى أن عيسى عليه الصلاة والسلام إله أو أنه ولد له سبحانه وتعالى وكذا غيره الدلالةُ على بطلان مذهب من ادعاه إلها وعلى أن عيسى عليه الصلاة والسلام عبد من عبيده أوجده على ما أراد كما أوجد من هو أغرب حالاً منه وإبطال قول من ادعى فيه غير ذلك .

(69/838)

ولما عرفت هذه السورة حقيقة الذات أتم تعريف ، وكان الغرض الأقصى من طلب العلوم بأسرها معرفة ذاته سبحانه وتعالى وصفاته وكيفية صدور الأفعال عنه وكان القرآن العظيم كفيلاً بجميع هذه العلوم ، وكانت هذه السورة منه قد تكفلت بجميع ما يتعلق بالبحث عن الذات على سبيل التعريض والإيماء ، وكانت معادلة لثلث القرآن وهي ثلث أيضاً باعتبار آخر وهو أن الدين اعتقاد ، وفعل لساني يترجم عن الاعتقاد ، وفعل يصحح ذلك ، وهي وافية بأمر الاعتقاد بالوحدانية الذي هو رأس الاعتقاد ، وباعتبار أن مقاصده كلها محصورة في بيان العقائد والأحكام والقصص ، وهذه السورة على وجازتها قد اشتملت على جميع المعارف الإلهية والرد على من ألحد فيها ، ولأجل أن هذا هو المقصود بالذات الذي يتبعه جميع المقاصد عدلت في بعض الأقوال بجميع القرآن ، وحاصل

شرح هذه السورة العظمى أنه سبحانه وتعالى دل على الذات الأقدس بالهوية، وعبر عنها بالضمير إشارة إلى نفي الماهية التي غلظ أو غالط فيها الكفور الأعظم فرعون - لعنة الله عليه وعلى أتباعه أهل الإلحاد، وأنصاره وأشياعه من أهل الاتحاد، ودل على ذلك بالاسم الأعظم المجمع عليه ودل عليه بالوحدة الجامعة للغنى، النافية للكثرة الموجبة لحاجة، ودل عليها بالصمدية النافية للجوفية المثبتة للسيادة الخفية، ودل على أول معنييها بانتفاء الولادة منه وله، الدالان على نفي الجنس للقوم والفصل المقسم، ودل على الثاني بعدم المكافىء، ودل على هذا العدم بأفعاله العظيمة المشاهدة التي أشار قطعاً ترتيب السور بما انتهى إليه وضع هذه السورة في هذا الموضع إلى استحضارها.

(70/838)

وتأمل ما كان منها من تربية هذا الدين بنصر نبيه الذي أرسله. صلى الله عليه وسلم. لإقامته، وسلط الكافرين - وهم ملء الأرض - على أذاه، وجعل أعظمهم له أذى أقربهم إليه نسباً عمه أبا لهب الذي كان يتبعه في تلك المشاهد والقبائل، ويلزمه في تلك المواسم والمعاهد والمحافل، يصرح بتكذيبه كلما دعى الناس إلى الحق، ويواجه بما هو أشد الأشياء على النفس كراهة وأشق، فكانت تلك الشهرة عين الرفعة والنصرة، لأن الشيء

، إذا خرج عن حده انقلب إلى ضده ، فإنه إذا تناهت شهرته ثم بان بطلانه أو صحته رجعت شهرته بكونه باطلاً أو صحيحاً أعظم منها لو لم يتقدمها شهرة بغير ذلك ، فانقلبت النصرة ، وعظمت الكثرة ، فجلت المعاونة ، وزالت المباينة ، وحصل الوفاق ، وزال الشقاق ، فدل هذا الفعل الأعظم من صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو وحده ، وكذب المعاندين وهم من لا يحصيهم إلا الله في كل ما قال ، وجميع ما قالوا على عزته سبحانه وتعالى بكونه نصر عبده على ذلك الوجه الخارق للعادة وعلى حكمته بما سلطهم به عليه حتى أسرعت الشهرة وعمت النصرة ، فعلم بتلك المشاهدة أنه العزيز الحكيم كما دلت عليه سورة التوحيد المناظرة لهذه في رد المقطع على المطلع ، وهي آل عمران المناظرة لهذه في الدلالة على التوحيد والمحاجة لمن ادعى أن له صاحبة وولد ، فعلم قطعاً أنه لا كفوء له ، فعلم أنه لا يصح أصلاً أن يلد ولا أن يولد ، فبطلت قطعاً دعوى إلهية عيسى عليه الصلاة والسلام وغيره ممن ادعى فيه الولدية بالأحدية لما تقتضيه الولادة من المادة المقتضية للكثرة ، الموجبة للحاجة ، وعظم البيان بما دل عليه الاسم الأعظم من الإجماع بما تقتضي الإلهية ، ولا إجماع على غيره ، وجل الأمر وانقطع النزاع بما دل عليه الضمير من وجوب الوجود النافي لما سواه من كل موجود - والله الهادي ، فلقد أبانت السورة على أعظم الوجوه أن مرسله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجل موجود وأشرف

حقيقة وأنفس معلوم ، وأعظم ذات ، وذلك يستلزم نفي كل ما لا ينبغي ، وحصول كل ما ينبغي استلزاماً لا يقبل الانفكاك ، كالفردية في الوتر ، والزوجية في الشفع ، وتفصيل ذلك بعشرة أشياء تبسط على كلمات السورة على الترتيب : الأول أنه تعالى له الوجود الذي ما مثله فليس هو كالممكنات المسبوقة بالعدم والمنقطعة بالانعدام ، والمنصرمة في الدوام ، بل هو أزلي لا أول له أبدي لا آخر له ، قيوم لا انصرام له ، الثاني أن له السبوحية الآبية على نفع كل نقص وعيب ، الثالث أن له القدوسية المشتملة على الاتصاف بكل كمال ، من جلال وجمال وتعال ، الرابع أن له العظمة والجلالة عن أن يكون عرضاً أو كالأعراض ، أو جوهراً أو كالجواهر ، أو جسماً أو كالأجسام ، الخامس أن له العلو عن أن يحل في شيء أو يحل فيه شيء أو يتحد بشيء أو يتحد به شيء ، السادس أنه تعالى له الغنى عن الموجد كالرب والموجب كالأب والمفيد أي لشيء من الكمالات ، السابع أنه تعالى له الوحدانية التي ليس فيها شبيه أي في صفاته ، ولا مثيل أي في نوع ولا نسب أي كالقرابة ، الثامن أنه تعالى له الفردانية التي لا يصح فيها شرك ، لا في الملك – بكسر الميم ، ولا في الملك – بضمها ، ولا في التدبير ، ولا في التأثير ، التاسع أنه تعالى له الكبرياء المنافية لفوت كمال أو كمال كمال ، العاشر أنه تعالى له العزة المنافية لأن يكون له ضد – وهو المفسد لما يفعله ، أو ند – وهو الموجد لمثل ما يوجده ، وتنزل هذه العشرة على السورة واضح لمن تأمل الكلام وتدبره ،

وابتدأ سبحانه السورة بالضمير قبل الظاهر بعد التصريح بالنصر والفتح وخسارة أهل الكفر بخسارة أبي لهب الذي هو أعلاهم وأعزهم إشارة إلى أن من صحح باطنه باسم الله تعالى نصر وفتح له - كما يشير إليه تعقيب الأمر في آخر سورة البقرة بالرغبة إليه في النصر على الكافرين بقوله

(72/838)

﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ [البقرة : 255] فإنه ترجمة أول هذه السورة التالية للنصر والكافرون سواء بالضمير والاسم الأعظم والتوحيد الأعظم المقرون بدليل وهو القيومية ، فقد بين آخر السورة الذي هو نتيجتها ورد مقطعها على مطلعها أنه أحد حاضر في كل زمن لا يغيب أصلاً ، ولا أحد يكافئه أو يشابهه ، لأنه لم يتولد عنه شيء ولا تولد هو عن شيء ، لأنه صمد لا جوف له مطلقاً لا في ذاته بالفعل ، ولا بحيث يجوّزه الوهم لأنه أحد محيط بكل شيء لأنه هو الله المحيط بجميع صفات الكمال والجمال ، وهو غيب محض لأنه لا يقوى غيره على معرفته إلا باللوازم من الصفات المعقولة تقريباً ، والأفعال المشاهدة آثارها ، وهو هو الذي هو - مع كونه غيب الغيب - مستحضر في كل لب ، لا يظهر بغيب عن أحد بما له من الآثار ، التي ملأت الأقطار ، ولذلك استحق التسمية ب " هو " ولم يستحقها

غيره لحضوره لكل قلب وغيبة غيره بكل اعتبار ، لأنه ليس للغير من ذاته إلا الغيبة بالعدم ، وأما هو فهو الواجب وجوده ، وهو الذي أوجد غيره ، وركز في كل قطرة ذكره ، لما له سبحانه من الكمال ، ولغيره من شدة الحاجة إليه والاحتلال ، فكان سبوحاً قدوساً جامعاً بين الوصفين لأنه ممدوح بالفضائل والمحاسن ، التقديس مضمر في صريح التسبيح ، والتسبيح مضمر في صريح التقديس ، وقد جمع الله سبحانه وتعالى بينهما في هذه السورة بالأسماء التي جلاها أولها ، فهو صريح التقديس ، ومن ثم إلى آخرها صريح التسبيح ، والأمران راجعان إلى إفراده وتوحيده ونفي التشريك والتشبيه عنه ، وذلك هو الجمع بين الإثبات والنفي على تهييج ما وقع في كلمة الإخلاص ليعلم أن الإثبات لا يكمل إلا بصيانته عن كل ما يتضمن مخالفته ، لكن كلمة الإخلاص تركبت من نفي ثم إثبات ، وسورة الإخلاص من إثبات ثم نفي ، فأولها إثبات وآخرها نفي ، وآخر الإثبات الصمد ، فهو جامع بين الأمرين فإنه جمع كل صفة لا يتم الخلق إلا بها "لأن

(73/838)

أحد مدلوليه" في اللغة : السيد الذي يرجع إليه ، فاقتضى ذلك إثبات صفات الكمال التي بها يتم اتساق الأفعال ونفي كل صفة ينزه عنها ، لأن ثاني مدلوليه في اللغة : الذي لا جوف

له ، وذلك يتضمن نفي النهاية ونفي الحد والجهة والجسم والجوهر ، لأن من اتصف بشيء من ذلك لم يستحل اتصافه بالتركيب ووجود الجوف ، فقررت هذه الكلمة وجوب المعرفة بالنفي والإثبات ليميز بين الحق والباطل ، لأن من لم يتحقق صفاء الباطل لم يتقرر له المعرفة بالحق ، ولذلك كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم أجمعين يسألون النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الحق لصحة الاعتقاد والمعرفة ، وعن الباطل والشر للتمكن من مجانبته حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه

" وكان الناس يسألون النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر "

وذلك لأن من لم يعرف الشر يوشك أن يقع فيه ، وأن ما خالفت كلمة الشهادة في الترتيب لأن تلك أتت للإدخال في الدين ، والأليق بمن كان خارجاً أو ضعيفاً - وهم الأكثر - نفي الباطل أولاً ومحوه من لوح القلب ليأتي إثبات الحق فيه وهو فارغ فيقر فيه ، فلما نفت أولاً كل غير كان سبباً للمجانبة والبعد عن حضرات القدس ، ثم أثبتت الذات الأقدس والمسمى الأشرف الأنفس ، أكدت سورة الإخلاص لأنها للكمل الذين تخلقوا بما قبلها من السور ، هذا الإثبات عند استحضاره ، وشهود الجميل من آثاره ، ثم ختمت بنفي الأغيار ، ليكون بذلك تجلى ختام الأعمار ، عند الرجوع إلى الآثار ، بالعرض على الواحد القهار ، وقد بين بهذه السورة أنه طريق بين الخلق والأمر ، فلما فتح الخلق بمتشابه خلق آدم عليه

الصلاة والسلام لأن المتشابه ما خرج عن أشكاله ، وختمت أقسامه الأربعة بمتشابه خلق عيسى عليه الصلاة والسلام – كما تقدم عند

(74/838)

﴿ إن الله اصطفى ﴾ [آل عمران : 33] في آل عمران المناظرة لهذه السورة ، لذلك فتح الأمر بعد أم الكتاب بمتشابه الحروف المقطعة ، وختم دون المعوذتين اللتين هما في الحال المرتحل كالمقدمة ، والافتتاح بالتعوذ لأم الكتاب بمتشابه هو سورة الإخلاص ، وكان متشابه أوله متشابهاً من جميع وجوهه ، لا يمكن أحداً أن يقول فيه قولاً مقطوعاً به أو مظنوناً ظناً راجحاً ، ومتشابه آخره لا يقنع فيه بدون القطع في أوله فيما كلفنا أمره في هذه الدار وهو أصول الدين ، ووراء ذلك ما لا يدركه أحد من الأبرار ولا المقربين ، وهو الذات الأقدس ، فمن رجع متشابه الخلق فوق منزلته كفر ، ومن وضع متشابه الأمر عن رتبته العلية كفر ، وجعل آخره أجلى من أوله من بعض الوجوه إشارة إلى ترقية الموفق في أمره ، وأنه في الآخر يكون أجلى انكشافاً وأوضح معرفة ، وتلاه بالتعوذ إشارة إلى سؤال الاعتصام في شأنه ، والحفظ التام في مضمار عرفانه ، وكرر بالتثنية لأجل الإحاطة بأمري الظاهر والباطن ، والتأكيد تنبيهاً على صعوبة المرام ، وخطر المقام .

ولما افتتح القرآن بسورة مشتملة على جميع معانيه ، ختم بسورتين يدخل معناهما ، وهو التعوذ ، ويندب ذكره في جميع أجزائه ومبانيه ، وفي ذلك لطيفة أخرى عظيمة جداً ، وهي أنه لما علم بالإخلاص تمام العلم وظهور الدين على هذا الوجه الأعظم ، فحصل بذلك غاية السرور ، وكان التمام في هذه الدار مؤذناً بالنقصان ، جاءت المعوذتان لدفع شر ذلك ، وقد انقضى الكلام على ما يسره الله تعالى من كنوز معاني سورة الإخلاص بحسب التركيب والنظم والترتيب ، وبقي الكلام على ما فتح الله به من أسرارها في الدلالة على مقصود السورة بالنظر إلى كلماتها مفردة ظواهر وضمائر ثم حروفها ، ففيها من الأسماء الحسنى والصفات العلى ، التي أسس عليها بنيانها ، وانبنت عليها أركانها ، خمسة هي العشر من كلمات آية الكرسي كما أن الصلوات المكتوبات خمس وهي خمسون في أم الكتاب " الحسنة بعشر أمثالها " فمن لطائف إشاراتها أنها كدعائم الدين الخمس ، فالضمير مشير إلى تصحيح ضمير القلب بالإيمان ، وصحة القصد والإذعان ، حتى يقوم بناء العبادة ، والاسم الأعظم إشارة إلى أن ذلك التصحيح لأجل التأله بالخضوع للإله الحق باستحضار اسمه الأعظم كما أن الصلاة أعظم عبادات البدن ، هذا للتهيئة في الدخول في

العبادة ، ثم إن الدخول فيها شرطه أحدية التوجه تحقيقاً للصدق في صحة العزم عليها كما أن الزكاة تكون مصدقة للإيمان ، وذلك التوحيد في التوحيد يكون لأجل الصدق في التأله بما يشير إليه إعادة الاسم الأعظم كما هو شأن الحاج الأشعث الأغبر المتجرد ، ويكون ذلك التأله باستحضار افتقار العابد إلى المعبود وتداعيه إلى الهلاك بكل اعتبار لأنه أجوف ، وغنى المعبود على الإطلاق بما يشير إليه الاسم الإضافي الصمد كما هو شأن الصائم في عبادته ، واستحضاره لحقارته وشدة حاجته ، ولجلالة مولاه ، وتعاليه في غناه ، فمن صحت له هذه الدعائم الخمس كانت عبادته في الذروة العليا من القبول ، وإلا كان لها اسم

(76/838)

الحصول من غير كثير محصول - والله الموفق ، وكونها خمس عشرة كلمة إشارة إلى أنهم في السنة الخامسة عشرة من النبوة يعلمون - بغلبة قهره وسطوة سلطانه وتأييده للمستضعفين من حزبه ، وتقويته لهم في وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة - أن مرسله لا كفوء له بعلم شهودي لا يقدر أحد على تكذيبه ودفعه ، فيقوم به دليل الإخلاص ، ولات حين مناص ، وإذا ضممت إليها الضمير الواجب الاستتار في ﴿ قل ﴾ كانت ست عشرة إشارة إلى أنه في السنة السادسة عشرة من النبوة وهي الثالثة من الهجرة في غزوة أحد يكون الظاهر فيها

اسمه تعالى الباطن ، فإنه كان فيها من المصيبة ما هو مذكور في السير تفصيله من قتل سبعين من الصحابه رضي الله تعالى عنهم منهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأسد رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وذلك بعد أن ظهر فيها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أول النهار ، ظهوراً بيناً حتى كانت هزيمة الكفار ، لا شك فيها – كما قال الله تعالى

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم ﴾ [آل عمران : 152] – الآيات ، ثم أخفى الله ذلك في إزالة الكفار في أثناء النهار ، فهزم الصحابة رضي الله تعالى عنهم حتى لم يبق مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم إلا نفر يسير جداً أكثر ما ورد في عددهم أنهم يقاربون الأربعين وهو ثابت بهم – ـ صلى الله عليه وسلم ـ – في نحر العدو وهم نحو من ثلاثة آلاف فيهم مائتا فارس يحاولهم ويصاولهم يشتملون عليه مرة ويفترقون عنه أخرى ليعلم أن الناصر إنما هو الله سبحانه وتعالى وحده ، وقد قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : ما نصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في موطن من المواطن ما نصر في غزوة أحد ، وقال أبو سفيان ابن حرب يوم إسلامه في عام الفتح للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما قاتلتك من مرة إلا ظهرت عليّ ، أظن لو كان مع الله غيره لقد أغنى شيئاً .

ولكن الذي ظهر منها ما كان في آخر النهار من ظهور الكفار ، فأخفى الله تعالى نصره لنبيه. صلى الله عليه وسلم. فيها باسمه الباطن إلا على أرباب البصائر ، فما علم ذلك إلا بوجه خفي جداً مناسبة للضمير الباطن الواجب الاستتار ، وإذا ضممت إلى ذلك الضميرين المستترين الجائزي الظهور ، فكانت الكلمات بذلك ثماني عشرة ، كان إشارة إلى أن في السنة الثامنة عشرة من النبوة – وهي الخامسة من الهجرة دلالة عظيمة على أنه لا كفوء له يوجب الإخلاص على وجه هو أجلى مما كان في غزوة أحد وإن كان فيه نوع خفاء ، وذلك في غزوة الأحزاب وبني قريظة حين رد الله الكفار بغيظهم لم ينالوا خيراً بعد أن كانوا في عشرة آلاف مقاتل غير بني قريظة ، يقولون : إنه لا غالب لهم ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً قاهراً لهم بريح وجنود لم يروها ، وأمكن من بني قريظة ، وكان الله قوياً عزيزاً ، وذلك في شوال وذي القعدة سنة خمس من الهجرة ، فإذا ضممت إليها الضمير الآخر البارز بالفعل في " له " فكانت تسع عشرة ، كانت إشارة إلى مثل ذلك على وجه أجلى في عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست من الهجرة ، فإنه كان فيها الفتح السببي الذي أنزل الله سبحانه وتعالى فيه سورة الفتح ، وكان فيها من دلائل الوحدانية أمور كثيرة توجب الإخلاص ، وإن كان في ذلك نوع خفاء مناسبة للضمير وإن كان بارزاً بالفعل ، فقد خفي على كثير من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين حتى نبههم النبي. صلى الله

عليه وسلم ـ ، فإذا ضممت إليها كلمات البسملة الأربع كانت ثلاثاً وعشرين توازي السنة العاشرة من الهجرة ، وهي الثالثة والعشرون من النبوة ، وفيها كان استقرار الفتح الأكبر والإخلاص الأعظم بنفي الشرك وأهله من جزيرة العرب لحجة الوداع التي قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها : " إن الشيطان – قد أيس أن يعبد في أرض العرب " ولذلك توفى الله تعالى نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(78/838)

عقبها بعد إظهار الدين وإذلال الكافرين وإتمام النعمة ، وقام سبحانه بنصر الأمة وحده بعد أن مهد أسباب النصر بنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى علم قطعاً في الردة وأحوالها ، وموج الفتنة وأهوالها ، وغلبة رعبها على القلوب وزلزالها ، في ذلك الاضطراب الشديد ، أنه الإله وحده الذي لا كفوء له لحفظ الدين في حياة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبعده ، وكذا فيما بعد ذلك من فتوح البلاد ، وإذلال الملوك العتاة الشداد ، مع ما لهم من الكثرة والقوة بالأموال والأجناد ، والتمكن العظيم في البلاد ، وجعل النصر عليهم بأهل الضعف والقلة آية في آية ، ودلالة بالغة في ظهورها الغاية ، وإذا سلكت طريقاً آخر في الترتيب في الكلمات الخطية والاصطلاحية دلّك على مثل ذلك بطريق آخر ، وذلك أن تضم إلى

الكمات الخمس عشرة كلمات البسملة الأربع لتكون تسع عشرة فنوازي سنة ست من الهجرة ، وذلك سنة عمرة الحديبية التي سماها الله تعالى فتحاً ، وأنزل فيها سورة الفتح لكونها كانت سبب الفتح الذي هو عمود الإخلاص ، فإذا ضممت إليها الضمير المستتر كانت عشرين ، فوازت سنه سبع التي كانت فيها عمرة القضاء ، فأظهر الله فيها الإخلاص على عبده ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أظهر المشركين في البلد الذي كان بعثه منه وفيه على وجه ظهر فيه أنه لا كفوء له ، ولكن كان ذلك بوجه خفي ، فإذا ضممت إليها الضميرين المستترين الجائزي البروز كانت اثنتين وعشرين موازية لسنة تسع سنة الوفود ودخول الناس في دين الله أفواجاً ، فالإلهية من حيث هي تقتضي الوحدة ، والوحدة لا تقتضي الإلهية ، وعبر به دون الواحد لأن المراد الإبلاغ في الوصف بالوحدة إلى حد لا يكون شيء أشد منه ، والواحد – قال ابن سينا – مقول على ما تحته من التشكيك ، والذي لا ينقسم بوجه أصلاً أولى بالوحدانية مما ينقسم من بعض الوجوه ، والذي ينقسم انقساماً عقلياً أولى مما ينقسم بالحس ، والذي ينقسم بالحس وهو بالقوة

أولى من المنقسم بالحس بالفعل ، وإذا ثبت أن الوحدة قابلة للأشد والأضعف وأن الواحد مقول على ما تحته بالتشكيك كان الأكمل في الفعل الذي لا يمكن أن يكون شيء آخر أقوى منه فيها وإلا لم يكن بالغاً أقصى المرام ، والأحد جامع لذلك دال عل الواحدية من جميع الوجوه ، وأنه لا كثرة هناك أصلاً ، لا معنوية من المقولات من الأجناس والفصول ولا بالأجزاء العقلية كالمادة والصورة ، ولا حسية بقوة ولا فعل كما في الأجسام ، وذلك لكونه سبحانه وتعالى منزهاً عن الجنس والفصل والمادة والصورة والأعراض والأبعاض والأعضاء والأشكال والألوان وسائر الوجوه وجوه التشبيه التي تثلم الوحدة الكاملة الحقة اللائقة بكرم وجهه وعز جلاله أن يشبهه شيء أو يساويه شيء لأن كل ما كانت هويته أن تحصل من اجتماع آخر كانت هويته موقوفة على تلك الأجزاء فلا يكون هو هو لذاته بل لغيره ، فلذا كان منزهاً عن الكثرة بكل اعتبار ومتصفاً بالوحد من كل الوجوه ، فقد بلغ هذا النظم من البيان أعظم شأن ، فسبحان من أنزل هذا الكلام ما أعظم شأنه وأقهر سلطانه ! فهو منتهى الحاجات ، ومن عنده نيل الطلبات ، ولا يبلغ أدنى ما استأثره من الجلال والعظمة والبهجة أقصى نعوت الناعتين ، وأعظم وصف الواصفين ، بل القدر الممكن منه الممتنع أزيد منه هو الذي ذكره في كتابه العزيز ، وأودعه وحيه المقدس الحكيم ، وبالكلام على معناه والمعنى الواحد تحقق ما تقدم ، قال الإمام أبو العباس الاقليشي في شرح الأسماء الحسنى ، فمن أهل اللسان من ساوى بينهما جعلهما مترادفين ، ومنهم من

قال : أصل " أحد " واحد ، أسقطت منه الألف ، ثم أبدلت الهمزة من الواو المفتوحة مثل حسن يحسن فهو حسن – من الحسن ، أبدلت الواو همزة ، وأما من فرق بينهما فمنهم من قال : " أحد " على حياله ، لا إبدال فيه ولا تغيير ، ومنهم من قال : أصله وحد – أبدلت الواو همزة – انتهى .

(80/838)

وقد استخلصت الكلام على الاسمين الشريفين من عدة شروح للأسماء الحسنى وغيرها ، منها شرح الفخر الرازي والفخر الحرالي وغيرهما – قالوا : الواحد الذي لا كثرة فيه بوجه لا بقسمة ولا بغيرها مع اتصافه بالعظمة ليخرج الجوهر الفرد وهو الذي لا يتثنى ، أي لا ضد له ولا شبيه ، فهو سبحانه وتعالى واحد بالمعنيين على الإطلاق لا بالنظر إلى حال ولا شيء ، قال الإمام أبو العباس الاقليشي في شرح الأسماء الحسنى : هذه حقيقة الوحدة عند المحققين فلا يصح أن يوصف شيء مركب بها إلا مجازاً كما تقول : رجل واحد ودرهم واحد ، وإنما يوصف بها حقيقة ما حراك له كالجوهر عند الأشعرية غير أنك إذا نظرت فوجدت وجوده من غيره علمت أن استحقاقه لهذا الوصف ليس كاستحقاق موجده له ، وهو أيضاً إنما يوصف به لحقارته ، وموجده سبحانه وتعالى موصوف به مع

اتصافه بالعظمة ، فاتصافه بالوحدة على الإطلاق ، والاتصاف بالجوهر بالنظر إلى عدم التركيب من الجسم مع صحة اتصافه بأنه جزء يزل عنه حقيقة ذلك ، والوحدة أيضاً بالنظر إلى المعنى الثاني – وهو ما لا نظر له – لا تصح بالحقيقة إلا له سبحانه وتعالى ، وكل ما نوعيته في شخصيته كالعرش والكرسي والشمس والقمر يصح أن يقدر لها نظائر ، ولها معنى ثالث وهو التوحيد بالفعل والإيجاد ، فيفعل كل ما يريد من غير توقف على شيء ، والفرق بين هذا الوجه والذي قبله أن الأول ناظر إلى نفي إله ثان ، وهذا ناف لمعين ووزير ، وكلاهما وصف ذاتي سلبي ، والحاصل أن النظر الصحيح دل على أن لنا موجداً واحداً بمعنى أنه لا يصح أن يلحقه نقص لقسمته بوجه من الوجوه ، وبمعنى أنه معدوم النظير بكل اعتبار ، ومعنى أنه مستبد بالفعل مستقل بالإيجاد ومتوحد بالصنع منفرد بالتدبير ، قضى بهذا شاهد العقل المعصوم من ظلمة الهوى وكثافة الطبع ، وورد به قواطع النقل ونواطق السمع ، ولهذا كان من أعظم الخلق دعاؤه سبحانه وتعالى لجميع الخلق ، وكانت دعوة رسوله الخاتم.

صلى الله عليه وسلم. للخلق كافة ، وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في آخر شرحه للأسماء الحسنى في شرحه في بيان رد الأسماء الكثيرة إلى ذات الواحد وسبع صفات الأحد المسلوب عنه النظير ، وقال في الشرح المذكور : الواحد هو الذي لا يتجزى ولا يتثنى ، أما الذي لا يتجزى فكالجوهر الذي لا ينقسم فيقال عنه : إنه واحد - بمعنى أنه لا جزء له ، وكذلك النقطة لا جزء لها ، والله تعالى واحد بمعنى أنه يستحيل تقدير الانقسام في ذاته ، وأما الذي لا يتثنى فهو الذي لا نظير له كالشمس مثلاً فإنها - وإن كانت قابلة للانقسام بالوهم - متحيزة في ذاتها لأنها من قبيل الأجسام فهي لا نظير لها إلا أنه يمكن لها نظير ، وليس في الوجود موجود يتفرد بخصوص وجوده تفرداً لا يتصور أن يشاركه فيه غيره أصلاً إلا الواحد المطلق أزلاً وأبداً ، والعبد إنما يكون واحداً إذا لم يكن له في أبناء جنسه نظير في خصلة من خصال الخير ، وذلك بالإضافة إلى بعض الخصال دون الجميع ، فلا وحدة على الإطلاق إلا لله سبحانه وتعالى ، وقال محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في مقدمة كتاب الملل والنحل : واختلفوا في الواحد أهو من العدم أم مبدأ العدد وليس داخلاً في العدد ، وهذا الاختلاف إنما ينشأ من اشتراط لفظ الواحد أيضاً ، فالواحد يطلق به ويراد به ما يتركب منه العدد ، فإن الاثنين لا معنى له إلا واحد تكرر أول تكرير وكذا الثلاثة والأربعة ، ويطلق ويراد به ما يحصل منه العدد الذي هو علة ، ولا يدخل في العدد الذي لا يتركب منه العدد ، وقد يلازم الواحدية جميع الأعداد لا على أن العدد يتركب بها بل وكل موجود فهو

جنسه أو نوعه أو شخصه واحد ، يقال : إنسان واحد ، وفي العدد أنه لا كفوء له ولكن كان ذلك بوجه خفي ، فإذا ضممت إليها الضميرين المستترين الجائزي البروز كانت اثنين وعشرين موازية لسنة تسع سنة الوفود ودخول الناس في الدين أفواجاً ، وحجة أبي بكر - رضى الله عنه - وتطهير

(82/838)

المسجد الحرام من نجس الإشراك بالبراءة من المشركين وزجرهم عن أن يحج بعد ذلك العام مشرك ، ونهيهم عن قربانهم المسجد الحرام لأنهم نجس ، وانتشار الإخلاص في أغلب بلاد العرب ، وذلك أجلى مما مضى مناسب لما دل عليه ، وفيه نوع خفاء عند من كان بقي من المشركين ، وإذا ضممت إليها الضمير الآخر البارز بالفعل كانت ثلاثاً وعشرين توازي سنة حجة الوداع سنة عشر ، وهي التي تم فيها الإخلاص ولم يحج بها مشرك ، وأيس الشيطان فيها أن يعبد في جزيرة العرب ، وفي ذلك - لكون الكلمة ضميراً - نوع يسير في الخفاء بما دل عليه بعد ذلك من الردة ، وكان ذلك أنسب الأشياء بالكلمة المتحملة لذلك الضمير وهي له ، هذا ما يسره الله من أسرار كلماتها بحسب الأعداد ، وأما حروفها فمن الأسرار العظيمة أنه صفة الله ، وأن حروفها مع البسملة بالنظر إليها من حيث اللفظ وكذا من

حيث الرسم ستة وستون حرفاً ، وكذا عدة حروف الجلالة الملفوظة وكذا المرسومة بحساب الجمل ، فكل ما دعت إليه هو مدلول هذا الاسم الأعظم ، وهذه العدة إذا أخذت من أول مولد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان آخرها منطبقاً على سنة موت صديقه الأكبر الذي سبق غيره بما وقر في صدره وهو أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، وذلك دلالة على أنه لا يوازيهما أحد في الإخلاص ، وأنهما وصلا فيه إلى الرتبة العليا ، وإن كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعلى الخلق فيه ، وفي ذلك أيضاً دلالة على أنه لا كفوء له لأنه نفى الإشراك بجذافيره من جميع جزيرة العرب بعد أن كانوا مطبقين عليه ، وأطلقهم سبحانه وتعالى على من يليهم من ملوك الأمم حتى أظهر الله بهم الدين – وقد كانوا أذل الأمم – على الدين كله ، ونفوا جبابرة الملوك صغرة بعد أن كان عندهم أنه لا غالب لهم ، وحروفها الملفوظة هي بعدد كلمات – آيات التوحيد ، وهي آية الكرسي أعظم آية في القرآن ، وذلك خمسون حرفاً إلا واحداً هو ألف ﴿ كفواً ﴾ الذي هو مرسوم غير ملفوظ ،

(83/838)

وهو الدال على الضمير الذي هو غيب الغيب ، فهو غيب – من جهة عدم اللفظ به ، ووجود وظهور من جهة شاهد الرسم ومسموع الاسم ، كما أن الذات غيب محض من

جهة الحقيقة يدرك بمشاهدة الأفعال ، ومسموع الأسماء العوال - والله الهادي من الضلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 575.602﴾

(84/838)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) ﴾

قبل الخوض في التفسير لا بد من تقديم فصول :

الفصل الأول : روى أبي ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ سورة قل هو الله أحد ، فكأنما قرأ ثلث القرآن وأعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أشرك بالله وأمن بالله " وقال عليه الصلاة والسلام : " من قرأ قل هو الله أحد مرة واحدة أعطى من الأجر كمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وأعطى من الأجر مثل مائة شهيد " وروى : " أنه كان جبريل عليه السلام مع الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أقبل أبو ذر الغفاري ، فقال جبريل : هذا أبو ذر قد أقبل ، فقال عليه الصلاة والسلام : أو تعرفونه ؟ قال : هو أشهر عندنا منه عندكم ، فقال عليه الصلاة والسلام : بماذا نال هذه الفضيلة ؟ قال لصغره

في نفسه وكثرة قراءته قل هو الله أحد " وروى أنس قال : "كنا في تبوك فطلعت الشمس ما لها شعاع وضياء وما رأيناها على تلك الحالة قط قبل ذلك فعجب كلنا ، فنزل جبريل وقال : إن الله أمر أن ينزل من الملائكة سبعون ألف ملك فيصلوا على معاوية بن معاوية ، فهل لك أن تصلي عليه ثم ضرب بجناحه الأرض فأزال الجبال وصار الرسول عليه الصلاة والسلام كأنه مشرف عليه فصلى هو وأصحابه عليه ، ثم قال : بم بلغ ما بلغ ؟ فقال جبريل : كان يحب سورة الإخلاص " وروى : "أنه دخل المسجد فسمع رجلاً يدعو ويقول أسألك يا ألله يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فقال : غفر لك غفر لك غفر لك ثلاث مرات " وعن سهل بن سعد : " جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وشكا إليه الفقر فقال : إذا دخلت بيتك فسلم إن كان فيه أحد وإن لم يكن فيه أحد فسلم على نفسك ، واقرأ قل هو الله أحد مرة واحدة ففعل الرجل فأدر الله عليه رزقاً حتى أفاض على جيرانه " وعن أنس : " أن رجلاً كان يقرأ في جميع صلاته : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ فسأله الرسول عن ذلك فقال : يا رسول الله إني أحبها ، فقال : حبك إياها يدخلك الجنة " وقيل من قرأها في المنام : أعطي التوحيد وقلة العيال وكثرة

الذكر لله، وكان مستجاب الدعوة.

الفصل الثاني : في سبب نزولها وفيه وجوه الأول : أنها نزلت بسبب سؤال المشركين، قال الضحاك : إن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : شققت عصانا وسببت آلهتنا ، وخالفت دين آبائك، فإن كنت فقيراً أغنيناك، وإن كنت مجنوناً داويناك، وإن هويت امرأة زوجناكها ، فقال عليه الصلاة والسلام :

" لست بفقير، ولا مجنون، ولا هويت امرأة، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته ، " فأرسلوه ثانية وقالوا : قل له بين لنا جنس معبودك، أمن ذهب أو فضة، فأنزل الله هذه السورة، فقالوا له : ثلثمائة وستون صنماً لا تقوم بحوائجنا ، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق ؟ فنزلت : ﴿ والصافات ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ إلهكم لَوَاحِدٌ ﴾ [الصافات : 1-4] فأرسلوه أخرى، وقالوا : بين لنا أفعاله فنزل : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ الله الذى خَلَقَ السموات والأرض ﴾ [الأعراف : 54] الثاني : أنها نزلت بسبب سؤال اليهود روى عكرمة عن ابن عباس، أن اليهود جاؤا إلى رسول الله ومعهم كعب بن الأشرف، فقالوا : يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله ؟ فغضب نبي الله عليه السلام فنزل جبريل

فسكنه ، وقال : اخفض جناحك يا محمد ، فنزل : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فلما تلاه عليهم قالوا : صف لنا ربك كيف عضده ، وكيف ذراعه ؟ فغضب أشد من غضبه الأول ، فأتاه جبريل بقوله : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ [الأنعام : 91] الثالث : أنها نزلت بسبب سؤال النصارى ، روى عطاء عن ابن عباس ، قال : قدم وفد نجران ، فقالوا : صف لنا ربك أمن زبرجد أو ياقوت ، أو ذهب ، أو فضة ؟ فقال : "إن ربي ليس من شيء لأنه خالق الأشياء " فنزلت : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ قالوا : هو واحد ، وأنت واحد ، فقال : ليس كمثله شيء ، قالوا : زدنا من الصفة ، فقال : ﴿ اللَّهُ الصمد ﴾ فقالوا : وما الصمد ؟ فقال : الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج ، فقالوا : زدنا فنزل : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ كما ولدت مريم : ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ كما ولد عيسى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ يريد نظيراً من خلقه .

(87/838)

الفصل الثالث : في أساميها ، اعلم أن كثرة الألقاب تدل على مزيد الفضيلة ، والعرف يشهد لما ذكرناه فأحدها : سورة التفريد وثانيها : سورة التجريد وثالثها : سورة التوحيد ورابعها : سورة الإخلاص لأنه لم يذكر في هذه السورة سوى صفاته السلبية التي هي صفات الجلال

، ولأن من اعتقده كان مخلصاً في دين الله ، ولأن من مات عليه كان خلاصه من النار ، ولأن ما قبله خلص في ذم أبي لهب فكان جزاء من قرأه أن لا يجمع بينه وبين أبي لهب وخامسها : سورة النجاة لأنها تنجيك عن التشبيه والكفر في الدنيا ، وعن النار في الآخرة وسادسها : سورة الولاية لأن من قرأها صار من أولياء الله ولأن من عرف الله على هذا الوجه فقد والاه فبعد محنة رحمة كما بعد منحة نعمة وسابعها : سورة النسبة لما روينا أنه ورد جواباً لسؤال من قال : أنسب لنا ربك ، ولأنه عليه السلام قال لرجل من بني سليم : "يا أخا بني سليم استوص بنسبة الله خيراً" وهو من لطيف المباني ، لأنهم لما قالوا : انسب لنا ربك ، فقال : نسبة الله هذا والمحافظة على الأنساب من شأن العرب ، وكانوا يتشددون على من يزيد في بعض الأنساب أو ينقص ، فنسبة الله في هذه السورة أولى بالمحافظة عليها وثامنها : سورة المعرفة لأن معرفة الله لا تتم إلا بمعرفة هذه السورة ، روى جابر أن رجلاً صلى فقرأ : قل هو الله أحد فقال النبي عليه الصلاة والسلام : إن هذا عبد عرف ربه فسميت سورة المعرفة لذلك وتاسعها : سورة الجمال قال عليه الصلاة والسلام :

" إن الله جميل يحب الجمال " فسألوه عن ذلك فقال : أحد صمد لم يلد ولم يولد لأنه إذا لم يكن واحداً عديم النظير جاز أن ينوب ذلك المثل منابه وعاشرها : سورة المقشقشة ، يقال : تقشيش المريض مما به ، فمن عرف هذا حصل له البرء من الشرك والنفاق لأن النفاق مرض كما قال : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ ﴾ [التوبة : 10] الحادي عشر : المعوذة ، روى أنه عليه السلام دخل على عثمان بن مظعون فعوذه بها وباللتين بعدها ، ثم قال : " نعوذ بهن فما تعوذت بخير منها " والثاني عشر : سورة الصمد لأنها مختصة بذكره تعالى والثالث عشر : سورة الأساس ، قال عليه الصلاة والسلام : " أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد " ومما يدل عليه أن القول بالثلاثة سبب لخراب السموات والأرض بدليل قوله : ﴿ تَكَادُ السموات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال ﴾ [مريم : 90] فوجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة هذه الأشياء وقيل السبب فيه معنى قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] الرابع عشر : سورة المانعة روى ابن عباس أنه تعالى قال : لنبيه حين عرج به أعطيتك سورة الإخلاص وهي من ذخائر كنوز عرشي ، وهي المانعة تمنع عذاب القبر ولفحات النيران الخامس عشر : سورة المحضر لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرئت السادس عشر : المنفرة لأن الشيطان ينفر عند قراءتها السابع عشر : البراءة لأنه روي أنه عليه السلام رأى رجل يقرأ هذه السورة ، فقال : أما هذا فقد بريء من الشرك ، وقال عليه السلام : من قرأ سورة قل هو الله أحد

مائة مرة في صلاة أو في غيرها كتبت له براءة من النار الثامن عشر : سورة المذكرة لأنها تذكر العبد خالص التوحيد فقراءة السورة كالوسمة تذكرك ما تتغافل عنه مما أنت محتاج إليه التاسع عشر : سورة النور قال الله تعالى : ﴿ الله نورُ السموات والارض ﴾ [النور : 35] فهو المنور للسموات

(89/838)

والأرض ، والسورة تنور قلبك وقال عليه السلام : " إن لكل شيء نور ونور القرآن قل هو الله أحد " ونظيره أن نور الإنسان في أصغر أعضائه وهو الحدقة ، فصارت السورة للقرآن كالحدقة للإنسان العشرون : سورة الأمان قال عليه السلام : " إذا قال العبد لا إله إلا الله دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي " .

(90/838)

الفصل الرابع : في فضائل هذه السورة وهي من وجوه الأول : اشتهر في الأحاديث أن قراءة هذه السورة تعدل قراءة ثلث القرآن ، ولعل الغرض منه أن المقصود الأشرف من جميع

الشرائع والعبادات ، معرفة ذات الله ومعرفة صفاته ومعرفة أفعاله ، وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات ، فكانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن ، وأما سورة : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ فهي معادلة لربع القرآن ، لأن المقصود من القرآن إما الفعل وإما الترك وكل واحد منهما فهو إما في أفعال القلوب وإما في أفعال الجوارح فالأقسام أربعة ، وسورة : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ لبيان ما ينبغي تركه من أفعال القلوب ، فكانت في الحقيقة مشتملة على ربع القرآن ، ومن هذا السبب اشتركت السورتان أعني : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ ، و : ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ في بعض الأسامي فهما المقشقشتان والمبرئتان ، من حيث إن كل واحدة منهما تفيد براءة القلب عما سوى الله تعالى ، إلا أن : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ يفيد بلفظه البراءة عما سوى الله وملازمة الاشتغال بالله و : ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ يفيد بلفظه الاشتغال بالله وملازمة الإعراض عن غير الله أو من حيث إن : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ تفيد براءة القلب عن سائر المعبودين سوى الله ، و : ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ تفيد براءة المعبود عن كل ما لا يليق به الوجه الثاني : وهو أن ليلة القدر لكونها صدقاً للقرآن كانت خيراً من ألف شهر فالقرآن كله صدف والدر هو قوله : ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ فلا جرم حصلت لها هذه الفضيلة الوجه الثالث : وهو أن الدليل العقلي دل على أن أعظم درجات العبد أن يكون قلبه مستنيراً بنور جلال الله وكبريائه ، وذلك لا يحصل إلا من هذه السورة ، فكانت هذه السورة أعظم السور ، فإن قيل : فصفات الله أيضاً مذكورة

في سائر السور ، قلنا : لكن هذه السورة لها خاصية وهي أنها لصغرها في الصورة تبقى محفوظة في القلوب معلومة

(91/838)

للعقول فيكون ذكر جلال الله حاضراً أبداً بهذا السبب ، فلا جرم امتازت عن سائر السور بهذه الفضائل ولنرجع الآن إلى التفسير .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(92/838)

اعلم أن معرفة الله تعالى جنة حاضرة إذ الجنة أن تنال ما يوافق عقلك وشهوتك ، ولذلك لم تكن الجنة جنة لآدم لما نازع عقله هواه ، ولا كان القبر سجناً على المؤمن لأنه حصل له هناك ما يلائم عقله وهواه ، ثم إن معرفة الله تعالى مما يريدها الهوى والعقل ، فصارت جنة مطلقة ، وبيان ما قلنا : أن العقل يريد أميناً تودع عنده الحسنات ، والشهوة تريد غنياً يطلب

منه المستلذات ، بل العقل كالإنسان الذي له همة عالية فلا ينقاد إلا لمولاه ، والهوى كالمنتجع الذي إذا سمع حضور غني ، فإنه ينشط للانتجاع إليه ، بل العقل يطلب معرفة المولى ليشكر له النعم الماضية والهوى يطلبها ليطمع منه في النعم المتربصة ، فلما عرفاه كما أراده عالماً وغنياً تعلقا بذيله ، فقال العقل : لا أشكر أحداً سواك ، وقالت الشهوة : لا أسأل أحداً إلا إياك ، ثم جاءت الشبهة فقالت : يا عقل كيف أفردته بالشكر ولعل له مثلاً ؟ ويا شهوة كيف اقتصرت عليه ولعل ههنا باباً آخر ؟ فبقي العقل متحيراً وتنغصت عليه تلك الراحة ، فأراد أن يسافر في عالم الاستدلال ليفوز بجوهرة اليقين فكأن الحق سبحانه قال : كيف أنغص على عبدي لذة الاشتغال بخدمتي وشكري ، فبعث الله رسوله وقال : لا تقله من عند نفسك ، بل قل هو الذي عرفته صادقاً يقول لي : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ فعرفك الوحدانية بالسمع وكفاك مؤنة النظر والاستدلال بالعقل ، وتحقيقه أن المطالب على ثلاثة أقسام قسم منها لا يمكن الوصول إليه بالسمع وهو كل ما تتوقف صحة السمع على صحته كالعلم بذات الله تعالى وعلمه وقدرته وصحة المعجزات ، وقسم منها لا يمكن الوصول إليه إلا بالسمع وهو وقوع كل ما علم بالعقل والسمع معاً ، وهو كالعلم بأنه واحد وبأنه مرئي إلى غيرهما ، وقد استقصينا في تقرير دلائل الوحدانية في تفسير قوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] .

المسألة الثانية :

اعلم أنهم أجمعوا على أنه لا بد في سورة : ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ من قل وأجمعوا على أنه لا يجوز لفظ قل في سورة : ﴿ تَبَّتْ ﴾ وأما في هذه السورة فقد اختلفوا ، فالقراءة المشهورة : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ وقرأ أبي وابن مسعود .

بغير قل هكذا : ﴿ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم ، بدون (قل هو) هكذا : ﴿ اللهُ أَحَدٌ * الله الصمد ﴾ فمن أثبت قل قال : السبب فيه بيان أن النظم ليس في مقدوره ، بل يحكي كل ما يقال له ، ومن حذفه قال : لئلا يتوهم أن ذلك ما كان معلوماً للنبي عليه الصلاة والسلام .

المسألة الثالثة :

اعلم أن في إعراب هذه الآية وجوهاً أحدها : أن هو كناية عن اسم الله ، فيكون قوله : الله مرتفعاً بأنه خبر مبتدأ ، ويجوز في قوله : ﴿ أَحَدٌ ﴾ ما يجوز في قولك : زيد أخوك قائم الثاني : أن هو كناية عن الشأن ، وعلى هذا التقرير يكون الله مرتفعاً بالابتداء وأحد خبره ، والجملة تكون خبراً عن هو ، والتقدير الشأن والحديث : هو أن الله أحد ، ونظيره قوله : ﴿ فَإِذَا هِىَ شاخصة أبصار الذين كَفَرُواْ ﴾ [الأنبياء : 97] إلا أن هي جاءت على

التأنيث، لأن في التفسير: اسماً مؤنثاً، وعلى هذا جاء: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تعمى الأبصار ﴾ [الحج: 46] أما إذا لم يكن في التفسير مؤنث لم يؤنث ضمير القصة، كقوله: ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً ﴾ [طه: 74] والثالث: قال الزجاج: تقدير هذه الآية أن هذا الذي سألتم عنه هو الله أحد.

المسألة الرابعة:

(94/838)

في أحد وجهان أحدهما: أنه بمعنى واحد، قال الخليل: يجوز أن يقال: أحد اثنان وأصل أحد وحد إلا أنه قلبت الواو همزة للخفيف وأكثر ما يفعلون هذا بالواو المضمومة، والمكسورة كقولهم: وجوه وأجوه وسادة وأسادة والقول الثاني: أن الواحد والأحد ليسا اسمين مترادفين قال الأزهري: لا يوصف شيء بالأحدية غير الله تعالى لا يقال: رجل أحد ولا درهم أحد كما يقال: رجل واحد أي فرد به بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شيء.

ثم ذكروا في الفرق بين الواحد والأحد وجوهاً أحدها: أن الواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه وثانيها: أنك إذا قلت: فلان لا يقاومه واحد، جاز أن يقال: لكنه

يقاومه اثنان بخلاف الأحد ، فإنك لو قلت : فلان لا يقاومع أحد لا يجوز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان وثالثها : أن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد في النفي ، تقول في الإثبات رأيت رجلاً واحداً وتقول في النفي : ما رأيت أحداً فيفيد العموم .

المسألة الخامسة :

اختلف القراء في قوله : ﴿ أَحَدُ اللهُ الصمد ﴾ فقراءة العامة بالتنوين وتحريكه بالكسر هكذا أحدن الله ، وهو القياس الذي لا إشكال فيه ، وذلك لأن التنوين من أحد ساكن ولام المعرفة من الله ساكنة ، ولما التقى ساكنان حرك الأول منهما بالكسر ، وعن أبي عمرو ، أحد الله بغير تنوين ، وذلك أن النون شابهت حروف اللين في أنها تزاد كما يزدن فلما شابهتها أجريت مجراها في أن حذفت ساكنة لالتقاء الساكنين كما حذفت الألف والواو والياء لذلك نحو غزا القوم ويغزو القوم ، ويرمي القوم ، ولهذا حذفت النون الساكنة في الفعل نحو : ﴿ لَمْ يَكُ ﴾ [الأنفال : 53] ﴿ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ ﴾ [هود : 17] فكذا ههنا حذفت في (أحد الله) لالتقاء الساكنين كما حذفت هذه الحروف .

وقد ذكرنا هذا مستقصى عند قوله : ﴿ عُزَيْرٌ ابن الله ﴾ [التوبة : 30] وروي أيضاً عن أبي عمرو : ﴿ أَحَدُ الله ﴾ وقال : أدركت القراء يقرؤونها كذلك وصلا على السكون ، قال أبو علي : قد تجري الفواصل في الإدراج مجراها في الوقف وعلى هذا قال من قال : ﴿ فَأَضَلُّونَا السبيلا * رَبَّنَا ﴾ [الأحزاب : 67 ، 68] ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ ماهيه * نار ﴾ [القارعة : 10 ، 11] لما كان أكثر القراء فيما حكاه أبو عمرو على الوقف أجراه في الوصل مجراه في الوقف لاستمرار الوقف عليه وكثرته في ألسنتهم ، وقرأ الأعمش : ﴿ قُلْ هُوَ الله الواحد ﴾ فإن قيل : لماذا ؟ قيل : أحد على النكرة ، قال الماوردي : فيه وجهان أحدهما : حذف لام التعريف على نية إضمارها والتقدير قل : هو الله الأحد والثاني : أن المراد هو التنكير على سبيل التعظيم .

المسألة السادسة :

(96/838)

اعلم أن قوله : ﴿ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ ألفاظ ثلاثة وكل واحد منها إشارة إلى مقام من مقامات الطالبين فالمقام الأول : مقام المقربين وهو أعلى مقامات السائرين إلى الله وهؤلاء هم الذين نظروا إلى ماهيات الأشياء وحقائقها من حيث هي هي ، فلا جرم ما رأوا موجوداً سوى

الله لأن الحق هو الذي لذاته يجب وجوده ، وأما ما عداه فممكن لذاته والممكن لذاته إذا نظر إليه من حيث هو هو كان معدوماً ، فهؤلاء لم يروا موجوداً سوى الحق سبحانه ، وقوله : ﴿هُوَ﴾ إشارة مطلقة والإشارة وإن كانت مطلقة إلا أن المشار إليه لما كان معيناً انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعين ، فلا جرم كان قولنا : هو إشارة من هؤلاء المقربين إلى الحق سبحانه فلم يفتقروا في تلك الإشارة إلى مميز ، لأن الافتقار إلى المميز إنما يحصل حين حصل هناك موجودان ، وقد بينا أن هؤلاء ما شاهدوا بعيون عقولهم إلا الواحد فقط ، فلهذا السبب كانت لفظة : ﴿هُوَ﴾ كافية في حصول العرفان التام لهؤلاء ، المقام الثاني : وهو مقام أصحاب اليمين وهو دون المقام الأول ، وذلك لأن هؤلاء شاهدوا الحق موجوداً وشاهدوا الخلق أيضاً موجوداً ، فحصلت كثرة في الموجودات فلا جرم لم يكن هو كافياً في الإشارة إلى الحق ، بل لا بد هناك من مميز به يتميز الحق عن الخلق : فهؤلاء احتاجوا إلى أن يقرنوا لفظة هو ، فقيل : لأجلهم هو الله ، لأن الله هو الموجود الذي يفتقر إليه ما عداه ، ويستغني هو عن كل ما عداه والمقام الثالث : وهو مقام أصحاب الشمال وهو أخس المقامات وأدونها ، وهم الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد وأن يكون الإله أكثر من واحد فقرن لفظ الأحد بما تقدم رداً على هؤلاء وإبطال لمقالاتهم فقيل : ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ .

وههنا بحث آخر أشرف وأعلى مما ذكرناه وهو أن صفات الله تعالى إما أن تكون إضافية وإما أن تكون سلبية ، أما الإضافية فكقولنا : عالم ، قادر مريد خلاق ، وأما السلبية فكقولنا : ليس بجسم ولا بجوهر ولا بعرض والمخلوقات تدل أولا على النوع الأول من الصفات وثانياً على النوع الثاني منها ، وقولنا : الله يدل على مجامع الصفات الإضافية ، وقولنا : أحد يدل على مجامع الصفات السلبية ، فكان قولنا : ﴿ اللهُ أَحَدٌ ﴾ تاماً في إفادة العرفان الذي يليق بالعقول البشرية ، وإنما قلنا : إن لفظ الله يدل على مجامع الصفات الإضافية ، وذلك لأن الله هو الذي يستحق العبادة ، واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يكون مستبداً بالإيجاد والإبداع والاستبداد بالإيجاد لا يحصل إلا لمن كان موصوفاً بالقدرة التامة والإرادة النافذة والعلم المتعلق بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات .

(98/838)

وهذه مجامع الصفات الإضافة ، وأما مجامع الصفات السلبية فهي الأحدية ، وذلك لأن المراد من الأحدية كون تلك الحقيقة في نفسها مفردة منزهة عن أنحاء التركيب ، وذلك لأن كل ماهية مركبة فهي مفتقرة إلى كل واحد من أجزائه ، وكل واحد من أجزائه غيره فكل

مركب فهو مفتقر إلى غيره ، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته ، فكل مركب فهو ممكن لذاته ، فالإله الذي هو مبدأ لجميع الكائنات ممتنع أن يكون ممكناً ، فهو في نفسه فرد أحد وإذا ثبتت الأحدية ، وجب أن لا يكون متحيزاً لأن كل متحيز فإن يمينه مغاير ليساره ، وكل ما كان كذلك فهو منقسم ، فالأحد يستحيل أن يكون متحيزاً ، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن في شيء من الأحياز والجهاد ويجب أن لا يكون حالاً في شيء ، لأنه مع محله لا يكون أحداً ، ولا يكون محلاً لشيء ، لأنه مع حاله لا يكون أحداً ، وإذا لم يكن حالا ولا محلاً لم يكن متغيراً ألبتة لأن التغير لا بد وأن يكون من صفة إلى صفة ، وأيضاً إذا كان أحداً وجب أن يكون واحداً إذ لو فرض موجودان واجباً الوجود لاشتركا في الوجوب ولتمايزا في التعين وما به المشاركة غير ما به الممايزة فكل واحد منهما مركب ، فثبت أن كونه أحداً يستلزم كونه واحداً فإن قيل : كيف يعقل كون الشيء أحداً ، فإن كل حقيقة توصف بالأحدية فهناك تلك الحقيقة من تلك الأحدية ومجموعهما فذاك ثالث ثلاث لا أحد الجواب : أن الأحدية لازمة لتلك الحقيقة فالمحكوم عليه بالأحدية هو تلك الحقيقة لا المجموع الحاصل منها ومن تلك الأحدية ، فقد لاح بما ذكرنا أن قوله : ﴿ اللهُ أَحَدٌ ﴾ كلام متضمن لجميع صفات الله تعالى من الإضافيات والسلوب وتمام الكلام في هذا الباب مذكور في تفسير قوله :

﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ [البقرة : 163] .

اللَّهُ الصَّمَدُ (2)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

(99/838)

ذكروا في تفسير : ﴿ الصمد ﴾ وجهين الأول : أنه فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده ، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج ، قال الشاعر :

ألا بكر الناعي بخير بني أسد . . بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقال أيضاً :

علوته بحسامي ثم قلت له . . خذها حذيف فأنت السيد الصمد

والدليل على صحة هذا التفسير ما روى ابن عباس : " أنه لما نزلت هذه الآية قالوا : ما الصمد ؟ قال عليه السلام هو السيد الذي يصمد إليه في الحوائج " وقال الليث : صمدت صمد هذا الأمر أي قصدت قصده والقول الثاني : أن الصمد هو الذي لا جوف له ، ومنه يقال : لسداد القارورة الصماد ، وشيء مصمد أي صلب ليس فيه رخاوة ، وقال قتادة : وعلى هذا التفسير : الدال فيه مبدلة من التاء وهو المصمت ، وقال بعض المتأخرين من

أهل اللغة : الصمد هو الأملس من الحجر الذي لا يقبل الغبار ولا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء ، واعلم أنه قد استدل قوم من جهال المشبهة بهذه الآية في أنه تعالى جسم ، وهذا باطل لأنا بينا أن كونه أحداً ينافي جسماً فمقدمة هذا الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى ، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام المتضاغطة وتعالى الله عن ذلك ، فإذن يجب أن يحمل ذلك على مجازه ، وذلك لأن الجسم الذي يكون كذلك يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير وذلك إشارة إلى كونه سبحانه واجباً لذاته ممتنع التغير في وجوده وبقائه وجميع صفاته ، فهذا ما يتعلق بالبحث اللغوي في هذه الآية .

وأما المفسرون فقد نقل عنهم وجوه ، بعضها يليق بالوجه الأول وهو كونه تعالى سيداً مرجوعاً إليه في دفع الحاجات ، وهو إشارة إلى الصفات الإضافية ، وبعضها بالوجه الثاني وهو كونه تعالى واجب الوجود في ذاته وفي صفاته ممتنع التغير فيهما وهو إشارة إلى الصفات السلبية وتارة يفسرون الصمد بما يكون جامعاً للوجهين .

أما النوع الأول : فذكروا فيه وجوهاً : الأول : الصمد هو العالم بجميع المعلومات لأن كونه سيداً مرجوعاً إليه في قضاء الحاجات لا يتم إلا بذلك الثاني : الصمد هو الحليم لأن كونه

سيداً يقتضي الحلم والكرم الثالث : وهو قول ابن مسعود والضحاك الصمد هو السيد الذي قد انتهى سؤدده الرابع : قال الأصم : الصمد هو الخالق للأشياء ، وذلك لأن كونه سيداً يقتضي ذلك الخامس : قال السدي : الصمد هو المقصود في الرغائب ، المستغاث به عند المصائب السادس : قال الحسين بن الفضل البجلي : الصمد هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه السابع : أنه السيد المعظم الثامن : أنه الفرد الماجد لا يقضي في أمر دونه .

(101/838)

وأما النوع الثاني : وهو الإشارة إلى الصفات السلبية فذكروا فيه وجوهاً : الأول : الصمد هو الغني على ما قال : ﴿ وَهُوَ الغنى الحميد ﴾ [الحديد : 24] الثاني : الصمد الذي ليس فوقه أحد لقوله : ﴿ وَهُوَ القاهر فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : 18] ولا يخاف من فوقه ، ولا يرجو من دونه ترفع الحوائج إليه الثالث : قال قتادة : لا يأكل ولا يشرب : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام : 14] الرابع : قال قتادة : الباقي بعد فناء خلقه : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن : 26] الخامس : قال الحسن البصري : الذي لم يزل ولا يزال ، ولا يجوز عليه الزوال كان ولا مكان ، ولا أين ولا أوان ، ولا عرش ولا كرسي ، ولا جني ولا إنسي

وهو الآن كما كان السادس : قال يمان وأبو مالك : الذي لا ينام ولا يسهو الثامن : قال ابن كيسان : هو الذي لا يوصف بصفة أحد التاسع : قال مقاتل بن حبان : هو الذي لا عيب فيه العاشر : قال الربيع بن أنس : هو الذي لا تعتريه الآفات الحادي عشر : قال سعيد بن جبير : إنه الكامل في جميع صفاته ، وفي جميع أفعاله الثاني عشر : قال جعفر الصادق : إنه الذي يغلب ولا يغلب الثالث عشر : قال أبو هريرة : إنه المستغني عن كل أحد الرابع عشر : قال أبو بكر الوراق : إنه الذي أيس الخلائق من الاطلاع على كيفيته الخامس عشر : هو الذي لا تدركه الأبصار السادس عشر : قال أبو العالية ومحمد القرظي : هو الذي لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شيء إلا سيورث ، ولا شيء يولد إلا وسيموت السابع عشر : قال ابن عباس : إنه الكبير الذي ليس فوقه أحد الثامن عشر : أنه المنزه عن قبول النقصانات والزيادات ، وعن أن يكون مورداً للتغيرات والتبدلات ، وعن إحاطة الأزمنة والأمكنة والآنات والجهات .

وأما الوجه الثالث : وهو أن يحمل لفظ الصمد على الكل وهو محتمل ، لأنه بحسب دلالته على الوجوب الذاتي يدل على جميع السلوب ، وبحسب دلالته على كونه مبدأ للكل يدل

على جميع النعوت الإلهية .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿ الله الصمد ﴾ يقتضي أن لا يكون في الوجود صمد سوى الله ، وإذا كان الصمد مفسراً بالمصمود إليه في الحوائج ، أو بما لا يقبل التغير في ذاته لذم أن لا يكون في الوجود موجود هكذا سوى الله تعالى ، فهذه الآية تدل على أنه لا إله سوى الواحد ، فقوله : ﴿ الله أَحَدٌ ﴾ إشارة إلى كونه واحداً ، بمعنى أنه ليس في ذاته تركيب ولا تأليف بوجه من الوجوه ، وقوله : ﴿ الله الصمد ﴾ إشارة إلى كونه واحداً ، بمعنى نفي الشركاء والأنداد والأضداد .

وبقي في الآية سؤالان :

السؤال الأول : لم جاء ﴿ أحد ﴾ منكراً ، وجاء ﴿ الصمد ﴾ معرفاً ؟ الجواب : الغالب على أكثر أوهام الخلق أن كل موجود محسوس ، وثبت أن كل محسوس فهو منقسم ، فإذا مالا يكون منقسماً لا يكون خاطراً ببال أكثر الخلق ، وأما الصمد فهو الذي يكون مصموداً إليه في الحوائج ، وهذا كان معلوماً للعرب بل لأكثر الخلق على ما قال :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [الزخرف : 87] وإذا كانت الأحدية مجهولة مستنكرة عند أكثر الخلق ، وكانت الصمدية معلومة الثبوت عند جمهور الخلق ، لا جرم جاء لفظ أحد على سبيل التنكير ولفظ الصمد على سبيل التعريف .

السؤال الثاني : ما الفائدة في تكرير لفظة الله في قوله : ﴿ اللهُ أَحَدٌ الله الصمد ﴾ ؟ الجواب : لو لم تكرر هذه اللفظة لوجب في لفظ أحد وصمد أن يردا ، إما نكرتين أو معرفتين ، وقد بينا أن ذلك غير جائز ، فلا جرم كررت هذه اللفظة حتى يذكر لفظ أحد منكراً ولفظ الصمد معرفاً .

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3)

فيه سؤالات :

(103/838)

السؤال الأول : لم قدم قوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ على قوله : ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ مع أن في الشاهد يكون أولاً مولوداً ، ثم يكون والداً ؟ الجواب : إنما وقعت البداءة بأنه لم يلد ، لأنهم ادعوا أن له ولداً ، وذلك لأن مشركي العرب قالوا : الملائكة بنات الله وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ولم يدع أحد أن له والداً فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ ثم أشار إلى الحجة فقال : ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ كأنه قيل : الدليل على امتناع الولدية اتفاقنا على أنه ما كان ولداً لغيره .

السؤال الثاني : لماذا اقتصر على ذكر الماضي فقال : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ ولم يقل : لن يلد ؟

الجواب : إنما اقتصر على ذلك لأنه ورد جواباً عن قولهم ولد الله والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللهُ ﴾ [الصافات : 151 ، 152] فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم وهم إنما قالوا ذلك في الماضي ، لا جرم وردت الآية على وفق قوله .

(104/838)

السؤال الثالث : لم قال ههنا : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ وقال في سورة بني إسرائيل : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ﴾ [الإسراء : 111] الجواب : أن الولد يكون على وجهين : أحدهما : أن يتولد منه مثله وهذا هو الولد الحقيقي والثاني : أن لا يكون متولداً منه ولكنه يتخذه ولداً ويسميه هذا الاسم ، وإن لم يكن ولداً له في الحقيقة ، والنصارى فريقان : منهم من قال : عيسى ولد الله حقيقة ، ومنهم من قال : إن الله اتخذه ولداً تشريفاً له ، كما اتخذ إبراهيم خليلاً تشريفاً له ، فقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ فيه إشارة إلى نفي الوالد في الحقيقة ، وقوله : ﴿ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ إشارة إلى نفي القسم الثاني ، ولهذا قال : ﴿ لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِى الملك ﴾ [الإسراء : 111] لأن الإنسان قد يتخذ ولداً ليكون ناصراً ومعيناً له على الأمر المطلوب ، ولذلك قال في سورة أخرى : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الرحمن وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الغنى ﴾

[يونس : 68] وإشارة إلى ما ذكرنا أن اتخاذ الولد إنما يكون عند الحاجة .

السؤال الرابع : نفي كونه تعالى والداً ومولوداً ، هل يمكن أن يعلم بالسمع أم لا ، وإن كان لا يمكن ذلك فما الفائدة في ذكره ههنا ؟ الجواب : نفي كونه تعالى والداً مستفاد من العلم بأنه تعالى ليس بجسم ولا متبعض ولا منقسم ، ونفي كونه تعالى مولوداً مستفاد من العلم بأنه تعالى قديم ، والعلم بكل واحد من هذين الأصلين متقدم على العلم بالنبوة والقرآن ، فلا يمكن أن يكونا مستفادين من الدلائل السمعية .

(105/838)

بقي أن يقال : فلما لم يكن استفادتهما من السمع ، فما الفائدة في ذكرهما في هذه السورة ؟ قلنا : قد بينا أن المراد من كونه أحداً كونه سبحانه في ذاته وماهيته منزهاً عن جميع أنحاء التراكيب ، وكونه تعالى صمداً معناه كونه واجباً لذاته ممتنع التغير في ذاته وجميع صفاته ، وإذا كان كذلك فالأحدية والصمدية يوجبان نفي الولدية والمولودية ، فلما ذكر السبب الموجب لانتفاء الوالدية والمولودية ، لا جرم ذكر هذين الحكمين ، فالمقصود من ذكرهما تنبيه الله تعالى على الدلالة العقلية القاطعة على انتفائهما .

السؤال الخامس : هل في قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فائدة أزيد من نفي الولدية ونفي

المولودية ؟ قلنا : فيه فوائد كثيرة ، وذلك لأن قوله : ﴿ الله أَحَدٌ ﴾ إشارة إلى كونه تعالى في ذاته وماهيته منزهاً عن التركيب ، وقوله : ﴿ الله الصمد ﴾ إشارة إلى نفي الأضداد والأنداد والشركاء والأمثال وهذان المقامان الشريفان مما حصل الاتفاق فيهما بين أرباب الملل والأديان ، وبين الفلاسفة ، إلا أن من بعد هذا الموضع حصل الاختلاف بين أرباب الملل وبين الفلاسفة ، فإن الفلاسفة قالوا : إنه يتولد عن واجب الوجود عقل ، وعن العقل عقل آخر ونفس وفلك ، وهكذا على هذا الترتيب حتى ينتهي إلى العقل الذي هو مدبر ما تحت كرة القمر ، فعلى هذا القول يكون واجب الوجود قد ولد العقل الأول الذي هو تحته ، ويكون العقل الذي هو مدبر لعالمنا هذا كالمولود من العقول التي فوقه ، فالحق سبحانه وتعالى نفي الوالدية أولاً ، كأنه قيل : إنه لم يلد العقول والنفوس ، ثم قال : والشيء الذي هو مدبر أجسادكم وأرواحكم وعالمكم هذا ليس مولوداً من شيء آخر ، فلا والد ولا مولود ولا مؤثر إلا الواحد الذي هو الحق سبحانه .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)

فيه سؤالان :

السؤال الأول : الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم ، وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه ، فما باله ورد مقدماً في أفصح الكلام ؟ والجواب : هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الله ، واللفظ الدال على هذا المعنى هو هذا الظرف ، وتقديم الأهم أولى ، فلهذا السبب كان هذا الظرف مستحقاً للتقديم .

السؤال الثاني : كيف القراءة في هذه الآية ؟ الجواب : قرىء : ﴿ كُفُواً ﴾ بضم الكاف والفاء وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء ، والأصل هو الضم ثم يخفف مثل طنب وطنب وعنق وعنق ، وقال أبو عبيدة : يقال كفو وكفء وكفاء كله بمعنى واحد وهو المثل ، وللمفسرين فيه أقاويل أحدها : قال كعب وعطاء : لم يكن له مثل ولا عديل ، ومنه المكافأة في الجزاء لأنه يعطيه ما يساوي ما أعطاه وثانيها : قال مجاهد : لم يكن (له) صاحبة كأنه سبحانه وتعالى قال : لم يكن أحد كفؤاً له فيصاهره ، رداً على من حكى الله عنه قوله : ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجنة نَسَباً ﴾ [الصافات : 158] فتفسير هذه الآية كالتأكيد لقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ وثالثها : وهو التحقيق أنه تعالى بين لما بين أنه هو المصمود إليه في قضاء الحوائج ونفي الوسائط من البين بقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ على ما بيناه ، فحينئذ ختم السورة بأن شيئاً من الموجودات يمتنع أن يكون مساوياً له في شيء من صفات الجلال والعظمة ، أما الوجود فلا مساواة فيه لأن وجوده من مقتضيات حقيقته فإن حقيقته غير قابلة للعدم من حيث هي هي ، وأما سائر الحقائق ، فإنها قابلة للعدم ، وأما

العلم فلا مساواة فيه لأن علمه ليس بضروري ولا باستدلالي ولا مستفاد من الحس ولا من الرؤية ولا يكون في معرض الغلط والزلل وعلوم المحدثات كذلك ، وأما القدرة فلا مساواة فيها وكذا الرحمة والجود والعدل والفضل والإحسان واعلم أن هذه السورة أربع آيات ، وفي ترتيبها أنواع من الفوائد :

(107/838)

الفائدة الأولى : أن أول السورة يدل على أنه سبحانه واحد ، والصمد على أنه كريم رحيم لأنه لا يصمد إليه حتى يكون محسناً و : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ على أنه غني على الإطلاق ومنزه عن التغيرات فلا يبخل بشيء أصلاً ، ولا يكون جوده لأجل جر نفع أو دفع ضر ، بل بمحض الإحسان وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ إشارة إلى نفي ما لا يجوز عليه من الصفات .

الفائدة الثانية : نفى الله تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله : ﴿ أَحَدٌ ﴾ ونفى النقص والمغلوبية بلفظ الصمد ، ونفى المعلولية والعلية بلم يلد ولم يولد ، ونفى الأضداد والأنداد بقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

الفائدة الثالثة : قوله : ﴿ أَحَدٌ ﴾ يبطل مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة ، والنصارى

في التثليث ، والصابئين في الأفلاك والنجوم ، والآية الثانية تبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله لأنه لو وجد خالق آخر لما كان الحق مصموداً إليه في طلب جميع الحاجات ، والثالثة تبطل مذهب اليهود في عزير ، والنصارى في المسيح ، والمشركين في أن الملائكة بنات الله ، والآية الرابعة تبطل مذهب المشركين حيث جعلوا الأصنام أكفاء له وشركاء .

الفائدة الرابعة : أن هذه السورة في حق الله مثل سورة الكوثر في حق الرسول لكن الطعن في حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا : إنه أبتر لا ولد له ، وههنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولداً ، وذلك لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب ووجود الولد عيب في حق الله تعالى ، فلهذا السبب قال ههنا : ﴿ قُلْ ﴾ حتى تكون ذاباً عني ، وفي سورة : ﴿ إِنَّا أعطيناك ﴾ [الكوثر : 1] أنا أقول ذلك الكلام حتى أكون أنا ذاباً عنك ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 160.172 ﴾

(108/838)

وقال السمرقندى

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾

وذلك أن قريشاً قالوا له صِفْ لنا ربَّك الذي تعبده وتدعونا إليه ما هو ؟ فأنزل الله تعالى :

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ يعني : قل يا محمد للكفار إني ربي الذي أعبده ﴿ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ يعني فرد لا نظير له ولا شبيه له ولا شريك له ولا معين له ثم قال عز وجل : ﴿ الله الصمد ﴾ يعني : الصمد الذي لا يأكل ولا يشرب ، وقال السدي وعكرمة ومجاهد ﴿ الصمد ﴾ الذي لا جوف له ، وعن قتادة قال كان إبليس لعنه الله ينظر إلى آدم عليه السلام ودخل في فيه وخرج من دبره يعني حين كان صلصالاً فقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : الصمد الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ويتضرعون إليه عند مسألتهم وقال أبو وايل ﴿ الصمد ﴾ السيد الذي انتهى سؤدده وكذلك قال سعيد بن جبير وقال الحسن البصري رضي الله عنه ﴿ الصمد ﴾ الدائم ، وقال قتادة ﴿ الصمد ﴾ الباقي ويقال الكافي وقال محمد بن كعب القرظي ﴿ الصمد ﴾ الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ويقال : ﴿ الصمد ﴾ التام في سؤدده وروي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : ﴿ الصمد ﴾ الذي لا يخاف من فوقه ولا يرجو من تحته ويُصْمَد إليه في الحوائج ثم قال عز وجل ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ يعني : لم يكن له ولد يرث ملكه .

﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ يعني : لم يكن له والد يرث عنه ملكه ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ يعني : لم يكن له نظير ولا شريك فينازعه في عظمته وملكه وقال مقاتل : إن مشركي العرب قالوا إن الملائكة كذا وكذا وقالت اليهود والنصارى في عزير والمسيح ما قالت فكذبهم الله تعالى وأبرأ نفسه مما قالوا فقال : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ ، قرأ عاصم في رواية حفص كفواً بغير همزة وقرأ حمزة بسكوت الفاء مهموزاً والباقون بضم الفاء مهموزاً بهمزة وكل ذلك يرجع إلى معنى واحد وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ بعد صلاة الفجر إحدى عشرة مرة لم يلحقه ذنب يومئذٍ ولو اجتهد الشيطان .

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرآنَ فِي لَيْلَةٍ ؟ " فقيل يا رسول الله من يطيق ذلك ؟ قال : " أَنْ يَقْرَأَ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ثَلاثَ مَرَاتٍ " وروي عن ابن شهاب عن الزهري رضي الله عنه قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ قَرَأَ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ مَرَّةً فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 608 . 609 ﴾

وقال الثعلبي :

سورة الإخلاص

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾

أخبرنا الشيخ أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحاق المزكى قال : أخبرنا الإمام أبو بدر محمد بن إسحاق بن خزيمة قال : حدثنا أحمد بن منيع ومحمود بن خداش قالا : حدثنا أبو سعد الصغاني قال : حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أُبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله (عليه السلام) : انسب لنا ربك ، فأنزل الله سبحانه ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ الى آخر السورة .

وروى أبو ضبيان وأبو صالح عن ابن عباس " أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقال عامر : الى ما تدعونا يا محمد ؟ قال : " الى الله سبحانه " فقالا : صفه لنا ، أذهب هو أم فضة أم حديد أم من خشب ؟ فنزلت هذه السورة ، فأرسل الله سبحانه الصاعقة إلى أربد فأحرقته وطعن عامر في خنصره فمات ، " وقد ذكرت قصتهما في سورة الرعد .

وقال الضحاك وقتادة ومقاتل : " جاء ناس من أحبار اليهود الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد صف لنا ربّك لعلنا نؤمن بك فإن الله أنزل نعته في التوراة فأخبرنا به من أي شيء هو من أي جنس أمن ذهب هو أو نحاس أم صفر أم حديد أم فضة ؟ وهل يأكل

ويشرب ؟ وممّن ورث الدنيا ؟ ومن يورثها ؟ فأنزل الله سبحانه هذه السورة " وهي نسبة الله خاصة .

(111/838)

وأخبرني عقيل أن أبا فرج البغدادي أخبرهم عن أبي جعفر الطرفي قال : حدّثنا ابن حميد قال : حدّثنا سلمة قال : حدّثني ابن إسحاق عن محمد بن سعيد قال : " أتى رهط من اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم قالوا : يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه ؟ فغضب النبي حتى أمتقع لونه ثم ساورهم غضباً لربه ، فجاءه جبرائيل فسكّنه وقال : أخفض عليك جناحك يا محمد ، وجاءه من الله سبحانه بجواب ما سألوه ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ السورة ، فلما تلا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم قالوا له : صف لنا ربك كيف خلق وكيف عضده وذراعه ؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأوّل وساورهم ، فأتاه جبرائيل فقال : له مثل مقالته وأتاه بجواب ما سألوه ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ والأرض جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القيامة ﴾ [الزمر : 67] " .

وقال الضحاك عن ابن عباس : " إنّ وفد نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أساقفة من بني الحرث بن كعب فيهم السيد والعاقب ، فقالوا للنبي صلى الله

عليه وسلم صف لنا ربك من أي شيء هو؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم " إنَّ ربي ليس من شيء وهو بائن من الأشياء " فأنزل الله سبحانه ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أي واحد ".

ولا فرق بين الواحد والأحد عند أكثر أصحابنا يدل عليه قراءة عبد الله ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [. . . . .].

(112/838)

وفرق قوم بينهما فقال بعضهم : الواحد للفصل والأحد للغاية ، وقيل : واحد بصفاته أحد بذاته ، وقيل : إنَّ الواحد يدلّ على أزليته وأوّليته ، لأنَّ الواحد في الأعداد ركنها وأصلها وميدانها ، والأحد يدل على بينونته من خلقه في جميع الصفات ، ونفي أبواب الشرك عنه ، فالأحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد ، والواحد أسم لمفتتح العدد ، فأحد صلح في الكلام في موضع الجحود ، والواحد في موضع الإثبات تقول : لم يأتني منهم أحد وجاءني منهم واحد ، فالمعنى أنه لم يأتني أثنان ، وقال ابن الأنباري : أحد في الأصل واحد كما قالوا للمرأة أناة والأصل وناة من الوني وهو الفتور قال الشاعر :

رمته أناة من ربيعة عامر . . . نؤوم الضحى في مأتم أي مأتم

وقال النابغة في الواحد :

كأن رحلي وقد زال النهار بنا . . . بذي الجليل على مستأنس وحد

سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول : سمعت منصور بن عبد الله يقول : سمعت أبا القاسم البزاز يقول : سمعت ابن عطاء يقول في قوله سبحانه ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ : هو المنفرد بإيجاد المفقودات والمتحّد بأظهار الخفيّات .

وقراءة العامة ﴿ أَحَدٌ ﴾ بالتنوين ، وقرأ الحسن ونصر بن عاصم وابن إسحاق وأبان بن عثمان وهارون بن عيسى ﴿ أَحَدٌ * الله ﴾ بلا تنوين طلباً للخفة وفراراً من التقاء الساكنين كقراءة من قرأ ﴿ عُزَيْرٌ ابن الله ﴾ [التوبة : 30] بغير تنوين .

وأما قوله : ﴿ الله الصمد ﴾ فاختلفوا فيه فقال ابن عباس ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير : الذي لا جوف له ، وأما سعيد بن المسيب : الذي لا حشو له ، الشعبي : الذي لا يأكل ولا يشرب ، وإليه ذهب الفرضي ، وقيل : يفتره ما بعده .

أخبرنا محمد بن الفضل قال : أخبرنا محمد بن إسحاق بن خزيمة قال : حدثنا أحمد بن منبع ومحمود بن خراش قال : حدّثنا أبو سعد الصعالي قال : حدّثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع

عن أبي العالية عن أبيّ بن كعب قال : الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت وليس يرث إلا سيورث وأن الله لا يموت ولا يورث .

وقال أبو وائل شفيق بن سلمة : وهو السيّد الذي قد أنتهى سؤدده ، وهي رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : هو السيد الذي قد كمل في جميع أنواع الشرف والسؤدد .

غيره : هو السيد المقصود في الحوائج ، يقول العرب : صمّدت فلاناً أصمده وأصمُده صمْداً بسكون الميم إذا قصدته ، والمصمود صمد كالقبض والنفض ، ويقال : بيت مصمود ومصمّد إذا قصده الناس في حوائجهم قال طرفة :

وأن يلتقي الحي الجميع تلاقني . . . الى ذروة البيت الرفيع المصمد

وأنشد الأئمة في الصمد :

ألا بكر الناعي بخيري بني أسد . . . بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقال قتادة : الصمد : الباقي بعد خلقه ، عاصم ومعمر : هو الدائم ، علي بن موسى الرضا : هو الذي أيست العقول عن الإطلاع على كيفيته ، محمد بن علي الترمذي : هو الأزلي بلا عدد ، والباقي بلا أمد ، والقائم بلا عمد ، الحسين بن الفضل : هو الأزلي بلا أبتداء ، وقيل : هو الذي جلّ عن شبه المصورين وقيل : هو بمعنى نفي التجزؤ والتأليف عن ذاته ، ميسرة : المصمت ، ابن مسعود : الذي ليست له أحشاء ، أبو إسحاق الكوفي عن عكرمة : الصمد الذي ليس فوقه أحد ، وهو قول علي عليه السلام .

السدي : هو المقصود إليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب ، يمان : الذي لاينام ، كعب الأحبار : الذي لا يكافئه من خلقه أحد . ابن كيسان : الذي لا يوصف بصفته أحد ، مقاتل ابن حيان : الذي لا عيب فيه ، ربيع : الذي لا تعتريه الآفات ، سعيد بن جبير أيضاً : الكامل في جميع صفاته وأفعاله ، الصادق : وهو الغالب الذي لا يغلب ، أبو هريرة : المستغني عن كل أحد والمحتاج إليه كل أحد ، مرّة الهمداني : الذي لا يبلى ولا يغنى ، الحسين بن الفضل أيضاً : هو الذي يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء لا معقّب لحكمه ولا راد لقضائه .

محمد بن علي : الصمد : الذي لا تدركه الأبصار ولا تحويه الأفكار ولا تبلغه الأقطار وكل شي عنده بمقدار .

ابن عطاء : الصمد : الذي لم يتبّين عليه أثر فيما أظهر ، جعفر : الذي لم يعط لخلقه من معرفته الا الاسم والصفة ، جنيد : الذي لم يجعل لأعدائه سبيلا الى معرفته ، وقيل : هو الذي لا يدرك حقيقة نعوته وصفاته فلا يتسع له اللسان ولا يشير إليه البيان ، ابن عطاء : هو المتعالي عن الكون والفساد ، وقال الواسطي : الذي لا يسحر ولا يستغرق ولا تعترض

عليه القواطع والغلل .

وقال جعفر أيضاً : الصمد خمس حروف : فالألف دليل على أحديّته ، واللام دليل على الهيته وهما مدغمان لا يظهران على اللسان ويظهران في الكتابة ، فدلّ على أحديته والهيّته خفية لا يدرك بالحواس ، وأنّه لا يقاس بالناس فخفاءه في اللفظ دليل على أن العقول لا تدركه ولا تحيط به علماً ، وأظهاره في الكتابة دليل على أنه يظهر على قلوب العارفين ، ويبدو لأعين المحبين في دار السلام ، والصاد دليل على صدقه ، فوعده صدق وقوله صدق وفعله صدق ودعا عباده الى الصدق ، والميم دليل على ملكه فهو الملك على الحقيقة ، والدال علامة دوامه في أبديته وأزليته .

(115/838)

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ اختلف القراء فيه ، فقرأ حمزة ويعقوب ساكنة الفاء مهموزة ومثله روى العباس عن أبي عمرو وإسماعيل عن نافع ، وقرأ شيبة مشبعة غير مهموزة ومثله روى حفص عن عاصم ، وقرأ الآخرون مثقلاً مهموزاً وكلّها لغات صحيحة فصيحة ومعناه المثل .

﴿ أَحَدٌ ﴾ أي هو واحد ، وقيل : على التقديم والتأخير مجازه : " وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ أَحَدٌ كُفُواً

" .

وقال عبد خير : سأل رجل علي بن أبي طالب عليه السلام عن تفسير هذه السورة قال : قل هو الله أحد بلا تأويل عدد ، الله الصمد لا يتبعض بدد ، لم يلد فيكون هالكاً ، ولم يولد فيكون إلهاً مُشاركاً ، ولم يكن له من خلقه كفؤاً أحد .

وأخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي بقراءتي قال : سمعت أبا بكر الرازي يقول : سمعت أبا علي الروذباري يقول : وجدنا أنواع الشرك ثمانية : النقص والتقّلب والكثرة والعدد وكونه علّة أو معلولاً ، والأشكال والأضداد ، فنفى الله تعالى عن صفته نوع الكثرة والعدد بقوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ونفى التنقّص والتقّلب بقوله : ﴿ الله الصمد ﴾ ونفى العلل والمعلول بقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ونفى الأشكال والأضداد بقول : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ فحصلت الوحدانية البحت لذلك سمّيت سورة الإخلاص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 330 . 336 ﴾

(116/838)

وقال الزمخشرى :

سورة الإخلاص

مكية، وقيل مدنية، وآياتها 4 «نزلت بعد الناس» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الإخلاص (112) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)

هُوَ ضمير الشأن، واللَّهُ أَحَدٌ هو الشأن، كقولك: هو زيد منطلق، كأنه قيل: الشأن هذا، وهو أنّ الله واحد لا ثانى له. فإن قلت: ما محل هو؟ قلت: الرفع على الابتداء والخبر الجملة. فإن قلت: فالجملة الواقعة خبرا لا بد فيها من راجع إلى المبتدإ، فأين الراجع؟ قلت:

حكم هذه الجملة حكم المفرد في قولك «زيد غلامك» في أنه هو المبتدأ في المعنى، وذلك أن قوله اللَّهُ أَحَدٌ هو الشأن الذي هو عبارة عنه، وليس كذلك «زيد أبوه منطلق» فإنّ زيدا والجملة يدلان على معنيين مختلفين، فلا بد مما يصل بينهما. وعن ابن عباس: قالت قريش: يا محمد، صف لنا ربك الذي تدعونا إليه، فنزلت: يعنى: الذي سألتمونى وصفه هو اللّه، وأحد: بدل من قوله، اللّه. أو على: هو أحد، وهو بمعنى واحد، وأصله وحد. وقرأ عبد اللّه وأبىّ: هو اللّه أحد، بغير قُلْ وفي قراءة النبي صلى اللّه عليه وسلم: اللّه أحد، بغير قُلْ هُوَ وقال من

قرأ : اللّه أحد ، كان بعدل القرآن . وقرأ الأعمش : قل هو اللّه الواحد . وقرئ : أحد اللّه ، بغير تنوين : أسقط لملاقاته لام التعريف . ونحوه

ولا ذاكر اللّه إلّا قليلا «1»

والجيد هو التنوين ، وكسره لالتقاء الساكنين . والصَّمَدُ فعل بمعنى مفعول ، من صمد إليه إذا قصده ، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج . والمعنى : هو اللّه الذي تعرفونه وتقرّون بأنه خالق السماوات والأرض وخالقكم ، وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها ، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه ، وهو الغنى عنهم لَمْ يَلِدْ لأنه لا يجانس ، حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا . وقد دل على هذا المعنى بقوله أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صاحِبَةٌ . وَلَمْ يُولَدْ لأنّ كل مولود محدث وجسم ، وهو قديم لا أوّل لوجوده وليس بجسم ولم يكافئه أحد ، أى : لم يماثله ولم يشاكله . ويجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح ، نفيا للصاحبة : سألوه أن يصفه لهم ، فأوحى إليه ما يحتوى على صفاته ، فقوله هُوَ اللَّهُ إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها ، وفي طىّ ذلك وصفه بأنه قادر عالم ، لأن الخلق يستدعى القدرة والعلم ، لكونه واقعا على غاية إحكام واتساق وانتظام . وفي ذلك وصفه بأنه حى سميع بصير . وقوله أَحَدٌ وصف بالوحدانية ونفى الشركاء . وقوله الصَّمَدُ وصف بأنه ليس إلا محتاجا إليه ، وإذا لم يكن إلا محتاجا إليه : فهو غنى . وفي كونه

غنيا مع كونه عالما :

أنه عدل غير فاعل للقبائح «2» ، لعلمه بقبح القبيح وعلمه بغناه عنه . وقوله لَمْ يُولَدْ وصف بالقدم والأوّلية . وقوله لَمْ يَلِدْ نفى للشبه والمجانسة . وقوله وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ تقرير لذلك وبت للحكم به : فإن قلت : الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم ، وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه «3» ، فما باله مقدّما في أفصح كلام وأعربه ؟ قلت هذا الكلام إنما سيق لنفى المكافأة عن ذات الباري سبحانه ، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا

---

(1) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 448 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) . قوله «إنه عدل غير فاعل للقبائح» هذا مذهب المعتزلة ، وذهب أهل السنة إلى أنه تعالى هو الخالق لجميع الأشياء خيرها وشرها قبيحها وحسنها . قال تعالى : اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وعلمه بقبح القبيح لا يمنعه من خلقه ، لأنه لحكمة وإن لم يعلمها غيره . (ع)

(3) . قال محمود : «إن قلت الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف وقد نص سيبويه على ذلك» قال أحمد :

نقل سيبويه أنه سمع بعض الجفاة من العرب يقرأ : ولم يكن أحدا كفوا له ، وجرى هذا الجلف على عادته فجفا طبعه عن لطف المعنى الذي لأجله اقتضى تقديم الظرف مع الخبر على

الاسم ، وذلك أن الغرض الذي سيقت له الآية نفى المكافأة والمساواة عن ذات اللّه تعالى ، فكان تقديم المكافأة المقصود بأن يسلب عنه أولى ، ثم لما قدمت لتسلب ذكر معها الظرف ليبين الذات المقدسة بسلب المكافأة ، واللّه أعلم .

(118/838)

الظرف ، فكان لذلك أهم شيء وأعناه ، وأحقه بالتقدم وأحراه . وقرئ : كفؤا ، بضم الكاف والفاء . وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء : فإن قلت . لم كانت هذه السورة عدل القرآن كله على قصر متنها وتقارب طرفيها ؟ قلت : لأمر ما يسود من يسود ، وما ذاك إلا لاحتوائها على صفات اللّه تعالى وعدله وتوحيده ، وكفى دليلا من اعترف بفضلها وصدق بقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيها : إنّ علم التوحيد من اللّه تعالى بمكان ، وكيف لا يكون كذلك والعلم تابع للمعلوم : يشرف بشرفه ، ويتضع بضعه ، ومعلوم هذا العلم هو اللّه تعالى وصفاته ، وما يجوز عليه وما لا يجوز ، فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله ، وإنافته على كل علم ، واستيلائه على قصب السبق دونه ، ومن ازدراه فلضعف علمه بمعلومه ، وقلة تعظيمه له ، وخلوه من خشيته ، وبعده من النظر لعاقبته . اللهم احشرنا في زمرة العالمين بك العاملين لك ، القائلين بعدلك وتوحيدك ، الخائفين من وعيدك .

وتسمى سورة الأساس لاشتمالها على أصول الدين. وروى أبيّ وأنس عن النبي صلى اللّه عليه وسلم: «أسست السماوات السبع والأرضون السبع على قل هو اللّه أحد» «1» يعنى ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد اللّه ومعرفة صفاته التي نطقت بها هذه السورة. عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه سمع رجلا يقرأ قل هو اللّه أحد فقال: «وجبت». قيل: يا رسول اللّه وما وجبت؟ قال: «وجبت له الجنة» «2». انتهى انتهى. ا هـ ﴿الكشاف حـ 4 صـ 817.819﴾

---

(1). لم أجده مرفوعا «وأخرجه ابن أبى شيبة في فضائل القرآن من رواية عبد اللّه بن غيلان الثقفي عن العب الأحبار موقوفا.

(2). أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم من حديث عبيد بن حنين عن أبى هريرة. وله شاهد في الطبراني الكبير من حديث أبى أمامة.

(119/838)

وقال الماوردى:

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾

اختلف في سبب نزول هذه الآية على ثلاثة أقاويل:

أحدها : أن اليهود قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم هذا الله خَلَق الخلْق ، فمن خلَقَ الله ؟ فنزلت هذه السورة جواباً لهم ، قاله قتادة .

الثاني : أن مشركي قريش قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك ، فأنزل الله هذه السورة ، وقال : يا محمد انسبني إلى هذا ، وهذا قول أُبي بن كعب .

الثالث : ما رواه أبو روق عن الضحاك أن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : قل له شققت عصانا وسببت آلهتنا وخالفت دين آبائك ، فإن كنت فقيراً أغنيناك وإن كنت مجنوناً داويناك ، وإن هويت امرأة زوجناكها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لست بفقير ولا مجنون ولا هويت امرأة ، أنا رسول الله إليكم ، أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته " ، أرسلوه ثانية وقالوا له : قل له بيّن لنا جنس معبودك ، فأنزل الله هذه السورة ، فأرسلوه ثالثة وقالوا : قل له لنا ثلاثمائة وستون صنماً لا تقوم بحوائجنا ، فكيف يقوم إله واحِد بحوائج الخلق كلهم ؟ فأنزل الله سورة الصافات إلى قوله ﴿ إن إلهاكم لواحد ﴾ يعني في جميع حوائجكم ، فأرسلوه رابعة وقالوا : قل له بيّن لنا أفعال ربك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ﴾ الآية ، وقوله ﴿ الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ .

﴿ قل هو الله أحد ﴾ خرج مخرج جواب السائل عن الله تعالى ، فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ قل هو الله أحَدٌ ﴾ والأحد : هو المتفرد بصفاته الذي لا مِثل له ولا شبه .

فإن قيل : فلم قال "أَحَدٌ" على وجه النكرة ، ولم يقل الأَحَدُ ؟ قيل عنه جوابان :

أحدهما : أنه حذف لام التعريف على نية إضمارها فصارت محذوفة في الظاهر ، مثبتة في الباطن ، ومعناه قل هو الله الأحد .

الثاني : أنه ليس بنكرة ، وإنما هو بيان وترجمة ، قاله المبرد .

(120/838)

فأما الأحد والواحد ففيهما وجهان :

أحدهما : أن الأحد لا يدخل العدد ، والواحد يدخل في العدد ، لأنك تجعل للواحد ثانياً ، ولا تجعل للأحد ثانياً .

الثاني : أن الأحد يستوعب جنسه ، والواحد لا يستوعب ، لأنك لو قلت فلان لا يقاومه أحد ، لم يجز أن يقاومه اثنان ولا أكثر ، فصار الأحد أبلغ من الواحد .

وفي تسميتها بسورة الإخلاص ثلاثة أوجه :

أحدها : لأن في قراءتها خلاصاً من عذاب الله .

الثاني : لأن فيها إخلاص لله من كل عيب ومن كل شريك وولد ، قاله عبد الله ابن المبارك .

الثالث : لأنها خالصة لله ليس فيها أمر ولا نهي .

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ فيه عشرة تأويلات :

أحدها : أن الصمد المصمت الذي لا جوف له ، قاله الحسن وعكرمه والضحاك وابن جبير ، قال الشاعر :

شِهابُ حُروب لا تَزالُ جيادُه . . . عوابسَ يَعْلُكْنَ الشكيمَ المُصَمّدا

الثاني : هو الذي لا يأكل ولا يشرب ، قاله الشعبي .

الثالث : أنه الباقي الذي لا يفنى ، قاله قتادة ، وقال الحسن : إنه الدائم الذي لم يزل ولا يزال .

الرابع : هو الذي لم يلد ولم يولد ، قاله محمد بن كعب .

الخامس : أنه الذي يصمد الناس إليه في حوائجهم ، قاله ابن عباس ، ومنه قول الشاعر :

ألا بكّر الناعي بخَيْريْ بني أسدْ . . . بعمرِو بن مَسعودٍ وبالسيّد الصَّمَد .

السادس : أنه السيد الذي قد انتهى سؤدده ، قاله أبو وائل وسفيان وقال الشاعر :

عَلوْتُه بحُسامٍ ثم قلت له . . . خُذْها حُذَيْفَ فأنت السيّد الصَّمَدُ .

السابع : أنه الكامل الذي لا عيب فيه ، قاله مقاتل ، ومنه قول الزبرقان :

ساروا جَميعاً بنصْفِ الليلِ واعْتَمدوا . . . ألاّ رهينةَ إلا السيّدُ الصَمَدُ .

الثامن : أنه المقصود إليه في الرغائب ، والمستغاث به في المصائب ، قاله السدي .

التاسع : أنه المستغني عن كل أحد قاله أبو هريرة .

العاشر : أنه الذي يفعل مايشاء ويحكم بما يريد ، قاله الحسين بن فضيل .

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لم يلد فيكون والداً ، ولم يولد فيكون ولداً ، قاله ابن عباس .

الثاني : لم يلد فيكون في العز مشاركاً ، ولم يولد فيكون موروثاً هالكاً ، قاله الحسين بن فضيل .

وإنما كان كذلك لأمرين :

أحدهما : أن هاتين صفتا نقص فانتفتا عنه .

الثاني : أنه لا مثل له ، فلو وَلَدَ أو وُلِدَ لصار ذا مثل ، والله تعالى منزه عن أن يكون له مثل .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لم يكن له مثل ولا عديل ، قاله أبي بن كعب وعطاء .

الثاني : يعني لم تكن له صاحبة ، فنفى عنه الولد والوالدة والصاحبة ، قاله مجاهد .

الثالث : أنه لا يكافئه في خلقه أحد ، قاله قتادة وفيه تقديم وتأخير ، تقديره : ولم يكن له

أحدٌ كفواً ، فقدم خبر كان على اسمها لتنساق أواخر الآي على نظم واحد . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 372.369 ﴾

(122/838)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) ﴾

قرأ عمر بن الخطاب وابن مسعود والربيع بن خيثم : " قل هو الله أحد الواحد الصمد " ، وروى أبي بن كعب أن المشركين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نسب ربه تعالى عما يقول الجاهلون فنزلت هذه السورة ، وروى ابن عباس أن اليهود دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد صف لنا ربك وانسبه فإنه وصف نفسه في التوراة ونسبها ، فارتعد رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى خر مغشياً عليه ونزل عليه جبريل بهذه السورة ، وقال أبو العالية قال قتادة : الأحزاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انسب لنا ربك ، فأتاه الوحي بهذه السورة ، و﴿ أحد ﴾ معناه : فرد من جميع جهات الوحدانية ، ليست كمثله شيء ، وهو ابتداء و﴿ الله ﴾ ابتداء ثان و﴿ أحد ﴾ خبره ، والجملة خبر الأول ، وقيل : ﴿ هو ﴾ ابتداء و﴿ الله ﴾ خبره و﴿ أحد ﴾ بدل منه

، وحذف أبو عمرو التنوين من ﴿ أحد ﴾ لالتقاء الساكنين " أحدُ الله " وأثبتها الباقون مكسورة للالتقاء ، وأما وقفهم كلهم فبسكون الدال ، وقد روي عن أبي عمرو : الوصل بسكون الدال ، وروي عنه أيضاً تنوينها ، و﴿ الصمد ﴾ في كلام العرب السيد الذي يصمد إليه في الأمور ويستقل بها ، وأنشدوا : [الطويل]

ألا بكر الناعي بخير بني أسد . . . بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

(123/838)

وبهذا تفسر هذه الآية لأن الله جلت قدرته هو موجود الموجودات ، وإليه تصمد به قوامها ، ولا غني بنفسه إلا هو تبارك وتعالى ، وقال كثير من المفسرين : ﴿ الصمد ﴾ الذي لا جوف له ، كأنه بمعنى المصمت ، وقال الشعبي : هو الذي لا يأكل ولا يشرب ، وفي هذا التفسير كله نظر ، لأن الجسم في غاية البعد عن صفات الله تعالى . فما الذي تعطينا هذه العبارات ، و﴿ الله الصمد ﴾ ابتداء وخبر ، وقيل : ﴿ الصمد ﴾ نعت ، والخبر فيما بعد ، وقوله تعالى : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ رد على إشارة الكفار في النسب الذي سألوه ، وقال ابن عباس : تفكروا في كل شيء ولا تتفكروا في ذات الله تعالى .

قال القاضي أبو محمد : لأن الأفهام تقف دون ذلك حسيرة ، والمؤمنون يعرفون الله تعالى

بواجب وجوده وافتقار كل شيء إليه واستغنائه عن كل شيء وينفي العقل عنه كل ما لا يليق به تبارك وتعالى ، وأن ليس كمثله شيء ، وكل ما ذكرته فهو في ضمن هذه السورة الوجيزة البليغة ، قوله تعالى : ﴿ ولم يكن له كفؤاً أحد ﴾ معناه : ليس له ضد ولا ند ولا شبيه ، والكفأ والكفؤ والكفاء النظير ، وقرأ "كُفُؤاً" بضم الكاف وهمز مسهل نافع والأعرج وأبو جعفر وشيبة ، وقرأ بالهمز عاصم وأبو عمرو بخلاف عنه ، وقرأ حمزة : "كفْواً" بالهمز وإسكان الفاء وروي عن نافع "كفاً" بفتح الفاء وبغير همز .

(124/838)

وقرا سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس (ولم يكن له كفاء احد) بكسر الكاف وفتح الفاء والمد و "كفؤا" خبر كان واسمها "أحد" والظرف ملغى وسيبويه رحمه الله يستحسن ان يكون الظرف اذا تقدم خبرا ولكن قد يجيء ملغى في اماكن يقتضيها المعنى كهذه الآية وكما قال الشاعر

(ما دام فيهن فصيل حيا)

ويحتمل ان يكون "كفؤا" حالا لما قدم من كونه وصفا للنكرة كما قال لعزة موحشا طلل قال سيبويه وهذا يقل في الكلام وبابه الشعر وقال صلى الله عليه وسلم (إن "قل هو الله احد "

تعدل ثلث القرآن)

قال القاضي أبو محمد بما فيها من التوحيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(125/838)

وقال ابن الجوزى :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

وفيها قولان .

أحدهما : أنها مكية ، قاله ابن مسعود ، والحسن ، وعطاء ، وعكرمة ، وجابر .

والثاني : مدنية ، روي عن ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك .

وقد روى البخاري في أفراده من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " والذي نفسي بيده إنها لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن " وروى مسلم في أفراده من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إنها تعدل ثلث القرآن " .

وفي سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المشركين قالوا : يا محمد انسب لنا ربك ، فنزلت هذه السورة ، قاله أُبَيّ بن

كعب .

والثاني : أن عامر بن الطفيل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إلام تدعونا يا محمد ؟

قال : إلى الله عز وجل .

قال : صفه لي ، أمن ذهب هو ، أو من فضة ، أو من حديد ، فنزلت هذه السورة ، قاله ابن عباس .

والثالث : أن الذين قالوا هذا ، قوم من أحبار اليهود قالوا : من أي جنس هو ، وممن ورث الدنيا ، ولمن يورّثها ؟ فنزلت هذه السورة ، قاله قتادة ، والضحاك .

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، "أحدٌ اللهُ" وقرأ أبو عمرو "أحدُ اللهُ" بضم الدال ، ووصلها باسم الله .

قال الزجاج : هو كناية عن ذكر الله عز وجل .

والمعنى : الذي سألتم تبيين نسبته هو الله و "أحد" مرفوع على معنى : هو أحد ، فالمعنى : هو الله ، وهو أحد .

وقرئت "أحدٌ اللهُ الصمد" بتنوين أحد .

وقرئت "أحدُ الله" بترك التنوين ، وقرئت بإسكان الدال "أحدْ اللهُ" ، وأجودها الرفع بإثبات التنوين ، وكُسِرَ التنوين لسكونه وسكون اللام في "الله" ، ومن حذف التنوين ، فلالتقاء الساكنين أيضاً ، ومن أسكن أراد الوقف ثم ابتدأ "الله الصمد" وهو أردؤها .

فأما "الأحد" فقال ابن عباس، وأبو عبيدة: هو الواحد.

وفرَّق قوم بينهما.

وقال أبو سليمان الخطابي: [الواحد]: هو المنفرد بالذات، فلا يضاهيه أحد.

(126/838)

والأحد: هو المنفرد بالمعنى، فلا يشاركه فيه أحد.

وأصل "الأحد" عند النحويين: الوحد، ثم أبدلوا من الواو الهمزة.

وفي "الصمد" أربعة أقوال.

أحدها: أنه السيِّد الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائج، رواه ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤْدُدِه.

قال أبو عبيدة: هو السيد الذي ليس فوقه.

أحد والعرب تسمي أشرافها: الصَّمَد.

قال الأسدي:

لَقَدْ بَكَّرَ النَّاعي بِخَيْرِيْ بَنِي أَسَدْ . . .

بعمرو بن مَسْعودٍ وبالسَّيِدِ الصَّمَدْ

وقال الزجاج : هو الذي ينتهي إليه السُّؤدُد ، فقد صمد له كل شيء قصد قصده .

وتأويل صمود كل شيء له : أن في كل شيء أثر صُنْعه .

وقال ابن الأنباري : لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد : السيد الذي ليس فوقه أحد يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم .

والثاني : أنه الذي لا جوف له ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وابن جبير ، وعكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدي .

وقال ابن قتيبة : فكأن الدال من هذا التفسير مبدلة من تاء ، والمصمت من هذا .

والثالث : أنه الدائم .

والرابع : الباقي بعد فناء الخلق ، حكاهما الخطابي وقال : أصح الوجوه الأول ، لأن الاشتقاق يشهد له ، فإن أصل الصمد : القصد .

يقال : اصمد صمد فلان ، أي اقصد قصده .

فالصمد : السيد الذي يصمد إليه في الأمور ، ويقصد في الحوائج .

قوله تعالى : ﴿ لم يلد ﴾ قال مقاتل : لم يلد فيورَّث ﴿ ولم يولد ﴾ فيشارَك ، وذلك أن مشركي العرب قالوا : الملائكة بناتُ الرحمن .

وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، فبرَّأ نفسه من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ولم يكن له كفُوًا أحد ﴾ قرأ الأكثرون بالتثقيل والهمز .

ورواه حفص بالتثقيل وقلب الهمز واواً .

وقرأ حمزة بسكون الفاء .

والكفء : المثل المكافئ .

وفيه تقديم وتأخير ، تقديره : ولم يكن له أحد كفُوًا ، فقدّم وأخرّ لتتفق رؤوس الآيات .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 264. 269 ﴾

(127/838)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾

أي الواحد الوِتر ، الذي لا شبيه له ، ولا نظير ولا صاحبة ، ولا ولد ولا شريك .

وأصل "أَحَدٌ" : وَحَدٌ ؛ قُلبت الواو همزة .

ومنه قول النابغة :

بذِي الجَلِيلِ علَى مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ . . .

وقد تقدّم في سورة "البقرة" الفرق بين واحِد وأَحَدٍ ، وفي كتاب "الأَسْنَى ، في شرح أسماء

اللهِ الحسنى " أيضاً مُسْتَوفىً .

والحمدُ لله .

و ﴿ أَحَدٌ ﴾ مرفوع ، على معنى : هو أَحدٌ .

وقيل : المعنى : قل : الأمرُ والشأن : اللَّهُ أَحَد .

وقيل : "أَحَد" بدل من قوله : "الله" .

وقرأ جماعة "أَحَدُ اللَّه" بلا تنوين ، طلباً للخفة ، وفراراً مِن التقاء الساكنين ؛ ومنه قول الشاعر :

ولا ذاكرَ اللَّهَ إلاّ قَليلاَ . . .

﴿ الله الصمد ﴾ أي الذي يُصْمَد إليه في الحاجات .

كذا روَى الضحاك عن ابن عباس ، قال : الذي يُصْمَد إليه في الحاجات ؛ كما قال عز وجل : ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضر فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ [النحل : 53] .

قال أهل اللغة : الصمد : السيد الذي يُصْمد إليه في النوازل والحوائج .

قال :

أَلاَ بَكَرَ الناعِي بخيرِ بني أَسَدْ . . .

بعمرِو بن مَسْعُودٍ بالسيدِ الصَّمَد

وقال قوم : الصَّمَدُ : الدائم الباقي ، الذي لم يزل ولا يزال .

وقيل : تفسيره ما بعده ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .

قال أُبَيّ بن كَعْب : الصَّمَدُ : الذي لا يلِدُ ولا يُولَد ؛ لأنه ليس شيء إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا يُورث .

وقال عليّ وابن عباس أيضاً وأبو وائل شقِيق بن سلمة وسفيان : الصَّمَد : هو السيد الذي قد انتهى سُودَدُه في أنواع الشرف والسُّودَد ؛ ومنه قول الشاعر :

عَلَوتُهُ بحُسامٍ ثمّ قُلْتُ لَهُ . . .

خُذْهَا حُذَيفَ فأنتَ السّيِّدُ الصَّمَدُ

وقال أبو هريرة : إنه المستغنِي عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد .

وقال السدّيّ : إنه : المقصود في الرغائب ، والمستعان به في المصائب .

(128/838)

وقال الحسين بن الفضل : إنه الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وقال مقاتل : إنه : الكامل الذي لا عيب فيه ؛ ومنه قول الزبرقان :

سِيروا جميعاً بِنصفِ الليلِ واعتمِدُوا . . .

ولا رَهِينةَ إلاّ سَيّدٌ صَمَدُ

وقال الحسن وعِكرمة والضحاك وابن جُبير: الصَّمَد: المُصْمَتُ الّذي لا جَوْف له؛ قال الشاعر:

شِهابُ حُرُوبٍ لا تَزالُ جِيادُه . . .

عَوابِسَ يَعْلُكْنَ الشكِيمَ المُصَمَّدا

قلت: قد أتينا على هذه الأقوال مبينة في الصَّمَد، في (كتاب الأَسنَى) وأن الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق؛ وهو القول الأوّل، ذكره الخَطَّابي.

وقد أسقط مِن هذه السورة من أبعده الله وأخزاه، وجعل النار مقامه ومثواه، وقرأ "اللَّهُ الواحدُ الصَّمَدُ" في الصلاة، والناس يستمعون، فأَسْقَط: "قُلْ هو"، وزعم أنه ليس من القرآن.

وغيَّر لفظ "أَحَدٍ"، وادعى أن هذا هو الصواب، والذي عليه الناس هو الباطل والمحال؛ فأبطل معنى الآية؛ لأن أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جواباً لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: صِفْ لَنَا ربّك، أمِن ذهب هو أم مِن نحاس أم مِن صُفْر؟ فقال الله عز وجل رداً عليهم: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ففي "هُوَ" دلالة على موضع الردّ، ومكان الجواب، فإذا سقط بطل معنى الآية، وصح الافتراء على الله عز وجل، والتكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم.

ورَوى الترمذي عن أُبيّ بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

انْسُبْ لنا ربك ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * الله الصمد ﴾ .

والصَّمَد : الذي لم يلد ولم يُولَد ؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ : قال : لم يكن له شبيه ولا عدْل ، وليس كمثله شيء .

(129/838)

ورُوِي عن أبي العالية : إن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر آلهتهم فقالوا : انْسُب لنا ربّك .

قال : فأتاه جبريل بهذه السورة ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ ، فذكر نحوه ، ولم يذكر فيه عن أُبيّ بن كعب ، وهذا أصح ؛ قاله الترمذيّ .

قلت : ففي هذا الحديث إثبات لفظ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ وتفسير الصَّمَد ، وقد تقدّم .

وعن عكرمة نحوه .

وقال ابن عباس : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ كما وَلَدَتْ مَرْيم ، ولم يُولد كما وُلِدَ عيسى وعُزَيْرٌ .

وهو رد على النصارى ، وعلى من قال : عُزيرٌ ابن الله .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ أي لم يكن له مِثلاً أحد .

وفيه تقديم وتأخير ؛ تقديره : ولم يكن له كفواً أحد ؛ فقدّم خبر كان على اسمها ، لينساقَ

أواخرُ الآي على نظم واحد .

وقرِىء "كُفُواً" بضم الفاء وسكونها .

وقد تقدّم في "البقرة" أن كل اسم على ثلاثة أحرف أوّله مضموم ، فإنه يجوز في عينه الضم والإسكان ؛ إلا قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ [الزخرف : 15] لِعِلة تقدّمت .

وقرأ حفص "كفواً" مضموم الفاء غير مهموز .

وكلها لغات فصيحة .

القول في الأحاديث الواردة في فضل هذه السورة ؛ وفيه ثلاث مسائل :

الأولى : ثبت في صحيح البخاريّ عن أبي سعيد الخُدْريّ : " أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يردّدها ؛ فلما أصبح جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك له ، وكان الرجل يَتقالُّها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثُلُثَ القرْآن" " وعنه قال : " قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "أيعجِز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة" فشَقّ ذلك عليهم ، وقالوا : أينا يطِيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : "اللّهُ الواحدُ الصّمد ثُلُثُ القرآن" " خرجه مسلم من حديث أبي الدرداء بمعناه .

وخرج عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " احْشِدوا فإني سأقرأ عليكُم ثلثَ القُرْآن" ، فحشدَ مَنْ حَشَد ؛ ثم خرج نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء ، فذاك الذي أدخله .

ثم خرج فقال : "إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، أَلَا إنّها تَعْدِل ثلثَ القرآن"

قال بعض العلماء : إنها عَدَلَت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم ، الذي هو "الصَّمَد" ، فإنه لا يوجد في غيرها من السُّور .

وكذلك "أَحَدٌ" .

وقيل : إن القرآن أنزل أثلاثاً ، ثلثاً منه أحكام ، وثلثاً منه وعد ووعيد ، وثلثاً منه أسماء وصفات ؛ وقد جمعت ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ أحَدَ الأثلاث ، وهو الأسماء والصّفات .

ودل على هذا التأويل ما في صحيح مسلم ، من حديث أبي الدرداء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، قال : " إن الله جلّ وعز جزّأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فجعل ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ جزءاً من أجزاء القرآن " وهذا نَصٌّ ؛ وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص ، والله أعلم .

الثانية : روى مسلم عن عائشة : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على

سَرِية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم ، فيختم ب ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ ؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "سَلُوهُ لأيّ شَيء يصْنع ذلك ؟" فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، فأنا أحِبُّ أن أقرأ بها .

(131/838)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أخبروه أن الله عز وجل يحبه" " وروى الترمذيّ " عن أنس بن مالك قال : كان رجل من الأنصار يؤمّهم في مسجد قُباء ، وكان كلما افتتح سورة يقرؤها لهم في الصلاة فقرأ بها ، افتتح ب ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ ؛ حتى يفرغ منها ، ثم يقرأ بسورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ؛ فكلمه أصحابه ، فقالوا : إنك تقرأ بهذه السورة ، ثم لا ترى أنها تَجْزيك حتى تقرأَ بسُورة أخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى ؟ قال : ما أنا بتاركها وإن أحببتم أن أؤمّكم بها فعلت ، وإن كرهتم تركتكم ؛ وكانوا يرونه أفضلهم ، وكرهوا أن يؤمّهم غيره ؛ فلما أتاهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر ، فقال : "يا فلان ما يمنعك مما يأمر به أصحابك ؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة" ؟ فقال : يا رسول الله ، إني أحبها ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنّ حُبّها أدْخَلَكَ الجَنّة" " قال : حديث حسن غريب صحيح .

قال ابن العربيّ : "فكان هذا دليلا على أنه يجوز تكرار سورة في كل ركعة .

وقد رأيت على باب الأسباط فيما يقرب منه ، إماماً من جملة الثمانية والعشرين إماماً ، كان يصلي فيه التراويح في رمضان بالأتراك ؛ فيقرأ في كل ركعة "الحمد لله" و"قل هو الله أحد" حتى يتم التراويح ؛ تخفيفاً عليه ، ورغبة في فضلها وليس من السنة ختم القرآن في رمضان" .

قلت : هذا نص قولِ مالك ، قال مالك : وليس ختم القرآن في المساجد بسنة .

الثالثة : روى الترمذيّ " عن أنس بن مالك قال : أقبلت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم فسمع رجلاً يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وجبت" .

قلت : وما وجبت ؟ قال : "الجنة" " قال : هذا حديث حسن صحيح .

(132/838)

قال الترمذي : حدّثنا محمد بن مرزوق البصريّ قال حدّثنا حاتم بن ميمون أبو سهل عن ثابت البُنَانِيّ عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ كل يوم مائتي مرة قل هو الله أحد ، مُحِيَ عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين " وبهذا

الإسناد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من أراد أن ينام على فراشه ، فنام على يمينه ، ثم قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ مائة مرة ، فإذا كان يومَ القيامة يقول الرب : يا عبدي ، ادخل على يمينك الجنة " قال : هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس .

وفي مسند أبي محمد الدارميّ ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ خمسين مرة ، غفرت له ذنوب خمسين سنة " قال : وحدّثنا عبد الله بن يزيد قال : حدّثنا حَيْوة قال : أخبرني أبو عَقيل : أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ عشر مرات بُنِي له قصر في الجنة .

ومن قرأها عشرين مرة بُنِي له بها قصران في الجنة .

ومن قرأها ثلاثين مرة بُنِي له بها ثلاثة قصور في الجنة .

فقال عمر بن الخطاب : واللهِ يا رسول الله إذاً لَنُكْثِرَنّ قصورنا ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أوسع من ذلك " قال أبو محمد : أبو عقيل زُهْرة بن معبد ، وزعموا أنه كان من الأبدال .

وذكر أبو نَعيم الحافظ من حديث أبي العلاء يزيد بن عبد الله بن الشّخّير عن أبيه ؛ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مَنْ قَرَأَ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ في مرضه الذي يموت فيه ، لم يُفْتَن في قبره .

وأمن من ضغطةِ القبر.

وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها ، حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة" قال : هذا حديث غريب من حديث يزيد ، تفرد به نصر بن حماد البَجَليّ.

(133/838)

وذكر أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت الحافظ عن عيسى بن أبي فاطمة الرازي قَال سمعت مالك بن أنس يقول : إذا نُقِس بالناقوس اشتدّ غضب الرحمن ، فتنزل الملائكة ، فيأخذون بأقطار الأرض ، فلا يزالون يقرؤون ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى يسكُن غضبُه جل وعز.

وخَرّج من حديث محمد بن خالد الجَنَدِيّ عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من دخل يوم الجمعة المسجد ، فصلى أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ خمسين مرة فذلك مائتا مرة في أربع ركعات ، لم يَمُتْ حتى يرى منزله في الجنة أو يُرى له" وقال أبو عُمر مولى جرير بن عبد الله البجلِيّ ، عن جرير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حين يدخل منزله ، نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل وعن الجيران" وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مرة بورِك عليه ، ومن

قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله ، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى جميع جيرانه ، ومن قرأها اثنتي عشرة بنى الله له اثني عشر قصراً في الجنة ، وتقول الحفظة انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا ، فإن قرأها مائة مرة كفّر الله عنه ذنوب خمسين سنة ، ما خلا الدماء والأموال ، فإن قرأها أربعمائة مرة كفر الله عنه ذنوب مائة سنة ، ما خلا الدماء والأموال ، فإن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه في الجنة أو يرى له " وعن سهل بن سعد الساعديّ قال : " شكا رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقر وضيق المعيشة ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا دخلتَ البيت فسلِّمْ إن كان فيه أحد ، وإن لم يكن فيه أحد فسلم عليّ ، واقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مرة واحدة" ففعل الرجل فأدرّ الله عليه الرزق ، حتى أفاض عليه جيرانه " .

(134/838)

" وقال أنس : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتَبُوكَ ، فطلعت الشمس بيضاء لها شعاع ونور ، لم أرها فيما مضى طلعت قط كذلك ، فأتى جبريل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا جبريلُ ، ما لي أرى الشمس طلعت بيضاء بشعاع لم أرها طلعت كذلك فيما مضى قط" ؟ فقال : "ذلك لأن معاوية بن معاوية الليثي توفي بالمدينة اليوم ،

فبعث الله سبعين ألف ملك يُصَلُّون عليه" .

قال : "ومِمّ ذلك" ؟ قال : "كان يكثر قراءة ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ آناء الليل وآناء النهار ، وفي ممشاه وقيامه وقعوده ، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض ، فتصلي عليه" ؟ قال : "نعم" فصلى عليه ، ثم رجع " ذكره الثعلبي ، والله أعلم . انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(135/838)

وقال ابن كثير :

تفسير سورة الإخلاص

وهي مكية .

ذكر سبب نزولها وفضيلتها

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعد محمد بن مُيَسّر الصاغاني ، حدثنا أبو جعفر الرازي ، حدثنا الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبيّ بن كعب : أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ " (1) .

وكذا رواه الترمذي ، وابن جرير ، عن أحمد بن منيع - زاد ابن جرير : ومحمود بن خِدَاش - عن أبي سعد محمد بن مُيَسّر به (2) - زاد ابن جرير والترمذي - قال : " الصَّمَدُ " الذي لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وإن الله جل جلاله لا يموت ولا يورث ، " وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ " ولم يكن له شبه ولا عدل ، وليس كمثله شيء .

ورواه ابن أبي حاتم ، من حديث أبي سعد محمد بن مُيَسّر ، به . ثم رواه الترمذي عن عبد ابن حميد ، عن عبيد الله بن موسى ، عن أبي جعفر ، عن الربيع ، عن أبي العالية ، فذكره مرسلا ولم يذكر "أخبرنا" . ثم قال الترمذي : هذا أصح من حديث أبي سعد (3) .

حديث آخر في معناه : قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا سُرَيج بن يونس ، حدثنا إسماعيل بن مجالد ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر : أن أعرابيًا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : انسب لنا ربك . فأنزل الله ، عز وجل : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " إلى آخرها . إسناده مقارب .

وقد رواه ابن جرير عن محمد بن عوف ، عن سُرَيج فذكره (4) . وقد أرسله غير واحد من السلف .

وروى عُبيد بن إسحاق العطار ، عن قيس بن الربيع ، عن عاصم ، عن أبي وائل ، عن ابن مسعود قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : انسب لنا ربك ، فنزلت هذه

السورة : "قُلْ هُوَاللَّهُ أَحَدٌ"

---

(1) المسند (133/5) .

(2) سنن الترمذي برقم (3364) وتفسير الطبري (30/221 ، 223) .

(3) سنن الترمذي برقم (3365) .

(4) مسند أبي يعلى (4/38 ، 39) وتفسير الطبري (30/221) ، ومجالد ضعيف في روايته عن الشعبي عن جابر .

قال الطبراني : رواه الفريابي وغيره ، عن قيس ، عن أبي عاصم ، عن أبي وائل ، مرسلا (1) .

ثم رَوَى الطبراني من حديث عبد الرحمن بن عثمان الطائفي ، عن الوازع بن نافع ، عن أبي سلمة ، عن أبي هُرَيرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لكل شيء نسبة ، ونسبة الله : "قُلْ هُوَاللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ" والصمد ليس بأجوف] (2) .

حديث آخر في فضلها : قال البخاري : حدثنا محمد - هو الذُهليّ - حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنا عمرو ، عن ابن أبي هلال : أن أبا الرجال مُحمد بن

عبد الرحمن حَدثه ، عن أمه عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن - وكانت في حِجْر عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم - عن عائشة : أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلا على سَرِيَّة ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم ، فيختم ب " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : "سلوه : لأيّ شيء يصنع ذلك ؟" . فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "أخبروه أن الله تعالى يحبه" .

هكذا رواه في كتاب "التوحيد" (3) . ومنهم من يسقط ذكر "محمد الذّهلي" . ويجعله من روايته عن أحمد بن صالح . وقد رواه مسلم والنسائي أيضًا من حديث عبد الله بن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبي هلال ، به (4) .

---

(1) ورواه الطيالسي عن قيس ، عن عاصم ، عن أبي وائل مرسلا ، ورواه أبو الشيخ في العظمة برقم (89) .

(2) ورواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (3423) "مجمع البحرين" من طريق عبد الرحمن بن نافع ، عن علي بن ثابت ، عن الوازع ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة به ، وقال : "لا يروى عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد ، تفرد به عبد الرحمن" .

(3) صحيح البخاري برقم (7375) .

(4) صحيح مسلم برقم (813) ، وسنن النسائي (170/2) .

حديث آخر: قال البخاري في كتاب الصلاة: "وقال عُبَيد الله عن ثابت، عن أنس قال: كان رجل من الأنصار يَؤمَهم في مسجد قُبَاء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح ب "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" حتى يَفرُغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة. فكلَّمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تُجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فإما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتَقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم. وكانوا يَرَونَ أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يَؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم أخبروه الخبر، فقال: "يا فلان، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك، وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة؟". قال: إني أحبها. قال: "حُبك إياها أدخلك الجنة" (1).

هكذا رواه البخاري تعليقًا مجزومًا به. وقد رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه، عن البخاري، عن إسماعيل بن أبي أويس، عن عبد العزيز بن محمد الدراوردي، عن عُبَيد الله بن عمر، فذكر بإسناده مثله سواء (2). ثم قال الترمذي: غريب من حديث عبيد الله، عن ثابت. قال: وروى

(1) صحيح البخاري برقم (774) .

(2) سنن الترمذي برقم (2901) .

مُبَارك بن فَضالة ، عن ثابت ، عن أنس ، أن رجلا قال : يا رسول الله ، إني أحب هذه السورة : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " قال : "إن حُبَّك إياها أدخلك الجنة" .

وهذا الذي علقه الترمذي قد رواه الإمام أحمد في مسنده متصلا فقال :

حدثنا أبو النضر ، حدثنا مبارك بن فضالة ، عن ثابت ، عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أحب هذه السورة : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "حبك إياها أدخلك الجنة" (1) .

حديث في كونها تعدل ثلث القرآن : قال البخاري : حدثنا إسماعيل ، حدثني مالك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صَعْصَعَة ، عن أبيه ، عن أبي سعيد . أن رجلا سمع رَجُلا يقرأ : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالّها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

"والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن" . زاد إسماعيل بن جعفر ، عن مالك ، عن

عبد الرحمن بن عبد الله ، عن أبيه ، عن أبي سعيد قال : أخبرني أخي قتادة بن النعمان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (2) .

وقد رواه البخاري أيضا عن عبد الله بن يوسف ، والقَعْنَبِيّ . ورواه أبو داود عن القعنبي ، والنسائي عن قتيبة ، كلهم عن مالك ، به (3) . وحديث قتادة بن النعمان أسنده النسائي من طريقين ، عن إسماعيل بن جعفر ، عن مالك ، به (4) .

حديث آخر : قال البخاري : حدثنا عُمَر بن حفص ، حدثنا أبي ، حدثنا الأعمش ، حدثنا إبراهيم والضحاك المَشْرِقيّ ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ " . فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يُطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : "الله الواحد الصمد ثلث القرآن" (5) .

---

(1) المسند (3/141) .

(2) صحيح البخاري برقم (7374) .

(3) صحيح البخاري برقم (5013 ، 6643) وسنن أبي داود برقم (1461) وسنن النسائي (2/171) .

(4) سنن النسائي الكبرى برقم (8029) وبرقم (10536) .

(5) صحيح البخاري برقم (5015) .

تفرد بإخراجه البخاري من حديث إبراهيم بن يزيد النَّخعي والضحاك بن شُرَحبيل الهمداني المشرقي، كلاهما عن أبي سعيد، قال الفَرَبريّ: سمعت أبا جعفر محمد بن أبي حاتم وراق أُبي عبد الله قال: قال أبو عبد الله البخاري: عن إبراهيم مرسل، وعن الضحاك مسند (1).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهِيعَة، عن الحارث بن يزيد، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري قال: بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ"

---

(1) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (60/9): "والمراد أن رواية إبراهيم النخعي عن أبي سعيد منقطعة، ورواية الضحاك عنه متصلة"

فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "والذي نفسي بيده، لَتَعدِلُ نصف القرآن، أو ثلثه" (1).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا حُيَيّ بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي، عن عبد الله بن عمرو: أن أبا أيوب الأنصاري كان في مجلس وهو يقول: ألا يستطيع أحدكم أن يقوم بثلث القرآن كل ليلة؟ فقالوا: وهل يستطيع ذلك أحد؟ قال: فإن "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" ثلث القرآن. قال: فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسمع أبا أيوب، فقال: "صدق أبو أيوب" (2).

حديث آخر: قال أبو عيسى الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا يزيد بن كيسان، أخبرني أبو حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "احشُدوا، فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن". فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقرأ: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" ثم دخل فقال بعضنا لبعض: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن". إني لأرى هذا خبرًا جاء من السماء، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال: "إني قلت: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن".

وهكذا رواه مسلم في صحيحه، عن محمد بن بشار، به (3) وقال الترمذي: حسن صحيح غريب، واسم أبي حازم سلمان.

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن زائدة بن قُدَامة ، عن منصور ، عن هلال بن يَساف ، عن الربيع بن خُثَيم عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى ، عن امرأة من الأنصار ، عن أبي أيوب ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ فإنه من قرأ : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ " في ليلة ، فقد قرأ ليلتئذ ثلث القرآن" .

---

(1) المسند (15/3) .

(2) المسند (173/2) .

(3) سنن الترمذي برقم (2900) وصحيح مسلم برقم (812) .

(141/838)

هذا حديث تُسَاعيّ الإسناد للإمام أحمد . ورواه الترمذي والنسائي ، كلاهما عن محمد بن بشار بندار – زاد الترمذي وقتيبة – كلاهما عن عبد الرحمن بن مهدي ، به (1) . فصار لهما عُشَاريا . وفي رواية الترمذي : "عن امرأة أبي أيوب ، عن أبي أيوب" ، به [وحسنه] . ثم قال : وفي الباب عن أبي الدرداء ، وأبي سعيد ، وقتادة بن النعمان ، وأبي هريرة ، وأنس ، وابن عمر ، وأبي مسعود . وهذا حديث حسن ، ولا نعلم أحدًا رَوَى

هذا الحديث أحسن من رواية "زائدة" . وتابعه على روايته إسرائيل ، والفضيل بن عياض . وقد رَوَى شُعبةُ وغيرُ واحد من الثقات هذا الحديث عن منصور واضطربوا فيه .

(1) سنن الترمذي برقم (2896) وسنن النسائي (172/2) .

(142/838)

حديث آخر : قال أحمد : حدثنا هُشَيْم ، عن حُصَين ، عن هلال بن يَسَاف ، عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى ، عن أبيّ بن كعب – أو : رجل من الأنصار – قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ ب "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" فكأنما قرأ بثلث القرآن" (1) .

ورواه النسائي في "اليوم والليلة" ، من حديث هُشَيم ، عن حُصَين ، عن ابن أبي ليلى ، به (2) . ولم يقع في روايته : هلال بن يساف .

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن أبي قيس عن عمرو بن ميمون ، عن أبي مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" تعدُل ثلث القرآن" (3) .

وهكذا رواه ابن ماجة ، عن علي بن محمد الطَّنافسي ، عن وكيع ، به (4) . ورواه

النسائي في "اليوم والليلة" من طرق أخر، عن عمرو بن ميمون، مرفوعًا وموقوفًا (5).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا بَهْز، حدثنا بُكَير بن أبي السَّميط (6) حدثنا قتادة، عن سالم بن أبي الجعد، عن مَعْدَان بن أبي طلحة، عن أبي الدّرداء، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أيعجزُ أحدكم أن يَقرأ كلّ يوم ثلث القرآن؟". قالوا: نعم يا رسول الله، نحن أضعفُ من ذلك وأعجز. قال: "فإن الله جَزأ القرآن ثلاثة أجزاء، ف " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " ثلث القرآن".

ورواه مسلم والنسائي، من حديث قتادة، به (7).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا أمية بن خالد، حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم - ابن أخي ابن شهاب - عن عمه الزهري، عن حُمَيد بن عبد الرحمن - هو ابن عوف - عن أمه - وهي: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط - قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " تَعدل ثُلُثَ القرآن".

---

(1) المسند (141/5).

(2) سنن النسائي الكبرى برقم (10521).

(3) المسند (122/4).

(4) سنن ابن ماجة برقم (3789).

(5) سنن النسائي الكبرى برقم (10529، 10525، 10528).

(6) في أ : "حدثنا بكر بن أبي السمط" .

(7) المسند (447/1) وصحيح مسلم برقم (811) وسنن النسائي الكبرى برقم (10537) .

(143/838)

وكذا رواه النسائي في "اليوم والليلة" ، عن عمرو بن علي ، عن أمية بن خالد ، به (1) . ثم رواه من طريق مالك ، عن الزهري ، عن حُمَيد بن عبد الرحمن ، قوله (2) . ورواه النسائي أيضا في "اليوم والليلة" من حديث محمد بن إسحاق ، عن الحارث بن الفُضَيل الأنصاري ، عن الزهري ، عن حُمَيد بن عبد الرحمن : أن نَفَرًا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حَدثوه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

(1) سنن النسائي الكبرى برقم (10531) .

(2) سنن النسائي الكبرى برقم (10533) .

(144/838)

" قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " تَعدل ثُلُثَ القرآن لمن صلى بها " (1) .

حديث آخر في كون قراءتها توجب الجنة : قال الإمام مالك بن أنس ، عن عبيد الله بن عبد الرحمن ، عن عُبيد بن حُنَين قال : سمعت أبا هريرة يقول : أقبلت مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمع رجلا يقرأ " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وَجَبَتْ" . قلت : وما وَجَبت ؟ قال : "الجنة" .

ورواه الترمذي والنسائي ، من حديث مالك (2) . وقال الترمذي : حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من حديث مالك .

وتقدم حديث : "حُبّك إياها أدخلك الجنة" .

حديث في تكرار قراءتها : قال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا قَطن بن نُسير ، حدثنا عيسى ابن ميمون القرشي ، حدثنا يزيد الرقاشي ، عن أنس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أما يستطيع أحدكم أن يقرأ : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " ثلاث مرات في ليلة فإنها تعدل ثُلث القرآن ؟ " (3)

هذا إسناد ضعيف ، وأجود منه حديث آخر ، قال عبد الله بن الإمام أحمد :

حدثنا محمد بن أبي بكر المُقَدمي ، حدثنا الضحاك بن مخلد ، حدثنا ابن أبي ذئب ، عن أسيدُ ابن أبي أسيد ، عن معاذ بن عبد الله بن خُبيب ، عن أبيه قال : أصابنا طَش وظلمة ، فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بنا ، فخرج فأخذ بيدي ، فقال : "قل" .

فسكت . قال : "قل" . قلت : ما أقول ؟ قال : " "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" " والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثًا ، تكفك كل يوم مرتين" .

ورواه أبو داود والترمذي والنسائي ، من حديث ابن أبي ذئب ، به (4) . وقال الترمذي : حسن صحيح غريب من هذا الوجه . وقد رواه النسائي من طريق أخرى ، عن معاذ بن عبد الله بن خبيب ، عن أبيه ، عن عقبة بن عامر ، فذكره [ولفظه : "يكفك كل شيء"] (5) .

---

(1) سنن النسائي الكبرى برقم (10532) .

(2) الموطأ (208/2) وسنن الترمذي برقم (2897) وسنن النسائي (171/2) .

(3) مسند أبي يعلى (150/8) ، وقال الهيثمي في المجمع (147/7) : "فيه عبيس ، وهو متروك" .

(4) زوائد المسند (312/5) وسنن أبي داود برقم (5082) وسنن الترمذي برقم (3575) وسنن النسائي (250/8) .

(5) سنن النسائي (251/8) .

حديث آخر في ذلك : قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا ليث بن سعد ، حدثني الخليل بن مرة ، عن الأزهر بن عبد الله ، عن تميم الداري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قال : لا إله إلا الله واحدًا أحدًا صمدًا ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ، ولم يكن له كفوا أحدا ، عشر مرات ، كُتِب له أربعون ألف ألف حسنة" .

تفرد به أحمد (1) والخليل بن مُرّة : ضعفه البخاري وغيره بمُرّة .

حديث آخر : قال أحمد أيضا : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لَهِيعَة ، حدثنا زَبَّان بن

---

(1) المسند (103/4) .

فائد ، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" حتى يختمها ، عشر مرات ، بنى الله له قصرًا في الجنة" . فقال عمر : إذن نستكثر يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : "الله أكثر وأطيب" .

تفرد به أحمد (1) .

ورواه أبو محمد الدارمي في مسنده فقال : حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا حيوة ، حدثنا

أبو عقيل زهرة بن معبد – قال الدارمي : وكان من الأبدال – أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " عشر مرات ، بنى الله له قصرًا في الجنة ، ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين في الجنة ، ومن قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاثة قصور في الجنة" . فقال عمر بن الخطاب : إذا لتكثر قصورنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الله أوسع من ذلك" (2) . وهذا مرسل جيد .

حديث آخر : قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا نصر بن علي ، حدثني نوح بن قيس ، أخبرني محمد العطار ، أخبرتني أم كثير الأنصارية ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " خمسين مرة غُفرت له . ذنوب خمسين سنة" (3) إسناده ضعيف .

حديث آخر : قال أبو يعلى : حدثنا أبو الربيع ، حدثنا حاتم بن ميمون ، حدثنا ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ في يوم : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " مائتي مرة ، كتب الله له ألفًا وخمسمائة حسنة إلا أن يكون عليه دين" (4) . إسناده ضعيف ، حاتم بن ميمون : ضعفه البخاري وغيره . ورواه الترمذي ، عن محمد بن مرزوق البصري ، عن حاتم بن ميمون ، به . ولفظه : "من قرأ كل يوم ، مائتي مرة : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " محي عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دَين" .

---

(1) المسند (437/3) .

(2) سنن الدارمي برقم (3429) .

(3) ورواه الدارمي في السنن برقم (3438) : حدثنا نصر بن علي بمثله سواء .

(4) مسند أبي يعلى (103/6) .

(147/838)

قال الترمذي : وبهذا الإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من أراد أن ينام على فراشه ، فنام على يمينه ، ثم قرأ : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " مائة مرة ، فإذا كان يوم القيامة يقول له الرب ، عز وجل : يا عبدي ، ادخُل على يمينك الجنة" (1) . ثم قال : غريب من حديث ثابت ، وقد رُوي من غير هذا الوجه ، عنه .

وقال أبو بكر البزار : حدثنا سهل بن بحر ، حدثنا حَبّان بن أغلب ، حدثنا أبي ، حدثنا ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " مائتي مرة ، حط الله عنه ذنوب مائتي سنة" (2) . ثم قال : لا نعلم رواه عن ثابت إلا الحسن بن أبي جعفر ، والأغلب بن

---

(1) سنن الترمذي برقم (2898) .

(2) ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن برقم (267) والخطيب في تاريخ بغداد (187/6) من طريق الحسن بن أبي جعفر، عن ثابت به.

(148/838)

تميم، وهما متقاربان في سوء الحفظ.

حديث آخر في الدعاء بما تضمنته من الأسماء: قال النسائي عند تفسيرها: حدثنا عبد الرحمن بن خالد، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني مالك بن مِغْول، حدثنا عبد الله بن بُرَيدة، عن أبيه: أنه دخل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد فإذا رجل يصلي، يدعو يقول: اللهم، إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. قال: "والذي نفسي بيده، لقد سأله باسمه الأعظم، الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب" (1).

وقد أخرجه بَقِيَّة أصحاب السنن من طرُق، عن مالك بن مِغْول، عن عبد الله بن بُرَيدة، عن أبيه، به (2). وقال الترمذي: حسن غريب.

حديث آخر في قراءتها عشر مرات بعد المكتوبة: قال الحافظ أبو يعلى [الموصلي]: حدثنا عبد الأعلى، حدثنا بشر بن منصور، عن عمر بن نبهان عن أبي شداد، عن

جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث من جاء بِهِنّ مع الإيمان دَخَل من أيّ أبواب الجنة شاء، وزُوّج من الحور العين حيث شاء: من عفا عن قاتله، وأدى دينا خفيا، وقرأ في دبر كل صلاة مكتوبة عشر مرات: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ". قال: فقال أبو بكر: أو إحداهن يا رسول الله؟ قال: "أو إحداهن" (3)

حديث في قراءتها عند دخول المنزل: قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر السراج العسكري، حدثنا محمد بن الفرج، حدثنا محمد بن الزبرقان، عن مروان بن سالم، عن أبي زُرْعَة بن عمرو بن جرير، عن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرأ: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" حين يدخل منزله، نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل والجيران" (4). إسناده ضعيف.

---

(1) سنن النسائي الكبرى كما في تحفة الأشراف للمزي (2/90).

(2) سنن أبي داود برقم (1493) وسنن الترمذي برقم (3475) وسنن ابن ماجة برقم (3857).

(3) مسند أبي يعلى (3/332)، وقال الهيثمي في المجمع (10/102): "فيه عمر بن نبهان وهو متروك".

(4) المعجم الكبير (2/340).

حديث في الإكثار من قراءتها في سائر الأحوال: قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا محمد بن إسحاق المسيبي، حدثنا يزيد بن هارون، عن العلاء بن (1) محمد الثقفي قال: سمعت أنس بن مالك يقول: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك، فطلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم نرها طلعت فيما مضى

(1) كذا ترجمه البخاري في التاريخ (507/6)، وابن حبان في المجروحين (181/2)، وترجمه ابن أبي حاتم في الجرح (355/6)، والذهبي في الميزان (106/3)، كذا: "العلاء بن يزيد، أبو محمد الثقفي" وكأن هذا هو الراجح، لكن أثبتنا الأول لكونه وقع في النسخ هكذا، وكذلك في مسند أبي يعلى، أما الدلائل فقد وقع فيه على الكنية فأثبتناه كما هو فيه.

بمثله ، فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا جبريل ، ما لي أرى الشمس طلعت اليوم بضياء ونور وشعاع لم أرها طلعت بمثله فيما مضى ؟ " . قال : إن ذلك معاوية بن معاوية الليثي ، مات بالمدينة اليوم ، فبعث الله إليه سبعين ألف ملك يصلون عليه . قال : "وفيم ذلك ؟ " قال : كان يكثر قراءة : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " في الليل وفي النهار ، وفي ممشاه وقيامه وقعوده ، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض فتصلي عليه ؟ قال : "نعم" . فصلى عليه .

وكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في [كتاب] دلائل النبوة" من طريق يزيد بن هارون ، عن العلاء أبي محمد (1) - وهو متهم بالوضع - فالله أعلم .

طريق أخرى : قال أبو يعلى : حدثنا محمد بن إبراهيم الشامي أبو عبد الله ، حدثنا عثمان بن الهيثم - مؤذن مسجد الجامع بالبصرة عندي - عن محمود أبي عبد الله (2) عن عطاء بن أبي ميمونة ، عن أنس قال : نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : مات معاوية بن معاوية الليثي ، فتحب أن تصلي عليه ؟ قال : "نعم" . فضرب بجناحه الأرض ، فلم تبق شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت ، فرفع سريره فنظر إليه ، فكبر عليه وخلفه صفان من الملائكة ، في كل صف سبعون ألف ملك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "يا جبريل ، بم نال هذه المنزلة من الله تعالى ؟ " . قال بحبه : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " وقراءته إياها ذاهبًا وجائيًا قائمًا وقاعدًا ، وعلى كل حال (3) .

ورواه البيهقي، من رواية عثمان بن الهيثم المؤذن، عن محبوب بن هلال، عن عطاء بن أبي ميمونة، عن أنس، فذكره. وهذا هو الصواب (4)، ومحبوب بن هلال قال أبو حاتم الرازي: "ليس بالمشهور" (5). وقد روي هذا من طرق أخر، تركناها اختصارًا، وكلها ضعيفة.

---

(1) مسند أبي يعلى (256/7) ودلائل النبوة (245/5).

(2) وقع في أصل مسند أبي يعلى: "محمود بن عبد الله" ووقع هنا: "محمود أبي عبد الله" -كما ترى- والصواب: "محبوب ابن هلال" كما في رواية البيهقي، والله أعلم.

(3) مسند أبي يعلى (258/7).

(4) دلائل النبوة (246/5) ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن برقم (272)، من طريق محبوب بن هلال به، وساقه المؤلف في البداية والنهاية من رواية البيهقي (14/5)، وقال: "منكر من هذا الوجه".

(5) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (389/8).

حديث آخر في فضلها مع المعوذتين : قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا معاذ بن رفاعة ، حدثني علي بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتدأته فأخذتُ بيده ، فقلت : يا رسول الله ، بم نجاة المؤمن ؟ قال : "يا عقبة ، احْرُسْ لسانك وليسعك بيتُك ، وابْكِ على خطيئتك" . قال : ثم لقيني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتدأني فأخذ بيدي ، فقال : "يا عقبة بن عامر ، ألا أعلمك خير ثلاث سُوَر أنزلت في التوراة ، والإنجيل ،

والزبور ، والقرآن العظيم ؟" . قال : قلت : بلى ، جعلني الله فداك . قال : فأقرأني : "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" و "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ" و "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" ثم قال : "يا عقبة ، لا تَنْسَهُن ولا تَبِتْ ليلة حتى تقرأهن" . قال : فما نسيتهن منذ قال : "لا تنسهن" ، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن . قال عقبة ، ثم لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فابتدأته ، فأخذت بيده ، فقلت : يا رسول الله ، أخبرني بفواضل الأعمال . فقال : "يا عقبة ، صِلْ من قطعك ، وأعْطِ من حَرَمَك ، وأعرض عمن ظلمك" (1)

روى الترمذي بعضه في "الزهد" ، من حديث عُبيد الله بن زحر ، عن علي بن يزيد وقال :

هذا حديث حسن (2) . وقد رواه أحمد من طريق آخر :

حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا ابن عياش ، عن أسيد بن عبد الرحمن الخَثْعَمي ، عن فرْوَة بن مجاهد اللخمي ، عن عقبة بن عامر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكر مثله سواء . تفرد به أحمد (3) .

حديث آخر في الاستشفاء بهن : قال البخاري : حدثنا قتيبة ، حدثنا المفضل ، عن عُقَيل ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كُل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما : " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " و " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ " و " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ " ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات .

وهكذا رواه أهل السنن ، من حديث عُقَيل ، به (4) .

---

(1) المسند (148/4) .

(2) سنن الترمذي برقم (2406) ، وفي إسناده عبيد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم كلهم ضعفاء ، قال ابن حبان في عبيد الله بن زحر : "يروي الموضوعات عن الأثبات ، وإذا روي عن علي بن يزيد أتى الطامات ، وإذا اجتمع في إسناده خبر عبيد الله ، وعلي بن يزيد ، والقاسم – أبو عبد الرحمن – لم يكن ذلك الخبر إلا مما عملته أيديهم" .

(3) المسند (158/4) .

(4) صحيح البخاري برقم (5017) وسنن أبي داود برقم (5056) وسنن الترمذي برقم (3402) وسنن النسائي الكبرى برقم (10624) وسنن ابن ماجة برقم (3875) .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4) ﴾

قد تقدم ذكر سبب نزولها . وقال عكرمة : لما قالت اليهود : نحن نعبد عُزيرا ابن الله . وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن الله . وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر . وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان - أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

يعني : هو الواحد الأحد ، الذي لا نظير له ولا وزير ، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يُطلَق

هذا اللفظ على أحد في الإثبات إلا على الله ، عز وجل ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله .

وقوله : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ قال عكرمة ، عن ابن عباس : يعني الذي يصمد الخلائق إليه في حوائجهم ومسائلهم .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : هو السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه ، هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شيء ، سبحان الله الواحد القهار .

وقال الأعمش ، عن شقيق عن أبي وائل : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ السيد الذي قد انتهى سؤدده ، ورواه عاصم ، بن أبي وائل ، عن ابن مسعود ، مثله .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ السيد . وقال الحسن ، وقتادة : هو الباقي بعد خلقه . وقال الحسن أيضا : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ الحي القيوم الذي لا زوال له . وقال عكرمة : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم .

وقال الربيع بن أنس : هو الذي لم يلد ولم يولد . كأنه جعل ما بعده تفسيرًا له ، وهو قوله : ﴿

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وهو تفسير جيد . وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير، عن أبي بن كعب في ذلك، وهو صريح فيه .

وقال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعبد الله بن بُريدة ، وعكرمة أيضا ، وسعيد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح ، وعطية العوفي ، والضحاك ، والسدي : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ الذي لا جوف له .

قال سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ المصمت الذي لا جوف له .

وقال الشعبي : هو الذي لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب .

وقال عبد الله بن بُرَيدة أيضًا : ﴿ الصَّمَدُ ﴾ نور يتلألأ .

روى ذلك كلَّه وحكاه : ابن أبي حاتم ، والبيهقي والطبراني ، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده ، وقال :

حدثني العباس بن أبي طالب ، حدثنا محمد بن عمرو بن رومي ، عن عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش ، حدثني صالح بن حيان ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال – لا أعلم إلا

قد رفعه – قال: ﴿ الصَّمَدُ ﴾ الذي لا جوف له.

وهذا غريب جدًا، والصحيح أنه موقوف على عبد الله بن بريدة.

(156/838)

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له، بعد إيراده كثيرًا من هذه الأقوال في تفسير "الصمد": وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا، عز وجل، وهو الذي يُصمَد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤدده، وهو الصمد الذي لا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي بعد خلقه. وقال البيهقي نحو ذلك [أيضا].

وقوله: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي: ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة.

قال مجاهد: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ يعني: لا صاحبة له.

(157/838)

وهذا كما قال تعالى : ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : 101] أي : هو مالك كل شيء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ، تعالى وتقدس وتنزه . قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم : 88 - 95] وقال تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : 26 ، 27] وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : 158 ، 159] وفي الصحيح - صحيح البخاري - : "لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا ، وهو يرزقهم ويعافيهم" (1) .

وقال البخاري : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هُرَيرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "قال الله ، عز وجل : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يُعيدَني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته . وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولدًا . وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد" .

(1) صحيح البخاري برقم (6099) من حديث أبي موسى ، رضي الله عنه .

(158/838)

ورواه أيضا من حديث عبد الرزاق ، عن مَعْمَر ، عن همام بن مُنَبِّه ، عن أبي هريرة ، مرفوعًا بمثله . تفرد بهما من هذين الوجهين . (1)

آخر تفسير سورة "الإخلاص" . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 8 صـ 518 . 529 ﴾

(1) صحيح البخاري برقم (4974) وبرقم (4975) .

(159/838)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ قل هو الله أحد ﴾

عن أبي بن كعب " أن المشركين قالوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) انسب لنا ربك ،

فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ والصّمد الذي لم يلد ، ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وإن الله لا يموت ولا يورث ، ولم يكن له كفواً أحد .

قال لم يكن له شبيه ، ولا عديل ، وليس كمثله شيء " أخرجه التّرمذي وقال : وقد روي عن أبي العالية أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ذكر آلهتهم ، فقالوا انسب لنا ربك ، فأتاه جبريل بهذه السّورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وذكر نحوه ، ولم يذكر فيه عن أبي بن كعب ، وهذا أصح وقال ابن عباس أن عامر بن الطفيل ، وأربد بن ربيعة أتيا النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال عامر : إلام تدعونا يا محمد قال إلى الله قال صفه لنا أمن ذهب هو أم من فضة ، أم من حديد ، أم من خشب ، فنزلت هذه السّورة ، وأهلك الله أربد بالصاعقة وعامر بالطاعون ، وقد تقدم ذكرهما في سورة الرّعد ، وقيل جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقالوا صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك ، فإن الله تعالى أنزل نعته في التوراة ، فأخبرنا من أي شيء هو ، وهل يأكل ويشرب ، وممن ورث الربوبية ، ولمن يورثها ، فأنزل الله هذه السّورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يعني الذي سألتموني عنه هو الله الواحد في الألوهية ، والرّبوبية الموصوف بصفات الكمال والعظمة المنفرد عن الشبه ، والمثل والنظير ، وقيل لا يوصف أحد بالأحدية غير الله تعالى فلا يقال رجل أحد ، ودرهم أحد بل أحد صفة من صفات الله تعالى .

(160/838)

استأثر بها فلا يشركه فيها أحد ، والفرق بين الواحد ، والأحد أن الواحد يدخل في الأحد ، ولا ينعكس ، وقيل إن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد في النفي تقول في الإثبات رأيت رجلاً واحداً ، وفي النفي ما رأيت أحداً ، فتفيد العموم ، وقيل الواحد هو المنفرد بالذات فلا يضاهيه أحد ، والأحد هو المنفرد بالمعنى فلا يشاركه فيه أحد ﴿ الله الصمد ﴾ قال ابن عباس : الصمد الذي لا جوف له وبه قال جماعة من المفسرين ، ووجه ذلك من حيث اللّغة أن الصّمد الشيء المصمد الصّلب الذي ليس فيه رطوبة ، ولا رخاوة ، ومنه يقال لسداد القارورة الصماد .

فإن فسر الصمد بهذا كان من صفات الأجسام ، ويتعالى الله جلّ وعزّ عن صفات الجسمية ، وقيل وجه هذا القول إن الصمد الذي ليس بأجوف ، معناه هو الذي لا يأكل ، ولا يشرب ، وهو الغني عن كل شيء ، فعلى هذا الاعتبار هو صفة كمال ، والقصد بقوله الله الصّمد التّنبيه على أنه تعالى بخلاف من أثبتوا له الإلهية ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

(161/838)

﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾

[المائدة : 75] وقيل الصّمد الذي ليس بأجوف شيئان أحدهما دون الإنسان ، وهو سائر الجمادات الصّلبة والثاني أشرف من الإنسان وأعلى منه وهو البارىء جل وعز وقال أبي بن كعب الصمد الذي لم يلد ، ولم يولد لأن من يولد سيموت ، ومن يموت يورث منه . وروى البخاري في أفراده عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال : الصّمد هو السّيد الذي انتهى سؤدده ، وهي رواية عن ابن عباس ، أيضاً قال هو السيد الذي كمل فيه جميع أوصاف السؤدد ، وقيل هو السيد المقصود في جميع الحوائج المرغوب إليه في الرغائب المستعان به عند المصائب ، وتفريج الكرب وقيل هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وتلك دالة على أنه المتناهي في السودد والشرف ، والعلو والعظمة ، والكمال والكرم والإحسان ، وقيل الصمد الدائم الباقي بعد فناء خلقه ، وقيل الصمد الذي ليس فوقه أحد ، وهو قول علي ، وقيل هو الذي لا تعتريه الآفات ولا تغيره الأوقات وقيل هو الذي لا عيب فيه وقيل الصمد هو الأول الذي ليس له زوال والآخر الذي ليس لملكه انتقال . والأولى أن يحمل لفظ الصمد على كل ما قيل فيه لأنه محتمل له ، فعلى هذا يقتضي أن لا يكون في الوجود صمد سوى الله تعالى العظيم القادر على كل شيء وأنه اسم خاص بالله تعالى انفرد به له الأسماء الحسنى

والصّفات العليا

﴿ ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير ﴾

(162/838)

[الشورى؟ : 11] . قوله عز وجل : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ وذلك أن مشركي العرب قالوا الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النّصارى المسيح ابن الله فكذبهم الله عز وجل ، ونفى عن نفسه ما قالوا بقوله ﴿ لم يلد ﴾ يعني كما ولد عيسى ، وعزير ، ﴿ ولم يولد ﴾ معناه أن من ولد كان له والد فنفى عنه إحاطة النسب من جميع الجهات ، فهو الأول الذي لم يتقدمه ، والد كان عنه وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه ، ومن كان كذلك فهو الذي لم يكن له كفواً أحد ، أي ليس له من خلقه مثل ، ولا نظير ولا شبيه فنفى عنه . بقوله ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ العديل والنّظير ، والصّاحبة والولد (خ) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قال الله عز وجل : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ، ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إيّاي فقوله لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله اتخذ الله ولداً وأنا الأحد

الصمد الذي لم يلد ، ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد " والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 319. 322 ﴾

(163/838)

وقال النسفى :

سورة الإخلاص

أربع آيات مكية عند الجمهور وقيل : مدنية عند أهل البصرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

هو ضمير الشأن و ﴿ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ هو الشأن كقولك : هو زيد منطلق كأنه قيل : الشأن هذا وهو أن الله واحد لا ثاني له ، ومحل ﴿ هُوَ ﴾ الرفع على الابتداء والخبر هو الجملة ، ولا يحتاج إلى الراجح لأنه في حكم المفرد في قولك : زيد غلامك في أنه هو المبتدأ في المعنى ، وذلك أن قوله ﴿ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ هو الشأن الذي عبارة عنه وليس : كذلك زيد أبوه منطلق ، فإن زيداً أو الجملة يدلان على معنيين مختلفين فلا بد مما يصل بينهما .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : قالت قريش : يا محمد صف لنا ربك الذي تدعونا إليه

فنزلت .

يعني الذي سألتموني وصفه هو الله تعالى .

وعلى هذا ﴿ أَحَدٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي هو أحد وهو بمعنى واحد ، وأصله وحد فقلبت الواو همزة لوقوعها طرفاً .

والدليل على أنه واحد من جهة العقل أن الواحد إما أن يكون في تدبير العالم وتخليقه كافياً أولاً ، فإن كان كافياً كان الآخر ضائعاً غير محتاج إليه وذلك نقص والناقص لا يكون إلهاً ، وإن لم يكن كافياً فهو ناقص .

ولأن العقل يقتضي احتياج المفعول إلى فاعل والفاعل الواحد كافٍ وما وراء الواحد فليس عدد أولي من عدد فيفضي ذلك إلى وجود أعداد لا نهاية لها وذا محال .

فالقول بوجود إلهين محال ، ولأن أحدهما إما أن يقدر على أن يستر شيئاً من أفعاله عن الآخر أو لا يقدر ، فإن قدر لزم كون المستور عنه جاهلاً ، وإن لم يقدر لزم كونه عاجزاً .

(164/838)

ولأنا لو فرضنا معدوماً ممكن الوجود فإن لم يقدر واحد منهما على إيجاده كان كل واحد منهما عاجزاً والعاجز لا يكون إلهاً ، وإن قدر أحدهما دون الآخر فالآخر لا يكون إلهاً ،

وإن قدراً جميعاً فإما أن يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجاً إلى إعانة الآخر فيكون كل واحد منهما عاجزاً ، وإن قدر كل واحد منهما على إيجاده بالاستقلال فإذا أوجده أحدهما فإما أن يبقى الثاني قادراً عليه وهو محال ، لأن إيجاد الموجود محال ، وإن لم يبق فحينئذ يكون الأول مزيلاً قدرة الثاني فيكون عاجزاً ومقهوراً تحت تصرفه فلا يكون إلهاً .

فإن قلت : الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد زالت قدرته فيلزمكم أن يكون هذا الواحد قد جعل نفسه عاجزاً .

قلنا : الواحد إذا أوجد مقدور نفسه فقد نفذت قدرته ، ومن نفذت قدرته لا يكون عاجزاً ، وأما الشريك فما نفذت قدرته بل زالت قدرته بسبب قدرة الآخر فكان ذلك تعجيزاً .

﴿ اللهُ الصمد ﴾ هو فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده ، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج .

والمعنى هو الله الذي تعرفونه وتقرون بأنه خالق السماوات والأرض وخالقكم ، وهو واحد لا شريك له ، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق ولا يستغنون عنه وهو الغني عنهم ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا ، وقد دل على هذا المعنى بقوله : ﴿ أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صاحبة ﴾ [الأنعام : 101] ﴿ وَلَمْ يُولَدْ

﴾ لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده إذ لو لم يكن قديماً لكان حادثاً لعدم الواسطة بينهما ، ولو كان حادثاً لافتقر إلى محدث ، وكذا الثاني والثالث فيؤدي إلى التسلسل وهو باطل .

(165/838)

وليس بجسم لأنه اسم للمتركب ولا يخلو حينئذ من أن يتصف كل جزء منه بصفات الكمال فيكون كل جزء إلهاً فيفسد القول به كما فسد بإلهين ، أو غير متصف بها بل بأضدادها من سمات الحدوث وهو محال ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ولم يكافئه أحد أي لم يماثله .

سألوه أن يصفه لهم فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته تعالى ، فقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ ﴾ إشارة إلى أنه خالق الأشياء وفاطرها ، وفي طي ذلك وصفه بأنه قادر عالم لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم لكونه واقعاً على غاية إحكام واتساق وانتظام ، وفي ذلك وصفه بأنه حي لأن المتصف بالقدرة والعلم لا بد وأن يكون حياً ، وفي ذلك وصفه بأنه سميع بصير مريد متكلم إلى غير ذلك من صفات الكمال ، إذ لو لم يكن موصوفاً بها لكان موصوفاً بأضدادها وهي نقائص وذا من أمارات الحدوث فيستحيل اتصاف القديم بها ، وقوله : ﴿ أَحَدٌ ﴾ وصف بالوحدانية ونفي الشريك ، وبأنه المتفرد بإيجاد المعدومات والمتوحد بعلم الخفيات

، وقوله : ﴿ الصمد ﴾ وصف بأنه ليس إلا محتاجاً إليه وإذا لم يكن إلا محتاجاً إليه فهو غني لا يحتاج إلى أحد ويحتاج إليه كل أحد ، وقوله ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ نفي للشبه والمجانسة ،

وقوله ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ نفي للحدوث ووصف بالقدم والأولية .

وقوله ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ نفي أن يماثله شيء .

ومن زعم أن نفي الكفء وهو المثل في الماضي لا يدل على نفيه للحال والكفار يدعونه في الحال فقد تاه في غيه ، لأنه إذا لم يكن فيما مضى لم يكن في الحال ضرورة إذ الحادث لا يكون كفؤاً للقديم ، وحاصل كلام الكفرة يئول إلى الإشراك والتشبيه والتعطيل ، والسورة تدفع الكل كما قررنا ، واستحسن سيبويه تقديم الظرف إذا كان مستقراً أي خبراً لأنه لما كان محتاجاً إليه قدم ليعلم من أول الأمر أنه خبر لا فضلة ، وتأخيره إذا كان لغواً أي فضلة لأن التأخير مستحق للفضلات .

وإنما قدم في الكلام الأفصح لأن الكلام سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه ، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان الأهم تقديمه .

وكان أبو عمر ويستحب الوقف على احد ولا يستحب الوصل قال عبد الوارث على هذا

أدركنا القراء واذا وصل نون وكسر أو حذف التنوين كقراءة عزير بن الله كفؤا بسكون الفاء والهمزة حمزة وخلف كفوا مثقله غير مهموزة حفص الباقون مثقلة مهموزة وفى الحديث من قرأ سورة الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن لأن القرآن يشتمل على توحيد الله وذكر صفاته وعلى الأوامر والنواهى وعلى القصص والمواعظ وهذه السورة قد تجردت للتوحيد والصفات فقد تضمنت ثلث القرآن وفيه دليل شرف علم التوحيد وكيف لا يكون كذلك والعلم يشرف بشرف المعلوم ويتضع بضعته ومعلوم هذا العلم فى زمرة العالمين بك العاملين لك الراجين لثوابك الخائفين من عقابك المكرمين بلقائك وسمع رسول الله صلى الله عليه و سلم رجلا يقرأ قل هو الله أحد فقال وجبت فقيل يا رسول الله ما وجبت قال وجبت له الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 383. 385 ﴾

(167/838)

وقال ابن جزى :

سورة الإخلاص

واختلف في معنى قوله صلى الله عليه سلم : " ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن "

فقيل : إن ذلك في الثواب ، أي لمن قرأها من الأجر مثل أجر من قرأ ثلث القرآن ، وقيل : إن

ذلك فيما تضمنته من المعاني والعلوم ؛ وذلك أن علوم القرآن ثلاثة : توحيد وأحكام وقصص ، وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد فهي ثلث القرآن بهذا الاعتبار ، وهذا أظهر وعليه حمل ابن عطية الحديث . ويؤيده أن بعض روايات الحديث : " إن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء ، فجعل قل هو الله أحد جزءاً من أجزاء القرآن " وأخرج النسائي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقرؤها فقال : أما هذا فقد غفر له " وفي رواية أنه قال : " وجبت له الجنة " ، وأخرج مسلم " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سرية فكان يقرأ لأصحابه في الصلاة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سلوه لأي شيء يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبروه أن الله يحبه " وفي رواية خرّجها الترمذي " أنه صلى الله عليه وسلم قال للرجل : حبك إياها أدخلك الجنة " وحرّج الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مائة مرة كل يوم غفرت له ذنوب خمسين سنة إلا أن يكون عليه دين .

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ الضمير هنا عند البصريين ضمير الأمر والشأن والذي يراد به التعظيم والتفخيم ، وإعرابه مبتدأ وخبره الجملة التي بعده وهي المفسرة له ، والله مبتدأ وأحد خبره . وقيل : الله هو الخبر وأحد بدل منه وقيل : الله بدل وأحد هو الخبر . وأحد له معنيان أحدهما أن يكون من أسماء النفي التي لا تقع إلا في غير الواجب كقولك : ما جاءني أحد وليس هذا موضع هذا المعنى وإنما موضعه قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ والآخر أن يكون بمعنى واحد وأصله واحد بواو ثم أبدل من الواو همزة وهذا هو المراد هنا .

واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حق الله تعالى . الأول : أنه واحد لا ثاني معه فهو نفي للعدد . والثاني : أنه واحد لا نظير ولا شريك له كما تقول : فلان واحد عصره أي لا نظير له . والثالث : أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض ، والأظهر أن المراد في السورة نفي الشريك لقصد الرد على المشركين ومنه قوله تعالى : ﴿ وإلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ [البقرة : 163] قال الزمخشري : أحد وصفُ بالوحدانية ونفي الشركاء .

قلت : وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته وذلك في القرآن كثيراً جداً أوضحها أربعة براهين : الأول قوله : ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ﴾ [النحل : 17] لأنه أذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات لم يمكن أن يكون واحد منها شريكاً له ، والثاني قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : 22] والثالث قوله : ﴿ قُلْ لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لاَّبْتَغَوْاْ إلى ذِي العرش سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : 42] والرابع قوله : ﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إله إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ ﴾ [المؤمنون : 91] وقد فسرنا هذه الآيات في مواضعها وتكلمنا على حقيقة التوحيد في قوله : ﴿ وإلهكم إله وَاحِدٌ ﴾ [البقرة : 163] .

(170/838)

﴿ الله الصمد ﴾ في معنى الصمد ثلاثة أقوال : أحدها : أن الصمد الذي يُصمَد إليه في الأمور أي يلجأ إليه . والآخر : أنه لا يأكل ولا يشرب فهو كقوله : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام : 14] والثالث : أنه الذي لا جوف له ، والأول هو المراد هنا على الأظهر ، ورجحه ابن عطية بأن الله موجد الموجودات وبه قوامها ، فهي مفتقرة إليه إي تصمد إليه إذ لا تقوم بأنفسها . ورجّحه شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير لورود معناه في القرآن

حيثما ورد نفي الولد عن الله تعالى كقوله في مريم " وقالوا اتخذ الله ولداً " ثم أعقبه بقوله : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلَّا آتِي الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 93] وقوله : ﴿ بَدِيعُ السماوات والأرض أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ﴾ [الأنعام : 101] وقوله : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سبحانه بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض ﴾ [البقرة : 116] وكذلك هنا ذكره مع قوله لم يلد فيكون برهاناً على نفي الولد ، قال الزمخشري : صمد فَعَل بمعنى مفعول لأنه مصمود إليه في الحوائج .

(171/838)

﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ . هذا ردّ على كل من جعل لله ولداً فمنهم النصارى في قولهم : " عيسى ابن الله " واليهود في قولهم : " عزيز ابن الله " والعرب في قولهم : " الملائكة بنات الله " وقد أقام الله البراهين في القرآن على نفي الولد ، وأوضحها أربعة أقوال : الأول : أن الولد لا بد أن يكون من جنس والده . والله تعالى ليس له جنس فلا يمكن أن يكون له ولد وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ مَّا المسيح ابن مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطعام ﴾ [المائدة : 75] فوصفهما بصفة الحدوث لينفي عنهما صفة القدم فتبطل مقالة الكفار . والثاني : أن الوالد إنما يتخذ ولداً للحاجة إليه ، والله لا يفتقر إلى

شيء فلا يتخذ ولداً وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ قَالُواْ اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ [يونس : 68] الثالث : أن جميع الخلق عباد الله والعبودية تنافي النبوة وإلى هذا أشار بقوله تعالى : ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 93] الرابع أنه لا يكون له ولد إلا لمن له زوجة ، والله تعالى لم يتخذ زوجة فلا يكون له ولد وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : ﴿ أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صاحبة ﴾ [الأنعام : 101] .

﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ هذا رد على الذين قالوا : أنسب لنا ربك ، وذلك أن كل مولود محدث ، والله تعالى هو الأول الذي لا افتتاح لوجوده ، القديم الذي كان ولم يكن معه شيء غيره ، فلا يمكن أن يكون مولوداً تعالى عن ذلك .

(172/838)

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ الكفؤ هو النظير والمماثل قال الزمخشري : يجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح ، فيكون نفياً للصاحبة . وهذا بعيد والأول هو الصحيح ومعناه أن الله ليس له نظير ولا شبيه ولا مثيل ، ويجوز في كفواً ضم الفاء وإسكانها مع ضم الكاف . وقد قرئ بالوجهين ويجوز أيضاً كسر الكاف وإسكان الفاء ، ويجوز كسر الكاف وفتح

الفاء والمدّ ويجوز فيه الهمزة والتسهيل وانتصب كفواً على أنه خبر كان ، وأحد اسمها ،
قال ابن عطية : ويجوز أن يكون كفواً حالها لكونه كان صفة للنكرة فقدم عليها ، فإن قيل :
لم قدَّم المجرور وهو له على أسم كان وخبرها ، وشأن الظرف إذا وقع غير خبر أن يؤخر ؟
فالجواب : من وجهين : أحدهما : أنه قدم للاعتناء به والتعظيم ، لأنه ضمير الله تعالى
وشأن العرب تقديم ما هو أهم وأولى . والآخر : أن هذا المجرور به يتم معنى الخبر وتكمل
فائدته ، فنه ليس المقصود نفي الكفؤ مطلقاً إنما المقصود نفي الكفؤ عن الله تعالى ، فلذلك
اعتنى بهذا المجرور الذي يحرز هذا المعنى ، فقدم .

فإن قيل : إن قوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ يقتضي نفي الولد والكفؤ فلم نص على ذلك
بعده ؟ فالجواب : أن هذا من التجريد ، وهو تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في عموم
ما تقدم ، كقوله تعالى : ﴿ وملائكته وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وميكال ﴾ [البقرة : 98] ويفعل
ذلك لوجهين يصح كل واحد منهما هنا ؛ أحدهما : الإعتناء ، ولا شك أن نفي الولد
والكفؤ عن الله ينبغي الاعتناء به للرد على من قال خلاف ذلك من الكفار . والآخر :
الإيضاح والبيان ، فإن دخول الشيء في ضمن العموم ليس كالنص عليه فنص على هذا
بياناً ، وإيضاحاً للمعنى ومبالغة في الرد على الكفار ، وتأكيداً لإقامة الحجة عليهم . انتهى
انتهى . اهـ ﴿ التسهيل حـ 4 صـ 233 . 225 ﴾

وقال البيضاوى :

سورة الإخلاص

مختلف فيها ، وآيها أربع آيات بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾

الضمير للشأن كقولك : هو زيد منطلق وارتفاعه بالإبتداء وخبره الجملة ولا حاجة إلى العائد لأنها هي هو ، أو لما سُئِلَ عنهُ صلى الله عليه وسلم أي الذي سألتموني عنه هو الله ، إذ " روي أن قريشاً قالوا : يا محمد صف لنا ربك الذي تدعونا إليه فنزلت " واحد بدل أو خبر ثان يدل على مجامع صفات الجلال كما دل الله على جميع صفات الكمال إذا الواحد الحقيقي ما يكون منزه الذات عن أنحاء التركيب والتعدد ، وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للألوهية وقرىء "هو الله" بلا ﴿ قُلْ ﴾ مع الاتفاق على أنه لا بد منه في ﴿ قُلْ يا أَيُّهَا الكافرون ﴾ ، ولا يجوز في "تبت" ، ولعل ذاك لأن سورة "الكافرون" مشاقة الرسول أو موادعته لهم و "تبت" معاتبة عمه فلا يناسب أن تكون منه ، وأما هذا فتوحيد يقول به تارة ويؤمر بأن يدعو إليه أخرى .

﴿ اللهُ الصمد ﴾ السيد المصمود إليه في الحوائج من صمد إليه إذا قصد ، وهو الموصوف

به على الإِطلاق فإنه يستغني عن غيره مطلقاً ، وكل ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته ، وتعريفه لعلمهم بصمديته بخلاف أحديته وتكرير لفظة ﴿ الله ﴾ للإشعار بأن من لم يتصف به لم يستحق الألوهية ، وإخلاء الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى أو الدليل عليها .

﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ لأنه لم يجانس ولم يفتقر إلى ما يعينه أو يخلف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه ، ولعل الاقتصاد على لفظ الماضي لوروده رداً على من قال الملائكة بنات الله ، أو المسيح ابن الله أو ليطابق قوله : ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وذلك لأنه لا يفتقر إلى شيء ولا يسبقه عدم .

(174/838)

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي ولم يكن أحد يكافئه أو يماثله من صاحبة أو غيرها ، وكان أصله أن يؤخر الظرف لأنه صلة ﴿ كُفُواً ﴾ لكن لما كان المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى قدم تقديماً للأهم ، ويجوز أن يكون حالاً من المستكن في ﴿ كُفُواً ﴾ أو خبراً ، ويكون ﴿ كُفُواً ﴾ حالاً من ﴿ أَحَدٌ ﴾ ، ولعل ربط الجمل الثلاث بالعطف لأن المراد منها نفي أقسام المكافأة فهي كجملة واحدة منبهة عليها بالجمل ، وقرأ حمزة ويعقوب ونافع في رواية "كُفْواً" بالتخفيف ، وحفص ﴿ كُفُواً ﴾ بالحركة وقلب الهمزة واواً ، ولاشتمال

هذه السور مع قصرها على جميع المعارف الإلهية والرد على من ألحد فيها ،

" جاء في الحديث أنها تعدل ثلث القرآن " فإن مقاصده محصورة في بيان العقائد والأحكام والقصص ومن عدلها بكله اعتبر المقصود بالذات من ذلك .

وعنه صلى الله عليه وسلم ، " أنه سمع رجلاً يقرؤها فقال : "وجبت" " قيل : يا رسول الله وما وجبت قال : " وجبت له الجنة " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 549.547 ﴾

---

(1) رواه البخاري ، ومن أنه صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً يقرؤها الخ فرواه الترمذي والنسائي وغيرهما .

(175/838)

وقال أبو حيان :

سورة الإخلاص

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) ﴾

عن ابن عباس ، أن اليهود قالوا : يا محمد صف لنا ربك وانسبه ، فنزلت .

وعن أبي العالية ، قال قادة الأحزاب : انسب لنا ربك ، فنزلت .

فإن صح هذا السبب ، كان هو ضميراً عائداً على الرب ، أي ﴿ قل هو الله ﴾ أي ربي الله ، ويكون مبتدأ وخبراً ، وأحد خبر ثان .

وقال الزمخشري : وأحد يدل من قوله : ﴿ الله ﴾ ، أو على هو أحد ، انتهى .

وإن لم يصح السبب ، فهو ضمير الأمر ، والشان مبتدأ ، والجملة بعده مبتدأ وخبر في موضع خبر هو ، وأحد بمعنى واحد ، أي فرد من جميع جهات الوحدانية ، أي في ذاته وصفاته لا يتجزأ .

وهمزة أحد هذا بدل من واو ، وإبدال الهمزة مفتوحة من الواو قليل ، من ذلك امرأة إناة ، يريدون وناة ، لأنه من الوني وهو الفتور ، كما أن أحداً من الوحدة .

وقال ثعلب : بين واحد وأحد فرق ، الواحد يدخله العدد والجمع والاثنان ، والأحد لا يدخله .

يقال : الله أحد ، ولا يقال : زيد أحد ، لأن الله خصوصية له الأحد ، وزيد تكون منه حالات ، انتهى .

وما ذكر من أن أحداً لا يدخله ما ذكر منقوض بالعدد .

وقرأ أبان بن عثمان ، وزيد بن علي ، ونصر بن عاصم ، وابن سيرين ، والحسن ، وابن أبي إسحاق ، وأبو السمال ، وأبو عمرو في رواية يونس ، ومحبوب ، والأصمعي ، واللؤلؤي ، وعبيد ، وهارون عنه : ﴿ أحد . . .

الله ﴾ بحذف التنوين لالتقائه مع لام التعريف وهو موجود في كلام العرب وأكثر ما يوجد في الشعر نحو قوله :

ولا ذاكراً الله إلا قليلاً . . .

ونحو قوله :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه . . .

﴿ الله الصمد ﴾ : مبتدأ وخبر ، والأفصح أن تكون هذه جملاً مستقلة بالأخبار على سبيل الاستئناف ، كما تقول : زيد العالم زيد الشجاع .

وقيل : الصمد صفة ، والخبر في الجملة بعده ، وتقدم شرح الصمد في المفردات .

وقال الشعبي ، ويمان بن رياب : هو الذي لا يأكل ولا يشرب .

(176/838)

وقال أبيّ بن كعب : يفسره ما بعده ، وهو قوله : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ .

وقال الحسن : الصمد : المصمت الذي لا جوف له ، ومنه قوله :

شهاب حروب لا تزال جياده . . .

عوابس يعلكن الشكيم المصمدا

وفي كتاب التحرير أقوال غير هذه لا تساعد عليها اللغة .

وقال ابن الأنباري : لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد هو السيد الذي ليس فوقه أحد ، الذي يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم .

قال الزمخشري : ﴿ لم يلد ﴾ ، لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا ، ودل على هذا المعنى بقوله : ﴿ أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ ﴿ ولم يولد ﴾ : لأن كل مولود محدث وجسم ، وهو قديم لا أول لوجوده ، وليس بجسم ولم يكافئه أحد .

يقال له كفو ، بضم الكاف وكسرها وفتحها مع سكون الفاء ، وبضم الكاف مع ضم الفاء .

وقرأ حمزة وحفص : بضم الكاف وإسكان الفاء ، وهمز حمزة ، وأبدلها حفص واواً .

وباقي السبعة : بضمهما والهمز ، وسهل الهمزة الأعرج وأبو جعفر وشيبة ونافع ، وفي رواية عن نافع أيضاً كفا من غير همز ، نقل حركة الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة .

وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس : كفاء بكسر الكاف وفتح الفاء والمد ، كما قال النابغة :

لا تعذفني بركن لا كفاء له . . .

الأعلم لا كفاء له : لا مثيل له .

وقال مكي سيبويه : يختار أن يكون الظرف خبراً إذا قدمه ، وقد خطأه المبرد بهذه الآية ، لأنه قدم الظرف ولم يجعله خبراً ، والجواب أن سيبويه لم يمنع إلغاء الظرف إذا تقدم ، إنما

أجاز أن يكون خبراً وأن لا يكون خبراً .

ويجوز أن يكون حالاً من النكرة وهي أحد .

لما تقدم نعتها عليها نصب على الحال ، فيكون له الخبر على مذهب سيبويه واختياره ، ولا يكون للمبرد حجة على هذا القول ، انتهى .

وخرجه ابن عطية أيضاً على الحال .

(177/838)

وقال الزمخشري : فإن قلت : الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم ، وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه ، فما باله مقدماً في أفصح الكلام وأعربه ؟ قلت : هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه وتعالى ، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف ، فكان لذلك أهم شيء وأعناه وأحقه بالتقديم وأحراه ، انتهى .

وهذه الجملة ليست من هذا الباب ، وذلك أن قوله : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ليس الجار والمجرور فيه تاماً ، إنما هو ناقص لا يصلح أن يكون خبراً لكان ، بل هو متعلق بكفواً وقدم عليه .

فالتقدير : ولم يكن أحد كفواً له ، أي مكافئه ، فهو في معنى المفعول متعلق بكفواً .

وتقدم على كفواً للاهتمام به ، إذ فيه ضمير الباري تعالى .

وتوسط الخبر ، وإن كان الأصل التأخر ، لأن تأخر الاسم هو فاصلة فحسن ذلك .

وعلى هذا الذي قررناه يبطل إعراب مكي وغيره أن له الخبر وكفواً حال من أحد ، لأنه ظرف ناقص لا يصلح أن يكون خبراً ، وبذلك يبطل سؤال الزمخشري وجوابه .

وسيبويه إنما تكلم في هذا الظرف الذي يصلح أن يكون خبراً ، ويصلح أن يكون غير خبر .

قال سيبويه إنما تكلم في هذا الظرف الذي يصلح أن يكون خبراً ، ويصلح أن يكون غير خبر .

قال سيبويه : وتقول : ما كان فيها أحد خير منك ، وما كان أحد مثلك فيها ، وليس أحد فيها خير منك ، إذا جعلت فيها مستقراً ولم تجعله على قولك : فيها زيد قائم .

أجريت الصفة على الاسم ، فإن جعلته على : فيها زيد قائم ، نصبت فتقول : ما كان فيها أحد خيراً منك ، وما كان أحد خيراً منك فيها ، إلا أنك إذا أردت الإلغاء ، فكلما أخرت الملغى كان أحسن .

وإذا أردت أن يكون مستقراً ، فكلما قدمته كان أحسن ، والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير .

قال تعالى : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

وقال الشاعر :

ما دام فيهن فصيل حياً . . .

انتهى .

وما نقلناه ملخصاً .

(178/838)

وهو بألفاظ سيبويه ، فأنت ترى كلامه وتمثيله بالظرف الذي يصلح أن يكون خبراً .

ومعنى قوله : مستقراً ، أي خبراً للمبتدأ ولكان .

فإن قلت : فقد مثل بالآية الكريمة .

قلت : هذا الذي أوقع مكياً والزمخشري وغيرهما فيما وقعوا فيه ، وإنما أراد سيبويه أن الظرف التام هو في قوله :

ما دام فيهن فصيل حياً . . .

أجرى فضلة لا خبراً .

كما أن له في الآية أجرى فضلة ، فجعل الظرف القابل أن يكون خبراً كالظرف الناقص في كونه لم يستعمل خبراً ، ولا يشك من له ذهن صحيح أنه لا ينعقد كلام من قوله : ولم يكن له

أحد ، بل لو تأخر كفواً وارتفع على الصفة وجعل له خبراً ، لم ينعقد منه كلام ، بل أنت ترى أن النفي لم يتسلط إلا على الخبر الذي هو كفو ، وله متعلق به ، والمعنى : ولم يكن له أحد مكافئه .

وقد جاء في فضل هذه السورة أحاديث كثيرة ، ومنها أنها تعدل ثلث القرآن ، وقد تكلم العلماء على ذلك ، وليس هذا موضعه ، والله الموفق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(179/838)

وقال العلامة نظام الدين النيسابورى :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) ﴾

القراءات : كانوا أبو عمرو يستحب الوقف على قوله ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وإذا وصل كان له وجهان من القراءة : أحدهما التنوين وكسره ، والثاني حذف التنوين كقراءة عزير بن الله لاجتماع الساكنين ، وكل صواب ﴿ وكفؤاً ﴾ بالسكون والهمزة : حمزة وخلف وعباس والمفضل وإسماعيل ورويس عن يعقوب . وكان حمزة يقف ساكنة الفاء ملينة الهمزة ويجعلها شبه الواو إتباعاً للمصحف . وقرأ حفص غير الخراز مثقلاً غير مهموز .

الباقون : مثقلاً مهموزاً .

الوقوف : ﴿ أحد ﴾ ه ج لاحتمال أن ما بعدها جملة أخرى أو خبران آخران ﴿ الصمد ﴾ ه ج لمثل ذلك ﴿ ولم يولد ﴾ لا ﴿ أحد ﴾ ه .

(180/838)

التفسير : قد وردت الأخبار الكثيرة بفضل سورة الإخلاص وأنها تعدل ثلث القرآن فاستنبط العلماء لذلك وجهاً مناسباً وهو أن القرآن مع عزارة فوائده اشتمل على ثلاثة معانٍ فقط : معرفة ذات الله تعالى وتقدّس ، ومعرفة صفاته وأسمائه ، ومعرفة أفعاله وسننه مع عباده . ولما تضمنت سورة الإخلاص أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس ، وازنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلث القرآن . " وعن أنس أن رجلاً كان يقرأ في جميع صلاته " قل هو الله أحد " فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : يا رسول الله إني أحبها فقال : حبك إياها يدخلك الجنة " أما سبب نزولها فعن أبيّ بن كعب أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك فأنزل الله تعالى هذه السورة . وعن عطاء عن ابن عباس قال : قدم وفد نجران فقالوا : صف لنا ربك أزبرجد أم ياقوت أم ذهب أم فضة . فقال : إن ربي ليس من شيء لأنه خلق الأشياء فنزلت ﴿ قل هو الله

أحد ﴾ فقالوا : هو واحد وأنت واحد فقال ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ [الشورى : 11] قالوا : زدنا من الصفة . قال ﴿ الله الصمد ﴾ فقالوا : وما الصمد ؟ قال : الذي يصمد الخلق إليه في الحوائج فقالوا : زدنا فقال ﴿ لم يَلد ﴾ كما ولدت مريم ﴿ ولم يولد ﴾ كما ولد عيسى ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ يريد نظيراً من خلقه . ولشرف هذه السورة سميت بأسماء كثيرة أشهرها الإخلاص لأنها تخلص العبد من الشرك أو من النار . وقد يقال لها سورة التفريد أو التجريد أو التوحيد أو النجاة أو الولاية لأن من قرأها صار من أولياء الله أو المعرفة لما روى جابر أن رجلاً صلى فقرأ السورة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هذا عبد عرف ربه . أو الجمال لقوله صلى الله عليه وسلم " إن الله جميل يحب الجمال " ومن كمالات الجميل كونه عديم النظير . أو الأساس لقوله صلى الله عليه وسلم " أسست السموات السبع والأرضون اسبع على ﴿ قل هو الله أحد ﴾ "

(181/838)

وثالثها أن الواحد يستعمل في الإثبات كقولك " رأيت رجلاً واحداً " والأحد يستعمل في النفي نحو " ما رأيت أحداً " فيفيد العموم . قلت : ولعلّ وجه تخصيص الله بالأحد هو هذا المعنى وذلك أنه أبسط الأشياء وكأنك قلت : إنه لا جزء له أصلاً بوجه من الوجوه

ومن هنا قال بعضهم : إن الأحد يدل على جميع المعاني السلبية ككونه ليس بجوهر ولا عرض ولا متحيز وغير ذلك كما أن اسم الله يدل على مجامع الصفات الإضافية لأن الله اسم للمعبود بالحق واستحقاق العبادة لا يتجه إلا إذا كان مبدأ لجميع ما سواه عالماً قادراً إلى غير ذلك . وأما لفظة ﴿ هو ﴾ فإنها تدل على نفس الذات فتبين أن قوله ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يدل على الذات والصفات جميعاً .

وههنا لطيفة وهي أن قوله ﴿ هو ﴾ إشارة إلى مرتبة السابقين الذين لا يرون معه شيئاً آخر فيكفي الكناية بالنسبة إليهم ، وأما اسم ﴿ الله ﴾ فإشارة إلى مرتبة أصحاب اليمين وهم الذين عرفوه بالبرهان مستدلين على الوجوب بالإمكان فهم ينظرون إلى الحق وإلى الخلق جميعاً فيحتاجون في التمييز إلى اسمه العلم . وأما " الأحد " فرمز إلى أدون المراتب الإنسانية وهم أصحاب الشمال الذي يثبتون مع الله إلهاً آخر فوجب التنبيه على إبطال معتقدهم بأن الله أحد لا شريك له أو لا جزء بوجه من الوجوه ، وبعبارة أخرى هو للأخص والله للخواص وأحد للعموم . وأما " الصمد " فقيل : إنّه فعل بمعنى " مفعول " من صمده إذا قصده أي هو السيد المقصود إليه في الحوائج كما مرّ في الحديث الوارد في سبب النزول .

وقيل : هو الذي لا جوف له ومنه قولهم لسداد القارورة " صماد " وشيء مصمد أي صلب ليس فيه رخاوة . قال ابن قتيبة : يجوز على هذا التفسير أن تكون الدال بدل التاء في " مصمت " . وقال بعض المتأخرين من أهل اللغة : الصمد هو الأملس من الحجر لا يقبل الغبار ولا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء . ولا يخفى أن هذين المعنيين من صفات الأجسام حقيقة إلا أن مقدّمة الآية وهي ﴿ الله أحد ﴾ تمنع من حملهما على حقيقتهما لأن كل جسم مركب فوجب الحمل على المجاز وهو أنه لوجوب ذاته ممتنع التغير في وجوده وبقائه وسائر صفاته ، ومن هنا اختلفت عبارات المفسرين فعن بعضهم : الصمد هو العالم بجميع المعلومات لأن كونه مبدأ مرجوعاً إليه في قضاء الحاجات لا يتم إلا بذلك . وعن ابن مسعود والضحاك : هو السيد الذي انتهى سودده . وقال الأصم : هو الخلق للأشياء لأن السيد الحقيقي هو هو . وقال السدي : هو المقصود في الرغائب المستغاث عند المصائب . وقال الحسن بن الفضل : هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

ويحتمل أن يراد بالأخير نفي المصاحبة لأن المصاهرة تستدعي الكفاءة شرعاً وعقلاً فيكون رداً على من حكى الله عنهم في قوله ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾]

الصافات : 158] قاله مجاهد .

سؤال : قد نص سيبويه في كتابه على أن الخبر قد يقدم على الاسم في باب "كان" ولكن تعلق الخبر حينئذ لا يتقدم على الخبر كيلا يلزم العدول عن الأصل بمرتبتين فكيف قدم الصرف على الاسم والخبر جميعاً ؟ أجاب النحويون عنه بأن هذا الظرف وقع بياناً للمحذوف كأنه قال : ولم يكن أحد فقيل : لمن ؟ فأجيب بقوله "له" نظيره قوله ﴿ وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ [يوسف : 20] وقوله ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ [الصافات : 102] . انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 6 صـ 593 . 597 ﴾

(184/838)

وقال الثعالبى :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) ﴾

رُوِيَ أَنَّ اليهودَ دَخَلُوا عَلَى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : يا مُحَمَّدُ ؛ صِفْ لَنَا رَبَّكَ وانْسِبْه ، فإنَّه وَصَفَ نَفْسَهُ في التوراةِ وَنَسَبَها ، فارْتَعَدَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مِنْ قولِهم حَتَّى خَرَّ مغشياً عليه ، ونَزَلَ جبريل بهذِهِ السورة .

و ﴿ أَحَدٌ ﴾ مَعناه : واحدٌ فَرْدٌ مِنْ جميعِ جِهَاتِ الوَحْدَانِيَّة ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ و ﴿ هُوَ

﴿ ابتداءٌ ، و ﴿ الله ﴾ ابتداءٌ ثانٍ ، و ﴿ أَحَدٌ ﴾ خَبَرُه والجملةُ خَبَرُ الأوَّلِ ، وقيل هو ابتداءُ و ﴿ الله ﴾ خبرُه و ﴿ أَحَدٌ ﴾ بَدَلٌ منه ، وقَرَأَ عمر بن الخطاب وغَيْرُهُ : «قُلْ هُوَ اللَّهُ الواحِدُ الصَّمَدُ» و ﴿ الصمد ﴾ في كلامِ العربِ السيدُ الذي يُصْمَدُ إليه في الأُمُورِ وَيَسْتَقِلُّ بها وأَنْشَدُوا : [الطويل]

لَقَدْ بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرِ بَنِي أَسَدِ . . . بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

وبهذا تَتَفَسَّرُ هذه الآيةُ لأَنَّ اللَّهَ تعالى جلت قدرته هُوَ مُوجِدُ المَوْجُودَاتِ وإليه تَصْمُدُ وبه قِوَامُها سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ رَدٌّ على إشارَةِ الكفارِ في النَّسَبِ الذي سأَلُوه ، وقال ابن عباس : تَفَكَّرُوا في كل شَيْءٍ ولا تتفكروا في ذاتِ اللَّه ، قال *ع* : لأَنَّ الأَفْهَامَ تَقِفُ دونَ ذلك حَسِيرَةً .

(185/838)

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ معناه ليس له ضِدٌّ ، ولا نِدٌّ ولا شبيهٌ ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى : 11] ، والكُفُؤُ النَّظِيرُ و«كفواً» خبر كان واسمها ﴿ أَحَدٌ ﴾ . قال *ص* : وحَسُنَ تأخيرُ اسمها لِوُقُوعِه فاصلةً ، وله

مُتَعَلِّقٌ ب ﴿ كفؤًا ﴾ أي : لَمْ يَكُنْ أحَدٌ كُفُؤًا لَهُ ، وقُدِّمَ اهتماماً به لِاشْتِمالِهِ على ضميرِ البَارِي سبحَانه ، انتهى ، وفِي الحديثِ الصحيحِ عنه صلى الله عليه وسلم " إنَّ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ القرآن " ، قال *ع* : لِمَا فِيهَا مِنَ التوحيدِ ، ورَوَى أبو محمدٍ الدارميّ في «مسندهِ» قال : حدثنا عبد اللَّه بن مزيد حدثنا حيوة قال : أخبرنا أبو عقيل ، أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مَنْ قَرَأَ : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ إحْدَى عَشَرَةَ مَرَّةً بُنِيَ لَهُ قصرٌ في الجنةِ ، ومَنْ قَرَأَها عِشْرِينَ مرةً ، بُنِيَ له قَصْرَانِ في الجنةِ ، ومَنْ قرأها ثَلاثِينَ مرةً ؛ بُنِيَ له ثلاثة قُصورٍ في الجنة . فقال عمر بن الخطاب : إذَنْ تَكْثُرُ قصورُنَا يا رسولَ اللَّهِ ؛ فقَال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم : اللَّهُ أوْسَعُ من ذلك " [أي : فَضْلُ اللَّهِ أوْسَعُ مِنْ ذَلَك] . قال الدارمي : أبو عقيل هو زهرة بن معبد ، وزعموا أنه من الأبدَالِ ، انتهى من «التذكرة» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(186/838)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الإخلاص

مكية في قول ابن مسعود والحسن وعطاء وعكرمة، ومدنية في أحد قولي ابن عباس وقتادة والضحاك والسدّي، وهي أربع آيات وخمس عشرة كلمة وسبعة وأربعون حرفاً.

﴿بسم الله﴾ الذي له جميع الكمال ذي الجلال والجمال ﴿الرحمن﴾ الذي أفاض على جميع خلقه عموم الأفضال ﴿الرحيم﴾ الذي خص أهل وداده من نور الإنعام بالإتمام والأكمال.

واختلف في سبب نزول سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ فروى أبو العالية عن أبيّ بن كعب: أنّ المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنسب لنا ربك فنزلت. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال عامر: إلى من تدعنا يا محمد؟ فقال: إلى الله تعالى، قال: صفه لنا، أمن ذهب هو أم من فضة أم من حديد أم من خشب فنزلت، واهلك الله تعالى أربد بالصاعقة وعامر من الطفيل بالطاعون. وقال الضحاك وقتادة ومقاتل: جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك، فإنّ الله تعالى أنزل صفته في التوراة فأخبرنا من أي: شيء هو، وهل يأكل ويشرب، ومن ورث ومن يرثه فنزلت.

تنبيه: هو ضمير الشأن وهو مبتدأ وخبره الله، وأحد بدل أو خبر ثان يدل على مجامع صفات الجلال كما دل الله تعالى على جميع صفات الكمال؛ إذ الواحد الحقيقي ما يكون

منزه الذات عن التركيب والتعدّد وما يستلزم أحدهما كالجسيمة والتحيز والمشاركة في الحقيقة، وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامّة المقضية للألوهية.

فائدة: جاء في الواحد عن العرب لغات كثيرة، يقال: واحد وأحد ووحد ووحيد ووحاد وأحاد وموحد وأوحد، وهذا كله راجع إلى معنى الواحد، وإن كان في ذلك معان لطيفة ولم يجيء في صفات الله تعالى إلا الواحد والأحد.

(187/838)

وقوله تعالى: ﴿ اللهُ ﴾، أي: الذي ثبتت إلهيته وأحديته لا غيره مبتدأ خبره ﴿ الصمد ﴾ وأخلى هذه الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى، أو الدليل عليها.

والصمد: السيد المصمود إليه في الحوائج، والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقرّون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم، وهو واحد متوحد بالإلوهية ولا يشارك فيها وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه، وهو الغني عنهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: الصمد هو الذي لا جوف له، وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل ولا يشرب، وقال الربيع: هو الذي لا تعتريه الآفات، وقال مقاتل بن حبان: هو الذي لا عيب فيه، وقال قتادة: هو الباقي بعد فناء خلقه، وقال سعيد بن جبير: هو

الكامل في جميع صفاته وأفعاله ، وقال السدّي : هو المقصود إليه في الرغائب المستغاث به عند المصائب . تقول العرب : صمدت فلاناً أصمده صمداً بسكون الميم إذا قصدته .

وعن أبيّ بن كعب : هو الذي ﴿ لم يلد ﴾ لأنّ من يلد سيموت ، ومن يرث يورث عنه ففسر الصمد بما بعده . وينبغي أن تجعل هذه التفاسير كلها تفسيراً واحداً فإنه متصف بجميعها فكونه لم يلد لأنه لم يجانس ولم يفتقر إلى من يعينه ، أو يخلف عنه لامتناع الحاجة والفناء عليه لدوامه في أبديته ، والاقتصار على الماضي لوروده ردّا على من قال الملائكة بنات الله ، أو العزيز أو المسيح أو غيره .

ولما بين أنه لا فصل له ظهر أنه لا جنس له فدل عليه بقوله تعالى :

﴿ ولم يولد ﴾ لأنه لو تولد عنه غيره تولد هو عن غيره كما هو المعهود والمعقول ، فهو قديم لا أوّل له ، بل هو الأوّل الذي لم يسبقه عدم لأنّ الولادة تكوّن ولا تتشخص إلا بواسطة المادّة وعلاقتها وكل ما كان مادّياً أو كان له علاقة بالمادة كان متولداً عن غيره ، والله سبحانه وتعالى منزه عن جميع ذلك .

﴿ ولم يكن ﴾ ، أي : لم يتحقق ولم يوجد بوجه من الوجوه ولا بتقدير من التقادير ﴿ له ﴾ ، أي : خاصة ﴿ كفواً ﴾ ، أي : مثلاً ومساوياً ﴿ أحد ﴾ على الإطلاق ، أي : لا يساويه في قوّة الوجود لأنه لو ساواه في ذلك لكانت مساواته باعتبار الجنس والفصل ، فيكون وجوده متولداً عن الازدواج الحاصل من الجنس الذي يكون كالأمّ ، والفصل الذي يكون كالأب ، وقد ثبت أنه لا يصح بوجه من الوجوه أن يكون في شيء من الولادة ، لأنّ وجوب وجوده لذاته فانتفى أن يساويه شيء . وكان الأصل أن يؤخر الظرف ؛ لأنه صلة لكن لما كان المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى قدّم تقديماً للأهمّ ، ويجوز أن يكون حالاً من المستكن في كفؤاً ، أو خبراً ، أو يكون كفؤاً حالاً من أحد وعطف هاتين الجملتين على الجملة التي قبلهما ، لأنّ الثلاث شرح الصمدية النافية لأقسام الأمثال فهي كالجملة الواحدة .

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يقول الله تعالى : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأمّا تكذيبه إياي يقول : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أوّل الخلق بأهون عليّ من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤاً أحد" . وقرأ حمزة بسكون الفاء والباقون بضمها ، وقرأ حفص كفواً بالواو وقفاً ووصلاً ، وإذا وقف حمزة وقف بالواو .

وروي في فضائل هذه السورة أحاديث كثيرة منها ما روى البخاري عن أبي سعيد الخدري "أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يردّدها فلما أصبح أتى رسول الله صلى

الله عليه وسلم فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقللها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن" .

فإن قيل : لم كانت تعدل ثلث القرآن ؟

(189/838)

أجيب : بأن القرآن أنزل أثلاثاً ثلث أحكام ، وثلث وعد ووعيد ، وثلث أسماء وصفات فجمعت هذه السورة أحد الأثلاث ، وهو الأسماء والصفات . وقيل : إنها تعدل القرآن كله مع قصر متنها وتقارب طرفيها ، وما ذاك إلا لاحتوائها على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده ، وكفى بذلك دليلاً لمن اعترف بفضلها .

ومنها ما روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها "أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سرية فكان يقرأ في صلاتهم فيختم ب﴿ قل هو الله أحد ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : سلوه لأيّ شيء يصنع ذلك ؟ فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن فأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال صلى الله عليه وسلم أخبروه أن الله تعالى يحبه" .

ومنها ما رواه الترمذي عن أنس بن مالك "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلاً

يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فقال صلى الله عليه وسلم وجبت قلت : ما وجبت ؟ قال : الجنة" .

ومنها ما روى أنس أيضاً "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ خمسين مرة "غفرت ذنوبه" . ومنها ما روى سعيد بن المسيب "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عشر مرّات بنى الله له قصراً في الجنة ، ومن قرأها عشرين مرّة بنى الله له قصرين في الجنة ، ومن قرأها ثلاثين مرّة بنى الله له ثلاث قصور في الجنة ، فقال عمر : إذن تكثر قصورنا فقال صلى الله عليه وسلم أوسع من ذلك" .

ومنها ما رواه الطبراني عن أبي هريرة رضي الله عنه "أنه صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ بعد صلاة الصبح اثنتى عشرة مرّة فكأنما قرأ القرآن أربع مرّات ، وكان أفضل أهل الأرض يومئذ إذا اتقى" . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ "في مرضه الذي يموت فيه لم يفتن في قبره ، وأمن من ضغطة القبر ، وحملته الملائكة بأكفها حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة" . وقد أفردت أحاديثها بالتأليف وفي هذا القدر كفاية لأولي الألباب .

ولها أسماء كثيرة ، وزيادة الأسماء تدل على شرف المسمى . أحدها : أنها سورة التفريد ، ثانيها : سورة التجريد ، ثالثها : سورة التوحيد ، رابعها : سورة الإخلاص ، خامسها : سورة النجاة ، سادسها : سورة الولاية ، سابعها : سورة النسبة ، لقولهم : أنسب لنا ربك ، ثامنها : سورة المعرفة ، تاسعها : سورة الجمال ، عاشرها : سورة المقشقشة ، حادي عشرها : سورة المعوذة ، ثاني عشرها : سورة الصمد ، ثالث عشرها : سورة الأساس ، قال : أسست السموات السبع والأرضين السبع على ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، رابع عشرها : المانعة لأنها تمنع فتنة القبر ونفحات النار ، خامس عشرها : سورة المحتضر لأنّ الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرئت ، سادس عشرها : المنفرة لأن الشياطين تنفر عند قراءتها ، سابع عشرها : سورة البراءة لأنها براءة من الشرك ، ثامن عشرها : المذكرة لأنها تذكر العبد خالص التوحيد ، تاسع عشرها : سورة النور لأنها تنوّر القلب المكمل للعشرين سورة الإنسان قال صلى الله عليه وسلم "إذا قال العبد : الله ، قال الله : دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي" . فنسأل الله تعالى أن يجيرنا من عذابه ، ويدخلنا الجنة نحن وجميع الأحباب بغير حساب ؛ لأنه كريم حليم وهاب .

وما رواه البيضاوي من أنها تعدل ثلث القرآن فرواه البخاري ، ومن أنه صلى الله عليه

وسلم سمع رجلاً يقرؤها الخ فرواه الترمذي والنسائي وغيرهما . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 464 . 468 ﴾

(191/838)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

الضميرُ للشأنِ ومدارُ وضعِهِ وموضعِهِ معَ عدمِ سبقِ ذكرِه الإيذانُ بأنَّه منَ الشهرةِ والنباهةِ بحيثُ يستحضرُهُ كلُّ أحدٍ وإليهِ يشيرُ كلُّ مشيرٍ وإليهِ يعودُ كلُّ ضميرٍ كما ينبىءُ عَنْهُ اسمُهُ الذي أصلُهُ القصدُ أطلقَ عَلى المفعولِ مبالغةً ومحلُّه الرفعُ عَلى الابتداءِ خبرُهُ الجملةُ بعدَهُ ولا حاجةَ إلى الربطِ لأنَّها عينُ الشأنِ الذي عبرَ عَنْهُ بالضميرِ والسرُّ في تصديرِ الجملةِ بهِ التنبيهُ منْ أولِ الأمرِ عَلى فخامةِ مضمونِهَا وجلالةِ حيزِهَا معَ مَا فيهِ منْ زيادةِ تحقيقٍ وتقريرٍ فإنَّ الضميرَ لا يُفهمُ من أولِ الأمرِ إلا شأنٌ مبهمٌ لهُ خطرٌ جليلٌ فيبقى الذهنُ مترقباً لما أمامَهُ مما يفسرُهُ ويزيلُ إبهامَهُ فيتمكنُ عندَ ورودِهِ لهُ فضلُ تمكنٍ ، وهمزةُ أحدٍ مُبدلةٌ منْ الواوِ وأصلُهُ وَحَدٌ لا كَهمزةِ ما يلازمُ النفيَ ويرادُ بهِ العمومُ كمَا في قولِهِ تعالَى : ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حاجزين ﴾ ومَا في قولِهِ عليهِ السلامُ ما أحلتْ الغنائمُ لأحدٍ سودِ الرؤوسِ

غيرِكُم فإنَّها أصليةٌ وقال مكيٌّ : أصل أُحدٍ واحدٌ فأبدلتْ الواوُ همزةً فاجتمعَ ألفانِ لأنَّ الهمزةَ تشبهُ الألفَ فحذفتْ إحداهُمَا تخفيفاً . وقالَ ثعلبٌ : إنَّ أحدٌ لا يُبنى عليهِ العددُ ابتداءً فلا يقالُ أحدٌ واثنانِ كما يقالُ واحدٌ واثنانِ ولا يقالُ رجلٌ أحدٌ كما يقالُ رجلٌ واحدٌ ولذلكَ اختصَّ بهِ تعالَى أوْ هُوَ لما سئِلَ عَنْهُ أي الذي سألْتُم عنْهُ هُو اللهُ إذ رُوِيَ أنَّ قريشاً قالُوا صِفْ لَنَا ربكَ الذي تدعونَا إليهِ وانسُبْهُ فنزلتْ فالضميرُ مبتدأٌ واللهُ خبرُهُ وأحدٌ بدلٌ منْهُ أو خبرٌ ثانٍ أو خبرُه مبتدأٍ محذوفٍ وقُرِىءَ هُوَ اللهُ أحدٌ بغيرِ قُلْ وقُرِىءَ اللهُ أحدٌ بغيرِ قلْ هُوَ وقُرِىءَ قُلْ هُوَ الواحدُ وقولُهُ تعالَى : ﴿ اللهُ الصمد ﴾ مبتدأٌ وخبر والصمدُ فَعَلٌ بمَعْنَى مفعولٍ مِنْ

(192/838)

يُصمدُ إليهِ إذَا قَصَدَهُ أيْ هُوَ السيدُ المصمودُ إليهِ في الحوائجِ المُسْتغنى بذاتِهِ وكُلُّ ما عداهُ محتاجٌ إليهِ في جميعِ جهاتِهِ وقيلَ الصمدُ الدائمُ الباقِي الذي لَمْ يزلْ ولاَ يزالُ وقيلَ الذي يفعلُ مَا يشاءُ ويَحكمُ مَا يريدُ وتعريفُهُ لعلمِهم بصمديتِهِ بخلافِ أحديتِهِ وتكريرُ الإسمِ الجليلِ للإشعارِ بأنَّ منْ لم يتصفْ بذلكَ فهوَ بمعزلٍ منَ استحقاقِ الألوهيةِ وتعريةُ الجملةِ عنِ العاطفِ لأنَّها كالنتيجةِ للأولى بيَّنَ أولاً ألوهيتَهُ عزَّ وجلَّ المستتبعةَ لكافةِ نعوتِ الكمالِ ثمَّ

أحديتَهُ الموجبةَ تنزهَّهُ عنْ شائبةِ التعددِ والتركيب بوجهٍ منَ الوجوهِ وتوهمِ المشاركةِ في الحقيقةِ وخواصِّهَا ثُمَّ صمديتَهُ المقتضيةَ لاستغنائِهِ الذاتيِّ عَمَّا سواهُ وافتقارِ جميعِ المخلوقاتِ إليهِ في وجودِهَا وبقائِهَا وسائرِ أحوالِهَا تحقيقاً للحقّ وإرشاداً لهُمْ إلى سنتِهِ الواضحِ ثُمَّ صرحَ ببعضِ أحكامٍ جزئيةٍ مندرجةٍ تحتَ الأحكامِ السابقةِ فقيلَ ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ تنصيصاً على إبطالِ زعمِ المفترينَ في حقّ الملائكةِ والمسيحِ ولذلكَ وردَ النفيُ على صيغةِ الماضِي أيْ لَمْ يصدرْ عنْهُ ولدٌ لأَنَّهُ لا يجانسُهُ شيءٌ ليمكنَ أنْ يكونَ لهُ من جنسِهِ صاحبةٌ فيتوالدَ كما نطقَ بِهِ قولُهُ تعالَى :

(193/838)

﴿ أنى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَّهُ صاحبة ﴾ ولا يفتقرُ إلى ما يعينُهُ أو يخلفُهُ لاستحالةِ الحاجةِ والفناءِ عليهِ سبحانَهُ ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أيْ لمْ يصدرْ عنْهُ شيءٌ لاستحالةِ نسبةِ العدمِ سابقاً ولاحقاً والتصريحُ بهِ معَ كونِهم معرفينَ بمضمونِهِ لتقريرِ ما قبلَهُ وتحقيقه بالإشارةِ إلى أنَّهما متلازمانِ إذِ المعهودُ أنَّ ما يلدُ يولدُ وما لاَ فلاَ ومنْ قضيةِ الاعترافِ بأَنَّهُ لا يلدُ فهو قريبٌ منْ عطفِ لا يستقدمونَ عَلَى لا يستأخرونَ كمَا مرَّ تحقيقُهُ . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ أيْ لمْ يكافئْهُ أحدٌ ولَمْ يماثلهُ ولَمْ يشاكلهُ من صاحبةٍ وغيرِهَا ولَهُ صلةٌ لكفوٍ

قدمتْ عليهِ مع أنَّ حقَّها التأخرُ عَنْهُ للاهتمامِ بها لأنَّ المقصودَ نفيُ المكافأةِ عنْ ذاتِه تعالَى وقدْ جوزَ أنْ يكونَ خبراً لا صلةً ويكونَ كُفُؤاً حالاً من أحدٍ وليسَ بذاكَ وأما تأخيرُ اسمِ كانَ فلمراعاةِ الفواصلِ ووجهُ الوصلِ بينَ هذهِ الجملِ غنيٌّ عن البيانِ وقُرِىءَ بضمِّ الكافِ والفاءِ مع تسهيلِ الهمزةِ وبضمِّ الكافِ وكسرِها مع سُكُونِ الفاءِ هَذا ولانطواءِ السورةِ الكريمةِ مع تقاربِ قُطْرِيها عَلَى أشتاتِ المعارفِ الإلهيةِ والردِّ عَلى منْ ألحَدَ فيها وردَ في الحديثِ النبويِّ أنَّها تعدلُ ثلثَ القرآنِ فإنَّ مقاصدَهُ منحصرةٌ في بيانِ العقائدِ والأحكامِ والقصصِ ومَنْ عدَلَها لكلمةٍ اعتبرَ المقصودَ بالذاتِ منْهُ. رُوِيَ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم: أنَّهُ قالَ: "أسستِ السمواتُ السبعُ والأرضونَ السبعُ عَلى قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ" أيْ ما خلقتْ إلا لتكونَ دلائلَ عَلَى توحيدِ اللهِ تعالَى ومعرفةِ صفاتِه التي نطقتْ بها هذهِ السورةُ. وعنهُ عليهِ السَّلامُ أنه سمعَ رجلاً يقرأُ قُلْ هُوَ اللهُ أحدٌ فقالَ وجبتْ فقيلَ ما وجبتْ يا رسولَ اللهِ قالَ وجبتْ لَهُ الجنةُ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(194/838)

وقال الجاوى:

سورة الإخلاص

وتسمى سورة المعرفة ، وسورة الجمال ، وسورة التوحيد ، وسورة النجاة ، وسورة النور ، وسورة المعوذة ، وسورة المانعة ، لأنها تمنع فتنة القبر ولفحات النار ، وسورة البراءة ، لأنها براءة من الشرك ، مكية ، أربع آيات ، خمس عشرة كلمة ، سبعة وأربعون حرفا

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) إن هذه السورة نزلت بسبب سؤال المشركين .

قال الضحاك : إن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وقالوا : سببت آلهتنا وخالفت دين آبائك ! فإن كنت فقيرا أغنيناك ، وإن كنت مجنونا داويناك ، وإن هويت امرأة زوجناكها ! فقال صلّى اللّه عليه وسلّم : «لست بفقير ، ولا مجنون ، ولا هويت امرأة ، أنا رسول اللّه أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته» .

فأرسلوه ثانية وقالوا : قل له بين لنا جنس معبودك أمن ذهب أو فضة ؟ فأنزل اللّه هذه السورة فقالوا له : ثلاثمائة وستون صنما لا تقوم بحوائجنا ، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق ؟ ! فنزلت وَالصَّافَّاتِ [الصافات : 1] إلى قوله تعالى : إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ [الصافات : 4] فأرسلوه أخرى وقالوا : بين لنا أفعاله ، فنزل إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ [الأعراف : 54]

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقال عامر : إلى من تدعونا يا محمد ؟ فقال : «إلى اللّه تعالى» قال : صفه لنا أمن ذهب هو ، أم من فضة ، أم من حديد ، أم من خشب ؟ فنزلت هذه السورة ، وأهلك

اللّه تعالى أربد بالصاعقة ، وعامر بن الطفيل بالطاعون وقيل : نزلت بسبب سؤال النصارى .

روي عن ابن عباس قال : قدم وفد نجران فقالوا : صف لنا ربك ، أمن زبرجد ، أو ياقوت ، أو ذهب ، أو فضة ؟ فقال : «إن ربي ليس من شيء لأنه خالق الأشياء» فنزل قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ قالوا : هو واحد ، وأنت واحد ، فقال : ليس كمثله شيء ، زدنا من الصفة ، فقال : «اللَّهُ

الصَّمَدُ »

(195/838)

فقالوا : وما الصمد ؟ فقال : «الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج» . فقالوا : زدنا ، فنزل لَمْ يَلِدْ كما ولدت مريم وَلَمْ يُولَدْ كما ولد عيسى وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ أي ليس له نظير من خلقه .

وقال الضحاك وقتادة ومقاتل : جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقالوا : صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك ، فإن اللّه تعالى أنزل صفته في التوراة ، فأخبرنا من أيّ شيء هو ؟ وهل يأكل ويشرب ؟ ومن ورث ؟ ومن يرثه ؟ فنزلت هذه السورة وصفات اللّه

تعالى إما أن تكون إضافية، وإما أن تكون سلبية.

أما الإضافية: فكقولنا: عالم قادر مريد خلاق.

وأما السلبية: فكقولنا: ليس بجسم ولا بجوهر، ولا بعرض، وقولنا: اللّه يدل على مجامع الصفات الإضافية وقولنا: أحد يدل على مجامع الصفات السلبية، وذلك لأن اللّه تعالى هو الذي يستحق العبادة، واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يستبد بالإيجاد فالاستبداد بالإيجاد، لا يحصل إلا لمن كان موصوفا بالقدرة التامة، والإرادة النافذة، والعلم المتعلق بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات، والمراد من الأحدية كون تلك الحقيقة في نفسها مفردة منزهة عن أنحاء التراكيب. اللَّهُ الصَّمَدُ أي السيد المصمود إليه في الحوائج.

وقال ابن مسعود والضحاك: الصمد هو السيد الذي قد انتهى سؤدده. وقيل: الصمد هو الذي ليس فوقه أحد فلا يخاف من فوقه، ولا يرجو من تحته، ترفع الحوائج إليه. وقال قتادة :

الصمد الباقي بعد فناء خلقه، والذي لا يأكل ولا يشرب، وهو يطعم ولا يطعم.

وقال أبيّ بن كعب: هو الذي لا يموت ولا يورث، وله ميراث السموات والأرض.

وقال ابن كيسان: هو الذي لا يوصف بصفة أحد.

قال مقاتل بن حبان: هو الذي لا عيب فيه لَمْ يَلِدْ أي لم يصدر عنه ولد لأنه لم يجانسه شيء ، وَلَمْ يُولَدْ (3) أي لم يصدر عن شيء لاستحالة نسبة العدم إليه تعالى سابقا ولاحقا.

ويقال : لم يلد ، أي ليس له ولد فيرث ملكه ، ولم يولد أي ليس له والد فيرث عنه الملك ، فلم يرث ولم يورث ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4) أي لم يشاكله أحد من صاحبة وغيرها ، فيمتنع أن يكون شيء من الموجودات مساويا له تعالى في شيء من صفات الجلال والعظمة ، ثم الآية الأولى : تبطل مذهب الثنوية القائلين : بالنور والظلمة ، والنصارى : في التثليث .

والصائبين : في الأفلاك والنجوم .

والآية الثانية : تبطل مذهب من أثبت خالقا سوى اللّه ، لأنه لو وجد خالق آخر لما كان الحق مصمودا إليه في طلب جميع الحاجات .

(196/838)

والآية الثالثة : تبطل مذهب اليهود في عزير ، والنصارى في المسيح والمشركين في أن الملائكة بنات اللّه .

والآية الرابعة : تبطل مذهب المشركين حين جعلوا الأصنام شركاء له تعالى .

قال النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «إن لكل شيء نورا ونور القرآن قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» .

وروي أنه صلّى اللّه عليه وسلّم دخل المسجد ، فسمع رجلا يدعو ويقول : أسألك يا اللّه يا أحد ، يا صمد ، يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فقال : «غفر لك ، غفر لك ،

غفر لك» «1» ، ثلاث مرات .

وعن سهل بن سعد جاء رجل إلى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وشكا إليه الفقر فقال : «إذا دخلت بيتك فسلم إن كان فيه أحد وإن لم يكن فيه أحد فسلم على نفسك واقرأ قل هو اللّه أحد مرة واحدة» «2» . ففعل الرجل فأدر اللّه عليه رزقا حتى أفاض على جيرانه .

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه أنه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «من قرأ قل هو اللّه أحد بعد صلاة الصبح اثنتي عشر مرة فكأنما قرأ القرآن أربع مرات وكان أفضل أهل الأرض يومئذ إذا اتقى» «3» .

وروي أنه صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «من قرأ قل هو اللّه أحد في مرضه الذي يموت فيه ، لم يفتن في قبره وأمن من ضغطة القبر وحملته الملائكة بأكفها حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة» «4» . انتهى انتهى . اه‍ ﴿ مراح لبيد ج‍ 2 ص‍ 678 . 680 ﴾

---

(1) رواه الطبراني في المعجم الصغير (2 : 20) ، وابن حجر في لسان الميزان (4 : 557) ، وابن كثير في التفسير (6 : 95) ، والبخاري في التاريخ الكبير (1 : 266) ، والسيوطي في الدر المنثور (5 : 6) ، والعقيلي في الضعفاء (3 : 224) .

(2) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (7 : 146) ، والسيوطي في الدر المنثور (6 : 415) .

(3) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (7 : 145) ، والسيوطي في الدر المنثور (6 :

412) ، والقرطبي في التفسير (20 : 249) ، والألباني في السلسلة الضعيفة (301) .

(4) رواه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (6 : 2416) .

(197/838)

وقال النخجواني :

[سورة الإخلاص]

فاتحة سورة الإخلاص

لا يخفى على من اتصف بالمعرفة الإلهية وانكشف بوحدته واستقلاله سبحانه في الوجود والوجوب الذاتي واستغنائه سبحانه في ذاته عن عموم المظاهر والمجالى وتعاليه عن لوازم الافتقار والاحتياج المؤدى إلى وصمة الإمكان وسمة الاستكمال والنقصان ان الذات الاحدية منزهة في ذاته عن مطلق التحديد والتوصيف الذي يصف به الواصفون ذاته سبحانه لذلك بين سبحانه ذاته في هذه السورة ووصفه الذاتي بمقتضى علمه الحضوري بذاته تنبيها وتعليما على عباده وإرشادا لهم فقال بعد التيمن بِسْمِ اللَّهِ الذي لا يكتنه ذاته بمدارك مظاهره ومصنوعاته مطلقا الرَّحْمنِ عليهم بتوصيف ذاته إياهم الرَّحِيمِ لخواصهم

حيث يهديهم إلى سرائر معرفته وتوحيده

[الآيات]

قُلْ يا أكمل الرسل لمن يسأل منك بقوله صف لنا ربك الذي تدعونا إلى الايمان به وعبادته هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ أي هو الذات المتصفة بالألوهية الغيبية والشهادية الجامعة بينهما ظاهرا وباطنا المتعالية عن كليهما بحسب الذات المتصفة بالالوهية والربوبية ووجوب الوجود المستجمعة لجميع شرائط الكمال حسب الأسماء والصفات الكاملة الكامنة في تلك الذات المتصفة بالأحدية المطلقة المنزهة عن التعدد والكثرة مطلقا المستقلة في الوجود والحياة والقيومية المطلقة المستلزمة للديمومية والبقاء الأزلي الأبدي السرمدي لا يكال بقاؤه ودوامه بمطلق الموازين والمقادير ولا يحيط به وبقيوميته مطلق التدابير والتقادير فكيف كان سبحانه محلا للتقدير إذ هو اللَّهُ الصَّمَدُ أي السيد السند الذي يقصد نحوه ويرجع إليه عموم ما ظهر وبطن من الكوائن الفاسدة الكائنة في نشأتي الغيب والشهادة والاولى والاخرى وهو في ذاته مستغن عن جميعها مطلقا وكيف لا يكون مستغنيا إذ هو الله الأحد الفرد الصمد القيوم الذي

لَمْ يَلِدْ ولدا إذ الإيلاد إنما هو للمعاونة والمظاهرة أو للاخلاف وخوف الانعدام والانقضاء وهو سبحانه بمقتضى قيوميته واستقلاله بحوله وقوته ووجوب وجوده ودوام بقائه لا يطرأ عليه أمثال هذه النقائص الامكانية المستلزمة لضبط العاقبة والمآل إذ لا يجرى عليه

سبحانه انقضاء وانتقال ولا يلحقه زوال وارتحال وكذلك لَمْ يُولَدْ لذلك إذ كل ما ظهر وبطن ازلا وابدا انما هو منه واليه وبه وله وفيه وكل ما فرض من الموجود أزلا وأبدا ذهنا وخارجا غيبا وشهادة ما هو خارج عن حيطة اظلال أسمائه وعكوس صفاته فكيف يتصور أن

يسبقه شيء هو غيره مع انه لا غير في الوجود ولا شيء سواه موجود مطلقا حتى يلده وبالجملة هو سبحانه منفرد في توحده متوحد في انفراده وتفرده ومستقل في استقلاله بحيث لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ لا قبله ولا بعده ولا معه بل لا إله سواه ولا موجود غيره

خاتمة سورة الإخلاص

عليك أيها الموحد المحمدي المنكشف بالتوحيد الذاتي مكنك الله في مقر عزك وتمكينك ان تصرف عنان همتك وعزمك بعد ما كوشفت لوحدة ذات الحق وكمالات أسمائه وصفاته نحو سوابغ آلائه ونعمائه الفائضة منه سبحانه حسب رقائق أسمائه الحسنى وأوصافه العظمى وتشاهد اثار قدرته الغالبة التي تتحير منها العقول والآراء وإياك إياك ان تغفل عن الله طرفة عين فإنها تورثك حسرة طويلة ان كنت من ذوى العبرة واولى الأبصار إذ كل نفس من الأنفاس الإلهية التي قد جرت عليك في اوقات حياتك مشتملة على

عجائب صنع اللّه منصبغة ببدائع حكمته المتقنة البالغة بحيث ما مضى مثلها ازلا ولا سيأتي شبهها أبدا فعليك ان تغتنم الفرصة وتتعرض للنفحات الإلهية دائما بحيث لا يشغلك شيء منها . جعلنا اللّه من زمرة المتعرضين لنفحات الحق ومن المستنشقين من نسمات روحه وراحته بمنه وجوده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الفواتح الإلهية حـ 2 صـ 537 538. ﴾

(199/838)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

المشهور أن هو ضمير الشأن ومحله الرفع على الابتداء خبره الجملة بعده ومثلها لا يكون لها رابط لأنها عين المبتدأ في المعنى والسر في تصديرها به التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها مع ما فيه من زيادة التحقيق والتقرير فإن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر جليل فيبقى الذهن مترقباً لما أمامه مما يفسره ويزيل إبهامه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن وقول الشيخ عبد القاهر في "دلائل الإعجاز" أن له مع أن حسناً بل لا يصح بدونها غير مسلم نعم قال الشهاب القاسمي أن ههنا إشكالاً لأنه إن جعل الخبر مجموع

معنى الجملة المبين في باب القضية أعني مجموع الله ومعنى أحد والنسبة بينهما ففيه أن الظاهر أن ذلك المجموع ليس هو الشأن وإنما الشأن مضمون الجملة الذي هو مفرد أعني الوحدانية وإن جعل مضمون الجملة الذي هو مفرد فتخصيص عدم الرابط بالجملة المخبر بها عن ضمير الشأن غير متجه إذ كل جملة كذلك لأن الخبر لا بد من اتحاده بالمبتدأ بحسب الذات ولا يتحد به كذلك إلا مضمون الجملة الذي هو مفرد وأجيب باختيار الشق الأول كما يرشد إليه تعبيرهم عن هذا الضمير أحياناً بضمير القصة ضرورة أن مضمون الجملة الذي هو مفرد ليس بقصة وإنما القصة معناها المبين في باب القضية وأيضاً هم يعدون مثل قوله صلى الله عليه وسلم أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد من الجمل التي هي عين المبتدأ في المعنى الغير المحتاجة إلى الضمير لذلك ومن العلوم أن ما يقال ليس المضمون الذي هو مفرد بل هو الجملة بذلك المعنى ولذا تراهم يوجبون كسر همزة إن بعد القول وكذا تمثيلهم لها بنطقي الله حسبي وكفى أي منطوقي الذي أنطق به ذلك إذ من الظاهر أن ما نطق به هو الجملة بالمعنى المعروف وقد دل كلام ابن مالك في "التسهيل" على المراد بكون الجملة التي لا تحتاج إلى رابط عين المبتدأ أنها وقعت

خبراً عن مفرد مدلوله جملة وهو ظاهر فيما قلنا أيضاً وكون ذلك شأنا أي عظيماً من الأمور باعتبار ما تضمنه ووصف الكلام بالعظم ومقابله بهذا الاعتبار شائع ذائع وقال العلامة أحمد الغنيمي إن أريد أنها عينه بحسب المفهوم فهو مشكل لعدم الفائد وإن أريد عينه بحسب المصدق مع الغاير في المفهوم كما هو شأن سائر الموضوعات مع محمولاتها فقد يقال إن مشكل أيضاً إذ ما صدق ضمير الشأن أعم من الله أحد والخاص لا يحمل على العام في القضايا الكلية ودعوى الجزئية في هذا المقام ينبو عنه تصريحهم بأن ضمير الشأن لا يخلو عن إبهام وبعبارة أخرى وهي أن ما صدق عليه ضمير الشأن مفرد وما صدق الجملة مركب ولا شيء من المفرد بمركب ولذا تراهم يؤولون الجملة الواقعة خبراً بمفرد صادق على المبتدأ ليصح وقوعها خبراً والتزام ذلك في الجملة الواقعة خبراً عن ضمير الشأن ينافي تصريحهم بأنها غير مؤولة بالمفرد وإن كانت في موقعه وأجيب بأن معنى قولهم هو ضمير الشأن أنه ضمير راجع إليه وموضوع موضعه وإن لم يسبق له ذكر للإيذان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد وإليه يشير كل مشير وعليه يعود كل ضمير وقولهم في عد الضمائر التي ترجع إلى متأخر لفظاً ورتبة منها ضمير الشأن فإنه راجع إلى الجملة بعده مسامحة ارتكبوها لأن بيان الشأن وتعيين المراد به بها فما صدق الضمير هو بعينه ما صدق الشأن الذي عاد هو عليه فيختار الشق الثاني فإما أن يراد بالشأن الشأن المعهود

ادعاء وتجعل القضية شخصية نظير هذا زيد وأما أن يراد المعنى الكلي وتجعل القضية مهملة وهي في قوة الجزئية كأنه قيل بعض الشأن الله أحد وجاء الإبهام الذي ادعى تصريحهم به من عدم تعين البعض قبل ذكر الجملة وحملها عليه وما صدق عليه الشأن كما يكون مفرداً يكون جملة فليكن هنا كذلك واستمجد الأول واحتمال الكلية مبالغة نحو كل الصيد في جوف الفرا كما ترى فليتأمل وجوزوا أن يكون هو ضمير المسؤول عنه أو المطلوب

صفته أو نسبته فقد أخرج الإمام أحمد في "مسنده" والبخاري في "تاريخه" والترمذي والبغوي في "معجمه" وابن عاصم في "السنة" والحاكم وصححه وغيرهم عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم يا محمد أنسب لنا ربك فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ السورة وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني في "الأوسط" والبيهقي بسند حسن وآخرون عن جابر قال جاء إعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال أنسب لنا ربك فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ الخ وفي المعالم عن ابن عباس أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فقال عامر إلام تدعونا يا

محمد قال إلى الله قالا صفه لنا أمن ذهب هو أم من فضة أو من حديد أو من خشب فنزلت هذه السورة فأهلك الله تعالى أربد بالصاعقة وعامراً بالطاعون وأخرج ابن أبي حاتم والبيهقي في "الأسماء والصفات" عن ابن عباس أن اليهود جاءت إلى النبي عليه الصلاة والسلام منهم كعب بن الأشرف وحيى بن أخطب فقالوا يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك فأنزل الله تعالى السورة وكون السائلين اليهود مروي عن الضحاك وابن جبير وقتادة ومقاتل وهو ظاهر في أن السورة مدنية وجاز رجوع الضمير إلى ذلك للعلم به من السؤال وجرى ذكره فيه وهو عليه مبتدأ والاسم الجليل خبره وأحد خبر بعد خبر وأجاز الزمخشري أن يكون بدلاً من الاسم الجليل على ما هو المختار من جواز إبدال النكرة من المعرفة وأن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هو أحد وأجاز أبو البقاء أن يكون الاسم الأعظم بدلاً من هو وأحد خبره والله تعالى وتقدم علم على الذات الواجب الوجود كما ذهب إليه جمهور الأشاعرة وغيرهم خلافاً للمعتزلة حيث قالوا العلم في حقه سبحانه محال لأن أحداً لا يعلم ذاته تعالى المخصوص بخصوصية حتى يوضع له وإنما يعلم بمفهومات كلية منحصرة في فرد فيكون اللفظ موضوعاً لأمثال تلك المفهومات الكلية فلا يكون علماً ورد بأنه

تعالى عالم بخصوصية ذاته فيجوز أن يضع لفظاً بإزائه بخصوصه فيكون علماً وهذا على مذهب القائلين بأن الواضع هو الله تعالى ظاهر إلا أنه يلزم أن يكون ما يفهم من لفظ الله غير ما وضع له إذ لا يعلم غيره تعالى خصوصية ذاته تعالى التي هي الموضوع له على هذا التقدير والقول بأنه يجوز أن يكون المفهوم الكلى آلة للوضع ويكون الموضوع له هو الخصوصية التي يصدق عليها المفهوم الكلي كما قيل في هذا ونظائره يلزم عليه أيضاً أن يكون وضع اللفظ لما لا يفهم منه فإنا لا نفهم من أسمائه تعالى إلا تلك المفهومات الكلية والظاهر أن الملائكة عليهم السلام كذلك لاحتجاب ذاته عز وجل عن غيره سبحانه ومن هنا استظهر بعض الأجلة ما نقل عن حجة الإسلام أن الأشبه أن الاسم الجليل جار في الدلالة على الموجود الحق الجامع لصفات الإلهية المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقي مجرى الإعلام أي وليس بعلم وقد مر ما يتعلق بذلك أول الكتاب فارجع إليه بقي في هذا المقام بحث وهو أن الإعلام الشخصية كزيد أما أن يكون كل منها موضوعاً للشخص المعين كما هو المتبادر المشهور فإذا أخبر أحد بتولد ابن له فسماه زيداً مثلاً من غير أن يبصره يكون ذلك اللفظ اسماً للصورة الخيالية التي حصلت في مخيلته وحينئذ إذا لم يكن المولود بهذه السورة لم يكن إطلاق الاسم عليه بحسب ذلك الوضع ولو قيل بكونه موضوعاً للمفهوم الكلي المنحصر في ذلك الفرد لم يكن علماً كما سبق ثم إذا سمعنا علماً من تلك الأعلام الشخصية ولم نبصر مسماه أصلاً فإنا لا نفهم الخصوصية التي هو عليها بل ربما تخيلناه على غير ما هو عليه من الصور

وإما أن يكون جميع تلك الصور الخالية موضوعاً له فيكون من قبيل الألفاظ المشتركة بين معان غير محصورة وأما أن يكون الموضوع له هو الخصوصية التي هو عليها فقط فيكون غيرها خارجاً عن الموضوع له فيكون فهم غيرها من الخصوصيات منه غلطاً فإما أن يترك دعوى كون تلك الأعلام جزئيات

(203/838)

حقيقة ويقال إنها موضوعات للمفهومات الكلية المنحصرة في الفرد أو يلتزم أحد الاحتمالات الآخر وكلا الوجهين محل تأمل كما ترى فتأمل واحد قالوا همزته مبدلة من الواو وأصله واحد وإبدال الواو المفتوحة همزة قليل ومنه قولهم امرأة أناة يريدون وناة لأنه من الونى وهو الفتور وهذا بخلاف أحد الذي يلازم النفي ونحوه ويراد به العموم كما في قوله تعالى :

﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : 47] وقوله عليه الصلاة والسلام " أحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي " وقوله تعالى : ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [مريم : 98] وقوله سبحانه : ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : 18] وقوله عز وجل : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ ﴾ [التوبة : 6] فإن همزته أصلية وقيل الهمزة فيه

أصلية كالهمزة في الآخرة والفرق بينهما قال الراغب أن المختص بالنفي منهما لاستغراق جنس الناطقين ويتناول القليل والكثير على طريق الاجتماع والافتراق نحو ما في الدار أحد أي لا واحد ولا اثنان فصاعداً لا مجتمعين ولا مفترقين ولهذا لم يصح استعماله في الإثبات لأن نفي المتضادين يصح ولاي صح إثباتهما فلو قيل في الدار أحد لكان فيه إثبات واحد منفرد مع إثبات ما فوق الواحد مجتمعين ومفترقين وذلك ظاهر الإحالة ولتناول ذلك ما فوق الواحد يصح أن يقال ما من أحد فاضلين وعليه الآية المذكورة آنفاً والمستعمل في الإثبات على ثلاثة أوجه الأول أن يضم إلى العشرات نحو أحد عشر واحد وعشرون والثاني أن يستعمل مضافاً أو مضافاً إليه بمعنى الأول كما في قوله تعالى : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ [يوسف : 41] وقولهم يوم الأحد أي يوم الأول والثالث أن يستعمل مطلقاً وصفاً وليس ذلك إلا في وصف الله تعالى وهو وأن كان أصله واحداً إلا أن وحداً يستعمل في غيره سبحانه نحو قول النابغة

: كأن رحلي وقد زال النهار بنا . . .

بذي الجليل على مستأنس وحد

انتهى .

(205/838)

وقال مكي أصل أحد واحد فأبدلوا الواو همزة فاجتمع ألفان لأن الهمزة تشبه الألف فحذفت إحداهما تخفيفاً وفرق ثعلب بين أحد وواحد بأن أحداً لا يبني عليه العدد ابتداء فلا يقال أحد واثنان كما يقال واحد واثنان ولا يقال رجل أحد كما يقال رجل واحد ولذلك اختص به سبحانه وفرق بعضهم بينهما أيضاً بأن الأحد في النفس نص في العموم بخلاف الواحد فإنه محتمل للعموم وغيره فيقال ما في الدار أحد ولا يقال بأن اثنان ويجوز أن يقال ما في الدار واحد بل اثنان ونقل عن بعض الحنفية أنه قال في التفرقة بينهما أن الأحدية لا تحتمل الجزئية والعددية بحال والواحدية تحتملها لأنه يقال مائة واحدة وألف واحد ولا يقال مائة أحد ولا ألف أحد وبنى على ذلك مسألة الإمام محمد بن الحسن التي ذكرها في "الجامع الكبير" إذا كان لرجل أربع نسوة فقال والله لا أقرب واحدة منكن صار مولياً منهن جميعاً ولم يجز أن يقرب واحدة منهن إلا بكفارة ولو قال والله لا أقرب أحداكن لم يصر مولياً إلا من إحداهن والبيان إليه وفرق الخطابي بأن الأحدية لتفرد الذات والواحدية

لنفي المشاركة في الصفات ونقل عن المحققين التفرقة بعكس ذلك ولما لم ينفك في شأنه تعالى أحد الأمرين من الآخر قيل الواحد الأحد في حكم اسم واحد وفسر الأحد هنا ابن عباس وأبو عبيدة كما قال ابن الجوزي بالواحد وأيد بقراءة الأعمش ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ ﴾ الواحد وفسر بما لا يتجزأ ولا ينقسم وقال بعض الأجلة أن الواحد مقول على ما تحته بالتشكيك فالمراد به هنا حيث أطلق المتصف بالواحدية التي لا يمكن أن يكون أزيد منها ولا أكمل فهو ما يكون منزه الذات عن أنحاء التركيب والتعدد خارجاً وذهناً وما يستلزم أحدهما كالجسمية والتحيز والمشاركة في الحقيقة وخواصها كوجوب الوجود والقدرة الذاتية والحكمة التامة المقتضية للألوهية وهو مأخوذ من كلام الرئيس أبي علي بن سينا في تفسيره السورة الجليلة حيث قال إن أحداً دال على أنه تعالى واحد

(206/838)

من جميع الوجوه وأنه لا كثرة هناك أصلاً لا كثرة معنوية وهي كثرة المقومات والأجناس والفصول وكثرة الأجزاء الخارجية المتمايزة عقلاً كما في المادة والصورة والكثرة الحسية بالقوة أو بالفعل كما في الجسم وذلك يتضمن لكونه سبحانه : منزهاً عن الجنس والفصل والمادة والصورة والأعراض والأبعاض والأعضاء والأشكال والألوان وسائر ما يثلم

الوحدة الكاملة والبساطة الحقة اللائقة بكرم وجهه عز وجل عن أن يشبهه شيء أو يساويه سبحانه شيء وقال ابن عقيل الحنبلي الذي يصح لنا من القول مع إثبات الفات أنه تعالى واحد في إلهيته لا غير وقال غيره من السلفيين كالحافظ ابن رجب هو سبحانه الواحد في إلهيته وربوبيته فلا معبود ولا رب سواه عز وجل واختار بعد وصفه تعالى بما ورد له سبحانه من الصفات أن المراد الواحدية الكاملة وذلك على الوجهين كون الضمير للشأن وكونه للمسؤول عنه ولا يصح أن يراد الواحد بالعدد أصلاً إذ يخلو الكلام عليه من الفائدة وذكر بعضهم أن الاسم الجليل يدل على جميع صفات الكمال وهي الصفات الثبوتية ويقال لها صفات الإكرام أيضاً والأحد يدل على جميع صفات الجلال وهي الصفات السلبية ويتضمن الكلام على كونهما خبرين الأخبار بكون المسؤول عنه متصفاً بجميع الصفات الجلالية والكمالية وتعقب بأن الإلهية جامعة لجميع ذلك بل كل واحد من الأسماء الحسنى كذلك لأن الهوية الإلهية لا يمكن التعبير عنها لجلالتها وعظمتها إلا بأنه هو هو وشرح تلك الهوية بلوازم منها ثبوتية ومنها سلبية واسم الله تعالى متناول لهما جميعاً فهو إشارة إلى هويته تعالى والله سبحانه كالتعريف لها فلذا عقب به وكلام الرئيس ينادي بذلك وسنشير إليه إن شاء الله تعالى وقرأ عبد الله وأبي هو الله أحد بغير قل وقد اتفقوا على أنه لا بد منها في

﴿ قُلْ يا أهل أَيُّهَا الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] ولا تجوز في ﴿ تبت ﴾ فقيل لعل ذلك لأن سورة الكافرين مشاقة الرسول صلى الله عليه وسلم أو موادعته عليه الصلاة والسلام لهم ومثل ذلك يناسب أن يكون من الله تعالى لأنه صلى الله عليه وسلم مأمور بالإنذار والجهاد وسورة تبت معاتبة لأبي لهب والنبي عليه الصلاة والسلام على خلق عظيم وأديب جسيم فلو أمر بذلك لزم مواجهته به وهو عمه صلى الله عليه وسلم وهذه السورة توحيد وهو يناسب أن يقول به تارة ويؤمر بأن يدعو إليه أخرى وقيل في وجه قل في سورة الكافرون أن فيها ما لا يصح أن يكون من الله تعالى ك ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ [الكافرونك2] فلا بد فيها من ذكر قل وفيه نظر لأنه لا يلزم ذكره بهذا اللفظ فافهم وقال الدواني في وجه ترك قل في تبت لا يبعد أن يقال أن القول بمعاتبة أبي لهب إذا كان من الله تعالى كان أدخل في زجره وتفضيحه وقيل فيه رمز إلى أنه لكونه على العلات عمه صلى الله عليه وسلم لا ينبغي أن يهينه بمثل هذا الكلام إلا الذي خلقه إذ لا يبعد أن يتأذى مسلم من أقاربه لو سبه أحد غيره عز وجل فقد أخرج ابن أبي الدنيا وابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه رضي الله تعالى عنهما قال مرت درة ابنة أبي لهب برجل فقال هذه ابنة عدو الله أبي لهب فأقبلت عليه فقالت ذكر الله تعالى أبي بنباهته وشرفه وترك أباك بجهالته ثم ذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فخطب فقال " لا يؤذين مسلم بكافر " ثم إن إثبات قل على قراءة الجمهور

في المصحف والتزام قراءتها في هذه السورة ونظائرها مع أنه ليس من دأب المأمور بقل إن يتلفظ في مقام الائتمار إلا بالمقول قال الماتريدي في التأويلات لأن المأمور ليس المخاطب به فقط بل كل أحد ابتلى بما ابتلى به المأمور فأثبت ليبقى على مر الدهور منا على العباد وقيل يمكن أن يقال المخاطب بقل نفس التالي كأنه تعالى أعلم به أن كل أحد عند مقام هذا المضمون ينبغي أن يأمر نفسه

(208/838)

بالقول به وعدم التجاوز عنه فتأمل والله تعالى الموفق وقوله تعالى :

﴿ الله الصمد ﴾

مبتدأ وخبر وقيل الصمت نعت والخبر ما بعده وليس بشيء .

والصمد قال ابن الأنباري لا خلاف بين أهل اللغة أنه السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم وقال الزجاج هو الذي ينتهي إليه السودد ويصمد إليه أي يقصد كل شيء وأنشدوا :

لقد بكر الناعي بخير بني أسد . . .

بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقوله

: علوته بحسام ثم قلت له . . .

خذها خزيت فأنت السيد الصمد

وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال هو السيد الذي قد كمل في سودده والشريف الذي قد كمل في شرفه والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه والعليم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسودد وعن أبي هريرة هو المستغني عن كل أحد المحتاج إليه كل أحد وعن ابن جبير هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وعن الربيع هو الذي لا تعتريه الآفات وعن مقاتل بن حيان هو الذي لا عيب فيه وعن قتادة هو الباقي بعد خلقه ونحوه قول معمر هو الدائم وقول مرة الهمداني هو الذي يبلي ولا يفني وعنه أيضاً هو الذي يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال لا أعلمه إلا قد رفعه قال الصمد الذي لا جوف له وروى عن الحسن ومجاهد ومنه قوله

: شهاب حروب لا تزال جياده . . .

عوابس يعلكن الشكين المصمدا

وعن أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن مسعود قال الصمد الذي ليس له أحشاء وهو رواية عن ابن عباس وعكرمة هو الذي لا يطعم وفي رواية أخرى الذي لم يخرج منه شيء وعن الشعبي هو الذي لا يأكل ولا يشرب وعن طائفة منهم أبي بن كعب والربيع بن أنس أنه الذي لم يلد ولم يولد كأنهم جعلوا ما بعده تفسيراً له والمعول عليه تفسيراً بالسيد الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج والمطالب وتفسيره بالذي لا جوف له وما عداهما إما راجع إليهما أو هو مما لا تساعد عليه اللغة وجعل معنى كونه تعالى سيداً أنه مبدأ الكل وفي معناه تفسيره بالغنى المطلق المحتاج إليه ما سواه وقال يحتمل أن يكون كلا المعنيين مراداً فيكون وصفاً له تعالى بمجموع السلب والإيجاب وهو ظاهر في جواز استعمال المشترك في كلا معنييه كما ذهب إليه الشافعي والذي اختاره تفسيره بالسيد الذي يصمد إليه الخلق وهو فعل بمعنى مفعول من صمد بمعنى قصد فيتعدى بنفسه وباللام وإطلاق الصمد بمعنى السيد عليه تعالى مما لا خلاف فيه وإن كان في إطلاق السيد نفسه خلاف والصحيح إطلاقه عليه عز وجل كما في الحديث السيد الله وقال السهيلي لا يطلق عليه تعالى مضافاً فلا يقال سيد الملائكة والناس مثلاً وقصد الخلق إياه تعالى بالحوائج أعم من القصد الإرادي والقصد الطبيعي والقصد بحسب الاستعداد الأصلي الثابت لجميع الماهيات إذ هي كلها متوجهة إلى المبدأ تعالى في طلب كمالاتها منه عز وجل وتعريفه دون ﴿ أحد ﴾ قيل لعلمهم بصمديته تعالى

دون أحديته وتعقب بأنه لا يخلو عن كدر لأن علم المخاطب بمضمون الخبر لا يقتضي تعريفه بل إنما يقتضي أن لا يلقى إليه إلا بعد تنزيله منزلة الجاهل لأن إفادة لازم فائدة الخبر بمعزل عن هذا المقام فالأولى أن يقال إن التعريف لإفادة الحصر كقولك زيد الرجل ولا حاجة إليه في الجملة السابقة بناء على أن مفهوم أحد المنزه عن أنحاء التركيب والتعدد مطلقاً إلى آخر ما تقدم مع أنهم لا يعرفون أحديته تعالى

(210/838)

ولا يعترفون بها واعترض بأنه يقتضي أن الخبر إذا كان معلوماً للمخاطب لا يخبر به إلا بتنزيله منزلة الجاهل أو إفادته لازم فائدة الخبر أو إذا قصد الحصر وهو ينافي معلوماً للمخاطب لا يخبر به إلا بتنزيله منزلة الجاهل أو إفادته لازم فائدة الخبر أو إذا قصد الحصر وهو ينافي ما تقرر في المكعاني من أن كون المبتدا والخبر معلومين لا ينافي كون الكلام مفيداً للسامع فائدة مجهولة لأن ما يستفيده السامع من الكلام هو انتساب أحدهما للآخر وكونه هو هو فيجوز أن يقال هنا إنهم يعرفونه تعالى بوجه ما ويعرفون معنى المقصود سواء كان هو الله سبحانه أو غيره عندهم ولكن لا يعرفون أنه هو سواء كان بمعنى الفرد الكامل أو الجنس فعينه الله تعالى لهم وقيل إن أحد في غير النفي والعدد لا يطلق على غيره تعالى فلم يحتج إلى تعريفه

بخلاف الصمد فإنه جاء في كلامهم إطلاقه على غيره عز وجل أي كما في البيتين السابقين فلذا عرف وتكرر الاسم الجليل دون الإتيان بالضمير قيل للاشعار بأن من لم يتصف بالصمدية لم يستحق الألوهية وذلك على ما صرح به الدواني مأخوذ من إفادة تعريف الجزأين الحصر فإذا قلت السلطان العادل أشعر بأن من لم يتصف بالعدل لم يستحق السلطنة وقيل ذلك لأن تعليق الصمد بالله يشعر بعلية الألوهية للصمدية بناء على أنه في الأصل صفة وإذا كانت الصمدية نتيجة للألوهية لم يستحق الألوهية من لم يتصف بها وبحث فيه بأن الألوهية فيما يظهر للصمدية لأنه إنما يعبد لكونه محتاجاً إليه دون العكس إلا أن يقال المراد بالألوهية مبدؤها وما تترتب عليه لا كونه معبوداً بالفعل وإنما لم يكتف بمسند إليه واحد لأحد والصمد هو الاسم الجليل بأن يقال الله الأحد الصمد للتنبيه على أن كلا من الوصفين مستقل في تعيين الذات وترك العاطف في الجملة المذكورة لأنها كالدليل عليه فإن من كان غنياً لذاته محتاجاً إليه جميع ما سواه لا يكون إلا واحد أو ما سواه لا يكون إلا ممكناً محتاجاً

إليه أو لأنها كالنتيجة لذلك بناء على أن الأحدية تستلزم الصمدية والغنى المطلق وبالجملة هذه الجملة من وجه تشبه الدليل ومن وجه تشبه النتيجة فهي مستأنفة أو مؤكدة وقرأ أبان بن عثمان وزيد بن علي ونصر بن عاصم وابن سيرين والحسن وابن أبي إسحاق وأبو السمال وأبو عمر وفي رواية يونس ومحبوب والأصمعي واللؤلؤي وعبيد أحد الله بحذف التنوين لالتقائه مع لام التعريف وهو موجود في كلام العرب وأكثر ما يوجد في الشعر كقول أبي الأسود الدؤلي

: فألقيته غير مستعتب . . .

ولا ذاكر الله إلا قليلاً

وقول الآخر

: عمرو الذي هشم الثريد لضيفه . . .

ورجال مكة مسنتون عجاف

والجيد هو التنوين وكسره لالتقاء الساكنين وقوله تعالى :

﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ الخ

على نحو ما سبق ونفى ذلك عنه تعالى لأن الولادة تقتضي انفصال مادة منه سبحانه وذلك يقتضي التركيب المنافي للصمدية والأحدية أو لأن الولد من جنس أبيه ولا يجانسه تعالى أحد لأنه سبحانه واجب وغيره ممكن ولأن الولد على ما قيل يطلبه العاقل إما لإعانته أو ليخلفه بعده وهو سبحانه دائم باق غير محتاج إلى شيء من ذلك والاقتصار على الماضي دون أن يقال لن يلد لوروده رداً على من قال إن الملائكة بنات الله سبحانه ، أو المسيح ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ويجوز أن يكون المراد استمرار النفي وعبر بالماضي لمشاكلة قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وهو لا بد أن يكون بصيغة الماضي ونفى المولودية عنه سبحانه لاقتضائها المادة ، فيلزم التركيب المنافي للغنى المطلق والأحدية الحقيقية أو لاقتضائها سبق العدم ولو بالذات أو لاقتضائها المجانسة المستحيلة على واجب الوجود وقدم نفي الولادة لأنه الأهم لأن طائفة من الكفار توهموا خلافه بخلاف نفي المولودية أو لكثرة متوهمي خلاف الأول دون خلاف الثاني بناء على أن النصارى يلزمهم بواسطة دعوى الاتحاد القول بالولادة والمولودية فيمن يعتقدونه إلهاً وذلك على ما تضمنته كتبهم أنهم يقولون الأب هو الأقنوم الأول من الثالوث والابن هو الثاني الصادر منه صدوراً أزلياً مساوياً بالأزلية له وروح القدس هو الثالث الصادر عنهما كذلك والطبيعة الإلهية واحدة وهي لكل من الثلاثة وكل منها متحد معها ومع ذلك هم ثلاثة جواهر لا جوهر واحد فالأب ليس هو الابن والابن ليس هو الأب وروح القدس ليس هو الأب ولا الابن وهما ليسا روح القدس ومع

ذا هم إله واحد إذ لهم لاهوت واحد وطبيعة واحدة وجوه رواحد وكل منهم متحد مع اللاهون وإن كان بينهم تمايز والأول هو الوجود الواجد الجوهري والثاني هو العقل الجوهري ويقال له العلم والثالث هو الإدارة الجوهرية ويقال لها المحبة فالله ثلاثة أقانيم جوهرية وهي على تمايزها تمايزاً حقيقياً

وقد يطلقون عليه إضافياً أي بإضافة بعضها إلى بعض جوهر وطبيعة واحدة هو الله وليس يوجد فيه غيره بل كل ما هو داخل فيه عين ذاته ويقولون إن فيه تعالى عما يقولون أربع إضافات أولاها فاعلية التعقيل في الأقنوم الأول ثانيتها مفعولية التعقل في الأقنوم الثاني الذي هو صورة عقل الأب ثالثها فاعلية الانبثاق في الأقنوم الأول والثاني اللذين لهما الإرادة رابعتها مفعولية هذا الانبثاق في الأقنوم الثالث الذي هو حب الإرادة الإلهية التي للاقنوم الأول والثاني وزعموا أن التعبير بالفاعلية والمفعولية في الأقانيم الإلهية على سبيل التوسع وليست الفاعلية في الأب نحو الابن إلا الأبوة وفيه وفي الابن نحو روح القدس ليست إلا بدء صدوره منهما وليست المفعولية في الابن وروح القدس إلا البنوة في الابن والانبثاق في الروح ويقولون كل ذلك مما يجب الايمان به وإن كان فوق الطور البشري ويزعمون أن لتلك الأقانيم

أسماء تلقوها من الحواريين فالأقنوم الأول في الطبع الإلهي يدعى أباً والثاني ابناً وكلمة وحكمة ونوراً وضياء وشعاعاً والثالث روح القدس ومغرياً وهو معنى قولهم باليونانية اراكليط وقالوا في بيان وجه الإطلاق إن ذلك لأن الأقنوم الأول بمنزلة ينبوع ومبدأ أعطى الأقنوم الثاني الصادر عنه بفعل يقتضي شبه فاعله وهو فعل العقل طبيعته وجوهره كله حتى إن الأقنوم الثاني الذي هو صورة الأول الجوهرية الإلهية مساو له كمال المساواة وحد الإيلاد هو صدور حي من حي بآلة ومبدا مقارن يقتضي شبه طبيعته وهنا كذلك بل أبلغ لأن للثاني الطبيعية الإلهية نفسها فلا بدع إذا سمي الأول أبا والثاني ابناً وإنما قيل للثاني كلمة لأن الإيلاد ليس على نحو إيلاد الحيوان والنبات بل بفعل العقل أي بتصور الأب لاهوته وفهمه ذاته ولا شك أن تلك الصورة كلمة لأنها مفهومية العقل ونطقه وقيل لها حكمة لأنه كان مولوداً من الأب بفعل عقله الإلهي الذي هو حكمة وقيل له نور وشعاع وضياء لأنه

حيث كان حكمة كان به معرفة حقائق الأشياء وانكشافها كالمذكورات وقيل للثالث روح قدس لأنه صادر من الأب والابن بفعل الإرادة التي هي واحدة للأب والابن ومنبثق منهما بفعل كهيجان الإرادة بالحب نحو محبوبها فهو حب الله والله نفسه هو الروح الصرف

والتقدس عينه ولكل من الأول والثاني وجه لأن يدعي روحاً لمكان الاتحاد لكن لما دعى الأول باسم يدل على رتبته وإضافته إلى الثاني والثاني كذلك اختص الثالث بالاسم المشاع ولم يدع ابناً وإن كان له طبيعة الأب وجوهره كالابن لأنه لم يصدر من الأب بفعل يقتضي شبه فاعله يعني بفعل القعل بل صدر منه فعل الإرادة فالثاني من الأول كهابيل من آدم والثالث كحواء منه والكل حقيقة واحدة لكن يقال لهابيل ابن ولا يقال لها بنت وقيل له مغزى لأنه كان عتيداً لأن يأتي الحواريين فيغريهم لفقد المسيح عليه السلام وأما الفاعلية والمفعولية فلأنهما غير موجودين حقيقة والأبوة والبنوة ههنا لا تقتضيهما كما في المحدثات ولذا لا يقال هنا للأب علة وسبب لابنه وإن قيل هناك فالثلاثة متساوية في الجوهر والذات واستحقاق العبادة والفضل من كل وجه ثم أنهم زعموا تسجد الأقنوم الثاني وهو الكلمة واتحاده بأشرف أجزاء البتول من الدم بقوة روح القدس فكان المسيح عليه السلام المركب من الناسوت والكلمة والكلمة مع اتحادهما لم تخرج عن بساطتها ولم تتغير لأنها الحد الذي ينتهي إليه الاتحاد فلا مانع في جهتها من الاتحاد وكذا لا مانع في جانب الناسوت منه فلا يتعاصى الله تعالى شيء زعموا أن المسيح عليه السلام كان إلهاً تاماً وإنساناً تاماً ذا طبيعتين ومشيئتين قائمتين باقنوم إلهي وهو اقنوم الكلمة ومن ثم تحمل عليه الصفات الإلهية والبشرية معاً لكن من حيثيتين ثم إنهم زادوا في الطنبور رنة وقالوا إن المسيح أطعم يوماً

الحواريين خبزاً وسقاهم خمراً ، فقال أكلتم لحمي وشربتم دمي فاتحدتم معي وأنا متحد مع الأب إلى رنات أخر هي أشهر من أن

(215/838)

تذكر ويعلم مما ذكرنا أنه لا فرق عندهم بين أن يقال إن الله تعالى هو المسيح وبين أن يقال أن المسيح ابنه وبين أن يقال إنه سبحانه ثالث ثلاثة ولذا جاء في التنزيل كل من هذه الأقوال منسوباً إليهم ولا حاجة إلى جعل كل قول لقوم منهم كما قال غير واحد من المفسرين والمتكلمين ثم لا يخفى منافاة ما ذكروه للأحدية والصمدية وقولهم إن الأقانيم مع كونها ثلاث جواهر متمايزة تمايزاً حقيقياً جوهر واحد لبداهة بطلانه لا يسمن ولا يغنى وما يذكرونه من المثال لإيضاح ذلك فهو عن الإيضاح بمعزل وبعيد عن المقصود بألف ألف منزل وكنا ذكرنا في ضمن هذا الكتاب ما يتعلق ببعض عقائدهم مع رده إلا أنه كان قبل النظر في كتبهم وقد اعتمدنا فيه ما ذكره المتكلمون عنهم واليوم لنا عزم على تأليف رسالة تتضمن تحرير اعتقاداتهم في الواجب تعالى وذكر شبههم العقلية والنقلية التي يستندون إليها ويعولون في التثليث عليها حسبما وقفنا عليه في كتبهم مع ردها على أكمل وجه إن شاء الله تعالى ونسأل الله تعالى التوفيق لذلك وأن يسلك سبحانه بنا في جميع أمورنا أقوم المسالك فهو

سبحانه الجواد الأجود الذي لم يجبه من توجه إليه بالرد .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾

(216/838)

أي لم يكافئه أحد ولم يماثله ولم يشاكله من صاحبة وغيرها وقيل هو نفي للكفاءة المعتبرة بين الأزواج وهو كما ترى وله صلة كفوا على ما ذهب إليه المبرد وغيره والأصل أن يؤخر إلا أنه قدم للاهتمام لأن المقصود نفي المكافاة عن ذاته عز وجل وللاهتمام أيضاً قدم الخبر مع ما فيه من رعاية الفواصل قيل له إن الظرف هنا وإن لم يكن خيراً مبطل سقوطه معنى لكلام لأنك لو قلت لم يكن كفواً أحد لم يكن له معنى فلما احتيج إليه صار بمنزلة الخبر فحسن ذلك وقال أبو حيان كلام سيبويه في الظرف الذي يصلح أن يكون خبراً وهو الظرف التام وما هنا ليس كذلك وقال ابن الحاجب قدم الظرف للفواصل ورعايتها ولم يقدم على أحد لئلا يفصل بين المبتدا وخبره وفيه نظر ظاهر وجوز أن يكون الظرف حالاً من أحد قدم عليه رعاية للفاصلة ولئلا يلتبس بالصفة أو الصلة وأن يكون خبراً ليكن ويكون كفواً حالاً من أحد قدم عليه لكونه نكرة أو حالاً من الضمير في الظرف الواقع خبراً وهذا الوجه نقله أبو علي في الحجة عن بعض النحاة ورد بأنه كما سمعت آنفاً عن أبي حيان ظرف ناقص لا يصح أن

يكون خبراً فإن قدر له متعلق خاص وهو مماثل ونحوه مما تتم به الفائدة يكون كفواً زائداً ولعل وقوع الجمل الثلاث متعاطفة دون ماعداها من هذه السورة لأنها سيقت لمعنى وغرض واحد وهو نفي المماثلة والمناسبة عنه تعالى بوجه من الوجوه وما تضمنته أقسامها لأن المماثل إما ولد أو والد أو نظير غيرهما فلتغاير الأقسام واجتماعها في المقسم لزم العطف فيها بالواو كما هو مقتضى قواعد المعاني وفي كفواً لغات ضم الكاف وكسرها وفتحها مع سكون الفاء وضم الكاف مع ضم الفاء وقراءة حمزة ويعقوب ونافع في رواية كفؤا بالهمز والتخفيف وحفص بالحركة وإبدال الهمزة واواً وباقي السبعة بالحركة مهموزاً وسهل الهمزة الأعرج وأبو جعفر وشيبة ونافع في رواية وفي أخرى عنه كفى من غير همز نقل حركة الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة وقرأ سليمان بن

علي بن عبد الله بن عباس كفاء بكسر الكاف وفتح الفاء والمد كما في قول النابغة

: لا تقذفني بركن لا كفاء له . . .

أي لا مثل له كما قال الأعلم وهذه السورة الجليلة قد انطوت مع تقارب قطرها على أشتات المعارف الإلهية والعقائد الإسلامية ولذا جاء فيها ما جاء من الأخبار وورد ما ورد من

الآثار ودل على تحقيق معنى الآلهة بالصمدية التي معناها وجوب الوجود أو المبدئية لوجود كل ما عداه من الموجودات ثم عقب ذلك ببيان أنه لا يتولد عنه غيره لأنه غير متولد عن غيره وبين أنه تعالى وإن كان إلهاً لجميع الموجودات فياضاً للوجود عليها فلا يجوز أن يفيض الوجود على مثله كما لم يكن وجوده من غيره ثم عقب ذلك ببيان أنه ليس في الوجود ما يساويه في قوة الوجود فمن أول السورة إلى ﴿ الصمد ﴾ في بيان ماهيته تعالى ولوازم ماهيته ووحدة حقيقته وإنه غير مركب أصلاً ومن قوله تعالى لم يلد إلى أحد في بيان أنه ليس ما يساويه من نوعه ولا من جنسه لا بأن يكون سبحانه متولداً ولا بأن يكون متولداً عنه ولا بأن يكون موازي في الوجود وبهذا المبلغ يحصل تمام معرفة ذاته عز وجل انتهى وأشار فيه إلى أن ولم يولد كالتعليل لما قبله وكأن قد قال قبل إن كل ما كان مادياً أو كان له علاقة بالمادة يكون متولداً عن غيره فيصير تقدير الكلام لم يلد لأنه لم يتولد والإشارة إلى دليله فهو أول السورة فإنه لما لم يكن له ماهية واعتبار سوى أنه هو لذاته وجب أن لا يكون متولداً عن غيره إلا لكانت هويته مستفادة عن غيره فلا يكون هو لذاته وظاهر العطف يقتضي عدم اعتبار ما أشار إليه من العلية وقد علمت فيما سبق وجه ذكره وجعل بعضهم العطف فيه قريباً من عطف لا يستقدمون على

﴿ لا يستأخرون ﴾ [الأعراف : 34] وأشار بعض السلف إلى أن ذكر ذلك لأنه جاء في سبب النزول أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه سبحانه من أي شيء هو أمن كذا أم من كذا وممن ورث الدنيا ولمن يورثها وقال الإمام أن هو الله أحد ثلاثة ألفاظ وكل واحد منها إشارة إلى مقام من مقامات الطالبين فالمقام الأول مقام المقربين وهو أعلى مقامات السائرين إلى الله تعالى وهؤلاء نظروا بعيون عقولهم إلى ماهيات الأشياء وحقائقها من حيث هي فما رأوا موجوداً سوى الحق لأنه الذي يجب وجوده لذاته وما عداه ممكن لذاته فهو من حيث ذاته ليس فقالوا هو إشارة إلى الحق إذ ليس هناك في نظرهم موجود يرجع إليه سواه عز وجل ليحتاج إلى التمييز والمقام الثاني لأصحاب اليمين وهؤلاء شاهدوا الحق سبحانه موجوداً وكذا شاهدوا الخلق فحصلت كثرة في الموجودات في نظرهم فلم يكن هو كافياً في الإشارة إلى الحق بل لا بد من مميز فاحتاجوا إلى أن يقرنوا لفظة الله بلفظ فقيل لأجلهم هو الله والمقام الثالث مقام أصحاب الشمال الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد والإله كذلك فجيء بأحد رداً عليهم وإبطالاً لمقالتهم انتهى وبعض الصوفية عد لفظة هو من عداد الأسماء الحسنى بل قال إن هاء الغيبة هي اسمه تعالى الحقيقي لدلالته على الهوية المطلقة مع كونه من ضروريات التنفس الذي به بقاء حياة النفس وإشعار رسمه بالإحاطة ومرتبته من العدد إلى دوامه وعدم فنائه ونقل الدواني عن

الإمام أنه قال علمني بعض المشايخ يا هو يا من هو يا من لا إله إلا هو وعلى ذلك اعتقاد أكثر المشايخ اليوم ولم يرد ذلك في الأخبار المقبولة عند المحدثين والله تعالى أعلم. انتهى. ا هـ ﴿روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(219/838)

وقال الشوكانى :

قوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول، وأن المشركين قالوا : يا محمد انسب لنا ربك.

فيكون مبتدأ، والله مبتدأ ثان.

و﴿ أحد ﴾ خبر المبتدأ الثاني، والجملة خبر المبتدأ الأوّل.

ويجوز أن يكون ﴿ الله ﴾ بدلاً من ﴿ هو ﴾، والخبر ﴿ أحد ﴾.

ويجوز أن يكون الله خبراً أوّلاً، و﴿ أحد ﴾ خبراً ثانياً، ويجوز أن يكون ﴿ أحد ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف، أي : هو أحد.

ويجوز أن يكون ﴿ هو ﴾ ضمير شأن ؛ لأنه موضع تعظيم، والجملة بعده مفسرة له وخبر

عنه ، والأوّل أولى .

قال الزجاج : هو كناية عن ذكر الله ، والمعنى : إن سألتم تبيين نسبته ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ .

قيل : وهمزة ﴿ أحد ﴾ بدل من الواو ، وأصله واحد .

وقال أبو البقاء : همزة ﴿ أحد ﴾ أصل بنفسها غير مقلوبة ، وذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد .

ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهري : أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى ، لا يقال رجل أحد ، ولا درهم أحد ؛ كما يقال رجل واحد ، ودرهم واحد ، قيل : والواحد يدخل في الأحد ، والأحد لا يدخل فيه فإذا قلت لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد .

وفرّق ثعلب بين واحد وبين أحد بأن الواحد يدخل في العدد وأحد لا يدخل فيه .

وردّ عليه أبو حيان بأنه يقال أحد وعشرون ، ونحوه ، فقد دخله العدد ، وهذا كما ترى ، ومن جملة القائلين بالقلب الخليل .

قرأ الجمهور : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ بإثبات ﴿ قل ﴾ .

وقرأ عبد الله بن مسعود وأبيّ : (الله أحد) بدون ﴿ قل ﴾ .

وقرأ الأعمش : (قل هو الله الواحد) وقرأ الجمهور : بتنوين ﴿ أحد ﴾ ، وهو : الأصل .

وقرأ زيد بن عليّ ، وأبان بن عثمان ، وابن أبي إسحاق ، والحسن ، وأبو السماك ، وأبو عمرو في رواية عنه بحذف التنوين للخفة ، كما في قول الشاعر :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه . . . ورجال مكة مسنتون عجاف

(220/838)

وقيل : إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف ، فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين .

ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأوّل منهما بالكسر ﴿ الله الصمد ﴾ الإسم الشريف مبتدأ ، و ﴿ الصمد ﴾ خبره .

والصمد : هو الذي يصمد إليه في الحاجات ، أي : يقصد لكونه قادراً على قضائها ، فهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض ؛ لأنه مصمود إليه ، أي : مقصود إليه ، قال الزجاج : الصمد السند الذي انتهى إليه السؤدد .

فلا سيد فوقه ، قال الشاعر :

ألا بكر الناعي بخير بني أسد . . . بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقيل : معنى الصمد : الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزول .

وقيل : معنى الصمد ما ذكر بعده من أنه الذي لم يلد ولم يولد .

وقيل : هو المستغني عن كل أحد ، والمحتاج إليه كل أحد .

وقيل : هو المقصود في الرغائب ، والمستعان به في المصائب ، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأوّل .

وقيل : هو الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد .

وقيل : هو الكامل الذي لا عيب فيه .

وقال الحسن ، وعكرمة ، والضحاك ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعبد الله بن بريدة ، وعطاء ، وعطية العوفي ، والسديّ ، الصمد هو المصمت الذي لا جوف ، ومنه قول الشاعر :

شهاب حروب لا تزال جياده . . . عوابس يعلكن الشكيم المصمدا

وهذا لا ينافي القول الأوّل لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد ، ثم استعمل في السيد المصمود إليه في الحوائج ، ولهذا أطبق على القول الأوّل أهل اللغة وجمهور أهل التفسير ، ومنه قول الشاعر :

علوته بحسام ثم قلت له . . . خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وقال الزبرقان بن بدر :

سيروا جميعاً بنصف الليل واعتمدوا . . . ولا رهينة إلاّ سيد صمد

وتكرير الاسم الجليل ؛ للإشعار بأن من لم يتصف بذلك ، فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية ، وحذف العاطف من هذه الجملة ؛ لأنها كالنتيجة للجملة الأولى .

(221/838)

وقيل : إن الصمد صفة للاسم الشريف ، والخبر هو ما بعده .

والأوّل أولى ؛ لأن السياق يقتضي استقلال كل جملة .

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ أي : لم يصدر عنه ولد ، ولم يصدر هو عن شيء ، لأنه لا يجانسه شيء ، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً ولاحقاً .

قال قتادة : إن مشركي العرب قالوا : الملائكة بنات الله .

وقالت اليهود : عزير ابن الله .

وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، فأكذبهم الله فقال : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .

قال الرازي : قدّم ذكر نفي الولد مع أن الولد مقدّم للاهتمام ، لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين : إن الملائكة بنات الله ، واليهود : عزير ابن الله ، والنصارى : المسيح ابن الله ، ولم يدّع أحد أن له والداً ، فلهذا السبب بدأ بالأهمّ ، فقال : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ ثم أشار إلى الحجة فقال : ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ، كأنه قيل : الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان

ولداً لغيره ، وإنما عبّر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد في الماضي ، ولم يذكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك في المستقبل ؛ لأنه ورد جواباً عن قولهم : ولد الله ، كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ ﴾ [الصافات : 151 ، 152] فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم ، وهم : إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد النفي فيما مضى ، وردت الآية لدفع قولهم هذا .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ هذه الجملة مقرّرة لمضمون ما قبلها ؛ لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد ، ولا يماثله ولا يشاركه في شيء ، وأخر اسم كان لرعاية الفواصل ، وقوله : ﴿ له ﴾ متعلق بقوله : ﴿ كفواً ﴾ قدم عليه لرعاية الاهتمام ؛ لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته .

وقيل : إنه في محل نصب على الحال ، والأوّل أولى .

وقد ردّ المبرد على سيبويه بهذه الآية ؛ لأن سيبويه قال : إنه إذا تقدّم الظرف كان هو الخبر ، وهنا لم يجعل خبراً مع تقدّمه ، وقد ردّ على المبرد بوجهين : أحدهما أن سيبويه لم يجعل ذلك حتماً بل جوّزه .

والثاني أنا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر ، بل يجوز أن يكون خبراً ويكون كفواً منتصباً على الحال وحكى في الكشاف عن سيبويه على أن الكلام العربيّ الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقرّ ، واقتصر في هذه الحكاية على نقل أوّل كلام سيبويه ، ولم ينظر إلى أخره ، فإنه قال في آخر كلامه : والتقديم والتأخير والإلغاء ، والاستقرار عربيّ جيد كثير .

انتهى .

قرأ الجمهور : ﴿ كفواً ﴾ بضم الكاف والفاء ، وتسهيل الهمزة ، وقرأ الأعرج ، وسيبويه ، ونافع في رواية عنه بإسكان الفاء ، وروي ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة واواً وصلاً ووقفاً ، وقرأ نافع في رواية عنه : (كفأ) بكسر الكاف ، وفتح الفاء من غير مدّ .

وقرأ سليمان بن عليّ بن عبد الله بن العباس كذلك مع المد ، وأنشد قول النابغة :

لا تقذفني بركن لا كفاء له . . . والكفء في لغة العرب النظير .

يقول .

هذا كفؤك أي : نظيرك .

والاسم الكفاءة بالفتح .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والمحاملي في أماليه ، والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة عن بريد لا أعلمه إلاّ رفعه .

قال : ﴿ الصمد ﴾ الذي لا جوف له ، ولا يصح رفع هذا .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : ﴿ الصمد ﴾ الذي لا جوف له ، وفي لفظ : ليس له أحشاء .

وأخرج ابن أبي عاصم ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس مثله .

وأخرج ابن المنذر عنه قال : ﴿ الصمد ﴾ الذي لا يطعم ، وهو المصمت .

وقال : أو ما سمعت النائحة ، وهي تقول :

لقد بكر الناعي بخير بني أسد . . . بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

(223/838)

وكان لا يطعم عند القتال ، وقد روي عنه أن الذي يصمد إليه في الحوائج ، وأنه أنشد البيت ، واستدلّ به على هذا المعنى ، وهو أظهر في المدح ، وأدخل في الشرف ، وليس لوصفه بأنه لا يطعم عند القتال كثير معنى .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة ، والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : ﴿ الصمد ﴾ السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد

كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والغنيّ الذي قد كمل في غناه ، والجبار الذي قد كمل في جبروته ، والعالم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه هذه صفة لا تنبغي إلاّ له ليس له كفو وليس كمثله شيء .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقي عن ابن مسعود قال : ﴿ الصمد ﴾ هو السيد الذي قد انتهى سؤدده ، فلا شيء أسود منه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس قال : ﴿ الصمد ﴾ الذي تصمد إليه الأشياء إذا نزل بهم كربة أو بلاء .

وأخرج ابن جرير من طرق عنه في قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ قال : ليس له كفو ولا مثل . انتهى انتهى . اهـ ﴿فتح القدير حـ 5 صـ 513.518 ﴾

(224/838)

وقال صاحب روح البيان :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

الضمير للشأن كقولك هو زيد منطلق وارتفاعه بالابتداء وخبره الجملة ولا حاجة إلى

العائد لأنها عين الشان الذي عبر عنه بالضمير أي الله أحد هو الشأن هذا أو هو أن الله أحد والسر في تصدير الجملة به التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمونها مع أن في الإبهام ثم التفسير مزيد تقرير أو الضمير لما سئل عنه أي الذي سألتم عنه هو الله إذ روى إن المشركين قالوا للنبي عليه السلام ، صف لنا ربك الذي تدعونا إليه وأنسبه أي بين نسبه وذاكره فنزلت يعني بين الله نسبه بتنزيهه عن النسب حيث نفى عنه الوالدية والمولودية والكفاءة فالضمير حينئذٍ مبتدأ وخبره واحد بدل منه وإبدال النكرة المحضة من المعرفة يجوز عند حصول الفائدة على ما ذهب إليه أبو علي وهو المختار والله أعلم .

دال على الإله الحق دلالة جامعة لمعاني الأسماء الحسنى كلها .

وقال القاشاني : هو عندنا اسم الذات الإلهية من حيث هي هي أي المطلقة الصادق عليها مع جميعها أو بعضها أو لا مع واحد منها كقوله تعالي : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ انتهى .

(225/838)

وعبد الله هو العبد الذي تحلى بجميع أسمائه فلا يكون في عباده أرفع مقاماً وأعلى شأنا منه لتحققه بالاسم الأعظم واتصافه بجميع صفاته وهذا خص نبينا عليه السلام ، بهذا الاسم في قوله وإنه لما قام عبد الله يدعوه فلم يكن هذا الاسم بالحقيقة إلا له وللأطاب من ورثته

بتبعيته وإن أطلق على غيره مجازاً لاتصاف كل اسم من أسمائه بجميعها بحكم الواحدية واحدية جميع الأسماء والأحد اسم لمن لا يشاركه شيء في ذاته كما أن الواحد اسم لمن لا يشاركه شيء في صفاته يعني أن الأحد هو الذات وحدها بلا اعتبار كثرة فيها فأثبت له الأحدية التي هي الغنى عن كل ما عداه وذلك من حيث عينه وذاته من غير اعتبار أمر آخر والواحد هو الذات مع اعتبار كثرة الصفات وهي الحضرة الإسمائية ولذا قال تعالى: إن إلهكم لواحد ولم يقل لأحد لأن الواحدية من أسماء التقييد فبينها وبين الخلق ارتباط أي من حيث الآلهة والمألوهية بخلاف الأحدية إذ لا يصح ارتباطها بشيء فقولهم العلم الإلهي هو العلم بالحق من حيث الارتباط بينه وبين الخلق وانتشاء العالم منه بقدر الطاقة البشرية إذ منه ما لا تفيه الطاقة البشرية وهو ما وقع به الكمل في ورطة الحيرة وأقروا بالعجز عن حق المعرفة ومنه يعلم أن توحيد الذات مختص في الحقيقة بالله تعالى وعبد الأحد هو وحيد الوقت صاحب الزمان الذي له القطبية الكبرى والقيام بالأحدية الأولى وعبد الواحد هو الذي بلغه الله الحضرة الواحدية وكشف له عن أحدية جميع أسمائه فيدرك ما يدرك ويفعل ما يفعل بأسمائه ويشاهد وجود أسمائه الحسنى

قال ابن الشيخ في حواشيه قوله هو الله أحد ثلاثة ألفاظ كل واحد منها إشارة إلى مقام من مقامات السائرين إلى الله تعالى فالمقام الأول مقام المقربين وهم الذين نظروا إلى ماهيات الأشياء وحقائقها من حيث هي هي فلا جرم ما رأوا موجوداً سوى الله لأن الحق هو الذي لذاته يجب وجوده وإما ما عداه فممكن والممكن إذا نظر إليه من حيث هو هو كان معدوماً فهؤلاء لم يروا موجوداً سوى الحق تعالى وكلمة هو وإن كانت للإشارة المطلقة مفتقرة في تعين المراد بها إلى سبق الذكر بأحد الوجوه أو إلى أن يعقبها ما يفسرها إلا أنهم يشيرون بها إلى الحق ولا يفتقرون في تلك الإشرة إلا ما يميز المراد بها من غيره لأن الافتقار إلى الممز إنما يحصل حيث وقع الإبهام بأن يتعدد ما يصلح لأن يشار إليه وقد بينا إنهم لا يشاهدون بعيون عقولهم إلا الواحد فقط فلهذا السبب كانت لفظة هو كافية في حصول العرفان التام لهؤلاء والمقام الثاني مقام أصحاب اليمين وهو دون المقام الأول وذلك لأنهم شاهدوا الحق موجوداً وشاهدوا الخلق أيضاً موجوداً فحصلت الكثرة في الموجودات فلا جرم لم تكن لفظة هو كافية في الإشارة إلى الحق بل لا بد هناك من مميز به يتميز الحق من الخلق فهؤلاء مفتقرون إلى أن يقرن لفظة الله بلفظة هو فقيل لأجلهم هو الله لأن لفظة الله اسم للموجود الذي يفتقر إليه ما عداه ويستغنى هو عن كل ما عداه فتتميز به الذات المرادة عما عداه والمقام الثالث مقام أصحاب الشمال وهو أخس المقامات وهم الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد فقرن لفظة الأحد بما تقدم رداً على هؤلاء وإبطالاً

لمقالهم فقيل قل هو الله أحد انتهى .

كلامه

(227/838)

ومنه يعلم صحة ما أعتاده الصوفية من الذكر بالاسم هو وذلك لأن أهل البداية منهم وهم المحجوبون تابعون لأهل النهاية منهم وهم المكاشفون كأنهم كلهم ما شاهدوا في الوجود إلا الله فالله عندهم بهويته المطلقة السارية متعين لا حاجة إلى التعيين أصلاً فضمير هو راجع إليه لا إلى يره كما أن الضمير في أنزلناه راجع إلى القرآن لتعينه وحضوره في الذهن فقول الطاعن إنه ضمير ليس له مرجع متعين فكيف يكون ذكر الله تعالى مردود على أن الضمائر أسماء وكل الأسماء ذكر لا فرق بينها بالمظهرية والمضمرية فعلى هذا يجوز أن يدخل اللام في كلمة هو في اصطلاح الصوفية لأنها إشارة إلى الهوية ولا مناقشة في الاصطلاح ثم قوله قل أمر من عين الجمع وارد على مظهر التفصيل وفيه إشارة إلى سر قوله تعالى شهد الله إنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم فكأنه يقول إنا شهدت بوحدة الهوية في مقام الجمع فأشهد أنت أيضاً بتلك الوحدة في مقام الفرق ليظهر سر الأحدية واللاحدية ويحصل التطابق بينهما جمعاً وتفصيلاً هكذا لاح بالبال والله أعلم بحقيقة الحال وقرىء هو الله بلا قل وكذا في

المعوذتين لأنه توحيد والأخريان تعوذ فيناسب إن يدعو بهما وإن يؤمر بتبليغهما وقد سبق في سورة الأعلى ما يغنى عن تكراره ههنا وقال بعضهم: إنما أثبت في المصحف قل والتزم في التلاوة مع إنه ليس من دأب المأمور بقل أن يتلفظ في مقام الائتمار إلا بالمقول لأن المأمور ليس المخاطب به فقط بل كل واحد ابتلى بما ابتلى به المأمور فأثبت ليبقى على مر الدهور منا على العباد

(228/838)

﴿ الله الصمد ﴾

مبتدأ وخبر فعل بمعنى مفعول كقبض بمعنى مقبوض من صمد إليه من باب نصر إذا قصد أي هو السيد المصمود إليه في الحوائج المستغنى بذاته وكل ما عداه محتاج إليه في جميع جهاته فلا صمد في الوجود سوى الله فهو مثل زيد الأمير يفيد قصر الجنس على زيد فإذ كان هو الصمد فمن انتفت الصمدية عنه لا يستحق الألوهية وتعريفه لعلمهم بصمديته بخلاف أحديته وتكرير الاسم الجليل للإشار بأن من يتصف به فهو بمعزل عن استحقاق الألوية كما أشير إليه آنفاً وتعرية الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى وبين أولاً أولهيته المستتبعة لكافة نعوت الكمال ثم أحديتة الموجبة لتنزهه عن شائبة التعدد والتركب بوجه

من الوجوه وتوم المشاركة في الحقيقة وخواصها ثم صمديه المقتضية لاستغنائه الذاتيعما سواه وافتقار جميع المخلوقات إليه في وجودا وبقائها وسائر أحوالها تحقيقاً للحق وإرشاداً لم إلى سننه الواضح فإثبات الصمدية له سبحانه إنما هو باعتبار استنادنا إليه في الوجود والكمالات التابعة للوجود باعتبار أحدية ذته فهو غني عن هذه الصفة والحاصل إن الصمدية تقتضي اعتبار كثرة الأسماء والصفات في الله دون الأحدية وعبد الصمد هو مظهر الصمدية الذي يصمد إليه أي يقصد لدفع البليات وإيصال امداد اخيرات ويستشفع به إلى الله ادفع العذاب وإعطاء الثواب وهو محل نظر الله إلى العالم في ربوبيته له .

(229/838)

يقول الفقير : جرى على لسان الباطن بلا اختيار منى وذلك بعد الإشراق إن أقول أزلي أبدي إحدى صمدي أي أنت يا رب أزلي أحدي وأبدي صمدي فالأزلية ناظرة إلى الأحدية كما أن الأبدية ناظرة إلى الصمدية وذلك باعتبار التحليل والتعقيد فإن الأحدية لا تتجلى إلا بإزالة الكثرت فعند الانتها إلى مقام الغنى الذي هو الغيب المطلق تزول الكثرة ويكون الزوال أزلاً وهذا تحليل وفناء وعبور عن المنازل وعروج إلى المرصد الأعلى والمقصد الأقصى عيناً وعلماً وإما الصمدية فباعتبار الأبدية التي هي البقاء وذلك يقتضي

التعقيد بعد التحليل فهي بالنزول إلى مقام العين بالمهملة أي العين الخارجي والعالم الشهادي الذي أسفل منازله عالم الناسوت والحاصل أن الأحدية جمع والصمدية فرق فمقام الأحدية هي النقطة الغير المنقسمة التي نبسطت منها جملة التراكيب الواحدية فأول تعيناتها هي مرتبة آدم ثم حواء لأن حواء إنما ظهرت بعد الهواء المنبعث من تعين آدم الحقيقي ولذا انقلبت الهاء حاء فصار الهواء حواء وخاصية الاسم الأحد ظهور عالم القدرة وآثارها حتى لو ذكره ألفاً في خلوة على طهارة ظهرت له العجائب بحسب قوته وضعفه وخاصية الاسم الصمد حصول الخير والصلاح فمن قرأه عند السحر مائة وخمساً وعشرين مرة ظهرت عليه آثار الصدق والصديقية وفي اللمعة ذاكره لا يحس بألم الجوع ما دام ملتبساً بذكره والقراءة وصلاً أحد الله الصمد منوناً مكسور الالتقاء الساكنين وكان أبو عمرو وفي أكثر الروايات يسكت عند هو الله أحد وزعم أن العرب لا تصل مثل هذا وروى عنه إنه قال وصلها قراءة محدثة وروى عنه قال أدركت القراء كذلك يقرأونها قل هو الله أحد وإن وصلت نونت وروى عنه إنه قال أحب إلى إذا كان رأس آية أن يسكت عندها وذلك لأن الآية منقطعة عما بعدها مكتفية بمعناها فهي فاصلة وبها سميت آية وإما وقفهم كلهم

فيسكتون على الدال ثم صرح ببعض أحكام جزئية مندرجة تحت الأحكام السابقة فقيل

﴿لَمْ يَلِدْ﴾

تنصيصاً على إبطال زعم المفترين في حق الملائكة والمسيح ولذلك ورد النفي على صيغة الماضي من غير أن يقال لن يلد أولاً يلد أي لم يصدر عنه ولد لأنه لا يجانسه شي ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالد أولاً يفتقر إلى ما يعينه أو يخلفه لاستحالة الحاجة والفناء عليه سبحانه فإن قلت لم قال في هذه السورة لم يلد وفي سورة بني إسرائيل لم يتخذ ولداً أجيب بأن النصارى فريقان منهم من قال عيسى ولد الله حقيقة فقوله لم يلد إشارة إلى الرد عليه ومنهم من قال اتخذه ولداً تشريفاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً تشريفاً فقوله لم يتخذ ولداً إشارة إلى الرد عليه

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾

أي لم يصدر عن شيء لاستحالة نسبة العدم إليه سابقاً أولاً حقاً وقال بعضهم: الوالدية والمولودية لا تكونان إلا بالمثلية فإن المولود لا بد أن يكون مثل الوالد ولا مثلية بين هويته الواجبة وهوياتنا الممكنة انتهى وقال البقلي لم يلد ولم يولد أي لم يكن هو محل الحوادث ولا الحوادث محله والتصريح بأنه لم يولد مع كونهم معترفين بمضمونه لتقرير ما قبله وتحقيقه بالإشرة إلى أنهما متلازمان إذ المعهود إن ما يلد يولد وما لا فلا ومن قضية الاعتراف بأنه لم

يولد الاعتراف بأنه لا يلد وفي "كشف الأسرار" قدم ذكر لم يلد لأن من الكفار من ادعى إن له ولداً ولم يدع أحد إنه مولود .

(231/838)

قال أبو الليث لم يلد يعني لم يكن له ولد يرثه ولم يولد يعني لم يكن له والد يرث ملكه ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّه كُفُوًا أَحَدُ ﴾ يقال هذا كفاؤه وكفؤه مثله وكافأ فلاناً ماثله وله صلة لكفؤا قدمت عليه مع أن حقها التأخر عنه للاهتمام بها لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى أي لم يكافئه دو لم يماثا ولم يشاكله بل هو خالق الأكفاء ويجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح نفياً للصاحبة وأما تأخير اسم كان فلمراعاة الفواصل ولعل ربط الجمل الثلاث بالعاطف لأن المراد منها نفي أقسام الأمثال فهي جملة واحدة منبه عليها بالجمل .

قال القاشاني : ما كانت هويته الأحية غير قابلة للكثرة والانقسام ولم تكن مقارنة الوحدة الذاتية الغيرها إذا ما عدا الوجود المطلق ليس إلا لعدم المحض فلا يكافئه أحد إذ لا يكافىء اعدم الصرف الوجود المحض .

(232/838)

وقال بعضهم: كاشف الوالهين بقوله هو وكاشف الموحدين بقوله الله وكاشف العارفين بقوله أحد والعلماء بقوله الصمد والعقلاء بقوله ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ .. الخ

وهو أي لم يلد إشارة إلى توحيد العوام لأنهم يستدلون على المصانع بالشواهد والدلائل وقال بعض الكبار إن سورة الإخلاص إشارة إلى حال النزول وهو حال المجذوب فأولاً يقول هو الله أحد الله الصمد .. الخ.

(233/838)

وحال الصعود يعتبر من الآخر إلى جانب هو فيقول أولاً لم يكن له كفؤا أحد ثم يترقى إلى أن يقول هو لكن لا ينبغي للسالك أن يكتفي بوجدان هو في القرآن بل ينبغي له أن يترقى إلى القرآن الفعلي فيشاهد هو في القرآن وهو محيط بالعوالم كلها وهو أول ما ينكشف للسالك ولاشتمال هذه السورة مع قصرها على جميع معارف الإلهية والرد على من الحد فيها جاء في الحديث إنها تعدل ثلث القرآن فإن مقاصده منحصرة في بيان العقائد والأحكام والقصص ومن عدلها بكله اعتبر المقصود بالذات منه وهو علم المبدأ وصفاته إذ ما عداه ذرائع إليه وقال عليه السلام: أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله

أحد أي ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله ومعرفة صفاته التي نطقت بها هذه

اسورة وعنه عليه السلام ، سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد فقال : وجبت فقيل وما وجبت

يا رسول الله قال وجبت له الجنة وعن سهيل ابن سعد رضي الله عنه جاء رجل إلى النبي

عليه السلام وشكا إليه الفقر فقال إذا دخلت بيتك فسلم إن كان فيه أحد وإن لم يكن فيه

أحد فسلم على نفسك واقرأ قل هو الله أحد مرة وحدة ففعل الرجل ذلك فأدر الله عليه

رزقاً حتى أفاض على جيرانه وعن علي رضي الله عنه إنه قال من قرأ قل هو الله أحد بعد

صلاة الفجر إحدى عشرة مرة لم يلحقه ذنب يومئذٍ ولو اجتهد الشيطان وفي الحديث أيعجز

أحدكم أن يقرأ القرآن في ليلة واحدة فقيل يا رسو الله من يطيق ذلك قال أن يقرأ قل هو الله

أحد ثلاث مرات وروى إنه نزل جبريل عليه السلام بتبوك فقال يا رسول الله إن معاوية بن

المزني رضي الله عنه مات في المدينة أتحب أن أطوي لك الأرض فتصلي عليه قال : نعم

فضرب بجناحه على ورض فرفع له سريره وصلى عليه وخلفه صفان من الملائكة كل

صف سبعون الف ملك ثم رجع فقال عليه السلام بم أدرك هذا قال بحبه قل هو الله أحد

وقراءته إياها جائياً وذاهباً وقائماً وقاعداً وعلى كل حال رواه الطبراني وصحب سورة

الإخلاص

حين نزلت سبعون ألف ملك كلما مروا بأهل سماء سألوهم عما معهم فقالوا نسبة الرب سبحانه ولهذا سميت هذه اسورة نسب الرب كما في كشف الأسرار وسميت سورة الإخلاص لإخلاص الله من الشرك نسب الرب كما في كشف الأسرار وسميت سورة الإخلاص لإخلاص الله من الشرك أو للخلاص من العذاب أو خالصة في التوحيد قال الامام الغزالي رحمه الله تعالى .

عفو ربي وثيقتي بالخلاص .

واعتصامي بسورة الإخلاص .

أو لأنها سورة خالصة ليس فيها ذكر شيء من الدنيا والآخرة وقال الحنفي لأنها تخلص قارئها من شدائد الآخرة وسكرات الموت وظلمات القبر وأهوال القيامة

وقال القاشاني : لأن الإخلاص تمحيص الحقيقة الأحدية عن شائبة الكثرة . انتهى انتهى . ا . هـ ﴿روح البيان حـ 10 صـ 651. 656﴾

وقال القاسمي :

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ ﴾

أي : الخبر الحق المؤيد بالبرهان الذي لا يرتاب فيه ، وهو ما يعبِّر عنه النحويون بالقصة أو الحديث أو الشأن . قال أبو السعود : ومدار وضعه موضعه ، مع عدم سبق ذكره الإيذانُ بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد ، وإليه يشير كل مشير ، وإليه يعود كل ضمير ﴿ اللَّهُ أَحْدَ ﴾ أي : واحد في الألوهية والربوبية .

قال الزمخشري : ﴿ أَحَدٌ ﴾ بمعنى واحد . وقال ابن الأثير : الأحد في أسمائه تعالى الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر . والهمزة فيه بدل من الواو . وأصله : وحد ؛ لأنه من الوحدة .

وفي " المصباح " : يكون أحد مرادفاً لواحد في موضعين سماعاً : أحدهما : وصف اسم الباريء تعالى ، فقال : هو الواحد وهو الأحد ؛ لاختصاصه بالأحدية ، فلا يشركه فيها غيره . ولهذا لا يُنعت به غير الله تعالى ؛ فلا يقال : رجل أحد ، ولا : درهم أحد ، ونحو ذلك .

والموضع الثاني : أسماء العدد للغلبة وكثرة الاستعمال ، فيقال : أحد وعشرون ، وواحد

وعشرون . وفي غير هذين يقع الفرق بينهما في الاستعمال ، بأن الأحد لنفي ما يذكر معه ، فلا يستعمل إلا في الجحد ، لما فيه العموم ، نحو : ما قام أحد . أو مضافاً نحو : ما قام أحد الثلاثة . و الواحد اسم لمفتتح العدد ، ويستعمل في الإثبات ، مضافاً وغير مضاف . فيقال : جاءني واحد من القوم . انتهى .

وقال الأزهري : الواحد من صفات الله تعالى ، معناه أنه لا ثاني له ، ويجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد . فأما ﴿ أَحَدٌ ﴾ فلا ينعت به غير الله تعالى ؛ لخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه .

(236/838)

قال الإمام : ونكّر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن الله بأنه واحد ، لا بأنه لا واحد سواه . فإن الوحدة تكون لكل واحد ، تقول : لا أحد في الدار ، بمعنى لا واحد من الناس فيها . والذي كان يزعمه المخاطبون هو التعدد في ذاته ، فأراد نفي ذلك بأنه أحد . وهو تقرير لخلاف ما يعتقد به أهل الأصلين من المجوس ، وما يعتقده القائلون بالثلاثة ، منهم ومن غيرهم . وسيأتي لابن تيمية كلام آخر في سر إيثاره بالتنكير .

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ أي : الذي يُصمَد إليه في الحوائج ، ويُقصد إليه في الرغائب . إذ ينتهي

إليه منتهى السؤدد ، قاله الغزاليّ في " المقصد الأسنى " . وهكذا قال ابن جرير : الصمد عند العرب هو السيد الذي يصمد إليه ، الذي لا أحد فوقه ، وكذلك تسمى أشرافها .

ومنه قول الشاعر :

~ألا بَكَرَ النّاعي بخَيْرَيْ أَسَدْ بعَمْرِو بن مسعودٍ وبالسَّيِّدِ الصَّمَدْ

قال الشهاب : فهو فَعَل بمعنى مفعول ، وصمد بمعنى قصد . فيتعدى بنفسه وباللام وإلى .

وقال ابن تيمية رحمه الله : وفي الصمد للسلف أقوال متعددة ، قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك ، بل كلها صواب والمشهور منها قولان :

أحدهما : أن الصمد هو الذي لا جوف له .

والثاني : أنه السيد الذي يُصمد إليه في الحوائج .

والأول هو قول أكثر السلف من الصحابة والتابعين وطائفة من أهل اللغة .

والثاني قول طائفة من السلف والخلف وجمهور اللغويين .

ثم توسع رحمه الله في مأخذ ذلك واشتقاقه والمأثور فيه ، إلى أن قال :

وإنما أدخل اللام في ﴿ الصَّمَدُ ﴾ ولم يدخلها في ﴿ أَحَدٌ ﴾ لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف ، ولم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده . وإنما يستعمل في غير الله في النفي وفي الإضافة وفي العدد المطلق ، وأما اسم الصمد فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين ، كما تقدم ، فلم يقل : صمد ، بل قال : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه ؛ فإنه المستوجب لغايته على الكمال ، والمخلوق وإن كان صمداً من بعض الوجوه ، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه ، فإنه يقبل التفرق والتجزئة ، وهو أيضاً محتاج إلى غيره ، فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه ، فليس أحد يصمد إليه كلُّ شيء ولا يصمد هو على شيء إلا الله ، وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق وينقسم وينفصل بعضه من بعض ، والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك ، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة ، لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه ، كما لا يمكن تثنية أحديته بوجه من الوجوه .

وقال أبو السعود : وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل من استحقاق الألوهية . وتعرية الجملة على العاطف لأنها كالنتيجة للأولى ، بيَّن أولاً ألوهيته عزَّ وجلّ المستتبعة لكافة نعوت الكمال ، ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد والتركيب بوجه من الوجوه ، وتوهم المشاركة في الحقيقة وخواصها ، ثم صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتيّ عما سواه ، وافتقار جميع المخلوقات إليه في وجودها وبقائها وسائر أحوالها ؛ تحقيقاً للحق وإرشاداً لهم إلى سننه الواضح ، ثم صرح ببعض ما يندرج فيما تقدم ، بقوله سبحانه : ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ نصيباً على إبطال زعم المفترين في حق الملائكة والمسيح ؛ ولذلك ورد النفي على صيغة الماضي ، أي : لم يصدر عنه ولد ؛ لأنه لا يجانسه شيء ليمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا ، كما نطق به قوله تعالى : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ﴾ [الأنعام : 101] ، ولا يفتقر إلى ما يعينه أو يخلفه ؛ لاستحالة الحاجة والفناء عليه سبحانه . انتهى .

وقال ابن تيمية : وقد شمل ما أخبر به سبحانه من تنزيهه وتقديسه عما أضافوه إليه من الولادة كلّ أفرادها ، سواء سموها حسية أو عقلية ، كما تزعمه الفلاسفة الصابئون من تولد العقول العشرة والنفوس الفلكية التسعة التي هم مضطربون فيها ، هل هي جواهر أو أعراض ؟ وقد يجعلون العقول بمنزلة الذكور والنفوس بمنزلة الإناث ، ويجعلون ذلك آباءهم

وأمهاتهم وآلهتهم وأربابهم القريبة ، وذلك شبيه بقول مشركي العرب وغيرهم ، الذين جعلوا له بنين وبنات ، قال تعالى :

(239/838)

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنعام : 100] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الصافات : 151 - 152] ، وكانوا يقولون : الملائكة بنات الله . كما يزعم هؤلاء أن النفوس هي الملائكة ، وهي متولدة عن الله ، فقال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل : 57] ، والآيات في هذا كثيرة .

وقوله :

﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ نفي لإحاطة النسب من جميع الجهات ، فهو الأول الذي لم يتقدمه والد كان منه ، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه . قال الإمام : قوله ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ يصرح ببطلان ما يزعمه بعض أرباب الأديان من أن ابناً لله يكون إلهاً ، ويُعبد عبادة الإله ، ويُقصد فيه الإله ، بل لا يَستحي الغالون منهم أن يعبِّروا عن والدته بأم الإله القادرة ؛ فإن المولود حادث ولا يكون إلا بمزاج ، وهو لا يسلم من عاقبة الفناء ، ودعوى أنه أزلي مع أبيه ،

مما لا يمكن تعقلهُ ؛ فهو سبحانه منزَّه عن ذلك .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ أي : ولم يكن أحد يكافئه أي : يماثله من صاحبة أو غيرها .

وقال الإمام : الكفؤ معناه المكافئ والمماثل في العمل والقدرة . وهو نفي لما يعتقده بعض الوثنيين في الشيطان مثلاً . فقد نفى بهذه السورة جميع أنواع الشرك ، وقرَّر جميع أصول التوحيد والتنزيه . وقال ابن جرير : الكفؤ والكفئ والكفاء في كلام العرب واحد ، وهو المثل والشبه .

وقرئ : ﴿ كُفُوًا ﴾ بضم الكاف والفاء وقلب الهمزة واواً . وقرئ بتسكين الفاء وهمزها ، وهما قراءتان معروفتان ، ولغتان مشهورتان . و ﴿ لَّهُ ﴾ صلة لـ : ﴿ كُفُوًا ﴾ قدمت عليه ، مع أن حقها التأخر عنه ؛ للاهتمام بها ، لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته تعالى . وأما تأخير اسم كان فلمراعاة الفواصل .

فوائد من هذه السورة :

الأولى : قال الشهاب : فإن قلت المأمور : ﴿ قُلْ ﴾ من شأنه إذا امتثل أن يتلفظ بالمقول وحده ، فلِم كانت ﴿ قُلْ ﴾ من المتلوّ فيه وفي نظائره في القراءة ؟ قلت : المأمور به سواء

كان معيناً أم لا ، مأمور بالإقرار بالمقول ، فأثبت القول ليدل على إيجاب مقوله ولزوم الإقرار به على مرّ الدهور .

الثانية : قال الإمام ابن تيمية : احتج بقوله تعالى :

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ من أهل الكلام المحدث من يقول : الرب – تعالى – جسم . كبعض الذين وافقوا هشام بن الحكم ومحمد بن كرام وغيرهما ، قالوا : هو صمد ، والصمد الذي لا جوف له . وهذا إنما يكون في الأجسام المصمتة ، فإنها لا جوف لها ، كما في الجبال والصخور وما يصنع من عواميد الحجارة ؛ ولهذا قيل في تفسيره : إنه الذي لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه شيء ولا يأكل ولا يشرب . ونفي هذا لا يعقل إلا عما هو جسم . وقالوا : أصل الصمد : الاجتماع ، ومنه تصميد المال . وهذا إنما يعقل في الجسم المجتمع . وأما النفاة فقالوا : الصمد الذي لا يجوز عليه التفرق والانقسام ، وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والانقسام .

وقالوا أيضاً : الأحد الذي لا يقبل التجزؤ والانقسام . وكل جسم في العالم يجوز عليه التفرق والتجزؤ والانقسام . وقالوا : إذا قلتم : هو جسم كان مركباً مؤلفاً من الجواهر الفردة أو من المادة والصورة . وما كان مركباً مؤلفاً من غيره كان مفتقراً إليه ، وهو سبحانه صمد ، والصمد الغني عمن سواه ، فالمركب لا يكون صمداً . انتهى .

وقال الرازي : قد استدل القوم من جهّال المشبهة بهذه الآية في أنه تعالى جسم ، وهذا باطل لأنا بينا أن كونه أحداً ينافي كونه جسماً . فمقدمة هذه الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى ، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام المتضاغطة ، وتعالى الله عن ذلك . فإذن يجب أن يحمل ذلك على مجازه ؛ وذلك لأن الجسم الذي يكون كذلك ، يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير ، وذلك إشارة إلى كونه سبحانه واجباً لذاته ممتنع التغير في وجوده وبقائه وجميع صفاته . انتهى .

وأقول : التصحيح في تأويل الصمد ما ذكرناه أولاً ، وهو ما حكاه ابن جرير وغيره عن العرب في معناه . وإذا تحقق هذا ، فلا يعول على هذا الثاني ولا لوازمه .

الثالثة : قال ابن تيمية : كما يجب تنزيه الرب عن كل نقص وعيب ، يجب أن تنزيهه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفات الكمال الثابتة له ، وهذان النوعان يجمعان التنزيه الواجب لله ، وهذه السورة دلت على النوعين ، فقوله :

﴿ أَحَدٌ ﴾ من قوله :

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ينفي المماثلة والمشاركة . وقوله : صمد يتضمن جميع صفات الكمال ، فالنقائص جنسُها منفيٌّ عن الله تعالى ، وكل ما اختص به المخلوق فهو من النقائص التي يجب تنزيه الرب عنها . بخلاف ما يوصف به الرب ، ويوصف العبد بما يليق به مثل العلم والقدرة والرحمة ونحو ذلك ، فإن هذه ليست نقائص بل ما ثبت لله من هذه المعاني ، فإنه يثبت لله على وجه لا يقاربه فيه أحد من المخلوقات ، فضلاً عن أن يماثله فيه ، بل ما خلقه الله في الجنة من المآكل والمشارب والملابس لا يماثل ما خلقه في الدنيا وإن اتفقا في الاسم ، فكلاهما مخلوق . فالخالق تعالى أبعد في مماثلة المخلوقات من المخلوقات إلى المخلوق . وقد سمَّى الله نفسَه عليماً حليماً رؤوفاً رحيماً سميعاً بصيراً عزيزاً مِلكاً جباراً متكبراً ، وسمَّى أيضا بعض مخلوقاته بهذه الأسماء ، مع العلم أنه ليس المسمى بهذه الأسماء من المخلوقين مماثلاً للخالق جلّ جلاله في شيء من الأشياء .

الرابعة : قدمنا ما ورد في الحديث من أن < سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن > .

وقد ذكروا في ذلك وجوها ، منها ما قاله أبو العباس بن سريج : أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام : ثلث منها للأحكام ، وثلث منها وعد ووعيد ، وثلث منها الأسماء والصفات . وهذه السورة جمعت الأسماء والصفات . وقال الغزالي في "جواهر القرآن" : مهمات القرآن هي معرفة الله ومعرفة الآخرة ومعرفة الصراط المستقيم ، فهذه المعارف الثلاثة هي المهمة ، والباقي توابع . وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث ، وهي معرفة الله

، وتقديسه وتوحيده عن مشارك في الجنس والنوع . وهو المراد بنفي الأصل والفرع والكفؤ .

(243/838)

قال : والوصف بالصمد يشعِر بأنه السيد الذي لا يقصد في الوجود للحوائج سواه . نعم ، ليس فيها حديث الآخرة والصراط المستقيم ، فلذلك تعدل ثلث القرآن ، أي : ثلث الأصول من القرآن كما قال : < الحج عرفة > أي : هو الأصل والباقي تبعٌ .

(244/838)

وقال ابن القيم في " زاد المعاد " : < كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في سنة الفجر والوتر بسورتي الإخلاص والكافرون > وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل ، وتوحيد المعرفة والإرادة ، وتوحيد الاعتقاد والقصد ؛ فسورة الإخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة ، وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق الشركِة بوجه من الوجوه . والصمدية المثبتة له جميعَ صفات الكمال الذي لا يلحقه نقصٌ بوجه من الوجوه ، ونفي

الولد والوالد الذي هو من لازم الصمدية وغناه وأحديته ، ونفي الكفؤ المتضمن لنفي الشبيه والمثيل والنظير ، فتضمنت هذه السورة إثبات كلّ كمال له ، ونفي كل نقص عنه ، ونفي إثبات شبيه أو مثل له في كماله ونفي مطلق الشريك عنه ، وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك ؛ ولذلك كانت تعدل ثلث القرآن ، فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء ، والإنشاء ثلاثة : أمر ، ونهي ، وإباحة . والخبر نوعان : خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه ، وخبر عن خلقه ؛ فأخلصت سورة الإخلاص الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته فعدلت ثلث القرآن ، وخلّصت قارئها المؤمن من الشرك العلمي ، كما خلّصت سورة ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ من الشرك العملي الإرادي القصدي . ولما كان العلم قبل العمل وهو إمامه وقائده وسائقه والحاكم عليه ومنزِله منازله ، كانت سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن ، والأحاديث بذلك تكاد تبلغ مبلغَ التواتر ، و ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ تعدل ربع القرآن ، وفي الترمذي : من رواية ابن عباس رضي الله عنهما ، يرفعه :

< ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تعدل نصف القرآن و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تعدل ثلث القرآن و ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ تعدل ربع القرآن > رواه الحاكم في المستدرك ، وقال : صحيح الإسناد .

ولما كان الشرك العملي الإرادي أغلب على النفوس لأجل متابعتها هواها ، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه ، لِما لها فيه من نيل الأغراض ، وإزالته وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العلمي وإزالته ؛ لأن هذا يزول بالعلم والحجة ، ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ما هو عليه ، بخلاف شرك الإرادة والقصد ، فإن صاحبه يرتكب ما يدله العلم على بطلانه وضرره لأجل غلبة هواه واستيلاء سلطن الشهوة والغضب على نفسه ؛ فجاء من التأكيد والتكرار في سورة : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ المتضمنة لإزالت الشرك العملي ما يجيء مثله في سورة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

ولّما كان القرآن شطرين : شطراً في الدنيا وأحكامها ومتعلقاتها والأمور الواقعة فيها من أفعال المكلفين وغيرها ، وشطراً في الآخرة وما يقع فيها ، وكانت سورة ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ قد أخلصت من أولها وأخرها لهذا الشطر ، فلم يذكر إلا الآخرة ، وما يكون من أحوال الأرض وسكانها ، كانت تعدل نصف القرآن فأحْرِ بهذا الحديث أن يكون صحيحاً .

والله أعلم .

الخامسة : قال ابن تيمية : سورة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أكثرهم على أنها مكية ، وقد ذكر في أسباب نزولها سؤال المشركين بمكة ، وسؤال الكفار من أهل الكتاب اليهود بالمدينة ، ولا منافاة ؛ فإن الله أنزلها بمكة أولا ، ثم لما سئل نحو ذلك أنزلها مرة أخرى ، وهذا مما ذكر

طائفة من العلماء . وقالوا : إن الآية أو السورة قد تنزل مرتين وأكثر من ذلك ؛ فما يذكر من أسباب النزول المتعددة قد يكون جميعه حقّاً ، والمراد بذلك أنه إذا حدث سبب يناسبها ، نزل جبريل فقرأها عليه ، ليعلمه أنها تتضمن جواب ذلك السبب ، وإن كان الرسول يحفظها قبل ذلك . انتهى .

وقد تقدم في مقدمة هذا التفسير ومواضع أُخَر منه تحقيق البحث في معنى النزول بما يدفع المنافاة في أمثال هذا ، فراجعه .

(246/838)

ولهذه السورة الشريفة تفاسير على حدة ، من أمثلها كتابان لشيخ الإسلام ابن تيمية : أحدهما في تفسيرها ، والثاني في سر كونها تعدل ثلث القرآن ، فاحتفظ بهما . والله الهادي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 505.512 ﴾

(247/838)

وقال الشيخ المراغى :

سورة الإخلاص

هى مكية ، وآياتها أربع ، نزلت بعد سورة الناس .

أسباب نزولها

روى الضحاك أن المشركين أرسلوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عامر بن الطّفيل فقال له عنهم : شققت عصانا (فرّقت كلمتنا) ، وسببت آلهتنا ، وخالفت دين آبائك ، فإن كنت فقيرا أغنيناك ، وإن كنت مجنونا داويناك ، وإن كنت قد هويت امرأة زوجنا كها فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لست بفقير ولا مجنون ، ولا هويت امرأة ، أنا رسول اللّه ، أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته ، فأرسلوه ثانية وقالوا : قل له : بيّن لنا جنس معبودك ، أم من ذهب أم من فضة ؟ فأنزل اللّه هذه السورة :

[سورة الإخلاص (112) : الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) ﴾

شرح المفردات

أحد : أي واحد لا كثرة فى ذاته ، فهو ليس بمركب من جواهر مختلفة مادية ولا من أصول متعدّدة غير مادية ، والصمد : الذي يقصد فى الحاجات كما قال :

لقد بكر الناعي بخير بنى أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

الكفء والمكافئ: النظير فى العمل والقدرة.

المعنى الجملي

هذه السورة تضمنت أهمّ الأركان التي قامت عليها رسالة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وهى توحيد اللّه وتنزيهه ، وتقرير الحدود العامة للأعمال ، ببيان الصالحات وما يقابلها ، وأحوال النفس بعد الموت من البعث وملاقاة الجزاء من ثواب وعقاب ،

وقد ورد فى الخبر : «إنها تعدل ثلث القرآن»

لأن من عرف معناها ، وتدبر ما جاء فيها حق التدبر ، علم أن ما جاء فى الدين من التوحيد والتنزيه تفصيل لما أجمل فيها .

الإيضاح

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أي قل لمن سألك عن صفة ربك : اللّه هو الواحد المنزه عن التركيب والتعدّد ، لأن التعدد فى الذات مستلزم لافتقار المجموع إلى تلك الأجزاء واللّه لا يفتقر إلى شىء .

(اللَّهُ الصَّمَدُ) أي هو اللّه الذي يقصده العباد ويتوجهون إليه، لقضاء ما أهمهم دون واسطة إلى شفيع وبهذا أبطل عقيدة مشركى العرب الذين يعتقدون بالوسائط والشفعاء، وعقيدة غيرهم من أهل الأديان الأخرى الذين يعتقدون بأن لرؤسائهم منزلة عند ربهم ينالون بها التوسط لغيرهم فى نيل مبتغاهم، فيلجئون إليهم أحياء وأمواتا، ويقومون عند قبورهم خاضعين خاشعين، كما يخشعون للّه أو أشد خشية.

(لَمْ يَلِدْ) أي تنزه ربنا عن أن يكون له ولد، وفى هذا ردّ لمزاعم مشركى العرب الذين زعموا أن الملائكة بنات الله، ولمزاعم النصارى الذين قالوا: المسيح ابن اللّه، اقرأ إن شئت قوله تعالى: «فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ؟ أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ: وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ».

(وَلَمْ يُولَدْ) لأن ذلك يقتضى مجانسته لسواه، وسبق العدم قبل الوجود - تنزه ربنا عن ذلك.

وأثر عن ابن عباس أنه قال: لم يلد كما ولدت مريم، ولم يولد كما ولد عيسى وعزير، وهو ردّ على النصارى الذين قالوا المسيح ابن اللّه، وعلى اليهود الذين قالوا:

عزير ابن الله .

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) أي ليس له ندّ ولا مماثل ، وفى هذا نفى لما يعتقده بعض المبطلين من أن لله ندّا فى أفعاله كما ذهب إلى ذلك مشركو العرب حيث جعلوا الملائكة شركاء لله .

والخلاصة - إن السورة تضمنت نفى الشرك بجميع أنواعه ، فقد نفى الله عن نفسه أنواع الكثرة بقوله : « الله أحد » ونفى عن نفسه أنواع الاحتياج بقوله :

« اللَّهُ الصَّمَدُ » ونفى عن نفسه المجانسة والمشابهة لشىء بقوله : « لَمْ يَلِدْ » ونفى عن نفسه الحدوث والأوّلية بقوله : « وَلَمْ يُولَدْ » ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه بقوله :

« وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 264. 266 ﴾

(250/838)

وقال المظهرى :

قوله تعالى ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد هُوَ الضمير اما للشأن والجملة الواقعة بعدها خبر له ولا حاجة إلى العائد لأنه هى هو واما عائد إلى ما سئل عنه يعنى الذي سألتمونى هو اللَّهُ خبر لهو أَحَدٌ ج بدل من الله أو خبر ثان لهو أصله وحد بمعنى واحد أبدلت الواو همزة وفى

قراءة ابن مسعود قل هو اللّٰه لواحد وكذا قرأ عمر بن الخطاب وعلى تقدير كون الضمير للشأن وكون اللّٰه أحد مبتداء وخبر فالكلام ليس على ظاهره لأن اللّٰه علم للجزء الحقيقي لا يكون الا واحدا يمتنع فرض صدقه على كثيرين كزيد فيلزم الاستدراك ولا يفيد الكلام فالواجب ان يراد بلفظ اللّٰه معنى كليا يعنى مستحقا للعبادة لكل من سواه وذلك الاستحقاق لا يتصور إلا بإفاضة الوجود وتوابعه على ما عداه وذلك الافاضة لا يتصور إلا من الذات الواجب وجوده وصفات كماله الممتنع عليه صفات النقص والزوال المباين للممكنات فى حقيقة ذاته وصفاته لأن اقتضاء وجود غيره فرع اقتضاء وجوده فى نفسه وما لا يقتضى وجوده فى نفسه كيف يقتضى وجود غيره سواء كان ذلك الغير جوهرا أو عرضا أو فعلا من افعال العباد وذلك معنى الوجوب والنقص والزوال ومشابهة الممكنات ينافى الوجود واستحقاق العبادة فمعنى الجملة المستحق للعبادة على الإطلاق الواجب لذاته وجوده وصفاته الكاملة الممتنع عليه صفات النقص والزوال واحد لا شريك له وحينئذ أفاد الكلام فائدة تامة غير انه على هذا التأويل لا يطابق الجواب السؤال لانهم لم يسالوا النبي صلى اللّٰه عليه واله وسلم عن كونه تعالى واحدا أو متكثرا فان النبي صلى اللّٰه عليه وسلم كان يدعوهم بأعلى صوته إلى التوحيد وقول لا إله إلا اللّٰه بل سألوه

عن حقيقة الذاتية وقالوا يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك أمن الذهب هو أم من فضة أو نحو ذلك وكذا إن كان الضمير عائدا إلى المسئول عنه لا جائز ان يقال معنى الجملة انه واحد غير متكثر فانه لا يطابق السؤال فالواجب على كلا التأويلين ان يكون المراد بأحد ما يكون منزها عن أنحاء التركيب والتعدد وما يستلزم أحدهما من الجسمية والمتحيز والمشاركة لشئ من الأشياء فى الحقيقة والمشابهة لشئ من الأشياء فى صفة من صفات الكمال وإذا لم يشابهه أحد فى الذات

(252/838)

ولا فى صفة من الصفات لا يكون له ند ولا ضد ولا مثل ومن هاهنا قالت الصوفية العلية أحديته تعالى وعدم مشابهة أحد له تعالى فى صفة من الصفات يقتضى ان لا يشاركه أحد فى الوجود فانه اصل الصفات والحيوة التي هى أم الصفات وامامها من العلم والقدرة والارادة والكلام والسمع والتكوين فرع للوجود بالمعنى المصدري فهو امر انتزاعي مترتب عليه ومن ثم قالوا يعنى لا اله الا اللّه لا موجود الا اللّه فالموجود الحقيقي فى الخارج ليس الا اللّه تعالى وما عداه من الممكنات الموجودة متصفة بوجوده كالظل لوجوده فى الخارج أو هو

كالظل للخارج الحقيقي وكذا الحال فى العلم والقدرة وسائر الصفات قال اللّه تعالى ذلك بان اللّه هو الحق يعنى الثابت المتحقق المتأصل فى وجوده وصفاته وان ما يدعون من دونه هو الباطل يعنى اللاشيء فى نفسه وقال اللّه تعالى كل شىء هالك الا وجهه فصفات الممكنات انما يشارك صفات الواجب تعالى اشتراكا اسميا لا اشتراكا حقيقيا ومن لا يفهم كلام الصوفية فعليه التشبث باذيا لهم حتى يتبين لهم انه الحق أو لم يكف بربك انه على كل شىء شهيد الا انهم فى مرية من لقاء ربهم الا انه بكل شىء محيط ففى جملة واحدة ثم الاشارة إلى مباحث الذات والصفات كلها فى كلمة قل اشارة إلى النبوة والتبليغ واعجاز الآية شاهد على النبوة فكفى بقل هو اللّه أحد عن المجلدات وان بقي الكلام فى مثل ان صفاته تعالى عين ذاته أو زائدة عليها فلا محذور فيه ولا يتعلق به غرض بل البحث عن مثل هذه الأبحاث الفلسفة يقضى إلى المهلكة قال اللّه تعالى يسئلونك عن الروح قل الروح من امر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا فإذا لم يوت البشر العلم بحقيقة الروح وهو من الخلائق فانى له العلم بذات الخالق وصفاته الا العجز عن درك إدراكه . . . . . والبحث عنه اشراك والسبيل إليه المعية الجيبية لا غير عن أبى هريرة قال خرج علينا رسول

اللّه صلى اللّه عليه واله وسلم ونحن متنازع فى القدر فغضب حتى احمر وجهه حتى كانما فقئ وجنتيه حب الرمان فقال أبهذا أمرتم أبهذا أرسلت إليكم انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الأمر عزمت عليكم الا تنازعوا فيه رواه الترمذي وروى ابن ماجة نحوه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

اللَّهُ الصَّمَدُ ج قال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبير الصمد الذي لا خوف له كذا أخرج ابن جرير عن بريدة

(254/838)

الا اعلمه الا قد رفعه قلت لعله مجاز مما لا ينفذ إليه العقول والأوهام ولا يدركه الافهام وقال الشعبي الذي لا يأكل ولا يشرب وقيل تفسيره وما بعده ولذا روى أبو العالية عن أبى بن كعب وقال أبو الوائل شقيق بن سلمة هو السيد الذي قد انتهى سودده وهى رواية عن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى الذي قد كمل فى جميع انواع السودد وعن سعيد ابن جبير هو الكامل فى جميع صفاته وأفعاله وقيل هو السيد المقصود فى الحوائج قال السيد هو المقصود إليه فى الرغائب المستغاث به عند المصائب يقال صمدته إذا قصدته قال قتادة الصمد الباقي بعد فناء خلقه وقال عكرمة الصمد الذي ليس فوقه أحد وهو قول على

رض وقال الربيع الصمد الذي لا يعتريه الآفات قال مقاتل بن حبان الذي لا عيب فيه قلت
وعندى معناه الحقيقي المقصود قال فى القاموس الصمد القصد بالتحريك السيد لأنه
يقصد وإدخال اللام عليه لافادة كونه فى أجل درجات الصمدية وأعلاها وأكملها فان
الناس قد يقصدون غير اللّه سبحانه من الدنيا وما فيها لفساد رايهم وعدم اهتدائهم إلى
مرتبة حق اليقين فكل ما ذكر فى اقوال السلف من المعاني فهى تعبيرات عن لوازمه لأن
المقصود على الإطلاق من يحتاج كل ما عداه إليه ولا يحتاج هو إلى غيره فى شىء من
الأشياء فيكون ألبتة جامعا لجميع الكمالات وانواع السودد ومنزها عن العيوب وان تعتريه
الآفات غير محتاج إلى الأكل والشرب قديما بما لم يولد غير مجانس لاحد حتى يلد مثله ولا
يكون فوقه بل ليس مثله أحد فيكون ألبتة بحيث لا ينفذ إليه فهم وادراك ولما كانت الجملة
السابقة تغنيه عن هذه الجملة وعن الجمل الثلث اللاحقة وهذه الجملة وما بعدها كالتأكيد
للاولى أوردت لزيادة الاهتمام من قبيل إيراد الخاص بعد العام للمبالغة فى التنزيه والتصريح
بالرد على المخاطبين المنكرين المشركين فى القصد والعبادة غيره تعالى القائلين باتخاذ اللّه
تعالى البنات والبنين بغيره

لم يذكر العاطف على هذه الجملة ولا على ما بعدها وكرر اسم اللّه تعالى للاشعار بان لم يتصف به لم يستحق الالوهية وان المقصد يجب ان لا يكون غيره تعالى ومن ثم قالت الصوفية معنى لا إله إلا اللّه لا مقصود الا اللّه وقالوا ما هو مقصد لك فهو معبود لك فان المرء لا تزال يلقى نفسه فى كمال التذلل لتحصيل مقصوده والعبادة عبارة عن كمال التذلل فالصوفية العلية يذكرون النفي والإثبات مع ملاحظة نفى مقصودية ما عدا اللّه ويجتهدون فيه غاية الاجتهاد حتى يزول عن صدورهم كون غيره تعالى مقصودا بوجه من الوجوه واللّه الميسر لكل عسير.

لَمْ يَلِدْ كما زعمت المشركون ان الملائكة بنات اللّه واليهود بان عزير ابن اللّه والنصارى بان المسيح ابن اللّه لاستحالة المجانسة وعدم الاقتضاء إلى من يعينه أو يخلف عنه لاستحالة الاحتياج والفناء عليه تعالى أورد بلفظ الماضي وان كان عدم توالده ابدا ردا على ما قالوا ولمطابقة قوله وَلَمْ يُولَدْ لأن الحدوث ينافى الألوهية.

(256/838)

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ

أى مكافيا ومماثلا قرأ حفص كفوا بضم الفاء وفتح الواو وحمزة بإسكان الفاء مع الهمزة فى

الوصل فإذا وقف أبدل الهمزة واوا مفتوحة اتباعا للخط والقياس ان يلقى حركتها على الفاء والباقون بضم الفاء مع الهمزة أحد اسم يكن وكفوا خبره والظرف متعلق بكفوا قدم الخبر على الاسم والظرف التعلق بالخبر عليه للاهتمام لأن المقصد تنزيه اللّه تعالى ونفى المكافاة عنه تعالى الرعاية الفواصل ويجوز ان يكون الظرف حالا من المستكن فى كفوا وان يكون خبرا أو كفوا حال من أحد أورد الجمل الثلث منتسقات بالعطف لأن المقصد منها نفى اقسام الأمثال وتنزيهه عن كل ما يتصف به فهى كجملة واحدة عن أبى هريرة عن النبي صلى اللّه عليه واله وسلم قال قال اللّه تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فاما تكذيبه إياي بان يقول لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق باهون على من إعادته واما شتمه إياي فقوله اتخذ اللّه ولدا وانا الأحد الصمد لم الد ولم اولد ولم يكن لى كفوا أحد - (فصل) - عن أبى الدرداء قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه واله وسلم أيعجز أحدكم ان يقرأ فى ليلة ثلث القرآن بالواو كيف يقرأ ثلث القرآن قال قل هو اللّه أحد تعدل ثلث القرآن رواه مسلم ورواه البخاري عن أبى سعيد ومثله فى حديث ابن عباس وانس وذكرناه فى تفسير سورة الزلزال وعن عائشة ان النبي صلى اللّه عليه واله وسلم بعث رجلا على سرية وكان يقرأ لاصحابه فى صلوتهم بقل هو اللّه أحد فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى صلى اللّه عليه واله وسلم فقال سلوه لاى شىء تصنع ذلك فسالوه فقال لأنها صفة الرحمن

وأنا أحب أن أقرءها فقال النبي صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم اخبروه ان اللّه يحبه متفق عليه وعن أنس قال رجل يا رسول اللّه انى أحب هذا السورة قل هو اللّه أحد قال ان حبك إياها أدخلك الجنة رواه الترمذي وروى البخاري معناه وعن أبى هريرة أن النبي صلى اللّه تعالى عليه واله وسلم سمع رجلا يقرأ قل هو اللّه أحد فقال وجبت قلت ما وجبت قال الجنة رواه مالك والترمذي والنسائي وعن أنس عن النبي صلى اللّه تعالى عليه واله وسلم قال من أراد ان ينام على فراشه فنام على يمينه ثم قرأ مائة مرة قل هو اللّه أحد إذا كان يوم القيامة يقول له الرب يا عبدى ادخل على يمينك الجنة رواه الترمذي وقال حسن غريب وعنه عن النبي صلى اللّه تعالى عليه واله وسلم قال من قرأ كل يوم مأية مرة قل هو اللّه أحد محى عنه ذنوب خمسين الا ان يكون عليه دين رواه الترمذي والدارمي وفى رواية خمسين مرة ولم يذكر الا ان يكون عليه دين وعن سعيد بن المسيب مرسلا عن النبي صلى اللّه عليه واله وسلم قال من قرأ قل هو اللّه أحد عشر مرات بنى له قصر فى الجنة ومن قرأ عشرين مرة بنى له قصران فى الجنة ومن قرأها ثلثين مرة بنى له بها ثلثة قصور فى الجنة فقال عمر بن الخطاب واللّه يا رسول اللّه إذا لتكثرن قصورنا فقال رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه واله

وسلم اللّه أوسع من ذلك واللّه تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المظهرى حـ 10 صـ 375.370 ﴾

(258/838)

وقال الشيخ : دروزة :

سورة الإخلاص

في السورة تقرير العقيدة الإسلامية بذات اللّه بأسلوب حاسم وقطعي ووجيز .

وأسلوبها عام التوجيه والتقرير . وهناك روايات تذكر أنها مدنية وأخرى تذكر أنها مكية .

والمصحف الذي اعتمدنا عليه يروي مكيتها ، كما أنها مكية في التراتيب الكاملة المروية الأخرى «1» . ومن أسمائها «الصمد» وبذلك يتم الاتساق في تسميتها مع أسلوب تسمية السورة بصورة عامة .

ولقد روى البخاري وأبو داود عن أبي سعيد : «أن رجلا سمع رجلا يقرأ قل هو اللّه أحد يردّدها فلما أصبح جاء إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فذكر ذلك له وكأنّ الرجل يتقالّها فقال رسول اللّه والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» «2» . وروى الشيخان والترمذي عن أبي الدرداء عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «أيعجز أحدكم أن يقرأ في

ليلة ثلث القرآن. قالوا وكيف يقرأ في ليلة ثلث القرآن قال قل هو اللّه أحد تعدل ثلث القرآن» «3» . وحديث رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال:

«احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن فحشد من حشد فخرج نبيّ اللّه فقرأ قل هو اللّه أحد ثم دخل فقال بعضنا لبعض إني أرى هذا خبرا جاءه من السماء فذاك الذي أدخله ثم خرج نبيّ اللّه فقال إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا إنها تعدل ثلث القرآن» «4» . وروى مسلم حديثا جاء فيه: «بعث النبي صلّى اللّه عليه وسلّم رجلا على سريّة

---

(1) أسماء التراتيب وأصحابها في مقدمة الجزء.

(2) التاج ج 4 ص 22.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بقل هو اللّه أحد فلما رجعوا ذكر ذلك للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقال سلوه لأيّ شيء يصنع ذلك فسألوه فقال لأنها صفة الرحمن فأنا أحبّ أن أقرأ بها فقال رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم أخبروه أنّ اللّه يحبّه» «1» .

وروى الترمذي عن أنس قال : «كان رجل من الأنصار يؤمّهم في مسجد قباء فكان كلّما أمّهم في الصلاة قرأ بقل هو اللّه أحد ثم يقرأ سورة أخرى معها وكان يصنع ذلك في كلّ ركعة فكلّمه أصحابه إمّا أن تقرأ بها وإمّا أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى فقال ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أن أؤمّكم بها فعلت وإن كرهتم تركت ، وكانوا يرونه أفضلهم فلما أتاهم النبي صلّى اللّه عليه وسلّم أخبروه الخبر فقال يا فلان ما يمنعك مما يأمرك به أصحابك وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة ؟ فقال : يا رسول اللّه إني أحبّها . فقال : إن حبّها أدخلك الجنة» «2» .

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال : «أقبلت مع النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فسمع رجلا يقرأ قل هو اللّه أحد الله الصمد فقال رسول اللّه وجبت قلت وما وجبت قال الجنة» «3» .

وروى الترمذي عن أنس عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «من قرأ كلّ يوم مائتي مرة قل هو اللّه أحد محي عنه ذنوب خمسين سنة إلّا أن يكون عليه دين» «4» . وروى الإمام أحمد عن أنس بسند حسن أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «من قرأ قل هو اللّه أحد

عشر مرات بنى اللّه له بيتا في الجنة» «5» . وروى النسائي عن معاذ بن عبد اللّه عن أبيه قال : «أصابنا عطش وظلمة فانتظرنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ليصلّي بنا فخرج فقال قل قلت ما أقول قال قل هو اللّه أحد والمعوّذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثا يكفك كلّ شيء» «6» .

حيث ينطوي في الأحاديث تنويه بفضل هذه السورة وحثّ على قراءتها من حكمتها

---

(1) المصدر السابق نفسه .

(2) المصدر نفسه ، ص 23 .

(3) المصدر نفسه ، ص 22 - 23 .

(4) المصدر نفسه .

(5) المصدر نفسه .

(6) المصدر نفسه .

المتبادرة ما انطوت فيه من إعلان الإيمان بوحدة اللّه التامة المنزّهة عن كل شائبة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الإخلاص (112) : الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)

(1) الصمد: أوجه الأقوال في معنى الكلمة أنه السيد المصمود إليه في الحوائج الغني عن غيره.

(2) كفو: مماثل وندّ.

في الآيات أمر رباني للنبي صلّى الله عليه وسلّم بأن يعلن صفات الله عز وجل وهي أنه واحد أحد، المصمود إليه في الحاجات، المستغنى عن غيره. لم يلد ولم يولد وليس له مماثل ولا ندّ.

وقد روي أن بعض العرب سألوا النبي صلّى الله عليه وسلّم أن ينسب لهم ربّه فأوحى الله بهذه السورة كما روي أن السؤال من اليهود «1».

وهناك حديثان صحيحان في صدد السورة ومعناها ونزولها واحد رواه الترمذي عن أبيّ بن كعب قال: «إن المشركين قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم انسب لنا ربّك؟ فأنزل الله قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ فالصمد الذي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ لأنه ليس شيء يولد إلّا سيموت ولا شيء يموت إلّا سيورث والله عز وجل لا يموت ولا يورث وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ قال لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء» «2». وثان رواه البخاري عن أبي

هريرة قال: «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: قال اللّه تعالى كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياي

(1) انظر تفسير السورة في تفسير الطبري.

(2) التاج 4 ص 269.

أن يقول إني لن أعيده كما بدأته وأما شتمه إياي أن يقول اتخذ اللّه ولدا وأنا الصمد الذي لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوا أحد» «1».

تعليق على مدى تقرير وحدة اللّه في سورة الإخلاص

ومهما يكن من أمر الرواية فالسورة قد استهدفت تقرير عقيدة الوحدة الإلهية ونفي كل ما يتناقض معها من العقائد الموجودة في زمن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وما تنطوي عليه هذه العقائد من المشابهة والمماثلة والتعدد والشركة والوالدية والولدية بأسلوب حاسم وجيز.

ففي إعلان الوحدة الإلهية ردّ على من يجعل اللّه أكثر من واحد، سواء أكان هذا التعدد مؤولا مرده إلى الوحدة كما هو في العقيدة النصرانية أم غير مؤول كما هو في عقيدة المشركين.

وفي إعلان أن اللّه هو المتّجه المفرد والغني المطلق ردّ على ما كان من اتجاه بعض الفئات إلى غيره أو إليه وإلى غيره معا إشراكا أو استشفاعا ، ورد على ما كان من اعتقاد بعض الفئات من حاجة اللّه إلى المساعدين في تدبير ملكوت السموات والأرض ، ومن أثر هؤلاء المساعدين في الكون إيجابا وسلبا ونفعا وضرّا .

وفي إعلان نفي الولد عن اللّه رد على من كان يعتقد أن للّه ولدا ، سواء أكان ذلك من مشركي العرب الذين كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات اللّه أم النصارى الذين كانوا يعتقدون أن المسيح ابن اللّه أم اليهود الذين كانوا يعتقدون أن العزير ابن اللّه كما جاء في آية سورة التوبة [30] .

وفي إعلان نفي تولد اللّه من والد ردّ على من كان يتخذ الملائكة أو المسيح آلهة ويعتقدون أنهم أولاد اللّه .

---

(1) التاج 4 ص 269 . [. . . . .]

(262/838)

وفي إعلان نفي المماثلة ردّ على من كان يتخذ للّه أندادا ويجعل له شركاء في الخلق والاتجاه والعبادة وارتجاء الخير واتقاء الشر ، كما حكت ذلك آيات عديدة مثل آية سورة البقرة

هذه : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ [165] وآية سورة الرعد هذه : قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (16) .

والسورة في حسمها وإيجازها قطعية المعنى التقريري ، سهلة الحفظ والإيراد على لسان كل مؤمن ، وعنوان الإخلاص في عقيدة اللّه ووحدته وتفرده بالربوبية وشمول قدرته وتصرفه واستغنائه عن كل معين ، واحتياج جميع الكائنات إليه .

وهي من هذا الاعتبار الصورة الواضحة القطعية المحكمة المجردة من كل الملابسات والشبهات للعقيدة الإسلامية بذات اللّه بحيث تكون مردّ كل ما يمكن أن يكون من الألفاظ والآيات المتشابهة التي قد تكون وردت في القرآن على سبيل التقريب والتمثيل في نطاق اللغة البشرية ومفاهيمها .

وليس من ريب في أن من شأن الإخلاص في هذه العقيدة على هذا الوجه الحاسم المحكم أن يحرر النفس الإنسانية من الشبهات والارتكاسات والتأويلات والحيرة والخضوع لغير اللّه من القوى والمظاهر وأن يجعل اتجاهها للّه الواحد الأحد الشامل القدرة المنزّه عن كل ما يتناقض مع هذا الشمول والتفرد ، كما أن من شأنه أن يبعث فيها الطمأنينة والقوة والمناعة

من التأثر بأي مؤثر ومن ارتجاء الخير واتقاء الشر من أي مصدر ، ومن الخضوع لأي قوة والرهبة من أحد غيره والأمل في سواه .

ويلحظ أن السورة قد اقتصرت كما قلنا على تقرير عقيدة الوحدة الإلهية

ونفي كلّ ما يتناقض معها حيث يبدو أن حكمة التنزيل اقتضت ذلك في هذه السورة إزاء ما كان سائدا في العالم من نقائض متنوعة المدى لهذه الوحدة المستغنية عن كل شيء والتي هي مرجع ومصدر كل شيء . ولقد وصف اللّه عز وجل في السور السابقة واللاحقة برب العالمين الرحمن الرحيم المالك لكل شيء والعالم بكل شيء والمحيط بكل شيء والقادر على كل شيء والمتصرف في كل شيء الذي لا تدركه الأبصار والذي ليس كمثله شيء المتصف بجميع صفات الكمال والمنزّه عن كل شائبة ونقص . وبذلك تكتمل الصورة القرآنية للّه عز وجل في العقيدة الإسلامية كمالا لا يماثله بل ولا يدانيه شيء من الصور الإلهية في مختلف الديانات الأخرى .

ومعظم روايات النزول وتراتيب السور تجعل هذه السورة بعد سورتي الناس والفلق مما يسوغ القول أن السور الثلاث نزلت في ظرف واحد وأوقات متقاربة أو متعاقبة . ولهذا

دلالة مهمة من حيث توكيد السور الثلاث عدم وجود غير قوة اللّه الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد قادرة على النفع والضرر والمنع والإعطاء . ومن حيث إيجاب الاستعاذة به وحده وعدم خشية أحد غيره وعدم الاتجاه إلى غيره في أي مطلب وحاجة . انتهى انتهى . اهـ ﴿التفسير الحديث حـ 2 صـ 68. 73﴾

(264/838)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(112) سورة الإخلاص

« وتسمى سورة التوحيد » نزولها : نزلت بمكة . . بعد الناس .

عدد آياتها : أربع آيات .

عدد كلماتها : إحدى عشرة كلمة .

عدد حروفها : سبعة وأربعون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

كانت عداوة أبى لهب وزوجه للنبىّ ، ممثلة فى عداوتهما لدعوة التوحيد التي كانت عنوان رسالة النبىّ ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، وكلمته الأولى إلى قومه . .

وقد ساقت هذه الكلمة أبا لهب وزوجه ، ومن تبعهما فى جحود هذه الكلمة ، والتنكر لها ـ ساقتهم إلى هذا البلاء الذي لقياه فى الدنيا ، وإلى هذا العذاب الأليم فى جهنم المرصودة لهما فى الآخرة . .

وسورة « الإخلاص » وما تحمل من إقرار بإخلاص وحدانية اللّه من كل شرك ـ هى مركب النجاة لمن أراد أن ينجو بنفسه من هذا البلاء ، وأن يخرج من تلك السفينة الغارقة التي ركبها أبو لهب وزوجه ، ومن اتخذ سبيله معهما من مشركى قريش ومشركاتها . . وها هوذ النبي الكريم ، يؤذّن فى القوم ، بسورة الإخلاص ، ومركب الخلاص .

بسم اللّه الرحمن الرّحيم

الآيات : (1 ـ 4) [سورة الإخلاص (112) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)

التفسير :

قوله تعالى : « قُلْ » أمر من اللّه سبحانه وتعالى للنبى بالقول ، قولا مطلقا . .

وماذا يقول ؟ .

يقول «هُوَ» ! ومن هو هذا الطلق أيضا ، الذي لا تحدّه حدود ، ولا تقيده قيود ؟

ـ «اللَّهُ أَحَدٌ» ! .

(266/838)

ولفظ الجلالة ـ «اللّه» ـ من الألوهة ، وهو اسم الذات ، الجامع لأسماء اللّه تعالى وصفاته كلّها . .

و «أحد» صفة للّه سبحانه ، بمعنى الأحد معرفا بأل ، لأنه فى مقابل :

«اللَّهُ الصَّمَدُ» فأحد ، وإن كان نكرة لفظا ، هو معرفة دلالة ومعنى ، لأنه إذ قيل «أحد» لم ينصرف الذهن إلى غيره ، فإذا قيل «أحد» كان معناه الأحد ، الذي ليس وراءه ثان أو ثالث ، أو رابع . .

فاستغنى بهذا عن التعريف ، لأن التعريف إنما يراد به الدلالة على المعرّف دون أفراد جنسه المشاركة له ، فإذا انحصر الجنس كله فى فرد واحد ، لم يكن ثمة داعية إلى تعريفه ، إذ كان أعرف من أن يعرّف .

فاللّه ، هو الأحد ، الذي لا يشاركه فى هذا الوصف موصوف . . فالأحدية هى الصفة

التي لا يشاركه اللّه سبحانه فيها أحد ، كما أن « اللّه » هو اسم الذات الذي لا يسمّى به أحد سواه .

والأحديّة هى الصفة التي تناسب الألوهة ، وهى الصفة التي تناسب كل صفة من صفات اللّه سبحانه . .

فاللّه ـ سبحانه ـ واحد فى ذاته ، واحد فى صفاته . .

فالكريم ، هو اللّه وحده ، والرحيم هو اللّه وحده ، والرحمن هو اللّه وحده ، والغفور هو اللّه وحده ، والشّكور هو اللّه وحده ، والعليم هو اللّه وحده . . وهكذا ، كل صفة من صفات الكمال ، قد تفردّ بها اللّه ـ سبحانه ـ وحده ، لا ينازعه فيها أحد . .

وفى وصف اللّه سبحانه وتعالى بأحد ، دون واحد ، تحقيق لمعنى التفرّد ، لأن الأحد لا يتعدد ، على حين أن الواحد يتعدد ، باثنين ، وثلاثة ، وأربعة ، إلى ما لا نهاية من الأعداد . .

يقول الإمام « الطبرسي » فى تفسيره [مجمع البيان فى تفسير القرآن] :

« قيل إنما قال « أحد » ولم يقل « واحد » لأن الواحد يدخل فى الحساب ، ويضمّ إليه آخر

. . وأما الأحد فهو الذي لا يتجزأ ، ولا ينقسم في ذاته ، ولا في معنى صفاته ، ويجوز أن يجعل للواحد ثان ، ولا يجوز أن يجعل للأحد ثان . .

لأن الأحد يستوعب جنسه ، بخلاف الواحد . . ألا ترى أنك لو قلت فلان لا يقاومه واحد ، جاز أن يقاومه اثنان ، وإذا قلت : لا يقاومه أحد لم يجز أن يقاومه اثنان ، ولا أكثر . . فهو أبلغ . . »

ويقول الطبرسي :

قال الإمام الباقر : « اللّه » : معناه المعبود الذي أله الخلق عن إدراك ماهيته ، والإحاطة بكيفيته ، وتقول العرب : أله الرجل إذا تحيّر في الشيء فلم يحط به علما ، ودله ، إذا فزع . . » فمعنى قوله « اللّه أحد » أي المعبود الذي يأله الخلق عن إدراكه ، والإحاطة بكيفيته . . وهو فرد بألوهيته ، متعال عن صفات خلقه . .

وقوله تعالى : « اللَّهُ الصَّمَدُ » . .

اختلف في معنى الصمد ، وكل ما قيل في معناه يرجع إلى تمجيد اللّه سبحانه وتعظيمه ، وتفرده بالخلق والأمر . .

وفي تعريف طرفي الجملة ، إفادة لمعنى الحصر ، أي حصر الصمدية في اللّه سبحانه وتعالى وحده . .

قيل إن أهل البصرة، كتبوا إلى الإمام الحسين، رضى اللّه عنه يسألون عن معنى « الصمد » ، فكتب إليهم بقول :

(268/838)

« أما بعد ، فلا تخوضوا فى القرآن، ولا تجادلوا فيه، ولا تكلّموا فيه بغير علم، فقد سمعت جدّى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « من قال فى القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار » وإن اللّه قد فسر سبحانه الصمد ، فقال : « لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » . .

وقوله تعالى : « لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ » .

أي أنه سبحانه منزه عن أن يكون له ولد ، لأن الولد يدلّ على والد ، والوالد هو مولود لوالد . وهكذا فى سلسلة لا تنتهى . ثم إن الولد يماثل الوالد ، وقد يفوقه، ويربى عليه ، فى قوته، وعلمه . .

يقول الإمام الطبرسي فى معنى « لم يلد » : أي لم يخرج منه شىء كثيف، كالولد ، ولا سائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين، ولا شىء لطيف كالنّفس، ولا تنبعث منه البدوات، كالسّنة والنوم، والخطرة والغم، والحزن والبهجة، والضحك والبكاء ،

والخوف والرجاء ، والرغبة والسآمة ، والجوع والشّبع ، تعالى أن يخرج منه شىء ، وأن يتولد منه شىء . . كثيف أو لطيف » .

وفى قوله تعالى : « وَلَمْ يُولَدْ » يقول الطبرسي أيضا : « أي ولم يتولد هو من شىء ، ولم يخرج من شىء ، كما تخرج الأشياء الكثيفة من عناصرها ، كالشىء من الشيء ، والدابة ، والنبات من النبات ، والماء من الينابيع ، والثمار من الأشجار . . ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها ، كالبصر من العين ، والسمع من الأذن ، والشم من الأنف ، والذوق من الفم ، والكلام من اللسان ، والمعرفة والتمييز من القلب ، والنار من الحجر . . لا ، بل هو اللّه « الصمد » الذي لا من شىء ، ولا فى شىء ، ولا على شىء . . مبدع الأشياء وخالقها ، ومنشىء

الأشياء بقدرته . . فذلكم اللّه الصمد الذي لم يلد ولم يولد ، عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ . . »

ويروى أن الإمام عليا . كرم اللّه وجهه . سئل عن تفسير هذه السورة ، فقال : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ » بلا تأويل عدد . . « الصمد » بلا تبعيض بدد . .

« لم يلد » فيكون موروثا هالكا « ولم يولد » فيكون إلها مشاركا « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ »

من خلقه .

وقوله تعالى : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » .

كفء الشيء : عديله ، ومماثله ، قيمة ، ووزنا ، وقدرا .

فاللّه سبحانه وتعالى ، متعال عن الشبيه ، والنظير ، والكفء والمثيل . . وهذا ما ينفى عن اللّه سبحانه وتعالى أن يلد ، وأن يولد ، لأن التوالد إنما يكون بين الأشباه والنظائر ، وإذ قد انتفى عن أن يكون للّه سبحانه شبيه أو نظير ، فقد انتفى عنه أن يكون والدا ، وأن يكون مولودا . . تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1710.1715 ﴾

(270/838)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) ﴾

افتتاح هذه السورة بالأمر بالقول لإظهار العناية بما بعد فعل القول كما علمت ذلك عند قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون : 1]

ولذلك الأمر في هذه السورة فائدة أخرى ، وهي أنها نزلت على سبب قول المشركين : انْسُبْ لنا ربك ، فكانت جواباً عن سؤالهم فلذلك قيل له : ﴿ قل ﴾ كما قال تعالى : ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾ [الإسراء : 85] فكان للأمر بفعل ﴿ قل ﴾ فائدتان .

وضمير ﴿ هو ﴾ ضمير الشأن لإِفادة الاهتمام بالجملة التي بعده ، وإذا سمعه الذين سألوا تطلعوا إلى ما بعده .

ويجوز أن يكون ﴿ هو ﴾ أيضاً عائداً إلى الرب في سؤال المشركين حين قالوا : انسب لنا ربك .

ومن العلماء من عَدّ ضمير ﴿ هو ﴾ في هذه السورة اسماً من أسماء الله تعالى وهي طريقة صوفية درج عليها فخر الدين الرازي في "شرح الأسماء الحسنى" نقله ابن عرفة عنه في "تفسيره" وذكر الفخر ذلك في "مفاتيح الغيب" ولا بد من المزج بين كلاميه .

وحاصلهما قوله : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فيه ثلاثة أسماء لله تعالى تنبيهاً على ثلاثة مقامات .

الأول : مقام السابقين المقربين الناظرين إلى حقائق الأشياء من حيث هِيَ هِيَ ، فلا جرم ما رأوا موجوداً سوى الله لأنه هو الذي لأجله يجب وجوده فما سوى الله عندهم معدوم ، فقوله : ﴿ هو ﴾ إشارة مطلقة .

ولما كان المشار إليه معيناً انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعين فكان قوله : ﴿ هو ﴾

إشارة من هؤلاء المقربين إلى الله فلم يفتقروا في تلك الإشارة إلى مميز فكانت لفظة ﴿ هو ﴾ كافية في حصول العرفان التام لهؤلاء .

المقام الثاني : مقام أصحاب اليمين المقتصدين فهم شاهَدُوا الحق موجوداً وشاهدوا الممكنات موجودة فحصلت كثرة في الموجودات فلم تكن لفظة ﴿ هو ﴾ تامة الإفادة في حقهم فافتقروا معها إلى مميز فقيل لأجلهم ﴿ هو اللَّه ﴾ .

(271/838)

والمقام الثالث : مقام أصحاب الشمال وهم الذين يجوزون تعدد الإله فقُرن لفظ ﴿ أحد ﴾ بقوله : ﴿ هو اللَّه ﴾ إبطالاً لمقالتهم اهـ .

فاسمه تعالى العلَم ابتدىء به قبل إجراء الأخبار عليه ليكون ذلك طريق استحضار صفاته كلّها عند التخاطب بين المسلمين وعند المحاجَّة بينهم وبين المشركين ، فإن هذا الاسم معروف عند جميع العرب فمسماه لا نزاع في وجوده ولكنهم كانوا يصفونه بصفات تَنَزَّه عنها .

أما ﴿ أحد ﴾ فاسم بمعنى (وَاحِد) .

وأصل همزته الواو ، فيقال : وحَد كما يقال : أحد ، قلبت الواو همزة على غير قياس لأنها

مفتوحة (بخلاف قلب واو وُجوه) ومعناه منفرد ، قال النابغة :

كأنَّ رحلي وقد زال النهارُ بنا

بذي الجليلِ على مستأنِسٍ وَحَدِ . . .

أي كأني وضعتُ الرجل على ثورٍ وحْشٍ أَحَسَّ بأنسيّ وهو منفردٌ عن قطيعه .

وهو صفة مشبهة مثل حَسَن ، يقال : وَحُد مثل كرُم ، ووَحِدَ مثل فرِح .

وصيغة الصفة المشبهة تفيد تمكن الوصف في موصوفها بأنه ذاتيٌّ له ، فلذلك أوثر ﴿ أحد ﴾ هنا على (واحد) لأن (واحد) اسم فاعل لا يفيد التمكن .

ف (واحد) و ﴿ أحد ﴾ وصفان مصوغان بالتصريف لمادة متحدة وهي مادة الوحدة يعني التفرد .

هذا هو أصل إطلاقه وتفرعت عنه إطلاقات صارت حقائق للفظ (أحد) ، أشهرها أنه يستعمل اسماً بمعنى إنسان في خصوص النفي نحو قوله تعالى : ﴿ لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ في البقرة (285) ، وقوله : ﴿ ولا أشرك بربي أحداً ﴾ في الكهف (38) وكذلك إطلاقه على العدد في الحساب نحو : أحد عشر ، وأحد وعشرين ، ومؤنثه إحدى ، ومن العلماء من خلط بين (واحد) وبين ﴿ أحد ﴾ فوقع في ارتباك .

فوصف الله بأنه ﴿ أحد ﴾ معناه : أنه منفرد بالحقيقة التي لوحظت في اسمه العلَم وهي

الإلهية المعروفة ، فإذا قيل : ﴿ اللَّه أحد ﴾ فالمراد أنه منفرد بالإلهية ، وإذا قيل : الله واحد ، فالمراد أنه واحد لا متعدد فمَن دونه ليس بإله .

ومآل الوصفين إلى معنى نفي الشريك له تعالى في إلهيته .

فلما أريد في صدر البعثة إثبات الوحدة الكاملة لله تعليماً للناس كلهم ، وإبطالاً لعقيدة الشرك وُصف الله في هذه السورة بـ ﴿ أحد ﴾ ولم يوصف بـ (واحد) لأن الصفة المشبهة نهاية ما يُمكن به تقريب معنى وحدة الله تعالى إلى عقول أهل اللسان العربي المبين .

وقال ابن سينا في تفسير له لهذه السورة : إن ﴿ أحد ﴾ دالّ على أنه تعالى واحد من جميع الوجوه وأنه لا كثرة هناك أصلاً لا كثرةً معنوية وهي كثرة المقومات والأجناس والفصول ، ولا كثرة حسيّة وهي كثرة الأجزاء الخارجية المتمايزة عقلاً كما في المادة والصورة .

والكثرة الحسية بالقوة أو بالفعل كما في الجسم ، وذلك متضمن لكونه سبحانه منزهاً عن الجنس والفصل ، والمادة والصورة ، والأعراض والأبعَاض ، والأعضاء ، والأشكال ، والألوان ، وسائر ما يُثلم الوحدة الكاملة والبَساطة الحَقَّة اللائقة بكرم وجهه عز وجل عن

أن يشبهه شيء أو يساويه سبحانه شيء .

وتبيينُه : أما الواحد فمقول على ما تحته بالتشكيك ، والذي لا ينقسم بوجه أصلاً أولى بالوحدانيَّة مما ينقسم من بعض الوجوه ، والذي لا ينقسم انقساماً عقليّاً أَوْلَى بالوحدانية من الذي ينقسم انقساماً بالحسّ بالقوة ثم بالفعل ، ف ﴿ أحد ﴾ جامع للدلالة على الوحدانية من جميع الوجوه وأنه لا كثرة في موصوفه أ هـ .

قلت : قد فهم المسلمون هذا فقد روي أن بلالاً كان إذا عذب على الإِسلام يقول : أحَد أحد ، وكان شعار المسلمين يوم بدر : أحَد أحَد .

والذي درج عليه أكثر الباحثين في أسماء الله تعالى أن ﴿ أحد ﴾ ليس ملحقاً بالأسماء الحسنى لأنه لم يرد ذكره في حديث أبي هريرة عند الترمذي قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة " .

وعدّها ولم يذكر فيها وصف أحد ، وذكر وصف واحد وعلى ذلك درج إمام الحرمين في كتاب "الإِرشاد" وكتاب "اللمع" والغزالي في "شرح الأسماء الحسنى" .

وقال الفهري في "شرحه على لُمع الأدلة" لإِمام الحرمين عند ذكر اسمه تعالى "الواحد" .

وقد ورد في بعض الروايات الأحد فلم يجمع بين الاسمين في اسم.

ودرج ابن بَرَّجَان الإِشبيلي في "شرح الأسماء" والشيخ مُحمد بن محمد الكومي (بالميم) التونسي، ولُطف الله الأرضرُومي في "معارج النور"، على عدّ (أحد) في عداد الأسماء الحسنى مع اسمه الوَاحد فقالا: الواحد الأحد بحيث هو كالتأكيد له كما يقتضيه عدهم الأسماء تسعة وتسعين، وهذا بناء على أن حديث أبي هريرة لم يقتضِ حصر الأسماء الحسنى في التسعة والتسعين، وإنما هو لبيان فضيلة تلك الأسماء المعدودة فيه.

والمعنى: أن الله منفرد بالإلهية لا يشاركه فيها شيء من الموجودات.

وهذا إبطال للشرك الذي يدين به أهل الشرك، وللتثليث الذي أحدثه النصارى المَلْكانية وللثانوية عند المجوس، وللعَدَد الذي لا يُحصى عند البراهمة.

فقوله: ﴿ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ نظير قوله في الآية الأخرى: ﴿ إنما الله إله واحد ﴾ [النساء: 171].

وهذا هو المعنى الذي يدركه المخاطبون بهذه الآية السائلون عن نسبة الله، أي حقيقته فابتدىء لهم بأنه واحد ليعلموا أن الأصنام ليست من الإلهية في شيء.

ثم إن الأحدية تقتضي الوجود لا محالة فبطل قول المعطلة والدُّهريين.

وقد اصطلح علماء الكلام من أهل السنة على استخراج الصفات السلبية الربانية من معنى الأحدية لأنه إذا كان منفرداً بالإلهية كان مستغنياً عن المخصِّص بالإيجاد لأنه لو افتقر إلى من يُوجده لكان من يوجده إلها أوَّلَ منه فلذلك كان وجود الله قديماً غير مسبوق بعدم ولا محتاج إلى مخصص بالوجُود بدلَاً عن العدم ، وكان مستغنياً عن الإمداد بالوجود فكان باقياً ، وكان غنياً عن غيره ، وكان مخالفاً للحوادث وإلا لاحتاج مثلَها إلى المخصص فكان وصفه تعالى : بـ ﴿ أحد ﴾ جامعاً للصفات السلبية .

ومثلُ ذلك يُقال في مرادفه وهو وصف وَاحد .

واصطلحوا على أن أحدية الله أحدية واجبة كاملة ، فالله تعالى واحد من جميع الوجوه ، وعلى كل التقادير فليس لكُنْه الله كثرة أصلاً لا كثرة معنوية وهي تعدد المقوّمات من الأجناس والفصول التي تتقوم منها المواهي ، ولا كثرةُ الأجزاء في الخارج التي تتقوم منها الأجسام .

فأفاد وصف ﴿ أحد ﴾ أنه منزه عن الجنس والفصل والمادة والصورة ، والأعراض والأبعاض ، والأعضاء والأشكال والألوان وسائر ما ينافي الوحدة الكاملة كما إشار إليه ابن سينا .

قال في "الكشاف" : "وفي قراءة النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ اللَّه أحد ﴾ بغير ﴿ قل

هو ﴾ انتهى انتهى . ا هـ ، ولعله أخذه مما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال من قرأ : ﴿ اللَّهأحد ﴾ كان بِعَدْل ثلثِ القرآن ، كما ذكره بأثر قراءة أبيّ بدون ﴿ قل ﴾ كما تأوله الطيبي إذ قال : وهذا استشهاد على هذه القراءة .

وعندي إن صح ما روي من القراءة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد بها التلاوة وإنما قصد الامتثال لما أمر بأن يقوله ، وهذا كما كان يُكثر أن يقول : "سبحان ربي العظيم وبحمده اللهم اغفر لي "يتأول قوله تعالى : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ [النصر : 3] .

اللَّهُ الصَّمَدُ (2)

جملة ثانية محكية بالقول المحكية به جملة : ﴿ اللَّهأحد ﴾ ، فهي خبر ثان عن الضمير .

والخبر المتعدد يجوز عطفه وفصله ، وإنما فصلت عن التي قبلها لأن هذه الجملة مسوقة لتلقين السامعين فكانت جديرة بأن تكون كل جملة مستقلة بذاتها غيرَ ملحقة بالتي قبلها بالعطف ، على طريقة إلقاء المسائل على المتعلم نحو أن يقول : الحوز شرط صحة الحُبس ، الحوز لا يتم إلا بالمعانية ، ونحو قولك : عنترة من فحول الشعراء ، عنترة من أبطال

الفرسان .

ولهذا الاعتبار وقع إظهار اسم الجلالة في قوله : ﴿ اللَّه الصمد ﴾ وكان مقتضى الظاهر أن يقال : هو الصمد .

و﴿ الصَمد ﴾ : السيد الذي لا يستغنى عنه في المهمات ، وهو سيد القوم المطاع فيهم .

قال في "الكشاف" : وهو فعَل بمعنى مفعول من : صَمَد إليه ، إذا قصده ، فالصمد المصمود في الحوائج .

قلت : ونظيره السَّند الذي تُسند إليه الأمور المهمة .

والفَلَق اسم الصباح لأنه يتفلق عنه الليل .

و﴿ الصمد ﴾ : من صفات الله ، والله هو الصمد الحق الكامل الصمدية على وجه العموم .

فالصمد من الأسماء التسعة والتسعين في حديث أبي هريرة عند الترمذي .

ومعناه : المفتقر إليه كلُّ ما عداه ، فالمعدوم مفتقر وجودُه إليه والموجود مفتقر في شؤونه إليه .

وقد كثرت عبارات المفسرين من السلف في معنى الصمد ، وكلها مندرجة تحت هذا المعنى الجامع ، وقد أنهاها فخر الدين إلى ثمانية عشر قولاً .

ويشمل هذا الاسمُ صفاتِ الله المعنويةَ الإضافية وهي كونه تعالى حيّاً ، عالماً ، مريداً ،

قادراً ، متكلماً ، سميعاً ، بصيراً ، لأنه لو انتفى عنه أحد هذه الصفات لم يكن مصموداً إليه .

وصيغة ﴿ اللَّه الصمد ﴾ صيغة قصر بسبب تعريف المسند فتفيد قصر صفة الصمدية على الله تعالى ، وهو قصر قلب لإبطال ما تعوّده أهل الشرك في الجاهلية من دعائهم أصنامهم في حوائجهم والفزع إليها في نوائبهم حتى نَسُوا الله .

قال أبو سفيان ليلة فتح مكة وهو بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وقال له النبي صلى الله عليه وسلم " أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله : "لقد علمتُ أن لو كان معه إله آخر لقد أغنى عني شيئاً " .

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3)

جملة : ﴿ لم يلد ﴾ خبر ثانٍ عن اسم الجلالة من قوله : ﴿ اللَّه الصمد ﴾ ، أو حال من المبتدأ أو بدل اشتمال من جملة ﴿ اللَّه الصمد ﴾ ، لأن من يصمد إليه لا يكون من حاله أن يلد لأن طلب الولد لقصد الاستعانة به في إقامة شؤون الوالد وتدارك عجزه ، ولذلك استدل على إبطال قولهم : ﴿ اتخذ اللَّه ولداً ﴾ بإثبات أنه الغنيّ في قوله تعالى : ﴿ قالوا

اتخذ اللَّه ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات الأرض ﴾ [يونس : 68] فبعدَ أن أبطلت الآية الأولى من هذه السورة تعدد الإله بالأصالة والاستقلال ، أبطلت هذه الآية تعدد الإله بطريق تولد إله عن إله ، لأن المتوِّلد مساوٍ لما تولَّد عنه .

والتعدُّد بالتولد مساوٍ في الاستحالة لتعدد الإله بالأصالة لتساوي ما يلزم على التعدد في كليهما من فساد الأكوان المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا اللَّه لفسدتا ﴾ [الأنبياء : 22] (وهو برهان التمانع) ولأنه لو تولد عن الله موجود آخر للزم انفصال جزء عن الله تعالى وذلك مناف للأحدية كما علمت آنفاً وبَطل اعتقاد المشركين من العرب أن الملائكة بنات الله تعالى فعبدوا الملائكة لذلك ، لأن البنوّة للإله تقتضي إلهية الابن قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ [الأنبياء : 26] .

وجملة ﴿ لم يولد ﴾ عطف على جملة ﴿ لم يلد ﴾ ، أي ولم يلده غيره ، وهي بمنزلة الاحتراس سدّاً لتجويز أن يكون له والِد ، فأردف نفي الولد بنفي الوالد .

وإنما قدم نفي الولد لأنه أهم إذ قد نَسب أهل الضلالة الولَد إلى الله تعالى ولم ينسبوا إلى الله والِداً .

وفيه الإيماء إلى أن من يكون مولوداً مثل عيسى لا يكون إلها لأنه لو كان الإله مولوداً لكان وجوده مسبوقاً بعدم لا محالة ، وذلك محال لأنه لو كان مسبوقاً بعدم لكان مفتقراً إلى من يُخصصه بالوجود بعد العدم ، فحصل من مجموع جملة : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ إبطالُ أن يكون الله والداً لمولود ، أو مولوداً من والد بالصراحة .

وبطلت إلهية كل مولود بطريق الكناية فبطلت العقائد المبنية على تولد الإله مثل عقيدة (زرادشت) الثانوية القائلة بوجود إلهين : إله الخير وهو الأصل ، وإله الشر وهو متولد عن إله الخير ، لأن إله الخير وهو المسمى عندهم (يزدان) فكّر فكرةً سوء فتولد منه إله الشر المسمى عندهم (أهرُمنْ) ، وقد أشار إلى مذهبهم أبو العلاء بقوله :

قَال أناس باطل زعمهم

فراقِبوا الله ولا تَزْعُمُنْ . . .

فكّر (يزدان) على غِرة

فصيغَ من تفكيره (أهْرُمُنْ) . . .

وبطلت عقيدة النصارى بإلهية عيسى عليه السّلام بتوهمهم أنه ابن الله وأن ابن الإله لا يكون إلاّ إلها بأن الإله يستحيل أن يكون له ولد فليس عيسى بابن لله ، وبأن الإله يستحيل أن يكون مولوداً بعد عدم .

فالمولود المتفق على أنه مولود يستحيل أن يكون إلها فبطل أن يكون عيسى إلها .

فلما أبطَلَت الجملة الأولى إلهية إله غير الله بالأصالة ، وأبطَلَتْ الجملة الثانية إلهية غير الله بالاستحقاق ، أبطَلَت هذه الجملة إلهية غير الله بالفرعية والتولد بطريق الكناية .

وإنما نفي أن يكون الله والدا وأن يكون مولوداً في الزمن الماضي ، لأن عقيدة التولد ادعت وقوعَ ذلك في زمن مضى ، ولم يدع أحد أن الله سيتخذ ولداً في المستقبل .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)

في معنى التذييل للجمل التي قبلها لأنها أعم من مضمونها لأن تلك الصفات المتقدمة صريحَها وكنايتها وضمنيَّها لا يشبهه فيها غيره ، مع إفادة هذه انتفاء شبيه له فيما عداها مثل صفات الأفعال كما قال تعالى : ﴿ إن الذين تدعون من دون اللّه لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ [الحج : 73] .

والواو في قوله : ﴿ ولم يكن له كفؤاً ﴾ اعتراضية ، وهي واو الحال ، كالواو في قوله تعالى : ﴿ وهل يجازى إلا الكفور ﴾ [سبأ : 17] فإنها تذييل لجملة ﴿ ذلك جزَيْنَاهم بما كفروا ﴾ [سبأ : 17] ، ويجوز كون الواو عاطفة إن جعلت الواو الأولى عاطفة فيكون المقصود من الجملة إثبات وصف مخالفته تعالى للحوادث وتكون استفادة معنى التذييل

تبعاً للمعنى ، والنكت لا تتزاحم .

والكُفُؤ : بضم الكاف وضم الفاء وهمزة في آخره .

وبه قرأ نافع وأبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ، إلا أن الثلاثة الأولين حَققوا الهمزة وأبو جعفر سهَّلها ويقال : "كُفْء" بضم الكاف وسكون الفاء وبالهمز ، وبه قرأ حمزة ويعقوب ، ويقال : ﴿ كفواً ﴾ بالواو عوض الهمز ، وبه قرأ حفص عن عاصم وهي لغات ثلاث فصيحة .

ومعناه : المساوي والمماثل في الصفات .

و﴿ أحد ﴾ هنا بمعنى إنسان أو موجود ، وهو من الأسماء النكرات الملازمة للوقوع في حيّز النفي .

وحصل بهذا جناس تام مع قوله : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وتقديم خبر (كان) على اسمها للرعاية على الفاصلة وللاهتمام بذكر الكُفُؤ عقب الفعل المنفي ليكون أسبق إلى السمع .

وتقديم المجرور بقوله : ﴿ له ﴾ على متعلّقه وهو ﴿ كفؤاً ﴾ للاهتمام باستحقاق الله نفي كفاءة أحد له ، فكان هذا الاهتمام مرجحاً تقديم المجرور على متعلّقه وإن كان الأصل تأخير المتعلَّق إذا كان ظرفاً لغواً .

وتأخيره عند سيبويه أحسن ما لم يقتض التقديمَ مقتضٍ كما أشار إليه في "الكشاف" .

وقد وردت في فضل هذه السورة أخبار صحيحة وحسنة استوفاها المفسرون .

(279/838)

وثبت في الحديث الصحيح في "الموطأ" و"الصحيحين" من طرق عدة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ﴿ قل هو اللَّه أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن " .

واختلفت التأويلات التي تأول بها أصحاب معاني الآثار لهذا الحديث ويجمعها أربعة تأويلات :

الأول : أنها تعدل ثلث القرآن في ثواب القراءة ، أي تعدل ثلث القرآن إذا قُرِىء بدونها حتى لو كررها القارىء ثلاث مرات كان له ثواب من قرأ القرآن كله .

الثاني : أنها تعدل ثلث القرآن إذا قرأها من لا يحسن غيرها من سورة القرآن .

الثالث : أنها تعدل ثلث معاني القرآن باعتبار أجناس المعاني لأنّ معاني القرآن أحكام وأخبار وتوحيد ، وقد انفردت هذه السورة بجمعها أصول العقيدة الإِسلامية ما لم يجمعه غيرها .

وأقول : إن ذلك كان قبل نزول آيات مثلها مثل آية الكرسي ، أو لأنه لا توجد سورة واحدة

جامعة لما في سورة الإخلاص .

التأويل الرابع : أنها تعدل ثلث القرآن في الثواب مثل التأويل الأول ولكن لا يكون تكريرها ثلاث مرات بمنزلة قراءة ختمة كاملة .

قال ابن رشد في "البيان والتحصيل" : أجمع العلماء على أن من قرأ : ﴿ قل هو اللَّه أحد ﴾ ثلاثَ مرات لا يساوي في الأجر من أحيَا بالقرآن كله أ هـ .

فيكون هذا التأويل قيداً للتأويل الأول ، ولكن في حكايته الإِجماع على أن ذلك هو المراد نظر ، فإن في بعض الأحاديث ما هو صريح في أن تكريرها ثلاث مرات يعدل قراءة ختمة كاملة .

قال ابن رشد : واختلافهم في تأويل الحديث لا يرتفع بشيء منه عن الحديث الإِشكال ولا يتخلص عن أن يكون فيه اعتراض .

وقال أبو عمر بن عبد البر السكوت على هذه المسألة أفضل من الكلام فيها . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الإخلاص

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)

هذه السورة الصغيرة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الروايات الصحيحة . قال البخاري : حدثنا إسماعيل : حدثني مالك عن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي صعصعة , عن أبيه , عن أبي سعد , أن رجلا سمع رجلا يقرأ : (قل هو الله أحد) يرددها . فلما أصبح جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فذكر ذلك له - وكأن الرجل يتقالها - فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " والذي نفسي بيده , إنها لتعدل ثلث القرآن " .

.

وليس في هذا من غرابة . فإن الأحدية التي أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يعلنها : (قل هو الله أحد) . . هذه الأحدية عقيدة للضمير , وتفسير للوجود , ومنهج للحياة . . وقد تضمنت السورة - من ثم - أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة . .

(قل هو الله أحد) . . وهو لفظ أدق من لفظ "واحد" . . لأنه يضيف إلى معنى "واحد" أن لا شيء غيره معه . وأن ليس كمثله شيء .

إنها أحدية الوجود . . فليس هناك حقيقة إلا حقيقته . وليس هناك وجود حقيقي إلا

وجوده . وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي , ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية .

وهي - من ثم - أحدية الفاعلية . فليس سواه فاعلا لشيء , أو فاعلا في شيء , في هذا الوجود أصلا . وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضا . .

فإذا استقر هذا التفسير , ووضح هذا التصور , خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة , ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية .

خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود - إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلا ! - فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي . ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية . فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته !

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة , ومن التعلق بغير هذه الحقيقة . .

فعندئذ يتحرر من جميع القيود , وينطلق من كل الأوهاق . يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة , ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة . وفيم يرغب وهو لا يفقد شيئا متى وجد الله ؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا الله ؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله , فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها - وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه . ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئا في الكون إلا الله . لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله .

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب . ورد كل شيء وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت , وبه تأثرت . . وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني . ومن ثم كان ينحي الأسباب الظاهرة دائما ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) . . (وما النصر إلا من عند الله) . . (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) . . وغيرها كثير . .

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها , ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها , تنسكب في القلب الطمأنينة , ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب , ويتقي عنده ما يرهب , ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجود !

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة , فجذ بتهم إلى بعيد ! ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها , ويزاولون الحياة البشرية , والخلافة الأرضية بكل مقوماتها , شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله . وأن لا وجود إلا وجوده . وأن لا فاعلية إلا فاعليته . . ولا يريد طريقا غير هذا الطريق !

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة , قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات : منهج لعبادة الله وحده . الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده , ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته , ولا أثر لإرادة إلا إرادته .

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة . في السراء والضراء . في النعماء والبأساء . وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجودا حقيقيا , وإلى غير فاعل في الوجود أصلا ? !

ومنهج للتلقي عن الله وحده . تلقي العقيدة والتصور والقيم والموازين , والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم , والآداب والتقاليد . فالتلقي لا يكون إلا عن الوجود الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير .

ومنهج للتحرك والعمل لله وحده . . ابتغاء القرب من الحقيقة , وتطلعا إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة . سواء في قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء

والنفوس . ومن بينها حاجز الذات , وقيد الرغبة والرهبة لشيء من أشياء هذا الوجود !

ومنهج يربط - مع هذا - بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب . فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها . . فكلها خارجة من يد الله ; وكلها تستمد وجودها من وجوده , وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة . فكلها إذن حبيب , إذ كلها هدية من الحبيب !

وهو منهج رفيق طليق . . الأرض فيه صغيرة , والحياة الدنيا قصيرة , ومتاع الحياة الدنيا زهيد , والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية . . ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال , ولا الكراهية ولا الهروب . . إنما معناه المحاولة المستمرة , والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها , وإطلاق الحياة البشرية جميعها . . ومن ثم فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما , مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما . كما أسلفنا . إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير . ولكن الإسلام لا يريده . لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص . إنه طريق أشق , ولكنه هو الذي

يحقق إنسانية الإنسان . أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه . . وهذا هو الانطلاق . انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي , وتحقيق حقيقتها العلوية . وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم . . .

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب . لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير , وتفسير للوجود , ومنهج للحياة . وليس كلمة تقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير . إنما هو الأمر كله , والدين كله ; وما بعده من تفصيلات وتفريعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب .

والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل , والتي أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم , نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص . ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات .

على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها , وقيام الحياة على أساسها , واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة , تبدو آثاره في

التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء . وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة . فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة , فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة . .

ومعنى أن الله أحد : أنه الصمد . وأنه لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد . . ولكن القرآن يذكر هذه التفريعات لزيادة التقرير والإيضاح :

(الله الصمد) . . ومعنى الصمد اللغوي : السيد المقصود الذي لا يقضى أمر إلا بإذنه . والله - سبحانه - هو السيد الذي لا سيد غيره , فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد . وهو المقصود وحده بالحاجات , المجيب وحده لأصحاب الحاجات . وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه , ولا يقضي أحد معه . . وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد .

(لم يلد ولم يولد) . . فحقيقة الله ثابتة أبدية أزلية , لا تعتورها حال بعد حال . صفتها الكمال المطلق في جميع الأحوال . والولادة انبثاق وامتداد , ووجود زائد بعد نقص أو عدم , وهو على الله محال . ثم هي تقتضي زوجية . تقوم على التماثل . وهذه كذلك محال . ومن ثم فإن صفة (أحد) تتضمن نفي الوالد والولد . .

(ولم يكن له كفوا أحد) . . أي لم يوجد له مماثل أو مكافئ . لا في حقيقة الوجود , ولا في حقيقة الفاعلية , ولا في أية صفة من الصفات الذاتية . وهذا كذلك يتحقق

بأنه(أحد) ولكن هذا توكيد وتفصيل . . وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشر إلها يعاكس الله - بزعمهم - ويعكس عليه أعماله الخيرة وينشر الفساد في الأرض . وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام , وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان ! !

هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية , كما أن سورة "الكافرون" نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك . . وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه . وقد كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يستفتح يومه - في صلاة سنة الفجر - بالقراءة بهاتين السورتين . . وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال جـ 6 صـ 4005.4002 ﴾

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) ﴾

الأحد : قال القرطبي : أي الواحد الوتر ، الذي لا شبيه له ولا نظير ، ولا صاحبة ، ولا ولد ، ولا شريك . اهـ.

ومعلوم أن كل هذه المعاني صحيحة ، في حقه تعالى .

واصل أحد : وحد : قلبت الواو همزة .

ومنه قول النابغة :

كأن رحلي وقد زال النهار بنا . . . بذي الجليل على مستأنس وحد

وقال الفخر الرازي في أحد وجهان :

أحدهما : أنه بمعنى واحد .

قال الخليل : يجوز أن يقال : أحد اثنان ثلاثة ، ثم ذكر أصلها وحد ، وقلبت الواو همزة للتخفيف .

والثاني : أن الواحد والأحد ليسا اسمين مترادفين .

قال الأزهري : لا يوصف شيء بالأحدية غير الله تعالى ، لا يقال : رجل أحد ولا درهم أحد ، كما يقال : رجل واحد أي فرد به ، بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شيء .

ثم قال : ذكروا في الفرق بين الواحد والأحد وجوهاً :

أحدهما : أن الواحد يدخل في الأحد ، والأحد لا يدخل فيه .

وثانيها : أنك لو قلت : فلان لا يقاومه واحد ، جاز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد .

فإنك لو قلت : فلان لا يقاومه أحد ، لا يجوز أن يقال : لكنه يقاومه اثنان .

وثالثها : أن الواحد ، يستعمل في الإثبات ، والأحد يستعمل في النفي .

تقول في الإثبات رأيت رجلاً واحداً .

وتقول في النفي : ما رأيت أحداً ، فيفيد العموم .

أما ما نقله عن الخليل ، وقد حكاه صاحب القاموس فقال : ورجل وحد وأحد ، أي خلافاً لما قاله الأزهري .

وأما قوله : إن أحداً تستعمل في النفي فقد جاء استعمالها في الإثبات أيضاً .

كقوله : ﴿ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الغائط ﴾ [المائدة : 6] .

فتكون أغلبية في استعمالها ودلالتها في العموم واضحة .

وقال في معجم مقاييس اللغة في باب الهمزة والحاء وما بعدها : أحد ، إنها فرع والأصل الواو وحد .

وقد ذكر في الواو وفي مادة وحد . قال : الواو والحاء والدال أصل واحد يدل على الانفراد من ذلك الوحدة بفتح الواو وهو أحد قبيلته ، إذا لم يكن فيهم مثله .

قال :

يا واحد العرب الذي . . . ما في الأنام له نظير

وقيل : إن هذا البيت لبشار يمدح عقبة بن مسلم ، أو إلى ابن المولى يزيد بن حاتم ، نقلاً عن الأغاني .

فيكون بهذا ثبت أن الأصل بالواو والهمزة فرع عنه .

وتقدم أن دلالتها على العموم أوضح أي أحد .

وقد دلت الآية الكريمة ، على أن الله سبحانه وتعالى أحد ، أي في ذاته وصفاته لا شبيه ولا شريك ، ولا نظير ولا ند له ، سبحانه وتعالى .

وقد فسره ضمنا قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : 4] .

وقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] ، أما المعنى العام فإن القرآن كله ، والرسالة المحمدية كلها ، بل وجميع الرسالات ، إنما جاءت لتقرير هذا المعنى ، بأن الله سبحانه واحد أحد .

بل كل ما في الوجود شاهد على ذلك .

كما قيل :

وفي كل شيء له آية . . . تدل على أنه الواحد

أما نصوص القرآن على ذلك فهي أكثر من أن تحصى ، لأنها بمعنى لا إله إلا الله .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، إشارة إلى ذلك في أول الصافات وفي غيرها ، وفي البقرة ﴿ وإلهكم إله وَاحِدٌ لاَّ إله إلاَّ هُوَ الرحمن الرحيم ﴾ [البقرة : 163] .

وفي التوبة : ﴿ وَمَآ أمروا إِلاَّ ليعبدوا إلها وَاحِداً لاَّ إله إِلاَّ هُوَ ﴾ [التوبة : 31] ، فجاء مقروناً بلا إله إلاَّ الله .

وفي ص قوله : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إله إِلاَّ الله الواحد القهار ﴾ [ص : 65] .

(288/838)

وكما قدمنا أن الرسالة كلها جاءت لتقرير هذا المعنى ، كما في قوله : ﴿ هذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وليعلموا أَنَّمَا هُوَ إله وَاحِدٌ ﴾ [إبراهيم : 52] ، سبحانه جل جلاله وتقدمت أسماؤهن وتنزهت صفاته ، فهو واحد أحد في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله .

وقد جاء القرآن بتقرير هذا المعنى عقلاً كما قرره نقلاً ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ

مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَّابْتَغَوْاْ إِلَى ذِي العرش سَبِيلاً سُبْحَانَهُ وتعالى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً ﴾ [الإسراء : 42-43] .

وقوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاَّ الله لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ الله رَبِّ العرش عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء : 22] .

فدل على عدم فسادهما بعدم تعددهما ، وجمع العقل والنقل في قوله : ﴿ مَا اتخذ الله مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إله بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ سُبْحَانَ الله عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون : 91] .

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ (2) ﴾

قال بعض المفسرين : يفسره ما بعده ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وقال ابن كثير ، وهذا معنى حسن .

وقال بعض العلماء : هو المتناهي في السؤدد ، وفي الكمال من كل شيء .

وقيل : من يصمد الخلائق إليه في حاجاتهم ، ولا يحتاج هو إلى أحد .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، معنى الصمد في سورة الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام : 14] فذكر شواهد هذه الأقوال كلها .

وبإمعان النظر في مبدأ يفسره ما بعده ، يتضح أن السورة كلها تفسير لأولها ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ لأن الأحدية ، هي تفرده سبحانه بصفات الجلال والكمال كلها ، ولأن المولود

ليس بأحد ، لأنه جزء من والده .

والوالد ليس بأحد ، لأن جزءاً منه في ولده .

(289/838)

وكذلك من يكون له كفء . فليس بأحد لوجود الكفء ، وهكذا السورة كلها لتقرير ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) ﴾

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، بيان شواهده عند قوله تعالى : ﴿ الذي لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الملك ﴾ [الفرقان : 2] الآية من سورة الفرقان .

تنبيه

ففي اتخاذ الولد لا يستلزم نفي الولادة ، لأن اتخاذ الولد قد يكون بدون ولادة كالتبني أو غيره ، كما في قصة يوسف في قوله تعالى عن عزيز مصر : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عسى أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ [يوسف : 21] .

ففي هذه السورة نفي أخص ، فلزم التنبيه عليه في هذه السورة الكريمة وهي سورة

الإخلاص . والتي تعدل ثلث القرآن لاختصاصها بحق الله تعالى في ذاته وصفاته من الوحدانية والصمدية ، ونفي الولادة والولد ، ونفي الكفء ، وكلها صفات انفراد الله سبحانه .

وقد جاء فيها النص الصريح بعد الولادة ، وأنه سبحانه وتعالى لم يلد ولم يولد ، فهي أخص من تلك ، وهذا من المسلمات عن المسلمين جميعاً بدون شك ولا نزاع ولم يؤثر فيها أي خلاف .

ولكن غير المسلمين لم يسلموا بذلك ، فاليهود قالوا : عزيز ابن الله ، والنصارى قالوا : الملائكة بنات الله .

فاتفقوا على ادعاء الولد لله ، ولم يدع أحد أنه سبحانه مولود .

وقد جاءت النصوص الصريحة في نفي الولد عن الله سبحانه وتعالى ، إلا أن مجرد النص الذي لم يؤمن به الخصم لا يكفي لإقناعه ، وفي هذه السورة وهي المختصة بصفات الله ، لم يأت التنويه فيها عن المانع من اتخاذ الله للولد ، ومن كونه سبحانه لو يولد .

ولما كان بيان المانع أو الموجب من منهج هذا الكتاب ، إذا كان يوجد للحكم موجب أو مانع وام تتقدم الإشارة إلى ذلك ، فيما تقدم من كلام الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه مع أنه رحمه الله ، قد تكلم على آيات الأسماء والصفات جملة وتفصيلاً ، بما يكفي ويشفي .

ولكن جاء في القرآن الكريم ذكر ادعاء الولد لله ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً .

وجاء الرد من الله تعالى مع بيان المانع مفصلاً مع الإشعار بالدليل العقلي ، ولذا لزم التنويه عليه ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ اتخذ الله وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السماوات والأرض وَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : 116-117] .

فهذا نص صريح فيما قالوه : ﴿ اتخذ الله وَلَداً ﴾ .

ونص صريح في تنزيه الهل سبحانه وتسبيحه عما قالوا .

ثم جاء حرف الإضراب عن قولهم : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ [البقرة : 116] ، ففيه بيان المانع عقلاً من اتخاذ الولد بما يلزم الخصم ، وذلك أن غاية اتخاذ الولد أن يكون باراً بوالده ، وأن ينتفع الوالد بولده . كما في قوله تعالى : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا ﴾ [الكهف : 46] ، أو يكون الولد وارثاً لأبيه كما في قوله تعالى عن نبي الله تعالى زكريا عليه السلام :

﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم : 5-6] الآية .

والله سبحانه وتعالى حي باق يرث ولا يورث كما قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن : 26-27] الآية .

وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السماوات والأرض ﴾ [آل عمران : 180] .

(291/838)

فإذا كان لله سبحانه وتعالى كل ما في السماوات والأرض في قنوت وامتثال طوعاً أو كرهاً ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَداً إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلاَّ آتِي الرحمن عَبْداً ﴾ [مريم : 92-93] .

فهو سبحانه وتعالى ليس في حاجة إلى الولد لغناه عنه .

ثم بين سبحانه قدرته على الإيجاد والإبداع في قوله تعالى : ﴿ بَدِيعُ السماوات والأرض وَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : 117] .

وهذا واضح في نفي الولد عنه سبحانه وتعالى .

وقد تمدح سبحانه في قوله : ﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الملك وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذل وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً ﴾ [الإسراء : 111] .

أما أنه لم يولد . فلم يدع أحد عليه ذلك . لأنه ممتنع عقلاً ، بدليل الممانعة المعروف وهو

كالآتي :

لو توقف وجوده سبحانه على أن يولد لكان في وجوده محتاجاً إلى من يوجده ، ثم يكون من يلده في حاجة إلى والد ، وهكذا يأتي الدول والتسلسل وهذا باطل .

وكذلك فإن الحاجة إلى الولد بنفيها معنى الصمدية المتقدم ذكره ، ولو كان له والد لكان الوالد أسبق وأحق ، تعالى الله عن ذلك .

وقد يقال : من جانب الممانعة العقلية لو افترض على حد قوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرحمن وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ العابدين ﴾ [الزخرف : 81] .

فنقول على هذا الافتراض : لو كان له ولد فما مبدأ وجود هذا الولد وما مصيره ؟ فإن كان حادثاً فمتى حدوثه ؟ وإن كان قديماً تعدد القدم ، وهذا ممنوع .

ثم إن كان باقياً تعدد البقاء ، وإن كان منتهياً فمتى انتهاؤه ؟

وإذا كان مآله إلى الانتهاء فما الحاجة إلى إيجاده مع عدم الحاجة إليه ، فانتفى اتخاذ الولد عقلاً ونقلاً ، كما انتقت الولادة كذلك عقلاً ونقلاً .

وقد أورد بعض المفسرين سؤالاً في هذه الآية، وهو لماذا قدم نفي الولد على نفي الولادة؟ مع أن الأصل في المشاهد أن يولد ثم يلد؟

وأجاب بأنه من تقديم الأهم لأنه رد على النصارى في قولهم: عيسى ابن الله، وعلى اليهود في قولهم: عزيز ابن الله، وعلى قول المشركين: الملائكة بنات الله، ولأنه لم يدع أحد أنه سبحانه مولود لأحد، فكانت دعواهم الولد لله فرية عظمى. اه.

كما قال تعالى: ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: 5].

وقوله: ﴿ وَقَالُوا اتخذ الرحمن وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأرض وَتَخِرُّ الجبال هَدًّا أَن دَعَوْا للرحمن وَلَدًا ﴾ [مريم: 88-91].

فلشفاعة هذه الفرية قدم ذكرها، ثم الرد على عدم إمكانها بقوله: ﴿ وَمَا يَنبَغِي للرحمن أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا إِن كُلُّ مَن فِي السماوات والأرض إِلَّا آتِي الرحمن عَبْدًا ﴾ [مريم: 92-93].

وقد قدمنا دليل المنع عقلاً ونقلاً.

وهنا سؤال أيضاً، وهو إذا كان ادعاء الولد قد وقع، وجاء الرد عليه: فإن ادعاء الولادة لم يقع، فلماذا ذكر نفيه مع عدم ادعائه؟

والجواب والله تعالى أعلم: أن من جوّر الولادة له وأن يكون له ولد، فقد يجوز الولادة عليه، وأن يكون مولوداً فجاء نفيها تتمة للنفي والتنزيه، كما في حديث البحر، كان السؤال عن

الوضوء من مائة فقط ، فجاء الجواب عن مائة وميتته ، لأن ما احتمل السؤال في مائة يحتمل الاشتباه في ميتته . والله تعالى أعلم .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4) ﴾

وقالوا : كفؤا وكفوا وكفاء ، بمعنى واحد ، وهو المثل .

وقد تعددت أقوال المفسرين في معنى الآية ، وكلها تدور على معنى نفي المماثلة .

فعن كعب وعطاء : لم يكن له مثل ولا عديل .

وروى ابن جرير عن ابن عباس : أنه بمعنى ليس كمثله شيء .

وعن مجاهد : أي لا صاحبة له .

وقد جاء نفي الكفء والمثل والند والعدل ، فالكفء في هذه السورة والمثل في قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] ، وقوله : ﴿ فَلاَ تَضْرِبُواْ للَّهِ الأَمْثَالَ ﴾ [النحل : 74] .

والند في قوله : ﴿ فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 22] .

والعدل في قوله : ﴿ ثُمَّ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : 1] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه عند آية الأنعام بيان لذلك، أي يساوونه بغيره من العدل بكسر أوله، وهو أحد شقي حمل البعير على أحد التفسيرين، والآخر من العدول عنه إلى غيره.

وفي هذه السورة مبحثان يوردهما المفسرون. أحدهما: أسباب نزولها، والآخر: ما جاء في فضلها، ولم يكن موضوع هذا الكتاب تتبع ذلك، إلا ما كان له دوافع تتعلق بالمعنى.

أما ما جاء في فضلها، فقد قال أبو حيان في تفسيره: لقد أكثر المفسرون إيراد الآثار في ذلك، وليس هذا محلها، وهو كما قال، فقد أوردها ابن كثير والفخر الرازي والقرطبي وابن حجر في الإصابة في ترجمة معاذ بن جبل وغيرهم، وليس هذا محل إيرادها، اللهم إلا ما جاء في الصحيح: أن تلاوتها تعدل ثلث القرآن لتعلق موضوعها بالتوحيد.

أما المبحث الآخر وهو سبب نزولها، فقيل فيه. إن المشركين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن ينسب لهم ربه، فنزلت.

وقوله فيها ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾، رد على إثبات النسب له سبحانه وتعالى.

وقد جاء مثل هذا المعنى حينما سأل فرعون موسى عن ربه، فقال له: ﴿ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ [الشعراء: 23].

فجاء جوابه : ﴿ قَالَ رَبُّ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأولين قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الذي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : 24-27] .

وكنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أن موجب قول فرعون عن موسى لمجنون ، لأنه سأله بما في قوله : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العالمين ﴾ [الشعراء : 23] ، وما يسأل بها عن شرح الماهية فكان مقتضى السؤال بها أن يبين ماهية الرب سبحانه وتعالى ، من أي شيء هو ، كما يقال في جواب : ما الإنسان إنه حيوان ناطق .

ولكن موسى عليه السلام أعرض عن سؤال فرعون لجهله عن حقيقة الله تعالى أو لتجاهله ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا واستيقنتها أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل : 14] ، وأجابه عما يخصه ويلزمه الاعتراف به من أنه سبحانه رب السماوات والأرض وما بينهما ، لا ربوبية فرعون الكاذبة .

ومثل ذلك في القرآن ، لما سألوا عن الأهلة ، ما بالها تبدو صغيرة ، ثم تكبر؟ فهو سؤال عن حقيقة تغيرها ، فترك القرآن جوابهم على سؤالهم وأجابهم بما يلزمهم وينفعهم .

وكذلك جواب الخليل عليه السلام للنمرود حينما حاجّه في ربه ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة : 258] .

فذكره سبحانه بصفاته، وفي هذه السورة لما سألوا عن حقيقة الله ونسبه جاء الجواب بصفاته، لأن ما يسألون عنه إنما يكون في المخلوقات لا في الخالق سبحانه، وفي الممكن لا في الواجب الوجود لذاته، سبحان من لا يدرك كنهه غيره، وصدق الله العظيم في قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السميع البصير ﴾ [الشورى: 11]، ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ [طه: 110]. انتهى انتهى. اهـ ﴿أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

(295/838)

وقال صاحب التفسير الواضح:

سورة الإخلاص

مكية. وآياتها أربع آيات، وهي سورة التوحيد والتنزيه للّه - سبحانه وتعالى - وهذا هو الأصل الأول والركن الركين للإسلام لذلك ورد أنها تعدل ثلث القرآن في ثواب قراءتها إذ الأصول العامة ثلاثة: التوحيد، تقرير الحدود وأعمال الخلق، وذكر أحوال يوم القيامة، ولا حرج على فضل اللّه الذي يهب لمن يقرؤها بتدبر وتفهم مثل ما يهبه لقارئ ثلث القرآن.

[سورة الإخلاص (112): الآيات 1 الى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)

المفردات:

أَحَدٌ: واحد في ذاته وصفاته وأفعاله. الصَّمَدُ: المقصود وحده في قضاء الحوائج. كُفُواً: مكافئا ومماثلا ونظيرا.

المعنى:

هذا هو الأساس الأول، والمهمة الأولى التي جاء إليها النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فشمر عن ساعد الجد، وأخذ يدعو الناس إلى التوحيد، وعبادة اللّه الواحد لهذا أمر في هذه السورة بأن يقول للناس: هو اللّه أحد.

قل لهم يا محمد: الخبر الحق المؤيد بالصدق، والبرهان القاطع هو اللّه أحد، فاللّه واحد في ذاته ليس مركبا ولا متعددا، واحد في صفاته فليس لغيره صفة تماثله، وواحد في أفعاله فليس لغيره فعل يدانى فعله أو يشبهه.

التفسير الواضح، ج 3، ص: 919

ولعل تصدير الكلام بضمير الشأن - هو - للتنبيه من أول الأمر على فخامة الكلام الآتي، ولبيان أنه من الخطورة والروعة ما يجعلك تبحث عنه وتلتفت إليه. وذلك أن الضمير يدعوك إلى ترقب ما بعده، فإذا جاء تفسيره وتوضيحه تمكن في النفس أى تمكن، ولعلك

تسأل : أما كان الأولى أن يقال : اللّه الأحد بدل أحد ؟ والجواب على ذلك : أن المقصود إثبات أن اللّه – جل جلاله – واحد ليس متعددا في ذاته ، ولو قيل اللّه الأحد لأفادت العبارة أنهم يعتقدون الوحدانية ويشكون في ثبوتها للّه . مع أن المقصود نفى العدد لأنهم كانوا يعتقدونه ولهذا قال : اللّه أحد اللّه الصمد ، أي : ليس فوقه أحد ولا يحتاج إلى أحد ، بل هو وحده الذي يحتاج إليه كل ما عداه ، إليه وحده يلجأ الخلق في الشدائد والأزمات جل جلاله وتباركت آلاؤه .

(296/838)

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾

وهذا تنزيه للّه عن أن يكون له ولد أو بنت أو والد أو أم ، أما كونه لا ولد له فهذا رد على المشركين الذين يقولون : الملائكة بنات اللّه ، وعلى النصارى واليهود الذين يقولون : العزير والمسيح أبناء اللّه ، ولم يكن اللّه مولودا كما قالت النصارى : المسيح ابن اللّه ثم عبدوه كأبيه ، أما استحالة أن يكون له ولد فإن الولد يقتضى انفصال جزء من أبيه وهذا بلا شك يقتضى التعدد والحدوث ومشابهة المخلوقات ، على أنه غير محتاج إلى الولد فهو الذي خلق الكون وهو الذي فطر السموات والأرض وهو الذي يرثهما .

أما استحالة كونه مولودا فهي من البديهيات الظاهرة لاحتياج الولد إلى والد ووالدة ، وإلى ثدي ومرضعة ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ نعم ما دام واحدا في ذاته ليس متعددا ، وليس والدا لأحد ولا مولودا لأحد ، فليس يشبه أحدا من خلقه ، وليس له مثيل أو نظير أو ند أو شريك سبحانه وتعالى عما يشركون .

وهذه السورة مع وجازتها ردت على مشركي العرب وعلى النصارى واليهود كما مر وأبطلت مذهب المانوية القائلين بالنور والظلمة ، وعلى النصارى القائلين بالتثليث ، وأبطلت مذهب الصابئة الذين يعبدون النجوم والأفلاك ، وردت على مشركي العرب الذين زعموا أن غيره يقصد عند الحوائج ، وأن له شريكا تعالى اللّه عن ذلك كله .

وتسمى هذه السورة سورة الإخلاص ، لأنها تضمنت إثبات وحدانية اللّه ، وأنه لا شريك له ، وأنه هو المقصود وحده في قضاء الحوائج ، وأنه لم يلد ولم يولد ، وأنه لا مثيل له ولا نظير ، وهذا يقتضى الإخلاص في عبادة اللّه وحده ، أو الاتجاه إليه وحده . انتهى انتهى . ا هـ

﴿التفسير الواضح ـ 3 ص ـ 920.919﴾

وقال الشيخ الصابونى :

[قل هو الله أحد]

أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المستهزئين : إن ربي الذي أعبده ، والذي أدعوكم لعبادته ، هو واحد أحد ، لا شريك له ، ولا شبيه له ولا نظير ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ، فهو جل وعلا إله ولحد أحد ، ليس كما يزعم النصارى ويعتقدون بالتثليث (الأب ، والإبن ، وروح القدس) ولا كما يعتقد المشركون بتعدد الآلهة ، قال في التسهيل : واعلم أن وصف الله تعالي بالواحد ، له ثلاثة معانى ، كلها صحيحة في حقه تعالى : الأول : أنه واحد لا ثاني معه فهو نفى للعدد ، والثاني : أنه واحد لا نظير ولا شريك له ، كما تقول : فلان واحد في عصره أي لا نظير له ، والثالث : أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعض ، والمراد بالسورة نفي الشريك ، ردا على المشركين ، وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته تعالي ، وذلك كثير جدا ، وأوضحها أربعة براهين : الأول ؟ قوله تعالي [أفمن يخلق كمن لا يخلق ، ؟ - وهذا دليل الخلق والإيجاد - فإذا ثبت أن الله تعالى خالق لجميع الموجودات ، لم يصح أن يكون واحد منها شريكا له والثاني : قوله تعالى [لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا] - وهو دليل الإحكام والإبداع - الثالث : قوله تعالى [لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلي ذي العرش سبيلا] - وهو دليل القهر والغلبة - والرابع : قوله تعالى [

ما إتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض] – وهو دليل التنازع والإستعلاء ثم أكد تعالى وحدانيته وإستغناءه عن الخلق

[الله الصمد] أي هو جل وعلا ، المقصود في قضاء الحوائج على الدوام ، يحتاج إليه البشر ، وهو مستغن عن العالمين ، قال الألوسى : الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد ، الذي يصمد إليه – أي يلجأ إليه – الناس في حوائجهم وأمورهم

[لم يلد] أي لم يتخذ ولدا ، وليس له أبناء وبنات ، فكما هو متصف بالكمالات ، فإنه منزه عن النقائص ، قال المفسرون : في الآية رد على كل من جعل لله ولدا . كاليهود في قولهم [عزير ابن الله] والنصارى في قولهم (المسيح ابن الله] (يعتقد النصارى بأن الإله ثلاثة أقانيم "الآب ، والابن ، وروح القدس" وهي عقيدة التثليث التى أشار إليها القرآن الكريم بقوله : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ﴾ الآية ويعتقدون بأن الثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ، والجنون فنون ، ويزعمون أنهم موحدون ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا) ومشركي العرب في زعمهم الكاذب أن [الملائكة بنات الله] فرد الله تعالى على الجميع ، في أنه ليس له ولد ، لأن الولد لابد أن يكون من جنس والده ، والله

تعالي أزلي قديم، ليى كمثله شيء ، فلا يمكن أن يكون له ولد ، ولأن الولد لا يكون إلا لمن له زوجة، والله تعالى ليس له زوجة، وإليه الإشارة بقوله تعالى [بديع السموات والأرض أنى يكون لهولم تكن له صاحبة] ؟

[ولم يولد] أي ولم يولد من أب ولا أم ، لأن كل مولود حادث ، والله تعالى قديم أزلي ، فلا يصح أن يكون مولودا ولا أن يكون له والد ، وقد نفت الآية عنه تعالى إحاطة النسب من جميع الجهات ، فهو الأول الذي لا إبتداء لوجوده ، القديم الذي كان ولم يكن معه شيء غيره [ولم يكن له كفوا أحد] أي وليس له جل وعلا مثيل ، ولا نظير ، ولا شبية ، أحد من خلقه ، لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا فى أفعاله [ليس كمثله شيء وهو السميع البصير] قال ابن كثير : هو مالك كل شيء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ؟ تعالى وتقدس وتنزه ، وفي الحديث القدسي (يقول الله عز وجل : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 620 . 621 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) ﴾

أخرج أحمد والبخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير وابن خزيمة وابن أبي حاتم في السنة والبغوي في معجمه وابن المنذر في العظمة والحاكم وصححه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : يا محمد أنسب لنا ربك ، فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ﴾ لأنه ليس يولد شيء إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، وإن الله لا يموت ولا يورث ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ليس له شيبة ولا عدل وليس كمثله شيء .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة رضي الله عنه أن المشركين قالوا يا رسول الله : أخبرنا عن ربك ، صف لنا ربك ما هو؟ ومن أي شيء هو؟ فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

وأخرج ابن الضريس وابن جرير عن أبي العالية رضي الله عنه قال قالوا : انسب لنا ربك ، فأتاه جبريل بهذه السورة ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ .

وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية والبيهقي

بسند حسن عن جابر رضي الله عنه قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أنسب لنا ربك ، فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ .

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قالت قريش ، يا رسول الله : أنسب لنا ربك ، فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ في العظمة وأبو بكر السمرقندي في فضائل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عن أنس رضي الله عنه قال : جاءت يهود خيبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم خلق الله الملائكة من نور الحجاب وآدم من حمإ مسنون وإبليس من لهب النار ، والسماء من دخان ، والأرض من زبد الماء ، فأخبرنا عن ربك فلم يجبهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فأتاه جبريل بهذه السورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ليس له عروق تتشعب ﴿ الله الصمد ﴾ ليس بالأجوف لا يأكل ولا يشرب ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ ليس له والد ولا ولد ينسب إليه ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ليس من خلقه شيء يعدل مكانه يمسك السموات إن زالتا ، هذه السورة ليس فيها ذكر جنة ولا نار ، ولا دنيا ولا آخرة ولا حلال ولا حرام

انتسب الله إليها فهي له خالصة ، من قرأها ثلاث مرات عدل بقراءة الوحي كله ، ومن قرأها ثلاثين مرة لم يفضله أحد من أهل الدنيا يومئذ إلا من زاد على ما قال ، ومن قرأها مائتي مرة أسكن من الفودوس سكناً يرضاه ، ومن قرأها حين يدخل منزله ثلاث مرات نفت عن الفقر ونفعت الجار ، وكان رجل يقرأها في كل صلاة فكأنهم هزئوا به وعابوا ذلك عليه فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : وما حملك على ذلك ؟ قال يا رسول الله : إني أحبها .

قال : حبها أدخلك الجنة . قال : وبات رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها ويرددها حتى أصبح .

(301/838)

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية من طريق محمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال لأحبار اليهود : إني أردت أن أحدث بمسجد أبينا إبراهيم عهداً ، فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة ، فوافاه بمنى ، والناس حوله ، فقام مع الناس ، فلما نظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أنت عبد الله بن سلام ؟ قال : نعم ، قال : أدن ، فدنا منه ، فقال : أنشدك

بالله أما تجدني في التوراة رسول الله ؟ فقال له : أنعت لنا ربك ، فجاء جبريل فقال ﴿ قل هو الله أحد ﴾ إلى آخر السورة . فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ابن سلام : أشهد أن لا إله إلا الله واشهد أنك رسول الله ، ثم انصرف إلى المدينة وكتم إسلامه .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عدي والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم منهم كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب فقالوا يا محمد : صف لنا ربك الذي بعثك ، فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ﴾ فيخرج منه الولد ﴿ ولم يولد ﴾ فيخرج من شيء .

وأخرج الطبراني في السنة عن الضحاك قال : قالت اليهود يا محمد صف لنا ربك ، فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد ﴾ فقالوا : أما الأحد فقد عرفناه ، فما الصمد ؟ قال : الذي لا جوف له .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : أتى رهط من اليهود النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له : يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه ؟ فغضب النبي صلى الله عليه وسلم حتى انتقع لونه ، ثم ساورهم غضباً لربه ، فجاءه جبريل فسكنه وقال :

اخفض عليك جناحك ، وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ فلما تلاها عليهم قالوا : صف لنا ربك كيف خلقه وكيف عضده وكيف ذراعه ، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم أشد من غضبه الأول وساورهم غضباً فأتاه جبريل فقال له مثل مقالته وأتاه جواب ما سألوه عنه

﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ [الزمر : 67] .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال : جاء ناس من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أنسب لنا ربك ، وفي لفظ : صف لنا ربك ، فلم يدر ما يرد عليهم فنزلت ﴿ قل هو الله أحد ﴾ حتى ختم السورة .

وأخرج أبو عبيد وأحمد في فضائله والنسائي في اليوم والليلة وابن منيع ومحمد بن نصر وابن مردويه والضياء في المختارة عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن " .

وأخرج ابن الضريس والبزار وسمويه في فوائده والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس أن النبي

صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ ﴿ قل هو الله احد ﴾ مائتي مرة غفر له ذنوب مائتي سنة " .

وأخرج أحمد والترمذي وابن الضريس والبيهقي في سننه عن أنس رضي الله عنه قال : " جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إني أحب هذه السورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " حبك إياها أدخلك الجنة " " .

وأخرج ابن الضريس وأبو يعلى وابن الأنباري في المصاحف عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلاث مرات في ليلة ، فإنها تعدل ثلث القرآن " .

وأخرج أبو يعلى ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ خمسين مرة غفر له ذنوب خمسين سنة " .

وأخرج الترمذي وأبو يعلى ومحمد بن نصر وابن عدي والبيهقي في الشعب ، واللفظ له ، عن أنس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ كل يوم مائتي مرة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ كتب الله له ألفاً وخمسمائة حسنة ، ومحا عنه ذنوب

خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين " .

وأخرج الترمذي وابن عدي والبيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن ينام على فراشه من الليل نام على يمينه فقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مائة مرة ، فإذا كان يوم القيامة يقول له الرب : يا عبدي ادخل على يمينك الجنة " .

وأخرج ابن سعد وابن الضريس وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل عن أنس رضي الله عنه قال : " كان النبي صلى الله عليه وسلم بالشام ، فهبط عليه جبريل فقال : يا محمد إن معاوية بن معاوية المزني هلك ، أفتحب أن تصلي عليه ؟ قال : نعم ، فضرب بجناحه الأرض فتضعضع له كل شيء ولزق بالأرض ورفع له سريره فصلى عليه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم من أي شيء أتى معاوية هذا الفضل ؟ صلى عليه صفان من الملائكة في كل صف ستمائة ألف ملك . قال : بقراءة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ كان يقرؤها قائماً وقاعداً وجالساً وذاهباً ونائماً " .

وأخرج ابن سعد وابن الضريس والبيهقي في الدلائل والشعب من وجه آخر عن أنس رضي الله عنه قال: "كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بتبوك فطلعت الشمس ذات يوم بضياء وشعاع ونور لم نرها قبل ذلك فيما مضى، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجب من ضيائها ونورها، إذ أتاه جبريل فسأل جبريل: ما للشمس طلعت لها نور وضياء وشعاع لم أرها طلعت فيما مضى؟ قال: ذاك أن معاوية بن معاوية الليثي مات بالمدينة اليوم، فبعث الله إليه سبعين ألف ملك يصلون عليه. قال: بم ذاك يا جبريل؟ قال: كان يكثر ﴿ قل هو الله أحد ﴾ قائماً وقاعداً وماشياً وآناء الليل والنهار استكثر منها فإنها نسبة ربكم، ومن قرأها خمسين مرة رفع الله له خمسين ألف درجة، وحط عنه خمسين ألف سيئة، وكتب له خمسين ألف حسنة، ومن زاد زاد الله له. قال جبريل: فهل لك أن أقبض الأرض فتصلي عليه! قال: نعم. فصلى عليه".

وأخرج ابن عدي والبيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مائتي مرة غفر له خطيئة خمسين سنة إذا اجتنب أربع خصال الدماء والأموال والفروج والأشربة".

وأخرج ابن عدي والبيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ على طهارة مائة مرة كطهارة الصلاة يبدأ بفاتحة الكتاب كتب الله له بكل حرف عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له

عشر درجات ، وبنى له مائة قصر في الجنة وكأنما قرأ القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة ، وهي براءة من الشرك ، ومحضرة للملائكة ، ومنفرة للشياطين ، ولها دويّ حول العرش تذكر بصاحبها حتى ينظر الله إليه ، وإذا نظر إليه لم يعذبه أبداً " .

(306/838)

وأخرج أبو يعلى عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من جاء بهن مع الإيمان دخل من أي أبواب الجنة شاء ، وزوج من الحور العين حيث شاء ، من عفا عن قاتله ، وأدى ديناً خفياً ، وقرأ في دبر كل صلاة مكتوبة عشر مرات ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فقال أبو بكر : أو إحداهن يا رسول الله ؟ قال : " أو إحداهن " " .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند فيه مجهول عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ في كل يوم خمسين مرة نودي يوم القيامة من قبره : قم مادح الله ، فادخل الجنة " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من نسي أن يسمي على طعامه فليقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ إذا فرغ " .

وأخرج الطبراني عن جرير البجلي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ

﴿ قل هو الله أحد ﴾ حين يدخل منزله نفت الفقر من أهل ذلك المنزل والجيران " .

وأخرج البزار والطبراني في الصغير عن سعد بن أبي وقاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن ، ومن قرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ [الكافرون : 1] فكأنما قرأ ربع القرآن " .

وأخرج الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية بسند ضعيف عن عبد الله بن الشخير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ في مرضه الذي يموت فيه لم يفتن في قبره ، وامن من فتنه القبر ، وحملته الملائكة يوم القيامة بأكفها حتى تجيزه الصراط إلى الجنة " .

وأخرج أبو عبيد في فضائله عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلث القرآن " .

وأخرج ابن الضريس والطبراني في الأوسط وابن مردويه عن ابن عمر قال : " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم في سفر ، فقرأ في الركعة الأولى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وفي الثانية ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ فلما سلم قال : قرأت بكم ثلث القرآن وربعه " .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل وهو بتبوك فقال : يا محمد اشهد جنازة معاوية بن معاوية المزني ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل جبريل في سبعين ألفاً من الملائكة ، فوضع جناحه الأيمن على الجبال ، فتواضعت ووضع جناحه الأيسر على الأرضين فتواضعت حتى نظر إلى مكة والمدينة فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل والملائكة فلما فرغ قال : يا جبريل : ما بلغ معاوية بن معاوية المزني هذه المنزلة ؟ قال : بقراءته ﴿ قل هو الله أحد ﴾ قائماً وقاعداً وراكباً وماشياً .

وأخرج ابن الضريس عن سعيد بن المسيب قال : "كان رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له معاوية ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، وهو مريض ثقيل ، فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أيام ثم لقيه جبريل فقال : إن معاوية بن معاوية توفي ، فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيسرك أن أريك قبره ؟ قال : نعم ، فضرب بجناحه الأرض ، فلم يبق جبل إلا انخفض حتى أبدى الله قبره فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عن يمينه وصفوف الملائكة سبعين ألفاً حتى إذا فرغ من صلاته قال : يا جبريل بم نزل معاوية بن معاوية من الله بهذه المنزلة ؟ قال : ب ﴿ قل هو الله أحد ﴾ كان يقرأها قائماً وقاعداً وماشياً ونائماً ، ولقد كنت أخاف على أمتك حتى نزلت هذه السورة فيها " .

وأخرج الطبراني عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ آية الكرسي و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا الموت " .

وأخرج ابن النجار في تاريخ بغداد من طريق مجاشع بن عمرو أحد الكذابين عن يزيد الرقاشي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " جاءني جبريل في أحسن صورة ضاحكاً مستبشراً فقال : يا محمد العلي الأعلى يقرؤك السلام ، ويقول : إن لكل شيء نسباً ونسبتي ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فمن أتاني من أمتك قارئاً ب ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ألف مرة من دهره ألزمه داري واقامة عرشي وشفعته في سبعين ممن وجبت عقوبته ، ولولا أني آليت على نفسي ، كل نفس ذائقة الموت ، لما قبضت روحه " .

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن علي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من أراد سفراً فأخذ بعضادتي منزله فقرأ إحدى عشرة مرة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ كان الله له حارساً حتى يرجع " .

وأخرج ابن النجار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلى بعد

المغرب ركعتين قبل أن ينطق مع أحد يقرأ في الأولى بالحمد و ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفي الركعة الثانية بالحمد و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ خرج من ذنوبه كما تخرج الحية من سلخها " .

وأخرج ابن السني في عمل اليوم والليلة عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ بعد صلاة الجمعة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ [الفلق] و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ [الناس] سبع مرات أعاذه الله بها من السوء إلى الجمعة الأخرى " .

وأخرج الحافظ أبو محمد الحسن بن أحمد السمرقندي في فضائل ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن ، ومن قرأها عشر مرات بنى الله له قصرا في الجنة " فقال أبو بكر إذن نستكثر يا رسول الله ، فقال : " الله أكثر وأطيب " رددها مرتين .

وأخرج أيضاً عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن ، ومن قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مرتين فكأنما قرأ ثلثي القرآن ، ومن قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلاث مرات فكأنما قرأ جميع ما أنزل الله " .

وأخرج أيضاً عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مرة بورك عليه ، ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهل بيته ، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى أهل بيته وجيرانه ، ومن قرأها اثنتي عشرة مرة بنى الله له في الجنة اثني عشر قصراً . ومن قرأها عشرين مرة كان مع النبيين هكذا وضم الوسطى والتي تليها الابهام ، ومن قرأها عشرين مرة كان مع النبيين هكذا وضم الوسطى والتي تليها الابهام ، ومن قرأها مائة مرة غفر الله له ذنوب خمس وعشرين سنة إلا الدين والدم ، ومن قرأها مائتي مرة غفرت له ذنوب خمسين سنة ، ومن قرأها أربعمائة مرة كان له أجر أربعمائة شهيد كل عقر جواده وأهريق دمه ، ومن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له " .

وأخرج أيضاً عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مرة فكأنما قرأ ثلث القرآن ، ومن قرأها مرتين فكأنما قرأ ثلثي القرآن ، ومن قرأها ثلاثاً فكأنما قرأ القرآن ارتجالاً " .

وأخرج أيضاً عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد

﴿ ألف مرة كانت أحب إلى الله من ألف ملجمة مسرجة في سبيل الله " .

وأخرج أيضاً عن كعب الأحبار قال : ثلاثة ينزلون من الجنة حيث شاؤوا : الشهيد ورجل قرأ في كل يوم ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مائتي مرة .

وأخرج أيضاً عن كعب الأحبار قال : من واظب على قراءة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وآية الكرسي عشر مرات من ليل أو نهار استوجب رضوان الله الأكبر ، وكان مع أنبيائه ، وعصم من الشيطان .

(310/838)

وأخرج أيضاً من طريق دينار عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ألف مرة فقد اشترى نفسه من الله وهو من خاصة الله " .

وأخرج أيضاً من طريق نعيم عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلاثين مرة كتب الله له براءة من النار وأماناً من العذاب ، والأمان يوم الفزع الأكبر " .

وأخرج أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أتى منزله فقرأ ﴿ الحمد لله ﴾ [سورة الفاتحة] و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ نفى الله عنه الفقر ، وكثر

خير بيته حتى يفيض على جيرانه " .

وأخرج الطبراني أيضاً من طريق أبي بكر البردعي : حدثنا أبو زرعة وأبو حاتم قالا : حدثنا عيسى بن أبي فاطمة ، رازي ثقة ، قال : سمعت أنس بن مالك يقول : إذا نقر في الناقور اشتد غضب الرحمن فتنزل الملائكة فيأخذون بأقطار الأرض ، فلا يزالون يقرؤون ﴿ قل هو الله أحد ﴾ حتى يسكن غضبه .

وأخرج إبراهيم بن محمد الخيارجي في فوائده عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ألف مرة فقد اشترى نفسه من الله " .

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن كعب بن عجرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ في ليلة أو يوم ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلاث مرات كان مقدار القرآن " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ إحدى عشرة مرة بنى الله له قصراً في الجنة " فقال عمر : والله يا رسول الله إذن نستكثر من القصور ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فالله أمن وأفضل " أو قال : " أمن وأوسع " " .

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن عائشة " أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سرية ، فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم : ب ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " سلوه لأي شيء يصنع ذلك ؟ " فسألوه فقال : لأنها صفة الرحمن ، فانا أحب أن أقرأها . فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه فقال : " أخبروه أن الله تعالى يحبه " " .

وأخرج ابن الضريس عن الربيع بن خيثم قال : سورة من كتاب الله يراها الناس قصيرة وأراها عظيمة طويلة يحب الله محبها ليس لها خلط ، فأيكم قرأها فلا يجمعن إليها شيئاً استقلالاً بها فإنها تجزئه .

وأخرج ابن الضريس عن أنس قال : " قال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لي أخاً قد حبب إليه قراءة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فقال : " بشر أخاك بالجنة " " .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن ماجة وابن الضريس عن بريدة قال : " دخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد ويدي في يده ، فإذا رجل يصلي يقول : اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب " " .

وأخرج ابن الضريس عن الحسن قال : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مائتي مرة كان له من

الأجر عبادة خمسمائة سنة .

وأخرج الدارقطني في الأفراد والخطيب في تاريخه عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه ب ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ دبر كل صلاة مكتوبة عشر مرات أوجب الله له رضوانه ومغفرته " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن أبي غالب مولى خالد بن عبد الله قال : قال عمر ذات ليلة قبيل الصبح يا أبا غالب ألا تقوم فتصلي ، ولو تقرأ بثلث القرآن ، فقلت : قد دنا الصبح فكيف أقرأ بثلث القرآن فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن سورة الإخلاص ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن " .

وأخرج العقيلي عن رجاء الغنوي قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلاث مرار فكأنما قرأ القرآن أجمع " .

وأخرج ابن عساكر عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من صلى صلاة

الغداة ثم لم يتكلم حتى قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عشر مرات لم يدركه ذلك اليوم ذنب وأجير من الشيطان " .

وأخرج الديلمي بسند واه عن البراء بن عازب مرفوعاً : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مائة بعد صلاة الغداة قبل أن يكلم أحداً رفع له ذلك اليوم عمل خمسين صديقاً " .

وأخرج ابن عساكر عن علي أن النبي صلى الله عليه وسلم حين زوجه فاطمة دعا بماء فمجه ثم أدخله معه فرشه في جيبه وبين كتفيه وعوذه ب ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوّذتين .

وأخرج البيهقي في الشعب عن ابن عباس قال : من صلى ركعتين فقرأ فيهما ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلاثين مرة بنى الله له ألف قصر من ذهب في الجنة ، ومن قرأها في غير صلاة بنى الله له مائة قصر في الجنة ، ومن قرأها في صلاة كان أفضل من ذلك ، ومن قرأها إذا دخل إلى أهله أصاب أهله وجيرانه منها خير .

وأخرج أحمد عن عبد الله بن عمرو " أن أبا أيوب كان في مجلس وهو يقول : ألا يستطيع أحدكم أن يقوم بثلث القرآن كل ليلة ؟ قالوا : وهل يستطيع ذلك أحد ؟ قال : فإن ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلث القرآن ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسمع أبا أيوب فقال : صدق أبو أيوب " .

وأخرج ابن الضريس والبزار ومحمد بن نصر والطبراني بسند صحيح عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أيعجز أحدكم أن يقرأ كل ليلة ثلث القرآن ؟ قالوا : ومن يطيق ذلك ؟ قال : بلى ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل بثلث القرآن " .

وأخرج أحمد والطبراني وابن السني بسند ضعيف عن معاذ بن أنس الجهني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصر في الجنة فقال له عمر : إذاً نستكثر يا رسول الله . قال : " الله أكثر وأطيب " " .

وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه عن معاذ بن جبل قال : " غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك فلما كان ببعض المنازل صلى بنا صلاة الفجر فقرأ في أول ركعة بفاتحة الكتاب و ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وفي الثانية ب ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فلما سلم قال : ما قرأ رجل في صلاة بسورتين أبلغ منهما ولا أفضل " .

وأخرج محمد بن نصر والطبراني بسند جيد عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل بثلث القرآن " .

وأخرج أبو عبيد وأحمد والبخاري في التاريخ والترمذي وحسنه والنسائي وابن الضريس والبيهقي في الشعب عن أبي أيوب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ فلما رأى أنه قد شق عليهم قال : من قرأ ﴿ قل هو الله

أحد الله الصمد ﴾ في ليلة فقد قرأ ليلتئذ ثلث القرآن " .

وأخرج أحمد والطبراني عن أبي أمامة قال : " مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فقال : أوجب لهذا الجنة " .

وأخرج أبو عبيد وأحمد ومسلم وابن الضريس والنسائي عن أبي الدرداء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أيعجز أحدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن ؟ قالوا : نحن أضعف من ذاك . وأعجز ، قال : فإن الله جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فقال : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثلث القرآن " .

وأخرج مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والنسائي وابن الضريس والبيهقي في سننه " عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رجلاً يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن " " .

وأخرج أحمد والبخاري وابن الضريس عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : " أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ، فشق ذلك عليهم

وقالوا : أينا يطيق ذلك ؟ فقال : الله الواحد الصمد ثلث القرآن " .

وأخرج أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : " بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله ب ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : " والذي نفسي بيده إنها لتعدل نصف القرآن أو ثلثه " " .

وأخرج البيهقي في سننه من طريق أبي سعيد الخدري قال : " أخبرني قتادة بن النعمان أن رجلاً قام في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ السورة كلها ، يرددها لا يزيد عليها ، فلما أصبحنا أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إنها لتعدل ثلث القرآن " " .

وأخرج أحمد وأبو عبيد والنسائي وابن ماجة وابن الضريس عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ قل هو الله أحد ﴾ تعدل ثلث القرآن " .

وأخرج الطبراني في الصغير والبيهقي في الشعب بسند ضعيف عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ بعد صلاة الصبح اثني عشرة مرة فكأنما قرأ القرآن أربع مرات ، وكان أفضل أهل الأرض يومئذ إذا اتقى " .

وأخرج أحمد وابن الضريس والنسائي والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب بسند صحيح عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط : " أن رسول الله سئل عن ﴿ قل هو الله أحد ﴾ قال : ثلث القرآن أو تعدله " .

وأخرج سعيد بن منصور عن محمد بن المنكدر قال : "سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ويرتل فقال له : سل تعط" .

وأخرج سعيد بن منصور وابن الضريس عن علي قال : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ عشر مرار بعد الفجر وفي لفظ ، في دبر الغداة لم يلحق به ذلك اليوم ذنب ، وإن جهد الشيطان .

وأخرج سعيد بن منصور وابن الضريس عن ابن عباس قال : من صلى ركعتين بعد العشاء فقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وخمس عشرة مرة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ بنى الله له قصرين في الجنة يتراآهما أهل الجنة .

وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من صلى ركعتين بعد عشاء الآخرة يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وعشرين مرة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ بنى الله له قصرين في الجنة يتراآهما أهل الجنة" .

وأخرج سعيد بن منصور وابن الضريس عن ابن عباس قال : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مائتي مرة في أربع ركعات في كل ركعة خمسين مرة غفر الله له ذنوب مائة سنة خمسين

مستقبلة وخمسين متأخرة.

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ [سورة الفلق] و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ [سورة الناس] ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده. يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات.

وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد والطبراني عن عبد الله بن حبيب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "اقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوّذتين حين تصبح وحين تمسي ثلاثاً يكفيك من كل شيء".

وأخرج أحمد عن عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يا عقبة بن عامر ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم؟ قلت بلى جعلني الله فداءك، قال: فأقرأني ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و

﴿ قل أعود برب الناس ﴾ ثم قال : يا عقبة لا تنساهن ولا تبت ليلة حتى تقرأهن " .

وأخرج النسائي وابن مردويه والبزار بسند صحيح " عن عبد الله بن أنيس الأسلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على صدره ثم قال له : " قل ، فلم أدر ما أقول ، ثم قال : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ثم قال لي : قل ﴿ أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ﴾ حتى فرغت منها ، ثم قال لي : ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ حتى فرغت منها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا فتعوّذ فما تعوّذ المتعوّذون بمثلهن قط " " .

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الشعب عن علي قال : " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة يصلي فوضع يده على الأرض لدغته عقرب فتناولها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنعله فقتلها ، فلما انصرف قال : " لعن الله العقرب ما تدع مصلياً ولا غيره أو نبياً أو غيره " ثم دعا بملح وماء فجعله في إناء ، ثم جعل يصبه على إصبعه حيث لدغته ويمسحها ويعوذها بالمعوذتين ، وفي لفظ فجعل يمسح عليها ويقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة والبيهقي في الأسماء والصفات من طريق علي عن ابن عباس قال : الصمد السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والغني الذي قد كمل في غناه ، والجبار الذي قد كمل في جبروته ، والعالم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس كفو ، وليس كمثله شيء .

وأخرج ابن الضريس وأبو الشيخ في العظمة وابن جرير عن كعب قال : إن الله تعالى ذكره أسس السموات السبع والأرضين السبع على هذه السورة ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ وإن الله لم يكافئه أحد من خلقه . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور جـ 8 صـ 669. 682 ﴾

(318/838)

ومن فوائد ابن العربى فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ [وَقِيلَ] التَّوْحِيدُ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : رَوَى مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ مَقْطُوعًا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسَلًا أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَتَى رَهْطٌ مِنْ يَهُودَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ ، هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ .

فَمَنْ خَلَقَهُ ؟ فَغَضِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى انْتَقَعَ لَوْنُهُ ، ثُمَّ سَاوَرَهُمْ غَضَبًا لِرَبِّهِ ، فَجَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَكَّنَهُ ، فَقَالَ : خَفِّضْ عَلَيْك يَا مُحَمَّدُ ، وَجَاءَهُ مِنْ اللَّهِ بِجَوَابِ مَا سَأَلُوهُ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ السُّورَةَ ﴾ .

وَفِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ بَاطِلَةٌ هَذَا أَمْثَلُهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ فِي فَضْلِهَا ، وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، عَنْ مَالِكٍ وَغَيْرِهِ ﴿ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يُرَدِّدُهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالُّهَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ﴾ ، فَهَذَا فَضْلُهَا ، وَقَدْ قَرَّرْنَاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ وَالْمُشْكِلَيْنِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ رُوِيَ أَنَّ ﴿ رَجُلًا كَانَ يَؤُمُّ قَوْمَهُ ، فَيَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ قَوْمُهُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرْسَلَ إلَيْهِ فَقَالَ : إنِّي أُحِبُّهَا ، فَقَالَ لَهُ : حُبُّك إيَّاهَا أَدْخَلَك الْجَنَّةَ ﴾ .

فَكَانَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ تَكْرَارُ سُورَةٍ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ .

وَقَدْ رَأَيْت عَلَى بَابِ الْأَسْبَاطِ فِيمَا يَقْرُبُ مِنْهُ إمَامًا مِنْ جُمْلَةِ الثَّمَانِيَةِ وَالْعِشْرِينَ إمَامًا كَانَ فِيهِ يُصَلِّي التَّرَاوِيحَ فِي رَمَضَانَ بِالْأَتْرَاكِ ، فَيَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ ، وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، حَتَّى يُتِمَّ التَّرَاوِيحَ تَخْفِيفًا عَلَيْهِمْ وَرَغْبَةً فِي فَضْلِهَا .

وَلَيْسَ مِنْ السُّنَّةِ خَتْمُ الْقُرْآنِ فِي رَمَضَانَ ، حَسْبَمَا ذَكَرْنَاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ وَالْمَسَائِلِ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(320/838)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الإخلاص

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1)

قوله: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ : في "هو" وجهان، أحدهما: أنه ضميرٌ عائدٌ على ما يُفْهَمُ من السياقِ، فإنه يُرْوى في الأسباب: أنَّهم قالوا لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم: صِفْ لنا ربَّك وانْسُبْه. وقيل: قالوا له: أمِنْ نُحاس هو أم مِنْ حديدٍ؟ فنزَلَتْ. وحينئذٍ يجوزُ أَنْ يكونَ "الله" مبتدأً، و"أَحَدٌ" خبرُه. والجملةُ خبرُ الأولُ. ويجوزُ أَنْ يكونَ "اللَّهُ" بدلاً، و"أحدٌ" الخبرَ. ويجوزُ أَنْ يكونَ "اللَّهُ" خبراً أوَّلَ، و"أحدٌ" خبراً ثانياً. ويجوزُ أَنْ يكونَ "أحدٌ" خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو أحدٌ. والثاني: أنَّه ضميرُ الشأنِ لأنه موضعُ تعظيمٍ، والجلمةُ بعدَه خبرُه مفسِّرةٌ.

وهمزةُ "أحد" بدلٌ من واوٍ، لأنَّه من الوَحْدة، وإبدالُ الهمزةِ من الواوِ المفتوحةِ. وقيل: منه "امرأةٌ أَناة" من الونى وهو الفُتورُ. وتقدَّم الفرقُ بين "أحد" هذا و"أحد" المرادِ به العمومُ، فإنَّ همزةُ ذاك أصلٌ بنفسِها. ونَقَلَ أبو البقاءِ أنَّ همزةَ "أحد" هذا غيرُ مقلوبةٍ، بل أصلٌ بنفسِها كالمرادِ به العمومُ، والمعروفُ الأولُ. وفَرَّق ثعلب بين "واحد" وبين "أحد" بأنَّ الواحدَ يدخُلُه العَدُّ والجمعُ والاثنان، و"أحَد" لا يَدْخُلُه ذلك. ويقال: اللَّهُ أحدٌ، ولا يقال: زيدٌ أحدٌ؛ لأنَّ للَّهِ تعالى هذه الخصوصيةَ، وزَيْدٌ له حالاتٌ شتى. وردَّ عليه الشيخُ: بأنَّه يُقال: أحد وعشرونَ ونحوه فقد دخلَه العددُ" انتهى. وقال مكي: "إنَّ أَحَداً أصلُه وَأَحَد، فأُبْدِلَتِ الواوُ همزةً فاجتمع ألفان، لأنَّ الهمزةَ تُشْبه الألفَ، فحُذِفَتْ إحداهما تخفيفاً".

وقرأ عبد الله وأُبَيٌّ ﴿ اللَّهُ أحدٌ ﴾ دونَ " قُلْ " وقرأ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم " أحدٌ " بغيرِ " قل هو " وقرأ الأعمش : " قل هو اللَّهُ الواحد " .

وقرأ العامَّةُ بتنوين " أحدٌ " وهو الأصلُ . وزيد بن علي وأبان ابن عثمان وابن أبي إسحاق والحسن وأبو السَّمَّال وأبو عمروٍ في روايةٍ في عددٍ كثيرٍ بحذف التنوين لالتقاء الساكنين كقولِه :

4675 عمرُو الذي هَشَمَ الثَّريدَ لقومِه . . . ورجالُ مكةَ مُسْنِتُون عِجافُ

وقال آخر :

4676 فألْفَيْتُه غيرَ مُسْتَعْتِبٍ . . . ولا ذاكرَ اللَّهَ إلاَّ قليلا

اللَّهُ الصَّمَدُ (2)

قوله : ﴿ الصمد ﴾ : فَعَل بمعنى مَفْعُول كالقَبَضِ والنَّقَضِ . وهو السَّيِّدُ الذي يُصْمَدُ إليه في الحوائجِ ، أي : يُقْصَدُ ولا يَقْدِرُ على قضائِها إلاَّ هو . وأنشد :

4677 ألا بَكَّرَ النَّاعي بخَيْرِ بني أسدْ . . . بعَمْرِو بن مسعودٍ وبالسَّيِّد الصَّمَدْ

وقال الآخر :

4678 عَلَوْتُه بحُسامٍ ثم قُلْتُ له . . . خُذْها حُذَيْفُ فأنتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وقيل : الصَّمَدُ : هو الذي لا جَوْفَ له ، ومنه قوله :

4679 شِهابُ حُروبٍ لا تَزال جيادُه . . . عوابسَ يَعْلُكْنَ الشَّكِيْمَ المُصَمَّدا

وقال ابن كعب : تفسيرُه ما بعده مِنْ قولِه : " لم يَلِدْ ولم يُوْلَدْ " وهذا يُشْبِهُ ما قالوه في تفسير الهَلوع . والأحسنُ في هذه الجملة أَنْ تكون مستقلةً بفائدةٍ هذا الخبرِ . ويجوز أَنْ يكونَ " الصَّمَدُ " صفةً . والخبرُ في الجملةِ بعده ، كذا قيل : وهو ضعيفٌ ، من حيث السِّياقُ ، فإنَّ السِّياقَ يَقْتَضي الاستقلالَ بأخبارِ كلِّ جملةٍ .

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)

(322/838)

قوله : { كُفُواً أَحَدٌ } : في نصبه وجهان ، أحدُهما : أنه خبرُ " يكنْ " و " أحدٌ " اسمُها و " له " متعلِّقٌ بالخبر ، اي : ولم يكنْ أحدٌ كُفُواً له . وقد رَدَّ المبردُ على سيبويهِ بهذه الآيةِ ، من حيث إنه يزعمُ أنه إذا تَقَدَّمَ الظرفُ كان هو الخبرَ ، وهنا لم يَجْعَلْه خبراً مع تقدُّمِه .

وقد رُدَّ على المبردِ بوجهَيْن ، أحدُهما : أنَّ سيبويهِ لم يُحَتِّمْ ذلك بل جَوَّزه . والثاني : أنَّا لا نُسَلِّم أن الظرفَ هنا ليس بخبرٍ بل هو خبرٌ ، ونصبُ " كُفُواً " على الحال على ما سيأتي

بيانُه . وقال الزمخشري : " الكلامُ العربيُّ الفصيحُ أَنْ يؤخَّرَ الظرفُ الذي هو لَغْوٌ غيرُ مستقِرّ ولا يُقَدَّمَ . وقد نصَّ سيبويه في "كتابِه" على ذلك ، فما بالُه مُقَدَّماً في أَفْصَحِ كلامٍ وأَعْرَبِه ؟ قلت : هذا الكلامُ إنما سِيْقَ لنَفْي المكافأةِ عن ذاتِ الباري تعالى ، وهذا المعنى مَصَبُّه ومَرْكَزُه هو هذا الظرفُ ، فكان لذلك أهمَّ شيءٍ وأَعْناه وأحقَّه بالتقديمِ وأَحْراه " .

والثاني : أَنْ يُنْصَبَ على الحالِ مِنْ " أحد " لأنَّه كان صفتَه فلمَّا تقدَّم عليه نُصِب حالاً ، و "له" هو الخبر . قاله مكي وأبو البقاء وغيرُهما . ويجوز أَنْ يكونَ حالاً من الضمير المستكِنّ في الجارِّ لوقوعِه خبراً . قال الشيخ بعد أَنْ حكى كلامَ الزمخشري ومكي : " وهذه الجملةُ ليسَتْ من هذا الباب وذلك أنَّ قولَه : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ ليس الجارُّ والمجرورُ فيه تامَّاً ، إنما ناقصٌ لا يَصْلُحُ أَنْ يكونَ خبراً لـ "كان" بل هو متعلِّقٌ بـ "كُفُواً" وقُدِّمَ عليه . التقدير : ولم يكنْ أحدٌ مكافِئاً له ، فهو في معنى المفعولِ متعلِّقٌ بـ "كُفُواً" وتَقَدَّمَ على "كُفُواً" للاهتمامِ به ، إذ فيه ضميرُ الباري تعالى ، وتوسَّطَ الخبرُ وإنْ كان الأصلُ التأخيرَ ؛ لأنَّ تأخيرَ الاسمِ هو فاصلةٌ فحَسُنَ ذلك .

وعلى هذا الذي قَرَّرْناه يَبْطُل إعرابُ مكي وغيرِه أنَّ " له " الخبرُ ، و " كُفُواً " حالٌ مِنْ " أحد " لأنه ظرفٌ ناقصٌ لا يَصْلُح أَنْ يكونَ خبراً . وبذلك يَبْطُل سؤالُ الزمخشريِّ وجوابُه . وسيبويه إنما تكلَّم في الظرفِ الذي يَصْلُحُ أَنْ يكونَ خبراً وأنْ لا يكون . قال سيبويه : " وتقول : ما كان فيها أحدٌ خيرٌ منك ، وما كان [أحدٌ] مثلُك فيها ، وليس أحدٌ فيها خيرٌ منك ، إذا جعلت " فيها " : مستقراً ، ولم تجعلْه على قولك : فيها زيدٌ قائمٌ أَجْرَيْتَ الصفةَ على الاسم . فإن جَعَلْتَه على " فيها زيدٌ قائمٌ " نَصَبْتَ فتقول : ما كان فيها أحدٌ خيراً منك ، وما كان أحدٌ خيراً منك فيها ، إلاَّ أنَّكَ إذا أَرَدْتَ الإِلْغاءَ فلكما أَخَّرْتَ المُلْغَى فهو أَحْسَنُ ، وإذا أَرَدْتَ أَنْ يكونَ مستقرّاً فكلما قَدَّمْتَه كان أحسنَ ، والتقديمُ والتأخيرُ والإِلغاءُ والاستقرارُ عربيٌّ جيدٌ كثيرٌ قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ وقال الشاعر :

4680 ما دامَ فيهنَّ فَصِيْلٌ حَيَّاً . . . انتهى كلامُ سيبويه . قال الشيخ : " فأنت ترى كلامَه وتمثيلَه بالظرف الذي يَصْلُحُ أَنْ يكونَ خبراً . ومعنى قولِه " مستقرّاً " أي : خبراً للمبتدأ أو لكان . فإن قلتَ : فقد مَثَّل بالآية . قلت : هذا أوقع مكيّاً والزمخشريَّ وغيرَهما فيما وقعوا فيه ، وإنما أراد سيبويه أنَّ الظرفَ التامَّ وهو في قولِه :

ما دامَ فيهنّ فَصِيلٌ حَيّاً . . . أُجْري فَضْلةً لا خبراً كما أنّ " له " في الآيةِ أُجْري فَضْلَةً فجعلَ الظرفَ القابلَ أن يكونَ خبراً كالظرفِ الناقصِ في كونِه لم يُستعمل خبراً . ولا يَشُكُّ مَنْ له ذِهْنٌ صحيحٌ أنه لا ينعقدُ كلامٌ مِنْ " له أحد " بل لو تأخَّرَ " كُفُو " وارتفع على الصفةِ وقد جعَل " له " خبراً لم ينعقِدْ منه كلامٌ . بل أنت ترى أنّ النفيَ لم يتسلَّطْ إلاَّ على الخبرِ الذي هو " كُفُواً " والمعنى : لم يكنْ أحدٌ مكافِئَه " انتهى ما قاله الشيخ .

وقوله : " ولا يَشُكُّ أحدٌ " إلى آخره تَهْويلٌ على الناظرِ . وإلاَّ فقولُه : " هذا الظرفُ ناقصٌ " ممنوعٌ ؛ لأنَّ الظرفَ الناقصَ عبارةٌ عَمَّا لم يكنْ في الإِخبارِ به فائدةٌ ، كالمقطوعِ عن الإِضافة ، ونحوِ " في دارٍ رجلٌ " وقد نَقَلَ عن سيبويه الأمثلَةَ المتقدمةَ نحو : " ما كان فيها أحدٌ خيراً منك " ، وما الفرق بين هذا وبين الآيةِ الكريمة ؟ وكيف يقول هذا وقد قال سيبويهِ في آخرِ كلامِهِ : " والتقديمُ والتأخيرُ والإِلغاء والاستقرارُ عربيٌّ جيدٌ كثيرٌ " ؟

وقرأ العامَّةُ بضمِّ الكافِ والفاء . وسَهَّل الهمزةَ الأعرجُ وشيبةُ ونافعٌ في روايةٍ . وأسكنَ الفاءَ حمزةُ ، وأبدل الهمزةَ واواً وقفاً خاصة . وأبدلها حفصٌ واواً مطلقاً . والباقون بالهمزِ مطلقاً . وقد تقدَّم الكلامُ على هذا في أوائل البقرةِ في قوله : ﴿ هُزُواً ﴾ [البقرة : 67] .

وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس " كِفاءٌ " بالكسر والمدِ ، أي : لا مِثْلَ له .

وأُنشِدَ للنابغة :

4681 لا تَقْذِفَنّي بِرُكْنٍ لا كِفاءَ له . . . .

ونافعٌ في رواية "كِفا" بالكسر وفتح الفاء مِنْ غير مَدّ ، كأنه نَقَلَ حركةَ الهمزة وحَذَفَها .

والكُفْءُ : النظيرُ . وهذا كفْءٌ لك ، أي : نظيرُكَ والاسم الكَفاءة بالفتح . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ الدر المصون حـ 11 صـ 149.156 ﴾

(325/838)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى الأحد)

وهى كلمة تستعمل على ضربين .

أَحدهما فى النفى فقط ؛ والثانى فى الإِثبات .

فأَمّا المختصّ بالنّفى فلاستغراق جنس الناطقين .

ويتناول القليل ، والكثير ، على طريق الاجتماع ، والافتراق ، نحو ما فى الدّار أَحد أَى لا

واحدٌ ، ولا اثنان فصاعداً ، لا مجتمعين ولا مفترقين .

ولهذا المعنى لا يضحّ استعماله فى الإِثبات ؛ لأَنّ نفى المتضادّين يضحّ ، وإِثباتهما لا يصحّ .

فلو قال : فى الدّار أَحد لكان فيه إِثبات واحدٍ منفرد ، مع إِثبات ما فوق الواحد مجتَمعين ، ومتفرقين ، وذلك ظاهر الإِحالة .

ولِتناول ذلك ما فوق الواحد يصحّ أَن يقال : ما مِن أَحد فاضلين ، كقوله : ﴿ فَمَا مِنكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ .

وأَمّا المستعمل فى الإِثبات فعلى ثلاثة أَوجه .

الأَوّل : فى الواحد المضموم إِلى العشرات ؛ نحو أَحد عشر ، وأَحد وعشرين .

والثانى أَن يستعمل مضافاً إِليه ، كقوله تعالى : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً ﴾ ، وقولهم : يوم الأَحد أَى يوم الأَوّل ، ويوم الاثنين .

الثالث : أَن يستعمل مطلقاً وصفاً ، وليس ذلك إِلاَّ فى وصف الله تعالى .

وأَصله وَحَد ، أَبدلوا الواو همزة ، على عادتهم فى الواوات الواقعة فى أَوائل الكلم ؛ كما فى أُجوه ووجوه ، وإِشاح ووِشاح ، وامرأَة أَناة ووَناة .

وورد فى النصّ على عشرة أَوجه :

الأَوّل : بمعنى سيّد المرسلين صلَّى الله عليه وسلَّم : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ ﴾ ﴿ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ﴾ يعنى أَحمد .

الثانى : بمعنى بِلاَل بن رَبَاح : ﴿ وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ أَى لبلال .

الثالث : بمعنى يمليخا أحد فتية الكهف : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ ﴾ .

الرّابع : بمعنى زيد بن حارثة مولى النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ .

(326/838)

الخامس : بمعنى فَرْد من الخَلْق من أَهل الأَرض ، والسّماءِ ، من المَلَك ، والإِنس والجنّ والشيطان ﴿ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ .

السّادس : بمعنى دقيانوس ﴿ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴾ .

السّابع : بمعنى إِبليس : ﴿ وَلَن نُّشرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً ﴾ .

الثامن : بمعنى ساقى مالك بن الرّيان : ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً ﴾ .

التّاسع : بمعنى الصّنم ، والوثَن : ﴿ وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ ، ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ ﴾ .

العاشر : بمعنى الحقّ الواحد ، الصّمد تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 2 صـ 91.93 ﴾

(327/838)

من لطائف الإمام القشيري فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الإخلاص

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " كلمة عزيزة عز لسان ذكرها ، وأعز منه قلب عرفها وأعز من هذا روح أحبها ، وأعز من هذا سر شهدها .

ليس كل من قصدها وجدها ، ولا كل من وجدها بقي معها .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

لَمَّا قال المشركون : أُنسُبْ لنا ربَّكَ : أنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

فمعنى " هو " أي : الذي سألُتم عنه " هو " الله . ومعنى " أحد " أي : هو أحدٌ .

ويقال : " هو " مبتدأ ، " والله " خبره و " أحد " خبرٌ ثانٍ كقولهم : هذا حلوٌ حامض . ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ .

﴿ الصمد ﴾ : السيِّدُ الذي يُصْمَدُ إليه الحوائج ، ويُقْصَدَ إليه في المطالب .

ويقال : الكاملُ في استحقاق صفات المدح .

ويرجِّح تحقيقُ قولِ مَنْ قال : إنه الذي لا جوفَ له إلى أنه واحدٌ لا (. . .) في ذاته .

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ .

ليس بوالدٍ ولا مولود .

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ .

تقديره لم يكن أحدٌ كفواً له .

و" أحد " أصله وَحْدٌ ، ووحِدٌ وواحد بمعنًى ، وكونه واحداً : أنه لا قسيمَ له ولا شبيهَ له ولا شريكَ له .

ويقال : السورة بعضها تفسيرٌ لبعض ؛ مَنْ هو الله ؟ هو الله . مَنْ الله ؟ الأحد ، مَنْ الأحد ؟ الصمد ، مَنْ الصمد ؟ الذي لم يلد ولم يولد ، مَنْ الذي لم يلد ولم يولَد ؟ الذي لم يكن له كفواً أحد .

ويقال : كاشَفَ الأسرارَ بقوله : " هو " . وكاشَفَ الأرواحَ بقوله : " الله " وكاشَفَ القلوبَ بقوله : " أحد " . وكاشَفَ نفوسَ المؤمنين بباقي السورة .

ويقال : كاشَفَ الوالهين بقوله : " هو " ، والموحِّدين بقوله : " الله " والعارفين بقوله : " أحد " والعلماء بقوله : " الصمد " ، والعقلاء بقوله : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ . إلى آخره .

ويقال : لمَّا بسطوا لسانَ الذمِّ في الله أمرَ نبيَّنا بأنْ يَرُدَّ عليهم فقال : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ .

أي ذُبَّ عني ما قالوا ، فأنت أولى بذلك . وحينما بسطوا لسان الذمِّ في النبيِّ صلى الله عليه وسلم تولَّى الحقُّ الردَّ عليهم . فقال : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : 1 ، 2] وقال : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴾ [النجم : 1 2] أي أنا أذبُّ عنك ؛ فأنا أولى بذلك منك .

ويقال : خاطَبَ الذين هم خاص الخواص بقوله : " هو " فاستقلوا ، ثم زاد لمن نزل عنهم فقال : " الله " ، ثم زاد في البيان لمن نزل عنهم .

فقال : " أحدٌ " ثم لمن نزل عنهم فقال : " الصمد " .

ويقال : الصمدُ الذي ليس عند الخَلْقِ منه إلا الاسم والصفة .

ويقال : الصمدُ الذي تقدّس عن إحاطةِ عِلْمِ المخلوقِ به وعن إدراكِ بَصَرِهم له ، وعن إشرافِ معارفهم عليه .

ويقال : تقدَّسَ بصمديته عن وقوف المعارف عليه .

ويقال : تنزَّه عن وقوف العقول عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 784.782 ﴾

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة الإخلاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)

الإعراب :

(اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ ثان " 1 " ، (أحد) خبر للمبتدأ (اللّه) " 2 " ، (له) متعلّق بخبر يكن : (كفوا) .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " هو اللّه أحد . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " اللّه أحد . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ هو .

وجملة : " اللّه الصمد . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ هو " 3 " .

وجملة : " لم يلد . . . " في محلّ رفع خبر ثالث للمبتدأ هو " 4 " .

وجملة : " لم يولد . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لم يلد .

وجملة : " لم يكن له كفوا أحد " في محلّ رفع معطوفة على جملة لم يلد .

الصرف :

(الصمد) ، صفة مشبّهة وزنه فعل بفتحتين بمعنى مفعول أي

---

(1) إذا كان الضمير (هو) ضمير الشأن . . أو خبر للمبتدأ (هو) إذا كان الضمير يعود على الإله المعبود الذي سئل عنه الرسول عليه السّلام . [. . . . . .]

(2) أو خبر ثان للمبتدأ هو .

(3 ، 4) أو استئنافيّة في حيّز القول .

المقصود في الحوائج .

(كفوا) ، اسم بمعنى المماثل ، وزنه فعل بضمّتين ، والواو مخفّفة من الهمزة .

البلاغة

1 - الإيجاز : في قوله تعالى " هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ " :

اشتملت هذه الآية على اسمين من أسماء اللّه تعالى ، يتضمنان جميع أوصاف الكمال ، وهما الأحد والصمد ، لأنهما يدلان على أحدية الذات المقدسة ، الموصوفة بجميع أوصاف الكمال . وبيان ذلك ، أن الأحد يشعر بوجوده الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره ، والصمد يشعر بجميع أوصاف الكمال ، لأنه انتهى إليه سؤدده ، فكان مرجع الطلب منه

وإليه . ولا يتم ذلك على وجه التحقيق إلا لمن حاز جميع صفات الكمال ، وذلك لا يصلح إلا لله تعالى .

2 – التقديم : في قوله تعالى " وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ " .

حيث قدّم الظرف ، والكلام العربي الفصيح أن يؤخر ولا يقدم . فما باله مقدّما في أفصح الكلام وأعربه والسبب في ذلك أن الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه ، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف ، فكان لذلك أهم شيء وأعناه ، وأحقه بالتقدم وأحراه .

الفوائد :

- فضل سورة الإخلاص :

عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه : أن رجلا سمع رجلا يقرأ : (قل هو اللّه أحد) فلما أصبح ، جاء إلى النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) ، فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقالّها ، فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) : والذي نفسي بيده ، إنها لتعدل ثلث القرآن وفي رواية قال : قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) لأصحابه : أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ، فشق ذلك عليهم فقالوا : أينا يطيق ذلك ؟ فقال : (قل هو اللّه أحد) ثلث القرآن .

عن أبي الدرداء أن النبي (صلّى اللّه عليه وسلّم) . قال : إن اللّه جزأ القرآن ثلاثة أجزاء ،

فجعل (قل هو اللّه أحد) جزءا من القرآن. انتهى انتهى. ا هـ ﴿الجدول حـ 30 صـ 426.425﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(112) سورة الإخلاص

مكيّة وآياتها أربع

[سورة الإخلاص (112): الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)

اللغة:

(أَحَدٌ) تقدم القول فيه ونضيف إليه ما أورده ابن خالويه وهو كلام لطيف قال: " والأصل في أحد وحد أي واحد فانقلبت الواو ألفا وليس في كلام العرب واو قلبت همزة وهي مفتوحة إلا حرفان أحد وقولهم امرأة أناة أي رزان لأن الواو إنما تستثقل عليها الكسرة والضمة فأما الفتحة فلا تستثقل وهذان الحرفان شاذّان وزاد ابن دريد ثالثا: إن المال إذا

زكّي ذهبت أبلته أي وبلته " قلت : قال أبو عبيدة أراد وبلته أي فساده وثقله من قولهم كلأ

وبيل أي لا يمرئ الراعية ثم قال : " وزاد محمد بن القاسم رابعا : واحد آلاء الله ألى

والأصل ولى من أولاه الله معروفا فإن جمعت بين واوين قلبتها همزة وإن كان مفتوحة مثل

قولك في فوعل من وعد أوعد وكان الأصل ووعد فقلبوا الأولى همزة كراهية لاجتماع

واوين " .

(الصَّمَدُ) المقصود في الحوائج فهو فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض وقيل الصمد

هو الذي لا جوف له وفي القاموس :

" والصمد بالتحريك السيد لأنه يقصد والدائم " وعبارة ابن خالويه " واختلف الناس في

تفسير الصمد فأجود ما قيل في الصمد : السيد الذي قد انتهى سؤدده ويصمد إليه الناس

في حوائجهم فهو قصد الناس والخلائق مفتقرون إلى رحمته وأنشد :

ألا بكر الناعي بخيري بني أسد بعمرو بن مسعود وبالسيد الصّمد

وقال آخرون : الصمد الذي لا يطعم والصمد الذي لا يخرج منه شيء :

من كان ذا خوف يخاف من الردى فإن خوفي صمد مصمت

والصمد الباقي بعد فناء خلقه " وفي البخاري : " باب قوله " اللّه الصمد " والعرب تسمّي أشرافها الصمد قال أبو وائل : هو السيد الذي انتهى سؤدده " وفي العيني : أشار بهذا إلى أن المعنى الصمد عند العرب الشرف ولهذا يسمّون رؤساءهم الأشراف بالصمد ، وعن ابن عباس : هو السيد الذي قد تكمل بأنواع الشرف والسؤدد وقيل هو السيد المقصود في الحوائج .

(كُفُواً) وكفيئًا على وزن فعيل وكفاء بالكسر على وزن فعال بمعنى واحد والكفء المثل والنظير وقال أبو حيان : بضم الكاف وكسرها وفتحها مع سكون الفاء وبضم الكاف مع ضم الفاء وقرأ حمزة وحفص بضم الكاف وهمز حمزة وأبدلها حفص واوا وباقي السبعة بضمها والهمز ، وسهّل الهمزة الأعرج وأبو جعفر وشيبة ونافع وفي رواية عن نافع كفاء بكسر الكاف وفتح الفاء والمد .

الإعراب :

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت يا محمد وهو فيه وجهان : 1- أنه ضمير الشأن لأنه موضع تعظيم كأنه قيل الشأن هو وهو أن اللّه واحد لا ثاني له والجملة

بعده خبر مفسّرة له 2- أنه ضمير عائد على ما يفهم من السياق لأنه يروى في الأسباب التي

دعت إلى نزولها أنهم قالوا صف لنا ربك وانسبه وقيل قالوا له أمن نحاس هو أم من حديد

فنزلت وحينئذ يجوز أن يكون اللّه مبتدأ وأحد خبره والجملة خبر الأول ويجوز أن يكون

أحد خبر مبتدأ محذوف أي هو أحد ، وعبارة الزمخشري " هو ضمير الشأن كقولك هو

زيد منطلق كأنه قيل : الشأن هذا وهو أن اللّه واحد لا ثاني له فإن قلت ما محل هو ؟ قلت

الرفع على الابتداء والخبر الجملة فإن قلت فالجملة الواقعة خبرا لا بدّ فيها من راجع إلى

المبتدأ فأين الراجع قلت : حكم هذه الجملة حكم المفرد في قولك زيد غلامك في أنه هو

المبتدأ في المعنى وذلك أن قوله الله أحد هو الشأن الذي هو عبارة عنه وليس كذلك زيد

أبوه منطلق فإن زيدا والجملة يدلّان على معنيين مختلفين فلا بدّ مما يصل إليهما " وأحد بدل

من قوله اللّه أو على هو أحد أو خبر ثان (اللَّهُ الصَّمَدُ) مبتدأ وخبر (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ

لَهُ كُفُواً أَحَدٌ) ارتبطت هذه الجمل الثلاث بالواو دون الثلاث الأولى لأن قوله اللّه الصمد

محقق ومقرر لما قبله وكذلك ترك العطف في قوله لم يلد لأنه مؤكد للصمدية لأن الغنى عن كل

شيء المحتاج إليه كل ما سواه لا يكون والدا ولا مولودا ، وقد أشار صاحب الجوهر

المكنون إلى مواضع الفصل بقوله :

الفصل ترك عطف جملة أتت من بعد أخرى عكس وصل قد ثبت

فافصل لدى التوكيد والإبدال لنكتة ونيّة السؤال

وعدم التشريك في حكم جرى أو اختلاف طلبا وخبرا

وفقد جامع ومع إيهام عطف سوى المقصود في الكلام

(334/838)

و وصل بين الثلاث المتأخرة لأنها سيقت لغرض ومعنى واحد وهو نفي المماثلة والمناسبة عنه تعالى بوجه من الوجوه ، قال صاحب الجوهر المكنون :

وصل لدى التشريك في الإعراب وقصد رفع اللّبس في الجواب

وفي اتفاق مع الاتصال في عقل أو في وهم أو خيال

ولم حرف نفي وقلب وجزم ويلد فعل مضارع مجزوم بلم ، ولم يولد عطف عليه ، ولم عطف ويكن فعل مضارع مجزوم بلم وله حال أو متعلقان بكفوا وكفوا خبر يكن المقدم وأحد اسمها المؤخر ، وفيما يلي مناظرة ممتعة بين الزمخشري وأبي حيان حول تقديم له ، قال الزمخشري : " فإن قلت الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم وقد نصّ سيبويه على ذلك في كتابه فما باله مقدما في أفصح الكلام وأعربه قلت : هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه وتعالى وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهم شيء وأغناه ، وأحقّه بالتقديم وأحراه " وقال أبو حيان : "

هذه الجملة ليست من هذا الباب وذلك أن قوله ولم يكن له كفوا أحد ليس الجار والمجرور فيه تاما إنما هو ناقص لا يصلح أن يكون خبرا لكان بل هو متعلق بكفوا وقدم عليه فالتقدير ولم يكن أحد كفوا له أي مكافئه فهو في معنى المفعول متعلق بكفوا وتقدم على كفوا للاهتمام به إذ فيه ضمير البارئ سبحانه وتوسط الخبر وإن كان الأصل التأخير لأن تأخر الاسم هو فاصلة فحسن ذلك وعلى هذا الذي قررنا يبطل إعراب مكّي وغيره أن له الخبر وكفوا حال من أحد لأنه ظرف ناقص لا يصلح أن يكون خبرا ويبطل سؤال الزمخشري وجوابه وسيبويه إنما تكلم في الظرف الذي يصلح أن يكون خبرا ويصلح أن

يكون غير خبر، قال سيبويه: وتقول ما كان فيها أحد خير منك وما كان أحد مثلك فيها وليس فيها أحد خير منك إذا جعلت فيها مستقرا ولم تجعله على قولك زيد قائم أجريت الصفة على الاسم فإن جعلته على فيها زيد قائم نصبت فتقول ما كان فيها أحد خيرا منك وما كان أحد خيرا منك فيها إلا أنك إذا أردت الإلغاء فكلما أخّرت الملغى كان أحسن وإذا أردت أن يكون مستقرا فكلما قدّمته كان أحسن والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير قال تعالى " ولم يكن له كفوا أحد " وقال الشاعر : " ما دام

فيهنّ فصيل حيّا " انتهى ، وما نقلناه ملخصا هو بألفاظ سيبويه فأنت ترى كلامه وتمثيله بالظرف الذي يصلح أن يكون خبرا ، ومعنى قوله مستقرا أي خبرا للمبتدأ ولكان ، فإن قلت فقد مثّل بالآية الكريمة قلت : هذا الذي أوقع مكيا والزمخشري وغيرهما فيما وقعوا فيه وإنما أراد سيبويه أن الظرف التام وهو في قوله : ما دام فيهنّ فصيل حيّا أجري فضلة لا خبرا كما أن له في الآية أجري فضلة فجعل الظرف القابل أن يكون خبرا كالظرف الناقص في كونه لم يستعمل خبرا ولا يشك من له ذهن صحيح أنه لا ينعقد من قوله : ولم يكن له أحد بل لو تأخر كفوا وارتفع على الصفة وجعل له خبرا لم ينعقد منه كلام بل أنت ترى أن النفي لم يتسلط إلا على الخبر الذي هو كفوا وله متعلق به والمعنى ولم يكن له أحد مكافئه " هذا وقد أورد ابن المنير بهذا الصدد نكتة عن سيبويه تدل على ألمعية هذا الرجل وثقوب ذهنه قال : " نقل عن سيبويه أن سمع بعض الجفاة من العرب يقرأ ولم يكن أحد كفوا له وجرى هذا الجلف على عادته فجفا طبعه عن لطف المعنى الذي لأجله اقتضى تقديم الظرف مع الخبر على الاسم وذلك أن الغرض الذي سيقت له الآية نفي المكافأة والمساواة عن ذات اللّه تعالى فكان تقديم المكافأة المقصود بأن يسلب عنه أولى ثم لما قدّمت لتسلب ذكر معها الظرف ليبيّن الذات المقدسة بسلب المكافأة " .

البلاغة :

وأبرز ما تتميز به سورة الإخلاص هو الإيجاز وقد تقدمت أمثلة منه وسنحاول الآن جلاء الأغراض الكامنة في إيجازها وحصر متنها وتقارب طرفيها ، وسنحاول أن نبسط ذلك بسطا يوضّح المقصود ويدرك به الهدف المنشود :

1- اشتملت هذه السورة على اسمين من أسماء اللّه تعالى يتضمنان جميع أوصاف الكمال وهما الأحد والصمد لأنهما يدلان على أحدية الذات المقدسة الموصوفة بجميع أوصاف الكمال وبيان ذلك أن الأحد يشعر بوجوده الخاص الذي لا يشاركه فيه غيره والصمد يشعر بجميع أوصاف الكمال لأنه الذي انتهى إليه سؤدده فكان مرجع الطلب منه وإليه ولا يتم ذلك على وجه التحقيق إلا لمن حاز جميع صفات الكمال وذلك لا يصلح إلا للّه تعالى .

2- تضمنت توجيه الاعتقاد وصدق المعرفة وما يجب إثباته للّه من الأحدية المنافية لمطلق الشركة والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه نقص .

3- نفي الولد والوالد المقرر لكمال المعنى .

4- نفي الكفء المتضمن لنفي الشبيه والنظير .

5- قالوا : سورة الإخلاص ثلث القرآن لأن القرآن خبر وإنشاء والإنشاء أمر ونهي وإباحة والخبر خبر عن الخالق وخبر عن خلقه فأخلصت سورة الإخلاص الخبر عن اللّه وخلصت

قارئها من الشرك الاعتقادي.

6- كثرت أسماؤها وزيادة الأسماء تدل على شرف المسمى وهذا

جدول بأسمائها العشرين مع شرح سريع لكل اسم:

1- الإخلاص: وقد تقدم معناه وأنها أخلصت الخبر عن الله وخلصت قارئها من الشرك.

2- التنزيل: لأنها أدّت أكمل الأغراض بتنزيلها.

3- التجريد: لأنها تجرد قارئها من الشرك وبواعثه ومن تعلق بها تجرد عن الانحياز.

4- التوحيد: لاحتوائها على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده، وعلم التوحيد من الله بمكان وكيف لا يكون كذلك والعلم تابع للمعلوم يشرف بشرفه ويتضع بضعته، ومعلوم هذا العلم هو الله تعالى وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز وناهيك بشرف منزلته وجلالة محله وإنافته على كل علم واستيلائه على قصب السبق.

5- النجاة: لأنها تنجي قائلها من النار.

6- الولاية: لأن من تعلق بها أعطاه الله الولاية.

7- الجمال : لدلالتها على جمال الله تعالى أي اتصافه بالكمالات وتنزيهه عن النقائص .

8- المعرفة : لأن من فهمها وسبر أغوارها عرف الله تعالى حق المعرفة .

9- المقشقشة : من قشقشه من الجرب أو الجدري أبرأه فبرىء وسمّيت بذلك لأنها تبرئ قارئها من الأوضار ومن جميع دواعي الشرك والنفاق .

10- المعوذة : لأنها تحصن قارئها من فتن الدنيا والآخرة .

11- الصمد : وقد تقدم القول فيه مطولا .

12- النسبة : لقول المشركين انسب لنا ربك .

13- الأساس : لأنها أصل الدين وعماده .

14- المانعة : لأنها تمنع فتنة القبر وعذاب النار .

15- المحتضر : لأن الملائكة تحضر لاستماعها .

16- المنفرة : لأن الشياطين تنفر عند قراءتها .

17- البراءة : لأنها براءة من الشرك .

18- المذكرة : لأنها تذكر العبد خالص التوجيه .

19- النور : لأنها تنوّر القلب .

20- الإنسان : لأنه لا غنى للإنسان عنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 621.614 ﴾

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ .

سُورَةُ الْإِخْلَاص

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَد ابْنُ تَيْمِيَّة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -:

عَمَّا وَرَدَ فِي سُورَةِ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أَنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ وَكَذَلِكَ وَرَدَ فِي سُورَةِ (الزَّلْزَلَةِ) وَ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ وَ (الْفَاتِحَةِ) هَلْ مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الْمُعَادَلَةِ ثَابِتٌ فِي الْمَجْمُوعِ أَمْ فِي الْبَعْضِ ؟ وَمَنْ رَوَى ذَلِكَ ؟ وَمَا ثَبَتَ مِنْ ذَلِكَ ؟ وَمَا مَعْنَى هَذِهِ الْمُعَادَلَةِ وَكَلَامُ اللَّهِ وَاحِدٌ بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ ؟ وَهَلْ هَذِهِ الْمُفَاضَلَةُ - بِتَقْدِيرِ ثُبُوتِهَا - مُتَعَدِّيَةٌ إلَى الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ أَمْ لَا ؟ وَالصِّفَاتُ الْقَدِيمَةُ وَالْأَسْمَاءُ الْقَدِيمَةُ هَلْ يَجُوزُ الْمُفَاضَلَةُ بَيْنَهَا مَعَ أَنَّهَا قَدِيمَةٌ ؟ وَمَنْ الْقَائِلُ بِذَلِكَ وَفِي أَيِّ كُتُبِهِ قَالَ ذَلِكَ وَوَجْهُهُ

التَّرْجِيحِ فِي ذَلِكَ بِمَا يُمْكِنُ مِنْ دَلِيلٍ عَقْلِيٍّ وَنَقْلِيٍّ ؟

فَأَجَابَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، أَمَّا الَّذِي أَخْرَجَهُ أَصْحَابُ الصَّحِيحِ - كَالْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ - فَأَخْرَجُوا فَضْلَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وَرُوِيَ عَنْ الدارقطني أَنَّهُ قَالَ : لَمْ يَصِحَّ فِي فَضْلِ سُورَةٍ أَكْثَرُ مِمَّا صَحَّ فِي فَضْلِهَا . وَكَذَلِكَ أَخْرَجُوا فَضْلَ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا ﴿ إنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا ﴾ لَمْ يَذْكُرْ فِيهَا أَنَّهَا تَعْدِلُ جُزْءًا مِنْ الْقُرْآنِ كَمَا ﴿ قَالَ فِي ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ﴾ فَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ الضَّحَّاكِ الْمَشْرِقِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ : ﴿ أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ بِثُلُثِ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ ؟ فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا : أَيُّنَا يُطِيقُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ ﴾ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ معدان بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ ﴿ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ؟

قَالُوا : وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ؟ قَالَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ﴾ .

وَرَوَى مُسْلِمٌ أَيْضًا عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ جَزَّأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ فَجَعَلَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ ﴾ . وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ عَنْ ﴿ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالُّهَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ﴾ . وَأَخْرَجَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي أَخِي قتادة بْنُ النُّعْمَانِ ﴿ أَنَّ رَجُلًا قَامَ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ مِنْ السَّحَرِ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ لَا يَزِيدُ عَلَيْهَا ﴾ . الْحَدِيثَ ﴾ بِنَحْوِهِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : ﴿ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احْشُدُوا فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ قَالَ : فَحَشَدَ مَنْ حَشَدَ ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثُمَّ دَخَلَ فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضِ : إنِّي أَرَى هَذَا خَبَرًا جَاءَهُ مِنْ السَّمَاءِ فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ . ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إنِّي قُلْت لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ

ثُلُثَ الْقُرْآنِ أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ﴾ وَفِي لَفْظٍ لَهُ ﴿ قَالَ : خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ

(342/838)

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فَقَرَأَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ حَتَّى خَتَمَهَا . ﴾ وَأَمَّا حَدِيثُ " الزَّلْزَلَةِ " وَ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ فَرَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : ﴿ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ قَرَأَ إِذَا زُلْزِلَتْ عَدَلَتْ لَهُ نِصْفَ الْقُرْآنِ . وَمَنْ قَرَأَ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ عَدَلَتْ لَهُ رُبُعَ الْقُرْآنِ ﴾ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ تَعْدِلُ نِصْفَ الْقُرْآنِ وَ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ تَعْدِلُ رُبُعَ الْقُرْآنِ ﴾ رَوَاهُمَا التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ عَنْ كُلٍّ مِنْهُمَا : غَرِيبٌ . وَأَمَّا حَدِيثُ (الْفَاتِحَةِ فَرَوَى الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ ﴿ عَنْ أَبِي سَعِيدِ ابْنِ الْمُعَلَّى قَالَ : كُنْت أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنِّي كُنْت أُصَلِّي . قَالَ أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ ثُمَّ قَالَ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَالَ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ﴾ . وَفِي السُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ مِنْ حَدِيثِ

الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَلَا أُعَلِّمُكَ سُورَةً مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا

فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا - قَالَ - فَإِنِّي أَرْجُو

أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ هَذَا الْبَابِ حَتَّى تَعْلَمَهَا وَقَالَ فِيهِ كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ ؟ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ أُمَّ الْقُرْآنِ فَقَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا إنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيته ﴾ . وَرَوَاهُ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ عَنْ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَوْلَى عَامِرِ بْنِ كريز مُرْسَلًا . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : ﴿ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ وَ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ﴾ . وَفِي لَفْظٍ : ﴿ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُنْزِلَ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ الْمُعَوِّذَتَانِ ﴾ فَقَدْ أَخْبَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ لَمْ يُرَ مِثْلُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ كَمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُ الْفَاتِحَةِ وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ فَضْلَ بَعْضِ الْقُرْآنِ عَلَى

بَعْض .

فَصْلٌ :

(344/838)

وَأَمَّا السُّؤَالُ عَنْ مَعْنَى هَذِهِ الْمُعَادَلَةِ مَعَ الِاشْتِرَاكِ فِي كَوْنِ الْجَمِيعِ كَلَامُ اللَّهِ فَهَذَا السُّؤَالُ يَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ هَلْ بَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ أَمْ لَا ؟ وَالثَّانِي : مَا مَعْنَى كَوْنِ (﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ؟ وَمَا سَبَبُ ذَلِكَ ؟

فَنَقُولُ :

(345/838)

أَمَّا الْأَوَّلُ فَهُوَ " مَسْأَلَةٌ كَبِيرَةٌ " وَالنَّاسُ مُتَنَازِعُونَ فِيهَا نِزَاعًا مُنْتَشِرًا فَطَوَائِفُ يَقُولُونَ : بَعْضُ كَلَامِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ كَمَا نَطَقَتْ بِهِ النُّصُوصُ النَّبَوِيَّةُ : حَيْثُ أَخْبَرَ عَنْ (الْفَاتِحَةِ أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ فِي الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ مِثْلُهَا . وَأَخْبَرَ عَنْ سُورَةِ (الْإِخْلَاصِ) أَنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ وَعَدْلُهَا لِثُلُثِهِ يَمْنَعُ مُسَاوَاتَهَا لِمِقْدَارِهَا فِي الْحُرُوفِ . وَجَعَلَ (آيَةَ الْكُرْسِيِّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي

الْقُرْآنِ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ أَيْضًا وَكَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيَّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَعَك أَعْظَمُ ؟ قَالَ : قُلْت : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : فَقُلْت : ﴿ اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ قَالَ : فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ : لِيَهْنِك الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ ﴾ . وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي مُسْنَدِهِ بِإِسْنَادِ مُسْلِمٍ وَزَادَ فِيهِ ﴿ وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّ لِهَذِهِ الْآيَةِ لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ ﴾ . وَرُوِيَ أَنَّهَا ﴿ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ . ﴾ وَقَالَ فِي الْمُعَوِّذَتَيْنِ : ﴿ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ ﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَأْتِي بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . وَهَذَا بَيَانٌ مِنْ اللَّهِ لِكَوْنِ تِلْكَ الْآيَةِ قَدْ

(346/838)

يَأْتِي بِمِثْلِهَا تَارَةً أَوْ خَيْرٍ مِنْهَا أُخْرَى فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ

(347/838)

الْآيَاتِ تَتَمَاثَل تَارَةً وَتَتَفَاضَل أُخْرَى . وَأَيْضًا فَالتَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيل وَالْقُرْآنُ جَمِيعُهَا كَلَامُ اللَّهِ مَعَ عِلْمِ الْمُسْلِمِينَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ أَفْضَل الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ . قَال تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ . وَقَال تَعَالَى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ وَقَال تَعَالَى : ﴿ قُل لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْل هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ وَقَال تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ نَزَّل أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ فَدَل عَلَى أَنَّهُ أَحْسَنُ مِنْ سَائِرِ الْأَحَادِيثِ الْمُنَزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَغَيْرِ الْمُنَزَّلَةِ . وَقَال تَعَالَى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ . وَسَوَاءٌ كَانَ الْمُرَادُ بِذَلِكَ الْفَاتِحَةَ أَوِ الْقُرْآنَ كُلَّهُ فَإِنَّهُ يَدُل عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لَهُ اخْتِصَاصٌ بِهَذَا الْوَصْفِ عَلَى مَا لَيْسَ كَذَلِكَ . وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مَجِيدًا وَكَرِيمًا وَعَزِيزًا . وَقَدْ تَحَدَّى الْخَلْقَ بِأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ أَوْ بِمِثْل عَشْرِ سُوَرٍ مِنْهُ أَوْ بِمِثْل سُورَةٍ مِنْهُ فَقَال : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ . وَقَال ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ . وَقَال : ﴿

فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ وَخَصَّهُ بِأَنَّهُ لَا يُقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ إِلَّا هُوَ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَقْرَأَ غَيْرَهُ مَعَ قِرَاءَتِهِ وَلَا بِدُونِ قِرَاءَتِهِ وَلَا يُصَلِّي بِلَا قُرْآنٍ ، فَلَا يَقُومُ غَيْرُهُ

(349/838)

مَقَامَهُ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهِ . وَكَذَلِكَ لَا يَقُومُ غَيْرُ الْفَاتِحَةِ مَقَامَهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ سَوَاءٌ قِيلَ بِأَنَّهَا فَرْضٌ تُعَادُ الصَّلَاةُ بِتَرْكِهَا أَوْ قِيلَ بِأَنَّهَا وَاجِبَةٌ يَأْثَمُ تَارِكُهَا وَلَا إعَادَةَ عَلَيْهِ أَوْ قِيلَ إنَّهَا سُنَّةٌ فَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إنَّ قِرَاءَةَ غَيْرِهَا مُسَاوٍ لِقِرَاءَتِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ . وَخُصَّ الْقُرْآنُ بِأَنَّهُ لَا يَمَسُّ مُصْحَفَهُ إلَّا طَاهِرٌ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ عَنْ الصَّحَابَةِ - مِثْلِ سَعْدٍ وَسَلْمَانَ وَابْنِ عُمَرَ - وَجَمَاهِيرِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ الْفُقَهَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ . وَمَضَتْ بِهِ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كِتَابِهِ الَّذِي كَتَبَهُ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ الَّذِي لَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ كَتَبَهُ لَهُ وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ كِتَابُ اللَّهِ . وَكَذَلِكَ لَا يَقْرَأُ الْجُنُبُ الْقُرْآنَ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ الْفُقَهَاءِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ السُّنَّةُ . وَتَفْضِيلُ أَحَدِ الْكَلَامَيْنِ بِأَحْكَامِ تُوجِبُ تَشْرِيفَهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَفْضَلُ فِي نَفْسِهِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ تَرْجِيحًا لِأَحَدِ الْمُتَمَاثِلَيْنِ بِلَا مُرَجِّحٍ وَهَذَا خِلَافُ مَا عُلِمَ مِنْ سُنَّةِ الرَّبِّ تَعَالَى فِي شَرْعِهِ بَلْ وَفِي خَلْقِهِ وَخِلَافُ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الدَّلَائِلُ الْعَقْلِيَّةُ مَعَ الشَّرْعِيَّةِ . وَأَيْضًا فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ وَقَالَ

تَعَالَى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِي ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ

(350/838)

قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ . فَدَلَّ عَلَى

(351/838)

أَنَّ فِيمَا أُنْزِلَ حَسَنٌ وَأَحْسَنُ سَوَاءٌ كَانَ الْأَحْسَنُ هُوَ النَّاسِخُ الَّذِي يَجِبُ الْأَخْذُ بِهِ دُونَ الْمَنْسُوخِ إذْ كَانَ لَا يَنْسَخُ آيَةً إلَّا يَأْتِي بِخَيْرِ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَوْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ . وَالْقَوْلُ بِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ بَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ هُوَ الْقَوْلُ الْمَأْثُورُ عَنْ السَّلَفِ وَهُوَ الَّذِي عَلَيْهِ أَئِمَّةُ الْفُقَهَاءِ مِنْ الطَّوَائِفِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ وَكَلَامُ الْقَائِلِينَ بِذَلِكَ كَثِيرٌ مُنْتَشِرٌ فِي كُتُبٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ ابْنِ سُرَيْجٍ فِي تَفْسِيرِهِ لِهَذَا الْحَدِيثِ بِأَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : ثُلُثٌ مِنْهُ أَحْكَامٌ وَثُلُثٌ مِنْهُ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ وَثُلُثٌ مِنْهُ الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ . وَهَذِهِ السُّورَةُ جَمَعَتْ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ . وَمِثْلُ مَا ذَكَرَهُ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد فِي مَسْأَلَةِ

تَعْيِينِ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ قَالَ أَبُو الْمُظَفَّرِ مَنْصُورُ بْنُ مُحَمَّدٍ السَّمْعَانِي الشَّافِعِيُّ فِي كِتَابِهِ " الِاصْطِلَامِ " وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إنَّ سَائِرَ الْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْقُرْآنِ لَا تَخْتَصُّ بِالْفَاتِحَةِ قُلْت : سَائِرُ الْأَحْكَامِ قَدْ تَعَلَّقَتْ بِالْقُرْآنِ عَلَى الْعُمُومِ وَهَذَا عَلَى الْخُصُوصِ بِدَلِيلِ أَنَّ عِنْدَنَا قِرَاءَةَ الْفَاتِحَةِ عَلَى التَّعْيِينِ مَشْرُوعَةٌ عَلَى الْوُجُوبِ وَعِنْدَكُمْ عَلَى السُّنَّةِ . قَالَ : وَقَدْ قَالَ أَصْحَابُنَا إنَّ قِرَاءَةَ الْفَاتِحَةِ لَمَّا وَجَبَتْ فِي الصَّلَاةِ وَجَبَ أَنْ تَتَعَيَّنَ الْفَاتِحَةُ لِأَنَّ الْقُرْآنَ امْتَازَ عَنْ غَيْرِهِ بِالْإِعْجَازِ وَأَقَلُّ مَا يَحْصُلُ

(352/838)

بِهِ الْإِعْجَازُ سُورَةٌ وَهَذِهِ السُّورَةُ أَشْرَفُ السُّوَرِ لِأَنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي وَلِأَنَّهَا تَصْلُحُ عِوَضًا عَنْ جَمِيعِ السُّوَرِ وَلَا

(353/838)

تَصْلُحُ جَمِيعُ السُّوَرِ عِوَضًا عَنْهَا وَلِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى مَا لَا تَشْتَمِلُ سُورَةٌ مَا عَلَى قَدْرِهَا مِنْ الْآيَاتِ وَذَلِكَ مِنْ الثَّنَاءِ وَالتَّحْمِيدِ لِلرَّبِّ وَالِاسْتِعَانَةِ وَالِاسْتِعَاذَةِ وَالدُّعَاءِ مِنْ الْعَبْدِ . فَإِذَا

صَارَتْ هَذِهِ السُّورَةُ أَشْرَفَ السُّوَرِ وَكَانَتْ الصَّلَاةُ أَشْرَفَ الْحَالَاتِ فَتَعَيَّنَتْ أَشْرَفَ السُّوَرِ فِي أَشْرَفِ الْحَالَاتِ . هَذَا لَفْظُهُ فَقَدْ نُقِلَ عَنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ أَشْرَفُ السُّوَرِ كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ أَشْرَفُ الْحَالَاتِ وَبَيَّنُوا مِنْ شَرَفِهَا عَلَى غَيْرِهَا مَا ذَكَرُوهُ . وَكَذَلِكَ ذَكَرَ ذَلِكَ مَنْ ذَكَرَهُ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد كَالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى بْنِ الْقَاضِي أَبِي خَازِمِ بْنِ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى بْنِ الْفَرَّاءِ قَالَ فِي تَعْلِيقِهِ - وَمِنْ خَطِّهِ نَقَلْت - قَالَ فِي مَسْأَلَةِ كَوْنِ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ رُكْنًا فِي الصَّلَاةِ : أَمَّا الطَّرِيقُ الْمُعْتَمَدُ فِي الْمَسْأَلَةِ فَهُوَ أَنَّا نَقُولُ : الصَّلَاةُ أَشْرَفُ الْعِبَادَاتِ وَجَبَتْ فِيهَا الْقِرَاءَةُ فَوَجَبَ أَنْ يَتَعَيَّنَ لَهَا أَشْرَفُ السُّوَرِ وَالْفَاتِحَةُ أَشْرَفُ السُّوَرِ فَوَجَبَ أَنْ تَتَعَيَّنَ . قَالَ : وَاعْلَمْ أَنَّا نَحْتَاجُ فِي تَمْهِيدِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ إلَى شَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الصَّلَاةَ أَشْرَفُ الْعِبَادَاتِ وَالثَّانِي : أَنَّ الْحَمْدَ أَشْرَفُ السُّوَرِ . وَاسْتَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِمَا ذَكَرَهُ قَالَ : وَأَمَّا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ أَشْرَفُ فَالنَّصُّ وَالْمَعْنَى وَالْحُكْمُ : أَمَّا النَّصُّ فَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهَا عِوَضٌ مِنْ غَيْرِهَا . وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ

الخدري عَنْ ﴿ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : فَاتِحَةُ الْكِتَابِ شِفَاءٌ مِنْ السُّمِّ ﴾ . وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : أَنْزَلَ اللَّهُ مِائَةَ كِتَابٍ وَأَرْبَعَةَ كُتُبٍ مِنْ السَّمَاءِ أَوْدَعَ عُلُومَهَا أَرْبَعَةً مِنْهَا

: التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ وَالْفُرْقَانُ ثُمَّ أَوْدَعَ عُلُومَ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ الْفُرْقَانَ ثُمَّ أَوْدَعَ عُلُومَ الْقُرْآنِ الْمُفَصَّلَ ثُمَّ أَوْدَعَ عُلُومَ الْمُفَصَّلِ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ . فَمَنْ عَلِمَ تَفْسِيرَهَا كَانَ كَمَنْ عَلِمَ تَفْسِيرَ جَمِيعِ كُتُبِ اللَّهِ الْمُنَزَّلَةِ وَمَنْ قَرَأَهَا فَكَأَنَّمَا قَرَأَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزَّبُورَ وَالْقُرْآنَ . وَأَمَّا الْمَعْنَى فَهُوَ أَنَّ اللَّهَ قَابَلَهَا بِجَمِيعِ الْقُرْآنِ فَقَالَ : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ . وَهَذِهِ حَقِيقَةٌ لَا يُدَانِيهَا غَيْرُهَا فِيهَا قُلْت : هَذَا عَلَى قَوْلِ مَنْ جَعَلَهَا هِيَ السَّبْعَ الْمَثَانِيَ وَجَعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ جَمِيعَ الْقُرْآنِ . قَالَ : وَلِأَنَّهَا تُسَمَّى " أُمَّ الْقُرْآنِ " وَأُمُّ الشَّيْءِ أَصْلُهُ وَمَادَّتُهُ وَلِهَذَا سَمَّى اللَّهُ مَكَّةَ " أُمَّ الْقُرَى " لِشَرَفِهَا عَلَيْهِنَّ . وَلِأَنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي وَلِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى مَا لَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ سُورَةٌ مِنْ الثَّنَاءِ وَالتَّحْمِيدِ لِلرَّبِّ تَعَالَى وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ وَالِاسْتِعَاذَةِ وَالدُّعَاءِ مِنْ الْعَبْدِ عَلَى مَا ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : قَسَمْت الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي ﴾ الْحَدِيثَ الْمَشْهُورَ . قَالَ : وَلِأَنَّهُ لَمْ يُنَزِّلْ مِثْلَهَا فِي

التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ الْكُتُبِ يَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّهَا تَيَسَّرَ قِرَاءَتُهَا عَلَى كُلِّ أَحَدٍ مَا لَا يَتَيَسَّرُ غَيْرُهَا مِنْ الْقُرْآنِ .

وَتُضْرَبُ بِهَا الْأَمْثَالُ وَلِهَذَا يُقَالُ: فُلَانٌ يَحْفَظُ الشَّيْءَ مِثْلَ الْفَاتِحَةِ وَإِذَا كَانَتْ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ فَغَيْرُهَا لَا يُسَاوِيهَا فِي هَذَا فَاخْتُصَّتْ بِالشَّرَفِ وَلِأَنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهَا تُثَنَّى قِرَاءَتُهَا فِي كُلِّ رَكْعَةٍ. قَالَ بَعْضُهُمْ: ثُنِّيَ نُزُولُهَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْت: وَفِيهِ أَقْوَالٌ أُخَرُ. قَالَ: وَأَمَّا الْحُكْمُ فَلِأَنَّهُ تُسْتَحَبُّ قِرَاءَتُهَا فِي كُلِّ رَكْعَةٍ وَيُكْرَهُ الْإِخْلَالُ بِهَا وَلَوْلَا أَنَّهَا أَشْرَفُ لَمَا اخْتُصَّتْ بِهَذَا الْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ عِنْدَ الْمُنَازِعِينَ -يَعْنِي أَصْحَابَ أَبِي حَنِيفَةَ- أَنَّ مَنْ أَخَلَّ بِقِرَاءَتِهَا وَجَبَ عَلَيْهِ سُجُودُ السَّهْوِ. فَنَقُولُ: لَا يَخْلُو إمَّا أَنْ تَكُونَ رُكْنًا أَوْ لَيْسَتْ بِرُكْنِ فَإِنْ كَانَتْ رُكْنًا وَجَبَ أَنْ لَا تُجْبَرَ بِالسُّجُودِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ رُكْنًا وَجَبَ أَنْ لَا يَجِبَ عَلَيْهِ سُجُودٌ. قُلْت: يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّ السُّجُودَ لَا يَجِبُ إلَّا بِتَرْكِ وَاجِبٍ فِي حَالِ الْعَمْدِ فَإِذَا سَهَا عَنْهُ وَجَبَ لَهُ السُّجُودُ وَمَا كَانَ وَاجِبًا فَإِذَا تَعَمَّدَ تَرْكَهُ وَجَبَ أَنْ تَبْطُلَ صَلَاتُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرَ بِهِ بِخِلَافِ مَنْ سَهَا عَنْ بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ فَإِنَّ هَذَا يُمْكِنُ أَنْ يُجْبِرَ مَا تَرَكَهُ بِسُجُودِ السَّهْوِ. وَمَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَحْمَد وَأَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ سُجُودَ السَّهْوِ وَاجِبٌ لِأَنَّ مِنْ الْوَاجِبَاتِ عِنْدَهُمْ مَا إذَا تَرَكَهُ سَهْوًا لَمْ تَبْطُلْ الصَّلَاةُ. كَمَا لَا تَبْطُلُ بِالزِّيَادَةِ سَهْوًا بِاتِّفَاقِ

الْعُلَمَاءِ وَلَوْ زَادَ عَمْدًا لَبَطَلَتْ الصَّلَاةُ . لَكِنَّ مَالِكًا وَأَحْمَد فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُمَا يَقُولَانِ :

مَا كَانَ وَاجِبًا إذَا تَرَكَهُ عَمْدًا بَطَلَتْ صَلَاتُهُ وَإِذَا تَرَكَهُ سَهْوًا فَمِنْهُ مَا يُبْطِلُ الصَّلَاةَ وَمِنْهُ مَا يَنْجَبِرُ بِسُجُودِ السَّهْوِ فَتَرْكُ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَالْقِرَاءَةِ يُبْطِلُ الصَّلَاةَ مُطْلَقًا وَتَرْكُ التَّشَهُّدِ الْأَوَّلِ عِنْدَهُمَا يُبْطِلُ الصَّلَاةَ عَمْدُهُ وَيَجِبُ السُّجُودُ لِسَهْوِهِ . وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَيَقُولُ : الْوَاجِبُ الَّذِي لَيْسَ بِفَرْضِ - كَالْفَاتِحَةِ - إذَا تَرَكَهُ كَانَ مُسِيئًا وَلَا يُبْطِلُ الصَّلَاةَ . وَالشَّافِعِيُّ لَا يُفَرِّقُ فِي الصَّلَاةِ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْوَاجِبِ . وَلَكِنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا فِي الْحَجِّ هُوَ وَسَائِرُ الْأَئِمَّةِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا ذِكْرُ بَعْضِ مَنْ قَالَ إنَّ الْفَاتِحَةَ أَشْرَفُ مِنْ غَيْرِهَا . وَقَالَ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : وَأَمَّا ﴿ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُبَيِّ . هَلْ تَعْلَمُ سُورَةً مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَا فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَهَا ؟ ﴾ فَمَعْنَاهُ مِثْلُهَا فِي جَمْعِهَا لِمَعَانِي الْخَيْرِ لِأَنَّ فِيهَا الثَّنَاءُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ الْحَمْدِ الَّذِي

هُوَ لَهُ حَقِيقَةً لَا لِغَيْرِهِ لِأَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ وَخَيْرٍ مِنْهُ لَا مِنْ سِوَاهُ فَهُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ وَهُوَ مَحْمُودٌ عَلَى ذَلِكَ وَإِنْ حُمِدَ غَيْرُهُ فَإِلَيْهِ يَعُودُ الْحَمْدُ . وَفِيهَا التَّعْظِيمُ لَهُ وَأَنَّهُ الرَّبُّ لِلْعَالَمِ أَجْمَعَ وَمَالِكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُوَ الْمَعْبُودُ وَالْمُسْتَعَانُ . وَفِيهَا تَعْلِيمُ الدُّعَاءِ

(359/838)

وَالْهُدَى وَمُجَانَبَةُ طَرِيقِ مَنْ ضَلَّ وَغَوَى . وَالدُّعَاءُ لُبَابُ الْعِبَادَةِ فَهِيَ أَجْمَعُ سُورَةٍ لِلْخَيْرِ لَيْسَ فِي الْكُتُبِ مِثْلُهَا عَلَى هَذِهِ

الْوُجُوهِ . قَالَ : وَقَدْ قِيلَ إنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهَا تُجْزِئُ الصَّلَاةُ بِهَا دُونَ غَيْرِهَا وَلَا يُجْزِئُ غَيْرُهَا عَنْهَا . وَلَيْسَ هَذَا بِتَأْوِيلٍ مُجْتَمَعٍ عَلَيْهِ . قُلْت : يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّ فِي هَذَا نِزَاعًا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَهُوَ كَوْنُ الصَّلَاةِ لَا تُجْزِئُ إلَّا بِهَا وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَصْفَ الْأَوَّلَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَهُوَ أَنَّهَا أَفْضَلُ السُّوَرِ .

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ تَفْضِيلِ الْقُرْآنِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَسَائِرِ الْكُتُبِ وَأَنَّ السَّلَفَ كُلَّهُمْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِذَلِكَ لَيْسَ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ الْجَمِيعُ كَلَامُ اللَّهِ فَلَا يُفَضَّلُ الْقُرْآنُ عَلَى غَيْرِهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا

مَثَانِيَ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ .

(360/838)

" وَأَحْسَنُ الْقَصَصِ " قِيلَ إنَّهُ مَصْدَرٌ وَقِيلَ إنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ . قِيلَ : الْمَعْنَى نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْك أَحْسَنَ الِاقْتِصَاصِ كَمَا يُقَالُ نُكَلِّمُك أَحْسَنَ التَّكْلِيمِ وَنُبَيِّنُ لَك أَحْسَنَ الْبَيَانِ . قَالَ الزَّجَّاجُ : نَحْنُ نُبَيِّنُ لَك أَحْسَنَ الْبَيَانِ . وَالْقَاصُّ الَّذِي يَأْتِي بِالْقِصَّةِ عَلَى حَقِيقَتِهَا . قَالَ وَقَوْلُهُ : ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ أَيْ بِوَحْيِنَا إلَيْك هَذَا الْقُرْآنَ وَمَنْ قَالَ هَذَا قَالَ بِمَا أَوْحَيْنَا إلَيْك هَذَا الْقُرْآنَ وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَهُوَ كَقَوْلِهِ : نَقْرَأُ

(361/838)

عَلَيْك أَحْسَنَ الْقِرَاءَةِ وَنَتْلُوا عَلَيْك أَحْسَنَ التِّلَاوَةِ وَالثَّانِي أَنَّ الْمَعْنَى نَقُصُّ عَلَيْك أَحْسَنَ مَا يُقَصُّ أَيْ أَحْسَنَ الْأَخْبَارِ الْمَقْصُوصَاتِ كَمَا قَالَ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ . وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي قِصَّةِ

مُوسَى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ الْمُرَادُ خَبَرُهُمْ وَنَبَؤُهُمْ وَحَدِيثُهُمْ لَيْسَ الْمُرَادُ مُجَرَّدَ الْمَصْدَرِ . وَالْقَوْلَانِ مُتَلَازِمَانِ فِي الْمَعْنَى كَمَا سَنُبَيِّنُهُ وَلِهَذَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَنْصُوبُ قَدْ جَمَعَ مَعْنَى الْمَصْدَرِ وَمَعْنَى الْمَفْعُولِ بِهِ لِأَنَّ فِيهِ كِلَا الْمَعْنَيَيْنِ بِخِلَافِ الْمَوَاضِعِ الَّتِي يُبَايِنُ فِيهَا الْفِعْلُ الْمَفْعُولَ بِهِ فَإِنَّهُ إذَا انْتَصَبَ بِهَذَا الْمَعْنَى امْتَنَعَ الْمَعْنَى الْآخَرُ . وَمَنْ رَجَّحَ الْأَوَّلَ مِنْ النُّحَاةِ - كَالزَّجَّاجِ وَغَيْرِهِ - قَالُوا : الْقَصَصُ مَصْدَرٌ يُقَالُ قَصَّ أَثَرَهُ يَقُصُّهُ قَصَصًا وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ . وَكَذَلِكَ اقْتَصَّ أَثَرَهُ وَتَقَصَّصَ وَقَدْ اقْتَصَصْت الْحَدِيثَ : رَوَيْته عَلَى وَجْهِهِ وَقَدْ اقْتَصَّ عَلَيْهِ الْخَبَرَ قَصَصًا . وَلَيْسَ الْقَصَصُ بِالْفَتْحِ جَمْعُ قِصَّةٍ كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الْعَامَّةِ . فَإِنَّ ذَلِكَ يُقَالُ فِي قِصَصٍ بِالْكَسْرِ وَاحِدُهُ قِصَّةٌ وَالْقِصَّةُ هِيَ الْأَمْرُ وَالْحَدِيثُ الَّذِي يُقَصُّ فِعْلَةٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ وَجَمْعُهُ قِصَصٌ بِالْكَسْرِ . وَقَوْلُهُ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ

عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ بِالْفَتْحِ لَمْ يَقُلْ أَحْسَنَ الْقِصَصِ بِالْكَسْرِ وَلَكِنْ

بَعْضُ النَّاسِ ظَنُّوا أَنَّ الْمُرَادَ أَحْسَنُ الْقِصَصِ بِالْكَسْرِ وَأَنَّ تِلْكَ الْقِصَّةَ قِصَّةُ يُوسُفَ وَذَكَرَ هَذَا طَائِفَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ . ثُمَّ ذَكَرُوا : لِمَ سُمِّيَتْ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ؟ فَقِيلَ : لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ قِصَّةٌ تَتَضَمَّنُ مِنْ الْعِبَرِ وَالْحِكَمِ وَالنُّكَتِ مَا تَتَضَمَّنُ هَذِهِ الْقِصَّةُ . وَقِيلَ : لِامْتِدَادِ الْأَوْقَاتِ بَيْنَ مُبْتَدَاهَا وَمُنْتَهَاهَا . وَقِيلَ لِحُسْنِ مُحَاوَرَةِ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ وَصَبْرِهِ عَلَى أَذَاهُمْ وَإِغْضَائِهِ عَنْ ذِكْرِ مَا تَعَاطَوْهُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَكَرَمِهِ فِي الْعَفْوِ . وَقِيلَ لِأَنَّ فِيهَا ذِكْرَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْمَلَائِكَةِ وَالشَّيَاطِينِ وَالْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالْأَنْعَامِ وَالطَّيْرِ وَسِيَرِ الْمُلُوكِ وَالْمَمَالِيكِ وَالتُّجَّارِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْجُهَّالِ وَالرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَمَكْرِهِنَّ وَحِيَلِهِنَّ وَفِيهَا أَيْضًا ذِكْرُ التَّوْحِيدِ وَالْفِقْهِ وَالسِّيَرِ وَتَعْبِيرِ الرُّؤْيَا وَالسِّيَاسَةِ وَالْمُعَاشَرَةِ وَتَدْبِيرِ الْمَعَاشِ فَصَارَتْ أَحْسَنَ الْقَصَصِ لِمَا فِيهَا مِنْ الْمَعَانِي وَالْفَوَائِدِ الَّتِي تَصْلُحُ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا . وَقِيلَ فِيهَا ذِكْرُ الْحَبِيبِ وَالْمَحْبُوبِ . وَقِيلَ " أَحْسَنُ " بِمَعْنَى أَعْجَبَ . وَالَّذِينَ يَجْعَلُونَ قِصَّةَ يُوسُفَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ مِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ " الْقَصَصَ " بِالْفَتْحِ هُوَ النَّبَأُ وَالْخَبَرُ وَيَقُولُونَ هِيَ أَحْسَنُ الْأَخْبَارِ وَالْأَنْبَاءِ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ الْمُرَادَ أَحْسَنُ الْقِصَصِ بِالْكَسْرِ وَهَؤُلَاءِ جُهَّالٌ بِالْعَرَبِيَّةِ وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ خَطَأٌ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ :

(أَحْسَنَ الْقَصَصِ) قِصَّةَ يُوسُفَ وَحْدَهَا بَلْ هِيَ مِمَّا قَصَّهُ اللَّهُ وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي أَحْسَنِ الْقَصَصِ

وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلَّا رِجَالًا نُوحِي إلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ حَتَّى إذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّ الْعِبْرَةَ فِي قَصَصِ الْمُرْسَلِينَ وَأَمَرَ بِالنَّظَرِ فِي عَاقِبَةِ مَنْ كَذَّبَهُمْ وَعَاقِبَتُهُمْ بِالنَّصْرِ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ قِصَّةَ مُوسَى وَمَا جَرَى لَهُ مَعَ فِرْعَوْنَ وَغَيْرِهِ أَعْظَمُ وَأَشْرَفُ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ بِكَثِيرِ كَثِيرٍ وَلِهَذَا هِيَ أَعْظَمُ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي تُذْكَرُ فِي الْقُرْآنِ ثَنَّاهَا اللَّهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا وَبَسَطَهَا وَطَوَّلَهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهَا ؛ بَلْ قَصَصُ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ - كَنُوحِ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْمُرْسَلِينَ - أَعْظَمُ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ وَلِهَذَا ثَنَّى اللَّهُ تِلْكَ

الْقَصَصِ فِي الْقُرْآنِ وَلَمْ يُثْنِ قِصَّةَ يُوسُفَ وَذَلِكَ لِأَنَّ الَّذِينَ عَادُوا يُوسُفَ لَمْ يُعَادُوهُ عَلَى الدِّينِ بَلْ عَادَوْهُ عَدَاوَةً دُنْيَوِيَّةً وَحَسَدُوهُ عَلَى مَحَبَّةِ أَبِيهِ لَهُ وَظَلَمُوهُ فَصَبَرَ وَاتَّقَى اللَّهَ وَابْتُلِيَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ بِمَنْ ظَلَمَهُ

(366/838)

وَبِمَنْ دَعَاهُ إِلَى الْفَاحِشَةِ فَصَبَرَ وَاتَّقَى اللَّهَ فِي هَذَا وَفِي هَذَا وَابْتُلِيَ أَيْضًا بِالْمُلْكِ فَابْتُلِيَ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ فَصَبَرَ وَاتَّقَى اللَّهَ فِي هَذَا وَهَذَا فَكَانَتْ قِصَّتُهُ مِنْ أَحْسَنِ الْقَصَصِ وَهِيَ

(367/838)

أَحْسَنُ مِنْ الْقَصَصِ الَّتِي لَمْ تُقَصَّ فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ يَظْلِمُونَ وَيَحْسُدُونَ وَيَدْعُونَ إِلَى الْفَاحِشَةِ وَيُبْتَلَوْنَ بِالْمُلْكِ لَكِنْ لَيْسَ مَنْ لَمْ يُذْكَرْ فِي الْقُرْآنِ مِمَّنْ اتَّقَى اللَّهَ وَصَبَرَ مِثْلَ يُوسُفَ وَلَا فِيهِمْ مَنْ كَانَتْ عَاقِبَتُهُ أَحْسَنَ الْعَوَاقِبِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِثْلَ يُوسُفَ . وَهَذَا كَمَا أَنَّ قِصَّةَ أَهْلِ الْكَهْفِ وَقِصَّةَ ذِي الْقَرْنَيْنِ كُلٌّ مِنْهُمَا هِيَ فِي جِنْسِهَا أَحْسَنُ مِنْ غَيْرِهَا . فَقِصَّةُ ذِي الْقَرْنَيْنِ أَحْسَنُ قَصَصِ الْمُلُوكِ وَقِصَّةُ أَهْلِ الْكَهْفِ أَحْسَنُ قَصَصِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ الَّذِينَ كَانُوا

فِي زَمَنِ الْفَتْرَةِ . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا قَصَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ أَحْسَنُ مِمَّا لَمْ يَقُصَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ قِصَّةَ يُوسُفَ أَحْسَنُ مَا قُصَّ فِي الْقُرْآنِ . وَأَيْنَ مَا جَرَى لِيُوسُفَ مِمَّا جَرَى لِمُوسَى وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الرُّسُلِ وَأَيْنَ مَا عُودِيَ أُولَئِكَ مِمَّا عُودِيَ فِيهِ يُوسُفُ وَأَيْنَ فَضْلُ أُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ وَعُلُوُّ دَرَجَتِهِمْ مِنْ يُوسُفَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ؟ وَأَيْنَ نَصْرُ أُولَئِكَ مِنْ نَصْرِ يُوسُفَ ؟ فَإِنَّ يُوسُفَ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وَأَذَلَّ اللَّهُ الَّذِينَ ظَلَمُوهُ ثُمَّ تَابُوا فَكَانَ فِيهَا مِنْ الْعِبْرَةِ أَنَّ الْمَظْلُومَ الْمَحْسُودَ إذَا صَبَرَ وَاتَّقَى اللَّهَ كَانَتْ لَهُ الْعَاقِبَةُ

(368/838)

وَأَنَّ الظَّالِمَ الْحَاسِدَ

(369/838)

قَدْ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَيَعْفُو عَنْهُ وَأَنَّ الْمَظْلُومَ يَنْبَغِي لَهُ الْعَفْوُ عَنْ ظَالِمِهِ إذَا قَدَرَ عَلَيْهِ . وَبِهَذَا ﴿ اعْتَبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ لَمَّا قَامَ عَلَى بَابِ الْكَعْبَةِ وَقَدْ أَذَلَّ اللَّهُ لَهُ الَّذِينَ عَادُوهُ وَحَارَبُوهُ مِنْ الطُّلَقَاءِ - فَقَالَ : مَاذَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ فَقَالُوا : نَقُولُ أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ عَمٍّ كَرِيمٌ . فَقَالَ : إنِّي قَائِلٌ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ﴾ . وَكَذَلِكَ ﴿ عَائِشَةُ لَمَّا ظُلِمَتْ وَافْتُرِيَ عَلَيْهَا وَقِيلَ لَهَا : إنْ كُنْت أَلْمَمْت بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إلَيْهِ فَقَالَتْ فِي كَلَامِهَا : أَقُولُ كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ ﴾ . فَفِي قِصَّةِ يُوسُفَ أَنْوَاعٌ مِنْ الْعِبْرَةِ لِلْمَظْلُومِ وَالْمَحْسُودِ وَالْمُبْتَلَى بِدَوَاعِي الْفَوَاحِشِ وَالذُّنُوبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . لَكِنْ أَيْنَ قِصَّةُ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَالْمَسِيحِ وَنَحْوِهِمْ مِمَّنْ كَانَتْ قِصَّتُهُ أَنَّهُ دَعَا الْخَلْقَ إلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَكَذَّبُوهُ وَآذَوْهُ وَآذَوْا مَنْ آمَنَ بِهِ ؟ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أُوذُوا اخْتِيَارًا مِنْهُمْ لِعِبَادَةِ اللَّهِ فَعُودُوا وَأُوذُوا فِي مَحَبَّةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ بِاخْتِيَارِهِمْ فَإِنَّهُمْ لَوْلَا إيمَانُهُمْ وَدَعْوَتُهُمْ الْخَلْقَ إلَى عِبَادَةِ اللَّهِ لَمَا أُوذُوا وَهَذَا بِخِلَافِ مَنْ أُوذِيَ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ كَمَا أُخِذَ يُوسُفُ مِنْ أَبِيهِ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ

وَلِهَذَا كَانَتْ مِحْنَةُ يُوسُفَ بِالنِّسْوَةِ وَامْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَاخْتِيَارِهِ السِّجْنَ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ

أَعْظَمَ مِنْ إيمَانِهِ وَدَرَجَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ وَأَجْرِهِ مِنْ صَبْرِهِ عَلَى ظُلْمِ إخْوَتِهِ لَهُ ؛ وَلِهَذَا يُعَظِّمُ يُوسُفُ بِهَذَا أَعْظَمَ مِمَّا يُعَظَّمُ بِذَلِكَ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى فِيهِ : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ وَهَذَا كَالصَّبْرِ عَنْ الْمَعَاصِي مَعَ الصَّبْرِ عَلَى الْمَصَائِبِ فَالْأَوَّلُ أَعْظَمُ وَهُوَ صَبْرُ الْمُتَّقِينَ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ . قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ التستري : أَفْعَالُ الْبِرِّ يَفْعَلُهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ وَلَنْ يَصْبِرَ عَنْ الْمَعَاصِي إلَّا صِدِّيقٌ وَيُوسُفُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا . وَأَمَّا مَنْ يُظْلَمُ بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِ وَيَصْبِرُ فَهَذَا كَثِيرٌ وَمَنْ لَمْ يَصْبِرْ صَبْرَ الْكِرَامِ سَلَا سُلُوَّ الْبَهَائِمِ . وَكَذَلِكَ إذَا مُكِّنَ الْمَظْلُومُ وَقَهَرَ ظَالِمَهُ فَتَابَ الظَّالِمُ وَخَضَعَ لَهُ فَعَفْوُهُ عَنْهُ مِنْ الْمَحَاسِنِ وَالْفَضَائِلِ لَكِنَّ هَذَا يَفْعَلُهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَعُقَلَاءِ الدُّنْيَا فَإِنَّ حِلْمَ الْمُلُوكِ وَالْوُلَاةِ أَجْمَعُ لِأَمْرِهِمْ وَطَاعَةِ النَّاسِ لَهُمْ وَتَأْلِيفِهِمْ لِقُلُوبِ النَّاسِ وَكَانَ مُعَاوِيَةُ مِنْ أَحْلَمِ النَّاسِ وَكَانَ الْمَأْمُونُ حَلِيمًا حَتَّى كَانَ يَقُولُ : لَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَحَبَّتِي فِي الْعَفْوِ تَقَرَّبُوا إلَيَّ بِالذُّنُوبِ وَلِهَذَا لَمَّا قَدَرَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِي الْمُلْكِ - وَهُوَ عَمُّهُ إبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ -

عَفَا عَنْهُ . وَأَمَّا الصَّبْرُ عَنْ الشَّهَوَاتِ وَالْهَوَى الْغَالِبِ لِلَّهِ لَا رَجَاءً لِمَخْلُوقِ وَلَا خَوْفًا مِنْهُ مَعَ كَثْرَةِ الدَّوَاعِي إلَى فِعْلِ الْفَاحِشَةِ

(372/838)

وَاخْتِيَارِهِ الْحَبْسَ الطَّوِيلَ عَلَى ذَلِكَ كَمَا قَالَ يُوسُفُ : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إلَيْهِ ﴾ فَهَذَا لَا يُوجَدُ نَظِيرُهُ إلَّا فِي خِيَارِ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ وَأَوْلِيَائِهِ

(373/838)

الْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ فَهَذَا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ : ﴿ إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ وَلِهَذَا لَمْ يَصْدُرْ مِنْ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ ذَنْبٌ أَصْلًا بَلْ الْهَمُّ الَّذِي هَمَّ بِهِ لَمَّا تَرَكَهُ لِلَّهِ كُتِبَ لَهُ بِهِ حَسَنَةً وَلِهَذَا لَمْ يَذْكُرْ عَنْهُ سُبْحَانَهُ تَوْبَةً وَاسْتِغْفَارًا كَمَا ذَكَرَ تَوْبَةَ الْأَنْبِيَاءِ كَآدَمَ وَدَاوُد وَنُوحٍ وَغَيْرِهِمْ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْ عَنْ أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءِ فَاحِشَةً وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَإِنَّمَا كَانَتْ تَوْبَاتُهُمْ مِنْ أُمُورٍ أُخَرَ هِيَ حَسَنَاتٌ بِالنِّسْبَةِ إلَى غَيْرِهِمْ وَلِهَذَا لَا يُعْرَفُ لِيُوسُفَ نَظِيرٌ فِيمَا

أُبْتُلِيَ بِهِ مِنْ دَوَاعِي الْفَاحِشَةِ وَتَقْوَاهُ وَصَبْرِهِ فِي ذَلِكَ . وَإِنَّمَا يُعْرَفُ لِغَيْرِهِ مَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ : إمَامٌ عَادِلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ مُعَلَّقٌ قَلْبُهُ بِالْمَسْجِدِ إذَا خَرَجَ حَتَّى يَعُودَ إلَيْهِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَى ذَلِكَ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ : إنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ﴾ وَإِذَا كَانَ الصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى لِئَلَّا يَفْعَلَ

الْفَاحِشَةَ أَعْظَمَ مِنْ صَبْرِهِ عَلَى ظُلْمِ إخْوَتِهِ فَكَيْفَ بِصَبْرِ الرُّسُلِ عَلَى أَذَى الْمُكَذِّبِينَ لِئَلَّا يَتْرُكُوا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ دَعْوَتِهِمْ إلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيِهِمْ عَنْ

الْمُنْكَرِ ؟ فَهَذَا الصَّبْرُ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إذْ كَانَ الْجِهَادُ مَقْصُودًا بِهِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَأَنَّ الدِّينَ كُلَّهُ لِلَّهِ فَالْجِهَادُ وَالصَّبْرُ فِيهِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَد وَالتِّرْمِذِي وَصَحَّحَهُ وَهُوَ مِنْ حَدِيثِ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ الطَّوِيلِ - وَهُوَ أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إلَى اللَّهِ - فَالصَّبْرُ عَلَى تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ صَبْرُ الْمُهَاجِرِ الَّذِي هَجَرَ مَا نُهِيَ عَنْهُ وَصَبْرُ الْمُجَاهِدِ الَّذِي جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللَّهِ وَجَاهَدَ عَدُوَّ اللَّهِ الظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ وَالْمُهَاجِرُ الصَّابِرُ عَلَى تَرْكِ الذَّنْبِ إنَّمَا جَاهَدَ نَفْسَهُ وَشَيْطَانَهُ ثُمَّ يُجَاهِدُ عَدُوَّ اللَّهِ الظَّاهِرَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَصَبْرُ الْمَظْلُومِ صَبْرُ الْمُصَابِ . لَكِنَّ الْمُصَابَ بِمُصِيبَةٍ سَمَاوِيَّةٍ تَصْبِرُ نَفْسُهُ مَا لَا تَصْبِرُ نَفْسُ مَنْ ظَلَمَهُ النَّاسُ فَإِنَّ ذَاكَ يَسْتَشْعِرُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي فَعَلَ بِهِ هَذَا فَتَيْأَسُ نَفْسُهُ مِنْ الدَّفْعِ وَالْمُعَاقَبَةِ وَأَخْذِ الثَّأْرِ بِخِلَافِ الْمَظْلُومِ الَّذِي ظَلَمَهُ النَّاسُ فَإِنَّ نَفْسَهُ تَسْتَشْعِرُ أَنَّ ظَالِمَهُ يُمْكِنُ دَفْعُهُ وَعُقُوبَتُهُ وَأَخْذُ ثَأْرِهِ مِنْهُ فَالصَّبْرُ عَلَى هَذِهِ الْمُصِيبَةِ أَفْضَلُ وَأَعْظَمُ كَصَبْرِ يُوسُفَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ وَهَذَا يَكُونُ لِأَنَّ صَاحِبَهُ

يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ ذَلِكَ فَيَصْبِرُ عَلَى ذَلِكَ كَالْمَصَائِبِ السَّمَاوِيَّةِ وَيَكُونُ أَيْضًا لِيَنَالَ ثَوَابَ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ

النَّاسِ وَاَللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَلِيُسْلِمَ قَلْبُهُ مِنْ الْغِلِّ لِلنَّاسِ وَكِلَا النَّوْعَيْنِ يَشْتَرِكُ فِي أَنَّ صَاحِبَهُ يَسْتَشْعِرُ أَنَّ ذَلِكَ بِذُنُوبِهِ وَهُوَ مِمَّا يُكَفِّرُ اللَّهُ بِهِ سَيِّئَاتِهِ وَيَسْتَغْفِرُ وَيَتُوبُ وَأَيْضًا فَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ الصَّبْرَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ وَأَنَّ الْجَزَعَ مِمَّا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ . وَإِنْ ارْتَقَى إلَى الرِّضَا رَأَى أَنَّ الرِّضَا جَنَّةُ الدُّنْيَا وَمُسْتَرَاحُ الْعَابِدِينَ وَبَابُ اللَّهِ الْأَعْظَمِ . وَإِنْ رَأَى ذَلِكَ نِعْمَةً لِمَا فِيهِ مِنْ صَلَاحِ قَلْبِهِ وَدِينِهِ وَقُرْبِهِ إلَى اللَّهِ وَتَكْفِيرِ سَيِّئَاتِهِ وَصَوْنِهِ عَنْ ذُنُوبٍ تَدْعُوهُ إلَيْهَا شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ شَكَرَ اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النِّعَمِ . فَالْمَصَائِبُ السَّمَاوِيَّةُ وَالْآدَمِيَّةُ تَشْتَرِكُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ وَمَعْرِفَةُ النَّاسِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ وَعِلْمُهُمْ بِهَا هُوَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ يَمُنُّ بِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ؛ وَلِهَذَا كَانَتْ أَحْوَالُ النَّاسِ فِي الْمَصَائِبِ وَغَيْرِهَا مُتَبَايِنَةً تَبَايُنًا عَظِيمًا . ثُمَّ إذَا شَهِدَ الْعَبْدُ الْقَدَرَ وَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ قَدَّرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ وَهُوَ الْخَالِقُ لَهُ فَهُوَ مَعَ الصَّبْرِ يُسَلِّمُ لِلرَّبِّ الْقَادِرِ الْمَالِكِ الَّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَهَذَا حَالُ الصَّابِرِ وَقَدْ يُسَلِّمُ تَسْلِيمَهُ لِلرَّبِّ الْمُحْسِنِ الْمُدَبِّرِ لَهُ بِحُسْنِ اخْتِيَارِهِ الَّذِي { لَا يَقْضِي لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ : إنْ أَصَابَتْهُ

سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ ﴾ كَمَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ صهيب عَنْ

(378/838)

النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَهَذَا تَسْلِيمُ رَاضٍ لِعِلْمِهِ بِحُسْنِ اخْتِيَارِ اللَّهِ لَهُ وَهَذَا يُورِثُ الشُّكْرَ . وَقَدْ يُسَلِّمُ تَسْلِيمَهُ لِلرَّبِّ الْمُحْسِنِ إلَيْهِ الْمُتَفَضِّلِ عَلَيْهِ بِنِعَمِ عَظِيمَةٍ . وَإِنْ لَمْ

(379/838)

يَرَ هَذَا نِعْمَةً فَيَكُونُ تَسْلِيمُهُ تَسْلِيمَ رَاضٍ غَيْرَ شَاكِرٍ . وَقَدْ يُسَلِّمُ تَسْلِيمَهُ لِلَّهِ الَّذِي لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِأَنْ يُعْبَدَ لِذَاتِهِ وَهُوَ مَحْمُودٌ عَلَى كُلِّ مَا يَفْعَلُهُ فَإِنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ رَحِيمٌ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا إلَّا لِحِكْمَةِ وَهُوَ مُسْتَحِقٌّ لِمَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَحَمْدِهِ عَلَى كُلِّ مَا خَلَقَهُ . فَهَذَا تَسْلِيمُ عَبْدٍ عَابِدٍ حَامِدٍ وَهَذَا مِنْ الْحَامِدِينَ الَّذِينَ هُمْ أَوَّلُ مَنْ يُدْعَى إلَى الْجَنَّةِ وَمَنْ بَيْنَهُمْ صَاحِبُ لِوَاءِ الْحَمْدِ وَآدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِهِ . وَهَذَا يَكُونُ الْقَضَاءُ خَيْرًا لَهُ وَنِعْمَةً مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِ . لَكِنْ يَكُونُ حَمْدُهُ لِلَّهِ وَرِضَاهُ بِقَضَائِهِ مِنْ حَيْثُ عَرَفَ اللَّهَ وَأَحَبَّهُ وَعَبَدَهُ

لِاسْتِحْقَاقِهِ الْأُلُوهِيَّةَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فَيَكُونُ صَبْرُهُ وَرِضَاهُ وَحَمْدُهُ مِنْ عِبَادَتِهِ الصَّادِرَةِ عَنْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَالشَّهَادَةِ وَهَذَا يَشْهَدُ بِقَلْبِهِ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَالْإِلَهُ عِنْدَهُ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ إلَّا مُجَرَّدَ رُبُوبِيَّتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَوْ مُجَرَّدَ إحْسَانِهِ وَنِعْمَتِهِ فَإِنَّهُمَا مَشْهَدَانِ نَاقِصَانِ قَاصِرَانِ وَإِنَّمَا يَقْتَصِرُ عَلَيْهِمَا مَنْ نَقَصَ عِلْمُهُ بِاَللَّهِ وَبِدِينِهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ كَأَهْلِ الْبِدَعِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ الْمُعْتَزِلَةِ فَإِنَّ الْأَوَّلَ مَشْهَدُ أُولَئِكَ وَالثَّانِي مَشْهَدُ هَؤُلَاءِ وَشُهُودُ رُبُوبِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ مَعَ شُهُودِ

(380/838)

رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ وَفَضْلِهِ مَعَ شُهُودِ إلَهِيَّتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَحَمْدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ وَمَجْدِهِ هُوَ مَشْهَدُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ التَّابِعِينَ بِإِحْسَانِ

(381/838)

لِلسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ . وَهَذِهِ الْأُمُورُ لِبَسْطِهَا مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ هَذَا يَكُونُ لِلْمُؤْمِنِ فِي عُمُومِ الْمَصَائِبِ وَمَا يَكُونُ بِأَفْعَالِ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُ فِيهِ كَظْمُ الْغَيْظِ

وَالْعَفْوُ عَنْ النَّاسِ . وَيُوسُفُ الصِّدِّيقُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ كَانَ لَهُ هَذَا وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ الصَّبْرُ عَنْ الْفَاحِشَةِ مَعَ قُوَّةِ الدَّاعِي إلَيْهَا فَهَذَا الصَّبْرُ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ الصَّبْرِ بَلْ وَأَعْظَمُ مِنْ الصَّبْرِ عَلَى الطَّاعَةِ . وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي وَصْفِ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ أَعَدَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ : ﴿ وَسَارِعُوا إلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ فَوَصَفَهُمْ بِالْكَرَمِ وَالْحِلْمِ وَبِالْإِنْفَاقِ وَكَظْمِ الْغَيْظِ وَالْعَفْوِ عَنْ النَّاسِ . ثُمَّ لَمَّا جَاءَتْ الشَّهَوَاتُ الْمُحَرَّمَاتُ وَصَفَهُمْ بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا فَقَالَ ﴿ وَالَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ

يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا ﴾ فَوَصَفَهُمْ بِالتَّوْبَةِ مِنْهَا وَتَرْكِ الْإِصْرَارِ عَلَيْهَا لَا بِتَرْكِ ذَلِكَ بِالْكُلِّيَّةِ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ﴿ كُتِبَ

عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ : فَالْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ وَزِنَاهُمَا النَّظَرُ وَالْأُذُنُ تَزْنِي وَزِنَاهَا السَّمْعُ وَاللِّسَانُ يَزْنِي وَزِنَاهُ الْمَنْطِقُ وَالْيَدُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْبَطْشُ وَالرِّجْلُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْمَشْيُ وَالْقَلْبُ يَتَمَنَّى وَيَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ ﴾ . وَفِي الْحَدِيثِ ﴿ كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ ﴾ . فَلَا بُدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ مُقَدِّمَاتِ الْكَبِيرَةِ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَقَعُ فِي الْكَبِيرَةِ فَيُؤْمَرُ بِالتَّوْبَةِ وَيُؤْمَرُونَ أَنْ لَا يُصِرُّوا عَلَى صَغِيرَةٍ فَإِنَّهُ لَا صَغِيرَةَ مَعَ إصْرَارٍ وَلَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ . وَيُوسُفُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَبَرَ عَلَى الذَّنْبِ مُطْلَقًا وَلَمْ يُوجَدْ مِنْهُ إلَّا هَمٌّ تَرَكَهُ لِلَّهِ كُتِبَ لَهُ بِهِ حَسَنَةً . وَقَدْ ذَكَرَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّهُ وُجِدَ مِنْهُ بَعْضُ الْمُقَدِّمَاتِ مِثْلُ حَلِّ السَّرَاوِيلِ وَالْجُلُوسِ مَجْلِسَ الْخَاتِنِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لَكِنْ لَيْسَ هَذَا مَنْقُولًا نَقْلًا يُصَدَّقُ بِهِ فَإِنَّ هَذَا لَمْ يُنْقَلْ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَمِثْلُ هَذِهِ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ إذَا لَمْ تُنْقَلْ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُعْرَفْ صِدْقُهَا وَلِهَذَا لَا يَجُوزُ تَصْدِيقُهَا

(383/838)

وَلَا تَكْذِيبُهَا إلَّا بِدَلِيلِ وَاَللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ فَدَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى أَنَّهُ صَرَفَ عَنْهُ السُّوءَ

(384/838)

وَالْفَحْشَاءَ مُطْلَقًا وَلَوْ كَانَ قَدْ فَعَلَ صَغِيرَةً لَتَابَ مِنْهَا . وَالْقُرْآنُ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ تَوْبَتِهِ . وَمَنْ وَقَعَ مِنْهُ بَعْضُ أَنْوَاعِ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ قَدْ صُرِفَ عَنْهُ بَلْ يَكُونُ قَدْ وَقَعَ وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْهُ وَالْقُرْآنُ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ هَذَا . وَقَدْ شَهِدَتْ النِّسْوَةُ لَهُ أَنَّهُنَّ مَا عَلِمْنَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ وَلَوْ كَانَ قَدْ بَدَتْ مِنْهُ هَذِهِ الْمُقَدِّمَاتُ لَكَانَتْ الْمَرْأَةُ قَدْ رَأَتْ ذَلِكَ وَهِيَ مِنْ النِّسْوَةِ اللَّاتِي شَهِدْنَ وَقُلْنَ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ وَقَالَتْ مَعَ ذَلِكَ : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ وَقَالَتْ : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ . وَقَوْلُهُ (سُوءٍ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمَرْأَةَ لَمْ تَرَ مِنْهُ سُوءًا فَإِنَّ الْهَمَّ فِي الْقَلْبِ لَمْ تَطَّلِعْ عَلَيْهِ وَلَوْ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ إذَا تَرَكَهُ لِلَّهِ كَانَ حَسَنَةً وَلَوْ تَرَكَهُ مُطْلَقًا لَمْ يَكُنْ حَسَنَةً وَلَا سَيِّئَةً فَإِنَّهُ لَا إثْمَ فِيهِ إلَّا مَعَ الْقَوْلِ أَوْ الْعَمَلِ . وَأَمَّا قِصَّةُ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرِهِمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَتِلْكَ أَعْظَمُ وَالْوَاقِعُ فِيهَا مِنْ الْجَانِبَيْنِ فَمَا فَعَلَتْهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ الدَّعْوَةِ إلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَدِينِهِ وَإِظْهَارِ آيَاتِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَمُجَاهَدَةِ الْمُكَذِّبِينَ لَهُمْ وَالصَّبْرِ عَلَى أَذَاهُمْ هُوَ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ وَلِهَذَا كَانُوا أَفْضَلَ مِنْ يُوسُفَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ

أَجْمَعِينَ وَمَا صَبَرُوا عَلَيْهِ وَعَنْهُ أَعْظَمُ مِنْ الَّذِي صَبَرَ يُوسُفُ عَلَيْهِ وَعَنْهُ وَعِبَادَتُهُمْ لِلَّهِ وَطَاعَتُهُمْ وَتَقْوَاهُمْ وَصَبْرُهُمْ بِمَا فَعَلُوهُ أَعْظَمُ مِنْ طَاعَةِ يُوسُفَ وَعِبَادَتِهِ وَتَقْوَاهُ أُولَئِكَ أُولُوا الْعَزْمِ الَّذِينَ خَصَّهُمْ اللَّهُ بِالذِّكْرِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ وَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ تَطْلُبُ مِنْهُمْ الْأُمَمُ الشَّفَاعَةَ وَبِهِمْ أَمَرَ خَاتَمَ الرُّسُلِ أَنْ يُقْتَدَى فِي الصَّبْرِ فَقِيلَ لَهُ : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ فَقَصَصُهُمْ أَحْسَنُ مِنْ قِصَّةِ يُوسُفَ ؛ وَلِهَذَا ثَنَّاهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ لَا سِيَّمَا قِصَّةَ مُوسَى . قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ : أَحْسَنُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ حَدِيثُ تَكْلِيمِ اللَّهِ لِمُوسَى .

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ قَدْ قِيلَ إنَّهُ مَصْدَرٌ وَقِيلَ إنَّهُ مَفْعُولٌ بِهِ وَالْقَوْلَانِ مُتَلَازِمَانِ . لَكِنَّ الصَّحِيحَ أَنَّ الْقَصَصَ مَفْعُولٌ بِهِ وَإِنْ كَانَ أَصْلُهُ مَصْدَرًا فَقَدْ غَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ فِي الْمَقْصُوصِ كَمَا فِي لَفْظِ الْخَبَرِ وَالنَّبَأِ وَالِاسْتِعْمَالُ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ وَقَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ أَهْلُ اللُّغَةِ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : وَقَدْ قَصَّ عَلَيْهِ الْخَبَرَ قَصَصًا وَالِاسْمُ

أَيضًا الْقَصَصُ بِالْفَتْحِ وُضِعَ مَوْضِعَ الْمَصْدَرِ حَتَّى صَارَ أَغْلَبَ عَلَيْهِ فَقَوْلُهُ أَحْسَنَ الْقَصَصِ كَقَوْلِهِ : نُخْبِرُكَ أَحْسَنَ الْخَبَرِ وَنُنَبِّئُكَ أَحْسَنَ النَّبَأِ

وَنُحَدِّثُكَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ . وَلَفْظُ " الْكَلَامِ " يُرَادُ بِهِ مَصْدَرُ كَلَّمَهُ تَكْلِيمًا وَيُرَادُ بِهِ نَفْسُ الْقَوْلِ فَإِنَّ الْقَوْلَ فِيهِ فِعْلٌ مِنْ الْقَائِلِ هُوَ مُسَمَّى الْمَصْدَرِ وَالْقَوْلُ يَنْشَأُ عَنْ ذَلِكَ الْفِعْلِ وَلِهَذَا تَارَةً يَجْعَلُ الْقَوْلَ نَوْعًا مِنْ الْفِعْلِ لِأَنَّهُ حَاصِلٌ بِعَمَلِ وَتَارَةً يَجْعَلُ قَسِيمًا لَهُ يُقَالُ : الْقَوْلُ وَالْعَمَلُ وَكَذَلِكَ قَدْ يُقَالُ فِي لَفْظِ " الْقَصَصِ " وَ " الْبَيَانِ " وَ " الْحَدِيثِ " وَ " الْخَبَرِ " وَنَحْوِ ذَلِكَ . فَإِذَا أُرِيدَ بِالْقَصَصِ وَنَحْوِهِ الْمَصْدَرُ الَّذِي مُسَمَّاهُ الْفِعْلُ فَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِلْقَوْلِ وَالْقَوْلُ تَابِعٌ وَإِذَا أُرِيدَ بِهِ نَفْسُ الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ فَهُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِلْفِعْلِ تَابِعٌ لِلْفِعْلِ . فَالْمَصَادِرُ الْجَارِيَةُ عَلَى سُنَنِ الْأَفْعَالِ يُرَادُ بِهَا الْفِعْلُ كَقَوْلِك كَلَّمْته تَكْلِيمًا وَأَخْبَرْته إخْبَارًا وَأَمَّا مَا لَمْ يَجْرِ عَلَى سُنَنِ الْفِعْلِ - مِثْلُ الْكَلَامِ وَالْخَبَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ - فَإِنَّ هَذَا إذَا أُطْلِقَ أُرِيدَ بِهِ الْقَوْلُ وَكَذَلِكَ قَدْ يُقَالُ فِي لَفْظِ الْقَصَصِ فَإِنَّ مَصْدَرَهُ الْقِيَاسِيَّ قَصًّا مِثْلَ عَدَّهُ عَدًّا وَمَدَّهُ مَدًّا وَكَذَلِكَ قَصَّهُ قَصًّا وَأَمَّا قَصَّصَ فَلَيْسَ هُوَ قِيَاسُ مَصْدَرِ الْمُضَعَّفِ وَلَمْ يَذْكُرُوا عَلَى كَوْنِهِ مَصْدَرًا إلَّا قَوْلَهُ ﴿ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ . بَلْ قَدْ يَكُونُ اسْمَ مَصْدَرٍ أُقِيمَ

مَقَامَهُ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ وَإِنْ جُعِلَ مَصْدَرَ قَصَّ الْأَثَرَ لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرَ قَصَّ الْحَدِيثَ

؛ لِأَنَّ الْحَدِيثَ خَبَرٌ وَنَبَأٌ فَكَانَ لَفْظُ قَصَصٍ كَلَفْظِ خَبَرٍ وَنَبَأٍ وَكَلَامٍ.

وَأَسْمَاءُ الْمَصَادِرِ فِي بَابِ الْكَلَامِ تَتَضَمَّنُ الْقَوْلَ نَفْسَهُ وَتَدُلُّ عَلَى فِعْلِ الْقَائِلِ بِطَرِيقِ التَّضَمُّنِ وَاللُّزُومِ فَإِنَّك إذَا قُلْت: الْكَلَامُ وَالْخَبَرُ وَالْحَدِيثُ وَالنَّبَأُ وَالْقَصَصُ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ قَوْلِك: التَّكْلِيمُ وَالْإِنْبَاءُ وَالْإِخْبَارُ وَالتَّحْدِيثُ وَلِهَذَا يُقَالُ إنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ وَاسْمُ الْمَصْدَرِ يَنْتَصِبُ عَلَى الْمَصْدَرِ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ فَإِذَا قَالَ: كَلَّمْته كَلَامًا حَسَنًا وَحَدَّثْته حَدِيثًا طَيِّبًا وَأَخْبَرْته أَخْبَارًا سَارَّةً وَقَصَصْت عَلَيْهِ قَصَصًا صَادِقَةً وَنَحْوَ ذَلِكَ كَانَ هَذَا مَنْصُوبًا عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ لَمْ يَكُنْ هَذَا كَقَوْلِك كَلَّمْته تَكْلِيمًا وَأَنْبَأْته إنْبَاءً. فَتَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَفْعُولِ وَكُلُّ مَا قَصَّهُ اللَّهُ فَهُوَ أَحْسَنُ الْقَصَصِ وَلَكِنَّ هَذَا إذَا كَانَ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الْمَصْدَرِ وَمَعْنَى الْمَفْعُولِ بِهِ جَازَ أَنْ يَنْتَصِبَ عَلَى الْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا فَإِنَّهُمَا مُتَلَازِمَانِ تَقُولُ: قُلْت قَوْلًا حَسَنًا وَقَدْ أَسْمَعْته قَوْلًا وَلَمْ يَسْمَعْ الْفِعْلَ الَّذِي هُوَ مُسَمَّى الْمَصْدَرِ وَإِنَّمَا سَمِعَ الصَّوْتَ وَتَقُولُ قَالَ يَقُولُ قَوْلًا فَتَجْعَلُهُ

مَصْدَرًا وَالصَّوْتُ نَفْسُهُ لَيْسَ هُوَ مُسَمَّى الْمَصْدَرِ إِنَّمَا مُسَمَّى الْمَصْدَرِ الْفِعْلُ الْمُسْتَلْزِمُ لِلصَّوْتِ وَلَكِنَّ هُمَا مُتَلَازِمَانِ .

(389/838)

وَلِهَذَا تَنَازَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ فِي التِّلَاوَةِ وَالْقُرْآنِ هَلْ هِيَ الْقُرْآنُ الْمَتْلُوُّ أَمْ لَا ؟ وَقَدْ تَفَطَّنَ ابْنُ قُتَيْبَةَ وَغَيْرُهُ لِمَا يُنَاسِبُ هَذَا الْمَعْنَى وَتَكَلَّمَ عَلَيْهِ وَسَبَبُ الِاشْتِبَاهِ أَنَّ الْمَتْلُوَّ هُوَ الْقُرْآنُ نَفْسُهُ الَّذِي هُوَ الْكَلَامُ وَالتِّلَاوَةُ قَدْ يُرَادُ بِهَا هَذَا وَقَدْ يُرَادُ بِهَا نَفْسُ حَرَكَةِ التَّالِي

(390/838)

وَفِعْلِهِ وَقَدْ يُرَادُ بِهَا الْأَمْرَانِ جَمِيعًا فَمَنْ قَالَ : التِّلَاوَةُ هِيَ الْمَتْلُوُّ أَرَادَ بِالتِّلَاوَةِ نَفْسَ الْقُرْآنِ الْمَسْمُوعِ وَذَلِكَ هُوَ الْمَتْلُوُّ وَمَنْ قَالَ غَيْرَهُ أَرَادَ بِالتِّلَاوَةِ حَرَكَةَ الْعَبْدِ وَفِعْلَهُ وَتِلْكَ لَيْسَتْ هِيَ الْقُرْآنَ وَمَنْ نَهَى عَنْ أَنْ يُقَالَ التِّلَاوَةُ هِيَ الْمَتْلُوُّ أَوْ غَيْرُ الْمَتْلُوِّ فَلِأَنَّ لَفْظَ التِّلَاوَةِ يَجْمَعُ الْأَمْرَيْنِ كَمَا نَهَى الْإِمَامُ أَحْمَد وَغَيْرُهُ عَنْ أَنْ يُقَالَ : لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ أَوْ غَيْرُ مَخْلُوقٍ ؛ لِأَنَّ اللَّفْظَ يُرَادُ بِهِ الْمَلْفُوظُ نَفْسُهُ الَّذِي هُوَ كَلَامُ اللَّهِ وَيُرَادُ بِهِ مَصْدَرُ لَفَظَ يَلْفِظُ لَفْظًا وَهُوَ فِعْلُ الْعَبْدِ

وَأَطْلَقَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ أَنَّ لَفْظِي بِالْقُرْآنِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَأَطْلَقَ نَاسٌ آخَرُونَ أَنَّ لَفْظِي بِهِ مَخْلُوقٌ قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: لَمْ يَتَنَازَعْ أَهْلُ الْحَدِيثِ فِي شَيْءٍ مِنْ أَقْوَالِهِمْ إلَّا فِي مَسْأَلَةِ اللَّفْظِ وَهَذَا كَانَ تَنَازُعُ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ الَّذِينَ كَانُوا فِي زَمَنِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَدْرَكُوهُ. ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ طَائِفَةٌ قَالُوا: التِّلَاوَةُ غَيْرُ الْمَتْلُوِّ وَأَرَادُوا بِالتِّلَاوَةِ نَفْسَ كَلَامِ اللَّهِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ وَأَرَادُوا بِالْمَتْلُوِّ مَعْنًى وَاحِدًا قَائِمًا بِذَاتِ اللَّهِ. وَقَالَ آخَرُونَ: التِّلَاوَةُ هِيَ الْمَتْلُوُّ وَأَرَادُوا بِالتِّلَاوَةِ نَفْسَ الْأَصْوَاتِ الْمَسْمُوعَةِ مِنْ الْقُرْآنِ جَعَلُوا مَا سَمِعَ مِنْ الْأَصْوَاتِ هُوَ نَفْسُ الْكَلَامِ الَّذِي لَيْسَ بِمَخْلُوقِ وَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ سَمَاعِ

الْكَلَامِ مِنْ الْمُتَكَلِّمِ وَبَيْنَ سَمَاعِهِ مِنْ الْمُبَلِّغِ لَهُ عَنْهُ فَزَادَ كُلٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ الْبِدَعِ مَا لَمْ يَكُنْ يَقُولُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْعِلْمِ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ

السُّنَّةِ مَنْ يَقُولُ: إنَّ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ لَيْسَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ وَلَا يَجْعَلُ الْمَتْلُوَّ مُجَرَّدَ مَعْنًى وَلَا كَانَ فِيهِمْ مَنْ يَقُولُ: إنَّ أَصْوَاتَ الْعِبَادِ - وَغَيْرَهَا مِنْ خَصَائِصِهِمْ - غَيْرُ مَخْلُوقٍ بَلْ هُمْ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْمَتْلُوَّ هُوَ الْقُرْآنُ الْعَرَبِيُّ الَّذِي نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ اللَّهِ بِالْحَقِّ وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ. وَلَكِنْ تَنَازَعُوا فِي تِلَاوَةِ الْعِبَادِ لَهُ: هَلْ هِيَ الْقُرْآنُ نَفْسُهُ أَمْ هِيَ

الْفِعْلُ الَّذِي يَقْرَأُ بِهِ الْقُرْآنَ ؟ . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ لَفْظَ " التِّلَاوَةِ " يُرَادُ بِهِ هَذَا وَهَذَا وَلَفْظُ " الْقُرْآنِ " يُرَادُ بِهِ الْمَصْدَرُ وَيُرَادُ بِهِ الْكَلَامُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ ﴿ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : إنَّ عَلَيْنَا أَنْ نَجْمَعَهُ فِي قَلْبِك وَتَقْرَأَهُ بِلِسَانِك . وَقَالَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ : يُقَالُ قَرَأْت الْكِتَابَ قِرَاءَةً وَقُرْآنًا وَمِنْهُ قَوْلُ حَسَّانَ :

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانَ السُّجُودِ بِهِ *** يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا

(392/838)

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ وَهُمْ إنَّمَا يَسْتَمِعُونَ الْكَلَامَ نَفْسَهُ وَلَا يَسْتَمِعُونَ

(393/838)

مُسَمَّى الْمَصْدَرِ الَّذِي هُوَ الْفِعْلُ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُسْمَعُ فَقَوْلُهُ ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ مِنْ هَذَا الْبَابِ مِنْ بَابِ نَقْرَأُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ وَنَتْلُو عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْ قِرَاءَةَ جِبْرِيلَ ﴿ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ فَاسْتَمِعْ لَهُ حَتَّى يَقْضِيَ قِرَاءَتَهُ . وَالْمَشْهُورُ فِي قَوْلِهِ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ﴾ أَنَّهُ مَنْصُوبٌ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ فَكَذَلِكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ لَكِنَّ فِي كِلَاهُمَا مَعْنَى الْمَصْدَرِ أَيْضًا كَمَا تَقَدَّمَ فَفِيهِ مَعْنَى الْمَفْعُولِ بِهِ وَمَعْنَى الْمَصْدَرِ جَمِيعًا وَقَدْ يَغْلِبُ هَذَا كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ فَالْمُرَادُ هُنَا نَفْسُ مُسَمَّى الْمَصْدَرِ وَقَدْ يَغْلِبُ هَذَا تَارَةً كَمَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ وَغَالِبُ مَا يَذْكُرُ لَفْظَ " الْقُرْآنِ " إنَّمَا يُرَادُ بِهِ نَفْسُ الْكَلَامِ لَا يُرَادُ بِهِ التَّكَلُّمُ بِالْكَلَامِ الَّذِي هُوَ مُسَمَّى الْمَصْدَرِ . وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي اللُّغَةِ يَكُونُ أَمْرَانِ مُتَلَازِمَانِ إمَّا دَائِمًا وَإِمَّا غَالِبًا فَيُطْلَقُ الِاسْمُ عَلَيْهِمَا وَيَغْلِبُ هَذَا تَارَةً وَهَذَا تَارَةً وَقَدْ يَقَعُ عَلَى أَحَدِهِمَا مُفْرَدًا كَلَفْظِ " النَّهْرِ " وَ " الْقَرْيَةِ " وَ " الْمِيزَابِ "

وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا فِيهِ حَالٌ وَمَحَلٌّ فَالِاسْمُ يَتَنَاوَلُ مَجْرَى الْمَاءِ وَالْمَاءُ الْجَارِي وَكَذَلِكَ لَفْظُ

الْقَرْيَةِ يَتَنَاوَلُ الْمَسَاكِنَ وَالسُّكَّانَ ثُمَّ تَقُولُ : حَفَرَ النَّهْرَ فَالْمُرَادُ بِهِ الْمَجْرَى وَتَقُولُ جَرَى النَّهْرُ فَالْمُرَادُ بِهِ الْمَاءُ وَتَقُولُ جَرَى الْمِيزَابُ تَعْنِي الْمَاءَ وَنَصَبَ الْمِيزَابَ تَعْنِي الْخَشَبَ . وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ ﴾ وَالْمُرَادُ السُّكَّانُ فِي الْمَكَانِ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ وَالْخَاوِي عَلَى عُرُوشِهِ الْمَكَانُ لَا السُّكَّانُ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾ لَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ بِالْقَرْيَةِ هُمْ السُّكَّانُ كَانَ إرَادَتُهُمْ أَكْثَرَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَكَذَلِكَ لَفْظُ النَّهْرِ لَمَّا كَانَ

الْمَقْصُودُ هُوَ الْمَاءُ كَانَ إرَادَتُهُ أَكْثَرَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴾ فَهَذَا كَثِيرٌ أَكْثَرُ مِنْ قَوْلِهِمْ حَفَرْنَا

(396/838)

النَّهْرَ . وَكَذَلِكَ إطْلَاقُ لَفْظِ الْقُرْآنِ عَلَى نَفْسِ الْكَلَامِ أَكْثَرُ مِنْ إطْلَاقِهِ عَلَى نَفْسِ التَّكَلُّمِ .
وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ وَالْقَصَصِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ
الْكَلَامِ يُرَادُ بِهَا نَفْسُ الْكَلَامِ أَكْثَرَ مِمَّا يُرَادُ بِهَا فِعْلُ الْمُتَكَلِّمِ وَهَذِهِ الْأُمُورُ لِبَسْطِهَا مَوْضِعٌ آخَرُ .

(397/838)

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ الْمُرَادُ الْكَلَامُ الَّذِي هُوَ أَحْسَنُ الْقَصَصِ وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا قَصَّهُ اللَّهُ لَمْ يَخُصَّ بِهِ سُورَةَ يُوسُفَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ بِمَا أَوْحَيْنَا إلَيْك هَذِهِ السُّورَةَ وَالْآثَارُ الْمَأْثُورَةُ فِي ذَلِكَ عَنْ السَّلَفِ تَدُلُّ كُلُّهَا عَلَى ذَلِكَ وَعَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ أَفْضَلُ مِنْ سَائِرِ الْكُتُبِ وَهُوَ الْمُرَادُ . وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا حَاصِلٌ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَسَوَاءٌ كَانَ أَحْسَنُ

الْقَصَصِ مَصْدَرًا أَوْ مَفْعُولًا أَوْ جَامِعًا لِلْأَمْرَيْنِ فَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ وَمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ الْقَصَصِ أَحْسَنُ مِنْ غَيْرِهِ فَإِنَّا قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّهُمَا مُتَلَازِمَانِ فَأَيُّهُمَا كَانَ أَحْسَنَ كَانَ الْآخَرُ أَحْسَنَ . فَتَبَيَّنَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ كَقَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ وَالْآثَارُ السَّلَفِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ . وَالسَّلَفُ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ وَأَحْسَنُ الْقَصَصِ كَمَا أَنَّهُ الْمُهَيْمِنُ عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ كُتُبِ السَّمَاءِ فَكَيْفَ يُقَالُ : إنَّ كَلَامَ اللَّهِ كُلَّهُ لَا فَضْلَ لِبَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ الْمَسْعُودِيِّ ﴿ عَنْ الْقَاسِمِ أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَلُّوا مَلَّةً فَقَالُوا : حَدِّثْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ ثُمَّ مَلُّوا مَلَّةً فَقَالُوا :

حَدِّثْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَنَزَلَتْ : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾

ثُمَّ مَلُّوا مِلَّةً فَقَالُوا : حَدِّثْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ . وَقَدْ رَوَى أَبُو عُبَيْدٍ فِي " فَضَائِلِ الْقُرْآنِ " عَنْ بَعْضِ التَّابِعِينَ فَقَالَ حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ عَنْ الْمَسْعُودِيِّ عَنْ ﴿ عَوْنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عتبة قَالَ : مَلَّ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِلَّةً فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ قَالَ : ثُمَّ نَعَتَهُ فَقَالَ : ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ إلَى آخِرِ الْآيَةِ قَالَ : ثُمَّ مَلُّوا مِلَّةً أُخْرَى فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ حَدِّثْنَا شَيْئًا فَوْقَ الْحَدِيثِ وَدُونَ الْقُرْآنِ يَعْنُونَ الْقَصَصَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ - إلَى قَوْلِهِ - ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ قَالَ : فَإِنْ أَرَادُوا الْحَدِيثَ دَلَّهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْحَدِيثِ وَإِنْ أَرَادُوا الْقَصَصَ دَلَّهُمْ عَلَى أَحْسَنِ الْقَصَصِ . ﴾ وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِإِسْنَادِ حَسَنٍ مَرْفُوعًا عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ ﴿ عَنْ سَعْدٍ قَالَ : نَزَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقُرْآنُ فَتَلَاهُ عَلَيْهِمْ زَمَانًا . فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ قَصَصْت عَلَيْنَا . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ الر ﴾ ﴿ تِلْكَ

فَتَلَاهُ عَلَيْهِمْ زَمَانًا ﴾ . وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ أَحْسَنَ الْكَلَامِ نُهُوا عَنْ اتِّبَاعِ مَا سِوَاهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ . وَرَوَى النَّسَائِي وَغَيْرُهُ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ رَأَى بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ شَيْئًا مِنْ التَّوْرَاةِ فَقَالَ : لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا ثُمَّ اتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي لَضَلَلْتُمْ . ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ ﴿ مَا وَسِعَهُ إلَّا اتِّبَاعِي . ﴾ وَفِي لَفْظٍ : ﴿ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِ عُمَرُ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْأَنْصَارِ : يَا ابْنَ الْخَطَّابِ أَلَا تَرَى إلَى وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : رَضِينَا بِاَللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا . ﴾ وَلِهَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَنْهَوْنَ عَنْ اتِّبَاعِ كُتُبٍ غَيْرِ الْقُرْآنِ . وَعُمَرُ انْتَفَعَ بِهَذَا حَتَّى أَنَّهُ لَمَّا فُتِحَتْ الْإِسْكَنْدَرِيَّةُ وُجِدَ فِيهَا كُتُبٌ كَثِيرَةٌ مِنْ كُتُبِ الرُّومِ فَكَتَبُوا فِيهَا إلَى عُمَرَ فَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُحْرَقَ وَقَالَ : حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ بْنُ خَلِيلٍ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إسْحَاقَ عَنْ خَلِيفَةَ بْنِ قَيْسٍ عَنْ خَالِدِ بْنِ عرفطة قَالَ : كُنْت عِنْدَ عُمَرَ بْنِ

الْخَطَّابِ إِذْ أُتِيَ بِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ مَسْكَنُهُ بِالسُّوسِ . فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : أَنْتَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ العبدي ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : وَأَنْتَ النَّازِلُ بِالسُّوسِ

(402/838)

؟ قَالَ : نَعَمْ . فَضَرَبَهُ بِقَنَاةٍ مَعَهُ فَقَالَ لَهُ : مَا ذَنْبِي ؟ قَالَ

(403/838)

فَقَرَأَ عَلَيْهِ ﴿ الر ﴾ ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَضَرَبَهُ ثَلَاثَ ضَرَبَاتٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ عُمَرُ : أَنْتَ الَّذِي انتسخت كِتَابَ دَانْيَالَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : اذْهَبْ فَامْحُهُ بِالْحَمِيمِ وَالصُّوفِ الْأَبْيَضِ وَلَا تَقْرَأْهُ وَلَا تُقْرِئْهُ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ . فَقَرَأَ عَلَيْهِ عُمَرُ هَذِهِ الْآيَةَ لِيُبَيِّنَ لَهُ أَنَّ الْقُرْآنَ أَحْسَنُ الْقَصَصِ فَلَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إلَى غَيْرِهِ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقَصَصَ عَامٌّ لَا يَخْتَصُّ بِسُورَةِ يُوسُفَ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ أَفْضَلُ مِنْ كِتَابِ دَانْيَالَ وَنَحْوِهِ مِنْ كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ . وَكَذَلِكَ مِثْلُ هَذِهِ الْقِصَّةِ مَأْثُورَةٌ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ

لَمَّا أُتِيَ بِمَا كُتِبَ مِنْ الْكُتُبِ مَحَاهُ وَذَكَرَ فَضِيلَةَ الْقُرْآنِ كَمَا فَعَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا .
وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قتادة ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ قَالَ : مِنْ الْكُتُبِ الْمَاضِيَةِ وَأُمُورِ اللَّهِ السَّالِفَةِ فِي الْأُمَمِ ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ . وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَحْسَنَ الْقَصَصِ يَعُمُّ هَذَا كُلَّهُ ؛ بَلْ لَفْظُ " الْقَصَصِ " يَتَنَاوَلُ مَا قَصَّهُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ غَيْرَ أَخْبَارِ الْأُمَمِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا ﴾ وَقَالَ فِي

(404/838)

مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إلَيْكَ

(405/838)

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ . وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِالْإِسْنَادِ الْمَعْرُوفِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : مُؤْتَمَنًا عَلَيْهِ . قَالَ : وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ وَالْحَسَنِ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ أَنَّهُ الْأَمِينُ . وَرُوِيَ مِنْ تَفْسِيرِ الْوَالِبِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ

قَالَ : الْمُهَيْمِنُ الْأَمِينُ قَالَ : عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ وَكَذَلِكَ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : مُصَدِّقًا بِهَذِهِ الْكُتُبِ وَأَمِينًا عَلَيْهَا . وَمِنْ تَفْسِيرِ الْوَالِبِيِّ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ قَالَ : شَهِيدًا وَكَذَلِكَ قَالَ السدي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَالَ فِي قَوْلِهِ : " وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ " عَلَى كُلِّ كِتَابٍ قَبْلَهُ . قَالَ : وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةَ وَعَطِيَّةَ وَعَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَقَتَادَة والسدي وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ نَحْوُ ذَلِكَ . وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ قَدْ ذَكَرَ فِي أَوَّلِ كِتَابِهِ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّهُ طُلِبَ مِنْهُ إخْرَاجُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ مُخْتَصَرًا بِأَصَحِّ الْأَسَانِيدِ وَأَنَّهُ تَحَرَّى إخْرَاجَهُ بِأَصَحِّ الْأَخْبَارِ إسْنَادًا وَأَشْبَعِهَا مَتْنًا وَذَكَرَ إسْنَادَهُ عَنْ كُلِّ مَنْ نَقَلَ عَنْهُ شَيْئًا . فَالسَّلَفُ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْمُهَيْمِنُ الْمُؤْتَمَنُ الشَّاهِدُ عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكُتُبِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُهَيْمِنَ عَلَى الشَّيْءِ أَعْلَى مِنْهُ مَرْتَبَةً . وَمِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ " الْمُهَيْمِنُ " وَيُسَمَّى الْحَاكِمُ عَلَى النَّاسِ الْقَائِمُ بِأُمُورِهِمْ "

الْمُهَيْمِنُ " . قَالَ الْمُبَرِّدُ وَالْجَوْهَرِيُّ وَغَيْرُهُمَا : الْمُهَيْمِنُ فِي اللُّغَةِ الْمُؤْتَمَنُ . وَقَالَ الْخَلِيلُ : الرَّقِيبُ الْحَافِظُ وَقَالَ الْخَطَّابِيُّ : الْمُهَيْمِنُ

الشَّهِيدُ . قَالَ وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ : الْهَيْمَنَةُ الْقِيَامُ عَلَى الشَّيْءِ وَالرِّعَايَةُ لَهُ وَأَنْشَدَ : أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ نَبِيِّهِمْ مُهَيْمِنُهُ التَّالِيهِ فِي الْعُرْفِ وَالنُّكْرِ يُرِيدُ الْقَائِمُ عَلَى النَّاسِ بِالرِّعَايَةِ لَهُمْ . وَفِي مُهَيْمِنٍ قَوْلَانِ : قِيلَ أَصْلُهُ مؤيمن وَالْهَاءُ مُبَدَّلَةٌ مِنْ الْهَمْزَةِ وَقِيلَ بَلْ الْهَاءُ أَصْلِيَّةٌ . وَهَكَذَا الْقُرْآنُ فَإِنَّهُ قَرَّرَ مَا فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنْ الْخَبَرِ عَنْ اللَّهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَزَادَ ذَلِكَ بَيَانًا وَتَفْصِيلًا . وَبَيَّنَ الْأَدِلَّةَ وَالْبَرَاهِينَ عَلَى ذَلِكَ وَقَرَّرَ نُبُوَّةَ الْأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ وَرِسَالَةَ الْمُرْسَلِينَ وَقَرَّرَ الشَّرَائِعَ الْكُلِّيَّةَ الَّتِي بُعِثَتْ بِهَا الرُّسُلُ كُلُّهُمْ . وَجَادَلَ الْمُكَذِّبِينَ بِالْكُتُبِ وَالرُّسُلِ بِأَنْوَاعِ الْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ وَبَيَّنَ عُقُوبَاتِ اللَّهِ لَهُمْ وَنَصْرَهُ لِأَهْلِ الْكُتُبِ الْمُتَّبِعِينَ لَهَا وَبَيَّنَ مَا حُرِّفَ مِنْهَا وَبُدِّلَ وَمَا فَعَلَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَبَيَّنَ أَيْضًا مَا كَتَمُوهُ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِبَيَانِهِ وَكُلُّ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّبُوَّاتُ بِأَحْسَنِ الشَّرَائِعِ وَالْمَنَاهِجِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ فَصَارَتْ لَهُ الْهَيْمَنَةُ عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكُتُبِ مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَهُوَ شَاهِدٌ بِصِدْقِهَا وَشَاهِدٌ بِكَذِبِ مَا حُرِّفَ مِنْهَا وَهُوَ حَاكِمٌ بِإِقْرَارِ مَا أَقَرَّهُ اللَّهُ وَنَسْخِ مَا نَسَخَهُ فَهُوَ شَاهِدٌ فِي الْخَبَرِيَّاتِ حَاكِمٌ فِي الْأَمْرِيَّاتِ .

وكذلك معنى " الشّهادة " و" الْحكْم " يتضمّن إثْبات ما أثْبته اللّهُ من صدْقٍ ومُحْكمٍ وإبْطال ما أبْطلهُ من كذبٍ ومنْسوخٍ وليْس الْإنْجيل مع التّوْراة ولا الزّبور بهذه الْمثابة بلْ هي مُتّبعةٌ لشريعة التّوْراة إلّا يسيرًا نسخهُ اللّهُ بالْإنْجيل ؛ بخلاف الْقرْآن . ثُمّ إنّهُ مُعْجزٌ في نفْسه لا يقْدرُ الْخلائقُ أنْ يأْتوا بمثْله ففيه دعْوةُ الرّسول وهُو آيةُ الرّسول وبُرْهانُهُ على صدْقه ونُبُوّته وفيه ما جاء به الرّسُول وهو نفْسُهُ بُرْهانٌ على ما جاء به . وفيه أيْضًا منْ ضرْب الْأمْثال وبيان الْآيات على تفْضيل ما جاء به الرّسول ما لوْ جُمع إليْه عُلوم جميع الْعُلماء لمْ يكُنْ ما عنْدهُمْ إلّا بعْض ما في الْقُرْآن . ومنْ تأمّل ما تكلّم به الْأوّلُون والآخرون في أُصول الدّين والْعُلوم الْإلهيّة وأُمور الْمعاد والنُّبوّات والْأخْلاق والسّياسات والْعبادات وسائر ما فيه كمال النُّفُوس وصلاحها وسعادتها ونجاتها لمْ يجدْ عنْد الْأوّلين والآخرين منْ أهْل النُّبُوّات ومنْ أهْل الرّأْي كالمتفلسفة وغيْرهمْ إلّا بعْض ما جاء به الْقُرْآنُ . ولهذا لمْ تحْتجْ الْأُمّةُ مع رسُولها وكتابها إلى نبيٍّ آخر وكتاب آخر ؛ فضْلًا عنْ أنْ تحْتاج إلى شيْءٍ لا يسْتقلُّ بنفْسه غيْرُهُ سواءٌ كان منْ علْم الْمحدّثين والْمُلْهمين أوْ منْ علْم أرْباب النّظر والْقياس الّذين لا يعْتصمون مع

ذَلِكَ بِكِتَابٍ مُنَزَّلٍ مِنْ السَّمَاءِ . وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ﴿ إنَّهُ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَعُمَرُ ﴾ . فَعَلَّقَ ذَلِكَ تَعْلِيقًا فِي أُمَّتِهِ مَعَ جَزْمِهِ بِهِ فِيمَنْ تَقَدَّمَ لِأَنَّ الْأُمَمَ قَبْلَنَا كَانُوا مُحْتَاجِينَ إلَى الْمُحَدَّثِينَ كَمَا كَانُوا مُحْتَاجِينَ إلَى نَبِيٍّ بَعْدَ نَبِيٍّ وَأَمَّا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَغْنَاهُمْ اللَّهُ بِرَسُولِهِمْ وَكِتَابِهِمْ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ حَتَّى أَنَّ الْمُحَدَّثَ مِنْهُمْ كَعُمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنَّمَا يُؤْخَذُ مِنْهُ مَا وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَإِذَا حَدَّثَ شَيْئًا فِي قَلْبِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَقْبَلَهُ حَتَّى يَعْرِضَهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَكَذَلِكَ لَا يَقْبَلُهُ إلَّا إنْ وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ . وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ فِي فَضَائِلِ الْقُرْآنِ عَلَى مَا سِوَاهُ . وَالْمَقْصُودُ أَنْ نُبَيِّنَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا هُوَ مِنْ الْعِلْمِ الْمُسْتَقِرِّ فِي نُفُوسِ الْأُمَّةِ السَّابِقِينَ وَالتَّابِعِينَ وَلَمْ يُعْرَفْ قَطُّ أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ رَدَّ مِثْلَ هَذَا وَلَا قَالَ : لَا يَكُونُ كَلَامُ اللَّهِ بَعْضُهُ أَشْرَفُ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّهُ كُلَّهُ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ إنَّمَا حَدَثَ هَذَا الْإِنْكَارُ لَمَّا ظَهَرَتْ بِدَعُ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ وَجَعَلُوهُ عِضِينَ .

وَمِمَّنْ ذَكَرَ " تَفْضِيلَ بَعْضِ الْقُرْآنِ عَلَى بَعْضٍ فِي نَفْسِهِ " أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَغَيْرُهُمَا كَالشَّيْخِ أَبِي حَامِدٍ الإسفرائيني وَالْقَاضِي أَبِي الطَّيِّبِ وَأَبِي إسْحَاقَ الشِّيرَازِيِّ وَغَيْرِهِمْ وَمِثْلِ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَالْحَلْوَانِيِّ الْكَبِيرِ وَابْنِهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَابْنِ عَقِيلٍ . قَالَ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ فِي

(411/838)

"كِتَابِ الْوَاضِحِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ " فِي احْتِجَاجِهِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يُنْسَخُ بِالسَّنَةِ قَالَ : فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ وَلَيْسَتْ السُّنَّةُ مِثْلَ الْقُرْآنِ وَلَا خَيْرًا مِنْهُ فَبَطَلَ النَّسْخُ بِهَا لِأَنَّهُ يُؤَدِّي إلَى الْمُحَالِ وَهُوَ كَوْنُ خَبَرِهِ بِخِلَافِ مُخْبِرِهِ وَذَلِكَ مُحَالٌ عَلَى اللَّهِ فَمَا أَدَّى إلَيْهِ فَهُوَ مُحَالٌ . قَالَ : فَإِنْ قِيلَ : أَصْلُ اسْتِدْلَالِكُمْ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْخَيْرِ الْفَضْلُ وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ ذَلِكَ وَإِنَّمَا الْمُرَادُ نَأْتِ بِخَيْرِ مِنْهَا لَكُمْ وَذَلِكَ يَرْجِعُ إلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ فِي حَقِّنَا : إمَّا سُهُولَةٌ فِي التَّكْلِيفِ فَهُوَ خَيْرٌ عَاجِلٌ أَوْ أَكْثَرُ ثَوَابًا لِكَوْنِهِ أَثْقَلَ وَأَشَقَّ وَيَكُونُ نَفْعًا فِي الْآجِلِ وَالْعَاقِبَةِ وَكِلَاهُمَا قَدْ يَتَحَقَّقُ بِطَرِيقِ السُّنَّةِ . وَيَحْتَمِلُ : نَأْتِ بِخَيْرِ مِنْهَا لَا نَاسِخًا لَهَا بَلْ يَكُونُ تَكْلِيفًا مُبْتَدَأً هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ طَرِيقُهُ الْقُرْآنَ النَّاسِخَ وَلَا السُّنَّةُ النَّاسِخَةُ . قَالُوا : يُوَضِّحُ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ أَنَّ الْقُرْآنَ نَفْسَهُ لَيْسَ بَعْضُهُ

خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَصْرِفُوا اللَّفْظَ عَنْ ظَاهِرِهِ مِنْ خَيْرٍ يَعُودُ إلَى التَّكْلِيفِ لَا إلَى الطَّرِيقِ . وَقَالَ فِي الْجَوَابِ : قَوْلُهُمْ : الْخَيْرُ يَرْجِعُ إلَى مَا يَخُصُّنَا مِنْ سُهُولَةٍ أَوْ ثَوَابٍ لَا يَصِحُّ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ ذَلِكَ لَقَالَ : " لَكُمْ " . فَلَمَّا حَذَفَ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْإِطْلَاقُ وَهُوَ كَوْنُ النَّاسِخِ خَيْرًا مِنْ

(412/838)

جِهَةِ نَفْسِهِ وَذَاتِهِ وَمِنْ جِهَةِ الِانْتِفَاعِ بِهِ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ عَلَى أَنَّ ظَاهِرَهُ يَقْتَضِي

(413/838)

بِآيَاتٍ خَيْرٍ مِنْهَا فَإِنَّ ذَلِكَ يَعُودُ إلَى الْجِنْسِ كَمَا إذَا قَالَ الْقَائِلُ : مَا آخُذُ مِنْك دِينَارًا إلَّا أُعْطِيك خَيْرًا مِنْهُ لَا يُعْقَلُ بِالْإِطْلَاقِ إلَّا دِينَارًا خَيْرًا مِنْهُ فَيَتَخَيَّرُ مِنْ الْجِنْسِ أَوَّلًا ثُمَّ النَّفْعِ فَإِمَّا أَنْ يَرْجِعَ ذَلِكَ إلَى ثَوْبٍ أَوْ عَرَضٍ غَيْرِ الدِّينَارِ فَلَا وَفِي آخِرِ الْآيَةِ مَا يَشْهَدُ بِأَنَّهُ أَرَادَ بِهِ الْقُرْآنَ لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وَوَصْفُهُ لِنَفْسِهِ بِالْقُدْرَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الَّذِي يَأْتِي بِهِ هُوَ أَمْرٌ يَرْجِعُ إلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ يَشْهَدُ لِمَا ذَكَرْنَاهُ لِأَنَّ

الْمُمَاثَلَةَ يَقْتَضِي إِطْلَاقَهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لَا سِيَّمَا وَقَدْ أَنَّثَهَا تَأْنِيثَ الْآيَةِ فَكَأَنَّهُ قَالَ: نَأْتِ بِآيَةٍ خَيْرٍ مِنْهَا أَوْ بِآيَةٍ مِثْلِهَا . "قُلْت" : وَأَيْضًا فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْخَيْرِ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ أَخَفَّ عَمَلًا أَوْ أَشَقَّ وَأَكْثَرَ ثَوَابًا لِأَنَّ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ ثَابِتَانِ لِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مُبْتَدَأً وَنَاسِخًا فَإِنَّهُ إمَّا أَنْ يَكُونَ أَيْسَرَ مِنْ غَيْرِهِ فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَشَقَّ فَيَكُونُ ثَوَابُهُ أَكْثَرَ فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ لَازِمَةً لِجَمِيعِ الْأَحْكَامِ لَمْ يَحْسُنْ أَنْ يُقَالَ مَا نَنْسَخُ مِنْ حُكْمٍ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهُ أَوْ مِثْلِهِ فَإِنَّ الْمَنْسُوخَ أَيْضًا يَكُونُ خَيْرًا وَمِثْلًا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَإِنَّهُمْ إنْ فَسَّرُوا الْخَيْرَ بِكَوْنِهِ أَسْهَلَ فَقَدْ يَكُونُ الْمَنْسُوخُ أَسْهَلَ فَيَكُونُ خَيْرًا وَإِنْ فَسَّرُوهُ بِكَوْنِهِ أَعْظَمَ

(414/838)

أَجْرًا لِمَشَقَّتِهِ فَقَدْ يَكُونُ الْمَنْسُوخُ كَذَلِكَ وَاَللَّهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ بِخَيْرٍ مِمَّا يَنْسَخُهُ أَوْ مِثْلِهِ فَلَا يَأْتِي بِمَا هُوَ دُونَهُ .

(415/838)

وأيضا فعلى ما قالوه لا يكون شيء خيرا من شيء بل إن كان خيرا من جهة السهولة فذلك خير من جهة كثرة الأجر . قال ابن عقيل : وأما قولهم إن القرآن في نفسه لا يتخاير ولا يتفاضل فعلم أنه لم يرد به الخير الذي هو الأفضلية فليس كذلك فإن توحيد الله الذي في " سورة الإخلاص " وما ضمنها من نفي التجزؤ والانقسام أفضل من " تبت " المتضمنة ذم أبي لهب وذم زوجته إن شئت في كون المدح أفضل من القدح وإن شئت في الإعجاز فإن تلاوة غيرها من الآيات التي تظهر منها الفصاحة والبيان أفضل وليس من حيث كان المتكلم واحدا لا يكون التفاضل لمعنى يعود إلى الكلام ثانيا كما أن المرسل واحد لذي النون وإبراهيم وإبراهيم أفضل من ذي النون . قال : وأما قولهم : ﴿ نأت بخير منها ﴾ لا يكون ناسخا بل مبتدأ فلا يصح لأنه خرج مخرج الجزاء مجزوما وهذا يعطي البدلية والمقابلة مثل قولهم : إن تكرمني أكرمك وإن أطعتني أطعتك يقتضي أن يكون الجزاء مقابلة وبدلا لا فعلا مبتدأ . قلت : المقصود هنا ذكر ما نصره - من كون القرآن في نفسه بعضه خيرا من بعض - ليس المقصود الكلام في مسألة النسخ وكذلك غير هؤلاء صرحوا بأن بعض القرآن قد يكون خيرا من

بَعْضٍ وَمِمَّنْ ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ فِي كِتَابِهِ " جَوَاهِرُ الْقُرْآنِ " قَالَ :

لَعَلَّكَ تَقُولُ قَدْ تَوَجَّهَ قَصْدُكَ فِي هَذِهِ التَّنْبِيهَاتِ إِلَى تَفْضِيلِ بَعْضِ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَى بَعْضٍ وَالْكُلُّ كَلَامُ اللَّهِ فَكَيْفَ يُفَارِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا ؟ وَكَيْفَ يَكُونُ بَعْضُهَا أَشْرَفَ مِنْ بَعْضٍ ؟ فَاعْلَمْ أَنَّ نُورَ الْبَصِيرَةِ إِنْ كَانَ لَا يُرْشِدُكَ إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَآيَةِ الْمُدَايَنَاتِ وَبَيْنَ سُورَةِ الْإِخْلَاصِ وَسُورَةِ تَبَّتْ وَتَرْتَاعُ مِنْ اعْتِقَادِ الْفَرْقِ نَفْسُكَ الْخَوَّارَةُ الْمُسْتَغْرِقَةُ فِي التَّقْلِيدِ فَقَلِّدْ صَاحِبَ الشَّرْعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ فَهُوَ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ وَقَالَ : ﴿ قَلْبُ الْقُرْآنِ يس ﴾ وَقَدْ دَلَّتْ الْأَخْبَارُ عَلَى شَرَفِ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ فَقَالَ : ﴿ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ أَفْضَلُ سُوَرِ الْقُرْآنِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ آيَةُ الْكُرْسِيِّ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ﴾ وَالْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ فِي فَضَائِلِ قَوَارِعِ الْقُرْآنِ وَتَخَصُّصِ بَعْضِ السُّوَرِ وَالْآيَاتِ بِالْفَضْلِ وَكَثْرَةِ الثَّوَابِ فِي تِلَاوَتِهَا لَا تُحْصَى فَاطْلُبْهُ مِنْ كُتُبِ الْحَدِيثِ إنْ أَرَدْت . وَنُنَبِّهُكَ الْآنَ عَلَى مَعْنَى هَذِهِ الْأَخْبَارِ الْأَرْبَعَةِ فِي تَفْضِيلِ هَذِهِ السُّوَرِ . قُلْت : وَسَنَذْكُرُ إنْ شَاءَ اللَّهُ مَا ذَكَرَهُ فِي تَفْضِيلِ (﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . وَمِمَّنْ ذَكَرَ كَلَامَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ وَحَكَى هَذَا الْقَوْلَ عَمَّنْ حَكَاهُ مِنْ السَّلَفِ الْقَاضِي عِيَاضٌ فِي " شَرْحِ مُسْلِمٍ " قَالَ

فِي ﴿ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُبَيٍّ : أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ ؟ وَذَكَرَ آيَةَ

الْكُرْسِيِّ ﴾ فِيهِ حُجَّةٌ لِتَفْضِيلِ بَعْضِ الْقُرْآنِ عَلَى بَعْضٍ

وَتَفْضِيلِ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ كُتُبِ اللَّهِ عِنْدَ مَنْ اخْتَارَهُ : مِنْهُمْ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْهِ وَغَيْرُهُ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ . قَالَ : وَذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى عِظَمِ أَجْرِ قَارِئِي ذَلِكَ وَجَزِيلِ ثَوَابِهِ عَلَى بَعْضِهِ أَكْثَرُ مِنْ سَائِرِهِ . قَالَ : وَهَذَا مِمَّا اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِيهِ فَأَبَى ذَلِكَ الْأَشْعَرِيُّ وَابْنُ الْبَاقِلَانِي وَجَمَاعَةٌ مِنْ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ لِأَنَّ مُقْتَضَى الْأَفْضَلِ نَقْصُ الْمَفْضُولِ عَنْهُ وَكَلَامُ اللَّهِ لَا يَتَبَعَّضُ . قَالُوا : وَمَا وَرَدَ مِنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : " أَفْضَل " وَ " أَعْظَمُ " لِبَعْضِ الْآيِ وَالسُّوَرِ فَمَعْنَاهُ عَظِيمٌ وَفَاضِلٌ . قَالَ : وَقِيلَ : كَانَتْ آيَةُ الْكُرْسِيِّ أَعْظَمَ لِأَنَّهَا جَمَعَتْ أُصُولَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنْ الْإِلَهِيَّةِ وَالْحَيَاةِ والوحدانية وَالْعِلْمِ وَالْمُلْكِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَهَذِهِ السَّبْعَةُ قَالُوا هِيَ

أُصُولُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ . قُلْت : الْمَقْصُودُ مَا ذَكَرَهُ مِنْ كَلَامِ الْعُلَمَاءِ وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ إنَّ هَذِهِ السَّبْعَةَ هِيَ أُصُولُ الْأَسْمَاءِ . فَهَذِهِ السَّبْعَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ هِيَ الْمَعْرُوفَةُ بِالْعَقْلِ وَمَا سِوَاهَا قَالُوا إنَّمَا يُعْلَمُ بِالسَّمْعِ وَهَذَا أَمْرٌ يَرْجِعُ إلَى طَرِيقِ عِلْمِنَا لَا إلَى أَمْرٍ حَقِيقِيٍّ ثَابِتٍ لَهَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَكَيْفَ وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ مَا سِوَاهَا قَدْ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ أَيْضًا كَالْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَمَذْهَبُ ابْنِ كُلَّابٍ وَأَكْثَرُ قُدَمَاءِ الصفاتية أَنَّ الْعُلُوَّ مِنْ الصِّفَاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي

الْعَبَّاسِ القلانسي وَالْحَارِثِ الْمُحَاسِبِيِّ وَمَذْهَبُ طَوَائِفَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَهُوَ آخِرُ قَوْلَيْ الْقَاضِي

أَبِي يَعْلَى وَأَبِي الْحَسَنِ بْنِ الزَّاغُونِي وَغَيْرِهِ وَمَذْهَبُ ابْنِ كَرَّامٍ وَأَصْحَابِهِ وَهُوَ قَوْلُ عَامَّةِ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ وَالتَّصَوُّفِ . وَكَذَلِكَ مَا فَسَّرَهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ مِنْ قَوْلِ الْمُفَضِّلِينَ إنَّ الْمُرَادَ

كَثْرَةُ الثَّوَابِ فَهَذَا لَا يُنَازِعُ فِيهِ الْأَشْعَرِيُّ وَابْنُ الْبَاقِلَّانِي فَإِنَّ الثَّوَابَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يُنَازِعُ أَحَدٌ فِي أَنَّ بَعْضَهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ وَإِنَّمَا النِّزَاعُ فِي نَفْسِ كَلَامِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ كَلَامُهُ فَحِكَايَتُهُ النِّزَاعَ يُنَاقِضُ مَا فَسَّرَ بِهِ قَوْلَ الْمُثْبِتَةِ . وَقَدْ بَيَّنَ مَآخِذَ الْمُمْتَنِعِينَ عَنِ التَّفْضِيلِ : مِنْهُمْ مَنْ نَفَى التَّفَاضُلَ فِي الصِّفَاتِ مُطْلَقًا بِنَاءً عَلَى أَنَّ الْقَدِيمَ لَا يَتَفَاضَلُ وَالْقُرْآنُ مِنَ الصِّفَاتِ . وَمِنْهُمْ مَنْ خَصَّ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ وَاحِدٌ عَلَى أَصْلِهِ فَلَا يُعْقَلُ فِيهِ مَعْنَيَانِ فَضْلًا أَنْ يُعْقَلَ فِيهِ فَاضِلٌ وَمَفْضُولٌ وَهَذَا أَصْلُ أَبِي الْحَسَنِ وَمَنْ وَافَقَهُ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا أَقْوَالَهُمْ فِي أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ يَكُونُ بَعْضُهُ أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ لَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ مَخْلُوقٌ - كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ كَالْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ - بَلْ كُلُّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : إنَّ كَلَامَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَلَوْ تَتَبَّعَ ذِكْرُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ لَكَثُرُوا فَإِنَّ هَذَا قَوْلُ جَمَاهِيرِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَأَهْلِ الْبِدْعَةِ أَمَّا السَّلَفُ -

كَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ - فَلَمْ يُعْرَفْ لَهُمْ فِي هَذَا الْأَصْلِ تَنَازُعٌ بَلْ الْآثَارُ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْهُمْ بِهِ .

وَاشْتَهَرَ الْقَوْلُ بِإِنْكَارِ تَفَاضُلِهِ بَعْدَ الْمِائَتَيْنِ لَمَّا أَظْهَرَتْ الْجَهْمِيَّةُ الْقَوْلَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ . وَاتَّفَقَ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ وَجَمَاهِيرُ الْأُمَّةِ عَلَى إنْكَارِ ذَلِكَ وَرَدِّهِ عَلَيْهِمْ . وَظَنَّتْ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ - مِثْلُ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ كُلَّابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ - أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يُمْكِنُ رَدُّهُ إلَّا إذَا قِيلَ إنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَلَا كَلَّمَ مُوسَى حِينَ أَتَاهُ وَلَا قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ اُسْجُدُوا لِآدَمَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَهُ وَلَا يَغْضَبُ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ أَنْ يَكْفُرَ بِهِ وَلَا يَرْضَى عَنْهُ بَعْدَ أَنْ يُطِيعَهُ وَلَا يُحِبُّهُ بَعْدَ أَنْ يَتَقَرَّبَ إلَيْهِ بِالنَّوَافِلِ وَلَا يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ بَعْدَ كَلَامٍ فَتَكُونُ كَلِمَاتُهُ لَا نِهَايَةَ لَهَا إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ظَنُّوا انْتِفَاءَهُ عَنْ اللَّهِ . وَقَالُوا إنَّمَا يُمْكِنُ مُخَالَفَةُ هَؤُلَاءِ إذَا قِيلَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ وَغَيْرَهُ مِنْ الْكَلَامِ لَازِمٌ لِذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ كَلَامٍ لَهُ كَقَوْلِهِ : يَا آدَمَ يَا نُوحُ . وَصَارُوا طَائِفَتَيْنِ : طَائِفَةٌ تَقُولُ إنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ وَطَائِفَةٌ تَقُولُ إنَّهُ حُرُوفٌ أَوْ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ مُقْتَرِنٌ بَعْضُهَا بِبَعْضِ أَزَلًا وَأَبَدًا وَإِنْ كَانَتْ مُتَرَتِّبَةً فِي ذَاتِهَا تَرَتُّبًا ذَاتِيًّا لَا تَرَتُّبًا وُجُودِيًّا كَمَا قَدْ بَيَّنَ مَقَالَاتِ النَّاسِ فِي كَلَامِ اللَّهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَالْأَوَّلُونَ عِنْدَهُمْ كَلَامُ اللَّهِ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا بَعْضَ لَهُ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَالَ بَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ .

وَالْآخَرُونَ يَقُولُونَ: هُوَ قَدِيمٌ لَازِمٌ لِذَاتِهِ وَالْقَدِيمُ لَا يَتَفَاضَلُ. وَرُبَّمَا نُقِلَ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾

أَنَّهُ قَالَ: خَيْرًا لَكُمْ مِنْهَا أَوْ أَنْفَعَ لَكُمْ. فَيَظُنُّ الظَّانُّ أَنَّ ذَلِكَ الْقَائِلَ مُوَافِقٌ لِهَؤُلَاءِ. وَلَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ مَقْصُودُهُ بَيَانُ وَجْهِ كَوْنِهِ خَيْرًا وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَنْفَعَ لِلْعِبَادِ فَإِنَّ مَا كَانَ أَكْثَرُ مِنْ الْكَلَامِ نَفْعًا لِلْعِبَادِ كَانَ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلَ كَمَا بَيَّنَ فِي مَوْضِعِهِ. وَصَارَ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَ الْكُلَّابِيَةِ مِنْ مُتَأَخِّرِي أَصْحَابِ أَحْمَد وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِمْ يَظُنُّونَ أَنَّ الْقَوْلَ بِتَفَاضُلِ كَلَامِ اللَّهِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ إنَّمَا يُمْكِنُ عَلَى قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ إنَّهُ مَخْلُوقٌ فَإِنَّ الْقَائِلِينَ بِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ يَرَوْنَ فَضْلَ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ فَضْلَ مَخْلُوقٍ عَلَى مَخْلُوقٍ وَتَفْضِيلُ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى بَعْضٍ لَا يُنْكِرُهُ أَحَدٌ. فَإِذَا ظَنَّ أُولَئِكَ أَنَّ الْقَوْلَ بِتَفْضِيلِ بَعْضِ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى بَعْضٍ مُسْتَلْزِمٌ لِكَوْنِ الْقُرْآنِ مَخْلُوقًا فَرُّوا مِنْ ذَلِكَ وَأَنْكَرُوا الْقَوْلَ بِهِ لِأَجْلِ مَا ظَنُّوهُ مِنْ التَّلَازُمِ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنُّوهُ بَلْ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَجُمْهُورُهَا يَقُولُونَ: إنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَكَذَلِكَ سَائِرُ كَلَامِ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ. وَيَقُولُونَ مَعَ ذَلِكَ: إنَّ كَلَامَ اللَّهِ بَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ

كَمَا نَطَقَ بِذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَآثَارُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ يُعْرَفُ فِي ذَلِكَ عَنْهُمْ . وَحَدَّثَنَا أَبِي عَنْ جَدِّنَا أَبِي الْبَرَكَاتِ وَصَاحِبِهِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ أَنَّهُمَا نَظَرَا فِيمَا

(426/838)

ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ الْأَقْوَالِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ وَأَظُنُّهُ كَانَ نَظَرَهُمْ فِي تَفْسِيرِ أَبِي عَبْدِ

(427/838)

اللهِ مُحَمَّدِ بْنِ تَيْمِيَّةَ فَلَمَّا رَأَيَا تِلْكَ الْأَقْوَالَ قَالَا : هَذَا إنَّمَا يَجِيءُ عَلَى قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ . وَزَارَ مَرَّةً أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ هَذَا شَيْخَنَا أَبِي زَكَرِيَّا بْنِ الصَّيْرَفِيِّ وَكَانَ مَرِيضًا فَدَعَا أَبُو زَكَرِيَّا بِدُعَاءِ مَأْثُورٍ عَنْ الْإِمَامِ أَحْمَد يَقُولُ فِيهِ " أَسْأَلُك - بِقُدْرَتِك الَّتِي قَدَرْت بِهَا أَنْ تَقُولَ لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ - أَنْ تَفْعَلَ بِنَا كَذَا وَكَذَا " فَلَمَّا خَرَجَ النَّاسُ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ لَهُ : مَا هَذَا الدُّعَاءُ الَّذِي دَعَوْت بِهِ ؟ هَذَا إنَّمَا يَجِيءُ عَلَى قَوْلِ

الْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ فَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَلَا يُقَالُ عِنْدَهُمْ قَدَرَ أَنْ يَتَكَلَّمَ أَوْ يَقُولَ فَإِنَّ كَلَامَهُ قَدِيمٌ لَازِمٌ لِذَاتِهِ لَا يَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ . وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ تَلَقَّى هَذَا عَنْ الْبُحُوثِ الَّتِي يَذْكُرُهَا أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الزَّاغُونِي وَأَمْثَالُهُ وَقَبْلَهُ أَبُو الْوَفَاءِ ابْنُ عَقِيلٍ وَأَمْثَالُهُ وَقَبْلَهُمَا الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى وَنَحْوُهُ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ - كَأَبِي الْوَلِيدِ الباجي وَأَبِي الْمَعَالِي الجُوَيْنِي - وَطَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ يُوَافِقُونَ ابْنَ كُلَّابٍ عَلَى قَوْلِهِ : إنَّ اللَّهَ لَا يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعَلَى قَوْلِهِ : إنَّ الْقُرْآنَ لَازِمٌ لِذَاتِ اللَّهِ بَلْ يَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا قَوْلُ السَّلَفِ - قَوْلُ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَمَالِكٍ

وَالشَّافِعِيِّ وَسَائِرِ السَّلَفِ - الَّذِينَ يَقُولُونَ : الْقُرْآنُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ حَتَّى إنَّ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَ السالمية مِنْ هَؤُلَاءِ - كَالْقَاضِي وَابْنِ عَقِيلٍ وَابْنِ

الزَّاغُونِي - يُصَرِّحُونَ بِأَنَّ مَذْهَبَ أَحْمَدَ أَنَّ الْقُرْآنَ قَدِيمٌ وَأَنَّهُ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُ مِنْ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ لَمْ يَقُولُوا هَذَا قَطُّ وَلَا نَاظَرُوا عَلَيْهِ وَلَكِنَّهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ لَمْ يَعْرِفُوا أَقْوَالَهُمْ فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ . وَلَكِنْ الَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّ قَوْلَ ابْنِ كُلَّابٍ وَأَتْبَاعِهِ هُوَ مَذْهَبُ السَّلَفِ وَمِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ هُمْ الَّذِينَ صَارُوا يَقُولُونَ : إنَّ كَلَامَ اللَّهِ بَعْضُهُ أَفْضَلُ إنَّمَا يَجِيءُ عَلَى قَوْلِ أَهْلِ الْبِدَعِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ كَمَا صَارَ يَقُولُ ذَلِكَ طَوَائِفُ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ مِنْ أَقْوَالِ بَعْضِ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ السَّلَفَ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِهَذَا بَلْ أَنْكَرُوا عَلَى ابْنِ كُلَّابٍ هَذَا الْأَصْلَ وَأَمَرَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُ بِهَجْرِ الْكُلَّابِيَةِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ حَتَّى هُجِرَ الْحَارِثُ الْمُحَاسِبِيَّ لِأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ ابْنِ كُلَّابٍ وَكَانَ قَدْ وَافَقَهُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ ثُمَّ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ وَكَانَ أَحْمَد يُحَذِّرُ عَنْ الْكُلَّابِيَةِ . وَكَانَ قَدْ وَقَعَ بَيْنَ أَبِي بَكْرِ بْنِ خُزَيْمَةَ الْمُلَقَّبِ بِإِمَامِ الْأَئِمَّةِ وَبَيْنَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ مُشَاجَرَةٌ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ بِقَوْلِ ابْنِ كُلَّابٍ وَقَدْ ذَكَرَ قِصَّتَهُمْ الْحَاكِمُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ النَّيْسَابُورِيُّ فِي (تَارِيخِ نَيْسَابُورَ) وَبَسْطُ الْكَلَامِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ لَهُ مَوْضِعٌ آخَرُ وَإِنَّمَا

نَبَّهْنَا عَلَى الْمَآخِذِ الَّتِي تَعْرِفُ بِهَا حَقَائِقَ الْأَقْوَالِ .

فَصْلٌ :

وَفِي الْجُمْلَةِ فَدَلَالَةُ النُّصُوصِ النَّبَوِيَّةِ وَالْآثَارِ السَّلَفِيَّةِ وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ بَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ هُوَ مِنْ الدَّلَالَاتِ الظَّاهِرَةِ الْمَشْهُورَةِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ الْقُرْآنَ وَإِنْ كَانَ كُلُّهُ كَلَامَ اللَّهِ وَكَذَلِكَ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْأَحَادِيثُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي يَحْكِيهَا الرَّسُولُ عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَقَوْلِهِ : ﴿ يَا عِبَادِي إنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْته بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا ﴾ الْحَدِيثَ وَكَقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْته فِي نَفْسِي ﴾ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ هِيَ وَإِنْ اشْتَرَكَتْ فِي كَوْنِهَا كَلَامَ اللَّهِ فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْكَلَامَ لَهُ نِسْبَتَانِ : نِسْبَةٌ إلَى الْمُتَكَلِّمِ بِهِ وَنِسْبَةٌ إلَى الْمُتَكَلَّمِ فِيهِ . فَهُوَ يَتَفَاضَلُ بِاعْتِبَارِ النِّسْبَتَيْنِ وَبِاعْتِبَارِ نَفْسِهِ أَيْضًا مِثْلُ الْكَلَامِ الْخَبَرِيِّ لَهُ نِسْبَتَانِ : نِسْبَةٌ إلَى الْمُتَكَلِّمِ الْمُخْبِرِ وَنِسْبَةٌ إلَى الْمُخْبَرِ عَنْهُ الْمُتَكَلَّمِ فِيهِ . فَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وَ ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ كِلَاهُمَا كَلَامُ اللَّهِ وَهُمَا مُشْتَرِكَانِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ لَكِنَّهُمَا مُتَفَاضِلَانِ مِنْ جِهَةِ الْمُتَكَلَّمِ فِيهِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ . فَهَذِهِ كَلَامُ اللَّهِ وَخَبَرُهُ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَصِفَتِهِ الَّتِي يَصِفُ بِهَا نَفْسَهُ

وَكَلَامَهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ . وَهَذِهِ كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ عَنْ بَعْضِ خَلْقِهِ وَيُخْبِرُ بِهِ عَنْهُ وَيَصِفُ بِهِ حَالَهُ وَهُمَا فِي هَذِهِ الْجِهَةِ مُتَفَاضِلَانِ بِحَسَبِ تَفَاضُلِ الْمَعْنَى الْمَقْصُودِ بِالْكَلَامَيْنِ . أَلَّا تَرَى أَنَّ الْمَخْلُوقَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ هُوَ كُلُّهُ كَلَامُهُ لَكِنَّ كَلَامَهُ الَّذِي يَذْكُرُ بِهِ رَبَّهُ أَعْظَمُ مِنْ كَلَامِهِ الَّذِي يَذْكُرُ بِهِ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْجَمِيعُ كَلَامُهُ فَاشْتِرَاكُ الْكَلَامَيْنِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ لَا يَمْنَعُ تَفَاضُلَهُمَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ فِيهِ سَوَاءٌ كَانَتْ النِّسْبَتَانِ أَوْ إِحْدَاهُمَا تُوجِبُ التَّفْضِيلَ أَوْ لَا تُوجِبُهُ . فَكَلَامُ الْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ الْعُلَمَاءُ وَالْخُطَبَاءُ وَالشُّعَرَاءُ بَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ وَإِنْ كَانَ الْمُتَكَلِّمُ وَاحِدًا وَكَذَلِكَ كَلَامُ الْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَسَوَاءٌ أُرِيدَ بِالْكَلَامِ الْمَعَانِي فَقَطْ أَوْ الْأَلْفَاظُ فَقَطْ أَوْ كِلَاهُمَا أَوْ كُلٌّ مِنْهُمَا فَلَا رَيْبَ فِي تَفَاضُلِ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي مِنْ الْمُتَكَلِّمِ الْوَاحِدِ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مُجَرَّدَ اتِّفَاقِ الْكَلَامَيْنِ فِي أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِهِمَا وَاحِدٌ لَا يُوجِبُ تَمَاثُلَهُمَا مِنْ سَائِرِ الْجِهَاتِ . فَتَفَاضُلُ الْكَلَامِ مِنْ جِهَةِ الْمُتَكَلَّمِ فِيهِ سَوَاءٌ كَانَ خَبَرًا أَوْ إِنْشَاءً أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالْفِطْرَةِ وَالشِّرْعَةِ فَلَيْسَ الْخَبَرُ الْمُتَضَمِّنُ لِلْحَمْدِ لِلَّهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى كَالْخَبَرِ الْمُتَضَمِّنِ لِذِكْرِ أَبِي لَهَبٍ وَفِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ وَإِنْ كَانَ هَذَا كَلَامًا عَظِيمًا

مُعَظَّمًا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ وَكَذَلِكَ لَيْسَ الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ الَّذِي أَمَرَتْ

بِهِ الشَّرَائِعُ كُلُّهَا وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَتَضَمَّنُ الْأَمْرُ بِالْمَأْمُورَاتِ الْعَظِيمَةِ وَالنَّهْيِ عَنْ الشِّرْكِ وَقَتْلِ النَّفْسِ وَالزِّنَا وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا حَرَّمَتْهُ الشَّرَائِعُ كُلُّهَا وَمَا يَحْصُلُ مَعَهُ فَسَادٌ عَظِيمٌ كَالْأَمْرِ بِلَعْقِ الْأَصَابِعِ وَإِمَاطَةِ الْأَذَى عَنْ اللُّقْمَةِ السَّاقِطَةِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْقِرَانِ فِي التَّمْرِ وَلَوْ كَانَ الْأَمْرَانِ وَاجِبَيْنِ فَلَيْسَ الْأَمْرُ بِالْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ كَالْأَمْرِ بِأَخْذِ الزِّينَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَالْأَمْرِ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى الْحَامِلِ وَإِيتَائِهَا أَجْرَهَا إذَا أَرْضَعَتْ .

(433/838)

وَلِهَذَا ذَهَبَ جُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إلَى تَفَاضُلِ أَنْوَاعِ الْإِيجَابِ وَالتَّحْرِيمِ وَقَالُوا : إنَّ إيجَابَ أَحَدِ الْفِعْلَيْنِ قَدْ يَكُونُ أَبْلَغَ مِنْ إيجَابِ الْآخَرِ وَتَحْرِيمُهُ أَشَدُّ مِنْ تَحْرِيمِ الْآخَرِ فَهَذَا أَعْظَمُ إيجَابًا وَهَذَا أَعْظَمُ تَحْرِيمًا وَلَكِنْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ نَازَعُوا فِي ذَلِكَ كَابْنِ عَقِيلٍ وَغَيْرِهِ فَقَالُوا : التَّفَاضُلُ لَيْسَ فِي نَفْسِ الْإِيجَابِ وَالتَّحْرِيمِ لَكِنْ فِي مُتَعَلَّقِ ذَلِكَ وَهُوَ كَثْرَةُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ . وَالْجُمْهُورُ يَقُولُونَ : بَلْ التَّفَاضُلُ فِي الْأَمْرَيْنِ وَالتَّفَاضُلُ فِي الْمُسَبَّبَاتِ دَلِيلٌ عَلَى التَّفَاضُلِ فِي الْأَسْبَابِ وَكَوْنُ أَحَدِ الْفِعْلَيْنِ ثَوَابُهُ أَعْظَمُ وَعِقَابُهُ أَعْظَمُ : دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ بِهِ وَالنَّهْيَ عَنْهُ

أَوْكَدُ وَكَوْنُ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ وَالنَّهْيَيْنِ مَخْصُوصًا بِالتَّوْكِيدِ دُونَ الثَّانِي مِمَّا لَا يَسْتَرِيبُ فِيهِ عَاقِلٌ وَلَوْ تَسَاوَيَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لَامْتَنَعَ الِاخْتِصَاصُ بِتَوْكِيدٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنْ أَسْبَابِ التَّرْجِيحِ فَإِنَّ التَّسْوِيَةَ وَالتَّفْضِيلَ مُتَضَادَّانِ . وَجُمْهُورُ أَئِمَّةِ الْفُقَهَاءِ عَلَى التَّفَاضُلِ فِي الْإِيجَابِ وَالتَّحْرِيمِ وَإِطْلَاقُ

(434/838)

ذَلِكَ هُوَ قَوْلُ جَمَاهِيرِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ . وَهُوَ قَوْلُ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَأَبِي الْخَطَّابِ وَالْقَاضِي يَعْقُوبَ البرزبيني وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَلْوَانِيِّ وأبي الْحَسَنِ بْنِ الزَّاغُونِي وَغَيْرِهِمْ لَكِنْ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُفَسِّرُ التَّفَاضُلَ بِتَفَاضُلِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُنَازِعُ فِيهِ النُّفَاةِ . وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ نَفْسَ الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَالْبُغْضِ وَالْإِرَادَةِ وَالْكَرَامَةِ وَالطَّلَبِ وَالِاقْتِضَاءِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْمَعَانِي تَتَفَاضَلُ وَتَتَفَاضَلُ الْأَلْفَاظُ الدَّالَّةُ عَلَيْهَا . وَنَفْسُ حُبِّ الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ يَتَفَاضَلُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ . وَنَفْسُ حُبِّ اللَّهِ لَهُمْ يَتَفَاضَلُ أَيْضًا فَإِنَّ الْخَلِيلَيْنِ إبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدًا أَحَبُّ إلَيْهِ مِمَّنْ سِوَاهُمَا وَبَعْضُ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إلَى اللَّهِ مِنْ بَعْضٍ وَالْقَوْلُ بِأَنَّ هَذَا الْفِعْلَ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ هَذَا مَشْهُورٌ وَمُسْتَفِيضٌ فِي الْآثَارِ النَّبَوِيَّةِ وَكَلَامِ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ كَقَوْلِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ : لَوْ عَلِمْنَا أَيَّ الْأَعْمَالِ أَحَبُّ إلَى اللَّهِ لَفَعَلْنَاهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُورَةَ الصَّفِّ وَهُوَ مَشْهُورٌ ثَابِتٌ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ .

وَكَوْنُ هَذَا أَحَبَّ إلَى اللَّهِ مِنْ هَذَا هُوَ دَاخِلٌ فِي تَفْضِيلِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ وَبَعْضِ الْأَشْخَاصِ عَلَى بَعْضٍ . وَبَعْضِ الْأَمْكِنَةِ وَالْأَزْمِنَةِ عَلَى بَعْضٍ وَقَدْ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَكَّةَ : وَاَللَّهِ إنَّك لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ

(435/838)

إلَى اللَّهِ . وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْك لَمَا خَرَجْت ﴾ قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ مِنْ

(436/838)

حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عدي بْنِ الْحَمْرَاءِ . وَكَذَلِكَ تَفْضِيلُ حُبِّهِ وَبُغْضِهِ عَلَى حُبِّ غَيْرِهِ وَبُغْضِهِ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : لَا أَحَدَ أَحَبُّ إلَيْهِ الْمَدْحُ مِنْ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ . وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إلَيْهِ الْعُذْرُ مِنْ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ . وَقَالَ ﴿ لَا أَحَدَ أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ ﴾ وَهَذَا فِي الصَّحِيحَيْنِ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ الْآيَةَ . وَمِنْ الْمَعْلُومِ

بِالِاضْطِرَارِ تَفَاضُلُ الْمَأْمُورَاتِ: فَبَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ وَبَعْضُ الْمَنْهِيَّاتِ شَرٌّ مِنْ بَعْضٍ وَحِينَئِذٍ فَطَلَبُ الْأَفْضَلِ يَكُونُ فِي نَفْسِهِ أَكْمَلَ مِنْ طَلَبِ الْمَفْضُولِ وَالطَّالِبُ إذَا كَانَ حَكِيمًا يَكُونُ طَلَبُهُ لِهَذَا أَوْكَدَ. فَفِي الْجُمْلَةِ مِنْ الْمُسْتَقِرِّ فِي فِطَرِ الْعُقَلَاءِ أَنَّ كُلًّا مِنْ الْخَبَرِ وَالْأَمْرِ يَلْحَقُهُمَا التَّفَاضُلُ مِنْ جِهَةِ الْمُخْبِرِ عَنْهُ وَالْمَأْمُورِ بِهِ فَإِذَا كَانَ الْمُخْبَرُ بِهِ أَكْمَلَ وَأَفْضَلَ كَانَ الْخَبَرُ بِهِ أَفْضَلَ وَإِذَا كَانَ الْمَأْمُورُ بِهِ أَفْضَلَ كَانَ الْأَمْرُ بِهِ أَفْضَلَ. وَلِهَذَا كَانَ الْخَبَرُ بِمَا فِيهِ نَجَاةُ النُّفُوسِ مِنْ الْعَذَابِ وَحُصُولُ السَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ أَفْضَلَ مِنْ الْخَبَرِ بِمَا فِيهِ نَيْلُ مَنْزِلَةٍ أَوْ حُصُولُ دَرَاهِمَ وَالرُّؤْيَا الَّتِي تَتَضَمَّنُ أَفْضَلَ الْخَبَرَيْنِ أَعْظَمُ مِنْ الرُّؤْيَا الَّتِي تَتَضَمَّنُ أَدْنَاهُمَا وَهَذَا أَمْرٌ مُسْتَقِرٌّ فِي فِطَرِ الْعُقَلَاءِ قَاطِبَةً. وَإِذَا قَدَرَ

أَمِيرَانِ أَمَرَ أَحَدُهُمَا بِعَدْلٍ عَامٍّ عَمَّرَ بِهِ الْبِلَادَ وَدَفَعَ بِهِ الْفَسَادَ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ أَعْظَمَ مِنْ أَمْرِ أَمِيرٍ

يَعْدِلُ بَيْنَ خَصْمَيْنِ فِي مِيرَاثِ بَعْضِ الْأَمْوَاتِ . وَأَيْضًا فَالْخَبَرُ يَتَضَمَّنُ الْعِلْمَ بِالْمُخْبَرِ بِهِ وَالْأَمْرُ يَتَضَمَّنُ طَلَبًا وَإِرَادَةً لِلْمَأْمُورِ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إرَادَةَ فِعْلِ الْأَمْرِ وَاَللَّهُ تَعَالَى أَمَرَ الْعِبَادَ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ وَلَكِنْ أَعَانَ أَهْلَ الطَّاعَةِ فَصَارَ مُرِيدًا لَأَنْ يَخْلُقَ أَفْعَالَهُمْ وَلَمْ يُعِنْ أَهْلَ الْمَعْصِيَةِ فَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَخْلُقَ أَفْعَالَهُمْ . فَهَذِهِ الْإِرَادَةُ الْخَلْقِيَّةُ الْقَدَرِيَّةُ لَا تَسْتَلْزِمُ الْأَمْرَ وَأَمَّا الْإِرَادَةُ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُحِبُّ فِعْلَ مَا أَمَرَ بِهِ وَيَرْضَاهُ إذَا فُعِلَ وَيُرِيدُ مِنْ الْمَأْمُورِ أَنْ يَفْعَلَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مَأْمُورٌ فَهَذِهِ لَا بُدَّ مِنْهَا فِي الْأَمْرِ . وَلِهَذَا أَثْبَتَ اللَّهُ هَذِهِ الْإِرَادَةَ فِي الْأَمْرِ دُونَ الْأُولَى . وَلَكِنْ فِي النَّاسِ مِنْ غَلِطٍ فَنَفَى الْإِرَادَةَ مُطْلَقًا وَكِلَا الْفَرِيقَيْنِ لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الْإِرَادَةِ الْخَلْقِيَّةِ وَالْإِرَادَةِ الْأَمْرِيَّةِ .

وَالْقُرْآنُ فَرَّقَ بَيْنَ الْإِرَادَتَيْنِ فَقَالَ فِي الْأُولَى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ وَقَالَ نُوحٌ : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَلَوْلَا إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ ﴾ وَلِهَذَا قَالَ الْمُسْلِمُونَ : مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ

يَكُنْ وَقَالَ فِي الثَّانِيَةِ : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾

وَقَالَ : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴾ ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ . وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْأَمْرِ مِنْ طَلَبٍ وَاسْتِدْعَاءٍ وَاقْتِضَاءٍ سَوَاءٌ قِيلَ : إنَّ هُنَاكَ إرَادَةً شَرْعِيَّةً وَأَنَّهُ لَا إرَادَةَ لِلرَّبِّ مُتَعَلِّقَةً بِأَفْعَالِ الْعِبَادِ سِوَاهَا كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ أَوْ قِيلَ : لَا إرَادَةَ لِلرَّبِّ إلَّا الْإِرَادَةُ الْخَلْقِيَّةُ الْقَدَرِيَّةُ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَأَنَّ إرَادَتَهُ عَيْنُ نَفْسِ مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَأَنَّ إرَادَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ وَرِضَاهُ مُتَعَلِّقَةٌ بِكُلِّ مَا يُوجَدُ مِنْ إيمَانٍ وَكُفْرٍ وَلَا تَتَعَلَّقُ بِمَا لَا يُوجَدُ سَوَاءٌ كَانَ إيمَانًا أَوْ كُفْرًا وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبْدِ قُدْرَةٌ لَهَا أَثَرٌ فِي وُجُودِ مَقْدُورِهِ وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ قُوًى وَأَسْبَابٌ يَخْلُقُ بِهَا وَلَا لِلَّهِ حِكْمَةٌ يَخْلُقُ وَيَأْمُرُ لِأَجْلِهَا كَمَا يَقُولُ هَذَا وَمَا يُشْبِهُهُ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ رَأْسُ الْجَبْرِيَّةِ هُوَ وَمَنْ

وَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ أَوْ بَعْضِهِ مِنْ طَوَائِفِ أَهْلِ الْكَلَامِ وَبَعْضِ مُتَأَخِّرِي الْفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ الْمُثْبِتِينَ لِلْقَدَرِ عَلَى هَذِهِ الطَّرِيقَةِ لَا عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ كَأَبِي الْحَسَنِ وَغَيْرِهِ ؛ فَإِنَّ

(441/838)

هَؤُلَاءِ نَاقَضُوا الْقَدَرِيَّةَ الْمُعْتَزِلَةَ مُنَاقَضَةً أَلْجَأَتْهُمْ إلَى إنْكَارِ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَإِنْ كَانَ مَنْ يَقُولُ بِبَعْضِ ذَلِكَ يَتَنَاقَضُ وَقَدْ يُثْبِتُ أَحَدُهُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الْمَعْنَى .

(442/838)

وَأَمَّا السَّلَفُ وَأَئِمَّةُ الْفُقَهَاءِ وَجُمْهُورُ الْمُسْلِمِينَ فَيُثْبِتُونَ الْخَلْقَ وَالْأَمْرَ وَالْإِرَادَةَ الْخَلْقِيَّةَ الْقَدَرِيَّةَ الشَّامِلَةَ لِكُلِّ حَادِثٍ وَالْإِرَادَةَ الْأَمْرِيَّةَ الشَّرْعِيَّةَ الْمُتَنَاوِلَةَ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ لِعِبَادِهِ وَهُوَ مَا أُمِرَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَهُوَ مَا يَنْفَعُ الْعِبَادَ وَيُصْلِحُهُمْ وَيَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ الْحَمِيدَةُ النَّافِعَةُ فِي الْمَعَادِ الدَّافِعَةُ لِلْفَسَادِ . فَهَذِهِ الْإِرَادَةُ الْأَمْرِيَّةُ الشَّرْعِيَّةُ مُتَعَلِّقَةٌ بِإِلَهِيَّتِهِ الْمُتَضَمِّنَةُ لِرُبُوبِيَّتِهِ كَمَا أَنَّ تِلْكَ الْإِرَادَةَ الْخَلْقِيَّةَ الْقَدَرِيَّةَ مُتَعَلِّقَةٌ بِرُبُوبِيَّتِهِ . وَلِهَذَا كَانَ مَنْ نَظَرَ إلَى هَذِهِ

فَقَطْ وَرَاعَى هَذِهِ الْخِلْقِيَّةَ الْكَوْنِيَّةَ الْقَدَرِيَّةَ دُونَ تِلْكَ يَكُونُ لَهُ بِدَايَةٌ بِلَا نِهَايَةٍ فَيَكُونُ مِنْ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا يَحْصُلُ لَهُمْ بَعْضُ مَطَالِبِهِمْ فِي الدُّنْيَا لِاسْتِعَانَتِهِمْ بِاَللَّهِ إذْ شَهِدُوا رُبُوبِيَّتَهُ وَلَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إذْ لَمْ يَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . وَقَدْ وَقَعَ فِي هَذَا طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْكَلَامِ . وَمَنْ نَظَرَ إلَى الْحَقِيقَةِ الشَّرْعِيَّةِ الْأَمْرِيَّةِ دُونَ تِلْكَ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ لَهُ عَاقِبَةٌ حَمِيدَةٌ وَقَدْ يُرَاعِي الْأَمْرَ ؛ لَكِنَّهُ يَكُونُ عَاجِزًا مَخْذُولًا حَيْثُ لَمْ يَشْهَدْ رُبُوبِيَّةَ اللَّهِ وَفَقْرَهُ إلَيْهِ لِيَكُونَ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ بَرِيًّا مِنْ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إلَّا بِهِ . فَهَذَا قَدْ يَقْصِدُ أَنْ يَعْبُدَهُ وَلَا يَقْصِدُ حَقِيقَةَ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ وَهِيَ حَالُ

الْقَدَرِيَّةِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ الَّذِينَ يُقِرُّونَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ خَالِقًا أَفْعَالَ الْعِبَادِ وَلَا مُرِيدًا لِلْكَائِنَاتِ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الداراني : إنَّمَا يُعْجَبُ بِفِعْلِهِ الْقَدَرِيُّ لِأَنَّهُ لَا يَرَى أَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ لِفِعْلِهِ . فَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ الَّذِينَ

يُقِرُّونَ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ أَفْعَالِهِمْ وَأَنَّ لِلَّهِ الْمِنَّةَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ فَكَيْفَ يُعْجَبُونَ بِهَا ؟ أَوْ كَمَا قَالَ . وَالْأَوَّلُ قَدْ يَقْصِدُ أَنْ يَسْتَعِينَهُ وَيَسْأَلُهُ وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيَبْرَأُ مِنْ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ إلَّا بِهِ وَلَكِنْ لَا يَقْصِدُ أَنْ يَعْبُدَهُ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِهِ وَلَا يَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُعْبَدَ وَيُطَاعَ وَأَنَّهُ يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ التَّائِبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَيَغْضَبُ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ بَلْ يَنْسَلِخُ مِنْ الدِّينِ أَوْ بَعْضِهِ لَا سِيَّمَا فِي نِهَايَةِ أَمْرِهِ . وَهَذِهِ الْحَالُ إنْ طَرَدَهَا صَاحِبُهَا كَانَ شَرًّا مِنْ حَالِ الْمُعْتَزِلَةِ الْقَدَرِيَّةِ بَلْ إنْ طَرَدَهَا طَرْدًا حَقِيقِيًّا أَخْرَجَتْهُ مِنْ الدِّينِ خُرُوجَ الشَّعْرَةِ مِنْ الْعَجِينِ وَهِيَ حَالُ الْمُشْرِكِينَ . وَأَمَّا مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ فَإِنَّهُ يُحَقِّقُ قَوْلَهُ ﴿ إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وَيَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ عَمَلٍ لَا يُرَادُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ وَلَا يُوَافِقُ أَمْرَهُ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَى صَاحِبِهِ وَكُلُّ قَاصِدٍ لَمْ يُعِنْهُ اللَّهُ فَهُوَ مَصْدُودٌ مِنْ مَآرِبِهِ فَإِنَّهُ يَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ فَيَعْبُدُ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ مُسْتَعِينًا بِاَللَّهِ عَلَى ذَلِكَ مُؤْمِنًا بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ : بِقَدَرِهِ وَشَرْعِهِ فَيَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَى طَاعَتِهِ وَيَشْكُرُهُ عَلَيْهَا وَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنَّةٌ مِنْ اللَّهِ عَلَيْهِ وَيَسْتَعِيذُ بِاَللَّهِ مِنْ شَرِّ نَفْسِهِ وَسَيِّئَاتِ عَمَلِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِهِ مَعَ

عِلْمِهِ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَأَنَّ لِلَّهِ الْحُجَّةَ الْبَالِغَةَ عَلَى خَلْقِهِ وَأَنَّ لَهُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ حِكْمَةً بَالِغَةً وَرَحْمَةً سَابِغَةً . وَهَذِهِ الْأُمُورُ أُصُولٌ عَظِيمَةٌ لِبَسْطِهَا مَوْضِعٌ آخَرُ .

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الْخَبَرَ الصَّادِقَ يَتَضَمَّنُ جِنْسَ الْعِلْمِ وَالِاعْتِقَادِ وَالْأَمْرُ يَتَضَمَّنُ جِنْسَ الطَّلَبِ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ . ثُمَّ هَلْ مَدْلُولُ الْخَبَرِ جِنْسٌ مِنْ الْمَعَانِي غَيْرَ جِنْسِ الْعِلْمِ وَمَدْلُولُ الْأَمْرِ جِنْسٌ مِنْ الْمَعَانِي غَيْرَ جِنْسِ الْإِرَادَةِ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْ النُّظَّارِ مِثْلُ ابْنِ كُلَّابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ ؟ أَوْ الْمَدْلُولُ مِنْ جِنْسِ الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ ؟ كَمَا يَقُولُهُ جُمْهُورُ نُظَّارِ أَهْلِ السُّنَّةِ الَّذِينَ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ وَالْقَدَرَ . فَيَقُولُونَ : إنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَيَقُولُونَ : إنَّ اللَّهَ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ . وَالْمُعْتَزِلَةُ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ يُخَالِفُ أَهْلَ السُّنَّةِ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يُخَالِفُونَ ابْنَ كُلَّابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ فِي ذَيْنِك الْأَصْلَيْنِ . وَلِهَذَا يُقَالُ : إنَّهُ لَمْ يُوَافِقْهُ أَحَدٌ مِنْ الطَّوَائِفِ عَلَى مَا أَحْدَثَهُ مِنْ الْقَوْلِ فِي الْكَلَامِ وَالصِّفَاتِ وَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ خَيْرًا مِنْ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ الْمَحْضَةِ . وَأَمَّا جُمْهُورُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ وَالصُّوفِيَّةِ وَطَوَائِفِ النُّظَّارِ فَلَا يَقُولُونَ بِقَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ وَلَا الْكُلَّابِيَةِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ فُقَهَاءُ الطَّوَائِفِ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَغَيْرِهِمْ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهَا

مِنْ الْكُتُبِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ النَّاسَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ كُلًّا مِنْ أَنْوَاعِ الْخَبَرِ وَالْأَمْرِ لَهَا مَعَانٍ : سَوَاءٌ سُمِّيَ طَلَبًا أَوْ

(447/838)

إرَادَةً أَوْ عِلْمًا أَوْ حُكْمًا أَوْ كَلَامًا نَفْسَانِيًّا . وَهَذِهِ الْمَعَانِي تَتَفَاضَلُ فِي نَفْسِهَا فَلَيْسَ عِلْمُنَا بِاَللَّهِ وَأَسْمَائِهِ

(448/838)

كَعِلْمِنَا بِحَالِ أَبِي لَهَبٍ . وَلَيْسَ الطَّلَبُ الْقَائِمُ بِنَا إذَا أُمِرْنَا بِالْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ كَالطَّلَبِ الْقَائِمِ بِنَا إذَا أُمِرْنَا بِرَفْعِ الْيَدَيْنِ فِي الصَّلَاةِ وَالْأَكْلِ بِالْيَمِينِ وَإِخْرَاجِ الدِّرْهَمِ مِنْ الزَّكَاةِ . فَعُلِمَ بِذَلِكَ أَنَّ مَعَانِيَ الْكَلَامِ قَدْ تَتَفَاضَلُ فِي نَفْسِهَا كَمَا قَدْ تَتَمَاثَلُ وَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّ مَا تَضَمَّنَهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ مِنْ الْمَعَانِي الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا صِيغَةُ الْأَمْرِ - سَوَاءٌ سُمِّيَتْ طَلَبًا أَوْ اقْتِضَاءً أَوْ اسْتِدْعَاءً أَوْ إرَادَةً أَوْ مَحَبَّةً أَوْ رِضًا أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ - فَإِنَّهَا مُتَفَاضِلَةٌ بِحَسَبِ تَفَاضُلِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَمَا تَضَمَّنَهُ الْخَبَرُ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالِاعْتِقَادَاتِ وَالْأَحْكَامِ النَّفْسَانِيَّةِ فَهِيَ مُتَفَاضِلَةٌ فِي

نَفْسِهَا بِحَسَبِ تَفَاضُلِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ . فَهَذَا نَوْعٌ مِنْ تَفَاضُلِ الْكَلَامِ مِنْ جِهَةِ الْمُتَكَلَّمِ فِيهِ وَإِنْ كَانَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ وَاحِدًا . وَهُوَ أَيْضًا مُتَفَاضِلٌ مِنْ جِهَةِ الْمُتَكَلِّمِ بِهِ وَإِنْ كَانَ الْمُتَكَلَّمُ فِيهِ وَاحِدًا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ تَكْلِيمَهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَفْضَلُ مِنْ تَكْلِيمِهِ بِالْإِيحَاءِ وَبِإِرْسَالِ رَسُولٍ وَلِهَذَا كَانَ مِنْ فَضَائِلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَهُ تَكْلِيمًا وَقَالَ : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ وَقَالَ : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

(449/838)

مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ وَالَّذِي يَجِدُ النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّ الشَّخْصَ الْوَاحِدَ تَتَفَاضَلُ أَحْوَالُهُ

(450/838)

فِي أَنْوَاعِ الْكَلَامِ بَلْ وَفِي الْكَلَامِ الْوَاحِدِ يَتَفَاضَلُ مَا يَقُومُ بِقَلْبِهِ مِنْ الْمَعَانِي وَمَا يَقُومُ بِلِسَانِهِ مِنْ الْأَلْفَاظِ بِحَيْثُ قَدْ يَكُونُ إذَا كَانَ طَالِبًا هُوَ أَشَدُّ رَغْبَةً وَمَحَبَّةً وَطَلَبًا لِأَحَدِ الْأَمْرَيْنِ مِنْهُ لِلْآخَرِ وَيَكُونُ صَوْتُهُ بِهِ أَقْوَى وَلَفْظُهُ بِهِ أَفْصَحَ وَحَالُهُ فِي الطَّلَبِ أَقْوَى وَأَشَدُّ تَأْثِيرًا ؛ وَلِهَذَا يَكُونُ لِلْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْ الْمَوْعِظَةِ بَلْ لِلْآيَةِ الْوَاحِدَةِ إذَا سُمِعَتْ مِنْ اثْنَيْنِ مِنْ ظُهُورِ التَّفَاضُلِ مَا لَا يَخْفَى عَلَى عَاقِلٍ وَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إلَى تَمْثِيلٍ . وَكَذَلِكَ فِي الْخَبَرِ قَدْ يَقُومُ بِقَلْبِهِ مِنْ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ وَتَصَوُّرِ الْمَعْلُومِ وَشُهُودِ الْقَلْبِ إيَّاهُ بِاللِّسَانِ مِنْ حُسْنِ التَّعْبِيرِ عَنْهُ لَفْظًا وَصَوْتًا مَا لَا يُقَارِبُهُ مَا يَقُومُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ إذَا أَخْبَرَ عَنْ غَيْرِهِ . فَهَذَا نَوْعُ إشَارَةٍ إلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ بِتَفْضِيلِ بَعْضِ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى بَعْضٍ مُوَافِقًا لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَكَلَامُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ . وَالطَّائِفَةُ الثَّانِيَةُ تَقُولُ : إنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَا يُفَضَّلُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ثُمَّ لِهَؤُلَاءِ فِي تَأْوِيلِ النُّصُوصِ الْوَارِدَةِ فِي التَّفْضِيلِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ إنَّمَا يَقَعُ التَّفَاضُلُ فِي مُتَعَلِّقِهِ مِثْلَ كَوْنِ بَعْضِهِ أَنْفَعَ لِلنَّاسِ مِنْ بَعْضٍ لِكَوْنِ الثَّوَابِ عَلَيْهِ أَكْثَرَ أَوْ الْعَمَلِ بِهِ أَخَفَّ مَعَ التَّمَاثُلِ فِي الْأَجْرِ وَتَأَوَّلُوا قَوْلَهُ : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ أَيْ نَأْتِ بِخَيْرٍ

مِنْهَا لَكُمْ لَا أَنَّهَا فِي نَفْسِهَا خَيْرٌ مِنْ تِلْكَ . وَهَذَا قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ كَمُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرٍ الطبري قَالَ . نَأْتِ بِحُكْمِ خَيْرٍ لَكُمْ مِنْ حُكْمِ الْآيَةِ الْمَنْسُوخَةِ : إمَّا فِي الْعَاجِلِ لِخِفَّتِهِ

عَلَيْكُمْ وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ لِعِظَمِ ثَوَابِهِ مِنْ أَجْلِ مَشَقَّةِ حَمْلِهِ . قَالَ : وَالْمُرَادُ مَا نَنْسَخُ مِنْ حُكْمِ آيَةٍ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ أَيْ حُبَّهُ قَالَ : وَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ وَغَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ مِنْ الْقُرْآنِ شَيْءٌ خَيْرًا مِنْ شَيْءٍ . لِأَنَّ جَمِيعَهُ كَلَامُ اللَّهِ وَلَا يَجُوزُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُقَالَ : بَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ أَوْ بَعْضُهَا خَيْرٌ مِنْ بَعْضٍ . وَطَرْدُ ذَلِكَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ فَمَنَعَ أَنْ يَكُونَ بَعْضُ أَسْمَائِهِ أَعْظَمَ أَوْ أَفْضَلَ أَوْ أَكْبَرَ مِنْ بَعْضٍ . وَقَالَ : مَعْنَى الِاسْمِ الْأَعْظَمِ : الْعَظِيمُ وَكُلُّهَا سَوَاءٌ فِي الْعَظَمَةِ وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ حَالُ النَّاسِ حِينَ الدُّعَاءِ فَيَكُونُ الْأَعْظَمُ بِحَسَبِ حَالِ الدُّعَاءِ لَا أَنَّهُ فِي نَفْسِهِ أَعْظَمَ . وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي قَالَهُ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ نَظِيرَ الْقَوْلِ الثَّانِي فِي تَفْضِيلِ بَعْضِ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى بَعْضٍ فَإِنَّ الْقَوْلَ الثَّانِيَ لِمَنْ مَنَعَ تَفْضِيلَهُ أَنَّ الْمُرَادَ يَكُونُ هَذَا أَفْضَلَ أَوْ خَيْرًا كَوْنُهُ فَاضِلًا فِي نَفْسِهِ ؛ لَا أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهِ . وَهَذَا الْقَوْلُ يُحْكَى عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَمَنْ وَافَقَهُ قَالُوا : إنَّ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ عَظِيمٌ فَاضِلٌ وَقَالُوا : مُقْتَضَى الْأَفْضَلِ تَقْصِيرُ

الْمَفْضُولِ عَنْهُ وَكَلَامُ اللَّهِ لَا يَتَبَعَّضُ وَهَذَا يَقُولُونَهُ فِي الْكَلَامِ لِأَنَّهُ وَاحِدٌ بِالْعَيْنِ عِنْدَهُمْ يَمْتَنِعُ فِيهِ تَمَاثُلٌ أَوْ تَفَاضُلٌ وَأَمَّا فِي الصِّفَاتِ

(453/838)

بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَلِامْتِنَاعِ التَّغَايُرِ وَلَا يَقُولُونَ هَذَا فِي الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ فَإِنَّ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ عِنْدَهُمْ مَخْلُوقٌ وَلَيْسَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ مِنْهُمْ قَالُوا: لِأَنَّ الْكَلَامَ

(454/838)

يَمْتَنِعُ قِيَامُهُ بِغَيْرِ الْمُتَكَلِّمِ كَسَائِرِ الصِّفَاتِ وَالْقُرْآنُ الْعَرَبِيُّ يَمْتَنِعُ عِنْدَهُمْ قِيَامُهُ بِذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَوْ جَوَّزُوا أَنْ يَكُونَ كَلَامُ اللَّهِ قَائِمًا بِغَيْرِهِ لَبَطَلَ أَصْلُهُمْ الَّذِي اتَّفَقُوا عَلَيْهِ هُمْ وَسَائِرُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَرَدُّوا بِهِ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فِي قَوْلِهِمْ إنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَهَؤُلَاءِ يُسَلِّمُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ بَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ عِنْدَهُمْ وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ عِنْدَ جَمَاهِيرِهِمْ .

وَبَعْضُ مُتَأَخِّرِيهِمْ يَقُولُ: إنَّ لَفْظَ "كَلَامِ اللَّهِ" يَقَعُ بِالِاشْتِرَاكِ عَلَى الْمَعْنَى الْقَائِمِ بِالنَّفْسِ وَعَلَى الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الْمَخْلُوقِ الدَّالِّ عَلَيْهِ . وَأَمَّا كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ عِنْدَهُمْ فَهُوَ ذَلِكَ

الْمَعْنَى وَهُوَ الَّذِي يَمْتَنِعُ تَفَاضُلُهُ عِنْدَهُمْ . وَأَصْلُ هَؤُلَاءِ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ هُوَ الْمَعَانِي بَلْ هُوَ الْمَعْنَى الْوَاحِدُ فَقَطْ وَأَنَّ مَعَانِيَ كِتَابِ اللَّهِ هِيَ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يَتَعَدَّدُ وَلَا يَتَبَعَّضُ . فَمَعْنَى آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَآيَةِ الدَّيْنِ وَالْفَاتِحَةِ وَقُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ وَتَبَّتْ وَمَعْنَى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَكُلِّ حَدِيثٍ إلَهِيٍّ وَكُلِّ مَا يُكَلِّمُ بِهِ الرَّبُّ عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَكُلِّ مَا يُكَلِّمُ بِهِ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ : إنَّمَا هِيَ مَعْنًى وَاحِدٌ بِالْعَيْنِ لَا بِالنَّوْعِ . وَلَا يَتَعَدَّدُ وَلَا يَتَبَعَّضُ وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ لَيْسَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ بَلْ كَلَامُ غَيْرِهِ : جِبْرِيلَ أَوْ مُحَمَّدٍ أَوْ مَخْلُوقٍ مِنْ

مَخْلُوقَاتِهِ عَبَّرَ بِهِ عَنْ ذَلِكَ الْوَاحِدِ وَذَلِكَ الْوَاحِدُ هُوَ الْأَمْرُ بِكُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ وَالنَّهْيُ عَنْ كُلِّ مَا نَهَى عَنْهُ وَالْإِخْبَارُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ وَأَنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْخَبَرَ لَيْسَتْ أَنْوَاعًا لِلْكَلَامِ وَأَقْسَامًا لَهُ فَإِنَّ الْوَاحِدَ بِالْعَيْنِ لَا يَقْبَلُ

التَّنْوِيعَ وَالتَّقْسِيمَ؛ بِخِلَافِ الْوَاحِدِ بِالنَّوْعِ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ التَّنْوِيعَ وَالتَّقْسِيمَ وَإِنَّمَا هِيَ صِفَاتٌ لِذَلِكَ الْوَاحِدِ بِالْعَيْنِ وَهِيَ صِفَاتٌ إضَافِيَّةٌ لَهُ فَإِذَا تَعَلَّقَ بِمَا يُطْلَبُ مِنْ أَفْعَالِ الْعِبَادِ كَانَ أَمْرًا وَإِذَا تَعَلَّقَ بِمَا يُنْهَى عَنْهُ كَانَ نَهْيًا وَإِذَا تَعَلَّقَ بِمَا يُخْبَرُ عَنْهُ كَانَ خَبَرًا . وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ يَقُولُونَ: فَسَادُ هَذَا مَعْلُومٌ بِالِاضْطِرَارِ فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ مَعَانِيَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ لَيْسَتْ هِيَ مَعَانِي ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ وَلَا مَعَانِي آيَةِ الدَّيْنِ مَعَانِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَلَا مَعَانِي الْخَبَرِ عَنْ صِفَاتِ اللَّهِ هِيَ مَعَانِي الْخَبَرِ عَنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَأَنَّ تَعَلُّقَ ذَلِكَ الْمَعْنَى بِالْحَقَائِقِ الْمُخْبَرِ عَنْهَا وَالْأَفْعَالِ الَّتِي تَعَلَّقَ بِهَا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ إنْ كَانَ أَمْرًا وُجُودِيًّا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَحَلٍّ فَإِنْ قَامَ بِذَاتِ اللَّهِ فَقَدْ تَعَدَّدَتْ مَعَانِي الْكَلَامِ الْقَائِمَةِ بِذَاتِهِ وَإِنْ قَامَ بِذَاتِ غَيْرِهِ كَانَ صِفَةً لِذَلِكَ الْغَيْرِ لَا لِلَّهِ وَإِنْ قَامَ لَا بِمَحَلٍّ كَانَ مُمْتَنِعًا؛ فَإِنَّ الْمَعَانِيَ لَا تَقُومُ بِأَنْفُسِهَا؛ وَإِنْ كَانَ تَعَلُّقُ ذَلِكَ الْمَعْنَى بِالْحَقَائِقِ أَمْرًا عَدَمِيًّا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ مَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الْخَبَرِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بَلْ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ خَبَرِ اللَّهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ إذْ كَانَ الْمَعْنَى الْوَاحِدُ لَا تَعَدُّدَ فِيهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَمْتَازَ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ . وَالْحَقَائِقُ الْمُخْبَرُ عَنْهَا وَالْمَأْمُورُ بِهَا وَالْمَنْهِيُّ عَنْهَا

لَا تَكُونُ بِأَنْفُسِهَا مُخْبَرًا بِهَا وَمَأْمُورًا بِهَا وَمَنْهِيًّا عَنْهَا بَلْ الْخَبَرُ عَنْهَا وَالْأَمْرُ بِهَا وَالنَّهْيُ عَنْهَا هُوَ غَيْرُ ذَوَاتِهَا فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَا أَمْرٌ مَوْجُودٌ غَيْرُ ذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي لَا امْتِيَازَ فِيهِ وَلَا تَعَدُّدَ وَغَيْرُ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي لَا تَمَيُّزَ بَيْنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْخَبَرِ: لَمْ

يَكُنْ هُنَا مَا يُمَيِّزُ بَيْنَ النَّهْيِ وَالْخَبَرِ وَلَا مَا يَجْعَلُ مَعَانِيَ آيَةِ الْوُضُوءِ غَيْرَ مَعَانِي آيَةِ الدَّيْنِ فَإِنَّ الْحُرُوفَ الْمَخْلُوقَةَ الدَّالَّةَ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى إنْ لَمْ تَدُلَّ إلَّا عَلَيْهِ فَلَا تَعَدُّدَ فِيهِ وَلَا تَنْوِيعَ وَإِنْ دَلَّتْ عَلَى التَّعَلُّقَاتِ الَّتِي هِيَ عَدَمِيَّةٌ فَالْعَدَمُ لَيْسَ بِشَيْءِ حَتَّى يَكُونَ أَمْرًا وَنَهْيًا وَخَبَرًا وَلَيْسَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ إلَّا ذَلِكَ الْمَعْنَى وَتَعَلُّقُهُ بِالْحَقَائِقِ الْمُخْبَرِ عَنْهَا وَالْمَأْمُورِ بِهَا وَنَفْسُ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمَخْلُوقِ عِنْدَهُمْ هُوَ الدَّالُّ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى فَالْمَدْلُولُ إنْ كَانَ هُوَ ذَلِكَ الْمَعْنَى فَلَا يَتَمَيَّزُ فِيهِ أَمْرٌ عَنْ خَبَرٍ وَلَا أَمْرٌ بِصَلَاةِ عَنْ أَمْرٍ بِزَكَاةِ وَلَا نَهْيٌ عَنْ الْكُفْرِ عَنْ إخْبَارٍ بِتَوْحِيدِ .
وَإِنْ كَانَتْ التَّعَلُّقَاتُ عَدَمِيَّةً فَالْمَعْدُومُ لَيْسَ بِشَيْءِ وَلَا يَكُونُ الْعَدَمُ أَمْرًا وَنَهْيًا وَخَبَرًا وَلَا يَكُونُ مَدْلُولُ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَسَائِرِ كُتُبِ اللَّهِ أُمُورًا عَدَمِيَّةً لَا وُجُودَ لَهَا وَلَا تَكُونُ الْأُمُورُ الْعَدَمِيَّةُ هِيَ الَّتِي بِهَا وَجَبَتْ الصَّلَاةُ وَحَرُمَ الظُّلْمُ وَلَا يَكُونُ الْمَعْنَى الْوَاحِدُ بِتِلْكَ الْأُمُورِ الْعَدَمِيَّةِ إلَّا صِفَاتٍ إضَافِيَّةً وَهِيَ مِنْ مَعْنَى السَّلْبِيَّةِ فَإِنَّهَا إنْ لَمْ تَكُنْ سَلْبَ أَمْرٍ

مَوْجُودٍ فَهِيَ تَعَلُّقٌ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ . فَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ - عَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ - أَنَّهُ لَيْسَ لِلَّهِ كَلَامٌ لَا مَعَانٍ وَلَا حُرُوفٌ إِلَّا بِمَعْنًى وَاحِدٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ مَوْجُودَةً وَلَا مَعْلُومَةً . وَمِنْ حُجَّةِ هَؤُلَاءِ

(459/838)

أَنَّهُ إِذَا قِيلَ بَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ كَانَ الْمَفْضُولُ نَاقِصًا عَنْ الْفَاضِلِ وَصِفَاتُ اللَّهِ كَامِلَةٌ لَا نَقْصَ فِيهَا وَالْقُرْآنُ

(460/838)

مِنْ صِفَاتِهِ . قَالَ هَؤُلَاءِ : صِفَاتُ اللَّهِ كُلُّهَا مُتَوَافِرَةٌ فِي الْكَمَالِ مُتَنَاهِيَةٌ إِلَى غَايَةِ التَّمَامِ لَا يَلْحَقُ شَيْئًا مِنْهَا نَقْصٌ بِحَالِ . ثُمَّ لَمَّا اعْتَقَدَ هَؤُلَاءِ أَنَّ التَّفَاضُلَ فِي صِفَاتِ اللَّهِ مُمْتَنِعٌ ظَنُّوا أَنَّ الْقَوْلَ بِتَفْضِيلِ بَعْضِ كَلَامِهِ عَلَى بَعْضٍ لَا يُمْكِنُ إِلَّا عَلَى قَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ الْقَائِلِينَ بِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ فَإِنَّهُ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ مَخْلُوقٌ أَمْكَنَ الْقَوْلُ بِتَفْضِيلِ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى بَعْضٍ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَعْضُهُ أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ . قَالُوا : وَأَمَّا عَلَى قَوْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ أَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَقَعَ التَّفَاضُلُ فِي صِفَاتِ اللَّهِ

الْقَائِمَةِ بِذَاتِهِ . وَلِأَجْلِ هَذَا الِاعْتِقَادِ صَارَ مَنْ يَعْتَقِدُهُ يَذْكُرُ إجْمَاعَ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى امْتِنَاعِ التَّفْضِيلِ فِي الْقُرْآنِ كَمَا قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الدَّرَّاجِ فِي مُصَنَّفٍ صَنَّفَهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَالَ : " أَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ مَا وَرَدَ فِي الشَّرْعِ مِمَّا ظَاهِرُهُ الْمُفَاضَلَةُ بَيْنَ آيِ الْقُرْآنِ وَسُوَرِهِ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ تَفْضِيلَ ذَوَاتِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ ؛ إذْ هُوَ كُلُّهُ كَلَامُ اللَّهِ وَصِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ بَلْ هُوَ كُلُّهُ لِلَّهِ فَاضِلٌ كَسَائِرِ صِفَاتِهِ الْوَاجِبِ لَهَا نَعْتُ الْكَمَالِ " . وَهَذَا النَّقْلُ لِلْإِجْمَاعِ هُوَ بِحَسَبِ مَا ظَنَّهُ لَازِمًا لِأَهْلِ السُّنَّةِ فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقِ وَظَنَّ هُوَ

(461/838)

أَنَّ الْمُفَاضَلَةَ إنَّمَا تَقَعُ فِي الْمَخْلُوقَاتِ لَا فِي الصِّفَاتِ قَالَ مَا قَالَ . وَإِلَّا فَلَا يُنْقَلُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَنَّهُ أَنْكَرَ فَضْلَ كَلَامِ اللَّهِ بَعْضِهِ

(462/838)

عَلَى بَعْضٍ : لَا فِي نَفْسِهِ وَلَا فِي لَوَازِمِهِ وَمُتَعَلِّقَاتِهِ ؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا إجْمَاعًا .
وَلَيْسَ هُوَ لَازِمًا لِابْنِ كُلَّابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ كَالْأَشْعَرِيِّ وَأَتْبَاعِهِ ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يُجَوِّزُونَ وُقُوعَ

الْمُفَاضَلَةِ فِي الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ وَهُوَ مَخْلُوقٌ عِنْدَهُمْ وَهَذَا الْمَخْلُوقُ يُسَمَّى "كِتَابَ اللَّهِ" وَالْمَعْنَى الْقَدِيمُ يُسَمَّى "كَلَامُ اللَّهِ" وَلَفْظُ "الْقُرْآنِ" يُرَادُ بِهِ عِنْدَهُمْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْقَدِيمُ وَالْقُرْآنُ الْعَرَبِيُّ الْمَخْلُوقُ. وَحِينَئِذٍ فَهُمْ يَتَأَوَّلُونَ مَا وَرَدَ مِنْ تَفْضِيلِ بَعْضِ الْقُرْآنِ عَلَى بَعْضٍ عَلَى الْقُرْآنِ الْمَخْلُوقِ عِنْدَهُمْ. وَإِنَّمَا الْقَوْلُ الْمُتَوَاتِرُ عَنْ أَئِمَّةِ السَّلَفِ أَنَّهُمْ قَالُوا: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا مَقَالَةَ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ مَخْلُوقًا مُنْفَصِلًا عَنْ اللَّهِ بَلْ كَفَّرُوا مَنْ قَالَ ذَلِكَ وَالْكُتُبُ الْمَوْجُودَةُ فِيهَا أَلْفَاظُهُمْ بِأَسَانِيدِهَا وَغَيْرِ أَسَانِيدِهَا كَثِيرَةٌ: مِثْلُ: (كِتَابِ الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ) لِلْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي حَاتِمٍ وَ(الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ) لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الجعفي شَيْخِ الْبُخَارِيِّ وَ(الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ) لِلْحَكَمِ بْنِ مَعْبَدٍ الخزاعي وَ(كِتَابِ السُّنَّةِ) لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَ(السُّنَّةِ) لِحَنْبَلِ ابْنِ عَمِّ الْإِمَامِ أَحْمَد وَ(السُّنَّةِ) لِأَبِي دَاوُد السجستاني وَ(السُّنَّةِ) لِلْأَثْرَمِ وَ(السُّنَّةِ) لِأَبِي بَكْرٍ الْخَلَّالِ وَ(السُّنَّةِ

وَالرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْأَهْوَاءِ) لِخُشَيْشِ بْنِ أَصْرَمَ

وَ (الرَّدّ عَلَى الْجَهْمِيَّة) لِعُثْمَان بْن سَعِيد الدارمي . وَ (نَقْض عُثْمَان بْن سَعِيد عَلَى الجهمي الْكَاذِب الْعَنِيد فِيمَا افْتَرَى عَلَى اللَّه فِي التَّوْحِيد) وَ (كِتَاب التَّوْحِيد) لِابْنِ خُزَيْمَة وَ (السُّنَّة للطبراني) وَلِأَبِي الشَّيْخ الأصبهاني وَ (شَرْح أُصُول السُّنَّة) لِأَبِي الْقَاسِم اللالكائي وَ (الْإِبَانَة) لِأَبِي عَبْد اللَّه بْن بَطَّة وَكُتُب أَبِي عَبْد اللَّه بْن منده وَ (السُّنَّة) لِأَبِي ذَرّ الهروي وَ (الْأَسْمَاء وَالصِّفَات) للبيهقي وَ (الْأُصُول) لِأَبِي عُمَر الطلمنكي وَ (الْفَارُوق) لِأَبِي إسْمَاعِيل الْأَنْصَارِيّ وَ (الْحُجَّة) لِأَبِي الْقَاسِم التيمي . إلَى غَيْر ذَلِكَ مِنْ الْمُصَنَّفَات الَّتِي يَطُول تَعْدَادُهَا : الَّتِي يَذْكُرُ مُصَنِّفُوهَا الْعُلَمَاءُ الثِّقَاتُ مَذَاهِبَ السَّلَف بِالْأَسَانِيدِ الثَّابِتَة عَنْهُمْ بِأَلْفَاظِهِمْ الْكَثِيرَة الْمُتَوَاتِرَة الَّتِي تُعْرَفُ مِنْهَا أَقْوَالُهُمْ مَعَ أَنَّهُ مِنْ حِين مِحْنَة الْجَهْمِيَّة لِأَهْلِ السُّنَّة - الَّتِي جَرَتْ فِي زَمَن أَحْمَد بْن حَنْبَل لَمَّا صَبَرَ فِيهَا الْإِمَامُ أَحْمَد وَقَامَ بِإِظْهَار السُّنَّة وَالصَّبْر عَلَى مِحْنَة الْجَهْمِيَّة حَتَّى نَصَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَالسُّنَّة وَأَطْفَأَ نَارَ تِلْكَ الْفِتْنَة - ظَهَرَ فِي دِيَار الْإِسْلَام وَانْتَشَرَ بَيْنَ الْخَاصّ وَالْعَامّ أَنَّ مَذْهَبَ أَهْل السُّنَّة وَالْحَدِيث الْمُتَّبِعِينَ لِلسَّلَف مِنْ الصَّحَابَة وَالتَّابِعِينَ : أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّه غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَأَنَّ الَّذِينَ أَحْدَثُوا فِي الْإِسْلَام الْقَوْل بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ هُمْ الْجَعْدُ بْنُ

دِرْهَمٍ وَالْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ وَمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَصْنَافِ الْجَهْمِيَّةِ لَمْ يَقُلْ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَلَا التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ . فَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الْقَوْلُ الْمَعْرُوفُ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَهُوَ الْقَوْلُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ

(466/838)

كَلَامُ اللَّهِ وَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ . أَمَّا كَوْنُهُ لَا يَفْضُلُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَهَذَا الْقَوْلُ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّةِ السُّنَّةِ الَّذِينَ كَانُوا أَئِمَّةَ الْمِحْنَةِ كَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَأَمْثَالِهِ وَلَا عَنْ أَحَدٍ قَبْلَهُمْ وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ نُقِلَ عَنْ عَدَدٍ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُجْعَلَ ذَلِكَ إجْمَاعًا مِنْهُمْ فَكَيْفَ إذَا لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَإِنَّمَا هَذَا نَقْلٌ لِمَا يَظُنُّهُ النَّاقِلُ لَازِمًا لِمَذْهَبِهِمْ . فَلَمَّا كَانَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ لَا مِنْ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ وَظَنَّ هَذَا النَّاقِلُ أَنَّ التَّفَاضُلَ يَمْتَنِعُ فِي صِفَاتِ الْخَالِقِ نَقَلَ امْتِنَاعَ التَّفَاضُلِ عَنْهُمْ بِنَاءً عَلَى هَذَا التَّلَازُمِ . وَلَكِنْ يُقَالُ لَهُ : أَمَّا الْمُقَدِّمَةُ الْأُولَى فَمَنْقُولَةٌ عَنْهُمْ بِلَا رَيْبٍ . وَأَمَّا الْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ وَهِيَ أَنَّ صِفَاتِ الرَّبِّ لَا تَتَفَاضَلُ فَهَلْ يُمْكِنُك أَنْ تَنْقُلَ عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ قَوْلًا بِذَلِكَ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَنْقُلَ إجْمَاعَهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَا عَلِمْت أَحَدًا يُمْكِنُهُ أَنْ يُثْبِتَ عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ أَنَّهُ قَالَ مَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا

الْمَعْنَى لَا بِهَذَا اللَّفْظِ وَلَا بِغَيْرِهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ هَذَا إجْمَاعًا . وَلَكِنْ إنْ كَانَ قَالَ قَائِلٌ ذَلِكَ وَلَمْ يَبْلُغْنَا قَوْلُهُ فَاَللَّهُ أَعْلَمُ . لَكِنَّ الَّذِي أَقْطَعُ بِهِ وَيَقْطَعُ بِهِ كُلُّ مَنْ لَهُ خِبْرَةٌ بِكَلَامِ السَّلَفِ أَنَّ الْقَوْلَ بِهَذَا لَمْ يَكُنْ مَشْهُورًا بَيْنَ السَّلَفِ وَلَا قَالَهُ وَاحِدٌ وَاشْتَهَرَ قَوْلُهُ

(467/838)

عِنْدَ الْبَاقِينَ فَسَكَتُوا عَنْهُ وَلَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي الْكُتُبِ الَّتِي تَنْقُلُ

(468/838)

فِيهَا أَلْفَاظُهُمْ بِأَعْيَانِهَا بَلْ الْمَنْقُولُ الثَّابِتُ عَنْهُمْ - أَوْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ - يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ تَفَاضُلَ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَهَكَذَا مَنْ قَالَ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ أَوْ الشَّافِعِيِّ أَوْ أَحْمَد عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ : أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَفْضُلُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَإِنَّمَا مُسْتَنَدُهُمْ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَأَنَّ كَلَامَهُ مِنْ صِفَاتِهِ الْقَائِمَةِ بِنَفْسِهِ لَيْسَ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ وَهَذَا أَيْضًا صَحِيحٌ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ . ثُمَّ ظَنُّوا أَنَّ التَّفَاضُلَ إنَّمَا يَقَعُ فِي الْمَخْلُوقِ لَا فِي الصِّفَاتِ وَهَذَا الظَّنُّ لَمْ يَنْقُلُوهُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ كَمَالِكِ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَأَبِي

حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِي وَلَا مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ وَلِهَذَا شَنَّعَ هَؤُلَاءِ عَلَى مَنْ ظَنَّ فَضْلَ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ وَالْآثَارُ لِظَنِّهِمْ أَنَّ ذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِخِلَافِ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ كَمَا قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْمُرَابِطِ فِي الْكَلَامِ عَلَى حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ فِي رَدِّهِ لِتَأْوِيلِ مَنْ تَأَوَّلَ هَذَا الْحَدِيثَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ إذَا عَدَلَتْ بِثُلُثِ الْقُرْآنِ أَنَّهَا تَفْضُلُ الرُّبُعَ مِنْهُ وَخُمُسَهُ وَمَا دُونَ الثُّلُثِ فَهُوَ التَّفَاضُلُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَقَالَ : فَهَذَا لَوْلَا عُذْرُ الْجَهَالَةِ لَحُكِمَ عَلَى قَائِلِهِ بِالْكُفْرِ إذْ لَا يَصِحُّ التَّفَاضُلُ إلَّا فِي الْمَخْلُوقَاتِ ؛ إذْ صِفَاتُهُ كُلُّهَا

(469/838)

فَاضِلَةٌ فِي غَايَةِ الْفَضِيلَةِ وَنِهَايَةِ الْعُلُوِّ وَالْكَرَامَةِ فَمَنْ تَنَقَّصَ شَيْئًا مِنْهَا عَنْ سَائِرِهَا فَقَدْ أَلْحَدَ فِيهَا أَلَا تَسْمَعُهُ مَنَعَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ .

(470/838)

قَالَ: وَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ لَا مِنْ صِفَةِ خَلْقِهِ. قَالَ: وَإِنَّمَا أَوْقَعَهُمْ فِي تَأْوِيلِ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ وَلَا يَخْلُو مَعْنَى ذَلِكَ مِنْ أَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ النَّاسِخَةُ خَيْرًا مِنْ الْمَنْسُوخَةِ فِي ذَاتِهَا وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ خَيْرًا مِنْهَا لِمَنْ تَعَبَّدَ بِهَا إِذْ مُحَالٌ أَنْ يَتَفَاضَلَ الْقُرْآنُ فِي ذَاتِهِ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالِاسْتِقَامَةِ؛ إِذْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ الْعَزِيزَ صِفَةُ اللَّهِ وَأَسْمَاءُ اللَّهِ وَصِفَاتُهُ كُلُّهَا مُتَوَافِرَةٌ فِي الْكَمَالِ مُتَنَاهِيَةٌ إِلَى غَايَةِ التَّمَامِ لَا يَلْحَقُ شَيْئًا مِنْهَا نَقْصٌ بِحَالِ. فَلَمَّا اسْتَحَالَ أَنْ تَكُونَ آيَةٌ خَيْرًا مِنْ آيَةٍ فِي ذَاتِهَا عَلِمْنَا أَنَّ الْمُرَادَ بِخَيْرٍ مِنْهَا إِنَّمَا هُوَ لِلْمُتَعَبِّدِينَ بِهَا لَمْ يَنْقُلْ عِبَادَهُ مِنْ تَخْفِيفٍ إِلَى تَثْقِيلٍ وَلَكِنَّهُ نَقَلَهُمْ بِالنَّسْخِ مِنْ تَحْرِيمٍ إِلَى تَحْلِيلٍ وَمِنْ إِيجَابٍ إِلَى تَخْيِيرٍ وَمِنْ تَطْهِيرٍ إِلَى تَطْهِيرٍ وَالشَّاهِدُ لَنَا قَوْلُهُ: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾. فَيُقَالُ: أَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ: " لَوْلَا عُذْرُ الْجَهَالَةِ لَحَكَمَ عَلَى مُثْبِتِ الْمُفَاضَلَةِ بِالْكُفْرِ " فَهُمْ يُقَابِلُونَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ وَحُجَّتُهُمْ أَقْوَى. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْكُفْرَ حُكْمٌ شَرْعِيٌّ وَإِنَّمَا يَثْبُتُ بِالْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ وَمَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ الشَّرْعُ بَلْ عُلِمَ بِمُجَرَّدِ الْعَقْلِ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا

وَإِنَّمَا الْكَافِرُ مَنْ أَنْكَرَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ نَصٌّ يَمْنَعُ تَفْضِيلَ بَعْضِ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى بَعْضٍ بَلْ وَلَا يَمْنَعُ تَفَاضُلَ صِفَاتِهِ

تَعَالَى بَلْ وَلَا نَقَلَ هَذَا النَّفْيَ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَلَا عَنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَهُمْ لِسَانُ صِدْقٍ فِي الْأُمَّةِ بِحَيْثُ جُعِلُوا أَعْلَامًا لِلسُّنَّةِ وَأَئِمَّةً لِلْأُمَّةِ .

(472/838)

وَأَمَّا تَفْضِيلُ بَعْضِ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى بَعْضٍ ؛ بَلْ تَفْضِيلُ بَعْضِ صِفَاتِهِ عَلَى بَعْضٍ : فَدَلَالَةُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْآثَارِ السَّلَفِيَّةِ كَثِيرَةٌ عَلَى ذَلِكَ فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ الْحَقَّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ أَنَّهَا لَا تَتَفَاضَلُ لَمْ يَكُنْ نَفْيُ تَفَاضُلِهَا مَعْلُومًا إلَّا بِالْعَقْلِ لَا بِدَلِيلِ شَرْعِيٍّ وَإِذَا قُدِّرَ أَنَّهَا تَتَفَاضَلُ فَالدَّالُّ عَلَى ذَلِكَ هُوَ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ مَعَ الْعَقْلِيَّةِ فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ الْحَقَّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ هُوَ التَّفْضِيلُ لَكَانَ كُفْرُ جَاحِدِ ذَلِكَ أَوْلَى مِنْ كُفْرِ مَنْ يُثْبِتُ التَّفْضِيلَ إذَا لَمْ يَكُنْ حَقًّا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لِأَنَّ ذَلِكَ جَحَدَ مُوجِبَ الْأَدِلَّةِ الشَّرْعِيَّةِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ شَرْعِيٍّ ؛ بَلْ لِمَا رَآهُ بِعَقْلِهِ وَأَخْطَأَ فِيهِ ؛ إذْ نَحْنُ نَتَكَلَّمُ فِي هَذَا التَّقْدِيرِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ خَالَفَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَنْ اللَّهِ بِمُجَرَّدِ عَقْلِهِ فَهُوَ أَوْلَى بِالْكُفْرِ مِمَّنْ لَمْ يُخَالِفْ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَنْ اللَّهِ وَإِنَّمَا خَالَفَ مَا عُلِمَ بِالْعَقْلِ إنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا . وَنَظِيرُ هَذَا قَوْلُ بَعْضِ نفاة الصِّفَاتِ لَمَّا تَأَمَّلَ حَالَ أَصْحَابِهِ

وَحَالُ مُثْبِتِيهَا قَالَ : لَا رَيْبَ أَنَّ حَالَ هَؤُلَاءِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ حَالِنَا فَإِنَّ هَؤُلَاءِ إنْ كَانُوا مُصِيبِينَ فَقَدْ نَالُوا الدَّرَجَاتِ الْعُلَى وَالرِّضْوَانَ الْأَكْبَرَ وَإِنْ كَانُوا مُخْطِئِينَ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : نَحْنُ يَا رَبِّ صَدَّقْنَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ كِتَابُك

(473/838)

وَسُنَّةُ رَسُولِك إذْ لَمْ تُبَيِّنْ لَنَا بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ نَفْيَ الصِّفَاتِ كَمَا دَلَّ كَلَامُك عَلَى إثْبَاتِهَا فَنَحْنُ أَثْبَتْنَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ كَلَامُك وَكَلَامُ رَسُولِك فَإِنْ كَانَ الْحَقُّ فِي خِلَافِ ذَلِكَ فَلَمْ يُبَيِّنْ الرَّسُولُ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ وَلَمْ يَكُنْ خِلَافُ ذَلِكَ مِمَّا يُعْلَمُ بِبَدَاهَةِ الْعُقُولِ بَلْ إنْ قُدِّرَ أَنَّهُ حَقٌّ فَلَا يَعْلَمُهُ إلَّا الْأَفْرَادُ فَكَيْفَ وَعَامَّةُ الْمُنْتَهِينَ فِي خِلَافِ ذَلِكَ إلَى الْغَايَةِ يُقِرُّونَ بِالْحَيْرَةِ وَالِارْتِيَابِ . قَالَ النَّافِي : وَإِنْ كُنَّا نَحْنُ مُصِيبِينَ فَإِنَّهُ يُقَالُ لَنَا : أَنْتُمْ قُلْتُمْ شَيْئًا لَمْ آمُرْكُمْ بِقَوْلِهِ وَطَلَبْتُمْ عِلْمًا لَمْ آمُرْكُمْ بِطَلَبِهِ . فَالثَّوَابُ إنَّمَا يَكُونُ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ وَأَنْتُمْ لَمْ تَمْتَثِلُوا أَمْرِي . قَالَ : وَإِنْ كُنَّا مُخْطِئِينَ فَقَدْ خَسِرْنَا خُسْرَانًا مُبِينًا . وَهَذَا حَالُ مَنْ أَثْبَتَ الْمُفَاضَلَةَ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَمَنْ نَفَاهَا فَإِنَّ الْمُثْبِتَ مُعْتَصِمٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْآثَارِ وَمَعَهُ مِنْ الْمَعْقُولَاتِ الصَّرِيحَةِ الَّتِي تُبَيِّنُ صِحَّةَ قَوْلِهِ وَفَسَادَ قَوْلِ مُنَازِعِهِ مَا لَا يَتَوَجَّهُ إلَيْهَا طَعْنٌ صَحِيحٌ . وَأَمَّا النَّافِي فَلَيْسَ مَعَهُ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَلَا حَدِيثٌ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا قَوْلُ

أَحَدٍ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَإِنَّمَا مَعَهُ مُجَرَّدُ رَأْيٍ يَزْعُمُ أَنَّ عَقْلَهُ دَلَّ عَلَيْهِ وَمُنَازِعُهُ يُبَيِّنُ أَنَّ الْعَقْلَ إنَّمَا دَلَّ عَلَى نَقِيضِهِ وَأَنَّ خَطَأَهُ مَعْلُومٌ بِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ بِصَحِيحِ الْمَنْقُولِ .

(474/838)

وَاحْتِجَاجُ الْمُحْتَجِّ عَلَى نَفْيِ التَّفَاضُلِ بِقَوْلِهِ : ﴿ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ فِي غَايَةِ الْفَسَادِ ؛ فَإِنَّ الْآيَةَ لَا تَدُلُّ عَلَى هَذَا بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ

(475/838)

سَوَاءٌ أُرِيدَ بِهَا مَنْ آمَنَ بِبَعْضِهِ وَكَفَرَ بِبَعْضِهِ أَوْ أُرِيدَ بِهَا مَنْ عَضَهَهُ فَقَالَ : هُوَ سِحْرٌ وَشِعْرٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ بَلْ مَنْ نَفَى فَضْلَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ عَلَى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ فَهُوَ أَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ مِمَّنْ جَعَلَهُ عِضِينَ ؛ إنْ دَلَّتْ الْآيَةُ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ . وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ كَلَامَهُ فَأَقَرَّ بِأَنَّهُ جَمِيعَهُ كَلَامُ اللَّهِ وَأَقَرَّ بِهِ كُلِّهِ فَلَمْ يَكْفُرْ بِحَرْفِ مِنْهُ وَعَلِمَ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ كَلَامٍ وَأَنَّ خَيْرَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ وَأَنَّهُ لَا أَحْسَنَ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا وَلَا أَصْدَقَ مِنْهُ قِيلًا وَأَقَرَّ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِ بَعْضِ كَلَامِهِ كَفَضْلِ (فَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَ (آيَةِ

الْكُرْسِيِّ وَ (﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ بَلْ وَتَفْضِيل (يس وَ (تَبَارَكَ وَالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بَلْ وَتَفْضِيل (الْبَقَرَةِ وَ (آلِ عِمْرَانَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ السُّوَرِ وَالْآيَاتِ الَّتِي نَطَقَتْ النُّصُوصُ بِفَضْلِهَا وَأَقَرَّ بِأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ كَلَامًا لِغَيْرِهِ لَا مَعَانِيهِ وَلَا حُرُوفُهُ فَهُوَ أَبْعَدُ عَنْ جَعْلِهِ عِضِينَ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ ؛ بَلْ آمَنَ بِفَضْلِهِ مِنْ جِهَةِ الْمُتَكَلِّمِ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِفَضْلِهِ مِنْ جِهَةِ الْمُتَكَلَّمِ فِيهِ ؛ فَإِنَّ هَذَا فِي الْحَقِيقَةِ آمَنَ بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ . وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ : إنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ وَأَنَّ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ لَمْ يَتَكَلَّمْ اللَّهُ بِهِ ؛ بَلْ هُوَ

(476/838)

مَخْلُوقٌ خَلَقَهُ اللَّهُ فِي الْهَوَاءِ أَوْ أَحْدَثَهُ جِبْرِيلُ أَوْ مُحَمَّدٌ فَهَذَا

(477/838)

أَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ دَاخِلًا فِيمَنْ عَضَهَ الْقُرْآنَ وَرَمَاهُ بِالْإِفْكِ وَجَعَلَ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ كَلَامَ مَخْلُوقٍ : إمَّا بَشَرٌ وَإِمَّا مَلَكٌ وَإِمَّا غَيْرُهُمَا فَمَنْ جَعَلَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ كَلَامَ اللَّهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقِ وَلَا هُوَ مِنْ إحْدَاثِ مَخْلُوقٍ لَا جِبْرِيلَ وَلَا مُحَمَّدٍ وَلَا شَيْءٍ مِنْهُ بَلْ جِبْرِيلُ رَسُولٌ مَلَكٌ وَمُحَمَّدٌ رَسُولٌ

بَشَرٌ وَاللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنْ النَّاسِ فَاصْطَفَى لِكَلَامِهِ الرَّسُولَ الْمَلَكِيَّ فَنَزَلَ بِهِ عَلَى الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ الَّذِي اصْطَفَاهُ وَقَدْ أَضَافَهُ إلَى كُلٍّ مِنْ الرَّسُولَيْنِ لِأَنَّهُ بَلَّغَهُ وَأَدَّاهُ؛ لَا لِأَنَّهُ أَنْشَأَهُ وَابْتَدَاهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ فَهَذَا نَعْتُ جِبْرِيلَ الَّذِي قَالَ فِيهِ: ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وَقَالَ: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ وَقَالَ: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ إنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴾ ﴿ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴾

ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ فَهَذِهِ صِفَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَأَضَافَ الْقَوْلَ إلَى كُلٍّ مِنْهُمَا بِاسْمِ الرَّسُولِ فَقَالَ ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾

لِأَنَّ الرَّسُولَ يَدُلُّ عَلَى الْمُرْسِلِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَوْلُ رَسُولٍ بَلَّغَهُ عَنْ مُرْسِلٍ . لَمْ يَقُلْ : إنَّهُ لَقَوْلُ مَلَكٍ وَلَا بَشَرٍ بَلْ كَفَّرَ مَنْ جَعَلَهُ قَوْلَ بَشَرٍ بِقَوْلِهِ : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ ﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ ﴿ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾ ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ ﴿ كَلَّا إنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ ﴿ إنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ ﴿ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ ﴿ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴾ ﴿ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴾ ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ ﴿ فَقَالَ إنْ هَذَا إلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ ﴿ إنْ هَذَا إلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ فَمَنْ قَالَ إنَّهُ قَوْلُ بَشَرٍ أَوْ قَوْلُ مَخْلُوقٍ غَيْرِ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ وَمَنْ جَعَلَهُ قَوْلَ رَسُولٍ مِنْ الْبَشَرِ فَقَدْ صَدَقَ ؛ لِأَنَّ الرَّسُولَ لَيْسَ لَهُ فِيهِ إلَّا التَّبْلِيغُ وَالْأَدَاءُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَوْسِمِ وَيَقُولُ : أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إلَى قَوْمِهِ لِأُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي ؟ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي ﴾ . وَاَلَّذِي اتَّفَقَ عَلَيْهِ السَّلَفُ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْهُمْ : مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ . قَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُ : " مِنْهُ بَدَأَ " أَيْ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ لَمْ يَبْتَدِ مِنْ غَيْرِهِ كَمَا

قَالَتْ الْجَهْمِيَّةُ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ قَالُوا : خَلْقُهُ فِي غَيْرِهِ فَهُوَ مُبْتَدَأٌ مِنْ ذَلِكَ الْمَحَلِّ الْمَخْلُوقِ وَيَلْزَمُهُمْ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا لِذَلِكَ الْمَحَلِّ الْمَخْلُوقِ لَا لِلَّهِ

(481/838)

تَعَالَى ؛ لَا سِيَّمَا وَالْجَهْمِيَّةُ كُلُّهُمْ يَقُولُونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ وَهُمْ غُلَاةٌ فِي الْجَبْرِ وَلَكِنْ الْمُعْتَزِلَةُ تُوَافِقُهُمْ عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ وَالْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ وَتُخَالِفُهُمْ فِي الْقَدَرِ وَالْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ فَإِذَا كَانَ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ مَا سِوَاهُ لَزِمَهُمْ أَنْ يَكُونَ كُلُّ كَلَامٍ كَلَامَهُ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَهُ وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ عَرَبِيٍّ الطَّائِيُّ - وَكَانَ مِنْ غُلَاةِ هَؤُلَاءِ الْجَهْمِيَّةِ يَقُولُ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ - قَالَ : وَكُلُّ كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ وَلِهَذَا قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُد الْهَاشِمِيُّ - نَظِيرُ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ الَّذِي قَالَ الشَّافِعِيُّ : مَا رَأَيْت أَعْقَلَ مِنْ رَجُلَيْنِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَسُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُد الْهَاشِمِيِّ - قَالَ : مَنْ قَالَ : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ مَخْلُوقٌ فَهُوَ كَافِرٌ . وَإِنْ كَانَ الْقُرْآنُ مَخْلُوقًا كَمَا زَعَمُوا فَلِمَ صَارَ فِرْعَوْنُ أَوْلَى بِأَنْ يُخَلَّدَ فِي النَّارِ إذْ قَالَ : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ وَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا مَخْلُوقٌ ؟ . وَمَعْنَى ذَلِكَ كَوْنُ قَوْلِ فِرْعَوْنَ : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ كَلَامًا قَائِمًا بِذَاتِ فِرْعَوْنَ فَإِنْ كَانَ قَوْلُهُ ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾

كَلَامًا خَلَقَهُ فِي الشَّجَرَةِ كَانَتْ الشَّجَرَةُ هِيَ الْقَائِلَةَ لِذَلِكَ كَمَا كَانَ فِرْعَوْنُ هُوَ الْقَائِلُ لِذَلِكَ وَحِينَئِذٍ فَيَكُونُ جَعْلُ الشَّجَرَةِ إلَهًا أَعْظَمَ كُفْرًا مِنْ جَعْلِ فِرْعَوْنَ إلَهًا .

(482/838)

وَالْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ لَمْ يَقُمْ عِنْدَهُمْ بِذَاتِ اللَّهِ لَا طَلَبٌ وَلَا إرَادَةٌ وَلَا مَحَبَّةٌ وَلَا رِضًا وَلَا غَضَبٌ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يُجْعَلُ مَدْلُولَ الْأَصْوَاتِ الْمَخْلُوقَةِ . وَلَا قَامَ بِذَاتِهِ عِنْدَهُمْ إيجَابٌ وَإِلْزَامٌ وَلَا تَحْرِيمٌ وَحَظْرٌ فَلَمْ يَكُنْ لِلْكَلَامِ الْمَخْلُوقِ فِي غَيْرِهِ مَعْنًى قَائِمٌ بِذَاتِهِ يَدُلُّ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَ مَا خَلَقَهُ فِي الْجَمَادِ وَمَا خَلَقَهُ فِي الْحَيَوَانِ . وَكَانَ مَقْصُودُ السَّلَفِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُتَكَلِّمُ بِالْقُرْآنِ وَسَائِرِ كَلَامِهِ . وَأَنَّهُ مِنْهُ نَزَلَ لَمْ يَنْزِلْ مِنْ غَيْرِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ : إنَّ الْقُرْآنَ قَدِيمٌ وَإِنَّمَا قَالُوا هُوَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَقَالُوا لَمْ يَزَلْ اللَّهُ مُتَكَلِّمًا إذَا شَاءَ وَمَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ وَكَمَا شَاءَ وَلَا قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ : إنَّ اللَّهَ فِي الْأَزَلِ نَادَى مُوسَى وَلَا قَالَ : إنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ يَقُولُ يَا آدَم يَا نُوحُ يَا مُوسَى يَا إبْلِيسُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ قَالَ . وَلَكِنْ طَائِفَةٌ مِمَّنْ اتَّبَعَ السَّلَفَ اعْتَقَدُوا أَنَّهُ إذَا كَانَ غَيْرَ مَخْلُوقٍ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدِيمًا إذْ لَيْسَ

عِنْدَهُمْ إِلَّا هَذَا وَهَذَا وَهَؤُلَاءِ يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ أَوْ يَغْضَبُ عَلَى الْكُفَّارِ إِذَا

(483/838)

عَصَوْهُ أَوْ يَرْضَى عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا أَطَاعُوهُ أَوْ يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ التَّائِبِينَ إِذَا تَابُوا أَوْ يَكُونُ نَادَى مُوسَى حِينَ أَتَى الشَّجَرَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ

(484/838)

الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ كَقَوْلِهِ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ كَلِمَاتِهِ لَا نَفَادَ لَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ

شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

. وَأَتْبَاعُ السَّلَفِ يَقُولُونَ: إنَّ كَلَامَ اللَّهِ قَدِيمٌ أَيْ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إذَا شَاءَ لَا يَقُولُونَ: إنَّ نَفْسَ الْكَلِمَةِ الْمُعَيَّنَةِ قَدِيمَةٌ كَنِدَائِهِ لِمُوسَى وَنَحْوِ ذَلِكَ . لَكِنَّ هَؤُلَاءِ اعْتَقَدُوا أَنَّ الْقُرْآنَ وَسَائِرَ كَلَامِ اللَّهِ قَدِيمُ الْعَيْنِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ . ثُمَّ اخْتَلَفُوا: فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ الْقَدِيمُ هُوَ مَعْنًى وَاحِدٌ هُوَ جَمِيعُ مَعَانِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَأَنَّ التَّوْرَاةَ إذَا عُبِّرَ عَنْهَا بِالْعَرَبِيَّةِ صَارَتْ قُرْآنًا وَالْقُرْآنُ إذَا عُبِّرَ عَنْهُ بِالْعِبْرِيَّةِ صَارَ تَوْرَاةً: قَالُوا: وَالْقُرْآنُ الْعَرَبِيُّ لَمْ

يَتَكَلَّمْ اللَّهُ بِهِ بَلْ إمَّا أَنْ يَكُونَ خَلَقَهُ فِي بَعْضِ الْأَجْسَامِ وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَحْدَثَهُ جِبْرِيلُ أَوْ مُحَمَّدٌ فَيَكُونُ كَلَامًا لِذَلِكَ الرَّسُولِ تَرْجَمَ بِهِ عَنْ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ الْقَائِمِ بِذَاتِ الرَّبِّ الَّذِي هُوَ

جَمِيعُ مَعَانِي الْكَلَامِ . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ الْقُرْآنُ الْقَدِيمُ هُوَ حُرُوفٌ أَوْ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ وَهِيَ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِ الرَّبِّ أَزَلًا وَأَبَدًا وَهِيَ مُتَعَاقِبَةٌ فِي ذَاتِهَا وَمَاهِيَّتِهَا لَا فِي

وُجُودِهَا ؛ فَإِنَّ الْقَدِيمَ لَا يَكُونُ بَعْضُهُ مُتَقَدِّمًا عَلَى بَعْضٍ فَفَرَّقُوا بَيْنَ ذَاتِ الْكَلَامِ وَبَيْنَ وُجُودِهِ وَجَعَلُوا التَّعَاقُبَ فِي ذَاتِهِ لَا فِي وُجُودِهِ كَمَا يُفَرِّقُ بَيْنَ وُجُودِ الْأَشْيَاءِ بِأَعْيَانِهَا وَمَاهِيَّاتِهَا مَنْ يَقُولُ بِذَلِكَ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ والمتفلسفة وَكِلَا الطَّائِفَتَيْنِ تَقُولُ : إنَّهُ إذَا كَلَّمَ مُوسَى أَوْ الْمَلَائِكَةَ أَوْ الْعِبَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُ بِكَلَامِ يَتَكَلَّمُ بِهِ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ حِينَ يُكَلِّمُهُ وَلَكِنْ يَخْلُقُ لَهُ إدْرَاكًا يُدْرِكُ ذَلِكَ الْكَلَامَ الْقَدِيمَ اللَّازِمَ لِذَاتِ اللَّهِ أَزَلًا وَأَبَدًا . وَعِنْدَهُمْ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ يَقُولُ : ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ﴾ وَ : ﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ و ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ وَنَحْوَ ذَلِكَ وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ وَغَيْرِهَا فِي مَوَاضِعَ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَنْقُلَ وَاحِدًا مِنْهُمَا عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ : أَعْنِي الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَسَائِرَ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْمَشْهُورِينَ بِالْعِلْمِ وَالدِّينِ الَّذِينَ لَهُمْ فِي الْأُمَّةِ لِسَانُ صِدْقٍ فِي زَمَنِ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَلَا زَمَنِ الشَّافِعِيِّ وَلَا زَمَنِ

أَبِي حَنِيفَةَ وَلَا قَبْلَهُمْ . وَأَوَّلُ مَنْ أَحْدَثَ هَذَا الْأَصْلَ هُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدِ بْنِ كُلَّابٍ وَعَرَفَ أَنَّ الْحُرُوفَ مُتَعَاقِبَةٌ فَيَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ قَدِيمَةَ الْأَعْيَانِ فَإِنَّ الْمُتَأَخِّرَ

قَدْ سَبَقَهُ غَيْرُهُ وَالْقَدِيمُ لَا يَسْبِقُهُ غَيْرُهُ وَالصَّوْتُ الْمُعَيَّنُ لَا يَبْقَى زَمَانَيْنِ فَكَيْفَ يَكُونُ قَدِيمًا فَقَالَ بِأَنَّ الْقَدِيمَ هُوَ الْمَعْنَى ثُمَّ جَعَلَ الْمَعْنَى وَاحِدًا لَا يَتَعَدَّدُ وَلَا يَتَبَعَّضُ لِامْتِنَاعِ اخْتِصَاصِهِ بِعَدَدٍ مُعَيَّنٍ وَامْتِنَاعِ مَعَانٍ لَا نِهَايَةَ لَهَا فِي آنٍ وَاحِدٍ وَجَعَلَ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ لَيْسَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ .

فَلَمَّا شَاعَ قَوْلُهُ وَعَرَفَ جُمْهُورُ الْمُسْلِمِينَ فَسَادَهُ شَرْعًا وَعَقْلًا قَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى - مِمَّنْ وَافَقَتْهُ عَلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ - إنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَعَلَى الْأَصْلِ الَّذِي أَحْدَثَهُ مِنْ الْقَوْلِ بِقِدَمِ الْقُرْآنِ - : إنَّ الْقُرْآنَ قَدِيمٌ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ الْحُرُوفِ الْمُتَعَاقِبَةِ وَالْأَصْوَاتِ الْمُؤَلَّفَةِ . فَصَارَ قَوْلُ هَؤُلَاءِ مُرَكَّبًا مِنْ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ وَقَوْلِ الْكُلَّابِيَةِ فَإِذَا نَاظَرُوا الْمُعْتَزِلَةَ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ نَاظَرُوهُمْ بِطَرِيقَةِ ابْنِ كُلَّابٍ وَإِذَا نَاظَرَهُمْ الْكُلَّابِيَةُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ كَلَامُ اللَّهِ وَأَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي يَقْرَأُهُ الْمُسْلِمُونَ كَلَامُ اللَّهِ نَاظَرُوهُمْ بِحُجَجِ الْمُعْتَزِلَةِ . وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ قَوْلَ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ كَمَا بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَلَا قَالَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لَا الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَلَا أَصْحَابُهُمْ الَّذِينَ أَدْرَكُوهُمْ وَإِنَّمَا قَالَهُ - مِمَّنْ يَنْتَسِبُ إلَيْهِمْ - بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ تَلَقَّوْهَا عَمَّنْ قَالَهَا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَلَمْ يَكُنْ

لَهُمْ خِبْرَةٌ لَا بِأَقْوَالِ السَّلَفِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْعَقْلُ الصَّرِيحُ وَلَا بِحَقَائِقِ أَقْوَالِ أَهْلِ الْكَلَامِ الَّذِي ذَمَّهُ السَّلَفُ وَلِمَ قَالُوا هَذَا وَمَا الَّذِي أَلْجَأَهُمْ إلَى هَذَا ؟ وَقَدْ شَاعَ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ بِمَخْلُوقِ وَالْقَوْلُ بِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ قَوْلٌ مُبْتَدَعٌ مَذْمُومٌ عِنْدَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ فَصَارَ مَنْ يُطَالِعُ كُتُبَ الْكَلَامِ الَّتِي لَا يَجِدُ فِيهَا إلَّا قَوْلَ الْمُعْتَزِلَةِ وَقَوْلَ مَنْ رَدَّ عَلَيْهِمْ وَانْتَسَبَ إلَى السُّنَّةِ يَظُنُّ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَسْأَلَةِ إلَّا هَذَا الْقَوْلُ وَهَذَا وَذَاكَ قَدْ عَرَفَ أَنَّهُ قَوْلٌ مَذْمُومٌ عِنْدَ السَّلَفِ فَيَظُنُّ الْقَوْلَ الْآخَرَ قَوْلَ السَّلَفِ كَمَا يَقَعُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْمَسَائِلِ فِي غَيْرِ هَذِهِ : لَا يَعْرِفُ الرَّجُلُ فِي الْمَسْأَلَةِ إلَّا قَوْلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةً فَيَظُنُّ الصَّوَابَ وَاحِدًا مِنْهَا وَيَكُونُ فِيهَا قَوْلٌ لَمْ يَبْلُغْهُ وَهُوَ الصَّوَابُ دُونَ تِلْكَ . وَهَذَا بَابٌ وَاسِعٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْمَسَائِلِ . وَاَللَّهُ يَهْدِينَا وَسَائِرَ إخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ إلَى مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَمَنْ اجْتَهَدَ بِقَصْدِ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِحَسَبِ اجْتِهَادِهِ لَمْ يُكَلِّفْهُ اللَّهُ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ بَلْ يُثِيبُهُ اللَّهُ عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنْ طَاعَتِهِ وَيَغْفِرُ مَا أَخْطَأَ فِيهِ فَعَجَزَ عَنْ مَعْرِفَتِهِ .

فَصْلٌ :

وَالنُّصُوصُ وَالْآثَارُ فِي تَفْضِيلِ كَلَامِ اللَّهِ - بَلْ وَتَفْضِيلِ بَعْضِ صِفَاتِهِ - عَلَى بَعْضٍ مُتَعَدِّدَةٌ .
وَقَوْلُ الْقَائِلِ " صِفَاتُ اللَّهِ كُلُّهَا فَاضِلَةٌ

فِي غَايَةِ التَّمَامِ وَالْكَمَالِ لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ " كَلَامٌ صَحِيحٌ لَكِنَّ تَوَهُّمَهُ أَنَّهُ إذَا كَانَ بَعْضُهَا أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ كَانَ الْمَفْضُولُ مَعِيبًا مَنْقُوصًا خَطَأٌ مِنْهُ فَإِنَّ النُّصُوصَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَعْضَ أَسْمَائِهِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ وَلِهَذَا يُقَالُ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ . وَتَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَعْضَ صِفَاتِهِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ وَبَعْضُ أَفْعَالِهِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ فَفِي الْآثَارِ ذِكْرُ اسْمِهِ الْعَظِيمِ وَاسْمِهِ الْأَعْظَمِ وَاسْمِهِ الْكَبِيرِ وَالْأَكْبَرِ كَمَا فِي السُّنَنِ وَرَوَاهُ أَحْمَد وَابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ ﴿ عَنْ ابْنِ بريدة عَنْ أَبِيهِ قَالَ : دَخَلْت مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَجُلٌ يُصَلِّي يَدْعُو : اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّك أَنْتَ اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ ﴾ . ﴿ وَعَنْ أَنَسٍ قَالَ : كُنْت جَالِسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَلْقَةِ وَرَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي فَلَمَّا رَكَعَ وَسَجَدَ تَشَهَّدَ وَدَعَا فَقَالَ فِي دُعَائِهِ : اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك بِأَنَّ لَك الْحَمْدُ لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ

الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ دَعَا

(492/838)

بِاسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى ﴾ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ

(493/838)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ إنَّ اللَّهَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ مَوْضُوعٌ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي ﴾ وَفِي رِوَايَةٍ ﴿ سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي ﴾ فَوَصَفَ رَحْمَتَهُ بِأَنَّهَا تَغْلِبُ وَتَسْبِقُ غَضَبَهُ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ رَحْمَتِهِ عَلَى غَضَبِهِ مِنْ جِهَةِ سَبْقِهَا وَغَلَبَتِهَا وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ﴿ عَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِك وَبِمُعَافَاتِك مِنْ عُقُوبَتِك وَأَعُوذُ بِك مِنْك ﴾ . وَرَوَى التِّرْمِذِيُّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ ذَلِكَ فِي وِتْرِهِ

لَكِنَّ هَذَا فِيهِ نَظَرٌ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِدِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ الِاسْتِعَاذَةَ بِكَلِمَاتِهِ التَّامَّاتِ كَقَوْلِهِ ﴿ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ وَمِنْ شَرِّ عِبَادِهِ وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَنْ يَحْضُرُونِ ﴾ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ خَوْلَةَ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْهُ ﴾ . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ لِعُثْمَانَ بْنِ أَبِي العاص : ﴿ قُلْ : أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ ﴾ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُسْتَعَاذَ بِهِ أَفْضَلُ مِنْ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ فَقَدْ اسْتَعَاذَ بِرِضَاهُ مِنْ سَخَطِهِ وَبِمُعَافَاتِهِ مِنْ عُقُوبَتِهِ . وَأَمَّا اسْتِعَاذَتُهُ بِهِ مِنْهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِاعْتِبَارِ

جِهَتَيْنِ : يَسْتَعِيذُ بِهِ بِاعْتِبَارِ تِلْكَ الْجِهَةِ وَمِنْهُ بِاعْتِبَارِ تِلْكَ الْجِهَةِ لِيَتَغَايَرَ الْمُسْتَعَاذُ بِهِ وَالْمُسْتَعَاذُ

مِنْهُ إذْ أَنَّ الْمُسْتَعَاذَ مِنْهُ مُخَوِّفٌ مَرْهُوبٌ مِنْهُ وَالْمُسْتَعَاذُ بِهِ مَدْعُوٌّ مُسْتَجَارٌ بِهِ مُلْتَجَأٌ إلَيْهِ وَالْجِهَةُ الْوَاحِدَةُ لَا تَكُونُ مَطْلُوبَةً مَهْرُوبًا مِنْهَا لَكِنْ بِاعْتِبَارِ جِهَتَيْنِ تَصِحُّ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَّمَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ عِنْدَ النَّوْمِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْت نَفْسِي إلَيْك وَوَجَّهْت وَجْهِي إلَيْك وَأَلْجَأْت ظَهْرِي إلَيْك وَفَوَّضْت أَمْرِي إلَيْك رَغْبَةً وَرَهْبَةً إلَيْك لَا مَنْجَا وَلَا مَلْجَأَ مِنْك إلَّا إلَيْك . آمَنْت بِكِتَابِك الَّذِي أَنْزَلْت وَبِنَبِيِّك الَّذِي أَرْسَلْت ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا يُنْجِي مِنْهُ إلَّا هُوَ وَلَا يُلْتَجَأُ مِنْهُ إلَّا إلَيْهِ . وَأَعْمَلَ الْفِعْلَ الثَّانِيَ لَمَّا تَنَازَعَ الْفِعْلَانِ فِي الْعَمَلِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ جِهَةَ كَوْنِهِ مُنْجِيًا غَيْرُ جِهَةِ كَوْنِهِ مُنْجِيًا مِنْهُ وَكَذَلِكَ جِهَةُ كَوْنِهِ مُلْتَجَأً إلَيْهِ غَيْرُ كَوْنِهِ مُلْتَجَأً مِنْهُ سَوَاءٌ قِيلَ إنَّ ذَلِكَ يَتَعَلَّقُ بِمَفْعُولَاتِهِ أَوْ أَفْعَالِهِ الْقَائِمَةِ بِهِ أَوْ صِفَاتِهِ أَوْ بِذَاتِهِ بِاعْتِبَارَيْنِ . وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ : الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا ﴾ . وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ الْيَدَيْنِ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ وَيَذْكُرُ فِيهَا أَنَّ كِلْتَاهُمَا يَمِينٌ مَعَ تَفْضِيلِ الْيَمِينِ . قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ

الْعُلَمَاءِ لَمَّا كَانَتْ صِفَاتُ الْمَخْلُوقِينَ مُتَضَمِّنَةً لِلنَّقْصِ فَكَانَتْ يَسَارُ أَحَدِهِمْ نَاقِصَةً فِي الْقُوَّةِ نَاقِصَةً فِي الْفِعْلِ

(497/838)

بِحَيْثُ تَفْعَلُ بِمَيَاسِرِهَا كُلَّ مَا يُذَمُّ - كَمَا يُبَاشِرُ بِيَدِهِ الْيُسْرَى النَّجَاسَاتِ وَالْأَقْذَارَ - بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ كِلْتَا يَمِينِ الرَّبِّ مُبَارَكَةٌ لَيْسَ فِيهَا نَقْصٌ وَلَا عَيْبٌ بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ كَمَا فِي صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ مَعَ أَنَّ الْيَمِينَ أَفْضَلُهُمَا كَمَا فِي حَدِيثِ آدَمَ قَالَ ﴿ اخْتَرْت يَمِينَ رَبِّي وَكِلْتَا يَدَيْ رَبِّي يَمِينٌ مُبَارَكَةٌ ﴾ فَإِنَّهُ لَا نَقْصَ فِي صِفَاتِهِ وَلَا ذَمَّ فِي أَفْعَالِهِ بَلْ أَفْعَالُهُ كُلُّهَا إمَّا فَضْلٌ وَإِمَّا عَدْلٌ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ يَمِينُ اللَّهِ مَلْأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَمِينِهِ . وَالْقِسْطُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ ﴾ فَبَيَّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَالْعَدْلَ بِيَدِهِ الْأُخْرَى . وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ مَعَ أَنَّ كِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ فَالْفَضْلُ أَعْلَى مِنْ الْعَدْلِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ كُلُّ رَحْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ وَكُلُّ نِقْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ وَرَحْمَتُهُ أَفْضَلُ مِنْ نِقْمَتِهِ . وَلِهَذَا كَانَ الْمُقْسِطُونَ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَلَمْ يَكُونُوا عَنْ يَدِهِ الْأُخْرَى . وَجَعَلَهُمْ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ تَفْضِيلٌ لَهُمْ كَمَا فَضَّلَ فِي الْقُرْآنِ أَهْلَ

الْيَمِينِ وَأَهْلَ الْمَيْمَنَةِ عَلَى أَصْحَابِ الشِّمَالِ وَأَصْحَابِ الْمَشْأَمَةِ وَإِنْ كَانُوا إِنَّمَا عَذَّبَهُمْ بِعَدْلِهِ وَكَذَلِكَ .

الْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ جَاءَتْ بِأَنَّ أَهْلَ قَبْضَةِ الْيَمِينِ هُمْ أَهْلُ السَّعَادَةِ وَأَهْلَ الْقَبْضَةِ الْأُخْرَى هُمْ أَهْلُ الشَّقَاوَةِ.

وَمِمَّا يُبَيِّنُ هَذَا أَنَّ الشَّرَّ لَمْ يَرِدْ فِي أَسْمَائِهِ وَإِنَّمَا وَرَدَ فِي مَفْعُولَاتِهِ وَلَمْ يُضِفْ إلَيْهِ إلَّا عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ وَأَضَافَهُ إلَى السَّبَبِ الْمَخْلُوقِ أَوْ بِحَذْفِ فَاعِلِهِ وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وَ ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ وَكَأَسْمَائِهِ الْمُقْتَرِنَةِ مِثْلَ الْمُعْطِي الْمَانِعِ الضَّارِّ النَّافِعِ الْمُعِزِّ الْمُذِلِّ الْخَافِضِ الرَّافِعِ وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ وَكَقَوْلِهِ : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ وَكَقَوْلِ الْجِنِّ : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ

عَنْ ﴿ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَاءِ الِاسْتِفْتَاحِ وَالْخَيْرُ بِيَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إلَيْك ﴾ وَسَوَاءٌ أُرِيدَ بِهِ: أَنَّهُ لَا يُضَافُ إلَيْك وَلَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إلَيْك أَوْ قِيلَ إنَّ الشَّرَّ إمَّا عَدَمٌ وَإِمَّا مِنْ لَوَازِمِ الْعَدَمِ وَكِلَاهُمَا لَيْسَ إلَى اللَّهِ فَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ إنَّمَا يُضَافُ إلَيْهِ الْخَيْرُ وَأَسْمَاؤُهُ تَدُلُّ عَلَى صِفَاتِهِ وَذَلِكَ كُلُّهُ خَيْرٌ حَسَنٌ جَمِيلٌ لَيْسَ فِيهِ شَرٌّ وَإِنَّمَا وَقَعَ الشَّرُّ فِي الْمَخْلُوقَاتِ قَالَ تَعَالَى ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ

(500/838)

لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فَجَعَلَ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ مِنْ مَعَانِي أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى الَّتِي يُسَمِّي بِهَا نَفْسَهُ فَتَكُونُ الْمَغْفِرَةُ

(501/838)

وَالرَّحْمَةُ مِنْ صِفَاتِهِ وَأَمَّا الْعِقَابُ الَّذِي يَتَّصِلُ بِالْعِبَادِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ لَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْأَلِيمُ فَلَمْ يَقُلْ : وَإِنِّي أَنَا الْمُعَذِّبُ وَلَا فِي أَسْمَائِهِ الثَّابِتَةِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْمُ الْمُنْتَقِمِ وَإِنَّمَا جَاءَ الْمُنْتَقِمُ فِي الْقُرْآنِ مُقَيَّدًا كَقَوْلِهِ ﴿ إنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ وَجَاءَ مَعْنَاهُ مُضَافًا إلَى اللَّهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ إنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ وَهَذِهِ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ وَالنَّكِرَةُ فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ مُطْلَقَةٌ لَيْسَ فِيهَا عُمُومٌ عَلَى سَبِيلِ الْجَمْعِ . وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ حَكِيمٌ رَحِيمٌ وَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ الْمَخْلُوقَاتِ إلَّا بِحِكْمَتِهِ كَمَا قَالَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ وَقَالَ فِي السُّورَةِ الْأُخْرَى : ﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِ فِي سَائِرِ الْآيَاتِ : (بِالْحَقِّ هُوَ لِهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي

يَتضمَّنُ حِكْمَتَهُ كما قَالَ : ﴿ وهُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمَاواتِ والْأَرْضَ بالْحقِّ ويَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيكُونُ ﴾ وقَوْلُهُ : ﴿ ومَا خَلَقْنَا السَّمَاواتِ والْأَرْضَ ومَا بَيْنَهُمَا إلَّا

(503/838)

بالْحقِّ وإنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ ﴿ إنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ .

وبَعْضُ النَّاسِ يَظُنُّ أنَّ قَوْلَهُ ﴿ هُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ إشَارَةً إلَى أنَّهُ خَالِقُ أفْعَالِ الْعِبَادِ فَلَا يَنْبَغِي التَّشْدِيدُ فِي الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ بَلْ يَصْفَحُ عَنْهُمْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ لِأَجْلِ الْقَدَرِ وهَذَا مِنْ أعْظَمِ الْجَهْلِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ قَدْ عَاقَبَ الْمُخَالِفِينَ لَهُ ولِرُسُلِهِ . وغَضِبَ عَلَيْهِمْ وأَمَرَ بِمُعَاقَبَتِهِمْ وأَعَدَّ لَهُمْ مِنْ الْعَذَابِ مَا يُنَافِي قَوْلَ هَؤُلَاءِ الْمُعَطِّلِينَ لِأَمْرِهِ ونَهْيِهِ ووَعْدِهِ ووَعِيدِهِ . وقَوْلُهُ ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ تَعَلَّقَ بِمَا قَبْلَهُ وهُوَ قَوْلُهُ ﴿ وإنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ فَإِنَّ لَهُمْ مَوْعِدًا يُجْزَوْنَ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي نَظَائِرِ ذَلِكَ : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ ﴿ فَذَكِّرْ إنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ ﴿ إلَّا مَنْ تَوَلَّى وكَفَرَ ﴾ ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴾ ﴿ إنَّ إلَيْنَا إيَابَهُمْ ﴾ ﴿ ثُمَّ إنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ وقَوْلُهُ : ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴾ وقَوْلُهُ ﴿ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ ولَمْ يَعْذُرْ اللَّهُ أحَدًا قَطُّ بِالْقَدَرِ ولَوْ عَذَرَ بِهِ لَكَانَ أنْبِيَاؤُهُ وأَوْلِيَاؤُهُ أحَقَّ

بِذَلِكَ وَآدَمُ إِنَّمَا حَجَّ مُوسَى لِأَنَّهُ لَامَهُ عَلَى الْمُصِيبَةِ الَّتِي أَصَابَتْ الذُّرِّيَّةَ فَقَالَ لَهُ : لِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ ؟ وَمَا أَصَابَ الْعَبْدُ مِنْ الْمَصَائِبِ

فَعَلَيْهِ أَنْ يُسَلِّمَ فِيهَا لِلَّهِ وَيَعْلَمَ أَنَّهَا مُقَدَّرَةٌ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ

تَعَالَى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ قَالَ عَلْقَمَةُ - وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - : هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ : فَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِالتَّقْوَى وَالصَّبْرِ فَالتَّقْوَى فِعْلُ مَا أُمِرَ بِهِ وَمِنْ الصَّبْرِ الصَّبْرُ عَلَى مَا أَصَابَهُ وَهَذَا هُوَ صَاحِبُ الْعَاقِبَةِ الْمَحْمُودَةِ كَمَا قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ بَلَى إنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ

﴿ . وَلَا بُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ مِنْ أَنْ يَقَعَ مِنْهُ مَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَيُبْتَلَى بِمَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إلَى الصَّبْرِ فَلِهَذَا يُؤْمَرُ بِالصَّبْرِ وَالِاسْتِغْفَارِ كَمَا قِيلَ لِأَفْضَلِ الْخَلْقِ : ﴿ فَاصْبِرْ إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى مُنَاظَرَةِ آدَمَ وَمُوسَى ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ حَمَلُوهَا عَلَى مَحَامِلَ مُخَالِفَةٍ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ وَمِنْهُمْ مَنْ كَذَّبَ بِالْحَدِيثِ لِعَدَمِ فَهْمِهِ لَهُ وَالْحَدِيثُ حَقٌّ يُوجِبُ أَنَّ الْإِنْسَانَ إذَا جَرَتْ عَلَيْهِ

مُصِيبَةٌ بِفِعْلِ غَيْرِهِ مِثْلِ أَبِيهِ أَوْ غَيْرِ أَبِيهِ لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ أَبُوهُ قَدْ تَابَ مِنْهَا فَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ تَبِعَةٌ كَمَا جَرَى لِآدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾

وقَالَ : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ وكَانَ آدم وموسى أَعْلَمَ بِاللَّهِ مِنْ أَنْ يَحْتَجَّ أَحَدُهُمَا لِذَنْبِهِ بِالْقَدَرِ وَيُوَافِقُهُ الْآخَرُ وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَحْتَجْ آدَمَ إِلَى تَوْبَةٍ وَلَا أُهْبِطَ مِنْ الْجَنَّةِ وَمُوسَى هُوَ الْقَائِلُ : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي ﴾ وَهُوَ الْقَائِلُ : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وَهُوَ الْقَائِلُ : ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ وَهُوَ الْقَائِلُ لِقَوْمِهِ : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ ﴾ فَلَوْ كَانَ الْمُذْنِبُ يُعْذَرُ بِالْقَدَرِ لَمْ يَحْتَجْ إلَى هَذَا بَلْ كَانَ الِاحْتِجَاجُ بِالْقَدَرِ لَمَّا حَصَلَ مِنْ مُوسَى مَلَامٌ عَلَى مَا قُدِّرَ عَلَيْهِ مِنْ الْمُصِيبَةِ الَّتِي كَتَبَهَا اللَّهُ وَقَدَّرَهَا . وَمِنْ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ أَنْ يَعْلَمَ الْعَبْدُ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ فَالْمُؤْمِنُ يَصْبِرُ عَلَى الْمَصَائِبِ وَيَسْتَغْفِرُ مِنْ الذُّنُوبِ والمعائب وَالْجَاهِلُ الظَّالِمُ يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ عَلَى ذُنُوبِهِ وَسَيِّئَاتِهِ وَلَا يَعْذُرُ بِالْقَدَرِ مَنْ أَسَاءَ إلَيْهِ وَلَا يَذْكُرُ الْقَدَرَ عِنْدَ مَا يُيَسِّرُهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ الْخَيْرِ فَعَكْسُ الْقَضِيَّةِ بَلْ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِ إذَا عَمِلَ حَسَنَةً أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهَا نِعْمَةٌ مِنْ اللَّهِ هُوَ يَسَّرَهَا وَتَفَضَّلَ بِهَا فَلَا يُعْجَبُ بِهَا وَلَا يُضِيفُهَا إلَى نَفْسِهِ كَأَنَّهُ الْخَالِقُ لَهَا وَإِذَا عَمِلَ

سَيِّئَةً اسْتَغْفَرَ وَتَابَ مِنْهَا وَإِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ سَمَاوِيَّةٌ أَوْ بِفِعْلِ الْعِبَادِ يَعْلَمُ أَنَّهَا كَانَتْ مُقَدَّرَةً مَقْضِيَّةً عَلَيْهِ

وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ . وَالْمُرَادُ هُنَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ بَيَّنَ أَنَّهُ إنَّمَا خَلَقَ الْمَخْلُوقَاتِ لِحِكْمَتِهِ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ وَقَدْ ذَمَّ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ خَلَقَ ذَلِكَ بَاطِلًا وَعَبَثًا فَقَالَ : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ وَقَالَ : ﴿ إنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ فَلَا بُدَّ مِنْ جَزَاءِ الْعِبَادِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ فَلِهَذَا قِيلَ : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ . وَلِلَّهِ سُبْحَانَهُ فِي كُلِّ مَا يَخْلُقُهُ حِكْمَةٌ يُحِبُّهَا وَيَرْضَاهَا وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَأَتْقَنَ كُلَّ مَا صَنَعَ فَمَا وَقَعَ مِنْ الشَّرِّ الْمَوْجُودِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ فَقَدْ وُجِدَ لِأَجْلِ تِلْكَ الْحِكْمَةِ الْمَطْلُوبَةِ الْمَحْبُوبَةِ الْمَرْضِيَّةِ فَهُوَ مِنْ اللَّهِ حَسَنٌ جَمِيلٌ وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَحْمُودٌ عَلَيْهِ وَلَهُ الْحَمْدُ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَإِنْ كَانَ شَرًّا بِالنِّسْبَةِ إلَى بَعْضِ الْأَشْخَاصِ . وَهَذَا مَوْضُوعٌ عَظِيمٌ قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ

هَذَا الْمَوْضِعِ فَإِنَّ النَّاسَ - فِي بَابِ خَلْقِ الرَّبِّ وَأَمْرِهِ وَلِمَ فَعَلَ ذَلِكَ - عَلَى طَرَفَيْنِ وَوَسَطٍ : فَالْقَدَرِيَّةُ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ قَصَدُوا تَعْظِيمَ الرَّبِّ وَتَنْزِيهَهُ عَمَّا ظَنُّوهُ قَبِيحًا

(510/838)

مِنْ الْأَفْعَالِ وَظُلْمًا ؛ فَأَنْكَرُوا عُمُومَ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ خَالِقًا

(511/838)

لِكُلِّ شَيْءٍ وَلَا أَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ بَلْ قَالُوا : يَشَاءُ مَا لَا يَكُونُ وَيَكُونُ مَا لَا يَشَاءُ ثُمَّ إنَّهُمْ وَضَعُوا لِرَبِّهِمْ شَرِيعَةً فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَيَحْرُمُ - بِالْقِيَاسِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ - وَتَكَلَّمُوا فِي التَّعْدِيلِ وَالتَّجْوِيزِ بِهَذَا الْقِيَاسِ الْفَاسِدِ الَّذِي شَبَّهُوا فِيهِ الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا . وَقَابَلَهُمْ الْجَهْمِيَّةُ الْغُلَاةُ فِي الْجَبْرِ فَأَنْكَرُوا حِكْمَةَ اللَّهِ وَرَحْمَتَهُ وَقَالُوا : لَمْ يَخْلُقْ لِحِكْمَةِ وَلَمْ يَأْمُرْ بِحِكْمَةِ وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ " لَامُ كَيْ " لَا فِي خَلْقِهِ وَلَا فِي أَمْرِهِ . وَزَعَمُوا أَنَّ قَوْلَهُ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ و ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وَقَوْلَهُ : ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ

الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ وَقَوْلَهُ ﴿ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ ﴾ وَقَوْلَهُ : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ - وَأَمْثَالَ ذَلِكَ - إنَّمَا اللَّامُ فِيهِ لَامُ الْعَاقِبَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ وَقَوْلُ الْقَائِلِ : " لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ " . وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ لَامَ الْعَاقِبَةِ إنَّمَا تَصِحُّ مِمَّنْ يَكُونُ جَاهِلًا بِعَاقِبَةِ فِعْلِهِ كَفِرْعَوْنَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَدْرِي مَا يَنْتَهِي إلَيْهِ أَمْرُ مُوسَى أَوْ مِمَّنْ يَكُونُ عَاجِزًا عَنْ رَدِّ عَاقِبَةِ فِعْلِهِ كَعَجْزِ بَنِي آدَمَ عَنْ

دَفْعِ الْمَوْتِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَالْخَرَابِ عَنْ دِيَارِهِمْ فَأَمَّا مَنْ هُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَعَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ مُرِيدٌ لِكُلِّ

مَا خَلَقَ : فَيَمْتَنِعُ فِي حَقِّهِ لَامُ الْعَاقِبَةِ الَّتِي تَتَضَمَّنُ نَفْيَ الْعِلْمِ أَوْ نَفْيَ الْقُدْرَةِ . وَأَنْكَرَ هَؤُلَاءِ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَرِضَاهُ لِبَعْضِ الْمَوْجُودَاتِ دُونَ بَعْضٍ . وَقَالُوا الْمَحَبَّةُ وَالرِّضَا هُوَ مِنْ مَعْنَى

الْإِرَادَةِ وَاللَّهُ مُرِيدٌ لِكُلِّ مَا خَلَقَهُ فَهُوَ رَاضٍ بِذَلِكَ مُحِبٌّ لَهُ . وَزَعَمُوا أَنَّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ نَفْيِ حُبِّهِ وَرِضَاهُ بِالْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي كَقَوْلِهِ : ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ مَحْمُولٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ لَمْ يَقَعْ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَوْ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْهُ دِينًا يُثِيبُهُمْ عَلَيْهِ . وَزَعَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ وَلَا يَرْضَى مَا أَمَرَ بِهِ مِنْ الْعِبَادَاتِ إلَّا إذَا وَقَعَ فَيُرِيدُهُ كَمَا يُرِيدُ حِينَئِذٍ مَا وَقَعَ مِنْ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَقْوَالِهِمْ الْمَبْسُوطَةِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

وَكَثِيرٌ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ يَظُنُّ أَنَّ هَذَا قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَهَذَا مِمَّا لَمْ يَنْقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا بَلْ جَمِيعُ مُثْبِتَةِ الْقَدَرِ الْمُتَقَدِّمِينَ كَانُوا يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَبَيْنَ الْإِرَادَةِ وَلَكِنْ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ اتَّبَعَ جَهْمًا فِي ذَلِكَ . قَالَ أَبُو الْمَعَالِي الجُوَيْنِي : وَمِمَّا اخْتَلَفَ أَهْلُ الْحَقِّ فِي إطْلَاقِهِ وَعَدَمِ إطْلَاقِهِ الْمَحَبَّةُ وَالرِّضَا فَصَارَ الْمُتَقَدِّمُونَ إلَى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يُحِبُّ الْكُفْرَ وَلَا يَرْضَاهُ وَكَذَلِكَ كُلُّ مَعْصِيَةٍ . وَقَالَ شَيْخُنَا أَبُو الْحَسَنِ : الْمَحَبَّةُ هِيَ الْإِرَادَةُ نَفْسُهَا

وَكَذَلِكَ الرِّضَا وَالِاصْطِفَاءُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ الْكُفْرَ

وَيَرْضَاهُ كُفْرًا قَبِيحًا مُعَاقِبًا عَلَيْهِ . وَهُوَ كَمَا قَالَ أَبُو الْمَعَالِي فَإِنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ جَمِيعِ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَرْضَى مَا نَهَى عَنْهُ وَلَا يُحِبُّهُ وَعَلَى ذَلِكَ قُدَمَاءُ أَصْحَابِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد كَأَبِي بَكْرٍ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَغَيْرِهِ مِنْ قُدَمَائِهِمْ وَلَكِنَّ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ مَنْ سَوَّى بَيْنَ الْجَمِيعِ كَمَا قَالَهُ أَبُو الْحَسَنِ وَهُوَ فِي الْأَصْلِ قَوْلُ جَهْمٍ فَهُوَ الَّذِي قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْجَبْرِ وَبِمَا يُخَالِفُ أَهْلَ السُّنَّةِ وَأَنْكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَكَانَ يَخْرُجُ إلَى الْجَذْمَى فَيَقُولُ : أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ يَفْعَلُ هَذَا ؟ فَنَفَى أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَقَدْ قَالَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﴿ لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ الْوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا ﴾ . وَهَذِهِ مَسَائِلُ عَظِيمَةٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهَا . وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى الْجُمَلِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَقْرَأُ كُتُبًا مُصَنَّفَةً فِي أُصُولِ الدِّينِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ بَلْ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَلَا يَجِدُ فِيهَا الْقَوْلَ الْمُوَافِقَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الَّذِي عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِصَحِيحِ الْمَنْقُولِ وَصَرِيحِ الْمَعْقُولِ بَلْ يَجِدُ أَقْوَالًا كُلٌّ مِنْهَا فِيهِ نَوْعٌ مِنْ الْفَسَادِ وَالتَّنَاقُضِ فَيَحَارُ مَا الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ وَمَا الَّذِي جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَمَا هُوَ الْحَقُّ وَالصِّدْقُ إذْ

لَمْ يجدْ فِي تلكَ الْأَقْوَالِ مَا يَحْصُلُ بِهِ ذَلِكَ وَإِنَّمَا الْهُدَى فِيمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ .

فَصْلٌ :

وَإِذَا عُلِمَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الشَّرْعُ مَعَ الْعَقْلِ وَاتِّفَاقِ السَّلَفِ مِنْ أَنَّ بَعْضَ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ وَكَذَلِكَ بَعْضُ صِفَاتِهِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ بَقِيَ الْكَلَامُ فِي كَوْنِ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾) تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ مَا وَجْهُ ذَلِكَ ؟ وَهَلْ ثَوَابُهَا بِقَدْرِ ثَوَابِ ثُلُثِ الْقُرْآنِ وَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ فَمَا وَجْهُ قِرَاءَةِ سَائِرِ الْقُرْآنِ ؟ فَيُقَالُ : أَمَّا الْأَوَّلُ فَقَدْ قِيلَ فِيهِ وُجُوهٌ أَحْسَنُهَا - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - الْجَوَابُ الْمَنْقُولُ عَنْ الْإِمَامِ أَبِي الْعَبَّاسِ ابْنِ سُرَيْجٍ فَعَنْ أَبِي الْوَلِيدِ الْقُرَشِيِّ أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا الْعَبَّاسِ بْنَ سُرَيْجٍ عَنْ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ﴾ فَقَالَ : مَعْنَاهُ أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : ثُلُثٌ مِنْهَا الْأَحْكَامُ وَثُلُثٌ مِنْهَا وَعْدٌ وَوَعِيدٌ وَثُلُثٌ مِنْهَا الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ . وَهَذِهِ السُّورَةُ جَمَعَتْ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ . وَقَدْ

ذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي هَذَا الْحَدِيثِ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ : بَدَأَ بِهَذَا الْوَجْهِ فَرَوَى قَوْلَ ابْنِ سُرَيْجٍ هَذَا بِإِسْنَادِهِ عَنْ زَاهِدٍ عَنْ الصَّابُونِيِّ وَالْبَيْهَقِيِّ عَنْ الْحَاكِمِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحَافِظِ قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا الْوَلِيدِ

حَسَّانَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْفَقِيهَ يَقُولُ : سَأَلْتُ أَبَا الْعَبَّاسِ ابْنَ سُرَيْجٍ قُلْتُ : مَا مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ﴾ ؟ قَالَ : إنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : فَثُلُثٌ أَحْكَامٌ وَثُلُثٌ وَعْدٌ وَوَعِيدٌ وَثُلُثٌ أَسْمَاءٌ وَصِفَاتٌ . وَقَدْ جُمِعَ فِي (﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾) أَحَدُ الْأَثْلَاثِ وَهُوَ الصِّفَاتُ فَقِيلَ إنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ . الْوَجْهُ الثَّانِي - مِنْ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ - أَنَّ مَعْرِفَةَ اللَّهِ هِيَ مَعْرِفَةُ ذَاتِهِ وَمَعْرِفَةُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَعْرِفَةُ أَفْعَالِهِ فَهَذِهِ السُّورَةُ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعْرِفَةِ ذَاتِهِ إذْ لَا يُوجَدُ شَيْءٌ إلَّا وُجِدَ مِنْ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ . فَإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ كُفْءٌ وَلَا لَهُ مَثَلٌ . قَالَ أَبُو الْفَرَجِ : ذَكَرَهُ بَعْضُ فُقَهَاءِ السَّلَفِ . قَالَ : وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ أَنَّ الْمَعْنَى : مَنْ عَمِلَ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ الْإِقْرَارِ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِذْعَانِ لِلْخَالِقِ كَانَ كَمَنْ قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ ذَكَرَهُ ابْنُ عَقِيلٍ . قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ : وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : مَنْ قَرَأَهَا فَلَهُ أَجْرُ ثُلُثِ الْقُرْآنِ لِقَوْلِ

رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ﴾ .

قُلْتُ : كِلَا الْوَجْهَيْنِ ضَعِيفٌ . أَمَّا الْأَوَّلُ فَيَدُلُّ عَلَى ضَعْفِهِ وُجُوهٌ : الْأَوَّلُ أَنْ نَقُولَ الْقُرْآنَ لَيْسَ

(519/838)

كُلُّهُ هُوَ الْمَعْرِفَةَ الْمَذْكُورَةَ بَلْ فِيهِ أَمْرٌ بِالْأَعْمَالِ الْوَاجِبَةِ وَنَهْيٌ عَنْ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَطْلُوبُ مِنْ الْعِبَادِ الْمَعْرِفَةُ الْوَاجِبَةُ وَالْعَمَلُ الْوَاجِبُ وَالْأُمَّةُ كُلُّهَا مُتَّفِقَةٌ عَلَى وُجُوبِ الْأَعْمَالِ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ الْوَاجِبَاتِ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْ النَّاسِ نَازَعُوا فِي كَوْنِ الْأَعْمَالِ مِنْ الْإِيمَانِ فَلَمْ يُنَازِعُوا فِي أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَغَيْرَهَا مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَحَرَّمَ الْفَوَاحِشَ : ﴿ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَقُدِّرَ أَنَّ سُورَةً مِنْ السُّوَرِ تَضَمَّنَتْ ثُلُثَ الْمَعْرِفَةِ لَمْ يَكُنْ هَذَا ثُلُثَ الْقُرْآنِ . الثَّانِي أَنْ يُقَالَ : قَوْلُ الْقَائِلِ مَعْرِفَةُ ذَاتِهِ وَمَعْرِفَةُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَعْرِفَةُ أَفْعَالِهِ إنْ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّ ذَاتَهُ تُعْرَفُ بِدُونِ مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الثُّبُوتِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ فَهَذَا مُمْتَنِعٌ وَلَوْ قُدِّرَ إمْكَانُ ذَلِكَ أَوْ فَرَضَ الْعَبْدُ فِي نَفْسِهِ ذَاتًا مُجَرَّدَةً عَنْ جَمِيعِ الْقُيُودِ السَّلْبِيَّةِ وَالثُّبُوتِيَّةِ فَلَيْسَ ذَاكَ مَعْرِفَتَهُ بِاَللَّهِ أَلْبَتَّةَ وَلَا هُوَ رَبُّ

الْعَالَمِينَ ذَاتٌ مُجَرَّدَةٌ عَنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلْبِيٍّ أَوْ ثُبُوتِيٍّ ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الْعُقَلَاءِ هَذَا إلَّا الْقَرَامِطَةُ الْبَاطِنِيَّةُ يَقُولُونَ : يُسْلَبُ عَنْهُ كُلُّ أَمْرٍ ثُبُوتِيٍّ

وَعَدَمِيٍّ فَلَا يُقَالُ مَوْجُودٌ وَلَا مَعْدُومٌ وَلَا عَالِمٌ وَلَا لَيْسَ بِعَالِمِ وَلَا قَادِرٌ وَلَا لَيْسَ بِقَادِرِ وَلَا نَحْوِ ذَلِكَ وَهَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّ قَوْلَهُمْ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ فَإِنَّهُمْ

مُتَنَاقِضُونَ أَمَّا الْأَوَّلُ فَلِأَنَّ سَلْبَ النَّقِيضَيْنِ مُمْتَنِعٌ كَمَا أَنَّ جَمْعَهُمَا مُمْتَنِعٌ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ الْأَشْيَاءِ لَا مَوْجُودًا وَلَا مَعْدُومًا . وَأَمَّا تَنَاقُضُهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَذْكُرُوا مَا ذَكَرُوا أَنَّهُ يُسْلَبُ عَنْهُ النَّقِيضَانِ بِبَعْضِ الْأُمُورِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بِهَا لِيُخْبِرَ عَنْهُ بِهَذَا السَّلْبِ وَأَيُّ شَيْءٍ قَالُوهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَضَمَّنَ نَفْيًا أَوْ إثْبَاتًا بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَتَضَمَّنَ إثْبَاتًا وَقَدْ بَسَطْنَا الرَّدَّ عَلَيْهِمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَلِهَذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ لَا يَصِلُونَ إلَى هَذَا الْحَدِّ ؛ بَلْ يَقُولُونَ كَمَا قَالَ أَبُو يَعْقُوبَ السجستاني وَغَيْرُهُ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ : نَحْنُ لَا نَنْفِي النَّقِيضَيْنِ بَلْ نَسْكُتُ عَنْ إضَافَةِ

وَاحِدٍ مِنْهُمَا إلَيْهِ ؛ فَلَا نَقُولُ هُوَ مَوْجُودٌ وَلَا مَعْدُومٌ وَلَا حَيٌّ وَلَا مَيِّتٌ وَلَا عَالِمٌ وَلَا جَاهِلٌ .

فَيُقَالُ لَهُمْ : إعْرَاضُ قُلُوبِكُمْ عَنْ الْعِلْمِ بِهِ وَكَفُّ أَلْسِنَتِكُمْ عَنْ ذِكْرِهِ لَا يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ فِي نَفْسِهِ مُجَرَّدًا عَنْ النَّقِيضَيْنِ ؛ بَلْ يُفِيدُ هَذَا كُفْرَكُمْ بِاَللَّهِ وَكَرَاهَتَكُمْ لِمَعْرِفَتِهِ وَذِكْرِهِ وَعِبَادَتِهِ وَهَذَا حَقِيقَةُ مَذْهَبِكُمْ . وَمَنْ قَالَ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى التَّصَوُّفِ وَالتَّحْقِيقِ كَابْنِ سَبْعِينَ وَالصَّدْرِ القونوي وَغَيْرِهِمَا : إنَّهُ وُجُودٌ مُطْلَقٌ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ عَنْ كُلِّ وَصْفٍ ثُبُوتِيٍّ وَسَلْبِيٍّ فَهُوَ مِنْ جِنْسِ هَؤُلَاءِ . لَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ هُوَ وُجُودٌ مُطْلَقٌ فَيَخُصُّونَهُ بِالْوُجُودِ دُونَ الْعَدَمِ . ثُمَّ يَقُولُونَ

(522/838)

هُوَ مُطْلَقٌ وَالْمُطْلَقُ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ عَنْ كُلِّ قَيْدٍ سَلْبِيٍّ وَثُبُوتِيٍّ إنَّمَا يَكُونُ

(523/838)

فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ . وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : الْوُجُودُ الْكُلِّيُّ الْمَقْسُومُ إلَى وَاجِبٍ وَمُمْكِنٍ الَّذِي يَجْعَلُهُ الْفَلَاسِفَةُ مَوْضُوعَ الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ وَيُسَمُّونَهُ " الْحِكْمَةَ الْعُلْيَا " وَ " الْفَلْسَفَةَ الْأُولَى "

إِنَّمَا يَكُونُ كُلِّيًّا فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ فَلَيْسَ فِي الْخَارِجِ قَطُّ وُجُودٌ هُوَ بِعَيْنِهِ وَاجِبٌ وَهُوَ بِعَيْنِهِ مُمْكِنٌ وَلَا وُجُودَ هُوَ نَفْسُهُ يَتَّصِفُ بِهِ الْوَاجِبُ وَهُوَ نَفْسُهُ يَتَّصِفُ بِهِ الْمُمْكِنُ ؛ بَلْ صِفَةُ الْوَاجِبِ تَخْتَصُّ بِهِ وَصِفَةُ الْمُمْكِنِ تَخْتَصُّ بِهِ وَوُجُودُ الْوَاجِبِ يَخُصُّهُ لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ وَوُجُودُ الْمُمْكِنِ يَخُصُّهُ لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ . وَلِهَذَا كَانَ كُلُّ مَا وَصَفَ بِهِ الرَّبُّ نَفْسَهُ مِنْ صِفَاتِهِ فَهِيَ صِفَاتٌ مُخْتَصَّةٌ بِهِ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهَا مُشَارِكٌ أَوْ مُمَاثِلٌ فَإِنَّ ذَاتَهُ الْمُقَدَّسَةَ لَا تُمَاثِلُ شَيْئًا مِنْ الذَّوَاتِ وَصِفَاتُهُ مُخْتَصَّةٌ بِهِ فَلَا تُمَاثِلُ شَيْئًا مِنْ الصِّفَاتِ ؛ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ أَحَدٌ صَمَدٌ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ فَاسْمُهُ (الْأَحَدُ دَلَّ عَلَى نَفْيِ الْمُشَارَكَةِ وَالْمُمَاثَلَةِ وَاسْمُهُ (الصَّمَدُ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ كَمَا بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي الشَّرْحِ الْكَبِيرِ الْمُصَنَّفِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ . وَصِفَاتِ التَّنْزِيهِ كُلِّهَا ؛ بَلْ وَصِفَاتُ الْإِثْبَاتِ : يَجْمَعُهَا هَذَانِ الْمَعْنَيَانِ . وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ فِي التَّوْحِيدِ وَأَنَّهُ نَوْعَانِ : عِلْمِيٌّ قَوْلِيٌّ وَعَمَلِيٌّ قَصْدِيٌّ .

فَقُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ اشْتَمَلَتْ عَلَى التَّوْحِيدِ الْعَمَلِيِّ نَصًّا وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى الْعِلْمِيِّ

لُزُومًا . و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ اشْتَمَلَتْ عَلَى التَّوْحِيدِ الْعِلْمِيِّ الْقَوْلِيِّ نَصًّا وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى التَّوْحِيدِ الْعَمَلِيِّ لُزُومًا . وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ بِهِمَا فِي رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ وَرَكْعَتَيْ الطَّوَافِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ أَيْضًا فِي رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ بِآيَةِ الْإِيمَانِ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ فِي الرَّكْعَةِ الْأُولَى وَآيَةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي فِي آلِ عِمْرَانَ : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ صِفَاتِ التَّنْزِيهِ يَجْمَعُهَا هَذَانِ الْمَعْنَيَانِ الْمَذْكُورَانِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ : أَحَدُهُمَا نَفْيُ النَّقَائِصِ عَنْهُ وَذَلِكَ مِنْ لَوَازِمِ إثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَمَنْ ثَبَتَ لَهُ الْكَمَالُ التَّامُّ انْتَفَى النُّقْصَانُ الْمُضَادُّ لَهُ وَالْكَمَالُ مِنْ مَدْلُولِ اسْمِهِ الصَّمَدِ . وَالثَّانِي أَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ وَهَذَا مِنْ مَدْلُولِ اسْمِهِ الْأَحَدِ . فَهَذَانِ الِاسْمَانِ الْعَظِيمَانِ - الْأَحَدُ الصَّمَدُ - يَتَضَمَّنَانِ تَنْزِيهَهُ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ وَتَنْزِيهَهُ فِي صِفَاتِ الْكَمَالِ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ مُمَاثِلٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا . وَاسْمُهُ الصَّمَدُ يَتَضَمَّنُ إثْبَاتَ جَمِيعِ

صِفَاتِ الْكَمَالِ فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ إِثْبَاتَ جَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَنَفْيَ جَمِيعِ صِفَاتِ النَّقْصِ فَالسُّورَةُ تَضَمَّنَتْ كُلَّ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْ اللَّهِ وَتَضَمَّنَتْ أَيْضًا كُلَّ مَا يَجِبُ إثْبَاتُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ : مِنْ اسْمِهِ الصَّمَدِ وَمِنْ جِهَةِ أَنَّ مَا نُفِيَ عَنْهُ مِنْ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ وَالنُّظَرَاءِ مُسْتَلْزِمٌ ثُبُوتَ صِفَاتِ الْكَمَالِ أَيْضًا . فَإِنَّ كُلَّ مَا يُمْدَحُ بِهِ الرَّبُّ مِنْ النَّفْيِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَضَمَّنَ ثُبُوتًا بَلْ وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا يُمْدَحُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ مِنْ النَّفْيِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَضَمَّنَ ثُبُوتًا وَإِلَّا فَالنَّفْيُ الْمَحْضُ مَعْنَاهُ عَدَمٌ مَحْضٌ وَالْعَدَمُ الْمَحْضُ لَيْسَ بِشَيْءِ ؛ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ صِفَةَ كَمَالٍ . وَهَذَا كَمَا يَذْكُرُهُ سُبْحَانَهُ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ مِثْلَ قَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ فَنَفْيُ أَخْذِ السِّنَةِ وَالنَّوْمِ لَهُ مُسْتَلْزِمٌ لِكَمَالِ حَيَاتِهِ وقيوميته فَإِنَّ النَّوْمَ يُنَافِي القيومية وَالنَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَنَامُونَ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ فَنَفْيُ الشَّفَاعَةِ بِدُونِ إذْنِهِ مُسْتَلْزِمٌ لِكَمَالِ مُلْكِهِ ؛ إذْ كُلُّ مَنْ شَفَعَ إلَيْهِ شَافِعٌ بِلَا إذْنِهِ فَقَبِلَ شَفَاعَتَهُ كَانَ مُنْفَعِلًا عَنْ ذَلِكَ الشَّافِعِ فَقَدْ أَثَّرَتْ شَفَاعَتُهُ فِيهِ فَصَيَّرَتْهُ فَاعِلًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ وَكَانَ ذَلِكَ الشَّافِعُ شَرِيكًا لِلْمَشْفُوعِ إلَيْهِ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ الْمَطْلُوبِ

بِالشَّفَاعَةِ ؛ إذْ كَانَتْ بِدُونِ إذْنِهِ لَا سِيَّمَا وَالْمَخْلُوقُ إذَا شُفِعَ إلَيْهِ بِغَيْرِ إذْنِهِ فَقَبِلَ الشَّفَاعَةَ فَإِنَّمَا يَقْبَلُهَا لِرَغْبَةِ أَوْ لِرَهْبَةِ : إمَّا مِنْ

الشَّافِعِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ وَإِلَّا فَلَوْ كَانَتْ دَاعِيَتُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ تَامَّةً مَعَ الْقُدْرَةِ لَمْ يَحْتَجْ إلَى شَفَاعَةٍ وَاَللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ الْإِلَهِيِّ : { يَا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي } . وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِالشَّفَاعَةِ إلَيْهِ فَكَانَ إذَا أَتَاهُ طَالِبُ حَاجَةٍ يَقُولُ : { اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ } أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ ؛ وَكَانَ مَقْصُودُهُ أَنَّهُمْ يُؤْجَرُونَ عَلَى الشَّفَاعَةِ وَهُوَ إنَّمَا يَفْعَلُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : { يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلَّا بِمَا شَاءَ } بَيَّنَ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مِنْ عِلْمِهِ إلَّا مَا عَلَّمَهُمْ إيَّاهُ كَمَا قَالَتْ الْمَلَائِكَةُ : { لَا عِلْمَ لَنَا إلَّا مَا عَلَّمْتَنَا } فَكَانَ فِي هَذَا النَّفْيِ إثْبَاتُ أَنَّ عِبَادَهُ لَا يَعْلَمُونَ إلَّا مَا عَلَّمَهُمْ إيَّاهُ فَأَثْبَتَ أَنَّهُ الَّذِي عَلَّمَهُمْ لَا يَنَالُونَ الْعِلْمَ إلَّا مِنْهُ . فَإِنَّهُ : { الَّذِي خَلَقَ } { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ } وَ { عَلَّمَ بِالْقَلَمِ } { عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } . ثُمَّ قَالَ : { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا } أَيْ لَا يُكْرِثُهُ

وَلَا يُثْقِلُهُ . وَهَذَا النَّفْيُ تَضَمَّنَ كَمَالَ قُدْرَتِهِ فَإِنَّهُ مَعَ حِفْظِهِ لِلسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَثْقُلُ ذَلِكَ عَلَيْهِ كَمَا يَثْقُلُ عَلَى

(529/838)

مَنْ فِي قُوَّتِهِ ضَعْفٌ . وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ فَنَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ مَسِّ اللُّغُوبِ . قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ :

(530/838)

اللُّغُوبُ الْإِعْيَاءُ وَالتَّعَبُ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ الْإِدْرَاكُ عِنْدَ السَّلَفِ وَالْأَكْثَرِينَ هُوَ الْإِحَاطَةُ . وَقَالَ طَائِفَةٌ هُوَ الرُّؤْيَةُ وَهُوَ ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّ نَفْيَ الرُّؤْيَةِ عَنْهُ لَا مَدْحَ فِيهِ فَإِنَّ الْعَدَمَ لَا يُرَى . وَكُلُّ وَصْفٍ يَشْتَرِكُ فِيهِ الْوُجُودُ وَالْعَدَمُ لَا يَسْتَلْزِمُ أَمْرًا ثُبُوتِيًّا فَلَا يَكُونُ فِيهِ مَدْحٌ إذْ هُوَ عَدَمٌ مَحْضٌ بِخِلَافِ مَا إذَا قِيلَ لَا يُحَاطُ بِهِ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى عَظَمَةِ الرَّبِّ جَلَّ جَلَالُهُ . وَإِنَّ الْعِبَادَ مَعَ رُؤْيَتِهِمْ لَهُ لَا يُحِيطُونَ بِهِ رُؤْيَةً كَمَا أَنَّهُمْ مَعَ مَعْرِفَتِهِ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا وَكَمَا أَنَّهُمْ مَعَ مَدْحِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ لَا يُحِيطُونَ ثَنَاءً عَلَيْهِ ؛ بَلْ هُوَ كَمَا أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ

الْمُقَدَّسَةِ . وَلِهَذَا قَالَ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَعْلَمُهُمْ : ﴿ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْت عَلَى نَفْسِك ﴾ وَهَذِهِ الْأُمُورُ مَبْسُوطَةٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا الْكَلَامُ عَلَى مَعْنَى كَوْنِ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ وَبَيَانُ أَنَّ الصَّوَابَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ . الْوَجْهُ الثَّالِثُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ الْقَوْلِ الثَّانِي أَنْ يُقَالَ : قَوْلُ الْقَائِلِ " مَعْرِفَةُ أَفْعَالِهِ " إنْ أَرَادَ بِذَلِكَ مَعْرِفَةَ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ فَهَذِهِ مِنْ تَمَامِ مَعْرِفَتِهِ وَيَبْقَى مَعْرِفَةُ وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَقَصَصُ الْأُمَمِ الْمُؤْمِنَةِ وَالْكَافِرَةِ لَمْ يَذْكُرْهُ وَهُوَ الْقِسْمُ الثَّانِي مِنْ أَقْسَامِ مَعَانِي الْقُرْآنِ كَمَا لَمْ يَذْكُرْ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ . وَإِنْ جَعَلَ

هَذِهِ مِنْ مَفْعُولَاتِهِ فَمَعْلُومٌ أَنَّ مَعْرِفَةَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْقَصَصِ الْمَطْلُوبِ فِيهَا الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ

كَمَا أَنَّ الْمَطْلُوبَ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ طَاعَتُهُ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمِنْ الْعَمَلِ الصَّالِحِ لِكُلِّ أُمَّةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . الْوَجْهُ الرَّابِعُ أَنْ يُقَالَ : مَا ذَكَرَهُ مِنْ نَفْيِ الْمِثْلِ عَنْهُ وَمِنْ نَفْيِ الْوِلَادَةِ مَذْكُورٌ فِي غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ فَلَمْ يَخْتَصَّ بِهَذَا الْمَعْنَى . الْوَجْهُ الْخَامِسُ أَنْ يُقَالَ : هَبْ أَنَّهَا تَضَمَّنَتْ التَّنْزِيهَ كَمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ فَمَعْرِفَةُ اللَّهِ لَيْسَتْ بِمَعْرِفَةِ صِفَاتِ السَّلْبِ بَلْ الْأَصْلُ فِيهَا صِفَاتُ الْإِثْبَاتِ وَالسَّلْبُ تَابِعٌ وَمَقْصُودُهُ تَكْمِيلُ الْإِثْبَاتِ كَمَا أَشَرْنَا إلَيْهِ مِنْ أَنَّ كُلَّ تَنْزِيهٍ مُدِحَ بِهِ الرَّبُّ فَفِيهِ إثْبَاتٌ وَلِهَذَا كَانَ قَوْلُ " سُبْحَانَ اللَّهِ " مُتَضَمِّنًا تَنْزِيهَ الرَّبِّ وَتَعْظِيمَهُ فَفِيهَا تَنْزِيهُهُ مِنْ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ وَفِيهَا تَعْظِيمُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوَاضِعَ . وَأَمَّا الْقَوْلُ الثَّالِثُ وَهُوَ الْمُرَادُ بِهِ أَنَّ مَنْ عَمِلَ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ كَانَ كَمَنْ قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ فَهَذَا أَيْضًا ضَعِيفٌ وَمَا نَفَاهُ مِنْ الْمُعَادَلَةِ فَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى قَوْلِ مَنْ اعْتَبَرَ فِي مِقْدَارِ الْأَجْرِ كَثْرَةَ الْحُرُوفِ وَهُوَ قَوْلٌ بَاطِلٌ كَمَا قَدْ بُيِّنَ فِي مَوْضِعِهِ وَذَلِكَ أَنَّ الْعَمَلَ بِهَا إنْ

أَرَادَ

بِهِ الْعَمَلَ الْوَاجِبَ مِنْ التَّصْدِيقِ بِمَضْمُونِهَا وَتَوْحِيدِ اللَّهِ فَهَذَا أَجْرُهُ أَعْظَمُ مِنْ أَجْرِ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ جُمْلَةً وَلَمْ يَعْمَلْ بِذَلِكَ فَإِنَّهُ إنْ خَلَا عَنْ الْإِيمَانِ بِمَضْمُونِ الْقُرْآنِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإِنْ خَلَا عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ الْعَمَلِ فَهُوَ فَاسِقٌ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا لَوْ قَرَأَ الْقُرْآنَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لَمْ يَكُنْ أَجْرُهُ مِثْلَ أَجْرِ الْمُؤْمِنِ الْمُتَّقِي . وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا الْأَجْرَ عَلَى الْإِيمَانِ بِمَضْمُونِهَا سَوَاءٌ قَرَأَهَا أَوْ لَمْ يَقْرَأْهَا وَالْأَجْرُ الْمَذْكُورُ فِي الْحَدِيثِ هُوَ لِمَنْ قَرَأَهَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَرَأَهَا مَعَ الْإِيمَانِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ . وَأَيْضًا فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَعَلَ قِرَاءَتَهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ وَقَرَأَهَا عَلَى أَصْحَابِهِ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ : فَكَانَتْ قِرَاءَتُهُ لَهَا تَعْدِلُ قِرَاءَتَهُ هُوَ لِلثُّلُثِ . وَكَذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذِي جَعَلَ يُرَدِّدُهَا . وَكَذَلِكَ إخْبَارُهُ لَهُمْ بِأَنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ وَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ ثُلُثُهُ إذَا قَرَءُوهُ هُمْ لَمْ يُرِدْ بِهِ الثُّلُثَ إذَا قَرَأَهَا مُنَافِقٌ لَا يُؤْمِنُ بِمَعْنَى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . ثُمَّ إنَّ كَوْنَ الْمُرَادِ بِذَلِكَ مَنْ قَرَأَ الثُّلُثَ بِلَا إيمَانٍ بِهَا مَعْنًى لَيْسَ فِي اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا يَدُلُّ اللَّفْظُ عَلَى نَقِيضِهِ . وَهَذَا التَّأْوِيلُ وَأَمْثَالُهُ هُوَ مِنْ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ الَّذِي ذَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُوَ نَوْعٌ مِنْ الْإِلْحَادِ فِي

كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ وَجْهًا آخَرَ غَيْرَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ : "جَوَاهِرِ الْقُرْآنِ وَدُرَرِهِ" أَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ﴾ مَا أَرَاكَ تَفْهَمُ وَجْهَ ذَلِكَ فَتَارَةً تَقُولُ : ذُكِرَ هَذَا التَّرْغِيبُ فِي التِّلَاوَةِ وَلَيْسَ الْمَعْنَى بِهِ التَّقْدِيرَ وَحَاشَا مَنْصِبَ النُّبُوَّةِ عَنْ ذَلِكَ . وَتَارَةً تَقُولُ : هَذَا بَعِيدٌ عَنْ الْفَهْمِ وَالتَّأْوِيلِ فَإِنَّ آيَاتِ الْقُرْآنِ تَزِيدُ عَلَى سِتَّةِ آلَافِ آيَةٍ فَهَذَا الْقَدْرُ كَيْفَ يَكُونُ ثُلُثَهَا ؟ وَهَذَا لِقِلَّةِ مَعْرِفَتِك بِحَقَائِقِ الْقُرْآنِ وَنَظَرِك إلَى ظَاهِرِ أَلْفَاظِهِ فَتَظُنُّ أَنَّهَا تَعْظُمُ وَتَكْثُرُ بِطُولِ الْأَلْفَاظِ وَتَقْصُرُ بِقِصَرِهَا . وَذَلِكَ كَظَنِّ مَنْ يُؤْثِرُ الدَّرَاهِمَ الْكَثِيرَةَ عَلَى الْجَوْهَرَةِ الْوَاحِدَةِ نَظَرًا إلَى كَثْرَتِهَا . فَاعْلَمْ أَنَّ سُورَةَ الْإِخْلَاصِ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ قَطْعًا وَتَرْجِعُ إلَى الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي مُهِمَّاتِ الْقُرْآنِ وَهِيَ : مَعْرِفَةُ اللَّهِ وَمَعْرِفَةُ الْآخِرَةِ وَمَعْرِفَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ . فَهَذِهِ الْمَعَارِفُ الثَّلَاثَةُ هِيَ الْمُهِمَّةُ وَالْبَاقِي تَوَابِعُ . وَسُورَةُ الْإِخْلَاصِ تَشْتَمِلُ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْ الثَّلَاثِ وَهِيَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ وَتَقْدِيسُهُ وَتَوْحِيدُهُ عَنْ مُشَارِكٍ فِي الْجِنْسِ وَالنَّوْعِ وَهُوَ الْمُرَادُ بِنَفْيِ الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ وَالْكُفْءِ . وَالْوَصْفُ بِالصَّمَدِ يُشْعِرُ بِأَنَّهُ السَّيِّدُ الَّذِي لَا يُقْصَدُ فِي الْوُجُودِ

لِلْحوَائِجِ سِوَاهُ . نَعَمْ لَيْسَ فِيهَا حَدِيثُ الْآخِرَةِ وَالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ . فَلِذَلِكَ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ . أَيْ ثُلُثَ الْأُصُولِ مِنْ الْقُرْآنِ كَمَا قَالَ : ﴿ الْحَجُّ عَرَفَةَ ﴾ أَيْ هُوَ الْأَصْلُ وَالْبَاقِي تَبَعٌ .

(537/838)

قُلْت آيَاتُ الْقُرْآنِ نَوْعَانِ : عِلْمِيَّةٌ وَعَمَلِيَّةٌ وَفِي الْآيَاتِ مَا يَجْمَعُ الْأَمْرَيْنِ . وَأَبُو حَامِدٍ جَمَعَ الْعِلْمِيَّاتِ الْمُتَعَلِّقَةَ بِذَاتِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ دُونَ مَا يَتَعَلَّقُ

(538/838)

بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقِصَصِ وَسَمَّاهَا " جَوَاهِرَ الْقُرْآنِ " وَجَمَعَ الْعَمَلِيَّاتِ وَسَمَّاهَا " دُرَرَ الْقُرْآنِ " . وَجَعَلَ الشَّطْرَ الْأَوَّلَ مِنْ " الْفَاتِحَةِ " مِنْ الْجَوَاهِرِ وَالثَّانِيَ مِنْ الدُّرَرِ وَالْآيَاتُ الَّتِي تَجْمَعُ الْمَعْنَيَيْنِ يَذْكُرُهَا فِي أَغْلَبِ النَّوْعَيْنِ عَلَيْهَا . وَمَجْمُوعُ مَا ذَكَرَهُ مِنْ الْقِسْمَيْنِ رُبُعُ آيَاتِ الْقُرْآنِ نَحْوَ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ آيَةٍ . وَجَعَلَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ سِتَّةَ أَصْنَافٍ : ثَلَاثَةٌ أُصُولٌ وَثَلَاثَةٌ تَوَابِعُ . فَذَكَرَ أَنَّ الْقُرْآنَ هُوَ الْبَحْرُ الْمُحِيطُ وَمِنْهُ يَتَشَعَّبُ عِلْمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . وَقَالَ : سِرُّ الْقُرْآنِ

وَلُبَابُهُ الْأَصْفَى وَمَقْصِدُهُ الْأَقْصَى دَعْوَةُ الْعِبَادِ إِلَى الْجَبَّارِ الْأَعْلَى رَبِّ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى وَخَالِقِ السَّمَوَاتِ الْعُلَى وَالْأَرْضِينَ السُّفْلَى . فَالثَّلَاثَةُ الْمُهِمَّةُ : تَعْرِيفُ الْمَدْعُوِّ إِلَيْهِ وَتَعْرِيفُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي تَجِبُ مُلَازَمَتُهُ فِي السُّلُوكِ إِلَيْهِ وَتَعْرِيفُ الْحَالِ عِنْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ . وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ الْمُغْنِيَةُ فَأَحَدُهَا : أَحْوَالُ الْمُجِيبِينَ لِلدَّعْوَةِ وَلَطَائِفِ صُنْعِ اللَّهِ فِيهِمْ وَسِرُّهُ وَمَقْصُودُهُ التَّشْوِيقُ وَالتَّرْغِيبُ . وَتَعْرِيفُ أَحْوَالِ النَّاكِبِينَ وَالنَّاكِلِينَ عَنْ الْإِجَابَةِ وَكَيْفِيَّةِ قَمْعِ اللَّهِ لَهُمْ وَتَنْكِيلِهِ بِهِمْ وَسِرُّهُ وَمَقْصُودُهُ الِاعْتِبَارُ وَالتَّرْهِيبُ . وَثَانِيهَا : حِكَايَةُ أَقْوَالِ الْجَاحِدِينَ . وَكَشْفِ فَضَائِحِهِمْ وَجَهْلِهِمْ بِالْمُجَادَلَةِ وَالْمُحَاجَّةِ عَلَى الْحَقِّ . وَمَقْصُودُهُ وَسِرُّهُ فِي جَنْبَةِ الْبَاطِلِ الْإِفْضَاحُ

وَالتَّحْذِيرُ وَالتَّنْفِيرُ وَفِي جَنْبَةِ الْحَقِّ الْإِيضَاحُ وَالتَّثْبِيتُ وَالتَّقْرِيرُ . وَثَالِثُهَا : تَعْرِيفُ عِمَارَةِ مَنَازِلِ الطَّرِيقِ وَكَيْفِيَّةِ أَخْذِ الزَّادِ وَالرَّاحِلَةِ وَالْأُهْبَةِ لِلِاسْتِعْدَادِ . قُلْت : مَا ذَكَرَهُ مِنْ أَنَّ أُصُولَ الْإِيمَانِ ثَلَاثَةٌ فَهُوَ حَقٌّ كَمَا ذَكَرَهُ

وَلَا بُدَّ مِنْ الثَّلَاثَةِ فِي كُلِّ مِلَّةٍ وَدِينٍ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا

خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . وَنَحْوُ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ . فَذَكَرَ هَذِهِ الْأُصُولَ الثَّلَاثَةَ : الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحُ . وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ الْأُخَرُ التَّابِعَةُ فَهِيَ دَاخِلَةٌ فِي هَذِهِ الثَّلَاثَةِ . فَإِنَّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ أَحْوَالِ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ مِنْ تَفْضِيلِ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ . وَمَا فِيهِ مِنْ عِمَارَةِ الطَّرِيقِ فَهُوَ مِنْ الْعَمَلِ الصَّالِحِ . وَمَا فِيهِ مِنْ الْمُجَادَلَةِ وَالْمُحَاجَّةِ فَذَاكَ مِنْ تَمَامِ الْإِخْبَارِ بِالثَّلَاثَةِ فَإِنَّهُ إذَا أَخْبَرَ بِالثَّلَاثَةِ ذَكَرَ الْآيَاتِ وَالْأَدِلَّةَ الْمُثْبِتَةَ لِذَلِكَ وَذَكَرَ شُبَهَ الْجَاحِدِينَ وَبَيَّنَ فَسَادَهَا . وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو حَامِدٍ ذَلِكَ فَقَالَ : الْقِسْمُ الْجَائِي لِمُحَاجَّةِ الْكُفَّارِ وَمُجَادَلَتِهِمْ وَإِيضَاحِ مَخَازِيهِمْ بِالْبُرْهَانِ الْوَاضِحِ وَكَشْفِ أَبَاطِيلِهِمْ وَتَخَايِيلِهِمْ . وَأَبَاطِيلُهُمْ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ :

(540/838)

الْأَوَّلُ : ذِكْرُ اللَّهِ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُهُ وَأَنَّ لَهُ وَلَدًا شَرِيكًا وَأَنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ .

الثَّانِي ذِكْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ سَاحِرٌ وَكَاهِنٌ وَشَاعِرٌ وَإِنْكَارُ نُبُوَّتِهِ .

وَثَالِثُهَا إنْكَارُ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَحْدُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَإِنْكَارُ عَاقِبَةِ الطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ . وَأَمَّا مَا فِيهِ مِنْ الْأَخْبَارِ بِأَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكُفَّارِ فِي الدُّنْيَا - وَهُوَ الَّذِي أَرَادَهُ أَبُو حَامِدٍ بِذِكْرِ أَحْوَالِ الْمُسْتَجِيبِينَ وَالنَّاكِبِينَ - فَهَذَا مِنْ

تَمَامِ الْأَدِلَّةِ وَالْآيَاتِ . فَإِنَّ هَذَا أَمْرٌ شُوهِدَ فِي الدُّنْيَا وَرُئِيَتْ آثَارُهُ وَتَوَاتَرَتْ أَخْبَارُهُ لَيْسَ هُوَ مِمَّا بَعْدَ الْمَوْتِ الَّذِي هُوَ غَيْبٌ عَنْ الْعِبَادِ . وَلِهَذَا يَذْكُرُ سُبْحَانَهُ هَذَا فِي مَعْرِضِ الِاحْتِجَاجِ وَالِاسْتِدْلَالِ مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْمَوْعِظَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ . وَقَوْلُهُ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا

أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الْآيَاتِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى لَمَا ذَكَرَ قِصَّةَ قَوْمِ لُوطٍ : ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ ﴾ وَالْمُتَوَسِّمُ : الْمُسْتَدِلُّ بِالسِّمَةِ وَالسِّيمَا وَهِيَ الْعَلَامَةُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ . فَمَعْرِفَةُ الْمُنَافِقِينَ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ثَابِتَةٌ مُقْسَمٌ عَلَيْهَا لَكِنَّ هَذَا يَكُونُ إذَا تَكَلَّمُوا وَأَمَّا مَعْرِفَتُهُمْ بِالسِّيمَا فَمَوْقُوفٌ عَلَى مَشِيئَةِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَخْفَى . وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَابْنُ قُتَيْبَةَ لِلْمُتَفَرِّسِينَ قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : يُقَالُ

تَوَسَّمْت فِي فُلَان الْخَيْر أَيْ تَبَيَّنْته وَقَالَ الزَّجَّاج : الْمُتَوَسِّمُونَ فِي اللُّغَة النُّظَّار الْمُثْبِتُونَ فِي نَظَرهمْ حَتَّى يَعْرِفُوا حَقِيقَة سِمَة الشَّيْء يُقَال تَوَسَّمْت فِي فُلَان كَذَا أَيْ عَرَفْت وَقَوْله " الْمُثْبِتُونَ فِي نَظَرهمْ " أَيْ فِي نَظَر أَعْيُنهمْ حَتَّى يَعْرِفُوا السِّيمَا بِخِلَافِ الَّذِينَ قِيلَ فِيهِمْ : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَة فِي السَّمَاوَات وَالْأَرْض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ . وَقَالَ الضَّحَّاك : النَّاظِرُونَ وَقَالَ اِبْن زَيْد : الْمُنْتَقِدُونَ وَقَالَ قَتَادَة

: الْمُعْتَبِرُونَ . وَكُلّ هَذَا صَحِيح فَإِنَّ الْمُتَوَسِّم يَجْمَع هَذَا كُلّه . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيم ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ قِصَّة أَصْحَاب الْأَيْكَة . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِين ﴾ أَيْ بِطَرِيقٍ مُتَبَيِّن لِلنَّاسِ وَاضِح .

وَكَذَلِكَ فِي مَوْضِع آخَر لَمَّا قَالَ : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْر بَيْت مِنْ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَة لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَاب الْأَلِيم ﴾

وَقَالَ فِي سَفِينَةِ نُوحٍ: ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَبْقَى آيَاتٍ وَهِيَ الْعَلَامَاتُ وَالدَّلَالَاتُ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَا يَخُصُّهُ مِنْ أَخْبَارِ الْمُؤْمِنِينَ وَحُسْنَ عَاقِبَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَأَخْبَارِ الْكُفَّارِ وَسُوءِ عَاقِبَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا هُوَ مِنْ بَابِ الْآيَاتِ وَالدَّلَالَاتِ الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا وَيُعْتَبَرُ بِهَا عِلْمًا وَوَعْظًا فَيُفِيدُ مَعْرِفَةَ صِحَّةِ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَيُفِيدُ التَّرْغِيبَ وَالتَّرْهِيبَ وَيَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يَرْضَى عَنْ أَهْلِ طَاعَتِهِ وَيُكْرِمُهُمْ وَيَغْضَبُ عَلَى أَهْلِ مَعْصِيَتِهِ وَيُعَاقِبُهُمْ كَمَا يُسْتَدَلُّ بِمَخْلُوقَاتِهِ الْعَامَّةِ عَلَى قُدْرَتِهِ فَإِنَّ الْفِعْلَ يَسْتَلْزِمُ قُدْرَةَ الْفَاعِلِ وَيُسْتَدَلُّ بِإِحْكَامِ الْأَفْعَالِ عَلَى عِلْمِهِ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ الْمُحْكَمَ يَسْتَلْزِمُ عِلْمَ الْفَاعِلِ وَبِالتَّخْصِيصِ عَلَى مَشِيئَتِهِ؛ لِأَنَّ التَّخْصِيصَ مُسْتَلْزِمٌ لِإِرَادَتِهِ فَكَذَلِكَ يُسْتَدَلُّ بِالتَّخْصِيصِ بِمَا هُوَ أَحْمَدُ عَاقِبَةً عَلَى حِكْمَتِهِ؛ لِأَنَّ تَخْصِيصَ الْفِعْلِ بِمَا هُوَ مَحْمُودٌ فِي الْعَاقِبَةِ مُسْتَلْزِمٌ لِلْحِكْمَةِ وَيُسْتَدَلُّ بِتَخْصِيصِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ بِالنَّصْرِ وَحُسْنِ الْعَاقِبَةِ وَتَخْصِيصِ مُكَذِّبِيهِمْ بِالْخِزْيِ وَسُوءِ الْعَاقِبَةِ عَلَى أَنَّهُ يَأْمُرُ وَيُحِبُّ وَيَرْضَى مَا جَاءَتْ

بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَيَكْرَهُ وَيَسْخَطُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مُكَذِّبُوهُمْ ؛ لِأَنَّ تَخْصِيصَ أَحَدِ النَّوْعَيْنِ بِالْإِكْرَامِ وَالنَّجَاةِ وَالذِّكْرِ الْحَسَنِ وَالدُّعَاءِ وَتَخْصِيصَ الْآخَرِ بِالْعَذَابِ وَالْهَلَاكِ وَقُبْحِ الذِّكْرِ وَاللَّعْنَةِ : يَسْتَلْزِمُ مَحَبَّةَ مَا فَعَلَهُ الْمُصَنِّفُ الْأَوَّلُ وَبُغْضَ مَا فَعَلَهُ الصِّنْفُ الثَّانِي .

(547/838)

وَأَمَّا الْإِرَادَةُ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا إنَّهَا تَخُصُّ أَحَدَ الْمِثْلَيْنِ عَنْ الْآخَرِ بِلَا سَبَبٍ فَتِلْكَ هَلْ يُوصَفُ اللَّهُ بِهَا ؟ فِيهِ نِزَاعٌ . فَإِنْ قِيلَ : إنَّهُ لَا يُوصَفُ بِهَا فَلَا كَلَامَ وَإِنْ قِيلَ : إنَّهُ يُوصَفُ بِهَا فَمَعْلُومٌ أَنَّ تَخْصِيصَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ بِهَذَا وَتَخْصِيصَ أَعْدَائِهِمْ بِهَذَا لَمْ يَصْدُرْ عَنْ تَخْصِيصٍ بِلَا مُخَصِّصٍ ؛ بَلْ يُعْلَمُ أَنَّهُ قَصَدَ تَخْصِيصَ هَؤُلَاءِ بِالْإِكْرَامِ وَهَؤُلَاءِ بِالْعِقَابِ وَأَنَّ إيمَانَ هَؤُلَاءِ سَبَبُ تَخْصِيصِهِمْ بِهَذَا وَكُفْرَ هَؤُلَاءِ سَبَبُ تَخْصِيصِهِمْ بِهَذَا . وَلِبَسْطِ هَذِهِ الْأُمُورِ مَوْضِعٌ آخَرُ . لَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ دَاخِلَةٌ فِي الثَّلَاثَةِ الْأُوَلِ . وَلَكِنْ أَبُو حَامِدٍ يَجْعَلُ الْحِجَاجَ صَنْعَةَ الْكَلَامِ وَيَجْعَلُ عِمَارَةَ الطَّرِيقِ عِلْمَ الْفِقْهِ وَيَجْعَلُ أَخْبَارَ الْأَنْبِيَاءِ عِلْمَ الْقَصَصِ وَيَقُولُ : إنَّ الْكَلَامَ وَالْجَدَلَ لَيْسَ فِيهِ بَيَانُ حَقٍّ بِدَلِيلِ ؛ بَلْ إنَّمَا فِيهِ دَفْعُ الْبِدَعِ بِبَيَانِ تَنَاقُضِهَا ؛ وَيَجْعَلُ أَهْلَهُ مِنْ جِنْسِ خُفَرَاءِ الْحَجِيجِ وَيَجْعَلُ عِلْمَ الْفِقْهِ لَيْسَ غَايَتُهُ إلَّا مَصْلَحَةَ الدُّنْيَا وَهَذَا مِمَّا نَازَعَهُ فِيهِ أَكْثَرُ النَّاسِ وَتَكَلَّمُوا فِيهِ بِكَلَامٍ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ كَمَا تَكَلَّمُوا عَلَى مَا

ذَكَرَهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ (جَوَاهِرِ الْقُرْآنِ) وَغَيْرِهِ مِنْ كُتُبِهِ مِنْ مَعَانِي الْفَلْسَفَةِ وَجَعَلَ ذَلِكَ هُوَ بَاطِنَ الْقُرْآنِ وَكَلَامُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَدِّ هَذَا أَكْثَرُ مِنْ كَلَامِهِمْ عَلَى رَدِّ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ هَذَا فِيهِ مِمَّا يُنَاقِضُ مَقْصُودَ

(548/838)

الرَّسُولِ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ كَمَا تَكَلَّمُوا عَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي النُّبُوَّةِ بِمَا يُشْبِهُ كَلَامَ الْفَلَاسِفَةِ فِيهَا .

(549/838)

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ فِي ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ فِيهَا وَهُوَ أَقْرَبُ إلَى الْقَوْلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ عَنْ ابْنِ سُرَيْجٍ وَنَصَرْنَاهُ ؛ لَكِنَّ ذَلِكَ الْقَوْلَ هُوَ الصَّوَابُ بِلَا رَيْبٍ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَ بِأَنَّ اللَّهَ جَزَّأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاءٍ . فَجَعَلَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ مَجْمُوعَ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةُ أَجْزَاءٍ لَيْسَ هُوَ سِتَّةً : ثَلَاثَةُ أُصُولٍ وَثَلَاثَةُ فُرُوعٍ . وَكَذَلِكَ أَخْبَرَ أَنَّ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ لَمْ يَقُلْ ثُلُثَ الْمُهِمِّ مِنْهُ وَلَا ثُلُثَ أَكْثَرِهِ وَلَا أُصُولِهِ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ ثَلَاثَةً

أَصْنَافٍ وَعَلَى مَا ذَكَرَهُ أَبُو حَامِدٍ هُوَ سِتَّةٌ: ثَلَاثَةٌ مُهِمَّةٌ وَثَلَاثَةٌ تَوَابِعُ وَالسُّورَةُ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الْمُهِمَّةِ وَهَذَا خِلَافُ الْحَدِيثِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ تَقْسِيمَ الْقُرْآنِ إلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ تَقْسِيمٌ بِالدَّلِيلِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامٌ وَالْكَلَامُ إمَّا إخْبَارٌ وَإِمَّا إنْشَاءٌ وَالْإِخْبَارُ إمَّا عَنْ الْخَالِقِ وَإِمَّا عَنْ الْمَخْلُوقِ فَهَذَا تَقْسِيمٌ بَيِّنٌ. وَأَمَّا جَعْلُ عِلْمِ الْفِقْهِ خَارِجًا عَنْ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَجَعْلُ عِلْمِ الْأَدِلَّةِ وَالْحِجَجِ خَارِجًا عَنْ الْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَهَذَا مَرْدُودٌ عِنْدَ جَمَاهِيرِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ. وَأَبُو حَامِدٍ إنَّمَا ذَكَرَ هَذَا لِأَنَّهُ يَقُولُ إنَّمَا يُعْرَفُ مَعَانِي ذَلِكَ بِطَرِيقِ

التَّصْفِيَةِ فَقَطْ لَا بِطَرِيقِ الْخَبَرِ النَّبَوِيِّ وَلَا بِطَرِيقِ النَّظَرِ الِاسْتِدْلَالِيِّ

فَلَا يُعْرَفُ ذَلِكَ بِالسَّمْعِ وَلَا بِالْعَقْلِ. وَهَذَا مِمَّا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ النَّاسُ وَصَنَّفُوا كُتُبًا فِي رَدِّ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ جَمَاعَاتٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ. وَلَكِنَّ عُذْرَ أَبِي حَامِدٍ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْ فِيمَا عَلِمَهُ مِنْ طَرِيقِ الْفَلَاسِفَةِ وَأَهْلِ الْكَلَامِ مَا يُبَيِّنُ الْحَقَّ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَعْلَمْ طُرُقًا عَقْلِيَّةً غَيْرَ ذَلِكَ فَنَفَى أَنْ يَعْلَمَ بِطَرِيقِ النَّظَرِ فِيهِ. وَأَمَّا الطُّرُقُ الْخَبَرِيَّةُ النَّبَوِيَّةُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ خِبْرَةٌ بِمَا صَحَّ مِنْ أَلْفَاظِ الرَّسُولِ وَبِطَرِيقِ دَلَالَةِ أَلْفَاظِهِ عَلَى مَقَاصِدِهِ وَظَنَّ - بِمَا شَارَكَ بِهِ بَعْضَ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ - أَنَّ

الرَّسُول لَمْ يُبَيِّنْ مُرَادَهُ بِأَلْفَاظِهِ فَتَرَكَّبَ مِنْ هَذَا وَهَذَا سَدُّ بَابِ الطَّرِيقِ الْعَقْلِيِّ وَالسَّمْعِيِّ وَظَنَّ أَنَّ الْمَطْلُوبَ يَحْصُلُ لَا بِطَرِيقِ التَّصْفِيَةِ وَالْعَمَلِ فَسَلَكَ ذَلِكَ فَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ الْمَقْصُودُ أَيْضًا فَرَجَعَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ إلَى قِرَاءَةِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ .

وَقَدْ ذَكَرَ الْقَاضِي عِيَاضٌ أَقْوَالًا فِي كَوْنِ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ وَكَذَلِكَ المازري قَبْلَهُ قَالَ : قَالَ الْإِمَامُ يَعْنِي أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْمَازِرِيَّ - قِيلَ مَعْنَى ذَلِكَ : أَنَّ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ : قَصَصٌ وَأَحْكَامٌ ؛ وَأَوْصَافُ اللَّهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ . و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَشْتَمِلُ عَلَى ذِكْرِ الصِّفَاتِ فَكَانَتْ ثُلُثًا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ قَالَ : وَرُبَّمَا أَسْعَدَ هَذَا التَّأْوِيلَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَ أَنَّ اللَّهَ جَزَّأَ الْقُرْآنَ . قُلْت : هَذَا هُوَ قَوْلُ ابْنِ سُرَيْجٍ - وَهُوَ الَّذِي نَصَرْنَاهُ - ذَكَرَهُ المازري فِي كَلَامِ ابْنِ بَطَّالٍ كَمَا سَيَأْتِي . قَالَ : وَقِيلَ مَعْنَى ثُلُثِ الْقُرْآنِ لِشَخْصٍ

بعَيْنِهِ قَصَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَذَكَرَهُ ابْنُ بَطَّالٍ أَيْضًا قَالَ : وَقِيلَ مَعْنَاهُ إِنَّ اللَّهَ يَتَفَضَّلُ بِتَضْعِيفِ الثَّوَابِ لِقَارِئِهَا وَيَكُونُ مُنْتَهَى التَّضْعِيفِ إِلَى مِقْدَارِ ثُلُثِ مَا يَسْتَحِقُّ مِنْ الْأَجْرِ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ مِنْ دُونِ تَضْعِيفِ أَجْرٍ قَالَ : وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِ هَذَا الْحَدِيثِ ﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَشَدَ النَّاسَ وَقَالَ : سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فَقَرَأَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴾ . قَالَ الْمَازِرِيُّ : وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ تَقْدَحُ فِي تَأْوِيلِ مَنْ جَعَلَ ذَلِكَ لِشَخْصٍ بِعَيْنِهِ . قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ : قَالَ بَعْضُهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ الر ﴾ ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ ثُمَّ بَيَّنَ التَّفْصِيلَ فَقَالَ ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ فَهَذَا فَصْلُ الْأُلُوهِيَّةِ ثُمَّ قَالَ ﴿ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ وَهَذَا فَصْلُ النُّبُوَّةِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ فَهَذَا فَصْلُ التَّكْلِيفِ وَمَا وَرَاءَهُ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَعَامَّةِ أَجْزَاءِ الْقُرْآنِ مِمَّا فِيهِ مِنْ الْقَصَصِ فَمِنْ فَصْلِ النُّبُوَّةِ لِأَنَّهَا مِنْ أَدِلَّتِهَا وَفَهْمِهَا أَيْضًا وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ جَمَعَتْ الْفَصْلَ الْأَوَّلَ . قُلْت : مَضْمُونُ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ : الْإِلَهِيَّاتُ وَالنُّبُوَّاتُ وَالشَّرَائِعُ . وَأَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ مِنْهَا الْإِلَهِيَّاتُ وَجَعَلَ صَاحِبُ هَذَا الْقَوْلِ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ

النُّبُوَّةِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ . وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ أَيْضًا فَإِنَّهُ يُقَالُ : وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ أَيْضًا مِمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ كَمَا جَاءَ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ . وَيُقَالُ أَيْضًا : الْقَصَصُ تَدُلُّ عَلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ كَمَا تَدُلُّ عَلَى النُّبُوَّةِ فَإِنَّهَا تَدُلُّ عَلَى إكْرَامِهِ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَعُقُوبَتِهِ لِمَنْ عَصَاهُ وَهَذَا تَقْرِيرٌ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَأَيْضًا فَإِنَّ مَقْصُودَ النُّبُوَّةِ هُوَ الْإِخْبَارُ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَبِمَا أَخْبَرَ بِهِ وَمَا دَلَّ عَلَى إثْبَاتِ النُّبُوَّةِ مِنْ الْقَصَصِ يَدُلُّ عَلَى إثْبَاتِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ وَمَا دَلَّ عَلَى إثْبَاتِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ يَدُلُّ عَلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ فَهُمَا مُتَلَازِمَانِ . ثُمَّ الْإِلَهِيَّاتُ أَيْضًا هِيَ مِمَّا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَيَّنَ الدَّلَائِلَ الْعَقْلِيَّةَ عَلَى مَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْرَفَ بِالْعَقْلِ وَأَخْبَرَ عَنْ الْغَيْبِ الْمُطْلَقِ الَّذِي تَعْجِزُ الْعُقُولُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ . فَلَا مَعْنَى لِجَعْلِ الْقَصَصِ دَاخِلَةً فِي النُّبُوَّةِ دُونَ الْإِلَهِيَّاتِ فَإِنَّهُ إنْ عَنِيَ أَنَّ الْقَصَصَ تَدُلُّ عَلَى نُبُوَّتِهِ فَهِيَ تَدُلُّ مِنْ جِهَةِ إخْبَارِهِ بِهَا كَإِخْبَارِهِ بِغَيْرِهَا مِنْ الْغَيْبِ وَفِيمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ الْإِلَهِيَّاتِ وَالْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَاتِ مَا هُوَ كَالْقَصَصِ فِي ذَلِكَ وَأَبْلَغُ . وَإِنْ عَنِيَ أَنَّ تَعْذِيبَ الْمُكَذِّبِينَ يَدُلُّ عَلَى النُّبُوَّةِ فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى

جِنْسِ النُّبُوَّةِ وَعَلَى

نُبُوَّةِ مَنْ عَذَّبَ قَوْمَهُ ؛ لَا تَدُلُّ عَلَى نُبُوَّةِ الْمُتَأَخِّرِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ جِنْسِ مَا أَخْبَرَ بِهِ الْأَوَّلُ . وَهَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا مَوْجُودَةٌ فِي الْإِلَهِيَّاتِ وَزِيَادَةٌ فَإِنَّهُ قَدْ أَخْبَرَ فِيهَا بِمِثْلِ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ قَدْ ذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ قَصَّ أَخْبَارَهُمْ كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَشُعَيْبٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ يَقُولُ لِقَوْمِهِ : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ بَلْ يَفْتَتِحُ دَعْوَتَهُ بِذَلِكَ وَذَكَرَ تَعَالَى عَنْ الْأَنْبِيَاءِ وَأُمَمِهِمْ مِنْ نُوحٍ إلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . وَأَيْضًا فَالْإِلَهِيَّاتُ

الَّتِي تُعْلَمُ مِنْهَا قُدْرَةُ الرَّبِّ وَإِرَادَتُهُ وَحِكْمَتُهُ وَأَفْعَالُهُ : مِنْهَا يُعْلَمُ النَّبِيُّ مِنْ الْمُتَنَبِّئِ وَمِنْهَا يُعْلَمُ صِدْقُ النَّبِيِّ فَهِيَ أَدَلُّ عَلَى صِدْقِ النَّبِيِّ مِنْ مُجَرَّدِ الْقَصَصِ وَمَا فِي الْقَصَصِ مِنْ الدَّلَالَةِ عَلَى صِدْقِهِ إنَّمَا يَدُلُّ مَعَ الْإِلَهِيَّاتِ وَإِلَّا فَلَوْ تَجَرَّدَ لَمْ يَدُلَّ عَلَى شَيْءٍ فَالنُّبُوَّةُ

(557/838)

مُرْتَبِطَةٌ بِالْإِلَهِيَّاتِ أَعْظَمُ مِنْ ارْتِبَاطِهَا بِغَيْرِهَا وَالْأَنْبِيَاءُ إنَّمَا بُعِثُوا بِالدَّعْوَةِ إلَى اللَّهِ

(558/838)

وَحْدَهُ وَقَدْ يَذْكُرُونَ الْمَعَادَ مُجْمَلًا وَمُفَصَّلًا وَالْقَصَصُ قَدْ يَذْكُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضَهَا مُجْمَلًا .

وَأَمَّا الْإِلَهِيَّاتُ فَهِيَ الْأَصْلُ وَلَا بُدَّ مِنْ تَفْصِيلِ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ فَلَا بُدَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ مِنْ الْأُصُولِ الثَّلَاثَةِ : الْإِيمَانُ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحُ . وَالْأُصُولُ الْكُلِّيَّةُ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ يَذْكُرُهَا اللَّهُ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ مِثْلُ الْأَنْعَامِ وَالْأَعْرَافِ وَذَوَاتِ (﴿ الر ﴾) وَ (﴿ طسم ﴾) وَ (﴿ حم ﴾) وَأَكْثَرُ الْمُفَصَّلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَالْمَدَنِيَّاتُ تَتَضَمَّنُ خِطَابَ مَنْ آمَنَ بِجِنْسِ الرُّسُلِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ بِالشَّرَائِعِ الَّتِي بُعِثَ بِهَا

خَاتَمُ الرُّسُلِ . وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ : إنَّ هَذَا فِي شَخْصٍ بِعَيْنِهِ فَفِي غَايَةِ الْفَسَادِ لَفْظًا وَمَعْنًى . ثُمَّ أَنَّ اللَّهَ إنَّمَا يَخُصُّ الشَّيْءَ الْمُعَيَّنَ بِحُكْمِ يَخُصُّهُ لِمَعْنًى يَخْتَصُّ بِهِ كَمَا ﴿ قَالَ لِأَبِي بُرْدَةَ بْنِ نيار - وَكَانَ قَدْ ذَبَحَ فِي الْعِيدِ قَبْلَ الصَّلَاةِ - قَبْلَ أَنْ يُشَرِّعَ لَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الذَّبْحَ يَكُونُ بَعْدَ الصَّلَاةِ فَلَمَّا قَالَ النَّبِيُّ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلُ مَا نَبْدَأُ بِهِ فِي يَوْمِنَا هَذَا أَنْ نُصَلِّيَ ثُمَّ نَذْبَحُ فَمَنْ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ فَلْيُعِدْ فَإِنَّمَا هِيَ شَاةُ لَحْمٍ قَدَّمَهَا لِأَهْلِهِ ذَكَرَ لَهُ أَبُو بُرْدَةَ أَنَّهُ ذَبَحَ قَبْلَ الصَّلَاةِ وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ وَذَكَرَ لَهُ أَنَّ عِنْدَهُ عَنَاقًا خَيْرًا

(559/838)

مِنْ جَذَعَةٍ فَقَالَ : تُجْزِئُ عَنْك وَلَا تُجْزِئُ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَك ﴾ فَخَصَّهُ بِهَذَا الْحُكْمِ لِأَنَّهُ كَانَ مَعْذُورًا فِي ذَبْحِهِ قَبْلَ الصَّلَاةِ ؛ إذْ فَعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ شَرْعِ الْحُكْمِ فَلَمْ

(560/838)

يَكُنْ ذَلِكَ الذَّبْحُ مَنْهِيًّا عَنْهُ بَعْدُ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ إلَّا هَذَا السِّنُّ وَأَمَّا أَمْرُهُ لِامْرَأَةِ أَبِي حُذَيْفَةَ بْنِ عتبة أَنْ تُرْضِعَ سَالِمًا مَوْلَاهُ خَمْسَ رَضَعَاتٍ لِيَصِيرَ لَهَا مُحَرَّمًا فَهَذَا مِمَّا تَنَازَعَ فِيهِ

السَّلَفُ : هَلْ هُوَ مُخْتَصٌّ أَوْ مُشْتَرَكٌ ؟ وَإِذَا قِيلَ هَذَا لِمَنْ يَحْتَاجُ إلَى ذَلِكَ - كَمَا احْتَاجَتْ هِيَ إلَيْهِ - كَانَ فِي ذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ الْأَدِلَّةِ . وَبِالْجُمْلَةِ فَالشَّارِعُ حَكِيمٌ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ مُتَمَاثِلَيْنِ إلَّا لِاخْتِصَاصِ أَحَدِهِمَا بِمَا يُوجِبُ الِاخْتِصَاصَ وَلَا يُسَوِّي بَيْنَ مُخْتَلِفَيْنِ غَيْرِ مُتَسَاوِيَيْنِ بَلْ قَدْ أَنْكَرَ سُبْحَانَهُ عَلَى مَنْ نَسَبَهُ إلَى ذَلِكَ وَقَبَّحَ مَنْ يَحْكُمُ بِذَلِكَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ . وَإِنَّمَا يَكُونُ الِاعْتِبَارُ إذَا سَوَّى بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ وَأَمَّا إذَا قِيلَ : لَيْسَ الْوَاقِعُ كَذَلِكَ فَلَا اعْتِبَارَ . وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِي هَذَا الْأَصْلِ وَهُوَ

أَنَّهُ هَلْ يَخُصُّ بِالْأَمْرِ

وَالنَّهْيِ مَا يَخُصُّهُ لَا لِسَبَبِ وَلَا لِحِكْمَةِ قَطُّ بَلْ مُجَرَّدُ تَخْصِيصِ أَحَدِ الْمُتَمَاثِلَيْنِ عَلَى الْآخَرِ

؟ فَقَالَ بِذَلِكَ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ الْجَبْرِيَّةِ وَوَافَقَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُثْبِتِينَ لِلْقَدَرِ . وَأَمَّا السَّلَفُ وَأَئِمَّةُ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّصَوُّفِ وَأَكْثَرُ طَوَائِفِ الْكَلَامِ الْمُثْبِتِينَ لِلْقَدَرِ كَالْكَرَّامِيَةِ وَغَيْرِهِمْ وَنُفَاتُهُ كَالْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ فَلَا يَقُولُونَ بِهَذَا الْأَصْلِ بَلْ يَقُولُونَ : هُوَ سُبْحَانَهُ يَخُصُّ مَا يَخُصُّ مِنْ خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ لِأَسْبَابِ وَلِحِكْمَةِ لَهُ فِي التَّخْصِيصِ كَمَا بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ فِي مَوَاضِعَ .

(562/838)

وَكَذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ : يُضَعِّفُ لِقَارِئِهَا مِقْدَارَ مَا يُعْطَاهُ قَارِئُ ثُلُثِ الْقُرْآنِ بِلَا تَضْعِيفٍ : قَوْلٌ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ وَلَا فِي الْعَقْلِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَلَيْسَ فِيهِ مُنَاسَبَةٌ وَلَا حِكْمَةٌ فَإِنَّ النَّصَّ أَخْبَرَ أَنَّ قِرَاءَتَهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ وَأَنَّ مَنْ قَرَأَهَا فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فَإِنْ كَانَ فِي هَذَا تَضْعِيفٌ فَفِي هَذَا تَضْعِيفٌ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا تَضْعِيفٌ لَمْ يَكُنْ فِي الْآخَرِ فَتَخْصِيصُ أَحَدِهِمَا بِالتَّضْعِيفِ تَحَكُّمٌ . ثُمَّ جَعْلُ التَّضْعِيفِ بِقَدْرِ ثُلُثِ الْقُرْآنِ إنَّمَا هُوَ لِمَا اُخْتُصَّتْ بِهِ السُّورَةُ مِنْ الْفَضْلِ وَحِينَئِذٍ فَفَضْلُهَا هُوَ سَبَبُ هَذَا التَّقْدِيرِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إلَى نَقْصِ ثَوَابِ سَائِرِ الْقُرْآنِ وَأَيْضًا فَهَذَا تَحَكُّمٌ مَحْضٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَلَا سَبَبٌ يَقْتَضِيهِ وَلَا حِكْمَةٌ فِيهِ .

وَالنَّاسُ كَثِيرًا مَا يَغْلَطُونَ مِنْ جِهَةِ نَقْصِ عِلْمِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ بِكَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَقَدْرِ ذَلِكَ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ

ذَلِكَ مِنْ الْعِلْمِ الَّذِي يَفُوقُ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالآخرين . وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الرَّسُولَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِالْحَقِّ وَأَفْصَحُ الْخَلْقِ فِي الْبَيَانِ وَأَنْصَحُ الْخَلْقِ لِلْخَلْقِ عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ اجْتَمَعَ فِي حَقِّهِ كَمَالُ الْعِلْمِ بِالْحَقِّ وَكَمَالُ الْقُدْرَةِ عَلَى بَيَانِهِ وَكَمَالُ الْإِرَادَةِ لَهُ وَمَعَ كَمَالِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ يَجِبُ وُجُودُ الْمَطْلُوبِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ فَيُعْلَمُ أَنَّ كَلَامَهُ أَبْلَغُ مَا يَكُونُ وَأَتَمُّ مَا يَكُونُ وَأَعْظَمُ مَا يَكُونُ بَيَانًا لِمَا بَيَّنَهُ فِي الدِّينِ مِنْ أُمُورِ الْإِلَهِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَمَنْ وَقَرَ هَذَا فِي قَلْبِهِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى تَحْرِيفِ النُّصُوصِ بِمِثْلِ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ الَّتِي إذَا تَدَبَّرْت وَجَدَ مَنْ أَرَادَهَا بِذَلِكَ الْقَوْلِ مِنْ أَبْعَدِ النَّاسِ عَمَّا يَجِبُ اتِّصَافُ الرَّسُولِ بِهِ وَعَلِمَ أَنَّ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ فَإِنَّمَا هُوَ لِنَقْصِ مَا أُوتِيَهُ مِنْ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ . فَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا وَإِخْوَانَنَا مِمَّنْ رَفَعَ دَرَجَاتِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ .

وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ضَعْفُ هَذِهِ الْأَقْوَالِ – غَيْرَ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ الَّذِي نَصَرْنَاهُ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ سُرَيْجٍ وَغَيْرِهِ

كَالْمُهَلَّبِ وَالْأَصِيلِيِّ وَغَيْرِهِمَا - فَنَقُولُ : قَدْ عُلِمَ أَنَّ تَفَاضُلَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ لَيْسَ بِاعْتِبَارِ نِسْبَتِهِ إلَى الْمُتَكَلِّمِ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَاحِدٌ وَلَكِنْ بِاعْتِبَارِ مَعَانِيهِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ

بِهَا وَبِاعْتِبَارِ أَلْفَاظِهِ الْمُبَيِّنَةِ لِمَعَانِيهِ . وَالَّذِي قَدْ صَحَّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ فَضَّلَ مِنْ السُّوَرِ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ وَقَالَ : { إنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا } وَالْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى مَعَانِيهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَفَضَّلَ مِنْ الْآيَاتِ آيَةَ الْكُرْسِيِّ . وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ { لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَعَك أَعْظَمُ ؟ قَالَ : { اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ } فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ لِيَهْنِك الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ } وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ وَاحِدَةٌ تَضَمَّنَتْ مَا تَضَمَّنَتْهُ آيَةُ الْكُرْسِيِّ وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْحَدِيدِ وَآخِرِ سُورَةِ الْحَشْرِ عِدَّةَ آيَاتٍ لَا آيَةً وَاحِدَةً .

وَسَنُبَيِّنُ إنْ شَاءَ اللَّهُ أَنَّهُ إذَا كَانَتْ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ لَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهَا أَفْضَلُ مِنْ الْفَاتِحَةِ وَلَا أَنَّهَا يَكْتَفِي بِتِلَاوَتِهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ عَنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ بَلْ قَدْ كَرِهَ السَّلَفُ أَنْ تُقْرَأَ إذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ كُلُّهُ إلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً كَمَا كُتِبَتْ فِي الْمُصْحَفِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ يُقْرَأُ كَمَا كُتِبَ فِي الْمُصْحَفِ لَا يُزَادُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ وَالتَّكْبِيرُ الْمَأْثُورُ عَنْ ابْنِ كَثِيرٍ لَيْسَ هُوَ مُسْنَدًا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُسْنِدْهُ أَحَدٌ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا البزي وَخَالَفَ بِذَلِكَ سَائِرَ مَنْ نَقَلَهُ فَإِنَّهُمْ إنَّمَا نَقَلُوهُ اخْتِيَارًا مِمَّنْ هُوَ دُونَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَانْفَرَدَ هُوَ بِرَفْعِهِ وَضَعَّفَهُ نَقَلَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالْحَدِيثِ وَالرِّجَالِ مِنْ عُلَمَاءِ الْقِرَاءَةِ وَعُلَمَاءِ الْحَدِيثِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ غَيْرُ

(566/838)

وَاحِدٍ مِنْ الْعُلَمَاءِ . فَالْمَقْصُودُ أَنَّ مِنْ السُّنَّةِ فِي الْقُرْآنِ أَنْ يُقْرَأَ كَمَا فِي الْمَصَاحِفِ وَلَكِنْ إذَا قُرِئَتْ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مُفْرَدَةً تُقْرَأُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ قَرَأَهَا فَلَهُ مِنْ الْأَجْرِ مَا يَعْدِلُ ثُلُثَ أَجْرِ الْقُرْآنِ لَكِنَّ عَدْلَ الشَّيْءِ - بِالْفَتْحِ - يَكُونُ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ كَمَا سَنَذْكُرُهُ إنْ شَاءَ اللَّهُ . وَالثَّوَابُ أَجْنَاسٌ مُخْتَلِفَةٌ كَمَا أَنَّ الْأَمْوَالَ أَجْنَاسٌ مُخْتَلِفَةٌ : مِنْ مَطْعُومٍ وَمَشْرُوبٍ وَمَلْبُوسٍ وَمَسْكُونٍ وَنَقْدٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَإِذَا مَلَكَ الرَّجُلُ مِنْ أَحَدِ أَجْنَاسِ

الْمَالِ مَا يَعْدِلُ أُلُوفَ دِينَارٍ مَثَلًا لَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْ سَائِرِ أَجْنَاسِ الْمَالِ بَلْ إذَا كَانَ عِنْدَهُ مَالٌ وَهُوَ طَعَامٌ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى لِبَاسٍ وَمَسْكَنٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ إنْ كَانَ مِنْ جِنْسِ غَيْرِ النَّقْدِ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى غَيْرِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إلَّا النَّقْدُ فَهُوَ مُحْتَاجٌ إلَى جَمِيعِ الْأَنْوَاعِ الَّتِي يَحْتَاجُ إلَى أَنْوَاعِهَا وَمَنَافِعِهَا . وَالْفَاتِحَةُ فِيهَا مِنْ الْمَنَافِعِ ثَنَاءٌ وَدُعَاءٌ مِمَّا يَحْتَاجُ النَّاسُ إلَيْهِ مَا لَا تَقُومُ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مَقَامَهُ فِي ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ أَجْرُهَا عَظِيمًا فَذَلِكَ الْأَجْرُ الْعَظِيمُ إنَّمَا يَنْتَفِعُ بِهِ صَاحِبُهُ مَعَ أَجْرِ فَاتِحَةِ الْكِتَابِ وَلِهَذَا لَوْ صَلَّى بِهَا وَحْدَهَا بِدُونِ الْفَاتِحَةِ لَمْ تَصِحَّ صَلَاتُهُ وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ إلَّا الْفَاتِحَةَ لَمْ تَصِحَّ صَلَاتُهُ لِأَنَّ مَعَانِيَ الْفَاتِحَةِ فِيهَا الْحَوَائِجُ الْأَصْلِيَّةُ

الَّتِي لَا بُدَّ لِلْعِبَادِ مِنْهَا وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبُيِّنَ أَنَّ مَا فِي الْفَاتِحَةِ مِنْ الثَّنَاءِ

وَالدُّعَاءِ وَهُوَ قَوْلُ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ هُوَ أَفْضَلُ دُعَاءٍ دَعَا بِهِ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَهُوَ أَوْجَبُ دُعَاءٍ دَعَا بِهِ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَأَنْفَعُ دُعَاءٍ دَعَا بِهِ الْعَبْدُ رَبَّهُ فَإِنَّهُ يَجْمَعُ مَصَالِحَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَالْعَبْدُ دَائِمًا مُحْتَاجٌ إلَيْهِ لَا يَقُومُ غَيْرُهُ مَقَامَهُ فَلَوْ حَصَلَ لَهُ أَجْرُ تِسْعَةِ أَعْشَارِ الْقُرْآنِ - دَعْ ثُلُثَهُ - وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ مَقْصُودُ هَذَا الدُّعَاءِ لَمْ يَقُمْ مَقَامَهُ وَلَمْ يَسُدَّ مَسَدَّهُ . وَهَذَا كَمَا لَوْ قُدِّرَ أَنَّ الرَّجُلَ تَصَدَّقَ بِصَدَقَاتِ عَظِيمَةٍ وَجَاهَدَ جِهَادًا عَظِيمًا يَكُونُ أَفْضَلَ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ مَرَّاتٍ وَهُوَ لَمْ يُصَلِّ ذَلِكَ الْيَوْمَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ لَمْ يَقُمْ ثَوَابُ هَذِهِ الْأَعْمَالِ مَقَامَ هَذِهِ كَمَا لَوْ كَانَ عِنْدَ الرَّجُلِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالرَّقِيقِ وَالْحَيَوَانِ وَالْعَقَارِ أَمْوَالٌ عَظِيمَةٌ وَلَيْسَ عِنْدَهُ مَا يَتَغَدَّى بِهِ وَيَتَعَشَّى مِنْ الطَّعَامِ فَإِنَّهُ يَكُونُ جَائِعًا مُتَأَلِّمًا فَاسِدَ الْحَالِ وَلَا يَقُومُ مَقَامَ الطَّعَامِ الَّذِي يَحْتَاجُ إلَيْهِ تِلْكَ الْأَمْوَالُ الْعَظِيمَةُ وَلِهَذَا قَالَ الشَّيْخُ أَبُو مَدْيَنَ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَشْرَفُ الْعُلُومِ عِلْمُ التَّوْحِيدِ وَأَنْفَعُ الْعِلْمِ أَحْكَامُ الْعَبِيدِ . فَلَيْسَ الْأَفْضَلُ الْأَشْرَفُ هُوَ الَّذِي يَنْفَعُ فِي وَقْتٍ بَلْ الْأَنْفَعُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ الْعَبْدُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَهُوَ فِعْلُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَتَرْكُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ

وَلِهَذَا يُقَالُ : الْمَفْضُولُ فِي مَكَانِهِ وَزَمَانِهِ أَفْضَلُ مِنْ الْفَاضِلِ إذْ دَلَّ الشَّرْعُ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ أَفْضَلُ مِنْ الْقِرَاءَةِ وَالْقِرَاءَةَ أَفْضَلُ مِنْ الذِّكْرِ وَالذِّكْرَ أَفْضَلُ مِنْ

الدُّعَاءِ فَهَذَا أَمْرٌ مُطْلَقٌ . وَقَدْ تَحْرُمُ الصَّلَاةُ فِي أَوْقَاتٍ فَتَكُونُ الْقِرَاءَةُ أَفْضَلَ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ . وَالتَّسْبِيحُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ هُوَ الْمَأْمُورُ بِهِ وَالْقِرَاءَةُ مَنْهِيٌّ عَنْهَا . وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ . فَهَكَذَا يُعْلَمُ الْأَمْرُ فِي فَضْلِ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وَغَيْرِهَا فَقِرَاءَةُ الْفَاتِحَةِ فِي أَوَّلِ الصَّلَاةِ أَفْضَلُ مِنْ قِرَاءَتِهَا بَلْ هُوَ الْوَاجِبُ وَالِاجْتِزَاءُ بِهَا وَحْدَهَا لَا يُمْكِنُ بَلْ تَبْطُلُ مَعَهُ الصَّلَاةُ . وَلِهَذَا وَجَبَ التَّقَرُّبُ بِالْفَرَائِضِ قَبْلَ النَّوَافِلِ وَالتَّقَرُّبُ بِالنَّوَافِلِ إنَّمَا يَكُونُ تَقَرُّبًا إذَا فُعِلَتْ الْفَرَائِضُ لَا كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُ الِاتِّحَادِيَّةِ كَصَاحِبِ " الْفُتُوحَاتِ الْمَكِّيَّةِ " وَنَحْوِهِ مِنْ أَنَّ قُرْبَ الْفَرَائِضِ يَكُونُ بَعْدَ قُرْبِ النَّوَافِلِ وَالنَّوَافِلُ تَجْعَلُ الْحَقَّ غِطَاءَهُ وَتِلْكَ تَجْعَلُ الْحَقَّ عَيْنَهُ . فَهَذَا بِنَاءً عَلَى أَصْلِهِ الْفَاسِدِ مِنْ الِاتِّحَادِ كَمَا بَيَّنَ . وَبَيَّنَ أَنَّ الْحَدِيثَ يُنَاقِضُ مَذْهَبَهُ مِنْ وُجُوهٍ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ يَقُولُ اللَّهُ : مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ وَمَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْت عَلَيْهِ . وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ

الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا . فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي

يَمْشِي . وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ

وَمَا تَرَدَّدْت عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ ﴾ . وَقَدْ بَيَّنَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الْمُتَقَرِّبَ لَيْسَ هُوَ الْمُتَقَرَّبَ إلَيْهِ ؛ بَلْ هُوَ غَيْرُهُ . وَأَنَّهُ مَا تَقَرَّبَ إلَيْهِ عَبْدُهُ بِمِثْلِ أَدَاءِ الْمَفْرُوضِ وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَقَرَّبُ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى يَصِيرَ مَحْبُوبًا لِلَّهِ فَيَسْمَعُ بِهِ وَيُبْصِرُ بِهِ وَيَبْطِشُ بِهِ وَيَمْشِي بِهِ . ثُمَّ قَالَ ﴿ وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ ﴾ فَفَرَّقَ بَيْنَ السَّائِلِ وَالْمَسْئُولِ وَالْمُسْتَعِيذِ وَالْمُسْتَعَاذِ بِهِ وَجَعَلَ الْعَبْدَ سَائِلًا لِرَبِّهِ مُسْتَعِيذًا بِهِ . وَهَذَا حَدِيثٌ شَرِيفٌ جَامِعٌ لِمَقَاصِدَ عَظِيمَةٍ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهَا بَلْ الْمَقْصُودُ هُنَا الْكَلَامُ عَلَى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . وَقَدْ بَيَّنَّا

أَنَّ أَحْسَنَ الْوُجُوهِ أَنَّ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ : تَوْحِيدٌ وَقَصَصٌ وَأَحْكَامٌ . وَهَذِهِ السُّورَةُ صِفَةُ الرَّحْمَنِ فِيهَا التَّوْحِيدُ وَحْدَهُ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ . وَالْكَلَامُ نَوْعَانِ : إمَّا إنْشَاءٌ وَإِمَّا إخْبَارٌ وَالْإِخْبَارُ إمَّا خَبَرٌ عَنْ الْخَالِقِ وَإِمَّا خَبَرٌ عَنْ الْمَخْلُوقِ . فَالْإِنْشَاءُ هُوَ الْأَحْكَامُ كَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . وَالْخَبَرُ عَنْ الْمَخْلُوقِ هُوَ الْقَصَصُ . وَالْخَبَرُ عَنْ الْخَالِقِ هُوَ ذِكْرُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ . وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ سُورَةٌ هِيَ وَصْفُ الرَّحْمَنِ مَحْضًا إلَّا هَذِهِ السُّورَةَ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا

(573/838)

﴿ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ

(574/838)

فَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ سَلُوهُ : لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ فَسَأَلُوهُ فَقَالَ : لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ

يُحِبُّهُ ﴾ . وقال البُخَارِيّ في (بَاب الْجمع بَيْنَ السُّورَتَيْنِ فِي رَكْعَةٍ : وَقَال عُبَيْدُ اللَّهِ عَنْ ثَابتٍ عَنْ أَنَسٍ : ﴿ كَانَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ يَؤُمُّهُمْ فِي مَسْجِدِ قُبَاء فَكَانَ كُلَّمَا افْتَتَحَ سُورَةً يَقْرَأُ لَهُمْ بِهَا فِي الصَّلَاةِ مِمَّا يَقْرَأُ بِهِ افْتَتَحَ بِـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْهَا ثُمَّ يَقْرَأُ بِسُورَةٍ أُخْرَى مَعَهَا فَكَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ فَكَلَّمَهُ أَصْحَابُهُ وَقَالُوا : إِنَّكَ تَفْتَتِحُ بِهَذِهِ السُّورَةِ ثُمَّ لَا تَرَى أَنَّهَا تُجْزِيك حَتَّى تَقْرَأَ بِأُخْرَى فَإِمَّا أَنْ تَقْرَأَ بِهَا وَإِمَّا أَنْ تَدَعَهَا وَتَقْرَأَ بِأُخْرَى فَقَالَ : مَا أَنَا بِتَارِكِهَا إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَؤُمَّكُمْ بِذَلِكَ فَعَلْت وَإِنْ كَرِهْتُمْ ذَلِكَ تَرَكْتُكُمْ . وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ مِنْ أَفْضَلِهِمْ وَكَرِهُوا أَنْ يَؤُمَّهُمْ غَيْرُهُ . فَلَمَّا أَتَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ فَقَالَ : يَا فُلَانُ مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُك بِهِ أَصْحَابُك وَمَا يَحْمِلُك عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ . قَالَ : إنِّي أُحِبُّهَا . قَالَ حُبُّك إيَّاهَا أَدْخَلَك الْجَنَّةَ ﴾ . وَقَوْلُ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ﴾ حَقٌّ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى لَمْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْهِ إلَّا حَقٌّ .

وَالَّذِينَ أَشْكَلَ عَلَيْهِمْ هَذَا الْقَوْلُ لَهُمْ مَأْخَذَانِ :

أَحَدُهُمَا مَنْعُ تَفَاضُلِ كَلَامِ اللَّهِ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ وَقَدْ تَبَيَّنَ ضَعْفُهُ . الثَّانِي اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ الْأَجْرَ يَتْبَعُ كَثْرَةَ الْحُرُوفِ فَمَا كَثُرَتْ حُرُوفُهُ مِنْ الْكَلَامِ يَكُونُ أَجْرُهُ أَعْظَمَ . قَالُوا : لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ . أَمَّا إنِّي لَا أَقُولُ ﴿ الم ﴾ حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ ﴾ . قَالَ التِّرْمِذِيُّ حَدِيثٌ صَحِيحٌ . قَالُوا وَمَعْلُومٌ أَنَّ ثُلُثَ الْقُرْآنِ حُرُوفُهُ أَكْثَرُ بِكَثِيرِ فَتَكُونُ حَسَنَاتُهُ أَكْثَرَ . فَيُقَالُ لَهُمْ : هَذَا حَقٌّ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَكِنَّ الْحَسَنَاتِ فِيهَا كِبَارٌ وَصِغَارٌ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقْصُودُهُ أَنَّ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ فَإِذَا قَرَأَ حَرْفًا كَانَ ذَلِكَ حَسَنَةً فَيُعْطِيهِ بِقَدْرِ تِلْكَ الْحَسَنَةِ عَشْرَ مَرَّاتٍ لَكِنْ لَمْ يَقُلْ : إنَّ الْحَسَنَاتِ فِي الْحُرُوفِ مُتَمَاثِلَةٌ . كَمَا أَنَّ مَنْ تَصَدَّقَ بِدِينَارِ يُعْطَى بِتِلْكَ الْحَسَنَةِ عَشْرَ أَمْثَالِهَا . وَالْوَاحِدُ مِنْ بَعْدِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ إذَا أَنْفَقَ مُدًّا كَانَ لَهُ بِهَذِهِ الْحَسَنَةِ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . وَلَكِنْ

لَا تَكُونُ تِلْكَ الْحَسَنَةُ بِقَدْرِ حَسَنَةِ مَنْ أَنْفَقَ مُدًّا مِنْ الصَّحَابَةِ السَّابِقِينَ . وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ . فَكَذَلِكَ حُرُوفُ الْقُرْآنِ تَتَفَاضَلُ لِتَفَاضُلِ الْمَعَانِي وَغَيْرِ ذَلِكَ فَحُرُوفُ الْفَاتِحَةِ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهَا حَسَنَةٌ أَعْظَمُ مِنْ حَسَنَاتِ حُرُوفٍ مِنْ ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ وَإِذَا كَانَ الشَّيْءُ يَعْدِلُ غَيْرَهُ فَعَدْلُ الشَّيْءِ - بِالْفَتْحِ - هُوَ مُسَاوِيهِ وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ وَالصِّيَامُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الطَّعَامِ وَالْجَزَاءِ وَلَكِنَّهُ يُعَادِلُهُ فِي الْقَدْرِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ أَيْ فِدْيَةٌ وَالْفِدْيَةُ مَا يَعْدِلُ بِالْمُفْدَى وَإِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ : ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أَيْ يَجْعَلُونَ لَهُ عَدْلًا أَيْ نِدًّا فِي الْإِلَهِيَّةِ وَإِنْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ . وَلَوْ كَانَ لِرَجُلٍ أَمْوَالٌ مِنْ أَصْنَافٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَلِآخَرَ ذَهَبٌ بِقَدْرِ ذَلِكَ لَكَانَ مَالُ هَذَا يَعْدِلُ مَالَ هَذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِهِ ؛ وَلِهَذَا قَدْ يَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ مِنْ الذَّهَبِ وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَمْوَالِ مَا يَعْدِلُ شَيْئًا عَظِيمًا وَإِذَا احْتَاجَ إلَى دَوَاءٍ أَوْ مَرْكَبٍ أَوْ مَسْكَنٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ وَلَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَى اشْتِرَائِهِ لَمْ تَنْفَعْهُ تِلْكَ الْأَمْوَالُ الْعَظِيمَةُ . فَالْقُرْآنُ يَحْتَاجُ النَّاسُ إلَى مَا فِيهِ مِنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ

وَالْقَصَصِ . وَإِنْ كَانَ التَّوْحِيدُ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ . وَإِذَا احْتَاجَ الْإِنْسَانُ إلَى مَعْرِفَةِ مَا أُمِرَ بِهِ وَمَا نُهِيَ عَنْهُ مِنْ الْأَفْعَالِ أَوْ

احْتَاجَ إلَى مَا يُؤْمَرُ بِهِ وَيُعْتَبَرُ بِهِ مِنْ الْقَصَصِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ لَمْ يَسُدَّ غَيْرُهُ مَسَدَّهُ فَلَا يَسُدُّ التَّوْحِيدُ مَسَدَّ هَذَا وَلَا تَسُدُّ الْقَصَصُ مَسَدَّ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَلَا الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ مَسَدَّ الْقَصَصِ . بَلْ كُلُّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ يَنْتَفِعُ بِهِ النَّاسُ وَيَحْتَاجُونَ إلَيْهِ . فَإِذَا قَرَأَ الْإِنْسَانُ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حَصَلَ لَهُ ثَوَابٌ بِقَدْرِ ثَوَابِ ثُلُثِ الْقُرْآنِ ؛ لَكِنْ لَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الثَّوَابُ مِنْ جِنْسِ الثَّوَابِ الْحَاصِلِ بِبَقِيَّةِ الْقُرْآنِ بَلْ قَدْ يَحْتَاجُ إلَى جِنْسِ الثَّوَابِ الْحَاصِلِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْقَصَصِ فَلَا تَسُدُّ (﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مَسَدَّ ذَلِكَ وَلَا تَقُومُ مَقَامَهُ فَلِهَذَا لَوْ لَمْ يَقْرَأْ (﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فَإِنَّهُ وَإِنْ حَصَلَ لَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ لَكِنَّ جِنْسَ الْأَجْرِ الَّذِي يَحْصُلُ بِقِرَاءَةِ غَيْرِهَا لَا يَحْصُلُ لَهُ بِقِرَاءَتِهَا بَلْ يَبْقَى فَقِيرًا مُحْتَاجًا إلَى مَا يَتِمُّ بِهِ إيمَانُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَلَوْ قَامَ بِالْوَاجِبِ عَلَيْهِ . فَالْمَعَارِفُ الَّتِي تَحْصُلُ بِقِرَاءَةِ سَائِرِ الْقُرْآنِ لَا تَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ قِرَاءَةِ هَذِهِ السُّورَةِ فَيَكُونُ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ أَفْضَلَ مِمَّنْ قَرَأَهَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ هَذِهِ

الْجِهَةِ لِتَنَوُّعِ الثَّوَابِ وَإِنْ كَانَ قَارِئُ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ثَلَاثًا يَحْصُلُ لَهُ ثَوَابٌ بِقَدْرِ ذَلِكَ الثَّوَابِ لَكِنَّهُ جِنْسٌ وَاحِدٌ لَيْسَ فِيهِ الْأَنْوَاعُ الَّتِي يَحْتَاجُ إلَيْهَا الْعَبْدُ كَمَنْ مَعَهُ ثَلَاثَةُ آلَافِ دِينَارٍ وَآخَرُ مَعَهُ

طَعَامٌ وَلِبَاسٌ وَمَسَاكِنُ وَنَقْدٌ يَعْدِلُ ثَلَاثَةَ آلَافِ دِينَارٍ ؛ فَإِنَّ هَذَا مَعَهُ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ وَذَاكَ مُحْتَاجٌ إلَى مَا مَعَ هَذَا وَإِنْ كَانَ مَا مَعَهُ يَعْدِلُ مَا مَعَ هَذَا . وَكَذَلِكَ لَوْ كَانَ مَعَهُ طَعَامٌ مِنْ أَشْرَفِ الطَّعَامِ يُسَاوِي ثَلَاثَةَ آلَافِ دِينَارٍ فَإِنَّهُ مُحْتَاجٌ إلَى لِبَاسٍ وَمَسَاكِنَ وَمَا يَدْفَعُ بِهِ الضَّرَرَ مِنْ السِّلَاحِ وَالْأَدْوِيَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَحْصُلُ بِمُجَرَّدِ الطَّعَامِ .

وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ فَضْلَ الْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ وَالصَّلَاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ قَدْ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ حَالِ الرَّجُلِ فَالْقِرَاءَةُ بِتَدَبُّرِ أَفْضَلُ مِنْ الْقِرَاءَةِ بِلَا تَدَبُّرٍ وَالصَّلَاةُ بِخُشُوعِ وَحُضُورِ قَلْبٍ أَفْضَلُ مِنْ الصَّلَاةِ بِدُونِ ذَلِكَ .

وَفِي الْأَثَرِ : ﴿ إِنَّ الرَّجُلَيْنِ لَيَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ . وَكَانَ بَعْضُ الشُّيُوخِ يَرْقِي بِـ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وَكَانَ لَهَا بَرَكَةٌ عَظِيمَةٌ فَيَرْقِي بِهَا غَيْرُهُ فَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ فَيَقُولُ : لَيْسَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ تَنْفَعُ كُلَّ أَحَدٍ . وَإِذَا عُرِفَ ذَلِكَ فَقَدْ يَكُونُ تَسْبِيحُ بَعْضِ النَّاسِ أَفْضَلَ مِنْ قِرَاءَةِ غَيْرِهِ وَيَكُونُ قِرَاءَةُ بَعْضِ السُّوَرِ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ أَفْضَلَ مِنْ قِرَاءَةِ غَيْرِهِ لـ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وَغَيْرِهَا . وَالْإِنْسَانُ الْوَاحِدُ يَخْتَلِفُ أَيْضًا حَالُهُ . فَقَدْ يَفْعَلُ الْعَمَلَ الْمَفْضُولَ عَلَى وَجْهٍ كَامِلٍ فَيَكُونُ بِهِ أَفْضَلَ مِنْ سَائِرِ أَعْمَالِهِ الْفَاضِلَةِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لِبَغِيٍّ لِسَقْيِهَا الْكَلْبَ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَهَذَا لِمَا حَصَلَ لَهَا فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ مِنْ الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَغَيْرِهَا . وَقَدْ يُنْفِقُ الرَّجُلُ أَضْعَافَ ذَلِكَ فَلَا يُغْفَرُ لَهُ لِعَدَمِ الْأَسْبَابِ الْمُزَكِّيَةِ لِلْعَمَلِ فَإِنَّ اللَّهَ إنَّمَا يَتَقَبَّلُ مِنْ الْمُتَّقِينَ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ ﴾ يَقُولُهُ عَنْ أَصْحَابِهِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَإِذَا قِيلَ : إنَّ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يَعْدِلُ ثَوَابُهَا ثَوَابَ ثُلُثِ الْقُرْآنِ فَلَا بُدَّ مِنْ اعْتِبَارِ التَّمَاثُلِ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ وَإِلَّا فَإِذَا اعْتَبَرَ

قِرَاءَةَ غَيْرِهَا مَعَ التَّدَبُّرِ وَالْخُشُوعِ بِقِرَاءَتِهَا مَعَ الْغَفْلَةِ وَالْجَهْلِ لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ قَوْلُ الْعَبْدِ : " سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَاَللَّهُ أَكْبَرُ " مَعَ حُضُورِ الْقَلْبِ وَاتِّصَافِهِ بِمَعَانِيهَا أَفْضَلَ مِنْ قِرَاءَةِ هَذِهِ السُّورَةِ مَعَ الْجَهْلِ وَالْغَفْلَةِ وَالنَّاسُ مُتَفَاضِلُونَ فِي فَهْمِ هَذِهِ السُّورَةِ وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ كَمَا أَنَّهُمْ مُتَفَاضِلُونَ فِي فَهْمِ سَائِرِ الْقُرْآنِ .

فَصْلٌ :

وَأَصْلُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ التَّفَاضُلَ وَالتَّمَاثُلَ إنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَصَاعِدًا إذْ الْوَاحِدُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ لَا يُعْقَلُ فِيهِ شَيْءٌ أَفْضَلُ مِنْ شَيْءٍ فَالتَّفَاضُلُ فِي صِفَاتِهِ تَعَالَى إنَّمَا يُعْقَلُ إذَا أُثْبِتَ لَهُ صِفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْبُغْضِ وَالرِّضَا وَالْغَضَبِ . وَكَإِثْبَاتِ أَسْمَاءٍ لَهُ مُتَعَدِّدَةٍ تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٍ وَأُثْبِتَ لَهُ كَلِمَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ

تَقُومُ بِذَاتِهِ حَتَّى يُقَالَ : هَلْ بَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ أَمْ لَا ؟ وَكُلُّ قَوْلٍ سِوَى قَوْلِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ فَهُوَ خَطَأٌ مُتَنَاقِضٌ وَأَيُّ شَيْءٍ قَالَهُ فِي جَوَابِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ كَانَ خَطَأً لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يُجِيبَ فِيهِ بِجَوَابِ صَحِيحٍ . فَمَنْ قَالَ : إنَّهُ لَيْسَ لَهُ صِفَةٌ ثُبُوتِيَّةٌ بَلْ لَيْسَ لَهُ صِفَةٌ إلَّا سَلْبِيَّةٌ أَوْ إضَافِيَّةٌ - كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ الْجَهْمِيَّةُ الْمَحْضَةُ مِنْ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْمُتَكَلِّمَةِ

أَتْبَاعِ جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ - فَهَذَا إِذَا قِيلَ لَهُ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ: نِسْبَتُهُ الَّتِي هِيَ الْخَلْقُ إِلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَمْ إِلَى بَعُوضَةٍ؟ أَمْ أَيُّمَا أَفْضَلُ: نَفْيُ الْجَهْلِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَنْهُ وَالْعَجْزُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ أَمْ نَفْيُ الْجَهْلِ بِالْكُلِّيَّاتِ؟ لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يُجِيبَ بِجَوَابٍ صَحِيحٍ عَلَى أَصْلِهِ الْفَاسِدِ. فَإِنَّهُ إِنْ قَالَ: خَلْقُ السَّمَوَاتِ مُمَاثِلٌ خَلْقَ الْبَعُوضَةِ كَانَ هَذَا مُكَابَرَةً لِلْعَقْلِ وَالشَّرْعِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وَإِنْ قَالَ: بَلْ ذَلِكَ أَعْظَمُ وَأَكْبَرُ كَمَا فِي الْقُرْآنِ قِيلَ لَهُ لَيْسَ عِنْدَكَ أَمْرَانِ وُجُودِيَّانِ يَفْضُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ إِذْ الْخَلْقُ عَلَى قَوْلِكَ لَا يَزِيدُ عَلَى الْمَخْلُوقِ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَدَمُ الْمَحْضُ فَكَيْفَ يُعْقَلُ فِي الْمَعْدُومِينَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا أَفْضَلَ مِنْ صَاحِبِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ وُجُودٌ يَحْصُلُ فِيهِ التَّفَاضُلُ؟ وَكَذَلِكَ إِذَا قِيلَ: نَفْيُ الْجَهْلِ وَالْعَجْزِ

عَنْ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ مِثْلُ نَفْيِ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ كَانَ هَذَا مُكَابَرَةً وَإِنْ قَالَ: بَلْ نَفْيُ الْجَهْلِ الْعَامِّ أَكْمَلُ مِنْ نَفْيِ الْجَهْلِ الْخَاصِّ قِيلَ لَهُ: إِذَا لَمْ

يَلْزَمْ مِنْ نَفْيِ الْجَهْلِ ثُبُوتُ عِلْمٍ بِشَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاءِ بَلْ كَانَ النفيان عدمين مَحْضَيْنِ فَكَيْفَ يُعْقَلُ التَّفَاضُلُ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ؟ فَإِنَّهُ لَا يُعْقَلُ فِي الْعَدَمِ الْمَحْضِ وَالنَّفْيِ الصِّرْفِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِشَيْءٍ أَصْلًا وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ فِي الْوُجُودِ وَلَا فِيهِ كَمَالٌ وَلَا مَدْحٌ وَإِنَّمَا يَكُونُ التَّفَاضُلُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْكَمَالُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ وُجُودًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ أَوْ صِفَةً مَوْجُودَةً قَائِمَةً بِغَيْرِهَا . فَأَمَّا الْعَدَمُ الْمَحْضُ فَلَا كَمَالَ فِيهِ أَصْلًا . وَلِهَذَا إنَّمَا يَصِفُ اللَّهُ نَفْسَهُ بِصِفَاتِ التَّنْزِيهِ لَا السَّلْبِيَّةِ الْعَدَمِيَّةِ لِتَضَمُّنِهَا أُمُورًا وُجُودِيَّةً تَكُونُ كَمَا لَا يَتَمَدَّحُ سُبْحَانَهُ بِهَا كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ فَنَفْيُ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْحَيَاةِ والقيومية وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْمُلْكِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَانْفِرَادَهُ بِذَلِكَ وَنَفْسُ انْفِرَادِهِ بِالْمُلْكِ وَالْهِدَايَةِ وَالتَّعْلِيمِ وَسَائِرِ صِفَاتِ الْكَمَالِ هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَلِهَذَا كَانَتْ السُّورَةُ فِيهَا الِاسْمَانِ الْأَحَدُ الصَّمَدُ وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَدُلُّ عَلَى الْكَمَالِ . فَقَوْلُهُ (أَحَدٌ) يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ النَّظِيرِ وَقَوْلُهُ (الصَّمَدُ) بِالتَّعْرِيفِ يَدُلُّ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِالصَّمَدِيَّةِ . وَلِهَذَا جَاءَ التَّعْرِيفُ فِي اسْمِهِ الصَّمَدُ دُونَ الْأَحَدِ لِأَنَّ أَحَدًا لَا

يُوصَفُ بِهِ فِي الْإِثْبَاتِ غَيْرُهُ بِخِلَافِ الصَّمَدِ فَإِنَّ الْعَرَبَ تُسَمِّي السَّيِّدَ صَمَدًا . قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ : الْمَلَائِكَةُ تُسَمَّى صَمَدًا وَالْآدَمِيُّ أَجْوَفُ فَقَوْلُهُ

" الصَّمَدُ " بَيَانٌ لِاخْتِصَاصِهِ بِكَمَالِ الصَّمَدِيَّةِ . وَقَدْ ذَكَرْنَا تَفْسِيرَ الصَّمَدِ وَاشْتِمَالَهُ عَلَى جَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ كَمَا رَوَاهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ تَفْسِيرِ ابْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَدْ ذَكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَالْبَيْهَقِي وَغَيْرُهُمْ فِي قَوْلِهِ : (الصَّمَدُ) يَقُولُ : السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدُدِهِ وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي إلَّا لَهُ لَيْسَ لَهُ كُفُؤٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . وَكَذَلِكَ قَدْ ثَبَتَ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي وَائِلٍ وَقَدْ ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ وَرَوَاهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي كُتُبِهِمْ قَالَ : الصَّمَدُ السَّيِّدُ الَّذِي انْتَهَى سُؤْدُدُهُ . وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ كَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا : الصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ . وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ حَقٌّ مُوَافِقٌ لِلُّغَةِ كَمَا قَدْ

بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ . أَمَّا كَوْنُ الصَّمَدِ هُوَ السَّيِّدُ فَهَذَا مَشْهُورٌ وَأَمَّا الْآخَرُ فَهُوَ أَيْضًا مَعْرُوفٌ فِي اللُّغَةِ . وَقَدْ ذَكَرَ الْجَوْهَرِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ الصَّمَدَ لُغَةٌ فِي الصمت وَلَيْسَ هَذَا مِنْ إبْدَالِ الدَّالِ بِالتَّاءِ كَمَا ظَنَّهُ بَعْضُهُمْ بَلْ لَفْظُ صَمَدٍ يَصْمُدُ صَمَدًا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ

(588/838)

. وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ صِفَاتِ الْكَمَالِ إنَّمَا هِيَ فِي الْأُمُورِ الْمَوْجُودَةِ

(589/838)

وَالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ إنَّمَا تَكُونُ كَمَالًا إذَا تَضَمَّنَتْ أُمُورًا وُجُودِيَّةً ؛ وَلِهَذَا كَانَ تَسْبِيحُ الرَّبِّ يَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَهُ وَتَعْظِيمَهُ جَمِيعًا فَقَوْلُ الْعَبْدِ : " سُبْحَانَ اللَّهِ " يَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَ اللَّهِ وَبَرَاءَتَهُ مِنْ السُّوءِ وَهَذَا الْمَعْنَى يَتَضَمَّنُ عَظَمَتَهُ فِي نَفْسِهِ لَيْسَ هُوَ عَدَمًا مَحْضًا لَا يَتَضَمَّنُ وُجُودًا فَإِنَّ هَذَا لَا مَدْحَ فِيهِ وَلَا تَعْظِيمَ . وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا تَنَزَّهَ الرَّبُّ عَنْهُ مِنْ الشُّرَكَاءِ وَالْأَوْلَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ - إلَى قَوْلِهِ - ﴿ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا

يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ وَغَيْرُ ذَلِكَ . فَنَفْيُ الْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ الْكَمَالِ وَنَفْيُ الشُّرَكَاءِ يَقْتَضِي الْوَحْدَانِيَّةَ وَهُوَ مِنْ تَمَامِ الْكَمَالِ فَإِنَّ مَا لَهُ نَظِيرٌ قَدْ انْقَسَمَتْ صِفَاتُ الْكَمَالِ وَأَفْعَالُ الْكَمَالِ فِيهِ وَفِي نَظِيرِهِ فَحَصَلَ لَهُ بَعْضُ صِفَاتِ الْكَمَالِ لَا كُلُّهَا . فَالْمُنْفَرِدُ بِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ أَكْمَلُ مِمَّنْ لَهُ شَرِيكٌ يُقَاسِمُهُ إِيَّاهَا . وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ أَكْمَلَ حُبًّا

(590/838)

لِلَّهِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُحِبُّونَ غَيْرَهُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ . قَالَ

(591/838)

تَعَالَى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ قَدْ بَيَّنَ فِيهِ أَنَّ هَذَا مِنْ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ الَّذِي

لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ . قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ : أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ . قُلْتُ ثُمَّ أَيُّ ؟ قَالَ أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ ﴾ . وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى تَصْدِيقَ ذَلِكَ : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ الْآيَةَ . فَمَنْ جَعَلَ لِلَّهِ نِدًّا يُحِبُّهُ كَحُبِّ اللَّهِ فَهُوَ مِمَّنْ دَعَا مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ وَهَذَا مِنْ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الشَّيْءَ إذَا انْقَسَمَ وَوَقَعَتْ فِيهِ الشَّرِكَةُ نَقَصَ مَا يَحْصُلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ فَإِذَا كَانَ جَمِيعُهُ لِوَاحِدِ كَانَ أَكْمَلَ فَلِهَذَا كَانَ حُبُّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ لِلَّهِ أَكْمَلَ . وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا نُهُوا عَنْهُ مِنْ كَبَائِرِ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ يُوجِبُ كَمَالَ الْأُمُورِ الْوُجُودِيَّةِ فِي عِبَادَتِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ وَذَلِكَ مِنْ زَكَاهُمْ كَمَا أَنَّ الزَّرْعَ كُلَّمَا نُقِّيَ عَنْهُ الدَّغَلُ كَانَ أَزْكَى لَهُ وَأَكْمَلَ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ الْوُجُودِيَّةِ فِيهِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ لَا

يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ وَأَصْلُ الزَّكَاةِ التَّوْحِيدُ

وَالْإِخْلَاصُ كَمَا فَسَّرَهَا بِذَلِكَ أَكَابِرُ السَّلَفِ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ . وَهَذَا كُلُّهُ مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ مَنْ نَفَى عَنْ اللَّهِ النَّقَائِصَ ؛ كَالْمَوْتِ وَالْجَهْلِ وَالْعَجْزِ وَالصَّمَمِ وَالْعَمَى وَالْبُكْمِ وَلَمْ يُثْبِتْ لَهُ صِفَاتٍ وُجُودِيَّةً ؛ كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ ؛ بَلْ زَعَمَ أَنَّ صِفَاتِهِ لَيْسَتْ إلَّا عَدَمِيَّةً مَحْضَةً وَأَنَّهُ لَا يُوصَفُ بِأَمْرِ وُجُودِيٍّ فَهَذَا لَمْ يُثْبِتْ لَهُ صِفَةَ كَمَالٍ أَصْلًا فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَالَ أَيُّ الصِّفَتَيْنِ أَفْضَلُ ؟ فَإِنَّ التَّفْضِيلَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ فَرْعُ كَوْنِ كُلٍّ مِنْهُمَا لَهُ كَمَالٌ مَا ثُمَّ يُنْظَرُ أَيُّهُمَا أَكْمَلُ فَأَمَّا إذَا قُدِّرَ أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا عَدَمٌ مَحْضٌ فَلَا كَمَالَ وَلَا فَضِيلَةَ هُنَاكَ أَصْلًا .

وَكَذَلِكَ مَنْ أَثْبَتَ لَهُ الْأَسْمَاءَ دُونَ الصِّفَاتِ فَقَالَ إنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ عَزِيزٌ حَكِيمٌ - وَلَكِنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ لَا تَتَضَمَّنُ اتِّصَافَهُ بِحَيَاةِ وَلَا عِلْمٍ وَلَا قُدْرَةٍ وَلَا سَمْعٍ وَلَا بَصَرٍ وَلَا عِزَّةٍ وَلَا حِكْمَةٍ - فَإِذَا قِيلَ لَهُ : أَيُّ الِاسْمَيْنِ أَفْضَلُ ؟ لَمْ يُجِبْ بِجَوَابِ صَحِيحٍ فَإِنَّهُ إنْ قَالَ : الْعَلِيمُ أَعْظَمُ مِنْ السَّمِيعِ لِعُمُومِ تَعَلُّقِهِ مَثَلًا أَوْ قَالَ : الْعَزِيزُ أَكْمَلُ مِنْ الْقَدِيرِ لِأَنَّهُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْقُدْرَةِ مِنْ غَيْرِ عَكْسٍ قِيلَ إذَا

مَعَانٍ مَوْجُودَةٌ تَقُومُ بِهِ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ لَا عِلْمٌ وَلَا سَمْعٌ وَلَا بَصَرٌ وَلَا عِزَّةٌ وَلَا قُدْرَةٌ لَيْسَ إلَّا ذَاتٌ مُجَرَّدَةٌ عَنْ صِفَاتٍ وَمَخْلُوقَاتٍ وَالذَّاتُ الْمُجَرَّدَةُ لَيْسَ فِيهَا مَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ تَفَاضُلٌ وَلَا تَمَاثُلٌ . وَالْمَخْلُوقَاتُ لَمْ يَكُنْ السُّؤَالُ عَنْ تَفْضِيلِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَعْلَمُهُ كُلُّ وَاحِدٍ وَلَا يَشْتَبِهُ عَلَى عَاقِلٍ . وَكَذَلِكَ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ صِفَاتِهِ بَعْضًا أَوْ جَعَلَ الصِّفَةَ هِيَ الْمَوْصُوفَ مِثْلَ مَنْ قَالَ : الْعِلْمُ هُوَ الْقُدْرَةُ وَالْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ هُمَا الْعَالِمُ الْقَادِرُ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ جهمية الْفَلَاسِفَةِ وَنَحْوِهِمْ . أَوْ قَالَ : كَلَامُهُ كُلُّهُ هُوَ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِذَاتِهِ هُوَ الْأَمْرُ بِكُلِّ مَأْمُورٍ وَالْخَبَرُ عَنْ كُلِّ مُخْبَرٍ بِهِ إنْ عَبَّرَ عَنْهُ بِالْعَرَبِيَّةِ كَانَ قُرْآنًا وَإِنْ عَبَّرَ عَنْهُ بِالْعِبْرِيَّةِ كَانَ تَوْرَاةً وَإِنْ عَبَّرَ عَنْهُ بالسريانية كَانَ إنْجِيلًا وَإِنَّ مَعْنَى آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَآيَةِ الدَّيْنِ وَاحِدٌ وَإِنَّ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ صِفَاتٌ نِسْبِيَّةٌ لِلْكَلَامِ لَيْسَتْ أَنْوَاعًا ؛ بَلْ ذَاتُ الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ أَمْرٌ هُوَ ذَاتُ الْكَلَامِ الَّذِي هُوَ نَهْيٌ وَإِنَّمَا تَنَوَّعَتْ الْإِضَافَةُ . فَهَذَا الْكَلَامُ الَّذِي تَقُولُهُ الْكُلَّابِيَة وَإِنْ كَانَ جُمْهُورُ

الْعُقَلَاءِ يَقُولُونَ إنَّ مُجَرَّدَ تَصَوُّرِهِ كَافٍ فِي الْعِلْمِ بِفَسَادِهِ فَلَا يُمْكِنُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ الْجَوَابُ بِتَفْضِيلِ كَلَامِ اللَّهِ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ وَلَا مُمَاثَلَةِ بَعْضِهِ لِبَعْضِ ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ عَلَى قَوْلِهِمْ

شَيْءٌ وَاحِدٌ بِالْعَيْنِ

لَا يَتَعَدَّدُ وَلَا يَتَبَعَّضُ فَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : هَلْ بَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ أَمْ بَعْضُهُ مِثْلُ بَعْضٍ وَلَا بَعْضٌ لَهُ عِنْدَهُمْ ؟ . وَإِنْ قَالُوا : التَّمَاثُلُ وَالتَّفَاضُلُ يَقَعُ فِي الْعِبَارَةِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ قِيلَ : تِلْكَ لَيْسَتْ كَلَامًا لِلَّهِ عَلَى أَصْلِهِ وَلَا عِنْدَ أَئِمَّتِهِمْ ؛ بَلْ هِيَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ وَالتَّفَاضُلُ فِي الْمَخْلُوقَاتِ لَا إشْكَالَ فِيهِ . وَمَنْ قَالَ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ : إنَّهَا تُسَمَّى كَلَامَ اللَّهِ حَقِيقَةً . وَإِنَّ اسْمَ الْكَلَامِ يَقَعُ عَلَيْهَا وَعَلَى مَعْنَى ذَلِكَ الْمَعْنَى الْقَائِمِ بِالنَّفْسِ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ فَإِنَّهُ لَمْ يَعْقِلْ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ بَلْ قَوْلُهُ هَذَا يُفْسِدُ أَصْلَهُمْ . لِأَنَّ أَصْلَ قَوْلِهِمْ : أَنَّ الْكَلَامَ لَا يَقُومُ إلَّا بِالْمُتَكَلِّمِ لَا يَقُومُ بِغَيْرِهِ إذْ لَوْ جَازَ قِيَامُ الْكَلَامِ بِغَيْرِ الْمُتَكَلِّمِ لَجَازَ أَنْ يَكُونَ كَلَامُ اللَّهِ مَخْلُوقًا قَائِمًا بِغَيْرِهِ مَعَ كَوْنِهِ كَلَامَ اللَّهِ .

وَهَذَا أَصْلُ الْجَهْمِيَّةِ الْمَحْضَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ الَّذِي خَالَفَهُمْ فِيهِ الْكُلَّابِيَةُ وَسَائِرُ الْمُثْبِتَةِ وَقَالُوا : إنَّ الْمُتَكَلِّمَ لَا يَكُونُ مُتَكَلِّمًا حَتَّى يَقُومَ بِهِ الْكَلَامُ وَكَذَلِكَ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ قَالُوا : لَا يَكُونُ

الْعَالِمُ عَالِمًا حَتَّى يَقُومَ بِهِ الْعِلْمُ وَلَا يَكُونُ الْمُرِيدُ مُرِيدًا حَتَّى تَقُومَ بِهِ الْإِرَادَةُ فَلَوْ جَوَّزُوا أَنَّ يَكُونَ لِلَّهِ مَا هُوَ كَلَامٌ لَهُ وَهُوَ مَخْلُوقٌ مُنْفَصِلٌ عَنْهُ بَطَلَ هَذَا الْأَصْلُ .

وَأَصْلُ النُّفَاةِ الْمُعَطِّلَةِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ : أَنَّهُمْ يَصِفُونَ اللَّهَ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ بَلْ بِمَا قَامَ بِغَيْرِهِ أَوْ بِمَا لَمْ يُوجَدْ وَيَقُولُونَ : هَذِهِ إضَافَاتٌ لَا صِفَاتٌ فَيَقُولُونَ : هُوَ رَحِيمٌ وَيَرْحَمُ وَالرَّحْمَةُ لَا تَقُومُ بِهِ بَلْ هِيَ

مَخْلُوقَةٌ وَهِيَ نِعْمَتُهُ . وَيَقُولُونَ : هُوَ يَرْضَى وَيَغْضَبُ وَالرِّضَا وَالْغَضَبُ لَا يَقُومُ بِهِ ؛ بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ وَهُوَ ثَوَابُهُ وَعِقَابُهُ وَيَقُولُونَ : هُوَ مُتَكَلِّمٌ وَيَتَكَلَّمُ وَالْكَلَامُ لَا يَقُومُ بِهِ بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ قَائِمٌ بِغَيْرِهِ . وَقَدْ يَقُولُونَ : هُوَ مُرِيدٌ وَيُرِيدُ ثُمَّ قَدْ يَقُولُونَ لَيْسَتْ الْإِرَادَةُ شَيْئًا مَوْجُودًا وَقَدْ يَقُولُونَ : إنَّهَا هِيَ الْمَخْلُوقَاتُ وَالْأَمْرُ الْمَخْلُوقُ . وَقَدْ يَقُولُونَ أَحْدَثَ إرَادَةً لَا فِي مَحَلٍّ . وَهَذَا الْأَصْلُ الْبَاطِلُ الَّذِي أَصَّلَهُ نُفَاةُ الصِّفَاتِ الْجَهْمِيَّةُ الْمَحْضَةُ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ هُوَ الَّذِي

فَارَقَهُمْ بِهِ جَمِيعُ الْمُثْبِتَةِ لِلصِّفَاتِ : مِنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ وَأَهْلِ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّصَوُّفِ وَالتَّفْسِيرِ وَأَصْنَافِ نُظَّارِ الْمُثْبِتَةِ : كَالْكُلَّابِيَةِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنْ الْأَشْعَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ وَكَالْهِشَامِيَةِ وَالْكَرَّامِيَةِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ طَوَائِفِ النُّظَّارِ الْمُثْبِتَةِ لِلصِّفَاتِ وَعَلَى هَذَا أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ الْمَشْهُورُونَ بِالْإِمَامَةِ وَأَئِمَّةُ الْفُقَهَاءِ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ مِنْ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَأَبِي حَنِيفَةَ وَغَيْرِهِمْ . فَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إنَّ الْكَلَامَ يَقَعُ حَقِيقَةً عَلَى الْعِبَارَةِ وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ مَخْلُوقَةٌ يُنَاقِضُ الْأَصْلَ الْفَارِقَ بَيْنَ الْمُثْبِتَةِ وَالْمُعَطِّلَةِ إلَّا أَنْ يُسَمَّى مُتَعَلِّقُ الصِّفَةِ بِاسْمِ الصِّفَةِ كَمَا يُسَمَّى الْمَأْمُورُ بِهِ أَمْرًا وَالْمَرْحُومُ بِهِ رَحْمَةً وَالْمَخْلُوقُ خَلْقًا وَالْقَدَرُ قُدْرَةً وَالْمَعْلُومُ عِلْمًا ؛ لَكِنْ يُقَالُ لَهُ : هَذَا

كُلُّهُ لَيْسَ هُوَ الْحَقِيقَةَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ .

وَأَيضًا فَهَذِهِ الْأُمُورُ أَعْيَانٌ قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهَا فَإِذَا أُضِيفَتْ إِلَى اللَّهِ عُلِمَ أَنَّهَا إضَافَةُ مُلْكٍ لَا إضَافَةُ وَصْفٍ ؛ بِخِلَافِ الْعِبَارَةِ فَإِنَّهَا لَا تَقُومُ بِنَفْسِهَا كَمَا لَا يَقُومُ الْمَعْنَى بِنَفْسِهِ وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ الْفَارِقُ بَيْنَ إضَافَةِ الصِّفَاتِ وَإِضَافَةِ الْمَخْلُوقَاتِ فَإِنَّ الْمُعَطِّلَةَ النُّفَاةَ مِنْ الصَّابِئَةِ وَالْفَلَاسِفَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ : كَابْنِ عَقِيلٍ وَابْنِ الْجَوْزِيِّ وَغَيْرِهِمَا فِي بَعْضِ مُصَنَّفَاتِهِمَا - وَإِنْ كَانَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ يَقُولَانِ بِخِلَافِ ذَلِكَ - يَقُولُونَ : لَيْسَ فِي النُّصُوصِ إلَّا إضَافَةُ هَذِهِ الْأُمُورِ إلَى اللَّهِ وَهَذِهِ الْأُمُورُ تُسَمَّى نُصُوصَ الْإِضَافَاتِ لَا نُصُوصَ الصِّفَاتِ . وَيَقُولُونَ : نُصُوصُ الْإِضَافَاتِ وَأَحَادِيثُ الْإِضَافَاتِ لَا آيَاتُ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثُ الصِّفَاتِ . وَالْإِضَافَةُ تَكُونُ إضَافَةَ مَخْلُوقٍ لِاخْتِصَاصِهِ بِبَعْضِ الْوُجُوهِ كَإِضَافَةِ الْبَيْتِ وَالنَّاقَةِ وَالرُّوحِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ . وَقَالَتْ الْحُلُولِيَّةُ مِنْ النَّصَارَى وَغُلَاةُ الشِّيعَةِ وَالصُّوفِيَّةِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِمَّنْ يَقُولُ بِقِدَمِ الرُّوحِ - أَرْوَاحِ الْعِبَادِ - وَيَنْتَسِبُ إلَى أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ كَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَغَيْرِهِمَا مِثْلُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ جِيلَانَ وَغَيْرِهِمْ - بَلْ إضَافَةُ الرُّوحِ إلَى اللَّهِ كَإِضَافَةِ الْكَلَامِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَلَامُ وَالْقُدْرَةُ صِفَاتُهُ فَكَذَلِكَ الرُّوحُ .

وَقَالُوا فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ رُوحَ الْعَبْدِ صِفَةٌ لِلَّهِ قَدِيمَةٌ . وَقَالَتْ النَّصَارَى :

عِيسَى كَلِمَةُ اللَّهِ وَكَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ فَعِيسَى غَيْرُ مَخْلُوقٍ . وَقَالَتْ الصَّابِئَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ : عِيسَى كَلِمَةُ اللَّهِ وَهُوَ مَخْلُوقٌ وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ فَهُوَ أَيْضًا مَخْلُوقٌ . وَهَذِهِ الْمَوَاضِعُ اشْتَبَهَتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ وَقَدْ تَكَلَّمَ فِيهَا الْأَئِمَّةُ كَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ وَتَكَلَّمُوا فِي إضَافَةِ الْكَلَامِ وَالرُّوحِ وَمُنَاظَرَةِ الْجَهْمِيَّةِ وَالنَّصَارَى . وَقَدْ سُئِلْت عَنْ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْحُلُولِيَّةِ تَارَةً وَمِنْ جِهَةِ الْمُعَطِّلَةِ تَارَةً وَالسَّائِلُونَ تَارَةً مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ وَتَارَةً مِنْ غَيْرِ أَهْلِهَا وَقَدْ بُسِطَ جَوَابُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ لَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا أَنَّ الْفَارِقَ بَيْنَ الْمُضَافَيْنِ : أَنَّ الْمُضَافَ إنْ كَانَ شَيْئًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ أَوْ حَالًّا فِي ذَلِكَ الْقَائِمِ بِنَفْسِهِ فَهَذَا لَا يَكُونُ صِفَةً لِلَّهِ ؛ لِأَنَّ الصِّفَةَ قَائِمَةٌ بِالْمَوْصُوفِ . فَالْأَعْيَانُ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهَا وَصِفَاتُهَا الْقَائِمَةُ بِهَا تَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ صِفَاتٍ لِلَّهِ فَإِضَافَتُهَا إلَيْهِ تَتَضَمَّنُ كَوْنَهَا مَخْلُوقَةً مَمْلُوكَةً لَكِنْ أُضِيفَتْ لِنَوْعِ مِنْ الِاخْتِصَاصِ الْمُقْتَضَى لِلْإِضَافَةِ لَا لِكَوْنِهَا صِفَةً وَالرُّوحُ الَّذِي هُوَ جِبْرِيلُ مِنْ هَذَا الْبَابِ كَمَا أَنَّ الْكَعْبَةَ وَالنَّاقَةَ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَمَالَ اللَّهِ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَرُوحُ بَنِي آدَمَ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ ﴿

فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾
﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ ﴾ ﴿ نَاقَةَ اللَّهِ

(603/838)

وَسُقْيَاهَا ﴾ ﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ .

(604/838)

وَأَمَّا إنْ كَانَ الْمُضَافُ إلَيْهِ لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ ؛ بَلْ لَا يَكُونُ إلَّا صِفَةً كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَلَامِ وَالرِّضَا وَالْغَضَبِ فَهَذَا لَا يَكُونُ إلَّا إضَافَةَ صِفَةٍ إلَيْهِ فَتَكُونُ قَائِمَةً بِهِ سُبْحَانَهُ فَإِذَا قِيلَ : ﴿ أَسْتَخِيرُك بِعِلْمِك وَأَسْتَقْدِرُك بِقُدْرَتِك ﴾ فَعِلْمُهُ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِهِ وَقُدْرَتُهُ صِفَةٌ قَائِمَةٌ بِهِ وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ : ﴿ أَعُوذُ بِرِضَاك مِنْ سَخَطِك وَبِمُعَافَاتِك مِنْ عُقُوبَتِك ﴾ فَرِضَاهُ وَسَخَطُهُ قَائِمٌ بِهِ وَكَذَلِكَ عَفْوُهُ وَعُقُوبَتُهُ . وَأَمَّا أَثَرُ ذَلِكَ وَهُوَ مَا يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ مِنْ النِّعْمَةِ وَانْدِفَاعِ النِّقْمَةِ فَذَاكَ مَخْلُوقٌ مُنْفَصِلٌ عَنْهُ لَيْسَ صِفَةً لَهُ وَقَدْ يُسَمَّى هَذَا بِاسْمِ ذَاكَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ﴿ يَقُولُ اللَّهُ لِلْجَنَّةِ : أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِك مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي ﴾

فَالرَّحْمَةُ هنا عَيْنٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ صِفَةً لِغَيْرِهَا . فَهَذَا هُوَ الْفَارِقُ بَيْنَ مَا يُضَافُ إضَافَةَ وَصْفٍ وَإِضَافَةَ مِلْكٍ . وَإِذَا قِيلَ " الْمَسِيحُ كَلِمَةُ اللَّهِ " فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ بِالْكَلِمَةِ إذْ الْمَسِيحُ نَفْسُهُ لَيْسَ كَلَامًا . وَهَذَا بِخِلَافِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ نَفْسَهُ كَلَامٌ وَالْكَلَامُ لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ إلَّا بِالْمُتَكَلِّمِ فَإِضَافَتُهُ إلَى الْمُتَكَلِّمِ إضَافَةُ صِفَةٍ إلَى مَوْصُوفِهَا وَإِنْ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَإِنْ سُمِّيَ فِعْلًا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَهُوَ صِفَةٌ بِاعْتِبَارِ قِيَامِهِ بِالْمُتَكَلِّمِ . وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَمَنْ قَالَ : إنَّ الْكَلَامَ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِذَاتِ الْمُتَكَلِّمِ لَمْ

يُمْكِنْهُ أَنْ يُجِيبَ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِجَوَابِ صَحِيحٍ . فَإِذَا قِيلَ

لَهُ : كَلَامُ اللَّهِ هَلْ بَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ ؟ امْتَنَعَ الْجَوَابُ عَلَى أَصْلِهِ بِنَعَمْ أَوْ لَا لِامْتِنَاعِ تَبَعُّضِهِ عِنْدَهُ وَلِكَوْنِ الْعِبَارَةِ لَيْسَتْ كَلَامًا ؛ لِلَّهِ لَكِنْ إذَا أُرِيدَ بِالْكَلَامِ الْعِبَارَةُ أَوْ قِيلَ لَهُ : هَلْ بَعْضُ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ - وَأُرِيدَ بِالْقُرْآنِ الْكَلَامُ الْعَرَبِيُّ الَّذِي نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ فَهُوَ عِنْدَهُ مَخْلُوقٌ

لَمْ يَتَكَلَّمْ اللَّهُ بِهِ بَلْ هُوَ عِنْدَهُ إنْشَاءُ جِبْرِيلَ أَوْ غَيْرِهِ؛ أَوْ قِيلَ: هَلْ بَعْضُ كُتُبِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ - وَكِتَابُ اللَّهِ عِنْدَهُ هُوَ الْقُرْآنُ الْعَرَبِيُّ الْمَخْلُوقُ عِنْدَهُ - فَهَذَا السُّؤَالُ يُتَوَجَّهُ عَلَى قَوْلِهِ فِي الظَّاهِرِ وَأَمَّا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ فَكِلَاهُمَا مُمْتَنِعٌ عَلَى قَوْلِهِ لِأَنَّ الْعِبَارَةَ تَدُلُّ عَلَى الْمَعَانِي فَإِنَّ الْمَعَانِيَ الْقَائِمَةَ فِي النَّفْسِ تَدُلُّ عَلَيْهَا الْعِبَارَاتُ وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ الْعِبَارَاتِ تَدُلُّ عَلَى مَعَانٍ مُتَنَوِّعَةٍ وَعَلَى أَصْلِهِ لَيْسَ الْمَعْنَى إلَّا وَاحِدًا فَيَمْتَنِعُ بِالضَّرُورَةِ الْعَقْلِيَّةِ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ الْعَرَبِيُّ كُلُّهُ وَالتَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَسَائِرُ مَا يُضَافُ إلَى اللَّهِ مِنْ الْعِبَارَاتِ إنَّمَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا يَتَعَدَّدُ وَلَا يَتَبَعَّضُ وَحِينَئِذٍ فَتَبَعُّضُ الْعِبَارَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الْمَعَانِي بِدُونِ تَبَعُّضِ تِلْكَ الْمَعَانِي مُمْتَنِعٌ. وَلِهَذَا قِيلَ لَهُمْ: مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ أَسَمِعَهُ كُلَّهُ أَمْ سَمِعَ بَعْضَهُ؟ إنْ قُلْتُمْ: "كُلَّهُ" فَقَدْ عَلِمَ كُلَّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَمَا أَمَرَ بِهِ

(607/838)

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ الْخَضِرَ قَالَ لَهُ ﴿ مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُك مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إلَّا كَمَا نَقَصَ هَذَا الْعُصْفُورُ مِنْ هَذَا الْبَحْرِ ﴾ وَقَدْ

(608/838)

قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ . وَإِنْ قُلْتُمْ " سَمِعَ بَعْضَهُ " فَقَدْ تَبَعَّضَ وَعِنْدَكُمْ لَا يَتَبَعَّضُ . وَأَيْضًا فَقَدْ فَرَّقَ اللَّهُ بَيْنَ تَكْلِيمِهِ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَبَيْنَ إيحَائِهِ إلَى غَيْرِهِ مِنْ النَّبِيِّينَ وَفَرَّقَ بَيْنَ الْإِيحَاءِ وَبَيْنَ التَّكْلِيمِ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ فَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى وَاحِدًا لَكَانَ الْجَمِيعُ إيحَاءً وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ تَكْلِيمٌ يَتَمَيَّزُ عَلَى ذَلِكَ . وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ تَعَالَى مُنَادِيًا لِأَحَدِ إذْ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ لَا يَكُونُ نِدَاءً وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِنِدَائِهِ فِي الْقُرْآنِ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ . وَعَلَى هَذَا فَمَنْ قَالَ مِنْ هَؤُلَاءِ : إنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَا يَفْضُلُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَحَقِيقَةُ قَوْلِهِ أَنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ مُمْتَنِعَةٌ فَلَيْسَ هُنَاكَ أَمْرَانِ حَتَّى يُقَالَ إنَّ أَحَدَهُمَا يَكُونُ مِثْلَ الْآخَرِ أَوْ أَفْضَلَ مِنْهُ . وَالتَّمَاثُلُ وَالتَّفَاضُلُ إنَّمَا يُعْقَلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَصَاعِدًا . وَهَكَذَا عِنْدَ هَؤُلَاءِ فِي إرَادَتِهِ وَعِلْمِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ فَكُلُّ مَنْ جَعَلَ الصِّفَةَ وَاحِدَةً بِالْعَيْنِ امْتَنَعَ - عَلَى قَوْلِهِ - أَنْ يُقَالَ : هَلْ بَعْضُهَا أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ أَمْ لَا ؟ إذْ لَا بَعْضَ لَهَا عِنْدَهُ . وَكَذَلِكَ مَنْ وَافَقَ هَؤُلَاءِ عَلَى وَحْدَةِ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِالْعَيْنِ وَقَالَ : إنَّ كَلَامَ اللَّهِ حُرُوفٌ قَدِيمَةُ الْأَعْيَانِ أَوْ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ قَدِيمَةُ الْأَعْيَانِ سَوَاءٌ قَالَ مَعَ

ذَلِكَ إِنَّهَا أَعْيَانُ الْأَصْوَاتِ الْمَسْمُوعَةِ مِنْ الْقُرَّاءِ أَوْ قَالَ إِنَّهَا بَعْضُ الْأَصْوَاتِ الْمَسْمُوعَةِ مِنْ الْقُرَّاءِ . وَإِنْ كَانَ فَسَادُ ذَلِكَ مَعْلُومًا بِالِاضْطِرَارِ ،

وَقَالَ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْوَاتَ غَيْرُ تِلْكَ . فَمَنْ قَالَ بِأَنَّ الْكَلَامَ حُرُوفٌ أَوْ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ مُقْتَرِنٌ بَعْضُهَا بِبَعْضِ أَزَلًا وَأَبَدًا وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ فَقَوْلُهُ مَعْلُومُ الْفَسَادِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُقَلَاءِ كَمَا أَنَّ مَنْ جَعَلَهَا قَوْلًا وَاحِدًا فَقَوْلُهُ مَعْلُومُ الْفَسَادِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُقَلَاءِ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ فَيَمْتَنِعُ مَعَ الْقَوْلِ بِوَحْدَةِ شَيْءٍ أَنْ يُقَالَ : هَلْ بَعْضُهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ أَمْ لَا ؟ وَأَمَّا مَنْ أَثْبَتَ مَا يَتَعَدَّدُ مِنْ الْمَعَانِي وَالْحُرُوفِ أَوْ أَحَدِهِمَا فَهَذَا يُعْقَلُ عَلَى قَوْلِهِ : السُّؤَالُ عَنْ التَّمَاثُلِ وَالتَّفَاضُلِ . ثُمَّ حِينَئِذٍ يَقَعُ السُّؤَالُ : هَلْ يَتَفَاضَلُ كَلَامُ اللَّهِ وَصِفَاتُهُ وَأَسْمَاؤُهُ أَمْ لَا يَقَعُ التَّفَاضُلُ إلَّا فِي الْمَخْلُوقِ ؟ . وَعَلَى هَذَا فَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ بَطَّالٍ فِي شَرْحِ الْبُخَارِيِّ لَمَّا تَكَلَّمَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ حَيْثُ قَالَ : قَالَ الْمُهَلَّبُ - وَحَكَاهُ عَنْ الْأَصِيلِيِّ - وَمَذْهَبُ الْأَشْعَرِيِّ وَأَبِي بَكْرِ بْنِ الطَّيِّبِ وَابْنِ أَبِي زَيْدٍ وَالدَّاوُدِيِّ وَأَبِي الْحَسَنِ الْقَابِسِيِّ وَجَمَاعَةِ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ أَنَّ الْقُرْآنَ لَا يَفْضُلُ بَعْضُهُ بَعْضًا إذْ كُلُّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَتُهُ وَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَلَا يَجُوزُ التَّفَاضُلُ إلَّا

فِي الْمَخْلُوقَاتِ هُوَ نَقْلٌ لِأَقْوَالِ هَؤُلَاءِ بِحَسَبِ مَا ظَنَّهُ لَازِمًا لَهُمْ حَيْثُ اعْتَقَدَ أَنَّ التَّفَاضُلَ لَا يَكُونُ إلَّا فِي الْمَخْلُوقِ وَالْقُرْآنُ عِنْدَ هَؤُلَاءِ لَيْسَ بِمَخْلُوقِ . لَكِنْ قَدَّمْنَا أَنَّ السَّلَفَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ لَمْ يَنْقُلْ

(611/838)

عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ قَالَ لَيْسَ بَعْضُهُ أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ بَلْ الْمَنْقُولُ عَنْهُمْ

(612/838)

خِلَافُ ذَلِكَ . وَأَمَّا نَقْلُ هَذَا الْقَوْلِ عَنْ الْأَشْعَرِيِّ وَمُوَافِقِيهِ فَغَلَطٌ عَلَيْهِمْ ؛ إذْ كَلَامُ اللَّهِ عِنْدَهُمْ لَيْسَ لَهُ كُلٌّ وَلَا بَعْضٌ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : هَلْ يَفْضُلُ بَعْضُهُ بَعْضًا أَوْ لَا يَفْضُلُ فَامْتِنَاعُ التَّفَاضُلِ فِيهِ عِنْدَهُ كَامْتِنَاعِ التَّمَاثُلِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ إنَّهُ مُتَمَاثِلٌ وَلَا مُتَفَاضِلٌ إذْ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا بَيْنَ شَيْئَيْنِ . وَلَكِنَّ هَذَا السُّؤَالَ يُتَصَوَّرُ عِنْدَهُ فِي الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ فَيُقَالُ : أَيُّهَا أَفْضَلُ ؟ فَإِنْ كَانَ قَالَ : إنَّ صِفَاتِ الرَّبِّ لَا تَتَفَاضَلُ ؛ لِأَنَّ مُقْتَضَى الْأَفْضَلِ نَقْصُ الْمَفْضُولِ عَنْهُ فَإِنَّمَا يَسْتَقِيمُ هَذَا الْجَوَابُ فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمُتَعَدِّدَةِ لَا فِي نَفْسِ الْكَلَامِ مَعَ

أَنَّ هَذَا النَّقْلَ عَنْ الْأَشْعَرِيِّ فِي نَفْيِ تَفَاضُلِ الصِّفَاتِ غَيْرُ مُحَرَّرٍ فَإِنَّ الْأَشْعَرِيَّ لَمْ يَقُلْ : إنَّ الصِّفَاتِ لَا تَتَفَاضَلُ بَلْ هَذَا خَطَأٌ عَلَيْهِ وَلَكِنْ هُوَ يَقُولُ : إنَّ الْكَلَامَ لَا يَدْخُلُهُ التَّفَاضُلُ كَمَا لَا يَدْخُلُهُ التَّمَاثُلُ لِأَنَّهُ وَاحِدٌ عِنْدَهُ لَا لِمَا ذَكَرَ . وَأَمَّا الصِّفَاتُ الْمُتَعَدِّدَةُ فَإِنَّهُ قَدْ صَرَّحَ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ مُتَمَاثِلَةً وَمَذْهَبُهُ أَنَّ الذَّاتَ لَيْسَتْ مِثْلَ الصِّفَاتِ وَلَا كُلُّ صِفَةٍ مِثْلُ الْأُخْرَى فَهُوَ لَا يُثْبِتُ تَمَاثُلَ الْمَعَانِي الْقَدِيمَةِ عِنْدَهُ فَكَيْفَ يُقَالُ - عَلَى أَصْلِهِ - مَا يُوجِبُ تَمَاثُلَهَا وَإِذَا امْتَنَعَ مِنْ إطْلَاقِ التَّفَاضُلِ فَهُوَ كَامْتِنَاعِهِ مِنْ إطْلَاقِ لَفْظِ التَّمَاثُلِ وَكَامْتِنَاعِهِ مِنْ إطْلَاقِ لَفْظِ التَّغَايُرِ . وَفِي

(613/838)

الْجُمْلَةِ فَمَنْ نَقَلَ عَنْهُ أَنَّهُ نَفَى التَّفَاضُلَ وَأَثْبَتَ التَّمَاثُلَ فَقَدْ أَخْطَأَ

لَكِنْ قَدْ لَا يُطْلِقُ لَفْظَ التَّفَاضُلِ كَمَا لَا يُطْلِقُ لَفْظَ التَّمَاثُلِ لَا لِأَنَّ الصِّفَاتِ مُتَمَاثِلَةٌ عِنْدَهُ ؛ بَلْ هُوَ يَنْفِي التَّمَاثُلَ لِعَدَمِ التَّعَدُّدِ وَلِعَدَمِ إطْلَاقِ التَّغَايُرِ كَمَا يُقَالُ : هَلْ يُقَالُ الصِّفَاتُ مُخْتَلِفَةٌ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ هِيَ مُتَغَايِرَةٌ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ يُقَالُ فِي كُلِّ صِفَةٍ إنَّهَا الذَّاتُ أَوْ غَيْرُهَا أَوْ لَا يُجْمَعُ بَيْنَ نَفْيِهِمَا وَإِنَّمَا يُفْرَدُ كُلُّ نَفْيٍ مِنْهُمَا أَوْ لَا يُطْلَقُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَهَذِهِ الْأُمُورُ لَا اخْتِصَاصَ لَهَا بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَسْأَلَةِ التَّفْضِيلِ .

وَلَا رَيْبَ أَنَّ التَّمَاثُلَ أَوْ التَّفَاضُلَ لَا يُعْقَلُ إلَّا مَعَ التَّعَدُّدِ وَتَعَدُّدُ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتُهُ وَكَلِمَاتُهُ هُوَ الْقَوْلُ الَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِفِطْرَةِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ عَلَيْهَا عِبَادَهُ فَلِهَذَا كَانَ النَّاسُ يَتَخَاطَبُونَ بِمُوجَبِ الْفِطْرَةِ وَالشِّرْعَةِ وَإِنْ كَانَتْ لِبَعْضِهِمْ أَقْوَالٌ أُخَرُ تُنَافِي الْفِطْرَةَ وَالشِّرْعَةَ وَتَسْتَلْزِمُ بُطْلَانَ مَا يَقُولُهُ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَالشِّرْعَةِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ قَدْ دَلَّا عَلَى تَعَدُّدِ كَلِمَاتِ اللَّهِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ وَقَدْ ذَكَرْنَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ قَوْلَ السَّلَفِ وَأَنَّهُمْ كَانُوا يُثْبِتُونَ لِلَّهِ كَلِمَاتٍ لَا نِهَايَةَ لَهَا ؛ وَبَيَّنَّا النِّزَاعَ فِي تَعَدُّدِ الْعُلُومِ وَالْإِرَادَاتِ وَأَنَّ

كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يَقُولُ مَا عَلَيْهِ جُمْهُورُ النَّاسِ مِنْ تَعَدُّدِ ذَلِكَ وَأَنَّ الَّذِينَ قَالُوا يُرِيدُ جَمِيعَ الْمُرَادَاتِ بِإِرَادَةٍ وَاحِدَةٍ إِنَّمَا أَخَذُوهُ عَنْ ابْنِ كُلَّابٍ وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ قَالُوا : هَذَا مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضَّرُورَةِ حَتَّى إِنَّ مِنْ فُضَلَاءِ النُّظَّارِ مَنْ يُنْكِرُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى هَذَا عَاقِلٌ مِنْ النَّاسِ لِأَنَّهُ رَآهُ ظَاهِرَ الْفَسَادِ فِي الْعَقْلِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنْ النُّظَّارِ . وَكَذَلِكَ مَنْ جَعَلَ نَفْسَ إرَادَتِهِ هِيَ رَحْمَتُهُ وَهِيَ غَضَبُهُ يَكُونُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ﴾ مَعْنَاهُ يَكُونُ مُسْتَعِيذًا عِنْدَهُ بِنَفْسِ الْإِرَادَةِ مِنْ نَفْسِ الْإِرَادَةِ وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فَإِنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ لِلْإِرَادَةِ صِفَةٌ ثُبُوتِيَّةٌ يُسْتَعَاذُ بِهَا مِنْ أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ بِاعْتِبَارِ ذَلِكَ الْوَجْهِ مِنْهَا بِاعْتِبَارِ الْوَجْهِ الْآخَرِ . بَلْ الْإِرَادَةُ عِنْدَهُ لَهَا مُجَرَّدُ تَعَلُّقٍ بِالْمَخْلُوقَاتِ وَالتَّعَلُّقُ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ . وَهَذَا بِخِلَافِ الِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْهُ لِأَنَّ لَهُ سُبْحَانَهُ صِفَاتٌ مُتَنَوِّعَةٌ فَيُسْتَعَاذُ بِهِ بِاعْتِبَارٍ وَمِنْهُ بِاعْتِبَارٍ . وَمَنْ قَالَ : إنَّهُ ذَاتٌ لَا صِفَةَ لَهَا أَوْ مَوْجُودٌ مُطْلَقٌ لَا يَتَّصِفُ بِصِفَةِ ثُبُوتِيَّةٍ فَهَذَا يَمْتَنِعُ تَحَقُّقُهُ فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا يُمْكِنُ تَقْدِيرُ هَذَا فِي الذِّهْنِ كَمَا تُقَدَّرُ الممتنعات فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ رَبًّا خَالِقًا لِلْمَخْلُوقَاتِ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ . وَهَؤُلَاءِ أَلْجَأَهُمْ إلَى هَذِهِ الْأُمُورِ مُضَايَقَاتُ الْجَهْمِيَّةِ

وَالْمُعْتَزِلَةِ لَهُمْ فِي مَسَائِلِ الصِّفَاتِ فَإِنَّهُمْ صَارُوا يَقُولُونَ لَهُمْ : كَلَامُ اللَّهِ هُوَ اللَّهُ أَوْ غَيْرُ اللَّهِ ؟ إنْ قُلْتُمْ هُوَ غَيْرُهُ فَمَا كَانَ غَيْرُ اللَّهِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ وَإِنْ قُلْتُمْ هُوَ

هُوَ فَهُوَ مُكَابَرَةٌ . وَهَذَا أَوَّلُ مَا احْتَجُّوا بِهِ عَلَى الْإِمَامِ أَحْمَد فِي الْمِحْنَةِ فَإِنَّ الْمُعْتَصِمَ لَمَّا قَالَ لَهُمْ : نَاظِرُوهُ قَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ إسْحَاقَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا تَقُولُ فِي الْقُرْآنِ - أَوْ قَالَ فِي كَلَامِ اللَّهِ - يَعْنِي أَهُوَ اللَّهُ أَوْ غَيْرُهُ ؟ فَقَالَ لَهُ أَحْمَد : مَا تَقُولُ فِي عِلْمِ اللَّهِ أَهُوَ اللَّهُ أَوْ غَيْرُهُ ؟ فَعَارَضَهُ أَحْمَد بِالْعِلْمِ فَسَكَتَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ . وَهَذَا مِنْ حُسْنِ مَعْرِفَةِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بِالْمُنَاظَرَةِ رَحِمَهُ اللَّهُ . فَإِنَّ الْمُبْتَدِعَ الَّذِي بَنَى مَذْهَبَهُ عَلَى أَصْلٍ فَاسِدٍ مَتَى ذَكَرْت لَهُ الْحَقَّ الَّذِي عِنْدَك ابْتِدَاءً أَخَذَ يُعَارِضُك فِيهِ ؛ لِمَا قَامَ فِي نَفْسِهِ مِنْ الشُّبْهَةِ فَيَنْبَغِي إذَا كَانَ الْمُنَاظِرُ مُدَّعِيًا أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ أَنْ يَبْدَأَ بِهَدْمِ مَا عِنْدَهُ فَإِذَا انْكَسَرَ وَطَلَبَ الْحَقَّ فَأَعْطِهِ إيَّاهُ وَإِلَّا فَمَا دَامَ مُعْتَقِدًا نَقِيضَ الْحَقِّ لَمْ يَدْخُلْ الْحَقُّ إلَى قَلْبِهِ كَاللَّوْحِ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ كَلَامٌ بَاطِلٌ امْحُهُ أَوَّلًا ثُمَّ اُكْتُبْ فِيهِ الْحَقَّ . وَهَؤُلَاءِ كَانَ قَصْدُهُمْ الِاحْتِجَاجَ لِبِدْعَتِهِمْ فَذَكَرَ لَهُمْ الْإِمَامُ أَحْمَد رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ الْمُعَارَضَةِ وَالنَّقْضِ مَا يُبْطِلُهَا . وَقَدْ تَكَلَّمَ الْإِمَامُ أَحْمَد فِي رَدِّهِ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ فِي جَوَابِ هَذَا وَبَيَّنَ أَنَّ لَفْظَ " الْغَيْرِ " لَمْ يَنْطِقْ بِهِ الشَّرْعُ لَا نَفْيًا وَلَا إثْبَاتًا وَحِينَئِذٍ

فَلَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ دَاخِلًا لَفْظُ " الْغَيْرِ " فِي كَلَامِ الشَّارِعِ وَلَا غَيْرَ دَاخِلٍ فَلَا يَقُومُ دَلِيلٌ شَرْعِيٌّ عَلَى

(618/838)

أَنَّهُ مَخْلُوقٌ . وَأَيْضًا فَهُوَ لَفْظٌ مُجْمَلٌ : يُرَادُ بِالْغَيْرِ مَا هُوَ مُنْفَصِلٌ عَنْ الشَّيْءِ وَيُرَادُ بِالْغَيْرِ مَا لَيْسَ هُوَ الشَّيْءُ

(619/838)

فَلِهَذَا لَا يُطْلَقُ الْقَوْلُ بِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ وَعِلْمَ اللَّهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ هُوَ هُوَ لِأَنَّ هَذَا بَاطِلٌ . وَلَا يُطْلَقُ أَنَّهُ غَيْرُهُ لِئَلَّا يُفْهَمَ أَنَّهُ بَائِنٌ عَنْهُ مُنْفَصِلٌ عَنْهُ . وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَد عَلَيْهِ الْحُذَّاقُ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ فَهَؤُلَاءِ لَا يُطْلِقُونَ أَنَّهُ هُوَ وَلَا يُطْلِقُونَ أَنَّهُ غَيْرُهُ وَلَا يَقُولُونَ لَيْسَ هُوَ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ .
فَإِنَّ هَذَا أَيْضًا إثْبَاتُ قِسْمٍ ثَالِثٍ وَهُوَ خَطَأٌ فَفَرْقٌ بَيْنَ تَرْكِ إطْلَاقِ اللَّفْظَيْنِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْإِجْمَالِ وَبَيْنَ نَفْيِ مُسَمَّى اللَّفْظَيْنِ مُطْلَقًا وَإِثْبَاتِ مَعْنًى ثَالِثٍ خَارِجٍ عَنْ مُسَمَّى اللَّفْظَيْنِ .
فَجَاءَ بَعْدَ هَؤُلَاءِ " أَبُو الْحَسَنِ " وَكَانَ أَحْذَقَ مِمَّنْ بَعْدَهُ فَقَالَ : نَنْفِي مُفْرَدًا لَا مَجْمُوعًا

فَنَقُولُ مُفْرَدًا : لَيْسَتْ الصِّفَةُ هِيَ الْمَوْصُوفُ وَنَقُولُ مُفْرَدًا : لَيْسَتْ غَيْرُهُ وَلَا يُجْمَعُ بَيْنَهُمَا فَيُقَالُ : لَا هِيَ هُوَ وَلَا هِيَ غَيْرُهُ لِأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ النَّفْيِ فِيهِ مِنْ الْإِيهَامِ مَا لَيْسَ فِي التَّفْرِيقِ . وَجَاءَ بَعْدَهُ أَقْوَامٌ فَقَالُوا : بَلْ نَنْفِي مَجْمُوعًا فَنَقُولُ : لَا هِيَ هُوَ وَلَا هِيَ غَيْرُهُ . ثُمَّ كَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ إذَا بَحَثُوا يَقُولُونَ هَذَا الْمَعْنَى أَمَّا أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ فَيَتَنَاقَضُونَ . وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ لَفْظَ " الْغَيْرِ " مُجْمَلٌ : يُرَادُ بِالْغَيْرِ : الْمُبَايِنُ الْمُنْفَصِلُ وَيُرَادُ بِالْغَيْرِ : مَا لَيْسَ هُوَ عَيْنَ الشَّيْءِ . وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْ الْأَوَّلِ بِأَنَّ الْغَيْرَيْنِ مَا جَازَ وُجُودُ أَحَدِهِمَا وَعَدَمُهُ أَوْ مَا جَازَ مُفَارَقَةُ أَحَدِهِمَا

(620/838)

الْآخَرِ بِزَمَانِ أَوْ مَكَانٍ أَوْ وُجُودٍ وَيُعَبَّرُ عَنْ الثَّانِي بِأَنَّهُ مَا جَازَ الْعِلْمُ بِأَحَدِهِمَا مَعَ

(621/838)

عَدَمِ الْعِلْمِ بِالْآخَرِ . وَبَيْنَ هَذَا وَهَذَا فَرْقٌ ظَاهِرٌ فَصِفَاتُ الرَّبِّ اللَّازِمَةُ لَهُ لَا تُفَارِقُهُ أَلْبَتَّةَ فَلَا تَكُونُ غَيْرًا بِالْمَعْنَى الْأَوَّلِ وَيَجُوزُ أَنْ تَعْلَمَ بَعْضَ الصِّفَاتِ دُونَ بَعْضٍ وَتَعْلَمَ الذَّاتَ دُونَ الصِّفَةِ فَتَكُونُ غَيْرًا بِاعْتِبَارِ الثَّانِي وَلِهَذَا أَطْلَقَ كَثِيرٌ مِنْ مُثْبَتَةِ الصِّفَاتِ عَلَيْهَا أَغْيَارًا لِلذَّاتِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: نَقُولُ إنَّهَا غَيْرُ الذَّاتِ وَلَا نَقُولُ إنَّهَا غَيْرُ اللَّهِ فَإِنَّ لَفْظَ الذَّاتِ لَا يَتَضَمَّنُ الصِّفَاتِ بِخِلَافِ اسْمِ اللَّهِ فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ الصِّفَاتِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الصَّوَابُ - عَلَى قَوْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ - أَنْ لَا يُقَالَ فِي الصِّفَاتِ: إنَّهَا زَائِدَةٌ عَلَى مُسَمَّى اسْمِ اللَّهِ؛ بَلْ مَنْ قَالَ ذَلِكَ فَقَدْ غَلِطَ عَلَيْهِمْ. وَإِذَا قِيلَ: هَلْ هِيَ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ أَمْ لَا؟ كَانَ الْجَوَابُ: إنَّ الذَّاتَ الْمَوْجُودَةَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلصِّفَاتِ فَلَا يُمْكِنُ وُجُودُ الذَّاتِ مُجَرَّدَةً عَنْ الصِّفَاتِ؛ بَلْ وَلَا يُوجَدُ شَيْءٌ مِنْ الذَّوَاتِ مُجَرَّدًا عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ بَلْ لَفْظُ " الذَّاتِ " تَأْنِيثُ " ذُو " وَلَفْظُ " ذُو " مُسْتَلْزِمٌ لِلْإِضَافَةِ. وَهَذَا اللَّفْظُ مُوَلَّدٌ وَأَصْلُهُ أَنْ يُقَالَ: ذَاتُ عِلْمٍ ذَاتُ قُدْرَةٍ ذَاتُ سَمْعٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ وَيُقَالُ: فُلَانَةٌ ذَاتُ مَالٍ ذَاتُ جَمَالٍ. ثُمَّ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّ نَفْسَ الرَّبِّ ذَاتُ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ وَسَمْعٍ وَبَصَرٍ - رَدًّا عَلَى مَنْ نَفَى صِفَاتِهَا - عَرَّفُوا لَفْظَ الذَّاتِ وَصَارَ التَّعْرِيفُ يَقُومُ مَقَامَ

الْإِضَافَةِ فَحَيْثُ قِيلَ لَفْظُ الذَّاتِ فَهُوَ ذَاتُ كَذَا فَالذَّاتُ لَا تَكُونُ إلَّا ذَاتَ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ لَفْظًا وَمَعْنًى. وَإِنَّمَا يُرِيدُ مُحَقِّقُوا أَهْلِ السُّنَّةِ بِقَوْلِهِمْ " الصِّفَاتُ زَائِدَةٌ عَلَى الذَّاتِ " أَنَّهَا زَائِدَةٌ عَلَى مَا أَثْبَتَهُ نُفَاةُ الصِّفَاتِ مِنْ الذَّاتِ فَإِنَّهُمْ أَثْبَتُوا ذَاتًا مُجَرَّدَةً لَا

صِفَاتٍ لَهَا فَأَثْبَتَ أَهْلُ السُّنَّةِ الصِّفَاتِ زَائِدَةً عَلَى مَا أَثْبَتَهُ هَؤُلَاءِ فَهِيَ زِيَادَةٌ فِي الْعِلْمِ وَالِاعْتِقَادِ وَالْخَبَرِ لَا زِيَادَةَ عَلَى نَفْسِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ . بَلْ نَفْسُهُ الْمُقَدَّسَةُ مُتَّصِفَةٌ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُفَارِقَهَا فَلَا تُوجَدُ الصِّفَاتُ بِدُونِ الذَّاتِ وَلَا الذَّاتُ بِدُونِ الصِّفَاتِ . وَهَذِهِ الْأُمُورُ مَبْسُوطَةٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْأَشْعَرِيَّ وَغَيْرَهُ مِنْ الصفاتية - الَّذِينَ سَلَكُوا مَسْلَكَ ابْنِ كُلَّابٍ - إذَا قَالَ أَحَدُهُمْ فِي الصِّفَاتِ إنَّهَا مُتَمَاثِلَةٌ فَإِنَّ هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ إذْ الْمِثْلَانِ مَا سَدَّ أَحَدُهُمَا مَسَدَّ الْآخَرِ وَقَامَ مَقَامَهُ وَالْعِلْمُ لَيْسَ مِثْلًا لِلْقُدْرَةِ وَلَا الْقُدْرَةُ مِثْلًا لِلْإِرَادَةِ وَأَمَّا الْكَلَامُ فَإِنَّهُ عِنْدَهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ وَالْوَاحِدُ يَمْتَنِعُ فِيهِ تَفَاضُلٌ أَوْ تَمَاثُلٌ . وَفِي الْجُمْلَةِ فَالَّذِينَ يَمْنَعُونَ أَنْ يَكُونَ كَلَامُ اللَّهِ بَعْضُهُ أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ لَهُمْ مَأْخَذَانِ : " أَحَدُهُمَا " أَنَّ صِفَاتِ الرَّبِّ لَا يَكُونُ بَعْضُهَا أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ وَقَدْ يُعَبِّرُونَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ الْقَدِيمَ لَا يَتَفَاضَلُ .

" وَالثَّانِي " أَنَّهُ وَاحِدٌ وَالْوَاحِدُ لَا يُتَصَوَّرُ فِيهِ تَفَاضُلٌ وَلَا تَمَاثُلٌ . وَهَذَا عَلَى قَوْلِ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ وَاحِدٌ بِالْعَيْنِ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ إنَّهُ وَاحِدٌ بِالْعَيْنِ مِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ مَعَ ذَلِكَ حُرُوفًا أَوْ حُرُوفًا وَأَصْوَاتًا قَدِيمَةَ الْأَعْيَانِ وَيَقُولُ : هُوَ مَعَ ذَلِكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ كَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ طَائِفَةٍ

مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ أَخَذُوا عَنْ الْكُلَّابِيَةِ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ إلَّا إرَادَةٌ وَاحِدَةٌ وَعِلْمٌ وَاحِدٌ وَقُدْرَةٌ وَاحِدَةٌ وَكَلَامٌ وَاحِدٌ وَأَنَّ الْقُرْآنَ قَدِيمٌ . وَأَخَذُوا عَنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ مُجَرَّدُ الْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ وَالْتَزَمُوا أَنَّ الْحُرُوفَ وَالْأَصْوَاتَ قَدِيمَةُ الْأَعْيَانِ مَعَ أَنَّهَا مُتَرَتِّبَةٌ فِي نَفْسِهَا تَرَتُّبًا ذَاتِيًّا فِي الْوُجُودِ أَزَلِيَّةً لَمْ يَزَلْ بَعْضُهَا مُقَارِنًا لِبَعْضِ وَفَرَّقُوا بَيْنَ ذَاتِ الشَّيْءِ وَبَيْنَ وُجُودِهِ فِي الْخَارِجِ مُوَافَقَةً لِمَنْ يَقُولُ ذَلِكَ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَكَثِيرٍ مِنْ الْقَائِلِينَ بِقِدَمِهِ وَأَنَّهُ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ لَا يَقُولُونَ إنَّهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ بَلْ يَجْعَلُونَهُ مُتَعَدِّدًا مَعَ قِدَمِ الْقُرْآنِ وَقِدَمِ أَعْيَانِ الْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ . وَالْقَوْلُ الْآخَرُ لِمَنْ يَقُولُ إنَّهُ وَاحِدٌ بِالْعَيْنِ : أَنَّ الْقَدِيمَ هُوَ مَعْنًى وَاحِدٌ لَا يَتَعَدَّدُ وَلَا يَتَبَعَّضُ كَمَا قَدْ بَيَّنَ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ . وَهَذَا هُوَ الْقَوْلُ الْمَنْسُوبُ إلَى ابْنِ كُلَّابٍ وَالْأَشْعَرِيِّ . وَهَذَا الْقَوْلُ أَوَّلُ مَنْ عُرِفَ أَنَّهُ قَالَهُ فِي الْإِسْلَامِ ابْنُ كُلَّابٍ لَمْ يَسْبِقْهُ إلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ

(624/838)

وَلَا التَّابِعِينَ وَلَا غَيْرِهِمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مَعَ كَثْرَةِ مَا تَكَلَّمَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَعَ أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ وَأَهَمِّ أُمُورِ الدِّينِ الَّذِي تَتَوَفَّرُ الْهِمَمُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَذِكْرِهِ وَمَعَ تَوَاتُرِ نَصِّ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارِ الصَّحَابَةِ عَلَى خِلَافِ هَذَا الْقَوْلِ . وَكُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مِمَّا يَدُلُّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَآثَارُ السَّلَفِ عَلَى خِلَافِهِ . وَكل

مِنْهَا مِمَّا اتَّفَقَ جُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ الَّذِينَ يَتَصَوَّرُونَهُ عَلَى أَنَّ فَسَادَهُ مَعْلُومٌ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَيَجُوزُ اتِّفَاقُ طَائِفَةٍ مِنْ الْعُقَلَاءِ عَلَى قَوْلٍ يُعْلَمُ فَسَادُهُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ إذَا كَانَ عَنْ تَوَاطُؤٍ كَمَا يَجُوزُ اتِّفَاقُهُمْ عَلَى الْكَذِبِ تَوَاطُؤًا وَأَمَّا بِدُونِ ذَلِكَ فَلَا يَجُوزُ . فَالْمَذْهَبُ الَّذِي تَقَلَّدَهُ بَعْضُ النَّاسِ عَنْ بَعْضٍ - كَقَوْلِ النَّصَارَى وَالرَّافِضَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَالدَّهْرِيَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ - يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مَا يُعْلَمُ فَسَادُهُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْ الْعُقَلَاءِ قَالُوهُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ فَأَمَّا أَنْ يَقُولُوهُ مِنْ غَيْرِ تَوَاطُؤٍ فَهَذَا لَا يَقَعُ وَأَكْثَرُ الْمُتَقَلِّدِينَ لِلْأَقْوَالِ الْفَاسِدَةِ لَا يَتَصَوَّرُونَهَا تَصَوُّرًا تَامًّا حَتَّى يَكُونَ تَصَوُّرُهَا التَّامُّ مُوجِبًا لِلْعِلْمِ بِفَسَادِهَا . ثُمَّ إذَا اُشْتُهِرَ الْقَوْلُ عِنْدَ طَائِفَةٍ لَمْ يَعْلَمُوا غَيْرَهُ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ ظَنُّوا أَنَّهُ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ .

(625/838)

وَلَمَّا كَانَ الْمَشْهُورُ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ لَا يَقُولُونَ الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ صَارَ كُلُّ مَنْ رَأَى طَائِفَةً تُنْكِرُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ يَظُنُّ أَنَّ كُلَّ مَا قَالَتْهُ فِي هَذَا الْبَابِ هُوَ قَوْلُ السَّلَفِ وَأَئِمَّةِ السُّنَّةِ - وَالَّذِينَ قَالُوا إنَّ الْقُرْآنَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ بَلْ قَائِمٌ بِذَاتِ اللَّهِ وَوَافَقُوا السَّلَفَ وَالْأَئِمَّةَ فِي هَذَا لَمَّا ظَهَرَتْ مِحْنَةُ الْجَهْمِيَّةِ - وَثَبَتَ فِيهَا الْإِمَامُ أَحْمَد الَّذِي أَيَّدَ اللَّهُ بِهِ السُّنَّةَ وَنَصَرَ السُّنَّةَ - صَارَ شِعَارُ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَأَنَّ اللَّهَ يُرَى

فِي الْآخِرَةِ فَكُلُّ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعَةِ فِي اللِّسَانِ الْعَامِّ - فَكَثُرَ حِينَئِذٍ مَنْ يُوَافِقُ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ عَلَى ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمْ بَلْ مَعَهُ أُصُولٌ مِنْ أُصُولِ أَهْلِ الْبِدَعِ الْجَهْمِيَّةِ يُرِيدُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ قَوْلِ أَهْلِ السُّنَّةِ كَمَا يُرِيدُ الْمُتَفَلْسِفُ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ أَقْوَالِ الْمُتَفَلْسِفَةِ الْمُخَالِفِينَ لِلرُّسُلِ وَبَيْنَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ . فَلِهَذَا صَارَ الْمُنْتَسِبُونَ إلَى السُّنَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ لَهُ أَقْوَالٌ :

(626/838)

أَحَدُهَا : قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ قَدِيمُ الْعَيْنِ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَكَلَّمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَلَا يَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ بَعْدَ كَلَامٍ ثُمَّ هَؤُلَاءِ عَلَى قَوْلَيْنِ : مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ الْقَدِيمُ هُوَ مَعْنًى وَاحِدٌ لَازِمٌ لِذَاتِ اللَّهِ أَبَدًا أَوْ خَمْسَةُ مَعَانٍ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : بَلْ هُوَ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ قَدِيمَةُ الْأَعْيَانِ لَازِمَةٌ لِذَاتِ اللَّهِ أَبَدًا .

الثَّالِثُ (1) : قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : بَلْ الرَّبُّ فِي أَزَلِهِ لَمْ يَكُنْ الْكَلَامُ مُمْكِنًا لَهُ كَمَا لَمْ يَكُنْ الْفِعْلُ مُمْكِنًا لَهُ عِنْدَهُمْ ؛ لِأَنَّ وُجُودَ الْكَلَامِ وَالْفِعْلِ لَا يَكُونُ إلَّا بِمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ وَوُجُودِ مَا يَكُونُ بِالْمَشِيئَةِ وَالِاخْتِيَارِ مُحَالٌ عِنْدَهُمْ دَوَامُهُ . ثُمَّ الْمَشْهُورُ عَنْ هَؤُلَاءِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَزَالُ بِحُرُوفِ وَأَصْوَاتٍ تَقُومُ بِذَاتِهِ كَمَا يَقُولُهُ طَوَائِفُ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْهُمْ الْكَرَامِيَّةُ .

وَبَعْضُ النَّاسِ يَذْكُرُ مَا يَقْتَضِي أَنَّ الْكَلَامَ الَّذِي قَامَ بِهِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ إِنَّمَا هُوَ عُلُومٌ وَإِرَادَاتٌ وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِيُّ يَمِيلُ إِلَى هَذَا فِي بَعْضِ كُتُبِهِ .

وَالْخَامِسُ (1) : قَوْلُ مَنْ يَقُولُ : لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا كَيْفَ شَاءَ . وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عَنْ السَّلَفِ وَأَئِمَّةِ السُّنَّةِ مِثْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَسَائِرِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ . ثُمَّ هَؤُلَاءِ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا لَا يَسْكُتُ بَلْ لَا يَزَالُ مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ ابْنُ حَامِدٍ الْمَشْهُورَ مِنْ مَذْهَبِ أَحْمَد وَأَصْحَابِهِ مَعَ أَنَّهُ حُكِيَ أَنَّهُ لَا يَخْتَلِفُ قَوْلُ أَحْمَد أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا كَيْفَ شَاءَ وَكَمَا شَاءَ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ إذَا شَاءَ وَيَسْكُتُ إذَا شَاءَ . وَهَذَا الْقَوْلُ حَكَاهُ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ الْعَزِيزِ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِ أَحْمَد وَكَذَلِكَ خَرَّجَهُ ابْنُ حَامِدٍ قَوْلًا فِي الْمَذْهَبِ مَعَ ذِكْرِهِ أَنَّهُ لَمْ يَخْتَلِفْ مَذْهَبُهُ فِي أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا كَيْفَ شَاءَ وَكَمَا شَاءَ وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَمْ يَزَلْ سَاكِتًا ثُمَّ صَارَ مُتَكَلِّمًا كَمَا يَقُولُهُ الْكَرَّامِيَة . وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ وَتَوَابِعُهَا مَبْسُوطَةٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا : "كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ" تَنَازَعُوا

بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ الَّذِينَ قَالُوا بَعْضَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لَا يَعْلَمُونَ مَا قَالَ غَيْرُهُمْ ؛ بَلْ غَايَةُ مَا عِنْدَ أَئِمَّتِهِمْ الْمُصَنِّفِينَ فِي هَذَا الْبَابِ مَعْرِفَةُ قَوْلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَوْ أَرْبَعَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ - كَقَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ والْكُلَّابِيَةِ والسالمية والْكَرَّامِيَة - وَلَا يَعْرِفُونَ أَنَّ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ قَالَ سِوَى ذَلِكَ وَيُصَنِّفُ أَحَدُهُمْ كِتَابًا كَبِيرًا فِي " مَقَالَاتِ الْإِسْلَامِيِّينَ " وَفِي " الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ " وَيَذْكُرُ عَامَّةَ الْأَقْوَالِ الْمُبْتَدَعَةِ فِي هَذَا الْبَابِ وَالْقَوْلُ الْمَأْثُورُ عَنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ لَا يَعْرِفُهُ وَلَا يَنْقُلُهُ مَعَ أَنَّ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مَعَ الْمَعْقُولِ الصَّرِيحِ لَا يَدُلُّ إلَّا عَلَيْهِ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ أَقْوَالٌ مُتَنَاقِضَةٌ كَمَا بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ . وَالْقَصْدُ هُنَا : أَنَّ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ أَنَّ قَوْلَ الْمُعْتَزِلَةِ مَثَلًا أَوْ قَوْلَ الْمُعْتَزِلَةِ والْكَرَّامِيَة أَوْ قَوْلَ هَؤُلَاءِ وَقَوْلَ الْكُلَّابِيَة أَوْ قَوْلَ هَؤُلَاءِ وَقَوْلَ السالمية - هُوَ بَاطِلٌ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبِدَعِ لَمْ يَبْقَ عِنْدَهُ قَوْلُ أَهْلِ السُّنَّةِ إلَّا الْقَوْلُ الْآخَرُ الَّذِي هُوَ أَيْضًا مِنْ الْأَقْوَالِ الْمُبْتَدَعَةِ الْمُخَالِفَةِ لِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ وَصَحِيحِ الْمَنْقُولِ فَيُفَرِّعُ عَلَى ذَلِكَ الْقَوْلِ مَا يُضِيفُهُ إلَى السُّنَّةِ ثُمَّ إذَا تَدَبَّرَ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارِ السَّلَفِ وَجَدَهَا تُخَالِفُ ذَلِكَ الْقَوْلَ أَصْلًا وَفَرْعًا كَمَا وَقَعَ لِمَنْ أَنْكَرَ فَضْلَ " فَاتِحَةِ الْكِتَابِ " وَ " آيَةِ الْكُرْسِيِّ " وَ (﴿ قُلْ

هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الْقُرْآنِ فَإِنَّ عُمْدَتَهُمْ مَا قَدَّمْتُهُ مِنَ الْأَصْلِ الْفَاسِدِ . أَمَّا كَوْنُ الْكَلَامِ وَاحِدًا فَلَا يُتَصَوَّرُ فِيهِ

تَفَاضُلٌ وَلَا تَمَاثُلٌ وَلَا تَعَدُّدٌ . وَأَمَّا كَوْنُ صِفَاتِ الرَّبِّ لَا تَتَفَاضَلُ - وَرُبَّمَا قَالُوا : الْقَدِيمُ لَا يَتَفَاضَلُ وَهُوَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ : الْقَدِيمُ لَا يَتَعَدَّدُ - فَهَذَا لَفْظٌ مُجْمَلٌ : فَإِنَّ الْقَدِيمَ إذَا أُرِيدَ بِهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ : فَرَبُّ الْعَالَمِينَ إلَهٌ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ وَإِذَا أُرِيدَ بِهِ صِفَاتُهُ . فَمَنْ قَالَ إنَّ صِفَاتِ الرَّبِّ لَا تَتَعَدَّدُ فَهُوَ يَقُولُ : الْعِلْمُ هُوَ الْقُدْرَةُ وَالْقُدْرَةُ هِيَ الْإِرَادَةُ ؛ وَالسَّمْعُ وَالْبَصَرُ هُوَ الْعِلْمُ . وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ أَيْضًا : الْعِلْمُ هُوَ الْكَلَامُ وَيَقُولُ آخَرُونَ : الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ هُوَ الْإِرَادَةُ ثُمَّ قَدْ يَقُولُونَ إنَّ الصِّفَةَ هِيَ الْمَوْصُوفُ : فَالْعِلْمُ هُوَ الْعَالِمُ وَالْقُدْرَةُ هِيَ الْقَادِرُ . وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ صَرَّحَ بِهَا نُفَاةُ الصِّفَاتِ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ كَمَا حَكَيْت أَلْفَاظَهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِي هَذِهِ الْأَقْوَالِ مِنْ مُخَالَفَةِ الْمَعْقُولِ الصَّرِيحِ وَالْمَنْقُولِ الصَّحِيحِ - بَلْ مُخَالَفَةِ الْمَعْلُومِ بِالِاضْطِرَارِ لِلْعُقَلَاءِ . وَالْمَعْلُومِ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَدِينِ الرُّسُلِ - مَا يُبَيِّنُ أَنَّهَا فِي غَايَةِ الْفَسَادِ شَرْعًا وَعَقْلًا . ثُمَّ إنَّ هَؤُلَاءِ تَأَوَّلُوا نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِتَأْوِيلَاتٍ بَاطِلَةٍ : مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : الْمُرَادُ بِكَوْنِهِ أَعْظَمَ وَأَفْضَلَ

وَخَيْرًا كَوْنِهِ عَظِيمًا فِي نَفْسِهِ وَامْتَنَعَ هَؤُلَاءِ مِنْ إجْرَاءِ التَّفْضِيلِ عَلَيْهِ وَحُكِيَ هَذَا عَنْ الْأَشْعَرِيِّ وَابْنِ

الْبَاقِلَانِي وَجَمَاعَةٍ غَيْرِهِمَا . وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ تَدَبَّرَ أَلْفَاظَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهَا لَا تَحْتَمِلُ هَذَا الْمَعْنَى بَلْ هُوَ مِنْ نَوْعِ الْقَرْمَطَةِ . فَإِنَّ اللَّهَ

تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مَعَك فِي كِتَابِ اللهِ أَعْظَمُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا ﴾ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : بَلْ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ " خَيْرٌ مِنْهَا " أَيْ خَيْرٌ مِنْهَا لَكُمْ أَيْ أَكْثَرَ ثَوَابًا أَوْ أَقَلَّ تَعَبًا وَقَالَ : مَا دَلَّ عَلَى أَنَّ بَعْضَهُ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ فَلَيْسَ هُوَ تَفْضِيلًا لِنَفْسِ الْكَلَامِ بَلْ لِمُتَعَلِّقِهِ وَهُوَ أَنَّ تِلَاوَةَ هَذَا وَالْعَمَلَ بِهِ يَحْصُلُ بِهِ مِنْ الْأَجْرِ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْصُلُ بِالْآخَرِ . فَيُقَالُ لِهَؤُلَاءِ : مَا ذَكَرْتُمُوهُ

حُجَّةٌ عَلَيْكُمْ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ النَّصِّ . وَذَلِكَ أَنَّ كَوْنَ الثَّوَابِ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ أَوْ الْفِعْلَيْنِ أَكْثَرَ مِنْهُ عَلَى الثَّانِي إنَّمَا كَانَ لِأَنَّهُ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلُ وَلِهَذَا إنَّمَا تَنْطِقُ النُّصُوصُ بِفَضْلِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ فِي نَفْسِهِ كَمَا قَدْ سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَيْرَ مَرَّةٍ : أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ فَيُجِيبُ بِتَفْضِيلِ عَمَلٍ عَلَى عَمَلٍ وَذَلِكَ مُسْتَلْزِمٌ لِرُجْحَانِ ثَوَابِهِ . وَأَمَّا رُجْحَانُ الثَّوَابِ مَعَ تَمَاثُلِ الْعَمَلَيْنِ فَهَذَا مُخَالِفٌ لِلشَّرْعِ وَالْعَقْلِ . وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ سَمُرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ أَرْبَعٌ - وَهُنَّ مِنْ الْقُرْآنِ - سُبْحَانَ

(633/838)

اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَاَللَّهُ أَكْبَرُ ﴾

(634/838)

فَأَخْبَرَ أَنَّهَا أَفْضَلُ الْكَلَامِ بَعْدَ الْقُرْآنِ مَعَ كَوْنِهَا مِنْ الْقُرْآنِ فَفَضَّلَ نَفْسَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بَعْدَ الْقُرْآنِ عَلَى سِوَاهَا وَكَذَلِكَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ﴿ أَنَّهُ سُئِلَ : أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ مَا اصْطَفَى

اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ﴾ . وَفِي الْمُوَطَّأِ وَغَيْرِهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ أَفْضَلُ مَا قُلْت أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ أَفْضَلُ مَا قَالَهُ هُوَ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِهِ . وَفِي سُنَنِ ابْنِ مَاجَه عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَفْضَلُ الذِّكْرِ : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ . وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ وَقَدْ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ قَالَ ﴿ الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - أَوْ وَسَبْعُونَ - شُعْبَةً أَعْلَاهَا قَوْلُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ﴾ . وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي النُّصُوصِ يُفَضِّلُ الْعَمَلَ عَلَى الْعَمَلِ وَالْقَوْلَ عَلَى الْقَوْلِ . وَيُعْلَمُ مِنْ ذَلِكَ فَضْلُ ثَوَابِ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ . أَمَّا تَفْضِيلُ الثَّوَابِ بِدُونِ تَفْضِيلِ نَفْسِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ فَلَمْ يَرِدْ بِهِ نَقْلٌ وَلَا يَقْتَضِيهِ عَقْلٌ فَإِنَّهُ إذَا كَانَ الْقَوْلَانِ مُتَمَاثِلَيْنِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ أَوْ الْعَمَلَانِ مُتَمَاثِلَيْنِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ كَانَ جَعْلُ ثَوَابِ أَحَدِهِمَا أَعْظَمَ مِنْ ثَوَابِ الْآخَرِ تَرْجِيحًا لِأَحَدِ الْمُتَمَاثِلَيْنِ عَلَى الْآخَرِ بِلَا مُرَجِّحٍ . وَهَذَا أَصْلُ قَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ

وَالْجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : إنَّ الْقَادِرَ يُرَجِّحُ أَحَدَ مَقْدُورَيْهِ بِلَا مُرَجِّحٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ بِهَذَا الْأَصْلِ يَنْصُرُونَ الْإِسْلَامَ فَلَا لِلْإِسْلَامِ

نَصَرُوا وَلَا لِعَدُوِّهِ كَسَرُوا بَلْ تَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا بِالتَّبْدِيعِ وَالتَّضْلِيلِ وَالتَّكْفِيرِ وَالتَّجْهِيلِ وَتَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ خُصُومُهُمُ الدَّهْرِيَّةُ وَغَيْرُهُمْ بِإِلْزَامِهِمْ مُخَالَفَةَ الْمَعْقُولِ وَجَعَلُوا ذَلِكَ ذَرِيعَةً إِلَى الزِّيَادَةِ فِي مُخَالَفَةِ الْمَشْرُوعِ وَالْمَعْقُولِ كَمَا جَرَى لِلْمُلْحِدِينَ مَعَ الْمُبْتَدِعِينَ .

وَأَيْضًا فَقَوْلُ الْقَائِلِ : إِنَّهُ لَيْسَ بَعْضُ ذَلِكَ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ بَلْ بَعْضُهُ أَكْثَرُ ثَوَابًا ؛ رَدٌّ لِخَبَرِ اللَّهِ الصَّرِيحِ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ فَكَيْفَ يُقَالُ لَيْسَ بَعْضُهُ خَيْرًا مِنْ بَعْضٍ ؟ وَإِذَا كَانَ الْجَمِيعُ مُتَمَاثِلًا فِي نَفْسِهِ امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَيْءٌ خَيْرًا مِنْ شَيْءٍ .

وَكَوْنُ مَعْنَى الْخَيْرِ أَكْثَرَ ثَوَابًا مَعَ كَوْنِهِ مُتَمَاثِلًا فِي نَفْسِهِ أَمْرٌ لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ حَقِيقَةً وَلَا مَجَازًا ؛ فَلَا يَجُوزُ حَمْلُهُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ لَا يُعْرَفُ قَطُّ أَنْ يُقَالَ هَذَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا وَأَفْضَلُ مِنْ هَذَا مَعَ تَسَاوِي الذَّاتَيْنِ بِصِفَاتِهِمَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ بَلْ لَا بُدَّ - مَعَ إطْلَاقِ هَذِهِ الْعِبَارَةِ - مِنَ التَّفَاضُلِ وَلَوْ بِبَعْضِ الصِّفَاتِ فَأَمَّا إذَا قُدِّرَ أَنَّ مُخْتَارًا جَعَلَ لِأَحَدِهِمَا مَعَ التَّمَاثُلِ مَا لَيْسَ لِلْآخَرِ مَعَ اسْتِوَائِهِمَا بِصِفَاتِهِمَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَهَذَا لَا يُعْقَلُ وُجُودُهُ وَلَوْ عُقِلَ لَمْ يُقَلْ إنَّ هَذَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا أَوْ أَفْضَلُ لِأَمْرٍ لَا يَتَّصِفُ بِهِ أَحَدُهُمَا أَلْبَتَّةَ . وَأَيْضًا فَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ فِي الْفَاتِحَةِ : ﴿ لَمْ

يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا ﴾ فَقَدْ صَرَّحَ الرَّسُولُ

بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْ لَهَا مِثْلًا فَمَنْ قَالَ : إِنَّ كُلَّ مَا نَزَلَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ فَهُوَ مَثَلٌ لَهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَقَدْ نَاقَضَ الرَّسُولَ فِي خَبَرِهِ . وَأَيْضًا فَقَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ : ﴿ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ﴾ وَمَعَ تَمَاثُلِ كُلِّ حَدِيثٍ لِلَّهِ فَلَيْسَ الْقُرْآنُ أَحْسَنَ مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ . وَكَذَلِكَ تَقَدَّمَ مَا خَصَّ اللَّهُ بِهِ الْقُرْآنَ مِنَ الْأَحْكَامِ . فَإِنْ قِيلَ : نَحْنُ نُسَلِّمُ لَكُمْ أَنَّ اللَّهَ خَصَّ بَعْضَ كَلَامِهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْأَحْكَامِ بِمَا لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ لَكِنَّ هَذَا عِنْدَنَا بِمَحْضِ مَشِيئَتِهِ ؛ لَا لِاخْتِصَاصِ ذَلِكَ الْكَلَامِ بِوَصْفٍ امْتَازَ بِهِ عَنِ الْآخَرِ . قِيلَ : أَوَّلًا هَذَا مُخَالِفٌ لِصَرِيحِ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ . ثُمَّ هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَهُوَ أَنَّ الْقَادِرَ الْمُخْتَارَ يُرَجِّحُ أَحَدَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ عَلَى الْآخَرِ بِلَا مُرَجِّحٍ . وَهَؤُلَاءِ لَمَّا جَوَّزُوا هَذَا قَالُوا : إِنَّ الرَّبَّ يَزَلْ مُعَطَّلًا وَمَا كَانَ يُمْكِنُ فِي الْأَزَلِ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَلَا أَنْ يَفْعَلَ . ثُمَّ صَارَ الْكَلَامُ

وَالْفِعْلُ مُمْكِنًا مِنْ غَيْرِ حُدُوثِ شَيْءٍ اقْتَضَى انْتِقَالَهُمَا مِنَ الِامْتِنَاعِ إلَى الْإِمْكَانِ وَقَالُوا : إنَّ الْقَادِرَ الْمُرَجِّحَ يُرَجِّحُ بِلَا مُرَجِّحٍ . ثُمَّ قَالَتْ الْجَهْمِيَّةُ : وَالْعَبْدُ لَيْسَ بِقَادِرِ فِي الْحَقِيقَةِ فَلَا يُرَجِّحُ شَيْئًا بَلْ اللَّهُ هُوَ الْفَاعِلُ لِفِعْلِهِ وَفِعْلُهُ هُوَ نَفْسُ فِعْلِ الرَّبِّ . وَقَالَتْ

الْقَدَرِيَّةُ : الْعَبْدُ قَادِرٌ تَامُّ الْقُدْرَةِ يُرَجِّحُ أَحَدَ مَقْدُورَيْهِ عَلَى الْآخَرِ بِلَا سَبَبٍ حَادِثٍ وَلَا حَاجَةٍ إلَى أَنْ يُحْدِثَ اللَّهُ مَا بِهِ يَخْتَصُّ بِهِ فِعْلُ أَحَدِهِمَا ؛ بَلْ هُوَ - مَعَ أَنَّ نِسْبَتَهُ إلَى الضِّدَّيْنِ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ سَوَاءٌ - يُرَجِّحُ أَحَدَهُمَا بِلَا مُرَجِّحٍ لَا مِنْ اللَّهِ وَلَا مِنْ الْعَبْدِ وَلَا يَفْتَقِرُ إلَى إعَانَةِ اللَّهِ وَلَا إلَى أَنْ يَجْعَلَهُ شَائِيًا وَلَا يَجْعَلَهُ يُقِيمُ الصَّلَاةَ وَلَا يَجْعَلَهُ مُسْلِمًا . وَمَعْلُومٌ بِالْعُقُولِ خِلَافُ هَذَا وَاَللَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَاءْ لَمْ يَكُنْ لَكِنَّ الْمَدْحَ فِي هَذَا الْكَلَامِ مَعْنَاهُ أَنَّهُ مُطْلَقُ الْمَشِيئَةِ لَا مُعَوِّقَ لَهُ إذَا أَرَادَ شَيْئًا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إنْ شِئْت اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إنْ شِئْت وَلَكِنْ لِيَعْزِمْ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ ﴾ . فَبَيَّنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ إلَّا بِمَشِيئَتِهِ لَيْسَ لَهُ مُكْرِهٌ حَتَّى يُقَالَ لَهُ افْعَلْ إنْ شِئْت وَلَا يَفْعَلُ إنْ لَمْ يَشَأْ . فَهُوَ سُبْحَانَهُ إذَا أَرَادَ شَيْئًا كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ لَا يَمْنَعُهُ مِنْهُ مَانِعٌ . لَا يَعْنِي بِذَلِكَ أَنَّهُ يَفْعَلُ لِمُجَرَّدِ مَشِيئَةٍ لَيْسَ مَعَهَا حِكْمَةٌ

بَلْ يَفْعَلُ عِنْدَهُمْ مَا وُجُودُ فِعْلِهِ وَعَدَمُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ سَوَاءٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ . فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِمَدْحٍ بَلْ الْمَعْقُولُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ صِفَةُ ذَمٍّ فَمَنْ فَعَلَ لِمُجَرَّدِ إِرَادَتِهِ الْفِعْلَ مِنْ

غَيْرِ حِكْمَةٍ لِفِعْلِهِ وَلَا تَضَمَّنَ غَايَةً مُجَرَّدَةً كَانَ أَنْ لَا يَفْعَلَ خَيْرًا لَهُ . وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مَنْ نَسَبَهُ إِلَى هَذَا فَقَالَ تَعَالَى

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : الْعَبَثُ أَنْ يَعْمَلَ عَمَلًا لَا لِحِكْمَةٍ وَهُوَ جِنْسٌ مِنَ اللَّعِبِ . وَقَالَ : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ . قَالَ الْمُفَسِّرُونَ وَأَهْلُ اللُّغَةِ : السُّدَى الْمُهْمَلُ الَّذِي لَا يُؤْمَرُ وَلَا يُنْهَى ؛ كَالَّذِي يَتْرُكُ الْإِبِلَ سُدًى مُهْمَلَةً وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ .

(641/838)

وَقَدْ بَيَّنَ سُبْحَانَهُ الْفَرْقَ بَيْنَ مَا أَمَرَ بِهِ وَمَا نَهَى عَنْهُ وَبَيْنَ مَنْ يَحْمَدُهُ وَيُكْرِمُهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَمَنْ يَذُمُّهُ وَيُعَاقِبُهُ مِنْ أَعْدَائِهِ وَأَنَّهُمْ مُخْتَلِفُونَ لَا يَجُوزُ التَّسْوِيَةُ بَيْنَهُمَا . وَجَعَلَ خِلَافَ ذَلِكَ مِنْ الْمُنْكَرِ الَّذِي لَا مَسَاغَ لَهُ . فَقَالَ تَعَالَى ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى :

(642/838)

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ سَيِّئٌ فِي نَفْسِهِ لَيْسَ الْحُكْمُ بِهِ مُسَاوِيًا لِلْحُكْمِ بِالتَّفَاضُلِ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ لِيَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَأَنَّهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا فَيَنْقُصُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْئًا بَلْ كَمَا قَالَ: ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ . وَقَدْ نَزَّهَ نَفْسَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ الْقُرْآنِ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ فَلَا يُؤْتِيهِ أَجْرَهُ أَوْ يَحْمِلُ عَلَيْهِ ذَنْبَ غَيْرِهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ ﴿ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْإِلَهِيِّ ﴿ يَا عِبَادِي إنِّي حَرَّمْت الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْته بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا ﴾ . وَمَا تَزْعُمُهُ الْقَدَرِيَّةُ مِنْ أَنَّ تَفْضِيلَ بَعْضِ

عِبَادِهِ عَلَى بَعْضٍ بِفَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ مِنْ بَابِ الظُّلْمِ جَهْلٌ مِنْهُمْ وَكَذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ الَّتِي جَرَى

بِهَا الْقَدَرُ لَيْسَ بِظُلْمٍ فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْ النَّاسِ إذَا عَاقَبَهُ غَيْرُهُ بِسَيِّئَاتِهِ وَانْتَصَفَ لِلْمَظْلُومِ مِنْ الظَّالِمِ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ ظُلْمًا مِنْهُ بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ بَلْ ذَلِكَ أَمْرٌ مَحْمُودٌ مِنْهُ وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ إنَّ الظَّالِمَ مَعْذُورٌ لِأَجْلِ الْقَدَرِ . فَرَبُّ الْعَالَمِينَ إذَا أَنْصَفَ بَعْضَ عِبَادِهِ مِنْ بَعْضٍ وَأَخَذَ لِلْمَظْلُومِينَ حَقَّهُمْ مِنْ الظَّالِمِينَ كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ ظُلْمًا مِنْهُ لِأَجْلِ الْقَدَرِ وَكَذَلِكَ الْوَاحِدُ مِنْ الْعِبَادِ إذَا وَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ فَجَعَلَ الطَّيِّبَ مَعَ الطَّيِّبِ فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ لَهُ وَجَعَلَ الْخَبِيثَ مَعَ الْخَبِيثِ فِي الْمَكَانِ الْمُنَاسِبِ لَهُ كَانَ ذَلِكَ عَدْلًا مِنْهُ وَحِكْمَةً فَرَبُّ الْعَالَمِينَ إذَا وَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ وَلَمْ يَجْعَلْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَمْ يَجْعَلْ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ وَلَا الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ . وَالْجَنَّةُ طَيِّبَةٌ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَدْخُلَهَا إلَّا طَيِّبٌ وَلِهَذَا لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ إلَّا بَعْدَ الْقِصَاصِ الَّذِي يُنَظِّفُهُمْ مِنْ الْخُبْثِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّ الْمُؤْمِنِينَ إذَا عَبَرُوا الْجِسْرَ - وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمَنْصُوبُ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ - فَإِنَّهُمْ يُوقَفُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ ﴾ وَهَذِهِ الْأُمُورُ مَبْسُوطَةٌ فِي غَيْرِ هَذَا

الْمَوْضِعِ . وَالْمَقْصُودُ : هُنَا أَنَّ مَا يَقُولُهُ الْقَدَرِيَّةُ مِنْ الظُّلْمِ وَالْعَدْلِ الَّذِي يَقِيسُونَ بِهِ الرَّبَّ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ بِدَعِهِمْ الَّتِي ضَلُّوا بِهَا وَخَالَفُوا بِهَا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ

وَإِجْمَاعَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَكَذَلِكَ مَنْ قَابَلَهُمْ فَنَفَى حِكْمَةَ الرَّبِّ الثَّابِتَةَ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَمَا كَتَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ الرَّحْمَةِ وَمَا حَرَّمَهُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ الظُّلْمِ وَمَا جَعَلَهُ لِلْمَخْلُوقَاتِ وَالْمَشْرُوعَاتِ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي شَهِدَ بِهَا النَّصُّ مَعَ الْعَقْلِ وَالْحِسِّ وَاتَّفَقَ عَلَيْهَا سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّةُ الدِّينِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَقَاوِيلَ أَصْلُهَا مَأْخُوذٌ مِنْ الْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ إمَامِ غُلَاةِ الْمُجْبِرَةِ وَكَانَ يُنْكِرُ رَحْمَةَ الرَّبِّ وَيَخْرُجُ إلَى الْجَذْمَى فَيَقُولُ : أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا ؟ يُرِيدُ بِذَلِكَ أَنَّهُ مَا ثَمَّ إلَّا إرَادَةٌ رَجَّحَ بِهَا أَحَدَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ بِلَا مُرَجِّحٍ لَا لِحِكْمَةِ وَلَا رَحْمَةٍ . وَلِهَذَا كَانَ الَّذِينَ وَافَقُوهُ عَلَى قَوْلِهِ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يَتَنَاقَضُونَ لِأَنَّهُمْ إذَا خَاضُوا فِي الشَّرْعِ احْتَاجُوا أَنْ يَسْلُكُوا مَسَالِكَ أَئِمَّةِ الدِّينِ فِي إثْبَاتِ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ وَمَا فِيهَا مِنْ الْأَمْرِ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ

وَمَا يَنْفَعُهُمْ مِنْ النَّهْيِ عَنْ مَفَاسِدِهِمْ وَمَا يَضُرُّهُمْ وَأَنَّ الرَّسُولَ الَّذِي بُعِثَ بِهَا بُعِثَ رَحْمَةً كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ وَقَدْ وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ

(647/838)

فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ

(648/838)

عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَأْمُرُ بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَيَنْهَى عَمَّا هُوَ مُنْكَرٌ وَيُحِلُّ مَا هُوَ طَيِّبٌ وَيُحَرِّمُ مَا هُوَ خَبِيثٌ . وَلَوْ كَانَ الْمَعْرُوفُ لَا مَعْنَى لَهُ إلَّا الْمَأْمُورُ بِهِ وَالْمُنْكَرُ لَا مَعْنَى لَهُ إلَّا مَا حُرِّمَ لَكَانَ هَذَا كَقَوْلِ الْقَائِلِ : يَأْمُرُهُمْ بِمَا يَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ عَمَّا يَنْهَاهُمْ وَيُحِلُّ لَهُمْ مَا أَحَلَّ لَهُمْ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ . وَهَذَا كَلَامٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ فِيهِ تَفْضِيلٌ لَهُ عَلَى غَيْرِهِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَمَرَ بِأَمْرِ يُوصَفُ بِذَلِكَ

وكل نبي بعث فهذه حاله . وقد قال تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ﴾ فعلم أن الطيب وصف للعين وأن الله قد يحرمها مع ذلك عقوبة للعباد كما قال تعالى لما ذكر ما حرمه على بني إسرائيل : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ وقال تعالى : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ فلو كان معنى الطيب هو ما أحل كان الكلام لا فائدة فيه . فعلم أن الطيب والخبيث وصف قائم بالأعيان . وليس المراد به مجرد التذاذ الأكل فإن الإنسان قد يلتذ بما يضره من السموم وما يحميه الطبيب منه ولا المراد به التذاذ طائفة من الأمم كالعرب ولا كون العرب

تعودته ؛ فإن مجرد كون أمة من الأمم تعودت أكله وطاب لها أو كرهته لكونه ليس في بلادها

لَا يُوجِبُ أَنْ يُحَرِّمَ اللَّهُ عَلَى جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ مَا لَمْ تَعْتَدْهُ طِبَاعُ هَؤُلَاءِ وَلَا أَنْ يُحِلَّ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ مَا تَعَوَّدُوهُ . كَيْفَ وَقَدْ كَانَتْ الْعَرَبُ قَدْ اعْتَادَتْ أَكْلَ الدَّمِ وَالْمَيْتَةِ وَغَيْرَ ذَلِكَ وَقَدْ حَرَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى . وَقَدْ قِيلَ لِبَعْضِ الْعَرَبِ : مَا تَأْكُلُونَ ؟ قَالَ : مَا دَبَّ وَدَرَجَ إلَّا أُمَّ حبين . فَقَالَ : لِيَهْنِ أُمَّ حبين الْعَافِيَةَ . وَنَفْسُ قُرَيْشٍ كَانُوا يَأْكُلُونَ خَبَائِثَ حَرَّمَهَا اللَّهُ وَكَانُوا يُعَافُونَ مَطَاعِمَ لَمْ يُحَرِّمْهَا اللَّهُ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قُدِّمَ لَهُ لَحْمُ ضَبٍّ فَرَفَعَ يَدَهُ وَلَمْ يَأْكُلْ فَقِيلَ : أَحَرَامٌ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي فَأَجِدُنِي أَعَافُهُ ﴾ . فَعُلِمَ أَنَّ كَرَاهَةَ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهَا لِطَعَامِ مِنْ الْأَطْعِمَةِ لَا يَكُونُ مُوجِبًا لِتَحْرِيمِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ سَائِرِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ لَمْ يُحَرِّمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَا كَرِهَتْهُ الْعَرَبُ وَلَمْ يُبِحْ كُلَّ مَا أَكَلَتْهُ الْعَرَبُ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ إخْبَارٌ عَنْهُ أَنَّهُ سَيَفْعَلُ ذَلِكَ فَأَحَلَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطَّيِّبَاتِ وَحَرَّمَ الْخَبَائِثَ مِثْلَ كُلِّ ذِي نَابٍ مِنْ السِّبَاعِ وَكُلِّ ذِي مِخْلَبٍ مِنْ الطَّيْرِ فَإِنَّهَا عَادِيَةٌ بَاغِيَةٌ فَإِذَا أَكَلَهَا النَّاسُ - وَالْغَاذِي شَبِيهٌ بِالْمُغْتَذِي - صَارَ فِي أَخْلَاقِهِمْ

شَوْبٌ مِنْ أَخْلَاقِ هَذِهِ الْبَهَائِمِ وَهُوَ الْبَغْيُ وَالْعُدْوَانُ كَمَا حَرَّمَ الدَّمَ الْمَسْفُوحَ لِأَنَّهُ مَجْمَعُ قُوَى النَّفْسِ الشَّهْوِيَّةِ الْغَضَبِيَّةِ وَزِيَادَتُهُ تُوجِبُ طُغْيَانَ هَذِهِ الْقُوَى

(652/838)

وَهُوَ مَجْرَى الشَّيْطَانِ مِنْ الْبَدَنِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ﴾ . وَلِهَذَا كَانَ شَهْرُ رَمَضَانَ إذَا دَخَلَ صُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ لِأَنَّ الصَّوْمَ جُنَّةٌ . فَالطَّيِّبَاتُ الَّتِي أَبَاحَهَا هِيَ الْمَطَاعِمُ النَّافِعَةُ لِلْعُقُولِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْخَبَائِثُ هِيَ الضَّارَّةُ لِلْعُقُولِ وَالْأَخْلَاقِ كَمَا أَنَّ الْخَمْرَ أُمُّ الْخَبَائِثِ لِأَنَّهَا تُفْسِدُ الْعُقُولَ وَالْأَخْلَاقَ فَأَبَاحَ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي يَسْتَعِينُونَ بِهَا عَلَى عِبَادَةِ رَبِّهِمْ الَّتِي خُلِقُوا لَهَا وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ الَّتِي تَضُرُّهُمْ فِي الْمَقْصُودِ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ وَأَمَرَهُمْ مَعَ أَكْلِهَا بِالشُّكْرِ وَنَهَاهُمْ عَنْ تَحْرِيمِهَا فَمَنْ أَكَلَهَا وَلَمْ يَشْكُرْ تَرَكَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَاسْتَحَقَّ الْعُقُوبَةَ . وَمَنْ حَرَّمَهَا - كَالرُّهْبَانِ - فَقَدْ تَعَدَّى حُدُودَ اللَّهِ فَاسْتَحَقَّ الْعُقُوبَةَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا وَيَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا ﴾ وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : ﴿ الطَّاعِمُ الشَّاكِرُ بِمَنْزِلَةِ الصَّائِمِ الصَّابِرِ

﴿ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ أَيْ عَنْ شُكْرِهِ فَإِنَّهُ لَا يُبِيحُ شَيْئًا وَيُعَاقِبُ مَنْ فَعَلَهُ وَلَكِنْ يَسْأَلُهُ عَنِ

الْوَاجِبِ الَّذِي أَوْجَبَهُ مَعَهُ وَعَمَّا حَرَّمَهُ عَلَيْهِ : هَلْ فَرَّطَ بِتَرْكِ مَأْمُورٍ أَوْ فِعْلِ مَحْظُورٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ

مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ فَنَهَاهُمْ عَنْ تَحْرِيمِ الطَّيِّبَاتِ . كَمَا كَانَ طَائِفَةٌ مِنْ الصَّحَابَةِ قَدْ عَزَمُوا عَلَى التَّرَهُّبِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ أَنَّ رِجَالًا مِنْ الصَّحَابَةِ قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَأَصُومُ لَا أُفْطِرُ وَقَالَ آخَرُ : أَمَّا أَنَا فَأَقُومُ لَا أَنَامُ وَقَالَ آخَرُ : أَمَّا أَنَا فَلَا أَقْرَبُ النِّسَاءَ وَقَالَ آخَرُ : أَمَّا أَنَا فَلَا آكُلُ اللَّحْمَ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا بَالُ رِجَالٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا . . لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأَقُومُ وَأَنَامُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ؛ وَآكُلُ اللَّحْمَ . فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ وَلِبَسْطِ هَذِهِ الْأُمُورِ

مَوْضِعٍ آخَرَ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ اللَّهَ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ حِكْمَتَهُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ فَعَلَّلَ التَّحْرِيمَ بِأَنَّهَا فَاحِشَةٌ بِدُونِ النَّهْيِ وَأَنَّ ذَلِكَ عِلَّةٌ لِلنَّهْيِ عَنْهَا وَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ فَذَكَرَ بَرَاءَتَهُ مِنْ هَذَا عَلَى وَجْهِ الْمَدْحِ لَهُ بِذَلِكَ وَتَنْزِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مِنْ الْأُمُورِ مَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ إلَى اللَّهِ الْأَمْرُ بِهِ لَيْسَتْ الْأَشْيَاءُ كُلُّهَا مُسْتَوِيَةً فِي أَنْفُسِهَا وَلَا عِنْدَهُ وَأَنَّهُ لَا يُخَصِّصُ الْمَأْمُورَ عَلَى الْمَحْظُورِ لِمُجَرَّدِ

التَّحَكُّمِ بَلْ يُخَصِّصُ الْمَأْمُورَ بِالْأَمْرِ وَالْمَحْظُورَ بِالْحَظْرِ لِمَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ .

وَقَدْ تَدَبَّرْت عَامَّةَ مَا رَأَيْته مِنْ كَلَامِ السَّلَفِ - مَعَ كَثْرَةِ الْبَحْثِ عَنْهُ وَكَثْرَةِ مَا رَأَيْته مِنْ ذَلِكَ - هَلْ كَانَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ أَوْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى مَا ذَكَرْته مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَالِ الَّتِي

وَجَدْتهَا فِي كُتُبِ أَهْلِ الْكَلَامِ : مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَمَنْ تَلَقَّى ذَلِكَ عَنْهُمْ : مِثْلَ دَعْوَى الْجَهْمِيَّةِ أَنَّ الْأُمُورَ الْمُتَمَاثِلَةَ يَأْمُرُ اللَّهُ بِأَحَدِهَا وَيَنْهَى عَنْ الْآخَرِ لَا لِسَبَبِ وَلَا لِحِكْمَةِ أَوْ أَنَّ الْأَقْوَالَ الْمُتَمَاثِلَةَ وَالْأَعْمَالَ الْمُتَمَاثِلَةَ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ يَجْعَلُ اللَّهُ ثَوَابَ بَعْضِهَا أَكْثَرَ مِنْ الْآخَرِ بِلَا سَبَبٍ وَلَا حِكْمَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَقُولُونَهُ : كَقَوْلِهِمْ إنَّ كَلَامَ اللَّهِ كُلَّهُ مُتَمَاثِلٌ وَإِنْ كَانَ الْأَجْرُ فِي بَعْضِهِ أَعْظَمَ فَمَا وَجَدْت فِي كَلَامِ السَّلَفِ مَا يُوَافِقُ ذَلِكَ بَلْ يُصَرِّحُونَ بِالْحُكْمِ وَالْأَسْبَابِ وَبَيَانِ مَا فِي الْمَأْمُورِ بِهِ مِنْ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ الْمُنَاسِبَةِ لِلْأَمْرِ بِهِ وَمَا فِي الْمَنْهِيِّ عَنْهُ مِنْ الصِّفَاتِ السَّيِّئَةِ الْمُنَاسِبَةِ لِلنَّهْيِ عَنْهُ وَمِنْ تَفْضِيلِ بَعْضِ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ فِي نَفْسِهَا عَلَى بَعْضٍ وَلَمْ أَرَ عَنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ قَطُّ أَنَّهُ خَالَفَ النُّصُوصَ الدَّالَّةَ عَلَى ذَلِكَ وَلَا اسْتَشْكَلَ ذَلِكَ وَلَا تَأَوَّلَهُ عَلَى مَفْهُومِهِ مَعَ أَنَّهُ يُوجَدُ عَنْهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ اسْتِشْكَالٌ وَاشْتِبَاهٌ وَتَفْسِيرُهَا عَلَى أَقْوَالٍ مُخْتَلِفَةٍ قَدْ يَكُونُ بَعْضُهَا خَطَأً . وَالصَّوَابُ هُوَ الْقَوْلُ الْآخَرُ وَمَا وَجَدْتهمْ فِي مِثْلِ

قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾ وَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُبَيٍّ ﴿ أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ ﴾ وَقَوْلِهِ فِي الْفَاتِحَةِ ﴿ لَمْ يُنْزَلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا ﴾

وَنَحْوِ ذَلِكَ إلَّا مُقِرِّينَ لِذَلِكَ قَائِلِينَ بِمُوجَبِهِ . ﴿ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ أُبَيًّا أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ ؟ ﴾ فَأَجَابَهُ أُبَيٌّ بِأَنَّهَا آيَةُ الْكُرْسِيِّ فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ ﴿ لِيَهْنِك الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ ﴾ . وَلَمْ يَسْتَشْكِلْ أُبَيٌّ وَلَا غَيْرُهُ السُّؤَالَ عَنْ كَوْنِ بَعْضِ الْقُرْآنِ أَعْظَمَ مِنْ بَعْضٍ بَلْ شَهِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْعِلْمِ لِمَنْ عَرَفَ فَضْلَ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ وَعَرَفَ أَفْضَلَ الْآيَاتِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ . وَمَا رَأَيْتهمْ تَنَازَعُوا فِي تَفْسِيرِ (﴿ بِخَيْرٍ مِنْهَا ﴾ . فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِيهَا قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ : قِرَاءَةُ الْأَكْثَرِينَ (﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ مِنْ أَنْسَاهُ يُنْسِيهِ وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو (أَوْ نَنْسَأْهَا بِالْهَمْزِ مِنْ نَسَأَهُ يَنْسَؤُهُ . فَالْأَوَّلُ مِنْ النِّسْيَانِ وَالثَّانِي مِنْ نَسَأَ إذَا أَخَّرَ . قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : نَسَأْته نَسْئًا إذَا أَخَّرْته . وَكَذَلِكَ أَنْسَأْته يُقَالُ نَسَأْته الْبَيْعَ وَأَنْسَأْته . قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : أَنْسَأَ اللَّهُ فِي أَجَلِهِ وَنَسَأَ فِي أَجَلِهِ بِمَعْنًى . وَمِنْ هَذِهِ الْمَادَّةِ بَيْعُ النَّسِيئَةِ . وَمِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ : مَنْ

أَرَادَ النَّسَاءَ وَلَا نَسَاءَ فَلْيُبَكِّرْ الْغَدَاءَ وَلْيُخَفِّفْ الرِّدَاءَ وَلْيُقِلَّ مِنْ غشيان النِّسَاءِ . فَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الْأُولَى فَمَعْنَاهَا ظَاهِرٌ عِنْدَ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ قَالُوا : الْمُرَادُ بِهِ مَا أَنْسَاهُ اللَّهُ مِنْ الْقُرْآنِ كَمَا جَاءَتْ الْآثَارُ بِذَلِكَ فَإِنَّ مَا يَرْفَعُ

مِنْ الْقُرْآنِ إمَّا أَنْ يَكُونَ رَفْعًا شَرْعِيًّا بِإِزَالَتِهِ مِنْ الْقُلُوبِ وَهُوَ الْإِنْسَاءُ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَا يَنْسَخُهُ أَوْ يُنْسِيهِ فَإِنَّهُ يَأْتِي بِخَيْرِ مِنْهُ أَوْ مِثْلِهِ بَيَّنَ ذَلِكَ فَضْلُهُ وَرَحْمَتُهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ قَالَ قَبْلَ ذَلِكَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ فَنَهَاهُمْ عَنْ التَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الْكِتَابِ فِي سُوءِ أَدَبِهِمْ عَلَى الرَّسُولِ وَعَلَى مَا جَاءَ بِهِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لِحَسَدِهِمْ مَا يَوَدُّونَ أَنَّ اللَّهَ يُنَزِّلُ عَلَيْهِ شَيْئًا مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ثُمَّ أَخْبَرَ بِنِعْمَتِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ بَعْضُ الْقُرْآنِ يُنْسَخُ وَبَعْضُهُ يُنْسَى - كَمَا جَاءَتْ الْآثَارُ بِذَلِكَ - وَمَا أُنْسَاهُ سُبْحَانَهُ هُوَ مِمَّا نَسَخَ حُكْمَهُ وَتِلَاوَتَهُ بِخِلَافِ الْمَنْسُوخِ الَّذِي يُتْلَى وَقَدْ نَسَخَ مَا نَسَخَ مِنْ حُكْمِهِ أَوْ نَسَخَ تِلَاوَتَهُ وَلَمْ يَنْسَ وَفِي النَّسْخِ وَالْإِنْسَاءِ نَقْصٌ مَا أَنْزَلَهُ عَلَى عِبَادِهِ . فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَا نَقْصَ

فِي ذَلِكَ بَلْ كُلُّ مَا نَسَخَ أَوْ يَنْسَى فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِخَيْرٍ مِنْهُ أَوْ مِثْلِهِ فَلَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُونَ فِي نِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لَا تَنْقُصُ بَلْ تَزِيدُ فَإِنَّهُ إذَا أَتَى بِخَيْرٍ مِنْهَا زَادَتْ النِّعْمَةُ وَإِنْ أَتَى بِمِثْلِهَا كَانَتْ

(660/838)

النِّعْمَةُ بَاقِيَةً وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ فَأَضَافَ الْإِنْسَاءَ إلَيْهِ فَإِنَّ هَذَا الْإِنْسَاءَ لَيْسَ مَذْمُومًا بِخِلَافِ نِسْيَانِ مَا يَجِبُ حِفْظُهُ فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ

(661/838)

فَإِنَّ هَذَا إنْسَاءٌ لِمَا رَفَعَهُ اللَّهُ وَأَمَّا نِسْيَانُ مَا أَمَرَ بِحِفْظِهِ فَمَذْمُومٌ قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ وَهَذَا النِّسْيَانُ وَإِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا لِتَرْكِ الْعَمَلِ بِهَا مَعَ حِفْظِهَا فَإِذَا نَسِيَتْ الْآيَاتُ بِالْكُلِّيَّةِ حَتَّى لَا يُعْرَفُ مَا فِيهَا كَانَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي تَرْكِ الْعَمَلِ بِهَا فَكَانَ هَذَا مَذْمُومًا . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي فِي السُّنَنِ ﴿ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ أَجْذَمُ ﴾ وَلِهَذَا كَرِهَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُضِيفَ الْإِنْسَانُ النِّسْيَانَ إلَى نَفْسِهِ فَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ ﴿ بِئْسَ مَا لِأَحَدِهِمْ أَنْ يَقُولَ :

نَسِيت آيَة كَيْت وكَيْت بَلْ هُوَ أُنْسى . اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ مِنْ النَّعَمِ مِنْ عُقُلِهَا » ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ » هُوَ مَا تَرَكَ تِلَاوَتَهُ وَرَسْمَهُ وَنَسَخَ حُكْمِهِ وَمَا أُنْسى هُوَ مَا رَفَعَ فَلَا يُتْلَى . وَمِنْهُمْ مَنْ أَدْخَلَ فِي الْأَوَّلِ مَا نُسِخَتْ تِلَاوَتُهُ وَإِنْ كَانَ مَحْفُوظًا . فَالْأَوَّلُ قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَأَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَرَوَى النَّاسُ بِالْأَسَانِيدِ الثَّابِتَةِ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَوْلَهُ : « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ » قَالَ : نُثْبِتُ خَطَّهَا وَنُبَدِّلُ حُكْمَهَا قَالَ : وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ « أَوْ نُنْسِهَا » أَيْ نَمْحُوهَا فَإِنَّ مَا نُسِيَ لَمْ يُتْرَكْ . وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ

(662/838)

بِإِسْنَادِهِ عَنْ عِكْرِمَةَ « عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ مِمَّا يَنْزِلُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْوَحْيُ بِاللَّيْلِ

(663/838)

وَيَنْسَاهُ بِالنَّهَارِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ﴿ .

وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَقَتَادَةَ وَعِكْرِمَةَ. وَكَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ يَقْرَؤُهَا أَوْ تَنْسَهَا بِالْخِطَابِ أَيْ تَنْسِهَا أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ وَتَلَا قَوْلَهُ: سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى وَقَوْلَهُ: ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذَا نَسِيتَ ﴾ وَقَدْ جَاءَتْ الْآثَارُ بِأَنَّ أَحَدَهُمْ ﴿ كَانَ يَحْفَظُ قُرْآنًا ثُمَّ يَنْسَاهُ وَيَذْكُرُونَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُ: إنَّهُ رُفِعَ ﴾ مِثْلَ مَا صَحَّ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ: حَدَّثَنِي أَبُو أُمَامَةَ بْنُ سَهْلِ بْنِ حنيف فِي مَجْلِسِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ ﴿ أَنَّ رَجُلًا كَانَ مَعَهُ سُورَةٌ فَقَامَ يَقْرَؤُهَا مِنْ اللَّيْلِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا وَقَامَ آخَرُ يَقْرَؤُهَا فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا وَقَامَ آخَرُ يَقْرَؤُهَا فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا فَأَصْبَحُوا فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَهَبْت الْبَارِحَةَ لِأَقْرَأَ سُورَةَ كَذَا وَكَذَا فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهَا وَقَالَ الْآخَرُ: مَا جِئْت إلَّا لِذَلِكَ وَقَالَ الْآخَرُ: مَا جِئْت إلَّا لِذَلِكَ وَقَالَ الْآخَرُ: وَأَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّهَا نُسِخَتْ الْبَارِحَةَ ﴾ وَقَوْلُهُ: أَوْ نَنْسَؤُهَا النَّسْءُ بِمَعْنَى التَّأْخِيرِ وَفِيهِ قَوْلَانِ السَّلَفُ: الْقَوْلُ الْأَوَّلُ يُرْوَى عَنْ طَائِفَةٍ قَالَ السدي: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ قَالَ: نَسْخُهَا قَبْضُهَا أَوْ نَنْسَأْهَا فَنَتْرُكُهَا لَا نَنْسَخُهَا ﴾

نَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ مِنْ

الَّذِي نَسَخْنَاهُ أَوْ مِثْلِ الَّذِي تَرَكْنَاهُ . وَكَذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْوَالِبِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ يَقُولُ مَا نُبَدِّلْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَتْرُكْهَا فَلَا نَرْفَعُهَا مِنْ عِنْدِكُمْ ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ رُوِيَ ذَلِكَ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ . وَمِنْ النَّاسِ مَنْ فَسَّرَ بِهَذَا الْمَعْنَى الْقِرَاءَةَ الْأُولَى فَقَالُوا : مَعْنَى نُنْسِهَا نَتْرُكُهَا عِنْدَكُمْ فَإِنَّ النِّسْيَانَ هُوَ التَّرْكُ . وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ نُنْسِهَا نَأْمُرُ بِتَرْكِهَا . يُقَالُ أَنْسَيْت الشَّيْءَ وَأُنْشِدَ : إنِّي عَلَى عُقْبَةَ أَقْضِيهَا لِسْتُ بِنَاسِيهَا وَلَا مُنْسِيهَا أَيْ وَلَا آمُرُ بِتَرْكِهَا . وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ نُؤَخِّرُهَا عَنْ الْعَمَلِ بِهَا بِنَسْخِنَا إيَّاهَا . وَالصَّوَابُ الْقَوْلُ الْأَوْسَطُ . رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ بِإِسْنَادِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : خَطَبَنَا عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ : يَقُولُ اللَّهُ ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ أَيْ نُؤَخِّرُهَا . وَبِإِسْنَادِهِ الْمَعْرُوفِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ فَلَا يُعْمَلُ بِهَا ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ أَيْ نُرْجِئُهَا عِنْدَنَا وَفِي لَفْظٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ : نُؤَخِّرُهَا عِنْدَنَا . وَعَنْ عَطَاءٍ : نُؤَخِّرُهَا . وَقَدْ ذُكِرَ قَوْلٌ ثَالِثٌ عَنْ السَّلَفِ وَهُوَ قَوْلٌ رَابِعٌ أَنَّ الْمَعْنَى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ وَهُوَ مَا أَنْزَلْنَاهُ إلَيْكُمْ وَلَا نَرْفَعُهُ ﴿ أَوْ نُنْسِهَا ﴾ أَيْ نُؤَخِّرْ تَنْزِيلَهُ فَلَا نُنَزِّلُهُ . وَنَقَلَ هَذَا بَعْضُهُمْ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَعَطَاءٍ أَمَّا

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ فَهُوَ مَا قَدْ نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ جَعَلَاهُ مِنْ النسخة ﴿ أَوْ نَنْسأهَا ﴾ أَيْ نُؤَخِّرُهَا فَلَا يَكُونُ وَهُوَ مَا لَمْ يُنَزَّلْ . وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ فَإِنَّ ابْنَ أَبِي حَاتِمٍ رَوَى بِالْإِسْنَادِ الثَّابِتِ عَنْ عَطَاءٍ ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ أَمَّا مَا نُسِخَ فَهُوَ مَا تُرِكَ مِنْ الْقُرْآنِ (بِالْكَافِ) وَكَأَنَّهُ تَصَحَّفَ عَلَى مَنْ ظَنَّهُ نَزَلَ مِنْ النُّزُولِ فَإِنَّ لَفْظَ تُرِكَ فِيهِ إبْهَامٌ . وَلِذَلِكَ قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ : يَعْنِي تُرِكَ لَمْ يَنْزِلْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَلَيْسَ مُرَادُ عَطَاءٍ هَذَا وَإِنَّمَا مُرَادُهُ أَنَّهُ تُرِكَ مَكْتُوبًا مَتْلُوًّا وَنُسِخَ حُكْمُهُ كَمَا تَقَدَّمَ عَنْ غَيْرِهِ وَمَا أَنْسَاهُ هُوَ مَا أَخَّرَهُ لَمْ يُنْزِلْهُ . وَسَعِيدٌ وَعَطَاءٌ مِنْ أَعْلَمِ التَّابِعِينَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِمَا هَذَا . وَقَدْ قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ وَزَعَمَ أَبُو حَاتِمٍ أَنَّهُ غَلَطٌ وَلَيْسَ كَمَا قَالَ بَلْ فَسَّرَهَا بَعْضُهُمْ بِهَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ مَا نَنْسَخْ نَجْعَلُكُمْ تَنْسَخُونَهَا كَمَا يُقَالُ أَكْتَبْته هَذَا . وَقِيلَ : أَنْسَخَ جَعَلَهُ مَنْسُوخًا كَمَا يُقَالُ : قَبَرَهُ إذَا أَرَادَ دَفْنَهُ وَأَقْبَرَهُ أَيْ جَعَلَ لَهُ قَبْرًا . وَطَرَدَهُ إذَا نَفَاهُ وَأَطْرَدَهُ إذَا جَعَلَهُ طَرِيدًا . وَهَذَا أَشْبَهُ بِقِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ . وَالصَّوَابُ قَوْلُ مَنْ فَسَّرَ أَوْ نَنْسَؤُهَا أَيْ نُؤَخِّرُهَا عِنْدَنَا فَلَا نُنْزِلُهَا . وَالْمَعْنَى : أَنَّ مَا نَنْسَخُهُ مِنْ الْآيَاتِ الَّتِي أَنْزَلْنَاهَا أَوْ نُؤَخِّرُ نُزُولَهُ مِنْ الْآيَاتِ الَّتِي لَمْ نُنَزِّلْهَا بَعْدُ ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ فَكَمَا أَنَّهُ

يُعوِّضُهُمْ مِنْ الْمَرْفُوعِ يُعوِّضُهمْ مِنْ الْمُنْتَظِرِ الَّذِي لَمْ يُنزِّلْهُ بَعْدُ إلَى أَنْ يُنزِّلَهُ

فَإِنَّ الْحِكْمَةَ اقْتَضَتْ تَأْخِيرَ نُزُولِهِ فَيُعوِّضُهُمْ بِمِثْلِهِ أَوْ خَيْرٍ مِنْهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ إلَى أَنْ يَجِيءَ وَقْتُ نُزُولِهِ فَيُنْزِلُهُ أَيْضًا مَعَ مَا تَقَدَّمَ وَيَكُونُ مَا عَوَّضَهُ مِثْلَهُ أَوْ خَيْرًا مِنْهُ قَبْلَ نُزُولِهِ . وَأَمَّا مَا أَنْزَلَهُ إلَيْهِمْ وَلَمْ يَنْسَخْهُ فَهَذَا لَا يَحْتَاجُ إلَى بَدَلٍ وَلَوْ كَانَ كُلُّ مَا لَمْ يَنْسَخْهُ اللَّهُ يَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهُ أَوْ مِثْلِهِ لَزِمَ إنْزَالُ مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ . وَكَذَلِكَ إنْ قُدِّرَ أَنَّ الْمُرَادَ يُؤَخِّرُ نَسْخَهُ إلَى وَقْتٍ ثُمَّ يَنْسَخُهُ فَإِنَّهُ مَا دَامَ عِنْدَهُمْ لَمْ يَحْتَجْ إلَى بَدَلٍ يَكُونُ مِثْلَهُ أَوْ خَيْرًا مِنْهُ وَإِنَّمَا الْبَدَلُ لِمَا لَيْسَ عِنْدَهُمْ مِمَّا أَنْسَوْهُ أَوْ أَخَّرَ نُزُولَهُ فَلَمْ يُنْزِلْهُ بَعْدُ وَلِهَذَا لَمْ يَجْعَلْ الْبَدَلَ لِكُلِّ مَا لَمْ يُنْزِلْهُ بَلْ لِمَا نَسَاهُ فَأَخَّرَ نُزُولَهُ إذْ لَوْ كَانَ كُلُّ مَا لَمْ يَنْزِلْ يَكُونُ لَهُ بَدَلٌ لَزِمَ إنْزَالُ مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ بَلْ مَا كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيُنْزِلُهُ وَقَدْ أَخَّرَ نُزُولَهُ يَكُونُونَ فَاقِدِيهِ إلَى حِينِ يَنْزِلُ كَمَا يَفْقِدُونَ مَا نَزَلَ ثُمَّ نُسِخَ فَيَجْعَلُ سُبْحَانَهُ لِهَذَا بَدَلًا وَلِهَذَا بَدَلًا . وَأَمَّا مَا أَنْزَلَهُ وَأَقَرَّهُ عِنْدَهُمْ وَأَخَّرَ نَسْخَهُ إلَى وَقْتٍ فَهَذَا لَا يَحْتَاجُ إلَى بَدَلٍ فَإِنَّهُ نَفْسَهُ بَاقٍ . وَلَوْ كَانَ هَذَا مُرَادًا لَكَانَ كُلُّ قُرْآنٍ قَدْ نَسَخَهُ يَجِبُ أَنْ يَنْزِلَ قَبْلَ نَسْخِهِ مَا هُوَ

مِثْلُهُ أَوْ خَيْرٌ مِنْهُ ثُمَّ إِذَا نَسَخَهُ يَأْتِي بِخَيْرٍ مِنْهُ أَوْ مِثْلِهِ فَيَكُونُ لِكُلِّ مَنْسُوخٍ بَدَلَانِ : بَدَلٌ قَبْلَ نَسْخِهِ وَبَدَلٌ بَعْدَ

نَسْخِهِ . وَالْبَدَلُ الَّذِي قَبْلَ نَسْخِهِ لَا ابْتِدَاءَ لِنُزُولِهِ فَيَجِبُ أَنْ يَنْزِلَ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ فَيَلْزَمُ نُزُولُ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي أَوَّلِ الْوَحْيِ وَهَذَا بَاطِلٌ

قَطْعًا . فَإِنْ قِيلَ : فَهَذَا يَلْزَمُ فِيمَا أَخَّرَهُ فَلَمْ يُنْزِلْهُ فَإِنَّ لَهُ بَدَلًا وَلَا وَقْتَ لِنُزُولِ ذَلِكَ الْبَدَلِ قِيلَ : مَا أَخَّرَ نُزُولَهِ وَهُوَ يُرِيدُ إنْزَالَهُ مَعْلُومٌ وَالْبَدَلُ الَّذِي هُوَ مِثْلُهُ أَوْ خَيْرٌ مِنْهُ يُؤْتَى بِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ فَإِنَّ الْقُرْآنَ مَا زَالَ يَنْزِلُ وَقَدْ تَضَمَّنَ هَذَا أَنَّ كُلَّ مَا أَخَّرَ نُزُولَهُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْزِلَ قَبْلَهُ مَا هُوَ مِثْلُهُ أَوْ خَيْرٌ مِنْهُ وَهَذَا هُوَ الْوَاقِعُ فَإِنَّ الَّذِي تَقَدَّمَ مِنْ الْقُرْآنِ نُزُولُهُ لَمْ يُنْسَخْ كَثِيرٌ مِنْهُ خَيْرٌ مِمَّا تَأَخَّرَ نُزُولُهُ كَالْآيَاتِ الْمَكِّيَّةِ فَإِنَّ فِيهَا مِنْ بَيَانِ التَّوْحِيدِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْمَعَادِ وَأُصُولِ الشَّرَائِعِ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ تَفَاصِيلِ الشَّرَائِعِ كَمَسَائِلِ الرِّبَا وَالنِّكَاحِ وَالطَّلَاقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . فَهَذَا الَّذِي أَخَّرَهُ

اللَّهُ مِثْل آيَةِ الرِّبَا فَإِنَّهَا مِنْ أَوَاخِرِ مَا نَزَلَ مِنْ الْقُرْآنِ وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهَا آخِرُ مَا نَزَلَ وَكَذَلِكَ آيَةُ الدَّيْنِ وَالْعِدَّةِ وَالْحَيْضِ وَنَحْوِ ذَلِكَ قَدْ أُنْزِلَ اللَّهُ قَبْلَهُ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ مِنْ الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا مِنْ الشَّرَائِعِ مَا هُوَ أَهَمُّ مِنْ هَذَا وَفِيهَا مِنْ الْأُصُولِ مَا هُوَ أَهَمُّ مِنْ هَذَا . وَلِهَذَا كَانَتْ سُورَةُ " الْأَنْعَامِ " أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهَا وَكَذَلِكَ سُورَةُ " يس " وَنَحْوُهَا مِنْ السُّوَرِ الَّتِي فِيهَا أُصُولُ الدِّينِ الَّتِي اتَّفَقَ عَلَيْهَا الرُّسُلُ كُلُّهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ . وَلِهَذَا كَانَتْ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ مَعَ قِلَّةِ حُرُوفِهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ؛ لِأَنَّ فِيهَا التَّوْحِيدَ فَعُلِمَ أَنَّ

(670/838)

آيَاتِ التَّوْحِيدِ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِهَا وَفَاتِحَةُ الْكِتَابِ نَزَلَتْ بِمَكَّةَ بِلَا رَيْبٍ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيته ﴾ وَسُورَةُ الْحِجْرِ مَكِّيَّةٌ بِلَا رَيْبٍ وَفِيهَا كَلَامُ مُشْرِكِي مَكَّةَ وَحَالُهُ مَعَهُمْ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَا كَانَ اللَّهُ يَنْسَؤُهُ فَيُؤَخِّرُ نُزُولَهُ مِنْ الْقُرْآنِ كَانَ يَنْزِلُ قَبْلَهُ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ و ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ مَكِّيَّةٌ بِلَا رَيْبٍ وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ . وَقَدْ قِيلَ إنَّهَا مَدَنِيَّةٌ وَهُوَ غَلَطٌ ظَاهِرٌ .

وكَذَلِكَ قَوْلُ مَنْ قَالَ : الْفَاتِحَةُ لَمْ تَنْزِلْ إلَّا بِالْمَدِينَةِ غَلَطٌ بِلَا رَيْبٍ . وَلَوْ لَمْ تَكُنْ مَعَنَا أَدِلَّةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّنَا عَلَى ذَلِكَ لَكَانَ مَنْ قَالَ إنَّهَا مَكِّيَّةٌ مَعَهُ زِيَادَةُ عِلْمٍ .

(671/838)

وَسُورَةُ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أَكْثَرُهُمْ عَلَى أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ . وَقَدْ ذُكِرَ فِي أَسْبَابِ نُزُولِهَا سُؤَالُ الْمُشْرِكِينَ بِمَكَّةَ وَسُؤَالُ الْكُفَّارِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الْيَهُودِ بِالْمَدِينَةِ وَلَا مُنَافَاةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهَا بِمَكَّةَ أَوَّلًا ثُمَّ لَمَّا سُئِلَ نَحْوَ ذَلِكَ أَنْزَلَهَا مَرَّةً أُخْرَى . وَهَذَا مِمَّا ذَكَرَهُ طَائِفَةٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَقَالُوا : إنَّ الْآيَةَ أَوْ السُّورَةَ قَدْ تَنْزِلُ مَرَّتَيْنِ وَأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . فَمَا يُذْكَرُ مِنْ أَسْبَابِ النُّزُولِ الْمُتَعَدِّدَةِ قَدْ يَكُونُ جَمِيعُهُ حَقًّا . وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّهُ إذَا حَدَثَ سَبَبٌ يُنَاسِبُهَا نَزَلَ جِبْرِيلُ فَقَرَأَهَا عَلَيْهِ لِيُعْلِمَهُ أَنَّهَا تَتَضَمَّنُ جَوَابَ ذَلِكَ السَّبَبِ وَإِنْ كَانَ الرَّسُولُ يَحْفَظُهَا قَبْلَ ذَلِكَ .

(672/838)

وَالْوَاحِدُ مِنَّا قَدْ يُسْأَلُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَيَذْكُرُ لَهُ الْآيَةَ أَوْ الْحَدِيثَ لِيُبَيِّنَ لَهُ دَلَالَةَ النَّصِّ عَلَى تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ وَهُوَ حَافِظٌ لِذَلِكَ لَكِنْ يُتْلَى عَلَيْهِ ذَلِكَ النَّصُّ لِيَتَبَيَّنَ وَجْهُ دَلَالَتِهِ عَلَى الْمَطْلُوبِ .

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْبَدَلَ لَمَّا أَخَّرَ نُزُولَهُ بِخِلَافِ مَا كَانَ عِنْدَهُمْ لَمْ يُنْسَخْ فَإِنَّ هَذَا لَا بَدَلَ لَهُ وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ سَيُنْسَخُ فَإِنَّهُ مَا دَامَ مُحْكَمًا لَمْ يَكُنْ بَدَلُهُ خَيْرًا مِنْهُ . وَكَذَلِكَ الْبَدَلُ عَنْ الْمَنْسُوخِ يَكُونُ خَيْرًا مِنْهُ . وَأَكْثَرُ السَّلَفِ أَطْلَقُوا لَفْظَ " خَيْرٍ مِنْهَا "كَمَا فِي الْقُرْآنِ وَلَمْ يَسْتَشْكِلْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ . وَفِي تَفْسِيرِ الْوَالِبِيِّ : خَيْرٌ لَكُمْ فِي الْمَنْفَعَةِ وَأَرْفَقُ بِكُمْ . وَعَنْ قتادة ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ آيَةٌ فِيهَا تَخْفِيفٌ فِيهَا رُخْصَةٌ فِيهَا أَمْرٌ فِيهَا نَهْيٌ . وَهَذَانِ لَمْ يَسْتَشْكِلَا كَوْنَهَا خَيْرًا مِنْ الْأُولَى بَلْ بَيَّنَا وَجْهَ الْفَضِيلَةِ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ الْكَلَامَ الْأَمْرِيَّ يَتَفَاضَلُ بِحَسَبِ الْمَطْلُوبِ فَإِذَا كَانَ الْمَطْلُوبُ أَنْفَعَ لِلْمَأْمُورِ كَانَ طَلَبُهُ أَفْضَلَ كَمَا أَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ الَّتِي سَبَقَتْ غَضَبَهُ هِيَ أَفْضَلُ مِنْ غَضَبِهِ . فَمَا قَالَاهُ تَقْرِيرٌ لِلْخَيْرِيَّةِ لَا نَفْيَ لَهَا . فَإِنْ قِيلَ : فَآيَةُ الْكُرْسِيِّ قَدْ ثَبَتَ أَنَّهَا أَعْظَمُ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَإِنَّمَا نَزَلَتْ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ - وَهِيَ مَدَنِيَّةٌ بِالِاتِّفَاقِ - فَقَدْ أَخَّرَ نُزُولَهَا وَلَمْ يُنْزِلْ قَبْلَهَا مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا وَلَا مِثْلُهَا . قِيلَ : عَنْ هَذَا

أَجْوِبَةٌ :

أَحدُهَا : أَنَّ اللَّهَ قَالَ : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ وَلَمْ يَقُلْ بِآيَةٍ خَيْرٍ مِنْهَا بَلْ يَأْتِي بِقُرْآنٍ خَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا . وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ وَإِنْ كَانَتْ أَفْضَلَ الْآيَاتِ فَقَدْ يَكُونُ مَجْمُوعُ آيَاتٍ أَفْضَلَ مِنْهَا . وَالْبَقَرَةُ وَإِنْ كَانَتْ مَدَنِيَّةً بِالِاتِّفَاقِ وَقَدْ قِيلَ إنَّهَا أَوَّلُ مَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا فِي بَعْضِ مَا نَزَلَ وَإِلَّا فَتَحْرِيمُ الرِّبَا إنَّمَا نَزَلَ مُتَأَخِّرًا . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلَى اللَّهِ ﴾ مِنْ آخِرِ مَا نَزَلَ . وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ نَزَلَتْ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ سَنَةَ سِتٍّ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَقَدْ كَانَتْ سُورَةُ الْحَشْرِ قَبْلَ ذَلِكَ فَإِنَّهَا نَزَلَتْ فِي بَنِي النَّضِيرِ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ وَقِصَّةُ بَنِي النَّضِيرِ كَانَتْ مُتَقَدِّمَةً عَلَى الْحُدَيْبِيَةِ بَلْ عَلَى الْخَنْدَقِ بِاتِّفَاقِ النَّاسِ وَإِنَّمَا تَأَخَّرَ عَنْ الْخَنْدَقِ أَمْرُ بَنِي قُرَيْظَةَ فَهُمْ الَّذِينَ حَاصَرَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقِبَ الْخَنْدَقِ وَأَمَّا بَنُو النَّضِيرِ فَكَانَ أَجْلَاهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ . وَكَذَلِكَ سُورَةُ الْحَدِيدِ مَدَنِيَّةٌ عِنْدَ الْجُمْهُورِ وَقَدْ قِيلَ إنَّهَا مَكِّيَّةٌ وَهُوَ ضَعِيفٌ لِأَنَّ فِيهَا ذِكْرُ الْمُنَافِقِينَ وَذِكْرُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهَذَا إنَّمَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ لَكِنْ يُمْكِنُ أَنَّهَا نَزَلَتْ قَبْلَ كَثِيرٍ مِنْ الْبَقَرَةِ . فَفِي الْجُمْلَةِ نُزُولُ أَوَّلِ الْحَدِيدِ وَآخِرِ الْحَشْرِ قَبْلَ آيَةِ الْكُرْسِيِّ مُمْكِنٌ وَالْأَنْعَامِ ويس وَغَيْرُهَا نَزَلَ

قَبْلَ آيَةِ الْكُرْسِيِّ بِالِاتِّفَاقِ .

الْجَوَابُ الثَّانِي : أَنَّهُ تَعَالَى إنَّمَا وَعَدَ أَنَّهُ إذَا نَسَخَ آيَةً أَوْ نَسَأَهَا أَتَى بِخَيْرِ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا لَمَّا أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ قَوْلُهُ ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ جُمْلَةٌ شَرْطِيَّةٌ تَضَمَّنَتْ وَعْدَهُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ بِذَلِكَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمِيعَادُ . فَمَا نَسَخَهُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ أَوْ أَنْسَأَ نُزُولَهُ مِمَّا يُرِيدُ إنْزَالَهُ يَأْتِ بِخَيْرِ مِنْهُ أَوْ مِثْلِهِ . وَأَمَّا مَا نَسَخَهُ قَبْلَ هَذِهِ أَوْ أَنْسَأَهُ فَلَمْ يَكُنْ قَدْ وَعَدَ حِينَئِذٍ أَنَّهُ يَأْتِي بِخَيْرٍ مِنْهُ أَوْ مِثْلِهِ . وَبِهَذَا أَيْضًا يَنْدَفِعُ الْجَوَابُ عَنْ الْفَاتِحَةِ فَإِنَّهُ لَا رَيْبَ أَنَّهُ تَأَخَّرَ نُزُولُهَا عَنْ سُورَةِ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ وَهِيَ أَفْضَلُ مِنْهَا . فَعُلِمَ أَنَّهُ قَدْ يَتَأَخَّرُ إنْزَالُ الْفَاضِلِ وَأَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا تَأَخَّرَ نُزُولُهُ نَزَلَ قَبْلَهُ مِثْلُهُ أَوْ خَيْرٌ مِنْهُ . لَكِنْ إذَا كَانَ الْمَوْعُودُ بِهِ بَعْدَ الْوَعْدِ لَمْ يَرِدْ هَذَا السُّؤَالُ . يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ ﴿ مَا نَنْسَخْ ﴾ فَإِنَّ هَذَا الْفِعْلَ الْمُضَارِعَ الْمَجْزُومَ إنَّمَا يَتَنَاوَلُ الْمُسْتَقْبَلَ وَجَوَازِمَ الْفِعْلِ " إنَّ " وَأَخَوَاتِهَا وَنَوَاصِبَهُ تُخَلِّصُهُ لِلِاسْتِقْبَالِ . وَقَدْ يُجَابُ بِجَوَابِ ثَالِثٍ وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : مَا نَزَلَ فِي وَقْتِهِ كَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ خَيْرًا لَهُمْ فِي وَقْتٍ آخَرَ وَحِينَئِذٍ فَيَكُونُ فَضْلُ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ عَلَى وَجْهَيْنِ : لَازِمٌ كَفَضْلِ آيَةِ الْكُرْسِيِّ وَفَاتِحَةِ الْكِتَابِ و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ

أَحَدٌ ﴾ وَفَضْلٌ عَارِضٌ بِحَيْثُ تَكُونُ هَذِهِ أَفْضَلَ فِي وَقْتٍ وَهَذِهِ أَفْضَلَ فِي وَقْتٍ آخَرَ كَمَا قَدْ يُقَالُ فِي آيَةِ التَّخْيِيرِ لِلْمُقِيمِ بَيْنَ الصَّوْمِ وَالْفِطْرِ مَعَ الْفِدْيَةِ وَمَعَ آيَةِ إيجَابِ الصَّوْمِ عَزْمًا . وَهَذَا كَمَا أَنَّ

الْأَفْعَالَ الْمَأْمُورَ بِهَا كُلٌّ مِنْهَا فِي وَقْتِهِ أَفْضَلُ فَالصَّلَاةُ إلَى الْقُدْسِ قَبْلَ النَّسْخِ كَانَتْ أَفْضَلَ وَبَعْدَ النَّسْخِ الصَّلَاةُ إلَى الْكَعْبَةِ أَفْضَلُ . وَعَلَى مَا ذُكِرَ فَيَتَوَجَّهُ الِاحْتِجَاجُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّهُ لَا يَنْسَخُ الْقُرْآنَ إلَّا قُرْآنٌ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَهُوَ أَشْهَرُ الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ الْإِمَامِ أَحْمَد بَلْ هِيَ الْمَنْصُوصَةُ عَنْهُ صَرِيحًا أَنْ لَا يَنْسَخَ الْقُرْآنَ إلَّا قُرْآنٌ يَجِيءُ بَعْدَهُ وَعَلَيْهَا عَامَّةُ أَصْحَابِهِ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْمَنْسُوخِ مِنْ بَدَلٍ مُمَاثِلٍ أَوْ خَيْرٍ وَوَعْدٍ بِأَنَّ مَا أَنْسَاهُ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ كَذَلِكَ وَأَنَّ مَا أَخَّرَهُ فَلَمْ يَأْتِ وَقْتُ نُزُولِهِ فَهُوَ كَذَلِكَ وَهَذَا كُلُّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَزَالُ عِنْدَ الْمُؤْمِنِ الْقُرْآنُ الَّذِي رُفِعَ أَوْ آخَرُ مِثْلُهُ أَوْ خَيْرٌ مِنْهُ وَلَوْ نُسِخَ بِالسُّنَّةِ فَإِنْ لَمْ يَأْتِ قُرْآنٌ مِثْلُهُ أَوْ

خَيْرٌ مِنْهُ فَهُوَ خِلَافُ مَا وَعَدَ اللَّهُ . وَإِنْ قِيلَ بَلْ يَأْتِي بَعْدَ نَسْخِهِ بِالسُّنَّةِ كَانَ بَيْنَ نَسْخِهِ وَبَيْنَ الْإِتْيَانِ بِالْبَدَلِ مُدَّةٌ خَالِيَةٌ عَنْ ذَلِكَ وَهُوَ خِلَافُ مَقْصُودِ الْآيَةِ فَإِنَّ مَقْصُودَهَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ الْمَرْفُوعِ أَوْ مِثْلِهِ أَوْ خَيْرٍ مِنْهُ . وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ ﴿ نَأْتِ ﴾ لَمْ يُرِدْ بِهِ بَعْدَ مُدَّةٍ فَإِنَّ الَّذِي نَسَأَهُ وَهُوَ يُرِيدُ إنْزَالَهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ يُنْزِلُهُ بَعْدَ مُدَّةٍ فَلَمَّا أَخْبَرَ أَنَّ مَا أَخَّرَهُ يَأْتِي بِمِثْلِهِ أَوْ خَيْرٍ مِنْهُ قَبْلَ نُزُولِهِ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يُؤَخِّرُ الْأَمْرَ بِلَا بَدَلٍ فَلَوْ

جَازَ أَنْ يَبْقَى مُدَّةً بِلَا بَدَلٍ لَكَانَ مَا لَمْ يُنْزَلْ أَحَقَّ بِأَنْ لَا يَكُونَ لَهُ بَدَلٌ مِنْ الْمَنْسُوخِ فَلَمَّا كَانَ ذَاكَ قَدْ حَصَلَ لَهُ بَدَلٌ قَبْلَ وَقْتِ نُزُولِهِ لِتَكْمِيلِ الْإِنْعَامِ فَلَأَنْ يَكُونَ الْبَدَلُ لِمَا نُسِخَ مِنْ

حِينِ نُسِخَ بَعْدُ أَوْلَى وَأَحْرَى وَلِأَنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ فَلَوْ كَانَ مَا يُنْزِلُهُ بَدَلًا عَنْ الْمَنْسُوخِ يُؤَخِّرُهُ لَمْ يُعْرَفْ أَنَّهُ بَدَلٌ وَلَمْ يَتَمَيَّزْ الْبَدَلُ مِنْ غَيْرِهِ وَلَمْ يَكُنْ لِقَوْلِهِ ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ فَائِدَةٌ إلَّا كَالْفَائِدَةِ الْمَعْلُومَةِ لَوْ لَمْ يُنْسَخْ شَيْءٌ . غَايَةُ مَا يُقَالُ : أَنَّهُ لَوْ لَمْ

يُنْسَخْ شَيْءٌ لَجَازَ أَنْ لَا يَنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْءٌ وَإِذَا نُسِخَ شَيْءٌ فَلَا بُدَّ مِنْ بَدَلِهِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ . وَهَذَا مِمَّا يَعْتَقِدُونَهُ فَإِنَّهُمْ قَدْ اعْتَادُوا نُزُولَ الْقُرْآنِ عِنْدَ الْحَوَادِثِ وَالْمَسَائِلِ وَالْحَاجَةِ فَمَا كَانُوا يَظُنُّونَهُ - إذَا نُسِخَتْ آيَةٌ - أَنْ لَا يُنْزَلَ بَعْدَهَا شَيْءٌ فَإِنَّهَا لَوْ لَمْ تُنْسَخْ لَمْ يَظُنُّوا ذَلِكَ فَكَيْفَ يَظُنُّونَ إذَا نُسِخَتْ ؟ الثَّانِي : أَنَّهُ إذَا كَانَ قَدْ ضَمِنَ لَهُمْ الْإِتْيَانَ بِالْبَدَلِ عَنْ الْمَنْسُوخِ عُلِمَ أَنَّ مَقْصُودَهُ أَنَّهُ لَا يَنْقُصُهُمْ شَيْءٌ مِمَّا أَنْزَلَهُ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مِثْلِ الْمَرْفُوعِ أَوْ خَيْرٍ مِنْهُ وَلَوْ بَقُوا مُدَّةً بِلَا بَدَلٍ لَنَقَصُوا . وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا وَعْدٌ مُعَلَّقٌ بِشَرْطِ وَالْوَعْدُ الْمُعَلَّقُ بِشَرْطِ يَلْزَمُ عَقِبَهُ فَإِنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْمُعَاوَضَةِ وَذَلِكَ مِمَّا يَلْزَمُ فِيهِ أَدَاءُ الْعِوَضِ عَلَى الْفَوْرِ إذَا قَبَضَ الْمُعَوَّضَ كَمَا إذَا قَالَ : مَا أَلْقَيْت مِنْ مَتَاعِك فِي الْبَحْرِ فَعَلَيَّ بَدَلُهُ وَلَيْسَ هَذَا وَعْدًا مُطْلَقًا كَقَوْلِهِ ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ . وَلِهَذَا يُفَرَّقُ بَيْنَ قَوْلِهِ : وَاَللَّهِ لَأُعْطِيَنَّك

مِائَةً وَبَيْنَ قَوْلِهِ : وَاَللَّهِ لَا آخُذُ مِنْك شَيْئًا إلَّا أَعْطَيْتُك بَدَلَهُ فَإِنَّ هَذَا وَاجِبٌ عَلَى الْفَوْرِ .

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى الْمَسْأَلَةِ أَنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ الَّذِينَ أُخِذَ عَنْهُمْ عِلْمُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ إنَّمَا يَذْكُرُونَ نَسْخَ الْقُرْآنِ بِقُرْآنِ لَا يَذْكُرُونَ نَسْخَهُ بِلَا قُرْآنٍ بَلْ بِسُنَّةٍ وَهَذِهِ كُتُبُ النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ الْمَأْخُوذَةِ عَنْهُمْ إنَّمَا تَتَضَمَّنُ هَذَا . وَكَذَلِكَ قَوْلُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلْقَاصِّ : هَلْ تَعْرِفُ النَّاسِخَ مِنْ الْمَنْسُوخِ فِي الْقُرْآنِ ؟ فَلَوْ كَانَ نَاسِخُ الْقُرْآنِ غَيْرَ الْقُرْآنِ لَوَجَبَ أَنْ يَذْكُرَ ذَلِكَ أَيْضًا . وَأَيْضًا الَّذِينَ جَوَّزُوا نَسْخَ الْقُرْآنِ بِلَا قُرْآنٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالرَّأْيِ إنَّمَا عُمْدَتُهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يُحِيلُ ذَلِكَ وَعَدَمُ الْمَانِعِ الَّذِي يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ لَا يَقْتَضِي الْجَوَازَ الشَّرْعِيَّ فَإِنَّ الشَّرْعَ قَدْ يُعْلَمُ بِخَبَرِهِ مَا لَا عِلْمَ لِلْعَقْلِ بِهِ وَقَدْ يُعْلَمُ مِنْ حِكْمَةِ الشَّارِعِ الَّتِي عُلِمَتْ بِالشَّرْعِ مَا لَا يُعْلَمُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْلِ . وَلِهَذَا كَانَ الَّذِينَ جَوَّزُوا ذَلِكَ عَقْلًا مُخْتَلِفِينَ فِي وُقُوعِهِ شَرْعًا وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَهَذَا الْخَبَرُ الَّذِي فِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى امْتِنَاعِهَا شَرْعًا .

وَأَيْضًا فَإِنَّ النَّاسِخَ مُهَيْمِنٌ عَلَى الْمَنْسُوخِ قَاضٍ عَلَيْهِ مُقَدَّمٌ عَلَيْهِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ خَيْرًا مِنْهُ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ الْقُرْآنُ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ مُهَيْمِنًا عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ بِتَصْدِيقِ مَا فِيهِ مِنْ حَقٍّ وَإِقْرَارِ مَا أَقَرَّهُ وَنَسْخِ مَا نَسَخَهُ كَانَ أَفْضَلَ مِنْهُ . فَلَوْ كَانَتْ السُّنَّةُ نَاسِخَةً لِلْكِتَابِ لَزِمَ أَنْ

تَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ أَفْضَلَ مِنْهُ .

وَأَيْضًا فَلَا يُعْرَفُ فِي شَيْءٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ نَسَخَهُ إلَّا قُرْآنٌ . وَالْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ الْمَوَارِيثِ كَمَا اتَّفَقَ عَلَى ذَلِكَ السَّلَفُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ . وَالْفَرَائِضُ الْمُقَدَّرَةُ مِنْ حُدُودِهِ وَلِهَذَا ذَكَرَ ذَلِكَ عَقِبَ ذِكْرِ الْفَرَائِضِ فَمَنْ أَعْطَى صَاحِبَ الْفَرَائِضِ أَكْثَرَ مِنْ فَرْضِهِ فَقَدْ تَعَدَّى حُدُودَ اللَّهِ بِأَنْ نَقَصَ هَذَا حَقَّهُ وَزَادَ هَذَا عَلَى حَقِّهِ فَدَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى تَحْرِيمِ ذَلِكَ وَهُوَ النَّاسِخُ .

فَصْلٌ :

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ - وَهُوَ مَقَامُ حِكْمَةِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ - عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ : فَالْمُعْتَزِلَةُ الْقَدَرِيَّةُ يَقُولُونَ : إنَّ مَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ كَانَ حَسَنًا وَقَبِيحًا قَبْلَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْأَمْرُ وَالنَّهْيُ كَاشِفٌ عَنْ صِفَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا لَا يُكْسِبُهُ حَسَنًا وَلَا قُبْحًا وَلَا يَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يَأْمُرَ وَيَنْهَى لِحِكْمَةِ تَنْشَأُ مِنْ الْأَمْرِ نَفْسِهِ . وَلِهَذَا أَنْكَرُوا جَوَازَ النَّسْخِ قَبْلَ التَّمَكُّنِ مِنْ فِعْلِ الْعِبَادَةِ كَمَا فِي قِصَّةِ الذَّبِيحِ وَنَسْخِ الْخَمْسِينَ صَلَاةً الَّتِي أَمَرَ بِهَا لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ إلَى خَمْسٍ وَوَافَقَهُمْ عَلَى مَنْعِ النَّسْخِ قَبْلَ وَقْتِ الْعِبَادَةِ

طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُثْبِتِينَ لِلْقَدَرِ لِظَنِّهِمْ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ حِكْمَةٍ تَكُونُ فِي الْمَأْمُورِ بِهِ وَالْمَنْهِيِّ عَنْهُ: فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَنْهَى عَنْ نَفْسِ مَا أَمَرَ بِهِ. وَهَذَا قِيَاسُ مَنْ يَقُولُ إنَّ النَّسْخَ تَخْصِيصٌ فِي الْأَزْمَانِ فَإِنَّ التَّخْصِيصَ لَا يَكُونُ بِرَفْعِ جَمِيعِ مَدْلُولِ اللَّفْظِ لَكِنَّهُمْ تَنَاقَضُوا وَالْجَهْمِيَّةُ الْجَبْرِيَّةُ يَقُولُونَ: لَيْسَ لِلْأَمْرِ حِكْمَةٌ تَنْشَأُ لَا مِنْ نَفْسِ الْأَمْرِ وَلَا مِنْ نَفْسِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَلَا يَخْلُقُ اللَّهُ شَيْئًا لِحِكْمَةِ وَلَكِنْ نَفْسُ الْمَشِيئَةِ أَوْجَبَتْ وُقُوعَ مَا وَقَعَ وَتَخْصِيصَ أَحَدِ الْمُتَمَاثِلَيْنِ بِلَا مُخَصِّصٍ وَلَيْسَتْ الْحَسَنَاتُ سَبَبًا لِلثَّوَابِ وَلَا السَّيِّئَاتُ سَبَبًا لِلْعِقَابِ وَلَا لِوَاحِدِ مِنْهُمَا صِفَةٌ صَارَ بِهَا حَسَنَةٌ وَسَيِّئَةٌ بَلْ لَا مَعْنَى لِلْحَسَنَةِ إلَّا مُجَرَّدَ تَعَلُّقِ الْأَمْرِ بِهَا وَلَا مَعْنَى لِلسَّيِّئَةِ إلَّا مُجَرَّدَ تَعَلُّقِ النَّهْيِ بِهَا فَيَجُوزُ أَنْ يَأْمُرَ بِكُلِّ أَمْرٍ حَتَّى الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَيَجُوزُ أَنْ يَنْهَى عَنْ كُلِّ أَمْرٍ حَتَّى عَنْ التَّوْحِيدِ وَالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ وَهُوَ لَوْ فَعَلَ لَكَانَ كَمَا لَوْ أَمَرَ بِالتَّوْحِيدِ وَالصِّدْقِ وَالْعَدْلِ وَنَهَى عَنْ الشِّرْكِ وَالْكَذِبِ وَالظُّلْمِ. هَكَذَا يَقُولُ بَعْضُهُمْ وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ: يَجُوزُ الْأَمْرُ بِكُلِّ مَا لَا يُنَافِي مَعْرِفَةَ الْأَمْرِ. بِخِلَافِ مَا يُنَافِي مَعْرِفَتَهُ. وَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ عِنْدَهُمْ سَبَبٌ وَلَكِنْ إذَا اقْتَرَنَ أَحَدُ الشَّيْئَيْنِ بِالْآخَرِ خَلْقًا أَوْ شَرْعًا صَارَ عَلَامَةً عَلَيْهِ فَالْأَعْمَالُ مُجَرَّدُ

عَلَامَاتٍ مَحْضَةً لَا أَسْبَابَ مُقْتَضِيَةً . وَقَالُوا : أَمْرُ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْإِيمَانِ مَعْنَاهُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُعَذِّبَكُمْ

وَعَدَمُ إِيمَانِكُمْ عَلَامَةٌ عَلَى الْعَذَابِ . وَكَذَلِكَ أَمْرُهُ بِالْإِيمَانِ مَنْ عَلِمَ أَنَّهُ يُؤْمِنُ مَعْنَاهُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُثِيبَكَ وَالْإِيمَانُ عَلَامَةٌ . وَهَؤُلَاءِ مِنْهُمْ مَنْ يَنْفِي الْقِيَاسَ فِي الشَّرْعِ وَالتَّعْلِيلَ لِلْأَحْكَامِ وَمَنْ أَثْبَتَ الْقِيَاسَ مِنْهُمْ لَمْ يَجْعَلْ الْعِلَلَ إلَّا مُجَرَّدَ عَلَامَاتٍ . ثُمَّ إنَّهُ مَعَ هَذَا قَدْ عَلِمَ أَنَّ الْحُكْمَ فِي الْأَصْلِ ثَابِتٌ بِالنَّصِّ وَالْإِجْمَاعِ وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَيْهِ فَأَيُّ حَاجَةٍ إلَى الْعِلَّةِ ؟ وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ تَكُونَ الْعِلَّةُ عَلَامَةً عَلَى الْحُكْمِ فِي الْأَصْلِ وَإِنَّمَا تُطْلَبُ عِلَّتُهُ بَعْدَ أَنْ يُعْلَمَ ثُبُوتُ الْجَحِيمِ وَحِينَئِذٍ فَلَا فَائِدَةَ فِي الْعَلَامَةِ . وَأَمَّا الْفَرْعُ فَلَا يَكُونُ عِلَّةً لَهُ حَتَّى يَكُونَ عِلَّةً لِلْأَصْلِ وَهَؤُلَاءِ مِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ الْعِلَلَ الْمُنَاسِبَةَ وَيَقُولُ : الْمُنَاسَبَةُ لَيْسَتْ طَرِيقًا لِمَعْرِفَةِ الْعِلَلِ وَهُمْ أَكْثَرُ أَصْحَابِ هَذَا الْقَوْلِ . وَمَنْ قَالَ بِالْمُنَاسَبَةِ مِنْ مُتَأَخِّرِيهِمْ يَقُولُ إنَّهُ قَدْ اُعْتُبِرَ فِي الشَّرْعِ اعْتِبَارُ الْمُنَاسِبِ فَيُسْتَدَلُّ بِمُجَرَّدِ الِاقْتِرَانِ لَا لِأَنَّ الشَّارِعَ حَكَمَ بِمَا حَكَمَ بِهِ لِتَحْصِيلِ الْمَصْلَحَةِ الْمَطْلُوبَةِ بِالْحُكْمِ وَلَا لِدَفْعِ مَفْسَدَةٍ أَصْلًا فَإِنَّ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي خَلْقِهِ وَلَا أَمْرِهِ لَامُ كَيْ . فَجَهْمٌ - رَأْسُ الْجَبْرِيَّةِ - وَأَتْبَاعُهُ فِي طَرَفٍ وَالْقَدَرِيَّةُ فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ . وَأَمَّا

الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَأَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ كَالْفُقَهَاءِ الْمَشْهُورِينَ وَغَيْرِهِمْ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ مِنْ

أَهْلِ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَأُصُولِ الْفِقْهِ فَيُقِرُّونَ بِالْقَدَرِ وَيُقِرُّونَ بِالشَّرْعِ وَيُقِرُّونَ بِالْحِكْمَةِ لِلَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ - لَكِنْ قَدْ يَعْرِفُ أَحَدُهُمُ الْحِكْمَةَ وَقَدْ لَا يَعْرِفُهَا -

---

وَيُقِرُّونَ بِمَا جَعَلَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ وَمَا فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ مِنَ الْمَصَالِحِ الَّتِي جَعَلَهَا رَحْمَةً بِعِبَادِهِ مَعَ أَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ: أَفْعَالُ الْعِبَادِ وَغَيْرُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ. وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَأَنَّ كُلَّ مَا وَقَعَ مِنْ خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ فَعَدْلٌ وَحِكْمَةٌ سَوَاءٌ عَرَفَ الْعَبْدُ وَجْهَ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَعْرِفْهُ. وَالْحِكْمَةُ النَّاشِئَةُ مِنَ الْأَمْرِ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: أَحَدُهَا: أَنْ تَكُونَ فِي نَفْسِ الْفِعْلِ - وَإِنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ - كَمَا فِي الصِّدْقِ وَالْعَدْلِ وَنَحْوِهِمَا مِنَ الْمَصَالِحِ الْحَاصِلَةِ لِمَنْ فَعَلَ

ذَلِكَ وَإِنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِهِ وَاَللَّهُ يَأْمُرُ بِالصَّلَاحِ وَيَنْهَى عَنْ الْفَسَادِ . وَالنَّوْعُ الثَّانِي : أَنَّ مَا أَمَرَ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ صَارَ مُتَّصِفًا بِحُسْنِ اكْتَسَبَهُ مِنْ الْأَمْرِ وَقُبْحٍ اكْتَسَبَهُ مِنْ النَّهْيِ كَالْخَمْرِ الَّتِي كَانَتْ لَمْ تُحَرَّمْ ثُمَّ حُرِّمَتْ فَصَارَتْ خَبِيثَةً وَالصَّلَاةُ إلَى الصَّخْرَةِ الَّتِي كَانَتْ حَسَنَةً فَلَمَّا نَهَى عَنْهَا صَارَتْ قَبِيحَةً . فَإِنَّ مَا أَمَرَ بِهِ يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ وَمَا نَهَى عَنْهُ يُبْغِضُهُ وَيَسْخَطُهُ . وَهُوَ إذَا أَحَبَّ عَبْدًا وَوَالَاهُ أَعْطَاهُ مِنْ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ مَا يَمْتَازُ بِهَا عَلَى مَنْ أَبْغَضَهُ وَعَادَاهُ . وَكَذَلِكَ الْمَكَانُ وَالزَّمَانُ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيُعَظِّمُهُ - كَالْكَعْبَةِ وَشَهْرِ رَمَضَانَ - يَخُصُّهُ بِصِفَاتِ يُمَيِّزُهُ بِهَا عَلَى مَا سِوَاهُ بِحَيْثُ يَحْصُلُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ مِنْ رَحْمَتِهِ

وَإِحْسَانِهِ وَنِعْمَتِهِ مَا لَا يَحْصُلُ فِي غَيْرِهِ . فَإِنْ قِيلَ : الْخَمْرُ قَبْلَ التَّحْرِيمِ وَبَعْدَهُ سَوَاءٌ فَتَخْصِيصُهَا بِالْخُبْثِ بَعْدَ التَّحْرِيمِ تَرْجِيحٌ بِلَا مُرَجِّحٍ ؟ . قِيلَ : لَيْسَ كَذَلِكَ بَلْ إنَّمَا حَرَّمَهَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي كَانَتْ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي تَحْرِيمَهَا . وَلَيْسَ مَعْنَى كَوْنِ الشَّيْءِ حَسَنًا وَسَيِّئًا مِثْلَ كَوْنِهِ أَسْوَدَ وَأَبْيَضَ بَلْ هُوَ مِنْ جِنْسِ كَوْنِهِ نَافِعًا وَضَارًّا وَمُلَائِمًا وَمُنَافِرًا وَصَدِيقًا وَعَدُوًّا وَنَحْوَ هَذَا مِنْ الصِّفَاتِ الْقَائِمَةِ بِالْمَوْصُوفِ الَّتِي تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الْأَحْوَالِ : فَقَدْ يَكُونُ الشَّيْءُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ ضَارًّا فِي وَقْتٍ وَالشَّيْءُ الضَّارُّ قَدْ يُتْرَكُ تَحْرِيمُهُ إذَا كَانَتْ مَفْسَدَةُ التَّحْرِيمِ

أَرْجح كَمَا لَوْ حُرِّمَتْ الْخَمْرُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ؛ فَإِنَّ النُّفُوسَ كَانَتْ قَدْ اعْتَادَتْهَا عَادَةً شَدِيدَةً وَلَمْ يَكُنْ حَصَلَ عِنْدَهُمْ مِنْ قُوَّةِ الْإِيمَانِ مَا يَقْبَلُونَ ذَلِكَ التَّحْرِيمَ وَلَا كَانَ إيمَانُهُمْ وَدِينُهُمْ تَامًّا حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ نَقْصٌ إلَّا مَا يَحْصُلُ بِشُرْبِ الْخَمْرِ مِنْ صَدِّهَا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنْ الصَّلَاةِ فَلِهَذَا وَقَعَ التَّدْرِيجُ فِي تَحْرِيمِهَا . فَأَنْزَلَ اللَّهُ أَوَّلًا فِيهَا : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ ثُمَّ أُنْزِلَ فِيهَا - لَمَّا شَرِبَهَا طَائِفَةٌ وَصَلَّوْا فَغَلِطَ الْإِمَامُ فِي الْقِرَاءَةِ - آيَةُ النَّهْيِ عَنْ الصَّلَاةِ سُكَارَى : ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّحْرِيمِ :

وَالنَّوْعُ الثَّالِثُ : أَنْ تَكُونَ الْحِكْمَةُ نَاشِئَةً مِنْ نَفْسِ الْأَمْرِ وَلَيْسَ فِي الْفِعْلِ أَلْبَتَّةَ مَصْلَحَةٌ لَكِنَّ الْمَقْصُودَ ابْتِلَاءُ الْعَبْدِ هَلْ يُطِيعُ أَوْ يَعْصِي فَإِذَا اعْتَقَدَ الْوُجُوبَ وَعَزَمَ عَلَى الْفِعْلِ حَصَلَ الْمَقْصُودُ بِالْأَمْرِ فَيُنْسَخُ حِينَئِذٍ كَمَا جَرَى لِلْخَلِيلِ فِي قِصَّةِ الذَّبْحِ : فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ الذَّبْحُ مَصْلَحَةً وَلَا كَانَ هُوَ مَطْلُوبُ الرَّبِّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَلْ كَانَ مُرَادُ الرَّبِّ ابْتِلَاءَ إبْرَاهِيمَ لِيُقَدِّمَ طَاعَةَ رَبِّهِ وَمَحَبَّتَهُ عَلَى مَحَبَّةِ الْوَلَدِ وَلَا يَبْقَى فِي قَلْبِهِ الْتِفَاتٌ إلَى غَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ كَانَ يُحِبُّ الْوَلَدَ مَحَبَّةً شَدِيدَةً وَكَانَ قَدْ سَأَلَ اللَّهَ أَنْ يَهَبَهُ إيَّاهُ - وَهُوَ خَلِيلُ اللَّهِ - فَأَرَادَ تَعَالَى تَكْمِيلَ خَلَّتِهِ لِلَّهِ بِأَنْ لَا يَبْقَى فِي قَلْبِهِ مَا يُزَاحِمُ بِهِ مَحَبَّةَ رَبِّهِ : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾

وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ وَمِثْلُ هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: حَدِيثُ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى كَانَ الْمَقْصُودُ ابْتِلَاءَهُمْ لَا نَفْسَ الْفِعْلِ. وَهَذَا الْوَجْهُ وَالَّذِي قَبْلَهُ مِمَّا خَفِيَ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فَلَمْ يَعْرِفُوا وَجْهَ الْحِكْمَةِ النَّاشِئَةِ مِنْ الْأَمْرِ وَلَا مِنْ الْمَأْمُورِ لِتَعَلُّقِ الْأَمْرِ بِهِ بَلْ لَمْ يَعْرِفُوا إلَّا الْأَوَّلَ. وَالَّذِينَ أَنْكَرُوا الْحِكْمَةَ عِنْدَهُمْ الْجَمِيعُ سَوَاءٌ لَا يَعْتَبِرُونَ حِكْمَةً وَلَا تَخْصِيصَ فِعْلٍ بِأَمْرِ وَلَا غَيْرَ

(691/838)

ذَلِكَ كَمَا قَدْ عُرِفَ مِنْ أَصْلِهِمْ. ثُمَّ إنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ يَتَكَلَّمُونَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ فَيَبْنُونَ عَلَى تِلْكَ الْأُصُولِ الَّتِي لَهُمْ وَلَا يَعْرِفُ حَقَائِقَ أَقْوَالِهِمْ إلَّا

(692/838)

مَنْ عَرَفَ مَأْخَذَهُمْ فَقَوْلُ الْقَائِلِ: إنَّ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وَفَاتِحَةَ الْكِتَابِ قَدْ تَكُونُ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا فِي نَفْسِهَا مُمَاثِلَةً لِسَائِرِ السُّوَرِ وَآيَةَ الْكُرْسِيِّ مُمَاثِلَةً لِسَائِرِ الْآيَاتِ وَإِنَّمَا

خُصَّتْ بِكَثْرَةِ ثَوَابِ قَارِئِهَا أَوْ لَمْ تَتَعَيَّنْ الْفَاتِحَةُ فِي الصَّلَاةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ إلَّا لِمَحْضِ الْمَشِيئَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِيهَا صِفَةٌ تَقْتَضِي التَّخْصِيصَ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أُصُولِ جَهْمٍ فِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ وَإِنْ كَانَ وَافَقَهُ عَلَيْهِ أَبُو الْحَسَنِ وَغَيْرُهُ . وَكُتُبُ السُّنَّةِ الْمَعْرُوفَةِ الَّتِي فِيهَا آثَارُ السَّلَفِ يَذْكُرُ فِيهَا هَذَا وَهَذَا وَيَجْعَلُ هَذَا الْقَوْلَ قَوْلَ الْجَبْرِيَّةِ الْمُتَّبِعِينَ لِجَهْمِ فِي أَقْوَالِ الْقَدَرِيَّةِ الْجَبْرِيَّةِ الْمُبْتَدِعَةِ وَالسَّلَفُ كَانُوا يُنْكِرُونَ قَوْلَ الْجَبْرِيَّةِ الْجَهْمِيَّةِ كَمَا يُنْكِرُونَ قَوْلَ الْمُعْتَزِلَةِ الْقَدَرِيَّةِ وَهَذَا مَعْرُوفٌ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَالْأَوْزَاعِي وَالزُّبَيْدِيِّ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ مِنْ الْحَنَفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنْبَلِيَّةِ وَسَائِرِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي كُتُبِهِمْ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوَاضِعِهِ وَذَكَرْت أَقْوَالَ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ فِي ذَلِكَ . وَإِنَّمَا نَبَّهْنَا هُنَا عَلَى الْأَصْلِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ وَلَا يَظُنُّ قَوْلَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْقَدَرِ إلَّا الْقَوْلَ الَّذِي هُوَ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ قَوْلُ جَهْمٍ وَأَتْبَاعِهِ الْمُجَبِّرَةِ

أَوْ مَا يُشْبِهُ ذَلِكَ . كَمَا أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ قَوْلَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي مَسَائِلِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ هُوَ أَيْضًا الْقَوْلُ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ بِقَوْلِ جَهْمٍ . وَهَذَا يَعْرِفُهُ مَنْ يَعْرِفُ

أَقْوَالَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ الْمَشْهُورِينَ فِي هَذِهِ الْأُصُولِ . وَذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ الَّتِي فِيهَا أَقْوَالُ جُمْهُورِ الْأَئِمَّةِ الَّتِي يَذْكُرُ فِيهَا أَقْوَالَهُمْ فِي الْفِقْهِ كَثِيرًا وَالْعُلَمَاءُ الْأَكَابِرُ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ عَلَى مَذْهَبِ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ وَكَثِيرٍ مِنْ الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا أَقْوَالُ السَّلَفِ عَلَى وَجْهِ الِاتِّبَاعِ مِنْ تَصْنِيفِ أَصْحَابِ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمْ يَذْكُرُونَ ذَلِكَ فِيهَا . وَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْمَسَائِلِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْظَمِ مَسَائِلِ الدِّينِ لَمْ يَكُنْ السَّلَفُ جَاهِلِينَ بِهَا وَلَا مُعْرِضِينَ عَنْهَا . بَلْ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ مَا قَالُوهُ فَهُوَ الْجَاهِلُ بِالْحَقِّ فِيهَا وَبِأَقْوَالِ السَّلَفِ وَبِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالصَّوَابُ فِي جَمِيعِ مَسَائِلِ النِّزَاعِ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَقَوْلُهُمْ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْعَقْلُ الصَّرِيحُ . وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ .

(694/838)

وَسُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ وَمُفْتِي الْأَنَامِ : تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَد بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ فُتْيَا صُورَتُهَا :

مَا تَقُولُ السَّادَةُ الْعُلَمَاءُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ : "

إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ " فَكَيْفَ ذَلِكَ مَعَ قِلَّةِ حُرُوفِهَا وَكَثْرَةِ حُرُوفِ الْقُرْآنِ ؟ بَيِّنُوا لَنَا ذَلِكَ بَيَانًا مَبْسُوطًا شَافِيًا وَأَفْتُونَا مَأْجُورِينَ - إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى -

فَأَجَابَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِمَا صُورَتُهُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ؛ الْأَحَادِيثُ الْمَأْثُورَةُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي فَضْلِ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وَأَنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ مِنْ أَصَحِّ الْأَحَادِيثِ وَأَشْهَرِهَا حَتَّى قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ الْحُفَّاظِ كَالدَّارَقُطْنِي : لَمْ يَصِحَّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي فَضْلِ سُورَةٍ مِنْ الْقُرْآنِ أَكْثَرُ مِمَّا صَحَّ عَنْهُ فِي فَضْلِ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وَجَاءَتْ الْأَحَادِيثُ بِالْأَلْفَاظِ كَقَوْلِهِ : ﴿ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ قَرَأَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾

مَرَّةً فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ وَمَنْ قَرَأَهَا مَرَّتَيْنِ فَكَأَنَّمَا قَرَأَ ثُلُثَيْ الْقُرْآنِ وَمَنْ قَرَأَهَا ثَلَاثًا فَكَأَنَّمَا قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ ﴾ وَقَوْلِهِ لِلنَّاسِ : ﴿ احْتَشِدُوا حَتَّى أَقْرَأَ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فَحَشَدُوا حَتَّى قَرَأَ عَلَيْهِمْ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ قَالَ : وَاَلَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ﴾ . وَأَمَّا تَوْجِيهُ ذَلِكَ : فَقَدْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ : إنَّ الْقُرْآنَ بِاعْتِبَارِ مَعَانِيهِ ثَلَاثَةُ

أَثْلَاثٍ: ثُلُثٌ تَوْحِيدٌ وَثُلُثٌ قَصَصٌ وَثُلُثٌ أَمْرٌ وَنَهْيٌ. و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ هِيَ صِفَةُ الرَّحْمَنِ وَنَسَبُهُ وَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى وَالْكَلَامُ إمَّا إنْشَاءٌ وَإِمَّا إخْبَارٌ فَالْإِنْشَاءُ هُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ كَالْإِبَاحَةِ وَنَحْوِهَا وَهُوَ الْأَحْكَامُ. وَالْإِخْبَارُ: إمَّا إخْبَارٌ عَنْ الْخَالِقِ وَإِمَّا إخْبَارٌ عَنْ الْمَخْلُوقِ فَالْإِخْبَارُ عَنْ الْخَالِقِ هُوَ التَّوْحِيدُ وَمَا يَتَضَمَّنُهُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ وَالْإِخْبَارُ عَنْ الْمَخْلُوقِ هُوَ الْقَصَصُ وَهُوَ الْخَبَرُ عَمَّا كَانَ وَعَمَّا يَكُونُ وَيَدْخُلُ فِيهِ الْخَبَرُ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ وَأُمَمِهِمْ وَمَنْ كَذَّبَهُمْ وَالْإِخْبَارُ عَنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ. قَالُوا: فَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ تَكُونُ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ لِمَا فِيهَا مِنْ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ ثُلُثُ مَعَانِي الْقُرْآنِ. بَقِيَ أَنْ يُقَالَ: فَإِذَا كَانَتْ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ مَعَ

قِلَّةِ حُرُوفِهَا كَانَ

لِلرَّجُلِ أَنْ يَكْتَفِيَ بِهَا عَنْ سَائِرِ الْقُرْآنِ . فَيُقَالُ فِي جَوَابِ ذَلِكَ : إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ ﴾ وَعَدْلُ الشَّيْءِ - بِالْفَتْحِ - يُقَالُ عَلَى مَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا ﴾ فَجَعَلَ الصِّيَامَ عَدْلَ كَفَّارَةٍ وَهُمَا جِنْسَانِ . وَلَا رَيْبَ أَنَّ الثَّوَابَ أَنْوَاعٌ مُخْتَلِفَةٌ فِي الْجَنَّةِ فَإِنَّ كُلَّ مَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْعَبْدُ وَيَلْتَذُّ بِهِ مِنْ مَأْكُولٍ وَمَشْرُوبٍ وَمَنْكُوحٍ وَمَشْمُومٍ هُوَ مِنْ الثَّوَابِ وَأَعْلَاهُ النَّظَرُ إلَى وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِذَا كَانَتْ أَحْوَالُ الدُّنْيَا لِاخْتِلَافِ مَنَافِعِهَا يَحْتَاجُ إلَيْهَا كُلِّهَا وَإِنْ كَانَ بَعْضُهَا يَعْدِلُ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ فِي الصُّورَةِ كَمَا أَنَّ أَلْفَ دِينَارٍ تَعْدِلُ مِنْ الْفِضَّةِ وَالطَّعَامِ وَالثِّيَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا ثُمَّ مَنْ مَلَكَ الذَّهَبَ فَقَدْ مَلَكَ مَا يَعْدِلُ مِقْدَارَ أَلْفِ دِينَارٍ مِنْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ لَا يَسْتَغْنِي بِذَلِكَ عَنْ سَائِرِ أَنْوَاعِ الْمَالِ الَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا ؛ لِأَنَّ الْمُسَاوَاةَ وَقَعَتْ فِي الْقَدْرِ لَا فِي النَّوْعِ وَالصِّفَةِ فَكَذَلِكَ ثَوَابُ : (﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وَإِنْ كَانَ يَعْدِلُ ثَوَابَ ثُلُثِ الْقُرْآنِ فِي الْقَدْرِ فَلَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ فِي النَّوْعِ وَالصِّفَةِ وَأَمَّا سَائِرُ الْقُرْآنِ فَفِيهِ مِنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ الْعِبَادُ فَلِهَذَا كَانَ النَّاسُ مُحْتَاجِينَ لِسَائِرِ الْقُرْآنِ وَمُنْتَفِعِينَ بِهِ مَنْفَعَةً لَا تُغْنِي عَنْهَا هَذِهِ السُّورَةُ

وَإِنْ كَانَتْ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ . فَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَصْلٍ : وَهُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ هَلْ يَتَفَاضَلُ فِي

نَفْسِهِ فَيَكُونُ بَعْضُهُ أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ ؟ وَهَذَا فِيهِ لِلْمُتَأَخِّرِينَ قَوْلَانِ مَشْهُورَانِ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَا يَتَفَاضَلُ فِي نَفْسِهِ ؛ لِأَنَّهُ كُلَّهُ كَلَامُ اللَّهِ وَكَلَامُ اللَّهِ صِفَةٌ لَهُ قَالُوا : وَصِفَةُ اللَّهِ لَا تَتَفَاضَلُ . لَا سِيَّمَا مَعَ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ قَدِيمٌ فَإِنَّ الْقَدِيمَ لَا يَتَفَاضَلُ كَذَلِكَ قَالَ هَؤُلَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ قَالُوا فَخَيْرٍ إنَّمَا يَعُودُ إلَى غَيْرِ الْآيَةِ مِثْلَ نَفْعِ الْعِبَادِ وَثَوَابِهِمْ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ بَعْضَ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ وَهَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ مِنْ الْخَلَفِ وَالسَّلَفِ ؛ فَإِنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي الْفَاتِحَةِ : أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا الزَّبُورِ وَلَا الْقُرْآنِ مِثْلُهَا ﴾ فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لَهَا مِثْلٌ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : إنَّهُ مُتَمَاثِلٌ ؟ وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّهُ قَالَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ : يَا أَبَا الْمُنْذِرِ ؛ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ : ﴿ اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ لَهُ لِيَهْنِك الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ ﴾ فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ

أَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ وهذا بيّن أَنَّ بَعْضَ الْآيَاتِ أَعْظَمُ مِنْ بَعْضٍ . وأَيضا فَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ وَالْكَلَامُ يَشْرُفُ بِالْمُتَكَلِّمِ بِهِ سواءٌ كَانَ خَبَرًا أَوْ أَمْرًا فَالْخَبَرُ يَشْرُفُ بِشَرَفِ الْمُخْبِرِ

(700/838)

وَبِشَرَفِ الْمَخْبِرِ عَنْهُ وَالْأَمْرُ يَشْرُفُ بِشَرَفِ الْآمِرِ وَبِشَرَفِ الْمَأْمُورِ بِهِ فَالْقُرْآنُ وَإِنْ كَانَ

(701/838)

كُلُّهُ مُشْتَرَكًا فَإِنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ لَكِنَّ مِنْهُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَمِنْهُ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ خَلْقِهِ وَمِنْهُ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ فَمِنْهُ مَا أمرهم فِيهِ بِالْإِيمَانِ ونَهَاهُمْ فِيهِ عَنْ الشِّرْكِ وَمِنْهُ مَا أمرهم بِهِ بِكِتَابَةِ الدَّيْنِ ونَهَاهُمْ فِيهِ عَنْ الرِّبَا . وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ : ك ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أَعْظَمُ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ خَلْقِهِ : ك ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ وَمَا أَمَرَ فِيهِ بِالْإِيمَانِ . وَمَا نَهَى فِيهِ عَنْ الشِّرْكِ أَعْظَمُ مِمَّا أَمَرَ فِيهِ بِكِتَابَةِ الدَّيْنِ وَنَهَى فِيهِ عَنْ الرِّبَا وَلِهَذَا كَانَ كَلَامُ الْعَبْدِ مُشْتَرَكًا بِالنِّسْبَةِ إلَى الْعَبْدِ وَهُوَ كَلَامٌ لِمُتَكَلِّمٍ وَاحِدٍ ثُمَّ إنَّهُ يَتَفَاضَلُ بِحَسَبِ الْمُتَكَلَّمِ فِيهِ فَكَلَامُ الْعَبْدِ الَّذِي يَذْكُرُ بِهِ رَبَّهُ وَيَأْمُرُ فِيهِ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى فِيهِ عَنْ الْمُنْكَرِ أَفْضَلُ مِنْ كَلَامِهِ

الَّذِي يَذْكُرُ فِيهِ خَلْقَهُ وَيَأْمُرُ فِيهِ بِمُبَاحٍ أَوْ مَحْظُورٍ وَإِنَّمَا غَلِطَ مَنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّهُ نَظَرَ إلَى إحْدَى جِهَتَيْ الْكَلَامِ وَهِيَ جِهَةُ الْمُتَكَلَّمِ بِهِ وَأَعْرَضَ عَنْ الْجِهَةِ الْأُخْرَى وَهِيَ جِهَةُ الْمُتَكَلِّمِ فِيهِ وَكِلَاهُمَا لِلْكَلَامِ بِهِ تَعَلُّقٌ يَحْصُلُ بِهِ التَّفَاضُلُ وَالتَّمَاثُلُ . قَالُوا : وَمَنْ أَعَادَ التَّفَاضُلَ إلَى مُجَرَّدِ كَثْرَةِ الثَّوَابِ أَوْ قِلَّتِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلَ كَانَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ جَعَلَ عَمَلَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ وَثَوَابُ أَحَدِهِمَا أَضْعَافُ ثَوَابِ الْآخَرِ مَعَ أَنَّ الْعَمَلَيْنِ فِي

(702/838)

أَنْفُسِهِمَا لَمْ يَخْتَصَّ أَحَدُهُمَا بِمَزِيَّةٍ بَلْ كَدِرْهَمٍ وَدِرْهَمٍ تَصَدَّقَ بِهِمَا رَجُلٌ وَاحِدٌ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَمَكَانٍ

(703/838)

وَاحِدٍ عَلَى اثْنَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ فِي الِاسْتِحْقَاقِ وَنِيَّتُهُ بِهِمَا وَاحِدَةٌ وَلَمْ يَتَمَيَّزْ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ بِفَضِيلَةٍ فَكَيْفَ يَكُونُ ثَوَابُ أَحَدِهِمَا أَضْعَافَ ثَوَابِ الْآخَرِ بَلْ تَفَاضُلُ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ دَلِيلٌ عَلَى تَفَاضُلِ الْأَعْمَالِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ . وَهَذَا الْكَلَامُ مُتَّصِلٌ بِالْكَلَامِ فِي

اشْتِمَالِ الْأَعْمَالِ عَلَى صِفَاتٍ بِهَا كَانَتْ صَالِحَةً حَسَنَةً وَبِهَا كَانَتْ فَاسِدَةً قَبِيحَةً . وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : صِفَاتُ اللَّهِ لَا تَتَفَاضَلُ وَنَحْوَ ذَلِكَ ؛ قَوْلٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ بَلْ هُوَ مَوْرِدُ النِّزَاعِ وَمَنْ الَّذِي جَعَلَ صِفَتَهُ الَّتِي هِيَ الرَّحْمَةُ لَا تَفْضُلُ عَلَى صِفَتِهِ الَّتِي هِيَ الْغَضَبُ وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّ اللَّهَ كَتَبَ فِي كِتَابٍ مَوْضُوعٍ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ : إنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي - وَفِي رِوَايَةٍ - تَسْبِقُ غَضَبِي ﴾ وَصِفَةُ الْمَوْصُوفِ مِنْ الْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَلَامِ وَالرِّضَا وَالْغَضَبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ تَتَفَاضَلُ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ بَعْضَ الصِّفَاتِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ وَأَدْخَلُ فِي كُلِّ الْمَوْصُوفِ بِهَا فَإِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ اتِّصَافَ الْعَبْدِ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالرَّحْمَةِ أَفْضَلُ مِنْ اتِّصَافِهِ بِضِدِّ ذَلِكَ ؛ لَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُوصَفُ بِضِدِّ ذَلِكَ وَلَا يُوصَفُ إلَّا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُدْعَى بِهَا فَلَا يُدْعَى إلَّا بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَأَسْمَاؤُهُ مُتَضَمِّنَةٌ لِصِفَاتِهِ وَبَعْضُ أَسْمَائِهِ

أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ

وَأَدْخَلُ فِي كَمَالِ الْمَوْصُوفِ بِهَا ؛ وَلِهَذَا فِي الدُّعَاءِ الْمَأْثُورِ : ﴿ أَسْأَلُك بِاسْمِك الْعَظِيمِ

الْأَعْظَمِ الْكَبِيرِ الْأَكْبَرِ ﴾ وَ ﴿ لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى ﴾ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ فَتَفَاضُلُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنْ الْأُمُورِ الْبَيِّنَاتِ . وَالثَّانِي : أَنَّ الصِّفَةَ الْوَاحِدَةَ قَدْ تَتَفَاضَلُ فَالْأَمْرُ بِمَأْمُورِ يَكُونُ أَكْمَلَ مِنْ الْأَمْرِ بِمَأْمُورٍ آخَرَ وَالرِّضَا عَنْ النَّبِيِّينَ أَعْظَمُ مِنْ الرِّضَا عَمَّنْ دُونَهُمْ وَالرَّحْمَةُ لَهُمْ أَكْمَلُ مِنْ الرَّحْمَةِ لِغَيْرِهِمْ وَتَكْلِيمُ اللَّهِ لِبَعْضِ عِبَادِهِ أَكْمَلُ مِنْ تَكْلِيمِهِ لِبَعْضِ وَكَذَلِكَ سَائِرُ هَذَا الْبَابِ وَكَمَا أَنَّ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ مُتَنَوِّعَةٌ فَهِيَ أَيْضًا مُتَفَاضِلَةٌ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ مَعَ الْعَقْلِ وَإِنَّمَا شُبْهَةُ مَنْ مَنَعَ تَفَاضُلَهَا مِنْ جِنْسِ شُبْهَةِ مَنْ مَنَعَ تَعَدُّدَهَا وَذَلِكَ يَرْجِعُ إلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ . كَمَا يَقُولُهُ الْجَهْمِيَّةُ لَمَّا ادَّعَوْهُ مِنْ التَّرْكِيبِ وَقَدْ بَيَّنَّا فَسَادَ هَذَا مَبْسُوطًا فِي مَوْضِعِهِ .

وَسُئِلَ :

عَمَّنْ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ . هَلْ يَقْرَأُ (سُورَةَ الْإِخْلَاصِ) مَرَّةً أَوْ ثَلَاثًا ؟ وَمَا السُّنَّةُ فِي ذَلِكَ ؟ .

فَأَجَابَ :

إذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَقْرَأَهَا كَمَا فِي الْمُصْحَفِ مَرَّةً وَاحِدَةً هَكَذَا قَالَ الْعُلَمَاءُ ؛ لِئَلَّا يُزَادَ عَلَى مَا فِي الْمُصْحَفِ . وَأَمَّا إذَا قَرَأَهَا وَحْدَهَا أَوْ مَعَ بَعْضِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ إذَا قَرَأَهَا

ثَلَاثَ مَرَّاتٍ عَدَلَتْ الْقُرْآنَ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ – قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ – :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ . وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ . وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ . وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

فَصْلٌ :

فِي تَفْسِيرِ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾

وَالِاسْمُ " الصَّمَدُ " فِيهِ لِلسَّلَفِ أَقْوَالٌ مُتَعَدِّدَةٌ قَدْ يُظَنُّ أَنَّهَا مُخْتَلِفَةٌ ؛ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ بَلْ كُلُّهَا صَوَابٌ . وَالْمَشْهُورُ مِنْهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الصَّمَدَ هُوَ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ السَّيِّدُ الَّذِي يُصْمَدُ إلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ وَالْأَوَّلُ هُوَ قَوْلُ

أَكْثَرِ السَّلَفِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَطَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ . وَالثَّانِي قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ وَجُمْهُورِ اللُّغَوِيِّينَ وَالْآثَارُ الْمَنْقُولَةُ عَنْ السَّلَفِ بِأَسَانِيدِهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمُسْنَدَةِ وَفِي كُتُبِ السُّنَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَقَدْ كَتَبْنَا مِنْ الْآثَارِ فِي ذَلِكَ شَيْئًا كَثِيرًا بِإِسْنَادِهِ فِيمَا تَقَدَّمَ . وَتَفْسِيرُ " الصَّمَدِ " بِأَنَّهُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ مَعْرُوفٌ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَمُجَاهِدٍ . وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَعِكْرِمَةَ وَالضَّحَّاكِ والسدي وقتادة وبمعنى ذَلِكَ قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ قَالَ : هُوَ الَّذِي لَا حَشْوَ لَهُ . وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : هُوَ الَّذِي لَيْسَتْ لَهُ أَحْشَاءٌ وَكَذَلِكَ قَالَ الشَّعْبِيُّ : هُوَ الَّذِي لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ . وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ القرظي وَعِكْرِمَةَ : هُوَ الَّذِي لَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَعَنْ مَيْسَرَةَ قَالَ : هُوَ الْمُصْمَتُ . قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : كَأَنَّ الدَّالَ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ مُبْدَلَةٌ مِنْ تَاءٍ والصمت مِنْ هَذَا . قُلْت : لَا إبْدَالَ فِي هَذَا وَلَكِنَّ هَذَا مِنْ جِهَةِ الِاشْتِقَاقِ الْأَكْبَرِ وَسَنُبَيِّنُ إنْ شَاءَ اللَّهُ وَجْهَ الْقَوْلِ مِنْ جِهَةِ الِاشْتِقَاقِ وَاللُّغَةِ . وَفِي الْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَد فِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعْدٍ الصغاني : حَدَّثَنَا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِي

عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ : ﴿ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْسُبْ لَنَا رَبَّك فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ إلَى آخِرِ السُّورَةِ . قَالَ : الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ إلَّا سَيَمُوتُ وَلَيْسَ شَيْءٌ يَمُوتُ إلَّا سَيُورَثُ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمُوتُ وَلَا يُورَثُ ﴾ . وَأَمَّا تَفْسِيرُهُ بِأَنَّهُ السَّيِّدُ الَّذِي يُصْمَدُ إلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ فَهُوَ أَيْضًا مَرْوِيٌّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَوْقُوفًا وَمَرْفُوعًا فَهُوَ مِنْ تَفْسِيرِ الْوَالِبِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . قَالَ : (الصَّمَدُ) السَّيِّدُ الَّذِي كَمُلَ فِي سُؤْدُدِهِ وَهَذَا مَشْهُورٌ عَنْ أَبِي وَائِلٍ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَةَ قَالَ : هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي انْتَهَى سُؤْدُدُهُ . وَعَنْ أَبِي إسْحَاقَ الْكُوفِيِّ عَنْ عِكْرِمَةَ الصَّمَدُ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ . وَيُرْوَى هَذَا عَنْ عَلِيٍّ وَعَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ : الَّذِي لَا يُكَافِئُهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدٌ وَعَنْ السدي أَيْضًا : هُوَ الْمَقْصُودُ إلَيْهِ فِي الرَّغَائِبِ وَالْمُسْتَغَاثُ بِهِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هُوَ الْمُسْتَغْنِي عَنْ كُلِّ أَحَدٍ الْمُحْتَاجُ إلَيْهِ كُلُّ أَحَدٍ وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَيْضًا : الْكَامِلُ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ . وَعَنْ الرَّبِيعِ الَّذِي لَا تَعْتَرِيهِ الْآفَاتُ . وَعَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ الَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ . وَعَنْ ابْنِ كيسان هُوَ الَّذِي لَا يُوصَفُ بِصِفَتِهِ أَحَدٌ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ الْأَنْبَارِيُّ : لَا خِلَافَ بَيْنَ

أَهْلِ اللُّغَةِ أَنَّ الصَّمَدَ السَّيِّدَ الَّذِي لَيْس فَوْقَهُ أَحَدٌ الَّذِي يَصْمُدُ إِلَيْهِ النَّاسُ فِي حَوَائِجِهِمْ وَأُمُورِهِمْ .

وَقَالَ الزَّجَّاجُ هُوَ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ السُّؤْدُدُ فَقَدْ صَمَدَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ أَيْ قَصَدَ قَصْدَهُ وَقَدْ أُنْشِدُوا فِي هذَا بَيْتَيْنِ مَشْهُورَيْنِ أَحَدُهُمَا :

أَلَا بَكَّرَ النَّاعِي بِخَيْرَيْ بَنِي أَسَدٍ ** بِعَمْرِو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ

وَقَالَ الْآخَرُ :

عَلَوْتُه بِحُسَامِي ثُمَّ قُلْتُ لَهُ ** خُذْهَا حذيف فَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ : الصَّمَدُ هُوَ السَّيِّدُ الْمَقْصُودُ فِي الْحَوَائِجِ تَقُولُ الْعَرَبُ صمدت فُلَانًا أصمده - بِكَسْرِ الْمِيمِ - وَأَصْمُدُهُ - بِضَمِّ الْمِيمِ - صَمْدًا - بِسُكُونِ الْمِيمِ - إِذَا قَصَدْته وَالْمَصْمُودُ صَمَدَ كَالْقَبْضِ بِمَعْنَى الْمَقْبُوضِ وَالنَّقْضُ بِمَعْنَى الْمَنْقُوضِ وَيُقَالُ بَيْتٌ مَصْمُودٌ وَمُصَمَّدٌ إِذَا قَصَدَهُ النَّاسُ فِي حَوَائِجِهِمْ قَالَ طرفة :

وَأَنْ يَلْتَقِ الْحَيُّ الْجَمِيعُ تُلَاقِنِي ** إِلَى ذُرْوَةِ الْبَيْتِ الرَّفِيعِ الْمُصَمَّدِ

وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ : صَمَدَهُ يَصْمُدُهُ صَمْدًا إِذَا قَصَدَهُ وَالصَّمَدُ بِالتَّحْرِيكِ السَّيِّدُ لِأَنَّهُ يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ وَيُقَالُ بَيْتٌ مُصَمَّدٌ بِالتَّشْدِيدِ أَيْ مَقْصُودٌ .

وَقَالَ الْخَطَّابِيّ : أَصَحُّ الْوُجُوهِ أَنَّهُ السَّيِّدُ الَّذِي يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ لِأَنَّ الِاشْتِقَاقَ يَشْهَدُ لَهُ فَإِنَّ أَصْلَ الصَّمَدِ الْقَصْدُ يُقَالُ : اصْمُدْ صَمْدَ فُلَانٍ أَيْ اقْصِدْ قَصْدَهُ فَالصَّمَدُ السَّيِّدُ الَّذِي يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْأُمُورِ وَيُقْصَدُ فِي الْحَوَائِجِ وَقَالَ قتادة : الصَّمَدُ الْبَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَمَعْمَرٌ : هُوَ الدَّائِمُ وَقَدْ جَعَلَ الْخَطَّابِيّ وَأَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيّ : الْأَقْوَالَ فِيهِ أَرْبَعَةٌ هَذَيْنِ وَاللَّذَيْنِ تَقَدَّمَا . وَسَنُبَيِّنُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنَّ بَقَاءَهُ وَدَوَامَهُ مِنْ تَمَامِ الصَّمَدِيَّةِ . وَعَنْ مُرَّةَ الهمداني هُوَ الَّذِي لَا يَبْلَى وَلَا يَفْنَى . وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ : هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ وَيَفْعَلُ مَا يَشَاءُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ . وَقَالَ ابْنُ عَطَاءٍ : هُوَ الْمُتَعَالِي عَنْ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ . وَعَنْهُ أَيْضًا قَالَ : الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَتَبَيَّنْ عَلَيْهِ أَثَرٌ فِيمَا أَظْهَرَ يُرِيدُ قَوْلَهُ : ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ : هُوَ الْأَزَلِيُّ بِلَا ابْتِدَاءٍ وَقَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ عَلِيٍّ الْحَكِيمُ التِّرْمِذِيُّ : هُوَ الْأَوَّلُ بِلَا عَدَدٍ وَالْبَاقِي بِلَا أَمَدٍ وَالْقَائِمُ بِلَا عَمَدٍ . وَقَالَ أَيْضًا الصَّمَدُ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَلَا تَحْوِيهِ الْأَفْكَارُ وَلَا تَبْلُغُهُ الْأَقْطَارُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . وَقِيلَ : هُوَ الَّذِي جَلَّ عَنْ شَبَهِ الْمُصَوِّرِينَ . وَقِيلَ هُوَ بِمَعْنَى نَفْيِ التجزي وَالتَّأْلِيفِ عَنْ ذَاتِهِ وَهَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ

الْكَلَامِ وَقِيلَ هُوَ الَّذِي أيست الْعُقُولُ مِنْ الِاطِّلَاعِ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ . وَكَذَلِكَ قِيلَ هُوَ الَّذِي لَا تُدْرِكُ حَقِيقَةَ نُعُوتِهِ

وَصِفَاتِهِ فَلَا يَتَّسِعُ لَهُ اللِّسَانُ وَلَا يُشِيرُ إلَيْهِ الْبَنَانُ . وَقِيلَ هُوَ الَّذِي لَمْ يُعْطِ خَلْقَهُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ إلَّا الِاسْمَ وَالصِّفَةَ . وَعَنْ الْجُنَيْد قَالَ : الَّذِي لَمْ يَجْعَلْ لِأَعْدَائِهِ سَبِيلًا إلَى مَعْرِفَتِهِ . وَنَحْنُ نَذْكُرُ مَا حَضَرْنَا مِنْ أَلْفَاظِ السَّلَفِ بِأَسَانِيدِهَا . فَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ قَالَ : " ثنا أَبِي ثنا مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى بْن نفيع الجرشي ثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عِيسَى يَعْنِي أَبَا خَلَفٍ الْخَزَّازَ ثنا دَاوُد بْنُ أَبِي هِنْدٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : (الصَّمَدُ قَالَ : الصَّمَدُ الَّذِي تَصْمُدُ إلَيْهِ الْأَشْيَاءُ إذَا نَزَلَ بِهِمْ كُرْبَةٌ أَوْ بَلَاءٌ . حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ ثنا مُحَمَّدُ بْنُ ثَعْلَبَةَ بْنِ سَوَاءٍ السدوسي ثنا مُحَمَّدُ بْنُ سَوَاءٍ ثنا سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ أَبِي مَعْشَرٍ عَنْ إبْرَاهِيمَ قَالَ : الصَّمَدُ الَّذِي يَصْمُدُ الْعِبَادُ إلَيْهِ فِي حَوَائِجِهِمْ حَدَّثَنَا أَبِي ثنا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الضَّحَّاكِ ثنا سُوِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ثنا سُفْيَانُ بْنُ حُسَيْنٍ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : الصَّمَدُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي لَا زَوَالَ لَهُ . حَدَّثَنَا أَبِي ثنا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ ثنا يَزِيدُ بْنُ زريع عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ

: الصَّمَدُ الْبَاقِي بَعْدَ خَلْقِهِ وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ ثنا ابْنُ نُمَيْرٍ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ شَقِيقٍ فِي قَوْلِهِ : (الصَّمَدُ) قَالَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ انْتَهَى سُؤْدُدُهُ .

(712/838)

حَدَّثَنَا أَبِي ثنا أَبُو صَالِحٍ ثنا مُعَاوِيَةُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : (الصَّمَدُ) قَالَ : السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدُدِهِ وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عَظَمَتِهِ وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ وَالْعَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدُدِ هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَذِهِ صِفَتُهُ لَا تَنْبَغِي لِأَحَدٍ إِلَّا لَهُ لَيْسَ لَهُ كُفُؤٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ سُبْحَانَ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ . حَدَّثَنَا كَثِيرُ بْنُ شِهَابٍ الْمَذْحِجِيُّ الْقَزْوِينِيُّ ثنا مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ سَابِقٍ ثنا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِيُّ عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ فِي قَوْلِهِ : (الصَّمَدُ) قَالَ : الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ ثنا ابْنُ عُلَيَّةَ عَنْ أَبِي رَجَاءٍ عَنْ عِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ (الصَّمَدُ) قَالَ : الَّذِي لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ شَيْءٌ . حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ الْأَشَجُّ ثنا أَبُو أَحْمَدَ ثنا مِنْدَلُ بْنُ عَلِيٍّ عَنْ أَبِي رَوْقٍ عَطِيَّةَ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : (الصَّمَدُ) الَّذِي لَيْسَ لَهُ أَحْشَاءٌ وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ مِثْلُهُ .

حَدَّثَنَا أَبِي ثنا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الرُّومِيُّ ثنا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ قَائِدُ الْأَعْمَشِ عَنْ صَالِحِ بْنِ حَيَّانَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بريدة عَنْ أَبِيهِ قَالَ لَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَدْ

(713/838)

رَفَعَهُ قَالَ : (الصَّمَدُ) الَّذِي لَا جَوْفَ

(714/838)

لَهُ . وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فِي إِحْدَى الرِّوَايَاتِ وَالْحَسَنِ وَعِكْرِمَةَ وَعَطِيَّةَ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ فِي إِحْدَى الرِّوَايَاتِ وَالضَّحَّاكِ مِثْلُ ذَلِكَ . حَدَّثَنَا أَبِي ثنا قَبِيصَةُ ثنا سُفْيَانُ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : الصَّمَدُ الْمُصْمَتُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ . حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الطهراني ثنا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ الْعَدَنِيُّ ثنا الْحَكَمُ بْنُ أَبَانَ عَنْ عِكْرِمَةَ فِي قَوْلِهِ (الصَّمَدُ) قَالَ : (الصَّمَدُ) الَّذِي لَا يُطْعَمُ . حَدَّثَنَا أَبِي ثنا عَلِيُّ بْنُ هَاشِمِ بْنِ مَرْزُوقٍ ثنا هشيم عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ : (الصَّمَدُ) الَّذِي لَا يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَلَا يَشْرَبُ الشَّرَابَ . حَدَّثَنَا أَبِي وَأَبُو زُرْعَةَ قَالَا ثنا أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ ثنا مُحَمَّدُ

بْنُ مَيْسِرٍ - يَعْنِي أَبَا سَعْدٍ الصغاني - ثنا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِي عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنْ أبي بْنِ كَعْبٍ فِي قَوْلِهِ: (الصَّمَدُ) قَالَ: (الصَّمَدُ) الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يَلِدُ إِلَّا يَمُوتُ وَلَيْسَ شَيْءٌ يَمُوتُ إِلَّا يُورَثُ وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمُوتُ وَلَا يُورَثُ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ قَالَ: لَمْ يَكُنْ لَهُ شَبَهٌ وَلَا عِدْلٌ وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ. حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ثنا مَحْمُودُ بْنُ خِدَاشٍ ثنا أَبُو سَعْدٍ الصغاني. ثنا أَبُو جَعْفَرٍ الرَّازِي عَنْ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنْ أبي بْنِ كَعْبٍ: "أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ فَأَنْزَلَ

اللَّهُ

هَذِهِ السُّورَةَ" حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ ثنا الْعَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ ثَنَا يَزِيدُ بْنُ زُرَيْعٍ عَنْ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُكَافِئُهُ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدٌ. حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ ثَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الجرشي ثَنَا أَبُو خَلَفٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عِيسَى ثَنَا دَاوُدُ بْنُ أَبِي هِنْدٍ عَنْ

عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿ إِنَّ الْيَهُودَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ وحيي بْنُ أَخْطَبَ وجدي بْن أَخْطَبُ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ صِفْ لَنَا رَبَّكَ الَّذِي بَعَثَكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ لَمْ يَلِدْ ﴾ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْوَلَدُ ﴿ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ فَيَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ ﴾ وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ الطبري فِي تَفْسِيرِهِ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ الْمَرْوَزِي . وَمَحْمُودُ بْنُ خِدَاشٍ الطالقاني فَذَكَرَ مِثْلَ إِسْنَادِ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ أبي بْن كَعْبَ ﴿ سُؤَالَ الْمُشْرِكِينَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴾ . حَدَّثَنَا ابْنُ حميد ثَنَا يَحْيَى ابْنُ وَاضِحٍ ثَنَا الْحُسَيْنُ عَنْ يَزِيدَ عَنْ عِكْرِمَةَ ﴿ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا: لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبِرْنَا عَنْ صِفَةِ رَبِّكَ مَا هُوَ؟ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ ﴾ وَرَوَاهُ أَيْضًا عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا شريح ثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُجَاهِدٍ عَنْ الشَّعْبِيِّ عَنْ جَابِرٍ فَذَكَرَهُ قَالَ: وَقِيلَ:

هُوَ مِنْ سُؤَالِ الْيَهُودِ . حَدَّثَنَا ابْنُ حميد ثَنَا سَلَمَةُ ثَنَا ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدٍ

قَالَ: ﴿ أَتَى رَهْطٌ مِنْ الْيَهُودِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ هَذَا اللَّهُ خَلَقَ الْخَلْقَ فَمَنْ خَلَقَهُ؟ فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى انْتُقِعَ لَوْنُهُ ثُمَّ سَاوَرَهُمْ غَضَبًا لِرَبِّهِ فَجَاءَهُ جِبْرِيلُ فَسَكَّنَهُ وَقَالَ اخْفِضْ عَلَيْكَ جَنَاحَكَ يَا مُحَمَّدُ وَجَاءَهُ مِنْ اللَّهِ جَوَابٌ مَا سَأَلُوهُ عَنْهُ قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إِلَى آخِرِهَا فَلَمَّا تَلَاهَا عَلَيْهِمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لَهُ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ كَيْفَ خَلْقُهُ كَيْفَ عَضُدُهُ؟ كَيْفَ سَاعِدُهُ؟ وَكَيْفَ ذِرَاعُهُ فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ مِنْ غَضَبِهِ الْأَوَّلِ وَسَاوَرَهُمْ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ: مِثْلَ مَقَالَتِهِ الْأُولَى وَأَتَاهُ بِجَوَابِ مَا سَأَلُوهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ﴾. وَرَوَى الْحَكَمُ بْنُ مَعْبَدٍ فِي (كِتَابِ الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ قَالَ ثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ النُّعْمَانِ ثنا سَلَمَةُ بْنُ شَبِيبٍ ثني يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ثني ضِرَارٌ عَنْ أَبَانَ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: ﴿ أَتَتْ يَهُودُ خَيْبَرَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ خَلَقَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ نُورِ الْحِجَابِ وَآدَمَ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ وَإِبْلِيسَ مِنْ لَهَبِ النَّارِ وَالسَّمَاءَ مِنْ دُخَانٍ وَالْأَرْضَ مِنْ زَبَدِ الْمَاءِ فَأَخْبِرْنَا عَنْ رَبِّكَ؟ قَالَ: فَلَمْ يُجِبْهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ: ﴿

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ لَيْسَ لَهُ عُرُوقٌ شُعَبَ إِلَيْهَا . الصَّمَدُ لَيْسَ بِأَجْوَفَ وَلَا يَأْكُلُ

وَلَا يَشْرَبُ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ يَعْدِلُ مَكَانَهُ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ الْحَدِيثَ . وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : ثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ الْأَسْوَدِ ثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رَبِيعَةَ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ سَابُورَ عَنْ عَطِيَّةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : (الصَّمَدُ الَّذِي لَيْسَ بِأَجْوَفَ حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ ثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ ثَنَا سُفْيَانُ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ (الصَّمَدُ الْمُصْمَتُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ ثَنَا وَكِيعٌ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ مَنْصُورٍ مِثْلَهُ سَوَاءٌ . حَدَّثَنَا الْحَارِثُ ثَنَا الْحَسَنُ ثَنَا وَرْقَاءُ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ مِثْلَهُ حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ ثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ ثَنَا الرَّبِيعُ بْنُ مُسْلِمٍ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : (الصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ وَبِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ مَيْسَرَةَ قَالَ : أَرْسَلَنِي مُجَاهِدٌ إِلَى سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَسْأَلُهُ عَنْ (الصَّمَدِ فَقَالَ : الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ ثَنَا يَحْيَى ثَنَا إِسْمَاعِيلُ ابْنُ أَبِي خَالِدٍ عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ : (الصَّمَدُ الَّذِي لَا يُطْعِمُ

الطَّعَامَ ورَوَاهُ يعْقُوبُ عَنْ هشيم عَنْ إِسْمَاعِيل عَنْهُ قَال : لَا يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَلَا يشْرَبُ الشَّرَاب . حدَّثنا ابْنُ بَشَّار وزَيْدُ بْنُ أَخْزَمَ قَالَا : ثنَا ابْنُ دَاوُد عَنْ الْمُسْتَقِيم ابْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّب قَال : (الصَّمَدُ الَّذِي لَا حَشْوَ

(721/838)

لَهُ حدَّثنَا الْحُسَيْنُ ثنَا أَبو مُعَاذٍ ثنَا عُبَيْدٌ قَال : سَمِعْت الضَّحَّاك يَقُول : (الصَّمَدُ) الَّذِي لَا جوْف لَهُ وروى عَنْ ابْنِ بريدة فِيه حدِيثًا مرْفُوعًا لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ قَال : وَقَال آخرُون هُوَ الَّذِي لَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ حدَّثَنَا يعْقُوبُ بْنُ أَبِي عُلَيَّة عَنْ أَبِي رجَاءٍ سَمِعْت عِكْرِمَةَ قَال فِي قَوْلِه : (الصَّمَدُ) لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ شَيْءٌ : لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يولَدْ حَدَّثنَا ابْنُ بَشَّارٍ ثنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ثنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي رجَاءٍ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ عَنْ عِكْرِمَةَ قَال : (الصَّمَدُ) الَّذِي لَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ . وقَال آخرُون لَمْ يَلِدْ ولَمْ يولَدْ وذَكَرَ حدِيث أَبِي بْن كَعْب الَّذِي روَاهُ ابْنُ أَبِي حاتِمٍ وَالَّذِي فِيه : أَنَّهُ سُبْحانَهُ لَا يمُوتُ وَلَا يُورثُ قَال : وَقَال آخرُون : هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي انْتَهَى فِي سُؤْدُدِه قَال : وثَنَا أَبو السَّائِب ثنَا أَبو مُعاوِيَة عَنْ الْأَعْمَش عَنْ شَقِيقٍ قَال : (الصَّمَدُ) هُوَ السَّيِّدُ الَّذِي انْتَهَى فِي سُؤْدُدِه حدَّثنَا أَبو كريب وَابْنُ بَشَّارٍ وَابْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قَالُوا : ثنَا وَكِيعٌ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَال (الصَّمَدُ السَّيِّدُ الَّذِي انْتَهَى فِي سُؤْدُدِه حدَّثنَا ابْنُ حميد ثنَا

مهران عَنْ سُفْيَانَ عَنْ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي وَائِلٍ مِثْلَهُ حَدَّثَنَا أَبُو صَالِحٍ ثنا مُعَاوِيَةُ عَنْ عَلِيٍّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : (الصَّمَدُ) قَالَ السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدُدِهِ وَذَكَرَ مِثْلَ الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ كَمَا تَقَدَّمَ .

(722/838)

قُلْت : الِاشْتِقَاقُ يَشْهَدُ لِلْقَوْلَيْنِ جَمِيعًا قَوْلِ مَنْ قَالَ : إنَّ (الصَّمَدَ) الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ وَقَوْلِ مَنْ قَالَ إنَّهُ السَّيِّدُ وَهُوَ عَلَى الْأَوَّلِ أَدَلُّ ؛ فَإِنَّ الْأَوَّلَ أَصْلٌ لِلثَّانِي وَلَفْظُ (الصَّمَدِ) يُقَالُ عَلَى مَا لَا جَوْفَ لَهُ فِي اللُّغَةِ . قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ الْمَلَائِكَةُ صَمَدٌ وَالْآدَمِيُّونَ جَوْفٌ وَفِي حَدِيثِ آدَمَ أَنَّ إبْلِيسَ قَالَ عَنْهُ أَنَّهُ أَجْوَفُ لَيْسَ بِصَمَدِ وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ : الْمُصَمَّدُ لُغَةً فِي الْمُصْمَتِ وَهُوَ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ قَالَ وَالصِّمَادُ عِفَاصُ الْقَارُورَةِ وَقَالَ : الصَّمَدُ الْمَكَانُ الْمُرْتَفِعُ الْغَلِيظُ قَالَ أَبُو النَّجْمِ :

يُغَادِرُ الصَّمَدَ كَظَهْرِ الْأَجْزَلِ

وَأَصْلُ هَذِهِ الْمَادَّةِ الْجَمْعُ وَالْقُوَّةُ وَمِنْهُ يُقَالُ يَصْمُدُ الْمَالَ : أَيْ يَجْمَعُهُ وَكَذَلِكَ " السَّيِّدُ " أَصْلُهُ سيود اجْتَمَعَتْ يَاءٌ وَوَاوٌ وَسَبَقَتْ إحْدَاهُمَا بِالسُّكُونِ فَقُلِبَتْ الْوَاوُ يَاءً وَأُدْغِمَتْ . كَمَا قِيلَ مَيِّتٌ وَأَصْلُهُ ميوت . وَالْمَادَّةُ فِي السَّوَادِ وَالسُّؤْدُدِ تَدُلُّ عَلَى الْجَمْعِ وَاللَّوْنُ الْأَسْوَدُ

هُوَ الْجَامِعُ لِلْبَصَرِ .

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا ﴾ قَالَ أَكْثَرُ السَّلَفِ (سَيِّدًا) حَلِيمًا وَكَذَلِكَ يُرْوَى عَنْ الْحَسَنِ . وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ . وَعِكْرِمَةَ وَعَطَاءٍ . وَأَبِي الشَّعْثَاءِ وَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ . وَمُقَاتِلٍ وَقَالَ : أَبُو رَوْقٍ عَنْ الضَّحَّاكِ أَنَّهُ الْحَسَنُ الْخُلُقِ . وَرَوَى سَالِمٌ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ التَّقِيُّ وَلَا يَسُودُ الرَّجُلُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونَ فِي نَفْسِهِ مُجْتَمِعَ الْخُلُقِ ثَابِتًا .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ : مَا رَأَيْت بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْوَدَ مِنْ مُعَاوِيَةَ فَقِيلَ لَهُ : وَلَا أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ قَالَ : كَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ خَيْرًا مِنْهُ وَمَا رَأَيْت بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْوَدَ مِنْ مُعَاوِيَةَ . قَالَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ : يَعْنِي بِهِ الْحَلِيمَ أَوْ قَالَ : الْكَرِيمُ وَلِهَذَا قِيلَ : إذَا شِئْت يَوْمًا أَنْ تَسُودَ قَبِيلَةً فَبِالْحِلْمِ سُدْ لَا بِالتَّسَرُّعِ وَالشَّتْمِ وَلِهَذَا فَسَّرَ طَائِفَةٌ مِنْ السَّلَفِ السَّيِّدَ بِأَنَّهُ سَيِّدُ قَوْمِهِ فِي الدِّينِ وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : هُوَ الشَّرِيفُ وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الَّذِي يَفُوقُ قَوْمَهُ فِي الْخَيْرِ . وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : السَّيِّدُ هُنَا الرَّئِيسُ وَالْإِمَامُ فِي الْخَيْرِ وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ : هُوَ الْكَرِيمُ عَلَى رَبِّهِ وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ هُوَ الْفَقِيهُ الْعَالِمُ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ لِعِفَاصِ الْقَارُورَةِ : صِمَادٌ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ الْعِفَاصُ جِلْدٌ يُلْبِسُهُ

رَأْسَ الْقَارُورَةِ وَأَمَّا الَّذِي يَدْخُلُ فِي فَمِهِ فَهُوَ الصِّمَامُ وَقَدْ عَفَصْتُ الْقَارُورَةَ شَدَدْتُ عَلَيْهَا الْعِفَاصَ . (قُلْتُ : وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي اللُّقَطَةِ : ﴿ ثُمَّ اعْرِفْ عِفَاصَهَا وَوِكَاءَهَا ﴾ وَالْمُرَادُ بِالْعِفَاصِ : مَا يَكُونُ فِيهِ الدَّرَاهِمُ كَالْخِرْقَةِ الَّتِي تُرْبَطُ فِيهَا الدَّرَاهِمُ وَالْوِكَاءُ : مِثْلُ الْخَيْطِ الَّذِي يُرْبَطُ بِهِ وَهَذَا مِنْ جِنْسِ عِفَاصِ الْقَارُورَةِ . وَلَفْظُ الْعَفْصِ وَالسَّدِّ وَالصَّمَدِ

وَالْجَمْعُ وَالسُّؤْدُدُ مَعَانِيهَا مُتَشَابِهَةٌ فِيهَا الْجَمْعُ وَالْقُوَّةُ وَيُقَالُ طَعَامٌ عَفِصٌ وَفِيهِ عُفُوصَةٌ ؛ أَيْ تَقَبُّضٌ وَمِنْهُ الْعَفْصُ الَّذِي يُتَّخَذُ مِنْهُ الْحِبْرُ . وَقَدْ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : هُوَ مُوَلَّدٌ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْبَادِيَةِ وَهَذَا لَا يَضُرُّ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ عَفْصٌ يُسَمُّونَهُ بِهَذَا الِاسْمِ لَكِنَّ التَّسْمِيَةَ بِهِ جَارِيَةٌ عَلَى أُصُولِ كَلَامِ الْعَرَبِ وَكَذَلِكَ تَسْمِيَتُهُمْ لِمَا يَدْخُلُ فِي فَمِهَا صِمَامٌ فَإِنَّ هَذِهِ الْمَادَّةَ فِيهَا مَعْنَى الْجَمْعِ وَالسَّدِّ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : صِمَامُ الْقَارُورَةِ سِدَادُهَا وَالْحَجَرُ الْأَصَمُّ الصُّلْبُ الْمُصْمَتُ وَالرَّجُلُ الْأَصَمُّ هُوَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ لِانْسِدَادِ سَمْعِهِ وَالرَّجُلُ الصِّمَّةُ الشُّجَاعُ وَالصِّمَّةُ الذَّكَرُ مِنْ الْحَيَّاتِ وَصَمِيمُ الشَّيْءِ خَالِصُهُ حَيْثُ لَمْ يَدْخُلْ إلَيْهِ مَا يُفَرِّقُهُ وَيُضْعِفُهُ يُقَالُ صَمِيمُ الْحَرِّ وَصَمِيمُ الْبَرْدِ وَفُلَانٌ مِنْ صَمِيمِ قَوْمِهِ وَالصَّمْصَامُ : الصَّارِمُ الْقَاطِعُ الَّذِي لَا

يَنْثَنِي وَصَمَّمَ فِي السَّيْرِ وَغَيْرِهِ أَيْ مَضَى وَرَجُلٌ صُمٌّ أَيْ غَلِيظٌ . وَمِنْهُ فِي الِاشْتِقَاقِ الْأَكْبَرِ الصَّوْمُ فَإِنَّ الصَّوْمَ هُوَ الْإِمْسَاكُ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : كُلُّ مُمْسِكٍ عَنْ طَعَامٍ أَوْ كَلَامٍ أَوْ سَيْرٍ فَهُوَ صَائِمٌ لِأَنَّ الْإِمْسَاكَ فِيهِ اجْتِمَاعٌ وَالصَّائِمُ لَا يَدْخُلُ جَوْفَهُ شَيْءٌ وَيُقَالُ صَامَ الْفَرَسُ إذَا قَامَ فِي غَيْرِ اعْتِلَافٍ . قَالَ النَّابِغَةُ : خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتَ الْعَجَاجِ وَأُخْرَى تَعْلُكُ اللجما

(725/838)

وَكَذَلِكَ السَّدُّ وَالسَّدَادُ وَالسُّؤْدُدُ وَالسَّوَادُ وَكَذَلِكَ لَفْظُ الصَّمَدِ فِيهِ الْجَمْعُ وَالْجَمْعُ فِيهِ الْقُوَّةُ فَإِنَّ الشَّيْءَ كُلَّمَا اجْتَمَعَ بَعْضُهُ إلَى بَعْضٍ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ خَلَلٌ كَانَ أَقْوَى مِمَّا إذَا كَانَ فِيهِ خُلُوٌّ . وَلِهَذَا يُقَالُ لِلْمَكَانِ الْغَلِيظِ الْمُرْتَفِعِ : صَمَدٌ لِقُوَّتِهِ وَتَمَاسُكِهِ وَاجْتِمَاعِ أَجْزَائِهِ وَالرَّجُلُ الصَّمَدُ هُوَ السَّيِّدُ الْمَصْمُودُ ؛ أَيْ الْمَقْصُودُ يُقَالُ قَصَدْته وَقَصَدْت لَهُ وَقَصَدْت إلَيْهِ وَكَذَلِكَ هُوَ مَصْمُودٌ وَمَصْمُودٌ لَهُ وَإِلَيْهِ وَالنَّاسُ إنَّمَا يَقْصِدُونَ فِي حَوَائِجِهِمْ مَنْ يَقُومُ بِهَا . وَإِنَّمَا يَقُومُ بِهَا مَنْ يَكُونُ فِي نَفْسِهِ مُجْتَمِعًا قَوِيًّا ثَابِتًا وَهُوَ السَّيِّدُ الْكَرِيمُ بِخِلَافِ مَنْ يَكُونُ هَلُوعًا جَزُوعًا يَتَفَرَّقُ وَيُقْلِقُ وَيَتَمَزَّقُ مِنْ كَثْرَةِ حَوَائِجِهِمْ وَثِقَلِهَا فَإِنَّ هَذَا لَيْسَ بِسَيِّدٍ صَمَدٍ يَصْمُدُونَ إلَيْهِ فِي حَوَائِجِهِمْ . فَهُمْ إنَّمَا سَمَّوْا السَّيِّدَ مِنْ النَّاسِ صَمَدًا ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ الْمَعْنَى الَّذِي لِأَجْلِهِ يَقْصِدُهُ

النَّاسُ فِي حَوَائِجِهِمْ فَلَيْسَ مَعْنَى السَّيِّدِ فِي لُغَتِهِمْ مَعْنًى إضَافِيٌّ فَقَطْ - كَلَفْظِ الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ - بَلْ هُوَ مَعْنًى قَائِمٌ بِالسَّيِّدِ ؛ لِأَجْلِهِ يَقْصِدُهُ النَّاسُ وَالسَّيِّدُ مِنْ السُّؤْدُدِ وَالسَّوَادِ وَهَذَا مِنْ جِنْسِ السَّدَادِ فِي الِاشْتِقَاقِ الْأَكْبَرِ فَإِنَّ الْعَرَبَ تُعَاقِبُ بَيْنَ حَرْفِ الْعِلَّةِ وَالْحَرْفِ الْمُضَاعَفِ . كَمَا يَقُولُونَ : تَقَضَّى الْبَازِي وَتَقَضَّضَ وَالسَّادُّ هُوَ الَّذِي يَسُدُّ غَيْرُهُ فَلَا يَبْقَى فِيهِ خُلُوٌّ وَمِنْهُ سَدَادُ الْقَارُورَةِ وَسِدَادُ

(726/838)

الثَّغْرِ بِالْكَسْرِ فِيهِمَا وَهُوَ مَا يَسُدُّ ذَلِكَ وَمِنْهُ السَّدَادُ بِالْفَتْحِ : وَهُوَ الصَّوَابُ وَمِنْهُ الْقَوْلُ السَّدِيدُ . قَالَ

(727/838)

اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ قَالُوا قَصْدًا حَقًّا . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ صَوَابًا . وَعَنْ قتادة وَمُقَاتِلٍ عَدْلًا . وَعَنْ السدي مُسْتَقِيمًا وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحٌ فَإِنَّ الْقَوْلَ السَّدِيدَ هُوَ الْمُطَابِقُ الْمُوَافِقُ فَإِنْ كَانَ خَبَرًا كَانَ صِدْقًا مُطَابِقًا لِمُخْبِرِهِ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ

وَإِنْ كَانَ أَمْرًا كَانَ أَمْرًا بِالْعَدْلِ الَّذِي لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ ؛ وَلِهَذَا يُفَسِّرُونَ السَّدَادَ بِالْقَصْدِ وَالْقَصْدَ بِالْعَدْلِ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : التَّسْدِيدُ التَّوْفِيقُ لِلسَّدَادِ وَهُوَ الصَّوَابُ وَالْقَصْدُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَرَجُلٌ مُسَدَّدٌ إذَا كَانَ يَعْمَلُ بِالسَّدَادِ . وَالْقَصْدُ . وَالْمُسَدَّدُ الْمُقَوَّمُ وَسَدَّدَ رُمْحَهُ وَأَمْرٌ سَدِيدٌ وَأَسَدُّ أَيْ قَاصِدٌ وَقَدْ اسْتَدَّ الشَّيْءُ اسْتَقَامَ . قَالَ الشَّاعِرُ : أُعَلِّمُهُ الرِّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ فَلَمَّا اسْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : اشْتَدَّ بِالشِّينِ الْمُعْجَمَةِ لَيْسَ بِشَيْءِ وَتَعْبِيرُهُمْ عَنْ السَّدِّ بِالْقَصْدِ يَدُلُّك عَلَى أَنَّ لَفْظَ الْقَصْدِ فِيهِ مَعْنَى الْجَمْعِ وَالْقُوَّةِ وَالْقَصْدُ الْعَدْلُ كَمَا أَنَّهُ السَّدَادُ وَالصَّوَابُ وَهُوَ الْمُطَابِقُ الْمُوَافِقُ الَّذِي لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ وَهَذَا هُوَ الْجَامِعُ الْمُطَابِقُ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ أَيْ السَّبِيلُ الْقَصْدُ وَهُوَ السَّبِيلُ الْعَدْلُ : أَيْ إلَيْهِ تَنْتَهِي السَّبِيلُ الْعَادِلَةُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴾ أَيْ الْهُدَى إلَيْنَا

(728/838)

هَذَا أَصَحُّ الْأَقْوَالِ فِي الْآيَتَيْنِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ . وَمِنْهُ فِي الِاشْتِقَاقِ الْأَوْسَطِ : الصِّدْقُ فَإِنَّ حُرُوفَهُ حُرُوفُ الْقَصْدِ فَمِنْهُ الصِّدْقُ فِي الْحَدِيثِ لِمُطَابَقَتِهِ مُخْبِرَهُ كَمَا قِيلَ فِي السَّدَادِ . وَالصِّدْقُ بِالْفَتْحِ الصَّلْبُ مِنْ الرِّمَاحِ وَيُقَالُ

الْمُسْتَوِي فَهُوَ مُعْتَدِلٌ صُلْبٌ لَيْسَ فِيهِ خَلَلٌ وَلَا عِوَجٌ وَالصُّنْدُوقُ وَاحِدُ الصَّنَادِيقِ فَإِنَّهُ يَجْمَعُ مَا يُوضَعُ فِيهِ . وَمِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ فِي بَابِ الِاشْتِقَاقِ أَنَّهُ إذَا قِيلَ هَذَا مُشْتَقٌّ مِنْ هَذَا فَلَهُ مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ تَنَاسُبًا فِي اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى سَوَاءٌ كَانَ أَهْلُ اللُّغَةِ تَكَلَّمُوا بِهَذَا بَعْدَ هَذَا أَوْ بِهَذَا بَعْدَ هَذَا وَعَلَى هَذَا فَكُلٌّ مِنْ الْقَوْلَيْنِ مُشْتَقٌّ مِنْ الْآخَرِ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ أَنَّهُ مُنَاسِبٌ لَهُ لَفْظًا وَمَعْنًى كَمَا يُقَالُ : هَذَا الْمَاءُ مِنْ هَذَا الْمَاءِ وَهَذَا الْكَلَامُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ وَعَلَى هَذَا فَإِذَا قِيلَ : إنَّ الْفِعْلَ مُشْتَقٌّ مِنْ الْمَصْدَرِ أَوْ الْمَصْدَرَ مُشْتَقٌّ مِنْ الْفِعْلِ كَانَ كِلَا الْقَوْلَيْنِ صَحِيحًا وَهَذَا هُوَ الِاشْتِقَاقُ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ دَلِيلُ التَّصْرِيفِ . وَأَمَّا الْمَعْنَى الثَّانِي فِي الِاشْتِقَاقِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا أَصْلًا لِلْآخَرِ

(729/838)

فَهَذَا إذَا عَنَى بِهِ أَنَّ أَحَدَهُمَا تَكَلَّمَ بِهِ قَبْلَ الْآخَرِ لَمْ يَقُمْ عَلَى هَذَا دَلِيلٌ فِي أَكْثَرِ الْمَوَاضِعِ وَإِنْ عَنَى بِهِ أَنَّ أَحَدَهُمَا مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْآخَرِ فِي الْعَقْلِ لِكَوْنِ هَذَا مُفْرَدًا وَهَذَا مُرَكَّبًا فَالْفِعْلُ مُشْتَقٌّ مِنْ الْمَصْدَرِ وَالِاشْتِقَاقُ الْأَصْغَرُ اتِّفَاقُ الْقَوْلَيْنِ فِي الْحُرُوفِ وَتَرْتِيبِهَا وَالْأَوْسَطُ اتِّفَاقُهُمَا فِي الْحُرُوفِ لَا فِي التَّرْتِيبِ وَالْأَكْبَرُ اتِّفَاقُهُمَا فِي أَعْيَانِ بَعْضِ الْحُرُوفِ وَفِي الْجِنْسِ لَا فِي الْبَاقِي كَاتِّفَاقِهِمَا فِي كَوْنِهِمَا مِنْ حُرُوفِ الْحَلْقِ إذَا قِيلَ حَزَرَ وَعَزَّرَ وَأَزَرَ فَإِنَّ

الْجَمِيعَ فِيهِ مَعْنَى الْقُوَّةِ وَالشِّدَّةِ وَقَدْ اشْتَرَكَتْ مَعَ الرَّاءِ وَالزَّايِ وَالْحَاءِ فِي أَنَّ الثَّلَاثَةَ حُرُوفٌ حَلْقِيَّةٌ وَعَلَى هَذَا فَإِذَا قِيلَ: الصَّمَدُ بِمَعْنَى الْمُصْمَتِ وَأَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْهُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَهُوَ صَحِيحٌ فَإِنَّ الدَّالَ أُخْتُ التَّاءِ؛ فَإِنَّ الصَّمْتَ السُّكُوتُ وَهُوَ إمْسَاكٌ. وَإِطْبَاقٌ لِلْفَمِ عَنْ الْكَلَامِ. قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: الْمُصْمَتُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ وَقَدْ أَصْمَتُّهُ أَنَا وَبَابٌ مُصْمَتٌ قَدْ أُبْهِمَ إغْلَاقُهُ. وَالْمُصْمَتُ مِنْ الْخَيْلِ الْبَهِيمُ أَيْ لَا يُخَالِطُ لَوْنَهُ لَوْنٌ آخَرُ وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: إنَّمَا حُرِّمَ مِنْ الْحَرِيرِ الْمُصْمَتُ فَالْمُصْمَدُ وَالْمُصْمَتُ مُتَّفِقَانِ فِي الِاشْتِقَاقِ الْأَكْبَرِ وَلَيْسَتْ الدَّالُ مُنْقَلِبَةً عَنْ التَّاءِ بَلْ الدَّالُ أَقْوَى وَالْمُصْمَدُ أَكْمَلُ فِي مَعْنَاهُ مِنْ الْمُصْمَتِ وَكُلَّمَا قَوِيَ الْحَرْفُ كَانَ مَعْنَاهُ أَقْوَى فَإِنَّ لُغَةَ الْعَرَبِ فِي غَايَةِ

الْإِحْكَامِ وَالتَّنَاسُبِ وَلِهَذَا كَانَ الصَّمْتُ إمْسَاكٌ عَنْ الْكَلَامِ مَعَ

إمْكَانِه وَالْإِنْسَانُ أَجْوَفُ يُخْرِجُ الْكَلَامَ مِنْ فِيهِ لَكِنَّهُ قَدْ يَصْمُتُ بِخِلَافِ الصَّمَدِ فَإِنَّهُ إنَّمَا اُسْتُعْمِلَ فِيمَا لَا تَفَرُّقَ فِيهِ كَالصَّمَدِ وَالسَّيِّدِ وَالصَّمَدُ مِنْ الْأَرْضِ وَصِمَادُ الْقَارُورَةِ وَنَحْو ذَلِكَ . فَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْمُتَنَاسِبَةِ أَكْمَلُ مِنْ أَلْفَاظِ الصَّمَدِ فَإِنَّ فِيهِ الصَّادَ وَالْمِيمَ وَالدَّالَ وَكُلٌّ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الثَّلَاثَةِ لَهَا مَزِيَّةٌ عَلَى مَا يُنَاسِبُهَا مِنْ الْحُرُوفِ وَالْمَعَانِي الْمَدْلُولِ عَلَيْهَا بِمِثْلِ هَذِهِ الْحُرُوفِ أَكْمَلُ . وَمِمَّا يُنَاسِبُ هَذِهِ الْمَعَانِي مَعْنَى " الصَّبْرِ " فَإِنَّ الصَّبْرَ فِيهِ جَمْعٌ وَإِمْسَاكٌ وَلِهَذَا قِيلَ : الصَّبْرُ حَبْسُ النَّفْسِ عَنْ الْجَزَعِ يُقَالُ صَبَرَ وَصَبَّرْته أَنَا وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ وَكَذَلِكَ مَعْنَى السَّيِّدِ الصَّمَدُ خِلَافُ مَعْنَى الْجَزُوعِ الْمَنُوعِ وَمِنْهُ الصُّبْرَةُ مِنْ الطَّعَامِ فَإِنَّهَا مُجْتَمِعَةٌ مُكَوَّمَةٌ والصبارة الْحِجَارَةُ وَصُبْرُ الشَّيْءِ غِلَظُهُ وَضِدُّهُ الْجَزْعُ وَفِيهِ مَعْنَى التَّقَطُّعِ وَالتَّفَرُّقِ يُقَالُ جَزَعَ لَهُ جَزْعَةً مِنْ الْمَالِ أَيْ قَطَعَ لَهُ قِطْعَةً وَالْجُزَيْعَةُ : الْقِطْعَةُ مِنْ الْغَنَمِ واجتزعت مِنْ الشَّجَرِ عُودًا أَيْ اقْتَطَعْته واكتسرته وَجَزَعْت الْوَادِيَ إذَا قَطَعْته عَرْضًا وَالْجِزْعُ مُنْعَطَفُ الْوَادِي وَمِنْهُ الْجَزْعُ وَهُوَ الْخَرَزُ الْيَمَانِيُّ الَّذِي فِيهِ بَيَاضٌ وَسَوَادٌ وَكَذَلِكَ جَزَّعَ الْبُسْرَ تَجْزِيعًا إذَا أَرْطَبَ نِصْفُهُ أَوْ ثُلُثَاهُ وَهُوَ خِلَافُ قَوْلِهِمْ مُصْمَتٌ لِلَّوْنِ الْوَاحِدِ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الِاجْتِمَاعِ وَفِي هَذَا مِنْ

التَّفَرُّقِ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴾ ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ

جَزُوعًا ﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : الْهَلَعُ أَفْحَشُ الْجَزَعِ وَقَالَ غَيْرُهُ : هُوَ فِي اللُّغَةِ أَشَدُّ الْحِرْصِ وَأَسْوَأُ الْجَزَعِ وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ شَرُّ مَا فِي الْمَرْءِ شُحٌّ هَالِعٌ وَجُبْنٌ خَالِعٌ ﴾ وَنَاقَةٌ هَلُوعٌ إذَا كَانَتْ سَرِيعَةَ السَّيْرِ خَفِيفَةً وَذِئْبٌ هَلِعٌ بَلِعٌ وَالْهَلَعُ مِنْ الْحِرْصِ وَالْبُلَعُ مِنْ الِابْتِلَاعِ وَلِهَذَا كَانَ كَلَامُ السَّلَفِ فِي تَفْسِيرِهِ يَتَضَمَّنُ هَذِهِ الْمَعَانِي فَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : هُوَ الَّذِي إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : هُوَ الْحَرِيصُ عَلَى مَا لَا يَحِلُّ لَهُ . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ : شَحِيحًا . وَعَنْ عِكْرِمَةَ : ضَجُورًا . وَعَنْ جَعْفَرٍ : حَرِيصًا وَعَنْ الْحَسَنِ وَالضَّحَّاكِ : بَخِيلًا وَعَنْ مُجَاهِدٍ : شَرِهًا وَعَنْ الضَّحَّاكِ أَيْضًا : الْهَلُوعُ الَّذِي لَا يَشْبَعُ وَعَنْ مُقَاتِلٍ : ضَيِّقُ الْقَلْبِ وَعَنْ عَطَاءٍ : عَجُولًا وَهَذِهِ الْمَعَانِي كُلُّهَا تُنَافِي الثَّبَاتَ وَالْقُوَّةَ وَالِاجْتِمَاعَ وَالْإِمْسَاكَ وَالصَّبْرَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ قَدْ قِيلَ إنَّ الْمُرَادَ بِهِ أَنَّهَا تَنْصَدِعُ فَيَمُوتُونَ فَإِنَّهُ كَمَا قِيلَ : فِي مِثْلِ ذَلِكَ قَدْ انْصَدَعَ قَلْبُهُ

وَقَدْ تَفَرَّقَ قَلْبِي وَقَدْ تَشَتَّتَ قَلْبِي وَقَدْ تَقَسَّمَ قَلْبِي وَمِنْهُ يُقَالُ لِلْخَوْفِ: قَدْ فَرَّقَ قَلْبَهُ وَيُقَالُ: بِإِزَاءِ ذَلِكَ هُوَ ثَابِتُ الْقَلْبِ مُجْتَمِعُ الْقَلْبِ

مَجْمُوعُ الْقَلْبِ.

فَصْلٌ:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ فَأَدْخَلَ اللَّامَ فِي الصَّمَدِ وَلَمْ يُدْخِلْهَا فِي أَحَدٍ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَوْجُودَاتِ مَا يُسَمَّى أَحَدًا فِي الْإِثْبَاتِ مُفْرَدًا غَيْرَ مُضَافٍ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى؛ بِخِلَافِ النَّفْيِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ: كَالشَّرْطِ وَالِاسْتِفْهَامِ فَإِنَّهُ يُقَالُ: هَلْ عِنْدَك أَحَدٌ؟ وَإِنْ جَاءَنِي أَحَدٌ مِنْ جِهَتِك أَكْرَمْته وَإِنَّمَا اُسْتُعْمِلَ فِي الْعَدَدِ الْمُطْلَقِ يُقَالُ: أَحَدٌ اثْنَانِ. وَيُقَالُ: أَحَدٌ عَشَرَ. وَفِي أَوَّلِ الْأَيَّامِ يُقَالُ: يَوْمُ الْأَحَدِ. فَإِنَّ فِيهِ - عَلَى أَصَحِّ الْقَوْلَيْنِ - ابْتَدَأَ اللَّهُ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. وَمَا بَيْنَهُمَا. كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ فَإِنَّ الْقُرْآنَ أَخْبَرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ: أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ: أَنَّ آخِرَ الْمَخْلُوقَاتِ كَانَ آدَمَ خُلِقَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ. وَإِذَا كَانَ آخِرُ الْخَلْقِ كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ دَلَّ عَلَى أَنَّ

أَوَّلَهُ كَانَ يَوْمَ الْأَحَدِ لِأَنَّهَا سِتَّةٌ . وَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ﴾ فَهُوَ حَدِيثٌ مَعْلُولٌ قَدَحَ فِيهِ أَئِمَّةُ الْحَدِيثِ كَالْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ

(735/838)

قَالَ الْبُخَارِيُّ : الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ عَلَى كَعْبٍ وَقَدْ ذَكَرَ تَعْلِيلَهُ البيهقي أَيْضًا وَبَيَّنُوا أَنَّهُ غَلَطٌ لَيْسَ مِمَّا رَوَاهُ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مِمَّا أَنْكَرَ الْحُذَّاقُ عَلَى مُسْلِمٍ إخْرَاجَهُ إيَّاهُ كَمَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ إخْرَاجَ أَشْيَاءَ يَسِيرَةٍ وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ وَالِاثْنَيْنِ وَبِهِ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ وَالضَّحَّاكُ وَمُجَاهِدٌ وَابْنُ جريج والسدي وَالْأَكْثَرُونَ . وَقَالَ مُقَاتِلٌ فِي يَوْمِ الثُّلَاثَاءِ وَالْأَرْبِعَاءِ . قَالَ : وَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿ خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ ﴾ قَالَ : وَهَذَا الْحَدِيثُ مُخَالِفٌ لِمَا تَقَدَّمَ وَهُوَ أَصَحُّ فَصَحَّحَ هَذَا لِظَنِّهِ صِحَّةَ الْحَدِيثِ إذْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَلَكِنَّ هَذَا لَهُ نَظَائِرُ رَوَى مُسْلِمٌ أَحَادِيثَ قَدْ عُرِفَ أَنَّهَا غَلَطٌ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي سُفْيَانَ لَمَّا أَسْلَمَ : أُرِيدُ أَنْ أُزَوِّجَك أُمَّ حَبِيبَةَ وَلَا خِلَافَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّهُ تَزَوَّجَهَا قَبْلَ إسْلَامِ أَبِي سُفْيَانَ وَلَكِنَّ هَذَا قَلِيلٌ جِدًّا وَمِثْلُ مَا رَوَى فِي بَعْضِ طُرُقِ حَدِيثِ صَلَاةِ الْكُسُوفِ أَنَّهُ صَلَّاهَا بِثَلَاثِ رُكُوعَاتٍ وَأَرْبَعٍ

وَالصَّوَابُ أَنَّهُ لَمْ يُصَلِّهَا إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً بِرُكُوعَيْنِ وَلِهَذَا لَمْ يُخَرِّجْ الْبُخَارِيُّ إِلَّا هَذَا وَكَذَلِكَ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ

وَغَيْرِهِمَا وَالْبُخَارِيُّ سَلِمَ مِنْ مِثْلِ هَذَا ؛ فَإِنَّهُ إِذَا وَقَعَ فِي بَعْضِ

الرِّوَايَاتِ غَلَطٌ ذَكَرَ الرِّوَايَاتِ الْمَحْفُوظَةَ الَّتِي تُبَيِّنُ غَلَطَ الْغَالِطِ فَإِنَّهُ كَانَ أَعْرَفَ بِالْحَدِيثِ وَعِلَلِهِ وَأَفْقَهَ فِي مَعَانِيهِ مِنْ مُسْلِمٍ وَنَحْوِهِ وَذَكَرَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ أَنَّ هَذَا قَوْلُ ابْنِ إسْحَاقَ قَالَ : وَقَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : وَهَذَا إجْمَاعُ أَهْلِ الْعِلْمِ . وَذَكَرَ قَوْلًا ثَالِثًا فِي ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ : أَنَّهُ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ . وَقَالَهُ ابْنُ إسْحَاقَ وَهَذَا تَنَاقُضٌ . وَذَكَرَ أَنَّ هَذَا قَوْلُ أَهْلِ الْإِنْجِيلِ وَالِابْتِدَاءُ بِيَوْمِ الْأَحَدِ قَوْلُ أَهْلِ التَّوْرَاةِ وَهَذَا النَّقْلُ غَلَطٌ عَلَى أَهْلِ الْإِنْجِيلِ . كَمَا غَلِطَ مَنْ جَعَلَ الْأَوَّلَ إجْمَاعَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ . وَكَأَنَّ هَؤُلَاءِ ظَنُّوا أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تَجْعَلُ اجْتِمَاعَهَا فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ الْأَيَّامِ السَّبْعَةِ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا الْعَالَمَ وَهَذَا غَلَطٌ ؛ فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ إنَّمَا

اجْتِمَاعُهُمْ فِي آخِرِ يَوْمٍ خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ الْعَالَمَ وَهُوَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ لَفْظَ الْأَحَدِ لَمْ يُوصَفْ بِهِ شَيْءٌ مِنْ الْأَعْيَانِ إلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ . وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ فِي غَيْرِ اللَّهِ فِي النَّفْيِ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ يَقُولُ : لَا أَحَدَ فِي الدَّارِ وَلَا تَقُلْ فِيهَا أَحَدٌ . وَلِهَذَا لَمْ يَجِئْ فِي الْقُرْآنِ إلَّا فِي غَيْرِ الْمُوجَبِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ وَكَقَوْلِهِ : ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ وَفِي الْإِضَافَةِ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ ﴾ ﴿ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ﴾ . وَأَمَّا اسْمُ (الصَّمَدِ) فَقَدْ اسْتَعْمَلَهُ أَهْلُ اللُّغَةِ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِينَ . كَمَا تَقَدَّمَ . فَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ صَمَدٌ بَلْ قَالَ : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ ؛ لَأَنْ يَكُونَ هُوَ الصَّمَدَ دُونَ مَا سِوَاهُ فَإِنَّهُ الْمُسْتَوْجِبُ لِغَايَتِهِ عَلَى الْكَمَالِ وَالْمَخْلُوقُ وَإِنْ كَانَ صَمَدًا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ ؛ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الصَّمَدِيَّةِ مُنْتَفِيَةٌ عَنْهُ ؛ فَإِنَّهُ يَقْبَلُ التَّفَرُّقَ وَالتَّجْزِئَةَ وَهُوَ أَيْضًا مُحْتَاجٌ إلَى غَيْرِهِ فَإِنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ مُحْتَاجٌ إلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَلَيْسَ أَحَدٌ . يَصْمُدُ إلَيْهِ كُلُّ شَيْءٍ وَلَا يَصْمُدُ هُوَ إلَى شَيْءٍ إلَّا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَيْسَ فِي الْمَخْلُوقَاتِ إلَّا مَا يَقْبَلُ أَنْ يَتَجَزَّأَ وَيَتَفَرَّقَ وَيَتَقَسَّمَ وَيَنْفَصِلَ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الصَّمَدُ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ

شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ بَلْ حَقِيقَةُ الصَّمَدِيَّةِ وَكَمَالُهَا لَهُ وَحْدَهُ وَاجِبَةٌ لَازِمَةٌ لَا يُمْكِنُ عَدَمُ صَمَدِيَّتِهِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ ؛ كَمَا لَا يُمْكِنُ تَثْنِيَةُ أَحَدِيَّتِهِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ فَهُوَ أَحَدٌ لَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ مِنْ الْأَشْيَاءِ بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ كَمَا قَالَ فِي آخِرِ السُّورَةِ : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ اسْتَعْمَلَهَا هُنَا فِي النَّفْيِ أَيْ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ الْأَشْيَاءِ كُفُوًا لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاءِ لِأَنَّهُ أَحَدٌ . ﴾ وَقَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْتَ سَيِّدُنَا فَقَالَ :

السَّيِّدُ اللَّهُ ﴾ وَدَلَّ قَوْلُهُ . (الْأَحَدُ ، الصَّمَدُ) عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ؛ فَإِنَّ الصَّمَدَ هُوَ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ وَلَا أَحْشَاءَ فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ شَيْءٌ فَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا قَالَ : ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ وَفِي قِرَاءَةِ الْأَعْمَشِ وَغَيْرِهِ وَلَا يَطْعَمُ بِالْفَتْحِ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ﴾ وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ الْمَلَائِكَةُ وَهُمْ صَمَدٌ لَا يَأْكُلُونَ وَلَا يَشْرَبُونَ فَالْخَالِقُ لَهُمْ جَلَّ جَلَالُهُ أَحَقُّ بِكُلِّ غِنًى وَكَمَالٍ جَعَلَهُ لِبَعْضِ مَخْلُوقَاتِهِ فَلِهَذَا فَسَّرَ بَعْضُ السَّلَفِ الصَّمَدَ بِأَنَّهُ الَّذِي لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَالصَّمَدُ الْمُصْمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ فَلَا يَخْرُجُ مِنْهُ عَيْنٌ مِنَ الْأَعْيَانِ فَلَا يَلِدُ . وَلِذَلِكَ قَالَ مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ : هُوَ الَّذِي لَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ لَيْسَ مُرَادُهُمْ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ وَإِنْ كَانَ يُقَالُ فِي الْكَلَامِ إنَّهُ خَرَجَ مِنْهُ كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيثِ : ﴿ مَا تَقَرَّبَ الْعِبَادُ إلَى اللَّهِ بِشَيْءٍ أَفْضَلَ مِمَّا خَرَجَ مِنْهُ ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ لَمَّا سَمِعَ قُرْآنَ مُسَيْلِمَةَ : إنَّ هَذَا لَمْ يَخْرُجْ مِنْ إلٍّ . فَخُرُوجُ الْكَلَامِ مِنْ الْمُتَكَلِّمِ هُوَ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِهِ فَيَسْمَعُ مِنْهُ وَيَبْلُغُ إلَى غَيْرِهِ لَيْسَ

بِمَخْلُوقٍ فِي غَيْرِهِ كَمَا يَقُولُ الْجَهْمِيَّةُ : لَيْسَ بِمَعْنَى أَنَّ شَيْئًا مِنْ الْأَشْيَاءِ الْقَائِمَةِ بِهِ يُفَارِقُهُ وَيَنْتَقِلُ عَنْهُ إلَى غَيْرِهِ

فَإِنَّ هَذَا مُمْتَنِعٌ فِي صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ . أَنْ تُفَارِقَ الصِّفَةُ مَحِلَّهَا وَتَنْتَقِلَ إِلَى غَيْرِ مَحِلِّهَا فَكَيْفَ بِصِفَاتِ الْخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي كَلَامِ الْمَخْلُوقِينَ : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ وَتِلْكَ الْكَلِمَةُ هِيَ قَائِمَةٌ بِالْمُتَكَلِّمِ وَسُمِعَتْ مِنْهُ لَيْسَ خُرُوجُهَا مِنْ فِيهِ أَنَّ مَا قَامَ بِذَاتِهِ مِنَ الْكَلَامِ فَارَقَ ذَاتَهُ وَانْتَقَلَ إِلَى غَيْرِهِ فَخُرُوجُ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِهِ وَمِنْ شَأْنِ الْعِلْمِ وَالْكَلَامِ إِذَا اسْتُفِيدَ مِنَ الْعَالِمِ وَالْمُتَكَلِّمِ أَنْ لَا يَنْقُصَ مِنْ مَحَلِّهِ وَلِهَذَا شُبِّهَ بِالنُّورِ الَّذِي يَقْتَبِسُ مِنْهُ كُلُّ أَحَدٍ الضَّوْءَ وَهُوَ بَاقٍ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَنْقُصْ فَقَوْلُ مَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ : الصَّمَدُ هُوَ الَّذِي لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ شَيْءٌ كَلَامٌ صَحِيحٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُفَارِقُهُ شَيْءٌ مِنْهُ . وَلِهَذَا امْتَنَعَ عَلَيْهِ أَنْ يَلِدَ وَأَنْ يُولَدَ وَذَلِكَ أَنَّ الْوِلَادَةَ وَالتَّوَلُّدَ وَكُلَّ مَا يَكُونُ مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَصْلَيْنِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُتَوَلِّدِ عَيْنًا قَائِمَةً بِنَفْسِهَا فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ مَادَّةٍ تَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا كَانَ عَرَضًا قَائِمًا بِغَيْرِهِ فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَحَلٍّ يَقُومُ بِهِ فَالْأَوَّلُ نَفَاهُ بِقَوْلِهِ : (أَحَدٌ فَإِنَّ الْأَحَدَ هُوَ الَّذِي لَا كُفُؤَ لَهُ وَلَا نَظِيرَ فَيَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ وَالتَّوَلُّدُ إِنَّمَا يَكُونُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ ﴾ فَنَفَى سُبْحَانَهُ الْوَلَدَ بِامْتِنَاعِ لَازِمِهِ عَلَيْهِ فَإِنَّ انْتِفَاءَ اللَّازِمِ يَدُلُّ

عَلَى انْتِفَاءِ الْمَلْزُومِ وَبِأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ كُلُّ مَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ لَهُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مَوْلُودٌ لَهُ .

وَالثَّانِي : نَفَاهُ بِكَوْنِهِ سُبْحَانَهُ الصَّمَدَ وَهَذَا الْمُتَوَلِّدُ مِنْ أَصْلَيْنِ يَكُونُ بِجُزْأَيْنِ يَنْفَصِلَانِ مِنْ الْأَصْلَيْنِ كَتَوَلُّدِ الْحَيَوَانِ مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ بِالْمَنِيِّ الَّذِي يَنْفَصِلُ مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَهَذَا التَّوَلُّدُ يَفْتَقِرُ إلَى أَصْلٍ آخَرَ وَإِلَى أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُمَا شَيْءٌ وَكُلُّ ذَلِكَ مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهُ أَحَدٌ فَلَيْسَ لَهُ كُفُؤٌ يَكُونُ صَاحِبَةً وَنَظِيرًا وَهُوَ صَمَدٌ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ فَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْ كَوْنِهِ أَحَدًا وَمِنْ كَوْنِهِ صَمَدًا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ وَالِدًا وَيَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ مَوْلُودًا بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى . وَكَمَا أَنَّ التَّوَالُدَ فِي الْحَيَوَانِ لَا يَكُونُ إلَّا مِنْ أَصْلَيْنِ - سَوَاءٌ كَانَ الْأَصْلَانِ مِنْ جِنْسِ الْوَلَدِ وَهُوَ الْحَيَوَانُ الْمُتَوَالِدُ أَوْ مِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ وَهُوَ الْمُتَوَلِّدُ - فَكَذَلِكَ فِي غَيْرِ الْحَيَوَانِ كَالنَّارِ الْمُتَوَلِّدَةِ مِنْ الزِّنْدَيْنِ سَوَاءٌ كَانَا خَشَبَتَيْنِ أَوْ كَانَا حَجَرًا وَحَدِيدًا : أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ ﴿ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾ ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ

(745/838)

خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾

(746/838)

قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الْمُفَسِّرِيْن هُمَا شَجَرَتَان يُقَالُ لِإِحْدَاهُمَا : الْمَرْخُ وَالْأُخْرَى الْعِفَارُ . فَمَنْ أَرَادَ مِنْهُمَا النَّارَ قَطَعَ مِنْهُمَا غُصْنَيْنِ مِثْلَ السِّوَاكَيْنِ وَهُمَا خَضْرَاوَانِ يَقْطُرُ مِنْهُمَا الْمَاءُ فَيُسْحَقُ الْمَرْخُ - وَهُوَ ذَكَرٌ - عَلَى الْعِفَارِ . - وَهُوَ أُنْثَى - فَتَخْرُجُ مِنْهُمَا النَّارُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَقُولُ الْعَرَبُ فِي كُلِّ شَجَرٍ نَارٌ وَاسْتَمْجَدَ الْمَرْخُ وَالْعِفَارُ . وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ فِي كُلِّ شَجَرَةٍ نَارٌ إلَّا الْعُنَّابُ ﴿ فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ فَذَلِكَ زِنَادُهُمْ . وَقَدْ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ الْجَوْهَرِيُّ وَغَيْرُهُ : الزَّنْدُ الْعُودُ الَّذِي يُقْدَحُ بِهِ النَّارُ وَهُوَ الْأَعْلَى . وَالزَّنْدَةُ السُّفْلَى فِيهَا ثَقْبٌ وَهِيَ الْأُنْثَى فَإِذَا اجْتَمَعَا قِيلَ زَنْدَانِ . وَقَالَ أَهْلُ الْخِبْرَةِ بِهَذَا : إنَّهُمْ يَسْحَقُونَ الثَّقْبَ الَّذِي

فِي الْأُنْثَى بِالْأَعْلَى كَمَا يَفْعَلُ ذَكَرُ الْحَيَوَانِ فِي أُنْثَاهُ فَبِذَلِكَ السَّحْقِ وَالْحَكِّ يَخْرُجُ مِنْهُمَا أَجْزَاءٌ نَاعِمَةٌ تَنْقَدِحُ مِنْهَا النَّارُ فَتَتَوَلَّدُ النَّارُ مِنْ مَادَّةِ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى كَمَا يَتَوَلَّدُ الْوَلَدُ مِنْ مَادَّةِ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَسَحْقُ الْأُنْثَى بِالذَّكَرِ وَقَدْحُهَا بِهِ يَقْتَضِي حَرَارَةً كُلًّا مِنْهُمَا وَيَتَحَلَّلُ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا مَادَّةٌ تَنْقَدِحُ مِنْهَا النَّارُ كَمَا أَنَّ إِيلَاجَ ذَكَرِ الْحَيَوَانِ فِي أُنْثَاهُ بِقَدْحٍ وَحَكِّ فَرْجِهَا بِفَرْجِهِ فَتَقْوَى حَرَارَةُ كُلٍّ مِنْهُمَا وَيَتَحَلَّلُ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا مَادَّةٌ تَمْتَزِجُ بِالْأُخْرَى وَيَتَوَلَّدُ مِنْهُمَا الْوَلَدُ وَيُقَالُ :

(747/838)

عَلِقَتْ النَّارُ فِي الْمَحَلِّ الَّذِي يَقْدَحُ عَلَيْهِ الَّذِي هُوَ

كَالرَّحِمِ لِلْوَلَدِ وَهُوَ الْحِرَاقُ وَالصُّوفَانُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَكُونُ أَسْرَعَ قَبُولًا لِلنَّارِ مِنْ غَيْرِهِ كَمَا عَلِقَتْ الْمَرْأَةُ مِنْ الرَّجُلِ وَقَدْ لَا تَعْلَقُ النَّارُ كَمَا قَدْ لَا تَعْلَقُ الْمَرْأَةُ وَقَدْ لَا تَنْقَدِحُ نَارٌ كَمَا لَا يَنْزِلُ مَنِيٌّ وَالنَّارُ لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ الزِّنَادَيْنِ بَلْ تَوَلُّدُ النَّارِ مِنْهُمَا كَتَوَلُّدِ حَيَوَانٍ مِنْ الْمَاءِ وَالطِّينِ فَإِنَّ الْحَيَوَانَ نَوْعَانِ مُتَوَالِدٌ كَالْإِنْسَانِ وَبَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ كَمَا يُخْلَقُ مِنْ أَبَوَيْنِ وَمُتَوَلِّدٌ كَالَّذِي يَتَوَلَّدُ مِنْ الْفَاكِهَةِ وَالْخَلِّ وَكَالْقَمْلِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ مِنْ وَسَخِ جِلْدِ الْإِنْسَانِ وَكَالْفَأْرِ وَالْبَرَاغِيثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُخْلَقُ مِنْ الْمَاءِ وَالتُّرَابِ .

وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيمَا يَخْلُقُهُ اللَّهُ مِنْ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَعْدِنِ وَالْمَطَرِ وَالنَّارِ الَّتِي تُورَى بِالزِّنَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ هَلْ تَحْدُثُ أَعْيَانُ هَذِهِ الْأَجْسَامِ فَيُقْلَبُ هَذَا الْجِنْسُ إلَى جِنْسٍ آخَرَ . كَمَا يُقْلَبُ الْمَنِيُّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً أَوْ لَا تَحْدُثُ إلَّا أَعْرَاضٌ وَأَمَّا الْأَعْيَانُ الَّتِي هِيَ الْجَوَاهِرُ فَهِيَ بَاقِيَةٌ بِغَيْرِ صِفَاتِهَا بِمَا يُحْدِثُهُ فِيهَا مِنْ الْأَكْوَانِ الْأَرْبَعَةِ : الِاجْتِمَاعِ وَالِافْتِرَاقِ وَالْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ : فَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْأَجْسَامَ مُرَكَّبَةٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ التجزي كَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ . وَإِمَّا مِنْ جَوَاهِرَ لَا نِهَايَةَ لَهَا كَمَا يُحْكَى عَنْ النَّظَّامِ .

فَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْأَجْسَامَ مُرَكَّبَةٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ يَقُولُونَ : إنَّ اللَّهَ لَا يُحْدِثُ شَيْئًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَإِنَّمَا يُحْدِثُ الْأَعْرَاضَ الَّتِي هِيَ الِاجْتِمَاعُ وَالِافْتِرَاقُ وَالْحَرَكَةُ وَالسُّكُونُ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْأَعْرَاضِ . ثُمَّ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ بِأَنَّ الْجَوَاهِرَ مُحْدَثَةٌ قَالَ : إنَّ اللَّهَ أَحْدَثَهَا ابْتِدَاءً ثُمَّ جَمِيعُ مَا يُحْدِثُهُ إنَّمَا هُوَ إحْدَاثُ أَعْرَاضٍ فِيهَا لَا يُحْدِثُ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ جَوَاهِرَ وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيَّة

وَالْأَشْعَرِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ وَمِنْ أَكَابِرِ هَؤُلَاءِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ هَذَا مَذْهَبُ الْمُسْلِمِينَ وَيَذْكُرُ إجْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَيْهِ وَهُوَ قَوْلٌ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَلَا جُمْهُورِ الْأُمَّةِ؛ بَلْ جُمْهُورُ الْأُمَّةِ حَتَّى مِنْ طَوَائِفِ أَهْلِ الْكَلَامِ يُنْكِرُونَ الْجَوْهَرَ الْفَرْدَ وَتَرَكُّبَ الْأَجْسَامِ مِنْ الْجَوَاهِرِ وَابْنُ كُلَّابٍ إمَامُ أَتْبَاعِهِ هُوَ مِمَّنْ يُنْكِرُ الْجَوْهَرَ الْفَرْدَ وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو بَكْرِ بْنُ فورك فِي مُصَنَّفِهِ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي مَقَالَاتِ ابْنِ كُلَّابٍ وَمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَشْعَرِيِّ مِنْ الْخِلَافِ وَهَكَذَا نَفَى الْجَوْهَرَ الْفَرْدَ قَوْلُ الهشامية والضرارية وَكَثِيرٍ مِنْ الكَرَّامِيَة والنجارية أَيْضًا . وَهَؤُلَاءِ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْأَجْسَامَ مُرَكَّبَةٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ: الْمَشْهُورُ عَنْهُمْ؛ بِأَنَّ الْجَوَاهِرَ مُتَمَاثِلَةٌ؛ بَلْ وَيَقُولُونَ أَوْ أَكْثَرُهُمْ: أَنَّ الْأَجْسَامَ مُتَمَاثِلَةٌ؛ لِأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُتَمَاثِلَةِ وَإِنَّمَا اخْتَلَفَتْ

بِاخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ وَتِلْكَ صِفَاتٌ عَارِضَةٌ لَهَا لَيْسَتْ لَازِمَةً فَلَا تَنْفِي التَّمَاثُلَ فَإِنَّ حَدَّ الْمِثْلَيْنِ أَنْ يَجُوزَ عَلَى أَحَدِهِمَا مَا يَجُوزُ عَلَى الْآخَرِ وَيَجِبُ لَهُ مَا يَجِبُ لَهُ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ . وَهُمْ يَقُولُونَ: إنَّ الْجَوَاهِرَ مُتَمَاثِلَةٌ فَيَجُوزُ

عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مَا جَازَ عَلَى الْآخَرِ وَيَجِبُ لَهُ مَا يَجِبُ لَهُ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ . وَكَذَلِكَ الْأَجْسَامُ الْمُؤَلَّفَةُ مِنْ الْجَوَاهِرِ ؛ وَلِهَذَا إذَا أَثْبَتُوا حُكْمًا لِجِسْمِ قَالُوا : هَذَا ثَابِتٌ لِجَمِيعِ الْأَجْسَامِ بِنَاءً عَلَى التَّمَاثُلِ وَأَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ يُنْكِرُونَ هَذَا وَحُذَّاقُهُمْ قَدْ أَبْطَلُوا الْحُجَجَ الَّتِي احْتَجُّوا بِهَا عَلَى التَّمَاثُلِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الرَّازِي وَالْآمِدِي وَغَيْرُهُمَا . وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي مَوَاضِعَ . وَالْأَشْعَرِيُّ فِي "كِتَابِ الْإِبَانَةِ" جَعَلَ الْقَوْلَ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ مِنْ أَقْوَالِ الْمُعْتَزِلَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا . وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : إنَّ اللَّهَ يَخُصُّ أَحَدَ الْجِسْمَيْنِ الْمُتَمَاثِلَيْنِ بِأَعْرَاضِ دُونَ الْآخَرِ بِمُجَرَّدِ الْمَشِيئَةِ عَلَى أَصْلِ الْجَهْمِيَّةِ أَوْ لِمَعْنَى آخَرَ كَمَا تَقُولُهُ الْقَدَرِيَّةُ وَيَقُولُونَ يَمْتَنِعُ انْقِلَابُ الْأَجْنَاسِ فَلَا يَنْقَلِبُ الْجِسْمُ عَرَضًا وَلَا جِنْسٌ مِنْ الْأَعْرَاضِ إلَى جِنْسٍ آخَرَ فَلَوْ قَالُوا : إنَّ الْأَجْسَامَ مَخْلُوقَةٌ وَأَنَّ الْمَخْلُوقَ يَنْقَلِبُ مِنْ جِنْسٍ إلَى جِنْسٍ آخَرَ لَزِمَ انْقِلَابُ الْأَجْنَاسِ . فَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : أَنَّ التَّوَلُّدَ الْحَاصِلَ فِي الرَّحِمِ وَالثَّمَرَ الْحَاصِلَ فِي الشَّجَرِ وَالنَّارَ الْحَاصِلَةَ مِنْ الزِّنَادِ هِيَ جَوَاهِرُ كَانَتْ فِي الْمَادَّةِ الَّتِي خُلِقَ ذَلِكَ مِنْهَا وَهِيَ بَاقِيَةٌ ؛ لَكِنْ غُيِّرَتْ صِفَتُهَا بِالِاجْتِمَاعِ وَالِافْتِرَاقِ وَالْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ .

وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِي أَدِلَّةَ "إِثْبَاتِ الصَّانِعِ" ذَكَرَ أَرْبَعَةَ طُرُقٍ: إمْكَانُ الذَّوَاتِ وَحُدُوثُهَا وَإِمْكَانُ الصِّفَاتِ وَحُدُوثُهَا وَالطُّرُقُ الثَّلَاثَةُ الْأُوَلُ ضَعِيفَةٌ؛ بَلْ بَاطِلَةٌ؛ فَإِنَّ الذَّوَاتَ الَّتِي ادَّعَوْا حُدُوثَهَا أَوْ إمْكَانَهَا أَوْ إمْكَانَ صِفَاتِهَا ذَكَرُوهَا بِأَلْفَاظٍ مُجْمَلَةٍ لَا يَتَمَيَّزُ فِيهَا الْخَالِقُ عَنْ الْمَخْلُوقِ وَلَمْ يُقِيمُوا عَلَى مَا ادَّعَوْهُ دَلِيلًا صَحِيحًا . وَأَمَّا "الطَّرِيقُ الرَّابِعُ" وَهُوَ الْحُدُوثُ لِمَا يُعْلَمُ حُدُوثُهُ فَهُوَ طَرِيقٌ صَحِيحٌ وَهُوَ طَرِيقُ الْقُرْآنِ لَكِنْ قَصَّرُوا فِيهِ غَايَةَ التَّقْصِيرِ؛ فَإِنَّهُمْ عَلَى أَصْلِهِمْ لَمْ يَشْهَدُوا حُدُوثَ شَيْءٍ مِنْ الذَّوَاتِ بَلْ حُدُوثُ الصِّفَاتِ وَطَرِيقَةُ الْقُرْآنِ تُبَيِّنُ أَنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ مَخْلُوقٌ وَأَنَّهُ آيَةٌ لِلَّهِ وَقَدْ بَسَطَ الْكَلَامَ عَلَى مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ الْبَرَاهِينِ وَالْآيَاتِ الَّتِي لَمْ يَصِلْ إلَيْهَا هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمَةُ وَالْمُتَفَلْسِفَةُ وَإِنَّ كُلَّ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ حَقٍّ فَهُوَ جُزْءٌ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ هَؤُلَاءِ لَمَّا كَانَ هَذَا أَصْلَهُمْ فِي ابْتِدَاءِ الْخَلْقِ وَهُوَ الْقَوْلُ بِإِثْبَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ - كَانَ أَصْلُهُمْ فِي الْمَعَادِ مَبْنِيًّا عَلَيْهِ فَصَارُوا عَلَى قَوْلَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ تُعْدَمُ الْجَوَاهِرُ ثُمَّ تُعَادُ . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: تَتَفَرَّقُ الْأَجْزَاءُ ثُمَّ تَجْتَمِعُ فَأُورِدَ عَلَيْهِمْ الْإِنْسَانُ الَّذِي يَأْكُلُهُ حَيَوَانٌ وَذَلِكَ

الْحَيَوَانُ أَكَلَهُ إِنْسَانٌ آخَرُ فَإِنْ أُعِيدَتْ تِلْكَ الْأَجْزَاءُ مِنْ هَذَا لَمْ تُعَدْ مِنْ هَذَا . وَأَوْرَدَ عَلَيْهِمْ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَتَحَلَّلُ دَائِمًا فَمَا الَّذِي يُعَادُ أَهُوَ الَّذِي كَانَ وَقْتَ الْمَوْتِ ؟ فَإِنْ قِيلَ : بِذَلِكَ لَزِمَ أَنْ يُعَادَ عَلَى صُورَةٍ ضَعِيفَةٍ وَهُوَ خِلَافُ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَيْسَ بَعْضُ الْأَبْدَانِ بِأَوْلَى مِنْ بَعْضٍ . فَادَّعَى بَعْضُهُمْ أَنَّ فِي الْإِنْسَانِ أَجْزَاءً أَصْلِيَّةً لَا تَتَحَلَّلُ وَلَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ الَّذِي أَكَلَهُ الثَّانِي وَالْعُقَلَاءُ يَعْلَمُونَ أَنَّ بَدَنَ الْإِنْسَانِ نَفْسِهِ كُلَّهُ يَتَحَلَّلُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ بَاقٍ فَصَارَ مَا ذَكَرُوهُ فِي الْمَعَادِ مِمَّا قَوَّى شُبْهَةَ الْمُتَفَلْسِفَةِ فِي إنْكَارِ مَعَادِ الْأَبْدَانِ وَأَوْجَبَ أَنْ صَارَ طَائِفَةٌ مِنْ النُّظَّارِ إلَى أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ بَدَنًا آخَرَ تَعُودُ الرُّوحُ إلَيْهِ . وَالْمَقْصُودُ تَنْعِيمُ الرُّوحِ وَتَعْذِيبُهَا سَوَاءٌ كَانَ هَذَا فِي الْبَدَنِ أَوْ فِي غَيْرِهِ وَهَذَا أَيْضًا مُخَالِفٌ لِلنُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ بِإِعَادَةِ هَذَا الْبَدَنِ وَهَذَا الْمَذْكُورُ فِي كُتُبِ الرَّازِي فَلَيْسَ فِي كُتُبِهِ وَكُتُبِ أَمْثَالِهِ فِي مَسَائِلِ أُصُولِ الدِّينِ الْكِبَارِ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ الَّذِي يُوَافِقُ الْمَنْقُولَ وَالْمَعْقُولَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ الرَّسُولَ وَكَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتُهَا بَلْ يَذْكُرُ بُحُوثَ الْمُتَفَلْسِفَةِ الْمَلَاحِدَةِ وَبُحُوثَ الْمُتَكَلِّمِينَ الْمُبْتَدِعَةِ الَّذِينَ بَنَوْا عَلَى أُصُولِ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ فِي مَسَائِلِ الْخَلْقِ وَالْبَعْثِ وَالْمَبْدَإِ

وَالْمَعَادِ وَكِلَا الطَّرِيقَيْنِ فَاسِدٌ . إذْ بَنَوْهُ عَلَى مُقَدِّمَاتٍ فَاسِدَةٍ وَالْقَوْلُ الَّذِي عَلَيْهِ

السَّلَفُ وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَنَّ الْأَجْسَامَ تَنْقَلِبُ مِنْ حَالٍ إلَى حَالٍ إنَّمَا يَذْكُرُهُ عَنْ الْفَلَاسِفَةِ وَالْأَطِبَّاءِ ؛ وَهَذَا الْقَوْلُ - وَهُوَ الْقَوْلُ فِي خَلْقِ اللَّهِ لِلْأَجْسَامِ الَّتِي يُشَاهِدُ حُدُوثَهَا أَنَّهُ يَقْلِبُهَا وَيُحِيلُهَا مِنْ جِسْمٍ إلَى جِسْمٍ - هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ السَّلَفُ وَالْفُقَهَاءُ قَاطِبَةً وَالْجُمْهُورُ . وَلِهَذَا يَقُولُ الْفُقَهَاءُ فِي النَّجَاسَةِ هَلْ تَطْهُرُ بِالِاسْتِحَالَةِ أَمْ لَا ؟ كَمَا تَسْتَحِيلُ الْعَذِرَةُ رَمَادًا وَالْخِنْزِيرُ وَغَيْرُهُ مِلْحًا وَنَحْوَ ذَلِكَ وَالْمَنِيُّ الَّذِي فِي الرَّحِمِ يَقْلِبُهُ اللَّهُ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً وَكَذَلِكَ الثَّمَرُ يُخْلَقُ بِقَلْبِ الْمَادَّةِ الَّتِي يُخْرِجُهَا مِنْ الشَّجَرَةِ مِنْ الرُّطُوبَةِ مَعَ الْهَوَاءِ وَالْمَاءِ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْمَوَادِّ الَّتِي يَقْلِبُهَا ثَمَرَةً بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَكَذَلِكَ الْحَبَّةُ يَفْلِقُهَا وَتَنْقَلِبُ الْمَوَادُّ الَّتِي يَخْلُقُهَا مِنْهَا سُنْبُلَةً وَشَجَرَةً وَغَيْرَ ذَلِكَ وَهَكَذَا خَلْقُهُ لِمَا يَخْلُقُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . كَمَا خَلَقَ آدَمَ مِنْ الطِّينِ فَقَلَبَ حَقِيقَةَ الطِّينِ فَجَعَلَهَا عَظْمًا وَلَحْمًا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَجْزَاءِ الْبَدَنِ وَكَذَلِكَ الْمُضْغَةُ يَقْلِبُهَا عِظَامًا وَغَيْرَ عِظَامٍ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ

أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ .
وَكَذَلِكَ النَّارُ يَخْلُقُهَا بِقَلْبِ بَعْضِ أَجْزَاءِ الزِّنَادِ نَارًا كَمَا قَالَ تَعَالَى :

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا ﴾ . فَنَفْسُ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ جَعَلَهَا اللَّهُ نَارًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ كَانَ فِي الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارٌ أَصْلًا كَمَا لَمْ يَكُنْ فِي الشَّجَرَةِ ثَمَرَةٌ أَصْلًا وَلَا كَانَ فِي بَطْنِ الْمَرْأَةِ جَنِينٌ أَصْلًا ؛ بَلْ خَلَقَ هَذَا الْمَوْجُودَ مِنْ مَادَّةٍ غَيْرِهِ بِقَلْبِهِ تِلْكَ الْمَادَّةِ إلَى هَذَا وَبِمَا ضَمَّهُ إلَى هَذَا مِنْ مَوَادَّ أُخَرَ وَكَذَلِكَ الْإِعَادَةُ يُعِيدُهُ بَعْدَ أَنْ يَبْلَى كُلُّهُ إلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ . مِنْهُ خُلِقَ ابْنُ آدَمَ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ ﴾ . وَهُوَ إذَا أَعَادَ الْإِنْسَانَ فِي النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ النَّشْأَةُ مُمَاثِلَةً لِهَذِهِ فَإِنَّ هَذِهِ كَائِنَةٌ فَاسِدَةٌ وَتِلْكَ كَائِنَةٌ لَا فَاسِدَةٌ بَلْ بَاقِيَةٌ دَائِمَةٌ وَلَيْسَ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ فَضَلَاتٌ فَاسِدَةٌ تَخْرُجُ مِنْهُمْ كَمَا ثَبَتَ فِي

الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ أَهْلُ الْجَنَّةِ لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَبْصُقُونَ وَلَا يَتَمَخَّطُونَ وَإِنَّمَا هُوَ رَشْحٌ كَرَشْحِ الْمِسْكِ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ يُحْشَرُ النَّاسُ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا ثُمَّ قَرَأَ ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ ﴾ فَهُمْ يَعُودُونَ غُلْفًا لَا مَخْتُونِينَ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَمُجَاهِدٌ: كَمَا بَدَأَكُمْ

(758/838)

فَخَلَقَكُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا كَذَلِكَ تَعُودُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحْيَاءً وَقَالَ قتادة بَدْأُهُمْ

(759/838)

مِنْ التُّرَابِ وَإِلَى التُّرَابِ يَعُودُونَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ وَقَالَ: ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾. وَهُوَ قَدْ شَبَّهَ سُبْحَانَهُ إعَادَةَ النَّاسِ فِي النَّشْأَةِ الْأُخْرَى بِإِحْيَاءِ الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا .

سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ

مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ .

وهو سبحانه مع إخباره أنه يعيد الخلق وأنه يحيي العظام وهي رميم وأنه يخرج الناس من الأرض تارة أخرى هو يخبر أن المعاد هو المبدأ . كقوله تعالى : ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ ويخبر أن الثاني مثل الأول كقوله تعالى : ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ ﴿ قل كونوا حجارة أو حديدا ﴾ ﴿ أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا ﴾ ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾ وقال تعالى : ﴿ أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ وقال تعالى : ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ وقال : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ ﴿ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ﴾ ﴿ على أن

نُبدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ . وَالْمُرَادُ بِقُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِ مِثْلِهِمْ هُوَ قُدْرَتُهُ عَلَى إِعَادَتِهِمْ كَمَا أَخْبَرَ

بِذَلِكَ . فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ فَإِنَّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا يُنَازِعُونَ فِي أَنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ فِي هَذِهِ الدَّارِ نَاسًا أَمْثَالَهُمْ فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ الْمُشَاهَدُ يَخْلُقُ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ يَخْلُقُ الْوَلَدَ مِنْ الْوَالِدَيْنِ وَهَذِهِ هِيَ النَّشْأَةُ الْأُولَى وَقَدْ عَلِمُوهَا وَبِهَا احْتَجَّ عَلَيْهِمْ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى النَّشْأَةِ الْآخِرَةِ كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ وَقَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ . وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قَالَ الْحَسَنُ بْنُ الْفَضْلِ البجلي : الَّذِي عِنْدِي فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى ﴾ أَيْ أَخْلُقُكُمْ لِلْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ حَيْثُ لَا تَعْلَمُونَ كَيْفَ شِئْت وَذَلِكَ أَنَّكُمْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ

الْأُولَى كَيْفَ كَانَتْ فِي بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ وَلَيْسَتْ الْأُخْرَى كَذَلِكَ وَمَعْلُومٌ أَنَّ النَّشْأَةَ الْأُولَى كَانَ الْإِنْسَانُ نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً مُخَلَّقَةً

(764/838)

ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ وَتِلْكَ النُّطْفَةُ مِنْ مَنِيِّ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ وَهُوَ يُغَذِّيهِ بِدَمِ الطَّمْثِ الَّذِي يُرَبِّي اللَّهُ بِهِ الْجَنِينَ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ: ظُلْمَةِ الْمَشِيمَةِ وَظُلْمَةِ

(765/838)

الرَّحِمِ وَظُلْمَةِ الْبَطْنِ وَالنَّشْأَةُ الثَّانِيَةُ لَا يَكُونُونَ فِي بَطْنِ امْرَأَةٍ وَلَا يُغَذَّوْنَ بِدَمٍ وَلَا يَكُونُ أَحَدُهُمْ نُطْفَةَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ ثُمَّ يَصِيرُ عَلَقَةً بَلْ يَنْشَئُونَ نَشْأَةً أُخْرَى وَتَكُونُ الْمَادَّةُ مِنْ التُّرَابِ كَمَا قَالَ: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ وَقَالَ ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إخْرَاجًا ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ: ﴿ إنَّ الْأَرْضَ تُمْطِرُ مَطَرًا كَمَنِيِّ الرِّجَالِ يَنْبُتُونَ فِي الْقُبُورِ كَمَا يَنْبُتُ النَّبَاتُ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ

﴿ كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ . فَعُلِمَ أَنَّ النَّشْأَتَيْنِ نَوْعَانِ تَحْتَ جِنْسٍ يَتَّفِقَانِ وَيَتَمَاثَلَانِ وَيَتَشَابَهَانِ مِنْ وَجْهٍ وَيَفْتَرِقَانِ وَيَتَنَوَّعَانِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَلِهَذَا جُعِلَ الْمَعَادُ هُوَ الْمَبْدَأَ وَجُعِلَ مِثْلَهُ أَيْضًا . فَبِاعْتِبَارِ اتِّفَاقِ الْمَبْدَأِ وَالْمَعَادِ فَهُوَ هُوَ وَبِاعْتِبَارِ مَا بَيْنَ النَّشْأَتَيْنِ مِنْ الْفَرْقِ فَهُوَ مِثْلُهُ . وَهَكَذَا كُلُّ مَا أُعِيدَ . فَلَفْظُ الْإِعَادَةِ يَقْتَضِي الْمَبْدَأَ وَالْمَعَادَ سَوَاءٌ فِي ذَلِكَ إعَادَةُ الْأَجْسَامِ وَالْأَعْرَاضِ كَإِعَادَةِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا فَإِنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِرَجُلِ يُصَلِّي خَلْفَ الصَّفِّ وَحْدَهُ فَأَمَرَهُ أَنْ يُعِيدَ الصَّلَاةَ ﴾ وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ : أَعِدْ كَلَامَك وَفُلَانٌ قَدْ أَعَادَ كَلَامَ فُلَانٍ

(766/838)

بِعَيْنِهِ وَيُعِيدُ الدَّرْسَ . فَالْكَلَامُ هُوَ الْكَلَامُ وَإِنْ كَانَ صَوْتُ الثَّانِي غَيْرَ صَوْتِ الْأَوَّلِ وَحَرَكَتِهِ وَلَا

(767/838)

يُطْلَقُ الْقَوْلُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِثْلُهُ بَلْ قَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا . وَإِنْ كَانَ يُسَمَّى مِثْلًا مُقَيَّدًا حَتَّى يُقَالَ لِمَنْ حَكَى كَلَامَ غَيْرِهِ هَكَذَا قَالَ فُلَانٌ أَيْ مِثْلُ هَذَا قَالَ وَيُقَالُ فَعَلَ هَذَا عَوْدًا عَلَى بَدْءٍ إذَا فَعَلَهُ مَرَّةً ثَانِيَةً بَعْدَ أُولَى وَمِنْهُ الْبِئْرُ الْبَدِيُّ وَالْبِئْرُ الْعَادِيُّ فَالْبَدِيُّ الَّتِي ابْتُدِئَتْ وَالْعَادِيُّ الَّتِي أُعِيدَتْ وَلَيْسَتْ بِنِسْبَةِ إلَى عَادٍ . كَمَا قِيلَ . وَيُقَالُ اسْتَعَدْته الشَّيْءَ فَأَعَادَهُ إذَا سَأَلْته أَنْ يَفْعَلَهُ مَرَّةً ثَانِيَةً وَمِنْهُ سُمِّيَتْ الْعَادَةُ يُقَالُ : عَادَهُ وَاعْتَادَهُ وَتَعَوَّدَهُ أَيْ صَارَ عَادَةً لَهُ : وَعَوَّدَ كَلْبُهُ الصَّيْدَ فَتَعَوَّدَهُ وَهُوَ مِنْ الْمُعَاوَدَةِ وَالْمُعَاوَدَةُ الرُّجُوعُ إلَى الْأَمْرِ الْأَوَّلِ وَيُقَالُ الشُّجَاعُ مُعَاوِدٌ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمَلُّ الْمِرَاسَ . وَعَاوَدَتْهُ الْحُمَّى وَعَاوَدَهُ بِالْمَسْأَلَةِ أَيْ سَأَلَهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ وَتَعَاوَدَ الْقَوْمُ فِي الْحَرْبِ وَغَيْرِهَا إذَا عَادَ كُلُّ فَرِيقٍ إلَى صَاحِبِهِ وَالْعُوَّادُ بِالضَّمِّ مَا أُعِيدَ مِنْ الطَّعَامِ بَعْدَ مَا أُكِلَ مِنْهُ مَرَّةً أُخْرَى وَعَوَادِ بِمَعْنَى عُدْ مِثْلُ نَزَالِ بِمَعْنَى انْزِلْ . فَفِي جَمِيعِ هَذِهِ الْمَوَاضِعِ يُسْتَعْمَلُ لَفْظُ الْإِعَادَةِ بِاعْتِبَارِ الْحَقِيقَةِ فَإِنَّ الْحَقِيقَةَ الْمَوْجُودَةَ فِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ هِيَ الْأُولَى وَإِنْ تَعَدَّدَ الشَّخْصُ

وَلِهَذَا يُقَالُ: هُوَ مِثْلُهُ وَيُقَالُ هَذَا هُوَ هَذَا وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ وَأَعْنِي بِالْحَقِيقَةِ الْأَمْرَ الَّذِي يَخْتَصُّ بِذَلِكَ الشَّخْصِ لَيْسَ الْمُرَادُ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ بَيْنَ

(769/838)

الْفَاعِلِينَ فَإِنَّ مَنْ فَعَلَ مِثْلَ فِعْلِ غَيْرِهِ لَا يُقَالُ أَعَادَهُ وَإِنَّمَا يُقَالُ حَاكَاهُ وَشَابَهَهُ بِخِلَافِ مَا إذَا أَعَادَ فِعْلًا ثَانِيًا مِثْلَ مَا فَعَلَ أَوَّلًا فَإِنَّهُ يُقَالُ أَعَادَ فِعْلَهُ وَكَذَلِكَ يُقَالُ لِمَنْ أَعَادَ كَلَامَ غَيْرِهِ قَدْ أَعَادَهُ وَلَا يُقَالُ لِمَنْ أَنْشَأَ مِثْلَهُ قَدْ أَعَادَهُ وَيُقَالُ قُرِئَ عَلَى هَذَا وَأَعَادَ عَلَى هَذَا وَهَذَا يُقْرَأُ أَيْ يَدْرُسُ وَهَذَا يُعِيدُ وَلَوْ كَانَ كَلَامًا آخَرَ مِمَّا يُمَاثِلُهُ لَمْ يَقُلْ فِيهِ يُعِيدُ وَكَذَلِكَ مَنْ كَسَرَ خَاتَمًا أَوْ غَيْرَهُ مِنْ الْمَصُوغِ يُقَالُ أَعِدْهُ كَمَا كَانَ وَيُقَالُ لِمَنْ هَدَمَ دَارًا أَعِدْهَا كَمَا كَانَتْ بِخِلَافِ مَنْ أَنْشَأَ أُخْرَى مِثْلَهَا فَإِنَّ هَذَا لَا يُسَمَّى مُعِيدًا وَالْمُعَادُ يُقَالُ فِيهِ هَذَا هُوَ الْأَوَّلُ بِعَيْنِهِ وَيُقَالُ هَذَا مِثْلُ الْأَوَّلِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَارَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ هُوَ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ مِثْلُهُ مِنْ وَجْهٍ. وَبِهَذَا تَزُولُ الشُّبُهَاتُ الْوَارِدَةُ عَلَى هَذَا الْمَوْضِعِ كَقَوْلِ مَنْ قَالَ: الْإِعَادَةُ لَا تَكُونُ إلَّا مَعَ إعَادَةِ ذَلِكَ الزَّمَانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُمْنَعُ إعَادَتُهُ فِي صَرِيحِ الْعَقْلِ وَإِنَّمَا يُعَادُ بِالْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ وَإِنْ قَالَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ إنَّهُ لَا مُغَايَرَةَ أَصْلًا بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ. وَالْإِعَادَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا

هِيَ الْإِعَادَةُ الْمَعْقُولَةُ فِي هَذَا الْخِطَابِ وَهِيَ الْإِعَادَةُ الَّتِي فَهِمَهَا الْمُشْرِكُونَ وَالْمُسْلِمُونَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهِيَ الَّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا لَفْظُ

الْإِعَادَةِ وَالْمُعَادُ هُوَ الْأَوَّلُ بِعَيْنِهِ وَإِنْ كَانَ بَيْنَ لَوَازِمِ الْإِعَادَةِ وَلَوَازِمِ الْبَدْأَةِ فَرْقٌ فَذَلِكَ الْفَرْقُ لَا يَمْنَعُ

أَنْ يَكُونَ قَدْ - أُعِيدَ الْأَوَّلُ لَيْسَ الْجَسَدُ الثَّانِي مُبَايِنًا لِلْأَوَّلِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ كَمَا زَعَمَ بَعْضُهُمْ وَلَا أَنَّ النَّشْأَةَ الثَّانِيَةَ كَالْأُولَى مِنْ كُلِّ وَجْهٍ كَمَا ظَنَّ بَعْضُهُمْ وَكَمَا أَنَّهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا كَذَلِكَ يُعِيدُهُ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا وَعَلَى هَذَا فَالْإِنْسَانُ الَّذِي صَارَ تُرَابًا وَنَبَتَ مِنْ ذَلِكَ التُّرَابِ نَبَاتٌ آخَرُ أَكَلَهُ إِنْسَانٌ آخَرُ وَهَلُمَّ جَرًّا وَالْإِنْسَانُ الَّذِي أَكَلَهُ إِنْسَانٌ أَوْ حَيَوَانٌ وَأَكَلَ ذَلِكَ الْحَيَوَانُ إِنْسَانًا آخَرَ فَفِي هَذَا كُلِّهِ قَدْ عُدِمَ هَذَا الْإِنْسَانُ وَهَذَا الْإِنْسَانُ وَصَارَ كُلٌّ مِنْهُمَا تُرَابًا " كَمَا كَانَ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ ثُمَّ يُعَادُ هَذَا وَيُعَادُ هَذَا مِنَ التُّرَابِ وَإِنَّمَا يَبْقَى عَجْبُ

الذنب منه خُلِق ومنه يُركَّب . وأَمَّا سَائِرُه فعدم " فيُعَادُ مِنْ المادَّةِ الَّتي اسْتَحَال إليْهَا فَإذا اسْتَحَال فِي الْقَبْرِ الْوَاحِدِ أُلْفُ مَيِّتٍ وصارُوا كُلُّهُمْ ترَابًا فإنَّهُمْ يُعَادُونَ وَيَقُومُونَ مِنْ ذَلِكَ الْقَبْرِ وَيُنْشِئُهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ كَانُوا عدمًا محْضًا كما أَنْشَأَهُمْ أَوَّلًا بَعْدَ أَنْ كَانُوا عدمًا مَحْضًا وإذا صَارَ أُلْفُ إنْسَانٍ ترَابًا فِي قَبْرٍ أَنْشَأَ هَؤُلَاءِ مِنْ ذَلِكَ الْقَبْرِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحْتَاجَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ كَمَا خَلَقَهُمْ فِي النَّشْأَةِ الْأُولَى الَّتِي خَلَقَهُمْ مِنْهَا مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ وَجَعَلَ نَشْأَتَهُمْ بِمَا يَسْتَحِيلُ إلَى أَبْدَانِهِمْ مِنْ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ كَمَا يَسْتَحِيلُ إلَى بَدَنِ أَحَدِهِمْ مَا

(772/838)

يَأْكُلُهُ مِنْ نَبَاتٍ وَحَيَوَانٍ وَكَذَلِكَ لَوْ أَكَلَ إنْسَانًا أَوْ أَكَلَ حَيَوَانًا قَدْ أَكَلَ إنْسَانًا : فَالنَّشْأَةُ

(773/838)

الثَّانِيَةُ لَا يَخْلُقُهُمْ فِيهَا بِمِثْلِ هَذِهِ الِاسْتِحَالَةِ بَلْ يُعِيدُ الْأَجْسَادَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُلَهُمْ مِنْ نُطْفَةٍ إلَى عَلَقَةٍ إلَى مُضْغَةٍ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَغْذُوهَا بِدَمِ الطَّمْثِ وَمِنْ غَيْرِ أَنْ يَغْذُوهَا بِلَبَنِ الْأُمِّ وَبِسَائِرِ مَا

يأكله من الطعام والشراب فمن ظن أن الإعادة تحتاج إلى إعادة الأغذية التي استحالت إلى أبدانهم فقد غلط . وحينئذ فإذا أكل إنسان إنسانا فإنما صار غذاء له كسائر الأغذية وهو لا يحتاج إلى إعادة الأغذية ومعلوم أن الغذاء ينزل إلى المعدة طعاما وشرابا ثم يصير كلوسا كالثردة ثم كيموسا كالحريرة ثم ينطبخ دما فيقسمه الله تعالى في البدن كله ويأخذ كل جزء من البدن نصيبه فيستحيل الدم إلى شبيه ذلك الجزء العظم عظما واللحم لحما والعرق عرقا وهذا في الرزق كاستحالتهم في مبدأ الخلق نطفة ثم علقة ثم مضغة . وكما أنه سبحانه لا يحتاج في الإعادة إلى أن يحيل أحدهم نطفة ثم علقة ثم مضغة فكذلك أغذيتهم لا يحتاج أن يجعلها خبزا وفاكهة ولحما ثم يجعلها كلوسا وكيموسا ثم دما ثم عظما ولحما وعروقا بل يعيد هذا البدن على صفة أخرى لنشأة ثانية ليست مثل هذه النشأة كما قال : ﴿ وننشئكم في ما لا تعلمون ﴾ ولا يحتاج مع ذلك إلى شيء من هذه الاستحالات التي

كانت في النشأة الأولى .

وَبِهَذَا يَظْهَرُ الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِ الْبَدَنُ دَائِمًا فِي التَّحَلُّلِ فَإِنَّ تَحَلُّلَ الْبَدَنِ لَيْسَ بِأَعْجَبَ مِنْ انْقِلَابِ النُّطْفَةِ عَلَقَةً وَالْعَلَقَةِ مُضْغَةً وَحَقِيقَةُ كُلٍّ مِنْهُمَا خِلَافُ حَقِيقَةِ الْأُخْرَى . وَأَمَّا الْبَدَنُ الْمُتَحَلِّلُ فَالْأَجْزَاءُ الثَّانِيَةُ تُشَابِهُ الْأُولَى وَتُمَاثِلُهَا وَإِذَا كَانَ فِي الْإِعَادَةِ لَا يَحْتَاجُ إلَى انْقِلَابِهِ مِنْ حَقِيقَةٍ إلَى حَقِيقَةٍ فَكَيْفَ بِانْقِلَابِهِ بِسَبَبِ التَّحَلُّلِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ رَأَى شَخْصًا وَهُوَ شَابٌّ ثُمَّ رَآهُ وَهُوَ شَيْخٌ عَلِمَ أَنَّ هَذَا هُوَ ذَاكَ مَعَ هَذِهِ الِاسْتِحَالَةِ وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ كَمَنْ غَابَ عَنْ شَجَرَةٍ مُدَّةً ثُمَّ جَاءَ فَوَجَدَهَا عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْأُولَى مَعَ أَنَّ التَّحَلُّلَ وَالِاسْتِحَالَةَ ثَابِتٌ فِي سَائِرِ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ . كَمَا هُوَ فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ وَلَا يَحْتَاجُ عَاقِلٌ فِي اعْتِقَادِهِ أَنَّ هَذِهِ الشَّجَرَةَ هِيَ الْأُولَى وَأَنَّ هَذِهِ الْفَرَسَ هِيَ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَهُ مِنْ سِنِينَ وَلَا أَنَّ هَذَا الْإِنْسَانَ هُوَ الَّذِي رَآهُ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً إلَى أَنْ يُقَدِّرَ بَقَاءَ أَجْزَاءٍ أَصْلِيَّةٍ لَمْ تَتَحَلَّلْ وَلَا يَخْطُرُ هَذَا بِبَالِ أَحَدٍ وَلَا يَقْتَصِرُ الْعُقَلَاءُ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا هُوَ ذَاكَ عَلَى تِلْكَ الْأَجْزَاءِ الَّتِي لَا تُعْرَفُ وَلَا تَتَمَيَّزُ عَنْ غَيْرِهَا . بَلْ إنَّمَا يُشِيرُونَ إلَى جُمْلَةِ الشَّجَرَةِ وَالْفَرَسِ وَالْإِنْسَانِ مَعَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ كَانَ صَغِيرًا فَكَبِرَ . وَلَا يُقَالُ إنَّمَا كَانَ هُوَ ذَاكَ بِاعْتِبَارِ أَنَّ النَّفْسَ النَّاطِقَةَ وَاحِدَةٌ كَمَا زَعَمَهُ مَنْ ادَّعَى

أَنَّ الْبَدَنَ الثَّانِي لَيْسَ هُوَ ذَاكَ الْأَوَّلَ وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ جَزَاءُ النَّفْسِ بِنَعِيمٍ أَوْ عَذَابٍ

(777/838)

فَفِي أَيِّ بَدَنٍ كَانَتْ حَصَلَ الْمَقْصُودُ فَإِنَّ هَذَا أَيْضًا بَاطِلٌ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ مُخَالِفٌ لِلْمَعْقُولِ مِنْ الْإِعَادَةِ . فَإِنَّا قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْعُقَلَاءَ كُلَّهُمْ يَقُولُونَ : هَذَا الْفَرَسُ هُوَ ذَاكَ وَهَذِهِ الشَّجَرَةُ هِيَ تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ مِنْ سِنِينَ مَعَ عِلْمِ الْعُقَلَاءِ أَنَّ النَّبَاتَ لَيْسَ لَهُ نَفْسٌ نَاطِقَةٌ تُفَارِقُهُ وَتَقُومُ بِذَاتِهَا وَكَذَلِكَ يَقُولُونَ : مِثْلَ هَذَا فِي الْحَيَوَانِ وَفِي الْإِنْسَانِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَخْطِرْ بِقُلُوبِهِمْ أَنَّ الْمُشَارَ إلَيْهِ بِهَذَا وَذَاكَ نَفْسٌ مُفَارِقَةٌ . بَلْ قَدْ لَا يَخْطِرُ هَذَا بِقُلُوبِهِمْ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْعُقَلَاءَ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا الْبَدَنَ هُوَ ذَاكَ مَعَ وُجُودِ الِاسْتِحَالَةِ وَعِلْمِ بِذَلِكَ أَنَّ مَا ذُكِرَ مِنْ الِاسْتِحَالَةِ لَا يُنَافِي أَنْ يَكُونَ الْبَدَنُ الَّذِي يُعَادُ فِي النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ هُوَ هَذَا الْبَدَنُ وَلِهَذَا يَشْهَدُ الْبَدَنُ الْمُعَادُ بِمَا عَمِلَ فِي الدُّنْيَا . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْ

قَالَ قَوْلًا أَوْ فَعَلَ فِعْلًا أَوْ رَأَى غَيْرَهُ يَفْعَلُ أَوْ سَمِعَهُ يَقُولُ ثُمَّ بَعْدَ ثَلَاثِينَ سَنَةً شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِمَا قَالَ أَوْ فَعَلَ وَهُوَ

الْإِقْرَارُ الَّذِي يُؤَاخَذُ بِمُوجِبِهِ أَوْ شَهِدَ عَلَى غَيْرِهِ بِمَا قَبَضَهُ

مِنْ الْأَمْوَالِ وَأَقَرَّ بِهِ مِنْ الْحُقُوقِ لَكَانَتْ الشَّهَادَةُ عَلَى عَيْنِ ذَلِكَ الْمَشْهُودِ عَلَيْهِ مَقْبُولَةً مَعَ اسْتِحَالَةِ بَدَنِهِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ وَلَا يَقُولُ عَاقِلٌ مِنْ الْعُقَلَاءِ : إنَّ هَذِهِ الشَّهَادَةَ عَلَى مِثْلِهِ أَوْ عَلَى غَيْرِهِ . وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ الْمُعَيَّنَ حَيَوَانٌ أَوْ نَبَاتٌ وَشَهِدَ أَنَّ هَذَا الْحَيَوَانَ قَبَضَهُ هَذَا مِنْ هَذَا وَأَنَّ هَذَا الشَّجَرَ سَلَّمَهُ هَذَا إلَى هَذَا : كَانَ كَلَامًا مَعْقُولًا مَعَ الِاسْتِحَالَةِ وَإِذَا كَانَتْ الِاسْتِحَالَةُ غَيْرَ مُؤَثِّرَةٍ . فَقَوْلُ الْقَائِلِ يُعِيدُهُ عَلَى صِفَةِ مَا كَانَ وَقْتَ مَوْتِهِ أَوْ سِمَنِهِ أَوْ هُزَالِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ جَهْلٌ مِنْهُ فَإِنَّ صِفَةَ تِلْكَ النَّشْأَةِ الثَّانِيَةِ لَيْسَتْ مُمَاثِلَةً لِصِفَةِ هَذِهِ النَّشْأَةِ حَتَّى يُقَالَ : إنَّ الصِّفَاتِ هِيَ الْمُغَيَّرَةُ ؛ إذْ لَيْسَ هُنَاكَ اسْتِحَالَةٌ ؟ وَلَا اسْتِفْرَاغٌ وَلَا امْتِلَاءٌ وَلَا سِمَنٌ وَلَا

هُزَالٌ وَلَا سِيَّمَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إذَا دَخَلُوهَا فَإِنَّهُمْ يَدْخُلُونَهَا عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ : طُولُ أَحَدِهِمْ سِتُّونَ ذِرَاعًا كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا وَرُوِيَ أَنَّ عَرْضَهُ سَبْعَةُ أَذْرُعٍ وَهُمْ لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَبْصُقُونَ وَلَا يَتَمَخَّطُونَ . وَلَيْسَتْ تِلْكَ النَّشْأَةُ مِنْ أَخْلَاطٍ مُتَضَادَّةٍ حَتَّى يَسْتَلْزِمَ مُفَارَقَةَ بَعْضِهَا بَعْضًا كَمَا فِي هَذِهِ النَّشْأَةِ وَلَا طَعَامُهُمْ مُسْتَحِيلًا وَلَا شَرَابُهُمْ مُسْتَحِيلًا مِنْ التُّرَابِ وَالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ كَمَا هِيَ أطعماتهم فِي هَذِهِ النَّشْأَةِ وَلِهَذَا أَبْقَى اللَّهُ طَعَامَ الَّذِي مَرَّ عَلَى

(780/838)

قَرْيَةٍ وَشَرَابَهُ مِائَةَ عَامٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ وَدَلَّنَا سُبْحَانَهُ بِهَذَا عَلَى قُدْرَتِهِ فَإِذَا كَانَ فِي دَارِ الْكَوْنِ وَالْفَسَادِ يَبْقَى الطَّعَامُ الَّذِي

هُوَ رُطَبٌ وَعِنَبٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ وَالشَّرَابُ الَّذِي هُوَ مَاءٌ أَوْ مَا فِيهِ مَاءٌ مِائَةَ عَامٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ فَقُدْرَتُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى أَنْ يَجْعَلَ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ فِي النَّشْأَةِ الْأُخْرَى لَا يَتَغَيَّرُ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى وَهَذِهِ الْأُمُورُ لِبَسْطِهَا مَوْضِعٌ آخَرُ

فَصْلٌ :

وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ التَّوَلُّدَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَصْلَيْنِ وَإِنْ ظَنَّ ظَانٌّ أَنَّ نَفْسَ الْهَوَاءِ الَّذِي بَيْنَ الزِّنَادَيْنِ

يَسْتَحِيلُ نَارًا بِسُخُونَتِهِ مِنْ غَيْرِ مَادَّةٍ تَخْرُجُ مِنْهُمَا تَنْقَلِبُ نَارًا فَقَدْ غَلِطَ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَا تَخْرُجُ نَارٌ إِنْ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُمَا مَادَّةٌ بِالْحَكِّ وَلَا تَخْرُجُ النَّارُ بِمُجَرَّدِ الْحَكِّ .

وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ يَقْدَحُونَ عَلَى شَيْءٍ أَسْفَلَ مِنْ الزِّنَادَيْنِ كَالصُّوفَانِ وَالْحِرَاقِ فَتَنْزِلُ النَّارُ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا يَنْزِلُ الثَّقِيلُ فَلَوْلَا أَنَّ هُنَاكَ جُزْءًا ثَقِيلًا مِنْ الزِّنَادِ الْحَدِيدِ وَالْحَجَرِ لَمَا نَزَلَتْ النَّارُ وَلَوْ كَانَ الْهَوَاءُ وَحْدَهُ انْقَلَبَ نَارًا لَمْ يَنْزِلْ لِأَنَّ الْهَوَاءَ طَبْعُهُ الصُّعُودُ لَا الْهُبُوطُ لَكِنْ بَعْدَ أَنْ تَنْقَلِبَ الْمَادَّةُ الْخَارِجَةُ نَارًا قَدْ يَنْقَلِبُ الْهَوَاءُ الْقَرِيبُ مِنْهَا نَارًا : إمَّا دُخَانًا وَإِمَّا لَهِيبًا .

(781/838)

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الْمُتَوَلِّدَاتِ خُلِقَتْ مِنْ أَصْلَيْنِ كَمَا خُلِقَ آدَمَ مِنْ التُّرَابِ وَالْمَاءِ وَإِلَّا فَالتُّرَابُ الْمَحْضُ الَّذِي لَمْ يَخْتَلِطْ بِهِ مَاءٌ لَا يُخْلَقُ مِنْهُ شَيْءٌ لَا حَيَوَانٌ وَلَا نَبَاتٌ . وَالنَّبَاتُ جَمِيعُهُ إنَّمَا يَتَوَلَّدُ مِنْ أَصْلَيْنِ أَيْضًا وَالْمَسِيحُ خُلِقَ مِنْ مَرْيَمَ وَنَفْخَةِ جِبْرِيلَ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ . وَقَالَ : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ وَقَالَ ﴿ فَأَرْسَلْنَا إلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ ﴿ قَالَتْ إنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ ﴿ قَالَ إنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ . وَقَدْ ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ جِبْرِيلَ نَفَخَ فِي جَيْبِ دِرْعِهَا .

وَالْجَيْبُ هُوَ الطَّوْقُ الَّذِي فِي الْعُنُقِ لَيْسَ هُوَ مَا يُسَمِّيهِ بَعْضُ الْعَامَّةِ جَيْبًا وَهُوَ مَا يَكُونُ فِي مُقَدَّمِ الثَّوْبِ لِوَضْعِ الدَّرَاهِمِ وَنَحْوِهَا وَمُوسَى لَمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يُدْخِلَ يَدَهُ فِي جَيْبِهِ : هُوَ ذَلِكَ الْجَيْبُ الْمَعْرُوفُ فِي اللُّغَةِ وَذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ وَغَيْرُهُ قَوْلَيْنِ : هَلْ كَانَتْ النَّفْخَةُ فِي جَيْبِ الدِّرْعِ ؟ أَوْ فِي الْفَرْجِ . فَإِنَّ مَنْ قَالَ بِالْأَوَّلِ قَالَ فِي فَرْجِ دِرْعِهَا وَإِنَّ مَنْ قَالَ هُوَ مَخْرَجُ الْوَلَدِ قَالَ الْهَاءُ كِنَايَةٌ عَنْ غَيْرِ مَذْكُورٍ لِأَنَّهُ إنَّمَا نَفَخَ فِي دِرْعِهَا لَا فِي فَرْجِهَا وَهَذَا لَيْسَ بِشَيْءِ بَلْ هُوَ عُدُولٌ عَنْ صَرِيحِ الْقُرْآنِ . وَهَذَا النَّقْلُ إنْ كَانَ ثَابِتًا لَمْ يُنَاقِضْ

(782/838)

الْقُرْآنَ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَابِتًا لَمْ يَلْتَفِتْ إلَيْهِ فَإِنَّ مَنْ نَقَلَ أَنَّ جِبْرِيلَ نَفَخَ فِي جَيْبِ الدِّرْعِ فَمُرَادُهُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ

(783/838)

يَكْشِفْ بَدَنَهَا وَكَذَلِكَ جِبْرِيلُ كَانَ إذَا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَائِشَةُ مُتَجَرِّدَةٌ لَمْ يَنْظُرْ إلَيْهَا مُتَجَرِّدَةً فَنَفَخَ فِي جَيْبِ الدِّرْعِ فَوَصَلَتْ النَّفْخَةُ إلَى فَرْجِهَا . وَالْمَقْصُودُ إنَّمَا هُوَ

النَّفْخُ فِي الْفَرْجِ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي آيَتَيْنِ وَإِلَّا فَالنَّفْخُ فِي الثَّوْبِ فَقَطْ مِنْ غَيْرِ وُصُولِ النَّفْخِ إِلَى الْفَرْجِ مُخَالِفٌ لِلْقُرْآنِ مَعَ أَنَّهُ لَا تَأْثِيرَ لَهُ فِي حُصُولِ الْوَلَدِ وَلَمْ يَقُلْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلَا نَقَلَهُ أَحَدٌ عَنْ عَالِمٍ مَعْرُوفٍ مِنْ السَّلَفِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الْمَسِيحَ خُلِقَ مِنْ أَصْلَيْنِ : مِنْ نَفْخِ جِبْرِيلَ وَمِنْ أُمِّهِ مَرْيَمَ وَهَذَا النَّفْخُ لَيْسَ هُوَ النَّفْخَ الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ مُضِيِّ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَالْجَنِينُ مُضْغَةٌ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نَفْخٌ فِي بَدَنٍ قَدْ خُلِقَ وَجِبْرِيلُ حِينَ نَفَخَ لَمْ يَكُنْ الْمَسِيحُ خُلِقَ بَعْدُ وَلَا كَانَتْ مَرْيَمُ حَمَلَتْ وَإِنَّمَا حَمَلَتْ بِهِ بَعْدَ النَّفْخِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : ﴿ قَالَ إنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ فَلَمَّا نَفَخَ فِيهَا جِبْرِيلُ حَمَلَتْ بِهِ وَلِهَذَا قِيلَ فِي الْمَسِيحِ رُوحٌ مِنْهُ بِاعْتِبَارِ هَذَا النَّفْخِ . وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ الرَّسُولَ الَّذِي هُوَ رُوحُهُ وَهُوَ جِبْرِيلُ هُوَ الرُّوحُ الَّذِي خَاطَبَهَا وَقَالَ إنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا فَقَوْلُهُ ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا ﴾ أَوْ ﴿ فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ﴾ أَيْ مِنْ هَذَا الرُّوحِ الَّذِي هُوَ جِبْرِيلُ وَعِيسَى

رُوحٌ مِنْ هَذَا الرُّوحِ فَهُوَ رُوحٌ مِنْ اللَّهِ بِهَذَا

الِاعْتِبَارِ وَمِنْ لَا ابْتِدَاءِ الْغَايَةِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ الشَّيْءُ مِنْ أَصْلَيْنِ بِانْقِلَابِ الْمَادَّةِ الَّتِي بَيْنَهُمَا إِذَا الْتَقَيَا كَانَ بَيْنَهُمَا مَادَّةٌ فَتَنْقَلِبُ وَذَلِكَ لِقُوَّةِ حَكِّ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ فَلَا بُدَّ مِنْ نَقْصِ أَجْزَائِهَا وَهَذَا مِثْلُ تَوَلُّدِ النَّارِ بَيْنَ الزِّنَادَيْنِ إِذَا قُدِحَ الْحَجَرُ بِالْحَدِيدِ أَوْ الشَّجَرُ بِالشَّجَرِ كَالْمَرْخِ وَالْعِفَارِ فَإِنَّهُ بِقُوَّةِ الْحَرَكَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ قَدْحِ أَحَدِهِمَا بِالْآخَرِ يَسْتَحِيلُ بَعْضُ أَجْزَائِهِمَا وَيَسْخَنُ الْهَوَاءُ الَّذِي بَيْنَهُمَا فَيَصِيرُ نَارًا وَالزِّنْدَانِ كُلَّمَا قُدِحَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ نَقَصَتْ أَجْزَاؤُهُمَا بِقُوَّةِ الْحَكِّ فَهَذِهِ النَّارُ اسْتَحَالَتْ عَنْ الْهَوَاءِ وَتِلْكَ الْأَجْزَاءُ بِسَبَبِ قَدْحِ أَحَدِ الزِّنْدَيْنِ بِالْآخَرِ . وَكَذَلِكَ النُّورُ الَّذِي يَحْصُلُ بِسَبَبِ انْعِكَاسِ الشُّعَاعِ عَلَى مَا يُقَابِلُ الْمُضِيءَ كَالشَّمْسِ وَالنَّارِ فَإِنَّ لَفْظَ النُّورِ وَالضَّوْءِ يُقَالُ تَارَةً عَلَى الْجِسْمِ الْقَائِمِ بِنَفْسِهِ : كَالنَّارِ الَّتِي فِي رَأْسِ الْمِصْبَاحِ وَهَذِهِ لَا تَحْصُلُ إلَّا بِمَادَّةٍ تَنْقَلِبُ نَارًا كَالْحَطَبِ وَالدُّهْنِ وَيَسْتَحِيلُ الْهَوَاءُ أَيْضًا نَارًا وَلَا يَنْقَلِبُ الْهَوَاءُ أَيْضًا نَارًا إلَّا بِنَقْصِ الْمَادَّةِ الَّتِي اشْتَعَلَتْ أَوْ نَقْصِ الزِّنْدَيْنِ وَتَارَةً يُرَادُ بِلَفْظِ النُّورِ وَالضَّوْءِ وَالشُّعَاعِ : الشُّعَاعُ الَّذِي يَكُونُ عَلَى الْأَرْضِ وَالْحِيطَانِ مِنْ الشَّمْسِ أَوْ مِنْ النَّارِ فَهَذَا عَرَضٌ لَيْسَ بِجِسْمٍ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَحَلٍّ يَقُومُ بِهِ يَكُونُ قَابِلًا لَهُ فَلَا

بُدَّ فِي الشُّعَاعِ مِنْ جِسْمٍ مُضِيءٍ وَلَا بُدَّ مِنْ شَيْءٍ يُقَابِلُهُ حَتَّى يَنْعَكِسَ عَلَيْهِ الشُّعَاعُ .

وَكَذَلِكَ النَّارُ الْحَاصِلَةُ فِي ذُبَالَةِ الْمِصْبَاحِ إذَا وُضِعَتْ فِي النَّارِ أَوْ وُضِعَ فِيهَا حَطَبٌ فَإِنَّ النَّارَ تُحِيلُ أَوَّلًا الْمَادَّةَ الَّتِي هِيَ الدُّهْنُ أَوْ الْحَطَبُ فَيَسْخُنُ الْهَوَاءُ الْمُحِيطُ بِهَا فَيَنْقَلِبُ نَارًا وَإِنَّمَا يَنْقَلِبُ بَعْدَ نَقْصِ الْمَادَّةِ وَكَذَلِكَ الرِّيحُ الَّتِي تُحَرِّكُ النَّارَ مِثْلَ مَا تَهُبُّ الرِّيحُ فَتَشْتَعِلُ النَّارُ فِي الْحَطَبِ وَمِثْلَ مَا يُنْفَخُ فِي الْكِيرِ وَغَيْرِهِ تَبْقَى الرِّيحُ الْمَنْفُوخَةُ تُضْرِمُ النَّارَ لِمَا فِي مَحَلِّ النَّارِ كَالْخَشَبِ وَالْفَحْمِ مِنْ الِاسْتِعْدَادِ لِانْقِلَابِهِ نَارًا وَمَا فِي حَرَكَةِ الرِّيحِ الْقَوِيَّةِ مِنْ تَحْرِيكِ النَّارِ إلَى الْمَحَلِّ الْقَابِلِ لَهُ وَقَدْ يَنْقَلِبُ أَيْضًا الْهَوَاءُ الْقَرِيبُ مِنْ النَّارِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَبَ هُوَ الْهَوَاءُ انْقَلَبَ نَارًا مِثْلَ مَا فِي ذُبَالَةِ الْمِصْبَاحِ وَلِهَذَا إذَا طَفِئَتْ صَارَ دُخَانًا وَهُوَ هَوَاءٌ مُخْتَلِطٌ بِنَارٍ كَالْبُخَارِ وَهُوَ هَوَاءٌ مُخْتَلِطٌ بِمَاءِ وَالْغُبَارُ هَوَاءٌ مُخْتَلِطٌ بِتُرَابِ .

وَقَدْ يُسَمَّى الْبُخَارُ دُخَانًا وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : بُخَارُ الْمَاءِ كَمَا جَاءَتْ الْآثَارُ : ﴿ إنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ مِنْ بُخَارِ الْمَاءِ ﴾ وَهُوَ الدُّخَانُ . فَإِنَّ الدُّخَانَ الْهَوَاءُ الْمُخْتَلِطُ بِشَيْءٍ حَارٍّ ثُمَّ قَدْ لَا يَكُونُ فِيهِ مَاءٌ وَهُوَ

الدُّخَانُ الصِّرْفُ وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ مَاءٌ فَهُوَ دُخَانٌ وَهُوَ بُخَارٌ كَبُخَارِ الْقِدْرِ . وَقَدْ يُسَمَّى الدُّخَانُ بُخَارًا . فَيُقَالُ لِمَنْ اسْتَجْمَرَ بِالطِّيبِ تَبَخَّرَ وَإِنْ كَانَ لَا رُطُوبَةَ هُنَا بَلْ دُخَانُ الطِّيبِ سُمِّيَ بُخَارًا . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : بُخَارُ الْمَاءِ مَا يَرْتَفِعُ مِنْهُ كَالدُّخَانِ وَالْبَخُورِ بِالْفَتْحِ مَا يتبخر بِهِ ؛ لَكِنْ إنَّمَا يَصِيرُ الْهَوَاءُ نَارًا

بَعْدَ أَنْ تَذْهَبَ الْمَادَّةُ الَّتِي انْقَلَبَتْ نَارًا . كَالْحَطَبِ وَالدُّهْنِ فَلَمْ تَتَوَلَّدْ النَّارُ إلَّا مِنْ مَادَّةٍ كَمَا لَمْ يَتَوَلَّدْ الْحَيَوَانُ إلَّا مِنْ مَادَّةٍ .

فَصْلٌ :

(788/838)

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ كُلَّ مَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ لَفْظُ التَّوَلُّدِ مِنْ الْأَعْيَانِ الْقَائِمَةِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَصْلَيْنِ وَمِنْ انْفِصَالِ جُزْءٍ مِنْ الْأَصْلِ . وَإِذَا قِيلَ فِي الشِّبَعِ وَالرِّيِّ : إنَّهُ مُتَوَلِّدٌ أَوْ فِي زُهُوقِ الرُّوحِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأَعْرَاضِ أَنَّهُ مُتَوَلِّدٌ فَلَا بُدَّ فِي جَمِيعِ مَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ هَذَا اللَّفْظُ مِنْ أَصْلَيْنِ لَكِنَّ الْعَرَضَ يَحْتَاجُ إلَى مَحَلٍّ لَا يَحْتَاجُ إلَى مَادَّةٍ تَنْقَلِبُ عَرَضًا : بِخِلَافِ الْأَجْسَامِ فَإِنَّهَا إنَّمَا تُخْلَقُ مِنْ مَوَادَّ تَنْقَلِبُ أَجْسَامًا كَمَا تَنْقَلِبُ إلَى نَوْعٍ آخَرَ كَانْقِلَابِ الْمَنِيِّ عَلَقَةً . ثُمَّ مُضْغَةً وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَلْقِ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ . وَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ : كَخَلْقِ حَوَّاءَ مِنْ

الضِّلَعِ الْقُصْرَى لِآدَمَ وَهُوَ وَإِنْ كَانَ مَخْلُوقًا مِنْ مَادَّةٍ أُخِذَتْ مِنْ آدَمَ فَلَا يُسَمَّى هَذَا تَوَلُّدًا ؛ وَلِهَذَا لَا يُقَالُ : إنَّ آدَمَ وَلَدَ حَوَّاءَ وَلَا يُقَالُ إنَّهُ أَبُو حَوَّاءَ بَلْ خَلَقَ اللَّهُ حَوَّاءَ مِنْ آدَمَ كَمَا خَلَقَ آدَمَ مِنْ الطِّينِ .

(789/838)

وَأَمَّا الْمَسِيحُ فَيُقَالُ : إنَّهُ وَلَدَتْهُ مَرْيَمُ وَيُقَالُ : الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ فَكَانَ الْمَسِيحُ جُزْءًا مِنْ مَرْيَمَ وَخُلِقَ بَعْدَ نَفْخِ الرُّوحِ فِي فَرْجِ مَرْيَمَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ وَفِي الْأُخْرَى : ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ وَأَمَّا حَوَّاءُ فَخَلَقَهَا اللَّهُ مِنْ مَادَّةٍ أُخِذَتْ مِنْ آدَمَ كَمَا خَلَقَ آدَمَ مِنْ الْمَادَّةِ الْأَرْضِيَّةِ وَهِيَ الْمَاءُ وَالتُّرَابُ وَالرِّيحُ الَّذِي أَيْبَسَتْهُ حَتَّى صَارَ صَلْصَالًا فَلِهَذَا لَا يُقَالُ إنَّ آدَمَ وَلَدَ حَوَّاءَ وَلَا آدَمَ وَلَدَهُ التُّرَابُ وَيُقَالُ فِي الْمَسِيحِ : وَلَدَتْهُ مَرْيَمُ فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَصْلَيْنِ مِنْ مَرْيَمَ وَمِنْ النَّفْخِ الَّذِي نَفَخَ فِيهَا جِبْرِيلُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ ﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ ﴿ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ

عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ إلى آخِرِ الْقِصَّةِ . فَهِيَ إِنَّمَا حَمَلَتْ بِهِ بَعْدَ النَّفْخِ لَمْ تَحْمِلْ بِهِ مُدَّةً بِلَا نَفْخٍ ثُمَّ نُفِخَتْ فِيهِ رُوحُ الْحَيَاةِ كَسَائِرِ الْآدَمِيِّينَ

(790/838)

فَفَرْقٌ بَيْنَ النَّفْخِ لِلْحَمْلِ وَبَيْنَ النَّفْخِ لِرُوحِ الْحَيَاةِ .

فَتَبَيَّنَ أَنَّ مَا يُقَالُ إِنَّهُ مُتَوَلِّدٌ مِنْ غَيْرِهِ مِنْ الْأَعْيَانِ الْقَائِمَةِ بِنَفْسِهَا فَلَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ مَادَّةٍ تَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الْوَالِدِ وَلَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَصْلَيْنِ وَالرَّبُّ تَعَالَى صَمَدٌ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ . وَأَمَّا مَا يُسْتَعْمَلُ مِنْ تَوَلُّدِ الْأَعْرَاضِ . كَمَا يُقَالُ : تَوَلَّدَ الشُّعَاعُ وَتَوَلَّدَ الْعِلْمُ عَنْ الْفِكْرِ وَتَوَلَّدَ الشِّبَعُ عَنْ الْأَكْلِ وَتَوَلَّدَتْ الْحَرَارَةُ عَنْ الْحَرَكَةِ وَنَحْوُ ذَلِكَ فَهَذَا لَيْسَ مِنْ تَوَلُّدِ الْأَعْيَانِ ؛ مَعَ أَنَّ هَذَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَحَلٍّ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَصْلَيْنِ . وَلِهَذَا كَانَ قَوْلُ النَّصَارَى إنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ اللَّهِ - تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ - مُسْتَلْزِمًا لِأَنْ يَقُولُوا : إنَّ مَرْيَمَ صَاحِبَةُ اللَّهِ فَيَجْعَلُونَ لَهُ زَوْجَةً وَصَاحِبَةً كَمَا جَعَلُوا لَهُ وَلَدًا وَبِأَيِّ مَعْنًى فَسَّرُوا كَوْنَهُ ابْنَهُ فَإِنَّهُ يُفَسَّرُ الزَّوْجَةُ بِذَلِكَ الْمَعْنَى وَالْأَدِلَّةُ الْمُوجِبَةُ تَنْزِيهَهُ عَنْ الصَّاحِبَةِ تُوجِبُ تَنْزِيهَهُ عَنْ الْوَلَدِ فَإِذَا كَانُوا يَصِفُونَهُ بِمَا هُوَ أَبْعَدُ عَنْ اتِّصَافِهِ بِهِ كَانَ اتِّصَافُهُ بِمَا هُوَ أَقَلُّ

بُعْدًا لَازِمًا لَهُمْ وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى .

فَصْلٌ :

وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ مَا نَزَّهَ اللَّهُ نَفْسَهُ وَنَفَاهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ وَبِقَوْلِهِ : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾ ﴿ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ

لَكَاذِبُونَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يَعُمُّ جَمِيعَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي تُذْكَرُ فِي هَذَا الْبَابِ عَنْ بَعْضِ الْأُمَمِ كَمَا أَنَّ مَا نَفَاهُ مِنَ اتِّخَاذِ الْوَلَدِ يَعُمُّ أَيْضًا جَمِيعَ أَنْوَاعِ الِاتِّخَاذَاتِ الِاصْطِفَائِيَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ . قَالَ السدي : قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى إِسْرَائِيلَ أَنَّ وَلَدَكَ بِكْرِي مِنَ الْوَلَدِ فَأَدْخِلْهُمُ النَّارَ فَيَكُونُونَ فِيهَا أَرْبَعِينَ يَوْمًا حَتَّى تُطَهِّرَهُمْ وَتَأْكُلَ خَطَايَاهُمْ ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ أَخْرِجُوا كُلَّ مَخْتُونٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ ﴾ وَقَالَ : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ

فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ

جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ وقَالَ : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ
وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ إلى قَوْلِهِ
: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا ﴾ إلى قَوْلِهِ : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا
يَشْتَهُونَ ﴾ وقَالَ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ ﴿
أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ ﴿ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ
إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ وقَالَ : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴾ ﴿
أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴾ ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴾ ﴿ وَلَدَ اللَّهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ ﴿ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴾ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ﴿
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿
وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ ﴿ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا

يَصِفُونَ ﴾ ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ
بِفَاتِنِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِي الْجَحِيمِ ﴾ وقَالَ : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾ ﴿ وَمَنَاةَ

الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴾ ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ

سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثَى ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ . قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : ﴿ جُزْءًا ﴾ أَيْ نَصِيبًا وَبَعْضًا وَقَالَ بَعْضُهُمْ : جَعَلُوا لِلَّهِ نَصِيبًا مِنَ الْوَلَدِ وَعَنْ قَتَادَةَ وَمُقَاتِلٍ عِدْلًا . وَكِلَا الْقَوْلَيْنِ صَحِيحٌ فَإِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا وَالْوَلَدُ يُشْبِهُ أَبَاهُ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أَيْ الْبَنَاتِ . كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ﴾ فَقَدْ جَعَلُوهَا لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا فَإِنَّ الْوَلَدَ جُزْءٌ مِنَ الْوَالِدِ كَمَا تَقَدَّمَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إِنَّمَا فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قَالَ الْكَلْبِيُّ نَزَلَتْ فِي الزَّنَادِقَةِ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ وَإِبْلِيسَ شَرِيكَانِ فَاللَّهُ خَالِقُ النُّورِ وَالنَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ . وَإِبْلِيسُ خَالِقُ الظُّلْمَةِ وَالسِّبَاعِ وَالْحَيَّاتِ وَالْعَقَارِبِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿

وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ﴾ فقيل هو قولهم: الملائكة بنات الله وسمى الملائكة جنا لاجتنانهم عن الأبصار .

وهو قول مجاهد وقتادة وقيل قالوا لحي من الملائكة يقال لهم الجن ومنهم إبليس وهم بنات الله وقال الكلبي قالوا - لعنهم الله - بل تزوج من الجن فخرج بينهما الملائكة . وقوله: ﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ قال بعض المفسرين كالثعلبي وهم كفار العرب قالوا الملائكة والأصنام بنات الله واليهود قالوا عزير ابن الله والنصارى قالوا المسيح ابن الله .

فصل :

وأما الذين كانوا يقولون من العرب: إن الملائكة بنات الله وما نقل عنهم من أنه صاهر الجن فولدت له الملائكة فقد نفاه الله عنه بامتناع الصاحبة وبامتناع أن يكون منه جزء فإنه صمد وقوله: ﴿ ولم تكن له صاحبة ﴾ . وهذا كما تقدم من أن الولادة لا تكون إلا من أصلين سواء في ذلك تولد الأعيان التي تسمى الجواهر وتولد الأعراض والصفات بل ولا يكون تولد الأعيان إلا بانفصال جزء من الوالد فإذا امتنع أن يكون له صاحبة امتنع أن يكون

لَهُ وَلَدٌ وَقَدْ عَلِمُوا كُلُّهُمْ أَنْ لَا صَاحِبَةَ لَهُ لَا مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَلَا مِنْ الْجِنّ وَلَا مِنْ الْإِنْسِ فَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنّ لَهُ صَاحِبَةً فَلِهَذَا احْتَجّ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَمَا حُكِيَ عَنْ بَعْضِ كُفَّارِ الْعَرَبِ أَنَّهُ صَاهَرَ الْجِنّ فَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ وَذَلِكَ

(798/838)

إنْ كَانَ قَدْ قِيلَ : فَهُوَ مِمَّا يُعْلَمُ انْتِفَاؤُهُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ وَكَذَلِكَ مَا قَالَتْهُ النَّصَارَى : مِنْ أَنّ الْمَسِيحَ ابْنُ اللَّهِ وَمَا قَالَهُ طَائِفَةٌ مِنْ الْيَهُودِ أَنّ الْعُزَيْرَ ابْنُ اللَّهِ فَإِنَّهُ قَدْ نَفَاهُ سُبْحَانَهُ بِهَذَا وَبِهَذَا . فَإِنْ قِيلَ : أَمَّا عَوَامُّ النَّصَارَى فَلَا تَنْضَبِطُ أَقْوَالُهُمْ وَأَمَّا الْمَوْجُودُ فِي كَلَامِ عُلَمَائِهِمْ وَكُتُبِهِمْ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : أَنّ أُقْنُومَ الْكَلِمَةِ وَيُسَمُّونَهَا الِابْنَ تَدَرَّعَ الْمَسِيحَ أَيْ اتَّخَذَهُ دِرْعًا كَمَا يَتَدَرَّعُ الْإِنْسَانُ قَمِيصَهُ فَاللَّاهُوتُ تَدَرَّعَ النَّاسُوتَ وَيَقُولُونَ : بِاسْمِ الْأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ إلَهٌ وَاحِدٌ قِيلَ قَصْدُهُمْ أَنّ الرَّبَّ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ فَالْمَوْجُودُ هُوَ الْأَبُ وَالْعِلْمُ هُوَ الِابْنُ وَالْحَيَاةُ هُوَ رُوحُ الْقُدُسِ هَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْهُمْ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ بَلْ مَوْجُودٌ عَالِمٌ قَادِرٌ وَيَقُولُ الْعِلْمُ هُوَ الْكَلِمَةُ وَهُوَ الْمُتَدَرِّعُ وَالْقُدْرَةُ هِيَ رُوحُ الْقُدُسِ ؛ فَهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي أَنّ الْمُتَدَرِّعَ هُوَ أُقْنُومُ الْكَلِمَةِ وَهِيَ الِابْنُ . ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي التَّدَرُّعِ وَاخْتَلَفُوا هَلْ هُمَا جَوْهَرٌ أَوْ جَوهران ؟ وَهَلْ لَهُمَا مَشِيئَةٌ أَوْ مَشِيئَتَانِ وَلَهُمْ فِي الْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ كَلَامٌ مُضْطَرِبٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهِ .

فَإِنَّ مُقَالَةَ النّصَارَى فِيهَا مِنْ الِاخْتِلَافِ بَيْنَهُمْ مَا يَتَعَذَّرُ ضَبْطُهُ فَإِنَّ قَوْلَهُمْ لَيْسَ مَأْخُوذًا عَنْ كِتَابٍ مُنَزَّلٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ وَلَا هُوَ مُوَافِقٌ لِعُقُولِ الْعُقَلَاءِ فَقَالَتْ الْيَعْقُوبِيَّةُ صَارَ جَوْهَرًا وَاحِدًا

وَطَبِيعَةً وَاحِدَةً وَأُقْنُومًا وَاحِدًا كَالْمَاءِ فِي اللَّبَنِ . وَقَالَتْ

النسطورية : بَلْ هُمَا جوهران وَطَبِيعَتَانِ وَمَشِيئَتَانِ ؛ لَكِنْ حَلَّ اللَّاهُوتُ فِي النَّاسُوتِ حُلُولَ الْمَاءِ فِي الظَّرْفِ . وَقَالَتْ الْمَلَكِيَّةُ : بَلْ هُمَا جَوْهَرٌ وَاحِدٌ لَهُ مَشِيئَتَانِ وَطَبِيعَتَانِ أَوْ فِعْلَانِ كَالنَّارِ فِي الْحَدِيدِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ إلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ هُمْ الْيَعْقُوبِيَّةُ وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾ هُمْ الْمَلَكِيَّةُ وَقَوْلِهِ : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ هُمْ النسطورية وَلَيْسَ بِشَيْءِ بَلْ الْفِرَقُ الثَّلَاثُ تَقُولُ الْمَقَالَاتِ الَّتِي حَكَاهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ النَّصَارَى فَكُلُّهُمْ يَقُولُونَ : إنَّهُ اللَّهُ وَيَقُولُونَ : إنَّهُ ابْنُ اللَّهِ وَكَذَلِكَ فِي أَمَانَتِهِمْ الَّتِي هُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَيْهَا يَقُولُونَ

إِلَهٌ حَقٌّ مِنْ إِلَهٍ حَقٍّ وَأَمَّا قَوْلُهُ: "ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ" فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾. قَالَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي قَوْلِهِ: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ النَّصَارَى قَالُوا بِأَنَّ الْإِلَهِيَّةَ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ اللَّهِ وَعِيسَى وَمَرْيَمَ كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَهٌ وَذَكَرَ عَنِ الزَّجَّاجِ: الْغُلُوُّ مُجَاوَزَةُ الْقَدْرِ فِي الظُّلْمِ وَغُلُوُّ النَّصَارَى فِي عِيسَى قَوْلُ

بَعْضِهِمْ هُوَ اللَّهُ وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ هُوَ ابْنُ اللَّهِ وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ هُوَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. فَعُلَمَاءُ النَّصَارَى الَّذِينَ فَسَّرُوا قَوْلَهُمْ هُوَ ابْنُ اللَّهِ بِمَا ذَكَرُوهُ مِنْ أَنَّ الْكَلِمَةَ هِيَ الِابْنُ وَالْفِرَقُ الثَّلَاثُ مُتَّفِقَةٌ عَلَى ذَلِكَ وَفَسَادُ قَوْلِهِمْ مَعْلُومٌ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ مِنْ وُجُوهٍ:

أَحدُهَا : أَنَّهُ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ تَسْمِيَةُ صِفَةِ اللَّهِ ابْنًا لَا كَلَامُهُ وَلَا غَيْرُهُ فَتَسْمِيَتُهُمْ صِفَةَ اللَّهِ ابْنًا تَحْرِيفٌ لِكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَمَا نَقَلُوهُ عَنْ الْمَسِيحِ مِنْ قَوْلِهِ عَمِّدُوا النَّاسَ بِاسْمِ الْأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ لَمْ يُرِدْ بِالِابْنِ صِفَةَ اللَّهِ الَّتِي هِيَ كَلِمَتُهُ وَلَا بِرُوحِ الْقُدُسِ حَيَاتَهُ فَإِنَّهُ لَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ إرَادَةُ هَذَا الْمَعْنَى كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي الرَّدِّ عَلَى النَّصَارَى . الْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ الَّتِي هِيَ الِابْنُ أَهِيَ صِفَةُ اللَّهِ قَائِمَةٌ بِهِ أَمْ هِيَ جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ ؟ فَإِنْ كَانَتْ صِفَتَهُ بَطَلَ مَذْهَبُهُمْ مِنْ وُجُوهٍ . أَحدُهَا : أَنَّ الصِّفَةَ لَا تَكُونُ إلَهًا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيُحْيِي وَيُمِيتُ وَالْمَسِيحُ عِنْدَهُمْ إلَهٌ يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَيُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا كَانَ الَّذِي تَدَرَّعَهُ لَيْسَ بِإِلَهٍ فَهُوَ أَوْلَى أَنْ لَا يَكُونَ إلَهًا . الثَّانِي : أَنَّ الصِّفَةَ لَا تَقُومُ بِغَيْرِ الْمَوْصُوفِ فَلَا تُفَارِقُهُ وَإِنْ قَالُوا : نَزَلَ عَلَيْهِ كَلَامُ اللَّهِ أَوْ قَالُوا : إنَّهُ الْكَلِمَةُ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ فَهَذَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ .

الثَّالِثُ : أَنَّ الصِّفَةَ لَا تَتَّحِدُ وَتَتَدَرَّعُ شَيْئًا إلَّا مَعَ الْمَوْصُوفِ فَيَكُونُ الْأَبُ نَفْسُهُ هُوَ الْمَسِيحَ وَالنَّصَارَى مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ هُوَ الْأَبُ فَإِنَّ قَوْلَهُمْ مُتَنَاقِضٌ : يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا يَجْعَلُونَهُ إلَهًا يَخْلُقُ وَيَرْزُقُ وَلَا يَجْعَلُونَهُ الْأَبَ الَّذِي هُوَ الْإِلَهُ وَيَقُولُونَ : إلَهٌ وَاحِدٌ وَقَدْ شَبَّهَهُ بَعْضُ

مُتَكَلِّمِيهِمْ كَيَحْيَى بْنِ عَدِيٍّ بِالرَّجُلِ الْمَوْصُوفِ بِأَنَّهُ طَبِيبٌ وَحَاسِبٌ وَكَاتِبٌ وَلَهُ بِكُلِّ صِفَةٍ حُكْمٌ فَيُقَالُ : هَذَا حَقٌّ لَكِنَّ قَوْلَهُمْ لَيْسَ نَظِيرُ هَذَا فَإِذَا قُلْتُمْ أَنَّ الرَّبَّ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَالِمٌ وَلَهُ بِكُلِّ صِفَةٍ حُكْمٌ فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُتَّحِدَ إِنْ كَانَ هُوَ الذَّاتَ الْمُتَّصِفَةَ فَالصِّفَاتُ كُلُّهَا تَابِعَةٌ لَهَا فَإِنَّهُ إِذَا تَدَرَّعَ زَيْدٌ الطَّبِيبُ الْحَاسِبُ الْكَاتِبُ دِرْعًا كَانَتْ الصِّفَاتُ كُلُّهَا قَائِمَةً بِهِ وَإِنْ كَانَ الْمُتَدَرِّعُ صِفَةً دُونَ صِفَةٍ عَادَ الْمَحْذُورُ . وَإِنْ قَالُوا : الْمُتَدَرِّعُ الذَّاتُ بِصِفَةٍ دُونَ صِفَةٍ لَزِمَ افْتِرَاقُ الصِّفَتَيْنِ وَهَذَا مُمْتَنِعٌ ؛ فَإِنَّ الصِّفَاتِ الْقَائِمَةَ بِمَوْصُوفٍ وَاحِدٍ وَهِيَ لَازِمَةٌ لَهُ لَا تَفْتَرِقُ وَصِفَاتُ الْمَخْلُوقِينَ قَدْ يُمْكِنُ عَدَمُ بَعْضِهَا مَعَ بَقَاءِ الْبَاقِي بِخِلَافِ صِفَاتِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى . الرَّابِعُ : إِنَّ الْمَسِيحَ نَفْسَهُ لَيْسَ هُوَ كَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَا شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ بَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَسُمِّيَ كَلِمَةً لِأَنَّهُ خُلِقَ بِكُنْ مِنْ غَيْرِ الْحَبْلِ الْمُعْتَادِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ

مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى

ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ نَفْسُهُ كَلَامُ اللَّهِ كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَسَائِرِ كَلَامِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ كَلَامُ اللَّهِ وَلَا شَيْءٌ مِنْ صِفَاتِهِ خَالِقًا وَلَا رَبًّا وَلَا إِلَهًا . فَالنَّصَارَى إِذَا قَالُوا : إِنَّ الْمَسِيحَ هُوَ الْخَالِقُ كَانُوا ضَالِّينَ مِنْ جِهَةِ جَعْلِ الصِّفَةِ خَالِقَةً وَمِنْ جِهَةِ جَعْلِهِ هُوَ نَفْسَ الصِّفَةِ وَإِنَّمَا هُوَ مَخْلُوقٌ بِالْكَلِمَةِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ بِالتَّثْلِيثِ وَأَنَّ الصِّفَاتِ ثَلَاثٌ بَاطِلٌ وَقَوْلُهُمْ أَيْضًا : بِالْحُلُولِ وَالِاتِّحَادِ بَاطِلٌ . فَقَوْلُهُمْ يَظْهَرُ بُطْلَانُهُ مِنْ هَذِهِ الْوُجُوهِ وَغَيْرِهَا . فَلَوْ قَالُوا : إِنَّ الرَّبَّ لَهُ صِفَاتٌ قَائِمَةٌ بِهِ وَلَمْ يَذْكُرُوا اتِّحَادًا وَلَا حُلُولًا كَانَ هَذَا قَوْلَ جَمَاهِيرِ الْمُسْلِمِينَ الْمُثْبِتِينَ لِلصِّفَاتِ . وَإِنْ قَالُوا : إِنَّ الصِّفَاتِ أَعْيَانٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا فَهَذَا مُكَابَرَةٌ فَهُمْ يَجْمَعُونَ بَيْنَ الْمُتَنَاقِضَيْنِ . وَأَيْضًا فَجَعْلُهُمْ عَدَدَ الصِّفَاتِ ثَلَاثَةً بَاطِلٌ فَإِنَّ صِفَاتِ الرَّبِّ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ سُبْحَانَهُ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ . وَالْأَقَانِيمُ عِنْدَهُمُ الَّتِي جَعَلُوهَا الصِّفَاتِ لَيْسَتْ إلَّا ثَلَاثَةً ؛ وَلِهَذَا تَارَةً يُفَسِّرُونَهَا بِالْوُجُودِ وَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَتَارَةً يُفَسِّرُونَهَا بِالْوُجُودِ وَالْقُدْرَةِ وَالْعِلْمِ وَاضْطِرَابُهُمْ كَثِيرٌ . فَإِنَّ قَوْلَهُمْ فِي نَفْسِهِ بَاطِلٌ وَلَا يَضْبِطُهُ عَقْلُ عَاقِلٍ وَلِهَذَا يُقَالُ : لَوْ اجْتَمَعَ

عَشَرَةٌ مِنْ النَّصَارَى لَافْتَرَقُوا عَلَى أَحَدَ عَشَرَ قَوْلًا

(807/838)

وَأَيْضًا فَكَلِمَاتُ اللَّهِ كَثِيرَةٌ لَا نِهَايَةَ لَهَا . كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ وَهَذَا قَوْلُ جَمَاهِيرِ النَّاسِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ وَهَذَا مَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَمْ يَزَلْ سُبْحَانَهُ مُتَكَلِّمًا بِمَشِيئَتِهِ . وَقَوْلُ مَنْ قَالَ : إنَّهُ لَمْ يَزَلْ قَادِرًا عَلَى الْكَلَامِ لَكِنْ تَكَلَّمَ بِمَشِيئَتِهِ كَلَامًا قَائِمًا بِذَاتِهِ حَادِثًا وَقَوْلُ مَنْ قَالَ كَلَامُهُ مَخْلُوقٌ فِي غَيْرِهِ . وَأَمَّا مَنْ قَالَ : كَلَامُهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ قَدِيمُ الْعَيْنِ فَهَؤُلَاءِ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ أُمُورٌ لَا نِهَايَةَ لَهَا مَعَ ذَلِكَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : بَلْ هُوَ مَعْنًى وَاحِدٌ وَلَكِنَّ الْعِبَارَاتِ عَنْهُ مُتَعَدِّدَةٌ وَهَؤُلَاءِ يَمْتَنِعُ عِنْدَهُمْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمَعْنَى قَائِمًا بِغَيْرِ اللَّهِ وَإِنَّمَا يَقُومُ بِغَيْرِهِ عِنْدَهُمْ الْعِبَارَاتُ الْمَخْلُوقَةُ وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الْمَسِيحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْعِبَارَاتِ فَإِذَا امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ الْمَسِيحُ غَيْرَ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ فَعَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ أَشَدُّ امْتِنَاعًا ؛ لِأَنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ كَثِيرَةٌ وَالْمَسِيحُ لَيْسَ هُوَ جَمِيعَهَا بَلْ وَلَا مَخْلُوقًا بِجَمِيعِهَا وَإِنَّمَا خُلِقَ بِكَلِمَةٍ مِنْهَا وَلَيْسَ هُوَ عَيْنُ تِلْكَ الْكَلِمَةِ فَإِنَّ الْكَلِمَةَ صِفَةٌ مِنْ الصِّفَاتِ وَالْمَسِيحُ عَيْنٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ . ثُمَّ يُقَالُ لَهُمْ : تَسْمِيَتُكُمْ الْعِلْمَ وَالْكَلِمَةَ وَلَدًا وَابْنًا

(808/838)

تَسْمِيَةٌ بَاطِلَةٌ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَالْعُقَلَاءِ وَلَمْ يُنْقَلْ ذَلِكَ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَالُوا : لِأَنَّ الذَّاتَ

(809/838)

يَتَوَلَّدُ عَنْهَا الْعِلْمُ وَالْكَلَامُ كَمَا يَتَوَلَّدُ ذَلِكَ عَنْ نَفْسِ الرَّجُلِ الْعَالِمِ مِنْهَا فَيَتَوَلَّدُ مِنْ ذَاتِهِ الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ وَالْكَلَامُ فَلِهَذَا سُمِّيَتْ الْكَلِمَةُ ابْنًا قِيلَ هَذَا بَاطِلٌ مِنْ وُجُوهٍ . أَحَدُهَا : أَنَّ صِفَاتِنَا حَادِثَةٌ تَحْدُثُ بِسَبَبِ تَعَلُّمِنَا وَنَظَرِنَا وَفِكْرِنَا وَاسْتِدْلَالِنَا وَأَمَّا كَلِمَةُ الرَّبِّ وَعِلْمُهُ فَهُوَ قَدِيمٌ لَازِمٌ لِذَاتِهِ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يُوصَفَ بِالتَّوَلُّدِ إلَّا أَنْ يَدَّعِيَ الْمُدَّعِي أَنَّ كُلَّ صِفَةٍ لَازِمَةٍ لِمَوْصُوفِهَا مُتَوَلِّدَةٌ عَنْهُ وَهِيَ ابْنٌ لَهُ وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا مِنْ أَبْطَلِ الْأُمُورِ فِي الْعُقُولِ وَاللُّغَاتِ فَإِنَّ حَيَاةَ الْإِنْسَانِ وَنُطْقَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ اللَّازِمَةِ لَهُ لَا يُقَالُ إنَّهَا مُتَوَلِّدَةٌ عَنْهُ وَإِنَّهَا ابْنٌ لَهُ وَأَيْضًا فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ حَيَاةُ الرَّبِّ أَيْضًا ابْنَهُ وَمُتَوَلِّدَةً وَكَذَلِكَ قُدْرَتُهُ وَإِلَّا فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ تَوَلُّدِ الْعِلْمِ وَتَوَلُّدِ الْحَيَاةِ وَالْقُدْرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ . وَثَانِيهَا أَنَّ هَذَا إنْ كَانَ مِنْ بَابِ تَوَلُّدِ الْجَوَاهِرِ وَالْأَعْيَانِ الْقَائِمَةِ بِنَفْسِهَا فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَصْلَيْنِ وَلَا بُدَّ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ الْأَصْلِ جُزْءٌ وَأَمَّا

عِلْمُنَا وَقَوْلُنَا فَلَيْسَ عَيْنًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَإِنْ كَانَ صِفَةً قَائِمَةً بِمَوْصُوفٍ وَعَرَضًا قَائِمًا فِي مَحَلٍّ كَعِلْمِنَا وَكَلَامِنَا فَذَاكَ أَيْضًا لَا يَتَوَلَّدُ إلَّا عَنْ أَصْلَيْنِ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ مَحَلٍّ يَتَوَلَّدُ فِيهِ . وَالْوَاحِدُ مِنَّا لَا يَحْدُثُ لَهُ الْعِلْمُ وَالْكَلَامُ إلَّا بِمُقَدِّمَاتٍ تَتَقَدَّمُ

(810/838)

عَلَى ذَلِكَ وَتَكُونُ أُصُولًا لِلْفُرُوعِ وَيَحْصُلُ الْعِلْمُ وَالْكَلَامُ فِي مَحَلٍّ لَمْ يَكُنْ حَاصِلًا فِيهِ قَبْلَ ذَلِكَ .

(811/838)

فَإِنْ قُلْتُمْ إنَّ عِلْمَ الرَّبِّ كَذَلِكَ لَزِمَ أَنْ يَصِيرَ عَالِمًا بِالْأَشْيَاءِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا بِهَا وَأَنْ تَصِيرَ ذَاتُهُ مُتَكَلِّمَةً بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا وَهَذَا مَعَ أَنَّهُ كُفْرٌ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْأُمَمِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ فَهُوَ بَاطِلٌ فِي صَرِيحِ الْعَقْلِ فَإِنَّ الذَّاتَ الَّتِي لَا تَكُونُ عَالِمَةً يَمْتَنِعُ أَنْ تَجْعَلَ نَفْسَهَا عَالِمَةً بِلَا أَحَدٍ يُعَلِّمُهَا وَاَللَّهُ تَعَالَى يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّمًا مِنْ خَلْقِهِ وَكَذَلِكَ الذَّاتُ الَّتِي تَكُونُ عَاجِزَةً عَنْ الْكَلَامِ يَمْتَنِعُ أَنْ تَصِيرَ قَادِرَةً عَلَيْهِ بِلَا أَحَدٍ يَجْعَلُهَا قَادِرَةً

وَالْوَاحِدُ مِنْهَا لَا يُوَلِّدُ جَمِيعَ عُلُومِهِ بَلْ ثَمَّ عُلُومٌ خُلِقَتْ فِيهِ لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَهَا فَإِذَا نَظَرَ فِيهَا حَصَلَتْ لَهُ عُلُومٌ أُخْرَى . فَلَا يَقُولُ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ : إِنَّ الْإِنْسَانَ يُوَلِّدُ عُلُومَهُ كُلَّهَا وَلَا يَقُولُ أَحَدٌ : إِنَّهُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ مُتَكَلِّمَةً بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ مُتَكَلِّمَةً بَلِ الَّذِي يُقَدِّرُهُ عَلَى النُّطْقِ هُوَ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ . فَإِنْ قَالُوا : إِنَّ الرَّبَّ يُوَلِّدُ بَعْضَ عِلْمِهِ وَبَعْضَ كَلَامِهِ دُونَ بَعْضٍ : بَطَلَ تَسْمِيَةُ الْعِلْمِ - الَّذِي هُوَ الْكَلِمَةُ مُطْلَقًا - الِابْنَ وَصَارَ لَفْظُ الِابْنِ إِنَّمَا يُسَمَّى بِهِ بَعْضُ عِلْمِهِ أَوْ بَعْضُ كَلَامِهِ وَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّ الْمَسِيحَ هُوَ الْكَلِمَةُ وَهُوَ أُقْنُومُ الْعِلْمِ مُطْلَقًا وَذَلِكَ لَيْسَ مُتَوَلِّدًا عَنْهُ كُلِّهِ وَلَا يُسَمَّى كُلُّهُ ابْنًا بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ . وَثَالِثُهَا أَنْ يُقَالَ : تَسْمِيَةُ عِلْمِ

الْعَالِمِ وَكَلَامِهِ وَلَدًا لَهُ لَا يُعْرَفُ فِي شَيْءٍ مِنَ اللُّغَاتِ الْمَشْهُورَةِ وَهُوَ بَاطِلٌ بِالْعَقْلِ فَإِنَّ عِلْمَهُ وَكَلَامَهُ كَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ فَإِنْ

جَازَ هَذَا جَازَ تَسْمِيَةُ صِفَاتِ الْإِنْسَانِ كُلِّهَا الْحَادِثَةِ مُتَوَلِّدَاتٍ عَنْهُ لَهُ وَتَسْمِيَتُهَا أَبْنَاءَهُ وَمَنْ قَالَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ الْقَدَرِيَّةِ . إِنَّ الْعِلْمَ الْحَاصِلَ بِالنَّظَرِ مُتَوَلِّدٌ عَنْهُ فَهُوَ كَقَوْلِهِ إِنَّ الشِّبَعَ وَالرِّيَّ مُتَوَلِّدٌ عَنْ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ لَا يَقُولُ إِنَّ الْعِلْمَ ابْنُهُ وَوَلَدُهُ كَمَا لَا يَقُولُ إِنَّ الشِّبَعَ وَالرِّيَّ ابْنُهُ وَلَا وَلَدُهُ لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ تَوَلُّدِ الْأَعْرَاضِ وَالْمَعَانِي الْقَائِمَةِ بِالْإِنْسَانِ وَتِلْكَ لَا يُقَالُ إِنَّهَا أَوْلَادُهُ وَأَبْنَاؤُهُ .

وَمَنْ اسْتَعَارَ فَقَالَ بُنَيَّاتُ فِكْرِهِ فَهُوَ كَمَا يُقَالُ بُنَيَّاتُ الطَّرِيقِ وَيُقَالُ ابْنُ السَّبِيلِ وَيُقَالُ لِطَيْرِ الْمَاءِ ابْنُ مَاءٍ وَهَذِهِ تَسْمِيَةٌ مُقَيَّدَةٌ قَدْ عُرِفَ أَنَّهَا لَيْسَ الْمُرَادُ بِهَا مَا هُوَ الْمَعْقُولُ مِنْ الْأَبِ وَالِابْنِ وَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ وَأَيْضًا فَكَلَامُ الْأَنْبِيَاءِ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهُ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ ابْنًا فَمَنْ حَمَلَ شَيْئًا مِنْ كَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ كَذَبَ عَلَيْهِمْ وَهَذَا مِمَّا يُقِرُّ بِهِ عُلَمَاءُ النَّصَارَى وَمَا وُجِدَ عِنْدَهُمْ مِنْ لَفْظِ الِابْنِ فِي حَقِّ الْمَسِيحِ وَإِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمَا فَهُوَ اسْمٌ لِلْمَخْلُوقِ لَا لِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَالِقِ وَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّهُ مُكَرَّمٌ مُعَظَّمٌ . وَرَابِعُهَا : أَنْ يُقَالَ فَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ فَالَّذِي حَصَلَ لِلْمَسِيحِ إِنْ كَانَ هُوَ مَا عَلَّمَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ مِنْ عِلْمِهِ وَكَلَامِهِ فَهَذَا مَوْجُودٌ لِسَائِرِ النَّبِيِّينَ فَلَا مَعْنَى لِتَخْصِيصِهِ بِكَوْنِهِ ابْنَ اللَّهِ

وَإِنْ كَانَ هُوَ أَنَّ الْعِلْمَ وَالْكَلَامَ إِلَهٌ اتَّحَدَ بِهِ فَيَكُونُ الْعِلْمُ وَالْكَلَامُ جَوْهَرًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ فَإِنْ كَانَ هُوَ الْأَبَ فَيَكُونُ الْمَسِيحُ هُوَ الْأَبَ وَإِنْ كَانَ الْعِلْمُ وَالْكَلَامُ جَوْهَرًا آخَرَ فَيَكُونُ إِلَهَانِ قَائِمَانِ بِأَنْفُسِهِمَا فَتَبَيَّنَ فَسَادُ مَا قَالُوهُ بِكُلِّ وَجْهٍ .

(815/838)

وَخَامِسُهَا : أَنْ يُقَالَ : مِنَ الْمَعْلُومِ عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي خُصَّ بِهِ الْمَسِيحُ إِنَّمَا هُوَ أَنْ خُلِقَ مِنْ غَيْرِ أَبٍ فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ مِنَ الْبَشَرِ جَعَلَ النَّصَارَى الرَّبَّ أَبَاهُ وَبِهَذَا نَاظَرَ نَصَارَى نَجْرَانَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا : إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ ابْنَ اللَّهِ فَقُلْ لَنَا مَنْ أَبُوهُ ؟ فَعُلِمَ أَنَّ النَّصَارَى إِنَّمَا ادَّعَوْا فِيهِ الْبُنُوَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ وَأَنَّ مَا ذُكِرَ مِنْ كَلَامِ عُلَمَائِهِمْ هُوَ تَأْوِيلٌ مِنْهُمْ لِلْمَذْهَبِ لِيُزِيلُوا بِهِ الشَّنَاعَةَ الَّتِي لَا يَبْلُغُهَا عَاقِلٌ وَإِلَّا فَلَيْسَ فِي جَعْلِهِ ابْنَ اللَّهِ وَجْهٌ يَخْتَصُّ بِهِ مَعْقُولٌ فَعُلِمَ أَنَّ النَّصَارَى جَعَلُوهُ ابْنَ اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ أَحْبَلَ مَرْيَمَ وَاللَّهُ هُوَ أَبُوهُ وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِإِنْزَالِ جُزْءٍ مِنْهُ فِيهَا وَهُوَ سُبْحَانَهُ الصَّمَدُ وَيَلْزَمُهُمْ أَنْ تَكُونَ مَرْيَمُ صَاحِبَةً وَزَوْجَةً لَهُ وَلِهَذَا يَتَأَلَّهُونَهَا كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ . وَأَيُّ مَعْنًى ذَكَرُوهُ فِي بُنُوَّةِ عِيسَى غَيْرَ هَذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَرْقٌ بَيْنَ عِيسَى وَبَيْنَ غَيْرِهِ وَلَا صَارَ فِيهِ مَعْنَى الْبُنُوَّةِ بَلْ قَالُوا : كَمَا قَالَ بَعْضُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ إِنَّهُ صَاهَرَ الْجِنَّ فَوَلَدَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةَ وَإِذَا قَالُوا : اتَّخَذَهُ ابْنًا عَلَى سَبِيلِ الِاصْطِفَاءِ

فَهذا هُوَ الْمَعْنى الْفِعْلِيُّ وَسَيَأْتِي إنْ شاءَ اللَّهُ تَعالَى إبْطالُهُ . وَقَوْلُهُ تَعالَى : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ لَيْسَ فِيهِ أَنَّ بَعْضَ اللَّهِ صارَ فِي عِيسَى بَلْ مِنْ لِابْتِداءِ الْغايَةِ كَما قالَ : ﴿ وَسَخَّرَ

(816/838)

لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ

(817/838)

وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ وَمَا أُضِيفَ إلَى اللَّهِ أَوْ قِيلَ هُوَ مِنْهُ فَعَلَى وَجْهَيْنِ إنْ كَانَ عَيْنًا قَائِمَةً بِنَفْسِهَا فَهُوَ مَمْلُوكٌ لَهُ وَمِنْ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ وَقَالَ فِي الْمَسِيحِ : ﴿ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ وَمَا كَانَ صِفَةً لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ كَالْعِلْمِ وَالْكَلَامِ فَهُوَ صِفَةٌ لَهُ كَمَا يُقَالُ كَلَامُ اللَّهِ وَعِلْمُ اللَّهِ وَكَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ وَأَلْفَاظُ الْمَصَادِرِ يُعَبَّرُ بِهَا عَنْ الْمَفْعُولِ فَيُسَمَّى الْمَأْمُورُ بِهِ أَمْرًا وَالْمَقْدُورُ قُدْرَةً وَالْمَرْحُومُ بِهِ رَحْمَةً وَالْمَخْلُوقُ بِالْكَلِمَةِ كَلِمَةً فَإِذَا قِيلَ فِي الْمَسِيحِ :

إِنَّهُ كَلِمَةُ اللَّهِ فَالْمُرَادُ بِهِ أَنَّهُ خُلِقَ بِكَلِمَةِ قَوْلِهِ كُنْ وَلَمْ يُخْلَقْ عَلَى الْوَجْهِ الْمُعْتَادِ مِنْ الْبَشَرِ وَإِلَّا فَعِيسَى بَشَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ لَيْسَ هُوَ كَلَامًا صِفَةً لِلْمُتَكَلِّمِ يَقُومُ بِهِ وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ عَنْ الْمَخْلُوقِ : إنَّهُ أَمْرُ اللَّهِ . فَالْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ كَوَّنَهُ بِأَمْرِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ فَالرَّبُّ تَعَالَى أَحَدٌ صَمَدٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَتَبَعَّضَ وَيَتَجَزَّأَ فَيَصِيرُ بَعْضُهُ فِي غَيْرِهِ سَوَاءٌ سُمِّيَ ذَلِكَ رُوحًا أَوْ غَيْرَهُ فَبَطَلَ

مَا يَتَوَهَّمُهُ النَّصَارَى مِنْ كَوْنِهِ ابْنًا لَهُ وَتَبَيَّنَ أَنَّهُ عَبْدٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ . وَقَدْ قِيلَ : مَنْشَأُ ضَلَالِ الْقَوْمِ أَنَّهُ كَانَ فِي لُغَةِ مَنْ قَبْلَنَا يُعَبَّرُ عَنْ

الرَّبِّ بِالْأَبِ وَبِالِابْنِ عَنْ الْعَبْدِ الْمُرَبَّى الَّذِي يُرَبُّهُ اللَّهُ وَيُرَبِّيهِ فَقَالَ الْمَسِيحُ : عَمِّدُوا النَّاسَ بِاسْمِ الْأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاَللَّهِ وَيُؤْمِنُوا بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الْمَسِيحِ

وَيُؤْمِنُوا بِرُوحِ الْقُدُسِ جِبْرِيلَ . فَكَانَتْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَلَكِيِّ وَرَسُولِهِ الْبَشَرِيِّ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى : فِي غَيْرِ آيَةٍ أَنَّهُ أَيَّدَ الْمَسِيحَ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَهُوَ جِبْرِيلُ عِنْدَ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ فَعِنْدَ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ رُوحَ الْقُدُسِ هُوَ جِبْرِيلُ ؛ بَلْ هَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ وَالضَّحَّاكِ والسدي وَغَيْرِهِمْ وَدَلِيلُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ وَرَوَى الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ الِاسْمُ الَّذِي كَانَ يُحْيِي بِهِ الْمَوْتَى وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ أَنَّهُ الْإِنْجِيلُ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ

أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يُنَزِّلُ

الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ فَمَا يُنَزِّلُهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِ أَنْبِيَائِهِ مِمَّا تَحْيَا بِهِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ الْخَالِصِ يُسَمِّيهِ رُوحًا وَهُوَ مَا يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ فَكَيْفَ بِالْمُرْسَلِينَ مِنْهُمْ وَالْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أُولِي الْعَزْمِ فَهُوَ أَحَقُّ بِهَذَا مِنْ جُمْهُورِ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ الزَّجَّاجُ فِي تَأْيِيدِهِ بِرُوحِ الْقُدُسِ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ أَيَّدَهُ بِهِ لِإِظْهَارِ أَمْرِهِ وَدِينِهِ . الثَّانِي : لِدَفْعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْهُ إِذْ أَرَادُوا قَتْلَهُ . الثَّالِثُ : أَنَّهُ أَيَّدَهُ بِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ . وَمِمَّا يُبَيِّنُ ذَلِكَ أَنَّ لَفْظَ الِابْنِ فِي لُغَتِهِمْ لَيْسَ مُخْتَصًّا بِالْمَسِيحِ بَلْ عِنْدَهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي التَّوْرَاةِ لِإِسْرَائِيلَ : أَنْتَ ابْنِي بِكْرِيِّ وَالْمَسِيحُ كَانَ يَقُولُ أَبِي وَأَبُوكُمْ فَيَجْعَلُهُ أَبًا لِلْجَمِيعِ وَيُسَمِّي غَيْرَهُ ابْنًا لَهُ فَعُلِمَ أَنَّهُ لَا اخْتِصَاصَ لِلْمَسِيحِ بِذَلِكَ وَلَكِنَّ النَّصَارَى يَقُولُونَ : هُوَ ابْنُهُ بِالطَّبْعِ وَغَيْرُهُ ابْنُهُ بِالْوَضْعِ فَيُفَرِّقُونَ فَرْقًا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ هُوَ ابْنُهُ بِالطَّبْعِ يَلْزَمُ عَلَيْهِ مِنَ الْمُحَالَاتِ عَقْلًا وَسَمْعًا مَا يُبَيِّنُ بُطْلَانَهُ .

فَصْلٌ :

وَأَمَّا مَا يَقُولُهُ الْفَلَاسِفَةُ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْعَالَمَ قَدِيمٌ صَدَرَ عَنْ عِلَّةٍ مُوجَبَةٍ بِذَاتِهِ وَأَنَّهُ صَدَرَ عَنْهُ عَقْلٌ ثُمَّ عَقْلٌ ثُمَّ عَقْلٌ إِلَى تَمَامِ عَشَرَةِ عُقُولٍ وَتِسْعَةِ أَنْفُسٍ . وَقَدْ يَجْعَلُونَ الْعَقْلَ بِمَنْزِلَةِ الذَّكَرِ وَالنَّفْسَ بِمَنْزِلَةِ الْأُنْثَى فَهَؤُلَاءِ قَوْلُهُمْ أَفْسَدُ مِنْ قَوْلِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَأَهْلِ الْكِتَابِ عَقْلًا وَشَرْعًا وَدَلَالَةُ الْقُرْآنِ عَلَى فَسَادِهِ أَبْلَغُ وَذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ . أَحَدُهَا : أَنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : بِقِدَمِ الْأَفْلَاكِ وَقِدَمِ هَذِهِ الرُّوحَانِيَّاتِ الَّتِي يُثْبِتُونَهَا وَيُسَمُّونَهَا الْمُجَرَّدَاتِ وَالْمُفَارِقَاتِ وَالْجَوَاهِرَ الْعَقْلِيَّةَ وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَزَلْ قَدِيمًا أَزَلِيًّا وَمَا كَانَ قَدِيمًا أَزَلِيًّا امْتَنَعَ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ وَلَا يَكُونُ مَفْعُولًا إلَّا مَا كَانَ حَادِثًا وَهَذِهِ قَضِيَّةٌ بَدِيهِيَّةٌ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُقَلَاءِ وَعَلَيْهَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ وَسَائِرِ الْأُمَمِ وَلِهَذَا كَانَ جَمَاهِيرُ الْأُمَمِ يَقُولُونَ كُلُّ مُمْكِنٍ أَنْ يُوجَدَ وَأَنْ لَا يُوجَدَ فَلَا يَكُونُ إلَّا حَادِثًا وَإِنَّمَا ادَّعَى وُجُودَ مُمْكِنٍ قَدِيمٍ مَعْلُولٍ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ : كَابْنِ سِينَا وَمَنْ وَافَقَهُ : زَعَمُوا أَنَّ الْفَلَكَ

قَدِيمٌ مَعْلُولٌ لِعِلَّةٍ قَدِيمَةٍ . وَأَمَّا الْفَلَاسِفَةُ الْقُدَمَاءُ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ يَقُولُ بِحُدُوثِ الْفَلَكِ وَهُمْ جُمْهُورُهُمْ وَمَنْ كَانَ قَبْلَ أَرِسْطُو فَهَؤُلَاءِ مُوَافِقُونَ لِأَهْلِ الْمِلَلِ وَمَنْ قَالَ بِقِدَمِ الْفَلَكِ كَأَرِسْطُو وَشِيعَتِهِ فَإِنَّمَا يُثْبِتُونَ لَهُ عِلَّةً غَائِيَةً يَتَشَبَّهُ الْفَلَكُ بِهَا لَا يُثْبِتُونَ لَهُ عِلَّةً فَاعِلَةً وَمَا يُثْبِتُونَهُ مِنْ الْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ فَهُوَ مِنْ جِنْسِ الْفَلَكِ كُلُّ ذَلِكَ قَدِيمٌ وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ عِلَّةٌ غَائِيَةٌ وَهَؤُلَاءِ أَكْفَرُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ لَكِنَّ الْغَرَضَ أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّ قَوْلَ هَؤُلَاءِ لَيْسَ قَوْلَ أُولَئِكَ .

الثَّانِي : أَنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : إنَّ الرَّبَّ وَاحِدٌ وَالْوَاحِدُ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إلَّا وَاحِدٌ وَيَعْنُونَ بِكَوْنِهِ وَاحِدًا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ صِفَةٌ ثُبُوتِيَّةٌ أَصْلًا وَلَا يُعْقَلُ فِيهِ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ تَرْكِيبٌ وَلِهَذَا يَقُولُونَ : لَا يَكُونُ فَاعِلًا وَقَابِلًا لِأَنَّ جِهَةَ الْفِعْلِ غَيْرُ جِهَةِ الْقَبُولِ وَذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ تَعَدُّدَ الصِّفَةِ الْمُسْتَلْزِمِ لِلتَّرْكِيبِ وَمَعَ هَذَا يَقُولُونَ : إنَّهُ عَاقِلٌ وَمَعْقُولٌ وَعَقْلٌ وَعَاشِقٌ وَمَعْشُوقٌ وَعِشْقٌ وَلَذِيذٌ وَمُلْتَذٌّ وَلَذَّةٌ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْمَعَانِي الْمُتَعَدِّدَةِ وَيَقُولُونَ : إنَّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ هِيَ الصِّفَةُ الْأُخْرَى وَالصِّفَةُ هِيَ الْمَوْصُوفُ وَالْعِلْمُ هُوَ الْقُدْرَةُ وَهُوَ الْإِرَادَةُ وَالْعِلْمُ هُوَ الْعَالِمُ وَهُوَ الْقَادِرُ . وَمِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : الْعِلْمُ هُوَ الْمَعْلُومُ فَإِذَا

تَصَوَّرَ الْعَاقِلُ أَقْوَالَهُمْ حَقَّ التَّصَوُّرِ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ هَذَا الْوَاحِدَ الَّذِي أَثْبَتُوهُ لَا يُتَصَوَّرُ

وُجُودُهُ إِلَّا فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ وَبُيِّنَ فَسَادُ مَا يَقُولُونَهُ فِي التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ وَبُيِّنَ فَسَادُ شُبَهِ التَّرْكِيبِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ فِي مَوَاضِعَ غَيْرِ هَذَا وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَالْأَصْلُ الَّذِي بَنَوْا عَلَيْهِ قَوْلَهُمْ : " إنَّ الْوَاحِدَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إلَّا وَاحِدٌ " أَصْلٌ فَاسِدٌ .

الثَّالِثُ : أَنْ يُقَالَ قَوْلُهُمْ بِصُدُورِ الْأَشْيَاءِ مَعَ مَا فِيهَا مِنْ الْكَثْرَةِ وَالْحُدُوثِ عَنْ وَاحِدٍ بَسِيطٍ فِي غَايَةِ الْفَسَادِ . الرَّابِعُ : أَنَّهُ لَا يُعْلَمُ فِي الْعَالَمِ وَاحِدٌ بَسِيطٌ صَدَرَ عَنْهُ شَيْءٌ لَا وَاحِدٌ وَلَا اثْنَانِ فَهَذِهِ الدَّعْوَى الْكُلِّيَّةُ لَا يُعْلَمُ ثُبُوتُهَا فِي شَيْءٍ أَصْلًا . الْخَامِسُ : أَنَّهُمْ يَقُولُونَ صَدَرَ عَنْهُ وَاحِدٌ وَعَنْ ذَلِكَ الْوَاحِدِ عَقْلٌ وَنَفْسٌ وَفَلَكٌ فَيُقَالُ : إنْ كَانَ الصَّادِرُ عَنْهُ وَاحِدًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَلَا يَصْدُرُ عَنْ هَذَا الْوَاحِدِ إلَّا وَاحِدٌ أَيْضًا فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا فِي الْعَالَمِ إنَّمَا هُوَ وَاحِدٌ عَنْ وَاحِدٍ وَهُوَ مُكَابَرَةٌ وَإِنْ كَانَ فِي الصَّادِرِ الْأَوَّلِ كَثْرَةٌ مَا بِوَجْهٍ مِنْ الْوُجُوهِ فَقَدْ صَدَرَ عَنْ الْأَوَّلِ مَا فِيهِ كَثْرَةٌ لَيْسَ وَاحِدًا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَقَدْ صَدَرَ عَنْ الْوَاحِدِ مَا لَيْسَ بِوَاحِدِ . وَلِهَذَا اضْطَرَبَ مُتَأَخِّرُوهُمْ فَأَبُو الْبَرَكَاتِ صَاحِبُ " الْمُعْتَبَرِ " أَبْطَلَ هَذَا الْقَوْلَ وَرَدَّهُ غَايَةَ الرَّدِّ وَابْنُ رُشْدٍ الْحَفِيدُ زَعَمَ أَنَّ الْفَلَكَ بِمَا فِيهِ صَادِرٌ عَنْ الْأَوَّلِ . والطوسي وَزِيرُ الْمَلَاحِدَةِ يَقْرُبُ مِنْ هَذَا ؛ فَجَعَلَ الْأَوَّلَ

شَرْطًا فِي الثَّانِي وَالثَّانِي شَرْطًا فِي الثَّالِثِ وَهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي الضَّلَالِ وَهُوَ إِثْبَاتُ جَوَاهِرَ قَائِمَةٍ بِنَفْسِهَا أَزَلِيَّةٍ مَعَ الرَّبِّ لَمْ تَزَلْ وَلَا تَزَالُ مَعَهُ لَمْ تَكُنْ مَسْبُوقَةً بِعَدَمٍ وَجَعَلَ الْفَلَكَ أَيْضًا أَزَلِيًّا وَهَذَا وَحْدَهُ فِيهِ مِنْ مُخَالَفَةِ صَرِيحِ الْمَعْقُولِ وَالْكُفْرِ بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ فَكَيْفَ إذَا ضُمَّ إلَيْهِ غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَقَاوِيلِهِمْ الْمُخَالِفَةِ لِلْعَقْلِ وَالنَّقْلِ الْوَجْهُ السَّادِسُ: أَنَّ الصوادر الْمَعْلُومَةَ فِي الْعَالَمِ إنَّمَا تَصْدُرُ عَنْ اثْنَيْنِ وَأَمَّا وَاحِدٌ وَحْدَهُ فَلَا يَصْدُرُ عَنْهُ شَيْءٌ كَمَا تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ فِي الْمُتَوَلِّدَاتِ مِنْ الْأَعْيَانِ وَالْأَعْرَاضِ . وَكُلُّ مَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ صُدُورِ الْحَرَارَةِ عَنْ الْحَارِّ وَالْبُرُودَةِ عَنْ الْبَارِدِ وَالشُّعَاعِ عَنْ الشَّمْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ: فَإِنَّمَا هُوَ صُدُورُ أَعْرَاضٍ وَمَعَ هَذَا فَلَا بُدَّ لَهَا مِنْ أَصْلَيْنِ . وَأَمَّا صُدُورُ الْأَعْيَانِ عَنْ غَيْرِهَا فَهَذَا لَا يُعْلَمُ إلَّا بِالْوِلَادَةِ الْمَعْرُوفَةِ وَتِلْكَ لَا تَكُونُ إلَّا بِانْفِصَالِ جُزْءٍ مِنْ الْأَصْلِ وَهَذَا الصُّدُورُ وَالتَّوَلُّدُ والمعلولية الَّتِي يَدَّعُونَهَا فِي الْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ وَالْأَفْلَاكِ يَقُولُونَ إنَّهَا جَوَاهِرُ قَائِمَةٌ بِأَنْفُسِهَا صَدَرَتْ عَنْ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ بَسِيطٍ فَهَذَا مِنْ أَبْطَلِ قَوْلٍ قِيلَ فِي الصُّدُورِ وَالتَّوَلُّدِ لِأَنَّ فِيهِ صُدُورَ جَوَاهِرَ عَنْ جَوْهَرٍ وَاحِدٍ وَهَذَا لَا يُعْقَلُ وَفِيهِ صُدُورُهُ عَنْهُ مِنْ غَيْرِ جُزْءٍ مُنْفَصِلٍ مِنْ الْأَصْلِ وَهَذَا لَا يُعْقَلُ وَهُمْ غَايَةُ مَا عِنْدَهُمْ

أَنْ يُشَبِّهُوا هَذَا بِحُدُوثِ بَعْضِ الْأَعْرَاضِ كَالشُّعَاعِ عَنْ الشَّمْسِ وَحَرَكَةِ الْخَاتَمِ عَنْ حَرَكَةِ الْيَدِ وَهَذَا تَمْثِيلٌ

بَاطِلٌ لِأَنَّ تِلْكَ لَيْسَتْ عِلَّةً فَاعِلَةً وَإِنَّمَا هِيَ شَرْطٌ فَقَطْ وَالصَّادِرُ هُنَاكَ لَمْ يَكُنْ عَنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ بَلْ عَنْ أَصْلَيْنِ وَالصَّادِرُ عَرَضٌ لَا جَوْهَرٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ . فَتَبَيَّنَ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ هَؤُلَاءِ مِنْ التَّوَلُّدِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي يَدْعُونَهُ مِنْ أَبْعَدِ الْأُمُورِ عَنْ التَّوَلُّدِ وَالصُّدُورِ وَهُوَ أَبْعَدُ مِنْ قَوْلِ النَّصَارَى وَمُشْرِكِي الْعَرَبِ وَهُمْ جَعَلُوا مَفْعُولَاتِهِ بِمَنْزِلَةِ صِفَةٍ أَزَلِيَّةٍ لَازِمَةٍ لِذَاتِهِ وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ هَذَا مِمَّا يَمْتَنِعُ أَنْ يُقَالَ فِيهِ أَنَّهُ مُتَوَلِّدٌ عَنْهُ وَحِينَئِذٍ فَهُمْ فِي دَعْوَاهُمْ إلَهِيَّةَ الْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ وَالْكَوَاكِبِ أَكْفَرُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ وَمَنْ جَعَلَ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْمِلَلِ مِنْهُمْ هَؤُلَاءِ هُمْ الْمَلَكِيَّةَ فَقَوْلُهُ فِي جَعْلِ الْمَلَائِكَةِ متولدين عَنْ اللَّهِ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ وَعَوَّامِ النَّصَارَى فَإِنَّ أُولَئِكَ أَثْبَتُوا وِلَادَةً حِسِّيَّةً وَكَوْنَهُ صَمَدًا يُبْطِلُهَا ؛ لَكِنْ مَا أَثْبَتُوهُ مَعْقُولٌ وَهَؤُلَاءِ ادَّعَوْا تَوَلُّدًا عَقْلِيًّا بَاطِلًا مِنْ كُلِّ

وَجْهٍ أَبْطَلَ مِمَّا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى مِنْ تَوَلُّدِ الْكَلِمَةِ عَنْ الذَّاتِ فَكَانَ نَفْيُ مَا ادَّعَوْهُ أَوْلَى مِنْ نَفْيِ مَا ادَّعَاهُ أُولَئِكَ لِأَنَّ الْمُحَالَ الَّذِي يَعْلَمُ امْتِنَاعَهُ فِي الْخَارِجِ لَا يُمْكِنُ تَصَوُّرُهُ مَوْجُودًا فِي الْخَارِجِ فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ وُجُودُهُ فِي الْخَارِجِ بَلْ هُوَ يَفْرِضُ فِي الذِّهْنِ وُجُودَهُ فِي الْخَارِجِ وَذَلِكَ إنَّمَا يُمْكِنُ إذَا كَانَ لَهُ نَظِيرٌ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ فَيُقَدِّرُ لَهُ فِي الْوُجُودِ الْخَارِجِيِّ مَا

(829/838)

يُشْبِهُهُ كَمَا إذَا قَدَّرَ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ وَقَدَّرَ أَنَّ لَهُ وَلَدًا فَإِنَّهُ يُشَبِّهُ مَنْ لَهُ وَلَدٌ مِنْ الْعِبَادِ وَمَنْ لَهُ شَرِيكٌ مِنْ

(830/838)

الْعِبَادِ ثُمَّ يُبَيِّنُ امْتِنَاعَ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَكُلَّمَا كَانَ الْمُحَالُ أَبْعَدَ عَنْ مُشَابَهَةِ الْمَوْجُودِ كَانَ أَعْظَمَ اسْتِحَالَةً . وَالْوِلَادَةُ الَّتِي ادَّعَتْهَا النَّصَارَى ثُمَّ هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَةُ : أَبْعَدُ عَنْ مُشَابَهَةِ الْوِلَادَةِ الْمَعْلُومَةِ مِنْ الْوِلَادَةِ الَّتِي ادَّعَاهَا بَعْضُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَعَوَامِّ النَّصَارَى وَالْيَهُودِ فَكَانَتْ هَذِهِ الْوِلَادَةُ الْعَقْلِيَّةُ أَشَدَّ اسْتِحَالَةً مِنْ تِلْكَ الْوِلَادَةِ الْحِسِّيَّةِ إذْ الْوِلَادَةُ الْحِسِّيَّةُ تُعْقَلُ فِي الْأَعْيَانِ

الْقَائِمَةِ بِنَفْسِهَا وَأَمَّا الْوِلَادَةُ الْعَقْلِيَّةُ فَلَا تُعْقَلُ فِي الْأَعْيَانِ أَصْلًا وَأَيْضًا فَأُولَئِكَ أَثْبَتُوا وِلَادَةً مِنْ أَصْلَيْنِ وَهَذَا هُوَ الْوِلَادَةُ الْمَعْقُولَةُ وَهَؤُلَاءِ أَثْبَتُوا وِلَادَةً مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ وَأُولَئِكَ أَثْبَتُوا وِلَادَةً بِانْفِصَالِ جُزْءٍ وَهَذَا مَعْقُولٌ . وَهَؤُلَاءِ أَثْبَتُوا وِلَادَةً بِدُونِ ذَلِكَ وَهُوَ لَا يُعْقَلُ وَأُولَئِكَ أَثْبَتُوا وِلَادَةً قَاسُوهَا عَلَى وِلَادَةِ الْأَعْيَانِ لِلْأَعْيَانِ وَهَؤُلَاءِ أَثْبَتُوا وِلَادَةً قَاسُوهَا عَلَى تَوَلُّدِ الْأَعْرَاضِ عَنْ الْأَعْيَانِ فَعُلِمَ أَنَّ قَوْلَ أُولَئِكَ أَقْرَبُ إلَى الْمَعْقُولِ وَهُوَ بَاطِلٌ كَمَا بَيَّنَ اللَّهُ فَسَادَهُ وَأَنْكَرَهُ فَقَوْلُ هَؤُلَاءِ أَوْلَى بِالْبُطْلَانِ وَهَذَا كَمَا أَنَّ اللَّهَ إذَا كَفَّرَ مَنْ أَثْبَتَ مَخْلُوقًا يُتَّخَذُ شَفِيعًا مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَمَنْ أَثْبَتَ قَدِيمًا دُونَ اللَّهِ يُعْبَدُ وَيُتَّخَذُ شَفِيعًا كَانَ أَوْلَى بِالْكُفْرِ . وَمَنْ أَنْكَرَ الْمَعَادَ مَعَ قَوْلِهِ بِحُدُوثِ هَذَا الْعَالَمِ فَقَدْ كَفَّرَهُ اللَّهُ فَمَنْ

أَنْكَرَهُ مَعَ قَوْلِهِ بِقِدَمِ الْعَالَمِ فَهُوَ أَعْظَمُ كُفْرًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نَهَى أُمَّتَهُ عَنْ مُشَابَهَةِ

فَارِسَ الْمَجُوسِ وَالرُّومِ النَّصَارَى فَنَهْيُهُ عَنْ مُشَابَهَةِ الرُّومِ الْيُونَانِ الْمُشْرِكِينَ وَالْهِنْدِ الْمُشْرِكِينَ أَعْظَمُ وَأَعْظَمُ وَإِذَا كَانَ مَا دَخَلَ فِي بَعْضِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ مُشَابَهَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَفَارِسَ وَالرُّومِ مَذْمُومًا عِنْدَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَمَا دَخَلَ مِنْ مُشَابَهَةِ الْيُونَانِ وَالْهِنْدِ وَالتُّرْكِ الْمُشْرِكِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْأُمَمِ الَّذِينَ هُمْ أَبْعَدُ عَنْ الْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمِنْ فَارِسَ وَالرُّومِ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مَذْمُومًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَنْ يَكُونَ ذَمُّهُ أَعْظَمَ مِنْ ذَاكَ . فَهَؤُلَاءِ الْأُمَمُ الَّذِينَ هُمْ أَبْعَدُ عَنْ الْإِسْلَامِ الَّذِينَ اُبْتُلِيَ بِهِمْ أَوَاخِرُ الْمُسْلِمِينَ شَرٌّ مِنْ الْأُمَمِ الَّذِينَ اُبْتُلِيَ بِهِمْ أَوَائِلُ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ كَانَ أَهْلُهُ أَكْمَلَ وَأَعْظَمَ عِلْمًا وَدِينًا فَإِذَا اُبْتُلِيَ بِمَنْ هُوَ أَرْجَحُ مِنْ هَؤُلَاءِ غَلَبَهُمْ الْمُسْلِمُونَ لِفَضْلِ عِلْمِهِمْ وَدِينِهِمْ وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُتَأَخِّرُونَ فَالْمُسْلِمُونَ وَإِنْ كَانُوا أَنْقَصَ مِنْ سَلَفِهِمْ فَإِنَّهُ يَظْهَرُ رُجْحَانُهُمْ عَلَى هَؤُلَاءِ لِعِظَمِ بُعْدِهِمْ عَنْ الْإِسْلَامِ وَلَكِنْ لَمَّا كَثُرَتْ الْبِدَعُ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْمُسْلِمِينَ اسْتَطَالَ عَلَيْهِمْ مَنْ اسْتَطَالَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَلَبَّسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَصَارَتْ شُبَهُ الْفَلَاسِفَةِ أَعْظَمَ عِنْدَ هَؤُلَاءِ مِنْ غَيْرِهِمْ كَمَا صَارَ قِتَالُ التُّرْكِ الْكُفَّارِ أَعْظَمَ مِنْ قِتَالِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ عِنْدَ أَهْلِ الزَّمَانِ لِأَنَّهُمْ إنَّمَا اُبْتُلُوا بِسُيُوفِ هَؤُلَاءِ وَأَلْسِنَةِ هَؤُلَاءِ وَكَانَ

فِيهِمْ مِنْ نَقْصِ الْإِيمَانِ مَا أَوْرَثَ ضَعْفًا فِي الْعِلْمِ وَالْجِهَادِ وَكَمَا كَانَ كَثِيرٌ مِنْ الْعَرَبِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَذَا هَذَا .

(834/838)

وَمِمَّا يُبَيِّنُ هَذَا أَنَّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ إنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ : بَلْ يَقُولُونَ : إنَّهُ خَلَقَ ذَلِكَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَهَؤُلَاءِ الْمُتَفَلْسِفَةُ عِنْدَهُمْ لَمْ يُحْدِثْهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ يَلْبِسُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيَقُولُونَ الْعَالَمُ مُحْدَثٌ يَعْنُونَ بِحُدُوثِهِ أَنَّهُ مَعْلُولُ عِلَّةٍ قَدِيمَةٍ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِمْ مُتَوَلِّدٌ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى لَكِنْ هُوَ أَمْرٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ وَلَا يُعْقَلُ . وَأَيْضًا فَمُشْرِكُو الْعَرَبِ وَأَهْلُ الْكِتَابِ يُقِرُّونَ بِالْمَلَائِكَةِ وَإِنْ كَانَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالشَّيَاطِينَ نَوْعًا وَاحِدًا فَمَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ أَسْقَطَهُ وَصَارَ شَيْطَانًا وَيُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ إبْلِيسُ كَانَ أَبَا الْجِنِّ وَأَنْ يَكُونَ الْجِنُّ يَنْكِحُونَ وَيُولَدُونَ وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ فَهَؤُلَاءِ النَّصَارَى الَّذِينَ يُنْكِرُونَ هَذَا مَعَ كُفْرِهِمْ هُمْ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُتَفَلْسِفَةِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا حَقِيقَةَ لِلْمَلَائِكَةِ عِنْدَهُمْ إلَّا مَا يُثْبِتُونَهُ مِنْ الْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ أَوْ مِنْ أَعْرَاضٍ تَقُومُ بِالْأَجْسَامِ كَالْقُوَى الصَّالِحَةِ وَكَذَلِكَ الْجِنُّ جُمْهُورُ أُولَئِكَ يُثْبِتُونَهَا فَإِنَّ

الْعَرَبَ كَانَتْ تُثْبِتُ الْجِنَّ وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهَؤُلَاءِ لَا يُثْبِتُونَهَا وَيَجْعَلُونَ الشَّيَاطِينَ الْقُوَى الْفَاسِدَةَ وَأَيْضًا فَمُشْرِكُو الْعَرَبِ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ يَدْعُونَ اللَّهَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ يَسْمَعُ

دُعَاءَهُمْ وَيُجِيبُهُمْ . وَهَؤُلَاءِ عِنْدَهُمْ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ جُزْئِيَّاتِ الْعَالَمِ وَلَا يَسْمَعُ دُعَاءَ أَحَدٍ

وَلَا يُجِيبُ أَحَدًا وَلَا يُحْدِثُ فِي الْعَالَمِ شَيْئًا وَلَا سَبَبَ لِلْحُدُوثِ عِنْدَهُمْ إلَّا حَرَكَاتُ الْفَلَكِ وَالدُّعَاءِ عِنْدَهُمْ يُؤَثِّرُ لِأَنَّهُ تَصَرُّفُ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ فِي هَيُولَى الْعَالَمِ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : شَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ وَكَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ فَأَمَّا شَتْمُهُ إيَّايَ فَقَوْلُهُ إنِّي اتَّخَذْت وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إيَّايَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إعَادَتِهِ ﴾ وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مُتَنَاوِلًا قَطْعًا لِكُفَّارِ الْعَرَبِ الَّذِينَ قَالُوا هَذَا وَهَذَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَيَقُولُ

الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ فَذَكَرَ اللَّهُ هَذَا وَهَذَا فَتَنَاوُلُ النُّصُوصِ لِهَؤُلَاءِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يُنْكِرُونَ الْإِعَادَةَ وَالِابْتِدَاءَ أَيْضًا فَلَا يَقُولُونَ: إنَّ اللَّهَ ابْتَدَأَ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا كَانَ لِلْبَشَرِ ابْتِدَاءٌ أَوَّلُهُمْ آدَمَ وَأَمَّا شَتْمُهُمْ إيَّاهُ بِقَوْلِهِمْ اتَّخَذَ وَلَدًا فَهَؤُلَاءِ عِنْدَهُمْ الْفَلَكُ كُلُّهُ لَازِمٌ لَهُ مَعْلُولٌ لَهُ أَعْظَمُ مِنْ لُزُومِ الْوَلَدِ وَالِدَهُ وَالْوَالِدُ لَهُ اخْتِيَارٌ

(837/838)

وَقُدْرَةٌ فِي حُدُوثِ الْوَلَدِ مِنْهُ وَهَؤُلَاءِ عِنْدَهُمْ لَيْسَ لِلَّهِ مَشِيئَةٌ وَقُدْرَةٌ فِي لُزُومِ الْفَلَكِ لَهُ بَلْ وَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَدْفَعَ لُزُومَهُ عَنْهُ فَالتَّوَلُّدُ الَّذِي يُثْبِتُونَهُ أَبْلَغُ مِنْ التَّوَلُّدِ الْمَوْجُودِ فِي الْخَلْقِ وَلَا يَقُولُونَ: إنَّهُ اتَّخَذَ وَلَدًا بِقُدْرَتِهِ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ

(838/838)

عِنْدَهُمْ عَلَى تَغْيِيرِ شَيْءٍ مِنْ الْعَالَمِ بَلْ ذَلِكَ لَازِمٌ لَهُ لُزُومًا : حَقِيقَتُهُ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ شَيْئًا ؛ بَلْ وَلَا هُوَ مَوْجُودٌ وَإِنْ سَمَّوْهُ عِلَّةً وَمَعْلُولًا فَعِنْدَ التَّحْقِيقِ لَا يَرْجِعُونَ إلَى شَيْءٍ مُحَصَّلٍ فَإِنَّ فِي قَوْلِهِمْ مِنْ التَّنَاقُضِ وَالْفَسَادِ أَعْظَمَ مِمَّا فِي قَوْلِ النَّصَارَى . وَقَدْ ذَكَرَ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَنَّ قَوْلَهُمْ بِالْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ غَيْرِهِمْ بِالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ وَأَرَادُوا بِذَلِكَ أَنْ يَجْعَلُوهُمْ مِنْ جِنْسِهِمْ فِي الذَّمِّ وَهَذَا تَقْصِيرٌ عَظِيمٌ بَلْ أُولَئِكَ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ إذَا حَقَّقْت مَا يَقُولُهُ مَنْ هُوَ أَقْرَبُهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ كَابْنِ رُشْدٍ الْحَفِيدِ وَجَدْت غَايَتَهُ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ شَرْطًا فِي وُجُودِ الْعَالَمِ لَا فَاعِلًا لَهُ وَكَذَلِكَ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ مِنْ الْمُدَّعِينَ لِلتَّحْقِيقِ مِنْ مَلَاحِدَةِ الصُّوفِيَّةِ كَابْنِ عَرَبِيٍّ وَابْنِ سَبْعِينَ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ أَنَّ هَذَا الْعَالَمَ مَوْجُودٌ وَاجِبٌ أَزَلِيٌّ لَيْسَ لَهُ صَانِعٌ غَيْرُ نَفْسِهِ وَهُمْ يَقُولُونَ : الْوُجُودُ وَاحِدٌ وَحَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ خَالِقٌ خَلَقَ مَوْجُودًا آخَرَ وَكَلَامُهُمْ فِي الْمَعَادِ وَالنُّبُوَّاتِ وَالتَّوْحِيدِ شَرٌّ مِنْ كَلَامِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَعُبَّادِ الْأَصْنَامِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يُجَوِّزُونَ عِبَادَةَ كُلِّ صَنَمٍ فِي الْعَالَمِ لَا يَخُصُّونَ بَعْضَ الْأَصْنَامِ بِالْعِبَادَةِ .

فَصْلٌ :

وَقَدْ احْتَجَّ بِـ (سُورَةِ الْإِخْلَاصِ) مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمُحْدَثِ مَنْ يَقُولُ: الرَّبُّ تَعَالَى جِسْمٌ كَبَعْضِ الَّذِينَ وَافَقُوا هِشَامَ بْنَ الْحَكَمِ وَمُحَمَّدَ بْنَ كَرَّامٍ وَغَيْرَهُمَا وَمَنْ يَنْفِي ذَلِكَ وَيَقُولُ لَيْسَ بِجِسْمٍ مِمَّنْ وَافَقَ جَهْمَ بْنَ صَفْوَانَ وَأَبَا الْهُذَيْلِ الْعَلَّافَ وَنَحْوَهُمَا فَأُولَئِكَ قَالُوا: هُوَ صَمَدٌ وَالصَّمَدُ لَا جَوْفَ لَهُ وَهَذَا إنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَجْسَامِ الْمُصْمَتَةِ. فَإِنَّهَا لَا جَوْفَ لَهَا كَمَا فِي الْجِبَالِ وَالصُّخُورِ وَمَا يُصْنَعُ مِنْ عَوَامِيدِ الْحِجَارَةِ وَكَمَا قِيلَ: إنَّ الْمَلَائِكَةَ صَمَدٌ؛ وَلِهَذَا قِيلَ إنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ شَيْءٌ وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَنَحْوُ ذَلِكَ وَنَفْيُ هَذَا لَا يُعْقَلُ إلَّا عَمَّنْ هُوَ جِسْمٌ وَقَالُوا: أَصْلُ الصَّمَدِ الِاجْتِمَاعُ وَمِنْهُ تَصْمِيدُ الْمَالِ وَهَذَا إنَّمَا يُعْقَلُ فِي الْجِسْمِ الْمُجْتَمِعِ وَأَمَّا النُّفَاةُ فَقَالُوا: الصَّمَدُ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ التَّفَرُّقُ وَالِانْقِسَامُ وَكُلُّ جِسْمٍ فِي الْعَالَمِ يَجُوزُ عَلَيْهِ التَّفَرُّقُ وَالِانْقِسَامُ. وَقَالُوا أَيْضًا: الْأَحَدُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ التَّجَزُّؤَ وَالِانْقِسَامَ وَكُلُّ جِسْمٍ فِي الْعَالَمِ يَجُوزُ عَلَيْهِ التَّفَرُّقُ وَالتَّجَزِّيءُ وَالِانْقِسَامُ. وَقَالُوا:

(840/838)

إذَا قُلْتُمْ هُوَ جِسْمٌ كَانَ مُرَكَّبًا مُؤَلَّفًا مِنْ الْجَوَاهِرِ الْفَرْدَةِ أَوْ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ وَمَا كَانَ مُرَكَّبًا مُؤَلَّفًا مِنْ غَيْرِهِ كَانَ مُفْتَقِرًا إلَيْهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ صَمَدٌ وَالصَّمَدُ الْغَنِيُّ عَمَّا سِوَاهُ فَالْمُرَكَّبُ لَا يَكُونُ صَمَدًا. فَيُقَالُ: أَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ مُرَكَّبٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ أَجْزَاءٍ وَأَنَّهُ يَقْبَلُ التَّجَزُّؤَ

وَالِانْقِسَامَ وَالِانْفِصَالَ فَهَذَا بَاطِلٌ شَرْعًا وَعَقْلًا فَإِنَّ هَذَا يُنَافِي كَوْنَهُ صَمَدًا كَمَا تَقَدَّمَ وَسَوَاءٌ أُرِيدَ بِذَلِكَ أَنَّهُ كَانَتْ الْأَجْزَاءُ مُتَفَرِّقَةً ثُمَّ اجْتَمَعَتْ أَوْ قِيلَ: إنَّهَا لَمْ تَزَلْ مُجْتَمِعَةً لَكِنْ يُمْكِنُ انْفِصَالُ بَعْضِهَا عَنْ بَعْضٍ كَمَا فِي بَدَنِ الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ مِنْ الْأَجْسَامِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَزَلْ مُجْتَمِعَ الْأَعْضَاءِ: لَكِنْ يُمْكِنُ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ بَعْضِهِ مِنْ بَعْضٍ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَدَّمْنَا أَنَّ كَمَالَ الصَّمَدِيَّةِ لَهُ فَإِنَّ هَذَا إنَّمَا يَجُوزُ عَلَى مَا يَجُوزُ أَنْ يُفْنَى بَعْضُهُ أَوْ يُعْدَمَ وَمَا قَبْلَ الْعَدَمِ وَالْفَنَاءِ لَمْ يَكُنْ وَاجِبَ الْوُجُودِ بِذَاتِهِ وَلَا قَدِيمًا أَزَلِيًّا؛ فَإِنَّ مَا وَجَبَ قِدَمُهُ امْتَنَعَ عَدَمُهُ وَكَذَلِكَ صِفَاتُهُ الَّتِي لَمْ يَزَلْ مَوْصُوفًا بِهَا وَهِيَ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَعْدَمَ اللَّازِمُ إلَّا مَعَ عَدَمِ الْمَلْزُومِ. وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ. الصَّمَدُ هُوَ الدَّائِمُ وَهُوَ الْبَاقِي بَعْدَ فَنَاءِ خَلْقِهِ فَإِنَّ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ الصَّمَدِيَّةِ إذْ لَوْ قَبِلَ الْعَدَمَ لَمْ تَكُنْ

صَمَدِيَّتُهُ لَازِمَةً لَهُ؛ بَلْ جَازَ عَدَمُ صَمَدِيَّتِهِ فَلَا يَبْقَى صَمَدًا وَلَا

تَنْتَفِي عَنْهُ الصَّمَدِيَّةُ إِلَّا بِجَوَازِ الْعَدَمِ عَلَيْهِ وَذَلِكَ مُحَالٌ . فَلَا يَكُونُ مُسْتَوْجِبًا لِلصَّمَدِيَّةِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ لَازِمَةً لَهُ وَذَلِكَ يُنَافِي عَدَمَهُ وَهُوَ مُسْتَوْجِبٌ لِلصَّمَدِيَّةِ لَمْ يَصِرْ صَمَدًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي أَنَّهُ كَانَ مُتَفَرِّقًا فَجُمِعَ وَأَنَّهُ مَفْعُولٌ مُحْدَثٌ مَصْنُوعٌ وَهَذِهِ صِفَةُ مَخْلُوقَاتِهِ . وَأَمَّا الْخَالِقُ الْقَدِيمُ الَّذِي يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مَعْدُومًا أَوْ مَفْعُولًا أَوْ مُحْتَاجًا إلَى غَيْرِهِ بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ فَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَعُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ صَمَدًا وَلَا يَزَالُ صَمَدًا فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : كَانَ مُتَفَرِّقًا فَاجْتَمَعَ وَلَا أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَتَفَرَّقَ بَلْ وَلَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَا يَدْخُلَ فِيهِ شَيْءٌ . وَهَذَا مِمَّا هُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ طَوَائِفِ الْمُسْلِمِينَ سُنِّيِّهِمْ وَبِدْعِيِّهِمْ وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ مِنْ الْجُهَّالِ أَوْ مَنْ لَا يَعْرِفُ قَدْ يَقُولُ خِلَافَ ذَلِكَ فَمِثْلُ هَؤُلَاءِ لَا تَنْضَبِطُ خَيَالَاتُهُمْ الْفَاسِدَةُ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ فِي طَوَائِفِ الْمُسْلِمِينَ مَنْ يَقُولُ إنَّهُ مَوْلُودٌ وَوَالِدٌ وَإِنْ كَانَ هَذَا قَدْ قَالَهُ بَعْضُ الْكُفَّارِ وَقَدْ قَالَ الْمُتَفَلْسِفَةُ الْمُنْتَسِبُونَ إلَى الْإِسْلَامِ مِنْ التَّوَلُّدِ وَالتَّعْلِيلِ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْ قَوْلِ أُولَئِكَ وَأَمَّا إثْبَاتُ الصِّفَاتِ لَهُ وَأَنَّهُ يُرَى فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِالْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ وَكَلَامُهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ : فَهَذَا مَذْهَبُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَأَئِمَّةِ

الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ . وَالْخِلَافُ فِي ذَلِكَ مَشْهُورٌ مَعَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ

(844/838)

وَكَثِيرٍ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ . وَهَؤُلَاءِ يَقُولُونَ إنَّ إثْبَاتَ الصِّفَاتِ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا وَلَيْسَ بِجِسْمِ فَلَا تَثْبُتُ لَهُ الصِّفَاتُ . قَالُوا : لِأَنَّ الْمَعْقُولَ مِنْ الصِّفَاتِ أَعْرَاضٌ قَائِمَةٌ بِجِسْمِ لَا تُعْقَلُ صِفَتُهُ إلَّا كَذَلِكَ . قَالُوا : وَالرُّؤْيَةُ لَا تُعْقَلُ إلَّا مَعَ الْمُعَايَنَةِ فَالْمُعَايَنَةُ لَا تَكُونُ إلَّا إذَا كَانَ الْمَرْئِيُّ بِجِهَةِ وَلَا يَكُونُ بِجِهَةِ إلَّا مَا كَانَ جِسْمًا . قَالُوا : وَلِأَنَّهُ لَوْ قَامَ بِهِ كَلَامٌ أَوْ غَيْرُهُ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا فَلَا يَكُونُ الْكَلَامُ الْمُضَافُ إلَيْهِ إلَّا مَخْلُوقًا مُنْفَصِلًا عَنْهُ . وَهَذِهِ الْمَعَانِي مِمَّا نَاظَرُوا بِهَا الْإِمَامَ أَحْمَد فِي " الْمِحْنَةِ " وَكَانَ مِمَّنْ احْتَجَّ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ بِنَفْيِ التَّجْسِيمِ أَبُو عِيسَى مُحَمَّدُ بْنُ عِيسَى بُرْغُوثٌ تِلْمِيذُ حُسَيْنِ النَّجَّارِ وَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ الْمُتَكَلِّمِينَ فَإِنَّ ابْنَ أَبِي دُؤَادٍ كَانَ قَدْ جَمَعَ لِلْإِمَامِ أَحْمَد مَنْ أَمْكَنَهُ مِنْ مُتَكَلِّمِي الْبَصْرَةِ وَبَغْدَادَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَقُولُ : إنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَهَذَا الْقَوْلُ لَمْ يَكُنْ مُخْتَصًّا بِالْمُعْتَزِلَةِ كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ النَّاسِ ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أُولَئِكَ الْمُتَكَلِّمِينَ أَوْ أَكْثَرَهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُعْتَزِلَةً وَبِشْرٌ الْمَرِيسِي لَمْ يَكُنْ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ بَلْ فِيهِمْ نجارية وَمِنْهُمْ بُرْغُوثٌ . وَفِيهِمْ ضرارية . وَحَفْصٌ

الْفَرْدُ الَّذِي نَاظَرَ الشَّافِعِيَّ كَانَ مِنْ الضرارية أَتْبَاعِ ضِرَارِ بْنِ عَمْرو . وَفِيهِمْ مُرْجِئَةٌ وَمِنْهُمْ بِشْرٌ المريسي . وَمِنْهُمْ جهمية مَحْضَةٌ وَمِنْهُمْ

(845/838)

مُعْتَزِلَةٌ وَابْنُ أَبِي

(846/838)

دؤاد لَمْ يَكُنْ مُعْتَزِلِيًّا ؛ بَلْ كَانَ جهميا يَنْفِي الصِّفَاتِ وَالْمُعْتَزِلَةُ تَنْفِي الصِّفَاتِ فنفاة الصِّفَاتِ الْجَهْمِيَّةُ أَعَمُّ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ فَلَمَّا احْتَجَّ عَلَيْهِ بُرْغُوثٌ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ يَتَكَلَّمُ وَيَقُومُ بِهِ الْكَلَامُ لَكَانَ جِسْمًا وَهَذَا مَنْفِيٌّ عَنْهُ وَأَحْمَد وَأَمْثَالُهُ مِنْ السَّلَفِ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ الَّتِي ابْتَدَعَهَا الْمُتَكَلِّمُونَ كَلَفْظِ الْجِسْمِ وَغَيْرِهِ يَنْفِيهَا قَوْمٌ لِيَتَوَصَّلُوا بِنَفْيِهَا إلَى نَفْيِ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ وَيُثْبِتُهَا قَوْمٌ لِيَتَوَصَّلُوا بِإِثْبَاتِهَا إلَى إثْبَاتِ مَا نَفَاهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . فَالْأُولَى طَرِيقَةُ الْجَهْمِيَّة : مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ : يَنْفُونَ الْجِسْمَ حَتَّى يَتَوَهَّمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ قَصْدَهُمْ التَّنْزِيهُ وَمَقْصُودُهُمْ بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُرَى فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّهُ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِالْقُرْآنِ وَلَا غَيْرِهِ بَلْ خَلَقَ كَلَامًا فِي

غَيْرِهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عِلْمٌ يَقُومُ بِهِ وَلَا قُدْرَةٌ وَلَا حَيَاةٌ وَلَا غَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد فِي خُطْبَتِهِ فِي " الرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَالزَّنَادِقَةِ " : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي كُلِّ زَمَانِ فَتْرَةً مِنْ الرُّسُلِ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ يَدْعُونَ مَنْ ضَلَّ إلَى الْهُدَى وَيَصْبِرُونَ مِنْهُمْ عَلَى الْأَذَى يُحْيُونَ بِكِتَابِ اللَّهِ الْمَوْتَى وَيُبَصِّرُونَ بِنُورِهِ أَهْلَ الْعَمَى فَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ لِإِبْلِيسَ قَدْ أَحْيَوْهُ وَكَمْ ضَالٍّ تَائِهٍ قَدْ هَدَوْهُ فَمَا أَحْسَنَ أَثَرَهُمْ عَلَى النَّاسِ وَأَقْبَحَ أَثَرَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ

(847/838)

يَنْفُونَ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ الَّذِينَ عَقَدُوا أَلْوِيَةَ الْبِدْعَةِ وَأَطْلَقُوا عِنَانَ الْفِتْنَةِ

(848/838)

فَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي الْكِتَابِ مُخَالِفُونَ لِلْكِتَابِ مُجْتَمِعُونَ عَلَى مُخَالَفَةِ الْكِتَابِ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ وَفِي اللَّهِ وَفِي كِتَابِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ يَتَكَلَّمُونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنْ الْكَلَامِ وَيَخْدَعُونَ جُهَّالَ النَّاسِ بِمَا يُشَبِّهُونَ عَلَيْهِمْ . فَنَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْ فِتَنِ الْمُضِلِّينَ . وَالثَّانِيَةُ طَرِيقَةُ هِشَامٍ وَأَتْبَاعِهِ يُحْكَى عَنْهُمْ

: أنهم أثبتوا ما قد نزه الله نفسه عنه من اتصافه بالنقائص ومما ثلته للمخلوقات فأجابهم الإمام أحمد بطريقة الأنبياء وأتباعهم وهو الاعتصام بحبل الله الذي قال الله فيه . ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ وقال : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ وقال تعالى : ﴿ المص ﴾ ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ ﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ وقال تعالى : ﴿ فإما

(849/838)

يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ ﴿ قال رب لم حشرتني أعمى

(850/838)

وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ

وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴾ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ

(852/838)

وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ . فَهَذِهِ النُّصُوصُ وَغَيْرُهَا تُبَيِّنُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ لِبَيَانِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ وَبَيَانِ مَا اخْتَلَفَ فِيهِ النَّاسُ وَأَنَّ الْوَاجِبَ عَلَى النَّاسِ اتِّبَاعُ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَدُّ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَنَّ مَنْ لَمْ

يَتَّبِعْ ذَلِكَ كَانَ مُنَافِقًا وَأَنَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ حُشِرَ أَعْمَى ضَالًّا شَقِيًّا مُعَذَّبًا وَأَنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ قَدْ بَرِئَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْهُمْ . فَاتَّبَعَ الْإِمَامُ أَحْمَد

(853/838)

طَرِيقَةَ سَلَفِهِ مِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْمُعْتَصِمِينَ

(854/838)

بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الْمُتَّبِعِينَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلِكَ أَنْ نَنْظُرَ فَمَا وَجَدْنَا الرَّبَّ قَدْ أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ أَثْبَتْنَاهُ وَمَا وَجَدْنَاهُ قَدْ نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ نَفَيْنَاهُ وَكُلُّ لَفْظٍ وُجِدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِالْإِثْبَاتِ أُثْبِتَ ذَلِكَ اللَّفْظُ وَكُلُّ لَفْظٍ وُجِدَ مَنْفِيًّا نُفِيَ ذَلِكَ اللَّفْظُ وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ الَّتِي لَا تُوجَدُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بَلْ وَلَا فِي كَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَسَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ لَا إثْبَاتُهَا وَلَا نَفْيُهَا . وَقَدْ تَنَازَعَ فِيهَا النَّاسُ فَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ لَا تُثْبَتُ وَلَا تُنْفَى إلَّا بَعْدَ الِاسْتِفْسَارِ عَنْ مَعَانِيهَا فَإِنْ وُجِدَتْ مَعَانِيهَا مِمَّا أَثْبَتَهُ الرَّبُّ لِنَفْسِهِ أُثْبِتَتْ وَإِنْ وُجِدَتْ مِمَّا

نَفَاهُ الرَّبُّ عَنْ نَفْسِهِ نُفِيَت وَإِنْ وَجَدْنَا اللَّفْظَ أُثْبِتَ بِهِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ أَوْ نُفِيَ بِهِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ أَوْ كَانَ مُجْمَلًا يُرَادُ بِهِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ وَصَاحِبُهُ أَرَادَ بِهِ بَعْضَهَا لَكِنَّهُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يُوهِمُ النَّاسَ أَوْ يُفْهِمُهُمْ مَا أَرَادَ وَغَيْرَ مَا أَرَادَ فَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ لَا يُطْلَقُ إثْبَاتُهَا وَلَا نَفْيُهَا كَلَفْظِ الْجَوْهَرِ وَالْجِسْمِ وَالتَّحَيُّزِ وَالْجِهَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى فَقَلَّ مَنْ تَكَلَّمَ بِهَا نَفْيًا أَوْ إثْبَاتًا إلَّا وَأَدْخَلَ فِيهَا بَاطِلًا وَإِنْ أَرَادَ بِهَا حَقًّا . وَالسَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ كَرِهُوا هَذَا الْكَلَامَ الْمُحْدَثَ ؛ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى بَاطِلٍ وَكَذِبٍ وَقَوْلٍ عَلَى اللَّهِ بِلَا عِلْمٍ

(855/838)

وَكَذَلِكَ ذَكَرَ أَحْمَد فِي رَدِّهِ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ أَنَّهُمْ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ فِيمَا يَنْفُونَهُ عَنْهُ وَيَقُولُونَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَكُلُّ

(856/838)

ذَلِكَ مِمَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَمْ يَكْرَهْ السَّلَفُ هَذِهِ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهَا اصْطِلَاحِيَّةً وَلَا كَرِهُوا الِاسْتِدْلَالَ بِدَلِيلٍ صَحِيحٍ جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ بَلْ كَرِهُوا الْأَقْوَالَ الْبَاطِلَةَ الْمُخَالِفَةَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

وَلَا يُخَالِفُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ إِلَّا مَا هُوَ بَاطِلٌ لَا يَصِحُّ بِعَقْلٍ وَلَا سَمْعٍ . وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ سُرَيْجٍ عَنْ التَّوْحِيدِ فَذَكَرَ تَوْحِيدَ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ : وَأَمَّا تَوْحِيدُ أَهْلِ الْبَاطِلِ فَهُوَ الْخَوْضُ فِي الْجَوَاهِرِ وَالْأَعْرَاضِ وَإِنَّمَا بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِنْكَارِ ذَلِكَ وَلَمْ يُرِدْ بِذَلِكَ أَنَّهُ أَنْكَرَ هَذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ فَإِنَّهُمَا لَمْ يَكُونَا قَدْ أُحْدِثَا فِي زَمَنِهِ وَإِنَّمَا أَرَادَ إنْكَارَ مَا يَعْنِي بِهِمَا مِنْ الْمَعَانِي الْبَاطِلَةِ فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ أَحْدَثَهُمَا الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَقَصْدُهُمْ بِذَلِكَ إنْكَارُ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ أَنْ يُرَى أَوْ أَنْ يَكُونَ لَهُ كَلَامٌ يَتَّصِفُ بِهِ وَأَنْكَرَتْ الْجَهْمِيَّةُ أَسْمَاءَهُ أَيْضًا . وَأَوَّلُ مَنْ عُرِفَ عَنْهُ إنْكَارُ ذَلِكَ الْجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ فَضَحَّى بِهِ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ بواسط . وَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَحُّوا تَقَبَّلَ اللَّهُ ضَحَايَاكُمْ فَإِنِّي مُضَحٍّ بِالْجَعْدِ بْنِ درهم إنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَّخِذْ إبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الْجَعْدُ عُلُوًّا كَبِيرًا . ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ . وَكَلَامُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ فِي ذَمِّ هَذَا الْكَلَامِ وَأَهْلِهِ

مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

وَالْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ أَئِمَّةَ السُّنَّةِ كَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ كَانُوا إذَا ذُكِرَتْ لَهُمْ أَهْلُ الْبِدَعِ الْأَلْفَاظُ الْمُجْمَلَةُ : كَلَفْظِ الْجِسْمِ وَالْجَوْهَرِ وَالْحَيِّزِ وَنَحْوِهَا لَمْ يُوَافِقُوهُمْ لَا عَلَى إطْلَاقِ الْإِثْبَاتِ " وَلَا عَلَى إطْلَاقِ النَّفْيِ وَأَهْلُ الْبِدَعِ بِالْعَكْسِ ابْتَدَعُوا أَلْفَاظًا وَمَعَانِيَ إمَّا فِي النَّفْيِ وَإِمَّا فِي الْإِثْبَاتِ وَجَعَلُوهَا هِيَ الْأَصْلُ الْمَعْقُولُ الْمُحْكَمُ الَّذِي يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَالْبِنَاءُ عَلَيْهِ ثُمَّ نَظَرُوا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَمَا أَمْكَنَهُمْ أَنْ يَتَأَوَّلُوهُ عَلَى قَوْلِهِمْ تَأَوَّلُوهُ وَإِلَّا قَالُوا هَذَا مِنْ الْأَلْفَاظِ الْمُتَشَابِهَةِ الْمُشْكِلَةِ الَّتِي لَا نَدْرِي مَا أُرِيدَ بِهَا . فَجَعَلُوا بِدَعَهُمْ أَصْلًا مُحْكَمًا وَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فَرْعًا لَهُ وَمُشْكِلًا : إذَا لَمْ يُوَافِقْهُ . وَهَذَا أَصْلُ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَأَمْثَالِهِمْ وَأَصْلُ الْمَلَاحِدَةِ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ الْبَاطِنِيَّةِ جَمِيعُ كُتُبِهِمْ تُوجَدُ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ وَمَعْرِفَةُ الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُعْلَمُ بِهِ الْفَرْقُ بَيْنَ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ وَبَيْنَ السُّبُلِ الْمُخَالِفَةِ لَهُ وَكَذَلِكَ الْحُكْمُ فِي الْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ الْفِقْهِيَّةِ وَمَسَائِلِ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَحَقَائِقِهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ كُلُّ هَذِهِ الْأُمُورِ قَدْ دَخَلَ فِيهَا أَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ مُحْدَثَةٌ وَأَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ مُشْتَرَكَةٌ . فَالْوَاجِبُ أَنْ يَجْعَلَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ أَصْلًا فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأُمُورِ ثُمَّ

يَرُدَّ مَا تَكَلَّمَ فِيهِ النَّاسُ إلَى ذَلِكَ وَيُبَيِّنُ مَا فِي الْأَلْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ مِنْ الْمَعَانِي الْمُوَافِقَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَتُقْبَلُ وَمَا فِيهَا مِنْ الْمَعَانِي

(860/838)

الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَتُرَدُّ . وَلِهَذَا كُلُّ طَائِفَةٍ أُنْكِرَ عَلَيْهَا مَا ابْتَدَعَتْ احْتَجَّتْ بِمَا ابْتَدَعَتْهُ الْأُخْرَى كَمَا يُوجَدُ فِي أَلْفَاظِ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْكَلَامِ وَالتَّصَوُّفِ وَإِنَّمَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ إنَّهُ مُشْكِلٌ وَمُتَشَابِهٌ إذَا ظَنَّ أَنَّهُ يُخَالِفُ غَيْرَهُ مِنْ الْآيَاتِ الْمُحْكَمَةِ الْبَيِّنَةِ فَإِذَا جَاءَتْ نُصُوصٌ بَيِّنَةٌ مُحْكَمَةٌ بِأَمْرِ وَجَاءَ نَصٌّ آخَرُ يُظَنُّ أَنَّ ظَاهِرَهُ يُخَالِفُ ذَلِكَ يُقَالُ فِي هَذَا إنَّهُ يَرُدُّ الْمُتَشَابِهَ إلَى الْمُحْكَمِ أَمَّا إذَا نَطَقَ الْكِتَابُ أَوْ السُّنَّةُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُجْعَلَ مَا يُضَادُّ ذَلِكَ الْمَعْنَى هُوَ الْأَصْلُ وَيُجْعَلُ مَا فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ مُشْكِلًا مُتَشَابِهًا فَلَا يُقْبَلُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ . نَعَمْ قَدْ يُشْكِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ نُصُوصٌ لَا يَفْهَمُونَهَا فَتَكُونُ مُشْكِلَةً بِالنِّسْبَةِ إلَيْهِمْ لِعَجْزِ فَهْمِهِمْ عَنْ مَعَانِيهَا وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي الْقُرْآنِ مَا يُخَالِفُ صَرِيحَ الْعَقْلِ وَالْحِسِّ إلَّا وَفِي الْقُرْآنِ بَيَانُ مَعْنَاهُ فَإِنَّ الْقُرْآنَ جَعَلَهُ اللَّهُ شِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَبَيَانًا لِلنَّاسِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِخِلَافِ ذَلِكَ ؛ لَكِنْ قَدْ تَخْفَى آثَارُ الرِّسَالَةِ فِي بَعْضِ الْأَمْكِنَةِ وَالْأَزْمِنَةِ

حَتَّى لَا يَعْرِفُونَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . إمَّا أَنْ لَا يَعْرِفُوا اللَّفْظَ وَإِمَّا أَنْ يَعْرِفُوا اللَّفْظَ وَلَا يَعْرِفُوا مَعْنَاهُ فَحِينَئِذٍ يَصِيرُونَ فِي جَاهِلِيَّةٍ بِسَبَبِ عَدَمِ نُورِ النُّبُوَّةِ وَمِنْ هَهُنَا يَقَعُ الشِّرْكُ

(861/838)

وَتَفْرِيقُ الدِّينِ شِيَعًا كَالْفِتَنِ الَّتِي تُحْدِثُ السَّيْفَ فَالْفِتَنُ الْقَوْلِيَّةُ وَالْعَمَلِيَّةُ

(862/838)

هِيَ مِنْ الْجَاهِلِيَّةِ بِسَبَبِ خَفَاءِ نُورِ النُّبُوَّةِ عَنْهُمْ كَمَا قَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ : إذَا قَلَّ الْعِلْمُ ظَهَرَ الْجَفَاءُ وَإِذَا قَلَّتْ الْآثَارُ ظَهَرَتْ الْأَهْوَاءُ . وَلِهَذَا شُبِّهَتْ الْفِتَنُ بِقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ وَلِهَذَا قَالَ أَحْمَد فِي خُطْبَتِهِ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي كُلِّ زَمَانٍ فَتْرَةً بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ . فَالْهُدَى الْحَاصِلُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ إنَّمَا هُوَ مِنْ نُورِ النُّبُوَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ فَأَهْلُ الْهُدَى وَالْفَلَاحِ : هُمْ الْمُتَّبِعُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ وَهُمْ الْمُسْلِمُونَ الْمُؤْمِنُونَ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ . وَأَهْلُ الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ : هُمْ الْمُكَذِّبُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ

يَبْقَى أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ الَّذِينَ لَمْ يَصِلْ إلَيْهِمْ مَا جَاءَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ . فَهَؤُلَاءِ فِي ضَلَالٍ وَجَهْلٍ وَشِرْكٍ وَشَرٍّ لَكِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ فَهَؤُلَاءِ لَا يُهْلِكُهُمْ اللَّهُ وَيُعَذِّبُهُمْ حَتَّى يُرْسِلَ إلَيْهِمْ رَسُولًا . وَقَدْ رُوِيَتْ آثَارٌ مُتَعَدِّدَةٌ فِي أَنَّ مَنْ لَمْ تَبْلُغْهُ الرِّسَالَةُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يُبْعَثُ إلَيْهِ رَسُولٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ .

(863/838)

وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا يُخَالِفُ دِينَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَإِنَّ الْآخِرَةَ لَا تَكْلِيفَ فِيهَا وَلَيْسَ كَمَا قَالَ إنَّمَا يَنْقَطِعُ التَّكْلِيفُ إذَا دَخَلُوا دَارَ الْجَزَاءِ الْجَنَّةَ أَوْ النَّارَ وَإِلَّا فَهُمْ فِي قُبُورِهِمْ مُمْتَحَنُونَ وَمَفْتُونُونَ يُقَالُ لِأَحَدِهِمْ : مَنْ رَبُّك ؟ وَمَا دِينُك ؟ وَمَنْ نَبِيُّك ؟ وَكَذَلِكَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ يُقَالُ : لِيَتَّبِعْ كُلُّ قَوْمٍ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْقَمَرَ الْقَمَرَ وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ وَتَبْقَى هَذِهِ الْأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا فَيَأْتِيهِمْ اللَّهُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ : نَعُوذُ

بِاَللَّهِ مِنْكَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا . وَفِي رِوَايَةٍ فَيَسْأَلُهُمْ وَيُثَبِّتُهُمْ وَذَلِكَ امْتِحَانٌ لَهُمْ هَلْ يَتَّبِعُونَ غَيْرَ الرَّبِّ الَّذِي عَرَفُوا أَنَّهُ اللَّهُ الَّذِي تَجَلَّى لَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيُثَبِّتُهُمْ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَ هَذِهِ الْمِحْنَةِ كَمَا يُثَبِّتُهُمْ فِي فِتْنَةِ الْقَبْرِ فَإِذَا لَمْ يَتَّبِعُوهُ لِكَوْنِهِ أَتَى فِي غَيْرِ الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ أَتَاهُمْ حِينَئِذٍ فِي الصُّورَةِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقٍ فَإِذَا رَأَوْهُ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا إلَّا مَنْ كَانَ مُنَافِقًا فَإِنَّهُ يُرِيدُ السُّجُودَ فَلَا يَسْتَطِيعُهُ يَبْقَى ظَهْرُهُ مِثْلَ الطَّبَقِ وَهَذَا الْمَعْنَى مُسْتَفِيضٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثَ ثَابِتَةٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ

(864/838)

وَقَدْ أَخْرَجَاهُمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ وَمِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ وَقَدْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي مُوسَى وَهُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ رِوَايَةِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ فَدَلَّ

(865/838)

ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمِحْنَةَ إنَّمَا تَنْقَطِعُ إذَا دَخَلُوا دَارَ الْجَزَاءِ وَأَمَّا قَبْلَ دَارِ الْجَزَاءِ امْتِحَانٌ وَابْتِلَاءٌ . فَإِذَا انْقَطَعَ عَنْ النَّاسِ نُورُ النُّبُوَّةِ وَقَعُوا فِي ظُلْمَةِ الْفِتَنِ وَحَدَثَتْ الْبِدَعُ وَالْفُجُورُ وَوَقَعَ الشَّرُّ

بَيْنَهُمْ . كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ . " ﴿ سَأَلْت رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي الثَّالِثَةَ سَأَلْته أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةٍ عَامَّةٍ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْته أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَجْتَاحُهُمْ فَأَعْطَانِيهَا وَسَأَلْته أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا ﴾ " وَالْبَأْسُ مُشْتَقٌّ مِنْ الْبُؤْسِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ قَالَ أَعُوذُ بِوَجْهِك ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قَالَ : أَعُوذُ بِوَجْهِك . ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قَالَ هَاتَانِ أَهْوَنُ ﴾ . فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَلْبِسَهُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ مَعَ بَرَاءَةِ الرَّسُولِ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَهُمْ فِيهَا فِي جَاهِلِيَّةٍ . وَلِهَذَا قَالَ الزُّهْرِيُّ وَقَعَتْ الْفِتْنَةُ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَوَافِرُونَ

(866/838)

فَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ كُلَّ دَمٍ أَوْ مَالٍ أَوْ فَرْجٍ

(867/838)

أُصِيبَ بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ فَهُوَ هَدَرٌ أَنْزَلُوهُمْ مَنْزِلَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَقَدْ رَوَى مَالِكٌ بِإِسْنَادِهِ الثَّابِتِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ: تَرَكَ النَّاسُ الْعَمَلَ بِهَذِهِ الْآيَةِ تَعْنِي قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ فَإِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا اقْتَتَلُوا كَانَ الْوَاجِبُ الْإِصْلَاحَ بَيْنَهُمْ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فَلَمَّا لَمْ يُعْمَلْ بِذَلِكَ صَارَتْ فِتْنَةٌ وَجَاهِلِيَّةٌ. وَهَكَذَا مَسَائِلُ النِّزَاعِ الَّتِي تَنَازَعَ فِيهَا الْأُمَّةُ فِي الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ إذَا لَمْ تُرَدَّ إلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ لَمْ يَتَبَيَّنْ فِيهَا الْحَقُّ بَلْ يَصِيرُ فِيهَا الْمُتَنَازِعُونَ عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ فَإِنْ رَحِمَهُمْ اللَّهُ أَقَرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَلَمْ يَبْغِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ فِي خِلَافَةِ عُمَرَ وَعُثْمَانَ يَتَنَازَعُونَ فِي بَعْضِ مَسَائِلِ الِاجْتِهَادِ فَيُقِرُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَلَا يَعْتَدِي عَلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَرْحَمُوا وَقَعَ بَيْنَهُمْ الِاخْتِلَافُ الْمَذْمُومُ فَبَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إمَّا بِالْقَوْلِ مِثْلَ تَكْفِيرِهِ وَتَفْسِيقِهِ" وَإِمَّا بِالْفِعْلِ مِثْلَ حَبْسِهِ وَضَرْبِهِ وَقَتْلِهِ. وَهَذِهِ حَالُ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالظُّلْمِ كَالْخَوَارِجِ وَأَمْثَالِهِمْ يَظْلِمُونَ الْأُمَّةَ وَيَعْتَدُونَ عَلَيْهِمْ إذَا نَازَعُوهُمْ فِي بَعْضِ مَسَائِلِ الدِّينِ وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ فَإِنَّهُمْ يَبْتَدِعُونَ بِدْعَةً وَيُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهَا كَمَا تَفْعَلُ الرَّافِضَةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَالْجَهْمِيَّةُ

وَغَيْرُهُمْ وَالَّذِينَ امْتَحَنُوا النَّاسَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ كَانُوا مِنْ هَؤُلَاءِ ؛ ابْتَدَعُوا بِدْعَةً وَكَفَّرُوا مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهَا

(869/838)

وَاسْتَحَلُّوا مَنْعَ حَقِّهِ وَعُقُوبَتَهُ . فَالنَّاسُ إذَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمَّا عَادِلُونَ وَإِمَّا ظَالِمُونَ فَالْعَادِلُ فِيهِمْ الَّذِي يَعْمَلُ بِمَا وَصَلَ إلَيْهِ مِنْ آثَارِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا يَظْلِمُ غَيْرَهُ وَالظَّالِمُ الَّذِي يَعْتَدِي عَلَى غَيْرِهِ وَهَؤُلَاءِ ظَالِمُونَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّهُمْ يَظْلِمُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ وَإِلَّا فَلَوْ سَلَكُوا مَا عَلِمُوهُ مِنْ الْعَدْلِ أَقَرَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَالْمُقَلِّدِينَ لِأَئِمَّةِ الْفِقْهِ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مَعْرِفَةِ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي تِلْكَ الْمَسَائِلِ فَجَعَلُوا أَئِمَّتَهُمْ نُوَّابًا عَنْ الرَّسُولِ وَقَالُوا هَذِهِ غَايَةُ مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ فَالْعَادِلُ مِنْهُمْ لَا يَظْلِمُ الْآخَرَ وَلَا يَعْتَدِي عَلَيْهِ بِقَوْلِ وَلَا فِعْلٍ مِثْلَ أَنْ يَدَّعِيَ أَنَّ قَوْلَ مَتْبُوعِهِ هُوَ الصَّحِيحُ بِلَا حُجَّةٍ يُبْدِيهَا وَيَذُمُّ مَنْ يُخَالِفُهُ مَعَ أَنَّهُ مَعْذُورٌ . وَكَانَ الَّذِينَ امْتَحَنُوا أَحْمَد وَغَيْرَهُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلِينَ فَابْتَدَعُوا كَلَامًا مُتَشَابِهًا نَفَوْا بِهِ الْحَقَّ فَأَجَابَهُمْ أَحْمَد لَمَّا نَاظَرُوهُ فِي الْمِحْنَةِ وَذَكَرُوا الْجِسْمَ وَنَحْوَ ذَلِكَ وَأَجَابَهُمْ بِأَنِّي أَقُولُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ وَأَمَّا لَفْظُ الْجِسْمِ

فَلَفْظٌ مُبْتَدَعٌ مُحْدَثٌ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ أَلْبَتَّةَ وَالْمَعْنَى الَّذِي يُرَادُ بِهِ مُجْمَلٌ وَلَمْ تُبَيِّنُوا مُرَادَكُمْ حَتَّى نُوَافِقَكُمْ عَلَى الْمَعْنَى الصَّحِيحِ فَقَالَ مَا أَدْرِي مَا تَقُولُونَ ؟

(870/838)

لَكِنْ أَقُولُ : ﴿ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . يَقُولُ : مَا أَدْرِي مَا تَعْنُونَ بِلَفْظِ الْجِسْمِ فَأَنَا لَا أُوَافِقُكُمْ عَلَى إثْبَاتِ لَفْظٍ وَنَفْيِهِ إذْ لَمْ يَرِدْ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ بِإِثْبَاتِهِ وَلَا نَفْيِهِ إنْ لَمْ نَدْرِ مَعْنَاهُ الَّذِي عَنَاهُ الْمُتَكَلِّمُ فَإِنْ عَنَى فِي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ مَا يُوَافِقُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَافَقْنَاهُ وَإِنْ عَنَى مَا يُخَالِفُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فِي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ لَمْ نُوَافِقْهُ . وَلَفْظُ " الْجِسْمِ " و " الْجَوْهَرِ " وَنَحْوِهِمَا لَمْ يَأْتِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ وَلَا كَلَامِ أَحَدٍ - مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ إلَى يَوْمِ الدِّينِ وَسَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ - التَّكَلُّمُ بِهَا فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى لَا بِنَفْيِ وَلَا إثْبَاتٍ وَلِهَذَا قَالَ أَحْمَد فِي رِسَالَتِهِ إلَى الْمُتَوَكِّلِ : لَا أُحِبُّ الْكَلَامَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إلَّا مَا كَانَ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَوْ فِي حَدِيثٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ عَنْ الصَّحَابَةِ أَوْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ فَإِنَّ الْكَلَامَ فِيهِ غَيْرُ مَحْمُودٍ . وَذَكَرَ أَيْضًا فِيمَا حَكَاهُ عَنْ الْجَهْمِيَّة أَنَّهُمْ يَقُولُونَ : لَيْسَ فِيهِ

كَذَا وَلَا كَذَا وَلَا كَذَا وَهُوَ كَمَا قَالَ فَإِنَّ لَفْظَ الْجِسْمِ لَهُ فِي اللُّغَةِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ مَعْنًى كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ

(871/838)

وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ طَالُوتُ أَعْلَمَ بَنِي إسْرَائِيلَ بِالْحَرْبِ وَكَانَ يَفُوقُ النَّاسَ بِمَنْكِبَيْهِ وَعُنُقِهِ وَرَأْسِهِ و " الْبَسْطَةُ " السَّعَةُ قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: هُوَ مِنْ قَوْلِك بَسَطْت الشَّيْءَ إذَا كَانَ مَجْمُوعًا فَفَتَحْته وَوَسَّعْته قَالَ بَعْضُهُمْ: وَالْمُرَادُ بِتَعْظِيمِ الْجِسْمِ فَضْلُ الْقُوَّةِ إذْ الْعَادَةُ أَنَّ مَنْ كَانَ أَعْظَمَ جِسْمًا كَانَ أَكْثَرَ قُوَّةً . فَهَذَا لَفْظُ الْجِسْمِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ: قَالَ أَبُو زَيْدٍ الْأَنْصَارِيُّ: الْجِسْمُ الْجَسَدُ وَكَذَلِكَ الْجُسْمَانُ وَالْجُثْمَانُ " وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ: الْجِسْمُ وَالْجَسَدُ وَالْجُثْمَانُ الشَّخْصُ وَقَالَ جَمَاعَةٌ جِسْمُ الْإِنْسَانِ يُقَالُ لَهُ الْجُثْمَانُ وَقَدْ جَسُمَ الشَّيْءُ أَيْ عَظُمَ فَهُوَ جَسِيمٌ وَجُسَامٌ وَالْجِسَامُ بِالْكَسْرِ جَمْعُ جَسِيمٍ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ تَجَسَّمْت فُلَانًا مِنْ بَيْنِ الْقَوْمِ أَيْ اخْتَرْته كَأَنَّك قَصَدْت جِسْمَهُ . كَمَا تَقُولُ: تَأَتَّيْته أَيْ قَصَدْت أَتْيَهُ وَشَخْصَهُ وَأَنْشَدَ أَبُو عُبَيْدَةَ . تَجَسَّمْته مِنْ بَيْنِهِنَّ بِمُرْهَفِ وَتَجَسَّمْت الْأَرْضَ إذَا أَخَذْت نَحْوَهَا تُرِيدُهَا وَتَجَسَّمَ مِنْ الْجِسْمِ وَقَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ: تَجَسَّمْت الْأَمْرَ: أَيْ

رَكِبْت أَجْسَمَهُ وَجَسِيمُهُ أَيْ مُعْظَمُهُ قَالَ : وَكَذَلِكَ تَجَسَّمْت الرَّمْلَ وَالْجَبَلَ أَيْ رَكِبْت أَعْظَمَهُ وَالْأَجْسَمُ الْأَضْخَمُ قَالَ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ :

(872/838)

لَقَدْ عَلِمَ الْحَيُّ مِنْ عَامِرٍ بِأَنَّ لَنَا الذُّرْوَةَ الْأَجْسَمَا فَهَذَا الْجِسْمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَعَلَى هَذَا فَلَا يُقَالُ لِلْهَوَاءِ جِسْمٌ وَلَا لِلنَّفَسِ الْخَارِجِ مِنْ الْإِنْسَانِ جِسْمٌ وَلَا لِرُوحِهِ الْمَنْفُوخَةِ فِيهِ جِسْمٌ وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَا يُمَاثِلُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَا بَدَنَ الْإِنْسَانِ وَلَا غَيْرَهُ فَلَا يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى بِشَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ مِنْ الْأَسْمَاءِ مَا يَخْتَصُّ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : هُوَ جِسْمٌ وَلَا جَسَدٌ .

وَأَمَّا أَهْلُ الْكَلَامِ فَالْجِسْمُ عِنْدَهُمْ أَعَمُّ مِنْ هَذَا وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي مَعْنَاهُ اخْتِلَافًا كَثِيرًا عَقْلِيًّا وَاخْتِلَافًا لَفْظِيًّا اصْطِلَاحِيًّا فَهُمْ يَقُولُونَ كُلُّ مَا يُشَارُ إلَيْهِ إشَارَةٌ حِسِّيَّةٌ فَهُوَ جِسْمٌ ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ هَذَا فَقَالَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ : كُلُّ مَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْفَرْدَةِ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : الْجِسْمُ أَقَلُّ مَا يَكُونُ جَوْهَرًا بِشَرْطِ أَنْ يَنْضَمَّ إلَى غَيْرِهِ وَقِيلَ بَلْ الْجَوْهَرَانِ وَالْجَوَاهِرُ فَصَاعِدًا وَقِيلَ بَلْ أَرْبَعَةٌ فَصَاعِدًا وَقِيلَ بَلْ سِتَّةٌ وَقِيلَ بَلْ ثَمَانِيَةٌ وَقِيلَ بَلْ سِتَّةَ عَشَرَ وَقِيلَ بَلْ

اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ وَهَذَا قَوْلُ مَنْ يَقُولُ إنَّ الْأَجْسَامَ كُلَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الَّتِي لَا تَنْقَسِمُ . وَقَالَ آخَرُونَ مِنْ أَهْلِ الْفَلْسَفَةِ كُلُّ الْأَجْسَامِ مُرَكَّبَةٌ مِنْ الْهَيُولَى

(873/838)

وَالصُّورَةِ لَا مِنْ الْجَوَاهِرِ الْفَرْدَةِ . وَقَالَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَغَيْرِ أَهْلِ الْكَلَامِ لَيْسَتْ مُرَكَّبَةً لَا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا وَهَذَا قَوْلُ الْهشامية وَالْكُلَّابِيَة والضرارية وَغَيْرِهِمْ مِنْ الطَّوَائِفِ الْكِبَارِ لَا يَقُولُونَ بِالْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَلَا بِالْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ وَآخَرُونَ يَدَّعُونَ إجْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى إثْبَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ كَمَا قَالَ أَبُو الْمَعَالِي وَغَيْرُهُ : اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الْأَجْسَامَ تَتَنَاهَى فِي تَجَزُّئِهَا وَانْقِسَامِهَا حَتَّى تَصِيرَ أَفْرَادًا وَمَعَ هَذَا فَقَدْ شَكَّ هُوَ فِيهِ وَكَذَلِكَ شَكَّ فِيهِ أَبُو الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيُّ . وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِي . وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ لَا مِنْ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنْ التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْعِلْمِ الْمَشْهُورِينَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ طَائِفَةٌ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَهَذَا مِنْ الْكَلَامِ الَّذِي ذَمَّهُ السَّلَفُ وَعَابُوهُ وَلَكِنَّ حَاكِيَ هَذَا الْإِجْمَاعِ لَمَّا لَمْ يَعْرِفْ أُصُولَ الدِّينِ إلَّا مَا فِي كُتُبِ الْكَلَامِ وَلَمْ يَجِدْ إلَّا مَنْ يَقُولُ بِذَلِكَ اعْتَقَدَ هَذَا إجْمَاعَ الْمُسْلِمِينَ وَالْقَوْلُ

بِالْجَوْهَرِ الْفَرْدِ بَاطِلٌ وَالْقَوْلُ بِالْهَيُولَى وَالصُّورَةِ بَاطِلٌ وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَاتِ فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ .

(874/838)

وَقَالَ آخَرُونَ : الْجِسْمُ هُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ وَكُلُّ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ جِسْمٌ وَكُلُّ جِسْمٍ فَهُوَ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَهُوَ مُشَارٌ إلَيْهِ .

(875/838)

وَاخْتَلَفُوا فِي الْأَجْسَامِ هَلْ هِيَ مُتَمَاثِلَةٌ أَمْ لَا ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ مَشْهُورَيْنِ . وَإِذَا عُرِفَ ذَلِكَ فَمَنْ قَالَ : إنَّهُ جِسْمٌ وَأَرَادَ أَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْ الْأَجْزَاءِ فَهَذَا قَوْلُهُ بَاطِلٌ وَكَذَلِكَ إنْ أَرَادَ أَنَّهُ يُمَاثِلُ غَيْرَهُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ فَقَدْ عُلِمَ بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ فَمَنْ أَثْبَتَ لِلَّهِ مِثْلًا فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ فَهُوَ مُبْطِلٌ وَمَنْ قَالَ إنَّهُ جِسْمٌ بِهَذَا الْمَعْنَى فَهُوَ مُبْطِلٌ وَمَنْ قَالَ إنَّهُ لَيْسَ بِجِسْمِ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يُرَى فِي الْآخِرَةِ وَلَا يَتَكَلَّمُ بِالْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ مِنْ الْكَلَامِ وَلَا يَقُومُ بِهِ الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ وَغَيْرُهُمَا مِنْ الصِّفَاتِ وَلَا تُرْفَعُ الْأَيْدِي إلَيْهِ فِي الدُّعَاءِ وَلَا عُرِجَ بِالرَّسُولِ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ وَلَا يَصْعَدُ إِلَيْهِ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَلَا تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فَهَذَا قَوْلُهُ بَاطِلٌ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ نَفَى مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالَ إِنَّ هَذَا تَجْسِيمٌ فَنَفْيُهُ بَاطِلٌ وَتَسْمِيَةُ ذَلِكَ تَجْسِيمًا تَلْبِيسٌ مِنْهُ فَإِنَّهُ إِنْ أَرَادَ أَنَّ هَذَا فِي اللُّغَةِ يُسَمَّى جِسْمًا فَقَدْ أَبْطَلَ وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ هَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ جِسْمًا مُرَكَّبًا مِنْ الْجَوَاهِرِ الْفَرْدَةِ أَوْ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ أَوْ أَنَّ هَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ جِسْمًا وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ قِيلَ لَهُ أَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ يُخَالِفُونَك فِي تَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ الْمَخْلُوقَةِ وَفِي أَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ فَلَا يَقُولُونَ : إنَّ الْهَوَاءَ مِثْلُ الْمَاءِ

(876/838)

وَلَا أَبْدَانَ الْحَيَوَانِ مِثْلُ الْحَدِيدِ وَالْجِبَالِ فَكَيْفَ يُوَافِقُونَك عَلَى أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى يَكُونُ مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِ إذَا أَثْبَتُوا لَهُ مَا أَثْبَتَ لَهُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ نَفَى الْمُمَاثَلَاتِ فِي بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ وَكِلَاهُمَا جِسْمٌ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ مَعَ أَنَّ كِلَاهُمَا بَشَرٌ . فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : إذَا كَانَ لِرَبِّ السَّمَوَاتِ عِلْمٌ وَقُدْرَةٌ أَنَّهُ يَكُونُ مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِ وَاَللَّهُ تَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ . وَنُكْتَةُ الْأَمْرِ أَنَّ الْجِسْمَ فِي اعْتِقَادِ هَذَا النَّافِي يَسْتَلْزِمُ مُمَاثَلَةَ سَائِرِ الْأَجْسَامِ وَيَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ مُرَكَّبًا مِنْ الْجَوَاهِرِ الْفَرْدَةِ أَوْ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ وَأَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ يُخَالِفُونَهُ فِي هَذَا التَّلَازُمِ

وَهَذَا التَّلَازُمُ مُنْتَفٍ بِاتِّفَاقِ الْفَرِيقَيْنِ وَهُوَ الْمَطْلُوبُ . فَإِذَا اتَّفَقُوا عَلَى انْتِفَاءِ النَّقْصِ الْمَنْفِيِّ عَنْ اللَّهِ شَرْعًا وَعَقْلًا بَقِيَ بَحْثُهُمْ فِي الْجِسْمِ الِاصْطِلَاحِيِّ هَلْ هُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِهَذَا الْمَحْذُورِ ؟ وَهُوَ بَحْثٌ عَقْلِيٌّ كَبَحْثِ النَّاسِ فِي الْأَعْرَاضِ هَلْ تَبْقَى أَوْ لَا تَبْقَى ؟ وَهَذَا الْبَحْثُ الْعَقْلِيُّ لَمْ يَرْتَبِطْ بِهِ دِينُ الْمُسْلِمِينَ بَلْ لَمْ يَنْطِقْ كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ وَلَا أَثَرٌ مِنْ السَّلَفِ بِلَفْظِ الْجِسْمِ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى لَا نَفْيًا وَلَا إثْبَاتًا فَلَيْسَ لِأَحَدِ أَنْ يَبْتَدِعَ اسْمًا مُجْمَلًا يَحْتَمِلُ مَعَانِيَ مُخْتَلِفَةً لَمْ

(877/838)

يَنْطِقْ بِهِ الشَّرْعُ وَيُعَلِّقُ بِهِ دِينَ الْمُسْلِمِينَ وَلَوْ كَانَ قَدْ نَطَقَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَكَيْفَ إذَا

(878/838)

أَحْدَثَ لِلَّفْظِ مَعْنًى آخَرَ وَالْمَعْنَى الَّذِي يَقْصِدُهُ إذَا كَانَ حَقًّا عُبِّرَ عَنْهُ بِالْعِبَارَةِ الَّتِي لَا لَبْسَ فِيهَا فَإِذَا كَانَ مُعْتَقَدُهُ أَنَّ الْأَجْسَامَ مُتَمَاثِلَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ وَلَا كُفُوَ لَهُ وَلَا نِدَّ لَهُ فَهَذِهِ عِبَارَاتُ الْقُرْآنِ تُؤَدِّي هَذَا الْمَعْنَى بِلَا تَلْبِيسٍ وَلَا نِزَاعٍ وَإِنْ كَانَ

مُعْتَقَدُهُ أَنَّ الْأَجْسَامَ غَيْرُ مُتَمَاثِلَةٍ وَأَنَّ كُلَّ مَا يُرَى وَتَقُومُ بِهِ الصِّفَاتُ فَهُوَ جِسْمٌ فَإِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُثْبِتَ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسَائِرِ صِفَاتِهِ . كَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ إنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ وَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حَدِيثِ الِاسْتِخَارَةِ : " ﴿ اللَّهُمَّ إنِّي أَسْتَخِيرُك بِعِلْمِك وَأَسْتَقْدِرُك بِقُدْرَتِك ﴾ " وَقَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ : " ﴿ اللَّهُمَّ بِعِلْمِك الْغَيْبَ وَقُدْرَتِك عَلَى الْخَلْقِ ﴾ " وَيَقُولُ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ﴿ إنَّكُمْ تَرَوْنَ رَبَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَانًا كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ ﴾ " فَشَبَّهَ الرُّؤْيَةَ بِالرُّؤْيَةِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ الْمَرْئِيُّ كَالْمَرْئِيِّ . فَهَذِهِ عِبَارَاتُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى الصَّحِيحِ بِلَا تَلْبِيسٍ وَلَا نِزَاعٍ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُتَّبِعِينَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ ثُمَّ بَعْدَ هَذَا مَنْ كَانَ قَدْ تَبَيَّنَ لَهُ مَعْنًى مِنْ جِهَةِ الْعَقْلِ

(879/838)

أَنَّهُ لَازِمٌ لِلْحَقِّ لَمْ يَدْفَعْهُ عَنْ عَقْلِهِ فَلَازِمُ الْحَقِّ حَقٌّ لَكِنَّ ذَلِكَ الْمَعْنَى لَا بُدَّ أَنْ يَدُلَّ الشَّرْعُ عَلَيْهِ فَيُبَيِّنُهُ بِالْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّ الشَّرْعَ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ مِمَّا يَجِبُ عَلَى النَّاسِ اعْتِقَادُهُ وَحِينَئِذٍ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إلَيْهِ وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُ فِي نَفْسِهِ حَقٌّ .

وَمَسْأَلَةُ تَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ وَتَرْكِيبُهَا مِنْ الْجَوَاهِرِ الْفَرْدَةِ قَدْ اضْطَرَبَ فِيهَا جَمَاهِيرُ أَهْلِ الْكَلَامِ . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَقُولُ بِهَذَا تَارَةً وَبِهَذَا تَارَةً . وَأَكْثَرُ ذَلِكَ لِأَجْلِ الْأَلْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ وَالْمَعَانِي الْمُتَشَابِهَةِ وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . لَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا : أَنَّهُ لَوْ قُدِّرَ أَنَّ الْإِنْسَانَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الْأَجْسَامَ لَيْسَتْ مُتَمَاثِلَةً وَلَا مُرَكَّبَةً لَا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَبْتَدِعَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ قَوْلَهُ : إنَّ اللَّهَ جِسْمٌ وَيُنَاظِرُ عَلَى الْمَعْنَى الصَّحِيحِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ بَلْ يَكْفِيهِ إثْبَاتُ ذَلِكَ الْمَعْنَى بِالْعِبَارَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَلَوْ قُدِّرَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ الْأَجْسَامَ مُتَمَاثِلَةٌ وَأَنَّ الْجِسْمَ مُرَكَّبٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَبْتَدِعَ النَّفْيَ بِهَذَا الِاسْمِ وَيُنَاظِرَ عَلَى مَعْنَاهُ الَّذِي اعْتَقَدَهُ بِعَقْلِهِ ؛ بَلْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْمَعْلُومُ بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ يُمْكِنُ إظْهَارُهُ بِعِبَارَةٍ لَا إجْمَالَ فِيهَا وَلَا تَلْبِيسَ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ : إنَّ الْجِسْمَ مُرَكَّبٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ يَدَّعِي كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَذَلِكَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ ؛ لِأَنَّ الْعَرَبَ يَقُولُونَ هَذَا أَجْسَمُ مِنْ هَذَا يُرِيدُونَ بِهِ أَنَّهُ أَكْثَرُ أَجْزَاءً مِنْهُ . وَيَقُولُونَ : هَذَا جَسِيمٌ أَيْ كَثِيرُ الْأَجْزَاءِ .

قَالَ : وَالتَّفْضِيلُ بِصِيغَةِ أَفْعَلَ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الِاسْمُ فَإِذَا قِيلَ : هَذَا أَعْلَمُ وَأَحْلَمُ كَانَ ذَلِكَ دَالًّا عَلَى الْفَضِيلَةِ فِيمَا دَلَّ عَلَيْهِ لَفْظُ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ فَلَمَّا قَالُوا : أَجْسَمُ لِمَا كَانَ أَكْثَرَ أَجْزَاءً دَلَّ عَلَى أَنَّ لَفْظَ الْجِسْمِ عِنْدَهُمْ الْمُرَادُ بِهِ الْمُرَكَّبُ فَمَنْ قَالَ جِسْمٌ وَلَيْسَ بِمُرَكَّبٍ فَقَدْ خَرَجَ عَنْ لُغَةِ الْعَرَبِ . قَالُوا : وَهَذِهِ تَخْلِيطَةٌ فِي اللَّفْظِ وَإِنْ كُنَّا لَا نُكَفِّرُهُ إِذَا لَمْ يُثْبِتْ خَصَائِصَ الْجِسْمِ مِنْ التَّرْكِيبِ وَالتَّأْلِيفِ وَقَدْ نَازَعَهُمْ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِمْ هَذَا أَجْسَمُ مِنْ هَذَا وَقَالُوا : لَيْسَ هَذَا اللَّفْظُ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ كَمَا يُحْكَى عَنْ أَبِي زَيْدٍ فَيُقَالُ لَهُ : لَا رَيْبَ أَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ هَذَا جَسِيمٌ أَيْ عَظِيمُ الْجُثَّةِ . وَهَذَا أَجْسَمُ مِنْ هَذَا أَيْ أَعْظَمُ جُثَّةً لَكِنَّ كَوْنَ الْعَرَبِ تَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ لِكَثْرَةِ الْأَجْزَاءِ الَّتِي هِيَ الْجَوَاهِرُ الْفَرْدَةُ إنَّمَا يَكُونُ إذَا كَانَ أَهْلُ اللُّغَةِ قَاطِبَةً يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْجِسْمَ مُرَكَّبٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْفَرْدَةِ وَالْجَوْهَرُ الْفَرْدُ هُوَ شَيْءٌ قَدْ بَلَغَ مِنْ الصِّغَرِ وَالْحَقَارَةِ إلَى أَنَّهُ لَا يَتَمَيَّزُ يَمِينُهُ مِنْ يَسَارِهِ . وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَكْثَرَ الْعُقَلَاءِ مِنْ بَنِي آدَمَ لَا يَتَصَوَّرُ الْجَوْهَرَ الْفَرْدَ وَالَّذِينَ يَتَصَوَّرُونَهُ أَكْثَرُهُمْ لَا يُثْبِتُونَهُ وَالَّذِينَ أَثْبَتُوهُ إنَّمَا يُثْبِتُونَهُ بِطُرُقِ خَفِيَّةٍ طَوِيلَةٍ بَعِيدَةٍ فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ الشَّائِعُ فِي اللُّغَةِ الَّتِي يَنْطِقُ بِهَا خَوَاصُّهَا

(882/838)

وَعَوَامُّهَا أَرَادُوا بِهِ هَذَا . وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ أَحَدًا مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ

بِإِحْسَانٍ لَمْ يَنْطِقْ بِإِثْبَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَلَا بِمَا يَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِهِ عِنْدَهُ بَلْ وَلَا الْعَرَبُ قَبْلَهُمْ وَلَا سَائِرُ الْأُمَمِ الْبَاقِينَ عَلَى الْفِطْرَةِ وَلَا أَتْبَاعُ الرُّسُلِ فَكَيْفَ يُدَّعَى عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا لَفْظَ جِسْمٍ إلَّا لِمَا كَانَ مُرَكَّبًا مُؤَلَّفًا وَلَوْ قُلْت لِمَنْ شِئْت مِنْ الْعَرَبِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالسَّمَاءُ مُرَكَّبٌ عِنْدَك مِنْ أَجْزَاءٍ صِغَارٍ كُلٌّ مِنْهَا لَا يَقْبَلُ التَّجَزِّيَ أَوْ الْجِبَالُ أَوْ الْهَوَاءُ أَوْ الْحَيَوَانُ أَوْ النَّبَاتُ لَمْ يَتَصَوَّرْ هَذَا الْمَعْنَى إلَّا بَعْدَ كُلْفَةٍ ثُمَّ إذَا تَصَوَّرَهُ قَدْ يُكَذِّبُهُ بِفِطْرَتِهِ وَيَقُولُ: كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ لَا يَتَمَيَّزُ مِنْهُ جَانِبٌ عَنْ جَانِبٍ وَأَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ مِنْ طَوَائِفِ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ يُنْكِرُونَ الْجَوْهَرَ الْفَرْدَ فَالْفُقَهَاءُ قَاطِبَةً تُنْكِرُهُ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْحَدِيثِ وَالتَّصَوُّفِ. وَلِهَذَا كَانَ الْفُقَهَاءُ مُتَّفِقِينَ عَلَى اسْتِحَالَةِ بَعْضِ الْأَجْسَامِ إلَى بَعْضٍ كَاسْتِحَالَةِ الْعَذِرَةِ رَمَادًا وَالْخِنْزِيرِ مِلْحًا. ثُمَّ تَكَلَّمُوا فِي هَذِهِ الِاسْتِحَالَةِ هَلْ تُطَهِّرُ أَمْ لَا تُطَهِّرُ؟ وَالْقَائِلُونَ بِالْجَوْهَرِ الْفَرْدِ لَا تَسْتَحِيلُ الذَّوَاتُ عِنْدَهُمْ بَلْ تِلْكَ الْجَوَاهِرُ الَّتِي كَانَتْ فِي الْأَوَّلِ هِيَ بِعَيْنِهَا فِي الثَّانِي وَإِنَّمَا اخْتَلَفَ التَّرْكِيبُ وَلِهَذَا يَتَكَلَّمُ بِلَفْظِ التَّرْكِيبِ فِي الْمَاءِ وَنَحْوِهِ مِنْ الْفُقَهَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ مَنْ كَانَ قَدْ أَخَذَ هَذَا التَّرْكِيبَ عَنْ الْمُتَكَلِّمِينَ وَيَقُولُ: إنَّ الْمَاءَ يُفَارِقُ غَيْرَهُ فِي التَّرْكِيبِ فَقَطْ.

وَكَذَلِكَ الْقَائِلُونَ بِالْجَوْهَرِ الْفَرْدِ عِنْدَهُمْ إنَّا لَمْ نُشَاهِدْ قَطُّ إحْدَاثَ اللَّهِ تَعَالَى لِشَيْءٍ مِنْ الْجَوَاهِرِ وَالْأَعْيَانِ الْقَائِمَةِ بِنَفْسِهَا . وَأَنَّ جَمِيعَ مَا يَخْلُقُهُ مِنْ الْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ وَالْمَعْدِنِ وَالثِّمَارِ وَالْمَطَرِ

(885/838)

وَالسَّحَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ إنَّمَا هُوَ جَمْعُ الْجَوَاهِرِ وَتَفْرِيقُهَا وَتَغْيِيرُ صِفَاتِهَا مِنْ حَالٍ إلَى حَالٍ لَا أَنَّهُ يُبْدِعُ شَيْئًا مِنْ الْجَوَاهِرِ وَالْأَجْسَامِ الْقَائِمَةِ بِأَنْفُسِهَا وَهَذَا الْقَوْلُ أَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ يُنْكِرُهُ وَيَقُولُ : هُوَ مُخَالِفٌ لِلْحِسِّ وَالْعَقْلِ وَالشَّرْعِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ الْجِسْمُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مُسْتَلْزِمًا لِهَذَا الْمَعْنَى . ثُمَّ الْجِسْمُ قَدْ يُرَادُ بِهِ الْغِلَظُ نَفْسُهُ وَهُوَ عَرَضٌ قَائِمٌ بِغَيْرِهِ وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الشَّيْءُ الْغَلِيظُ وَهُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ . فَتَقُولُ : هَذَا الثَّوْبُ لَهُ جِسْمٌ : أَيْ غِلَظٌ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ قَدْ يَحْتَجُّ بِهِ عَلَى هَذَا فَإِنَّهُ قَرَنَ الْجِسْمَ بِالْعِلْمِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرٌ . فَنَقُولُ الْمَعْنَى زَادَهُ بَسْطَةً فِي قَدْرِهِ فَجَعَلَ قَدْرَ بَدَنِهِ أَكْبَرَ مِنْ بَدَنِ غَيْرِهِ فَيَكُونُ الْجِسْمُ هُوَ الْقَدْرُ نَفْسُهُ لَا نَفْسَ الْمُقَدَّرِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ أَيْ صُوَرُهُمْ الْقَائِمَةُ بِأَبْدَانِهِمْ كَمَا تَقُولُ : أَعْجَبَنِي حُسْنُهُ وَجَمَالُهُ وَلَوْنُهُ وَبَهَاؤُهُ فَقَدْ يُرَادُ صِفَةُ الْأَبْدَانِ

وَقَدْ يُرَادُ نَفسُ الْأَبْدَانِ وَهُمْ إِذَا قَالُوا : هَذَا أَجْسَمُ مِنْ هَذَا أَرَادُوا أَنَّهُ أَغْلَظ وَأَعْظَمُ مِنْهُ أَمَّا كَوْنُهُمْ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ الْعِظَمَ وَالْغلظ كَانَ لِزِيَادَةِ الْأَجْزَاءِ فَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ قَطْعًا أَنَّهُ لَمْ يَخْطِرْ بِبَالِ أَهْلِ اللُّغَةِ إِلَّا مَنْ أَخَذَ ذَلِكَ عَمَّنْ اعْتَقَدَهُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمُحْدَثِ الَّذِي أُحْدِثَ فِي الْإِسْلَامِ

(886/838)

بَعْدَ انْقِرَاضِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ وَأَكْثَرِ التَّابِعِينَ فَإِنَّ هَذَا لَمْ

(887/838)

يُعْرَفُ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ أَوْ بِمَعْنَاهُ إِلَّا فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ لَمَّا ظَهَرَ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ وَالْجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ ثُمَّ ظَهَرَ فِي الْمُعْتَزِلَةِ . فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَنْ قَالَ : الْجِسْمُ هُوَ الْمُؤَلَّفُ الْمُرَكَّبُ وَاعْتَقَدَ أَنَّ الْأَجْسَامَ مُرَكَّبَةٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْفَرْدَةِ فَقَدْ ادَّعَى مَعْنًى عَقْلِيًّا يُنَازِعُهُ فِيهِ أَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ مِنْ بَنِي آدَمَ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ أَنَّهُ وَافَقَهُ عَلَيْهِ وَأَنَّهُ جَعَلَ لَفْظَ الْجِسْمِ فِي اصْطِلَاحِهِ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ فِي اللُّغَةِ فَقَدْ غَيَّرَ مَعْنَى اللَّفْظِ فِي اللُّغَةِ

وَادَّعَى مَعْنًى عَقْلِيًّا فِيهِ نِزَاعٌ طَوِيلٌ وَلَيْسَ مَعَهُ مِنْ الشَّرْعِ مَا يُوَافِقُ مَا ادَّعَاهُ مِنْ مَعْنَى اللَّفْظِ وَلَا مَا ادَّعَاهُ مِنْ الْمَعْنَى الْعَقْلِيِّ فَاللُّغَةُ لَا تَدُلُّ عَلَى مَا قَالَ وَالشَّرْعُ لَا يَدُلُّ عَلَى مَا قَالَ وَالْعَقْلُ لَمْ يَدُلَّ عَلَى مُسَمَّيَاتِ الْأَلْفَاظِ وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْمُجَرَّدِ وَذَلِكَ فِيهِ نِزَاعٌ طَوِيلٌ وَنَحْنُ نَعْلَمُ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ ذَلِكَ الْمَعْنَى الَّذِي وَجَبَ نَفْيُهُ عَنْ اللَّهِ لَا يَحْتَاجُ نَفْيُهُ إلَى مَا أَحْدَثَهُ هَذَا مِنْ دَلَالَةِ اللَّفْظِ وَلَا مَا ادَّعَاهُ مِنْ الْمَعْنَى الْعَقْلِيِّ بَلْ الَّذِينَ جَعَلُوا هَذَا عُمْدَتَهُمْ فِي تَنْزِيهِ الرَّبِّ عَلَى نَفْيِ مُسَمَّى الْجِسْمِ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُنَزِّهُوهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ النَّقَائِصِ أَلْبَتَّةَ فَإِنَّهُمْ إذَا قَالُوا : هَذَا مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ فَكُلُّ مَا أَثْبَتُوهُ هُوَ أَيْضًا مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ

(888/838)

مِثْلُ كَوْنِهِ حَيًّا عَلِيمًا قَدِيرًا بَلْ كَوْنِهِ مَوْجُودًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ فَإِنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ هَذَا فِي الشَّاهِدِ

(889/838)

إلَّا جِسْمًا فَإِذَا قَالَ الْمُنَازِعُ : أَنَا أَقُولُ فِيمَا نَفَيْتُمُوهُ نَظِيرَ قَوْلِهِمْ فِيمَا أَثْبَتُّمُوهُ انْقَطَعُوا . ثُمَّ هَؤُلَاءِ لَهُمْ فِي اسْتِحْقَاقِ الرَّبِّ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ عِنْدَهُمْ هَلْ عُلِمَ بِالْإِجْمَاعِ فَقَطْ أَوْ عُلِمَ

بِالْعَقْلِ أَيْضًا ؟ فِيهِ قَوْلَانِ . فَمَنْ قَالَ إنَّ ذَلِكَ لَمْ يُعْلَمْ بِالْعَقْلِ كَأَبِي الْمَعَالِي وَالرَّازِي وَغَيْرِهِمَا لَمْ يَبْقَ مَعَهُمْ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ يُنَزِّهُونَ بِهِ الرَّبَّ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ النَّقَائِصِ هَذَا إذَا لَمْ يَنْفِ إلَّا مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْ اللَّهِ مِثْلُ نَفْيِهِ لِلنَّقَائِصِ فَإِنَّهُ يَجِبُ تَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْهَا وَيَنْفِي عَنْهُ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقَاتِ فَإِنَّهُ كَمَا يَجِبُ تَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ يَجِبُ تَنْزِيهُهُ عَنْ أَنْ يُمَاثِلَهُ شَيْءٌ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ لَهُ وَهَذَانِ النَّوْعَانِ يَجْمَعَانِ التَّنْزِيهَ الْوَاجِبَ لِلَّهِ و ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ دَلَّتْ عَلَى النَّوْعَيْنِ . فَقَوْلُهُ : أَحَدٌ مَعَ قَوْلِهِ : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ يَنْفِي الْمُمَاثَلَةَ وَالْمُشَارَكَةَ وَقَوْلُهُ الصَّمَدُ يَتَضَمَّنُ جَمِيعَ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَالنَّقَائِصُ جِنْسُهَا مَنْفِيٌّ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى وَكُلُّ مَا اخْتَصَّ بِهِ الْمَخْلُوقُ فَهُوَ مِنْ النَّقَائِصِ الَّتِي يَجِبُ تَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْهَا بِخِلَافِ مَا يُوصَفُ بِهِ الرَّبُّ . وَيُوصَفُ الْعَبْدُ بِمَا يَلِيقُ بِهِ : مِثْلُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَإِنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ نَقَائِصَ بَلْ مَا ثَبَتَ لِلَّهِ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي فَإِنَّهُ يَثْبُتُ لِلَّهِ عَلَى وَجْهٍ لَا

يُقَارِبُهُ فِيهِ أَحَدٌ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُمَاثِلَهُ فِيهِ بَلْ مَا خَلَقَهُ اللَّهُ فِي الْجَنَّةِ مِنْ الْمَآكِلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ لَا يُمَاثِلُ مَا خَلَقَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنْ اتَّفَقَا فِي الِاسْمِ وَكِلَاهُمَا مَخْلُوقٌ . قَالَ : ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إلَّا

الْأَسْمَاءُ فَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ لَبَنًا وَخَمْرًا وَعَسَلًا وَمَاءً وَحَرِيرًا وَذَهَبًا وَفِضَّةً وَتِلْكَ الْحَقَائِقُ لَيْسَتْ مِثْلَ هَذِهِ وَكِلَاهُمَا مَخْلُوقٌ . فَالْخَالِقُ تَعَالَى أَبْعَدُ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ الْمَخْلُوقِ إلَى الْمَخْلُوقِ . وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ نَفْسَهُ عَلِيمًا حَلِيمًا رَءُوفًا رَحِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا عَزِيزًا مَلِكًا جَبَّارًا مُتَكَبِّرًا . مُؤْمِنًا عَظِيمًا كَرِيمًا غَنِيًّا شَكُورًا . كَبِيرًا حَفِيظًا شَهِيدًا حَقًّا وَكِيلًا وَلِيًّا وَسَمَّى أَيْضًا بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ فَسَمَّى الْإِنْسَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا وَسَمَّى نَبِيَّهُ رَءُوفًا رَحِيمًا وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ مَلِكًا وَبَعْضَهُمْ شَكُورًا وَبَعْضَهُمْ عَظِيمًا وَبَعْضَهُمْ حَلِيمًا وَعَلِيمًا وَسَائِرُ مَا ذُكِرَ مِنْ الْأَسْمَاءِ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ لَيْسَ الْمُسَمَّى بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ مِنْ الْمَخْلُوقِينَ مُمَاثِلًا لِلْخَالِقِ جَلَّ جَلَالُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاءِ .

(891/838)

وَكَذَلِكَ النِّزَاعُ فِي لَفْظِ التَّحَيُّزِ وَالْجِهَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : هُوَ مُتَحَيِّزٌ وَهُوَ فِي جِهَةٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : لَيْسَ بِمُتَحَيِّزِ وَلَيْسَ فِي جِهَةٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ فِي جِهَةٍ وَلَيْسَ بِمُتَحَيِّزِ وَلَفْظُ الْمُتَحَيِّزِ يَتَنَاوَلُ الْجِسْمَ وَالْجَوْهَرَ الْفَرْدَ وَلَفْظُ الْجَوْهَرِ قَدْ يُرَادُ بِهِ

(892/838)

الْمُتَحَيِّزُ وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الْجَوْهَرُ الْفَرْدُ . وَمِنْ الْفَلَاسِفَةِ مَنْ يَدَّعِي إثْبَاتَ جَوَاهِرَ قَائِمَةٍ بِأَنْفُسِهَا غَيْرِ مُتَحَيِّزَةٍ . وَمُتَأَخِّرُو أَهْلِ الْكَلَامِ كَالشَّهْرَسْتَانِي وَالرَّازِي والآمدي وَنَحْوِهِمْ يَقُولُونَ : لَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يُحِيلُ ذَلِكَ وَلِهَذَا كَانَ مَنْ سَلَكَ سَبِيلَ هَؤُلَاءِ - وَهُوَ إنَّمَا يُثْبِتُ حُدُوثَ الْعَالَمِ بِحُدُوثِ الْأَجْسَامِ - يَقُولُ بِتَقْدِيرِ وُجُودِ جَوَاهِرَ عَقْلِيَّةٍ فَلَيْسَ فِي هَذَا الدَّلِيلِ مَا يَدُلُّ عَلَى حُدُوثِهَا وَلِهَذَا صَارَ طَائِفَةٌ مِمَّنْ خَلَطَ الْكَلَامَ بِالْفَلْسَفَةِ إلَى قِدَمِ الْجَوَاهِرِ الْعَقْلِيَّةِ وَحُدُوثِ الْأَجْسَامِ وَأَنَّ السَّبَبَ الْمُوجِبَ لِحُدُوثِهَا هُوَ حُدُوثُ تَصَوُّرٍ مِنْ تَصَوُّرَاتِ النَّفْسِ وَبَعْضُ أَعْيَانِ الْمُصَنِّفِينَ كَانَ يَقُولُ بِهَذَا . وَكَذَلِكَ الأرموي صَاحِبُ " اللُّبَابِ " الَّذِي أَجَابَ عَنْ شُبْهَةِ الْفَلَاسِفَةِ عَلَى دَوَامِ الْفَاعِلِيَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْحُدُوثِ مِنْ سَبَبٍ فَأَجَابَ بِالْجَوَابِ الْبَاهِرِ الَّذِي أَخَذَهُ مِنْ كَلَامِ الرَّازِي فِي " الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ " فَإِنَّهُ أَجَابَ بِهِ وَهُوَ فِي " الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ " يَخْلِطُ كَلَامَ الْفَلَاسِفَةِ بِكَلَامِ الْمُتَكَلِّمِينَ وَهُوَ فِي مَسْأَلَةِ الْحُدُوثِ وَالْقِدَمِ حَائِرٌ وَهَذَا الْجَوَابُ مِنْ أَفْسَدِ الْأَجْوِبَةِ . فَإِنَّهُ يُقَالُ . مَا الْمُوجِبُ لِحُدُوثِ تِلْكَ التَّصَوُّرَاتِ دَائِمًا ثُمَّ إنَّ النَّفْسَ عِنْدَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ مُتَّصِلَةً بِالْجِسْمِ فَيَمْتَنِعُ وُجُودُ نَفْسٍ بِدُونِ جِسْمٍ .

وَأَيْضًا فَالَّذِي عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الرُّسُلِ أَنَّ كُلَّ مَا سِوَى اللَّهِ مَخْلُوقٌ مُحْدَثٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ . وَأَيْضًا فَمَا تُثْبِتُهُ الْفَلَاسِفَةُ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْعَقْلِيَّةِ إنَّمَا يُوجَدُ فِي الذِّهْنِ لَا فِي الْخَارِجِ وَأَمَّا أَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ فَقَالُوا انْتِفَاءُ هَذِهِ مَعْلُومٌ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَقَدْ بَسَطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَ أَنَّ مَا تَدَّعِي الْفَلَاسِفَةُ إثْبَاتَهُ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي هِيَ الْعُقُولُ وَالنُّفُوسُ وَالْمَادَّةُ وَالصُّورَةُ فَلَا حَقِيقَةَ لَهَا فِي الْخَارِجِ وَإِنَّمَا هِيَ أُمُورٌ مَعْقُولَةٌ فِي الذِّهْنِ يُجَرِّدُهَا الْعَقْلُ مِنْ الْأُمُورِ الْمُعَيَّنَةِ كَمَا يُجَرِّدُ الْعَقْلُ الْكُلِّيَّاتِ الْمُشْتَرَكَةَ بَيْنَ الْأَصْنَافِ : كَالْحَيَوَانِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ وَالْكُلِّيَّاتُ إنَّمَا تَكُونُ كُلِّيَّاتٍ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ . وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهَا تَكُونُ فِي الْخَارِجِ كُلِّيَّاتٌ وَأَنَّ فِي الْخَارِجِ مَاهِيَّاتٍ كُلِّيَّةً مُقَارِنَةً لِلْأَعْيَانِ غَيْرَ الْمَوْجُودَاتِ الْمُعَيَّنَةِ وَكَذَلِكَ مِنْهُمْ مَنْ يُثْبِتُ كُلِّيَّاتٍ مُجَرَّدَةً عَنْ الْأَعْيَانِ يُسَمُّونَهَا " الْمُثُلَ الْأَفْلَاطُونِيَّةَ " وَمِنْهُمْ مَنْ يُثْبِتُ دَهْرًا مُجَرَّدًا عَنْ الْمُتَحَرِّكِ وَالْحَرَكَةِ وَيُثْبِتُ خَلَاءً مُجَرَّدًا لَيْسَ هُوَ مُتَحَيِّزًا وَلَا قَائِمًا بِمُتَحَيِّزِ . وَيُثْبِتُ هَيُولَى مُجَرَّدَةً عَنْ جَمِيعِ الصُّوَرِ وَالْهَيُولَى فِي لُغَتِهِمْ بِمَعْنَى الْمَحَلِّ . يُقَالُ الْفِضَّةُ هَيُولَى الْخَاتَمِ وَالدِّرْهَمِ وَالْخَشَبُ هَيُولَى الْكُرْسِيِّ .

أَيْ هَذَا الْمَحَلُّ الَّذِي تُصْنَعُ فِيهِ هَذِهِ الصُّورَةُ وَهَذِهِ الصُّورَةُ الصِّنَاعِيَّةُ عَرَضٌ مِنْ الْأَعْرَاضِ وَيَدَّعُونَ أَنَّ لِلْجِسْمِ هَيُولَى مَحَلَّ

الصُّورَةِ الْجِسْمِيَّةِ غَيْرَ نَفْسِ الْجِسْمِ الْقَائِمِ بِنَفْسِهِ وَهَذَا غَلَطٌ . وَإِنَّمَا هَذَا يُقَدَّرُ فِي النَّفْسِ كَمَا يُقَدَّرُ امْتِدَادُ مُجَرَّدٍ عَنْ كُلِّ مُمْتَدٍّ وَعَدَدٍ مُجَرَّدٍ عَنْ كُلِّ مَعْدُودٍ وَمِقْدَارٍ مُجَرَّدٍ عَنْ كُلِّ مُقَدَّرٍ وَهَذِهِ كُلُّهَا أُمُورٌ مُقَدَّرَةٌ فِي الْأَذْهَانِ لَا وُجُودَ لَهَا فِي الْأَعْيَانِ . وَقَدْ اعْتَرَفَ بِذَلِكَ مَنْ عَادَتُهُ نَصْرُ الْفَلَاسِفَةِ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ . كَمَا قَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

(895/838)

فَالْجَوَاهِرُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي يُثْبِتُهَا هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَةُ يُعْلَمُ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ بَعْدَ التَّصَوُّرِ التَّامِّ انْتِفَاؤُهَا فِي الْخَارِجِ . وَأَمَّا الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَهَذِهِ لَا يَعْرِفُهَا هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَةُ أَتْبَاعُ أَرِسْطُو وَلَا يَذْكُرُونَهَا بِنَفْيِ وَلَا إثْبَاتٍ كَمَا لَا يَعْرِفُونَ النُّبُوَّاتِ وَلَا يَتَكَلَّمُونَ عَلَيْهَا بِنَفْيِ وَلَا إثْبَاتٍ إنَّمَا تَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ مُتَأَخِّرُوهُمْ كَابْنِ سِينَا وَأَمْثَالِهِ الَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ النُّبُوَّاتِ وَبَيْنَ الْفَلْسَفَةِ فَلَبَّسُوا وَدَلَّسُوا . وَكَذَلِكَ الْعِلَّةُ الْأُولَى " الَّتِي يُثْبِتُونَهَا لِهَذَا الْعَالَمِ إنَّمَا أَثْبَتُوا عِلَّةً غَائِيَةً يَتَحَرَّكُ الْفَلَكُ لِلتَّشَبُّهِ بِهَا وَتَحْرِيكُهَا لِلْفَلَكِ مِنْ جِنْسِ تَحْرِيكِ الْإِمَامِ الْمُقْتَدَى بِهِ لِلْمُؤْتَمِّ

الْمُقْتَدِي إذَا كَانَ يُحِبُّ أَنْ يَتَشَبَّهَ بِإِمَامِهِ وَيَقْتَدِيَ بِإِمَامِهِ وَلَفْظُ " الْإِلَهِ " فِي لُغَتِهِمْ يُرَادُ بِهِ الْمَتْبُوعُ الْإِمَامُ الَّذِي يَتَشَبَّهُ بِهِ فَالْفَلَكُ عِنْدَهُمْ يَتَحَرَّكُ لِلتَّشَبُّهِ بِالْإِلَهِ وَلِهَذَا جَعَلُوا " الْفَلْسَفَةَ الْعُلْيَا " و " الْحِكْمَةَ الْأُولَى " إنَّمَا هِيَ التَّشَبُّهُ بِالْإِلَهِ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ وَكَلَامُ أَرِسْطُو فِي عِلْمِ مَا بَعْدَ الطَّبِيعَةِ فِي " مَقَالَةِ اللَّامِ " الَّتِي هِيَ مُنْتَهَى فَلْسَفَتِهِ

(896/838)

وَفِي غَيْرِهَا كُلُّهُ يَدُورُ عَلَى هَذَا وَتَارَةً يُشَبِّهُ تَحْرِيكَهُ لِلْفَلَكِ بِتَحْرِيكِ الْمَعْشُوقِ لِلْعَاشِقِ لَكِنَّ التَّحْرِيكَ هُنَا قَدْ يَكُونُ لِمَحَبَّةِ الْعَاشِقِ ذَاتَ الْمَعْشُوقِ أَوْ لِغَرَضٍ يَنَالُهُ مِنْهُ وَحَرَكَةُ الْفَلَكِ عِنْدَهُمْ لَيْسَتْ كَذَلِكَ بَلْ يَتَحَرَّكُ لِيَتَشَبَّهَ بِالْعِلَّةِ الْأُولَى فَهُوَ يُحِبُّهَا أَيْ يُحِبُّ التَّشَبُّهَ بِهَا لَا يُحِبُّ أَنْ يَعْبُدَهَا وَلَا يُحِبَّ شَيْئًا يَحْصُلُ مِنْهَا وَيُشَبِّهُ ذَلِكَ أَرِسْطُو بِحَرَكَةِ النَّوَامِيسِ لِأَتْبَاعِهَا أَيْ أَتْبَاعِ النَّامُوسِ قَائِمُونَ بِمَا فِي النَّامُوسِ وَيَقْتَدُونَ بِهِ وَالنَّامُوسُ عِنْدَهُمْ هِيَ السِّيَاسَةُ الْكُلِّيَّةُ لِلْمَدَائِنِ الَّتِي وَضَعَهَا لَهُمْ ذَوُو الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ لِمَصْلَحَةِ دُنْيَاهُمْ ؛ لِئَلَّا يَتَظَالَمُوا وَلَا تَفْسُدَ دُنْيَاهُمْ . وَمَنْ عَرَفَ النُّبُوَّاتِ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ شَرَائِعَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ جِنْسِ نَوَامِيسِهِمْ وَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهَا مَصْلَحَةُ الدُّنْيَا ؛ بِوَضْعِ قَانُونٍ عَدْلِيٍّ ؛ وَلِهَذَا أَوْجَبَ ابْنُ سِينَا وَأَمْثَالُهُ النُّبُوَّةَ وَجَعَلُوا النُّبُوَّةَ لَا بُدَّ مِنْهَا لِأَجْلِ وَضْعِ هَذَا النَّامُوسِ وَلَمَّا كَانَتْ الْحِكْمَةُ الْعَمَلِيَّةُ عِنْدَهُمْ هِيَ

الْخِلْقِيَّةُ وَالْمَنْزِلِيَّةُ وَالْمَدَنِيَّةُ: جَعَلُوا مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ الْعِبَادَاتِ وَالشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ هِيَ مِنْ جِنْسِ الْحِكْمَةِ الْخِلْقِيَّةِ وَالْمَنْزِلِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ. فَإِنَّ الْقَوْمَ لَا يَعْرِفُونَ اللَّهَ بَلْ هُمْ أَبْعَدُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ مِنْ كُفَّارِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِكَثِيرِ. وَأَرِسْطُو الْمُعَلِّمُ الْأَوَّلُ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ

(897/838)

بِرَبِّ الْعَالَمِينَ إلَى الْغَايَةِ. لَكِنْ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ جَيِّدَةٌ بِالْأُمُورِ الطَّبِيعِيَّةِ وَهَذَا بَحْرُ عِلْمِهِمْ وَلَهُ تَفَرَّغُوا

(898/838)

وَفِيهِ ضَيَّعُوا زَمَانَهُمْ وَأَمَّا مَعْرِفَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَحَظُّهُمْ مِنْهَا مَبْخُوسٌ جِدًّا وَأَمَّا مَلَائِكَتُهُ وَأَنْبِيَاؤُهُ وَكُتُبُهُ وَرُسُلُهُ وَالْمَعَادُ. فَلَا يَعْرِفُونَ ذَلِكَ أَلْبَتَّةَ وَلَمْ يَتَكَلَّمُوا فِيهِ لَا بِنَفْيِ وَلَا إثْبَاتٍ وَإِنَّمَا تَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ مُتَأَخِّرُوهُمْ الدَّاخِلُونَ فِي الْمِلَلِ. وَأَمَّا قُدَمَاءُ الْيُونَانِ فَكَانُوا مُشْرِكِينَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ شِرْكًا وَسِحْرًا يَعْبُدُونَ الْكَوَاكِبَ وَالْأَصْنَامَ وَلِهَذَا عَظُمَتْ عِنَايَتُهُمْ بِعِلْمِ الْهَيْئَةِ وَالْكَوَاكِبِ لِأَجْلِ عِبَادَتِهَا. وَكَانُوا يَبْنُونَ لَهَا الْهَيَاكِلَ وَكَانَ آخِرُ مُلُوكِهِمْ بطْلَيْمُوس صَاحِبَ "

الْمَجِسْطِي " وَلَمَّا دَخَلَتْ الرُّومُ فِي النَّصْرَانِيَّةِ فَجَاءَ دِينُ الْمَسِيحِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ أَبْطَلَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ الشِّرْكِ . وَلِهَذَا بَدَّلَ مَنْ بَدَّلَ دِينَ الْمَسِيحِ فَوَضَعَ دِينًا مُرَكَّبًا مِنْ دِينِ الْمُوَحِّدِينَ وَدِينِ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّ أُولَئِكَ كَانُوا يَعْبُدُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْكَوَاكِبَ وَيُصَلُّونَ لَهَا وَيَسْجُدُونَ فَجَاءَ قُسْطَنْطِينُ مَلِكُ النَّصَارَى وَمَنْ اتَّبَعَهُ فَابْتَدَعُوا الصَّلَاةَ إلَى الْمَشْرِقِ وَجَعَلُوا السُّجُودَ إلَى الشَّمْسِ بَدَلًا عَنْ السُّجُودِ لَهَا وَكَانَ أُولَئِكَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ الْمُجَسَّدَةَ الَّتِي لَهَا ظِلٌّ فَجَاءَتْ النَّصَارَى وَصَوَّرَتْ تَمَاثِيلَ الْقَدَادِيسِ فِي الْكَنَائِسِ وَجَعَلُوا الصُّوَرَ الْمَرْقُومَةَ فِي الْحِيطَانِ وَالسُّقُوفِ بَدَلَ الصُّوَرِ الْمُجَسَّدَةِ الْقَائِمَةِ بِأَنْفُسِهَا الَّتِي لَهَا ظِلٌّ .

(899/838)

وَأَرِسْطُو كَانَ وَزِيرَ الْإِسْكَنْدَرِ بْنِ فيلبس الْمَقْدُونِيِّ - نِسْبَةً إلَى مَقْدُونِيَّةَ - وَهِيَ جَزِيرَةُ هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَةِ الْيُونَانِيِّينَ الَّذِينَ يُسَمَّوْنَ الْمَشَّائِينَ وَهِيَ الْيَوْمَ خَرَابٌ أَوْ غَمَرَهَا الْمَاءُ وَهُوَ الَّذِي يُؤَرِّخُ لَهُ النَّصَارَى وَالْيَهُودُ التَّارِيخَ الرُّومِيَّ وَكَانَ قَبْلَ الْمَسِيحِ بِنَحْوِ ثَلَاثِمِائَةِ سَنَةٍ فَيَظُنُّ مَنْ يُعَظِّمُ هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَةَ أَنَّهُ كَانَ وَزِيرًا لِذِي الْقَرْنَيْنِ الْمَذْكُورِ فِي الْقُرْآنِ لِيُعَظِّمَ بِذَلِكَ قَدْرَهُ وَهَذَا جَهْلٌ ؛ فَإِنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ كَانَ قَبْلَ هَذَا بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ جِدًّا وَذُو الْقَرْنَيْنِ بَنَى سَدَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهَذَا الْمَقْدُونِيُّ ذَهَبَ إلَى بِلَادِ فَارِسَ وَلَمْ يَصِلْ إلَى بِلَادِ الصِّينِ ؛ فَضْلًا عَنْ السَّدِّ

. وَالْمَلَائِكَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهَا لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى لَيْسُوا عَشَرَةً وَلَا تِسْعَةً وَهُمْ عِبَادُ اللَّهِ أَحْيَاءٌ نَاطِقُونَ يَنْزِلُونَ إلَى الْأَرْضِ وَيَصْعَدُونَ إلَى السَّمَاءِ . وَلَا يَفْعَلُونَ إلَّا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ . كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ وَأَمْثَالُ هَذِهِ النُّصُوصِ .

(900/838)

وَهَؤُلَاءِ يَدَّعُونَ أَنَّ الْعُقُولَ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ وَأَنَّ الْعَقْلَ الْفَعَّالَ هُوَ

(901/838)

رَبُّ كُلِّ مَا تَحْتَ هَذَا الْفَلَكِ وَالْعَقْلَ الْأَوَّلَ هُوَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَالْمَلَاحِدَةُ الَّذِينَ دَخَلُوا مَعَهُمْ مِنْ أَتْبَاعِ بَنِي عُبَيْدٍ : كَأَصْحَابِ رَسَائِلِ إخْوَانِ الصَّفَا وَغَيْرِهِمْ

وكملاحدة المتصوفة: مثل ابن عربي وابن سبعين وغيرهما يحتجون لمثل ذلك بالحديث الموضوع: " ﴿ أول ما خلق الله العقل ﴾ " . وفي كلام أبي حامد الغزالي في " الكتب المضنون بها على غير أهلها " وغير ذلك من معاني هؤلاء قطعة كبيرة ويعبر عن مذاهبهم بلفظ الملك والملكوت والجبروت ومراده بذلك الجسم والنفس والعقل . فيأخذ هؤلاء العبارات الإسلامية ويودعونها معاني هؤلاء وتلك العبارات مقبولة عند المسلمين فإذا سمعوها قبلوها ثم إذا عرفوا المعاني التي قصدها هؤلاء ضل بها من لم يعرف حقيقة دين الإسلام وأن هذه معاني هؤلاء الملاحدة ليست هي المعاني التي عناها محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإخوانه المرسلون: مثل موسى وعيسى - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . ولهذا ضل كثير من المتأخرين بسبب هذا الالتباس وعدم المعرفة بحقيقة ما جاء به الرسول وما يقوله هؤلاء حتى يضل بهم خلق من أهل العلم والعبادة والتصوف ومن ليس له غرض في مخالفة محمد

(902/838)

صلى الله عليه وسلم بل يحب اتباعه مطلقا ولو عرف أن هذا مخالف لما جاء به لم يقبله لكن لعدم كمال علمه بمعاني ما أخبر

(903/838)

بِهِ الرَّسُولُ وَمَقَاصِدِ هَؤُلَاءِ يَقْبَلُ هَذَا . لَا سِيَّمَا إذَا كَانَ الْمُتَكَلِّمُ بِهِ مِمَّنْ لَهُ نَصِيبٌ وَافِرٌ فِي الْعِلْمِ وَالْكَلَامِ وَالتَّصَوُّفِ وَالزُّهْدِ وَالْفِقْهِ وَالْعِبَادَةِ . وَرَأَى الطَّالِبُ أَنَّ هَذَا مَرْتَبَتُهُ فَوْقَ مَرْتَبَةِ الْفُقَهَاءِ الَّذِينَ إنَّمَا يَعْرِفُونَ الشَّرْعَ الظَّاهِرَ وَفَوْقَ مَرْتَبَةِ الْمُحَدِّثِ الَّذِي غَايَتُهُ أَنْ يَنْقُلَ أَلْفَاظًا لَا يُعْلَمُ مَعَانِيهَا وَكَذَلِكَ الْمُقْرِئُ وَالْمُفَسِّرُ وَرَأَى مَنْ يُعَظِّمُهُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ إمَّا مُوَافِقٌ لَهُمْ وَإِمَّا خَائِفٌ مِنْهُمْ وَرَأَى بُحُوثَ الْمُتَكَلِّمِينَ مَعَهُمْ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ لَمْ يَأْتُوا بِتَحْقِيقٍ يُبَيِّنُ فَسَادَ قَوْلِهِمْ بَلْ تَارَةً يُوَافِقُونَهُمْ عَلَى أُصُولٍ لَهُمْ تَكُونُ فَاسِدَةً وَتَارَةً يُخَالِفُونَهُمْ فِي أَمْرٍ قَالَتْهُ الْفَلَاسِفَةُ وَيَكُونُ حَقًّا مِثْلَ مَنْ يَرَى كَثِيرًا مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ يُخَالِفُهُمْ فِي أُمُورٍ طَبِيعِيَّةٍ وَرِيَاضِيَّةٍ ظَانًّا أَنَّهُ يَنْصُرُ الشَّرْعَ وَيَكُونُ الشَّرْعُ مُوَافِقًا لِمَا عُلِمَ بِالْعَقْلِ . مِثْلُ اسْتِدَارَةِ الْأَفْلَاكِ فَإِنَّهُ لَمْ يُعْلَمْ بَيْنَ السَّلَفِ خِلَافٌ فِي أَنَّهَا مُسْتَدِيرَةٌ وَالْآثَارُ بِذَلِكَ مَعْرُوفَةٌ وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ قَدْ دَلَّا عَلَى ذَلِكَ وَكَذَلِكَ اسْتِحَالَةُ الْأَجْسَامِ بَعْضِهَا إلَى بَعْضٍ هُوَ مِمَّا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْفُقَهَاءُ كَمَا قَالَ هَؤُلَاءِ . إلَى أُمُورٍ أُخَرَ . لَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ أَوْ أَكْثَرَهُمْ لَا خِبْرَةَ لَهُمْ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَآثَارُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ ؛ بَلْ يَنْصُرُ مَقَالَاتٍ يَظُنُّهَا

(904/838)

دِينُ الْمُسْلِمِينَ بَلْ إجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَلَا يَكُونُ قَدْ قَالَهَا أَحَدٌ مِنْ

(905/838)

السَّلَفِ ؛ بَلْ الثَّابِتُ عَنْ السَّلَفِ مُخَالِفٌ لَهَا " فَلَمَّا وَقَعَ بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِينَ تَقْصِيرٌ وَجَهْلٌ كَثِيرٌ بِحَقَائِقِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَهُمْ فِي الْعَقْلِيَّاتِ تَارَةً يُوَافِقُونَ الْفَلَاسِفَةَ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَارَةً يُخَالِفُونَهُمْ فِي حَقِّهِمْ صَارَتْ الْمُنَاظَرَاتُ بَيْنَهُمْ دُوَلًا . وَإِنْ كَانَ الْمُتَكَلِّمُونَ أَصَحَّ مُطْلَقًا فِي الْعَقْلِيَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْكُلِّيَّةِ كَمَا أَنَّهُمْ أَقْرَبُ إلَى الشَّرْعِيَّاتِ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ ؛ فَإِنَّ الْفَلَاسِفَةَ كَلَامُهُمْ فِي الْإِلَهِيَّاتِ وَالْكُلِّيَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ كَلَامٌ قَاصِرٌ جِدًّا وَفِيهِ تَخْلِيطٌ كَثِيرٌ وَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُونَ جَيِّدًا فِي الْأُمُورِ الْحِسِّيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ وَفِي كُلِّيَّاتِهَا فَكَلَامُهُمْ فِيهَا فِي الْغَالِبِ جَيِّدٌ . وَأَمَّا الْغَيْبُ الَّذِي تُخْبِرُ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَالْكُلِّيَّاتُ الْعَقْلِيَّةُ الَّتِي تَعُمُّ الْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا وَتَقْسِيمُ الْمَوْجُودَاتِ كُلِّهَا قِسْمَةً صَحِيحَةً فَلَا يَعْرِفُونَهَا أَلْبَتَّةَ : فَإِنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إلَّا مِمَّنْ أَحَاطَ بِأَنْوَاعِ الْمَوْجُودَاتِ وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ إلَّا الْحِسِّيَّاتِ وَبَعْضَ لَوَازِمِهَا وَهَذَا مَعْرِفَةٌ بِقَلِيلِ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ جِدًّا فَإِنَّ مَا لَا يَشْهَدُهُ الْآدَمِيُّونَ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ أَعْظَمُ قَدْرًا . وَصِفَةً مِمَّا يَشْهَدُونَهُ بِكَثِيرِ . وَلِهَذَا كَانَ

هَؤُلَاءِ الَّذِينَ عَرَفُوا مَا عَرَفَتْهُ الْفَلَاسِفَةُ إذَا سَمِعُوا إخْبَارَ الْأَنْبِيَاءِ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنْ لَا مَوْجُودَ إلَّا مَا عَلِمُوهُ هُمْ وَالْفَلَاسِفَةُ: يَصِيرُونَ

(906/838)

حَائِرِينَ مُتَأَوِّلِينَ لِكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى مَا عَرَفُوهُ وَإِنْ كَانَ هَذَا لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ وَلَيْسَ لَهُمْ بِهَذَا

(907/838)

النَّفْيِ عِلْمٌ؛ فَإِنَّ عَدَمَ الْعِلْمِ لَيْسَ عِلْمًا بِالْعَدَمِ لَكِنَّ نَفْيَهُمْ هَذَا كَنَفْيِ الطَّبِيبِ لِلْجِنِّ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي صِنَاعَةِ الطِّبِّ مَا يَدُلُّ عَلَى ثُبُوتِ الْجِنِّ وَإِلَّا فَلَيْسَ فِي عِلْمِ الطِّبِّ مَا يَنْفِي وُجُودَ الْجِنِّ وَهَكَذَا تَجِدُ مَنْ عَرَفَ نَوْعًا مِنْ الْعِلْمِ وَامْتَازَ بِهِ عَلَى الْعَامَّةِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَهُ فَيَبْقَى بِجَهْلِهِ نَافِيًا لِمَا لَمْ يَعْلَمْهُ وَبَنُو آدَمَ ضُلَّالُهُمْ فِيمَا جَحَدُوهُ وَنَفَوْهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَكْثَرُ مِنْ ضُلَّالِهِمْ فِيمَا أَثْبَتُوهُ وَصَدَّقُوا بِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ وَهَذَا لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَى الْآدَمِيِّينَ صِحَّةُ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ فَإِذَا أَثْبَتُوا شَيْئًا وَصَدَّقُوا بِهِ كَانَ حَقًّا. وَلِهَذَا كَانَ التَّوَاتُرُ مَقْبُولًا مِنْ جَمِيعِ أَجْنَاسِ بَنِي آدَمَ؛ لِأَنَّهُمْ يُخْبِرُونَ عَمَّا شَاهَدُوهُ وَسَمِعُوهُ وَهَذَا

أَمْرٌ لَا يَشْتَرِكُ الْخَلْقُ الْعَظِيمُ فِي الْغَلَطِ فِيهِ وَلَا فِي تَعَمُّدِ الْكَذِبِ فِيهِ فَإِذَا عُلِمَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَوَاطَئُوا عَلَيْهِ وَلَمْ يَأْخُذْهُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ كَمَا تُؤْخَذُ الْمَذَاهِبُ وَالْآرَاءُ الَّتِي يَتَلَقَّاهَا الْمُتَأَخِّرُ عَنْ الْمُتَقَدِّمِ وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ هَذَا مِمَّا لَا يُغْلَطُ فِيهِ عَادَةً عُلِمَ قَطْعًا صِدْقُهُمْ فَإِنَّ الْمُخْبِرَ إمَّا أَنْ يَتَعَمَّدَ الْكَذِبَ وَإِمَّا أَنْ يَغْلَطَ وَكِلَاهُمَا مَأْمُونٌ فِي الْمُتَوَاتِرَاتِ بِخِلَافِ مَا نَفَوْهُ وَكَذَّبُوا بِهِ فَإِنَّ غَالِبَهُمْ أَوْ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَنْفُونَ مَا لَا يَعْلَمُونَ وَيُكَذِّبُونَ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا

(908/838)

بِعِلْمِهِ . فَصَارَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ظَنُّوا الْمَوْجُودَاتِ مَا عَرَفَهُ هَؤُلَاءِ الْمُتَفَلْسِفَةُ إذَا سَمِعُوا مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ الْعَرْشِ وَالْكُرْسِيِّ قَالُوا : الْعَرْشُ هُوَ .

(909/838)

الْفَلَكُ التَّاسِعُ وَالْكُرْسِيُّ هُوَ الثَّامِنُ وَقَدْ تَكَلَّمْنَا عَلَى ذَلِكَ فِي " مَسْأَلَةِ الْإِحَاطَةِ " وَبَيَّنَّا جَهْلَ مَنْ قَالَ هَذَا عَقْلًا وَشَرْعًا وَإِذَا سَمِعَهُمْ يَذْكُرُونَ الْمَلَائِكَةَ ظَنَّ أَنَّهُمْ الْعُقُولُ وَالنُّفُوسُ الَّتِي يُثْبِتُهَا الْمُتَفَلْسِفَةُ وَالْقُوَى الَّتِي فِي الْأَجْسَامِ وَكَذَلِكَ الْجِنُّ وَالشَّيَاطِينُ يَظُنُّ أَنَّهَا أَعْرَاضٌ قَائِمَةٌ

بِالنُّفُوسِ حَيْثُ كَانَ هَذَا مَبْلَغَهُ مِنْ الْعِلْمِ وَكَذَلِكَ يَظُنُّ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ سِينَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَنَّ الْغَرَائِبَ فِي هَذَا الْعَالَمِ سَبَبُهَا قُوَّةٌ فَلَكِيَّةٌ أَوْ طَبِيعِيَّةٌ أَوْ نفسانيّةٌ وَيَجْعَلُ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ بَابِ الْقُوَى النَّفْسَانِيَّةِ وَهِيَ مِنْ جِنْسِ السِّحْرِ لَكِنَّ السَّاحِرَ قَصْدُهُ الشَّرُّ وَالنَّبِيَّ قَصْدُهُ الْخَيْرُ وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ الْجَهْلِ بِالْأُمُورِ الْكُلِّيَّةِ الْمُحِيطَةِ بِالْمَوْجُودَاتِ وَأَنْوَاعِهَا وَمِنْ الْجَهْلِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فَلَا يَعْرِفُونَ مِنْ الْعُلُومِ الْكُلِّيَّةِ وَلَا الْعُلُومِ الْإِلَهِيَّةِ إلَّا مَا يَعْرِفُهُ الْفَلَاسِفَةُ الْمُتَقَدِّمُونَ وَزِيَادَاتٌ تَلَقَّوْهَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكَلَامِ أَوْ عَنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ . فَلِهَذَا صَارَ كَلَامُ الْمُتَأَخِّرِينَ كَابْنِ سِينَا وَأَمْثَالِهِ فِي الْإِلَهِيَّاتِ وَالْكُلِّيَّاتِ أَجْوَدَ مِنْ كَلَامِ سَلَفِهِ وَلِهَذَا قَرُبَتْ فَلْسَفَةُ الْيُونَانِ إلَى أَهْلِ الْإِلْحَادِ الْمُبْتَدِعَةِ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ لِمَا فِيهَا مِنْ شَوْبِ الْمِلَّةِ وَلِهَذَا دَخَلَ فِيهَا بَنُو عُبَيْدٍ الْمَلَاحِدَةُ فَأَخَذُوا عَنْ هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَةِ الصَّابِئَةِ الْمُشْرِكِينَ الْعَقْلَ

وَالنَّفْسَ وَعَنْ الْمَجُوسِ النُّورَ وَالظُّلْمَةَ وَسَمَّوْهُمْ السَّابِقَ وَالتَّالِيَ وَكَذَلِكَ الْمَلَاحِدَةُ الْمُنْتَسِبُونَ إلَى التَّصَوُّفِ وَالتَّأَلُّهِ : كَابْنِ سَبْعِينَ وَأَمْثَالِهِ سَلَكُوا

مَسْلَكًا جَمَعُوا فِيهِ بِزَعْمِهِمْ بَيْنَ الشَّرْعِ وَالْفَلْسَفَةِ وَهُمْ مَلَاحِدَةٌ لَيْسُوا مِنْ الثِّنْتَيْنِ وَالسَّبْعِينَ فِرْقَةً وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَإِنَّمَا ذُكِرُوا هُنَا لِأَنَّ أَهْلَ الْكَلَامِ الْمُحْدَثِ صَارُوا - لِعَدَمِ عِلْمِهِمْ بِمَا عَلِمَهُ السَّلَفُ وَأَئِمَّةُ السُّنَّةِ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارِ الصَّحَابَةِ وَلِمَا وَقَعُوا فِيهِ مِنْ الْكَلَامِيَّاتِ الْبَاطِلَةِ - يُدْخِلُ بِسَبَبِهِمْ هَؤُلَاءِ الْفَلَاسِفَةُ فِي الْإِسْلَامِ أُمُورًا بَاطِلَةً وَيَحْصُلُ بِهِمْ مِنْ الضَّلَالِ وَالْغَيِّ مَا لَا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَوْضِعُ لِذِكْرِهِ . وَلَمَّا أَحْدَثَتْ الْجَهْمِيَّةُ مِحْنَتَهُمْ وَدَعَوْا النَّاسَ إلَيْهَا وَضُرِبَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ فِي سَنَةِ عِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ كَانَ مَبْدَأُ حُدُوثِ الْقَرَامِطَةِ الْمَلَاحِدَةِ الْبَاطِنِيَّةِ مِنْ ذَلِكَ الزَّمَانِ فَصَارَتْ الْبِدَعُ بَابَ الْإِلْحَادِ كَمَا أَنَّ الْمَعَاصِيَ بَرِيدُ الْكُفْرِ وَلِبَسْطِ هَذَا مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا : الْكَلَامُ عَلَى لَفْظِ التَّحَيُّزِ وَالْجِهَةِ وَهَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمُونَ الْمُتَفَلْسِفَةُ صَارَ بَيْنَهُمْ نِزَاعٌ فِي الْمَلَائِكَةِ . هَلْ هِيَ مُتَحَيِّزَةٌ أَمْ لَا ؟ فَمَنْ مَالَ إلَى الْفَلْسَفَةِ وَرَأَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ هِيَ الْعُقُولُ وَالنُّفُوسُ الَّتِي يُثْبِتُهَا الْفَلَاسِفَةُ وَأَنَّ تِلْكَ لَيْسَتْ مُتَحَيِّزَةً قَالَ : إنَّ الْمَلَائِكَةَ لَيْسَتْ مُتَحَيِّزَةً لَا سِيَّمَا وَطَائِفَةٌ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ لَمْ تَجْعَلْ عَدَدَهَا عَشَرَةَ عُقُولٍ وَتِسْعَةَ نُفُوسٍ كَمَا

هُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ الْمَشَّائِينَ بَلْ قَالَ: لَا دَلِيلَ عَلَى نَفْيِ الزِّيَادَةِ وَرَأَى النُّبُوَّاتِ قَدْ أَخْبَرَتْ بِكَثْرَةِ الْمَلَائِكَةِ فَأَرَادَ أَنْ يُثْبِتَ كَثْرَتَهُمْ بِطَرِيقَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ أَبُو الْبَرَكَاتِ صَاحِبُ " الْمُعْتَبَرِ " وَالرَّازِي فِي " الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ " وَغَيْرِهِمَا . وَأَمَّا الْمُتَكَلِّمُونَ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إنَّ كُلَّ مُمْكِنٍ أَوْ كُلَّ مُحْدَثٍ أَوْ كُلَّ مَخْلُوقٍ: فَهُوَ إمَّا مُتَحَيِّزٌ وَإِمَّا قَائِمٌ بِمُتَحَيِّزِ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَقُولُ: كُلُّ مَوْجُودٍ إمَّا مُتَحَيِّزٌ وَإِمَّا قَائِمٌ بِمُتَحَيِّزِ وَيَقُولُونَ: لَا يُعْقَلُ مَوْجُودٌ إلَّا كَذَلِكَ كَمَا قَالَهُ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ ثُمَّ الْمُتَفَلْسِفَةُ كَابْنِ سِينَا وَأَتْبَاعِهِ وَالشَّهْرَسْتَانِي وَالرَّازِي وَغَيْرِهِمْ لَمَّا أَرَادُوا إثْبَاتَ مَوْجُودٍ لَيْسَ كَذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ عُمْدَتِهِمْ إثْبَاتَ الْكُلِّيَّاتِ كَالْإِنسانية الْمُشْتَرَكَةِ والحيوانية الْمُشْتَرَكَةِ وَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ لَا تَكُونُ كُلِّيَّاتٍ إلَّا فِي الذِّهْنِ فَلَمْ يُنَازِعْهُمْ النَّاسُ فِي ذَلِكَ وَإِنَّمَا نَازَعُوهُمْ فِي إثْبَاتِ مَوْجُودٍ خَارِجَ الذِّهْنِ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ لَا يُمْكِنُ الْإِحْسَاسُ بِهِ بِحَالِ بَلْ لَا يَكُونُ مَعْقُولًا . وَقَالُوا لَهُمْ: الْمَعْقُولُ مَا كَانَ فِي الْعَقْلِ وَأَمَّا مَا كَانَ مَوْجُودًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يُمْكِنَ الْإِحْسَاسُ بِهِ وَإِنْ لَمْ نُحِسَّ نَحْنُ بِهِ فِي الدُّنْيَا كَمَا لَا نُحِسُّ بِالْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَا بُدَّ أَنْ يُحِسَّ بِهِ غَيْرُنَا كَالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ وَأَنْ يُحِسَّ بِهِ بَعْدَ الْمَوْتِ

أَوْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ أَوْ

يُحِسَّ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا كَالْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ رَأَوْا الْمَلَائِكَةَ وَسَمِعُوا كَلَامَهُمْ .

وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ - وَهُوَ أَنْ كُلَّ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ - هِيَ الَّتِي سَلَكَهَا أَئِمَّةُ النُّظَّارِ : كَابْنِ كُلَّابٍ وَغَيْرِهِ وَسَلَكَهَا ابْنُ الزَّاغُونِي وَغَيْرُهُ . وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ يَجُوزُ رُؤْيَتُهُ أَوْ يَجُوزُ أَنْ يُحِسَّ بِسَائِرِ الْحَوَاسِّ الْخَمْسِ كَمَا يَقُولُهُ الْأَشْعَرِيُّ وَمُوَافِقُوهُ كَالْقَاضِي أَبِي يَعْلَى وَأَبِي الْمَعَالِي وَغَيْرِهِمَا فَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ مَرْدُودَةٌ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُقَلَاءِ بَلْ يَقُولُونَ فَسَادُهَا مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ بَعْدَ التَّصَوُّرِ التَّامِّ كَمَا بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ .

وَكَذَلِكَ نِزَاعُهُمْ فِي رُوحِ الْإِنْسَانِ الَّتِي تُفَارِقُهُ بِالْمَوْتِ عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : هِيَ عَيْنٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا لَيْسَتْ عَرَضًا مِنْ أَعْرَاضِ الْبَدَنِ كَالْحَيَاةِ وَغَيْرِهَا وَلَا جُزْءًا مِنْ أَجْزَاءِ الْبَدَنِ كَالْهَوَاءِ الْخَارِجِ مِنْهُ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ زَعَمُوا أَنَّهَا عَرَضٌ قَائِمٌ بِالْبَدَنِ أَوْ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ الْبَدَنِ لَكِنَّ هَذَا مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ وَلِقَوْلِ جَمَاهِيرِ الْعُقَلَاءِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ وَمُخَالِفٌ لِلْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ . وَهَذَا مِمَّا اسْتَطَالَ بِهِ الْفَلَاسِفَةُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ . قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ : أَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ عَلَى أَنَّ الرُّوحَ عَرَضٌ مِنْ الْأَعْرَاضِ

وبهذا نقول إذا لم يعن بالرُّوح النّفس فإنَّه قال: الرُّوح الكائن في الجسد ضربان: أحدهما: الحياة القائمة به والآخر النّفس والنّفس ريح ينبثّ به والمراد بالنّفس ما يخرج بنفس التّنفّس من أجزاء الهواء المتحلّل من المسامّ وهذا قول الإسفرائيني وغيره وقال ابن فورك: هو ما يجري في تجاويف الأعضاء وأبو المعالي خالف هؤلاء وأحسن في مخالفتهم فقال: إنّ الرُّوح أجسام لطيفة مشابكة للأجسام المحسوسة أجرى اللّه العادة بحياة الأجساد ما استمرّت مشابكتها لها فإذا فارقتها تعقّب الموت الحياة في استمرار العادة. ومذهب الصّحابة والتّابعين لهم بإحسان وسائر سلف الأمّة وأئمّة السّنّة: أنّ الرُّوح عين قائمة بنفسها تفارق البدن وتنعّم وتعذّب ليست هي البدن ولا جزءا من أجزائه كالنّفس المذكور. ولمّا كان الإمام أحمد ممّن نصّ على ذلك كما نصّ عليه غيره من الأئمّة لم يختلف أصحابه في ذلك؛ لكنّ طائفة منهم كالقاضي أبي يعلى زعموا أنّها جسم وأنّها الهواء المتردّد في مخاريق البدن؛ موافقة لأحد المعنيين اللّذين ذكرهما ابن الباقلاني. وهذه الأقوال لمّا كانت من أضعف الأقوال تسلّط بها عليهم خلق كثير.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّهَا عَيْنٌ قَائِمَةٌ بِنَفْسِهَا غَيْرُ الْبَدَنِ وَأَجْزَائِهِ وَأَعْرَاضِهِ تَنَازَعُوا : هَلْ هِيَ جِسْمٌ مُتَحَيِّزٌ ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ كَتَنَازُعِهِمْ فِي الْمَلَائِكَةِ . فالمتكلمون مِنْهُمْ يَقُولُونَ : جِسْمٌ والمتفلسفة يَقُولُونَ : جَوْهَرٌ عَقْلِيٌّ لَيْسَ بِجِسْمِ وَقَدْ أَشَرْنَا فِيمَا تَقَدَّمَ إِلَى أَنَّ مَا تُسَمِّيهِ الْمُتَفَلْسِفَةُ جَوَاهِرَ عَقْلِيَّةً لَا تُوجَدُ إِلَّا فِي الذِّهْنِ وَأَصْلُ تَسْمِيَتِهِمْ الْمُجَرَّدَاتِ وَالْمُفَارِقَاتِ هُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ فَإِنَّهَا لَمَّا كَانَتْ تُفَارِقُ بَدَنَهُ بِالْمَوْتِ وَتَتَجَرَّدُ عَنْهُ سَمَّوْهَا مُفَارِقَةً مُجَرَّدَةً ثُمَّ أَثْبَتُوا مَا أَثْبَتُوهُ مِنْ الْعُقُولِ وَالنُّفُوسِ وَسَمَّوْهَا مُفَارِقَاتٍ وَمُجَرَّدَاتٍ بِنَاءً عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ يُرِيدُونَ بِالْمُفَارِقِ لِلْمَادَّةِ مَا لَا يَكُونُ جِسْمًا وَلَا قَائِمًا بِجِسْمِ لَكِنَّ النَّفْسَ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْجِسْمِ تَعَلُّقَ التَّدْبِيرِ وَالْعَقْلِ وَلَا تَعَلُّقَ لَهُ بِالْأَجْسَامِ أَصْلًا وَلَا رَيْبَ أَنَّ جَمَاهِيرَ الْعُقَلَاءِ عَلَى إثْبَاتِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْبَدَنِ وَالرُّوحِ الَّتِي تُفَارِقُ وَالْجُمْهُورُ يُسَمُّونَ ذَلِكَ رُوحًا وَهَذَا جِسْمًا لَكِنَّ لَفْظَ الْجِسْمِ فِي اللُّغَةِ لَيْسَ هُوَ الْجِسْمَ فِي اصْطِلَاحِ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلْ الْجِسْمُ هُوَ الْجَسَدُ كَمَا تَقَدَّمَ وَهُوَ الْجِسْمُ الْغَلِيظُ أَوْ غِلَظُهُ وَالرُّوحُ لَيْسَتْ مِثْلَ الْبَدَنِ فِي الْغِلَظِ وَالْكَثَافَةِ وَلِذَلِكَ لَا تُسَمَّى جِسْمًا فَمَنْ جَعَلَ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَرْوَاحَ وَنَحْوَ ذَلِكَ لَيْسَتْ أَجْسَامًا بِالْمَعْنَى اللُّغَوِيِّ فَقَدْ أَصَابَ فِي ذَلِكَ

(916/838)

وربُّ العالمين أولى أن لا يكون جسمًا فإنَّه من المشهور في اللُّغة الفرق بين الأرواح والأجسام .

وأمَّا أهل الاصطلاح من المتكلِّمين والمتفلسفة فيجعلون مسمَّى الجسم أعمَّ من ذلك وهو ما أمكنت الإشارة الحسيَّة إليه وما قيل إنَّه هنا وهناك وما قبل الأبعاد الثَّلاثة ونحو ذلك .

وكذلك المتحيِّز في اصطلاح هؤلاء هو الجسم ويدخل فيه الجوهر الفرد عند من أثبته

وقد تقدَّم معنى الجسم في اللُّغة وأمَّا المتحيِّز فقد قال تعالى : ﴿ ومن يولِّهم يومئذٍ دبره إلَّا متحرِّفًا لقتال أو متحيِّزًا إلى فئةٍ فقد باء بغضب من اللَّه ﴾ . وقال الجوهريُّ : الحوز الجمع وكلُّ من ضمَّ إلى نفسه شيئًا فقد حازه حوزًا وحيازةً واحتازه أيضًا والحوز والحيز السَّوق اللَّيِّن وقد حاز الإبل يحوزها ويحيزها وحوَّز الإبل ساقها إلى الماء وقال الأصمعيُّ : إذا كانت الإبل بعيدة المرعى عن الماء فأوَّل ليلةٍ توجِّهها إلى الماء ليلة الحوز وتحوَّزت الحيَّة وتحيَّزت تلوَّت . يقال ما لك تتحوَّز تحوُّز الحيَّة وتتحيَّز تحيُّز الحيَّة قال سيبويه هو تفعُّل من حزت الشَّيء قال القطاميُّ : تحيَّز منِّي خشيةً أن أضيفها كما انحازت الأفعى مخافة ضارب يقول تتنحَّى عنِّي هذه العجوز وتتأخَّر خشية أن أنزل عليها ضيفًا .

وَالْحيِّزُ مَا انْضَمَّ إِلَى الدَّارِ مِنْ مَرَافِقِهَا وَكُلُّ نَاحِيَةٍ حَيِّزٌ وَأَصْلُهُ مِنْ الْوَاوِ وَالْحَيْزُ تَخْفِيفُ الْحَيِّزِ مِثْلُ هَيْنٍ وَهَيِّنٍ وَلَيْنٍ وَلَيِّنٍ وَالْجَمْعُ أَحيازٌ وَالْحَوْزَةُ النَّاحِيَةُ وَانْحَازَ عَنْهُ انعدل وَانْحَازَ الْقَوْمُ تَرَكُوا مَرْكَزَهُمْ إِلَى آخَرَ يُقَالُ لِلْأَوْلِيَاءِ انْحَازُوا عَنْ الْعَدُوِّ وَحَاصُوا وَالْأَعْدَاءُ انْهَزَمُوا وَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَتَحَاوَزَ الْفَرِيقَانِ فِي الْحَرْبِ انْحَازَ كُلُّ فَرِيقٍ عَنْ الْآخَرِ . فَهَذَا الْمَذْكُورُ عَنْ أَهْلِ اللُّغَةِ فِي هَذَا اللَّفْظِ وَمَادَّتِهِ يَقْتَضِي أَنَّ التَّحَيُّزَ وَالِانْحِيَازَ وَالتَّحَوُّزَ وَنَحْوَ ذَلِكَ يَتَضَمَّنُ عُدُولًا مِنْ مَحَلٍّ إِلَى مَحَلٍّ وَهَذَا أَخَصُّ مِنْ كَوْنِهِ يَحُوزُهُ أَمْرٌ مَوْجُودٌ فَهُمْ يُرَاعُونَ فِي مَعْنَى الْحَوْزِ ذَهَابَهُ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ ؛ وَلِهَذَا يَقُولُونَ : حُزْتَ الْمَالَ وَحُزْتَ الْإِبِلَ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ نَقْلَهُ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ فَالشَّيْءُ الْمُسْتَقِرُّ فِي مَوْضِعِهِ كَالْجَبَلِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَا يُسَمُّونَهُ مُتَحَيِّزًا وَأَعَمُّ مِنْ هَذَا أَنْ يُرَادَ بِالْمُتَحَيِّزِ مَا يُحِيطُ بِهِ حَيِّزٌ مَوْجُودٌ فَيُسَمَّى كُلُّ مَا أَحَاطَ بِهِ غَيْرُهُ أَنَّهُ مُتَحَيِّزٌ وَعَلَى هَذَا فَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مُتَحَيِّزٌ ؛ بَلْ مَا فِي الْعَالَمِ مُتَحَيِّزٌ إلَّا سَطْحَ الْعَالَمِ الَّذِي لَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِمُتَحَيِّزِ وَكَذَلِكَ الْعَالَمُ جُمْلَةً لَيْسَ بِمُتَحَيِّزِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي عَالَمٍ آخَرَ أَحَاطَ بِهِ والمتكلمون يُرِيدُونَ بِالْمُتَحَيِّزِ مَا هُوَ أَعَمُّ مِنْ هَذَا وَالْحَيِّزُ

(918/838)

عِنْدَهُمْ أَعَمُّ مِنْ الْمَكَانِ فَالْعَالَمُ كُلُّهُ فِي حَيِّزٍ وَلَيْسَ هُوَ فِي مَكَانٍ

(919/838)

وَالْمُتَحَيِّزُ عِنْدَهُمْ لَا يُعْتَبَرُ فِيهِ أَنَّهُ يَحُوزُهُ غَيْرُهُ وَلَا يَكُونُ لَهُ حَيِّزٌ وُجُودِيٌّ بَلْ كُلَّمَا أُشِيرَ إلَيْهِ وَامْتَازَ مِنْهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ فَهُوَ مُتَحَيِّزٌ عِنْدَهُمْ . ثُمَّ هُمْ مُخْتَلِفُونَ بَعْدَ هَذَا فِي الْمُتَحَيِّزِ : هَلْ هُوَ مُرَكَّبٌ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُنْفَرِدَةِ أَوْ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ ؟ أَوْ هُوَ غَيْرُ مُرَكَّبٍ لَا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا ؟ كَمَا تَقَدَّمَ نِزَاعُهُمْ فِي الْجِسْمِ . فَالْجِسْمُ عِنْدَهُمْ مُتَحَيِّزٌ وَلَا يَخْرُجُ عَنْهُ شَيْءٌ إلَّا الْجَوْهَرُ الْفَرْدُ عِنْدَ مَنْ أَثْبَتَهُ وَهَؤُلَاءِ يَعْتَقِدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ أَنَّ كُلَّ مُتَحَيِّزٍ فَهُوَ مُرَكَّبٌ أَيْ يَقْبَلُ الِانْقِسَامَ إلَى جُزْءٍ لَا يَتَجَزَّأُ بَلْ يَظُنُّ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا إجْمَاعُ الْمُسْلِمِينَ وَأَكْثَرُهُمْ يَقُولُونَ الْمُتَحَيِّزَاتُ مُتَمَاثِلَةٌ فِي الْحَدِّ وَالْحَقِيقَةِ وَمَنْ كَانَ مَعْنَى الْمُتَحَيِّزِ عِنْدَهُ هَذَا فَعَلَيْهِ أَنْ يُنَزِّهَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ مُتَحَيِّزًا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ وَإِذَا قَالَ : الْمَلَائِكَةُ مُتَحَيِّزُونَ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ أَوْ الرُّوحُ مُتَحَيِّزَةٌ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ نَازَعَهُ فِي ذَلِكَ جُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ ؛ بَلْ لَا يُعْرَفُ أَحَدٌ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا يَقُولُ : إنَّ الْمَلَائِكَةَ مُتَحَيِّزَةٌ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ وَلَا قَالُوا لَفْظًا يَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى وَكَذَلِكَ رُوحُ بَنِي آدَمَ الَّتِي تُفَارِقُهُ بِالْمَوْتِ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ إنَّهَا مُتَحَيِّزَةٌ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ وَلَا قَالَ فِيهَا لَفْظًا يَدُلُّ عَلَى هَذَا

(920/838)

الْمَعْنَى فَإِذَا كَانَ إِثْبَاتُ هَذَا التَّحَيُّزِ لِلْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ بِدْعَةً فِي الشَّرْعِ وَبَاطِلًا فِي الْعَقْلِ فَلَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِدْعَةً وَبَاطِلًا فِي رَبِّ

(921/838)

الْعَالَمِينَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى . وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ عَامَّةَ مَا يَقُولُهُ الْمُتَفَلْسِفَةُ وَهَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمَةُ فِي نُفُوسِ بَنِي آدَمَ وَفِي الْمَلَائِكَةِ بَاطِلٌ فَكَيْفَ بِمَا يَقُولُونَهُ فِي رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلِهَذَا تُوجَدُ الْكُتُبُ الْمُصَنَّفَةُ الَّتِي يُذْكَرُ فِيهَا مَقَالَاتُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ الْكِبَارِ فِي رَبِّ الْعَالَمِينَ وَفِي مَلَائِكَتِهِ وَفِي أَرْوَاحِ بَنِي آدَمَ وَفِي الْمَعَادِ وَفِي النُّبُوَّاتِ لَيْسَ فِيهَا قَوْلٌ يُطَابِقُ الْعَقْلَ وَالشَّرْعَ وَلَا يَعْرِفُونَ مَا قَالَهُ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ فِي هَذَا الْبَابِ وَلَا مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ . فَلِهَذَا يَغْلِبُ عَلَى فُضَلَائِهِمْ الْحَيْرَةُ فَإِنَّهُمْ إذَا أَنْهَوْا النَّظَرَ لَمْ يَصِلُوا إلَى عِلْمٍ . لِأَنَّ مَا نَظَرُوا فِيهِ مِنْ كَلَامِ الطَّائِفَتَيْنِ مُشْتَمِلٌ عَلَى بَاطِلٍ مِنْ الْجَانِبَيْنِ وَلِهَذَا قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الرَّازِي فِي آخِرِ عُمْرِهِ : لَقَدْ تَأَمَّلْت الطُّرُقَ الْكَلَامِيَّةَ وَالْمَنَاهِجَ الْفَلْسَفِيَّةَ فَمَا رَأَيْتهَا تَشْفِي عَلِيلًا وَلَا

تَرْوِي غَلِيلًا وَرَأَيْت أَقْرَبَ الطُّرُقِ طَرِيقَةَ الْقُرْآنِ اقْرَأْ فِي الْإِثْبَاتِ: ﴿ إلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ وَاقْرَأْ فِي النَّفْيِ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي. وَأَمَّا مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّ الْمُتَحَيِّزَ هُوَ مَا بَايَنَ غَيْرَهُ فَانْحَازَ عَنْهُ وَلَيْسَ

(922/838)

مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ مُرَكَّبًا مِنْ الْأَجْزَاءِ الْمُنْفَرِدَةِ وَلَا أَنَّهُ يَقْبَلُ التَّفْرِيقَ وَالتَّقْسِيمَ. فَإِذَا قَالَ: إنَّ الرَّبَّ مُتَحَيِّزٌ بِهَذَا الْمَعْنَى أَيْ أَنَّهُ بَائِنٌ عَنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَقَدْ أَرَادَ مَعْنًى صَحِيحًا لَكِنَّ إطْلَاقَ هَذِهِ الْعِبَارَةِ بِدْعَةٌ وَفِيهَا تَلْبِيسٌ فَإِنَّ هَذَا الَّذِي أَرَادَهُ لَيْسَ مَعْنَى الْمُتَحَيِّزِ فِي اللُّغَةِ وَهُوَ اصْطِلَاحٌ لَهُ وَلِطَائِفَتِهِ وَفِي الْمَعْنَى الْمُصْطَلَحِ نِزَاعٌ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ فَصَارَ يَحْتَمِلُ مَعْنًى فَاسِدًا يَجِبُ تَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْهُ وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُطْلِقَ لَفْظًا يَدُلُّ عِنْدَ غَيْرِهِ عَلَى مَعْنًى فَاسِدٍ وَيُفْهِمَ ذَلِكَ الْغَيْرَ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْفَاسِدَ مِنْ غَيْرِ بَيَانِ مُرَادِهِ؛ بَلْ هَؤُلَاءِ الْمُتَكَلِّمُونَ الَّذِينَ أَرَادُوا بِالْمُتَحَيِّزِ مَا كَانَ مُؤَلَّفًا مِنْ أَجْزَاءٍ لَا تَقْبَلُ الْقِسْمَةَ وَهُوَ مَا كَانَ قَابِلًا لِلْقِسْمَةِ إذَا قَالُوا إنَّ كُلَّ مُمْكِنٍ أَوْ كُلَّ مُحْدَثٍ أَوْ كُلَّ مَخْلُوقٍ فَهُوَ: إمَّا مُتَحَيِّزٌ وَإِمَّا قَائِمٌ بِمُتَحَيِّزِ كَانَ جَمَاهِيرُ الْعُقَلَاءِ يُخَالِفُونَهُمْ فِي هَذَا التَّقْسِيمِ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ لَا مِنْ الصَّحَابَةِ وَلَا مِنْ التَّابِعِينَ

لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَلَا سَائِرِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ مُوَافِقًا لَهُمْ عَلَى هَذَا التَّقْسِيمِ فَكَيْفَ إِذَا قَالَ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ: كُلُّ مَوْجُودٍ فَهُوَ إِمَّا مُتَحَيِّزٌ وَإِمَّا قَائِمٌ بِمُتَحَيِّزٍ وَأَرَادَ بِالْمُتَحَيِّزِ مَا أَرَادَهُ هَؤُلَاءِ فَإِنَّ قَوْلَهُ حِينَئِذٍ يَكُونُ أَبْعَدَ عَنْ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ مِنْ قَوْلِ أُولَئِكَ

(923/838)

وَلِهَذَا طَالَبَهُمْ مُتَأَخِّرُوهُمْ بِالدَّلِيلِ عَلَى هَذَا الْحَصْرِ. وَلَيْسَ خَطَأُ هَؤُلَاءِ مِنْ جِهَةِ مَا أَثْبَتَهُ الْمُتَفَلْسِفَةُ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّ تِلْكَ قَدْ عُلِمَ بُطْلَانُهَا بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَيْضًا.

(924/838)

وَمَا يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ الْمُتَفَلْسِفَةُ فِي النَّفْسِ النَّاطِقَةِ مِنْ أَنَّهَا لَا يُشَارُ إلَيْهَا وَلَا تُوصَفُ بِحَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ وَلَا صُعُودٍ وَلَا نُزُولٍ وَلَيْسَتْ دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ هُوَ أَيْضًا كَلَامٌ أَبْطَلُ مِنْ كَلَامِ أُولَئِكَ الْمُتَكَلِّمِينَ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُقَلَاءِ وَلَا سِيَّمَا مَنْ يَقُولُ مِنْهُمْ - كَابْنِ سِينَا وَأَمْثَالِهِ - إنَّهَا لَا تَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ الْأُمُورِ الْجُزْئِيَّةِ وَإِنَّمَا تَعْرِفُ الْأُمُورَ الْكُلِّيَّةَ؛ فَإِنَّ هَذَا مُكَابَرَةٌ ظَاهِرَةٌ فَإِنَّهَا تَعْرِفُ بَدَنَهَا وَتَعْرِفُ كُلَّ مَا تَرَاهُ بِالْبَدَنِ وَتَشُمُّهُ وَتَسْمَعُهُ وَتَذُوقُهُ وَتَقْصِدُهُ وَتَأْمُرُ بِهِ وَتُحِبُّهُ

وَتَكْرَهُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا تَتَصَرَّفُ فِيهِ بِعِلْمِهَا وَعَمَلِهَا فَكَيْفَ يُقَالُ إِنَّهَا لَا تَعْرِفُ الْأُمُورَ الْمُعَيَّنَةَ وَإِنَّمَا تَعْرِفُ أُمُورًا كُلِّيَّةً وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ تَعَلُّقَهَا بِالْبَدَنِ لَيْسَ إِلَّا مُجَرَّدَ تَعَلُّقِ التَّدْبِيرِ وَالتَّصْرِيفِ كَتَدْبِيرِ الْمَلِكِ لِمَمْلَكَتِهِ مِنْ أَفْسَدِ الْكَلَامِ فَإِنَّ الْمَلِكَ يُدَبِّرُ أَمْرَ مَمْلَكَتِهِ فَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَلَكِنْ لَا يُصَرِّفُهُمْ هُوَ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ إِنْ لَمْ يَتَحَرَّكُوا هُمْ بِإِرَادَتِهِمْ وَقُدْرَتِهِمْ وَالْمَلِكُ لَا يَلْتَذُّ بِلَذَّةِ أَحَدِهِمْ وَلَا يَتَأَلَّمُ بِتَأَلُّمِهِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ الرُّوحُ وَالْبَدَنُ بَلْ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُمَا مِنَ الِاتِّحَادِ وَالِائْتِلَافِ مَا لَا يُعْرَفُ لَهُ نَظِيرٌ يُقَاسُ بِهِ وَلَكِنَّ دُخُولَ الرُّوحِ فِيهِ لَيْسَ هُوَ مُمَاثِلًا لِدُخُولِ شَيْءٍ مِنَ الْأَجْسَامِ الْمَشْهُودَةِ فَلَيْسَ دُخُولُهَا فِيهِ كَدُخُولِ

(925/838)

الْمَاءِ وَنَحْوِهِ مِنَ الْمَائِعَاتِ فِي الْأَوْعِيَةِ فَإِنَّ هَذِهِ إِنَّمَا تُلَاقِي السَّطْحَ الدَّاخِلَ مِنَ الْأَوْعِيَةِ لَا بُطُونَهَا وَلَا ظُهُورَهَا وَإِنَّمَا يُلَاقِي

(926/838)

الْأَوْعِيَةِ مِنْهَا أَطْرَافَهَا دُونَ أَوْسَاطِهَا وَلَيْسَ كَذَلِكَ الرُّوحُ وَالْبَدَنُ بَلْ الرُّوحُ مُتَعَلِّقَةٌ بِجَمِيعِ أَجْزَاءِ الْبَدَنِ بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ وَكَذَلِكَ دُخُولُهَا فِيهَا لَيْسَ كَدُخُولِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ فِي بَدَنِ الْآكِلِ فَإِنَّ ذَلِكَ لَهُ مَجَارٍ مَعْرُوفَةٌ وَهُوَ مُسْتَحِيلٌ . - إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ - وَلَا جَرَيَانُهَا فِي الْبَدَنِ كَجَرَيَانِ الدَّمِ فَإِنَّ الدَّمَ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْبَدَنِ دُونَ بَعْضٍ . فَفِي الْجُمْلَةِ كُلُّ مَا يُذْكَرُ مِنْ النَّظَائِرِ لَا يَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ مُتَعَلِّقًا بِالْآخَرِ ؛ بِخِلَافِ الرُّوحِ وَالْبَدَنِ لَكِنْ هِيَ مَعَ هَذَا فِي الْبَدَنِ قَدْ وَلَجَتْ فِيهِ وَتَخْرُجُ مِنْهُ وَقْتَ الْمَوْتِ وَتُسَلُّ مِنْهُ شَيْئًا فَشَيْئًا فَتَخْرُجُ مِنْ الْبَدَنِ شَيْئًا فَشَيْئًا لَا تُفَارِقُهُ كَمَا يُفَارِقُ الْمَلِكُ مَدِينَتَهُ الَّتِي يُدَبِّرُهَا وَالنَّاسُ لَمَّا لَمْ يَشْهَدُوا لَهَا نَظِيرًا عَسُرَ عَلَيْهِمْ التَّعْبِيرُ عَنْ حَقِيقَتِهَا وَهَذَا تَنْبِيهٌ لَهُمْ عَلَى أَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ لَمْ يَعْرِفُوا حَقِيقَتَهُ وَلَا تَصَوَّرُوا كَيْفِيَّتَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَأَنَّ مَا يُضَافُ إلَيْهِ مِنْ صِفَاتِهِ هُوَ عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ جَلَّ جَلَالُهُ . فَإِنَّ الرُّوحَ الَّتِي هِيَ بَعْضُ عَبِيدِهِ تُوصَفُ بِأَنَّهَا تَعْرُجُ إذَا نَامَ الْإِنْسَانُ وَتَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ وَهِيَ مَعَ هَذَا فِي بَدَنِ صَاحِبِهَا لَمْ تُفَارِقْهُ بِالْكُلِّيَّةِ وَالْإِنْسَانُ فِي نَوْمِهِ يُحِسُّ بِتَصَرُّفَاتِ رُوحِهِ تَصَرُّفَاتٍ تُؤَثِّرُ فِي بَدَنِهِ فَهَذَا الصُّعُودُ الَّذِي تُوصَفُ بِهِ الرُّوحُ لَا يُمَاثِلُ صُعُودَ الْمَشْهُودَاتِ فَإِنَّهَا إذَا صَعِدَتْ

إِلَى مَكَانٍ فَارَقَتْ الْأَوَّلَ بِالْكُلِّيَّةِ وَحَرَكَتِهَا

(928/838)

إلَى الْعُلُوِّ حَرَكَةَ انْتِقَالٍ مِنْ مَكَانٍ إلَى مَكَانٍ وَحَرَكَةُ الرُّوحِ بِعُرُوجِهَا وَسُجُودِهَا لَيْسَ كَذَلِكَ . فَالرَّبُّ سُبْحَانَهُ إذَا وَصَفَهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ يَنْزِلُ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ وَأَنَّهُ يَدْنُو عَشِيَّةَ عَرَفَةَ إلَى الْحُجَّاجِ " وَأَنَّهُ كَلَّمَ مُوسَى فِي الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ الشَّجَرَةِ وَأَنَّهُ اسْتَوَى إلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ : لَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْأَفْعَالُ مِنْ جِنْسِ مَا نُشَاهِدُهُ مِنْ نُزُولِ هَذِهِ الْأَعْيَانِ الْمَشْهُودَةِ حَتَّى يُقَالَ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ تَفْرِيغَ مَكَانٍ وَشَغْلَ آخَرَ . فَإِنَّ نُزُولَ الرُّوحِ وَصُعُودَهَا لَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ فَكَيْفَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ لَهُمْ صُعُودٌ وَنُزُولٌ مِنْ هَذَا الْجِنْسِ . فَلَا يَجُوزُ نَفْيُ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَلَا يَجُوزُ تَمْثِيلُ ذَلِكَ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ لَا سِيَّمَا مَا لَا نُشَاهِدُهُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ فَإِنَّ مَا ثَبَتَ لِمَا لَا نُشَاهِدُهُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ لَيْسَ مُمَاثِلًا لِمَا نُشَاهِدُهُ مِنْهَا فَكَيْفَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي هُوَ أَبْعَدُ عَنْ مُمَاثَلَةِ كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ مُمَاثَلَةِ مَخْلُوقٍ لِمَخْلُوقِ وَكُلُّ مَخْلُوقٍ فَهُوَ أَشْبَهُ بِالْمَخْلُوقِ الَّذِي لَا يُمَاثِلُهُ مِنْ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

وَهَذَا الَّذِي نَبَّهْنَا عَلَيْهِ مِمَّا يَظْهَرُ بِهِ أَنَّ مَا يَذْكُرُهُ صَاحِبُ " الْمُحَصّل " وَأَمْثَالُهُ مِنْ تَقْسِيمِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى رَأْيِ الْمُتَفَلْسِفَةِ وَالْمُتَكَلّمَةِ كُلُّهُ تَقْسِيمٌ غَيْرُ حَاصِرٍ وَكُلٌّ مِنْ الْفَرِيقَيْنِ مُقَصِّرٌ عَنْ سَلَفِهِ . أَمَّا الْمُتَكَلّمُونَ فَلَمْ يَسْلُكُوا مِنْ التَّقْسِيمِ الْمَسْلَكَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَكَانَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ الْمُتَفَلْسِفَةُ أَتْبَاعُ أَرِسْطُو لَمْ يَسْلُكُوا مَسْلَكَ الْفَلَاسِفَةِ الْأَسَاطِينِ الْمُتَقَدّمِينَ فَإِنَّ أُولَئِكَ كَانُوا يَقُولُونَ بِحُدُوثِ هَذَا الْعَالَمِ وَكَانُوا يَقُولُونَ : إنَّ فَوْقَ هَذَا الْعَالَمِ عَالَمًا آخَرَ يَصِفُونَهُ بِبَعْضِ مَا وَصَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ الْجَنَّةَ وَكَانُوا يُثْبِتُونَ مَعَادَ الْأَبْدَانِ كَمَا يُوجَدُ هَذَا فِي كَلَامِ سُقْرَاطَ وتاليس وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَسَاطِينِ الْفَلَاسِفَةِ وَقَدْ ذَكَرُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ بِقِدَمِ الْعَالَمِ أَرِسْطُو .

فَصْلٌ :

وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ الْمُحْدَثَةُ الْمُجْمَلَةُ النَّافِيَةُ مِثْلُ لَفْظِ " الْمُرَكَّبِ " وَ " الْمُؤَلَّفِ " وَ " الْمُنْقَسِمِ " وَنَحْوِ ذَلِكَ قَدْ صَارَ كُلُّ مَنْ أَرَادَ نَفْيَ شَيْءٍ مِمَّا أَثْبَتَهُ اللَّهُ لِنَفْسِهِ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصّفَاتِ عَبَّرَ بِهَا عَنْ مَقْصُودِهِ فَيَتَوَهَّمُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مُرَادَهُ أَنَّ الْمُرَادَ تَنْزِيهُ الرَّبِّ الَّذِي وَرَدَ بِهِ الْقُرْآنُ وَهُوَ إثْبَاتُ أَحَدِيَّتِهِ وَصَمَدِيَّتِهِ وَيَكُونُ قَدْ أَدْخَلَ فِي تِلْكَ الْأَلْفَاظِ مَا رَآهُ هُوَ مَنْفِيًّا

وَعَبَّرَ عَنْهُ بِتِلْكَ الْعِبَارَةِ وَضْعًا لَهُ وَاصْطِلَاحًا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ هُوَ وَمَنْ وَافَقَهُ عَلَى ذَلِكَ الْمَذْهَبِ وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ لُغَةِ الْعَرَبِ الَّتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ وَلَا مِنْ لُغَةِ أَحَدٍ مِنْ الْأُمَمِ ثُمَّ يَجْعَلُ ذَلِكَ الْمَعْنَى هُوَ مُسَمَّى الْأَحَدِ وَالصَّمَدِ وَالْوَاحِدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَيَجْعَلُ مَا نَفَاهُ مِنْ الْمَعَانِي الَّتِي أَثْبَتَهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ تَمَامِ التَّوْحِيدِ . وَاسْمُ " التَّوْحِيدِ " اسْمٌ مُعَظَّمٌ جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ " وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ فَإِذَا جَعَلَ تِلْكَ الْمَعَانِيَ الَّتِي نَفَاهَا مِنْ التَّوْحِيدِ ظَنَّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ مُخَالَفَةَ مُرَادِهِ لِمُرَادِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ يَقُولُ بِالتَّوْحِيدِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَيُسَمِّي طَائِفَتَهُ الْمُوَحِّدِينَ كَمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ الْجَهْمِيَّةَ وَالْمُعْتَزِلَةَ وَمَنْ وَافَقَهُمْ عَلَى نَفْيِ شَيْءٍ مِنْ الصِّفَاتِ وَيُسَمُّونَ ذَلِكَ تَوْحِيدًا . وَطَائِفَتُهُمْ الْمُوَحِّدِينَ وَيُسَمُّونَ عِلْمَهُمْ عِلْمَ التَّوْحِيدِ كَمَا تُسَمِّي الْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ نَفْيَ الْقَدَرِ عَدْلًا وَيُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ العدلية وَأَهْلَ الْعَدْلِ وَمِثْلُ هَذِهِ الْبِدَعِ كَثِيرٌ جِدًّا يُعَبِّرُ بِأَلْفَاظِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَنْ مَعَانٍ مُخَالِفَةٍ لِمَا أَرَادَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ وَلَا يَكُونُ أَصْحَابُ تِلْكَ الْأَقْوَالِ تَلَقَّوْهَا ابْتِدَاءً عَنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ عَنْ شُبَهٍ حَصَلَتْ لَهُمْ وَأَئِمَّةٍ لَهُمْ وَجَعَلُوا

(931/838)

التَّعْبِيرَ عَنْهَا بِأَلْفَاظِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ حُجَّةً لَهُمْ وَعُمْدَةً لَهُمْ لِيَظْهَرَ بِذَلِكَ أَنَّهُمْ مُتَابِعُونَ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا مُخَالِفُونَ لَهُ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَعْرِفُونَ

(932/838)

أَنَّ مَا ذَكَرُوهُ مُخَالِفٌ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ يَظُنُّ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ هُوَ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فَلِهَذَا يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى شَيْئَيْنِ : أَحَدُهُمَا : مَعْرِفَةُ مَا أَرَادَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلْفَاظِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِأَنْ يَعْرِفُوا لُغَةَ الْقُرْآنِ الَّتِي بِهَا نَزَلَ وَمَا قَالَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَسَائِرُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَانِي تِلْكَ الْأَلْفَاظِ فَإِنَّ الرَّسُولَ لَمَّا خَاطَبَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَرَّفَهُمْ مَا أَرَادَ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ وَكَانَتْ مَعْرِفَةُ الصَّحَابَةِ لِمَعَانِي الْقُرْآنِ أَكْمَلَ مِنْ حِفْظِهِمْ لِحُرُوفِهِ وَقَدْ بَلَّغُوا تِلْكَ الْمَعَانِيَ إِلَى التَّابِعِينَ أَعْظَمَ مِمَّا بَلَّغُوا حُرُوفَهُ فَإِنَّ الْمَعَانِيَ الْعَامَّةَ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا عُمُومُ الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ مَعْنَى التَّوْحِيدِ وَمَعْنَى الْوَاحِدِ وَالْأَحَدِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَنَحْوِ ذَلِكَ

كَانَ جَمِيعُ الصَّحَابَةِ يَعْرِفُونَ مَا أَحَبَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَلَا يَحْفَظُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ إلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ وَإِنْ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ الْقُرْآنِ يَحْفَظُهُ مِنْهُمْ أَهْلُ التَّوَاتُرِ وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ ذِكْرِ وَصْفِ اللَّهِ بِأَنَّهُ أَحَدٌ وَوَاحِدٌ وَمَنْ ذَكَرَ أَنَّ إلَهَكُمْ وَاحِدٌ وَمَنْ ذَكَرَ أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ . فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الصَّحَابَةُ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ فَإِنَّ مَعْرِفَتَهُ

(933/838)

أَصْلُ الدِّينِ وَهُوَ أَوَّلُ مَا دَعَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَيْهِ الْخَلْقَ وَهُوَ أَوَّلُ

(934/838)

مَا يُقَاتِلُهُمْ عَلَيْهِ وَهُوَ أَوَّلُ مَا أَمَرَ رُسُلَهُ أَنْ يَأْمُرُوا النَّاسَ بِهِ وَقَدْ تَوَاتَرَ عَنْهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَا دَعَا الْخَلْقَ إلَى أَنْ يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَلَمَّا أَمَرَ بِالْجِهَادِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ قَالَ : ﴿ أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ أَنَّهُ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ : إنَّك تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَك بِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ

خمس صلوات في اليوم والليلة فإن هم أطاعوا لك بذلك فأعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب ﴾ . فقال لمعاذ : ليكن أول ما تدعوهم إليه التوحيد ومع هذا كانوا من أهل الكتاب كانوا يهودا فإن اليهود كانوا كثيرين بأرض اليمن وهذا الذي أمر به معاذا موافق لقوله تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ وفي الآية الأخرى : ﴿ فإن تابوا

(935/838)

وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ . وهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ . وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم

أنه قال : ﴿ الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة أفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان ﴾ .

(936/838)

فَالْمَقْصُودُ أَنَّ مَعْرِفَةَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَمَا أَرَادَهُ بِأَلْفَاظِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ هُوَ أَصْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالسَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ ثُمَّ مَعْرِفَةَ مَا قَالَ النَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ لِيَنْظُرَ الْمَعَانِيَ الْمُوَافِقَةَ لِلرَّسُولِ وَالْمَعَانِيَ الْمُخَالِفَةَ لَهَا . وَالْأَلْفَاظُ نَوْعَانِ: نَوْعٌ يُوجَدُ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنَوْعٌ لَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ . فَيُعْرَفُ مَعْنَى الْأَوَّلِ وَيُجْعَلُ ذَلِكَ الْمَعْنَى هُوَ الْأَصْلَ وَيُعْرَفُ مَا يَعْنِيهِ النَّاسُ بِالثَّانِي وَيُرَدُّ إلَى الْأَوَّلِ . هَذَا طَرِيقُ أَهْلِ الْهُدَى وَالسُّنَّةِ وَطَرِيقُ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْبِدَعِ بِالْعَكْسِ يَجْعَلُونَ الْأَلْفَاظَ الَّتِي أَحْدَثُوهَا وَمَعَانِيَهَا هِيَ الْأَصْلَ وَيَجْعَلُونَ مَا قَالَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ تَبَعًا لَهُمْ فَيَرُدُّونَهَا بِالتَّأْوِيلِ وَالتَّحْرِيفِ إلَى مَعَانِيهِمْ وَيَقُولُونَ: نَحْنُ نُفَسِّرُ الْقُرْآنَ بِالْعَقْلِ وَاللُّغَةِ يَعْنُونَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ مَعْنًى بِعَقْلِهِمْ وَرَأْيِهِمْ ثُمَّ يَتَأَوَّلُونَ الْقُرْآنَ عَلَيْهِ بِمَا يُمْكِنُهُمْ مِنْ التَّأْوِيلَاتِ وَالتَّفْسِيرَاتِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِتَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد : أَكْثَرُ مَا يُخْطِئُ النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّأْوِيلِ وَالْقِيَاسِ . وَقَالَ: يَجْتَنِبُ الْمُتَكَلِّمُ فِي الْفِقْهِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ الْمُجْمَلَ وَالْقِيَاسَ وَهَذِهِ الطَّرِيقُ يَشْتَرِكُ فِيهَا جَمِيعُ أَهْلِ الْبِدَعِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ

(937/838)

فَهِيَ طَرِيقُ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ دَخَلَ فِي التَّأْوِيلِ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ الْمَلَاحِدَةِ .

(938/838)

وَأَمَّا حُذَّاقُ الْفَلَاسِفَةِ فَيَقُولُونَ: إِنَّ الْمُرَادَ بِخِطَابِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا هُوَ أَنْ يُخَيَّلَ إِلَى الْجُمْهُورِ مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ فِي مَصَالِحِ دُنْيَاهُمْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُطَابِقًا لِلْحَقِّ. قَالُوا: وَلَيْسَ مَقْصُودُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَانَ الْحَقِّ وَتَعْرِيفَهُ بَلْ مَقْصُودُهُ أَنْ يُخَيَّلَ إِلَيْهِمْ مَا يَعْتَقِدُونَهُ. وَيَجْعَلُونَ خَاصَّةَ النُّبُوَّةِ قُوَّةَ التَّخْيِيلِ. فَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُبَيِّنْ وَلَمْ يُفَهِّمْ؛ بَلْ وَلَمْ يَقْصِدْ ذَلِكَ. وَهُمْ مُتَنَازِعُونَ هَلْ كَانَ يَعْلَمُ الْأُمُورَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كَانَ يَعْلَمُهَا؛ لَكِنْ مَا كَانَ يُمْكِنُهُ بَيَانُهَا. وَهَؤُلَاءِ قَدْ يَجْعَلُونَ الرَّسُولَ أَفْضَلَ مِنْ الْفَيْلَسُوفِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: بَلْ مَا كَانَ يَعْرِفُهَا أَوْ مَا كَانَ حَاذِقًا فِي مَعْرِفَتِهَا وَإِنَّمَا كَانَ يَعْرِفُ الْأُمُورَ الْعَمَلِيَّةَ وَهَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْفَيْلَسُوفَ أَكْمَلَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ الْأُمُورَ الْعِلْمِيَّةَ أَكْمَلُ مِنْ الْعَمَلِيَّةِ فَهَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ خَبَرَ اللَّهِ وَخَبَرَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا فِيهِ التَّخْيِيلُ وَأُولَئِكَ يَقُولُونَ لَمْ يَقْصِدْ بِهِ التَّخْيِيلَ وَلَكِنْ قَصَدَ مَعْنًى يُعْرَفُ بِالتَّأْوِيلِ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ الْجَهْمِيَّةِ يُوَافِقُ أُولَئِكَ عَلَى أَنَّهُ مَا كَانَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَبُوحَ بِالْحَقِّ فِي بَابِ التَّوْحِيدِ فَخَاطَبَ الْجُمْهُورَ بِمَا يُخَيِّلُ لَهُمْ

(939/838)

كَمَا يَقُولُونَ : إنَّهُ لَوْ قَالَ :

(940/838)

إنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِدَاخِلِ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجِهِ وَلَا يُشَارُ إلَيْهِ وَلَا هُوَ فَوْقَ الْعَالَمِ وَلَا كَذَا وَلَا كَذَا لَنَفَرَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْهُ وَقَالُوا هَذَا لَا يُعْرَفُ قَالُوا فَخَاطَبَهُمْ بِالتَّجْسِيمِ حَتَّى يُثْبِتَ لَهُمْ رَبًّا يَعْبُدُونَهُ وَإِنْ كَانَ يَعْرِفُ أَنَّ التَّجْسِيمَ بَاطِلٌ وَهَذَا يَقُولُهُ طَوَائِفُ مِنْ أَعْيَانِ الْفُقَهَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ الْمَشْهُورِينَ الَّذِينَ ظَنُّوا أَنَّ مَذْهَبَ النُّفَاةِ هُوَ الصَّحِيحُ وَاحْتَاجُوا أَنْ يَعْتَذِرُوا عَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْإِثْبَاتِ كَمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِ غَيْرِ وَاحِدٍ . وَتَارَةً يَقُولُونَ . إنَّمَا عَدَلَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَيَانِ الْحَقِّ لِيَجْتَهِدُوا فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيفِهِ وَيَجْتَهِدُوا فِي تَأْوِيلِ أَلْفَاظِهِ فَتَعْظُمَ أُجُورُهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ اجْتِهَادُهُمْ فِي عَقْلِيَّاتِهِمْ وَتَأْوِيلَاتِهِمْ . وَلَا يَقُولُونَ إنَّهُ قَصَدَ بِهِ إفْهَامَ الْعَامَّةِ الْبَاطِلَ كَمَا يَقُولُ أُولَئِكَ الْمُتَفَلْسِفَةُ . وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُتَكَلِّمِينَ النُّفَاةِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُمْ حَتَّى ابْنُ عَقِيلٍ وَأَمْثَالُهُ . وَأَبُو حَامِدٍ وَابْنُ رُشْدٍ الْحَفِيدُ وَأَمْثَالُهُمَا يُوجَدُ فِي كَلَامِهِمْ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ . وَأَبُو حَامِدٍ إنَّمَا ذَمَّ التَّأْوِيلَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ وَصَنَّفَ " إلْجَامَ الْعَوَامِّ عَنْ عِلْمِ الْكَلَامِ " مُحَافَظَةً عَلَى هَذَا

الْأَصْلِ لِأَنَّهُ رَأَى مَصْلَحَةَ الْجُمْهُورِ لَا تَقُومُ إلَّا بِإِبْقَاءِ الظَّوَاهِرِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ هُوَ يَرَى

(941/838)

مَا ذَكَرَهُ فِي كُتُبِهِ " الْمَضْنُونَ بِهَا " أَنَّ النَّفْيَ هُوَ الثَّابِتُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ .

(942/838)

فَلَمْ يَجْعَلُوا مَقْصُودَهُ بِالْخِطَابِ الْبَيَانَ وَالْهُدَى كَمَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ كِتَابَهُ وَنَبِيَّهُ حَيْثُ قَالَ : ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ ﴾ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ . وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلَّا هَالِكٌ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ

وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وَقَالَ: ﴿ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ وَقَالَ: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . وَثَمَّ طَائِفَةٌ ثَالِثَةٌ كَثُرَتْ فِي الْمُتَأَخِّرِينَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى السُّنَّةِ يَقُولُونَ: مَا يَتَضَمَّنُ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَعَانِيَ مَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ الْقُرْآنِ كَآيَاتِ الصِّفَاتِ؛ بَلْ لَازِمُ قَوْلِهِمْ أَيْضًا أَنَّهُ

(943/838)

كَانَ يَتَكَلَّمُ بِأَحَادِيثِ الصِّفَاتِ وَلَا يَعْرِفُ مَعَانِيَهَا وَهَؤُلَاءِ مَسَاكِينُ لَمَّا رَأَوْا الْمَشْهُورَ عَنْ جُمْهُورِ السَّلَفِ مِنْ الصَّحَابَةِ

(944/838)

وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ أَنَّ الْوَقْفَ التَّامَّ عِنْدَ قَوْلِهِ . ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وَافَقُوا السَّلَفَ وَأَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الْمُوَافَقَةِ؛ لَكِنْ ظَنُّوا أَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّأْوِيلِ هُوَ مَعْنَى اللَّفْظِ وَتَفْسِيرِهِ

أَوْ هُوَ التَّأْوِيلُ الِاصْطِلَاحِيُّ الَّذِي يَجْرِي فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنْ مُتَأَخِّرِي أَهْلِ الْفِقْهِ وَالْأُصُولِ وَهُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ لِدَلِيلِ يَقْتَرِنُ بِهِ فَهُمْ قَدْ سَمِعُوا كَلَامَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ فَصَارَ لَفْظُ التَّأْوِيلِ عِنْدَهُمْ هَذَا مَعْنَاهُ . وَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ ﴾ ظَنُّوا أَنَّ لَفْظَ التَّأْوِيلِ فِي الْقُرْآنِ مَعْنَاهُ هُوَ مَعْنَى لَفْظِ التَّأْوِيلِ فِي كَلَامِ هَؤُلَاءِ فَلَزِمَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَعْنَى هَذِهِ النُّصُوصِ إلَّا اللَّهُ لَا جِبْرِيلُ وَلَا مُحَمَّدٌ وَلَا غَيْرُهُمَا ؛ بَلْ كُلٌّ مِنْ الرَّسُولَيْنِ عَلَى قَوْلِهِمْ يَتْلُو أَشْرَفَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ الْأَخْبَارِ عَنْ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى ذَلِكَ أَصْلًا ثُمَّ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَذُمُّونَ وَيُبْطِلُونَ تَأْوِيلَاتِ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهَا وَهَذَا جَيِّدٌ ؛ لَكِنْ قَدْ يَقُولُونَ تَجْرِي عَلَى ظَوَاهِرِهَا وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهَا إلَّا اللَّهُ فَإِنْ عَنَوْا بِظَوَاهِرِهَا مَا يَظْهَرُ مِنْهَا مِنْ الْمَعَانِي كَانَ هَذَا مُنَاقِضًا لِقَوْلِهِمْ إنَّ لَهَا تَأْوِيلًا يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَإِنْ عَنَوْا بِظَوَاهِرِهَا مُجَرَّدَ

(945/838)

الْأَلْفَاظِ : كَانَ مَعْنَى كَلَامِهِمْ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ وَلَهَا بَاطِنٌ يُخَالِفُ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَهُوَ التَّأْوِيلُ وَذَلِكَ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ . وَفِيهِمْ مَنْ يُرِيدُ بِإِجْرَائِهَا عَلَى ظَوَاهِرِهَا هَذَا الْمَعْنَى وَفِيهِمْ مَنْ

(946/838)

يُرِيدُ الْأَوَّلَ وَعَامَّتُهُمْ يُرِيدُونَ بِالتَّأْوِيلِ الْمَعْنَى الثَّالِثَ وَقَدْ يُرِيدُونَ بِهِ الثَّانِيَ فَإِنَّهُ أَحْيَانًا قَدْ يُفَسِّرُ النَّصَّ بِمَا يُوَافِقُ ظَاهِرَهُ وَتَبَيَّنَ مِنْ هَذَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ التَّأْوِيلِ الثَّالِثِ فَيَأْبَوْنَ ذَلِكَ وَيَكْرَهُونَ تَدَبُّرَ النُّصُوصِ وَالنَّظَرَ فِي مَعَانِيهَا أَعْنِي النُّصُوصَ الَّتِي يَقُولُونَ إنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ تَأْوِيلَهَا إلَّا اللَّهُ. ثُمَّ هُمْ فِي هَذِهِ النُّصُوصِ بِحَسَبِ عَقَائِدِهِمْ فَإِنْ كَانُوا مِنْ الْقَدَرِيَّةِ قَالُوا: النُّصُوصُ الْمُثْبِتَةُ لِكَوْنِ الْعَبْدِ فَاعِلًا مُحْكَمَةٌ وَالنُّصُوصُ الْمُثْبِتَةُ لِكَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى خَالِقَ أَفْعَالِ الْعِبَادِ أَوْ مُرِيدًا لِكُلِّ مَا وَقَعَ نُصُوصٌ مُتَشَابِهَةٌ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهَا إلَّا اللَّهُ إذَا كَانُوا مِمَّنْ لَا يَتَأَوَّلُهَا فَإِنَّ عَامَّةَ الطَّوَائِفِ مِنْهُمْ مَنْ يَتَأَوَّلُ مَا يُخَالِفُ قَوْلَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَأَوَّلُهُ وَإِنْ كَانُوا مِنْ الصفاتية الْمُثْبِتِينَ لِلصِّفَاتِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَهَا بِالْعَقْلِ دُونَ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ مِثْلَ كَثِيرٍ مِنْ مُتَأَخِّرِي الْكُلَّابِيَةِ كَأَبِي الْمَعَالِي فِي آخِرِ عُمْرِهِ وَابْنِ عَقِيلٍ فِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِهِ قَالُوا عَنْ النُّصُوصِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلصِّفَاتِ الَّتِي لَا تُعْلَمُ عِنْدَهُمْ بِالْعَقْلِ هَذِهِ نُصُوصٌ مُتَشَابِهَةٌ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهَا إلَّا اللَّهُ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ قَوْلَانِ وَحَالَانِ: تَارَةً يَتَأَوَّلُ وَيُوجِبُ التَّأْوِيلَ أَوْ يُجَوِّزُهُ وَتَارَةً يُحَرِّمُهُ كَمَا يُوجَدُ لِأَبِي الْمَعَالِي وَلِابْنِ عَقِيلٍ وَلِأَمْثَالِهِمَا مِنْ اخْتِلَافِ الْأَقْوَالِ.

(947/838)

وَمَنْ أَثْبَتَ الْعُلُوَّ بِالْعَقْلِ وَجَعَلَهُ مِنْ الصِّفَاتِ الْعَقْلِيَّةِ : كَأَبِي مُحَمَّدِ بْنِ كُلَّابٍ وَأَبِي الْحَسَنِ بْنِ الزَّاغُونِي وَمَنْ وَافَقَهُ وَكَالْقَاضِي أَبِي

(948/838)

يَعْلَى فِي آخِرِ قَوْلَيْهِ وَأَبِي مُحَمَّدٍ : أَثْبَتُوا الْعُلُوَّ وَجَعَلُوا الِاسْتِوَاءَ مِنْ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ الَّتِي يَقُولُونَ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهَا إلَّا اللَّهُ " وَإِنْ كَانُوا مِمَّنْ يَرَى أَنَّ الْفَوْقِيَّةَ وَالْعُلُوَّ أَيْضًا مِنْ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ كَقَوْلِ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ وَأَكْثَرِ الْأَشْعَرِيَّةِ وَقَوْلِ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى فِي أَوَّلِ قَوْلَيْهِ وَابْنِ عَقِيلٍ فِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِهِ وَأَبِي بَكْرٍ البيهقي وَأَبِي الْمَعَالِي وَغَيْرِهِمْ وَمَنْ سَلَكَ مَسْلَكَ أُولَئِكَ . وَهَذِهِ الْأُمُورُ مَبْسُوطَةٌ فِي مَوْضِعِهَا . (وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّ كُلَّ طَائِفَةٍ تَعْتَقِدُ مِنْ الْآرَاءِ مَا يُنَاقِضُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ يَجْعَلُونَ تِلْكَ النُّصُوصَ مِنْ الْمُتَشَابِهِ ثُمَّ إنْ كَانُوا مِمَّنْ يَرَى الْوَقْفَ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ ﴾ قَالُوا لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهَا إلَّا اللَّهُ فَيَلْزَمُ أَنْ لَا يَكُونَ مُحَمَّدٌ وَجِبْرِيلُ وَلَا أَحَدٌ عَلِمَ مَعَانِيَ تِلْكَ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ وَإِنْ رَأَوْا أَنَّ الْوَقْفَ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ جَعَلُوا الرَّاسِخِينَ يَعْلَمُونَ مَا يُسَمُّونَهُ هُمْ تَأْوِيلًا وَيَقُولُونَ إنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّمَا لَمْ يُبَيِّنْ الْحَقَّ بِخِطَابِهِ لِيَجْتَهِدَ النَّاسُ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنْ غَيْرِ جِهَتِهِ بِعُقُولِهِمْ

وَأَذْهَانِهِمْ وَيَجْتَهِدُونَ فِي تَخْرِيجِ أَلْفَاظِهِ عَلَى اللُّغَاتِ الْعَرَبِيَّةِ فَيَجْتَهِدُونَ فِي مَعْرِفَةِ غَرَائِبِ اللُّغَاتِ الَّتِي يَتَمَكَّنُونَ بِهَا مِنْ التَّأْوِيلِ وَهَذَا إنْ قَالُوا إنَّهُ قَصَدَ بِالْقُرْآنِ

(949/838)

وَالْحَدِيثِ مَعْنًى حَقًّا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَإِنْ قَالُوا بِقَوْلِ الْفَلَاسِفَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ الَّذِينَ لَا يَرَوْنَ التَّأْوِيلَ . قَالُوا : لَمْ يَقْصِدْ بِهَذِهِ الْأَلْفَاظِ إلَّا مَا يَفْهَمُهُ الْعَامَّةُ

(950/838)

وَالْجُمْهُورُ وَهُوَ بَاطِلٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَكِنْ أَرَادَ أَنْ يُخَيِّلَ لَهُمْ مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ " وَلَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ الْحَقَّ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَنْفِرُونَ عَنْهُ وَلَا يَقْبَلُونَهُ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مِنْ الْبَاطِنِيَّةِ الْمَلَاحِدَةِ وَفَلَاسِفَتِهِمْ بِالتَّأْوِيلِ فَإِنَّهُ يَتَأَوَّلُ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ أَمْرِ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ثُمَّ يُؤَوِّلُونَ الْعِبَارَاتِ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ تَأْوِيلَاتِ الْقَرَامِطَةِ الْبَاطِنِيَّةِ . وَأَبُو حَامِدٍ فِي " الْإِحْيَاءِ " ذَكَرَ قَوْلَ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَوِّلِينَ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ وَقَالَ إنَّهُمْ أَسْرَفُوا فِي التَّأْوِيلِ وَأَسْرَفَتْ الْحَنَابِلَةُ فِي الْجُمُودِ وَذَكَرَ عَنْ أَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ كَلَامًا لَمْ يَقُلْهُ أَحْمَد فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَا قَالَهُ

أَحْمَد وَلَا مَا قَالَهُ غَيْرُهُ . مِنْ السَّلَفِ فِي هَذَا الْبَاب وَلَا مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ وَقَدْ سُمِعَ مُضَافًا إلَى الْحَنَابِلَةِ مَا يَقُولُهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ مِنْ الْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فِي الْحَرْفِ وَالصَّوْتِ . وَبَعْضِ الصِّفَاتِ : مِثْلُ قَوْلِهِمْ : إنَّ الْأَصْوَاتَ الْمَسْمُوعَةَ مِنْ الْقُرَّاءِ قَدِيمَةٌ أَزَلِيَّةٌ وَإِنَّ الْحُرُوفَ الْمُتَعَاقِبَةَ قَدِيمَةُ الْأَعْيَانِ وَإِنَّهُ يَنْزِلُ إلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا وَيَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ حَتَّى يَبْقَى بَعْضُ الْمَخْلُوقَاتِ فَوْقَهُ وَبَعْضُهَا تَحْتَهُ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْمُنْكَرَاتِ . فَإِنَّهُ مَا مِنْ طَائِفَةٍ إلَّا وَفِي بَعْضِهِمْ مَنْ يَقُولُ أَقْوَالًا ظَاهِرُهَا الْفَسَادُ وَهِيَ الَّتِي يَحْفَظُهَا

(951/838)

مَنْ يُنَفِّرُ عَنْهُمْ وَيُشَنِّعُ بِهَا عَلَيْهِمْ وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ يُنْكِرُهَا وَيَدْفَعُهَا كَمَا فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ الْمُنْكَرَةِ الَّتِي يَقُولُهَا بَعْضُ أَصْحَابِ أَحْمَد وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ فَإِنَّ جَمَاهِيرَ هَذِهِ الطَّوَائِفِ يُنْكِرُهَا وَأَحْمَد وَجُمْهُورُ أَصْحَابِهِ مُنْكِرُونَ لَهَا . وَكَلَامُهُمْ فِي إنْكَارِهَا وَرَدِّهَا كَثِيرٌ جِدًّا لَكِنْ يُوجَدُ فِي أَهْلِ الْحَدِيثِ مُطْلَقًا مِنْ الْحَنْبَلِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْغَلَطِ فِي الْإِثْبَاتِ أَكْثَرُ مِمَّا يُوجَدُ فِي أَهْلِ الْكَلَامِ وَيُوجَدُ فِي أَهْلِ الْكَلَامِ مِنْ الْغَلَطِ فِي النَّفْيِ أَكْثَرُ مِمَّا يُوجَدُ فِي أَهْلِ الْحَدِيثِ ؛ لِأَنَّ الْحَدِيثَ إنَّمَا جَاءَ بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ النَّفْيِ الَّذِي انْفَرَدَ بِهِ أَهْلُ الْكَلَامِ وَالْكَلَامُ الْمَأْخُوذُ عَنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ مَبْنِيٌّ عَلَى النَّفْيِ الْمُنَاقِضِ لِصَرَائِحِ

الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ ؛ بَلْ وَالْعَقْلُ الصَّرِيحُ أَيْضًا ؛ لَكِنَّهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّ الْعَقْلَ دَلَّ عَلَى النَّفْيِ وَقَدْ نَاقَضَهُمْ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَزَادُوا فِي الْإِثْبَاتِ كَالْهِشَامِيَّةِ وَالْكَرَّامِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ لَكِنَّ النَّفْيَ فِي جِنْسِ الْكَلَامِ الْمُبْتَدَعِ الَّذِي ذَمَّهُ السَّلَفُ أَكْثَرُ .

(952/838)

وَالْمُنْتَسِبُونَ إلَى السُّنَّةِ مِنْ الْحَنَابِلَةِ وَغَيْرِهِمْ الَّذِينَ جَعَلُوا لَفْظَ التَّأْوِيلِ يَعُمُّ الْقِسْمَيْنِ يَتَمَسَّكُونَ بِمَا يَجِدُونَهُ فِي كَلَامِ الْأَئِمَّةِ فِي الْمُتَشَابِهِ مِثْلُ قَوْلِ أَحْمَد فِي رِوَايَةِ حَنْبَلٍ وَلَا كَيْفَ وَلَا مَعْنَى ظَنُّوا أَنَّ مُرَادَهُ . أَنَّا لَا نَعْرِفُ مَعْنَاهَا . وَكَلَامُ أَحْمَد صَرِيحٌ بِخِلَافِ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَقَدْ بَيَّنَ أَنَّهُ إنَّمَا يُنْكِرُ تَأْوِيلَاتِ الْجَهْمِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ الَّذِينَ يَتَأَوَّلُونَ الْقُرْآنَ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ وَصَنَّفَ كِتَابَهُ فِي " الرَّدِّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ " فِيمَا أَنْكَرَتْهُ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَتَأَوَّلَتْهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ فَأَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَأْوِيلَ الْقُرْآنِ

(953/838)

عَلَى غَيْرِ مُرَادِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَهُمْ إِذَا تَأَوَّلُوهُ يَقُولُونَ: مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ كَذَا وَالْمُكَيِّفُونَ يُثْبِتُونَ كَيْفِيَّةً. يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ عَلِمُوا كَيْفِيَّةَ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ. فَنَفَى أَحْمَد قَوْلَ هَؤُلَاءِ وَقَوْلَ هَؤُلَاءِ: قَوْلَ الْمُكَيِّفَةِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّهُمْ عَلِمُوا الْكَيْفِيَّةَ وَقَوْلَ الْمُحَرِّفَةِ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ مَعْنَاهُ كَذَا وَكَذَا. وَقَدْ كَتَبْت كَلَامَ أَحْمَد بِأَلْفَاظِهِ - كَمَا ذَكَرَهُ الْخَلَّالُ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ وَكَمَا ذَكَرَهُ مَنْ نَقَلَ كَلَامَ أَحْمَد بِإِسْنَادِهِ فِي الْكُتُبِ الْمُصَنَّفَةِ فِي ذَلِكَ - فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَبَيَّنَ أَنَّ لَفْظَ التَّأْوِيلِ فِي الْآيَةِ إنَّمَا أُرِيدَ بِهِ التَّأْوِيلُ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ تَصْدِيقُ مَا وَعَدَ فِي الْقُرْآنِ وَعَنْ قتادة تَأْوِيلُهُ ثَوَابُهُ وَعَنْ مُجَاهِدٍ جَزَاؤُهُ وَعَنْ السدي عَاقِبَتُهُ وَعَنْ ابْنِ زَيْدٍ حَقِيقَتُهُ. قَالَ بَعْضُهُمْ تَأْوِيلُهُ مَا يَئُولُ إلَيْهِ أَمْرُهُمْ مِنْ الْعَذَابِ وَوُرُودِ النَّارِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾،

(954/838)

قَالَ بَعْضُهُمْ تَصْدِيقُ مَا وُعِدُوا بِهِ مِنْ الْوَعِيدِ وَالتَّأْوِيلُ مَا يَئُولُ إلَيْهِ الْأَمْرُ وَعَنْ الضَّحَّاكِ يَعْنِي عَاقِبَةَ مَا وَعَدَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ كَائِنٌ مِنْ الْوَعِيدِ وَالتَّأْوِيلُ مَا يَئُولُ إلَيْهِ الْأَمْرُ . وَقَالَ الثَّعْلَبِيُّ : تَفْسِيرُهُ . وَلَيْسَ بِشَيْءِ . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ عِلْمُ تَأْوِيلِهِ . وَقَالَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ فَجَعَلَ نَفْسَ سُجُودِ أَبَوَيْهِ لَهُ تَأْوِيلَ رُؤْيَاهُ . وَقَالَ قَبْلَ هَذَا : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ أَيْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا التَّأْوِيلُ . وَالْمَعْنَى لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ فِي الْمَنَامِ لَمَّا قَالَ أَحَدُهُمَا : ﴿ إنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا ﴾ . ﴿ إلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ فِي الْيَقَظَةِ ﴿ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ الطَّعَامُ هَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ وَهُوَ الصَّوَابُ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ تُطْعَمَانِهِ . وَتَأْكُلَانِهِ إلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ بِتَفْسِيرِهِ وَأَلْوَانِهِ أَيَّ طَعَامٍ أَكَلْتُمْ وَكَمْ أَكَلْتُمْ وَمَتَى أَكَلْتُمْ ؟ فَقَالُوا : هَذَا فِعْلُ الْعَرَّافِينَ وَالْكَهَنَةِ فَقَالَ مَا أَنَا بِكَاهِنِ وَإِنَّمَا ذَلِكَ الْعِلْمُ مِمَّا يُعَلِّمُنِي رَبِّي . وَهَذَا الْقَوْلُ لَيْسَ بِشَيْءِ فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ إلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ وَقَدْ قَالَ أَحَدُهُمَا : ﴿ إنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إنِّي

أَرَانِي أَحْمِل فَوْق رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُل الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ فَطَلَبَا مِنْهُ تَأْوِيل مَا رَأَيَاهُ وَأَخْبَرَهُمَا بِتَأْوِيلِ ذَاكَ وَلَمْ يَكُنْ تَأْوِيلُ الطَّعَامِ فِي

(956/838)

الْيَقَظَةِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ أَخْبَرَهُمَا بِمَا يُرْزَقَانِهِ فِي الْيَقَظَةِ فَكَيْفَ يَقُولُ قَوْلًا عَامًّا : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ وَهَذَا الْإِخْبَارُ الْعَامُّ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلَّا اللَّهُ وَالْأَنْبِيَاءُ يُخْبِرُونَ بِبَعْضِ ذَلِكَ لَا يُخْبِرُونَ بِكُلِّ هَذَا . وَأَيْضًا فَصِفَةُ الطَّعَامِ وَقَدْرُهُ لَيْسَ تَأْوِيلًا لَهُ . وَأَيْضًا فَاَللَّهُ إنَّمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ عَلَّمَهُ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وَقَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ الرُّؤْيَا قَالَ لَهُ الَّذِي ادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ : ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِي ﴾ وَالْمَلِكُ قَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ . فَهَذَا لَفْظُ التَّأْوِيلِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ كُلُّهَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَة : جَزَاءً وَثَوَابًا وَقَالَ السدي وَابْنُ زَيْدٍ وَابْنُ قُتَيْبَةَ

وَالزَّجَّاجُ: عَاقِبَةً . وَعَنْ ابْنِ زَيْدٍ أَيْضًا : تَصْدِيقًا . كَقَوْلِهِ : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ صَحِيحَةٌ

(957/838)

وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ وَهَذَا تَفْسِيرُ

السَّلَفِ أَجْمَعِينَ وَمِنْهُ قَوْلُهُ : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ فَلَمَّا ذَكَرَ لَهُ مَا ذَكَرَ قَالَ : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ . وَهَذَا تَأْوِيلُ فِعْلِهِ لَيْسَ هُوَ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ وَالْمُرَادُ بِهِ عَاقِبَةُ هَذِهِ الْأَفْعَالِ بِمَا يَئُولُ إلَيْهِ مَا فَعَلْته : مِنْ مَصْلَحَةِ أَهْلِ السَّفِينَةِ وَمَصْلَحَةِ أَبَوَيْ الْغُلَامِ وَمَصْلَحَةِ أَهْلِ الْجِدَارِ . وَأَمَّا قَوْلُ بَعْضِهِمْ : رَدُّكُمْ إلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ أَحْسَنُ مِنْ تَأْوِيلِكُمْ فَهَذَا قَدْ ذَكَرَهُ الزَّجَّاجُ عَنْ بَعْضِهِمْ وَهَذَا مِنْ جِنْسِ مَا ذُكِرَ فِي تِلْكَ الْآيَةِ فِي لَفْظِ التَّأْوِيلِ وَهُوَ تَفْسِيرٌ لَهُ بِالِاصْطِلَاحِ الْحَادِثِ لَا بِلُغَةِ الْقُرْآنِ فَأَمَّا قُدَمَاءُ الْمُفَسِّرِينَ فَلَفْظُ التَّأْوِيلِ وَالتَّفْسِيرِ عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ كَمَا يَقُولُ ابْنُ جَرِيرٍ : الْقَوْلُ فِي تَأْوِيلِ هَذِهِ الْآيَةِ . أَيْ فِي تَفْسِيرِهَا . وَلَمَّا كَانَ هَذَا مَعْنَى التَّأْوِيلِ عِنْدَ مُجَاهِدٍ وَهُوَ إمَامُ التَّفْسِيرِ جَعَلَ الْوَقْفَ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ فَإِنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ تَفْسِيرَهُ وَهَذَا

الْقَوْلُ اخْتِيَارُ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ . وَكَانَ ابْنُ قُتَيْبَةَ يَمِيلُ إلَى مَذْهَبِ أَحْمَد وَإِسْحَاقَ وَقَدْ بَسَطَ الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ فِي كِتَابِهِ فِي " الْمُشْكِلِ " وَغَيْرِهِ .

(958/838)

وَأَمَّا مُتَأَخِّرُو الْمُفَسِّرِينَ كَالثَّعْلَبِيِّ فَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ التَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ . قَالَ : فَمَعْنَى التَّفْسِيرِ هُوَ التَّنْوِيرُ وَكَشْفُ الْمُغْلَقِ مِنْ الْمُرَادِ بِلَفْظِهِ

(959/838)

وَالتَّأْوِيلُ : صَرْفُ الْآيَةِ إلَى مَعْنًى تَحْتَمِلُهُ يُوَافِقُ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا وَتَكَلَّمَ فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا بِكَلَامٍ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَهُ إلَّا أَنَّ التَّأْوِيلَ الَّذِي ذَكَرَهُ . هُوَ الْمَعْنَى الثَّالِثُ الْمُتَأَخِّرُ وَأَبُو الْفَرَجِ بْنُ الْجَوْزِيِّ يَقُولُ : اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ هَلْ التَّفْسِيرُ وَالتَّأْوِيلُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ ؟ أَمْ يَخْتَلِفَانِ ؟ فَذَهَبَ قَوْمٌ يَمِيلُونَ إلَى الْعَرَبِيَّةِ : إلَى أَنَّهُمَا بِمَعْنًى وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ الْمُتَقَدِّمِينَ . وَذَهَبَ قَوْمٌ يَمِيلُونَ إلَى الْفِقْهِ : إلَى اخْتِلَافِهِمَا فَقَالُوا : التَّفْسِيرُ إخْرَاجُ الشَّيْءِ عَنْ مَقَامِ الْخَفَاءِ إلَى مَقَامِ التَّجَلِّي وَالتَّأْوِيلُ : نَقْلُ الْكَلَامِ عَنْ وَضْعِهِ إلَى مَا يَحْتَاجُ فِي إثْبَاتِهِ إلَى دَلِيلٍ لَوْلَاهُ مَا تُرِكَ

ظَاهِرُ اللَّفْظِ فَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِك آلَ الشَّيْءُ إلَى كَذَا . أَيْ صَارَ إلَيْهِ فَهَؤُلَاءِ لَا يَذْكُرُونَ لِلتَّأْوِيلِ إلَّا الْمَعْنَى الْأَوَّلَ وَالثَّانِيَ وَأَمَّا التَّأْوِيلُ فِي لُغَةِ الْقُرْآنِ فَلَا يَذْكُرُونَهُ وَقَدْ عُرِفَ أَنَّ التَّأْوِيلَ فِي الْقُرْآنِ هُوَ الْمَوْجُودُ الَّذِي يَئُولُ إلَيْهِ الْكَلَامُ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُوَافِقًا الْمَعْنَى الَّذِي يَظْهَرُ مِنْ اللَّفْظِ بَلْ لَا يُعْرَفُ فِي الْقُرْآنِ لَفْظُ التَّأْوِيلِ مُخَالِفًا لِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ خِلَافَ اصْطِلَاحِ الْمُتَأَخِّرِينَ . وَالْكَلَامُ نَوْعَانِ : إنْشَاءٌ وَإِخْبَارٌ . فَالْإِنْشَاءُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْإِبَاحَةُ وَتَأْوِيلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ نَفْسُ فِعْلِ الْمَأْمُورِ وَنَفْسُ تَرْكِ الْمَحْظُورِ . كَمَا فِي الصَّحِيحِ ﴿ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ

(960/838)

اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ سُبْحَانَك اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِك

(961/838)

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ ﴾ فَكَانَ هَذَا الْكَلَامُ تَأْوِيلَ قَوْلِهِ : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ . قَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ : السُّنَّةُ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ لَمَّا ذَكَرَ

اخْتِلَافَ الْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ اللُّغَةِ فِي ﴿ نَهْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ اشْتِمَالِ الصَّمَّاءِ ﴾ قَالَ: وَالْفُقَهَاءُ أَعْلَمُ بِالتَّأْوِيلِ. يَقُولُ: هُمْ أَعْلَمُ بِتَأْوِيلِ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ؛ وَمَا نَهَى عَنْهُ فَيَعْرِفُونَ أَعْيَانَ الْأَفْعَالِ الْمَوْجُودَةِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا وَأَعْيَانَ الْأَفْعَالِ الْمَحْظُورَةِ الَّتِي نَهَى عَنْهَا. وَتَفْسِيرُ كَلَامِهِ لَيْسَ هُوَ نَفْسَ مَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ؛ بَلْ هُوَ بَيَانُهُ وَشَرْحُهُ وَكَشْفُ مَعْنَاهُ. فَالتَّفْسِيرُ مِنْ جِنْسِ الْكَلَامِ: يُفَسَّرُ الْكَلَامُ بِكَلَامٍ يُوضِّحُهُ. وَأَمَّا التَّأْوِيلُ فَهُوَ فِعْلُ الْمَأْمُورِ بِهِ وَتَرْكُ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ لَيْسَ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْكَلَامِ. وَالنَّوْعُ الثَّانِي: الْخَبَرُ كَإِخْبَارِ الرَّبِّ عَنْ نَفْسِهِ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَإِخْبَارِهِ عَمَّا ذَكَرَهُ لِعِبَادِهِ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ وَهَذَا كَقَوْلِهِمْ: ﴿ يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ: ﴿

(962/838)

انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ وَنَظَائِرُهُ مُتَعَدِّدَةٌ فِي الْقُرْآنِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ فَإِنَّ مَا وُعِدُوا بِهِ فِي الْقُرْآنِ لَمَّا يَأْتِهِمْ بَعْدُ وَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ . فَالتَّفْسِيرُ هُوَ الْإِحَاطَةُ بِعِلْمِهِ وَالتَّأْوِيلُ هُوَ نَفْسُ مَا وُعِدُوا بِهِ إذَا أَتَاهُمْ فَهُمْ كَذَّبُوا بِالْقُرْآنِ الَّذِي لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ؛ وَقَدْ يُحِيطُ النَّاسُ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ فَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِيطُ بِعِلْمِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ تَأْوِيلُهُ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ وَفِي الْحَدِيثِ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ الْآيَةَ : قَالَ : إنَّهَا كَائِنَةٌ وَلَمْ يَأْتِ تَأْوِيلُهَا بَعْدُ ﴾ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ قَالَ بَعْضُهُمْ : مَوْضِعُ قَرَارٍ وَحَقِيقَةٌ وَمُنْتَهًى يَنْتَهِي إلَيْهِ فَيَتَبَيَّنُ حَقُّهُ مِنْ بَاطِلِهِ وَصِدْقُهُ مِنْ كَذِبِهِ . وَقَالَ مُقَاتِلٌ : لِكُلِّ خَبَرٍ يُخْبِرُ بِهِ اللَّهُ وَقْتٌ وَمَكَانٌ يَقَعُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ خُلْفٍ وَلَا تَأْخِيرٍ . وَقَالَ ابْنُ السَّائِبِ : لِكُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ حَقِيقَةٌ مَا

(964/838)

كَانَ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا فَسَتَعْرِفُونَهُ وَمَا كَانَ مِنْهُ فِي الْآخِرَةِ فَسَوْفَ

(965/838)

يَبْدُو لَكُمْ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . وَقَالَ الْحَسَنُ : لِكُلِّ عَمَلٍ جَزَاءٌ ؛ فَمَنْ عَمِلَ عَمَلًا مِنْ الْخَيْرِ جُوزِيَ بِهِ فِي الْجَنَّةِ وَمَنْ عَمِلَ عَمَلَ سُوءٍ جُوزِيَ بِهِ فِي النَّارِ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . وَمَعْنَى قَوْلِ الْحَسَنِ : أَنَّ الْأَعْمَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْهَا الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ فَالْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ عَلَيْهَا هُوَ النَّبَأُ الَّذِي لَهُ الْمُسْتَقَرُّ فَبَيَّنَ الْمَعْنَى وَلَمْ يُرِدْ أَنَّ نَفْسَ الْجَزَاءِ هُوَ نَفْسُ النَّبَأِ . وَعَنْ السدي قَالَ : ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ أَيْ مِيعَادٌ وَعَدْتُكُمُوهُ فَسَيَأْتِيكُمْ حَتَّى تَعْرِفُونَهُ وَعَنْ عَطَاءٍ : ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ تُؤَخَّرُ عُقُوبَتُهُ لِيَعْمَلَ ذَنْبَهُ " فَإِذَا عَمِلَ ذَنْبَهُ عَاقَبَهُ أَيْ لَا يُعَاقَبُ بِالْوَعِيدِ حَتَّى يَفْعَلَ الذَّنْبَ الَّذِي تَوَعَّدَهُ عَلَيْهِ . وَمِنْهُ قَوْلُ كَثِيرٍ مِنْ السَّلَفِ فِي آيَاتٍ : هَذِهِ ذَهَبَ تَأْوِيلُهَا وَهَذِهِ لَمْ يَأْتِ تَأْوِيلُهَا مِثْلَ مَا رَوَى أَبُو الْأَشْهَبِ عَنْ الْحَسَنِ وَالرَّبِيعِ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قُرِئَتْ عَلَى ابْنِ مَسْعُودٍ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ الْآيَةَ . فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ

: لَيْسَ هَذَا بِزَمَانِهَا قُولُوهَا مَا قُبِلَتْ مِنْكُمْ فَإِذَا رُدَّتْ عَلَيْكُمْ فَعَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ حَيْثُ نَزَلَ فَمِنْهُ آيٌ قَدْ مَضَى تَأْوِيلُهُنَّ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلْنَ وَمِنْهُ آيٌ وَقَعَ تَأْوِيلُهُنَّ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْهُ آيٌ وَقَعَ تَأْوِيلُهُنَّ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَسِيرٍ وَمِنْهُ آيٌ يَقَعُ

(966/838)

تَأْوِيلُهُنَّ بَعْدَ الْيَوْمِ وَمِنْهُ آيٌ يَقَعُ تَأْوِيلُهُنَّ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَمِنْهُ آيٌ يَقَعُ تَأْوِيلُهُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا ذُكِرَ مِنْ الْحِسَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ . فَمَا

(967/838)

دَامَتْ قُلُوبُكُمْ وَأَهْوَاؤُكُمْ وَاحِدَةً وَلَمْ تَلْبَسُوا شِيَعًا وَلَمْ يَذُقْ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَأْمُرُوا وَانْهَوْا فَإِذَا اخْتَلَفَتْ الْقُلُوبُ وَالْأَهْوَاءُ وَأُلْبِسْتُمْ شِيَعًا وَذَاقَ بَعْضُكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَامْرُؤٌ وَنَفْسُهُ فَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ تَأْوِيلُ هَذِهِ الْآيَةِ . فَابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَدْ ذَكَرَ فِي هَذَا الْكَلَامِ تَأْوِيلَ الْأَمْرِ وَتَأْوِيلَ الْخَبَرِ فَهَذِهِ الْآيَةُ ﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ مِنْ بَابِ الْأَمْرِ وَمَا ذُكِرَ مِنْ

الْحِسَابِ وَالْقِيَامَةِ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ وَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ تَأْوِيلَ الْخَبَرِ هُوَ وُجُودُ الْمُخْبَرِ بِهِ وَتَأْوِيلُ الْأَمْرِ هُوَ فِعْلُ الْمَأْمُورِ بِهِ فَالْآيَةُ الَّتِي مَضَى تَأْوِيلُهَا قَبْلَ نُزُولِهَا هِيَ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ: يَقَعُ الشَّيْءُ فَيَذْكُرُهُ اللَّهُ كَمَا ذَكَرَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ قَوْلِ الْمُشْرِكِينَ لِلرَّسُولِ وَتَكْذِيبِهِمْ لَهُ وَهِيَ وَإِنَّ مَضَى تَأْوِيلُهَا فَهِيَ عِبْرَةٌ وَمَعْنَاهَا ثَابِتٌ فِي نَظِيرِهَا وَمِنْ هَذَا قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: خَمْسٌ قَدْ مَضَيْنَ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾. وَإِذَا تَبَيَّنَ ذَلِكَ؛ فَالْمُتَشَابِهُ مِنْ الْأَمْرِ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ تَأْوِيلِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ فِعْلِ الْمَأْمُورِ وَتَرْكِ الْمَحْظُورِ وَذَلِكَ لَا يُمْكِنُ إلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ؛ لَكِنْ لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَقْتَضِي أَنَّ فِي الْأَمْرِ مُتَشَابِهًا فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ قَدْ يُرَادُ بِهِ مِنْ الْخَبَرِ فَالْمُتَشَابِهُ مِنْ الْخَبَرِ مِثْلُ مَا أَخْبَرَ بِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْ اللَّحْمِ وَاللَّبَنِ وَالْعَسَلِ

(968/838)

وَالْمَاءِ وَالْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ فَإِنَّ بَيْنَ

(969/838)

هذا وبين ما في الدنيا تشابه في اللفظ والمعنى ومع هذا فحقيقة ذلك مخالفة لحقيقة هذا وتلك الحقيقة لا نعلمها نحن في الدنيا وقد قال الله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ وفي الحديث الصحيح ﴿ يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴾ فهذا الذي وعد الله به عباده المؤمنين لا تعلمه نفس هو من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله وكذلك وقت الساعة لا يعلمه إلا الله وأشراطها وكذلك كيفيات ما يكون فيها من الحساب والصراط والميزان والحوض والثواب والعقاب لا يعلم كيفيته إلا الله فإنه لم يخلق بعد حتى تعلمه الملائكة ولا له نظير مطابق من كل وجه حتى يعلم به فهو من تأويل المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله . وكذلك ما أخبر به الرب عن نفسه مثل استوائه على عرشه وسمعه وبصره وكلامه وغير ذلك فإن كيفيات ذلك لا يعلمها إلا الله كما قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن ومالك بن أنس . وسائر أهل العلم : تلقوا هذا الكلام عنهما بالقبول لما قيل : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ كيف استوى ؟ فقال : الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب

وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ . هَذَا لَفْظُ مَالِكٍ . فَأَخْبَرَ أَنَّ الِاسْتِوَاءَ مَعْلُومٌ وَهَذَا تَفْسِيرُ اللَّفْظِ وَأَخْبَرَ أَنَّ الْكَيْفَ مَجْهُولٌ وَهَذَا هُوَ الْكَيْفِيَّةُ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهَا .

(971/838)

وَكَذَلِكَ سَائِرُ السَّلَفِ كَابْنِ الماجشون وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمَا يُبَيِّنُونَ أَنَّ الْعِبَادَ لَا يَعْلَمُونَ كَيْفِيَّةَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ فَالْكَيْفُ هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ . وَأَمَّا نَفْسُ الْمَعْنَى الَّذِي بَيَّنَهُ اللَّهُ فَيَعْلَمُهُ النَّاسُ كُلٌّ عَلَى قَدْرِ فَهْمِهِ فَإِنَّهُمْ يَفْهَمُونَ مَعْنَى السَّمْعِ وَمَعْنَى الْبَصَرِ " وَأَنَّ مَفْهُومَ هَذَا لَيْسَ هُوَ مَفْهُومَ هَذَا وَيَعْرِفُونَ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الْعَلِيمِ وَالْقَدِيرِ وَإِنْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ كَيْفِيَّةَ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ بَلْ الرُّوحُ الَّتِي فِيهِمْ يَعْرِفُونَهَا مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ وَلَا يَعْرِفُونَ كَيْفِيَّتَهَا كَذَلِكَ يَعْلَمُونَ مَعْنَى الِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ . وَأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ عُلُوَّ الرَّبِّ عَلَى عَرْشِهِ وَارْتِفَاعَهُ عَلَيْهِ كَمَا فَسَّرَهُ بِذَلِكَ السَّلَفُ قَبْلَهُمْ وَهَذَا مَعْنًى مَعْرُوفٌ مِنْ اللَّفْظِ لَا يَحْتَمِلُ فِي اللُّغَةِ غَيْرَهُ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ وَلِهَذَا قَالَ مَالِكٌ : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ . وَمَنْ قَالَ : الِاسْتِوَاءُ لَهُ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ فَقَدْ أَجْمَلَ كَلَامَهُ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ : اسْتَوَى فَقَطْ . وَلَا يَصِلُونَهُ بِحَرْفِ وَهَذَا لَهُ مَعْنًى . وَيَقُولُونَ : اسْتَوَى عَلَى كَذَا وَلَهُ مَعْنًى وَاسْتَوَى إلَى كَذَا وَلَهُ مَعْنًى وَاسْتَوَى مَعَ كَذَا وَلَهُ مَعْنًى فَتَتَنَوَّعُ مَعَانِيهِ بِحَسَبِ صِلَاتِهِ . وَأَمَّا اسْتَوَى عَلَى كَذَا فَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ

وَلُغَةِ الْعَرَبِ الْمَعْرُوفَةِ إلَّا بِمَعْنًى وَاحِدٍ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ وَقَالَ ﴿

(972/838)

وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ

(973/838)

وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ ﴾ وَقَدْ ﴿ أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدَابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي الْغَرْزِ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ فَلَمَّا اسْتَوَى عَلَى ظَهْرِهَا قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ ﴿ وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : أَهَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَجِّ لَمَّا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ ﴾ وَهَذَا الْمَعْنَى يَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ : عُلُوَّهُ عَلَى مَا اسْتَوَى عَلَيْهِ وَاعْتِدَالَهُ أَيْضًا . فَلَا يُسَمُّونَ الْمَائِلَ عَلَى الشَّيْءِ مُسْتَوِيًا عَلَيْهِ وَمِنْهُ حَدِيثُ الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَد لَمَّا قَالَ : اسْتَوُوا . وَقَوْلُهُ : ثُمَّ اسْتَوَى بِشْرٌ عَلَى الْعِرَاقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مهراق هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ ؛ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِهِ بِشْرُ بْنُ مَرْوَانَ

وَاسْتِوَاؤُهُ عَلَيْهَا أَيْ عَلَى كُرْسِيِّ مُلْكِهَا لَمْ يُرِدْ بِذَلِكَ مُجَرَّدَ الِاسْتِيلَاءِ ؛ بَلْ اسْتِوَاءٌ مِنْهُ عَلَيْهَا ؛ إذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ الَّذِي هُوَ الْخَلِيفَةُ قَدْ اسْتَوَى أَيْضًا عَلَى الْعِرَاقِ وَعَلَى سَائِرِ مَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِ وَلَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَدْ اسْتَوَى عَلَى الْعِرَاقِ وَخُرَاسَانَ وَالشَّامِ وَمِصْرَ وَسَائِرِ مَا فَتَحَهُ وَلَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ اسْتَوَى عَلَى الْيَمَنِ وَغَيْرِهَا مِمَّا فَتَحَهُ . وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُوجَدْ فِي كَلَامِهِمْ اسْتِعْمَالُ الِاسْتِوَاءِ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا وَإِنَّمَا قِيلَ فِيمَنْ اسْتَوَى بِنَفْسِهِ عَلَى بَلَدٍ ؛ فَإِنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَى سَرِيرِ مُلْكِهِ كَمَا يُقَالُ جَلَسَ فُلَانٌ عَلَى السَّرِيرِ وَقَعَدَ عَلَى التَّخْتِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ . ﴿

(974/838)

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ إنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ .

(975/838)

وقول الزمخشري وغيره: استوى على كذا بمعنى ملك" دعوى مجردة. فليس لها شاهد في كلام العرب ولو قدر ذلك لكان هذا المعنى باطلا في استواء الله على العرش؛ لأنه أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش وقد أخبر أن العرش كان موجودا قبل خلق السموات والأرض كما دل على ذلك الكتاب والسنة وحينئذ فهو من حين خلق العرش مالك له مستول عليه فكيف يكون الاستواء عليه مؤخرا عن خلق السموات والأرض. وأيضا فهو مالك لكل شيء مستول عليه فلا يخص العرش بالاستواء وليس هذا كتخصيصه بالربوبية في قوله ﴿ رب العرش العظيم ﴾ فإنه قد يخص لعظمته ولكن يجوز ذلك في سائر المخلوقات فيقال: رب العرش ورب كل شيء وأما الاستواء فمختص بالعرش فلا يقال استوى على العرش وعلى كل شيء ولا استعمل ذلك أحد من المسلمين في كل شيء ولا يوجد في كتاب ولا سنة كما استعمل لفظ الربوبية في العرش خاصة وفي كل شيء عامة وكذلك لفظ الخلق ونحوه من الألفاظ التي تخص وتعم. كقوله تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ فالاستواء من الألفاظ المختصة بالعرش لا تضاف إلى غيره لا خصوصا ولا عموما وهذا

مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ . وَإِنَّمَا الْغَرَضُ بَيَانُ صَوَابِ كَلَامِ السَّلَفِ فِي قَوْلِهِمْ : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ

(977/838)

بِخِلَافِ مَنْ جَعَلَ هَذَا اللَّفْظَ لَهُ بِضْعَةَ عَشَرَ مَعْنًى . كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ عَرَبِيٍّ الْمُعَافِرِي . يُبَيِّنُ هَذَا أَنَّ سَبَبَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ كَانَ قُدُومَ نَصَارَى نَجْرَانَ وَمُنَاظَرَتَهُمْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْرِ الْمَسِيحِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ وَأَهْلُ السِّيرَةِ وَهُوَ مِنْ الْمَشْهُورِ بَلْ مِنْ الْمُتَوَاتِرِ أَنَّ نَصَارَى نَجْرَانَ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَعَاهُمْ إلَى الْمُبَاهَلَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ فَأَقَرُّوا بِالْجِزْيَةِ وَلَمْ يُبَاهِلُوهُ وَصَدْرُ آلِ عِمْرَانَ نَزَلَ بِسَبَبِ مَا جَرَى ؛ وَلِهَذَا عَامَّتُهَا فِي أَمْرِ الْمَسِيحِ وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ احْتَجُّوا بِمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ لَفْظِ (أَنَّا) و (نَحْنُ) وَنَحْوِ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْآلِهَةَ ثَلَاثَةٌ فَاتَّبَعُوا الْمُتَشَابِهَ وَتَرَكُوا الْمُحْكَمَ الَّذِي فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ فَإِنَّهُمْ قَصَدُوا بِذَلِكَ الْفِتْنَةَ وَهِيَ فِتْنَةُ الْقُلُوبِ بِالْكُفْرِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِ لَفْظِ (إنَّا) و (نَحْنُ) وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ إلَّا اللَّهُ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَسْمَاءَ إنَّمَا تُقَالُ لِلْوَاحِدِ الَّذِي لَهُ أَعْوَانٌ إمَّا أَنْ يَكُونُوا شُرَكَاءَ لَهُ وَإِمَّا أَنْ يَكُونُوا مَمَالِيكَ لَهُ . وَلِهَذَا صَارَتْ مُتَشَابِهَةً فَإِنَّ الَّذِي مَعَهُ شُرَكَاءُ يَقُولُ : فَعَلْنَا نَحْنُ كَذَا وَإِنَّا نَفْعَلُ

نَحْنُ كَذَا وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى وَالَّذِي لَهُ مَمَالِيكُ وَمُطِيعُونَ يُطِيعُونَهُ - كَالْمَلِكِ - يَقُولُ:

(978/838)

فَعَلْنَا كَذَا. أَيْ أَنَا

(979/838)

فَعَلْت بِأَهْلِ مُلْكِي وَمِلْكِي وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ مَخْلُوقٌ لَهُ مَمْلُوكٌ لَهُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُدَبِّرُ أَمْرَ الْعَالَمِ بِنَفْسِهِ وَمَلَائِكَتِهِ الَّتِي هِيَ رُسُلُهُ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ أَحَقُّ مَنْ قَالَ: إنَّا وَنَحْنُ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَإِنَّ مَا سِوَاهُ لَيْسَ لَهُ مُلْكٌ تَامٌّ وَلَا أَمْرٌ مُطَاعٌ طَاعَةً تَامَّةً فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ أَنْ يَقُولَ: (إنَّا و (نَحْنُ وَالْمُلُوكُ لَهُمْ شَبَهٌ بِهَذَا فَصَارَ فِيهِ أَيْضًا مِنْ الْمُتَشَابِهِ مَعْنًى آخَرُ وَلَكِنَّ الَّذِي يُنْسَبُ لِلَّهِ مِنْ هَذَا الِاخْتِصَاصِ لَا يُمَاثِلُهُ فِيهِ شَيْءٌ وَتَأْوِيلُ ذَلِكَ مَعْرِفَةُ مَلَائِكَتِهِ وَصِفَاتِهِمْ وَأَقْدَارِهِمْ وَكَيْفَ يُدَبِّرُ بِهِمْ أَمْرَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلَّا هُوَ ﴾ فَهَذَا التَّأْوِيلُ لِهَذَا الْمُتَشَابِهِ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا هُوَ وَإِنْ عَلِمْنَا تَفْسِيرَهُ وَمَعْنَاهُ؛

لَكِنْ لَمْ نَعْلَمْ تَأْوِيلَهُ الْوَاقِعَ فِي الْخَارِجِ؛ بِخِلَافِ قَوْلِهِ: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ ﴾ فَإِنَّهَا آيَةٌ مُحْكَمَةٌ لَيْسَ فِيهَا تَشَابُهٌ فَإِنَّ هَذَا الِاسْمَ مُخْتَصٌّ بِاللَّهِ لَيْسَ مِثْل (إنَّا و (نَحْنُ الَّتِي تُقَالُ لِمَنْ لَهُ شُرَكَاءُ وَلِمَنْ لَهُ أَعْوَانٌ يَحْتَاجُ إلَيْهِمْ وَاَللَّهُ تَعَالَى مُنَزَّهٌ عَنْ هَذَا وَهَذَا . كَمَا قَالَ: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ وَقَالَ: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ

(980/838)

فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ فَالْمَعْنَى الَّذِي يُرَادُ بِهِ هَذَا فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِينَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَظِيرُهُ ثَابِتًا لِلَّهِ؛ فَلِهَذَا صَارَ مُتَشَابِهًا .

(981/838)

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴾ فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ: ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ وَقَالَ: ﴿ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ ﴾ وَقَالَ: ﴿ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ

﴾ وَقَالَ: ﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ فَهَذَا الِاسْتِوَاءُ كُلُّهُ يَتَضَمَّنُ حَاجَةَ الْمُسْتَوِي إلَى الْمُسْتَوَى عَلَيْهِ وَأَنَّهُ لَوْ عَدِمَ مَنْ تَحْتَهُ لَخَرَّ وَاَللَّهُ تَعَالَى غَنِيٌّ عَنْ الْعَرْشِ وَعَنْ كُلِّ شَيْءٍ بَلْ هُوَ سُبْحَانَهُ بِقُدْرَتِهِ يَحْمِلُ الْعَرْشَ وَحَمَلَةَ الْعَرْشِ وَقَدْ رُوِيَ: أَنَّهُمْ إنَّمَا أَطَاقُوا حَمْلَ الْعَرْشِ لَمَّا أَمَرَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ. فَصَارَ لَفْظُ الِاسْتِوَاءِ مُتَشَابِهًا يَلْزَمُهُ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِينَ مَعَانِي يُنَزَّهُ. اللَّهُ عَنْهَا. فَنَحْنُ نَعْلَمُ مَعْنَاهُ وَأَنَّهُ الْعُلُوُّ وَالِاعْتِدَالُ؛ لَكِنْ لَا نَعْلَمُ الْكَيْفِيَّةَ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا الرَّبُّ الَّتِي يَكُونُ بِهَا مُسْتَوِيًا مِنْ غَيْرِ افْتِقَارٍ مِنْهُ إلَى الْعَرْشِ بَلْ مَعَ حَاجَةِ الْعَرْشِ وَكُلِّ شَيْءٍ مُحْتَاجٌ إلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَأَنَّا لَمْ نَعْهَدْ فِي الْمَوْجُودَاتِ مَا يَسْتَوِي عَلَى غَيْرِهِ مَعَ غِنَاهُ عَنْهُ وَحَاجَةِ ذَلِكَ الْمُسْتَوَى عَلَيْهِ إلَى الْمُسْتَوِي فَصَارَ مُتَشَابِهًا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ فَإِنَّ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ وَالْمَعْنَيَيْنِ قَدْرًا مُشْتَرَكًا وَبَيْنَهُمَا قَدْرًا فَارِقًا هُوَ مُرَادٌ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا وَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ الْفَارِقَ الَّذِي امْتَازَ الرَّبُّ بِهِ فَصِرْنَا نَعْرِفُهُ مِنْ وَجْهٍ وَنَجْهَلُهُ مِنْ وَجْهٍ وَذَلِكَ هُوَ تَأْوِيلُهُ وَالْأَوَّلُ هُوَ تَفْسِيرُهُ.

(982/838)

وَكَذَلِكَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ وَالْمَلَابِسِ: كَاللَّبَنِ وَالْعَسَلِ وَالْخَمْرِ وَالْمَاءِ فَإِنَّا لَا نَعْرِفُ لَبَنًا إلَّا مَخْلُوقًا مِنْ مَاشِيَةٍ

يَخرُجُ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ وإِذَا بَقِيَ أَيَّامًا يَتَغَيَّرُ طَعْمُهُ وَلَا نَعْرِفُ عَسَلًا إلَّا مِنْ نَحْلٍ تَصْنَعُهُ فِي بُيُوتِ الشَّمْعِ الْمُسَدَّسَةِ فَلَيْسَ هُوَ عَسَلًا مُصَفًّى وَلَا نَعْرِفُ حَرِيرًا إلَّا مِنْ دُودِ الْقَزِّ وَهُوَ يَبْلَى وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ مَا وَعَدَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ لَيْسَ مُمَاثِلًا لِهَذِهِ لَا فِي الْمَادَّةِ وَلَا فِي الصُّورَةِ وَالْحَقِيقَةِ بَلْ لَهُ حَقِيقَةٌ تُخَالِفُ حَقِيقَةَ هَذِهِ وَذَلِكَ هُوَ مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا نَعْلَمُهُ نَحْنُ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَيْسَ فِي الدُّنْيَا مِمَّا فِي الْجَنَّةِ إلَّا الْأَسْمَاءُ . لَكِنْ يُقَالُ : فَالْمَلَائِكَةُ قَدْ تَعْلَمُ هَذَا . فَيُقَالُ : هِيَ لَا تَعْلَمُ مَا لَمْ يُخْلَقْ بَعْدُ وَلَا تَعْلَمُ كُلَّ مَا فِي الْجَنَّةِ وَأَيْضًا فَمِنْ النِّعَمِ مَا لَا تَعْرِفُهُ الْمَلَائِكَةُ وَالتَّأْوِيلُ يَتَنَاوَلُ هَذَا كُلَّهُ . وَإِذَا قَدَّرْنَا أَنَّهَا تَعْرِفُ مَا لَا نَعْرِفُهُ فَذَاكَ لَا يَكُونُ مِنْ الْمُتَشَابِهِ عِنْدَهَا وَيَكُونُ مِنْ الْمُتَشَابِهِ عِنْدَنَا فَإِنَّ الْمُتَشَابِهَ قَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ صِفَةٌ لَازِمَةٌ لِلْآيَةِ وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مِنْ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ فَقَدْ يَكُونُ . مُتَشَابِهًا عِنْدَ هَذَا مَا لَا يَكُونُ مُتَشَابِهًا عِنْدَ هَذَا .

(983/838)

وَكَلَامُ الْإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ مِنْ السَّلَفِ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ هَذَا فَإِنَّ أَحْمَد ذَكَرَ فِي رَدِّهِ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ : أَنَّهَا احْتَجَّتْ بِثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ الْمُتَشَابِهِ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ وَقَدْ فَسَّرَ أَحْمَد قَوْلَهُ :

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ . فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ مِمَّا عَلِمْنَا مَعْنَاهَا لَمْ تَكُنْ مُتَشَابِهَةً عِنْدَنَا وَهِيَ مُتَشَابِهَةٌ عِنْدَ مَنْ احْتَجَّ بِهَا وَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهَا هُوَ إلَى مَا يَعْرِفُهُ مِنْ الْمُحْكَمِ وَكَذَلِكَ قَالَ أَحْمَد فِي تَرْجَمَةِ كِتَابِهِ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي الْحَبْسِ وَهُوَ الرَّدُّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ فِيمَا شَكَّتْ فِيهِ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَتَأَوَّلَتْهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ ثُمَّ فَسَّرَ أَحْمَد تِلْكَ الْآيَاتِ آيَةً آيَةً فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مُتَشَابِهَةً عِنْدَهُ بَلْ قَدْ عَرَفَ مَعْنَاهَا . وَعَلَى هَذَا فَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَ هَذَا الْمُتَشَابِهِ الَّذِي هُوَ تَفْسِيرُهُ وَأَمَّا التَّأْوِيلُ الَّذِي هُوَ الْحَقِيقَةُ الْمَوْجُودَةُ فِي الْخَارِجِ فَتِلْكَ لَا يَعْلَمُهَا إلَّا اللَّهُ وَلَكِنْ قَدْ يُقَالُ هَذَا الْمُتَشَابِهُ الْإِضَافِيُّ لَيْسَ هُوَ الْمُتَشَابِهَ الْمَذْكُورَ فِي الْقُرْآنِ فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ وَإِنَّمَا هَذَا كَمَا يُشْكِلُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ آيَاتٌ لَا يَفْهَمُونَ مَعْنَاهَا وَغَيْرُهُمْ مِنْ النَّاسِ يَعْرِفُ مَعْنَاهَا وَعَلَى هَذَا فَقَدْ يُجَابُ بِجَوَابَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ فِي الْآيَةِ قِرَاءَتَانِ قِرَاءَةُ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ إلَّا اللَّهُ وَقِرَاءَةُ مَنْ يَقِفُ عِنْدَ قَوْلِهِ ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ وَكِلْتَا الْقِرَاءَتَيْنِ حَقٌّ وَيُرَادُ بِالْأُولَى الْمُتَشَابِهُ فِي نَفْسِهِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِ تَأْوِيلِهِ وَيُرَادُ بِالثَّانِيَةِ الْمُتَشَابِهُ

(985/838)

الْإِضَافِيُّ الَّذِي يَعْرِفُ الرَّاسِخُونَ تَفْسِيرَهُ وَهُوَ تَأْوِيلُهُ وَمِثْلُ هَذَا يَقَعُ فِي الْقُرْآنِ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ

(986/838)

لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ وَ (لَتَزُولُ) فِيهِ قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ بِالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ وَكُلُّ قِرَاءَةٍ لَهَا مَعْنًى صَحِيحٌ. وَكَذَلِكَ الْقِرَاءَةُ الْمَشْهُورَةُ: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ وَقَرَأَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ: لَتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَكِلَا الْقِرَاءَتَيْنِ حَقٌّ فَإِنَّ الَّذِي يَتَعَدَّى حُدُودَ اللَّهِ هُوَ الظَّالِمُ وَتَارِكُ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِ قَدْ يُجْعَلُ غَيْرَ ظَالِمٍ لِكَوْنِهِ لَمْ يُشَارِكْهُ وَقَدْ يُجْعَلُ ظَالِمًا بِاعْتِبَارِ مَا تَرَكَ مِنَ الْإِنْكَارِ الْوَاجِبِ وَعَلَى هَذَا قَوْلُهُ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ فَأَنْجَى اللَّهُ النَّاهِينَ. وَأَمَّا أُولَئِكَ الْكَارِهُونَ لِلذَّنْبِ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ﴾ فَالْأَكْثَرُونَ عَلَى أَنَّهُمْ نَجَوْا لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَارِهِينَ فَأَنْكَرُوا بِحَسَبِ قُدْرَتِهِمْ. وَأَمَّا مَنْ

تَرَكَ الْإِنْكَارَ مُطْلَقًا فَهُوَ ظَالِمٌ يُعَذَّبُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ ﴾ وَهَذَا الْحَدِيثُ مُوَافِقٌ لِلْآيَةِ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُ يَصِحُّ النَّفْيُ وَالْإِثْبَاتُ بِاعْتِبَارَيْنِ كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ أَيْ لَا تَخْتَصُّ بِالْمُعْتَدِينَ بَلْ تَتَنَاوَلُ مَنْ رَأَى الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيِّرْهُ وَمَنْ قَرَأَ لَتُصِيبَنَّ الَّذِينَ

(987/838)

ظَلَمُوا مِنْكُمْ

(988/838)

خَاصَّةً أَدْخَلَ فِي ذَلِكَ مَنْ تَرَكَ الْإِنْكَارَ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهِ وَقَدْ يُرَادُ بِذَلِكَ أَنَّهُمْ يُعَذَّبُونَ فِي الدُّنْيَا وَيُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ كَالْجَيْشِ الَّذِينَ يَغْزُونَ الْبَيْتَ فَيُخْسَفُ بِهِمْ كُلِّهِمْ وَيُحْشَرُ الْمُكْرَهُ عَلَى نِيَّتِهِ . وَالْجَوَابُ الثَّانِي : الْقَطْعُ بِأَنَّ الْمُتَشَابِهَ الْمَذْكُورَ فِي الْقُرْآنِ هُوَ تَشَابُهُهَا فِي نَفْسِهَا اللَّازِمُ لَهَا وَذَاكَ الَّذِي لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ وَأَمَّا الْإِضَافِيُّ الْمَوْجُودُ فِي كَلَامِ مَنْ أَرَادَ بِهِ التَّشَابُهَ

الْإِضَافِيَّ فَمُرَادُهُمْ أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِيمَا اشْتَبَهَ مَعْنَاهُ وَأَشْكَلَ مَعْنَاهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ وَأَنَّ الْجَهْمِيَّةَ اسْتَدَلُّوا بِمَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وَأَشْكَلَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ مِنْ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ وَكَثِيرًا مَا يَشْتَبِهُ عَلَى الرَّجُلِ مَا لَا يَشْتَبِهُ عَلَى غَيْرِهِ . وَيَحْتَمِلُ كَلَامُ الْإِمَامِ أَحْمَد أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ إلَّا الْمُتَشَابِهَ فِي نَفْسِهِ الَّذِي يَلْزَمُهُ التَّشَابُهُ لَمْ يُرِدْ بِشَيْءِ مِنْهُ التَّشَابُهَ الْإِضَافِيَّ وَقَالَ تَأَوَّلَتْهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ أَيْ غَيْرِ تَأْوِيلِهِ الَّذِي هُوَ تَأْوِيلُهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ التَّأْوِيلُ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَأَهْلُ الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ ذَلِكَ التَّأْوِيلُ فَلَا يَبْقَى مُشْكِلًا عِنْدَهُمْ مُحْتَمِلًا لِغَيْرِهِ وَلِهَذَا كَانَ الْمُتَشَابِهُ فِي الْخَبَرِيَّاتِ إمَّا عَنْ اللَّهِ وَإِمَّا عَنْ الْآخِرَةِ وَتَأْوِيلُ هَذَا كُلِّهِ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ بَلْ الْمُحْكَمُ مِنْ الْقُرْآنِ قَدْ

(989/838)

يُقَالُ لَهُ تَأْوِيلٌ كَمَا لِلْمُتَشَابِهِ تَأْوِيلٌ . كَمَا قَالَ : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ وَمَعَ هَذَا فَذَلِكَ التَّأْوِيلُ لَا يَعْلَمُ وَقْتَهُ وَكَيْفِيَّتَهُ إلَّا اللَّهُ وَقَدْ يُقَالُ : بَلْ التَّأْوِيلُ لِلْمُتَشَابِهِ لِأَنَّهُ فِي الْوَعْدِ

(990/838)

وَالْوَعِيدِ وَكُلُّهُ مُتَشَابِهٌ وَأَيْضًا فَلَا يَلْزَمُ فِي كُلِّ آيَةٍ ظَنَّهَا بَعْضُ النَّاسِ مُتَشَابِهًا أَنْ تَكُونَ مِنْ الْمُتَشَابِهِ . فَقَوْلُ أَحْمَد احْتَجُّوا بِثَلَاثِ آيَاتٍ مِنْ الْمُتَشَابِهِ وَقَوْلُهُ مَا شَكَّتْ فِيهِ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ قَدْ يُقَالُ إنَّ هَؤُلَاءِ أَوْ إنَّ أَحْمَد جَعَلَ بَعْضَ ذَلِكَ مِنْ الْمُتَشَابِهِ وَلَيْسَ مِنْهُ فَإِنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ لَمْ يُرِدْ بِهِ هُنَا الْإِحْكَامَ الْعَامَّ وَالتَّشَابُهَ الْعَامَّ الَّذِي يَشْتَرِكُ فِيهِ جَمِيعُ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ وَفِي قَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ فَوَصَفَهُ هُنَا كُلَّهُ بِأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ أَيْ مُتَّفِقٌ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَهُوَ عَكْسُ الْمُتَضَادِّ الْمُخْتَلِفِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ إنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ فَإِنَّ هَذَا التَّشَابُهَ يَعُمُّ الْقُرْآنَ كَمَا أَنَّ إحْكَامَ آيَاتِهِ تَعُمُّهُ كُلَّهُ وَهُنَا قَدْ قَالَ : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ فَجَعَلَ بَعْضَهُ مُحْكَمًا وَبَعْضَهُ مُتَشَابِهًا فَصَارَ التَّشَابُهُ لَهُ مَعْنَيَانِ وَلَهُ مَعْنًى ثَالِثٌ وَهُوَ الْإِضَافِيُّ يُقَالُ قَدْ اشْتَبَهَ عَلَيْنَا هَذَا كَقَوْلِ بَنِي إسْرَائِيلَ : ﴿ إنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ

عَلَيْنَا ﴾ وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ مُتَمَيِّزًا مُنْفَصِلًا بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ . وَهَذَا مِنْ بَابِ اشْتِبَاهِ الْحَقِّ

(992/838)

بِالْبَاطِلِ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ : ﴿ الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ . وَبَيْنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُتَشَابِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ ﴾ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَعْرِفُهَا فَلَيْسَتْ مُشْتَبِهَةً عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ بَلْ عَلَى بَعْضِهِمْ بِخِلَافِ مَا لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ فَإِنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي عَدَمِ الْعِلْمِ بِتَأْوِيلِهِ وَمِنْ هَذَا مَا ﴿ يُرْوَى عَنْ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - أَنَّهُ قَالَ : الْأُمُورُ ثَلَاثَةٌ : أَمْرٌ تَبَيَّنَ رُشْدُهُ فَاتَّبِعُوهُ وَأَمْرٌ تَبَيَّنَ غَيُّهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَأَمْرٌ اشْتَبَهَ عَلَيْكُمْ فَكِلُوهُ إلَى عَالِمِهِ ﴾ . فَهَذَا الْمُشْتَبِهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ يُمْكِنُ الْآخَرِينَ أَنْ يَعْرِفُوا الْحَقَّ فِيهِ وَيُبَيِّنُوا الْفَرْقَ بَيْنَ الْمُشْتَبِهَيْنِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي أَرَادَهُ مَنْ جَعَلَ الرَّاسِخِينَ يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ فَإِنَّهُ جَعَلَ الْمُشْتَبِهَاتِ فِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذَا الْبَابِ الَّذِي يَشْتَبِهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ وَيَكُونُ بَيْنَهُمَا مِنْ الْفُرُوقِ الْمَانِعَةِ لِلتَّشَابُهِ مَا يَعْرِفُهُ بَعْضُ النَّاسِ وَهَذَا الْمَعْنَى صَحِيحٌ فِي نَفْسِهِ لَا يُنْكَرُ وَلَا رَيْبَ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ مَا اشْتَبَهَ عَلَى غَيْرِهِمْ وَقَدْ يَكُونُ هَذَا قِرَاءَةً فِي الْآيَةِ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ يَكُونُ فِيهَا قِرَاءَتَانِ ؛ لَكِنَّ لَفْظَ التَّأْوِيلِ عَلَى هَذَا يُرَادُ بِهِ

التَّفْسِيرُ وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةِ كَمَا يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَ الْمُحْكَمِ فَيَعْرِفُونَ الْحِسَابَ

(993/838)

وَالْمِيزَانَ وَالصِّرَاطَ وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ مَعْرِفَةً مُجْمَلَةً فَيَكُونُونَ عَالِمِينَ بِالتَّأْوِيلِ وَهُوَ مَا يَقَعُ فِي الْخَارِجِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ

وَلَا يَعْلَمُونَهُ مُفَصَّلًا إذْ هُمْ لَا يَعْرِفُونَ كَيْفِيَّتَهُ وَحَقِيقَتَهُ إذْ ذَلِكَ لَيْسَ مِثْلَ الَّذِي عَلِمُوهُ فِي الدُّنْيَا وَشَاهَدُوهُ وَعَلَى هَذَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ عَلِمُوا تَأْوِيلَهُ وَهُوَ مَعْرِفَةُ تَفْسِيرِهِ وَيَصِحُّ أَنْ يُقَالَ لَمْ يَعْلَمُوا تَأْوِيلَهُ وَكِلَا الْقِرَاءَتَيْنِ حَقٌّ .

(994/838)

وَعَلَى قِرَاءَةِ النَّفْيِ هَلْ يُقَالُ أَيْضًا : إنَّ الْمُحْكَمَ لَهُ تَأْوِيلٌ لَا يَعْلَمُونَ تَفْصِيلَهُ ؟ فَإِنَّ قَوْلَهُ : وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ إلَّا اللَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَيْرَهُ يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُحْكَمِ بَلْ قَدْ يُقَالُ : إنَّ مِنْ الْمُحْكَمِ أَيْضًا مَا لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ وَإِنَّمَا خَصَّ الْمُتَشَابِهَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ أُولَئِكَ طَلَبُوا عِلْمَ

تَأْوِيلِهِ أَوْ يُقَالُ بَلِ الْمُحْكَمُ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ لَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَقْتَ تَأْوِيلِهِ وَمَكَانَهُ وَصِفَتَهُ . وَقَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ السَّلَفِ : إِنَّ الْمُحْكَمَ مَا يُعْمَلُ بِهِ وَالْمُتَشَابِهَ مَا يُؤْمَنُ بِهِ وَلَا يُعْمَلُ بِهِ كَمَا يَجِيءُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآثَارِ وَنَعْمَلُ بِمُحْكَمِهِ ، وَنُؤْمِنُ بِمُتَشَابِهِهِ وَكَمَا جَاءَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَغَيْرِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ ﴾ قَالَ يُحَلِّلُونَ حَلَالَهُ وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ وَيَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِهِ وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ . وَكَلَامُ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ التَّشَابُهَ أَمْرٌ إِضَافِيٌّ فَقَدْ يَشْتَبِهُ عَلَى هَذَا مَا لَا يَشْتَبِهُ عَلَى هَذَا فَعَلَى كُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَعْمَلَ بِمَا اسْتَبَانَ لَهُ وَيَكِلَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى اللَّهِ . كَقَوْلِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ

(995/838)

الثَّوْرِيُّ عَنْ مُغِيرَةَ - وَلَيْسَ بِشَيْءٍ - عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ قَالَ : قِيلَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَوْصِنِي فَقَالَ : اتَّخِذْ كِتَابَ اللَّهِ إمَامًا ارْضَ بِهِ قَاضِيًا وَحَاكِمًا هُوَ الَّذِي اسْتَخْلَفَ فِيكُمْ رَسُولُهُ شَفِيعٌ مُطَاعٌ وَشَاهِدٌ لَا يُتَّهَمُ فِيهِ خَبَرُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَيْنَكُمْ وَذِكْرُ مَا قَبْلَكُمْ وَذِكْرُ مَا فِيكُمْ . وَقَالَ سُفْيَانُ عَنْ رَجُلٍ سَمَّاهُ . عَنْ ابْنِ أَبْزَى عَنْ أَبِي قَالَ : فَمَا اسْتَبَانَ لَكَ فَاعْمَلْ بِهِ وَمَا شُبِّهَ عَلَيْكَ فَآمِنْ بِهِ وَكِلْهُ إلَى عَالِمِهِ . فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : الْمُتَشَابِهُ هُوَ الْمَنْسُوخُ وَمِنْهُمْ مَنْ

جعَلَهُ الْخبَرِيَّاتُ مُطْلَقًا فَعَنْ قتادة وَالرَّبِيعِ وَالضَّحَّاكِ والسدي : الْمُحْكَمُ النَّاسِخُ الَّذِي يُعْمَلُ بِهِ : وَالْمُتَشَابِهُ الْمَنْسُوخُ يُؤْمَنُ بِهِ وَلَا يُعْمَلُ بِهِ وَكَذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ العوفي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَأَمَّا تَفْسِيرُ الوالبي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فقال : مُحْكَمَاتٌ : الْقُرْآنِ نَاسِخُهُ وَحَلَالُهُ وَحَرَامُهُ وَحُدُودُهُ وَفَرَائِضُهُ وَمَا يُؤْمَنُ بِهِ وَيُعْمَلُ بِهِ . والمتشابهات : مَنْسُوخُهُ وَمُقَدَّمُهُ وَمُؤَخَّرُهُ وَأَمْثَالُهُ وَأَقْسَامُهُ وَمَا يُؤْمَنُ بِهِ وَلَا يُعْمَلُ بِهِ . أَمَّا الْقَوْلُ الْأَوَّلُ فَهُوَ - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ فَقَابَلَ بَيْنَ الْمَنْسُوخِ وَبَيْنَ الْمُحْكَمِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ إنَّمَا أَرَادَ نَسْخَ مَا أَلْقَاهُ الشَّيْطَانُ ؛ لَمْ يُرِدْ نَسْخَ مَا أَنْزَلَهُ لَكِنْ هُمْ جَعَلُوا جِنْسَ الْمَنْسُوخِ مُتَشَابِهًا لِأَنَّهُ يُشْبِهُ غَيْرَهُ فِي التِّلَاوَةِ

(996/838)

وَالنَّظْمِ

وَأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ وَقُرْآنٌ وَمُعْجِزٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الْمَعَانِي مَعَ أَنَّ مَعْنَاهُ قَدْ نُسِخَ . وَمَنْ جَعَلَ الْمُتَشَابِهَ كُلَّ مَا لَا يُعْمَلُ بِهِ مِنْ الْمَنْسُوخِ وَالْأَقْسَامِ وَالْأَمْثَالِ فَلِأَنَّ ذَلِكَ مُتَشَابِهٌ وَلَمْ يُؤْمَرْ النَّاسُ بِتَفْصِيلِهِ بَلْ يَكْفِيهِمْ الْإِيمَانُ الْمُجْمَلُ بِهِ بِخِلَافِ الْمَعْمُولِ بِهِ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ الْعِلْمِ الْمُفَصَّلِ . وَهَذَا بَيَانٌ لِمَا يَلْزَمُ كُلَّ الْأُمَّةِ فَإِنَّهُمْ يَلْزَمُهُمْ مَعْرِفَةُ مَا يُعْمَلُ بِهِ تَفْصِيلًا لِيَعْمَلُوا بِهِ . وَمَا أَخْبَرُوا

بِهِ فَلَيْسَ عَلَيْهِمْ مَعْرِفَتُهُ ؛ بَلْ عَلَيْهِمْ الْإِيمَانُ بِهِ وَإِنْ كَانَ الْعِلْمُ بِهِ حَسَنًا أَوْ فَرْضًا عَلَى الْكِفَايَةِ فَلَيْسَ فَرْضًا عَلَى الْأَعْيَانِ ؛ بِخِلَافِ مَا يُعْمَلُ بِهِ . فَفَرْضٌ عَلَى كُلِّ إنْسَانٍ مَعْرِفَةُ مَا يَلْزَمُهُ مِنْ الْعَمَلِ مُفَصَّلًا وَلَيْسَ عَلَيْهِ مَعْرِفَةُ الْعِلْمِيَّاتِ مُفَصَّلًا . وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ : الْمُحْكَمُ مَا فِيهِ مِنْ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ وَمَا سِوَى ذَلِكَ مُتَشَابِهٌ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا . فَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ يَكُونُ الْمُتَشَابِهُ هُوَ الْمَذْكُورَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ﴾ . وَالْحَلَالُ مُخَالِفٌ لِلْحَرَامِ وَهَذَا عَلَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ : إنَّ الْعُلَمَاءَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ ؛ لَكِنَّ تَفْسِيرَ الْمُتَشَابِهِ بِهَذَا مَعَ أَنَّ كُلَّ الْقُرْآنِ مُتَشَابِهٌ وَهُنَا خَصَّ الْبَعْضَ بِهِ فَيُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى ضَعْفِ هَذَا الْقَوْلِ . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ لَوْ أُرِيدَ بِالْمُتَشَابِهِ

تَصْدِيقُ بَعْضِهِ بَعْضًا لَكَانَ اتِّبَاعُ ذَلِكَ غَيْرَ مَحْذُورٍ وَلَيْسَ فِي كَوْنِهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا مَا يَمْنَعُ ابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَقَدْ يُحْتَجُّ لِهَذَا الْقَوْلِ بِقَوْلِهِ مُتَشَابِهَاتٍ فَجَعَلَهَا أَنْفُسَهَا مُتَشَابِهَاتٍ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ بَعْضًا لَيْسَتْ مُتَشَابِهَةً لِغَيْرِهَا . وَيُجَابُ عَنْ هَذَا بِأَنَّ اللَّفْظَ إذَا ذُكِرَ فِي مَوْضِعَيْنِ بِمَعْنَيَيْنِ صَارَ مِنْ الْمُتَشَابِهِ كَقَوْلِهِ : (إنَّا) و (نَحْنُ) الْمَذْكُورُ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ لَمَّا ذَكَرَ قِصَّةَ أَهْلِ نَجْرَانَ

وَنُزُولِ الْآيَةِ قَالَ: الْمُحْكَمُ مَا لَا يَحْتَمِلُ مِنَ التَّأْوِيلِ إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا وَالْمُتَشَابِهُ مَا احْتَمَلَ فِي التَّأْوِيلِ أَوْجُهًا وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ ذَلِكَ اللَّفْظَ الْمُحْكَمَ لَا يَكُونُ تَأْوِيلُهُ فِي الْخَارِجِ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا وَأَمَّا الْمُتَشَابِهُ فَيَكُونُ لَهُ تَأْوِيلَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ لَكِنْ لَمْ يُرِدْ اللَّهُ إِلَّا وَاحِدًا مِنْهَا وَسِيَاقُ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى الْمُرَادِ وَحِينَئِذٍ فَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ الْمُرَادَ مِنْ هَذَا كَمَا يَعْلَمُونَ الْمُرَادَ مِنْ الْمُحْكَمِ؛ لَكِنَّ نَفْسَ التَّأْوِيلِ الَّذِي هُوَ الْحَقِيقَةُ وَوَقْتُ الْحَوَادِثِ وَنَحْوُ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُونَهُ لَا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا . وَقَدْ قِيلَ: إنَّ نَصَارَى نَجْرَانَ احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ: ﴿ بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ وَلَفْظُ كَلِمَةِ اللَّهِ: يُرَادُ بِهِ الْكَلَامُ وَيُرَادُ بِهِ الْمَخْلُوقُ بِالْكَلَامِ وَرُوحٌ مِنْهُ: يُرَادُ بِهِ ابْتِدَاءُ الْغَايَةِ

(998/838)

وَيُرَادُ بِهِ التَّبْعِيضُ فَعَلَى هَذَا إذَا قِيلَ تَأْوِيلُهُ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ الْمُرَادُ بِهِ الْحَقِيقَةُ أَيْ لَا يَعْلَمُونَ كَيْفَ خَلَقَ

(999/838)

عِيسَى بِالْكَلِمَةِ وَلَا كَيْفَ أَرْسَلَ إلَيْهَا رُوحَهُ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا وَنَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿ إذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ أَنْزَلَ كَلَامًا لَا مَعْنَى لَهُ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَمِيعُ الْأُمَّةِ لَا يَعْلَمُونَ مَعْنَاهُ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ وَهَذَا الْقَوْلُ يَجِبُ الْقَطْعُ بِأَنَّهُ خَطَأٌ سَوَاءٌ كَانَ مَعَ هَذَا تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ لَا يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ أَوْ كَانَ لِلتَّأْوِيلِ مَعْنَيَانِ: يَعْلَمُونَ أَحَدَهُمَا وَلَا يَعْلَمُونَ الْآخَرَ وَإِذَا دَارَ الْأَمْرُ بَيْنَ الْقَوْلِ بِأَنَّ الرَّسُولَ كَانَ لَا يَعْلَمُ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ مِنْ الْقُرْآنِ وَبَيْنَ أَنْ يُقَالَ: الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ كَانَ هَذَا الْإِثْبَاتُ خَيْرًا مِنْ مِنْ ذَلِكَ النَّفْيِ فَإِنَّ مَعْنَى الدَّلَائِلِ الْكَثِيرَةِ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ السَّلَفِ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْقُرْآنِ مِمَّا يُمْكِنُ عِلْمُهُ وَفَهْمُهُ وَتَدَبُّرُهُ وَهَذَا مِمَّا يَجِبُ الْقَطْعُ بِهِ وَلَيْسَ مَعْنَاهُ قَاطِعًا عَلَى أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ لَا يَعْلَمُونَ تَفْسِيرَ الْمُتَشَابِهِ فَإِنَّ السَّلَفَ قَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ إنَّهُمْ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ مِنْهُمْ مُجَاهِدٌ - مَعَ جَلَالَةِ قَدْرِهِ - وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ

وَنَقَلُوا ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَنَّهُ قَالَ: أَنَا مِنْ الرَّاسِخِينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ .

وَقَوْلُ أَحْمَد فِيمَا كَتَبَهُ فِي الرَّدّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ فِيمَا شُكَّتْ فِيهِ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَتَأَوَّلَتْهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ وَقَوْلُهُ عَنْ الْجَهْمِيَّةِ إنَّهَا تَأَوَّلَتْ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ الْمُتَشَابِهِ ثُمَّ تَكَلَّمَ عَلَى مَعْنَاهَا ؛ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُتَشَابِهَ عِنْدَهُ تَعْرِفُ الْعُلَمَاءُ مَعْنَاهُ وَأَنَّ الْمَذْمُومَ تَأْوِيلُهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ فَأَمَّا تَفْسِيرُهُ الْمُطَابِقُ لِمَعْنَاهُ فَهَذَا مَحْمُودٌ لَيْسَ بِمَذْمُومِ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ الصَّحِيحَ لِلْمُتَشَابِهِ عِنْدَهُ وَهُوَ التَّفْسِيرُ فِي لُغَةِ السَّلَفِ . وَلِهَذَا لَمْ يَقُلْ أَحْمَد وَلَا غَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ إنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ لَا يَعْرِفُ الرَّسُولُ وَلَا غَيْرُهُ مَعْنَاهَا بَلْ يَتْلُونَ لَفْظًا لَا يَعْرِفُونَ مَعْنَاهُ وَهَذَا الْقَوْلُ اخْتِيَارُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنْهُمْ ابْنُ قُتَيْبَةَ وَأَبُو سُلَيْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ وَغَيْرُهُمَا . وَابْنُ قُتَيْبَةَ هُوَ مِنْ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى أَحْمَد وَإِسْحَاقَ وَالْمُنْتَصِرِينَ لِمَذَاهِبِ السُّنَّةِ الْمَشْهُورَةِ وَلَهُ فِي ذَلِكَ مُصَنَّفَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ . قَالَ فِيهِ صَاحِبُ "كِتَابِ التَّحْدِيثِ بِمَنَاقِبِ أَهْلِ الْحَدِيثِ " : وَهُوَ أَحَدُ أَعْلَامِ الْأَئِمَّةِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفُضَلَاءِ أَجْوَدُهُمْ تَصْنِيفًا وَأَحْسَنُهُمْ تَرْصِيفًا لَهُ زُهَاءَ ثَلَاثِمِائَةِ مُصَنَّفٍ وَكَانَ يَمِيلُ إلَى مَذْهَبِ أَحْمَد وَإِسْحَاقَ وَكَانَ مُعَاصِرًا لِإِبْرَاهِيمَ الْحَرْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ نَصْرٍ الْمَرْوَزِي وَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ يُعَظِّمُونَهُ وَيَقُولُونَ : مَنْ

(1002/838)

اسْتَجَازَ الْوَقِيعَةَ فِي ابْنِ قُتَيْبَةَ يَتَّهِمُ بِالزَّنْدَقَةِ وَيَقُولُونَ: كُلُّ بَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ تَصْنِيفِهِ فَلَا خَيْرَ فِيهِ قُلْت:

(1003/838)

وَيُقَالُ هُوَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ مِثْلُ الْجَاحِظِ لِلْمُعْتَزِلَةِ فَإِنَّهُ خَطِيبُ السُّنَّةِ كَمَا أَنَّ الْجَاحِظَ خَطِيبُ الْمُعْتَزِلَةِ. وَقَدْ نُقِلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا الْقَوْلُ الْآخَرُ وَنُقِلَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَطَائِفَةٍ مِنْ التَّابِعِينَ وَلَمْ يَذْكُرْ هَؤُلَاءِ عَلَى قَوْلِهِمْ نَصًّا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَارَتْ مَسْأَلَةَ نِزَاعٍ فَتُرَدُّ إلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ وَأُولَئِكَ احْتَجُّوا بِأَنَّهُ قَرَنَ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ بِابْتِغَاءِ تَأْوِيلِهِ وَبِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَمَّ مُبْتَغِي الْمُتَشَابِهِ وَقَالَ: ﴿ إذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ . وَلِهَذَا ضَرَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - صبيغ بْنَ عسل لَمَّا سَأَلَهُ عَنْ الْمُتَشَابِهِ وَلِأَنَّهُ قَالَ: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ﴾ وَلَوْ كَانَتْ الْوَاوُ وَاوَ عَطْفٍ مُفْرَدٍ عَلَى مُفْرَدٍ لَا وَاوَ الِاسْتِئْنَافِ الَّتِي تَعْطِفُ جُمْلَةً عَلَى

جُمْلَةٍ لَقَالَ: وَيَقُولُونَ. فَأَجَابَ الْآخَرُونَ عَنْ هَذَا بِأَنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾ ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ ﴾ الْآيَةَ ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ قَالُوا فَهَذَا عَطْفُ مُفْرَدٍ عَلَى مُفْرَدٍ وَالْفِعْلُ

(1004/838)

حَالٌ مِنَ الْمَعْطُوفِ فَقَطْ وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي

(1005/838)

الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ قَالُوا وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْمُرَادُ مُجَرَّدَ الْوَصْفِ بِالْإِيمَانِ لَمْ يَخُصَّ الرَّاسِخِينَ بَلْ قَالَ: وَالْمُؤْمِنُونَ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ فَإِنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهِ فَلَمَّا خَصَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ بِالذِّكْرِ عَلِمَ أَنَّهُمْ امْتَازُوا بِعِلْمِ تَأْوِيلِهِ فَعَلِمُوهُ لِأَنَّهُمْ عَالِمُونَ وَآمَنُوا بِهِ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ " وَكَانَ إيمَانُهُمْ بِهِ مَعَ الْعِلْمِ أَكْمَلَ فِي الْوَصْفِ وَقَدْ قَالَ عَقِيبَ ذَلِكَ: ﴿ وَمَا

يذَّكَّرُ إلَّا أُولو الْأَلْبَابِ ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ هنا تذكُّرًا يختصُّ به أُولو الألباب فإنْ كان ما ثمَّ إلَّا الإيمانُ بألفاظٍ فلا يُذكَّر لما يدلُّهم على ما أُريدَ بالمُتشابهِ . ونَظِيرُ هذا قَوْلُهُ في الْآيَةِ الْأُخْرَى : ﴿ لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فلمَّا وصفهم بالرُّسوخِ في العلمِ وأنَّهُم يؤمنون قرن بهم الْمُؤْمِنِينَ فلو أُريدَ هنا مُجرَّدُ الإيمانِ لقال والرَّاسخون في العلمِ والْمُؤْمنون يقولون آمنَّا به كما قال في تلك الْآيَةِ لمَّا كان مُرادُهُ مُجرَّدَ الإخبارِ بالإيمانِ جمع بين الطَّائفتَيْنِ . قالوا : وأمَّا الذمُّ فإنَّما وقع على من يتَّبع الْمُتشابهَ لابتغاءِ الفتنةِ وابتغاءِ تأْويلهِ وهو حالُ أهلِ القصدِ الفاسدِ الَّذين يريدون القدحَ في القرآنِ فلا يطلبون إلَّا الْمُتشابهَ لإفسادِ

(1006/838)

القلوبِ وهي فتنتها به ويطلبون تأويله وليس طلبُهم لتأويلِه لأجلِ العلمِ والاهتداءِ بل هذا

(1007/838)

لِأَجْلِ الْفِتْنَةِ وَكَذَلِكَ صبيغ بْنُ عَسَلٍ ضَرَبَهُ عُمَرُ؛ لِأَنَّ قَصْدَهُ بِالسُّؤَالِ عَنْ الْمُتَشَابِهِ كَانَ لِابْتِغَاءِ الْفِتْنَةِ وَهَذَا كَمَنْ يُورِدُ أَسْئِلَةً وَإِشْكَالَاتٍ عَلَى كَلَامِ الْغَيْرِ وَيَقُولُ مَاذَا أُرِيدَ بِكَذَا وَغَرَضُهُ التَّشْكِيكُ وَالطَّعْنُ فِيهِ لَيْسَ غَرَضُهُ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ وَهَؤُلَاءِ هُمْ الَّذِينَ عَنَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: ﴿ إذَا رَأَيْتُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ وَلِهَذَا يَتَّبِعُونَ أَيْ يَطْلُبُونَ الْمُتَشَابِهَ وَيَقْصِدُونَهُ دُونَ الْمُحْكَمِ مِثْلَ الْمُتَّبِعِ لِلشَّيْءِ الَّذِي يَتَحَرَّاهُ وَيَقْصِدُهُ وَهَذَا فِعْلُ مَنْ قَصْدُهُ الْفِتْنَةُ. وَأَمَّا مَنْ سَأَلَ عَنْ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ لِيَعْرِفَهُ وَيُزِيلَ مَا عَرَضَ لَهُ مِنْ الشُّبَهِ. وَهُوَ عَالِمٌ بِالْمُحْكَمِ مُتَّبِعٌ لَهُ مُؤْمِنٌ بِالْمُتَشَابِهِ لَا يَقْصِدُ فِتْنَةً فَهَذَا لَمْ يَذُمَّهُ اللَّهُ وَهَكَذَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَقُولُونَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِثْلَ الْأَثَرِ الْمَعْرُوفِ الَّذِي رَوَاهُ. إبْرَاهِيمُ بْنُ يَعْقُوبَ الجوزجاني وَقَدْ ذَكَرَهُ الطلمنكي - حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ ثَنَا بَقِيَّةُ ثَنَا عتبة بْنُ أَبِي حَكِيمٍ ثَنِي عِمَارَةُ بْنُ رَاشِدٍ الْكِنَانِيُّ عَنْ زِيَادٍ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ: يُقْرَأُ الْقُرْآنُ رَجُلَانِ فَرَجُلٌ لَهُ فِيهِ هَوًى وَنِيَّةٌ يُفْلِيهِ فَلْيَ الرَّأْسِ يَلْتَمِسُ أَنْ يَجِدَ فِيهِ أَمْرًا يَخْرُجُ بِهِ عَلَى النَّاسِ أُولَئِكَ شِرَارُ أُمَّتِهِمْ أُولَئِكَ يُعْمِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ سُبُلَ الْهُدَى وَرَجُلٌ يَقْرَؤُهُ لَيْسَ فِيهِ هَوًى وَلَا نِيَّةٌ يُفْلِيهِ فَلْيَ الرَّأْسِ فَمَا

تَبَيَّنَ لَهُ مِنْهُ عُمِلَ بِهِ ؟ وَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ وَكَلَهُ إلَى اللَّهِ لِيَتَفَقَّهُنَّ فِيهِ فِقْهًا مَا فَقِهَهُ قَوْمٌ قَطُّ حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ مَكَثَ عِشْرِينَ سَنَةً فَلَيَبْعَثَنَّ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُبَيِّنُ لَهُ الْآيَةَ الَّتِي أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ أَوْ يُفَهِّمُهُ إيَّاهَا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ .

(1009/838)

قَالَ بَقِيَّةُ أَشْهَدَنِي ابْنُ عُيَيْنَةَ حَدِيثَ عتبة هَذَا . فَهَذَا مُعَاذٌ يَذُمُّ مَنْ اتَّبَعَ الْمُتَشَابِهَ لِقَصْدِ الْفِتْنَةِ وَأَمَّا مَنْ قَصْدُهُ . الْفِقْهُ فَقَدْ أَخْبَرَ أَنَّ اللَّهَ لَا بُدَّ أَنْ يُفَقِّهَهُ بِفَهْمِهِ الْمُتَشَابِهَ بِهِ فِقْهًا مَا فَقِهَهُ قَوْمٌ قَطُّ قَالُوا : وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا إذَا عَرَضَ لِأَحَدِهِمْ شُبْهَةٌ فِي آيَةٍ أَوْ حَدِيثٍ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ كَمَا سَأَلَهُ عُمَرُ فَقَالَ : أَلَمْ يَكُنْ تُحَدِّثُنَا أَنَّا نَأْتِي الْبَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ ؟ وَسَأَلَهُ أَيْضًا عُمَرُ : مَا بَالُنَا نَقْصُرُ الصَّلَاةَ وَقَدْ آمَنَّا ؟ وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾ شَقَّ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا : أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ حَتَّى بَيَّنَ لَهُمْ وَلَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ شَقَّ عَلَيْهِمْ حَتَّى بَيَّنَ لَهُمْ الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ وَلَمَّا ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ قَالَتْ عَائِشَةُ : أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟ قَالَ : إنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ ﴾ . قَالُوا : وَالدَّلِيلُ عَلَى مَا قُلْنَاهُ إجْمَاعُ السَّلَفِ فَإِنَّهُمْ فَسَّرُوا جَمِيعَ الْقُرْآنِ وَقَالَ مُجَاهِدٌ عَرَضْت

الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إلَى خَاتِمَتِهِ أَقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا وَتَلَقَّوْا ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي : حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ عُثْمَانُ بْنُ عفان

(1010/838)

وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُمَا أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا تَعَلَّمُوا مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّى

(1011/838)

يَتَعَلَّمُوا مَا فِيهَا مِنْ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ قَالُوا فَتَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ وَالْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا وَكَلَامُ أَهْلِ التَّفْسِيرِ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ شَامِلٌ لِجَمِيعِ الْقُرْآنِ إلَّا مَا قَدْ يُشْكِلُ عَلَى بَعْضِهِمْ فَيَقِفُ فِيهِ لَا لِأَنَّ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ لَا يَعْلَمُهُ لَكِنْ لِأَنَّهُ هُوَ لَمْ يَعْلَمْهُ . وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَ بِتَدَبُّرِ الْقُرْآنِ مُطْلَقًا وَلَمْ يَسْتَثْنِ مِنْهُ شَيْئًا لَا يُتَدَبَّرُ وَلَا قَالَ : لَا تَدَبَّرُوا الْمُتَشَابِهَ وَالتَّدَبُّرُ بِدُونِ الْفَهْمِ مُمْتَنِعٌ وَلَوْ كَانَ مِنْ الْقُرْآنِ مَا لَا يُتَدَبَّرُ لَمْ يُعْرَفْ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُمَيِّزْ الْمُتَشَابِهَ بِحَدِّ ظَاهِرٍ حَتَّى يُجْتَنَبَ تَدَبُّرُهُ .

وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يَحْتَجُّونَ بِهِ وَيَقُولُونَ الْمُتَشَابِهُ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ إضَافِيٌّ فَقَدْ يَشْتَبِهُ عَلَى هَذَا مَا لَا يَشْتَبِهُ عَلَى غَيْرِهِ قَالُوا ؛ وَلِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ الْقُرْآنَ بَيَانٌ وَهُدًى وَشِفَاءٌ وَنُورٌ وَلَمْ يَسْتَثْنِ مِنْهُ شَيْئًا عَنْ هَذَا الْوَصْفِ وَهَذَا مُمْتَنِعٌ بِدُونِ فَهْمِ الْمَعْنَى قَالُوا : وَلِأَنَّ مِنْ الْعَظِيمِ أَنْ يُقَالَ : إنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ كَلَامًا لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ مَعْنَاهُ لَا هُوَ وَلَا جِبْرِيلُ بَلْ وَعَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ بِأَحَادِيثِ الصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ وَالْمَعَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ نَظِيرُ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ عِنْدَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَعْنَى مَا يَقُولُهُ وَهَذَا لَا يُظَنُّ بِأَقَلِّ النَّاسِ .

(1012/838)

وَأَيْضًا فَالْكَلَامُ إنَّمَا الْمَقْصُودُ بِهِ الْإِفْهَامُ فَإِذَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ ذَلِكَ كَانَ عَبَثًا وَبَاطِلًا وَاَللَّهُ تَعَالَى قَدْ نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ فِعْلِ الْبَاطِلِ وَالْعَبَثِ فَكَيْفَ يَقُولُ الْبَاطِلَ وَالْعَبَثَ وَيَتَكَلَّمُ بِكَلَامِ يُنَزِّلُهُ عَلَى خَلْقِهِ لَا يُرِيدُ بِهِ إفْهَامَهُمْ وَهَذَا مِنْ أَقْوَى حُجَجِ الْمُلْحِدِينَ . وَأَيْضًا فَمَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ إلَّا وَقَدْ تَكَلَّمَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ فِي مَعْنَاهَا وَبَيَّنُوا ذَلِكَ وَإِذَا قِيلَ فَقَدْ يَخْتَلِفُونَ فِي بَعْضِ ذَلِكَ قِيلَ كَمَا قَدْ يَخْتَلِفُونَ فِي آيَاتِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَآيَاتِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ مِمَّا اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ مَعْنَاهَا وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ تَفْسِيرَ الْمُتَشَابِهِ فَإِنَّ الْمُتَشَابِهَ قَدْ يَكُونُ فِي آيَاتِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ

كَمَا يَكُونُ فِي آيَاتِ الْخَبَرِ وَتِلْكَ مِمَّا اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى مَعْرِفَةِ الرَّاسِخِينَ لِمَعْنَاهَا فَكَذَلِكَ الْأُخْرَى فَإِنَّهُ عَلَى قَوْلِ النُّفَاةِ لَمْ يَعْلَمْ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ إلَّا اللَّهُ لَا مَلَكٌ وَلَا رَسُولٌ وَلَا عَالِمٌ وَهَذَا خِلَافُ إجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ فِي مُتَشَابِهِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ . وَأَيْضًا فَلَفْظُ التَّأْوِيلِ يَكُونُ لِلْمُحْكَمِ كَمَا يَكُونُ لِلْمُتَشَابِهِ كَمَا دَلَّ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ وَأَقْوَالُ الصَّحَابَةِ عَلَى ذَلِكَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ مَعْنَى الْمُحْكَمِ فَكَذَلِكَ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ وَأَيُّ فَضِيلَةٍ فِي الْمُتَشَابِهِ حَتَّى يَنْفَرِدَ اللَّهُ بِعِلْمِ مَعْنَاهُ وَالْمُحْكَمُ

(1013/838)

أَفْضَلُ مِنْهُ وَقَدْ بَيَّنَ مَعْنَاهُ لِعِبَادِهِ فَأَيُّ فَضِيلَةٍ فِي الْمُتَشَابِهِ حَتَّى يَسْتَأْثِرَ اللَّهُ بِعِلْمِ مَعْنَاهُ وَمَا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ كَوَقْتِ السَّاعَةِ لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ

(1014/838)

خِطَابًا وَلَمْ يَذْكُرْ فِي الْقُرْآنِ آيَةً تَدُلُّ عَلَى وَقْتِ السَّاعَةِ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ اسْتَأْثَرَ بِأَشْيَاءَ لَمْ يُطْلِعْ عِبَادَهُ عَلَيْهَا وَإِنَّمَا النِّزَاعُ فِي كَلَامٍ أَنْزَلَهُ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ هُدًى وَبَيَانٌ وَشِفَاءٌ وَأَمَرَ بِتَدَبُّرِهِ ثُمَّ

يُقَالُ إنَّ مِنْهُ مَا لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ إلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُبَيِّنْ اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ ذَلِكَ الْقَدْرَ الَّذِي لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ وَلِهَذَا صَارَ كُلُّ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ آيَاتٍ لَا يُؤْمِنُ بِمَعْنَاهَا يَجْعَلُهَا مِنْ الْمُتَشَابِهِ بِمُجَرَّدِ دَعْوَاهُ ثُمَّ سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ قِصَّةُ أَهْلِ نَجْرَانَ وَقَدْ احْتَجُّوا بِقَوْلِهِ (إنَّا) و (نَحْنُ) وَبِقَوْلِهِ : (كَلِمَةٌ) مِنْهُ و (رُوحٌ) مِنْهُ وَهَذَا قَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى مَعْرِفَةِ مَعْنَاهُ فَكَيْفَ يُقَالُ : إنَّ الْمُتَشَابِهَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ لَا الْمَلَائِكَةُ وَلَا الْأَنْبِيَاءُ وَلَا أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ وَهُوَ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ إلَيْنَا وَأَمَرَنَا أَنْ نَتَدَبَّرَهُ وَنَعْقِلَهُ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ بَيَانٌ وَهُدًى وَشِفَاءٌ وَنُورٌ وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ الْكَلَامِ إلَّا مَعَانِيهِ وَلَوْلَا الْمَعْنَى لَمْ يَجُزْ التَّكَلُّمُ بِلَفْظِ لَا مَعْنَى لَهُ . وَقَدْ قَالَ الْحَسَنُ : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةً إلَّا وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يُعْلَمَ فِي مَاذَا أُنْزِلَتْ وَمَاذَا عُنِيَ بِهَا . وَمَنْ قَالَ : إنَّ سَبَبَ نُزُولِ الْآيَةِ سُؤَالُ الْيَهُودِ عَنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ فِي (الم) بِحِسَابِ الْجُمَلِ فَهَذَا نَقْلٌ بَاطِلٌ . أَمَّا أَوَّلًا : فَلِأَنَّهُ مِنْ رِوَايَةِ الْكَلْبِيِّ .

(1015/838)

وَأَمَّا ثَانِيًا : فَهَذَا قَدْ قِيلَ إنَّهُمْ قَالُوهُ فِي أَوَّلِ مَقْدَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْمَدِينَةِ وَسُورَةُ آلِ عِمْرَانَ إنَّمَا نَزَلَ صَدْرُهَا مُتَأَخِّرًا لَمَّا قَدِمَ وَفْدُ نَجْرَانَ بِالنَّقْلِ الْمُسْتَفِيضِ الْمُتَوَاتِرِ وَفِيهَا فُرِضَ الْحَجُّ وَإِنَّمَا فُرِضَ سَنَةَ تِسْعٍ أَوْ عَشْرٍ لَمْ يُفْرَضْ فِي أَوَّلِ الْهِجْرَةِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ

. وَأَمَّا ثَالِثًا : فَلِأَنَّ حُرُوفَ الْمُعْجَمِ وَدِلَالَةَ الْحَرْفِ عَلَى بَقَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَيْسَ هُوَ مِنْ تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ بَلْ إمَّا أَنْ يُقَالَ إنَّهُ لَيْسَ مِمَّا أَرَادَهُ اللَّهُ بِكَلَامِهِ فَلَا يُقَالُ إنَّهُ انْفَرَدَ بِعِلْمِهِ بَلْ دَعْوَى دِلَالَةِ الْحُرُوفِ عَلَى ذَلِكَ بَاطِلٌ وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ بَلْ يَدُلُّ عَلَيْهِ فَقَدْ عَلِمَ بَعْضُ النَّاسِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ . وَحِينَئِذٍ فَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ ذَلِكَ أَمَّا دَعْوَى دِلَالَةِ الْقُرْآنِ عَلَى ذَلِكَ وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَعْلَمُهُ فَهَذَا هُوَ الْبَاطِلُ . وَأَيْضًا فَإِذَا كَانَتْ الْأُمُورُ الْعِلْمِيَّةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا فِي الْقُرْآنِ لَا يَعْرِفُهَا الرَّسُولُ كَانَ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ قَدْحِ الْمَلَاحِدَةِ فِيهِ وَكَانَ حُجَّةً لِمَا يَقُولُونَهُ مِنْ أَنَّهُ كَانَ لَا يَعْرِفُ الْأُمُورَ الْعِلْمِيَّةَ أَوْ أَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُهَا وَلَمْ يُبَيِّنْهَا بَلْ هَذَا الْقَوْلُ يَقْتَضِي أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهَا فَإِنَّ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ لَا يَعْلَمُهُ النَّبِيُّ وَلَا غَيْرُهُ . وَبِالْجُمْلَةِ : فَالدَّلَائِلُ الْكَثِيرَةُ تُوجِبُ الْقَطْعَ بِبُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ : إنَّ فِي الْقُرْآنِ

(1016/838)

آيَاتٍ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهَا الرَّسُولُ وَلَا غَيْرُهُ .

(1017/838)

نَعَمْ قَدْ يَكُونُ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٌ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهَا كَثِيرٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمْ وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي آيَةٍ مُعَيَّنَةٍ بَلْ قَدْ يُشْكِلُ عَلَى هَذَا مَا يَعْرِفُهُ هَذَا وَذَلِكَ تَارَةً يَكُونُ لِغَرَابَةِ اللَّفْظِ وَتَارَةً لِاشْتِبَاهِ الْمَعْنَى بِغَيْرِهِ وَتَارَةً لِشُبْهَةٍ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ تَمْنَعُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَتَارَةً لِعَدَمِ التَّدَبُّرِ التَّامِّ وَتَارَةً لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الْأَسْبَابِ فَيَجِبُ الْقَطْعُ بِأَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ . أَنَّ الصَّوَابَ قَوْلُ مَنْ يَجْعَلُهُ مَعْطُوفًا وَيَجْعَلُ الْوَاوَ لِعَطْفِ مُفْرَدٍ عَلَى مُفْرَدٍ أَوْ يَكُونُ كِلَا الْقَوْلَيْنِ حَقًّا وَهِيَ قِرَاءَتَانِ وَالتَّأْوِيلُ الْمَنْفِيُّ غَيْرُ التَّأْوِيلِ الْمُثْبَتِ وَإِنْ كَانَ الصَّوَابُ هُوَ قَوْلُ مَنْ يَجْعَلُهَا وَاوَ اسْتِئْنَافٍ فَيَكُونُ التَّأْوِيلُ الْمَنْفِيُّ عِلْمُهُ عَنْ غَيْرِ اللَّهِ هُوَ الْكَيْفِيَّاتُ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ وَهَذَا فِيهِ نَظَرٌ وَابْنُ عَبَّاسٍ جَاءَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : أَنَا مِنْ الرَّاسِخِينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ وَجَاءَ عَنْهُ أَنَّ الرَّاسِخِينَ لَا يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ . وَجَاءَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ : تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا " وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ مَنْ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ . وَهَذَا الْقَوْلُ يَجْمَعُ الْقَوْلَيْنِ وَيُبَيِّنُ أَنَّ الْعُلَمَاءَ يَعْلَمُونَ مِنْ تَفْسِيرِهِ مَا

لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُمْ وَأَنَّ فِيهِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ فَأَمَّا مَنْ جَعَلَ الصَّوَابَ قَوْلَ مَنْ جَعَلَ الْوَقْفَ عِنْدَ قَوْلِهِ إلَّا اللَّهُ وَجَعَلَ التَّأْوِيلَ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ فَهَذَا خَطَأٌ قَطْعًا .

(1019/838)

وَأَمَّا التَّأْوِيلُ بِالْمَعْنَى الثَّالِثِ وَهُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ فَهَذَا الِاصْطِلَاحُ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ عُرِفَ فِي عَهْدِ الصَّحَابَةِ بَلْ وَلَا التَّابِعِينَ بَلْ وَلَا الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَلَا كَانَ التَّكَلُّمُ بِهَذَا الِاصْطِلَاحِ مَعْرُوفًا فِي الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ بَلْ وَلَا عَلِمْت أَحَدًا مِنْهُمْ خَصَّ لَفْظَ التَّأْوِيلِ بِهَذَا وَلَكِنْ لَمَّا صَارَ تَخْصِيصُ لَفْظِ التَّأْوِيلِ بِهَذَا شَائِعًا فِي عُرْفِ كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ فَظَنُّوا أَنَّ التَّأْوِيلَ فِي الْآيَةِ هَذَا مَعْنَاهُ صَارُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ لِمُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ مَعَانِيَ تُخَالِفُ مَا يُفْهَمُ مِنْهُ وَفَرَّقُوا دِينَهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَصَارُوا شِيَعًا وَالْمُتَشَابِهُ الْمَذْكُورُ الَّذِي كَانَ سَبَبَ نُزُولِ الْآيَةِ لَا يَدُلُّ ظَاهِرُهُ عَلَى مَعْنًى فَاسِدٍ وَإِنَّمَا الْخَطَأُ فِي فَهْمِ السَّامِعِ . نَعَمْ قَدْ يُقَالُ : إنَّ مُجَرَّدَ هَذَا الْخِطَابِ لَا يُبَيِّنُ كَمَالَ الْمَطْلُوبِ وَلَكِنْ فَرْقٌ بَيْنَ عَدَمِ دَلَالَتِهِ عَلَى الْمَطْلُوبِ وَبَيْنَ دَلَالَتِهِ عَلَى نَقِيضِ الْمَطْلُوبِ . فَهَذَا الثَّانِي هُوَ الْمَنْفِيُّ ؛ بَلْ وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْبَاطِلِ أَلْبَتَّةَ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي مَوْضِعِهِ . وَلَكِنْ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ يَزْعُمُ أَنَّ لِظَاهِرِ الْآيَةِ مَعْنًى إمَّا مَعْنًى يَعْتَقِدُهُ وَإِمَّا مَعْنًى بَاطِلًا فَيَحْتَاجُ إلَى تَأْوِيلِهِ وَيَكُونُ مَا قَالَهُ بَاطِلًا لَا تَدُلُّ الْآيَةُ

عَلَى مُعْتَقَدِهِ وَلَا عَلَى الْمَعْنَى الْبَاطِلِ وَهَذَا كَثِيرٌ جِدًّا وَهَؤُلَاءِ هُمْ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْقُرْآنَ كَثِيرًا مَا يَحْتَاجُ

(1020/838)

إلَى التَّأْوِيلِ الْمُحْدَثِ وَهُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ مَدْلُولِهِ إلَى خِلَافِ مَدْلُولِهِ .

(1021/838)

وَمِمَّا يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ قَالَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ : مَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ - ﴿ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا لَهُ وَقَالَ : اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ ﴾ فَقَدْ دَعَا لَهُ بِعِلْمِ التَّأْوِيلِ مُطْلَقًا وَابْنُ عَبَّاسٍ فَسَّرَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ قَالَ مُجَاهِدٌ : عَرَضْت الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ أَوَّلِهِ إلَى آخِرِهِ أَقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا وَكَانَ يَقُولُ : أَنَا مِنْ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ . وَأَيْضًا فَالنُّقُولُ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي جَمِيعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ مِنْ الْأَمْرِ وَالْخَبَرِ فَلَهُ مِنْ الْكَلَامِ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْقَصَصِ وَمِنْ الْكَلَامِ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ

وَالْأَحْكَامِ مَا يُبَيِّنُ أَنَّهُ كَانَ يَتَكَلَّمُ فِي جَمِيعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ . وَأَيْضًا قَدْ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ مَا مِنْ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِي مَاذَا أُنْزِلَتْ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ آيَاتِ الْأَحْكَامِ يُعْلَمُ تَأْوِيلُهَا وَهِيَ نَحْوُ خَمْسِمِائَةِ آيَةٍ وَسَائِرُ الْقُرْآنِ خَبَرٌ عَنْ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ أَوْ عَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ أَوْ عَنْ الْقَصَصِ وَعَاقِبَةِ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَعَاقِبَةِ أَهْلِ الْكُفْرِ فَإِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْمُتَشَابِهَ الَّذِي لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهُ إلَّا اللَّهُ

(1022/838)

فَجُمْهُورُ الْقُرْآنِ لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ لَا الرَّسُولُ وَلَا أَحَدٌ مِنْ الْأُمَّةِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا مُكَابَرَةٌ ظَاهِرَةٌ . وَأَيْضًا فَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعِلْمَ بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا أَصْعَبُ مِنْ الْعِلْمِ بِتَأْوِيلِ الْكَلَامِ الَّذِي يُخْبَرُ بِهِ فَإِنَّ دَلَالَةَ الرُّؤْيَا عَلَى تَأْوِيلِهَا دَلَالَةٌ خَفِيَّةٌ غَامِضَةٌ لَا يَهْتَدِي لَهَا جُمْهُورُ النَّاسِ ؛ بِخِلَافِ دَلَالَةِ لَفْظِ الْكَلَامِ عَلَى مَعْنَاهُ فَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ عَلَّمَ عِبَادَهُ تَأْوِيلَ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يَرَوْنَهَا فِي الْمَنَامِ فَلَأَنْ يُعَلِّمَهُمْ تَأْوِيلَ الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ الَّذِي يُنَزِّلُهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى قَالَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وَقَالَ يُوسُفُ : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ . وَأَيْضًا فَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ الْكُفَّارَ بِقَوْلِهِ ﴿ أَمْ

يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وَهَذَا ذَمٌّ لِمَنْ كَذَّبَ بِمَا لَمْ يُحِطْ بِعِلْمِهِ .

(1023/838)

فَمَا قَالَهُ النَّاسُ مِنْ الْأَقْوَالِ الْمُخْتَلِفَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَتَأْوِيلِهِ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُصَدِّقَ بِقَوْلٍ دُونَ قَوْلٍ بِلَا عِلْمٍ وَلَا يُكَذِّبَ بِشَيْءٍ مِنْهَا إلَّا أَنْ يُحِيطَ بِعِلْمِهِ وَهَذَا لَا يُمْكِنُ إلَّا إذَا عَرَفَ الْحَقَّ الَّذِي أُرِيدَ بِالْآيَةِ فَيَعْلَمُ أَنَّ مَا سِوَاهُ بَاطِلٌ فَيُكَذِّبُ بِالْبَاطِلِ الَّذِي أَحَاطَ بِعِلْمِهِ وَأَمَّا إذَا لَمْ يَعْرِفْ مَعْنَاهَا وَلَمْ يُحِطْ بِشَيْءٍ مِنْهَا عِلْمًا . فَلَا يَجُوزُ لَهُ التَّكْذِيبُ بِشَيْءٍ مِنْهَا مَعَ أَنَّ الْأَقْوَالَ الْمُتَنَاقِضَةَ بَعْضُهَا بَاطِلٌ قَطْعًا وَيَكُونُ حِينَئِذٍ الْمُكَذِّبُ بِالْقُرْآنِ كَالْمُكَذِّبِ بِالْأَقْوَالِ الْمُتَنَاقِضَةِ وَالْمُكَذِّبُ بِالْحَقِّ كَالْمُكَذِّبِ بِالْبَاطِلِ وَفَسَادُ اللَّازِمِ يَدُلُّ عَلَى فَسَادِ الْمَلْزُومِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إنْ بُنِيَ عَلَى مَا يَعْتَقِدُهُ مِنْ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَعَانِيَ الْآيَاتِ الْخَبَرِيَّةِ إلَّا اللَّهُ لَزِمَهُ أَنْ يُكَذِّبَ كُلَّ مَنْ احْتَجَّ بِآيَةٍ مِنْ الْقُرْآنِ خَبَرِيَّةٍ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أُمُورِ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ تَكَلَّمَ فِي تَفْسِيرِ ذَلِكَ وَكَذَلِكَ يَلْزَمُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ قَالَ :

الْمُتَشَابِهُ هُوَ بَعْضُ الْخَبَرِيَّاتِ لَزِمَهُ أَنْ يُبَيِّنَ فَصْلًا يَتَبَيَّنُ بِهِ مَا يَجُوزُ أَنْ يُعْلَمَ مَعْنَاهُ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَعْلَمَ مَعْنَاهُ بِحَيْثُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَعْلَمَ مَعْنَاهُ لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَلَا غَيْرُهُمْ . وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَحَدًا ذِكْرُ

(1024/838)

حَدٍّ فَاصِلٍ بَيْنَ مَا يَجُوزُ أَنْ يَعْلَمَ مَعْنَاهُ بَعْضُ النَّاسِ وَبَيْنَ مَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَعْلَمَ مَعْنَاهُ أَحَدٌ . وَلَوْ ذَكَرَ مَا ذَكَرَ انْتَقَضَ عَلَيْهِ فَعُلِمَ أَنَّ الْمُتَشَابِهَ لَيْسَ هُوَ

(1025/838)

الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَحَدًا مَعْرِفَةُ مَعْنَاهُ وَهَذَا دَلِيلٌ مُسْتَقِلٌّ فِي الْمَسْأَلَةِ . وَأَيْضًا فَقَوْلُهُ : ﴿ لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ ﴾ ﴿ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا ﴾ ذَمَّهُمْ عَلَى عَدَمِ الْإِحَاطَةِ مَعَ التَّكْذِيبِ وَلَوْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ مُشْتَرِكِينَ فِي عَدَمِ الْإِحَاطَةِ بِعِلْمِ الْمُتَشَابِهِ لَمْ يَكُنْ فِي ذَمِّهِمْ بِهَذَا الْوَصْفِ فَائِدَةٌ وَلَكَانَ الذَّمُّ عَلَى مُجَرَّدِ التَّكْذِيبِ فَإِنَّ هَذَا بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِمَا لَمْ تُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا وَلَا يُحِيطُ بِهِ عِلْمًا إلَّا اللَّهُ ؟ وَمَنْ كَذَّبَ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ كَانَ أَقْرَبَ إلَى

الْعُذْرِ مِنْ أَنْ يُكَذِّبَ بِمَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ فَلَوْ لَمْ يُحِطْ بِهَا عِلْمًا الرَّاسِخُونَ كَانَ تَرْكُ هَذَا الْوَصْفِ أَقْوَى فِي ذَمِّهِمْ مِنْ ذِكْرِهِ . وَيَتَبَيَّنُ هَذَا بِوَجْهٍ آخَرَ هُوَ دَلِيلٌ فِي الْمَسْأَلَةِ : وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ ذَمَّ الزَّائِغِينَ بِالْجَهْلِ وَسُوءِ الْقَصْدِ فَإِنَّهُمْ يَقْصِدُونَ الْمُتَشَابِهَ يَبْتَغُونَ تَأْوِيلَهُ وَلَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ وَلَيْسُوا مِنْهُمْ وَهُمْ يَقْصِدُونَ الْفِتْنَةَ لَا يَقْصِدُونَ الْعِلْمَ وَالْحَقَّ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ فَإِنَّ الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ (لَأَسْمَعَهُمْ فَهْمَ الْقُرْآنِ) . يَقُولُ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ حُسْنَ قَصْدٍ وَقَبُولًا لِلْحَقِّ لَأَفْهَمَهُمْ الْقُرْآنَ لَكِنْ لَوْ أَفْهَمَهُمْ لَتَوَلَّوْا عَنْ الْإِيمَانِ وَقَبُولِ الْحَقِّ لِسُوءِ قَصْدِهِمْ فَهُمْ

(1026/838)

جَاهِلُونَ ظَالِمُونَ كَذَلِكَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ هُمْ

(1027/838)

مَذْمُومُونَ بِسُوءِ الْقَصْدِ مَعَ طَلَبِ عِلْمٍ مَا لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهِ وَلَيْسَ إذَا عِيبَ هَؤُلَاءِ عَلَى الْعِلْمِ وَمُنِعُوهُ يُعَابُ مَنْ حَسُنَ قَصْدُهُ وَجَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ . فَإِنْ قِيلَ : فَأَكْثَرُ

السَّلَفِ عَلَى أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ لَا يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ وَكَذَلِكَ أَكْثَرُ أَهْلِ اللُّغَةِ يَرْوِي هَذَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَعُرْوَةَ وَقَتَادَةَ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالْفَرَّاءِ وَأَبِي عُبَيْدٍ وَثَعْلَبٍ وَابْنِ الْأَنْبَارِيِّ قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ : إنْ تَأْوِيلُهُ إلَّا عِنْدَ اللَّهِ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ : وَيَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ قَالَ : وَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ أَشْيَاءَ اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِهَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ فَأَنْزَلَ الْمُحْكَمَ لِيُؤْمِنَ بِهِ الْمُؤْمِنُ فَيَسْعَدَ وَيَكْفُرَ بِهِ الْكَافِرُ فَيَشْقَى قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : وَاَلَّذِي رَوَى الْقَوْلَ الْآخَرَ عَنْ مُجَاهِدٍ هُوَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ وَلَا تَصِحُّ رِوَايَتُهُ التَّفْسِيرَ عَنْ مُجَاهِدٍ . فَيُقَالُ قَوْلُ الْقَائِلِ : إنَّ أَكْثَرَ السَّلَفِ عَلَى هَذَا قَوْلٌ بِلَا عِلْمٍ فَإِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ أَنَّهُ قَالَ إنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ لَا يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ وَعَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ "كَانَ رُسُوخُهُمْ فِي الْعِلْمِ أَنْ آمَنُوا بِمُحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ وَلَا يَعْلَمُونَهُ"

(1028/838)

فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ الْقَاسِمِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الْحَدِيثُ الْمَرْفُوعُ فِي هَذَا وَلَيْسَ فِيهِ هَذِهِ الزِّيَادَةُ وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّهُ سَمِعَهَا مِنْ الْقَاسِمِ بَلْ الثَّابِتُ عَنْ

الصَّحَابَةِ أَنَّ الْمُتَشَابِهَ يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ كَمَا تَقَدَّمَ حَدِيثُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ فِي ذَلِكَ وَكَذَلِكَ نَحْوُهُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَغَيْرِهِمْ وَمَا ذُكِرَ مِنْ قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ لَيْسَ لَهَا إسْنَادٌ يُعْرَفُ حَتَّى يُحْتَجَّ بِهَا وَالْمَعْرُوفُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ آيَةٌ إلَّا وَأَنَا أَعْلَمُ فِي مَاذَا أُنْزِلَتْ وَمَاذَا عُنِيَ بِهَا . وَقَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِي : حَدَّثَنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ : عُثْمَانُ بْنُ عفان وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَغَيْرُهُمَا أَنَّهُمْ كَانُوا إذَا تَعَلَّمُوا مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يُجَاوِزُوهَا حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِيهَا مِنْ العِلْمِ وَالْعَمَلِ وَهَذَا أَمْرٌ مَشْهُورٌ رَوَاهُ النَّاسُ عَنْ عَامَّةِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ وَلَهُ إسْنَادٌ مَعْرُوفٌ بِخِلَافِ مَا ذُكِرَ مِنْ قِرَاءَتِهِمَا وَكَذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَدْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : أَنَا مِنْ الرَّاسِخِينَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ وَقَدْ صَحَّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ دَعَا لَهُ بِعِلْمِ تَأْوِيلِ الْكِتَابِ فَكَيْفَ لَا يَعْلَمُ التَّأْوِيلَ مَعَ أَنَّ قِرَاءَةَ عَبْدِ اللَّهِ إنْ تَأْوِيلُهُ إلَّا عِنْدَ اللَّهِ لَا تُنَاقِضُ هَذَا

(1029/838)

الْقَوْلَ فَإِنَّ نَفْسَ التَّأْوِيلِ لَا يَأْتِي بِهِ إلَّا اللَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ .

وَقَدْ اشْتَهَرَ عَنْ عَامَّةِ السَّلَفِ أَنَّ الْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ مِنْ الْمُتَشَابِهِ وَتَأْوِيل ذَلِكَ هُوَ مَجِيءُ الْمَوْعُودِ بِهِ وَذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ لَا يَأْتِي بِهِ إلَّا هُوَ وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ: إنْ عِلْمَ تَأْوِيلِهِ إلَّا عِنْدَ اللَّهِ كَمَا قَالَ فِي السَّاعَةِ: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ وَكَذَلِكَ لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى: ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ ﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾. فَلَوْ كَانَتْ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ تَقْتَضِي نَفْيَ الْعِلْمِ عَنْ الرَّاسِخِينَ لَكَانَتْ: إنْ عِلْمُ تَأْوِيلِهِ إلَّا عِنْدَ اللَّهِ لَمْ يَقْرَأْ إنْ تَأْوِيلُهُ إلَّا عِنْدَ اللَّهِ فَإِنَّ هَذَا حَقٌّ بِلَا نِزَاعٍ وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الْأُخْرَى الْمَرْوِيَّةُ عَنْ أُبَيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ فَقَدْ نُقِلَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مَا يُنَاقِضُهُ وَأَخَصُّ أَصْحَابِهِ بِالتَّفْسِيرِ مُجَاهِدٌ وَعَلَى تَفْسِيرِ مُجَاهِدٍ يَعْتَمِدُ أَكْثَرُ الْأَئِمَّةِ كَالثَّوْرِيِّ وَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَالْبُخَارِيِّ. قَالَ الثَّوْرِيُّ إذَا جَاءَك التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُك بِهِ. وَالشَّافِعِيُّ فِي كُتُبِهِ أَكْثَرُ الَّذِي

(1031/838)

يَنْقُلُهُ عَنْ ابْنِ عُيَيْنَةَ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ وَكَذَلِكَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ يَعْتَمِدُ عَلَى هَذَا

(1032/838)

التَّفْسِيرِ وَقَوْلُ الْقَائِلِ لَا تَصِحُّ رِوَايَةُ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ جَوَابُهُ: أَنَّ تَفْسِيرَ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ مِنْ أَصَحِّ التَّفَاسِيرِ بَلْ لَيْسَ بِأَيْدِي أَهْلِ التَّفْسِيرِ كِتَابٌ فِي التَّفْسِيرِ أَصَحَّ مِنْ تَفْسِيرِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ إلَّا أَنْ يَكُونَ نَظِيرُهُ فِي الصِّحَّةِ ثُمَّ مَعَهُ مَا يُصَدِّقُهُ وَهُوَ قَوْلُهُ: عَرَضْت الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ أَقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا. وَأَيْضًا فَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ عُرِفَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُفَسِّرُ مَا تَشَابَهَ مِنْ الْقُرْآنِ كَمَا فَسَّرَ قَوْلَهُ: ﴿ فَأَرْسَلْنَا إلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ وَفَسَّرَ قَوْلَهُ: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وَقَوْلَهُ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ ﴾ وَغَيْرَ ذَلِكَ وَنَقْلُ ذَلِكَ مَعْرُوفٌ عَنْهُ بِالْإِسْنَادِ أَثْبَتُ مِنْ نَقْلِ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ الَّتِي لَا يُعْرَفُ لَهَا إسْنَادٌ وَقَدْ كَانَ يُسْأَلُ عَنْ الْمُتَشَابِهِ مِنْ مَعْنَى الْقُرْآنِ فَيُجِيبُ عَنْهُ كَمَا سَأَلَهُ عُمَرُ

وَسُئِلَ عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : إنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الْمُجْمَلَ لِيُؤْمِنَ بِهِ الْمُؤْمِنُ . فَيُقَالُ هَذَا حَقٌّ لَكِنْ هَلْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْ قَوْلِ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ إنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمَلَائِكَةَ وَالصَّحَابَةَ لَا يَفْهَمُونَ ذَلِكَ الْكَلَامَ الْمُجْمَلَ ؟ أَمْ الْعُلَمَاءُ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْمُجْمَلَ فِي الْقُرْآنِ يُفْهَمُ مَعْنَاهُ وَيُعْرَفُ مَا فِيهِ مِنْ الْإِجْمَالِ كَمَا مُثِّلَ بِهِ مِنْ وَقْتِ السَّاعَةِ فَقَدْ عَلِمَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ مَعْنَى الْكَلَامِ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ

(1033/838)

السَّاعَةِ وَأَنَّهَا آتِيَةٌ لَا مَحَالَةَ وَأَنَّ اللَّهَ انْفَرَدَ بِعِلْمِ وَقْتِهَا فَلَمْ يُطْلِعْ عَلَى ذَلِكَ أَحَدًا وَلِهَذَا ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(1034/838)

لَمَّا سَأَلَهُ السَّائِلُ عَنْ السَّاعَةِ وَهُوَ فِي الظَّاهِرِ : أَعْرَابِيٌّ لَا يَعْرِفُ قَالَ لَهُ : مَتَى السَّاعَةُ ؟ قَالَ : مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : إنَّ الْكَلَامَ الَّذِي نَزَلَ فِي ذِكْرِهَا لَا يَفْهَمُهُ أَحَدٌ بَلْ هَذَا خِلَافُ إجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ بَلْ وَالْعُقَلَاءِ ؛ فَإِنَّ إخْبَارَ اللَّهِ عَنْ السَّاعَةِ وَأَشْرَاطِهَا

كَلَامٌ بَيِّنٌ وَاضِحٌ يُفْهَمُ مَعْنَاهُ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ قَدْ عُلِمَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْخِطَابِ وَأَنَّ اللَّهَ خَلَقَ قُرُونًا كَثِيرَةً لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إلَّا اللَّهُ كَمَا قَالَ: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلَّا هُوَ ﴾ فَأَيُّ شَيْءٍ فِي هَذَا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ أَمْرِ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهُ أَحَدٌ لَا مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَلَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا الصَّحَابَةِ وَلَا غَيْرِهِمْ. وَأَمَّا مَا ذُكِرَ عَنْ عُرْوَةَ فَعُرْوَةُ قَدْ عُرِفَ مِنْ طَرِيقِهِ أَنَّهُ كَانَ لَا يُفَسِّرُ عَامَّةَ آيِ الْقُرْآنِ إلَّا آيَاتٌ قَلِيلَةٌ رَوَاهَا عَنْ عَائِشَةَ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ إذَا لَمْ يَعْرِفْ عُرْوَةُ التَّفْسِيرَ لَمْ يَلْزَمْ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُ مِنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَعُلَمَاءِ الصَّحَابَةِ؛ كَابْنِ مَسْعُودٍ وَأُبَيٍّ بْنِ كَعْبٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمْ. وَأَمَّا اللُّغَوِيُّونَ الَّذِينَ يَقُولُونَ إنَّ الرَّاسِخِينَ لَا يَعْلَمُونَ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ فَهُمْ مُتَنَاقِضُونَ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ فِي تَفْسِيرِ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ وَيَتَوَسَّعُونَ فِي الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ

(1035/838)

حَتَّى مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إلَّا وَقَدْ قَالَ فِي ذَلِكَ أَقْوَالًا لَمْ يُسْبَقْ إلَيْهَا وَهِيَ خَطَأٌ. وَابْنُ الْأَنْبَارِيِّ الَّذِي

(1036/838)

بَالَغَ فِي نَصْرِ ذَلِكَ الْقَوْلِ هُوَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ كَلَامًا فِي مَعَانِي الْآيِ الْمُتَشَابِهَاتِ يَذْكُرُ فِيهَا مِنْ الْأَقْوَالِ مَا لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ السَّلَفِ وَيَحْتَجُّ لِمَا يَقُولُهُ فِي الْقُرْآنِ بِالشَّاذِّ مِنْ اللُّغَةِ وَقَصْدُهُ بِذَلِكَ الْإِنْكَارُ عَلَى ابْنِ قُتَيْبَةَ وَلَيْسَ هُوَ أَعْلَمَ بِمَعَانِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَأَتْبَعَ لِلسُّنَّةِ مِنْ ابْنِ قُتَيْبَةَ وَلَا أَفْقَهَ فِي ذَلِكَ . وَإِنْ كَانَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ مِنْ أَحْفَظِ النَّاسِ لِلُّغَةِ ؛ لَكِنَّ بَابَ فِقْهِ النُّصُوصِ غَيْرُ بَابِ حِفْظِ أَلْفَاظِ اللُّغَةِ . وَقَدْ نَقَمَ هُوَ وَغَيْرُهُ عَلَى ابْنِ قُتَيْبَةَ كَوْنَهُ رَدَّ عَلَى أَبِي عُبَيْدٍ أَشْيَاءَ مِنْ تَفْسِيرِهِ غَرِيبَ الْحَدِيثِ وَابْنُ قُتَيْبَةَ قَدْ اعْتَذَرَ عَنْ ذَلِكَ وَسَلَكَ فِي ذَلِكَ مَسْلَكَ أَمْثَالِهِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَهُوَ وَأَمْثَالُهُ يُصِيبُونَ تَارَةً وَيُخْطِئُونَ أُخْرَى فَإِنْ كَانَ الْمُتَشَابِهُ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهُ إلَّا اللَّهُ فَهُمْ كُلُّهُمْ يَجْتَرِئُونَ عَلَى اللَّهِ يَتَكَلَّمُونَ فِي شَيْءٍ لَا سَبِيلَ إلَى مَعْرِفَتِهِ وَإِنْ كَانَ مَا بَيَّنُوهُ مِنْ مَعَانِي الْمُتَشَابِهِ قَدْ أَصَابُوا فِيهِ - وَلَوْ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ - ظَهَرَ خَطَؤُهُمْ فِي قَوْلِهِمْ : إنَّ الْمُتَشَابِهَ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهُ إلَّا اللَّهُ وَلَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ الْمَخْلُوقِينَ فَلْيَخْتَرْ مَنْ يَنْصُرُ قَوْلَهُمْ هَذَا أَوْ هَذَا . وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ أَصَابُوا فِي شَيْءٍ كَثِيرٍ مِمَّا يُفَسِّرُونَ بِهِ الْمُتَشَابِهَ وَأَخْطَئُوا فِي بَعْضِ ذَلِكَ فَيَكُونُ تَفْسِيرُهُمْ هَذِهِ الْآيَةَ مِمَّا أَخْطَئُوا فِيهِ الْعِلْمَ الْيَقِينِيَّ فَإِنَّهُمْ

أَصَابُوا فِي كَثِيرٍ مِنْ تَفْسِيرِ الْمُتَشَابِهِ وَكَذَلِكَ مَا نُقِلَ عَنْ قَتَادَةَ مِنْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ لَا يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ فَكِتَابُهُ

(1038/838)

فِي التَّفْسِيرِ مِنْ أَشْهَرِ الْكُتُبِ وَنَقْلُهُ ثَابِتٌ عَنْهُ مِنْ رِوَايَةِ مَعْمَرٍ عَنْهُ وَرِوَايَةِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْهُ وَلِهَذَا كَانَ الْمُصَنِّفُونَ فِي التَّفْسِيرِ عَامَّتُهُمْ يَذْكُرُونَ قَوْلَهُ لِصِحَّةِ النَّقْلِ عَنْهُ وَمَعَ هَذَا يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ . وَالَّذِي اقْتَضَى شُهْرَةَ الْقَوْلِ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ بِأَنَّ الْمُتَشَابِهَ لَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلَّا اللَّهُ ظُهُورُ التَّأْوِيلَاتِ الْبَاطِلَةِ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ كَالْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ فَصَارَ أُولَئِكَ يَتَكَلَّمُونَ فِي تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِمْ الْفَاسِدِ وَهَذَا أَصْلٌ مَعْرُوفٌ لِأَهْلِ الْبِدَعِ أَنَّهُمْ يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِمْ الْعَقْلِيِّ وَتَأْوِيلِهِمْ اللُّغَوِيِّ فَتَفَاسِيرُ الْمُعْتَزِلَةِ مَمْلُوءَةٌ بِتَأْوِيلِ النُّصُوصِ الْمُثْبِتَةِ لِلصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ عَلَى غَيْرِ مَا أَرَادَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَإِنْكَارُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ هُوَ لِهَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد فِي مَا كَتَبَهُ فِي الرَّدِّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ فِيمَا شُكَّتْ فِيهِ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَتَأَوَّلَتْهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ فَهَذَا الَّذِي أَنْكَرَهُ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ مِنْ التَّأْوِيلِ . فَجَاءَ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ انْتَسَبُوا إلَى السُّنَّةِ بِغَيْرِ خِبْرَةٍ تَامَّةٍ بِهَا وَبِمَا

يُخَالِفُهَا ظَنُّوا أَنَّ الْمُتَشَابِهَ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهُ إلَّا اللَّهُ فَظَنُّوا أَنَّ مَعْنَى التَّأْوِيلِ هُوَ مَعْنَاهُ فِي اصْطِلَاحِ الْمُتَأَخِّرِينَ: وَهُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إلَى

(1039/838)

الْمَرْجُوحِ فَصَارُوا فِي مَوْضِعٍ يَقُولُونَ وَيَنْصُرُونَ إنَّ الْمُتَشَابِهَ لَا يَعْلَمُ

(1040/838)

مَعْنَاهُ إلَّا اللَّهُ ثُمَّ يَتَنَاقَضُونَ فِي ذَلِكَ مِنْ وُجُوهٍ. أَحَدُهَا: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ النُّصُوصُ تَجْرِي عَلَى ظَوَاهِرِهَا وَلَا يَزِيدُونَ عَلَى الْمَعْنَى الظَّاهِرِ مِنْهَا وَلِهَذَا يُبْطِلُونَ كُلَّ تَأْوِيلٍ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ وَيُقَرِّرُونَ الْمَعْنَى الظَّاهِرَ وَيَقُولُونَ مَعَ هَذَا إنَّ لَهُ تَأْوِيلًا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَالتَّأْوِيلُ عِنْدَهُمْ مَا يُنَاقِضُ الظَّاهِرَ فَكَيْفَ يَكُونُ لَهُ تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ وَقَدْ قَرَّرَ مَعْنَاهُ الظَّاهِرَ وَهَذَا مِمَّا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِمْ مُنَاظِرُوهُمْ حَتَّى أَنْكَرَ ذَلِكَ ابْنُ عَقِيلٍ عَلَى شَيْخِهِ الْقَاضِي أَبِي يَعْلَى. وَمِنْهَا أَنَّا وَجَدْنَا هَؤُلَاءِ كُلَّهُمْ لَا يُحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِنَصٍّ يُخَالِفُ قَوْلَهُمْ لَا فِي مَسْأَلَةٍ أَصْلِيَّةٍ وَلَا فَرْعِيَّةٍ إلَّا تَأَوَّلُوا ذَلِكَ النَّصَّ بِتَأْوِيلَاتٍ مُتَكَلَّفَةٍ مُسْتَخْرَجَةٍ مِنْ جِنْسِ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ مِنْ

جنس تأويلات الجهمية والقدرية للنصوص التي تخالفهم فأين هذا من قولهم : لا يعلم معاني النصوص المتشابهة إلا الله تعالى واعتبر هذا بما تجده في كتبهم من مناظرتهم للمعتزلة في مسائل الصفات والقرآن والقدر إذا احتجت المعتزلة على قولهم بالآيات التي تناقض قول هؤلاء مثل أن يحتجوا بقوله : ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول

(1041/838)

له كن فيكون ﴾ ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ ونحو ذلك كيف تجدهم يتأولون هذه النصوص بتأويلات غالبها فاسد

(1042/838)

وإن كان في بعضها حق فإن كان ما تأولوه حقا دل على أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه فظهر تناقضهم وإن كان باطلا فذلك أبعد لهم . وهذا أحمد بن حنبل إمام أهل

السُّنَّةِ الصَّابِرُ فِي الْمِحْنَةِ الَّذِي قَدْ صَارَ لِلْمُسْلِمِينَ مِعْيَارًا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْبِدْعَةِ لَمَّا صَنَّفَ كِتَابَهُ فِي "الرَّدِّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ" فِيمَا شُكَّتْ فِيهِ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَتَأَوَّلَتْهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ تَكَلَّمَ عَلَى مَعَانِي الْمُتَشَابِهِ الَّذِي اتَّبَعَهُ الزَّائِغُونَ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ آيَةً آيَةً وَبَيَّنَ مَعْنَاهَا وَفَسَّرَهَا لِيُبَيِّنَ فَسَادَ تَأْوِيلِ الزَّائِغِينَ وَاحْتَجَّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ يُرَى وَأَنَّ الْقُرْآنَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَأَنَّ اللَّهَ فَوْقَ الْعَرْشِ؛ بِالْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ وَرَدَّ مَا احْتَجَّ بِهِ النُّفَاةُ مِنْ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ وَبَيَّنَ مَعَانِيَ الْآيَاتِ الَّتِي سَمَّاهَا هُوَ مُتَشَابِهَةً وَفَسَّرَهَا آيَةً آيَةً وَكَذَلِكَ لَمَّا نَاظَرُوهُ وَاحْتَجُّوا عَلَيْهِ بِالنُّصُوصِ جَعَلَ يُفَسِّرُهَا آيَةً آيَةً وَحَدِيثًا حَدِيثًا وَيُبَيِّنُ فَسَادَ مَا تَأَوَّلَهَا عَلَيْهِ الزَّائِغُونَ وَيُبَيِّنُ هُوَ مَعْنَاهَا وَلَمْ يَقُلْ أَحْمَد إنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهَا إلَّا اللَّهُ وَلَا قَالَ أَحَدٌ لَهُ ذَلِكَ بَلْ الطَّوَائِفُ كُلُّهَا مُجْتَمِعَةٌ عَلَى إمْكَانِ مَعْرِفَةِ مَعْنَاهَا لَكِنْ يَتَنَازَعُونَ فِي الْمُرَادِ كَمَا يَتَنَازَعُونَ فِي آيَاتِ

(1043/838)

الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَكَذَلِكَ كَانَ أَحْمَد يُفَسِّرُ الْمُتَشَابِهَ مِنْ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا الزَّائِغُونَ مِنْ الْخَوَارِجِ

(1044/838)

وَغَيْرُهُمْ كَقَوْلِهِ : ﴿ لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الشَّارِبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ . وَيُبْطِلُ قَوْلَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ وَقَوْلَ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَكُلُّ هَذِهِ الطَّوَائِفِ تَحْتَجُّ بِنُصُوصِ الْمُتَشَابِهِ عَلَى قَوْلِهَا وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ لَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَلَا مِنْ هَؤُلَاءِ لِمَا يَسْتَدِلُّ بِهِ هُوَ أَوْ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَيْهِ مُنَازِعُهُ : هَذِهِ آيَاتٌ وَأَحَادِيثُ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهَا أَحَدٌ مِنْ الْبَشَرِ فَأَمْسِكُوا عَنْ الِاسْتِدْلَالِ بِهَا . وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَد يُنْكِرُ طَرِيقَةَ أَهْلِ الْبِدَعِ الَّذِينَ يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِمْ وَتَأْوِيلِهِمْ مِنْ غَيْرِ اسْتِدْلَالٍ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ الَّذِينَ بَلَّغَهُمْ الصَّحَابَةُ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ كَمَا بَلَّغُوهُمْ أَلْفَاظَهُ وَنَقَلُوا هَذَا كَمَا نَقَلُوا هَذَا لَكِنَّ أَهْلَ الْبِدَعِ يَتَأَوَّلُونَ النُّصُوصَ بِتَأْوِيلَاتٍ تُخَالِفُ مُرَادَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَدَّعُونَ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي يَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ وَهُمْ مُبْطِلُونَ فِي ذَلِكَ لَا سِيَّمَا تَأْوِيلَاتُ الْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ الْمَلَاحِدَةِ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْكَلَامِ الْمُحْدَثِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ . وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَعْتَرِفُونَ بِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ وَإِنَّمَا غَايَتُهُمْ أَنْ يَقُولُوا : ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ غَيْرُ مُرَادٍ وَلَكِنْ يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ كَذَا

وَأَنْ يُرَادَ كَذَا وَلَوْ تَأَوَّلَهَا الْوَاحِدُ مِنْهُمْ بِتَأْوِيلٍ مُعَيَّنٍ فَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ مُرَادُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُرَادُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ عِنْدَهُمْ غَيْرَ ذَلِكَ كَالتَّأْوِيلَاتِ الَّتِي يَذْكُرُونَهَا فِي نُصُوصِ الْكِتَابِ كَمَا يَذْكُرُونَهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ وَيَنْزِلُ رَبُّنَا و ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ و ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ النُّصُوصِ فَإِنَّ غَايَةَ مَا عِنْدَهُمْ يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ كَذَا وَيَجُوزُ كَذَا وَنَحْوَ ذَلِكَ وَلَيْسَ هَذَا عِلْمًا بِالتَّأْوِيلِ وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ ذَكَرَ فِي نَصٍّ أَقْوَالًا وَاحْتِمَالَاتٍ وَلَمْ يَعْرِفْ الْمُرَادَ فَإِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ تَفْسِيرَ ذَلِكَ وَتَأْوِيلَهُ وَإِنَّمَا يَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ عَرَفَ الْمُرَادَ .

(1046/838)

وَمَنْ زَعَمَ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ أَنَّ الْأَدِلَّةَ السَّمْعِيَّةَ لَا تُفِيدُ الْعِلْمَ فَمَضْمُونُ مَدْلُولَاتِهِ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ تَفْسِيرَ الْمُحْكَمِ وَلَا تَفْسِيرَ الْمُتَشَابِهِ وَلَا تَأْوِيلَ ذَلِكَ . وَهَذَا إقْرَارٌ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ فَضْلًا عَنْ تَأْوِيلِ الْمُحْكَمِ فَإِذَا انْضَمَّ إلَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُمْ فِي الْعَقْلِيَّاتِ فِيهِ مِنْ السَّفْسَطَةِ وَالتَّلْبِيسِ مَا لَا يَكُونُ مَعَهُ دَلِيلٌ عَلَى الْحَقِّ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ هَؤُلَاءِ لَا مَعْرِفَةٌ بِالسَّمْعِيَّاتِ وَلَا بِالْعَقْلِيَّاتِ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ أَهْلِ النَّارِ

أَنَّهُمْ قَالُوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ وَمَدَحَ الَّذِينَ إذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِهِ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَفْقَهُونَ وَيَعْقِلُونَ وَذَمَّ الَّذِينَ

(1047/838)

لَا يَفْقَهُونَ وَلَا يَعْقِلُونَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ وَأَهْلُ الْبِدَعِ الْمُخَالِفُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَدَّعُونَ الْعِلْمَ وَالْعِرْفَانَ وَالتَّحْقِيقَ وَهُمْ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ بِالسَّمْعِيَّاتِ وَالْعَقْلِيَّاتِ وَهُمْ يَجْعَلُونَ أَلْفَاظًا لَهُمْ مُجْمَلَةً مُتَشَابِهَةً تَتَضَمَّنُ حَقًّا وَبَاطِلًا يَجْعَلُونَهَا هِيَ الْأُصُولَ الْمُحْكَمَةَ وَيَجْعَلُونَ مَا عَارَضَهَا مِنْ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ إلَّا اللَّهُ وَمَا يَتَأَوَّلُونَهُ بِالِاحْتِمَالَاتِ لَا يُفِيدُ فَيَجْعَلُونَ الْبَرَاهِينَ شُبُهَاتٍ وَالشُّبُهَاتِ بَرَاهِينَ كَمَا قَدْ بُسِطَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ . وَقَدْ نَقَلَ الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى عَنْ الْإِمَامِ أَحْمَد أَنَّهُ قَالَ : الْمُحْكَمُ مَا اسْتَقَلَّ بِنَفْسِهِ وَلَمْ يَحْتَجْ إلَى بَيَانٍ وَالْمُتَشَابِهُ مَا احْتَاجَ إلَى بَيَانٍ وَكَذَلِكَ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد فِي رِوَايَةٍ وَالشَّافِعِيُّ قَالَ : الْمُحْكَمُ مَا لَا يَحْتَمِلُ مِنْ التَّأْوِيلِ إلَّا وَجْهًا وَاحِدًا وَالْمُتَشَابِهُ مَا احْتَمَلَ مِنْ التَّأْوِيلِ وُجُوهًا وَكَذَلِكَ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَد وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : الْمُحْكَمُ مَا لَمْ يَحْتَمِلْ مِنْ التَّأْوِيلِ إلَّا وَجْهًا وَاحِدًا وَالْمُتَشَابِهُ الَّذِي تَعْتَوِرُهُ التَّأْوِيلَاتُ فَيُقَالُ حِينَئِذٍ فَجَمِيعُ

الْأُمَّةِ سَلَفُهَا وَخَلَفُهَا يَتَكَلَّمُونَ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ الَّتِي تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَاتِ . وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْصُرُونَ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ لَا يَعْلَمُونَ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ هُمْ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ كَلَامًا فِيهِ .

(1048/838)

وَالْأَئِمَّةُ كَالشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَمَنْ قَبْلَهُمْ كُلُّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ فِيمَا يَحْتَمِلُ مَعَانِيَ وَيُرَجِّحُونَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ بِالْأَدِلَّةِ فِي جَمِيعِ مَسَائِلِ الْعِلْمِ الْأُصُولِيَّةِ وَالفروعية لَا يُعْرَفُ عَنْ عَالِمٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ قَالَ عَنْ نَصٍّ احْتَجَّ بِهِ مُحْتَجٌّ فِي مَسْأَلَةٍ : أَنَّ هَذَا لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ فَلَا يُحْتَجُّ بِهِ وَلَوْ قَالَ أَحَدٌ ذَلِكَ لَقِيلَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ وَإِذَا ادَّعَى فِي مَسَائِلِ النِّزَاعِ الْمَشْهُورَةِ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ أَنَّ نَصَّهُ مُحْكَمٌ يُعْلَمُ مَعْنَاهُ وَأَنَّ النَّصَّ الْآخَرَ مُتَشَابِهٌ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ قُوبِلَ بِمِثْلِ هَذِهِ الدَّعْوَى . وَهَذَا بِخِلَافِ قَوْلِنَا : إنَّ مِنْ النُّصُوصِ مَا مَعْنَاهُ جَلِيٌّ وَاضِحٌ ظَاهِرٌ لَا يَحْتَمِلُ إلَّا وَجْهًا وَاحِدًا لَا يَقَعُ فِيهِ اشْتِبَاهٌ وَمِنْهَا مَا فِيهِ خَفَاءٌ وَاشْتِبَاهٌ يَعْرِفُ مَعْنَاهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ فَإِنَّ هَذَا تَفْسِيرٌ صَحِيحٌ وَحِينَئِذٍ فَالْخِلَافُ فِي الْمُتَشَابِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كُلَّهُ يُعْرَفُ مَعْنَاهُ فَمَنْ قَالَ إنَّهُ يُعْرَفُ مَعْنَاهُ يُبَيِّنُ حُجَّتَهُ عَلَى ذَلِكَ . وَأَيْضًا فَمَا ذَكَرَهُ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ فِي الْمُتَشَابِهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كُلَّهُ يُعْرَفُ مَعْنَاهُ . فَمَنْ قَالَ : إنَّ الْمُتَشَابِهَ هُوَ الْمَنْسُوخُ فَمَعْنَى الْمَنْسُوخِ مَعْرُوفٌ وَهَذَا الْقَوْلُ مَأْثُورٌ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ . وَابْنِ عَبَّاسٍ وقتادة . والسدي وَغَيْرِهِمْ .

وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وقتادة هُمْ الَّذِينَ نُقِلَ عَنْهُمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ لَا يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ وَمَعْلُومٌ قَطْعًا بِاتِّفَاقِ

(1049/838)

الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الرَّاسِخِينَ يَعْلَمُونَ مَعْنَى الْمَنْسُوخِ؛ وَأَنَّهُ مَنْسُوخٌ فَكَانَ هَذَا النَّقْلُ عَنْهُمْ يُنَاقِضُ ذَلِكَ النَّقْلَ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَذِبٌ إنْ كَانَ هَذَا صِدْقًا وَإِلَّا تَعَارَضَ النَّقْلَانِ

(1050/838)

عَنْهُمْ وَالْمَنْقُولُ عَنْهُمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ يَعْلَمُونَ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي مَأْثُورٌ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ قَالَ : الْمُحْكَمُ مَا عَلِمَ الْعُلَمَاءُ تَأْوِيلَهُ وَالْمُتَشَابِهُ مَا لَمْ يَكُنْ لِلْعُلَمَاءِ إلَى مَعْرِفَتِهِ سَبِيلٌ كَقِيَامِ السَّاعَةِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ وَقْتَ قِيَامِ السَّاعَةِ مِمَّا اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ فَإِذَا أُرِيدَ بِلَفْظِ التَّأْوِيلِ هَذَا كَانَ الْمُرَادُ بِهِ لَا يَعْلَمُ وَقْتَ تَأْوِيلِهِ إلَّا اللَّهُ وَهَذَا حَقٌّ وَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى الْخِطَابِ بِذَلِكَ وَكَذَلِكَ إنْ أُرِيدَ بِالتَّأْوِيلِ حَقَائِقُ مَا يُوجَدُ وَقِيلَ لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ إلَّا اللَّهُ فَهَذَا قَدْ قَدَّمْنَاهُ وَذَكَرَ أَنَّهُ عَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ مَنْ وَقَفَ عِنْدَ قَوْلِهِ : ﴿

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ هُوَ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُرَادَ بِالتَّأْوِيلِ . وَأَمَّا أَنْ يُرَادَ بِالتَّأْوِيلِ التَّفْسِيرُ وَمَعْرِفَةُ الْمَعْنَى وَيُوقَفَ عَلَى قَوْلِهِ إِلَّا اللَّهُ فَهَذَا خَطَأٌ قَطْعًا مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ . وَمَنْ قَالَ ذَلِكَ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ فَإِنَّهُ مُتَنَاقِضٌ يَقُولُ ذَلِكَ وَيَقُولُ مَا يُنَاقِضُهُ . وَهَذَا الْقَوْلُ يُنَاقِضُ الْإِيمَانَ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ وَيُوجِبُ الْقَدْحَ فِي الرِّسَالَةِ وَلَا رَيْبَ أَنَّ الَّذِي قَالُوهُ لَمْ يَتَدَبَّرُوا لَوَازِمَهُ وَحَقِيقَتَهُ بَلْ أَطْلَقُوهُ وَكَانَ أَكْبَرُ قَصْدِهِمْ دَفْعَ تَأْوِيلَاتِ أَهْلِ الْبِدَعِ لِلْمُتَشَابِهِ . وَهَذَا الَّذِي قَصَدُوهُ حَقٌّ وَكُلُّ مُسْلِمٍ

(1051/838)

يُوَافِقُهُمْ عَلَيْهِ ؛ لَكِنْ لَا نَدْفَعُ بَاطِلًا بِبَاطِلِ آخَرَ وَلَا نَرُدُّ بِدْعَةً بِبِدْعَةِ وَلَا يُرَدُّ تَفْسِيرُ

(1052/838)

أَهْلِ الْبَاطِلِ لِلْقُرْآنِ بِأَنْ يُقَالَ : الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّحَابَةُ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ تَفْسِيرَ مَا تَشَابَهَ مِنْ الْقُرْآنِ فَفِي هَذَا مِنْ الطَّعْنِ فِي الرَّسُولِ وَسَلَفِ الْأُمَّةِ مَا قَدْ يَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ خَطَأِ طَائِفَةٍ فِي تَفْسِيرِ بَعْضِ الْآيَاتِ وَالْعَاقِلُ لَا يَبْنِي قَصْرًا وَيَهْدِمُ مِصْرًا . وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ

: أَنَّ الْمُتَشَابِهَ الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ يُرْوَى هَذَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَالْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ لَيْسَتْ كَلَامًا تَامًّا مِنْ الْجُمَلِ الِاسْمِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ وَإِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءٌ مَوْقُوفَةٌ وَلِهَذَا لَمْ تُعْرَبْ فَإِنَّ الْإِعْرَابَ إنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ الْعَقْدِ وَالتَّرْكِيبِ وَإِنَّمَا نُطِقَ بِهَا مَوْقُوفَةً كَمَا يُقَالُ : ا ب ت ث وَلِهَذَا تُكْتَبُ بِصُورَةِ الْحَرْفِ لَا بِصُورَةِ الِاسْمِ الَّذِي يُنْطَقُ بِهِ فَإِنَّهَا فِي النُّطْقِ أَسْمَاءٌ وَلِهَذَا لَمَّا سَأَلَ الْخَلِيلُ أَصْحَابَهُ عَنْ النُّطْقِ بِالزَّايِ مِنْ زَيْدٍ قَالُوا : زا قَالَ : نَطَقْتُمْ بِالِاسْمِ وَإِنَّمَا النُّطْقُ بِالْحَرْفِ زهّ فَهِيَ فِي اللَّفْظِ أَسْمَاءٌ وَفِي الْخَطِّ حُرُوفٌ مُقَطَّعَةٌ (الم) لَا تُكْتَبُ أَلِفٌ لَامٌ مِيمٌ كَمَا يُكْتَبُ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ أَمَا إنِّي لَا أَقُولُ - الم - حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ ﴾ . وَالْحَرْفُ فِي لُغَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ يَتَنَاوَلُ الَّذِي يُسَمِّيهِ النُّحَاةُ اسْمًا وَفِعْلًا وَحَرْفًا

(1053/838)

وَلِهَذَا قَالَ سِيبَوَيْهِ فِي تَقْسِيمِ الْكَلَامِ :

اسْمٌ وَفِعْلٌ وَحَرْفٌ جَاءَ لِمَعْنَى لَيْسَ بِاسْمِ وَلَا فِعْلٍ . فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ مَعْرُوفًا مِنْ اللُّغَةِ أَنَّ الِاسْمَ حُرِفَ وَالْفِعْلَ حُرِفَ خَصَّ هَذَا الْقِسْمُ الثَّالِثُ الَّذِي يُطْلِقُ النُّحَاةُ عَلَيْهِ الْحَرْفَ أَنَّهُ جَاءَ

لِمَعْنًى لَيْسَ بِاسْمٍ وَلَا فِعْلٍ وَهَذِهِ حُرُوفُ الْمَعَانِي الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا الْكَلَامُ . وَأَمَّا حُرُوفُ الْهِجَاءِ فَتِلْكَ إنَّمَا تُكْتَبُ عَلَى صُورَةِ الْحَرْفِ الْمُجَرَّدِ وَيُنْطَقُ بِهَا غَيْرَ مُعْرَبَةٍ وَلَا يُقَالُ فِيهَا مُعْرَبٌ وَلَا مَبْنِيٌّ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ إنَّمَا يُقَالُ فِي الْمُؤَلَّفِ فَإِذَا كَانَ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ كُلُّ مَا سِوَى هَذِهِ مُحْكَمٌ حَصَلَ الْمَقْصُودُ فَإِنَّهُ لَيْسَ الْمَقْصُودُ إلَّا مَعْرِفَةَ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ يُقَالُ : هَذِهِ الْحُرُوفُ قَدْ تَكَلَّمَ فِي مَعْنَاهَا أَكْثَرُ النَّاسِ فَإِنْ كَانَ مَعْنَاهَا مَعْرُوفًا فَقَدْ عُرِفَ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا وَهِيَ الْمُتَشَابِهُ كَانَ مَا سِوَاهَا مَعْلُومَ الْمَعْنَى . وَهَذَا الْمَطْلُوبُ . وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ وَهَذِهِ الْحُرُوفُ لَيْسَتْ آيَاتٍ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ وَإِنَّمَا يَعُدُّهَا آيَاتٍ الْكُوفِيُّونَ . وَسَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الصَّحِيحُ : يَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَيْرَهَا أَيْضًا مُتَشَابِهٌ وَلَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ يُوَافِقُ مَا نُقِلَ عَنْ الْيَهُودِ مِنْ طَلَبِ عِلْمِ الْمُدَدِ مِنْ حُرُوفِ الْهِجَاءِ .

(1054/838)

وَالرَّابِعُ : أَنَّ الْمُتَشَابِهَ مَا اشْتَبَهَتْ مَعَانِيهِ قَالَ مُجَاهِدٌ وَهَذَا يُوَافِقُ قَوْلَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ وَكُلُّهُمْ يَتَكَلَّمُ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْمُتَشَابِهِ وَيُبَيِّنُ مَعْنَاهُ . وَالْخَامِسُ : أَنَّ الْمُتَشَابِهَ مَا تَكَرَّرَتْ أَلْفَاظُهُ قَالَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ الْمُحْكَمُ مَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ قَصَصِ

الْأَنْبِيَاءِ فَفَصَّلَهُ وَبَيَّنَهُ وَالْمُتَشَابِهُ هُوَ مَا اخْتَلَفَتْ أَلْفَاظُهُ فِي قَصَصِهِمْ عِنْدَ التَّكْرِيرِ كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ: ﴿ احْمِلْ فِيهَا ﴾ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿ فَاسْلُكْ فِيهَا ﴾ وَقَالَ فِي عَصَا مُوسَى: ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ. ﴿ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴾ وَصَاحِبُ هَذَا الْقَوْلِ جَعَلَ الْمُتَشَابِهَ اخْتِلَافَ اللَّفْظِ مَعَ اتِّفَاقِ الْمَعْنَى كَمَا يَشْتَبِهُ عَلَى حَافِظِ الْقُرْآنِ هَذَا اللَّفْظُ بِذَاكَ اللَّفْظِ وَقَدْ صَنَّفَ بَعْضُهُمْ فِي هَذَا الْمُتَشَابِهِ لِأَنَّ الْقِصَّةَ الْوَاحِدَةَ يَتَشَابَهُ مَعْنَاهَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ فَاشْتَبَهَ عَلَى الْقَارِئِ أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ بِالْآخَرِ وَهَذَا التَّشَابُهُ لَا يَنْفِي مَعْرِفَةَ الْمَعَانِي بِلَا رَيْبٍ وَلَا يُقَالُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنَّ الرَّاسِخِينَ يَخْتَصُّونَ بِعِلْمِ تَأْوِيلِهِ فَهَذَا الْقَوْلُ إنْ كَانَ صَحِيحًا كَانَ حُجَّةً لَنَا وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا لَمْ يَضُرَّنَا.

وَالسَّادِسُ: أَنَّهُ مَا احْتَاجَ إلَى بَيَانٍ كَمَا نُقِلَ عَنْ أَحْمَد. وَالسَّابِعُ: أَنَّهُ مَا احْتَمَلَ وُجُوهًا كَمَا نُقِلَ عَنْ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ

(1055/838)

قَالَ: إنَّك لَا تَفْقَهُ كُلَّ

الْفِقْهِ حَتَّى تَرَى لِلْقُرْآنِ وُجُوهًا وَقَدْ صَنَّفَ النَّاسُ "كُتُبَ الْوُجُوهِ وَالنَّظَائِرِ" فَالنَّظَائِرُ اللَّفْظُ الَّذِي اتَّفَقَ مَعْنَاهُ فِي الْمَوْضِعَيْنِ وَأَكْثَرَ. وَالْوُجُوهُ: الَّذِي اخْتَلَفَ مَعْنَاهُ كَمَا يُقَالُ الْأَسْمَاءُ

الْمُتَوَاطِئَةُ وَالْمُشْتَرَكَةُ وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ وَلِبَسْطِهِ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَقَدْ قِيلَ : هِيَ نَظَائِرُ فِي اللَّفْظِ وَمَعَانِيهَا مُخْتَلِفَةٌ فَتَكُونُ كَالْمُشْتَرَكَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ بَلْ الصَّوَابُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوُجُوهِ وَالنَّظَائِرِ هُوَ الْأَوَّلُ : وَقَدْ تَكَلَّمَ الْمُسْلِمُونَ سَلَفُهُمْ وَخَلَفُهُمْ فِي مَعَانِي الْوُجُوهِ وَفِيمَا يَحْتَاجُ إلَى بَيَانٍ وَمَا يَحْتَمِلُ وُجُوهًا فَعُلِمَ يَقِينًا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْقُرْآنِ مِمَّا يُمْكِنُ الْعُلَمَاءَ مَعْرِفَةُ مَعَانِيهِ وَعُلِمَ أَنَّ مَنْ قَالَ إنَّ مِنْ الْقُرْآنِ مَا لَا يَفْهَمُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ وَلَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ إلَّا اللَّهُ فَإِنَّهُ مُخَالِفٌ لِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ مَعَ مُخَالَفَتِهِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَالثَّامِنُ : أَنَّ الْمُتَشَابِهَ هُوَ الْقَصَصُ وَالْأَمْثَالُ وَهَذَا أَيْضًا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ . وَالتَّاسِعُ : أَنَّهُ مَا يُؤْمَنُ بِهِ وَلَا يُعْمَلُ بِهِ وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ . وَالْعَاشِرُ : قَوْلُ بَعْضِ الْمُتَأَخِّرِينَ إنَّ الْمُتَشَابِهَ آيَاتُ الصِّفَاتِ وَأَحَادِيثُ الصِّفَاتِ وَهَذَا أَيْضًا مِمَّا يُعْلَمُ مَعْنَاهُ فَإِنَّ أَكْثَرَ آيَاتِ الصِّفَاتِ اتَّفَقَ

(1056/838)

الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ يُعْرَفُ مَعْنَاهَا وَالْبَعْضُ الَّذِي تَنَازَعَ النَّاسُ فِي مَعْنَاهُ إنَّمَا ذَمَّ السَّلَفُ مِنْهُ تَأْوِيلَاتِ الْجَهْمِيَّةِ وَنَفَوْا عِلْمَ النَّاسِ بِكَيْفِيَّتِهِ : كَقَوْلِ مَالِكٍ : الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ . وَكَذَلِكَ قَالَ سَائِرُ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ . وَحِينَئِذٍ فَفَرْقٌ بَيْنَ الْمَعْنَى الْمَعْلُومِ وَبَيْنَ الْكَيْفِ الْمَجْهُولِ فَإِنْ سُمِّيَ الْكَيْفُ تَأْوِيلًا سَاغَ أَنْ يُقَالَ : هَذَا التَّأْوِيلُ لَا

يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ كَمَا قَدَّمْنَاهُ أَوَّلًا . وَأَمَّا إذَا جَعَلَ مَعْرِفَةَ الْمَعْنَى وَتَفْسِيرَهُ تَأْوِيلًا كَمَا يَجْعَلُ مَعْرِفَةَ سَائِرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ تَأْوِيلًا وَقِيلَ : إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجِبْرِيلَ وَالصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ مَا كَانُوا يَعْرِفُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ وَلَا يَعْرِفُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ وَلَا مَعْنَى قَوْلِهِ : ﴿ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ بَلْ هَذَا عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْكَلَامِ الْعَجَمِيِّ الَّذِي لَا يَفْهَمُهُ الْعَرَبِيُّ . وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ كَانَ عِنْدَهُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ

(1057/838)

وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَأَحْسِنُوا إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ وَقَوْلُهُ :

(1058/838)

﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ إلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ . فَمَنْ قَالَ عَنْ جِبْرِيلَ وَمُحَمَّدٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمَا وَعَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْجَمَاعَةِ : أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْرِفُونَ شَيْئًا مِنْ مَعَانِي هَذِهِ الْآيَاتِ بَلْ اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِ مَعْنَاهَا كَمَا اسْتَأْثَرَ بِعِلْمِ وَقْتِ السَّاعَةِ وَإِنَّمَا كَانُوا يَقْرَءُونَ أَلْفَاظًا لَا يَفْهَمُونَ لَهَا مَعْنًى كَمَا يَقْرَأُ الْإِنْسَانُ كَلَامًا لَا يَفْهَمُ مِنْهُ شَيْئًا فَقَدْ كَذَبَ عَلَى الْقَوْمِ وَالنُّقُولُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْهُمْ تَدُلُّ عَلَى نَقِيضِ هَذَا وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَفْهَمُونَ هَذَا كَمَا يَفْهَمُونَ غَيْرَهُ مِنْ الْقُرْآنِ وَإِنْ كَانَ كُنْهُ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُحِيطُ بِهِ الْعِبَادُ وَلَا يُحْصُونَ ثَنَاءً عَلَيْهِ فَذَاكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَعْلَمُوا مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ مَا عَلَّمَهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا أَنَّهُمْ إذَا عَلِمُوا أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ

عَلِيمٌ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَعْرِفُوا كَيْفِيَّةَ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ . وَإِذَا عَرَفُوا أَنَّهُ حَقٌّ مَوْجُودٌ لَمْ يَلْزَمْ أَنْ يَعْرِفُوا كَيْفِيَّةَ ذَاتِهِ .

(1060/838)

وَهَذَا مِمَّا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ التَّأْوِيلَ فَإِنَّ النَّاسَ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ تَأْوِيلَ الْمُحْكَمِ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ لَا يَعْرِفُونَ كَيْفِيَّةَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ فِي الْآيَاتِ الْمُحْكَمَاتِ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ عَدَمَ الْعِلْمِ بِالْكَيْفِيَّةِ لَا يَنْفِي الْعِلْمَ بِالتَّأْوِيلِ الَّذِي هُوَ تَفْسِيرُ الْكَلَامِ وَبَيَانُ مَعْنَاهُ ؛ بَلْ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ وَلَا يَعْرِفُونَ كَيْفِيَّةَ الرَّبِّ لَا فِي هَذَا وَلَا فِي هَذَا . فَإِنْ قِيلَ : هَذَا يَقْدَحُ فِيمَا ذَكَرْتُمْ مِنْ الْفَرْقِ بَيْنَ التَّأْوِيلِ الَّذِي يُرَادُ بِهِ التَّفْسِيرُ وَبَيْنَ التَّأْوِيلِ الَّذِي فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى قِيلَ لَا يَقْدَحُ فِي ذَلِكَ فَإِنَّ مَعْرِفَةَ تَفْسِيرِ اللَّفْظِ وَمَعْنَاهُ وَتَصَوُّرَ ذَلِكَ فِي الْقَلْبِ غَيْرُ مَعْرِفَةِ الْحَقِيقَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْخَارِجِ الْمُرَادَةِ بِذَلِكَ الْكَلَامِ فَإِنَّ الشَّيْءَ لَهُ وُجُودٌ فِي الْأَعْيَانِ وَوُجُودٌ فِي الْأَذْهَانِ وَوُجُودٌ فِي اللِّسَانِ وَوُجُودٌ فِي الْبَنَانِ . فَالْكَلَامُ لَفْظٌ لَهُ مَعْنًى فِي الْقَلْبِ وَيُكْتَبُ ذَلِكَ اللَّفْظُ بِالْخَطِّ فَإِذَا عُرِفَ الْكَلَامُ وَتُصُوِّرَ مَعْنَاهُ فِي الْقَلْبِ وَعُبِّرَ عَنْهُ بِاللِّسَانِ فَهَذَا غَيْرُ الْحَقِيقَةِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْخَارِجِ وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ عَرَفَ

الْأَوَّلَ عَرَفَ عَيْنَ الثَّانِي . مِثَالُ ذَلِكَ : أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَعْلَمُونَ مَا فِي كُتُبِهِمْ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَبَرِهِ وَنَعْتِهِ وَهَذَا مَعْرِفَةُ الْكَلَامِ وَمَعْنَاهُ وَتَفْسِيرُهُ

(1061/838)

وَتَأْوِيلُ ذَلِكَ هُوَ نَفْسُ مُحَمَّدٍ الْمَبْعُوثِ فَالْمَعْرِفَةُ بِعَيْنِهِ مَعْرِفَةُ تَأْوِيلِ

(1062/838)

ذَلِكَ الْكَلَامِ وَكَذَلِكَ الْإِنْسَانُ قَدْ يَعْرِفُ الْحَجَّ وَالْمَشَاعِرَ كَالْبَيْتِ وَالْمَسْجِدِ وَمِنًى وَعَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ وَيَفْهَمُ مَعْنَى ذَلِكَ وَلَا يَعْرِفُ أَعْيَانَ الْأَمْكِنَةِ حَتَّى يُشَاهِدَهَا فَيَعْرِفُ أَنَّ الْكَعْبَةَ الْمُشَاهَدَةَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ وَكَذَلِكَ أَرْضُ عَرَفَاتٍ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ وَكَذَلِكَ الْمَشْعَرُ الْحَرَامُ هِيَ الْمُزْدَلِفَةُ الَّتِي بَيْنَ مَأْزِمَيْ عَرَفَةَ وَوَادِي مُحَسِّرٍ يَعْرِفُ أَنَّهَا الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ﴾ . وَكَذَلِكَ الرُّؤْيَا قَدْ يَرَاهَا الرَّجُلُ وَيَذْكُرُ لَهُ الْعَابِرُ تَأْوِيلَهَا فَيَفْهَمُهُ وَيَتَصَوَّرُهُ : مِثْلَ أَنْ يَقُولَ : هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ كَذَا وَيَكُونُ كَذَا وَكَذَا ثُمَّ إذَا

كَانَ ذَلِكَ فَهُوَ تَأْوِيلُ الرُّؤْيَا لَيْسَ تَأْوِيلُهَا نَفْسَ عِلْمِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَكَلَامِهِ وَلِهَذَا قَالَ يُوسُفُ الصِّدِّيقُ : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ﴾ فَقَدْ أَنْبَأَهُمَا بِالتَّأْوِيلِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ التَّأْوِيلُ وَالْإِنْبَاءُ لَيْسَ هُوَ التَّأْوِيلُ فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَالِمٌ بِالتَّأْوِيلِ وَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ لَمْ يَقَعْ بَعْدُ وَإِنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ مَتَى يَقَعُ فَنَحْنُ نَعْلَمُ تَأْوِيلَ مَا ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَإِنْ كُنَّا لَا نَعْرِفُ مَتَى يَقَعُ هَذَا

(1063/838)

التَّأْوِيلُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ ﴾ الْآيَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾

(1064/838)

فَنَحْنُ نَعْلَمُ مُسْتَقَرَّ نَبَإِ اللَّهِ وَهُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا . وَلَا نَعْلَمُ مَتَى يَكُونُ وَقَدْ لَا نَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهَا وَقَدْرَهَا وَسَوَاءٌ فِي هَذَا تَأْوِيلُ الْمُحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ . كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا

وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهَا كَائِنَةٌ وَلَمْ يَأْتِ تَأْوِيلُهَا بَعْدُ فَقَدْ عُرِفَ تَأْوِيلُهَا وَهُوَ وُقُوعُ الِاخْتِلَافِ وَالْفِتَنِ وَإِنْ لَمْ يُعْرَفْ مَتَى يَقَعُ وَقَدْ لَا يُعْرَفُ صِفَتُهُ وَلَا حَقِيقَتُهُ فَإِذَا وَقَعَ عَرَفَ الْعَارِفُ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَغَيْرُهُ قَدْ لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ أَوْ يَنْسَاهُ بَعْدَ مَا كَانَ عَرَفَهُ فَلَا يَعْرِفُ أَنَّ هَذَا تَأْوِيلُ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ : لَقَدْ قَرَأْنَا هَذِهِ الْآيَةَ زَمَانًا وَمَا أَرَانَا مِنْ أَهْلِهَا وَإِذَا نَحْنُ الْمَعْنِيُّونَ بِهَا : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ . وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ ذَمَّ فِي كِتَابِهِ مَنْ يَسْمَعُ الْقُرْآنَ وَلَا يَفْقَهُ مَعْنَاهُ وَذَمَّ مَنْ لَمْ يَتَدَبَّرْهُ وَمَدَحَ مَنْ يَسْمَعُهُ وَيَفْقَهُهُ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ ﴾ الْآيَةَ فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ لِأَهْلِ الْعِلْمِ : مَاذَا قَالَ الرَّسُولُ

(1065/838)

فِي هَذَا الْوَقْتِ الْمُتَقَدِّمِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ مِنْ الصَّحَابَةِ كَانُوا يَعْرِفُونَ مِنْ مَعَانِي كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَا يَعْرِفُهُ غَيْرُهُمْ وَهَؤُلَاءِ هُمْ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ

(1066/838)

الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ مُحْكَمَهُ وَمُتَشَابِهَهُ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْعَالِمِينَ يَعْقِلُونَهَا وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُمْ لَا يَعْقِلُهَا .

وَالْأَمْثَالُ : هِيَ الْمُتَشَابِهُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ السَّلَفِ وَهِيَ إِلَى الْمُتَشَابِهِ أَقْرَبُ مِنْ غَيْرِهَا لِمَا بَيْنَ الْمُمَثَّلِ وَالْمُمَثَّلِ بِهِ مِنْ التَّشَابُهِ وَعَقْلُ مَعْنَاهَا هُوَ مَعْرِفَةُ تَأْوِيلِهَا الَّذِي يَعْرِفُهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ دُونَ غَيْرِهِمْ وَيُشْبِهُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُمْ عَرَفُوا مَعْنَى مَا أُنْزِلَ كَيْفَ عَرَفُوا أَنَّهُ حَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ وَهَلْ يُحْكَمُ عَلَى كَلَامٍ لَمْ يُتَصَوَّرْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ حَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ وَقَالَ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِي ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ إذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ إنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ

لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ وَقَالَ : ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ . فَإِذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنْ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُهُ مِمَّا لَا يَفْهَمُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ لَمْ يَكُنْ الْمُتَدَبَّرُ الْمَعْقُولُ إلَّا بَعْضَهُ وَهَذَا خِلَافُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ لَا سِيَّمَا عَامَّةُ مَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يُنْكِرُونَهُ كَالْآيَاتِ الْخَبَرِيَّةِ وَالْإِخْبَارِ عَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ أَوْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَعَنْ نَفْيِ الشُّرَكَاءِ وَالْأَوْلَادِ عَنْ اللَّهِ وَتَسْمِيَتِهِ بِالرَّحْمَنِ فَكَانَ عَامَّةُ إنْكَارِهِمْ لِمَا يُخْبِرُهُمْ بِهِ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا وَمَا يُخْبِرُهُمْ بِهِ عَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ مَنْ لَا يَعْقِلُ ذَلِكَ وَلَا يَفْقَهُهُ وَلَا يَتَدَبَّرُهُ . فَعُلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِعَقْلِ ذَلِكَ وَتَدَبُّرِهِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ الْآيَةُ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ الْآيَةُ . وَقَدْ اسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْفِ عَنْ غَيْرِهِ عِلْمَ شَيْءٍ

إلَّا كانَ مُنْفَرِدًا بِهِ كَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ وقوْلِه : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ . فيُقَالُ لَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ بَلْ هَذَا بِحَسَبِ الْعِلْمِ الْمَنْفِيِّ فَإِنْ كَانَ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِهِ قِيلَ فِيهِ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ مِمَّا عَلَّمَهُ بَعْضَ عِبَادِهِ ذَكَرَ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ رَصَدًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ شَهِيدًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ وَقَالَ لِلْمَلَائِكَةِ : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وَقَالَتْ الْمَلَائِكَةُ : ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ وَفِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِ الصَّحَابَةِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ وَفِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ : ﴿ أَسْأَلُك بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَك سَمَّيْت بِهِ نَفْسَك أَوْ أَنْزَلْته فِي كِتَابِك أَوْ عَلَّمْته أَحَدًا مِنْ خَلْقِك أَوْ اسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَك ﴾ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وَأَوَّلُ النِّزَاعِ النِّزَاعُ فِي مَعَانِي

الْقُرْآنِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ الرَّسُولُ عَالِمًا بِمَعَانِيهِ

(1070/838)

امْتَنَعَ الرَّدُّ إلَيْهِ وَقَدْ اتَّفَقَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَسَائِرُ أَئِمَّةِ الدِّينِ أَنَّ السُّنَّةَ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ وَتُبَيِّنُهُ وَتَدُلُّ عَلَيْهِ وَتُعَبِّرُ عَنْ مُجْمَلِهِ وَأَنَّهَا تُفَسِّرُ مُجْمَلَ الْقُرْآنِ مِنْ الْأَمْرِ وَالْخَبَرِ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ . وَمِنْ أَعْظَمِ الِاخْتِلَافِ الِاخْتِلَافُ فِي الْمَسَائِلِ الْعِلْمِيَّةِ الْخَبَرِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْكِتَابُ حَاكِمًا بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ ذَلِكَ وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ حَاكِمًا إنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرِفَةُ مَعْنَاهُ مُمْكِنًا وَقَدْ نَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ دَلِيلًا وَإِلَّا فَالْحَاكِمُ الَّذِي يُبَيِّنُ مَا فِي نَفْسِهِ لَا يَحْكُمُ بِشَيْءِ وَكَذَلِكَ إذَا قِيلَ هُوَ الْحَاكِمُ بِالْكِتَابِ فَإِنَّ حُكْمَهُ فَصْلٌ يَفْصِلُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَهَذَا إنَّمَا يَكُونُ بِالْبَيَانِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ : ﴿ إنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ أَيْ فَاصِلٌ يَفْصِلُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فَكَيْفَ يَكُونُ فَصْلًا إذَا لَمْ يَكُنْ إلَى مَعْرِفَةِ مَعْنَاهُ سَبِيلٌ . وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ

الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ فَذَمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ كَمَا ذَمَّ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ مَعْنَاهُ وَيُكَذِّبُونَ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ

(1071/838)

مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ

عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ فَهَذَا أَحَدُ الصِّنْفَيْنِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ أَيْ تِلَاوَةً ﴿ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ ثُمَّ ذَمَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ كُتُبًا يَقُولُونَ هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَقَالَ : ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ .

وَهَذِهِ الْأَصْنَافُ الثَّلَاثَةُ تَسْتَوْعِبُ أَهْلَ الضَّلَالِ وَالْبِدَعِ ، فَإِنَّ أَهْلَ الْبِدَعِ الَّذِينَ ذَمَّهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ نَوْعَانِ :

أَحَدُهُمَا : عَالِمٌ بِالْحَقِّ يَتَعَمَّدُ خِلَافَهُ .

وَالثَّانِي : جَاهِلٌ مُتَّبِعٌ لِغَيْرِهِ .

(1072/838)

فَالْأَوَّلُونَ : يَبْتَدِعُونَ مَا يُخَالِفُ كِتَابَ اللَّهِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِمَّا أَحَادِيثُ مُفْتَرَيَاتٌ وَإِمَّا تَفْسِيرٌ وَتَأْوِيلٌ لِلنُّصُوصِ بَاطِلٌ وَيُعَضِّدُونَ ذَلِكَ بِمَا يَدَّعُونَهُ مِنْ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ وَقَصْدُهُمْ بِذَلِكَ الرِّيَاسَةُ وَالْمَأْكَلُ فَهَؤُلَاءِ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ مِنْ الْبَاطِلِ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ مِنْ الْمَالِ عَلَى ذَلِكَ وَهَؤُلَاءِ إذَا عُورِضُوا بِنُصُوصِ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ وَقِيلَ لَهُمْ هَذِهِ تُخَالِفُكُمْ حَرَّفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

(1073/838)

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّانِي : الْجُهَّالُ . فَهَؤُلَاءِ الْأُمِّيُّونَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّونَ . فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ ﴾ أَيْ غَيْرُ عَارِفِينَ بِمَعَانِي الْكِتَابِ يَعْلَمُونَهَا حِفْظًا وَقِرَاءَةً بِلَا فَهْمٍ وَلَا يَدْرُونَ مَا فِيهِ وَقَوْلُهُ : ﴿ إلَّا أَمَانِيَّ ﴾ أَيْ تِلَاوَةً فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ فِقْهَ الْكِتَابِ إنَّمَا يَقْتَصِرُونَ عَلَى مَا يَسْمَعُونَهُ يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالَهُ الْكِسَائِيُّ وَالزَّجَّاجُ وَكَذَلِكَ قَالَ ابْنُ السَّائِبِ لَا يُحْسِنُونَ قِرَاءَةَ الْكِتَابِ وَلَا كِتَابَتَهُ إلَّا أَمَانِيَّ إلَّا مَا

يُحدِّثهُم بِهِ عُلَماؤُهُمْ . وقَالَ أَبو روْقٍ وأَبو عُبَيْدَةَ أَيْ تلاوةً وقِرَاءةً عَنْ ظَهْرِ الْقلْبِ ولَا يَقْرءُونَهَا فِي الْكُتُبِ فَفِي هذا الْقَوْلِ جعْلُ الْأَمَانِيِّ الَّتِي هِيَ التِّلاوةُ تِلاوةَ الْأُمِّيِّينَ أَنْفُسِهِمْ وفِي ذلِكَ جَعْلُهُ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ تِلاوةِ عُلَمَائِهِمْ وكِلا الْقَوْلَيْنِ حقٌّ والْآيَةُ تَعُمُّهُمَا فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى قَالَ : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ لَمْ يَقُلْ لَا يَقْرءُونَ ولَا يَسْمَعُونَ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ وهَذَا اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ . لَكِنْ يَعْلَمُونَ أَمَانِيَّ إمَّا بِقِرَاءَتِهِمْ لَهَا وإِمَّا بِسَمَاعِهِمْ قِرَاءَةَ غَيْرِهِمْ وإِنْ جُعِلَ الِاسْتِثْنَاءُ مُتَّصِلًا كَانَ التَّقْدِيرُ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا عِلْمَ أَمَانِيَّ لَا عِلْمَ تِلاوةٍ فَقَطْ بِلَا فَهْمٍ والْأَمَانِيُّ جَمْعُ أُمْنِيَّةٍ وهِيَ التِّلاوةُ ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ

(1074/838)

مِنْ رَسُولٍ ولَا نَبِيٍّ إلَّا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ واللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ قَالَ الشَّاعِرُ :

تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ * * وآخِرَهَا لَاقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

(1075/838)

وَالْأُمِّيُّونَ نِسْبَةً إِلَى الْأُمَّةِ قَالَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْأُمَّةِ وَمَا عَلَيْهِ الْعَامَّةُ فَمَعْنَى الْأُمِّيِّ الْعَامِّيُّ الَّذِي لَا تَمْيِيزَ لَهُ وَقَدْ قَالَ الزَّجَّاجُ هُوَ عَلَى خُلُقِ الْأُمَّةِ الَّتِي لَمْ تَتَعَلَّمْ فَهُوَ عَلَى جِبِلَّتِهِ وَقَالَ غَيْرُهُ هُوَ نِسْبَةً إِلَى الْأُمَّةِ ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَةَ كَانَتْ فِي الرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ وَلِأَنَّهُ عَلَى مَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ .

وَالصَّوَابُ : أَنَّهُ نِسْبَةً إِلَى الْأُمَّةِ كَمَا يُقَالُ عَامِّيٌّ نِسْبَةً إِلَى الْعَامَّةِ الَّتِي لَمْ تَتَمَيَّزْ عَنْ الْعَامَّةِ بِمَا تَمْتَازُ بِهِ الْخَاصَّةُ وَكَذَلِكَ هَذَا لَمْ يَتَمَيَّزْ عَنْ الْأُمَّةِ بِمَا يَمْتَازُ بِهِ الْخَاصَّةُ مِنْ الْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةِ وَيُقَالُ الْأُمِّيُّ لِمَنْ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ كِتَابًا ثُمَّ يُقَالُ لِمَنْ لَيْسَ لَهُمْ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ اللَّهِ يَقْرَءُونَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَكْتُبُ وَيَقْرَأُ مَا لَمْ يُنَزَّلْ ؛ وَبِهَذَا الْمَعْنَى كَانَ الْعَرَبُ كُلُّهُمْ أُمِّيِّينَ فَإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ كِتَابٌ مُنَزَّلٌ مِنْ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ﴾ وَقَالَ : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ وَقَدْ كَانَ فِي الْعَرَبِ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَكْتُبُ وَيَقْرَأُ الْمَكْتُوبَ وَكُلُّهُمْ أُمِّيُّونَ . فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِمْ لَمْ يَبْقَوْا أُمِّيِّينَ بِاعْتِبَارِ أَنَّهُمْ لَا يَقْرَءُونَ كِتَابًا مِنْ حِفْظِهِمْ بَلْ هُمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ مِنْ حِفْظِهِمْ وَأَنَاجِيلُهُمْ فِي صُدُورِهِمْ لَكِنْ بَقُوا أُمِّيِّينَ بِاعْتِبَارِ

(1076/838)

أَنَّهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ إِلَى كِتَابَةِ دِينِهِمْ بَلْ قُرْآنُهُمْ مَحْفُوظٌ فِي قُلُوبِهِمْ

كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ خَلَقْت عِبَادِي يَوْمَ خَلَقْتهمْ حُنَفَاءَ - وَقَالَ فِيهِ - إنِّي مُبْتَلِيك وَمُبْتَلٍ بِك وَأَنْزَلْت عَلَيْك كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانًا ﴾. فَأُمَّتُنَا لَيْسَتْ مِثْلَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ لَا يَحْفَظُونَ كُتُبَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ بَلْ لَوْ عُدِمَتْ الْمَصَاحِفُ كُلُّهَا كَانَ الْقُرْآنُ مَحْفُوظًا فِي قُلُوبِ الْأُمَّةِ وَبِهَذَا الِاعْتِبَارِ فَالْمُسْلِمُونَ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ وَحِفْظِهِ. كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَحْسِبُ وَلَا نَكْتُبُ الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا ﴾. فَلَمْ يَقُلْ إنَّا لَا نَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا نَحْفَظُ بَلْ قَالَ: لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ فَدِينُنَا لَا يَحْتَاجُ أَنْ يُكْتَبَ وَيُحْسَبَ كَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَوَاقِيتَ صَوْمِهِمْ وَفِطْرِهِمْ بِكِتَابِ وَحِسَابٍ وَدِينُهُمْ مُعَلَّقٌ بِالْكُتُبِ لَوْ عُدِمَتْ لَمْ يَعْرِفُوا دِينَهُمْ وَلِهَذَا يُوجَدُ أَكْثَرُ أَهْلِ السُّنَّةِ يَحْفَظُونَ الْقُرْآنَ وَالْحَدِيثَ أَكْثَرَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَأَهْلُ الْبِدَعِ فِيهِمْ شَبَهٌ بِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿ فَآمِنُوا بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﴾ هُوَ أُمِّيٌّ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ. لِأَنَّهُ لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ مَا فِي الْكُتُبِ لَا بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَا يَقْرَأُ مِنْ حِفْظِهِ بَلْ كَانَ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ

(1078/838)

أَحْسَنَ حِفْظٍ وَالْأُمِّيُّ فِي اصْطِلَاحِ الْفُقَهَاءِ خِلَافُ الْقَارِئِ؛ وَلَيْسَ هُوَ خِلَافَ الْكَاتِبِ بِالْمَعْنَى الْأَوَّلِ وَيَعْنُونَ

(1079/838)

بِهِ فِي الْغَالِبِ مَنْ لَا يُحْسِنُ الْفَاتِحَةَ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ ﴾ أَيْ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا تِلَاوَةً لَا يَفْهَمُونَ مَعْنَاهَا وَهَذَا يَتَنَاوَلُ مَنْ لَا يُحْسِنُ الْكِتَابَةَ وَلَا الْقِرَاءَةَ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّمَا يَسْمَعُ أَمَانِيَّ عِلْمًا كَمَا قَالَ ابْنُ السَّائِبِ وَيَتَنَاوَلُ مَنْ يَقْرَؤُهُ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِهِ وَلَا يَقْرَؤُهُ مِنْ الْكِتَابِ كَمَا قَالَ أَبُو رَوْقٍ. وَأَبُو عُبَيْدَةَ. وَقَدْ يُقَالُ: إنَّ قَوْلَهُ: ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ﴾ أَيْ الْخَطَّ أَيْ لَا يُحْسِنُونَ الْخَطَّ وَإِنَّمَا يُحْسِنُونَ التِّلَاوَةَ وَيَتَنَاوَلُ أَيْضًا مَنْ يُحْسِنُ الْخَطَّ وَالتِّلَاوَةَ وَلَا يَفْهَمُ مَا يَقْرَأُهُ وَيَكْتُبُهُ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وقتادة غَيْرَ عَارِفِينَ مَعَانِي الْكِتَابِ يَعْلَمُونَهَا حِفْظًا وَقِرَاءَةً بِلَا فَهْمٍ وَلَا يَدْرُونَ مَا فِيهِ وَالْكِتَابُ هُنَا الْمُرَادُ بِهِ الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ وَهُوَ التَّوْرَاةُ؛ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ الْخَطَّ فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿ وَإِنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّونَ ﴾ فَهَذَا يَدُلُّ

عَلَى أَنَّهُ نَفَى عَنْهُمْ الْعِلْمَ بِمَعَانِي الْكِتَابِ وَإِلَّا فَكَوْنُ الرَّجُلِ لَا يَكْتُبُ بِيَدِهِ لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ بَلْ يَظُنُّ ظَنًّا ؛ بَلْ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَكْتُبُ بِيَدِهِ لَا يَفْهَمُ مَا يَكْتُبُ وَكَثِيرٌ مِمَّنْ لَا يَكْتُبُ يَكُونُ عَالِمًا بِمَعَانِي مَا يَكْتُبُهُ غَيْرُهُ . وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ هَذَا فِي سِيَاقِ الذَّمِّ لَهُمْ وَلَيْسَ فِي كَوْنِ الرَّجُلِ لَا يَخُطُّ ذَمٌّ إذَا قَامَ بِالْوَاجِبِ وَإِنَّمَا الذَّمُّ عَلَى كَوْنِهِ لَا يَعْقِلُ

(1080/838)

الْكِتَابَ الَّذِي أُنْزِلَ إلَيْهِ سَوَاءٌ كَتَبَهُ وَقَرَأَهُ أَوْ لَمْ يَكْتُبْهُ وَلَمْ يَقْرَأْهُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ هَذَا أَوَانُ يُرْفَعُ الْعِلْمُ . فَقَالَ لَهُ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ : كَيْفَ يُرْفَعُ الْعِلْمُ وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ فَوَاَللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنُقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا فَقَالَ لَهُ : إنْ كُنْت لَأَحْسَبُك مِنْ أَفْقَهِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَوَلَيْسَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ ﴾ وَهُوَ حَدِيثٌ مَعْرُوفٌ رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُ . وَلِأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى قَبْلَ هَذَا : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فَأُولَئِكَ عَقَلُوهُ ثُمَّ حَرَّفُوهُ وَهُمْ مَذْمُومُونَ سَوَاءٌ كَانُوا يَحْفَظُونَهُ بِقُلُوبِهِمْ وَيَكْتُبُونَهُ وَيَقْرَءُونَهُ حِفْظًا وَكِتَابَةً أَوْ لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ فَكَانَ مِنْ الْمُنَاسِبِ أَنْ يَذْكُرَ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَهُ وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَهُ إلَّا أَمَانِيَّ فَإِنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَهُ اللَّهُ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ وَيَذْكُرُ فِيهِ الْأَقْسَامَ وَالْأَمْثَالَ فَيَسْتَوْعِبُ الْأَقْسَامَ فَيَكُونُ مَثَانِيَ وَيَذْكُرُ الْأَمْثَالَ

فَيَكُونُ مُتَشَابِهًا وَهَؤُلَاءِ وَإِنْ كَانُوا يَكْتُبُونَ وَيَقْرَءُونَ فَهُمْ أُمِّيُّونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا تَقُولُ نَحْنُ لِمَنْ كَانَ كَذَلِكَ هُوَ أُمِّيٌّ وَسَاذِجٌ وَعَامِّيٌّ وَإِنْ كَانَ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ وَيَقْرَأُ الْمَكْتُوبَ إذَا كَانَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ . وَإِذَا كَانَ اللَّهُ قَدْ ذَمَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ

(1081/838)

الْكِتَابَ إلَّا تِلَاوَةً دُونَ فَهْمِ مَعَانِيهِ كَمَا ذَمَّ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ دَلَّ عَلَى أَنَّ كِلَا النَّوْعَيْنِ مَذْمُومٌ : الْجَاهِلُ الَّذِي

(1082/838)

لَا يَفْهَمُ مَعَانِيَ النُّصُوصِ وَالْكَاذِبُ الَّذِي يُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَهَذَا حَالُ أَهْلِ الْبِدَعِ فَإِنَّهُمْ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إمَّا رَجُلٌ يُحَرِّفُ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ وَيُؤَوِّلُهُ بِمَا يُضِيفُهُ إلَى اللَّهِ فَهَؤُلَاءِ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَجْعَلُونَ تِلْكَ الْمَقَالَاتِ الَّتِي ابْتَدَعُوهَا هِيَ مَقَالَةَ الْحَقِّ وَهِيَ الَّتِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ وَاَلَّتِي كَانَ عَلَيْهَا السَّلَفُ وَنَحْوَ ذَلِكَ ثُمَّ يُحَرِّفُونَ النُّصُوصَ الَّتِي تُعَارِضُهَا . فَهَؤُلَاءِ إذَا تَعَمَّدُوا ذَلِكَ وَعَلِمُوا أَنَّ الَّذِي يَفْعَلُونَهُ

مُخَالِفٌ لِلرَّسُولِ فَهُمْ مِنْ جِنْسِ هَؤُلَاءِ الْيَهُودِ وَهَذَا يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ وَيُوجَدُ فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ فِي غَيْرِهِمْ . وَأَمَّا الَّذِينَ قَصْدُهُمْ اتِّبَاعُ الرَّسُولِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا وَغَلِطُوا فِيمَا كَتَبُوهُ وَتَأَوَّلُوهُ فَهَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنْ جِنْسِهِمْ ؛ لَكِنْ قَدْ وَقَعَ بِسَبَبِ غَلَطِهِمْ مَا هُوَ مِنْ جِنْسِ ذَلِكَ الْبَاطِلِ كَمَا قِيلَ : إذَا زَلَّ الْعَالِمُ زَلَّ بِزَلَّتِهِ عَالِمٌ وَهَذَا حَالُ الْمُتَأَوِّلِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَإِمَّا رَجُلٌ مُقَلِّدٌ أُمِّيٌّ لَا يَعْرِفُ مِنْ الْكِتَابِ إلَّا مَا يَسْمَعُهُ مِنْهُمْ أَوْ مَا يَتْلُوهُ هُوَ وَلَا يَعْرِفُ إلَّا أَمَانِيَّ وَقَدْ ذَمَّهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ فَعُلِمَ أَنَّ اللَّهَ ذَمَّ الَّذِينَ لَا يَعْرِفُونَ مَعَانِيَ الْقُرْآنِ وَلَا يَتَدَبَّرُونَهُ وَلَا يَعْقِلُونَهُ كَمَا صَرَّحَ الْقُرْآنُ بِذَمِّهِمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ فَيَمْتَنِعُ مَعَ هَذَا أَنْ يُقَالَ : إنَّ أَكْثَرَ الْقُرْآنِ

(1083/838)

أَوْ كَثِيرًا مِنْهُ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ الْخَلْقِ إلَّا أَمَانِيَّ لَا جِبْرِيلُ وَلَا مُحَمَّدٌ وَلَا الصَّحَابَةُ وَلَا أَحَدٌ

(1084/838)

مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ هَذَا تَشْبِيهٌ لَهُمْ بِهَؤُلَاءِ فِيمَا ذَمَّهُمْ اللَّهُ بِهِ . فَإِنْ قِيلَ : أَفَلَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ مَعْرِفَةُ مَعْنَى كُلِّ آيَةٍ ؟ قِيلَ : نَعَمْ لَكِنَّ مَعْرِفَةَ مَعَانِي الْجَمِيعِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ وَعَلَى

كُلِّ مُسْلِمٍ مَعْرِفَةُ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ وَهَؤُلَاءِ ذَمَّهُمُ اللَّهُ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَعَانِيَ الْكِتَابِ إلَّا تِلَاوَةً وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ إلَّا الظَّنُّ وَهَذَا يُشْبِهُ قَوْلَهُ: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ . فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: ﴿ إلَّا أَمَانِيَّ ﴾ إلَّا مَا يَقُولُونَهُ بِأَفْوَاهِهِمْ كَذِبًا وَبَاطِلًا وَرُوِيَ هَذَا عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ وَاخْتَارَهُ الْفَرَّاءُ . وَقَالَ: الْأَمَانِيُّ الْأَكَاذِيبُ الْمُفْتَعَلَةُ قَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ لِابْنِ دَأْبٍ - وَهُوَ يُحَدِّثُ - أَهَذَا شَيْءٌ رَوَيْته أَمْ تَمَنَّيْته أَيْ افْتَعَلْته فَأَرَادَ بِالْأَمَانِيِّ الْأَشْيَاءَ الَّتِي كَتَبَهَا عُلَمَاؤُهُمْ مِنْ قِبَلِ أَنْفُسِهِمْ ثُمَّ أَضَافُوهَا إلَى اللَّهِ مِنْ تَغْيِيرِ صِفَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْأَمَانِيُّ يَتَمَنَّوْنَ عَلَى اللَّهِ الْبَاطِلَ وَالْكَذِبَ كَقَوْلِهِمْ: ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ وَقَوْلِهِمْ: ﴿ لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى ﴾ وَقَوْلِهِمْ: ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ وَهَذَا أَيْضًا يُرْوَى عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ . قِيلَ: كِلَا الْقَوْلَيْنِ ضَعِيفٌ وَالصَّوَابُ الْأَوَّلُ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ قَالَ:

(1085/838)

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ ﴾ وَهَذَا الِاسْتِثْنَاءُ إمَّا أَنْ يَكُونَ مُتَّصِلًا أَوْ مُنْقَطِعًا فَإِنْ كَانَ مُتَّصِلًا لَمْ يَجُزْ اسْتِثْنَاءُ الْكَذِبِ وَلَا أَمَانِيِّ الْقَلْبِ مِنْ الْكِتَابِ وَإِنْ كَانَ مُنْقَطِعًا فَالِاسْتِثْنَاءُ الْمُنْقَطِعُ إنَّمَا يَكُونُ فِيمَا كَانَ نَظِيرَ الْمَذْكُورِ وَشَبِيهًا لَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ

فَهُوَ مِنْ جِنْسِهِ الَّذِي لَمْ يُذْكَرْ فِي اللَّفْظِ ؛ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْمَذْكُورِ ؛ وَلِهَذَا لَا يَصْلُحُ الْمُنْقَطِعُ حَيْثُ يَصْلُحُ الِاسْتِثْنَاءُ الْمُفَرَّغُ وَذَلِكَ كَقَوْلِهِ : ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿ إلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى ﴾ فَهَذَا مُنْقَطِعٌ ؛ لِأَنَّهُ يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ : (لَا يَذُوقُونَ إلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ لِأَنَّهُ يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ : لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ إلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ يَصْلُحُ أَنْ يُقَالَ وَمَا لَهُمْ إلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ فَهُنَا لَمَّا قَالَ : ﴿ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ ﴾ يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ لَا يَعْلَمُونَهُ إلَّا أَمَانِيَّ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَهُ تِلَاوَةً يَقْرَءُونَهَا وَيَسْمَعُونَهَا وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُقَالَ لَا يَعْلَمُونَ إلَّا مَا تَتَمَنَّاهُ قُلُوبُهُمْ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ إلَّا الْكَذِبَ فَإِنَّهُمْ قَدْ كَانُوا يَعْلَمُونَ مَا هُوَ صِدْقٌ أَيْضًا فَلَيْسَ كُلُّ مَا عَلِمُوهُ مِنْ عُلَمَائِهِمْ كَانَ

(1086/838)

كَذِبًا بِخِلَافِ الَّذِي لَا يَعْقِلُ مَعْنَى الْكِتَابِ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ إلَّا تِلَاوَةً . وَأَيْضًا فَهَذِهِ الْأَمَانِيُّ الْبَاطِلَةُ الَّتِي تَمَنَّوْهَا بِقُلُوبِهِمْ وَقَالُوهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ .

(1087/838)

كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ قَدْ اشْتَرَكُوا فِيهَا كُلُّهُمْ فَلَا يُخَصُّ بِالذَّمِّ الْأُمِّيُّونَ مِنْهُمْ وَلَيْسَ لِكَوْنِهِمْ أُمِّيِّينَ مَدْخَلٌ فِي الذَّمِّ بِهَذِهِ وَلَا لِنَفْيِ الْعِلْمِ بِالْكِتَابِ مَدْخَلٌ فِي الذَّمِّ بِهَذِهِ ؛ بَلْ الذَّمُّ بِهَذِهِ مِمَّا يُعْلَمُ أَنَّهَا بَاطِلٌ أَعْظَمُ مِنْ ذَمِّ مَنْ لَا يَعْلَمُ أَنَّهَا بَاطِلٌ ؛ وَلِهَذَا لَمَّا ذَمَّ اللَّهُ بِهَا عَمَّمَ وَلَمْ يَخُصَّ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ﴾ الْآيَةُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ : ﴿ وَإِنْ هُمْ إلَّا يَظُنُّونَ ﴾ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ ذَمَّهُمْ عَلَى نَفْيِ الْعِلْمِ وَعَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُمْ إلَّا الظَّنُّ وَهَذَا حَالُ الْجَاهِلِ بِمَعَانِي الْكِتَابِ لَا حَالُ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَكْذِبُ فَظَهَرَ أَنَّ هَذَا الصِّنْفَ لَيْسَ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ الْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ وَلَوْ أُرِيدَ ذَلِكَ لَقِيلَ لَا يَقُولُونَ إلَّا أَمَانِيَّ لَمْ يَقُلْ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ بَلْ ذَلِكَ الصِّنْفُ هُمْ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَهُمْ يُحَرِّفُونَ مَعَانِيَ الْكِتَابِ وَهُمْ يُحَرِّفُونَ لَفْظَهُ لِمَنْ لَمْ يَعْرِفْهُ وَيَكْذِبُونَ فِي لَفْظِهِمْ وَخَطِّهِمْ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿

لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ فَمَنْ ؟ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَتَأْخُذَنَّ أُمَّتِي مَآخِذَ الْأُمَمِ قَبْلَهَا شِبْرًا بِشِبْرِ وَذِرَاعًا بِذِرَاعِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ فَارِسُ وَالرُّومُ ؟ قَالَ وَمَنْ النَّاسُ إلَّا أُولَئِكَ ﴾ . فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَا ذَمَّ اللَّهُ بِهِ أَهْلَ الْكِتَابِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ مَنْ يُشْبِهُهُمْ فِيهِ وَهَذَا حَقٌّ قَدْ شُوهِدَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فَمَنْ تَدَبَّرَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ رَأَى أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ ؛ بَلْ أَكْثَرُ الْأُمُورِ وَدَلَّهُ ذَلِكَ عَلَى وُقُوعِ الْبَاقِي .

فَصْلٌ :

فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ الْوَاجِبَ طَلَبُ عِلْمِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَمَعْرِفَةِ مَا أَرَادَ بِذَلِكَ كَمَا كَانَ عَلَى ذَلِكَ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ فَكُلُّ مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إلَيْهِ فِي دِينِهِمْ فَقَدْ بَيَّنَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بَيَانًا شَافِيًا فَكَيْفَ بِأُصُولِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ ثُمَّ إذَا عُرِفَ مَا بَيَّنَهُ الرَّسُولُ نُظِرَ فِي أَقْوَالِ

النَّاسِ وَمَا أَرَادُوهُ بِهَا فَعُرِضَتْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَالْعَقْلُ الصَّرِيحُ دَائِمًا مُوَافِقٌ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُخَالِفُهُ قَطُّ فَإِنَّ الْمِيزَانَ مَعَ الْكِتَابِ وَاللَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانِ ؛ لَكِنْ قَدْ تَقْصُرُ عُقُولُ النَّاسِ عَنْ مَعْرِفَةِ تَفْصِيلِ مَا جَاءَ بِهِ فَيَأْتِيهِمْ الرَّسُولُ بِمَا عَجَزُوا عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَحَارُوا فِيهِ لَا بِمَا يَعْلَمُونَ بِعُقُولِهِمْ بُطْلَانَهُ فَالرُّسُلُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ تُخْبِرُ بِمَحَارَاتِ الْعُقُولِ لَا تُخْبِرُ بِمُحَالَاتِ الْعُقُولِ فَهَذَا سَبِيلُ الْهُدَى وَالسُّنَّةِ وَالْعِلْمِ وَأَمَّا سَبِيلُ الضَّلَالِ وَالْبِدْعَةِ وَالْجَهْلِ فَعَكْسُ ذَلِكَ : أَنْ يَبْتَدِعَ بِدْعَةً بِرَأْيِ رِجَالٍ وَتَأْوِيلَاتِهِمْ ثُمَّ يَجْعَلَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ تَبَعًا لَهَا وَيُحَرِّفَ أَلْفَاظَهُ وَيَتَأَوَّلَ عَلَى وَفْقِ مَا أَصَّلُوهُ . وَهَؤُلَاءِ تَجِدُهُمْ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَلَا يَتَلَقَّوْنَ الْهُدَى مِنْهُ وَلَكِنْ مَا وَافَقَهُمْ مِنْهُ قَبِلُوهُ وَجَعَلُوهُ حُجَّةً لَا عُمْدَةً وَمَا خَالَفَهُمْ تَأَوَّلُوهُ كَالَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ أَوْ فَوَّضُوهُ كَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلَّا أَمَانِيَّ وَهَؤُلَاءِ قَدْ لَا يَعْرِفُونَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ : إمَّا عَجْزًا وَإِمَّا تَفْرِيطًا فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إلَى مُقَدِّمَتَيْنِ : أَنَّ الرَّسُولَ قَالَ كَذَا وَأَنَّهُ أَرَادَ بِهِ كَذَا أَمَّا الْأُولَى فَعَامَّتُهُمْ لَا يَرْتَابُونَ فِي أَنَّهُ جَاءَ بِالْقُرْآنِ وَإِنْ كَانَ مِنْ غُلَاةِ أَهْلِ الْبِدَعِ مَنْ

يرْتَاب فِي بَعْضِه لَكِنَّ الْأَحَادِيث عَامَّة أَهْل الْبدع جُهَّال بهَا وَهُمْ يظنُّون أَنَّ هَذِه روَاهَا آحَادٌ يُجوِّزون عَلَيْهِمْ الْكَذِب وَالْخطأ وَلَا يعْرفُون من كَثْرَة

(1091/838)

طُرُقهَا وَصِفَات رجَالهَا وَالْأَسْبَاب الْمُوجبَة للتَّصْدِيق بهَا مَا يَعْلَمُهُ أَهْلُ الْعِلْم بِالْحَدِيث؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ يَقْطَعُون قطْعًا يَقِينًا بعَامَّة الْمُتُون الصَّحِيحَة الَّتِي فِي الصَّحِيحَيْن كَمَا قَدْ بَسَطْنَاهُ فِي غَيْر هَذَا الْمَوْضِع . وَأَمَّا الْمُقَدّمَة الثَّانِيَة: فَإِنَّهُمْ قَدْ لَا يعْرفُون مَعَانِي الْقُرْآن وَالْحَدِيث وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُول: الْأَدِلَّة اللَّفْظِيَّة لَا تُفِيدُ الْيَقِين بمُرَاد الْمُتَكَلّم وَقَدْ بَسطْنَا الْكَلَام عَلَى فَسَاد ذَلِك فِي غَيْر هَذَا الْمَوْضِع . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ إنَّمَا يَنْظُرُ مِنْ تَفْسِير الْقُرْآن وَالْحَدِيث فِيمَا يَقُولُهُ مُوَافِقُوهُ عَلَى الْمَذْهَب فَيَتَأَوَّل تَأْوِيلَاتِهِمْ فَالنُّصُوصُ الَّتِي تُوَافِقُهُمْ يَحْتَجُّونَ بهَا وَالَّتِي تُخَالِفُهُمْ يَتَأَوَّلُونهَا وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ عُمْدَتهُمْ فِي نَفْس الْأَمْر اتِّبَاع نَصٍّ أَصْلًا وَهَذَا فِي الْبدع الْكِبَار مِثْل الرَّافِضَة وَالْجَهْمِيَّة فَإِنَّ الَّذِي وَضَعَ الرَّفْض كَانَ زِنْدِيقًا ابْتَدَأَ تَعَمُّدَ الْكَذِب الصَّرِيح الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّهُ كَذِبٌ كَالَّذِين ذَكَرَهُمْ اللَّهُ مِنْ الْيَهُود الَّذِين يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّه الْكَذِب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ثُمَّ جَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ مَنْ ظَنَّ صِدْق مَا افْتَرَاهُ أُولَئِكَ وَهُمْ فِي شَكٍّ مِنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿

وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ وَكَذَلِكَ الْجَهْمِيَّةُ لَيْسَ مَعَهُمْ عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ وَعُلُوِّ اللَّهِ عَلَى الْعَرْشِ وَنَحْوِ ذَلِكَ نَصٌّ أَصْلًا لَا آيَةٌ وَلَا حَدِيثٌ وَلَا أَثَرٌ عَنْ

(1092/838)

الصَّحَابَةِ،

بَلْ الَّذِي ابْتَدَأَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ قَصْدُهُ اتِّبَاعَ الْأَنْبِيَاءِ بَلْ وَضَعَ ذَلِكَ كَمَا وُضِعَتْ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَدْيَانِ الْكُفَّارِ مَعَ عِلْمِهِمْ بِأَنَّ ذَلِكَ مُخَالِفٌ لِلرُّسُلِ كَمَا ذُكِرَ عَنْ مُبَدِّلَةِ الْيَهُودِ ثُمَّ فَشَا ذَلِكَ فِيمَنْ لَمْ يَعْرِفُوا أَصْلَ ذَلِكَ . وَهَذَا بِخِلَافِ بِدْعَةِ الْخَوَارِجِ؛ فَإِنَّ أَصْلَهَا مَا فَهِمُوهُ مِنْ الْقُرْآنِ فَغَلِطُوا فِي فَهْمِهِ وَمَقْصُودُهُمْ اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا لَيْسُوا زَنَادِقَةً . وَكَذَلِكَ الْقَدَرِيَّةُ أَصْلُ مَقْصُودِهِمْ تَعْظِيمُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَيَتَّبِعُونَ مِنْ الْقُرْآنِ مَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ . فَعَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ وَأَمْثَالُهُ لَمْ يَكُنْ أَصْلُ مَقْصُودِهِمْ مُعَانَدَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَالَّذِي ابْتَدَعَ الرَّفْضَ . وَكَذَلِكَ الْإِرْجَاءُ إنَّمَا أَحْدَثَهُ قَوْمٌ قَصْدُهُمْ جَعْلُ أَهْلِ الْقِبْلَةِ كُلِّهِمْ مُؤْمِنِينَ لَيْسُوا كُفَّارًا قَابَلُوا الْخَوَارِجَ وَالْمُعْتَزِلَةَ فَصَارُوا فِي طَرَفٍ آخَرَ . وَكَذَلِكَ التَّشَيُّعُ الْمُتَوَسِّطُ - الَّذِي مَضْمُونُهُ تَفْضِيلُ عَلِيٍّ وَتَقْدِيمُهُ عَلَى غَيْرِهِ

وَنَحْوَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ هَذَا مِنْ إحْدَاثِ الزَّنَادِقَةِ بِخِلَافِ دَعْوَى النَّصِّ فِيهِ وَالْعِصْمَةِ فَإِنَّ الَّذِي ابْتَدَعَ ذَلِكَ كَانَ مُنَافِقًا زِنْدِيقًا

(1093/838)

وَلِهَذَا قَالَ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَيُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ وَغَيْرُهُمَا : أُصُولُ الْبِدَعِ أَرْبَعَةٌ : الشِّيعَةُ وَالْخَوَارِجُ وَالْقَدَرِيَّةُ وَالْمُرْجِئَةُ . قَالُوا : وَالْجَهْمِيَّةُ لَيْسُوا مِنْ الثِّنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً . وَكَذَلِكَ ذَكَرَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ حَامِدٍ عَنْ أَصْحَابِ أَحْمَد فِي ذَلِكَ قَوْلَيْنِ هَذَا أَحَدُهُمَا . وَهَذَا أَرَادُوا بِهِ التَّجَهُّمَ الْمَحْضَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ جَهْمٌ نَفْسُهُ وَمُتَّبِعُوهُ عَلَيْهِ وَهُوَ نَفْيُ الْأَسْمَاءِ مَعَ نَفْيِ الصِّفَاتِ بِحَيْثُ لَا يُسَمَّى اللَّهُ بِشَيْءِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَلَا يُسَمِّيهِ شَيْئًا وَلَا مَوْجُودًا وَلَا غَيْرَ ذَلِكَ وَإِنَّمَا نُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يُسَمِّيهِ قَادِرًا - لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَسْمَاءِ يُسَمَّى بِهَا الْخَلْقُ فَزَعَمَ أَنَّهُ يَلْزَمُ مِنْهَا التَّشْبِيهُ بِخِلَافِ الْقَادِرِ - فَإِنَّهُ كَانَ رَأْسَ الْجَبْرِيَّةِ وَعِنْدَهُ لَيْسَ لِلْعَبْدِ قُدْرَةٌ وَلَا فِعْلٌ وَلَا يُسَمَّى غَيْرُ اللَّهِ قَادِرًا ؛ فَلِهَذَا نُقِلَ عَنْهُ أَنَّهُ سَمَّى اللَّهَ قَادِرًا . وَشَرٌّ مِنْهُ نُفَاةُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَهُمْ الْمَلَاحِدَةُ مِنْ الْفَلَاسِفَةِ وَالْقَرَامِطَةِ وَلِهَذَا كَانَ هَؤُلَاءِ عِنْدَ الْأَئِمَّةِ قَاطِبَةً مَلَاحِدَةً مُنَافِقِينَ بَلْ فِيهِمْ مِنْ الْكُفْرِ الْبَاطِنِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ كُفْرِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَهَؤُلَاءِ لَا رَيْبَ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ الثِّنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً وَإِذَا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ فَغَايَتُهُمْ

أَنْ يَكُونُوا مُنَافِقِينَ كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأُولَئِكَ كَانُوا

(1094/838)

أَقْرَبَ إلَى الْإِسْلَامِ مِنْ هَؤُلَاءِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَلْتَزِمُونَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةَ وَهَؤُلَاءِ قَدْ

(1095/838)

يَقُولُونَ بِرَفْعِهَا فَلَا صَوْمَ وَلَا صَلَاةَ وَلَا حَجَّ وَلَا زَكَاةَ ؛ لَكِنْ قَدْ يُقَالُ : إنَّ أُولَئِكَ كَانُوا قَدْ قَامَتْ عَلَيْهِمْ الْحُجَّةُ بِالرِّسَالَةِ أَكْثَرَ مِنْ هَؤُلَاءِ . وَأَمَّا مَنْ يَقُولُ بِبَعْضِ التَّجَهُّمِ كَالْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ الَّذِينَ يَتَدَيَّنُونَ بِدِينِ الْإِسْلَامِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا فَهَؤُلَاءِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَا رَيْبٍ . وَكَذَلِكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ كَالْكُلَّابِيَة وَالْكَرَّامِيَة . وَكَذَلِكَ الشِّيعَةُ الْمُفَضِّلِينَ لِعَلِيِّ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ يَقُولُ بِالنَّصِّ وَالْعِصْمَةِ مَعَ اعْتِقَادِهِ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا وَظَنِّهِ أَنَّ مَا هُوَ عَلَيْهِ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ فَهَؤُلَاءِ أَهْلُ ضَلَالٍ وَجَهْلٍ لَيْسُوا خَارِجِينَ عَنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ هُمْ مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا . وَعَامَّةُ هَؤُلَاءِ

مِمَّنْ يَتَّبِعُ مَا تَشَابَهَ مِنْ الْقُرْآنِ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ كَمَا أَنَّ مِنْ الْمُنَافِقِينَ وَالْكُفَّارِ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَلِهَذَا قَالَ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ: كَالرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: هُمْ النَّصَارَى كَنَصَارَى نَجْرَانَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ كَالْكَلْبِيِّ: هُمْ الْيَهُودُ: وَقَالَتْ طَائِفَةٌ كَابْنِ جريج: هُمْ الْمُنَافِقُونَ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ كَالْحَسَنِ هُمْ الْخَوَارِجُ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ كَقَتَادَة: هُمْ الْخَوَارِجُ وَالشِّيعَةُ. وَكَانَ قتادة إذَا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ

(1096/838)

فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ يَقُولُ إنْ لَمْ يَكُونُوا الحرورية وَالسَّبَئِيَّةَ فَلَا أَدْرِي مَنْ هُمْ. وَالسَّبَئِيَّةُ نِسْبَةً إلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ رَأْسِ الرَّافِضَةِ.

فَصْلٌ:

وَالْمَعْنَى الصَّحِيحُ الَّذِي هُوَ نَفْيُ الْمِثْلِ وَالشَّرِيكِ وَالنِّدِّ قَدْ دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ ﴿ أَحَدٌ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فَالْمَعَانِي الصَّحِيحَةُ ثَابِتَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْعَقْلُ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ.

وَقَوْلُ الْقَائِلِ: الْأَحَدُ أَوْ الصَّمَدُ أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي لَا يَنْقَسِمُ وَلَا يَتَفَرَّقُ أَوْ لَيْسَ بِمُرَكَّبِ وَنَحْوُ ذَلِكَ. هَذِهِ الْعِبَارَاتُ إذَا عُنِيَ بِهَا أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ التَّفَرُّقَ وَالِانْقِسَامَ فَهَذَا حَقٌّ وَأَمَّا إنْ عُنِيَ

بِهِ أَنَّهُ لَا يُشَارُ إلَيْهِ بِحَالِ أَوْ مِنْ جِنْسِ مَا يَعْنُونَ بِالْجَوْهَرِ الْفَرْدِ أَنَّهُ لَا يُشَارُ إلَى شَيْءٍ مِنْهُ دُونَ شَيْءٍ فَهَذَا عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُقَلَاءِ يَمْتَنِعُ وُجُودُهُ وَإِنَّمَا يُقَدَّرُ فِي الذِّهْنِ تَقْدِيرًا وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ الْعَرَبَ حَيْثُ أَطْلَقَتْ لَفْظَ " الْوَاحِدِ " وَ " الْأَحَدِ " نَفْيًا وَإِثْبَاتًا لَمْ تُرِدْ هَذَا الْمَعْنَى . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ لَمْ يُرِدْ بِهِ هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي فَسَّرُوا بِهِ الْوَاحِدَ وَالْأَحَدَ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً

(1097/838)

فَلَهَا النِّصْفُ ﴾ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ فَإِنَّ الْمَعْنَى لَمْ يَكُنْ لَهُ أَحَدٌ مِنْ الْآحَادِ كُفُوًا لَهُ فَإِنْ كَانَ الْأَحَدُ عِبَارَةً عَمَّا لَا يَتَمَيَّزُ مِنْهُ شَيْءٌ عَنْ شَيْءٍ وَلَا يُشَارُ إلَى شَيْءٍ مِنْهُ دُونَ شَيْءٍ فَلَيْسَ فِي الْمَوْجُودَاتِ مَا هُوَ أَحَدٌ إلَّا مَا يَدَّعُونَهُ مِنْ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ وَمِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَحِينَئِذٍ لَا يَكُونُ قَدْ نَفَى عَنْ شَيْءٍ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ أَنْ يَكُونَ كُفُوًا لِلرَّبِّ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَدْخُلْ فِي مُسَمَّى أَحَدٍ . وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا بَسْطًا كَثِيرًا فِي الْمَبَاحِثِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ الَّتِي يَذْكُرُهَا نُفَاةُ الصِّفَاتِ مِنْ الْجَهْمِيَّةِ وَأَتْبَاعِهِمْ فِي كِتَابِنَا الْمُسَمَّى (بَيَانُ تَلْبِيسِ الْجَهْمِيَّةِ فِي تَأْسِيسِ بِدَعِهِمْ الْكَلَامِيَّةِ) . وَلِهَذَا لَمَّا احْتَجَّتْ الْجَهْمِيَّةُ عَلَى السَّلَفِ - كَالْإِمَامِ أَحْمَد وَغَيْرِهِ - عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ بِاسْمِ الْوَاحِدِ قَالَ أَحْمَد : قَالُوا لَا تَكُونُونَ

مُوَحِّدِينَ أَبَدًا حَتَّى تَقُولُوا قَدْ كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ قُلْنَا نَحْنُ نَقُولُ كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءَ وَلَكِنْ إِذَا قُلْنَا إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ بِصِفَاتِهِ كُلِّهَا أَلَيْسَ إِنَّمَا نَصِفُ إِلَهًا وَاحِدًا وَضَرَبْنَا لَهُمْ فِي ذَلِكَ مَثَلًا : فَقُلْنَا : أَخْبِرُونَا عَنْ هَذِهِ النَّخْلَةِ أَلَيْسَ لَهَا جِذْعٌ وَكَرَبٌ وَلِيفٌ وَسَعَفٌ وَخُوصٌ وَجُمَّارٌ وَاسْمُهَا شَيْءٌ وَاحِدٌ وَسُمِّيَتْ نَخْلَةً بِجَمِيعِ صِفَاتِهَا ؟ فَكَذَلِكَ اللَّهُ – وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى – بِجَمِيعِ صِفَاتِهِ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا نَقُولُ : إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِي وَقْتٍ مِنْ

(1098/838)

الْأَوْقَاتِ وَلَا قُدْرَةَ لَهُ حَتَّى خَلَقَ لِنَفْسِهِ قُدْرَةً وَلَا نَقُولُ قَدْ كَانَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ لَا يَعْلَمُ حَتَّى

(1099/838)

خَلَقَ لَهُ عِلْمًا وَلَكِنْ نَقُولُ لَمْ يَزَلْ عَالِمًا قَادِرًا مَالِكًا لَا مَتَى وَلَا كَيْفَ . وَمِمَّا يُبَيِّنُ هَذَا أَنَّ سَبَبَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْمُفَسِّرُونَ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُمْ ذَكَرُوا أَسْبَابًا .

أَحَدُهَا : مَا تَقَدَّمَ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

انْسُبْ لَنَا رَبَّك فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ . وَالثَّانِي : ﴿ أَنَّ عَامِرَ بْنَ الطُّفَيْلِ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَامَ تَدْعُونَا إلَيْهِ يَا مُحَمَّدُ ؟ قَالَ : إلَى اللَّهِ قَالَ : فَصِفْهُ لِي أَمِنْ ذَهَبٍ هُوَ أَمْ مِنْ فِضَّةٍ أَمْ مِنْ حَدِيدٍ ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ ﴾ وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ طَرِيقِ أَبِي ظبيان وَأَبِي صَالِحٍ عَنْهُ . وَالثَّالِثُ : أَنَّ بَعْضَ الْيَهُودِ قَالَ ذَلِكَ قَالُوا : مِنْ أَيِّ جِنْسٍ هُوَ . وَمِمَّنْ وَرِثَ الدُّنْيَا . وَلِمَنْ يُورِثُهَا ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ السُّورَةُ قَالَهُ قتادة وَالضَّحَّاكُ قَالَ الضَّحَّاكُ وقتادة وَمُقَاتِلٌ : ﴿ جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَحْبَارِ الْيَهُودِ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا : يَا مُحَمَّدُ : صِفْ لَنَا رَبَّك ؛ لَعَلَّنَا نُؤْمِنُ بِك فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ نَعْتَهُ فِي التَّوْرَاةِ فَأَخْبِرْنَا بِهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ ؟ وَمِنْ أَيِّ جِنْسٍ هُوَ : أَمِنْ ذَهَبٍ ؟ أَمْ مِنْ نُحَاسٍ هُوَ ؟ أَمْ مِنْ صُفْرٍ ؟ أَمْ مِنْ حَدِيدٍ ؟ أَمْ مِنْ فِضَّةٍ ؟ وَهَلْ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ ؟ وَمِمَّنْ وَرِثَ الدُّنْيَا ؟ وَلِمَنْ يُورِثُهَا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ ﴾ وَهِيَ نِسْبَةُ اللَّهِ خَاصَّةً .

(1100/838)

وَالرَّابِعُ : مَا رُوِيَ عَنْ الضَّحَّاكِ ﴿ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ وَفْدَ نَجْرَانَ قَدِمُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعَةِ أَسَاقِفَةٍ مِنْ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ : مِنْهُمْ السَّيِّدُ وَالْعَاقِبُ فَقَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صِفْ لَنَا رَبَّك مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسلّم إنّ ربّي ليس من شيء وهو بائن من الأشياء فأنزل اللّه تعالى : ﴿ قل هو اللّه أحد ﴾ فهؤلاء سألوا هل هو من جنس من أجناس المخلوقات ؟ وهل هو من مادّة فبيّن اللّه تعالى أنّه أحد ليس من جنس شيء من المخلوقات وأنّه صمد ليس من مادّة بل هو صمد لم يلد ولم يولد وإذا نفى عنه أن يكون مولودا من مادّة الوالد ؛ فلأن ينفي عنه أن يكون من سائر الموادّ أولى وأحرى فإنّ المولود من نظير مادّته أكمل من مادّة ما خلق من مادّة أخرى كما خلق آدم من الطين فالمادّة التي خلق منها أولاده أفضل من المادّة التي خلق منها هو ولهذا كان خلقه أعجب . فإذا نزّه الرّبّ عن المادّة العليا فهو عن المادّة السّفلى أعظم تنزيها وهذا كما أنّه إذا كان منزّها عن أن يكون أحد كفوا له فلأن يكون منزّها عن أن يكون أحد أفضل منه أولى وأحرى . وهذا ممّا يبيّن أنّ هذه السّورة اشتملت على جميع أنواع التّنزيه

(1101/838)

والتّحميد على النّفي والإثبات ولهذا كانت تعدل ثلث القرآن . فالصّمديّة تثبت الكمال المنافي للنّقائص . والأحدية تثبت الانفراد بذلك ،

(1102/838)

وَكَذَلِكَ إِذَا نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ أَنْ يَلِدَ فَيَخْرُجُ مِنْهُ مَادَّةُ الْوَلَدِ الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ الْمَوَادِّ فَلَأَنْ يُنَزِّهَ نَفْسَهُ عَنْ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ مَادَّةُ غَيْرِ الْوَلَدِ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى وَإِذَا نَزَّهَ نَفْسَهُ عَنْ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ مَوَادُّ لِلْمَخْلُوقَاتِ فَلَأَنْ يُنَزَّهَ عَنْ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ فَضَلَاتٌ لَا تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ مَادَّةً بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى وَالْإِنْسَانُ يَخْرُجُ مِنْهُ مَادَّةُ الْوَلَدِ وَيَخْرُجُ مِنْهُ مَادَّةُ غَيْرِ الْوَلَدِ كَمَا يُخْلَقُ مِنْ عَرَقِهِ وَرُطُوبَتِهِ الْقَمْلُ وَالدُّودُ وَغَيْرُ ذَلِكَ . وَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمُخَاطُ وَالْبُصَاقُ وَغَيْرُ ذَلِكَ .

وَقَدْ نَزَّهَ اللَّهُ أَهْلَ الْجَنَّةِ عَنْ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ وَأَخْبَرَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَبْصُقُونَ وَلَا يَتَمَخَّطُونَ وَأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهُمْ مِثْلُ رَشْحِ الْمِسْكِ وَأَنَّهُمْ يُجَامِعُونَ بِذَكَرٍ لَا يَخْفَى وَشَهْوَةٍ لَا تَنْقَطِعُ وَلَا مَنِيٍّ وَلَا مَنِيَّةٍ وَإِذَا اشْتَهَى أَحَدُهُمُ الْوَلَدَ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ فِي زَمَنٍ يَسِيرٍ . فَقَدْ تَضَمَّنَ تَنْزِيهَ نَفْسِهِ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَأَنْ يَخْرُجَ مِنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ كَمَا يَخْرُجُ مِنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ وَهَذَا أَيْضًا مِنْ تَمَامِ مَعْنَى الصَّمَدِ كَمَا سَبَقَ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ الَّذِي لَا يَخْرُجُ مِنْهُ شَيْءٌ وَكَذَلِكَ تَنْزِيهُهُ نَفْسَهُ عَنْ أَنْ يُولَدَ – فَلَا يَكُونُ مِنْ مِثْلِهِ – تَنْزِيهٌ لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ سَائِرِ الْمَوَادِّ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى .

وَقَدْ

تَقَدَّمَ فِي حَدِيثِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُولَدُ إِلَّا سَيَمُوتُ وَلَيْسَ شَيْءٌ يَمُوتُ إِلَّا يُورَثُ وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَمُوتُ وَلَا يُورَثُ وَهَذَا رَدٌّ لِقَوْلِ الْيَهُودِ: مِمَّنْ وَرِثَ الدُّنْيَا وَلِمَنْ يُورِثُهَا؟ وَكَذَلِكَ مَا نُقِلَ مِنْ ﴿ سُؤَالِ النَّصَارَى: صِفْ لَنَا رَبَّكَ: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ رَبِّي لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ بَائِنٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ ﴾ وَكَذَلِكَ سُؤَالُ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ: أَمِنْ فِضَّةٍ هُوَ؟ أَمْ مِنْ ذَهَبٍ هُوَ؟ أَمْ مِنْ حَدِيدٍ؟ وَذَلِكَ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ عَهِدُوا الْآلِهَةَ الَّتِي يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ يَكُونُ لَهَا مَوَادُّ صَارَتْ مِنْهَا فَعُبَّادُ الْأَوْثَانِ تَكُونُ أَصْنَامُهُمْ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَحَدِيدٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

(1104/838)

وَعُبَّادُ الْبَشَرِ سَوَاءٌ كَانَ الْبَشَرُ لَمْ يَأْمُرُوهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ أَوْ أَمَرُوهُمْ بِعِبَادَتِهِمْ كَالَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْمَسِيحَ وَعُزَيْرًا وَكَقَوْمِ فِرْعَوْنَ الَّذِينَ قَالَ لَهُمْ ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ و ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ وَقَالَ لِمُوسَى: ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ وَكَالَّذِي آتَاهُ اللَّهُ نَصِيبًا مِنَ الْمُلْكِ الَّذِي حَاجَّ إبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ إذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ: رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ وَكَالدَّجَّالِ الَّذِي يَدَّعِي الْإِلَهِيَّةَ وَمَا مِنْ خَلْقِ آدَمَ إلَى قِيَامِ

السَّاعَةِ فِتْنَةٌ أَعْظَمُ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ وَكَالَّذِينَ قَالُوا : ﴿ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ . وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ : إنَّ هَذِهِ أَسْمَاءُ قَوْمٍ صَالِحِينَ كَانُوا فِيهِمْ فَلَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ

(1105/838)

عَبَدُوهُمْ وَذَلِكَ أَوَّلُ مَا عُبِدَتْ الْأَصْنَامُ وَأَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ صَارَتْ إلَى الْعَرَبِ وَقَدْ ذَكَرَ ذَلِكَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : صَارَتْ الْأَوْثَانُ الَّتِي فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ . أَمَّا وَدٌّ فَكَانَتْ لِكَلْبِ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ وَأَمَّا سُوَاعٌ فَكَانَتْ لِهُذَيْلٍ وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجُرْفِ عِنْدَ سَبَإٍ وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكُلَاعِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انْصِبُوا إلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ . وَنُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقَامَ فِي قَوْمِهِ أَلْفَ سَنَةٍ إلَّا خَمْسِينَ عَامًا يَدْعُوهُمْ إلَى التَّوْحِيدِ وَهُوَ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إلَى أَهْلِ الْأَرْضِ كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ الرُّسُلِ وَكِلَا الْمُرْسَلِينَ بُعِثَ إلَى مُشْرِكِينَ يَعْبُدُونَ هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي صُوِّرَتْ عَلَى صُوَرِ الصَّالِحِينَ مِنْ الْبَشَرِ وَالْمَقْصُودُ بِعِبَادَتِهَا

عِبَادَةُ أُولَئِكَ الصَّالِحِينَ . وَكَذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمِنْ مُبْتَدِعَةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَضُلَّالِهَا هَذَا غَايَةُ شِرْكِهِمْ فَإِنَّ النَّصَارَى يُصَوِّرُونَ فِي الْكَنَائِسِ صُوَرَ مَنْ يُعَظِّمُونَهُ مِنْ الْإِنْسِ غَيْرِ عِيسَى وَأُمِّهِ : مِثْلَ مَارّ جرجس وَغَيْرِهِ مِنْ الْقَدَادِيسِ وَيَعْبُدُونَ

(1106/838)

تِلْكَ الصُّوَرَ وَيَسْأَلُونَهَا وَيَدْعُونَهَا وَيُقَرِّبُونَ

(1107/838)

لَهَا الْقَرَابِينَ وَيَنْذِرُونَ لَهَا النُّذُورَ وَيَقُولُونَ هَذِهِ تُذَكِّرُنَا بِأُولَئِكَ الصَّالِحِينَ . وَالشَّيَاطِينُ تُضِلُّهُمْ كَمَا كَانَتْ تُضِلُّ الْمُشْرِكِينَ : تَارَةً بِأَنْ يَتَمَثَّلَ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ ذَلِكَ الشَّخْصِ الَّذِي يُدْعَى وَيُعْبَدُ فَيَظُنُّ دَاعِيهِ أَنَّهُ قَدْ أَتَى أَوْ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ صَوَّرَ مَلَكًا عَلَى صُورَتِهِ فَإِنَّ النَّصْرَانِيَّ مَثَلًا يَدْعُو فِي الْأَسْرِ وَغَيْرِهِ مَارّ جرجس أَوْ غَيْرَهُ فَيَرَاهُ قَدْ أَتَاهُ فِي الْهَوَاءِ وَكَذَلِكَ أُخَرُ غَيْرُهُ وَقَدْ سَأَلُوا بَعْضَ بَطَارِقَتِهِمْ عَنْ هَذَا كَيْفَ يُوجَدُ فِي هَذِهِ الْأَمَاكِنِ فَقَالَ : هَذِهِ مَلَائِكَةٌ يَخْلُقُهُمْ اللَّهُ عَلَى صُورَتِهِ تُغِيثُ مَنْ يَدْعُوهُ وَإِنَّمَا تِلْكَ شَيَاطِينُ أَضَلَّتْ الْمُشْرِكِينَ . وَهَكَذَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ

الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ وَالشِّرْكِ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ فَإِنَّ أَحَدَهُمْ يَدْعُو وَيَسْتَغِيثُ بِشَيْخِهِ الَّذِي يُعَظِّمُهُ وَهُوَ مَيِّتٌ أَوْ يَسْتَغِيثُ بِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ وَيَسْأَلُهُ وَقَدْ يَنْذِرُ لَهُ نَذْرًا وَنَحْوَ ذَلِكَ وَيَرَى ذَلِكَ الشَّخْصَ قَدْ أَتَاهُ فِي الْهَوَاءِ وَدَفَعَ عَنْهُ بَعْضَ مَا يَكْرَهُ أَوْ كَلَّمَهُ بِبَعْضِ مَا سَأَلَهُ عَنْهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ فَيَظُنُّهُ الشَّيْخَ نَفْسَهُ أَتَى إنْ كَانَ حَيًّا حَتَّى أَنِّي أَعْرِفُ مِنْ هَؤُلَاءِ جَمَاعَاتٍ يَأْتُونَ إلَى الشَّيْخِ نَفْسِهِ الَّذِي اسْتَغَاثُوا بِهِ وَقَدْ رَأَوْهُ أَتَاهُمْ فِي الْهَوَاءِ فَيَذْكُرُونَ ذَلِكَ لَهُ . هَؤُلَاءِ يَأْتُونَ إلَى هَذَا الشَّيْخِ وَهَؤُلَاءِ يَأْتُونَ إلَى هَذَا الشَّيْخِ فَتَارَةً يَكُونُ الشَّيْخُ نَفْسُهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ بِتِلْكَ الْقَضِيَّةِ

(1108/838)

فَإِنْ كَانَ يُحِبُّ الرِّيَاسَةَ سَكَتَ وَأَوْهَمَ أَنَّهُ نَفْسَهُ أَتَاهُمْ وَأَغَاثَهُمْ وَإِنْ كَانَ فِيهِ صِدْقٌ مَعَ جَهْلٍ وَضَلَالٍ قَالَ : هَذَا مَلَكٌ صَوَّرَهُ اللَّهُ عَلَى

(1109/838)

صُورَتي . وجَعَلَ هَذَا مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ وجَعَلَهُ عُمْدَةً لِمَنْ يَسْتَغِيثُ بِالصَّالِحِينَ وَيَتَّخِذُهُمْ أَرْبَابًا وَأَنَّهُمْ إذَا اسْتَغَاثُوا بِهِمْ بَعَثَ اللَّهُ مَلَائِكَةً عَلَى صُوَرِهِمْ تُغِيثُ الْمُسْتَغِيثَ بِهِمْ . وَلِهَذَا أَعْرِفُ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ الشُّيُوخِ الْأَكَابِرِ الَّذِينَ فِيهِمْ صِدْقٌ وَزُهْدٌ وَعِبَادَةٌ لَمَّا ظَنُّوا هَذَا مِنْ كَرَامَاتِ الصَّالِحِينَ صَارَ أَحَدُهُمْ يُوصِي مُرِيدِيهِ يَقُولُ : إذَا كَانَتْ لِأَحَدِكُمْ حَاجَةٌ فَلْيَسْتَغِثْ بِي وليستنجد ني وَلْيَسْتَوْصِنِي ويَقُولُ : أَنَا أَفْعَلُ بَعْدَ مَوْتِي مَا كُنْت أَفْعَلُ فِي حَيَاتِي وهُوَ لَا يَعْرِفُ أَنَّ تِلْكَ شَيَاطِينُ تَصَوَّرَتْ عَلَى صُورَتِهِ لِتُضِلَّهُ وَتُضِلَّ أَتْبَاعَهُ فَتُحَسِّنُ لَهُمْ الْإِشْرَاكَ بِاَللَّهِ وَدُعَاءَ غَيْرِ اللَّهِ وَالِاسْتِغَاثَةَ بِغَيْرِ اللَّهِ وَأَنَّهَا قَدْ تُلْقِي فِي قَلْبِهِ أَنَّا نَفْعَلُ بَعْدَ مَوْتِك بِأَصْحَابِك مَا كُنَّا نَفْعَلُ بِهِمْ فِي حَيَاتِك فَيَظُنُّ هَذَا مِنْ خِطَابٍ إلَهِيٍّ أُلْقِيَ فِي قَلْبِهِ فَيَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ وَأَعْرِفُ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ كَانَ لَهُ شَيَاطِينُ تَخْدُمُهُ فِي حَيَاتِهِ بِأَنْوَاعِ الْخَدَمِ مِثْلِ خِطَابِ أَصْحَابِهِ الْمُسْتَغِيثِينَ بِهِ وَإِعَانَتِهِمْ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَلَمَّا مَاتَ صَارُوا يَأْتُونَ أَحَدَهُمْ فِي صُورَةِ الشَّيْخِ وَيُشْعِرُونَهُ أَنَّهُ لَمْ يَمُتْ وَيُرْسِلُونَ إلَى أَصْحَابِهِ رَسَائِلَ بِخِطَابِ وَقَدْ كَانَ يَجْتَمِعُ بِي بَعْضُ أَتْبَاعِ هَذَا الشَّيْخِ وَكَانَ فِيهِ زُهْدٌ وَعِبَادَةٌ وَكَانَ يُحِبُّنِي وَيُحِبُّ هَذَا الشَّيْخَ وَيَظُنُّ أَنَّ هَذَا مِنْ الْكَرَامَاتِ وَأَنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَمُتْ وَذَكَرَ لِي

(1110/838)

الْكَلَامَ الَّذِي أَرْسَلَهُ إِلَيْهِ بَعْدَ مَوْتِهِ فَقَرَأَهُ فَإِذَا هُوَ كَلَامُ الشَّيَاطِينِ

(1111/838)

بِعَيْنِهِ وَقَدْ ذَكَرَ لِي غَيْرُ وَاحِدٍ مِمَّنْ أَعْرِفُهُمْ أَنَّهُمْ اسْتَغَاثُوا بِي فَرَأَوْنِي فِي الْهَوَاءِ وَقَدْ أَتَيْتهمْ وَخَلَّصْتهمْ مِنْ تِلْكَ الشَّدَائِدِ مِثْلَ مَنْ أَحَاطَ بِهِ النَّصَارَى الْأَرْمَنُ لِيَأْخُذُوهُ وَآخَرُ قَدْ أَحَاطَ بِهِ الْعَدُوُّ وَمَعَهُ كُتُبٌ مُلَطَّفَاتٌ مِنْ مناصحين لَوْ اطَّلَعُوا عَلَى مَا مَعَهُ لَقَتَلُوهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ فَذَكَرْت لَهُمْ أَنِّي مَا دَرَيْت بِمَا جَرَى أَصْلًا وَحَلَفْت لَهُمْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى لَا يَظُنُّوا أَنِّي كَتَمْت ذَلِكَ كَمَا تُكْتَمُ الْكَرَامَاتُ وَأَنَا قَدْ عَلِمْت أَنَّ الَّذِي فَعَلُوهُ لَيْسَ بِمَشْرُوعِ بَلْ هُوَ شِرْكٌ وَبِدْعَةٌ ثُمَّ تَبَيَّنَ لِي فِيمَا بَعْدُ وَبَيَّنْت لَهُمْ أَنَّ هَذِهِ شَيَاطِينُ تَتَصَوَّرُ عَلَى صُورَةِ الْمُسْتَغَاثِ بِهِ . وَحَكَى لِي غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَصْحَابِ الشُّيُوخِ أَنَّهُ جَرَى لِمَنْ اسْتَغَاثَ بِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ وَحَكَى خَلْقٌ كَثِيرٌ أَنَّهُمْ اسْتَغَاثُوا بِأَحْيَاءِ وَأَمْوَاتٍ فَرَأَوْا مِثْلَ ذَلِكَ وَاسْتَفَاضَ هَذَا حَتَّى عُرِفَ أَنَّ هَذَا مِنْ الشَّيَاطِينِ وَالشَّيَاطِينُ تُغْوِي الْإِنْسَانَ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُ دِينَ الْإِسْلَامِ أَوْقَعَتْهُ فِي الشِّرْكِ الظَّاهِرِ وَالْكُفْرِ الْمَحْضِ فَأَمَرَتْهُ أَنْ لَا يَذْكُرَ اللَّهَ وَأَنْ يَسْجُدَ لِلشَّيْطَانِ وَيَذْبَحَ لَهُ وَأَمَرَتْهُ أَنْ يَأْكُلَ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَيَفْعَلَ الْفَوَاحِشَ وَهَذَا يَجْرِي كَثِيرًا فِي بِلَادِ الْكُفْرِ الْمَحْضِ وَبِلَادٍ فِيهَا

كُفْرٌ وَإِسْلَامٌ ضَعِيفٌ وَيَجْرِي فِي بَعْضِ مَدَائِنِ الْإِسْلَامِ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَضْعُفُ إيمَانُ أَصْحَابِهَا حَتَّى قَدْ جَرَى ذَلِكَ فِي مِصْرَ وَالشَّامِ عَلَى

(1112/838)

أَنْوَاعٍ يَطُولُ وَصْفُهَا وَهُوَ فِي أَرْضِ الشَّرْقِ قَبْلَ ظُهُورِ

(1113/838)

الْإِسْلَامِ فِي التَّتَارِ كَثِيرٌ جِدًّا وَكُلَّمَا ظَهَرَ فِيهِمْ الْإِسْلَامُ وَعَرَفُوا حَقِيقَتَهُ قَلَّتْ آثَارُ الشَّيَاطِينِ فِيهِمْ وَإِنْ كَانَ مُسْلِمًا يَخْتَارُ الْفَوَاحِشَ وَالظُّلْمَ أَعَانَتْهُ عَلَى الظُّلْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَهَذَا كَثِيرٌ جِدًّا أَكْثَرُ مِنْ الَّذِي قَبْلَهُ فِي الْبِلَادِ الَّتِي فِي أَهْلِهَا إسْلَامٌ وَجَاهِلِيَّةٌ وَبِرٌّ وَفُجُورٌ وَإِنْ كَانَ الشَّيْخُ فِيهِ إسْلَامٌ وَدِيَانَةٌ وَلَكِنْ عِنْدَهُ قِلَّةُ مَعْرِفَةٍ بِحَقِيقَةِ مَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ عَرَفَ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ أَنَّ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ كَرَامَاتٍ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ كَمَالَ الْوِلَايَةِ وَأَنَّهَا الْإِيمَانُ وَالتَّقْوَى وَاتِّبَاعُ الرُّسُلِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا أَوْ يَعْرِفُ ذَلِكَ مُجْمَلًا وَلَا يَعْرِفُ مِنْ حَقَائِقِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنِ وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرَةِ مَا يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ الْأَحْوَالِ الرَّحْمَانِيَّةِ وَبَيْنَ

النَّفْسَانِيَّةِ والشيطانية كَمَا أَنَّ الرُّؤْيَا ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ . رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ بِهِ نَفْسَهُ فِي الْيَقَظَةِ فَيَرَاهُ فِي الْمَنَامِ وَرُؤْيَا مِنْ الشَّيْطَانِ . فَكَذَلِكَ الْأَحْوَالُ . فَإِذَا كَانَ عِنْدَهُ قِلَّةُ مَعْرِفَةٍ بِحَقِيقَةِ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَتْهُ الشَّيَاطِينُ بِأَمْرِ لَا يُنْكِرُهُ فَتَارَةً يَحْمِلُونَ أَحَدَهُمْ فِي الْهَوَاءِ وَيَقِفُونَ بِهِ بِعَرَفَاتِ ثُمَّ يُعِيدُونَهُ إلَى بَلَدِهِ وَهُوَ لَابِسٌ ثِيَابَهُ لَمْ يُحْرِمْ حِينَ حَاذَى الْمَوَاقِيتَ وَلَا كَشَفَ رَأْسَهُ وَلَا تَجَرَّدَ عَمَّا يَتَجَرَّدُ عَنْهُ الْمُحْرِمُ وَلَا يَدْعُونَهُ بَعْدَ

(1114/838)

الْوُقُوفِ يَطُوفُ طَوَافَ الْإِفَاضَةِ وَيَرْمِي الْجِمَارَ وَيُكْمِلُ حَجَّهُ بَلْ يَظُنُّ أَنَّ مُجَرَّدَ الْوُقُوفِ - كَمَا فَعَلَ -

(1115/838)

عِبَادَةٌ وَهَذَا مِنْ قِلَّةِ عِلْمِهِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ وَلَوْ عَلِمَ دِينَ الْإِسْلَامِ لَعَلِمَ أَنَّ هَذَا الَّذِي فَعَلَهُ لَيْسَ عِبَادَةً لِلَّهِ وَأَنَّهُ مَنْ اسْتَحَلَّ هَذَا فَهُوَ مُرْتَدٌّ يَجِبُ قَتْلُهُ بَلْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْإِحْرَامُ عِنْدَ الْمِيقَاتِ وَلَا يَجُوزُ لِلْإِنْسَانِ الْمُحْرِمِ اللُّبْسُ فِي الْإِحْرَامِ إلَّا مِنْ عُذْرٍ وَأَنَّهُ لَا

يَكْتَفِي بِالْوُقُوفِ بَلْ لَا بُدَّ مِنْ طَوَافِ الْإِفَاضَةِ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ بَلْ وَعَلَيْهِ أَنْ يَفِيضَ إلَى الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَيَرْمِيَ جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ وَهَذَا مِمَّا تُنُوزِعَ فِيهِ هَلْ هُوَ رُكْنٌ أَوْ وَاجِبٌ يَجْبُرُهُ دَمٌ ؟ وَعَلَيْهِ أَيْضًا رَمْيُ الْجِمَارِ أَيَّامَ مِنًى بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ تَحْمِلُ أَحَدَهُمْ الْجِنُّ فَتَزُورُهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَغَيْرَهُ وَتَطِيرُ بِهِ فِي الْهَوَاءِ وَتَمْشِي بِهِ فِي الْمَاءِ وَقَدْ تُرِيهِ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ بِهِ إلَى مَدِينَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَرُبَّمَا أَرَتْهُ أَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ وَيَشْرَبُ مِنْ أَنْهَارِهَا . وَهَذَا كُلُّهُ وَأَمْثَالُهُ مِمَّا أَعْرِفُهُ قَدْ وَقَعَ لِمَنْ أَعْرِفُهُ ؛ لَكِنَّ هَذَا بَابٌ طَوِيلٌ لَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ بَسْطِهِ . وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنَّ أَصْلَ الشِّرْكِ فِي الْعَالَمِ كَانَ مِنْ عِبَادَةِ الْبَشَرِ الصَّالِحِينَ وَعِبَادَةِ تَمَاثِيلِهِمْ وَهُمْ الْمَقْصُودُونَ . وَمِنْ الشِّرْكِ مَا كَانَ أَصْلُهُ عِبَادَةَ الْكَوَاكِبِ إمَّا الشَّمْسُ وَإِمَّا الْقَمَرُ وَإِمَّا غَيْرُهُمَا وَصُوِّرَتْ الْأَصْنَامُ طَلَاسِمَ لِتِلْكَ الْكَوَاكِبِ وَشِرْكُ قَوْمِ إبْرَاهِيمَ - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - كَانَ مِنْ هَذَا أَوْ كَانَ

(1116/838)

بَعْضُهُ مِنْ هَذَا وَمِنْ الشِّرْكِ مَا كَانَ أَصْلُهُ عِبَادَةَ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الْجِنِّ وَضُعِتْ الْأَصْنَامُ لِأَجْلِهِمْ وَإِلَّا فَنَفْسُ الْأَصْنَامِ

(1117/838)

الْجَمَادِيَّةِ لَمْ تُعْبَدْ لِذَاتِهَا بَلْ لِأَسْبَابٍ اقْتَضَتْ ذَلِكَ وَشِرْكُ الْعَرَبِ كَانَ أَعْظَمُهُ الْأَوَّلَ وَكَانَ فِيهِ مِنْ الْجَمِيعِ . فَإِنَّ عَمْرَو بْنَ لُحَيٍّ هُوَ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَكَانَ قَدْ أَتَى الشَّامَ وَرَآهُمْ بِالْبَلْقَاءِ لَهُمْ أَصْنَامٌ يَسْتَجْلِبُونَ بِهَا الْمَنَافِعَ وَيَدْفَعُونَ بِهَا الْمَضَارَّ فَصَنَعَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي مَكَّةَ لَمَّا كَانَتْ خُزَاعَةُ وُلَاةَ الْبَيْتِ قَبْلَ قُرَيْشٍ وَكَانَ هُوَ سَيِّدَ خُزَاعَةَ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : رَأَيْت عَمْرَو بْنَ لحي بْنِ قَمْعَةَ بْنِ خندف يَجُرُّ قَصَبَهُ فِي النَّارِ - أَيْ أَمْعَاءَهُ - وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إبْرَاهِيمَ وَسَيَّبَ السَّوَائِبَ وبحر الْبَحِيرَةَ ﴾ . وَكَذَلِكَ - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - شِرْكُ قَوْمِ نُوحٍ وَإِنْ كَانَ مَبْدَؤُهُ مِنْ عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ فَالشَّيْطَانُ يَجُرُّ النَّاسَ مِنْ هَذَا إلَى غَيْرِهِ لَكِنَّ هَذَا أَقْرَبُ إلَى النَّاسِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ الرَّجُلَ الصَّالِحَ وَبَرَكَتَهُ وَدُعَاءَهُ فَيَعْكُفُونَ عَلَى قَبْرِهِ وَيَقْصِدُونَ ذَلِكَ مِنْهُ فَتَارَةً يَسْأَلُونَهُ وَتَارَةً يَسْأَلُونَ اللَّهَ بِهِ وَتَارَةً يُصَلُّونَ وَيَدْعُونَ عِنْدَ قَبْرِهِ ظَانِّينَ أَنَّ الصَّلَاةَ وَالدُّعَاءَ عِنْدَ قَبْرِهِ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْبُيُوتِ . وَلَمَّا كَانَ هَذَا مَبْدَأَ الشِّرْكِ سَدَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْبَابَ كَمَا سَدَّ بَابَ الشِّرْكِ بِالْكَوَاكِبِ فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ﴿ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسِ : إنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا

(1118/838)

يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ ﴾ وَفِي

(1119/838)

الصَّحِيحَيْنِ ﴿ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذُكِرَ لَهُ كَنِيسَةٌ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ وَذُكِرَ مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا فَقَالَ : إنَّ أُولَئِكَ إذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ هُمْ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ : ﴿ لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا قَالَتْ عَائِشَةُ : وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ وَلَكِنْ كَرِهَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا ﴾ وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَد وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ ﴿ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ﴾ وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُد وَغَيْرِهِ ﴿ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي ﴾ . وَفِي مُوَطَّإِ مَالِكٍ ﴿ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ﴾ وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ﴿ عَنْ أَبِي الهياج الْأَسَدِيِّ قَالَ : قَالَ لِي

عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَنِي أَنْ لَا أَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَه وَلَا تِمْثَالًا

(1120/838)

إِلَّا طَمَسْتَه ﴾ فَأَمَرَهُ بِمَحْوِ التِّمْثَالَيْنِ : الصُّورَةِ الْمُمَثَّلَةِ عَلَى صُورَةِ الْمَيِّتِ وَالتِّمْثَالِ الشَّاخِصِ الْمُشْرِفِ فَوْقَ قَبْرِه . فَإِنَّ الشِّرْكَ يَحْصُلُ بِهَذَا وَبِهَذَا .

(1121/838)

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ كَانَ فِي سَفَرٍ فَرَأَى قَوْمًا يَنْتَابُونَ مَكَانًا لِلصَّلَاةِ فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالُوا : هَذَا مَكَانٌ صَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : إنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا أَنَّهُمْ اتَّخَذُوا آثَارَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ مَنْ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَإِلَّا فَلْيَمْضِ وَبَلَغَهُ أَنَّ قَوْمًا يَذْهَبُونَ إلَى الشَّجَرَةِ الَّتِي بَايَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ تَحْتَهَا فَأَمَرَ بِقَطْعِهَا وَأَرْسَلَ إلَيْهِ أَبُو مُوسَى يَذْكُرُ لَهُ أَنَّهُ ظَهَرَ بتستر قَبْرُ دَانْيَالَ وَعِنْدَهُ مُصْحَفٌ فِيهِ أَخْبَارُ مَا سَيَكُونُ قَدْ ذُكِرَ فِيهِ أَخْبَارُ الْمُسْلِمِينَ وَأَنَّهُمْ إذَا

أَجْدُبوا كَشَفُوا عَنْ الْقَبْرِ فَمُطِرُوا فَأَرْسَلَ إلَيْهِ عُمَرُ يَأْمُرُهُ أَنْ يَحْفِرَ بِالنَّهَارِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَبْرًا وَيَدْفِنُهُ بِاللَّيْلِ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا لِئَلَّا يَعْرِفَهُ النَّاسُ ؛ لِئَلَّا يُفْتَنُوا بِهِ . فَاتِّخَاذُ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ مِمَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَإِنْ لَمْ يَبْنِ عَلَيْهَا مَسْجِدًا كَانَ بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ عَلَيْهَا أَعْظَمَ . كَذَلِكَ قَالَ الْعُلَمَاءُ : يَحْرُمُ بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ وَيَجِبُ هَدْمُ كُلِّ مَسْجِدٍ بُنِيَ عَلَى قَبْرٍ وَإِنْ كَانَ الْمَيِّتُ قَدْ قُبِرَ فِي مَسْجِدٍ وَقَدْ طَالَ مُكْثُهُ سُوِّيَ الْقَبْرُ حَتَّى لَا تَظْهَرَ صُورَتُهُ فَإِنَّ الشِّرْكَ إنَّمَا يَحْصُلُ إذَا ظَهَرَتْ صُورَتُهُ وَلِهَذَا كَانَ مَسْجِدُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلًا مَقْبَرَةً لِلْمُشْرِكِينَ وَفِيهَا

(1122/838)

نَخْلٌ وَخَرِبٌ فَأَمَرَ بِالْقُبُورِ فَنُبِشَتْ وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ وَبِالْخَرِبِ فَسُوِّيَتْ فَخَرَجَ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَقْبَرَةً فَصَارَ مَسْجِدًا .

(1123/838)

وَلَمَّا كَانَ اتِّخَاذُ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ وَبِنَاءُ الْمَسَاجِدِ عَلَيْهَا مُحَرَّمًا وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَلَمْ يَكُنْ يُعْرَفُ قَطُّ مَسْجِدٌ عَلَى قَبْرٍ وَكَانَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْمَغَارَةِ الَّتِي دُفِنَ فِيهَا وَهِيَ مَسْدُودَةٌ لَا أَحَدَ يَدْخُلُ إلَيْهَا وَلَا تَشُدُّ الصَّحَابَةُ الرِّحَالَ لَا إلَيْهِ وَلَا إلَى غَيْرِهِ مِنْ الْمَقَابِرِ ؛ لِأَنَّ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلَّا إلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ : الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَمَسْجِدِي هَذَا ﴾ . فَكَانَ يَأْتِي مَنْ يَأْتِي مِنْهُمْ إلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى يُصَلُّونَ فِيهِ ثُمَّ يَرْجِعُونَ لَا يَأْتُونَ مَغَارَةَ الْخَلِيلِ وَلَا غَيْرَهَا وَكَانَتْ مَغَارَةُ الْخَلِيلِ مَسْدُودَةً حَتَّى اسْتَوْلَى النَّصَارَى عَلَى الشَّامِ فِي أَوَاخِرِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ فَفَتَحُوا الْبَابَ وَجَعَلُوا ذَلِكَ الْمَكَانَ كَنِيسَةً ثُمَّ لَمَّا فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ الْبِلَادَ اتَّخَذَهُ بَعْضُ النَّاسِ مَسْجِدًا وَأَهْلُ الْعِلْمِ يُنْكِرُونَ ذَلِكَ وَاَلَّذِي يَرْوِيه بَعْضُهُمْ ﴿ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ أَنَّهُ قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ طِيبَةُ انْزِلْ فَصَلِّ فَنَزَلَ فَصَلَّى هَذَا مَكَانُ أَبِيك انْزِلْ فَصَلِّ ﴾ . كَذِبٌ مَوْضُوعٌ لَمْ يُصَلِّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إلَّا فِي الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى خَاصَّةً كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ وَلَا نَزَلَ إلَّا

فِيهِ . وَلِهَذَا لَمَّا قَدِمَ الشَّامَ مِنْ الصَّحَابَةِ مَنْ لَا يُحْصِي عَدَدَهُمْ إلَّا اللَّهُ

(1125/838)

وَقَدِمَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَمَّا فَتَحَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَبَعْدَ فَتْحِ الشَّامِ لَمَّا صَالَحَ النَّصَارَى عَلَى الْجِزْيَةِ وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ الشُّرُوطَ الْمَعْرُوفَةَ وَقَدِمَهَا مَرَّةً ثَالِثَةً حَتَّى وَصَلَ إلَى سرغ وَمَعَهُ أَكَابِرُ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فَلَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إلَى مَغَارَةِ الْخَلِيلِ وَلَا غَيْرِهَا مِنْ آثَارِ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي بِالشَّامِ لَا بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَلَا بِدِمَشْقَ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ مِثْلِ الْآثَارِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي بِجَبَلِ قاسيون فِي غَرْبِيِّهِ الرَّبْوَةُ الْمُضَافَةُ إلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِي شَرْقِيِّهِ الْمَقَامُ الْمُضَافُ إلَى الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِي وَسَطِهِ وَأَعْلَاهُ مَغَارَةُ الدَّمِ الْمُضَافَةُ إلَى هابيل لَمَّا قَتَلَهُ قابيل فَهَذِهِ الْبِقَاعُ وَأَمْثَالُهَا لَمْ يَكُنْ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ يَقْصِدُونَهَا وَلَا يَزُورُونَهَا وَلَا يَرْجُونَ مِنْهَا بَرَكَةً فَإِنَّهَا مَحَلُّ الشِّرْكِ . وَلِهَذَا تُوجَدُ فِيهَا الشَّيَاطِينُ كَثِيرًا وَقَدْ رَآهُمْ غَيْرُ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ الْإِنْسِ وَيَقُولُونَ لَهُمْ رِجَالُ الْغَيْبِ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ رِجَالٌ مِنْ الْإِنْسِ غَائِبِينَ عَنْ الْأَبْصَارِ وَإِنَّمَا هُمْ جِنٌّ وَالْجِنُّ يُسَمَّوْنَ رِجَالًا . كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ وَالْإِنْسُ سُمُّوا إنْسًا لِأَنَّهُمْ يُؤْنَسُونَ أَيْ يُرَوْنَ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ أَيْ رَأَيْتهَا وَالْجِنُّ سُمُّوا جِنًّا لِاجْتِنَانِهِمْ يَجْتَنُّونَ عَنْ الْأَبْصَارِ أَيْ يَسْتَتِرُونَ

(1126/838)

. كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ ﴾ أَيْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِ فَغَطَّاهُ وَسَتَرَهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ الْإِنْسِ يَسْتَتِرُ دَائِمًا عَنْ

(1127/838)

أَبْصَارِ الْإِنْسِ وَإِنَّمَا يَقَعُ هَذَا لِبَعْضِ الْإِنْسِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ : تَارَةً عَلَى وَجْهِ الْكَرَامَةِ لَهُ وَتَارَةً يَكُونُ مِنْ بَابِ السِّحْرِ وَعَمَلِ الشَّيَاطِينِ وَلِبَسْطِ الْكَلَامِ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ هَذَا مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ هَاهُنَا : أَنَّ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ لَمْ يَبْنُوا قَطُّ عَلَى قَبْرِ نَبِيٍّ وَلَا رَجُلٍ صَالِحٍ مَسْجِدًا وَلَا جَعَلُوهُ مَشْهَدًا وَمَزَارًا وَلَا عَلَى شَيْءٍ مِنْ آثَارِ الْأَنْبِيَاءِ مِثْلَ مَكَانٍ نَزَلَ فِيهِ أَوْ صَلَّى فِيهِ أَوْ فَعَلَ فِيهِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُونُوا يَقْصِدُونَ بِنَاءَ مَسْجِدٍ لِأَجْلِ آثَارِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَلَمْ يَكُنْ جُمْهُورُهُمْ يَقْصِدُونَ الصَّلَاةَ فِي مَكَانٍ لَمْ يَقْصِدْ الرَّسُولُ

الصَّلَاةَ فِيهِ بَلْ نَزَلَ فِيهِ أَوْ صَلَّى فِيهِ اتِّفَاقًا بَلْ كَانَ أَئِمَّتُهُمْ كَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَغَيْرِهِ يَنْهَى عَنْ قَصْدِ الصَّلَاةِ فِي مَكَانٍ صَلَّى فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتِّفَاقًا لَا قَصْدًا وَإِنَّمَا نُقِلَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ خَاصَّةً أَنَّهُ كَانَ يَتَحَرَّى أَنْ يَسِيرَ حَيْثُ سَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَنْزِلَ حَيْثُ نَزَلَ وَيُصَلِّيَ حَيْثُ صَلَّى وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَقْصِدْ تِلْكَ الْبُقْعَةَ لِذَلِكَ الْفِعْلِ بَلْ حَصَلَ اتِّفَاقًا وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رَجُلًا صَالِحًا شَدِيدَ الِاتِّبَاعِ فَرَأَى هَذَا مِنْ الِاتِّبَاعِ . وَأَمَّا أَبُوهُ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ مِنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَسَائِرِ الْعَشَرَةِ

(1128/838)

وَغَيْرِهِمْ مِثْلَ ابْنِ مَسْعُودٍ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ فَلَمْ يَكُونُوا يَفْعَلُونَ مَا فَعَلَ ابْنُ عُمَرَ وَقَوْلُ الْجُمْهُورِ أَصَحُّ .

(1129/838)

وَذَلِكَ أَنَّ الْمُتَابَعَةَ أَنْ يُفْعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي فَعَلَ لِأَجْلِ أَنَّهُ فَعَلَ . فَإِذَا قَصَدَ الصَّلَاةَ وَالْعِبَادَةَ فِي مَكَانٍ مُعَيَّنٍ كَانَ قَصْدُ الصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ مُتَابَعَةً لَهُ وَأَمَّا إذَا لَمْ يَقْصِدْ تِلْكَ الْبُقْعَةَ فَإِنَّ قَصْدَهَا يَكُونُ مُخَالَفَةً لَا مُتَابَعَةً لَهُ . مِثَالُ الْأَوَّلِ لَمَّا قَصَدَ الْوُقُوفَ وَالذِّكْرَ وَالدُّعَاءَ بِعَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ وَبَيْنَ الْجَمْرَتَيْنِ كَانَ قَصْدُ تِلْكَ الْبِقَاعِ مُتَابَعَةً لَهُ وَكَذَلِكَ لَمَّا طَافَ وَصَلَّى خَلْفَ الْمَقَامِ رَكْعَتَيْنِ كَانَ فِعْلُ ذَلِكَ مُتَابَعَةً لَهُ وَكَذَلِكَ لَمَّا صَعِدَ عَلَى الصَّفَا وَالمروة لِلذِّكْرِ وَالدُّعَاءِ كَانَ قَصْدُ ذَلِكَ مُتَابَعَةً لَهُ وَقَدْ كَانَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ يَتَحَرَّى الصَّلَاةَ عِنْدَ الْأُسْطُوَانَةِ قَالَ لِأَنِّي رَأَيْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَحَرَّى الصَّلَاةَ عِنْدَهَا فَلَمَّا رَآهُ يَقْصِدُ تِلْكَ الْبُقْعَةَ لِأَجْلِ الصَّلَاةِ كَانَ ذَلِكَ الْقَصْدُ لِلصَّلَاةِ مُتَابَعَةً وَكَذَلِكَ ﵁ لَمَّا أَرَادَ عتبان بْنُ مَالِكٍ أَنْ يَبْنِيَ مَسْجِدًا لَمَّا عَمِيَ فَأَرْسَلَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ إنِّي أُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنِي تُصَلِّي فِي مَنْزِلِي فَأَتَّخِذُهُ مُصَلًّى وَفِي رِوَايَةٍ فَقَالَ تَعَالَ فَخُطَّ لِي مَسْجِدًا فَأَتَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ شَاءَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَفِي رِوَايَةٍ فَغَدَا عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَذِنْتُ لَهُ فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ فَقَالَ أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ ؟ فَأَشَرْتُ لَهُ إلَى نَاحِيَةٍ مِنْ الْبَيْتِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُمْنَا وَرَاءَهُ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ ﴾ . الْحَدِيثُ .

(1131/838)

فَإِنَّهُ قَصَدَ أَنْ يَبْنِيَ مَسْجِدًا وَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ مَنْ يُصَلِّي فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْ يَبْنِيَهُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ فَالْمَقْصُودُ كَانَ بِنَاءَ الْمَسْجِدِ وَأَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يَبْنِيهِ فَكَانَتْ الصَّلَاةُ مَقْصُودَةً لِأَجْلِ الْمَسْجِدِ لَمْ يَكُنْ بِنَاءُ الْمَسْجِدِ مَقْصُودًا لِأَجْلِ كَوْنِهِ صَلَّى فِيهِ اتِّفَاقًا وَهَذَا الْمَكَانُ مَكَانٌ قَصَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ فِيهِ لِيَكُونَ مَسْجِدًا فَصَارَ قَصْدُ الصَّلَاةِ فِيهِ مُتَابَعَةً لَهُ بِخِلَافِ مَا اتَّفَقَ أَنَّهُ صَلَّى فِيهِ بِغَيْرِ قَصْدٍ وَكَذَلِكَ قَصْدُ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ بِالصَّوْمِ مُتَابَعَةً لِأَنَّهُ قَصَدَ صَوْمَ هَذَيْنِ الْيَوْمَيْنِ وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ﴿ إنَّهُ تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فِي كُلِّ خَمِيسٍ وَاثْنَيْنِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاَللَّهِ شَيْئًا إلَّا رَجُلًا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ فَيُقَالُ أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا ﴾ . وَكَذَلِكَ قَصْدُ إتْيَانِ مَسْجِدِ قُبَاءٍ مُتَابَعَةً لَهُ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّهُ كَانَ يَأْتِي قُبَاءَ كُلَّ سَبْتٍ رَاكِبًا وَمَاشِيًا . وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ

أُنزِلَ عَلَيْهِ : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ وَكَانَ مَسْجِدُهُ هُوَ الْأَحَقَّ بِهَذَا الْوَصْفِ وَقَدْ ثَبَتَ ﴿ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ الْمَسْجِدِ الْمُؤَسَّسِ عَلَى التَّقْوَى فَقَالَ : هُوَ مَسْجِدِي هَذَا ﴾ يُرِيدُ أَنَّهُ أَكْمَلُ

(1132/838)

فِي هَذَا الْوَصْفِ مِنْ مَسْجِدِ قُبَاءٍ وَمَسْجِدُ قُبَاءٍ أَيْضًا أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى وَبِسَبَبِهِ نَزَلَتْ الْآيَةُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ

(1133/838)

أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ وَكَانَ أَهْلُ قُبَاءٍ مَعَ الْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ . تَعَلَّمُوا ذَلِكَ مِنْ جِيرَانِهِمْ الْيَهُودِ وَلَمْ تَكُنْ الْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ فَأَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا يَظُنَّ ظَانٌّ أَنَّ ذَاكَ هُوَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى دُونَ مَسْجِدِهِ فَذَكَرَ أَنَّ مَسْجِدَهُ أَحَقُّ بِأَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُؤَسَّسَ عَلَى التَّقْوَى فَقَوْلُهُ : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ يَتَنَاوَلُ مَسْجِدَهُ وَمَسْجِدَ قُبَاءٍ وَيَتَنَاوَلُ كُلَّ مَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى بِخِلَافِ مَسَاجِدِ

الضِّرَارِ . وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ يَكْرَهُونَ الصَّلَاةَ فِيمَا يُشْبِهُ ذَلِكَ وَيَرَوْنَ الْعَتِيقَ أَفْضَلَ مِنْ الْجَدِيدِ ؛ لِأَنَّ الْعَتِيقَ أَبْعَدُ عَنْ أَنْ يَكُونَ بُنِيَ ضِرَارًا مِنْ الْجَدِيدِ الَّذِي يَخَافُ ذَلِكَ فِيهِ وَعِتْقُ الْمَسْجِدِ مِمَّا يُحْمَدُ بِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَا إلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ فَإِنَّ قِدَمَهُ يَقْتَضِي كَثْرَةَ الْعِبَادَةِ فِيهِ أَيْضًا وَذَلِكَ يَقْتَضِي زِيَادَةَ فَضْلِهِ وَلِهَذَا لَمْ يَسْتَحِبَّ عُلَمَاءُ السَّلَفِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَغَيْرِهَا قَصْدُ شَيْءٍ مِنْ الْمَسَاجِدِ وَالْمَزَارَاتِ الَّتِي بِالْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا بَعْدَ مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلَّا مَسْجِدَ قُبَاء ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَقْصِدْ مَسْجِدًا بِعَيْنِهِ يَذْهَبُ إلَيْهِ إلَّا هُوَ . وَقَدْ كَانَ بِالْمَدِينَةِ مَسَاجِدُ كَثِيرَةٌ لِكُلِّ قَبِيلَةٍ

(1134/838)

مِنْ الْأَنْصَارِ مَسْجِدٌ لَكِنْ لَيْسَ فِي قَصْدِهِ دُونَ أَمْثَالِهِ فَضِيلَةٌ بِخِلَافِ مَسْجِدِ قُبَاء فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَسْجِدٍ بُنِيَ بِالْمَدِينَةِ

(1135/838)

عَلَى الْإِطْلَاقِ وَقَدْ قَصَدَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالذَّهَابِ إلَيْهِ وَصَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ لَا يُرِيدُ إلَّا الصَّلَاةَ فِيهِ كَانَ كَعُمْرَةِ ﴾ . وَمَعَ هَذَا فَلَا يُسَافِرُ إلَيْهِ لَكِنْ إذَا كَانَ الْإِنْسَانُ بِالْمَدِينَةِ أَتَاهُ وَلَا يَقْصِدُ إنْشَاءَ السَّفَرِ إلَيْهِ بَلْ يَقْصِدُ إنْشَاءَ السَّفَرِ إلَى الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلَّا إلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَمَسْجِدِي هَذَا ﴾ وَلِهَذَا لَوْ نَذَرَ السَّفَرَ إلَى مَسْجِدِ قُبَاءَ لَمْ يُوفِّ بِنَذْرِهِ عِنْدَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ بِخِلَافِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَإِنَّهُ يَجِبُ الْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ إلَيْهِ بِاتِّفَاقِهِمْ وَكَذَلِكَ مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ فِي أَصَحِّ قَوْلَيْهِمْ . وَهُوَ مَذْهَبُ مَالِكٍ وَأَحْمَد وَالشَّافِعِيِّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ وَفِي الْآخَرِ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ لَيْسَ عَلَيْهِ ذَلِكَ؛ لَكِنَّهُ جَائِزٌ وَمُسْتَحَبٌّ لِأَنَّ مِنْ أَصْلِهِ أَنَّهُ لَا يَجِبُ بِالنَّذْرِ إلَّا مَا كَانَ وَاجِبًا بِالشَّرْعِ وَالْأَكْثَرُونَ يَقُولُونَ يَجِبُ بِالنَّذْرِ كُلُّ مَا كَانَ طَاعَةً لِلَّهِ كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ ﴾ . وَيُسْتَحَبُّ أَيْضًا زِيَارَةُ قُبُورِ أَهْلِ الْبَقِيعِ وَشُهَدَاءِ أُحُدٍ؛

لِلدُّعَاءِ لَهُمْ وَالِاسْتِغْفَارِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْصِدُ ذَلِكَ مَعَ أَنَّ هَذَا مَشْرُوعٌ لِجَمِيعِ مَوْتَى الْمُسْلِمِينَ كَمَا يُسْتَحَبُّ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ وَالدُّعَاءُ لَهُمْ وَالِاسْتِغْفَارُ . وَزِيَارَةُ الْقُبُورِ بِهَذَا الْقَصْدِ مُسْتَحَبَّةٌ وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ قُبُورُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَغَيْرِهِمْ وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ إذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَقُولُ : السَّلَامُ عَلَيْك يَا رَسُولَ اللَّهِ السَّلَامُ عَلَيْك يَا أَبَا بَكْرٍ السَّلَامُ عَلَيْك يَا أَبَتِ ثُمَّ يَنْصَرِفُ .

(1137/838)

وَأَمَّا زِيَارَةُ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لِأَجْلِ طَلَبِ الْحَاجَاتِ مِنْهُمْ أَوْ دُعَائِهِمْ وَالْإِقْسَامِ بِهِمْ عَلَى اللَّهِ أَوْ ظَنِّ أَنَّ الدُّعَاءَ أَوْ الصَّلَاةَ عِنْدَ قُبُورِهِمْ أَفْضَلُ مِنْهُ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْبُيُوتِ فَهَذَا ضَلَالٌ وَشِرْكٌ وَبِدْعَةٌ بِاتِّفَاقِ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَلَا كَانُوا إذَا سَلَّمُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقِفُونَ يَدْعُونَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلِهَذَا كَرِهَ ذَلِكَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَقَالُوا إنَّهُ مِنْ الْبِدَعِ الَّتِي لَمْ يَفْعَلْهَا السَّلَفُ وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ الْأَرْبَعَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ السَّلَفِ عَلَى أَنَّهُ إذَا أَرَادَ أَنْ يَدْعُوَ يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَلَا يَسْتَقْبِلُ قَبْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَّا إذَا سَلَّمَ عَلَيْهِ فَأَكْثَرُهُمْ قَالُوا : يَسْتَقْبِلُ الْقَبْرَ قَالَهُ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَد وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : بَلْ يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ أَيْضًا وَيَكُونُ الْقَبْرُ عَنْ يَسَارِهِ وَقِيلَ : بَلْ يَسْتَدْبِرُ الْقِبْلَةَ . وَمِمَّا

يُبَيِّنُ هَذَا الْأَصْلَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا هَاجَرَ هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ ذَهَبَا إلَى الْغَارِ الَّذِي بِجَبَلِ ثَوْرٍ وَلَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِهِمَا

(1138/838)

بِالْمَدِينَةِ فَإِنَّهُ مِنْ نَاحِيَةِ الْيَمَنِ وَالْمَدِينَةُ مِنْ نَاحِيَةِ الشَّامِ وَلَكِنْ اخْتَبَآ فِيهِ ثَلَاثًا لِيَنْقَطِعَ خَبَرُهُمَا عَنْ الْمُشْرِكِينَ فَلَا يَعْرِفُونَ أَيْنَ ذَهَبَا فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا طَالِبِينَ لَهُمَا وَقَدْ بَذَلُوا فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا دِيَتَهُ لِمَنْ يَأْتِي بِهِ وَكَانُوا يَقْصِدُونَ مَنْعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَصِلَ إلَى أَصْحَابِهِ بِالْمَدِينَةِ وَأَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْ مَكَّةَ بَلْ لَمَّا عَجَزُوا عَنْ قَتْلِهِ أَرَادُوا حَبْسَهُ بِمَكَّةَ فَلَوْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ابْتِدَاءً لَأَدْرَكُوهُ فَأَقَامَ بِالْغَارِ ثَلَاثًا لِأَجْلِ ذَلِكَ فَلَوْ أَرَادَ الْمُسَافِرُ مِنْ مَكَّةَ إلَى الْمَدِينَةِ أَنْ يَذْهَبَ إلَى الْغَارِ ثُمَّ يَرْجِعَ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مُسْتَحَبًّا بَلْ مَكْرُوهًا وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْهِجْرَةِ سَلَكَ طَرِيقَ السَّاحِلِ وَهِيَ طَوِيلَةٌ وَفِيهَا دَوْرَةٌ وَأَمَّا فِي عُمَرِهِ وَحَجَّتِهِ فَكَانَ يَسْلُكُ الْوَسَطَ وَهُوَ أَقْرَبُ إلَى مَكَّةَ فَسَلَكَ فِي الْهِجْرَةِ طَرِيقَ السَّاحِلِ ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ أَبْعَدَ عَنْ قَصْدِ الْمُشْرِكِينَ فَإِنَّ الطَّرِيقَ الْوُسْطَى كَانَتْ أَقْرَبَ إلَى الْمَدِينَةِ فَيَظُنُّونَ أَنَّهُ سَلَكَهَا كَمَا كَانَ إذَا أَرَادَ غَزْوَةً وَرَّى بِغَيْرِهَا . وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَسَّمَ غَنَائِمَ حنين بِالْجِعْرَانَةِ اعْتَمَرَ مِنْهَا وَلَمَّا صَدَّهُ الْمُشْرِكُونَ عَنْ مَكَّةَ حَلَّ بالحديبية وَكَانَ قَدْ أَنْشَأَ الْإِحْرَامَ

بِالْعُمْرَةِ مِنْ مِيقَاتِ الْمَدِينَةِ ذِي الحليفة وَلَمَّا اعْتَمَرَ مِنْ الْعَامِ الْقَابِلِ عُمْرَةَ الْقَضِيَّةِ اعْتَمَرَ مِنْ ذِي

(1139/838)

الحليفة وَلَمْ يَدْخُلْ الْكَعْبَةَ فِي عُمَرِهِ وَلَا حَجَّتِهِ وَإِنَّمَا دَخَلَهَا عَامَ الْفَتْحِ وَكَانَ بِهَا صُوَرٌ مُصَوَّرَةٌ فَلَمْ يَدْخُلْهَا حَتَّى

(1140/838)

مُحِيَتْ تِلْكَ الصُّوَرُ وَصَلَّى بِهَا رَكْعَتَيْنِ وَصَلَّى يَوْمَ الْفَتْحِ ثَمَانِي رَكَعَاتٍ وَقْتَ الضُّحَى كَمَا رَوَتْ ذَلِكَ أُمُّ هَانِئٍ وَلَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ الصَّلَاةَ وَقْتَ الضُّحَى إلَّا لِسَبَبٍ مِثْلُ أَنْ يُقَدِّمَ مِنْ سَفَرٍ فَيَدْخُلُ الْمَسْجِدَ فَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ وَمِثْلُ أَنْ يُشْغِلَهُ نَوْمٌ أَوْ مَرَضٌ عَنْ قِيَامِ اللَّيْلِ فَيُصَلِّي بِالنَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً وَكَانَ يُصَلِّي بِاللَّيْلِ إحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً فَصَلَّى ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً شَفْعًا لِفَوَاتِ وَقْتِ الْوِتْرِ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ الْمَغْرِبُ وِتْرُ صَلَاةِ النَّهَارِ فَأَوْتِرُوا صَلَاةَ اللَّيْلِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ اجْعَلُوا آخِرَ صَلَاتِكُمْ بِاللَّيْلِ وِتْرًا ﴾ وَقَالَ : ﴿ صَلَاةُ

اللَّيْلِ مَثْنَى مَثْنَى فَإِذَا خِفْتَ الصُّبْحَ فَأَوْتِرْ بِرَكْعَةٍ ﴾ . وَالْمَأْثُورُ عَنْ السَّلَفِ أَنَّهُمْ إذَا نَامُوا عَنْ الْوِتْرِ كَانُوا يُوتِرُونَ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَلَا يُؤَخِّرُونَهُ إلَى مَا بَعْدَ الصَّلَاةِ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ ﴿ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ : مَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُبْحَةَ الضُّحَى قَطُّ وَإِنِّي لَأُسَبِّحُهَا وَإِنْ كَانَ لَيَدَعُ الْعَمَلَ وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيْهِمْ ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ ﴿ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ أَوْصَى بِرَكْعَتَيْ الضُّحَى لِأَبِي هُرَيْرَةَ وَلِأَبِي الدَّرْدَاءِ ﴾ وَفِيهَا أَحَادِيثُ لَكِنَّ صَلَاتَهُ ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ يَوْمَ الْفَتْحِ جَعَلَهَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ صَلَاةَ الضُّحَى . وَقَالَ آخَرُونَ : لَمْ يُصَلِّهَا إلَّا يَوْمَ

(1141/838)

الْفَتْحِ فَعُلِمَ أَنَّهُ صَلَّاهَا لِأَجْلِ

(1142/838)

الْفَتْحِ وَكَانُوا يَسْتَحِبُّونَ عِنْدَ فَتْحِ مَدِينَةٍ أَنْ يُصَلِّيَ الْإِمَامُ ثَمَانِيَ رَكَعَاتٍ شُكْرًا لِلَّهِ وَيُسَمُّونَهَا صَلَاةَ الْفَتْحِ قَالُوا : لِأَنَّ الِاتِّبَاعَ يُعْتَبَرُ فِيهِ الْقَصْدُ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَقْصِدْ الصَّلَاةَ

لِأَجْلِ الْوَقْتِ وَلَوْ قَصَدَ ذَلِكَ لَصَلَّى كُلَّ يَوْمٍ أَوْ غَالِبَ الْأَيَّامِ كَمَا كَانَ يُصَلِّي رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ كُلَّ يَوْمٍ وَكَذَلِكَ كَانَ يُصَلِّي بَعْدَ الظُّهْرِ رَكْعَتَيْنِ وَقَبْلَهَا رَكْعَتَيْنِ أَوْ أَرْبَعًا وَلَمَّا فَاتَتْهُ الرَّكْعَتَانِ بَعْدَ الظُّهْرِ قَضَاهُمَا بَعْدَ الْعَصْرِ وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نَامَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ عَنْ صَلَاةِ الْفَجْرِ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ فَصَلَّوْا بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ رَكْعَتَيْنِ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ فِي هَذَا الْوَقْتِ سُنَّةٌ دَائِمًا ؛ لِأَنَّهُمْ إنَّمَا صَلَّوْهَا قَضَاءً لِكَوْنِهِمْ نَامُوا عَنْ الصَّلَاةِ وَلَمَّا فَاتَتْهُ الْعَصْرُ فِي بَعْضِ أَيَّامِ الْخَنْدَقِ فَصَلَّاهَا بَعْدَمَا غَرَبَتْ الشَّمْسُ وَرُوِيَ أَنَّ الظُّهْرَ فَاتَتْهُ أَيْضًا فَصَلَّى الظُّهْرَ ثُمَّ الْعَصْرَ ثُمَّ الْمَغْرِبَ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ إنَّهُ يُسْتَحَبُّ أَنْ يُصَلَّى بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ إحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ قَضَاءً بَلْ وَلَا نَقَلَ عَنْهُ أَحَدٌ أَنَّهُ خَصَّ مَا بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ بِصَلَاةِ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ ﴾ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ هُوَ إذَا قَامَ الرَّجُلُ بَعْدَ نَوْمٍ لَيْسَ هُوَ أَوَّلَ اللَّيْلِ وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ هَكَذَا كَانَ

(1143/838)

يُصَلِّي وَالْأَحَادِيثُ بِذَلِكَ مُتَوَاتِرَةٌ عَنْهُ كَانَ يَقُومُ بَعْدَ النَّوْمِ لَمْ يَكُنْ يَقُومُ بَيْنَ الْعِشَاءَيْنِ .

(1144/838)

وَكَذَلِكَ أَكْلُهُ مَا كَانَ يَجِدُ مِنْ الطَّعَامِ وَلُبْسُهُ الَّذِي يُوجَدُ بِمَدِينَتِهِ طَيْبَةَ مَخْلُوقًا فِيهَا وَمَجْلُوبًا إلَيْهَا مِنْ الْيَمَنِ وَغَيْرِهَا لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَسَّرَهُ اللَّهُ لَهُ فَأَكْلُهُ التَّمْرُ وَخُبْزُهُ الشَّعِيرُ وَفَاكِهَتُهُ الرُّطَبُ وَالْبِطِّيخُ الْأَخْضَرُ وَالْقِثَّاءُ وَلُبْسُ ثِيَابِ الْيَمَنِ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ كَانَ أَيْسَرَ فِي بَلَدِهِ مِنْ الطَّعَامِ وَالثِّيَابِ لَا لِخُصُوصِ ذَلِكَ فَمَنْ كَانَ بِبَلَدِ آخَرَ وَقُوتُهُمْ الْبُرُّ وَالذُّرَةُ وَفَاكِهَتُهُمْ الْعِنَبُ وَالرُّمَّانُ وَنَحْوُ ذَلِكَ وَثِيَابُهُمْ مِمَّا يُنْسَجُ بِغَيْرِ الْيَمَنِ الْقَزُّ لَمْ يَكُنْ إذَا قَصَدَ أَنْ يَتَكَلَّفَ مِنْ الْقُوتِ وَالْفَاكِهَةِ وَاللِّبَاسِ مَا لَيْسَ فِي بَلَدِهِ - بَلْ يَتَعَسَّرُ عَلَيْهِمْ - مُتَّبِعًا لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي يَتَكَلَّفُهُ تَمْرًا أَوْ رُطَبًا أَوْ خُبْزًا شَعِيرًا . فَعُلِمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي الْمُتَابَعَةِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ اعْتِبَارِ الْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ : ﴿ فَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ﴾ فَعُلِمَ أَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ الصَّحَابَةِ وَأَكَابِرُهُمْ هُوَ الصَّحِيحُ وَمَعَ هَذَا فَابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ أَنْ يُصَلِّيَ إلَّا فِي مَكَانٍ صَلَّى فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ الصَّلَاةَ فِي مَوْضِعِ نُزُولِهِ وَمُقَامِهِ وَلَا كَانَ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ يَذْهَبُ إلَى الْغَارِ الْمَذْكُورِ فِي الْقُرْآنِ لِلزِّيَارَةِ وَالصَّلَاةِ فِيهِ - وَإِنْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَاحِبُهُ أَقَامَا بِهِ ثَلَاثًا يُصَلُّونَ فِيهِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ - وَلَا كَانُوا أَيْضًا يَذْهَبُونَ إلَى حِرَاءَ وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي كَانَ يَتَعَبَّدُ فِيهِ قَبْلَ النُّبُوَّةِ

(1146/838)

وَفِيهِ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ أَوَّلًا وَكَانَ هَذَا مَكَانًا يَتَعَبَّدُونَ فِيهِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ فَإِنَّ حِرَاءَ أَعْلَى جَبَلٍ كَانَ هُنَاكَ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ ذَهَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلَى مَكَّةَ مَرَّاتٍ بَعْدَ أَنْ أَقَامَ بِهَا قَبْلَ الْهِجْرَةِ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَمَعَ هَذَا فَلَمْ يَكُنْ هُوَ وَلَا أَصْحَابُهُ يَذْهَبُونَ إلَى حِرَاءَ .

وَلَمَّا حَجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَلَمَ الرُّكْنَيْنِ الْيَمَانِيَّيْنِ وَلَمْ يَسْتَلِمْ الشَّامِيَّيْنِ ؛ لِأَنَّهُمَا لَمْ يُبْنَيَا عَلَى قَوَاعِدِ إبْرَاهِيمَ فَإِنَّ أَكْثَرَ الْحِجْرِ مِنْ الْبَيْتِ وَالْحَجَرُ الْأَسْوَدُ اسْتَلَمَهُ وَقَبَّلَهُ وَالْيَمَانِيُّ اسْتَلَمَهُ وَلَمْ يُقَبِّلْهُ وَصَلَّى بِمَقَامِ إبْرَاهِيمَ وَلَمْ يَسْتَلِمْهُ وَلَمْ يُقَبِّلْهُ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ التَّمَسُّحَ بِحِيطَانِ الْكَعْبَةِ غَيْرِ الرُّكْنَيْنِ الْيَمَانِيَّيْنِ وَتَقْبِيلَ شَيْءٍ مِنْهَا غَيْرِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ لَيْسَ بِسُنَّةِ وَدَلَّ عَلَى أَنَّ اسْتِلَامَ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ وَتَقْبِيلَهُ لَيْسَ بِسُنَّةِ وَإِذَا كَانَ هَذَا نَفْسَ الْكَعْبَةِ وَنَفْسَ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ بِهَا فَمَعْلُومٌ أَنَّ جَمِيعَ الْمَسَاجِدِ حُرْمَتُهَا دُونَ الْكَعْبَةِ وَأَنَّ مَقَامَ إبْرَاهِيمَ بِالشَّامِ وَغَيْرِهَا وَسَائِرَ مَقَامَاتِ الْأَنْبِيَاءِ دُونَ الْمَقَامِ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ

مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ فَعُلِمَ أَنَّ سَائِرَ الْمَقَامَاتِ لَا تُقْصَدُ لِلصَّلَاةِ فِيهَا كَمَا لَا يُحَجُّ إِلَى سَائِرِ الْمَشَاهِدِ وَلَا يُتَمَسَّحُ بِهَا وَلَا يُقَبَّلُ شَيْءٌ مِنْ مَقَامَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا

(1147/838)

الْمَسَاجِدُ وَلَا الصَّخْرَةُ وَلَا غَيْرُهَا وَلَا يُقَبَّلُ مَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ .

(1148/838)

وَأَيْضًا فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُصَلِّ بِمَسْجِدٍ بِمَكَّةَ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَلَمْ يَأْتِ لِلْعِبَادَاتِ إِلَّا الْمَشَاعِرَ : مِنًى وَمُزْدَلِفَةَ وَعَرَفَةَ فَلِهَذَا كَانَ أَئِمَّةُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ لَا يُسْتَحَبُّ أَنْ يَقْصِدَ مَسْجِدًا بِمَكَّةَ لِلصَّلَاةِ غَيْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَلَا تُقْصَدُ بُقْعَةٌ لِلزِّيَارَةِ غَيْرَ الْمَشَاعِرِ الَّتِي قَصَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِذَا كَانَ هَذَا فِي آثَارِهِمْ فَكَيْفَ بِالْمَقَابِرِ الَّتِي لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ اتَّخَذَهَا مَسَاجِدَ وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . وَدِينُ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ لَا تُقْصَدُ بُقْعَةٌ لِلصَّلَاةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَسْجِدًا فَقَطْ وَلِهَذَا مَشَاعِرُ الْحَجِّ غَيْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ تُقْصَدُ لِلنُّسُكِ لَا لِلصَّلَاةِ فَلَا صَلَاةَ بِعَرَفَةَ وَإِنَّمَا صَلَّى

النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ يَوْمَ عَرَفَةَ بعرنة خَطَبَ بِهَا ثُمَّ صَلَّى ثُمَّ بَعْدَ الصَّلَاةِ ذَهَبَ إِلَى عَرَفَاتٍ فوقف بِهَا وَكَذَلِكَ يُذْكَرُ اللَّهُ وَيُدْعَى بِعَرَفَاتٍ وبمزدلفة عَلَى قُزَحَ وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ وَبَيْنَ الْجَمَرَاتِ وَعِنْدَ الرَّمْيِ وَلَا تُقْصَدُ هَذِهِ الْبِقَاعُ لِلصَّلَاةِ . وَأَمَّا غَيْرُ الْمَسَاجِدِ وَمَشَاعِرِ الْحَجِّ فَلَا تُقْصَدُ بُقْعَةٌ لَا لِلصَّلَاةِ وَلَا لِلذِّكْرِ وَلَا لِلدُّعَاءِ بَلْ يُصَلِّي الْمُسْلِمُ حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ إلَّا حَيْثُ نُهِيَ وَيَذْكُرُ اللَّهَ وَيَدْعُوهُ حَيْثُ تَيَسَّرَ مِنْ غَيْرِ قَصْدِ تَخْصِيصِ

(1149/838)

بُقْعَةٍ بِذَلِكَ وَإِذَا اتَّخَذَ بُقْعَةً لِذَلِكَ كَالْمَشَاهِدِ نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ كَمَا نُهِيَ عَنْ الصَّلَاةِ فِي الْمَقْبَرَةِ إلَّا مَا يَفْعَلُهُ الرَّجُلُ عِنْدَ السَّلَامِ عَلَى الْمَيِّتِ مِنْ

(1150/838)

الدُّعَاءِ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ كَمَا يَفْعَلُ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الصَّلَاةِ عَلَى الْجِنَازَةِ فَإِنَّ زِيَارَةَ قَبْرِ الْمُؤْمِنِ مِنْ جِنْسِ الصَّلَاةِ عَلَى جِنَازَتِهِ يَفْعَلُ فِي هَذَا مِنْ جِنْسِ مَا يَفْعَلُ فِي هَذَا وَيَقْصِدُ بِالدُّعَاءِ هُنَا مَا يَقْصِدُ بِالدُّعَاءِ هُنَا . وَمِمَّا يُشْبِهُ هَذَا أَنَّ الْأَنْصَارَ بَايَعُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ

الْعَقَبَةِ بِالْوَادِي الَّذِي وَرَاءَ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ ؛ لِأَنَّهُ مَكَانٌ مُنْخَفِضٌ قَرِيبٌ مِنْ مِنًى يَسْتُرُ مَنْ فِيهِ فَإِنَّ السَّبْعِينَ الْأَنْصَارَ كَانُوا قَدْ حَجُّوا مَعَ قَوْمِهِمْ الْمُشْرِكِينَ وَمَا زَالَ النَّاسُ يَحُجُّونَ إلَى مَكَّةَ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ فَجَاءُوا مَعَ قَوْمِهِمْ إلَى مِنًى ؛ لِأَجْلِ الْحَجِّ ثُمَّ ذَهَبُوا بِاللَّيْلِ إلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ لِقُرْبِهِ وَسَتْرِهِ لَا لِفَضِيلَةٍ فِيهِ وَلَمْ يَقْصِدُوهُ لِفَضِيلَةٍ تَخُصُّهُ بِعَيْنِهِ . وَلِهَذَا لَمَّا حَجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ لَمْ يَذْهَبُوا إلَيْهِ وَلَا زَارُوهُ وَقَدْ بَنَى هُنَاكَ مَسْجِدًا وَهُوَ مُحْدَثٌ وَكُلُّ مَسْجِدٍ بِمَكَّةَ وَمَا حَوْلَهَا غَيْرُ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَهُوَ مُحْدَثٌ وَمِنًى نَفْسُهَا لَمْ يَكُنْ بِهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَسْجِدٌ مَبْنِيٌّ وَلَكِنْ قَالَ ﴿ مِنًى مُنَاخٌ لِمَنْ سَبَقَ ﴾ فَنَزَلَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ وَكَانَ يُصَلِّي بِالْمُسْلِمِينَ بِمِنًى وَغَيْرِ مِنًى وَكَذَلِكَ خُلَفَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ وَاجْتِمَاعُ الْحُجَّاجِ بِمِنًى أَكْثَرُ مِنْ اجْتِمَاعِهِمْ بِغَيْرِهَا فَإِنَّهُمْ يُقِيمُونَ بِهَا أَرْبَعًا وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(1151/838)

وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يُصَلُّونَ بِالنَّاسِ بِمِنًى وَغَيْرِ مِنًى وَكَانُوا يَقْصُرُونَ

(1152/838)

الصَّلَاةَ بِمِنًى وَعَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ وَيَجْمَعُونَ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ بِعَرَفَةَ وَبَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ بِمُزْدَلِفَةَ وَيُصَلِّي بِصَلَاتِهِمْ جَمِيعُ الْحُجَّاجِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ وَغَيْرِ أَهْلِ مَكَّةَ وَكُلُّهُمْ يَقْصُرُونَ الصَّلَاةَ بِالْمَشَاعِرِ وَكُلُّهُمْ يَجْمَعُونَ بِعَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ . وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي أَهْلِ مَكَّةَ وَنَحْوِهِمْ هَلْ يَقْصُرُونَ أَوْ يَجْمَعُونَ فَقِيلَ : لَا يَقْصُرُونَ وَلَا يَجْمَعُونَ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ مَنْ يَقُولُهُ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَد وَقِيلَ يَجْمَعُونَ وَلَا يَقْصُرُونَ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَحْمَد وَمَنْ وَافَقَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ وَأَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَقِيلَ : يَجْمَعُونَ وَيَقْصُرُونَ كَمَا قَالَ ذَلِكَ مَالِكٌ وَابْنِ عُيَيْنَة وَإِسْحَاقُ بْنُ رَاهَوَيْه وَبَعْضُ أَصْحَابِ أَحْمَد وَغَيْرُهُمْ وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ بِلَا رَيْبٍ فَإِنَّهُ الَّذِي فَعَلَهُ أَهْلُ مَكَّةَ خَلْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَا رَيْبٍ وَلَمْ يَقُلْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَطُّ وَلَا أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ بِمِنًى وَلَا عَرَفَةَ وَلَا مُزْدَلِفَةَ يَا أَهْلَ مَكَّةَ أَتِمُّوا صَلَاتَكُمْ فَإِنَّا قَوْمٌ سَفْرٌ وَلَكِنْ ثَبَتَ أَنَّ عُمَرَ قَالَ ذَلِكَ فِي جَوْفِ مَكَّةَ وَكَذَلِكَ فِي السُّنَنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ فِي جَوْفِ مَكَّةَ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ وَهَذَا مِنْ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْقَصْرَ مَشْرُوعٌ لِكُلِّ مُسَافِرٍ وَلَوْ كَانَ سَفَرُهُ بَرِيدًا فَإِنَّ عَرَفَةَ مِنْ مَكَّةَ بَرِيدٌ : أَرْبَعُ فَرَاسِخَ وَلَمْ يُصَلِّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا خُلَفَاؤُهُ بِمَكَّةَ صَلَاةَ عِيدٍ ؛ بَلْ وَلَا صَلَّى فِي أَسْفَارِهِ قَطُّ صَلَاةَ

(1154/838)

الْعِيدِ وَلَا صَلَّى بِهِمْ فِي أَسْفَارِهِ صَلَاةَ جُمُعَةٍ يَخْطُبُ ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ بَلْ كَانَ يُصَلِّي يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ كَمَا يُصَلِّي فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ . وَكَذَلِكَ لَمَّا صَلَّى بِهِمْ الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ بِعَرَفَةَ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَصَلَاتِهِ فِي سَائِرِ الْأَيَّامِ وَلَمْ يَنْقُلْ أَحَدٌ أَنَّهُ جَهَرَ بِالْقِرَاءَةِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي السَّفَرِ لَا بِعَرَفَةَ وَلَا بِغَيْرِهَا وَلَا أَنَّهُ خَطَبَ بِغَيْرِ عَرَفَةَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِي السَّفَرِ فَعُلِمَ أَنَّ الصَّوَابَ مَا عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ وَجَمَاهِيرُهَا مِنْ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَنَّ الْمُسَافِرَ لَا يُصَلِّي جُمُعَةً وَلَا غَيْرَهَا وَجُمْهُورُهُمْ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ لَا يُصَلِّي عِيدًا وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَد فِي إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ أَيْضًا فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَاءَهُ لَمْ يَكُونُوا يُصَلُّونَ الْعِيدَ إلَّا فِي الْمُقَامِ لَا فِي السَّفَرِ وَلَمْ يَكُنْ يُصَلِّي صَلَاةَ الْعِيدِ إلَّا فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ مَعَ الْإِمَامِ يَخْرُجُ بِهِمْ إلَى الصَّحْرَاءِ فَيُصَلِّي هُنَاكَ فَيُصَلِّي الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ خَلْفَهُ صَلَاةَ الْعِيدِ كَمَا يُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ يُصَلِّي صَلَاةَ عِيدٍ فِي مَسْجِدِ قَبِيلَتِهِ وَلَا بَيْتِهِ كَمَا لَمْ يَكُونُوا يُصَلُّونَ جُمُعَةً فِي مَسَاجِدِ الْقَبَائِلِ وَلَا كَانَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِمَكَّةَ يَوْمَ النَّحْرِ

يُصَلِّي صَلَاةَ عِيدٍ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخُلَفَائِهِ بَلْ عِيدُهُمْ بِمِنًى بَعْدَ إفَاضَتِهِمْ

(1155/838)

مِنْ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَرَمْيُ جَمْرَةِ الْعَقَبَةِ لَهُمْ كَصَلَاةِ الْعِيدِ لِسَائِرِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ يَرْمُونَ ثُمَّ يَنْحَرُونَ وَسَائِرُ أَهْلِ

(1156/838)

الْأَمْصَارِ يُصَلُّونَ ثُمَّ يَنْحَرُونَ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَفَاضَ مِنْ مِنًى نَزَلَ بِالْمُحَصَّبِ فَاخْتَلَفَ أَصْحَابُهُ هَلْ التَّحْصِيبُ سُنَّةٌ لِاخْتِلَافِهِمْ فِي قَصْدِهِ هَلْ قَصَدَ النُّزُولَ بِهِ أَوْ نَزَلَ بِهِ لِأَنَّهُ كَانَ أَسْمَحَ لِخُرُوجِهِ . وَهَذَا مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ الْمَقَاصِدَ كَانَتْ مُعْتَبَرَةً عِنْدَهُمْ فِي الْمُتَابَعَةِ . وَلَمَّا اعْتَمَرَ عُمْرَةَ الْقَضِيَّةِ وَكَانَتْ مَكَّةُ مَعَ الْمُشْرِكِينَ لَمْ تُفْتَحْ بَعْدُ وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ قَدْ قَالُوا : يَقْدَمُ عَلَيْكُمْ قَوْمٌ قَدْ وَهَنَتْهُمْ حُمَّى يَثْرِبَ وَقَعَدَ الْمُشْرِكُونَ خَلْفَ قعيقعان وَهُوَ جَبَلُ الْمَرْوَةِ يَنْظُرُونَ إلَيْهِمْ فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَصْحَابَهُ أَنْ يَرْمُلُوا ثَلَاثَةَ أَشْوَاطٍ مِنْ

الطَّوَافِ لِيَرَى الْمُشْرِكُونَ جَلَدَهُمْ وَقُوَّتَهُمْ وَرُوِيَ أَنَّهُ دَعَا لِمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَلَمْ يُرْمِلُوا بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ فَكَانَ الْمَقْصُودُ بِالرَّمَلِ إذْ ذَاكَ مِنْ جِنْسِ الْمَقْصُودِ بِالْجِهَادِ . فَظَنَّ بَعْضُ الْمُتَقَدِّمِينَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ النُّسُكِ لِأَنَّهُ فُعِلَ لِقَصْدٍ وَزَالَ ؛ لَكِنْ ثَبَتَ ﴿ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابَهُ لَمَّا حَجُّوا رَمَلُوا مِنْ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ إلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فَكَمَّلُوا الرَّمَلَ بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ ﴾ وَهَذَا قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى مَا فَعَلُوهُ فِي عُمْرَةِ الْقَضِيَّةِ وَفَعَلَ ذَلِكَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ مَعَ الْأَمْنِ الْعَامِّ فَإِنَّهُ لَمْ يَحُجَّ مَعَهُ إلَّا مُؤْمِنٌ فَدَلَّ

(1157/838)

ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الرَّمَلَ صَارَ مِنْ سُنَّةِ الْحَجِّ فَإِنَّهُ فُعِلَ أَوَّلًا لِمَقْصُودِ الْجِهَادِ ثُمَّ شُرِعَ نُسُكًا كَمَا رُوِيَ فِي سَعْيِ هَاجَرَ وَفِي رَمْيِ الْجِمَارِ وَفِي ذَبْحِ الْكَبْشِ :

(1158/838)

أَنَّهُ فِعلَ أَوَّلًا لِمَقْصُودٍ ثُمَّ شَرَعَهُ اللَّهُ نُسُكًا وَعِبَادَةً لَكِنَّ هَذَا يَكُونُ إذَا شَرَعَ اللَّهُ ذَلِكَ وَأَمَرَ بِهِ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَشْرَعَ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ اللَّهُ كَمَا لَوْ قَالَ قَائِلٌ: أَنَا أَسْتَحِبُّ الطَّوَافَ بِالصَّخْرَةِ سَبْعًا كَمَا يُطَافُ بِالْكَعْبَةِ أَوْ أَسْتَحِبُّ أَنْ أَتَّخِذَ مِنْ مَقَامِ مُوسَى وَعِيسَى مُصَلًّى كَمَا أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يُتَّخَذَ مِنْ مَقَامِ إبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَنَحْوَ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَخْتَصُّ مَا يَخْتَصُّهُ مِنْ الْأَعْيَانِ وَالْأَفْعَالِ بِأَحْكَامٍ تَخُصُّهُ يَمْتَنِعُ مَعَهَا قِيَاسُ غَيْرِهِ عَلَيْهِ إمَّا لِمَعْنًى يَخْتَصُّ بِهِ لَا يُوجَدُ بِغَيْرِهِ عَلَى قَوْلِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَإِمَّا لِمَحْضِ تَخْصِيصِ الْمَشِيئَةِ عَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ كَمَا خَصَّ الْكَعْبَةَ بِأَنْ يُحَجَّ إلَيْهَا وَيُطَافَ بِهَا وَكَمَا خَصَّ عَرَفَاتٍ بِالْوُقُوفِ بِهَا وَكَمَا خَصَّ مِنًى بِرَمْيِ الْجِمَارِ بِهَا وَكَمَا خَصَّ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ بِتَحْرِيمِهَا وَكَمَا خَصَّ شَهْرَ رَمَضَانَ بِصِيَامِهِ وَقِيَامِهِ إلَى أَمْثَالِ ذَلِكَ. وَإِبْرَاهِيمُ وَمُحَمَّدٌ كُلٌّ مِنْهُمَا خَلِيلُ اللَّهِ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ مِنْ غَيْرِ وَجْهٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ إنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ: ﴿ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ قَالَ: ذَاكَ إبْرَاهِيمُ ﴾. فَإِبْرَاهِيمُ أَفْضَلُ الْخَلْقِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَوْلُهُ: " ذَاكَ

إبْرَاهِيمُ " تَوَاضُعٌ مِنْهُ فَإِنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿ أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ آدَمَ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ ﴾ إلَى غَيْرِ

(1160/838)

ذَلِكَ مِنْ النُّصُوصِ الْمُبَيِّنَةِ أَنَّهُ أَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى رَبِّهِ وَإِبْرَاهِيمُ هُوَ الْإِمَامُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿ إنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَامًا ﴾ وَهُوَ الْأُمَّةُ أَيْ الْقُدْوَةُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ: ﴿ إنَّ إبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ وَهُوَ الَّذِي بَوَّأَهُ اللَّهُ مَكَانَ الْبَيْتِ وَأَمَرَهُ أَنْ يُؤَذِّنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ إلَيْهِ وَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ الْحَرَمَ عَلَى لِسَانِهِ وَإِسْمَاعِيلُ نَبَّأَهُ مَعَهُ وَهُوَ الذَّبِيحُ الَّذِي بَذَلَ نَفْسَهُ لِلَّهِ وَصَبَرَ عَلَى الْمِحْنَةِ كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ بِالدَّلَائِلِ الْكَثِيرَةِ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَأُمُّهُ هَاجَرُ هِيَ الَّتِي أَطَاعَتْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إبْرَاهِيمَ فِي مُقَامِهَا مَعَ ابْنِهَا فِي ذَلِكَ الْوَادِي الَّذِي لَمْ يَكُنْ بِهِ أَنِيسٌ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ: ﴿ رَبَّنَا إنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾. وَكَانَ لِإِبْرَاهِيمَ وَلِآلِ إبْرَاهِيمَ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ مَا لَمْ يَكُنْ لِغَيْرِهِمْ فَخَصَّهُمْ اللَّهُ بِأَنْ جَعَلَ لِبَيْتِهِ الَّذِي بَنَوْهُ لَهُ خَصَائِصَ لَا تُوجَدُ لِغَيْرِهِ وَجَعَلَ مَا جَعَلَهُ مِنْ أَفْعَالِهِمْ قُدْوَةً لِلنَّاسِ وَعِبَادَةً يَتَّبِعُونَهُمْ فِيهَا وَلَا رَيْبَ أَنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِإِبْرَاهِيمَ السَّعْيَ وَرَمْيَ الْجِمَارِ

وَالْوُقُوفِ بِعَرَفَاتٍ بَعْدَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ هَاجَرَ وَإِسْمَاعِيلَ وَقِصَّةِ الذَّبْحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا كَانَ كَمَا شَرَعَ لِمُحَمَّدِ الرَّمَلَ فِي الطَّوَافِ حَيْثُ أَمَرَهُ أَنْ يُنَادِيَ فِي النَّاسِ بِحَجِّ

(1161/838)

الْبَيْتِ وَالْحَجُّ مَبْنَاهُ عَلَى الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ لِلَّهِ وَلِهَذَا خُصَّ بِاسْمِ النُّسُكِ و " النُّسُكُ " فِي اللُّغَةِ الْعِبَادَةُ .

(1162/838)

قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : النُّسُكُ الْعِبَادَةُ وَالنَّاسِكُ الْعَابِدُ وَقَدْ نَسَكَ وَتَنَسَّكَ أَيْ تَعَبَّدَ وَنَسُكَ بِالضَّمِّ أَيْ صَارَ نَاسِكًا ثُمَّ خُصَّ الْحَجُّ بِاسْمِ النُّسُكِ لِأَنَّهُ أَدْخَلُ فِي الْعِبَادَةِ وَالذُّلِّ لِلَّهِ مِنْ غَيْرِهِ وَلِهَذَا كَانَ فِيهِ مِنْ الْأَفْعَالِ مَا لَا يُقْصَدُ فِيهِ إلَّا مُجَرَّدُ الذُّلِّ لِلَّهِ وَالْعِبَادَةِ لَهُ كَالسَّعْيِ وَرَمْيِ الْجِمَارِ .
قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إنَّمَا جُعِلَ رَمْيُ الْجِمَارِ وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا والمروة لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ } رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَخُصَّ بِذَلِكَ الذَّبْحِ الْفِدَاءَ أَيْضًا دُونَ مُطْلَقِ الذَّبْحِ ؛ لِأَنَّ إرَاقَةَ الدَّمِ لِلَّهِ أَبْلَغُ فِي الْخُضُوعِ وَالْعِبَادَةِ لَهُ وَلِهَذَا كَانَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا لَا يَأْكُلُونَ الْقُرْبَانَ ؛ بَلْ تَأْتِي

نَارٌ مِنْ السَّمَاءِ فَتَأْكُلُهُ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللَّهَ عَهِدَ إلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ . وَكَذَلِكَ كَانُوا إذَا غَنِمُوا غَنِيمَةً جَمَعُوهَا ثُمَّ جَاءَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا لِيَكُونَ قِتَالُهُمْ مَحْضًا لِلَّهِ لَا لِلْمَغْنَمِ وَيَكُونَ ذَبْحُهُمْ عِبَادَةً مَحْضَةً لِلَّهِ لَا لِأَجْلِ أَكْلِهِمْ وَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِكَمَالِ يَقِينِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ وَأَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ لِلَّهِ وَلَوْ أَكَلُوا الْمَغْنَمَ وَيَذْبَحُونَ لِلَّهِ وَلَوْ أَكَلُوا الْقُرْبَانَ وَلِهَذَا كَانَ

(1163/838)

عُبَّادُ الشَّيَاطِينِ وَالْأَصْنَامِ يَذْبَحُونَ لَهَا الذَّبَائِحَ أَيْضًا فَالذَّبْحُ لِلْمَعْبُودِ غَايَةُ الذُّلِّ وَالْخُضُوعِ لَهُ . وَلِهَذَا لَمْ يَجُزْ الذَّبْحُ لِغَيْرِ اللَّهِ وَلَا أَنْ يُسَمَّى غَيْرُ اللَّهِ عَلَى الذَّبَائِحِ

(1164/838)

وَحَرَّمَ سُبْحَانَهُ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَهُوَ مَا ذُبِحَ لِغَيْرِ اللَّهِ وَمَا سُمِّيَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللَّهِ وَإِنْ قُصِدَ بِهِ اللَّحْمُ لَا الْقُرْبَانُ وَلَعَنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ وَنَهَى عَنْ

ذَبَائِحَ الْجِنِّ وَكَانُوا يَذْبَحُونَ لِلْجِنِّ بَلْ حَرَّمَ اللَّهُ مَا لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ مُطْلَقًا كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ أَيْ انْحَرْ لِرَبِّكَ كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ : ﴿ إنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَقَدْ قَالَ هُوَ وَإِسْمَاعِيلُ إذْ يَرْفَعَانِ الْقَوَاعِدَ مِنْ الْبَيْتِ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾

فَالْمَنَاسِكُ هُنَا مَشَاعِرُ الْحَجِّ كُلُّهَا . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ . فَالْمَقْصُودُ تَقْوَى الْقُلُوبِ لِلَّهِ وَهُوَ عِبَادَتُهَا لَهُ وَحْدَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ . بِغَايَةِ الْعُبُودِيَّةِ لَهُ وَالْعُبُودِيَّةُ فِيهَا غَايَةُ الْمَحَبَّةِ وَغَايَةُ الذُّلِّ وَالْإِخْلَاصِ وَهَذِهِ

(1165/838)

مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ . وَهَذَا كُلُّهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ عِبَادَةَ الْقُلُوبِ هِيَ الْأَصْلُ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ ﴾

(1166/838)

وَالنِّيَّةُ وَالْقَصْدُ هُمَا عَمَلُ الْقَلْبِ فَلَا بُدَّ فِي الْمُتَابَعَةِ لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ اعْتِبَارِ النِّيَّةِ وَالْقَصْدِ . وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا احْتَجَمَ وَأَمَرَ بِالْحِجَامَةِ . وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ شِفَاءُ أُمَّتِي فِي شَرْطَةِ مِحْجَمٍ أَوْ شَرْبَةِ عَسَلٍ أَوْ كَيَّةٍ بِنَارِ وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَكْتَوِيَ ﴾ كَانَ مَعْلُومًا أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْحِجَامَةِ إخْرَاجُ الدَّمِ الزَّائِدِ الَّذِي يَضُرُّ الْبَدَنَ فَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ وَخَصَّ الْحِجَامَةَ لِأَنَّ الْبِلَادَ الْحَارَّةَ يَخْرُجُ الدَّمُ فِيهَا إلَى سَطْحِ الْبَدَنِ فَيَخْرُجُ بِالْحِجَامَةِ فَلِهَذَا كَانَتْ الْحِجَامَةُ فِي الْحِجَازِ وَنَحْوِهِ مِنْ الْبِلَادِ الْحَارَّةِ يَحْصُلُ بِهَا مَقْصُودُ اسْتِفْرَاغِ الدَّمِ وَأَمَّا الْبِلَادُ الْبَارِدَةُ فَالدَّمُ يَغُورُ فِيهَا إلَى الْعُرُوقِ فَيَحْتَاجُونَ إلَى قَطْعِ الْعُرُوقِ بِالْفِصَادِ وَهَذَا أَمْرٌ مَعْرُوفٌ بِالْحِسِّ وَالتَّجْرِبَةِ فَإِنَّهُ فِي زَمَانِ الْبَرْدِ تَسْخُنُ الْأَجْوَافُ وَتَبْرُدُ الظَّوَاهِرُ لِأَنَّ شَبِيهَ الشَّيْءِ مُنْجَذِبٌ إلَيْهِ فَإِذَا بَرَدَ الْهَوَاءُ بَرَدَ مَا يُلَاقِيهِ مِنْ الْأَبْدَانِ وَالْأَرْضِ فَيَهْرُبُ الْحَرُّ الَّذِي فِيهَا مِنْ الْبَرْدِ الْمُضَادِّ لَهُ إلَى الْأَجْوَافِ فَيَسْخُنُ بَاطِنُ الْأَرْضِ .

وَأَجْوَافُ الْحَيَوَانِ وَيَأْوِي الْحَيَوَانُ إلَى الْأَكْنَانِ الدَّافِئَةِ . وَلِقُوَّةِ الْحَرَارَةِ فِي بَاطِنِ الْإِنْسَانِ يَأْكُلُ فِي الشِّتَاءِ وَفِي الْبِلَادِ الْبَارِدَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَأْكُلُ فِي الصَّيْفِ وَفِي الْبِلَادِ الْحَارَّةِ ؛ لِأَنَّ الْحَرَارَةَ تَطْبُخُ

(1167/838)

الطَّعَامَ وَتُصَرِّفُهُ وَيَكُونُ الْمَاءُ النَّابِعُ فِي الشِّتَاءِ سُخْنًا لِسُخُونَةِ جَوْفِ الْأَرْضِ وَالدَّمُ سُخْنٌ فَيَكُونُ فِي جَوْفِ الْعُرُوقِ لَا فِي سَطْحِ الْجِلْدِ فَلَوْ احْتَجَمَ لَمْ يَنْفَعْهُ ذَلِكَ بَلْ قَدْ يَضُرُّهُ وَفِي الصَّيْفِ

(1168/838)

وَالْبِلَادِ الْحَارَّةِ تَسْخُنُ الظَّوَاهِرُ فَتَكُونُ الْبَوَاطِنُ بَارِدَةً فَلَا يَنْهَضِمُ الطَّعَامُ فِيهَا كَمَا يَنْهَضِمُ فِي الشِّتَاءِ وَيَكُونُ الْمَاءُ النَّابِعُ بَارِدًا لِبُرُودَةِ بَاطِنِ الْأَرْضِ وَتَظْهَرُ الْحَيَوَانَاتُ إلَى الْبَرَارِي لِسُخُونَةِ الْهَوَاءِ فَهَؤُلَاءِ قَدْ لَا يَنْفَعُهُمْ الْفِصَادُ بَلْ قَدْ يَضُرُّهُمْ وَالْحِجَامَةُ أَنْفَعُ لَهُمْ . وَقَوْلُهُ : " شِفَاءُ أُمَّتِي " إشَارَةٌ إلَى مَنْ كَانَ حِينَئِذٍ مِنْ أُمَّتِهِ وَهُمْ كَانُوا بِالْحِجَازِ كَمَا قَالَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ

قِبْلَةٌ ؛ لِأَنَّ هَذَا كَانَ قِبْلَةَ أُمَّتِهِ حِينَئِذٍ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا بِالْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ بَعْدَ أَنْ فَرَضَ الْحَجَّ سَنَةَ تِسْعٍ أَوْ سَنَةَ عَشْرٍ وَقَّتَ ثَلَاثَ مَوَاقِيتَ لِلْمَدِينَةِ وَلِنَجْدٍ وَلِلشَّامِ وَلَمَّا فَتَحَ الْيَمَنَ وَقَّتَ لَهُمْ يلملم ثُمَّ وَقَّتَ ذَاتَ عِرْقٍ لِأَهْلِ الْعِرَاقِ وَهَذَا كَمَا أَنَّهُ فَرَضَ صَدَقَةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ عَنْ كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ ذَكَرًا وَأُنْثَى مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَكَانَ هَذَا هُوَ الْفَرْضَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ ؛ لِأَنَّ الشَّعِيرَ وَالتَّمْرَ كَانَ قُوتَهُمْ وَلِهَذَا كَانَ جَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ مَنْ اقْتَاتَ الْأُرْزَ وَالذُّرَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ يُخْرِجُ مِنْ قُوتِهِ وَهُوَ إحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَد وَهَلْ يَجْزِيهِ أَنْ يُخْرِجَ التَّمْرَ وَالشَّعِيرَ إذَا لَمْ يَكُنْ يَقْتَاتُهُ . فِيهِ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ . وَكَانَ الصَّحَابَةُ يَرْمُونَ بِالْقَوْسِ الْعَرَبِيَّةِ الطَّوِيلَةِ الَّتِي تُشْبِهُ قَوْسَ النَّدْفِ وَفَتَحَ اللَّهُ لَهُمْ

(1169/838)

بِهَا الْبِلَادَ وَقَدْ رُوِيَتْ آثَارٌ فِي كَرَاهَةِ الرَّمْيِ بِالْقَوْسِ الْفَارِسِيَّةِ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ لِكَوْنِهَا كَانَتْ شِعَارَ الْكُفَّارِ فَأَمَّا بَعْدَ

أَنْ اعْتَادَهَا الْمُسْلِمُونَ وَكَثُرَتْ فِيهِمْ وَهِيَ فِي أَنْفُسِهَا أَنْفَعُ فِي الْجِهَادِ مِنْ تِلْكَ الْقَوْسِ . فَلَا تُكْرَهُ فِي أَظْهَرِ قَوْلَيْ الْعُلَمَاءِ أَوْ قَوْلِ أَكْثَرِهِمْ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ . وَالْقُوَّةُ فِي هَذَا أَبْلَغُ بِلَا رَيْبٍ وَالصَّحَابَةُ لَمْ تَكُنْ

هَذِهِ عِنْدَهُمْ فَعَدَلُوا عَنْهَا إلَى تِلْكَ ؛ بَلْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ غَيْرُهَا فَيُنْظَرُ فِي قَصْدِهِمْ بِالرَّمْيِ أَكَانَ لِحَاجَةِ إلَيْهَا إذْ لَيْسَ لَهُمْ غَيْرُهَا ؟ أَمْ كَانَ لِمَعْنًى فِيهَا ؟ وَمَنْ كَرِهَ الرَّمْيَ بِهَا كَرِهَهُ لِمَعْنًى لَازِمٍ كَمَا يَكْرَهُ الْكُفْرَ وَمَا يَسْتَلْزِمُ الْكُفْرَ أَمْ كَرِهَهَا لِكَوْنِهَا كَانَتْ مِنْ شَعَائِرِ الْكُفَّارِ فَكَرِهَ التَّشَبُّهَ بِهِمْ ؟ . وَهَذَا كَمَا أَنَّ الْكُفَّارَ مِنْ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى إذَا لَبِسُوا ثَوْبَ الْغِيَارِ مِنْ أَصْفَرَ وَأَزْرَقَ نُهِيَ عَنْ لِبَاسِهِ لِمَا فِيهِ مِنْ التَّشَبُّهِ بِهِمْ وَإِنْ كَانَ لَوْ خَلَا عَنْ ذَلِكَ لَمْ يُكْرَهْ وَفِي بِلَادٍ لَا يَلْبَسُ هَذِهِ الْمَلَابِسَ عِنْدَهُمْ إلَّا الْكُفَّارُ فَنُهِيَ عَنْ لُبْسِهَا وَالَّذِينَ اعْتَادُوا ذَلِكَ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لَا مَفْسَدَةَ عِنْدَهُمْ فِي لُبْسِهَا .

(1170/838)

وَلِهَذَا كَرِهَ أَحْمَد وَغَيْرُهُ لِبَاسَ السَّوَادِ لِمَا كَانَ فِي لِبَاسِهِ تَشَبُّهٌ بِمَنْ يَظْلِمُ أَوْ يُعِينُ عَلَى الظُّلْمِ وَكَرِهَ بَيْعَهُ لِمَنْ يَسْتَعِينُ بِلُبْسِهِ عَلَى الظُّلْمِ فَأَمَّا إذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَفْسَدَةٌ لَمْ يُنْهَ عَنْهُ . وَكَرِهَ مَنْ كَرِهَ مِنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ بَيْعَ الْأَرْضِ الخراجية لِأَنَّ

(1171/838)

الْمُسْلِمَ الْمُشْتَرِيَ لَهَا إذَا أَدَّى الْخَرَاجَ عَنْهَا أَشْبَهَ أَهْلَ الذِّمَّةِ فِي الْتِزَامِ الْجِزْيَةِ فَإِنَّ الْخَرَاجَ جِزْيَةُ الْأَرْضِ وَإِنْ لَمْ يُؤَدِّهَا ظَلَمَ الْمُسْلِمِينَ بِإِسْقَاطِ حَقِّهِمْ مِنْ الْأَرْضِ لَمْ يَكْرَهُوا بَيْعَهَا لِكَوْنِهَا وَقْفًا فَإِنَّ الْوَقْفَ إنَّمَا مُنِعَ مِنْ بَيْعِهِ لِأَنَّ ذَلِكَ يُبْطِلُ الْوَقْفَ وَلِهَذَا لَا يُبَاعُ وَلَا يُوهَبُ وَلَا يُورَثُ وَالْأَرْضُ الخراجية تَنْتَقِلُ إلَى الْوَارِثِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَتَجُوزُ هِبَتُهَا وَالْمُتَّهَبُ الْمُشْتَرِي يَقُومُ فِيهَا مَقَامَ الْبَائِعِ فَيُؤَدِّي مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْخَرَاجِ وَلَيْسَ فِي بَيْعِهَا مَضَرَّةٌ لِمُسْتَحِقِّي الْخَرَاجِ كَمَا فِي بَيْعِ الْوَقْفِ . وَقَدْ غَلِطَ كَثِيرٌ مِنْ الْفُقَهَاءِ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ كَرِهُوا بَيْعَهَا لِكَوْنِهَا وَقْفًا وَاشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ الْأَمْرُ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا الْآثَارَ مَرْوِيَّةً فِي كَرَاهَةِ بَيْعِهَا وَقَدْ عَرَفُوا أَنَّ عُمَرَ جَعَلَهَا فَيْئًا لَمْ يُقَسِّمْهَا قَطُّ وَذَلِكَ فِي مَعْنَى الْوَقْفِ فَظَنُّوا أَنَّ بَيْعَهَا مَكْرُوهٌ لِهَذَا الْمَعْنَى وَلَمْ يَتَأَمَّلُوا حَقَّ التَّأَمُّلِ فَيَرَوْنَ أَنَّ هَذَا الْبَيْعَ لَيْسَ هُوَ مِنْ جِنْسِ الْبَيْعِ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ فِي الْوَقْفِ فَإِنَّ هَذِهِ يُصْرَفُ مُغَلُّهَا إلَى مُسْتَحِقِّهَا قَبْلَ الْبَيْعِ وَبَعْدَهُ وَعَلَى حَدٍّ وَاحِدٍ لَيْسَتْ كَالدَّارِ الَّتِي إذَا بِيعَتْ تَعَطَّلَ نَفْعُهَا عَنْ أَهْلِ الْوَقْفِ وَصَارَتْ لِلْمُشْتَرِي . وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ طَائِفَةً مِنْ هَؤُلَاءِ قَالُوا : مَكَّةُ إنَّمَا كُرِهَ بَيْعُ رِبَاعِهَا لِكَوْنِهَا فُتِحَتْ عَنْوَةً وَلَمْ تُقَسَّمْ أَيْضًا وَهُمْ قَدْ قَالُوا مَعَ

(1172/838)

جَميعِ النَّاسِ إِنَّ الْأَرْضَ الْعَنْوَةَ الَّتِي جُعِلَتْ أَرْضُهَا فَيْئًا يَجُوز بَيْعُ مَسَاكِنِهَا وَالْخَرَاجُ إِنَّمَا جُعِلَ عَلَى الْمَزَارِعِ لَا عَلَى الْمَسَاكِنِ فَلَوْ كَانَتْ

(1173/838)

مَكَّةُ قَدْ جُعِلَتْ أَرْضُهَا لِلْمُسْلِمِينَ وَجُعِلَ عَلَيْهَا خَرَاجٌ لَمْ يَمْتَنِعْ بَيْعُ مَسَاكِنِهَا لِذَلِكَ فَكَيْفَ وَمَكَّةُ أَقَرَّهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ أَهْلِهَا عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ مَسَاكِنُهَا وَمَزَارِعُهَا وَلَمْ يُقَسِّمْهَا وَلَمْ يَضْرِبْ عَلَيْهَا خَرَاجًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ مَنْ قَالَ : إنَّهَا فُتِحَتْ صُلْحًا وَلَا رَيْبَ أَنَّهَا فُتِحَتْ عَنْوَةً كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الْمُتَوَاتِرَةُ لَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَطْلَقَ أَهْلَهَا جَمِيعَهُمْ فَلَمْ يَقْتُلْ إلَّا مَنْ قَاتَلَهُ وَلَمْ يَسْبِ لَهُمْ ذُرِّيَّةً وَلَا غَنِمَ لَهُمْ مَالًا وَلِهَذَا سُمُّوا الطُّلَقَاءَ . وَأَحْمَد وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ إنَّمَا عَلَّلُوا ذَلِكَ بِكَوْنِهَا فُتِحَتْ عَنْوَةً مَعَ كَوْنِهَا مُشْتَرَكَةً بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي ﴾ وَهَذِهِ هِيَ الْعِلَّةُ الَّتِي اُخْتُصَّتْ بِهَا مَكَّةُ دُونَ سَائِرِ الْأَمْصَارِ فَإِنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ حَجَّهَا عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ وَشَرَعَ اعْتِمَارَهَا دَائِمًا فَجَعَلَهَا مُشْتَرَكَةً بَيْنَ جَمِيعِ عِبَادِهِ . كَمَا قَالَ : ﴿ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِي ﴾ وَلِهَذَا كَانَتْ مِنًى وَغَيْرُهَا مِنْ الْمَشَاعِرِ مَنْ سَبَقَ إلَى مَكَانٍ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ حَتَّى يَنْتَقِلَ عَنْهُ كَالْمَسَاجِدِ وَمَكَّةُ نَفْسُهَا مَنْ سَبَقَ إلَى مَكَانٍ

فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ وَالْإِنْسَانُ أَحَقُّ بِمَسْكَنِهِ مَا دَامَ مُحْتَاجًا إلَيْهِ وَمَا اسْتَغْنَى عَنْهُ مِنْ الْمَنَافِعِ فَعَلَيْهِ بَذْلُهُ بِلَا عِوَضٍ لِغَيْرِهِ

(1174/838)

مِنْ الْحَجِيجِ وَغَيْرِهِمْ . وَلِهَذَا كَانَتْ الْأَقْوَالُ فِي إجَارَةِ دُورِهَا وَبَيْعِ رِبَاعِهَا ثَلَاثَةً . قِيلَ : لَا يَجُوزُ لَا هَذَا وَلَا هَذَا . وَقِيلَ : يَجُوزُ الْأَمْرَانِ .

(1175/838)

وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَجُوزُ بَيْعُ رِبَاعِهَا وَلَا يَجُوزُ إجَارَتُهَا وَعَلَى هَذَا تَدُلُّ الْآثَارُ الْمَنْقُولَةُ فِي ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنْ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَإِنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا يَتَبَايَعُونَ دُورَهَا وَالدُّورُ تُورَثُ وَتُوهَبُ وَإِذَا كَانَتْ تُورَثُ وَتُوهَبُ جَازَ أَنْ تُبَاعَ بِخِلَافِ الْوَقْفِ فَإِنَّهُ لَا يُبَاعُ وَلَا يُورَثُ وَلَا يُوهَبُ . وَكَذَلِكَ أُمُّ الْوَلَدِ مَنْ لَمْ يُجَوِّزْ بَيْعَهَا لَمْ يُجَوِّزْ هِبَتَهَا وَلَا أَنْ تُوَرَّثَ وَأَمَّا إجَارَتُهَا فَقَدْ كَانَتْ تُدْعَى السَّوَائِبُ - عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَنْ احْتَاجَ سَكَنَ وَمَنْ اسْتَغْنَى أَسْكَنَ ؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ

مُحْتَاجُونَ إِلَى الْمَنَافِعِ فَصَارَتْ كَمَنَافِعِ الْأَسْوَاقِ وَالْمَسَاجِدِ وَالطُّرُقَاتِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ فَمَنْ سَبَقَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ وَمَا اسْتَغْنَى عَنْهُ أَخَذَهُ غَيْرُهُ بِلَا عِوَضٍ وَكَذَلِكَ الْمُبَاحَاتُ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا النَّاسُ وَيَكُونُ الْمُشْتَرِي لَهَا اسْتَفَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ أَحَقُّ مِنْ غَيْرِهِ مَا دَامَ مُحْتَاجًا وَإِذَا بَاعَهَا الْإِنْسَانُ قَطَعَ اخْتِصَاصَهُ بِهَا وَتَوْرِيثَهُ إيَّاهَا وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ تَصَرُّفَاتِهِ وَلِهَذَا لَهُ أَنْ لَا يَبْذُلَهُ إلَّا بِعِوَضِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنَّ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ فَإِنَّ الْأَسِيرَ يَجُوزُ الْمَنُّ عَلَيْهِ لِلْمَصْلَحَةِ وَأَعْطَاهُمْ مَعَ ذَلِكَ ذَرَارِيَّهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ كَمَا مَنَّ عَلَى هَوَازِنَ لَمَّا جَاءُوا

(1176/838)

مُسْلِمِينَ بِإِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: السَّبْيُ أَوْ الْمَالُ فَاخْتَارُوا السَّبْيَ فَأَعْطَاهُمْ السَّبْيَ وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ الْقِسْمَةِ

فَعَوَّضَ عَنْ نَصِيبِهِ مَنْ لَمْ يَرْضَ بِأَخْذِهِ مِنْهُمْ وَكَانَ قَدْ قَسَّمَ الْمَالَ فَلَمْ يَرُدَّهُ عَلَيْهِمْ وَقُرَيْشٌ لَمْ تُحَارِبْهُ كَمَا حَارَبَتْهُ هَوَازِنُ وَهُوَ إنَّمَا مَنَّ عَلَى مَنْ لَمْ يُقَاتِلْهُ مِنْهُمْ كَمَا قَالَ: ﴿ مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ ﴾ . فَلَمَّا كَفَّ جُمْهُورُهُمْ عَنْ قِتَالِهِ وَعَرَفَ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ أَطْلَقَهُمْ وَلَمْ يَغْنَمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا حَرِيمَهُمْ وَلَمْ يَضْرِبْ الرِّقَّ لَا عَلَيْهِمْ

وَلَا عَلَى أَوْلَادِهِمْ بَلْ سَمَّاهُمْ الطُّلَقَاءَ مِنْ قُرَيْشٍ بِخِلَافِ ثَقِيفٍ فَإِنَّهُمْ سُمُّوا الْعُتَقَاءَ فَإِنَّهُ أَعْتَقَ أَوْلَادَهُمْ بَعْدَ الِاسْتِرْقَاقِ وَالْقِسْمَةِ وَكَانَ فِي هَذَا مَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ يَفْعَلُ بِالْأَمْوَالِ وَالرِّجَالِ وَالْعَقَارِ وَالْمَنْقُولِ مَا هُوَ أَصْلَحُ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَحَ خَيْبَرَ فَقَسَّمَهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَسَبَى بَعْضَ نِسَائِهَا وَأَقَرَّ سَائِرَهُمْ مَعَ ذَرَارِيِّهِمْ حَتَّى أَجْلَوْا بَعْدَ ذَلِكَ فَلَمْ يَسْتَرِقَّهُمْ وَمَكَّةُ فَتَحَهَا عَنْوَةً وَلَمْ يُقَسِّمْهَا لِأَجْلِ الْمَصْلَحَةِ .

(1177/838)

وقد تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي الْأَرْضِ إذَا فُتِحَتْ عَنْوَةً هَلْ يَجِبُ قَسْمُهَا كَخَيْبَرِ لِأَنَّهَا مَغْنَمٌ أَوْ تَصِيرُ فَيْئًا كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ سُورَةُ الْحَشْرِ وَلَيْسَتْ الْأَرْضُ مِنْ الْمَغْنَمِ أَوْ يُخَيَّرُ الْإِمَامُ فِيمَا بَيْنَ هَذَا وَهَذَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ عَلَى التَّخْيِيرِ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَهُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحْمَد فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ وَغَيْرِهِمَا .

(1178/838)

وَلَوْ فَتَحَ الْإِمَامُ بَلَدًا وَغَلَبَ عَلَى ظَنِّهِ أَنَّ أَهْلَهُ يُسْلِمُونَ وَيُجَاهِدُونَ جَازَ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ كَمَا فَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَهْلِ مَكَّةَ فَإِنَّهُمْ أَسْلَمُوا كُلُّهُمْ بِلَا خِلَافٍ بِخِلَافِ أَهْلِ خَيْبَرَ فَإِنَّهُ لَمْ يُسْلِمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَأُولَئِكَ قَسَمَ أَرْضَهُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا كُفَّارًا مُصِرِّينَ عَلَى الْكُفْرِ وَهَؤُلَاءِ تَرَكَهَا لَهُمْ لِأَنَّهُمْ كُلَّهُمْ صَارُوا مُسْلِمِينَ وَالْمَقْصُودُ بِالْجِهَادِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَأَنْ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِي الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ لِيَتَأَلَّفَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ فَكَيْفَ لَا يَتَأَلَّفُهُمْ بِإِبْقَاءِ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ . وَهُمْ لَمَّا حَضَرُوا مَعَهُ حُنَيْنًا أَعْطَاهُمْ مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ مَا تَأَلَّفَهُمْ بِهِ حَتَّى عَتَبَ بَعْضُ الْأَنْصَارِ كَمَا فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ : ﴿ أَنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ قَالُوا يَوْمَ حُنَيْنٍ حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَمْوَالِ هَوَازِنَ مَا أَفَاءَ فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِي رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ الْمِائَةَ مِنْ الْإِبِلِ . فَقَالُوا : يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ - قَالَ أَنَسٌ : فَحُدِّثَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِمْ فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْأَنْصَارِ فَجَمَعَهُمْ فِي قُبَّةٍ مِنْ أُدْمٍ فَلَمَّا

اجْتَمَعُوا جَاءَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : مَا حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ ؟ فَقَالَ لَهُ فُقَهَاءُ الْأَنْصَارِ : أَمَّا ذَوُو رَأْيِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمْ يَقُولُوا شَيْئًا وَأَمَّا أُنَاسٌ مِنَّا حَدِيثَةٌ

(1180/838)

أَسْنَانُهُمْ فَقَالُوا : يَغْفِرُ اللَّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ يُعْطِي قُرَيْشًا وَيَتْرُكُنَا وَسُيُوفُنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَائِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ فَوَاللَّهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ رَضِينَا قَالَ : فَإِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ بَعْدِي أَثَرَةً شَدِيدَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ قَالُوا : سَنَصْبِرُ ﴾ - وَفِي رِوَايَةٍ ﴿ لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ وَادِيًا أَوْ شِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الْأَنْصَارِ وَشِعْبَهُمْ النَّاسُ دِثَارٌ وَالْأَنْصَارُ شِعَارٌ وَلَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ وَحَدَّثَهُمْ حَتَّى بَكَوْا رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ ﴾ . فَهَذَا كُلُّهُ بَذْلٌ وَعَطَاءٌ لِأَجْلِ إسْلَامِ النَّاسِ وَهُوَ الْمَقْصُودُ بِالْجِهَادِ . وَمَنْ قَالَ : إنَّ الْإِمَامَ يَجِبُ عَلَيْهِ قِسْمَةُ الْعَقَارِ وَالْمَنْقُولِ مُطْلَقًا فَقَوْلُهُ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ مُخَالِفٌ لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الْمَنْقُولَةِ بِالتَّوَاتُرِ وَلَيْسَ مَعَهُ حُجَّةٌ وَاحِدَةٌ تُوجِبُ ذَلِكَ فَإِنَّ قِسْمَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خَيْبَرَ تَدُلُّ عَلَى جَوَازِ مَا فَعَلَ لَا تَدُلُّ عَلَى

وُجُوبِهِ إِذْ الْفِعْلُ لَا يَدُلُّ بِنَفْسِهِ عَلَى الْوُجُوبِ وَهُوَ لَمْ يُقَسِّمْ مَكَّةَ وَلَا شَكَّ أَنَّهَا فُتِحَتْ عَنْوَةً وَهَذَا يَعْلَمُهُ ضَرُورَةً مَنْ

(1181/838)

تَدَبَّرَ الْأَحَادِيثَ وَكَذَلِكَ الْمَنْقُولُ: مَنْ قَالَ: إنَّهُ يَجِبُ قَسْمُهُ كُلُّهُ بِالسَّوِيَّةِ بَيْنَ الْغَانِمِينَ فِي كُلِّ غَزَاةٍ فَقَوْلُهُ

(1182/838)

ضَعِيفٌ بَلْ يَجُوزُ فِيهِ التَّفْضِيلُ لِلْمَصْلَحَةِ كَمَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُفَضِّلُ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْمَغَازِي. وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ الَّذِينَ أَعْطَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَنَائِمَ خَيْبَرَ فِيمَا أَعْطَاهُمْ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مِنْ الْخُمُسِ وَالثَّانِي أَنَّهُ مِنْ أَصْلِ الْغَنِيمَةِ وَهَذَا أَظْهَرُ. فَإِنَّ الَّذِي أَعْطَاهُمْ إيَّاهُ هُوَ شَيْءٌ كَثِيرٌ لَا يَحْتَمِلُهُ الْخُمُسُ وَمَنْ قَالَ الْعَطَاءُ كَانَ مِنْ خُمُسِ الْخُمُسِ فَلَمْ يَدْرِ كَيْفَ وَقَعَ الْأَمْرُ وَلَمْ يَقُلْ هَذَا أَحَدٌ مِنْ الْمُتَقَدِّمِينَ هَذَا مَعَ قَوْلِهِ: ﴿ لَيْسَ لِي مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إلَّا الْخُمُسَ وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكُمْ ﴾ وَهَذَا لِأَنَّ

الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ كَانُوا مِنْ الْعَسْكَرِ فَفَضَّلَهُمْ فِي الْعَطَاءِ لِلْمَصْلَحَةِ كَمَا كَانَ يُفَضِّلُهُمْ فِيمَا يَقْسِمُهُ مِنْ الْفَيْءِ لِلْمَصْلَحَةِ . وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْغَنِيمَةَ لِلْإِمَامِ أَنْ يَقْسِمَهَا بِاجْتِهَادِهِ كَمَا يَقْسِمُ الْفَيْءَ بِاجْتِهَادِهِ إذَا كَانَ إمَامَ عَدْلٍ قَسَمَهَا بِعِلْمٍ وَعَدْلٍ لَيْسَ قِسْمَتُهَا بَيْنَ الْغَانِمِينَ كَقِسْمَةِ الْمِيرَاثِ بَيْنَ الْوَرَثَةِ وَقِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ فِي الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ وَلِهَذَا قَالَ فِي الصَّدَقَاتِ : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ فِيهَا بِقِسْمَةِ نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ وَلَكِنْ جَعَلَهَا ثَمَانِيَةَ أَصْنَافٍ فَإِنْ كُنْت مِنْ تِلْكَ الْأَصْنَافِ أَعْطَيْتُك ﴾ فَعُلِمَ أَنَّ مَا أَفَاءَ اللَّهُ مِنْ الْكُفَّارِ بِخِلَافِ ذَلِكَ وَقَدْ قَسَمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خَيْبَرَ

(1183/838)

لِأَهْلِ السَّفِينَةِ الَّذِينَ قَدِمُوا مَعَ جَعْفَرٍ وَلَمْ يَقْسِمْ لِأَحَدِ غَابَ عَنْهَا غَيْرُهُمْ وَقَسَمَ مِنْ غَنَائِمِ بَدْرٍ لِطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ وَلِعُثْمَانِ

(1184/838)

وَكَانَ قَدْ أَقَامَ بِالْمَدِينَةِ وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يُرِيدُونَ الْقِتَالَ وَكَانُوا مَشْغُولِينَ بِبَعْضِ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هُمْ فِيهَا فِي جِهَادٍ . وَأَيْضًا أَهْلُ السَّفِينَةِ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ وَعُثْمَانُ لَمْ يَكُونُوا كَغَيْرِهِمْ وَالْقِتَالُ لَمْ يَكُنْ لِأَجْلِ الْغَنِيمَةِ فَلَيْسَتْ الْغَنِيمَةُ كَمُبَاحٍ اشْتَرَكَ فِيهِ نَاسٌ مِثْلَ الِاحْتِشَاشِ وَالِاحْتِطَابِ وَالِاصْطِيَادِ فَإِنَّ ذَلِكَ الْفِعْلَ مَقْصُودُهُ هُوَ اكْتِسَابُ الْمَالِ بِخِلَافِ الْغَنِيمَةِ بَلْ مَنْ قَاتَلَ فِيهَا لِأَجْلِ الْمَالِ لَمْ يَكُنْ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِهَذَا لَمْ تُبَحْ الْغَنَائِمُ لِمَنْ قَبْلَنَا وَأُبِيحَتْ لَنَا مَعُونَةً عَلَى مَصْلَحَةِ الدِّينِ . فَالْغَنَائِمُ أُبِيحَتْ لِمَصْلَحَةِ الدِّينِ وَأَهْلِهِ فَمَنْ كَانَ قَدْ نَفَعَ الْمُجَاهِدِينَ بِنَفْعٍ اسْتَعَانُوا بِهِ عَلَى تَمَامِ جِهَادِهِمْ جُعِلَ مِنْهُمْ وَإِنْ لَمْ يَحْضُرْ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ الْمُسْلِمُونَ يَدٌ وَاحِدَةٌ يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيَرُدُّ مُتَسَرِّيهِمْ عَلَى قَاعِدِهِمْ ﴾ . فَإِنَّ الْمُتَسَرِّيَ إنَّمَا تَسَرَّى بِقُوَّةِ الْقَاعِدِ فَالْمُعَاوِنُونَ لِلْمُجَاهِدِينَ مِنْ الْمُجَاهِدِينَ وَلِبَسْطِ هَذِهِ الْأُمُورِ مَوْضِعٌ آخَرُ . وَالْمَقْصُودُ هُنَا : ذِكْرُ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أَنَّهُ يُعْتَبَرُ فِيهِ مُتَابَعَتُهُ فِي قَصْدِهِ فَإِذَا قَصَدَ مَكَانًا لِلْعِبَادَةِ فِيهِ كَانَ قَصْدُهُ لِتِلْكَ

(1185/838)

الْعِبَادَةِ سُنَّةً وَأَمَّا إذَا صَلَّى فِيهِ اتِّفَاقًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لَمْ يَكُنْ قَصْدُهُ لِلْعِبَادَةِ سُنَّةً وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ جُمْهُورُ الصَّحَابَةِ يَقْصِدُونَ مُشَابَهَتَهُ فِي ذَلِكَ وَابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَعَ أَنَّهُ كَانَ يُحِبُّ مُشَابَهَتَهُ فِي ظَاهِرِ الْفِعْلِ لَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ الصَّلَاةَ إلَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ لَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ نَزَلَ بِهِ وَلِهَذَا رَخَّصَ أَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ فِي ذَلِكَ إذَا كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا كَمَا فَعَلَهُ ابْنُ عُمَرَ وَنَهَى عَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذَا كَثُرَ لِأَنَّهُ يُفْضِي إلَى الْمَفْسَدَةِ وَهِيَ اتِّخَاذُ آثَارِ الْأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْمَشَاهِدُ وَمَا أُحْدِثَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ الْمَسَاجِدِ وَالْمَشَاهِدِ عَلَى الْقُبُورِ وَالْآثَارِ فَهُوَ مِنْ الْبِدَعِ الْمُحْدَثَةِ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ فِعْلِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ شَرِيعَةَ الْإِسْلَامِ وَمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كَمَالِ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ وَسَدِّ أَبْوَابِ الشِّرْكِ الَّتِي يَفْتَحُهَا الشَّيْطَانُ لِبَنِي آدَمَ؛ وَلِهَذَا يُوجَدُ مَنْ كَانَ أَبْعَدَ عَنْ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ وَمَعْرِفَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ هُمْ أَكْثَرُ تَعْظِيمًا لِمَوَاضِعِ الشِّرْكِ فَالْعَارِفُونَ بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَدِيثِهِ أَوْلَى بِالتَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ وَأَهْلُ الْجَهْلِ بِذَلِكَ أَقْرَبُ إلَى الشِّرْكِ وَالْبِدَعِ . وَلِهَذَا يُوجَدُ ذَلِكَ فِي الرَّافِضَةِ أَكْثَرُ مِمَّا يُوجَدُ فِي غَيْرِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ أَجْهَلُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَأَكْثَرُ

(1186/838)

شِرْكًا وَبِدَعًا وَلِهَذَا يُعَظِّمُونَ الْمَشَاهِدَ أَعْظَمَ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيُخَرِّبُونَ الْمَسَاجِدَ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِمْ فَالْمَسَاجِدُ لَا يُصَلُّونَ فِيهَا

(1187/838)

جُمُعَةً وَلَا جَمَاعَةً وَلَا يُصَلُّونَ فِيهَا إنْ صَلَّوْا إلَّا أَفْرَادًا وَأَمَّا الْمَشَاهِدُ فَيُعَظِّمُونَهَا أَكْثَرَ مِنْ الْمَسَاجِدِ حَتَّى قَدْ يَرَوْنَ أَنَّ زِيَارَتَهَا أَوْلَى مِنْ حَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ وَيُسَمُّونَهَا الْحَجَّ الْأَكْبَرَ وَصَنَّفَ ابْنُ الْمُفِيدِ مِنْهُمْ كِتَابًا سَمَّاهُ " مَنَاسِكَ حَجِّ الْمَشَاهِدِ " وَذَكَرَ فِيهِ مِنْ الْأَكَاذِيبِ وَالْأَقْوَالِ مَا لَا يُوجَدُ فِي سَائِرِ الطَّوَائِفِ وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِهِمْ أَيْضًا نَوْعٌ مِنْ الشِّرْكِ وَالْكَذِبِ وَالْبِدَعِ ؛ لَكِنْ هُوَ فِيهِمْ أَكْثَرُ وَكُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ أَتْبَعَ لِمُحَمَّدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَعْظَمَ تَوْحِيدًا لِلَّهِ وَإِخْلَاصًا لَهُ فِي الدِّينِ وَإِذَا بَعُدَ عَنْ مُتَابَعَتِهِ نَقَصَ مِنْ دِينِهِ بِحَسَبِ ذَلِكَ فَإِذَا كَثُرَ بُعْدُهُ عَنْهُ ظَهَرَ فِيهِ مِنْ الشِّرْكِ وَالْبِدَعِ مَا لَا يَظْهَرُ فِيمَنْ هُوَ أَقْرَبُ مِنْهُ إلَى اتِّبَاعِ الرَّسُولِ .

وَاَللَّهُ إنَّمَا أَمَرَ فِي كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ بِالْعِبَادَةِ فِي الْمَسَاجِدِ وَالْعِبَادَةُ فِيهَا هِيَ عِمَارَتُهَا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ مَشَاهِدُ اللَّهِ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ عِنْدَ كُلِّ مَشْهَدٍ فَإِنَّ أَهْلَ الْمُشَاهِدِ لَيْسَ فِيهِمْ إخْلَاصُ الدِّينِ

لِلَّهِ بَلْ فِيهِمْ نَوْعٌ مِنْ الشّرْكِ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ

(1188/838)

حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ ﴿ إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

(1189/838)

وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾ الْآيَاتِ . وَفِي التِّرْمِذِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ . ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴾ فَإِنَّ الْمُرَادَ بِعِمَارَتِهَا عِمَارَتُهَا بِالْعِبَادَةِ فِيهَا كَالصَّلَاةِ وَالِاعْتِكَافِ يُقَالُ مَدِينَةٌ عَامِرَةٌ إذَا كَانَتْ مَسْكُونَةً وَمَدِينَةٌ خَرَابٌ إذَا لَمْ يَكُنْ فِيهَا سَاكِنٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاَللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ . وَأَمَّا نَفْسُ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ فَيَجُوزُ أَنْ يَبْنِيَهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ وَالْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ وَذَلِكَ يُسَمَّى بِنَاءً كَمَا

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ فَبَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مَا كَانَ لَهُمْ عِمَارَةُ مَسَاجِدِ اللَّهِ مَعَ شَهَادَتِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ وَبَيَّنَ أَنَّمَا يَعْمُرُهَا مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلَّا اللَّهَ وَهَذِهِ صِفَةُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ الَّذِينَ لَا يَخْشَوْنَ إلَّا اللَّهَ وَلَا يَرْجُونَ سِوَاهُ وَلَا يَسْتَعِينُونَ إلَّا بِهِ وَلَا يَدْعُونَ إلَّا إيَّاهُ وَعُمَّارُ الْمَشَاهِدِ يَخَافُونَ غَيْرَ اللَّهِ وَيَرْجُونَ غَيْرَهُ وَيَدْعُونَ غَيْرَهُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَقُلْ إنَّمَا يَعْمُرُ مَشَاهِدَ اللَّهِ فَإِنَّ الْمَشَاهِدَ لَيْسَتْ بُيُوتَ اللَّهِ

(1190/838)

إنَّمَا هِيَ بُيُوتُ الشِّرْكِ وَلِهَذَا لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ فِيهَا مَدْحُ الْمَشَاهِدِ وَلَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي

(1191/838)

ذَلِكَ حَدِيثٌ وَإِنَّمَا ذَكَرَهُ اللَّهُ عَمَّنْ كَانَ قَبْلَنَا أَنَّهُمْ بَنَوْا مَسْجِدًا عَلَى قَبْرِ أَهْلِ الْكَهْفِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ الَّذِينَ نَهَانَا اللَّهُ أَنْ نَتَشَبَّهَ بِهِمْ حَيْثُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ :

﴿ إِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ ﴾ . فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ ذَمَّ أَهْلَ الْمَشَاهِدِ وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ كَمَا قَالَ : ﴿ لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا ﴾ وَقَالَ : ﴿ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ثُمَّ أَهْلُ الْمَشَاهِدِ كَثِيرٌ مِنْ مَشَاهِدِهِمْ أَوْ أَكْثَرُهَا كَذِبٌ فَإِنَّ الشِّرْكَ مَقْرُونٌ بِالْكَذِبِ فِي كِتَابِ اللَّهِ كَثِيرًا . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ عَدَلَتْ شَهَادَةُ الزُّورِ الْإِشْرَاكَ بِاللَّهِ قَالَهَا ثَلَاثًا ﴾ . وَذَلِكَ كَالْمَشْهَدِ الَّذِي بُنِيَ بِالْقَاهِرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحُسَيْنِ وَهُوَ كَذِبٌ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَرَأْسُ الْحُسَيْنِ لَمْ يُحْمَلْ إلَى هُنَاكَ أَصْلًا وَأَصْلُهُ مِنْ عَسْقَلَانَ . وَقَدْ قِيلَ أَنَّهُ كَانَ رَأْسُ رَاهِبٍ وَرَأْسُ الْحُسَيْنِ لَمْ يَكُنْ بِعَسْقَلَانَ وَإِنَّمَا أُحْدِثَ هَذَا فِي أَوَاخِرِ دَوْلَةِ الْمَلَاحِدَةِ بَنِي عُبَيْدٍ . وَكَذَلِكَ

(1192/838)

مَشْهَدُ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إنَّمَا أُحْدِثَ فِي دَوْلَةِ بَنِي

(1193/838)

بوَيْهِ وقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ مُطَيَّنٌ الْحَافِظُ وَغَيْرُهُ: إِنَّمَا هُوَ قَبْرُ الْمُغِيرَةِ ابْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّمَا دُفِنَ بِقَصْرِ الْإِمَارَةِ بِالْكُوفَةِ وَدُفِنَ مُعَاوِيَةُ بِقَصْرِ الْإِمَارَةِ بِدِمَشْقَ وَدُفِنَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ بِقَصْرِ الْإِمَارَةِ بِمِصْرَ خَوْفًا عَلَيْهِمْ إِذَا دُفِنُوا فِي الْمَقَابِرِ الْبَارِزَةِ أَنْ يَنْبِشَهُمْ الْخَوَارِجُ الْمَارِقُونَ فَإِنَّ الْخَوَارِجَ كَانُوا تَعَاهَدُوا عَلَى قَتْلِ الثَّلَاثَةِ فَقَتَلَ ابْنُ مُلْجِمٍ عَلِيًّا وَجَرَحَ صَاحِبُهُ مُعَاوِيَةَ وَعَمْرًا كَانَ اسْتَخْلَفَ رَجُلًا اسْمُهُ خَارِجَةُ فَقَتَلَهُ الْخَارِجِيُّ. وَقَالَ: أَرَدْت عَمْرًا وَأَرَادَ اللَّهُ خَارِجَةَ. فَسَارَتْ مَثَلًا. فَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذَا الْمَشْهَدَ إِنَّمَا أُحْدِثَ فِي دَوْلَةِ الْمَلَاحِدَةِ دَوْلَةِ بَنِي عُبَيْدٍ. وَكَانَ فِيهِمْ مِنْ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ وَمُعَاضَدَةِ الْمَلَاحِدَةِ وَأَهْلِ الْبِدَعِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَالرَّافِضَةِ أُمُورٌ كَثِيرَةٌ وَلِهَذَا كَانَ فِي زَمَنِهِمْ قَدْ تَضَعْضَعَ الْإِسْلَامُ تَضَعْضُعًا كَثِيرًا وَدَخَلَتْ النَّصَارَى إلَى الشَّامِ فَإِنَّ بَنِي عُبَيْدٍ مَلَاحِدَةٌ مُنَافِقُونَ لَيْسَ لَهُمْ غَرَضٌ فِي الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بَلْ فِي الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ وَمُعَادَاةِ الْإِسْلَامِ بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ وَأَتْبَاعُهُمْ كُلُّهُمْ أَهْلُ بِدَعٍ وَضَلَالٍ فَاسْتَوْلَتْ النَّصَارَى فِي دَوْلَتِهِمْ عَلَى أَكْثَرِ الشَّامِ ثُمَّ قَيَّضَ اللَّهُ مِنْ مُلُوكِ السُّنَّةِ مِثْلَ: نُورِ الدِّينِ وَصَلَاحِ الدِّينِ وَإِخْوَتِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ فَفَتَحُوا بِلَادَ

الْإِسْلَامِ وَجَاهَدُوا الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ .

(1195/838)

وَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الصَّلَاةِ عِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَعِنْدَ غُرُوبِهَا لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ حِينَئِذٍ وَالشَّيْطَانُ يُقَارِنُهَا وَإِنْ كَانَ الْمُسْلِمُ الْمُصَلِّي لَا يَقْصِدُ السُّجُودَ لَهَا لَكِنَّ سَدَّ الذَّرِيعَةِ لِئَلَّا يَتَشَبَّهُ بِالْمُشْرِكِينَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ الَّتِي يَخْتَصُّونَ بِهَا فَيُفْضِي إلَى مَا هُوَ شِرْكٌ ؛ وَلِهَذَا نَهَى عَنْ تَحَرِّي الصَّلَاةِ فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ هَذَا لَفْظُ ابْنِ عُمَرَ الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ . فَقَصْدُ الصَّلَاةِ فِيهَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ . وَأَمَّا إذَا حَدَثَ سَبَبٌ تُشْرَعُ الصَّلَاةُ لِأَجْلِهِ : مِثْلُ تَحِيَّةِ الْمَسْجِدِ وَصَلَاةِ الْكُسُوفِ وَسُجُودِ التِّلَاوَةِ وَرَكْعَتَيْ الطَّوَافِ وَإِعَادَةِ الصَّلَاةِ مَعَ إمَامِ الْحَيِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَهَذِهِ فِيهَا نِزَاعٌ مَشْهُورٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَظْهَرُ جَوَازُ ذَلِكَ وَاسْتِحْبَابُهُ فَإِنَّهُ خَيْرٌ لَا شَرَّ فِيهِ وَهُوَ يَفُوتُ إذَا تُرِكَ وَإِنَّمَا نُهِيَ عَنْ قَصْدِ الصَّلَاةِ وَتَحَرِّيهَا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لِمَا فِيهِ مِنْ مُشَابَهَةِ الْكُفَّارِ بِقَصْدِ السُّجُودِ ذَلِكَ الْوَقْتَ فَمَا لَا سَبَبَ لَهُ قَدْ قَصَدَ فِعْلَهُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ الْوَقْتَ بِخِلَافِ ذِي السَّبَبِ فَإِنَّهُ فَعَلَ لِأَجْلِ السَّبَبِ فَلَا تَأْثِيرَ فِيهِ لِلْوَقْتِ بِحَالِ وَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الصَّلَاةِ فِي الْمَقْبَرَةِ عُمُومًا

فَقَالَ : ﴿ الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إلَّا الْمَقْبَرَةَ وَالْحَمَّامَ ﴾ رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ وَقَدْ رُوِيَ مُسْنَدًا وَمُرْسَلًا وَقَدْ صَحَّحَ الْحِفَاظُ أَنَّهُ مُسْنَدٌ فَإِنَّ

(1196/838)

الْحَمَّامَ مَأْوَى الشَّيَاطِينِ وَالْمَقَابِرُ نُهِيَ عَنْهَا

(1197/838)

لِمَا فِيهِ مِنْ التَّشَبُّهِ بِالْمُتَّخِذِينَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ وَإِنْ كَانَ الْمُصَلِّي قَدْ لَا يَقْصِدُ الصَّلَاةَ لِأَجْلِ فَضِيلَةِ تِلْكَ الْبُقْعَةِ بَلْ اتَّفَقَ لَهُ ذَلِكَ . لَكِنَّ فِيهِ تَشَبُّهٌ بِمَنْ يَقْصِدُ ذَلِكَ فَنَهَى عَنْهُ كَمَا يَنْهَى عَنْ الصَّلَاةِ الْمُطْلَقَةِ وَقْتَ الطُّلُوعِ وَالْغُرُوبِ وَإِنْ لَمْ يَقْصِدْ فَضِيلَةَ ذَلِكَ الْوَقْتِ لِمَا فِيهِ مِنْ التَّشَبُّهِ بِمَنْ يَقْصِدُ فَضِيلَةَ ذَلِكَ الْوَقْتِ وَهُمْ الْمُشْرِكُونَ فَنَهْيُهُ عَنْ الصَّلَاةِ فِي هَذَا الزَّمَانِ كَنَهْيِهِ عَنْ الصَّلَاةِ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ فَلَمَّا كَانَ الشِّرْكُ الَّذِي أَضَلَّ أَكْثَرَ بَنِي آدَمَ أَصْلُهُ وَأَعْظَمُهُ مِنْ عِبَادَةِ الْبَشَرِ وَالتَّمَاثِيلِ الْمُصَوَّرَةِ عَلَى صُوَرِهِمْ فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ قَدْ اعْتَادُوا آلِهَةً يَلِدُونَ وَيُولَدُونَ وَيَرِثُونَ وَيُورَثُونَ وَيَكُونُونَ مِنْ شَيْءٍ مِنْ الْأَشْيَاءِ فَسَأَلُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ إلَهِهِ

الَّذِي يَعْبُدُهُ : مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ ؟ أَمِنْ كَذَا أَمْ مِنْ كَذَا ؟ وَمِمَّنْ وَرِثَ الدُّنْيَا ؟ وَلِمَنْ يُوَرِّثُهَا ؟ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ . وَفِي حَدِيثِ أَبِي بْنِ كَعْبٍ لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُولَدُ إلَّا يَمُوتُ وَلَا أَحَدٌ يَرِثُ إلَّا يُورَثُ يَقُولُ : كُلُّ مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَدْ وُلِدَ مِثْلُ الْمَسِيحِ وَالْعُزَيْرِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ الصَّالِحِينَ وَتَمَاثِيلِهِمْ وَمَثَلُ الْفَرَاعِنَةِ الْمُدَّعِينَ الْإِلَهِيَّةَ فَهَذَا مَوْلُودٌ يَمُوتُ وَهُوَ وَإِنْ كَانَ وَرِثَ مِنْ غَيْرِهِ مَا هُوَ فِيهِ فَإِذَا

مَاتَ وَرِثَهُ غَيْرُهُ . وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ وَلَا يُورَثُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 17 صـ 503.5 ﴾

(1198/838)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْكِتَاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيم

وَيُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى. رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والثلاثون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والثلاثون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الفلق)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الفلق)

(5/839)

" فصل فى مقصود السورة الكريمة "

قال البقاعى :

سورة الفلق

مقصودها الاعتصام من شر كل ما انفلق عنه الخلق الظاهر والباطن ، واسمها ظاهر الدلالة على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 603 ﴾

(6/839)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى قل أعوذ برب الفلق)

السّورة مَدَنِيّة .

وآياتها خمس بالإِجماع .

وكلماتها ثلاث وعشرون .

وحروفها أَربع وسبعون .

وفواصل آياتها (دبق) .

سمّيت سورة الفَلَق ؛ لمفتتحها .

معظم مقصود السّورة : الاستعاذة من الشرور ، ومن مخافة اللَّيل الدّيجور ، ومن آفات الماكرين والحاسدين فى قوله : ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ .

السورة محكمة .

ومن المتشابهات : قوله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ نزلت فى ابتداءِ خمس سُوَر ، وصار مَتْلُوّا بها ؛ لأَنَّها نزلت جواباً ، وكَرّرَ قوله : ﴿ مِنْ شَرِّ ﴾ أَربع مرّات ؛ لأَنّ شرّ كلّ واحد منها غير شرّ الآخر .

فضل السّورة

فيه حديث عُقْبة أَنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال : "أَلاَ أُخبرك بأَفضل ما تعوّذ به المتعوّذون ؟ قال : قلت : بلى [قال] : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

وقال يا عقبة ألا أُعلمك سورتين هما أَفضل القرآن، أَو من أَفضل القرآن! قال قلت: بلى يا رسول الله [قال]: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وقال: فعلَّمنى المعوّذتين، ثمّ قرأَهما فى صلاة الغداة، وقال لى: اقرأْهما كلَّما قمت ونمت. انتهى انتهى. ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 556﴾

(7/839)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة:

سورة الفلق

382 مسألة:

قوله تعالى: (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) عام في كل شىء فما فائدة تكرار وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ... وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ... وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ)

جوابه:

هو تخصيص بعد تعميم، ليدل به على أن هذه الثلاثة من شر الشرور على الناس لكثرة وقوعها بين الناس. انتهى انتهى. ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 381﴾

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الفلق

سمى النبي (صلى الله عليه وسلم) هذه السورة : (قل أعوذ برب الفلق) . روى النسائي عن عقبة بن عامر قال : اتّبعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو راكب فوضعتُ يدِي على قدمه فقلت : أقرئني يا رسول الله سورة هود وسورة يوسف ، فقال : لن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من (قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس) .

وهذا ظاهر في أنه أراد سورة : (قل أعوذ برب الفلق (لأنه كان جواباً عن قول عقبة : أقرئني سورة هود الخ ، ولأنه عَطف على قوله : (قل أعوذ برب الفلق ((الفلق : 1) قوله : و) قل أعوذ برب الناس ((الناس : 1) ولم يتم سورة : (قل أعوذ برب الفلق) .

عنونها البخاري في (صحيحه) : سورة قل أعوذ برب الفلق) بإضافة سورة إلى أول جملة منها .

وجاء في كلام بعض الصحابة تسميتُها مع سورة الناس (المعوّذتين) . روى أبو داود

والترمذي وأحمد عن عقبة بن عامر قال : (أمرني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن أقرأ بالمعوذات (بكسر الواو المشددة وبصيغة الجمع بتأويل الآيات المعوذات ، أي آيات السورتين) وفي رواية : (بالمعوذتين في دبر كل صلاة) . ولم يذكر أحد من المفسرين أن الواحدة منهما تسمى المعوذة بالإفراد ، وقد سماها ابن عطية سورة المعوذةِ الأولى ، فإضافة (سورة) إلى (المعوذة) من إضافة المسمى إلى الاسم ، وَوصف السورة بذلك مجاز بجعلها كالذي يدل الخائف على المكان الذي يعصمه من مخيفه أو كالذي يُدخله المَعَاذ .

وسميت في أكثر المصاحف ومعظم كتب التفسير (سورة الفلق) .

وفي (الإتقان) : أنها وسورة الناس تسميان (المشَقْشَقَتَيْن) (بتقديم الشينين

(9/839)

على القافين) من قولهم خطيب مُشَقشق اهـ . (أي مسترسل القول تشبيهاً له بالفَحل الكريم من الإبِل يَهْدِر بشِقْشَقَةٍ وهي كاللحم يبرز من فيه إذا غضب) ولم أحقق وجه وصف المعوذتين بذلك .

وفي (تفسير القرطبي) و (الكشاف) أنها وسورةَ الناس تسميان (المقشقشتين) (بتقديم

القافين على الشينين) زاد القرطبي : أي تبرّئا ن من النفاق ، وكذلك قال الطيبي ، فيكون اسم المقشقشة مشتركاً بين أربع سور هذه ، وسورة الناس ، وسورة براءة ، وسورة الكافرون .

واختلف فيها أمكية هي أم مدنية ، فقال جابر بن زيد والحسن وعطاء وعكرمة : مكية ، ورواه كريب عن ابن عباس . وقال قتادة : هي مدنية ، ورواه أبو صالح عن ابن عباس .

والأصح أنها مكية لأن رواية كريب عن ابن عباس مقبولة بخلاف رواية أبي صالح عن ابن عباس ففيها متكلّم .

وقال الواحدي : قال المفسرون : إنها نزلت بسبب أن لَبيدَ بن الأعصمَ سَحَرَ النبي (صلى الله عليه وسلم) وليس في (الصحاح) أنها نزلت بهذا السبب ، وبنى صاحب (الإتقان) عليه ترجيح أن السورة مدنية وسنتكلم على قصة لبيد بن الأعصم عند قوله تعالى : (ومن شر النفاثات في العقد ((الفلق : 4) .

وقد قيل : إن سبب نزولها والسورة بعدها : أن قريشاً ندبوا ، أي ندبوا مَن اشتهر بينهم أنه يصيب النبي (صلى الله عليه وسلم) بعينه فأنزل الله المعوذتين ليتعوذ منهم بهما ، ذكره الفخر عن سعيد بن المسيب ولم يسنده .

وعدت العشرين في عداد نزول السور ، نزلت بعد سورة الفيل وقبل سورة الناس .

وعدد آياتها خمس بالاتفاق .

واشتهر عن عبد الله بن مسعود في (الصحيح) أنه كان ينكر أن تكون (المعوِّذتان) من القرآن ويقول : إنما أُمِر رسول الله أن يتعوذ بهما ، أي ولم يؤمر

بأنهما من القرآن . وقد جمع أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على القراءة بهما في الصلاة وكُتبا في مصاحفهم ، وصح أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قرأ بهما في صلاته .

أغراضها

والغرض منها تعليم النبي (صلى الله عليه وسلم) كلمات للتعوذ بالله من شر ما يُتَّقَى شره من المخلوقات الشريرة ، والأوقاتِ التي يكثر فيها حدوث الشر ، والأحوال التي يستر أفعال الشر من ورائها لئلا يُرمى فاعلوها بتبعاتها ، فعلَّم الله نبيئه هذه المعوذة ليتعوذ بها ، وقد ثبت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يتعوذ بهذه السورة وأختها ويأمر أصحابه بالتعوذ بهما ، فكان التعوذ بهما من سنة المسلمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ 623.625 ﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة الفلق

مكية وآياتها خمس آيات

بين يدي السورة

* سورة الفلق مكية ، وفيها تعليم للعباد أن يلجأوا إلى حمى الرحمن ، ويستعيذوا بجلاله وسلطانه ، من شر مخلوقاته ، ومن شر الليل إذا أظلم ، لما يصيب النفوس فيه من الوحشة ، ولإنتشار الأشرار والفجار فيه ، ومن شر كل حاسد وساحر ، وهي إحدى المعوذتين اللتين كان (صلى الله عليه وسلم) يعوذ نفسه بهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 623 ﴾

(12/839)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الفراء :

سورة (الفلق)

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾

[/ب] قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . . . ﴾ .

الفلق : الصبح ، يقال : هو أبين من فلق الصبح ، وفرَق الصبح . وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد اشتكى شكواً شديدا فكان يوما بين النائم واليقظان ، فأتاه ملكان فقال أحدهما : ما علّته؟ فقال الآخر : به طبٌّ فى بئر تحت صخرة فيها ، فانتبه النبى صلى الله عليه وسلم ، فبعث عمار بن ياسر فى نفر إلى البئر ، فاستخرج السحر ، وكان وتراً فيه إحدى عشرة عقدة ، فجعلوا كلما حلوا عقدة وجد راحة حتى حلت العقد ، فكأنه أُنشِط من عقال ، وأمر أن يتعوذ بهاتين السورتين ، وهما إحدى عشرة آية على عدد العقد ، وكان الذى سحره لبيد بن أعصم .

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ . . . ﴾ .

والغاسق : الليل "إذا وقب" إذا دخل فى كل شىء وأظلم ، ويقال : غسق وأغسق .

﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾

وقوله عز وجل : ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ . . . ﴾ .

وهن السواحر ينفثن سحرهن . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ، يعنى : الذى سحره لبيداً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 301 ﴾

(13/839)

وقال الأخفش :

سورة (الفلق)

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾

قوله ﴿مِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ تقول "غَسَقَ" "يَغْسِقُ" "غُسُوقاً" وهي : "الظلمة" . و"وَقَبَ" "يَقِبُ" "وُقُوباً" وهو الدخول في الشيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 589 ﴾

(14/839)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الفلق

«1»

1 - الْفَلَقِ : الصبح .

3 - و(الغاسق) : الليل ، و«الغسق» : الظلمة . إِذا وَقَبَ : دخل في الكسوف . أي دخل في كل شيء . ويقال «الغاسق» القمر إذا كسف فاسود «إذا أوقب» : دخل في الكسوف .

4 - النَّفَّاثاتِ : السّواحر . و«ينفثن» : يتفلن إذا سحرن ورقين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 477 ﴾

---

(1) هي مكية عند الجمهور .

(15/839)

وقال الغزنوى :

[سورة الفلق]

1 الْفَلَقِ : الخلق كلهم «1» ، وقيل «2» : الْفَلَقِ : الصبح .

---

(1) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : 30/ 351 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ، ونقله الماوردي في تفسيره : 4/ 548 عن الضحاك .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 9/ 273 ، وقال : «رواه الوالبي عن ابن عباس ،

وكذلك قال الضحاك» .

(2) هذا قول الفراء في معانيه : 3/ 301 ، وأبي عبيدة في مجاز القرآن : 2/ 317 ، وابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 543 ، واختاره الطبري في تفسيره : 30/ 351 .

(16/839)

---

3 غاسِقٍ إِذا وَقَبَ : القمر دخل في الكسوف «1» .

4 النَّفَّاثاتِ : السّواحر «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ 897.896 ﴾

---

(1) ذكره ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 543 .

ونقله الفخر الرازي في تفسيره : 32/ 194 عن ابن قتيبة ، وكذا القرطبي في تفسيره : 2/ 257 ، وأبو حيان في البحر المحيط : 8/ 531 .

(2) ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 301 ، وتفسير الطبري : 30/ 353 ، وتفسير ابن كثير : 8/ 555 .

(17/839)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة الفلق

عدد 20 - 113

نزلت بمكة بعد سورة الفيل ، وهي خمس آيات وثلاث وعشرون كلمة ، وأربعة وسبعون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها :

"بسم اللّه الرّحمن الرّحيم" .

قال تعالى "قُلْ" يا سيد الرسل إذا أردت أن تحترز مما تخاف وتحذر "أَعُوذُ" التجئ واعتصم "بِرَبِّ الْفَلَقِ 1" الّذي فلق ظلمة العدم بنور الإيجاد ، والصبح بنور النهار ، لأن الليل ينفلق عنه ، قال ابن عباس الفلق سجن أو واد في جهنم تستعيذ منه أهل النار ، وفيه إشارة إلى أن القادر على إزالة ظلمة الليل عن العالم بفلق الصبح ، قادر على أن يدفع عن المستعيذ به ما يخافه ويخشاه ، وخصصه بالتعوذ لأنه وقت دعاء المضطرين وإجابة دعوة الملهوفين "مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ 2" ومن شر كل ذي شر وخاصة فتنة الدجال ومن النار ، وإبليس وأعوانه من الجن والإنس لأنهم شر الخلق وفيه تنبيه على أن الذي فلق ظلمة العدم بنور الإيجاد ، قادر على أن يجير المستعيذ به من شر خلقه المضلين والضالين "وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ" هو الليل عند اشتداد ظلمته وقد أمر

بالتعوذ منه لانتشار الآفات فيه ، وانعدام الغوث غالبا "إِذا وَقَبَ 3" اعتكر ظلامه وقيل هو القمر إذا خسف أخرج الترمذي عن عائشة أنها قالت : إن رسول اللّه نظر إلى القمر فقال لها : استعيذي باللّه من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب .

والمراد منه ، واللّه أعلم إذا خسف وسقط لأن هذا يكون يوم القيمة وهو جدير بان يتعوذ منه ، وهناك أقوال بأنه الحية إذا انقلبت بعد اللسع وغير ذلك ، وليست تلك الأقوال بشيء .

(18/839)

"وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ" السواحر اللاتي ينفثن "فِي الْعُقَدِ 4" في الخيط الذي يرقين عليه ، والنفث النفخ مع قليل من الريق وقيل بلا ريق ، وقيل النفث في العقد إبطال العزائم وآراء الرجال بالحيل استعارة من عقد الحبال لأن حب النساء المتغلغل في قلوب الرجال صيرهن يتصرّفن من رأي إلى رأي ومن عزيمة إلى عزيمة فأمر رسول اللّه بالتعوذ من كيدهن ومكرهن .

قال الإمام الفخر : هذا قول حسن لولا أنه على خلاف رأي أكثر المفسرين "وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ 5" أظهر حسده وعمل بمقتضاه .

مطلب في الحسد والتعاويذ :

والحاسد الذي يتمنى زوال نعمة الغير أو يسعى في زوالها ، وهو أول ذنب عصي اللّه فيه في السماء من إبليس ، وأول ذنب عصي الله فيه في الأرض من قابل وقصتهما ستأتي ، الأولى في الآية 10 فما بعدها من سورة الأعراف الآتية وهي مكررة في القرآن كثيرا والثانية في الآية 21 من سورة المائدة في ج 3 .

واعلم إن دواء المحسود لداء الحاسد هو الصبر لا غير قال :

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله

فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

وهو في الحقيقة اعتراض على الله لأن الحاسد يحسد المحسود على ما أولاه ربه من النعم وحرمه منها ، أما الغبطة وهي تمني مثل ما عند الآخر مع بقائها عنده فهي جائزة .

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم قال : لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه اللّه القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل وأطراف النهار .

والحكم الشرعي أنه يجوز النفخ في الرقى والتعاويذ الشرعية المستحبة بدليل حديث عائشة رضي اللّه عنها وعن أبيها قالت : كان النبي صلّى اللّه عليه وسلم إذا مرض أحد

من أهله نفث عليه بالمعوذات .

وأما التفل فهو منكر .

(19/839)

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن جبريل أتى النبي صلّى اللّه عليه وسلم فقال يا محمد اشتكيت ؟ قال نعم .

قال : بسم اللّه أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، ومن شر كل نفس أو عين حاسد اللّه يشفيك ، بسم اللّه أرقيك .

وجاء في حديث آخر ، جواز أخذ الأجرة على الرقيا .

وقالوا إن العين والحاسد يشتركان في أن كلا منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من تريد أذاه إلا أن المعاين تتكيف نفسه عند مقابلة المعيون ، والحاسد يحصل حسده في الحضور والغيبة وقد مر بحث إصابة العين آخر سورة القلم وكررت كلمة الحسد في الآية 109 من البقرة والآية 53 من النساء والآية 15 من الفتح فقط .

هذا ، واللّه أعلم وأستغفر اللّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم وصلّى اللّه على

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا آمين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 1 صـ 183.181 ﴾

(20/839)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الفلق

ليس فيها وقف كاف ولا تام إلا آخرها تام. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(21/839)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

الفلق والناس

(22/839)

ليس فيهما وقف دون آخرهما وإن وقفت على رأس كل آية فحسن لما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه كان يقف على رأس كل آية منهما وسبب نزول السورتين أنَّه كان غلام من اليهود يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فلم يزل به اليهود حتى أخذ مشاطة رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسنان مشطه فأعطاه لليهود فسحروا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي تولى ذلك لبيد بن أعصم اليهودي ثمَّ دسها في بئر بني زريق يقال لها ذروان فمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتثر شعر رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يرى أنَّه يأتي النساء وما يأتيهن ويخيل إليه أنَّه يفعل الشيء وما يفعله فبينما هو نائم ذات يوم أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فقال أحدهما لصاحبه ما بال الرجل قال طُبَّ قال وما طُبَّ قال سحر ورى ما وجع الرجل فقال مطبوب فقال ومن سحره قال لبيد بن أعصم قال فيماذا قال في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر جف الطلعة وعاؤها قال وأين هو قال في ذروان تحت راعوفة البئر والراعوفة صخرة تترك في أسفل البئر إذا احترقت فإذا أرادوا تنقية البئر جلس عليها المنقى ويقال لها أرعوفة فانتبه النبي صلى الله عليه وسلم وقال يا عائشة أما شعرت أنَّ الله أخبرني بدائي ثم بعث علياً و الزبير وعماراً وثوبان فأخرجوا الجف وإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان مشطه وإذا وتر معقد فيه إحدى عشرة عقدة وروى أنَّها كانت مغروزة بالإبر . انتهى انتهى . ا هـ كواشي

وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ قل هو الله أحد والمعوَّذتين ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ برأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاثاً ومن قرأ المعوَّذتين قبل طلوع الشمس وقبل غروبها تولى عنه الشيطان وله نباح كنباح الكلب وفي الحديث أنَّه كان صلى الله عليه وسلم قال لعثمان بن عفان عليك بالمعوَّذتين فما تعوَّذ بأفضل منهما وقال التمائم والرقى و التولة شرك يكفيك أن

(23/839)

تقرأ

المعوَّذتين والتولة بكسر التاء وفتحها ما يشبه السحر

(اللَّهم) كما وفقتنا لجمعه تفضل علينا بستر هفواتنا واجعل لنا به في الدنيا ذكراً جميلاً وفي الآخرة أجراً جزيلاً اللَّهم لا تؤاخذنا بما كان منَّا من تأويل على غير ما أنزلته أو فهم على غير وجه ترضاه اللَّهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا وشفاء صدورنا وذهاب همومنا و غمومنا و غمومنا واجعله أنيساً لنا في قبورنا ودليلنا إليك وإلى جنَّاتك جنات النعيم مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والمرسلين اللَّهم ذكرنا منه ما نسينا وعلمنا منه ما جهلنا واستعملنا في تلاوته آناء الليل وأطراف النَّهار على النحو الذي يرضيك عنَّا والصلاة

والسلام على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

(أنهاه) جامعه العبد الفقير القائم على قدمي العجز والتقصير أحمد بن الشيخ عبد الكريم بن الشيخ محمد بن الشيخ عبد الكريم ولكل واحد من هؤلاء الثلاثة حكاية فقد شاهدت من الوالد رحمه الله عليه أنَّه مرة قصد زيارة الإمام الشافعي ثم ذهب لزيارة الليث فوضع حرامه فوق الحنفية وتوضأ وتركه فوق الحنفية نسياناً ودخل وزار الأستاذ قبل العشاء فلم يتذكر الحرام حتى عاد لزيارة الشافعي بمدَّة تزيد على ثلاثين درجة بعد العشاء فجلس تجاه سيدي يحيى الشبيه وقال لي يا ولدي لا أذهب من هذا المكان إلاَّ بحِرامي فذهبت إلى الحنفية فوجدت الحرام فوق الحنفية ورجل واقف على قبقاب يحرسه فأخذته والوالد واقف تجاه الأستاذ سيدي يحيى الشبيه نفعنا الله ببركاته

(وحكى) عن الجد الشيخ محمد أنَّه كان مؤذناً بالشافعيِّ وكان متزوجاً بثلاث واحدة في الشافعيَّ وواحدة في طولون وواحدة في زاوية البقلي في المنوفية وكان يقرأ في كل يوم ختمة كاملةً وهو يشتغل في الحياكة ويقرئ أولاد صنجق في القاعة ولم يذهب إلى بيت صنجق ولا مرة

(وحكى) عن الجد الأعلى أعني الشيخ عبد الكريم أنَّه حجَّ سنةً مع شيخه وأستاذه سيدي أحمد بن عثمان الشرنوبي صاحب الكرامات الظاهرة من جملة الفقراء فتاه الجد عن طريق الحجِّ ثلاث ليال لم يدر أين يتوجه فسار في الجبال ثم وجد جملاً صغيراً عرياناً باركاً فركبه فقام بسرعة كالطير إلى أن جاء لمقدم الحج وبرك فضربه ضرباً شديداً ليقوم فلم يتحرك فتركه فلمّا قدم على الأستاذ قال لتلامذته سلِّموا على أخيكم الشيخ عبد الكريم الذي علقته ألف وأرى جماعته أثر الضرب على أضلاعه سامح الله الجميع وغفر لهم من فيض جوده العميم وأسكن الله الجميع بحبوحة جنات النعيم أنَّه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وإنما ذكرت هؤلاء الثلاثة تحدثاً بنعمة الله مولى الموالي واقتداء بقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأميّ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين. انتهى انتهى. اهـ ﴿ منار الهدى صـ 869. 871 ﴾

(25/839)

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة الدمياطى :

سورة الفلق

مكية وقيل مدنية قيل وهو الصحيح وآيها خمس

واختلف في النفاثات) الآية 4 فرويس من طريق النخاس بالمعجمة والجوهري كلاهما عن التمار عنه ﴿ النافثات ﴾ بألف بعد النون وكسر الفاء مخففة بلا ألف بعدها وهي قراءة عاصم عن الجحدري وغيره ورويت عن الكسائي وقطع بها لرويس في المبهج والتذكرة وانفرد أبو الكرم في مصباحه عن روح بضم النون وتخفيف الفاء نفاثة وهو ما تنفثه من فيك وعن الحسن بضم النون وتشديد الفاء وفتحها وألف بعدها بلا ألف بعد النون كالتفاحات والباقون كذلك لكن بفتح النون جمع نفاثة وهي رواية ما في أصحاب التمار عنه عن رويس والرسم محتمل للقراآت الأربع لحذف الألفين في جميع المصاحف والكل مأخوذ عن النفث وهو شبه النفخ يكون في الدقية ولا ريق معه فإن كان معه ريق فهو التفل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(26/839)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الفلق "

" قل أعوذ " لا يخفى ما فيه من النقل لورش مطلقا وما فيه لحمزة وصلا ووقفا من السكت وغيره. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 358 ﴾

(27/839)

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الفلق

لا خلاف فيها الا ما رواه احمد بن موسى عن ابي عمرو حاسد بالامالة والمشهور عنه التفخيم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 378 ﴾

(28/839)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الفلق 113

مدنية هذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقال قتادة مكية وقد ذكر نظيرتها في جميع

العدد

وكلمها ثلاث وعشرون كلمة ككلم الفيل والمسد

وحروفها تسعة وسبعون كحروف الناس

وهي خمس آيات في جميع العدد ليس فيها اختلاف ورؤوس الآي

الفلق

1 ما خلق

2 وقب

3 العقد

4 حسد

5 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 297 ﴾

(29/839)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى (من شر ما خلق) يجوز أن تكون " ما " بمعنى الذى والعائد محذوف ، وأن تكون مصدرية ، والخلق بمعنى المخلوق ، وإن شئت كان على بابه : أي من شر خلقه : أي ابتداعه ، وقرئ من شر بالتنوين : وما على هذا بدل من شر أو زائدة ، ولا يجوز أن تكون نافية ، لأن النافية لا يتقدم عليها ما في حيزها ، فلذلك لم يجز أن يكون التقدير : ما خلق من شر ثم هو فاسد في المعنى ، و (النفاثات) والنافثات بمعنى واحد ، والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(30/839)

وقال الشيخ : حميدان دعاس :

سورة الفلق

[سورة الفلق (113) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها . "أَعُوذُ" مضارع فاعله مستتر "بِرَبِّ" متعلقان بالفعل "الْفَلَقِ" مضاف إليه والجملة مقول القول .

[سورة الفلق (113) : آية 2]

مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (2)

"مِنْ شَرِّ" الجار والمجرور متعلقان بأعوذ "ما" اسم موصول مضاف إليه "خَلَقَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة

[سورة الفلق (113) : آية 3]

وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (3)

"وَمِنْ شَرِّ" معطوفان على ما قبلهما "غاسِقٍ" مضاف إليه "إِذا" ظرف زمان "وَقَبَ" ماض فاعله مستتر والجملة في محل جر بالإضافة .

[سورة الفلق (113) : آية 4]

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (4)

"وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ" معطوف على ما قبله "فِي الْعُقَدِ" متعلقان بما قبلهما .

[سورة الفلق (113) : آية 5]

وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (5)

"وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ" معطوف على ما قبله "إِذا" ظرف زمان "حَسَدَ" ماض فاعله مستتر

والجملة في محل جر بالإضافة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 476﴾

(31/839)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةَ الفلق

ذكر فِيهَا أَرْبَعَة أَحَادِيث

1566 - الحَدِيث الأول

فِي الحَدِيث لما رأى الشَّمْس قد وَقَبَتْ قَالَ هَذَا حِين حلهَا يَعْنِي صَلَاة الْمغرب

قلت رَوَاهُ أَبُو عبيد الْقَاسِم بن سَلام فِي كِتَابه غَرِيب الحَدِيث فَقَالَ ثَنَا مُحَمَّد بن ربيعَة عَن عبد الله بن سعيد عَن أَبِيه عَن أبي هِنْد عَن أَبِيه عَن عبيد الله بن عبد الله بن عتبَة رَفعه إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنه لما رأى الشَّمْس قد وَقَبَتْ قَالَ هَذَا حِين حلهَا انْتَهَى ثمَّ قَالَ قَوْله وَقَبَتْ أَي غَابَتْ وَاصل الوقوب الدُّخُول قَالَ وَمِنْه قَوْله تَعَالَى وَمن شَرّ غَاسِق إِذا وَقب انْتَهَى

وَالْمُصَنّف احْتج بِهِ عَلَى أَن وقب بِمَعْنى غَابَ

1567 - الحَدِيث الثَّانِي

عَن عَائِشَة قَالَت أَخذ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ بيَدي فَأَشَارَ إِلَى الْقَمَر فَقَالَ نَعُوذ بِاللَّه من شَرّ هَذَا إِنَّه الغَاسِق إِذا وَقب

قلت رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه فِي التَّفْسِير وَالنَّسَائِيّ فِيهِ وَفِي الْيَوْم وَاللَّيْلَة من حَدِيث ابْن أبي ذِئْب عَن خَاله الْحَارِث بن عبد الرَّحْمَن عَن أبي سَلمَة عَن عَائِشَة أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم َ نظر إِلَى الْقَمَر فَقَالَ يَا عَائِشَة اسْتَعِيذِي بِاللَّه من شَرّ هَذَا فَإِنَّهُ الغَاسِق إِذا وَقب انْتَهَى قَالَ التِّرْمِذِيّ حَدِيث حسن صَحِيح

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ انْتَهَى

وَرَوَاهُ احْمَد وَابْن أبي شيبَة وَعبد بن حميد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعلى الْموصِلِي وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي مسانيدهم

(32/839)

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره عَن مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن أبي ذِئْب عَن خَاله الْحَارِث بِهِ

وَلَفظ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير أَخذ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بيَدي وَقد طلع الْقَمَر فَقَالَ

1568 - الحَدِيث الثَّالِث

قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم لَا حسد إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ هَكَذَا فِي الْكتاب

قلت فِيهِ أَحَادِيث

رَوَى الْبُخَارِيّ وَمُسلم فِي فَضَائِل الْقُرْآن من حَدِيث سَالم بن عبد الله عَن أَبِيه سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول لَا حسد إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رجل آتَاهُ الله الْكتاب فَهُوَ يقوم بِهِ آنَاء اللَّيْل وَالنَّهَار انْتَهَى

وَرَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي مُصَنفه وَزَاد فِيهِ فَهُوَ يُنْفق يَعْنِي الصَّدَقَة

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُسْنده وَزَاد فِيهِ فَيَقُول الرجل لَو آتَانِي الله مثل مَا أُوتِيَ فلَان لفَعَلت مثل مَا يفعل

حَدِيث آخر رَوَى الْبُخَارِيّ فِي كتاب الْعلم وَمُسلم فِي فَضَائِل الْقُرْآن من حَدِيث قيس بن أبي حَازِم عَن ابْن مَسْعُود عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَا حسد إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رجل آتَاهُ الله مَالا فسلطه عَلَى هَلَكته فِي الْحق وَرجل آتَاهُ الله الْحِكْمَة فَهُوَ يقْضِي بهَا وَيعلمهَا انْتَهَى

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيّ من حَدِيث أبي هُرَيْرَة بِاللَّفْظِ الأول وَزَاد فِيهِ فَقَالَ رجل لَيْتَني أُوتيت مثل مَا أُوتِيَ فلَان فَعملت مثل الَّذِي يعْمل فَوضع الْحَسَد مَوضِع الْغِبْطَة

وَلَا يُعَارض هَذَا بقوله تَعَالَى وَلَا تتمنوا مَا فضل الله بِهِ بَعْضكُم عَلَى بعض لِأَن الْآيَة نزلت فِي سَبَب خَاص رَوَاهُ الْحَاكِم فِي الْمُسْتَدْرك من حَدِيث مُجَاهِد عَن أم سَلمَة قَالَت يَا رَسُول الله أيغزو الرِّجَال وَلَا نغزو وَلَا نُقَاتِل فنستشهد وَإِنَّمَا لنا نصف الْمِيرَاث فَأنْزل الله الْآيَة ثمَّ قَالَ صَحِيح إِن كَانَ مُجَاهِد سمع من أم سَلمَة انْتهى

قَالَ الْقُرْطُبِيّ فِي شرح مُسلم المُرَاد بالْحَسَدِ فِي هَذَا الحَدِيث الْغِبْطَة وَقد نبه عَلَيْهِ البُخَارِيّ فِي التَّبْوِيب فَقَالَ بَاب الِاغْتِبَاط فِي الْعلم وَالْحكمَة وَكَذَلِكَ قَالَ النَّوَوِيّ لَا غِبْطَة أفضل مِنْهَا فِي هَاتين

قَالَ الْبَغَوِيّ فِي شرح السّنة وَقيل إِن فِيهِ إِبَاحَة لنَوْع من الْحَسَد كَمَا فِيهِ نوع إِبَاحَة من الْكَذِب فِي قَوْله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يحل الْكَذِب إِلَّا فِي ثَلَاث الرجل يكذب فِي الْحَرْب وَيصْلح بَين اثْنَيْنِ وَيحدث أَهله انْتهى

قَالَ الْقُرْطُبِيّ وَمن الْحَسَد مَا يكون مَحْمُودًا مثل أَن يتَمَنَّى زَوَال النِّعْمَة عَن الْكَافِر وَعَمن يَسْتَعِين بهَا عَلَى الْمعاصِي وكلهمْ اتَّفقُوا عَلَى تَفْسِير الْحَسَد تمني زَوَال النِّعْمَة عَن الْمَحْسُود إِلَى الْحَاسِد وَالْغِبْطَة أَن يتَمَنَّى لنَفسِهِ مثلهَا دون زَوَالهَا من أَخِيه فَقَالَ الْقُرْطُبِيّ وَيُسمى أَيْضا مُنَافَسَة قَالَ الله تَعَالَى وَفِي ذَلِك فليتنافس الْمُتَنَافسُونَ

1569 - الحَدِيث الرَّابِع

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ المعوذتين فَكَأَنَّمَا قَرَأَ الْكتب الَّتِي أنزلهَا الله تَعَالَى كلهَا

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث أبي عصمَة نوح بن أبي مَرْيَم عَن زيد الْعمي

(34/839)

عَن أبي نَضرة عَن ابْن عَبَّاس عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ من قَرَأَ المعوذتين . . . إِلَى آخِره

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي الْوَسِيط بِسَنَدِهِ الْمُتَقَدّم فِي يُونُس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿تخريج الأحاديث والآثار حـ 4 صـ 335 . 338﴾

(35/839)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة الفلق

عن عقبة بن عامر قال: بينما أنا أسير مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بين الجحفة والأبواء، إذ غشيتنا ريح شديدة مظلمة فجعل رسول اللّه يتعوذ بأعوذ برب الفلق، وأعوذ برب الناس ويقول:

«يا عقبة، تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما» «1».

و(النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ)، الآية/ 4: السواحر ينفثن على العليل، ويرقونه بكلام هو كفر وتعظيم للكوكب، ويطعمن العليل الأدوية الحارة الضارة والسموم القاتلة، ويحتلن في التوصل إلى ذلك، ويزعمن أن ذلك من رقاهن، ومن أردن نفعه نفثن عليه، وأوهمن أنهن نفعنه بذلك، وربما أضفن إلى ذلك بعض الأدوية النافعة.

وروت عائشة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

«العين حق ولو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين، فإذا استغنتم فاغتسلوا» «2».

---

(1) ذكره السيوطي في الدر المنثور، وأبن كثير في تفسيره.

(2) أخرجه أبن حميد في مسنده والطبراني في المعجم الكبير والامام أحمد في مسنده

وقال قوم من الفلاسفة : إن ضرر العين ، إنما هو من جهة شيء ينفصل من العين ويتصل بالمعاين .

والحق في ذلك إذا اتفق ضرر فهو من فعل اللّه تعالى ، وإنما يفعل ذلك عند إعجاب الإنسان بما يراه ، تذكيرا له لأن لا يركن إلى الدنيا ولا يعجب بشيء منها .

وعن أنس أن النبي عليه الصلاة والسلام قال :

«من رأى شيئا يعجبه فقال : بسم اللّه ما شاء اللّه لا قوة إلا باللّه لم يضره شيء» «1» .

تم الكتاب بحمد اللّه ومنه ، وقد أتينا على جمل ما يحتاج إليه من أحكام الفقه اشتمل القرآن عليها ، وأوضحنا قدر مقصودنا من اختلاف العلماء ، وبيان أقرب الأقوال إلى معاني القرآن ، ولم نغادر جهدا في تلخيص ما أردناه وحذف الحشو المستغنى عنه .

ونسأل اللّه تعالى أن يجعل سعينا مصروفا إلى ابتغاء مرضاته ، وابتغاء الزلفى لديه ، فإنه رؤوف رحيم بعباده ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد النبي الأمي وآله وسلّم تسليما «2» .

انتهى انتهى . اهـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 433 . 434﴾

---

(1) أخرجه الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب ، والدر المنثور للسيوطي والبيهقي في الشعب .

(2) تمت النسخة وبها تم كتاب أحكام القرآن ونرجو اللّه سبحانه وتعالى أن يجعل عملنا فيه خالصا لوجهه وأن يجزي مؤلفه عنا وعن المسلمين والفقهاء خير الجزاء وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(37/839)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الفلق

أعوذ بالله أى أحتمى به وأتحصن . والله عز وجل يجيب من سأله ويعيذ من استعاذ به . وقد نزلت السورتان الأخيرتان من المصحف الشريف تعلمنا كيف نتحصن بالله من شرور كثيرة ، فإن الحياة حافلة بما يسوء . قال تعالى " ونبلوكم بالشر والخير فتنة " ، " وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون" . وسورتا " قل أعوذ برب الفلق" . و " قل أعوذ برب الناس " . حصانات قوية لمن أراد اللياذ بالله والظفر بحمايته . . والفلق الصبح أو الضوء الذى يشق الظلام . ومصادر الشر كثيرة من جراثيم وزواحف وسباع وبشر ! "والغاسق إذا وقب " الليل إذا دخل واشتدت ظلمته . ولا يزال الليل مسرحا للصوص والعهار

ومغتالى الحقوق والحريات . "والنفاثات فى العقد" قيل النساء السواحر ! وللسحر حقيقة عند بعض العلماء ، ولشياطين الإنس والجن شغل به ، والاستعاذة تبطله . ويرى ابن حزم وعلماء الظاهر أن السحر لا حقيقة له ، وإنما هو خداع وتخييل . وللعامة أوهام كثيرة فى هذا الميدان ينبغى الحذر منها . ومما يستعاذ بالله منه الحسد ، وهو رذيلة تقوم على تمنى زوال النعم ، وكره أصحابها والكيد لهم . والحسد من أشيع الجرائم بين الناس . حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالكل أعداء له وخصوم ! وقد يطلق الحسد على العين ! وهى نظرة مسمومة نحو ما يكون من خير ، ينسج الناس حولها حقائق وأباطيل . والاستعاذة على كل حال تعصم من الواقع والمتوقع ، وتقى المؤمن شرور الآخرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 551 ﴾

"فصل"

قال السيوطى :

سورة الفلق والناس

أقول : هاتان السورتان نزلنا معاً ، كما في الدلائل للبيهقي فلذلك قُرنتا ، مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين ، ومن الافتتاح بقل أعوذ ، وعقب بهما سورة الإخلاص ، لأن الثلاثة سميت في الحديث بالمعوذات ، وبالقوافل وقدمت الفلق على الناس – وإن كانت أقصر منها – لمناسبة مقطعها في الوزان لفواصل الإخلاص مع مقطع تبت وهذا آخر ما من الله به على من استخراج مناسبات ترتيب السور ، وكله من مستنبطاتي ، ولم أعثر فيه على شيء لغيري إلا النزر اليسير الذي صرحت بعزوى له ، فلله الحمد على ما ألهم ، والشكر على ما من به وأنعم ، سبحانك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ثم رأيت الإمام فخر الدين ذكر في تفسيره كلاماً لطيفاً في مناسبات هذه السور ، فقال في سورة الكوثر : اعلم أن هذه السورة كالمتممة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها أما الأول ، فلأنه تعالى جعل سورة الضحى في مدح النبي صلى الله عليه وسلم ، وتفصيل أحواله ، فذكر في أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته (ما ودعكَ ربُكَ وما قلى وللآخرةُ خيرٌ لكَ من الأولى ولسوف يُعطيكَ ربُكَ فترضى) ثم ختمها بثلاثة أحوال من أحواله فيما يتعلق بالدنيا : (ألَم يجدِكَ يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدكَ عائلاً فأغنى) ثم ذكر في سورة ألم

نشرح أنه شرفه بثلاثة أشياء : شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ثم شرفه في سورة التين بثلاثة أشياء أنواع : أقسم ببلده ، وأخبر بخلاص أمته من الناس بقوله : (إلا الذين آمنوا) ووصولهم إلى الثواب بقوله : (فلهم أَجرٌ غيرُ ممنون) وشرَّفه في سورة اقرأ بثلاثة أنواع : (اقرأ باسم ربِكَ) وقهر خصمه بقوله : (فليدع ناديه سندع الزبانية) وتخصيصه بالقرب في قوله : (واسجد واقترب) وشرفه في سورة القدر بليلة القدر ، وفيها ثلاثة أنواع من الفضيلة : كونها خيراً من ألف شهر ، وتنزل الملائكة والروح فيها ، وكونها سلاماً حتى مطلع الفجر وشرفه في (لم يكُن) بثلاثة أشياء : أنهم خير البرية ،

(40/839)

وجزاؤهم جنات ، ورضى عنهم

(41/839)

وشرفه في الزلزلة بثلاثة أنواع : إخبار الأرض بطاعة أمته ، ورؤيتهم أعمالهم ، ووصولهم إلى ثوابها حتى وزن الذرة وشرفه في العاديات بإقسامه بخيل الغزاة من أمته ، ووصفها

بثلاث صفات وشرفه في القارعة بثقل موازين أمته ، وكونهم في عيشة راضية ، ورؤيتهم أعداءهم في نار حامية وفي ألهاكم التكاثر ، هدد المعرضين عن دينه بثلاثة : يرون الجحيم ، ثم يرونها عين اليقين ، ويسألون عن النعيم وشرفه في سورة العصر بمدح أمته بثلاث : الإيمان ، والعمل الصالح ، وإرشاد الخلق إليه ، وهو : التواصي بالحق والصبر وشرفه في سورة الهمزة بوعيد عدوه بثلاثة أشياء : ألا ينتفع بدنياه ، ويعذبه في الحطمة ، ويغلق عليه وشرفه في سورة الفيل بأن رد كيد عدوه بثلاث : بأن جعله في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعلهم كعصف مأكول وشرفه في سورة قريش بثلاث : تألف قومه ، وإطعامهم ، وأمنهم وشرف في الماعون بذم عدوه بثلاث : الدناءة ، واللؤم في قوله (فذلكَ الذي يدعُ اليَتيم ولا يَحضُ عَلى طعامِ المسكين) وترك تعظيم الخالق في قوله : (فَويلٌ للمُصلين الذينَ هُم عَن صلاتِهم ساهون الذينَ هُم يُراءونَ) وترك نفع الخلق في قوله : (ويمنَعونَ الماعون) فلما شرفه في هذه السور بهذه الوجوه العظيمة قال : (إِنّا أَعطيناكَ الكوثر) أي : هذه الفضائل المتكاثرة المذكورة في هذه السور ، التي كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها ، فاشتغل أنت بعبادة ربك ، إما بالنفس ، وهو قوله (فصل لربك) وإما بالمال ، وهو قوله (وانحر) وإما بإرشاد العباد إلى الأصلح ، وهو قوله : (قُل يا أَيُها الكافرون لا أَعبدُ ما تعبدون) فثبت أن هذه السورة كالمتممة لما قبلها وأما كونها كالأصل لما بعدها فهو : أنه تعالى يأمره بعد هذه أن يكف عن أهل الدنيا جميعاً بقوله : (قُل يا أَيُها الكافرون) إلى آخر

السورة ويبطل أذاهم ، وذلك يقتضى نصرهم على أعدائهم ، لأن الطعن على الإنسان في دينه أشد عليه من الطعن في نفسه وزوجه ، وذلك مما يجبن

(42/839)

عنه كل أحد من الخلق ، فإن موسى وهارون أرسلا إلى فرعون واحد فقالا : (إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) ومحمد صلى الله عليه وسلم مرسل إلى الخلق جميعاً ، فكان كل واحد من الخلق كفرعون بالنسبة إليه فدبر الله في إزالة الخوف الشديد تدبيراً لطيفاً ، بأن قدم هذه السورة ، وأخبر فيها بإعطائه الخير الكثير ، ومن جملته أيضاً : الرئاسة ، ومفاتيح الدنيا ، فلا يلتفت إلى ما بأيديهم من زهرة الدنيا ، وذلك أدعى إلى مجاهدتهم بالعداوة ، والصلح بالحق ، لعدم تطلعه إلى ما بأيديهم ثم ذكر بعد سورة الكافرين سورة النصر ، فكأنه تعالى يقول : وعدتك بالخير الكثير ، وإتمام أمرك ، وأمرتك بإبطال أديانهم ، والبراءة من معبوداتهم ، فلما امتثلت أمري أنجزت لك الوعد بالفتح والنصر ، وكثرة الأتباع ، بدخول الناس في دين الله أفواجاً ولما تم أمر الدعوة والشريعة ، شرع في بيان ما يتعلق بأحوال القلب والباطن وذلك أن الطالب إما أن يكون طلبه مقصوراً على الدنيا ، فليس له إلا الذل والخسارة والهوان ، والمصير إلى النار ، وهو المراد من سورة تبت وإما أن يكون طالباً

للآخرة ، فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرآة التي تنتقش فيها صور الموجودات وقد ثبت أن طريق الخلق في معرفة الصانع على وجهين : منهم من قال : أعرف الصانع ، ثم أتوسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته ، وهذا هو الطريق الأشرف ، ومنهم من عكس ، وهو طريق الجمهور ثم إنه سبحانه ختم كتابه المكرم بتلك الطريقة التي هي أشرف فبدأ بذكر صفات الله ، وشرح جلاله ، في سورة الإخلاص ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته في الفلق ، ثم ختم بذكر مراتب النفس الإنسانية في الناس ، وعند ذلك ختم الكتاب فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هذه الأسرار الشريفة في كتابه المكرم هذا كلام الإمام ثم قال في سورة الفلق : سمعت بعض العارفين يقول : لما شرح الله سبحانه أمر الإلهية في سورة الإخلاص ، ذكر هاتين السورتين عقبها في شرح مراتب الخلق على ما قال : {ألا له الخلق

(43/839)

والأمر} فعالم الأمر كله خيرات محضة ، بريئة عن الشرور والآفات ، أما عالم الخلق فهو الأجسام الكثيفة ، والجثمانيات فلا جرم قال في المطلع : {قُلْ أَعوذُ بِرَبِ الفَلَقِ مِن شَرِ ما خَلَق}

ثم الأجسام إما أبدية ، وكلها خيرات محضة ، لأنها بريئة عن الاختلافات والفطور ، على

ما قال : ﴿ما ترى في خَلقِ الرحمن مِن تفاوت فارجعِ البصر هل ترى مِن فطور﴾ وإما عنصرية ، وهي إما جمادات ، فهي خالية عن جميع القوى النفسانية ، فالظلمات فيها خالصة ، والأنوار عنها زائلة ، وهو المراد من قوله : ﴿ومِن شرِ غاسقٍ إذا وقب﴾ وإما نبات ، والقوة العادلة هي التي تزيد في الطول والعمق معاً ، فهذه القوة النباتية كأنها تنفث في العقدة وإما حيوان ، وهو محل القوى التي تمنع الروح الإنسانية عن الانصباب إلى عالم الغيب ، والاشتغال بقدس جلال الله ، وهو المراد بقوله : ﴿ومِن شرِ حاسدٍ إذا حسد﴾ ثم إنه لم يبق من السفليات بعد هذه المرتبة سوى النفس الإنسانية ، وهي المستفيدة ، فلا يكون مستفاداً منها ، فلاجرم قطع هذه السورة ، وذكر بعدها في سورة الناس مراتب ودرجات النفس الإنسانية ولم يبين المراتب المشار إليا وقد بينها ابن الزملكاني في أسراره فقال : إضافة رب إلى الناس تؤذن بأن المراد بالناس : الأطفال ، لأن الرب من : ربه يربه ، وهم إلى التربية أحوج وإضافة ملك إلى الناس تؤذن بإرادة الشباب به ، إذ لفظ ملك يؤذن بالسياسة والعزة ، والشبان إليها أحوج وإضافة إله إلى الناس تؤذن بأن المراد به الشيوخ ، لأن ذاته مستحقة للطاعة والعبادة ، وهم أقرب وقوله : ﴿يوَسوسُ في صدورِ الناس﴾ يؤذن بأن المراد بالناس : العلماء والعباد ، لأن الوسوسة غالباً عن الشبه وقوله : ﴿مِنَ الجنَةِ والناس﴾ يؤذن بأن المراد بالناس : الأشرار وهم شياطين الإنس الذين يوسوسون لهم والله تعالى أعلم . انتهى انتهى .

اهـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 161 . 167﴾

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

سورة الفلق

(بسم الله) الذي له جميع الحول (الرحمن) الذي استجمع كمال الطول (الرحيم) الذي أتم على أهل وداده جميع النول بالسلام من علي القول .

لما افتتح سبحانه وتعالى هذا الذكر الحكيم بالهداية في قوله تعالة) اهدنا الصراط المستقيم (وبالهداية والتقوى التي هي شعار التائب في قوله تعالى : (هدى للمتقين) [البقرة : 2] وذلك أول منازل السائرين ، وختم بتقرير أمر التوحيد على وجه لا يتصور أن يكون أكمل منه وتقرير الإخلاص فيه كما يشعر به الأمر ب) قل (وذلك هو نهاية المقامات عند العارفين ، فتم بذلك الدين ، وانتهى سير السالكين ، وختم الإخلاص المقررة لذلك بأنه تعالى لا كفوء له ، فتوفرت الدواعي على الانقطاع إليه والعكوف عليه وألقت عصاها

واطمأن بها النوى

كما قر عينا بإياب المسافر

(45/839)

أمر بالتعوذ برب هذا الدين ، موافقة لإياك نعبد وإياك نستعين ، من شر ما يقدح فيه بضرر في الظاهر أو في الباطن وهم الخلائق حتى على الفنا في الغنا ، وبدأ بما يعم شياطين الإنس والجن في الظاهر والباطن ، ثم اتبع بما يعم القبيلين ويخص الباطن الذي يستلزم صلاحه صلاح الظاهر ، إعلاماً بشرف الباطن على وجه لا يخل بالظاهر ، وفي ذلك إشارة إلى الحث على معاودة القراءة من أول القرآن كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾ [النحل : 98] - أي أردت قراءته - ﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : 98] فقال تعالى : ﴿ قل ﴾ أي لكل من يبلغه القول من جميع الخلائق تعليماً لهم وأمراً ، فإنهم كلهم مربوبون مقهورون لا نجاة لهم في شيء من الضرر إلا بعصمته سبحانه وتعالى ، فعلى كل منهم أن يفزع أول ما تصيبه المصيبة إلى مولاه القادر على كشفها تصحيحاً لتوكله فإنه يرتقي بذلك إلى حال الرضا بمر القضاء ، ولا يأخذ في الاعتماد على جلادته وتدبيره بحوله وقوته فإنه يشتد أسفه ولا يرد ذلك عنه شيئاً : ﴿ أعوذ ﴾ أي أستجير وألتجىء

وأعتصم وأحترز .

ولما كان هذا المعنى أليق شيء بصفة الربوبية لأن الإعاذة من المضار أعظم تربية قال :

﴿ برب الفلق ﴾ أي الذي يربيه وينشىء منه ما يريد ، وهو الشيء المفلوق بإيجاده ظلمة العدم كالعيون التي فلقت بها ظلمة الأرض والجبال ، وكالأمطار التي فلقت بها ظلمة الجو والسحاب ، وكالنبات الذي فلقت به ظلمة الصعيد ، وكالأولاد التي فلقت بها ظلمة الأحشاء ، وكالصبح الذي فلقت به ظلمة الليل ، وما كان من الوحشة إلى ما حصل من ذلك من الطمأنينة والسكون والأنس والسرور إلى غير ذلك من سائر المخلوقات ، قال الملوي : والفلق – بالسكون والحركة كل شيء انشق عنه ظلمة العدم وأوجد من الكائنات جميعها – انتهى .

(46/839)

وخص في العرف بالصبح فقيل : فلق الصبح ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح ﴾ [الأنعام : 96] لأنه ظاهر في تغير الحال ومحاكاة يوم القيامة الذي هو أعظم فلق يشق ظلمة الفنا والهلاك بالبعث والإحياء ، فإن القادر على ما قبله بما نشاهده قادر عليه ، لأنه لا فرق ، بل البعث أهون في عوائد الناس لأنه إعادة ، كذا سائر الممكنات ، ومن قدر على

ذلك قدر على إعاذة المستعيذ من كل ما يخافه ويخشاه .

ولما كانت الأشياء قسمين : عالم الخلق ، وعالم الأمر ، وكان عالم الأمر خيراً كله ، فكان الشر منحصراً في عالم الخلق خاصة بالاستعاذة فقال تعالى معمماً فيها : ﴿ من شر ما خلق ﴾ أي من كل شيء سوى الله تعالى عز وجل وصفاته ، والشر تارة يكون اختيارياً من العاقل الداخل تحت مدلول " لا " وغيره من سائر الحيوان كالكفر والظلم ونهش السباع ولدغ ذوات السموم ، وتارة طبيعياً كإحراق النار وإهلاك السموم .

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : قد أشير ، أي في الكلام على ارتباط الإخلاص - إلى وجه ارتباطها آنفاً ، وذلك واضح إن شاء الله تعالى - انتهى .

ولما كان عطف الخاص على العام يعرف بأن ذلك الخاص أولى أفراد العام بما ذكر له من الحكم ، وكان شر الأشياء الظلام ، فإنه أصل كل فساد ، وكانت شرارته مع ذلك وشرارة السحر والحسد خفية ، خصها بالذكر من بين ما عمه الخلق لأن الخفي يأتي من حيث لا يحتسب الإنسان فيكون أضر .

ولذا قيل : شر العداة المداجي ، وكانت مادة " غسق " تدور على الظلام والانصباب ، فالغسق – محركة : ظلمة أول الليل ، وغسقت العين : أظلمت أو دمعت ، واللبن : انصب من الضرع ، والليل : اشتدت ظلمته ، والغسقان – محركة : الانصباب ، والغاسق : القمر ، وكأنه سمي به لسرعة سيره وانصبابه في البروج ولأنه ليس له من نفسه إلا الإظلام ، والثريا – إذا سقطت – والله أعلم ، قال في القاموس : لكثرة الطواعين والأسقام عند سقوطها ، والذكر – إذا قام ، كما قاله جماعة وروي عن ابن عباس .رضى الله عنهما . ، وهو سبب للجهل الذي هو ظلام كله ، فقال تعالى : ﴿ ومن شر غاسق ﴾ أي مظلم بارد منصب ظلامه وبرده سواء كان أصلاً في الظلام حسياً أو معنوياً أو كان حاملاً عليه مثل الذكر إذا قام لما يجر إليه من الوساوس الرديئة لغلبة الشهوة واستحكام سلطان الهوى ، ومثل القمر لما يحدث منه من الرطوبات المفسدة للأبدان وغير ذلك انصباباً له غاية القوة كانصباب ما يفيض عن امتلاء في انحدار ، ونكّره إشارة إلى أنه ليس كل غاسق مذموماً – والله أعلم .

(48/839)

ولما كان الشيء الذي اتصف بالظلام يكثف فيشتد انصبابه وأخذه في السفول إلى أن يستقر ويستحكم فيما صوب إليه مجتمعاً جداً كاجتماع الشيء في الوقبة وهي النقرة في

الصخرة ، وكان الظلام لا يشتد أذاه إلا إذا استقر وثبت ، قال معبراً بأداة التحقق : ﴿ إذا وقب ﴾ أي اعتكر ظلامه ودخل في الأشياء بغاية القوة كمدخول الثقيل الكثيف المنصب في النقرة التي تكون كالبئر في الصخرة الصماء الملساء ، وهذا إشارة إلى أنه يسهل علاجه وزواله قبل تمكنه ، وفي الحديث " لما رأى الشمس قد وقبت قال : هذا حين حلها " يعني صلاة المغرب ، وفيه عند أبي يعلى أنه قال لعائشة رضي الله تعالى عنها عن القمر : " تعوذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب " وأكثر الأقوال أنه الليل ، خص بالاستعاذة لأن المضار فيه تكثر ويعسر دفعها ، وأصل الغسق الظلام ، ويلزم منه الامتلاء ، وقيل : إن الامتلاء هو الأصل ، وأصل الوقوب الدخول في وقبة أو ما هو كالوقبة وهي النقرة .

ولما كان السحر أعظم ما يكون من ظلام الشر المستحكم في العروق الداخل في وقوبها .

لما فيه من تفريق المرء من زوجه وأبيه وابنه ، ونحو ذلك ، وما فيه من ضنى الأجسام وقتل النفوس ، عقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ ومن شر ﴾ .

(49/839)

ولما كان كل ساحر شريراً بخلاف الغاسق والحاسد ، وكان السحر أضر من الغسق والحسد من جهة أنه شر كله ، ومن جهة أنه أخفى من غيره ، وكان ما هو منه من النساء

أعظم لأن مبنى صحته وقوة تأثيره قلة العقل والدين ورداءة الطبع وضعف اليقين وسرعة الاستحالة ، وهن أعرق في كل من هذه الصفات وأرسخ ، وكان ما وجد منه من جمع وعلى وجه المبالغة أعظم من غيره عرف وبالغ وجمع وأنث ليدخل فيه ما دونه من باب الأولى فقال تعالى : ﴿ النفّاثات ﴾ أي النفوس الساحرة سواء كانت نفوس الرجال أو نفوس النساء أي التي تبالغ في النفث وهو التفل وهو النفخ مع بعض الريق - هكذا في الكشاف ، وقال صاحب القاموس : وهو كالنفخ وأقل من التفل ، وقال : تفل : بزق ، وفي التفسير عن الزجاج أنه التفل بلا ريق ، ﴿ في العقد ﴾ أي تعقدها للسحر في الخيوط وما أشبهها ، وسبب نزول ذلك أن يهودياً سحر النبي . صلى الله عليه وسلم . فمرض كما يأتي تخريجه ، فإن السحر يؤثر بإذن الله تعالى المرض ويصل إلى أن يقتل ، فإذا أقر الساحر أنه قتل بسحره وهو مما يقتل غالباً قتل بذلك عند الشافعي ، ولا ينافي قوله تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ [المائدة : 67] كما مضى بيانه في المائدة ، ولا يوجب ذلك صدق الكفرة في وصفه . صلى الله عليه وسلم . بأنه مسحور ، فإنهم ما أرادوا إلا الجنون أو ما يشبهه من فساد العقل واختلاله ، والمبالغة في أن كل ما يقوله لا حقيقه له كما أن ما ينشأ عن المسحور يكون مختلطاً لا تعرف حقيقته .

ولما كان أعظم حامل على السحر وغيره من أذى الناس الحسد ، وهو تمني زوال نعمة المحسود :

وداريت كل الناس إلا لحاسد . . .

مداراته عزت وشق نوالها

وكيف يداري المرء حاسد نعمة . . .

إذا كان لا يرضيه إلا زوالها

(50/839)

قال تعالى : ﴿ ومن شر حاسد ﴾ أي ثابت الاتصاف بالحسد معرق فيه ، ونكّره لأنه ليس كل حاسد مذموماً ، وأعظم الحسدة الشيطان الذي ليس له دأب إلا السعي في إزالة نعم العبادات عن الإنسان بالغفلات .

ولما كان الضار من الحسد إنما هو ما أظهر وعمل بمقتضاه بالإصابة بالعين أو غيرها قال مقيداً له : ﴿ إذا حسد ﴾ أي حسد بالفعل بعينه الحاسدة ، وأما - إذا لم يظهر الحسد فإنه لا يتأذى به إلا الحاسد لاغتمامه بنعمة غيره ، وفي إشعار الآية الدعاء بما يحسد عليه من نعم الدارين لأن خير الناس من عاش محسوداً ومات محسوداً ، ولمن لم يلق بالاً للدعاء بذلك ويهتم بتحصيل ما يحسد عليه ضحك منه إبليس إذا تلا هذه الآية لكونه ليس له فضيلة يحسد عليها ، ولعله عبر بأداة التحقيق إشعاراً بأن من كان ثابت الحسد متمكناً

من الاتصاف به بما أشعر به التعبير بالوصف تحقق منه إظهاره ، ولم يقدر على مدافعته في الأغلب إلا من عصم الله تعالى ، وقد علم بكون الحسد علة السحر - الموقع في القتل الذي هو أعظم المعاصي بعد الشرك وفي الشرك ، لأنه لا يصح غاية الصحة إلا مع الشرك - أن الحسد شر ما انفلق عنه ظلام العدم ، والشاهد لذلك غلبته على الأمم السالفة وتحذير الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس منه بشهادة هاديها .صلى الله عليه وسلم. ، أخرج الإمام أحمد وأبو داود الطيالسي عن الزبير بن العوام .رضى الله عنه. أن النبي .صلى الله عليه وسلم. :

(51/839)

" دب إليكم داء الأمم قبلكم : الحسد والبغضاء ، ألا والبغضاء هي الحالقة ، لا أقول : إنها تحلق الشعر ولكن تحلق الدين " وفي الباب عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وابن مسعود .رضى الله عنه. ، وأعظم أسباب الحالقة أو كلها الحسد ، فعلم بهذا رجوع آخر السورة على أولها ، وانعطاف مفصلها على موصلها ، ومن أعيذ من هذه المذكورات انفلق سماء قلبه عن شمس المعرفة بعد ظلام ليل الجهل ، فأشرقت أرجاؤه بأنوار الحكم ، إلى أن يضيق الوصف له عن بدائع الكشف :

هناك ترى ما يملأ العين قرة . . .

ويسلي عن الأوطان كل غريب

(52/839)

فينقطع التعلق عما سوى الله بمحض الاتباع والبعد عن الابتداع بمقتضى ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ [آل عمران : 31] وقد بطل بالأمر بالاستعاذة قول الجبرية : إنا كالآلة لا فعل لنا أصلاً ، وإنما نحن كالحجر لا يتحرك إلا بمحرك ، لأنه لو كان هو المحرك لنا بغير اختيار لم يكن للأمر فائدة ، وقول القدرية : إنا نخلق أفعالنا ، وقول الفلاسفة : إنه – إذا وجد السبب والمسبب حصل التأثير من غير احتياج إلى ربط إلهي كالنار والحطب ، لأنه لو كان ذلك لكانت هذه الأفعال المسببات إذا وجدت من فاعليها الذين هم الأسباب ، أو الأفعال التي هي الأسباب ، والمسببات التي هي الأبدان المراد تأثيرها أثرت ولم تنفع الاستعاذة ، والشاهد خلافه ، وثبت قول الأشاعرة أهل السنة والجماعة أنه إذا وجد السبب والمسبب توقف وجود الأثر على إيجاد الله تعالى ، فإن أنفذ السبب وجد الأثر ، وإن لم ينفذه لم يوجد ، والسورتان معلمتان بأن البلايا كثيرة وهو قادر على دفعها ، فهما حاملتان على الخوف والرجاء ، وذلك هو لباب العبودية ، وسبب نزول المعوذتين

على ما نقل الواحدي عن المفسرين رحمة الله عليهم أجمعين والبغوي عن ابن عباس وعائشة.رضى الله عنه.م "أن غلاماً من اليهود كان يخدم النبي.صلى الله عليه وسلم. فدبت إليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذه مشاطة رأس النبي.صلى الله عليه وسلم.وعدة أسنان من مشطه فأعطاها اليهود فسحروه فيها ، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم اليهودي ، فمرض رسول الله.صلى الله عليه وسلم.وانتشر شعر رأسه ، ويرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن ، يذوب ولا يدري ما عراه ، فبينا هو نائم ذات يوم أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه : ما بال الرجل ؟ قال : طب ، قال : وما طب ؟ قال : سحر ، قال : ومن سحره ؟ قال : لبيد بن الأعصم اليهودي ، قال : وبما طبه ؟ قال : بمشط ومشاطة ، قال : وأين

هو ؟ قال : في جف طلعة ذكر تحت راغوفة في بئر ذروان – بئر في بني زريق ، والجف : قشر الطلع ، والراغوفة : حجر في أسفل البئر يقوم عليه المائح ، فانتبه النبي.صلى الله عليه وسلم.وقال لعائشة.رضى الله عنه.ا : "يا عائشة ! أما شعرت أن الله أخبرني بدائي ! ثم بعث علياً والزبير وعمار بن ياسر.رضى الله عنه.م فنزحوا البئر كأنه نقاعة الحناء ، ثم

نزعوا الصخرة وأخرجوا الجف فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان مشطه ، وإذا وتر معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر " فأنزل الله سبحانه وتعالى سورتي المعوذتين ، وهما إحدى عشرة آية : الفلق خمس والناس ست ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة فقام كأنما نشط من عقال ، وجعل جبرائيل عليه الصلاة والسلام يقول : " بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ومن حاسد وعين والله يشفيك " فقالوا : يا رسول الله ! أفلا نأخذه فنقتله ؟ فقال : " أما أنا فقد شفاني الله ، وأكره أن أثير على الناس شراً " وفي رواية أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتى البئر بنفسه ثم رجع إلى عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا فقال : " والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ، لكأن نخلها رؤوس الشياطين ، فقلت له : يا رسول الله ! " أهلا أخرجته ؟ فقال : " أما أنا فقد شفاني الله ، وكرهت أن أثير على الناس شراً " ويجمع بأنه أتاها ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه الشريفة فلم يخرجه ثم إنه وجد بعض الألم فأرسل إليه ، فأخرجه فزال الألم كله ، وروى البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضى الله عنه ـ ا قالت : سحر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه ، ثم قال : " أشعرت يا عائشة أن الله تعالى قد أفتاني فيما استفتيته فيه " ، قلت : وما ذاك يا رسول الله ، قال : " أتاني ملكان "

فذكره ، وروى النسائي في المحاربة من سننه وأبو بكر بن أبي شيبة وأحمد بن منيع وعبد بن حميد وأبو يعلى الموصلي في مسانيدهم والبغوي في تفسيره كلهم عن زيد بن أرقم. رضى الله عنه. قال : كان رجل يدخل على النبي. صلى الله عليه وسلم. فأخذ له فسحر النبي. صلى الله عليه وسلم. رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياماً فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال :

"إن رجلاً من اليهود سحرك ، عقد لك عقداً في بئر كذا وكذا ، أو قال : فطرحه في بئر رجل من الأنصار ، فأرسل رسول الله. صلى الله عليه وسلم. فاستخرجوها فجيء بها فحلها رسول الله. صلى الله عليه وسلم. ، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة ، فقام رسول الله. صلى الله عليه وسلم. كأنما نشط من عقال" فما ذكر ذلك لذلك اليهودي ولا رآه في وجهه قط ، وفي رواية : فأتاه ملكان يعوذانه فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجله فقال أحدهما : أتدري ما وجعه؟ قال : كأن الذي يدخل عليه عقد له وألقاه في بئر ، فأرسل إليه رجلاً ، وفي رواية : علياً. رضى الله عنه. ، فأخذ العقد فوجد الماء قد

اصفر ، قال : فأخذ العقد فحلها فبرأ ، فكان الرجل بعد ذلك يدخل على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يذكر له شيئاً ولم يعاتبه فيه ، وهذا الفضل لمنفعة المعوذتين كما منح الله به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكذا تفضل به على سائر أمته ، وروى أبو داود والترمذي وقال : حسن صحيح – والنسائي مسنداً أو مرسلاً – قال النووي : بالأسانيد الصحيحة – عن عبد الله بن خبيب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " اقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثة مرات – يكفيك كل شيء " والأحاديث في فضل هذه السور الثلاث كثيرة جداً ، وجعل التعويذ في سورتين إشارة إلى استحباب تكريره ، وجعلتا إحدى عشرة آية ندباً إلى تكثيره في تكريره ، وقدمت الفلق التي خمس آيات مع ما مضى المناسبات لأن اقترانها بسورة التوحيد أنسب ، وشفعها بسورة الناس التي هي ست آيات أنسب ، ليكون الشفع بالشفع ، والابتداء بالوتر بعد سورة الوتر ، وحاصل هذه السورة العظمى في معناها الأبدع الأسمى الاستعاذة بالله بذكر اسمه ﴿ الرب ﴾ المقتضي للإحسان والتربية بجلب النعم ودفع النقم من شر ما خلق ومن السحر والحسد ، كما كان أكثر البقرة المناظرة لها في رد المقطع على المطلع

لكونها ثانية من الأول كما أن هذه ثانية من الآخر في ذكر أعداء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحاسدين له على ما أوتي من النعم ، وفي تذكيرهم بما منحهم من النعم التي كفروها ، وأكثر ذلك في بني إسرائيل الذين كانوا أشد الناس حسداً له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وكان من أعظم ما ضلوا به السحر المشار إليه بقوله تعالى :

﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان ﴾ [البقرة : 102] حتى قال : ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ إلى أن قال : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ [البقرة : 109] وكان السحر من أعظم ما أثر في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من كيدهم حتى أنزل فيه المعوذتان ، وكان الساحر له منهم ، وقد انقضى ما يسر الله من الكلام على انتظام معانيها بحسب تركيب كلماتها ، وبقي الكلام على كلماتها من حيث العدد ، فيما تشير إليه من البركات والمدد ، هي ثلاث وعشرون كلمة إشارة إلى أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في السنة الثالثة والعشرين من النبوة يأمن من أذى حاسديه ، وذلك بالوفاة عند تمام الدين ويأس الحاسدين من كل شيء من الأذى في الدين والدنيا ، وخلاص النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

من كل كدر، فإذا ضممت إليها الضمائر وهي خمسة كانت ثماني وعشرين، وهي توازي سنة خمس عشرة من الهجرة، وذلك عند استحكام أمر عمر -رضى الله عنه- في السنة الثانية من خلافته ببث العساكر وإنفاذه إلى ملك الفرس والروم وتغلغل هيبته في قلوبهم وتضعضع الفرس بغلب العرب على رستم أكبر أمرائهم، والروم بغلبهم على ماهان أعظم رؤسائهم، فاضمحل أمر المنافقين والحاسدين، وأيسوا من تأثير أدنى كيد من أحد من الكائدين، فإذا ضم إليها أربع كلمات البسملة كانت اثنتين وثلاثين، إذا حسبت من أول النبوة وازتها السنة التاسعة عشرة من الهجرة، وفيها كان فتح قيسارية الروم من بلاد الشام، وبفتحها كان فتح جميع بلاد الشام، لم يبق بها بلد إلا وهي في أيدي المسلمين، فزالت عنها دولة الروم، وفيها أيضاً كان فتح جلولاء من بلاد فارس وكان فتحاً عظيماً جداً هدّ أجنادهم وملوكهم، ولذلك سمي فتح الفتوح، وحصل حينئذ أعظم الخزي للفرس والروم الذين هم أحسد الحسدة، لما كان لهم من العزة والقوة بالأموال والرجال، وإن حسبت من

الهجرة وازتها سنة انقراض ملك أعظم الحسدة الأكاسرة الذين شقق ملكهم كتاب النبي -صلى الله عليه وسلم-، وأرسل إلى عامله باذان - الذي كان استخلفه على بلاد اليمن -

يأمره أن يغزو النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فأخبر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنه يقتله سبحانه في ليلة سماها ، فلما أتت تلك الليلة أخبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسل باذان بذلك ، فرجعوا إلى باذان فأخبروه فقال : إن كان صادقاً فسيأتي الخبر في يوم كذا ، فأتى الخبر في ذلك اليوم بصدقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم باذان ومن معه من الأبناء الذين كانوا في بلاد اليمن لم يتخلف منهم أحد ، وأوفد منهم وفداً على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك ، وتولى الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . والله أعلم . انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 603 ـ 610 ﴾

(59/839)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

في قوله : ﴿ قُلْ ﴾ فوائد أحدها : أنه سبحانه لما أمر بقراءة سورة الإخلاص تنزيهاً له عما

لا يليق به في ذاته وصفاته ، وكان ذلك من أعظم الطاعات ، فكأن العبد قال : إلهنا هذه الطاعة عظيمة جداً لا أثق بنفسي في الوفاء بها ، فأجاب بأن قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ أي استعذ بالله ، والتجيء إليه حتى يوفقك لهذه الطاعة على أكمل الوجوه وثانيها : أن الكفار لما سألوا الرسول عن نسب الله وصفته ، فكأن الرسول عليه السلام قال : كيف أنجو من هؤلاء الجهال الذين تجاسروا وقالوا : فيك ما لا يليق بك ، فقال الله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ أي استعذ بي حتى أصونك عن شرهم وثالثها : كأنه تعالى يقول : من التجأ إلى بيتي شرفته وجعلته آمناً فقلت : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ [آل عمران : 97] فالتجىء أنت أيضاً إلي حتى أجعلك آمناً : فقل أعوذ برب الفلق .

المسألة الثانية :

(60/839)

اختلفوا في أنه هل يجوز الاستعانة بالرقى والعوذ أم لا ؟ منهم قال : إنه يجوز واحتجوا بوجوه أحدها : ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتكى فرقاه جبريل عليه السلام ، فقال : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، والله يشفيك وثانيها : قال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا من الأوجاع كلها والحمى هذا الدعاء : " بسم الله

الكريم ، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار ، ومن شر حر النار " وثالثها : قال عليه السلام : من دخل على مريض لم يحضره أجله ؛ فقال : أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك سبع مرات شفي ورابعها : عن علي عليه السلام قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض قال : " أذهب البأس رب الناس ، اشف أنت الشافي ، لا شافي إلا أنت " وخامسها : عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين يقول : " أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة " ويقول : هكذا كان أبي إبراهيم يعوذ ابنيه إسماعيل وإسحاق وسادسها : قال عثمان بن أبي العاص الثقفي : قدمت على رسول الله وبي وجع قد كاد يبطلني فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اجعل يدك اليمنى عليه ، وقل بسم الله أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد سبع مرات " ففعلت ذلك فشفاني الله وسابعها : روي أنه عليه السلام كان إذا سافر فنزل منزلاً يقول : " يا أرض ، ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما يخرج منك ، وشر ما يدب عليك ، وأعوذ بالله من أسد وأسود وحية وعقرب ، ومن شر ساكني البلد ووالد وما ولد "

وثامنها : قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا اشتكى شيئاً من جسده قرأ : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين في كفه اليمنى ومسح بها المكان الذي يشتكي ومن الناس من منع من الرقى لما روي عن جابر ، قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرقى ، وقال عليه السلام : " إن لله عباداً لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون " وقال عليه السلام : " لم يتوكل على الله من اكتوى واسترقى " وأجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون النهي عن الرقى المجهولة التي لا تعرف حقائقها ، فأما ما كان له أصل موثوق ، فلا نهي عنه ، واختلفوا في التعليق ، فروى أنه عليه السلام قال : " من علق شيئاً وكل إليه " وعن ابن مسعود : أنه رأى على أم ولده تميمة مربوطة بعضدها ، فجذبها جذباً عنيفاً فقطعها ، ومنهم من جوزه ، سئل الباقر عليه السلام عن التعويذ يعلق على الصبيان فرخص فيه ، واختلفوا في النفث أيضاً ، فروي عن عائشة أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفث على نفسه إذا اشتكى بالمعوذات ويمسح بيده ، فلما اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث عليه بالمعوذات التي كان ينفث بها على نفسه ، وعنه عليه السلام : "أنه كان إذا أخذ مضجعه نفث في يديه وقرأ فيهما بالمعوذات ، ثم مسح بهما جسده" ومنهم من أنكر النفث ، قال عكرمة : لا ينبغي للراقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد .

وعن إبراهيم قال : كانوا يكرهون النفث في الرقى ، وقال بعضهم : دخلت على الضحاك

وهو وجيع ، فقلت : ألا أعوذك يا أبا محمد ؟ قال : بلى ولكن لا تنفث ، فعوذته بالمعوذتين .

قال الحليمي : الذي روي عن عكرمة أنه ينبغي للراقي أن لا ينفث ولا يمسح ولا يعقد ، فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفث في العقد مما يستعاذ منه ، فوجب أن يكون منهياً عنه إلا أن هذا ضعيف ، لأن النفث في العقد إنما يكون مذموماً إذا كان سحراً مضراً بالأرواح والأبدان .

(62/839)

فأما إذا كان هذا النفث لإصلاح الأرواح والأبدان وجب أن لا يكون حراماً .

المسألة الثالثة :

أنه تعالى قال في مفتاح القراءة : ﴿ فاستعذ بالله ﴾ [الأعراف : 200] وقال ههنا : ﴿ أَعُوذُ بِرَبّ الفلق ﴾ وفي موضع آخر : ﴿ وَقُلْ رَّبّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشياطين ﴾ [المؤمنون : 97] وجاء في الأحاديث : أعوذ بكلمات الله التامات ولا شك أن أفضل أسماء الله هو الله ، وأما الرب فإنه قد يطلق على غيره ، قال تعالى : ﴿ ءأَرْبَابٌ

مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ [يوسف : 39] فما السبب في أنه تعالى عند الأمر بالتعوذ لم يقل : أعوذ بالله بل قال : ﴿ بِرَبِّ الفلق ﴾ ؟ وأجابوا عنه من وجوه : أحدها : أنه في قوله :

(63/839)

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرءان فاستعذ بالله ﴾ [النحل : 98] إنما أمره بالاستعاذة هناك لأجل قراءة القرآن ، وإنما أمره بالاستعاذة ههنا في هذه السورة لأجل حفظ النفس والبدن عن السحر ، والمهم الأول أعظم ، فلا جرم ذكر هناك الاسم الأعظم وثانيها : أن الشيطان يبالغ حال منعك من العبادة أشد مبالغة في إيصال الضر إلى بدنك وروحك ، فلا جرم ذكر الاسم الأعظم هناك دون ههنا وثالثها : أن اسم الرب يشير إلى التربية فكأنه جعل تربية الله له فيما تقدم وسيلة إلى تربيته له في الزمان الآتي ، أو كان العبد يقول : التربية والإحسان حرفتك فلا تهملني ، ولا تخيب رجائي ورابعها : أن بالتربية صار شارعاً في الإحسان ، والشروع ملزم وخامسها : أن هذه السورة آخر سور القرآن فذكر لفظ الرب تنبيهاً على أنه سبحانه لا تنقطع عنك تربيته وإحسانه ، فإن قيل : إنه ختم القرآن على اسم الإله حيث قال : ﴿ مَلِكِ الناس * إله الناس ﴾ قلنا : فيه لطيفة وهي كونه تعالى قال : قل أعوذ بمن هو ربي ولكنه إله قاهر لوسوسة الخناس فهو كالأب المشفق الذي يقول ارجع عند مهمات تك إلى أبيك

المشفق عليك الذي هو كالسيف القاطع والنار المحرقة لأعدائك فيكون هذا من أعظم أنواع الوعد بالإحسان والتربية وسادسها : كان الحق قال لمحمد عليه السلام : قلبك لي فلا تدخل فيه حب غيري ، ولسانك لي فلا تذكر به أحداً غيري ، وبدنك لي فلا تشغله بخدمة غيري ، وإن أردت شيئاً فلا تطلبه إلا مني ، فإن أردت العلم فقل : رب زدني علماً وإن أردت الدنيا فاسألوا الله من فضله ، وإن خفت ضرراً فقل : أعوذ برب الفلق فإني أنا الذي وصفت نفسي بأني خالق الإصباح.

وبأني فالق الحب والنوى ، وما فعلت هذه الأشياء إلا لأجلك ، فإذا كنت أفعل كل هذه الأمور لأجلك ، أفلا أصونك عن الآفات والمخافات .

المسألة الرابعة :

ذكروا في : الفلق وجوهاً أحدها : أنه الصبح وهو قول الأكثرين قال الزجاج : لأن الليل يفلق عنه الصبح ويفرق فعل بمعنى مفعول يقال : هو أبين من فلق الصبح ومن فرق الصبح وتخصيصه في التعوذ لوجوه الأول : أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه ويخشاه الثاني : أن طلوع الصبح كالمثال

لمجيء الفرج ، فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاح الثالث : أن الصبح كالبشرى فإن الإنسان في الظلام يكون كالحم على وضم ، فإذا ظهر الصبح فكأنه صاح بالأمان وبشر بالفرج ، فلهذا السبب يجد كل مريض ومهموم خفة في وقت السحر ، فالحق سبحانه يقول : قل أعوذ برب يعطي إنعام فلق الصبح قبل السؤال ، فكيف بعد السؤال الرابع : قال بعضهم : إن يوسف عليه السلام لما ألقي في الجب وجعت ركبته وجعاً شديداً فبات ليلته ساهراً فلما قرب طلوع الصبح نزل جبريل عليه السلام بإذن الله يسليه ويأمره بأن يدعوا ربه فقال : يا جبريل ادع أنت وأؤمن أنا فدعا جبريل وأمن يوسف فكشف الله ما كان به من الضر ، فلما طاب وقت يوسف قال جبريل : وأنا أدعو أيضاً وتؤمن أنت ، فسأل يوسف ربه أن يكشف الضر عن جميع أهل البلاء في ذلك الوقت ، فلا جرم ما من مريض إلا ويجد نوع خفة في آخر الليل ، وروي أن دعاءه في الجب : يا عدتي في شدتي ويا مؤنسي في وحشتي ويا راحم غربتي ويا كاشف كربتي ويا مجيب دعوتي ، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ارحم صغر سني وضعف ركني وقلة حيلتي يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام الخامس : لعل تخصيص الصبح بالذكر في هذا الموضع لأنه وقت دعاء المضطرين وإجابة الملهوفين فكأنه يقول : قل أعوذ برب الوقت الذي يفرج فيه عن كل مهموم السادس : يحتمل أنه خص الصبح بالذكر لأنه أنموذج من يوم القيامة لأن الخلق كالأموات والدور كالقبور ، ثم منهم من يخرج من داره

مفلساً عرياناً لا يلتفت إليه ، ومنهم من كان مديوناً فيجر إلى الحبس ، ومنهم من كان ملكاً مطاعاً فتقدم إليه المراكب ويقوم الناس بين يديه ، كذا في يوم القيامة بعضهم مفلس عن الثواب عار عن لباس التقوى يجر إلى الملك الجبار ، ومن عبد كان مطيعاً لربه في الدنيا فصار ملكاً مطاعاً في العقبى يقدم إليه البراق السابع : يحتمل أنه تعالى خص الصبح بالذكر لأنه وقت الصلاة الجامعة لأحوال القيامة فالقيام في الصلاة يذكر القيام يوم القيامة كما قال :

﴿ يَوْمَ يَقُومُ الناس لِرَبِّ العالمين ﴾ [المطففين : 6] والقراءة في الصلاة تذكر قراءة الكتب والركوع في الصلاة يذكر من القيامة قوله : ﴿ نَاكِسُواْ رُؤُوسَهُمْ ﴾ [السجدة : 12] والسجود في الصلاة يذكر قوله : ﴿ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السجود فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [القلم : 42] والقعود يذكر قوله : ﴿ وترى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ [الجاثية : 28] فكان العبد يقول : إلهي كما خلصتني من ظلمة الليل فخلصني من هذه الأهوال ، وإنما خص وقت صلاة الصبح لأن

لها مزيد شرف على ما قال : ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ [الإسراء : 78] أي تحضرها ملائكة الليل والنهار الثامن : أنه وقت الاستغفار والتضرع على ما قال : ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ [آل عمران : 17] القول الثاني : في الفلق أنه عبارة عن كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات : ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ [الأنعام : 95] والجبال عن العيون : ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأَنهار ﴾ [البقرة : 74] والسحاب عن الأمطار والأرحام عن الأولاد والبيض عن الفرخ والقلوب عن المعارف ، وإذا تأملت الخلق تبين لك أن أكثره عن انقلاب ، بل العدم كأنه ظلمة والنور كأنه الوجود ، وثبت أنه كان الله في الأزل ولم يكن معه شيء ألبتة فكأنه سبحانه هو الذي فلق بحار ظلمات العدم بأنوار الإيجاد والتكوين والإبداع ، فهذا هو المراد من الفلق ، وهذا التأويل أقرب من وجوه أحدها : هو أن الموجود إما الخالق وإما الخلق ، فإذا فسرنا الفلق بهذا التفسير صار كأنه قال : قل أعوذ برب جميع الممكنات ، ومكون كل المحدثات والمبدعات فيكون التعظيم فيه أعظم ، ويكون الصبح أحد الأمور الداخلة في هذا المعنى وثانيها : أن كل موجود إما واجب لذاته أو ممكن لذاته ، والممكن لذاته يكون موجوداً بغيره ، معدوماً في حد ذاته ، فإذن كل ممكن فلا بد له من مؤثر يؤثر فيه حال حدوثه ويبقيه حال بقائه ، فإن الممكن حال بقائه يفتقر إلى المؤثر

والتربية ، إشارة لا إلى حال الحدوث بل إلى حال البقاء ، فكأنه يقول : إنك لست محتاجاً إلى حال الحدوث فقط بل في حال الحدوث وحال البقاء معاً في الذات وفي جميع الصفات ، فقوله : ﴿ بِرَبِّ الفلق ﴾ يدل على احتياج كل ما عداه إليه حالتي الحدوث والبقاء في الماهية والوجود بحسب الذوات والصفات وسر التوحيد لا يصفو عن شوائب الشرك إلا عند مشاهدة هذه المعاني ، وثالثها : أن التصوير والتكوين في الظلمة أصعب منه في النور ، فكأنه يقول : أنا الذي أفعل ما أفعله قبل طلوع الأنوار وظهور الأضواء ومثل ذلك مما لا يتأتى إلا بالعلم التام والحكمة البالغة وإليه الإشارة بقوله :

﴿ هُوَ الذي يُصَوّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَاء لا إله إِلاَّ هُوَ العزيز الحكيم ﴾ [آل عمران : 6] .

القول الثالث : أنه واد في جهنم أوجب فيها من قولهم لما اطمأن من الأرض الفلق والجمع فلقان ، وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرآى دور أهل الذمة وما هم فيه من خصب العيش فقال لا أبالي ، أليس من ورائهم الفلق ، فقيل : وما الفلق ؟ قال : بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره ، وإنما خصه بالذكر ههنا لأنه هو القادر على مثل هذا التعذيب العظيم الخارج عن حد أوهام الخلق ، ثم قد ثبت أن رحمته أعظم وأكمل وأتم من عذابه ، فكأنه يقول : يا صاحب العذاب الشديد أعوذ برحمتك التي هي أعظم وأكمل

وأتم وأسبق وأقدم من عذابك .

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2)

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(68/839)

في تفسير هذه الآية وجوه أحدها : قال عطاء عن ابن عباس : يريد إبليس خاصة لأن الله تعالى لم يخلق خلقاً هو شر منه ولأن السورة إنما نزلت في الاستعاذة من السحر ، وذلك إنما يتم بإبليس وبأعوانه وجنوده وثانيها : يريد جهنم كأنه يقول : قل أعوذ برب جهنم ومن شدائد ما خلق فيها وثالثها : ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يريد من شر أصناف الحيوانات المؤذيات كالسباع والهوام وغيرهما ، ويجوز أن يدخل فيه من يؤذيني من الجن والإنس أيضاً ووصف أفعالها بأنها شر ، وإنما جاز إدخال الجن والإنسان تحت لفظة (ما) ، لأن الغلبة لما حصلت في جانب غير العقلاء حسن استعمال لفظة (ما) فيه ، لأن العبرة بالأغلب أيضاً ويدخل فيه شرور الأطعمة الممرضة وشرور الماء والنار ، فإن قيل الآلام الحاصلة عقيب الماء والنار ولدغ الحية والعقرب حاصلة بخلق الله تعالى ابتداء ، على قول أكثر

المتكلمين ، أو متولدة من قوى خلقها الله تعالى في هذه الأجرام ، على ما هو قول جمهور الحكماء وبعض المتكلمين ، وعلى التقديرين فيصير حاصل الآية أنه تعالى أمر الرسول عليه السلام بأن يستعيذ بالله من الله ، فما معناه ؟ قلنا : وأي بأس بذلك ، ولقد صرح عليه السلام بذلك ، فقال : " وأعوذ بك منك " ورابعها : أراد به ما خلق من الأمراض والأسقام والقحط وأنواع المحن والآفات ، وزعم الجبائي والقاضي أن هذا التفسير باطل ، لأن فعل الله تعالى لا يجوز أن يوصف بأنه شر ، قالوا : ويدل عليه وجوه الأول : أنه يلزم على هذا التقدير أن الذي أمر بالتعوذ منه هو الذي أمرنا أن نتعوذ به ، وذلك متناقض والثاني : أن أفعال الله كلها حكمة وصواب ، وذلك لا يجوز أن يقال : إنه شر والثالث : أن فعل الله لو كان شراً لوصف فاعله بأنه شرير ويتعالى الله عن ذلك والجواب : عن الأول أنا بينا أنه لا امتناع في قوله أعوذ بك منك ؟ وعن الثاني أن الإنسان لما تألم به فإنه يعد شراً ، فورد اللفظ على وفق قوله ، كما في قوله :

﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40] وقوله : ﴿ فَمَنِ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعتدوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : 194] وعن الثالث أن أسماء الله

توقيفية لا اصطلاحية ، ثم الذي يدل على جواز تسمية الأمراض والأسقام بأنها شرور قوله تعالى : ﴿ إِذَا مَسَّهُ الشر جَزُوعاً ﴾ [المعارج : 20] وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشر فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : 51] وكان عليه السلام يقول : " وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار " .

المسألة الثانية :

طعن بعض الملحدة في قوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ من وجوه أحدها : أن المستعاذ منه أهو واقع بقضاء الله وقدره ، أو لا بقضاء الله ولا بقدره ؟ فإن كان الأول فكيف أمر بأن يستعيذ بالله منه ، وذلك لأن ما قضى الله به وقدره فهو واقع ، فكأنه تعالى يقول : الشيء الذي قضيت بوقوعه ، وهو لا بد واقع فاستعذ بي منه حتى لا أوقعه ، وإن لم يكن بقضائه وقدره فذلك يقدح في ملك الله وملكوته وثانيها : أن المستعاذ منه إن كان معلوم الوقوع فلا دافع له ، فلا فائدة في الاستعاذة وإن كان معلوم اللاوقوع ، فلا حاجة إلى الاستعاذة وثالثها : أن المستعاذ منه إن كان مصلحة فكيف رغب المكلف في طلب دفعه ومنعه ، وإن كان مفسدة فكيف خلقه وقدره ، واعلم أن الجواب عن أمثال هذه الشبهات ، أن يقال إنه :

﴿ لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ [الأنبياء : 23] وقد تكرر هذا الكلام في هذا الكتاب .

وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3)

ذكروا في الغاسق وجوهاً أحدها : أن الغاسق هو الليل إذا عظم ظلامه من قوله : ﴿ إلى غسق الليل ﴾ [الإسراء : 78] ومنه غسقت العين إذا امتلأت دمعاً وغسقت الجراحة إذا امتلأت دماً ، وهذا قول الفراء وأبي عبيدة ، وأنشد ابن قيس :

إن هذا الليل قد غسقا . . واشتكيت الهم والأرقا

(70/839)

وقال الزجاج الغاسق في اللغة هو البارد ، وسمي الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار ، ومنه قوله إنه الزمهرير وثالثها : قال قوم : الغاسق والغساق هو السائل من قولهم : غسقت العين تغسق غسقاً إذا سالت بالماء ، وسمي الليل غاسقاً لانصباب ظلامه على الأرض ، أما الوقوب فهو الدخول في شيء آخر بحيث يغيب عن العين ، يقال : وقب يقب وقوباً إذا دخل ، الوقبة النقرة لأنه يدخل فيها الماء ، والإيقاب إدخال الشيء في الوقبة ، هذا ما يتعلق باللغة وللمفسرين في الآية أقوال : أحدها : أن الغاسق إذا وقب هو الليل إذا دخل ، وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل لأن في الليل تخرج السباع من آجامها والهوام من مكانها ، ويهجم السارق والمكابر ويقع الحريق ويقل فيه الغوث ، ولذلك لو شهر (معتد) سلاحاً على إنسان ليلاً فقتله المشهور عليه لا يلزمه قصاص ، ولو كان نهاراً يلزمه لأنه يوجد فيه الغوث ، وقال قوم :

إن في الليل تنتشر الأرواح المؤذية المسماة بالجن والشياطين ، وذلك لأن قوة شعاع الشمس كأنها تقهرهم ، أما في الليل فيحصل لهم نوع استيلاء وثانيها : أن الغاسق إذا وقب هو القمر ، قال ابن قتيبة : الغاسق القمر سمي به لأنه يكسف فيغسق ، أي يذهب ضوؤه ويسود ، (و) وقوبه دخوله في ذلك الاسوداد ، روى أبو سلمة عن عائشة أنه أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها وأشار إلى القمر ، وقال : " استعيذي بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب " قال ابن قتيبة : ومعنى قوله : تعوذي بالله من شره إذا وقب أي إذا دخل في الكسوف ، وعندي فيه وجه آخر : وهو أنه صح أن القمر في جرمه غير مستنير بل هو مظلم ، فهذا هو المراد من كونه غاسقاً ، وأما وقوبه فهو انمحاء نوره في آخر الشهر ، والمنجمون يقولون : إنه في آخر الشهر يكون منحوساً قليل القوة لأنه لا يزال ينتقص نوره فبسبب ذلك تزداد نحوسته ، ولذلك فإن السحرة إنما يشتغلون بالسحر المورث للتمريض في هذا الوقت ، وهذا مناسب

(71/839)

لسبب نزول السورة فإنها إنما نزلت لأجل أنهم سحروا النبي صلى الله عليه وسلم لأجل التمريض وثالثها : قال ابن زيد : الغاسق إذا وقب يعني الثريا إذا سقطت قال ، وكانت

الأسقام تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها ، وعلى هذا تسمى الثريا غاسقاً ، لانصبابه عند وقوعه في المغرب ، ووقوبه دخوله تحت الأرض وغيبوبته عن الأعين ورابعها : قال صاحب الكشاف : يجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات ووقوبه ضربه ونقبه ، والوقب والنقب واحد ، واعلم أن هذا التأويل أضعف الوجوه المذكورة وخامسها : الغاسق : ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ هو الشمس إذا غابت وإنما سميت غاسقاً لأنها في الفلك تسبح فسمي حركتها وجريانها بالغسق ، ووقوبها غيبتها ودخولها تحت الأرض .

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4)

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

في الآية قولان : الأول : أن النفث النفخ مع ريق ، هكذا قاله صاحب الكشاف ، ومنهم من قال : إنه النفخ فقط ، ومنه قوله عليه السلام : "إن جبريل نفث في روعي" والعقد جمع عقدة ، والسبب فيه أن الساحر إذا أخذ في قراءة الرقية أخذ خيطاً ، ولا يزال يعقد عليه عقداً بعد عقد وينفث في تلك العقد ، وإنما أنت النفاثات لوجوه أحدها : أن هذه

الصناعة إنما تعرف بالنساء لأنهن يعقدن وينفثن ، وذلك لأن الأصل الأعظم فيه ربط القلب بذلك الأمر وإحكام الهمة والوهم فيه ، وذلك إنما يتأتى من النساء لقلة علمهن وشدة شهوتهن ، فلاجرم كان هذا العمل منهن أقوى ، قال أبو عبيدة : النفاثات هن بنات لبيد بن أعصم اليهودي سحرن النبي صلى الله عليه وسلم وثانيها : أن المراد من : النفاثات النفوس وثالثها : المراد منها الجماعات ، وذلك لأنه كلما كان اجتماع السحرة على العمل الواحد أكثر كان التأثير أشد القول الثاني : وهو اختيار أبي مسلم : ﴿ مِن شَرِّ النفاثات ﴾ أي النساء في العقد ، أي في عزائم الرجال وآرائهم وهو مستعار من عقد الحبال ، والنفث وهو تليين العقدة من الحبل بريق يقذفه عليه ليصير حله سهلاً ، فمعنى الآية أن النساء لأجل كثرة حبهن في قلوب الرجال يتصرفن في الرجال يحولنهم من رأي إلى رأي ، ومن عزيمة إلى عزيمة ، فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن كقوله : ﴿ إِنَّ مِنْ أزواجكم وأولادكم عَدُوّاً لَّكُمْ فاحذروهم ﴾ [التغابن : 14] فلذلك عظم الله كيدهن فقال : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 28] .

واعلم أن هذا القول حسن ، لولا أنه على خلاف قول أكثر المفسرين .

المسألة الثالثة :

أنكرت المعتزلة تأثير السحر ، وقد تقدمت هذه المسألة ، ثم قالوا : سبب الاستعاذة من شرهن لثلاثة أوجه أحدها : أن يستعاذ من إثم عملهن في السحر والثاني : أن يستعاذ من

فتنتهن الناس بسحرهن والثالث : أن يستعاذ من إطعامهن الأطعمة الرديئة المورثة للجنون والموت .

(73/839)

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)

من المعلوم أن الحاسد هو الذي تشتد محبته لإزالة نعمة الغير إليه ، ولا يكاد يكون كذلك إلا ولو تمكن من ذلك بالحيل لفعل ، فلذلك أمر الله بالتعوذ منه ، وقد دخل في هذه السورة كل شر يتوفى ويتحرز منه ديناً ودنياً ، فلذلك لما نزلت فرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزولها لكونها مع ما يليها جامعة في التعوذ لكل أمر ، ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهاره أثره .

بقي هنا سؤالان :

السؤال الأول : قوله : ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ عام في كل ما يستعاذ منه ، فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد الجواب : تنبيهاً على أن هذه الشرور أعظم أنواع الشر .

السؤال الثاني : لم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه ؟ الجواب : عرف النفاثات لأن كل

نفاثة شريرة ، ونكر غاسقاً لأنه ليس كل غاسق شريراً ، وأيضاً ليس كل حاسد شريراً ، بل رب حسد يكون محموداً وهو الحسد في الخيرات .

والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 173 . 179 ﴾

(74/839)

وقال السمرقندى

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبّ الفلق ﴾

يعني : قل يا محمد أعتصم وأستعيذ وأستعين بخالق الخلق ، والفلق الخلق وأنما سمي الخلق فلقاً لأنهم فِلقوا من آبائهم وأمهاتهم ويقال : ﴿ أَعُوذُ بِرَبّ الفلق ﴾ يعني : بخالق الصبح ، ويقال : فالق الحب والنوى قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الله فَالِقُ الحب والنوى يُخْرِجُ الحى مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحى ذلكم الله فأنى تُؤْفَكُونَ ﴾ [أنعام : 95] وقال ﴿ فَالِقُ الإصباح وَجَعَلَ الليل سَكَناً والشمس والقمر حُسْبَاناً ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ [الأنعام : 96] ويقال الفلق واد في جهنم ، ويقال : جب في النار .

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الفَلَقُ شَجَرَةٌ فِي جَهَنَّمَ فَإِنْ أَرَادَ اللهُ أَنْ

يُعَذِّبَ الكَافِرَ بِأَشَدِّ العَذَابِ يَأْمُرُهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ ثَمَرِهَا " .

وروي عن كعب الأحبار أنه دخل في بعض الكنائس التي للروم فقال : أخسر عمل وأضلُّ قوم قد رضيت لكم بالفلق فقيل له ما الفلق يا كعب ؟ قال : بئر في النار إذا فتح بابها صاح جميع أهل النار من شدة عذابها .

ثم قال عز وجل : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ قال الجن والإنس وقال الكلبي من شر ما خلق يعني : من شر ذي شر .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ يعني : ظلمة الليل إذا دخل سواد الليل في ضوء النهار ويقال : ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ يعني : إذا جاء وأدبر وقال القتبي : ﴿ الغاسق ﴾ الليل والغسق الظلمة ويقال : الغاسق القمر إذا انكسف واسودّ ﴿ وَإِذَا وَقَبَ ﴾ يعني : إذا دخل في الكسوف .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِى العقد ﴾ يعني : الساحرات المهيجات اللواتي ينفثن في العقد ثم قال عز وجل : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ يعني كل ذي حسد أراد به لبيد بن أعصم اليهودي ويقال لبيد بن عاصم .

وروى الأعمش عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال سحر النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ من اليهود عقد له عقداً فاشتكى لذلك أياماً فأتاه جبريل عليه السلام فقال له: إن رجلاً من اليهود سحرك فبعث علياً رضي الله عنه واستخرجها فحلّها فجعل كلما حل عقدة وجد النبي صلى الله عليه وسلم لذلك خفة حتى حلها كلها فقام النبي صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال فما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لليهود.

(76/839)

وروي في خبر آخر أن لبيد بن أعصم اتخذ لعبة للنبي صلى الله عليه وسلم وأخذ من عائشة رضي الله عنها فأفحل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل في اللعبة أحد عشرة عقدة ثم ألقاها في بئر، وألقى فوقها صخرة فاشتكى من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم شكواً شديداً فصارت أعضاؤه مثل العقد فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بين النائم واليقظان إذ أتاه ملكان أحدهما جلس عند رأسه والآخر عند قدميه فالذي عند قدميه يقول للذي عند رأسه ما شكواه قال السحر قال: من فعل به؟ قال لبيد بن أعصم اليهودي قال فأين صنع السحر قال في بئر كذا قال: ماذا رأوه يبعث إلى تلك البئر فنزح ماؤها فإنه انتهى إلى الصخرة فإذا رأها فليقلعها فإن تحتها كوبة وهي كوبة قد

سقطت عنقها وفيه إحدى عشرة عقدة فيحرق في النار فيبرأ إن شاء الله تعالى فاستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم وقد فهم ما قالا فبعث عمار بن ياسر وعلياً رضي الله عنهما إلى تلك البئر في رهط من أصحابه فوجدوها كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم لهم فنزلت هاتان السورتان وهي إحدى عشرة آية فكلما قرأ آية حل منها عقدة حتى انحلت كلها ثم أحرقها بالنار فبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وروي في بعض الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس ﴾ ما سأل منها سائل ولا استعاذ مستعيذ بمثلها قط وهذه الآية دليل أن الرقية جائزة إن كانت بذكر الله تعالى وبكتابه والله أعلم بالصواب. انتهى. اهـ

﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 611.610 ﴾

(77/839)

وقال الثعلبى:

سورة الفلق

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾

قال ابن عباس: هو سجن في جهنم، وحدّثنا يعقوب عن هشيم قال: أخبرنا العوام عن

عبد الجبار الخولاني قال : قدم رجل من أصحاب النبي عليه السلام الشام فنظر الى دور أهل الذمة وما فيها من العيش والنضارة ، وما وسع عليهم في دنياهم فقال : لا أُبالي ، أليس من ورائهم الفلق ؟ قال : قيل : وما الفلق ؟ قال : بيت إذا انفتح صاح جميع أهل النار من شدّة حرّه .

وقال أبو عبد الرحمن الحبلي : الفلق هي جهنم ، وقال جابر بن عبد الله والحسن وسعيد ابن جبير ومجاهد وقتادة والقرظي وابن زيد : الفلق : الصبح ، وإليه ذهب ابن عباس ، ودليل هذا التأويل قوله تعالى : ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ [الأنعام : 96] .

الضحّاك والوالبي عن ابن عباس : معنى الفلق : الخلق . وهب : هو باب في جهنم .

الكلبي : هو واد في جهنم ، وقال عبد الله بن عمرو : شجرة في النار ، وقيل : الفلق الجبال والصخور تنفلق بالمياه أي تتشقق ، وقيل : هو الرحم تنفلق عن الحيوان ، وقيل : الحبّ والنوى تنفلق عن التراب ، دليله قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ [الأنعام : 95] والأصل فيه الشق .

وقال محمد بن علي الترمذي في هذه : كشف الله تعالى على قلوب خواص عباده فقذف النور فيها ، فانفلق الحجاب وانكشف الغطاء .

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ .

أخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا أبو برزة أو أحد بني شريك البزار قال : حدّثنا آدم بن أبي

أياس قال : حدّثنا ابن أبي ذئب عن الحرث بن عبد الرحمن " عن عائشة قالت : أخذ رسول الله عليه السلام بيدي فأشار الى القمر فقال : " يا عائشة استعيذي بالله من شرّ هذا ؛ فإنّ هذا الغاسق إذا وقب " .

(78/839)

وأخبرني ابن فنجويه قال : حدّثنا ابن شنبه قال : حدّثنا عبد الرحمن بن خرزاد البصري بمكة قال : حدّثنا نصر بن علي قال : حدّثنا بكار بن عبد الله قال : حدّثنا ابن عمر بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن أبي سلمة عن أبي هريرة " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قال : النجم إذا طلع " .

وقال ابن عباس والحسن ومجاهد والقرظي والفرّاء وأبو عبيدة وابن قتيبة والزجّاج : الليل .

قال ابن زيد : يعني والثريا إذ سقطت ، قال : وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها ، وأصل الغسق الظلمة والوقوف [. . . .] إذا دخل وقال : أمان سكن نظلامه .

وقيل : سُمّي الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار ، والغاسق : البارد ، والغسق : البرد .

﴿ وَمِن شَرِّ النفاثاتِ فِي العقد ﴾ يعني الساحرات اللائي ينفش في عقد الخيط حين يرقين عليها ، والنفث : وشبه النفخ كما يعمل من يرقي . قال عنترة :

فإن يبرأ فلم أنفث عليه . . . وإنّ يفقد محقّ له العقود

وقرأ عبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن سابط : من شرِّ النافثات في وزن : فاعلات .

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ قال الحسين بن الفضل : إنَّ الله جمع الشرور في هذه الآية وختمها بالحسد ليعلم أنه أخسّ الطبائع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ 337.340 ﴾

(79/839)

وقال الزمخشرى :

سورة الفلق

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها 5 «نزلت بعد الفيل» بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفلق (113) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ

النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (4)

وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (5)

الفلق والفرق : الصبح ، لأن الليل يفلق عنه ويفرق : فعل بمعنى مفعول . يقال في المثل :

هو أبين من فلق الصبح ، ومن فرق الصبح . ومنه قولهم : سطع الفرقان ، إذا طلع الفجر .

وقيل : هو كل ما يفلقه اللّه ، كالأرض عن النبات ، والجبال عن العيون ، والسحاب عن

المطر ، والأرحام عن الأولاد ، والحب والنوى وغير ذلك . وقيل : هو واد في جهنم أوجب

فيها من قولهم لما اطمأن من الأرض : الفلق . والجمع : فلقان . وعن بعض الصحابة أنه قدم

الشأم فرأى دور أهل الذمّة وما هم فيه من خفض العيش وما وسع عليهم من دنياهم ،

فقال : لا أبالى ، أليس من ورائهم الفلق ؟ فقيل : وما الفلق ؟ قال : بيت في جهنم إذا فتح

صاح جميع أهل النار من شدّة حرّه مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ من شر خلقه . وشرهم «1» : ما

يفعله المكلفون «2» من الحيوان من المعاصي والمآثم ، ومضارّة بعضهم بعضا من ظلم

وبغى وقتل وضرب وشتم وغير ذلك ، وما يفعله غير المكلفين منه عن الأكل والنهس

واللدغ والعض كالسباع والحشرات ، وما وضعه اللّه في الموات من أنواع الضرر كالإحراق في

النار والقتل في السم . والغاسق : الليل

---

(1) . قوله «من شر خلقه وشرهم» لعله وشره ، أى : شر خلقه حيوانا أو مواتا . (ع)

[.....]

(2) . قال محمود : «معناه من شر خلقه» أى من شر ما يفعله المكلفون . . . الخ» قال أحمد : لا يسعه على قاعدته الفاسدة التي هي من جملة ما يدخل تحت هذه الاستعاذة إلا صرف الشر إلى ما يعتقده خالقا لأفعاله ، أو لما هو غير فاعل له البتة كالموات : وأما صرف الاستعاذة إلى ما يفعله اللّه تعالى بعباده من أنواع المحن والبلايا وغير ذلك ، فلا ، لأنه يعتقد أن اللّه لا يخلق أفعال الحيوانات ، وإنما هم يخلقونها لأنها شر ، واللّه تعالى لا يخلقه لقبحه : كل ذلك تفريع على قاعدة الصلاح والأصلح التي وضح فسادها ، حتى حرف بعض القدرية الآية ، فقرأ : من شر ما خلق بتنوين شر وجعل ما نافية .

(80/839)

إذا اعتكر ظلامه من قوله تعالى إِلى غَسَقِ اللَّيْلِ ومنه : غسقت العين امتلأت دمعا ، وغسقت الجراحة امتلأت دما . ووقوبه : دخول ظلامه في كل شيء . ويقال : وقبت الشمس إذا غابت .

وفي الحديث : لما رأى الشمس قد وقبت قال : هذا حين حلها ، يعنى صلاة المغرب «1» . وقيل :

هو القمر إذا امتلأ ، وعن عائشة رضى اللّه عنها : أخذ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

بيدي فأشار إلى القمر فقال : تعوّذي بالّله من شر هذا ، فإنه الغاسق إذا وقب «2» .

ووقوبه : دخوله في الكسوف واسوداده . ويجوز أن يراد بالغاسق : الأسود من الحيات :

ووقبه : ضربه ونقبه .

والوقب : النقب . ومنه : وقبة الثريد ، والتعوّذ من شر الليل لأن انبثاثه فيه أكثر ، والتحرّز منه أصعب . ومنه قولهم : الليل أخفى للويل . وقولهم : أغدر الليل ، لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر وأسند الشر إليه لملابسته له من حدوثه فيه النَّفّاثاتِ النساء ، أو النفوس ، أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقدا في خيوط وينفثن عليها «3» ويرقين : والنفث النفخ من ريق ، ولا تأثير لذلك «4» ، اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شيء ضار ، أو سقيه ، أو إشمامه . أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه ، ولكنّ الّله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسبه الحشو والرعاع «5» إليهنّ وإلى نفثهن ، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به . فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن «6» ؟ قلت : فيها ثلاثة أوجه ، أحدها : أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر ومن إثمهنّ في ذلك . والثاني : أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن . والثالث : أن يستعاذ مما يصيب الّله به من الشر عند نفثهن ، ويجوز أن يراد

---

(1) . أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث من طريق عبيد الّله بن عقبة مرسلا .

(2) . أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وأحمد وإسحاق وابن أبى شيبة وأبو يعلى كلهم من طريق ابن أبى ذئب عن خالد الحرث بن عبد الرحمن عن أبى سلمة عنها .

(3) . قال محمود : «هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن عليها . . . الخ» قال أحمد : وقد تقدم أن قاعدة القدرية إنكار حقيقة السحر ، على أن الكتاب والسنة قد وردا بوقوعه والأمر بالتعوذ منه . وقد سحر صلى اللّه عليه وسلم في مشط ومشاطة في جف طلعة ذكر . والحديث مشهور ، وإنما الزمخشري استفزه الهوى حتى أنكر ما عرف ، وما به إلا أن يتبع اعتزاله ويغطى بكفه وجه الغزالة»

(4) . قوله «ولا تأثير لذلك» مبنى على مذهب المعتزلة من أنه لا حقيقة للسحر ولا تأثير له . وذهب أهل السنة إلى إثباته وإثبات تأثيره لظاهر الكتاب والسنة . (ع)

(5) . قوله «فينسب الحشوية والرعاع» في الصحاح «الرعاع» : الأحداث الطغام . وفيه «الطغام» : أوغاد الناس وفيه «الوغد» : الرجل الدنى . الذي يخدم بطعام بطنه . (ع)

(6) . قال محمود : «فان قلت : ما معنى الاستعاذة من شرهن ، وأجاب . . . الخ» قال أحمد : وهذا من الطراز الأول قعد عنه جانبا ، ولو فسر غيره النفاثات في العقد بالمتخيلات من النساء ولسن ساحرات حتى يتمم إنكار وجود السحر : لعده من يدع التفاسير .

بهن النساء الكيادات ، من قوله إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث في العقد .

أو اللاتي يفتن الرجال بتعرّضهن لهم وعرضهن محاسنهن ، كأنهن يسحرنهم بذلك إِذا حَسَدَ إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه : من بغى الغوائل للمحسود ، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره فلا ضرر يعود منه على من حسده ، بل هو الضارّ لنفسه لاغتمامه بسرور غيره . وعن عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد . ويجوز أن يراد بشر الحاسد : إثمه وسماجة حاله في وقت حسده ، وإظهاره أثره . فإن قلت : قوله مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ تعميم في كل ما يستعاذ منه ، فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد ؟ قلت : قد خص شر هؤلاء من كل شر لخفاء أمره ، وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يعلم ، كأنما يغتال به . وقالوا : شر العداة المداجى الذي يكيدك من حيث لا تشعر . فإن قلت : فلم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه ؟ قلت : عرفت النفاثات ، لأن كل نفاثة شريرة ، ونكر غاسق ، لأنّ كل غاسق لا يكون فيه الشر ، إنما يكون في بعض دون بعض ، وكذلك كل حاسد لا يضرّ . ورب حسد محمود ، وهو الحسد في الخيرات . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : «لا حسد إلا في اثنتين «1»» وقال أبو تمام :

وما حاسد في المكرمات بحاسد «2»

وقال :

إنّ العلا حسن في مثلها الحسد «3»

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ المعوّذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها اللّه تعالى كلها» «4» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 820 . 822 ﴾

---

(1) . متفق عليه من حديث ابن مسعود ، ومن حديث ابن عمر رضى اللّه عنهما والبخاري من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه .

(2) وإنى لمحسود وأعذر حاسدي وما حاسدي في المكرمات بحاسد

لأبى تمام . يقول : إنى جامع للخصال الحميدة ، فالحسد كناية عن ذلك . وعذر يعذر كضرب يضرب ، أى : أن حاسدي معذور لحسن صفاتي وعظمها ، وليس الحاسد في الخصال الحميدة بحاسد مذموم ، بل مغتبط ممدوح .

(3) فافخر فما من سماء للعلا ارتفعت إلا وأفعالك الحسنى لها عمد

واعذر حسودك فيما قد خصصت به إن العلا حسن في مثلها الحسد

لأبى تمام . وشبه القدر المرتفع بالسماء ، واستعارها له على طريق التصريح ، والارتفاع ترشيح ، لأنه خاص بالمحسوسات وشبه الأفعال الجميلة بأعمدة السماء تشبيها بليغا ، لأن بها الارتفاع المعنوي .

(4) . أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب ، وقد مضى غير مرة أنها واهنة ، وأن الحديث المرفوع في ذلك موضوع ، والله أعلم .

(82/839)

وقال الماوردى :

سورة الفلق

وهذه والناس معوذتا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سحرته اليهود ، وقيل إن المعوذتين كان يقال لهما " المقشقشتان " أي مبرئتان من النفاق ، وزعم ابن مسعود أنهما دعاء تعوذ به وليستا من القرآن ، وهذا قول خالف به الإجماع من الصحابة وأهل البيت .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ فيه ستة تأويلات :

أحدها : أن الفلق سجن في جهنم ، قاله ابن عباس .

الثاني : أنه اسم من أسماء جهنم ، قاله أبو عبد الرحمن .

الثالث : أنه الخلق كله ، قاله الضحاك .

الرابع : أنه فلق الصبح ، قاله جابر بن عبد الله ومنه قول الشاعر :

يا ليلةً لم أَنَمْها بِتُّ مُرْتفقا . . . أرْعى النجومَ إلى أنْ نوّرَ الفَلَقُ .

الخامس : أنها الجبال والصخور تنفلق بالمياه .

السادس : أنه كل ما انفلق عن جميع ما خلق من الحيوان والصبح والحب والنوى وكل شيء من نبات وغيره ، قاله الحسن .

ولأصحاب الغوامض أنه فلق القلوب للأفهام حتى وصلت إليها ووصلت فيها ، وأصل الفلق الشق الواسع ، وقيل للصبح فلق لفلق الظلام عنه كما قيل له فجر لانفجار الضوء منه .

﴿ مِن شَرِّ ما خَلَق ﴾ فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : أن شر ما خلق جهنم ، قاله ثابت البناني .

الثاني : إبليس وذريته ، قاله الحسن .

الثالث : من شر ما خلق في الدنيا والآخرة ، قاله ابن شجرة .

وفي هذا الشر وجهان :

أحدهما : أنه محمول على عمومه في كل شر .

الثاني : أنه خاص في الشر الذي يستحق المصاب به الثواب .

﴿ ومن شَرِّ غاسقٍ إذا وَقَبَ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : يعني الشمس إذا غربت ، قاله ابن شهاب .

الثاني : القمر إذا ولج أي دخل في الظلام .

روى أبو سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة أنها قالت : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ثم نظر إلى القمر فقال : يا عائشة تعوذي بالله من شر غاسقٍ إذا وقب ، وهذا الغاسق إذا وقب .

(83/839)

الثالث : أنه الثريا إذا سقطت ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها ، قاله ابن زيد .

الرابع : أنه الليل ، لأنه يخرج السباع من آجامها ، والهوام من مكامنها ويبعث أهل الشر على العبث والفساد ، قاله ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي ، قال الشاعر :

يا طيْفَ هِندٍ لقد أبقيْتَ لي أرَقا . . . إذ جِئْتَنا طارِقاً والليلُ قد غَسَقا

وأصل الغسق الجريان بالضرر ، مأخوذ من قولهم غسقت القرحة إذا جرى صديدها ، والغسّاق : صديد أهل النار ، لجريانه بالعذاب وغسقت عينه إذا جرى دمعها بالضرر في الحلق .

فعلى تأويله أنه الليل في قوله " إذا وقب " أربعة تأويلات :

أحدها : إذا أظلم ، قاله ابن عباس .

الثاني : إذا دخل ، قاله الضحاك .

الثالث : إذا ذهب ، قاله قتادة .

الرابع : إذا سكن ، قاله اليمان بن رئاب .

﴿ وَمِن شَرِّ النَّفّاثاتِ في العُقَدِ ﴾ قال أهل التأويل : من السواحر ينفثن في عقد الخيوط للسحر ، قال الشاعر :

أعوذ بربي من النافثا . . . تِ في عِضَه العاضه المُعْضِه

وربما فعل قوم في الرقى مثل ذلك ، طلباً للشفاء ، كما قال متمم بن نويرة :

نَفَثْت في الخيط شبيه الرُّقَى . . . من خشيةِ الجِنّة والحاسدِ .

وقد روى الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئاً وكل إليه " ، النفث : النفخ في العقد بلا ريق ، والتفل : النفخ فيها بريق ، وفي ﴿ شر النفاثات في العقد ﴾ ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه إيهام للأذى وتخيل للمرض من غير أن يكون له تأثير في الأذى والمرض ، إلا استشعار ربما أحزن ، أو طعام ضار ربما نفذ بحيلة خفية .

الثاني : أنه قد يؤذى بمرض لعارض ينفصل فيتصل بالمسحور فيؤثر فيه كتأثير العين ، وكما ينفصل من فم المتثائب ما يحدث في المقابل له مثله .

الثالث : أنه قد يكون ذلك بمعونة من خدم الجن يمتحن الله بعض عباده .

فأما المروي من سحر النبي صلى الله عليه وسلم فقد أثبته أكثرهم ، وأن قوماً من اليهود سحروه وألقوا عقدة سحره في بئر حتى أظهره الله عليها .

روى أبو صالح عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم اشتكى شكوى شديدة ، فبينا هو بين النائم واليقظان إذا ملكان أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فقال أحدهما : ما شكواه؟ فقال الآخر : مطبوب ، (أي مسحور ، والطب : السحر) قال : ومن طبّه؟ قال : لبيد بن الأعصم اليهودي فطرحه في بئر ذروان تحت صخرة فيها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمار بن ياسر فاستخرج السحر منها ، ويروى أن فيه إحدى عشرة عقدة ، فأمر بحل العقد ، فكان كلما حل عقدة وجد راحة ، حتى حلت العقد كلها ، فكأنما أنشط من عقال ، فنزلت عليه المعوذتان ، وهما إحدى عشرة آية بعدد العقد ، وأمر أن يتعوذ بهما .

وأنكره آخرون ، ومنعوا منه في رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن صح في غيره ، لما في استمراره عليه من خبل العقل ، وأن الله تعالى قد أنكر على من قال في رسوله حيث يقول : ﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ .

﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ أما الحسد فهو تمني زوال نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها ، والمنافسة هي تمني مثلها وإن لم تزل ، فالحسد شر مذموم ، والمنافسة رغبة مباحة ، وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " المؤمن يغبط والمنافق يحسد " .

وفي الاستعاذة من شر حاسد إذا حسد وجهان :

أحدهما : من شر نفسه وعينه ، فإنه ربما أصاب بها فعان وضر ، والمعيون المصاب بالعين ، وقال الشاعر :

قد كان قومُك يَحْسبونك سيّدا . . . وإخال أنك سيدٌ مَعْيونُ

الثاني : أن يحمله فرط الحسد على إيقاع الشر بالمحسود فإنه يتبع المساوىء ويطلب العثرات ، وقد قيل إن الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء والأرض فحسد إبليس آدم حتى أخرجه من الجنة ، وأما في الأرض فحسد قابيل بن آدم لأخيه هابيل حتى قتله ، نعوذ بالله من شر ما استعاذنا منه .

وافتتح السورة ب " قُلْ " لأن الله تعالى أمر نبيه أن يقولها ، وهي من السورة لنزولها معها ،

وقد قال بعض فصحاء السلف : احفظ القلاقل ، وفيه تأويلان :

أحدهما : قل " قل " في كل سورة ذكر في أوائلها لأنه منها .

والثاني : احفظ السورة التي في أولها " قل " لتأكيدها بالأمر بقراءتها . انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 373. 377 ﴾

(86/839)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) ﴾

الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد هو آحاد أمته ، وقال ابن عباس وابن جبير والحسن والقرظي وقتادة ومجاهد وابن زيد : ﴿ الفلق ﴾ : الصبح ، كقوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح ﴾ [الأنعام : 96] وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من الصحابة والتابعين وغيرهم : ﴿ الفلق ﴾ : جب في جهنم ورواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله : ﴿ من شر ما خلق ﴾ يعم كل موجود له شر ، وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين : بأن الله لم يخلق الشر " من شرٍّ ما خلق " على النفي وهي قراءة مردودة مبنية على

مذهب باطل ، الله خالق كل شيء ، واختلف الناس في : " الغاسق إذا وقب " فقال ابن عباس ومجاهد والحسن : " الغاسق " : الليل و ﴿ وقب ﴾ معناه : أظلم ودخل على الناس ، وقال الشاعر [ابن قيس الرقيات] : [المديد]

إن هذا الليل قد غسقا . . . واشتكيت الهم والأرقا

(87/839)

وقال محمد بن كعب : " الغاسق إذا وقب " النهار دخل في الليل ، وقال ابن زيد عن العرب ، " الغاسق " سقوط الثريا ، وكانت الأسقام والطاعون تهيج عنده ، وقال عليه السلام : " النجم هو الغاسق " فيحتمل أن يريد الثريا ، وقال لعائشة وقد نظر إلى القمر : " تعوذي بالله ﴿ من شر غاسق إذا وقب ﴾ ، فهذا هو " ، وقال القتبي وغيره : هو البدر إذا دخل في ساهور فخسف ، قال الزهري في " الغاسق إذا وقب " : الشمس إذا غربت ، و ﴿ وقب ﴾ في كلام العرب : دخل ، وقد قال ابن عباس في كتاب النقاش : " الغاسق إذا وقب " : ذكر الرجل ، فهذا التعوذ في هذا التأويل نحو قوله عليه السلام وهو يعلم السائل التعوذ : " قل أعوذ بالله من شر سمعي وشر قلبي وشر بصري وشر لساني وشر منيي " ، ذكر الحديث جماعة و ﴿ النفاثات في العقد ﴾ السواحر ، ويقال إن الإشارة أولاً إلى بنات لبيد بن

الأعصم اليهودي كن ساحرات وهن اللواتي سحرن مع أبيهم النبي صلى الله عليه وسلم وعقدن له إحدى عشرة عقدة ، فأنزل الله تعالى إحدى عشرة آية بعد العقد ، هي المعوذتان ، فشفى الله النبي صلى الله عليه وسلم ، والنفث شبه النفخ دون تفل ريق ، وهذا النفث هو على عقد تعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور فيؤذى بذلك ، وهذا الشأن في زمننا موجود شائع في صحراء المغرب ، وحدثني ثقة أنه رأى عند بعضهم خيطاً أحمر قد عقد فيه عقد على فصلان فمنعت بذلك رضاع أمهاتها ، فكان إذا حل جرى ذلك الفصيل إلى أمه في الحين فرضع أعاذنا الله من شر السحر والسحرة بقدرته ، وقرأ عبد الله بن القاسم والحسن وابن عمر : " النافثات في العقد " ، وقوله تعالى : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ قال قتادة : من شر عينه ونفسه ، يريد بالنفس السعي الخبيث والإذاية كيف قدر لأنه عدو مجد ممتحن ، وقال الشاعر :

(88/839)

(كل عداوة قد ترجى إفاقتها

إلا عداوة من عاداك من حسد)

وعين الحاسد في الاغلب لاقعة نعوذ بالله من شرها ولا أعدمنا الله حسده

(واذا إراد الله نشر فضيلة

طويت اتاح لها لسان حسود)

والحسد في الاثنتين اللتين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حسد مستحسن غير ضار)

وإنما هو باعث على خير وهذه السورة خمس آيات فقال بعض الحذاق وهي مراد الناس بقولهم للحاسد اذا نظر اليهم الخمس على عينيك وقد غلطت العامة في هذا فيشيرون في ذلك بالأصابع لكونها خمسة وأمال أبو عمرو " حاسد " والباقون بفتح الحاء

وقال الحسن بن الفضل ذكر الله تعالى الشر في هذه السورة ثم ختمها بالحسد ليظهر أنه أخس طبع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(89/839)

وقال ابن الجوزى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) ﴾

وفيها قولان .

أحدهما : مدنية رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال قتادة في آخرين .

والثاني : مكية رواه كريب عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وعطاء ، وعكرمة ، وجابر .

والأول أصح ، ويدل عليه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر وهو مع عائشة ، فنزلت عليه المعوذتان .

فذكر أهل التفسير في نزولهما : "أن غلاماً من اليهود كان يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل به اليهود حتى أخذ مُشَاطة رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعِدَّة أسنانٍ من مُشْطه ، فأعطاها اليهود فسحروه فيها .

وكان الذي تولَّى ذلك لبيد بن أعصم اليهودي .

ثم دسَّها في بئر لبني زريق ، يقال لها : بئر ذروان .

ويقال : ذي أروان ، فمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتشر شعر رأسه ، وكان يرى أنه يأتي النساء وما يأتيهن ، ويخيَّل إليه أنه يفعل الشيء ، وما يفعله ، فبينا هو ذات يوم نائم أتاه مَلَكان ، فقعد أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فقال أحدهما للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : طُبَّ .

قال : وما طُبَّ ؟ قال : سُحِر .

قال : ومن سَحَره ؟ قال : لبيد بن أعصم .

قال : وبم طبَّه ؟ قال : بمُشْط ومُشَاطة .

قال : وأين هو ؟ قال في جُفِّ طلعةٍ تحت راعوفة في بئر ذروان والجف : قشر الطلع .

والراعوفة : صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت .

فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المنقِّي عليها ، فانتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا عائشة أما شعرتِ أن الله أخبرني بدائي ، ثم بعث علياً ، والزبير ، وعمار بن ياسر ، فنزحوا ماء تلك البئر ، ثم رفعوا الصخرة ، وأخرجوا الجُفَّ ، وإذا فيه مُشَاطة رأسه ، وأسنان مشطه ، وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة [مغروزة بالإبرة ، فأنزل الله تعالى المعوذتين ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة] .

(90/839)

ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم خِفَّة حين انحلت العُقْدَةُ الأخيرة ، وجعل جبريل عليه السلام يقول : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، ومن حاسد وعين ، والله يشفيك .

فقالوا يا رسول الله : أفلا نأخذ الخبيث فنقتله ؟ فقال : "أما أنا فقد شفاني الله ، وأكره أن أُثير على الناس شراً" .

وقد أخرج البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث عائشة حديث سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد بينا معنى "أعوذ" في أول كتابنا .

وفي "الفلق" ستة أقوال.

أحدها : أنه الصبح ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال الحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والقرظي ، وابن زيد ، واللغويون قالوا : ويقال : هذا أبين من فَلَق الصبح وَفَرَق الصبح .

والثاني : أنه الخَلْق ، رواه الوالبي عن ابن عباس .

وكذلك قال الضحاك : الفَلَق : الخَلْق كلُّه .

والثالث : سِجْن في جهنم ، روي عن ابن عباس أيضاً .

وقال وهب والسدي : جُبٌّ في جهنم .

وقال ابن السائب : وادٍ في جهنم .

والرابع : شجرة في النار ، قاله عبد الله بن عمرو .

والخامس : أنه كُلُّ ما انفلق عن شيء كالصبح ، والحَبُّ ، والنَّوى ، وغير ذلك . قاله الحسن .

قال الزجاج : وإذا تأملت الخلق بَانَ لك أن أكثره عن انفلاق ، كالأرض بالنبات ، والسحاب بالمطر .

والسادس : أنه اسم من أسماء جهنم ، قاله أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد الحبلي .

قوله تعالى: ﴿ من شر ما خلق ﴾ وقرأ ابن السميفع، وابن يعمر: "خُلِق" بضم الخاء، وكسر اللام.

وفيه ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه عام، وهو الأظهر.

والثاني: أن شر ما خُلِق: إبليسُ وذُريته، قاله الحسن.

والثالث: جهنم، حكاه الماوردي.

وفي "الغاسق" أربعة أقوال.

أحدها: أنه القمر، روت عائشة قالت: نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القمر، فقال: استعيذي بالله من شره فإنه الغاسق إذا وقب، رواه الترمذي، والنسائي في كتابيهما.

(91/839)

قال ابن قتيبة: ويقال: الغاسق: القمر إذا كسف فاسودَّ.

ومعنى "وقب" دخل في الكسوف.

والثاني: أنه النجم، رواه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والثالث : أنه الليل ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، والقرظي ، والفراء ، وأبو عبيد ، وابن قتيبة ، والزجاج .

قال اللغويون : ومعنى "وقب" دخل في كل شيء فأظلم .

و"الغسق" الظلمة .

وقال الزجاج : الغاسق : البارد ، فقيل لِلَّيل : غاسق ، لأنه أبرد من النهار .

والرابع : أنه الثريا إذا سقطت ، وكانت الأسقام ، والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها ، قاله ابن زيد .

فأما ﴿ النفاثات ﴾ فقال ابن قتيبة : هن السواحر ينفثن .

أي : يَتْفُلن إذا سحرن ، ورقَيْن .

قال الزجاج : يَتْفُلْنَ بلا ريق ، كأنه نفخ .

وقال ابن الأنباري : قال اللغويون : تفسير نَفَثَ : نَفَخَ نفخاً ليس معه ريق ، ومعنى تفل : نفخ نفخاً معه ريق .

قال ذو الرُّمَّة :

ومن جَوْفِ ماءٍ عَرْمَضُ الحَوْلِ فَوْقَهُ . . .

متى يَحْسُ منه مائِحُ القومِ يَتْفُلِ

وقد روى ابن أبي سُرَيج "النافثات" بألف قبل الفاء مع كسر الفاء وتخفيفها .

وقال بعض المفسرين: المراد بالنَّفَّاثات هاهنا: بنات لبيد بن أعصم اليهودي سحرن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿ ومن شر حاسد ﴾ يعني: اليهود حسدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد ذكرنا حدّ الحسد في [البقرة: 109] والحسد: أخس الطبائع.

وأول معصية عُصِيَ الله بها في السماء حَسَدُ إبليس لآدم، وفي الأرض حَسَدُ قابيلَ هَابيلَ. انتهى انتهى. اهـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 270.276 ﴾

(92/839)

وقال القرطبى:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) ﴾

فيه تسع مسائل:

الأولى: روى النسائيّ " عن عقبة بن عامر، قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو راكب، فوضعت يدي على قدمه، فقلت: أقرئني سورة هُودٍ أقرئني سورة يوسف. فقال لي: "ولَنْ تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ " " وعنه قال: " بينا أنا أسير مع النبيّ صلى الله عليه وسلم بين الجحْفَة والأَبواءِ، إذ غشتنا ريح مظلمة شديدة

، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ ب ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ ، و ﴿ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس ﴾ ، ويقول : "يا عقبة ، تعوّذ بهما ، فما تعوّذ متعوّذ بمثلهما" .

قال : وسمعته يقرأ بهما في الصلاة" وروى النّسائي "عن عبد الله قال : أصابنا طَشٌّ وظُلْمة ، فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يَخْرج .

ثم ذكر كلاماً معناه : فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لِيُصلّيَ بنا ، فقال : "قُلْ" .

فقلت : ما أقول ؟ قال : "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ والمعوذتين حين تمسي ، وحين تصبح ثلاثاً ، يكفِك كل شيء" " " وعن عقبة بن عامر الجُهَني قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قُلْ" .

قلت : ما أقول ؟ قال "قل : ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس ﴾ فقرأهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لم يتعوّذ الناس بمثلهن ، أو لا يتعوّذ الناس بمثلِهن" " وفي حديث ابن عباس : " قل أعوذ برب الفلقِ وقُلْ أَعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، هاتين السورتين " وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه بالمُعَوذَّتَيْن ويَنْفِثُ ، فلما اشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه ، وأمسح عنه بيده ، رجاءَ بركتها .

النَّفْث : النفخ ليس معه ريق .

الثانية : ثبت في الصحيحين من حديث عائشة : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سحره يهوديّ من يهود بني زُرَيْق ، يقال له لَبِيدُ بن الأَعْصم ، حتى يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء ولا يفعله ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث في غير الصحيح : سنة ثم قال : "يا عائشة ، أُشْعرت ، أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه .

أتاني ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رِجلي ، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي : ما شأن الرجل ؟ قال : مَطْبوب .

قال ومَنْ طَبَّهُ ؟ قال لَبيد بن الأَعصم .

قال في ماذا ؟ قال : في مُشْطٍ ومُشاطة وجفّ طلعةٍ ذكر ، تحت راعوفة في بئر ذي أَوْران" فجاء البئر واستخرجه" انتهى الصحيح .

وقال ابن عباس : " أما شَعَرْتِ يا عائشة أن الله تعالى أخبرني بدائي" ثم بعث عِلياً والزبير وعمار بن ياسر ، فنزحوا ماء تلك البئر كأنه نقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة وهي الراعوفة صخرة تترك أسفل البئر يقوم عليها المائح ، وأخرجوا الجُفّ ، فإذا مُشَاطة رأس إنسان ، وأسنان من مُشْط ، وإذا وتر معقود فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر ، فأنزل الله تعالى هاتين السورتين ، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العُقْد ، وأمر أن يُتَعَوَّذ بهما ؛ فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد النبيّ صلى الله عليه وسلم خِفّة ، حتى

انحلت العقدة الأخيرة ، فكأنما أُنشِط من عِقال ، وقال : ليس به بأس .

وجعل جبريل يَرْقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : "باسم الله أَرْقِيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر حاسدٍ وعَيْن ، والله يَشْفِيك" .

فقالوا : يا رسول الله ، ألا نقتل الخبيث .

فقال : "أمّا أنا فقد شفاني الله ، وأكره أن أثير على الناس شرًّا "

وذكر القشيري في تفسيره أنه ورد في الصِّحاح : أن غلاماً من اليهود كان يخدُم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فدسَّتْ إليه اليهود ، ولم يزالوا به حتى أَخَذ مُشاطة رأس النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(94/839)

والمُشاطة (بضم الميم) : ما يسقُط من الشعر عند المشط .

وأخذ عدّة من أسنان مُشْطه ، فأعطاها اليهود ، فسحروه فيها ، وكان الذي تولى ذلك لَبيدُ بن الأَعْصم اليهوديّ .

وذكر نحو ما تقدّم عن ابن عباس .

الثالثة : تقدّم في البقرة القول في السحر وحقيقته ، وما ينشأ عنه من الآلام والمفاسد ،

وحكم الساحر ؛ فلا معنى لإعادته .

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ الفلق ﴾ اختُلف فيه ؛ فقيل : سِجن في جَهنم ؛ قاله ابن عباس .

وقال أُبَيّ بن كعب : بيت في جهنم إذا فُتح صاح أهل النار من حره .

وقال الحُبُليّ أبو عبد الرحمن : هو اسم من أسماء جهنم .

وقال الكلبي : واد في جهنم .

وقال عبد الله بن عمر : شجرة في النار .

سعيد بن جبير : جُبٌّ في النار .

النحاس : يقال لما اطمأنّ من الأرض فَلَق ؛ فعلى هذا يصح هذا القول .

وقال جابر بن عبد الله والحسن وسعيد بن جبير أيضاً ومجاهد وقتادة والقُرَظِيّ وابن زيد : الفَلَق ، الصُّبْح .

وقاله ابن عباس .

تقول العرب : هو أبين من فَلَقِ الصُّبْح وفرقَ الصبح .

وقال الشاعر :

يا ليلةً لم أَنَمْهَا بِتُّ مُرْتَفِقاً . . .

أَرْعَى النجومَ إلى أَنْ نَوَّرَ الفَلَقُ

وقيل : الفلق : الجبال والصخور تنفلق بالمياه ؛ أي تتشقق .

وقيل : هو التفليق بين الجبال والصخور ؛ لأنها تتشقق من خوف الله عز وجل .

قال زهير :

ما زِلْتَ أَرْمُقُهُم حتّى إذا هَبَطَتْ . . .

أيدِي الرِّكاب بِهِمْ مِن راكِسٍ فَلَقَا

الراكس : بطن الوادي .

وكذلك هو في قول النابغة :

أَتانِي ودُونِي راكِسٌ فالضَّواجعِ . . .

والراكس أيضاً : الهادي ، وهو الثور وسط البَيْدَر ، تدور عليه الثّيران في الدِّياسة .

وقيل : الرحم تنفلق بالحيوان .

وقيل : إنه كل ما انفلق عن جميع ما خَلَق من الحيوان والصبحِ والحبّ والنّوَى ، وكل شيء

من نبات وغيره ؛ قاله الحسن وغيره .

قال الضحاك : الفَلَقُ الخَلْق كلُّه ؛ قال :

وَسْوَسَ يَدْعُو مُخْلِصاً رَبَّ الْفَلَقْ . . .

سِرًّا وقدْ أَوَّنَ تأْوِينَ العُقُقْ

قلت : هذا القول يشهد له الاشتقاق ؛ فإن الفَلْق الشق .

فَلقْت الشيء فلقاً أي شققته .

والتفليق مثله .

يقال : فَلَقته فانفلق وتَفَلَّق .

فكل ما انفلق عن شيء من حيوان وصبح وحب ونَوًى وماء فهو فَلَق ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ [الأنعام : 96] قال : ﴿ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ [الأنعام : 95] .

وقال ذو الرمّة يصف الثور الوَحْشِيّ :

حَتَّى إذا ما انْجَلَى عن وجهه فَلَقٌ . . .

هادِيهِ في أُخْرَيَاتِ اللَّيلِ مُنْتَصِبُ

يعني بالفلق هنا : الصبح بعينه .

والفلق أيضاً : المطمئن من الأرض بين الربْوتين ، وجمعه : فُلْقان ؛ مثل خَلَق وخُلْقان .

وربما قالوا : كان ذلك بفالق كذا وكذا ؛ يريدون المكان المنحدر بين الربوتين .

والفلق أيضاً مِقطرة السَّجان .

فأما الفِلْق (بالكسر) : فالداهية والأمر العجب ؛ تقول منه : أفلق الرجل وافتلق .

وشاعر مُفْلِق ، وقد جاء بالفِلْق (أي بالداهية) .

والفِلْق أيضاً : القضيب يُشَقُّ باثنين ، فيعمل منه قَوْسان ؛ يقال لكل واحدة منهما فِلْق .

وقولهم ؛ جاء بعُلَقَ فُلَق ؛ وهي الداهية ؛ لا يُجرى مُجرَى عُمر .

يقال منه : أعلقت وأفلقت ؛ أي جئت بعُلَق فُلَقَ .

ومرّ يفتلق في عدوه ؛ أي يأتي بالعجب من شدّته .

وقوله تعالى : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ قيل : هو إبليس وذرّيته .

وقيل جهنم .

وقيل : هو عامّ ؛ أي من شر كل ذي شر خلقه الله عز وجل .

الخامسة : قوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ اختُلف فيه ؛ فقيل : هو الليل .

والغَسَق : أوّل ظلمة الليل ؛ يقال منه : غَسَق الليل يَغْسِق أي أظلم .

قال (ابن) قيس الرقيات :

إنَّ هَذَا الليلَ قد غَسَقَا . . .

واشْتَكَيْتُ الهَمَّ والأَرَقَا

وقال آخر :

يا طيفَ هِندٍ لَقَدْ أبْقَيت لِي أَرَقاً . . .

إذْ جِئْتنا طارِقاً والليل قَدْ غَسَقَا

هذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسُّدّيّ وغيرهم .

و"وَقَبَ" على هذا التفسير : أظلم ؛ قاله ابن عباس .

والضحاك : دَخَلَ .

قتادة : ذَهَبَ .

يَمانُ بن رِئاب : سَكَن .

وقيل : نزل ؛ يقال : وَقَب العذاب على الكافرين ؛ نَزَل .

قال الشاعر :

وَقَبَ العذابُ عليهمُ فكأَنَّهُمْ . . .

لَحِقتْهُمُ نارُ السَّمُومِ فأُحْصِدُوا

وقال الزجاج : قيل الليل غاسق لأنه أبرد من النهار .

والغاسق : البارد .

والغَسَق : البرد ؛ ولأن في الليل تخرج السِّباع من آجامها ، والهوام من أماكنها ، وينبعث أهل الشر على العيث والفساد .

وقيل : الغاسق : الثُّرَيَّا ؛ وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت

ارتفع ذلك ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد .

وقيل : هو الشمس إذا غربت ؛ قاله ابن شهاب .

وقيل : هو القمر .

قال القُتَبِيّ : ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ القمر : إذا دخل في ساهوره ، وهو كالغلاف له ، وذلك إذا خُسِفَ به .

وكل شيء أسود فهو غَسَق .

وقال قتادة : "إِذا وَقَب" إذا غابَ .

وهو أصح ؛ لأن في الترمذيّ " عن عائشة : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نظر إلى القمر ، فقال : "يا عائشة ، استعيذي بالله من شر هذا ، فإن هذا هو الغاسق إذا وَقَبَ" "

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقال أحمد بن يحيى ثعلب عن ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الريبَ يَتَحينون وَجبة القمر .

وأنشد :

أراحنِي اللَّهُ مِن أشياءَ أَكرهُها . . .

منها العجوزُ ومنها الكلبُ والقمرُ

هذا يبوحُ وهذا يُستضاء بِه . . .

وهذه ضِمْرِزٌ قَوَّامَةُ السَّحَرِ

وقيل: الغاسق: الحية إذا لدغت.

وكأن الغاسق نابُها؛ لأن السم يغسق منه؛ أي يسيل.

ووقب نابها: إذا دخل في اللديغ.

وقيل: الغاسق: كل هاجم يضر، كائناً ما كان؛ من قولهم: غسقتِ القرحة: إذا جرى صديدُها.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِي العقد ﴾ يعني الساحرات اللائي ينفُثْن في عُقَد الخيط حين يَرْقِينَ عليها.

شبه النفخ كما يعمل من يرقي.

قال الشاعر:

أَعُوذُ بِرَبِّي مِن النَّافِثَا . . .

تِ في عِضهِ العاضِهِ المُعْضِه

وقال مُتَمِّم بن نُوَيْرة:

نَفَثَتْ في الخيطِ شَبيهَ الرُّقَى . . .

مِن خشيةِ الجِنةِ والحاسِدِ

وقال عنترة :

فإنْ يَبْرَأْ فلَمْ أُنْفُثْ عَلَيْهِ . . .

وإنْ يُفْقَدْ فَحُقَ لَهُ الفُقُودُ

السابعة : روى النَّسائي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من عَقَدَ عُقدة ثم نَفَثَ فيها ، فقد سَحَرَ ، ومن سحر فقد أَشْرَكَ ، ومَنْ تَعَلَّق شيئاً وُكِلَ إليه "

واختلِف في النفْث عند الرُّقَى ، فمنعه قوم ، وأجازه آخرون .

قال عكرمة : لا ينبغي للراقي أن ينفُث ، ولا يمسح ولا يعقِد .

قال إبراهيم : كانوا يكرهون النفث في الرُّقَى .

وقال بعضهم : دخلت على الضحاك وهو وجِع ، فقلت : ألا أُعَوِّذُكَ يا أبا محمد ؟ قال : بلى ، ولكن لا تنفث ؛ فعوّذته بالمعوذتين .

وقال ابن جريج قلت لعطاء : القرآن يُنفَخ به أو يُنْفَثُ ؟ قال : لا شيء من ذلك ولكن تقرؤه هكذا .

ثم قال بعد : انفُثِ إن شئت .

وسئل محمد بن سِيرين عن الرُّقية يُنْفث فيها ، فقال : لا أعلم بها بأساً ، وإذا اختلفوا

فالحاكم بينهم السنة .

روت عائشة : " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان ينفِث في الرُّقية " ؛ رواه الأئمة ، وقد ذكرناه أوّل السورة وفي (سُبْحان) .

وعن محمد بن حاطب أن يده احترقت فأتت به أمّه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فجعل ينفُث عليها ويتكلم بكلام ؛ زعم أنه لم يحفظه .

وقال محمد بن الأشعث : ذُهِب بي إلى عائشة رضي الله عنها وفي عينيّ سوء ، فرَقَتْني ونَفَثَت .

وأما ما رُوي عن عكرمة من قوله : لا ينبغي للراقي أن ينفُث ؛ فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفْث في العُقَد مما يستعاذ به ، فلا يكون بنفسه عُوذة .

وليس هذا هكذا ؛ لأن النفث في العُقَد إذا كان مذموماً لم يجب أن يكون النفث بلا عُقَد مذموماً .

(98/839)

ولأن النفث في العُقَد إنما أُريد به السحر المضِرّ بالأرواح ، وهذا النفث لاستصلاح الأبدان ، فلا يقاس ما ينفع بما يضر .

وأما كراهة عكرمة المسحَ فخلاف السنة .

" قال علي رضي الله عنه : اشتكيت ، فدخل عليّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنا أقول : اللهمَّ إنْ كان أجلي قد حَضَرَ فأرِحنِي ، وإن كان متأخراً فاشفني وعافني ، وإن كان بلاء فصبرني .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "كيف قلت" ؟ فقلت له .

فَمَسحني بيده ، ثم قال : "اللهم اشْفِه" فما عاد ذلك الوجع بعد " وقرأ عبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن سابط وعيسى بن عمر ورويس عن يعقوب "ومِن شر النافِثاتِ" في وزن (فاعلات) .

ورُوِيت عن عبد الله بن القاسم مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما .

وروي أن نساء سحرن النبيّ صلى الله عليه وسلم في إحدى عشرة عقدة ؛ فأنزل الله المعوذتين إحدى عشرة آية .

قال ابن زيد : كنّ من اليهود ؛ يعني السواحر المذكورات .

وقيل : هنّ بنات لَبيد بن الأعصم .

الثامنة : قوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ قد تقدم في سورة "النساء" معنى الحسد ، وأنه تمني زوالِ نعمة المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها .

والمنافسة هي تمني مثلها وإن لم تزل .

فالحسدُ شرٌّ مذموم.

والمنافسة مباحة وهي الغِبطة.

وقد روي: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "المؤمن يَغْبِطُ، والمنافق يَحْسُدُ" وفي الصحيحين: "لا حسَد إلا في اثنتين" يريد لا غِبْطَة.

وقد مضى في سورة "النساء" والحمد لله.

قلت: قال العلماء: الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر بالمحسود، فيَتْبَع مساوئه ويطلب عَثَراته.

قال صلى الله عليه وسلم: "إذا حَسَدت فلا تَبْغِ . . .

" الحديث.

وقد تقدم.

والحسد أوّل ذنب عُصِي الله به في السماء، وأول ذنب عُصِي به في الأرض، فحسَدَ إبليس آدَمَ، وحسد قابيلُ هابيلَ.

والحاسد ممقوت مبْغوض مطرود ملعون.

ولقد أحسن من قال :

قل للحسود إذا تَنَفَّس طَعْنةً . . .

يا ظالماً وكأنهُ مَظْلُومُ

التاسعة : هذه سورة دالة على أن الله سبحانه خالق كل شر ، وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتعوّذ من جميع الشرور .

فقال : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ .

وجعل خاتمة ذلك الحسد ، تنبيهاً على عِظمه ، وكثرة ضرره ، والحاسد عدوّ نعمة الله .

قال بعض الحكماء : بارزَ الحاسد ربه من خمسة أوجه : أحدها : أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره .

وثانيها : أنه ساخط لقسمة ربه ، كأنه يقول : لم قسمت هذه القسمة ؟ وثالثها : أنه ضادَّ فعل الله ، أي إن فضل الله يؤتيه من يشاء ، وهو يبخَل بفضل الله .

ورابعها : أنه خذل أولياء الله ، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم .

وخامسها : أنه أعان عدوّه إبليس .

وقيل : الحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة ، ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة وبغضاء ، ولا ينال في الخلوة إلا جزَعاً وغماً ، ولا ينال في الآخرة إلا حُزْناً واحتراقاً ، ولا ينال من الله إلا بعداً ومقتاً .

ورُوي :

أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ثلاثة لا يُستجاب دعاؤهم : آكل الحرام ، ومُكثِر الغِيبة ، ومن كان في قلبه غِلٌّ أو حسد للمسلمين " والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(100/839)

وقال ابن كثير :

تفسير سورتي المعوذتين

وهما مدنيتان .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا عاصم بن بَهْدَلة ، عن زر بن حُبَيش قال : قلت لأبي بن كعب : إن ابن مسعود [كان] لا يكتب المعوذتين في مصحفه ؟ فقال : أشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرني أن جبريل ، عليه السلام ، قال له : " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ " فقلتها ، قال : " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ " فقلتها . فنحن نقول ما قال النبي صلى الله عليه وسلم (1) .

ورواه أبو بكر الحُميدي في مسنده ، عن سفيان بن عيينة ، حدثنا عبدة بن أبي لُبَابة

وعاصم بن بهدلة ، أنهما سمعا زر بن حبيش قال : سألتُ أبي بن كعب عن المعوذتين ، فقلت : يا أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يَحُكهما من المصحف . فقال : إني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : "قيل لي : قل ، فقلت" . فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (2) .

وقال أحمد : حدثنا وَكيع ، حدثنا سفيان ، عن عاصم ، عن زر قال : سألتُ ابنَ مسعود عن المعوذتين فقال : سألتُ النبي صلى الله عليه وسلم عنهما فقال : " قيل لي ، فقلت لكم ، فقولوا" . قال أبي : فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم فنحن نقول (3) .

وقال البخاري : حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا عَبدَةُ بن أبي لُبَابة ، عن زر بن حُبَيش - وحدثنا عاصم عن زر - قال : سألت أبي بن كعب فقلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا . فقال : إني سألت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : "قيل لي ، فقلت" . فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (4) .

ورواه البخاري أيضًا والنسائي ، عن قتيبة ، عن سفيان بن عيينة ، عن عبدة وعاصم بن أبي النجود ، عن زر بن حبيش ، عن أبي بن كعب ، به (8) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا الأزرق بن علي ، حدثنا حسان بن إبراهيم ، حدثنا الصَّلْت بن بَهرَام ، عن إبراهيم ، عن علقمة قال : كان عبد الله يَحُك المعوذتين من المصحف ، ويقول : إنما

---

(1) المسند (129/5) .

(2) مسند الحميدي (185/1) .

(3) المسند (129/5) .

(4) صحيح البخاري برقم (4977) .

(8) صحيح البخاري برقم (4976) .

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتعوذ بهما ، ولم يكن عبد الله يقرأ بهما (1)

ورواه عبد الله بن أحمد من حديث الأعمش ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن بن يزيد

قال : كان عبد الله يحك المعوذتين من مصاحفه ، ويقول : إنهما ليستا من كتاب الله – قال

الأعمش : وحدثنا عاصم ، عن زر بن حبيش ، عن أبي بن كعب قال : سألنا عنهما

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : "قيل لي ، فقلت" (2) .

وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء : أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في

مصحفه ، فلعله لم يسمعهما من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يتواتر عنده ، ثم لعله قد

رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة ، فإن الصحابة ، رضي الله عنهم ، كتبوهما في

المصاحف الأئمة، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك، ولله الحمد والمنة.

وقد قال مسلم في صحيحه: حدثنا قتيبة، حدثنا جرير، عن بيان، عن قيس بن أبي حَازم، عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم يُر مثلهن قط: "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ" و"قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" (3).

ورواه أحمد، ومسلم أيضا، والترمذي، والنسائي، من حديث إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن عقبة، به (4). وقال الترمذي: حسن صحيح.

---

(1) ورواه البزار في مسنده برقم (2301)، من طريق محمد بن أبي يعقوب، عن حسان بن إبراهيم به، وقال البزار: "وهذا لم يتابع عبد الله عليه أحد من الصحابة، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ بهما في الصلاة، وأثبتنا في المصحف".

(2) زوائد المسند (129/5).

(3) صحيح مسلم برقم (814).

(4) المسند (144/4) وصحيح مسلم برقم (814)، وسنن الترمذي برقم (2902) وسنن النسائي (158/2).

طريق أخرى : قال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا ابن جابر ، عن القاسم أبي عبد الرحمن ، عن عقبة بن عامر قال : بينا أنا أقود برسول الله صلى الله عليه وسلم في نَقب من تلك النقاب ، إذ قال لي : "يا عقبة ، ألا تركب ؟ " . قال : [فَأَجْلَلْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أركب مركبه . ثم قال : "يا عُقيب ، ألا تركب ؟ " . قال] فأشفقت أن تكون معصية ، قال : فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وركبت هنيهة ، ثم ركب ، ثم قال : "يا عقيب ، ألا أُعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس ؟ " . قلت : بلى يا رسول الله . فأقرأني : " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ " و " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ " ثم أقيمت الصلاة ، فتقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ بهما ، ثم مر بي فقال : "كيف رأيت يا عقيب اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت" .

ورواه النسائي من حديث الوليد بن مسلم وعبد الله بن المبارك ، كلاهما عن ابن جابر ، به (1) .

---

(1) المسند (144/4) وسنن النسائي (253/8) .

ورواه أبو داود والنسائي أيضًا ، من حديث ابن وهب ، عن معاوية بن صالح ، عن العلاء بن الحارث ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن عقبة ، به (1) .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني يزيد ابن عبد العزيز الرعيني وأبو مرحوم ، عن يزيد بن محمد القرشي ، عن علي بن رباح ، عن عقبة بن عامر قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة .

ورواه أبو داود والترمذي والنسائي ، من طرق ، عن علي بن أبي رباح (2) . وقال الترمذي : غريب .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لَهِيعة ، عن مشرَح بن هاعان ، عن عقبة بن عامر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اقرأ بالمعوذتين ، فإنك لن تقرأ بمثلهما" . تفرد به أحمد (3) .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا حيوة بن شُرَيْح ، حدثنا بَقِيَّة ، حدثنا بَحير بن سعد ، عن خالد بن مَعْدان ، عن جُبَير بن نُفَير ، عن عقبة بن عامر أنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهديت له بغلة شهباء ، فركبها فأخذ عقبة يقودها له ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأ " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ " . فأعادها له حتى قرأها ، فعرف أني لم أفرح بها جدًا ، فقال : "لعلك تهاونت بها ؟ فما قمت تصلي بشيء مثلها" .

ورواه النسائي عن عمرو بن عثمان ، عن بقية ، به (4) . ورواه النسائي أيضا من حديث الثوري ، عن معاوية بن صالح ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، عن أبيه ، عن عقبة بن عامر : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المعوذتين ، فذكر نحوه (5) .

---

(1) سنن النسائي (8/252 ، 253) وسنن أبي داود برقم (1462) .

(2) المسند (4/155) وسنن أبي داود برقم (1523) ، وسنن الترمذي برقم (2903) وسنن النسائي (3/68) .

(3) المسند (4/146) .

(4) المسند (4/149) وسنن النسائي الكبرى برقم (7843 ، 7844) .

(5) سنن النسائي (8/252) .

(104/839)

طريق أخرى : قال النسائي : أخبرنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر ، سمعت النعمان ، عن زياد أبي الأسد ، عن عقبة بن عامر ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين : "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ " و " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" (1) .

طريق أخرى : قال النسائي : أخبرنا قتيبة ، حدثنا الليث ، عن أبي عجلان ، عن سعيد المقبري ، عن عقبة بن عامر قال : كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "يا عقبة ، قل" . فقلت : ماذا أقول ؟ فسكت عني ، ثم قال : "قل" . قلت : ماذا أقول يا رسول الله ؟ فسكت عني ، فقلت : اللهم ، أردده علي . فقال : "يا عقبة ، قل" . قلت : ماذا أقول يا رسول الله ؟ فقال : "

---

(1) سنن النسائي الكبرى برقم (7856) .

(105/839)

" قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ " ، فقرأتها حتى أتيت على آخرها ، ثم قال : "قل" . قلت : ماذا أقول يا رسول الله ؟ قال : " " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ " ، فقرأتها حتى أتيت على آخرها ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك : "ما سأل سائل بمثلهما ، ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما " (1) .

طريق أخرى : قال النسائي : أخبرنا محمد بن يسار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا معاوية ، عن العلاء بن الحارث ، عن مكحول ، عن عقبة بن عامر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهما في صلاة الصبح (2) .

طريق أخرى : قال النسائي : أخبرنا قتيبة ، حدثنا الليث ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن أبي عمران أسلم ، عن عقبة بن عامر قال : اتبعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو راكب ، فوضعت يدي على قدمه فقلت : أقرئني سورة هود أو سورة يوسف . فقال : "لن تقرأ شيئًا أنفع عند الله من " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ " (3) .

حديث آخر : قال النسائي : أخبرنا محمود بن خالد ، حدثنا الوليد ، حدثنا أبو عمرو الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن أبي عبد الله ، عن ابن عائش الجهني : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : "يا ابن عائش ، ألا أدلك – أو : ألا أخبرك – بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون ؟ " . قال : بلى ، يا رسول الله . قال : " " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ " و " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ " هاتان السورتان" (4) .

فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه ، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث .

وقد تقدم في رواية صُدَيّ بن عجلان ، وفَرْوَة بن مُجاهد ، عنه : "ألا أعلمك ثلاث سُوَر لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان (10) مثلهن ؟ " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ " و " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ " و " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ " .

---

(1) سنن النسائي (253/8) .

(2) سنن النسائي (252/8) .

(3) سنن النسائي (254/8) .

(4) سنن النسائي (251/8) .

(106/839)

حديث آخر : قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا الجريري ، عن أبي العلاء قال : قال رجل : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، والناس يعتقبون ، وفي الظهر قلة ، فحانت نزلَة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلتي ، فلحقني فضرب [من بعدي] منكبي ، فقال : " " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ " ، فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأتها معه ، ثم قال : " " قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ " ، فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأتها معه ، فقال : "إذا صليت فاقرأ بهما " (1) .

---

(1) المسند (24/5) .

(107/839)

الظاهر أن هذا الرجل هو عقبة بن عامر ، والله أعلم .

ورواه النسائي عن يعقوب بن إبراهيم ، عن ابن علية ، به (1) .

حديث آخر : قال النسائي : أخبرنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن عبد الله بن سعيد ، حدثني يزيد بن رومان ، عن عقبة بن عامر ، عن عبد الله الأسلمي - هو ابن أنيس - : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على صدره ثم قال : "قل" . فلم أدر ما أقول ، ثم قال لي : "قل" . قلت : "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" ثم قال لي : "قل" . قلت : "أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ" حتى فرغت منها ، ثم قال لي : "قل" . قلت : "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" حتى فرغت منها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هكذا فَتَعَوَّذْ ما تعوذَ المتعوذون بمثلهن قط" (2) .

حديث آخر : قال النسائي : أخبرنا عمرو بن علي أبو حفص ، حدثنا بَدَل ، حدثنا شداد بن سعيد أبو طلحة ، عن سعيد الجُرَيري ، حدثنا أبو نَضْرة ، عن جابر بن عبد الله قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اقرأ يا جابر" . قلت : وما أقرأ بأبي أنت وأمي ؟ قال : "اقرأ "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ" و "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ" . فقرأتهما ، فقال : "اقرأ بهما ، ولن تقرأ بمثلهما" (3) .

وتقدم حديث عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بهن ، وينفث في كفيه ، ويمسح بهما رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده .

وقال الإمام مالك : عن ابن شهاب ، عن عُرْوَة ، عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه ، وأمسح بيده عليه ، رجاء بركتها .

ورواه البخاري عن عبد الله بن يوسف ، ومسلم عن يحيى بن يحيى ، وأبو داود عن القعنبي ، والنسائي عن قتيبة – ومن حديث ابن القاسم ، وعيسى بن يونس – وابن ماجة من حديث معن وبشر بن عُمَر ، ثمانيتهم عن مالك ، به (4) .

---

(1) سنن النسائي الكبرى برقم (7859) .

(2) سنن النسائي الكبرى برقم (7845) .

(3) سنن النسائي الكبرى برقم (7854) .

(4) الموطأ (942/2) وصحيح البخاري برقم (5016) وصحيح مسلم برقم (3902) وسنن أبي داود برقم (3902) وسنن النسائي الكبرى برقم (7549 ، 7544 ، 10847) وسنن ابن ماجة برقم (3529) .

وتقدم في آخر سورة: " ن " من حديث أبي نضرة، عن أبي سعيد: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من أعين الجان وعين الإنسان، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما، وترك ما سواهما. رواه الترمذي والنسائي وابن ماجة، وقال الترمذي: حديث حسن.

(109/839)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) ﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن عصام، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا حسن بن صالح، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جابر قال: الفلق: الصبح.

وقال العوفي، عن ابن عباس: ﴿ الْفَلَقِ ﴾ الصبح. ورُوي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعبد الله بن محمد بن عقيل، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب القرظي، وابن زيد، ومالك عن زيد بن أسلم، مثل هذا.

قال القرظي، وابن زيد، وابن جرير: وهي كقوله تعالى: ﴿ فَالِقُ الإصْبَاحِ ﴾ [الأنعام: 96].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ الْفَلَقِ ﴾ الخلق. وكذا قال الضحاك: أمر

الله نبيه أن يتعوذ من الخلق كله .

وقال كعب الأحبار : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ بيت في جهنم ، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره ، ورواه ابن أبي حاتم ، ثم قال :

حدثنا أبي ، حدثنا سهيل بن عثمان ، عن رجل سماه ، عن السدي ، عن زيد بن علي ، عن آبائه أنهم قالوا : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ جب في قعر جهنم ، عليه غطاء ، فإذا كشف عنه خرجت منا نار تصيح منه جهنم ، من شدة حر ما يخرج منه .

وكذا رُوي عن عمرو بن عَبَسَة والسدي ، وغيرهم . وقد ورد في ذلك حديثٌ مرفوع منكر ، فقال ابن جرير :

حدثني إسحاق بن وهب الواسطي ، حدثنا مسعود بن موسى بن مشكان الواسطي ، حدثنا نصر بن خزيمة الخراساني ، عن شعيب بن صفوان ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن أبي هُريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " ﴿ الْفَلَقِ ﴾ جُبّ في جهنم مغطى " (1) إسناده غريب ولا يصح رفعه .

وقال أبو عبد الرحمن الحبلي : ﴿ الْفَلَقِ ﴾ من أسماء جهنم .

قال ابن جرير : والصواب القول الأول ، أنه فلق الصبح . وهذا هو الصحيح ، وهو اختيار البخاري ، رحمه الله ، في صحيحه (2) .

وقوله : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي : من شر جميع المخلوقات . وقال ثابت البناني ،

والحسن البصري : جهنم وإبليس وذريته مما خلق .

---

(1) تفسير الطبري (225/30) .

(2) تفسير الطبري (225/30) وصحيح البخاري (741/8) "فتح" .

(110/839)

﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قال مجاهد : غاسقُ الليل إذا وقب غُروبُ الشمس . حكاه البخاري عنه . ورواه ابن أبي نَجِيح ، عنه . وكذا قال ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظي ، والضحاك ، وخُصَيف ، والحسن ، وقتادة : إنه الليل إذا أقبل بظلامه .

(111/839)

وقال الزهري : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ الشمس إذا غربت . وعن عطية وقتادة : إذا وقب الليل : إذا ذهب . وقال أبو المهزم ، عن أبي هريرة : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ كوكب . وقال ابن زيد : كانت العرب تقول : الغاسق سقوط الثريا ، وكان الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها .

قال ابن جرير : ولهؤلاء من الأثر ما حدثني : نصر بن علي ، حدثني بكار بن عبد الله - ابن أخي همام - حدثنا محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبيه ، عن أبي سلمة ، عن أبي هُرَيرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قال : النجم الغاسق" (1) .

قلت : وهذا الحديث لا يصح رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قال ابن جرير : وقال آخرون : هو القمر .

قلت : وعمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو داود الحَفري ، عن ابن أبي ذئب ، عن الحارث ، عن أبي سلمة قال : قالت عائشة ، رضي الله عنها : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي ، فأراني القمر حين يطلع ، وقال : "تَعوَّذِي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب" .

ورواه الترمذي والنسائي ، في كتابي التفسير من سننيهما ، من حديث محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ذئب ، عن خاله الحارث بن عبد الرحمن ، به (2) .

وقال الترمذي : حسن صحيح . ولفظه : "تعوذي بالله من شر هذا ، فإن هذا الغاسق إذا وقب" . ولفظ النسائي : "تعوَّذي بالله من شر هذا ، هذا الغاسق إذا وقب" .

قال أصحاب القول الأول وهو أنه الليل إذا ولج - : هذا لا ينافي قولنا ؛ لأن القمر آيةُ الليل ، ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وكذلك النجوم لا تضيء ، إلا في الليل ، فهو يرجع إلى ما قلناه ،

والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة والضحاك : يعني : السواحر – قال مجاهد : إذا رقين ونفثن في العقد .

---

(1) تفسير الطبري (227/30) .

(2) المسند (61/6) وسنن الترمذي برقم (3366) وسنن النسائي الكبرى برقم (10138) .

(112/839)

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن مَعْمَر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : ما من شيء أقرب من الشرك من رقية الحية والمجانين (1) .

وفي الحديث الآخر : أن جبريل جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اشتكيت يا محمد ؟ فقال : "نعم" . فقال : بسم الله أرْقِيك ، من كل داء يؤذيك ، ومن شر كل حاسد وعين ، الله يشفيك (2) .

---

(1) تفسير الطبري (30/227) .

(2) رواه مسلم في صحيحه برقم (2186) من حديث أبي سعيد ، رضي الله عنه .

(113/839)

ولعل هذا كان من شكواه ، عليه السلام ، حين سحر ، ثم عافاه الله تعالى وشفاه ، ورد كيد السحرَة الحسَّاد من اليهود في رءوسهم ، وجعل تدميرهم في تدبيرهم ، وفضحهم ، ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما من الدهر ، بل كفى الله وشفى وعافى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن يزيد بن حَيَّان ، عن زيد بن أرقم قال : سحر النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ من اليهود ، فاشتكى لذلك أياما ، قال : فجاءه جبريل فقال : إن رجلا من اليهود سحرك ، عقد لك عُقَدًا في بئر كذا وكذا ، فَأَرْسِل إليها من يجيء بها . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم [عليًا ، رضي الله تعالى عنه] فاستخرجها ، فجاء بها فحللها قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نَشط من عقال ، فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه [قط] حتى مات .

ورواه النسائي عن هَنَّاد ، عن أبي معاوية محمد بن حَازم الضرير (1) .

(1) المسند (367/4) وسنن النسائي (112/7) .

(114/839)

وقال البخاري في "كتاب الطب" من صحيحه : حدثنا عبد الله بن محمد قال : سمعت سفيان بن عيينة يقول : أول من حدثنا به ابن جُرَيْج ، يقول : حدثني آل عُرْوَة ، عن عروة ، فسألت هشاما عنه ، فحدثَنا عن أبيه ، عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سُحر ، حتى كان يُرَى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن - قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر ، إذا كان كذا - فقال : "يا عائشة ، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيتُه فيه ؟ أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجلي ، فقال الذي عند رأسي للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طَبَّه ؟ قال : لَبيد بن أعصم - رجل من بني زُرَيق حَليف ليهُودَ ، كان منافقًا - وقال : وفيم ؟ قال : في مُشط ومُشاقة . قال : وأين ؟ قال : في جُف طَلْعَة ذكر تحت رعوفة في بئر ذَرْوَان" . قالت : فأتى [النبي صلى الله عليه وسلم] (1) البئر حتى استخرجه فقال : "هذه البئر التي أريتها ، وكأن ماءها نُقَاعة الحنَّاء ، وكأن نخلها رءوس الشياطين" . قال : فاستخرج . [قالت] (2) . فقلت : أفلا ؟ أي : تَنَشَّرْتَ ؟ فقال : "أمَّا اللهُ فقد شفاني ، وأكره أن أثير على

أحد من الناس شرًا" (3) .

وأسنده من حديث عيسى بن يونس ، وأبي ضَمْرة أنس بن عياض ، وأبي أسامة ، ويحيى القطان وفيه : "قالت : حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله" . وعنده : "فأمر بالبئر فدفنت" . وذكر أنه رواه عن هشام أيضًا ابن أبي الزّنَاد والليث بن سعد (4) .

وقد رواه مسلم ، من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة وعبد الله بن نمير . ورواه أحمد ، عن

---

(1) زيادة من صحيح البخاري .

(2) زيادة من صحيح البخاري .

(3) صحيح البخاري برقم (5765) .

(4) صحيح البخاري برقم (5863 ، 6391 ، 5766) .

عفان ، عن وُهَيب عن هشام ، به (1) .

ورواه الإمام أحمد أيضًا عن إبراهيم بن خالد ، عن رباح ، عن مَعْمَر ، عن هشَام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة أشهر يُرى أنه يأتي ولا يأتي

، فأتاه ملكان، فجلس أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فقال أحدهما للآخر: ما باله ؟ قال: مطبوب. قال: ومن طبه ؟ قال: لبيد بن الأعصم، وذكر تمام الحديث (2).

---

(1) صحيح مسلم برقم (2189) والمسند (96/6).

(2) المسند (63/6).

(116/839)

وقال الأستاذ المفسر الثعلبي في تفسيره: قال ابن عباس وعائشة، رضي الله عنهما: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدبَّت إليه اليهود، فلم يزالوا به حتى أخذ مُشَاطة رأس النبي صلى الله عليه وسلم وعدة أسنان من مُشطه، فأعطاها اليهود، فسحروه فيها. وكان الذي تولى ذلك رجل منهم - يقال له: [لبيد] بن أعصم - ثم دسها في بئر لبني زُرَيق، ويقال لها: ذَرْوان، فمرض رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتثر شعر رأسه، ولبث ستة أشهر يُرَى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، وجعل يَذُوب ولا يدري ما عراه. فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان فقَعَد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه: ما بال الرجل ؟ قال: طُبَّ. قال: وما طُبَّ ؟ قال:

سحر . قال : ومن سحره ؟ قال : لبيد بن أعصم اليهودي . قال : وبم طَبَه ؟ قال : بمشط ومشاطة . قال : وأين هو ؟ قال : في جُفَ طلعة تحت راعوفة في بئر ذَرْوَان – والجف : قشر الطلع ، والراعوفة : حجر في أسفل البئر ناتئ يقوم عليه الماتح – فانتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم مذعورًا ، وقال : "يا عائشة ، أما شعرت أن الله أخبرني بدائي ؟ " . ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا والزبير وعمار بن ياسر ، فنزحوا ماء البئر كأنه نُقاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة ، وأخرجوا الجف ، فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه ، وإذا فيه وتر معقود ، فيه اثنتا عشرة عقدة مغروزة بالإبر . فأنزل الله تعالى السورتين ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد رسول الله صلى الله عليه وسلم خفة حين انحلت العقدة الأخيرة ، فقام كأنما نَشِطَ من عقال ، وجعل جبريل ، عليه السلام ، يقول : باسم الله أرْقِيك ، من كل شيء يؤذيك ، من حاسد وعين الله يشفيك . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نأخذ الخبيث نقتله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما أنا فقد شفاني الله ، وأكره أن يثير على

الناس شرًا" (1) .

هكذا أورده بلا إسناد ، وفيه غرابة ، وفي بعضه نكارة شديدة ، ولبعضه شواهد مما تقدم ، والله أعلم . انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 8 صـ 530.538 ﴾

---

(1) الكشف والبيان للثعلبي "ق 194 المحمودية" .

(118/839)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾

قال ابن عباس وعائشة : "كان غلام من اليهود يخدم النبي (صلى الله عليه وسلم) فدبت إليه اليهود ، فلم يزالوا به حتى أخذ من مشاطة رأس رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعدة من أسنان مشطه ، فأعطاها اليهود ، فسحروه فيها ، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود فنزلت السورتان فيه " .

(ق) عن عائشة "أن النبي (صلى الله عليه وسلم) سحر حتى كان يخيل إليه أن يصنع الشيء ولم يصنعه" وفي رواية "أنه يخيل إليه فعل الشيء ، وما فعله حتى إذا كان يوم ، وهو عندي دعا الله ، ودعاه ثم قال أشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه قلت

: وما ذاك يا رسول الله قد جاءني رجلان ، فجلس أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجلي ، ثم قال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل قال مطبوب ، قال ومن طبه قال لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق قال : فيما ذا قال في مشط ومشاطة ، وجف طلعة ذكر قال فأين هو قال في بئر ذروان ، ومن الرواة من قال في بئر بني زريق فذهب النبي (صلى الله عليه وسلم) في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها وعليها نخل ثم رجع إلى عائشة فقال والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين قلت يا رسول الله فأخرجه .

قال أما أنا فقد عافاني الله وشفاني ، وخفت أن أثير على الناس منه شراً " وفي رواية للبخاري " أنه كان يرى أنه يأتي النساء ، ولا يأتيهن قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذلك " عن زيد بن أرقم قال " سحر رجل من اليهود النبي (صلى الله عليه وسلم) فاشتكى ذلك أياماً فأتاه جبريل فقال إن رجلاً من اليهود سحرك ، وعقد لك عقداً في بئر كذا فأرسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) علياً فاستخرجها ، فجاء بها فحلها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كأنما نشط من عقال ، فما ذكر ذلك لليهودي ، ولا رآه في وجهه قط " أخرجه النسائي

وروي " أنه كان تحت صخرة في البئر فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة ، فإذا فيه مشاطة من رأسه (صلى الله عليه وسلم) وأسنان من مشطه " ، وقيل كان في وتر عقد عليه إحدى عشرة عقدة وقيل كان مغروزاً بالإبر فأنزل الله هاتين السورتين ، وهما إحدى عشرة آية سورة الفلق خمس آيات ، وسورة الناس ست آيات ، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد كلها ، فقام النبي (صلى الله عليه وسلم) كأنما نشط من عقال وروي " أنه لبث ستة أشهر ، واشتد عليه ذلك ثلاث ليال فنزلت المعوذتان " (م) عن أبي سعيد الخدري

" أن جبريل أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقال يا محمد اشتكيت قال نعم قال بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، ومن شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك بسم الله أرقيك " .

(فصل وقبل الشروع في التفسير نذكر معنى الحديث ، وما قيل فيه ،

وما قيل في السحر ، وما قيل في الرقى)

قولها في الحديث إن النبي (صلى الله عليه وسلم) سحر حتى كان يخيل إليه أنه يصنع الشيء ، ولم يصنعه .

قال الإمام المازري : مذهب أهل السّنة ، وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر ، وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثّابتة خلافاً لمن أنكر ذلك ، ونفى حقيقته ، وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها ، وقد ذكره الله في كتابه ، وذكر أنه مما يتعلم ، وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به ، وأنه يفرق بين المرء ، وزوجه وهذا كله لا يمكن أن يكون مما لا حقيقة له وهذا الحديث الصحيح مصرح بإثباته ، ولا يستنكر في العقل أن الله تعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوي لا يعرفها إلا الساحر ، وأنه لا فاعل إلا الله تعالى ، وما يقع من ذلك فهو عادة أجراها الله تعالى على يد من يشاء من عباده .

فإن قلت المستعاذ منه هل هو بقضاء الله ، وقدره فذلك قدح في القدرة .

قلت كل ما وقع في الوجود هو بقضاء الله وقدره ، والاستشفاء بالتّعوذ ، والرّقى من قضاء الله ، وقدره يدل على صحة ذلك .

ما روى التّرمذي عن ابن أبي خزامة عن أبيه قال : " سألت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقلت يا رسول الله أرأيت رقى نسترقي بها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها هل ترد من قدر الله شيئاً ، قال : هي من قدر الله تعالي " قال التّرمذي : هذا حديث حسن وعن عمر نفر من قدر الله إلى قدر الله تعالى .

(فصل)

وقد أنكر بعض المبتدعة حديث عائشة المتفق عليه ، وزعم أنه يحط منصب النّبوة ويشكك فيها وأن تجويزه يمنع الثّقة بالشّرع .

ورد على هذا المبتدع بأن الذي ادعاه باطل لأن الدّلائل القطعية ، والنقلية قد قامت على صدقه (صلى الله عليه وسلم) ، وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ ، والمعجزة شاهدة بذلك ، وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل .

وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا ، وهو ما يعرض للبشر فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له .

وقد قيل إنه كان يخيل إليه أنه وطىء زوجاته ، وليس واطىء ، وهذا مثل ما يتخيله الإنسان في المنام .

فلا يبعد أن يتخيله في اليقظة ، ولا حقيقة له ، وقيل إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله ، ولكن لا يعتقد ما تخيله فتكون اعتقاداته على السّداد قال القاضي : وقد جاءت في بعض روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما سلط على بدنه وظواهر جوارحه لا على قلبه وعقله

واعتقاده وليس في ذلك ما يوجب لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الزّيغ والضّلالة ، وقوله ما وجع الرجل قال مطبوب أي مسحور قوله ، وجف طلعة ذكر يروى بالباء ويروى بالفاء ، وهو وعاء طلع النخل .

وأما الرّقى والتّعاويذ فقد اتفق الاجماع على جواز ذلك إذا كان بآيات من القرآن ، أو إذ كانت وردت في الحديث ، ويدل على صحته الأحاديث الواردة في ذلك منها حديث أبي سعيد المتقدم أن جبريل رقي النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ومنها ما روي عن عبيد بن رفاعة الزرقي " أن أسماء بنت عميس قالت يا رسول الله إن ولد جعفر تسرع إليهم العين . أفأسترقي لهم قال نعم فإنه لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين " أخرجه التّرمذي وقال : حديث صحيح وعن أبي سعيد الخدري " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يتعوذ ويقول أعوذ بالله من الجان ، وعين الإنسان فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ، وترك ما سواهما " أخرجه التّرمذي وقال : حديث حسن غريب فهذه الأحاديث تدل على جواز الرّقية ، وإنما المنهي عنه منها ما كان فيه كفر أو شرك أو ما لا يعرف معناه مما ليس بعربي لجواز أن يكون فيه كفر والله أعلم .

(وأما التفسير)

فقوله ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ ، أراد بالفلق الصبح ، وهو قول الأكثرين ، ورواية عن ابن عباس لأن الليل ينفلق عن الصبح وسبب تخصيصه في التعوذ أن القادر على إزالة هذه الظلمة عن العالم قادر على أن يدفع عن المستعيذ ما يخافه ، ويخشاه ، وقيل إن طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج ، كما أن الإنسان ينتظر طلوع الصّباح ، فكذلك الخائف يترقب مجيء النجاح ، وقيل إن تخصيص الصبح بالذكر في هذا الموضع لأنه وقت دعاء المضطرين ، وإجابة الملهوفين ، فكأنه يقول قل أعوذ برب الوقت ، الذي يفرج فيه هم المهمومين والمغمومين ، وروي عن ابن عباس أن الفلق سجن في جهنم ، وقيل هو واد في جهنم إذ فتح استعاذ أهل النار من حره ، ووجهه أن المستعيذ قال : أعوذ برب هذا العذاب ، القادر عليه من شر عذابه ، وغيره وروي عن ابن عباس أيضاً أن الفلق الخلق ، ووجه هذا التأويل ، أن الله تعالى فلق ظلمات بحر العدم بإيجاد الأنوار ، وخلق منه الخلق ، فكأنه قال قل أعوذ برب جميع الممكنات ، ومكون جميع المحدثات ﴿ من شر ما خلق ﴾ قيل يريد به إبليس خاصة لأنه لم يخلق الله خلقاً هو شر منه ، ولأن السحر لا يتم إلا به وبأعوانه وجنوده ، وقيل من شر كل ذي شر ، وقيل من شر ما خلق من الجن ، والإنس .

﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى القمر فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا ، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب " أخرجه التّرمذي وقال حديث حسن صحيح ، فعلى هذا الحديث المراد به القمر إذا خسف ، واسود ومعنى وقب دخل في الخسوف ، أو أخذ في الغيبوبة ، وقيل سمي به لأنه إذا خسف اسود ، وذهب ضوءه وقيل إذا وقب دخل في المحاق ، وهو آخر الشهر وفي ذلك الوقت يتم السحر المورث للتمريض ، وهذا مناسب لسبب نزول هذه الآية . وقال ابن عباس : الغاسق الليل إذا وقب أي أقبل لظلمته من المشرق ، وقيل سمي الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار ، والغسق البرد وإنما أمر بالتعوذ من الليل لأن فيه تنتشر الآفات ، ويقل الغوث وفيه يتم السحر ، وقيل الغاسق الثريا إذا سقطت ، وغابت ، وقيل إن الأسقام تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها فلهذا أمر بالتعوذ من الثريا عند سقوطها ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ يعني السواحر اللاتي ينفثن في عقد الخيط حين يرقين عليها ، وقيل المراد بالنفاثات بنات لبيد بن الأعصم اللاتي سحرن النبي صلى الله عليه وسلم ، والنفث النفخ مع ريق قليل ، وقيل إنه النفخ فقط .

واختلفوا في جواز النّفث في الرّقى ، والتّعاويذ الشّرعية المستحبة فجوزه الجمهور من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم ، ويدل عليه حديث عائشة قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوذات" الحديث وأنكر جماعة التّفل ، والنّفث في الرقى ، وأجازوا النّفخ بلا ريق قال عكرمة : لا ينبغي للرّاقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد ، وقيل النفث في العقد إنما يكون مذموماً إذا كان سحراً مضراً بالأرواح والأبدان ، وإذا كان النفث لإصلاح الأرواح والأبدان وجب أن لا يكون مذموماً ، ولا مكروهاً بل هو مندوب إليه . ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ الحاسد هو الذي يتمنى زوال نعمة الغير ، وربما يكون مع ذلك سعي ، فلذلك أمر الله تعالى بالتعوذ منه ، وأراد بالحاسد هنا اليهود ، فإنهم كانوا يحسدون النبي صلى الله عليه وسلم أو لبيد بن الأعصم وحده والله سبحانه ، وتعالى أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 322.325 ﴾

وقال النسفى :

سورة الْفَلَقِ

مختلف فيها وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾

أي الصبح أو الخلق أو هو واد في جهنم أو جبٌّ فيها ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي النار أو الشيطان.

و"ما" موصولة والعائد محذوف ، أو مصدرية ويكون الخلق بمعنى المخلوق.

وقرأ أبو حنيفة رضي الله عنه ﴿ مِن شَرّ ﴾ بالتنوين و"ما" على هذا مع الفعل بتأويل المصدر في موضع الجر بدل من ﴿ شَرُّ ﴾ أي شر خلقه أي من خلق شر ، أو زائدة ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ الغاسق : الليل إذا اعتكر ظلامه ، ووقوبه دخول ظلامه في كل شيء ، وعن عائشة رضي الله عنها : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فأشار إلى القمر فقال : تعوذي بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب ، ووقوبه دخوله في الكسوف واسوداده ﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِى العقد ﴾ النفاثات : النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقين ، والنفث : النفخ مع ريق وهو دليل على بطلان قول المعتزلة في إنكار تحقق السحر وظهور أثره ﴿ وَمِن شَرِّ

حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ أي إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه لأنه إذا لم يظهر فلا ضرر يعود منه على حسده بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره ، وهو الأسف على الخير عند الغير .

والاستعاذة من شر هذه الأشياء بعد الاستعاذة من شر ما خلق إشعار بأن شر هؤلاء أشد ، وختم بالحسد ليعلم أنه شرها وهو أول ذنب عصي الله به في السماء من إبليس ، وفي الأرض من قابيل .

وإنما عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه ، لأن كل نفاثة شريرة فلذا عرفت ﴿ النفاثات ﴾ ونكر ﴿ غَاسِقٍ ﴾ لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر إنما يكون في بعض دون بعض ، وكذلك كل حاسد لا يضر ، ورب حسد يكون محموداً كالحسد في الخيرات والله أعلم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 386 ﴾

(126/839)

وقال ابن جزى :

سورة الْفَلَقِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾

تقدم معنى أعوذ في التعوذ ومعنى رب اللغات والفاتحة، وفي الفلق ثلاثة أقوال: أنه الصبح ومنه فالق الإصباح قال الزمخشري: هو فعل بمعنى مفعول، الثاني: أنه كل ما يفلقه الله كفلق الأرض عن النبات والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر والأرحام عن الأولاد والحب والنوى وغير ذلك، الثالث: أنه جُبٌّ في جهنم. وقد رُوي هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ هذا عموم في جميع المخلوقات وشرهم أنواع كثيرة، أعاذنا الله منها. وما هنا موصلة أو موصوفة أو مصدرية ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ فيه سبعة أقوال، الأول: أنه الليل إذا أظلم ومنه قوله تعالى: ﴿ إلى غَسَقِ اليل ﴾ [الإسراء: 78] وهذا قول الأكثرين، وذلك ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الأنس والجن، ولذلك قال في المثل: الليل أخفى للويل. الثاني: أنه القمر. خرَّج النسائي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى القمر فقال: يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا، فإنه الغاسق إذا وقب " ووقوبه هذا كسوفه، لأن وقب في كلام العرب يكون بمعنى الظلمة والسواد وبمعنى الدخول فالمعنى إذا دخل في الكسوف أو إذا أظلم به. الثالث: أنه الشمس إذا غربت والوقوب على هذا المعنى الظلمة أو الدخول. الرابع: أن الغاسق

النهار إذا دخل في الليل ، وهذا قريب من الذي قبله ، الخامس : أن الغاسق سقوط الثريا وكانت الأسقام والطاعون تهيج عنده ، وروي ن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : النجم هو الغاسق فيحتمل أن يريد الثريا السادس : قال الزمخشري : يجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات ووقبه ضربه السابع : أنه إبليس حكى ذلك السهيلي ﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِي العقد ﴾ النفث شبه النفخ دون تفل وريق قاله ابن عطية ، وقال الزمخشري : هو النفخ مع ريق وهذا النفث ضرب من السحر وهو : أن ينفث على عقد تعقد في خيط أو نحوه على اسم مسحور فيضره ذلك ، وحكى ابن عطية

أنه حدثه ثقة أنه رأى عند بعض الناس بصحراء المغرب خيطاً أحمر قد عقدت فيه عقد على فُصْلان وهي أولاد الإبل فمنعها بذلك من رضاع أمهاتها ، فكان إذا حل عقدة جرى ذلك الفصيل إلى أمه فرضع في الحين قال الزمخشري : إن في الاستعاذة من النفاثات ثلاثة أوجه : أحدها : أن يستعاذ من مثل عملهن وهو السحر ، من ائتمن في ذلك . والثاني : أن يستعاذ من خداعهن للناس وفتنهن والثالث : أن يستعاذ مما يصيب من الشر عند نفثهن . والنفاثات بناء مبالغة والموصوف محذوف تقديره : النساء النفاثات ، والجماعة النفاثات ،

أو النفوس النفاثات ، والأول أصح لأنه روي أنه إشارة إلى البنات لبيد من الأعصم اليهودي ، وكنَّ ساحرات سحرن هن وأبوهن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقدن له إحدى عشر عقدة ، فأنزل الله المعوذتين إحدى عشر آية بعدد العقد وشفى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن قيل : لم عرّف النفاثات بالألف واللام ونكر ما قبله وهو غاسق وما بعده وهو حاسد مع أن الجميع مستعاذ منه ؟ فالجواب : أنه عرف النفاثات ليفيد العموم لأنه كل نفاثة شريرة بخلاف الغاسق والحاسد فإن شرهما في بعض دون بعض .

(129/839)

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ الحسد خُلق مذموم طبعاً وشرعاً ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب " وقال بعض العلماء : الحسد أول معصية عُصِيَ الله بها في السماء والأرض أما في السماء فحسد إبليس لآدم وأما في الأرض فقتل قابيل لأخيه هابيل بسبب الحسد ، ثم إن الحسد على درجات . الأولى : أن يحب الإنسان زوال النعمة عن أخيه المسلم وإن كانت لا تنتقل إليه بل يكره إنعام الله على غيره ويتألم به . الثانية : أن يحب زوال تلك النعمة لرغبته فيها وجاء انتقالها إليه . الثالثة : أن يتمنى لنفسه مثل تلك النعمة من غير أن يحب زوالها عن غيره

وهذا جائز وليس بحسد وإنما هو غبطة . والحاسد يضر نفسه ثلاث مضرات : أحدها : اكتساب الذنوب لأن الحسد حرام . الثانية : سوء الأدب مع الله تعالى ، فإن حقيقة الحسد كراهية إنعام الله على عبده واعتراض على الله في فعله . الثالثة : تألم قلبه من كثرة همه وغمه . فنرغب إلى الله أن يجعلنا محسودين لا حاسدين ، فإن المحسود في نعمة والحاسد في كرب ونقمة ، ولله در القائل :

وإني لأرحم حسَّادي لفرط ما . . . ضمَّت صدورهمُ من الأوغار

نظروا صنيع الله بي فعيونهم . . . في جنة وقلوبهم في نار

وقال آخر :

إن يحسدوني فإني غيرُ لائمهم . . . قبلي من الناس أهلَ الفضل قد حسدوا

فدام لي ولهم ما بي وما بهمُ . . . وماتَ أكثرنا غيضاً بما يجدُ

ثم إن الحسود لا تزال عداوته ولا تنفع مداراته وهو ظالم يشاكي كأنه مظلوم ، ولقد صدق القائل :

كل العداوة قد ترجى إزالتها . . . إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال حكيم الشعراء :

وأظلم خلق الله من بات حاسداً . . . لمن بات في نعمائه يتقلب

قال ابن عطية : قال بعض الحذاق : هذه السورة خمس آيات وهي مراد الناس بقولهم للحاسد الذي يخاف منه العين : الخمسة على عينك ، فإن قيل : إذا وقب ، وإذا حسد فقيد بإذا التي تقتضي تخصيص بعض الأوقات ؟ فالجواب : أن شر الحاسد ومضرته إنما تقع إذا أمضى حسده ، فحيئنذ يضر بقوله أو بفعله أو بإصابته بالعين ، فإن عين الحسود قاتلة . وأما إذا لم يمض حسده ولم يتصرف بمقتضاه فشره ضعيف ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاث لا ينجو منهم أحد : الحسد والظن والطيرة فمخرجه من الحسد أن لا يبقى ومخرجه من الظن أن لا يحقق ومخرجه من الطيرة ألا يرجع ، فلهذا خصه بقوله إذا وقب ، فإن قيل : إن قوله من شر ما خلق عموم يدخل تحته كل ما ذكر بعده فلأي شيء ذكر ما بعده ؟ فالجواب : أن هذا من التجريد للاعتناء بالمذكور بعد العموم ، ولقد تأكد ما ذكر في هذه السورة بعد العموم بسبب السحر الذي سحر اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة حسدهم له . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 225.

226﴾

وقال البيضاوى :

سورة الْفَلَقِ

مختلف فيها ، وآيها خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾

ما يفلق عنه أي يفرق كالفرق فعل بمعنى مفعول ، وهو يعم جميع الممكنات ، فإنه تعالى فلق ظلمة العدم بنور الإيجاد عنها ، سيما ما يخرج من أصل كالعيون والأمطار والنبات والأولاد ، ويختص عرفاً بالصبح ولذلك فسر به . وتخصيصه لما فيه من تغير الحال وتبدل وحشة الليل بسرور النور ومحاكاة فاتحة يوم القيامة ، والإشعار بأن من قدر أن يزيل به ظلمة الليل عن هذا العالم قدر أن يزيل عن العائذ به ما يخافه ، ولفظ الرب هنا أوقع من سائر أسمائه تعالى لأن الإعاذة من المضار قربة .

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ خص عالم الخلق بالإستعاذة عنه لانحصار الشرفية ، فإن عالم الأمر خير كله ، وشره اختياري لازم ومتعد كالكفر والظلم ، وطبيعي كإحراق النار وإهلاك السموم .

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ ليل عظيم ظلامه من قوله : ﴿ إلى غسق الليل ﴾ وأصله الامتلاء يقال غسقت العين إذا امتلأت دمعاً . وقيل السيلان و ﴿ غَسَقِ اليل ﴾ انصباب

ظلامه وغسق العين سيلان دمعه . ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ دخل ظلامه في كل شيء ، وتخصيصه لأن المضار فيه تكثر ويعسر الدفع ، ولذلك قيل الليل أخفى للويل . وقيل المراد به القمر فإنه يكسف فيغسق ووقوبه دخوله في الكسوف .

﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِى العقد ﴾

ومن شر النفوس أو النساء السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ، والنفث النفخ مع ريق وتخصيصه . "لما روي أن يهودياً سحر النبي صلى الله عليه وسلم في إحدى عشرة عقدة في وتر دسه في بئر ، فمرض النبي صلى الله عليه وسلم ونزلت المعوذتان" وأخبره جبريل عليه الصلاة والسلام بموضع السحر فأرسل علياً رضي الله تعالى عنه فجاء به فقرأهما عليه ، فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد بعض الخفة ، ولا يوجب ذلك صدق الكفرة في أنه مسحور ، لأنهم أرادوا به أنه مجنون بواسطة السحر . وقيل المراد بالنفث في العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من تليين العقد بنفث الريق ليسهل حلها وإفرادها بالتعريف لأن كل نفاثة شريرة بخلاف كل غاسق وحاسد .

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه ، فإنه لا يعود ضرر

منه قبل ذلك إلى المحسود بل يخص به لاغتمامه بسروره ، وتخصيصه لأنه العمدة في إضرار الإِنسان بل الحيوان غيره ، ويجوز أن يراد بالغاسق ما يخلو عن النور وما يضاهيه كالقوى وب ﴿ النفاثات ﴾ النباتات ، فإن قواها النباتية من حيث أنها تزيد في طولها وعرضها وعمقها كانت تنفث في العقد الثلاثة ، وبالحاسد الحيوان فإنه إنما يقصد غيره غالباً طمعاً فيما عنده ، ولعل إفرادها من عالم الخلق لأنها الأسباب القريبة للمضرة .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " لقد أنزلت عليَّ سورتان ما أنزل مثلهما (1) وإنك لن تقرأ سورتين أحب ولا أرضى عند الله منهما يعني المعوذتين " . (2) انتهى . ا هـ

﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 550 ـ 552 ﴾

---

(1) رواه مسلم .

(2) رواه ابن ماجه .

(133/839)

وقال أبو حيان :

سورة الفَلَق

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) ﴾

والفلق : الصبح ، قاله ابن عباس وجابر بن عبد الله ومجاهد وقتادة وابن جبير والقرطبي وابن زيد ، وفي المثل : هو أبين من فلق الصبح ومن فرق الصبح ، وقال الشاعر :

يا ليلة لم أنمها بت مرتقباً . . .

أرعى النجوم إلى أن قدّر الفلق

وقال الشاعر يصف الثور الوحشي :

حتى إذا ما انجلى عن وجهه فلق . . .

هاديه في أخريات الليل منتصب

وقيل : الفلق : كلما يفلقه الله تعالى ، كالأرض والنبات والجبال عن العيون ، والسحاب عن المطر ، والأرحام عن الأولاد ، والحب والنوى وغير ذلك .

وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من الصحابة والتابعين : الفلق : جب في جهنم ، ورواه أبو هريرة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقالوا : لما اطمأن من الأرض الفلق ، وجمعه فلقان .

وقيل : واد في جهنم .

وقال بعض الصحابة : بيت في جهنم ، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدّة حره .

وقرأ الجمهور : ﴿ من شر ما خلق ﴾ ، بإضافة شر إلى ما ، وما عام يدخل فيه جميع من يوجد منه الشر من حيوان مكلف وغير مكلف وجماد ، كالإحراق بالنار ، والإغراق

بالبحر ، والقتل بالسم .

وقرأ عمرو بن فايد : من شر بالتنوين .

وقال ابن عطية : وقرأ عمرو بن عبيد ، وبعض المعتزلة القائلين بأن الله تعالى لم يخلق الشر : من شر بالتنوين ، ما خلق على النفي ، وهي قراءة مردودة مبنية على مذهب باطل ، الله خالق كل شيء ، ولهذه القراءة وجه غير النفي ، فلا ينبغي أن ترد ، وهو أن يكون ﴿ ما خلق ﴾ بدلاً من ﴿ شر ﴾ على تقدير محذوف ، أي من شرّ شر ما خلق ، فحذف لدلالة شر الأول عليه ، أطلق أولاً ثم عمّ ثانياً .

والغاسق : الليل ، ووقب : أظلم ودخل على الناس ، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد ، وزمّكه الزمخشري على عادته فقال : والغاسق : الليل إذا اعتكر ظلامه .

(134/839)

من قوله تعالى : ﴿ إلى غسق الليل ﴾ ومنه : غسقت العين : امتلأت دمعاً ، وغسقت الجراحة : امتلأت دماً ، ووقوبه : دخول ظلامه في كل شيء ، انتهى .

وقال الزجاج : هو الليل لأنه أبرد من النهار ، والغاسق : البارد ، استعيذ من شره لأنه فيه تنبث الشياطين والهوام والحشرات وأهل الفتك .

قال الشاعر :

يا طيف هند لقد أبقيت لي أرقاً . . .

إذ جئتنا طارقاً والليل قد غسقا

وقال محمد بن كعب : النهار دخل في الليل .

وقال ابن شهاب : المراد بالغاسق : الشمس إذا غربت .

وقال القتبي وغيره : هو القمر إذا دخل في ساهوره فخسف .

وفي الحديث : " نظر (صلى الله عليه وسلم) إلى القمر فقال : يا عائشة ، نعوذ بالله من هذا ، فإنه الفاسق إذا وقب " وعنه (صلى الله عليه وسلم) : " الغاسق النجم " وقال ابن زيد عن العرب : الغاسق : الثريا إذا سقطت ، وكانت الأسقام والطاعون تهيج عند ذلك .

وقيل : الحية إذا لدغت ، والغاسق سم نابها لأنه يسيل منه .

والنفاثات : النساء ، أو النفوس ، أو الجماعات السواحر ، يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقين .

وقرأ الجمهور : ﴿ النفاثات ﴾ ؛ والحسن : بضم النون ، وابن عمر والحسن أيضاً وعبد الله بن القاسم ويعقوب في رواية النافثات ؛ والحسن أيضاً وأبو الربيع : النفثات بغير ألف ، نحو الخدرات .

والاستعاذة من شرهن هو ما يصيب الله تعالى به من الشر عند فعلهن ذلك .

وسبب نزول هاتين المعوذتين ينفي ما تأوله الزمخشري من قوله : ويجوز أن يراد به النساء ذات الكيادات من قوله : ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ تشبيهاً لكيدهن بالسحر والنفث في العقد ، أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهنّ لهم ، وعرضهنّ محاسنهن ، كأنهن يسحرنهم بذلك ، انتهى .

وقال ابن عطية : وهذا النفث هو على عقد تعقد في خيوط ونحوها على اسم المسحور فيؤذي بذلك ، وهذا الشأن في زماننا موجود شائع في صحراء المغرب .

وحدثني ثقة أنه رأى عند بعضهم خيطاً أحمر قد عقدت فيه عقد على فصلان ، فمنعت من رضاع أمهاتها بذلك ، فكان إذا حل عقدة جرى ذلك الفصيل إلى أمه في الحين فرضع ، انتهى .

وقيل : الغاسق والحاسد بالطرف ، لأنه إذا لم يدخل الليل لا يكون منسوباً إليه ، وكذا كل ما فسر به الغاسق .

وكذلك الحاسد ، لا يؤثر حسده إذا أظهره بأن يحتال للمحسود فيما يؤذيه .

أما إذا لم يظهر الحسد ، فإنما يتأذى به هو لا المحسود ، لاغتمامه بنعمة غيره .

قال الزمخشري : ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهار أثره ، انتهى .

وعم أولاً فقال : ﴿ من شر ما خلق ﴾ ، ثم خص هذه لخفاء شرها ، إذ يجيء من حيث لا يعلم ، وقالوا : شر العداة المراجي بكيدك من حيث لا تشعر ، ونكر غاسق وحاسد وعرف النفاثات ، لأن كل نفاثة شريرة ، وكل غاسق لا يكون فيه الشر إنما يكون في بعض دون بعض ، وكذلك كل حاسد لا يضر .

ورب حسد محمود ، وهو الحسد في الخيرات ، ومنه : لا حسد إلا في اثنتين ، ومنه قول أبي تمام :

وما حاسد في المكرمات بحاسد . . .

وقال آخر :

إن الغلا حسن في مثلها الحسد . . .

وقول المنظور إليه للحاسد ، إذا نظر الخمس على عينيك يعني به هذه السورة ، لأنها خمس آيات ، وعين الحاسد في الغالب واقعة نعوذ بالله من شرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) ﴾

الوقوف : ﴿ الفلق ﴾ ه لا ﴿ خلق ﴾ ه لا ﴿ وقب ﴾ ه لا ﴿ العقد ﴾ ه لا ﴿ حاسد ﴾ ﴿ إذا حسد ﴾ ه .

التفسير : لما أمره بقراءة سورة الإخلاص تنزيهاً له عما لا يليق به في ذاته وصفاته وكان ذلك من أشرف الطاعات ، أمره أن يستعيذ به من شر من يصده عن ذلك كالمشركين وكسائر شياطين الإنس والجن . يروى أن جبرائيل أتاه وقال : إن عفريتاً من الجن يكيدك فقل إذا أتيت على فراشك : أعوذ برب الفلق أعوذ برب الناس . وعن سعيد بن المسيب أن قريشاً قالوا نتجوع فنعين محمداً ففعلوا ثم أتوه وقالوا : ما أشدّ عضدك وأقوى ظهرك وأنضر وجهك ! فأنزل الله المعوّذتين . وقال جمهور المفسرين : إن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي صلى الله عليه وسلم في إحدى عشرة عقدة في وتر ودسه في بئر ذي أروان ، فمرض النبي صلى الله عليه وسلم واشتدّ ذلك عليه ثلاث ليال فنزلت المعوّذتان ، وأخبره جبرائيل بموضع السحر فأرسل علياً بطلبه وجاء به وقال جبرائيل : اقرأ السورتين . فكان كلما يقرأ آية تنحل عقدة فيجد بعض الراحة والخفة ، حتى إذا أتمهما فكأنما أنشط من عقال .

طعنت المعتزلة في هذه الرواية بأنها توجب تسلط الكفار والأشرار على الأنبياء . وأيضاً

لو صححت لصح قولهم

﴿ إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾

(137/839)

[الإسراء : 47] والجواب أن التسليط الكلي بحيث يمنعه عن تبليغ الرسالة لا يجوز ، ولكن لا نسلم أن بعض الأضرار في بدنه لا يجوز لا سيما وقد تداركه الله تعالى بفضله وخصوصاً إذا كان فيه لطف لغيره من أمته حتى يفعلوا في مثل تلك الواقعة كما فعل ، ولهذا استدل أكثر العلماء على أنه يجوز الاستعانة بالرقى والعوذ ويؤيده ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " بسم الله أرقيك من كل يؤذيك والله يشفيك " وعن ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوّذ الحسن والحسين رضي الله عنهما بقوله " أعيذكما بكلمات الله التامّه من كل شيطان وهامّه ومن كل عين لامّه " ويقول هكذا كان أبي إبراهيم يقول لابنيه إسماعيل وإسحق . وعنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا من الحمى والأوجاع كلها " بسم الله الكريم أعوذ بالله العظيم ومن شر كل عرق نعار ومن شر حرّ النار " وعن علي رضي الله عنه كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض قال " أذهب البأس رب الناس أشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت " وروي أنه صلى الله عليه

وسلم كان إذا سافر فنزل منزلاً يقول " يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرّك ومن شرّ ما فيك وشرّ ما يخرج منك ومن شرّ ما يدب عليك ، وأعوذ بالله من شرّ أسد وأسود وحية وعقرب ، ومن شرّ ساكن البلد ووالد ما ولد "

(138/839)

وعن عائشة كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى شيئاً من جسده قرأ قل هو الله أحد والمعوذتين في كفه اليمنى ومسح بها المكان الذي يشتكي . " وروي أنه صلى الله عليه وسلم دخل على عثمان بن مظعون فعوّذه بـ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وبهاتين السورتين . ثم قال : تعوّذ بهن فما تعوّذت بخير منها " وأما قول الكفار إنه مسحور فإنما أرادوا به الجنون والسحر الذي أثر في عقله ودام مع فلذلك وقع الإنكار عليهم . ومن الناس من لم يرحض في الرقى لرواية جابر نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الرقة وقال " إن لله عباداً لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون " وأجيب بأن النهي وارد على الرقى المجهولة التي يفهم معناها . واختلف في التعليق ؛ فروى أنه صلى الله عليه وسلم قال " من علق شيئاً وكل إليه " وعن ابن مسعود أنه رأى على أم ولده تميمه مربوطة بعضدها فجذبها جذباً عنيفاً فقطعها . ومنهم من حوزه ؛ سئل الباقر رضي الله عنه عن التعويذ يعلق على

الصبيان فرخص فيه . واختلفوا في النفث أيضاً فروي عن عائشة أنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم ينفث على نفسه إذا اشتكى بالمعوذات ويمسح بيده ، فلما اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث عليه صلى الله عليه وسلم بالمعوّذات التي كان ينفث بها على نفسه . وعنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا أخذ مضجعه نفث في يديه وقرأ فيهما بالمعوّذات ثم مسح جسده . ومنهم من أنكر النفث ؛ عن عكرمة : لا ينبغي للراقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد . وعن إبراهيم : كانوا يكرهون النفث في الرقى . وقال بعضهم : دخلت على الضحاك وهو وجع فقلت : ألا أعوّذك يا أبا محمد ؟ قال : بلى ولكن لا تنفث فعوّذته بالمعوّذتين . قال بعض العلماء : لعلهم كرهوا النفث لأن الله تعالى جعل النفث مما يستعاذ منه فوجب أن يكون منهياً عنه . وقال بعضهم : النفث في العقد المنهي عنه هو الذي يكون سحراً مضراً بالأرواح والأبدان ، وأما الذي يكون لإصلاح

الأرواح والأبدان فيجب أن لا يكون حراماً .

سؤال : كيف قال في افتتاح القراءة

﴿ فاستعذ بالله ﴾

[الأعراف : 200] وقال ههنا ﴿ أعوذ برب ﴾ دون أن يقول " بالله " ؟ وأجيب بأن المهم الأوّل أعظم من حفظ النفس والبدن عن السحر والوسوسة فلا جرم ذكر هناك الاسم الأعظم ، وأيضاً الشيطان يبالغ في منع الطاعة أكثر مما يبالغ في إيصال الضرر إلى النفس وأيضاً كأن العبد يجعل تربيته السابقة وسيلة في التربية اللاحقة .

وفي الفلق وجوه ؛ فالأكثرون على أنه الصبح من قوله

﴿ فالق الإصباح ﴾

[الأنعام : 96] وخص ههنا بالذكر لأنه أنموذج من صبح يوم القيامة ولأنه وقت الصلاة والجماعة والاستغفار ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ وفيه إشارة إلى أن القادر على إزالة الظلمة عن وجه الأرض قادر على دفع ظلمة الشرور والآفات عن العبد بصلاح النجاح . روي أن يوسف عليه السلام حين ألقي في الجبّ وجعت ركبته وجعاً شديداً فبات ليلته ساهراً ، فلما قرب طلوع الصبح نزل جبرائيل عليه السلام يسليه ويأمره بأن يدعو ربه فقال : يا جبرائيل ادع أنت وأؤمن أنا . فدعا جبرائيل فأمن يوسف فكشف الله ما كان به من الضرّ ، فلما حصل له الراحة قال : يا جبرائيل أنا أدعو وتؤمن أنت فسأل يوسف ربه أن يكشف الضرّ عن جميع أهل البلاء في ذلك الوقت ، فلا جرم ما من مريض إلا ويجد نوع خفة في آخر الليل . وروي أن دعاءه في الجبّ : يا عدّتي عند شدتي ، ويا

مؤنسي في وحشتي ، ويا راحم غربتي ، ويا كاشف كربتي ، ويا مجيب دعوتي ، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ، راحم صغر سني ، وضعف ركني ، وقلة حيلتي ، يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام . وقل : هو كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات

﴿ إن الله فالق الحب والنوى ﴾

[الأنعام : 95] والجبال عن العيون

﴿ وإن منها لما يتفجر منه الأنهار ﴾

[البقرة : 74] والسحاب عن المطر ، والأرحام عن الأولاد ، والقبض عن البسط ، والشدّة عن الفرج ، والقلوب عن المعارف . وقيل : هو واد في جهنم إذا فتح صاح جميع من في جهنم من شدّة حره كأن العبد قال : يا صاحب العذاب الشديد أعوذ برحمتك التي هي أعظم وأكمل وأسبق وأقدم من عذابك . وصاحب هذا القول زعم أن المراد من شر ما خلق أي من شدائد ما خلق فيها . وعن ابن عباس : يريد إبليس خاصة لأن الله تعالى لم يخلق خلقاً هو شرّ منه . ويدخل فيه الاستعاذة من السحرة لأنهم أعوانه وجنوده . وقل : أراد أصناف الحيوانات المؤذية من الهوام والسباع . وقيل : الأسقام والآفات والمحن فإنها

شرور إضافية وإن جاز أن تكون خيرات باعتبارات أخر والكل بقدر كما مر في مقدمة الكتاب في تفسير الاستعاذة. وذكر في الغاسق وجوه؛ فعن الفراء وأبي عبيدة: هو الليل إذا جنّ ظلامه ومنه غسقت العين أو الجراحة إذا امتلأت دمعاً أو دماً. وقال الزجاج: هو البارد وسمي الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار، فعلى هذا لعله أريد به الزمهرير. وقال قوم: هو السائل من قولهم غسقت العين تغسق غسقاً إذا سالت بالماء، وسمي الليل غاسقاً لانصباب ظلامه على الأرض. قلت: ولعل الاستعاذة على هذا التفسير إنما تكون من الغساق في قوله تعالى ﴿ إلا حميماً وغساقاً ﴾

(141/839)

[النبأ: 25] والوقوب الدخول في الشيء بحيث يغيب عن العين. هذا من حيث اللغة. ثم أن الغاسق إذا فسر بالليل فوقوبه دخوله وهو ظاهر. ووجه التعوذ من شره أن السباع فيه تخرج من آجامها والهوام من مكامنها، وأهل الشر والفتنة من أماكنها، ويقل فيه الغوث ولهذا قالت الفهقاء: لو شهر أحد سلاحاً على إنسان ليلاً فقتله المشهور عليه لم يلزمه قصاص ولو كان نهاراً لزمه لوجود الغوث. وقد يقال: إنه تنشر في الليل الأرواح المؤذية المسماة بالجن والشياطين، وذلك لأن قوة الشمس وشعاعها كأنها تقهرهم، أما في الليل

فيحصل لهم نوع استيلاء . وعن ابن عباس : هو ظلمة الشهوة البهيمية إذا غلبت داعية العقل . قال ابن قتيبة : الغاسق القمر لأنه يذهب ضوءه عند الخسوف ، ووقوبه دخوله في ذلك الاسوداد . " وعن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيدها وقال لها : استعيذي بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب " ، وعلى هذا التفسير يمكن تصحيح قول الحكيم إن القمر جرم كثيف مظلم في ذاته لكنه يقبل الضوء عن الشمس ويختلف حاله في ذلك بحسب قربه منها وبعده عنها . ووقوبه إما دخوله في دائرة الظلام في الخسوفات ، وإما دخوله تحت شعاع الشمس في آخر كل شهر ، وحينئذ يكون منحوساً قليل القوة ولذلك تختار السحرة ذلك الوقت للتمريض والإضرار والتفريق ونحوها . وقيل : الغاسق الثريا إذا سقط في المغرب . قال ابن زيد : وكانت الأسقام تكثر حينئذ . وقال في الكشاف : يجوز أن يراد به الأسود من الحيات ووقبه خربه ونقبه . وقيل : هو الشمس إذا غابت وسميت غاسقاً لسيلانها ودوام حركتها . وأما النفث فهو النفخ بريق . وقيل : النفخ فقط . والعقد جمع عقدة . والسبب فيه أن الساحر إذا أخذ في قراءة الرقية أخذ خيطاً ولا يزال يعقد عليه عقداً بعد عقد وينفث في تلك العقد . ووجه التأنيث إما الجماعة لأن اجتماع السحرة على عمل واحد أبلغ تأثيراً ، وإما لأن هذه الصناعة إنما تعرف بالنساء لأنهن يعقدن وينفثن وذلك أن الأصل

الكلي في ذلك الفن هو ربط القلب وتعليق الوهم بذلك الأمر وأنه في النساء أوفر لقلة علمهن وشدّة شهوتهن . وقال أبو عبيدة : إنهن بنات لبيد بن الأعصم اليهودي اللاتي سحرن النبي صلى الله عليه وسلم . وقال أبو مسلم : العقد عزائم الرجال والنفث حلها لأن من يريد حل عقدة الحبل ينفث عليه بريق يقذفه عليه ليصير حله سهلاً . والمعنى : إن النساء لكثرة حيلهن يتصرفن في عزائم الرجال يحوّلنهم من رأي إلى رأي ومن عزيمة إلى عزيمة ، فأمر الله رسوله بالتعوّذ من شرهن ، وهذا القول مناسب لما جاء في مواضع أخر من القرآن

﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم ﴾

[التغابن : 14]

﴿ إن كيدكن عظيم ﴾

[يوسف : 28] والاستعاذة منهن الاستعاذة من إثم عملهن ، أو من فتنتهن الناس بسحرهن ، أو من إطعامهن الأطعمة الردية المورثة للجنون ، والموت . والحاسد هو الذي تشتد محبته لإزالة نعمة الغير إليه حتى لو تمكن من ذلك بالحيل لفعل فلذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالتعوذ منه . وقد دخل في هذه السورة كل شر يتوقى ويتحرّز منه ديناً ودنيا فلذلك لما نزلت فرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بها لكونها مع أختها جامعة في التعوذ من كل شيء بل قوله ﴿ من شر ما خلق ﴾ عام والبواقي تخصيص بعد تعميم

تنبيهاً على أنها أعظم الشرور، وأهم شيء يستعاذ منه. وعرفت النفاثات لأن كل نفاثة شريرة. ونكر ﴿ غاسق ﴾ و ﴿ حاسد ﴾ لأنه ليس كل غاسق بشره بل الليل للغاسقين شر وليس كل حسد مذموماً بل منه ما هو خير كما قال صلى الله عليه وسلم "لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فقام به آناء الليل وآناء النهار ورجل أعطاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار" وفائدة الظرف هو قوله ﴿ إذا حسد ﴾ أنه لا يستعاذ من الحاسد من جهات أخرى ولكن من هذه الجهة، ولو جعل الحاسد بمعنى الغابط أو بمعنى أعم وقوله ﴿ حسد ﴾ بالمعنى المذموم كان له وجه. انتهى انتهى. اهـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 598. 602﴾

(143/839)

وقال الثعالبى :

قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾

الخِطَابُ للنبي صلى الله عليه وسلم والمُرَادُ هُوَ وآحادُ أمتِهِ، قَالَ ابن عباس وغيره : الفَلَقُ الصُّبْحُ، وقال ابن عباس أيضاً وجماعةٌ من الصحابة : الفلقُ جُبٌّ في جَهَنَّم، ورَوَاه أبو هريرةَ عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ يَعُمُّ كلَّ مَوْجُودٍ له شر، واخْتُلِفَ في: «الغاسِقِ»

فَقَالَ ابن عباس وغيره: الغَاسِقُ الليلُ ووَقَبَ: أظْلَمَ، ودَخَلَ عَلَى الناسِ، وفي الحديثِ الصحيح عن عائشة "أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أشَارَ إلى القَمَرِ وقال: يا عائشة؛ تَعَوَّذِي باللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الغَاسِقِ إذَا وَقَبَ"، قال السهيلي: وهذا أصحُّ ما قِيلَ لِهذَا الحديثِ الصحيحِ، انتهى، ولفظ صاحب «سلاحِ المؤمِنِ»: عن عائشة رضي اللَّه عنها "أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نَظَرَ إلى القَمَرِ، فَقَالَ: يا عائشةُ؛ اسْتَعِيذِي باللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا فإنَّ هَذَا الغَاسِقُ إذَا وَقَبَ"، رَوَاه الترمذيُّ والنسائي، والحاكم في «المستدرك»، واللفظُ للترمذي، وقَالَ حسنٌ صحيحٌ، وقال الحاكم: صحيحُ الإسنادِ، ووَقَبَ القَمَرُ وُقوباً: دَخَلَ في الظِّلِّ الذي يَكْسِفُه؛ قَالَه ابن سِيدَة، انتهى من «السلاح».

و﴿ النفاثات فِى العقد ﴾ السَّوَاحِر، ويقال: إن الإشَارَةَ أوَّلاً إلى بَنَاتِ لَبِيدِ بن الأَعْصَمِ اليهودي؛ كُنَّ سَاحِرَاتٍ، وهُنَّ اللواتي سَحَرْنَ مَعَ أبيهِنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم، والنَّفْثُ شِبْهُ النَّفخِ دُونَ تَفلِ رِيقٍ، وهذا النَّفْثُ هُوَ عَلَى عُقَدٍ تُعْقَدُ في خيوطٍ، ونحوِها؛ على اسْمِ المَسْحُورِ فيؤذى بذلك.

قال *ع* : وهَذَا الشَّأْنُ في زمانِنَا موجودٌ شائعٌ في صحراء المغرب ، وحدَّثني ثقةٌ ؛ أنه رأى عنْدَ بعضهم خيطاً أَحْمَرَ قَدْ عُقِدَتْ فِيهِ عُقَدٌ على فُصْلاَن ، فَمُنِعَتْ بذلك رَضَاعَ أمهاتِها فكان إذا حلَّ عقدةً جرى ذلك الفصيل إلى أُمّه في الحِين ، فَرَضَعَ ، أعاذنا اللَّه مِنْ شَرِّ السِّحْرِ والسَّحَرَة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ قال قتادة : مِنْ شَرِّ عَيْنِهِ ونَفْسِهِ ، يريد ب«النَّفْس» : السعْيَ الخَبِيث ، وقال الحُسَيْنُ بْنُ الفَضْلِ : ذَكَر اللَّه تعالى الشُّرُور في هذه السُّورة ، ثم ختمها بالحَسَدِ ؛ ليعلم أنَّه أخسُّ الطَّبَائع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(145/839)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الفلق

مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر ، ومدنية في قول ابن عباس وقتادة ، وهي خمس آيات وثلاث وعشرون كلمة وأربعة وسبعون حرفاً .

﴿ بسم الله ﴾ الذي له جميع الحول ﴿ الرحمن ﴾ الذي استجمع كمال الطول

﴿ الرحيم ﴾ الذي أتم على أهل ودّه جميع النول . "

واختلف في سبب نزول سورة ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فقال ابن عباس وعائشة رضي الله عنهم : كان غلام من اليهود يخدم النبيّ صلى الله عليه وسلم فدنت إليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبيّ صلى الله عليه وسلم وعدّة أسنان من مشطه وأعطاها اليهود ، فسحروه فيها ، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود فنزلت هذه و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ فيه .

وعن عائشة رضي الله عنها "أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم طب ، أي : سحر حتى كأنه يخيل إليه أنه صنع شيئاً وما صنعه ، وأنه دعى ربه ثم قال : أشعرت أنّ الله أفتاني فيما استفتيته فيه ، فقالت عائشة رضي الله عنها : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : "جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجلي ، فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ فقال الآخر : مطبوب ، قال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، قال : فيماذا ، قال : في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر ، قال : فأين هو ؟ قال : في ذروان ، وذروان بئر بني زريق ، قالت عائشة رضي الله عنها : فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجع إلى عائشة فقال : والله لكأنّ ماءها نقاعة الحناء ولكأنّ نخلها رؤوس الشياطين ، قالت : فقلت : يا رسول الله هل أخرجته ؟ قال : أما أنا فقد شفاني الله وكرهت أن أثير على الناس منه شراً " .

وعن زيد بن أرقم قال : "سحر النبيّ صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى ذلك أياماً فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن رجلاً من اليهود سحرك وعقد لك عقداً في بئر كذا وكذا ، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فاستخرجها فجاء بها ، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال ، قال : فما ذكر ذلك اليهودي ولا أرى وجهه قط" . وروي "أنه كان تحت صخرة في البئر ، فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة فإذا فيها مشاطة من رأسه صلى الله عليه وسلم وأسنان مشطه" .

وعن مقاتل والكلبي : كان ذلك في وتر عقد عليه إحدى عشرة عقدة ، وقيل : كانت مغروزة بالإبرة فأنزل الله هاتين السورتين ، وهما إحدى عشر آية سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست آيات كلما قرأ آية انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد كلها فقام صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال . وروي : أنه لبث فيه ستة أشهر اشتدّ عليه بثلاث ليال فنزلت المعوّذتان ، وروي : أنه كان يخيل له أنه يطأ زوجاته ، وليس بواطىء قال سفيان : وهذا أشدّ ما يكون من السحر .

وعن أبي سعيد الخدري : "أنّ جبريل عليه السلام أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، اشتكيت ، قال : نعم ، قال : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، ومن شرّ كل نفس أو عين حاسد ، والله يشفيك بسم الله أرقيك" .

فإن قيل : المستعاذ منه هل هو بقضاء الله وقدره ، أو لا فإن كان بقضاء الله وقدره فكيف أمر بالاستعاذة مع أن ما قدر لا بدّ واقع ؟ وإن لم يكن بقضاء الله وقدره فذلك قدح في القدرة ؟

أجيب : بأنّ كل ما وقع في الوجود فهو بقضاء الله وقدره ، والاستشفاء بالتعوّذ والرقي من قضاء الله يدل على صحة ذلك ما روى الترمذي عن أبي خزامة عن أبيه قال : "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، أرأيت رقى نسترقي بها ، ودواء نتداوى به ، وتقاة نتقيها هل يردّ من قضاء الله شيئاً ؟ قال : هو من قدر الله" . قال الترمذي : هذا حديث حسن . وعن عمر : نفرّ من قدر الله إلى قدر الله ، ومعنى أعوذ : أستجير وأعتصم وأحترز ، والفلق : الصبح في قول الأكثرين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح ﴾ (الأنعام :)

لأنه ظاهر في تغير الحال ، ومحاكاة يوم القيامة الذي هو أعظم فلق يشق ظلمة الفناء ، والهلاك بالبعث والأحياء . وقال الملوي : الفلق بالسكون والحركة كل شيء انفلق عنه ظلمة العدم ، وأوجد من الكائنات جميعاً . وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه سجن في جهنم . وقال الكلبي : واد في جهنم . وقال الضحاك : يعني الخلق ، وقيل : المطمئن من الأرض وجمعه : فلقان مثل خلق وخلقان ، وقيل : الفلق الجبال والصخور وتنفلق بالمياه ، أي : تنشق وقيل : هو التفليق بين الجبال لأنها تنشق من خوف الله تعالى .

ولفظ الرب هنا أوقع من سائر أسمائه تعالى ، لأن الإعادة من المشارّ تربية .

ولما كانت الأشياء قسمين : عالم الخلق وعالم الأمر ، وكان عالم الأمر خيراً كله فكان الشر منحصراً في عالم الخلق خصه بالاستعاذة فقال تعالى معمماً فيها :

﴿ من شر ما خلق ﴾ فخص عالم الخلق بالاستعاذة منه لانحصار الشر فيه يكون اختيارياً من العاقل الداخل تحت مدلول ما وغيره من سائر الحيوانات كالكفر والظلم ونهش السباع ولدغ ذوات السموم ، وتارة طبيعياً كإحراق النار ، وإهلاك السموم .

وقيل : المراد به إبليس خاصة لأنه لم يخلق الله خلقاً شراً منه ، ولأنّ السحر لا يتم إلا به وبأعوانه وجنوده ، وقيل : من شر كل ذي شر .

وقوله تعالى : ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ فيه أوجه : أحدها : ما روي عن عائشة قالت : "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى القمر فقال : يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا فإنّ هذا هو الغاسق إذا وقب" أخرجه الترمذي ، وقال : حديث صحيح حسن فعلى هذا المراد به القمر إذا خسف وأسود وذهب ضوءه ، أو إذا دخل في المحاق وهو آخر الشهر ، وفي ذلك الوقت يتم السحر المؤثر للتمريض ، وهذا مناسب لسبب نزول هذه السورة .

ثانيها : ما روي عن ابن عباس : أنّ الغاسق الليل إذا وقب ، أي : أقبل بظلمته من المشرق ، وسمي الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار . والغسق : البرد ، وإنما أمر بالتعوّذ من الليل لأنّ فيه الآفات ويقل : الغوث ، ومنه قولهم : الليل أخفى للويل ، وقولهم : أعذر الليل لأنه إذا أظلم كثر فيه العدوّ ، وفيه يتم السحر ، وأسند الشر إليه لملابسته له من حدوثه فيه .

ثالثها : إنه الثريا إذا سقطت وغابت ، ويقال : أنّ الأسقام تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها ، فلهذا أمر بالتعوّذ من الثريا عند سقوطها .

رابعها : أنه الأسود من الحيات ، ووقبه : ضربه ونقبه والوقب النقب ، ومنه : وقبت الثريد .

ولما كان السحر أعظم ما يكون لما فيه من تفريق المرء من زوجه وأبيه وابنه ونحو ذلك

عقب ذلك بقوله تعالى :

﴿ ومن شرّ النفاثات في العقد ﴾ ، أي : النساء ، أو النفوس ، أو الجماعات السواحر اللواتي تعقد عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقين عليها ، والنفث : النفخ مع ريق . وقال أبو عبيدة : النفاثات من بنات لبيد بن أعصم اليهودي سحرن النبيّ صلى الله عليه وسلم فإن قيل : ما معنى الاستعاذة من شرّهن ؟

أجيب : بثلاثة أوجه : أحدها : أنه يستعاذ من عملهنّ الذي هو صنعة السحر ، ومن إثمهنّ في ذلك . ثانيها : أن يستعاذ من فتنتهنّ الناس بسحرهنّ وما يخدعنهم به من باطلهنّ . ثالثها : أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهنّ . قال الزمخشري : ويجوز أن يراد بهنّ النساء الكيادات من قوله تعالى :

(149/839)

﴿ إنّ كيدكنّ عظيم ﴾ (يوسف :)

تشبيهاً لكيدهنّ بالسحر والنفث في العقد ، أو اللاتي يفتنّ الرجال بتعرضهنّ لهم وعرضهنّ محاسنهنّ كأنهنّ يسحرنهم بذلك .

تنبيه : اختلف في النفث في الرقي ، فجوّزه الجمهور من الصحابة والتابعين ومن بعدهم

ويدل عليه حديث عائشة قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوّذتين" . وروى محمد بن حاطب : "أنّ يده احترقت فأتى النبيّ صلى الله عليه وسلم فجعل ينفث عليها ويتكلم بكلام زعم أنه لم يحفظه" . وروى "أنّ قوماً لدغ رجل منهم فأتوا أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالوا : هل فيكم من راق ؟ قالوا : لا حتى تجعلوا لنا شيئاً ، فجعلوا لهم قطيعاً من الغنم ، فجعل رجل منهم يقرأ فاتحة الكتاب ويرقي ويتفل حتى برئ ، فأخذوه ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : وما يدريك أنها رقية خذوا واضربوا لي معكم بسهم" . وأنكر جماعة النفث والتفل في الرقي ، وأجازوا النفخ بلا ريق . وقال عكرمة : لا ينبغي للراقي أن ينفث ولا يمسح ولا يعقد . وقيل : إنّ النفث في العقد إنما يكون مذموماً إذا كان سحراً مضراً بالأرواح والأبدان ، وإذا كان النفث لإصلاح الأرواح والأبدان فلا يضر ، وليس بمذموم ولا مكروه بل هو مندوب إليه .

ولما كان أعظم حامل على السحر وغيره من أذى الناس الحسد ، وهو تمني زوال نعمة المحسود للحاسد ، أو غيره قال تعالى :

﴿ ومن شرّ حاسد ﴾ ، أي : ثابت الاتصاف بالحسد معروف فيه ، وأعظم الحساد الشيطان الذي ليس له دأب إلا السعي في إزالة نعم العبادات عن الإنسان بالغفلات ، ثم قيد ذلك بقوله تعالى : ﴿ إذا حسد ﴾ ، أي : إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل

للمحسود ، لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمر فلا ضرر يعود منه على من حسده ، بل هو الضار لنفسه لاغتمامه بسرور غيره .

(150/839)

وعن عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد ، وفي إشعار الآية إدعاء بما يحسد عليه من نعم الدارين لأنّ خير الناس من عاش محسوداً ومات محسوداً . فإن قيل : لم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه ؟

أجيب : بأنّ النفاثات عرفت لأنه كل نفاثة شريرة ، ونكر غاسق لأنّ كل غاسق لا يكون فيه الشر إنما يكون في بعض دون بعض وكذلك كل حاسد لا يضر .

وربّ حسد محمود وهو الحسد في الخيرات ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "لا حسد إلا في اثنتين" الحديث . وقال أبو تمام : وما حاسد في المكرمات بحاسد . وقال آخر : إن العلا حسن في مثلها الحسد .

فائدة : قال بعض الحكماء : الحاسد بارز ربه من خمسة أوجه : أولها : أنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره . ثانيها : أنه ساخط لقسمة ربه كأنه يقول : لم قسمت هذه القسمة .

ثالثها : إنه ضاد فعل الله تعالى إن فضل بره من شاء ، وهو يبخل بفضل الله تعالى . رابعها :

أنه خذل أولياء الله تعالى ، أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم . خامسها : أنه أعان عدوّ الله إبليس ، والحاسد لا ينال في المجالس إلا ندامة ولا ينال عند الملائكة إلا لعنة ، ولا ينال في الدنيا إلا جزعاً وغماً ، ولا ينال في الآخرة إلا حزناً واحتراقاً ، ولا ينال من الله تعالى إلا بعداً ومقتاً .

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ثلاثة لا يستجاب دعاؤهم آكل الحرام ، ومكثر الغيبة ، ومن كان في قلبه غلّ أو حسد للمسلمين" . وقيل : المراد بالحاسد في الآية اليهود ، فإنهم كانوا يحسدون النبي صلى الله عليه وسلم فإن قيل : قوله تعالى : ﴿من شر ما خلق﴾ تعميم في كل ما يستعاذ منه فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد ؟

أجيب : بأنه قد خص شر هؤلاء من كل شر لخفاء أمرهم ، وأنه يلحق الإنسان من حيث لا يعلم ، كأنما يغتال به ، وقالوا : شر العداة المداجي الذي يكيدك من حيث لا تشعر وأخرج الإمام أحمد عن الزبير بن العوّام أنه صلى الله عليه وسلم قال : "دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ، ألا والبغضاء هي الحالقة" . فنسأل الله تعالى أن يحفظنا ومحبينا منه إنه

كريم جواد .

وروى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : "لقد أنزلت عليّ سورتان ما أنزل مثلهما" .

وروى ابن ماجه أنه صلى الله عليه وسلم قال : "وإنك إن تقرأ سورتين لا أحب ولا أرضى عند الله منهما يعني المعوّذتين" . وعن عقبة بن عامر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوّذون ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، قال صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ بربّ الناس ﴾ . وما رواه الزمخشري ولم يقله البيضاوي هنا لكن قال في آخر السورة الآتية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ المعوّذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالى" حديث موضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 8 صـ 469 ـ 474 ﴾

(152/839)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾

الفَلَقُ الصُّبْحُ كالفرقِ لأنَّه يفلقُ عنْهُ الليلُ والفرق فَعَلٌ بمعنى مفعول فإنَّ كُلَّ واحدٍ منَ المفلوقِ والمفلوقِ عنْهُ مفعولٌ وقيلَ هُوَ ما انفلقَ منْ عمودِهِ وقيلَ هُو كُلُّ ما يفلقُهُ الله تعالَى كالأرضِ

عنِ النباتِ والجبالِ عنِ العيونِ والسحابِ عنِ الأمطارِ والحبِّ والنّوى عما يخرجُ منهُمَا وغيرُ ذلكَ وفِي تعليقِ العياذِ باسمِ الرَّبِّ المضافِ إلى الفلقِ المنبىءِ عنِ النورِ عَقيبَ الظلمةِ والسَّعةِ بعدَ الضيقِ والفتقِ بعدَ الرتقِ عدةٌ كريمةٌ بإعاذةِ العائذِ مِمَّا يعوذُ منْهُ وإنجائِه منْهُ وتقويةٌ لرجائِه بتذكيرِ بعضِ نظائِره ومزيدُ ترغيبٍ لهُ في الجدِّ والاعتناءِ بقرعِ بابِ الالتجاءِ إليهِ تعالَى ، وأمَّا الإشعارُ بأنَّ منْ قدرَ أنْ يزيلَ ظلمةَ الليلِ منْ هذا العالمِ قدرَ أنْ يزيلَ عنِ العائذِ ما يخافُه كما قيلَ فلاَ إذْ لا ريبَ للعائذِ في قدرتِه تعَالَى عَلَى ذلكَ حتى يحتاجَ إلى التنبيهِ عليهَا .

(153/839)

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أَيْ مِنْ شَرِّ ما خلقَهُ منَ الثقلينِ وغيرِهما كائناً ما كانَ منْ ذواتِ الطبائعِ والاختيارِ وهذَا كَمَا ترَى شاملٌ لجميعِ الشرورِ فمَنْ توهمَ أنَّ الاستعاذةَ ههُنا من المضارِّ البدنيةِ وأنَّها تعمُّ الإنسانَ وغيرَهُ مِمَّا ليسَ بصددِ الاستعاذةِ ثمَّ جعلَ عُمومَهَا مَداراً لإضافةِ الربِّ إلى الفلقِ فقدْ نأَى عنِ الحَقِّ بمراحلَ وإضافةُ الشرِّ إليهِ لاختصاصِه بعالمِ الخلقِ المؤسسِ على امتزاجِ الموادِّ المتباينةِ وتفاعلِ كيفياتِها المتضادةِ المستتبعةِ للكونِ والفسادِ وأما عالمُ الأمرِ فهُوَ خيرٌ محضٌ منزهٌ عنْ شوائبِ الشرِّ بالمرةِ وقولُه تعالَى : ﴿ وَمِن شَرِّ

غَاسِقٍ ﴾ تخصيصٌ لبعضِ الشرورِ بالذكرِ مَعَ اندراجِهِ فيما قبلَهُ لزيادةِ مساسِ الحاجةِ إلى الاستعاذةِ منْهُ لكثرةِ وقوعِهِ ولأنَّ تعيينَ المستعاذِ منْهُ أدلُّ على الاعتناءِ بالاستعاذةِ وأدعَى إلى الإعاذةِ أيْ وَمِنْ شرِّ ليلٍ مُعتكرٍ ظَلامُهُ مِنْ قولِه تعالَى : ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ ﴾ وأصْلُ الغسْقِ الامتلاءُ يقالُ غسقتِ العينُ إذا امتلأتْ دمعاً وقيلَ هُوَ السيلانُ وغسقُ الليلِ انصبابُ ظَلامِهِ وغسقُ العينِ سيلانُ دمعِهَا وإضافةُ الشرِّ إلى الليلِ لملابستِهِ لَهُ بحدوثِهِ فيهِ وتنكيرُهُ لعدمِ شمولِ الشرِّ لجميعِ أفرادِهِ ولا لكُلِّ أجزائِهِ وتقييدُهُ بقولِه تعالَى : ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ أيْ دخلَ ظلامُهُ في كُلِّ شيءٍ لأَنَّ حدوثَهُ فيهِ أكثرُ والتحرزَ منْهُ أصعبُ وأعسرُ ولذلكَ قيلَ الليلُ أَخْفَى للويلِ وقيلَ الغاسقُ هُوَ القمرُ إذا امتلأَ ووقوبُهُ دخولُهُ في الخسوفِ واسودادُهُ لَمَا رُوِيَ عَنْ عائِشَةَ رضيَ اللهُ عنْهَا أَنَّها قالتْ أخذَ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلم بيدي فأشارَ إلى القمرِ فقالَ تعوذي باللهِ تَعَالَى مِنْ شَرِّ هَذا فإنَّهُ الغاسقُ إذا وقبَ وقيلَ التعبيرُ عنِ القمرِ

بالغاسقِ لأنَّ جُرْمَهُ مظلمٌ وإنما يستنيرُ بضوءِ الشمسِ ووقوبُهُ المحاقُ في آخرِ الشهرِ والمنجمونَ يعدونَهُ نحساً ولذلكَ لا يشتغلُ السحرةُ بالسحرِ المورثِ للتمريضِ إلاَّ في ذلكَ

الوقتِ قيلَ وهُو المناسبُ لسببِ النزولِ وقيلَ الغاسقُ الثُّريا ووقوبُهَا سقوطُها لأَنَّها إذَا سقطتْ كثرتِ الأمراضُ والطواعينُ وقيلَ هُوَ كلُّ شرٍ يعترِي الإنسانَ ووقوبُهُ هجومُهُ.

﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِى العقد ﴾

(155/839)

أيْ ومِنْ شرِّ النفوسِ أو النساءِ السواحرِ اللاتِي يعقدنَ عُقَداً في خيوطٍ وينْفُثْنَ عليهَا والنفثُ النفخُ معَ ريقٍ وقيلَ بدونِ ريقٍ وقُرِىءَ النافثاتُ كما قُرِىءَ النفثاتُ بغيرِ ألفٍ وتعريفُهَا إمَّا للعهدِ أوْ للإيذانِ بشمولِ الشرِّ لجميعِ أفرادِهِنَّ وتمحضهنَّ فيهِ وتخصيصُهُ بالذكرِ لما روَى ابْنُ عبَّاسٍ وعائشةُ رَضِيَ الله عنهُم أنَّهُ كانَ غلامٌ من اليهودِ يخدمُ النبيَّ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وكانَ عندهُ أسنانٌ منْ مشطِهِ عليهِ السلامُ فأعطَاهَا اليهودَ فسحرُوهُ عليهِ السلامُ فيهَا وتولاَّهُ لبيْدُ بنُ الأَعصمِ اليهوديُّ وبناتُهُ وهُنَّ النافثاتُ في العقدِ فدفنَها في بئرِ أريسٍ فمرضَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ فنزلَ جبريلُ عليهِ السلامُ بالمعوذتينِ وأخبرَهُ بموضعِ السحرِ وبِمَنْ سحرهُ وبِمَ سحرهُ فأرسلَ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ علياً كرمَ الله وجْهَهُ والزبيرَ وعمَّاراً رضيَ الله عنْهُما فنزحُوا ماءَ البئرِ فكأنَّهُ نُقَاعَةُ الحِنَّاءِ ثمَّ رفعُوا أراعوثةَ البئرِ وهيَ الصخرةُ التي توضعُ في أسفلِ البئرِ فأخرجُوا منْ تحتِهَا الأسنانَ ومعهَا وترٌ قدْ عُقِدَ فيهِ

إحدَى عشرةَ عقدةً مغرزةً بالأبرِ فجاءُوا بهَا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فجعلَ يقرأُ المعوذتينِ عليهَا فكانَ كلَّما قرأَ آيةً انحلتْ عقدةٌ ووجدَ عليهِ السلامُ خفةً حتَّى انحلتْ العقدةُ الأخيرةُ عندَ تمامِ السورتينِ فقامَ عليهِ السلامُ كأنَّما أنشطَ مِنْ عقالٍ فقالُوا يا رسولَ اللهِ أفلا نقتلُ الخبيثَ فقالَ عليهِ السلامُ : "أمَّا أنَا فقدْ عافانِي اللهُ عزَّ وجلَّ وأكرهُ أنْ أثيرَ عَلى الناسِ شرًا" قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنهَا ما غضبَ النبيُّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ غضبًا ينتقمُ لنفسِهِ قطُّ إلاَّ أنْ يكونَ شيئًا هُو للهِ تعَالَى فيغضبُ للهِ وينتقمُ وقيلَ المرادُ بالنفثِ في العُقَدِ إبطالُ

(156/839)

عزائمِ الرجالِ بالحيلِ مستعارٌ منْ تليينِ العقدةِ بنفثِ الريقِ ليسهلَ حلُّها ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ أيْ إذا أظهرَ مَا في نفسِهِ من الحسدِ وعملَ بمقتضاهُ بترتيبِ مقدماتِ الشرِّ ومبادىءِ الأضرارِ بالمحسودِ قولاً أو فعلاً والتقييدُ بذلكَ لما أنَّ ضررَ الحسدِ قبلَهُ إنما يحيقُ بالحاسدِ لا غيرَ. انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(157/839)

وقال الجاوى :

سورة الفلق

مدنية ، خمس آيات ، ثلاث وعشرون كلمة ، أربعة وسبعون حرفا

قيل : إن اللّه تعالى أنزل المعوذتين عليه صلّى اللّه عليه وسلّم ليكونا رقية من العين . وروي أن جبريل عليه السلام أتاه وقال : إن عفريتا من الجن يكيدك فقال : إذا أويت إلى فراشك قل : أعوذ برب السورتين .

وقال ابن عباس : كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يعلمنا من الأوجاع كلها والحمى هذا الدعاء «بسم اللّه الكريم أعوذ باللّه العظيم من شر كل عرق نعار ومن شر حر النار» .

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) أي الصبح ، فإنه وقت دعاء المضطرين ، وإجابة الملهوفين ، فكأنه يقول : قل أعوذ برب الوقت الذي يفرج فيه عن كل مهموم ، ولأنه أنموذج من يوم القيامة ، لأن الخلق كالأموات والدور كالقبور ، ثم منهم من يخرج عن داره مفلسا عريانا ، ومنهم من كان مديونا فيجر إلى الحبس ، ومنهم من كان ملكا مطاعا ، فتقدم إليه المراكب ويقوم الناس بين يديه ، وكذا في يوم القيامة بعضهم مفلس عن الثواب ، عار عن لباس التقوى . فيجر إلى الملك الجبار ، وبعضهم كان مطيعا لربه في الدنيا ، فصار ملكا مطاعا في العقبى يقدم إليه البراق .

وقيل : الفلق واد في جهنم أوجب فيها .

روي عن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمة وما هم فيه من خصب العيش فقال : لا أبالي أليس من ورائهم الفلق . فقيل : وما الفلق ؟ قال : بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره ، وإنما خصه اللّه بالذكر هاهنا ، لأنه القادر على مثل هذا التعذيب وقد ثبت أن رحمته تعالى أعظم من عذابه فكأنه يقول : يا صاحب العذاب الشديد أعوذ برحمتك التي هي أعظم وأقدم من عذابك .

وقال الرازي : وأقرب التأويلات أن الفلق هو كل ما يفلقه اللّه تعالى كالأرض عن النبات والجبال عن العيون ، والسحاب عن الأمطار ، والأرحام عن الأولاد ، والبيض عن الفرخ ، والقلوب عن المعارف ، فكأن اللّه تعالى هو الذي فلق بحار ظلمات العدم بأنوار الإيجاد وكأنه

تعالى قال : قل أعوذ برب جميع الممكنات ومكون المحدثات ، فيكون التعظيم فيه أعظم ويكون الصبح وجبّ النار أحد الأمور الداخلة في هذا المعنى ، مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (2) أي من شر كل ذي شر خلقه الرب من إبليس ، ومن جهنم ، ومن أصناف الحيوانات المؤذيات

كالسباع والهوام وغيرهما ، وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) أي ومن شر قمر إذا طلع ، كما أخرجه الترمذي من حديث عائشة قالت : أخذ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بيدي ، فأشار إلى القمر فقال : «نعوذ باللّه من شر هذا ، فإنه الغاسق إذا وقب» ، ومعنى غسوق القمر : امتلاؤه فوقوبه دخوله في الخسوف ، أو من شر شمس إذا غربت كما قاله ابن شهاب ، وإنما سميت غاسقا ، لأنها في الفلك تسبح ، فسمي جريانها بالغسق ووقوبها دخولها تحت الأرض ، أو من شر ثريا إذا سقطت ، لأن الأسقام تكثر عند سقوطها وترتفع عند طلوعها ، كما قاله عبد الرحمن بن زيد ، وعلى هذا تسمى الثريا غاسقا لانصبابه عند وقوعه في المغرب ، ووقوبه دخوله تحت الأرض وغيبوبته عن الأعين ، أو من شر حية إذا لدغت وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) أي ومن شر النساء اللاتي يبطلن عزائم الرجال بالحيل كما اختاره أبو مسلم ، فمعنى الآية : أن النساء لأجل كثرة حبهن في قلوب الرجال يتصرفن فيهم ويحوّلنهم من رأي إلى رأي ، ومن عزيمة إلى عزيمة ، فأمر اللّه رسوله بالتعوذ من شرهن وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5) أي إذا أظهر ما في نفسه من الحسد ، وعمل بمقتضاه كتهيئة مبادي الإضرار بالمحسود قولا أو فعلا . انتهى انتهى . اهـ ﴿مراح لبيد حـ 2 صـ 682.681﴾

وقال النخجواني :

[سورة الفلق]

فاتحة سورة الفلق

لا يخفى على من اعتصم بالله ودخل في كنف حفظه وجواره مفوضا أموره كلها إليه ان الله سبحانه يراقبه من كل ما يضره ويغويه ويحفظه عن كل ما يرديه ويؤذيه لذلك امر سبحانه حبيبه صلى الله عليه وسلم حين قصده اعداؤه بالسوء وسخروا له حسدا على ظهوره واستيلائه وانتشار صيته الحسن في الآفاق والأقطار بالاستعاذة والاستلجاء نحوه بكمال الوثوق والخلوص فقال بعد التيمن بِسْمِ اللَّهِ المراقب على محافظة خلص عباده من جميع ما يضرهم ويؤذيهم بعد ما رجعوا إليه وتعوذوا به مخلصين الرَّحْمنِ عليهم بانزال الرقى وتلقين الدعاء الرَّحِيمِ لهم حيث يبرؤهم ويشفيهم بعد ما أخلصوا في التعوذ والالتجاء

[الآيات]

قُلْ يا أكمل الرسل بعد ما اصابتك من سحر أعدائك مصيبة وعرضتك بشؤم أعينهم عارضة ازالة لها ودفعا لضررها أَعُوذُ والوذ مخلصا بِرَبِّ الْفَلَقِ أى الذي فلق وشق ظلام الليل المظلم بنور الصبح المنير وفلق ظلمة العدم باشراق نور الوجود

مِنْ شَرِّ جميع ما خَلَقَ في عالم الكون والفساد من النفوس الخبيثة

وَكذا الوذ به سبحانه مِنْ شَرِّ كل غاسِقٍ مظلم محيل إِذا وَقَبَ دخل وانغمس في ظلامه ليحيل ويمكر

وَكذا مِنْ شَرِّ عموم الساحرات النَّفّاثاتِ النفاخات بريق أفواههن فِي الْعُقَدِ التي يعقدن على الخيط ليسحرن الناس بها

وَبالجملة أعوذ برب الفلق مِنْ شَرِّ كل حاسِدٍ إِذا حَسَدَ وقصد ان يحسد فانه سبحانه يكفيك مؤنة شرورهم عنك بحوله وقوته

خاتمة سورة الفلق

عليك أيها المحمدي الملتجئ إلى اللّه المستعد لفيضان حوله وقوته ان تداوم على ذكر اللّه وقراءة القرآن وتكرار الأذكار والتسابيح المأثورة من النبي المختار في عموم أوقاتك وحالاتك سيما

في خلال الليالى والأسحار وفي آناء الليل وأطراف النهار لعل اللّه يرقبك عن فتنة ما ذرأ وبرأ ويكف عنك شرور من عاداك بالسحر والعين وغيرها بمنه وجوده . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الفواتح الإلهية حـ 2 صـ 538.539 ﴾

(160/839)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ ﴾

أي ألتجيء وأعتصم وأتحرز ﴿ بِرَبِّ الفلق ﴾ فعل بمعنى مفعول صفة مشبهة كقصص بمعنى مقصوص من فلق شق وفرق وهو يعم جميع الموجودات الممكنة فإنه تعالى فلق بنور الإيجاد عنها سيما ما يخرج من أصل كالعيون من الجبال والأمطار من السحاب والنبات من الأرض والأولاد من الأرحام وخص عرفاً بالصبح وإطلاقهم المفلوق عليه مع قولهم فلق الله تعالى الليل عن الصبح على نحو إطلاق المسلوخ على الشاة مع قولهم سلخت الجلد من الشاة وتفسيره بالمعنى العام أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ولفظه الفلق الخلق وأخرج الطستي عنه أنه فسره بالصبح وأنشد رضي الله تعالى عنه قول زهير

: الفارج الهم مسد ولا عساكره . . .

كما يفرج غم الظلمة الفلق

وهو مروي عن جابر بن عبد الله ومجاهد وقتادة وابن جبير والقرطبي وابن زيد وعليه

فتعليق العياذ باسم الرب المضاف إلى الفلق المنبىء عن النور عقيب الظلمة والسعة بعد

الضيق والفتق بعد الرتق عدة كريمة بإعاذة العائذ مما يعوذ منه وانجائه منه وتقوية لرجائه

بتذكير بعض نظائره ومزيد ترغيب له في الجد والاعتناء بقرع باب الالتجاء إليه عز وجل

وقيل إن في تخصيص الفلق بالذكر لأنه أنموذج من يوم القيامة فالدور كالقبور والنوم أخو

الموت والخارجون من منازلهم صباحاً منهم من يذهب لنضرة وسرور ومنهم من يكون من

مطالبة ديون في غموم وشرور إلى أحوال أخر تكون للعباد هي أشبه شيء بما يكون لهم في

المعاد وفي تفسير القاضي أن لفظ الرب ههنا أوقع من سائر الأسماء أي التي يجوز إضافتها

إلى الفلق على ما قيل لأن الإعاذة من المضار تربية وهو على تعميم الفلق ظاهر لشموله

للمستعيذ والمستعاذ منه وعلى تخصيصه بالصبح قيل لأنه مشعر بأنه سبحانه قادر مغير

للأحوال مقلب للأطوار فيزيل الهموم والأكدار وقال الرئيس بن سينا بعد أن حمل الفلق

على ظلمة العدم المفلوقة بنور الوجود إن في ذكر الرب سراً لطيفاً من حقائق العلم وذلك أن

المربوب لا يستغني في شيء من حالاته عن الرب كما يشاهد في الطفل ما دام مربوباً ولما

كانت الماهيات الممكنة غير مستغنية عن إفاضة المبدأ الأول لا جرم ذكر لفظ الرب

للإشارة إلى ذلك وفيه إشارة أخرى من خفيات العلوم وهو أن العوذ والعياذ في اللغة عبارة

عن الالتجاء إلى الغير فلما أمر بمجرد الالتجاء إلى الغير وعبر عنه بالرب دل ذلك على أن

عدم الحصول ليس لأمر يرجع إلى المستعاذ به المفيض للخيرات بل لأمر يرجع إلى قابلها فإن من المقرر أنه ليس شيء من الكمالات وغيرها مبخولاً به من جانب المبدأ الأول سبحانه بل الكل حاصل موقوف على أن يصرف المستعد جهة قبوله إليه وهو المعنى بالإشارة النبوية إن لربكم في أيام دهركم نفحات من رحمته إلا فتعرضوا لها

(162/839)

بين أن نفحات الألطاف دائمة وإنما الخلل من المستعد انتهى وفي رواية عن ابن عباس أيضاً وجماعة من الصحابة والتابعين أن الفلق جب في جهنم وأخرج ابن مردويه والديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ قال هو سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون وإن جهنم لتعوذ بالله تعالى منه وأخرج ابن مردويه عن عمرو بن عنبسة قال صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ فقال يا ابن عنبسة أتدري ما الفلق قلت الله ورسوله أعلم قال بئر في جهنم فإذا سعرت البئر فمنها تسعر جهنم وإن جهنم لتتأذى منه كما يتأذى ابن آدم من جهنم وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن كعب قال الفلق بيت في جهنم إذا فتح صاح أهل النار من شدة حره وعن الكلبي أنه واد في جهنم

وقيل هو جهنم وهو على ما في "الكشاف" من قولهم لما اطمأن من الأرض الفلق والجمع فلقان كخلق وخلقان وتخصيصه بالذكر قيل لأنه مسكن اليهود فعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرأى دور أهل الذمة وما هم فيه من خفض العيش وما وسع عليهم من دنياهم فقال لا أبالي أليس من ورائهم الفلق وفسر بما روى آنفاً عن كعب ومنهم الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم ففي تعليق العياذ بالرب مضافاً إليه عدة كريمة بإعاذته صلى الله عليه وسلم من شرهم ولا يخفى إن هذا مما لا يثلج الصدر وأظن ضعف الأخبار السالفة ويترجح في نظري المعنى الأول للفلق.

(163/839)

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

(164/839)

أي من شر الذين خلقه من الثقلين وغيرهم كائناً ما كان من ذوات الطباع والاختيار والظاهر عموم الشر للمضار البدنية وغيرها وزعم بعضهم أن الاستعاذة ههنا من المضار

البدنية وإنها تعم الإنسان وغيره مما ليس بصدد الاستعاذة ثم جعل عمومها مدار إضافة الرب إلى الفلق بالمعنى العام وهو كما ترى نعم الذي يتبادر إلى الذهن أن عمومه لشرور الدنيا وقال بعض الأفاضل هو عام لكل شر في الدنيا والآخرة وشر الإنس والجن والشياطين وشر البساع والهوام وشر النار وشر الذنوب والهوى وشر النفس وشر العمل وظاهره تعميم ما خلق بحيث يشمل نفس المستعيذ ولا يأبى ذلك نزول السورة ليستعيذ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوز بعضهم جعل ما مصدرية مع تأويل المصدر باسم المفعول وهو تكلف مستغني عنه وإضافة الشر إلى ما خلق قيل لاختصاصه بعالم الخلق المؤسس على امتزاج المواد المتباينة المستتبعة للكون والفساد وأما عالم الأمر الذي أوجد بمجرد أمر كن من غير مادة فهو خير محض منزه عن شوائب الشر بالمرة والظاهر أنه عنى بعالم الأمر عالم المجردات وهم الملائكة عليهم السلام وأورد عليه بعد غض الطرف عن عدم ورود ذلك في لسان الشرع أن منهم من يصدر منه شر كخسف البلاد وتعذيب العباد وأجيب بأن ذلك بأمره تعالى فلم يصدر إلا لامتثال الأمر لا لقصد الشر من حيث هو شر فلا إيراد نعم يرد أن كونهم مجردين خلاف المختار الذي عليه سلف الأمة ومن تبعهم بل هم أجسام لطيفة نورية ولو سلم تجردهم قلنا بعدم حصر المجردات فيهم كيف وقد قال كثير بتجرد الجن فقالوا إنها ليست أجساماً ولا حالة فيها بل هي جواهر مجردة قائمة بأنفسها مختلفة بالماهية بعضها خيرة وبعضها شريرة وبعضها كريمة حرة محبة للخيرات وبعضها دنية

خسيسة محبة للشرور والآفات وبالجملة ما خلق أعم من المجرد على القول به وغيره والكل مخلوق له تعالى أي موجد بالاختيار بعد العدم إلا أن المراد الاستعاذة مما فيه شر من ذلك وقرأ عمرو بن

فائد على ما في "البحر" من شر بالتنوين

وقال ابن عطية هي قراءة عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأن الله تعالى لم يخلق الشر وحملوا ما على النفي وجعلوا الجملة في موضع الصفة أي من شر ما خلقه الله تعالى ولا أوجده وهي قراءة مردودة مبنية على مذهب باطل انتهى وأنت تعلم أن القراءة بالرواية ولا يتعين في هذه القراءة هذا التوجيه بل يجوز أن تكون ما بدلاً من شر على تقدير محذوف قد حذف لدلالة ما قبله عليه أي من شر شر ما خلق.

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ تخصيص لبعض الشرور بالذكر مع اندراجه فيما قبل لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه لكثرة وقوعه ولأن تعيين المستعاذ منه أدل على الاعتناء بالاستعاذة وادعى إلى الإعاذة والغاسق الليل إذا اعتكر ظلامه وأصل الغسق الامتلاء يقال غسقت العين امتلأت دمعاً وقيل هو السيلان وغسق الليل انصباب ظلامه على

الاستعارة وغسق العين سيلان دمعها وإضافة الشر إلى الليل لملابسته له لحدوثه فيه على حد نهاره صائم وتنكيره لعموم شمول الشر لجميع أفراده ولكل أجزائه.

﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ أي إذا دخل ظلامه في كل شيء وأصل الوقب النقرة والحفرة ثم استعمل في الدخول ومنه قوله

: وقب العذاب عليهم فكأنهم . . .

لحقتهم نار السموم فأخمدوا

(166/839)

وكذا في المغيب لما أن ذلك كالدخول في الوقب أي النقرة والحفرة وقد فسر هنا بالمجيء أيضاً والتقييد بهذا الوقت لأن حدوث الشر فيه أكثر والتحرز منه أصعب وأعسر ومن أمثالهم الليل أخفى للويل وتفسير الغاسق بالليل والوقوب بدخول ظلامه أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ومجاهد وابن أبي حاتم عن الضحاك وروى عن الحسن أيضاً وإليه ذهب الزجاج إلا أنه جعل الغاسق بمعنى البارد وقال أطلق على الليل لأنه أبرد من النهار وقال محمد بن كعب هو النهار ووقب بمعنى دخل في الليل وهو كما ترى وقيل القمر إذا امتلأ نوراً على أن الغسق الامتلاء ووقوبه دخوله في الخسوف واسوداده وقيل التعبير

عنه بالغاسق لسرعة سيره وقطعه البروج على أن الغسق مستعار من السيلان وقيل التعبير عنه بذلك لأن جرمه مظلم وإنما يستنير من ضوء الشمس ووقوبه على القولين المحاق في آخر الشهر والمنجمون يعدونه نحساً ولذلك لا تشتغل السحرة بالسحر المورث للمرض إلا في ذلك الوقت قيل وهو المناسب لسبب نزول واستدل على تفسيره بالقمر بما أخرجه الإمام أحمد والترمذي والحاكم وصححه وغيرهم عن عائشة قالت نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً إلى القمر لما طلع فقال يا عائشة استعيذي بالله تعالى من شر هذا فإن هذا الغاسق إذا وقب ومن سلم صحة هذا لا ينبغي له العدول إلى تفسير آخر وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب أنه قال الغاسق إذا وقب الشمس إذا غربت وكأن إطلاق الغاسق عليها لامتلائها نوراً ونقل ابن زيد عن العرب أن الغاسق الثريا ووقوبها سقوطها وكانت الأقسام والطواعين تكثر عن ذلك وروى تفسيره بذلك غير واحد عن أبي هريرة مرفوعاً وفي الحديث إذا طلع النجم ارتفعت العاهة وفي بعض الروايات زيادة عن جزيرة العرب وفي بعضها ما طلع النجم ذات غداة إلا رفعت كل آفة أو عاهة أو خفت وفيه روايات أخر فليراجع "شرح المناوي الكبير" للجامع الصغير وقيل أريد بذلك الحية إذا لدغت وإطلاق الغاسق عليها

لامتلائها سيما وقتل أريد سمها إذا دخل في الجسد وأطلق عليه الغاسق لسيلانه من نابها وكلا القولين لا يعول عليه وقيل هو كل شر يعتري الإنسان والشر يوصف بالظلمة والسواد ووقوبه هجومه وذكر المجد الفيروزأبادي في "القاموس" في مادة وقب قولاً في معنى الآية زعم أنه حكاه الغزالي وغيره عن ابن عباس ولا أظن صحة نسبته إليه لظهور أنه عورة بين الأقوال.

﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِى العقد ﴾

(168/839)

أي ومن شر النفوس السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها فالنفاثات صفة للنفوس واعتبر ذلك لمكان التأنيث مع أن تأثير السحر إنما هو من جهة النفوس الخبيثة والأرواح الشريرة وسلطانه منها وقدر بعضهم النساء موصوفاً والأول أولى ليشمل الرجال ويتضمن الإشارة السابقة ويطابق سبب النزول فإن الذي سحره صلى الله عليه وسلم كان رجلاً على المشهور كما ستسمع إن شاء الله تعالى وقيل أعانه بعض النساء ولكونه مثل ذلك من عمل النساء وكيدهن غلب المؤنث على المذكر هنا وهو جائز على ما فصله

الخفاجي في "شرح درة الغواص" والنفث والنفخ مع ريق كما قال الزمخشري وقال "صاحب اللوامح" هو شبه النفخ يكون في الرقية ولا ريق معه فإن كان بريق فهو تفل والأول هو الأصح لما نقله ابن القيم من أنهم إذا سحروا استعانوا على تأثير فعلهم بنفس يمازجه بعض أجزاء أنفسهم الخبيثة وقرأ الحسن النفاثات بضم النون وقرأ هو أيضاً وابن عمر وعبد الله بن القاسم ويعقوب في رواية النافثات وأبو الربيع والحسن أيضاً النفثات بغير ألف كالحذرات وتعريفها أما للعهد أو للإيذان بشمول الشر لجميع أفرادهن وتمحضهن فيه وتخصيصه بالذكر لما روى البخاري ومسلم وابن ماجه عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إنه ليخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يكن فعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة دعا الله ثم دعا ثم دعا ثم قال أشعره يا عائشة إن الله تعالى قد أفتاني فيما استفتيته فيه قلت وما ذاك يا رسول الله فقال جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي ما وجع الرجل قال مطبوب قال من طبه قال لبيد بن الأعصم قال في أي شيء قال في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر قال فأين هو قال في بئر ذي أروان قالت فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه ثم قال يا عائشة والله لكأن ماءها نقاعة

الحناء ولكأن نخلها رؤس الشياطين ، قالت فقلت يا رسول الله أفلا أحرقته قال لا أما أنا فقد عافاني الله تعالى وكرهت أن أثير على الناس شراً فأمرت بها فدفنت وهذان الملكان على ما يدل عليه رواية ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس هما جبريل وميكائيل عليهما السلام ومن حديثها في "الدلائل" للبيهقي بعد ذكر حديث الملكين " فما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غداً ومعه أصحابه إلى البئر فدخل رجل فاستخرج جف طلعة من تحت الراعوثة فإذا فيها مشط رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن مشاطة رأسه وإذا تمثال من شمع تمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا فيها إبر مغروزة وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة فأتاه جبريل عليه السلام بالمعوذتين فقال يا محمد ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ وحل عقدة من شر ما خلق وحل عقدة حتى فرغ منهما وحل العقد كلها وجعل لا ينزع إبرة إلا وجد لها ألماً ثم يجد بعد ذلك راحة فقيل يا رسول الله لو قتلت اليهودي قال قد عافاني الله تعالى وما يراه من عذاب الله تعالى أشد "

وفي رواية أن الذي تولى السحر لبيد بن الأعصم وبناته فمرض النبي صلى الله عليه وسلم فنزل جبريل بالمعوذتين وأخبره بموضع السحر وبمن سحره وبم سحره فأرسل صلى الله عليه وسلم علياً كرم الله تعالى وجهه والزبير وعماراً فنزحوا ماء البئر وهو كنقاعة الحناء ثم رفعوا راعوثة البئر فأخرجوا أسنان المشط ومعها وتر قد عقد فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالإبر فجاؤا بها النبي صلى الله عليه وسلم فجعل يقرأ المعوذتين عليها فكان كلما قرأ آية انحلت عقدة ووجد عليه الصلاة والسلام خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين فقام صلى الله عليه وسلم كأنما أنشط من عقال الخبر والرواية الأولى أصح من هذه وقال الإمام المازري قد أنكر ذلك الحديث المبتدعة من حيث أنه يحط منصب النبوة ويشك فيها وإن تجويزه يمنع الثقة بالشرع وأجيب بأن الحديث صحيح وهو غير مراغم للنص ولا يلزم عليه حط منصب النبوة والتشكيك فيها لأن الكفار أرادوا بقولهم مسحور أنه مجنون وحاشاه ولو سلم إرادة ظاهره فهو كان قبل هذه القصة أو مرادهم أن السحر أثر فيه وأن ما يأتيه من الوحي من تخيلات السحر وهو كذب أيضاً لأن الله تعالى عصمه فيما يتعلق بالرسالة وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث عليه الصلاة والسلام بسببها وهي مما يعرض للبشر فغير بعيد ان يخيل إليه من ذلك ما لا حقيقة له وقد قيل إنه إنما كان يخيل إليه أنه وطئ زوجاته وليس بواطئ وقد يتخيل الإنسان مثل هذا في المنام فلا يبعد تخيله في اليقظة وقيل إنه يخيل أنه فعله وما فعله ولكن لا يعتقد صحة ما تخيله فتكون

اعتقاداته عليه الصلاة والسلام على السداد وقال القاضي عياض قد جاءت روايات

حديث عائشة مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده الشريف صلى الله عليه وسلم

وظواهر جوارحه لا على عقله عليه الصلاة والسلام وقلبه واعتقاده ويكون معنى ما في

بعض الروايت حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهن وفي بعض أنه يخيل إليه أنه الخ

أنه يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن فإذا دنا منهن أخذته أخذة السحر فلم

يأتهن ولم يتمكن من ذلك كما يعتري المسحور وكل ما جاء في الروايات من أنه عليه الصلاة

والسلام يخيل إليه فعل شيء ولم يفعله ونحوه فمحمول على التخيل بالبصر لا لخلل تطرق إلى

العقل وليس في ذلك ما يدخل لبساً على الرسالة ولا طعناً لأهل الضلالة انتهى وبعضهم

أنكر أصل السحر ونفى حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها

ومذهب أهل السنة وعلماء الأمة على إثباته وإن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء

لدلالة الكتاب والسنة على ذلك ولا يستنكر في العقل أن الله تعالى يخرق العادة عند النطق

بكلام ملفق أو تركيب أجسام مخصوصة والمزج بين قوي على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر

وإذا شاهد الإنسان بعض الأجسام منها قاتلة كالسموم ومنها مسقمة كالأدوية الحادية

ومنها مضرة كالأدوية المضادة للمرض لم يستبعد عقله أن ينفرد الساحر بعلم قوي قتالة أو كلام مهلك أو مؤد إلى التفرقة ومع ذلك لا يخلو من تأثير نفساني ثم إن القائلين به اختلفوا في القدر الذي يقع به فقال بعضهم لا يزيد تأثيره على قدر التفرقة بين المرء وزوجه لأن الله تعالى إنما ذكر ذلك تعظيماً لما يكون عنده وتهويلاً له فلو وقع به أعظم منه لذكره لأن المثل لا يضرب عند المبالغة إلا بأعلى أحوال المذكور ومذهب الأشاعرة أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك وهو الصحيح عقلاً لأنه لا فاعل إلا الله وما يقع من ذلك فهو عادة أجراها الله تعالى ولا تفترق الأفعال في ذلك وليس بعضها بأولى من بعض ولورود الشرع بقصوره عن مرتبة لوجب المصير إليه ولكن لا يوجد شرع قاطع يوجب الاقتصار على ما قاله القائل الأول وذكر التفرقة بين الزوجين في الآية ليس بنص في منع الزيادة وإنما النظر في أنه ظاهر أم لا والفرق بين الساحر وبين النبي والولي على قول الأشاعرة بأنه يجوز خرق العادة على يد الساحر مبين في الكتب الكلامية وغيرها

(172/839)

من شروح الصحاح وقيل في الآية المراد بالنفث في العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من تليين العقد بنفث الريق ليسهل حلها وهو يقرب من بدع التفاسير .

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

أي إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه بترتيب مقدمات الشر ومبادي الأضرار بالمحسود قولاً وفعلاً ومن ذلك على ما قيل النظر إلى المحسود وتوجيه نفسه الخبيثة نحوه على وجه الغضب فإن نفس الحاسد حينئذ تتكيف بكيفية خبيثة بما تؤثر في المحسود بحسب ضعفه وقوة نفس الحاسد شراً قد يصل إلى حد الإهلاك ورب حاسد يؤذي بنظره بعين حسهد نحو ما يؤذى بعد الحيات بنظرهن وذكروا أن العائن والحاسد يشتركان في أن كلاً منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من تريد أذاه إلا أن العائن تتكيف نفسه عند مقابلة العين والمعاينة والحاسد يحصل حسده في الغيبة والحضور وأيضاً العائن قد يعين من لا يحسده من حيوان وزرع وإن كان لا ينفك من حسد صاحبه والتقييد بذلك إذ لا ضرر قبله بل قيل إن ضرر الحسد إنما يحيق بالحاسد لا غير كما قال علي كرم الله تعالى وجهه لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله وقال ابن المعتز

: اصبر على حسد الحسو . . .

د فإن صبرك قاتله فالنار تأكل بعضها

إن لم تجد ما تأكله . . .

وليعلم أن الحسد يطلق على تمني زوال نعمة الغير وعلى تمني استصحاب عدم النعمة ودوام ما في الغير من نقص أو فقر أو نحوه والإطلاق الأول هو الشائع والحاسد بكلا الإطلاقين ممقوت عند الله تعالى وعند عباده عز وجل آت باباً من الكبائر على ما اشتهر بينهم لكن التحقيق أن الحسد الغريزي الجبلي إذا لم يعمل بمقتضاه من الأذى مطلقاً بل عامل المتصف به أخاه بما يحب الله تعالى مجاهد أنفسه لا إثم فيه بل يثاب صاحبه على جهاد نفسه وحسن معاملته أخاه ثواباً عظيماً لما في ذلك من مشقة مخالفة الطبع كما لا يخفى ويطلق الحسد على الغبطة مجازاً وكان ذلك شائعاً في العرف الأول وه يتمني أن يكون له مثل ما لأخيه من النعمة من غير تمني زوالها وهذا مما لا بأس به ومن ذلك ما صح من قوله صلى الله عليه وسلم لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله تعالى ما لا وسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله تعالى الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس وقال أبو تمام

: هم حسدوه لا ملومين مجده . . .

وما حاسد في المكرمات بحاسد

وقال أيضاً

: وأعذر حسودك فيما قد خصصت به . . .

إن العلا حسن في مثلها الحسد

هذا وقال الرئيس ابن سينا الغاسق القوة الحيوانية فهي ظلمة غاسقة منكدرة على خلاف النفس الناطقة التي هي المستعيذة فإنها خلقت في جوهرها نقية صافية مبرأة عن كدورات المادة وعلائقها قابلة لجميع الصور والحقائق وإنما تتلوث من الحيوانية والنفاثات في العقد إشارة إلى القوى النباتية من حيث إنها تزيد في المقدار من جميع جهاته الطوال والعرض والعمق فكأنها تنفث في العقد الثلاث ولما كانت العلاقة بين النفس الإنسانية والقوى النباتية بواسطة الحيوانية لا جرم قدم ذكر القوى الحيوانية على القوى النباتية والشر اللازم من هاتين القوتين في جوهر النفس هو استحكام علائق البدن وامتناع تغذيها بالغذاء الموافق لها اللائق بجوهرها وهو الإحاطة بملكوت السموات والأرض والانتقاش بالنقوش الباقية وعنى بقوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ النزاع الحاصل بين البدن وقواه وبين النفس فالحاسد هو البدن من حيث له القوتان والمحسود هو النفس فالبدن وبال عليها فما أحسن حالها عند الاعراض عنه وما أعظم لذتها بالمفارقة إن لم تكن تلوثت منه وقيل الغاسق إشارة إلى المعدن والنفاثات إلى النباتات والحاسد إلى الحيوان ولما كان الإنسان لا يتضرر عن الأجسام الفلكية وإنما يتضرر عن الأجسام العنصرية وهي إما معدن

أو نبات أو حيوان أمر بالاستعاذة من شر كل منها وكلا القولين كما ترى والله تعالى أعلم .

انتهى انتهى . اهـ ﴿روح المعانى حـ 30 صـ ﴾

(175/839)

وقال الشوكانى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) ﴾

﴿ الفلق ﴾ الصبح ، يقال : هو أبين من فلق الصبح .

وسمي فلقاً ، لأنه يفلق عنه الليل .

وهو فعل بمعنى مفعول .

قال الزجاج : لأن الليل ينفلق عنه الصبح ، ويكون بمعنى مفعول .

يقال : هو أبين من فلق الصبح ، ومن فرق الصبح ، وهذا قول جمهور المفسرين ، ومنه قول ذي الرّمة :

حتى إذا ما انجلى عن وجهه فلق . . . هادئة في أخريات الليل منتصب

وقول الآخر :

يا ليلة لم أنمها بتّ مرتفقا . . . أرعى النجوم لي أن نوّر الفلق

وقيل: هو سجن في جهنم.

وقيل: هو اسم من أسماء جهنم.

وقيل: شجرة في النار.

وقيل: هو الجبال والصخور، لأنها تفلق بالمياه، أي: تشقق.

وقيل: هو التفليق بين الجبال؛ لأنها تنشق من خوف الله.

قال النحاس: يقال لكل ما اطمأنّ من الأرض فلق، ومنه قول زهير:

ما زلت أرمقهم حتى إذا هبطت... أيدي الركاب بهم من راكس فلقا

والراكس: بطن الوادي، ومثله قول النابغة:

أتاني ودوني راكس فالضواجع... وقيل: هو الرحم تنفلق بالحيوان.

وقيل: هو كل ما انفلق عن جميع ما خلق الله من الحيوان والصبح والحبّ والنوى، وكلّ شيء من نبات، وغيره قاله الحسن، والضحاك.

قال القرطبي: هذا القول يشهد له الانشقاق، فإن الفلق الشقّ، فلقت الشيء فلقاً: شققته، والتفليق مثله، يقال فلقته، فانفلق وتفلق، فكلّ ما انفلق عن شيء من حيوان، وصبح، وحبّ، ونوى، وماء فهو فلق، قال الله سبحانه: ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ [الأنعام: 96] وقال: ﴿ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ [الأنعام: 95].

انتهى.

والقول الأوّل أولى ؛ لأن المعنى ، وإن كان أعمّ منه وأوسع مما تضمنه لكنه المتبادر عند الإطلاق .

وقد قيل في وجه تخصيص الفلق الإيماء إلى أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كلّ هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه ، ويخشاه .

وقيل : طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج ؛ فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح.

كذلك الخائف يكون مترقباً لطلوع صباح النجاح ، وقيل : غير هذا مما هو مجرّد بيان مناسبة ليس فيها كثير فائدة تتعلق بالتفسير .

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ متعلق ب ﴿ أعوذ ﴾ أي : من شرّ كلّ ما خلقه سبحانه من جميع مخلوقاته ، فيعمّ جميع الشرور .

وقيل : هو إبليس وذرّيته .

وقيل : جهنم ، ولا وجه لهذا التخصيص ، كما أنه لا وجه لتخصيص من خصّص هذا العموم بالمضارّ البدنية .

وقد حرّف بعض المتعصبين هذه الآية مدافعة عن مذهبه ، وتقويماً لباطله ، فقرءوا بتنوين :

" شرّ " على أن : "ما" نافية .

والمعنى : من شرّ لم يخلقه .

ومنهم عمرو بن عبيد ، وعمرو بن عائذ .

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ الغاسق الليل .

والغسق الظلمة .

يقال غسق الليل يغسق إذا أظلم .

قال الفراء : يقال غسق الليل ، وأغسق إذا أظلم ، ومنه قول قيس بن الرقيات :

إن هذا الليل قد غسقا . . . واشتكيت الهمّ والأرقا

وقال الزجاج : قيل لليل غاسق ؛ لأنه أبرد من النهار ، والغاسق البارد ، والغسق البرد ، ولأن في الليل تخرج السباع من آجامها ، والهوامّ من أماكنها ، وينبعث أهل الشرّ على العبث والفساد ، كذا قال ، وهو : قول بارد ، فإن أهل اللغة على خلافه ، وكذا جمهور المفسرين

ووقوبه : دخول ظلامه ، ومنه قول الشاعر :

وقب العذاب عليهم فكأنهم . . . لحقتهم نار السموم فأخمدوا

أي : دخل العذاب عليهم .

ويقال وقبت الشمس : إذا غابت .

وقيل : الغاسق الثريا .

وذلك أنها إذا سقطت كثرت الأسقام والطواعين ، وإذا طلعت ارتفع ذلك ، وبه قال ابن زيد .

وهذا محتاج إلى نقل عن العرب أنهم يصفون الثريا بالغسوق .

وقال الزهري : هو الشمس إذا غربت ، وكأنه لاحظ معنى الوقوب ، ولم يلاحظ معنى الغسوق .

وقيل : هو القمر إذا خسف .

وقيل : إذا غاب .

وبهذا قال قتادة ، وغيره .

واستدلوا بحديث أخرجه أحمد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن عائشة قالت : نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً إلى القمر لما طلع فقال : " يا عائشة استعيذي بالله من شرّ هذا ، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب " قال الترمذي : بعد إخراجه حسن صحيح ، وهذا لا ينافي قول

الجمهور ؛ لأن القمر آية الليل ، ولا يوجد له سلطان إلاّ فيه ، وهكذا يقال في جواب من قال : إنه الثريا .

قال ابن الأعرابي في تأويل هذا الحديث : وذلك أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر .

وقيل الغاسق : الحية إذا لدغت .

وقيل الغاسق : كل هاجم يضرّ كائناً ما كان ، من قولهم غسقت القرحة : إذا جرى صديدها .

وقيل : الغاسق هو السائل ، وقد عرّفناك أن الراجح في تفسير هذه الآية هو ما قاله أهل القول الأوّل ، ووجه تخصيصه أن الشرّ فيه أكثر ، والتحرز من الشرور فيه أصعب ، ومنه قولهم : الليل أخفى للويل .

﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِى العقد ﴾ النفاثات هنّ السواحر ، أي : ومن شر النفوس النفاثات ، أو النساء النفاثات ، والنفث النفخ ، كما يفعل ذلك من يرقي ويسحر .

وقيل : مع ريق .

وقيل : بدون ريق ، والعقد جمع عقدة ، وذلك أنهنّ كن ينفثن في عقد الخيوط حين يسحرن بها ، ومنه قول عنترة :

فإن يبرأ فلم أنفث عليه . . . وإن يعقد فحقّ له العقود

وقول متمم بن نويرة :

نفث في الخيط شبيه الرقى . . . من خشية الجنة والحاسد

قال أبو عبيدة : النفاثات هيّ : بنات لبيد الأعصم اليهودي ، سحرن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قرأ الجمهور : ﴿ النفاثات ﴾ جمع نفاثة على المبالغة .

وقرأ يعقوب ، وعبد الرحمن بن ساباط ، وعيسى بن عمر : (النافثات) جمع نافثة .

وقرأ الحسن : (النفاثات) بضم النون .

وقرأ أبو الربيع : (النفثات) بدون ألف .

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ الحسد : تمني زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود .

(178/839)

ومعنى ﴿ إذا حسد ﴾ : إذا أظهر ما في نفسه من الحسد ، وعمل بمقتضاه ، وحمله الحسد على إيقاع الشرّ بالمحسود .

قال عمر بن عبد العزيز : لم أر ظالماً أشبه بالمظلوم من حاسد ، وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

قل للحسود إذا تنفس طعنة . . . يا ظالماً وكأنه مظلوم

ذكر الله سبحانه في هذه السورة إرشاد رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الاستعاذة من شرّ كل مخلوقاته على العموم ، ثم ذكر بعض الشرور على الخصوص مع اندراجه تحت العموم لزيادة شرّه ، ومزيد ضرّه ، وهو الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد ، فكأن هؤلاء لما فيهم من مزيد الشرّ حقيقون بإفراد كل واحد منهم بالذكر .

وقد أخرج ابن مردويه عن عمرو بن عبسة قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ فقال : " يا ابن عبسة أتدري ما الفلق ؟ " قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : " بئر في جهنم " وأخرجه ابن أبي حاتم من قول عمرو بن عبسة غير مرفوع .

وأخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اقرأ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ هل تدري ما الفلق ؟ باب في النار إذا فتحت سعرت جهنم " وأخرج ابن مردويه ، والديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ فقال : " هو سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون ، وإن جهنم لتتعوّذ بالله منه " وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الفلق جبّ في جهنم " وهذه الأحاديث لو كانت صحيحة ثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان المصير إليها

واجباً ، والقول بها متعيناً .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : الفلق سجن في جهنم .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : الفلق الصبح .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس مثله .

(179/839)

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه قال : الفلق الخلق .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ وقال : النجم هو الغاسق ، وهو الثريا .

وأخرجه ابن جرير ، وابن أبي حاتم من وجه آخر عنه غير مرفوع .

وقد قدّمنا تأويل هذا ، وتأويل ما ورد أن الغاسق القمر .

وأخرج أبو الشيخ عنه أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ارتفعت النجوم رفعت كل عاهة عن كل بلد "

وهذا لو صح لم يكن فيه دليل على أن الغاسق هو النجم أو النجوم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قال :

الليل إذا أقبل .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس : ﴿ وَمِن شَرِّ النفاثات فِى العقد ﴾ قال : الساحرات .

وأخرج ابن جرير عنه في الآية قال : هو ما خالط السحر من الرقي .

وأخرج النسائي ، وابن مردويه عن أبي هريرة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئًا وكل إليه "

وأخرج ابن سعد ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن مردويه عن أبي هريرة قال : جاء النبيّ صلى الله عليه وسلم يعودني فقال : " ألا أرقيك برقية رقاني بها جبريل ؟ " فقلت : بلى بأبي أنت وأمي ، قال : " بسم الله أرقيك ، والله يشفيك من كل داء فيك مِن شَرّ النفاثات فِى العقد ، وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ " فرقى بها ثلاث مرّات .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمِن شَرّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ قال : نفس ابن آدم وعينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 518 . 522 ﴾

(180/839)

وقال صاحب روح البيان :

تفسير سورة الفلق

خمس آيات مدينة

﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾

الفلق الصبح لأنه يفلق عنه الليل ويفرق فهو من باب الحذف والإيصال فعل بمعنى مفعول كالصمد والقبض بمعنى المصمود إليه والمقبوض كما مر فإن كل واحد من المفلوق والمفلوق عنه مفعول وذلك إنما يتفق بأن يكون الشيء مستوراً ومحجوباً بآخر ثم يشقق الحجاب الساتر عن وجه المستور ويزول فيظهر ذلك المستور وينكشف بسبب زواله وذلك الحجاب المشقق مفلوق والمحجوب المنكشف بزواله مفلوق عنه والصبح صار مفلوقاً عنه بإزالة ما عليه من ظلمة الليل يقال في المثل هو أبين من فلق الصبح والفلق أيضاً الخلق لأن الممكنات بأسرها كانت أعياناً ثابتة في علم الله مستورة تحت ظلمة العدم فالله تعالى فلق تلك الظلمات بنور التكون والإيجاد فأظهر ما في علمه من المكونات فصارت مفلوقاً عنها وفي تعليق العياذ باسم الرب المضاف إلى الفلق المبنىء عن النور عقيب الظلمة والسعة بعد الضيق والفتق بعد الرتق عدة كريمة بإعادة العائذ مما يعوذ منه وإنجائه منه وتقوية لرجائه لتذكير بعض نظائره ومزيد ترغيب له في الجد والاعتناء بقرع باب الالتجاء إليه والاعاذة بربه قالوا إذا طلع الصبح تتبدل الثقلة بالخفة والغم بالسرور روى أن يوسف عليه السلام لما ألقى في الجب وجعت ركبته وجعاً شديداً فبات ليلته ساهراً فلما قرب طلوع الصبح نزل جبريل بإذن الله تعالى يسأله ويأمره بأن يدعو ربه فقال يا جبريل ادع أنت وأؤمن فدعا

جبريل وأمن يوسف عليهما السلام ، فكشف الله تعالى ما كان به من الضر فلما طاب وقت يوسف قال يا جبريل وأنا أدعو أيضاً وتؤمن أنت فسأل يوسف ربه أن يكشف الضر عن جميع أهل البلاء في ذلك الوقت فلا جرم ما من مريض إلا ويجد نوع خفة في آخر الليل وعن بعض الصحابة رضي الله عنهم إنه قدم الشأم فرأى دور أهل الذمة وما هم فيه من خفض العيش وما وسع عليهم به من دنياهم فقال لا أبالي أليس من ورائهم الفلق فقيل وما الفلق قال بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار

(181/839)

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

أي من شر ما خلقه من الثقلين وغيرهم كائناً ما كان من ذوات الطبائع والاختيار فيشمل جميع الشرور والمضار بدنية كانت أو غيرها من ضرب وقتل وشتم وعض ولدغ وسحر ونحوها وإِضافة الشر إليه لاختصاصه بعالم الخلق المؤسس على امتزاج المواد المتباينة وتفاعل كيفياتها المتضادة المستنبعة للكون والفساد وإما عالم الأمر فهو خير محض منزه عن الشوائب الشر بالكلية وقرأ بعض المعتزلة القائلين بأن الله لم يخلق الشر من شر بالتنوين ما خلق على النفي وهي قراء مردودة مبنية على مذهب باطل الله خالق كل شيء ﴿ وَمِن

شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ تخصيص لبعض الشرور بالذكر مع اندارجه فيما قبله لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه لكثرة وقوعه ولأن تعيين المستعاذ أدل على الاعتناء بالاستعاذة

(182/839)

وادعى إلى الإعاذة أي ومن شر ليل مختلط ظلامه مشتد وذلك بعد غيبوبة الشفق من قوله تعالى : [الإسراء : 78-3] ﴿ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ أي اجتماع ظلمته وفي القاموس الغسق محركة ظلمة أول الليل وغسق الليل غسقاً ويحرك اشتدت ظلمته فالغاسق الليل المظلم كما في المفردات وأصل الغسق الامتلاء يقال غسقت العين إذا امتلأت دمعاً أو هو السيلان وغسق العين سيلان دمعها وإضافة الشر إلى الليل لملابسته له بحدوثه فيه وتنكيره لعدم شمول الشر لجميع أفراده ولا لكل أجزائه

﴿ إذا وقب ﴾ الوقب النقرة في الشيء كالنقرة في الحرة يجتمع فيها الماء ووقب إذا دخل في وقب ومنه وبت الشمس إذا غابت ووقب الظلام دخل والمعنى إذا دخل ظلامه في كل شيء وتقييده به لأن حدوث الشر فيه أكثر والتحرز منه أصعب وأعسر ولذلك قيل الليل أخفى للويل وقيل : أغدر الليل لأنه 5ا أظلم كثر فيه الغدر والغوث يقل في الليل ولذا لو شهر إنسان بالليل سلاحاً فقتله المشهر عليه لا يلزمه قصاص ولو كان نهاراً يلزمه لأنه يوجد فيه

الغوث والحاصل إنه ينبعث أهل الحرب في الليل وتخرج عفاريت الجن والهوام والمؤذيات ونهى رسول الله عليه السلام ، عن السير في أول الليل وأمر بتغطية الأواني وأغلاق الأبواب وإيكاء الأسقية وضم الصبيان وكل ذلك للحذر من الشر والبلاء وقيل الغاسق القمر إذا امتلأ ووقوبه دخوله في الخسوف واسوداده لما روى عن عائشة رضي الله عنها ، إنها قالت أخذ رسول الله علي السلام بيدي فأشار إلى القمر فقال تعوذي بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب وشره الذي يتقى ما يكون في الأبدان كآفات التي تحدث بسببه ويكون في الأديان كالفتنة التي بها افتتن من عبد وعبد الشمس وقيل التعبير عن القمر بالغاسق لأن جرمه مظلم وإنما يستنير بضوء الشمس ووقوبه المحاق في آخر الشهر والمنجمون يعدونه نحساً ولذلك لا تشتغل السحرة بالسحر المورث للتمريض إلا في ذلك قيل وهو المناسب لسبب النزول وقيل الغاسق الثريا

ووقوبها سقوطها لأنها إذا سقطت كثرت الأمراض والطواعين وإذا طلعت قلت الأمراض والآلام وقيل هو كل شر يعترى الإنسان ووقوبه هجومه ويجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحياة ووقبه ضربه ولسبه وفي "القاموس" هو الذكر إذا وقام هو منقول عن ابن عباس

رضي الله عنهما وجماعة

﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ ﴾

من النفث وهو شبه النفخ يكون في الرقية ولا ريق معه فإن كان معه ريق فهو التفل يقال منه نفث الراقي ينفث وينفث بالضم ولكسر والنفاثات بالشديد يراد منها تكرار الفعل والاحتراف به والنفاثات تكون للدفعة الواحدة من الفعل ولتكراره أيضاً ﴿ فِى الْعُقَدِ ﴾ جمع عقدة وهي ما يعده الساحر على وتر أو حبل أو شعر وهو ينفث ويرقى وأصله من العزيمة ولذلك يقال لها عزيمة كما يقال لها عقدة ومنه قيل للساحر معقد والمعنى ومن شر النفوس أو النساء السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها وتعريفها إما للعهد أو للإيذان بشمول الشر لجميع أفرادهن وتمحضهن فيه وتخصيصه بالذكر لما روى ابن عباس رضي الله عنهما وعائشة رضي الله عنها إنه كان غلام من اليهود يخدم النبي عليه السلام ، وكان عنده أسنان من مشطه عليه السلام ، فأعطاها اليهود فسحروه عليه السلام ، فيها ولذا ينبغي أن يقطع الظفر بعد التقليم وكذا الشعر

(184/839)

إذا أسقط من اللحية والرأس نصفين أو أكثر لئلا يسحر به أحد وتولاه لبيد بن أعصم اليهودي وبناته وهن النفاثات في العقد فدفنها في بئر أريس وفي "عين المعاني" في بئر لبني زريق تسمى ذروان فمرض النبي عليه السلام روى إنه لبث فيه ستة أشهر فنزل جبرائيل بالمعوذتين بكسر الواو كما في "القاموس" وأخبره بموضع السحر وبمن سحره وبم سحره فأرسل عليه السلام علياً والزبير وعماراً رضي الله عنهم ، فنزحوا ماء البئر فكأنه نقاعة الحناء ثم رفعوا راعونة البئر وهي الصخرة التي توضع في أسفل البئر فأخرجوا من تحتها الأسنان ومعها وترقد عقد فيه إحدى عشرة عقدة مغرزة بالأبر فجاؤوا بها النبي عليه السلام ، فجعل يقرأ المعوذتين عليها فكان كلما قرأ آية نحلت عقدة ووجد عليه السلام ، خفة حتى انحلت العقدة الأخيرة عند تمام السورتين فقام عليه السلام ، كأنما أنشط من عقال وجعل جبرائيل يقول بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل شيء يؤذيك من عين وحاسد فلذا جوز الاسترقاء بما كان من كلام الله وكلام رسوله لا بما كان بالعبرية والسريانية والهندية فإنه لا يحل اعتقاده فقالوا يا رسول الله أفلا نقتل الخبيث فقال عليه السلام إما أنا فقد عافاني الله وأكره إن أثير على الناس شراً قالت عائشة رضي الله عنها ما غضب النبي عليه السلام ، غضباً ينتقم لنفسه قط إلا أن يكون شيئاً هو الله فيغضب الله وينتقم وقيل المراد بالنفث في العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل مستعار من تليين العقدة بنفث الريق ليسهل حلها فعلى هذا فالنفاثات هي جنس النساء اللاتي شأنهن أن يغلبن

على الرجال ويحولنهم عن آرائهم بأنواع المكر والحيلة فمعنى الآية إن النساء لأجل استقرار حبهن في قلوب الرجال يتصرفن فيهم ويحولنهم من رأي إلى رأي فأمر الله تعالى له رسوله بالتعوذ من شرهن .

اعلم أن السحر تخييل لا أصل له عند المعتزلة وعند الشافعي تمريض بما يتصل به كما يخرج من فم المتثائب ويؤثر في المقابل وعندنا سرعة الحركة ولطافة الفعل فيما خفي فهمه وقيل طلسم يبني على تأثير خصائص الكواكب كتأثير الشمس في زئبق عصى سحرة فرعون والمعتزلة أنكروا صحة الرواية المذكورة وتأثير السحر فيه عليه السلام وقالوا كيف يمكن القول بصحتها والله تعالى يقول والله يعصمك من الناس وقال ولا يفلح الساحر حيث أتى ولأن تجويزه يفضي إلى القدح في النبوة ولأن الكفار كانوا يعيرونه بأنه مسحور فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين في تلك الدعوى ولحصل فيه عليه السلام ذكر العيب ومعلوم أن ذلك غير جائز وقال أهل السنة صحة القصة لا تستلزم صدق لكفرة في قولهم إنه مسحور وذلك لأنهم كانوا يريدون بكونه مسحوراً إنه مجنون أزيل عقله بسبب السحر فلذلك ترك دين آبائه فأما أن يكون مسحوراً بألم يجده في بدنه فذلك مما لا ينكره أحد

وبالجملة فالله تعالى ما كان يسلط عليه لا شيطاناً ولا أنسياً وجنياً يؤذيه فيما يتعلق بنبوته وعقله وإما الإضرار به من حيث بشريته وبدنه فلا بعد فيه وتأثير السحر فيه عليه السلام ، لم يكن من حيث إنه نبي وإنما كان في بدنه من حيث إنه إنسان وبشر فإنه عليه السلام يعرض له من حيث بشريته ما يعرض لسائر البشر من الصحة والمرض والموت والأكل والشرب ودفع الفلات وتأثير السحر فيه من حيث بشريته لا يقدح في نبوته وإنما يكون

قادحاً فيها لو وجد للسحر تأثير في أمر يرجع إلى النبوة ولم يوجد ذلك كيف والله تعالى يعصمه من يضره أحد فيما يرجع إليها كما لم يقدح كسر رباعيته يوم أحد فيما ضمن الله له من عصمته في قوله والله يعصمك من الناس وفي "كشف الأسرار" فإن قيل : ما الحكمة في نفوذ السحر وغلبته في النبي عليه السلام ، ولماذا لم يرد الله كيد الكائد إلى نرحه بإبطال مكره وسحره قلنا الحكمة فيه الدلالة على صدق رسول الله عليه السلام ، وصحة معجزاته وكذب من نسبه إلى السحر والكهانة لأن سحر الساحر عمل فيه حتى التبس عليه بعض الأمر واعتراه نواع من الوجع ولم يعلم النبي عليه السلام بذلك حتى دعا ربه ثم دعا فأجابه الله وبين له ره ولو كان ما يظهر من المعجزات الخارقة للعادات من باب السحر

على ما زعم أعداوؤه لم يشتبه عليه ما عمل من السحر فيه ولتوصل إلى دفعه من عنده وهذا بحمد الله من أقوى البراهين على نبوته وإنما أخبر النبي عليه السلام ، عائشة رضي الله عنها من بين نسائه بما كشف الله تعالى له من ر السحر لأنه عليه السلام كان مأخوذاً عن عائشة رضي الله عنها ، في هذا السحر على ما روى يحيى بن يعمر قال حبس رسول الله عليه السلام ، عن عائشة فبينما هو نائم أو بين النوم واليقظة إذا أتاه ملكان جلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه فهذا يقول للذي عند رأسه ما شكواه قال السحر ، قال : من فعل به قال لبيد بن أعصم اليهودي قال فأين صنع السحر قال في بئر كذا قال فما دواؤه قال ينبعث إلى تلك البئر فينزح ماءها فإنه ينتهي إلى صخرة فإذا رآها فليقلعها فإن تحتها كوبة وهر كوز سقط عنقها وفي الكوبة وترفيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالأبر فيحرقها بالنار فيبرأ إن شاء الله تعالى فاستيقظ عليه السلام ، وقد فهم ما قالا فبعث علياً رضي الله عنه إلى آخر ما سبق وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت كان رسول الله عليه السلام ، إذا اشتكى شيئاً من جسده

قرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين في كفه اليمنى ومسح بها المكان الذي يشتكي وفيه إشارة إلى الهواجس النفسانية والخواطر الشيطانية النفاثات الساحرات في عقد عقائد القلوب الصافية الظاهرة أخباث السيئات العقلية وألواث الشكوك الوهمية والعياذ بالله منها

﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾

بالوقف ثم يكبر لأن الوصل لا يخلو من الإيهام أي إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه ترتيب مقدمات الشر ومبادي الأضرار بالمحسود قولاً أو فعلاً والتقييد بذلك لما أن ضرر الحسد قبله إنما يحيق بالحاسد لا غير وفي "الكشاف" فإن قلت فلم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه قلت عرف النفاثات لأن كل نفاثة شريرة ونكر غاسق لأن كل غاسق لا يكون فيه الشر إنما يكون في بعض دون بعض وكذلك كل حاسد لا يضر ورب حسد محمود وهو الحسد في الخيرات ويجوز أن يراد بالحاسد قابيل لأنه حسد أخاه هابيل والحسد الأسف على الخير عند الغير وفي "فتح الرحمن" تمنى زوال النعمة عن مستحقها سواء كانت نعمة دين أو دنيا وفي الحديث المؤمن يغبط والمنافق يحسد وعنه عليه السلام الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب وأول ذنب عصى الله به في السماء حسد إبليس لآدم فأخرجه من الجنة فطرد وصار شيطاناً رجيماً وفي الأرض قابيل لأخيه هابيل فقتله قال الحسين بن الفضل رحمه الله ، ذكر الله الشرور في هذه السورة ثم ختمها بالحسد ليظهر إنه أخبث الطبائع كما قال ابن عباس رضي الله عنهما .

(188/839)

وفيه إشارة إلى حسد النفس الأمارة إذا حسدت القلب وأرادت أن تطفىء نور وتوقعه في التلوين وكفران النعمة الذي هو سبب لزوالها وفي الحديث أن النبي عليه السلام قال لعتبة بن عامر رضي الله عنه ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ قوله: ألم تر كلمة تعجب وما بعدها بيان لسبب التعجب يعني لم يوجد آيات كلهن تعويذ غيرها تين السورتين وهما قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وفي الحديث دليل على أنهما من القرآن ورد على من نسب إلى ابن مسعود رضي الله عنه إنهما ليستا منه وفي عين المعاني الصحيح إنهما من القرآن إلا أنهما لمتثبتا في مصحفه للأمن من نستانهما لأنهما تجريان على لسان كل إنسان انتهى.

(189/839)

اعلم أن مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حذف منه أم الكتاب والمعوذتان ومصحف أبي بن كعب رضي الله عنه، زيد فيه سورة القنوت ومصحف زيد بن ثابت

أبي منسوخاً رضي الله عنه كان سليماً من ذلك فكان كل من مصحفي ابن مسعود

ومصحف زيد معمولاً به وذلك لأنه عليه السلام ، كان يعرض القرآن على جبريل عليه

السلام في كل شهر رمضان مرة واحدة فلما كان العام الذي قبض فيه عرضه مرتين وكان

قراءة زيد من آخر العرض دون قراءة أبي وابن مسعود رضي الله عنهما وتوفي عليه السلام

وهو يقرأ على ما في مصحف زيد ويصلى به قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه جميع

سور القرآن مائة واثنتا عشرة سورة قال الفقيه في البستان إنما قال إنها مائة واثنتا عشرة

سورة لأنه كان لا يعد المعوذتين من القرآن وكان لا يكتبهما في مصحفه ويقول إنهما منزلتان

من السماء وهما من كلام رب العالمين ولكن النبي عليه السلام كان يرقى ويعوذ بهما فاشتبه

عليه إنهما من القرآن أو ليستا منه فلم يكتبهما في المصحف وقال مجاهد جميع سور القرآن

مائة وثلاث عشرة سورة وإنما قال ذلك لأنه كان يعد الأنفال والتوبة سورة واحدة ، وقال أبي

بن كعب رضي الله عنه ، جميع سور القرآن مائة وست عشرة سورة وإنما قال ذلك لأنه كان

يعد القنوت سورتين إحداهما من قوله اللهم إنا نستعينك إلى قوله من يفجرك والثانية من قوله

اللهم إياك نعبد إلى قوله ملحق وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه جميع سور القرآن مائة

وأربع عشرة سورة وهذا قول عامة الصحابة رضي الله عنهم وهكذا في مصحف الامام

عثمان بن عفان رضي الله عنه وفي مصاحب أهل الأمصار فالمعوذتان سورتان من القرآن

روى أبو معاوية عن عثمان بن واقد قال أرسلني أبي إلى محمد بن المنكدر وسأله عن

المعوذتين اهما من كتاب الله قال من لم يزعم أنهما من كتاب الله فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين وفي نصاب الاحتساب لو أنكر آية من القرآن سوى المعوذتين يكفر انتهى .

(190/839)

وفي الأكمل عن سفيان بن سختان من قال إن المعوذتين ليستا من القرآن لم يكفر لتأويل ابن مسعود رضي الله عنه ، كما في المغرب للمطرزي وقال في هدية المهديين وفي إنكار قرآنية المعوذتين اختلاف المشايخ والصحيح إنه كفر انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ روح البيان حـ 10 صـ 662.657 ﴾

(191/839)

وقال القاسمى :

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾

أي : ألوذ به وألتجئ إليه . والفلق فعل بمعنى المفعول ، كقصَص بمعنى مقصوص .

قال ابن تيمية : كلُّ ما فلقَه الربُّ فهو فلق . قال الحسن : الفلق كل ما انفلق عن شيء كالصبح والحَب والنَّوى . قال الزجاج : وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر . وقد قال كثير من المفسرين : الفلق الصبح ، فإنه يقال : هذا أبين من فلق الصبح وفرق الصبح .

وقال بعضهم : الفلق الخلق كله ، وأما من قال : إنه وادٍ في جهنم أو شجرة في جهنم ، أو : إنه اسم من أسماء جهنم ، فهذا أمر لا نعرف صحته ، لا بدلالة الاسم عليه ، ولا بنقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمة ، بخلاف ما إذا قال : رب الخلق أو رب كلِّ ما انفلق أو رب النور الذي يظهره على العباد بالنهار ، فإن في تخصيصه هذا بالذكر . ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به . انتهى

وقوله تعالى : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي : من شر ما خلقه من الثقلين وغيرهم . كائناً ما كان من ذوات الطبائع والاختيار .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ قال أبو السعود : تخصيص لبعض الشرور بالذِّكر ، مع اندراجه فيما قبله لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة ، وأدعى إلى الإعاذة . وقال الإمام ابن تيمية : وإذا قيل : الفلق يعمُّ ويخُص ، فبعمومه استعيذ من شر ما

خلق ، وبخصوصه للنور النهاريّ استعيذ من شر غاسق إذا وقب ؛ فإن الغاسق قد فسر بالليل كقوله :

(192/839)

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ [الإسراء : 78] ، وهذا قول أكثر المفسرين ، وأهل اللغة قالوا : ومعنى ﴿ وَقَبَ ﴾ دخل في كل شيء . قال الزجاج : الغاسق البارد . وقيل لليل : غاسق ؛ لأنه أبرد من النهار . وقد روى الترمذي والنسائي عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم < نظر إلى القمر فقال : يا عائشة ! تعوّذي بالله من شره ، فإنه الغاسق إذا وقب > . وروي من حديث أبي هريرة مرفوعاً : < الغاسق النجم > . وقال ابن زيد : هو الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها . وهذا المرفوع قد ظن بعض الناس منافاته لمن فسره بالليل فجعلوه قولاً آخر ، ثم فسروا وقوبه بسكونه . قال ابن قتيبة : ويقال : الغاسق القمر إذا كسف واسودّ . ومعنى وقب دخل في الكسوف . وهذا ضعيف فإن ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعارض بقول غيره ، وهو لا يقول إلا الحق ، وهو لم يأمر عائشة بالاستعاذة منه عند كسوفه بل مع ظهوره . وقد قال الله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء : 12] ، فالقمر آية الليل ، وكذلك النجوم إنما تطلع فترى بالليل ؛ فأمره بالاستعاذة من ذلك أمرٌ بالاستعاذة من آية الليل ودليله وعلامته . والدليل مستلزم للمدلول . فإذا كان شر القمر موجوداً ، فشر الليل موجود ، وللقمر من التأثير ما ليس لغيره . فتكون الاستعاذة من الشر الحاصل عنه أقوى ، ويكون هذا كقوله عن المسجد المؤسس على التقوى : < هو مسجدي > هذا مع أن الآية تتناول مسجد قباء قطعاً ، وكذلك قوله عن أهل الكساء : < هؤلاء أهل بيتي > مع أن القرآن يتناول نساءه ؛ فالتخصيص لكونه المخصوص أولى بالوصف ؛ فالقمر أحق ما يكون بالاستعاذة ، والليل مظلم منتشر فيه شياطين الإنس والجن مالا تنتشر بالنهار ، ويجري فيه من أنواع الشر ما لا يجري بالنهار من أنواع الكفر والفسوق والعصيان والسرقة والخيانة والفواحش وغير ذلك ؛ فالشر دائماً مقرون بالظلمة . ولهذا إنما جعله الله لسكون الآدميين وراحتهم ، لكن شياطين الإنس والجن تفعل فيه من الشر ما لا يمكنها فعله بالنهار ، ويتوسلون بالقمر وبدعوته وعبادته ، وأبو معشر البلخيّ له

"مصحف القمر" يذكر فيه من الكفريات والسِّحريات ما يناسب الاستعاذة منه . انتهى كلام ابن تيمية رحمه الله .

(194/839)

ثم خص تعالى مخلوقات أُخَر بالاستعاذة من شرها ، لظهور ضررها وعسر الاحتياط منها ؛ فلا بد من الفزع إلى الله والاستنجاد بقدرته الشاملة على دفع شرها ، فقال سبحانه : ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ قال ابن جرير : أي : ومن شر السواحر اللاتي ينفثن في عُقد الخيط حين يَرقين عليها ، وبه قال أهل التأويل ، فعن مجاهد : الرقي في عقد الخيط . وعن طاوس : ما من شيء أقرب إلى الشرك من رقية المجانين ، ومثله عن قتادة والحسن . وقال الزمخشري : النفاثات النساء أو الجماعات السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط ويَنفثن عليها ويرقين . والنفث : النفخ مع ريق ، ولا تأثير لذلك ، اللهم إلا إذا كان ثَمَّ إطعام شيء ضار أو سقيه أو إشمامه ، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه ، ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلاً على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسبه الحشوية والرّعاع إليهن وإلى نفثهن . والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبؤون به .

فإن قلت : فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟ قلت : فيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعة السحر ، ومن إثمهن في ذلك .

والثاني : أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن .

الثالث : أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن . انتهى .

وفي الآية تأويل آخر ، وهو اختيار أبي مسلم رحمه الله ، قال : النفاثات النساء ، والعقد عزائم الرجال وآراؤهم ، مستعار من عقد الحبال ، والنفث وهو تليين العقدة من الحبل بريق يقذفه عليه ليصير حبله سهلاً . فمعنى الآية : أن النساء لأجل كثرة حبِّهن في قلوب الرجال يتصرفن في الرجال يحولنهم من رأي إلى رأي ومن عزيمة إلى عزيمة ؛ فأمر الله رسوله بالتعوذ من شرهن . كقوله :

(195/839)

﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن : 14] ، فكذلك عظم الله كيدهن فقال : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 28] .

تنبيه :

قال الشهاب : نقل في " التأويلات " عن أبي بكر الأصم أنه قال : إن حديث > سحره

صلوات الله عليه > ، المروي هنا ، متروك لما يلزم من قول الكفرة أنه مسحور . وهو مخالف لنص القرآن حيث أكذبهم الله فيه . ونقل الرازي عن القاضي أنه قال : هذه الرواية باطلة ، وكيف يمكن القول بصحتها ، والله تعالى يقول :

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : 67] وقال : ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه : 69] ولأن تجويزه يفضي إلى القدح في النبوة ؛ ولأنه لو صح ذلك لكان من الواجب أن يصلوا إلى ضرر جميع الأنبياء والصالحين ، ولقدروا على تحصيل الملك العظيم لأنفسهم ، وكلُّ ذلك باطلٌ ، ولكان الكفار يعيرونه بأنه مسحور . فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين في تلك الدعوة ، ولحصل فيه – عليه السلام – ذلك العيب . ومعلوم أن ذلك غير جائز . انتهى . ولا غرابة في أن لا يقبل هذا الخبر لما برهن عليه ، وإن كان مخرَّجاً في الصحاح ؛ وذلك لأنه ليس كل مخرج فيها سالماً من النقد ، سنداً أو معنى ، كما يعرفوه الراسخون . على أن المناقشة في خبر الآحاد معروفة من عهد الصحابة .

(196/839)

قال الإمام الغزالي في " المستصفى " : ما من أحد من الصحابة إلا وقد ردَّ خبر الواحد ، كردِّ عليٍّ رضي الله عنه خبر أبي سنان الأشجعي في قصة بروع بنت واشق ، وقد ظهر

منه أنه كان يحلف على الحديث . وكردِّ عائشة خبر ابن عمر في < تعذيب الميت ببكاء أهله عليه > ، وظهر من عمر نهيه لأبي موسى وأبي هريرة عن الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأمثال ذلك مما ذكر . أورد الغزالي ذلك في مباحث : خبر الآحاد في معرفة شبه المخالفين فيه ، وذكر رحمه الله في مباحث الإجماع إجماعَ الصحابة على تجويز الخلاف للآحاد ، لأدلة ظاهرة قامت عندهم .

وقال الإمام ابن تيمية في " المسودة " : الصواب أن من رد الخبر الصحيح كما كانت الصحابة ترده ، لاعتقاده غلط الناقل أو كذبه ، لاعتقاد الراد أن الدليل قد دل على أن الرسول لا يقول هذا ، فإن هذا لا يكفر ولا يفسق ، وإن لم يكن اعتقاده مطابقاً ، فقد رد غير واحد من الصحابة غير واحد من الأخبار التي هي صحيحة عند أهل الحديث . انتهى

وقال العلامة الفناري في " فصول البدائع " : ولا يضلل جاحد الآحاد ، والمسألة معروفة في الأصول ، وإنما توسعت في نقولها لأني رأيت من متعصبة أهل الرأي مَن أكبر ردَّ خبر رواه مثل البخاري ، وضلل منكره ؛ فعلمت أن هذا من الجهل بفنِّ الأصول ، لا بأصول مذهبه ، كما رأيت عن الفناري . ثم قلت : العهد بأهل الرأي أن لا يقيموا للبخاري وزناً ، وقد ردوا المئين من مروياته بالتأويل والنسخ ، فمتى صادقوه حتى يضللوا من رد خبراً فيه ؟ وقد برهن على مدعاه . وقام يدافع عن رسول الله ومصطفاه .

وبعد ، فالبحث في هذا الحديث شهير قديماً وحديثاً ، وقد أوسع المقال فيه شراح"

الصحيح " وابن قتيبة في شرح " تأويل مختلف الحديث " والرازي . والحق لا يخفى على طالبه . والله أعلم .

(197/839)

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ قال الزمخشري : أي : إذا أظهر حسده وعمل بمقتضاه من بغي الغوائل للمحسود . لأنه إذا لم يظهر أثر ما أضمره ، فلا ضرر يعود منه على حسده بل هو الضار لنفسه ، لاغتمامه بسرور غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 17 صـ 517.513 ﴾

(198/839)

وقال الشيخ المراغى :

سورة الفلق

هى مكية ، وآياتها خمس ، نزلت بعد سورة الفيل .

[سورة الفلق (113) : الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) ﴾

شرح المفردات

أعوذ : أي ألجأ ، والفلق : شق الشيء وفصل بعضه من بعض ، تقول فقلت الشيء فانفلق كما قال تعالى : « فالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى » والشيء المفلوق يسمى فلقا ،

والمراد به كل ما يفلقه اللّه كالأرض التي تنفلق عن النبات ، والجبال التي تنفلق عن عيون الماء ، والسحائب التي تنفلق عن ماء الأمطار ، والأرحام التي تنفلق عن الأولاد .

(199/839)

والغاسق : الليل إذا اعتكر ظلامه ، ووقب : دخل ظلامه فى كل شىء ، ويقال وقبت الشمس إذا غابت ، والنفاثات : واحدهم نفاثة كعلامة ، من النفث وهو النفخ من ريق يخرج من الفم ، والعقد : واحدها عقدة ، والحاسد : هو الذي يتمنى زوال نعمة المحسود .

الإيضاح

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ) أي قل : أستعيذ برب المخلوقات ، ومبدع الكائنات ، من كل أذى وشر يصيبنى من مخلوق من مخلوقاته طرّا .

ثم خصص من بعض ما خلق أصنافا يكثر وقوع الأذى منهم فطلب إليه التعوذ من شرهم ودفع أذاهم، وهم:

(1) (وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) أي ومن شر الليل إذا دخل وغمر كل شىء بظلامه، والليل إذا كان على تلك الحال كان مخوفا باعثا على الرهبة - إلى أنه ستار يختفى فى ظلامه ذوو الإجرام إذا قصدوك بالأذى - إلى أنه عون لأعدائك عليك.

(2) (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ) أي ومن شر النمامين الذين يقطعون روابط المحبة، ويبددون شمل المودة، وقد شبه عملهم بالنفث، وشبهت رابطة الوداد بالعقدة، والعرب تسمى الارتباط الوثيق بين شيئين عقدة، كما سمى الارتباط بين الزوجين: (عقدة النكاح).

فالنميمة تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بالوسائل الخفية التي تشبه أن تكون ضربا من السحر، ويصعب الاحتياط والتحفظ منها فالنمام يأتى لك بكلام يشبه الصدق، فيصعب عليك تكذيبه، كما يفعل الساحر المشعوذ إذا أراد أن يحل عقدة المحبة بين المرء وزوجه، إذ يقول كلاما ويعقد عقدة وينفث فيها، ثم يحلها إيهاما للعامة أن هذا حل للعقدة التي بين الزوجين.

قال الأستاذ الإمام ما خلاصته : قد رووا ها هنا أحاديث فى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم سحره لبيد بن الأعصم ، وأثّر سحره فيه حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، أو يأتى شيئا وهو لا يأتيه ، وأن اللّه أنبأه بذلك ، وأخرجت موادّ السحر من بئر ، وعوفى صلى اللّه عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ونزلت هذه السورة .

ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليه الصلاة والسلام - ماس بالعقل آخذ بالروح ، فهو مما يصدق قول المشركين فيه : « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً » .

والذي يجب علينا اعتقاده أن القرآن المتواتر جاء بنفي السحر عنه عليه الصلاة والسلام ، حيث نسب القول بإثبات حصوله له إلى المشركين ووبخهم على ذلك .

والحديث على فرض صحته من أحاديث الآحاد التي لا يؤخذ بها فى العقائد ، وعصمة الأنبياء عقيدة لا يؤخذ فيها إلا باليقين ، ونفى السحر عنه صلى اللّه عليه وسلم لا يستلزم نفى السحر مطلقا ، فربما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون ، ولكن من المحال أن يصيبه صلى اللّه عليه وسلم ، لأن اللّه عصمه منه .

إلا أن هذه السورة مكية فى قول عطاء والحسن وجابر ، وما يزعمونه من السحر إنما وقع بالمدينة ، فهذا مما يضعف الاحتجاج بالحديث ، ويضعف التسليم بصحته .

وعلى الجملة فعلينا أن نأخذ بنص الكتاب ، ونفوض الأمر فى الحديث ولا نحكمه فى

عقيدتنا ا ه.

(3) {وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ} أي ونستعيذ بك ربنا من شر الحاسد إذا أنفذ حسده ، بالسعي والجدّ فى إزالة نعمة من يحسده ، فهو يعمل الحيلة ، وينصب شباكه ، لإيقاع المحسود فى الضرر ، بأدق الوسائل ، ولا يمكن إرضاؤه ، ولا فى الاستطاعة الوقوف على ما يدبره ، فهو لا يرضى إلا بزوال النعمة ، وليس فى الطوق دفع كيده ، وردّ عواديه ، فلم يبق إلا أن نستعين عليه بالخالق الأكرم ، فهو القادر على ردّ كيده ، ودفع أذاه ، وإحباط سعيه.

نسألك اللهم وأنت الوزر والنصير ، أن تقينا أذى الحاسدين ، وتدفع عنا كيد الكائدين ، إنك أنت الملجأ والمعين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 266. 269 ﴾

(201/839)

وقال المظهرى :

سورة الفلق

مدنيّة وهى خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

أخرج البيهقي فى دلائل النبوة من طريق الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال مرض رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالى عليه واله وسلم مرضا شديدا فاتاه ملكان فقعد أحدهما عند راسه والاخر عند رجليه فقال الذي عند رجليه للذى عند راسه ما ترى قال طب قال ما طب قال سحر قال من سحره قال لبيد بن الأعصم اليهودي قال اين هو قال فى شراك فلان تحت صخرة فى ركية فاتو الركية فانزحوا وارفعوا الصخرة ثم خذوا الكدية وأحرقها فلما أصبح رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالى عليه واله وسلم بعث عمار بن ياسر فى نفر فاتوا الركية فإذا ماءها مثل ماء الحناء ثم رفعوا الصخرة واخرجوا الكدية واحرقوها فإذا فيها وتد فيه أحد عشر عقدة وأنزلت عليه هاتان السورتان فجعل كلما قرأ اية انحلت عقدة قل أعوذ برب الفلق قل أعوذ برب الناس وأخرج أبو نعيم فى الدلائل من طريق أبى جعفر الرازي عن أنس قال صنعت اليهود لرسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه واله وسلم شيئا فاصابه من ذلك وجع شديد فدخل عليه أصحابه فظنوا انه المايه فاتاه جبرئيل بالمعوذتين فعوذبهما فخرج إلى الصحابة صحيحا وله شاهد فى الصحيحين بدون نزول السورة وذكر البغوي قول ابن عباس وعائشة كان غلام من اليهود يخدم رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه واله وسلم فدبت إليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذوا مشاطة راس النبي صلى اللّٰه عليه واله وسلم وعدة أسنان مشطة فاعطاها اليهود فسحروا فيها وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من

اليهود فنزلت السورتان وروى البغوي بسنده عن عائشة ان النبي صلى اللّه عليه واله وسلم طب حتى انه ليخيل انه قد صنع شيئا وما صنعه وانه دعا ربه ثم قال ان اللّه أفتاني فيما استفتيته فيه فقالت عائشة وما ذاك يا رسول اللّه قال جاءنى رجلان فجلس أحدهما عند راسى والاخر عند رجلى

(202/839)

فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل قال الاخر مطبوب قال من طبه قال لبيد بن الأعصم قال فيما ذا قال فى مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر قال فاين هو قال فى ذروان بير بنى زريق قالت عائشة فاتاها رسول اللّه صلى اللّه عليه واله وسلم ثم رجع إلى عائشة فقال واللّه لكان ماءها نقاعة الحناء ولكان نخلها رؤس الشياطين فقلت يا رسول اللّه فلا أخرجته قال اما انا قد شفانى اللّه كرهت ان اثير على الناس شرا قال البغوي وروى انه كان تحت صخرة فى البير فرفعوا الصخرة واخرجوا جف الطلعة فإذا فيه مشاطة راسه وأسنان مشطة وروى البغوي بسنده عن يزيد بن أرقم قال سحر النبي صلى اللّه عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى لذلك إياها قال فاتاه جبرئيل فقال ان رجلا من اليهود سحرك فعقد لك عقدا فارسل رسول اللّه صلى اللّه عليه واله وسلم عليا فاستخرجها

كلما حل عقد وجد لذلك خفة فقام رسول اللّه صلى اللّه عليه واله وسلم كانما نشط عن عقال فما ذكر ذلك اليهودي ولا راه فى وجهه وأخرج ابن مردوية والبيهقي فى الدلائل عن عائشة ان يهوديا سحر النبي صلى اللّه عليه واله وسلم فى أجد عشر عقدة فى وتر دسه فى بير فمرض النبي صلى اللّه عليه واله وسلم ونزلت معوذتان وأخبره جبرئيل بموضع السحر فارسل عليا فجاء به فقرأهما عليه فكان كلما قرأ اية انحلت عقدة ووجد بعض الخفة وروى انه لبث فيه ستة أشهر واشتد عليه ثلث ليال فنزلت معوذتين وروى مسلم عن أبى سعيد ان جبرئيل اتى النبي صلى اللّه عليه واله وسلم فقال يا محمد اشتكيت فقال نعم قال بسم اللّه أرقيك من كل شىء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد اللّه يشفيك بسم اللّه أرقيك قوله تعالى

(203/839)

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ

أى فلق الصبح وهو قول جابر بن الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد وقتادة من قوله تعالى فالق الإصباح وقيل فلق الحب والنوى بالشطا والسحاب بالماء والأرض بالعيون والأرحام بالأولاد وقال الضحاك يعنى الفلق وهى رواية الوالبي عن ابن عباس والمشهور هو الأول

وقال اكثر المفسرين وهى رواية عن ابن عباس انه سجن فى جهنم رواه ابن جرير وقال الكلبي واد فى جهنم وأخرج ابن جرير عن أبى هريرة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال الفلق جب فى جهنم مغطى وأخرج ابن جرير والبيهقي

عند عبد الجبار الخولاني قال قدم علينا رجل من اصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه واله وسلم فى دمشق فراى ما فيه الناس من الدنيا قال وما يغنى عنهم أليس ورائهم الفلق قالوا وما الفلق قال جب فى النار إذا فتح هرب منه أهل النار وأخرج ابن أبى حاتم وابن أبى الدنيا وأيضا عن عمرو بن عتبة قال الفلق بير فى جهنم إذا سعرت جهنم فمنه تسعر جهنم لتتاذى منه كما يتاذى بنو آدم من جهنم عليها الغطاء فإذا كشفت عنه خرجت منه نار تصيح منه جهنم من شدة حرما يخرج منه وأخرج ابن أبى حاتم وابن جرير عن كعب قال الفلق بيت فى جهنم إذا فتح صاح أهل النار من شدة حره وأخرج ابن أبى حاتم عن زيد بن على عن ابائه الكرام الفلق جب فى قعر جهنم وانما خص ذكر اللّه سبحانه فى الاستعاذة بهذه الصفة لأن جهنم والفلق الذي هو أشد من اجزائه لما كان أدهى الا داهى وأعظم الأشياء شرا فخالقه وربه اقدر على دفع كل شر وان كان المراد بالفلق الصبح فالصبح دافع ومظهر الشرور غسق الليل فربه قادر على دفع كل شر فذكره تعالى بهذه الصفة داع إلى دفع الشرور واللّه تعالى أعلم .

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ أى من شر كل مخلوق فان الممكن لا يخلو من شر لأن العدم داخل فى ماهيته غير انه كلما استضاء بالتجليات الذاتية والصفاتية زال شره وتبدل بالخير أولئك يبدل اللّه سياتهم حسنات وقال عليه الصلاة والسلام اسلم شيطانى فلا يأمرنى الا بخير قال البيضاوي خص عالم الخلق بالاستعاذة منه لانحصار الشر فيه فان عالم الأمر خير كله وشر عالم الخلق اما اختياري لازم كالكفر متعد كالظلم واما طبيعى كاحراق النار وإهلاك السموم.

وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ الغسق معناه الامتلاء قال اللّه تعالى انى غسق الليل أى امتلاءها ظلمة ويقال غسق العين إذا امتلئت دمعا وغسق القمر إذا امتلأ نورا وفى القاموس الغاسق القمر والليل إذا غاب الشفق والغسوق والاغساق الاظلام وقيل معناه السيلان غسق الليل الضباب ظلامه وغسق العين سيلان دمعه وغسق القمر سرعة سيره وقيل الغسق البرد سمى الليل غاسقا لانها أبرد من النهار والقمر غاسقا لكونه أبرد من الشمس ولهذا يقال للقمر الزمهرير والمراد بالغاسق هاهنا القمر لحديث عائشة قالت أخذ النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بيدي فنظر إلى القمر فقال يا عائشة

استعيذى باللّه من شر غاسق إذا وقب رواه البغوي بسنده فعلى هذا التقدير معنى قوله تعالى إِذا وَقَبَ إذا دخل فى الخسوف وأخذ فى الغيبوبة فان القمر لا يتخسف الا عند

امتلاء نور الليلة البدر قال ابن عباس والحسن ومجاهد المراد به الليل إذا اقبل ودخل سواده فى ضوء النهار وقال ابن زيد المراد به الثريا إذا أسقطت يقال الانتظام تكثر عند وقوعها وترفع عند طلوعها .

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ

يعنى النفوس السواحر أو النساء الساحرات اللاتي ينفثن فى عقد الخيط حين يرقين ويسحرن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال أبو عبيد بناته بامره .

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ

أى إذا اظهر حسده وعمل فى الإضرار بمقتضى حسده وانما قيد به لأن ضرر الحسد قبل ذلك يعود إلى نفس الحاسد لاغتمامه لسرور غيره ولا يتجاوز إلى المحسود انما خص هذه الأشياء بالذكر بعد التعميم بقوله من شر ما خلق لكون دخل هذه الأشياء الثلاثة فى هذا الشر المخصوص اعنى سحر النبي صلى اللّه عليه وسلم ووسوسة شيطان الجن اعنى إبليس وشيطان الانس اعنى لبيد بن الأعصم أورد النفاثات بصيغة الجمع ولام العهد بخلاف غاسق وحاسد حيث أوردهما منكرا إذا الغرض فى الاستعاذة ملاحظة بنات

لبيد بالتخصيص والتعين بخلاف غاسق وحاسد فان الغرض هناك استعاذة من شر أى غاسق وحاسد كان لأن حساد النبي صلى اللّه عليه واله وسلم كانوا اكثر من ان يحصى وكانوا دائمين فى الحسد فاستعاذ منهم على وجه يأمن من شرهم فى المستقبل أيضا عن عقبة بن عامر قال قلت يا رسول اللّه اقرأ سورة هود وسورة يوسف قال لن تقرأ شيئًا ابلغ عند اللّه من قل أعوذ برب الفلق رواه أحمد والنسائي والدارمي واللّه تعالى أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المظهرى حـ 10 صـ 175.178 ﴾

(206/839)

وقال الشيخ : دروزة :

سورة الفلق

في السورة تعليم رباني بالاستعاذة باللّه من أسباب المخاوف والهواجس في معرض تدعيم وحدة اللّه ونبذ ما سواه . وبعض الروايات تذكر أنها مكية وبعضها تذكر أنها مختلف في مكيتها ومدنيتها ، ومعظم روايات ترتيب النزول تسلكها في سلك السور المكية المبكرة في النزول ، وأسلوبها يسوغ ترجيح مكيتها وتبكير نزولها .

ولقد روى البخاري ومسلم والترمذي عن عائشة قالت : «كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم

إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوّذتين وينفث فلما اشتدّ وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح بيده رجاء بركتها» «1» . وروى البخاري عنها أيضا : «أن النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم كان إذا أوى إلى فراشه كلّ ليلة جمع كفّيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو اللّه أحد وقل أعوذ بربّ الفلق وقل أعوذ بربّ الناس ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده . يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات» «2» . وروى مسلم والترمذي عن عقبة بن عامر قال : «قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم : ألم تر آيات أنزلت عليّ الليلة لم ير مثلهنّ قطّ قل أعوذ بربّ الفلق وقل أعوذ بربّ الناس» «3» . وروى أبو داود والنسائي عن عقبة أيضا قال : «كنت أقود لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في السفر ناقته فقال لي يا

---

(1) التاج 4 ص 24 .

(2) المصدر نفسه .

(3) المصدر نفسه .

عقبة ألا أعلّمك خير سورتين قرئتا فعلّمني قل أعوذ بربّ الفلق وقل أعوذ بربّ الناس» «1» . وروى الاثنان نفسهما عن عقبة كذلك قال : «بينا أنا أسير مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم بين الجحفة والأبواء إذ غشيتنا ريح وظلمة شديدة فجعل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يتعوّذ بالمعوّذتين ويقول يا عقبة تعوّذ بهما فما تعوّذ متعوّذ بمثلهما قال وسمعته يؤمّنا بهما في الصلاة» «2» . وروى الترمذي بسند حسن عن عقبة أيضا قال : «أمرني رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أن أقرأ بالمعوّذتين في دبر كلّ صلاة» «3» .

والمتبادر أن ما احتوته السورتان من بث السكينة والطمأنينة في النفس وتعليم اللجوء إلى اللّه تعالى وحده والاستعاذة به في ظروف المخاوف والأزمات النفسية المتنوعة من الحكمة المنطوية في الأحاديث ، وهي حكمة مستمرة الفائدة لاستمرار دواعيها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفلق (113) : الآيات 1 الى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (4)

وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (5) .

(1) أعوذ : أحتمي وألتجئ .

(2) الفلق : أوجه الأقوال أنه فلق الصبح أو الفجر حيث ينفلق من ظلمة الليل .

(3) غاسق : الليل والظلمة .

(4) وقب : خيّم أو انتشر .

---

(1) التاج 4 ص 24 . [. . . . .]

(2) المصدر نفسه ص 24 - 25 .

(3) المصدر نفسه .

---

(5) النفاثات في العقد : النفث هو النفخ واصطلاحا هو تمتمة السحرة ونفثهم . والعقد جمع عقدة والجملة كناية عن أعمال السحرة والساحرات حيث كانوا يعقدون عقدا في خط وينفثون عليها وهم يتلون تعاويذهم وتمتماتهم حينما كانوا يريدون أن يصنعوا سحرا لأحد بسبيل منعه من عمل أو حمله على عمل أو جعله مريضا إلخ . . .

في آيات السورة تعليم رباني بالاستعاذة بالله من شرّ ما خلق ومن الظلام إذا انتشر وخيم ومن السحرة ونفثاتهم ومن الحاسدين .

والمتبادر أن ما علّمته السورة يتصل بالمخاوف التي كان العرب يخافونها حين تنزيلها ممتدا

إلى ما قبل ذلك .

فقد كانوا يخافون من الظلام ويعتقدون أن الجنّ يظهرون ويتعرضون للناس فيه حتى إنهم كانوا إذا نزلوا واديا بالليل هتفوا مستعيذين ومستجيرين بسكان الوادي من الجنّ ليكونوا في جوارهم وحمايتهم فتطمئن بذلك قلوبهم «1» . وكان عندهم سحرة وساحرات يستعين الناس بهم على تحقيق رغباتهم وشهواتهم ، وكان مما يفعله هؤلاء عقد العقد في الخيوط والنفث فيها وتلاوة التعاويذ عليها وكان العرب يعتقدون بنفع ذلك وضرره «2» .

وكانوا يعتقدون بتأثير الحسد وعيون الحاسدين . فإذا كان لأحدهم ولد أو بستان أو دابة محببة فأصيب بعارض مفاجئ فسروه بعين أصابته وحسود حسده «3» .

وعلى هذا فالمتبادر أن الهدف الذي استهدفته السورة هو تثبيت فكرة القدرة

---

(1) انظر تفسير السورة في تفسير الطبري والنيسابوري وابن كثير والطبرسي وانظر تفسير سورة الجن والقلم في الاستعاذة بالجن وإصابة عين الحسود في الكتب المذكورة وفي كتاب بلوغ الأرب في أحوال العرب للآلوسي ج 3 ص 232 و365 الطبعة الثانية .

(2) المصدر نفسه .

(3) المصدر نفسه .

الإلهية وشمولها وكون اللّه عز وجل وحده هو النافع والضار، ووجوب عدم الاستعاذة أو الاستعانة بغيره عند ما ينبعث في نفوسهم خوف أو هاجس أو اضطراب، وتلقين كون اللّه هو القادر وحده على تسكين الروع وإدخال الطمأنينة إلى القلب ودفع الضرر وتحقيق النفع ووجوب الالتجاء إليه وحده والاستعاذة به وحده. وهذا مما يتصل بمبدأ أساسي من مبادئ الدعوة وهو الإيمان باللّه وحده ونبذ ما سواه خضوعا وعبادة ودعاء ورجاء.

وننبه على أن السورة ليست بسبيل تقرير قدرة النفاثات في العقد على إيراث النفع والضرر ولا تأثير الحاسد في المال والنفس والولد. ولا يدل مضمونها وأسلوبها على ذلك. وإنما هي كما قلنا بسبيل التعليم والتلقين والتطمين ومعالجة ما هو مستقر في أذهان الناس من بواعث الخوف، ومعالجة روحية بالاعتماد على اللّه وحده والالتجاء إليه وحده.

طائفة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في الاستعاذة وأهدافها وتلقيناتها

ولقد تكرر في القرآن أمر اللّه تعالى للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم وبالتبعية للمؤمنين بالاستعاذة باللّه مطلقا وبالاستعاذة به من الشيطان أحيانا حينما يحزبهم حازب أو تحدق بهم أزمة أو يشعرون بوسوسة شيطانية تحيك في صدورهم كما تكرر حكاية ذلك عن بعض أنبياء اللّه وعباده الصالحين كما ترى في الآيات التالية:

1 - وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (200) الأعراف

[200] «1» .

2 - قال رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي

---

(1) في سورة فصلت آية مماثلة لهذه وهي الآية [36] .

(210/839)

أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (47) هود [47] «1» .

3 - فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ (98) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (99) النحل [98 - 99] .

4 - قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18)

مريم [18] «2» .

5 - وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98)

المؤمنون [97 - 98] «3» .

حيث ينطوي في هذه الآيات توكيد للمعنى الذي نقرره وهو قصد المعالجة الروحية بالاعتماد على اللّه تعالى وحده في ظروف الأزمات والمخاوف المتنوعة في حالاتها وأسبابها ، والاستعاذة من الشيطان خاصة متصلة بالحقيقة الإيمانية المغيبة عن الشيطان

ووساوسه على ما شرحناه في سياق سورة التكوير شرحا يغني عن التكرار .

ولقد روى الشيخان والنسائي عن أبي هريرة : «أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان يتعوّذ من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء» «4» . وروى الخمسة عن أنس : «أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يقول اللهم إني أعوذ بك من الهمّ والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال» «5» . وروى الترمذي عن عائشة : «أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم نظر إلى القمر فقال يا عائشة استعيذي باللّه من شرّ هذا فإنّ هذا الغاسق إذا وقب» «6» . وروى الخمسة عن عائشة : «أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يقول

---

(1) حكاية عن لسان نوح عليه السلام .

(2) حكاية عن لسان مريم عليها السلام .

(3) هناك آيات أخرى لم نر ضرورة لإيرادها وهناك سورة الناس التي تأتي بعد هذه السورة فلم نر كذلك ضرورة لإيرادها .

(4) التاج 5 ص 113 .

(5) المصدر نفسه .

(6) المصدر نفسه ، ج 4 ص 270 .

اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم ومن فتنة القبر وعذاب القبر ومن فتنة النار وعذاب النار ومن شرّ فتنة الغنى وأعوذ بك من فتنة الفقر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجّال. اللهمّ اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبرد. ونقّ قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب» «1». وروى مسلم والترمذي والنسائي وأبو داود عن زيد بن أرقم قال: «لا أقول لكم إلّا كما كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر. اللهم آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكاها أنت وليّها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها» «2».

روى أبو داود والنسائي عن أنس قال: «كان النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يدعو اللهمّ إني أعوذ بك من الهدم وأعوذ بك من التردّي وأعوذ بك من الغرق والحرق والهرم وأعوذ بك أن يتخبّطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبرا وأعوذ بك أن أموت لديغا» «3». وروى المفسر البغوي وهو من أئمة الحديث حديثا رواه بطرقه في سياق

الآية [98] من سورة النحل عن مطعم جاء فيه : «إنه رأى النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يصلي قال فكبّر فقال اللّه أكبر كبيرا ثلاث مرات والحمد للّه كثيرا ثلاث مرات وسبحان اللّه بكرة وأصيلا ثلاث مرات ثم قال اللهمّ إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ولمزه ونفخه ونفثه» .

وإلى هذا فقد روى البخاري ومسلم والترمذي عن عائشة قالت : «كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم إذا مرض أحد من أهله نفث عليه بالمعوّذات . وفي رواية كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوّذات وينفث» «4» . وروى الترمذي عن أبي سعيد «أن رسول

---

(1) التاج الجامع ج 5 ص 113 - 114 .

(2) المصدر نفسه . [. . . . .]

(3) المصدر نفسه ص 115 .

(4) التاج ج 3 ص 194 . وهناك مأثورات نبوية أخرى في الاستعاذة أوردها مؤلف التاج في الجزء الخامس فاكتفينا بما أوردناه .

اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم كان يتعوّذ من الجانّ وعين الإنسان حتى نزلت المعوّذتان فلما نزلتا أخذ بهما وترك ما سواهما» «1».

وعلى كل حال فإن الأحاديث النبوية تتساوق مع التلقين القرآني الذي نوهنا به آنفا.

تعليق على ما روي في صدد نزول السورة ومدنيتها وسحر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم

ولقد روى المفسر البغوي عزوا إلى ابن عباس وعائشة أن هذه السورة وسورة الناس بعدها نزلتا معا في مناسبة سحر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من قبل ساحر يهودي اسمه لبيد بن الأعصم. ويروي رواية أخرى في ذلك عزوا إلى مقاتل والكلبي جاء فيها أنهما «قالا كان السحر في وتر عقد عليه إحدى عشرة عقدة وقيل كانت العقد مغروزة بالإبرة فأنزل اللّه هاتين السورتين وهي إحدى عشرة آية سورة الفلق خمس آيات، سورة الناس ست آيات كلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد كلها فقام النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كأنما نشط من عقال». وروى أنه لبث فيه ستة أشهر واشتد عليه ثلاث ليال فنزلت المعوذتان. ويروي هذا المفسر في سياق ذلك عن عائشة «2»:

«أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم طب حتى إنه ليخيل إليه أنه قد صنع شيئا وما صنعه وأنه دعا ربه ثم قال أشعرت أن اللّه قد أفتاني فيما استفتيته فيه فقالت عائشة وما ذاك يا رسول اللّه قال جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل؟ قال الآخر: هو مطبوب. قال من طبه؟ قال لبيد بن

الأعصم. قال: فبما ذا؟ قال: في مشط ومشاطة وجف طلعة ذكر «3». قال فأين هو؟

---

(1) المصدر السابق نفسه.

(2) المفسر من أئمة الحديث وهو يروي هذا الحديث بطرقه سماعا من راو عن راو عن هشام عن أبيه عن عائشة.

(3) أي في وعاء من طلع النخل.

(213/839)

قال في ذروان - وذروان بئر في بني زريق - قالت عائشة: فأتاها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ثم رجع إلى عائشة فقال واللّه لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رؤوس الشياطين.

قالت: فقلت له يا رسول اللّه فهلا أخرجته؟ فقال: أما أنا فقد شفاني اللّه فكرهت أن أثير على الناس به شرا».

وقد قال البغوي بعد هذا الكلام «وروي أنه كان تحت صخرة في البئر فرفعوا الصخرة وأخرجوا جف الطلعة فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان مشطه فيها». ويروي هذا المفسر

كذلك حديثا عن زيد بن أرقم جاء فيه «1» : «سحر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم رجل من اليهود . قال فاشتكى لذلك أياما قال فأتاه جبريل فقال إن رجلا من اليهود سحرك وعقد لك عقدا فأرسل رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم عليا فاستخرجها فجاء بها فكلما حل عقدة وجد لذلك خفة فقام رسول اللّه كأنما نشط من عقال فما ذكر ذلك لليهود ولا رأوه في وجهه قط» . وليس في الحديثين صراحة بأن السورتين نزلتا في مناسبة ما ذكر فيهما من خبر سحر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم حيث يبقى ذلك كراوية مستقلة مروية عن ابن عباس وعائشة ومقاتل والكلبي .

وشيء مما ذكره ورواه البغوي وارد في كتب تفسير الخازن والطبرسي والنيسابوري وابن كثير . ومما جاء في تفسير الأخير زيادة عزوا إلى ابن عباس وعائشة أنه كان غلام من اليهود يخدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم فدبت إليه اليهود فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وعدة من أسنان مشطه فأعطاها اليهود فسحروه فيها وكان الذي تولى ذلك لبيد بن الأعصم وقد مرض رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وانتثر شعره ولبث ستة أشهر يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن وجعل يذوب ولا يدري ما عراه .

ولم يذكر الطبري وهو أقدم المفسرين المطولين الذين وصلت إلينا كتبهم شيئا من ذلك في صدد سحر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ولا في صدد نزول المعوذتين . ولم يذكر ذلك الزمخشري ولا النسفي . ويمكن أن يكون هناك مفسرون آخرون لم يذكروه لأننا لم

(1) يروي البغوي هذا الحديث بطرقه سماعا من راو إلى راو إلى يزيد بن حسان عن زيد بن أرقم .

(214/839)

نطلع على جميع كتب التفسير . وليس في فصول التفسير التي عقدها البخاري ومسلم في صحيحيهما شيء من ذلك أيضا مع التنبيه إلى أن هذين رويا حديثا عن عائشة قريبا في نصه إلى ما رواه البغوي وهذا نصه : «قالت سحر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يهوديّ من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتّى كان رسول اللّه يخيّل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة دعا رسول اللّه ثم دعا ثم دعا ثم قال يا عائشة أشعرت أن اللّه أفتاني فيما استفتيته فيه ، جاءني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليّ فقال الذي عند رأسي للذي عند رجليّ أو الذي عند رجليّ للذي عند رأسي ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : من طبّه ؟

قال : لبيد بن الأعصم . قال : في أي شيء ؟ قال : في مشط ومشاطة وجفّ طلعة ذكر . قال : فأين هو ؟ قال : في بئر ذي أروان . قالت : فأتاها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم في أناس من أصحابه ثم قال يا عائشة واللّه لكأنّ ماءها نقاعة الحنّاء ولكأنّ نخلها رؤوس

الشياطين. فقلت يا رسول اللّه أفلا أحرقته قال لا. أمّا أنا فقد عافاني اللّه وكرهت أن أثير على الناس شرا فأمرت بها فدفنت» «1». وفي تفسير الخازن تعقيبا على نص قريب من هذا النص بهذه العبارة: «إن للبخاري رواية أخرى ذكر فيها أن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن. وأن سفيانا قال إن هذا أشدّ ما يكون من السحر».

وروايات البغوي والطبرسي والخازن والنيسابوري وابن كثير تقتضي أن يلتزموا القول بأن السورتين مدنيتان. غير أنهم لم يفعلوا ذلك فقال البغوي إنهما مكيتان وقيل إنهما مدنيتان. وقال الطبرسي أكثر الأقاويل أنهما مدنيتان وقيل إنهما مكيتان. وقال النيسابوري إنهما مكيتان. ولم يذكر ابن كثير والخازن لهما صفة.

أما المفسرون الآخرون فمنهم من لم يصفهما بصفة مثل الطبري ومنهم من قال إنهما مدنيتان. ومنهم من قال إنهما مختلف فيهما مثل النسفي والزمخشري.

---

(1) التاج 3 ص 173 - 174.

ومقتضى سكوت الطبري عمّا روي في صدد سحر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ونزولهما في مناسبته أن تكونا مكيتين.

ويلحظ أن المعوذتين ليستا معقودتين على السحر وأثره. وأنهما تعلمان النبي التعوذ من شرّ الظلمات والحاسدين وشرار الخلق والنفاثات في العقد ووساوس الجن والإنس بأسلوب مطلق وعام. وهما مماثلتان لسور عديدة في القصر والتسجيع نزلت في وقت مبكر في مكة ممّا مر منه أمثلة. ومعظم روايات ترتيب النزول تسلكهما في سلك السور المكية المبكرة في النزول أيضا. ونص الأحاديث الواردة في سحر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ليس فيه إشارة إلى أنهما في نزلتا في هذه المناسبة ورواية نزول السورتين معا تبعدهما عن حادث السحر المروي وكل هذا يجعل مكيتهما هي الراجحة.

بقي أمر ما ذكرته الأحاديث التي توصف بالصحة من خبر سحر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وامتداد ذلك ستة أشهر حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله. وقد صنع شيئا وما صنعه. ويأتي النساء وما يأتيهن فعلا. ولو لم تكن الأحاديث موصوفة بالصحة لكان يمكن أن يقال إن من المحتمل أن يكون الخبر من ذكريات ظرف طرأ على النبي صلّى اللّه عليه وسلّم فيه بعض مظاهر تعب وقلق فظن المسلمون أن هذا من تأثير سحر اليهود على ما كان مستقرا في الأذهان من تأثير السحر وعلى ما كان معروفا من عداء اليهود للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ومعاطاتهم للسحر مما أيدته آية سورة البقرة هذه: وَاتَّبَعُوا ما تَتْلُوا

الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ [102] وأن يكون النبي صلّى اللّه عليه وسلّم تلا المعوذتين مرة بعد مرة في هذا الظرف فعاد إليه نشاطه وسكون نفسه. ولكنا نقف حائرين أمام الحديث الذي روى واقعة السحر والذي وصف بالصحة.

ويظهر أن هذا الأمر كان موضوع جدل فيما إذا كان للسحر تأثير حقيقي في النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وفيما إذا كان هذا إذا صح يتسق مع العصمة النبوية حيث يكون إمكان لصدور شيء عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم لا يكون وحيا ولا صوابا حيث رأينا الخازن يتعرض

لهذه النقطة فيقول فيما يقول: «قد أنكر المبتدعة حديث عائشة المتفق عليه وزعم أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع.

ورد على ذلك بأن هذا الزعم باطل لأن الدلائل القطعية والنقلية قامت على صدقه صلّى اللّه عليه وسلّم وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك. وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل، وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا وهو ما يعرض للبشر فغير بعيد أن يخيل إليه

من أمور الدنيا ما لا حقيقة له وقد قيل إنه كان يخيل إليه أنه وطئ زوجاته وليس بواطئ وهذا مثل ما يتخيله الإنسان في المنام فلا يبعد أن يتخيله في اليقظة ولا حقيقة له. وقيل إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله ولكن لا يعتقد صحة ما تخيله فتكون اعتقاداته على السواء».

وقال القاضي عياض على ما جاء في تفسير الخازن: «وقد جاءت في بعض روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما سلط على بدنه وظواهر جوارحه لا على قلبه وعقله واعتقاده وليس في ذلك ما يوجب لبسا على الرسالة ولا طعنا لأهل الزيغ والضلالة». ومن الصعب أن يقال إن هذا مقنع ومزيل للحيرة. ويظهر أن هذا الأمر قد أشكل على المفسر الطبرسي فأبى أن يقبله كما هو وقال في سياق تفسير الآية [102] من سورة البقرة إن هذا من الأخبار المفتعلة. وقال في سياق تفسيره لسورة الفلق إن هذا لا يجوز لأن هذا يجعل وصف المسحور متحققا بالنبي مع أن اللّه تعالى قد أبي ذلك حينما قاله الكفار فيه فقال: وَقالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً (8) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا الفرقان [8 - 9] «1» ثم قال ولكن يمكن أن يكون اليهودي أو بناته على ما روي اجتهدوا في ذلك فلم يقدروا عليه. وأطلع اللّه نبيه على ما فعلوه من التمويه حتى استخرج وكان ذلك دلالة على صدقه. وكيف يجوز أن يكون المرض من فعلهم ولو قدروا على ذلك لقتلوه وقتلوا كثيرا من المؤمنين من شدة عداوتهم له. وكلام

---

(1) الآيات في سورة الفرقان 8 - 9 وفي سورة الإسراء أيضا آيتان قريبتان من هاتين الآيتين في الرد على الكفار 47 - 48 .

(217/839)

الطبرسي قوي ولا سيما احتجاجه برد القرآن عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم صفة المسحور كما هو المتبادر .

ومثل هذا القول رواه المفسر القاسمي عن الشهاب عن أبي بكر الأصم الذي قال : «إن حديث سحره صلوات اللّه عليه المروي متروك لما يلزمه من صدق قول الكفرة إنه مسحور وهو مخالف لنص القرآن حيث أكذبهم اللّه فيه» .

ويروي المفسر القاسمي كذلك عن الرازي عن القاضي أنه قال : «هذه الرواية باطلة ، وكيف يمكن القول بصحتها واللّه تعالى يقول : وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ المائدة [67] ووَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى طه [69] ولأن تجويز ذلك يفضي إلى القدح في النبوة . ولو صح لكان من الممكن أن يصلوا إلى ضرر جميع الأنبياء والصالحين وأن يحصلوا على الملك العظيم لأنفسهم وكل ذلك باطل . وكان الكفار يعيرون النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بأنه مسحور فلو وقعت هذه الواقعة لكان الكفار صادقين في تلك الدعوة ولحصل فيه عليه السلام العيب

وذلك غير جائز» . وقد عقب القاسمي على هذه الأقوال قائلا إنه لا غرابة في أن لا يقبل الخبر لما برهن عليه وإن كان مخرجا في الصحاح وذلك لأنه ليس كل مخرج فيها سالما من النقد سندا أو معنى كما يعرفه الراسخون . والمناقشة في خبر الآحاد معروفة عند الصحابة «1» . ثم أخذ يورد أقوالا للأئمة الغزالي وابن تيمية والفناري في جواز رد خبر الآحاد وعدم الأخذ به ، وخلافه إذا قامت الأدلة عليه .

وفي كل ذلك ما فيه من قوة ووجاهة ، وقد أسهبنا في هذه المسألة في طبعة الكتاب الجديدة لأننا رأيناها مهمة يحسن تمحيصها سواء من ناحية وقوعها أو من ناحية صلتها بصفة وعصمة النبوة والله تعالى أعلم «2» .

---

(1) القصد من هذا هو التوقف في الأخذ بالأحاديث التي لا تروى إلا من شخص واحد إذا كان فيها مناقضة لمبدأ من المبادئ المحكمة القرآنية أو النبوية .

(2) للإمام محمد عبده كلام سديد في هذا الموضوع متفق مع النتيجة التي انتهينا إليها والرأي الذي رجحناه . انظر الجزء الثالث من كتاب التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ص 238 وما بعدها .

هذا ، ولقد روي أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أحد كبار أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وعلماء القرآن كان يحك هذه السورة وسورة الناس من مصحفه ويقول إنهما ليستا سورتين من القرآن وإنما كان النبي صلّى الله عليه وسلّم يتعوذ بهما ويأمر بذلك .

وقد استوعب ابن كثير الآثار الواردة في هذا الموضوع فأورد أحاديث عديدة رواها الإمام أحمد والبخاري والحافظ بن يعلى عن زر بن حبيش مفادها أن هذا قال لأبي بن كعب – وهو من كبار علماء أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في القرآن – إن ابن مسعود يحك المعوذتين من المصحف ولا يكتبهما في مصحفه ، فأجابه : «أشهد أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أخبرني أن جبريل قال له قل أعوذ برب الفلق . فقالها . قل أعوذ برب الناس فقالها . فنحن نقول ما قاله النبي صلّى الله عليه وسلّم» . وأن زرا سأل ابن مسعود فأجابه قائلا : «سألت النبي صلّى الله عليه وسلّم عنهما فقال قيل لي فقلت لكم فقولوا» .

وأورد ابن كثير أحاديث عديدة أخرى أخرجها الإمام أحمد ومسلم والنسائي والإمام مالك تفيد أن النبي صلّى الله عليه وسلّم ذكر المعوذتين في مناسبات عديدة كسورتين قرآنيتين وكان يقرأهما ويأمر بقراءتهما على هذا الاعتبار في الصلاة وغيرها .

والأحاديث التي أوردناها في مطلع السورة صريحة الدلالة على ذلك كما أن الحديث الذي أوردناه في سياق التفسير والذي رواه الترمذي عن أبي سعيد صريح الدلالة على ذلك ،

ولقد أورد ابن كثير هذا الحديث وقال إن ابن ماجه والنسائي أخرجاه بالإضافة إلى الترمذي.

ولقد روى ابن كثير عن الأعمش قولا جاء فيه أن من المحتمل أن يكون ابن مسعود قد رجع عن قوله إلى قول الجماعة لأن الصحابة أثبتوا السورتين في المصاحف الأئمة وأنفذوها إلى سائر الآفاق. حيث يستخلص من ذلك

ثبوت المعوذتين كسورتين قرآنيتين عند جميع المسلمين بالتواتر الذي لم ينقطع منذ عهد النبي صلّى اللّه عليه وسلّم. وقد أشار غير واحد من المفسرين إلى هذه المسألة وأورد بعض ما أورده ابن كثير مقتضبا مؤيدا للنتيجة المستخلصة. وقد نقل السيوطي «1» أقوالا للرازي والنووي وغيرهما مؤيدة لهما حتى إن النووي ذهب إلى إنكار ما نسب إلى ابن مسعود ووصفه بأنه باطل. انتهى انتهى. اهـ ﴿التفسير الحديث حـ 2 صـ 45. 58﴾

---

(1) انظر الإتقان، ج 1 ص 84.

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

(113) سورة الفلق

نزولها : مكية ، وفى بعض الأقوال أنها مدنية . .

عدد آياتها : خمس آيات .

عدد كلماتها : ثلاث وعشرون كلمة .

عدد حروفها : أربعة وسبعون حرفا .

مناسبتها لما قبلها

تقرر فى سورة « الإخلاص » ما ينبغى أن يكون عليه مفهوم المخلوقين للخالق سبحانه وتعالى ، من تفرده بالألوهية ، وتنزيهه أن يكون والدا أو مولودا ، وعن أن تكون له نسبة إلى المخلوقات ، إلا نسبة الدلالة على قدرته وحكمته ، وعلمه ، وأنها جميعها مفتقرة إليه فى وجودها ، وفى بقائها ، وأنه سبحانه لا مثيل له ، ولا شبيه ، ولا كفء ولا ندّ . .

هذا ما أمر اللّه سبحانه النبي أن يؤمن به أولا ، ثم أن يؤذن به فى الناس . .

ثم جاءت بعد هذا سورتا المعوذتين ، « الفلق » و« الناس » تقرران هذه الحقيقة ، وتؤكدانها فى مجال التطبيق العملي لآثارها ، وذلك بدعوة النبىّ والناس جميعا أن يعوذوا بربهم ، وأن يستظلوا بحمى ربوبيته من كل ما يسوءهم ، أو ما يتوقع أن يعرض له بسوء ،

فذلك هو الإيمان بالّله سبحانه ، والإقرار بسلطانه القائم على هذا الوجود ، وأنه وحده الذي تتجه الوجوه كلها إليه فى السراء والضراء . . فهو سبحانه القادر على كل شىء ، وهو سبحانه الذي بيده مقاليد كل شىء . . أما المخلوقون فهم جميعا على سواء فى الحاجة إلى اللّه ، وفى الافتقار إليه ، غنيهم وفقيرهم ، قويهم وضعيفهم : « يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ »

(221/839)

« إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ » . .

وقد صدّرت سورة الإخلاص ، والمعوذتين بعدها ، بقوله تعالى : « قل » وهذا الأمر بالقول داخل فى مقول القول الذي يقوله النبي ، ويقوله كل من يتأسّون به ، فمطلوب من النبي ، ومن المؤمنين أن يقولوا : « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . .

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . . قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ » .

. فهذا الأمر بالقول ، هو قرآن متعبد به ، وهو يعنى أن القرآن كلمات اللّه ، وأنه لا تبديل لكلمات اللّه ، وأن هذه الكلمات قد انطبعت فى قلب النبىّ صلوات اللّه وسلامه عليه ،

فهو يقرؤها من كتاب قلبه كما أنزلت عليه، دون تبديل فيها . . فإذا قيل له. صلوات اللّه وسلامه عليه: «قُلْ سُبْحانَ رَبِّي» .

. قال: «قُلْ سُبْحانَ رَبِّي» . .

وإذا قيل له «قُلْ: إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ» قال: «قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ» وإذا قيل له: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ» ؟

قال: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ . . » وهكذا .

وقد عرضنا هذا الموضوع فى مبحث خاص، عند تفسير سورة «الجن» .

بسم اللّه الرحمن الرحيم

الآيات: (1 - 5) [سورة الفلق (113) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (4)

وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (5)

التفسير :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . . .﴾ .

الفلق : جميع الخلق ، لأن كل مخلوق يتولد من غيره ، وينفلق عنه ، كما تنفلق الحبّة عن الشجرة ، والكمّ عن الزّهرة ، والزّهرة عن الثمرة ، والرّحم عن الجنين . . وهكذا مما نعلم من المخلوقات . . ومنه قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوى » وقوله تعالى : « فَالِقُ الْإِصْبَاحِ » لأن الإصباح يخرج من أحشاء الظلام ، كما يخرج الجنين من رحم الأمّ .

والاستعاذة : التعوذ ، واللّجأ إلى من يستعاذ به طلبا للحماية ، ودفعا للسوء ، والمكروه .

والغاسق : اللّيل وظلامه المائج فيه . . والغسق ظلمة الليل . .

وأصل الغسق ، السّيلان ، والتدفق ، يقال غسقت القرحة إذا جرى صديدها وتدفق ، ومنه « الغسّاق » وهو صديد أهل النار .

والوقوب ، والوقب : الدخول ، ومنه النّقرة ، لأنه يدخل فيها غيرها من الأشياء ، والغاسق إذا وقب ، أي الليل إذا هجم ، ودخل على النهار فأجلاه عن مكانه .

والنفاثات : من النّفث ، وهو النّفخ بالفم فى الشيء . . وهو جمع نفّاثة مبالغة فى النّفث ، أي كثير النّفث ، مثل علّامة ، وفهّامة . . ويجوز أن يكون جمع مؤنث . .

والعقد : جمع عقدة ، وهى ما يعقد بها على الشيء ، لربطه ، وإحكامه ، ومنه اليمين المنعقدة ، وهى التي تقع عن نية وقصد ، ومنه عقد البيع الذي يتم بين المتبايعين ، وعقدة

النكاح التي تتمّ بين الزوجين .

وقوله تعالى : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » .

(223/839)

الخطاب للنبىّ صلى اللّه عليه وسلم ، ولكل متابع له ، مستجيب لدعوته . .

أي اجعل ـ أيها النبىّ ـ عياذك ، ولجاءك متعلّقا بربّ المخلوقات ، مقصورا عليه وحده .

والعياذ ، إنما يكون من الشرور ، والمكاره ، التي يلقاها الإنسان على طريق حياته ، وهى تتوارد على الإنسان من المخلوقات ، سواء أكانت من عالم الأحياء أو غير الأحياء ، ، وسواء أكانت منظورة ، معلومة ، أو خفية مجهولة . . ولهذا جاء قوله تعالى : « مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ » .

فهذا هو المستعاذ باللّه من شرّه ، وهو المخلوقات على إطلاقها .

والمخلوقات كلها للّه سبحانه ، وهى من صنعة يده ، وهو وحده سبحانه القادر على دفع شرّها ، وردّ بأسها ، سواء أكانت من قوى الطبيعة ، أو من الحيوان أو الإنسان . .

وليست المخلوقات شرّا . وإنما هى خير فى ذاتها ، وفى نظام الوجود العام ، الذي يأخذ فيه كل مخلوق مكانه من بنائه ، ولو أخلى مكانه لاختلّ نظام الوجود واضطربت مسيرته .

ومن جهة نظر الإنسان إلى المخلوقات ، فإنه ليس كل المخلوقات شرّا ، بل إن معظمها هو خير ، يعيش فيه ، وينعم به ، وحتى ما يراه هو من بعض المخلوقات شرّا خالصا ، ليس بالشرّ الخالص ، وأنه لو أنعم النظر فيه لوجد بعض الخير قائما إلى جانب هذا الشر . .

فالمخلوقات خيرها كثير ، وشرها بالإضافة إلى الإنسان فى ذاته ، قليل .

فالمستعاذ منه هو هذا الشر القليل إلى جانب الخير الكثير ، والمراد

بالاستعاذة من هذا الشر ، هو أن يلقى الإنسان المخلوقات فى خيرها الخالص ، دون شرها ، الذي يستعيذ باللّه منه .

وقد يكون للإنسان ، أو الحيوان حيلة فى دفع بعض الشرّ ، فليحتل حيلته ، وليبذل وسعه ، ولكن هذا لا يمنع الإنسان العاقل من أن يجعل معاذه هو اللّه سبحانه ، كما أن معاذه باللّه ، لا يحمله على تعطيل ملكاته وقواه ، فتلك وسائل أودعها الخالق جلّ وعلا فيه ، وهى داخلة فى الاستعاذة باللّه ، واللّجأ إليه . . فما يملكه الإنسان من قدرات على دفع ما يدفع به من شرور ، ومكاره ، هى أسلحة من عند اللّه سلّحه بها ، فلا يعطلها ، وليذكر فضل المنعم بها عليه ، فإنها عند المؤمن استعاذة باللّه .

وليس الشرّ المستعاذ باللّه منه ، هو شرّ فى ذاته ، لأن اللّه سبحانه ما خلق شرّا ، وإنما هو شرّ إضافىّ ، أو نسبىّ ، وذلك بالإضافة إلى من وقع عليه ، والذي يعدّه شرّا بالنسبة له هو ، ولكنه فى النظام العام للوجود ، هو خير مطلق ، كما قلنا .

وأما الشر المستعاذ به ، فهو شر يقع من احتكاك الموجودات بعضها ببعض ، أشبه بالشرر المتطاير من احتكاك الزناد بالصّوان ، بل هو أشبه بآلام المخاض لميلاد حياة متجددة فى الحياة ! فالإنسان فى ذاته يشعر بآلام المرض ، والجوع ، ويجد لذعة الحرمان والفقر ، ومرارة فقد الأحباب والأعزاء ، وخيبة الآمال ، وضياع الفرص .إلى غير ذلك مما يساء به الإنسان ، ويألم منه ، ويعده شرا مقيسا بمقياس ذاته . مضبوطا على تلقيات مشاعره له ، وإحساسه به . . وهذا كله غير منكور ، ومن حقّ الإنسان أن يلجأ إلى حمى ربه ، وأن يستعيذ به ، وأن يطلب منه اللطف والعافية . .

والمستعيذ باللّه اللّاجئ إلى حماه ، عن إيمان وثيق ، وعن معرفة تامة ، بما للّه سبحانه وتعالى ، من علم ، وحكمة ، وقدرة ، وسلطان .يجد نفسه دائما فى هذا الحمى العزيز الذي لا ينال ، وتحت ظل هذا السلطان القوى الذي لا يغلب ، وأن هذه الشرور التي

استعاذ بربه منها ، قد انصرفت عنه جملة ، أو خفّت وطأتها ، وذلك حين يعيد النظر فى هذه الشرور على ضوء هذه المشاعر الجديدة التي لقى بها ربه ، وفوض إليه فهيا أمره. فيرى كثيرا من هذه الشرور أوهاما وتخيلات ، كما يرى كثير منها أقرب إلى الخير منها إلى الشر ، ثم ما كان منها شرّا خالصا ـ فى تقديره ـ يصبح فى ظل التفويض للّه ، والتسليم لحكمه ، مستساغ الطعم ، خفيف الحمل ، لما يرى من حسن المثوبة عند اللّه ، على ما أصابه ، وصبر عليه ، محتسبا عند اللّه أجره . .

قوله تعالى : «وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ» .

فى لآية السابقة كانت الاستعاذة باللّه ، استعاذة عامة من جميع الشرور التي ترد على الإنسان من المخلوقات كلها . .

وفى قوله تعالى : «وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ» ـ وما بعدها من الآيات إلى آخر السورة ، استعاذة من شرور بعض المخلوقات ، البادي شرها . .

فالليل حين يهجم على الكائنات ، ويحتوى الإنسان ، يثير فيه كثيرا من المخاوف ، التي تطل عليه من وراء هذا العالم المجهول ، المحجب بهذا الستار

الكثيف من الظلام . . من عدوّ متربص ، أو حيوان مفترس ، أو حشرة سامة ، ونحو هذا . .

وفى الليل ، وفى وحشة الظلام ، والسكون ، والوحدة . تطرق الإنسان همومه ووساوسه ، وتتوارد عليه آلامه وأشجانه ، فيبيت مؤرقا يئن تحت وطأة هذه الهموم ، وتلك الوساوس . . ومن هنا كثرت مناجاة الناس لليل ، وشكايتهم له ، وبثهم إياه ما توارد عليهم فيه من هموم ، وما طرقهم من غائبات الذكريات الموجعة . .

يقول امرؤ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى

ويقول النابغة الذبياني :

كلينى لهمّ يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقض وليس الذي يرعى النجوم بآيب

فالليل ، هو الليل ، بوحشته ، وتوارد الهموم على صدور الناس فيه ، ولن يتغير هذا الوجه من الليل ، ولن يتحول إلى نهار بما أطلع الإنسان فيه من شموس وأقمار ، من مولدات الكهرباء . . إن لظلامه سلطانا ، يتسلل من هذه الثياب المصطنعة من النور ، إلى داخل الإنسان ، فيجثم على صدره ، وينسكب فى مشاعره .

وقوله تعالى : « وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ » . .

النفث فى العقد : هو السعى بين الناس بالوشاية والنميمة ، فتنحل بذلك عقد الإخاء ، والمودة بينهم . .

وأصل النفث فى الشيء النفخ فيه . . ومنه يقال للحية نفثت سمومها أي

ألقت بها من فمها فى جسد الضحية التي وقعت لها . .

وهذه استعاذة باللّه من شر جزئى ، من شرور المخلوقات ، وهو الشر الذي ينجم من مثيرى الفتن والفلاقل ، ومن مهيجى النفوس وإيقاد نار العداوة بين الناس ، فتنحلّ بذلك روابط الإخاء بينهم ، وتنفك عقد التواصل والتراحم بين المتواصلين والمتراحمين . . وإن أكثر ما يقع بين الناس من شر ، وما يقوم بينهم من صراع ، هو من حصاد هؤلاء النفاثين فى العقد ، من الرجال والنفاثات فيها من النساء ، ابتغاء الفتنة ، وتمزيق الوحدة ، وتشتيت الشمل . .

وإذ كانت الكلمة هنا هى الأداة العاملة فى هذا المجال ، فى إيغار الصدور ، وإثارة النفوس ، وبلبلة المشاعر ، وتعكير صفو العواطف ، بالحديث الكاذب والقلة المفتراة ، والشائعة المضللة. فقد نصح اللّه سبحانه وتعالى لنا ، بالاستفادة من شر تلك الأفواه الآثمة التي تنفث

سمومها فى العقد الموثّقة بيننا وبين أهلنا ، وأصدقائنا ، أبناء مجتمعنا الذي نعيش فيه . .

والنصيحة هنا ذات شقين : أن نأخذ حذرنا من هؤلاء الساعين بالنميمة ، المتنقلين بين الناس بالفتنة ، فنحذرهم كما نحذر الحيات والأفاعى ، ونعوذ باللّه من شرهم ، ونستعين به سبحانه على ردّ كيدهم ، ودفع أذاهم ، واللّه سبحانه وتعالى يقول : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ » (6 : الحجرات) . . ومن جهة أخرى ، نحذر من أنفسنا أن توردنا هذا المورد ، وأن تدفع بنا إلى هذا الطريق الذي يلبسنا ثوب الشر الذي يستعاذ باللّه منه . .

وفى الاستعاذة باللّه من النفاثات ، استعاذة ضمنية أيضا من النفاثين ، إذ

كانت النساء فى هذا المجال أكثر من الرجال عددا ، وأثرا ، وإذ كان غالبا وراء كل رجل يثير فتنة ، امرأة تغريه بها ، وتدفع به إليها ، وحسبنا أن نذكر هنا امرأة أبى لهب حمالة الحطب ، والعهد بها قريب . .

وقيل النفاثات : النفوس الخبيثة ، والأرواح الفاسدة . سواء تعلقت بالرجال أو بالنساء . .

هذا ، وفى هذا التعبير عن إفساد ما بين الناس من روابط ، بكلمة « النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ » . إعجاز من إعجاز النظم القرآنى . .

والذي يتأمل هذا اللفظ المعجز يجد :

أولا : أن كلمة النّفث تشير إلى هذا الشبه بين فم هذا الذي يسعى بين الناس بالكلمة الآثمة الفاجرة ، وبين الحية التي تنفث سمومها فتصيب بها من الناس مقتلا . .

وثانيا : أن هذا النفث المنطلق من فم هذا الإنسان ، يصدر عن صدر ملىء بالعداوة والبغضاء للناس جميعا . . أشبه بتلك العداوة المتوارثة بين الحية والناس .

وثالثا : أن كلمة « العقد » وهى الروابط القائمة بين الناس ، هى حياة لهم أشبه بتلك الحياة السارية فى أبدانهم ، وأن حلها يفسد هذه الحياة ، كما يفسد حياتهم نفث الأفاعى فيهم . .

ورابعا : ان النفث فى العقد المادية ، من حبال ونحوها ، من شأنه أن يلين من صلابتها ، وأن يعين على حلها ، وكذلك الشأن فى العقد المعنوية ، من روابط الأخوة والمودة بين الناس ، فإن النفث فيها بالنميمة موهن لها ، وممهد لحلّها . .

وقوله تعالى : « وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ » والحسد ، فى الأعمّ الأغلب هو الدافع إلى كل عداوة ، الموقد لكل فتنة ، المغرى بالكذب والافتراء على الناس ، لحلّ عقد الوئام والوفاق بينهم ، ولنزع هذه البسمة التي تعلو الشفاه بين المتحاّبين ، ولإطفاء إشراقة البشاشة والرضا التي تفيض من وجوه أهل النعمة والرضا . .

فالحسد ـ وهو ما يجده الحاسد فى قلبه ضيق وحسرة ، حين يرى فى يد أحد خيرا ليس فى يده ، ثم لا يهدأ له بال ، ولا تستريح له نفس ، حتى يغرب وجه هذا الخير ـ هو داء يغتال كل معانى الإنسانية فى الإنسان ، فيصبح عداوة متحركة فى الناس ، ترميهم برجوم من العداوة والبغضاء ، وتنفث فيهم سموم الحقد والضغينة ، حتى يميت أو يموت .

كالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله . .

والحسد ـ وليس غيره ـ هو الذي أغرى أهل الكتاب ـ وخاصة اليهود ـ بهذا الموقف الضال الآثم ، من رسالة رسول اللّه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ وكتمانهم الحق عن علم بأنه رسول اللّه ، وأنه الذي يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ، كما يقول سبحانه وتعالى فيهم : « يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (71 : آل عمران) ويقول سبحانه وتعالى عنهم : « الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (146 : البقرة) ويقول جل شأنه فيهم أيضا : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ

إِيمانِكُمْ كُفَّاراً ، حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ »

(109 : البقرة) .

وفى نار الحسد التي تأججت فى صدور اليهود ، ذابت كلّ معالم الحق الذي كان معهم من أمر النبي ، فكفروا به ، واتخذوا طريق الضلال مركبا إلى عذاب الجحيم . .

والحسد ـ وليس غيره ـ هو الذي أغرق مشركى قريش فى الضلال ، وأغراهم بهذا الموقف اللئيم الآثم الذي وقفوه من النبي ، حتى كان عمه أبو لهب هو وامرأته من أشدّ الناس حسدا له ، وتصديا لدعوته ، وتشنيعا عليه ، وكان من مقولات المشركين ما ذكره اللّه عنهم من قولهم : « أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا » ؟

(25 : القمر) . . « لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » (31 : الزخرف) « أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ ؟ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ » (24 : القمر) وقوله تعالى : « إِذا حَسَدَ » ـ هو قيد للاستعاذة باللّه من الشر الذي ينقدح من صدر الحاسد ، فتشتعل ناره ، وتعلق بمن حسده . .

أما الحسد الساكن ، الذي لم ينضبح بعد ، ولم يتحرك من صدر صاحبه ، ولم يبلغ من القوة

بحيث يأخذ صورة عملية ، أبعد من دائرة الخواطر والمشاعر.أما هذا الحسد ، فهو طبيعة غالبة فى الناس ، قلّ أن يسلم منه قلب ، أو تخلو منه نفس . . فما أكثر ما يمد الإنسان بصره إلى ما عند الناس ، مما ليس فى يده ، من مال ، أو علم ، أو صحة ، أو شباب ، أو جمال ، أو بنين ، أو نحو هذا ، مما ترغب فيه النفوس ، وتتداعى عليه الآمال ، وما أكثر ما تتولد مشاعر الحسد من المحروم إلى حيث مواطن هذه المحبّبات إلى النفوس ، ثم يجد من دينه ، أو عقله ، أو مروءته ما يردّه عن موقف الحسد ، ثم لا تلبث هذه المشاعر أن

تزول وتختفى . . فهذا الحسد الذي لا يجد من صاحبه قلبا مفتوحا له ، أو نفسا راضية عنه ، هو حسد قد تولى صاحبه دفعه عن الناس ، وأطفأ ناره قبل أن تمتد إلى أحد ، ومن هنا لم يكن وراءه شر يستعاذ به منه . .

هذا ، وقد تكرر لفظ « شر » أربع مرات ، مضافا فى كل مرة إلى جهة خاصة غير الجهات الثلاث ، وذلك لأن الشر الناجم من كل جهة منها مختلف عن غيرها . .

[النبي . . وحديث السحر] هذا ما يفهم من منطوق آيات اللّه فى قوله تعالى : « وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ » .

. وهو فهم يتفق مع سياق السورة، ومع سورة الإخلاص التي سبقتها ، وسورة الناس التي جاءت بعدها ، والتي كان من ثلاثتها خاتمة كتاب اللّه على ترتيبه فى المصحف، الذي رتبت سورة بتوقيف من اللّه تعالى، على ما وقع فى يقيننا .

ولكن بعض المفسرين قد ذهب فى فهم هاتين الآيتين فهما آخر، إذ زعم أن سورتى الفلق، والناس نزلتا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليسترقى بهما من السحر الذي أصابه، والذي كان قد صنعه به رجل يهودى، يدعى لبيد بن الأعصم . . وقد استند هؤلاء المفسرون فى هذا على ما جاء فى صحيحى البخاري ومسلم وغيرهما من كتب الحديث، من حديث هذا السحر الذي يقال إنه أصاب رسول اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه .

روى البخاري، عن هشام بن عروة بن الزبير، عن أبيه . ، عن عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ قالت :

« سحر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، رجل من بنى زريق، يقال له لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول اللّه، صلى اللّه عليه وسلم، يخيّل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله . .

حتى إذا كان ذات يوم ، أو ذات ليلة ، وهو عندى ، دعا اللّه ، ودعاه ، ثم قال : يا عائشة . . أشعرت أن اللّه أفتانى فيما أستفتيه فيه ؟

أتانى رجلان ، فجلس أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى ، ثم قال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب ! قال من طبّه ؟ قال لبيد بن الأعصم اليهودي ، من بنى زريق ! قال فى أي شىء ؟ قال فى مشط ومشاطة ، وجفّ طلع نخلة ذكر ! « 1 » قال : فأين هو ؟ قال فى بئر ذروان ! . . فأتاها رسول اللّه صلى اللّه عليه فى ناس من أصحابه ، فنظر إليها ، وعليها نخل ، ثم رجع إلى عائشة ، فقال :

واللّه لكأن ماءها نقاعة الحنّاء ، وكأنّ رءوس ، نخلها الشياطين » قلت يا رسول اللّه أفأخرجته ؟ قال : لا . . أما أنا فقد عافانى اللّه وشفانى ، وخشيت أن أثير على الناس منه شرا . . فأمر بها - أي البئر - فدفنت » .

أي ردمت هذا حديث يرويه البخاري عن السيدة عائشة .

ويروى البخاري ، أيضا عن هشام بن عروة بن الزبير ، عن أبيه عن عائشة رضى اللّه عنها ، قال : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، سحر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن - وهذا أشدّ ما يكون من السحر ، إذا كان كذا - فقال يا عائشة : أعلمت أن اللّه أفتانى فيما أستفتيه فيه ؟ أتانى رجلان ، فقعد أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى فقال الذي عند رأسى للآخر :

ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب ، قال : ومن طبه ؟

---

(1) المطبوب : الذي يطلب له من يطبه ، أي يعالجه . . والمشط : ما يمشط به الشعر . . والمشاطة : الشعر الذي يسقط من الرأس عند مشطه . . والجف : الغلاف الذي يحتوى طلع النخلة عند ظهوره (الجراب) .

قال لبيد بن الأعصم ، رجل من بنى زريق ، حليف ليهود ، كان منافقا .

قال : وفيم ؟ قال فى مشط ومشاطة ؟ قال : وأين ؟ قال : فى جفّ طلعة ذكر ، تحت راعوفة « 1 » فى بئر ذى أروان . . قالت : فأتى النبي -صلى اللّه عليه وسلم- البئر حتى استخرجه ، فقال هذه البئر التي أريتها ، وكأن ماءها نقاعة الحنّاء ، وكأن نخلها رءوس الشياطين . . »

وفى حديث ثالث يرويه البخاري عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى اللّه ، عنها . . قالت : « سحر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، حتى إنه ليخيّل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله ، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندى ، دعا اللّه ودعاه ، ثم قال : « أشعرت يا عائشة أن اللّه قد أفتانى فيما أستفتيه فيه ؟ » قلت : وما ذاك يا رسول اللّه ؟ قال : «

جاءنى رجلان . .

فجلس أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى ، ثم قال أحدهما لصاحبه :

ما وجع الرجل ؟ قال مطبوب ؟ قال : ومن طبّه ؟ قال لبيد بن الأعصم اليهودي من بنى زريق ! قال : فى ماذا ؟ قال : فى مشط ومشاطة وجف لطلعة ذكر . قال فأين هو ؟ قال : فى بئر ذى أروان « 2 » .

قالت : فذهب النبي صلى اللّه عليه وسلم فى ناس من أصحابه إلى البئر ، فنظر إليها ، وعليها نخل ثم رجع إلى عائشة ، فقال : واللّه لكأن ماءها نقّاعة الحنّاء « 3 » ، ولكأن نخلها رءوس الشياطين . . قلت : يا رسول اللّه ، أفأخرجته ؟ قال : لا . .

أمّا أنا فقد عافانى اللّه ، وشفانى ، وخشيت أن أثير على الناس منه شرّا . .

وأمر بها فدفنت » .

---

(1) الراعوفة : الحجر الذي يغطى به البئر .

(2) بئر ذى أروان : عين فى بستان بنى زريق بالمدينة .

(3) نقاعة الحناء : نقيعها ، والحناء : صبغ معروف . [. . . . .]

هذا ما رواه البخاري من حديث السّحر ، ومثله ما رواه مسلم. والروايات الثلاث للحديث متقاربة اللفظ والمعنى . . وهى تشير إلى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد وقع تحت تأثير السّحر من رجل يهودىّ ، وأن هذا التّأثير قد بلغ به حدّا يخيّل إليه فيه أنه يفعل الشيء وما فعله ، وأنه يأتى النساء ولا يأتيهن .

وفى مسند الإمام أحمد عن إبراهيم بن خالد عن معمر عن هشام عن أبيه عن عائشة قالت : لبث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ستة أشهر يرى أنه يأتى النساء ولا يأتى ، فأتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه . .

الحديث » وفى تفسير الثعلبي عن ابن عباس وعائشة رضى اللّه عنهما ، أن غلاما من اليهود كان يخدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فدبّت « 1 » إليه اليهود ، فلم يزالوا به حتى أخذ مشاطة رأس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وعدّة من أسنان مشطه ، فأعطاها اليهود فسحروه فيها ، وكان الذي تولّى ذلك رجل منهم يقال له ابن أعصم ، ثم دسّها فى بئر لبنى زريق ، يقال له ذروان ، فمرض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وانتثر شعر رأسه ، ولبث ستة أشهر ، يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن ، وجعل يذوى ، ولا يدرى ما عراه ، فبينما هو نائم أتاه ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فقال الذي عند رأسه للذى عند رجليه : ما بال الرجل ؟ قال : طبّ ، قال :

وما طبّ ، قال : سحر ، قال : ومن سحره ؟ قال لبيد بن الأعصم اليهودي ! قال : وبم طبّه ؟ قال : بمشط ومشاطة . . قال : وأين هو ؟ قال : فى جفّ طلعة ذكر ، تحت راعوفة فى بئر ذروان . . فانتبه النبىّ صلى اللّه عليه وسلم

---

(1) دبت إليه : أي سعت إليه .

(235/839)

مذعورا ، وقال يا عائشة : أما شعرت أن اللّه أخبرنى بدائى ؟ ثم بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عليّا والزبير وعمار بن ياسر ، فنزحوا ماء البئر كأنه نقاعة الحنّاء ، ثم رفعوا الصخرة ، وأخرجوا الجفّ ، فإذا فيه مشاطة رأسه ، وأسنان من مشطه ، وإذا فيه وتر معقود فيه اثنتا عشرة عقدة ، مغروزة بالإبر ، فأنزل اللّه تعالى السورتين (أي المعوذتين) فجعل كلما قرأ آية انحلّت عقدة ، ووجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم خفّة حين انحلّت العقدة الأخيرة ، فقام كأنما أنشط من عقال ، ونام ليس به بأس . . »

والذي ينظر فى هذه الأحاديث ، وتلك الأخبار يتردّد كثيرا فى قبولها ، أو الوقوف عندها ، إذ كانت تضع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى الموضع الذي يجور على كماله ، وينتقص من عصمته . .

وقد كان ذلك مثار بحث وخلاف بين العلماء ، فردّ كثير منهم هذه الأحاديث وأبى أن يقبلها ، جاعلا عصمة النبىّ فوق كل اعتبار ، رافعا مقام النبوّة فوق كلّ مقام . . على حين نجد كثيرا من العلماء ، قد انبرى للدفاع عن كتب السنة الصحاح ، وما ورد فيها من أحاديث ، محاولا سدّ باب الطعن فيها ، بتخريج مثل هذه الأحاديث على وجه يمكن قبولها عليه ، ولو ركب فى هذا مركب التعسّف فى التأويل والتخريج . . والانتصار للسنّة ، ولكتب الصحاح الحاملة لها ، أمر يحرص عليه كلّ مسلم ، ويلتقى عنده المسلمون جميعا بلا خلاف . . ولكن حين يكون الموقف كهذا الذي نحن بين يديه ، تختلف وجهات النظر ، ويكون فى المسلمين من يؤثر الجمع بين قبول الحديث وبين الجهة التي يتعلق بها هذا الحديث ، محاولا تعليل ذلك وتبريره ، على حين يكون فى المسلمين من يؤثر مقام النبوّة وتنزيهها عن عوارض النقص ، على كل خبر يساق ، أو حديث يروى . .

وممن ردّ حديث السّحر ، والأخبار المتصلة ، به من المفسّرين ، الإمام الطبرسي ، فنراه يقول تعقيبا على هذا الحديث المروىّ عن السيدة عائشة ـ رضى اللّه عنها ـ : « وهذا لا يجوز ، لأن من وصف بأنه مسحور ، فكأنه قد خبل عقله ، وقد أبى اللّه سبحانه وتعالى

ذلك فى قوله تعالى : « إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » (الإسراء : 47.48) .

« ولكن الذي يمكن أن يكون. هو أن « اليهودىّ » أو بنا ته ، قد اجتهدوا فى ذلك فلم يقدروا عليه ، وأطلع اللّه نبيّه صلى اللّه عليه وسلم على ما فعلوه من التمويه ، حتى استخرج ، وكان ذلك دلالة على صدقه . .

« ثم كيف يجوز أن يكون المرض من فعلهم ، ولو قدروا على ذلك لقتلوه. أي النبىّ. وقتلوا كثيرا من المؤمنين » ؟ .

وهذا الذي يتلمّسه الإمام الطبرسي لقبول الخبر بقوله : « ولكن الذي يمكن أن يكون. هو أن اليهودىّ أو بنا ته اجتهدوا فى ذلك فلم يقدروا عليه ، وأطلع اللّه نبيّه على ما فعلوه من التمويه ، حتى استخرج ، وكان بذلك دلالة على صدقه . . » .

. نقول هذا القول لا تقوم منه حجة على صحة الحديث وقبوله ، وذلك :

أولا : أن الخبر المروي يقول : إن لبيد بن الأعصم هو الذي سحر النبي صل اللّه عليه وسلم ، ولم يجر لبنا ته ذكر فى الحديث على تعدد الروايات التي روى بها . .

والخبر وحدة واحدة ، فإما أن يقبل كله ، أو يردّ كله . .

وثانيا : إذا كان ما فعله لبيد هذا ، هو من قبيل التمويه . . فما الحكمة فى أن

يطلع اللّه نبيه عليه ؟ ولم يحرص النبي على استخراجه من البئر إذا لم يكن له أثر ؟

وأي دلالة على صدق النبي فى استخراج شىء لا أثر له فى واقع الحياة ؟

ويقول الإمام محمد عبده، تعقيبا على حديث السحر :

« وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هى النبوة، ولا ما يجب لها :

« إن الخبر بتأثير السحر فى النفس الشريفة . يقصدون نفس النبي . قد صحّ، فيلزم الاعتقاد به . . وعدم التصديق به من بدع المبتدعين، لأنه ضرب من ضروب السحر، وقد جاء القرآن بصحة السحر » ! .

ويعلق الإمام محمد عبده على هذه المقولة بقوله :

«فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح، والحق الصريح فى نظر المقلد . بدعة ؟ نعوذ باللّه !

« يحتج بالقرآن على ثبوت السحر « 1 »، ويعرض عن القرآن فى نفيه السحر عنه صلى اللّه عليه وسلم، وعدّه من افتراء المشركين « 2 » عليه ويؤول القرآن فى هذا، ولا يؤول فى تلك، مع أن الذي قصده المشركون ظاهر، لأنهم كانوا يقولون : إن الشيطان يلابسه . عليه السلام . وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم، وضرب من ضروبه، وهو بعينه أثر السحر الذي نسب إلى لبيد بن الأعصم . . فإنه . أي السحر الذي سحره بن الأعصم . قد خالط عقله (أي عقل النبي) وإدراكه فى زعمهم . .

(1) أي بما جاء فى سورة البقرة ، عن الملكين اللذين يعلمان الناس السحر .

(2) وهو ما رد الله به على المشركين قولهم : « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً » فرماهم الله سبحانه بقوله : « انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا » .

ثم يقول الإمام محمد عبده :

« والذي يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به ، وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، فهو الذي يجب الاعتقاد بما يثبته ، وعدم الاعتقاد بما ينفيه .

« وقد جاء - أي القرآن - بنفي السحر عنه ، عليه السلام ، حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له ، إلى المشركين أعدائه ، ووبخهم على زعمهم هذا . . فإذن ليس هو بمسحور قطعا .

« وأما الحديث - على فرض صحته - فهو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد . . وعصمة النبي من تأثير السحر فى عقله ، عقيدة من العقائد ، لا يؤخذ فى نفيها عنه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون . .

ثم يقول الإمام . .

« على أن الحديث الذي يصل إلينا عن طريق الآحاد ، إنما يحصّل الظنّ عند من صحّ عنده

. . أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح ، فلا تقوم به عليه حجة . .

ثم يقول الإمام :

« وعلى أي حال ، فلنا ، بل علينا أن نفوض الأمر فى الحديث ، ولا نحكّمه فى عقيدتنا ، ونأخذ بنص الكتاب ، وبدليل العقل . . فإنه إذا خولط النبي فى عقله ـ كما زعموا ـ جاز عليه أن يظن أنه بلّغ شيئًا وهو لم يبلغه ، أو أن شيئًا نزل عليه وهو لم ينزل عليه . . والأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان . . »

والإمامان الجليلان ـ الطبرسي ، ومحمد عبده ـ يقفان هذا الموقف من حديث السحر ، وبين يديهما هذه المقولات الكثيرة التي تنتصر لهذا الحديث وتدفع يد المعارضين له ، بل وترميهم بالكفر ، والإلحاد . .

يقول القاضي عياض فى كتابه : « الشفا ، بتعريف حقوق المصطفى » فى التعليق على حديث السحر : « اعلم وفقنا اللّه وإياك أن هذا الحديث صحيح متفق عليه ، وقد طعنت فيه الملحدة ، وتندّرت به ، لسخف عقولها ، وتلبيسها على أمثالها إلى التشكيك

فى الشرع ، وقد نزه الله الشرع والنبىّ ، عما يدخل فى أمره لبسا . وإنما السحر مرض من الأمراض ، وعارض من العلل ، يجوز عليه - أي على النبي - كأنواع الأمراض ، مما لا ينكر ، ولا يقدح فى نبوته . .

« وأما ما ورد من أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولا يفعله ، فليس فى هذا ما يدخل عليه داخلة فى شىء من تبليغه أو شريعته ، أو يقدح فى صدقه ، لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا ، وإنما هذا فيما طروّه عليه فى أمر دنياه التي لم يبعث بسببها ، ولا فضّل من أجلها ، وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر ، فغير بعيد أن يخيل له من أمورها ما لا حقيقة له ، ثم ينجلى عنه كما كان ! ! ثم يقول القاضي عياض : « فقد استبان لك من مضمون هذه الروايات ، أنه إنما تسلط على ظاهره ، وجوارحه ، لا على قلبه ، واعتقاده وعقله ، وأنه إنما أثّر فى بصره ، وحبسه عن وطء نسائه وطعامه ، وأضعف جسمه وأمرضه . .

ويكون معنى قوله : « يخيل إليه أنه أتى أهله ولا يأتيهن » أي يظهر له من نشاطه ، ومتقدم عادته القدرة على النساء ، فإذا دنا منهن أصابته أخذة السحر فلم يقدر على إتيانهن ، كما يعترى من أخذ وامترض . »

وينقل الآلوسى فى تفسيره روح المعاني عن الإمام المازري قوله تعليقا على هذا الحديث :

« قد أنكر هذا الحديث المبتدعة ، من حيث أنه يحطّ منصب النبوة ويشكك فيها ، وأن تجويزه يمنع الثقة بالشرع .

(240/839)

« وأجيب ، بأن الحديث صحيح ، وهو غير مراغم للنص « 1 » ، ولا يلزم عليه حطّ منصب النبوة والتشكيك فيها ، لأن الكفار أرادوا بقولهم « مسحور » أنه مجنون ، وحاشاه . . ولو سلّم إرادة ظاهره ، فهو من قبيل هذه القصة ، أو مرادهم أن السحر أثّر فيه ، وأن ما يأتيه من الوحى ، من تخيلات السحر ، وهو كذب أيضا ، لأن اللّه تعالى ، عصمه فيما يتعلق بالرسالة ، وأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث عليه الصلاة والسلام بسببها ، وهى مما يعرض للبشر ، فغير بعيد أن يخيل إليه من ذلك ما لا حقيقة له . . وقد قيل إنه كان يخيل إليه أنه وطىء زوجاته وليس بواطىء . . وقد يخيل لإنسان مثل هذا فى المنام ، فلا يبعد تخيله فى اليقظة » .

وهذا ـ كما ترى ـ دفاع متهافت ، فإن التسلط على البدن والجوارح ، من شأنه أن يجوز على التفكير ، وأن يفسد الرؤية الصحيحة للأمور ، كما حدث ذلك فيما دخل على النبي ، وعلى تصوراته ، كما يقول الحديث ! ! وأما ابن قيم الجوزية ، فيعلق على حديث السحر

بقوله :

« هذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث ، متلّقى منهم بالقبول . .

لا يختلفون فى صحته ، وقد اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم ، وأنكروه أشد

الإنكار ، وقابلوه بالتكذيب ، وصنف فيه بعضهم مصنفا منفردا ، حمل فيه على هشام .

ابن عروة بن الزبير . راوى الحديث عن السيدة

---

(1) مراغم أي مخالف ، والمراد بالنص : النص القرآنى فى نفى السحر عن الرسول فى رده

سبحانه وتعالى على الكافرين قولهم فى الرسول : « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً »

(241/839)

عائشة . وكان غاية من أحسن القول فيه (أي فى هشام) ، أن قال : « غلط ، واشتبه عليه

الأمر » ولم يكن من هذا شىء ، لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم لا يجوز أن يسحر ، فإنه . أي

لو سحر . يكون تصديقا لقول الكفار : « إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً » قالوا . أي الذين

يردون هذا الحديث . : وهذا كما قال فرعون : « وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً » وكما

قال قوم صالح له : « إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ » « (153 : الشعراء) وكما قال قوم شعيب

له : « إِنَّما أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ » (185 : الشعراء) « قالوا . أي الذين يردّون هذا الحديث

: « فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا ، فإن ذلك ينافى حماية اللّه لهم ، وعصمتهم من الشياطين » .

ثم يقول ابن القيم :

« وهذا الذي قاله هؤلاء ، مردود عند أهل العلم . . فإن هشاما من أوثق الناس وأعلمهم ، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب ردّ حديثه . .

« فما للمتكلمين وما لهذا الشأن ؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة . . وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث ، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة . . ؟

ويقول ابن القيم :

« والسحر الذي أصابه (صلوات اللّه وسلامه عليه) كان مرضا عارضا ، شفاه اللّه منه . ولا نقص فى ذلك ولا عيب بوجه ما ، فإن المرض يجوز على الأنبياء ، وكذلك الإغماء ، فقد أغمى عليه صلى اللّه عليه وسلم فى مرضه ، ووقع حين انفكت قدمه ،

وجحش شقّه « 1 » ، وهذا من البلاء ، الذي يزيده اللّه به رفعة فى درجا ته ، ونيل كرامته . . وأشد الناس بلاء الأنبياء ، فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به ، من القتل والضرب ، والشتم ، والحبس . . فليس ببدع أن يبتلى النبي صلى اللّه عليه وسلم من بعض أعدائه بنوع من السحر ، كما ابتلى بالذي رماه فشجّه ، وابتلى بالذي ألقى عليه السلام السّلا « 2 » وهو ساجد ، وغير ذلك ، فلا نقص عليهم. أي الأنبياء . ولا عار فى ذلك ، بل هذا من كمالهم وعلو درجاتهم عند اللّه ثم يقول :

« وأما قولكم : إن سحر الأنبياء ينافى حماية اللّه لهم . . فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ، ويحفظهم ويتولاهم ، فإنه يبتليهم بما شاء من أذى الكفار ، ليستوجبوا كمال كرامته ، وليتأسّى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء . صبروا وتأسوا بهم ، ولتمتلئ صاع الكفار ، فيستوجبوا ما أعد لهم من النكال العاجل ، والعقوبة الآجلة ، فيمحقهم اللّه بسبب بغيهم وعدوانهم ، فيعجل تطهير الأرض منهم . . فهذا من بعض حكمته تعالى فى ابتلاء أنبيائه ورسله ، بإيذائهم من أقوامهم ، وله الحكمة البالغة ، والنعمة السابغة ، لا إله غيره ، ولا رب سواه » .

وهذا . كما ترى . دفاع متهافت أيضا ، فإن ما يبتلى اللّه سبحانه أنبياءه به من صنوف الابتلاء من أقوامهم ، إنما هو فى عناد هؤلاء الأقوام ، وفى ضلالهم وتأبيهم على قبول الخير ، وهذا ما لا يمسّ الأنبياء شىء منه . . وأما ما عرض للرسول

---

(1) جحش شقه: أي انخدش جنبه، وذلك فى غزوة أحد، حين أحاط المشركون بالنبي.

(2) السلا: ما يخرج من بطن الناقة ونحوها مع الولد عند ولادته.

(243/839)

من إغماء ونحوه، فقد كان أمرا عارضا لا يتجاوز لحظة من عمر يوم أو ليلة..

أما أن يمتد هذا المعارض ستة أشهر أو سنة، فهذا ما يقطع النبىّ عن رسالته، ويعزله من مقام النبوة.

ويقول ابن حزم فى كتابه المحلّى تعقيبا على حديث السحر:

«فهذا خبر صحيح.. وقد عرّف الله تعالى رسوله صلى الّله عليه وسلم من سحره، فلم يقتله»!! ومن عجب أن عالما فقيها مجتهدا، واسع الأفق كابن القيم، وأن عالما كبيرا عرف بنفاذ البصيرة، واحترام العقل كابن حزم- من عجب أن يكون هذا موقف هذين العالمين الجليلين من حديث السحر، يغلب عليهما فيه ما تواردت عليه مقولات العلماء، من قبوله، والاحتجاج إليه.. ولا أدلّ على ذلك من أن ابن القيم يتحدث فى موقف آخر عن السحر، فيقول- فيما ينقله عنه ابن حجر فى شرح هذا الحديث من

البخاري ـ يقول : « قال ابن القيم : من أنفع الأدوية وأقوى ما يوجد من النشرة ـ أي استخراج السحر ، وإبطال عمله ـ مقاومة السحر ـ الذي هو من تأثيرات الأرواح الخبيثة ـ بالأدوية الإلهية ، من الذّكر والدعاء ، لا يخل به « 1 » ـ كان ذلك من أعظم الأسباب المانعة من إصابة السحر له . . قال (أي ابن القيم) :

« وسلطان تأثير السحر ، هو في القلوب الضعيفة ، ولهذا غالب ما يؤثّر ، في النساء ، والصبيان والجهال ، لأن الأرواح الخبيثة ، إنما تنشط على أرواح من تلقاه مستعدة لما يناسبها » هذا ما يقرره ابن القيم هنا من تمكن الأرواح الخبيثة ، التي يقع من آثارها

---

(1) أي لا ينقطع عنه .

ما يسعى السحر ، حسب رأيه . . وهو يرى أن هذه الأرواح الخبيثة لا سلطان لها إلا على الأرواح النازلة ، الضعيفة ، كأرواح الصبيان والجهال . . فكيف يقبل ـ مع هذا ـ قول ، بأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ـ قد سحر ؟ وكيف يكون هذا قولا لابن القيم نفسه ؟ ينزل هذا بالنبيّ وبمقامه العظيم إلى مستوى الصبيان والجهال ؟

ويردّ ابن حجر على ما نقله ـ ملخصا ـ من قول ابن القيم ، فيقول :

«ويعكّر عليه - أي يؤخذ على قوله هذا - حديث الباب (أي الباب الذي ورد فيه حديث السحر) . وجواز السحر على النبي صلى اللّه عليه وسلم - مع عظيم مقامه ، وصدق توجهه ، وملازمة ورده (أي ذكر اللّه) ثم يقول ابن حجر : « ولكن يمكن الانفصال عن ذلك - أي الرد على قول ابن القيم - بأن الذي ذكره محمول على الغالب ، وإنما وقع به صلى اللّه عليه وسلم - لبيان تجويز ذلك » . .

هذا هو جانب من موقف المنكرين لهذا الحديث ، والمدافعين عنه .

وهناك كثير من العلماء ، آثروا العافية ، وأعفوا أنفسهم من أن يكونوا طرفا فى هذه القضية ، وهؤلاء هم جماعة من أئمة المفسرين ، لم يشاؤا أن يعرضوا لحديث السحر ، عند تفسيرهم لسورة « الفلق » بل نظروا فى قوله تعالى : « وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ » - نظروا فيه نظرا مجانبا لحديث السحر ، فلم يشيروا إلى هذا الحديث من قريب أو بعيد ، مع أن هذا هو موضعه الذي يشار إليه فيه . . وهذا يعنى أنهم فى موقف توقّف إزاء هذا الحديث ، وأنهم يميلون إلى ردّه ، أكثر من ميلهم إلى قبوله . . ومن هؤلاء الأئمة المفسرين الذين وقفوا هذا الموقف من حديث السحر : الزمخشري ، والطبري ، والقرطبي ، والنّسفى . .

هناك إذن ثلاثة مواقف للعلماء من هذا الحديث ، حديث السحر . .

موقف من يردّه ، ويأبى التسليم به ، تنزيها لمقام النبوة ، وتأكيدا لعصمة النبي . .

وموقف من ينصر هذا الحديث ، ويحاول تخريجه على ما يحفظ للنبوة مقامها ، ويبقى على النبي عصمته . .

وموقف من تجنب الخوض فى هذه المعركة ، مهاجما أو مدافعا ، فلم يعرض لهذا الحديث بإشارة من قريب أو من بعيد . .

وإنى إذ أسأل نفسى أىّ موقف من هذه المواقف أنحاز إليه ، وآخذ مكانى فيه ، ما دمت قد أقحمت نفسى فى زمرة العلماء الدارسين لكتاب اللّه . لأجدنى محمولا حملا لا شعوريا على التوقف فى هذا الحديث ، ثم على تركه وعدم الأخذ به . . وذلك لأمور :

أولها : أنه ليس حديثا يروى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . يريد به أمرا من أوامر الدين ، أو نهيا من نواهيه ، أو يبغى به نصحا أو إرشادا مما يتصل بالشريعة وأحكامها وآدابها . .

فهذا الحديث . إن صح . لا يعدو أن يكون خبرا عن حال من أحوال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، الخاصة به ، والتي لا يطلع عليها غير خاصة أهله كالسيدة عائشة رضى اللّه عنها . . فهذا الحديث . إن صح . لم يرد إلا عن السيدة عائشة ، وهذا يعنى أن هذا العارض الذي عرض للنبى . صلوات اللّه وسلامه عليه . لم يكن له أي أثر خارج بيت الرسول

، وخارج صلته بالسيدة عائشة بالذات ، والتي قيل إن رسول اللّه حبس عنها ستة أشهر ، وفى بعض الروايات سنة . . ولو كان هذا العارض الذي عرض للنبىّ ذا أثر فى غير هذه

الدائرة الضيقة المحدودة ، لا شهر أمره ، ولكان حدثا من الأحداث التي يهتز لها كيان المجتمع الإسلامى كله ، بل ولطارت أنباؤه خارج الجزيرة العربية ، ولكان حديثا جاريا على ألسنة المسلمين وأعداء المسلمين فى كل مكان ، ولعاش فى أجيال الأمة المسلمين زمنا ممتدا ، لا ينقطع الحديث عنه . .

أما أن يكون حديث آحاد ، لا يمسك به إلا آل الزبير عن السيدة عائشة ، فهذا ما لا يتسع منطق الحياة لقبوله ، إلا أن يكون مما يتصل بالعلاقة الزوجية بين النبي ، وبين السيدة عائشة وحدها . . ، فلا تطلع عليه إلّا هى ومن كان قريبا منها كأبناء أختها صفية ، من زوجها الزبير بن العوام .

وثانيها : أن القرآن الكريم يقول للنبى الكريم : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » . .

وهذا وعد من اللّه سبحانه وتعالى بحفظ النبىّ ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ مما يكيد له به أعداؤه ، سواء أكان ذلك فيما يتصل بجسده ، أو عقله ، أو مشاعره . .

فاللّه سبحانه قد تولى حراسة النبي حراسة مطلقة ، بحيث لا يخلص إليه من الناس أذى ، أو يصل إليه منهم سوء . .

ولهذا قال النبىّ ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ حين تلقى هذه الآية ـ قال لمن كان يتولى حراسته من أصحابه تطوعا : « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى اللّه عزّ وجلّ » فهل يعقل بعد هذا ، أن يتولى اللّه سبحانه وتعالى حراسة النبي ، وأن يخبره بهذا ، ثم لا يدفع عنه هذا الكيد الذي يقال إن لبيد بن الأعصم كاده له ، وأصابه به فى أقتل مقاتله ، وهو عقله ؟ . . وكم امتدت هذه البلوى ؟ لقد قيل إنها ستة أشهر ، وقيل سنة كاملة ! ! . .

وماذا يبقى من النبي ـ بل من أي إنسان ـ إذا أصيب فى عقله ، واختلط فى تفكيره ، حتى ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، ويأتى أزواجه وهو لا يأتيهن ؟

أما كان من الجائز ، بل من الواقع الذي لا يمكن توقيه ـ أن يحدث النبي ـ وحاشاه ـ فى شرع اللّه حدثا ، فيقول ـ وهو لا يدرى ـ ما يحسبه المؤمنون المتلقون عنه ـ أنه قرآن أو سنة ، وهو ليس بقرآن ولا سنة ، فيأخذون به ويقيمون دينهم عليه ؟ أم ترى أن المسلمين ـ وقد عرفوا ما بالنبي ـ عزلوه عن النبوة خلال تلك المدة ، فلم يسمعوا ما يقول ، ولم يقبلوه منه ؟ وكيف

واللّه سبحانه وتعالى يقول : « وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » ؟ (7 : الحشر) أمسلمون بلا نبىّ ، والنبي فيهم ؟ أم نبى ولا مسلمون ، والمسلمون ألوف ، وألوف بين يديه . . ؟

وثالثها : المعروف المؤكد من سيرة الرسول أنه كان إمام المسلمين فى الصلوات الخمس ، فى الحضر ، وفى السفر . فهل كان النبىّ خلال هذا العارض الذي عرض له . وقد امتدّ أشهرا . هل كان يقيم للمسلمين صلاتهم دون أن يختلط عليه أمر الصلاة ، فى أقوالها ، وأفعالها ؟ وكيف كان يمكن أن يتحقق من أنه جالس ، أو قائم ، أو راكع ، أو ساجد . . وهو فى حال يخيّل إليه فيها أنه يفعل الشيء ولا يفعله ؟

لقد كان الرسول صلوات اللّه عليه حريصا على أن يقيم للمسلمين صلاتهم حتى فى مرض موته ، فكان يتحامل على نفسه ، ويمضى إلى المسجد . لا تكاد تحمله قدماه . مستندا من جانبيه على صاحبين من صحابته ، حتى ثقل عليه المرض فى اليومين الأخيرين من حياته فى هذه الدنيا ، فأمر أبا بكر بأن يصلّى بالناس . .

وإذن فالمقطوع به ، أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يقطعه عارض أبدا عن الصلاة بأصحابه غير عارض مرض الموت فى يوميه الأخيرين . . وإذن فأين ، ومتى ، كان هذا العارض الذي دخل على النبىّ من السّحر ، والذي أدار تفكيره ، وقلب موازين الأمور بين يديه ؟ وهل كان هذا العارض ، ولم يشهد المسلمون أثرا له فى أقوال النبىّ وأفعاله فى الصلاة ؟ ولم إذن يأخذ هذا الوصف ؟ ولم إذن يكون له فى حياة النبىّ ذكر ؟ .

فإذا قلنا إن النبىّ ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ لم يسحر ، ولم يمسسه سوء ، فى جسده ، أو عقله ، قام بين أيدينا أكثر من شاهد يصدّق هذا القول ويؤكده . .

فأولا : عصمة النبوّة ، تلك العصمة التي لا تتحقق إلا بالسلامة المطلقة فى العقل أولا ، وفى الجسد ثانيا .

وثانيا : ما وعد اللّه به نبيّه الكريم فى قوله سبحانه : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » .

وثالثا : الواقع المحسوس الذي قامت عليه حياة الرسول فى أصحابه ، وأنه كان يقيم لهم صلاتهم ، فى الحضر والسفر ، فى السلم والحرب ، لم يتخلف عن هذا يوما واحدا ، أو فريضة واحدة ، إلا فى اليومين الأخيرين من حياته . .

هذا ما ينبغى أن يتقرر ويتأكد ، وما يجب أن نقيم عليه إيماننا باللّه ، وبرسول اللّه . .

هذا وقد يلقانا من يقول : كيف تتصدى لخبر ورد فى البخاري ، وفى مسلم وفى كتب السنة الصحاح ؟ وكيف تشك فيه وتتردد فى قبوله ؟ إن ذلك إن سلّم لك به كان معناه

إهدار السنة ، ووضع مصادرها الموثّقة موضع الاتهام ! ! ونقول : كلا : إننا نحترم كتب السنة ، وننزل أصحابها من نفوسنا منزلة

(249/839)

الإعزاز والإجلال ، ونكبر جهادهم المبرور فى جمع السنّة المطهرة وحفظها . .

ولكن هذه قضية ، ورفع مقام هذه الكتب فوق مقام القرآن الكريم ، وإنزاله على حكمها ، مما يخالف صريح محكم آياته. قضية أخرى . .

ولقد صحّ منا العزم ، ونحن نكتب هذه السطور الأخيرة من تفسير كتاب اللّه ، أن نلتقى بكتب السنّة فى دراسة ، نرجو أن يوفقنا اللّه فيها ، وأن يعيننا عليها ، وأن يسدد خطانا على طريق الحق إلى سنة رسول اللّه ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، التي هى وحي من عند اللّه ، وبيان شارح لكتاب اللّه . . « رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ . . »

(114) سورة الناس

نزولها : مدنية ، وقيل مكية . . نزلت بعد سورة الفلق . .

عدد آياتها : ست آيات . .

عدد كلماتها : عشرون كلمة .

عدد حروفها : تسعة وسبعون حرفا . .

مناسبتها لما قبلها

هى امتداد لسورة « الفلق » قبلها ، ومتممة لما يستعاذ باللّه منه . .

و« المعوذتا ن » أشبه بسورة واحدة ، ولهذا فقد جمعهما اسم واحد :

« المعوذتا ن » . انتهى . ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1716 .

1745 ﴾

(250/839)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) ﴾

الأمر بالقول يقتضي المحافظة على هذه الألفاظ لأنها التي عينها الله للنبيء صلى الله عليه وسلم ليتعوذ بها فإجابتُها مرجوة ، إذ ليس هذا المقول مشتملاً على شيء يُكلف به أو يُعمل حتى يكون المراد : قل لهم كذا كما في قوله : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص : 1] ، وإنما هو إنشاء معنى في النفس تدل عليه هذه الأقوال الخاصة .

وقد روي عن ابن مسعود في أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن المعوذتين فقال : "قِيل لي قُل فقلتُ لكم فقولوا " .

يريد بذلك المحافظة على هذه الألفاظ للتعوذ وإذ قد كانت من القرآن فالمحافظة على ألفاظها متعينة والتعوذ يحصل بمعناها وبألفاظها حتى كَلِمة ﴿ قُل ﴾ .

والخطاب بقُل ﴾ للنبيء صلى الله عليه وسلم وإذ قد كان قرآناً كان خطاب النبي صلى الله عليه وسلم به يشمل الأمة حيث لا دليل على تخصيصه به ، فلذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعضَ أصحابه بالتعوذ بهذه السورة ولذلك أيضاً كان يعوِّذ بهما الحَسَن والحُسَيْن كما ثبت في "الصحيح" ، فتكون صيغة الأمر الموجهة إلى المخاطب مستعملة في معنَيي الخطاب من توجُّهه إلى معيّن وهو الأصل ، ومن إرادة كلّ من يصح خطابُه وهو طريق من طرق الخطاب تدل على قصده القرائن ، فيكون من استعمال المشترك في معنييه .

واستعمال صيغة التكلم في فعل ﴿ أعوذ ﴾ يتبع ما يراد بصيغة الخطاب في فعل ﴿ قل ﴾ فهو مأمور به لكل من يريد التعوذ بها .

وأما تعويذ قارئها غيرَه بها كما ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعوذ بالمعوذتين الحسن والحسين ، وما رُوي عن عائشة قالت : "إن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوِّذات ، فلما ثَقُل كنت أنفث عليه بهن وأمْسح بيدِ

نفسه لبركتها " ، فذلك على نية النيابة عمن لا يحسن أن يعوذ نفسه بنفسه بتلك الكلمات لعجز أو صغر أو عدم حفظ .

(251/839)

والعَوْذ : اللجأ إلى شيء يقِي من يلجأ إليه ما يخافه ، يُقال : عاذ بفلان ، وعاذ بحصن ، ويقال : استعاذ ، إذا سأل غيره أن يُعيذه قال تعالى : ﴿ فاستعِذ باللَّه إنه سميع عليم ﴾ [الأعراف : 200] .

وعاذ من كذا ، إذا صار إلى ما يعيذه منه قال تعالى : ﴿ فاستعذ باللَّه من الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : 98] .

و﴿ الفلق ﴾ : الصبح ، وهو فَعَل بمعنى مفعول مثل الصَّمَد لأن الليل شبه بشَيء مغلق ينفلق عن الصبح ، وحقيقة الفَلْق : الانشقاق عن باطن شيء ، واستعير لظهور الصبح بعد ظلمة الليل ، وهذا مثل استعارة الإخراج لظهور النور بعد الظلام في قوله تعالى : ﴿ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ [النازعات : 29] ، واستعارة السلخ له في قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ [يس : 37] .

وربُّ الفلق : هو الله ، لأنه الذي خلق أسبابَ ظهور الصبح ، وتخصيص وصف الله بأنه

رب الفلق دون وصف آخر لأن شراً كثيراً يحدث في الليل من لصوص، وسباع، وذوات سموم، وتعذر السير، وعُسر النجدة، وبُعد الاستغاثة واشتداد آلام المرضى، حتى ظن بعض أهل الضلالة الليل إله الشر.

والمعنى: أعوذ بفالق الصبح مَنجاةً من شرور الليل، فإنه قادر على أن ينجيني في الليل من الشر كما أنجى أهل الأرض كلهم بأن خلق لهم الصبح، فوُصفَ الله بالصفة التي فيها تمهيدٌ للإجابة.

وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3)

عطف أشياء خاصة هي ممَّا شمِله عموم ﴿ من شر ما خلق ﴾ [الفلق: 2]، وهي ثلاثة أنواع من أنواع الشرور:

أحدها: وقت يغلب وقوع الشر فيه وهو الليل.

والثاني: صنف من الناس أقيمت صناعتهم على إرادة الشر بالغير.

والثالث: صنف من الناس ذو خُلُق من شأنه أن يبعث على إلحاق الأذى بمن تعلق به.

وأعيدت كلمة ﴿ من شر ﴾ بعد حرف العطف في هذه الجملة.

وفي الجملتين المعطوفتين عليها مع أن حرف العطف مغنٍ عن إعادة العامل قصداً لتأكيد الدعاء ، تعرضاً للإجابة ، وهذا من الابتهال فيناسبه الإطناب .

والغاسق : وصف الليل إذا اشتدت ظلمته يقال : غَسَق الليل يغسق ، إذا أظلم قال تعالى : ﴿ إلى غسق الليل ﴾ [الإسراء : 78] ، فالغاسق صفة لموصوف محذوف لظهوره من معنى وصفه مثل الجواري في قوله تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار في البحر ﴾ [الشورى : 32] وتنكير ﴿ غاسق ﴾ للجنس لأن المراد جنس الليل .

وتنكير ﴿ غاسق ﴾ في مقام الدعاء يراد به العموم لأن مقام الدعاء يناسب التعميم .

ومنه قول الحريري في المقامة الخامسة : "يا أهل ذا المعنى وقيتُم ضُراً" أي وقيتم كل ضر .

وإضافة الشر إلى غاسق من إضافة الاسم إلى زمانه على معنى (في) كقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرُ الليل والنهارِ ﴾ [سبأ : 33] .

والليل : تكثر فيه حوادث السوء من اللصوص والسباع والهوام كما تقدم آنفاً .

وتقييد ذلك بظرف ﴿ إذا وقب ﴾ أي إذا اشتدت ظلمته لأن ذلك وقت يتحيّنه الشطّار وأصحاب الدعارة والعَيث ، لتحقّق غلبَة الغفلة والنوم على الناس فيه ، يقال : أغْدَرَ الليلُ ، لأنه إذا اشتد ظلامه كثر الغدْر فيه ، فعبر عن ذلك بأنه أغدَر ، أي صار ذا غَدر على طريق المجاز العقلي .

ومعنى ﴿ وقب ﴾ دخل وتغلغل في الشيء ، ومنه الوَقْبة : اسم النقرة في الصخرة يجتمع

فيها الماء ، ووقبت الشمس غابت ، وخُص بالتعوذ أشد أوقات الليل توقعاً لحصول المكروه .

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4)

هذا النوع الثاني من الأنواع الخاصة المعطوفة على العام من قوله : ﴿ من شر ما خلق ﴾ [الفلق : 2] .

وعُطف ﴿ شر النفاثات في العقد ﴾ على شر الليل لأن الليل وقت يتحين فيه السحَرة إجراء شعوذتهم لئلا يطلع عليهم أحد .

(253/839)

والنفث : نفخ مع تحريك اللسان بدون إخراج ريق فهو أقل من التفل ، يفعله السحرة إذا وضعوا علاج سحرهم في شيء وعَقدوا عليه عُقَداً ثم نفثوا عليها .

فالمراد بـ ﴿ النفاثات في العقد ﴾ : النساء الساحرات ، وإنما جيء بصفة المؤنث لأن الغالب عند العرب أن يتعاطى السحرَ النساء لأن نساءهم لا شغل لهن بعد تهيئة لوازم الطعام والماء والنظافة ، فلذلك يكثر انكبابهن على مثل هاته السفاسف من السحر والتَّكهن ونحو ذلك ، فالأوهام الباطلة تتفشى بينهن ، وكان العرب يزعمون أن الغُول

ساحرةٌ من الجِن .

وورد في خبر هجرة الحبشة أن عمارة بن الوليد بن المغيرة اتُّهم بزوجة النجاشي وأن النجاشي دعَا له السوَاحر فنفخن في إحليله فصار مسلوب العقل هائماً على وجهه ولحق بالوحوش .

و﴿ العُقد ﴾ : جمع عقدة وهي ربط في خيط أو وَتَر يزعم السحرة أنه سحر المسحور يستمر ما دامت تلك العقد معقودة ، ولذلك يخافون من حَلها فيدفنونها أو يخبّئونها في محل لا يُهتدى إليه .

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة من شر السحرة لأنه ضمن له أن لا يلحقه شر السحرة ، وذلك إبطال لقول المشركين في أكاذيبهم إنه مسحور ، قال تعالى : ﴿ وقال الظالمون إنْ تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ [الفرقان : 8] .

وجملة القول هنا : أنه لما كان الأصح أن السورة مكية فإن النبي صلى الله عليه وسلم مأمون من أن يصيبه شر النفاثات لأن الله أعاذه منها .

وأمّا السحر فقد بسطنا القول فيه عند قوله تعالى : ﴿ يعلِّمون الناس السحر ﴾ في سورة البقرة (102) .

وإنما جعلت الاستعاذة من النفاثات لا من النفْث ، فلم يقل : إذا نفثن في العقد ، للإشارة إلى أن نفثهن في العُقد ليس بشيء يجلب ضراً بذاته وإنما يجلب الضر النافثاتُ وهن متعاطيات السحر ، لأن الساحر يحرص على أن لا يترك شيئاً مما يحقق له ما يعمله لأجله إلاّ احتال على إيصاله إليه ، فربما وضع له في طعامه أو شرابه عناصر مفسدة للعقل أو مهلكة بقصد أو بغير قصد ، أو قاذورات يُفسد اختلاطُها بالجسد بعضَ عناصر انتظام الجسم يختلّ بها نشاط أعصابه أو إرادته ، وربما أغرى به من يغتاله أو من يتجسس على أحواله ليُرِي لمن يسألونه السحر أن سحره لا يتخلف ولا يخطىء .

وتعريف ﴿ النفاثات ﴾ تعريف الجنس وهو في معنى النكرة ، فلا تفاوت في المعنى بينه وبين قوله : ﴿ ومن شر غاسق ﴾ [الفلق : 3] وقوله : ﴿ ومن شر حاسد ﴾ [الفلق : 5] .

وإنما أوثر لفظ ﴿ النفاثات ﴾ بالتعريف لأن التعريف في مثله للإشارة إلى أن حقيقة معلومة للسامع مثل التعريف في قولهم : "أرسلها العراك" كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ الحمد للَّه ﴾ في سورة الفاتحة (2) .

وتعريف ﴿ النفاثات ﴾ باللام إشارة إلى أنهن معهودات بين العرب .

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)

عطف شر الحاسد على شر الساحر المعطوف على شر الليل ، لمناسبة بينه وبين المعطوف عليه مباشرةً وبينه وبين المعطوف عليه بواسطته ، فإن مما يدعو الحاسد إلى أذى المحسود أن يتطلب حصول أذاهُ لتوهم أن السحر يزيل النعمة التي حسده عليها ولأن ثوران وجدان الجسد يكثر في وقت الليل ، لأن الليل وقت الخلوة وخطورِ الخواطر النفسية والتفكر في الأحوال الحافة بالحاسد وبالمحسود .

والحسد : إحساس نفساني مركب من استحسان نعمة في الغير مع تمني زوالها عنه لأجل غيرة على اختصاص الغير بتلك الحالة أو على مشاركته الحاسد فيها .

وقد يطلق اسم الحسد على الغبطة مجازاً .

(255/839)

والغبطة : تمنّي المرء أن يكون له من الخير مثلُ ما لمن يروق حاله في نظره ، وهو محمل الحديث الصحيح : "لا حَسَدَ إلا في اثنتين" أي لا غبطة ، أي لا تحق الغبطة إلا في تينك الخصلتين ، وقد بين شهاب الدين القرافي الفرق بين الحسد والغبطة في الفرق الثامن والخمسين والمائتين .

فقد يغلب الحسدُ صبرَ الحاسد وأناتَه فيحمله على إيصال الأذى للمحسود بإتلاف

أسباب نعمته أو إهلاكه رأساً .

وقد كان الحسد أولَ أسباب الجنايات في الدنيا إذ حسد أحد ابني آدم أخاه على أن قُبِل قربانه ولم يقبل قُربان الآخر ، كما قصّه الله تعالى في سورة العقود .

وتقييد الاستعاذة من شره بوقت : ﴿ إذا حسد ﴾ لأنه حينئذ يندفع إلى عمل الشر بالمحسُود حين يجيش الحسد في نفسه فتتحرك له الحيل والنوايا لإِلحاق الضرّ به .

والمراد من الحسد في قوله : ﴿ إذا حسد ﴾ حسد خاص وهو البالغ أشد حقيقته ، فلا إشكال في تقييد الحسد بـ ﴿ حسد ﴾ وذلك كقول عمرو بن معد يكرب :

وبَدَت لميس كأَنَّها . . .

بَدْرُ السماءِ إذا تَبَدَّى

أي تجلى واضحاً منيراً .

ولما كان الحسد يستلزم كون المحسود في حالة حسنة كثر في كلام العرب الكناية عن السيد بالمحسود ، وبعكسه الكناية عن سيّىء الحال بالحاسد ، وعليه قول أبي الأسود :

حسدوا الفتى أن لم ينالوا سعيه . . .

فالقوم أعداءٌ له وخصوم

كضرائرِ الحسناء قُلْنَ لوجهها . . .

حَسَداً وبُغضاً إنّه لَمشُوم

وقول بشار بن بُرد :

إن يحْسدوني فإني غيرُ لائمهم

قَبْلي من الناس أهل الفَضْل قد حُسِدوا . . .

فدَام لي ولَهُم مَا بي وما بِهِمُ

ومات أَكْثَرُنَا غَيْظاً بِمَا يَجِد . . . انتهى انتهى . اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(256/839)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الفلق

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1)

هذه السورة والتي بعدها توجيه من الله - سبحانه وتعالى - لنبيه (صلى الله عليه وسلم)

ابتداء وللمؤمنين من بعده جميعا ، للعياذ بكنفه ، واللياذ بحماه ، من كل مخوف : خاف

وظاهر ، مجهول ومعلوم ، على وجه الإجمال وعلى وجه التفصيل . . وكأنما يفتح الله -

سبحانه - لهم حماه ، ويبسط لهم كنفه ، ويقول لهم ، في مودة وعطف : تعالوا إلى هنا .

تعالوا إلى الحمى . تعالوا إلى مأمنكم الذي تطمئنون فيه . تعالوا فأنا أعلم أنكم ضعاف وأن

لكم أعداء وأن حولكم مخاوف وهنا . . هنا الأمن والطمأنينة والسلام . .

ومن ثم تبدأ كل منهما بهذا التوجيه . (قل : أعوذ برب الفلق) . . (قل : أعوذ برب الناس) . .

وفي قصة نزولها وقصة تداولها وردت عدة آثار , تتفق كلها مع هذا الظل الذي استروحناه , والذي يتضح من الآثار المروية أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) استروحه في عمق وفرح وانطلاق :

عن عقبة - ابن عامر - رضي الله عنه - أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ? قل : أعوذ برب الفلق وقل : أعوذ برب الناس " .

.

وعن جابر - رضي الله عنه - قال : قال لي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " اقرأ يا جابر " . قلت : ماذا بأبي أنت وأمي ? قال " اقرأ : قل أعوذ برب الفلق . وقل أعوذ برب الناس " فقرأتهما . فقال : " اقرأ بهما فلن تقرأ بمثلهما " . .

وعن ذر بن حبيش قال : سألت أبي بن كعب - رضي الله عنه - عن المعوذتين . قلت : يا أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا [وكان ابن مسعود لا يثبتهما في مصحفه ثم ثاب إلى رأي الجماعة وقد أثبتهما في المصحف] فقال : سألت رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) فقال : " قيل لي : قل . فقلت " . فنحن نقول كما قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكل هذه الآثار تشي بتلك الظلال الحانية الحبيبة . .

(257/839)

وهنا في هذه السورة يذكر الله - سبحانه - نفسه بصفته التي بها يكون العياذ من شر ما ذكر في السورة .

(قل أعوذ برب الفلق) . . والفلق من معانيه الصبح , ومن معانيه الخلق كله . بالإشارة إلى كل ما يفلق عنه الوجود والحياة , كما قال في الأنعام : (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي) . . وكما قال : (فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا) . .

وسواء كان هو الصبح فالاستعاذة برب الصبح الذي يؤمن بالنور من شر كل غامض مستور , أو كان هو الخلق فالاستعاذة برب الخلق الذي يؤمن من شر خلقه , فالمعنى يتناسق مع ما بعده . .

(من شر ما خلق) . . أي من شر خلقه إطلاقا وإجمالا . وللخلائق شرور في حالات اتصال بعضها ببعض . كما أن لها خيرا ونفعا في حالات أخرى . والاستعاذة بالله هنا من

شرها ليبقى خيرها . والله الذي خلقها قادر على توجيهها وتدبير الحالات التي يتضح فيها خيرها لا شرها !

(ومن شر غاسق إذا وقب) . . والغاسق في اللغة الدافق, والوقب النقرة في الجبل يسيل منها الماء . والمقصود هنا - غالبا - هو الليل وما فيه . الليل حين يتدفق فيغمر البسيطة . والليل حينئذ مخوف بذاته . فضلا على ما يثيره من توقع للمجهول الخافي من كل شيء : من وحش مفترس يهجم . ومتلصص فاتك يقتحم . وعدو مخادع يتمكن . وحشرة سامة تزحف . ومن وساوس وهواجس وهموم وأشجان تتسرب في الليل, وتخنق المشاعر والوجدان, ومن شيطان تساعده الظلمة على الانطلاق والإيحاء . ومن شهوة تستيقظ في الوحدة والظلام . ومن ظاهر وخاف يدب ويثب, في الغاسق إذا وقب !

(ومن شر النفاثات في العقد) . . والنفاثات في العقد : السواحر الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس, وخداع الأعصاب, والإيحاء إلى النفوس والتأثير والمشاعر . وهن يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء !

والسحر لا يغير من طبيعة الأشياء ; ولا ينشئ حقيقة جديدة لها . ولكنه يخيل للحواس والمشاعر بما يريده الساحر . وهذا هو السحر كما صوره القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام : سورة طه (قالوا : يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى . قال : بل ألقوا . فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوجس في نفسه خيفة موسى . قلنا : لا تخف إنك أنت الأعلى . وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى . . .) .

وهكذا لم تنقلب حبالهم وعصيهم حيات فعلا , ولكن خيل إلى الناس - وموسى معهم - أنها تسعى إلى حد أن أوجس في نفسه خيفة , حتى جاءه التثبيت . ثم انكشفت الحقيقة حين انقلبت عصا موسى بالفعل حية فلقفت الحبال والعصي المزورة المسحورة .

وهذه هي طبيعة السحر كما ينبغي لنا أن نسلم بها . وهو بهذه الطبيعة يؤثر في الناس ، وينشئ لهم مشاعر وفق إيحائه . . مشاعر تخيفهم وتؤذيهم وتوجههم الوجهة التي يريدها الساحر ، وعند هذا الحد نقف في فهم طبيعة السحر والنفث في العقد . . وهي شر يستعاذ منه بالله ، ويلجأ منه إلى حماه .

وقد وردت روايات - بعضها صحيح ولكنه غير متواتر - أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي - صلى الله عليه وسلم - في المدينة . . قيل أياما ، وقيل أشهرا . . حتى كان يخيل إليه أنه يأتي النساء وهو لا يأتيهن في رواية ، وحتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء

ولم يفعله في رواية ، وأن السورتين نزلتا رقية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلما استحضر السحر المقصود – كما أخبر في رؤياه – وقرأ السورتين انحلت العقد ، وذهب عنه السوء .

ولكن هذه الروايات تخالف أصل العصمة النبوية في الفعل والتبليغ ، ولا تستقيم مع الاعتقاد بأن كل فعل من أفعاله – صلى الله عليه وسلم – وكل قول من أقواله سنة وشريعة ، كما أنها تصطدم بنفي القرآن عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنه مسحور ، وتكذيب المشركين فيما كانوا يدعونه من هذا الإفك . ومن ثم تستبعد هذه الروايات . . وأحاديث الآحاد لا يؤخذ بها في أمر العقيدة . والمرجع هو القرآن . والتواتر شرط للأخذ بالأحاديث في أصول الاعتقاد . وهذه الروايات ليست من المتواتر . فضلا على أن نزول هاتين السورتين في مكة هو الراجح . مما يوهن أساس الروايات الأخرى .

" ومن شر حاسد إذا حسد " . .

والحسد انفعال نفسي إزاء نعمة الله على بعض عباده مع تمني زوالها . وسواء أتبع الحاسد هذا الانفعال بسعي منه لإزالة النعمة تحت تأثير الحقد والغيظ ، أو وقف عند حد

الانفعال النفسي ، فإن شرا يمكن أن يعقب هذا الانفعال .

ونحن مضطرون أن نطامن من حدة النفي لما لا نعرف من أسرار هذا الوجود ، وأسرار النفس البشرية ، وأسرار هذا الجهاز الإنساني . فهنالك وقائع كثيرة تصدر عن هذه الأسرار ، ولا نملك لها حتى اليوم تعليلا . . هنالك مثلا ذلك التخاطر على البعد . وفيه تتم اتصالات بين أشخاص متباعدين . اتصالات لا سبيل إلى الشك في وقوعها بعد تواتر الأخبار بها وقيام التجارب الكثيرة المثبتة لها . ولا سبيل كذلك لتعليلها بما بين أيدينا من معلومات . وكذلك التنويم المغناطيسي . وقد أصبح الآن موضعا للتجربة المتكررة المثبتة . وهو مجهول السر والكيفية . . وغير التخاطر والتنويم كثير من أسرار الوجود وأسرار النفس وأسرار هذا الجهاز الإنساني . . .

فإذا حسد الحاسد ، ووجه انفعالا نفسيا معينا إلى المحسود فلا سبيل لنفي أثر هذا التوجيه لمجرد أن ما لدينا من العلم وأدوات الاختبار ، لا تصل إلى سر هذا الأثر وكيفيته . فنحن لا ندري إلا القليل في هذا الميدان . وهذا القليل يكشف لنا عنه مصادفة في الغالب ، ثم يستقر كحقيقة واقعة بعد ذلك !

فهنا شر يستعاذ منه بالله ، ويستجار منه بحماه

والله برحمته وفضله هو الذي يوجه رسوله - صلى الله عليه وسلم - وأمته من ورائه إلى الاستعاذة به من هذه الشرور . ومن المقطوع به أنهم متى استعاذوا به - وفق توجيهه - أعاذهم . وحماهم من هذه الشرور إجمالا وتفصيلا .

وقد روى البخاري - بإسناده - عن عائشة - رضي الله عنها - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ، ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما ، " قل هو الله أحد " . . و " قل : أعوذ برب الفلق " . . و " قل : أعوذ برب الناس " . . ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات . . وهكذا رواه أصحاب السنن . . . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 6 صـ 4006 . 4009 ﴾

(261/839)

وقال الشيخ الشنقيطى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) ﴾

قال أبو حيان وغيره : الفلق فعل بمعنى مفعول أي مفلوق ، واختلف في المراد بذلك .

فقيل : إنه الصبح يتفلق عنه الليل .

وقيل : الحب والنوى .

وقيل : هو جب في جهنم .

وقال بعض المفسرين : كل ما فلقه الله عن غيره ، كالليل عن الصبح ، والحب عن النبت ، والأرض عن النبات ، والجبال عن العون ، والأرحام عن الأولاد ، والسحاب عن المطر .

وقال ابن جرير : إن الله أطلق ولم يقيد ، فتطيق كذلك كما أطلق .

والذي يظهر أن كل الأقوال ما عدا القول بأنه جب في جهنم من قبيل اختلاف التنوع ، وأنها كلها محتملة ، كما في الأشياء الأخرى المشاهدة .

والذي يشهد له القرآن هو الأول ، كما جاء النص الصريح في الصبح والحب والنوى ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله فَالِقُ الحب والنوى يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَمُخْرِجُ الميت مِنَ الحي ذلكم الله فأنى تؤْفَكُونَ فَالِقُ الإصباح وَجَعَلَ الليل سَكَناً والشمس والقمر حُسْبَاناً ذلك تَقْدِيرُ العزيز العليم ﴾ [الأنعام : 95-96] .

وكلها آيات دالة على قدرة الله ، وجاء في حديث عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي ، وأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يرى رؤيا ، إلا جاءت كفلق الصبح .

والفلق : بمعنى الصبح معروف في كلام العرب .

وعليه قول الشاعر :

يا ليلة لم أنمها بت مرتقبا . . . أرعى النجوم إلى أن قدر الفلق

وقول الآخر مثله وفيه : إلى أن نور الفلق بدل قدر ، والواقع أنه في قوة الإقسام برب الكون كله يتفلق بعضه عن بعض .

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2)

وهذا عام وهو على عمومه ، حتى قال الحسن : إن إبليس وجهنم مما خلق .

وللمعتزلة في هذه الآية كلام حول خلق أفعال العباد ، وأن الله لا يخلق الشر ، وقالوا : كيف يخلقه ويقدره ، ثم يأمر بالاستعاذة به سبحانه مما خلقه وقدره ؟

وأجيب من أهل السنة : بأنه لا مانع من ذلك ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " أعوذ بك منك " .

وقد قال تعالى : ﴿ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد : 16] .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، مناقشة هذه المسألة في مناظرة الأسفرائيني مع الجبائي في القدر .

ومعلوم أن المخلوق لا يتأتى منه شيء قط إلا بمشيئة الخالق ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله .

وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3)

الغاسق : قيل الليل ، لقوله تعالى : ﴿ أَقِمِ الصلاةَ لِدُلُوكِ الشمس إلى غَسَقِ الليل ﴾ [الإسراء : 78] .

ووقب : أي دخل .

وعليه قول الشاعر :

إن هذا الليل قد غسقا . . . واشتكيت الهم والأرقا

وقول الآخر :

يا طيف هند قد أبقيت لي أرقا . . . إذ جئتنا طارقاً والليل قد غسقا

قال القرطبي : وهذا قول ابن عباس والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم .

وقيل : الغاسق : القمر إذا كان في آخر الشهر ، لحديث عائشة عند الترمذي " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها : " تعوذي من هذا فإنه الغاسق إذا وقب " أي القمر .

وقائل هذا القول يقول : إنه أنسب لما يجيء بعده من السحر ، لأنه أكثر ما يكون عندهم في آخر الشهر .

ونقل القرطبي عن ثعلب ، عن ابن الأعرابي ، أن أهل الريب يتحينون وجبة القمر ، أي سقوطه وغيوبته .

وأنشد قول الشاعر :

أراحني الله من أشياء أكرهها . . . منها العجوز ومنها الكلب والقمر

هذا يبوح وهذا وهذا يستضاء به . . . وهذه ضمرز قوامه السحر

والضمرز : الناقة المسنة ، والمرأة الغليظة .

والصحيح الأول : الذي هو الليل بشهادة القرآن .

والثاني : تابع له ، لأن القمر في ظهوره واختفائه مرتبط بالليل ، فهو بعض ما يكون في الليل ،

وفي الليل تنتشر الشياطين وأهل الفساد ، من الإنسان والحيوان ويقل فيه المغيث إلا الله .

وفي الحديث : " أطفؤوا السرج فإن الفويسقة تضرم على الناس بيوتهم ليلاً " أي الفأرة .

وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)

اقتران الحسد بالسحر هنا ، يشير إلى وجود علاقة بين كل من السحر والحسد ، وأقل ما يكون هو التأثير الخفي الذي يكون من الساحر بالسحر ، ومن الحاسد بالحسد مع الاشتراك في عموم الضرر ، فكلاهما إيقاع ضرر في خفاء ، وكلاهما منهى عنه .

وقد أوضح فضيلة الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، أنواع السحر وأحكامه وأورد فيه كلاماً وافياً .

وقد ظهر بما قدمنا : أن الحسد له علاقة بالسحر نوعاً ما ، فلزم إيضاحه وبيان أمره بقدر المستطاع ، إن شاء الله .

أولاً : تعريف : قالوا : إن الحسد هو تمني زوال نعمة الغير ، أو عدم حصول النعمة للغير شحاً عليه بها .

وقد قيدت الاستعاذة من شر الحاسد إذا حسد ، أي عند إيقاعه الحسد بالفعل ، ولم يقيدها من شر الساحر إذا سحر .

وذلك والله تعال أعلم : أن النفث في العقد هو عين السحر ، فتكون الاستعاذة واقعة موقعها عند سحره الواقع منه بنفثه الحاصل منه في العقد .

أما الحاسد فلم يستعذ منه إلا عند إيقاعه الحسد بالفعل ، أي عند توجهه إلى المحسود ، لأنه قبل توجهه إلى المحسود بالحسد لا يتأتى منه شر ، فلا محل للاستعاذة منه .

أما حقيقة الحسد : فيعتذر تعريفه منطقياً .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه أنه قال في السحر : لا يمكن تعريفه لخفائه .

ومعلوم أن الحسد أشد خفاء ، لأنه عمل نفسي وأثر قلبي ، وقد قيل فيه : إنه كإشعاع غير مرئي ، ينتقل من قلب الحاسد إلى المحسود ، عند تحرقه بقلبه على المحسود ، وقد شبه حسد الحاسد بالنار في قولهم :

اصبر على مضض الحسود . . . فإن صبرك قاتله

كالنار تأكل بعضها . . . إن لم تجد ما تأكله

وقد أنكر بعض الفلاسفة وقوع السحد ، حيث إنه غير مشاهد وهو محجوجون بكل موجود غير شاهد ، كالنفس والروح والعقل .

(264/839)

وقد شوهدت اليوم أشعة [إكس] وهي غير مرئية ، ولكنها تنفذ إلى داخل الجسم من إنسان وحيوان ، بل وخشب ونحوه . ولا يردها إلاَّ مادة الرصاص لكثافة معدنه ، فتصور داخل جسم الإنسان من عظام وأمعاء وغيرها ، فلا معنى لرد شيء لعدم رؤيته .

تنبيه

قد أطلق الحسد هنا ولم يبين المحسود عليه ، ما هو أنه كما تقدم زوال النعمة عن الغير .

وقد نبه القرآن الكريم على أعظم النعمة التي حسد عليها المسلمون عامة ، والرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، وهي نعمة الإسلام ونعمة الوحي وتحصيل الغنائم .

فأهل الكتاب حسدوا المسلمين على الإسلام في قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكتاب لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحق ﴾ [البقرة : 109] .

والمشركون حسدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على نعمة الوحي إليه ، كما في قوله تعالى :

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ الناس على مَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ ﴾ [النساء : 54] .

والناس هنا عام أريد به الخصوص ، وهو النَّبي صلى الله عليه وسلم ، كما في قوله تعالى :

﴿ الذين قَالَ لَهُمُ الناس إِنَّ الناس قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ ﴾ [آل عمران : 173] .

فالناس الأولى عام أريد به خصوص رجل واحد ، وهو نعيم ابن مسعود الأشجعي .

ومما جاء فيه الحسد عن نعمة متوقعة . قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ المخلفون إِذَا انطلقتم إلى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلاَمَ الله قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ الله مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُواْ لاَ يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الفتح : 15] .

فتبين بنص القرآن أن الحسد يكون في نعمة موجودة ، ويكون في نعمة متوقع وجودها .

تنبيه آخر

توجد العين كما يوجد الحسد ، ولم أجد من فرّق بينهما مع وجود الفرق .

وقد جاء في الصحيح " إن العين لحق " .

كما جاء في السنن : " لو أن شيئاً يسبق القدر لسبقته العين " .

ويقال في الحسد ، حاسد ، وفي العين : عائن ، ويشتركان في الأثر ، ويختلفان في الوسيلة والمنطلق .

فالحاسد : قد يحسد ما لم يره ، ويحسد في الأمر المتوقع قبل وقوعه ، ومصدره تحرق القلب واستكثار النعمة على المحسود ، وبتمني زوالها عنه أو عدم حصولها له وغاية في حطة النفس .

والعائن : لا يعين إلا ما يراه والموجود بالفعل ، ومصدره انقداح نظرة العين ، وقد يعين ما يكره أن يصاب بأذى منه كولده وماله .

وقد يطلق عليه أيضاً الحسد ، وقد يطلق الحسد ويراد به الغبطة ، وهو تمني ما يراه عند الآخرين من غير زواله عنهم .

وعليه الحديث : " لا حسد في اثنتين : رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير ، ورجل أتاه الله في الحكمة فهو يقضي بها بين الناس " .

وقال القرطبي : روي مرفوعاً " المؤمن يغبط ، والمنافق يحسد " .

وقال : الحسد أول ذنب عصى الله به في السماء ، وأول ذنب عصى به في الأرض ، فحسد إبليس آدم وحسد قابيل هابيل اهـ .

تحذير

كنت سمعت من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه قوله : إن أول معصية وقعت هي الحسد ، وجر شؤمها إلى غيرها ، وذلك لما حسد إبليس أبانا آدم على ما آتاه الله من الكرامات من خلقه بيديه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، فحمله الحسد على التكبر ، ومنعه التكبر من امتثال الأمر بالسجود ، فكانت النتيجة طرده ، عياذاً بالله .

أسباب الحسد

وبتأمل القصة ، يظهر أن الحامل على الحسد أصله أمران :

الأول : ازدراء المحسود .

والثاني : إعجاب الحاسد بنفسه ، كما قال إبليس معللاً لامتناعه من السجود : ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف : 12] .

ثم فصل معنى الخيرية المزعومة بقوله : ﴿ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : 12] ، ويلحق بذلك جميع الأسباب .

وقد ذكروا كنها التعزز في نفسه ، ولا يريد لأحد أن يرتفع عليه ، والتعجب بأنه يعجب بنفسه ، ولا يرى أحداً أولى منه ، والخوف من فوات المقاصد عند شخص إذا رآه سيستغني عنه ، وحب الرئاسة ممن لا يريد لأحد أن يتقدم عليه في أي فن أو مجال .

وذكرها الرازي نقلاً عن الغزالي .

ومن هنا لا نرى معجباً بنفسه قط ، إلا ويزدري الآخرين ويحسدهم على أدنى نعمة أنعمها الله عليهم . عافانا الله من ذلك .

تنبيه

إذا كانت أول معصية وقعت هي حسد إبليس بأبينا آدم على ما أنعم الله به عليه ، وجاء حسد المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم على نعمة الوحي ، وحسد أهل الكتاب للمسلمين على نعمة الإسلام ، وجاءت هذه السورة في أواخر القرآن ، فكأنها جاءت في أعقاب القرآن لتذكر المسلمين بعظم نعمته عليهم وشدة حسدهم عليه ، ليحذروا أعداءهم الذين يكيدون لهم في دينهم ، من كل من الجنة والناس ، على ما سيأتي في السورة بعدها والأخيرة ، إن شاء الله .

مسألة

في حكم من قتل أو كسر أو أتلف شيئًا بالعين

تقدم بيان ذلك في حق السحر ، أما في حق العين ، فقد قال ابن حجر في فتح الباري في

كتاب الطب ما نصه وقد اختلف في جريان القصاص بذلك ، يعني بالعين .

فقال القرطبي : لو أتلف العائن شيئاً ضمنه لو قتل فعليه القصاص أو الدية إذا تكرر ذلك منه ، بحيث يصير عادة وهو في ذلك كالساحر عند من لا يقتله كفراً . اهـ .

ولم يتعرض الشافعية للقصاص في ذلك بل منعوه ، وقالوا : إنه لا يقتل غالباً ولا يعد مهلكاً .

وقال النووي في الروضة : ولا دية فيه ولا كفارة ، لأن الحكم إنما يترتب على منضبط عام دون ما يختص ببعض الناس في بعض الأحوال ، مما لا انضباط له ، كيف ولم يقع منه فعل أصلاً ، وإنما غايته حسد وتمن لزوال نعمة .

وأيضاً ، فالذي ينشأ عن الإصابة بالعين حصوله مكروه لذلك الشخص ، ولا يتعين ذلك المكروه في زوال الحياة ، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين . اهـ .

ولا يعكر على ذلك إلا الحكم بقتل الساحر ، فإنه في معناه ، والفرق بينهما عسير .

ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم : أنه لا ينبغي للإمام منع العائن إذا عرف بذلك من مداخلة الناس ، وأنه يلزمه بيته ، فإن كان فقيراً رزقه ما يقوم به ، فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الي أمر عمر رضي الله عنه بمنعه من مخالطة الناس ، وأشد من ضرر الثوم الذي منع

الشارع آكله من حضور الجماعة .

قال النووي : وهذا القول صحيح متعين ، لا يعرف عن غيره تصريح بخلافه . اهـ . من فتح الباري .

ويتأمل قول القرطبي والنووي بدقة لا يوجد بينهما خلاف في الأصل ، إذ القرطبي يقيد كلامه بما يتكرر منه بحيث يصير عادة له .

والنووي يقول : إنه لا يقتل غالباً ، وعليه فلو ثبت أنه يقتل غالباً وتكرر ذلك منه ، فإنه يتفق مع كلام القرطبي تماماً في أن من أتلف بعينه وكان معتاداً منه ذلك فهو ضامن ، وهذا معقول المعنى ، والله تعالى أعلم .

وعند الحنابلة في كشاف القناع ما نصه : والمعيان الذي يقتل بعينه .

قال ابن نصر الله في حواشي الفروع : ينبغي أن يلحق بالساحر الذي يقتل بسحره غالباً ، فإذا كانت عينه يستطيع القتل بها ويفعله باختباره وجل به القصاص اهـ .

مسألة

بيان ما تعالج به العين

لما كان الحسد أضر ما يكون على الإنسان ، والإصابة بالعين حق لا شك فيها وجاء فيها : " لو أن شيئاً يسبق القدر لسبقته العين " .

وحديث : " إن العين لحق " فقد فصلت السنة كيفية اتقائها قبل وقوعها ، والعلاج منها إذا

وقعت .

وذلك فيما رواه مالك في الموطأ وغيره من الصحاح ، في حديث سهل بن حنيف ، وبوب البخاري في صحيحه باب رقعة العين ، وذكر حديث عائشة أنها قالت : " أمرني النَّبي صلى الله عليه وسلم ، أو أمر أن يسترقي من العين " .

وعقد مالك في الموطأ باباً بعنوان " الوضوء من العين " وباب آخر بعده بعنوان " الرقية من العين " ، وساق حديث سهل بتمامه وفيه بيان كيفية اتقائها وعلاجها ، ولذا نكتفي بإيراده لشموله .

(268/839)

قال : عن محمد بن أبي أسامة بن سهل بن حنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبي سهل بن حنيف بالحرار فنزع جبة كانت عليه ، وعامر بن ربيعة ينظر ، قال : وكان سهل رجلاً أبيض حسن الجلد ، قال : فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كاليوم ولا جلد عذراء ، قال : فوعك سهل مكانه واشتد وعكه ، فأُوتي رسول الله فأُخبر أن سهلاً وعك وأنه غير رائح معك يا رسول الله ، فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره سهل بالذي كان من أمر عامر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " علام يقتل أحدكم أخاه ، ألا بركت ، إن

العين حق ، توضأ له فتوضأ له عامر ، فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس " .

وساق مرة أخرى وفيه ، فقال صلى الله عليه وسلم " هل تتهمون له أحداً ؟ " قالوا : نتهم عامر بن ربيعة ، قال : فدعا رسول الله صلى عليه وسلم عامراً فتغيظ عليه ، وقال : " علام يقتل أحدكم أخاه ، ألا بركت ، اغتسل له ، " فغسل عامر وجهه ويديه وموفقيه وركبتيه وأطراف رجليه ، وداخل إزاره في قدح ثم صب عليه فراح سهل مع الناس ، ليس به بأس " .

فهذه القصة تثبت قطعاً وقوع اللعين ، وهذا أمر مجمع عليه من أهل السنة وسلف الأمة ، كما أنها ترشد إلى أن من برك ، أي قال : تبارك الله .

وفي بعض الروايات لغير مالك : هلاّ كبَّرت ، أي يقول : الله أكبر ثلاثاً ، فإذن ذلك يرد عين العائن .

كما جاء في السنة " أن الدعاء يرد البلاء " فإذا لم تدفع عند صدورها وأصابت ، فإن العلاج منها كما جاء هنا توضأ ، واللفظ الآخر : " اغتسل له " .

وقد فصل المراد بالغسل له : أنه غسل الوجه واليدين أي الكفين فقط ، والمرفقين والركبتين والقدمين وطرف الإزاء الداخلي ، ويكون ذلك في إناء لا يسقط الماء على الأرض ، ويفرغ هذا الماء على المصاب من الخلف ويكفؤ الإناء خلفه .

وقد ذكرها مفصلة القاضي الباجي في شرح الموطأ فقال : وروي عن يحيى عن ابن نافع في معنى الوضوء الذي أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

" يغسل الذي يتهم بالرجل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه ورجليه وداخله إزاره " ، وقال :

" ولا يغسل ما بين اليد والمرافق " ، أي لا يغسل الساعد من اليد .

وروي عن الزهري أنه قال : الغسل الذي أدركنا علماءنا يصفونه : أن يؤتى العائن بقدح فيه ماء ، فيمسك مرتفعاً من الأرض فيدخل فيه كفه فيمضمض ، ثم يمجه في القدح ، ثم يغسل وجهه في القدح صبة واحدة ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على كفه اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على ظهر كفه اليسرى صبة واحدة ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على مرفقه الأيمن ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب على مرفقه الأيسر ، ثم يدخل يده اليسرى فيصب بها على ركبته اليمنى ، ثم يدخل يده اليمنى فيصب بها على ركبته اليسرى ، كل ذلك في قدح ثم يدخل داخلة إزاره في القدح ولا يوضع القدح في الأرض ، فيصب على رأس المعين من خلفه صبة واحدة ، وقيل : يعتقل ويصب عليه ، أي في حالة غفلته ، ثم يكفأ القدح على ظهر الأرض وراءه .

وأما داخله إزاره : فهو الطرف المتدلي الذي يفضي من مأزره إلى جلده مكانه ، إنما يمر بالطرف الأيمن على الأيسر ، حتى يشده بذلك الطرف المتدلي الذي يكون من داخل . اه .

ومما يرشد إليه هذا الحديث تغيظه صلى الله عليه وسلم على عامر بن ربيعة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : " علام يقتل أحدكم أخاه " مما يبيِّن شناعة هذا العمل ، وأنه قد يقتل .

ومما ينبغي مراعاته من كل الطرفين من ابتلى بالعين ، فليبارك عند رؤيته ما يعجبه ليلا يصب أحداً بعينه ، وليلا تسبقه عينه .

وكذلك من اتهم أحداً بالعين ، فليكبر ثلاثاً عند تخوفه منه . فإن الله يدفع العين بذلك .

والحمد لله .

(270/839)

وقد ذكروا للحسد دواء كذلك ، أي يداوي به الحاسد نفسه ليستريح من عناء الحسد المتوقد في قلبه المنغص عليه عيشه الجالب عليه حزنه ، وهو على سبيل المثال الإجمال في أمرين . العلم ثم العمل والمراد بالعلم هو أن يعلم يقيناً أن النعمة التي يراها على المحسود ، إنما هي عطاء من الله بقدر سابق وقضاء لازم ، وأن حسده إياه عليها لا يغير من ذلك شيئاً ،

ويعلم أن ضرر الحسد على الحاسد وحده في دينه لعدم رضائه بقدر الله وقسمته لعباده ، لأنه في حسده كالمعترض على قوله تعالى :

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا ﴾ [الزخرف : 32] ، وفي دنياه لأنه يورث السقام والأحزان والكآبة ونفرة الناس منهم ومقتهم إياه ، ومن وراء هذا وذاك ، العقاب في الآخرة .

أما العمل فهو مجاهد نفسه ضد نوازع الحسد ، كما تقدمت الإشارة إليه في الأسباب ، فإذا رأى ذا نعمة فازدرته عينه ، فليحاول أن يقدره ويخدمه .

وإن راودته نفسه بالإعجاب بنفسه ، ردهل إلى التواضع وإظهار العجز والافتقار .

وإن سوّلت له نفسه تمنى زوال النعمة عن غيره ، صرف ذلك إلى تمني مثلها لنفسه . وفضل الله عظيم .

وإن دعاه الحسد إلى الاساءة إلى المحسود ، سعى إلى الإحسان إليه ، وهكذا فيلسم من شدة الحسد ، ويسلم غيره من شره .

وكما في الأثر : " المؤمن يغبط ، والمنافق يحسد " .

نسأل الله العافية والمعافاة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ [1]

قال : إن الله تعالى أمره في هاتين السورتين بالاعتصام والاستعانة به ، وإظهار الفقر إليه .

قيل : ما إظهار الفقر ؟ قال : هو الحال بالحال ، لأن الطبع ميت وإظهاره حياته .

وقال : أفضل الطهارة أن يطهر العبد من حوله وقوته ، وكل فعل أو قول لا يقارنه "لا حول ولا قوة إلا بالله " لا يتولاه الله عزّ وجلّ ، وكل قول لا يقارنه استثناء عوقب عليه ، وإن كان براً ، وكل مصيبة لا يقارنها استرجاع لم يثبت عليها صاحبها يوم القيامة .

قال : والفلق : الصبح عند ابن عباس رضي الله عنه ، وهو عند الضحاك : وادٍ في النار ، وعند وهب : بيت في النار ، وعند الحسن : جب في النار .

وقيل : أراد به جميع الخلق ، وقيل : هو الصخور تنفلق عن المياه .

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [2] من الإنس والجن ، وذلك أن لبيد بن أعصم اليهودي سحر النبي صلى الله عليه وسلم في بئر بني بياضة ، وكان يسد إليها فاسد إليها فدب فيه السحر ، فاشتد عليه ذلك ، فأنزل الله تعالى المعوذتين ، وأخبره جبريل عليه السلام بالسحر ، وأخرج إليها رجلين من أصحابه فأخرجاه من البئر ، وجاءا به إلى النبي صلى الله عليه

وسلم ، فجعل يحل عقدة ويقرأ آية ، حتى برئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما ختم السورتين بلا مهلة ، فكان لبيد بعد ذلك يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فما رأى في وجه النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك شيئاً ، ولا ذاكره ذلك .

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ [3] يعني إذا دخل الليل .

وقيل : إذا اشتدت ظلمته .

وقيل : وقوب الليل في النهار أول الليل ترسل فيه عفاريت الجن فلا يشفى مصاب تلك الساعة .

قال سهل : ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ [3] باطنها الذكر إذا دخله رؤية النفس ، فستر عن الإخلاص لله بالذكر فيه .

﴿ وَمِن شَرِّ النفاثاتِ فِي العقد ﴾ [4] أي السواحر تنفث في العقد .

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [5] يعني اليهود حسدوا النبي صلى الله عليه وسلم حتى سحروه .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : في هذه الآية هو نفس ابن آدم .

والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 210 ﴾

(273/839)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) ﴾

أخرج أحمد والبزار والطبراني وابن مردويه من طرق صحيحة عن ابن عباس وابن مسعود أنه كان يحك المعوّذتين من المصحف ويقول : لا تخلطوا القرآن بما ليس منه ، إنهما ليستا من كتاب الله ، إنما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتعوّذ بهما ، وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما . قال البزار : لم يتابع ابن مسعود أحد من الصحابة ، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ بهما في الصلاة وأثبتتا في المصحف .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود : " أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن هاتين السورتين فقال : قيل لي فقلت فقولوا كما قلت " .

وأخرج أحمد والبخاري والنسائي وابن الضريس وابن الأنباري وابن حبان وابن مردويه

عن زر بن حبيش قال : أتيت المدينة فلقيت أبيّ بن كعب فقلت : يا أبا المنذر إني رأيت ابن مسعود لا يكتب المعوذتين في مصحفه ، فقال : أما والذي بعث محمداً بالحق قد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما وما سألني عنهما أحد منذ سألته غيرك . قال : قيل لي قل فقلت فقولوا ، فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج مسدد وابن مردويه عن حنظلة السدوسي قال : لعكرمة : إني أصلي بقوم فأقرأ ب ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ فقال : اقرأ بهما فإنهما من القرآن .

وأخرج أحمد وابن الضريس بسند صحيح عن أبي العلاء يزيد بن عبد الله بن الشخير قال : " قال رجل : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، والناس يعتقبون ، وفي الظهر قلة ، فجاءت نزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلتي فلحقني فضرب منكبي فقال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فقلت ﴿ أعوذ برب الفلق ﴾ فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأتها معه ، ثم قال : ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأتها معه . قال : إذا أنت صليت فاقرأ بهما " .

وأخرج الطبراني في الأوسط بسند حسن عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لقد أنزل عليَّ آيات لم ينزل علي مثلهن المعوّذتين".

وأخرج مسلم والترمذي والنسائي وابن الضريس وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنزلت علي الليلة آيات لم أر مثلهن قط ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ".

وأخرج ابن الضريس وابن الأنباري والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن عقبة بن عامر قال: "بينا أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين الجحفة والأبواء إذ غشينا ريح وظلمة شديدة فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ ب ﴿ أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ أعوذ برب الناس ﴾ ويقول: "يا عقبة تعوّذ بهما فما تعوذ متعوّذ بمثلهما"

قال: وسمعته يؤمنا بهما في الصلاة.

وأخرج ابن سعد والنسائي والبغوي والبيهقي عن أبي حابس الجهني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "يا أبا حابس ألا أخبرك بأفضل ما تعوّذ به المتعوّذون؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ هما المعوّذتان ".

وأخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن مردويه والبيهقي عن أبي سعيد الخدري قال:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من عين الجان ومن عين الإِنس فلما نزلت سورة المعوّذتين أخذ بهما وترك ما سوى ذلك .

وأخرج أبو داود والنسائي والحاكم وصححه عن ابن مسعود أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يكره عشر خصال : الصفرة يعني الخلوق ، وتغيير الشيب ، وجر الإِزار ، والتختم بالذهب ، وعقد التمائم والرقى إلا بالمعوذات والضرب بالكعاب ، والتبرج بالزينة لغير بعلها ، وعزل الماء لغير حله ، وفساد الصبي غير محرمه .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن ابن مسعود قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الرقى إلا بالمعوذات .

وأخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إقرؤوا بالمعوذات في دبر كل صلاة " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما سأل سائل ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما يعني المعوذتين " .

وأخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا

عقبة اقرأ ب ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ فإنك لن تقرأ أبلغ منهما " .

وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من أحب السور إلى الله ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل قال : "كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فصلى الغداة فقرأ فيها بالمعوذتين ، ثم قال : يا معاذ هل سمعت ؟ قلت : نعم . قال : ما قرأ الناس بمثلهن " .

وأخرج النسائي وابن الضريس وابن الأنباري وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : " أخذ منكبي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اقرأ قلت : ما أقرأ ؟ بأبي أنت وأمي قال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ ثم قال : اقرأ قلت : بأبي أنت وأمي ما أقرأ : قال : ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ولن تقرأ بمثلهما " .

وأخرج ابن سعد عن يوسف بن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس " أن ثابت بن قيس اشتكى فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض فرقاه بالمعوّذات ونفث عليه ، وقال : " اللهم رب الناس اكشف الباس عن ثابت بن قيس بن شماس " ثم أخذ تراباً من واديهم ذلك يعني بطحان فألقاه في ماء فسقاه " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس عن عقبة بن عامر الجهني قال : "كنت مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم في سفر فلما طلع الفجر أذن وأقام ثم أقامني عن يمينه ثم قرأ بالمعوذتين ، فلما انصرف قال : كيف رأيت ؟ قلت : قد رأيت يا رسول الله . قال : " فاقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت " " .

(276/839)

وأخرج ابن الأنباري عن قتادة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعقبة بن عامر : " اقرأ ب ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ فإنهما من أحب القرآن إلى الله " .

وأخرج الحاكم عن عقبة بن عامر قال : "كنت أقود برسول الله صلى الله عليه وسلم راحلته في السفر فقال : يا عقبة ألا أعلمك خير سورتين قرئتا ؟ قلت : بلى . قال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ فلما نزل صلى بهما صلاة الغداة ، ثم قال له : كيف ترى يا عقبة" .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب بغلة فحادت به فحبسها وأمر رجلاً أن يقرأ عليها ﴿ قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ﴾ فسكنت ومضت .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : " أهدى النجاشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بغلة شهباء فكان فيها صعوبة فقال للزبير : اركبها وذللها فكأن الزبير اتقى فقال له : أركبها واقرأ القرآن . قال : ما أقرأ ؟ قال : اقرأ ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فوالذي نفسي بيده ما قمت تصلي بمثلها " .

وأخرج ابن الأنباري عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه المعوذتين وتفل أو نفث .

وأخرج ابن الأنباري عن ابن عمر قال : إذا قرأت ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فقل أعوذ برب الفلق ، وإذا قرأت ب ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ فقل : أعوذ برب الناس .

وأخرج محمد بن نصر عن أبي ضمرة عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الركعة الثانية التي يوتر بها ب ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين .

وأخرج الطبراني عن ابن مسعود أنه رأى في عنق امرأة من أهله سيراً فيه تمائم فقطعه ، وقال : إن آل عبد الله أغنياء عن الشرك ، ثم قال : التولة والتمائم والرقى من الشرك ، فقالت امرأة : إن إحدانا لتشتكي رأسها فتسترقى ، فإذا استرقت ظنت أن ذلك قد نفعها ، فقال

عبد الله إن الشيطان يأتي أحداكن فينخس في رأسها فإذا استرقت حبس ، فإذا لم تسترق نخر فلو أن إحداكن تدعو بماء فتنضحه على رأسها ووجهها ثم تقول : بسم الله الرحمن الرحيم ثم تقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ نفعها ذلك إن شاء الله .

وأخرج عبد بن حميد في مسنده عن زيد بن أسلم قال : سحر النبي صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى فأتاه جبريل فنزل عليه بالمعوذتين وقال : إن رجلاً من اليهود سحرك ، والسحر في بئر فلان ، فأرسل علياً فجاء به فأمره أن يحل العقد ويقرأ آية فجعل يقرأ ويحل حتى قام النبي صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال .

(278/839)

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن عائشة قالت : "كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلام يهودي يخدمه يقال له لبيد بن أعصم ، فلم تزل به يهود حتى سحر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يذوب ولا يدري ما وجعه ، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة نائم إذا أتاه ملكان فجلس أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، فقال الذي عند رأسه للذي عند رجليه : ما وجعه؟ قال : مطبوب . قال :

من طبه؟ قال: لبيد بن أعصم. قال: بم طبه؟ قال: بمشط وماشطة وجف طلعة ذكر بذي أروان وهي تحت راعوفة البئر. فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غدا ومعه أصحابه إلى البئر فنزل رجل فاستخرج جف طلعة من تحت الراعوفة، فإذا فيها مشط رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن مشاطة رأسه، وإذا تمثال من شمع تمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا فيها أبر مغروزة، وإذا وتر فيه إحدى عشرة عقدة، فأتاه جبريل بالمعوّذتين فقال: يا محمد ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ وحل عقدة ﴿ من شر ما خلق ﴾ وحل عقده حتى فرغ منها وحل العقد كلها وجعل لا ينزع إبرة إلا يجد لها ألماً ثم يجد بعد ذلك راحة، فقيل: يا رسول الله لو قتلت اليهودي فقال: قد عافاني الله وما وراءه من عذاب الله أشد فأخرجه".

وأخرج ابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أن لبيد بن الأعصم اليهودي سحر النبي صلى الله عليه وسلم وجعل فيه تمثالاً فيه إحدى عشرة عقدة، فأصابه من ذلك وجع شديد، فأتاه جبريل وميكائيل يعوذانه فقال ميكائيل يا جبريل إن صاحبك شاك. قال أجل. قال: أصابه لبيد بن الأعصم اليهودي وهو في بئر ميمون في كدية تحت صخرة الماء.

قال : فما وراء ذلك ؟ قال : تنزح البئر ثم تقلب الصخرة فتأخذ الكدية فيها تمثال فيه إحدى عشرة عقدة فتحرق فإنه يبرأ بإذن الله ، فأرسل إلى رهط فيهم عمار بن ياسر فنزح الماء فوجدوه قد صار كأنه ماء الحناء ، ثم قلبت الصخرة إذا كدية فيها صخرة فيها تمثال فيها إحدى عشرة عقدة ، فأنزل الله يا محمد ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ الصبح فانحلت عقدة ﴿ من شر ما خلق ﴾ من الجن والإنس فانحلت عقدة ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ الليل وما يجيء به الليل ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ السحارات المؤذيات فانحلت ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : صنعت اليهود بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فأصابه منه وجع شديد ، فدخل عليه أصحابه فخرجوا من عنده وهم يرون أنه ألم به فأتاه جبريل بالمعوّذتين فعوّذه بهما ثم قال : بسم الله أرقيك من كل شر يؤذيك ومن كل عين ونفس حاسد الله يشفيك باسم الله أرقيك " .

أخرج ابن مردويه عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه قال : " صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فقال : " يا ابن عبسه أتدري ما الفلق ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال : بئر في جهنم إذا سعرت جهنم فمنه تسعر ، وإنها لتتأذى به كما يتأذى بنو آدم من جهنم " " .

وأخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أقرأ ﴿ قل أعوذ بر الفلق ﴾ هل تدري ما الفلق ؟ باب في النار إذا فتح سعرت جهنم " .

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنه قال : " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ قال : هو سجن في جهنم يحبس فيه الجبارون والمتكبرون ، وإن جهنم لتعوذ بالله منه " .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " الفلق جب في جهنم مغطى " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن علي عن آبائه قال : الفلق جب في قعر جهنم عليه غطاء ، فإذا كشف عنه خرجت منه نار تصيح منه جهنم من شدة حر ما يخرج منه .

وأخرج ابن جريرعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الفلق الصبح .

وأخرج الطستي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله تعالى ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ قال : أعوذ برب الصبح إذا انفلق عن ظلمة الليل .

قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت زهير بن أبي سلمى يقول :

الفارج الهمّ مسدولاً عساكره . . . كما يفرج غم الظلمة الفلق

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : الفلق الخلق .

وأخرج أحمد والترمذي وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ في العظمة والحاكم وصححه وابن مردويه عن عائشة قالت : " نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً إلى القمر لما طلع فقال يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا فإن هذا الغاسق إذا وقب " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة " عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال : النجم هو الغاسق ، وهو الثريا " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله : ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال : كانت العرب تقول الغاسق سقوط الثريا ، وكانت الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها وترتفع عند طلوعها .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا ارتفعت النجوم رفعت العاهة عن كل بلد " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عطية ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال : الليل إذا ذهب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب رضي الله عنه قال : الغاسق سقوط الثريا ، والغاسق

إذا وقب الشمس إذا غربت .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال : الليل إذا أقبل .

(281/839)

وأخرج الطستي عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله : عز وجل ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال : الغاسق الظلمة والوقب شدة سواده إذا دخل في كل شيء قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم أما سمعت زهيراً يقول :

ظلت تجوب يداها وهي لاهية . . . حتى إذا جنح الإِظلام والغسق

وقال في الوقب :

وقب العذاب عليهم فكأنهم . . . لحقتهم نار السماء فأخمدوا

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ غاسق إذا وقب ﴾ قال : الليل إذا دخل .

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ومن شر النفاثات ﴾ قال : الساحرات .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ النفاثات في العقد ﴾ قال : ما خالط السحر من الرقى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ النفاثات ﴾ قال : السواحر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ النفاثات في العقد ﴾ قال : الرقى في عقد الخيط .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك " .

وأخرج الحاكم وابن مردويه " عن أبي هريرة رضي الله عنه : " أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه يعوده فقال : ألا أرقيك برقية رقاني بها جبريل ؟ قلت بلى ، بأبي أنت وأمي . قال : بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء فيك ﴿ من شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ فرقى بها ثلاث مرات " " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنه : " أن النبي صلى الله عليه وسلم وجد وجعاً في رأسه فأبطأ على أصحابه ثم خرج إليهم فقال له عمر : ما الذي بطأ بك عنا ؟ فقال : وجع وجدته في رأس فهبط عليّ جبريل ، فوضع يده على رأسي ثم قال : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك أو يصيبك ومن شر كل ذي شر معلن أو مسر ، ومن شر الجن والإِنس ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ قال : فبرأت " .

أخرج ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الإِيمان عن الحسن في قوله : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ قال : هو أول ذنب كان في السماء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن رضي الله عنه ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ يعني اليهود هم حسدة الإِسلام .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ قال : نفس ابن آدم وعينه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه ﴿ ومن شر حاسد ﴾ قال : من شر عينه ونفسه .

وأخرج ابن مردويه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جبريل أتاه وهو يوعك فقال : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، من حسد حاسد ، وكل عين ، اسم الله يشفيك .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله أو عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم اشتكى فأتاه جبريل فقال : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، من

كل كاهن وحاسد ، والله يشفيك .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب" .

وأخرج ابن مردويه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يحل الدرجات العلى اللعان ولا منان ولا بخيل ولا باغ ولا حسود" .

وأخرج البيهقي في الشعب عن أنس رضي الله عنه قال : "كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم جلوساً فقال : يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة ، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه في يده الشمال فسلم ، فلما كان من الغد ، قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فطلع الرجل مثل مرته الأولى ، فلما كان اليوم الثالث قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل مقالته فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأول ، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه فقال : إني لاحيت أبي فاقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تأويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت قال : نعم . قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه ثلاث ليال فلم يره

يقوم إلا لصلاة الفجر ، وإذا تقلب على فراشه ذكر الله وكبره ، ولا يقول إلا خيراً . فلما مضى الثلاث ليال وكدت احتقر عمله قلت يا عبد الله : لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الثلاث مرات ، فأردت أن آوي إليك فأنظر ما عملك فلم أرك تعمل كثير عمل ، فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي غشاً على أحد من المسلمين ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : فهذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق " .

وأخرج البيهقي عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الصلاة نور ، والصيام جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كاد الفقر أن يكون كفراً ، وكاد الحسد أن يغلب القدر " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن الأصمعي رضي الله عنه قال : بلغني أن الله عز وجل يقول : الحاسد عدو نعمتي ، متسخط لقضائي ، غير راض بقسمتي التي قسمت بين عبادي .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الحسد ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 683.692 ﴾

(285/839)

من فوائد الإمام الجصاص فى السورة الكريمة

قال رحمه الله :

وَمِنْ سُورَةِ الْفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ النفيلي قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إسْحَاقَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : ﴿ بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الْجُحْفَةِ وَالْأَبْوَاءِ ؛ إذْ غَشِيَتْنَا رِيحٌ وَظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ

بِأَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَأَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ وَيَقُولُ : يَا عُقْبَةُ تَعَوَّذْ بِهِمَا فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا ، قَالَ : وَسَمِعْتُهُ يَؤُمُّنَا بِهِمَا فِي الصَّلَاةِ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ قَالَ : ﴿ جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَقَاهُ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ ﴾ .

وَقَالَتْ عَائِشَةُ : ﴿ أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ أَسْتَرْقِيَ مِنْ الْعَيْنِ ﴾

وَرَوَى الشَّعْبِيُّ عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا رُقْيَةَ إلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَّى ﴾ وَعَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلُهُ .

(286/839)

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا الْأَعْمَشُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ عَنْ يَحْيَى بْنِ الْجَزَّارِ عَنْ ابْنِ أَخِي زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ إنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتُّوَلَةَ شِرْكٌ ﴾ قَالَتْ : قُلْت : لِمَ تَقُولُ هَذَا وَاَللَّهِ لَقَدْ كَانَتْ عَيْنِي تَقْذِفُ فَكُنْت أَخْتَلِفُ إلَى فُلَانٍ الْيَهُودِيِّ يَرْقِينِي فَإِذَا رَقَانِي سَكَنَتْ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : إنَّمَا ذَلِكَ عَمَلُ الشَّيْطَانِ ، كَانَ يَنْخُسُهَا

بِيَدِهِ فَإِذَا رَقَاهُمَا كَفَّ عَنْهُمَا ، إِنَّمَا يَكْفِيكِ أَنْ تَقُولِي كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ أَذْهِبْ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا ﴾ .

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ ؛ قَالَ أَبُو صَالِحٍ : النَّفَّاثَاتُ فِي الْعُقَدِ " السَّوَاحِرُ " .

وَرَوَى مَعْمَرٌ عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ تَلَا : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ قَالَ : " إِيَّاكُمْ وَمَا يُخَالِطُ مِنْ السِّحْرِ مِنْ هَذِهِ الرُّقَى " .

(287/839)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : النَّفَّاثَاتُ فِي الْعُقَدِ السَّوَاحِرُ يَنْفُثْنَ عَلَى الْعَلِيلِ وَيَرْقُونَهُ بِكَلَامٍ فِيهِ كُفْرٌ وَشِرْكٌ وَتَعْظِيمٌ لِلْكَوَاكِبِ وَيُطْعِمْنَ الْعَلِيلَ الْأَدْوِيَةَ الضَّارَّةَ وَالسُّمُومَ الْقَاتِلَةَ وَيَحْتَالُونَ فِي التَّوَصُّلِ إِلَى ذَلِكَ ثُمَّ يَزْعُمْنَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْ رُقَاهُنَّ ، هَذَا لِمَنْ أَرَدْنَ ضَرَرَهُ وَتَلَفَهُ وَأَمَّا مَنْ يَزْعُمْنَ أَنَّهُنَّ يُرِدْنَ نَفْعَهُ فَيَنْفُثْنَ عَلَيْهِ وَيُوهِمْنَ أَنَّهُنَّ يَنْفَعْنَ بِذَلِكَ ، وَرُبَّمَا يَسْقِينَهُ بَعْضَ الْأَدْوِيَةِ النَّافِعَةِ فَيَتَّفِقُ لِلْعَلِيلِ خِفَّةُ الْوَجَعِ ؛ فَالرُّقْيَةُ الْمَنْهِيُّ عَنْهَا هِيَ رُقْيَةُ الْجَاهِلِيَّةِ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ ، وَأَمَّا الرُّقْيَةُ بِالْقُرْآنِ وَبِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّهَا جَائِزَةٌ وَقَدْ أَمَرَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَندب إِلَيْهَا ، وكَذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِي التَّبَرُّكِ بِالرُّقْيَةِ بذِكْرِ اللَّهِ .

وَإِنَّمَا أَمرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ؛ لِأَنَّ مَنْ صَدَّقَ بِأَنَّهُنَّ يَنْفَعْنَ بذَلِكَ كَانَ ذَلِكَ ضَرَرًا عَلَيْهِ فِي الدِّينِ مِنْ حَيْثُ يَعْتَقِدُ جَوَازَ نَفْعِهَا وضَرَرِهَا بِتِلْكَ الرُّقْيَةِ ؛ وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى شَرُّهُنَّ فِيمَا يَحْتَلْنَ مِنْ سَقْيِ السُّمُومِ وَالْأَدْوِيَةِ الضَّارَّةِ .

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ

(288/839)

مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الرَّبِيعِ قَالَ : أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ قَالَ : يَقُولُ مِنْ شَرِّ عَيْنَيْهِ وَنَفْسِهِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ رَوَتْ عَائِشَةُ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَرَهَا أَنْ تَسْتَرْقِيَ مِنْ الْعَيْنِ ﴾ ، وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ الْعَيْنُ حَقٌّ ﴾ ، وَالْأَخْبَارُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصِحَّةِ الْعَيْنِ مُتَظَاهِرَةٌ ؛ حَدَّثَنَا ابْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْقَاسِمُ بْنُ زَكَرِيَّا قَالَ : حَدَّثَنَا سُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو إبْرَاهِيمَ السَّقَّاءُ عَنْ لَيْثٍ عَنْ طَاوسٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْعَيْنُ حَقٌّ فَلَوْ كَانَ شَيْءٌ يَسْبِقُ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ فَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ ضَرَرَ الْعَيْنِ إنَّمَا هُوَ مِنْ جِهَةِ شَيْءٍ يَنْفَصِلُ مِنْ الْعَائِنِ فَيَتَّصِلُ بِالْمَعِينِ ؛ وَهَذَا هُوَ شَرٌّ وَجَهْلٌ ، وَإِنَّمَا الْعَيْنُ فِي الشَّيْءِ الْمُسْتَحْسَنِ عِنْدَ الْعَائِنِ ، فَيَتَّفِقُ فِي كَثِيرٍ مِنْ الْأَوْقَاتِ ضَرَرٌ يَقَعُ بِالْمَعِينِ ، وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى إنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ عِنْدَ إعْجَابِ الْإِنْسَانِ بِمَا يَرَاهُ تَذْكِيرًا لَهُ لِئَلَّا يَرْكَنْ إلَى الدُّنْيَا وَلَا يَعْجَبَ بِشَيْءٍ مِنْهَا ، وَهُوَ نَحْوُ مَا رُوِيَ أَنَّ الْعَضْبَاءَ نَاقَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ تَكُنْ تُسْبَقُ فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَعُودٍ لَهُ فَسَابَقَ بِهَا فَسَبَقَهَا ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ ﴿ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنْ الدُّنْيَا إلَّا وَضَعَهُ ﴾ وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْعَائِنِ عِنْدَ إعْجَابِهِ بِمَا يَرَاهُ أَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ وَقُدْرَتَهُ فَيَرْجِعُ إلَيْهِ وَيَتَوَكَّلُ

عَلَيْهِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا ؛ إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ ﴾ فَأَخْبَرَ بِهَلَاكِ جَنَّتِهِ عِنْدَ إعْجَابِهِ بِهَا بِقَوْلِهِ ، فَقَالَ : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ إلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا ؛ إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ ﴾ أَيْ لِتَبْقَى عَلَيْكَ نِعَمُ اللَّهِ تَعَالَى إلَى وَقْتِ وَفَاتِك .

وحَدَّثنا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا إسْمَاعِيل بْنُ الْفَضْل قال : حَدَّثَنَا الْعبَّاس بْنُ أَبِي طَالِب قَالَ : حَدَّثنا حَجَّاجٌ قَالَ : حَدَّثنا أبو بكْر الهذلي عَنْ ثُمَامَة عَنْ أَنس قال : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ : ﴿ مَنْ رأَى شَيْئًا أَعْجَبَهُ فقَالَ اللَّهُ اللَّه مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ لَمْ يَضرَّهُ شَيْءٌ ﴾ .

وَاَللَّهُ الْمُوفِّقُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(291/839)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الفلق

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1)

قوله : ﴿ الفلق ﴾ : هو الصُّبْحُ . وهو فَعَل بمعنى مَفْعُول كالقَبَضِ ، اي : مَفْلوق . وفي الحديث : " الرُّؤْيا مِثْلُ فُلُقَ الصُّبح " قال الشاعر :

4682 يا ليلةً لم أَنَمْها بِتُّ مُرْتَقِباً . . . أَرْعَى النجومَ إلى أنْ نَوَّرَ الفَلَقُ

وقال ذو الرمة :

4683 حتى إذا ما انجلى عن وَجْهِه فَلَقٌ . . . هادِيْهِ في أُخْرياتِ الليلِ مُنْتَصِبُ

وقيل : هو جُبٌّ في جهنَّمَ . وقيل : المطمئِنُّ من الأرض . وجمعُه فُلْقان . وقيل : كلُّ ما فُلِقَ كالحَبِّ والأرضِ عن النبات .

مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2)

قوله : ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ : متعلقٌ ب " أعوذُ " والعامَّةُ على إضافةِ " شَرِ " إلى " ما " وقرأ عمرو بن فائد بتنوينه . وقال ابنُ عطية : " عمروُ بن عبيد وبعضُ المعتزلة الذين يَرَوْن أنَّ اللَّهَ لم يَخْلُقِ الشرَّ : " مِنْ شَرٍ " بالتنوين " ما خلقَ " على النفي ، وهي قراءةٌ مردودةٌ مبنيَّةٌ على مذهب باطلٍ " انتهى ولا يتعيَّن أَنْ تكونَ " ما " نافيةً ، بل يجوزُ أن تكونَ موصولةً بدلاً مِنْ " شر " على حذفِ مضافٍ ، أي : من شرٍ شَرِّ ما خَلَقَ . عَمَّمَ أولاً [ثم خَصَّص ثانياً] وقال ابو البقاء : " وما على هذا بدلٌ مِنْ " شرّ " أو زائدةٌ . ولا يجوزُ أَنْ تكونَ نافيةً ؛ لأنَّ النافيةَ لا يتقدَّمُ عليها ما في حيِّزها . فلذلك لم يَجُزْ أَنْ يكونَ التقدير : ما خَلَقَ مِنْ شر ، ثم هو فاسِدُ المعنى " قلت : وهو رَدٌّ حسنٌ صناعيٌّ . ولا يقال : إنَّ " مِنْ شرّ " متعلقٌ ب " أعوذُ " وحُذِفَ مفعولُ " خَلَق " لأنه خلافُ الأصلِ . وقد أنْحى مكيٌّ على هذا القائلِ ، وردَّه بما تقدَّم أقبحَ ردّ . [و " ما " مصدريةٌ ، أو بمعنى الذي] .

وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3)

قوله : ﴿ وَقَبَ ﴾ : وَقَبَ الليلُ : أظلم ، والعذابُ : حَلَّ ، والشمسُ : [غَرَبَتْ : وقيل : وَقَبَ ، أي : دَخَلَ] قال الشاعر :

4684 وَقَبَ العذابُ عليهمُ فكأنَّهمْ . . . لَحِقَتْهُمُ نارُ السَّمومِ فأُحْصِدوا

والغاسِقُ قيل : الليلُ . وقيل : القمر . سُمِّي الليلُ غاسِقاً لُبرودته . وقد تقدَّمَ الكلامُ على هذه المادةِ في سورة ص . واسْتُعيذ من الليلِ لما يبيتُ فيه من الآفاتِ . قال الشاعر :

4685 يا طيفَ هندٍ لقد أَبْقَيْتَ لي أَرَقا . . . إذ جِئْتَنا طارقاً والليلُ قد غَسَقا

أي : أظلمَ واعْتَكَرَ . و " إذا " منصوب ب " أعوذُ " ، أي : أعوذُ باللَّهِ مِنْ هذا في وقتِ كذا .

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4)

قوله : ﴿ النفاثات ﴾ : جمع نَفَّاثَة مثال مُبالغةٍ . من نَفَثَ ، أي : نَفَخَ . واخْتُلِفَ فيه فقال أبو الفضل : شَبَّه النَّفْخَ من الفمِ في الرُّقْيَةِ ولا شيءَ معه . فإذا كان بريْقٍ فهو التَّفْلُ وأُنْشد :

4686 فإنْ يَبْرَأْ فلم أُنْفِثْ عليه . . . وإنْ يُفْقَدْ فَحَقَّ له الفُقُودُ

وقال الزمخشري : " نَفْخٌ معه رِيْقٌ " وقرأ الحسن " النُّفَّاثات " بضم النون ، وهي اسم

كالنُّفَّاخَة . ويعقوب وعبدُ الله بن القاسم " النافِثات " وهي محتملةٌ لقراءةِ العامة ، والحسن ايضاً وأبو الرَّبيع " النَّفِثات " دونَ ألفٍ كحاذِر وحَذِر . ونَكّر غاسِقاً وحاسداً لأنه قد يَتَخَلَّفُ الضَّرَرُ فيهما . فالتنكيرُ يفيد التبعيضَ . وعرَّفَ " النفَّاثات " : إمَّا للعَهْدِ كما يروى في التفسير ، وإمَّا للمبالغةِ في الشَّرِّ . انتهى انتهى . اهـ ﴿الدر المصون حـ 11 صـ 160.157﴾

(293/839)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الفلق

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " اسم عزيز إذا تجلى لقلب فإن لاطفه بجماله أحياه ، وإن كاشفه بجلاله أباده وأفناه ، فالعبد في حالتي : بقاء وفناء ، ومحو وإثبات ، ووجد وفقد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ .

أي امتنع واعتصم بربِّ الفَلَقَ . والفلقُ الصُّبحُ .

ويقال: هو الخَلْقُ كلُّهم وقيل الفَلَقُ وادٍ في جهنم.

﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾.

أي من الشرور كلّها.

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾.

قيل: الليلُ إذا دخَلَ. وفي خبرٍ، أنه صلى الله عليه وسلم أخذ بيد عائشة ونَظَرَ إلى القمر فقال: "يا عائشة، تعَوّذي بالله من شرِّ هذا فإنه الغاسقُ إذا وقب".

﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ ﴾.

وهن السواحر اللواتي ينفخن في عُقَد الخيط (عند الرُّقية) ويوهمنَّ إدخال الضرِر بذلك.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾.

والحَسَدُ شرُّ الأخلاق.

وفي السورة تعليمُ استدفاع الشرور من الله. ومَنْ صَحَّ توكُّلُه على الله فهو الذي صحَّ تحقُّقُه بالله، فإذا توكَّلَ لم يُوَفِّقْه اللَّهُ للتوكُّلِ إلاَّ والمعلومُ من حاله أنه يكفيه ما توكَّلَ به عليه؛ وإنَّ العبدَ به حاجةٌ إلى دَفْعِ البلاء عنه - فإن أخَذَ في التحرُّز من تدبيره وحَوْله وقُوَّته، وفَهْمِه وبصيرته في كلِّ وقتٍ استراح من تعب تردُّدِ القلبِ في التدبير، وعن قريبٍ يُرَقَّى إلى حالة الرضا.. كُفِيَ مُرادَه أم لا. وعند ذلك الملك الأعظم، فهو بظاهره لا يفتر عن الاستعاذة، وبقلبه لا يخلو من التسليم والرضا. (1) انتهى انتهى. اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ

786.785 ﴾

---

(1) معنى هذا أن تمام التوكّل على اللّه أعظم مانع للعبد من أن يلم به مكروه نتيجة سحر أو حسد ونحوهما، فلن يصيب العبد إلا ما كتبه اللّه له.

(294/839)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة:

سورة الفلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (4)

وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (5)

الإعراب:

(بربّ) متعلّق بـ (أعوذ)، (من شرّ) متعلّق بـ (أعوذ) في المواضع الأربعة (ما) اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه " 1 "، والعائد محذوف (إذا) ظرف في محلّ نصب مجرّد من الشرط متعلّق بالمصدر (شرّ غاسق)، (في العقد) متعلّق بـ (النفّاثات)، (إذا) مثل الأول

متعلّق بالمصدر (شر حاسد) . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " أعوذ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " خلق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

---

(1) أو حرف مصدريّ ، والخلق بمعنى المخلوق ، أو بمعنى الإبداع . . . قاله العكبريّ .

وجملة : " وقب . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " حسد . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

الصرف :

(1) الفلق : اسم بمعنى الصبح " 1 " ، وزنه فعل بفتحتين .

(3) غاسق : اسم فاعل من الثلاثيّ غسق أي أظلم ، وزنه فاعل وهو الليل " 2 " .

(4) النفّاثات : جمع النفّاثة مؤنث النفّاث ، مبالغة اسم الفاعل أي النافخات في العقد للسحر ، مأخوذ من الثلاثيّ نفث باب نصر وباب ضرب ، وزنه فعّال .

(5) حاسد : اسم فاعل من الثلاثيّ حسد ، وزنه فاعل .

الفوائد :

-الحسد والغبطة :

الحسد : هو تمني زوال النعمة عن الغير ، وهذا شيء مذموم . وكان اليهود لعنهم اللّه يحسدون النبي لما أنزل عليه من القرآن ونعمة الإسلام أما الحسد ، إن كان معناه التنافس والتسابق بالخيرات ، فهذا شيء محمود ، للحديث الشريف القائل (لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه اللّه ما لا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه اللّه علما يعلمه الناس) أما الغبطة ، فهي أن تتمنى أن تصير مثل صاحب النعمة ، دون تمني زوالها عنه ، وهذا غير مذموم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 428.427 ﴾

---

(1) جاء في التفاسير معان كثيرة للفلق منها : سجن في جهنّم أو واد فيها أو ما اطمأنّ من الأرض أو الرحم . . . إلخ .

(2) أو هو القمر إذا أظلم أو خسف ، أو الشمس إذا غربت ، أو الحيّة إذا لدغت ، أو كلّ هاجم يضرّ . . . إلخ .

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

(113) سورة الفلق

مكيّة وآياتها خمس

[سورة الفلق (113) : الآيات 1 إلى 5]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ (4)

وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ (5)

اللغة :

(الْفَلَقِ) : الصبح قال الزمخشري : " الفلق والفرق : الصبح لأن الليل يفلق عنه ويفرق فعل بمعنى مفعول يقال في المثل : هو أبين من فلق الصبح ومن فرق الصبح ومنه قولهم سطح الفرقان إذا طلع الفجر " وقال الشاعر :

يا ليلة لم أنمها بتّ مرتقبا أرعى النجوم إلى أن قدر الفلق

وقال آخر يصف الثور الوحشي :

حتى إذا ما انجلى عن وجهه فلق هاديه في أخريات الليل منتصب

وهناك أقوال أخرى في المراد به يرجع فيها إلى المطولات ، والأول أولى ولهذا ضربنا صفحا عنها .

(غاسِقٍ) الغاسق : الليل إذا اعتكر ظلامه قال الشاعر :

يا طيف هند لقد أبقيت لي أرقا إذ جئتنا طارقا والليل قد غسقا

(وَقَبَ) دخل ظلامه كل شيء ويقال وقبت الشمس إذا غابت وفي الحديث " لما رأى الشمس قد وقبت " قال هذا حين حلّها يعني صلاة المغرب وهناك أقوال أخرى ليس هذا موضعها .

(النَّفَّاثاتِ) السواحر اللواتي تنفث في العقد التي تعقدها والنفث كما في المختار " شبيه بالنفخ وهو أقل من التفل وقد نفث الراقي من باب ضرب ونصر والنفاثات في العقد السواحر " وسيأتي المزيد من معناها في باب الفوائد .

الإعراب :

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ) قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وجملة أعوذ مقول القول وأعوذ فعل مضارع مرفوع وفاعله مستتر تقديره أنا وبرب الفلق متعلقان بأعوذ ومن شر متعلقان بأعوذ وما اسم موصول مضاف إليه وجملة خلق صلة والعائد محذوف أي خلقه ويجوز أن تكون مصدرية (وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إِذا وَقَبَ) عطف على ما تقدم وإذا ظرف لمجرد الظرفية وجملة وقب في محل جر بإضافة الظرف إليها (وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي الْعُقَدِ) عطف على ما تقدم أيضا وفي العقد متعلقان بالنفاثات (وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ) عطف على ما تقدم وإعرابه ظاهر .

الفوائد :

عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه للتعميم والتخصيص ، فكل نفاثة شريرة أما الحسد فمنه المحمود ومنه المذموم ، قال صلى اللّه عليه وسلم لا حسد إلا في اثنتين وقال أبو تمام " إن العلا حسن في مثلها الحسد " وقال " وما حاسد في المكرمات بحاسد " . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 622. 623 ﴾

(299/839)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ الْفَلَقِ

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ نَاصِرُ السُّنَّةِ قَامِعُ الْبِدْعَةِ تَقِيُّ الدِّينِ أَحْمَد ابْنُ تَيْمِيَّةَ نفعنا الْمَوْلَى بِعُلُومِهِ -وَهُوَ مِمَّا كَتَبَهُ فِي الْقَلْعَةِ- :

فَصْلٌ : فِي ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ﴾ وَالْفَلَقُ : فِعْلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَالْقَبْضِ بِمَعْنَى الْمَقْبُوضِ فَكُلُّ مَا فَلَقَهُ الرَّبُّ فَهُوَ فَلَقٌ قَالَ الْحَسَنُ : الْفَلَقُ كُلُّ مَا انْفَلَقَ عَنْ شَيْءٍ : كَالصُّبْحِ وَالْحَبِّ وَالنَّوَى . قَالَ الزَّجَّاجُ : وَإِذَا تَأَمَّلْت الْخَلْقَ بَانَ لَك أَنَّ أَكْثَرَهُ عَنْ انْفِلَاقٍ

(300/839)

كَالْأَرْضِ بِالنَّبَاتِ وَالسَّحَابِ بِالْمَطَرِ . وَقَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ الْمُفَسِّرِينَ : الْفَلَقُ الصُّبْحُ فَإِنَّهُ يُقَالُ هَذَا أَبْيَنُ مِنْ فَلَقِ الصُّبْحِ وَفَرَقِ الصُّبْحِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْفَلَقُ الْخَلْقُ كُلُّهُ وَأَمَّا مَنْ قَالَ : إنَّهُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ أَوْ شَجَرَةٌ فِي جَهَنَّمَ أَوْ أَنَّهُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ جَهَنَّمَ فَهَذَا أَمْرٌ لَا تُعْرَفُ صِحَّتُهُ لَا بِدَلَالَةِ الِاسْمِ عَلَيْهِ وَلَا بِنَقْلِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا فِي تَخْصِيصِ رُبُوبِيَّتِهِ بِذَلِكَ

حِكْمَةٌ بِخِلَافِ مَا إذَا قَالَ رَبُّ الْخَلْقِ أَوْ رَبُّ كُلِّ مَا انْفَلَقَ أَوْ رَبُّ النُّورِ الَّذِي يُظْهِرُهُ عَلَى الْعِبَادِ بِالنَّهَارِ فَإِنَّ فِي تَخْصِيصِ هَذَا بِالذِّكْرِ مَا يَظْهَرُ بِهِ عَظَمَةُ الرَّبِّ الْمُسْتَعَاذِ بِهِ وَإِذَا قِيلَ: الْفَلَقُ يَعُمُّ وَيَخُصُّ فَبِعُمُومِهِ لِلْخَلْقِ أَسْتَعِيذُ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَبِخُصُوصِهِ لِلنُّورِ النَّهَارِيِّ أَسْتَعِيذُ مِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إذَا وَقَبَ. فَإِنَّ الْغَاسِقَ قَدْ فُسِّرَ بِاللَّيْلِ كَقَوْلِهِ: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ وَهَذَا قَوْلُ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ وَأَهْلِ اللُّغَةِ. قَالُوا: وَمَعْنَى ﴿ وَقَبَ ﴾ دَخَلَ فِي كُلِّ شَيْءٍ. قَالَ الزَّجَّاجُ: الْغَاسِقُ الْبَارِدُ وَقِيلَ اللَّيْلُ غَاسِقٌ لِأَنَّهُ أَبْرَدُ مِنْ النَّهَارِ وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِي ﴿ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرَ إلَى الْقَمَرِ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ تَعَوَّذِي بِاَللَّهِ مِنْ شَرِّهِ فَإِنَّهُ الْغَاسِقُ إذَا وَقَبَ ﴾ وَرَوَى

مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا ﴿ أَنَّ الْغَاسِقَ النَّجْمُ ﴾ وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ هُوَ الثُّرَيَّا وَكَانَتْ الْأَسْقَامُ وَالطَّوَاعِينُ تَكْثُرُ عِنْدَ وُقُوعِهَا وَتَرْتَفِعُ عِنْدَ طُلُوعِهَا وَهَذَا الْمَرْفُوعُ قَدْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ مُنَافَاتَهُ لِمَنْ فَسَّرَهُ بِاللَّيْلِ فَجَعَلُوهُ قَوْلًا آخَرَ ثُمَّ فَسَّرُوا وُقُوبَهُ بِسُكُونِهِ. قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: وَيُقَالُ الْغَاسِقُ الْقَمَرُ إذَا كَسَفَ وَاسْوَدَّ. وَمَعْنَى وَقَبَ دَخَلَ فِي الْكُسُوفِ وَهَذَا ضَعِيفٌ فَإِنَّ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُعَارَضُ بِقَوْلِ غَيْرِهِ وَهُوَ لَا يَقُولُ إلَّا الْحَقَّ وَهُوَ

لَمْ يأْمُرْ عَائِشَةَ بِالاسْتِعَاذَةِ مِنْهُ عِنْدَ كُسُوفِهِ بَلْ مَعَ ظُهُورِهِ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ فَالْقَمَرُ آيَةُ اللَّيْلِ . وَكَذَلِكَ النُّجُومُ إنَّمَا تَطْلُعُ فَتُرَى بِاللَّيْلِ فَأَمْرُهُ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ آيَةِ اللَّيْلِ وَدَلِيلُهُ وَعَلَامَتُهُ وَالدَّلِيلُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَدْلُولِ فَإِذَا كَانَ شَرُّ الْقَمَرِ مَوْجُودًا فَشَرُّ اللَّيْلِ مَوْجُودٌ وَلِلْقَمَرِ مِنْ التَّأْثِيرِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ فَتَكُونُ الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ الشَّرِّ الْحَاصِلِ عَنْهُ أَقْوَى وَيَكُونُ هَذَا كَقَوْلِهِ عَنْ الْمَسْجِدِ الْمُؤَسَّسِ عَلَى التَّقْوَى : " هُوَ مَسْجِدِي هَذَا " مَعَ أَنَّ الْآيَةَ تَتَنَاوَلُ مَسْجِدَ قُبَاءَ قَطْعًا . وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ عَنْ أَهْلِ الْكِسَاءِ : " هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي " مَعَ أَنَّ الْقُرْآنَ يَتَنَاوَلُ نِسَاءَهُ فَالتَّخْصِيصُ

لِكَوْنِ الْمَخْصُوصِ أَوْلَى بِالْوَصْفِ فَالْقَمَرُ أَحَقُّ مَا يَكُونُ بِاللَّيْلِ بِالِاسْتِعَاذَةِ وَاللَّيْلُ مُظْلِمٌ تَنْتَشِرُ فِيهِ شَيَاطِينُ

الْإِنْسِ وَالْجِنِّ مَا لَا تَنْتَشِرُ بِالنَّهَارِ وَيَجْرِي فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ مَا لَا يَجْرِي بِالنَّهَارِ مِنْ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَالسِّحْرِ وَالسَّرِقَةِ وَالْخِيَانَةِ وَالْفَوَاحِشِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَالشَّرُّ دَائِمًا مَقْرُونٌ بِالظُّلْمَةِ وَلِهَذَا إنَّمَا جَعَلَهُ اللَّهُ لِسُكُونِ الْآدَمِيِّينَ وَرَاحَتِهِمْ لَكِنَّ شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ تَفْعَلُ فِيهِ مِنْ الشَّرِّ مَا لَا يُمْكِنُهَا فِعْلُهُ بِالنَّهَارِ وَيَتَوَسَّلُونَ بِالْقَمَرِ وَبِدَعْوَتِهِ وَالْقَمَرِ وَعِبَادَتِهِ وَأَبُو مَعْشَرٍ الْبَلْخِي لَهُ "مُصْحَفُ الْقَمَرِ" يَذْكُرُ فِيهِ مِنْ الْكُفْرِيَاتِ وَالسِّحْرِيَّاتِ مَا يُنَاسِبُ الِاسْتِعَاذَةَ مِنْهُ . فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ الِاسْتِعَاذَةَ مِنْ شَرِّ الْخَلْقِ عُمُومًا ثُمَّ خَصَّ الْأَمْرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الْغَاسِقِ إذَا وَقَبَ وَهُوَ الزَّمَانُ الَّذِي يَعُمُّ شَرُّهُ ثُمَّ خَصَّ بِالذِّكْرِ السِّحْرَ وَالْحَسَدَ . فَالسِّحْرُ يَكُونُ مِنْ الْأَنْفُسِ الْخَبِيثَةِ لَكِنْ بِالِاسْتِعَانَةِ بِالْأَشْيَاءِ كَالنَّفْثِ فِي الْعُقَدِ . وَالْحَسَدُ يَكُونُ مِنْ الْأَنْفُسِ الْخَبِيثَةِ أَيْضًا إمَّا بِالْعَيْنِ وَإِمَّا بِالظُّلْمِ بِاللِّسَانِ وَالْيَدِ وَخَصَّ مِنْ السِّحْرِ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَهُنَّ النِّسَاءُ . وَالْحَاسِدُ الرِّجَالُ فِي الْعَادَةِ وَيَكُونُ مِنْ الرِّجَالِ وَمِنْ النِّسَاءِ . وَالشَّرُّ الَّذِي يَكُونُ مِنْ الْأَنْفُسِ الْخَبِيثَةِ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ : هُوَ شَرٌّ مُنْفَصِلٌ عَنْ الْإِنْسَانِ لَيْسَ هُوَ فِي قَلْبِهِ كَالْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . وَفِي سُورَةِ النَّاسِ ذَكَرَ ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ فَإِنَّهُ مَبْدَأُ الْأَفْعَالِ

الْمَذْمُومَةِ مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ فَفِيهَا الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ مَا يَدْخُلُ الْإِنْسَانُ مِنْ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَضُرُّهُ مِنْ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَقَدْ تَضَمَّنَ ذَلِكَ الِاسْتِعَاذَةَ مِنْ شَرِّ نَفْسِهِ . وَسُورَةُ الْفَلَقِ فِيهَا الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ الْمَخْلُوقَاتِ عُمُومًا وَخُصُوصًا وَلِهَذَا قِيلَ فِيهَا بِرَبِّ الْفَلَقِ وَقِيلَ فِي هَذِهِ بِرَبِّ النَّاسِ فَإِنَّ فَالِقَ الْإِصْبَاحِ بِالنُّورِ يُزِيلُ بِمَا فِي نُورِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا فِي الظُّلْمَةِ مِنْ الشَّرِّ وَفَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى بَعْدَ انْعِقَادِهِمَا يُزِيلُ مَا فِي عُقَدِ النَّفَّاثَاتِ فَإِنَّ فَلْقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى أَعْظَمُ مِنْ حَلِّ عُقَدِ النَّفَّاثَاتِ وَكَذَلِكَ الْحَسَدُ هُوَ مِنْ ضِيقِ الْإِنْسَانِ وَشُحِّهِ لَا يَنْشَرِحُ صَدْرُهُ لِإِنْعَامِ اللَّهِ عَلَيْهِ فَرَبُّ الْفَلَقِ يُزِيلُ مَا يَحْصُلُ بِضِيقِ الْحَاسِدِ وَشُحِّهِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَفْلِقُ شَيْئًا إلَّا بِخَيْرِ فَهُوَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ بِالنُّورِ الْهَادِي وَالسِّرَاجِ الْوَهَّاجِ الَّذِي بِهِ صَلَاحُ الْعِبَادِ وَفَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى بِأَنْوَاعِ الْفَوَاكِهِ وَالْأَقْوَاتِ الَّتِي هِيَ رِزْقُ النَّاسِ وَدَوَابِّهِمْ وَالْإِنْسَانُ مُحْتَاجٌ إلَى جَلْبِ الْمَنْفَعَةِ مِنْ الْهُدَى وَالرِّزْقِ وَهَذَا حَاصِلٌ بِالْفَلْقِ وَالرَّبُّ الَّذِي فَلَقَ لِلنَّاسِ مَا تَحْصُلُ بِهِ مَنَافِعُهُمْ يُسْتَعَاذُ بِهِ مِمَّا يَضُرُّ النَّاسَ فَيُطْلَبُ مِنْهُ تَمَامُ نِعْمَتِهِ بِصَرْفِ الْمُؤْذِيَاتِ عَنْ عَبْدِهِ الَّذِي ابْتَدَأَ بِإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ وَفَلْقُ الشَّيْءِ عَنْ الشَّيْءِ هُوَ دَلِيلٌ عَلَى تَمَامِ الْقُدْرَةِ وَإِخْرَاجِ الشَّيْءِ مِنْ

ضِدِّهِ كَمَا يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَالْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَهَذَا مِنْ نَوْعِ الْفَلَقِ فَهُوَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى دَفْعِ الضِّدِّ الْمُؤْذِي بِالضِّدِّ النَّافِعِ. انتهى انتهى. ا هـ ﴿مجموع الفتاوى جـ 17ص 509.504﴾

(306/839)

كلام نفيس للإمام ابن القيم فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة:

روى مسلم في صحيحه من حديث بن أبي حازم عن عقبة بن عامر قال قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وفي لفظ آخر من رواية محمد بن إبراهيم التيمي عن عقبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون قلت بلى: قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾" وفي الترمذي حدثنا قتيبة بن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن علي بن رباح عن عقبة بن عامر قال: "أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة" إسناده فيه ضعف وهو صحيح لغيره قال: هذا حديث غريب وفي الترمذي والنسائي وسنن أبي داود عن عبد الله بن

حبيب قال : " خرجنا في ليلة مطر وظلمة نطلب النبي صلى الله عليه وسلم ليصلي لنا فأدركناه فقال : قل فلم أقل شيئا ثم قال : قل فلم أقل شيئا ثم قال : قل قلت : يا رسول الله ما أقول ؟ قال ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شيء " صحيح قال الترمذي : حديث حسن صحيح وفي الترمذي أيضا من حديث الجريري عن أبي هريرة عن أبي سعيد الخدري قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فلما نزلتا أخذهما وترك ما سواهما " حسن قال : وفي الباب عن أنس وهذا حديث غريب نفث النبي بالمعوذتين وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها : " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا

آوى إلى فراشه نفث في كفيه ب ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين جميعا ثم يسمح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده قالت عائشة فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به" رواه البخاري ومسلم وأبو داود قلت : هكذا رواه يونس عن الزهري عن عروة عن عائشة ذكره البخاري ورواه مالك عن الزهري عن عروة عنها : "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه

وأمسح عليه بيده رجاء بركتها " رواه البخاري ومسلم كذلك قال معمر عن الزهري عن عروة عنها : " أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينفث على نفسه في مرضه الذي قبض فيه بالمعوذات فلما ثقل كنت أنا أنفث عليه بهن وأمسح بيده نفسه لبركتها " فسألت ابن شهاب كيف كان ينفث قال : ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه" رواه البخاري ذكره البخاري أيضا وهذا هو الصواب أن عائشة كانت تفعل ذلك والنبي صلى الله عليه وسلم لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك وأما أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا ولعل بعض الرواة رواه بالمعنى فظن أنها لما فعلت ذلك وأقرها على رقيته أن يكون مسترقيا فليس أحدهما بمعنى الآخر ولعل الذي كان يأمرها به إنما هو المسح على نفسه بيده فيكون هو الراقي لنفسه ويده لما ضعفت عن التنقل على سائر بدنه أمرها أن تنقلها على بدنه ويكون هذا غير قراءتها هي عليه ومسحها على يديه فكانت تفعل هذا وهذا والذي أمرها به إنما هو تنقل يده لا رقيته والله أعلم والمقصود الكلام على هاتين السورتين وبيان عظيم منفعتهما وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما وأنه لا يستغني عنهما أحد قط وأن لهما تأثيرا خاصا في دفع السحر والعين وسائر الشرور وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النفس والطعام والشراب واللباس فنقول والله المستعان قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول وهي أصول الاستعاذة أحدها :

نفس الاستعاذة والثانية : المستعاذ به والثالثة : المستعاذ منه فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين فلنعقد لهما ثلاثة فصول الفصل الأول : في الاستعاذة والثاني : في المستعاذ به والثالث : في المستعاذ منه .

الفصل الأول :

اعلم أن لفظ عاذ وما تصرف منها يدل على التحرز والتحصن والنجاة وحقيقة معناها الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه ولهذا يسمى المستعاذ به معاذا كما يسمى ملجأ ووزرا وفي الحديث : "أن ابنة الجون لما أدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها قالت : أعوذ بالله منك فقال لها : قد عذت بمعاذ الحقي بأهلك" رواه البخاري فمعنى أعوذ ألتجئ وأعتصم وأتحرز وفي أصله قولان أحدهما : أنه مأخوذ من الستر والثاني : أنه مأخوذ من لزوم المجاورة فأما من قال : إنه من الستر قال : العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها عوذ بضم العين وتشديد الواو وفتحها فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها سموه عوذا فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه واستجن به منه ومن قال : هو لزوم المجاورة قال العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه عوذ لأنه اعتصم به واستمسك به فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به واعتصم به ولزمه والقولان حق والاستعاذة تنتظمهما معا فإن

المستعيذ مستتر بمعاذه متمسك به معتصم به قد استمسك قلبه به ولزمه كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفا وقصده به فهرب منه فعرض له أبوه في طريق هربه فإنه يلقي نفسه عليه ويستمسك به أعظم استمساك فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه وفر إليه وألقى نفسه بين يديه واعتصم به واستجار به والتجأ إليه وبعد فمعنى الاستعاذة القائم بقلبه وراء هذه العبارات وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من

الالتجاء والاعتصام والإنطراح بين يدي الرب والافتقار إليه والتذلل بين يديه أمر لا تحيط به العبارة ونظير هذا التعبير عن معنى محبته وخشيته وإجلاله ومهابته فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك لا بمجرد الصفة والخبر كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعنين لم تخلق له شهوة أصلا فلو قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه فإذا وصفتها لمن خلقت فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق وأصل هذا الفعل أعوذ بتسكين العين وضم الواو ثم أعل بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو فقالوا أعوذ على أصل هذا الباب ثم طردوا إعلاله فقالوا في اسم الفاعل عائذ وأصله

عاوذ فوقعت الواو بعد ألف فاعل فقلبوها همزة كما قالوا قائم وخائف وقالوا في المصدر عياذا بالله وأصله عواذا كلواذ فقلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها ولم تحصنها حركتها لأنها قد ضعفت بإعلالها في الفعل وقالوا مستعيذ وأصله مستعوذ كمستخرج فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها ثم قلبت الواو قبلها كسرة فقلبت ياء على أصل الباب فإن قلت: فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل كقوله فاستعذ بالله ولم تدخل في الماضي والمضارع بل الأكثر أن يقال أعوذ بالله وعذت بالله دون أستعيذ واستعذت قلت: السين والتاء دالة على الطلب فقوله: أستعيذ بالله أي أطلب العياذ به كما إذا قلت أستخير الله أي أطلب خيرته وأستغفره أي أطلب مغفرته وأستقيله أي أطلب إقالته فدخلت في الفعل إيذانا لطلب هذا المعنى من المعاذ فإذا قال المأمور: أعوذ بالله فقد امتثل ما طلب منه لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام وبين طلب ذلك فلما كان المستعيذ هاربا ملتجئا معتصما بالله أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك فتأمله وهذا بخلاف ما إذا قيل: أستغفر الله فقال: أستغفر الله فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله فإذا قال أستغفر الله كان

ممتثلا لأن المعنى أطلب من الله تعالى أن يغفر لي وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة فلا ضير أن يأتي بالسين فيقول

أستعيذ بالله تعالى أي أطلب منه أن يعيذني ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه فالأول : يخبر عن حاله وعياذه بربه وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه والثاني : طالب سائل من ربه أن يعيذه كأنه يقول أطلب منك أن تعيذني فحال الأول أكمل مجيء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر ولهذا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في امتثال هذا الأمر : "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأعوذ بكلمات الله التامات وأعوذ بعزة الله وقدرته" دون أستعيذ بل الذي علمه الله إياه أن يقول ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ دون أستعيذ فتأمل هذه الحكمة البديعة فإن قلت فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به فقال : ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ومعلوم أنه إذا قيل : قل الحمد لله وقل سبحان الله فإن امتثاله أن يقول الحمد لله وسبحان الله ولا يقول قل سبحان الله قلت : هذا هو السؤال الذي أورده أبي بن كعب على النبي صلى الله عليه وسلم بعينه وأجابه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال البخاري في

صحيحه حدثنا قتيبة ثنا سفيان عن عاصم وعبده عن زر قال: "سألت أبي بن كعب عن المعوذتين فقال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قيل لي فقلت فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" رواه البخاري ثم قال حدثنا علي بن عبد الله ثنا سفيان ثنا عبدة بن أبي لبابة عن زر بن حبيش وحدثنا عاصم عن زر قال: "سألت أبي بن كعب قلت أبا المنذر إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا فقال: إني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال قيل لي فقلت قل فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: مفعول القول محذوف وتقديره قيل لي قل أو قيل لي هذا اللفظ فقلت كما قيل لي وتحت هذا السر أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس له في القرآن إلا بلاغة لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه بل هو المبلغ له عن الله وقد قال

الله له: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ فكان يقتضي البلاغ التام أن يقول: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ كما قال الله وهذا هو المعنى الذي أشار النبي صلى الله عليه وسلم إليه بقوله: "قيل لي فقلت" أي إني لست مبتدئا بل أنا مبلغ أقول كما يقال لي وأبلغ كلام ربي كما أنزله إلي فصلوات الله وسلامه عليه لقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة وقال كما قيل له فكفانا

وشفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول هذا القرآن العربي وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول وأنه صلى الله عليه وسلم بلغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه حتى أنه لما قيل له قل لأنه مبلغ محض وما على الرسول إلا البلاغ.

الفصل الثاني:

المستعاذ به وهو الله وحده رب الفلق ورب الناس ملك الناس إله الناس الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به ولا يستعاذ بأحد من خلقه بل هو الذي يعيذ المستعيذين ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره وقد أخبر الله تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه أن استعاذته زادته طغيانا ورهقا فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ جاء في التفسير أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح أي فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقا أي طغيانا وإثما وشرا يقولون سدنا الإنس والجن والرهق في كلام العرب الإثم وغشيان المحارم فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانا لما كان محظورا من الكبر والتعاظم فظنوا أنهم سادوا

الإنس والجن واحتج أهل السنة على المعتزلة في أن كلمات الله غير مخلوقة بأن النبي صلى الله عليه وسلم استعاذ بقوله : "أعوذ بكلمات الله التامات" رواه مسلم وهو لا يستعيذ بمخلوق أبدا ونظير ذلك قوله : "أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك" رواه مسلم فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته

وأنه غير مخلوق وكذلك قوله : "أعوذ بعزة الله وقدرته" أخرجه مسلم وقوله : "أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات" إسناده قابل للتحسين وما استعاذ به النبي صلى الله عليه وسلم غير مخلوق فإنه لا يستعيذ إلا بالله أو صفة من صفاته وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب والملك والإله وجاءت الربوبية فيها مضافة إلى الفلق وإلى الناس ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها وقد قررنا في مواضع متعددة أن الله سبحانه يدعى بأسمائه الحسنى فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه باسم ويقتضيه وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في هاتين السورتين أنه ما تعوذ المتعوذون بمثلها فلابد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضيا للمطلوب وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه وإنما يتقرر هذا

بالكلام في الفصل الثالث وهو الشيء المستعاذ منه فتتبين المناسبة المذكورة فنقول .

الفصل الثالث :

في أنواع الشرور المستعاذ منها : في هاتين السورتين الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين : إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها وهو أعظم الشرين وأدومهما وأشدهما اتصالا بصاحبه وإما : شر واقع به من غيره وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف والمكلف إما نظيره وهو الإنسان أو ليس نظيره وهو الجني وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحمى وغيرها فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه وأدله على المراد وأعمه استعاذة بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه

فيهما فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة أحدها : شر المخلوقات التي لها شر عموما الثاني : شر الغاسق إذا وقب الثالث : شر النفاثات في العقد الرابع : شر الحاسد إذا حسد فنتكلم على هذه الشرور الأربعة ومواقعها واتصالها بالعبد والتحرز منها قبل وقوعها وبماذا تدفع بعد وقوعها وقبل الكلام في ذلك لا بد من بيان الشر ما هو وما

حقيقته فنقول الشر يقال على شيئين : على الألم وعلى ما يفضي إليه وليس له مسمى سوى ذلك فالشرور هي الآلام وأسبابها فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم هي شرور وإن كان لصاحبها فيا نوع غرض ولذة لكنها شرور لأنها أسباب الآلام ومفضية إليها كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة وعلى الذبح والإحراق بالنار والخنق بالحبل وغير ذلك من الأسباب التي تصيبه مفضية إلى مسبباتها ولا بد ما لم يمنع السببية مانع أو يعارض السبب ما هو أقوى منه وأشد اقتضاء لضده كما يعارض سبب المعاصي قوة الإيمان وعظمة الحسنات الماحية وكثرتها فيزيد في كميتها وكيفيتها على أسباب العذاب فيدفع الأقوى للأضعف وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة كأسباب الصحة والمرض وأسباب الضعف والقوة والمقصود أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما هي شر وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة وهي بمنزلة طعام لذيذ شهي لكنه مسموم إذا تناوله الآكل لذا لآكله وطاب له مساغه وبعد قليل يفعل به ما يفعل فهكذا المعاصي والذنوب ولا بد حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته فإن الله إذا أنعم على عبد بنعمة حفظها عليه ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ

وَآلِهِ ﷺ ومن تأمل ما قص الله تعالى في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم وجد سبب
ذلك جميعه إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره وما
أزال الله عنهم من نعمه وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب كما قيل :
إذا كنت في نعمة فارعها . . . فإن المعاصي تزيل النعم

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره ولا زالت
عن العبد بمثل معصيته لربه فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليا بس
ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له والمقصود أن هذه الأسباب
شرور ولا بد وأما كون مسبباتها شرورا فلأنها آلام نفسية وبدنية فيجتمع على صاحبها
مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات ولو تفطن العاقل اللبيب

لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمرا كان مفعولا فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم والإشراف والإطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ و ﴿حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ مدار المستعاذات على الآلام وأسبابها ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبي صلى الله عليه وسلم جميعها مدارها على هذين الأصلين فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم وإما سبب يفضي إليه فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع وأمر بالاستعاذة منهن وهي: "عذاب القبر وعذاب النار فهذان أعظم المؤلمات وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال" رواه البخاري ومسلم والنسائي وهذان سبب العذاب المؤلم فالفتنة سبب العذاب وذكر الفتنة خصوصا وعموما وذكر نوعي الفتنة لأنها إما في الحياة وإما بعد الموت ففتنة الحياة قد يتراخى عنها العذاب مدة وأما فتنة الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخ فعادت الاستعاذة إلى الألم والعذاب وأسبابها وهذا من آكد أدعية الصلاة

حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يدع به في التشهد الأخير وأوجبه ابن حزم في كل تشهد فإن لم يأت به بطلت صلاته استعاذة النبي من ثمانية أشياء ومن ذلك قوله : "اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال" رواه البخاري ومسلم والنسائي فاستعاذ من ثمانية أشياء كل اثنين منها قرينان فالهم والحزن قرينان وهما من آلام الروح ومعذباتها والفرق بينهما أن الهم توقع الشر في المستقبل والحزن التألم على حصول المكروه في الماضي أو فوات المحبوب وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح فإن تعلق بالماضي سمي حزنا وإن تعلق بالمستقبل سمي هما والعجز والكسل قرينان وهما من أسباب الألم لأنهما يستلزمان فوات المحبوب فالعجز يستلزم عدم القدرة والكسل يستلزم عدم إرادته فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بإدراكه لو حصل والجبن والبخل قرينان لأنهما عدم النفع بالمال والبدن وهما من أسباب الألم لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة لا تنال إلا بالبذل والشجاعة والبخل يحول بينه دونها أيضا فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام وضلع الدين وقهر الرجال قرينان وهما مؤلمان للنفس معذبان لها أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين والثاني قهر بباطل وهو غلبة الرجال وأيضا فضلع الدين قهر بسبب من العبد في الغالب وغلبة الرجال قهر بغير اختياره ومن ذلك تعوذه "من المأثم والمغرم" رواه البخاري فإنهما يسببان الألم العاجل ومن ذلك قوله : "أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك"

رواه مسلم فالسخط سبب الألم والعقوبة هي الألم فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها

فصل :

والشر المستعاذ منه نوعان : أحدهما موجود يطلب رفعه والثاني : معدوم يطلب

بقاؤه على العدم وأن لا يوجد كما أن الخير المطلق نوعان أحدهما : موجود فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه والثاني : معدوم فيطلب وجوده وحصوله مطالب العباد أربعة فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين وعليها مدار طلباتهم وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ فهذا الطلب لدفع الشر الموجود فإن الذنوب والسيئات شر كما تقدم بيانه ثم قال : ﴿ وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ فهذا طلب لدوام الخير الموجود وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه فهذان قسمان ثم قال : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ ﴾ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه ثم قال : ﴿ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم وهو خزي يوم القيامة فانتظمت الآيتان للمطالب الأربعة أحسن انتظام مرتبة

أحسن ترتيب قدم فيها النوعان اللذان في الدنيا وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت ثم اتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة وهما أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله وأن لا يخزيهم يوم القيامة فإذا عرف هذا فقوله صلى الله عليه وسلم في تشهد الخطبة "ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا" صحيح يتناول الاستعاذة من شر النفس الذي هو معدوم لكنه فيها بالقوة فيسأل دفعه وأن لا يوجد وأما قوله من سيئات أعمالنا ففيه قولان أحدهما أنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وجدت فيكون الحديث قد تناول نوعي الاستعاذة من الشر المعدوم الذي لم يوجد ومن الشر الموجود فطلب دفع الأول ورفع الثاني والقول الثاني أن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضا دفع المسبب والأول

دفع السبب فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه وعلى الأول يكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها وعلى الثاني يكون من باب إضافة المسبب إلى
سببه والمعلول إلى علته كأنه قال من عقوبة عملي والقولان محتملان فتأمل أيهما أليق

بالحديث وأولى به فإن مع كل واحد منهما نوعا من الترجيح فيترجح الأول : بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس فشر النفس يولد الأعمال السيئة فاستعاذ من صفة النفس ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة وهذان جماع الشر وأسباب كل ألم فمتى عوفي منها عوفي من الشر بحذافيره ويترجح الثاني : بأن سيئات الأعمال هي العقوبات التي تسوء العامل وأسبابها شر النفس فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها والقولان في الحقيقة متلازمان والاستعاذة من أحدهما تستلزم الاستعاذة من الآخر .

فصل :

ولما كان الشر له سبب هو مصدره وله مورد ومنتهى وكان السبب إما من ذات العبد وإما من خارجه ومورده ومنتهاه إما نفسه وإما غيره كان هنا أربعة أمور شر مصدره من نفسه ويعود على نفسه تارة وعلى غيره أخرى وشر مصدره من غيره وهو السبب فيه ويعود على نفسه تارة وعلى غيره أخرى جمع النبي صلى الله عليه وسلم هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علمه الصديق أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه "اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم" صحيح فذكر مصدري الشر وهما : النفس والشيطان وذكر مورده ونهايتيه وهما : عوده على النفس أو على أخيه المسلم فجمع الحديث مصادر الشر وموارده في أوجز لفظه

وأخصره وأجمعه وأبينه.

فصل:

فإذا عرفت هذا فلنتكلم على الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين الشر الأول العام في قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وما هاهنا موصولة ليس إلا والشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول لا إلى خلق الرب تعالى الذي هو فعله وتكوينه فإنه لا شر فيه بوجه ما فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته ولا في أفعاله كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى فإن ذاته لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها أصلا ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم ولم تكن أسماؤه كلها حسنى ولعاد إليه منه حكم تعالى وتقدس عن ذلك وما يفعله من العدل بعباده وعقوبة من يستحق العقوبة منهم هو خير محض إذ هو محض العدل والحكمة وإنما يكون شرا بالنسبة إليهم فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم لا في فعله القائم به تعالى ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة فإنه خالق الخير والشر ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك على باب أحدهما أن ما هو

شر أو متضمن للشر فإنه لا يكون إلا مفعولا منفصلا لا يكون وصفا له ولا فعلا من أفعاله

الثاني : أن كونه شرا هو أمر نسبي إضافي فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه فله وجهان هو من أحدهما : خير وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى خلقا وتكوينا ومشيئة لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مبادئ معرفتها فضلا عن حقيقتها فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله سبحانه هو الغني الحميد وفاعل الشر لا يفعله لحاجته المنافية لغناه أو لنقصه وعيبه

المنافي لحمده فيستحيل صدور الشر من الغني الحميد فعلا وإن كان هو الخالق للخير والشر فقد عرفت أن كونه شرا هو أمر إضافي وهو في نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه فلا تغفل عن هذا الموضع فإنه يفتح لك بابا عظيما من معرفة الرب ومحبته ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول أكثر الفضلاء وقد بسطت هذا في كتاب التحفة المكية وكتاب الفتح القدسي وغيرهما الشر في أفعاله تعالى أمر نسبي وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثلة أحدها أن السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه وخير محض

بالنسبة إلى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم ودفع الضرر عنهم وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمرا وحكما لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموما بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضر بهم فهو محمود على حكمه بذلك وأمره به مشكور عليه يستحق عليه الحمد من عباده والثناء عليه والمحبة وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم في دمائهم وحرماتهم وجلد من يصول عليهم في أعراضهم فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم في دنياهم فكيف عقوبة من يصول على أديانهم ويحول بينهم وبين الهدى الذي بعث الله به رسله وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به أفليس في عقوبة هذا الصائل خير محض وحكمة وعدل وإحسان إلى العبيد وهي شر بالنسبة إلى الصائل الباغي فالشر ما قام به من تلك العقوبة وأما ما نسب إلى الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل فهو عين الخير والحكمة فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم والسر الذي يطلعك على مسألة القدر ويفتح لك الطريق إلى الله ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه وأنه سبحانه كما أنه البر الرحيم الودود المحسن فهو الحكيم الملك العدل فلا تناقض حكمته رحمته بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه وكلاهما مقتضى عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب ولا يضع غضبه وعقوبته

موضع رضاه ورحمته ولا يلتفت

إلى قول من غلظ حجابه عن الله تعالى أن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء ولا فرق أصلا وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلا بالرد على هذه المقالة وإنكارها أشد الإنكار وتنزيه نفسه عنها كقوله تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ وقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ وقوله : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ فأنكر سبحانه على من ظن هذا الظن ونزه نفسه عنه فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته وعزته وإلهيته "لا إله هو تعالى عما يقول الجاهلون علوا كبيرا" وقد فطر الله عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان ومكافأة الصنع الجميل بمثله وزيادة فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار واستهجنته أعظم الاستهجان وكذلك وضع الإحسان والإكرام في موضع العقوبة والانتقام كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أموالهم وحريمهم ودمائهم فأكرمه غاية الإكرام ورفعه وكرمه فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذا وتشهد على

سفه من فعله هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة وعزته وعدله في وضع عقوبته في أولى المحال بها وأحقها بالعقوبة وأنها لو أوليت النعم لم تحسن بها ولم تلق ولظهرت مناقضة الحكمة كما قال الشاعر :

نعمة الله لا تعاب ولكن . . . ربما استقبحت على أقوام

(324/839)

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بأعدائه الصادين عن سبيله الساعين في خلاف مرضاته الذين يرضون إذا غضب ويغضبون إذا رضي ويعطلون ما حكم

(325/839)

به ويسعون في أن تكون الدعوة لغيره والحكم لغيره والطاعة لغيره فهم مضادون في كل ما يريد يحبون ما يبغضه ويدعون إليه ويبغضون ما يحبه وينفرون عنه ويوالون أعداءه وأبغض الخلق إليه ويظاهرونهم عليه وعلى رسوله كما قال تعالى : ﴿ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾ وقال : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ

أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ فتأمل ما تحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوة وعقابا وجلالة وتهديدا كيف صدره بإخبارنا أنه أمر إبليس بالسجود لأبينا فأبى ذلك فطرده ولعنه وعاداه من أجل إبائه عن السجود لأبينا ثم أنتم توالونه من دوني وقد لعنته وطردته إذ لم يسجد لأبيكم وجعلته عدوا لكم ولأبيكم فواليتموه وتركتموني فليس هذا من أعظم الغبن وأشد الحسرة عليكم ويوم القيامة يقول تعالى أليس عدلا مني أن أولي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا فليعلمن أولياء الشيطان كيف حالهم يوم القيامة إذا ذهبوا مع أوليائهم وبقي أولياء الرحمن لم يذهبوا مع أحد فيتجلى لهم ويقول ألا تذهبون حيث ذهب الناس فيقولون فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه ونعبده فيقول هي بينكم وبينه علامة تعرفونه بها فيقولون نعم إنه لا مثل له فيتجلى لهم ويكشف عن ساق فيخرون له سجدا فيا قرة عيون أوليائه بتلك الموالاة ويا فرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم وبقوا مع مولاهم الحق فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أولياءه إن أولياءه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ولا تستطل هذا البساط فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله ونزولها منه منازلها فيا للدنيا لتنزل في جوار ربها في الآخرة الذين أنعم الله تعالى عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

فصل :

(327/839)

إذا عرفت هذا عرف معنى قوله في الحديث الصحيح "لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك" صحيح وإن معناه أجل وأعظم من قول من قال والشر لا يتقرب به إليك وقول من قال والشر لا يصعد إليك وأن هذا الذي قالوه وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه والتقرب به إليه فلا يتضمن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته تبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بوجه ما لا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أسمائه وإن دخل في مخلوقاته كقوله : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه ومن قام به كقوله : ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وقوله : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ وقوله : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ وقوله : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ وهو في القرآن أكثر من أن يذكر ها هنا عشر معشاره وإنما المقصود التمثيل وتارة بحذف فاعله كقوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن : ﴿ وَأَنَّا لا

نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ فحذفوا فاعل الشر ومريده وصرحوا بمريد الرشد ونظيره في الفاتحة : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ﴾ فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه والضلال منسوبا إلى من قام به والغضب محذوفا فاعله ومثله قول الخضر في السفينة : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وفي الغلامين : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ ﴾ ومثله قوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ فنسب هذا التزيين

المحبوب إليه وقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾ فحذف الفاعل المزين ومثله قول الخليل صلى الله عليه وسلم : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي

فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال ونسب إلى نفسه النقص منها وهو المرض والخطيئة وهذا كثير في القرآن الكريم ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب الفوائد المكية وبينا هناك السر في مجيء : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾

: ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ والفرق بين الموضعين وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعا في سياق المدح وحيث حذفه كان من أوتيه واقعا في سياق الذم أو منقسما وذلك من أسرار القرآن الكريم ومثله : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ وقال : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ وبالجملة فالذي يضاف إلى الله تعالى كله خير وحكمة ومصلحة وعدل والشر ليس إليه .

فصل :

وقد دخل في قوله تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر من حيوان أو غيره إنسيا كان أو جنيا أو هامة أو دابة أو ريحا أو صاعقة أي نوع كان من أنواع البلاء فإن قلت : فهل في ما هاهنا عموم قلت فيها عموم تقييدي وصفي لا عموم إطلاقي والمعنى من شر كل مخلوق فيه شر فعمومها من هذا الوجه وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله تعالى فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض والخير كله حصل على أيديهم فالاستعاذة من : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ تعم شر كل مخلوق فيه شر وكل شر في الدنيا والآخرة وشر شياطين الإنس والجن وشر السباع

والهوام وشر النار والهواء وغير ذلك وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

"من نزل منزلا فقال أعوذ بكلمات الله التامات

من شر ما خلق لم يضره شيء حتى يرتحل منه" رواه مسلم روى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر فأقبل الليل قال : "يا أرض ربي وربك الله أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك وشر ما خلق فيك وشر ما يدب عليك أعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحية والعقرب ومن ساكن البلد ومن والد وما ولد" حسن على الراجح وفي الحديث الآخر : "أعوذ بكلمات الله التامة التي لا يجاوزها بر ولا فاجر من شر ما خلق وذرا وبرا ومن شر ما نزل من السماء وما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن" صحيح .

فصل :

الشر الثاني : شر الغاسق إذا وقب فهذا خاص بعد عام وقد قال أكثر المفسرين أنه الليل

قال عبد الله بن عباس الليل إذا أقبل بظلمته من الشرق ودخل في كل شيء وأظلم والغسق

الظلمة يقال غسق الليل وأغسق إذا أظلم ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وكذلك قال الحسن ومجاهد: "الغاسق إذا وقب الليل إذا أقبل ودخل والوقوب الدخول وهو دخول الليل بغروب الشمس" وقال مقاتل: "يعني ظلمة الليل إذا دخل سواده في ضوء النهار" وفي تسمية الليل غاسقا قول آخر إنه من البرد والليل أبرد من النهار والغسق البرد وعليه حمل عبد الله بن عباس قوله تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ وقوله: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلا شَرَاباً إِلاّ حَمِيماً وَغَسَّاقاً﴾ قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرها وكذلك قال مجاهد ومقاتل هو الذي انتهى برده ولا تنافي بين القولين فإن الليل بارد مظلم فمن ذكر برده فقط أو ظلمته فقط اقتصر على أحد وصفيه والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذي

في الليل ولهذا استعاذ برب الفلق الذي هو الصبح والنور من شر الغاسق الذي هو الظلمة فناسب الوصف المستعاذ به للمعنى المطلوب بالاستعاذة كما سنزيده تقريرا عن قريب إن شاء الله فإن قيل: فما تقولون فيما رواه الترمذي من حديث ابن أبي ذئب عن الحرث بن

عبد الرحمن عن أبي سلمة عن عائشة قالت : "أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيدي فنظر إلى القمر فقال : يا عائشة استعيذي بالله من شر هذا فإن هذا هو الغاسق إذا وقب " صحيح قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح وهذا أولى من كل تفسير فيتعين المصير إليه قيل : هذا التفسير حق ولا يناقض التفسير الأول بل يوافقه ويشهد بصحته فإن الله تعالى قال : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ فالقمر هو آية الليل وسلطانه فهو أيضا غاسق إذا وقب كما غاسق إذا وقب والنبي صلى الله عليه وسلم أخبر عن القمر بأنه غاسق إذا وقب وهذا خبر صدق وهو أصدق الخبر ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب وتخصيص النبي صلى الله عليه وسلم له بالذكر لا ينفي شمول الاسم لغيره ونظير هذا قوله في المسجد الذي أسس على التقوى وقد سئل عنه فقال : "هو مسجدي هذا" رواه مسلم والنسائي والترمذي ومعلوم أن هذا لا ينفي كون مسجد قبا مؤسسا على التقوى مثل ذاك ونظيره أيضا قوله في علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين "اللهم هؤلاء أهل بيتي" رواه مسلم فإن هذا لا ينفي دخول غيرهم من أهل بيته في لفظ أهل البيت ولكن هؤلاء أحق من دخل في لفظ أهل بيته ونظير هذا قوله ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس شيئا ولا يفطن له فيتصدق عليه رواه البخاري ومسلم وهذا

لا ينفي اسم المسكنة عن الطواف بل ينفي اختصاص الاسم به وتناول المسكين لغير السائل أولى من تناوله له ونظير هذا قوله : "ليس الشديد بالصرعة ولكن

الذي يملك نفسه عند الغضب " رواه البخاري ومسلم فإنه لا يقتضي نفي الاسم عن الذي يصرع الرجال ولكن يقتضي أن ثبوته للذي يملك نفسه عند الغضب أولى ونظيره الغسق والوقوب وأمثال ذلك فكذلك قوله في القمر هذا هو الغاسق إذا وقب لا ينفي أن يكون الليل غاسقا بل كلاهما غاسق فإن قيل : فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم أن المراد به القمر إذا خسف واسود وقوله : وقب أي دخل في الخسوف أو غاب خاسفا قيل : هذا القول ضعيف ولا نعلم به سلفا والنبي صلى الله عليه وسلم لما أشار إلى القمر وقال : هذا الغاسق إذا وقب لم يكن خاسفا إذ ذاك وإنما كان وهو مستنير ولو كان خاسفا لذكرته عائشة وإنما قالت : نظر إلى القمر وقال : هذا هو الغاسق ولو كان خاسفا لم يصح أن يحذف ذلك الوصف منه فإن ما أطلق عليه اسم الغاسق باعتبار صفة لا يجوز أن يطلق عليه بدونها لما فيه من التلبيس وأيضا فإن اللغة لا تساعد على هذا فلا نعلم أحدا قال الغاسق القمر في حال خسوفه وأيضا فإن الوقوب لا يقول أحد من أهل اللغة أنه

الخسوف وإنما هو الدخول من قولهم وقيت العين إذا غارت ومنه الوقب للثقب الذي يدخل فيه المحور وتقول العرب وقب يقب وقوبا إذا دخل فإن قيل : فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم أن الغاسق هو الثريا إذا سقطت فإن الأسقام تكثر عند سقوطها وغروبها وترتفع عند طلوعها قيل إن أراد صاحب هذا القول اختصاص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل وإن أراد أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما فهذا يحتمل أن يدل اللفظ عليه بفحواه ومقصوده وتنبيهه وأما أن يختص اللفظ به فباطل

فصل :

والسبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة وفيه تنتشر الشياطين وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين ولهذا

قال : " فاكتفوا صبيانكم واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء " رواه البخاري ومسلم وفي حديث آخر "فإن الله يبث من خلقه ما يشاء" والليل هو محل الظلام وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار فإن النهار نور والشياطين إنما سلطانهم

في الظلمات والمواضع المظلمة وعلى أهل الظلمة وروي أن سائلا سأل مسيلمة كيف يأتيك الذي يأتيك فقال في ظلماء حندس " وسأل النبي صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك فقال : "في مثل ضوء النهار " فاستدل بهذا على نبوته وإن الذي يأتيه ملك من عند الله وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار فالسحر الليلي عندهم هو السحر القوي التأثير ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم والشياطين تجول فيها وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع وهو فيه أثبت وأمكن .

فصل :

ومن هاهنا تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع فإن الفلق الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور وهو الذي يطرد جيش الظلام وعسكر المفسدين في الليل فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سرب أو كن أو غار وتأوي الهوام إلى أحجرتها والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها فأمر الله تعالى عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها ويقهر عسكرها وجيشها ولهذا ذكر

سبحانه في كل كتاب أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور ويدع الكفار في ظلمات كفرهم قال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ وقال في أعمار الكفار: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي

بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ فالإيمان كله نور ومآله إلى نور ومستقره في القلب المضيء المستنير والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة والكفر والشرك كله ظلمة ومآله إلى الظلمات ومستقره في القلوب المظلمة والمقترن بها الأرواح المظلمة فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة ومن شر ما يحدث

فيها ونزول هذا المعنى على الواقع يشهد بأن القرآن بل ها تان السورتان من أعظم أعلام النبوة وبراهين صدق رسالة محمد ومضادة لما جاء به الشياطين من كل وجه وإن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون فما فعلوه ولا يليق بهم ولا يتأتى منهم ولا يقدرون عليه وفي هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التي قصر المتكلمون غاية التقصير في دفعها وما شفوا في جوابها وإنما الله سبحانه هو الذي شفى وكفى في جوابها فلم يحوجنا إلى متكلم ولا إلى أصولي ولا أنظار فله الحمد والمنة لا نحصي ثناء عليه.

فصل:

واعلم أن الخلق كله فلق وذلك أن فلقا فعل بمعنى مفعول كقبض وسلب وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص والله عز وجل فالق الإصباح وفالق الحب والنوى وفالق الأرض عن النبات والجبال عن العيون والسحاب عن المطر والأرحام عن الأجنة والظلام عن الإصباح ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة فلقا وفرقا يقال هو

أبيض من فرق الصبح وفلقه وكما أن في خلقه فلقا وفرقا فكذلك أمره كله فرقان يفرق بين

الحق والباطل فيفرق ظلام الباطل بالحق كما يفرق ظلام الليل بالإصباح ولهذا سمى كتابه الفرقان ونصره فرقانا لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه ومنه فلقة البحر لموسى وسماه فلقا فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته وأن العباد لا يقدرون قدره ﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

فصل :

الشر الثالث : ﴿ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ وهذا الشر هو شر السحر فإن النفاثات في العقد هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط وينفثن على كل عقدة حتى ينعقد ما يردن من السحر والنفث هو النفخ مع ريق وهو دون التفل وهو مرتبة بينهما والنفث فعل الساحر فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقد نفخا معه ريق فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقترن بالريق الممازج لذلك وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري لا الأمر الشرعي فإن قيل : فالسحر يكون من الذكور والإناث فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور قيل في جوابه : إن هذا خرج على السبب الواقع وهو أن

بنات لبيد بن الأعصم سحر النبي صلى الله عليه وسلم هذا جواب أبي عبيدة وغيره وليس هذا بسديد فإن الذي سحر النبي صلى الله عليه وسلم هو لبيد بن الأعصم كما جاء في الصحيح والجواب المحقق إن النفاثات هنا هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة والأرواح الشريرة وسلطانه إنما يظهر منها فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث دون

التذكير والله أعلم ففي الصحيح عن هاشم بن عروة عن أبيه عن عائشة "أن النبي صلى الله عليه وسلم طب حتى إنه ليخيل إليه أنه صنع شيئا وما صنعه وأنها دعا ربه ثم قال أشعرت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه فقالت عائشة : وما ذاك يا رسول الله قال جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال أحدهما لصاحبه ما وجع الرجل قال الآخر مطبوب قال من طبه قال لبيد بن الأعصم قال له فبماذا قال في مشط ومشاطه وجف طلع ذكر قال فأين هو قال في ذروان بئر في بني زريق قالت عائشة رضي الله عنها : فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم رجع إلى عائشة رضي الله عنها فقال والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ولكأن نخلها رءوس الشياطين قال فقلت له : يا

رسول الله هلا أخرجته قال أما أنا فقد شفاني الله وكرهت أن أثير على الناس شرا فأمر بها فدفنت" رواه البخاري ومسلم قال البخاري وقال الليث وسفيان بن عيينة عن هشام في مشط ومشافة ويقال أن المشاطة ما يخرج من الشعر إذا مشط والمشاقة من مشاقة الكتان قلت : هكذا في هذه الرواية إنه لم يخرجه اكتفاء بمعافاة الله له وشفائه إياه وقد روى البخاري من حديث سفيان بن عيينة قال أول من حدثنا به ابن جريج يقول حدثني آل عروة عن عروة فسألت هشام عنه فحدثنا عن أبيه عن عائشة : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن قال سفيان وهذا أشد ما يكون من السحر إذا كان كذا فقال يا عائشة أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه أتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال الذي عند رأسي للآخر ما بال الرجل قال مطبوب قال ومن طبه قال لبيد بن الأعصم رجل من بني زريق حليف ليهود وكان منافقا قال وفيم قال في مشط ومشاطة قال وأين قال في جف طلع ذكر تحت رعوفة في بئر ذروان قال فأتى البئر حتى استخرجه فقال هذه البئر التي أريتها وكأن ماءها نقاعة الحناء وكأن نخلها رءوس الشياطين قال

فاستخرج أما الله فقد شفاني وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا" رواه البخاري ففي هذا الحديث أنه استخرجه وترجم البخاري عليه باب هل يستخرج السحر

وقال قتادة قلت لسعيد بن المسيب: "رجل به طب ويؤخذ عن امرأته أيحل عنه وينشر قال: لا بأس به" إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه فهذان الحديثان قد يظن في الظاهر تعارضهما فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه الأول فيه أنه لم يستخرجه وحديث ابن جريج عن هشام فيه أنه استخرجه ولا تنافي بينهما فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه ثم دفنه بعد أن شفي وقول عائشة رضي الله عنها هلا استخرجته أي هلا أخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه فأخبرها بالمانع له من ذلك وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك فيقع الإنكار ويغضب للساحر قومه فيحدث الشر وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة فأمر بها فدفنت ولم يستخرجها للناس فالاستخراج الواقع غير الذي سألت عنه عائشة والذي يدل عليه أنه صلى الله عليه وسلم إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه ولم يجيء إليه لينظر إليها ثم ينصرف إذ لا غرض له في ذلك والله أعلم

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث متلقى بالقبول بينهم لا يختلفون في صحته وقد اعتاض على كثير من أهل الكلام وغيرهم وأنكروه أشد الإنكار وقابلوه بالتكذيب وصنف بعضهم فيه مصنفا مفردا حمل فيه على هشام وكان غاية ما أحسن القول فيه أن قال غلط واشتبه عليه الأمر ولم يكن من هذا شيء قال لأن النبي لا يجوز أن يسحر فإنه يكون تصديقا لقول الكفار : ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ قالوا وهذا كما قال فرعون لموسى : ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴾ وقال قوم صالح له : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ وقال قوم شعيب له : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ قالوا فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا فإن ذلك ينافي حماية الله لهم وعصمتهم من الشياطين وهذا الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم فإن هشاما من أوثق الناس وأعلمهم ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه فما للمتكلمين وما لهذا الشأن وقد رواه غير

هشام عن عائشة وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن

والحديث والتاريخ والفقهاء وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلمين قال أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حباب عن زيد ابن الأرقم قال : "سحر النبي صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياما قال فأتاه جبريل فقال إن رجلا من اليهود سحرك وعقد لذلك عقدا فأرسل رسول الله عليا فاستخرجها فجاء بها فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فقام رسول الله كأنما أنشط من عقال فما ذكر ذلك لليهودي ولا رآه في وجهه قط" رواه ابن أبي شيبة وقال ابن عباس وعائشة : "كان غلام من اليهود يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدنت إليه اليهود فلم يزالوا حتى أخذ مشاطة رأس النبي صلى الله عليه وسلم وعدة أسنان من مشطه فأعطاها اليهود فسحروه فيها وتولى" ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود فنزلت هاتان السورتان فيه قال البغوي : "وقيل كانت مغروزة بالدبر فأنزل الله عز وجل هاتين السورتين وهما أحد عشرة آية سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست آيات فكلما قرأ آية انحلت عقدة حتى انحلت العقد كلها فقام النبي كأنما أنشط من عقال قال وروى أنه لبث فيه ستة أشهر واشتد عليه ثلاثة أيام فنزلت المعوذتان قالوا : والسحر الذي أصابه كان مرضا من الأمراض عارضا شفاه الله منه ولا نقص في ذلك ولا عيب بوجه ما فإن المرض يجوز على الأنبياء وكذلك الإغماء فقد أغمي عليه في مرضه ووقع حين انفكت قدمه وجحش شقه" رواه

البخاري ومسلم وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته ونيل كرامته وأشد الناس بلاء الأنبياء فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به من القتل والضرب والشتم والحبس فليس ببدع أن يبتلى النبي صلى الله عليه وسلم من بعض أعدائه بنوع من السحر كما ابتلى بالذي رماه فشجه وابتلى بالذي ألقى على ظهره السلا وهو ساجد وغير ذلك فلا نقص عليهم ولا عار في ذلك بل هذا من كمالهم وعلو درجاتهم عند الله قالوا وقد ثبت في الصحيح

عن أبي سعيد الخدري : "أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اشتكيت فقال : نعم فقال : باسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك بسم الله أرقيك" فعوذه جبريل من شر كل نفس وعين حاسد لما اشتكى فدل على أن هذا التعويذ مزيل لشكايته صلى الله عليه وسلم وإلا فلا يعوذه من شيء وشكايته من غيره قالوا وأما الآيات التي استدللتم بها لا حجة لكم فيها أما قوله تعالي عن الكفار أنهم قالوا : ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَسْحُوراً ﴾ وقوله قوم صالح له : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴾ فقيل : المراد به من له سحر وهي الرئة أي أنه بشر مثلهم يأكل ويشرب ليس بملك ليس المراد به السحر وهذا جواب غير مرض وهو في غاية البعد فإن

الكفار لك يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور ولا يعرف هذا في لغة من اللغات وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر فقالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا أنؤمن لبشر مثلنا أبعث الله بشرا رسولا وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السحر وهي الرئة وأي مناسبة لذكر الرئة في هذا الموضع ثم كيف يقول فرعون لموسى : ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً ﴾ أفتراه ما علم أنه له سحرا وأنه بشر ثم كيف يجيبه موسى بقوله : ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً ﴾ ولو أراد بالمسحور أنه بشر لصدقه موسى وقال : نعم أنا بشر أرسلني الله إليك كما قالت الرسل لقومهم لما قالوا لهم : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ فقالوا ﴿ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ ولم ينكروا ذلك فهذا الجواب في غاية الضعف وأجابت طائفة منهم ابن جرير وغيره بأن المسحور هنا هو معلم السحر الذي قد علمه إياه غيره فالمسحور عنده بمعنى ساحر أي عالم بالسحر وهذا جيد إن ساعدت عليه اللغة وهو أن من علم السحر يقال له مسحور ولا يكاد هذا يعرف في الإستعمال ولا في اللغة وإنما المسحور من سحره غيره كالمطبوب والمضروب

والمقتول وبابه: وأما من علم السحر فإنه يقال له ساحر بمعنى أنه عالم بالسحر وإن لم يسحره غيره كما قال قوم فرعون لموسى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ ففرعون قذفه بكونه مسحورا وقومه قذفوه بكونه ساحرا فالصواب هو الجواب الثالث

(345/839)

وهو جواب صاحب الكشاف وغيره إن المسحور على بابه وهو من سحر حتى جن فقالوا مسحور مثل مجنون زائل العقل لا يعقل ما يقول فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله بحيث لا يدري ما يقول فهو كالمجنون ولهذا قالوا فيه معلم مجنون فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من اتباعهم وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين ولهذا قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ مثلوك بالشاعر مرة والساحر أخرى والمجنون مرة والمسحور أخرى فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقا يسلكه فلا يقدر عليه فإن أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلا ولا يقدر على سلوكها فهكذا حال أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم

معه حتى ضربوا له أمثالا برأه الله منها وهو أبعد خلق الله منها وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان وأما قولكم إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله تعالى لهم فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم ولتمتلئ صاع الكفار فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم فيعجل تطهير الأرض منهم فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة لا إله غيره ولا رب سواه .

فصل :

وقد دل قوله : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ وحديث عائشة المذكور : على تأثير السحر وأن له حقيقة وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم وقالوا إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض ولا قتل ولا حل ولا عقد قالوا وإنما ذلك تخيل لأعين الناظرين لا حقيقة له سوى ذلك وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف واتفق

عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث وأرباب القلوب من أهل التصوف وما يعرفه عامة العقلاء والسحر الذي يؤثر مرضا وثقلا وحلا وعقدا وحبا وبغضا وتزينا وغير ذلك من الآثار موجود تعرفه عامة الناس وكثير منهم قد علمه ذوقا بما أصيب به منه وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهرا كما يقوله هؤلاء لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه وأيضا فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به مع أن هذا تغير في إحساسهم فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير في صفة أخرى من صفات النفس والبدن فإذا غير إحساسه حتى صار يرى الساكن متحركا والمتصل منفصلا والميت حيا فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب إليه بغيضا والبغيض محبوبا وغير ذلك من التأثيرات وقد قال تعالى عن سحرة فرعون إنهم ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ فبين سبحانه أن أعينهم سحرت وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي وهو الحبال والعصي مثل أن يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها وهي الشياطين فظنوا أنها تحركت بأنفسها وهذا كما إذا جر من لا يراه

حصيرا أو بساطا فترى الحصير والبساط ينجر ولا ترى الجار له مع أنه هو الذي يجره فهكذا حال الحبال والعصي التبستها الشياطين فقلبتها كتقلب الحية فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها والشياطين هم الذين يقلبونها وإما أن يكون التغيير حدث في الرائي حتى رأي الحبال والعصي تتحرك وهي ساكنة في أنفسها ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا فتارة يتصرف في نفس الرأي وإحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به وتارة يتصرف في المرئي باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزئبق وغيره حتى سعت فهذا باطل من وجوه كثيرة فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالا بل حركة حقيقية ولم يكن ذلك سحرا لأعين الناس ولا يسمى ذلك سحرا بل صناعة من الصناعات المشتركة وقد قال تعالى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ ولو كانت تحركت بنوع حيلة كما يقوله المنكرون: لم يكن هذا من السحر في شيء ومثل هذا لا يخفى وأيضا لو كان ذلك بحيلة كما قال هؤلاء لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحال ولم يحتج إلى إلقاء العصا لابتلاعها وأيضا فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة بل يكفي فيها حذاق الصناع ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة وخضوعه لهم ووعدهم بالتقريب والجزاء وأيضا فإنه لا يقال في ذلك إنه لكبيركم الذي

علمكم السحر فإن الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها وبالجملة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده فلنرجع إلى المقصود .

فصل :

الشر الرابع : شر الحاسد إذا حسد وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود فنفس حسده شر يتصل بالمحسود من نفسه وعينه وإن لم

يؤذه بيده ولا لسانه فإن الله تعالى قال : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ فحقق الشر منه عند صدور الحسد والقرآن ليس فيه لفظة مهملة ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدا إلا إذا قام به الحسد كالضارب والشاتم والقاتل ونحو ذلك ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود لاه عنه فإن خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه ووجهت إليه سهام الحسد من قبله فيتأذى المحسود بمجرد ذلك فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولا بد فقوله تعالى : ﴿ إِذَا حَسَدَ ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل تأثير العين وقد

تقدم في حديث أبي سعيد الخدري الصحيح رقية جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وفيها : "بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك" فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردها إذ لو نظر إليه نظر لاه ساه عنه كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئًا وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة واتسمت واحتدت فصارت نفسا غضبية خبيثة حاسدة أثرت بها تلك النظرة فأثرت في المحسود تأثيرا بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد فربما أعطيه وأهلكه بمنزلة من فوق سهما نحو رجل عريان فأصاب منه مقتلا وربما صرعه وأمرضه والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة وهي في ذلك بمنزلة الحية التي إنما يؤثر سمها إذا عضت واحتدت فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث فتحدث فيها تلك الكيفية السم فتؤثر في الملسوع وربما قويت تلك الكيفية واشتدت في نوع منها حتى تؤثر بمجرد نظرة فتطمس البصر وتسقط الحبل كما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم في الأبتر وذي الطفيتين منها : وقال : "اقتلوهما فإنهما

يطمسان البصر ويسقطان الحبل" رواه البخاري ومسلم فإذا كان هذا في الحيات فما الظن في النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية واتسمت وتوجهت

إلى المحسود بكيفيتها فلله كم من قتيل وكم من سليب وكم من معافي عاد مضني على فراشه يقول طبيبه لا أعلم داءه ما هو فصدق ليس هذا الداء من علم الطبائع هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها ومعرفة تأثيراتها في الأجسام والطبائع وانفعال الأجسام عنها عجائب الأرواح وتأثيراتها وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس والمحجوبون منكرون له ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نصيب من ذوقه وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى وهل الانفعال والتأثر وحدوث ما يحدث عنها من الأفعال العجيبة والآثار الغريبة إلا من الأرواح والأجسام آلتها بمنزلة آلة الصانع فالصنعة في الحقيقة له والآلات وسائط في وصول أثره إلى الصنع ومن له أدنى فطنة وتأمل أحوال العالم ولطفت روحه وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها كل ذلك بتقدير العزيز العليم خالق الأسباب والمسببات رأى عجائب في الكون وآيات دالة على وحدانية الله وعظمته وربوبيته وإن ثم عالما تجري عليه أحكام أخرى تشهد آثارها وأسبابها غيب

عن الأبصار فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين الذي أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح بل هو أعظم وأوسع وعجائبه أبهر وآياته أعجب وتأمل هذا الهيكل الإنساني إذا فارقته الروح كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل وتلك الصنائع الغريبة وتلك الأفعال العجيبة وتلك الأفكار والتدبيرات كيف ذهبت كلها مع الروح وبقي الهيكل سواء هو والتراب وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك أو يعاديك ويخف عليك ويثقل ويؤنسك ويوحشك إلا ذلك الأمر الذي وراء الهيكل المشاهد بالبصر فرب رجل عظيم الهيولي كبير الجثة خفيف على قلبك حلو عندك وآخر لطيف الخلقة صغير الجثة أثقل على قلبك من جبل وما ذاك إلا للطافة روح ذاك وخفتها وحلاوتها وكثافة هذا وغلظ روحه

ومرارتها وبالجملة فالعلق والوصل التي بين الأشخاص والمنافرات والبعد إنما هي للأرواح أصلا والأشباح تبعا .

فصل :

والعاين والحاسد يشتركان في شيء ويفترقان في شيء فيشتركان في أن كل واحد منهما تكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه فالعائن تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته والحاسد يحصل له ذلك عند غيب المحسود وحضوره أيضا ويفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسده من جماد أو حيوان أو زرع أو مال وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه وربما أصابت عينه نفسه فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر في المعين وقد قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ إنه الإصابة بالعين فأرادوا أن يصيبوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه قوم من العائنين وقالوا ما رأينا مثله ولا مثل حجته وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينة فيعينها ثم يقول لخادمه خذ المكتل والدرهم وآتنا بشيء من لحمها فما تبرح حتى تقع فتنحر وقال الكلبي: "كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ثم يرفع جانب خبائه فتمر به الإبل فيقول لم أر كاليوم إبلا ولا غنما أحسن من هذه فما تذهب إلا قليلا حتى يسقط منها طائفة فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعين ويفعل به كفعله في غيره فعصم الله تعالى رسوله وحفظه وأنزل عليه: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ هذا قول طائفة وقالت طائفة أخرى منهم ابن قتيبة: ليس المراد أنهم يصيبونك بالعين كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن الكريم نظرا

شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك قال الزجاج: "يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك" وهذا مستعمل في الكلام

يقول القائل: نظر إلي نظر قد كان يصرعني، قال: ويدل على صحة هذا المعنى أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن الكريم وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة فيحدون إليه النظر بالبغضاء النظر الذي يؤثر في المنظور قلت: النظر الذي يؤثر في المنظور قد يكون بسببه شده العداوة والحسد فيؤثر نظره في كما تؤثر نفسه بالحسد ويقوى تأثير النفس عند المقابلة فإن العدو إذا غاب عن عدوه قد يشغل نفسه عنه فإذا عاينه قبلا اجتمعت الهمة عليه وتوجهت النفس بكليتها إليه فيتأثر بنظره حتى إن من الناس من يسقط ومنهم من يحم ومنهم من يحمل إلى بيته وقد شاهد الناس من ذلك كثيرا وقد يكون سببه الإعجاب وهو الذي يسمونه بإصابة العين وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه فيصاب بذلك قال عبد الرزاق بن معمر عن هشام بن قتيبة قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "العين

حق" رواه البخاري ومسلم "ونهى عن الوشم" رواه البخاري ومسلم وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة عن عامر عن عبيد بن رفاعة أن أسماء بنت عميس قالت يا رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن ابني جعفر تصيببهم العين أفتسترقي لهم قال : نعم فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين" صحيح فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العدواة فهو نظر يكاد يزلقه لولا حفظ الله وعصمته فهذا أشد من نظر العائن بل هو جنس من نظر العائن فمن قال إنه من الإصابة بالعين أراد هذا المعنى ومن قال : ليس به أراد أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب فالقرآن الكريم حق وقد روى الترمذي من حديث أبي سعيد : "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من عين الإنسان" صحيح فلولا أن العين شر لم يتعوذ منها وفي الترمذي من حديث علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير حدثني حابس بن حبة التميمي حدثني

أبي "أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا شيء في الهام والعين حق " ضعيف لكن قوله "والعين حق" صحيح وفيه أيضا من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لو كان

شيء سابق القدر لسبقته العين وإذا استغسلتم فاغسلوا " رواه مسلم وفي الباب عن عبد الله بن عمر وهذا حديث صحيح والمقصود أن العائن حاسد خاص وهو أضر من الحاسد ولهذا والله أعلم إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن لأنه أعم فكل عائن حاسد ولا بد وليس كل حاسد عائنا فإذا استعاذ من شر الحسد دخل فيه العين وهذا من شمول القرآن الكريم وإعجازه وبلاغته وأصل الحسد هو بغض نعمة الله على المحسود وتمني زوالها الساحر والحاسد فالحاسد عدو النعم وهذا الشر هو من نفس الحاسد وطبعها ليس هو شيئًا اكتسبه من غيرها بل هو من خبثها وشرها بخلاف السحر فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى واستعانة بالأرواح الشيطانية فلهذا والله أعلم قرن في السورة بين : شر الحاسد وشر الساحر لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن فالحسد من شياطين الإنس والجن والسحر من النوعين وبقي قسم ينفرد به شياطين الجن وهو الوسوسة في القلب فذكره في السورة الأخرى كما سيأتي الكلام عليها إن شاء الله تعالى فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه بل هو أذى من أمر خارج عنه ففرق بينهما في الذكر في سورة الفلق والوسواس إنما يؤذي العبد من

داخله بواسطة مساكنته له وقبوله منه ولهذا يعاقب العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوساوس التي تقترن بها الأفعال والعزم الجازم لأن ذلك بسعيه وإرادته بخلاف شر الحاسد والساحر فإنه لا يعاقب عليه إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته فلهذا أفرد شر الشيطان في سورة وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة وكثيرا ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر للمناسبة ولهذا اليهود أسحر الناس وأحسدهم فإنهم لشدة خبثهم فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم وقد وصفهم الله تعالى في كتابه بهذا وهذا فقال :

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ

كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا

إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر وما تضمنته من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذي أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما في موضع غير هذا إذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين وشدة حاجة الخلق إليهما وإن لا يقوم غيرهما مقامهما وأما وصفهم بالحسد فكثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ وفي قوله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ والشيطان يقارن الساحر والحاسد ويحادثهما ويصاحبها ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان لأن الحاسد شبيه بإبليس وهو في الحقيقة من أتباعه لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس وزوال نعم الله عنهم كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله وأبى أن يسجد له حسدا فالحاسد من جند إبليس وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه وربما يعبده من دون الله تعالى حتى يقضي له حاجته وربما يسجد له وفي كتب السحر والسر المكتوم من هذا عجائب ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين

كان سحره أقوى وأنفذ ولهذا كان سحر عباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب

وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى

الإسلام وهم الذين سحروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الموطأ عن كعب قال :

"كلمات أحفظهن من التوراة لولاها لجعلتني يهود حمارا أعوذ بوجه الله العظيم الذي لا شيء

أعظم منه وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر

وبأسماء الله الحسنى ما علمت منها وما لم أعلم من شر ما خلق وذرأ وبرأ" رواه مالك

ورجاله ثقات والمقصود أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر لكن الحاسد بطبعه

ونفسه وبغضه للمحسود والشيطان يقترن به ويعينه ويزين له حسده ويأمره بموجبه

والساحر بعلمه وكسبه وشركه واستعانته بالشياطين .

فصل :

وقول: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ يعم الحاسد من الجن والإنس فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله تعالى من فضله كما حسد إبليس أبانا آدم وهو عدو لذريته كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن والحسد أخص بشياطين الإنس والوسواس يعمهما كما سيأتي بيانهما والحسد يعمهما أيضا فكلا الشيطانين حاسد موسوس فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعا فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم وتضمنت شرورا أربعة يستعاذ منها شرا عاما وهو شر ما خلق وشر الغاسق إذا وقب فهذا نوعان ثم ذكر شر الساحر والحاسد وهي نوعان أيضا لأنهما من شر النفس الشريرة وأحدهما: يستعين بالشيطان ويعبده وهو الساحر وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان وتقرب إليه إما بذبح باسمه أو بذبح يقصد به هو فيكون ذبحا لغير الله وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق والساحر وإن لم يسم هذا عبادة للشيطان فهو عبادة له وإن سماه بما سماه به فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه لا لاسمه ولفظه فمن سجد لمخلوق وقال: ليس هذا بسجود له هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة كما أقبلها بالنعم أو هذا إكرام لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجودا لغير الله فليسمه بما شاء وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به وتقرب

إليه بما يحب فقد عبده وإن لم يسم ذلك عبادة بل يسميه استخداما ما وصدق هو استخدام من الشيطان له فيصير من خدم الشيطان وعابديه وبذلك يخدمه الشيطان لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة فإن الشيطان لا يخضع له ويعبده كما يفعل هو به والمقصود أن هذا عبادة منه للشيطان وإنما سماه استخداما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة ولبئس المولى ولبئس العشير فهذا أحد النوعين والنوع الثاني: من يعينه الشيطان وإن لم يستعن به وهو الحاسد لأنه نائبه وخليفته لأن كليهما عدو نعم الله تعالى ومنغصها على عباده.

فصل:

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد ولكن يخفيه ولا يرتب عليه أذى بوجه ما لا بقلبه ولا بلسانه ولا بيده بل يجد في قلبه شيئا من ذلك ولا يعاجل أخاه إلا بما يحب الله فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله وقيل للحسن البصري: "أيحسد المؤمن قال: ما أنساك إخوة يوسف" لكن الفرق بين القوة

التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر بها بل يعصيها طاعة لله وخوفا وحياء منه وإجلالا له أن يكره نعمه على عباده فيرى ذلك مخالفة لله وبغضا لما يحب الله ومحبة لما يبغضه فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ويلزمها بالدعاء للمحسود وتمني زيادة الخير له بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسد ورتب على حسده مقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح فهذا الحسد

المذموم هو كله حسد تمني الزوال وللحسد ثلاث مراتب أحدهما : هي هذه الثانية : وهي تمني استصحاب عدم النعمة فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة بل يحب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه أو شتات قلبه عن الله أو قلة دينه فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب فهذا حسد على شيء مقدر والأول حسد على شيء محقق وكلاهما حاسد عدو نعمة وعدو عباده وممقوت عند الله تعالى وعند الناس ولا يسود أبدا ولا يواسي فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبدا إلا قهرا يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها فهم يبغضونه وهو يبغضهم والحسد الثالث حسد الغبطة وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود

من غير أن تزول النعمة عنه فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه بل هذا قريب من المنافسة وقد قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ خطأ يبحثها المحقق وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس" رواه البخاري ومسلم فهذا حسد غبطة الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه وحب خصال الخير والتشبه بأهلها والدخول في جملتهم وأن يكون من سباقهم وعليتهم ومصلهم لا من فساكلهم فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة مع محبته لمن يغبطه وتمني دوام نعمة الله عليه فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما فهذه السورة من أكبر أدوية المحسود فإنها تتضمن التوكل على الله والالتجاء إليه والاستعاذة به من شر حاسد النعمة فهو مستعيذ بولي النعم ومووليها كأنه يقول يا من أولاني نعمته وأسداها إلي أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني ويزيلها عني وهو حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه وهو الذي يؤمن خوف الخائف ويجبر المستجير وهو نعم المولى ونعم النصير فمن تولاه واستنصر

به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه تولاه وحفظه وحرسه وصانه ومن خافه واتقاه آمنه مما يخاف ويحذر وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ

مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ فلا تستبطئ نصره ورزقه وعافيته فإن الله تعالى بالغ أمره وقد جعل الله لكل شيء قدرا لا يتقدم عنه ولا يتأخر ومن لم يخفه أخافه من كل شيء وما خاف أحدا غير الله إلا لنقص خوفه من الله قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي يخوفكم بأوليائه ويعظمهم في صدوركم فلا تخافوهم وأفردوني بالمخافة أكفكم إياهم .

فصل :

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب : أحدها : التعوذ بالله تعالى من شره واللجوء والتحصن به واللجوء إليه وهو المقصود بهذه السورة والله تعالى سميع لاستعاذته

عليم بما يستعيذ منه والسمع هنا المراد به سمع الإجابة لا السمع العام فهو مثل قوله : "سمع الله لمن حمده" وقول الخليل صلى الله عليه وسلم ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ومرة يقرنه بالعلم ومرة بالبصر لاقتضاء حال المستعيذ ذلك فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله تعالى يراه ويعلم كيده وشره فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته أي مجيب عليم بكيد عدوه يراه ويبصره لينبسط أمل المستعيذ ويقبل بقلبه على الدعاء وتأمل حكمة القرآن الكريم كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ السميع العليم في الأعراف والسجدة وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويرون بالإبصار بلفظ السميع البصير في سورة حم المؤمن فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ

فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة ترى بالبصر وأما نزع الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية والله أعلم السبب الثاني : تقوى الله وحفظه عند أمره ونهيه فمن اتقى الله تولى الله حفظه ولم يكله إلى

غيره قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس : "احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك" صحيح فمن حفظ الله حفظه الله ووجده أمامه أينما توجه ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف ولمن يحذر السبب الثالث : الصبر على عدوه وأن لا يقاتله ولا يشكوه ولا يحدث نفسه بأذاه أصلا فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه والتوكل على الله ولا يستطل تأخيره وبغيه فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جندا وقوة للمبغي عليه المحسود يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر فبغيه سهام يرميها من نفسه ولو رأي المبغي عليه ذلك لسره بغيه عليه ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي دون آخره ومآله وقد قال تعالى : ﴿ مَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ فإذا كان الله قد ضمن فإذا كان الله قد ضمن له النصر مع أنه قد استوفى حقه أولا فكيف بمن لم يستوف شيئًا من حقه بل بغى عليه وهو صابر وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم وقد سبقت سنة الله أنه لو بغى جبل على جبل جعل الباغي منهما دكا السبب الرابع : التوكل على الله ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم وهو من أقوى الأسباب في ذلك فإن الله حسبه أي كافية ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه

لعدوه ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبدا وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء له وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه وبين الضرر الذي يتشفى به منه قال

بعض السلف جعل الله تعالى لكل عمل جزاء من جنسه وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده فقال: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه فلو توكل العبد على الله تعالى حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجا من ذلك وكفاه ونصره وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه في "كتاب الفتح القدسي" وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة أنه من مقامات العوام وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة وبينا أنه من أجل مقامات العارفين وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجاته إلى التوكل أعظم وأشد وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر والباغي

السبب الخامس : فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له فلا يلتفت إليه ولا يخافه ولا يملأ قلبه بالفكر فيه وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه بل انعزل عنه لم يقدر عليه فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر وهكذا الأرواح سواء فإذا علق روحه وشبثها به وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناما لا يفتر عنه وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ودام الشر حتى يهلك أحدهما : فإذا جبذ روحه عنه وصانها عن الفكر فيه والتعلق به وأن لا يخطره بباله فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضا فإن الحسد كالنار فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضا وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العالية وبين الكيس الفطن

وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه وتعلق

روحه به ولا يرى شيئًا ألم لروحه من ذلك ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوارعة اللينة التي رضيت بوكالة الله لها وعلمت أن نصره له خير من انتصارها هي لنفسها فوثقت بالله وسكنت إليه واطمأنت به وعلمت أن ضمانه حق ووعده صدق وأنه لا أوفى بعهده من الله ولا أصدق منه قيلا فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها أو نصر مخلوق مثلها لها ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس: وهو الإقبال على الله والإخلاص له وجعل محبته وترضيه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها تدب فيها دبيب الخواطر شيئًا فشيئًا حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب والتقرب إليه وتملقه وترضيه واستعطافه وذكره كما يذكر المحب التام المحبة لمحبوبه المحسن إليه الذي قد امتلأت جوانحه من حبه فلا يجعل بيت إنكاره وقلبه معمورا بالفكر في حاسده والباغي عليه والطريق إلى الانتقام منه والتدبير عليه هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله وطلب مرضاته بل إذا مسه طيف من ذلك واجتاز ببابه من خارج ناداه حرس قلبه إياك وحمى الملك إذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حل فيها ونزل بها ما لك ولبيت

السلطان الذي أقام عليه اليزك وأدار عليه الحرس وأحاطه بالسور قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس أنه قال : ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ وقال في حق الصديق : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ فما أعظم سعادة من دخل هذا

الحصن وصار داخل اليزك لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به ولا ضيعة على من آوى إليه ولا مطمع للعدو

في الدنو إليه منه و ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ السبب السابع : تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه فإن الله تعالى يقول :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ وقال لخير الخلق وهم أصحاب نبيه دونه صلى الله عليه وسلم ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره وفي الدعاء المشهور "اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم" فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه فقال: له قف حتى أدخل البيت ثم أخرج إليك فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه ثم خرج إليه فقال له: ما صنعت فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به علي وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه فيشغل بها وبإصلاحها وبالتوبة منها فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد فما أسعده من عبد وما أبركها من نازلة نزلت به وما أحسن أثرها عليه ولكن التوفيق والرشد بيد الله لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع فما كل أحد

يوفق لهذا لا معرفة به ولا إرادة له ولا قدرة عليه ولا حول ولاقوة إلا بالله السبب الثامن : الصدقة والإحسان ما أمكنه فإن لذلك تأثيرا عجيبا في

دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديما وحديثا لكفى به فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق وإن أصابه شيء من

ذلك كان معاملا فيه باللطف والمعونة والتأييد وكانت له فيه العاقبة الحميدة فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته عليه من الله جنة واقية وحصن حصين وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببا لزوالها ومن أقوى الأسباب حسد الحاسد والعائن فإنه لا يفتر ولا يني ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود فحينئذ يبرد أنينه وتنطفيء ناره لا أطفأها الله فما حرس العبد نعمة الله تعالى عليه بمثل شكرها ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله وهو كفران النعمة وهو باب إلى كفران المنعم فالمحسن

المتصدق يستخدم جندا وعسكرا يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه فمن لم يكن له جند ولا عسكر وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه وإن تأخرت مدة الظفر والله المستعان

السبب التاسع : وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه فكلما ازداد أذى وشرا وبغيا وحسدا ازددت إليه إحسانا وله نصيحة وعليه شفقة وما أظنك تصدق بأن هذا يكون فضلا عن أن تتعاطاه فاسمع الآن قوله عز وجل : ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وقال : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ وتأمل حال النبي صلى الله عليه وسلم الذي حكى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم "أنه ضربه قومه حتى أدموه فجعل يسلت الدم عنه ويقول اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" رواه البخاري ومسلم كيف جمع في هذه

الكلمات أربع مقامات من الإحسان قابل بها إساءتهم العظيمة إليه أحدها : عفوه عنهم والثاني : استغفاره لهم الثالث : اعتذاره

عنهم بأنهم لا يعلمون الرابع : استعطافه لهم بإضافتهم إليه فقال اغفر لقومي كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به هذا ولدي هذا غلامي هذا صاحبي فهبه لي واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس ويطيبه إليها وينعمها به اعلم أن لك ذنوبا بينك وبين الله تخاف عواقبها وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة حتى ينعم عليك ويكرمك ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله فإذا كنت ترجو هذا من ربك أن يقابل به إساءتك فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه وتقابل به إساءتهم ليعاملك الله هذه المعاملة فإن الجزاء من جنس العمل فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك جزاء وفاقا فانتقم بعد ذلك أو اعف وأحسن أو اترك فكما تدين تدان وكما تفعل مع عباده يفعل معك فمن تصور هذا المعنى وشغل به فكره هان عليه الإحسان إلى ما أساء إليه هذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة كما "قال النبي صلى الله عليه وسلم للذي شكى إليه قرابته وأنه يحسن

إليهم وهم يسيئون إليه فقال : "لا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك" رواه مسلم هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه ويصيرون كلهم معه على خصمه فإنه كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير وهو مسيء إليه وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء وذلك أمر فطري فطر الله عباده فهو بهذا الإحسان قد استخدم عسكرا لا يعرفهم ولا يعرفونه ولا يريدون منه إقطاعا ولا خبرا هذا مع أنه لا بد له مع عدوه وحاسده من إحدى حالتين إما أن يملكه بإحسانه فيستعبده وينقاد له ويذل له ويبقى من أحب الناس إليه وإما أن يفتت كبده ويقطع دابره إن أقام على إساءته إليه فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة والله هو الموفق المعين بيده الخير كله لا إله غيره وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنه وكرمه وفي

الجملة ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة سنذكرها في

موضع آخر إن شاء الله تعالى السبب العاشر : وهو الجامع لذلك كله وعليه مدار هذه الأسباب وهو تجريد التوحيد والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم والعلم بأن هذه آلات بمنزلة حركات الرياح وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه فهو الذي يحسن عبده بها وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما : "واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك " صحيح فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله تعالى بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه وخرج من قلبه اهتمامه به واشتغاله به وفكره فيه وتجرد الله محبة وخشية وإنابة وتوكلا واشتغالا به عن غيره فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل والله يتولى حفظه والدفع عنه فإن الله يدافع عن الذين آمنوا فإن كان مؤمنا فالله يدافع عنه ولا بد وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع وإن مزج مزج له وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة كما قال بعض السلف من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة فالتوحيد حصن

الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين قال بعض السلف : "من خاف الله خافه كل شيء ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء" فهذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر وليس له أنفع من التوجه إلى الله وإقباله عليه وتوكله عليه وثقته به وأن لا يخاف معه

غيره بل يكون خوفه منه وحده ولا يرجوا سواه بل يرجوه وحده فلا يعلق قلبه بغيره ولا يستغيث بسواه ولا يرجو إلا إياه ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه وكل إليه وخذل من جهته فمن خاف شيئًا غير الله سلط عليه ومن رجا شيئًا سوى الله خذل من جهته وحرم خيره هذه سنة الله في خلقه : ﴿ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ .

فصل :

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة الهامة التي لا غنى للعبد عنها في دينه ودنياه ودلت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنفث في العقد وقد افترق العالم في هذا المقام أربع فرق ففرقة أنكرت تأثير هذا وهذا وهم فرقتان : فرقة اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن وأنكرت تأثيرهما البتة وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات وفرقة أنكرت وجودهما بالكلية وقالت : لا وجود لنفس الآدمي سوى هذا الهيكل المحسوس وصفاته وأعراضه فقط ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعيين وغيرهم من الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام وهو قول شذوذ من أهل الكلام الذين ذمهم السلف وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة الفرقة الثانية : أنكرت وجود النفس الإنسانية المفارقة للبدن وأقرت بوجود الجن والشياطين وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم الفرقة الثالثة : بالعكس أقرت بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن وأنكرت وجود الجن والشياطين وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها وهذا قول كثير من الفلاسفة الإسلاميين وغيرهم وهؤلاء يقولون إنما يوجد في العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة فهي من تأثيرات النفس ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها بغير واسطة شيطان منفصل

وابن سينا وأتباعه على هذا القول حتى أنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب

ويقولون إنما هي من تأثيرات النفس في هيولى

(378/839)

العالم وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل وليسوا من أتباع الرسل جملة الفرقة الرابعة وهم أتباع

الرسل وأهل الحق أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن وأقروا بوجود الجن

والشياطين وأثبتوا ما أثبته الله تعالى من صفاتهما وشرهما واستعاذوا بالله تعالى منه

وعلموا أنه لا يعيذهم منه ولا يجيرهم إلا الله تعالى فهؤلاء أهل الحق ومن عداهم مفرط في

الباطل أو معه باطل وحق الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم فهذا ما يسر الله

تعالى من الكلام على سورة الفلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بدائع الفوائد حـ 2 صـ 198 .

247 ﴾

(379/839)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى . رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الأربعون بعد الثمانمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/840)

الجزء الأربعون بعد الثمانمائة

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الناس)

(4/840)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة الناس)

(5/840)

"فصل في مقصود السورة الكريمة"

قال البقاعي:

سورة الناس

مقصودها الاعتصام بالإله الحق من شر الخلق الباطن، واسمها دال على ذلك لأن الإنسان مطبوع على الشر، وأكثر شره بالمكر والخداع، وأحسن من هذا أنها للاستعاذة من الشر

الباطن المأنوس به المستروح إليه ، فإن الوسسة لا تكون إلا بما يشتهي ، والناس مشتق من الأنس ، فإن أصله أناس ، وهو أيضا اضطراب الباطن المشير إليه الاشتقاق من النوس ، فطابق حينئذ الاسم المسمى ، ومقصود هذه السورة معلول لمقصود الفقاتحة الذي هو المراقبة ، وهي شاملة لجميع علوم القرآن التي هي مصادقة الله ومعاداة الشيطان ببراعة الختام وفذلكة النظام ، كما أن الفاتحة شاملة لذلك لأنها براعة الاستهلال ، ورعاية الجلال والجمال ، فقد اتصل الآخر بالأول اتصال العلة بالمعلول ، والدليل بالمدلول ، والمثل بالممثول ، والله المسؤول في تيسير السؤل ، ت وتحقيق المأمول ، فإنه الجواد ذو الطول ، وبه يستعان وعليه التكلان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 8 صـ 611 ﴾

(6/840)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . قل أعوذ برب الناس)

السّورة مَدَنِيّة .

وآياتها سبع عند المكِّيّين ، والشَّاميّين ، وستّ عند الباقين .

المختلف فيها آية: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ .

وكلماتها عشرون.

وحروفها تسع وسبعون.

وفواصلها على السين.

وسمّيت سورة النَّاس؛ لتكرّره فيها خمس مرّات.

معظم مقصود السّورة: الاعتصام بحفظ الحقِّ - تعالى - وحياطته، والحذر والاحتراز من وَسْواس الشيطان، ومشن تعدّى الجنّ والإنسان، فى قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ .

ومن المتشابه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثمّ كرّر ﴿النَّاسِ﴾ خمس مرّات.

قيل: كرّر تبجيلاً لهم على ما سبق.

وقيل: كرّر لانفصال كلّ آية من الأُخرى بعدم حرف العطف.

وقيل: المراد بالأَوّل الأَطفال ومعنى الرّبوبيّة يدلّ عليه، وبالثَّانى الشُّبّان ولفظ المُلْك يدلّ عليه؛ لأَنَّه مُنبئ عن السّياسة - وبالثالث الشيوخ - ولفظ (إِله) المنبئ عن العبادة يدلّ عليه؛ وبالرابع الصّالحون والأَبرار - والشيطان مولع بإِغوائهم، وبالخامس المفسدون والأَشرار، وعَطْفه على المعوَّذ منهم يدلّ عليه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 557﴾

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة الناس

78ء – مسألة :

قوله تعالى : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1)

ما فائدة إثباتها في التلاوة مع عموم الحكم ؟ .

جوابه :

توجه الخطاب إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – تشريفا له وتخصيصا بمزيد الاعتناء بالمخاطبة ، ومثله : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ) ونحو ذلك .

وأيضا : لو بُدِئ ب (أَعُوذُ) لم يكن فيه من التنصيص على الأمر بها ما في قوله : (قل) لتطرق احتمال قصد الإخبار مع بعده .

479 – مسألة :

قوله تعالى : (برب الناس) وهو رب كل شك فما وجه تخصيص الناس ؟ .

جوابه :

أن المستعاذ منه الوسوسة وهي مخصوصة بالناس ، فناسب

استغاثتهم لسيدهم ، وتسميتهم لذلك .

480 - مسألة :

قوله تعالى : (بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3)

إلى آخر السورة . المستعان به في هذه ثلاث صفات ، والمستعاذ منه شر واحد وهو :

الوسوسة .

وفى سورة الفلق : المستعاذ به بصفة واحدة ، والمستعاذ منه

أربعة أشياء ؟ .

جوابه :

أن البناء على المطلوب منه ينبغي أن يكون بقدر المسؤول . والمطلوب في "سورة الناس "

سلامة الدين من الوسوسة " القادحة فيه .

وفى " سورة الفلق " تتعلق " بالنفس والبدن والمال " وسلامة

الدين أعظم وأهم ، ومضرته أعظم من مضرة الدنيا .

481 - مسألة :

قوله تعالى : (بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) بدأ

ب (بِرَبِّ) ثم ب (مَلِكِ) ثم ب (إِلَهِ)

ما حكمة هذا الترتيب ؟ وما فائدة إعادة الناس ظاهرا مع إمكان ضميره ؟ .

جوابه :

(8/840)

أن الباري تعالى ربى الناس بنعمه أجنّةً وأطفالا وشبابا ، فقال : (رَبِّ النَّاسِ) فلما شبوا عرفوا أنهم عبيد لملك قاهر لهم ، وهو الله سبحانه وتعالى ، فقال : (مَلِكِ النَّاسِ) ، فلما عرفوا وجوده وملكه سبحانه كلفوا بعبادته وأمره ونهيه وانفراده بالألوهية والعبادة ، فقال : (إِلَهِ النَّاسِ) ف " رب " : أخص الثلاثة ، لأنه يقال في الباري تعالى وفى غيره و"ملك " : أعم منه ، وأخص من "إله " ، لأنه يقال : ملك العراق ونحوه و"إله " : أعم الثلاثة ، لأنه تعالى : ربهم ، وملكهم ، وإلههم ، ولا يشاركه غيره في ذلك فحصل الترقى من صفة إلى صفة ، لما في الوصف الثاني من التعظيم ما ليس فى الأول ، وفى الثالث ما ليس في الثاني .

وأما تكرار ، (النَّاسِ) : فإما لمشابهة رؤوس الآى كغيرها من السور ، أو لأن الأوصاف الثلاثة أتى بها عطف بيان كقولك : الفاروق أبو حفص عمر ، لقصد البيان فكان التصريح بلفظ "الناس " أصرح في البيان من الضمائر .

وخص " الناس " بذلك : لأن غيرهم لا يدعى الربوبية ، والملك ، والألوهية فبين أنه إله من قد يوصف بذلك ، فغيرهم أولى بأنه إلههم .

والله تعالى أعلم ، وله الحمد والشكر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 381. 384﴾

(9/840)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال ابن عاشور :

سورة الناس

تقدم عند تفسير أول سورة الفلق أن النبي (صلى الله عليه وسلم) سمى سورة الناس : (قل أعوذ برب الناس) .

وتقدم في سورة الفلق أنها وَسورة الناس تسميا ن (المعوذتين) ، و (المشقشقتين) بتقديم الشينين على القافين ، وتقدم أيضاً أن الزمخشري والقرطبي ذكر أنهما تسميا ن (المقشقشتين) بتقديم القافين على الشينين ، وعنونها ابن عطية في (المحرر الوجيز) (سورة المعوذة الثانية) بإضافة (سورة) إلى (المعوذة) من إضافة الموصوف إلى الصفة ،

وعنونهما الترمذي (المعوذتين) ، وعنونها البخاري في (صحيحه) (سورة قل أعوذ برب الناس) .

وفي مصاحفنا القديمة والحديثة المغربية والمشرقية تسمية هذه السورة (سورة الناس) وكذلك أكثر كتب التفسير .

وهي مكية في قول الذين قالوا في سورة الفلق إنها مكية ، ومدنية في قول الذين قالوا في سورة الفلق إنها مدنية . والصحيح أنهما نزلتا متعاقبتين ، فالخلاف في إحداهما كالخلاف في الأخرى .

وقال في (الإِتقان) : إن سبب نزولها قصة سِحر لبيد بن الأعصم ، وأنها نزلت مع (سورة الفلق) وقد سبقه إلى ذلك القرطبي والواحدي ، وقد علمتَ تزييفه في سورة الفلق .

وعلى الصحيح من أنها مكية فقد عُدت الحادية والعشرين من السور ، نزلت عقب سورة الفلق وقبل سورة الإِخلاص .

(10/840)

وعدد آيها ست آيات ، وذكر في (الإِتقان) قولاً : إنها سبع آيات وليس مَعزُوّاً لأهل العدد .

أغراضها

إرشاد النبي (صلى الله عليه وسلم) لأن يتعوذ بالله ربه من شر الوسواس الذي يحاول إفساد عمل النبي (صلى الله عليه وسلم) وإفساد إرشاده الناس ويلقي في نفوس الناس الإِعراض عن دعوته. وفي هذا الأمر إيماء إلى أن الله تعالى معيذه من ذلك فعاصمه في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتى تعمّ في الناس. ويتبع ذلك تعليم المسلمين التعوذ بذلك، فيكون لهم من هذا التعوذ ما هو حَظهم من قابلية التعرض إلى الوسواس، ومع السلامة منه بمقدار مراتبهم في الزلفى. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 30 صـ 631.632﴾

(11/840)

وقال الشيخ الصابونى:

سورة الناس

مكية وآياتها ست آيات

بين يدي السورة

* سورة الناس مكية، وهي ثاني المعوذتين، وفيها الإستجارة والإحتماء برب العالمين،

من شر أعدى الأعداء ، إبليس وأعوانه من شياطين الإنس والجن ، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء .

* وقد ختم الكتاب العزيز بالمعوذتين وبدىء بالفاتحة ، ليجمع بين حسن البدء ، وحسن الختم ، وذلك غاية الحسن والجمال ، لأن العبد يستعين بالله ويلتجىء إليه ، من بداية الأمر إلى نهايته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 3 صـ 625 ﴾

(12/840)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الفراء :

سورة (الناس)

﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾

قوله عز وجل : ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . . . ﴾ .

إبليس يوسوس فى صدر الإنسان ، فإذا ذكر الله عز وجل خنس .

﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾

قولهعز وجلّ : ﴿ يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ . . . ﴾ .

فالناس ها هنا قد وقعت على الجنة وعلى النسا كقولك : يوسوس فى صدور الناس : جنتهم وناسهم ، وقد قال بعض العرب وهو يحدّث : جاء قوم من الجن فوقفوا ، فقيل : من أنتم ؟ فقالوا : أناس من الجن وقد قال الله جل وعز : ﴿ أنّه اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ﴾ فجعل النفر من الجن كما جعلهم من الناس ، فقال جلّ وعز : ﴿ وأَنَّهُ كان رِجالٌ من الإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ من الجنّ ﴾ فسمّى الرجال من الجن والإنس والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 3 صـ 302 ﴾

(13/840)

وقال الأخفش :

سورة (الناس)

﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾

قال ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ تقول : "مَلِكٌ بَيِّنُ المُلْكِ" الميم مضمومة . وتقول : "مَالِكٌ بَيِّنُ المَلْكِ" و"المِلْكِ" بفتح الميم وبكسرها ، وزعموا ان ضم الميم لغة في هذا المعنى .

﴿ إله النَّاسِ ﴾

وقوله ﴿ إله النَّاسِ ﴾ بدل من ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ [2] .

﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾

وقوله ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ يريد : "مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ" . و"الجِنَّةُ" هم : الجِنّ. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 2 صـ 590 ﴾

(14/840)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة الناس «1»

4 - و5 - الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . . . : إبليس يوسوس في الصدور والقلوب ، فإذا ذكر اللّه : خنس ، أي أقصر وكفّ .

6 - والْجِنَّةِ : الجنّ .

---

(1) قيل إنها مكية وقيل أنها مدنية .

(15/840)

(قال أبو محمد) : روي يزيد بن هارون «1» [السلميّ] عن سعيد ، قال قتادة : «كان إبليس ينظر إلى آدم ، ويقول : لأمر ما خلقت ! . ويدخل من فيه ، ويخرج من دبره . فقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا ، فإن ربكم صمد ، وهذا أجوف» . «2»

والحمد للّه وحده .

تم الكتاب بحمد اللّه تعالى واللّه تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تأويل مشكل القرآن ص 479.478 ﴾

---

(1) هو الإمام الزياتي يزيد بن هارون أبو خالد الواسطي الحافظ ، روي عن عاصم والأحوال والكبار ، قال علي بن المديني : ما رأيت رجلا قط أحفظ من يزيد بن هارون ، يقول : احفظ أربعة وعشرين ألف حديث باسنادها ولا فخر ، وقا يحيى بن يحيى التميمي : هو أحفظ من وكيع ، وقال أحمد بن سنان القطان : كان هو وهشام معروفان بطول صلاة الليل والنهار ، وقال ابن ناصر الدين : كان حافظا إماما ثقة مأمونا مناقبه جمة خطيرة . توفي سنة ست ومائتين (انظر شذرات الذهب ص 16 ج 2) .

(1) كلام يفتقر إلى سند صحيح ، واللّه أعلم .

وقال الغزنوى :

[سورة الناس]

1 بِرَبِّ النَّاسِ : حافظهم وملكهم يملك أمرهم . وإلههم لا يحق لعبادتهم غيره .

4 الْوَسْواسِ : حديث النّفس بالصّوت الخفي وهو الموسوس هنا ، سمّي باسم المصدر .

الْخَنَّاسِ : الشّيطان لأنّه يخنس عند ذكر اللّه «1» .

---

(1) أي ينقبض ويتأخر .

ينظر معاني القرآن للفراء : 3/ 302 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 543 ،

وتفسير الطبري : 30/ 355 ، ومعاني الزجاج : 5/ 381 ، وتفسير الماوردي : 4/

552 ، واللسان :

6/ 71 (خنس) . [. . . . .]

(17/840)

تم كتاب إيجاز البيان عن معاني القرآن بحمد اللّه ومنه والصلاة على محمد وآله الطاهرين

أجمعين وسلم تسليما كثيرا «1» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 2 صـ

898.897 ﴾

(1) جاء في آخر «ج» ما يلي : تم الكتاب بعون القادر الوهاب على جارحة أقل خلق اللّه محمد بن فضل الله الملقب بالضياء أحسن اللّه عواقبه وبصره بعيوب نفسه ثالث آخر الربيعين سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة ، حامدا ومصليا .

(18/840)

وقال ملاحويش :

تفسير سورة الناس

عدد 21 - 114

نزلت بمكة بعد الفلق ، وهي ست آيات ، وعشرون كلمة ، وتسعة وسبعون حرفا .

"بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ"

قال تعالى "قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ 1" أي كما أمرناك أن تستعيذ برب الفلق فاستعذ برب الناس وحافظهم مما يضرهم مادة ومعنى ، وهو "مَلِكِ النَّاسِ 2" ومالك أمرهم ومدبر أمورهم وقد وصف جل شأنه نفسه بأنه رب الناس ، لأن الرب قد يكون ملكا ، وقد لا يكون ملكا ، فنبه جل شأنه على أنه ربهم .

ثم ان الملك قد يكون إلها وقد لا يكون ، فنبه على أنه "إِلهِ النَّاسِ 3" وأن الإلهية الحقيقية

خاصة به ، وكرر لفظ الناس لشرفهم على غيرهم من خلقه ، وكما ينبغي التعوذ من الناس وأقوالهم وأفعالهم ، ينبغي التعوذ أيضا "مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ" الشيطان ومعنى الوسواس والوسوسة الصوت الخفي والهمز ، وقد وصفه بقوله "الْخَنَّاسِ 4" أي الرجاع لأنه كلما ذكر اللّه يخنس ويتأخر ، ويطلق على المختفي لأنه عند الغفلة ينهض ويوسوس قال سعيد بن جبير : إذا ذكر الإنسان ربه خنس وتأخر وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة ولم تنقل لعدم الوقوف على صحتها ، وان كان معناها صحيحا .

(19/840)

واعلم أن الوسوسة للانسان من الشيطان تأتيه لقوله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا فَإِذا هُمْ مُبْصِرُونَ) الآية 200 من الأعراف الآتية وقال تعالى (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) الآية 35 من الزخرف ج 2 ، ويوصفه في قوله تعالى "الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ 5" بإلقاء كلام خفي في قلوبهم يصل مفهومه إليها من غير سماع ولا مانع عقلا في ذلك ، لما جاء في الحديث الصحيح أن الشيطان يجري من أحدكم مجرى الدم ، وأخرج ابن شاهين عن أنس قال سمعت رسول اللّه يقول : إن للوسواس خطما كخطم الطائر فاذا غفل ابن آدم وضع ذلك المنقار في أذن القلب يوسوس

فإن ذكر اللّه نكص وخنس فلذلك سمى الوسواس الخناس وهو قد يكون "مِنَ الْجِنَّةِ"

الأشخاص المتسترين عن أبصار الخلق وهم المعنيون بقوله تعالى (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ

حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ" الآية 46 من سورة الأعراف الآتية "و" يكون من "النَّاسِ 6" ويفعل فعل

الجنّة وأكثر لأن وسوسة الناس بعضهم لبعض مشاهدة بمثابة الناصحين فاذا قبل منه زاد

في الوسوسة وإذا كره أمسك عنه وجاءه من طريق آخر قال تعالى (شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ

يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً) الآية 113 من الانعام في ج 2 فقد قدم

الأنس على الجن وأمر بالاستعاذة من كليهما قال الإمام الأبوصيري ان بعض الأولياء سأل

اللّه تعالى أن يريه كيف يأتي الشيطان ويوسوس فأراه اللّه تعالى هيكل الإنسان في صورة

بلّور وبين كتفيه شامة

سوداء كالعش والوكر فجاءَ الخنّاس يتجسس من جميع جوانبه وهو في صورة الخنزير له

خرطوم كالفيل، فأدخل خرطومه من بين الكتفين من قبل قلبه فوسوس اليه فذكر اللّه

فخنس ورآه، لذلك سمي الخناس لأن نور الذكر ينكصه على عقبه ولهذا السر الإلهي كان

خاتم النبوة في هذا المحل إشارة إلى عصمته صلّى اللّه عليه وسلم منه .

وقال صلّى اللّه عليه وسلم أعانني اللّه عليه فأسلم بالختم وما أسلم قرين آدم فوسوس اليه .

هذا على الرواية بأن الفعل فعل ماض ، وعلى رواية انه فعل مضارع يكون بمعنى السلامة لا بمعنى الإسلام ، تدبر .

وكان صلّى اللّه عليه وسلم يحتجم من بين الكتفين ويأمر بذلك لتضعيف مادة الشيطان وتضييق مرصده لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم كما مر في الحديث ، وقال بعض العارفين أراد برب الناس الأطفال لان معنى الربوبية يدل عليه وبملك الناس الشباب لأنّ لفظ الملك المنبئ عن السياسة يدل عليه ، وبإله الناس من الشيوخ لان لفظ الإلهية المنبئ عن العبادة يدل عليه ، وبالذي يوسوس إلخ الصالحين لان الشيطان يطمع بإغوائهم وبمن الجنة والناس المفسدين لعطفه على المعوذ منه فهم أكثر من غيرهم لقرب لحوقهم به .

اخرج مسلم والترمذي والنسائي ان رسول اللّه قال أنزلت عليّ الليلة آيات لم أر مثلهن قط : قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، وجاء عن عائشة ان رسول اللّه كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات (الإخلاص ، والفلق والناس) وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيديه رجاء بركتهما ، أخرجه مالك في الموطأ وللبخاري ومسلم بمعناه ، وروى البخاري ومسلم أن رسول اللّه كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع

كفيه ثم نفث فيهما فقرأ المعوذات ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاثا .

(21/840)

هذا وما قيل أنه صلّى اللّه عليه وسلم سحر من قبل اليهود في المدينة وصار يتعوّذ بهما ولم يزل حتى برىء ، فبعيد عن الصحة ، لأن هاتين السورتين نزلتا بمكة في أوائل البعثة ولا خلطة له ولا مراجعة مع اليهود حتى يغتاظوا منه فيسحروه وكيف يسحر وهو معصوم بعصمة اللّه ، وقد نفى اللّه عنه وصفه بالسحر وحماه من السحرة وغيرهم ، وعليه فكل ما ورد في هذا لا عبرة به ولا قيمة لنا قليه البتة ، وما قيل أن المعوذتين نزلتا بالمدينة لا صحة له ، لأن القول المعتمد أنهما مكيتان وأن تعوذه بهما استدار للأمر به من سحر وعين وحسد وغيرها له ولأمته إلى يوم القيامة ، أما كونه صلّى اللّه عليه وسلم سحر في المدينة وصار يتعوذ بهما من السحر فغير صحيح .

مطلب في السحر وعدم وقوعه على الأصول :

وكل ما نقل في هذا مطعون فيه .

(22/840)

والسحر حق لا ينكر وقوعه ولا يجوز نفيه لوروده في القرآن وورودة أنه مما يتعلم وأنه مما يكفر فيه وأنه مما يفرق بين الناس كما سيأتي في سور كثيرة من القرآن ، فلا يمكن القول بعدم حقيقة السحر ومذهب أهل السنة والجماعة على ثبوته وأن له حقيقة كغيره من الأشياء الثابتة ، ولا يستنكر عقلا لأن الله تعالى يخرق العادة عند النطق بكلام مغلق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى لا يعرفها الا الساحر ، فإنه لا فاعل في الحقيقة إلا الله القائل : (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) الآية 96 من سورة الصّافات في ج 2 فما يقع من الساحر عبارة عن عادة أجراها الله على يد من شاء من عباده ، وأن كل ما يقع في الوجود بقضاء الله وقدره ، والاستشفاء بالرقي والتعوذ من قضاء الله وقدره ، يدل على هذا حديث عائشة المتقدم وحديث اسماء الذي ذكرناه آخر سورة القلم المارة وفيه بحث نفيس فراجعه ، وما رواه الترمذي عن أبي خزامة عن أبيه قال : سألت رسول الله فقلت يا رسول الله أرأيت رقيا نسترقي بها ودواء نتداوى به وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئا ؟

قال هي من قدر الله .

وقال عمر نفر من قدر الله إلى قدر الله ، وزعم بعض المبتدعة أن ما جاء في حديث عائشة المتفق عليه الذي رواه البخاري ومسلم من أن النبي صلّى الله عليه وسلم سحر حتى كان يخيل اليه أنه يضع الشيء ولم يضعه إلخ .

يحط من منصب النبوة ويشكك فيها وتجويزه يمنع الثقة بالشرع ، وهو كذلك فيما يتعلق بالدين فقط لأن الدلائل العقلية والنقلية قامت على صدقه صلّى اللّه عليه وسلم وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة على ذلك ، وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل ، أما ما يتعلق بأمور الدنيا مما يعرض للبشر عادة فغير بعيد أنه يخيل اليه حال مرضه من أمور الدنيا مالا حقيقة له ، مثل ما يتخيل الإنسان في المنام ، إذ أنه ورد في رواية البخاري أنه كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن يبعد أن يتخيل مثل هذا في اليقظة حال المرض من حيث لا حقيقة له ومن قال أنه صلّى اللّه عليه وسلم سحر أراد هذا المعنى

لا غير لأن اللّه نزهه من أن يكون ساحرا أو مسحورا فمن أول النّفاثات في سورة الفلق المارة بنيات لبيد بن الأعصم اليهودي وقال أنهن سحرن رسول اللّه وأن جبريل أخبره بذلك وأن السحر كان على مشاطة منه عقدن عليه أحدى عشرة عقدة ورموها بالبئر ، وأن رسول

اللّه حينما نزلت عليه المعوذتان أرسل علينا فأخرج المسحور عليه من تحت صخرة في ذلك البئر وجاء إلى حضرة الرسول وقرأ عليه المعوذتين وانه كلما قرأ آية انحلت عقدة لأنها إحدى عشرة آية والعقد إحدى عشرة عقدة إلى آخر ما ذكره المفسرون وجاءت به الأحاديث من كل حدب وصوب ، لا اعتماد عليه ولا صحة ولا حقيقة له ، إلا أن حضرة الرسول بشر فيصيبه ما يصيب البشر من المرض وغيره ويقع ما يقع منه مثل ما يقع منهم فيما يتعلق بأمور الدنيا ، أما بأمور الدين والتبليغ فلا ، لأنه معصوم من قبل اللّه ومحفوظ بحفظه لا يتطرق اليه شيء من ذلك أبدا قال تعالى قل إنما أنا بشر مثلكم الآية 111 من الكهف في ج 2 ومثلها في معناها كثير في القرآن قال القاضي عياض : قد جاء في بعض روايات هذا الحديث (الذي يعتقدون صحته) بنية أن السحر إنما سلط على بدنه وظواهر جوارحه لا على قلبه وعقله واعتقاده وليس في ذلك ما يوجب لبسا في الرسالة ولا طعنا لأهل الزيغ والضلالة ، ولو قال رحمه اللّه إن هذا الحديث قالوا بصحته فهو غير صحيح ، وإنما اعتمد الجمهور صحته لكونه في الصحيحين ، ولعمري ليس كل شيء مما في الصحيحين صحيحا قطعا ، فإن فيهما الضعيف والمنكر ، وإن البخاري ومسلم رحمهما اللّه وإن كانا من أحسن الناس نقلا لكنهما نقلا عن أناس قد يطعن فيهم ، أو انه دسّ هذا فيما نقلاه ، لأننا بعد أن نسمع أن اللّه عصمه من السحر ومن أن يكون ساحرا وأبطل بحقه سحر السحرة وكيد

الفجرة ، فكيف يسوغ لنا أن نصدق بأنه سحر ، عصمنا اللّه من ذلك ولهذا البحث صلة في تفسير الآية 59 من سورة طه الآتية فراجعها .

(25/840)

هذا ، واللّه أعلم وأستغفر اللّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى الأصحاب وأتباعهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿بيان المعاني حـ 1 صـ 183. 187﴾

(26/840)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة الناس

الخناس كاف لمن رفع ما بعده خبر مبتدأ محذوف أو نصبه على الذي بتقدير أعنى وليس بوقف لمن جره نعتا لما قبله آخر السورة وقال أبو عمرو ولم يزد الأصل في سورة الفلق والناس

على قوله وليس في الفلق والناس وقف حسن يعتمد والله تعلى أعلم .

الحمد الله معلم البيان ومسدي التبيان والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي إلى سنن الرشاد الواقف لدعاء الخلق إلى الله في موقف السداد وعلى آله الذين اهتدوا بهداه واستمسكوا من الدين القويم بعراه وبعد فقد تم طبع هذا الكتاب الفائق البالغ النهاية فيما أودعه من المواقف على الحقائق وكان تمام طبعه بمطبعة الراجي من الله كمال الوفا حضرة محمد فندي مصطفى وذلك في أواخر ربيع الأول سنة 1313 هجرية على صاحبها الصلاة وأتم التحية آمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ ﴾

(27/840)

"فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة"

قال العلامة ابن جنى :

سورة الناس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

لم يختلف الناس في ﴿ مَلِكِ النَّاس ﴾ أنها بغير ألف .

قال أبو الفتح : ينبغي أنه يكون – والله أعلم – إنما وقع الإجماع على ذلك لأنه من جملة الثناء

على الله – سبحانه – بالربوبية والإلهية ، فكان معنى الملك أليق بالربوبية والإلهية من معنى الملك ؛ إذ كل ملك مالك ، وليس كل مالك ملكا ، فكما يوفق بين الألفاظ . في القوافي والسجوع والمقاطع ينبغي أن يوفق أيضا بين المعاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحتسب حـ 2 صـ 375 ﴾

(28/840)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة الناس

مكية وقيل مدنية وآيها ست مدني وعراقي وسبع مكي وشامي وخلافها آية الوسواس مكي وشامي وأمال الناس الخمس محضة الدوري عن أبي عمرو من طريق أبي الزعراء عنه وهو الذي في التيسير وبه كان يأخذ الشاطبي عنه وجها واحدا وروى فتحه عنه سائر أهل الأداء قال في النشر والوجهان صحيحان عندنا من رواية الدوري وافقه اليزيدي والباقون بالفتح والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(29/840)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة الناس "

" قل أعوذ " مثل ما في السورة قبلها .

" والناس " آخر السورة وآخر الربع وختام القرآن العظيم .

الممال

أدراك الثلاثة بالإمالة لشعبة والأخوين وخلف والبصري وابن ذكوان بخلف عنه والوجه الثاني له الفتح وبالتقليل لورش .

ألهاكم وأغنى وسيصلى بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلف عنه . عابدون معا وعابد لهشام . جاء لابن ذكوان وخلف وحمزة . الناس الخمسة لدوري البصري .

المدغم

" الكبير " فأمه هاوية . تطلع على . كيف فعل ، فعل ربك ، والصيف فليعيدوا ، يكذب بالدين . والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 358 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

ومن سورة الناس

لا خلف فيها الا ما رواه الحلواني عن أبي عمر عن الكسائي أنه أمال الناس في الخفض دون غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 378 ﴾

(31/840)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الدانى :

سورة الناس 114

مدنية هذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقال قتادة مكية وقد ذكر نظيرتها في جميع العدد على اختلافها

وكلمها عشرون كلمة

وحروفها تسعة وسبعون حرفا كحروف الفلق

وهي سبع آيات في المكي والشامي وست في عدد الباقين

اختلافها آية (﴿ الوسواس ﴾) عدها المكي والشامي ولم يعدها الباقون ورؤوس الآي

برب الناس

1 ملك الناس

2 إله الناس

3 الخناس

4 الناس

5 والناس

6

(32/840)

قال الحافظ رحمه الله تعالى حدثنا خلف بن إبراهيم بن محمد المقرىء قال أنا أحمد بن

محمد المكي قال أنا علي بن عبد العزيز قال أنا القاسم بن سلام قال أنا مروان بن معاوية

الفزاري عن محمد بن عبد الرحمن السدوسي عن ابن عمران بن حطان قال سمعت أم

الدرداء تقول سألت عائشة عن من دخل الجنة ممن قرأ القرآن ما فضله على من لم يجمعه

فقالت لي عدد درج الجنة بعدد آي القرآن فمن دخل الجنة ممن قرأ القرآن فليس فوقه أحد

قال الحافظ أخبرنا محمد بن خليفة الإمام قال أنا أحمد بن الحسين بن عبد الجبار قال أنا شجاع بن مخلد قال أنا الفضل بن دكين قال أنا سفيان عن عاصم عن زر عن عبد الله بن عمرو عن النبي قال يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها

قال الحافظ رحمه الله تعالى وأنا أختم كتابي هذا بذكر أجزاء القرآن وأتخير الصحيح من ذلك وأضرب عما سواه ليقرب حفظه ويعم الجميع فائدته إن شاء الله تعالى وبالله التوفيق . انتهى انتهى . اهـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 298. 299﴾

(33/840)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لقد ذكرنا في أول سورة البقرة أن أصل ناس عند سيبويه أناس فحذفت فاؤه : وعند غيره لم يحذف منه شئ ، وأصله نوس لقولهم في التصغير نويس .

وقال قوم : أصله نيس مقلوب عن نسى أخذوه من النسيان وفيه بعد ، و (الوسواس) بالفتح اسم ، وبالكسر المصدر ، والتقدير : من شر ذي الوسواس ، وقيل سمى الشيطان بالفعل مبالغة ، و (الخناس) نعت له ، و (الذى يوسوس) يحتمل الرفع والنصب والجر .

قوله تعالى (من الجنة) هو بدل من شر بإعادة العامل : أي من شر الجنة ،

والنصب والجر .

قوله تعالى (من الجنة) هو بدل من شر بإعادة العامل : أي من شر الجنة ، وقيل هو بدل من ذى الوسواس لأن الموسوس من الجن ، وقيل هو حال من الضمير في يوسوس : أي يوسوس وهو من الجن ، وقيل هو بدل من الناس : أي في صدور الجنة ، وجعل " من " تبيينا وأطلق على الجن اسم الناس لأنهم يتحركون في مراداتهم ، والجن والجنة بمعنى ، وقيل من الجنة حال من الناس : أي كائنين من القبيلين ، وأما (الناس) الأخير فقيل هو معطوف على ذى الوسواس : أي من شر القبيلين ، وقيل هو معطوف على الجنة ، والله أعلم .

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمدا وآل سيدنا محمد أجمعين .

وهذا آخر ما تيسر من إملاء الكتاب (التبيان في إعراب القرآن) ونسأل الله أن يوفقنا لشكر آلائه ، وللعمل بما علمنا ، والعصمة من الزلل في القول والعمل ، بمنه وكرمه وصلى الله على

سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

انتهى انتهى. اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ ﴾

(34/840)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة الناس

[سورة الناس (114): آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة ابتدائية لا محل لها "أَعُوذُ" مضارع فاعله مستتر "بِرَبِّ" متعلقان بالفعل "النَّاسِ" مضاف إليه والجملة مقول القول.

[سورة الناس (114): آية 2]

مَلِكِ النَّاسِ (2)

"مَلِكِ" بدل من رب "النَّاسِ" مضاف إليه.

[سورة الناس (114): آية 3]

إِلَهِ النَّاسِ (3)

"إِلَهِ" بدل من رب "النَّاسِ" مضاف إليه.

[سورة الناس (114) : آية 4]

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4)

"مِنْ شَرِّ" الجار والمجرور متعلقان بأعوذ "الْوَسْوَاسِ" مضاف إليه "الْخَنَّاسِ" بدل من الوسواس.

[سورة الناس (114) : آية 5]

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5)

"الَّذِي" اسم موصول صفة الوسواس "يُوَسْوِسُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "فِي صُدُورِ" متعلقان بالفعل "النَّاسِ" مضاف إليه.

[سورة الناس (114) : آية 6]

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)

"مِنَ الْجِنَّةِ" الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل يوسوس "وَالنَّاسِ" معطوف على الجنة. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 3 صـ 477 ﴾

(35/840)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَةُ النَّاس

حَدِيث وَاحِد

1570 - عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَقَد انْزِلْ عَلّي سورتان مَا أنزل عَلّي مثلهمَا وَإِنَّك لن تقْرَأ سُورَة أحب وَلَا أَرْضَى عِنْد الله مِنْهُمَا

قلت غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ

وَرَوَى مُسلم فِي صَحِيحه من حَدِيث عقبَة بن عَامر الْجُهَنِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الم تَرَ آيَات أنزلت هَذِه اللَّيْلَة لم ير مِثْلهنَّ قطّ قل أعوذ بِرَبّ الفلق و قل أعوذ بِرَبّ النَّاس

وَرَوَى ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع الأول من الْقسم الأول من حَدِيث اسْلَمْ بن عمرَان عَن عقبَة قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول لن يقْرَأ سُورَة أحب إِلَى الله وَلَا أبلغ من قل أعوذ بِرَبّ الفلق و قل أعوذ بِرَبّ النَّاس فَإِن اسْتَطَعْت أَلا تدعهما فِي صَلَاة فافعل . انْتَهَى . انتهى . اهـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار جـ 4 صـ 341 ﴾

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة الناس

" قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس " . الاستعاذة فى هذه السورة من شياطين الإنس والجن ، وما يلقونه فى الصدور من وساوس . ونحن لا ندرى كيف يتصرف الجن ، ولكننا نشعر بما يطلبون منا وبرغبتنا فيه ، ولذلك نلجأ إلى الرب الملك الإله كى يحفظنا . فتكرير صفات الله اعتراف بالفاقة ولجأ إلى القدير ! " من شر الوسواس الخناس "0 الخناس الذى يختفى ليؤذى وينتهز الفرصة للوثوب . والموسوس خبيث ماكر فينبغى الحذر منه . ويقول الله فى موضع آخر : " وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا . . " . ويبدو أن شهوة الإنسىّ هى لذته فى الفعل ، وشهوة الجنى هى رغبته فى الإغواء كما ورث عن إبليس . وهكذا يستمتع بعضهم ببعض . على أن الشياطين محرومة من كل سلطة تنفيذية . إنها لا تملك إلا الإغواء والمخادعة ، فمن استجاب لها لا عذر له لاسيما بعد تحذيره وتنبيهه . . وهذه

السورة تتحدث عن خطر الهواجس النفسية ، وعن ضرورة النجاة منها . والمؤمن الذاكر لربه المثابر على حقه ، يعيش داخل سور يحميه من النفس وهواجسها والشيطان ووساوسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 552 ﴾

(37/840)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(38/840)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

(بسم الله) المحيط علما بكل باطن كإحاطته بكل ظاهر (الرحمن) الذي عمت نعمته كل

باد وحاضر (الرحيم) الذي خص أولياءه بإتمام النعمة عليهم في جميع أمورهم الأول منها والأثناء والآخر.

(39/840)

لما جاءت سورة الفلق للاستعاذة من شر ما خلق من جميع المضار البدنية وغيرها العامة للإنسان وغيره، وذلك هو جملة الشر الموجود في جميع الأكوان والأزمان، ثم وقع فيها التخصيص بشرور بأعيانها من الفاسق والساحر والحاسد، فكانت الاستعاذة فيها عامة للمصائب الخارجة التي ترجع إلى ظلم الغير، والمعايب الداخلة التي ترجع إلى ظلم النفس ولكنها في المصائب أظهر، وختمت بالحسد فعلم أنه أضر المصائب، وكان أصل ما بين الجن والإنس من العداوة الحسد، جاءت سورة الناس متضمنة للاستعاذة من شر خاص، وهو الوسواس، وهو أخص من مطلق الحاسد، ويرجع إلى المعايب الداخلة اللاحقة للنفوس البشرية التي أصلها كلها الوسوسة، وهي سبب الذنوب والمعاصي كلها، وهي من الجن أمكن وأضر، والشر كله يرجع إلى المصائب والمعايب، فقد تضمنت السورة كالفلق استعاذة ومستعاذاً به ومستعاذاً منه وأمراً بإيجاد ذلك، فالأمر: ﴿قل﴾ والاستعاذة ﴿أعوذ﴾ والمستعاذ به هو الله سبحانه وتعالى، لكن لما كانت صفة الربوبية

من صفات كماله سبحان أليق بالحماية والإعانة والرعاية والخلق والتدبير والتربية والإصلاح، المتضمن للقدرة التامة والرحمة الواسعة، والإحسان الشامل والعلم الكامل، قال تعالى: ﴿ برب الناس ﴾ أي أعتصم به أي أسأله أن يكون عاصماً لي من العدو وأن يوقعني في المهالك، قال الملوي: والرب من له ملك الرق وجلب الخيرات من السماء والأرض وإبقاؤها، ودفع الشرور ورفعها، والنقل من النقص إلى الكمال، والتدبير العام العائد بالحفظ والتتميم على المربوب، وخص الإضافة بالمزلزلين المضطربين في الأبدان والأديان من الإنس والجان لخصوص المستعاذ منه، وهو الأضرار التي تعرض للنفوس العاقلة وتخصها، بخلاف ما في الفلق فإنه المضار البدنية التي تعم الإنسان وغيره.

(40/840)

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: وجه تأخرها عن شقيقتها عموم الأولى وخصوص الثانية، ألا ترى عموم قوله ﴿ من شر ما خلق ﴾ وإبهام ﴿ ما ﴾ وتنكير ﴿ غاسق ﴾ و ﴿ حاسد ﴾ والعهد فيها استعيذ من شره في سورة الناس وتعريفه ونعته، فبدأ بالعموم ثم أتبع بالخصوص ليكون أبلغ في تحصيل ما قصدت الاستعاذة منه، وأوفى بالمقصود، ونظير هذا في تقديم المعنى الأعم ثم إتباعه بالأخص بتناول الدقائق والجلائل قوله سبحانه وتعالى

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ في معنى الرحمن ومعنى الرحيم واحد لا في عموم الصفة الأولى وكونها للمبالغة ، وقد تعرض لبيان ذلك المفسرون ولذلك نظائر – انتهى .

ولما كان الرب الملك متقاربين في المفهوم ، وكان الرب أقرب في المفهوم إلى اللطف والتربية ، وكان الملك للقهر والاستيلاء وإظهار العدل أزم ، وكان الرب قد لا يكون ملكاً فلا يكون كامل التصرف ، اقتضت البلاغة تقديم الأول وإتباعه الثاني ، فقال تعالى : ﴿ ملك الناس ﴾ إشارة إلى أن له كمال التصرف ونفوذ القدرة وتمام السلطان ، وإليه المفزع وهو المستعان ، والمستغاث والملجأ والمعاد .

ولما كان الملك قد لا يكون إلهاً ، وكانت الإلهية خاصة لا تقبل شركاً أصلاً بخلاف غيرها ، أنهي الأمر إليها وجعلت غاية البيان فقال : ﴿ إله الناس ﴾ إشارة إلى أنه كما انفرد بربوبيتهم وملكهم لم يشركه في ذلك أحد ، فكذلك هو وحده إلههم لا يشركه في إلهيته أحد ، وهذه دائماً طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بتوحيدهم له في الربوبية والملك على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة ، فمن كان ربهم وملكهم فهم جديرون بأن لا يتألهوا سواه ولا يستعيذوا بغيره كما أن أحدهم إذا دهمه أمر استعاذ بوليه من أبناء جنسه واستغاث

به ، والإله من ظهر بلطيف صنائعه التي أفادها مفهوم الرب والملك في قلوب العباد فأحبوه واستأنسوا به ولجؤوا إليه في جميع أمورهم ، وبطن احتجاباً بكبريائه عن أن يحاط به أو بصفة من صفاته أو شيء من أمره ، فهابته العباد ودعاهم الحب إلى الوله شوقاً إلى لقائه ، وزجرتهم الهيبة فجزعوا خوفاً من طرده لهم عن فنائه ، وكرر الاسم الظاهر دون أن يضمر فيقول مثلاً : ﴿ ملكهم ﴾ ﴿ إلههم ﴾ تحقيقاً لهذا المعنى وتقوية له بإعادة اسمهم الدال على شدة الاضطراب المقتضي للحاجة عند كل اسم من أسمائه الدال على الكمال المقتضي للغنى المطلق ، ودلالة على أنه حقيق بالإعادة قادر عليها لبيان أنه المتصرف فيهم من جميع الجهات وبياناً لشرف الإنسان ومزيد الاعتماد بمزيد البيان ، ولئلا يظن أن شيئاً من هذه الأسماء يتقيد بما أضيف إليه الذي قبله من ذلك الوجه ، لأن الضمير إذا أعيد كان المراد به عين ما عاد إليه ، فأشير بالإظهار إلى أن كل صفة منها عامة غير مقيدة بشيء أصلاً ، واندرج في هذه الاستعاذة جميع وجوه الاستعاذات من جميع وجوه التربية وجميع الوجوه المنسوبة إلى المستعيذ من جهة أنه في قهر الملك بالضم ، وجميع الوجوه المنسوبة إلى الإلهية لئلا يقع خلل في وجه من تلك الوجوه تنزيلاً لاختلاف الصفات منزلة اختلاف الذات إشعاراً بعظم الآفة المستعاذ منها

، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة ، والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات الواقعة على ذات واحدة حتى كأنها صفة واحدة ، وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب على حد سواء ، فلا فعل لأحد إلا وهو خلقه سبحانه وتعالى وهو الباعث عليه ، وأخر الإلهية لخصوصها لأن من لم يتقيد بأوامره ونواهيه فقد أخرج نفسه من أن يجعله إلهه وإن كان في الحقيقة لا إله سواه ، ووسط صفة الملك لأن الملك هو المتصرف بالأمر والنهي ، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم فملكه من كمال ربوبيته ، وكونه إلههم الحق من كمال ملكه ، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه ، وملكه يستلزم إلهيته وتقتضيها ، وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان ، وتضمنت معاني أسمائه الحسنى ، فإن الرب هو القادر الخالق إلى غير ذلك مما يتوقف الإصلاح والرحمة والقدرة التي هي معنى الربوبية عليه من أوصاف الجمال ، والملك هو الآمر الناهي المعز المذل - إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى العظمة والجلال ، وأما الإله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال ، فيدخل فيه جميع الأسماء الحسنى ، فلتضمنها جميع معاني الأسماء كان المستعيذ جديراً بأن يعوذ ، وقد وقع ترتيبها على الوجه الأكمل الدال على الوحدانية ، لأن من رأى ما عليه من النعم الظاهرة والباطنة ، علم أن له مربياً ، فإذا تغلغل في العروج في درج معارفه سبحانه وتعالى علم أنه غني عن الكل ، والكل إليه محتاج ، وعن أمره تجري أمورهم ، فيعلم أنه

ملكهم ، ثم يعلم بانفراد بتدبيرهم بعد إبداعهم أنه المستحق للإلهية بلا مشارك له فيها ، فقد أجمع القراء في هذه السورة على إسقاط الألف من ﴿ ملك ﴾ بخلاف الفاتحة كما مضى لأن الملك إذا أضيف إلى ﴿ اليوم ﴾ أفهم اختصاصه بجميع ما فيه من جوهر وعرض ، وأنه لا أمر لأحد معه ولا مشاركة في شيء من ذلك ، وهو معنى الملك - بالضم ، وأما إضافة المالك إلى الناس فإنها تستلزم أن يكون ملكهم

، فلو قرئ به هنا لنقص المعنى ، وأطبقوا في آل عمران على إثبات الألف في المضاف وحذفها من المضاف إليه لأن المقصود بالسياق أنه سبحانه وتعالى يعطي الملك من يشاء ويمنعه من يشاء ، والملك - بكسر الميم - أليق بهذا المعنى ، وأسرار كلام الله سبحانه وتعالى أعظم من أن تحيط بها العقول ، وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه ، وأن باديه إلى الخافي يشير .

ولما أكمل الاستعاذة من جميع وجوهها التي مدارها الإحسان أو العظمة أو القهر أو الإذعان والتذلل ، ذكر المستعاذ منه فقال : ﴿ من شر الوسواس ﴾ هو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة ، والمراد بالموسوس ، سمي بفعله مبالغة لأنه صفته التي هو غاية الضراوة عليها كما بولغ في العادل بتسميته بالعدل ، والوسوسة الكلام الخفي : إلقاء المعاني إلى القلب في خفاء وتكرير ، كما أن الكلمة الدالة عليها " وس " مكررة ، وأصلها صوت الحلي ، وحديث النفس ، وهمس الكلاب ، ضوعف لفظه مناسبة لمعناه لأن الموسوس يكرر ما ينفثه في القلب ويؤكده في خفاء ليقبل ، ومصدره بالكسر كالزلزال كما قال تعالى : ﴿ وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ [الأحزاب : 11] وكل مضاعف من الزلزلة والرضرضة معناه متكرر ، والموسوس من الجن يجري من ابن آدم مجرى الدم - كما في الصحيح ، فهو يوسوس بالذنب سراً ليكون أجلى ، ولا يزال يزينه ويثير الشهوة الداعية إليه حتى يواقعه الإنسان ، فإذا واقعه وسوس لغيره أن فلاناً فعل كذا حتى يفضحه بذلك ، فإذا افتضح ازداد جرأة على أمثال ذلك لأنه يقول : قد وقع ما كنت أحذره من القالة ، فلا يكون شيء غير الذي كان ، وشره التحبيب إلى الإنسان بما يميل إليه طبعه حتى يشاكله في رذيلة الطبع وظلمة النفس ، فينشأ من ذلك شرور لازمة ومتعدية أضرها الكبر والإعجاب اللذان أهلكا الشيطان ، فيوقع الإنسان بها فيما أوقع نفسه فيه ، وينشأ من الكبر الحقد

والحسد يترشح منه بطر الحق – وهو عدم قبوله ، ومنه الكفر والفسوق والعصيان ، وغمص الناس – وهو احتقارهم المعلوم من قول الشيطان

﴿ أنا خير منه ﴾ [الأعراف : 12] ومنه تنشأ الاستهانة بأولياء الله تعالى بترك احترامهم ومنع حقوقهم والاعتداء عليهم والظلم لهم ، ويترشح من الحقد الذي هو العداوة العظيمة إمساك الخير والإحسان وبسط اللسان واليد بكل سوء وإيذاء ، ويترشح من الحسد إفساد ذات البين كما يشير إليه ﴿ ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة ﴾ [الأعراف : 20] الآية والكذب والمخادعة كما عرف به ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور ﴾ [الأعراف : 21] ويترشح عن الإعجاب التسخط للقضاء والقدر كما آذن به ﴿ قال أأسجد لمن خلقت طيناً ﴾ [الإسراء : 61] ومقابلة الأمر بالعلم بما أشعر به ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال ﴾ [الحجر : 33] ، واستعمال القياس في مقابلة النص بما هدى إليه ﴿ أنا خير منه ﴾ [الأعراف : 12] الآية ، واستعمال التحسين والتقبيح بما أفهمه ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون ﴾ والإذلال وهو الجرأة على المخالفات فينشأ عن ذلك شرور متعدية ، وهي

السعي في إفساد العقائد والأخلاق والأعمال والأبدان والأرزاق ، ثم لا يزال يتحبب إلى الإنسان بما يميل إليه طبعه من هذه الخبائث وهو يوافقه فيها حتى يصير له أخلاقاً راسخة ، فيصير رديء الطبع فلا ينفع فيه العلاج ، بل لا يزيده إلا خبثاً كإبليس ، ومن كان أصله طيباً واكتسب ما يخالفه بسبب عارض كان ممكن الإزالة كالعلاج كما وقع لآدم عليه الصلاة والسلام .

(46/840)

ولما كان الملك الأعظم سبحانه لم ينزل داء إلا أنزل له دواء ، وكان قد جعل دواء الوسوسة ذكره سبحانه وتعالى ، فإنه يطرد الشيطان وينير القلب ويصفيه ، وصف سبحانه وتعالى فعل الموسوس عند استعمال الدواء إعلاماً بأنه شديد العداوة للإنسان ليشتد حذره منه وبعده عنه فقال : ﴿ الخناس ﴾ أي الذي عادته أن يخنس أي يتوارى ويتأخر ويختفي بعد ظهوره مرة بعد مرة ، كلما كان الذكر خنس ، وكلما بطل عاد إلى وسواسه ، فالذكر له كالمقامع التي تقمع المفسد ، فهو شديد النفور منه ، ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً كما ورد عن بعض السلف أن المؤمن ينفي شيطانه كما ينفي الرجل بعيره في السفر ، قال البغوي : له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان ، ويقال : رأسه كرأس الحية واضع رأسه

على يمين القلب يحدثه ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا لم يذكر الله رجع ووضع رأسه - خزاه الله تعالى .

ولما ذكر صفة المستعاذ منه ، ذكر إبرازه لصفته بالفعل فقال : ﴿ الذي يوسوس ﴾ أي يلقي المعاني الضارة على وجه الخفاء والتكرير بحيث تصل مفاهيمها من غير سماع ، وأشار إلى كثرة وسوسته بذكر الصدر الذي هو ساحة القلب ومسكنه فقال : ﴿ في صدور الناس ﴾ أي المضطربين إذا غفلوا عن ذكر ربهم ، فإنها دهاليز القلوب منها تدخل الواردات إليها ، وذلك كالقوة الوهمية فإن العقل يساعد في المقدمات الحقة المنتجة للأمر المقطوع به ، فإذا وصل الأمر إلى ذلك خنست الواهمة ريثما يفتر العقل عن النتيجة فترة ما ، فتأخذ الواهمة في الوسوسة وتقبل منها الطبيعة بما لها بها من مجانسة الظلمة الوهمية ، والناس - قال في القاموس : يكون من الإنس ومن الجن ، جمع إنس أصله أناس جمع عزيز أدخل عليه أل - انتهى ، ولعل إطلاقه على هذين المتقابلين بالنظر إلى النوس الذي أصله الاضطراب والتذبذب فيكون منحوتاً من الأصلين : الانس والنوس ، ومن ثالث وهو النسيان .

ولما كان الذي يعلّم الإنسان الشر تارة من الجن وأخرى من الإنس ، قال مبيناً للوسواس تحذيراً من شياطين الإنس كالتحذير من شياطين الجن ، مقدماً الأهم الأضر ، ويجوز أن يكون بياناً ل " الناس " ولا تعسف فيه لما علم من نقل القاموس : ﴿ من الجنة ﴾ أي الجن الذين في غاية الشر والتمرد والخفاء ﴿ والناس ﴾ أي أهل الاضطراب والذبذبة سواء كانوا من الإنس أو الجن ، فيكون المعنى أن الجن مسلط بعضهم على بعض كما هم مسلطون على الإنس أو الجن ، فيكون المعنى أن الجن مسلط بعضهم على بعض كما هم مسلطون على الإنس ، فيدخل شيطان الجن في الجني كما يدخل في الإنسي ويوسوس له - قاله البغوي عن الكلبي ، وقال : ذكر عن بعض العرب أنه قال : جاء قوم من الجن فوقفوا فقيل : من أنتم ؟ قالوا : أناس من الجن ، قال : وهذا معنى قول الفراء .

(48/840)

وقد ختمت السورة بما بدئت به ، والمعنى الثاني أوفق برد آخرها على أولها فإنه يكون شرحاً للناس الذين أضيفت لهم الصفات العلى ، والخواطر الواردة على الإنسان قد تكون وسوسة ، وقد تكون إلهاماً ، والإلهام تارة يكون من الله بلا واسطة ، وتارة يكون بواسطة الملك ، ويكون كل منهما في القلب ، والوسوسة تارة من الشيطان ، وأخرى من النفس ،

وكلاهما يكون في الصدر ، فإن كان الإنسان مراقباً دفع عن نفسه الضار ، وإلا هجمت الواردات عليه وتمكنت منه ويتميز خير الخواطر من شرها بقانون الشرع على أن الأمر مشكل ، فإن الشيطان يجتهد في التلبيس ، فإن وافق الشرع فلينظر ، فإن كان فعله ذلك الحين أولى من غير تفويت لفضيلة أخرى هي أولى منه بادر إليه وإن كان الخاطر دنيوياً وأدى الفكر إلى أنه نافع من غير مخالفة للشرع زاد على شدة تأمله الاستشارة لمن يثق بدينه وعقله ، ثم الاستخارة لاحتمال أن تتوافق عليه العقول ، ويكون فيه خلل لتقصير وقع في النظر ، وقد جعل بعضهم قانون الخاطر الرحماني أن ينشرح له الصدر ويطمئن إليه النفس ، والشيطاني والنفسي أن ينقبض عنده الصدر وتقلق النفس بشهادة الحديث النبوي في البر والإثم ، ويعرف الشيطاني بالحمل على مطلق المخالفة ، فإن الشيطان لا غرض له في مخالفة بعينها ، فإن حصل الذكر زال ذلك ، والنفساني ملزوم شيء بعينه سواء كان نفعاً أو ضراً ، ولا ينصرف عنه بالذكر ، وقد يكون الشيطان إنسياً من أزواج وأولاد ومعارف ، وربما كان أضر من شيطان الجن ، فدواؤه المقاطعة والمجانبة بحسب القدرة ، ومن أراد قانوناً عظيماً لمن يصاحب ومن يجانب فعليه بآية الكهف

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ [الكهف : 28] وكما رجع مقطعها على مطلعها كذلك كان من المناسبات العظيمة مناسبة معناها للفاتحة ليرجع مقطع القرآن على مطلعه ، ويلتحم مبدؤه بمرجعه على أحسن وجه ، كما تقدم بيان ذلك من سورة قريش إلى هنا سورة سورة ، فنظر هذه السورة إلى الفاتحة والتحامها بها من جهة أن الفاتحة اشتملت على ثلاثة أسماء : الله والرب والملك ، وزادت بكونها أم القرآن بالرحمن الرحيم ، لاشتمالهما على جميع النعم الظاهرة والباطنة التي تضمنتها صفة الربوبية ، وسورة الناس على الرب والملك والإله الذي هو الأصل في اسم الجلالة ، واختصت الفاتحة بالاسم الذي لم يقع فيه شركة أصلاً ، فلما تقرر في جميع القرآن أنه الإله الحق ، وأنه لا شركة لغيره في الإلهية يحق بوجه من الوجوه كما أنه لا شركة في الاسم الأعظم الذي افتتح به القرآن أصلاً بحق ولا بباطل ، ختم القرآن الكريم به معبراً عنه بالإله لوضوح الأمر وانتفاء اللبس بالكلية ، وصار الاختتام مما كان به الافتتاح على الوجه الأجلى والترتيب الأولي ، وبقي الاسمان الآخران على نظمهما ، فيصير النظم إذا ألصقت آخر الناس بأول الفاتحة " إله ملك رب الله رب – رحمن رحيم ملك " إعلاماً بأن مسمى الأسم الأعظم هو الإله الحق ، وهو الملك الأعظم لأنه له الإبداع وحسن التربية والرحمة والعامة والخاصة ، وحاصل سورة الناس الاستعاذة بهذا الرب الموصوف من وسوسة

الصدر المثمرة للمراقبة كما أن حاصل سورة الفاتحة فراغ السر من الشواغل المقتضي لقصر الهمم عليه سبحانه وتعالى والبقاء في حضرته الشماء بقصر البقاء عليه والحكم بالفناء على ما سواه، وذلك هو أعلى درجات المراقبة، فإذا أراد الحق إعانة عبد حمله على الاستعانة بالاستعاذة فيسر عليه صدق التوكل، فحينئذ

(50/840)

يصير عابداً صادقاً في العبودية فيكون إلهه سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وينبغي أنه كلما زاده سبحانه وتعالى تقريباً ازداد له عبادة حتى ينفك من مكر الشيطان بالموت كما قال تعالى لأقرب خلقه إليه محمد صلى الله عليه وسلم.

(51/840)

﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ [الحجر : 99] ومن نقص من الأعمال شيئاً اعتماداً على أنه وصل فقد تزندق، وكان مثله مثل شخص في بيت مظلم أسرج فيه

سراجاً فأضاء ، فقال : ما أوقدت السراج إلا ليضيء البيت فقد أضاء ، فلا حاجة لي الآن إلى السراج ، فأطفأه فعاد الظلام كما كان ، وقد ندب النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى افتتاح القرآن بعد ختمه كما أشار إليه اتصال المعنى بما بينته ، وسمي ذلك الحال المرتحل ، وكأن القارئ ذكر بالأمر بالاستعاذة إرادة افتتاح قراءته ، فكأنه قيل : استعذ يا من ختم القرآن العظيم لتفتتحه ، وكأنه لما استعاذ بما أمر به في هذه السورة قيل له : ثم ماذا تفعل ؟ فقال : أفتتح ، أو أنه لما أمر بالاستعاذة قال : ماذا أفعل ؟ فقيل : افتتح بسم الله الرحمن الرحيم الذي تجب مراقبته عند خواتم الأمور وفواتحها ، لأنه لا يكون أمر إلا به ، أو أن البسملة مقول القول في ﴿ قل ﴾ على سبيل من ﴿ أعوذ ﴾ أو بدل من ﴿ برب الناس ﴾ وكأنه أمر بالتعوذ ، والتسمية أمر بالدفع والجلب ، وذلك لأنه لما أمر بهذا التعوذ - وكان قد قال سبحانه ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : 98] علم أن المراد ابتداؤه بالقرآن فنسبتها إلى الفاتحة نسبة المعلول إلى علته ، فكأنه قيل : استعذ بهذا الرب الأعظم الذي لا ملك ولا إله غيره لأن له الحمد ، وهو الإحاطة بكل شيء ، فهو القادر على كل شيء ، فهو القاهر لكل شيء في المعاد وهو الملجأ والمفزع لا إله إلا هو ، فإن الاسم هو الوصف والمراد به الجنس ، فمعنى بسم الله أي بوصفه أو بأوصافه الحسنى ، والحمد هو الثناء بالوصف الجميل ، فكأنه قيل : أعوذ برب الناس بأوصافه الحسنى لأن له الحمد وهو جميع الأوصاف الحسنى فإن البدء فيه يحتاج إلى قدرة ، فله

القدرة التامة ، أو إلى علم فالعلم صفته ، أو كرم فكذلك ، والحاصل أنه كأنه قيل : تعوذ به من الشيطان بما له من الاسم الذي لم يسامه فيه أحد

لكونه جامعاً لجميع الأسماء الحسنى أي الصفات التي لا يشوبها نقص خصوصاً صفة الرحمة العامة التي شملتني أكنافها ، وأقامني إسعافها ، ثم الرحمة الخاصة التي أنا أجدر الناس باستمطارها لما عندي من النقص المانع لي منها والمبعد لمن اتبع الحظوظ عنها ، فأسأله أن يجعلني من أهلها ، ويحملني في الدارين بوصلها ، لأكون من أهل رضاه ، فلا أعبد إلا إياه ، ولك أن تقرر الاتصال والالتحام بوجه آخر ظاهر الكمال بديع النظام فتقول : لما قرب التقاء نهاية الدائرة السورية آخرها بأولها ومفصلها بموصلها اشتد تشاكل الرأسين ، فكانت هذه السور الثلاثة الأخيرة مشاكلة للثلاث الأول في المقاصد ، وكثرة الفضائل والفوائد : الإخلاص بسورة التوحيد آل عمران ، وهو واحد ، والفلق للبقرة طباقاً ووفاقاً ، فإن الكتاب الذي هو مقصود سورة البقرة خير الأمر ، فهي للعون بخير الأمر ، والفلق للعوذ من شر الخلق المحصي لكل خير ، وفي البقرة

﴿ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ [البقرة : 67] ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ [البقرة : 102] - الآيات ، ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ [البقرة : 109] الآية ، والناس للفاتحة ، فإنه إذا فرغ الصدر الذي هو مسكن القلب الذي هو مركب الروح الذي هو معدن العقل كانت المراقبة ، فكان ذلك بمنزلة تقديس النفس بالتوحيد والإخلاص ، ثم الاستعاذة من كل شر ظاهر ومن كل سوء باطن للتأهل لتلاوة سورة المراقبة بما دعا إليه الحال المرتحل وما بعدها من الكتاب ، على غاية من السداد والصواب ، وكأنه اكتفى أولاً بالاستعاذة المعروفة كما يكتفي في أوائل الأمور بأيسر مأمور ، فلما ختم الختمة جوزي بتعوذ من القرآن ، ترقية إلى مقام الإحسان ، فاتصل الآخر بالأول أيّ اتصال بلا ارتياب ، واتحد به كل اتحاد - إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ، هذا ما يسره الله من مدلولات نظومها وجملها ، بالنسبة إلى مفهوماتها وعللها ، وبقي النظر إلى ما يشير إليه أعداد كلماتها ، بلطائف رموزها وإشاراتها ، فهي عشرون كلمة توازيها إذا حسبت من أول النبوة سنة عمرة القضاء وهي السابعة من الهجرة ، بها تبين الأمن مما وسوس به الشيطان سنة عمرة الحديبية من أجل رؤيا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لدخول البيت والطواف به ، فإذا ضممت إليها الضمائر الثلاث كانت ثلاثاً وعشرين فوازت السنة العاشرة من الهجرة وهي سنة حجة الوداع وهي القاطعة لتأثير

وسواس الشيطان الذي كان في أول السنة الحادية عشرة عند موت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى العرب بأمر الردة ، فأعاذ الله من شره بهمة الصديق رضي الله تعالى عنه حتى رد الناس إلى الدين وأزل به وسواس الشياطين المفسدين ، فانتظمت كلمة المسلمين تصديقاً لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حجة الوداع " إن الشيطان قد أيس أن يعبد في جزيرة العرب بعد اليوم " فإذا ضممت إليها كلمات البسملة صارت سبعاً

(54/840)

وعشرين توازي سنة استحكام أمر عمر بن الخطاب الفاروق ـ رضى الله عنه ـ الذي ما سلك فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غيره ، وذلك سنة أربع عشرة من الهجرة ، هذا بالنظر إلى كلماتها ، فإن نظرت إليها من جهة الحروف كانت لها أسرار كبرى من جهة أخرى ، منها أن كلماتها مع كلمات الفاتحة انتظمت من ستة وعشرين حرفاً وهي ما عدا الثاء المثلثة والزاء الظاء المعجة من حروف المعجم التسعة والعشرين كل واحدة منهما من اثنين وعشرين حرفاً اشتركتا في ثمانية عشر منها ، واختصت كل واحدة منهما بأربعة : الفاتحة بالحاء والطاء المهملتين ، والضاد والغين المعجمتين ، والناس بالجيم والخاء والشين المعجمتين والفاء ، وقال ابن ميلق : سقط من الفاتحة سبعة أحرف " ثج خز شظف " ،

انتهى ، فلعل في ذلك – والله أعلم – إشارة إلى أن – تكامل نزول القرآن من أوله إلى آخره في عدد الحروف التي اشتمل عليها كل من سورتي أوله وآخره من السنين وذلك اثنان وعشرون ، والثالثة والعشرون سنة القدوم على منزله الحي القيوم سبحانه وتعالى ما أعظم شأنه ، وأعز سلطانه ، وأقوم برهانه .

(55/840)

وقال مؤلفه رحمه الله تعالى : وهذا تمام ما أردته من نظم الدرر من تناسب الآي والسور ، ترجمان القرآن مبدي مناسبات الفرقان ، التفسير الذي لم تسمع الأعصار بمثله ، ولا فاض عليها من التفاسير على كثرة أعدادها كصيب وبله ، فرغته في المسودة يوم الثلاثاء سابع شعبان سنة خمس وسبعين وثمانمائة ، بمسجدي من رحبة باب العيد بالقاهرة المغرية ، وكان ابتدائي فيه في شعبان سنة إحدى وستين ، فتلك أربع عشرة سنة كاملة ، وفرغته في هذه المبيضة عصر يوم الأحد عاشر شعبان سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة ، بمنزلي الملاصق للمدرسة البادرائية من دمشق ، فتلك اثنتان وعشرون سنة بعدد سني النبوة الزاهرة الأنيسة العلية الطاهرة المباركة الزكية ، ولولا معونة الله أضحى معدوماً ، أو ناقصاً مخزوماً ، فإني بعد ما توغلت فيه واستقامت لي مبانيه ، فوصلت إلى قريب من نصفه ،

فبالغ الفضلاء في وصفه بحسن سبكه وغزارة معانيه وإحكام رصفه، دب داء الحسد في جماعة أولي النكد، والمكر واللدد، يريدون الرئاسة بالباطل، وكل منهم من جوهر العلم عاطل، مدّ ليل الجهل فيهم ظلامه، وأثار نقع السفه على رؤوسهم سواده وقتامه، صوبوا سهام الشرور، والأباطيل وأنواع الزور، فأكثروا التشييع بالتشنيع، والتقبيح والتبشيع، والتخطئة والتضليل، بالنقل من التوراة والإنجيل، فصنفت في ذلك الأقوال القويمة، في حكم النقل من الكتب القديمة، بينت فيه أن ذلك سنة مستقيمة، لتأييد الملة الحنيفية العظيمة، وأخرجت بذلك نص الشافعي، وكلام النووي والرافعي، واستكتبت على الكتاب: العلماء الأنجاب، فكتبوا ما أودعته " مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور " فأطفأ الله نارهم، وأظهر عوارهم، وشهر خزيهم وعارهم، ثم قاموا في بدعة دائم المعروف، فصنفت فيها القول المعروف، وبينت مخالفتهم للكتاب والسنة، ووقوعهم في عين الفتنة، وخرقهم لأعظم الجنة، وصريح نص الشافعي ونقول العلماء،

(56/840)

فكانوا كمن ألقم الحجر أو ملىء فمه بالماء، ثم قاموا في فتنة ابن الفارض، وكلهم معاند معارض، وألبوا عليّ رعاع الناس، فاشتد شعاع البأس، فكادوا أن يطبقوا على

الانعكاس ، وصوّبوا طريق الإلحاد ، وبالغوا في الرفع من أهل الاتحاد ، ولجوا بالخصام في العناد ، وأفتوا بمحض الباطل ، وبثوا السم القاتل ، إلا ناساً قليلاً كان الله بنصرهم على ضعفهم كفيلاً ، فسألتهم سؤالاً ، جعلهم ضلالاً جهالاً ، فتداولوه فيما بينهم وتناقلوه وعجزوا عن جوابه بعد أن راموه أشد الروم ، وحاولوه فظهر لأكثر الناس حالهم ، واشتهر بينهم ضلالهم ، وغيهم الواضح ومحالهم ، وصنفت في ذلك عدة مصنفات ، بانت فيها مخازيهم وظهرت المخبآت ، منها " صواب الجواب للسائل المرتاب " ومنها " القارض لتكفير ابن الفارض " ومنها " تدمير المعارض في تكفير ابن الفارض " ومنها " تنبيه الغبي على تكفير ابن عربي " ومنها " تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد " أنفقت فيها عمراً مديداً ، وبددوا فيها أوقاتي - بددهم الله تبديداً ، وهدد أركانهم وأعضادهم تهديداً ، وقرعتهم بالعجز عن الجواب ، الكاشف للارتياب ، صباحاً ومساءً ، وإعادة وإبداء ، فحملهم التقريع ، والتوبيخ والتبخيع ، على كتابة جواب ، لم يخل من ارتجاج واضطراب ، وشك وارتياب ، بينت أن جامعه أخطأ في جميعه الصواب ، وكفر في أربعة مواضع كفراً صريحاً ، وكذب في ثمانية فصار بذلك جريحاً ، بل هالكاً طريحاً ، فأطلت بذلك التقريع ، والتوبيخ والتبشيع ، فذلت أعناقهم ، وضعف شقاقهم ، وخفي نفاقهم ، غير أنه حصل في كل واحدة من هذه الوقائع ، من الشرور وعجائب المقدور ، ما غطى ظلامه الشموس الطوالع .

قال ذلك منشبه أحوج الخلائق إلى عفو الخالق أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي الشافعي رحمه الله تعالى قائلاً : الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

وكان الفراغ من هذا الجزء على يد أقل عبيد الله وأحوجهم إلى لطف الله وعفوه عبد الكريم بن علي بن محمد المحولي الشافعي نزيل بلد الله الحرام - غفر الله له ولوالديه ولمشايخه وللمسلمين - .

.

.

بمكة المشرفة في يوم السبت المبارك السادس والعشرين من شهر صفر الخير سنة أربع وأربعين وتسعمائة ، وقد تجاوز سني الآن خمسة وسبعين عاماً - أسأل الله حسن الخاتمة والثبات على دين الإسلام والوفاة بأحد حرميه بمنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا

قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال بعض تلامذة المصنف وهو العرس خليل بن موسى المقرىء مادحاً للكتاب المذكور

المسمى ب "لما":

برهان دين الله أضحى موضحاً . . .

أسرار قول الله في القرآن

وأتى بما ترك الورى من بعده . . .

تمشي الورا أبداً مدى الأزمان

فمن ادعى نسجاً على منواله . . .

فقد ادعى ما ليس في الإمكان

وإذا المفسر رام يوماً أنه . . .

بمثاله يأتي بلا إذعان

قلنا له فسر وقايس بعد ذا . . .

ولنا الدليل عليك بالبرهان

وكان الفراغ من نسخ هذا النصف الأخير من الكتاب المسمى ب " لما " مناسبات القرآن العظيم على من أنزل عليه أفضل الصلاة والسلام في الليلة الثالثة عشرة من شهر جمادى الأولى من شهور سنة سبع وتسعين وألف على يد أحقر العباد ، وأحوجهم إلى مغفرة ربه الجواد ، محمد بن أحمد البدرشيني بلداً ، الشافعي مذهباً ، مصلياً ومسلماً على أفضل وأكمل وأجمل خلق الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأهل بيته الطيبين الطاهرين صلاة وسلاماً دائمين متلازمين بدوام ملك الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل آمين آمين .

إن تلق عيباً فلا تعجل بسبك لي . . .

إني امرؤ لست معصوماً من الزلل . انتهى انتهى . اهـ ﴿نظم الدرر حـ 8 صـ 611 ـ 624﴾

(59/840)

فصل

قال الفخر :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرئ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ ﴾ بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام ونظيره : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطير ﴾ [البقرة : 260] وأيضاً أجمع القراء على ترك الإمالة في الناس ، وروي عن الكسائي الإمالة في الناس إذا كان في موضع الخفض .

المسألة الثانية :

أنه تعالى رب جميع المحدثات ، ولكنه ههنا ذكر أنه رب الناس على التخصيص وذلك لوجوه أحدها : أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس فكأنه قيل : أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلهم ومعبودهم كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالي أمرهم وثانيها : أن أشرف المخلوقات في العالم هم الناس وثالثها : أن المأمور بالاستعاذة هو الإنسان ، فإذا قرأ الإنسان هذه صار كأنه يقول : يا رب يا ملكي يا إلهي .

المسألة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ مَلِكِ الناس * إله الناس ﴾ هما عطف بيان كقوله : سيرة أبي حفص عمر الفاروق ، فوصف أولاً بأنه رب الناس ثم الرب قد يكون ملكاً وقد لا يكون ، كما يقال : رب الدار ورب المتاع قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله ﴾ [التوبة : 31] فلا جرم بينه بقوله : ﴿ مَلِكِ الناس ﴾ ثم الملك قد يكون إلهاً وقد لا يكون فلا جرم بينه بقوله : ﴿ إله الناس ﴾ لأن الإله خاص به وهو سبحانه لا يشركه فيه غيره وأيضاً بدأ بذكر الرب وهو اسم لمن قام بتدبيره وإصلاحه ، وهو من أوائل نعمه إلى أن رباه وأعطاه العقل فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك وهو ملكه ، فثنى بذكر الملك ، ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه ، وعرف أن معبوده مستحق لتلك العبادة عرف أنه إله ، فلهذا ختم به ، وأيضاً أول ما يعرف العبد من ربه كونه مطيعاً لما عنده من النعم الظاهرة والباطنة ، وهذا هو الرب ، ثم لا يزال يتنقل من معرفة هذه الصفات إلى معرفة جلالته واستغنائه عن الخلق ، فحينئذ يحصل العلم بكونه ملكاً ، لأن الملك هو الذي يفتقر إليه غيره ويكون هو غنياً عن غيره ، ثم إذا عرفه العبد كذلك عرف أنه في الجلالة والكبرياء فوق وصف الواصفين وأنه هو الذي ولهت العقول في عزته وعظمته ، فحينئذ يعرفه إلهاً .

المسألة الرابعة :

السبب في تكرير لفظ الناس أنه إنما تكررت هذه الصفات ، لأن عطف البيان يحتاج إلى مزيد الإظهار ، ولأن هذا التكرير يقتضي مزيد شرف الناس ، لأنه سبحانه كأنه عرف ذاته

بكونه رباً للناس ، ملكاً للناس ، إلهاً للناس .

ولولا أن الناس أشر مخلوقاته وإلا لما ختم كتابه بتعريف ذاته بكونه رباً وملكاً وإلهاً لهم .

المسألة الخامسة :

لا يجوز ههنا مالك الناس ويجوز : ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ في سورة الفاتحة ، والفرق أن قوله : ﴿ رَبِّ الناس ﴾ أفاد كونه مالكاً لهم فلا بد وأن يكون المذكور عقيبه هذا الملك ليفيد أنه مالك ومع كونه مالكاً فهو ملك ، فإن قيل : أليس قال في سورة الفاتحة : ﴿ رَبِّ العالمين ﴾ ثم قال : ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ فليزم وقوع التكرار هناك ؟ قلنا اللفظ دل على أنه رب العالمين ، وهي الأشياء الموجودة في الحال ، وعلى أنه مالك ليوم الدين أي قادر عليه فهناك الرب مضاف إلى شيء والمالك إلى شيء آخر فلم يلزم التكرير ، وأما ههنا لو ذكر المالك لكان الرب والمالك مضافين إلى شيء واحد ، فيلزم منه التكرير فظهر الفرق ، وأيضاً فجواز القراءات يتبع النزول لا القياس ، وقد قرىء مالك لكن في الشواذ .

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4)

قوله تعالى : ﴿ مِن شَرّ الوسواس الخناس ﴾ الوسواس اسم بمعنى الوسوسة ، كالزلزال

بمعنى الزلزلة ، وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال والمراد به الشيطان سمي بالمصدر ، كأنه وسوسة في نفسه لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه ، نظيره قوله : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالح ﴾ [هود : 46] والمراد ذو الوسواس وتحقيق الكلام في الوسوسة قد تقدم في قوله : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ [الأعراف : 20] وأما الخناس فهو الذي عادته أن يخنس منسوب إلى الخنوس وهو التأخر كالعواج والنفاثات ، عن سعيد بن جبير إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى ، فإذا غفل وسوس إليه .

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5)

قوله تعالى : ﴿ الذى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ الناس ﴾ .

اعلم أن قوله : ﴿ الذى يُوَسْوِسُ ﴾ يجوز في محله الحركات الثلاث فالجر على الصفة والرفع والنصب على الشتم ، ويحسن أن يقف القارىء على الخناس ويبتدىء الذي يوسوس ، على أحد هذين الوجهين .

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)

أما قوله تعالى : ﴿ مِنَ الجنة والناس ﴾ ففيه وجوه :

أحدها : كأنه يقول الوسواس الخناس قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس كما قال : ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ [الأنعام : 112] وكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى فشيطان الإنس يكون كذلك ، وذلك لأنه يرى نفسه كالناصح المشفق ، فإن زجره السامع يخنس ، ويترك الوسوسة ، وإن قبل السامع كلامه بالغ فيه وثانيها : قال قوم قوله : ﴿ مِنَ الجنة والناس ﴾ قسمان مندرجان تحت قوله في : ﴿ صُدُورِ الناس ﴾ كأن القدر المشترك بين الجن والإنس ، يسمى إنساناً والإنسان أيضاً يسمى إنساناً فيكون لفظ الإنسان واقعاً على الجنس والنوع بالاشتراك ، والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه الجن والإنس ما روى أنه جاء نفر من الجن فقيل لهم : من أنتم فقالوا : أناس من الجن ، أيضاً قد سماهم الله رجالاً في قوله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مّنَ الإنس يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مّنَ الجن ﴾ [الجن : 6] فجاز أيضاً أن يسميهم ههنا ناساً ، فمعنى الآية على هذا التقدير أن هذا الوسواس الخناس شديد الخنث لا يقتصر على إضلال الإنس بل يضل جنسه وهم الجن ، فجدير أن يحذر العاقل شره ، وهذا القول ضعيف ، لأن جعل الإنسان اسماً للجنس الذي يندرج فيه الجن والإنس بعيد من اللغة لأن الجن سموا جناً لاجتنانهم والإنسان إنساناً لظهوره من الإيناس وهو الإبصار ، وقال صاحب الكشاف : من أراد تقرير هذا الوجه ، فالأولى أن يقول : المراد من قوله : ﴿ يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ الناس ﴾ أي في صدور الناسي كقوله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع ﴾ [القمر : 6] وإذا كان المراد من الناس الناسي ، فحينئذ

يمكن تقسيمه إلى الجن والإنس لأنهما هما النوعان الموصوفان بنسيان حق الله تعالى وثالثها : أن يكون المراد أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس ومن الجنة والناس كأنه استعاذ بربه من ذلك الشيطان الواحد ، ثم استعاذ بربه من الجميع الجنة والناس .

(63/840)

واعلم أن لهذه السورة لطيفة أخرى : وهي أن المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق ، والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات ، وهي الغاسق والنفاثات والحاسد ، وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة : وهي الرب والملك والإله والمستعاذ منه آفة واحدة ، وهي الوسوسة ، والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب ، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن ، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين ، وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلت : أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت ، والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 32 صـ 180.182﴾

(64/840)

وقال السمرقندي

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾

يقول أستعيذ بالله وخالق الناس ويقال: أستعيذ بالله الذي هو رازق الخلق، ثم قال عز وجل: ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ يعني: خالق الناس ومالكهم وله نفاذ الأمر والملك فيهم، ثم قال عز وجل: ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ يعني: خالق الناس ومعطيهم ومانعهم ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ يعني من شر الوسواس يعني من شر الشيطان، لأني لا أستطيع أن أحفظ نفسي من شره لأنه يجري في نفس الإنسان مجرى الدم ولا يراه بشر والله تعالى قادر على حفظي من شره ومن وسوسته.

ثم وصف الشيطان فقال: ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ قال مجاهد: هو منبسط على قلب الإنسان إذا ذكر الله خنس وانقبض فإذا عقل انبسط على قلبه ويقال له: خنوس كخنوس القنفذ ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ يعني: يدخل في صدور الجن كما يدخل في صدور الإنس ويوسوس لهم ويقال: ﴿ النَّاسِ ﴾ في هذا الموضع يصلح للجن والإنس فإذا أراد به الجن فمعناه: يوسوس في صدور المؤمنين الذين هم جن ﴿ يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ يعني: الذين هم من بني آدم ويقال: ﴿ النَّاسِ ﴾ معطوف على الوسواس ومعناه: ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ ﴿ وَمِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ كما قال

في آية أخرى ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ وقال مقاتل روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له جبريل عليه السلام ألا أخبرك يا محمد صلى الله عليه وسلم بأفضل ما يتعوذ به ؟ قلت : " وَمَا هُوَ؟ " قال المعوذتان .

وروى علقمة عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَا تَعَوَّذَ المُعَوِّذُونَ بِمِثْلِ المُعَوِّذَتَيْنِ " .

(65/840)

وروي عن الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ مِنَ الجنة والناس ﴾ قال إن من الناس شياطين فتعوذوا بالله من الشياطين يعني : شياطين الجن والإنس ، وقال هما شيطانان فأما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فإنه علانية وروى أبو معاوية عن عثمان بن واقد قال أرسلني أبي إلى محمد بن المنكدر أسأله عن المعوذتين أهما من كتاب الله تعالى ؟ قال : من لم يزعم أنهما من كتاب الله تعالى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين (والله أعلم وصلَّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وإمام المتقين ورسول رب العالمين ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين وأهل طاعتك أجمعين .

ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين وعن التابعين وتابعي التابعين لهم بإحسان إلى

يوم الدين ، حسبنا الله ونعم الوكيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 3 صـ 612.

613 ﴾

(66/840)

وقال الثعلبى :

سورة الناس

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾

يعني الشيطان ، ويكون مصدراً واسماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 10 صـ

341 ﴾

(67/840)

وقال الزمخشرى :

سورة الناس

مكية ، وقيل مدنية ، وآياتها 6 [نزلت بعد الفلق] بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سورة الناس (114) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)

قرئ: قل أعوذ، بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام، ونحوه. فخذ أربعة. فإن قلت: لم قيل «1» بِرَبِّ النَّاسِ مضافا إليهم خاصة؟ قلت: لأنّ الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس. فكأنه قيل، أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم، وهو إلههم ومعبودهم، كما يستغيث بعض الموالي إذا اعتراهم خطب بسيدهم ومخدومهم ووالى أمرهم.

فإن قلت: مَلِكِ النَّاسِ إِلهِ النَّاسِ ما هما من رب الناس؟ قلت: هما عطف بيان، كقولك: سيرة أبى حفص عمر الفاروق. بين بملك الناس، ثم زيد بيانا بإله الناس، لأنه قد يقال لغيره:

رب الناس، كقوله اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وقد يقال: ملك الناس. وأمّا إِلهِ النَّاسِ فخاص لا شركة فيه، فجعل غاية للبيان. فإن قلت: فهلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرّة واحدة؟ قلت: لأنّ عطف البيان للبيان، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار الْوَسْواسِ اسم بمعنى الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة. وأمّا

المصدر فوسواس بالكسر كزلزال. والمراد به الشيطان، سمى بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه، لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه. أو أريد ذو الوسواس. والوسوسة: الصوت الخفي. ومنه: وسواس الحلي.

---

(1). قال محمود: «إن قلت: لم أضاف اسمه تعالى إليهم خاصة وهو رب كل شيء ... الخ» قال أحمد: وفي التخصيص جرى على عادة الاستعطاف، فانه معه أتم. عاد كلامه قال: وإله الناس عطف بيان لملك الناس. أو كلاهما عطف بيان للأول، والثاني أبين: لأن ملك الناس قد يطلق لغير اللّه تعالى، وأما إله الناس فلا يطلق إلا له عز وجل، فجعل غاية للبيان، وزبد البيان بتكرار ظاهر غير مضمر، واللّه سبحانه وتعالى أعلم. هذا ما يسر اللّه من القول» وإني أبرأ إلى اللّه تعالى من القوة والحول، والحمد للّه رب العالمين، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(68/840)

والْخَنَّاسِ الذي عادته أن يخنس، منسوب إلى الخنوس وهو التأخر كالعواج والبتات «1» لما روى عن سعيد بن جبير: إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى، فإذا غفل وسوس إليه الَّذِي يُوَسْوِسُ يجوز في محله الحركات الثلاث، فالجر على الصفة، والرفع

والنصب على الشتم ، ويحسن أن يقف القارئ على الْخَنَّاسِ ويبتدئ الَّذِي يُوَسْوِسُ على أحد هذين الوجهين مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ بيان الذي يوسوس ، على أن الشيطان ضربان : جنى وإنسى ، كما قال شياطين الإنس والجن . وعن أبى ذرّ رضى اللّه عنه قال لرجل : هل تعوّذت باللّه من شيطان الإنس ؟ ويجوز أن يكون مِنَ متعلقا بيوسوس ، ومعناه : ابتداء الغاية ، أى :

يوسوس في صدورهم من جهة الجنّ ومن جهة الناس ، وقيل : من الجنة والناس بيان للناس ، وأن اسم الناس ينطلق على الجنة ، واستدلوا بنفر ورجال : في سورة الجن . وما «2» أحقه ، لأن الجن سموا «جنا» لاجتنانهم ، والناس «ناسا» لظهورهم ، من الإيناس وهو الإبصار ، كما سموا بشرا ، ولو كان يقع الناس على القبيلين ، وصح ذلك وثبت : لم يكن مناسبا لفصاحة القرآن وبعده من التصنع . وأجود منه أن يراد بالناس : الناسي ، كقوله يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ كما قرئ مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ ثم يبين بالجنة والناس ، لأنّ الثقلين هما النوعان الموصوفان بنسيان حق اللّه عز وجل .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «لقد أنزلت علىّ سورتان ما أنزل مثلهما ، وإنك لن تقرأ سورتين أحب ولا أرضى عند اللّه منهما «3»» يعنى المعوذتين . ويقال للمعوذتين : المقشقشتان .

---

(1) . قوله «كالعواج والبتات» بائع العاج ، وبائع البتوت : وهي ضرب من الثياب . (ع)

(2) . قوله «وما أحقه» في الصحاح: حققت الأمر: واحتققته: إذا تحققته وصرت منه على يقين. (ع) [. . . . . .]

(3) . لم أجده بهذا اللفظ. وأوله في مسلم بمعناه من حديث عقبة بن عامر رضى اللّه عنه «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال له. ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وقُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ وآخره في ابن حبان من حديث عقبة بمعناه. وأيضا قال: سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول «لأن يقرأ سورة أحب إلى الله ولا أبلغ من قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، فان استطعت أن لا تدعهما في صلاة فافعل».

(69/840)

قال عبد اللّه الفقير إليه: وأنا أعوذ بهما وبجميع كلمات اللّه الكاملة التامّة، وألوذ بكنف رحمته الشاملة العامّة، من كل ما يكلم الدين، ويثلم اليقين، أو يعود في العاقبة بالندم، أو يقدح في الإيمان المسوط باللحم والدم «1» ، وأسأله بخضوع العنق وخشوع البصر، ووضع الخدّ لجلاله الأعظم الأكبر، مستشفعا إليه بنوره الذي هو الشيبة في الإسلام، متوسلا بالتوبة الممحصة للآثام، وبما عنيت به من مهاجرتى إليه ومجاورتي، ومرابطتى بمكة ومصابرتى، على تواكل من القوى، وتخاذل من الخطا، ثم أسأله بحق صراطه

المستقيم ، وقرآنه المجيد الكريم ، وبما لقيت من كدح اليمين وعرق الجبين ، في عمل الكشاف عن حقائقه ، المخلص عن مضايقه ، المطلع على غوامضه ، المثبت في مداحضه . الملخص لنكته ولطائف نظمه ، المنقر عن فقره وجواهر علمه ، المكتنز بالفوائد المفتنة التي لا توجد إلا فيه ، المحيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه «2» ومعانيه ، مع الإيجاز الحاذف للفضول ، وتجنب المستكره المملول ، ولو لم يكن في مضمونه إلا إيراد كل شيء على قانونه ، لكفى به ضالة ينشدها محققة الأحبار ، وجوهرة يتمنى العثور عليها غاصة البحار ، وبما شرفني به ومجدنى ، واختصني بكرامته وتوحدني : من ارتفاعه على يدي في مهبط بشاراته ونذره ، ومتنزل آياته وسوره ، من البلد الأمين بين ظهراني الحرم ، وبين يدي البيت المحرم ، حتى وقع التأويل ، حيث وجد التنزيل : أن يهب لي خاتمة الخير ، ويقينى مصارع السوء ، ويتجاوز عن فرطاتى يوم التناد ، ولا يفضحني بها على رؤس الأشهاد ، ويحلني دار المقامة من فضله ، بواسع طوله وسابغ نوله ، إنه الجواد الكريم ، الرؤوف الرحيم .

(في نسخة ما نصه :) في أصل المصنف بخطه رحمه اللّه تعالى : وهذه النسخة هي نسخة الأصل الأولى التي نقلت من السواد ، وهي أم الكشاف الحرمية المباركة المتمسح بها ، المحقوقة أن تستنزل بها بركات السماء ويستمطر بها في السنة الشهباء ، فرغت منها يد المصنف تجاه الكعبة في جناح داره السليمانية ، التي على باب أجياد الموسومة بمدرسة

العلامة : ضحوة يوم الاثنين لثالث والعشرين من ربيع الآخر في عام ثمانية وعشرين وخمسمائة ، وهو حامد للّه على باهر كرمه ، ومصل على عبده ورسوله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 4 صـ 823.825 ﴾

---

(1) . قوله «المسوط باللحم والدم» أي : المخلوط . أفاده الصحاح . (ع)

(2) . قوله «من بدع ألفاظه» في الصحاح «شيء بدع» بالكسر : أي مبتدع . وفلان بدع في هذا الأمر ، أي :

بديع (ع)

(70/840)

وقال الماوردى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾

وإنما ذكر أنه رب الناس ، وإن كان ربّاً لجميع الخلق لأمرين :

أحدهما : لأن الناس معظمون ، فأعلم بذكرهم أنه رب لهم وإن عظموا .

الثاني : لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم ، فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يُعيذ منهم . ﴿ مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ ﴾ لأن في الناس ملوكاً ، فذكر أنه ملكهم ، وفي الناس من يعبد غيره

فذكر أنه إلههم ومعبودهم .

﴿ مِن شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ ﴾ الخّناس هو الشيطان ، وفي تسميته بذلك وجهان :

أحدهما : لأنه كثير الاختفاء ، ومنه قوله تعالى :

﴿ فلا أُقْسِمُ بالخُنَّس ﴾ يعني النجوم لاختفائها بعد الظهور .

الثاني : لأنه يرجع عن ذكر الله ، والخنس الرجوع ، قال الراجز :

وصاحب يَمْتَعِسُ امْتِعاسا . . . يزدادُ من خَنَسِهِ خناسا

وأما " الوسواس " ها هنا ففيه وجهان :

أحدهما : أنه الشيطان لأنه يوسوس للإنسان ، وقد روى ابن جبير عن ابن عباس في قوله "

الوسواس الخناس " قال : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ،

وإذا ذكر الله تعالى خنس ، فعلى هذا يكون في تأويل الخناس وجهان :

أحدهما : الراجع بالوسوسة على الهوى .

الثاني : أنه الخارج بالوسوسة في اليقين .

الوجه الثاني : أنه وسواس الإنسان من نفسه ، وهي الوسوسة التي يحدث بها نفسه .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنّ الله تعالى تجاوز لأمتى عما

وسوست به أنفسها ما لم تعمل به أو تتكلم به " .

﴿ الذي يُوسْوِسُ في صُدورِ النّاسِ ﴾ وسوسة الشيطان هي الدعاء إلى طاعته بما يصل

إلى القلب من قول متخيل، أو يقع في النفس من أمر متوهم ومنه الموسوس إذا غلب عليه الوسوسة، لما يعتريه من المسرة، وأصله الصوت الخفي، قال الأعشى:

تسمع للحلْي وسواساً إذا انصرفت . . . كما استعان بريح عشرق زجل.

﴿ من الجِنّة والنّاسِ ﴾ أما وسواس الجنة فهو وسواس الشيطان على ما قدمناه، وأما وسواس الناس ففيه وجهان:

أحدهما: أنها وسوسة الإنسان من نفسه، قاله ابن جريج.

الثاني: أنه إغواء من يغويه من الناس.

قال قتادة: إن من الإنس شياطين، وإن من الجن شياطين، فنعوذ بالله من شياطين الإنس والجن.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعوّذ حسناً وحسيناً فيقول: أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة، ومن كل عْينٍ لامّةٍ، ونحن نسعتيذ بالله مما عوذ ونستمده جميل ما عوّد.

وفقنا الله وقارئه لتدبر ما فيه وتفهم معانيه، فيه توفيقنا وعليه توكلنا، والحمد لله وحده

وكفى ، وصلواته على رسوله محمد المصطفى ، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وأصحابه الطاهرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 6 صـ 378 . 380 ﴾

(72/840)

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) ﴾

﴿ الوسواس ﴾ اسم من أسماء الشيطان ، وهو أيضاً ما توسوس به شهوات النفس وتسوله ، وذلك هو الهواء الذي نهي المرء عن اتباعه وأمر بمعصيته والغضب الذي وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطرحه وتركه حين قال له رجل أوصني ، فقال : لا تغضب ، قال زدني : قال : لا تغضب ، وقوله : ﴿ الخناس ﴾ معناه : على عقبه المستتر أحياناً وذلك في الشيطان متمكن إذا ذكر العبد وتعوذ وتذكر فأبصر كما قال تعالى : ﴿ إن الذين إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ [الأعراف : 201] ، وإذا فرضنا ذلك في الشهوات والغضب ونحوه فهو يخنس بتذكر النفس اللوامة بلمة الملك وبأن الحياء يردع والإيمان يردع بقوة فتخنس تلك العوارض المتحركة وتنقمع عند من أعين بتوفيق

، وقد اندرج هذان المعنيان من الوسواس في قوله تعالى : ﴿ من الجنة والناس ﴾ أي من الشياطين ونفس الإنسان ، ويظهر أيضاً أن يكون قوله : ﴿ والناس ﴾ ، يراد به من يوسوس بخدعه من البشر ، ويدعو إلى الباطل ، فهو في ذلك كالشيطان ، وكلهم قرأ ﴿ الناس ﴾ غير ممالة ، وروى الدوري عن الكسائي أنه أمال النون من ﴿ الناس ﴾ في حال الخفض ولا يميل في الرفع والنصب ، وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ [الإخلاص : 1] والمعوذتين ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، فيبدأ برأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، ففعل ذلك ثلاثاً ، وقال قتادة رحمه الله : إن من الناس شياطين ومن الجن شياطين ، فتعوذوا بالله من شياطين الإنس والجن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿المحرر الوجيز حـ 5 صـ ﴾

(73/840)

وقال ابن الجوزى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾

فإن قيل : لم خص الناس هاهنا بأنه ربُّهم ، وهو ربُّ كل شيء ؟

فعنه جوابان .

أحدهما : لأنهم معظَّمون متميزون على غيرهم .

والثاني : لأنه لما أمر بالاستعاذة من شَرِّهم أعلم أنه ربهم ، ليعلم أنه هو الذي يعيذ من شرهم .

ولما كان في الناس ملوك قال تعالى : ﴿ ملك الناس ﴾ ولما كان فيهم من يعبد غيره قال تعالى : ﴿ إله الناس ﴾ .

و ﴿ الوسواس ﴾ الشيطان ، وهو ﴿ الخناس ﴾ يوسوس في الصدور ، فإذا ذُكِرَ اللهُ ، خَنَس ، أي : كفَّ وأَقصر .

قال الزجاج : الوسواس هنا : ذو الوسواس .

وقال ابن قتيبة : الصدور هاهنا : القلوب .

قال ابن عباس : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل ، وسوس ، فإذا ذَكَرَ الله ، خَنَسَ .

قوله تعالى : ﴿ من الجِنَّة والناس ﴾ الجِنَّة : الجن .

ومن معنى الآية قولان .

أحدهما : يوسوس في صدور الناس جِنَّتهم وناسهم ، فسمى الجن هاهنا ناساً ، كما سمَّاهم رجالاً في قوله تعالى ﴿ يعوذُون برجال من الجن ﴾ [الجن : 6] وسماهم نفراً بقوله

تعالى : ﴿ استَمَعَ نفر من الجن ﴾ [الجن : 1] هذا قول الفراء .

وعلى هذا القول يكون الوسواس موسوساً للجن ، كما يوسوس للإنس .

والثاني : أن الوسواس : الذي يوسوس في صدور الناس ، هو من الجِنَّة ، وهم من الجن .

والمعنى : من شر الوسواس الذي هو من الجن .

ثم عطف قوله تعالى : "والناس" على "الوسواس" .

والمعنى : من شر الوسواس ، ومن شر الناس ، كأنه أمر أن يستعيذ من الجن والإنس ، هذا قول الزجاج. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 9 صـ 277.279 ﴾

(74/840)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس ﴾

أي مالكهم ومُصْلِح أمورهم .

وإنما ذكر أنه رب الناس ، وإن كان رباً لجميع الخلق لأمرين : أحدهما : لأن الناس مُعَظَّمون ؛ فأعْلَم بذكرهم أنه ربٌّ لهم وإن عظموا .

الثاني : لأنه أمر بالاستعاذة من شرهم ؛ فأعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيذ منهم .

وإنما قال : ﴿ مَلِكِ الناس * إله الناس ﴾ لأن في الناس ملوكاً يذكر أنه مَلِكُهُم ، وفي الناس من يعبد غيره ، فذكر أنه إلههم ومعبودهم ، وأنه الذي يجب أن يُستعاذ به ، ويُلْجأ إليه ، دون الملوك والعظماء .

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4)

يعني : مِن شر الشيطان .

والمعنى : من شر ذي الوسواس ؛ فحذف المضاف ؛ قاله الفرّاء : وهو (بفتح الواو) بمعنى الاسم ؛ أي المُوسوِس .

و(بكسر الواو) المصدر ؛ يعني الوسوسة .

وكذا الزَّلزال والزِّلزال .

والوسوسة : حديث النفس .

يقال : وسوست إليه نفسه وَسْوسة ووِسوسَة (بكسر الواو) .

ويقال لهمس الصائد والكلاب وأصوات الحُلِيّ : وسْواس .

قال ذو الرمة :

فبات يُشْئِزه ثَأْدٌ ويُسْهِرُه . . .

تَذَؤُّبُ الريحِ والوَسْواسُ والهِضَبُ

وقال الأعشى :

تسمع للحلَى وسَوْاساً إذا انصرفت . . .

كما استعانَ بريحٍ عِشْرِقٌ زَجِلُ

وقيل : إن الوسواس الخناس ابن لإبليس ، جاء به إلى حواء ، ووضعه بين يديها وقال : اكْفُليه .

فجاء آدم عليه السلام فقال : ما هذا يا حواء ! قالت : جاء عدونا بهذا وقال لي : اكْفُليه . فقال : ألم أقل لكِ لا تطيعيه في شيء ، هو الذي غرنا حتى وقعنا في المعصية ؟ وعمد إلى الولد فقطعه أربعة أرباع ، وعلق كل ربع على شجرة ، غيظاً له ؛ فجاء إبليس فقال : يا حواء ، أين ابني ؟ فأخبرته بما صنع به آدم (عليه السلام) فقال : يا خنَّاس ، فحيي فأجابه .

(75/840)

فجاء به إلى حواء وقال : اكفليه ؛ فجاء آدم (عليه السلام) فحرَّقه بالنار ، وذرّ رماده في البحر ؛ فجاء إبليس (عليه اللعنة) فقال : يا حوّاء ، أين ابني ، فأخبرته بفعل آدم إياه ؛ فذهب إلى البحر ، فقال : يا خنَّاس ، فحيي فأجابه .

فجاء به إلى حواء الثالثة ، وقال : اكفليه .

فنظر ؛ إليه آدم ، فذبحه وشواه ، وأكلاه جميعاً .

فجاء إبليس فسألها فأخبرته حواء .

فقال : يا خَنَّاس ، فحيي فأجابه (فجاء به) من جوف آدم وحوّاء .

فقال إبليس : هذا الذي أردت ، وهذا مسكنك في صدر ولد آدم ؛ فهو ملتقم قلب ابن آدم ما دام غافلاً يوسوس ، فإذا ذكر الله لفظ قلبه وانخنس .

ذكر هذا الخبر الترمذيّ الحكيم في نوادر الأصول بإسناد عن وهب بن منبه .

وما أظنه يصح ، والله تعالى أعلم .

ووُصِف بالخناس لأنه كثير الاختفاء ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس ﴾ [التكوير : 15] يعني النجوم ، لاختفائها بعد ظهورها .

وقيل : لأنه يَخْنِس إذا ذكر العبدُ الله ، أي يتأخر .

وفي الخبر : " إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا غفل وَسْوس ، وإذا ذكر الله خَنس " أي تأخر وأقصر .

وقال قتادة : "الخَنَّاس" الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان ، فإذا غفل الإنسان وسوس له ، وإذا ذكر العبد ربه خَنَس .

يقال : خَنَسْتُهُ فخَنَسَ ؛ أي أخرته فتأخر .

وأَخنسته أيضاً .

ومنه قول أبي العلاء الحضرميّ أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

وإنْ دَحَسُوا بالشَّرّ فاعْفُ تكرما . . .

وإنْ خَنَسُوا عندَ الحديثِ فلا تَسَلْ

الدَحْس : الإفساد .

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الشيطان واضع خَطْمه على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله خَنَس ، وإذا نسِي الله التقم قلْبه فوسوس " وقال ابن عباس : إذا ذكر اللَّهُ العبدَ خَنَس من قلبه فذهب ، وإذا غفل الْتَقَم قلبه فحدّثه ومَنّاه .

وقال إبراهيم التيمِيّ : أوّل ما يبدو الوسواس من قِبل الوضوء .

(76/840)

وقيل : سمي خَنّاساً لأنه يرجع إذا غَفَل العبدُ عن ذكر الله .

والخَنَس : الرجوعُ.

وقال الراجز :

وصاحب يَمْتَعِسُ امتِعاساً . . .

يزدادُ إن حَيَّيْتُه خِناسا

وقد روى ابن جُبير عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ الوسواس الخناس ﴾ وجهين :

أحدهما : أنه الراجع بالوسوسة عن الهدى .

الثاني : أنه الخارج بالوسوسة من اليقين .

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5)

قال مقاتل : إن الشيطان في صورة خنزير ، يجري مِن ابن آدم مجرى الدم في العروق ، سَلَّطه الله على ذلك ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ الذى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس ﴾ .

وفي الصحيح : عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم " وهذا يصحح ما قاله مقاتل .

وروى شَهْر بن حَوْشَب عن أبي ثعلبة الخُشَنيّ قال : سألت الله أن يريني الشيطان ومكانه من ابن آدم فرأيته ، يداه في يديه ، ورجلاه في رجليه ، ومشاعبه في جسده ؛ غير أن له خَطْماً كخطم الكلب ، فإذا ذَكَر الله خنس ونكس ، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه .

فعلى ما وصف أبو ثعلبة أنه متشعب في الجسد ؛ أي في كل عضو منه شعبة .

وروي عن عبد الرحمن بن الأسود أو غيره من التابعين أنه قال وقد كبر سِنه : ما أمِنت الزنى وما يؤمنني أن يدخل الشيطان ذكره فيوتده ! فهذا القول ينبئك أنه متشعب في الجسد ، وهذا معنى قول مقاتل .

ووسوسته : هو الدعاء لطاعته بكلام خفيٍّ ، يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت .

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)

أخبر أن الموسوِس قد يكون من الناس .

قال الحسن : هما شيطانان ؛ أما شيطان الجنّ فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية .

وقال قتادة : إن من الجنّ شياطينَ ، وإن من الإنس شياطين ؛ فتعوّذ بالله من شياطين الإنس والجنّ .

(77/840)

وروي عن أبي ذرّ أنه قال لرجل : هل تعوّذت بالله من شياطين الإنس ؟ فقال : أوَمن الإنس شياطين ؟ قال : نعم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنسِ والجن ﴾ [الأنعام : 112] . . . الآية .

وذهب قوم إلى أن الناس هنا يراد بهم الجن .

سموا ناساً كما سموا رجالاً في قوله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن ﴾ [الجن : 6] وقوماً ونفراً .

فعلى هذا يكون "والناسِ" عطفاً على "الجِنةِ" ، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين .

وذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدّث : جاء قوم من الجن فوقفوا .

فقيل : مَن أَنْتم ؟ فقالوا : ناس من الجن .

وهو معنى قول الفرّاء .

وقيل : الوسواس هو الشيطان .

وقوله : "مِن الجنةِ" بيان أنه من الجن "والناسِ" معطوف على الوسواس .

والمعنى : قل أعوذ برب الناس من شر الوسواس ، الذي هو من الجِنة ، ومن شر الناس .

فعلى هذا أمِر بأن يستعيذ من شر الإنس والجن .

والجِنَّة : جمع جِنّي ؛ كما يقال : إنس وإنسيّ .

والهاء لتأنيث الجماعة .

وقيل : إن إبليس يوسوس في صدور الجن ، كما يوسوس في صدور الناس .

فعلى هذا يكون "في صدور الناس" عاماً في الجميع .

و"من الجِنة والناس" بيان لما يوسوس في صدره .

وقيل : معنى "مِن شر الوسواسِ" أي الوسوسة التي تكون من الجنة والناس ، وهو حديث

النفس .

وقد ثبت :

عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به " رواه أبو هريرة ، أخرجه مسلم .

فالله تعالى أعلم بالمراد من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 20 صـ ﴾

(78/840)

وقال ابن كثير :

سورة الناس

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) ﴾

هذه ثلاث صفات من صفات الرب ، عز وجل ؛ الربوبية ، والملك ، والإلهية : فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له ، مملوكة عبيد له ، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ، من شر الوسواس الخناس ، وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يُزَين له الفواحش ، ولا يألوه جهدًا في الخبال . والمعصوم من عَصَمَ الله ، وقد ثبت في الصحيح أنه : "ما منكم من أحد إلا قد وُكِل به قرينة" . قالوا :

وأنت يا رسول الله ؟ قال : "نعم ، إلا أن الله أعانني عليه ، فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير" (1) وثبت في الصحيح ، عن أنس في قصة زيارة صفية النبي صلى الله عليه وسلم وهو معتكف ، وخروجه معها ليلا ليردها إلى منزلها ، فلقيه رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرعا ، فقال رسول الله : "على رسلكما ، إنها صفية بنت حُيي" . فقالا سبحان الله ، يا رسول الله . فقال : "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا ، أو قال : شرًا" (2) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا محمد بن بحر ، حدثنا عدي بن أبي عمَارة ، حدثنا زيادًا النّميري ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر خَنَس ، وإن نسي التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس" (3) غريب .

---

(1) رواه مسلم في صحيحه برقم (2814) من حديث عبد الله بن مسعود ، رضي الله عنه .

(2) صحيح مسلم برقم (2174) هو في صحيح البخاري برقم (2035 ، 6219 ، 7171) من حديث صفية ، رضي الله عنها .

(3) مسند أبي يعلى (7/278 ، 279) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (8/742) : "إسناده ضعيف" ؛ وذلك لضعف زياد النميري والكلام في عدي بن أبي عمارة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عاصم ، سمعت أبا تميمة يُحَدث عن رَدِيف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : عَثَر بالنبي صلى الله عليه وسلم حمارهُ ، فقلت : تَعِس الشيطان . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لا تقل : تعس الشيطان ؛ فإنك إذا قلت : تعس الشيطان ، تعاظَم ، وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت : بسم الله ، تصاغر حتى يصير مثل الذباب" (1) .

تفرد به أحمد ، إسناده جيد قوي ، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغُلِب ، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو بكر الحنفي ، حدثنا الضحاك بن عثمان ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أحدكم إذا كان في المسجد ، جاءه الشيطان فأبس

---

(1) المسند (59/5) .

به كما يُبَس الرجل بدابته ، فإذا سكن له زنقه - أو : ألجمه" . قال أبو هُرَيرة : وأنتم ترون ذلك ، أما المزنوق فتراه مائلا - كذا - لا يذكر الله ، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله ، عز وجل . تفرد به أحمد (1) .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ قال : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خَنَس . وكذا قال مجاهد ، وقتادة .

وقال المعتمر بن سليمان ، عن أبيه : ذُكِرَ لي أن الشيطان ، أو : الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح ، فإذا ذكر الله خنس .

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿ الْوَسْوَاس ﴾ قال : هو الشيطان يأمر ، فإذا أطيع خنس .

وقوله : ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ هل يختص هذا ببني آدم - كما هو الظاهر - أو يعم بني آدم والجن ؟ فيه قولان ، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليبا .

وقال ابن جرير : وقد استعمل فيهم(رِجَالٌ مِنَ الْجِنّ) فلا بدع في إطلاق الناس عليهم .

وقوله : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ هل هو تفصيل لقوله : ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ ثم بينهم فقال : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ وهذا يقوي القول الثاني . وقيل قوله :

﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ تفسير للذي يُوسوس في صدور الناس، من شياطين الإنس والجن، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: 112]، وكما قال الإمام أحمد:

---

(1) المسند (230/2)، وقال الهيثمي في المجمع (242/1): "رجاله رجال الصحيح".

(81/840)

حدثنا وكِيع، حدثنا المسعودي، حدثنا أبو عُمَر الدمشقي، حدثنا عبيد بن الخشخاش، عن أبي ذر قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد، فجلست، فقال: "يا أبا ذر، هل صليت؟". قلت: لا. قال: "قم فصل". قال: فقمت فصليت، ثم جلست فقال: "يا أبا ذر، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن".

قال: قلت: يا رسول الله، وللإنس شياطين؟ قال: "نعم". قال: قلت: يا رسول الله، الصلاة؟ قال: "خير موضوع، من شاء أقل، ومن شاء أكثر". قلت: يا رسول الله فما الصوم؟ قال: "فرض يجزئ، وعند الله مزيد". قلت: يا رسول الله، فالصدقة؟ قال: "أضعاف مضاعفة". قلت: يا رسول الله، أيها أفضل؟ قال: "جُهد من مُقل، أو سر إلى

فقير" . قلت : يا رسول الله ، أي الأنبياء كان أول ؟ قال : "آدم" . قلت : يا رسول الله ، ونبي كان ؟ قال : "نعم ، نبي مُكَلَّم" . قلت : يا رسول الله ، كم المرسلون ؟ قال : "ثلثمائة وبضعة عشر ، جَمًّا غَفيرًا" . وقال مرة : "خمسة عشر" . قلت : يا رسول الله ، أيما أنزل عليك أعظم ؟

(82/840)

قال : "آية الكرسي : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾

ورواه النسائي ، من حديث أبي عمر الدمشقي ، به (1) . وقد أخرج هذا الحديث مطولا جدًا أبو حاتم بن حبان في صحيحه ، بطريق آخر ، ولفظ آخر مطول جدًا (2) فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وَكِيع ، عن سفيان ، عن منصور ، عن ذر بن عبد الله الهَمْداني ، عن عبد الله بن شداد ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إني أحدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به . قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "الله أكبر الله أكبر ، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة" .

ورواه أبو داود والنسائي ، من حديث منصور - زاد النسائي : والأعمش - كلاهما عن ذر ، به (3) .

آخر التفسير ، ولله الحمد والمنة ، والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين . ورضي الله عن الصحابة أجمعين . حسبنا الله ونعم الوكيل . (5)

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 8 صـ 539 . 541 ﴾

---

(1) المسند (178/5) وسنن النسائي (275/8) .

(2) صحيح ابن حبان برقم (94) "موارد" ، (287/1) "الإحسان" من طريق إبراهيم بن هشام بن يحيى بن يحيى الغساني ، عن أبيه عن جده ، عن أبي إدريس الخولاني ، عن أبي ذر ، رضي الله عنه ، وقد قال ابن عدي عن هذا الحديث : "هذا الحديث منكر من هذا الطريق" .

(4) المسند (235/1) وسنن أبي داود برقم (5112) وسنن النسائي الكبرى برقم (10503) .

(5) فائدة

قد جاء في خاتمة هذه النسخة (الخاتمة للناسخ) :

"الحمد لله الذي رفع السماء بغير عماد ، وبسط الأرض وثبتها بالأطواد ، ومنح معرفته ومحبته من شاء من العباد ، وأقام لدينه أولياء ينصرونه ويقومون به ، وجعل منهم النجباء

والأقطاب والأوتاد ، وأعلى منار الدين بالعلماء العاملين ، وأوضح بهم طرق الرشاد ، وقمع بهم أهل الزيغ والأهواء والبدع والفساد ، وثبت لهم دينهم بالنقل عن نبيهم بصحيح الإسناد ، ونفى عنهم التدليس والشذوذ والانفراد .

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، المتعالي عن الشركاء والنظراء والأنداد ، المنزه عن الحلول والاتحاد والإلحاد .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وحبيبه وخليله ، سيد العباد ، صلى الله عليه وعلى آله النجباء الأنجاد ، وصحابته السادة الأبرار الأمجاد ، صلاة تدوم وتقوم ما قامت السموات والأرض بأمره ، وقابل البياض السواد .

وبعد ، فقد أمرني السيد الجليل ، من وصل الله له جناح الصنيع الجميل ، وواصل عليه السول ، وأوصل إليه المأمول ، وعمر بحبه ربوع أنسي ، وأمطر بفيضه ربيع نفسي ، مولانا وسيدنا العبد الفقير إلى الله سبحانه الآمل الراجي عفوه الكريم وإحسانه ، قاضي القضاة ، حاكم الحكام ، نجم الدين حجة الإسلام والمسلمين ، سيد العلماء في العالمين ، بهاء الملة ، لسان الشريعة ، عز السنة ، حصن الأمة ، خطيب الخطباء ، إمام البلغاء ، غرة الزمان ، ناصر الإيمان شيخ شيوخ العارفين ، أبو حفص عمر – ابن سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى – الشيخ الإمام العلامة ، والحبر الفهامة ، قدوة العلماء العاملين ، أبي محمد حجي السعدي الشافعي – أمر – أعلى الله أمره ، وأسد قدره ، من لا يتقلب إلا في طاعته ، ولا

يتصرف إلا في مرضاته - أن يكتب برسم خزانة تفسير الإمام العالم الكبير ، العلامة عماد الدين ابن كثير - رحمه الله وأرضاه ، وجعل بحبوحة الجنة مقره ومثواه . فامتثلت أمره بالسمع والطاعة ، وعددت هذا الأمر من أنفس البضاعة ، مع أني في الكتابة قليل الصناعة . فكتبت قدر ما قدرت عليه ، ووصلت إليه . فإن صادفت قبولا وبلغت مأمولا ، فيكون سعدي سعيدا ، ويقع سهمي سديدا . . فإن وقفت بي قدرتي دون همتي . . . فمبلغ علمي والمعاذير تقبل

قد جمعت هذه الخزانة الشريفة أشتات العلوم على الإطلاق ، من رام مثلها فهو مقصر عن روم أسباب اللحاق ، خصوصا إذا كان بها هذا التفسير الذي مادته سنن المصطفى المنبه على جوامع ما يزداد اللبيب بها بصيرة في علمه النافع ، إذ كان صلى الله عليه وسلم قد أوتي جوامع الكلام ، وعلم فصل الخطاب . فلم يسمع الناس كلاما أعم نفعا ، ولا أقصر لفظا ، ولا أعدل وفرا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا . ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين في فحواه صلى الله عليه وسلم .

فلله در مولانا ؛ إذا جمع الفضائل ، ونظم آحاد العقائل ، وحاز من العلم الذري والغوارب . فلا يخفى على ذي لب أنه أغرق في الفهم فصولا ، وأعرق في العلم أصولا ، فأقول مختصرا ، وعما يليق بمدحه معتذرا ، عسى يمر به من تضاعيف ثنائي عليه ما يبلغني به الزلفى في حبه ، والقربى من قلبه ، وتلك أمنيتي حين ألقى منيتي ، لا أتعداها ، ولا أتمنى سواها ولله

در القائل: إذا ابن حجي حادت لنا يده... لم يحمد الأجودان البحر والمطر

وإن أضاءت لنا أنوار غرته... تضاءل الأنوران الشمس والقمر

وإن مضى رأيه أو جد عزمته... تأخر الماضيان السيف والقدر

من لم يبت حذرا من خوف سطوته... لم يدر ما المزعجان: الخوف والحذر؟

كأنه الدهر في نعمي وفي نقم... إذا تعاقب منه النفع والضرر

كأنه وزمام الدهر في يده... يدا عواقب ما يأتي وما يذر

فالحمد لله الذي جعل جمال منظرك موازيا لكمال مخبرك، وشامخ فرعك مقارنا لراسخ عنصرك، والله حسبي فيك من كل ما يعوذ العبد به المولى: واسلم وعش لا زلت في نعمة... أنت بها من غيرك الأولى

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه الفقير محمد بن علي الصوفي البواب، لمنعاه التضائية، بدمشق المحروسة، حامدا ومصليا، ومحسبلا ومحوقلا، والحمد لله وحده".

وقال الخازن :

قوله : ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾

إنما خصص الناس بالذّكر ، وإن كان رب جميع المحدثات لأنه لما أمر بالاستعاذة من شر الوسواس ، فكأنه قال أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم أمورهم ، وهو إلههم ومعبودهم فإنه هو الذي يعيذهم من شرهم ، وقيل إن أشرف المخلوقات هم الناس ، فلهذا خصهم بالذكر .

﴿ ملك الناس إله النّاس ﴾ إنما وصف نفسه أولاً : بأنه رب الناس ، لأن الرب قد يكون ملكاً ، وقد لا يكون ملكاً فنبه بذلك على أنه ربهم ، وملكهم ثم إن الملك لا يكون إلهاً ، فنبه بقوله ﴿ إله الناس ﴾ على أن الإلهية خاصة بالله سبحانه ، وتعالى لا يشاركه فيها أحد ، والسبب في تكرير لفظ الناس يقتضي مزيد شرفهم على غيرهم ﴿ من شر الوسواس ﴾ يعني الشّيطان ذا الوسواس ، والوسوسة الهمز ، والصوت الخفي .

﴿ الخناس ﴾ يعني الرجاع من الذي عادته أن يخنس أي يتأخر .

قيل إن الشيطان جاثم على قلب الإنسان ، فإذا غفل وسها وسوس ، وإذا ذكر الله تعالى خنس الشيطان عنه ، وتأخر وقال قتادة الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب وقيل كخرطوم الخنزير في صدر الإنسان فإذا ذكر العبد ربه خنس ، ويقال رأسه كرأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب يمسه ويجذبه ، فإذا ذكر الله تعالى خنس وإذا لم يذكر الله

تعالى رجع ، ووضع رأسه على القلب فذلك قوله تعالى : ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ يعني بالكلام الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع ، والمراد بالصدر القلب ﴿ من الجنة ﴾ يعني الجن ﴿ والناس ﴾ وفي معنى الآية وجهان :

أحدهما : أن الناس لفظ مشترك بين الجن والإنس ، ويدل عليه قول بعض العرب جاء قوم من الجن ، فقيل من أنتم قالوا أناس من الجن ، وقد سماهم الله تعالى رجالاً في قوله ﴿ يعوذون برجال من الجن ﴾ فعلى هذا يكون معنى الآية ؛ أن الوسواس الخناس يوسوس للجن كما يوسوس للإنس .

الوجه الثاني : أن الوسواس الخناس قد يكون من الجنة ، وهم الجن وقد يكون من الإنس ، فكما أن شيطان الجن قد يوسوس للإنسان تارة ، ويخنس أخرى ، فكذلك شيطان الإنس قد يوسوس للإنسان كالنّاصح له فإن قبل زاد في الوسوسة ، وإن كره السامع ذلك انخنس وانقبض فكأنه تعالى أمر أن يستعاذ به من شر الجن والإنس جميعاً (ق) عن عائشة رضي الله تعالى عنها " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم ينفث فيهما ، فيقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ، و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿

قل أعوذ برب الناس ﴾ ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات "

عن عائشة رضي الله عنها " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات ، وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه ، وأمسح عنه بيديه رجاء بركتهما " أخرجه مالك في الموطأ ولهما بمعناه (ق) عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل ، وأطراف النهار ، ورجل آتاه الله مالاً ، فهو ينفق منه آناء الليل وأطراف النهار " عن ابن عباس قال : " قيل يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله تعالى ، قال الحال المرتحل قيل ، وما الحال المرتحل قال الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل " أخرجه الترّمذي ، والله سبحانه ، وتعالى أعلم بمراده ، وأسرار كتابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 7 صـ 325. 327 ﴾

(85/840)

وقال النسفى :

سورة النَّاسِ

مختلف فيها وهي ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾

أي مربيهم ومصلحهم ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ مالكهم ومدبر أمورهم ﴿ إله الناس ﴾

معبودهم .

ولم يكتف بإظهار المضاف إليه مرة واحدة لأن قوله : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ عطف

بيان ل ﴿ رَبِّ النَّاسِ ﴾ لأنه يقال لغيره رب الناس وملك الناس ، وأما إله الناس فخاص لا

شركة فيه .

وعطف البيان للبيان فكأنه مظنة للإظهار دون الإضمار .

وإنما أضيف الرب إلى الناس خاصة وإن كان رب كل مخلوق تشريفاً لهم ، ولأن الاستعاذة

وقعت من شر الموسوس في صدور الناس فكأنه قيل : أعوذ من شر الموسوس إلى الناس

بربهم الذي يملك عليهم أمورهم وهو إلههم ومعبودهم .

وقيل : أراد بالأول الأطفال .

ومعنى الربوبية يدل عليه ، وبالثاني الشبان ولفظ الملك المنبىء عن السياسة يدل عليه ، وبالثالث الشيوخ ولفظ الإله المنبىء عن العبادة يدل عليه ، وبالرابع الصالحين إذ الشيطان مولع بإغوائهم ، وبالخامس المفسدين لعطفه على المعوذ منه ﴿ مِن شَرِّ الوسواس ﴾ هو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة ، وأما المصدر فوسواس بالكسر كالزلزال والمراد به الشيطان سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه لأنها شغله الذي هو عاكف عليه ، أو أريد ذو الوسواس والوسوسة الصوت الخفي ﴿ الخناس ﴾ الذي عادته أن يخنس منسوب إلى الخنوس وهو التأخر كالعواج والبتات لما روي عن سعيد بن جبير إذا ذكر الإنسان ربه خنس الشيطان وولى ، وإذا غفل رجع ووسوس إليه ﴿ الذى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ الناس ﴾ في محل الجر على الصفة ، أو الرفع ، أو النصب على الشتم ، وعلى هذين الوجهين يحسن الوقف على الخناس ﴿ مِنَ الجنة والناس ﴾ بيان للذي يوسوس على أن الشيطان ضربان : جني وإنسي كما قال ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ [الأنعام : 112] وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال لرجل : هل تعوذت بالله من شيطان الإنس ؟ روي أنه عليه السلام سحر فمرض فجاءه ملكان وهو نائم فقال أحدهما لصاحبه : ما باله .

فقال : طُبّ .

قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن أعصم اليهودي .

قال : وبم طبه ؟ قال : بمشط ومشاطة في جف طلعة تحت راعوفة في بئر ذي أروان . فانتبه صلى الله عليه وسلم فبعث زبيرا وعلياً وعماراً رضي الله عنهم فنزحوا ماء البئر وأخرجوا الجف ، فإذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه ، وإذا فيه وتر معقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر ، فنزلت هاتان السورتان ، فكلما قرأ جبريل آية انحلت عقدة حتى قام صلى الله عليه وسلم عند انحلال العقدة الأخيرة كأنما نشط من عقال وجعل جبريل يقول : باسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء يؤذيك .

(87/840)

ولهذا جوز الاسترقاء بما كان من كتاب الله وكلام رسوله عليه السلام لا بما كان بالسريانية والعبرانية والهندية ، فإنه لا يحل اعتقاده والاعتماد عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا وأقوالنا ومن شر ما عملنا وما لم نعمل ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ونبيه وصفيه ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الأنام وأصحابه مفاتيح دار السلام صلاة دائمة ما دامت الليالي والأيام . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 4 صـ 387. 388 ﴾

وقال ابن جزى :

سورة النَّاس

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس ﴾

إن قيل لم أضاف الرب إلى الناس خاصة وهو رب كل شيء ؟ فالجواب : أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس ، فخصهم بالذكر لأنهم المعوذين بهذا التعويذ والمقصودون هنا دون غيرهم ﴿ مَلِكِ الناس * إله الناس ﴾ هذا عطف بيان ، فإن قيل : لم قدم وصفه تعالى برب ثم بملك ثم بإله ؟ فالجواب أن هذا على الترتيب في الارتقاء إلى الأعلى وذلك أن الرب قد يطلق على كثير من الناس ، فيقال فلان رب الدار ، وشبه ذلك فبدأ به لاشتراك معناه ، وأما الملك فلا يوصف به إلا أحد من الناس ، وهم الملوك ولا شك أنهم على أعلى من سائر الناس ، فلذلك جاء به بعد الرب ، وأما الإله فهو أعلى من الملك ولذلك لا يدعي الملوك أنهم آلهة فإنما الإله واحد لا شريك له ولا نظير فلذلك ختم به . فإن قيل : لم أظهر المضاف إليه وهو الناس في المرة الثانية والثالثة فهلا أضمره في المرتين لتقديم ذكره في قوله برب الناس أو هلا اكتفى بإظهاره في المرة الثانية ؟ فالجواب أنه لما كان عطف

بيان حسن فيه البيان وهو الإظهار دون الإضمار ، وقصد أيضاً الاعتناء بالمكرر ذكره كقول الشاعر :

لا أرى الموت يسبق الموت شيء . . . ينغص الموت ذا الغنى والفقير

﴿ الوسواس ﴾ وهو مشتق من الوسوسة وهي الكلام الخفي ، فيحتمل أن يكون الوسواس بمعنى الموسوس فكأنه اسم فاعل وهذا يظهر من قول ابن عطية : الوسواس من أسماء الشيطان ، ويحتمل أن يكون مصدراً وصف به الموسوس على وجه المبالغة ، كعدّل وصوّم أو على حذف مضاف تقديره ذي الوسواس ، وقال الزمخشري : إنما المصدر وسواس بالكفر ﴿ الخناس ﴾ معناه الراجع على عقبه المستمر أحياناً وذلك متمكن في الشيطان فإنه يوسوس فإذا ذكر العبدُ الله وتعوذ به منذ تباعد عنه ، ثم رجع إليه عند الغفلة عن الذكر ، وهو يخنس في تباعده ثم في رجوعه بعد ذلك .

(89/840)

﴿ الذي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس ﴾ وسوسة الشيطان في صدر الإنسان بأنواع كثيرة منها : إفساد الإيمان والتشكيك في العقائد فإن لم يقدر على ذلك أمره بالمعاصي ، فإن لم يقدر على ذلك ثبّطه عن الطاعات ، فإن لم يقدر على ذلك أدخل عليه الرياء في الطاعات

ليحبطها ، فإن سلم من ذلك أدخل عليه العُجْب بنفسه ، واستكثار عمله ، ومن ذلك أنه يوقد في القلب نار الحسد ، والحقد ، والغضب ، حتى يقود الإنسان إلى شر الأعمال وأقبح الأحوال .

وعلاج وسوسته بثلاثة أشياء . واحدها : الإكثار من ذكر الله . وثانيها : الإكثار من الاستعاذة بالله منه ومن أنفع شيء في ذلك قراءة هذه السورة . وثالثها : مخالفته والعزم على عصيانه . فإن قيل : لم قال في صدور الناس ولم يقل : في قلوب الناس ؟ فالجواب : أن ذلك إشارة إلى عدم تمكن الوسوسة ، وأنها غير حالة في القلب بل هي محوِّمة في صدور حول القلب ﴿ مِنَ الجنة والناس ﴾ هذا بيان لجنس الوسواس وأن يكون من الجن ، ومن الناس ، ثم إن الموسوس من الإنس يحتمل أن يريد من يوسوس بخدعه ، وأقواله الخبيثة ، فإنه الشيطان كما قال تعالى :

﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ [الإنعام : 112] أو يريد به نفس الإنسان إذ تأمره بالسوء ، فإنها أمّارة بالسوء والأول أظهر ، وقيل : من الناس معطوف على الوسواس كأنه قال : أعوذ من شر الوسواس من الجنة ومن شر الناس ، وليس الناس على هذا ممن يوسوس . والأول أظهر وأشهر .

فإن قيل : لم ختم القرآن بالمعوذتين وما الحكمة في ذلك ؟ فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول : قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير : لما كان القرآن من أعظم النعم على عباده ، والنعم مظنة الحسد فختم بما يطفئ الحسد من الاستعاذة بالله . الثاني : يظهر لي أن المعوذتين ختم بهما "لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيهما : أنزلت عليّ آيات لم ير مثلهن قط" كما قال في فاتحة الكتاب : "لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها" فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها واختتم بسورتين لم يُرَ مثلهما ليجمع حسن الافتتاح والاختتام ، ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام إنما ينظر فيها إلى حُسن افتتاحها واختتامها . الوجه الثالث : يظهر لي أيضاً أنه لما أمر القارئ أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم ، ختم القرآن بالمعوذتين ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعند آخر ما يقرأ من القراءة ، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء ، وليكون القارئ محفوظاً بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره إلى آخره وبالله التوفيق لا رب غيره . انتهى انتهى . اهـ ﴿التسهيل حـ 4 صـ 226 . 227﴾

وقال البيضاوى :

سورة النَّاسِ

مختلف فيها ، وآيها ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ ﴾ وقرىء في السورتين بحذف الهمزة ونقل حركتهما إلى اللام . ﴿ بِرَبِّ النّاس ﴾ لما كانت الاستعاذة في السورة المتقدمة من المضار البدنية وهي تعم الإِنسان وغيره والاستعاذة في هذه السورة من الأضرار التي تعرض للنفوس البشرية وتخصها ، عمم الإِضافة ثمّ وخصصها بالناس ها هنا فكأنه قيل : أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم الذي يملك أمورهم ويستحق عبادتهم .

﴿ مَلِكِ الناس إله الناس ﴾ عطفاً بيان له فإن الرب قد لا يكون ملكاً والملك قد لا يكون إلهاً ، وفي هذا النظم دلالة على أنه حقيق بالإعاذة قادراً عليها غير ممنوع عنها وإشعار على مراتب الناظر في المعارف فإنه يعلم أولاً بما عليه من النعم الظاهرة والباطنة أن له رباً ، ثم يتغلل في النظر حتى يتحقق أنه غني عن الكل وذات كل شيء له ومصارف أمره منه ، فهو الملك الحق ثم يستدل به على أنه المستحق للعبادة لا غير ، ويتدرج وجوه الاستعاذة كما يتدرج في الاستعاذة المعتادة ، تنزيلاً لاختلاف الصفات منزلة اختلاف الذات إشعاراً بعظم الآفة المستعاذة منها ، وتكرير ﴿ الناس ﴾ لما في الإِظهار من مزيد البيان ،

والإِشعار بشرف الإِنسان .

﴿ مِن شَرِّ الوسواس ﴾ أي الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة ، وأما المصدر فبالكسر كالزلزال ، والمراد به الموسوس وسمي بفعله مبالغة . ﴿ الخناس ﴾ الذي عادته أن يخنس أي يتأخر إذا ذكر الإِنسان ربه .

﴿ الذى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ الناس ﴾ إذا غفلوا عن ذكر ربهم ، وذلك كالقوة الوهمية ، فإنها تساعد العقل في المقدمات ، فإذا آل الأمر إلى النتيجة خنست وأخذت توسوسه وتشككه ، ومحل ﴿ الذى ﴾ الجر على الصفة أو النصب أو الرفع على الذم .

(92/840)

﴿ مِنَ الجنة والناس ﴾ بيان ل ﴿ الوسواس ﴾ ، أو الذي أو متعلق ب ﴿ يُوَسْوِسُ ﴾ أي يوسوس في صدورهم من جهة الجِنّة والناس . وقيل بيان ل ﴿ الناس ﴾ على أن المراد به ما يعم الثقلين ، وفيه تعسف إلا أن يراد به الناسي كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يدعُ الداع ﴾ فإن نسيان حق الله تعالى يعم الثقلين .

عن النبي صلى الله عليه وسلم " من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تبارك وتعالى " . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير البيضاوى حـ 5 صـ 553 . 554 ﴾

(1) حديث موضوع.

(93/840)

وقال أبو حيان :

سورة النَّاس

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) ﴾

أضيف الرب إلى الناس ، لأن الاستعاذة من شر الموسوس في صدورهم ، استعاذوا بربهم مالكهم وإلههم ، كما يستعيذ العبد بمولاه إذا دهمه أمر .

والظاهر أن ﴿ ملك الناس إله الناس ﴾ صفتان .

وقال الزمخشري : هما عطفا بيان ، كقولك : سيرة أبي حفص عمر الفاروق بين بملك الناس ، ثم زيد بياناً بإله الناس لأنه قد يقال لغيره : رب الناس ، كقوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ وقد يقال : ملك الناس ، وأما إله الناس فخاص لا شركة فيه ، فجعل غاية للبيان ، انتهى .

وعطف البيان المشهور أنه يكون بالجوامد ، وظاهر قوله أنهما عطفا بيان لواحد ، ولا أنقل عن النحاة شيئاً في عطف البيان ، هل يجوز أن يتكرر لمعطوف عليه واحد أم لا يجوز ؟ .

وقال الزمخشري : فإن قلت : فهلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرة واحدة ؟ قلت : لأن عطف البيان للبيان ، فكان مظنة للإظهار دون الإضمار ، انتهى .

والوسواس ، قالوا : اسم من أسماء الشيطان ؟ والوسواس أيضاً : ما يوسوس به شهوات النفس ، وهو الهوى المنهي عنه .

والخناس : الراجع على عقبه ، المستتر أحياناً ، وذلك في الشيطان متمكن إذا ذكر العبد الله تعالى تأخر .

وأما الشهوات فتخنس بالإيمان وبلمة الملك وبالحياء ، فهذان المعنيان يندرجان في الوسواس ، ويكون معنى ﴿ من الجنة والناس ﴾ : من الشياطين ونفوس الناس ، أو يكون الوسواس أريد به الشيطان ، والمغري : المزين من قرناء السوء ، فيكون ﴿ من الجنة والناس ﴾ ، تبييناً لذلك الوسواس .

قال تعالى : ﴿ عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ وقال قتادة : إن من الإنس شياطين ، ومن الجن شياطين ، فنعوذ بالله منهم .

وقال أبو ذر لرجل : هل تعوذت من شياطين الإنس ؟

وقال الزمخشري : ﴿ الوسواس ﴾ اسم بمعنى الوسوسة ، كالزلزال بمعنى الزلزلة ؛ وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال ، والمراد به الشيطان ، سمي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه ، لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه ؛ أو أريد ذو الوسواس .

وقد تكلمنا معه في دعواه أن الزلزال بالفتح اسم وبالكسر مصدر في ﴿ إذا زلزلت ﴾ ويجوز في الذي الجر على الصفة ، والرفع والنصب على الشتم ، ومن في ﴿ من الجنة والناس ﴾ للتبعيض ، أي كائناً من الجنة والناس ، فهي في موضع الحال أي ذلك الموسوس هو بعض الجنة وبعض الناس .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون من متعلقاً بيوسوس ، ومعناه ابتداء الغاية ، أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة ومن جهة الناس ، انتهى .

ولما كانت مضرة الدين ، وهي آفة الوسوسة ، أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت ، جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث : الرب والملك والإله ، وإن اتحد المطلوب ، وفي الاستعاذة من ثلاث : الغاسق والنفاثات والحاسد بصفة واحدة وهي الرب ، وإن تكثر الذي يستعاذ منه .

كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا آوى إلى فراشه جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ : قل هو الله أحد والمعوذتين ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ برأسه ووجهه وما

أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاثاً ، (صلى الله عليه وسلم) وشرّف ومجد وكرّم ، وعلى آله وصحبه ذوي الكرم وسلم تسليماً كثيراً . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 8 صـ ﴾

(95/840)

وقال العلامة نظام الدين النيسابوري :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) ﴾

القراءات : ﴿ الناس ﴾ وما بعدها ممالة : قتيبة ونصير . والباقون : بالتفخيم .

الوقوف : ﴿ الناس ﴾ ه لا ﴿ الناس ﴾ ه لا ﴿ الناس ﴾ ه لا ﴿ الخناس ﴾ ه لا بناء على أن الفصل بين الصفة وموصوفها لا يصلح إلا للضرورة . ولو قيل إن محله النصب أو الرفع على الذم حسن الوقف ﴿ الناس ﴾ ه لا ﴿ والناس ﴾ ه.

(96/840)

التفسير : إنه تعالى رب جميع المحدثات ولكنه خص الناس ههنا بالذكر للتشريف ، ولأن الاستعاذة لأجلهم فكأنه قيل : أعوذ من شر الوسواس إلى الناس بربهم الذي يملك عليهم

أمورهم وهوالهم ومعبودهم كما يستغيث بعض الموالي إذا دهمهم أمر بسيدهم ومخدومهم ووليّ أمرهم . وقوله ﴿ ملك الناس ﴾ ﴿ إله الناس ﴾ عطف ثانٍ لأن الرب قد لا يكون ملكاً كما يقال " رب الدار " والملك قد لا يكون إلهاً . وفي هذا الترتيب لطف آخر وذلك أنه قدم أوائل نعمه إلى أن تم ترتيبه وحصل فيه العقل فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك وهو ملك تفتقر كل الأشياء إليه وهو غني عنهم ، ثم علم بالدلائل العقلية والنقلية أن العبادة لازمة له وأن معبوده يستحق العبادة . ويمكن أن يقال : أوّل ما يعرف العبد من ربه هو كونه مربوباً له منعماً عليه بالنعم الظاهرة والباطنة ، ثم لا يزال ينتقل من معرفة هذه الصفة إلى صفات جلاله ونعوت كبريائه فيعرف كونه ملكاً قيوماً ، ثم إذا خاض في بحر العرفان وغرق في تياره وله عقله وتاه لبه فيعرف أنه فوق وصف الواصفين فيسميه إلهاً من وله إذا تحير . وتكرير لفظ " الناس " في السورة للتشريف كأنه عرف ذاته في خاتمة كتابه الكريم بكونه رباً وملكاً وإلهاً لهم ، أو لأن عطف البيان يحتاج إلى مزيد الكشف والتوضيح ولو قيل : إن الثاني بدل الكل من الأوّل فالأحسن أيضاً وضع المظهر مقام المضمر كيلا يكون المقصود مفتقراً إلى ما ليس بمقصود في الظاهر مع رعاية فواصل الآي . وقيل : لا تكرار في السورة لأن المراد بالأوّل الأطفال ومعنى الربوبية يدل عليه لشدّة احتياجهم إلى التربية ، وبالثاني الشبان ولفظ " الملك " المنبىء عن السياسة يدل عليه لمزيد افتقارهم إلى الزجر لقوّة دواعي الشهوة والغضب فيهم مع أن العقل الصادق لم يقو بعد ولم يستحكم ، وبالثالث

الشيوخ ولفظة "آله" المنبئ عن استحقاق العبادة له يدل عليه لفتور الدواعي المذكورة وقتئذ ، فتتوجه النفس إلى تحصيل

(97/840)

ما يزلفه إلى الله بتدارك ما فات . والمراد بالرابع الصالحون والأبرار فإن الشيطان مولع بإغوائهم . وبالخامس المفسدون والأشرار لأنه بيان الموسوس فإن الوسواس الخناس قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس كما قال ﴿ شياطين الجن والإنس ﴾ [الأنعام : 112] والخناس هو الذي من شأنه أن يخنس أي يتأخر وقد مر في قوله تعالى

(98/840)

ثم أراد ذكر مراتب النفس الإنسانية التي هي أشرف درجات الحيوان فقال ﴿ برب الناس ﴾ إشارة إلى العقل الهيولاني المفتقر إلى مزيد تربية وترشيح حتى يخرج من معدنها ويظهر من حكمها . وقوله ﴿ ملك الناس ﴾ إشارة إلى العقل بالملكة لأنه ملك العلوم البديهية وحصلت له ملكة الانتقال منها إلى العلوم الكسبية لأن النفس في هذه الحالة أحوج إلى

الزجر عن العقائد الباطلة والأخلاق الفاسدة والتأديب في الصغر كالنقش على الحجر . وقوله ﴿ إله الناس ﴾ إشارة إلى سائر مراتبها من العقل بالفعل والعقل المستفاد ، فإن الإنسان إذ ذاك كأنه صار عالماً معقولاً مضاهياً لما عليه الوجود ، فعرف المعبود فتوجه إلى عرفانه والعبادة له . وأيضاً اتصف بصفاته وتخلق بأخلاقه كما حكي عن أرسطو أنه قال : أفلاطون : إما إنسان تأله أو إله تأنس . ثم إن العقل والوهم قد يتساعدان على تسليم بعض المقدّمات ، ثم إذا آل الأمر إلى النتيجة ساعد العقل عليها دون الوهم فكان الوهم خنس أي رجع عن تسليم المقدّمة فلهذا أمر الله سبحانه بالاستعاذة من شره ، وقد ورد مثله في الحديث . وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته " وهذا آخر درجات النفس الكاملة الإنسانية فلا جرم وقع ختم الكتاب الكريم والفرقان العظيم عليه . ونحن أيضاً نختم التفسير بهذا التحقيق والله وليّ التوفيق والهادي في العلم والعمل إلى سواء الحق والطريق . قال الضعيف مؤلف الكتاب ، أحوج خلق الله إلى رحمته ورضاه ، الحسن بن محمد بن الحسين المشتهر بنظام النيسابوري نظم الله أحواله في أولاده وأخراه : هذا أيها المعروف باعتلاء عرائك المجد ، المشغوف باقتناء سبائك الحمد ، الكامل شوقه إلى فهم غرائب القرآن والقرآن كله غرائب ، الباذل طوقه في درك رغائب الفرقان والفرقان بأسره رغائب ، عقائل مسائل جهزتها فطنة من

مشايد الشدائد خامدة ، وفرائد فوائد نظمتها قريحة من صنوف الصروف جامده ، وقد نطفت بها عين خرساء بادٍ شحوبها وتحركت بها لأجلي ولاء طالما عقر حوبها ، على أنها مع سواد ما سقط من سنها بيضاء الخلال ومع مرارة مذاق ما بين لحييها حلوة المباني مليحة المقال . والذي قد مج فوها عفوصة ما فيها عذبة على العذبات سلسة على الأسلات يبكي ويضحك ، ويملك ويهلك ، ويفقر ويثري ، ويريش ويبري ، ويمنع ويعطي ، ولولا الله لذكرت أنه يميت ويحيى . وفي رقتها دقة ، ومع طلاوتها حلاوة ، فإن شئت فيراعة فيها براعة ، وأنبوب فيه من الحكم أسلوب وأيّ أسلوب ، وكيف لا وقد اشتملت على مطاوي ما رسمه على فحاوى كتاب الله الكريم ، واحتوت مباني ما رقمه على معاني الفرقان العظيم ، الذي أخرس شقاشق الفصحاء حين أرادوا معارضته لعجزهم لا للخلل في أدمغتهم ، وأوقر مسامع أولي العناد من العباد في البلاد بجهلهم لا لصمم في أصمختهم ، صحيفة يلوح عنها أثر الحق ، ولطيمة يفوح منها عبق الصدق ، بضاعة يحملها أهل النهي في سفر الروح إلى مكانها ، وتجارة أرباحها جنات النعيم ، وأجارة أعواضها الفوز بلقاء رب العرش العظيم .

ثم إن استبان لك حسن ذلك الوجه فأنصف تفلح ، وإن غلب على ظنك قبحه فأصلح أو أسجع فإن لكل جواد كبوة ولكل حسام نبوة ، وضيق البصر وطغيان القلم موضوعان ، والخطأ والنسيان عن هذه الأمة مرفوعان ، وإني لم أمل في هذا الإملاء إلاّ إلى مذهب أهل السنة والجماعة فبينت أصولهم ووجوه استدلالاتهم بها وما ورد عليها من الاعتراضات والأجوبة عنها . وأما في الفروع فذكرت استدلال كل طائفة بالآية على مذهبه من غير تعصب ومراء وجدال وهراء ، فاختلاف هذه الأمة رحمة ، ونظر كل مجتهد على لطيفة وحكمة ، جعل الله سعيهم وسعينا مشكوراً ، وعملهم وعملنا مبروراً . ولقد وقفت لإتمام هذا الكتاب في مدة خلافة علي رضي الله عنه وكنا نقدر إتمامه في مدة خلافه الخلفاء الراشدين وهي ثلاثون سنة ، ولو لم يكن ما اتفق في أثناء التفسير من وجود الأسفار الشاسعة وعدم الأسفار النافعة ، ومن غموم لا يعدّ عديدها وهموم لا ينادي وليدها ، لكان يمكن إتمامه في مدّة خلافة أبي بكر كما وقع لجار الله العلامة ، وكما أنه رأى ذلك ببركة جوار بيت الله الحرام فهذا الضعيف أيضاً يرجو أن يرزقني الله تعالى ببركة إتمام هذا الكتاب زيارة هذا المقام ويشرفني بوضع الخد على عتبة مزار نبيه المصطفى محمد النبي الأمي

العربي عليه وآله الصلاة والسلام فاسمع واستجب يا قدير ويا علام .

واعلموا إخواني رحمنا الله وإياكم وجعل الجنة مثوانا ومثواكم ، أن لكل مجتهد نصيباً قل أو أكثر ، ولكل نفس عاملة قسطاً نقص أو كمل ، وأن الأعمال بالنيات وبها تجلب البركات وترفع الدرجات ، وأن المرء بأصغريه وكل عمل ابن آدم سوى الخير كلّ عليه والذي نفسي بيده وناصيتي بحكمه ومشيئته ، عالم بسري ومحيط بنيتي أني لم أقصد في تأليف هذا التفسير مجرد جلب نفع عاجل لأن هذا الغرض عرض زائل ولا يفتخر عاقل بما ليس تحته طائل .

سحابة صيف ليس يرجي دوامها . . . وهل يشرئب إلى الأمور الفانية أو يستلذ بها من وهو من أعضائه عظامها ، وكاد يفتر من قواه أكثرها بل تمامها ؟ وإنما كان المقصود جمع المتفرق ، وضبط المنتشر ، وتبيين بعض وجوه الإعجاز الحاصل في كلام رب العالمين ، وحل الألفاظ في كتب بعض المفسرين بقدر وسعي وحد علمي ، وعلى حسب ما وصل إليه استعدادي وفهمي ، والقرآن أجل ما وقف عليه الذهن والخاطر ، وأشرف ما صرف إليه الفكر والناظر ، وأعمق ما يغاض على درّه ومرجانه ، وأعرق ما يكد في تحصيل لحينه

، ولو لم تكن العلوم الأدبية بأنواعها ، والأصولية بفروعها ، والحكمية بجملها وتفاصيلها وسيلة إلى فهم معاني كتاب الله العزيز واستنباط نكتها من معادنها واستخراج خباياها من مكامنها لكنت متأسفاً على ما أزجيت من العمر في بحث تلك القواليب ، وأملت من الفكر في تأليف ما ألفت في كل أسلوب من أولئك الأساليب ، ولكن لكل حالة آلة ، ولك أرب سبب ، وطالما أغليت المهور للعقائل وجنبت الوسائل للأصائل .

قال الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلى

أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي

ولكن حب من سكن الديارا

وكان من معاصم المقاصد من إنشاء هذا التفسير أن يكون جليسي مدّة حياتي ، وأنيسي في وقت مماتي حين لا أنيس للمرء إلا ما أسلف من بره ، ولا ينفع الإنسان إلا ما قدّم من خيره .

ولعمري إنه للمبتل المنيب الأوّاه نعم العون على تلاوة كتاب الله العزيز ومحضرة مع القراءة ووجهها إن اشتبه عليه شيء منها ، ومع الآي والوقوف إن ذهل عن أماكنها ومظانها ،

وكذا التفسير بتمامه إن أراد البحث عن الحقائق أو عزب عنه شيء من تلك الدقائق ، وكذا التأويل إن كان مائلاً إلى بطون الفرقان وسالكاً سبيل الذوق والعفان .

(102/840)

وإني أرجو من فضل الله العظيم وأتوسل إليه بوجهه الكريم ، ثم بنبيه القرشيّ الأبطحيّ ، ووليه المعظم العليّ وسائر أهل الغر الكرام وأصحابه الزهر والعظام ، وبكل من له عنده مكان ولديه قبول وشان ، أن يمتعني بتلاوة كتابه في كل حين وأوان من تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان على الوجه الذي ذكرت ، ولأجل هذا لقيت في تأليفه من عرق الجبين وكد اليمين ما لقيت .

وأن يعم النفع به لسائر إخواني في الدين ورفقائي في طلب اليقين ، ثم أن يجعله عدّة في ليلة يرجع من قبري العشائر والأهلون ، وذخيرة يوم لا ينفع مال ولا بنون والحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين خصوصاً على رسوله المصطفى الأمين محمد وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿غرائب القرآن حـ 6 صـ 603 . 609﴾

(103/840)

وقال الثعالبي:

قوله عز وجل: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس * مَلِكِ الناس * إله الناس * مِن شَرِّ الوسواس الخناس ﴾: ﴿ الوسواس ﴾: اسم مِنْ أسماء الشيطان، وقولُه: ﴿ الخناس ﴾ معناه: الرَّاجِعُ على عَقِبِهِ المُسْتَتِرُ أحياناً، فإذا ذكر العَبْدُ اللَّه تعالى وتعوَّذ، تذكَّر فأبْصَرَ؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الذين اتقوا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ... ﴾ [الأعراف: 201] قال النَّوَوِيُّ: قال بعضُ العلماءِ: يُسْتَحَبُّ قَولَ: لا إله إلا اللَّهِ لِمَنِ ابتلي بالوَسْوَسَةِ في الوضوءِ والصلاةِ وشِبْهِهِمَا؛ فإن الشيطان إذا سمع الذِّكْرَ، خَنَسَ، أي: تأخَّر وبَعُدَ، و«لا إله إلا اللَّهُ»: رَأْسُ الذِّكْرِ؛ ولذلك اختار السَّادَةُ الجِلَّةُ مِنْ صَفْوة هذه الأمة أَهْلُ تربيةِ السَّالكين وتأديب المُرِيدِينَ قَوْلَ «لا إله إلا اللَّه» لأَهْلِ الخَلْوَةِ، وأَمَرُوهم بالمداومة علَيْهَا، وقالوا: أَنْفَعُ علاجٍ في دَفْعِ الوسوسةِ الإقبالُ على ذِكْرِ اللَّه تعالى والإكْثَارُ منه، وقال السَّيِّدُ الجليل أَحْمَدُ بْنُ أبي الحواريِّ: شَكَوْتُ إلى أبي سُلَيْمَانَ الدَّرَانِيِّ الوَسْوَاسَ، فقال: إذا أَرَدت أَنْ ينقطعَ عَنْكَ، فَأَيَّ وَقْتٍ أَحْسَسْتَ به، فافرح، فإنك إذا فَرِحْتَ به، انقطع عنك؛ لأنه لَيْسَ شيءٌ أَبْغَضُ إلى الشيطان مِنْ سرور المؤمن، وإن اغتممت بِهِ، زَادَكَ، * ت *: وهذا مما يؤيِّد ما قاله بَعْضُ الأئمة؛ أَنَّ الوسواس إنما يبتلى به مَنْ كَمُلَ إيمانه؛ فإن اللِّصَّ لا يقصدُ بيتاً خَرِباً. انتهى، * ت *: ورأيتُ في «مختصر الطبريِّ» نَحْوَ هذا.

وقوله تعالى: ﴿ مِنَ الجنة ﴾ يعني: الشياطينَ، ويظهر أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿ والناس ﴾ يراد به: مَنْ يُوَسْوِسُ بخدعة مِنَ الشَّرِّ، ويدعو إلى الباطل، فهو في ذلك كالشَّيْطان، قال أَحْمَدُ بْنُ نَصْرٍ الداوديُّ: وعن ابن جُرَيْجٍ: ﴿ مِنَ الجنة والناس ﴾ قَالَ: «إنهما وَسْوَاسَانِ، فَوَسْوَاسٌ من الجِنَّة، ووَسْوَاسٌ مِنْ نَفْسِ الإنسانِ» انتهى، وفي الحديث الصحيحِ، "أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كَانَ إذَا آوى إلى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، فَقَرَأَ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ»، و«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ» ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا مَا استطاعَ مِنْ جَسَدِهِ يَبْدَأُ بِهِمَا مِنْ رَأْسِهِ ووَجْهِهِ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ؛ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيماً". يَقُولُ العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالى: عَبْدُ الرحمن بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مَخْلُوفٍ الثَّعَالِبيُّ لُطَفَ اللَّهُ به في الدارَيْن: قَدْ يَسَّرَ اللَّهُ عزَّ وجل في إتمام تَلْخِيصِ هذا المختَصَرِ؛ وقَدْ أودعتُهُ بِحَوْلِ اللَّهِ جزيلاً من الدُّرَرِ، قد استوعبت فيه -بِحَمْدِ اللَّهِ- مُهِمَّاتِ ابْنِ عَطِيَّةَ، وأسقطْتُ كَثِيراً من التَّكْرار، وما كان من الشَّوَاذِّ في غاية الوهي، وزدْتُ من غيره جوَاهِرَ ونَفَائِسَ لا يستغنى عنها مميزةً معزوَّةً لِمحالّها مَنْقُولةً بألفاظِهَا، وتوخَّيْتُ في جميع ذلك الصِّدْقَ

والصَّواب ، وإلى الله أَرْغَبُ في جَزيلِ الثواب ، وقد نبَّهْتُ بَعْضَ تَنْبيهٍ ، وعرَّفْتُ بأيام رِحْلَتي في طَلَبِ العِلْمِ بعْضَ تعريفٍ عِنْدَ خَتْمي لتفسير سورة الشورى ؛ فَلْيَنْظُرْ هُنَاكَ ، واللَّهُ المَسْؤُولُ أَنْ يجعَلَ هذا السعْيَ منا

(105/840)

خالصاً لوَجْهِهِ ، وعملاً صالحاً يقرِّبنا إلى مرضاته ، ومَنْ وَجَدَ في هذا الكتاب تَصْحيفاً أو خَلَلاً فأَرْغَبُ إِلَيْهِ أَنْ يُصْلِحَهُ مِنَ الأُمّهاتِ المَنْقُولِ منها متثبّتاً في ذلك لا برأْيه وبديهةِ عَقْلِهِ :

[من الوافر]

(106/840)

فَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحاً . . . وَآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ

وكان الفراغُ من تأليفه في الخامس عَشَرَ مِنْ ربيع الأَوَّلِ مِنْ عامِ ثَلاثَةٍ وثَلاثِينَ وَثَمانمائةٍ وَأَنَا أَرْغَبُ إِلى كُلِّ أَخٍ نظَرَ فيه أنْ يُخلِصَ لي ولَهُ بدَعْوةٍ صالحةٍ ، وهذا الكتابُ لا يَنْبَغِي أَنْ يَخْلُوَ

عنه مُتَدَيِّنٌ ، ومُحِبٌّ لكلامِ ربّه ، فإنه يطَّلِعُ فيه على فَهْمِ القرآن أجْمَعَ في أَقْرَب مُدَّةٍ ، وليس الخَبَرُ كالعِيَان ، هذا مَعَ مَا خُصَّ بِهِ تَحْقِيق كَلامَ الأَئِمَّةِ المحقّقين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهم - نَقَلْتُهُ عَنْهُمْ بألفاظِهِمْ متحرِّيًا لِلصَّوَاب ، ومِنَ اللهِ أَرْتَجِي حُسْنَ المآب ، وصَلَّى اللَّهُ على سَيِّدِنَا محمَّد خاتَمِ النبيِّينَ ، وعَلى آله وصَحْبِهِ أجمعين ، وآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالمين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 4 صـ ﴾

(107/840)

وقال الخطيب الشربينى :

سورة الناس

مكية وهي ست آيات وعشرون كلمة وتسعة وتسعون حرفاً

﴿ بسم الله ﴾ المحيط بكل ما بطن كإحاطته بكل ظاهر ﴿ الرحمن ﴾ الذي عمت نعمته كل باد وحاضر ﴿ الرحيم ﴾ الذي خص أهل ودّه بإتمام النعمة في جميع أمورهم الأوّل منها والأثناء والآخر .

ولما أمر الله تعالى نبيه بالاستعاذة مما تقدّم أمره أن يستعيذ من شر الوسواس بقوله تعالى :

﴿ قل ﴾ ، أي : يا أشرف المرسلين ﴿ أعوذ ﴾ ، أي : اعتصم والتجئ ﴿ برب ﴾ ، أي :

مالك وخالق ﴿ الناس ﴾ وخصهم بالذكر وإن كان رب جميع المحدثات لأمرين : أحدهما : أنّ الناس يعظمون فأعلم بذكرهم أنه رب لهم وإن عظموا . الثاني : أنه أمر بالاستعاذة من شرهم فاعلم بذكرهم أنه هو الذي يعيذ منهم . قال الملوي : والرب من له ملك الرق ، وجلب الخيرات من السماء والأرض وإنقاذها ، ودفع الشرور ورفعها ، والنقل من النقص إلى الكمال ، والتدبير العام العائد بالحفظ والتتميم على المربوب .

(108/840)

وقوله تعالى : ﴿ ملك الناس ﴾ إشارة إلى أنّ له كمال التصرف ونفوذ القدرة ، وتمام السلطان فإليه الفزع ، وهو المستغاث والملجأ والمنجا والمعاد . وقوله تعالى : ﴿ إله الناس ﴾ إشارة إلى أنه تعالى كما انفرد بربوبيتهم وملكهم لم يشركه في ذلك أحد فكذلك هو وحده إلههم لا يشركه في ألوهيته أحد ، وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان ، وتضمنت معاني أسمائه الحسنى ، فإنّ الرب هو القادر الخالق إلى غير ذلك مما يتوقف الإصلاح والرحمة والقدرة الذي هو بمعنى الربوبية عليه من أوصاف الجمال . والملك هو الآمر والناهي المعز المذل إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى العظمة والجلال ، وأمّا الإله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ، ونعوت الجلال فيدخل فيه جميع الأسماء

الحسنى ، ولتضمنها لجميع معاني الأسماء الحسنى كان المستعيذ جديراً بأن يعاذ ، وقد يوقع ترتيبها على الوجه الأكمل الدال على الواحدانية لأنّ من رأى ما عليه من النعم الظاهرة والباطنة علم أنّ له مربياً ، فإذا درج في العروج في درج معارفه سبحانه علم أنه غني عن الكل والكل إليه محتاج ، وعن أمره تعالى تجري أمورهم فيعلم أنه ملكهم ، ثم يعلم بانفراده بتدبيرهم بعد إبداعهم أنه المستحق للإلهية بلا مشارك له فيها .

(109/840)

فائدة : قد أجمع جميع القراء في هذه السورة على إسقاط الألف من مالك ، بخلاف الفاتحة كما مضى لأنّ المالك إذا أضيف إلى اليوم أفهم اختصاصه بجميع ما فيه من جوهر وعرض ، وأنه لا أمر لأحد معه ، ولا مشاركة في شيء من ذلك ، وهو معنى الملك بالضم . وأمّا إضافة المالك إلى الناس فإنها لا تستلزم أن يكون ملكهم ، فلو قرئ به هنا لنقص الملك بالضم ، وأطبقوا في آل عمران على إثبات الألف في المضاف وحذفها من المضاف إليه ، لأنّ المقصود من السياق أنه سبحانه يعطي الملك من يشاء ويمنعه من يشاء . والملك بكسر الميم أليق بهذا المعنى ، وأسرار كلام الله تعالى أعظم من أن تحيط بها العقول ، وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها .

تنبيه : يجوز في ملك الناس وإله الناس أن يكونا وصفين لرب الناس ، وأن يكونا بدلين ، وأن يكونا عطف بيان ، واقتصر عليه الزمخشري قال : كقولك : سيرة أبي حفص عمر الفاروق بين بملك الناس ، ثم زيد بياناً بإله الناس ، لأنه قد يقال لغيره : رب الناس كقوله تعالى :

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ (التوبة :)

وقد يقال : ملك الناس . وأمّا إله الناس فخاص لا شركة فيه فجعل غاية للبيان . فإن قيل : هلا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرّة واحدة ؟

أجيب : بأنّ عطف البيان للبيان فكان مظنة للإظهار دون الإضمار .

(110/840)

﴿ من شر الوسواس ﴾ وهو اسم بمعنى الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة ، وأمّا المصدر فوسواس بالكسر كزلزال ، والمراد به شيطان سمي بالمصدر كأنه وسوس في نفسه ، لأنها صنعته وشغله الذي هو عاكف عليه أو أريد ذو الوسواس والوسوسة الصوت الخفي ، ويقال لحس الصائد ، والكلاب ، وأصوات الحلي : وسواس . "والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم" . كما في الصحيح فهو الذي يوسوس بالذنب سراً ليكون أحلى ، ولا يزال يزينه ويثير الشهوة الداعية إليه حتى يوقع الإنسان ، فإذا أوقعه وسوس لغيره إن فلاناً فعل كذا

حتى يفضحه بذلك ، فإذا افتضح ازداد جراءة على أمثال ذلك كأنه يقول : قد وقع ما كنت أحذر من إيقاعه فلا يكون شيء غير الذي كان فيجترئ على الذنب .

ولما كان الله تعالى لم ينزل داء إلا أنزل دواء غير السأم وهو الموت ، وكان قد جعل دواء الوسوسة ذكره تعالى فإنه يطرد الشيطان وينير القلب ويصفيه ، وصف سبحانه الموسوس عند استعماله الدواء بقوله تعالى : ﴿ الخناس ﴾ ، أي : الذي عادته أن يخنس ، أي : يتوارى ويتأخر ويختفي بعد ظهوره مرّة بعد مرّة كلما كان الذكر خنس وكلما بطل عاد إلى وسواسه ، فالذكر له كالمقامع التي تقمع المفسد فهو شديد النفور منه ، ولهذا كان شيطان المؤمن هزيلاً كما حكي عن بعض السلف أنّ المؤمن يضني شيطانه كما يضني الرجل بعيره في السفر .

قال قتادة : الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب ، وقيل : كخرطوم الخنزير في صدر الإنسان ، فإذا ذكر العبد ربه خنس ، ويقال : رأسه كرأس الحية واضع رأسه على ثمرة القلب يمسه ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ورجع ووضع رأسه فذلك قوله تعالى :

﴿ الذي يوسوس ﴾ ، أي : يلقي المعاني الضارة على وجه الخفاء والتكرير ﴿ في صدور الناس ﴾ ، أي : المضطربين إذا أغفلوا عن ذكر ربهم من غير سماع . وقال مقاتل : إنّ الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه سلطه الله تعالى على ذلك . وقال القرطبي : وسوسته هي الدعاء إلى إطاعته بكلام خفيّ يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع صوت .

تنبيه : يجوز في محل ﴿ الذي يوسوس ﴾ الحركات الثلاث ، فالجرّ على الصفة والرفع والنصب على الشم ، ويحسن أن يقف القارئ على الخناس ويبتدئ الذي يوسوس على أحد هذين الوجهين .

وقوله تعالى : ﴿ من الجنة ﴾ ، أي : الجنّ الذين هم في غاية الشر والتمرد ، والخناس ﴿ والناس ﴾ ، أي : أهل الاضطراب والذبذبة بيان للذي يوسوس على أن الشيطان ضربان : جني وأنسي كما قال تعالى : ﴿ شياطين الإنس والجنّ ﴾ (الأنعام :)

ويجوز أن يكون بدلاً من الذي يوسوس ، أي : الموسوس من الجن والإنس ، وأن يكون حالاً من الضمير في يوسوس ، أي : حال كونه من هذين الجنسين . وقيل : غير ذلك . قال الحسن : هما شيطانان لنا أما شيطان الجن فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس فيأتي علانية . وقال قتادة : إن من الجن شياطين ، وإنّ من الإنس شياطين . فنعوذ بالله من شياطين الجنّ والإنس . وعن أبي ذر قال لرجل هل تعوّذت بالله من شيطان الإنس ، فقال :

أومن الإنس شياطين؟ قال: نعم لقوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدوّا شياطين الإنس والجنّ ﴾ الآية.

وذهب قوم إلى أنّ المراد بالناس هنا الجن سموا ناساً كما سموا رجالاً في قوله تعالى: ﴿ وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجنّ ﴾ (الجن:)

وكما سموا نفراً في قوله تعالى: ﴿ قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن ﴾ (الجن:)

(112/840)

وكما سموا قوماً نقل الفراء عن بعض العرب أنه قال: وهو يحدّث جاء قوم من الجنّ فوقفوا، فقيل: من أنتم؟ فقالوا: ناس من الجنّ، فعلى هذا يكون والناس عطفاً على الجنة ويكون التكرير لاختلاف اللفظين. والجنة جمع جني كما يقال: أنس وأنسي والهاء لتأنيث الجماعة. وقيل: إنّ إبليس يوسوس في صدور الجنّ كما يوسوس في صدور الناس فعلى هذا يكون في صدور الناس عاماً في الجميع.

و﴿ من الجنة والناس ﴾ بياناً لما يوسوس في صدورهم. وقيل: معنى ﴿ من شر الوسواس ﴾ الوسوسة التي تكون ﴿ من الجنة والناس ﴾ وهو حديث النفس.

قال صلى الله عليه وسلم "إنّ الله تعالى تجاوز لأمّتي عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو

تتكلم به" . وعن عقبة بن عامر قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ألم تر آيات نزلت الليلة لم ير مثلهنّ قط ﴿ أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ أعوذ برب الناس ﴾ . وعنه أيضاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ألا أخبرك بأفضل ما تعوّذ به المتعوذ ؟ قلت : بلى ، قال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه فنفث فيهم وقرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما رأسه ووجه وما أقبل من جسده يصنع ذلك ثلاث مرات" . وعنها أيضاً "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوّذتين وينفث ، فلما اشتدّ وجعه كنت أقرأهما عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها" . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به أناء الليل وأطراف النهار" . وعن ابن عباس قال : "قال رجل : يا رسول الله ، أي : الأعمال أحب إلى الله تعالى ؟ قال : الحال المرتحل ، قال : وما الحال المرتحل ؟ قال : الذي يضرب من أوّل القرآن إلى آخره كلما حل ارتحل" .

وعن أبي هريرة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "ما أذن الله لأحد ما أذن لنبيّ حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به" .

لطيفة : نختم بها كما ختم بها الفخر الرازي رحمه الله تعالى تفسيره ، وهي أن المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة ، وهي أنه رب الفلق والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات : وهي الغاسق والنفاثات والحاسد . وأمّا في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاث : وهي الرب والملك والإله ، والمستعاذ منه آفة واحدة وهي الوسوسة . والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يقدر بقدر المطلوب ، فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن ، والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين ، وهذا تنبيه على أنّ مضرة الدين وإن قلت أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت .

وهذا آخر ما يسره الله تعالى من السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير فدونك تفسيراً كأنه سبيكة عسجد ، أو در منضد جمع من التفاسير معظمها ومن القراءات متواترها ، ومن الأقاويل أظهرها ، ومن الأحاديث صحيحها وحسنها محرّر الدلائل في هذا الفنّ مظهراً لدقائق استعملنا الفكر فيها إذا الليل جنّ ، فإذا ظفرت بفائدة شاردة فادع لي بالتجاوز والمغفرة ، أو بزلة قلم أو لسان فافتح لها باب التجاوز والمعذرة :

*فلا بدّ من عيب فإن تجدنه ** فسامح وكن بالستر أعظم مفضل*

*فمن ذا الذي ما ساء قط ومن له ال ** محاسن قد تمت سوى خير مرسل*

(114/840)

وأنا أعوذ بجميع كلمات الله الكاملة التامّة ، وألوذ بكنف رحمته الشاملة العامّة من كل ما يكلم الدين ويثلم اليقين ، أو يعود في العاقبة بالندم ، أو يقدح في الإيمان المسوط باللحم والدم ، وأسأله بخضوع العنق وخشوع البصر ، ووضع الخد لجلاله الأعظم الأكبر مستشفعاً إليه بنوره الذي هو الشيبة في الإسلام ، متوسلاً إليه بسيد الأنام عليه الصلاة والسلام ، وبالتوبة الممحصة للآثام وبما عنيت به من مصابرتي على تواكل من القوي ، وتخاذل من الخطأ ، ثم أسأله بحق صراطه المستقيم ، وقرآنه المجيد الكريم ، وبما لقيت من كدح اليمين ، وعرق الجبين في عمل هذا التفسير المبين عن حقائقه المخلص عن مضايقه ، المطلع على غوامضه ، المثبت في مداحضه ، المكتنز بالفوائد التي لا توجد إلا فيه المحيط بما لا يكتنه من بديع ألفاظه ، ومعانيه مع الإيجاز الحاذف للفضول ، وتجنب المستكره المملول متوسط الحجم ، وخير الأمور أوساطها لا تفريطها ولا إفراطها . هذا ولسان التقصير في طول مدحه قصير

:

*أعيذه بالمصطفى من حاسد قد هما

*بذمّه وقد غدا من أجله مهتما

*فليس يبغي ذمّه إلا بغيض أعمى

*كفاه ربي شرهم وزان منه الرسما

*وزاد في تديرهم تدميرهم والغما

*وردّهم بغيظهم فلم ينالوا غنما

*وزاده سعادة ولازمته النعمى

(115/840)

فنسأل الله الكريم الذي به الضر والنفع ، والإعطاء والمنع أن يجعله لوجهه خالصاً ، وإن يداركني بألطافه إذ الظل أضحى في القيامة قالصاً ، وأن يتجاوز عني إنه السميع العليم ، وأن يرفع به درجتي في جنات النعيم ، وأن يجعله ذخيرة لي عنده إنه ذو الفضل العظيم ، وأن ينفع به من تلقاه بالقبول إنه جواد كريم ، وأن يخفف عني كل تعب ومؤنة ، وأن يمدّني بحسن المعونة ، وأن يهب لي خاتمة الخير ، ويقيني مصارع السوء ، وأن يتجاوز عن فرطاتي يوم التناد ، ولا يفضحني بها على رؤوس الأشهاد أنا ووالدي وأولادي ، وأقاربي وأحبابي ،

ويحلنا دار المقام من فضله بواسع طوله وسابغ نوله إنه هو الجواد الكريم ، الرؤوف الرحيم ، وهذا شيء ما كان في قدرتي فإني والله معترف بقصر الباع ، وكثرة الزلل ، ولكن فضل الله وكرمه لا يعلل بشيء من العلل . فلهذا رجوت أن أكون متصفاً بإحدى الخصال الثلاث التي إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا منها ، بل أرجو من الله الكريم ، اجتماعها إنه جواد كريم حليم .

قال المؤلف رحمه الله تعالى : وكان الفراغ من تأليفه يوم الاثنين المبارك ، ثالث عشر صفر الخير ، من شهور سنة ثمان وستين وتسعمائة من الهجرة النبوّية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، على يد مؤلفه فقير رحمة ربه القريب محمد بن أحمد الشربيني الخطيب غفر الله تعالى له ذنوبه ، وستر في الدارين عيوبه والمسلمين ، والحمد لله ربّ العالمين ، وصلاة الله وسلامه على سيدنا محمد خاتم النبيين ، والمرسلين والصحابة أجمعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

يقول المتوسل إلى الله بالجاه الصديقي إبراهيم عبد الغفار الدسوقي ، مصحح دار الطباعة جمل الله طباعه قد تم طبع السراج المنير بعون الله الملك القدير ، وهذا الكتاب العجيب

المنسوب للإمام الخطيب قد اعتنت بتحريره دار الطباعة ، وبذلت في تنقيره غاية الاستطاعة ، فأزالت عنه ربقة التحريف ، وأطلقته من أسر التصحيف بمراجعة أصول أساليبه ، والبحث عن صواب تراكيبه ، فحصلت بركاته وعمت نفحاته ، وأنار الآفاق بدر وجوده ، وروى الظماء قاموس فضله وجوده ، وتحلت بصحاح جواهر معانيه أجياد مباشريه ومبتاعيه ، ثم إنّ تمام بيعه في اثنا طبعه أوّل دليل على عموم نفعه ، وهذا كما يقع في خلدي ويقيني من كرامات مؤلفه محمد بن أحمد الشربيني وكان تمام طبعه بدار الطباعة العامرة الكائنة ببولاق مصر القاهرة على ذمّة هذه المصلحة الميمونة التي هي بطالع السعد مقرونة في سنة خمس وثمانين ومائتين وألف من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف ، مشمولاً بنظر المجدّ في نفع أوطانه ، الباذل مروءته في قضاء حاج إخوانه من عليه أحاسن أخلاقه تثنى حضرة حسين بك حسني ، فإنه لا يزال باحثاً عن عموم المنافع عند وجود المقتضيات ، وزوال الموانع في ظل من تعطرت الأفواه بطيب ثنائه ، وبلغ من كل وصف جميل حدّ انتهائه ، ومحا ظلم الظلم بسنا صورته ، وأثبت مراسم العدل بحسن سيرته ، وأفاض على أهل مملكته غيوث إنعامه وإحسانه ، وشملهم بعظيم رأفته ومزيد امتنانه ، وبسط لهم بساط عدله ، وحلاهم بحلي جوده وفضله . عزيز الديار المصرية ، وحامي حمى حوزتها النيليه بشدّة بأسه وعزمه الجلي ، سعادة أفندينا إسماعيل بن إبراهيم بن محمد علي لا زال ملحوظاً بعين العناية الإلهية ، موفقاً لسائر الآراء الخيرية محفوظ الجناب ، مقصود الأعتاب

، مسروراً بسائر الأنجال بجاه خاتم رسل ذي الجلال . ولما تهيأ للتمام والكمال ، ولبس من حسن الطبع حلة الجمال انطلق لسان اليراع يقرظه ، وبعين الإطراء يلحظه فقال :

---

*كلام الله أفضل ما رواه ** رسول الله عن جبريل قطعا *

*عجائبه بحار اللب فيها ** وليست تنقضي بدعاً وصنعا *

*وخادمه بتفسير المعاني ** أجل الناس منقبة ووضعا *

*ولا سيما الخطيب أبو المعالي ** مبين الآي أفذاذاً وشفعا *

*هو التفسير إيضاحاً وبسطاً ** ومتبعوه أرقى الناس طبعا *

*ولما تم حسناً قلت أرخ ** وفي أوب الخطيب وتم طبعاً *

فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على المؤيد بباهر المعجزات ، وعلى أصحابه الكرام البررة ، وآل بيته المنتخبين الخيرة ما توالى الجديدان وتعاقب النيران .

انتهى انتهى . اهـ ﴿السراج المنير حـ 8 صـ 475.482﴾

وقال أبو السعود :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ قل أعوذ ﴾

وقرئ فى السورتين بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام ﴿ برب الناس ﴾ أى مالك أُمورهم ومربيهم بإفاضة ما يصلحهم ودفع ما يضرهم وقوله تعالى ﴿ ملك الناس ﴾ عطف بيان جئ به لبيان أَن تربيته تعالى إياهم ليست بطريق تربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من مماليكهم بل بطريق الملك الكامل والتصرف الكلى والسلطان القاهر وكذا قوله تعالى ﴿ إله الناس ﴾ فإنه لبيان أن ملكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم والقيام بتدبير أمورهم وسياستهم والتولى لترتيب مبادئ حفظهم وحمايتهم كما هو قصارى أمر المملوك بل هو بطريق المعبودية المؤسسة.

على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلى فيهم إحياء وإماتة وإيجاداً وإعداماً وتخصيص الإضافة بالناس مع انتظام جميع العاملين فى سلك ربوبيته تعالى وملكوتيته وألوهيته للإرشاد إلى منهج الاستعاذة المرضية عنده تعالى الحقيقة بالإعاذة فإن توسل العائذ بربه وانتسابه إليه تعالى بالمربوبية والمملوكية والعبودية فى ضمن جنس هو فرد من أفراده من دواعى مزيد الرحمة والرأفة وأمره تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم

بالإعاذة لا محالة ولأن المستعاذ منه شر الشيطان المعروف بعداوتهم ففى التنصيص على انتظامهم فى سلك عبوديته تعالى وملكوته رمز إلى إنجائهم من ملكة الشيطان وتسلطه عليهم حسبما ينطق به قوله تعالى إِن عبادى ليس لك عليهم سلطان فمن جعل مدار تخصيص الإضافة مجرد كون الاستعاذة من المضار المختصة بالنفوس البشرية فقد قصر فى توفية المقام حقه وأما جعل المستعاذ منه فيما سبق المضار البدنية فقد عرفت حاله وتكرير المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير .

(119/840)

والتشريف بالإضافة ﴿ من شر الوسواس ﴾ هو اسم بمعنى الوسوسة وهى الصوت الخفى كالزلزال بمعنى الزلزلة وأما المصدر فبالكسر والمراد به الشيطان سمى بفعله مبالغة كأنه نفس الوسوسة ﴿ الخناس ﴾ الذى عادته أن يخنس أى يتأخر إذا ذكر الإنسان ربه .

﴿ الذى يوسوس فى صدور الناس ﴾

إذا غفلوا عن ذكره تعالى ومحل الموصول إما الجر على الوصف وإما الرفع أو النصب على الذم ﴿ من الجنة والناس ﴾ .

بيان للذى يوسوس على أنه ضربان جنى وإنسى كما قال عز وجل شياطين الإنس والجن

أو متعلق يوسوس أى يوسوس فى صدروهم من جهة الجن ومن جهة الإنس وقد جوز أن يكون بيانًا للناس على أنه يطلق على الجن أيضًا حسب إطلاق النفر والرجال عليهم ولا تعويل عليه وأقرب منه أن يراد بالناس الناسى ويجعل سقوط الياء كسقوطها فى قوله تعالى يوم يدع الداع ثم يبين بالجنة والناس فإن كل فرد من أفراد الفريقين مبتلى بنسيان حق الله تعالى إلا من تداركه شوافع عصمته وتناوله واسع رحمته عصمنا الله تعالى الغفلة عن ذكره ووفقنا لأداء حقوق شكره . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 9 صـ ﴾

(120/840)

وقال الجاوى :

سورة الناس

مدنية ، ست آيات ، عشرون كلمة ، تسعة وتسعون حرفا

قُلْ يا أشرف المرسلين أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) أي ألتجئ بمصلح الناس والقائم بتديره ، وذكر اللّه أنه رب الناس على التخصيص مع أنه رب جميع المحدثات ، لأن الاستعاذة وقعت من شر الموسوس في صدور الناس ، فكأنه قيل : أعوذ من شر الموسوس إلى الناس بربهم ، وهو معبودهم .

وقرئ في السورتين بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام ، مَلِكِ النَّاسِ (2) عطف بيان ، جيء به لبيان أن تربيته تعالى إياهم بطريق الملك الكامل والتصرف الكلي لا بطريق تربية سائر الملاك لمماليكهم ، ولا يجوز ها هنا «مالك الناس» بإثبات الألف بخلاف مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ في سورة الفاتحة [الآية : 4] والفرق أن قوله : بِرَبِّ النَّاسِ أفاد كونه مالكا لهم فلا بد وأن يكون المذكور عقبه هذا الملك ليفيد أنه تعالى مالك وملك معا ، فإن قيل : أليس قال تعالى في سورة الفاتحة : رَبِّ الْعالَمِينَ [الآية : 2] ثم قال : مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ [الآية : 4] فيلزم وقوع التكرار هناك قلنا : اللفظ دل على أنه رب العالمين ، وهي الأشياء الموجودة في الحال ، وعلى أنه مالك ليوم الدين ، فهناك «الرب» مضاف إلى شيء موجود الآن ، و«المالك» مضاف إلى شيء يوجد في الآخرة ، فلم يلزم التكرير ، فظهر الفرق ، وأيضا فإن جواز القراءات يتبع النزول لا القياس ، إِلهِ النَّاسِ (3) عطف بيان جيء به لبيان أن ملكه تعالى بطريق المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي فيهم إحياء وإماتة ، وإيجادا وإعداما ، فوصف اللّه أولا بأنه رب الناس ، ثم الرب قد يكون ملكا وقد لا ، فبين بقوله ملك الناس ، ثم الملك قد يكون إلها وقد لا ، فبين بقوله إِلهِ النَّاسِ لأن الإله خاص باللّه تعالى لا يشركه فيه غيره ، وأيضا إن أول ما يعرف العبد من معبوده كونه معطيا لما عنده من النعم الظاهرة والباطنة ، وهذا هو الرب ، ثم ينتقل من معرفة هذه الصفة إلى معرفة استغنائه عن الخلق ، فيحصل العلم

بكونه ملكا ، لأنه هو الذي يفتقر إليه غيره ويستغني عن غيره ، ثم عرف العبد أنه هو الذي ولهت

العقول في عزته وعظمته ، فيعرف أنه إله حقيقة مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ بفتح الواو هو بمعنى الموسوس وهو الشيطان الْخَنَّاسِ (4) أي الذي يتأخر عند ذكر الإنسان ربه والوقف هنا كاف لمن رفع ما بعده أو نصبه على الشتم ، ولا وقف هنا لمن جعل ما بعده نعتا للوسواس ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) أي في قلوب الغافل عن ذكر اللّه ، وسقوط الياء عن الناس كسقوطها في قوله تعالى : يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ [القمر : 6] مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6) بيان للناسي عن ذكر اللّه فإنهما النوعان الموصوفان بنسيان حق اللّه تعالى ، وعلى هذا لا يحتاج إلى تكلف بعض العلماء من جعل قوله : مِنَ الْجِنَّةِ بيانا للوسواس ، وجعل قوله : وَالنَّاسِ عطفا عليه ، فكأنه قيل : من شر الوسواس الذي يوسوس ، وهو الجن ومن شر الناس اه . ومن جعل قوله تعالى : مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ عطفا على الْوَسْوَاسِ بتقدير حرف العطف . فالمعنى : قل أعوذ برب الناس من الوسواس الخناس ومن الجنة والناس ، كأنه استعاذ بربه من الشيطان الواحد ، ثم استعاذ بربه من جميع الجنة والناس ، وفي هاتين

السورتين لطيفة وهي أن المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة ، وهي أنه رب الفلق والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات :

وهي الغاسق ، والنفاثات ، والحاسد . أما في هذه السورة المستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة : وهي الرب والملك والإله والمستعاذ منه آفة واحدة ، وهي الوسوسة ، والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب ، فالمطلوب في السورة الأولى : سلامة النفس والبدن ، والمطلوب في السورة الثانية : سلامة الدين .

وهذا تنبيه على أن مضمرة الدين وإن قلت أعظم من مضار الدنيا ، وإن عظمت ، واللّه أعلم ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم وقد انتهى ما منّ اللّه به علينا من المعاني الميسّرة والألفاظ المسهّلة في خامس ربيع الآخر ليلة الأربعاء عام سنة 1305 ألف وثلاثمائة وخمسة على يد الفقير إلى اللّه تعالى محمد نووي غفر اللّه له ولوالديه ، ولمشايخه ، ولإخوانه المسلمين ، وصلى اللّه عليه وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد للّه رب العالمين آمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مراح لبيد حـ 2 صـ 684.683 ﴾

(122/840)

وقال النخجواني :

[سورة الناس]

فاتحة سورة الناس

لا يخفى على من انكشف له سرائر التوحيد واليقين وانفتح عليه أبواب معالم الدين القويم والصراط المستقيم أي من تمسك بحبل التوفيق الإلهي واستمسك به لا بد وان يحفظ نفسه دائما عن فتنة شياطين القوى الامارة التي توسوس في صدور الأنام بأنواع الوسوسة وتوقعهم في أصناف الفتن والمحن الناشئة من الأوهام والخيالات الباطلة المتعلقة بنشأة الناسوت حتى تزيغ قلوبهم وتضلهم عن الطريق المستبين لذلك لقن سبحانه حبيبه صلى اللّه عليه وسلم الاستعاذة والالتجاء نحوه سبحانه من غوائل الشيطان واغوائه تتميما لتربيته وتكميله وتنبيها على من تبعه من المؤمنين وإرشادا لهم فقال بعد ما تيمن بِسْمِ اللَّهِ المدبر لمصالح عباده بمقتضى جوده الرَّحْمنِ عليهم يحفظهم عما يبعدهم عن كنف حفظه الرَّحِيمِ عليهم ينبههم على ما يضرهم ويغويهم ليتمكنوا في الدين القويم ويترسخوا على الصراط المستقيم

[الآيات]

قُلْ يا أكمل الرسل بعد ما مكنك الحق في مقعد التوحيد وهداك للوصول إلى ينبوع بحر الحقيقة التي هي الوحدة الذاتية ملتجأ إلى اللّه مستمسكا بعروة عصمته أَعُوذُ والوذ بِرَبِّ

النَّاسِ الذي أظهرهم من كتم العدم ورباهم بأنواع اللطف والكرم

مَلِكِ النَّاسِ ومتولى أمورهم

إِلَٰهِ النَّاسِ إذ ظهور الكل منه ورجوعه إليه ولا مالك لهم سواه ولا إله غيره

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الموسوس المثير للفتن في قلوب الناس الْخَنَّاسِ الدفاع الرجاع للناس عن نور الهداية والفلاح إلى ظلمات البدع والضلال

الَّذِي يُوَسْوِسُ دائما فِي صُدُورِ النَّاسِ ويلقى في روعهم ما يغويهم عن طريق الحق ويغريهم إلى الباطل الزائغ الزائل وهذا الخناس الموسوس في صدور الناس قد يكون

مِنَ الْجِنَّةِ أى من جنس الجن يوسوس على الانس من طرق الوهم والخيال فيضله عن الصراط المستقيم وَقد يكون من جنس النَّاسِ أيضاً يوسوس من طرق الحواس إذ بعض النفوس الخبيثة الانسية يضل بعض الضعفاء عن طريق الحق ويوقعهم في فتنة عظيمة وعذاب اليم .

أعاذنا اللّه وعموم عباده من شر كلا الفريقين بفضله وجوده

خاتمة سورة الناس

عليك أيها المحمدي المعتصم بحبل التوفيق المستمسك بالعروة الوثقى التي هي الدين القويم الإلهي والشرع الشريف المصطفوى ان تواظب على امتثال الاحكام الشرعية والأوامر الإلهية النازلة في القرآن العظيم وتجتنب عن مطلق النواهي والمحظورات الموردة فيه من لدن

حكيم عليم فعليك بالإخلاص في كل الأعمال والاتكال على اللّه في عموم الأحوال وعليك الاشتغال بالطاعات ودوام المراقبة مع اللّه في عموم الحالات فانه سبحانه يوصلك حسب لطفه وجوده إلى أعلى المقامات وارفع الدرجات نعتصم بك يا ذا القوة المتين ونتوكل عليك يا ذا الجود العظيم ونستعيذ بك في عموم الأحوال والأهوال من الشيطان الرجيم. ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب وأنت الملهم للصواب والموفق على نيل الثواب منك المبدأ وإليك المآب وعندك أم الكتاب. انتهى انتهى. ا هـ

﴿ الفواتح الإلهية حـ 2 صـ 539 ﴾

(123/840)

وقال ابن حجر العسقلانى :

قَوْله : (سُورَة قُلْ أَعُوذ بِرَبِّ النَّاس)

وَتُسَمَّى سُورَة النَّاس .

قَوْله : (وَقَالَ اِبْن عَبَّاس : الْوَسْوَاس إِذَا وُلِدَ خَنَسَهُ الشَّيْطَان ، فَإِذَا ذُكِرَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ذَهَبَ ، وَإِذَا لَمْ يُذْكَر اللَّه ثَبَتَ عَلَى قَلْبه)

(124/840)

كَذَا لِأَبِي ذَرّ ، وَلِغَيْرِهِ : وَيُذْكَر عَنْ اِبْن عَبَّاس ، وَكَأَنَّهُ أَوْلَى لِأَنَّ إِسْنَاده إِلَى اِبْن عَبَّاس ضَعِيف ، أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ وَالْحَاكِم وَفِي إِسْنَاده حَكِيم بْن جُبَيْر وَهُوَ ضَعِيف وَلَفْظه " مَا مِنْ مَوْلُود إِلَّا عَلَى قَلْبه الْوَسْوَاس فَإِذَا عَمِلَ فَذَكَرَ اللَّه خَنَسَ ، وَإِذَا غَفَلَ وَسْوَسَ " وَرَوَيْنَاهُ فِي الذِّكْر لِجَعْفَرِ بْن أَحْمَد بْن فَارِس مِنْ وَجْه آخَر عَنْ اِبْن عَبَّاس ، وَفِي إِسْنَاده مُحَمَّد بْن حُمَيْدٍ الرَّازِيّ وَفِيهِ مَقَال وَلَفْظه " يَحُطّ الشَّيْطَان فَاهُ عَلَى قَلْب اِبْن آدَم ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ ، وَإِذَا ذَكَرَ اللَّه خَنَسَ " وَأَخْرَجَهُ سَعِيد بْن مَنْصُور مِنْ وَجْه آخَر عَنْ اِبْن عَبَّاس وَلَفْظه " يُولَد الْإِنْسَان وَالشَّيْطَان جَاثِم عَلَى قَلْبه ، فَإِذَا عَقَلَ وَذَكَرَ اِسْم اللَّه خَنَسَ ، وَإِذَا غَفَلَ وَسْوَسَ " وَجَاثِم بِجِيمٍ وَمُثَلَّثَة ، وَعَقَلَ الْأُولَى بِمُهْمَلَةٍ وَقَاف وَالثَّانِيَة بِمُعْجَمَةٍ وَفَاء .

وَلِأَبِي يَعْلَى مِنْ حَدِيث أَنَس نَحْوه مَرْفُوعًا وَإِسْنَاده ضَعِيف ، وَلِسَعِيدِ بْن مَنْصُور مِنْ طَرِيق عُرْوَة بْن رُوَيْم قَالَ : سَأَلَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ أَنْ يُرِيه مَوْضِع الشَّيْطَان مِنْ اِبْن آدَم فَأَرَاهُ ، فَإِذَا رَأْسه مِثْل رَأْس الْحَيَّة ، وَاضِع رَأْسه عَلَى ثَمَرَة الْقَلْب ، فَإِذَا ذَكَرَ الْعَبْد رَبَّهُ خَنَسَ . وَإِذَا تَرَكَ مَنَّاهُ وَحَدَّثَهُ . قَالَ اِبْن التِّين يُنْظَر فِي قَوْله خَنَسَهُ الشَّيْطَان فَإِنَّ الْمَعْرُوف فِي اللُّغَة خَنَسَ إِذَا رَجَعَ وَانْقَبَضَ . وَقَالَ عِيَاض : كَذَا فِي جَمِيع الرِّوَايَات وَهُوَ تَصْحِيف وَتَغْيِير ، وَلَعَلَّهُ كَانَ فِيهِ نَخَسَهُ أَيْ بِنُونٍ

ثُمَّ خَاء مُعْجَمَة ثمَّ سِين مُهْمَلَة مَفْتُوحَات ، لِمَا جَاءَ فِي حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة - يَعْنِي الْمَاضِي فِي تَرْجَمَة عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَام - قَالَ : لَكِنْ اللَّفْظ الْمَرْوِيّ عَنْ اِبْن عَبَّاس لَيْسَ فِيهِ نَخَسَ ، فَلَعَلَّ الْبُخَارِيّ أَشَارَ إِلَى الْحَدِيثَيْنِ مَعًا ، كَذَا قَالَ وَادَّعَى فِيهِ التَّصْحِيف ، ثُمَّ فَرَّعَ عَلَى مَا ظَنَّهُ مِنْ أَنَّهُ نَخَسَ ، وَالتَّفْرِيع لَيْسَ بِصَحِيحٍ لِأَنَّهُ لَوْ أَشَارَ إِلَى حَدِيث أَبِي هُرَيْرَة لَمْ يَخُصّ الْحَدِيث بِابْنِ عَبَّاس ، وَلَعَلَّ الرِّوَايَة الَّتِي وَقَعَتْ لَهُ بِاللَّفْظِ الْمَذْكُور ، وَتَوْجِيهه ظَاهِر ، وَمَعْنَى يَخْنِسهُ يَقْبِضهُ أَيْ يَقْبِض عَلَيْهِ ، وَهُوَ بِمَعْنَى قَوْله فِي الرِّوَايَتَيْنِ اللَّتَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا عَنْ اِبْن فَارِس وَسَعِيد بْن مَنْصُور ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ اِبْن مَرْدَوَيْهِ مِنْ وَجْه آخَر عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ : الْوَسْوَاس هُوَ الشَّيْطَان ، يُولَد الْمَوْلُود وَالْوَسْوَاس عَلَى قَلْبه فَهُوَ يَصْرِفهُ حَيْثُ شَاءَ ، فَإِذَا ذَكَرَ اللَّه خَنَسَ وَإِذَا غَفَلَ جَثَمَ عَلَى قَلْبه فَوَسْوَسَ . وَقَالَ الصَّغَانِيّ : الْأَوْلَى خَنَسَهُ مَكَان يَخْنِسهُ قَالَ : فَإِنْ سَلِمَتْ اللَّفْظَة مِنْ التَّصْحِيف فَالْمَعْنَى أَخَّرَهُ وَأَزَالَهُ عَنْ مَكَانه لِشِدَّةِ نَخْسه وَطَعْنه بِإِصْبَعِهِ .

4595 - قَوْله : (حدَّثَنَا عَبْدَةُ بن أَبِي لُبَابَة عَنْ زِرّ بْن حُبَيْش ، وحَدَّثَنَا عَاصِم عَنْ زِرّ) الْقَائِل " وحَدَّثَنَا عَاصِم " هُوَ سُفْيَان ، وكَأَنَّهُ كَانَ يَجْمَعهُمَا تَارَة وَيُفْرِدهُمَا أُخْرَى وَقَدْ قَدَّمْت أَنَّ فِي رِوَايَة الْحُمَيْدِيّ التَّصْرِيح بِسَمَاعِ عَبْدَة وعَاصِم لَهُ مِنْ زِرّ .

قَوْله : (سَأَلْت أُبَيَّ بْن كَعْب قُلْت أَبَا الْمُنْذِر)

هِيَ كُنْيَة أُبَيّ بْن كَعْب ، وَلَهُ كُنْيَة أُخْرَى أَبُو الطُّفَيْل .

قَوْله : (يَقُول كَذَا وَكَذَا)

(127/840)

هَكَذَا وَقَعَ هَذَا اللَّفْظ مُبْهَمًا ، وَكَأَنَّ بَعْض الرُّوَاة أَبْهَمَهُ اِسْتِعْظَامًا لَهُ . وَأَظُنّ ذَلِكَ مِنْ سُفْيَان فَإِنَّ الْإِسْمَاعِيلِيّ أَخْرَجَهُ مِنْ طَرِيق عَبْد الْجَبَّار بْن الْعَلَاء عَنْ سُفْيَان كَذَلِكَ عَلَى الْإِبْهَام ، كُنْت أَظُنّ أَوَّلًا أَنَّ الَّذِي أَبْهَمَهُ الْبُخَارِيّ لِأَنَّنِي رَأَيْت التَّصْرِيح بِهِ فِي رِوَايَة أَحْمَد عَنْ سُفْيَان وَلَفْظه " قُلْت لِأَبِي إِنَّ أَخَاك يَحُكّهَا مِنْ الْمُصْحَف " وَكَذَا أَخْرَجَهُ الْحُمَيْدِيّ عَنْ سُفْيَان وَمِنْ طَرِيقه أَبُو نُعَيْم فِي " الْمُسْتَخْرَج " وَكَأَنَّ سُفْيَان كَانَ تَارَة يُصَرِّح بِذَلِكَ وَتَارَة يُبْهِمهُ . وَقَدْ أَخْرَجَهُ أَحْمَد أَيْضًا وَابْن حِبَّان مِنْ رِوَايَة حَمَّاد بْن سَلَمَة عَنْ عَاصِم بِلَفْظِ " إِنَّ عَبْد اللَّه بْن مَسْعُود كَانَ لَا يَكْتُب الْمُعَوِّذَتَيْنِ فِي مُصْحَفه " وَأَخْرَجَ أَحْمَد عَنْ أَبِي بَكْر

بْن عَيَّاش عَنْ عَاصِم بِلَفْظِ " إِنَّ عَبْد اللَّه يَقُول فِي الْمُعَوِّذَتَيْنِ " وَهَذَا أَيْضًا فِيهِ إِبْهَام ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ عَبْد اللَّه بْن أَحْمَد فِي زِيَادَات الْمُسْنَد وَالطَّبَرَانِيُّ وَابْن مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيق الْأَعْمَش عَنْ أَبِي إِسْحَاق عَنْ عَبْد الرَّحْمَن بْن يَزِيد النَّخَعِيّ قَالَ " كَانَ عَبْد اللَّه بْن مَسْعُود يَحُكّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ مِنْ مَصَاحِفه وَيَقُول إِنَّهُمَا لَيْسَتَا مِنْ كِتَاب اللَّه . قَالَ الْأَعْمَش : وَقَدْ حَدَّثَنَا عَاصِم عَنْ زِرّ عَنْ أُبَيّ بْن كَعْب فَذَكَرَ نَحْو حَدِيث قُتَيْبَة الَّذِي فِي الْبَاب الْمَاضِي ، وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْبَزَّار وَفِي آخِره يَقُول " إِنَّمَا أُمِرَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَتَعَوَّذ بِهِمَا " قَالَ الْبَزَّار . وَلَمْ

(128/840)

يُتَابِع اِبْن مَسْعُود عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَة . وَقَدْ صَحَّ عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَرَأَهُمَا فِي الصَّلَاة .

(129/840)

قلْت : هُوَ فِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر وَزَادَ فِيهِ اِبْن حِبَّان مِنْ وَجْه آخَر عَنْ عُقْبَة بْن عَامِر " فَإِنْ اِسْتَطَعْت أَنْ لَا تفوتك قِرَاءَتهمَا فِي صَلَاة فَافْعَلْ " وَأَخْرَجَ أَحْمَد مِنْ طَرِيق أَبِي الْعَلَاء بْن الشِّخِّير عَنْ رَجُل مِنْ الصَّحَابَة " أَنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَقْرَأَهُ الْمُعَوِّذَتَيْنِ وَقَالَ لَهُ : إِذَا أَنْتَ صَلَّيْت فَاقْرَأْ بِهِمَا " وَإِسْنَاده صَحِيح وَلِسَعِيدِ بْن مَنْصُور مِنْ حَدِيث مُعَاذ بْن جَبَل " أَنَّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى الصُّبْح فَقَرَأَ فِيهِمَا بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ " وَقَدْ تَأَوَّلَ الْقَاضِي أَبُو بَكْر الْبَاقِلَّانِيّ فِي كِتَاب " الِانْتِصَار " وَتَبِعَهُ عِيَاض وَغَيْره مَا حُكِيَ عَنْ اِبْن مَسْعُود فَقَالَ : لَمْ يُنْكِر اِبْن مَسْعُود كَوْنهمَا مِنْ الْقُرْآن وَإِنَّمَا أَنْكَرَ إِثْبَاتهمَا فِي الْمُصْحَف ، فَإِنَّهُ كَانَ يَرَى أَنْ لَا يَكْتُب فِي الْمُصْحَف شَيْئًا إِلَّا إِنْ كَانَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ فِي كِتَابَته فِيهِ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَبْلُغهُ الْإِذْن فِي ذَلِكَ ، قَالَ : فَهَذَا تَأْوِيل مِنْهُ وَلَيْسَ جَحْدًا لِكَوْنِهِمَا قُرْآنًا . وَهُوَ تَأْوِيل حَسَن إِلَّا أَنَّ الرِّوَايَة الصَّحِيحَة الصَّرِيحَة الَّتِي ذَكَرْتهَا تَدْفَع ذَلِكَ حَيْثُ جَاءَ فِيهَا : وَيَقُول إِنَّهُمَا لَيْسَتَا مِنْ كِتَاب اللَّه . نَعَمْ يُمْكِن حَمْل لَفْظ كِتَاب اللَّه عَلَى الْمُصْحَف فَيَتَمَشَّى التَّأْوِيل الْمَذْكُور . وَقَالَ غَيْر الْقَاضِي : لَمْ يَكُنْ اِخْتِلَاف اِبْن مَسْعُود مَعَ غَيْره فِي قُرْآنِيَّتهمَا ، وَإِنَّمَا كَانَ فِي صِفَة مِنْ صِفَاتهمَا اِنْتَهَى . وَغَايَة مَا فِي هَذَا أَنَّهُ

أَبْهَمَ مَا بَيَّنَهُ الْقَاضِي . وَمَنْ تَأَمَّلَ سِيَاقَ الطُّرُقِ الَّتِي أَوْرَدْتُهَا لِلْحَدِيثِ اسْتَبْعَدَ هَذَا الْجَمْعَ . وَأَمَّا قَوْلُ النَّوَوِيِّ فِي شَرْحِ الْمُهَذَّبِ : أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ الْمُعَوِّذَتَيْنِ وَالْفَاتِحَةَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَأَنَّ مَنْ جَحَدَ مِنْهُمَا شَيْئًا كَفَرَ ، وَمَا نُقِلَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ بَاطِلٌ لَيْسَ بِصَحِيحٍ ، فَفِيهِ نَظَرٌ ، وَقَدْ سَبَقَهُ لِنَحْوِ ذَلِكَ أَبُو مُحَمَّدِ بْنُ حَزْمٍ فَقَالَ فِي أَوَائِلِ " الْمُحَلَّى " : مَا نُقِلَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِنْ إِنْكَارِ قُرْآنِيَّةِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ فَهُوَ كَذِبٌ بَاطِلٌ . وَكَذَا قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فِي أَوَائِلِ تَفْسِيرِهِ : الْأَغْلَبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ هَذَا النَّقْلَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ كَذِبٌ بَاطِلٌ . وَالطَّعْنُ فِي الرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ بِغَيْرِ مُسْتَنَدٍ لَا يُقْبَلُ ، بَلِ الرِّوَايَةُ صَحِيحَةٌ وَالتَّأْوِيلُ مُحْتَمَلٌ ، وَالْإِجْمَاعُ الَّذِي نَقَلَهُ إِنْ أَرَادَ شُمُولَهُ لِكُلِّ عَصْرٍ فَهُوَ مَخْدُوشٌ ، وَإِنْ أَرَادَ اسْتِقْرَارَهُ فَهُوَ مَقْبُولٌ . وَقَدْ قَالَ ابْنُ الصَّبَّاغِ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَانِعِي الزَّكَاةِ : وَإِنَّمَا قَاتَلَهُمْ أَبُو بَكْرٍ عَلَى مَنْعِ الزَّكَاةِ وَلَمْ يَقُلْ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِذَلِكَ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَكْفُرُوا لِأَنَّ الْإِجْمَاعَ لَمْ يَكُنْ يَسْتَقِرَّ . قَالَ : وَنَحْنُ الْآنَ نُكَفِّرُ مَنْ جَحَدَهَا . قَالَ : وَكَذَلِكَ مَا نُقِلَ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي الْمُعَوِّذَتَيْنِ ، يَعْنِي أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَهُ الْقَطْعُ بِذَلِكَ ، ثُمَّ حَصَلَ الِاتِّفَاقُ بَعْدَ ذَلِكَ . وَقَدِ اسْتَشْكَلَ هَذَا الْمَوْضِعَ الْفَخْرُ الرَّازِيُّ فَقَالَ : إِنْ قُلْنَا إِنَّ كَوْنَهُمَا مِنَ الْقُرْآنِ كَانَ مُتَوَاتِرًا فِي عَصْرِ ابْنِ

مَسْعُود لَزِمَ تَكْفِير مَنْ أَنْكَرَهَا ، وَإِنْ قُلْنَا إِنَّ كَوْنهمَا مِنْ الْقُرْآن كَانَ لَمْ يَتَوَاتَر فِي عَصْر اِبْن مَسْعُود لَزِمَ أَنَّ بَعْض الْقُرْآن لَمْ يَتَوَاتَر . قَالَ : وَهَذِهِ عُقْدَة صَعْبَة . وَأُجِيبَ بِاحْتِمَالِ أَنَّهُ كَانَ مُتَوَاتِرًا فِي عَصْر اِبْن مَسْعُود لَكِنْ لَمْ يَتَوَاتَر عِنْد اِبْن مَسْعُود فَانْحَلَّتْ الْعُقْدَة بِعَوْنِ اللَّه تَعَالَى .

قَوْله : (سَأَلْت رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : قِيلَ لِي قُلْ ، فَقُلْت . قَالَ فَنَحْنُ نَقُول كَمَا قَالَ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

الْقَائِل فَنَحْنُ نَقُول إِلَخْ هُوَ أُبَيّ بْن كَعْب . وَوَقَعَ عِنْد الطَّبَرَانِيّ فِي الْأَوْسَط أَنَّ اِبْن مَسْعُود أَيْضًا قَالَ مِثْل ذَلِكَ ، لَكِنْ الْمَشْهُور أَنَّهُ مِنْ قَوْل أُبَيّ بْن كَعْب فَلَعَلَّهُ اِنْقَلَبَ عَلَى رَاوِيه . وَلَيْسَ فِي جَوَاب أُبَيٍّ تَصْرِيح بِالْمُرَادِ ، إِلَّا أَنَّ فِي الْإِجْمَاع عَلَى كَوْنهمَا مِنْ الْقُرْآن غُنْيَة عَنْ تَكَلُّف الْأَسَانِيد بِأَخْبَارِ الْآحَاد ، وَاَللَّه سُبْحَانه وَتَعَالَى أَعْلَم بِالصَّوَابِ .

(خَاتِمَة)

: اِشْتَمَل كِتَاب التَّفْسِير عَلَى خَمْسمِائَةِ حَدِيث وَثَمَانِيَة وَأَرْبَعِينَ حَدِيثًا مِنْ الْأَحَادِيث الْمَرْفُوعَة وَمَا فِي حُكْمهَا ، الْمَوْصُول مِنْ ذَلِكَ أَرْبَعمِائَةِ حَدِيث وَخَمْسَة وَسِتُّونَ حَدِيثًا وَالْبَقِيَّة مُعَلَّقَة وَمَا فِي مَعْنَاهُ ، الْمُكَرَّر مِنْ ذَلِكَ فِيهِ وَفِيمَا مَضَى أَرْبَعمِائَةِ وَثَمَانِيَة وَأَرْبَعُونَ حَدِيثًا ، وَالْخَالِص مِنْهَا مِائَة حَدِيث وَحَدِيث ، وَافَقَهُ مُسْلِم عَلَى تَخْرِيج بَعْضهَا وَلَمْ يُخَرِّج أَكْثَرهَا لِكَوْنِهَا لَيْسَتْ ظَاهِرَة فِي الرَّفْع ، وَالْكَثِير مِنْهَا مِنْ تَفَاسِير اِبْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّه تَعَالَى عَنْهُمَا وَهِيَ سِتَّة وَسِتُّونَ حَدِيثًا : حَدِيث أَبِي سَعِيد بْن الْمُعَلَّى فِي الْفَاتِحَة ، وَحَدِيث عُمَر " أُبَيّ أَقْرَؤُنَا " وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس "كَذَّبَنِي اِبْن آدَم " وَحَدِيث أَبِي هُرَيْرَة " لَا تُصَدِّقُوا أَهْل الْكِتَاب " وَحَدِيث أَنَس " لَمْ يَبْقَ مِمَّنْ صَلَّى الْقِبْلَتَيْنِ غَيْرِي " وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس "كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيل الْقِصَاص " وَحَدِيثه فِي تَفْسِير (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ) ، وَحَدِيث اِبْن عُمَر فِي ذَلِكَ ، وَحَدِيث الْبَرَاء " لَمَّا نَزَلَ رَمَضَان كَانُوا لَا يَقْرَبُونَ النِّسَاء " وَحَدِيث حُذَيْفَة فِي تَفْسِير (وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَة) ، وَحَدِيث اِبْن عُمَر فِي (نِسَاؤُكُمْ حَرْث لَكُمْ) ، وَحَدِيث مَعْقِل بْن يَسَار فِي نُزُول (وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ) ، وَحَدِيث عُثْمَان فِي نُزُول (وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا) ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي تَفْسِيرهَا ، وَحَدِيث اِبْن مَسْعُود فِي الْمُتَوَفَّى عَنْهَا زَوْجهَا ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس عَنْ عُمَر فِي

"أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ" وَحَدِيث اِبْن عُمَر فِي (وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ) ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي (حَسْبُنَا اللَّهُ) ، وَحَدِيث "كَانَ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابه يَعْفُونَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ" الْحَدِيث ، وَوَقَعَ فِي آخِر حَدِيث أُسَامَة بْن زَيْد فِي قِصَّة عَبْد اللَّه بْن أُبَيّ ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس "كَانَ الْمَال لِلْوَلَدِ" وَحَدِيثه "كَانَ إِذَا مَاتَ الرَّجُل كَانَ أَوْلِيَاؤُهُ أَحَقّ بِامْرَأَتِهِ" وَحَدِيثه فِي (وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ) وَحَدِيثه "كُنْت أَنَا وَأُمِّي مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ" ، وَحَدِيثه فِي نُزُول (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمْ الْمَلَائِكَة ظَالِمِي أَنْفُسهمْ) ، وَحَدِيثه فِي نُزُول (إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَر) ، وَحَدِيث اِبْن مَسْعُود فِي يُونُس بْن مَتَّى ، وَحَدِيث حُذَيْفَة فِي النِّفَاق ، وَحَدِيث عَائِشَة فِي لَغْو الْيَمِين ، وَحَدِيثهَا عَنْ أَبِيهَا فِي كَفَّارَة الْيَمِين . وَحَدِيث جَابِر فِي نُزُول (قُلْ هُوَ الْقَادِر) ، وَحَدِيث اِبْن عُمَر فِي الْأَشْرِبَة ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي نُزُول (لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ) ، وَحَدِيث الْحُرّ بْن قَيْس مَعَ عُمَر فِي قَوْله (خُذْ الْعَفْو) ، وَحَدِيث اِبْن الزُّبَيْر فِي تَفْسِيرهَا ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي تَفْسِير (الصُّمّ الْبُكْم) ، وَحَدِيثه فِي تَفْسِير (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ) وَحَدِيث حُذَيْفَة "مَا بَقِيَ مِنْ أَصْحَاب هَذِهِ الْآيَة إِلَّا ثَلَاثَة ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي قِصَّته مَعَ اِبْن الزُّبَيْر وَفِيهِ ذِكْر أَبِي بَكْر فِي الْغَار ، وَحَدِيثه فِي تَفْسِير (يَثْنُونَ صُدُورهمْ) ، وَحَدِيث اِبْن مَسْعُود فِي (هَيْت لَك) وَ (

بَلْ عَجِبْتَ) ، وَحَدِيث أَبِي هُرَيْرَة فِي صِفَة مُسْتَرِقِي السَّمْع ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي تَفْسِير (عِضِينَ) ، وَحَدِيث اِبْن مَسْعُود فِي " الْكَهْف وَمَرْيَم مِنْ تِلَادِي " ، وَحَدِيثه " كُنَّا نَقُول لِلْحَيِّ إِذَا كَثُرُوا " ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي تَفْسِير (وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا) ، وَحَدِيث سَعْد بْن أَبِي وَقَّاص فِي (الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا) ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي تَفْسِير (وَمِنْ النَّاس مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ) ، وَحَدِيث عَائِشَة فِي نُزُول (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ) ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي (لَرَادُّكَ إِلَى مَعَاد) ، وَحَدِيث أَبِي سَعِيد فِي الصَّلَاة عَلَى النَّبِيّ ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي جَوَاب " إِنِّي أَجِد فِي الْقُرْآن أَشْيَاء تَخْتَلِف عَلَيَّ " وَحَدِيث عَائِشَة فِي تَفْسِير (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفّ لَكُمَا) ، وَحَدِيث عَبْد اللَّه بْن مُغَفَّل فِي الْبَوْل فِي الْمُغْتَسَل ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي تَفْسِير (أَدْبَار السُّجُود) ، وَحَدِيثه فِي تَفْسِير (اللَّات) ، وَحَدِيث عَائِشَة فِي نُزُول (بَلْ السَّاعَة مَوْعِدهمْ) ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي تَفْسِير (وَلَا يَعْصِينَك فِي مَعْرُوف) ، وَحَدِيث أَنَس عَنْ زَيْد بْن أَرْقَم فِي فَضْل الْأَنْصَار ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي تَفْسِير (عُتُلّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيم) وَحَدِيثه فِي ذِكْر الْأَوْثَان الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْم نُوح ، وَحَدِيثه فِي تَفْسِير (تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ) ، وَحَدِيثه فِي تَفْسِير (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ)

، وَحَدِيثه فِي تَفْسِير (فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ) ، وَحَدِيث عَائِشَة فِي تَفْسِير ذِكْر الْكَوْثَر ، وَحَدِيث اِبْن عَبَّاس فِي تَفْسِيره بِالْخَيْرِ الْكَثِير

(135/840)

، وَحَدِيث أُبَيّ بْن كَعْب فِي الْمُعَوِّذَتَيْنِ . وَفِيهِ مِنْ الْآثَار عَنْ الصَّحَابَة فَمَنْ بَعْدهمْ خَمْسمِائَةِ وَثَمَانُونَ أَثَرًا تَقَدَّمَ بَعْضهَا فِي بَدْء الْخَلْق وَغَيْره ، وَهِيَ قَلِيلَة ، وَقَدْ بَيَّنْت كُلّ وَاحِد مِنْهَا فِي مَوْضِعهَا . وَلِلَّهِ الْحَمْد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح البارى حـ 8 صـ 744.741 ﴾

(136/840)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ ﴾

وقرىء في السورتين بحذف الهمزة ونقل حركتها إلى اللام كما قرىء ﴿ فخذ أربعة ﴾ [البقرة : 260] ﴿ بِرَبِّ الناس ﴾ أي مالك أمورهم ومربيهم بإفاضة ما يصلحهم ودفع

ما يضرهم وأمال الناس هنا أبو عمرو والدوري عن الكسائي وكذا في كل موضع وقع فيه مجروراً .

﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾

عطف بيان على ما اختاره الزمخشري جيء به لبيان أن تربيته تعالى إياهم ليست بطريق تربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من مماليكهم بل بطريق الملك الكامل والتصرف الكلي والسلطان القاهر وكذا قوله تعالى :

﴿ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴾

فإنه لبيان أن ملكه تعالى ليس بمجرد الاستيلاء عليهم والقيام بتدبير أمور سياستهم والتولي لترتيب مبادىء حفظهم وحمايتهم كما هو قصارى أمر الملوك بل هو بطريق المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي فيهم إحياء وإماتة وإيجاداً وإعداماً وجوزت البدلية أيضاً وأنت تعلم أنه لا مانع منه عقلاً ثم ما هنا وإن لم يكن جامداً فهو في حكمه ولعل الجزالة دعت إلى اختياره وتخصيص الإضافة إلى الناس مع انتظام جميع العالم في سلك ربوبيته تعالى وملكوته وألوهيته على ما في الإرشاد للإرشاد إلى منهاج الاستعاذة الحقيقة بالإعاذة فإن توسل العائذ بربه وانتسابه إليه بالمربوبية والمملوكية والعبودية في ضمن جنس هو فرد من أفراده من دواعي مزيد الرحمن والرأفة وأمره تعالى بذلك من دلائل الوعد الكريم بالإعاذة لا محالة ولأن المستعاذ منه شر الشيطان المعروف

بعداوتهم ففي التنصيص على انتظامهم في سلك عبوديته تعالى وملكوته رمز إلى انجائهم من ملكة الشيطان وتسلطه عليهم حسبما ينطبق به قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سلطان ﴾ [الإسراء : 65] واقتصر بعض الأجلة في بيان وجه التخصيص على كون الاستعاذة هنا من شر ما يخص النفوس البشرية وهي الوسوسة كما قال تعالى :

﴿ مِن شَرِّ الوسواس ﴾

(137/840)

وبحث فيه بعد الاغماض عما فيه من القصور في توفية المقام حقه بأن شر الموسوس كما يلحق النفوس يلحق الأبدان أيضاً وفيه شيء سنشير إن شاء الله تعالى إليه واختار هذا الباحث في ذلك أنه لما كانت الاستعاذة فيما سبق من شر كل شيء أضيف الرب إلى كل شيء أي بناء على عموم الفلق ولما كانت هنا من شر الوسواس لم يضف إلى كل شيء وكان النظر إلى السورة السابقة يقتضي الإضافة إلى الوسواس لكنه لم يضف إليه حطاً لدرجته عن إضافة الرب إليه بل إلى المستعيذ وكان في هذا الحط رمزاً إلى الوعد بالإعاذة وهو الذي يجعل لما ذكر حظاً في أداء حق المقام وربما يقال إن في إضافة الرب إلى الناس في آخر سورة من كتابه تذكير الأول أمر عرفوه في عالم الذر وأخذ عليهم العهد بالإقرار به فيما بعد

كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ [الأعراف : 172] الآية فيكون في ذلك تحريض على الاستعاذة من شر الوسواس لئلا يتدنس أمر ذلك العهد وفيه أيضاً رمز إلى الوعد الكريم بالإعاذة وذكر القاضي أن في النظم الجليل إشعاراً بمراتب الناظر المتوجه لمعرفة خالقه فإنه يعلم أولاً بما يرى عليه من النعم الظاهرة والباطنة أن له رباً ثم يتغلغل في النظر حتى يتحقق أنه سبحانه غني عن الكل وذات كل شيء له ومصارف أمره منه فهو الملك الحق ثم يستدل به على أنه المستحق للعبادة لا غير ويندرج في وجوه الاستعاذة المعتادة تنزيلاً لاختلاف الفات منزلة اختلاف الذت فإن عادة من ألف به هم أن يرفع أمره لسيده ومربيه كوالديه فإن لم يقدر على رفعه رفعه لملكه وسلطاه فإن لم يزل ظلامته شكاه إلى ملك الملوك ومن إليه المتشكي والمفزع وفي ذلك إشارة إلى عظم الآفة المستعاذ منها ولابن سينا ههنا كلام تتحرج منه الأقلام كما لا يخفى على من ألم به وكان له بالشريعة المطهرة أدنى إلمام وتكرير المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير والتشريف

بالإضافة وقيل لا تكرار فأنه يجوز أن يراد بالعام بعض أفراده فالناس الأول بمعنى الأجنة والأطفال المحتاجين للتربية والثاني الكهول والشبان لأنهم المحتاجون لمن يسوسهم والثالث الشيوخ المتعبدون المتوجهون لله تعالى وهو على ما فيه يبعده حديث إعادة الشيء معرفة وإن كان أغلبياً والوسواس عند الزمخشري اسم مصدر بمعنى الوسوسة والمصدر بالكسر وهو صوت الحلي والهمس الخفي ثم استعمل في الخطرة الردية وأريد به ههنا الشيطان سمي بفعله مبالغة كأنه نفس الوسوسة أو الكلام على حذف مضاف أي ذي الوسواس وقال بعض أئمة العربية أن فعلل ضربان صحيح كدحرج وثنائي مكرر كصلصل ولهما مصدران مطردان فعللة وفعلال بالكسر وهو أقيس والفتح شاذ لكنه كثر في المكرر كتمتام وفأفاء ويكون للمبالغة كفعال في الثلاثي كما قالوا وطواط للضعيف وثرثار للمكثر والحق أنه صفة فليحمل عليه ما في الآية الكريمة من غير حاجة إلى التجوز أو حذف المضاف وقد تقدم في سورة الزلزال ما يتعلق بها المبحث فتذكر فما في العهد من قدم والظاهر أن المراد الاستعاذة من شر الوسواس من حيث هو وسواس ومآله إلى الاستعاذة من شر وسوسته وقيل المراد الاستعاذة من جميع شروره ولذا قيل من شر الوسواس ولم يقل من شر وسوسة الوسواس قيل وعليه يكون القول بأن شره يلحق البدن كما يلحق النفس أظهر منه على الظاهر وعد من شره أنه كما في "صحيح البخاري" يعقد على قافية رأس العبد إذا هو نام ثلاث عقد مراده بذلك منعه من اليقظة وفي عد هذا من الشر البدني خفاء وبعضهم عد منه التخبط

إذا لحق عند أهل السنة أنه قد يكون من مسه كما تقدم في موضعه وقوله تعالى : ﴿ الخناس ﴾ صيغة مبالغة أو نسبة أي الذي عادته أن يخنس ويتأخر إذا ذكر الإنسان ربه عز وجل أخرج الضياء في "المختارة" والحاكم وصححه وابن المنذر وغيرهم عن ابن عباس قال ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس فإذا عقل فذكر الله تعالى خنس فإذا غفل وسوس وله على ما روى

(139/840)

عن قتادة خرطوم كخرطوم الكلب ويقال إن رأسه كرأس الحية وأخرج ابن شاهين عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " إن للوسواس خطماً كخطم الطائر فإذا غفل ابن آدم وضع ذلك المنقار في أذن القلب يوسوس فإن ذكر الله تعالى نكص وخنس فلذلك سمي الوسواس الخناس . "

﴿ الذى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴾

قيل أريد قلوبهم مجازاً وقال بعضهم إن الشيطان يدخل الصدر الذي هو بمنزلة الدهليز فيلقى منه ما يريد إلقاءه إلى القلب ويوصله إليه ولا مانع عقلاً من دخوله في جوف الإنسان وقد ورد السمع به كما سمعت فوجب قبوله والايمان به ومن ذلك أن الشيطان ليجري من

ابن آدم مجرى الدم ومن الناس من حمله على التمثيل وقال في الآية أنها لا تقتضي الدخول كما ينادي عليه البيان الآتي وقال ابن سينا الوسواس القوة التي توقع الوسوسة وهي القوة المتخيلة بحسب صيرورتها مستعملة للنفس الحيوانية ثم إن حركتها تكون بالعكس فإن النفس وجهتها إلى المبادي المفارقة فالقوة المتخيلة إذا أخذتها إلا الاشتغال بالمادة وعلائقها فتلك القوة تخنص أي تتحرك بالعكس وتجذب النفس الإنسانية إلى العكس فلذلك تسمى خناساً ونحوه ما قيل إنه القوة الوهمية فهي تساعد العقل في المقدمات فإذا آل الأمر إلى النتيجة خنست وأخذت توسوسه وتشككه ولا يخفى أن تفسير كلام الله تعالى بأمثال ذلك من شر الوسواس الخناس والقاضي ذكر الأخير عن سبيل التنظير لا على وجه التمثيل والتفسير بناء على حسن الظن به ومحل الموصول أما الجر على الوصف وأما الرفع والنصب على الذم والشتم ويحسن أن يقف القارىء على أحد هذين الوجهين على ﴿ الخناس ﴾ وأما على الأول ففي "الكواشي" أنه لا يجوز الوقف وتعقبه الطيبي بأن في عدم الجواز نظراً للفاصلة وفي الكشف أنه إذا كان صفة فالحسن غير مسلم اللهم إلا على وجه وهو أن الوقف الحسن شامل لمثله في فاصلة خاصة.

﴿ مِنَ الجنة والناس ﴾

بيان للذي يوسوس على أنه ضربان جني وأنسي كما قال تعالى : ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ [الأنعام : 112] أو متعلق ب"يوسوس" ومن لابتداء الغاية أي يوسوس في صدورهم من جهة الجن مثل أن يلقى في قلب المرء من جهتهم أنهم ينفعون ويضرون ومن جهة الناس مثل أنت يلقى في قلبه من جهة المنجمين والكهان أنهم يعلمون الغيب وجوز فيه الحالية من ضمير يوسوس والبدلية من قوله تعالى : ﴿ من شر ﴾ [الناس : 4] بإعادة الجار وتقدير المضاف والبدلية من الوسواس على أن من تبعيضية وقال الفراء وجماعة هو بيان للناس بناء على أنه يطلق على الجن أيضاً فيقال كما نقل عن الكلبي ناس من الجن كما يقال نفر ورجال منهم وفيه أن المعروف عند الناس خلافه مع ما في ذلك من شبه جعل قسم الشيء قسيماً له ومثله لا يناسب بلاغة القرآن وإن سلم صحته وتعقب أيضاً بأنه يلزم عليه القول بأن الشيطان يوسوس في صدور الجن كما يوسوس في صدور الإنس ولم يقم دليل عليه ولا يجوز جعل الآية دليلاً لما لا يخفى وأقرب منه على ما قيل أن يراد بالناس الناسي بالياء مثله في قراءة بعضهم ﴿ من حيث أفاض الناس ﴾ [البقرة : 199] بالكسر ويجعل سقوط الياء كسقوطها في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع ﴾ [القمر : 6] ثم يبين بالجنة والناس فإن كان كل فرد من أفراد الفريقين مبتلي بنسيان حق الله تعالى إلا من تداركه شوافع عصمته وتناوله واسع رحمته جعلنا الله ممن نال من عصمته الحظ الأوفى وكال له مولاه من

رحمته فأوفى ثم أنه قيل أن حروف هذه السورة غير المكرر اثنان وعشرون حرفاً وكذا حروف الفاتحة وذلك بعدد السنين التي أنزل فيها القرآن فليراجع وبعد أن يوجد الأمر كما ذكر لا يخفى أن كون سني النزول اثنتين وعشرين سنة قول لبعضهم والمشهور أنها ثلاث وعشرون اه ومثل هذا الرمز ما قيل إن أول حروفه الباء وآخرها السين فكأنه قيل بس أي حسب ففيه إشارة إلى أنه كاف عما سواه ورمز إلى قوله تعالى : ﴿ ما فرطنا في

الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام : 38] وقد نظم ذلك بعض الفرس فقال

: أول وآخر قرآن زجه با آمد وسين . . .

يعني اندرد وجهان رهبر ما قرآن بس

ومثله من الرموز كثير لكن قيل لا ينبغي أن يقال إنه مراد الله عز وجل نعم قد أرشد عز وجل في هذه السورة إلى الاستعانة به تعالى شأنه كما أرشد جل وعلا إليها في الفاتحة بل لا يبعد أن يكون مراده تعالى على القول بأن ترتيب السور بوحيه سبحانه من ختم كتابه الكريم بالاستعاذة به تعالى من شر الوسواس الإشارة كما في الفاتحة إلى جلالة شأن التقوى والرمز إلى أنها ملاك الأمر كله وبها يحصل حسن الخاتمة فسبحانه من ملك جليل ما أجل كلمته

ولله در التنزيل ما أحسن فاتحته وخاتمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 30 صـ

﴾

(142/840)

وقال الشوكانى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) ﴾

وقرأ الجمهور : ﴿ قُلْ أَعُوذُ ﴾ بالهمزة .

وقرئ بحذفها ، ونقل حركتها إلى اللام .

وقرأ الجمهور بترك الإمالة في الناس ، وقرأ الكسائي بالإمالة .

ومعنى ﴿ ربّ الناس ﴾ : مالك أمرهم ، ومصلح أحوالهم ، وإنما قال ﴿ ربّ الناس ﴾ مع أنه ربّ جميع مخلوقاته للدلالة على شرفهم ، ولكون الاستعاذة وقعت من شرّ ما يوسوس في صدورهم .

وقوله : ﴿ مَلِكِ الناس ﴾ عطف بيان جيء به لبيان أن ربيته سبحانه ليست كربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من مماليكهم ، بل بطريق الملك الكامل ، والسلطان القاهر .

﴿ إله الناس ﴾ هو أيضاً عطف بيان كالذي قبله لبيان أن ربوبيته ، وملكه قد انضمّ

إليهما المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي بالاتحاد والإعدام ، وأيضاً الربّ قد يكون ملكاً ، وقد لا يكون ملكاً ، كما يقال ربّ الدار ، وربّ المتاع ، ومنه قوله : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّه ﴾ [التوبة : 31] فبين أنه ملك الناس .

ثم الملك قد يكون إلها ، وقد لا يكون ، فبيّن أنه إله ؛ لأن اسم الإله خاصّ به لا يشاركه فيه أحد ، وأيضاً بدأ باسم الربّ ، وهو اسم لمن قام بتدبيره ، وإصلاحه من أوائل عمره إلى أن صار عاقلاً كاملاً ، فحينئذ عرف بالدليل أنه عبد مملوك ، فذكر أنه ملك الناس .

ثم لما علم أن العبادة لازمة له واجبة عليه ، وأنه عبد مخلوق ، وأن خالقه إله معبود بيّن سبحانه أنه إله الناس ، وكرّر لفظ الناس في الثلاثة المواضع ؛ لأن عطف البيان يحتاج إلى مزية الإظهار ؛ ولأن التكرير يقتضي مزيد شرف الناس .

﴿ مِن شَرِّ الوسواس ﴾ قال الفرّاء : هو : بفتح الواو بمعنى الاسم ، أي : الموسوس ، وبكسرها المصدر ، أي : الوسوسة كالزلزال بمعنى الزلزلة .

وقيل : هو بالفتح اسم بمعنى الوسوسة ، والوسوسة : هي حديث النفس ، يقال : وسوست إليه نفسه وسوسة ، أي : حدّثته حديثاً ، وأصلها الصوت الخفيّ .

ومنه قيل : لأصوات الحلي وسواس ، ومنه قول الأعشى :

تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت . . . قال الزجاج : الوسواس هو الشيطان ، أي : ذي الوسواس .

ويقال إن الوسواس ابن لإبليس ، وقد سبق تحقيق معنى الوسوسة في تفسير قوله : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ [الأعراف : 20] ومعنى ﴿ الخناس ﴾ : كثير الخنس ، وهو التأخر ، يقال خنس يخنس : إذا تأخر ، ومنه قول العلاء بن الحضرمي يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فإذا دخسوا بالشرّ فاعف تكرّما . . . وإن خنسوا عند الحديث فلا تسل

قال مجاهد : إذا ذكر الله خنس وانقبض .

وإذا لم يذكر انبسط على القلب .

ووصف بالخناس ؛ لأنه كثير الاختفاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بالخنس ﴾ [التكوير : 15] يعني : النجوم لاختفائها بعد ظهورها ، كما تقدّم .

وقيل : الخناس اسم لابن إبليس ، كما تقدّم في الوسواس .

﴿ الذى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ الناس ﴾ الموصول يجوز أن يكون في محل جرّ نعتاً للوسواس ،

ويجوز أن يكون منصوباً على الذم ، ويجوز أن يكون مرفوعاً على تقدير مبتدأ .

وقد تقدّم معنى الوسوسة .

قال قتادة : إن الشيطان له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان ، فإذا غفل ابن آدم عن ذكر الله وسوس له ، وإذا ذكر العبد ربه خنس .

قال مقاتل : إن الشيطان في صورة خنزير يجري من ابن آدم مجرى الدم في عروقه سلطه الله على ذلك ، ووسوسته هي الدعاء إلى طاعته بكلام خفيّ يصل إلى القلب من غير سماع صوت .

ثم بيّن سبحانه الذي يوسوس بأنه ضربان : جني ، وإنسي ، فقال : ﴿ مِنَ الجنة والناس ﴾ أما شيطان الجنّ ، فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس ، فوسوسته في صدور الناس أنه يرى نفسه كالناصح المشفق ، فيوقع في الصدر من كلامه الذي أخرجه مخرج النصيحة ما يوقع الشيطان فيه بوسوسته ، كما قال سبحانه : ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ [الأنعام : 112] ويجوز أن يكون متعلقاً ب ﴿ يوسوس ﴾ أي : يوسوس في صدورهم من جهة الجنة ، ومن جهة الناس ، ويجوز أن يكون بياناً للناس .

قال الرازي ، وقال قوم : من الجنة والناس قسمان مندرجان تحت قوله : ﴿ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴾ لأن القدر المشترك بين الجنّ والإنس يسمى إنساناً ، والإنسان أيضاً يسمى إنساناً ، فيكون لفظ الإنسان واقعاً على الجنس ، والنوع بالاشتراك .

والدليل على أن لفظ الإنسان يندرج فيه لفظ الإنس والجنّ ما روي أنه جاء نفر من الجنّ .

فقيل لهم : من أنتم ؟ قالوا : ناس من الجنّ .

وأيضاً قد سماهم الله رجالاً في قوله : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن : 6] .

وقيل : يجوز أن يكون المراد أعوذ بربّ الناس من الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس ، ومن الجنة والناس ، كأنه استعاذ ربّه من ذلك الشيطان الواحد ، ثم استعاذ بربّه من جميع الجنة ، والناس .

وقيل : المراد بالناس الناسي ، وسقطت الياء كسقوطها في قوله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾ [القمر : 6] ثم بيّن بالجنة والناس ؛ لأن كل فرد من أفراد الفريقين في الغالب مبتلى بالنسيان ، وأحسن من هذا أن يكون قوله : ﴿ والناس ﴾ معطوفاً على الوسواس ، أي : من شرّ الوسواس ، ومن شرّ الناس كأنه أمر أن يستعيذ من شرّ الجنّ والإنس .

قال الحسن : أما شيطان الجنّ ، فيوسوس في صدور الناس ، وأما شيطان الإنس ، فيأتي علانية .

وقال قتادة : إن من الجنّ شياطين ، وإن من الإنس شياطين ، فنعوذ بالله من شياطين الجنّ والإنس .

(145/840)

وقيل : إن إبليس يوسوس في صدور الجنّ ، كما يوسوس في صدور الإنس ، وواحد الجنة جنيّ كما أن واحد الإنس إنسيّ .

والقول الأوّل هو أرجح هذه الأقوال ، وإن كان وسوسة الإنس في صدور الناس لا تكون إلاّ بالمعنى الذي قدّمنا ، ويكون هذا البيان تذكر الثقلين للإرشاد إلى أن من استعاذ بالله منهما ارتفعت عنه محن الدنيا والآخرة .

وقد أخرج ابن أبي داود عن ابن عباس في قوله : ﴿ الوسواس الخناس ﴾ قال : مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب ، فيوسوس إليه ، فإن ذكر الله خنس ، وإن سكت عاد إليه فهو الوسواس الخنّاس .

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان ، وأبو يعلى ، وابن شاهين ، والبيهقي في الشعب عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس ، وإن نسيه التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخنّاس " وأخرج ابن أبي

شيبة ، وابن جرير ، وابن مردويه عن ابن عباس في قوله : ﴿ الوسواس الخناس ﴾ قال : الشيطان جاث على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، وإذا ذكر الله خنس .

وأخرج ابن أبي الدنيا ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والضياء في المختارة ، والبيهقي عنه قال : ما من مولود يولد إلاّ على قلبه الوسواس ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا غفل وسوس ، فذلك قوله : ﴿ الوسواس الخناس ﴾ .

وقد ورد في معنى هذا غيره ، وظاهره أن مطلق ذكر الله يطرد الشيطان ، وإن لم يكن على طريق الاستعاذة ، ولذكر الله سبحانه فوائد جليلة حاصلها الفوز بخيري الدنيا والآخرة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 5 صـ 522 . 524 ﴾

(146/840)

وقال صاحب روح البيان :

تفسير سورة الناس

ست آيات مدينة

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾

أي مالك أمورهم ومربيهم بإفاضة ما يصلحهم ودفع ما يضرهم .

قال القاشاني : رب الناس هو الذات مع جميع الصفات لأن الإنسان هو الكون الجامع الحاصر لجميع مراتبا لوجود فربه الذي أوجده وأفاض عليه كماله هو الذات باعتبار جميع لأسماء الجمالية والجلالية تعوذ بوجهه بعد ما تعوذ بصفاته ولهذا تأخرت هذه الصورة عن المعوذة الأولى إذ فيها تعوذ في مقام الصفات باسمه الهادي فهداه إلى ذاته وفي الحديث : "أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك" ابتدأ بالتعوذ بالرضى الذي هو من الصفات لقرب الصفات من الذات ثم استعاذ بالمعافاة التي هي من صفات الأفعال ثم لما ازداد يقيناً ترك الصفات فقال وأعوذ بك منك قاصراً نظره على الذات وابتدأ بعض العلماء في ذكر هذا الحديث بتقديم الاستعاذة بالمعافاة على التعوذ بالرضى للترقي من الأدنى الذي هو من صفات الأفعال إلى الأعلى الذي هو صفات الذات قال بعضهم : من بقى له التفات إلى غير الله استعاذ بأفعال الله وصفاته فأما من توغل في بحر التوحيد بحيث لا يرى في الوجود إلا الله لم يستعذ إلا بالله ولم يلتجىء إلا إلى الله والنبي عليه السلام ، لما ترقى عن هذا المقام وهو المقام الأول قال أعوذ بك منك .

يقول الفقير : ففي الالتجاء إلى الله في هذه السورة دلالة على ختم الأمر فإن الله تعالى هو الأول الآخر وإليه يرجع الأمر كله وإن إلى ربك المنتهى وفيه إشارة إلى نسيان العهد السابق الواقع يوم الميثاق فإن الإنسان لو لم ينسه لما احتاج إلى العود والرجوع بل كان في كنف الله تعالى دائماً ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ عطف بيان جيء به لبيان إن تربيته تعالى إياهم ليست بطريق تربية سائر الملاك لما تحت أيديهم من مماليكهم بل بطريق الملك الكامل والتصرف الشامل والسلطان القاهر فما ذكروه في ترجيح المالك على الملك من أن المالك مالك العبد وإنه مطق التصرف فيه بخلاف الملك فإنه إنما يملك بقهر وسياسة ومن بعض الوجوه فقياس لا يصح ولا يطرد إلا في المخلوقين لا في الحق فإنه من البين إنه مطلق التصرف وإنه يملك من جميع الوجوه فلا يقاس ملكية غيره عليه ولا تضاف النعوت والأسماء إليه إلا من حيث أكمل مفهوماته ومن وجوه ترجيح الملك على المالك إن الأحاديث النبوية مبينات لأسرار القرآن ومنبهات عليها وقد ورد في الحديث في بعض الأدعية النبوية

لك الحمد لا إله إلا أنت رب كل شيء ومليكه ولم يرد ومالكه وأيضاً فالأسماء المستقلة لها تقدم على الأسماء المضافة واسم الملك ورد مستقلاً بخلاف المالك ومما يؤيد ذلك إن

الأسماء المضافة لم تنقل في إحصاء الأسماء الثابتة بالقنل مثل قوله عز وجل فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا وذي المعارج وشبهها وأيضاً فإن الحق يقول في آخر الأمر عند ظهور غلبة الأحدية على الكثرة في القيامة الكبرى والقيامات الصغرى الحاصلة للسالكين عند التحقق بالموصول عقيب انتهاء السير وحال الانسلاخ لمن الملك اليوم لواحد القهار والحاكم على الملك هو الملك فدل إنه أرجح وقد جوزوا القراءة مالك وملك في سورة الفاتحة لا في هذه السورة حذراً من التكرار فإن أحد معاني الاسم الرب في اللسان المالك ولا ترد الفاتحة فإن الراجح فيها عند المحققين هو الملك لا المالك

﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ هو لبيان إن ملكه تعالى لسي بمجرد الاستيلاء عليهم والقيام بتدبير أمرو سياستهم والتولي لترتيب مبادي حفظهم وحمايتهم كما هو قصارى أمر الملوك بل هو بطريق المعبودية المؤسسة على الألوهية المقتضية للقدرة التامة على التصرف الكلي فيم إحياء وإماتة وإيجاداً وإعداماً وأيضاً إن ملك الناس إشارة إلى حال الفناء في الله كم أشرنا إليه وإله الناس لبيان حال البقاء بالله لأن الإله هو المعبود المطلق وذلك هو الذات مع جميع الصفات فلما فنى العبد في الله ظهر كونه ملكاً ثم رده الله إلى الوجود لمقام العبودية فتم استعاذته من شر الوسواس لأن الوسوسة تقتضي محلاً وجودياً ولا وجود في حال الفناء ولا صدر ولا وسوسة ولا موسوس بل إن ظهر هناك تلوين بوجود الأنانية يقول أعوذ بك منك فلما صار معبوداً بوجود العابد ظهر الشيطان بظهور العباد كما كان أولاً موجوداً بوجوده

وأيضاً مقام الربوبية المقيدة بالناس هو لحضرة الامام الذي على باب عالم الملكوت وفيها يشهد وهي موضع نظره فإنها ثلاث حضرات اختصت بثلاثة أسماء

(149/840)

نالها ثلاثة رجال وهي حضرة الرب والملك والإله فرجالها الأمامان والقطب والأمامان وزيرن للقطب صاحبا لوقت وينفرد القطب بالكشف الذتي المطلق كما ينفرد الامام الذي على يسار القطب بباب عالم الشهادة الذي لا سبيل للامام الثاني الذي يمينه إليه وإنما أضيف أمام الربوبية للناس وهو ما الملكوتيات لأنه لا بد له عند موت الإمام الثاني المسمى بالملك أن يرث مقامه بخلاف غير وفي "الإرشاد" تخصيص الإضافة بالناس مع انتظام جميع العالمين في سلك ربوبيته تعالى وملكوته وألوهيته لأن المستعاذ مكنه شر الشيطان المعروف بعدواتهم ففي التنصيص على انتظامهم في سلك عبوديته تعالى وملكوته رمز إلى إنجائهم من هلكة الشيطان وتسلطه عليهم حسبما ينطق به قوله تعالى إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وتكرير المضاف إليه لمزيد الكشف والتقرير بالإضافة فإن ما لا شرف فيه لا يعبأ به ولا يعاد ذكره بل يترك ويهمل وقد قال من قال :

أعد ذكر نعمان لنا إن ذكره

هو المسك ما كررته يتضوع

فلولا إن الناس أشرف مخلوقاته لما ختم كتابه بذكرهم

﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾

هو اسم بمنى الوسوسة وهو الصوت الخفي الذي لا يحس فيحترز منه كالزلزال بمعنى الزلزلة وما المصدر فالبكسر والفرق بين المصدر واسم المصدر هو أن الحدث أن اعتبر صدوره عن الفاعل ووقوعه على المفعول سمى مصدراً وإذا لم يعتبر بهذه الحيثية سمى اسم المصدر ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس ويؤكده عند من يليه إليه كرر لفظها بإزاء تكرير معناها والمراد بالوسواس الشيطان لأنه يدعو إلى المعصية بكلام خفي يفهمه القلب من غير أن يسمع صوته وذلك بالأغرار بسعة رحمة الله أو بتخييل أن له في عمره سعة وإن وقت التوبة باق بعد سمى بفعله مبالغة كأنه نفس الوسوسة لدوام وسوسته فقد أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس . . الخ .

(150/840)

ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه وإنما وصفه بأعظم فاته وأشدها شراً وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً وإنما استعاذ منه بالإله دون بعض أسمائه كما في السورة الأولى

لأن الشيطن هو الذي يقابل الرحمن ويستولى على الصورة الجمعية الإنسانية ويظهر في صور جميع الأسماء ويتمثل بها إلا بالله والرحمن فلم تكف الاستعاذة منه بالهادي والعليم والقدير وغير ذلك فلهذا لما تعوذ من الاحتجاب والضلالة تعوذ برب الفلق وههنا تعوذ برب الناس ومن هذا يفهم معنى قوله عليه السلام ، من رآني فقد رآني فإن الشيطان لا يتمثل بي وكذا لا يتمثل بصور الكمل من أمته لأنهم مظاهر الهداية المطلقة .

قال بعض الكبار : الإلقاء إما صحيح أو فاسد .

فالصحيح إلي رباني متعلق بالعلوم والمعارف أو ملكي روحاني وهو الباعث على الطاعة وعلى كل ما فيه صلاح ويسمى إلهاماً .

والفاسد نفساني وهو ما فيه حظ النفس ويسمى هاجساً أو شيطاني وهو ما يدعو إلى معصية ويسمى وسواساً وفي آكام المرجان وينحصر ما يدعو الشيطان إليه ابن آدم في ست مراتب المرتبة الأولى الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه وهذا أول ما يريده من العبد والمرتبة الثانية البدعة وهي أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها فتكون كالعدم والبدعة يظن صاحبها إنها

صحيحة فلا يتوب منها فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الثالثة وهي الكبائر على اختلاف أنواعها فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الرابع هي الصغائر التي إذا اجتمعت أهلكت صاحبها كالنار الموقدة من الحطب الصغار فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة الخامسة وهي اشتغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقبا بل عقابها فوات الثواب الذي فات عليه باشتغاله بها فإذا عجز عن ذلك انتقل إلى المرتبة السادسة وهي أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليفوته ثواب العمل الفاضل ومن الشياطين شيطان الوضوء ويقال له الولهان بفتحتين وهو شيطان يولع الناس بكثرة استعمال الماء قال عليه السلام ، تعوذوا بالله من وسوسة الوضوء ومنهم شيطان يقال له خنزب وهو الملبس على المصلي في صلاته وقراءته قال أبو عمر والبخاري رحمهما الله ، أصل الوسوسة ونتيجتها من عشرة أشياء أولها الحرص فقابله بالتوكيل والقناعة والثاني الأمل فأكسره بمفاجأة الأجل والثالث التمتع بشهوات الدنيا فقابله بزوال النعمة وطول الحساب والرابع الحسد

فاكسره برؤية العدل والخامس البلاء فأكسره برؤية المنة والعوافي والسادس الكبر فاكسره بالتواضع والسابع الاستخفاف بحرمة المؤمنين فاكسره بتعظيمهم واحترامهم والثامن حب

الدنيا والمحمدة فاكسره بالإخلاص والتاسع طلب العلو والرفعة فأكسره بالخشوع والذلة والعاشر المنع والبخل فاكسره بالجود والسخاء ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ أي عادته أن يخنس أي يتأخر إذا ذكر الإنسان ربه .

(153/840)

حكى .أن بعض الأولياء سأل الله تعالى إن يريه كيف يأتي الشيطان ويوسوس فأراه الحق تعالى هيكل الإنسان في صورة بلور وبين كتفيه خال أسود كالعش والوكر فجاء الخناس يتحسس من جميع جوانبه وهو في صورة خنزير له خرطوم كخرطوم الفيل فجاء بين الكتفين فادخل خروطمه قبل قلبه فوسوس إليه فذكر الله فخنس وراءه ولذلك سمي بالخناس لأنه ينكص على عقبيه مهما حصل نور الذكر في القلب ولهذا السر الإلهي كان عليه السلام ، يحتجم بين كتفيه ويأمر بذلك ووصاه جبرائيل بذلك لتضعيف مادة الشيطان وتضييق مرصده لأنه يجري وسوته مجرى الدم ولذلك كا خاتم النبوة بين كتفيه عليه السلام إشارة إلى عصمته من وسوسته لقوله أعانني الله عليه فأسلم أي بالختم الإلهي وشرح الصدر أيده وبالعصمة الكلية خصه فأسلم قربنه وما أسلم قرين آدم عليه السلام فوسوس إليه لذلك ويجوز أن يدخل الشيطان في الأجسام لأنه جسم لطيف وهو وإن كان مخلوقاً في الأصل من

نار لكنه ليس بمحرق لأنه لما امتزج النار بالهواء صار تركيبه مزاجاً مخصوصاً كتركيب الإنسان وفي الوسواس إشارة إلى الوسواس الحاصل من القوة الحسية والخيالية وفي الخناس إلى القوة الوهمية المتأخرة عن مرتبتي القوتين فإنها تساعد العقل في المقدمات فإذا آل الأمر إلى النتيجة خنست وتأخرت توسوسه وتكشكه كما يحكم الوهم بالخوف من الموتى مع إنه يوافق العقل في أن الميت جماد والجماد لا يخاف منه المنتج لقولنا الميت لا يخاف منه فإذا وصل العل والوهم إلى النتيجة نكص الوهم وأنكرها ﴿الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ﴾ إذا غفلوا عن ذكره تعالى ولذا قال في التأويلات النجمية: أي الناسي ذكر الله بالقلب والسر والروح.

كما قال تعالى: [القمر: 6] ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ بحذف الياء انتهى.

(154/840)

ومحل الموصول الجر على الوصف فلا وقف على الخناس أو النصب أو الرفع على الذم فيحسن الوقف عليه ذكر سبحانه وتعالى وسوسته أولاً ثم ذكر حلها وهو صدور الناس تأمل السر في قوله يوسوس في صدور الناس ولم يقل في قلوبهم والصدر هو ساحة القلب وبيته فمنه تدخل الواردات عليه فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب فهو بمنزلة الدهليز وهو

بالكسر ما يين الباب والدار ومن القلب تخرج الإرادات والأوامر إلى الصدر ثم تتفرق على الجنود فالشيطان يدخل ساحة القلب وبيته فيلقى ما يريد إلقاءه إلى القلب فهو يوسوس في الصدور ووسوسته واصلة إلى القلوب قال بعض أرباب الحقائق للقلب أمراء خمسة ملكية يسمون الحواس كحاسة البصر وحاسة السمع وحاسة الشم وحاسة الذوق وحاسة اللمس وأمراء خمسة ملكوتية يسمون أرواحاً كالروح الحيواني والروح الخيالي والروح الفكري والروح العقلي والروح القدسي فإذا نفذ الأمر الإلهي إلى أحد

(155/840)

هؤلاء الأمراء من القلب بادر لامتثال ما ورد عليه على حسب حقيقته وقس عليه الخواطر والوساوس فإن عزم الإنسان يخرج كلا منها إلى الخارج ويجريها من طرق الحواس والقوى وقوله في صدور الناس يدل على إنه لا يوسوس في صدور الجن قال في آكام المرجان لم يرد دليل لعى أن الجني يوسوس في صدور الجني ويدخل فيه كما يدخل في الأنسي ويجري مه مجراه من الأنسي

﴿ من الجنة والناس ﴾

﴿ الجنة ﴾ بالكسر جماعة الجن و ﴿ من ﴾ بيان للذي يوسوس على أنه ضربان جني وإنسي كما قال تعالى :

(156/840)

﴿ شَيَاطِينَ الإنسِ وَالْجِنِّ ﴾

والموسوس إليه نوع واحد وهو الإنس فما أر شيطان الجن قد يوسوس تارة وينسى أخرى فشيطان الإنس يكون كذلك وذلك لأنه يلقى الأباطيل ويرى نفسه في وصرة الناصح المشفق فإن زجره السامع يخنس ويترك الوسوسة وإن قبل السامع كلامه بالغ فيه قال في الأسئلة المقحمة من دعا غيره إلى الباطل فإن تصوره في قلبه كان ذلك وسوسة وقد قال تعالى : ونعلم ما توسوس به نفسه فإذا جاز أن توسوس نفسه جاز أن يوسوسه غيره فإن حقيقة الوسواس لا تختلف باختلاف الأشخاص ويجوز أن تكون من متعلقة بيوسوس فتكون لابتداء الغاية أي يوسوس في صدورهم من جهة الجن إنهم يعلمون الغيب ويضرون وينفعون ومن جهة الناس كالكهان والمنجمين كذلك وفي الجنة إشارة إلى القوى الباطنة المستجنة المستورة إذ سمى الجن بالجن لاستجنانه وفي الناس إلى القوى الظاهرة إذ الناس من الإيناس وهو الظهور كما قال آنست ناراً وفي هذا المقام لطيفة بالغة وهي إن المستعاذ به

في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهي إنه رب الفلق والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات وهي الغاسق والنفاثات والحاسد وإما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بثلاثة أوصاف وهي الرب والملك والإله والمستعاذ منه آفة واحدة وهي الوسوسة ومن المعلوم إن المطلوب كلما كان أهم والرغبة فيه أتم وأكثر كان ثناء الطالب قبل طلبه أكثر وأوفر والمطلوب في السورة المتقدمة هو سلامة البدن من الآفات المذكورة وفي هذه السورة سلامة الدين من وسوسة الشيطان فظهر بهذا إن في نظم السورتين الكريمتين تنبيهاً على إن سلامة الدين من وسوسة الشيطان وإن كانت أمراً واحداً إلا أنها أعظم مراد وأهم مطلوب وإن سلامة البدن من تلك الآفات وإن كانت أموراً متعددة ليست بتلك المثابة في الاهتمام وفي آكام المرجان سورة الناس مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها وهو الشر الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في

الدنيا والآخرة وسورة الفلق تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه وهو شر من خارج فالشر الأول لا يدخل تحت التكليف ولا يطلب منه الكف عنه لأنه ليس من كسبه والشر الثاني يدخل تحت التكليف ويتعلق به النهي وعن عائشة رضي الله

عنها ، قالت كان رسول الله إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه فنفث فيهما وقرأ قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبد بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يصنع ذلك ثلاث مرات وفي قوت القلوب للشيخ أبي طالب المكي قدس سره وليجعل العبد مفتاح درسه أن يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون وليقرأ قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد وليقل عند فراغه من كل سورة صدق الله تعالى وبلغ رسوله اللهم أنفعنا وبارك لنا فيه الحمد رب العالمين واستغفر الله الحي القيوم .

وفي أسئلة عبد الله بن سلام أخبرني يا محمد ما ابتداء القرآن وما ختمه قال بتداؤه بسم الله الرحمن الرحيم ، وختمه صدق الله العظيم قال صدقت وفي خريدة العجائب يعني ينبغي أن يقول القارىء ذلك عند الختم وإلا فختم القرآن سورة الناس وفي الابتداء بالباء والاختتام بالسين إشارة إلى لفظ بس .

يعني حسب أي حسبك من الكونين ما أعطيناك بين الحرفين كما قال الحكيم سناني رحمه الله .

يقول الفقير أيده الله القدير إن الله تعالى إنما بدأ القرآن ببسم الله وختمه بالناس إشارة إلى أن الإنسان آخر المراتب الكونية كما أن الكلام آخر المراتب الإلهية وذلك لأن ابتداء المراتب الكونية هو العقل الأول وانتهاؤها الإنسان ومجموعها عدد حروف التهجي وأول المراتب الإلهية هو الحياة وآخرها الكلام ولذا كان أول ما يظهر من المولود الحياة وهو جنين وآخر ما يظهر منه الكلام وهو موضوع لأن الله تعالى خلق آدم على صورته فكان أول الكلام القرآني اسم الله لأنه المبدأ الأول وآخره الناس لأن الإنس هو المظهر الآخر والمبتدىء يعرج تعلماً إلى أن ينتهى إلى المبدأ الأول واسمه العالي والمنتهي ينزل تلاوة إلى أن ينتهي إلى ذكر الأنس السافل وحقيقته أن الله تعالى هو المبدأ جلاء والمنتهى استجلاء وهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية .

(159/840)

(روى) عن ابن كثير رحمه الله ، إنه كان إذا انتهى في آخر الختمة إلى قل أعوذ برب الناس قرأ سورة الحمد رب العالمين وخمس آيات من أول سورة البقرة على عد الكوفي وهو إلى وأولئك هم المفلحون لأن هذا يسمى حال المرتحل ومعناه إنه حل في قراءته آخر الختمة وارتحل إلى ختمة أخرى إراماً للشيطان وصار العمل على هذا في إمصار المسلمين في قراءة ابن كثير

وغيرها وورد النص عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إن من قرأ سورة الناس يدعو عقب ذلك فلم يستحب أن يصل ختمه بقراءة شيء وروى عنه قول آخر بالاستحباب واستحسن مشايخ العراق قراءة سورة الإخلاص ثلاثاً عند ختم القرآن كان كمن شهد المغانم حين تقسم ومن شهد فاتحة القرآن كان كمن شهد فتحاً في سبيل الله تعالى وعن الامام البخاري رحمه الله إنه قال عند كل ختمة دعوة مستجابة وإذا ختم الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه ومن شك في غفرنه عند الختم فليس له غفران ونص الإمام أحمد على استحباب الدعاء عند الختم وكذا جماعة من السلف فيدعو بما أحب مستقبل القبلة رافعاً يديه خاضعاً موقناً بالإجابة ولا يتكلف السجع في الدعاء بل يجتنبه ويثنى على الله تعالى قبل الدعاء وبعده ويصلي على النبي عليه السلام يمسح وجهه بيديه بعد فراغه من الدعاء

وعنه عليه السلام أنه أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يدعو عند ختم القرآن بذا الدعاء وهو اللهم إني أسألك إخبات المخبتين وإخلاص الموقنين ومرافقة الأبرار واستحقاق حقائق الإيمان والغنيمة من كل بر والسلامة من كل إثم ووجوب رحمتك وعزائم

مغفرتك والفوز بالجنة والخلاص من النار وفي شرح الجزري لابن المصنف ينبغي أن يلح في الدعاء وإن يدعو بالأمور المهمة والكلمات الجامعة وأن يكون معظم ذلك أو كله في أمور الآخرة وأمور المسلمين وصلاح سلاطينهم وسائر ولاة أمورهم في توفيقهم للطاعات وعصمتهم من المخالفات وتعاونهم على البر والتقوى وقيامهم بالحق عليه وظهورهم على أعداء الدين وسائر المخافين وبما كان يقول النبي عليه السلام عند ختم القرآن اللهم ارحمني بالقرآن العظيم واجعله لي إماما ونورا وهدى ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله حجة لي يا رب العالمين وكان أبو القاسم الشاطبي رحمه الله يدعو بهذا الدعاء عند ختم القرآن الهم أنا عبيدك وأبناء عبيدك وأبناء أماتك ماض فينا حكمك عدل فينا قضاؤك نسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو نزلته في شيء من كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلوبنا شوفاء صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا وسائقنا وقائدنا إليك وإلى جناتك جنات النعيم وإدارك دار السلام مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين برحمتك يا أرحم الراحمين. انتهى انتهى. ا هـ

﴿روح البيان حـ 10 صـ 663. 670﴾

وقال القاسمى :

سورة الناس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾

أي : ألجأ إليه وأستعين به ، و ﴿ رَبِّ النَّاسِ ﴾ الذي يُربيهم بقدرته ومشيئته وتدبيره ، وهو رب العالمين كلِّهم والخالق للجميع

﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ أي : الذي ينفذ فيهم أمرُه وحكمه وقضاؤه ومشيئته دون غيره .

﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ أي : معبودهم الحق وملاذهم إذا ضاق بهم الأمر ، دون كل شيء سواه . والإله المعبود الذي هو المقصود بالإرادات والأعمال كلها .

﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ أي : الشيطان ذي الوسوسة . وقد زعم الزمخشري ومن تبعه ، أن الوسواس مصدر أريد به الموسوس أو بتقدير : ذي . وحقق غير واحد أنه صفة كالثرثار ، وأن فعلالاً مصدر : فعلل بالكسر ، والمفتوح شاذ ، وقد بسط الكلام في ذلك الإمام ابن القيم في " بدائع الفوائد "

﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ أي : الذي عادته أن يخنس – أي : يتأخر – إذا ذكر الْإِنْسَانُ ربّه ، لأنه لا يوسوس إلا مع الغفلة ، وكلّما تنبّه العبدُ فذكر اللّهَ خنس .

﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ أي : بالإلقاء الخفيّ في النفس ، إما بصوت خفيّ لا يسمعهُ إلا من ألقي إليه ، وإما بغير صوت .

قال ابن تيمية : و الوسوسة من جنس الوشوشة بالشين المعجمة ، يقال : فلان يوسوس فلاناً ، و قد وشوشته إذا حدثه سراً في أذنه ، وكذلك الوسوسة ، ومنه وسوسة الحليّ ، لكن هو بالسين المهملة ، أخص .

وقال الإمام : إنما جعل الوسوسة في الصدور ، على ما عهد في كلام العرب من أن الخواطر في القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، وكثيراً ما يقال : إن الشك يحوك في صدره ، وما الشك إلا في نفسه وعقله ، وأفاعيل العقل في المخ ، وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر أو انبساطه .

(162/840)

وقوله تعالى : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ بيان للذي يوسوس على أنه ضربان : ضرب من الجنَّة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ، وإنما نجد في أنفسنا أثراً ينسب إليهم ، وضرب من الإنس كالمضلّلين من أفراد الْإِنْسَانِ ، كما قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ

الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ [الأنعام : 112] ، وإيحاؤهم هو وسوستهم .

قال ابن تيمية : فإن قيل : فإن كان أصل الشر كلّه من الوسواس الخناس ، فلا حاجة إلى ذكر الاستعاذة من وسواس الناس ، فإنه تابع لوسواس الجن ؟ قيل : بل الوسوسة نوعان : نوع من الجن ، ونوع من نفوس الإنس . كما قال :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق : 16] ، فالشر من الجهتين جميعاً . والإنس لهم شياطين كما للجن شياطين .

وقال أيضاً : الذي يوسوس في صدور الناس نفسه لنفسه ، وشياطين الجن وشياطين الإنس ، فليس من شرط الموسوس أن يكون مستتراً عن البصر ، بل قد يشاهد .

لطائف :

الأولى : قال ابن تيمية : إنما خص الناس بالذكر ؛ لأنهم المستعيذون ، فيستعيذون بربهم الذي يصونهم ، وبملكهم الذي أمرهم ونهاهم وبإلههم الذي يعبدونه من شر الذي يحُلّ بينهم وبين عبادته ، ويستعيذون أيضاً من شر الوسواس الذي يحصل في نفوس منهم ومن الجِنَّة ؛ فإنه أصل الشر الذي يصدر منهم والذي يرد عليهم .

وقال الناصر : في التخصيص جرى على عادة الاستعطاف . فإنه معهُ أتّم .

الثانية : تكرر المضاف إليه وهو : الناس باللفظ الظاهر ؛ لمزيد الكشف والتقرير والتشريف بالإضافة ، فإن الإظهار أنسب بالإيضاح المسوق لهُ عطف البيان ، وأدل على شرف الْإِنْسَانْ . وقيل : لا تكرار لجواز أن يراد بالعام بعض أفرادهُ ؛ ف : الناس الأول بمعنى الأجنة والأطفال المحتاجين للتربية ، والثاني الكهول والشبان ، لأنهم المحتاجون لمن يسوسهم ، والثالث الشيوخ لأنهم المتعبدون المتوجهون لله .

قال الشهاب : وفيه تأمّل .

الثالثة : في تعداد الصفات العليا هنا إشارة إلى عِظَم المستعاذ منه ، وأن الآفة النفسانية أعظم من المضار البدنية ، حيث لم يكرر ذلك المستعاذ به في السورة قبلُ ، وكررهُ هنا إظهاراً للاهتمام في هذه دون تلك . نقله الشهاب .

الرابعة : قال ابن تيمية : الوسواس من جنس الحديث والكلام ؛ ولهذا قال المفسرون في قوله :

﴿ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ قالوا : ما تحدث به نفسه . وقد قال صلى الله عليه وسلم : < إن الله تجاوز لأمتي ما تحدّثِ به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به > ، وهو نوعان : خبر وإنشاء ، فالخبر إما عن ماض وإما عن مستقبل ، فالماضي يذكره والمستقبل يحدثه بأن يفعل هو أموراً ، أو أن أموراً ستكون بقدر الله أو فعل غيره ؛ فهذه الأمانيّ والمواعيد

الكاذبة ، والإنشاء أمر ونهي وإباحة .

الخامسة : قال ابن تيمية : الفرق بين الإلهام المحمود وبين الوسوسة المذمومة هو الكتاب والسنة ، فإن كان مما ألقى في النفس مما دل الكتاب والسنة على أنهُ تقوى لله ، فهو من الإلهام المحمود ، وإن كان مما دلّ على أنهُ فجور ، فهو من الوسواس المذموم ، وهذا الفرق مطرد لا ينقض .

وقد ذكر أبو حازم في الفرق بين وسوسة النفس والشيطان ، فقال : ما كرهتهُ نفسك لنفسك فهو من الشيطان ؛ فاستعِذ بالله منه ، وما أحبَّتهُ نفسك لنفسك فهو من نفسك فانهها عنهُ .

(164/840)

السادسة : قال الإمام الغزالي في " الإحياء " في بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كلِّ ركن وشرط من أعمال الصلاة ، ما مثاله : وإذا قلت :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فاعلم أنه عدوك ومرصد لصرف قلبك عن الله عز وجل ؛ حسداً لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له ، مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها ولم يوفَّق لها ، وإنَّ استعاذتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه ، بما يحب الله عز

وجل لا بمجرد قولك ؛ فإن من قصده سبُعٌ أو عدوٌّ ليفترسه أو ليقتله فقال :

أعوذ منك بهذا الحصن الحصين - وهو ثابت على مكانه ذلك - لا ينفعه ، بل لا يفيده إلا بتبديل المكان ، فكذلك من يتبع الشهوات التي هي محابُّ الشيطان ومكاره الرحمن ، فلا يغنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عز وجل عن شر الشيطان ، وحصنه : لا إله إلا الله إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم : < ولا إله إلا الله حصني ، فمن دخل حصني أمن من عذابي > . والمتحصن به من لا معبود له سوى الله سبحانه ، فأما من اتخذ إلهه هواه ، فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله عز وجل . انتهى .

وملخصه أن التعوذ ليس هو مجرد القول ، بل القول عبارة عما كان للمتعوذ من ابتعاده بالفعل عما يتعوذ منه ، فكان ترجمة لحالهم . وهذا المعنى كان يلوح لي من قبل أن أراه في كلام حجَّة الإسلام ، حتى رأيته فحمدت الله على الموافقة .

السابعة : قال الإمام الغزالي في " الإحياء " أيضاً ، في بيان تسلط الشيطان على القلب بالوسواس : ومعنى الوسوسة وسبب غلبتها ، ما مثاله :

اعلم أن القلب في مثال قبَة مضروبة لها أبواب تنصبُّ إليه الأحوالُ من كل باب ، ومثالُه أيضاً مثال هدف تنصبُّ إليه السهام من الجوانب . أو هو مثال مرآة منصوبة تجتاز عليها أصناف السور المختلفة فتتراءى فيها صورة بعد صورة ولا يخلو عنها . أو مثال حوض تصبُّ فيه مياه مختلفة من أنهار مفتوحة إليه . وإنما مداخل هذه الآثار المتجددة في القلب في كل حال ، إما من الظاهر فالحواس الخمس ، وإما من الباطن فالخيال والشهوة والغضب والأخلاق المركبة من مزاج الْإِنْسَانْ ، فإنه إذا أدرك بالحواس شيئًا حصل منه أثر في القلب ، وكذلك إذا هاجت الشهوة مثلاً بسبب كثرة الأكل وسبب قوة المزاج ، حصل منها في القلب أثر ، وإن كف عن الإحساس فالخيالات الحاصلة في النفس تبقى وينتقل الخيال من شيء إلى شيء ، وبحسب انتقال الخيال ينتقل القلب من حال إلى حال آخر .

والمقصود أن القلب في التغير والتأثر دائماً من هذه الأسباب ، وأخص الآثار الحاصلة في الخواطر ، وأعني الخواطر ما يحصل فيه من الأفكار والأذكار ، وأعني به إدراكاته علوماً ، إما على سبيل التجدد وإما على سبيل التذكر ؛ فإنها تسمى خواطر من حيث إنها تخطر بعد أن كان القلب غافلاً عنها .

والخواطر هي المحركات للإرادات ، فإن النية والعزم والإرادة إنما تكون بعد خطور المنوي بالبال لا محالة . فمبدأ الأفعال الخواطر . ثم الخاطر يحرك الرغبة ، والرغبة تحرك العزم ، والعزم يحرك النية ، والنية تحرك الأعضاء . والخواطر المحركة للرغبة تنقسم إلى ما يدعو للشر ، أعني إلى ما يضر في العاقبة ، وإلى ما يدعو إلى الخير ، أعني إلى ما ينفع في الدار الآخرة . فهما خاطران مختلفان . فافتقرا إلى اسمين مختلفين . فالخاطر المحمود يسمى إلهاماً والخاطر المذموم ، أعني الداعي إلى الشر ، يسمى وسواساً . ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم أن كل حادث فلابد له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دلّ ذلك على اختلاف الأسباب ، هذا ما عرف من سنة الله تعالى في ترتيب المسببات على الأسباب . فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم سقفه واسودّ بالدخان ، علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة ، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان : فسبب الخاطر الداعي إلى الخير يسمى ملكاً ، وسبب الخاطر الداعي إلى الشر يسمى شيطاناً . واللطف الذي يتهيأ به القلب لقبول إلهام الخير يسمى توفيقاً ، والذي به يتهيأ لقبول وسواس الشيطان يسمى إغواءً وخذلاناً . فإن المعاني المختلفة تفتقر إلى أسامٍ مختلفة ، والملك عبارة عن خلق خلقه الله تعالى ، شأنه إفاضة الخير وإفادة العلم وكشف الحق والوعد بالخير والأمر بالمعروف ، وقد خلقه وسخره لذلك . والشيطان عبارة عن خلق شأنهُ ضد ذلك ، وهو الوعد بالشر والأمر بالفحشاء والتخويف عند الهم بالخير

بالفقر ؛ فالوسوسة في مقابلة الإلهام . والشيطان في مقابلة الملك ، والتوفيق في مقابلة الخذلان .

(167/840)

ثم قال الغزالي : ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب إلا ذِكر سوى ما يوسوس به ؛ لأنه إذا خطر في القلب ذكر شيء انعدم منه ما كان من قبل . ولكن كل شيء سوى الله تعالى وسوى ما يتعلق به ، فيجوز أيضاً أن يكون مجالاً للشيطان . وذكر الله تعالى هو الذي يؤمن جانبه ويعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال ، ولا يعالج الشيء إلا بضده . وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرؤ عن الحَوْل والقوة ، وهو معنى قولك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وذلك لا يقدر عليه إلا المتَّقون الغالب عليهم ذِكْرُ الله تعالى ، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : 201] .

ثم قال : فالوسوسة هي هذه الخواطر ، والخواطر معلومة ؛ فإذن الوسواس معلوم بالمشاهدة ، وكل خاطر فله سبب ، ويفتقر إلى اسم يعرّفه ، فاسم سببهُ الشيطان ، ولا

يتصور أن ينفك عنه آدميّ ، وإنما يختلفون بعصيانه ومتابعته ؛ فقد اتضح بهذا النوع من الاستبصار معنى الوسوسة والإلهام ، والملك والشيطان والتوفيق والخذلان . انتهى .

انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل جـ 17 صـ 518 . 523 ﴾

(168/840)

وقال الشيخ المراغى :

سورة الناس

هى مكية ، وآياتها ست ، نزلت بعد سورة الفلق

[سورة الناس (114) : الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) ﴾

شرح المفردات

رب الناس : أي مربيهم ومنميهم ومراعى شؤونهم ، الوسواس : أي الموسوس الذي يلقى حديث السوء فى النفس ، والخناس : من الخنوس وهو الرجوع والاختفاء والجنة : واحدهم جنىّ ، كإنس وإنسى .

الإيضاح

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) أمر رسوله أن يستعين بمن يربى الناس بنعمه ، ويودبهم بنقمه .

(مَلِكِ النَّاسِ) أي مالكهم ومدبر أمورهم ، وواضع الشرائع والأحكام التي فيها سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

(إِلَهِ النَّاسِ) أي المستولى على قلوبهم بعظمته ، وهم لا يحيطون بكنه سلطانه بل يخضعون بما يحيط منها بنواحي قلوبهم ، ولا يدرون من أىّ جانب يأتيهم ، ولا كيف يسلط عليهم . وإنما قدم الربوبية ، لأنها من أوائل نعم اللّه على عباده ، ثم ثنى بذكر المالكية لأن العبد إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلا مفكرا ، ثم ثلّث بذكر الألوهية ، لأن المرء بعد أن يدرك ويعقل يعلم أنه هو المستوجب للخضوع والعزة والمستحق للعبادة وإنما قال : رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، وهو رب كل شىء ومالك كل شىء وإله كل شىء من قبل أن الناس هم الذين أخطئوا فى صفاته وضلوا فيها عن الطريق السوىّ ، فجعلوا لهم أربابا ينسبون إليهم بعض النعم ، ويلجئون إليهم فى دفع النقم ، ويلقبونهم بالشفعاء ، ويظنون أنهم هم الذين يدبرون حركاتهم ، ويرسمون لهم حدود أعمالهم .

وبحسبك أن تقرأ قوله تعالى : « اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لا إِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » وقوله : « وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْباباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ » .

والخلاصة - إنه سبحانه أراد أن ينبه الناس بأنه هو ربهم ، وهم أناس مفكرون ، وملكهم وهم كذلك ، وإلهم وهم هكذا ، فباطل ما اخترعوا لأنفسهم من حيث هم بشر .

(مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ) أي ألجأ إليك ربّ الخلق وإلههم ومعبودهم أن تنجينا من شر الشيطان الموسوس الكثير الخنوس والاختفاء ، لأنه يأتى من ناحية الباطل ، فلا يستطيع مقاومة الحق إذا صدمه ، ولكنه يذهب بالنفس إلى أسوإ مصير ، إذا انجرّت مع وسوسته ، وانساقت معه إلى تحقيق ما خطر بالبال .

وهذه الأحاديث النفسية إذا سلط عليها نظر العقل خفيت واضمحلت ، ولكن الموسوس عند إلقائها .

وحديث النفس بالفواحش وضروب الأذى للناس ، يذهب هباء إذا تنبهت النفس لأوامر الشرع ، وهكذا إذا وسوس لك امرؤ وبعثك على فعل السوء ثم كرّته بأوامر الدين يخنس ويمسك عن القول ، إلى أن تسنح له فرصة أخرى .

وقد وصف اللّه هذا الوسواس الخناس بقوله :

(الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) أي إن هذا الوسواس الخناس الذي يوسوس فى صدور البشر ، قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس ، كما جاء فى قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ » فشيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى ، وشيطان الإنس كذلك ، فكثيرا ما يريك أنه ناصح شفيق ، فإذا زجرته خنس وترك هذه الوسوسة ، وإذا أصغيت إلى كلامه استرسل واستمر فى حديثه وبالغ فيه ،

وقد ثبت عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : « إن اللّه عز وجل تجاوز لأمتى عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به » رواه أبو هريرة وخرّجه مسلم .

وإنما جعل الوسوسة فى الصدور من قبل أنه عهد فى كلام العرب أن الخواطر فى القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، ألا تراهم يقولون : إن الشك يحوك فى صدرك ، ويجيش فى صدرى كذا ، ويختلج ذلك بخاطري ، وما الشك إلا فى نفسه وعقله ، وأفاعيل العقل تكون فى المخ ، ويظهر لها أثر فى حركات الدم وضربات القلب ، وضيق الصدر وانبساطه .

قال الأستاذ الإمام : الموسوسون قسمان :

(1) قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ، وإنما نجد فى أنفسنا أثرا ينسب

إليهم ، ولكل واحد من الناس شيطان ، وهى قوة نازعة إلى الشر ، ويحدث منها فى نفسه خواطر السوء .

(2) قسم الناس ، ووسوستهم ما نشاهده ونراه بأعيننا ، ونسمعه بآذاننا .

وما أوردوه فى خرطوم الشيطان وخطمه ومنقاره وجثومه على الصدر أو على القلب ونحو ذلك فهو من قبيل التمثيل والتصوير ا ه ملخصا .

وقد بدئت السورة برب الناس ، ومن كان مربيهم فهو القادر على دفع إغواء الشيطان ووسوستهم .

(171/840)

وقد أرشد فى هذه السورة إلى الاستعانة به تعالى شأنه ، كما أرشد إليها فى الفاتحة للإشارة إلى أن ملاك الأمر كله هو التوجه إليه وحده ، والإخلاص له فى القول والعمل والالتجاء فيما لا قدرة لنا على دفعه .

اللهم اجعلنا من المخلصين فى أعمالنا ، وادفع عنا أذى شياطين الإنس والجن ، وأبعد عنا شر الموسوسين ، وقنا عذاب جهنم ، ولا تفضحنا يوم العرض .

وصل ربنا على محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الذين ذادوا عن دينك ، بقدر ما

غرست فى قلوبهم من برد اليقين ، وأثلجت صدورهم بمحبة هذا الدين . انتهى ا .

هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 30 صـ 272.269 ﴾

(172/840)

وقال المظهرى :

سورة النّاس

مدنيّة وهى ست آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يا محمد أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ خالقهم ومربيهم ومصلح أمورهم .

مَلِكِ النَّاسِ مالكهم ومدبر أمورهم .

إِلهِ النَّاسِ

معبودهم هما عطف بيان لرب الناس فان المربى قد يطلق على الوالد ورب الدار ويطلق على المالك وهو لا يكون ملكا ولا معبودا والملك قد يطلق على السلطان وهو لا يكون معبودا مستحقا للعبادة واللام فى الناس للعهد والمراد به النبي صلى اللّه عليه واله وسلم واتباعه وتخصيصهم بالذكر مع كونه تعالى ربا وملكا والها بكل شىء لاظهار شرفهم ولان

المقصود بانزال السورتين دفع شر السحر وغيره عن النبي صلى اللّه عليه وسلم وعن اتباعه
لأن من حق الرب والملك والا له حفظ المربوب والمملوك والعائذ عن الشر قال غوث الثقلين
أيدركني صنم وأنت ظهري أأظلم فى الدنيا وأنت نصيري فعار على حامى الحمى وهو
قادر إذا أضاع فى البيداء عقال بعيري والكفار وان كانوا مربوبين مملوكين لكن لعدم
اعترافهم به غير مستحقين للحماية ولدا قال رسول اللّه صلى اللّه عليه واله وسلم يوم
الأحزاب اللّه مولانا ولا مولا لكم وتكرير الناس بالإظهار من غير إضمار لأن عطف البيان
موضوع للبيان وفى الإظهار زيادة البيان وللاشعار بشرف النبي صلى اللّه عليه وسلم
واتباعه وقال البيضاوي ولما كانت الاستعاذة فى السورة المتقدمة من المضار البدنية وهى
تعم الإنسان وغيره والاستعاذة فى هذه السورة من الإضرار اللتي تعرض النفوس البشرية
وتخصها عمم الاضافة ثمه وخصصها بالناس هاهنا فكانه قال أعوذ من شر الموسوس إلى
الناس بربهم الذي يملك أمورهم ويستحق عبادتهم وقيل وجه التكرير لفظ الناس ان المراد
بالناس الأول الأطفال ومعنى الربوبية يدل عليه وبالثاني الشاب المجاهدين فى سبيل اللّه
ولفظ الملك المنبئ عن السياسة يدل عليه وبالثالث

الشيوخ المنقطعين إلى الله تعالى ولفظ الإله المنبئ عن العبادة يدل عليه وبالرابع الصالحون إذا الشيطان حريص على عداوتهم وبالخامس المفسدون لعطفه على معوذ منه وفى ذكر أطفال المؤمنين والرجال الصالحين استجلاب للرحمة واستدفاع للعذاب قال رسول رسول اللّه صلى الله عليه واله وسلم لولا رجال ركع وأطفال وضع وبهائم رتع نصب عليكم صبا رواه أبو يعلى والبزار والبيهقي من حديث أبى هريرة وله شاهد مرسل أخرجه أبو نعيم عن الزهري وقال اللّه تعالى لولا رجال مومنون ونساء مومنات لم تعلموهم الآية قال البيضاوي فى هذا النظم دلالة على انه تعالى حقيق بالاعادة قادر عليها غير ممنوع عنها واشعار على مراتب الناظر فى العارف فانه يعلم اولا بما يرى عليه من النعم الظاهرة والباطنة ان لم ربا ثم بعد النظر يتحقق انه غنى عن الكل ذوات كل شى ملكه ومصارف أمورهم منه فهو الملك الحق ثم يستدل على انه هو المستحق للعبادة .

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الوسواس اسم بمعنى الوسوسة وهو الصوت الخفي الذي يصل مفهومه إلى القلب من غير سماع كالزلزال والمراد هاهنا الموسوس يعنى الشيطان على طريقه المبالغة أو بتقدير المضاف أى ذى الوسواس كذا قال الزجاج الْخَنَّاسِ صفة للوسواس يعنى الشيطان لأن عادته ان يخنس أى يتاخر عند ذكر اللّه تعالى عن عبد الله بن شقيق قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ما من آدمي الا بقلبه بيتان فى أحدهما الملك وفى الاخر الشيطان فإذا ذكر اللّه خنس وإذا لم يذكر اللّه وضع الشيطان منقاره فى قلبه ووسوس له

رواه أبو يعلى وروى أبو يعلى عن أنس عنه صلى اللّٰه تعالى عليه واله وسلم نحوه .

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ إذا لم يذكر اللّٰه والموصول فى محل الجر على انه صفة بعد صفة للوسواس وجاز ان يكون منصوبا على الذم أو مرفوعا على انه خبر لمبتداء محذوف أى هو .

(174/840)

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ

بيان للوسواس أو الذي فالوسوسة فعل من الجنة والناس جميعا قال اللّٰه تعالى وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن الآية امر اللّٰه تعالى نبيه صلى اللّٰه عليه واله وسلم ان يستعيذ من شر الجن والانس جميعا فان قيل الناس لا يوسوسون فى صدور الناس انما هى فعل بالجن قلنا الناس أيضا يوسوسون بمعنى يليق بهم

(175/840)

يقولون أقوالا يرتكز فى صدور الناس منها الوسوسة أو هو متعلق بيوسوس أى يوسوس فى صدورهم من جهة الجنة والناس وقال الكلبي هو بيان للناس من قوله فى صدور الناس وأراد بالناس هناك ما يعم القبيلتين سمى الجن ناسا كما سموا رجالا فى قوله تعالى وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن قال البغوي فقد ذكر من بعض العرب انه قال وهو يحدث جاء قوم من الجن فوقفوا ففيل من أنتم فقالوا أناس من الجن وهذا معنى قول الفراء وجاز ان يكون من الجنة بيانا للوسواس ويكون الناس هاهنا معطوفا على الوسواس والمعنى أعوذ برب الناس من شر الشيطان الموسوس من الجنة ومن شر الناس عن عقبة بن عامر قال قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الم تر آيات أنزلت الليلة لم تر مثلهن قط قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس رواه مسلم ورواه أحمد بلفظ قال رسول اللّه صلى اللّه عليه واله وسلم الا أعلمك سورا ما انزل فى التورية ولا فى الزبور ولا فى الإنجيل ولا فى القرآن بمثلها قلت بلى قال قل هو اللّه أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس وعن عائشة ان النبي صلى اللّه عليه واله وسلم قال إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو اللّه أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على راسه ووجهه وما اقبل من جسده يفعل ذلك ثلث مرات متفق عليه وعن عقبة بن عامر بينا انا أسير مع رسول اللّه صلى اللّه عليه واله وسلم بين الجحفة والأبواء إذ غشينا ريح وظلمة شديده فجعل رسول اللّه صلى اللّه عليه واله

وسلم يتعوذ بأعوذ برب الفلق وأعوذ برب الناس ويقول يا عقبة تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما رواه أبو داود وعن عبد اللّه بن حبيب قال خرجنا فى ليلة مطيرة وظلمة شديدة نطلب رسول اللّه صلى اللّه عليه واله وسلم ما دركناه فقال قل قلت ما أقول قال قل هو اللّه أحد

(176/840)

والمعوذتين حين تصبح وحين تمسى ثلث مرات يكفيك من كل شىء رواه الترمذي وأبو داود والنسائي وعن عائشة ان النبي صلى اللّه عليه واله وسلم قال إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث فلما اشتد
وجعه كنت أقرأ عليه وامسح عنه بيده رجاء بركتها رواه البغوي . انتهى انتهى . ا هـ
﴿ تفسير المظهرى حـ 10 صـ 379.382 ﴾

(177/840)

وقال الشيخ : دروزة :

سورة الناس

في السورة تعليم بالاستعاذة من وسوسة الموسوسين وشرهم إنسا كانوا أم جنا . وبعض الروايات تذكر أنها مكية وبعضها تذكر أنها مختلف في مكيتها ومدنيتها ومعظم روايات ترتيب النزول تسلكها في سلك السور المكية المبكرة في النزول . وأسلوبها يسوغ ترجيح مكيتها وتبكير نزولها . ولقد أوردنا الأحاديث النبوية التي تذكر تعوذ النبي صلّى اللّه عليه وسلّم بهذه السور وأمره بذلك ونوهنا بما في ذلك من حكمة في مطلع تفسير السورة السابقة فنكتفي بهذه الإشارة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الناس (114) : الآيات 1 الى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6) .

(1) الوسوسة : الإيحاء والتلقين والإغراء والإغواء والصوت الخفي الهامس .

(2) الخناس : الذي يأتي ويعود ويختفي ويتربص .

(3) الجنة : مرادفة لكلمة الجن ومعناها في الأصل الخفي المستتر غير الظاهر .

في آيات السورة أمر رباني موجه للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم بالاستعاذة باللّه من وسوسة الإنس والجن وإغرائهم وإغوائهم .

وهي مثل سابقتها في معرض تعليم المسلمين الاستعاذة باللّه وحده ونبذ ما

(178/840)

سواه من كل وسوسة ظاهرة وخفية من جن وإنس .

والمتبادر أن المقصود من وسوسة الإنس هو ما يحاوله ويقوم به ذوو الأخلاق السيئة والسرائر الفاسدة من إغراء وإغواء وإيحاء وتلقين بالشرور والمنكرات والبغي وإقامة العثرات في سبيل الخير والصلاح والحق والبر .

أما وسوسة الجنة فالمقصود منها كما هو المتبادر أيضا وسوسة تلك العناصر الخفية التي توسوس في صدور الناس وتغريهم بالشر والفساد والمنكرات والبغي والكفر وعبادة غير اللّه وجحود نعمته . وتزينه لهم وتمنعهم عن الإيمان والخير والمعروف والبر ، والتي سماها القرآن بأسماء إبليس وجنوده وذريته وقبيله والشيطان والشياطين ، مما هو مستفيض في فصول القرآن المكية والمدنية استفاضة تغني عن التمثيل .

وروح الآيات تلهم أن السامعين يعرفون ما يفعله الوسواس الخناس من الجنة والناس .

وقد تضمنت السورة أهدافا جليلة وتلقينات بليغة. فالوساوس سواء أكانت تلك التي تأتي من أعماق النفس وعناصر الشر الخفية أم تلك التي تأتي عن طريق وألسنة الشر وأعوان السوء من البشر من شأنها أن تثير مختلف الهواجس ونوازع الشر والإثم، وتسبب نتائج خطيرة في علاقات الناس ببعضهم، وتزلزل فكرة الخير والمعروف والثقة والتضامن والسكينة والطمأنينة فيهم. فالأمر بالاستعاذة بالله منها ومن شر مسببيها يتضمن التحذير والتنبيه والتنديد من جهة، والدعوة إلى الازورار عن الموسوسين ونبذهم من جهة، وتلقين تغليب نوازع الخير وإقامة الناس علاقاتهم فيما بينهم على أساس الروح الطيبة والنية الحسنة وحسن الظن والتواثق من جهة، وعدم الاستسلام لسوء الظن الذي تثيره الوساوس وعدم الإصغاء إلى كل كلمة يقولها المرجفون والدساسون وكل خبر يذيعونه وعدم الاندماج فيما ينصبونه من مكايد ويحيكونه من مؤامرات من جهة.

وبعض الروايات تذكر أنها نزلت مع سورة الفلق في مناسبة حادث سحر

النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في المدينة. وقد علقنا على هذا الحادث في سياق السورة السابقة. ولا تبدو صلة ظاهرة بين هذه السورة وبين الحادث المذكور. بل إن روايات نزول

السورتين متتابعتين وفي ظرف واحد تبعد السورتين معا عن ذلك الحادث. ومعظم روايات ترتيب السور تسلك هذه السورة كما تسلك السورة السابقة في سلك السور المكية المبكرة في النزول. وروح السورة وأسلوبها يجعلان النفس مطمئنة إلى ذلك ولا سيما أن مضمونها عام شامل، وفيها صورة لما كان يجري بين الكفار إزاء الدعوة النبوية حيث كان زعماؤهم يبثون الدعاية والوساوس ضدها ويكيدون لها ويتآمرون عليها ليلا ونهارا على ما حكته آيات قرآنية مكية عديدة أوردنا أمثلة منها في المناسبات السابقة. هذا إلى ما ذكرته آيات كثيرة مكية ومدنية من وساوس الشيطان وإبليس اللذين عنتهما كلمة «الجنة» في السورة على الأرجح ونزغاتهما وإغراءاتهما للكفار وتزيينهما لهم مواقف الجحود والعناد والبغي مثل ما جاء في آية سورة فصلت هذه: وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (36) وآية سورة ص هذه: قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (82) إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (83) «1».

وآية سورة فاطر هذه: إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (6) ومثل آية سورة العنكبوت هذه: وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (38) وآيات سورة المؤمنون هذه: وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98). وآية سورة الكهف هذه:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (50) .

---

(1) الآيتان من سلسلة قصة آدم وإبليس .

(180/840)

تعليق على موضوع الجن

وبمناسبة ورود كلمة الْجَنَّةِ لأول مرة نقول : إن هذه الكلمة وبعض متشابهاتها وتفرعاتها اللفظية مثل جن وجنين تنطوي على معنى الاستتار والخفاء في اللغة العربية . وهذا يسوغ القول إن معنى الخفي والمستور وغير المرئي بالنسبة إلى الجن والجنة مما كان مستقرا ومفهوما في أذهان العرب قبل الإسلام . ولعل مما يصح قوله أن إطلاق التسمية مقتبس من المعنى اللغوي الذي يمكن أن تكون صيغته الفصحى متطورة عن جذر قديم أطلق على العناصر الخفية الشريرة التي كان الاعتقاد بوجودها طورا بشريا عاما مشتركا بين الأمم منذ أقدم الأزمنة ومن جملتهم العرب قبل الإسلام في مختلف أطوارهم كما هو الشأن إزاء العناصر الخفية الخيرة . ولقد كان لأهل الكتاب الذين كان العرب يتصلون بهم في جزيرتهم وخارجها عقائد متطورة فيهم فمن المحتمل كثيرا أن يكون ذلك قد تسرب إلى العرب فأدخل تطورا ما

على عقائدهم فيهم أيضا .

ولقد احتوى القرآن آيات كثيرة حول الجن وماهيتهم أولا وحول عقائد العرب فيهم ثانيا .

ومجمل ما جاء عن ماهيتهم أنهم مخلوقات نارية على ما تفيده آية سورة الحجر هذه :

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (27) وآية سورة الرحمن هذه :

وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) وأنهم طوائف وطبقات على ما تفيده آية سورة الجن هذه التي تحكي أقوالهم : وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (11) ، وأن منهم طبقة إبليس وذريته الذين يوسوسون للناس ويزينون لهم الشر والإثم والتمرد على اللّه على ما تفيده آيات سورتي ص والكهف التي أوردناها قبل قليل ، وأن منهم من ينزل على الناس ويلقون إليهم ببعض الأقوال والأخبار والأفكار على ما تفيده آيات سورة الشعراء هذه : هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلى مَنْ تَنَزَّلُ

الشَّياطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كاذِبُونَ (223)

وأن منهم من كان يصعد إلى السماء ويحاول استراق السمع على ما تفيده آيات سورة الجن

هذه : وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (8) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا (9) وأن منهم من كان تحت تسخير سليمان عليه السلام يعملون له ما يشاء ويقومون بأعمال أضخم من أعمال البشر على ما تفيده آيات سورة سبأ هذه : وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (12) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ [13] وآيات سورة ص هذه : فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (36) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (37) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (38) وأن منهم من سمع القرآن من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم وآمنوا به وذهبوا إلى قومهم مبشرين ومنذرين به كما تفيده آيات سورة الجن هذه : قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (2) وآيتا سورة الأحقاف هذه :

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (30) وأنهم صائرون إلى ما هو صائر إليه الإنس من الحياة الأخروية ومنازلها جنة ونارا وكرامة وهوانا وفق أعمالهم كما تفيده آية سورة

الأعراف هذه : وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ (179) وآية سورة الأحقاف هذه : يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ (31) وأنهم إلى ذلك كله عناصر خفية لا يمكن رؤيتها ولا الشعور بماديتها عادة على ما تفيده آية سورة الأعراف هذه : يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما

لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (27)

«1».

أما مجمل ما جاء في القرآن عن عقائد العرب في الجن فهو أنهم كانوا يعتقدون أن بينهم وبين اللّه نسبا وصهرا على ما تفيده آية سورة الصافات هذه :

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (158) وأنهم كانوا يتجهون إليهم ويشركونهم مع اللّه في العبادة والدعاء على ما تفيده آية سورة سبأ هذه :

قالوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (41) وآية سورة الأنعام هذه: وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ [100] وأنهم كانوا يرونهم مصدر خوف وشر ويعوذون بهم اتقاء شرهم على ما تفيده آية سورة الجن هذه: وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً (6) ولعل بشراكهم إياهم مع اللّه وعبادتهم لهم جاءت من هذا الخوف ومن الاعتقاد بقدرتهم على الأذى والضرر. وأنهم كانوا يخالطون الناس في عقولهم فيكون من ذلك الجنون وأعراضه على ما تفيده آية سورة المؤمنون هذه: أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (70) وأنهم ينزلون على بعض الناس ويوحون إليهم ويوسوسون في صدور الناس على ما تفيده آية سورة التكوير هذه: وَما هُوَ بِقَوْلِ شَيْطانٍ رَجِيمٍ (25) وآية سورة الشعراء هذه: وَما تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّياطِينُ (210) وآية سورة الأعراف هذه: إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (30).

فالصورة القرآنية عن الجن سواء أكانت بما جاء عن ماهيتهم وأعمالهم أم حكاية عن عقائد العرب فيهم هي صورة مخلوقات خفية غير مرئية ولا محسوسة

---

(1) وفي آيات سورتي الأحقاف والجن التي أوردناها قبل وذكرت خبر استماع نفر من الجن للقرآن من النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قرينة على ذلك حيث تفيد أنهم رأوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم واستمعوا له دون أن يراهم.

وهناك حديث عن ابن عباس جاء فيه إن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم ما قرأ على الجن ولا رآهم وإنما أوحي إليه قولهم. (التاج 4 ص 246 وتفسير ابن كثير لآيات سورة الأحقاف [29 - 30].

(183/840)

المادة عادة، فائقة القدرة متسلطة على البشر تثير فيهم الخوف والفزع، وتؤثر في أفكارهم وتوجههم توجيها ضارّا فاسدا باستثناء بعضهم الذين كانوا يؤمنون باللّه ويخشونه.

وهذه الصورة تتفق في بعض الخطوط مع الصورة القرآنية للملائكة وتختلف عنها في بعض، فهم سواء في الخفاء وعدم المادية والقدرة الفائقة. مفترقون من حيث كون الجن ناريين ومبعث خوف وقلق ومصدر شر وأذى، ومن حيث كون غالبيتهم موضع سخط اللّه ونقمته لشرورهم وتمردهم على اللّه، ومن حيث كون اتصالهم وتعاونهم مع ذوي النيات السيئة والأفكار الخبيثة والأخلاق المنحرفة، في حين أن الملائكة مبعث طمأنينة وسكينة ومصدر أمن وخير وعون ورجاء ومختصون من اللّه مكرمون لديه، يقومون بخدمته ويسبحون باسمه ويخضعون لأمره ويخشونه، وفي حين أن اتصالهم مع الأنبياء والرسل الذين لهم الكرامة عند اللّه.

وكما قلنا بالنسبة للملائكة نقول بالنسبة للجن إن وجودهم في نطاق قدرة اللّه وإن لم تدرك عقول الناس مداه. وإن التصديق به واجب إيماني غيبي لأن نصوص القرآن قطعية في ذلك.

وذكر الجن بالأساليب المتنوعة التي ذكروا بها في القرآن ماهية وعقائد وصورا لم يرد في كتب اليهود والنصارى المنسوبة إلى الوحي الرباني كما هو شأن الملائكة، ولذلك فإن هذا الأسلوب من خصوصيات القرآن أيضا.

ولعل ما كان من عقائد العرب في الجن وما كان من صور في أذهانهم لهم هو من حكمة هذه الخصوصية كما هو الشأن بالنسبة للملائكة أيضا. وعلى كل حال فإن مما هو جدير بالتنبيه أن القرآن وهو يذكر الجن بما يذكر ويتحدث عنهم بما يتحدث إنما يذكر ويتحدث عن مخلوقات وكائنات يعتقد العرب بها ويعترفون بوجودها بما يقارب ما جاء فيه. وهذه مسألة مهمة في صدد كل ما جاء عن الجن، لأن الكلام عما هو معروف ومعترف به هو أقوى أثرا ونفوذا كما لا يخفى.

ومما يتبادر أن ما ورد عن الجن والشياطين وإبليس من صور قرآنية بغيضة ومن حملات على الكفار في سياقها متصل بما في أذهان العرب عنهم ، وبسبيل تقرير كون الانحراف عن الحق والمكابرة فيه والاستغراق في الإثم والخبائث والانصراف عن دعوة اللّه هو من تلقيناتهم ووساوسهم ، ومظهرا من مظاهر الانحراف نحوهم ، وبسبيل التحذير من الاندماغ بهم لما في ذلك من مهانة ومسبة .

ومن هنا يأتي الكلام قويا ملزما ولاذعا ، ويقوم البرهان على أن ذلك من الوسائل التدعيمية لأهداف القرآن وأسس الدعوة الإسلامية .

وهذا ملموح أيضا على ما هو المتبادر من آيات سورتي الجن والأحقاف التي تخبر النبي صلّى اللّه عليه وسلّم باستماع الجن للقرآن ، فآيات سورة الجن تفيد أن الذين استمعوا القرآن منهم ممن كانوا يعتقدون أن اللّه ولدا وصاحبة كما ترى فيها : قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقالُوا إِنَّا سَمِعْنا قُرْآناً عَجَباً (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أَحَداً (2) وَأَنَّهُ تَعالى جَدُّ رَبِّنا مَا اتَّخَذَ صاحِبَةً وَلا وَلَداً (3) وَأَنَّهُ كانَ يَقُولُ سَفِيهُنا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً (4) وآيات سورة الأحقاف تفيد أن الذين استمعوا هم من المتدينين بالديانة الموسوية على ما تفيده الآيات [29 - 30] التي أوردناها قبل قليل ، والصورة الأولى متصلة من ناحية بعقائد العرب المشركين ومن ناحية بعقيدة النصارى حيث يلمح أن هذا وذاك ينطويان من جهة ما على قصد التدعيم للرسالة المحمدية بالإخبار بأن بعض

طوائف الجن الذين يدينون بالديانة الموسوية والديانة العيسوية وبعقائد العرب والذين لهم في أذهان العرب تلك الصورة الهائلة قد آمنوا بهذه الرسالة حينما سمعوا النبي صلّى اللّه عليه وسلّم يتلو القرآن «1» .

ولقد تزيد المفسرون المطولون في صدد ماهية الجن وأوردوا أقوالا متنوعة عنهم بسبيل ذلك «2» معظمها مغرب وغير موثق . ولما كان القرآن إنما ذكر الجن في معرض التنديد والتحذير والموعظة والتدعيم والتمثيل ، ثم لما كان الجن كائنات

---

(1) انظر كتاب المؤلف : القرآن المجيد ، ص 185 ، 189 . [. . . . .]

(2) انظر نماذج من ذلك في كتابنا المذكور أيضا ص 242 وما بعدها .

غيبية إيمانية لا يصح الكلام فيها إلّا في نطاق ما جاء عنها في القرآن أو السنة النبوية الثابتة فإن من الواجب ملاحظة ذلك الهدف من جهة والوقوف عند الحد الذي وقف عنده القرآن من جهة أخرى فضلا عن انتفاء أي طائل في إرسال الكلام عنهم والتزيد فيه خارج ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير الحديث حـ 2 صـ 59 . 67 ﴾

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

الآيات : (1 . 6) [سورة الناس (114) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ (4)

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)

التفسير :

كان العياذ فى سورة « الفلق » بربّ « الفلق » ، أي رب المخلوقات جميعها . .

وهنا فى سورة الناس ، يأتى الأمر بالاستعاذة ، بربّ الناس ، من الناس ، وهم بعض ما خلق اللّه سبحانه وتعالى .

وقد وصف اللّه سبحانه وتعالى فى هذه السورة ، بثلاث صفات : أنه سبحانه « رب الناس » أي مربيهم ، والقائم عليهم بعد خلقهم . . وأنه جلّ شأنه : « مَلِكِ النَّاسِ » أي مالك أمرهم ، وباسط سلطانه عليهم ، وأنه سبحانه « إِلهِ النَّاسِ » أي سيدهم ، وهم

عبيده ، يتصرف فيهم كيف يشاء ، بماله من سلطان عليهم . .

وقد يقال : إن صفة الألوهية يقوم لها السلطان المطلق على المألوهين من غير داعية إلى ربوبية ، أو ملك . . فما داعية ذكر الربوبية والملك هنا ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن ذكر الربوبية بيان لفضل الله وإحسانه على عباده ، وأنه لم يملكهم إلا وقد خلع عليهم خلع الربوبية ، فرباهم ، ونشّأهم ،

(187/840)

وأمدّهم بكل ما هم فى حاجة إليه . . فملكهم بإحسانه وفضله ، قبل أن يملكهم بجبروته وقهره . . وفى ذكر الملك ، إشارة إلى أن الله سبحانه إنما يربّى ما يملك ، ويتصرف فيما هو له . .

فإذا قامت الألوهية على الناس بعد هذا بسلطانها ، لم يكن هذا السلطان سلطان قهر وجبريّة ، وإنما هو سلطان فضل وإحسان ، سلطان المالك فيما ملك .

وقد جاءت هذه الصفات الثلاث لله سبحانه على هذا الترتيب : الربوبية فالملك ، فالألوهية ، لتكشف عما لله سبحانه فى الناس من سلطان متمكن ، قائم على العدل والإحسان . . فهو سبحانه المربى والمنشئ لهم . . وقد يربّى المربى ، وينشّئ المنشئ

ولا يملك ما ربّاه ونشّأه . . ولكن اللّه سبحانه ، هو المربى ، وهو المالك لما يربى . . ثم إنه قد يربى المربى ، ويملك ما يرّبيه ، ولكن لا يقوم له سلطان متمكن على ما يربيه ويملكه ، فقد يخرج عن يده لسبب أو لآخر . . ولكن اللّه سبحانه هو المربى والمالك لما يربى ، والإله القائم بسلطانه المطلق على ما ربّى وما ملك ! وفى تخصيص الناس بالاستعاذة منهم ، وفى جعل هذا فى سورة خاصة بهم تسمى سورة « الناس » - فى هذا إشارة إلى أن الناس ، من بين المخلوقات التي يعرفونها ، هم الذين يفعلون الشر ، بما ركب فيهم من إرادة عاملة ، قادرة على أن تتجه نحو الخير ، أو الشر . .

فكل مخلوق - فيما يرى الإنسان ويعلم - قائم على فطرة ، لا يتحول عنها ، ولا يأخذ طريقا غير طريقها الذي أقامها اللّه سبحانه وتعالى عليه .

ومن هنا ، ترى جميع المخلوقات ، التي تعايشنا على هذه الأرض تحكمها طبيعة واحدة ، فى كل جنس من أجناسها ، أو نوع من أنواعها

فأفراد الجنس الواحد ، أو النوع الواحد ، كلها على طريق سواء ، فى حياتها ، لا يختلف فرد عن فرد ، ولا تشذّ جماعة عن جماعة ، فى أي مكان وأي زمان . .

فالنملة الواحدة ، هى النمل جميعه ، والنحلة الواحدة ، هى النحل كله ، والغراب الواحد ، هو الغربان جميعها ، والذئب الواحد ، هو الذئاب كلها . .

وهكذا ، كل فرد فى جنسه ، يحمل تاريخ الجنس كله ، لا تحتاج فى التعرف على هذا الجنس إلى أكثر من التعرف على فرد منه . . فى أي مكان وفى أي زمان .

ومن هنا كان من الممكن رصد الشرور الناجمة من بعض الحيوان ، والعمل على توقّيها ، وأخذ الحذر منها . . فإنه إذا عرف الشرّ أمكن توقّيه ، وسدّ المنافذ التي ينفذ منها . .

وليس كذلك الإنسان . . فكل إنسان عالم وحده ، له وجوده الذاتي ، وله عقله ، وإدراكه ، وتصوراته ، ومنازعه ، وخيره ، وشرّه . . وهيهات أن يلتقى إنسان مع إنسان لقاء مطابقا فى جميع الوجوه ، ظاهرا وباطنا . .

ولهذا فإنه لا يمكن رصد شرور الناس ، بل إنه لا يمكن رصد شرّ إنسان واحد ، ولا رسم الحدود التي يقف عندها . . ومن هنا كانت الاستعاذة من الناس ، على هذا الوجه الخاص ، لأن الشرور التي تقع منهم ، بل من أىّ واحد منهم ، كثيرة لا تحصى ، متعددة متنوعة ، لا تحصر . . ولعل هذا هو بعض السر فى تكرار لفظ « الناس » ثلاث مرات فى مطلع السورة ، فهم ليسوا ناسا وحسب ، بل هم ناس ، وناس ، وناس . . إنهم فى مجموعهم ، أخيار ، وأشرار ، وخليط من أخيار وأشرار . . وهم فى أفرادهم : خير ،

وشر ، وخليط من الخير والشر . .

فالإنسان يحسن ، ويسىء ، ويقف موقفا بين الإساءة والإحسان .

(189/840)

قوله تعالى : «مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » هو بيان للمستعاذ منه ، برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . .

والوسواس الخناس : هو ما يطرق الإنسان من وساوس وظنون ، مما تسوّل له به نفسه ، من منكرات ، وما يزين له به إخوان السوء ، وما يغريه به أهل الضلال من مفاسد ، وآثام . . وتسمية هذه الطوارق المنكرة ، وتلك الواردات المضلّة ، بالوسواس ، لأنها تدخل على الإنسان فى مسارّة ومخافتة ، وتلقاه من وراء عقله ، وفى غفلة من ضميره . . إنها توسوس له ، وتهمس فى صدره ، دون أن يحضرها عقله ، أو تشهدها حواسه . .

وهذا واضح إذا كان هذا الوسواس من ذات الإنسان نفسه ، ومن نزغات شيطانه .

أما إذا كان هذا الوسواس من شيطان من شياطين الإنس ، فإن الوسوسة تكون بينه وبين من يوسوس له ، بمعزل عن أعين الناس ، وعن أسماعهم ، حتى لا يروا ولا يسمعوا هذا السوء الذي يوسوس به ، ولا هذا المنكر الذي يدعو إليه . .

وهكذا المنكرات والآثام ، لا يدعى إليها علانية ، كما لا يأتيها مقترفوها علانية . . إنها لا تتمشّى إلا فى الظلام ، ولا يلتقى بها أصحابها المتعاملون بها ـ من داعين بها ومدعوين إليها ـ إلا فى تلصص ومسارقة . .

(190/840)

وفى وصف الوسواس « بالخناس »

إشارة إلى أنه يخنس ، أي يغيب شخصه ويتلاشى وجوده ، وهو يؤدى مهمته بما يوسوس به ، فلا يرى المستمع له ظلا لشخصه ، ولا يحسّ وجودا لذاته ، وإنما الذي يتمثل له فى تلك الحال هو شخوص ما يوسوس له به ، ووجوه ما يدعو إليه . . فالموسوس ـ لكى يؤدى دوره على أتمّ وجه ـ ينبغى أن يغيب شخصه ، وأن يختفى وجوده ، حتى يخلى المكان لما يوسوس به ، فلا يشغل الموسوس إليه بشىء عنه ، ولا يتمشى فى صدره شىء غير تلك الوسوسة . .

وفى قوله تعالى : « الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ » وفى جعل الوسوسة فى الصدور ، مع أنها تكون فى الآذان ـ إشارة إلى أن هذه الوسوسة إنما تندسس إلى الصدور ، دون أن تشعر بها الآذان ، وأنها لا تحدث أثرها السيّء إلا إذا أخذت مكانها من الصدور ، أي

القلوب ، ووقعت منها موقعا . . على خلاف الآذان ، فإن كثيرا من وساوس السوء تطرقها ، ثم لا تجد لها من أصحابها أذنا صاغية ، فتسقط ميتة ، وتدرج فى أكفان الريح !

وقوله تعالى : « مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » « من » هنا بيانية ، تكشف عن وجه الوسواس الخناس ، وهو أنه إما أن يكون إنسانا ، أو شيطانا . . من عالم الإنس ، أو عالم الجن . .

والوسواس الخناس ـ كما قلنا ـ كائن لا يكاد يرى شخصه ، حين يوسوس ، حيث يتدسس إلى من يوسوس إليه خفية ، ويدخل عليه من حيث لا يشعر . .

ولهذا جمع اللّه سبحانه وتعالى بين الوسواس من عالم الإنس ، والوسواس من عالم الجن . .

فالإنسان الذي يوسوس للناس بالسوء ، ويغريهم به .

هو شيطان ، فى خفاء شخصه ، وفى عداوته للإنسان ، وفيما يحمل إليه

(191/840)

من شر ، وإن على الإنسان أن يحذر هذا الوسواس من الناس كما يحذر الشيطان . .

وعبّر عن الشيطان هنا بلفظ الجن ، للدلالة على خفائه ، وعدم إمكان وقوع العين عليه ، وإن كان له لمة يعرفها المؤمن ، ونخسة يشعر بها ، ويعلم أنها من وارداته . .

وعالم الجن ، أو الشيطان ، وإن يكن غير منظور لنا ، فإن علينا الإيمان به ، وأنه يعيش معنا

على هذه الأرض ، ويرانا من حيث لا تراه ، كما يقول تعالى عن الشيطان : « إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » (27 : الأعراف) وهذا العالم غير المرئي ، هو عدوّ لنا ، متربص بنا ، أشبه بجراثيم الأمراض التي لا ترى بالعين المجردة ، وإن كان يمكن رؤيتها بأجهزة خاصة ، كما يمكن أن يرى الشيطان لكثير من المؤمنين بعين البصيرة لا الإبصار ، فلنحذر هذا العدو الراصد ، كما نحذر الوباء ، كما يقول سبحانه : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا » (6 : فاطر) وإنه ليس علينا أن نبحث عن كنه الشيطان ، ولا عن حياته الخاصة فى عالمه ، ولا عن طعامه ، شرابه ، ونزاوجه ، وتوالده . . وإنما الذي علينا أن نعلمه ، هو أنه عدوّ غير مرئىّ لنا ، وأنه يتدسس إلى مشاعرنا ، ومدركاتنا ، وعواطفنا ، ويحاول جاهدا أن يؤثر فيها ، وأن يخرج بها عن جادّة الحق والخير ، إلى طريق الغواية والضلال ، فيزين لنا الشر ، فنراه خيرا ، والضلال ، فنراه هدى ! والشيطان ، ليس هو النفس الأمارة بالسوء ، كما يرى ذلك بعض الناس ، وإنما هو كائن له وجوده المستقل خارج العالم الإنسانى ، وله حياته الخاصة ، شأنه فى هذا شأن الكائنات والعوالم غير المرئية التي تعيش معنا ، كالجراثيم ، والهواء ، بل والإنسان الذي يلبس ثوب الوسواس . . فإنه شيطان غير مرئى .

وهو ـأي الشيطان ـ مخاطب خطابا مستقلا من اللّه سبحانه وتعالى ، كما هو شأن الإنسان ، وهو محاسب ، ومجازى على ما يعمل ، وفى هذا يقول اللّه تعالى : « وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشارِكْهُمْ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ ، وَعِدْهُمْ وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً . . إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ » (65.64 الإسراء) ويقول سبحانه : « وَكَذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَياطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً » 112 :

الأنعام) . . ويقول جل شأنه : « وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزادُوهُمْ رَهَقاً » (6 : الجن) . . وقد سخر اللّه بعض الجن لسليمان ـ عليه السلام ـ كما سخر له الريح . . فقال تعالى : « وَمِنَ الشَّياطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حافِظِينَ » (82 الأنبياء) وقال سبحانه : « يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ » (13 : سبأ) .

فالشيطان أو الجن ، عالم غير منظور ، يقابل عالم الإنسان المنظور ، وبين العالمين احتكاك أشبه بالاحتكاك الذي يقع بين الإنسان والإنسان ، وفى احتكاك الإنسان بالإنسان يتولد خير وشر . . أما احتكاك الشيطان بالإنسان ، فلا يتولد منه إلا شر محض . . كما يتولد الشر من احتكاك الإنسان بالإنسان فى مجال العداوة والبغضاء . . وليس بين الشيطان

والإنسان إلا عداوة دائمة متصلة ، وليس يرد على الإنسان من الشيطان إلا السوء الخالص ، والشر الصريح ، كما يقول سبحانه . . « إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا . . إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ » .

(6 : فاطر) فاللهم احفظنا من وساوس النفس وأهوائها ، ومن كيد الشيطان ونزغانه ، واجعل لنا من لدنك وليّا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا ، حتى نستقيم على

(193/840)

طريقك القويم ، ونبلغ بعونك وتوفيقك ما يرضيك عنّا ، ويدخلنا فى عبادك الصالحين فى الدنيا والآخرة . . « رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ » .

. « رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً » وصلّ اللهم وسلم على محمد ، نبيك ورسولك ، الرحمة المهداة ، والنور المبين ، الذي اهتدينا به ، وبما تلاه علينا من كتابك الكريم ، وعلى آله ، وصحبه ، ومن اهتدى بهديه ، وسلك سبيله .

وسلام على المرسلين ، والحمد للّه رب العالمين ، فاتحة بدء ، وحسن ختام .

هذا ، وكان غاية هذه الرحلة المباركة فى رياض كتاب اللّه ، وفى صحبته ، تلك الصحبة

المسعدة المتصلة مع آياته، آية آية، ومع كلماته، كلمة كلمة، حتى استوفت القرآن الكريم كله. كان ذلك صباح يوم الخميس المبارك، لتسعة عشر يوما خلت من جمادى الأولى سنة تسعين وثلاثمائة وألف، من هجرة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، الموافق لليوم الثالث والعشرين من شهر يوليو سنة ألف وتسعمائة وسبعين ميلادية . .

وعلى زاد هذه الرحلة المباركة، نعيش ما بقي لنا من أجل، ومن جنى ثمارها الطيبة المباركة، نعطى مما فى وسعنا، وننفق مما فى أيدينا . . نبتغى بذلك وجه اللّه، وحسن المثوبة، وكريم الشفاعة من كتاب اللّه، ومن رسول اللّه، فهما وسيلتي إلى اللّه، أرجو بهما خير الدنيا، وحسن ثواب الآخرة: «وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ». انتهى. ا هـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 16 صـ 1646.1653 ﴾

(194/840)

وقال ابن عاشور:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) ﴾

شابهت فاتحتها فاتحة سورة الفلق إلا أن سورة الفلق تعوُّذ من شرور المخلوقات من حيوان وناس، وسورة الناس تعوّذ من شرور مخلوقات خفيّة وهي الشياطين.

والقول في الأمر بالقول، وفي المقول، وفي أن الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود شموله أمته، كالقول في نظيره من سورة الفلق سواء.

وعُرِّف ﴿ رب ﴾ بإضافته إلى ﴿ الناس ﴾ دون غيرهم من المربوبين لأن الاستعاذة من شر يلقيه الشيطان في قلوب الناس فيَضِلُّون ويُضلون، فالشر المستعاذ منه مصبه إلى الناس، فناسب أن يُستحضر المستعاذُ إليه بعنوان أنه رب من يُلْقون الشر ومن يُلْقَى إليهم ليصرف هؤلاء ويدفع عن الآخرين كما يقال لمَولى العبد: يا مولَى فلان كُف عني عبدك.

وقد رتبت أوصاف الله بالنسبة إلى الناس ترتيباً مدرَّجاً فإن الله خالقهم، ثم هم غير خارجين عن حكمه إذا شاء أن يتصرف في شؤونهم، ثم زيد بياناً بوصف إلهيته لهم ليتبين أن ربوبيته لهم وحاكميته فيهم ليست كربوبية بعضهم بعضاً وحاكمية بعضهم في بعض.

وفي هذا الترتيب إشعار أيضاً بمراتب النظر في معرفة الله تعالى فإن الناظر يعلم بادىء ذي بدء بأن له رباً يسبب ما يشعُر به من وجود نفسه، ونعمة تركيبه، ثم يتغلغل في النظر فيَشعر بأن ربه هو المَلِكُ الحقُّ الغني عن الخلق، ثم يعلم أنه المستحق للعبادة فهو إله الناس كلهم.

و﴿ ملك الناس ﴾ عطف بيان من ﴿ رب الناس ﴾ وكذلك ﴿ إله الناس ﴾ فتكرير لفظ ﴿ الناس ﴾ دون اكتفاء بضميره لأن عطف البيان يقتضي الإظهار ليكون الاسم المبيِّن (بكسر الياء) مستقلاً بنفسه لأن عطف البيان بمنزلة علَم للاسم المبيَّن (بالفتح).

و﴿ الناس ﴾ : اسم جمع للبشر جميعهم أو طائفة منهم ولا يطلق على غيرهم على التحقيق .

و﴿ الوسواس ﴾ : المتكلم بالوسوسة ، وهي الكلام الخفيّ ، قال رُؤبة يصف صائداً في قُتْرته :

(195/840)

وَسْوَسَ يَدْعُو مُخلصاً ربَّ الفَلَقْ

فالوسواس اسم فاعل ويطلق الوسواس بفتح الواو مجازاً على ما يخطر بنفس المرء من الخواطر التي يتوهمها مثل كلام يكلم به نفسه قال عُروة بن أذينة :

وإذا وجَدْت لها وسَاوِسَ سَلْوَةٍ

شفَعَ الفؤادُ إلى الضمير فسَلَّها . . .

والتعريف في ﴿ الوسواس ﴾ تعريف الجنس وإطلاق ﴿ الوسواس ﴾ على معنييه المجازي والحقيقي يشمل الشياطين التي تلقي في أنُفس الناس الخواطر الشريرة ، قال تعالى : ﴿ فوسوس إليه الشيطان ﴾ [طه : 120] ، ويشمل الوسواسُ كل من يتكلم كلاماً خفياً من الناس وهم أصحاب المكائد والمؤامرات المقصود منها إلحاق الأذى من اغتيال

نفوس أو سرقة أموال أو إغراءٍ بالضلال والإِعراض عن الهدى ، لأن شأن مذاكرة هؤلاء بعضهم مع بعض أن تكون سِراً لئلا يطلع عليها من يريدون الإِيقاعَ به ، وهم الذين يتربصون برسول الله صلى الله عليه وسلم الدوائر ويغرون الناس بأذِيَّتِه .

و ﴿ الخناس ﴾ : الشديد الخُنْس والكثيرُه .

والمراد أنه صار عادة له .

والخنس والخنوس : الاختفاء .

والشيطان يلقب بـ ﴿ الخناس ﴾ لأنه يتصل بعقل الإِنسان وعزمه من غير شعور منه فكأنَّه خنس فيه ، وأهل المكر والكيد والتختل خنّاسون لأنهم يتحينون غفلات الناس ويتسترون بأنواع الحيل لكيلا يشعر الناس بهم .

فالتعريف في ﴿ الخناس ﴾ على وزانِ تعريف موصوفه ، ولأن خواطر الشر يهم بها صاحبها فيطرق ويتردد ويخاف تبعاتها وتزجره النفس اللّوامة ، أو يزَعه وازع الدين أو الحياء أو خوف العقاب عند الله أو عند الناس ثم تعاوده حتى يطمئن لها ويرتاض بها فيصمم على فعلها فيقترفها ، فكأنَّ الشيطان يبدو له ثم يختفي ، ثم يبدو ثم يختفي حتى يتمكن من تدليته بغرور .

ووُصِفَ ﴿ الوسواس الخناس ﴾ بـ ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ لتقريب تصوير الوسوسة كي يتقيها المرء إذا اعترته لخفائها ، وذلك بأن يُبيِّنَ أنَّ مكان إلقاء الوسوسة هو صدور النّاس وبواطنهم فعبّر بها عن الإِحساس النفسي كما قال تعالى : ﴿ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج : 46] وقال تعالى : ﴿ إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه ﴾ [غافر : 56] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم " الإثم ما حاك في الصدر وتردَّد في القلب " فغاية الوسواس من وسوسته بثّها في نفس المغرور والمشبوكِ في فخّه ، فوسوسة الشياطين اتصالاتُ جاذبيه النفوس نحو داعية الشياطين .

وقد قرَّبها النبي صلى الله عليه وسلم في آثار كثيرة بأنواع من التقريب منها : "أنها كالخراطيم يمدها الشيطان إلى قلب الإِنسان" وشبهها مرة بالنفث ، ومرة بالإِبسَاس .

وفي الحديث : " إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما " .

وإطلاق فعل ﴿ يوسوس ﴾ على هذا العمل الشيطاني مجاز إذ ليس للشيطان كلام في باطن الإِنسان .

وأما إطلاقه على تسويل الإِنسان لغيره عملَ السوء فهو حقيقة .

وتعلّق المجرور من قوله : ﴿ في صدور الناس ﴾ بفعل ﴿ يوسوس ﴾ بالنسبة لوسوسة الشيطان تعلق حقيقي ، وأما بالنسبة لوسوسة الناس فهو مجاز عقلي لأن وسوسة الناس سبب لوقوع أثرها في الصدور فكان في كلِّ من فعل ﴿ يوسوس ﴾ ومتعلِّقه استعمال اللفظين في الحقيقة والمجاز .

و﴿ مِن ﴾ في قوله : ﴿ من الجنة والناس ﴾ بيانية بينَتْ ﴿ الذي يوسوس في صدور الناس ﴾ بأنه جنس ينحلّ باعتبار إرادة حقيقته ، ومجازه إلى صنفين : صنف من الجنّة وهو أصله ، وصنف من الناس وما هو إلا تبع وولي للصنف الأول ، وجمَع الله هذين الصنفين في قوله : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيء عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ [الأنعام : 112] .

(197/840)

ووجه الحاجة إلى هذا البيان خفاءُ ما ينجرّ من وسوسة نوعِ الإنسان ، لأن الأمم اعتادوا أن يحذرهم المصلحون من وسوسة الشيطان ، وربما لا يخطر بالبال أن من الوسواس ما هو شر من وسواس الشياطين ، وهو وسوسة أهل نوعهم وهو أشد خطراً وهم بالتعوذ منهم أجدر ، لأنهم منهم أقرب وهو عليهم أخطر ، وأنهم في وسائل الضر أدخل وأقدر .

ولا يستقيم أن يكون ﴿ من ﴾ بياناً للناس إذ لا يطلق اسم ﴿ الناس ﴾ على ما يشمل الجن ومن زعم ذلك فقد أبْعَدَ .

وقُدم ﴿ الجنة ﴾ على ﴿ الناس ﴾ هنا لأنهم أصل الوسواس كما علمت بخلاف تقديم الإنس على الجن في قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيء عدواً شياطين الإنس والجن ﴾ [الأنعام : 112] لأن خُبثاء الناس أشد مُخالطة للأنبياء من الشياطين ، لأن الله عصم أنبياءه من تسلط الشياطين على نفوسهم قال تعالى : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ [الحجر : 42] فإن الله أراد إبلاغ وحيه لأنبيائه فزكّى نفوسهم من خبث وسوسة الشياطين ، ولم يعصمهم من لحاق ضر الناس بهم والكيد لهم لضعف خطره ، قال تعالى : ﴿ وإذْ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماركين ﴾ [الأنفال : 30] ولكنه ضمن لرسله النجاة من كل ما يقطع إبلاغ الرسالة إلى أن يتم مراد الله .

والجنة : اسم جمع جني بياء النسب إلى نوع الجن ، فالجني الواحد من نوع الجن كما يقال : إنسيّ للواحد من الإِنس .

وتكرير كلمة ﴿ الناس ﴾ في هذه الآيات المرتين الأولين باعتبار معنى واحد إظهارٌ في مقام الإِضمار لقصد تأكيد ربوبية الله تعالى ومِلكه وإلهيته للناس كلهم كقوله تعالى : ﴿

يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ﴾ [آل عمران: 78].

وأما تكريره المرة الثالثة بقوله: ﴿ في صدور الناس ﴾ فهو إظهار لأجل بُعد المعاد.

(198/840)

وأما تكريره المرة الرابعة بقوله: ﴿ من الجنة والناس ﴾ فلأنه بيان لأحد صنفي الذي يوسوس في صدور الناس، وذلك غير ما صدْق كلمة ﴿ الناس ﴾ في المرّات السابقة.

والله يكفينا شر الفريقين، وينفعنا بصالح الثقلين.

تم تفسير "سورة الناس" وبه تم تفسير القرآن العظيم.

يقول محمد الطاهر ابن عاشور: قد وفيتُ بما نويت، وحقق الله ما ارتجيتُ فجئتُ بما سمح به الجُهد من بيان معاني القرآن ودقائق نظامه وخصائص بلاغته، مما اقتَبس الذهنُ من أقوال الأيمة، واقتدح من زنْد لإنارة الفكر وإلهاب الهمّة، وقد جئتُ بما أرجوا أن أكون وُفّقْتُ فيه للإبانة عن حقائقَ مغفولٍ عنها، ودقائق ربما جَلَتْ وجوهاً ولم تَجْلُ كُنْهاً، فإن هذا مَنَال لا يبلغ العقلُ البشري إلى تمامه، ومن رام ذلك فقد رام والجوزاءُ دون مَرامِهْ.

وإن كلام رب الناس، حقيق بأن يُخدم سَعياً على الرأس، وما أدّى هذا الحقّ إلاّ قلمَ المفسر يسعَى على القرطاس، وإن قلمي طالما استنّ بشوط فسيح، وكم زُجر عند

الكَلاَلِ والإِعْيَاءِ زَجْر المَنيح ، وإذ قد أتى على التمام فقد حَقَّ له أن يستريح . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 30 صـ ﴾

(199/840)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة الناس

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1)

الاستعاذة في هذه السورة برب الناس , ملك الناس , إله الناس . والمستعاذ منه هو : شر الوسواس الخناس , الذي يوسوس في صدور الناس , من الجنة والناس .

والاستعاذة بالرب , الملك , الإله , تستحضر من صفات الله - سبحانه - ما به يدفع الشر عامة , وشر الوسواس الخناس خاصة .

فالرب هو المربي والموجه والراعي والحامي . والملك هو المالك الحاكم المتصرف . والإله هو المستعلي المستولي المتسلط . . وهذه الصفات فيها حماية من الشر الذي يتدسس إلى الصدور . . وهي لا تعرف كيف تدفعه لأنه مستور .

والله رب كل شيء , وملك كل شيء , وإله كل شيء . ولكن تخصيص ذكر الناس هنا

يجعلهم يحسون بالقربى في موقف العياذ والاحتماء .

والله – برحمة منه – يوجه رسوله (صلى الله عليه وسلم) وأمته إلى العياذ به والالتجاء إليه , مع استحضار معاني صفاته هذه , من شر خفي الدبيب , لا قبل لهم بدفعه إلا بعون من الرب الملك الإله . فهو يأخذهم من حيث لا يشعرون , ويأتيهم من حيث لا يحتسبون . والوسوسة : الصوت الخفي . والخنوس : الاختباء والرجوع . والخناس هو الذي من طبعه كثرة الخنوس .

وقد أطلق النص الصفة أولا : (الوسواس الخناس) . . وحدد عمله : (الذي يوسوس في صدور الناس) . ثم حدد ماهيته : (من الجنة والناس) . . وهذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيقة الوسواس الخناس , بعد إطلاق صفته في أول الكلام ; ولإدراك طريقة فعله التي يتحقق بها شره , تأهبا لدفعه أو مراقبته !

والنفس حين تعرف – بعد هذا التشويق والإيقاظ – أن الوسواس الخناس يوسوس في صدور الناس خفيةوسرا , وأنه هو الجنة الخافية , وهو كذلك الناس الذين يدسسون إلى الصدور تدسس الجنة , ويوسوسون وسوسة الشياطين . . النفس حين تعرف هذا تتأهب للدفاع , وقد عرفت المكمن والمدخل والطريق !

ووسوسة الجنة نحن لا ندري كيف تتم , ولكنا نجد آثارها في واقع النفوس وواقع الحياة .

ونعرف أن المعركة بين آدم وإبليس قديمة قديمة ; وأن الشيطان قد أعلنها حربا تنبثق من خليقة الشر فيه , ومن كبريائه وحسده وحقده على الإنسان ! وأنه قد استصدر بها من الله إذنا , فأذن فيها - سبحانه - لحكمة يراها ! ولم يترك الإنسان فيها مجردا من العدة . فقد جعل له من الإيمان جنة , وجعل له من الذكر عدة , وجعل له من الاستعاذة سلاحا .

. فإذا أغفل الإنسان جنته وعدته وسلاحه فهو إذن وحده الملوم !

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله تعالى خنس , وإذا غفل وسوس " .

وأما الناس فنحن نعرف عن وسوستهم الشيء الكثير . ونعرف منها ما هو أشد من وسوسة الشياطين !

رفيق السوء الذي يتدسس بالشر إلى قلب رفيقه وعقله من حيث لا يحتسب ومن حيث لا يحترس , لأنه الرفيق المأمون !

وحاشية الشر التي توسوس لكل ذي سلطان حتى تتركه طاغية جبارا مفسدا في الأرض , مهلكا للحرث والنسل !

والنمام الواشي الذي يزين الكلام ويزحلقه , حتى يبدو كأنه الحق الصراح الذي لا مرية فيه

.

وبائع الشهوات الذي يتدسس من منافذ الغريزة في إغراء لا تدفعه إلا يقظة القلب وعون الله

.

وعشرات من الموسوسين الخناسين الذين ينصبون الأحابيل ويخفونها , ويدخلون بها من منافذ القلوب الخفية التي يعرفونها أو يتحسسونها . . وهم شر من الجنة وأخفى منهم دبيبا !

والإنسان عاجز عن دفع الوسوسة الخفية . ومن ثم يدله الله على عدته وجنته وسلاحه في المعركة الرهيبة !

(201/840)

وهناك لفتة ذات مغزى في وصف الوسواس بأنه(الخناس) . . فهذه الصفة تدل من جهة على تخفيه واختبائه حتى يجد الفرصة سانحة فيدب ويوسوس . ولكنها من جهة أخرى توحي بضعفه أمام من يستيقظ لمكره , ويحمي مداخل صدره . فهو - سواء كان من الجنة أم كان من الناس - إذا ووجه خنس , وعاد من حيث أتى , وقبع واختفى . أو كما قال الرسول الكريم في تمثيله المصور الدقيق : " فإذا ذكر الله تعالى خنس , وإذا غفل وسوس "

. .

وهذه اللفتة تقوي القلب على مواجهة الوسواس . فهو خناس . ضعيف أمام عدة المؤمن في المعركة .

ولكنها – من ناحية أخرى – معركة طويلة لا تنتهي أبدا . فهو أبدا قابع خانس , مترقب للغفلة . واليقظة مرة لا تغني عن اليقظات . . والحرب سجال إلى يوم القيامة ; كما صورها القرآن الكريم في مواضع شتى , ومنها هذه الصورة العجيبة في سورة الإسراء :

" وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس ، قال : أأسجد لمن خلقت طينا ؟ قال : أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال : اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا " .

.

وهذا التصور لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها - سواء عن طريق الشيطان مباشرة أو عن طريق عملائه من البشر - من شأنه أن يشعر الإنسان أنه ليس مغلوبا على أمره فيها فإن ربه وملكه وإلهه مسيطر على الخلق كله وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب فهو آخذ بناصيته .

وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلهم فأما من يذكرونه فهم في نجوة من الشر ودواعيه الخفية فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها يستند ودواعيه الخفية فالخير إذن يستند إلى القوة التي لا قوة سواها وإلى الحقيقة التي لا حقيقة غيرها . يستند إلى الرب الملك الإله . والشر يستند إلى وسواس خناس يضعف عن المواجهة ويخنس عند اللقاء وينهزم أمام العياذ بالله . .

وهذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر كما أنه أفضل تصور يحمي القلب من الهزيمة ويفعمه بالقوة والثقة والطمأنينة . .

والحمد لله أولا وأخيرا . وبه الثقة والتوفيق . . وهو المستعان المعين . . . انتهى انتهى .

اهـ ﴿الظلال حـ 6 صـ 4012.4010﴾

وقال الشيخ الشنقيطي :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) ﴾

تقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، الإحالة على هذه السورة عند كلامه على قوله تعالى : ﴿ أَلَّا تعبدوا إِلَّا الله إِنَّنِي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾ [هود : 2] ، في سورة هود ، فقال على تلك الآية : فيها الدلالة الواضحة على أن الحكمة العظمى التي أنزل القرآن من أجلها هي أن يعبد الله تعالى وحده ولا يشرك في عبادته شيء .

وساق الآيات المماثلة لها ثم قال : وقد أشرنا إلى هذا البحث في سورة الفاتحة ، وسنقضي الكلام عليه إن شاء الله تعالى في سورة الناس ، لتكون خاتمة هذا الكتاب المبارك حسنى اه .

وإن في هذه الإحالة تحميل مسؤولية الاستقصاء حيث لم يكتف بما قدمه في سورة الفاتحة ، ولا فيما قدمه في سورة هود ، وجعل الاستقصاء في هذه السورة ، ومعنى الاستقصاء : الاستيعاب إلى أقصى حد .

وما أظن أحداً يستطيع استقصاء ما يريده غيره ، ولا سيما ما كان يريده الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه وما يستطيعه هو .

ولكن على ما قدمنا في البداية : أنه جهد المقل ووسع الطاقة . فنستعين الله ونستهديه مسترشدين بما قدمه الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه في سورتي الفاتحة وهود ، ثم نورد

وجهة نظر في السورتين معاً الفلق والناس ، ثم منهما وفي نسق المصحف الشريف ، آمل من الله تعالى وراج توفيقه ومعونته .

أما الإحالة فالذي يظهر أن موجبها هو أنه في هذه السورة الكريمة اجتمعت ثلاث صفات لله تعالى من صفات العظمة والكمال : رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، ولكأنها لأول وهلة تشير إلى الرب الملك هو الإله الحق الذي يستحق أن يعبد وحده .

(204/840)

ولعله ما يرشد إليه مضمون سورة الإخلاص قبلها : هو الله أحد ، الله الصمد ، وهذا هو منطق العقل والقول الحق ، لأن مقتضى الملك يستلزم العبودية ، والعبودية تستلزم التأليه والتوحيد في الألوهية ، لأن العبد المملوك تجب عليه الطاعة والسمع لمالكه بمجرد الملك ، وإن كان مالكه عبداً مثله ، فكيف بالعبد المملوك لربه وإلهه ، وكيف بالمالك الإله الواحد الأحد الفرد الصمد ؟

وقد جاءت تلك الصفات الثلاث : الرب الملك الإله ، في أول افتتاحية أول المصحف : ﴿ الحمد للَّهِ ربِّ العالمين الرحمن الرحيم مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 2-4] ، والقراءة الأخرى ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ .

وفي أول سورة البقرة اول نداء يوجه للناس بعبادة الله تعالى وحده ، لأنه ربهم مع بيان الموجبات لذلك في قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الناس اعبدوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة : 21] .

ثم بين الموجب لذلك بقوله : ﴿ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة : 21] .

وقوله : ﴿ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 22] .

وهذا كله من آثار الربوبية واستحقاقه تعالى على خلقه العبادة ، فلا تجعلوا لله أنداداً أيضاً في عبادة ، وأنتم تعلمون حقيقة ذلك .

ويقوي هذا الاختصاص إضافة الرب للرسول صلى الله عليه وسلم في جميع أطواره منذ البدأين : بدأ الخلقة وبدأ الوحي ، في قوله : ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : 1-2] ، ثم في نشأته ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ [الضحى : 3] -إلى قوله ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فآوى وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فهدى وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فأغنى ﴾ [الضحى : 6-8] .

وجعل الرغبة إليه في السورة بعدها ﴿ وإلى ربّكَ فارغب ﴾ [الشرح : 8] ، بعد تعداد النعم عليه من شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، ثم في المنتهى قوله : ﴿ إِنَّ إلى ربِّكَ الرجعى ﴾ [العلق : 8] .

قوله تعالى : ﴿ مَلِكِ الناس ﴾ ، في مجيء ملك الناس بعد رب الناس ، تدرج في التنبيه على تلك المعاني العظام ، وانتقال بالعباد من مبدإ الإيمان بالرب لما شاهدوه من آثار الربوبية في الخلق والرزق ، وجميع تلك الكائنات ، كما تقدم في أول نداء وجه إليهم ﴿ اعبدوا ربّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السمآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 21-22] .

كل هذه الآثار التي لمسوها وأقروا بموجبها ، بأن الذي أوجدها هو ربهم ، ومن ثم ينتقلون إلى الدرجة الثانية ، وهي أن ربه الذي هذه أفعاله هو ملكه وهو المتصرف في تلك العوالم ، وملك لأمره وجميع شؤونه ، ومالك لأمر الدنيا والآخرة جميعاً .

فإذا وصل بإقراره إلى هذا الإدراك ، أقر له صرورة له بالألوهية وهي المرتبة النهاية . إله الناس أي مألوهم ومعبودهم وهو ما خلقهم إليه ، ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] .

وفي إضافة الملك إلى الناس من إشعار الاختصاص ، مع أنه سبحانه ملك كل شيء ، فيه ما

في إضافة الرب للناس المتقدم بحثه ، فهو سبحانه ملك الملك كما في قوله : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 26] .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ الملك وَلَهُ الحمد ﴾ [التغابن : 1] .

وقوله : ﴿ لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض ﴾ [البقرة : 107] ، وقوله : ﴿ الملك القدوس ﴾ [الحشر : 23] .

(206/840)

فهو سبحانه وتعالى المتفرد بالملك لا شريك له في ملكه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ فِي الملك ﴾ [الإسراء : 111] فبدأ بالحمد أولاً .

ومثله قوله : ﴿ فَسُبْحَانَ الذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [يس : 83] ، بدأ بتسبيح نفسه وتنزيهه لعموم الملك ومطلق التصرف ونفي الشريك لأن ملكه ملك تصرف وتدبير مع الكمال في الحمد والتقديس .

وكقوله : ﴿ تَبَارَكَ الذي بِيَدِهِ الملك وَهُوَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك : 1] .

وبهذه النصوص يعلم كمال ملكه تعالى ، ونقص ملك ما سواه من ملوك الدنيا ، ونعلم أن

ملكهم بتمليك الله تعالى إياهم كما في قوله تعالى : ﴿ والله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : 247] .

وقوله : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ ﴾ [آل عمران : 26] .

ومن المعلوم أن ملوك الدنيا ملكهم سياسة ورعاية ، لا ملك تملك وتصرف ، وكما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ الله قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قالوا أنى يَكُونُ لَهُ الملك عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بالملك مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ المال قَالَ إِنَّ الله اصطفاه عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العلم والجسم والله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ والله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 247] .

والجدير بالتنبيه عليه بهذه المناسبة أن " بريطانيا " تحترم نظام الملكية إلى هذا الوقت الحاضر ، بدافع من هذا المعتقد ، وأنه لا ملك إلا بتمليك الله إياه ، وأن ملوك الدنيا باصطفاء من الله .

والآية تشير إلى ما نحن بصدد بيانه ، من أن ملوك الدنيا لا يملكون أمر الرعية لأن طالوت ملكاً ، وليس مالكاً لأموالهم .

بينما ملك الله تعالى ملك خلق وإيجاد وتصرف كما في قوله تعالى : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذكور أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : 49-50] .

وعليم قدير هنا من خصائصه سبحانه وتعالى ، فينصرف في ملكه بعلم وعن قدرة كاملتين سبحانه ، له ملك السماوات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير .

وتظهر حقيقة ذلك إذا جاء اليوم الحق ، فيتلاشى كل ملك قلّ أو كثر ، ويذل كل ملك كبر أو صغر ، ولم يبق إلا ماكه تعالى يوم هم بارزون ، لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار .

وفي سورة الفاتحة ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] .

والقراءة الأخرى ﴿ مالك يَوْمِ الدين ﴾ [الفاتحة : 4] .

في القراءتين معاً عارٍ بالفرق بين ملك الله وملك العباد ، كالفرق بين الملك المطلق والملك النسبي ، إذ الملك النسبي لا يملك ، والملك المطلق ، فهو الملك القدوس ، والذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجع الخلائق كلهم .

ومن كانت هذه صفاته ، فهو المستحق لأن يعبد وحده سبحانه ، ولا يشرك معه أحد ، وهذا هو شعار العبد في الركن الخامس من أركان الإسلام ، حين يهلّ بالتلبية : إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

قوله تعالى : ﴿ إله الناس ﴾ .

هذه هي المرتبة الثالثة في كمال العبودية ، وإفراد الله تعالى بالألوهية .

وهذا هو محل الإحالة ، التي عناها الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فيما يظهر ، لأن العبد إذا أقر بأن الله تعالى ربه وخالقه ، ومنعم عليه أوجده من العدم ، ورباه بالنعم ، لا رب سواه ، ثم تدرج بعلمه ويقينه إلى الإقرار بأن ربه هو مليكه والمتصرف في أمره وحده ، وأنه لا يملك هو نفسه مع الله شيئاً ، ولا يملك له أحد من الله شيئاً .

وأن كل تصرفات العالم كله بأمره فلا يصل إليه خير إلا بإذنه ، ولا يصرف عنه ضرر إلا بأمره .

وعرف في يقين : أنه عبد مملوك لمن بيده ملكوت السماوات والأرض ، توصل بعلمه هذا أن من كانت هذه صفاته ، كان هو وحده المستحق لإفراده بالعبادة وبالألوهية ، لا إله إلا هو .

فيكون في خاتمة المصحف الشريف انتزاع الإقرار من العبد لله سبحانه بطريق الإلزام ، بالمعنى الذي أرسل الله به رسله ، وأنزل من أجله كتبه ، وهو أن يعبد الله وحده ، وهو ما صرح الشيخ به في الإحالة السابقة .

وإذا كان الشيخ رحمه الله ، قد نبه على مراعاة خاتمة المصحف ، فإنا لو رجعنا إلى أول المصحف وآخره لوجدنا ربطاً بديعاً ، إذ تلك الصفات الثلاث في سورة الناس موجودة في سورة الفاتحة ، فاتفقت الخاتمة مع الفاتحة في هذا المعنى العظيم ، إذ في الفاتحة الحمد لله رب العالمين ، وملك يوم الدين ، فجاءت صفى الربوبية والملك والألوهية في لفظ الجلالة .

وتكون الخاتمة الشريفة من باب عود على بدء ، وأن القرآن فيما بين ذلك شرح وبيان لتقدير هذا المعنى الكبير .

وسيأتي لذلك زيداة إيضاح في النهاية ، إن شاء الله تعالى .

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4)

كلاهما صيغة مبالغة من الوسوسة والخنس ، بسكون النون .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بيان معنى الوسوسة ، والوسواس لغة وشرعاً ، أي المراد عند كلامه على قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان قَالَ ياآدم هَلْ أَدُلُّكَ على شَجَرَةِ الخلد ﴾ [طه : 120] الآية .

ويين مشتقاتهما وأصل اشتقاقهما ، وهوي يدور على أن الوسوسة : الحديث الخفي .

والخنس : التأخر ، كما تكلم على ذلك في دفع إيهام الاضطراب ، حيث اجتمع المعنيان المتنافيان .

لأن الوسواس: كثير الوسوسة، ليضل بها الناس. والخناس: كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس.

وأجاب بأن لكل مقام مقالاً، وأنه يوسوس عند غفلة العبد عن ذكر ربه، خانس عند ذكر العبد ربه تعالى، كما دل قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرحمن نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: 36]، إلى آخره. اهـ.

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)

اختلف في الظرف هنا، هل هو ظرف للوسواس حينما يوسوس، فيكون موجوداً في الصدور، ويوسوس للقلب، أو هو ظرف للوسوسة. ويكون المراد بالصدور القلوب، لكونها حالة في الصدور من باب إطلاق المحل، وإرادة الحال علا ما هو جار في الأساليب البلاغية.

وعلى حد قوله: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ [العلق: 17]، أطلق النادي، وأراد من يحل فيه من القوم.

ونقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه بحث تعدية الوسوسة تارة بإلى وتارة باللام، ففي

سورة الأعراف ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان ﴾ [الأعراف : 20] ، وفي طه : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشيطان ﴾ [طه : 120] .

وحاصل ما ذكره في الجمع بينهما أحد أمرين : إما أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وذكر شواهده ، وإما أن يكون وسوس له ، أي لأجله ووسوس إليه أي أنهى إليه الوسوسة ، ولكن هنا قال : ﴿ الذى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس ﴾ ، ولم يقل : إلى صدور الناس ، فهل هو من باب نيابة حروف الجر بعضها عن بعض أيضاً ؟ أم هي ظرف محض ؟ والظاهر أنها ظرف ، ولكن هل هو الظرف للوسواس ، أو ظرف للوسوسة نفسها ؟ وبالنظر إلى كلام المفسرين ، فإن كلام ابن جرير يحتمل اعتبار المعنيين بدون تعيين .

وأما القرطبي ، والألوسي ، فصرحا بما ظهر لهما ووصلا إليه .

فقال القرطبي : قال مقاتل : إن الشيطان في صورة خنزير يجري من مجرى الدم في العروق سلطة الله على ذلك وذكر الحديث " إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه " .

وقال : إن أبا ثعلبة الخشني قال : سألت ربي أن يريني الشيطان ، ومكانه من ابن آدم ، فرأيته يداه في يديه ورجلاه في رجليه ومشاعيه في جسده ، غير أن له خطماً كخطم الكلب ؟ فإذا ذكر الله خنس ، وإذا سكت عن ذكر الله أخذ بقلبه .

أما الألوسي فقد صرح بالتقسيم الذي أوردناه ، فقال : الذي يوسوس في صدور الناس .

قيل : أريد قلوبهم مجازاً .

وقال بعضهم : إن الشيطان يدخل الصدر الذي هو بمنزلة الدهليز ، فيلقي منه ما يريد إلقاءه إلى القلب ويوصله إليه ، ولا مانع عقلاً من دخوله في جوف إنسان . وساق الحديث أيضاً " إن الشيطان يجري " إلى آخره .

ومراده بالمجاز ما قدمنا من إطلاق المحل وإرادة الحال .

وذكر ابن كير عن ابن عباس ومجاهد أن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، وإذا ذكر الله خنس .

والذي يظهر والله تعالى أعلم : أن الصدر ظرف للوسواس ، وأنه يوقع الوسوسة في القلب .

على ما قاله ابن عباس ومجاهد رحمهم الله .

وفي لفظ الناس هنا المضاف إليه الصدور : اختلاف في المراد منه ، فقيل : الإنس الظاهر الاستعمال .

وقيل : الثقلان : الإنس والجن .

وإن إطلاق الناس على الجن مسموع، كما حكاه القرطبي. قال عن بعض العرب: إنه كان يحدث فجاء قوم من الجن فوقفوا، فقيل: من أنتم: فقالوا: ناس من الجن، وهذا معنى قول الفراء.

واستدل صاحب هذا القول بطريق القياس باستعمال لفظي رجال ونفر في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الجن ﴾ [الجن: 6]، وقوله: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الجن ﴾ [الأحقاف: 29].

وعليه يكون الوسواس المستعاذ منه يوسوس في صدور الجن والإنس.

(211/840)

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الوجه: ولكنه رده وضعفه، لأن لفظ الناس أظهر وأشهر في الإنس، وهو المعروف في استعمال القرآن، ولأنه على هذا يكون قسم الشيء قسماً منه، لأنه يجعل الناس قسيم الجن، ويجعل الجن نوعاً من الناس اه. ملخصاً.

وعلى كل، فإن منهج الأضواء أن ما كان محتملاً وكان أكثر استعمالات القرآن لأحد الاحتمالين، فإن كثرة استعماله إياه مرجحاً، وجميع استعمالات القرآن للفظ الناس إنما هو في خصوص الإنس فقط، ولم تستعمل ولا مرة واحدة في حق الجن مع مراعاة استعمالها في

هذه السورة وحدها خمس مرات ، حتى سميت سورة الناس .

أما القياس على لفظتي رجل ونفر ، فقد رده شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً بأنهما وردا مقيدين رجال من الجن ، نفراً من الجن .

أما على الإطلاق فلم يردا ، وهكذا لفظ الناس فلا مانع من استعماله مقيداً ناس من الجن .

أما على الإطلاق فلا .

وعليه ، فحيث ورد لفظ الناس هنا مطلقاً فلا يصح حمله على الجن والإنس معاص ، بل يكون خاصاً بالإنس فقط ، ويكون في صدور الناس أي في صدور الإنس .

وقد ذكر أبو السعود معنى آخر في لفظ الناس : وهو أن الناسي عن النسيان ، حذفت الياء تخفيفاً لأن الوسواس لا يوسوس إلا في حين النسيان والغفلة .

وعليه ، يكون حذف الياء كحذفها من الداع في قوله : ﴿ يَوْمَ يَدْعُو الداع ﴾ [القمر : 6] ونحوه .

ولكن يبقى على هذا القول بيان من المراد بالناسي ، أهو من الإنس أم من الجن ، فلم يخرج الاحتمالين السابقين ، مع أن هذا القول من لوازم معنى الوسواس الخناس .

ويرد على هذا القول جمع الصدور وإفراد الناس ، والجمع لا يضاف إلى جمع ، أي جمع الصدور ، لأن الفرد ليس له جمع من الصدور ، فيقابل الجمع بجمع ، أو يكتفي بالمفرد بمفرد .

وقد جاء في إضافة الجمع إلى المثنى في قوله : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ [التحريم : 4].

(212/840)

قال أبو حيان : وحسنه أن المثنى جمع في المعنى ، والجمع في مثل هذا أكثر استعمالاً من المثنى والتثنية دون الجمع .

كما قال الشاعر :

فتخالسا نفسيهما بنوافذ . . . كنواف العيط التي لا ترفع

وهذا كان القياس وذلك أن المعبر عن المثنى بالمثنى ، لكن كرهوا اجتماع تثنيتين فعدلوا إلى الجمع بأن التثنية جمع في المعنى والإفراد ، لا يجوز عند أصحابنا إلا في الشعر .

كقوله :

حمامة بطن الواديين ترنمي . . . يريد بطني ، وغلط ابن مالك في التسهيل إذ قال : ونختار الإفراد على لفظ التثنية ، فتراه غلط ابن مالك في اختياره جواز إضافة الجمع إلى المفرد ، كما أنه قال : ولا يجوز ذلك إلا في الشعر ، وأنه مع المثنى لكراهية اجتماع التثنيتين ، فظهر بطلان قول أبي السعود .

أما الراجح في الوجهتين في معنى الناس المتقدم ذكرهما . فهو الوجه الأول ، وهو أنهم الإنس ، وأن قوله تعالى : ﴿ مِنَ الجنة والناس ﴾ ، بيان لمن يقوم بالوسوسة ، أي بيان للوسواس الخناس وأنه من كل من وسواس الجنة ووسواس الناس .

ويظهر ذلك في أمور :

منها : أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته تبعاً له فهو في حق الناس أظهر .

ومنها : أننا لو جعلنا الناس الأولى عامة لمن يوسوس إليه كان من الجنة ، والناس مصدر الوسوسة ، فيكون من وسواس الناس من يوسوس في صدور الجن . وهذا بعيد .

ومنها : أنه لو كان لفظ الناس يشمل الجن والإنس ، لما احتيج إلى هذا التقسيم الجنة والناس ، واكتفى في الثانية بما اكتفى به في الأولى ، وكان يكون الذي يوسوس في صدور الناس ، ولكن جاء بيان محل الوسوسة صدور الناس ، ثم جاء مصدر الوسوسة الجنة والناس ، والله تعالى أعلم .

تنبيه

ذكر أبو حيان في آخر تفسيره مقارنة لطيفة بين سورتي المعوذتين ، فقال : ولما كانت مضرة الدين ، وهي آفة الوسوسة أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت ، جاء البناء في الاستعاذة منها بصفات ثلاث ، الرب ، والملك ، والإله ، وإن اتحد المطلوب .

وفي الاستعاذة لفتى كريمة ، طالما كنت تطلعت إليها في وجهتى نظر ، إحداهما : بين السورتين ، والأخرى بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف ، سيأتي إيرادهما إن شاء الله .

إلا أنه على وجهة نظر أبي حيان ، وهي أنه تعالى في سورة الفلق جاء في الاستعاذة بصفة واحدة وهي رب الفلق .

وفي سورة الناس جاء في الاستعاذة بثلاث صفات ، مع أن المستعاذ منه في الأولى ثلاثة أمور ، والمستعاذ منه في الثانية أمر واحد ، فاخطر الأمر الواحد جاءت الصفات الثلاث .

ويقال أيضاً من جهة أخرى : إن المستعاذ منه في السورة الأولى أمور تأتي من خارج افنسان ، وتأتيه اعتداء عليه من غيره ، وقد تكون شروراً ظاهرة ، ومثل ذلك قد يمكن التحرز منه أو اتقاؤه قبل وقوعه ، وتجنبه إذ ل علم به . بينما الشر الواحد في الثانية يأتيه من داخليته وقد تكون هواجس النفس وما لا يقدر على دفعه ، إذ الشيطان يرانا ولا نراه ، كما في قوله : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : 27] .

وقد يثر عليه خلجات نفسه ونوازع فكره ، فلا يجد له خلاصاً إلا بالاستعاذة واللجوء إلى رب الناس ملك الناس إله الناس .

أما الوجهتان اللتان نوهنا عنهما ، فالأولى بين السورتين وهي مما أورده أبو حيان : إذ في

سورة الفلق قال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق ﴾ [الفلق : 1] ، ورب الفلق تعادل قوله :

﴿ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 2] .

لأنه ما من موجود في هذا الكون إلا وه مفلوق عن غيره .

في الزرع : ﴿ فَالِقُ الحب والنوى ﴾ [الأنعام : 95] .

وفي الزمن : ﴿ فَالِقُ الإصباح ﴾ [الأنعام : 96] .

وفي الحيوانات : ﴿ الذي خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً ﴾ [النساء : 1] .

وفي الجمادات يشير إلى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الذين كفروا أَنَّ السماوات والأرض كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المآء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الأرض رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ [الأنبياء : 30-31] .

فرق الفلق تعادل رب العالمين ، فقابلها في الاستعاذة بعموم المستعاذ منه ، من شر ما خلق .

ثم جاء ذكر الخاص بعد العام للاهتمام به ، وهو من شر غاسق إذا وقب ، والنفاثات في العقد ، وحاسد إذا حسد .

فالمستعاذ به صفة واحدة ، والمستعاذ منه عموم ما خلق جملة وتفصيلاً ، بينما في السورة الثانية جاء بالمستعاذ به ثلاث صفات العظمة لله تعالى : الرب والملك والإله .

فقابل المستعاذ منه وهو شيء واحد فقط ، وهو الوسواس الخناس ، وهذا يدل على شدة خطورة المستعاذ منه .

وهو كذلك ، لأننا لو نظرنا في واقع الأمر لوجدنا مبعث كل فتنة ومنطلق كل شر عاجلاً أو آجلاً ، لوجدناه بسبب الوسواس الخناس . وهو مرتبط بتاريخ وجود الإنسان .

وأول جناية وقعت على الإنسان الأول ، إنما هي من هذا الوسواس الخناس ، وذلك أن الله تعالى لما كرَّم آدم ، فخلقه منها رغداً حيث ما شاءا ، إلا من الشجرة الممنوعة ، فوسوس إليهما الشيطان حتى أكلا منها ودلاهما بغرور ، حتى أهبطوا منها جميعاً بعضهم لبعض عدو .

وبعد سكناهما الأرض أتى ابنيهما قابيل وهابيل فلاحقهما أيضاً بالوسوسة ، حتى طوَّعت نفس أحدهما قتل أخيه فأصبح من النادمين .

وهكذا بسائر الإنسان في حياته بالوسوسة حتى يربكه في الدنيا ، ويهلكه في الآخرة ، ولقد اتخذ من المرأة جسراً لكل ما يريد . وها هو يعيد الكرة في نزع اللباس عن أبوينا في الجنة ، فينتزعه عنهما في ظل بيت الله الحرام في طوافهم قبل البعثة ولا يزال يغويه ، وعن طريق المرأة في كل زمان ومكان ليخرجه عن الاستقامة كما أخرج أبويه من الجنة .

ولا يزال يجلب على الإنسان بخيله ورجله باراً بقسمه بين يدي الله بعزته ليغوينهم أجمعين .

وإن أخطر أبواب الفساد في المجتمعات لهي عن المال أو الدم أو العرض ، كما في الحديث في حجة الوداع : " أن إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا " إلى آخره .

وهل وجدت جناية على واحد منها ، إلا من تأثير الوسواس الخناس . اللَّهم لا .

وهكذا في الآخرة .

وقد قال تعالى الموقف جلياً في مقالة الشيطان البليغة الصريحة : ﴿ وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحق وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فاستجبتم لِي فَلاَ تَلُومُونِي ولوموا أَنفُسَكُمْ مَّآ أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾

[إبراهيم : 22] الآية .

ولقد علم عدو المسلمين أن أخطر سلاح على الإنسان ، هو الشك ولا طريق إليه إلا بالوسوسة ، فأخذ عن إبليس مهمته وراح يوسوس للمسلمين في دينهم وفي دنياهم ،

ويشككهم في قدرتهم على الحياة الكريمة مستقلين عنه ، ويشككهم في قدرتهم على التقدم والاستغلال الحقيقي ، بل وفي استطاعتهم على الإبداع والاختراع ، ليظلوا في فلكه ودائرة نفوذه ، فيبقى المسلمون يدورون في حلقة مفرغة ، يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى .

والمتشكك في نتيجة عمل لا يقدم عليه أبداً ، بل ما يبنيه اليوم يهدمه غداً ، وقد أعلن عن هذه النتيجة الخطيرة رئيس مؤتمر المستشرقين في الشرق الأوسط ، منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، حينما انعقد المؤتمر في [بيروت] لعرض نتائج أعمالهم ودراسة وأساليب تبشيرهم .

(216/840)

فتشكى المؤتمرون من أن لهم زهاء أربعين سنة من عملهم المتواصل ، ولم يستطيعوا أن ينصِّروا مسلماً ، واحداً ، فقال رئيس المؤتمر إذا لم نستطع أن ننصِّر مسلماً ، ولكن استطعنا أن نوجد ذبذبة في الرأي ، فقد نجحنا في عملنا .

وهكذا منهج العدو ، تشكيك في قضايا الإسلام ليوجد ذبذبة في عقيدة المسلمين ، فعن طريق الميراث تارة ، وعن طريق تعدد الزوجات أخرى ، وعن دوافع القتال ، وعن استرقاق الرقيق ، وعن وعن .

حتى وجد من أبناء المسلمين من يتخطى حدود الشك إلى التصديق ، وأخذ يدعو إلى ما يدعو إليه العدو ، وما ذاك كله إلا حصاد ونتائج الوسواس الخناس .

فلا غرو إذا أن تجمع الصفات الجليلة الثلاث : رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . هذه وجهة النظر الأولى بين سورتي الفلق والناس .

أما الوجهة الثانية وهي بين سورة الناس ونسق المصحف الشريف ، بقوله تعالى : ﴿ الحمد للَّهِ رَبِّ العالمين الرحمن الرحيم مالك يَوْمِ الدين إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهدنا الصراط المستقيم صِرَاطَ الذين أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة : 2-7] .

وفي هذه البداية الكريمة بث الطمأنينة في القلب المعبر عنها بالحمد ، عنوان الرضى والسعادة والإقرار لله بالربوبية ، ثم الإيمان بالبعث والإقرار لله بملك يوم الدين ، ثم الالتزام بالعبادة لله وحده والالتجاء إليه مستعينا به ، مستهديا الصراط المستقيم ، سائلاً صحبة الذين أنعم عليهم .

ثم يأتي بعدها مباشرة في أول سورة البقرة ﴿ ذَلِكَ الكتاب لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : 2] ، أي أن الهدى الذي تنشده إلى الصراط المستقيم ، فهو في هذا الكتاب لا

ريب فيه ، ثم بين المتقين الذي أنعم الله عليهم بقوله : ﴿ الذين يُؤْمِنُونَ بالغيب وَيُقِيمُونَ الصلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ والذين يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلِكَ وبالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة : 3-4] .

ورة أخرى للتأكيد : أولئك لا سواهم على هدى من ربك وأولئك هم المفلحون .

ثم تترسل السورة في تقسيم الناس إلى الأقسام الثلاثة : مؤمنين وكافرين ومذبذبين بين بين وهم المنافقون .

ثم يأتي النداء الصريح وهو أول نداء في المصحف لعموم الناس

﴿ ياأيها الناس اعبدوا رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة : 21] ، ويقيم البراهين على استحقاقه للعبادة وعلى إمكان البعث بقوله : ﴿ الذي خَلَقَكُمْ والذين مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الذي جَعَلَ لَكُمُ الأرض فِرَاشاً والسماء بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثمرات رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ للَّهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : 21-22] .

وبعد تقرير الأصل وهي العقيدة ، تمضي السورة في ذكر فروع الإسلام ، فتشتمل على أركان الإسلام كلها وعلى كثير من مسائل المعاملات والجهاد ، وقلَّ من أبواب الفقه إلا وله ذكر في هذه السورة ، ويأتي ما بعدها مبيناً لما أجمل فيها أو لما يذكر ضمنها .

وهكذا حتى ينتهي القرآن بكمال الشريعة وتمام الدين .

ولما جاء في وصف المتقين المهتدين في أول المصحف ، أنهم يؤمنون بالغيب ومنه الإيمان

باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب وثواب ، أمور الغيب تستلزم اليقين ، لترتب الجزاء عليه ثواباً أو عقاباً .

والثواب : والعقاب هما نتيجة الفعل والترك .

(218/840)

والفعل والترك : هما مناط التكليف ، لأن الإنسان يمتثل الأمر رجاء الثواب ، ويكف عن متعلق النهي مخافة العقاب .

فلكأن نسق المصحف يشير إلى ضرورة ما يجب الانتباه إليه ، من أن القرآن بدأ بالحمد ثناءً على الله بما أنعم على الإنسان بإنزاله ، وإرسال الرسول صاحبه به ، ثم نقله من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة ، وهو الأعظم قدراً وخطراً ، ثم رسم له الطريق الذي سلكه المهتدون أهل الإنعام والرضى ، ثم أوقفه عليه ليسلك سبيلهم .

وهكذا إلى أن جاء به بعد كمال البيان والإرشاد والهداية ، جاء به إلى نهاية هذا الصراط المستقيم ، فاستوقفه ليقول له إذا اطمأننت لهذا الدين ، وآمنت بالله رب العالمين ، واعتقدت مجيء يوم الدين ، وعرفت طريق المهتدين ورأيت أقسام الناس الثلاث مؤمنين وكافرين ومنافقين ، ونهاية كل منهم ، فالزم هذا الكتاب ، وسر على هذا الصراط ورافق

أهل الإنعام ، وجانب المغضوب عليهم والضالين ، واحذر من مسلك المنافقين المتشككين ، وحاذر كل الحذر من موجب ذلك كله ، وهو الوسواس الخناس ، أن يشككك في متعلقات الإيمان ، أو في استواء طريقك واستقامته أو في عصمة كتابك وكماله ، وكن على يقين مما أنت عليه ، ولا تنس خطره على أبويك من قبل ، وكن كسلفك الصالح إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون .

وقد علمت عداوته لك من بعد ، وعداوته ناشئة عن الحسد .

ولكأن ارتباط السورتين ليشير إلى منشأ تلك العداوة وارتباطها بها التحذير ، إذ في الأولى : ومن شر حاسد إذا حسد ، فحسد الشيطان آدم على إكرام الله إياه كما أسلفنا .

والعدو الحاسد لا يرضيه إلا زوال النعمة عن المحسود ، ولئن كانت توبة آدم هي سبيل نجاته ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 37] .

(219/840)

فنجاتك أيضاً في كلمات تستعيذ بها من عدوك : برب الناس ملك الناس إله الناس ، لأن الرب هو الذي يرحم عباده ، وملك الناس هو الذي يحميهم ويحفظهم ويحرسهم .

وإله الناس الذي يتألهون إليه ويتضرعون ويلوذون به سبحانه .

تنبيه

إذا كان هذا كله خطر الوسواس الخناس من الجنة والناس ، وهما عدو مشترك ومتربص حاقد حاسد ، فما طريق النجاة منه ؟

الذي يظهر ، والله تعالى أعلم : أن طريق النجاة تعتمد على أمرين :

الأول : يؤخذ من عمومات الكتاب والسنة .

والثاني : سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه .

أما الأول فهو : إذا كانت مهمة الوسوسة التشكيك والذبذبة والتردد ، فإن عمومات التكليف تلزم المسلم بالعزم واليقين والمضي دون تردد كما في قوله : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ [آل عمران : 159] ، وامتدح بعض الرسل بالعزم وأمر بالاقتداء بهم ﴿ فاصبر كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العزم مِنَ الرسل ﴾ [الأحقاف : 35] .

وقال : صلى الله عليه وسلم : " دع ما يريبك إلا ما لا يريبك " .

والقاعدة الفقيهة " اليقين لا يرفع بشك " .

والحديث : " يأتي الشيطان لأحدكم وهو في الصلاة فينفخ في مقعدته ، فيتخيل إليه أنه أحدث ولم يحدث ، فلا ينصرف حتى يسمع صوتاً ، أو يجد ريحاً " .

ومن هنا كانت التكاليف كلها على اليقين ، فالعقائد لا بد فيها من اليقين .

والفروع في العبادات لا بد فيها من النية " إنما الأعمال بالنيات " .

والشرط في النية الجزم واليقين ، فلو نرى الصلاة على أنه إن حضر فلان تركها ، لا تنعقد نيته ، ولو نوى صوماً أنه إن شاء أفطر ، لا ينعقد صومه .

ونص مالك في الموطإ ، أنه نوى ليوم الشك في ليلته الصوم غداً ، على أنه إن صح من رمضان فهو لرمضان ، وإلا فهو نافلة ، لا ينعقد صومه لا فرضاً ولا نفلاً حتى لو جاء رمضان لا يعتبر له منه ، وعليه قضاؤه لعدم الجزم بالنية .

والحج : لو نواه لزمه ولزمه المضي فيه ، ولا يملك الخروج منه باختباره .

(220/840)

وهكذا المعاملات في جميع العقود مبناها على الجزم حتى في المزح واللعب ، يؤاخذ في البعض كالنكاح والطلاق والعتاق .

فمن هذا كله ، كانت دوافع العزيمة مستقاة من التكاليف ، مما يقضي على نوازع الشك والتردد ، ولم يبق في قلب المؤمن جال لشك ولا محل لوسوسة .

وقد كان الشيطان يفر من طريق عمر رضي الله عنه .

أما الذي كنت سمعته من الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه فقوله : لقد علمنا الله كيفية اتقاء العدو من الإنس ومن الجن .

أما العدو من الإنس ففي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الحسنة وَلَا السيئة ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الذي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : 34] .

فدل على أن مقابلة إساءة العدو بالإحسان إليه تذهب عداوته ، وتكسب صداقته ، كما قال تعالى : ﴿ ادفع بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ السيئة .

وأما عدو الجن ففي قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشيطان نَزْغٌ فاستعذ بالله إِنَّهُ هُوَ السميع العليم ﴾

[فصلت : 36] .

وهو ما يدل عليه ما تقدم من الآثار من أن الشيطان يخنس إذا سمع ذكر الله .

وعلى قوله رحمه الله : فإن شيطان الجن يندفع بالاستعاذة منه بالله ، ويكفيه ذلك ، لأن كيد الشيطان كان ضعيفاً .

أما شيطان الإنس فهو في حاجة إلى مصانعة ومدافعة والصبر عليه ، كما يرشد إليه قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الذين صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : 35] .

رزقنا الله تعالى وجميع المسلمين حظاً عظيماً في الدنيا والآخرة ، إنه المسؤول ، وخير مأمول .

روى ابن كثير حديث أبي سعيد رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "

كان يتعوذ من أعين الجن والإنس ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما " رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(221/840)

وروي عن عبد الله الأسلمي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده على صدره ثم قال : " قل " فلم أدر ما أقول .

ثم قال لي : " قل " فقلت : هو الله أحد ، ثم قال لي : قل . قلت : أعوذ برب الفلق من شر ما خلق حتى فرغت منها ، ثم قال لي قل . قلت : أعوذ برب الناس حتى فرغت منها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هكذا فتعوّذ . وما تعوَّذ المتعوذون بمثلهن قط " .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله وسلم على أفضل خلقه وأكرمهم عليه ، من اصطفاه لرسالته وشرفنا ببعثته ، وختم به رسله وكرَّمنا به وهدانا لاتباعه ، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وعلينا معهم أجمعين . إنه سميع مجيب . انتهى انتهى . اهـ ﴿أضواء البيان حـ 9 صـ ﴾

(222/840)

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ مِن شَرِّ الوسواس الخناس ﴾ [4]

قيل لسهل : ما الوسوسة ؟ فقال : كل شيء دون الله تعالى فهو وسوسة ، وإن القلب إذا كان مع الله تعالى فهو قائل عن الله تعالى ، وإذا كان مع غيره فهو قائل مع غيره .

ثم قال : من أراد الدنيا لم ينج من الوسوسة ، ومقام الوسوسة من العبد مقام النفس الأمارة بالسوء ، وهو ذكر الطبع ، فوسوسة العدو في الصدور .

كما قال : ﴿ يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس مِنَ الجنة والناس ﴾ [5-6] يعني في صدور الجن والإنس جميعاً ، ووسوسة النفس في القلب .

قال الله تعالى : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16] وإن معرفة النفس أخفى من معرفة العدو ، ومعرفة العدو أجلى من معرفة الدنيا ، وأسر العدو معرفته ، فإذا عرفته فقد أسرته ، وإن لم تعرف أنه العدو وأسرك فإنما مثل العبد والعدو والدنيا كمثل الصياد والطير والحبوب ، فالصياد إبليس ، والطير العبد ، والحبوب الدنيا ، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع ، فإن كنت صائماً فأردت أن تفطر قال لك : ما يقول الناس ، أنت قد عُرفت بالصوم تركت الصيام .

فإن قلت : ما لي وللناس .

قال لك : صدقت أفطر ، فإنهم سيضعون أمرك على الحسبة والإخلاص في فطرك ، وإن كنت عرفت بالعزلة فخرجت .

قال : ما يقول الناس ، تركت العزلة .

فإن قلت : ما لي وللناس .

قال : صدقت اخرج فإنهم سيضعون أمرك على الإخلاص والحسبة .

وكذلك في كل شيء من أمرك ، يردك إلى الناس حتى كأنه ليأمرك بالتواضع للشهرة عند الناس .

ولقد حكي أن رجلاً من العباد كان لا يغضب ، فأتاه الشيطان وقال : إنك إن تغضب وتصبر كان أعظم لأجرك .

ففطن به العابد فقال : وكيف يجيء الغضب ؟ قال : آتيك بشيء فأقول : لمن هو ؟ فقل : هو لي ، فأقول : بل هو لي .

فأتاه بشيء وقال العابد : هو لي ، فقال الشيطان : لا بل هو لي .

فقال العابد : إن كان لك فاذهب به ، ولم يغضب ، فرجع الشيطان خائباً حزيناً ، أراد أن يشغل قلبه حتى يصيب منه حاجته ، فعرفه واتقى غرورة .

ثم قال سهل : عليك بالإخلاص تسلم من الوسوسة ، وإياك والتدبير فإنه داء النفس ، وعليك بالاقتداء فإنه أساس العمل ، وإياك والعجب فإن أدنى باب منه لم تستتمه حتى تدخل النار ، وعليك بالقنوع والرضا ، فإن العيش فيهما ، وإياك والائتمار على غيرك ، فإنه لينسيك نفسك ، وعليك بالصمت ، فأنت تعرف الأحوال فيه ، وعليك بترك الشهوات تنقطع به عن الدنيا ، وعليك بسهر الليل تموت نفسك من ميلة طبعك وتحيي قلبك ، وإذا صليت فاجعلها وداعاً ، وخف الله يؤمنك وارجهُ يؤملك ، واتكل عليه يَكفِك ، وعليك بالخلوة تنقطع الآفات عنك .

ولقد قال ابن عباس رضي الله عنهما : لولا مخافة الوسواس لرحلت إلى بلاد لا أنيس بها ، وهل يفسد الناس إلا الناس .

ثم قال سهل : مخالطة الولي بالناس ذل ، وتفرده عزّ ، وما رأيت أولياء الله تعالى إلا منفردين ، إن عبد الله بن صالح رحمه الله كان رجلاً له سابقة جليلة وموهبة جزيلة ، وكان يفرّ من بلد إلى بلد ، حتى يأتي مكة ، فطال بها مقامه ، فقلت له : لقد طال مقامك بها .

فقال : ولم لا أقيم بها ، ولم أر بقعة ينزل فيها من الرحمة والبركة مثلها يطوف الملائكة حول البيت غدواً وعشية على صور شتى ، لا يقطعون ذلك ، وإن فيها عجائب كثيرة ، ولو

قلت كلما رأيت لصغرت عنه قلوب أقوام ليسوا بمؤمنين .

فقلت : أسألك بحق الحق أن تخبرني بشيء من ذلك .

فقال : ما من ولي لله تعالى صحّت ولايته إلا وهو يحضر في هذه البلد في كل ليلة جمعة ، ولقد رأيت رجلاً يقال له مالك بن القاسم الجبلي رحمه الله تعالى ليلة ها هنا ورايت على يده غمراً فقلت : إنك لقريب العهد بالأكل .

(224/840)

فقال : أستغفر الله فإني منذ أسبوع لم أطعم شيئاً ، ولكني أطعمت والدتي وأسرعت لأدرك صلاة الفجر ها هنا جماعة ، وبين مكة وبين الموضع الذي جاء منه سبعمائة فرسخ ، فهل أنت مؤمن بذلك ؟ فقلت : بلى .

فقال : الحمد لله الذي أراني مؤمناً مؤمناً .

وقال ابن سالم : كنت عند سهل رحمه الله تعالى ، فأتاه رجلان بعد صلاة العصر ، وجعلا يحدثانه ، فقلت في نفسي : لقد أبطأا عنده ، وما أراهما يرجعان في هذا الوقت ، وذهبت إلى منزلي لأهيئ لهما عشاء ، فلما رجعت إليه لم أر عنده أحداً ، فسألت عن حالهما ، فقال : إن أحدهما يصلي المغرب بالمشرق ، والآخر بالمغرب ، وإنما أتياني زائرين .

ولقد دخل سهل على رجل من عباد البصرة ، فرأى عنده بلبلة في قفص ، فقال : لمن هذه البلبلة ؟ فقال : لهذا الصبي ، كان ابناً له ، قال : فأخرج سهل من كمه دينار فقال : بني أيما أحب إليك الدينار أم البلبلة ؟ فقال : الدينار .

فدفع إليه الدينار وأطلق البلبلة .

قال : فقعد البلبل على حائط الدار حتى خرج سهل ، فجعل يرفرف فوق رأسه ، حتى دخل سهل داره ، وكان في داره سدرة فسكنت البلبلة السدرة ، فلم تزل فيها حتى مات ، فلما رفعوا جنازته جعلت ترفرف فوق جنازته والناس يبكون ، حتى جاؤوا بها إلى قبره ، فوقفت في ناحية حتى دفن وتفرق الناس عن قبره ، فلم تزل تضطرب على قبره حتى ماتت ، فدفنت بجنبه .

والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 212.211 ﴾

(225/840)

فائدة

قال الشيخ الشنقيطى :

قوله : ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾

لا يخفى ما بين هذين الوصفين اللذين وصف الله بهما هذا اللعين الخبيث من التنافي لأن الوسواس كثير الوسوسة ليضل بها الناس والخناس كثير التأخر والرجوع عن إضلال الناس .

والجواب : أن لكل مقام مقالاً ؛ فهو وسواس عند غفلة العبد عن ذكر ربه خناس عند ذكر العبد ربه تعالى كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . الآية .

وقد تم بحمد الله تعالى ما أردنا جمعه بمدينة النبي صلى الله عليه وسلم ونرجو الله تعالى أن يوفقنا وإخواننا المسلمين في الأقوال والأفعال وأن يجعل سعينا خالصاً لوجهه الكريم إنه قريب مجيب آمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم . انتهى ا . هـ ﴿ دفع إيهام الاضطراب صـ 350 ﴾

(226/840)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: أنزل بالمدينة ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾.

وأخرج ابن مردويه عن الحكم بن عمير الثمالي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الحذر أيها الناس، وإياكم والوسواس الخناس، فإنما يبلوكم أيكم أحسن عملاً".

وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه قال: أول ما يبدأ الوسواس من الوضوء.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مغفل قال: البول في المغتسل يأخذ منه الوسواس.

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مرة رضي الله عنه قال: ما وسوسة بأولع ممن يراها تعمل فيه.

وأخرج أبو بكر بن أبي داود في كتاب ذم الوسوسة عن معاوية بن أبي طلحة قال: كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم اللهم: "اعمر قلبي من وسواس ذكرك واطرد عني وسواس الشيطان".

وأخرج ابن أبي داود في كتاب ذم الوسوسة عن معاوية في قوله: ﴿ الوسواس الخناس ﴾ قال: مثل الشيطان كمثل ابن عرس واضع فمه على فم القلب فيوسوس إليه فإذا ذكر الله

خنس، وإن سكت عاد إليه فهو ﴿ الوسواس الخناس ﴾ .

وأخرج ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان وأبو يعلى وابن شاهين في الترغيب في الذكر والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس عن النبي قال: "إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نسي التقم قلبه فذلك ﴿ الوسواس الخناس ﴾ ".

وأخرج ابن شاهين عن أنس: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن للوسواس خطماً كخطم الطائر فإذا غفل ابن آدم وضع ذلك المنقار في أذن القلب يوسوس، فإن ابن آدم ذكر الله نكص وخنس فلذلك سمي ﴿ الوسواس الخناس ﴾ ".

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس في قوله: ﴿ الوسواس الخناس ﴾ قال: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس.

وأخرج ابن أبي الدنيا وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: ما من مولود يولد إلا على قلبه الوسواس فإذا ذكر الله خنس، وإذا غفل وسوس، فلذلك قوله: ﴿ الوسواس الخناس ﴾ .

وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : الخناس الذي يوسوس مرة ويخنس مرة من الجن والإِنس ، وكان يقال شيطان الإِنس أشد على الناس من شيطان الجن ، شيطان الجن يوسوس ولا تراه وهذا يعاينك معاينة .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن يحيى بن أبي كثير قال : إن الوسواس له باب في صدر ابن آدم يوسوس منه .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي الدنيا وابن المنذر عن عروة بن رويم أن عيسى ابن مريم عليهما السلام دعا ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم فجلى له فإذا رأسه مثل رأس الحية واضعاً رأسه على ثمرة القلب ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا لم يذكره وضع رأسه على ثمرة قلبه فحدثه .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : الوسواس محله على فؤاد الإِنسان وفي عينه وفي ذكره ومحله من المرأة في عينها وفي فرجها إذا أقبلت ، وفي دبرها إذا أدبرت هذه مجالسه .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله : ﴿ من الجنة والناس ﴾ قال : هما وسواسان فوسواس من الجنة وهو الجن ، ووسواس نفس الإِنسان فهو قوله ﴿ والناس ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة في قوله : ﴿ من الجنة والناس ﴾ قال : إن من الناس شياطين فنعوذ بالله من شياطين الإِنس والجن .

ذكر ما ورد في سورة الخلع وسورة الحفد

قال ابن الضريس في فضائله : أخبرنا موسى بن اسمعيل ، أنبأنا حماد قال : قرأنا في مصحف أبي بن كعب : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك الخير ، ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك قال حماد : هذه الآن سورة ، وأحسبه قال : اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نخشى عذابك ، ونرجو رحمتك ، إن عذابك بالكفار ملحق .

(228/840)

وأخرج ابن الضريس عن عبد الله بن عبد الرحمن عن أبيه قال : صليت خلف عمر بن الخطاب فلما فرغ من السورة الثانية قال : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثني عليك الخير كله ، ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك بالكفار ملحق . وفي مصحف ابن عباس قراءة أبيّ وأبي موسى : بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك الخير ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك . وفي مصحف حجر : اللهم إنا نستعينك ، وفي مصحف ابن عباس قراءة أبيّ وأبي موسى : اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد ، نخشى عذابك ونرجو رحمتك ، إن عذابك بالكفار

ملحق .

وأخرج أبو الحسن القطان في المطوّلات عن أبان بن أبي عياش قال : سألت أنس بن مالك عن الكلام في القنوت فقال : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك الخير ولا نكفرك ، ونؤمن بك ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك الجدّ إن عذابك بالكفار ملحق . قال أنس : والله إن أنزلتا إلا من السماء .

وأخرج محمد بن نصر والطحاوي عن ابن عباس إن عمر بن الخطاب كان يقنت بالسورتين : اللهم إياك نعبد ، واللهم إنا نستعينك .

وأخرج محمد بن نصر عن عبد الرحمن بن أبزى قال : قنت عمر رضي الله عنه بالسورتين .

وأخرج محمد بن نصر عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن عمر قنت بهاتين السورتين : اللهم إنا نستعينك ، واللهم إياك نعبد .

وأخرج البيهقي عن خالد بن أبي عمران قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على مضر إذ جاءه جبريل فأومأ إليه أن اسكت فسكت ، فقال يا محمد : إن الله لم يبعثك

سباباً ولا لعاناً ، وإنما بعثك رحمة للعالمين ، ولم يبعثك عذاباً ، ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ، ثم علمه هذا القنوت : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونخضع لك ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، إليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك الجد بالكفار ملحق .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف ومحمد بن نصر والبيهقي في سننه عن عبيد بن عمير أن عمر بن الخطاب قنت بعد الركوع فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، ولك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك بالكفار ملحق . وزعم عبيد أنه بلغه أنهما سورتان من القرآن في مصحف ابن مسعود .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الملك بن سويد الكاهلي أن علياً قنت في الفجر بهاتين السورتين : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثني عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك . اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك بالكفار ملحق .

وأخرج ابن أبي شيبة ومحمد بن نصر عن ميمون بن مهران قال : في قراءة أبيّ بن كعب : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثني عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك

نعبد ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك بالكفار ملحق .

(230/840)

وأخرج محمد بن نصر عن ابن إسحق قال : قرأت في مصحف أبيّ بن كعب بالكتاب الأول العتيق : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قل هو الله أحد ﴾ إلى آخرها بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ إلى آخرها بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ إلى آخرها بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ، ونثني عليك الخير ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك . بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك ، إن عذابك بالكفار ملحق بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم لا تنزع ما تعطي ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، سبحانك وغفرانك وحنانيك إله الحق .

وأخرج محمد بن نصر عن يزيد بن حبيب قال : بعث عبد العزيز بن مروان إلى عبد الله بن رزين الغافقي فقال له : والله إني لأراك جافياً ، ما أراك تقرأ القرآن ؟ قال : بلى ، والله إني لأقرأ القرآن ، وأقرأ منه ما لا تقرأ به .

فقال له عبد العزيز : وما الذي لا أقرأ به من القرآن ؟ قال : القنوت . حدثني علي بن أبي طالب أنه من القرآن .

وأخرج محمد بن نصر عن عطاء بن السائب قال : كان أبو عبد الرحمن يقرئنا : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك الخير ، ولا نكفرك ، ونؤمن بك ونخلع ونترك من يفجرك اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك الجد ، إن عذابك بالكفار ملحق . وزعم أبو عبد الرحمن أن ابن مسعود كان يقرئهم إياها ، ويزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم إياها .

وأخرج محمد بن نصر عن الشعبي قال : قرأت ، أو حدثني من قرأ في بعض مصاحف أبيّ بن كعب هاتين السورتين : اللهم إنا نستعينك . والأخرى بينهما بسم الله الرحمن الرحيم قبلهما سورتان من المفصل وبعدهما سور من المفصل .

وأخرج محمد بن نصر عن سفيان قال : كانوا يستحبون أن يجعلوا في قنوت الوتر هاتين السورتين : اللهم إنا نستعينك ، واللهم إياك نعبد .

وأخرج محمد بن نصر عن إبراهيم قال : يقرأ في الوتر السورتين اللهم إياك نعبد ، اللهم إنا

نستعينك ونستغفرك .

وأخرج محمد بن نصر عن خصيف قال : سألت عطاء بن أبي رباح أي شيء أقول في القنوت قال : هاتين السورتين اللتين في قراءة أبيّ : اللهم إنا نستعينك واللهم إياك نعبد .

وأخرج محمد بن نصر عن الحسن قال : نبدأ في القنوت بالسورتين ، ثم ندعو على الكفار ، ثم ندعو للمؤمنين والمؤمنات .

وأخرج البخاري في تاريخه عن الحارث بن معاقب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : في صلاة من الصلوات : " بسم الله الرحمن الرحيم غفار غفر الله لها ، واسلم سالمها الله ، وشيء من جهينة وشيء من مزينة وعصية عصت الله ورسوله ، ورعل وذكوان ما أنا قلته الله قاله " قال الحارث فاختصم ناس من أسلم وغفار فقال الأسلميون بدأ باسلم ، وقال غفار بدأ بغفار قال الحارث : فسألت أبا هريرة فقال بدأ بغفار .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن خفاف بن ايماء بن رحضة الغفاري قال : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفجر فلما رفع رأسه من الركعة الآخرة قال : " لعن الله لحياناً ورعلاً وذكوان وعصية عصت الله ورسوله أسلم سالمها الله ، غفار غفر الله لها ، ثم خر ساجداً . فلما قضى الصلاة أقبل على الناس بوجهه فقال : أيها الناس إني لست قلت هذا ، ولكن الله قاله " .

ذكر دعاء ختم القرآن

أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ختم القرآن دعا قائماً .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من قرأ القرآن وحمد الرب وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم واستغفر ربه فقد طلب الخير مكانه " .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن أبي جعفر قال : كان علي بن حسين يذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ختم القرآن حمد الله بمحامده وهو قائم ، ثم يقول : " الحمد لله رب العالمين ، الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، لا إله إلا الله ، وكذب العادلون بالله ، وضلوا ضلالاً بعيداً ، لا إله إلا الله ، وكذب المشركون بالله من العرب والمجوس واليهود والنصارى والصابئين ومن دعا لله ولداً أو صاحبة أو نداً أو شبيهاً أو مثلاً أو سمياً أو عدلاً ، فأنت ربنا أعظم من أن تتخذ شريكاً فيما خلقت ، والحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولم يكن له شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً الله الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ،

وسبحان الله بكرة وأصيلاً والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب إلى قوله إلا كذباً . الحمد الله الذي له ما في السموات وما في الأرض الآيتين : الحمد لله فاطر السموات والأرض الآيتين ، الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خير أما يشركون بل الله خير وأبقى وأحكم وأكرم وأعظم مما يشركون ، فالحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ، صدق الله وبلغت رسله ، وأنا على ذلك من الشاهدين ، اللهم صلّ على جميع الملائكة والمرسلين وارحم عبادك المؤمنين من أهل السموات والأرضين ، واختم لنا بخير ، وافتح لنا بخير ، وبارك لنا في القرآن العظيم ، وانفعنا بالآيات والذكر الحكيم . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم " .

وأخرج ابن الضريس عن عبد الله بن مسعود قال : من ختم القرآن فله دعوة مستجابة .

وأخرج ابن مردويه عن عطاء الخراساني عن ابن عباس قال : جميع سور القرآن مائة وثلاث عشرة سورة المكية خمس وثمانون سورة ، والمدنية ثمانية وعشرون سورة ، وجميع آي القرآن ستة آلاف آية وست عشرة آية ، وجميع حروف القرآن ثلاثمائة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألف حرف وستمائة حرف وأحد وسبعون حرفاً .

وأخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القرآن ألف ألف حرف وسبعة وعشرون ألف حرف ، فمن قرأه صابراً محتسباً فله بكل حرف زوجة من الحور العين " قال بعض العلماء هذا العدد باعتبار ما كان قرآناً ونسخ رسمه ، وإلا فالموجود الآن لا يبلغ هذه العدة . قال الحافظ ابن حجر رضي الله عنه في أول كتابه أسباب النزول وسماه العجاب في بيان الأسباب : الذين اعتنوا بجمع التفسير المسند من طبقة الأئمة الستة أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، ويليه أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري ، وأبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم بن إدريس الرازي ، ومن طبقة شيوخهم عبد بن حميد بن نصر الكشي ، فهذه التفاسير الأربعة قل أن يشذ عنها شيء من التفسير المرفوع والموقوف على الصحابة والمقطوع عن التابعين ، وقد أضاف الطبري إلى النقل المستوعب أشياء لم يشاركوه فيها كاستيعاب القراءات والإعراب والكلام في أكثر الآيات على المعاني والتصدي لترجيح بعض الأقوال على بعض ، وكل من صنف بعده لم يجتمع له ما اجتمع فيه لأنه في هذه الأمور في مرتبة متقاربة وغيره يغلب عليه فن من الفنون فيمتاز فيه ويقصر فى غيره ، والذين اشتهر عنهم القول في ذلك من التابعين أصحاب ابن عباس رضي الله عنهما وفيهم ثقات وضعفاء .

فمن الثقات مجاهد وابن جبير ، ويروى التفسير عنه من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد رضي الله عنه ، والطريق إلى ابن أبي نجيح قوية ، ومنهم عكرمة ويروي التفسير عنه من طريق الحسن بن واقد عن يزيد النحوي عنه ، ومن طريق محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير ، هكذا بالشك ، ولا يضر لكونه عن ثقة ، ومن طريق معاوية بن صالح عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وعلي صدوق ، ولم يلق ابن عباس لكنه إنما حمل عن ثقات أصحابه ، فلذلك كان البخاري وأبو حاتم وغيرهما يعتمدون على هذه النسخة ، ومن طريق ابن جريج رضي الله عنه عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس لكن فيما يتعلق بالبقرة وآل عمران وما عدا ذلك يكون عطاء رضي الله عنه هو الخراساني ، وهو لم يسمع من ابن عباس رضي الله عنهما فيكون منقطعاً إلا أن صرح ابن جريج بأنه عطاء بن أبي رباح ومن روايات الضعفاء عن ابن عباس رضي الله عنهما التفسير المنسوب لأبي النصر محمد بن السائب الكلبي فإنه يرويه عن أبي صالح ، وهو مولى أم هانىء عن ابن عباس ، والكلبي اتهموه بالكذب ، وقد مرض فقال لأصحابه في مرضه : كل شيء حدثتكم عن أبي صالح كذب ، ومع ضعف الكلبي قد روي عنه تفسير مثله أو أشد ضعفاً وهو محمد بن مروان السدي الصغير ، ورواه عن محمد بن مروان مثله ، أو أشد ضعفاً وهو صالح بن محمد الترمذي ، وممن روى التفسير عن

الكلبي من الثقات سفيان الثوري ومحمد بن فضيل بن غزوان . ومن الضعفاء من قبل الحفظ جبان بكسر المهملة وتثقيل الموحدة وهو ابن علي العنزي بفتح المهملة والنون بعدها زاي منقوطة ، ومنهم جويبر بن سعيد وهو واه روى التفسير عن الضحاك بن مزاحم وهو صدوق عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ولم يسمع منه شيئاً .

وممن روى التفسير عن الضحاك علي بن الحكم وهو ثقة ، وعلي بن سليمان وهو صدوق ، وأبو روق عطية بن الحرث وهو لا بأس به . ومنهم عثمان بن عطاء الخراساني رضي الله عنه يروي التفسير عن أبيه عن ابن عباس . ولم يسمع أبوه من ابن عباس . ومنهم إسمعيل بن عبد الرحمن السدي بضم المهملة وتشديد الدال ، وهو كوفي صدوق ، ولكنه جمع التفسير من طرق منها عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة بن شراحيل عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم وخلط روايات الجميع فلم تتميز روايات الثقة من الضعيف . ولم يلق السدي من الصحابة إلا أنس بن مالك وربما التبس بالسدي الصغير الذي تقدم ذكره . ومنهم إبراهيم بن الحكم بن أبان العدني وهو ضعيف يروي التفسير عن أبيه عن عكرمة ، وإنما ضعفوه لأنه وصل كثيراً من الأحاديث بذكر ابن عباس ، وقد روى

عنه تفسيره عبد بن حميد . ومنهم إسمعيل بن أبي زياد الشامي وهو ضعيف جمع تفسيراً كثيراً فيه الصحيح والسقيم ، وهو في عصر أتباع التابعين . ومنهم عطاء بن دينار رضي الله عنه وفيه لين يروي التفسير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير رواه عنه ابن لهيعة وهو ضعيف . ومن تفاسير التابعين ما يروى عن قتادة رضي الله عنه وهو من طرق منها رواية عبد الرزاق عن معمر عنه ورواية آدم بن أبي إياس وغيره عن شيبان عنه ، ورواية يزيد بن زريع عن سعيد بن أبي عروبة ، ومن تفاسيرهم تفسير الربيع بن أنس عن أبي العالية واسمه رفيع بالتصغير الرياحي بالمثناة التحتية والحاء المهملة وبعضه لا يسمى الربيع فوقه أحداً وهو يروي من طرق منها رواية أبي عبيد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عنه ، ومنها تفاسير مقاتل بن حيان من طريق محمد بن مزاحم بن بكير بن معروف عنه ، ومقاتل هذا صدوق ، وهو غير مقاتل بن سليمان الآتي ذكره ، ومن تفاسير ضعفاء التابعين فمن بعدهم تفسير زيد بن أسلم من رواية ابنه عبد الرحمن عنه ، وهي نسخة كبيرة يرويها ابن

وهب وغيره عن عبد الرحمن عن أبيه وعن غير أبيه ، وفيه أشياء كثيرة لا يسندها لأحد وعبد الرحمن من الضعفاء وأبوه من الثقات ، ومنها تفسير مقاتل بن سليمان وقد نسبوه إلى الكذب . وقال الشافعي رضي الله عنه : مقاتل قاتله الله تعالى . وإنما قال الشافعي رضي الله عنه فيه ذلك لأنه اشتهر عنه القول بالتجسيم ، وروى تفسير مقاتل هذا عنه أبو عصمة نوح بن أبي مريم الجامع وقد نسبوه إلى الكذب ، ورواه أيضاً عن مقاتل الحكم بن هذيل وهو ضعيف ، لكنه أصلح حالاً من أبي عصمة ومنها تفسير يحيى بن سلام المغربي وهو كبير في نحو ستة أسفار أكثر فيه النقل عن التابعين وغيرهم ، وهو لين الحديث ، وفيما يرويه مناكير كثيرة ، وشيوخه مثل سعيد بن أبي عروبة ومالك والثوري ، ويقرب منه تفسير سنيد بمهملة ونون مصغر واسمه الحسين بن داود ، وهو من طبقة شيوخ الأئمة الستة ، يروي عن حجاج بن محمد المصيصي كثيراً وعن انظاره ، وفيه لين ، وتفسيره نحو تفسير يحيى بن سلام ، وقد أكثر ابن جريج التخريج منه ومن التفاسير الواهية لوهاء رواتها التفسير الذي جمعه موسى بن عبد الرحمن الثقفي الصنعاني ، وهو قدر مجلدين يسنده إلى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وقد نسب ابن حبان موسى هذا إلى وضع الحديث ورواه عن موسى عبد الغني بن سعيد الثقفي وهو ضعيف ، وقد يوجد كثير من أسباب النزول في كتب المغازي ، فما كان منها من رواية معتمر بن سليمان عن أبيه أو من رواية اسمعيل بن إبراهيم بن عقبة عن عمه موسى بن عقبة ، فهو أصلح مما فيها من كتاب محمد بن إسحق ، وما كان من رواية ابن إسحق أمثل مما فيها من رواية الواقدي انتهى . قال مؤلفه رضي الله عنه وتقبل الله منه صنيعه : فرغت من تبييضه يوم عيد الفطر سنة ثمان وتسعين وثمانمائة ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيراً إلى يوم الدين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 8 صـ 693.702 ﴾

(238/840)

ومن فوائد ابن العربى فى السورتين الكريمتين

قال رحمه الله :

سُورَةُ الْفَلَقِ وَالنَّاسِ [فِيهِمَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ] :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى فِي سَبَبِ نُزُولِهِمَا : رُوِيَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُحِرَ حَتَّى

كَانَ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ كَانَ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَلَا يَفْعَلُهُ ، فَمَكَثَ كَذَلِكَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَمْكُثَ ، ثُمَّ قَالَ : يَا عَائِشَةُ ، أَشَعَرْتِ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ ؟ أَتَانِي مَلَكَانِ ، فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي ، وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِيَّ قَالَ الَّذِي عِنْدَ رَأْسِي لِلَّذِي عِنْدَ رِجْلِي : مَا شَأْنُ الرَّجُلِ ؟ قَالَ : مَطْبُوبٌ .

قَالَ : وَمَنْ طَبَّهُ ؟ قَالَ : لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ .

فَقَالَ : فَبِمَاذَا ؟ قَالَ : فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ ، فِي جُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ ، تَحْتَ رَاعُوفَةٍ فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ .

فَجَاءَ الْبِئْرَ وَاسْتَخْرَجَهُ ﴾ .

انْتَهَى الصَّحِيحُ زَادَ غَيْرُهُ : ﴿ فَوَجَدَ فِيهَا إِحْدَى عَشْرَ عُقْدَةً ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ إِحْدَى عَشْرَ آيَةً ، فَجَعَلَ كُلَّمَا قَرَأَ آيَةً انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ ، حَتَّى انْحَلَّتْ الْعُقَدُ ، وَقَامَ كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالٍ ﴾ .

أَفَادَنِيهَا شَيْخُنَا الزَّاهِدُ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَدْرَانَ الصُّوفِيِّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ : رُوِيَ أَنَّهُ الذَّكَرُ .

وَرُوِيَ أَنَّهُ اللَّيْلُ .

وَرُوِيَ أَنَّهُ الْقَمَرُ ، وَذَلِكَ صَحِيحٌ خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ .

وَوَجْهُ أَنَّهُ الذَّكَرُ أَوْ اللَّيْلُ لَا يَخْفَى .

وَوَجْهُ أَنَّهُ الْقَمَرُ لِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ جِهَةِ الْجَهْلِ وَعِبَادَتِهِ وَاعْتِقَادِ الطَّبَائِعِيِّينَ أَنَّهُ يَفْعَلُ الْفَاكِهَةَ أَوْ تَنْفَعِلُ عَنْهُ، أَوْ لِأَنَّهُ إِذَا طَلَعَ بِاللَّيْلِ انْتَشَرَتْ عَنْهُ الْحَشَرَاتُ بِالْإِذَايَاتِ، وَهَذَا يَضْعُفُ لِأَجْلِ انْتِشَارِهَا بِاللَّيْلِ أَكْثَرَ مِنْ انْتِشَارِهَا بِالْقَمَرِ.

وَفِيمَا ذَكَرْنَا مَا يُغْنِي عَنِ الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ﴿ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ لَمْ أَرَ مِثْلَهُنَّ، فَذَكَرَ السُّورَتَيْنِ: الْفَلَقَ، وَالنَّاسَ ﴾ صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

وَفِي الصَّحِيحِ وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ كَانَ يَنْفُثُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الْمَرَضِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنْفُثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِهَا ﴾.

قُلْت لِلزُّهْرِيِّ: كَيْفَ يَنْفُثُ؟ قَالَ: يَنْفُثُ عَلَى يَدَيْهِ وَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ.

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ: قَالَ مَالِكٌ: هُمَا مِنْ الْقُرْآنِ.

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ.

قَالَ الْإِمَامُ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَدْ أَتَيْنَا عَلَى مَا شَرَطْنَا فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ حَسَبَ الْإِمْكَانِ عَلَى حَالِ الزَّمَانِ ، وَاَللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى عَوَارِضَ لَا تُعَارِضُ مَا بَيْنَ مَعَاشٍ [يُرَاشُ] ، وَمُسَاوَرَةِ عَدُوٍّ أَوْ هِرَاشٍ ، وَسَمَاعٍ لِلْحَدِيثِ لَيْسَ لَهُ دِفَاعٌ ، وَطَالِبٍ لَا بُدَّ مِنْ مُسَاعَدَتِهِ فِي الْمَطَالِبِ ، إلَى هِمَمٍ لِأَهْلِ هَذِهِ الْأَقْطَارِ قَاصِرَةٍ ، وَأَفْهَامٍ مُتَقَاصِرَةٍ ، وَتَقَاعُدٍ عَنْ الِاطِّلَاعِ إلَى بَقَاءِ الِاسْتِبْصَارِ ، وَاقْتِنَاعٍ بِالْقِشْرِ عَنْ اللُّبَابِ ، وَإِقْصَارٍ وَاجْتِزَاءٍ بِالنُّفَايَةِ عَنْ النُّقَاوَةِ ، وَزُهْدٍ فِي طَرِيقِ الْحَقَائِقِ ، بَيْدَ أَنَّهُ لَمْ يَسَعْنَا وَالْحَالَةُ هَذِهِ إلَّا نَشْرُ مَا جَمَعْنَاهُ ، وَنَثْرُ مَا وَعَيْنَاهُ ، وَالْإِمْسَاكُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِهِمْ وَلَا تَبْلُغُهُ إحَاطَتُهُمْ .

وَكَمُلَ الْقَوْلُ الْمُوجَزُ فِي التَّوْحِيدِ وَالْأَحْكَامِ ، وَالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ ، مِنْ عَرِيضِ بَيَانِهِ ، وَطَوِيلِ تِبْيَانِهِ ، وَكَثِيرِ بُرْهَانِهِ ، وَبَقِيَ الْقَوْلُ فِي عِلْمِ التَّذْكِيرِ وَهُوَ بَحْرٌ لَيْسَ لِمَدِّهِ حَدٌّ ، وَمَجْمُوعٌ لَا يَحْصُرُهُ الْعَدُّ ، وَقَدْ كُنَّا أَمْلَيْنَا عَلَيْكُمْ فِي ثَلَاثِينَ سَنَةً مَا لَوْ قُيِّضَ لَهُ تَحْصِيلٌ لَكَانَتْ لَهُ جُمْلَةٌ تَدُلُّ عَلَى التَّفْصِيلِ ، وَلَمَّا ذَهَبَ [بِهِ] الْمِقْدَارُ ، فَسَيَعْلَمُ الْغَافِلُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارُ .

وَاَللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ، وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

[قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ : انْتَهَى الْقَوْلُ فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَخَمْسِمِائَةٍ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا كَمَا هُوَ أَهْلُهُ] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 4 صـ ﴾

(242/840)

" فوائد لغوية وإعرابية فى السورة الكريمة "

قال السمين :

سورة الناس

مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3)

قوله : ﴿ مَلِكِ الناس إله الناس ﴾ : يجوزُ أَنْ يكونا وصفَيْنِ ل " ربِّ الناسِ " وأَنْ يكونا بَدَلَيْنِ ، وأَنْ يكونا عطفَ بيانٍ . قال الزمخشري : " فإنْ قلت : مَلِكِ الناس ، إلهِ الناس ، ما هما مِنْ ربُّ الناس؟ قلت : عطفُ بيانٍ كقولك : سيرةُ أبي حفصٍ عمرَ الفاروقِ ، بُيِّنَ بمَلِكِ الناس ، ثم زِيْدَ بياناً ؛ لأنه قد يُقال لغيره " ربُّ الناسِ " كقوله : ﴿ اتخذوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ الله ﴾ [التوبة : 31] . وقد يُقال : مَلِكُ الناس ، وأمَّا إلهُ الناس

فخاصٌّ لا شِرْكَةَ فيه، فَجُعِل غايةَ البيان" واعترض الشيخُ بأنَّ البيانَ بالجوامدِ . ويُجابُ عنه: بأنَّ هذا جارٍ مجرى الجوامِدِ . وقد تقدَّم في" الرحمن الرحيم" أولَ الفاتحةِ تقريرُه .

وقال الزمخشريُّ: " فإنْ قلتَ لِمَ قيل: " بربِّ الناسِ " مضافاً إليهم خاصةً؟ قلت: لأنَّ الاستعاذةَ وقعَتْ مِنْ شرِ المُوَسْوِسِ في صدورِ الناسِ فكأنه قيل: أعوذُ مِنْ شَرِّ المُوَسْوِسِ إلى الناس بربِّهم الذي يملكُ أمْرَهم " ثم قال: " فإنْ قلتَ: فهلاَّ اكْتُفِي بإظهارِ المضافِ إليه مرةً واحدة . قلت: لأنَّ عطفَ البيانِ فكان مَظِنَّةً للإِظهار " .

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4)

قوله: ﴿ الوسواس ﴾: قال الزمخشري: " اسمٌ بمعنى الوَسْوَسَةِ كالزَّلْزال بمعنى الزَّلْزَلة، وأمَّا المصدرُ فوِسْواسٌ بالكسرِ، كالزِّلْزال، والمرادُ به الشيطانُ سُمِّي بالمصدرِ كأنه وَسْوَسَةٌ في نفسِه، لأنها صَنْعَتُه وشُغْلُه . أو أُريد ذو الوَسْواس " انتهى . وقد مَضَى الكلامُ معه في أنَّ المكسورَ مصدرٌ، والمفتوحَ اسمٌ في الزلزلة فليُراجَعْ .

قوله ﴿ الخناس ﴾، أي: الرَّجَّاع، لأنه إذا ذُكِرَ اللَّهُ تعالى خَنَس وهو مثالُ مبالغةٍ من الخُنُوس . وقد تقدَّم اشتقاقُ هذه المادةِ في سورةِ التكوير .

الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5)

قوله : ﴿ الذى يُوَسْوِسُ ﴾ : يجوز جَرُّه نعتاً وبدلاً وبياناً لجَريانه مَجْرى الجوامِد ، ونصبُه ورفعُه على القطع .

مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)

قوله : ﴿ مِنَ الجنة ﴾ : فيه أوجهٌ ، أحدُها : أنه بدلٌ من " شَرِّ " بإعادة العاملِ ، أي : مِنْ شَرِّ الجنة . الثاني : أنه بدلٌ مِنْ ذي الوَسواس ؛ لأنَّ المُوَسْوِسَ من الجنِ والإِنس . الثالث : أنَّه حالٌ من الضمير في " يُوَسْوِسُ " أي : يُوَسْوِس حال كَوْنِه مِنْ هذين الجنسَيْن . الرابع : أنه بدلٌ من " الناس " وجَعَلَ " مِنْ " تَبْيينا . وأَطْلَقَ على الجنِّ اسمَ الناس ؛ لأنهم يتحرَّكون في مُراداتهم ، قاله أبو البقاء . إلاَّ أنَّ الزمخشري أبطلَ فقال بعد أَنْ حكاه : " واسْتَدَلُّوا ب ﴿ نَفَرٌ ﴾ [الجن : 1] و ﴿ رِجَالٌ ﴾ [الجن : 6] ما أحقَّه ؛ لأن الجنَّ سُمُّوا جِنّاً لاجتنانِهم والناسَ ناساً لظهورِهم ، من الإِيناس وهو الإِبصار ، كما سُمُّوا بَشَراً . ولو كان يقع الناسُ على القبيلَيْن وصَحَّ وثَبَتَ لم يكن مناسِباً لفصاحةِ القرآن وبعده مِنَ التَصَنُّع ، وأَجْوَدَ من أن يرادَ بالناس الناسي كقولِه : ﴿ يَوْمَ يَدْعُ الداع ﴾ القمر : 6] وكما قرئ ﴿ مِنْ حيث أفاضَ الناسي ﴾ ثم بُيِّنَ بالجنة والناس ؛ لأنَّ الثَّقَلَيْن هما النوعان الموصوفان بنِسْيان حَقِّ اللَّهِ تعالى " قلت : يعني أنه اجتُزِئ بالكسرةِ عن الياء ، والمرادُ اسمُ الفاعلِ ، وقد تقدَّم تحقيق هذا في البقرة ، وأُنْشِدْتُ عليه هناك شيئاً من الشواهد .

الخامس: أنه بيانٌ للذي يوسوسُ، على أن الشيطان ضربان: إنسِيٌّ وجنيٌّ، كما قال ﴿ شَيَاطِينَ الإنس والجن ﴾ [الأنعام: 112]. وعن أبي ذر: أنه قال لرجل: هل اسْتَعَذْتَ من شياطين الإنس؟ السادس: أنَّه يتعلَّق ب"يُوَسْوِس" و"مِنْ" لابتداءِ الغاية، أي: يُوَسْوِسُ في صدورهم من جهة الجنّ ومِنْ جهة الإنس. السابع: أنَّ "والناس" عطفٌ على "الوَسْوَاس" أي: مِنْ شرِّ الوَسْواس والناس. ولا يجوز عطفُه على الجنَّة؛ لأنَّ الناسَ لا يُوَسْوِسُوْنَ في صدورِ الناس إنما يُوَسْوِس الجنُّ، فلمَّا استحالَ المعنى حُمِل على العطف على الوَسْواس، قاله مكي وفيه بُعْدٌ كبيرٌ للَّبْسِ الحاصلِ. وقد تقدَّمَ أنَّ الناسَ يُوَسْوِسون أيضاً بمعنىً يليقُ بهم.

الثامن: أنَّ ﴿ مِنَ الجنة ﴾ حالٌ من "الناس"، أي: كائنين من القبيلين، قاله أبو البقاء، ولم يُبَيِّنْ: أيُّ الناسِ المتقدمُ أنه صاحبُ الحالِ؟ وعلى كلِّ تقديرٍ فلا يَصِحُّ معنى الحاليةِ [في شيءٍ منها]، لا الأولُ ولا ما بعدَه. ثم قال: "وقيل: هو معطوف على الجنَّة" يريد "والناسِ" الأخيرَ معطوفٌ على "الجنة" وهذا الكلامُ يَسْتدعي تقدُّمَ شيءٍ قبلَه: وهو أَنْ يكونَ "الناس" عطفاً على غيرِ الجنة كما قال به مكي ثم يقول: "وقيل هو معطوفٌ على"

الجِنة " وفي الجملة فهو كلامٌ متسامَحٌ فيه [سامَحَنا الله] وإياه وجميعَ خلقِه بمنّة وكَرَمِه وخَتَمَ لنا منه بخيرٍ ، وختَم لنا رِضاه عنَّا وعن جميع المسلمين .

(245/840)

وهذا آخِرُ ما تَيَسَّر لي من إملاءِ هذا الموضوعِ وحَصْرِ ما في هذا المجموعِ متوسّلاً إليه بكلامِه متشفّعاً لديه برسولِه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم في أن يجعلَه خالصاً لوجهِه مُوْجِباً للفوز لديه ، فإنه حسبي ونِعْمَ الوكيلُ . ووافق الفراغُ منه تصنيفاً وكتابةً في العُشْرِ الأوسط من شهر رجبٍ الفردِ من شهورِ سنةِ أربعٍ وثلاثين وسبعمئة أحسنَ الله تقضِّيَها بمَنِّه وكرَمِه . قاله وكتبه أفقرُ عبيدِه إليه أحمدُ بنُ يوسفَ بنِ محمدِ مسعودٍ الشافعيُّ الحلبيُّ حامداً لله ربِّ العالمين ومُصَلِّياً على رسولِه الأمين وآلِه وصحبه أجمعين وسلَّم . انتهى انتهى . اهـ

﴿الدر المصون حـ 11 صـ 161.165 ﴾

(246/840)

فروق لغوية دقيقة :

الفرق بين الناس والخلق والعالم والبشر والورى والأنام وما يجري مع ذلك

والفرق بين الجماعات وضروب القرابات وبين الصحبة والقرابة وما بسبيل ذلك

الفرق بين الناس والخلق

أن الناس هم الإنس خاصة وهم جماعة لا واحد لها من لفظها وأصله عندهم أناس فلما سكنت الهمزة أدعمت اللام كما قيل لكنا وأصله لكن أنا وقيل ا لناس لغة مفردة فاشتقاقه من النوس وهو الحركة ناس ينوس نوسا إذا تحرك والأناس لغة أخرى ولو كان أصل الناس أناسا لقيل في التصغير أنيس وإنما يقال نويس فاشتقاق أناس من الأنس خلاف الوحشة وذلك أن بعضهم يأنس ببعض والخلق مصدر سمي به المخلوقات والشاهد قوله عزوجل (خلق السموات بغير عمد ترونها) ثم عدد الأشياء من الجماد والنبات والحيوات ثم قال (هذا خلق الله) وقد يختص به الناس فيقال ليس في الخلق مثله كما تقول ليس في الناس وقد يجري على الجماعات الكثيرة فيقال جاءني خلق من الناس أي جماعة كثيرة

الفرق بين الإنسي والإنسان

أن الإنسي يقتضي مخالفة الوحشي ويدل على هذا أصل الكلمة وهو الأنس وهو الأنس خلاف الوحشة والناس يقولون إنسي ووحشي وأما قولهم إنسي ووحشي والإنس والجن أجرى في هذا مجرى الوحش فاستعمل في مضادة الأنس والإنسان

مخالفته البهيمية فيذكرون أحدهما في مضادة الآخر ويدل على ذلك أن اشتقاق الإنسان من النسيان وأصله إنسيان فلهذا يصغر فيقال أنيسيان والنسيان لا يكون إلا بعد العلم فسمي الإنسان إنسانا لأنه ينسى ما علمه وسميت البهيمة بهيمة لأنها أبهمت عن العلم والفهم ولا تعلم ولا تفهم فهي خلاف الإنسان والإنسانية خلاف البهيمية في الحقيقة وذلك أن الإنسان يصح أن يعلم إلا أنه ينسى ما علمه والبهيمة لا يصح أن يعلم

(247/840)

الفرق بين الناس والورى

أن قولنا الناس يقع على الأحياء والأموات والورى الأحياء منهم دون الأموات وأصله من وروى الزند يري إذ أظهر الناء فسمي الورى وروى لظهره على وجه الأرض ويقال الناس الماضون ولا يقال الورى الماضون

الفرق بين العالم والناس

أن بعض العلماء قال أهل كل زمان عالم وأنشد من مشطور الزجز

وخندق هامة هذا العالم

وقال غيره ما يحوي الفلك عالم ويقول الناس العالم السفلي يعنون الأرض وما عليها والعالم

العلوي يريدون السماء وما فيها ويقال على وجه التشبيه الإنسان العالم الصغير ويقولون إلى فلان تدبير العالم يعنون الدنيا وقال آخرون العالم اسم لأشياء مختلفة وذكل أنه يقع على الملائكة والجن والإنس وليس هو مثل الناس لأن كل واحد من الناس إنسان وليس كل واحد من العالم ملائكة

الفرق بين العالم الدنيا

أن الدنيا صفة والعالم اسم تقول العالم السفلي العلوي فتجعل العالم اسما وتجعل العلوي والسفلي صفة وليس في هذا إشكال فأما قوله تعالى (ولدار الآخرة خير) ففيه حذف اي دار الساعة الآخرة وما أشبه ذلك

الفرق بين الأنام والناس

أن الأنام على ما قال بعض العلماء يقتضي تعظيم شأن المسمى من الناس قال الله عز وجل (الذين قال لهيم الناس إن الناس قد جمعوا لكم) وإنما قال لهم جماعة وقيل رجل واحد وأن أهل مكة قد جموا لكم ولا تقول جاءني الأنام تريد بعض الأنام وجمع أنام قال عدي بن زيد إن الأنسي قلنا جمع نعلمه فيما من الأنام والأمم جمع أمة وهي النعمة

الفرق بين الناس والبرية

أن قولنا برية يقتضي تميز الصورة وقولنا الناس لا يقتضي ذلك لأن البرية فعلية من برأ الله الخلق أي ممز صورهم وترك همزة لكثة الاستعمال كما تقول هم الحابية والذرية وهي من ذرا الخلق وقيل أصل البرية البري وهو القطع وسمي بري لأن الله عز وجل قطعهم من جملة الحيوان فأفردهم بصفات ليست لغيرهم وذكر أن أصلها من البري وهو التراب وقال بعض المتكلمين البرية أسم إسلامي لم يعرف في الجاهلية وليس كما قال لأنه جاء في شعر النابغة وهو قوله من البسيط

(قم في البرية فاحددها عن الفند

) والنابغة جاهلي الأبيات

الفرق بين الناس والبشر أن قولنا البشر يقتضي حسن الهيئة وذلك أنه شتق من البشارة وهي حسسن الهيئة يقال رجل بشير وامراة بشيرة غذا حسن الهيئة فسمي الناس بشرا لأنهم أحسن الحيوان

هيئة ويجوز أن يقال إن قولنا بشر يقتضي الظهور وسموا بشرا لظهور شأنهم ومنه قيل لظاهر الجلد بشره وقولنا الناس يقتضي النوس وهو الحركة والناس جمع والبشر واحد وجمع وفي القرآن (ما هذا إلا بشر مثلكم) وتقول محمد خير البشر يعنون الناس كلهم ويثنى البشر فيقال بشران وفي القرآن (لبشرين مثلنا) ولم يسمع أنه يجمع

الفرق بين الناس والجبلة

أن الجبلة اسم يقع على الجماعات المجتمعة من الناس حتى يكون لهم معظم وسواء وذلك أن أصل الكلمة الغلظ والعظم ومنه قيل الجبل لغلظه وعظمه ورجل جبل وامرأة جبله غليظة الخلق والقرآن (واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين) وقال تعالى (ولقد أضل منكم جبلا كثيرا) أي جماعات مختلفة مجتمعة أمثالكم والجبل أول الخقل جبلة إذا خلقه الخق الأول وهو أن يخلقه قطعة واحدة قبل أن يميز صورته ولهذا قال النبي جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وذلك أن القلب قطعة من اللحم وذلك يرجع إلى معنى الغلظ

وخلاف الإنسي الجني

الفرق بينه وبين الشيطان

أن الشيطان هو الشرير من الجن ولهذا يقال للإنسان إذا كان شريرا شيطان ولا يقال جني لأن قولك شيطان يفيد الشر ولا يفيده قولك جني وإنما يفيد الاستتار ولهذا يقال على الاطلاق لعن الله الشيطان ولا يقال لعن الله الجني والجني اسم الجنس والشيطان صفة

الفرق بين الرجل والمرء

أن قولنا رجل يفيد القوة على الأعمال ولهذا يقال في مدح الإنسان إنه رجل والمرء يفيد أنه أدب النفس ولهذا يقال المروءة أدب مخصوص

الفرق بين الجماعة والفوج والثلة والزمرة والحزب

ان الفوج الجماعة الكثيرة ومنه قوله تعالى (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) وذلك أنهم كانوا يسلمون في وقت وقبلة قبيلة ثم نزلت هذه الآية ومعلوم أنه لا يقال للثلة فوج كما يقال لهم جماعة والثلة الجماعة تندفع في الأمر جملة من قولك ثللت الحائط إذا نقضت أسفله فاندفع ساقطا كله ثم كثر ذلك حتى سمي كل بشر ثلا ومنه ثل عرشه وقيل الثلل الهلاك والزمرة جماعة لها صوت لا يفهم وأصه من الزمار وهو صوت الأنثى من النعام ومنه قيل الزمرة وقرب منها الزجلة وهي الجماعة لها زجل وهو ضرب من الأصوابت وقال أبو عبيدة الزمرة جماعة في تفرقة والحزب الجماعة تتحزب على الأمر أي تتعاون وحزب الرجل الجماعة التي تعينة فيقوى أمره بهم وهو من قولك حزبني الأمر إذا اشتد علي

الفرق بين الجماة والبوش

أن البوش هم الجماعة الكثيرة من أخلاط الناس ولا يقال لبني الأب الواحد بوش ويقال أيضا جماعة من الحمير ولا يقال بوش من الحمير لأن الحمير كلها جنس واحد وأما العصبة فالعشرة وما فوقها قليل ومنه قوله عز وجل (ونحن عصبة) وقيل هي من العشرة إلى الأربعين وهي في العربية الجماعة من الفرسان الركب ركبان الإبل خاصة ولا يقال للفرسان

ركب والعدي رجال يعدون في الغزو والرجل جمع راجل والنفيضة هي الطليعة وهم قوم يتقدمون الجيش فينفضون الأرض أي ينطرون ما فيا من قولك نفضت المكان إذا

نظرت والمقنب نحو الثلاثين يغزى بهم والحضيرة نحو الخمسة إلى العشرة يغزى بهم والكتيبة العسكر المجمتع فيه آلات الحرب من قولك كتبت الشيء إذا جمعته وأسماء الجمات كثيرة ليس هذا موضع ذكرها وإنما نذكر المشهور منها فمن ذلك

الفرق بين الجماعة والطائفة

أن الطائفة في الأصل الجماعة التي من شأنها الطوف في البلاد للسفر ويجوز أن يكون أصلها الجماعة التي تستوي بها حلقة يطاف عليها ثم كثر ذلك حتى سميت كل جماعة طائفة والطائفة من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) ولا خلاف في أن اثنين إذا اقتتلا كان حكمهما هذا الحكم وروي في قوله عز وجل (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) أنه أراد واحدا وقال يجوز قبول الواحد بدلالة قوله تعالى (فلولا نفر من كل فرقة منها طائفة) إلى أن قال (لعلهم يحذرون) أي ليحذروا فأوجب العمل في خبر الطائفة وقد تكون الطائفة واحدا

الفرق بين الجماعة والفريق

أن الجماعة الثانية من جماعة أكثر منها تقول جاءني فريق من القوم وفريق ما يفارق جمهورها في الحلبة فيخرج منها وفي مثل أسرع من فريق الخيل والجماعة تقع على جميع ذلك

الفرق بين الجماعة والفئة

أن الفئة هي الجماعة المتفرقة من غيرها من قولك فأوت رأسه أي فلقته وأنفأى إذا انفرج مكسورا والفئة في الحرب القوم يكونون ردء المحاربين يعنون اليهم إذا حاول ومنه قوله عز وجل (أو متحيزا إلى فئة) ثم قيل لجمع كل من يمنع أحدا وينصره فئة وقال أبو عبيدة الفئة الأعوان

الفرق بين الشيعة والجماعة

أن شيعة الرجل هم الجماعة المائلة غليه من محبتهم له وأصلها من الشياع وهي الحطب الدقاق التي تجعل مع الجزل في لانار لتشتعل كأنه يجعلها تابعا للحطب الجزل لتشرق

الفرق بين الناس والثبة

أن الثبة الجماعة على أمر يمحدون به وأصلها تبيت الرجل إذا تثبيه إذا أثنيت عليه في حياته خلاف أبنته إذا عليه بعد وفاته قال الله عز وجل (فانفروا ثبتا)

وذلك لاجتماعهم على الإسلام ونصر الدين

الفرق بين القوم والقرن

أن القرن اسم يقع على من يكون من الناس في مدة سبعين سنة والشاهد الشاعر من الطويل

(إذ ذهب القرن الذي أنت فيهم

وخلفت في قرن فأنت غريب) وسموا قرنا لأنهم حد الزمان الذي هم فيه ويعبر بالقرن عن القوة ومنه قوله فإنها تطلع بين قرني الشيطان أراد أن الشيطان في ذلك الوقت أقوى ويجوز أن يقال إنهم سموا قرناء لاقترانهم في العصر وقال بعضهم أهل كل عصر قرن وقال الزجاج القرن أهل كل عصر في نبي أو من له طبقة عالية في العالم فجعله من اقتران أهل العصر باهل العلم فإذا كان من زمان فترة وغلبة جهل لم يكن قرنا وقال بعضهم القرن اسم من اسماء الأزمنه فكل قرن سبعون وأصله من المقارنة وذلك أن أهل كل

عصر أشكال وانظراء وردت وأسنان متقاربة ومن ثم قيل هو قرنة أي على سنة ومنه قو قرنه لاقترانه معه في القتال والقوم هم الرجال الذين يقوم بعضهم مع بعض في الأمور ولا يقع على النساء إلا على وجه التبع كما قل عز وجل (كذبت قوم نوح المرسلين) والمراد الرجال والنساء تبع لهم الشاهد على ما قلناه قول زهير من الوافر

(وما أدري وسوف إخال أدري

أقوم آل حصن أم نساء) فاخرج النساء من القوم

الفرق بين الجماعة والملأ

أن الملأ الاشراف الذين يملأون العيون جمالا والقلوب هيبة وقال بعضهم الملأ الجماعة من الرجال دون النساء والأول الصحيح وهو من ملأت ويجوز أن يكون المللأ الجماعة الذين يقومون بالأمور من قولهم هو مليء بالأمر إذا كان قادر عليه والمعنيان يرجعان إلى أصل واحد وهو الملء

(252/840)

الفرق بين النفر والرهط

أن النفر الجماعة نحو العشرة من الرجال خاصة ينفرون لقتال وما أشبهه ومه قوله عز وجل (ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض) ثم كثر حتى سموا نفرا وإن لم ينفروا والرهط الجماعة نحو العشرة يرجعون إلى أب واحد وسموا رهطا تسبها بالرهط الذي هو قطعه شققت سيورا) ولم تقطع أطرفها مثل الشرك فتكون فروعها شتى وأصلها وأحد تلبسها الجارية يقال لها رهط

والجمع رهاطت قال الهذلي من الوافر

وطعن مثل تعطيط الرهاط

وتقول ثلاثة رهط وثلاثة نفر لأنه اسم لجماعة ولو كان اسما واحدا لم تجز إضافة الثلاثة إليه كما لا يجوز أن تقول رجل وثلاثة فلس وقال عز وجل وكان في المدينة تسعة رهط) على التذكير لأنه وإن كان جماعة فإن لفظه مذكور مفرد فيقال تسعة على اللفظ وجاء في التفسير أنهم كانوا تسعة رجال والمعنى على هذا وكان في المدينة تسعة من رهط

الفرق بين الجماعة والشرذمة

أن الشرذمة البقية من البقية والقطف منه قال الله عز وجل (شرذمة قليلون) أي قطعة وبقية لأن فرعون أضل منهم الكثير فبقيت منهم شرذمة أي قطعة قال الشاعر من مشطور السريع

(جاء الشتاء وقميص أخلاف

شراذم يضحك مني التوارق وقال آخر من الرجز

(يجدن في شرذام النعال)

الفروق بين ضروب القرابات

الفرق بين الأهل والآل

أن الأهل يكون من جهة النسب والاختصاص فمن جهة النسب قولك اهل الرجل لقرابته الأدنين ومن جهة الاختصاص قولك أهل البصرة وأهل العلم والآل خاصة الرجل من جهة

القرابة أو الصحبة تقول آل الرجل لأهله وأصحابه ولا تقول آل البصرة وآل العلم وقالوا آل فرعون أتباع وكذلك آل لوط وقال المبرد إذا صغرت العرب الآل قالت أهل فيدل على أن أصل الآل الأهل وقال بعضهم الآل عيدان الخيمة وأعمدتها وآل الرجل مشبهون بذلك لأنهم معتمدة والذي يرتفع في الصحارى آل لأنه يرتفع كما ترتفع عيدان الخيمة والشخص آل لأنه كذلك

الفرق بين الولد والابن

أن الابن يفيد الاختصاص ومداومة الصحبة ولهذا يقال ابن الفلاة لمن يداوم سلوكها وابن السرى لمن يكثر منه وتقول تبنيت ابنا إذا جعلته خاصا بك ويجوز أن يقال إن قولنا هو ابن فلان يقتضي أنه منسوب إليه ولهذا يقال الناس بنو آدم لأنهم منسوبون إليه وكذلك بنو اسرائيل والأبن في كل شيء صغير فيقول الشيخ كانوا يسمعون أمهم أبناءهم ولهذا كني الرجل بأبي فلان وإن لم يكن له ولد على التعظيم والحكماء والعلماء يسمعون المتعلمين ابناءهم ويقال لطالبي العلم أبناء العلم وقد يكنى بالابن كما يكنى بالأب كقولهم ابن عرس وابن تمرة وابن آوى وبنات طبق وبنات نعش وبنات وردان وقيل أصل الابن التأليف

والاتصال من قولك بنية وهو مبني وأصله بني وقيل بنو ولهذا جمع على أبناء فكان بين الأب والابن تأليف والولد يقتضي الولادة ولا يقتضيها الابن والابن يقتضي أبا يقتضي والدا ولا يسمى الإنسان

والدا إلا إذا صار له ولد وليس هو مثل الأب لأنهم يقولون في التكنية أبو فلان وإن لم يلد فلانا ولا يقولون في هذا والد فلان إلا أنهم قالوا في الشاة والد في حملها قبل أن تلد وقد ولدت إذا ولدت يقال الابن للذكر والولد للذكر والأنثى

الفرق بين الآل والعترة

أن على ما قال المبرد المنصب ومنه عترة فلان أي منصبة وقال بعضهم العترة أصل الشجرة الباقي بعد قطعها قالوا فعتره الرجل أصله وقال غيره عتره الرجل أهله وبنو أعمامه الأدنون واحتجوا بقول ابي بكر رضي الله عنه عن عترة رسول الله يعني قريشا فهي مفارية للال على كل قول لأن الآل هم الأهل والأتباع والعترة هم الاصل في قول والأهل وبنو الأعمام في قول آخر

الفرق بين الأبناء والذرية

أن الأبناء يختص به اولاد الرجل وأولاد بناته لن البنات منسوبون إل آبائهم كما قال الشاعر من الطويل

بنونا بنو أبنائنا وبنا تنا

بنوهن أبناء الرجال الأباعد

(254/840)

ثم قيل للحسن والحسين عليهما السلام ولدا رسول الله على التكريم ثم صار اسما لهما لكثرة الاستعمال والذرية تنتظم الاولاد والذكور والإناث والشاهد قوله عز وجل (ومن ذريته داود وسليمان) ثم أدخل عيسى في ذريته 4 الفرق بين العقر والولد أن عقب الرجل ولده الذكور والإناث وولد بينه من الذكور والإناث إلا أنهم لا يسمعون عقبا إلا بعد وفاته فهم على كل حال ولده والفرق بين الاسمين بين

الفرق بين الولد والسبط

أن أكثر ما يستعمل السبط في ولد البنت ومنه قيل للحسن والحسين رضي الله عنهما سبطا رسول الله وقد يقال للولد سبط إلا أنه يفيد خلاف ما يفيده لأن قلنا سبط يفيد أنه يمتد ويطول وأصل الكلمة من السبوط وهو الطول والامتداد ومنه قيل الساباط لامتداده بين الدارين والسباطانه ما يرمى فيها البندق من ذلك والسبط شجر سمي بذلك لامتداده وطوله

الفرق بين البعل والزوج

أن الرجل لا يكون بعلا للمرأة حتى يدخل بها وذلك أن البعال النكاح والملاعبة ومنه قوله عليه السلام أيام أكل وشرب وبعال وقال الشاعر من الطويل

وكم من حصان ذات بعل تركتها

إذا الليل أدجى لم تجد من تباعله

واصل الكلمة القيام بالأمر ومنه يقال للنخل إذا شرب بعروقه ولم يحتج إلى سقي بعل كانه يقوم بمصالح نفسه

ومما يجري مع ذلك

الفرق بين الصاحب والقرين

أن الصحبة تفيد انتفاع أحد الصاحبين بالآخر ولهذا يستعمل في الآدميين خاصة فيقال صحب زيد غعمر وصحبه عمرو ولا يقال صحب النجم النجم أو الكون الكون وأصله في العربية الحفظ ومهنة يقال صحبك الله وسر مصاحبا أي محفوظا وفي القرآن (ولا هم منا يصحبون) أي يحفظون وقال الشاعر من البسيط

وصاحبي من دواعي الشر مصطحب

والمقارنة تفيد قيام أحد القرنيين مع الآخر ويجري على طريقته وإن لم ينفعه ومن ثم قيل قران النجوم وقيل للبعرين يشد أحدهما إلى الآخر قرينان فإذا قام أحدهما مع الآخر فيهما قرنان فإنما خولف بين المثالين لاختلاف المعنيين والأصل واحد

الفرق بين المولى والولي

أن الوالي يجري في الصفة على العان والمعين تقول الله ولي المؤمنيين أي معينهم والمؤمن ولي الله أي المعان بنصر لاله عز وجل ويقال أيضا المؤمن ولي الله والمراد أنه ناصر لأوليائه ودينه ويجوز أن يقال الله ولي لاموئنين بمعنى أنه يلي فظهم وكلاءتهم كولي الطفل المتولي شأنه ويكون الولي على وجه منها ولي المسلم الذي يلزمه القيام بحقه إذا احتاج اليه ومنها الولي الحليف المعاقد ومنها ولي المرأة القائم بامرها ومنها ولي المقتول الذي هو أحق بالمطالبة بدمة وأصل الولي جعل الثاني بعد الأول من غير فصل من قولهم هذا يلي ذلك وليا وولاه الله كأنه يلي أمره ولم يكله إلى غيره وولاه أمره وكله إليه كانه جعله بيده وتولى أمر نفسه قام من غير وسيطة وولى عنه خلاف والى إليه وولى بين رميتين جعل إحداهما تلي الأخرة والأولى هو الذي الحكمة اليه أدعى ويجوز أن يقال معنى الولي أنه يحب الخير لوليه كما أن معنى العدو أنه يريد الضرر لعدوه والمولى على وجوه هو السيد والمملوك والحلي وابن العم والأولى بالشيء والصاحب ومنه قول الشاعر (من الطويل)

(ولست بمولى سواة أدعى لها

فإن لسوات الأمور مواليا)

أي صاحب سوأة وتقول الله مولى المؤمنين بمعنى أنه معينهم ولا يقال إنهم موالية بمعنى

معينوا أوليائه كما تقول إنهم أولياؤه بهذا المعنى

(256/840)

الفرق بين الخلة والصداقة

أن الصداقة اتفاق الضمائر على المودة فإذا أضمر كل واحد من الرجلين مودة صاحبة

فصار باطنة فيها كظاهرة سميا صديقين ولهذا يقال الله صديق المؤمن كما أنه وليه والخلة

الاختصاص بالتكريم ولهذا قيل إبراهيم خليل الله لاختصاص الله إياه بالرسالة وفيها تركيم

له ولا يجوز أن يقال الله خليل إبراهيم لأن إبراهيم لا يجوز أن يخص الله بتكريم وقال أبو علي

رحمه الله تعالى يقال للمؤمن إنه خليل الله وقال علي بن عيسى لا يقال إلا لنبي لأ ه الله عز

وجل يختصه بوحيه ولا يختص به غيره قال والأنبياء كلهم أخلاء الله

ومما يجري مع ذلك

الفرق بين الصفوة والصفو

أن الصفو مصدر سمي به الصافي من الأشياء اختصار واتساعا والصفوة خالص كل شيء ولها يقال محمد صفة الله ولا تقول صفوة الله فالصفوة والصفو مختلفان وإن كانا من أصل واحد كالخبرة والخبر ولو كان الصفة والصفو لغتين على ما ذكر ثعلب في الفصيح لقيل محمد صفو الله كما قيل صفوة الله

الفرق بين الاصطفاء والاختيار

أن اختيارك لشيء اخذك خير ما فيه في الحقيقة أو خيره عندك والاصطفاء أخذ ما يصفو منه ثم كثر حتى استعمل احدهما موضع الآخر واستعمل الاصطفاء في ما لا صفو له على الحقيقة. انتهى انتهى. اهـ ﴿ الفروق اللغوية صـ 291.304 ﴾

(257/840)

من لطائف الإمام القشيرى فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

سورة الناس

قوله جل ذكره : (بسم الله الرحمن الرحيم)

" بسم الله " الذي قصرت عنه العقول فوقفت ، وعجزت العلوم فتحيرت ، وتقاصرت

المعارف فخجلت ، وانقطعت الفهوم فدهشت ، وهو بنعت علاته ووصف سنائه وبهائه وعز كبريائه يعلم ولكن الإحاطة في العلم به محال ويرى ولكن الإدراك في وصفه مستحيل ، ويعرف ولكن الإشراف في نعته غير صحيح . (1)

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ .

أعتصِمْ بربِّ الناسِ خالقِهم وسيِّدِهم .

﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ .

أي مالكهم جميعهم .

﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ .

القادِر على إيجادهم .

﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ .

من حديثِ النَّفْسِ بما هو كالصوتِ الخفيِّ .

ويقال : مِنْ شرِّ الوسواس .

ويقال : من شرِّ الوسوسة التي تكون بين الجِنَّةِ والناس .

" والخنَّاس " الذي يغيب ويخنس عن ذِكْرِ الله . وهو من أوصاف الشيطان . ﴿ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ .

قيل : " الناس " يقع لفظها على الجنِ والإنسِ جميعاً – كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ

نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الأحقاف : 29] فسمَّاهم نفراً ، وكما قال :

﴿ يعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن : 6] فسمَّاهم رجالاً . . فعلى هذا استعاذ من الشيطان الذي يوسوس في صدور الناس ، والشيطانُ الذي له تسلُّطٌ على الناسِ كالوسواس ؛ فللنَّفْس من قِبَلِ العبد هواجسُ ، وهواجِسُ ، وهواجسُ النَّفْسِ ووساوسُ الشيطانِ يتقاربان ؛ إذ إن يدعو إلى متابعة الشهوة أو الضلالة في الدين أو إلى ارتكاب المعصية ، أو إلى الخصال الذميمة - فهو نتيجة الوساوس والهواجس .

وبالعلم يُمَيَّزُ الإلهام وبين الخواطِر الصحيحة وبين الوساوس . (2)

---

(1) فقد جلّت الصمدية أن يستشرف منها عالم بعلمه أو واهم بوهمه ، أو عارف بمعرفته . . وكلّ ما هنالك هو شهود (الفعل) الإلهى لا (الذات) الإلهية .

(2) «الخاطر خطاب يرد على الضمائر وقد يكون بإلقاء الشيطان وقد يكون من أحاديث النفس أو من قبل الحق فإذا كان من الملك فهو الإلهام ، وإذا كان من قبل النفس قيل له : الهواجس ، وإذا كان من قبل الشيطان فهو الوسواس ، وإذا كان من قبل اللّه - سبحانه - وإلقائه في القلب فهو خاطر حقّ . . وإذا كان من قبل الملك فإنما يعلم صدقه بموافقة العلم . . .» رسالة القشيري ص 46 و 47 .

(ومما تجب معرفته) أن الشيطان إذا دعا إلى محظورٍ فإن خالَفْتَه يَدَعْ ذلك (ثم) يدعوك إلى معصيةٍ أخرى ؛ إذ لا غَرَضَ له إلا الإقامة على دعائك (. . .) غير مختلفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 3 صـ 787 . 788 ﴾

(259/840)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى آيات السورة الكريمة :

سورة النّاس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)

الإعراب :

(بربّ) متعلّق بـ (أعوذ) ، (ملك) بدل من ربّ - أو نعت ، أو عطف بيان عليه - مجرور (إله) بدل من ملك مجرور (من شرّ) متعلّق بـ (أعوذ) ، (الذي) موصول في محلّ جرّ نعت للوسواس (في صدور) متعلّق بـ (يوسوس) ، (من الجنّة) متعلّق بحال من فاعل يوسوس . .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها ابتدائيّة .

وجملة : " أعوذ . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يوسوس . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

الصرف :

(الوسواس) اسم لمن يوسوس ، وزنه فعلال بفتح الفاء .

(الخنّاس) ، مبالغة اسم الفاعل من الثلاثيّ خنس أي توارى واختفى .

الفوائد

1 - تناسق الجرس والمعنى :

كان موضوع هذه السورة التعوذ باللّه عز وجل من وسوسة الشيطان ، والوسوسة هي موضوع هذه السورة ، لذا فقد تكرر حرف السين في كل آية من آياتها ، وتوالى في كلماتها ، حتى صرنا نسمع - عند تلاوتها - نغما يترجم لنا الوسوسة ، وها نحن نحسن - عند سماعها - بجوّ من الوسوسة ، حتى ولو لم نكن نعرف لموضوعها ، وهكذا يتآلف المعنى والنغم في كتاب اللّه عز وجل ويتعاضدان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 30 صـ 430.429 ﴾

وقال العلامة محيي الدين الدرويش:

(114) سورة النّاس

مكيّة وآياتها ستّ

[سورة الناس (114) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْواسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)

اللغة:

(الْوَسْواسِ) اسم بمعنى الوسوسة، كالزلزال بمعنى الزلزلة وأما المصدر فوسواس بالكسر كزلزال والمراد به الشيطان سمّي بالمصدر كأنه وسوسة في نفسه لأنه صنعته وشغله وأريد ذو الوسواس. وفي المصباح أنه يطلق أيضا على ما يخطر بالقلب من الشر وكلّ ما لا خير فيه. وفي المختار: حديث النفس يقال: وسوست إليه نفسه وسوسة ووسواسا بالكسر والوسواس بالفتح الاسم.

(الْخَنَّاسِ) في المختار " خنس عنه تأخر وبابه دخل وأخنسه غيره أي خلفه ومضى عنه، والخناس الشيطان لأنه يخنس إذا ذكر اللّه عزّ وجلّ" . قال في

أساس البلاغة : " خنس الرجل من بين القوم خنوسا إذا تأخر واختفى وخنّسته أنا وأخنسته وأشار بأربع وخنس إبهامه ومنه الخناس وفي الحديث : " الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر اللّه خنس " وفي أنفه خنس وهو انخفاض القصبة وعرض الأرنبة . والبقر خنس " .

الإعراب :

"قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس " قل فعل أمر وفاعله مستتر تقديره أنت وجملة أعوذ مقول القول وأعوذ فعل مضارع مرفوع وفاعله ضمير مستتر تقديره أنا وبرب الناس متعلقان بأعوذ وملك الناس وإله الناس بدلان أو صفتان أو عطفا بيان ، وكرّر الإضافة فيهما زيادة للبيان . قال في الكشاف : " فإن قلت : فهلّا اكتفى بإظهار المضاف إليه الذي هو الناس مرة واحدة قلت : لأن عطف البيان للبيان ، فكان مظنّة للاظهار دون الإضمار " (مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) جار ومجرور متعلقان بأعوذ والوسواس مضاف إليه والخناس صفة (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ) الذي نعت لوسواس قال في الكشاف : " يجوز في محله الحركات الثلاث فالجرّ على الصفة والرفع والنصب على الشتم " ويوسوس

فعل مضارع وفي صدور الناس متعلقان بيوسوس (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) بيان للذي يوسوس فمن بيانيّة ، ويصحّ كونها ابتدائية متعلقة بيوسوس أي يوسوس في صدورهم من جهة الجنة ومن جهة الناس .

ويصحّ كونها تبعيضية أي كائنا من الجنة والناس . وفي الخطيب قيل أنه بيان للناس الذي هو في صدورهم فقد قيل إن إبليس يوسوس في صدور الجن كما يوسوس في صدور الناس .

الفوائد :

1- عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لقد أنزلت عليّ سورتان ما أنزل مثلهما وإنك لن تقرأ سورتين أحبّ ولا أرضى عند اللّه منهما ، يعني المعوّذتين ويقال للمعوذتين المقشقشتان .

2- أجمع جميع القرّاء في هذه السورة على إسقاط الألف من ملك بخلاف الفاتحة فاختلفوا فيها كما تقدّم .

3- روي عن عائشة رضي اللّه عنها قالت : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه فنفث فيهما وقرأ قل هو اللّه أحد وقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده .

يصنع ذلك ثلاث مرات. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 10 صـ 624. 626 ﴾

(262/840)

من فوائد شيخ الإسلام ابن تيمية فى السورة الكريمة

سُورَةُ النَّاس

وَقَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

فَصْلٌ :

فِي ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ إلَى آخِرِهَا . قَوْلُهُ : ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ فِيهَا أَقْوَالٌ وَلَمْ يَذْكُرْ ابْنُ الْجَوْزِيِّ إلَّا قَوْلَيْنِ وَلَمْ يَذْكُرْ الثَّالِثَ وَهُوَ الصَّحِيحُ وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لِبَيَانِ الْوَسْوَاسِ أَيْ الَّذِي يُوَسْوِسُ مِنْ الْجِنَّةِ وَمِنْ النَّاسِ فِي صُدُورِ النَّاسِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَإِيحَاؤُهُمْ هُوَ وَسْوَسَتُهُمْ وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْمُوَسْوِسِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَتِرًا عَنْ الْبَصَرِ ؛ بَلْ قَدْ يُشَاهِدُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ

سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ وَهَذَا كَلَامُ مَنْ يَعْرِفُ قَائِلَهُ لَيْسَ شَيْئًا يُلْقَى فِي الْقَلْبِ لَا يَدْرِي مِمَّنْ هُوَ وَإِبْلِيسُ قَدْ أُمِرَ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ فَلَمْ يَكُنْ مِمَّنْ لَا يَعْرِفُهُ آدَمُ وَهُوَ وَنَسْلُهُ يَرَوْنَ بَنِي آدَمَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَوْنَهُمْ وَأَمَّا آدَمُ فَقَدْ رَآهُ .

(263/840)

وَقَدْ يَرَى الشَّيَاطِينَ وَالْجِنَّ كَثِيرٌ مِنْ الْإِنْسِ لَكِنَّ لَهُمْ مِنْ الِاجْتِنَانِ وَالِاسْتِتَارِ مَا لَيْسَ لِلْإِنْسِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ ﴾ وَفِي التَّفْسِيرِ وَالسِّيرَةِ : أَنَّ الشَّيْطَانَ جَاءَهُمْ فِي صُورَةِ بَعْضِ النَّاسِ وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ . وَفِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ ﴿ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ قُلْت : أَوَ لِلْإِنْسِ شَيَاطِينُ ؟ قَالَ : نَعَمْ شَرٌّ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ ﴾ . وَأَيْضًا فَالنَّفْسُ لَهَا وَسْوَسَةٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ فَهَذَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ لِنَفْسِهِ كَمَا يُقَالُ حَدِيثُ النَّفْسِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّ اللَّهَ

تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ ﴾ أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ . فَالَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ نُفُوسُهُمْ وَشَيَاطِينُ الْجِنِّ وَشَيَاطِينُ الْإِنْسِ . وَالْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ يَتَنَاوَلُ وَسْوَسَةَ الْجِنَّةِ وَوَسْوَسَةَ الْإِنْسِ وَإِلَّا

أَيُّ مَعْنًى لِلِاسْتِعَاذَةِ مِنْ وَسْوَسَةِ الْجِنِّ فَقَطْ مَعَ أَنَّ وَسْوَسَةَ نَفْسِهِ وَشَيَاطِينِ الْإِنْسِ هِيَ مِمَّا تَضُرُّهُ وَقَدْ تَكُونُ أَضَرَّ عَلَيْهِ مِنْ وَسْوَسَةِ الْجِنِّ . وَأَمَّا قَوْلُ الْفَرَّاءِ : أَنَّ الْمُرَادَ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ : الطَّائِفَتَيْنِ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَأَنَّهُ سَمَّى الْجِنَّ نَاسًا كَمَا سَمَّاهُمْ رِجَالًا وَسَمَّاهُمْ نَفَرًا فَهَذَا ضَعِيفٌ فَإِنَّ لَفْظَ النَّاسِ أَشْهَرُ وَأَظْهَرُ وَأَعْرَفُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجَ إلَى تَنْوِيعِهِ إلَى الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَفْظَ النَّاسِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ . وَأَيْضًا فَكَوْنُهُ يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الطَّائِفَتَيْنِ صِفَةُ تَوْضِيحٍ وَبَيَانٍ وَلَيْسَ وَسْوَسَةُ الْجِنِّ مَعْرُوفَةً عِنْدَ النَّاسِ وَإِنَّمَا يُعْرَفُ هَذَا بِخَبَرِ وَلَا خَبَرَ هُنَا ثُمَّ قَدْ قَالَ : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ فَكَيْفَ يَكُونُ لَفْظُ النَّاسِ عَامًّا لِلْجِنَّةِ وَالنَّاسِ وَكَيْفَ يَكُونُ قَسِيمُ الشَّيْءِ قِسْمًا مِنْهُ فَهُوَ يَجْعَلُ النَّاسَ قَسِيمَ الْجِنِّ وَيَجْعَلُ الْجِنَّ نَوْعًا مِنْ النَّاسِ وَهَذَا كَمَا يَقُولُ : أَكْرَمُ الْعَرَبِ مِنْ الْعَجَمِ وَالْعَرَبِ فَهَلْ يَقُولُ هَذَا أَحَدٌ وَإِذَا سَمَّاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى رِجَالًا لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى

أَنَّهُمْ يُسَمَّوْنَ نَاسًا وَإِنْ قُدِّرَ أَنَّهُ يُقَالُ جَاءَ نَاسٌ مِنْ الْجِنِّ فَذَاكَ مَعَ التَّقْيِيدِ كَمَا يُقَالُ إنْسَانٌ مِنْ طِينٍ وَمَاءٍ دَافِقٍ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَدْخُلُوا فِي لَفْظِ النَّاسِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ

(265/840)

وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ فَالنَّاسُ كُلُّهُمْ مَخْلُوقُونَ مِنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ مَعَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُخَاطِبُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ . وَالرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْعُوثٌ إلَى الْجِنْسَيْنِ لَكِنَّ لَفْظَ النَّاسِ لَمْ يَتَنَاوَلْ الْجِنَّ وَلَكِنْ يَقُولُ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُ الزَّجَّاجِ : أَنَّ الْمَعْنَى ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ الَّذِي هُوَ الْجِنَّةُ وَمِنْ شَرِّ النَّاسِ فِيهِ ضَعْفٌ وَإِنْ كَانَ أَرْجَحَ مِنْ الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّ شَرَّ الْجِنِّ أَعْظَمُ مِنْ شَرِّ الْإِنْسِ فَكَيْفَ يُطْلِقُ الِاسْتِعَاذَةَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَلَا يَسْتَعِيذُ إلَّا مِنْ بَعْضِ الْجِنِّ . وَأَيْضًا فَالْوَسْوَاسُ الْخَنَّاسُ إنْ لَمْ يَكُنْ إلَّا مِنْ الْجِنَّةِ فَلَا حَاجَةَ إلَى قَوْلِهِ ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ ﴾ وَمِنْ ﴿ النَّاسِ ﴾ فَلِمَاذَا يَخُصُّ الِاسْتِعَاذَةَ مِنْ وَسْوَاسِ الْجِنَّةِ دُونَ وَسْوَاسِ النَّاسِ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إذَا تَقَدَّمَ الْمَعْطُوفُ اسْمًا كَانَ عَطْفُهُ عَلَى الْقَرِيبِ أَوْلَى كَمَا أَنَّ عَوْدَ الضَّمِيرِ إلَى الْأَقْرَبِ أَوْلَى إلَّا إذَا كَانَ هُنَاكَ دَلِيلٌ

يَقْتَضِي الْعَطْفَ عَلَى الْبَعِيدِ فَعَطْفُ النَّاسِ هُنَا عَلَى الْجِنَّةِ الْمَقْرُونِ بِهِ أَوْلَى مِنْ عَطْفِهِ عَلَى الْوَسْوَاسِ .

وَيَكْفِي أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ يَقْرَءُونَ هَذِهِ السُّورَةَ مِنْ زَمَنِ نَبِيِّهِمْ وَلَمْ يُنْقَلْ هَذَانِ الْقَوْلَانِ إلَّا عَنْ بَعْضِ النُّحَاةِ وَالْأَقْوَالُ الْمَأْثُورَةُ عَنْ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ هَذَا بَلْ إنَّمَا فِيهَا الْقَوْلُ الَّذِي نَصَرْنَاهُ كَمَا فِي تَفْسِيرِ مَعْمَرٍ عَنْ قتادة ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ قَالَ : إنَّ فِي الْجِنِّ شَيَاطِينَ وَإِنَّ فِي الْإِنْسِ شَيَاطِينَ فَنَعُوذُ بِاَللَّهِ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ ؛ فَبَيَّنَ قتادة أَنَّ الْمَعْنَى الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ . وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ فِي قَوْلِهِ ﴿ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ قَالَ : الْخَنَّاسُ الَّذِي يُوَسْوِسُ مَرَّةً وَيَخْنِسُ مَرَّةً مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فَبَيَّنَ ابْنُ زَيْدٍ أَنَّ الْوَسْوَاسَ الْخَنَّاسَ مِنْ الصِّنْفَيْنِ وَكَانَ يُقَالُ : شَيَاطِينُ الْإِنْسِ أَشَدُّ عَلَى النَّاسِ مِنْ شَيَاطِينِ الْجِنِّ : شَيْطَانُ الْجِنِّ يُوَسْوِسُ وَلَا تَرَاهُ وَهَذَا يُعَايِنُك مُعَايَنَةً . وَعَنْ ابْنِ جريج : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ قَالَ : إنَّمَا وَسْوَاسَانِ فَوَسْوَاسٌ مِنْ الْجِنَّةِ فَهُوَ ﴿ الْخَنَّاسِ ﴾ وَوَسْوَاسٌ مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ فَهُوَ قَوْلُهُ : ﴿ وَالنَّاسِ ﴾ وَهَذَا

الْقَوْلُ الثَّالِثُ وَإِنْ كَانَ يُشْبِهُ قَوْلَ الزَّجَّاجِ فَهَذَا أَحْسَنُ مِنْهُ فَإِنَّهُ جَعَلَ مِنْ النَّاسِ الْوَسْوَاسَ الَّذِي مِنْ نَفْسِ الْإِنْسَانِ فَمَعْنَاهُ أَحْسَنُ ذَكَرَ الثَّلَاثَةَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ .

(267/840)

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ ذَكَرَ فِي الْآيَةِ ﴿ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ ﴿ إلَهِ النَّاسِ ﴾ فَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ أَنْ يَسْتَعِيذَ النَّاسُ بِرَبِّهِمْ وَمَلِكِهِمْ وَإِلَهِهِمْ مِنْ شَرِّ مَا يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِهِمْ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُطْلَبُ مِنْهُ الْخَيْرُ الَّذِي يَنْفَعُهُمْ وَيُطْلَبُ مِنْهُ دَفْعُ الشَّرِّ الَّذِي يَضُرُّهُمْ وَالْوَسْوَاسُ أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ يَضُرُّهُمْ ؛ لِأَنَّهُ مَبْدَأٌ لِلْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ وَعُقُوبَاتُ الرَّبِّ إنَّمَا يَكُونُ عَلَى ذُنُوبِهِمْ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدِهِمْ ذَنْبٌ فَكُلُّ مَا يُصِيبُهُ نِعْمَةٌ فِي حَقِّهِ وَإِذَا اُبْتُلِيَ بِمَا يُؤْلِمُهُ فَإِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ دَرَجَتَهُ وَيَأْجُرُهُ إذَا قُدِّرَ عَدَمُ الذُّنُوبِ مُطْلَقًا لَكِنَّ هَذَا لَيْسَ بِوَاقِعِ مِنْهُمْ فَإِنَّ كُلَّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَاطِئِينَ التَّوَّابُونَ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ . فَغَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ الْأَنْبِيَاءِ فَمَنْ دُونَهُمْ هِيَ التَّوْبَةُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وَقَالَ : نُوحٌ ﴿ رَبِّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وَقَالَ إبْرَاهِيمُ

وَإِسْمَاعِيلُ: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إنَّكَ أَنْتَ

(268/840)

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وَقَالَ مُوسَى: ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ وَدُعَاءُ نَبِيِّنَا بِمِثْلِ ذَلِكَ كَثِيرٌ مَعْرُوفٌ.

(269/840)

فَكَانَ الْوَسْوَاسُ مَبْدَأَ كُلِّ شَرٍّ فَإِنْ كَانُوا قَدْ اسْتَعَاذُوا بِرَبِّهِمْ وَمَلِكِهِمْ وَإِلَهِهِمْ مِنْ شَرِّهِ فَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ وَسْوَاسُ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَسَائِرُ شَرِّ الْإِنْسِ إنَّمَا يَقَعُ بِذُنُوبِهِمْ فَهُوَ جَزَاءٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ كَالشَّرِّ الَّذِي يَقَعُ مِنْ الْجِنِّ بِغَيْرِ الْوَسْوَاسِ وَكَمَا يَحْصُلُ مِنْ الْعُقُوبَاتِ السَّمَاوِيَّةِ وَهُمْ لَمْ يَسْتَعِيذُوا هُنَا مِنْ شَرِّ الْمَخْلُوقَاتِ مُطْلَقًا كَمَا اسْتَعَاذُوا فِي سُورَةِ الْفَلَقِ بَلْ مِنْ الشَّرِّ الَّذِي يَكُونُ مَبْدَؤُهُ فِي نُفُوسِهِمْ وَإِنْ كَانَ ذِكْرُ رَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إلَهِ النَّاسِ يَسْتَعِيذُونَ بِهِ لِيُعِيذَهُمْ وَلِيُعِيذَ مِنْهُمْ وَهَذَا أَعَمُّ الْمَعْنَيَيْنِ فَذَلِكَ يَحْصُلُ بِإِعَاذَتِهِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ

الْمُوَسْوِسِ فِي صُدُورِ النَّاسِ فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يُوَسْوِسُ بِظُلْمِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَبِإِغْوَاءِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَبِإِعَانَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ . فَمَا حَصَلَ لِلْإِنْسِيِّ شَرٌّ مِنْ إِنْسِيٍّ إِلَّا كَانَ مَبْدَؤُهُ مِنَ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ وَإِلَّا فَمَا يَحْصُلُ مِنْ أَذَى بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْوَسْوَاسِ بَلْ كَانَ مِنَ الْوَحْيِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مَلَائِكَتَهُ كَانَ عَدْلًا كَإِقَامَةِ الْحُدُودِ وَجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالِاقْتِصَاصِ مِنَ الظَّالِمِينَ فَهَذِهِ الْأُمُورُ فِيهَا ضَرَرٌ وَأَذًى لِلظَّالِمِينَ مِنَ الْإِنْسِ لَكِنَّ هِيَ بِوَحْيِ اللَّهِ لَا مِنَ الْوَسْوَاسِ وَهِيَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ فِي حَقِّ عِبَادِهِ حَتَّى فِي حَقِّ الْمُعَاقَبِ فَإِنَّهُ إِذَا عُوقِبَ كَانَ ذَلِكَ كَفَّارَةً لَهُ إِنْ كَانَ مُؤْمِنًا

وَإِلَّا كَانَ تَخْفِيفًا لِعَذَابِهِ فِي الْآخِرَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَذَابِ مَنْ لَمْ يُعَاقَبْ فِي الدُّنْيَا .

وَلِهَذَا كَانَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَحْمَةً فِي حَقِّ الْعَالَمِينَ بِاعْتِبَارِ مَا حَصَلَ مِنَ الْخَيْرِ الْعَامِّ بِهِ وَمَا حَصَلَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَبِاعْتِبَارِ أَنَّهُ فِي نَفْسِهِ رَحْمَةٌ

فَمِنْ قَبْلِهَا وَإِلَّا كَانَ هُوَ الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ وَبِاعْتِبَارِ أَنَّهُ قَمَعَ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ فَنَقَصَ شَرُّهُمْ وَعَجَزُوا عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ بِدُونِهِ وَقَتَلَ مَنْ قَتَلَ مِنْهُمْ فَكَانَ تَعْجِيلُ مَوْتِهِمْ خَيْرًا مِنْ طُولِ عُمْرِهِمْ فِي الْكُفْرِ لَهُمْ وَلِلنَّاسِ فَكَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ بِكُلِّ اعْتِبَارٍ فَلَا يُسْتَعَاذُ مِنْهُ وَمِنْ أَمْثَالِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ مِنَ النَّاسِ وَإِنْ كَانُوا يَفْعَلُونَ بِأَعْدَائِهِمْ مَا هُوَ أَذًى وَعُقُوبَةٌ وَأَلَمٌ لَهُمْ فَلَمْ تَبْقَ الِاسْتِعَاذَةُ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مِمَّا يَأْتِي بِهِ الْوَسْوَاسُ إِلَيْهِمْ فَيُسْتَعَاذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ لِلْمُسْتَعِيذِ وَمِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ لِسَائِرِ النَّاسِ حَتَّى لَا يَحْصُلَ مِنْهُمْ شَرٌّ لِلْمُسْتَعِيذِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ شَرٌّ إِلَّا مِنَ الْوَسْوَاسِ كَانَتْ الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ الَّذِي يُوَسْوِسُ لَهُمْ تَحْصِيلًا لِلْمَقْصُودِ وَكَانَ حَسْمًا لِلْمَادَّةِ وَأَقْرَبَ إِلَى الْعَدْلِ وَكَانَ مَخْرَجًا لِأَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَأَوْلِيَائِهِ أَنْ يُسْتَعَاذَ مِنْ شَرِّهِمْ وَأَنْ يُقْرَنُوا بِالْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ وَيَكُونُ ذَلِكَ تَفْضِيلًا

لِلْجِنِّ عَلَى الْإِنْسِ وَهَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ . فَإِنْ قِيلَ : فَإِنْ كَانَ أَصْلُ الشَّرِّ كُلِّهِ مِنَ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ فَلَا حَاجَةَ

إِلَى ذِكْرِ الِاسْتِعَاذَةِ مِنْ وَسْوَاسِ النَّاسِ فَإِنَّهُ تَابِعٌ لِوَسْوَاسِ الْجِنِّ . قِيلَ : بَلْ الْوَسْوَسَةُ نَوْعَانِ : نَوْعٌ مِنْ الْجِنِّ وَنَوْعٌ مِنْ نُفُوسِ الْإِنْسِ . كَمَا قَالَ : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ فَالشَّرُّ مِنْ الْجِهَتَيْنِ جَمِيعًا وَالْإِنْسُ لَهُمْ شَيَاطِينُ كَمَا لِلْجِنِّ شَيَاطِينُ وَالْوَسْوَسَةُ مِنْ جِنْسِ الْوَشْوَشَةِ بِالشِّينِ الْمُعْجَمَةِ يُقَالُ فُلَانٌ يُوَشْوِشُ فُلَانًا وَقَدْ وَشْوَشَهُ إذَا حَدَّثَهُ سِرًّا فِي أُذُنِهِ وَكَذَلِكَ الْوَسْوَسَةُ وَمِنْهُ وَسْوَسَةُ الْحُلِيِّ لَكِنْ هُوَ بِالسِّينِ الْمُهْمَلَةِ أَخَصُّ . وربُّ النَّاسِ : الَّذِي يُرَبِّيهِمْ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ - وَتَدْبِيرِهِ وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ كُلِّهِمْ فَهُوَ الْخَالِقُ لِلْجَمِيعِ وَلِأَعْمَالِهِمْ . ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ الَّذِي يَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ فَإِنَّ الْمَلِكَ يَتَصَرَّفُ بِالْكَلَامِ وَالْجَمَادُ لَا مَلِكَ لَهُ فَإِنَّهُ لَا يَعْقِلُ الْخِطَابَ لَكِنْ لَهُ مَالِكٌ وَإِنَّمَا يَكُونُ الْمَلِكُ لِمَنْ يَفْهَمُ عَنْهُ وَالْحَيَوَانُ يَفْهَمُ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ كَمَا قَالَ : ﴿ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ﴾ . فَلِهَذَا كَانَ لَهُ مَلِكٌ مِنْ جِنْسِهِ وَمِنْ غَيْرِ جِنْسِهِ كَمَا كَانَ سُلَيْمَانُ مَلِكَهُمْ . وَالْإِلَهُ : هُوَ الْمَعْبُودُ الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ بِالْإِرَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ كُلِّهَا كَمَا قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ . وَقَدْ قِيلَ : إنَّمَا خَصَّ النَّاسَ بِالذِّكْرِ ؛ لِأَنَّهُمْ مُسْتَعِيذُونَ أَوْ لِأَنَّهُمْ

الْمُسْتَعَاذُ مِنْ شَرِّهِمْ ذَكَرَهُمَا أَبُو الْفَرَجِ وَلَيْسَ لَهُمَا وَجْهٌ فَإِنَّ وَسْوَاسَ الْجِنِّ أَعْظَمُ وَلَمْ يَذْكُرْهُ بَلْ ذَكَرَ النَّاسِ لِأَنَّهُمْ الْمُسْتَعِيذُونَ فَيَسْتَعِيذُونَ بِرَبِّهِمْ الَّذِي يَصُونُهُمْ وَبِمَلِكِهِمْ الَّذِي أَمَرَهُمْ وَنَهَاهُمْ وَبِإِلَهِهِمْ الَّذِي يَعْبُدُونَهُ مِنْ شَرِّ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَعِيذُونَ أَيْضًا مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يَحْصُلُ فِي نُفُوسِ النَّاسِ مِنْهُمْ وَمِنْ الْجِنَّةِ فَإِنَّهُ أَصْلُ الشَّرِّ الَّذِي يَصْدُرُ مِنْهُمْ وَالَّذِي يَرِدُ عَلَيْهِمْ .

فَصْلٌ :

وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ بَعْضُ هَذِهِ الِاسْتِعَاذَةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا كَمَا جَاءَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَعِذْ الْمُسْتَعِيذُونَ بِمِثْلِهِمَا فَإِنَّ الْوَسْوَاسَ أَصْلُ كُلِّ كُفْرٍ وَفُسُوقٍ وَعِصْيَانٍ فَهُوَ أَصْلُ الشَّرِّ كُلِّهِ فَمَتَى وُقِيَ الْإِنْسَانُ شَرَّهُ وُقِيَ عَذَابَ جَهَنَّمَ وَعَذَابَ الْقَبْرِ وَفِتْنَةَ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ وَفِتْنَةَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ فَإِنَّ جَمِيعَ هَذِهِ إنَّمَا تَحْصُلُ بِطَرِيقِ الْوَسْوَاسِ وَوُقِيَ عَذَابَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَإِنَّهُ إنَّمَا يُعَذَّبُ عَلَى الذُّنُوبِ وَأَصْلُهَا مِنْ الْوَسْوَاسِ ثُمَّ إنْ دَخَلَ فِي الْآيَةِ وَسْوَاسٌ غَيْرُهُ بِحَيْثُ يَكُونُ قَوْلُهُ ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ ﴾ اسْتِعَاذَةً مِنْ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يَعْرِضُ لَهُ وَالَّذِي يَعْرِضُ لِلنَّاسِ بِسَبَبِهِ فَقَدْ وُقِيَ ظُلْمَهُمْ وَإِنْ كَانَ

إنَّمَا يُرِيدُ وَسْوَاسَهُ فَهُمْ إنَّمَا يُسَلَّطُونَ عَلَيْهِ بِذُنُوبِهِ وَهِيَ مِنْ وَسْوَاسِهِ قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ . وَالْوَسْوَاسُ مِنْ جِنْسِ الْحَدِيثِ وَالْكَلَامِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْمُفَسِّرُونَ فِي قَوْلِهِ ﴿ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ قَالُوا : مَا تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسُهُ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْ بِهِ ﴾ . وَهُوَ نَوْعَانِ : خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ . فَالْخَبَرُ : إمَّا عَنْ مَاضٍ وَإِمَّا عَنْ مُسْتَقْبَلٍ . فَالْمَاضِي يُذَكِّرُهُ بِهِ وَالْمُسْتَقْبَلُ يُحَدِّثُهُ بِأَنْ يَفْعَلَ هُوَ أُمُورًا أَوْ أَنَّ أُمُورًا سَتَكُونُ بِقَدَرِ اللَّهِ أَوْ فِعْلِ غَيْرِهِ فَهَذِهِ الْأَمَانِيُّ وَالْمَوَاعِيدُ الْكَاذِبَةُ وَالْإِنْشَاءُ أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَإِبَاحَةٌ . وَالشَّيْطَانُ تَارَةً يُحَدِّثُ وَسْوَاسَ الشَّرِّ وَتَارَةً يُنْسِي الْخَيْرَ وَكَانَ ذَلِكَ بِمَا يَشْغَلُهُ بِهِ مِنْ حَدِيثِ النَّفْسِ . قَالَ تَعَالَى فِي النِّسْيَانِ :

﴿ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وَقَالَ فَتَى مُوسَى : ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إلَّا الشَّيْطَانُ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ

ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ . وَثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ إذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ فَإِذَا قَضَى التَّأْذِينَ أَقْبَلَ فَإِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ فَإِذَا قَضَى التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطِرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ فَيَقُولُ : اُذْكُرْ كَذَا اُذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَذْكُرْ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لَمْ يَدْرِ كَمْ صَلَّى ﴾ فَالشَّيْطَانُ ذَكَرَهُ بِأُمُورِ مَاضِيَةٍ حَدَّثَ بِهَا نَفْسَهُ مِمَّا كَانَتْ فِي نَفْسِهِ مِنْ أَفْعَالِهِ وَمِنْ غَيْرِ أَفْعَالِهِ فَبِتِلْكَ الْأُمُورِ نَسِيَ الْمُصَلِّي كَمْ صَلَّى وَلَمْ يَدْرِ كَمْ صَلَّى فَإِنَّ النِّسْيَانَ أَزَالَ مَا فِي النَّفْسِ مِنْ الذِّكْرِ وَشَغَلَهَا بِأَمْرِ آخَرَ حَتَّى نَسِيَ الْأَوَّلَ . وَأَمَّا إخْبَارُهُ بِمَا يَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ الْمَوَاعِيدِ وَالْأَمَانِيِّ فَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ أَمْرُهُ وَوَعْدُهُ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ﴾ ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا

يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلَّا غُرُورًا ﴾ ﴿ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ فَفِي هَذِهِ أَيْضًا أَمْرُهُ وَوَعْدُهُ . وَقَالَ مُوسَى لَمَّا قَتَلَ الْقِبْطِيَّ : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ . وَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ الصَّحَابَةِ : كَأَبِي بَكْرٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ فِيمَا يَقُولُونَهُ بِاجْتِهَادِهِمْ : إنْ كَانَ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ خَطَأً فَمِنِّي وَمِنْ الشَّيْطَانِ . فَجَعَلُوا مَا يُلْقَى فِي النَّفْسِ مِنْ الِاعْتِقَادَاتِ الَّتِي لَيْسَتْ مُطَابِقَةً مِنْ الشَّيْطَانِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهَا آثِمًا لِأَنَّهُ اسْتَفْرَغَ وُسْعَهُ كَمَا لَا يَأْثَمُ بِالْوَسْوَاسِ الَّذِي يَكُونُ فِي الصَّلَاةِ مِنْ الشَّيْطَانِ وَلَا بِمَا يُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَهُ وَقَدْ قَالَ الْمُؤْمِنُونَ : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ : قَدْ فَعَلْت . وَالنِّسْيَانُ لِلْحَقِّ مِنْ الشَّيْطَانِ وَالْخَطَأُ مِنْ الشَّيْطَانِ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إذَا ذَكَرَهَا ﴾ وَلَمَّا نَامَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ عَنْ الصَّلَاةِ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ قَالَ : لِأَصْحَابِهِ : ﴿ ارْتَحِلُوا فَإِنَّ هَذَا مَكَانٌ حَضَرَنَا فِيهِ شَيْطَانٌ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إنَّ الشَّيْطَانَ أَتَى

بِلَالًا فَجَعَلَ يُهَدِّئُهُ كَمَا يُهَدِّئُ الصَّبِيَّ حَتَّى نَامَ ﴾

(280/840)

وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَّلَ بِلَالًا أَنْ يُوقِظَهُمْ عِنْدَ الْفَجْرِ وَالنَّوْمُ الَّذِي يَشْغَلُ عَمَّا أُمِرَ بِهِ وَالنُّعَاسُ مِنْ الشَّيْطَانِ وَإِنْ كَانَ مَعْفُوًّا عَنْهُ ؛ وَلِهَذَا قِيلَ : النُّعَاسُ فِي مَجْلِسِ الذِّكْرِ مِنْ الشَّيْطَانِ وَكَذَلِكَ الِاحْتِلَامُ فِي الْمَنَامِ مِنْ الشَّيْطَانِ وَالنَّائِمُ لَا قَلَمَ عَلَيْهِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ الرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ : رُؤْيَا مِنْ اللَّهِ وَرُؤْيَا مِنْ الشَّيْطَانِ وَرُؤْيَا مَا يُحَدِّثُ بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ فِي الْيَقَظَةِ فَيَرَاهُ فِي النَّوْمِ ﴾ وَقَدْ قِيلَ : إنَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ ابْنِ سِيرِينَ لَكِنَّ تَقْسِيمَ الرُّؤْيَا إلَى نَوْعَيْنِ : نَوْعٌ مِنْ اللَّهِ وَنَوْعٌ مِنْ الشَّيْطَانِ صَحِيحٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِلَا رَيْبٍ . فَهَذَانِ النَّوْعَانِ : مِنْ وَسْوَاسِ النَّفْسِ وَمِنْ وَسْوَاسِ الشَّيْطَانِ وَكِلَاهُمَا مَعْفُوٌّ عَنْهُ فَإِنَّ النَّائِمَ قَدْ رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْهُ وَوَسْوَاسُ الشَّيْطَانِ يَغْشَى الْقَلْبَ كَطَيْفِ الْخَيَالِ فَيُنْسِيهِ مَا كَانَ مَعَهُ مِنْ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْمَى عَنْ الْحَقِّ فَيَقَعُ فِي الْبَاطِلِ فَإِذَا كَانَ مِنْ الْمُتَّقِينَ كَانَ كَمَا قَالَ اللَّهُ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَسَّهُمْ بِطَيْفٍ مِنْهُ يَغْشَى الْقَلْبَ وَقَدْ

يَكُونُ لَطِيفًا وَقَدْ يَكُونُ كَثِيفًا إلَّا أَنَّهُ غِشَاوَةٌ عَلَى الْقَلْبِ تَمْنَعُهُ إبْصَارُ الْحَقِّ . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إنَّ

(281/840)

الْعَبْدَ إذَا أَذْنَبَ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ . فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ وَإِنْ زَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ فَذَلِكَ

(282/840)

الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ﴾ . لَكِنَّ طَيْفَ الشَّيْطَانِ غَيْرُ رَيْنِ الذُّنُوبِ هَذَا جَزَاءٌ عَلَى الذَّنْبِ وَالْغَيْنُ أَلْطَفُ مِنْ ذَلِكَ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّهُ لِيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ فَالشَّيْطَانُ يُلْقِي فِي النَّفْسِ الشَّرَّ وَالْمَلَكُ يُلْقِي الْخَيْرَ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَقَرِينُهُ مِنْ الْجِنِّ . قَالُوا : وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : وَإِيَّايَ إلَّا أَنَّ اللَّهَ

أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ وَفِي رِوَايَةٍ فَلَا يَأْمُرُنِي إلَّا بِخَيْرِ ﴾ أَيْ اسْتَسْلَمَ وَانْقَادَ . وَكَانَ ابْنُ عُيَيْنَةَ يَرْوِيه فَأَسْلَمَ بِالضَّمِّ وَيَقُولُ : إنَّ الشَّيْطَانَ لَا يُسْلِمُ لَكِنَّ قَوْلَهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرَى : فَلَا يَأْمُرُنِي إلَّا بِخَيْرِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ يَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَهَذَا إسْلَامُهُ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ كِنَايَةً عَنْ خُضُوعِهِ وَذِلَّتِهِ لَا عَنْ إيمَانِهِ بِاَللَّهِ كَمَا يَقْهَرُ الرَّجُلُ عَدُوَّهُ الظَّاهِرَ وَيَأْسِرُهُ وَقَدْ عَرَفَ الْعَدُوَّ الْمَقْهُورُ أَنَّ ذَلِكَ الْقَاهِرَ يَعْرِفُ مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَيْهِ مِنْ الشَّرِّ . فَلَا يَقْبَلُهُ بَلْ يُعَاقِبُهُ عَلَى ذَلِكَ فَيَحْتَاجُ لِانْقِهَارِهِ مَعَهُ إلَى أَنَّهُ لَا يُشِيرُ عَلَيْهِ إلَّا بِخَيْرِ لِذِلَّتِهِ وَعَجْزِهِ لَا لِصَلَاحِهِ وَدِينِهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ

(283/840)

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ إلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَلَا يَأْمُرُنِي إلَّا بِخَيْرِ ﴾ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : إنَّ لِلْمَلَكِ لَمَّةً وَإِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً فَلَمَّةُ الْمَلَكِ إيعَادٌ بِالْخَيْرِ

(284/840)

وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ . وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ إِيعَادٌ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أَيْ يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاؤُهُ بِمَا يَقْذِفُ فِي قُلُوبِكُمْ مِنْ الْوَسْوَسَةِ الْمُرْعِبَةِ كَشَيْطَانِ الْإِنْسِ الَّذِي يُخَوِّفُ مِنْ الْعَدُوِّ فَيَرْجُفُ وَيَخْذُلُ . وَعَكْسُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ وَالتَّثَبُّتُ جَعْلُ الْإِنْسَانِ ثَابِتًا لَا مُرْتَابًا وَذَلِكَ بِإِلْقَاءِ مَا يُثَبِّتُهُ مِنْ التَّصْدِيقِ بِالْحَقِّ وَالْوَعْدِ بِالْخَيْرِ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : لَمَّةُ الْمَلَكِ وَعْدٌ بِالْخَيْرِ وَتَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ فَمَتَى عَلِمَ الْقَلْبُ أَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ حَقٌّ صَدَّقَهُ وَإِذَا عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَعَدَهُ بِالتَّصْدِيقِ وَثِقَ بِوَعْدِ اللَّهِ فَثَبَتَ فَهَذَا يُثْبِتُ بِالْكَلَامِ كَمَا يُثَبِّتُ الْإِنْسَانُ الْإِنْسَانَ فِي أَمْرٍ قَدْ اضْطَرَبَ فِيهِ بِأَنْ يُخْبِرَهُ بِصِدْقِهِ وَيُخْبِرَهُ . بِمَا يُبَيِّنُ لَهُ أَنَّهُ مَنْصُورٌ فَيَثْبُتُ وَقَدْ يَكُونُ التَّثَبُّتُ بِالْفِعْلِ بِأَنْ يُمْسِكَ الْقَلْبَ حَتَّى يَثْبُتَ كَمَا يُمْسِكُ الْإِنْسَانُ الْإِنْسَانَ حَتَّى يَثْبُتَ . وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ مَنْ سَأَلَ الْقَضَاءَ وَاسْتَعَانَ

عَلَيْهِ وَكُلِّ إلَيْهِ وَمَنْ لَمْ يَسْأَلْ الْقَضَاءَ وَلَمْ يَسْتَعِنْ عَلَيْهِ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَلَكًا يُسَدِّدُهُ ﴾ فَهَذَا الْمَلَكُ يَجْعَلُهُ سَدِيدَ الْقَوْلِ بِمَا يُلْقِي

(286/840)

فِي قَلْبِهِ مِنْ التَّصْدِيقِ بِالْحَقِّ وَالْوَعْدِ بِالْخَيْرِ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ ﴾ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ سَبَبٌ لِخُرُوجِهِمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ وَقَدْ ذَكَرَ إخْرَاجَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ فِي غَيْرِ آيَةٍ . كَقَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ ﴾ وَقَالَ : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ وَفِي الْحَدِيثِ ﴿ أَنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِي النَّاسِ الْخَيْرَ ﴾ وَذَلِكَ أَنَّ هَذَا بِتَعْلِيمِهِ الْخَيْرَ يُخْرِجُ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إلَى النُّورِ وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَلِهَذَا كَانَ الرَّسُولُ أَحَقَّ النَّاسِ بِكَمَالِ هَذِهِ الصَّلَاةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ . وَالصَّلَاةُ هِيَ الدُّعَاءُ إمَّا بِخَيْرِ يَتَضَمَّنُ الدُّعَاءَ وَإِمَّا بِصِيغَةِ الدُّعَاءِ فَالْمَلَائِكَةُ يَدْعُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ مَا لَمْ يُحْدِثْ ﴾ فَبَيَّنَ أَنَّ صَلَاتَهُمْ قَوْلُهُمْ :

(287/840)

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ . وَفِي الْأَثَرِ ﴿ إنَّ الرَّبَّ يُصَلِّي فَيَقُولُ : سَبَقَتْ - أَوْ غَلَبَتْ - رَحْمَتِي غَضَبِي ﴾

(288/840)

وَهَذَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ هُوَ خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ يَتَضَمَّنُ أَنَّ الرَّحْمَةَ تَسْبِقُ الْغَضَبَ وَتَغْلِبُهُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَدْعُو غَيْرَهُ أَنْ يَفْعَلَ كَمَا يَدْعُوهُ الْمَلَائِكَةُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ الْخَلْقِ بَلْ طَلَبُهُ بِأَمْرِهِ وَقَوْلُهُ وَقَسَمِهِ كَقَوْلِهِ : لَأَفْعَلَنَّ كَذَا . وَقَوْلُهُ : كُنْ فَيَكُونُ ؛ وَقَوْلِهِ : لَأَفْعَلَنَّ كَذَا قَسَمٌ مِنْهُ كَقَوْلِهِ : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ

وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ وَهَذَا وَعْدٌ مُؤَكَّدٌ بِالْقَسَمِ بِخِلَافِ قَوْلِهِ : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فَإِنَّ هَذَا وَعْدٌ وَخَبَرٌ لَيْسَ فِيهِ قَسَمٌ لَكِنَّهُ مُؤَكَّدٌ بِاللَّامِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ جَوَابَ قَسَمٍ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ وَنَحْوُ ذَلِكَ وَعْدٌ مُجَرَّدٌ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُوحِي إلَى الْبَشَرِ تَارَةً وَحْيًا مِنْهُ

وَتَارَةً يُرْسِلُ رَسُولًا فَيُوحِي إلَى الرَّسُولِ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ .

وَالْمَلَائِكَةُ رُسُلُ اللَّهِ . وَلَفْظُ الْمَلَكِ يَتَضَمَّنُ مَعْنَى الرِّسَالَةِ فَإِنَّ أَصْلَ الْكَلِمَةِ مَلْأَكٌ عَلَى وَزْنِ مَفْعَلٍ لَكِنْ لِكَثْرَةِ الِاسْتِعْمَالِ خُفِّفَتْ . بِأَنْ أُلْقِيَتْ حَرَكَةُ الْهَمْزَةِ عَلَى السَّاكِنِ قَبْلَهَا وَحُذِفَتْ الْهَمْزَةُ وَمَلَاكٌ مَأْخُوذٌ مِنْ الْمَأْلُكِ وَالْمَلْأَكُ بِتَقْدِيمِ الْهَمْزَةِ عَلَى اللَّامِ وَاللَّامِ عَلَى الْهَمْزَةِ وَهُوَ الرِّسَالَةُ وَكَذَلِكَ الْأُلُوكَةُ بِتَقْدِيمِ الْهَمْزَةِ عَلَى اللَّامِ قَالَ الشَّاعِرُ :

أَبْلِغْ النُّعْمَانَ عَنِّي مَأْلُكًا ** أَنَّهُ قَدْ طَالَ حَبْسِي وَانْتِظَارِي

(290/840)

وهذا بتقديم الهمزة . لكن الملك هو بتقديم اللام على الهمزة وهذا أجود فإن نظيره في الاشتقاق الأكبر لاك يلوك إذا لاك الكلام واللجام والهمز أقوى من الواو ويليه في الاشتقاق الأوسط : أكل يأكل فإن الآكل يلوك مما يدخله في جوفه من الغذاء والكلام والعلم ما يدخل في الباطن ويغذي به صاحبه قال عبد الله بن مسعود : إن كل آدب يحب أن تؤتى مادبته وإن مادبة الله القرآن . والآدب المضيف والمادبة الضيافة وهو ما يجعل من الطعام للضيف . فبين أن الله ضيف عباده بالكلام الذي أنزله إليهم فهو غذاء قلوبهم وقوتها وهو أشد انتفاعا به واحتياجا إليه من الجسد بغذائه . وقال علي رضي الله عنه الربانيون هم الذين يغذون الناس بالحكمة

(291/840)

ويربونهم عليها وقد قال صلى الله عليه وسلم ﴿ إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني ﴾ وقد أخبر الله تعالى أن القرآن شفاء لما في الصدور والناس إلى الغذاء أحوج منهم إلى

الشِّفَاءِ فِي الْقُلُوبِ وَالْأَبْدَانِ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ وَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أَمْسَكَتْ الْمَاءَ فَشَرِبَ النَّاسُ وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ إنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً . فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقِهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْت بِهِ ﴾ . فَأَخْبَرَ أَنَّ مَا بُعِثَ بِهِ لِلْقُلُوبِ كَالْمَاءِ لِلْأَرْضِ تَارَةً تَشْرَبُهُ فَتُنْبِتُ وَتَارَةً تَحْفَظُهُ وَتَارَةً لَا هَذَا وَلَا هَذَا وَالْأَرْضُ تَشْرَبُ الْمَاءَ وَتَغْتَذِي بِهِ حَتَّى يَحْصُلَ الْخَيْرُ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ رُوحٌ تَحْيَا بِهِ الْقُلُوبُ فَقَالَ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إلَيْك رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْت تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّك لَتَهْدِي إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . وَإِذَا كَانَ مَا يُوحِيهِ إلَى عِبَادِهِ تَارَةً يَكُونُ بِوَسَاطَةِ مَلَكٍ وَتَارَةً بِغَيْرِ وَسَاطَةٍ فَهَذَا

لِلْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ مُطْلَقًا لَا يَخْتَصُّ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْت إلَى

الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ وَإِذَا كَانَ قَدْ قَالَ : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ الْآيَةَ . فَذَكَرَ أَنَّهُ يُوحِي إلَيْهِمْ فَإِلَى الْإِنْسَانِ أَوْلَى وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ فَهُوَ سُبْحَانَهُ يُلْهِمُ الْفُجُورَ وَالتَّقْوَى لِلنَّفْسِ وَالْفُجُورُ يَكُونُ بِوَاسِطَةِ الشَّيْطَانِ وَهُوَ إلْهَامُ وَسْوَاسٍ وَالتَّقْوَى بِوَاسِطَةِ مَلَكٍ وَهُوَ إلْهَامُ وَحْيٍ هَذَا أَمْرٌ بِالْفُجُورِ وَهَذَا أَمْرٌ بِالتَّقْوَى وَالْأَمْرُ لَا بُدَّ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ خَبَرٌ .

وَقَدْ صَارَ فِي الْعُرْفِ لَفْظُ الْإِلْهَامِ إذَا أُطْلِقَ لَا يُرَادُ بِهِ الْوَسْوَسَةُ . وَهَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ إلْهَامِ الْوَحْيِ وَبَيْنَ الْوَسْوَسَةِ . فَالْمَأْمُورُ بِهِ إنْ كَانَ تَقْوَى اللَّهِ فَهُوَ مِنْ إلْهَامِ الْوَحْيِ وَإِنْ كَانَ مِنْ الْفُجُورِ فَهُوَ مِنْ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ . فَيَكُونُ الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِلْهَامِ الْمَحْمُودِ وَبَيْنَ الْوَسْوَسَةِ الْمَذْمُومَةِ هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ فَإِنْ كَانَ مِمَّا أُلْقِيَ فِي النَّفْسِ مِمَّا دَلَّ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ عَلَى أَنَّهُ تَقْوَى لِلَّهِ فَهُوَ مِنْ الْإِلْهَامِ الْمَحْمُودِ وَإِنْ كَانَ مِمَّا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ فُجُورٌ فَهُوَ مِنْ الْوَسْوَاسِ الْمَذْمُومِ وَهَذَا الْفَرْقُ مُطَّرِدٌ لَا يَنْتَقِضُ وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو حَازِمٍ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ وَسْوَسَةِ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ فَقَالَ : مَا كَرِهَتْهُ

نَفْسُكَ لِنَفْسِكَ فَهُوَ مِنْ الشَّيْطَانِ فَاسْتَعِذْ بِاَللَّهِ مِنْهُ وَمَا أَحَبَّتْهُ نَفْسُكَ لِنَفْسِكَ فَهُوَ مِنْ نَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْهُ .

(294/840)

وَقَدْ تَكَلَّمَ النُّظَّارُ فِي الْعِلْمِ الْحَاصِلِ فِي الْقَلْبِ عَقِبَ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ فَذَكَرُوا فِيهِ ثَلَاثَةَ أَقْوَالٍ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو حَامِدٍ - فِي مُسْتَصْفَاهُ - وَغَيْرُهُ قَوْلُ الْجَهْمِيَّةِ وَقَوْلُ الْقَدَرِيَّةِ وَقَوْلُ الْفَلَاسِفَةِ . وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ لَا يَذْكُرُ إلَّا الْقَوْلَيْنِ : قَوْلَ الْجَهْمِيَّةِ وَقَوْلَ الْقَدَرِيَّةِ . وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَذْكُرُونَ فِي كُتُبِهِمْ مَا يَعْرِفُونَهُ مِنْ أَقْوَالِ مَنْ يَعْرِفُونَهُ تَكَلَّمَ فِي هَذَا وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ إلَّا هَؤُلَاءِ وَالْمَسْأَلَةُ هِيَ مِنْ فُرُوعِ الْقَدَرِ فَإِنَّ الْحَاصِلَ فِي نَفْسٍ حَادِثٍ فِيهَا فَالْقَوْلُ فِيهِ كَالْأَقْوَالِ فِي أَمْثَالِهِ . وَمَذْهَبُ جَهْمٍ وَمَنْ وَافَقَهُ كَأَبِي الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيِّ وَكَثِيرٍ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ الْمُثَبِّتَةِ هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ؛ أَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ لَكِنَّهُ لَا يُثْبِتُ سَبَبًا وَلَا قُدْرَةً مُؤَثِّرَةً وَلَا حِكْمَةً لِفِعْلِ الرَّبِّ فَأَنْكَرَ الطَّبَائِعَ وَالْقُوَى الَّتِي فِي الْأَعْيَانِ وَأَنْكَرَ الْأَسْبَابَ وَالْحُكْمَ فَلِهَذَا لَمْ يَجْعَلْ لِشَيْءِ سَبَبًا . بَلْ يَقُولُ هَذَا حَاصِلٌ بِخَلْقِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ وَلَمْ يَذْكُرُوا لَهُ سَبَبًا وَهُمْ صَادِقُونَ فِي

(295/840)

إِضَافَتِهِ إِلَى قَدَرِهِ وَأَنَّهُ خَالِقُهُ خِلَافًا لِلْقَدَرِيَّةِ لَكِنَّ مِنْ تَمَامِ الْمَعْرِفَةِ إِثْبَاتُ الْأَسْبَابِ وَمَعْرِفَتُهَا . وَأَمَّا الْقَدَرِيَّةُ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ : فَبَنَوْهُ عَلَى أَصْلِهِمْ وَهُوَ أَنَّ كُلَّ مَا تَوَلَّدَ عَنْ فِعْلِ الْعَبْدِ فَهُوَ فِعْلُهُ لَا يُضَافُ إِلَى غَيْرِهِ كَالشِّبَعِ وَالرِّيِّ وَزُهُوقِ الرُّوحِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَقَالُوا : هَذَا الْعِلْمُ مُتَوَلِّدٌ عَنْ نَظَرِ الْعَبْدِ أَوْ تَذَكُّرِ النَّظَرِ . وَالْمُتَفَلْسِفَةُ بَنَوْهُ عَلَى أَصْلِهِمْ : فِي أَنَّ مَا يَحْدُثُ مِنْ الصُّوَرِ هُوَ مِنْ فَيْضِ الْعَقْلِ الْفَعَّالِ عِنْدَ اسْتِعْدَادِ الْمَوَادِّ الْقَابِلَةِ فَقَالُوا : يَحْصُلُ فِي نُفُوسِ الْبَشَرِ مِنْ فَيْضِ الْعَقْلِ الْفَعَّالِ عِنْدَ اسْتِعْدَادِ النَّفْسِ بِاسْتِحْضَارِ الْمُقَدِّمَتَيْنِ وَهَذَا الْقَوْلُ خَطَأٌ وَالَّذِي قَبْلَهُ أَقْرَبُ مِنْهُ وَالْأَوَّلُ أَقْرَبُ وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا تَحْقِيقُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ . وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ وَكَّلَ بِالْإِنْسِ مَلَائِكَةً وَشَيَاطِينَ يُلْقُونَ فِي قُلُوبِهِمْ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ فَالْعِلْمُ الصَّادِقُ مِنْ الْخَيْرِ وَالْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ مِنْ الشَّرِّ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : لَمَّةُ الْمَلَكِ تَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ وَلَمَّةُ الشَّيْطَانِ تَكْذِيبٌ بِالْحَقِّ وَكَمَا ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقَاضِي : أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مَلَكًا يُسَدِّدُهُ ﴾ وَكَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُوحِي إلَى الْبَشَرِ مَا تُوحِيهِ وَإِنْ كَانَ الْبَشَرُ لَا يَشْعُرُ بِأَنَّهُ مِنْ الْمَلَكِ كَمَا لَا يَشْعُرُ بِالشَّيْطَانِ الْمُوَسْوِسِ

لَكِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُكَلِّمُ الْبَشَرَ وَحْيًا وَيُكَلِّمُهُ بِمَلَكٍ يُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ وَالثَّالِثُ التَّكْلِيمُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : الْمُرَادُ بِالْوَحْيِ هُنَا الْوَحْيُ فِي الْمَنَامِ وَلَمْ يَذْكُرْ أَبُو الْفَرَجِ غَيْرَهُ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ . فَإِنَّ الْمَنَامَ تَارَةً يَكُونُ مِنْ اللَّهِ وَتَارَةً يَكُونُ مِنْ النَّفْسِ وَتَارَةً يَكُونُ مِنْ الشَّيْطَانِ وَهَكَذَا مَا يُلْقَى فِي الْيَقَظَةِ . وَالْأَنْبِيَاءُ مَعْصُومُونَ فِي الْيَقَظَةِ وَالْمَنَامِ . وَلِهَذَا كَانَتْ رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيًا كَمَا قَالَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ وَقَرَأَ قَوْلَهُ : ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ رَأَى رُؤْيَا كَانَتْ وَحْيًا فَكَذَلِكَ لَيْسَ كُلُّ مَنْ أُلْقِيَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ يَكُونُ وَحْيًا وَالْإِنْسَانُ قَدْ تَكُونُ نَفْسُهُ فِي يَقَظَتِهِ أَكْمَلَ مِنْهَا فِي نَوْمِهِ كَالْمُصَلِّي الَّذِي يُنَاجِي رَبَّهُ فَإِذَا جَازَ أَنْ يُوحَى إلَيْهِ فِي حَالِ النَّوْمِ فَلِمَاذَا لَا يُوحَى إلَيْهِ فِي حَالِ الْيَقَظَةِ كَمَا أَوْحَى إلَى أُمِّ مُوسَى وَالْحَوَارِيِّينَ وَإِلَى النَّحْلِ لَكِنْ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُطْلِقَ الْقَوْلَ عَلَى مَا يَقَعُ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ وَحْيٌ لَا فِي يَقَظَةٍ وَلَا فِي الْمَنَامِ إلَّا بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ الْوَسْوَاسَ غَالِبٌ عَلَى النَّاسِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - :

فَصْلٌ : فِي (سُورَةِ الْفَلَقِ وَالنَّاسِ)

فِي (الْفَلَقِ) أَقْوَالٌ تَرْجِعُ إِلَى تَعْمِيمٍ وَتَخْصِيصٍ فَإِنَّهُ فُسِّرَ بِالْخَلْقِ عُمُومًا وَفُسِّرَ بِكُلِّ مَا يُفْلَقُ مِنْهُ كَالْفَجْرِ وَالْحَبِّ وَالنَّوَى وَهُوَ غَالِبُ الْخَلْقِ وَفُسِّرَ بِالْفَجْرِ . وَأَمَّا تَفْسِيرُهُ بِالنَّارِ أَوْ بِجُبٍّ أَوْ شَجَرَةٍ فِيهَا فَهَذَا مَرْجِعُهُ إِلَى التَّوْقِيفِ . (وَالْغَاسِقُ) قَدْ رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ عَنْ عَائِشَةَ فِي التِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِي ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ وَقَالَ لَهَا : يَا عَائِشَةُ تَعَوَّذِي بِاَللَّهِ مِنْ هَذَا فَهَذَا الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ ﴾ قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ (الْغَاسِقُ) : الْقَمَرُ إِذَا كَسَفَتْ فَاسْوَدَّ وَمَعْنَى وَقَبَ دَخَلَ فِي الْكُسُوفِ . وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ أَهْلِ التَّفْسِيرِ وَاللُّغَةِ أَنَّ (الْغَاسِقَ) اللَّيْلُ ، (وَقَبَ) : دَخَلَ

(298/840)

فِي كُلِّ شَيْءٍ فَأَظْلَمَ وَ " الْغَسَقُ " الظُّلْمَةُ وَقَالَ الزَّجَّاجُ . (الْغَاسِقُ الْبَارِدُ فَقِيلَ لِلَّيْلِ غَاسِقٌ ؛ لِأَنَّهُ أَبْرَدُ مِنْ النَّهَارِ أَوْ يُقَالُ الْغَسَقُ السَّيَلَانُ وَالْإِحَاطَةُ وَغَسَقُ اللَّيْلِ سَيَلَانُهُ وَإِحَاطَتُهُ بِالْأَرْضِ وَإِذَا فُسِّرَ بِالْقَمَرِ فَقَدْ يُقَالُ وُقُوبُهُ أَيْ دُخُولُهُ وَهُوَ دُخُولُهُ فِي الْكُسُوفِ وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ تَفْسِيرِهِ بِاللَّيْلِ وَبِالْقَمَرِ فَإِنَّ الْقَمَرَ آيَةُ اللَّيْلِ فَهُنَا ثَلَاثُ مَرَاتِبَ : اللَّيْلُ مُطْلَقًا ثُمَّ الْقَمَرُ مُطْلَقًا ثُمَّ الْقَمَرُ حَالَ كُسُوفِهِ . وَهَذَا مُنَاسِبٌ لِمَا ذُكِرَ فِي الْمُسْتَعَاذِ بِهِ فَإِنَّ عُمُومَ الْفَلَقِ لِلْخَلْقِ بِإِزَاءِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَخُصُوصُهُ بِالْفَجْرِ الَّذِي هُوَ ظُهُورُ النُّورِ بِإِزَاءِ الْغَاسِقِ إذَا وَقَبَ الَّذِي هُوَ

دُخُولُ الظَّلَامِ . وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْغَاسِقُ : الثُّرَيَّا إذَا سَقَطَتْ وَكَانَتْ الْأَسْقَامُ وَالطَّوَاعِينُ تَكْثُرُ عِنْدَ وُقُوعِهَا وَقَدْ تَقَعُ عِنْدَ طُلُوعِهَا وَيُشْبِهُ - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - أَنْ يَكُونَ مِنْ الْحِكْمَةِ فِي ذَلِكَ : أَنَّ النُّورَ هُوَ جِنْسُ الْخَيْرِ وَالظُّلْمَةَ جِنْسُ الشَّرِّ وَفِي اللَّيْلِ يَقَعُ مِنْ الشُّرُورِ النَّفْسَانِيَّةِ مَا لَا يَقَعُ فِي النَّهَارِ وَالْقَمَرُ لَهُ تَأْثِيرٌ فِي الْأَرْضِ لَا سِيَّمَا حَالَ كُسُوفِهِ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّهُمَا آيَتَانِ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِمَا عِبَادَهُ ﴾ وَالتَّخْوِيفُ إنَّمَا يَكُونُ بِانْعِقَادِ سَبَبِ الْخَوْفِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إلَّا عِنْدَ سَبَبِ الْعَذَابِ أَوْ مَظِنَّتِهِ فَعُلِمَ أَنَّ الْكُسُوفَ مَظِنَّةُ حُدُوثِ عَذَابٍ بِأَهْلِ

(299/840)

الْأَرْضِ ؛

وَلِهَذَا شُرِعَ عِنْدَ الْكُسُوفِ الصَّلَاةُ الطَّوِيلَةُ وَالصَّدَقَةُ وَالْعَتَاقَةُ وَالدُّعَاءُ لِدَفْعِ الْعَذَابِ وَكَذَلِكَ عِنْدَ سَائِرِ الْآيَاتِ الَّتِي هِيَ إنْشَاءُ الْعَذَابِ كَالزَّلْزَلَةِ وَظُهُورِ الْكَوَاكِبِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَهُوَ أَقْرَبُ الْكَوَاكِبِ الَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي الْأَرْضِ بِالتَّرْطِيبِ وَالْيُبْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَلِهَذَا كَانَ الطَّالِبُونَ لِلْمَنْفَعَةِ وَالْمَضَرَّةِ مِنْ الْكَوَاكِبِ إنَّمَا يَأْخُذُونَ الْأَحْدَاثَ بِحَسَبِ سَيْرِ الْقَمَرِ فَإِذَا كَانَ فِي شَرَفِهِ كَالسَّرَطَانِ كَانَ الْوَقْتُ عِنْدَهُمْ سَعِيدًا وَإِذَا كَانَ فِي الْعَقْرَبِ وَهُوَ هُبُوطُهُ

كَانَ نَحْسًا فَهَذَا فِي عِلْمِهِمْ وَكَذَلِكَ فِي عَمَلِهِمْ مِنْ السِّحْرِ وَغَيْرِهِ : الْقَمَرُ أَقْرَبُ الْمُؤَثِّرَاتِ حَتَّى صَنَّفُوا " مُصْحَفَ الْقَمَرِ " لِعِبَادَتِهِ وَتَسْبِيحِهِ فَوَقَعَ تَرْتِيبُ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَلَى كَمَالِ التَّرْتِيبِ انْتِقَالًا مِنْ الْأَعَمِّ الْأَعْلَى الْأَبْعَدِ إلَى الْأَخَصِّ الْأَقْرَبِ الْأَسْفَلِ فَجُعِلَتْ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ . الْأَوَّلُ : مِنْ شَرِّ الْمَخْلُوقَاتِ عُمُومًا وَقَوْلُ الْحَسَنِ : إنَّهُ إبْلِيسُ وَذُرِّيَّتُهُ وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ إنَّهُ جَهَنَّمُ : ذُكِرَ لِلشَّرِّ الَّذِي هُوَ لَنَا شَرٌّ مَحْضٌ مِنْ الْأَرْوَاحِ وَالْأَجْسَامِ . وَالثَّانِي : شَرُّ الْغَاسِقِ إذَا وَقَبَ فَدَخَلَ فِيهِ مَا يُؤَثِّرُ مِنْ الْعَلَوِيَّاتِ فِي السُّفْلِيَّاتِ مِنْ اللَّيْلِ وَمَا فِيهِ مِنْ الْكَوَاكِبِ كَالثُّرَيَّا وَسُلْطَانِهِ الَّذِي هُوَ الْقَمَرُ وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ سِحْرُ التمرسحات (1) الَّذِي هُوَ أَعْلَى السِّحْرِ وَأَرْفَعُهُ .

(300/840)

الثَّالِثُ : شَرُّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَهُنَّ السَّوَاحِرُ اللَّوَاتِي يَتَصَوَّرْنَ بِأَفْعَالٍ فِي أَجْسَامٍ . وَالرَّابِعُ : الْحَاسِدُ وَهِيَ النُّفُوسُ الْمُضِرَّةُ سَفَهًا فَانْتَظَمَ بِذَلِكَ جَمِيعُ أَسْبَابِ الشُّرُورِ ثُمَّ خَصَّ فِي " سُورَةِ النَّاسِ " الشَّرَّ الصَّادِرَ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَهُمْ الْأَرْوَاحُ الْمُضِرَّةُ .

فَصْلٌ :

وَتَظْهَرُ الْمُنَاسَبَةُ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ أَنَّ الْمُسْتَعَاذَ مِنْهُ هُوَ الشَّرُّ كَمَا أَنَّ

الْمَطْلُوبَ هُوَ الْخَيْرُ : إمَّا مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ وَإِمَّا مِنْ غَيْرِ فِعْلِهِ وَمَبْدَأُ فِعْلِهِ لِلشَّرِّ هُوَ الْوَسْوَاسُ الَّذِي يَكُونُ تَارَةً مِنْ الْجِنِّ وَتَارَةً مِنْ الْإِنْسِ وَحَسْمُ الشَّرِّ بِحَسْمِ أَصْلِهِ وَمَادَّتِهِ أَجْوَدُ مِنْ دَفْعِهِ بَعْدَ وُقُوعِهِ فَإِذَا أُعِيذَ الْعَبْدُ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي الصُّدُورِ فَقَدْ أُعِيذَ مِنْ شَرِّ الْكُفْرِ وَالْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ فَهَذَا فِي فِعْلِ نَفْسِهِ وَتَعُمُّ الْآيَةُ أَيْضًا فِعْلَ غَيْرِهِ لِسُوءِ مَعَهُ فَكَانَتْ هَذِهِ السُّورَةُ لِلشَّرِّ الصَّادِرِ مِنْ الْعَبْدِ وَأَمَّا الشَّرُّ الصَّادِرُ مِنْ غَيْرِهِ فَسُورَةُ (الْفَلَقِ) فَإِنَّ فِيهَا الِاسْتِعَاذَةُ مِنْ شَرِّ الْمَخْلُوقَاتِ عُمُومًا وَخُصُوصًا . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مجموع الفتاوى جـ 17 صـ 510.536 ﴾

(301/840)

كلام نفيس للإمام ابن القيم فى السورة الكريمة

قال عليه الرحمة :

وأما سورة الناس : فقد تضمنت أيضا استعاذة ومستعاذا به ومستعاذا منه فالاستعاذة تقدمت وأما المستعاذ به فهو الله تعالى ﴿ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ فذكر ربوبيته للناس وملكه إياهم وإلهيته لهم ولا بد من مناسبة في ذكر ذلك في الاستعاذة من الشيطان الرجيم كما تقدم فنذكر أولا معنى هذه الإضافات الثلاث ثم وجه مناسبتها لهذه

الاستعاذة الإضافة الأولى : إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم وتربيتهم وإصلاحهم وجلب مصالحهم وما يحتاجون إليه ودفع الشر عنهم وحفظهم مما يفسدهم هذا معنى ربوبيته لهم وذلك يتضمن قدرته التامة ورحمته الواسعة وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحوالهم وإجابة دعواتهم وكشف كرباتهم الإضافة الثانية : إضافة الملك فهو ملكهم المتصرف فيهم وهم عبيده ومماليكه وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء النافذ القدرة فيهم الذي له السلطان التام عليهم فهو ملكهم الحق الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجؤهم فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم الإضافة الثالثة : إضافة الإلهية فهو إلههم الحق ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه ولا معبود لهم غيره فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكا في إلهيته كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه وهذه طريقة

القرآن الكريم يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة وإذا كان وحده هو ربنا ومالكنا وإلهنا فلا مفزع لنا في الشدائد سواه ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ولا معبود لنا غيره فلا ينبغي أن يدعي ولا يخاف ولا يرجى ولا يحب سواه ولا يذل لغيره ولا يخضع لسواه ولا يتوكل إلا عليه لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومولي شأنك وهو ربك فلا رب سواه أو تكون مملوكه وعبده الحق فهو ملك الناس حقا وكلهم عبيده ومماليكه أو يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك وهو الإله الحق إله الناس الذي لا إله لهم سواه فمن كان ربهم وملكهم وإلههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره ولا يستنصروا بسواه ولا يلجئوا إلى غير حماة فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ومتولي أمورهم جميعا بربوبيته وملكه وإلهيته لهم فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلهه فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة وأشدهم ضررا وأبلغهم كيدا ثم إنه سبحانه كرر الاسم الظاهر ولم يوقع المضمر موقعه فيقول رب الناس وملكهم وإلههم تحقيقا لهذا المعنى وتقوية له فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه ولم يعطف بالواو لما فيهم من الإيذان بالمغايرة والمقصود الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب وأخر الإلهية لخصوصها لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده

ووحده واتخذه دون غيره إلها فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه وإن كان في الحقيقة لا إله له سواه ولكن ترك إلهه الحق واتخذ إلها غيره ووسط صفة الملك بين الربوبية والإلهية لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره فهو المطاع إذا أمر وملكه لهم تابع لخلقه إياهم فملكه من كمال ربوبيته وكونه إلههم الحق من كمال ملكه فربوبيته تستلزم

ملكه وتقتضيه وملكه يستلزم إلهيته ويقتضيها

فهو الرب الحق الملك الحق الإله الحق خلقهم بربوبيته وقهرهم بملكه استعبدهم بإلهيته فتأمل هذه الجلالة وهذه العظمة التي تضمنته هذه الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام وأحسن سياق رب الناس ملك الناس إله الناس وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان وتضمنت معاني أسمائه الحسنى أما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنى فإن الرب هو القادر الخالق البارئ المصور الحي القيوم العليم السميع البصير المحسن المنعم الجواد المعطي المانع الضار النافع المقدم المؤخر الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ويسعد من يشاء ويشقي ويعز من يشاء ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى وأما الملك فهو الآمر الناهي المعز المذل الذي يصرف أمور عباده كما

يحب ويقلبهم كما يشاء وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى كالعزيز الجبار الحكم العدل الخافض الرافع المعز المذل العظيم الجليل الكبير الحسيب المجيد الوالي المتعالي مالك الملك المقسط الجامع إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك وأما الإله فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى ولهذا كان القول الصحيح أن الله أصله الإله كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شذ منهم وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى والصفات العلى فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى فكان المستعيذ بها جديرا بأن يعاذ ويحفظ ويمنع من الوسواس الخناس ولا يسلط عليه وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراء وإن باديه إلى الخافي يسير.

فصل:

وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها وهو الشر الداخل في الإنسان الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة فسورة الفلق

تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد وهو شر من خارج وسورة الناس تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه وهو شر من داخل فالشر الأول : لا يدخل تحت التكليف ولا يطلب منه الكف عنه لأنه ليس من كسبه والشر الثاني : في سورة الناس يدخل تحت التكليف ويتعلق به النهي فهذا شر المعائب والأول شر المصائب والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة .

فصل :

إذا عرف هذا فالوسواس فعلال من وسوس وأصل الوسوسة الحركة أو الصوت الخفي الذي لا يحس فيحترز منه فالوسواس الإلقاء الخفي في النفس إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد ومن هذا وسوسة الحلي وهو حركته الخفية في الأذن والظاهر والله تعالى أعلم إنها سميت وسوسة لقربها وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة من شياطين الإنس وهو الأذن فقيل وسوسة الحلي لأنه صوت مجاور للأذن كوسوسة الكلام الذي يلقيه الشيطان في أذن من يوسوس له ولما كانت الوسوسة كلاما يكرره الموسوس ويؤكده

عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها فقالوا وسوس وسوسة فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه ونظير هذا ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه كالدوران والغليان والنزوان وبابه ونظير ذلك زلزل ودكدك وقلقل وكبكب الشيء لأن الزلزلة حركة متكررة وكذلك الدكدكة والقلقلة وكذلك كبكب الشيء إذا كبه في مكان بعيد فهو يكب فيه كبا بعد كب كقوله تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ ومثله رضرضة إذا كرر رضه مرة بعد مرة ومثله ذرذره إذا ذره شيئًا بعد شيء ومثله صرصر الباب إذا تكرر صريره ومثله مطمط الكلام إذا مطه شيئًا بعد شيء ومثله كفكف الشيء إذا كرر كفه وهو كثير وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثي المضاعف لم يصب لأن الثلاثي لا يدل على تكرار بخلاف الرباعي المكرر فإذا قلت ذر الشيء وصر الباب وكف الثوب ورض الحب لم يدل على تكرار الفعل بخلاف ذرذر وصرصر ورضرض ونحوه فتأمله فإنه مطابق للقاعدة العربية في الحذو بالألفاظ حذو المعاني وقد تقدم التنبيه على ذلك فلا وجه لإعادته وكذلك قولهم عج العجل إذا صوت فإن تابع صوته قالوا عجعج وكذلك ثج الماء إذا صب فإن تكرر ذلك قيل ثجثج والمقصود أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها قبل وسوس .

فصل :

إذا عرف هذا فاختلف النحاة في لفظ الوسواس هل هو وصف أو مصدر الجواب على قولين : ونحن نذكر حجة كل قول ثم نبين الصحيح من القولين بعون الله تعالى وفضله أما من ذهب إلى أنه مصدر فاحتج بأن الفعل منه فعلل والوصف من فعلل إنما هو مفعلل كمدحرج ومسرهف ومبيطر ومسيطر وكذلك هو من فعل بوزن مفعل كمقطع ومخرج وبابه فلو كان الوسواس صفة لقيل موسوس ألا ترى أن

اسم الفاعل من زلزل مزلزل لا زلزال وكذلك من دكدك مدكوك وهو مطرد فدل على أن الوسواس مصدر وصف به على وجه المبالغة أو يكون على حذف مضاف تقديره ذو الوسواس قالوا والدليل عليه أيضا قول الشاعر :

(306/840)

تسمع للحلي بها وسواسا

فهذا مصدر بمعنى الوسوسة سواء قال أصحاب الرأي الآخر : الدليل على أنه وصف أن فعلل ضربان أحدهما : صحيح لا تكرار فيه كدحرج وسرهف بيطر وقياس مصدر هذه الفعللة كالدحرجة والسرهفة والبيطرة والفعلان بكسر الفاء كالسرهاف والدحراج والوصف منه مفعلل كمدحرج ومبيطر والثاني : فعلل الثنائي المكرر كزلزل ودكدك

ووسوس وهذا فرع على فعلل المجرد عن التكرار لأن الأصل السلامة من التكرار ومصدر هذا النوع والوصف منه مساو لمصدر الأول ووصفه فمصدره يأتي على الفعللة كالوسوسة والزلزلة والفعلال كالزلزال وأقيس المصدرين وأولاهما بنوعي فعلل الفعلان لأمرين أحدهما أن فعلل مشاكل لأفعل في عدد الحروف وفتح الأول والثالث والرابع وسكون الثاني فجعل أفعال مصدر أفعل وفعلال مصدر فعلل ليتشاكل المصدران كما يتشاكل الفعلان فكان الفعلان أولى بهذا الوزن من الفعللة الثاني: أن أصل المصدر أن يخالف وزنه وزن فعله ومخالفة فعلال لفعلل أشد من مخالفة فعللة له فكان فعلال أحق بالمصدرية من فعللة أو تساويا في الاطراد من أن فعللة أرجع في الاستعمال وأكثر هذا هو الأصل وقد جاءوا بمصدر هذا الوزن المكرر مفتوح الفاء فقالوا وسوس الشيطان وسواسا ووعوع الكلب وعواعا إذا عوى وعظعظ السهم عظعاظا والجاري على القياس فعلال بكسر الفاء أو فعللة وهذا المفتوح نادر لأن الرباعي الصحيح أصل للمتكرر ولم يأت مصدر الصحيح مع كونه أصلا إلا على فعللة وفعلال بالكسر فلم يحسن بالرباعي المكرر لفرعيته أن يكون

مصدره إلا كذلك لأن الفرع لا يخالف أصله بل يحتذي فيه حذوه وهذا يقتضي أن لا يكون مصدره على فعلال بالفتح فإن شذ حفظ ولم يزد عليه قالوا وأيضا فإن فعلالا المفتوح الفاء قد كثر وقوعه صفة مصوغة من فعلل المكرر ليكون فيه نظير فعال من الثلاثي لأنهما متشاركان وزنا فاقتضى ذلك أن لا يكون لفعلال من المصدرية نصيب كما لم يكن لفعال فيها نصيب فلذلك استندروا وقوع وسواس ووعواع وعظعاظ مصادر وإنما حقها أن تكون صفات دالة على المبالغة في مصادر هذه الأفعال قالوا وإذا ثبت هذا فحق ما وقع منها محتملا للمصدرية والوصفية أن يحمل على الوصفية حملا على الأكثر الغالب وتجنبا للشاذ فمن زعم أن الوسواس مصدر مضاف إليه ذو تقديرا فقوله خارج عن القياس والاستعمال الغالب ويدل على فساد ما ذهب إليه أمران أحدهما : أن كل مصدر أضيف إليه ذو تقديرا فتجرده للمصدرية أكثر من الوصف به كرضي وصوم وفطر وفعلال المفتوح لم يثبت تجرده للمصدرية إلا في ثلاثة ألفاظ فقط وسواس ووعواع وعظعاظ على أن منع المصدرية في هذا ممكن لأن غاية ما يمكن أن يستدل به على المصدرية قولهم وسوس إليه الشيطان وسواسا وهذا لا يتعين للمصدرية لاحتمال أن يراد به الوصفية وينتصب وسواسا على الحال ويكون حالا مؤكدة فإن الحال قد يؤكد بها عاملها الموافق لها لفظا ومعنى كقوله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولاً ﴾ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ نعم إنما تتعين مصدرية الوسواس بالسمع أعوذ بالله من وسواس

الشيطان ونحو ذلك مما يكون الوسواس فيه مضافا إلى فاعله كما سمع ذلك في الوسوسة ولكن أين لكم ذلك فهاتوا شاهده فبذلك يتعين أن يكون الوسواس مصدرا باتصابه بعد الفعل الوجه الثاني: من دليل فساد من زعم أن وسواسا مصدر مضاف إليه ذو تقديرا إن المصدر المضاف إليه ذكر تقديرا لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع بل يلزم طريقة واحدة

ليعلم أصالته في المصدرية وأنه عارض الوصفية فيقال امرأة صوم وامرأتان صوم ونساء صوم لأن

المعنى ذات صوم وذاتا صوم وذوات صوم وفعلال الموصوف به ليس كذلك بل يثنى ويجمع ويؤنث فتقول رجل ثرثار وامرأة ثرثارة ورجال ثرثارون وفي الحديث "أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون" حسن وقالوا ريح رفرافة أي تحرك الأشجار وريح سفسافة أي تنخل التراب ودرع فضفاضة أي متسعة والفعل من ذلك كله فعلل والمصدر فعللة وفعلال

بالكسر ولم ينقل في شيء من ذلك فعلال بالفتح وكذلك قالوا تمتام وفأفاء ولضلاض أي

ماهر في الدلالة وفجفاج كثر الكلام وهرهار أي ضحاك وكهكاه ووطواط أي ضعيف

وحشحاش وعسعاس أي خفيف وهو كثير ومصدره كله الفعللة والوصف فعلال بالفتح

ومثله هفهاف أي خميص ومثله دحداح أي قصير ومثله بجباج أي جسيم وتختاخ أي ألكن

شمشام أي سريع وشيء خشخاش أي مصوت وقعقاع مثله وأسد فضفاض أي كاسر

وحية نضناض تحرك لسانها فقد رأيت فعلال في هذا كله وصفا لا مصدرا فما بال

الوسواس أخرج عن نظائره وقياس بابه فثبت أن وسواسا وصف لا مصدر كثرثار وتمتام

ودحداح وبابه ويدل عليه وجه آخر وهو أنه وصفه بما يستحيل أن يكون مصدرا بل هو

متعين الوصفية وهو الخناس فالوسواس والخناس وصفان لموصوف محذوف وهو الشيطان

وحسن حذف الموصوف ها هنا غلبة الوصف حتى صار كالعلم عليه والموصوف إنما

يقبح حذفه إذا كان الوصف مشتركا فيقع اللبس كالطويل والقبيح والحسن ونحوه فيتعين

ذكر الموصوف ليعلم أن الصفة له لا لغيره فأما إذا غلب الوصف واختص ولم يعرض فيه

اشتراك فإنه يجري مجرى الاسم ويحسن حذف الموصوف كالمسلم والكافر والبر والفاجر

والقاصي والداني والشاهد والوالي ونحو ذلك فحذف الموصوف هنا أحسن من ذكره

وهذا التفصيل أولى من إطلاق من منع حذف الموصوف ولم يفصل ومما يدل على أن

الوسواس وصف لا مصدر أن الوصفية أغلب على فعلال من المصدرية كما تقدم فلو أريد

المصدر لأتي بذو المضافة إليه ليزول اللبس وتتعين المصدرية فإن اللفظ إذا احتمل الأمرين على السواء فلا بد

(310/840)

من قرينة تدل على تعيين أحدهما فكيف والوصفية أغلب عليه من المصدرية وهذا بخلاف صوم وفطر وبابهما فإنها مصادر لا تلبس بالأوصاف فإذا جرت أوصافا علم أنها على حذف مضاف أو تنزيلا للمصدر منزلة الوصف مبالغة على الطريقتين في ذلك فتعين أن الوسواس هو الشيطان نفسه وأنه ذات لا مصدر والله أعلم.

فصل:

وأما الخناس: فهو فعال من خنس يخنس إذا توارى واختفى ومنه قول أبي هريرة: "لقيني النبي صلى الله عليه وسلم في بعض طرق المدينة وأنا جنب فانخنست منه: وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور فليست لمجرد الاختفاء ولهذا وصفت بها الكواكب في قوله تعالى: ﴿فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ قال قتادة: "هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار فتختفي ولا ترى" وكذلك قال علي رضي الله عنه: "هي الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى" وقالت طائفة: الخنس هي الراجعة التي ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق وهي السبعة السيارة" قالوا

: وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء" والخناس مأخوذ من هذين المعنيين فهو من الاختفاء والرجوع والتأخر فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان وانبسط عليه وبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به انخنس وانقبض كما ينخنس الشيء ليتوارى وذلك الإنخناس والانقباض هو أيضا تجمع ورجوع وتأخر عن القلب إلى خارج فهو تأخر ورجوع معه اختفاء وخنس وانخنس يدل على الأمرين معا قال قتادة الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان فإذا ذكر العبد ربه خنس ويقال رأسه كرأس الحية وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يمنيه ويحدثه فإذا ذكر الله تعالى خنس وإذا لم يذكره عاد ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه وجيء من هذا الفعل بوزن فعال الذي للمبالغة دون الخانس

(311/840)

والمنخنس إيذانا بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله وأن ذلك دأبه ودينه لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحيانا بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر فإن ذكر الله هو مقمعته التي يقمع بها كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعصي ونحوها فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التي تؤذي من

يضرب بها ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلا ضئيلا مضنى مما يعذبه ويقمعه به من ذكر الله وطاعته وفي أثر عن بعض السلف أن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي الرجل بعيره في السفر لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوجه والاستغفار والطاعة فشيطانه معه في عذاب شديد ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة ولهذا يكون قويا عاتيا شديدا فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكررا لتكريره الوسوسة الواحدة مرارا حتى يعزم عليها العبد وجاء بناء الخناس على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل لأنه كلما ذكر الله انخنس ثم إذا غفل العبد عاوده بالوسوسة فجاء بناء اللفظين مطابقا لمعنييهما .

فصل :

وقوله : ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ صفة ثالثة للشيطان فذكر وسوسته أولا ثم ذكر محلها ثانيا وأنها في صدور الناس وقد جعل الله للشيطان دخولا في جوف العبد ونفوذا إلى قلبه وصدره فهو يجري منه مجرى الدم وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات وفي الصحيحين من حديث الزهري عن علي بن حسين عن صفية بنت حيي قالت : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفا

فأتيته أزوره ليلا فحدثته ثم قمت فانقلبت فقام معي ليقلبني وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلكما إنها صفية بنت حيي فقالا سبحان الله يا رسول الله فقال إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءا أو قال شيئا" رواه البخاري وفي الصحيح أيضا عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط فإذا قضى أقبل فإذا ثوب بها أدبر فإذا قضي أقبل حتى يخطر بين الإنسان وقلبه فيقول اذكر كذا اذكر كذا حتى لا يدري أثلاثا صلى أم أربعا فإذا لم يدر أثلاثا صلى أم أربعا سجد سجدتي السهو" رواه البخاري ومسلم ومن وسوسته ما ثبت وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا ومن خلق كذا حتى يقول من خلق الله فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته" رواه البخاري ومسلم وفي الصحيح أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: "يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به قال الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة" صحيح ومن وسوسته أيضا أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله ولهذا يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه قال تعالى حكاية عن

صاحب موسى إنه قال : ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ وتأمل حكمة القرآن الكريم وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه فإن قوله : ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ يعم كل شره ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شرا وأقواها تأثيرا وأعمها فسادا وهي الوسوسة التي هي مبادئ

الإرادة فإن القلب يكون فارغا من الشر والمعصية فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه فيصير شهوة ويزينها له ويحسنها ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه فيصير إرادة ثم لا يزال

يمثل ويخيل ويمني ويشهي وينسى علمه بضررها ويطوي عنه سوء عاقبتها فيحول بينه وبين مطالعته فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط وينسى ما وراء ذلك فتصير الإرادة عزيمة جازمة فيشتد الحرص عليها من القلب فيبعث الجنود في الطلب فيبعث الشيطان معهم مددا لهم وعونا فإن فتروا حركهم وإن ونوا أزعجهم كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجا كلما

فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة قد رضي لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم وهو الذي استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم بتلك النخوة والكبر ولا يرضاه أن يصير قوادا لكل من عصى الله كما قال بعضهم :

عجبت من إبليس في تيهه . . . وقبح ما أظهر من نخوته

تاه على آدم في سجدة . . . وصار قوادا لذريته

فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضا فمن شره أنه لص سارق لأموال الناس فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله تعالى عليه فله فيه حظ بالسرقة والخطف وكذلك يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله تعالى فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم فيدخل سارقا ويخرج مغيرا ويدل على عوراتهم فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومناما إنه فعل كذا وكذا ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس فيصبح والناس يتحدثون به وما ذاك إلا أن الشيطان زينه له وألقاه في قلبه ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه فأوقعه في الذنب ثم

فضحه به فالرب تعالى يستره والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته فيغتر العبد ويقول هذا ذنب لم يره إلا الله تعالى ولم يشعر بأن عدوه ساع في إذاعته وفضيحته وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقدا تمنعه من اليقظة كما في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله قال ويعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقدة يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقده فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان رواه البخاري ومسلم ومن شره أن يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح كما ثبت عن النبي أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح قال ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه أو قال في أذنيه رواه البخاري رواه البخاري ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته

ويكفي من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالغ في الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة النار من كل ألف وتسعة وتسعين ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض وقصد أن تكون الدعوة له وأن يعبد من دون الله فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله وإبطال دعوته وإقامة دعوة الكفر والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض ويكفي من شره أنه تصدى لإبراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق في النار فرد الله تعالى كيده عليه وجعل النار على خليله بردا وسلاما وتصدى حتى أراد اليهود قتله وصلبه فرد الله كيده وصان المسيح ورفعه إليه وتصدى لزكريا ويحيى

حتى قتلا واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم في الأرض ودعوى أنه ربهم الأعلى وتصدى للنبي صلى الله عليه وسلم وظاهر الكفار على قتله بجهده والله تعالى يكبته ويرده خاسئا وتفلت على النبي صلى الله عليه وسلم بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو في

الصلاة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول ألعنك بلعنة الله وأعان اليهود على سحرهم للنبي صلى الله عليه وسلم فإذا كان هذا شأنه وهمته في الشر فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته ولا يمكن حصر أجناس شره فضلا عن آحادها إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه ويكن ينحصر شره في ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحدا منها أو أكثر الشر الأول : شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى يناله منه فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله فصار من دعاة إبليس ونوابه فإذا يئس منه من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى المرتبة الثانية من الشر : وهي البدعة وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي لأن ضررها في نفس الدين وهو ضرر متعد وهي ذنب لا يتاب منه وهي مخالفة لدعوة الرسل ودعا إلى خلاف ما جاءوا به وهي باب الكفر والشرك فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقي أيضا نائبه وداعيا من دعائه فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر : وهي الكبائر على اختلاف أنواعها فهو أشد حرصا على أن يوقعه فيها ولا سيما إن كان عالما متبوعا فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس ويستنيب منهم من يشيعها

ويذيعها تدينا وتقربا بزعمه إلى الله تعالى وهو نائب إبليس ولا يشعر فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم هذا إذا أحبوا إشاعتها

وإذاعتها فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه كل ذلك لينفر

الناس عنه وعن الانتفاع به وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وتتبع لعورتهم وقصد لفضيحتهم والله سبحانه بالمرصاد لا تخفى عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الرابعة وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم "إياكم ومحقرات الذنوب فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض"

صحيح وذكر حديثا معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا نارا عظيمة فطبخوا واشتووا ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالا منه فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى المرتبة الخامسة : وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظا لوقته شحيحا به يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله إلى المرتبة السادسة : وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه وقل من يتنبه لهذا من الناس فإنه إذا رأى فيه داعيا قويا ومحركا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعي من الشيطان فإن الشيطان لا يأمر بخير ويرى أن هذا خير فيقول هذا الداعي من الله وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابا من أبواب الخير إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر وإما ليفوت بها خيرا أعظم من تلك السبعين بابا وأجل وأفضل وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد يكون سببه تجريد متابعة الرسول صلى الله

عليه وسلم وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه وأرضاها له وأنفعها للعبد وأعمها نصيحة لله تعالى ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم ولا يعرف هذا إلا من

كان من ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك فلا يخطر بقلوبهم والله تعالى يمن بفضله على من يشاء من عباده فإن أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيا عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فكره وليمنع الناس من الانتفاع به فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه ولا يفتر ولا يني فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت ومتى وضعها أسر أو أصيب فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته واجعله ميزانك تزن به الناس وتزن به الأعمال فإنه يطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق والله المستعان وعليه التكلان ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعا لمن تدبره ووعاه.

فصل:

وتأمل السر في قوله تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ولم يقل في قلوبهم والصدر هو

ساحة القلب وبيته فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب فهو بمنزلة الدهليز له ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر ثم تتفرق على الجنود ومن فهم هذا فهم قوله تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته فيلقي ما يريد إلقاءه في القلب فهو موسوس في الصدر ووسوسته واصلة إلى القلب ولهذا قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ ولم يقل فيه لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك وأوصله فيه فدخل في قلبه .

فصل :

وقوله تعالى : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ اختلف المفسرون في هذا الجار والمجرور بم يتعلق فقال الفراء وجماعة هو بيان للناس الموسوس في صدورهم والمعنى يوسوس في صدور الناس الذين هم من الجن والإنس أي الموسوس في صدورهم قسمان إنس وجن فالوسواس يوسوس للجني كما يوسوس للإنسي وعلى هذا القول فيكون من الجنة والناس نصب على الحال لأنه مجرور بعد معرفة على قول البصريين وعلى قول الكوفيين نصب بالخروج من المعرفة هذه عبارتهم ومعناها أنه لما يصلح أن يكون نعتا للمعرفة انقطع عنها فكان موضعه

نصبا والبصريون يقدرونه حالا أي كائنين من الجنة والناس وهذا القول ضعيف جدا لوجوه أحدها : أنه لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدور الجن ويدخل فيه كما يدخل في الإنسي ويجري منه مجراه من الإنسي فأي دليل يدل على هذا حتى يصح حمل الآية عليه الثاني : أنه فاسد من جهة اللفظ أيضا فإنه قال : ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ فكيف يبين الناس بالناس فإن معنى الكلام على قوله : ﴿ يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ الذين هم أو كائنين من الجنة والناس أيجوز أن يقال في صدور الناس الذين هم من الناس وغيرهم هذا ما لا يجوز ولا هو استعمال فصيح الثالث : أن يكون قد قسم الناس إلى قسمين جنة وناس وهذا غير صحيح فإن الشيء لا يكون قسيم نفسه الرابع : أن الجنة لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه لا أصلا ولا اشتقاقا ولا استعمالا ولفظهما يأبى ذلك فإن الجن إنما سموا جنا من الإجتنان وهو الاستتار فهو مستترون عن أعين البشر فسموا جنا لذلك من قولهم جنه الليل وأجنه إذا ستره وأجن الميت إذا ستره في الأرض قال :

ولا تبك ميتا بعد ميت أجنه . . . علي وعباس وآل أبي بكر

يريد النبي صلى الله عليه وسلم ومنه الجنين لاستتاره في بطن أمه قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ومنه المجن لاستتار المحارب به من سلاح خصمه ومنه الجنة لاستتار داخلها بالأشجار ومنه الجنة بالضم لما بقي الإنسان من السهام والسلاح ومنه المجنون لاستتار عقله وأما الناس فبينه وبين الإنس مناسبة في اللفظ والمعنى وبينهما اشتقاق أوسط وهو عقد تقاليب الكلمة إلى معنى واحد والإنس والإنسان مشتق من الإيناس وهو الرؤية والإحساس ومنه قوله : ﴿ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً ﴾ أي رآها ومنه : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً ﴾ أي أحسستموه ورأيتموه فالإنسان سمي إنسانا لأنه يونس أي يرى بالعين والناس فيه قولان أحدهما : أنه مقلوب من أنس وهو بعيد والأصل عدم القلب والثاني هو الصحيح أنه من النوس وهو الحركة المتابعة فسمي الناس ناسا للحركة الظاهرة والباطنة كما سمي الرجل حارث وهمام أصدق الأسماء كما قال النبي صلى الله عليه وسلم صحيح لأن كل أحد له هم وإرادة وهي مبدأ وحرث وعمل هو منتهى فكل أحد حارث وهمام والحرث والهم حركتا الظاهر والباطن وهو حقيقة النوس وأصل ناس نوس تحركت الواو قبلها فصارت ألفا هذان هما القولان المشهوران في اشتقاق الناس وأما قول بعضهم أنه من النسيان وسمي الإنسان إنسانا لنسيانه وكذلك الناس سموا ناسا لنسيانهم فليس هذا القول بشيء وأين النسيان الذي مادته ن س ي إلى الناس الذي مادته ن و س وكذلك أين هو من الإنس الذي مادته ا ن س وأما إنسان فهو فعلان من أ ن س

والألف والنون في آخره زائدان لا يجوز فيه غير هذا البتة إذ ليس في كلامهم أنس حتى لا يكون إنسانا إفعالا منه ولا يجوز أن يكون الألف والنون في أوله زائدتين إذ ليس في كلامهم انفعل فيتبين أنه فعلان من الأنس ولو كان مشتقا من نسي لكان نسيانا لا إنسانا فإن قلت : فهلا جعلته إفعلالا وأصله إنسيان كليلة إصحيان ثم حذفت الياء

(322/840)

تخفيفا فصار إنسانا قلت : يأبى ذلك

عدم افعلال في كلامهم وحذف الياء بغير سبب ودعوى ما لا نظير له وذلك كله فاسد على أن الناس قد قيل : إن أصله الأناس فحذفت الهمزة فقيل الناس واستدل بقول الشاعر :

إن المنايا يطلعن على الأناس الغافلين

(323/840)

ولا ريب أن أناسا فعال ولا يجوز فيه غير ذلك البتة فإن كان أصل ناس أناسا فهو أقوى الأدلة على أنه من أنس ويكون الناس كالإنسان سواء في الاشتقاق ويكون وزن ناس على

هذا القول عال لأن المحذوف فاؤه وعلي القول الأول يكون وزنه فعل لأنه من النوس وعلى القول الضعيف يكون وزنه فلع لأنه من نسي فقلبت لامه إلى موضع العين فصار ناسا ووزنه فلعا والمقصود أن الناس إسم لبني آدم فلا يدخل الجن في مسماهم فلا يصح أن يكون من الجنة والناس بيانا لقوله: ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ وهذا واضح لا خفاء فيه فإن قيل لا محذور في ذلك فقد أطلق على الجن اسم الرجال كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ﴾ فإذا أطلق عليهم اسم الرجال لم يمتنع أن يطلق عليهم اسم الناس قلت: هذا هو الذي غر من قال إن الناس اسم للجن والإنس في هذه الآية وجواب ذلك أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعا مقيدا في مقابلة ذكر الرجال من الإنس ولا يلزم من هذا أن يقع اسم الناس والرجال عليهم مطلقا وأنت إذا قلت إنسان من حجارة أو رجل من خشب ونحو ذلك لم يلزم من ذلك وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب وأيضا فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجني أن يطلق عليه اسم الناس وذلك لأن الناس والجنة متقابلان وكذلك والإنس والجن فالله تعالى يقابل بين اللفظين كقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ وهو كثير في القرآن وكذلك قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ يقتضي أنهما متقابلان فلا يدخل أحدهما في الآخر بخلاف الرجال والجن فإنهما لم يستعملا متقابلين فلا يقال الجن والرجال كما يقال الجن والإنس وحينئذ فالآية أبين حجة عليهم في أن الجن لا يدخلون في لفظ الناس لأنه قابل بين الجنة

والناس فعلم أن أحدهما لا يدخل في الآخر فالصواب القول الثاني وهو أن قوله : ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ بيان للذي يوسوس وأنهما نوعان إنس وجن فالجني يوسوس في صدور الإنس والإنسي أيضا يوسوس إلى الإنسي فالموسوس نوعان إنس وجن فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب وهذا مشترك بين الجن والإنس وإن كان إلقاء الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأذن والجني لا يحتاج إلى تلك الواسطة لأنه يدخل في ابن آدم ويجري منه مجرى الدم على أن الجني قد يتمثل له ويوسوس إليه في أذنه كالإنسي كما في البخاري عن عروة عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الملائكة تحدث في العنان والعنان الغمام بالأمر يكون في الأرض فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم " رواه البخاري والترمذي فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن ونظير اشتراكهما في هذه الوسوسة اشتراكهما في الوحي الشيطاني قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ فالشيطان يوحي إلى الإنسي باطله ويوحيه الإنسي إلى إنسي مثله فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني ويشتركان في

الوسوسة وعلى هذا فتزول تلك الإشكالات والتعسفات التي ارتكبها أصحاب القول الأول وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعي الشياطين شياطين الإنس والجن وعلى القول الأول إنما تكون الاستعاذة من شر شياطين الجن فقط فتأمله فإنه بديع جدا فهذا ما من الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين وله الحمد والمنة وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط فما ذلك على الله بعزيز والحمد لله رب العالمين ونختم الكلام على السورتين بذكر .

قاعدة نافعة :

"فما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه" وذلك في عشرة أسباب : الحرز الأول : الاستعاذة بالله من الشيطان أحدهما : الاستعاذة بالله من الشيطان قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وفي موضع آخر ﴿ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وقد تقدم أن السمع المراد به هاهنا سمع الإجابة لا مجرد السمع التام وتأمل سر القرآن الكريم كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة هو الدال على تأكيد النسبة واختصاصها وعرف الوصف بالألف واللام في سورة حم لاقتضاء المقام

لهذا التأكيد وتركه في سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه فإن الأمر بالاستعاذة في سورة حم وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم كما قال الله تعالى والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا بل يريه أن هذا ذل وعجز ويسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الانتقام ويزينه له فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه وأن لا يسيء إليه ولا يحسن فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه وآثر الله تعالى وما عنده على حظه العاجل فكان المقام مقام تأكيد وتحريض فقال فيه : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وأما في سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان بل بالإعراض وهذا سهل على النفوس غير مستعص عليها فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان فقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وقد تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين وبين قوله في

حم المؤمن: ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ وفي صحيح البخاري عن عدي بن ثابت عن سليمان بن صرد قال: "كنت جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه فقال النبي صلى الله عليه وسلم إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد" رواه البخاري ومسلم الحرز الثاني: قراءة هاتين السورتين فإن لهما تأثيرا عجيبا في الاستعاذة بالله تعالى من شره ودفعه والتحصن منه ولهذا قال النبي ما تعوذ المتعوذون بمثلهما وقد تقدم أنه كان يعوذ بهما كل ليلة عند النوم وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة وتقدم قوله إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثا حين يمسي وثلاثا حين يصبح كفته من كل شيء الحرز الثالث: قراءة أية الكرسي ففي الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: "وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتى آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدقك وهو كذوب ذاك الشيطان" رواه البخاري وسنذكر إن شاء الله تعالى السر الذي لأجله كان لهذه الآية العظيمة هذا التأثير العظيم في التحرز من الشيطان واعتصام قارئها بها في كلام مفرد عليها وعلى أسرارها وكنوزها بعون الله تعالى وتأيده الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة ففي الصحيح من

حديث سهل عن عبد الله عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تجعلوا بيوتكم قبورا وأن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان " رواه مسلم والترمذي حرز الخامس : قراءة خاتمة سورة البقرة فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى الأنصاري رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قرأ

الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه " رواه البخاري ومسلم وفي الترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله كتب كتابا قبل أن

يخلق الخلق بألفي عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان " صحيح الحرز السادس : أول سورة ﴿ حم ﴾ المؤمن إلى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ مع آية الكرسي في الترمذي من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم "من قرأ حم المؤمن إلى إليه المصير وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح" ضعيف وعبد الرحمن المليكي وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي وهو محتمل على غرابته الحرز السابع : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ففي الصحيحين من حديث سمي مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشرة رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك" رواه البخاري ومسلم فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره الله تعالى عليه الحرز الثامن : كثرة ذكر الله وهو من أنفع الحروز من الشيطان ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها وأنه كاد يبطئ بها فقال عيسى : إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب فجمع

الناس في بيت المقدس فامتلأ وقعدوا على الشرف فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن

(329/840)

أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو

(330/840)

ورق فقال: هذه داري وهذا عملي فاعمل وأد إلي فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم وأمركم أن

تذكروا الله فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعا حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله قال النبي صلى الله عليه وسلم وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من حثاء جهنم فقال رجل : يا رسول الله وإن صلى وصام قال وإن صلى وصام " صحيح فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح وقال البخاري : الحارث الأشعري له صحبة وله غير هذا الحديث فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس والخناس الذي إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمع وانقبض وإذا غفل عن ذكر الله تعالى التقم القلب وألقى إليه الوساوس التي هي مبادئ الشر كله فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل الحرز التاسع : الوضوء والصلاة وهذا من أعظم ما يتحرز به منه ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله

عليه وسلم أنه قال : " ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشيء من ذلك فليلصق بالأرض " صحيح وفي أثر آخر " إن الشيطان خلق من نار وإنما تطفأ النار بالماء " ضعيف فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة فإنها نار والوضوء يطفئها والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه

الحرز العاشر : إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه في القلب والاشتغال به والفكرة في الظفر به فمبدأ الفتنة من فضول النظر كما في المسند عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه " ضعيف جدا أو كما قال صلى الله عليه وسلم فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر . . . ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها . . . فتك السهام بلا قوس ولا وتر

وقال الآخر :

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا . . . لقلبك يوما أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادر . . . عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وقال المتنبي :

وأنا الذي جلب المنية طرفه . . . فمن المطالب والقتيل القاتل

ولي من أبيات :

يا راميا بسهام اللحظ مجتهدا . . . أنت القتيل بما ترمي فلا تصب

وباعث الطرف يرتاد الشفاء له . . . توقه إنه يرتد بالعطب

ترجو الشفاء بأحداق بها مرض . . . فهل سمعت ببرء جاء من عطب

ومفنيا نفسه في إثر أقبحهم . . . وصفا للطخ جمال فيه مستلب

وواهبا عمره في مثل ذا سفها . . . لو كنت تعرف قدر العمر لم تهب

وبائعا طيب عيش ما له خطر . . . بطيف عيش من الآلام منتهب

عينت والله غبنا فاحشا فلواس . . . ترجعت ذا العقد لم تغبن ولم تخب

وواردا صفو عيش كله كدر . . . أمامك الورد صفوا ليس بالكذب

وحاطب الليل في الظلماء منتصبا . . . لكل داهية تدنو من العطب

شاب الصبا والتصابي بعد لم يشب . . . وضاع وقتك بين اللهو واللعب

وشمس عمرك قد حان الغروب لها . . . والضي في الأفق الشرقي لم يغب

وفاز بالوصل من قد فاز وانقشعت . . . عن أفقه ظلمات الليل والسحب

كم ذات التخلف والدنيا قد ارتحلت . . . ورسل ربك قد وافتك في الطلب

ما في الديار وقد سارت ركائب من . . . تهواه للصب من سكني ولا أرب

فأفرش الخد ذياك التراب وقل . . . ما قاله صاحب الأشواق في الحقب

ما ربع مية محفوفا يطوف به . . . غيلان أشهى له من ربعك الخرب

ولا الخدود وإن أدمين من ضرج . . . أشهى إلى ناظري من خدك الترب

منازلا كان يهواها ويألفها . . . أيام كان منال الوصل عن كثب

فكلما جليت تلك الربوع له . . . يهوى إليها هوي الماء في صب

أحيا له الشوق تذكار العهود بها . . . فلو دعا القلب للسلوان لم يجب

هذا وكم منزل في الأرض يألفه . . . وما له في سواها الدهر من رغب

في الخيام أخو وجد يريحك إن . . . بثثه بعض شأن الحب فاغترب

وأسر في غمرات الليل مهتديا . . . بنفحة الطيب لا بالنار والحطب

وعاد كل أخي جبن ومعجزة . . . وحارب النفس لا تلقيك في الحرب

وخذ لنفسك نورا تستضيء به . . . يوم اقتسام الورى الأنوار بالرتب

فالجسر ذو ظلمات ليس بقطعه . . . إلا بنور ينجي العبد في الكرب

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابا من الشر كلها مداخل للشيطان فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها وكم من حرب جرتها كلمة واحدة وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ : " وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم " صحيح لغيره وفي الترمذي "أن رجلا من الأنصار توفي فقال بعض الصحابة : طوبى له فقال النبي صلى الله عليه وسلم فما يدريك فلعله تكلم بما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه" ضعيف وأكثر المعاصي إنما تولدها من فضول الكلام والنظر وهما أوسع مداخل الشيطان فإن جارحتيهما لا يملأن ولا يسأمان بخلاف شهوة البطن فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام فجنايتهما متسعة الأطراف كثيرة الشعب عظيمة الآفات وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام وكانوا يقولون ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر فإنه يحرك الجوارح إلى

المعاصي ويثقلها عن الطاعات وحسبك بهذين شرا فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام وكم من طاعة حال دونها فمن وقى شر بطنه فقد وقى شرا عظيما والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام ولهذا جاء في بعض الآثار " ضيقوا مجاري الشيطان بالصوم " وقال النبي صلى الله عليه وسلم : "ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن" ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده ومناه وشهاه وهام به في كل واد فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت مخالطة الناس إن فضول المخالطة هي الداء العضال الجالب لكل شر وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة وكم زرعت من عداوة وكم

غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة ويجعل الناس فيها أربعة أقسام متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر أحدها : من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة فإذا أخذ حاجته منه

ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خالطه هكذا على الدوام وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر وهم العلماء بالله تعالى وأمره ومكايد عدوه وأمراض القلوب وأدويتها الناصحون لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولخلقه فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كله القسم الثاني : من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرض فما دمت صحيحا فلا حاجة لك في خلطته وهم من لا يستغنى عنه مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من القسم الثالث : وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوف ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربا عليك فإذا فارقك سكن الألم ومنهم من مخالطته حمى الروح وهو الثقيل البغيض العقل الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها بل إن تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين مع إعجابه بكلامه وفرحه به فهو يحدث من فيه كلما تحدث ويظن أنه مسك يطيب به المجلس وإن سكت فأثقل من نصف الرحى العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض ويذكر عن الشافعي رحمه الله أنه قال : "ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب

الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر" ورأيت يوما عند شيخنا قدس الله روحه رجلا من هذا الضرب والشيخ يحمله وقد ضعف القوى عن حمله فالتفت إلي وقال: "مجالسة الثقيل حمى الربع ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى فصارت لها عادة" أو كما قال وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجا ومخرجا القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم فإن اتفق لأكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرهم الله وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله الداعون إلى خلافها ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة والمعروف منكرا والمنكر معروفا إن جردت التوحيد بينهم قالوا تنقصت جناب الأولياء والصالحين وإن جردت المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا أنت من المشبهين وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله

من المنكر قالوا : أنت من المفتنين وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين وإن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا أنت من المبلسين وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله تعالى من الخاسرين وعندهم من المنافقين فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم ولا تبالي بذمهم ولا بغضبهم فإن عين كمالك كما قال :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص . . . فهي الشهادة لي بأني فاضل

وقال آخر :

وقد زادني حبا لنفسي أنني . . . بغيض إلى كل امريء غير طائل

فمن كان بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء العالم وهي فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان فقد أخذ بنصيبه من التوفيق وسد على نفسه أبواب جهنم وفتح عليها أبواب الرحمة وانغمر ظاهره وباطنه ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء فعند

المماتِ يحمد القوم التقي وعند الصباح يحمد القوم السرى والله الموفق لا رب غيره ولا إله سواه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بدائع الفوائد حـ 2 صـ 247. 276 ﴾

(باب التكبير)

فصل

قال الإمام ابن الجزري :

باب التكبير وما يتعلق به

وبعض المؤلفين لم يذكر هذا الباب أصلاً كابن مجاهد في سبعته وابن مهران في غايته وكثير منهم يذكره مع باب البسملة متقدماً كالهذلي وابن مؤمن والأكثرون أخروه لتعلقه بالسور الأخيرة من يذكره في موضعه عند سورة (والضحى وألم نشرح) كأبي العز القلانسي والحافظ أبي العلاء الهمذاني وابن شريح ومنهم من أخره إلى بعد إتمام الخلاف وجعله آخر

كتابه وهم الجمهور من المشارقة والمغاربة وهو الأنسب لتعلقه بالختم والدعاء وغير ذلك وينحصر الكلام على هذا الباب في أربعة فصول .

الفصل الأول : في سبب وروده

اختلف في سبب ورود التكبير من المكان المعين فروى الحافظ أبو العلاء بإسناده عن أحمد بن فرح عن البزي أن الأصل في ذلك أن النبي صلّى الله عليه وسلم انقطع عن الوحى فقال المشركون قلى محمداً ربه فنزلت سورة (والضحى) فقال النبي صلّى الله عليه وسلم الله أكبر وأمر النبي صلّى الله عليه وسلم أن يكبر إذا بلغ والضحى مع خاتمة كل سورة حتى يختّم (قلت) وهذا قول الجمهور من أئمتنا كأبي الحسن بن غلبون وأبي عمرو الداني وأبي الحسن السخاوي وغيرهم من متقدم ومتأخر ، قالوا فكبر النبي صلّى الله عليه وسلم شكراً لله لما كذب المشركين ، وقال بعضهم قال الله أكبر تصديقاً لما أنا عليه وتكذيباً للكافرين وقيل فرحاً وسروراً أي بنزول الوحى ، قال شيخنا الحافظ أبو الفدا ابن كثير رحمه الله ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف يعنى كون هذا سبب التكبير وإلا فانقطاع الوحى مدة أو إبطاؤه مشهور رواه سفيان ابن عيينة عن الأسود بن قيس عن

جنب البجلى كما سيأتي وهذا إسناد لا مرية فيه ولا شك . وقد اختلف أيضاً في سبب انقطاع الوحى أو إبطائه وفي القائل قلاه ربه وفي مدة انقطاعه ففي الصحيحين من حديث جندب ابن عبد الله البجلى رضي الله عنه اشتكى النبي صلّى الله عليه وسلم فلم يقم ليلة أو ليلتين فجاءته امرأة فقالت يا محمد إني أرى أن يكون شيطانك قد تركك فأنزل الله (والضحى – إلى – ما ودعك ربك وما قلى) وفي رواية أبطأ جبريل على رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقال المشركون قد ودع محمد فأنزل الله (والضحى) ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره رمى رسول الله صلّى الله عليه وسلم بحجر في أصبعه فقال هل أنت إلا أصبع دميت ، وفي سبيل الله ما لقيت . قال فمكث ليلتين أو ثلاثاً لا يقوم فقالت له امرأة ما أرى شيطانك إلا قد تركك فنزلت (والضحى) وهذا سياق غريب في كونه جعل سبباً لتركه القيام وإنزال هذه السورة ، قيل إن هذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب وقيل بعض بنات عمه وروى

أحمد بن فرح قال حدثني ابن أبي بزة بإسناد أن النبي صلّى الله عليه وسلم أهدى إليه قطف عنب جاء قبل أو أن يأكل منه فجاءه سائل فقال : أطعموني بما رزقكم الله ، قال

فسلم إليه العنقود فلقيه بعض أصحابه فاشتراه منه وأهداه للنبي صلّى الله عليه وسلم فعاد السائل وسأله فأعطاه إياه فلقيه رجل آخر من الصحابة فاشتراه منه وأهداه للنبي صلّى الله عليه وسلم فعاد السائل فسأله فانتهزه وقال إنك ملح ، فانقطع الوحى عن النبي صلّى الله عليه وسلم أربعين صباحاً فقال المنافقون قلى محمداً ربه فجاء جبريل عليه السلام اقرأ يا محمد قال ما أقرأ ؟ فقال اقرأ (والضحى) فلقنه السورة فأمر النبي صلّى الله عليه وسلم أُبَيًّا لما بلغ (والضحى) أن يكبر مع خاتمة كل سورة حتى يختم وهذا سياق غريب جداً وهو مما انفرد به ابن أبي بزة أيضاً وهو معضل . وقال الداني حدثنا محمد بن عبد الله المري حدثنا أبي . حدثنا علي بن الحسن . حدثنا أحمد بن موسى . حدثنا يحيى ين سلام في قوله (وما نتنزل إلا بأمر ربك) قال قال قتادة هذا قول جبريل عليه السلام احتبس عن النبي صلّى الله عليه وسلم في بعض الأحيان الوحى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جئت حتى اشتقت إليك فقال جبريل (وما نتنزل إلا بأمر ربك) وروى العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما لما نزل على رسول الله صلّى الله عليه وسلم القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً فتغير بذلك فقال المشركون ودعه ربك وقلاه فأنزل الله (وما ودعك ربك وما قلى) . قال الداني فهذا سبب التخصيص بالتكبير من آخر (والضحى) واستعمال النبي صلى الله عليه وسلم إياه وذلك كان قبل الهجرة بزمان فاستعمل ذلك المكيون ونقل خلفهم عن سلفهم ولم يستعمله غيرهم لأن صلّى الله عليه وسلم ترك ذلك

بعد فأخذوا بالآخر من فعله . وقيل كبر النبي صلّى الله عليه وسلم فرحاً وسروراً بالنعم التي عددها الله عليه في قوله (ألم يجدك) إلى آخره وقيل شكراً لله تعالى عزّ وجل له ولأمته حتى

(341/840)

يرضيه في الدنيا والآخرة فقد روى الإمام أبو عمرو والأوزاعي عن إسماعيل بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال عرض على رسول الله صلّى الله عليه وسلم ما هو مفتوح على أمته ثم بعده كنزاً كنزاً فسر بذلك فأنزل الله (ولسوف يعطيك ربك فترضى) فأعطاه في الجنة ألف قصر في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من طريقه وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس . ومثل هذا لا يقال إلا عن توقيف فهو في حكم المرفوع عند الجماعة ، وقال السدى عن ابن عباس كبر صلّى الله عليه وسلم أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار ، وقال الحسن يعني بذلك الشفاعة ، وهكذا قال أبو جعفر الباقر رضي الله عنه ، وقيل كبر صلّى الله عليه وسلم لما رآه من صورة جبرائيل عليه السلام التي خلقه الله عليهم عند نزوله بهذه السورة فقد ذكر بعض السلف منهم الإمام أبو بكر محمد بن اسحاق أن هذه السورة هي التي أوحاها جبرائيل عليه السلام إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلم

حين تبدى له في صورته التي خلقه الله تعالى عليها ودنا إليه وتدّلى منهبطاً عليه وهو بالأبطح فأوحى إلى عبده ما أوحى قال قال له هذه السورة (والضحى والليل إذا سجى) (قلت) وهذا قول قوي جيد إذ التكبير إنما يكون غالباً لأمر عظيم أو مهول والله أعلم.

وقيل زيادة في تعظيم الله مع التلاوة لكتابه والتبرك بختم وحيه وتنزيله والتنزيه له من السوء قاله مكي وهو نحو قول علي رضي الله عنه الآتي: إذا قرأت القرآن فبلغت قصارى المفصل فكبر الله فكأن التكبير شكر الله وسرور وإشعار بالختم. فإن قيل فما ذكرتم كله يقتضي سبب ابتداء التكبير في (والضحى) أولها أو آخرها وقد ثبت ابتداء التكبير أيضاً من أول (ألم نشرح) فهل من سبب يقتضي ذلك؟ (قلت) لم أر أحداً تعرض إلى هذا فيحتمل أن يكون الحكم الذي لسورة الضحى انسحب للسورة التي تليها وجعل حكم مالآخر (الضحى) لأول (ألم نشرح) ويحتمل أنه لما كان ما ذكر فيها من النعم عليه صلّى

الله عليه وسلم هو من تمام تعداد النعم عليه فأخر إلى انتهائه فقد روى ابن أبي حاتم بإسناد جيد عن أبي عباس قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم سألت ربي مسألة وودت أني لم أكن سألته قلت قد كانت قبلي أنبياء منهم من سخرت له الريح ومنهم من يحيي الموتى

قال يا محمد : ألم أجدك يتيماً فآويتك ؟ قلت بلى يا رب . قال ألم أجدك ضالاً فهديتك ؟ قلت بلى يا رب . قال ألم أجدك عائلاً فأغنيتك ؟ قلت بلى يا رب . قال : ألم أشرح لك صدرك ، ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت بلى يا رب . فكان التكبير عند نهاية ذكر النعم أنسب ويحتمل أن يكون في هذه السورة من الخصيصة التي لا يشاركه فيها غيره وهو رفع ذكره صلّى الله عليه وسلم حيث يقول (ورفعنا لك ذكرك) قال مجاهد (لا أذكر إلا ذكرت معي أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) وقال قتادة رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادى به أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وروى ابن جرير عن أبي سعيد رفعه قال أتاني جبريل فقال إن ربك يقول كيف رفعت ذكرك ؟ قال الله أعلم قال إذا ذكرت ذكرت معي أخرجه ابن حيان في صحيحه من طرق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد . ورواه أبو يعلى الموصلي أيضاً من طريق ابن لهيعة . وروى الحافظ ابن نعيم في دلائل النبوة بإسناد عن أنس قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم (لما فرغت بما أمرني الله به من أمر السموات والأرض قلت يا رب إنه لم يكن نبي قبلي إلا وتذكر حجته : جعلت إبراهيم خليلاً وموسى كليماً وسخرت لداود الجبال ولسليمان الريح والشياطين وأحييت لعيسى الموتى فما جعلت لي ؟ قال أوليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله . أن لا أذكر إلا ذكرت معي وجعلت صدور أمتك أناجيلهم يقرأون القرآن ظاهراً ولم أعطها أمة وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي هو لا حول ولا قوة إلا

بالله) وهذا هو أنسب مما تقدم والله أعلم.

الفصل الثاني في ذكر من ورد عنه وأين ورد وصيغته

(343/840)

فاعلم أن التكبير صح عند أهل مكة قرائهم وعلمائهم وأئمتهم ومن روى عنهم صحة استفاضت واشتهرت وذاعت وانتشرت حتى بلغت حد التواتر وصحت أيضاً عن أبي عمرو من رواية السوسي وعن أبي جعفر من رواية العمري ووردت أيضاً عن سائر القراء وبه كان يأخذ ابن حبش وأبو الحسين الخبازي عن الجميع وحكى ذلك الإمام أبو الفضل الرازي وأبو القاسم الهذلي والحافظ أبو العلاء وقد صار على هذا العمل عند أهل الأمصار في سائر الأقطار عند ختمهم في المحافل واجتماعهم في المجالس لدى الأماثل وكثير منهم يقوم به في صلاة رمضان ولا يتركه عند الختم على أي حال كان. قال الأستاذ أبو محمد سبط الخياط في المبهج وحكى شيخنا الشريف عن الإمام أبي عبد الله الكارزيني أنه كان إذا قرأ القرآن في درسه على نفسه وبلغ إلى (والضحى) كبر لكل قارئ قرأ له فكان يبكي ويقول ما أحسنها من سنة لولا أني لا أحب مخالفة سنة النقل لكنت أخذت على كل من قرأ على برواية بالتكبير لكن القراءة سنة تتبع ولا تبتدع، وقال مكي وروى أن أهل مكة

كانوا يكبرون في آخر كل ختمة من خاتمة والضحى لكل القراء لابن كثير وغيره سنة نقلوها عن شيوخهم . وقال الأهوازي والتكبير عند أهل مكة في آخر القرآن سنة مأثورة يستعملونه في قراءتهم في الدروس والصلاة انتهى ، وكان بعضهم يأخذ به في جميع سور القرآن وذكر الحافظ أبو العلاء الهمداني والهذلي عن أبي الفضل الخزاعي قال الهذلي وعند الدينوري كذلك يكبر في أول كل سورة لا يختص بالضحى وغيرها لجميع القراء (قلت) والدينوري هذا هو أبو علي الحسين بن محمد بن حبش الدينوري أمام متقن ضابط قال عنه الداني متقدم في علم القراآت مشهور بالاتقان ثقة مأمون كما قدمنا عند ذكر وفاته في آخر إسناد قراءة أبي عمرو ، وها نحن نشير إلى ذكر الأئمة الذين ورد ذلك عنهم مفصلاً وما صح عندنا عن السلف مبيناً إن شاء الله . قال الحافظ أبو عمرو الداني في كتابه جامع البيان كان ابن كثير من طريق القواس

والبزي وغيرهما يكبر في الصلاة والعرض من آخر سورة (والضحى) مع فراغه من كل سورة قل أعوذ برب الناس فإذا كبر في (الناس) قرأ فاتحة الكتاب وخمس آيات من أول سورة البقرة على عدد الكوفيين إلى قوله (أولئك هم المفلحون) ثم دعا بدعاء الختمة قال وهذا

يسمى الحال المرتحل وله في فعله هذا دلائل مستفيضة جاءت من آثار مروية ورد التوقيف بها عن النبي صلّى الله عليه وسلم وأخبار مشهورة مستفيضة جاءت عن الصحابة والتابعين والخالفين. وقال أبو الطيب عبد المنعم بن غلبون وهذه سنة مأثورة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين وهي سنة بمكة لا يتركونها البتة ولا يعتبرون رواية البزي وغيره. وقال أبو الفتح فارس بن أحمد لا نقول إنه لابد لمن ختم أن يفعله لكن من فعله فحسن ومن لم يفعله فلا حرج عليه وهو سنة مأثورة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين (قلت) أما ما هو عن النبي صلّى الله عليه وسلم فأني قرأت القرآن على الشيخ الإمام العلامة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن علي المصري بها فلما بلغت (والضحى) كبرت قال قرأت القرآن على الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد المصري بها فلما بلغت (والضحى) كبرت قال قرأت على الإمام أبي الحسن علي بن شجاع العباسي المصري بها فلما بلغت (والضحى). كبرت. قال قرأت القرآن على الإمام ولي الله أبي القاسم ابن فيرة الشاطبي بمصر. فلما بلغت (والضحى) كبرت (ح) وقرأت القرآن على الإمام قاضي المسلمين أبي العباس أحمد بن الحسين بن سلمان الدمشقي بها. فلما بلغت (والضحى) كبرت وقال قرأت القرآن على والدي المذكور بدمشق فلما بلغت (والضحى) كبرت قال قرأت القرآن على الإمام أبي محمد القاسم بن أحمد الأندلسي بدمشق فلما بلغت (والضحى) كبرت قال قرأت القرآن على الإمام أبي عبد الله محمد بن

أيوب بن نوح الغافقي الأندلسي بها فلما بلغت (والضحى) كبرت أعنى الشاطبي والغافقي هذا قرأنا القرآن على

(345/840)

الإمام أبي الحسن علي بن محمد ابن هذيل بالأندلس فلما بلغنا (والضحى) كبرنا قال قرأت القرآن على الإمام أبي داود سليمان بن نجاح الأموي بالأندلس فلما بلغت (والضحى) كبرت قال قرأت القرآن على الإمام أبي عمرو عثمان بن سعيد الداني بالأندلس فلما بلغت (والضحى) كبرت قال قرأت القرآن على أبي القاسم عبد العزيز بن جعفر الفارسي بمصر فلما بلغت (والضحى) كبرت قال قرأت القرآن على أبي بكر محمد بن الحسن النقاش ببغداد فلما بلغت (والضحى) كبرت قال قرأت القرآن على أبي ربيعة محمد بن اسحاق الربعي بمكة فلما بلغت (والضحى) كبرت قال قرأت القرآن على أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن بزة البزي بمكة فلما بلغت (والضحى) كبرت قال قرأت القرآن على عكرمة بن سليمان بمكة فلما بلغت (والضحى) كبرت (وأخبرنا) الحسن بن أحمد الدقاق الدمشقي قراءة عليه أنبأنا الشيخ الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن فضل الواسطي مشافهة أخبرنا الإمام شيخ الشيوخ أبو محمد عبد الوهاب بن علي البغدادي

أخبرنا أبو العلاء الحسن بن أحمد الحافظ قراءة عليه قال أخبرنا أبو جعفر محمد بن الحسن بن محمد الحافظ الهمذاني بهمذان أنا أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن محمد الفارسي بهرأة أنا أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد بن محمد بن يحيى الأنصاري أنا أبو محمد يحيى بن محمد بن صاعد (ح) وأخبرنا عاليا أبو علي بن أبي العباس بن هلال بقراءتي عليه بالجامع الأموي عن أبي الحسن علي بن أحمد السعدي أخبرنا أبو جعفر الصيدلاني في كتابه من أصبهان قال أخبرنا أبو الحسن بن أحمد الحداد أخبرنا أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد الصفار أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن محمد بن بندار الشعار أخبرنا أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم النبيل قالا حدثنا أحمد بن محمد بن أبي بزة البزي قال سمعت عكرمة بن سليمان يقول قرأت على إسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين فلما بلغت (والضحى) قال لي كبر عن خاتمة كل سورة

(346/840)

حتى تختم فأني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت (والضحى) قال لي كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم وأخبره أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك وأخبره ابن عباس أن أبي ابن كعب أمره بذلك وأخبره أبي بن كعب أن النبي

صلّى الله عليه وسلم أمره بذلك ، وأخبرنا به أحسن من هذا أبو حفص عمر بن الحسن المراغي قراءة مني عليه قلت له أخبرك أبو الحسن بن بخاري سماعاً أو إجازة أخبرنا عمر بن محمد بن طبرزد والدار قزي أخبرنا أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن عبد الواحد القزاز أخبرنا أبو الحسين أحمد بن محمد بن النقور أخبرنا أبو طاهر المخلص حدثنا يحيى بن محمد بن صاعد (ح) وأخبرتنا الشيخة ست العرب بنت محمد بن علي بن أحمد بن عبد الواحد السعدية مشافهة ، أخبرنا جدي علي بن أحمد حضوراً عن أبي القاسم بن الصفار أنا زاهر بن طاهر أنا أحمد بن الحسين الحافظ أنا أبو نصر بن قتادة ثنا أبو عمرو بن مطر ثنا ابن صاعد ثنا أحمد بن أبي بزة فذكره . هذا حديث جليل وقع لنا عالياً جداً بيننا وبين البزي فيه من طريق المخلص سبعة رجال رواه الحافظ أبو عمرو الداني عن فارس بن أحمد حدثنا أبو الحسن المقري ، حدثنا على ابن محمد الحجازي حدثنا محمد بن عبد العزيز المكي المقري الضرير ، حدثنا موسى ابن هارون ثنا البزي فذكره . ثم قال الداني وهذا أتم حديث روى في التكبير ابن عبد الله بن يزيد الإمام بمكة عن محمد بن علي بن يزيد الصائغ عن البزي وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجه البخاري ولا مسلم . قال الحافظ أبو العلاء الهمذاني لم يرفع أحد التكبير إلا البزي فإن الروايات قد تظافرت عنه برفعه النبي صلى الله عليه وسلم . قال ورواه الناس فوقفوه على ابن عباس ومجاهد ثم ساق الروايات

برفعه ومدارها كلها على البزي (قلت) وقد تكلم بعض أهل الحديث في البزي ذلك من قبل رفعه فضعفه أبو حاتم والعقيلي على أنه قد رواه عن البزي جماعة كثيرون وثقات معتبرون

(347/840)

أحمد بن فرح واسحاق الخزاعي والحسن بن الحباب والحسن بن محمد الحداد وأبو ربيعة وأبو معمر الجمحى ومحمد بن يونس الكديمي ومحمد بن زكريا المكي وأبو الفضل جعفر بن درستوريه وزكريا بن يحيى الساجي وأبو يحيى عبد الله بن محمد بن زكريا بن الحارث ابن أبي ميسرة وأبو عمرو قنبل وأبو حبيب العباس بن أحمد البرتي ومحمد بن علي الخطيب وأبو عبد الرحمن وأبو جعفر اللهبيا ن وموسى بن هارون ومحمد بن هارون ومضر بن محمد والوليد بن بنان ومحمد بن أحمد الشطوي وأبو حامد أحمد بن محمد ابن موسى بن الصباح الخزاعي وإبراهيم بن محمد بن الحسن وأبو بكر بن أبي عاصم النبيل وأحمد بن محمد بن مقاتل ومحمد بن علي بن زيد الصائغ ويحيى بن محمد بن صاعد والإمام الكبير إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة ، كما أخبرتني الشيخة المعمرة أم محمد ست العرب بنت محمد بنت محمد بن علي بن أحمد الصالحية مشافهة بمنزلها بالسفح ظاهر دمشق قالت أخبرنا جدي أبو الحسن على المذكور قراءة عليه وأنا حاضرة أنا عبد الله بن عمر بن

أحمد بن الصفار في كتابه أنا أبو القاسم الشحامي الحافظ أنا أبو عبد الله الحافظ أخبرني عبد الله بن محمد بن زياد العدل (ثنا) محمد بن إسحاق بن خزيمة قال سمعت أحمد بن محمد بن القاسم بن أبي بزة يقول سمعت عكرمة بن سليمان مولى شيبة يقول قرأت على إسماعيل بن عبد الله المكي فلما بلغت (والضحى) قال لي كبر حتى تختم فإني قرأت على عبد الله بن كثير فأمرني بذلك فذكره ثم قال ابن جزيمة رحمه الله إني أنا خائف أن يكون قد أسقط ابن أبي بزة أو عكرمة بن سليمان من هذا الإسناد (قلت) يعني بين إسماعيل وابن كثير ولم يسقط واحد منهما شبلاً فقد صحت قراءة إسماعيل على ابن كثير نفسه وعلى شبل وعلى معروف عن ابن كثير والله أعلم، على أنه قد رواه محمد بن يونس الكديمي عن البزي عن عكرمة قال قرأت إسماعيل عن عبد الله فلما بلغت (والضحى) قال كبر مع خاتمة كل سورة حتى تختم

فإني قرأت على شبل بن عباد وعلى عبد الله بن كثير فأمراني بذلك وأخبرني عبد الله بن كثير أنه قرأ على ابن مجاهد فأمره بذلك وساقه حتى رفعه (ثم) روى الحافظ أبو عمرو وبسنده عن موسى بن هارون قال قال البزى قال لي أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي

إن تركت سنة من سنن نبيك صلى الله عليه وسلم . قال شيخنا الحافظ عماد عماد الدين بن كثير وهذا يقتضي تصحيحه لهذا الحديث . وروى الحافظ أبو العلاء عن البزي قال دخلت على الشافعي إبراهيم ابن محمد وكنت قد وقفت عن هذا الحديث فقال له بعض من عنده إن أبا الحسن وجاءني رجل من أهل بغداد ومعه رجل عباسي وسألني عن هذا الحديث فأبيت أن أحدثه والله لقد سمعناه من أحمد بن حنبل عن أبي بكر الأعين عنك فلو كان منكراً ما رواه وكان يجتنب المنكرات (قلت) إبراهيم بن محمد الشافعي هذه هو إبراهيم بن محمد بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف وهو ابن عم الإمام محمد بن إدريس بن العباس ابن عثمان بن شافع الشافعي مات سنة سبع ويقال سنة ثمان وثلاثين ومائتين وهو من أكبر أصحاب الإمام الشافعي المعدودين في الآخذين عنه . وأما الروايات الموقوفة عن ابن عباس ومجاهد فأسند أبو بكر بن مجاهد والحافظ أبو عمرو الداني وأبو القاسم بن الفحام والحافظ وأبو العلاء عن أبي بكر الحميدي قال حدثني إبراهيم ابن أبي حية التميمي قال حدثني حميد الأعرج عن مجاهد قال ختمت على عبد الله ابن عباس تسع عشرة ختمة كلها يأمرني أن أكبر فيها من (ألم نشرح) وفي رواية عن إبراهيم أبي حية قرأت على حميد الأعرج فلما بلغت (والضحى) قال لي كبر إذا ختمت كل سورة حتى تختم فإني قرأت على مجاهد فأمرني بذلك ورواه الداني عن عبد الله بن زكريا بن الحارث بن ميسرة قال حدثني

أبي قال قرأت على إبراهيم بن يحيى بن أبي حية فذكر مثله سواء ورواه ابن مجاهد عن الحميدي عن سفيان عن إبراهيم فأدخل بين الحميدي

وإبراهيم سفيان قال الداني وإبراهيم وسفيان قال الداني وهو غلط والصواب عدم ذكر سفيان كما رواه غير واحد عن الحميدي عن إبراهيم وتقدم وأسند الحافظان عن شبل بن عباد قال أرأيت ابن محيصن وابن كثير الداري إذا ابن عباس كان يأمره بذلك . وأسند الحافظ أبو عمرو وأبو القاسم ابن الفحام والحافظ أبو العلاء عن حنظلة بن أبي سفيان قال قرأت على عكرمة بن خالد المخزومي فلما أبلغت (والضحى) قال هيها ، قلت وما تريد بهيها ، قال كبر فإني رأيت مشايخنا ممن قرأ على ابن عباس يأمرهم بالتكبير إذا بلغوا (والضحى) وروى الحافظان وابن الفحام عن قنبل قال حدثني أحمد بن عون القواس .

حدثنا عبد الحميد بن أبو الفتح حدثنا عبد الباقي بن الحسن المقري قال حدثني جماعة عن الزينبي وابن الصباح عن قنبل وعن الحلواني والجدي وابن شريح كلهم عن القواس عن عبد الحميد ابن جريج عن مجاهد أنه كان يكبر من خاتمة (والضحى) إلى خاتمة (قل أعوذ برب الناس) وإذا ختمها قطع التكبير ؛ وقال ابن مجاهد حدثني عبد الله بن سليمان

حدثني يعقوب بن سفيان ثنا الحميدي قال ثنا غير واحد عن ابن جريج عن حميد عن مجاهد أنه كان يكبر من خاتمة (قل أعوذ برب الناس) وإذا ختمها قطع التكبير. وأسند الداني أيضاً عن سفيان بن عينية قال أرأيت حميد الأعرج يقرأ والناس حوله فإذا بلغ (والضحى) كبر إذا ختم كل سورة حتى يختم. ورواه ابن مجاهد وغيره عن سفيان.

وروى الحافظ أبو العلاء عن علي رضي الله عنه أنه كان يقول قرأت القرآن فبلغت بين المفصل فأحمد الله وكبر بين كل سورتين وفي رواية فتابع بين المفصل في السور القصار وأحمد الله وأكبر بين كل سورتين وأما اختلاف أهل الأداء في ذلك فإنهم أجمعوا على الأخذ به للبزي. واختلفوا عن قنبل فالجمهور من المغاربة على عدم التكبير له كسائر القراءة وهو الذي في التيسير والكافي والعنوان والتذكرة والتبصرة وتلخيص العبارات والهادي والإرشاد لأبي الطيب ابن غلبون حتى قال فيه

ولم يفعل هذا قنبل ولا غيره من القراءة أعنى التكبير. وروى التكبير عن قنبل عن الجمهور من العراقيين وبعض المغاربة وهو الذي في الجامع و المستنير والوجيز والإرشاد والكفاية لأبي العز والمبهج والكفاية في الست وتلخيص أبي معشر وفي الغاية لأبي العلاء من طريق

ابن مجاهد وفي الهداية قرأت لقنبل بوجهين وكذلك ذكر الوجهين وكذلك ذكر الوجهين أبو القاسم الشاطبي والصفراوي وذكره أيضاً الداني في غير التيسير فقال في المفردات وقد قرأت لقنبل بالتكبير وحده من غير طريق ابن مجاهد . ثم اختلف هؤلاء الراوون للتكبير عن المذكورين في ابتداء التكبير وانتهائه وصيغته بناء منهم على أن التكبير هو لأول السورة أو لآخرها وهذا ينبني على سبب التكبير م هو كما تقدم. أما ابتداؤه فروى جمهورهم التكبير من أول سورة (نشرح) أو من آخر سورة (والضحى) على خلاف بينهم في العبارة ينبني على ما قدمنا وينبني عليها ما يأتي فمن نص على التكبير من آخر (والضحى) صاحب التيسير لم يقطع فيه بسواه وأبو الطيب في إرشاده وكلك صاحب العنوان وصاحب الكافي وصاحب الهداية وصاحب الهادي وأبو علي بن بليمة وأبو محمد مكي وأبو معشر الطبري نص عليه من أول (ألم نشرح) صاحب التجريد من قراءته على غير الفارسي والمالكي وأبو العز في إرشاده وكفايته من غير طريق من رواه من أول (والضحى) كما سيأتي . وكذلك صاحب الجامع وصاحب المستنير والحافظ أبو العلاء وغيرهم من العراقيين ممن لم يرو التكبير من أول (الضحى) إذ هم في التكبير بين من صرح به من أول (ألم نشرح) وبين من صرح به من أول (والضحى) كما سنذكره ولم يصرح أحد بآخر الضحى كما صرح به قدمنا من أئمة المغاربة وغيرهم وروى الآخرون من أهل الأداء التكبير من أول (والضحى) وهو الذي في الروضة لأبي علي البغدادي وبه قرأ صاحب التجريد على

الفارسي والمالكي وبه قطع صاحب الجامع إلا من طريق ابن فرح هبة الله عن أبي ربيعة كلاهما عن البزي وإلا من طريق

نظيف عن قنبل وليس ذلك من طرقنا وبذلك قطع الحافظ أبو العلاء البزي ولقنبل ابن مجاهد وفي إرشاد أبي العز من طريق النقاش عن أبي ربيعة وقال في كفايته وروى البزي وابن فليح والحمامي والقطان عن زيد وبكار عن ابن مجاهد عن قنبل شنبوذ وابن الصباح وابن عبد الرزاق ونظيف يعني عن قنبل أن التكبير من أول سورة والضحى قال والباقون يعني من أصحاب ابن كثير يكبرون من أول (ألم نشرح) . وقال في المستنير قرأت على شيخنا أبي علي الشرمقاني عن ابن فليح وابن ذوابة عن اللهبيين وطرق الحمامي عن البزي وعلى شيخنا أبي العطار رحمهما الله عن جميع ما قرأ به على أبي إسحاق لابن كثير وعلي ابن العلاف للخزاعي وعلي الحمامي عن النقاش وهبة الله عن اللهبي وعلى ابن الفحام عن ابن فرح وعلى أبي الحسن الخياط عن البزي وعن نظيف عن قنبل وعلى أبي الحسن بن طلحة لقنبل وعلى الشيخ أبي الفتح الواسطي لقنبل بالتكبير من أول سورة والضحى قال وقرأت عمن بقى من روايات ابن كثير وطرقه على شيوخي بالتكبير من أول (ألم نشرح)

وذكره في المبهج من رواية أبي الفرج الشنبوذي فقط يعني من روايتي البزي وقنبل ثم قال لأن الكارزيني حكى أنه لما قرأ عليه لابن كثير ختم سورة الليل وسكت ثم قال ثم قرأت بالتكبير من أول (والضحى) وهو الذي قرأ به على الداني على الفارسي عن النقاش عن أبي ربيعة عن البزي كما ذكره في جامع البيان وغيره إلا لم يختره واختاره أن يكون من آخر الضحى كما سنذكره ولذلك لما أشار إليه في التيسير آخراً رده بقوله والأحاديث الواردة عن المكيين بالتكبير دالة على ما ابتدأنا به لأن فيها مع وهي تدل على الصحة والإجماع. انتهى. (ولم يرو) أحد التكبير من آخر والليل كما ذكروه من آخر والضحى ومن ذكره وكذلك فإنما أراد كونه من أول الضحى الشاطبي حيث قال:

وقال به البزي من آخر الضحى * وبعض له آخر الليل وصلاً

ولما رأى بعض الشراح قوله هذا مشكلاً قال مراده بالآخر في الموضعين أول السورتين أي أول ألم نشرح وأول والضحى وهذا فيه نظر لأنه يكون بذلك مهملاً رواية من رواه من آخر والضحى وهو الذي في التيسير والظاهر أنه سوى بين الأول والآخر في ذلك وارتكب في ذلك المجاز وأخذ باللازم في الجواز وإلا فالقول بأنه من آخر الليل حقيقة لم يقل به أحد. قال

الشراح أول الضحى . قال أبو شامة هذا الوجه من زيادات هذه القصيدة وهو قول صاحب الروضة قال وروى البزي عن التكبير من أول سورة والضحى انتهى . وأما الصباح هذا هو محمد بن عبد العزيز بن عبد الله بن الصباح وابن بقرة هو أحمد ابن محمد بن عبد الرحمن بن هارون المكيان مشهوران من أصحاب قنبل وهما عن روى التكبير من أول الضحى كما نص عليه ابن سوار وأبو العز وغيرهما وهذا الذي ذكروه من أن المراد بآخر الليل هو أول الضحى متعين إذ التكبير إنما هو ناشئ عن النصوص المتقدمة والنصوص المتقدمة دائرة بين ذكر الضحى وأول ألم نشرح لم يذكر في شيء منها والليل فعلم أن المقصود بذكر آخر الليل وهو أول الضحى كما حمله شراح كلام الشاطبي . وهو الصواب بلا شك والله أعلم .

وأما انتهاء التكبير فقد اختلفوا فيه أيضاً فذهب الجمهور من المغاربة وبعض المشارقة وغيرهم إلى انتهاء التكبير آخر سورة الناس . وذهب الآخرون وهم جمهور المشارقة إلى أن انتهاءه أول الناس لا يكبر في آخر الناس والوجهان مبنيان على أصل وهو أن التكبير هل هو لأول السور أم لآخرها ؟ فمن ذهب إلى أنه لأول السورة لم يكبر في آخر الناس سواء كان

ابتداء عنده من أول ألم نشرح أو من أول الضحى من جميع من ذكرنا أعنى الذين نصوا على التكبير من أول إحدى السورتين ومن جعل الابتداء من آخر الضحى كبر في آخر الناس من جميع من ذكرنا أني الذين نصوا على التكبير من آخر الضحى . هذا هو فصل النزاع في هذه المسألة . ومن وجد في كلامه خلاف على ذلك فإنما هو بناء على غير أصل أو مراد غير ظاهره ولذلك اختلف في ترجيح كل من الوجهين فقال الحافظ أبو عمرو : والتكبير من آخر والضحى بخلاف ما يذهب إليه قوم من أهل الأداء من أنه من أولها لما في حديث موسى بن هارون عن البزي عن عكرمة عن إسماعيل عن ابن كثير من قوله : فلما ختمت والضحى قال لي كبر ولما في حديث شبل عن ابن كثير أنه كان بلغ ألم نشرح كبر ولما في حديث مجاهد عن ابن عباس أنه كان يأمره بالتكبير من (ألم نشرح لك) قال وانقطاع التكبير أيضاً في آخر سورة الناس بخلاف ما يأخذ به بعض أهل الأداء من انقطاعه في أولها بعد انقضاء سورة الفلق لما في حديث الحسن ابن محمد عن شبل عن ابن كثير أنه كان إذا بلغ ألم نشرح كبر حتى يختم . ولما في حديث ابن جريج عن مجاهد أنه يكبر من والضحى إلى الحمد ومن خاتمة والضحى إلى خاتمة (قل أعوذ برب الناس) ولما في غير ما حديث عن حميد بن قيس وغيره من أنه كان بلغ والضحى كبر إذا ختم كل سورة حتى يختم انته فأنظر كيف اختار التكبير آخر الناس لكونه يختار التكبير من آخر الضحى وكذلك قال كل من قال بقوله إن التكبير من آخر الضحى كشيخه أبي الحسن ابن غلبون وأبيه أبي الطيب ومكي ابن شريح والمهدوي

وابن طاهر بن خلف وشيخه عبد الجبار وابن سفيان وغيرهم وهو ظاهر النصوص المذكورة كما ذكر الداني إلا أن استدلاله لذلك براوية شبل عن ابن كثير فيه بظاهر والله أعلم .

وقال الحافظ أبو العلاء كبر البزي وابن فليح . وابن مجاهد عن قنبل من فاتحة والضحى وفواتح ما بعدها من السور إلى سورة الناس وكبر العمري والزينبي والفاتحة إلا ما رواه بكار عن ابن مجاهد من إثباته بينهما . وانظر كيف قطع بعدم التكبير في آخر الناس لكونه جعل التكبير من أول الضحى ومن أول (ألم نشرح) وكذلك قال كل من قال بقوله كشيخه أبي العز القلانسي وكأبي الحسن الخياط وأبي علي البغدادي وأبي محمد سبط الخياط في غير المبهج وغيرهم (قلت) والمذهبان صحيحان ظاهران لا يخرجان عن النصوص المتقدمة وأما قول أبي شامة إن فيه مذهباً ثالثاً وهو أن التكبير ذكر مشروع بين كل سورتين فلا أعلم أحداً ذهب إليه صريحاً وإن كان أخذه من لازم قول من قطعه عن السورتين أو وصه من الفصل الثالث الآتي ولو كان أحد ذهب إلى ما ذكره بو شامة لكان التكبير على مذهبه

ساقطاً إذا قطعت القراءة على آخر سورة أو استؤنفت سورة وقتاً ما ولا قائل بذلك بل لا يجوز في رواية من يكبر سيأتي إيضاحه في التنبيه التاسع من الفصل الثالث والله أعلم .

(355/840)

(تنبيه) قول الشاطبي رحمة الله إذا كبروا في آخر الناس مع قوله وبعض له من آخر الليل على ما تقرر من أن المراد بآخر الليل أول الضحى يقتضي أن يكون ابتداء التكبير من أول الضحى وإنهاؤه آخر الناس . وهو مشكل لما تأصل بل هو ظاهر المخالفة لما رواه فإن هذا الوجه هو التكبير من أول الضحى هو من زياداته على التيسير وهو من الروضة لأبي علي كما نص عليه أبو شامة والذي نص عليه صاحب الروضة أن قال روى البزي التكبير من أول سورة والضحى إلى خاتمة الناس ولفظه الله أكبر تابعه الزينبي عن قنبل في لفظ التكبير وخالفه في الابتداء فكبر من أول سورة ألم نشرح قال ولم يختلفوا أنه منقطع مع خاتمة والناس وانتهى بحروفه فهذا الذي أخذ الشاطبي التكبير من روايته قطع بمنعه من آخر الناس فتعين حمل كلام الشاطبي على تخصيص التكبير آخر الناس بمن قال من آخر والضحى كما هو مذهب صاحب التيسير وغيره ويكون معنى قوله إذا كبروا في آخر الناس أي إذا كبر من يقول بالتكبير في آخر الناس يعني الذين قالوا به من آخر والضحى أو يكون المعنى من يكبر في

آخر الناس يردف التكبير مع قراءة سورة الحمد قراءة أول البقرة حتى يصل إلى المفلحون أي أن هذا الإرداف مخصوص عن تكبير آخر الناس كما سيأتي ولولا قول صاحب الروضة ولم يختلفوا أنه منقطع أي منحذف مع خاتمة الناس لكان لم يتشبث بقوله أولاً إلى خاتمة الناس منزع فعلم بذلك أن المراد بخاتمة الناس آخر القرآن أي حتى يختم وهو صريح قول شبل عن ابن كثير أنه كان إذا بلغ ألم نشرح كبر حتى يختم وكذا قول صاحب التجريد إلى خاتمة الناس لا يريد أن التكبير في آخره بدليل قوله بعد ذلك إنك تقف في آخر كل سورة وتبتدى بالتكبير منفصلاً فإن هذا لا يجوز في آخر الناس كما سنبينه وكذا أراد ابن مؤمن في الكنز حيث قال التكبير من أول سورة والضحى إلى آخر سورة الناس بدليل قوله بعد ذلك ورواه بكار عن قنبل في آخر سورة الناس والله أعلم ، وأما قول الهذلي

الباقون يكبرون من خاتمة والضحى إلى أول قل أعوذ برب الناس في قول ابن هاشم قال وفي قول غيره إلى خاتمة قل أعوذ برب الناس فإن فيه تجوزاً أيضاً وصوابه أن يقول في قول ابن هاشم من أول والضحى إلى أول قل أعوذ برب الناس وابن هاشم هذا هو أبو العباس أحمد بن علي بن هاشم المصري المعروف بتاج الأئمة أستاذ القراآت وشيخها بالديار المصرية

وهو شيخ الهذلي وشيخ ابن شريح وأبي القاسم بن الفحام . وقرأ قراءة ابن كثير على أصحاب أصحاب ابن مجاهد كالحمامى وعلي بن محمد بن عبد الله الحذاء ومذهبهم ابتداء التكبير من أول والضحى وانتهاؤه أول الناس كما نص عليه أصحابهم العارفون بمذهبهم ولولا صحبة طرق ابن هاشم عندنا على ما ذكرنا لقلنا لعل الهذلي أراد بآخر الضحى أول ألم نشرح (فالحاصل) أن من ابتدأ التكبير من أول الضحى أو ألم نشرح قطعه أول الناس ومن ابتدأ به في آخر الضحى قطعه آخر الناس لا نعلم أحداً خالف هذا مخالفة صريحة لا تحتمل التأويل إلا ما انفرد به أبو العز في كفايته عن بكار عن ابن مجاهد عن قنبل من التكبير من أول الضحى مع التكبير بين الناس والفاتحة وتبعه على ذلك الحافظ أبو العلاء فروى عنه وهو وهم بلا شك ولعله سبق قلم من أول ألم نشرح إلى أول الضحى لأن أبا العز نفسه ذكره على الصواب في إرشاده فجعل له التكبير من أول ألم نشرح وكذلك أبو الحسن الخياط أكبر من أخذ عن أصحاب بكار . وإذا ثبت أن الصواب من أول ألم نشرح فيحتمل أن يكون المراد آخر الضحى . وعبر عن آخر والضحى بأول ألم نشرح كما رواه غيره ويحتمل أن يكون لحظ أن للسورة حظاً من التكبير أولها وآخرها وقد يتعدى هذا إلى والضحى إن ثبت وقد عرفتك ما فيه على أن طريق بكار عن ابن مجاهد ليست من طرقنا فليعلم . قال أبو شامة (فإن قلت) فما وجه من كبر من أول والضحى وكبر آخر الناس ؟

قلت أعطى السورة حكم ما قبلها من السور إذ كل سورة منها بين تكبير وليس التكبير في آخر الناس لأجل الفاتحة لأن

الختمة قد انقضت ولو كان للفاتحة لشرع التكبير بين الفاتحة والبقرة لهؤلاء لأن التكبير للختم لا لافتتاح أول القرآن .

(تتمة)

وقع في كلام السخاوي في شرحه ما نصه وذكر أبو الحسن ابن غلبون ومكي وابن شريح والمهدوي التكبير عن البزي من أول والضحى وعن قنبل من أول ألم نشرح انتهى . وتبعه على نقل ذلك عن مكي أبو شامة والذي رأيته في تذكرة أبي الحسن بن غلبون يكبر من خاتمة والضحى إلى آخر القرآن فإذا قرأ (قل أعوذ برب الناس) كبر وفي التبصرة لمكي يكبر من خاتمة والضحى إلى آخر القرآن مع خاتمة كل سورة وكذلك إذا قرأ (قل أعوذ برب الناس) فإنه يكبر وفي الكافي لابن شريح فإذا ختمها أي الضحى كبر وبسمل بعد آخر كل سورة إلى أن يختم القرآن . وفي الهداية للمهدوي يكبر من خاتمة والضحى إلى آخر القرآن ولم أر في كلام أحد منهم تكبيراً من أول الضحى فليعلم ذلك .

(فهذا) ما ثبت عندنا عن ابن كثير في الابتداء في التكبير وما ينتهي غليه وأما ماورد عن السوسي فإن الحافظ أبا العلاء قطع له بالتكبير من فاتحة ألم نشرح إلى خاتمة الناس وجهاً واحداً وقطع له به صاحب التجريد من طريق ابن حبش وقرأنا بذلك من طريقه . وروى سائر الرواة عنه ترك التكبير كالجماعة وقدمنا أول الفصل ما كان يأخذ به الخبازي وابن حبش من التكبير لجميع القراء وما حكى عن أبي الفضل الخزاعي وغيره من التكبير في أول كل سورة من جميع القرآن .

(وأما حكمه في الصلاة) وإن كان أكثر القراء لم يتعرضوا لذلك لعدم تعلقهم به فإما لما رأينا بعض أئمتنا قد تعرض إلى ذلك كالحافظ أبي عمرو الداني والإمام أبي العلاء الهمذاني والأستاذ أبي القاسم بن الفحام والعلامة أبي الحسن السخاوي والمجتهد أبي القاسم الدمشقي المعروف بأبي شامة وغيرهم تعرضوا لذكره في كتبهم ورووا في ذلك أخباراً عن سلف القراء والفقهاء لم نجد بدا من ذكره على عادتنا في ذكر ما يحتاج إليه المقرئ وغيره مما يتعلق بالقراآت (أخبرني) الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله المقدسي بقراءتي عليه . أخبرنا محمد بن علي بن أبي القاسم الوراق قراءة عليه سنة ثمان عشرة وسبعمائة .

أخبرنا عبد الصمد بن أبي الجيش . أخبرنا محمد بن أبي الفرج الموصلي أخبرنا يحيى ابن سعدون القرطبي . أخبرنا عبد الرحمن بن أبي بكر القرشي الصقلي . قال حدثنا عبد الباقي يعني ابن فارس بن أحمد . حدثنا أبو أحمد يعنى السامري . حدثنا أبو الحسن علي بن الرق . قال حدثني قنبل بن عبد الرحمن حدثنا أحمد بن محمد بن عون القوس . حدثنا عبد الحميد بن جريح عن مجاهد أنه كان يكبر من والضحى إلى الحمد لله . قال ابن جريح فأرى أن يفعله الرجل إماماً كان أو غير إمام رواه الحافظ أبو عمرو عن أبي الفتح فارس عن أبي أحمد بلفظه سواء . وقال الحافظ أبو عمرو : حدثنا ألو الفتح . حدثنا عبد الله يعنى السامري . حدثنا أحمد يعنى أحمد بن مجاهد . حدثنا عبد الله يعنى أبا بكر ابن أبي داود السجستاني . حدثنا يعقوب يعنى ابن سفيان الفسوى الحافظ حدثنا الحميدي سألت سفيان يعنى ابن عيينة قلت يا أبا محمد رأيت شيئاً ربما فعله الناس عندنا يكبر القارئ في شهر رمضان إذا ختم يعنى في الصلاة فقال رأيت صدقة بن عبد الله بن كثير يؤم الناس منذ أكثر من سبعين سنة فكان إذا ختم القرآن كبر . وبه عن الحميدي قال حدثنا محمد بن عمر بن عيسى أن أباه أخبره أنه قرأ بالناس في شهر رمضان فأمره ابن جريح أن يكبر من

والضحى حتى يختم . وبه عن الحميدي قال سمعت عمر بن سهل شيخنا من أهل مكة يقول رأيت عمر بن عيسى صلّى بنا في شهر رمضان فكبر من والضحى فأنكر بعض الناس عليه فقال أمرني به ابن جريج فسألنا ابن جريج فقال أنا أمرته . وقال الشيخ أبي الحسن السخاوي وروى بعض علمائنا الذين اتصلت قراءتنا بهم بإسناده عن أبي محمد الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد القرشي قال صليت بالناس خاف المقام بالمسجد الحرام في التراويح في شهر رمضان فلما كانت ليلة الختمة كبرت من خاتمة الضحى إلى آخر القرآن في الصلاة فلما سلمت التفت وإذا بأبي عبد الله محمد ابن إدريس الشافعي قد صلّى ورائي فلما بصر بي قال لي أحسنت أصبت السنة (قلت) أظنُّ هذا الذي عناه السخاوي ببعض علمائنا هو والله أعلم أما الإمام أبو بكر بن مجاهد فإنه رواه عن أبي محمد مضر بن محمد بن خالد الضبي عن حامد بن يحيى بن هانئ البلخي نزيل طرسوسي عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد القرشي المكي المقرى الإمام بالمسجد الحرام وصاحب شبل بن عباد والله أعلم وأمل الأستاذ أبو علي الأهوازي فإنه رواه عن أبي الفرج محمد بن أحمد بن إبراهيم الشنبوذي عن ابن شنبوذ عن مضر فذكره وقد تقدم ما أسنه الداني عن البزي عن الأمام الشافعي إن تركت التكبير فقد تركت سنة من سنن نبيك صلّى الله عليه وسلم وبالإسناد المتقدم آنفاً إلى قنبل قال وأخبرني ابن المقرى قال سمعت ابن الشهيد الحجبي يكبر خلف المقام في شهر رمضان . قال قنبل وأخبرني يعنى ابن المقرى فقال لي ابن الشهيد

الحجبي أو بعض الحجبة ابن الشهيد أو ابن بقية شك في أحدهما . وبه قال قنبل أخبرني أحمد بن محمد بن عون القواس قال سمعت ابن الشهيد الحجبي يكبر خلف المقام في شهر رمضان قال قنبل وأخبرني ركين بن الحصيب مولى الجبيريين قال سمعت ابن الشهيد الحجبي يكبر خلف المقام في شهر رمضان حين ختم من والضحى يعنى في صلاة التراويح . ورواه الحافظ أبو عمرو عن قنبل

(360/840)

بإسناده المتقدم آنفاً . وقال الإمام المحقق المجمع على تقدمه أبو الحسن علي بن جعفر بن محمد السعيدي الرازي ثم الشيرازي في آخر كتابه تبصرة البيان في القراآت الثمان ما هذا نصه : ابن كثير يكبر من خاتمة والضحى إلى آخر القرآن واختلف عنه في لفظ التكبير فكبر قنبل (الله أكبر) والبزي (لا إله إلا الله والله أكبر) يسكت في آخر السورة ويصل التكبير بالتسمية في الصلاة وغيرها . قال الأستاذ الزاهد أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري إمام القراء في عصره بخراسان في كتابه الإرشاد في القراآت الأربع عشرة والمستحب للمكبر في الصلاة على مذهب ابن كثير التهليل وهو (لا إله إلا الله والله أكبر) لئلا يلتبس بتكبيرة الركوع . فقد ثبت التكبير في الصلاة عن أهل مكة فقهائهم وقرائهم وناهيك بالإمام

الشافعي وسفيان بن عيينة وابن جريج وابن كثير وغيرهم وأما غيرهم فلم نجد عنهم في ذلك نصاً حتى أصحاب الشافعي مع ثبوته عن إمامهم فلم أجد لأحد منهم نصاً فيه في شيء من كتبهم المبسوطة ولا المطولة الموضوعة للفقه وإنما ذكره استطراداً الإمام أبو الحسن السخاوي والإمام أبو إسحاق الجعبري وكلاهما من أئمة الشافعية والعلامة أبو شامة وهو من أكبر أصحاب الشافعي الذين كان يفتى بقولهم في عصرهم بالشام بل هو ممن وصل إلى رتبة الاجتهاد وحاز وجمع من انواع العلوم مالم يجمعه غيره وحاز. خصوصاً في علوم الحديث والقراآت والفقه والأصول. ولقد حدثني من لفظه شيخنا الإمام حافظ الإسلام أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الشافعي قال حدثني شيخنا الإمام العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن العلامة تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم الفزاري شيخ الشافعية وابن شيخهم قال سمعت والدي يقول عجبت لأبي شامة كيف قلد الشافعي (نعم) بلغنا عن شيخ الشافعية وزاهدهم وورعهم في عصرنا الغمام العلامة الخطيب أبي الثناء محمود بن محمد بن جملة الإمام والخطيب بالجامع الأموي بدمشق الذي لم تر عيناي مثله

رحمه الله أنه كان يفتى به وربما عمل به في التراويح في شهر رمضان ورأيت أنا غير واحد من شيوخنا يعمل به ويأمر من يعمل به في صلاة التراويح وفي الإحياء في ليالي رمضان حتى كان بعضهم إذا وصل في الإحياء إلى الضحى قام بما بقي من القرآن في ركعة واحدة يكبر أثر كل سورة فإذا انتهى إلى (قل أعوذ برب الناس) كبر في آخرها ثم يكبر ثانياً للركوع وإذا قام في الركعة الثانية قرأ الفاتحة وما تيسر من أول البقرة. وفعلت أنا كذلك مرات لما كنت أقوم بالأحياء إماماً بدمشق ومصر. وأما من كان يكبر في صلاة التراويح فإنهم يكبرون أثر كل سورة ثم يكبرون للركوع وذلك إذا آثر التكبير آخر السورة ومنهم من كان إذا قرأ الفاتحة وأراد الشروع في السورة كبر وبسمل وابتدأ السورة. وختم مرة صبي في التراويح فكبر على العادة فأنكر عليه بعض أصحابنا الشافعية فرأيت صاحبنا الشيخ الإمام زين الدين عمر بن مسلم القرشي رحمه الله بعد ذلك في الجامع الأموي وهو ينكر على ذلك المنكر ويشنع عليه ويذكر قول الشافعي الذي حكاه السخاوي وأبو شامة ويقول رحم الله الخطيب ابن جملة لقد كان عالماً متيقظاً متحرياً. ثم رأيت كتاب الوسيط تأليف الإمام الكبير شيخ الإسلام أبي الفضل عبد الرحمن ابن أحمد الرازي الشافعي رحمه الله وفيه ما هو نص على التكبير في الصلاة كما سيأتي لفظه في الفصل بعد هذا في صيغة التكبير. والقصد أنني تتبعت كلام الفقهاء من أصحابنا فلم أر لهم نصاً في غير ما ذكرت وكذلك لم أر للحنفية ولا للمالكية وأما الحنابلة فقال الفقيه الكبير أبو عبد الله محمد بن مفلح في كتاب الفروع له وهل

يكبر لختمة من الضحى أو ألم نشرح آخر كل سورة فيه روايتان ولم تستحبه الحنابلة لقراءة غير ابن كثير وقيل ويهلل انتهى (قلت) ولما من الله تعالى علي بالمجاورة بمكة ودخل شهر رمضان فلم أر أحداً مما صلّى التراويح بالمسجد الحرام إلا يكبر من الضحى عند الختم فعلمت أنها سنة باقية فيهم إلى

اليوم والله أعلم.

ثم العجب ممن ينكر التكبير بعد ثبوته عن النبي صلّى الله عليه وسلم وعن أصحابه والتابعين وغيرهم ويجيز ما ينكر في صلوات غير ثابتة وقد نص على استحباب صلاة التسبيح غير واحد من أئمة العلم كابن المبارك وغيره مع أن أكثر الحفاظ لا يثبتون حديثها فقال القاضي الحسين وصاحب التهذيب والتتمة والروياني في أواخر كتاب الجنائز من كتاب البحر يستحب صلاة التسبيح للحديث الوارد وذكرها أيضاً صاحب المنية في الفتاوى من الحنفية وقال صدر القضاة في شرحه للجامع الصغير في مسألة ويكره التكرار وعد الآي وما روى من الأحاديث أن من قرأ في الصلاة الإخلاص كذا مرة ونحوه فلم يصححا الثقات أما صلاة التسبيح فقد أوردها الثقات وهي صلاة مباركة وفيها ثواب

عظيم ومنافع كثيرة ورواها العباس وابنه وعبد الله بن عمرو (قلت) وقد اختلف كلام النووي في استحابها فمنع في شرح المهذب والتحقيق، وقال في تهذيب الأسماء واللغات في الكلام على سبح وأما صلاة التسبيح المعروفة فسميت بذلك لكثرة التسبيح فيها خلاف العادة في غيرها وقد جاء فيها حديث حسن في كتاب الترمزي وغيره وذكرها المحاملي وصاحب التتمة وغيرهما من أصحابنا وهي سنة حسنة انتهى.

الفصل الثالث في صيغته وحكم الإتيان به وسببه

(363/840)

أما صيغته فلم يختلف عن أحد ممن أثبته أن لفظه (الله أكبر) ولكن اختلف عن البزي وعمن رواه عن قنبل في الزيادة عليه. فأما البزي فروى الجمهور عنه هذا اللفظ بعينه من غير زيادة ولا نقص فيقول (الله أكبر) (بسم الله الرحمن الرحيم) والضحى أو ألم نشرح وهو الذي قطع به في الكافي والهادي والهداية والتلخيصين والعنوان والتذكرة وهو الذي قرأ به وأخذ صاحب التبصرة وهو الذي قطع به أيضاً في المبهج وفي التيسير من طريق أبي ربيعة وبه قرأ على أبي القاسم الفارسي عن قراءته بذلك على النقاش عنه وعلى أبي الحسن وعلى أبي الفتح عن قراءته بذلك عن السامري في رواية البزي وهو الذي لم يذكر العراقيون

قاطبة سواه من طرق أبي ربيعة كلها سوى طريق هبة الله عنه وروى الآخرون عنه التهليل من قبل التكبير ولفظة (لا إله إلا الله والله أكبر) وهذه طريق ابن الحباب عنه من جميع طرقه وهو طريق هبة الله عن أبي ربيعة وابن الفرح أيضاً عن البزي وبه قرأ الداني على أبي الفتح فارس عن قراءته على عبد الباقي وعلى أبي الفرح النجار أعنى من طريق ابن الحباب وهو وجه صحيح ثابت عن البزي النص كما أخبرنا أحمد بن الحسن المصري بقراءتي عليه.

أخبرنا عبد العزيز بن عبد الرحمن التونسي. أخبرنا محمد بن محمد البلنسي عن محمد بن أحمد المرسي. أخبرنا والدي عن عثمان بن سعيد الحافظ حدثنا فارس بن أحمد أخبرنا عبد الباقي بن الحسن. حدثنا أحمد بن سالم الختلي وأحمد بن صالح قالا حدثنا الحسن ابن الحباب قال سألت البزي عن التكبير كيف هو فقال (لا إله إلا الله والله أكبر) وقال الحافظ أبو عمرو وابن الحباب: هذا من الإتقان والضبط وصدق اللهجة بمكان لا يجهله أحد من علماء هذه الصنعة انتهى على أن ابن الحباب لم ينفرد بذلك فقال الإمام الكبير الولى أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي في كتابه الوسيط في العشر لم ينفرد به يعنى ابن الحباب بل حدثنيه أبو عبد الله اللالكي عن الشذائي عن ابن مجاهد

وبه كان يأخذ ابن الشارب عن الزيني وهبة الله عن أبي ربيعة وابن فرح عن البزي قال وقد رأيت المشايخ يؤثرون ذلك في الصلاة فرقاً بينها وبين تكبير الركوع انتهى. وقد تقدم قريباً قول الإمام أبي الحسن السعيدي إنه رواه البزي يعنى من جميع طرقه التي ذكرها له طريق أبي ربيعة والخزاعي كلاهما عنه. وقد روى النسائي في سننه الكبرى بإسناد صحيح عن الأغر قال أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على النبي صلّى الله عليه وسلم وأنا أشهد عليهما أنه قال (إن العبد إذا قال لا إله إلا الله والله أكبر صدقه ربه) ثم اختلف هؤلاء الآخذون بالتهليل مع التكبير عن ابن الحباب فرواه جمهورهم كذلك باللفظ المتقدم وزاد بعضهم على ذلك لفظ ولله الحمد فقالوا: (لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد) ثم يبسملون وهذه طريق أبي طاهر عبد الواحد بن أبي هاشم عن ابن الحباب وذكره أبو القاسم الهذلي من طريق عبد الواحد المذكور عن ابن الحباب ومن طريق ابن فرح أيضاً عن البزي. وكذا رواه الغضائري عن ابن فرح عن البزي وابن الصباح عن قنبل وكذا ذكره أبو الفضل الرازي وقال في كتاب الوسيط وقد حكى لنا علي بن أحمد يعنى الأستاذ أبا الحسن الحمامي عن زيد وهو أبو القاسم زيد بن علي الكوفي عن ابن فرح عن البزي التهليل قبلها والتحميد بعدها بلفظة (لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد) بمقتضى قول علي رضي الله عنه انتهى. ورواه الخزاعي أيضاً وأبو الكرم عن ابن الصباح عن قنبل ورواه أيضاً الخزاعي في كتابه المنتهى عن ابن الصباح عن أبي ربيعة عن البزي (قلت) يشير الرازي إلى ما رواه

الحافظ أبو العلاء الهمذاني عن علي رضي الله عنه إذا قرأت القرآن فبلغت قصارى المفصل فاحمد الله وكبر كما قدمنا عنه وأما قنبل فقطع له جمهور من روى التكبير عنه من المغاربة بالتكبير فقط وهو الذي في الشاطبية وتلخيص أبي معشر ولم يذكره صاحب التيسير كما قدمنا وذكره في غيره والأكثرون من المشارقة

على التهليل وهو قول (لا إله إلا الله والله أكبر) حتى قطع له به العراقيون من طريق ابن مجاهد وقطع بذلك له سبط الخياط في كفايته من الطريقين وفي المبهج من طريق ابن مجاهد فقط . وقال ابن سوار في المستنير قرأت به لقنبل قرأت على جميع من عليه وقطع له بع أيضاً ابن فارس في جامعه من طريق ابن مجاهد وابن شنبوذ وغيرهما وقال سبط الخياط في كفايته قرأ ابن كثير من رواية قنبل المذكورة في هذا الكتاب خاصة بالتهليل والتكبير من فاتحة والضحى على اختلاف شيوخنا الذين قرأت عليهم فمنهم من أمرني بذلك ومنهم من أمرني من أول ألم نشرح إلى آخر القرآن وهو الذي قرأ به صاحب الهداية على أبي الحسن القنطري وقال الداني في جامع البيان والوجهان يعنى التهليل مع التكبير والتكبير وحده عن البزي وقنبل صحيحان جيدان مشهورات مستعملان ، وقال الإمام أبو الفضل

الرازي وقد حكى لنا علي بن أحمد عن زيد عن ابن فرح عن البزي التهليل قبل التكبير والتحميد بعده بمقتضى قول علي رضي الله عنه المتقدم إلا أن أبا البركات ابن الوكيل روى عن رجاله عن ابن الصباح عن قنبل وعن أبي ربيعة عن البزي (لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد) وأما حكم الإقيان بالتكبير بين السورتين اختلف في وصله بآخر السورة والقطع عليه وفي القطع على آخر السورة ووصله بما بعده وذلك بما بعده وذلك مبني على ما تقدم من أن التكبير لآخر السورة أو لأولها ويتأتى على التقدير في حالة وصل السورة بالسورة الأخرى ثمانية أوجه يمتنع منها وجه إجماعاً وهو وصل التكبير بآخر السورة وبالبسملة مع القطع عليها لأن البسملة لأول السورة فلا يجوز أنة تجعل منفصلة عنها متصلة بآخر السورة كما تقدم في باب البسملة فلا يتأتى هذا الوجه على تقدير من التقديرين المذكورين وتبقى سبعة أوجه محتملة الجواز منصوصة لمن نذكرها له منها اثنان مختصان بتقدير أن يكون التكبير لآخر السور واثنان بتقدير أن يكون لأول السورة والثلاثة

الباقية محتملة على التقديرين.

فأما الوجهان اللذان على تقدير كونه لآخر السورة (فالأول منها) وصل التكبير بآخر

السورة والقطع عليه ووصل البسملة بأول السورة وهو (فحدث) الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم (ألم نشرح) وهذا الوجه هو الذي اختاره أبو الحسن طاهر بن غلبون وقال وهو الأشهر الجيد وبه قرأت وبه آخذ ونص عليه الداني في التيسير ولم يذكر في مفرداته سواه وهو أحد اختياراته نص على ذلك في جامع البيان ونص عليه التجريد أيضاً وهو أحد الوجهين المنصوص عليهما في الكافي ونص عليه أيضاً أبو الحسن السخاوي وأبو شامة وسائر الشراح وهو ظاهر كلام الشاطبي.

(والثاني) وصل التكبير بآخر السورة والقطع عليه والقطع على البسلمة وهو (فحدث) الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم (ألم نشرح) نص عليه أبو معشر في تخيصه ونقله عن الخزاعي عن البزي ونص عليه أيضاً على أبو عبد الله الفاسي وأبو إسحاق الجعبري في شرحيهما وابن مؤمن في كنزه وهذان الوجهان جاريان على قواعد من ألحق الكبير بآخر السورة وإن لم يذكرهما نصاً إلا أن ظاهر كلام مكي في تبصرته منعهما معاً فإنه قال ولا يجوز الوقف على التكبير دون أن يصله بالبسملة ثم بأول السورة المؤتنفة فيظهر من هذا اللفظ منع هذين الوجهين وهو مخالف لما اقتضاه كلامه حيث قال أو لا يكبر من خاتمة والضحى إلى آخر القرآن مع خاتمة كل سورة وكذلك إذ قرأ (قل أعوذ برب الناس) فإنه يكبر ويبسمل فإن ظاهره أن التكبير لآخر السورة ولا سيما وقد أثبته في آخر (الناس) وهذا مشكل من كلامه فإنه لو كان قائلاً بأن التكبير لأول السورة لكان منعه لهما ظاهراً والله أعلم.

وأما الوجهان اللذان على تقدير كون التكبير لأول السورة فإن الأول منهما قطعه عن آخر السورة ووصله بالبسملة ووصل البسملة بأول البسملة الآتية وهو (فحدث) الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم (ألم نشرح) نص عليه أبو طاهر وهو اختيار أبي العز القلانسي وابن شيطا والحافظ أبي العلاء فيما نقله عنهم ابن مؤمن في الكنز وهو مذهب سائر من جعل التكبير لأول السورة وذكره البيان إنه قرأ به على أبي القاسم الفارسي عن النقاش عن أبي ربيعة عن البزي وذكره المهدوي أيضاً (قلت) وهذا من المواضع التي خرج فيها عن طريق الكافي ونص عليه في المبهج عن البزي من غير طريق الخزاعي عنه وعن قنبل من غير طريق ابن خشنام وابن الشارب ولم يذكر في كفايته سواه وقال أبو علي في الروضة اتفق أصحاب ابن كثير على أن التكبير منفصل من القرآن لا يخلط به وكذلك حكى أبو العز في الإرشاد الاتفاق عليه وكذا في الكفاية إلا من طريق الفحام والمطوعي فإنهما قالا إن شئت وقفت على التكبير يعني بعد قطعه عن السورة الماضية وابتدأت بالتسمية موصولة بالسورة وهذا الوجه يأتي في الثلاثة الباقية وهو من الثاني منها وكذا ذكر الحافظ أبو العلاء في الغاية قال سوى الفحام ذكر له التخيير بين هذا الوجه وبين الوجه المتقدم كما قال أبو العز والوجه الثاني

منهما قطع التكبير عن آخر السورة ووصله بالبسملة والسكت ثم الابتداء بأول السورة وهو (فحدث) الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم (ألم نشرح) نص عليه ابن مؤمن في الكنز وهو ظاهر من كلام ونص عليه الفاسي في شرحه ومنعه الجعبري ولا وجه لمنعه إلا على تقدير أن يكون التكبير لآخر السورة وإلا فعلى أن يكون لأولها لا يظهر لمنعه وجه إذ غايته أن يكون كالاستعاذة ولا شك في جواز وصلها بالبسملة عن القراءة وكما في بابها وهذان الوجهان يظهران من نص الإمام أبي الحسن السعيدي الذي ذكرناه في حكم الإتيان به في الصلاة والله أعلم.

(368/840)

وأما الثلاثة الأوجه الباقية الجائزة على كل من التقديرين (فالأول) منها وصل الجميع أي وصل التكبير بآخر السورة والبسملة به وبأول السورة وهو (فحدث) الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم (ألم نشرح) نص عليه الداني والشاطبي وذكره في التجريد وهو اختيار صاحب الهداية ونقله في المبهج عن البزي من طريق الخزاعي.

(والثاني) منها قطع التكبير عن آخر السورة وعن البسملة ووصل البسملة بأول السورة وهو (فحدث) الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم (ألم نشرح) نص عليه أبو معشر في

التلخيص واختاره المهدوي ونص عليه أيضاً ابن مؤمن وقال إنه اختيار طاهر بن غلبون (قلت) ولم أره في التذكرة وذكره صاحب التجريد ونقله فيه أيضاً عن شيه الفارسي وهو الذي ذكرناه أبو العز في الكفاية عن الفحام والمطوعي كما قدمنا وكذا نقله أبو العلاء الحافظ عن الفحام ويظهر من كلام الشاطبي ونص عليه الفاسي والجعبري وغيرهما من الشراح وهو ظاهر نص الإمام أبي عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي في كتابه المنهاج في شعب الإيمان قال بعد أن ذكر التكبير من (والضحى) إلى آخر (الناس) وصفة التكبير في أواخر هذه السورة أنه كلما ختم سورة وقف وقفة ثم قال الله أكبر ووقف وقفة ثم ابتدأ السورة التي تليها إلى آخر القرآن ثم كبر.

(والثالث) منها – قطع الجميع أي قطع التكبير عن السورة الماضية وعن البسملة وقطع البسملة عن السورة الآتية وهو (فحدث) الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم (ألم نشرح) يظهر هذا الوجه من كلام الحافظ أبي عمرو في جامع البيان حيث قال فإن لم توصل يعني التسمية بالتكبير جاز القطع عليها وذلك بعد أن قدم جواز القطع على التكبير ثم ذكر القطع على آخر السورة فكان في الشرح وهو ظاهر من كلام الشاطبي ولكن ظاهر كلام مكي المتقدم

منعه بل هو صريح نصه في الكشف حيث منع في وجه البسملة بين السورتين قطعها عن الماضية والآتية كما تقدم التنبيه عليه في باب البسملة ولا وجه لمنع هذا الوجه كلا التقديرين والحاصل أن هذه الأوجه السبعة جائزة على ما ذكرنا عمن ذكرنا قرأ بها على كل من قرأت عليه من الشيوخ وبها آخذ ونص عليها كلها الأستاذ أبو محمد عبد الله بن عبد المؤمن الواسطي في كنزه ويتأتى على كل من التقديرين المذكورين خمسة أوجه وهي الوجهان المختصان بأحد التقديرين والثلاثة والجائزة على التقديرين وبقي هنا تنبيهات (الأول) المراد بالقطع والسكت في هذه الأوجه كلها هو الوقف المعروف لا القطع الذي هو الإعراب ولا السكت الذي هو دون تنفس ، هذا هو الصواب كما قدمنا في باب البسملة وكما صرح به أبو العباس المهدوي حيث قال في الهداية ويجوز أن تقف على آخر السورة وتبدأ بالتكبير أو تقف على التكبير وتبدأ بالبسملة ولا ينبغي أن يقف على البسملة ومكي في تبصرته بقوله ولا يجوز الوقف على التكبير دون أن تصله بالبسملة وأبو العز بقوله واتفق الجماعة يعني رواة التكبير أنهم يقفون في آخر كل سورة ويبتدئون بالتكبير ، والحافظ أبو العلاء بقوله : وكلهم يسكت على خواتيم السور ثم يبتدئ بالتكبير على الفحام عن رجاله فإنه خير بين الوقف على آخر السورة ثم الابتداء بالتكبير ، وعلم بذلك أنه أراد بالسكت المتقدم الوقف وصاحب التجريد بقوله وذكر الفارسي في روايته أنك تقف في آخر كل

سورة وتبتدئ بالتكبير منفصلاً من التسمية وابن سوار بقوله وصفته أن يقف يبتدئ الله أكبر بسم الله الرحمن الرحيم وصرح به أيضاً غير واحد كابن شريح وسبط الخياط والداني والسخاوي وأبي شامة وغيرهم وزعم الجعبري أن المقصود بالقطع في قولهم هو السكت المعروف كما زعم ذلك في البسملة قال في شرح قول الشطبي فإن شئت فاقطع دونه .

معنى قوله فإن شئت فاقطع أي فاسكت ولو قالها لأحسن إذ القطع عام فيه والوقف انتهى . وهو شيء انفرد به لم يوافقه أحد عليه ولعله توهم ذلك من قول بعض أهل الأداء كمكي والحافظ الداني حيث عبرا بالسكت عن الوقف فحسب أن السكت المصطلح عليه ولم ينظر آخر كلامهم ولا ما صرحوا به عقيب ذلك أيضاً فقد قدمنا في أول كتابنا هذا عند ذكر السكت المتقدمين إذا أطلقوا لا يريدون به إلا الوقف وإذا أرادوا به السكت المعروف قيدوه بما تصرفه إليه .

(الثاني) ليس الاختلاف في هذه الأوجه السبعة اختلاف رواية يلزم الاتيان بها كلها بين كل سورتين وإن لم يفعل لكن اختلالاً في الرواية بل هو من اختلاف التخيير كما هو مبين في باب البسملة عند ذكر الأوجه الثلاثة الجائزة ثم . نعم الإتيان بوجه مما يختص يكون التكبير لآخر

السورة وبوجه مما يختص بكونه لأولها أو بوجه مما يحتملها متعين إذ الاختلاف في ذلك اختلاف رواية فلا بد من التلاوة به إذا قصد جمع تلك الطرق . وقد كانوا الحاذقون من التلاوة بجميعها وهو حسن ولا يلزم ، بل التلاوة بوجه منها إذا حصل معرفتها من الشيخ كاف والله أعلم .

(371/840)

(الثالث) التهليل مع التكبير مع الحمدلة عند من رواه حكمة حكم التكبير لا يفصل بعضه من لبعض بل يوصل جملة واحدة ، كذا وردت الرواية وكذا قرأنا لا نعلم في ذلك خلافاً وحينئذ فحكمه مع آخر السورة والبسملة وأول السورة الأخرى حكم التكبير تأتى معه الأوجه السبعة كما فصلنا إلا أني لا أعلمني قرأت بالحمدلة بعد سورة الناس ومقتضى ذلك لا يجوز مع وجه الحمدلة سوى الأوجه الخمسة الجائزة مع تقدير كون التكبير لأول السورة وعبارة الهذلي لا تمنع التقدير الثاني والله أعلم . نعم يمتنع وجه الحمدلة من أول الضحى لأن صاحبه لم يذكره فيه والله أعلم .

(الرابع) ترتيب التهليل مع التكبير والبسملة على ما ذكرنا لازم لا يجوز مخالفته . كذلك وردت الرواية وثبت الأداء ، وما ذكر الهذلي عن قنبل من طريق نظيف في تقديم البسملة

على التكبير غير معروف ولا يصح أيضاً لأن جميع من ذكر طريق نظيف عنه سوى الهذلي أسند هذه الطريق من قراءته على أبي العباس بن هاشم عن أبي الطيب ابن غلبون عنه ولم يذكر ذلك ابن غلبون في إرشاده ولا غيره ولا ذكره أحد ممن روى هذه الطريق أيضاً عنه ابن غلبون المذكور فعلم أن ذلك لم يصح والله أعلم .

(الخامس) لا يجوز التكبير في رواية السوسي إلا في وجه البسملة بين السورتين لأن راوي التكبير لا يجيز بين السورتين سوى البسملة ويحتمل معه عنده ليست آية بين السورتين كما هي عنده ابن كثير بل هي عنده للتبرك وكذلك لا يجوز له التكبير من أول الضحى لأنه خلاف روايته والله أعلم .

(السادس) لا تجوز الحمدلة مع التكبير إلا أن يكون التهليل معه ، كذا وردت الرواية ويمكن أن يشهد لذلك ما قاله ابن جرير : كان جماعة من أهل العلم يأمرون من قال (لا إله إلا الله) يتبعها (بالحمد لله) عملاً بقوله : (فادعوه مخلصين له الدين) الآية ثم روى عن ابن عباس : من قال (لا إله إلا الله) فليقل على أثرها "الحمد لله رب العالمين" وذلك قوله (فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين) .

(السابع) قال الحافظ أبو عمرو في الجامع وإذا وصل القارئ أواخر السورة بالتكبير وحده كسر ما كان آخرهن ساكناً كان أو متحركاً قد لحقه التنوين في حال نصبه أو خفضه أو رفعه لسكون ذلك وسكون اللام من اسم الله تعالى فالساكن نحو قوله (فحدث) الله أكبر ، و(فارغب) الله أكبر وما أشبهه ؛ والمتحرك المنون نحو قوله تعالى (توابا) الله أكبر ، و(لخبير) لله أكبر ، و(من مسد) الله أبر ، وما أشبه وإن تحرك آخر السورة بالفتح أو الخفض أو الرفع ولم يلحق هذه الحركات الثلاث تنوين فتح المفتوح من ذلك وكسر المكسور وضم المضموم لا غير فالمفتوح نحو قوله (الحاكمين) الله أكبر ، (وإذا حسد) الله أكبر وما أشبهه والمكسور نحو قوله (عن النعيم) الله أكبر ، و(من الجنة والناس) الله أكبر وما أشبهه والمضموم نحو قوله : (هو الأبتر) الله أكبر وما أشبهه وإن كان آخر السورة هاء ضمير موصولة بواو في اللفظ تحذف صلتها للساكنين سكونها وألف الوصل التي في أول اسم الله تعالى ساقطة في جميع ذلك في حال الدرج استغناءً عنها بما اتصل من أواخر السور بالساكن الذي تجتلب لأجله واللام مع الكسرة مرققة ومع الفتحة والضمة مفخمة انتهى . وهو مما لا أعلم فيه خلافاً بين أهل الأداء الذاهبين إلى وصل التكبير بآخر السورة ولم يختر أحد منهم في شيء من أواخر السور ما اختار في الأربع الزهر عند (ويل) ولا لا عند (الأبتر) الله أكبر ولا عند (حسد) الله أكبر ولا في نحو ذلك إنما نبهت على هذا لأني رأيت بعض من لا

علم له بأصول الروايات ينكر مثل ذلك فلهذا تعرضت له وحكيت نص الداني وتمثيله به بحروفه فأعلم ذلك.

(الثامن) إذا وصل القارئ التهليل بآخر السورة أبقى ما كان من أواخر السور على حاله سواء كان متحركاً أو ساكناً إلا أن يكون تنويناً فإنه يدغم نحو (لخبير) لا إله إلا الله وكذلك لا يعتبرون في شيء من أواخر السور عند "لا" ما اعتبروه معها في وجه الوصل بين السورتين (لا أقسم) وغيرها والله تعالى أعلم. ويجوز إجراء وجه مد (لا إله إلا الله) عند من أجرى المد للتعظيم كما قدمنا في باب المد بل كان بعض من أخذنا عنه من شيوخنا المحققين يأخذون بالمد فيه مطلقاً مع كونهم لم يأخذوا بالمد للتعظيم في القرآن ويقولون إنما قصر ابن كثير المنفصل في القرآن وهذا المراد به هنا هو الذكر فيأخذ بما يختار في الذكر وهو المد للتعظيم في الذكر مبالغة للنفي كما نص عليه العلماء وأكثر من رأينا لا يأخذ فيه إلا بالقصر مشياً على قاعدته في المنفصل وذلك كله قريب مأخوذ به والله أعلم.

(التاسع) إذا قرئ برواية التكبير وإرادة القطع على آخر سورة فمن قال إن التكبير لآخر السورة كبر وقطع القراءة وإذا أراد الابتداء بعد ذلك بسمل للسورة من غير تكبير. وأما

على مذهب من يقل إن التكبير لأول السورة فإنه يقطع على آخر السورة من غير تكبير فإذا ابتدأ بالسورة التي تليها بعد ذلك ابتدأ بالتكبير إذ لا بد من التكبير إما لآخر السورة أو لأولها حتى لو سجد في آخر العلق فإنه يكبر أولاً لآخر السورة ثم يكبر للسجدة على القول بأن التكبير للآخر وأما على القول بأن التكبير للآخر وأما على القول بأنه للأول فإنه يكبر للسجدة فقط ثم يبتدئ بالتكبير لسورة القدر وكذا الحكم لو كبر في الصلاة فإنه يكبر لآخر السورة ثم يكبر المركوع على القول الأول أو يكبر المركوع ثم يكبر بعد الفاتحة لابتداء السورة على القول الآخر والله أعلم.

(374/840)

(العاشر) لو قرأ القارئ بالتكبير لحمزة بين السورتين على رأي بعض من أجازه له فلا بد له من البسملة معه. فإن قيل كيف تجوز البسملة لحمزة بين السورتين (فالجواب) أن القارئ ينوي الوقف على آخر السورة فيصير مبتدئاً للسورة الآتية وإذا ابتدأ وجبت البسملة وهذا سائغ جائز لا شبهة فيه ولقد كان بعض شيوخنا المعتبرين إذا وصل القارئ عليه في الجمع إلى قصار الفصل وخشى التطويل بما يأتي بين السورتين من الأوجه يأمر القارئ بالوقف ليكون مبتدئاً فتسقط الأوجه التي تكون للقراء من الخلاف بين السورتين ولا أحسبهم إلا

أثروا ذلك عمن أخذوا عنه والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النشر فى القراءات العشر صـ 657. 681 ﴾

(375/840)

باب التكبير

وقال العلامة الدمياطى :

الأكثرون على ذكره هنا وهو الأنسب كما ذكره صاحب النشر لتعلقه بالختم والدعاء وغير ذلك وذكره بعضهم كالهذلي وصاحب الأصل مع البسملة وبعضهم عند سورة الضحى كابن شريح وسبب التكبير ما رواه الحافظ أبو العلاء بإسناده عن البزي أن رسول الله انقطع عنه الوحي فقال المشركون قلى محمدا ربه فنزلت سورة والضحى فقال النبي الله أكبر تصديقا لما كان ينتظر من الوحي وتكذيبا للكفار وأمر أن يكبر إذا بلغ الضحى مع خاتمة كل سورة حتى يختم تعظيما لله تعالى واستصحابا للشكر وتعظيما لختم القرآن وهو أعنى التكبير سنة ثابتة لما ذكر ولقول البزي أيضا عن الشافعي رضي الله عنه قال لي إن تركت التكبير فقد تركت سنة من سنن رسول الله وقال الإمام أبو الطيب هو سنة مأثورة عن رسول الله وعن الصحابة والتابعين وهذا عام خارج الصلاة وداخلها كما يأتي النص

عليه إن شاء الله تعالى وأعلم أن التكبير صح عن أهل مكة قرأئهم وعلمائهم وأئمتهم ومن روى عنهم صحة استفاضت وذاعت وانتشرت حتى بلغت حد التواتر قاله الحافظ الشمس ابن الجزري رحمه الله تعالى قال أبو الطيب ابن غلبون والتكبير سنة بمكة لا يتركونها ولا يعتبرون رواية البزي وغيره وقال الأهوازي والتكبير عند أهل مكة سنة مأثورة يستعملونه في قراءتهم والدرس والصلاة وقد رواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي بن كعب مرفوعا وقال حديث صحيح الإسناد قال الحافظ ابن الجزري قلت لم يرفع أحد حديث التكبير سوى البزي وسائر الناس ورووه موقوفا عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما وروينا عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال إن تركت التكبير فقد تركت سنة من سنن نبيك وهذا يقتضي تصحيحه كما قاله شيخنا الحافظ ابن كثير وانتهى

وقد صح عن ابن كثير من روايتي البزي وقنبل وورد عن أبي عمرو من رواية السوسي وكذا عن أبي جعفر لكن من رواية العمري وافقه ابن محيصن فأما البزي فلم يختلف عنه وفيه واختلف عن قنبل فالجمهور من المغاربة على عدم التكبير له وهو الذي

في التيسير وغيره وروى التكبير عنه جمهور العراقين وبعض المغاربة والوجهان في الشاطبية وغيرها وأما السوسي فقطع له الحافظ أبو العلاء من جميع طرقه وقطع له به في التجريد من طريق ابن حبيش من أول ألم نشرح إلى آخر الناس وروي عنه سائر الرواة ترك التكبير كالجماعة وقد أخذ بعضهم بالتكبير لجميع القراء وهو الذي عليه العمل عند أهل الأمصار في سائر الأقطار وكان بعضهم يأخذ به في جميع سور القرآن ذكره الحافظ أبو العلاء والهذلي عن الخزاعي قال الهذلي وعند الدينوري كذلك يكبر من أول كل سورة لا يختص بالضحى وغيرها للجمع وإليه أشار في طيبة النشر بقوله وروي عن كلهم أول كل يستوي والحاصل أن الآخذين به لجميع القراء منهم من أخذ به في جميع سور القرآن ومنهم من أخذ به خاتمة والضحى وهو ما تقدم وأما صيغة التكبير فأعلم أنهم اتفقوا على أن لفظه الله أكبر قبل البسملة والجمهور على تعيين هذا اللفظ بعينه للبزي من غير زيادة ولا نقصان وقد زاد جماعة قبله التهليل ولفظه لا إله إلا الله والله أكبر وهي طريق ابن الحباب عنه من جميع طرقه وطريق هبة الله عن أبي ربيعة وابن فرح أيضا عن البزي وقد روى النسائي في سننه الكبرى بإسناد صحيح عن الأغر قال أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على النبي وأنا أشهد عليهما أنه قال إن العبد إذا قال لا إله إلا الله والله أكبر صدقه ربه وزاد بعض الآخذين بالتهليل مع التكبير ولله الحمد وهي طريق عبد الواحد عن ابن الحباب

وطريق ابن فرح عن البزي وأما قنبل فقطع له جمهور المغاربة بالتكبير فقط وهو الذي في الشاطبية وتلخيص أبي معشر وزاد التهليل له أكثر المشارقة وبه قطع العراقيون من طريق ابن مجاهد وقطع ابن فارس له به من طريق ابن مجاهد وابن شنبوذ وغيرهما قال الداني في جامعه والوجهان يعني التكبير وحده ومع التهليل عن البزي وقنبل صحيحان جيدان وهو معنى قول الطيبة والكل للبزي ورووا قنبلا من دون حمد إلا أن أبا

الكرم روى عن ابن الصباح عن قنبل وعن أبي ربيعة عن البزي لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد كذا في النشر

قال في التقريب ولم يروه أي التهليل أحد فيما نعلم عن السوسي وقد كان تكبيره آخر قراءة جبرائيل وأول قراءته ومن ثمة تشعب الخلاف في محله فمنهم من قال به من أول ألم نشرح ميلا إلى أنه لأول السورة أو آخر الضحى ميلا إلى أنه لآخر السورة وفي التيسير وفاقا لأبي الحسن بن غلبون كوالده أبي الطيب أنه من آخر الضحى وفي المستنير من أول ألم نشرح وكذا في إرشاد أبي العز وغيره ومنهم من قال به من أول الضحى كأبي علي البغدادي في روضته وأما انتهاؤه فمبنى على ما تقدم فمن ذهب إلى

أنه لأول السورة لم يكبر في آخر الناس سواء كان ابتداء التكبير عنده من أول ألم نشرح أو من أول الضحى ومن جعل الابتداء من آخر الضحى كبر في آخر الناس وأما قول الشاطبي رحمه الله تعالى إذا كبروا في آخر الناس مع قوله وبعض له من آخر الليل أي من أول الضحى المقتضى ظاهرة أن يكون ابتداء التكبير من أول الضحى وانتهاؤه آخر الناس فيخالف ما تأصل فيتعين حمله على تخصيص التكبير آخر الناس بمن قال به من آخر الضحى كما هو مذهب صاحب التيسير وغيره ويكون معنى قوله إذا كبروا في آخر الناس أي إذا كبر من يقول بالتكبير في آخر الناس يعني الذين قالوا به من آخر الضحى ويأتي على ما تقدم من كون التكبير لأول السورة أو آخرها حال وصل السورة بالسورة ثمانية أوجه اثنان منها على تقدير أن يكون التكبير لآخر السورة واثنان على تقدير أن يكون لأولها ثلاثة محتملة على التقديرين والثامن ممتنع وفاقا وهو وصل التكبير بآخر السورة والبسملة مع القطع عليها لما مر في باب البسملة فأما الوجهان المبنيان على تقدير كونه لآخر السورة فأولهما وصل التكبير بآخر السورة والقطع عليه ووصل البسملة بأول السورة نص عليه في التيسير وغيره وهو ظاهر كلام الشاطبي ثانيهما وصل التكبير بآخر السورة والوقف عليه والوقف على

البسملة نص عليه أبو معشر والفاسي والجعبري وغيرهم

وأما الوجهان المبنيان على تقدير كون التكبير لأول السورة فأولهما قطع التكبير عن آخر السورة ووصله بالبسملة ووصلها بأول السورة نص عليه ابن سوار وغيره ولم يذكر في الكفاية سواه وثانيهما قطعه عن آخر السورة ووصله بالبسملة مع القطع عليها والابتداء بأول السورة وهو ظاهر كلام الشاطبية ونص عليه الفاسي في شرحه وابن مؤمن ومنعه الجعبري

قال في النشر ولا وجه لمنعه إلا على تقدير أن يكون التكبير لآخر السورة إلا فعلى أن يكون لأولها لا يظهر لمنعه وجه إذا غايته أن يكون كالاستعاذة ولا شك في جواز وصلها بالبسملة وقطع البسملة عن القراء كما مر

وأما الثلاثة المحتملة فأولها وصل التكبير بآخر السورة وبالبسملة وبأول السورة نص عليه الداني وصاحب الهداية واختاره الشاطبي ثانيها قطعه عن آخر السورة وعن البسملة ووصل البسملة بأول السورة نص عليه أبو معشر وابن مؤمن ويظهر من كلام الشاطبي ونص عليه الفاسي والجعبري وغيرهما ثالثها القطع عن آخر السورة وعن البسملة وقطع

البسملة عن أول السورة نص عليه ابن مؤمن والفاسي والجعبري وهو ظاهر من كلام الشاطبي ومنعه مكي ولا وجه لمنعه على كلا التقديرين كما في النشر والمراد بالقطع هنا الوقف المعروف لا القطع الذي هو الإعراض ولا السكت الذي هو دون تنفس وهذا هو الصواب كما نبه عليه في النشر متعقبا للجعبري في القطع السكت المعروف بأنه شيء انفرد به لم يوافقه أحد عليه فإن وقع آخر السورة ساكن أو منون كسر للساكنين نحو فارغب الله أكبر لخبير الله أكبر ثوابا الله أكبر مسد الله كبر وإن كان محركا ترك على حاله وحذفت همزة الوصل لملاقاته نحو الأبتر الله أكبر وتحذف صلة الضمير من نحو ربه الله أكبر وإذا وصلته بالتهليل أبقيته على حاله وإن كان منونا أدغم في اللام نحو حامية لا إله إلا الله ويجوز المد للتعظيم عند من أخذ به لأصحاب القصر كما مر بل كان بعض المحققين يأخذون به هنا مطلقا ويقولون المراد به هنا الذكر فنأخذ بما نختار وهو المد للتعظيم مبالغة في النفي ذكره في النشر

وليعلم أن التهليل مع التكبير مع الحمد عند من رواه حكمه حكم التكبير لا يفصل بعضها من بعض بل يوصل جملة واحدة هكذا لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد فلا يأتى فيه إلا

الأوجه السبعة المتقدمة بين السورتين ولا يجوز الحمدلة مع التكبير إلا أن يكون التهليل معه قال الشمس ابن الجزري ولا أعلمني قرأت بالحمدلة سوى الأوجه الخمسة مع تقدير كون التكبير لأول السورة ويمتنع وجه الحمدلة من أول الضحى لأن صاحبه لم يذكره فيه ولا يجوز التكبير الأول في رواية السوسي إلا في وجه البسملة بين السورتين لأن راوي التكبير لا يجيز بين السورتين سوى البسملة ويحتمل معه كل من الأوجه السابقة إلا أن القطع على الماضية أحسن في مذهبه لأن البسملة عنده ليست آية كما هي عند ابن كثير بل هي عنده للتبرك وكذا لا يجوز له التكبير من أول الضحى لأنه خلاف روايته كما مر ولو قرىء لحمزة بالتكبير عند من رواه فلا بد من البسملة معه لأن القارىء ينوي الوقف على آخر السورة فيصير مبتدئا للسورة التالية وحيث ابتدأ بها فلا بد من البسملة وإذا قرىء برواية التكبير وأريد القطع على آخر سورة فإن قلنا إن التكبير لآخر السورة كبر وقطع القراءة وإذا أراد بعد ذلك بسمل للسورة بلا تكبير وإن قلنا إنه لأول السورة فإنه يقطع على أخر السورة بلا تكبير وإذا ابتدأ بالتالية كبر إذا لا بد من التكبير إما لآخر السورة وإما لأولها حتى لو سجد آخر العلق فإنه يكبر أولا لآخر السورة ثم يكبر للسجدة على القول بأنه للآخر وأما على القول بأنه للأول فإنه يكبر للسجدة فقط ويبتدىء بالتكبير لسورة القدر

وليس الاختلاف في الأوجه السبعة السابقة اختلاف رواية حتى يحصل الخلل بعدم استيعابها بين كل سورتين في الرواية بل هو اختلاف تخيير لكن الإتيان بوجه منها مختص يكون التكبير لآخر السورة وبوجه مما يختص بكونه لأولها وبوجه مما يحتملها متعين إذ الاختلاف في ذلك اختلاف رواية فلا بد منه إذا قصد جمع الطرق كما في النشر قال الجعبري وليس في إثبات التكبير مخالفة للرسم لأن مثبته لم يلحقه بالقرآن كالاستعاذة وأما حكمه في الصلاة فقد روينا عن الحافظ الجليل أبي الخير شمس الدين محمد بن الجزري بسنده المتصل إلى الإمام عبد الحميد بن جريج عن مجاهد أنه كان يكبر من والضحى إلى الحمد قال ابن جريج فأرى أن يفعله الرجل إماما كان أو غير إمام وروى الحافظ الثاني بسنده إلى الحميدي قال سألت سفيان يعني ابن عيينة قلت يا أبا محمد أرأيت شيئًا مما فعله الناس عندنا يكبر القارئ في شهر رمضان إذا ختم يعني في الصلاة فقال رأيت صدقة بن عبد الله بن كثير الأنصاري يؤم الناس منذ أكثر من سبعين سنة فكان إذا ختم القرآن كبر وروى السخاوي عن أبي محمد الحسن بن محمد بن عبد الله القرشي أنه صلى بالناس التراويح خلف المقام بالمسجد الحرام فلما كانت ليلة الختم كبر من خاتمة الضحى إلى آخر القرآن في الصلاة فلما سلم إذا بالإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه قد صلى وراءه قال فلما أبصرني قال لي أحسنت أصبت السنة وقال الإمام المحقق أبو

الحسن علي بن جعفر في التبصرة ابن كثير يكبر من خاتمة الضحى إلى أن قال في الصلاة وغيرها وقد مر ما أسنده البزي عن الإمام الشافعي إن تركت التكبير فقد تركت سنة من سنن نبيك محمد قال في النشر بعد أن أطال في بيان ذلك فقد ثبت التكبير في الصلاة عن أهل مكة فقهائهم وقرائهم وناهيك بالإمام الشافعي وسفيان بن عيينة وابن جريج وابن كثير وغيرهم قال وأما غيرهم فلم نجد عنهم في ذلك نصا حتى أصحاب الشافعي مع ثبوته عن إمامهم

(383/840)

وإنما ذكره استطرادا السخاوي والجعبري وكلاهما من أئمة الشافعية والعلامة أبو شامة وهو من أكبر أصحاب الشافعي بل هو ممن وصل إلى رتبة الاجتهاد قلت وكذا العلامة خاتمة المجتهدين سيدي محمد البكري صاحب الكنز كما نقله عنه بعض أجلاء أصحابه ولفظه رضي الله عنه ويستحب إذا قرأ في الصلاة سورة الضحى أو بعدها إلى آخر القرآن أن يقول بعدها لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد قياسا على خارج الصلاة فإن العلة قائمة وهي تعظيم الله وتكبيره والحمد على قمع أعداء الله وأعداء رسوله قال وهل يأتي ذلك سرا أو جهرا أو يقال فيها ما قيل في السورة إن كانت الصلاة جهرية جهر أو سرية أسر ثم

قال وينبغي أن يسر به مطلقا وتكون السكتة التي قبل الركوع بعد هذا فإذا فرغ منه قال اللهم إني أسألك من فضلك انتهى وظاهره ندب ذلك أعني التكبير في الصلاة في الختم وغيره حتى لو قرأ أي سورة من سور التكبير كالكافرون والإخلاص مثلا في ركعتين كبر وهو واضح للعلة السابقة لكن قوله وينبغي أن يسر به يخالفه ما نقله ابن العماد من استحباب الجهر بالتكبير بين السور

ولم يقيد بخارج الصلاة وكذا نقله ابن حجر الهيتمي في شرح الكتاب عن البدر الزركشي وأقره وهو أيضا ظاهر النصوص السابقة والذين ثبت عنهم التكبير في الصلوات منهم من كان إذا قرأ الفاتحة وأراد الشروع في السورة كبر وبسمل ثم ابتدأ السورة ومنهم من كان يكبر إثر كل سورة ثم يكبر للركوع حتى ينتهي إلى آخر الناس فإذا قام في الركعة الثانية قرأ الفاتحة وما تيسر من أول سورة البقرة قال في النشر رأيت في الوسيط للإمام الكبير أبي الفضل الرازي الشافعي رحمه الله ما هو نص على التكبير في الصلاة فالقصد أني تتبعت كلام الفقهاء من أصحابنا فلم أر لهم نصا غير ما ذكرت وكذا لم أر للحنفية ولا للمالكية وأما الحنابلة فقال الفقيه الكبير أبو عبد الله محمد بن مفلح في كتاب الفروع له وهل يكبر لختمه من

الضحى أو ألم نشرح آخر كل سورة روايتان ولم تستحبه الحنابلة لقراءة غير ابن كثير وقيل ويهلل انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر صـ ﴾

(385/840)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

باب التكبير

يتعلق بهذا الباب ستة مباحث :

المبحث الأول في سبب وروده .

" الثاني في حكمه .

" الثالث في بيان من ورد عنه .

" الرابع في صيغته .

" الخامس في موضع ابتدائه وانتهائه .

" السادس في بيان أوجهه . المبحث الأول في سبب وروده

ذهب جمهور العلماء إلى أن سبب وروده أن الوحى تأخر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال المشركون : زورا وكذبا . إن محمدا قد ودعه ربه وقلاه وأبغضه فنزل

تكذيبا لهم، وردا لمفترياتهم قوله تعالى: "والضحى والليل إذا سجى" إلى آخر السورة، فلما فرغ جبريل من قراءة هذه السورة قال النبي - صلى الله عليه وسلم - "الله أكبر"؛ شكرا لله تعالى على ما أولاه من نزول الوحي عليه بعد انقطاعه، ومن الرد على إفك الكافرين ومزاعمهم، وفرحا وسرورا بالنعم التي عددها الله تعالى عليه في هذه السورة خصوصا هذا الوعد الكريم الذي تضمنه قوله تعالى: "ولسوف يعطيك ربك فترضى".

ثم أمر - صلى الله عليه وسلم - أن يكبر إذا بلغ والضحى مع خاتمة كل سورة حتى يختم تعظيما لله تعالى واستصحابا للشكر، وابتهاجا بختم القرآن العظيم. المبحث الثاني في حكمه

أجمع الذين ذهبوا إلى إثبات التكبير على أنه ليس بقرآن، وإنما هو ذكر ندب إليه الشارع عند ختم بعض سور القرآن كما ندب إلى التعوذ عند البدء بالقراءة، ونظرا للإجماع على أنه ليس بقرآن لم يكتب في مصحف ما من المصاحف العثمانية لا في المكي ولا في غيره.

وحكمه: أنه سنة ثابتة مأثورة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما سبق في المبحث الأول من سبب وروده؛ ولقول البزي قال لي الإمام الشافعي: إن تركت التكبير

فقد تركت سنة من سنن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال أبو الفتح فارس بن أحمد : إن التكبير سنة مأثورة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعن الصحابة والتابعين . وروي عن البزي أنه قال : سمعت عكرمة بن سليمان يقول : قرأت على إسماعيل بن عبد الله المكي . فلما بلغت والضحى قال لي : كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم ، فإني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت والضحى قال لي كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم وأخبره أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك وأخبره مجاهد أن ابن عباس أمره بذلك وأخبره ابن عباس أن أبيّ بن كعب أمره بذلك وأخبره أن النبي – صلى الله عليه وسلم – أمره بذلك رواه الحاكم وقال هذا حديث صحيح الإسناد .

وقد اتفق الحفاظ على أن حديث التكبير لم يرفعه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – إلا البزي وأما غيره فرواه موقوفا على ابن عباس ومجاهد ، وهذا الحكم عام داخل الصلاة وخارجها .

قال الأهوازي : والتكبير عند أهل مكة سنة مأثورة يستعملونه في قراءتهم ودروسهم وصلاتهم .

وروى السخاوي عن أبي محمد الحسن بن محمد القرشى بن عبد الله القرشى أنه صلى بالناس التراويح خلف المقام بالمسجد الحرام فلما كانت ليلة الختم كبر من خاتمة والضحى إلى آخر القرآن في الصلاة فلما سلم إذا بالإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي قد

صلى وراءه. قال: فلما أبصرني الإمام الشافعي قال لي: أحسنت أصبت السنة، والأحسن أن يكون التكبير في الصلاة سرا مطلقا سواء أكانت الصلاة سرية أم جهرية، والله تعالى أعلم. المبحث الثالث في بيان من ورد عنه التكبير

قال صاحب الغيث نقلا عن صاحب النشر: اعلم أن التكبير صح عند أهل مكة قرائهم وعلمائهم وأئمتهم ومن روي عنهم صحة استفاضت واشتهرت وذاعت وانتشرت حتى بلغت حد التواتر، اهـ. قال صاحب الغيث: وصح أيضا عند غيرهم إلا أن اشتهاره عنهم أكثر لمداومتهم على العمل عليه بخلاف غيرهم من أئمة الأمصار، ثم قال وأجمع أهل الأداء على الأخذ به للبزي. واختلفوا في الأخذ به لقنبل فالجمهور من المغاربة على تركه له كسائر القراء وهو الذي في التيسير وغيره وأخذ له جمهور العراقيين وبعض المغاربة بالتكبير وأخذ له بعضهم بالوجهين التكبير وتركه والوجهان في الشاطبية. وروي التكبير أيضا عن غير البزي وقنبل من القراء ولكن المأخوذ به من طريق التيسير والشاطبية اختصاصه بالبزي وقنبل بخلاف عنه، اهـ. باختصار وبعض تصرف. المبحث الرابع في صيغته ذهب الجمهور إلى أن صيغته: "الله أكبر" من غير زيادة تهليل قبله ولا تحميد بعده، وذلك

لكل من البزي وقنبل ، على القول بثبوت التكبير له وروى بعض العلماء عنهما زيادة التهليل قبل التكبير فتقول : " لا إله إلا الله والله أكبر " وزاد بعضهم لهما التحميد بعد التكبير فتقول : " لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد " إلا أن التهليل قبله والتحميد بعده لم يثبتا عن البزي وقنبل من طريق التيسير والشاطبية بل ثبتا عنهما من طرق أخرى . ولكن جرى عمل الشيوخ قديما وحديثا على الأخذ بكل ما صح في التكبير وإن لم يكن من طريق الكتاب المقروء به ، لأن المقام مقام إسهاب وإطناب للتلذذ بذكر الله عند ختم كتابه . وينبغي أن تعلم أن التحميد لقنبل ليس من طريق التيسير والشاطبية ولا من طريق النشر أيضا ، فالأولى الاقتصار له إذا قرئ له بالتكبير على التكبير وحده أو عليه مع التهليل ، وأن تعلم أيضا أنه لا تحميد لأحد بين الليل والضحى ، والله تعالى أعلم . المبحث الخامس في موضع ابتدائه وانتهائه

(388/840)

اختلف العلماء في موضع ابتداء التكبير وانتهائه ، فذهب فريق إلى أن ابتداءه من أول سورة والضحى ، وانتهاءه أول سورة الناس ، وذهب فريق آخر إلى أن ابتداءه من آخر والضحى وانتهاءه آخر الناس ، ومنشأ هذا الخلاف أن النبي – صلى الله عليه وسلم – لما

قرأ عليه جبريل سورة والضحى كبر عقب فراغ جبريل من قراءة هذه السورة ثم قرأها هو ، فهل كان تكبيره – صلى الله عليه وسلم – لقراءته هو أو لختم قراءة جبريل ؟ ذهب فريق إلى الأول وهو أن تكبيره – صلى الله عليه وسلم – كان لقراءة نفسه وهذا الفريق هو الذي يرى أن ابتداء التكبير أول سورة والضحى وانتهاءه أول سورة الناس . وذهب فريق إلى الثاني وهو أن تكبيره – صلى الله عليه وسلم – كان لختم قراءة جبريل وهذا الفريق هو الذي يرى أن ابتداءه آخر والضحى وانتهاءه آخر الناس . ومن هنا تعلم أن الخلاف في ابتداء التكبير وانتهائه مبني على الخلاف في تكبير النبي – صلى الله عليه وسلم – هل كان لبدء قراءته أم لختم قراءة جبريل ؟ فمن ذهب إلى أن تكبيره – صلى الله عليه وسلم – لبدء قراءته يرى أن ابتداء التكبير أول والضحى وانتهاءه أول الناس ، ومن ذهب إلى أن تكبيره لختم قراءة جبريل يرى أن ابتداءه آخر والضحى وانتهاءه آخر الناس . هذا ولم يذهب أحد إلى أن ابتداء التكبير من آخر الليل . وأما قول الشاطبي : وبعض له من آخر الليل وصلا فالمراد به أول والضحى كما بينه شراح كلامه . المبحث السادس في بيان أوجهه

وهي ثمانية أوجه بين كل سورتين من سور الختم يمتنع منها وجه واحد "وسيأتي بيانه" وتجوز السبعة الباقية ، وتنقسم هذه الأوجه السبعة ثلاثة أقسام . اثنان منها على تقدير أن يكون التكبير لأول السورة ، واثنان على تقدير أن يكون لآخرها ، وثلاثة تحتمل التقديرين .

فأما الوجهان المبنيان على تقدير أن يكون التكبير لأول السورة .

فأولهما : قطع التكبير عن آخر السورة ووصله بالبسملة مع الوقف عليها ثم الابتداء بأول السورة التالية .

وثانيهما : قطعه عن آخر السورة ووصله بالبسملة مع وصل البسملة بأول السورة التالية وهذان الوجهان ممنوعان بين الناس والفاتحة .

وأما الوجهان المبنيان على تقدير أن يكون التكبير لآخر السورة :

فأولهما : وصل آخر السورة بالتكبير مع الوقف عليه ثم الإتيان بالبسملة مع الوقف عليها ثم الابتداء بأول السورة .

وثانيهما : وصل آخر السورة بالتكبير مع الوقف عليه ثم الإتيان بالبسملة مع وصلها أول السورة . وهذان الوجهان ممنوعان بين الليل والضحى .

وأما الثلاثة المحتملة :

فأولها : قطع الجميع ، أعني الوقف على آخر السورة ، وعلى التكبير ، وعلى البسملة ثم الإتيان بأول السورة التالية .

وثانيها : الوقف على آخر السورة وعلى التكبير ووصل البسملة بأول التالية .

وثالثها : وصل الجميع أعني وصل آخر السورة بالتكبير مع وصل التكبير بالبسملة ومع وصل البسملة بأول السورة التالية .

وإنما سميت هذه الأوجه الثلاثة محتملة لاحتمالها حصول التكبير لأول السورة وآخرها .

وأما الوجه الثامن الممنوع فهو وصل التكبير بآخر السورة موصولا بالبسملة مع الوقف عليها وإنما منع هذا الوجه لأن البسملة ليست لأواخر السور بل لأوائلها فلا يجوز اتصالها بالأواخر وانفصالها عن الأوائل .

وهذه الأوجه السبعة المذكورة جائزة بين كل سورتين من سور الختم أي بين والضحى وألم نشرح ، وبين ألم نشرح والتين وهكذا إلى الفلق والناس ، وأما بين الليل والضحى فيجوز خمسة أوجه فقط ويمتنع الوجهان اللذان لآخر السورة إذ لا قائل بأن ابتداء التكبير من آخر الليل كما سبق .

وأما بين الناس والحمد فيجوز خمسة أوجه فقط ويمتنع الوجهان اللذان لأول السورة إذ لا قائل بأن انتهاء التكبير أول الفاتحة . والله أعلم .

فوائد مهمة

الأولى : قال ابن الجزري ، ليس الاختلاف في هذه الأوجه السبعة اختلاف رواية بحيث يلزم الإتيان بها كلها بين كل سورتين وإن لم يفعل كان إخلالا في الرواية بل هو اختلاف تخيير نعم الإتيان بوجه مما يختص بكونه لآخر السورة وبوجه مما يختص بكونه لأولها وبوجه من الأوجه الثلاثة المحتملة متعين إذ الاختلاف في ذلك اختلاف رواية فلا بد من التلاوة به إذا قصد جمع تلك الطرق .

الثانية : إذا جمع بين التهليل والتكبير والتحميد وجب الترتيب بينها . فيبدأ بالتهليل ويثني بالتكبير ويثلث بالتحميد فيقول " لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد " .

كما يجب وصل بعضها ببعض وتكون بمثابة جملة واحدة ، فلا يصح الوقف على التهليل ولا على التكبير ، وأيضا يجب تقديم ذلك كله على البسملة ، وقد ثبت ذلك رواية وصح أداء . واعلم أنه يجوز التهليل مع التكبير من غير تحميد فتقول " لا إله إلا الله والله أكبر " . ولا يجوز تحميد مع التكبير من غير تهليل فلا يقال " الله أكبر ولله الحمد " بل إذا أتى بالتحميد مع التكبير تعين الإتيان بالتهليل معهما فتقول : " لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد " .

الثالثة : إذا وصل التكبير بآخر السورة ، فإذا كان آخر السورة ساكنا نحو : فارغب وجب كسره تخلصا من التقاء الساكنين ، وكذلك إذا كان منونا يجب كسر تنوينه سواء أكان

مرفوعا نحو.

" حامية " أم منصوبا نحو " توابا " أم مجرورا نحو ، مأكول ، فإذا كان متحركا غير منون وجب إبقاؤه على حاله نحو " بالصبر " الماعون ، الأبتر . وإذا كان آخر السورة هاء ضمير موصولة بواو لفظية وجب حذف واو الصلة للساكنين نحو " خشي ربه " .

ولا يخفى أن همزة لفظ الجلالة همزة وصل تثبت في الابتداء وتسقط في الدرج كما لا يخفى أن لام لفظ الجلالة ترقق إذا وقعت بعد كسرة ، وتفخم إذا وقعت بعد ضمة أو فتحة ، أما إذا وصل التهليل بآخر السورة فإن آخر السورة يجب إبقاؤه على حاله سواء أكان ساكنا أم متحركا إلا إذا كان منونا فحينئذ يجب إدغام تنوينه في اللام والأمثلة ظاهرة .

واعلم أنه يجوز في المد المنفصل في لا إله إلا الله القصر والتوسط لكل من البزي وقنبل وإنما جاز فيه التوسط باعتبار كون التهليل ذكرا أو للتعظيم وإن كان التوسط للتعظيم لم يثبت من طريق التيسير والشاطبية بل ثبت من طرق النشر .

الرابعة : إذا قرأت بالتكبير وحده أو مع التهليل أو مع التهليل والتحميد وأردت قطع القراءة على آخر سورة من سور التكبير فعلى مذهب من جعل التكبير لآخر السورة تأتي بالتكبير

موصولا بآخر السورة وتقف عليه وتقطع القراءة . وإذا أردت قراءة سورة أخرى من سور الختم أتيت بالبسملة من غير تكبير وعلى مذهب من جعل التكبير لأول السورة تقطع على آخر السورة من غير تكبير فإذا أردت قراءة سورة أخرى من سور الختم أتيت بالتكبير موصولا بالبسملة . والحاصل أن التكبير لابد منه إما لآخر السورة وإما لأولها ، والله تعالى أعلم .

الخامسة : للبزي بين الليل والضحى خمسة أوجه بإسقاط الوجهين اللذين لآخر السورة كما سبق وهذه الخمسة تأتي على التكبير وحده وعليه مع التهليل مقصورا وموسطا فيصير له بينهما خمسة عشر وجها وهذه الأوجه لا تأتي إلا على مذهب من يرى أن ابتداء التكبير من أول والضحى ، وأما على مذهب من يرى أن ابتداءه من آخر والضحى فلا يكون له إلا ثلاثة البسملة من غير تكبير فيصير له بين السورتين المذكورتين ثمانية عشر وجها على كلا المذهبين .

وأما قنبل فله الخمسة عشر وجها المذكورة على القول بثبوت التكبير له كالبزي وأما على القول بتركه له فلا يكون له إلا ثلاثة البسملة من غير تكبير فيصير له ثمانية عشر وجها أيضا

على كلا القولين .

وللبزي بين الناس والحمد خمسة أوجه بإسقاط الوجهين اللذين لأول السورة وهذه الخمسة تأتي على التكبير وحده وعليه مع التهليل مقصورا وموسطا من غير تحميد وعليه مع التهليل مقصورا وموسطا مع التحميد فيصير له بين السورتين المذكورتين خمسة وعشرون وجها .

وأما قنبل فله الثمانية عشر وجها السابقة على كلا القولين أيضا .

وللبزي بين كل سورتين من سور الختم ابتداء من بين والضحى وألم نشرح إلى ما بين الفلق والناس خمسة وثلاثون وجها وهي أوجه التكبير السبعة السابقة من غير تهليل ولا تحميد أو مع التهليل مقصورا وموسطا من غير تحميد أو مع التهليل مقصورا وموسطا مع التحميد ، ولقنبل أربعة وعشرون وجها ، وهي أوجه التكبير السبعة من غير تهليل ولا تحميد أو مع التهليل مقصورا وموسطا من غير تحميد فتصير الأوجه واحدا وعشرين وجها وهذا على القول بثبوت التكبير له كما سبق ، وأما على القول الآخر فلا يكون له إلا ثلاثة البسملة من غير تكبير فيصير له أربعة وعشرون وجها بين كل سورتين على كلا القولين .

السادسة : إذا قرأت للبزي بفتح ياء " ولي دين " تأتي الخمسة والثلاثون وجها بين الكافرون والنصر ، وأما إذا قرأت له بإسكان الياء فلا تأتي إلا أوجه التكبير السبعة من غير تهليل ولا تحميد . " تتمة "

في بيان أوجه الاستعاذة مع التكبير

للبزي حال البدء بآية سورة من سور الختم أربعون وجها ، وبيانها كالآتي :

الأول قطع الجميع : أي الوقف على الاستعاذة وعلى التكبير ، وعلى البسملة والابتداء بأول السورة .

الثاني : الوقف على الاستعاذة وعلى التكبير مع وصل البسملة بأول السورة .

الثالث : الوقف على الاستعاذة ووصل التكبير بالبسملة مع الوقف عليها .

الرابع : الوقف على الاستعاذة ووصل التكبير بالبسملة مع وصل البسملة بأول السورة .

الخامس : وصل الاستعاذة بالتكبير مع الوقف عليه وعلى البسملة والابتداء بأول السورة .

السادس : وصل الاستعاذة بالتكبير مع الوقف عليه ثم وصل البسملة بأول السورة .

السابع : وصل الاستعاذة بالتكبير ووصل التكبير بالبسملة مع الوقف عليها والابتداء بأول السورة .

الثامن : وصل الجميع أعني وصل الاستعاذة بالتكبير ووصل التكبير بالبسملة ووصل

البسملة بأول السورة .

وهذه الأوجه الثمانية تأتي على التكبير وحده وعليه مع التهليل مقصورا وموسطا من غير تحميد وعليه مع التهليل مقصورا وموسطا مع التحميد فيكون مجموع الأوجه أربعين وجها كما علمت .

وأما قنبل فله على القول بثبوت التكبير عنه أربعة وعشرون وجها ، وهي الثمانية المذكورة على التكبير وحده وعليه مع التهليل مقصورا وموسطا فالحملة أربعة وعشرون وجها .

وله على القول بعدم التكبير له أوجه الاستعاذة الأربعة وهي معلومة مشهورة فيكون مجموع الأوجه له ثمانية وعشرين وجها على كلا القولين .

وهذا آخر ما يسره الله تبارك وتعالى من بيان قراءات الأئمة العشرة من طريقي الشاطبية والدرة ، وأسأل الله جلت قدرته أن يخلع على هذا الكتاب ثوب القبول ، وأن ينفع به أهل القرآن العظيم في جميع الأمصار والأعصار ، وأن يجعله ذخرا لي بعد موتي ، وسببا في نجاتي من أهوال يوم الدين ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وكان الفراغ من تأليفه يوم الخميس المبارك لعشر خلون من شهر ذي القعدة سنة ألف وثلاثمائة وأربع وسبعين من الهجرة 1374 هـ ، ولثلاثين مضت من شهر يونية سنة ألف وتسعمائة وخمس وخمسين من الميلاد 1955 م

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 359 . 370 ﴾

(394/840)

وقال الشيخ عبد الفتاح المرصفى :

(الباب العشرون / في الكلام على التكبير وما يتعلق به)

(التمهيد للدخول إلى الباب)

التكبير مصدر كبَّرَ إذ قال : "الله أكبر" ومعناه الله أعظم من كل عظيم والكلام في التكبير هنا سيكون مقصوراً على ما ورد في رواية حفص عن عاصم من طريق طيبة النشر حيث تعرضنا في كتيبنا هذا في باب المد والقصر وغيره إلى ذكر بعض الأحكام الخاصة له من ذلك الطريق كقصر المد والمنفصل وإشباع المد المتصل . وكان من متعلقات بعض هذه الأحكام معرفة التكبير فكان لابد من ذكره مفصلاً كبيان أوجهه وسبب وروده وذكر ما يتعلق به من أحكام يجب على القارئ معرفتها ومراعاتها في الأداء خصوصاً إذا التزم به في قراءته سواء أكان ذلك في الصلاة أم في خارجها مما سنذكره مفصلاً إن شاء الله تعالى . وقد وعدنا هناك بذكره هنا . وهذا أوان الشروع فيه فنقول وبالله التوفيق ومنه سبحانه

نستمد العون والقول.

(الفصل الأول: في بيان حكمه والكلام على لفظه ومحله.)

أما حكمه: فإنه سنة مطلقاً سواء أكان ذلك في الصلاة أم في خارجها ويسن الجهر به عند ختم القرآن الكريم وفي الصلاة أيضاً في بعض الأحوال كما سنوضحه بعد عند الكلام على حكمه في الصلاة إن شاء الله تعالى.

وأما لفظه: فهو "الله أكبر" ولا تهليل ولا تحميد معه عند حفص أصلاً إلا عند سور الختم إذا قصد تعظيمه على رأي بعض المتأخرين. وهو رأي حسن ولا التفات إلى من أنكر التهليل والتحميد مع التكبير عند سور الختم في رواية حفص فقد أجازه له غير واحد من الثقات بل أجازه لكل القراء العشرة في هذا المكان لأنه محل إطناب وتلذذ بذكر الله تعالى وقد شنع صاحب "عمدة الخلان" شرح زبدة العرفان" على من أنكر ذلك.

(395/840)

وعبارته: "وكذا لا يمنع القارئ من التهليل والتحميد من آخر الضحى إلى آخر الناس في قراءة أحد من الأئمة إذا كان بنية التشكر والتعظيم والتبرك فلا عبرة برأي بعض المتعصبين من حيث يجوزون التكبير فقط لحفص عن الختم بين كل سورتين وأواخرها من لدن سورة

الضحى إلى سورة الناس وينكر أخذ التهليل والتحميد فيها ويزعمون أن أخذ التهليل والتحميد لحفص ولغيره سوى البزي من أشراط الساعة وإلى الله المشتكى من هذه الخصلة ذات الشناعة" أهـ منه بلفظه .

قلت : ويوخذ من تلك النصوص أنه لا وجه لمن أنكر التهليل مع التكبير أو التهليل مع التكبير والتحميد لحفص أو لغيره من باقي القراء العشرة فإن ذلك جائز ومرغوب فيه وهناك نصوص أخرى تؤيد هذه تركنا ذكرها هنا خوف التطويل ومراعاة لحال المبتدئين .

وأما محل التكبير فقبل البسملة ويستوي في ذلك الابتداء بأول السورة أو وصلها بما بعدها ولهذا منع التكبير من أول سورة التوبة لعدم إثبات البسملة في أولها سواء ابتدئ بها أو وصلت بآخر الأنفال كما سنوضحه بعد .

(الفصل الثاني : في بيان أقوال أهل الأداء فيه بالنسبة لرواية حفص عن عاصم من طريق الطيبة وبيان ابتدائه وانتهائه وأقوال العلماء في ذلك رضوان الله عليهم أجمعين .)

اختلف أهل الأداء في التكبير لحفص عن عاصم من طريق طيبة النشر فالجمهور منهم على تركه له . وذهب جماعة منهم إلى الأخذ به ولهم فيه ثلاثة مذاهب :

الأول : التكبير من أول سورة "ألم نشرح" وما بعدها إلى أول سورة الناس وذكر هذا المذهب أبو العلاء في غايته .

الثاني : التكبير من آخر سورة الضحى وما بعدها إلى آخر سورة الناس وقد ذكر هذا

المذهب الهذلي في كامله وأبو الكرم الشهرزوري في مصباحه والتكبير في هذين المذهبين هو المعروف بالتكبير الخاص أي الخاص بسور الختم .

(396/840)

الثالث : التكبير من أول كل سورة من سور التنزيل أي من أول الفاتحة إلى آخر القرآن الكريم سوى أول سورة براءة . وهذا المذهب ذكره الهذلي في الكامل وأبو العلاء في الغاية وهو المعروف بالتكبير العام أي العام لجميع سور القرآن الكريم وأما سورة براءة فلا تكبير في أولها . ووجهه أن التكبير حيث كان لابد من اقترانه بالبسملة مقدماً عليها . وقد تقدم أن البسملة غير موجودة في أولها بالاتفاق ولعدم وجودها امتنع التكبير في أولها بالإجماع .

وقد أشار العلامة الضباع إلى هذه المذاهب الثلاثة في الفوائد المهذبة بقوله رحمه الله :

*من أول انشراحها أو من فحدْ * دثْ خلفُ تكبيرٍ لحفصٍ قد ورد*

*وبعضهم كبَّر في غير برا * ءة وتركه لجمهور جرى اهـ*

ويتحصل مما ذكر أن لحفص وجهين التكبير سواء أكان خاصًّا أم عامًّا وتركه .

أما وجه ترك التكبير فمن طريق الشاطبية وجهاً واحداً . وأحد الوجهين له من طريق طيبة النشر . وأما وجه التكبير بمذاهبه الثلاثة المذكورة آنفاً فمن طريق الطيبة في وجهها

الثاني . والوجهان – أي التكبير وعدمه صحيحان مأخوذ بهما لحفص إلا أن ترك التكبير هو المقدم في الأداء وبهذين الوجهين قرأت له الطيبة وبترك التكبير قرأت له من الشاطبية ، وبالله التوفيق .

(الفصل الثالث : في بيان أوجهه في مواطنه المعروفة – تنبيهات عشرة جاء في ثالثها الكلام على سبب ورود التكبير .)

تختلف أوجه التكبير باختلاف المواطن في القرآن الكريم وهذه المواطن ثلاثة وذلك بالنسبة لحفص عن عاصم ومن وافقه من القراء :

أولها : الابتداء من أول سورة الفاتحة وما بعدها إلى الابتداء بسورة الناس باستثناء الابتداء بأول براءة .

ثانيها : الجمع بين السورتين كالجمع بين آخر الفاتحة وأول البقرة إلى ما بين آخر الليل وأول الضحى باستثناء الجمع بين آخر الأنفال وأول براءة .

ثالثها : الجمع بين السورتين من آخر الضحى خاصة إلى آخر ما بين الناس وأول الفاتحة .

ولكل موطن من هذه المواطن الثلاثة كلام خاص نفصله فيما يلي :

الكلام على الموطن الأول من مواطن التكبير وبيان الأوجه التي فيه

وهذا الموطن هو الخاص بالابتداء من أول سورة الفاتحة وما بعدها إلى أول سورة الناس .

فإذا ابتدئ من أول سورة الفاتحة أو من أول أي سورة بعدها من سور التنزيل باستثناء أول براءة جاز لحفص في هذا المكان ثمانية أوجه على القول بالتكبير . وأما على القول بتركه فيجوز له أربعة أوجه فقط وهي أوجه الاستعاذة الأربعة المقترنة بأول السورة التي تقدمت في بابها وحينئذ يكمل لحفص في هذا الموطن على كلا القولين -التكبير وعدمه- اثنا عشر وجهاً . وفيما يلي توضيح هذه الأوجه مع تقديم وجه عدم التكبير وفق مذهب الجمهور ووفقاً لترتيب الأداء الذي قرأنا به وبه نقرئ .

الأول : قطع الجميع أي الوقف على الاستعاذة وعلى البسملة والابتداء بأول السورة .

الثاني : قطع الأول ووصل الثاني بالثالث أي الوقف على الاستعاذة ووصل البسملة بأول السورة . وهذان الوجهان بدون تكبير .

الثالث : قطع الجميع أيضاً لكن مع التكبير وكيفيته الوقف على الاستعاذة وعلى التكبير وعلى البسملة والابتداء بأول السورة .

الرابع : مثل الثالث إلا أنه يوصل البسملة بأول السورة .

الخامس : الوقف على الاستعاذة ووصل التكبير بالبسملة مع الوقف عليها والابتداء بأول السورة .

السادس : الوقف على الاستعاذة ووصل التكبير بالبسملة بأول السورة .

فهذه ستة أوجه أتت على قطع الاستعاذة والستة الباقية تأتي على وصلها كذلك وتوضيحها كالآتي :

السابع : وصل الأول بالثاني وقطع الثالث أي وصل الاستعاذة بالبسملة مع الوقف عليها ثم الابتداء بأول السورة .

الثامن : وصل الجميع أي وصل الاستعاذة بالبسملة بأول السورة جملة واحدة من غير تكبير في هذين الوجهين .

التاسع : وصل الاستعاذة بالتكبير مع الوقف عليه وعلى البسملة والابتداء بأول السورة .

العاشر : مثل التاسع إلا أنه يوصل البسملة بأول البسورة .

الحادي عشر : وصل الاستعاذة بالتكبير بالبسملة مع الوقف عليها والابتداء بأول السورة .

الثاني عشر : وصل الجميع أي وصل الاستعاذة بالتكبير بالبسملة بأول السورة جملة واحدة .

وقد أشار إلى هذه الأوجه الاثني عشر العلامة الخليجي في تيسير الأمر بقوله :

*ففي استعاذة إذاً بسورة * قرنتها اثنان أتت مع عشرة*

*فاقطع وصل من غير تكبير وبه * وصلْه مع الوقف ووصل وانتبه*

*وهذه الستةُ باستعاذة * في حال قطعها ووصلها اثبتِ اهـ*

وهذه الأوجه الاثنا عشر تجوز لحفص عند الابتداء من أول سورة الفاتحة وما بعدها من السور إلى آخر القرآن الكريم باستثناء البدء من أول سورة براءة كما تقدم . وما ذكره العلامة الضباع في كتابيه "صريح النص" و "تذكرة الإخوان" من أن أوجه التكبير التي تجوز في الابتداء لحفص إنما تجوز من أول سورة الفاتحة وما بعدها إلى أول سورة الضحى فقط فهو سبق قلم منه رحمه الله تعالى ولم أر وجهاً لذلك لأن القارئ قد يبتدئ من أول أي سورة من سور الختم بعد الضحى فكيف يكون حاله فهل يكبر أو ينتهي تكبيره عند الضحى كما قال لم أر فيما وقفت عليه من قال بقوله بل أطلق كلهم تعميم التكبير في الابتداء بسور القرآن كلهم عدا الابتداء بسورة براءة كما مر آنفاً . ولعله أراد بانتهاء التكبير عند الضحى نظراً لجواز التهليل مع التكبير أو التهليل مع التكبير والتحميد ابتهاجاً بختم القرآن على رأي بعض المتأخرين كما تقدم وهنا سترتقي أوجه الابتداء في هذا المحل من ثمانية أوجه على القول بالتكبير إلى أربعين وجهاً على القول نفسه كما سنوضحه بعد ولكن هذا بعيد لأنه لو أراده

لنبه عليه وربما أراده وسها عن أن يقيده رحمه الله رحمة واسعة ورحمنا معه بفضله وكرمه آمين .

(399/840)

وأما الابتداء من أول سورة براءة فليس فيه تكبير لأحد وذلك لعدم وجود البسملة في أولها إذ من شرط التكبير اقترانه بالبسملة كما تقدم .

الكلام على الموطن الثاني من مواطن التكبير وبيا ن الأوجه التي فيه

وهذا الموطن هو الخاص بالجمع بين السورتين كالجمع بين آخر الفاتحة وأول البقرة وما بعد هما إلى آخر ما بين الليل وأول الضحى باستثناء آخر الأنفال وأول براءة . وهنا يجوز لحفص خمسة أوجه على القول بالتكبير وأما على القول بتركه فيجوز له ثلاثة أوجه فقط وهي أوجه البسملة الثلاثة التي بين السورتين والتي مر ذكرها آنفاً في باب البسملة . وعليه فتكون جملة الأوجه التي بين السورتين لحفص في هذا الموطن على كلا القولين -التكبير وعدمه- ثمانية أوجه وفيما يلي تفصيلها مع تقديم وجه عدم التكبير حسب رأي الجمهور ووفقاً لترتيب الأداء الذي قرأنا به وبه نأخذ قراءة وإقراء .

الأول : قطع الجميع أي الوقف على آخر السورة السابقة وعلى البسملة والابتداء بأول

السورة اللاحقة .

الثاني : قطع الأول ووصل الثاني بالثالث أي الوقف على آخر السورة السابقة ووصل البسملة بأول اللاحقة وهذان الوجهان من غير تكبير .

الثالث : قطع الجميع أيضاً لكن مع التكبير وكيفيته الوقف على آخر السورة السابقة وعلى التكبير وعلى البسملة ثم الابتداء بأول السورة اللاحقة .

الرابع : مثل الثالث غير أنه مع وصل البسملة بأول السورة اللاحقة .

الخامس : الوقف على آخر السورة السابقة ووصل التكبير بالبسملة مع الوقف عليها ثم الابتداء بأول السورة اللاحقة .

السادس : الوقف على آخر السورة السابقة ووصل التكبير بالبسملة بأول السورة اللاحقة . فهذه ست أوجه جاءت على قطع آخر السورة السابقة .

السابع : وصل الجميع أي وصل آخر السورة السابقة بالبسملة بأول السورة اللاحقة دفعة واحدة بدون تكبير .

الثامن : وصل الجميع أيضاً لكن مع التكبير وكيفيته وصل آخر السابقة بالتكبير بالبسملة بأول السورة اللاحقة جملة واحدة .

وقد أشار إلى هذه الأوجه الثمانية العلامة الخليجي في تيسير الأمر بقوله :

*وبين كل غير ذين قف وصل * مكبِّراً أوْ لا قطعت أو تصل*

*مع قطع أول وصل كلاًّ إذا * كبرتَ أو لا فثمان تحتذا اهـ*

أما ما بين آخر الأنفال وأول سورة براءة فلا تكبير لأحد لعدم وجود البسملة في أول براءة كما مر إذ من شرط التكبير وجود البسملة . وعليه فالجائز في هذا المحل لكل القراء العشرة ثلاثة أوجه وهي الوقف والسكت بلا تنفس والوصل من غير بسملة في كلها . وقد تقدم الكلام مستوفى عليها في باب البسملة فراجعه إن شئت والله الموفق .

الكلام على الموطن الثالث من مواطن التكبير وبيان الأوجه التي فيه

وهذا الموطن هو الخاص بالجمع بين السورتين من آخر سورة الضحى وما بعدها إلى آخر سورة الناس . وهنا يجوز لحفص سبعة أوجه على القول بالتكبير أي بزيادة وجهين على الخمسة التي تقدمت في الجمع بين السورتين في الموطن الثاني .

وأما على القول بترك التكبير فيجوز له ثلاثة أوجه فقط وهي أوجه البسملة الثلاثة التي تقدمت غير مرة . وحينئذ يكمل لحفص على كلا القولين التكبير وعدمه . عشرة أوجه بين آخر الضحى وأول ألم نشرح وهكذا إلى ما بين آخر الناس وأول الفاتحة وفيما يلي ذكر هذه الأوجه العشرة مع تقديم وجه عدم الكتبير حسب ما ذهب إليه الجمهور ووفقاً لترتيب

الأداء الذي قرأنا به وبه نأخذ قراءة وإقراء . والأوجه هي :

الأول : قطع الجميع – أي الوقف على آخر الضحى وعلى البسملة والابتداء بألم نشرح.

الثاني : قطع الأول ووصل الثاني بالثالث – أي الوقف على آخر الضحى ووصل البسملة بألم نشرح وهذان الوجهان بدون تكبير.

الثالث : قطع الجميع أيضاً لكن مع التكبير وكيفيته . الوقف على آخر الضحى وعلى التكبير وعلى البسملة والابتداء بألم نشرح.

الرابع : مثل الثالث إلا أنه يوصل البسملة بألم نشرح.

الخامس : الوقف على آخر الضحى ووصل التكبير بالبسملة مع الوقف عليها ثم الابتداء بألم نشرح.

السادس : الوقف على آخر الضحى ووصل التكبير بالبسملة بألم نشرح فهذه ستة أوجه أتت على قطع آخر الضحى.

وأما الأوجه الأربعة المتممة للعشرة فتأتي على وصله وهي :

السابع : وصل الجميع أي وصل آخر الضحى بالبسملة بألم نشرح من غير تكبير.

الثامن : وصل آخر الضحى بالتكبير موقوفاً عليه وعلى البسملة أيضاً ثم الابتداء بألم نشرح.

التاسع : وصل آخر الضحى بالتكبير مع الوقف عليه ثم وصل البسملة بألم نشرح .

العاشر : وصل الجميع أي وصل آخر الضحى بالتكبير بالبسملة بألم نشرح جملة واحدة

فهذه هي الأوجه العشرة الخاصة بالجمع بين السورتين من بين آخر الضحى وأول ألم نشرح وما بعدهما إلى آخر ما بين الناس وأول الفاتحة لحفص عن عاصم .

عشرة تنبيهات هامة :

التنبيه الأول : انتهى الكلام الآن على مواطن التكبير الثلاثة في القرآن الكريم . فإن قال قائل إن مواطن التكبير في التنزيل أربعة كما يؤخذ من ظاهر الطيبة حيث يقول الحافظ ابن الجزري فيها :

*منْ أولِ انشراحِ أو من الضحى * من آخر أو أوَّلٍ قد صُححا*

مع قوله فيها أيضاً :

* . . . . ورُوى * عن كلِّهم أول كُلٍّ يستوى اهـ*

فالمواطن أربعة بزيادة واحد وهو التكبير من أول سورة الضحى وما بعدها إلى أول سورة الناس "قلنا" : هذا صحيح ولكن هذا الموطن الزائد خاص بقراءة ابن كثير بخلاف عن

قنبل وعليه فمواطن التكبير عنده أربعة كما يفيد ظاهر الطيبة بخلاف غيره من القراء فالمواطن ثلاثة عنده كما ذكرنا فتأمل .

(402/840)

التنبيه الثاني : سبق أن قلنا قريباً أن الأوجه التي بين آخر الضحى وأول ألم نشرح وما بعدهما إلى آخر ما بين الناس وأول الفاتحة سبعة أوجه على الأخذ بوجه التكبير وقد ذكرناها هناك مفصلة حسب ترتيب الأداء مع أوجه البسملة الثلاثة التي بين السورتين على وجه الأخذ بعدم التكبير وبهذا يتم لحفص في هذا الموطن عشرة أوجه ثم ذكرها في موطنها . ونريد هنا أن نقول : إن أهل الأداء رحمهم الله تعالى قسموا أوجه التكبير السبعة هذه إلى ثلاثة أقسام :

وجهان منها مختصان بأن التكبير لأول السورة .

ووجهان مختصان بأن التكبير لآخرها .

وثلاثة أوجه تحتمل كلا التقديرين أي كون التكبير لأول السورة وكونه لآخرها . ويجب على القارئ معرفة هذه الأقسام الثلاثة جيداً لما يترتب عليها من أحكام يجب مراعاتها حال قطع القراءة سواء أكان ذلك القطع في الصلاة أم في خارجها كما سنوضحه قريباً في الفصل

الرباع إن شاء الله تعالى .

وفيما يلي تفصيل هذه الأقسام الثلاثة :

القسم الأول : وفيه الوجهان المختصان بأن التكبير لأول السورة وهما :

الأول : الوقف على آخر السورة السابقة ووصل التكبير بالبسملة مع الوقف عليها ثم الابتداء بأول السورة اللاحقة .

الثاني : الوقف على آخر السورة السابقة ووصل التكبير بالبسملة بأول السورة اللاحقة .

وقد أشار إلى هذين الوجهين شيخ شيوخنا العلامة الشيخ علي المنصوري بقوله :

*واقطعه عن آخرها ثم صل * بالبسملة موصولة بالأوّل*

*أوقف على بسملة وجهان * بأول السورة مخصوصان اهـ*

كما أشار إليهما العلامة شيخ شيوخنا الشيخ عثمان راضي السنطاوي بقوله :

*لأول سورة ببسملة فصلْ * وقطع كذا وصلُ لبسملة جلا اهـ*

قوله رحمه الله تعالى : "ببسملة فصل" أي فصل التكبير بالبسملة مع الوقف عليها أو وصلها بأول السورة التالية فمفعول صل محذوف وهو التكبير فتأمل .

القسم الثاني : وفيه الوجهان المختصان بأن التكبير لآخر السورة وهما :

الأول : وصل آخر السورة السابقة بالتكبير موقوفاً عليه وعلى البسملة أيضاً والابتداء بأول السورة اللاحقة .

الثاني : وصل آخر السورة السابقة بالتكبير مع الوقف عليه أيضاً ثم صل البسملة بأول السورة اللاحقة .

وقد أشار إلى هذين الوجهين شيخ شيوخنا العلامة المنصوري بقوله :

*ووصْل تكبير بختم السورة * وقطعه عن تلوه البسملة*

*مع وصل باسم الله بابتداء * فصلها وجهان لانتهاء اهـ*

كما أشار إليهما شيخ شيوخنا العلامة السنطاوي بقوله :

*وآخر سورة فصله بها فقط * وبسملة فصل أو اقطع لتجملا اهـ*

القسم الثالث : وفيه الأوجه الثلاثة المحتملة لكلا التقديرين وهي :

الأول : قطع الجميع أي الوقف على آخر السورة السابقة وعلى التكبير وعلى البسملة والابتداء بأول السورة التالية .

الثاني : الوقف على آخر السورة السابقة وعلى التكبير أيضاً ووصل البسملة بأول السورة اللاحقة .

الثالث : وصل الجميع أي وصل آخر السورة السابقة بالتكبير بالبسملة بأول السورة

اللاحقة دفعة واحدة.

وقد أشار إلى هذه الأوجه الثلاثة شيخ شيوخنا العلامة المنصوري بقوله:

*ولهم ثلاثة محتمله . . . . . * وصلُ الجميع قطعُهُ عن بسمَلَهْ*

*وآخر مع وصلها بالابتدا * ثالثها قطع الجميع أفردا اهـ*

كما أشار إليها شيخ شيوخنا العلامة السنطاوي بقوله:

*ويحتملُ القولين أيضاً ثلاثة * فقطعٌ كذا وصلُ الجميع تخلَّلا*

*أو اقطعْ لآخر وتكبيراً اقطعَنْ * وبسملةٌ فقط فصلها بأوّلا اهـ*

التنبيه الثالث: في سبب تقسيم أوجه التكبير السبعة إلى هذه الأقسام الثلاثة وفيه سبب ورود التكبير.

وهذا يرجع في الأصل إلى سبب ورود التكبير. ومما جاء في سبب وروده أن الوحي انقطع عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة اختلف فيها كما هو مشهور فقال المشركون -زوراً وكذباً- إن محمداً قد ودعه ربه وقلاه فنزله -تكذيباً لهم- قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَالضُّحَىٰ (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (2) ﴾ إلى آخر السورة فلما فرغ جبريل -

عليه السلام– من قراءة سورة الضحى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الله أكبر" شكراً لله لما كذب المشركين وتصديقاً لما هو عليه وفرحاً وسروراً بنزول الوحي . وبالنعم التي عددها الله تعالى عليه في هذه السورة خصوصاً وعد الله تعالى له في قوله سبحانه : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (5) ﴾ ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يكبر إذا بلغ والضحى مع خاتمة كل سورة حتى يختم تعظيماً لله تعالى واستحباباً للشكر وتعظيماً لختم القرآن الكريم . وقد قال العلماء في ذلك : فهل كان تكبيره صلى الله عليه وسلم لختم قراءة جبريل فيكون لأولها . وهذا هو السبب في أن التكبير قد يكون لأول السورة وقد يكون لآخرها . ويمكن حمل تكبيره صلى الله عليه وسلم على كلا التقديرين أي كون التكبير لآخر السورة أو لأولها وعلى ذلك يحمل كلام العلماء أهل الأداء في الأوجه الثلاثة المتقدمة المحتملة لكل التقديرين وقد قدمناه وسواء كان التكبير لأول الضحى أو لآخرها أو كان محتملاً لكلا القولين فهذا الحكم ليس خاصًّا بسورة الضحى وحدها بل ينسحب على سائر سور الختم بعدها فتأمل .

التنبيه الرابع : في منع وصل آخر السورة بالتكبير بالبسملة موقوفاً عليها يمتنع وصل آخر السورة السابقة بالتكبير بالبسملة مع الوقف عليها فهذا الوجه ممنوع بالإجماع لأن فيه إيهاماً بأن البسملة لآخر السورة لا لأولها وقد تقدم الكلام على ذلك مستوفى في باب البسملة وفي هذا يقول الحافظ ابن الجزري في الطيبة :

*وامنع على الرحيم وقفاً إن تصلْ * كلاًّ وغير ذا أجز ما يحتمل اهـ*

التنبيه الخامس : في بيان حكم آخر السورة عند وصله بالتكبير اعلم أن آخر السورة في حالة وصل الجميع بالتكبير مطلقاً أو في حالة وصله بالتكبير موقوفاً عليه وذلك خاص بأواخر سور الختم ينقسم إلى ستة أقسام :

الأول : أن يكون آخر السورة حرف مد سواء كان ألفاً أو واواً كقوله تعالى : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (135) ﴾ الله أكبر وقوله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَى (21) ﴾ الله أكبر ، وقوله سبحانه : ﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62) ﴾ الله أكبر ، والحكم في هذا القسم أنه يحذف حرف المد لالتقاء الساكنين كما هو مقرر .

الثاني : أن يكون آخر السورة ساكناً صحيحاً في غير ميم الجمع كقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8) ﴾ وقوله عز شأنه : ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب (19) ﴾ ، وهنا يحرك الساكن بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين كما هي القاعدة . أما إذا كان الساكن الصحيح ميم الجمع كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم (38) ﴾ الله أكبر فإن ميم الجمع هنا تحرك

بالضم من غير صلة على القاعدة .

الثالث : أن يكون آخر السورة منوناً كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (120) ﴾ الله أكبر ، وقوله سبحانه : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (73) ﴾ الله أكبر ، وقوله تعالى : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (4) ﴾ الله أكبر . وفي هذا القسم يحرك التنوين بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين .

الرابع : أن يكون آخر السورة محركاً بحركة الإعراب أو بحركة البناء .

(406/840)

فمثال المحرك بحركة الإعراب قوله تعالى : ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (52) ﴾ الله أكبر ، وقوله تعالى : ﴿ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5) ﴾ الله أكبر . وقوله عز من قائل : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8) ﴾ الله أكبر . ومثال المحرك بحركة البناء نحو قوله تعالى : ﴿ فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (286) ﴾ الله أكبر ، وقوله سبحانه : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5) ﴾ الله أكبر ، وفي هذا القسم تبقى حركة الإعراب على حالها وكذلك حركة البناء .

الخامس : أن يكون آخر السورة هاء الضمير كقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8) ﴾ الله أكبر ، وهنا تحذف صلة هاء الضمير للساكن بعدها .

(407/840)

السادس : أن يكون آخر السورة ياء الإضافة وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي (30) ﴾ الله أكبر ، وفي هذا القسم تفتح ياء الإضافة لالتقاء الساكنين كما هو الأصل في نحو "بي ونبأني" في قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأَعْدَآءَ ﴾ وفي قوله سبحانه : ﴿ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (3) ﴾ نص على ذلك الإمام مصطفى الإزميري في كتابه "عمدة العرفان" وعبارته قوله تعالى : ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي (30) ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا وَلَدَ (3) ﴾ إذا وصلت التكبير بآخر السورة مع وصل الكل فتحت الياء في قوله : "جنتي" لالتقاء الساكنين ثم قال رحمه الله تعالى في كتابه : "بدائع البرهان : شرح عمدة العرفان" بهذا الخصوص أيضاً ما نصه قوله تعالى : ﴿ وَادْخُلِي جَنَّتِي (30) ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَا وَلَدَ (3) ﴾ إذا وصلت آخر السورة بالتكبير مع وصل الكل فتحت الياء في قوله : ﴿ جَنَّتِي (30) ﴾ لالتقاء الساكنين كما فتحت في قوله تعالى : ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ و ﴿ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ﴾ و ﴿ نِعْمَتِيَ الَّتِي ﴾ وبعض الناس يقرئ بإسكان الياء وحذفها لالتقاء

الساكنين وهو خطأ لأنه لم يرد في القرآن أن القراء العشرة اتفقوا على إسكان ياء الإضافة إذا لقيت لام التعريف بل اتفقوا على فتحها في أكثر المواضع واختلف في بعضها فالأكثرون على الفتح كما في النشر والطيبة والتقريب فإن قيل إن يعقوب يثبت ياء ﴿ وَلِيَ دِينِ (6) ﴾ في آخر سورة الكافرون في الحالين فإذا وصلها بالتكبير يحذفا فلم يفتحها هنا قلنا الياء في هذه السورة مرسومة في الخط فتكون من باب ياءات الإضافة فمذهب القراء العشرة الفتح في ياءات الإضافة إذا لقيت لام التعريف سوى أربعة عشر موضعاً فاختلف فيها الأكثرون على الفتح وفي سورة الكافرون محذوفة رسماً فتكون من باب الزوائد فلذلك يحذفها إذا وصلها بالتكبير كما هو مذهبه في نظائرها نحو ﴿ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ ﴾ و ﴿ يُرِدْنِ الرَّحْمَانُ ﴾ فاعلم ذلك أهـ منه بلفظه.

(408/840)

ويؤخذ مما نص عليه الإمام الإزميري –رحمه الله– أن حفصاً بل ومعه باقي الأئمة العشرة يفتحون الياء في كلمة ﴿ جَنَّتِي (30) ﴾ إذا وصلت بالتكبير كما ذكر آنفاً فتنبه جيداً لهذه المسألة.

هذا : ويراعى في هذه الأقسام الستة تفخيم لفظ الجلالة وترقيقه فيفخم بعد الفتح والضم

ويرقق بعد الكسر ولو كان تنويناً كما يراعى في اللفظ الكريم حذف همزة الوصل في الدرج عند وصل آخر السورة بالتكبير فتأمل .

التنبيه السادس : في بيان ذكر التهليل والتحميد مع التكبير سبق أن قلنا إنه يجوز لحفص وكذلك لباقي القراء العشرة عند سور الختم أي من آخر الضحى إلى آخر الناس التهليل مع التكبير أو التهليل مع التكبير والتحميد إذا قصد بذلك تعظيم الختم على رأي بعض المتأخرين كما تقدم .

ولذكر التهليل والتحميد مع التكبير طريقان :

الأول : يقدم لفظ التهليل على التكبير بأن يقول القارئ : "لا إله إلا الله والله أكبر" .

الثاني : يقدم لفظ التهليل على التكبير ويؤخر لفظ التحميد عن التكبير بأن يقول القارئ : "لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد" دفعة واحدة على هذا النسق . وإذا قرئ بالطريق الثاني فلا يجوز بحال فصل التهليل عن التكبير ولا التكبير عن التحميد ولا الإتيان بالتحميد بعد التكبير من غير التهليل بل توصل الألفاظ الثلاثة كلها دفعة واحدة كما تقدم وهكذا قرأت وبه آخذ قراءة وإقراء . ولا التفات إلى من نبغ في عصرنا هذا من القراء من فصل

جملة التهليل عن التكبير موقوفاً عليها ووصل التكبير بالتحميد عند ختم القرآن الكريم كما سمعنا منه فهذا لا يجوز بحال لمخالفته الرواية الواردة في ذلك ولما نص عليه أئمتنا . وقد تكلم في هذه المسألة غير واحد من الثقات ونورد هنا قول الحافظ ابن الجزري في النشر في التنبيه الثالث ما نصه "التهليل مع التكبير مع الحمد لله عند من رواه حكمه حكم التكبير لا يفصل بعضه من بعض بل يوصل جملة واحدة كذا وردت به الرواية وكذا قرأنا لا نعلم في ذلك خلافاً أهـ منه بلفظه . ثم قال رحمه الله في هذا الخصوص أيضاً في التنبيه السادس لا يجوز الحمد لله مع التكبير إلا أن يكون التهليل معه كذا وردت به الرواية أهـ منه بلفظه .

وقد أشار إلى كل هذا شيخ شيوخنا العلامة المنصوري بقوله رحمه الله تعالى :

*تهليلاً التكبير مع حمد لِهْ * رتب ولا تفصله للروايةِ*

*ولا يجوز الحمدُ مع تكبير * إلا مع التهليل للقدير اهـ*

إذا علمت هذا وأردت أن تقرأ بالتهليل مع التكبير أو بالتهليل مع التكبير والتحميد عند سور الختم فما ذكرناه آنفاً من ترتيب الأوجه السبعة حسب الأداء بين آخر الضحى وأول ألم نشرح وما بعدهما إلى آخر الناس على القول بالتكبير لحفص يسري على أوجه التكبير مع

التهليل أو مع التهليل والتحميد ويجوز لك أن تجمع بين التكبير مفرداً وبين التكبير مقروناً بالتهليل أو بالتهليل مع التحميد وبذلك ترتقي الأوجه السبعة إلى واحد وعشرون وجهاً كما يجوز لك أن تقصر المنفصل وتوسطه للتعظم في لفظ التهليل مع التكبير أو هما مع التحميد فتصير الأوجه بذلك خمسة وثلاثين وجهاً كلها صحيحة لا سقيم فيها .

وإليك تفصيلها ثانياً :

تأتي أولاً بالأوجه السبعة بالتكبير مفرداً من غير تهليل ولا تحميد ثم تأتي بها ثانياً مع التهليل والتكبير فقط مقصوراً وموسطاً . ثم تأتي بها ثالثاً مع التهليل والتكبير والتحميد مقصوراً وموسطاً كذلك فإذا أضفت إليها أوجه البسملة الثلاثة من غير تكبير فتبلغ الأوجه ثمانية وثلاثين وجهاً لحفص بين آخر الضحى وأول ألم نشرح وما بعدهما إلى آخر الناس وأول الفاتحة فتنبه .

ويراعي ذلك أيضاً في أوجه الاستعاذة عند الابتداء من سور الختم أي من أول ألم نشرح إلى أول الناس فقد ذكرنا في موطن التكبير الأول أن الابتداء بالاستعاذة على الأخذ بوجه التكبير لحفص يجوز معه ثمانية أوجه وقد رتبناها هناك مع أوجه الاستعاذة الأربعة

المعروفة بدون تكبير حسب الأداء فبلغ عددها اثني عشر وجهاً . وهنا نقول إذا أراد القارئ أن يأتي بالتهليل مع التكبير أو بالتهليل مع التكبير والتحميد عند الابتداء من سور الختم فلا مانع من الأخذ بذلك ويجوز له حينئذ أن يأتي بالتكبير مفرداً أو بالتهليل مع التكبير فحسب أو بالتهليل مع التكبير والتحميد كما يجوز له القصر والتوسط في لفظ التهليل في الحالتين أي في حالة التهليل مع التكبير أو في حالة التهليل مع التكبير والتحميد فتصبح الأوجه الثمانية التي في الابتداء على القول بالتكبير أربعين وجهاً كلها صحيحة فإذا أضفت إليها أوجه الاستعاذة الأربعة المعروفة بدون تكبير على القول بتركه فتبلغ الأوجه كلها أربعة وأربعين وجهاً لحفص عند الابتداء من سور الختم .

أما الابتداء من غيرها من سائر السور فالأوجه الاثنا عشر المعروفة والتي ذكرناها في الموطن الأول من مواطن التكبير فتنبه لذلك والله الموفق .

التنبيه السابع : منع العلامة الصفاقسي في كتابه "غيث النفع" وصل الاستعاذة بالتكبير موقوفاً عليه سواء أكان مفرداً أم كان مقروناً بالتهليل فحسب أم كان مقروناً بالتهليل والتحميد وحجته في ذلك أن التكبير إما أن يكون لآخر السورة وإما أن يكون لأولها وليست الاستعاذة واحداً منهما انتهى كلامه بالمعنى .

قلت : وما منعه العلامة الصفاقسي منعه العلامة البقري والعلامة سلطان المزاحي أيضاً وحجتهما كحجة الصفاقسي نقل ذلك عنهما العلامة الميهي في فتح الكريم فإذا تأملت الأوجه الممنوعة وفق كلام هؤلاء الأعلام وجدتها عشرة أوجه وهي وصل الاستعاذة بالتكبير موقوفاً عليه مفرداً كان أو مقروناً بالتهليل وحده أو بالتهليل والتحميد وسواء كان لفظ التهليل مقصوراً أو كان موسطاً فهذه خمسة أوجه يأتي عليها الوقف على البسملة والابتداء . بأول السورة ثم وصل البسملة بأول السورة وعليه . فتكون أوجه الاستعاذة مع الابتداء بسور الختم حسب قول هؤلاء ثلاثين وجهاً على القول بالتكبير بدلاً من الأربعين التي تقدمت وتكون أوجهها مع الابتداء بغيرها من سائر سور التنزيل ستة أوجه بدلاً من الأوجه الثمانية التي تقدمت على القول بالتكبير أيضاً فما ذكره هؤلاء من منعهم وصل الاستعاذة بالتكبير مع الوقف عليه وما يترتب على ذلك من الوجوه مخلف لما قرأنا به .

وقد ردّ على العلامة الصفاقسي صاحب "غيث الرحمن" شرح هبة المنان بعد أن أورد عبارته التي سقناها بالمعنى وعبارته "لكن ما ذكره من الأوجه –أي الممنوعة– لا يناسب

قول الإمام الشاطبي حيث قال : "وما لقياس في القراءة مدخل" فتأمل منصفاً أهـ منه بلفظه كما ردَّ على العلامتين البقري وسطان العلامة الميهي بعد أن أورد عبارتهما بجواز ما منعاه ونسب هذا الجواز إلى الحق وقال وبه أخذت عن شيخي النبتيتي قلت : وقريب من هذين الردين أن يقال إن وصل التكبير بالاستعاذة والوقف عليه مشابه لوصل الاستعاذة بالبسملة مع الوقف عليها إذ أن الاستعاذة ليست من القرآن بالاتفاق وكذلك التكبير. فإذا ساغ وصل ما ليس من القرآن بالقرآن والوقف عليه من غير معارض -كما في وصل الاستعاذة بالبسملة والوقف عليها - ساغ وصل ما ليس من القرآن بعضه ببعض والوقف عليه من باب أولى -كما في وصل الاستعاذة بالتكبير والوقف عليه وهذا جائز من غير نكير خلافاً لما منعه العلامة الصفاقسي والبقري والمزاحي وقد قدمنا لك أننا قرأنا به على جميع مشايخنا وبه نأخذ قراءة وإقراء كما أخذ غيرنا فتأمل وبالله التوفيق .

التنبيه الثامن : ذكر شيخ شيوخنا العلامة السنطاوي رحمه الله تعالى في تحريره على الطيبة أنه يجوز في لفظ التهليل مطلقاً ثلاث مراتب في مده وهي : القصر والتوسط والإشباع ولم أر فيما وقفت عليه من قال بالإشباع في ذلك ولعله أراد -رحمه الله تعالى- بمرتبة الإشباع في

لفظ التهليل قراءة حمزة ورواية ورش عن نافع من طريق الأزرق ورواية ابن ذكوان عن ابن عامر من طريق النقاش عن الأخفش إذا أخذ لهم بوجه التهليل مع التكبير أو بوجه التهليل مع التكبير والتحميد عند سور الختم على رأي بعض المتأخرين كما مر . ومن المعلوم أن حمزة والأزرق عن ورش مذهبهما الإشباع في المدين –المنفصل والمتصل من جميع الطرق بالإجماع وكذلك ابن ذكوان عن ابن عامر من طريق النقاش عن الأخفش من طريق طيبة النشر خاصة فعلى هذا تحمل مرتبة الإشباع في التهليل التي ذكرها العلامة السنطاوي وغير هذا الاحتمال لا يجوز الأخذ بها لأن أهل الأداء الذين أخذوا بمرتبة التوسط في مد التعظيم إنما إخذوها لأصحاب القصر في المنفصل كما هو معروف وليس مهم حمزة ولا الأزرق عن ورش ولا ابن ذكوان بل لحمزة والأزرق عن ورش الإشباع في المدين كما أسلفنا ولابن ذكوان فيهما من الطريق التي ذكرنا . وعليه فيكون الإشباع لهم في لفظ التهليل هو مذهبهم وليس داخلاً في المد للتعظيم بحال فما ذكره أستاذنا السنطاوي فسبق قلم منه رحمه الله ورحمنا معه بفضله وكرمه آمين .

التنبيه التاسع : في بيان حكم أواخر سور الختم عند وصلها بالتهليل مطلقاً اعلم أن أواخر سور الختم في حالة وصلها بالتهليل مع التكبير أو بالتهليل مع التكبير والتحميد سواء كان ذلك في وجه وصل الجميع أو كان في غيره كوصل آخر السورة بالتهليل مع التكبير أو هما مع التحميد مع الوقف عليه وعندئذ يبقى آخر السورة على حاله من غير تغيير فالساكن يظل ساكناً كما في آخر الضحى والعلق وصلة هاء الضمير تبقى كما هي كآخر البينة والزلزلة وكذلك يبقى المحرك بحركة الإعراب أو البناء على حاله كآخر الفلق بالنسبة للمبني وآخر الناس بالنسبة للمعرب أما إذا كان آخر السورة منوناً فيدغم التنوين في اللام من لفظ التهليل على القاعدة وحينئذ تجوز الغنة وعدمها في اللام نص على ذلك العارف بالله شيخ شيوخنا سيدي الشيخ مصطفى الميهي في فتح الكريم الرحمن . كما نص عليه العلامة الطباخ في هبة المنان وكذلك العلامة الشيخ أحمد شرف الأبياري في غيث الرحمن شرح هبة المنان فتنبه .

التنبيه العاشر : في بيان حكم الاختلاف في أوجه التكبير مطلقاً اعلم أن الاختلاف في أوجه التكبير مطلقاً سواء أكان مفرداً أم كان مقروناً بالتهليل أم بالتهليل مع التحميد عند سور الختم ليس اختلاف رواية بحيث يلزم الإتيان بها كلها بين كل سورتين وإن لم يفعل يكن اختلالاً في الرواية بل هو من اختلاف التخيير كأوجه البسملة الثلاثة الجائزة بين السورتين فأي وجه أتى به القارئ منها أجزأه وكذلك أوجه التكبير وكان بعضهم يأخذ بوجه واحد

من أوجه التكبير الجائزة بين السورتين ويأخذ بين السورتين الأخريين بوجه آخر غير الذي أخذه بين الأوليين وهكذا إلى أن يأتي على جميع أوجه التكبير لأجل حصول التلاوة بجميعها .

(416/840)

قال الحافظ ابن الجزري في هذا الصدد : "وهو حسن ولا يلزم بل التلاوة بوجه منها إذا حصل معرفتها من الشيخ كاف" أهـ ثم قال رحمه الله تعالى في هذا الخصوص أيضاً : "نعم الإتيان بوجه مما يختص بكون التكبير لآخر السورة وبوجه مما يختص بكونه لأولها وبوجه مما يحتملها متعين إذ الاختلاف في ذلك اختلاف رواية فلا بد من التلاوة به إذا قصد جمع تلك الطرق" أهـ قلت والمراد بالطرق في قوله أي الطرق الثلاثة التي هي كون التكبير لأول السورة أو لآخرها أو كونه محتملاً لكلا التقديرين . وقد مر ذلك آنفاً . وقوله رحمه الله تعالى : "إذا قصد جمع تلك الطرق" يؤخذ منه أنه إذا لم يقصد جمع تلك الطرق فلا يتعين الأخذ بوجه من كل من تلك الثلاثة ويرجع الأمر إلى التخيير السابق فأي وجه أتى به القارئ أجزاءه فتأمل هذا القصد وبالله التوفيق .

وقد أشار إلى ما ذكرناه في هذا التنبيه العلامة الشيخ الأمين الطرابلسي ثم المدني في رسالته

بقوله رحمه الله تعالى :

*واعلم بأن الخلف في التكبير * من جملة الخلف على التخيير*

*لكن ثلاثة لكل الجمع * يجب الإتيان بها في الجمع*

*فواحد من وجهي ابتداء * وواحد من وجهي انتهاء*

*وآخر من أوجه احتمال * والحمد لله بكلِّ حال اهـ*

هذا : ويؤخذ من نظم العلامة الطرابلسي الوجوب قولاً واحداً في الأخذ بوجه من كل من الطرق الثلاثة وقد تقدم أن الوجوب في ذلك مرتبط بقصد جمع هذه الطرق أما إذا لم يكن هناك قصد لجمعها فلا يتعين الوجوب . ويرجع الأمر إلى التخيير كما أسلفنا فتأمل .

"تتمة" : بشأن تعلق التكبير ببعض حالات القصر في المد الجائز المنفصل لحفص عن عاصم من طريق طيبة النشر .

تقدم أن ذكرنا في باب "المد والقصر" بعض الحالات المتعلقة بالقصر في المد المنفصل وبالإشباع في المد المتصل لحفص من طريق طيبة النشر كما تعرضنا هناك في بعض تلك الحالات لذكر التكبير كما ذكر محرروا الطيبة والآن نلفت نظر القارئ إلى أن هناك حالة من

حالات قصر المد المنفصل وهي القصر المطلق مع التوسط في المد المتصل وهذه هي الحالة الأولى من حالات القصر التي ذكرناها هناك مع ذكر أحكامها الواجب اتباعها حالة الأداء وقد قلنا عنها فيما قلنا إنه يجوز فيها التكبير الخاص وعدمه وقد سبق معنى الخاص بأنه الخاص بسور الختم فحسب وفيه مذهبان :

الأول : التكبير من آخر الضحى إلى آخر الناس .

الثاني : التكبير من أول ألم نشرح إلى أول الناس ويستوي في ذلك الأوجه التي بين السورتين في هذا المحل . وقد تقدم توضيح ذلك بما فيه الكفاية كما يستوي في ذلك أيضاً إفراد التكبير أو اقترانه بالتهليل أو بالتهليل والتحميد وسواء كان لفظ التهليل مقصوراً أو موسطاً إلى آخر ما ذكرناه آنفاً .

كما أن هناك حالة أخرى من حالات القصر في المد المنفصل أيضاً وهي القصر المطلق في المنفصل مع الإشباع في المتصل وهذه هي الحالة الثانية التي ذكرناها هناك مع ذكرنا للأحكام المتعينة عليها حالة الأداء وقد قلنا فيما قلنا من أحكامها إنه يجوز فيها الأخذ بوجه التكبير العام وعدمه وقد سبق معنى العام أنه العام في جميع سور القرآن الكريم ويستوي في ذلك التكبير في أوائل سور التنزيل أي من أول سورة الفاتحة وما بعدها إلى أول سورة الناس باستثناء البدء من أول سورة براءة كما تقدم كما يستوي في ذلك أيضاً التكبير بين السورتين

في سائر التنزيل باستثناء ما بين آخر الأنفال وأول براءة كما مر فتنبه .

(الفصل الرابع : في بيان حكمه في الصلاة .)

اعلم أن حكم التكبير في الصلاة أنه سنة ثابتة فيها كثبوتها في خارجها وقد تكلم في هذه المسألة غير واحد من الثقات الجهابذة الأثبات فقد ذكر الحافظ ابن الجزري في النشر بأسانيده إلى الصحابة والتابعين بثبوت التكبير في الصلاة وغيرها وقد تركنا ذكر هذه الأسانيد هنا رغبة في الاختصار لطولها . ثم قال الحافظ ابن الجزري بعد ذلك . وقال الشيخ أبو الحسن السخاوي –وروى بعض علمائنا الذين اتصلت قراءتنا بإسناده عن أبي محمد الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد القرشي قال : صليت خلف المقام بالمسجد الحرام في التراويح في شهر رمضان فلما كانت ليلة الختم كبرت من خاتمة الضحى إلى آخر القرآن في الصلاة فلما سلمت التفت وإذا بأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي قد صلى ورائي فلما أبصرني قال : أحسنت أصبت السنة . . . إلى أن قال رحمه الله : فقد ثبت التكبير في الصلاة عن أهل مكة فقهائهم وناهيك بالإمام الشافعي وسفيان بن عيينة وابن جريج وابن كثير وغيرهم . . . إلى أن قال : ورأيت أنا غير واحد من شيوخنا

يعمل به ويأمر من يعمل به في صلاة التراويح وفي الإحياء في ليالي رمضان حتى كان بعضهم إذا وصل في الإحياء في الضحى قام بما بقي من القرآن في ركعة واحدة يكبر إثر كل سورة فإذا انتهى إلى ﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ (1) ﴾ كبر في آخرها ثم يكبر ثانياً للركوع وإذا قام في الركعة الثانية قرأ الفاتحة وما تيسر من أول البقرة وفعلت أنا كذلك مرات لما كنت أقوم بالإحياء بدمشق ومصر .

وأما من كان يكبر في صلاة التراويح فإنهم يكبرون إثر كل سورة ثم يكبرون للركوع . وذلك إذا آثر التكبير آخر كل سورة . ومنهم من كان إذا قرأ الفاتحة وأراد الشروع في السورة كبر وبسمل وابتدأ السورة . . . إلى أن قال رحمه الله : ثم رأيت كتاب الوسيط تأليف الإمام الكبير شيخ الإسلام أبي الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي الشافعي رحمه الله تعالى وفيه ما هو نص على التكبير في الصلاة . . . ثم عرج بعد ذلك على المذاهب الفقهية فقال : والقصد إنني تتبعت كلام الفقهاء من أصحابنا –يعني الشافعية– فلم أر لهم نصًّا في غير ما ذكرت وكذلك لم أر للحنفية ولا للمالكية وأما الحنابلة فقد قال الفقيه الكبير أبو عبد الله محمد بن مفلح في كتاب الفروع له : "وهل يكبر لختمه من الضحى أو ألم نشرح آخر كل سورة

فيه روايتان ولم تستحبه الحنابلة لقراءة غير ابن كثير وقيل ويهلل انتهى قلت : ولما من الله علي بالمجاورة بمكة ودخل شهر رمضان فلم أر أحداً ممن صلى التراويح بالمسجد الحرام إلا يكبر من الضحى عند الختم فعلمت أنها سنة باقية فيهم إلى اليوم . . . ثم قال رحمه الله تعالى : "والعجيب ممن ينكر التكبير بعد ثبوته عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه والتابعين" انتهى كلام الحافظ ابن الجزري ملخصاً من النشر .

يقول مقيده أفقر العباد وأحوجهم إلى الله تعالى عبد الفتاح السيد عجمي المرصفي :

ويؤخذ من كلام الحافظ ابن الجزري في النشر والذي سقناه آنفاً الأحكام الآتية :

أولاً : إن التكبير سنة مطلقة في الصلاة وخارجها . وقد ثبت فعل هذه السنة عند فقهاء مكة المشرفة وغيرهم من فقهاء الأمصار في صلاة التراويح وغيرها .

ثانياً : بيان حكم قطع القراءة في سور التكبير في الصلاة وما يترتب على ذلك مما سنأتي عليه مفصلاً في الفصل التالي إن شاء الله تعالى .

(420/840)

ثالثاً : إن التكبير في الصلاة بالنسبة للمذاهب الفقهية قد ثبت عند الشافعية وعلى رأسهم إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه وأنه لم يثبت عند الحنفية ولا عند المالكية أما الحنابلة

فقد ورد عنهم فيه روايتان التكبير وعدمه وعندهم إن أخذوا بالتكبير لم يكن مستحبًّا لقراءة غير قراءة ابن كثير وحال أخذهم بالتكبير يجوز معه التهليل كما قيل عندهم.

رابعاً: أنه لا وجه لمن أنكر التكبير بعد ثبوته عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم وعنا معهم بمنه وكرمه آمين.

هذا: وذكر في الإتحاف أن التكبير مندوب في الصلاة في الختم وغيره حتى لو قرأ سورة من سور التكبير كالكافرون والإخلاص مثلاً في ركعتين كبر وهو واضح للعلة السابقة والعلة هذه قد ذكرناها فيما تقدم في سبب ورود التكبير. وقد اختلفوا في أداء التكبير في الصلاة هل يجهر به أو يسر أو هو تابع لها في السرية والجهرية أقوال. وأميل إلى أن التكبير يكون تابعاً للصلاة في السر والجهر فهو أحب إليَّ والله تعالى أعلى وأعلم.

(الفصل الخامس: في بيان حكم قطع القراءة في سور التكبير وغيرها في الصلاة وخارجها.)

المراد بسور التكبير سور الختم من آخر الضحى إلى آخر الناس أو من أول ألم نشرح إلى أول الناس كما مر. والمراد بغيرها سائر سور التنزيل. وهذا بحث هام يجب فهمه جيداً لما يترتب عليه من أحكام للتكبير يجب مراعاتها حال قطع القراءة سواء أكان ذلك في الصلاة أم في خارجها. وقد تكلم في هذه المسألة المتقدمون والمتأخرون من أئمتنا وحاصل ما فيها بإيجاز غير مخل.. ليسهل فهمها على القارئ فيعمل بها حال الأداء على أي حال.

فإذا أراد القارئ قطع قراءته في سور الختم خارج الصلاة فعليه أن يعتبر ما ذكرناه آنفاً في الفصل الثاني من أن التكبير إما أن يكون لأول السورة وإما أن يكون لآخرها فإن اعتبره لأولها قطع قراءته على آخر السورة السابقة بدون تكبير . فإذا استأنف قراءته بعد ابتداء السورة اللاحقة بالتكبير ويستوي في ذلك إفراد التكبير أو اقترانه بالتهليل فقط أو بالتهليل مع التحميد مقصوراً أو موسطاً ويجوز حينئذ أوجه الابتداء بالاستعاذة مع التكبير التي تقدم ذكرها .

وإن اعتبر التكبير لآخر السورة كبر آخرها وقطع قراءته . فإذا استأنف القراءة بعد ابتداء السورة التالية بدون تكبير ويجوز له عند تكبيره لآخر السورة وصل آخر السورة بالتكبير موقوفاً عليه مفرداً كان أو مقروناً بالتهليل وحده أو بالتهليل والتحميد مقصوراً وموسطاً . فالأوجه عندئذ خمسة ويراعى في ذلك أيضاً سجدة التلاوة في آخر سورة العلق فإن كان قد اعتبر التكبير لآخر السورة فإنه يكبر للسجدة بعد انتهاء سورة العلق ثم بعد انتهائه منها يكبر لأول سورة القدر وإن كان قد اعتبر التكبير لآخر السورة كبر أولاً لآخر سورة العلق ثم يكبر ثانياً للسجدة ثم بعد انتهائه من السجدة يفتتح سورة القدر بدون تكبير .

هذا إذا كان قطع القراءة في سور الختم.

أما إذا كان القطع في غيرها من سور التنزيل فواضح أن التكبير في هذا الموطن لم يكن لآخر السورة. فإذا قطع القارئ قراءته مثلاً على آخر سورة النساء ثم استأنف قراءته فيما بعد افتتح سورة المائدة بالتكبير إذا كان آخذاً بوجه التكبير العام ويراعى في ذلك أيضاً سجدة التلاوة كما في آخر الأعراف والنجم والحكم حينئذ أنه يكبر للسجدة آخر سورة الأعراف أو آخر سورة النجم ثم بعد انتهائه من السجدة يفتتح سورة الأنفال أو سورة القمر بالتكبير لأن المعتبر الآن أن التكبير في هذا الموطن لأول السورة اللاحقة.

هذا حاصل ما في المسألة إذا كان القارئ قد قطع قراءته في سور الختم أو في غيرها من السور خارج الصلاة.

أما إذا كان قطع قراءته وهو متلبس بالصلاة ففيه التفصيل السابق أيضاً وحاصله إذا كان في سور الختم واعتبر القارئ التكبير لأول السورة فإنه يقطع قراءته على آخر السورة السابقة بدون تكبير ثم يكبر للركوع فإذا قام إلى الركعة الثانية ابتدأ السورة التالية بعد الفاتحة بالتكبير ويستوي في هذا التكبير المفرد أو المقترن بالتهليل وحده أو بالتهليل مع

التحميد وسواء كان لفظ التهليل مقصوراً أو موسطاً .

وهل يكبر في هذه الصلاة تكبيرة لأول الفاتحة ثم يكبر ثانياً لأول السورة التالية بعدها لأن التكبير الآن لأول السورة ؟ قولان :

أولهما : أن التكبير يجوز في أول الفاتحة ثم في أول السورة التي بعدها أيضاً نص على ذلك العلامة الشيخ أحمد شرف الأبياري في "غيث الرحمن : شرح هبة المنان" وعبارته في هذه الصورة "فأت بتكبيرة الركوع أولاً ثم بعد قيامك من الركعة فأت بتكبيرة أول السورة سواء كانت الفاتحة أو غيرها" أهـ منه بلفظه .

ثاني القولين : أن التكبير لا يكون إلا في السورة التالية بعد الفاتحة فقط نص على ذلك شيخ شيوخنا العارف بالله تعالى سيدي الشيخ مصطفى الميهي رضي الله عنه في "فتح الكريم الرحمن" وعبارته رحمه الله "أو يكبر للركوع ثم يكبر بعد الفاتحة لابتداء السورة على القول الآخر" أهـ منه بلفظه وقوله على القول الآخر أي على القول بأن التكبير لأول السورة . وكلا القولين صحيح في هذه الصورة فحسب فتنبه .

أما إذا كان القارئ قد اعتبر التكبير لآخر السورة فإنه يكبر في آخرها أولاً ثم يكبر للركوع ثانياً فإذا قام إلى الركعة الثانية افتتح السورة التالية بعد الفاتحة بدون تكبير ولا يكبر في هذه السورة في أول الفاتحة بالاتفاق لأن المعتبر الآن أن التكبير لآخر السورة. ويراعى في ذلك سجدة التلاوة أيضاً في آخر سورة العلق. فإن اعتبر القارئ التكبير لأول السورة فإنه يكبر للسجدة بعد انتهاء سورة العلق ثم بعد الانتهاء من السجدة يكبر لأول سورة القدر. وإن اعتبر التكبير لآخر السورة كبر أولاً لآخر سورة العلق ثم يكبر ثانياً للسجدة ثم بعد انتهائه منها يفتتح سورة القدر من غير تكبير ويستوي في كل ما ذكر إفراد التكبير أو اقترانه بالتهليل وحده أو بالتهليل مع التحميد مقصوراً أو موسطاً.

وإذا كان القطع بغير سور الختم فمن المتفق عليه أن التكبير في هذا الموطن لم يكون لآخر السورة كما مر. فإذا قطع القارئ قراءته على آخر سورة البقرة مثلاً وهو في الصلاة كبر للركوع كالعادة ثم بعد قيامه للركعة الثانية يفتتح بعد الفاتحة سورة آل عمران بالتكبير إذا كان آخذاً بوجه التكبير العام. وهل يكبر في هذه الصورة تكبيراً لأول الفاتحة أولاً ثم يكبر ثانياً لأول السورة التالية بعدها؟ نعم يجوز أن يكبر لأول الفاتحة لأن المعتبر الآن أن التكبير لأول السورة التالية لأن السابقة قطع عليها للركوع بدون تكبير هذا هو الظاهر، والله أعلم.

ويراعى في ذلك سجدة التلاوة أيضاً في آخر الأعراف والنجم. والحكم حينئذ أن يكبر

لسجدة التلاوة في آخر الأعراف أو آخر النجم ثم بعد الانتهاء منها يفتتح سورة الأنفال أو سورة القمر بالتكبير. وقد أشار إلى ما قلناه في هذا الفصل نظماً غير واحد من الثقات الجهابذة الأثبات. وإليك أخصره للعلامة الطباخ في هبة المنان فقد قال رحمه الله تعالى:

*ومن رأى التكبير آخر وقدْ * أراد قطعاً دون بدء اعتمدْ*

---

*وللركوع والسجود كبرا * أخرى وعكسه لمن بدأ يُرى اهـ*

وهأنذا أزيدك توضيحاً لهذا النظم البديع في بابه العظيم في استيعابه فقد أشار رحمه الله تعالى في البيت الأول إلى أنك إذا رأيت أن التكبير لآخر السورة وأردت القطع فاعتمد التكبير لآخر السورة أي كبر لآخر السورة السابقة دون الابتداء بالتكبير لأول اللاحقة . . . وهذا كله إذا كان القطع خارج الصلاة.

أما إذا كان القطع فيها فأشار بقوله رحمه الله: "وللركوع والسجود كبرا أخرى" ومعناه إذا كنت متلبساً بالصلاة وأردت القطع وقد اعتمدت التكبير لآخر السورة أيضاً فكبر لآخر السورة السابقة ثم كبر تكبيرة أخرى للركوع. وهذا إذا لم يكن هناك سجود للتلاوة. فإن كان كما في آخر العلق فاعتمد التكبير لآخر السورة أيضاً ثم كبر تكبيرة أخرى لسجود

التلاوة. وعليه: فإن كلمة "أخرى" في النظم هي صفة لتكبيرة الركوع ولتكبيرة السجود كذلك وكأنه يقول رحمه الله تعالى -كبرن تكبيرة أخرى للركوع بعد تكبيرة آخر السورة وكبرن أيضاً تكبيرة أخرى لسجود التلاوة بعد تكبيرة آخر السورة كذلك. وعلى كلتا الحالتين أي حالة القطع في الصلاة أو في خارجها فالابتداء بالسورة التالية يكون بدون تكبير لأن المعتمد في هذه الصورة أن التكبير لآخر السورة السابقة فتأمل. وقوله رحمه الله: "وعكسه لمن بدأ يرى" أي وعكس ما ذكر في الصورة السابقة من أن التكبير فيها لآخر السورة السابقة يظهر لمن يرى العكس وهو كون التكبير لأول السورة اللاحقة فإن كان كذلك فالأمر بعكس ما ذكر في الصورة الأولى وقد مر كيفية ذلك بإسهاب سواء أكان القطع في الصلاة أم في خارجها وسواء أكان ذلك في سور الختم أم في غيرها من باقي سور التنزيل. فتفطن لما ذكرناه جيداً في هذه المسألة وغيرها مما أوردناه في التكبير عامة فقد لا تجده مجموعاً في غيره بهذه الكيفية والله يرشدني وإياك إلى الصراط السوي فإنه سبحانه وليُّ ذلك والقادر عليه.

وهذا آخر ما يسر الله تعالى جمعه في هذا الكتيب والحمد لله على إتمامه حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده –والله أسأل أن يلبسه ثوب القبول وأن ينفع به أهل القرآن في كل زمان ومكان وأن ييسره لطالبيه ويعين ذا الرغبة من قاصديه . وأن يجعله خالصاً لوجه الكريم وسبباً للفوز لديه بجنات النعيم . إنه على ما يشاء قدير . وبالإجابة جدير ، اللهم اغفر لي ولوالدي ولأولادي ولمشايخي عامة ولمن علمني القرآن الكريم ولمن أقرأنيه ولعموم المسلمين والمسلمات وأن يرزقني وإياهم الستر فوق الأرض وتحت الأرض ويوم العرض . اللهم ارزقنا إيماناً كاملاً وعملاً صالحاً متقبلاً وجنة في الآخرة بعفوك لا بأعمالنا فإننا مقصرون . ولا يغفر الذنون إلا أنت يا ذا الجلال والإكرام يا ذا الطول والإنعام . اللهم بلغنا من الخير أملنا ، واختم بالإيمان أجلنا واجعل آخر كلامنا شهادة أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمداً رسول الله يا ربّ –يا ربُّ –يا ربّ –يا ربّ –يا ربّ .

*يا ربُّ إن الملوك إذا شابت عبيدهُمْ * في رقهم أعتقوهم عتق أحرار*

*وأنت يا رب أولى من يجود على * العبد الأسير فاعتقني من النار*

*واعتق المسلمين قاطبة * يارب . يارب . يارب . يارب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ هداية القارى حـ 2 صـ 585.618 ﴾

فصل

قال ابن الجزرى :

الفصل الرابع في أمور تتعلق بختم القرآن

منها أنه ورد نصاً عن ابن كثير من رواية البزي وقنبل وغيرهما أنه إذا انتهى في آخر الختمة إلى (قل أعوذ برب الناس) قرأ سورة (الحمد لله رب العالمين) وخمس آيات من أول سورة البقرة على عدد الكوفيين وهو إلى (وأولئك هم المفلحون) لأن هذا ما يسمى الحال المرتحل ثم يدعو بدعاء الختم. قال الحافظ أبو عمرو لابن كثير في فعله هذا دلائل من آثار مروية ورد التوقيف فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم وأخباره مشهورة مستفيضة جاءت عن الصحابة والتابعين والخالفين ثم قال قرأت على عبد العزيز بن محمد عن عبد الواحد بن عمر . ثنا العباس بن أحمد البرتي ثنا عبد الوهاب بن فليح المكي ثنا عبد الملك بن عبد الله بن سعوة عن خاله وهب بن زمعة بن صالح عن عبد الله بن كثير عن درباس مولى ابن

عباس عن عبد الله بن عباس عن أبي عن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأ (قل أعوذ برب الناس) أفتتح من الحمد ثم قرأ من البقرة (إلى وأولئك هم المفلحون) ثم دعا بدعاء الختمة ثم قام. حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه إسناده حسن إلا أن الحافظ أبا الشيخ الأصبهاني وأبا بكر الزينبي خالفاً أبا طاهر بن أبي هاشم وغيره فروياه عن ابن سعوة عن خاله الحافظ أبو العلاء الهمذاني طرقه في آخر مفردته لابن كثير فقال فيما أخبرنا الثقات مشافهة عن الشيخ التقى إبراهيم بن الفضل الواسطي أن الشي عبد الوهاب ابن على أخبره عن الحافظ أبي العلاء.

ذكر النبأ الوارد به قراءة سورة فاتحة الكتاب

ومن أول سورة البقرة إلى قوله (هم المفلحون) بعد الختمة وهي خمس آيات في عدد الكوفة وأربع في عددهم غيرهم. أخبرنا أبو علي الحسن بن أحمد المقري أنا أبو الحسن علي بن القاسم بن إبراهيم المقري الخياط أنا أبو حفص عمر بن إبراهيم بن أحمد المقرئ الكتاني قال فلما ختمت (والليل إذا يغشى) على ابن ذؤابة قال لي كبر مع كل سورة حتى ختمت (قل أعوذ برب الناس) قال وقال لي أيضاً (وأولئك هم المفلحون) في عدد الكوفيين وقال كذا قرأ

ابن كثير على مجاهد وقرأ مجاهد على ابن عباس وقرأ ابن عباس على أبي فلما ختم ابن عباس قال استفتح بالحمد وخمس آيات من البقرة وهكذا قال لي النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم حين ختمت عيه (أخبرنا) الحسن بن أحمد المقري. أنا أحمد ابن عبد الله الحافظ ثنا عبد الله بن محمد بن جعفر وأبو سعيد عبد الرحمن بن محمد ابن حسكا ومحمد بن إبراهيم بن علي قالوا ثنا العباس بن أحمد بن محمد بن عيس وهب زمعه عن أبيه زمعة بن صالح عن عبد الله بن كثير عن درباس مولى النبي صلى الله عليه وسلم قال وقرأ ابن عباس على أبي وقرأ أبي على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم وقال إنه كان إذا قرأ (قل أعوذ برب الناس) ثم قال (أخبرنا) أبو علي الحسن بن أحمد المقري أنا أبو أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن عبد الله المكفوف. أنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان أنا أبو خبيب العباس بن أحمد البرتي. ثنا عبد الوهاب بن فليح ثنا عبد الملك ابن عبد الله سعوة عن خاله وهب بن زمعة عن أبيه زمعة بن صالح عن عبد الله بن كثير عن درباس مولى ابن عباس وعن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي صلّى الله عليه وسلم. وقرأ أبي بن كعب على النبي صلّى الله عليه وسلم وإنه كان إذا قرأ (قل أعوذ برب الناس) افتتح من الحمد ثم قرأ من البقرة إلى (وأولئك هم المفلحون) ثم دعا بدعاء الختم ثم قام

(أخبرنا) أبو علي الحسن بن أحمد المقرى. أنا أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله الإسكاف. أنا أبو القاسم منصور بن محمد بن السندي المقرى (ثنا) أبو محمد الحسن بن إبراهيم ابن يزيد القطان (ثنا) أبو الفضل جعفر بن درستويه في جمادى الأول سنة ثلاث وتسعين ومائتين املاء (ثنا) عبد الوهاب بن فليح بن رباح المقرى. (ثنا) عبد الملك بن عبد الله بن سعوة عن خاله وهب بن زمعة عن زمعة بن صالح عن عبد الله بن كثير عن درباس مولى ابن عباس أو عن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال قرأ على النبي صلّى الله عليه وسلم ويقول إنه كان إذا قرأ على (قل أعوذ برب الناس) افتتح بالحمد ثم قرأ بعدها أربع آيات من البقرة إلى قوله (وأولئك هم المفلحون) ثم دعا، هكذا رواه أبو الفضل بن درستويه عن ابن مفلح فأدخل بين وهب بن زمعة وعبد الله بن كثير أباه زمعة بن صالح ووافقه على ذلك أبو خبيب العباس بن أحمد بن محمد البرتي إلا إنه قال عن درباس وعن مجاهد عن عبد الله بن عباس فجمع بينهما ولم يشكك (أخبرنا) بذلك الحسن بن أحمد المقرى. أنا أحمد بن عبد الله الحافظ. (ثنا) أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر (ح) وأخبرنا الحسن بن أحمد المقرى أنا أحمد بن محمد بن عبد الله الإسكاف. أنا أبو القاسم منصور بن محمد بن السندي المقرى. أنا أبو محمد عبد الله بن محمد الأنصاري. أنا أبو خبيب العباس بن أحمد البرتي. وقرأت على إسماعيل بن الفضل بن أحمد السراج

الأصبهاني عن أحمد بن الفضل بن محمد الباقر طائي قال (أخبرنا) محمد بن جعفر محمد الخزاعي عن الجرجاني أنا علي بن محمد بن إبراهيم بن خشنام المالكي . أنا أبو بكر محمد بن موسى ابن محمد الزيني قال (ثنا) أبو خبيب العباس بن أحمد بن محمد البرتي انا عبد الوهاب بن فليح (ثنا) عبد الملك بن عبد الله بن سعوة عن خاله وهب ابن زمعة عن أبيه زمعة بن صالح عن عبد الله بن كثير عن درباس مولى ابن عباس وعن مجاهد عن ابن عباس عن أبي بن

(430/840)

كعب عن النبي صلّى الله عليه وسلم وقرأ أبي على

(431/840)

النبي صلّى الله عليه وسلم وإنه كان إذا قرأ (قل أعوذ برب الناس) افتتح من الحمد ثم قرأ البقرة إلى (وأولئك هم المفلحون) ثم دعا بدعاء الختمة ثم قام . هذا حديث أبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان أبي الشيخ الأصبهاني عن أبي خبيب ، وقال أبو بكر

الزيني في حديثه عن عبد الله بن عباس عن أبي بن كعب عن النبي صلّى الله عليه وسلم وقرأ النبي صلّى الله عليه وسلم على أبي وقرأ أبي على النبي صلّى الله عليه وسلم وأنه كان إذا قرأ (قل أعوذ برب الناس) افتتح من الحمد ثم قرأ البقرة إلى (وأولئك هم المفلحون) وخالف ابا بكر الزيني وأبا محمد بن حيان أبو طاهر بن أبي هاشم وأبو القاسم بن النخاس وأبو بكر الشذائي فرروه عن أبي خبيب عن ابن مفلح عن ابن سعوة عن خاله وهب بن زمعة عن عبد الله بن كثير عن درباس وحده عن ابن عباس فأما حديث أبي طاهر فأخبرنا به شيخنا أبو بكر محمد بن الحسين بن علي الشيبابي أنا أبو بكر محمد بن علي بن محمد الخياط أنا أبو الحسين أحمد بن عبد الله بن الخضر السوسنجردي (ح) وأخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين أيضاً أنا أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الله أنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر الحمامي قالا أخبرنا أبو طاهر عبد الواحد بن عمر ابن محمد بن أبي هاشم. أنا أبو خبيب العباس بن أحمد بن محمد البرتي. ثنا عبد الوهاب ابن فليح المكي أنا عبد الملك بن عبد الله بن سعوة عن خاله وهب بن زمعة بن صالح عن عبد الله بن كثير عن درباس مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس عن أبي ابن كعب عن النبي صلّى الله عليه وسلم وقرأ على أبي على النبي صلّى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأ (قل أعوذ برب الناس) افتتح من الحمد ثم قرأ إلى (وأولئك هم المفلحون) ثم دعا بدعاء الختمة ثم قام. وأما

حديث أبي القاسم ابن نخاس وأبي بكر الشذائي فأخبرنا به علي بن يزيد بن علي الأصبهاني . أنا أحمد بن الفضل الباطرقاني .أنا محمد بن جعفر الخزاعي الجرجاني . ثنا

(432/840)

عبد الله ابن الحسين بن سلمان النخاس ببغداد وأحمد بن نصر بالبصرة قالا (حدثنا) أبو خبيب العباس بن أحمد البرتي ثنا عبد الوهاب بن فليح ثنا عبد الملك بن عبد الله بن سعوة عن خاله وهب بن زمعة عن عبد الله بن كثير عب درباس عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلّى الله عليه وسلم وقرأ على أبي وقرأ أبي على النبي صلّى الله عليه وسلم أنه كان إذا قرأ (قل أعوذ برب الناس) افتتح من الحمد ثم قرأ من البقرة إلى (وأولئك هم المفلحون) ثم دعا بدعاء الختمة ثم قام . وصار العمل على هذا في أمصار المسلمين في قراءة ابن كثير وغيرها وقراءة العرض وغيرها حتى لا يكاد أحد يختم إلا ويشرع في الأخرى سواء ختم ما شرع فيه أو لم يختمه ، نوى ختمها أو لم ينوه . بل جعل ذلك عندهم من سنة الختم ويسمون من يفعل هذا الحال المرتحل أي الذي حل في قراءته آخر الختمة وارتحل إلى ختمة أخرى ، وعكس بعض أصحابنا هذا التفسير كالسخاوي وغيره فقالوا الحال المرتحل الذي يحل في ختمة عند فراغه من الأخرى . والأول

أظهر وهو الذي يدل عليه تفسير الحديث عن النبي صلّى الله عليه وسلم (أفضل الأعمال الحال المرتحل) وهذا الحديث أصله في جامع الترمذي ذكره في آخر أبواب القراءة فقال (حدثنا) بصر بن علي الجهضمي (ثنا) الهيثم بن الربيع (حدثنا) صالح المرى عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن أبي عباس قال قال رجل يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله؟ قال (الحال المرتحل. هذا حديث غريب لا نعرفه عن ابن عباس إلا من هذا الوجه (حدثنا) محمد بن بشار ثنا مسلم ابن إبراهيم (ثنا) صالح المرى عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن النبي صلّى الله عليه وسلم ولم يذمر فيه عن ابن عباس وهذا عندي أصح من حديث نصر بن علي عن الهيثم بن الربيع (قلت) فجعل الترمذي عنده إرساله أصح من وصله لأن زرارة تابعي. (وأخبرني) بهذا الحديث أتم من هذا الإمام أبو بكر محمد بن أحمد البكري مشافهة أنا أحمد بن

(433/840)

إبراهيم الحافظ في كتابه عن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن جوير (ثنا) محمد بن أحمد بن جمرة (حدثنا) أبي عن عثمان بن سعيد الحافظ. أنا عبد الله بن أحمد الهروي في كتابه. ثنا عمر بن أحمد بن عثمان. ثنا إسحاق نب إبراهيم بن خليل. ثنا زياد بن

أيوب. ثنا زيد بن الحباب أخبرني صالح المرى. أنا قتادة عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس أن رجلاً قال: يارسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: (عليك بالحال المرتحل). قال: وما الحال المرتحل؟ قال: (صاحب القرآن كلما حل ارتحل) هكذا رفعه مفسراً مسنداً وكذا رواه مسنداً مفسراً أبو الحسن بن غلبون من طريق إبراهيم بن أبي سويد عن صالح ثنا قتادة عن زرارة عن ابن عباس فذكره وزاد فيه: يارسول الله وما الحال المرتحل؟ قال (فتح القرآن وختمه، صاحب القرآن يضرب من أوله إلى آخره ومن آخره إلى أوله كلما حل وارتحل). (وأخبرتنا) شيختنا ست العرب المقدسية مشافهة رحمها الله أنا جدي علي بن أحمد البخاري. أنا أبو سعد الصفار في كتابه أنا زاهر بن طاهر. أنا الحافظ أبو بكر البيهقي. أنا محمد بن عبد الله الحافظ. ثنا أبو العباس محمد بن يعقوب قال البيهقي وأخبرنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي طاهر الدقاق. حدثنا علي بن محمد القرشي قالا أخرنا الحسن بن عفان. ثنا زيد بن الحباب. ثنا صالح المرى. أخبرني قتادة عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس رضي الله عنهما إن رجلاً قال للنبي صلّى الله عليه وسلم يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال (عليك بالحال المرتحل) قالوا يا رسول الله وما الحال المرتحل؟ قال (صاحب القرآن يضرب في أوله حتى يبلغ آخره ويضرب في آخره حتى يبلغ أوله كلما حل ارتحل) (وأخبرني) به عمر بن الحسن قراءة عن علي بن أحمد. أنا أبو المكارم في كتابه. أنا الحسن بن أحمد المقدسي أنا أحمد بن عبد الله الحافظ ثنا أبي ثنا أحمد بن محمد

بن سعيد المروزي بالبصرة. ثنا زيد بن الحباب فذكره. ورواه البيهقي في شعب الإيمان من طريق

(434/840)

عمرو بن عاصم الكلابي. ثنا صالح المرى فذكره مرفوعاً ولفظه أن رجلاً قال يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال (الحال المرتحل) قالوا يا رسول الله: وما الحال المرتحل؟ قال (الذي يقرأ من أول القرآن إلى آخره، ومن آخره إلى أوله) وأخبرني به عالياً أحمد بن محمد ابن الحسين البنا في آخرين مشافهة عن الشيخ أبي الحسن المقدسي. أنا القاضي أبو المكارم في كتابه. أنا الحسن بن أحمد الحداد. أنا أبو نعيم الحافظ. ثنا سليمان ابن أحمد. ثنا معاذ بن المثنى. ثنا إبراهيم بن أبي سويد الزراع. ثنا صالح المرى عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس قال سأل رجل رسول الله صلّى الله عليه وسلم فقال أي العمل أحب إلى الله؟ فقال (الحال المرتحل) قال يا رسول الله فما الحال المرتحل؟ قال (صاحب القرآن يضرب في أوله حتى يبلغ آخره. وفي آخره حتى يبلغ أوله) رواه الطبراني بهذا اللفظ. ورواه الحافظ أبو الشيخ ابن حبان في فضائل الأعمال من طريق زيد بن الحباب عن صالح به ولفظه (عليكم بالحال المرتحل) فذكره- وذكره صاحب الفردوس ولفظه. خير الأعمال الحل

والرحلة افتتاح القرآن وختمه ورواه أيضاً الحافظ أبو عمرو مرسلاً من طريق عبد الله بن معاوية الجمحى ثنا صالح المرى عن قتادة عن زرارة بن أوفى قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم (أفضل الأعمال الحال المرتحل الذي إذا ختم القرآن عاد فيه) وكذا رواه الترمذي مرسلاً كما تقدم وقال إنه أصح . وقد قطع بصحبة هذا الحديث أبو محمد مكي ورواه الحافظ البيهقي في شعب الإيمان مسنداً مرفوعاً كما تقدم وسكت عليه فلم يذكر فيه ضعفاً كعادته وضعفه الشيخ أبو شامة من قبل صالح المرى ورد تفسيره بذلك فقال وكيفما كان الأمر فمدار هذا الحديث على صالح المرى وهو وإن كان عبداً صالحاً فهو ضعيف عند أهل الحديث ، قال ثم على تقدير صحته فقد اختلف في تفسيره فقيل المراد به ما ذكره القراء وقيل هو إشارة إلى تتابع الغزو وترك الإعراض عنه فلا يزال في

حل وارتحال ، ثم ذكر كلام ابن قتيبة في تفسيره الحديث كما سيأتي . ثم قال وهذا ظاهر اللفظ إذ هو حقيقة في ذلك وعلى ما أوله به بعض القراء يكون مجازاً وقد رووا التفسير فيه مدرجاً في الحديث ولعله من بعض الرواة (قلت) وفيما قال الشيخ أو شامة في هذا الحديث نظر من وجوه :

(أحدها) أن الحديث ليس مداره على صالح المرى كما ذكره بل رواه زيد بن أسلم أيضاً قال الداني أخبرني أبو الحسن علي بن محمد الربعي حدثنا علي بن مسرور ثنا أحمد بن أبي سليمان حدثنا سحنون بن سعيد حدثنا عبد الله بن وهب أخبرني ابن لهيعة عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم سئل أي الأعمال أفضل؟ فقال (الحال المرتحل) قال ابن وهب وسمعت أبا عفان المدني يقول ذلك عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول (هذا خاتم القرآن وفاتحه) ورواه أيضاً من طريق سليمان بن سعيد الكسائي. حدثنا الحصيب بن ناصح عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن أبي هريرة أن رجلاً قام أن النبي صلّى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله تعالى؟ قال (الحال المرتحل) فقال يا رسول الله وما الحال المرتحل؟ قال (صاحب القرآن يضرب من أوله إلى آخره ومن آخره إلى أوله كلما حل ارتحل) فثبت أن الحديث ليس مداره على صالح المرى.

(والثاني) أن كلام ابن قتيبة لا يدل على أنهم اختلفوا في تفسير الحديث فإنه قال في آخر كتاب غريب الحديث له ما هذا نصه: جاء في الحديث (أفضل الأعمال الحال المرتحل) قيل

ما الحال المرتحل ؟ قال (الخاتم المفتتح) ثم قال ابن قتيبة بأثر هذا : الحال هو الخاتم للقرآن شبه برجل مسافر فسار حتى إذا بلغ المنزل حل به ، كذلك تالى القرآن يتلوه حتى إذا بلغ آخره وقف عنده . والمرتحل المفتتح للقرآن شبه برجل أراد سفراً فافتتحه بالمسير ، قال وقد يكون الخاتم المفتتح أيضاً في الجهاد وهو أن يغزو ويعقب ، وكذلك الحال المرتحل يريد أن يصل ذال بهذا انتهى ، وليس فيه حكاية اختلاف في تفسير هذا الحديث غايته أنه قال : وقد يكون الخاتم المفتتح . ولا تعلق لهذا الكلام بتفسير الحديث إذ قد قطع أولا بتفسيره على ما في الحديث ، بل ساق الحديث أولا مفسراً من الحديث ثم زاد تفسيره بياناً وأنت ترى هذا عياناً .

(والثالث) إن قوله هذا ظاهر اللفظ يشير إلى تفسيره بتابع الغزو وليس ظاهر اللفظ لو جرد من التفسير دالاً على تابع الغزو بل يكون عاماً في كل من حل وارتحل من حج أو عمرة أو تجارة أو غير ذلك .

(والرابع) أن قوله وعلى ما أوله به القراء يكون مجازاً يدل على أن هذا التأويل مخصوص بالقراء وليس كذلك ولو قدر أن تفسيره ليس ثابتاً في الحديث فقد رأيت تفسير ابن قتيبة له وكذلك رواية الترمذي له في أبواب القراءة تدل قطعاً على أنه أراد هذا التأويل وكذلك أورده البيهقي الحافظ وغيره من الأئمة كأبي عبد الله الحليمي في قراءة القرآن وعدوا ذلك من آداب الختم .

(والخامس) قوله وقد رووا التفسير فيه مدرجاً في الحديث ولعله من بعض الرواة فلا نعلم أحداً صرح بادراجه في الحديث بل الرواة لهذا الحديث بين من صرح بأنه صلّى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فسره به كما هو في أكثر الروايات وبين من اقتصر على رواية بعض الحديث فلم يذكر تفسيره ، ولا منافاة بين الروايتين فتحمل رواية تفسيره على رواية من لم يفسره ويجوز الاقتصار على رواية بعض الحديث إذا لم يخل بالمعنى وهذا مما لا خلاف عندهم فيه ولا يلزم الإدراج في الرواية الأخرى وأيضاً فغايته أن تكون رواية التفسير زيادة على الرواية الأخرى وهي من ثقة وزيادة الثقة مقبولة فدل ما ذكرناه وقدمناه من الروايات والطرق والمتابعات على قوة هذا الحديث وترقيه على درجة أن يكون ضعيفاً إذ ذاك ما يقوى بعضه بعضا ويؤدي بعضه بعضا وقد روى الحافظ أبو عمرو أيضاً بإسناد صحيح عن الأعمش عن إبراهيم قال كانوا يستحبون إذا ختموا القرآن أن يقرؤا من أوله آيات وهذا صريح في صحة ما اختاره القراء وذهب إليه السلف والله أعلم .

وقال الشيخ أبو شامة ثم ولو صح هذا الحديث والتفسير لكان معناه الحث على الاستكثار من قراءة القرآن والمواظبة عليها فكلما فرغ من ختمة شرع في أخرى أي أنه لا

يضرب عن القراءة بعد ختمة يفرغ منها بل يكون قراءة القرآن دأبه وديدنه انتهى . وهو صحيح فأنا لم ندع أن هذا الحديث دال نصاً على قراءة الفاتحة والخمس من أول البقرة عقيب كل ختمة بل يدل على الإعتناء بقراءة القرآن والمواظبة عليها بحيث إذا فرغ من ختمة شرع في أخرى وأن ذلك من أفضل الأعمال .

وأما قراءة الفاتحة والخمس من البقرة فهو مما صرح . الحديث المتقدم أولا المروى من طريق ابن كثير وعلى كل تقدير فلا نقول إن ذلك لازم لكل قارئ بل نقول مكا قال أئمتنا فارس بن أحمد وغيره : من فعله فحسن ومن لم يفعله فلا حرج عليه ، وقد ذكر الإمام مرفق الدين أوب محمد عبد الله بن قدامى المقدسي الحنبلي رحمه الله في كتابه المغنى أن أبا طالب صاحب الإمام أحمد قال سألت احمد إذا قرأ (قل أعوذ برب الناس) يقرأ من البقرة شيئاً ؟ قال لا ، فلم يستحب أن يصل ختمة بقراءة شيء انتهى . فحمله الشيخ موفق الدين على عدم الاستحباب وقال لعله لم يثبت عنده فيه أثر صحيح يصير إليه انتهى . وفيه نظر ، إذ يحتمل أن يكون فهم من السائل أن ذلك لازم فقال لا ، ويحتمل أنه أراد قبل أن يدعو ففي كتاب الفروع للأمام الفقيه شمس الدين محمد بن مفلح الحنبلي ولا يقرأ الفاتحة وخمساً من

البقرة نص عليه قال الآمدي يعنى قبل الدعاء وقيل يستحب فحمل نص أحمد بقوله (لا) على أن يكون قبل الدعاء بل ينبغي أن يكون دعاؤه عقيب قراءة سورة الناس كما سيأتي نص أحمد رحمه الله وذكر قولاً آخر له بالاستحباب والله أعلم .

قال السخاوي بعد ذكر هذا الحديث : فإن قيل فقد قلتم إن رسول الله صلّى الله عليه وسلم وعلى آله وسلم قال (ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله) فكيف الجمع بينه وبين هذا الحديث ؟ (قلت) القرآن من ذكر الله إذ فيه الثناء على الله عز وجل ومدحه وذكر آلائه ورحمته وكرمه وقدرته وخلقه المخلوقات ولطفه بها وهدايته لها . فإن قلت ففيه ذكر ما حلل وحرم ومن أهلك ونم أبعد من رحمته وقصص من كفر بآياته وكذب برسله ، قلت ذكر جميعه من جملة ذكره إذ كان ذلك كله كلامه وأيضاً فإن من المدح ذكر ما أنزله من التحليل والتحريم كما أن من جملة الثناء على الطيب أن يذكر بأن له جداً ومنعه مما يضره وندبه إلى ما ينتفع به ، وكذلك أيضاً من جملة ذكر مفاخر الملك ذكر أعدائه ومخالفته وكيف كانت عاقبة خلافهم له ومحاربتهم إياه من الهلكة والدمار والخسار ، إذن القرآن أفضل الذكر (قلت) ورد في هذا المعنى أحاديث صحيحة منها أنه صلى الله

عليه وسلم سئل عن أفضل الأعمال فقال "إيمان بالله ثم جهاد في سبيله ثم حج مبرور" وفي حديث آخر "الصلاة لوقتها ثم بر الوالدين ثم الجهاد في سبيله" وفي آخر "واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة" وحديث أي الأعمال أفضل" قال "الصبر والسماحة" وقال لأبي أمامة عليك بالصوم فإنه لا مثل له فقيل في الجواب إن المراد أي من أفضل الأعمال النظائر ، لذلك يعبر عن الشيء بأنه الأفضل من أي هو من ملة الأفضل أي المجموع في الطبقة العليا التي لا طبقة أعلى منها وقيل إنه صلى الله عليه وسلم أجاب كل سائل بحسب ما هو الأفضل في حقه بحسب ما يناسبه والأصلح له وما يقدر عليه ويطيقه والله أعلم.

(440/840)

(تنبيه) المعنى في الحديث " الحال المرتحل" على حذف مضاف أي عمل الحال المرتحل ، وكذا "عليك بالحال" أي عليك بعمل الحال المرتحل وأما ما يعتمده بعض القراءة من تكرار قراءة (قل هو الله أحد) عند الختم ثلاث مرات فهو شيء نقرأ به ولا أعلم أحداً نص عليه من أصحابنا القراء ولا الفقهاء سوى أبي الفخر حامد بن علي بن حسنوية القزويني في كتابه حلية القراءة فإنه قال فيه ما نصه : والقراءة كلهم قرؤا سورة الإخلاص مرة واحد غير الهرواني عن الأعشي فإنه أخذ بإعادتها ثلاث دفعات والمأثور دفعة واحدة انتهى (قلت)

والهرواني هذا هو بفتح الهاء والراء وهو القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسين الجعفي الحنفي الكوفي كان فقيهاً كبيراً قال الخطيب البغدادي كان من عاصره بالكوفة يقول لم يكن بالكوفة من زمن ابن مسعود إلى وقته أحد أفقه منه انتهى . وقرأ برواية الأعشى على محمد بن الحسن بن يونس عن قراءته بها على أبي الحسن علي بن الحسن ابن عبد الرحمن الكسائي الكوفي صاحب محمد بن غالب صاحب الأعشى والظاهر أن ذلك كان اختياراً من الهرواني فإن هذا لم يعرف في رواية الأعشى ولا ذكره أحد من علمائنا عنه بل الذين قرؤا برواية الأعشى على الهرواني هذا كأبي علي البغدادي صاحب الروضة وأبي علي غلام الهراس شيخ أبي العز وكالشرمقاني والعطار شيخي ابن سوار وكأبي الفضل الخزاعي لم يذكر أحد منهم ذلك عن الهرواني ولو ثبت عندهم رواية لذكروه بلا شك فلذلك قلنا إنه يكون اختياراً منه والرجل كان فقيهاً عالماً أهلاً للاختيار فلعله رأى ذلك وصار العمل على هذا في أكثر البلاد عند الختم في غير الروايات والصواب عليه السلف لئلا يعتقد أن ذلك سنة ولهذا نص أئمة الحنابلة على أنه يكرر سورة الصمد وقالوا وعنه يعنون عن أحمد لا يجوز والله الموفق .

ومن الأمور المتعلقة بالختم الدعاء عقيب الختم

وهو أهمها وهو سنة تلقاها الخلف عن السلف وتقدم في أول هذا الفصل الحديث المرفوع عن النبي صلى الله عليه وسلم من طريق ابن كثير في أنه كان يدعو عقب الختم ثم يقول:

وأخبرني الشيخ العالم المسند الصالح أبو لثناء محمود بن خلف بن خليفة المنبجي رحمه الله مشافهة منه إلي في سنة سبع وستين وسبعمائة بدمشق عن الإمام الحافظ أبي محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطي أخبرنا أبو الحاج يوسف بن خليل الدمشقي الحافظ. أخبرنا أبو سعيد خليل بن أبي الرجاء الداراني. أخبرنا أبو علي الحسن بن أحمد الحداد إجازة. أخبرنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله الحافظ. أخبرنا أبو القاسم سليمان بن أحمد الحافظ. حدثنا محمد بن جعفر الإمام. حدثنا زكريا بن يحيى بن السكن الطائي. حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن مقاتل دُوأَلَ دُوزَ عن شرحبيل بن سعد عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ومن قرأ القرآن – أو قال من جمع القرآن – كانت له عند الله دعوة مستجابة إن شاء الله عجلها له في الدنيا وإن شاء أدخرها له في الآخرة" قال الطبراني لم يروه عن جابر إلا شرحبيل ولا عنه إلا مقاتل بن دوأل دوز تفرد به المحاربي ولم يسند عن مقاتل غير هذا الحديث (قلت) مقاتل بن حيان كما قيل فهو ثقة من رجال مسلم وإن يكن غيره فلا نعرفه مع أن سائر رجاله ثقات والمحاربي من رجال الصحيحين إلا أنه يروى عن المجهولين (وأخبرتنا) ست العرب بنت محمد المقدسية بمنزلها

مشافهة أنا جدي أحمد بن البخاري حضوراً قال أنا عبد الله بن عمرو أبو القاسم زاهر أنا أبو بكر الحافظ أنا أبو عبد الله الحافظ أنا أبو بكر الإسماعيلي ثنا عبد الله بن يحيى بن ياسين حدثني حمدون بن أبي عباد ثنا يحيى بن هاشم عن مسعر عن قتادة عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "مع كل ختمة دعوة مستجابة" كذا رواه أبو بكر البيهقي وقال في إسناده ضعف وروى من وجه آخر ضعيف عن أنس أخبرناه أبو طاهر

(442/840)

أحمد بن عبد الله بن ممدويه أنا أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد البرناتي بمرو أنا عمرو بن عمر بن فتح ثنا محمد بن علي ثنا أبي أنا أبو عصمة وهو نوح الجامع مرزوى عن يزيد الرقاشى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "له عند ختم القرآن دعوة مستجابة وشجرة في الجنة" (وأخبرنا) شيخنا القاضي شرف الدين أحمد بن الحسين الحنفي مشافهة عن أبي الفضل أحمد بن هبة الله الدمشقي أنا أبو روح إذناً زاهر بن طاهر أنا الإمام أبو سعد محمد بن عبد الرحمن الكنجرودي أنا الإمام أبو عبد الله الحسين بن الحسن ابن محمد الحليمي أنا بكر ومحمد بن حمدان الصيرفي . أنا أحمد بن الحسين . ثنا

مقاتل بن إبراهيم ثنا نوح بن أبي مريم عن يزيد الرقاشي عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لصاحب القرآن دعوة مستجابة عند ختمة" وبه إلى الحافظ أبي بكر قال أخبرنا أبو سعد الماليني أنا أبو أحمد بن عدي أنا ابن أبي عصمة ومحمد بن عبد الحميد الفرغاني ومحمد بن علي بن إسماعيل قالوا حدثنا علي بن حرب حفص بن عمر بن حكيم ثنا عمرو بن قيس الملائي من عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من استمع حرفاً من كتاب الله عز وجل طاهراً كتبت له عشر حسنات ومحيت عن عشر سيآت ورفعت له عشر درجات ومن قرأ حرفاً من كتاب الله في صلاة قاعداً كتبت له خمسون حسنة ومحيت عنه خمسون سيئة ورفعت له خمسون درجة ومن قرأ كان من كتاب الله في صلاة قائماً كتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ورفعت له مائة درجة ومن قرأه فختمه كتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ورفعت له مائة درجة ومن قرأ فختمه كتبت له عند الله دعوة مستجابة معجلة أو مؤخرة" قال البيهقي تفرد به حفص بن عمر وهو مجهول (قلت) قد ذكره ابن عدى في كامله وقال حدث عن عمرو بن قيس الملائي أحاديث أبو أطيل وقال يحيى بشيء وقال الأزدى متروك الحديث وقد سألت شيخنا شيخ الإسلام ابن

كثير رحمة الله تعالى ما المراد بالحرف في الحديث ؟ فقال : الكلمة ، لحديث ابن مسعود رضي الله عنه (من قرأ القرآن فله كله حرف عشر حسنات لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف) وهذا الذي ذكره هو الصحيح إذ لو كان المراد بالحرف حرف الهجاء لكان ألف بثلاثة أحرف ولام بثلاثة وميم بثلاثة وقد يعسر على فهم بعض الناس فينبغي أن يتفطن له فكثير من الناس لا يعرفه . وقال لي بعض أصحابنا من الحنابلة أنه رأى هذا في كلام الإمام أحمد رحمة الله عليه منصوصاً والله أعلم ولكن روينا في حديث ضعيف عن عون بن مالك الأشجعي مرفوعاً (من قرأ حرفاً من القرآن كتب الله له بها حسنة ، لا أقول بسم الله ولكن باء وسين وميم ولا أقول الم ولكن الألف واللام والميم وهو إن صح لا يدل على غير ما قال شيخنا . ثم رأيت كلام بعض أصحاب الإمام أحمد في ذلك فقال ابن مفلح في فروعه : وإن كان في قراءة زيادة حرف مثل (فأزلهما وأزالهما ووصى وأوصى) فهي الأولى لأجل العشر حسنات ، نقله حرب (قلت) وهذا التمثيل من ابن مفلح عجيب فإنه إذا كان المراد بالحرف اللفظي بحرفين فكان ينبغي أن يمثل بنحو (مالك وملك ، ويخدعون ويخادعون) ثم قال ابن مفلح واختار شيخنا أن الحرف الكلمة (قلت) يعني شيخه الأمام أبا العباس ابن تيمية وهذا الذي قاله هو الصحيح وقد رأيت كلامه في كتابه على المنطق فقال : وأما تسمية الاسم وحده كلمة والفعل وحده كلمة والحرف

وحده كلمة مثل هل وبل فهذا اصطلاح مختص ببعض النحاة ليس هذا من لغة العرب أصلاً وإنما تسمى العرب هذه مفردات حروفاً ، ومنه قول النبي صلّى الله عليه وسلم (من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول ألم يعنى ألف لام ميم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف والذي عليه محققو العلماء أن المراد بالحرف الاسم وحده والفعل وحده وحرف المعنى بقوله ألف حرف وهذا اسم . ولهذا لما سأل الخليل أصحابه عن المنطق بالزاي من زيد فقالوا زاي فقال نطقتم

(444/840)

بالاسم وإنما الحرف زه . ثم بسط الكلام في تقرير ذلك وهو واضح . وهذا الذي ذكره ابن مفلح عن حرب ومثل به تصرف منه وإلا فلا يقول مثل الإمام أحمد إن (أزال) أولى من (أزلّ) ولا (أوصى) أولى من (وصى) لأجل زيادة حرف ، وللكلام على هذا محل غير هذا والقصد تعريف ذلك والله أعلم . وبه قال الحافظ أبو بكر البيهقي أخبرنا أبو زكريا بن أبي إسحاق أنا أحمد ابن سليمان الفقيه . ثنا بشر بن موسى حدثني عمر بن عبد العزيز جليس كان لبشر بن حارث (ح) قال وأخبرنا أبو علي الروذباري ثنا أبو عمرو محمد بن عبد الواحد النحوي . ثنا بشر بن موسى . ثنا عمر بن عبد العزيز شيخ له قال سمعت بشر

بن الحرث يقول : حدثنا يحيى بن اليمان عن سفيان عن حبيب بن أبي عمرة قال إذا ختم الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه قال بشر بن موسى قال لي عمر بن عبد العزيز فحدثت به أحمد به أحمد بن حنبل فقال لعل هذا من مخبيات سفيان واستحسنه أحمد بن حنبل . قال البيهقي هذا لفظ حديث الفقيه وبه قال أخبرنا أبو عبد الله الحافظ . أنا أحمد بن محمد بن خالد المطوعي . ثنا مسعر بن سعيد قال كان محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله إذا كان أول ليلة من شهر رمضان يجتمع إليه أصحابه فيصلّى بهم فيقرأ في كل ركعة عشرين آية وكذلك إلى أن يختم القرآن وكذلك يقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث من القرآن فيختم عند السحر في كل ثلاث ليال وكان يختم بالنهار كل يوم ختمة ويكون ختمه عند الإفطار كل ليلة ويقول : عند كل ختمٍ دعوةٌ مستجابة . وروى أبو بكر بن داود في فضائل القرآن عن ابن مسعود (من ختم القرآن فله دعوة مستجابة) وعن مجاهد (تنزل الرحمة عند ختم القرآن) وعنه أيضاً (إن الدعاء مستجاب عند ختم القرآن) ونص الإمام أحمد على استحباب ذلك في صلاة التراويح ، قال حنبل سمعت أحمد يقول في ختم القرآن : إذا فرغت من قراءتك . قل أعوذ برب الناس) فارفع يديك في الدعاء قبل الركوع (قلت) إلى أي شيء تذهب في هذا ؟ قال رأيت أهل

مكة يفعلون وكان سفيان بن عيينة يفعله معهم بمكة ، قال عباس بن عبد العظيم وكذلك أدركت الناي بالبصرة وبمكة وروى أهل المدينة في هذا أشياء وذكر عن عثمان بن عفان رضي الله عنه . وقال الفضل بن زياد سألت أبا عبد الله يعني أحمد بن حنبل فقلت : أختم القرآن أجعله في التراويح أو في الوتر ؟ قال أجعله في التراويح يكون لنا دعاء بين اثنين . قلت : كيف أصنع ؟ قال إذا فرغت من آخر القرآن فارفع يديك قبل أن تركع وادع بنا ونحن في الصلاة وأطل القيام . قلت بم أدعو ؟ قال بما شئت ، قال ففعلت كما أمرني وهو خلفي يدعو قائماً ويرفع يديه . وروينا في كتاب فضائل القرآن لأبي عبيد عن قتادة قال كان بالمدينة رجل يقرأ القرآن من أوله إلى آخره على أصحاب له فكان ابن عباس يضع عليه الرقباء فإذا كان عند الختم جاء ابن عباس فشهده والله تعالى أعلم . قال الإمام النووي يستحب الدعاء بعد قراءة القرآن استحباباً يتأكد تأكيداً شديداً فينبغي أن يلح في الدعاء وأن يدعو بالأمور المهمة والكلمات الجامعة وأن يكون معظم ذلك بل كله في أمور الآخرة وأمور المسلمين وصلاح سلطانهم وسائر ولاة أمورهم وفي توفيقهم للطاعات وعصمتهم من المخالفات وتعاونهم على البر والتقوى وقيامهم بالحق واجتماعهم عليه وظهورهم على أعداء الدين انتهى . ونص الإمام أحمد على استحباب الدعاء عند الختم وكذا جماعة من السلف . وكان بعض شيوخنا يختار أن القارئ عليه إذا ختم هو الذي يدعو لظاهر هذا

الحديث . وسائر من أدركناهم غيره يدعو الشيخ أو من يلتمس بركته من حاضري الختم

والأمر في هذا سهل إذ الداعي والمؤمن واحد قال الله تعالى (قد أجيبت دعوتكما) قال أبو

العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد ابن كعب القرظي والربيع بتن أنس دعا موسى وأمن

هارون . فالداعي والمؤمن واحد . وكان أنس بن مالك رضي الله عنه يجمع أهله وجيرانه

عند الختم رجاء بركة دعاء الختم وحضوره . وروينا عنه في حديث مرفوع ولفظه أن النبي

صلّى الله عليه وسلم

(446/840)

إذا كان ختم القرآن جمع أهله : قال البيهقي رفعه وهم والصحيح عن أنس موقوفاً وكانوا

يستحبون جمع أهل الصلاح والعلم فقد روينا عن شعبة عن الحكم قال أرسل إلى مجاهد

وعنده ابن أبي لبابة قال : إنما أرسلنا إليك أنا نريد أن نختم القرآن وكان يقال : إن الدعاء

مستجاب عند ختم القرآن فلما فرغوا من ختم القرآن دعا بدعوات وكان كثير من السلف

يستحب الختم يوم الاثنين وليلة الجمعة واختار بعضهم الختم وهو صائم وبعض عند الإفطار

وبعض أول الليل وبعض أول النهار . قال عبد الرحمن بن الأسود قرأ القرآن فختمه نهاراً له

ذلك اليوم ومن ختمه غفر له تلك الليلة . وعن إبراهيم التيمي أنه قال كانوا يقولون إذا ختم

الرجل القرآن صلت عليه الملائكة بقية يومه وبقية ليلته وكانوا يستحبون أن يختموا في قبل الليل وقبل النهار وبعض يتخير لذلك الأوقات الشريفة وأوقات الإجابة وأحوالها وأماكنها كل ذلك رجاء اجتماع أسباب الإجابة ولا شك أن وقت ختم القرآن وقت شريف وساعته ساعة مشهودة ولاسيما ختمة قرئت قراءة صحيحة مرضية كما أنزلها الله تعالى متصلة إلى حضرة الرسالة ومعدن الوحى فينبغي أن يعتنى بآداب الدعاء فإن له آداباً وشرائط وأركاناً أتينا عليها مستوفاة في كتابنا الحصن الحصين نشير هنا إلى مالا يستغنى عنه .

منها : أن يقصد الله تبارك وتعالى بدعائه غير رياء ولا سمعة قال تعالى فادعوه مخلصين له الدين ، وقال تعالى (فادعوا الله مخلصين له الدين) .

ومنها : تقديم عمل صالح أو غيرها للحديث المجمع على صحة حديث الثلاثة الذين آووا إلى الغار فانطبقت عليهم الصخرة .

ومنها : تجنب الحرام أكلاً وشرباً ولبساً وكسباً لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك ؟ رواه مسلم .

ومنها : الوضوء لحديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلّى الله عليه وسلم فقال ادع الله أن يعافيني قال إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك قال فادعه فأمره أن يتوضأ ويحسن وضوءه ويدعو. الحديث رواه الترمذي وقال حسن صحيح غريب.

ومنها : استقبال القبلة لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : استقبل النبي صلّى الله عليه وسلم الكعبة فدعا على نفر من قريش شيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة – الحديث متفق عليه، والأحاديث في ذلك كثيرة.

ومنها : رفع اليدين لحديث سليمان يرفعه (إن ربكم حيى كريم يستحيى من عبده إذا رفع يديه إلى السماء أن يردهما صفراً) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم في صحيحهما وحديث ابن عباس أنه صلّى الله عليه وسلم قال (المسألة أن ترفع يديك حذو منكبيك أو نحوهما) الحديث رواه أبو داود والحاكم في صحيحه، ولحديث علي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم (رفع اليدين من الاستكانة التي قال الله : فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) رواه الحاكم، ولحديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم لما جمع أهل بيته ألقى عليهم كساءه ثم رفع يديه ثم قال (اللهم هؤلاء أهلي) الحديث. رواه الحاكم، والأحاديث في رفع النبي صلّى الله عليه

وعلى آله وسلم يديه في الدعاء كثيرة لا تكاد تحصى ، قال الخطابي إن من الأدب أن تكون اليدان في حالة رفعهما مكشوفين غير مغطاتين (قلت) روينا عن أبي سليمان الداراني رحمة الله عليه قال : كنت ليلة باردة في المحراب فأقلقني البرد فخبأت إحدى يدي من البرد يعني في الدعاء قال وبقيت الأخرى ممدودة فغلبتني عيناي فإذا تلك اليد المكشوفة قد سورت من الجنة فهتف بي هاتف يا أبا سليمان قد وضعنا في هذه ما أصابها ولو كانت الأخرى مكشوفة لوضعنا فيها ؛ قال فآليت على نفسي أن لا أدعو إلا ويداي خارجتان حراً كان أو برداً .

(448/840)

(ومنها) الجثو على الركب والمبالغة في الخضوع لله عز وجل والخشوع بين يديه ويحسن التأدب مع الله تعالى لحديث عامر بن خارجة بن سعد عن جده سعد رضي الله عنه أن قوماً شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه قحوط المطر قال : فقال اجثوا على الركب ثم قولوا يا رب يا رب قال ففعلوا فسقوا حتى عليه وسلم أنه كان إذا ختم القرآن دعا ً قائماً كما أورده ابن الجوزي في كتابه الوفا وغيره فلا يصح وسيأتي إسناده والكلام عليه آخراً والله أعلم .

وإذا نظر العاقل إلى دعاء الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه وكيف خضوعهم وخشوعهم وتأدبهم عرف كيف يسأل ربه عز وجل ؛ فمن دعاء آدم وحواء عليهما السلام : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) ونوح عليه السلام (رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين) ، (أني مغلوب فانتصر) وموسى عليه السلام (تبت إليك وأنا أول المؤمنين) ، (رب إني لما أنزلت إليّ من خير فقير) وزكريا عليه السلام (رب إني وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا) وأيوب عليه السلام (مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين) وإبراهيم عليه السلام لما قصد الدعاء (وإذا مرضت فهو يشفين) فأضاف الشفاء إلى الله تعالى دون المرض تأدباً . وفي صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم وكان يدعو في الصلاة "اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت . أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً لا يغفر الذنوب إلا أنت وأهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت . واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك والخير كله في يديك ولشر ليس إليك ، أنا بك وإليك – تباركت وتعاليت ، استغفرت وأتوب إليك) قال

الخطابي رحمه الله : معنى والشر ليس إليك : الإرشاد إلى استعمال الأدب في الثناء على الله جل ذكره والمدح له بأن يضاف إليه محاسن الأمور دون مساويها ولم يقع القصد به إلى إثبات شيء وإدخاله تحت قدرته ونفي ضده عنها فإن الخير والشر صادران عن خلقه وقدرته لا موجد لشيء من الخلق وغيره وقد يضاف معاظم الخلقية إليه عند الدعاء والثناء فيقال يا رب السموات والأرضين كما يقال يا رب الأنبياء والمرسلين ولا يحسن أن يقال يا رب القردة والخنازير ونحوها من سفل الحيوانات وحشرات الأرض وإن كانت إضافة جميع الحيوانات إليه من جهة الخلقة لها والقدرة شاملة لجميع أصنافها . وقال مسلم بن يسار : لو كنت بين يدي ملك تطلب

حاجة لسرك أن تخشع له . رواه ابن أبي شيبة .

(ومنها) أن لا يتكلف السجع في الدعاء لما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : "وانظر إلى السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يفعلون إلى ذلك أي لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب ؛ قال الغزالي رحمه الله : المراد بالسجع هو المتكلف من الكلام لأن ذلك لا يلائم الضراعة والذلة وإلا ففي الأدعية

المأثورة عن النبي صلى الله عليه سلم كلمات متوازنة غير متكلفة .

(ومنها) الثناء على الله تعالى أولاً وآخراً أي قبل الدعاء وبعده كذلك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لم أخبر الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام .

(ربنا إنك تعلم ما تخفي وما نعلن وما يخفي على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ، الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء . رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي) الآيات . فقدم الثناء على الله ثم دعا ، وعن يوسف عليه السلام (رب قد آتيني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة) فأثني ثم دعا (توفني مسلماً وألحقني بالصالحين) ولما أرشدنا الله تعالى في الفاتحة وثبت في الحديث القدسي "قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي . ولعبدي ما سأل ؛ إذا قال عبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله حمدني عبدي وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله : أثني على عبدي ، وإذا قال مالك يوم الدين ، قال الله : مجدني عبدي – الحديث متفق عليه" وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

كان يقول "اللهم لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم طهرني بالثلج والبرد والماء البارد" الحديث . وفيه أيضاً من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في حديثه الطويل في صفة حجه صلى الله عليه وسلم أن صلى الله عليه وسلم بدأ بالصفا فرقي عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله أكبر وقال (لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده) ثم دعا بين ذلك ثم أتى المروة ففعل مثل ذلك (وأخبرتنا) أم محمد بنت محمد بن علي البخاري إذنا ، أنا جدي علي بن أحمد قراءة عليه وأنا حاضرة . أنا أبو سعيد بن الصفار أنا أبو القاسم بن طاهر أنا أحمد بن الحسين الحافظ . أنا على بن أحمد بن عبدان . أنا أحمد بن عبيد الصفار . ثنا محمد بن الفضل بن جابر . ثنا بشر معاذ . ثنا محمد بن دينار . ثنا أبا عن الحسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ القرآن وحمد الرب وصلى على النبي واستغفر ربه فقد طلب الخير من مكانه . رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب شعب

الإيمان وقال : أبان هذا هو ابن أبي عياش وهو ضعيف (قلت) روى له أبو داود حديثاً واحداً . وقال مالك بن دينار هو طاووس القراء والحديث له شواهد وسيأتي آخر الفصل في حديث بن الحسين رضي الله عنهما ما يشهد له . وقد روينا عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد ولم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عجل هذا دعاه فقال له أو لغيره "إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجد ربه والثناء عليه ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يدعوا بما شاء" رواه أبو داود والترمذي وقال صحيح ورواه النسائي وزاد فيه وسمع رجلاً يصلي فمجد الله وحمده وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أدع تجب وسل تعطط وأخرج هذه الزيادة ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وحسنهما الترمذي . ورأينا بعض الشيوخ يبتدئون الدعاء عقيب الختم بقولهم : صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم ، وهذا تنزيل من رب العالمين ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين . وبعضهم يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له – إلى آخره – أو بما في نحو ذلك من التنزيه وبعضهم (بالحمد لله رب العالمين) لقوله صلى الله عليه وسلم "كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجزم" ورواه أبو داود وابن حبان في صحيحة (ولا حرج) في ذلك فكل ما كان في معنى التنزيه فهو ثناء . وفي الطبراني الأوسط عن علي رضي الله عنه : كل دعاء محجوب حتى

يصلي على محمد وعلى آل محمد ، وإسناده جيد . وفي الترمذي عن عمر رضي الله عنه : الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم . وقال تعالى (دعواهم فيها

(453/840)

سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) .

فلذلك استحب أن يختم الدعاء بقوله تعالى (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على لمرسلين والحمد لله رب العالمين) .

ومنها : تأمين الداعي والمستمع "لحديث فإذا أمن الإمام فأمنوا" متفق عليه ولحديث "أوجب إن أختم" فقال رجل بأي شيء يختم؟ فقال "بآمين" رواه أبو داود .

ومنها : أن يسأل اله حاجاته كلها لحديث يرفعه "ليسأل أحدكم ربه حاجاته كلها حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع" رواه ابن حبان في صحيحة والترمذي وقال غريب .

ومنها : أن يدعوا وهو متقين الإجابة : يحضر قلبه ويعظم رغتبه . لحديث أبي هريرة يرفعه "أدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة . واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه" رواه الترمذي والحاكم وقال مستقيم الإسناد . وعنه يرفعه أيضاً "إذا دعا أحدكم فليعظم

الرغبة فإنه لا يتعاظم على الله شيء" رواه مسلم وابن حبان في صحيحه وأبو عوانة .

ومنها : مسح وجهه بيديه بعد فراغه من الدعاء لحديث ابن عباس يرفعه "إذا سألتم الله فسلوه ببطون أكفكم ولا تسلوه بظهورها وامسحوا بها وجوهكم" رواه أبو داود والحاكم في صحيحه وعن السائب بن يزيد عن أبيه رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا يرفع يديه يمسح وجهه بيديه . رواه أبو داود . وعن عمر رضي الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع بهما وجهه . رواه الحاكم في صحيحه والترمذي ، وقال في بعض الأصول صحيح .

ورأيت بعض علمائنا وهو ابن عبد السلام في فتاواه أنكر مسح الوجه باليدين عقيب الدعاء ؛ ولا شك عندي أنه لم يقف على شيء من هذه الأحاديث والله أعلم .

(ورأيت) أنا النبي صلى الله عليه وسلم في شدة نزلت بي وبا لمسلمين في سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة فقلت يا رسول الله أدع الله لي وللمسلمين فرفع يديه ودعا ثم مسح بهما وجهه صلى الله عليه وسلم .

ومنها : اختيار الأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان بعض أئمة القراءة يختارون أدعية يدعون بها عند الختم لا يجاوزونها واختيارنا أن لا يجوز ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فإنه صلى الله عليه وسلم أوتى جوامع الكلم ولم يدع حاجة إلى غير ولنا فيه صلى الله عليه وسلم أسوة ؛ فقد روى أبو منصور المظفر ابن الحسين الأرجاني في كتابه فضائل القرآن وأبو بكر بن الضحاك في الشمائل كلاهما من طريق أبي ذر الهروى من رواية أبي سليمان داود بن قيس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ختم القرآن "اللهم أرحمني بالقرآن وأجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة ، اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وأرزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار وأجعله لي حجة يا رب العالمين" حديث معضل لأن داود بن قيس هذا هو الفراء الدباغ المدني من تابعي التابعين يروى عن نافع بن جبير بن مطعم وإبراهيم بن عبد الله بن حنين . روى عنه يحيى ابن سعيد القطان وعبد الله بن مسلمة القعنبي وكان ثقة صالحاً عابداً من أقران مالك ابن أنس خرج له مسلم في صحيحه وهذا الحديث لا أعلم ورد ن النبي صلى الله عليه وسلم في ختم القرآن حديث غيره (نعم) أخبرني الثقات من شيوخنا مشافهة عن الشيخ أبي الحسن علي بن أحمد المقدسي قال أنا عبد الرحمن بن علي الحافظ في كتابه . أنا ابن ناصر . أنا عبد القادر بن يوسف . أنا محمد الجوهري .

أنا عمر بن إبراهيم الكتاني . أنا محمد بن جعفر غندر . ثنا إبراهيم بن عبد الله بن يوب .

ثنا الحارث بن شريح ثنا عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ختم القرآن دعا قائماً .

كذا رواه أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه الوفا وهو حديث ضعيف ، إذ في سنده الحارث بن شريح أبو عمر النقال بالنون . قال يحيى بن معين : ليس بشيء .

(455/840)

وتكلم فيه النسائي وغيره . وقال أبو الفتح الأزدى : إنما تكلموا فيه حسداً والحارث معدود من كبار أصحاب إمامنا الشافعي الفقهاء ويشهد لهذا الحديث ما أخبرتني به الشيخة الصالحة ست العرب ابنة محمد بن علي بن أحمد المقدسية مشافهة بمنزلها بسفح قاسيون . قالت أخبرنا جدي المذكور قراءة عليه حاضرة عن أبي سعد عبد الله بن عمر الصفار . أنا أبو لقاسم زاهر بن طاهر الشحامى أنا أبو بكر أحمد بن الحسين الحافظ . أنا أبو نصر بن قتادة . أنا أبو الفضل بن خيمرويه الكرابيسي الدؤلى بها . ثنا أحمد بن نجدة القرشي ثنا أحمد بن يونس . ثنا عمرو بن شمر عن جابر الجعفي عن أبي جعفر قال كان علي بن الحسين رضي الله عنهما يذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا ختم القرآن حمداً لله بمحامد وهو قائم ثم يقول : الحمد لله رب العالمين ، والحمد لله الذي خلق

السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفرو بربهم يعدلون ، لا إله إلا الله وكذب العادلون بالله وضلوا ضلالاً بعيداً ، لا إله إلا الله وكذب المشركون بالله من العرب والمجوس واليهود والنصارى والصابئين ومن دعا لله ولداً أو صاحبة أو نداً أو شبيهاً أو مثلاً أو مماثلاً أو سمياً أو عدلاً فأنت ربنا أعظم من أن تتخذ شريكاً فيما خلقت والحمد لله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له من الذل وكبره تكبيراً الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما – قرأها إلى قوله تعالى – إن يقولون إلا كذباً) الحمد لله الذي ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة ، الآيات ، والحمد لله فاطر السموات والأرض – الآيتين ، والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون ، بل الله خير وأبقى ، وأحكم وأكرم وأجل وأعظم مما يشركون والحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ، صدق الله وبلغت رسله وأنا على ذلكم من

الشاهدين اللهم صل على جميع الملائكة والمرسلين وأرحم عبادك المؤمنين من أهل السموات والأرضين وأختم لنا بخير وافتح لنا بخير وبارك لنا في القرآن العظيم وانفعنا

بالآيات والذكر الحكيم ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم بسم الله الرحمن الرحيم . ثم إذا افتتح القرآن قال مثل هذا ولكن ليس أحد يطيق ما كان نبي الله صلى الله عليه وسلم يطيق كذا أخرجه الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه شعب الإيمان وقال قبل ذلك وقد روى عن النبي صلى الله وسلم في دعاء الختم منقطع بإسناد ضعيف وقال وقد يتساهل أهل الحديث في قبول ما ورد من الدعوات وفضائل الأعمال ما لم يكن في رواية من يعرف بوضع الحديث والكذب في الرواية ثم ساق هذا الحديث بإسناده . وأبو جعفر المذكور في الإسناد هو الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام . وعلي بن الحسين هو الإمام زين العابدين فالحديث مرسل وفي إسناده جابر الجعفي وهو شيعي ضعفه أهل الحديث ووثقه شعبه وحده ويقوى ذلك ما قدمناه عن الإمام أحمد أنه أمر الفضل بن زياد أن يدعو عقيب الختم وهو قائم في صلاة التراويح وأنه فعل ذلك معه وقد كان بعض السلف يرى أن يدعو للختم وهو ساجد كما (أخبرتنا) الشيخة ست العرب بالإسناد المتقدم إلى الحافظ أبي بكر البيهقي قال أخبرنا أبو عبد الله الحافظ . أنا أبو بكر الجرجاني ثنا يحيى بن شاسويه ثنا عبد الكريم السكري . أنا علي الباساني قال كان عبد الله ابن المبارك رحمه الله يعجبه إذا ختم القرآن أن يكون دعاؤه في السجود (قلت) وذلك كله حسن أيضاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

وأما ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من الأدعية الجامعية لخيري الدنيا والآخرة اللهم إني عبدك وابن أمتك ناصبتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزنى إلا أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرحاً (أحبر) .

اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة من كل شر (م) .

اللهم أغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي (مص) .

يا من لا تراه العيون ولا تخالطه الظنون ولا تصفه الواصفون ولا تغيره الحوادث ولا يخشى الدواهي تعلم مثاقيل الجبال ومكاييل البحار وعدد قطر الأمطار ، وعدد ورق الأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الله وأشرق عليه النهار لا يوارى منه سماء سماء ولا أرض أرضاً ولا بحر ما في قعره ولا جبل ولا جبل ما في وعره اللهم اجعل خير عمري آخره وخير عملي خواتمه وخير أيامي يوم ألقاك فيه (طس) .

اللهم أني أسألك عيشة نقية وميتة سوية ومراداً غير مخزى ولا فاضح (ط) .

اللهم أني أسألك خير المسألة وخير الدعاء وخير النجاح وخير العمل وخير الثواب وخير الحياة وخير الممات وثبتني وثقل موازيني وحقق إيماني وارفع درجتي وتقبل صلاتي واغفر خطيئاتي وأسألك الدرجات العلى من الجنة آمين (مس ط) .

اللهم أني أسألك فواتح الخير وخواتمه وجوامعه وأوله وآخره وباطنه وظاهره والدرجات العلى من الجنة آمين (مس ط) .

اللهم أني أسألك خير ما آتي وخير ما أعمل وخير ما بطن وخير ما ظهر والدرجات العلى من الجنة آمين . اللهم أني أسألك أن ترفع ذكري وتضع وزري وتصلح أمري وتطهر قلبي وتحصن فرجي وتنور قلبي وتغفر ذنبي وأسألك الدرجات العلى من الجنة آمين (مس ط) .

(458/840)

اللهم أني أسألك أن تبارك لي في سمعي وفي بصري وفي رزقي وفي روحي وفي قلبي وفي خلقي وفي أهلي وفي محياي وفي مماتي وفي عملي وتقبل حسناتي وأسألك الدرجات العلى من الجنة آمين (مس ط) .

اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك (أمس) .

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة (حب ط) .

اللهم أقسم لنا من خشيتك ما تحول به وبيننا وبين معصيتك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما حييتنا واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا وأنصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا لا تسلط علينا من لا يرحمنا (ت مس) .

اللهم أني أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والسلامة من كل والغنيمة والفوز بالجنة والنجاة من النار (مس ط) .

اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته ولا هماً إلا فرجته ولا دينا إلا قضيته ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها يا أرحم الراحمين (طب) .

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار (خم) .

وعن جابر رفعه : لا تجعلوني كقداح الراكب فإن الراكب إذا أراد أن ينطلق علق معالقه وملأ قدحاً فإن كانت له حاجة في أن يتوضأ توضأ أو أن يشرب شرب وإلا أهرقه فاجعلوني في أول الدعاء وفي وسطه وفي آخره .

قال الشيخ أبو سليمان الداراني رحمة الله عليه : إذا سألت الله حاجة فأبدأ بالصلاة عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم أدع بما شئت ثم اختم بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم فإن الله سبحانه بكرمه يقبل الصلاتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما .

وقال ابن عطاء رحمة الله عليه : للدعاء أركان وأجنحة وأسباب وأوقات فإن وافق أركانه قوي وإن وافق أجنحته طار في السماء . وإن وافقته مواقيته فاز .

(459/840)

وإن وافق أسبابه نجح "فأركانه" حضور القلب والرقة والاستكانة والخشوع وتعلق القلب بالله وقطعه من الأسباب "وأجنحته" الصدق "ومواقيته" الأسحار "وأسبابه" الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد .

قال المصنف رحمة الله عليه : وهذا آخر ما قدر الله جمعه وتأليفه من كتاب نشر القراآت العشر وابتدأت في تأليفه في أوائل شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وسبعمائة بمدينة برصه وفرغت منه في ذي الحجة الحرام من السنة المذكورة وأجزت جميع المسلمين أن يرووه عني بشرطه والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين : الطيبين الطاهرين . انتهى انتهى . اهـ ﴿النشر فى القرءات العشر صـ 703.681﴾

(460/840)

وقال العلامة الدمياطي :

(خاتمة فيما يتعلق بختم القرآن العظيم)

اعلم أن الخاتمين للقرآن الكريم على ثلاثة أحوال فمنهم من كان إذا ختم أمسك عن الدعاء وأقبل على الاستغفار وهذا حال من غلب عليه الخوف من الله تعالى وشهود التقصير في العمل ولم يأمنوا من الآفات وخشوا مناقشة الحساب فأقبلوا على الاستغفار وقنعوا بأن يخرجوا من العمل كفافا لا لهم ولا عليهم ومنهم قوم كانوا إذا ختموا دعوا وهو مروي عن ابن مسعود وأنس وغيرهما وهؤلاء قوم غلب عليهم شهود الربوبية لله تعالى وشهدوا من أنفسهم العبودية له تعالى ووجدوا من أنفسهم الفقر والفاقة إلى ربهم وعاينوا منه سعة الرحمة وعموم الفضل للمحسن والمسيء وإسباغ النعم على المقبل وعلى المدبر فأطمعهم ذلك وقوى رجاءهم في الله تعالى وعلموا أن القرآن الكريم شافع مشفع فلم يهلهم أمر ذنوبهم وإن عظمت فمدوا إلى الله تعالى يد المسألة وتضرعوا إليه وابتهلوا وعلموا أن لا ملجأ من الله إلا إليه مع ملاحظة قوله تعالى ادعوني استجب لكم وإذا سألك عبادي عني فإني قريب فكان دعاؤهم عبودية لله تعالى ومنهم قوم كانوا يصلون الخاتمة بالفاتحة عودا على بدء مر غير فصل بينهما لا بدعاء ولا بغيره لوجهين

أحدهما ما رواه الترمذي من حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله قال يقول الله

تعالى من شغله القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين وفضل كلام الله تعالى على سائر الكلام كفضل الله على خلقه

والثاني ما في ذلك من التحقق بمعنى الحلول والارتحال في الحديث المروي من طريق عبد الله ابن كثير عن درباس مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنهم عن النبي أنه كان إذا قرأ قل أعوذ برب الناس افتتح من الحمد لله ثم قرأ من البقرة وأولئك هم المفلحون ثم دعا بدعاء الختمة ثم قام قال الحافظ ابن الجزري وإسناده حسن و رواه أبو الشيخ وروى فيه حديثا مسلسلا بالتكبير وقراءة الفاتحة وأول البقرة وهي خمس آيات بالعدد الكوفي وأربع في غيره لأن الكوفي

يعد ألم وحده إلى ابن كثير عن النبي قال في النشر وصار العمل على هذا في أمصار المسلمين في قراءة ابن كثير وغيرها ويسمونه الحال المرتحل أي الذي حل في قراءته آخر الختمة وارتحل إلى ختمة أخرى فلا يزال سائرا إلى الله تعالى وعكس بعضهم فقال الحال المرتحل الذي يحل في ختمة عند فراغه من الأخرى والأول أظهر كما في النشر وأصل هذا الحديث في جامع الترمذي من حديث صالح المزي عن قتادة عن زرارة عن ان عباس قيل يا رسول الله أي

العمل أحب إلى الله تعالى قال الحال المرتحل ورواه أبو الحسن بن غلبون وزاد فيه يا رسول الله ما الحال المرتحل قال فتح القرآن وختمه صاحب القرآن يضرب من أوله إلى آخره ومن آخره إلى أوله كلما حل ارتحل لكن الحديث تكلم فيه من جهة صالح المزي وقطع بصحته أبو محمد مكي وضعفه أبو شامة وقال إن مداره على صالح المزي وهو وإن كان عبدا صالحا فهو ضعيف وفسر الحال المرتحل بالمجاهد كلما ختم غزوة افتتح أخرى وأجيب بأنه ليس مدار الحديث على صالح بل رواه زيد بن أسلم وغيره كما بينه بيانا شافيا حافظ الوقت صاحب النشر قال وقد روى الحافظ أبو عمرو الداني بإسناد صحيح عن الأعمش عن إبراهيم قال كانوا يستحبون إذا ختموا القرآن أن يقرؤوا من أوله آيات وهذا صريح في صحة ما اختاره القراء وذهب إليه السلف وليس المراد لزوم ذلك بل من فعله فهو حسن ولا حرج في تركه ومنهم قوم يطعمون الطعام للفقراء شكرا لله تعالى على ما أولاهم من نعمة الختم وهؤلاء قوم بسطتهم رؤية النعمة في الطاعة من الله تعالى ففرحوا بها وقاموا بشيء من واجب شكرها وقد قال الله تعالى ( ) قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ( ) فينبغي الجمع بين هذه الأربعة فيصل الخاتمة بالفاتحة ويتعرض لنفحات الله تعالى بالاستغفار ثم الدعاء ثم يطعم الطعام وأما ما اعتيد من تكرار سورة الإخلاص ثلاث مرات فقال في النشر إنه لم يقرأ به ولا نعلم أحدا نص عليه من القراء والفقهاء سوى أبي الفخر

حامد بن علي بن حسنوية القزويني في كتاب حلية القراء فإنه قال فيه القراء كلهم قرؤوا سورة الإخلاص مرة واحدة إلا الهرواني بفتح الهاء والراء عن الأعشى فإنه أخذ بإعادتها ثلاثا والمأثور مرة واحدة قال أعني صاحب النشر والظاهر أن ذلك كان اختيارا من الهرواني فإن هذا لم يعرف في رواية الأعشى ولا ذكره أحد من علمائنا وقد صار العمل على هذا في أكثر البلاد عند الختم والصواب ما عليه السلف لئلا يعتقد ان ذلك سنة ولهذا نص أئمة الحنابلة على أنه لا تكرر سورة الصمد قالوا وعنه يعنون أحمد لا يجوز انتهى كلام النشر قيل والحكمة فيه ما أورد أنها تعدل ثلث القرآن فيحصل به ثواب ختمة

فإن قيل كان ينبغي أن تقرأ أربعا ليحصل ختمتان فالجواب إن المراد أن يكون على يقين من حصول ختمة إما التي قرأها وإما التي حصل ثوابها بتكرير السورة فهو جبر لما لعله حصل في القرآن من خلل انتهى

ثم إن الدعاء عند الختم سنة تلقاها الخلف عن السلف ويشهد له حديث جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله من قرأ القرآن أو قال من جمع القرآن كانت له عند الله دعوة

مستجابة إن شاء عجلها له في الدنيا وإن شاء ذخرها له في الآخرة رواه الطبراني وكذا البيهقي وقال في إسناده ضعف وكان محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله إذا كان أول ليلة من رمضان اجتمع إليه أصحابه فيصلي بهم فيقرأ في كل ركعة عشر آيات وكذلك إلى أن يختم القرآن وكان يختم بالنهار كل يوم ختمة ويكون ختمة عند الإفطار كل ليلة ويقول عند كل ختمة دعوة مستجابة وعن حبيب بن أبي عمرة قال إذا ختم الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه وعن مجاهد تتنزل الرحمة عند ختم القرآن وكان أنس بن مالك يجمع أهله وجيرانه عند الختم رجاء بركته وكان كثير من السلف يستحب الختم يوم الاثنين وليلة الجمعة واختاره بعضهم وهو صائم وآخر عند الإفطار وللدعاء آداب كثيرة لا بأس بذكر شيء منها بل أهمها الإخلاص بأن يقصد الله تعالى في دعائه لوجهه ومنها تقديم عمل صالح من صدقة أو غيرها ومنها تجنب الحرام أكلا وشربا ولبسا وكسبا ومنها الوضوء لحديث فيه ومنها استقبال القبلة لحديث فيه عن ابن مسعود ومنها رفع اليدين للحديث المشهور إن ربكم الخ وينبغي كشفهما حالة الرفع ومنها الجثو على الركب والمبالغة في الخضوع لله تعالى والخشوع بين يديه ويحسن التأدب مع الله تعالى وفي حديث فيه ضعف لكن له شاهد قوي أنه كان إذا ختم القرآن دعا قائما وقد كان بعض السلف يدعو للختم وهو ساجد ومنها أن لا يتكلف السجع في الدعاء ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وانظر إلى السجع في الدعاء واجتنبه فإني عهدت رسول الله لا يفعل إلا ذلك أي الاجتناب

ومنها الثناء على الله تعالى أولا وآخرا وكذا الصلوات على النبي قال من قرأ القرآن وحمد الرب وصلى على النبي واستغفر ربه فقد طلب الخير من مكانه رواه البيهقي في الشعب وفيه أبان

وهو ضعيف ومنها تأمين الداعي والمستمع ومنها أن يسأل الله تعالى حاجته كلها حتى شسع نعله لحديث ابن حبان ومنها أن يدعو وهو متيقن الإجابة يحضر قلبه ويعظم رغبته ومنها مسح وجهه بيديه بعد فراغه من الدعاء لحديث فيه ومنها اختيار الأدعية المأثورة عن رسول الله فإن رسول الله أوتي جوامع الكلم ولم يدع حاجة إلى غيره ولنا فيه أسوة حسنة وقد روى أبو منصور الأرجاني عن داودد بن قيس قال كان رسول الله يقول عند ختم القرآن اللهم أرحمني بالقرآن العظيم واجعله لي إماما ونورا وهدى ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل والنهار

واجعله لي حجة يا رب العالمين قال الحافظ ابن الجزري وهذا الحديث لا أعلم ورد عن النبي في ختم القرآن حديث غيره وقد كان يحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك رواه أبو داود من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها وكان من دعائه اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل ومن عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وضلع الدين وغلبة الرجال اللهم اغفر خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ونفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وارزقني علما ينفعني اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير والموت راحة لي من كل شر اللهم إني أسألك عيشة تقية وميتة سوية ومردا غير مخز ولا فاضح اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك آمين اللهم لا تدع لنا ذنبا إلا غفرته ولا هما إلا فرجته ولا دينا إلا قضيته ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها يا أرحم الراحمين اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس

الضجيع وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة اللهم عافني في جسدي وعافني في بصري واجعله الوارث مني اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة اللهم اجعل خير عملي آخره وخير عملي خواتمه وخير أيامي يوم ألقاك فيه واختلف في إهداء ثواب الختمة ونحوها للنبي فقيل بمنعه لعدم الإذن فيه بخلاف الصلاة عليه وسؤال

الوسيلة له ولأنه تحصيل للحاصل لأن له مثل أجر من تبعه وأجازه الشيخ أبو بكر الموصلي قال بل هو مستحب وتبعه كثيرون وهذا هو الراجح عندنا معاشر الشافعية بل قال العلامة ابن حجر المكي في باب الإجازة من شرحه لمنهاج النووي إن القول الأول وهم وأطال في الاستدلال لأرجحية الثاني وحكى الغزالي عن ابن الموفق أنه حج عن رسول الله حججا وذكر القضاعي أنها ستون حجة وذكر محمد بن إسحاق أنه ختم عن رسول الله أكثر من ثلاثة عشر ألف ختمة وضحى عنه مثل ذلك واستحب بعضهم أن يختم الدعاء بقوله ( ) سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ( ) الآية 180 - 182 و ( ) الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله (الآية

43 وأستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه مستعينا به متوسلا إليه في ذلك بنبيه سيدنا محمد وأسأله أن يسبل علينا ستره الجميل وأن يعفو عني وعن والدي وأولادي ومشايخي وإخواني والمسلمين وأن يعطف علينا نبينا

سيدنا محمدا ويمن علينا بجواره في الحياة وبعد الممات مع رضاه عنا في عافية بلا محنة وأن يجعل ما أعانني عليه من جمع هذا التلخيص خالصا لوجهه وأن ينفع به أهله ويعرفهم قدره وأن يرحم به والدي كما ربياني صغيرا وأستودع الله تعالى ديني ونفسي وجميع ما أنعم به علي وأهلي وأصحابي والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه حمدا يوافي نعمه ويكافىء مزيده يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وصل أبدا أفضل صلواتك على سيدنا عبدك ونبيك ورسولك محمد وآله وسلم عليه تسليما كثيرا وزده تشريفا تكريما وأنزله المنزل المقرب عندك يوم القيامة آمين وصل وسلم على جميع الأنبياء وآل كل وعلينا معهم بعدد معلوماتك آمين. انتهى انتهى. ا هـ ﴿إتحاف فضلاء البشر ص ﴾

أبواب مهمة للإمام أبى عمرو الدانى

قال عليه رحمة الله :

باب ذكر أجزاء القرآن

أخبرنا خلف بن خاقان قال أنا أحمد بن محمد قال أنا علي قال أنا أبو عبيد قال أنا أبو نعيم عن عبد الله بن عبد الرحمن الطائفي عن عثمان بن عبد الله بن أوس عن جده أنه كان في الوفد الذين وفدوا على رسول الله من بني مالك وذكر الحديث قال فيه فقلنا لأصحاب رسول الله أنه قد حدثنا أن طرأ عليه حزبه من القرآن فكيف تحزبون القرآن فقالوا نحزبه ثلاث سور وخمس سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سورة وثلاث عشرة سورة وحزب المفصل ما بين قاف وأسفل

وقال الحافظ أخبرنا إبراهيم بن خطاب اللمائي قراءة مني عليه قال أنا أحمد بن خالد قال أنا سالم بن الفضل بن سهل البغدادي قال أنا أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال أنا عمر بن شبة قال حدثني أبو بكر العليمي قال أنا عبد الله بن بكر السهمي قال أنا عمرو بن المنخل السدوسي عن مطهر بن خالد الربعي عن سلام أبي محمد الحماني أن الحجاج بن يوسف جمع القراء والحفاظ والكتاب فقال أخبروني عن القرآن كله كم من حرف فيه قال وكنت فيهم فحسبنا فأجمعنا على أن القرآن ثلاثة مئة ألف حرف وأربعون ألف حرف وسبع مئة حرف ونيف وأربعون حرفا

قال فأخبروني إلى أي حرف ينتهي نصف القرآن فإذا هو في الكهف (﴿ وليتلطف ﴾)

في الفاء

قال فأخبروني بأثلاثه فإذا الثلث الأول رأس مئة من براءة والثلث الثاني رأس مئة أو إحدى ومئة من طسم الشعراء والثلث الثالث ما بقي من القرآن

قال فأخبروني بأسباعه على الحروف فإذا أول سبع في النساء (﴿ فمنهم من آمن به ومنهم من صد ﴾) في الدال والسبع الثاني في الأعراف (﴿ أولئك حبطت ﴾) في التاء والسبع الثالث في الرعد (﴿ أكلها دائم ﴾) في الألف في آخر أكلها والسبع الرابع في الحج (﴿ ولكل أمة جعلنا منسكا ﴾) في الألف والسبع الخامس في الأحزاب (﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾) في الهاء والسبع السادس في الفتح (﴿ الظانين بالله ظن السوء ﴾) في الواو والسبع السابع الباقي من القرآن

قال عمرو بن المنخل فأخبرني توبة بن علوان المجاشعي وكان من قراء الناس عن سلام أبي محمد الحماني قال وسألناه عن أرباعه قال أول ربع خاتمة الأنعام والربع الثاني في الكهف والربع الثالث خاتمة الزمر والربع الرابع ما بقي من القرآن قال علمناه في أربعة أشهر قال وكان

الحجاج يقرأ في كل ليلة ربعا

باب النصف الأول والثاني

النصف الأول من البقرة إلى اثنتين وسبعين من الكهف (﴿ لقد جئت شيئًا نكرا ﴾)

النصف الأخير إلى ( )

باب الأثلاث

الثلث الأول من البقرة إلى ثلاث وتسعين آية من التوبة (﴿ ألا يجدوا ما ينفقون ﴾) والثلث الثاني إلى اثنتين وأربعين آية من العنكبوت (﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾) والثلث الثالث إلى (﴿ من الجنة والناس ﴾)

باب الأرباع

الربع الأول من البقرة إلى ثلاث آيات من الأعراف (﴿ أو هم قائلون ﴾) والربع الثاني إلى اثنتين وسبعين آية من الكهف (﴿ لقد جئت شيئًا نكرا ﴾) والربع الثالث إلى أربع وأربعين ومئة آية من والصافات (﴿ إلى يوم يبعثون ﴾) والربع الرابع إلى (﴿ من الجنة والناس ﴾)

باب الأخماس

الخمس الأول من البقرة إلى أربع وثمانين آية من المائدة (﴿ وأنهم لا يستكبرون ﴾)

والخمس الثاني إلى اثنتين وخمسين آية من يوسف (﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾)

والخمس الثالث إلى إحدى وعشرين آية من الفرقان (﴿ وعتوا عتوا كبيرا ﴾) والخمس الرابع إلى ثلاث وأربعين آية من حم السجدة (﴿ وإنهم لفي شك منه مريب ﴾) والخمس الخامس إلى (﴿ من الجنة والناس ﴾)

باب الأسداس

السدس الأول من البقرة إلى مئة وسبع وأربعين آية من النساء (﴿ وكان الله شاكرا عليما ﴾) والسدس الثاني إلى ثلاث وتسعين آية من التوبة (﴿ ألا يجدوا ما ينفقون ﴾)

والسدس الثالث إلى اثنتين وسبعين آية من الكهف (﴿ لقد جئت شيئا نكرا ﴾)

والسدس الرابع إلى اثنتين وأربعين آية من العنكبوت (﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾)

والسدس الخامس إلى إحدى وثلاثين آية من الجاثية (﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾)

والسدس السادس إلى (﴿ من الجنة والناس ﴾)

باب الأسباع

السبع الأول من البقرة إلى إحدى وستين آية من النساء (﴿ يصدون عنك صدودا ﴾)

والسبع الثاني إلى رأس مئة وتسع وستين آية من الأعراف (﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين

﴾) والسبع الثالث إلى سبع وعشرين آية من إبراهيم (﴿ لعلهم يتذكرون ﴾) والسبع الرابع إلى أربع وخمسين آية من المؤمنين (﴿ من مال وبنين ﴾) والسبع الخامس إلى إحدى وعشرين آية من سبأ (﴿ إلا فريقا من المؤمنين ﴾) والسبع السادس إلى خاتمة الفتح والسبع السابع إلى (﴿ من الجنة والناس ﴾)

باب الأثمان

الثمن الأول من البقرة إلى خاتمة آل عمران والثمن الثاني إلى ثلاث آيات من الأعراف (﴿ أو هم قائلون ﴾) والثمن الثالث إلى أربع وأربعين من هود (﴿ وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾) والثمن الرابع إلى اثنتين وسبعين من آية الكهف (﴿ شيئا نكرا ﴾) والثمن الخامس إلى مئتين وعشرين آية من الشعراء (﴿ إنه هو السميع العليم ﴾) والثمن السادس إلى مئة وأربع وأربعين آية من والصافات (﴿ إلى يوم يبعثون ﴾) والثمن السابع إلى خاتمة والطور والثمن الثامن إلى (﴿ من الجنة والناس ﴾)

باب الأتساع

التسع الأول من البقرة إلى مئة وخمسين آية من آل عمران (﴿ وهو خير الناصرين ﴾)

والتسع الثاني إلى ستين آية من الأنعام [﴿ ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ﴾] والتسع الثالث إلى ثلاث وتسعين آية من التوبة [﴿ ألا يجدوا ما ينفقون ﴾] والتسع الرابع إلى عشرين آية من النحل [﴿ وهم يخلقون ﴾] والتسع الخامس إلى تسع عشرة آية من الحج [﴿ يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾] والتسع السادس إلى اثنتين وأربعين آية من العنكبوت [﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾] والتسع السابع إلى سبع آيات من حم المؤمن [﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾] والتسع الثامن إلى ثلاث عشرة آية من الواقعة [﴿ المقربون ﴾] والتسع التاسع إلى خاتمة [﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾]

باب الأعشار

العشر الأول من البقرة إلى تسع وثمانين آية من آل عمران [﴿ وما لهم من ناصرين ﴾] والعشر الثاني إلى أربع وثمانين آية من المائدة [﴿ وأنهم لا يستكبرون ﴾] والعشر الثالث إلى إحدى وأربعين آية من الأنفال [﴿ نعم المولى ونعم النصير ﴾] والعشر الرابع إلى اثنتين وخمسين آية من يوسف [﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾] والعشر الخامس إلى اثنتين وسبعين آية من الكهف [﴿ لقد جئت شيئا نكرا ﴾] والعشر السادس إلى إحدى

وعشرين آية من الفرقان (﴿ وعتوا عتوا كبيرا ﴾) والعشر السابع إلى ثلاثين آية من الأحزاب (﴿ وكان ذلك على الله يسيرا ﴾) والعشر الثامن إلى ثلاث وأربعين آية من حم السجدة (﴿ وإنهم لفي شك منه مريب ﴾) والعشر التاسع إلى عشرين آية من الحديد (﴿ ذو الفضل العظيم ﴾) والعشر العاشر إلى (﴿ من الجنة والناس ﴾)

باب أنصاف الأسباع

نصف السبع الأول إلى مئتين وخمس وستين من البقرة (﴿ لعلكم تتفكرون ﴾) ونصف السبع الثاني إلى عشرين آية من الأنعام (﴿ فهم لا يؤمنون ﴾) ونصف السبع الثالث إلى ستين آية من سورة يونس (﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾) ونصف السبع الرابع إلى اثنتين وسبعين آية من الكهف (﴿ لقد جئت شيئا نكرا ﴾) ونصف السبع الخامس إلى أربعين آية من طسم القصص (﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾) ونصف السبع السادس إلى أربعين آية من حم المؤمن (﴿ يرزقون فيها بغير حساب ﴾) ونصف السبع السابع إلى خاتمة التغابن

باب أنصاف الأسداس

قال الحافظ رحمه الله تعالى وأخرجت هذه الأنصاف من أجزاء ستين وهي التي قرأت بها على غير واحد من الشيوخ نصف السدس الأول إلى أربع عشرة آية من آل عمران (﴿ والله عنده حسن المآب ﴾) ونصف السدس الثاني إلى ثلاث آيات من الأعراف (﴿ أو هم قائلون ﴾) ونصف السدس الثالث إلى عشرين آية من الرعد (﴿ وبئس المهاد ﴾) ونصف السدس الرابع إلى عشرين آية من النور (﴿ وأن الله رؤوف رحيم ﴾) ونصف السدس الخامس إلى أربع وأربعين ومئة من والصافات (﴿ إلى يوم يبعثون ﴾) ونصف السدس السادس إلى خاتمة الصف

باب أنصاف الأثمان

نصف الثمن الأول إلى أربعين ومئتين من البقرة (﴿ من معروف والله عزيز حكيم ﴾) ونصف الثمن الثاني إلى خمس وثلاثين من المائدة (﴿ لعلكم تفلحون ﴾) ونصف الثمن الثالث رأس عشر آيات من براءة (﴿ وأولئك هم المعتدون ﴾) ونصف الثمن الرابع خاتمة الحجر ونصف الثمن الخامس إلى أربعين من الحج (﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾) ونصف الثمن السادس خاتمة لقمان ونصف الثمن السابع خاتمة عسق ونصف الثمن الثامن خاتمة الحاقة

باب أنصاف الأتساع

نصف التسع الأول إلى عشرين ومئتين من البقرة ﴿ أن الله عزيز حكيم ﴾ ونصف التسع الثاني إلى سبع وأربعين ومئة من النساء ﴿ شاكرا عليما ﴾ ونصف التسع الثالث

إلى إحدى وثلاثين ومئة من الأعراف ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ونصف التسع الرابع خاتمة هود ونصف التسع الخامس إلى أربع وسبعين من الكهف ﴿ لقد جئت شيئا نكرا ﴾ ونصف التسع السادس إلى ثمان وستين من الشعراء ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ ونصف التسع السابع خاتمة سبأ ونصف التسع الثامن إلى اثنتين وثلاثين من الجاثية ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ ونصف التسع التاسع خاتمة الملك

باب أنصاف الأعشار

نصف العشر الأول من البقرة رأس إحدى وتسعين ومئة ﴿ كذلك جزاء الكافرين ﴾ ونصف العشر الثاني رأس إحدى وتسعين من النساء ﴿ سلطانا مبينا ﴾ ونصف العشر الثالث رأس أربع آيات من الأعراف ﴿ أو هم قائلون ﴾ ونصف العشر الرابع رأس أربعين آية من يونس ﴿ بالمفسدين ﴾ ونصف العشر الخامس رأس خمسين آية من

النحل (﴿ ما يؤمرون ﴾) ونصف العشر السادس خاتمة الأنبياء ونصف العشر السابع رأس ستين آية من القصص (﴿ أفلا تعقلون ﴾) ونصف العشر الثامن رأس أربع وأربعين آية ومئة من والصافات (﴿ إلى يوم يبعثون ﴾) ونصف العشر التاسع خاتمة القتال ونصف العشر العاشر خاتمة المدثر

قال الحافظ رحمه الله وأخذت أنصاف الأثمان والأتساع والأعشار من كتاب بعض علمائنا ونقلتها على حسب ما وجدتها فيه وقد روى شعبة عن أبي عوانة أنه قال أول من جزأ القرآن بأسباعه وأعشاره على الآيات عثمان رحمه الله وجزأه على الكلمات أبي بن كعب وبه أخذ أهل العراق وجزأه على الحروف معاذ بن جبل وبه أخذ ابن مسعود رضي الله عنهم وبالله التوفيق

باب ذكر أرباع الأسداس

وهي أجزاء أربعة وعشرين ويسميها أهل مصر القراريط قال الحافظ رحمه الله واقرأني بها شيخنا أبو الفتح رحمه الله وأخذها علي جزءا جزءا

الجزء الأول منها رأس مئة وستين من البقرة (﴿ ولا هم ينظرون ﴾) الثاني خاتمة البقرة الثالث خاتمة آل عمران الرابع رأس سبع وأربعين ومئة من النساء (﴿ شاكرا عليما ﴾) الخامس رأس خمس ومئة من المائدة (﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾) السادس رأس أربع آيات من الأعراف (﴿ أو هم قائلون ﴾) السابع رأس تسع وتسعين ومئة من الأعراف (﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾) الثامن رأس اثنتين وتسعين من براءة (﴿ ألا يجدوا ما ينفقون ﴾) التاسع رأس أربع وأربعين من هود (﴿ وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾) العاشر خاتمة الرعد وقيل رأس ثماني عشرة آية منها (﴿ وبئس المهاد ﴾) الحادي عشر رأس ثمانين من النحل (﴿ ومتاعا إلى حين ﴾) الثاني عشر رأس أربع وسبعين من الكهف (﴿ لقد جئت شيئا نكرا ﴾) الثالث عشر رأس إحدى وستين من الأنبياء (﴿ لعلهم يشهدون ﴾) الرابع عشر رأس عشرين من النور (﴿ وأن الله رؤوف رحيم ﴾) الخامس عشر رأس عشرين ومئتين من الشعراء (﴿ السميع العليم ﴾) السادس عشر رأس خمس وأربعين من العنكبوت (﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾) السابع عشر رأس خمسين من الأحزاب (﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾) بعده (﴿ ترجي من تشاء ﴾) الثامن عشر رأس أربع وأربعين ومئة من والصافات (﴿ إلى يوم يبعثون ﴾) التاسع عشر رأس تسع وستين من غافر (﴿ في آيات الله أنى يصرفون ﴾) العشرون رأس اثنتين وثلاثين من الجاثية (﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾) الحادي والعشرين خاتمة والطور الثاني

والعشرين خاتمة الممتحنة الثالث والعشرين خاتمة المزمل الرابع والعشرين إلى آخر القرآن

باب ذكر أرباع الأسباع

وهي أجزاء ثمانية وعشرين جزءا أخبرني خلف بن إبراهيم المقرىء فيما أذن لي في روايته عنه قال ثنا أبو بكر محمد بن عبد الله المقرىء الأصبهاني قال وهذه أجزاء ثمانية وعشرين وهي أرباع الأسباع على ما وجدناه إذ عددنا حروف كل سورة آية آية وضممنا بعضها إلى بعض عشرا عشرا

فأولها ينتهي في البقرة إلى قوله تعالى (﴿ ولعلكم تهتدون ﴾) بعده (﴿ كما أرسلنا ﴾)

والثاني (﴿ ولا هم يحزنون ﴾) بعده (﴿ قول معروف ومغفرة ﴾)

والثالث في آل عمران (﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾) بعده (﴿ ولقد نصركم الله ﴾)

والرابع في النساء (﴿ ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾) بعده (﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون ﴾)

والخامس في المائدة (﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾) بعده (﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل ﴾)

والسادس في الأنعام (﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾)

والسابع في الأعراف (﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾)

والثامن فيها (﴿ ولعلهم يرجعون ﴾) بعده (﴿ واتل عليهم ﴾)

والتاسع في التوبة (﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾) بعده (﴿ ويحلفون ﴾)

والعاشر في يونس (﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾) بعده (﴿ ثم بعثنا ﴾)

الحادي عشر في يوسف (﴿ إن كيدكن عظيم ﴾)

الثاني عشر في إبراهيم (﴿ ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾)

الثالث عشر في بني إسرائيل (﴿ إنه كان عبدا شكورا ﴾)

الرابع عشر في الكهف (﴿ صبرا ﴾) بعده (﴿ ويسألونك عن ذي القرنين ﴾)

الخامس عشر في الأنبياء (﴿ أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾)

السادس عشر في المؤمنين (﴿ ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ﴾)

السابع عشر في الشعراء (﴿ أنباء ما كانوا به يستهزؤون ﴾)

الثامن عشر في القصص (﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾)

التاسع عشر في الروم (﴿ فهم مسلمون ﴾)

والموفي عشرين في سبأ (﴿ ولا تستقدمون ﴾)

الأول بعد العشرين في والصافات (﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾)

الثاني بعد العشرين في المؤمن (﴿ بآيات الله يجحدون ﴾)

الثالث بعد العشرين آخر الزخرف

الرابع بعد العشرين في الحجرات (﴿ لعلكم ترحمون ﴾)

الخامس بعد العشرين في الحديد (﴿ والله بما تعملون بصير ﴾)

السادس بعد العشرين في الطلاق (﴿ لكل شيء قدرا ﴾)

السابع بعد العشرين في الإنسان (﴿ نضرة وسرورا ﴾)

الثامن بعد العشرين آخر القرآن

قال أبو بكر الأصبهاني وعدد كل جزء من ذلك على الحقيقة اثنا عشر ألف حرف وثلاث مئة حرف

باب ذكر أجزاء سبعة وعشرين

وهي المرتبة لقيام شهر رمضان أخبرني الخاقاني قال أنا محمد بن عبد الله الأصبهاني قال

وهذه أجزاء سبعة وعشرين على ذلك

أولها ينتهي في البقرة إلى قوله تعالى (﴿ فإن الله شاكر عليم ﴾)

الثاني (﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾) بعده (﴿ للفقراء ﴾)

والثالث في آل عمران (﴿ والله يحب المحسنين ﴾) بعده (﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا ﴾)

الرابع في النساء (﴿ لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾)

الخامس في المائدة (﴿ ولهم عذاب أليم ﴾) بعده (﴿ يريدون ﴾)

السادس في الأنعام (﴿ وهو أسرع الحاسبين ﴾)

السابع في الأعراف (﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾)

الثامن في الأنفال (﴿ منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾)

التاسع في التوبة (﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾) بعده (﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ﴾)

العاشر في هود (﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾)

الحادي عشر في يوسف (﴿ إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾)

الثاني عشر في النحل (﴿ فلبئس مثوى المتكبرين ﴾)

الثالث عشر في بني إسرائيل (﴿ فأبى الظالمون إلا كفورا ﴾)

الرابع عشر في طه (﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ﴾)

الخامس عشر في الحج (﴿ لعلكم تشكرون ﴾) بعده (﴿ لن ينال الله لحومها ﴾)

السادس عشر في النور (﴿ والله عليم حكيم ﴾) بعده (﴿ والقواعد من النساء ﴾)

السابع عشر في النمل (﴿ وإني عليه لقوي أمين ﴾)

الثامن عشر في العنكبوت (﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾) بعده (﴿ ويستعجلونك ﴾)

التاسع عشر في الأحزاب (﴿ على كل شيء رقيبا ﴾)

الموفي عشرين في والصافات (﴿ لا إله إلا الله يستكبرون ﴾)

الأول بعد العشرين في المؤمن (﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾)

الثاني بعد العشرين في الزخرف (﴿ ويحسبون أنهم مهتدون ﴾)

الثالث بعد العشرين في الفتح (﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾)

الرابع بعد العشرين في الواقعة (﴿ إلى ميقات يوم معلوم ﴾)

الخامس بعد العشرين في التغابن (﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾)

السادس بعد العشرين في الإنسان (﴿ إما شاكرا وإما كفورا ﴾)

السابع بعد العشرين آخر القرآن

قال أبو بكر وعدد كل جزء من ذلك على الحقيقة اثنا عشر ألف حرف وخمسة وخمسون

وسبع مئة حرف على زيادة حرفين في الجزء الأخير على سائر الأجزاء

باب ذكر أجزاء عشرين ومئة

قال الحافظ رحمه الله تعالى وأخبرني خلف بن إبراهيم قال ثنا محمد بن عبد الله

الأصبهاني قال وهذه أجزاء عشرين ومئة على ذلك وكل جزء منها على الحقيقة ألفان

وثماني مئة وسبعون حرفا لأن عدد جميع القرآن ثلاث مئة ألف حرف وأربعة وأربعون ألف

حرف وأربع مئة حرف

فمن مبتدأ هذه الأجزاء في البقرة (﴿ وإياي فارهبون ﴾ ما يسرون وما يعلنون) (﴿

فقد ضل سواء السبيل ﴾ إلى صراط مستقيم) بعده (﴿ وكذلك جعلناكم ﴾ لفي

شقاق بعيد) (﴿ واعلموا أنكم إليه ﴾)

﴿ تحشرون ﴾) بعده (﴿ ومن الناس ﴾ لقوم يعلمون) بعده (﴿ وإذا طلقتم النساء

﴾ لمن المرسلين) (﴿ ولا هم يحزنون ﴾) بعده (﴿ الذين يأكلون الربا ﴾) فذلك

تسعة أجزاء

وفي آل عمران (﴿ سريع الحساب ﴾) بعده (﴿ فإن حاجوك ﴾ وما لهم من ناصرين)

بعده (﴿ وأما الذين آمنوا ﴾ وما كان من المشركين) بعده (﴿ إن أول بيت ﴾ والله

يحب المحسنين) بعده (﴿ والذين إذا فعلوا ﴾ الموت إن كنتم صادقين) فذلك خمسة أجزاء

وفي النساء (﴿ حوبا كبيرا ﴾ والله غفور رحيم) بعده (﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ ظلا ظليلا) (﴿ ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا ﴾ ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) (﴿ أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ﴾) فذلك ستة أجزاء

(478/840)

وفي المائدة (﴿ شديد العقاب ﴾) بعده (﴿ حرمت عليكم ﴾ إنما يتقبل الله من المتقين) (﴿ فأصبحوا خاسرين ﴾ أولئك أصحاب الجحيم) (﴿ لا أعذبه أحدا من العالمين ﴾) فذلك خمسة أجزاء

وفي الأنعام (﴿ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) (﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ قد ضلوا وما كانوا مهتدين) فذلك أربعة أجزاء

وفي الأعراف (﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾) و (﴿ وهم يطمعون ﴾ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين) (﴿ إذا هم ينكثون ﴾ بما كانوا يظلمون) (﴿ إنه سميع عليم ﴾) فذلك ستة أجزاء

وفي الأنفال (﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ بكل شيء عليم) آخرها فذلك جزءان

وفي التوبة (﴿ ما كنتم تكنزون ﴾) (﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ ذلك

الفوز العظيم) بعده (﴿ وممن حولكم ﴾) فذلك ثلاثة أجزاء

وفي يونس (﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ فما لكم كيف تحكمون) (﴿ بكل ساحر عليم

﴾) فذلك ثلاثة أجزاء

وفي هود (﴿ والله على كل شيء وكيل ﴾ وما نحن لك بمؤمنين) (﴿ إني معكم رقيب

﴾) فذلك ثلاثة أجزاء

وفي يوسف (﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وهم له منكرون) (﴿ وألحقني

بالصالحين ﴾) فذلك ثلاثة أجزاء

وفي الرعد (﴿ ولهم سوء الدار ﴾)

وفي إبراهيم (﴿ غليظ ﴾)

وفي الحجر (﴿ من كل شيطان رجيم ﴾)

وفي النحل (﴿ لهداكم أجمعين ﴾ وهو كظيم) (﴿ ولكم عذاب عظيم ﴾) فذلك

ثلاثة أجزاء

وفي بني إسرائيل (﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ إلا تخويفا) (﴿ ونزلناه تنزيلا ﴾) فذلك

ثلاثة أجزاء

وفي الكهف (﴿ خيرا منها منقلبا ﴾ صبرا) بعده (﴿ ويسألونك ﴾) فذلك جزءان

وفي مريم (﴿ هذا صراط مستقيم ﴾)

وفي طه (﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ عن قومك يا موسى) فذلك جزءان

وفي الأنبياء (﴿ كما أرسل الأولون ﴾ فاعلين) بعده (﴿ قلنا يا نار ﴾) جزءان

وفي الحج (﴿ ولا كتاب منير ﴾ مما تعدون) جزءان

وفي المؤمنين (﴿ وعلى الفلك تحملون ﴾ وأنهم لكاذبون) جزءان

وفي النور (﴿ ورزق كريم ﴾ فأولئك هم الفاسقون) بعده (﴿ وأقيموا الصلاة ﴾)

جزءان

وفي الفرقان (﴿ مع الرسول سبيلا ﴾)

وفي الشعراء (﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ وأطيعون) في قصة عاد

جزءان

وفي النمل (﴿ لعلكم تصطلون ﴾ فساء صباح المنذرين) جزءان

وفي القصص (﴿ عدو مضل مبين ﴾ وهو أعلم بالمهتدين) جزءان

وفي العنكبوت (﴿ بما في صدور العالمين ﴾ أولئك هم الخاسرون) جزءان

وفي الروم (﴿ يشركون ﴾) بعده (﴿ ليكفروا ﴾)

وفي لقمان (﴿ لصوت الحمير ﴾)

وفي الأحزاب (﴿ بما تعملون خبيرا ﴾ وأجرا عظيما) بعده (﴿ وما كان لمؤمن ﴾

غفورا رحيما) آخرها فذلك ثلاثة اجزاء

وفي سبأ (﴿ أولئك في العذاب محضرون ﴾)

وفي الملائكة (﴿ وغرابيب سود ﴾)

وفي يس (﴿ ومما لا يعلمون ﴾)

وفي الصافات (﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ لهم المنصورون) جزءان

وفي ص (﴿ إذ يختصمون ﴾)

وفي الزمر (﴿ ذلك جزاء المحسنين ﴾)

وفي المؤمن (﴿ تقلبهم في البلاد ﴾ ونصيبا من النار) جزءان

وفي السجدة (﴿ فهم يوزعون ﴾)

وفي عسق (﴿ الله العزيز الحكيم ﴾ هل إلى مرد من سبيل) جزءان

وفي الزخرف (﴿ منها يضحكون ﴾)

وفي الدخان (﴿ ولا هم ينصرون ﴾)

وفي الأحقاف (﴿ وهم عن دعائهم غافلون ﴾)

وفي محمد (﴿ كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ﴾)

وفي الفتح (﴿ قوما بورا ﴾)

وفي الحجرات (﴿ إن الله عليم خبير ﴾)

وفي والذاريات (﴿ العذاب الأليم ﴾)

وفي والنجم (﴿ ولم يرد إلا الحياة الدنيا ﴾)

وفي الرحمن (﴿ تكذبان ﴾) بعده (﴿ يسأله ﴾)

وفي الواقعة (﴿ غير مدينين ﴾)

وفي الحديد (﴿ العظيم ﴾) آخرها

وفي الحشر (﴿ أولئك هم الصادقون ﴾)

وفي الامتحان (﴿ القبور ﴾) آخرها

وفي التغابن (﴿ ولهم عذاب أليم ﴾)

وفي التحريم (﴿ وبئس المصير ﴾)

وفي القلم (﴿ فهم يكتبون ﴾)

وفي نوح (﴿ ويجعل لكم أنهارا ﴾)

وفي المدثر (﴿ فقتل كيف قدر ﴾)

وفي والمرسلات (﴿ ليوم الفصل ﴾)

(480/840)

وفي عبس (﴿ وصاحبته وبنيه ﴾)

وفي الطارق (﴿ أمهلهم رويدا ﴾) آخرها

وفي العلق (﴿ أو أمر بالتقوى ﴾) آخرها آخر القرآن

قال الحافظ رحمه الله تعالى وكل جزئين من هذه الأجزاء جزء من ستين وكل أربعة منها جزء من ثلاثين وكل ثمانية أجزاء منها جزء من خمسة عشر

قال الحافظ وقد قرأت على غير واحد من شيوخي القرآن كله بأجزاء ستين وبأجزاء ثلاثين وهي على خلاف ما تقدم وأنا أذكرها إن شاء الله تعالى ليقف عليها من رغب الأخذ عنا وبين شيوخنا خلاف في بعضها ونحن ننبه على ذلك في موضعه إن شاء الله

باب ذكر أجزاء ستين وثلاثين على ما أقرئناه

الجزء الأول من أجزاء ستين في البقرة رأس أربع وسبعين آية (﴿ وهم يعلمون ﴾)

والثاني فيها رأس وأربعين ومئة (﴿ عما كانوا يعملون ﴾)

والثالث فيها رأس مئتين

والرابع فيها رأس مئتين وخمسين

والخامس في آل عمران رأس أربع عشرة آية (﴿ والله عنده حسن المآب ﴾)

والسادس فيها رأس تسعين آية (﴿ وما لهم من ناصرين ﴾)

والسابع فيها رأس سبعين ومئة (﴿ ولا هم يحزنون ﴾)

والثامن في النساء رأس ثلاث وعشرين (﴿ غفورا رحيما ﴾)

والتاسع فيها رأس خمس وثمانين آية (﴿ على كل شيء حسيبا ﴾)

والعاشر فيها رأس ست وأربعين ومئة (﴿ شاكرا عليما ﴾)

والحادي عشر في المائدة رأس ثمان وعشرين منها (﴿ فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾)

وقيل رأس أربع وعشرين (﴿ فإنا داخلون ﴾)

والثاني عشر فيها رأس ثلاث وثمانين (﴿ ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾)

والثالث عشر في الأنعام رأس أربع وثلاثين (﴿ بآيات الله يجحدون ﴾) وقيل رأس ست وثلاثين (﴿ من الجاهلين ﴾)

والرابع عشر فيها رأس إحدى عشرة ومائة (﴿ في طغيانهم يعمهون ﴾)

والخامس عشر رأس ثلاث آيات من الأعراف (﴿ أو هم قائلون ﴾) وقيل آخر الأنعام

والسادس عشر فيها رأس ست وثمانين (﴿ خير الحاكمين ﴾)

والسابع عشر فيها رأس سبعين ومئة (﴿ أجر المصلحين ﴾)

(481/840)

والثامن عشر في الأنفال رأس أربعين آية (﴿ ونعم النصير ﴾)

والتاسع عشر في التوبة رأس ثلاث وثلاثين (﴿ ولو كره المشركون ﴾)

والموفي عشرين فيها رأس ثلاث وتسعين (﴿ ما ينفقون ﴾)

والحادي والعشرون في يونس رأس ثلاثين آية (﴿ ما كانوا يفترون ﴾) وقيل رأس خمس وعشرين (﴿ إلى صراط مستقيم ﴾)

والثاني والعشرون آخر السورة وقيل رأس خمس آيات من هود (﴿ بذات الصدور ﴾)

والثالث والعشرون فيها رأس اثنتين وثمانين (﴿ ببعيد ﴾) وقيل (﴿ الحليم الرشيد ﴾) وقيل (﴿ رحيم ودود ﴾)

والرابع والعشرون في يوسف رأس اثنتين وخمسين (﴿ كيد الخائنين ﴾)

والخامس والعشرون في الرعد رأس عشرين آية (﴿ وبئس المهاد ﴾)

والسادس والعشرون آخر إبراهيم

والسابع والعشرون في النحل رأس خمسين (﴿ ما يؤمرون ﴾)

والثامن والعشرون آخرها

والتاسع والعشرون في سبحان رأس ثمان وتسعين (﴿ خلقا جديدا ﴾)

والموفي ثلاثين في الكهف رأس ثلاث وسبعين (﴿ شيئا نكرا ﴾)

والحادي والثلاثون آخر مريم وقيل رأس ثمانين منها (﴿ ويأتينا فردا ﴾)

والثاني والثلاثون آخر طه

والثالث والثلاثون آخر الأنبياء

والرابع والثلاثون آخر الحج

والخامس والثلاثون رأس عشرين من النور (﴿ رؤوف رحيم ﴾)

والسادس والثلاثون في الفرقان رأس عشرين (﴿ وكان ربك بصيرا ﴾)

والسابع والثلاثون في الشعراء رأس عشر ومئة (﴿ وأطيعون ﴾) وقيل رأس أربع ومئة (﴿ لهو العزيز الرحيم ﴾)

والثامن والثلاثون في النمل رأس سبع وخمسين (﴿ قوم تجهلون ﴾)

والتاسع والثلاثون في القصص رأس خمسين (﴿ القوم الظالمين ﴾)

والموفي أربعين في العنكبوت رأس خمسين وأربعين (﴿ يعلم ما تصنعون ﴾)

والحادي والأربعون في لقمان رأس عشرين (﴿ عذاب السعير ﴾) وقيل رأس عشر منها

(﴿ في ضلال مبين ﴾)

والثاني والأربعون رأس ثلاثين من الأحزاب (﴿ على الله يسيرا ﴾)

والثالث والأربعون في سبأ ثلاثين آية (﴿ ولا تستقدمون ﴾) وقيل رأس ثلاث وعشرين (﴿ العلي الكبير ﴾)

والرابع والأربعون في يس رأس ست وعشرين (﴿ من المكرمين ﴾)

والخامس والأربعون في والصافات رأس أربع وأربعين ومئة (﴿ إلى يوم يبعثون ﴾)

والسادس والأربعون في الزمر رأس ثلاثين (﴿ يختصمون ﴾)

والسابع والأربعون في المؤمن رأس أربعين (﴿ بغير حساب ﴾)

والثامن والأربعون في فصلت رأس خمس وأربعين (﴿ بظلام للعبيد ﴾)

والتاسع والأربعون في الزخرف رأس أربع وعشرين (﴿ عاقبة المكذبين ﴾) وقيل رأس عشرين (﴿ مستمسكون ﴾) وقيل رأس إحدى وعشرين (﴿ مهتدون ﴾)

والموفي خمسين آخر الجاثية

والحادي والخمسون في الفتح رأس سبع عشرة آية (﴿ عذابا أليما ﴾)

والثاني والخمسون رأس ثلاثين من والذاريات ﴿ الحكيم العليم ﴾

والثالث والخمسون آخر القمر

والرابع والخمسون آخر الحديد

والخامس والخمسون آخر الصف

والسادس والخمسون آخر التحريم

والسابع والخمسون آخر نوح

والثامن والخمسون آخر والمرسلات

والتاسع والخمسون آخر والطارق

والموفي ستين آخر القرآن

قال الحافظ رحمه الله تعالى ورأس جزئين من هذه الأجزاء جزء من ثلاثين ورأس أربعة أجزاء منها جزء من خمسة عشر

باب في كم يستحب ختم القرآن وسيرة الصحابة والتابعين في ذلك

أخبرنا خلف بن إبراهيم المقرىء قال ثنا أحمد قال أنا علي بن عبد العزيز قال أنا القاسم بن سلام قال أنا يزيد عن همام عن قتادة عن يزيد بن عبد الله بن الشخير عن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله لا يفقهه من قرأه في أقل من ثلاث

أخبرنا فارس بن أحمد قال أنا أحمد بن محمد قال أنا علي بن الحسين بن حرب قال أنا يوسف القطان قال انا سلمة بن الفضل الأبرش قال أنا إسماعيل ابن مسلم عن قتادة عن عبد الرحمن بن آدم عن عبد الله بن عمرو قال استزدت النبي في أشياء فقال اقرأ القرآن في ثلاث قال قلت يا رسول الله زدني قال إنه لن يفقهه رجل قرأه في أقل من ثلاث

أخبرنا ابن خاقان قال أنا أحمد المكي قال أنا علي قال أنا أبو عبيدة قال انا يوسف بن العرق عن الطيب بن سلمان قال حدثتنا عمرة أنها سمعت

عائشة تقول كان رسول الله لا يختم القرآن في أقل من ثلاث

أخبرنا أبو الفتح بن موسى قال أنا أحمد بن محمد قال أنا أحمد بن عثمان قال أنا الفضل بن شاذان قال أنا إبراهيم بن موسى قال أنا أبو الأحوص عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة قال قال عبد الله من قرأ القرآن في أقل من ثلاث فهو راجز هذا كهذ الشعر ونثرا كنثر الدقل

أخبرنا خلف بن إبراهيم قال أنا أحمد بن محمد قال أنا علي قال ثنا القاسم قال أنا يزيد عن هشام بن حسان عن حفصة عن أبي العالية عن معاذ بن جبل أنه كان يكره أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث

أخبرنا خلف بن إبراهيم قال أنا أحمد قال أنا علي قال أنا أبو عبيدة قال أنا حجاج وعمرو بن طارق ويحيى بن بكير كلهم عن ابن لهيعة عن حبان بن واسع عن أبيه عن قيس بن أبي

صعصعة أنه قال للنبي يا رسول الله في كم أقرأ القرآن فقال في كل خمس عشرة فقال إني أجدني أقوى من ذلك فقال ففي كل جمعة

روى أبو داود الطيالسي عن شعبة عن عمرو بن مرة سمع أبا العباس يحدث عن عبد الله بن عمرو أن النبي أمره أن يقرأ القرآن في خمس

أبو داود عن هشام عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال قال لي رسول الله في كم تقرأ القرآن قلت في يومي وليلتي قال فناقصني وناقصته حتى أقرأه في سبع

باب سيرة عثمان بن عفان رضي الله عنه

أخبرنا فارس بن أحمد قال أنا أحمد بن محمد قال ثنا أحمد بن عثمان قال أنا الفضل بن شاذان قال أنا محمد بن عيسى المقرىء قال أنا أبو صالح الحكم بن موسى البزاز قال أنا صدقة بن خالد الدمشقي قال أنا يحيى بن الحارث الذماري عن القاسم بن عبد الرحمن قال كان عثمان رضي الله عنه يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة وبالأنعام إلى هود ويبوسف إلى مريم وبطه إلى طسم موسى وفرعون وبالعنكبوت إلى ص وبتنزيل إلى الرحمن ثم يختم فيفتتح ليلة الجمعة ويختم ليلة الخميس

باب سيرة أبي بن كعب رضي الله عنه

أخبرنا سلمون بن داود قال أنا عبد العزيز بن محمد البغدادي قال أنا إسماعيل بن إسحاق القاضي قال أنا سليمات بن حرب وعارم قال أخبرنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي المهلب عن أبي بن كعب قال إنا لنقرؤه في ثمان يعني القرآن

حدثنا ابن عفان قال أنا قاسم قال أنا أحمد بن زهير قال أنا علي بن الجعد قال أنا شعبة عن أيوب قال سمعت أبا قلابة يحدث عن أبي المهلب عن أبي أنه كان يقرأ القرآن في ثمان

وأخبرنا ابن خاقان قال أنا أحمد المكي قال أنا علي قال أنا القاسم قال أنا حجاج عن شعبة عن أيوب قال سمعت أبا قلابة يحدث عن أبي المهلب قال كان أبي كعب يختم القرآن في ثمان

باب سيرة زيد بن ثابت رضي الله عنه

أخبرنا خلف بن إبراهيم قال أنا أحمد بن محمد قال أنا أبو عبيد قال أنا يزيد عن يحيى بن سعيد عن رجل حدثه عن أبيه أنه سأل زيد بن ثابت عن قراءة القرآن في سبع فقال حسن ولأن أقرأه في عشرين أو في النصف أحب إلي من أن أقرأه في سبع وسألني عن ذلك أردده وأقف عليه

أخبرنا عبد الرحمن بن أحمد المعدل قال أنا إسحاق بن إبراهيم قال أنا محمد ابن عمر قال أنا يحيى بن إبراهيم قال أنا مطرف قال أنا عبد الرحمن بن خالد قال أنا زاهر بن أحمد قال أنا إبراهيم بن عبد الصمد قال أنا أحمد بن أبي بكر قالا أخبرنا مالك عن يحيى بن سعيد عن رجل عن أبيه عن زيد نحوه

باب سيرة ابن مسعود رضي الله عنه

أخبرنا ابن خاقان قال أنا أحمد المكي قال أنا علي قال أنا القاسم قال أنا حجاج عن شعبة عن محمد بن ذكوان رجل من أهل الكوفة قال سمعت عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود يقول كان عبد الله بن مسعود يقرأ القرآن في غير رمضان من الجمعة إلى الجمعة وفي رمضان في ثلاث

باب سيرة تميم الداري رضي الله عنه

أخبرنا فارس بن أحمد قال أنا أحمد بن محمد قال أنا أحمد بن عثمان قال أنا الفضل قال أنا حفص بن عمر قال أنا عبد الرحمن بن مهدي عن هشيم عن خالد الحذاء عن أبي قلابة قال كان أبي يختمه في ثمان وكان تميم الداري يقرأه في سبع

وأخبرنا ابن خاقان قال أنا أحمد قال أنا علي قال أنا أبو عبيد قال أنا علي بن عاصم عن خالد عن أبي قلابة فذكر نحوه

باب سيرة معاذ بن جبل رضي الله عنه

أخبرنا أبو الفتح الضرير قال أنا أحمد بن محمد قال أنا أحمد بن عثمان قال أنا الفضل قال أنا

أبو عبد الله يعني محمد بن عيسى قال أنا أبو نعيم قال أنا

سفيان عن هشام عن أم البديل عن أبي العالية عن معاذ بن جبل أنه كان يقرأه في ثلاث

باب سيرة سعد بن المنذر الأنصاري رضي الله عنه

أخبرنا خلف بن إبراهيم قال أنا أحمد قال أنا علي قال أنا القاسم قل انا ابن بكير عن ابن

لهيعة عن حبان بن واسع عن أبيه عن سعد بن المنذر الأنصاري أنه قال يا رسول الله أقرأ

القرآن في ثلاث فقال نعم إن استطعت قال فكان يقرأه كذلك حتى توفي

باب سيرة علقمة بن قيس رضي الله عنه

أخبرنا ابن عفان قال أنا قاسم قال أنا أحمد قال أنا أبي قال أنا أبو معاوية عن الأعمش عن

إبراهيم قال كان علقمة والأسود يقرأ أحدهما في ست والآخر في خمس وكان إبراهيم يقرأ

في سبع

أخبرنا ابن خاقان قال ثنا أحمد المكي قال أنا علي قال أنا أبو عبيد قال أنا جرير عن منصور

عن إبراهيم قال كان علقمة يختم القرآن في خمس

باب سيرة الأسود بن يزيد رضي الله عنه

أخبرنا ابن خاقان قال أنا أحمد قال أنا علي قال أنا القاسم قال أنا فضيل بن عياض عن منصور عن إبراهيم قال كان الأسود يختم القرآن في كل ست

باب سيرة ثابت البناني رضي الله عنه

حدثنا ابن عفان قال أنا قاسم قال أنا أحمد بن زهير قال أنا يحيى بن معين قال أنا ضريس عن حماد بن سلمة عن حميد أن ثابتا كان يختم القرآن في كل يوم وليلة في شهر رمضان

باب سيرة عبد الرحمن بن يزيد رضي الله عنه

أخبرنا فارس بن أحمد قال أنا أحمد بن محمد قال أنا أحمد بن عثمان قال أنا ابن شاذان قال أنا حفص بن عمر قال أنا ابن مهدي عن سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد أنه كان يقرؤه في سبع والأسود في ست وعلقمة في خمس

باب سيرة سعيد بن جبير رضي الله عنه

اخبرنا أبو الفتح قال أنا أبو بكر أحمد بن محمد قال أنا ابن عثمان قال أنا الفضل قال أنا إبراهيم بن موسى قال أنا عبدة قال أنا وقاء يعني ابن إياس قال كان سعيد بن جبير يؤمنا في رمضان فيقرأ القرآن في ست ليال

باب سيرة إبراهيم بن يزيد النخعي رضي الله عنه

أخبرنا خلف بن إبراهيم قال أنا أحمد بن محمد قال أنا علي قال أنا القاسم قال أنا هشيم

عن الأعمش عن إبراهيم أنه كان يقرأ القرآن في كل سبع

أخبرنا ابن عفان قال أنا قاسم قال أنا أحمد بن زهير قال أنا أبي قال أنا جرير عن عمران الخياط قال قال لي إبراهيم كنت أختم القرآن في كل ثلاث فلما دخل العشر كنت أقرؤه في ليلتين

باب سيرة أبي العالية الرياحي رحمه الله تعالى

أخبرنا فارس بن أحمد قال أنا أحمد بن محمد قال أنا عثمان قال أنا الفضل قال أنا حفص بن عمر قال ثنا عبد الرحمن بن مهدي عن خالد بن دينار عن أبي العالية قال كنا عبيدا مملوكين منا من يؤدي الضريبة ومنا من يخدم أهله وكنا نختم القرآن كل ليلة فشق علينا فقرآناه في ليلتين فشق علينا

فقرأناه في ثلاث فشق علينا فلقينا أصحاب نبي الله فأمرونا أن نختم كل سبع ليال مرة فصلينا ونمنا ولم يشق علينا

باب سيرة أبي إسحاق السبيعي رحمه الله تعالى

حدثنا عبد الرحمن بن عثمان قال أنا قاسم بن أصبغ قال أنا أحمد بن زهير قال أنا علي بن

بجر قال أنا عيسى بن يونس عن أبيه قال كان أبو إسحاق يقرا كل ليلة ألف آية يقرأ سبعه ويقرأ الصافات والواقعة وما قصر من الآي حين يستكملها ألف آية

باب سيرة أبي مجلز وبشير بن نهيك رحمهما الله تعالى

أخبرنا فارس بن أحمد قال أنا أحمد قال أنا الفضل قال أنا إبراهيم بن موسى قال أنا ابن المبارك عن عمران بن خليد قال كان أبو مجلز يؤم في رمضان فيختم في كل أسبوع وكان بشير بن نهيك يختم كل أسبوع

باب سيرة عطاء بن السائب رحمه الله تعالى

أخبرنا عبد الرحمن بن عثمان الزاهد قال أنا قاسم بن أصبغ قال أنا أحمد ابن زهير قال أنا أبي قال أنا جرير عن واصل بن سليم قال صحبت عطاء بن السائب إلى مكة فكان يقرأ القرآن في ليلتين

باب حساب الجمل منه باب دعت الحاجة إليه مختصرا وهو بعد هذا وآخر الكتاب

قال الحافظ رحمه الله تعالى أخبرنا أبو الفتح فارس بن أحمد المقرئ قراءة مني عليه قال أنا أبو بكر أحمد بن محمد المصري قال أنا أبو بكر أحمد بن محمد بن عثمان الرازي قال أنا أبو

العباس الفضل بن شاذان قال أنا أبو عبد الله محمد بن حميد قال أنا سلمة بن الفضل قال حدثني محمد بن إسحاق قال كان مما نزل فيه القرآن يخاصمه من الأحبار كفار يهود الذين كانوا يسألونه ويتعنتونه ليلبسوا الحق بالباطل فيما حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله بن رئاب قال مر أبو ياسر بن أخطب برسول الله وهو يتلو فاتحة سورة البقرة (﴿ الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾) فأتى أخاه حيي بن أخطب في رجال من اليهود فقال تعلمون والله لقد سمعت محمدا يتلو فيما أنزل عليه (﴿ الم ذلك الكتاب ﴾) قال أنت سمعته قال نعم فمشى حيي بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله فقالوا يا محمد (﴿ الم ﴾) يذكر لنا أنك تتلو فيما أنزل عليك ألم فقال رسول الله بلى قالوا جاءك بها جبريل من عند الله فقال (نعم) فقالوا لقد بعث الله قبلك أنبياء ما نعلمه بين لنبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك فقال حيي بن أخطب وأقبل على من كان معه فقال لهم الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذا إحدى وسبعون سنة أفتدخلون في دين إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة ثم أقبل على رسول الله فقال يا محمد هل مع هذا غيره قال

نعم قال ماذا قال (﴿ المص ﴾) قال هذا أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد ستون فهذه إحدى وثلاثون ومئة سنة هل مع هذا يا محمد غيره فقال نعم (﴿ الر ﴾) قال وهذه أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مئتان فهذه إحدى وثلاثون ومئتان هل مع هذا يا محمد غيره قال نعم (﴿ المر ﴾) قال وهذه أطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مئتان فهذه إحدى وسبعون ومئتا سنة ثم قال لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ما ندري أقليلا أعطيت أم كثيرا ثم قاموا عنه فقال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الأحبار وما يدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وثلاثون ومئة وإحدى وثلاثون ومئتان وإحدى وسبعون ومئتان فذلك سبع مئة سنة وأربع سنين فقالوا لقد تشابه علينا أمره

فزعموا أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم (﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾)

قال أبو بكر حدثني موسى بن محمد بن هارون المقرىء قال سمعت ابن أبي بزة قال أملى علي أبي تسمية حساب الجمل فذكر مثله

قال ابو العباس قال ابن أبي بزة قال الحميدي تسمية حساب الجمل الألف واحدة والباء اثنتان والجيم ثلاثة والدال أربعة والهاء خمسة والواو ستة والزاي سبعة والحاء ثمانية والطاء تسعة والياء عشرة والكاف عشرون واللام ثلاثون والميم أربعون والنون خمسون

والسين ستون والعين سبعون والفاء ثمانون والصاد تسعون والقاف مئة والراء مئتان والشين ثلاث مئة والتاء أربع
مئة والثاء خمس مئة والخاء ست مئة والذال سبع مئة والضاد ثماني مئة والظاء تسع مئة والغين ألف

وحسبت (﴿ الر ﴾) على إحدى وثلاثين ومئتين وحسبت (﴿ المر ﴾) على إحدى وسبعين ومائتين وزاد أبو محمد وحسبت (﴿ طس ﴾) على ثلاث مئة وتسع وحسبت (﴿ حم عسق ﴾) على ثماني عشرة وخمس مئة سوى أشباه هذا كثيرة على هذا الوجه لم نكتبها فحسبت على حساب هذا وذلك لأنك إذا حسبت (﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾) حسبت واحدا وثلاثين وثمانية وأربعين والدال أربعة واللام ثلاثين وثلاثين وخمسة ومئتين واثنين وواحدا ولام ثلاثين وعين سبعين وميم أربعين وياء عشرة ونون خمسين

باب ذكر حساب الجمل

أخبرنا فارس بن أحمد المقرىء قال أنا أحمد بن محمد قال أنا أحمد بن عثمان قال أنا الفضل

بن شاذان قال قال ابن أبي بزة قال الحميدي

تسمية حساب الجمل الألف واحد والباء اثنان والجيم ثلاثة والدال أربعة والهاء خمسة والواو ستة والزاي سبعة والحاء ثمانية والطاء تسعة والياء عشرة والكاف عشرون واللام ثلاثون والميم أربعون والنون خمسون والسين ستون والعين سبعون والفاء ثمانون والصاد تسعون والقاف مئة والراء مئتان والشين ثلاث مئة والتاء أربع مئة والثاء خمس مئة والخاء ست مئة والذال سبع مئة والضاد ثماني مئة والظاء تسع مئة والغين ألف

أخبرنا أبو الفتح قال أنا أحمد بن إسماعيل قال انا أحمد بن محمد الرازي قال حدثني موسى بن محمد عن هارون المكي قال سمعت أبا بزة قال أملى علي أبي تسمية حساب الجمل فذكر مثله سواء

قال الحافظ رحمه الله تعالى فهذا مبلغ جهدنا في ما أفردنا له كتابنا هذا وحسبنا الله ونعم الوكيل وعلى أشرف خلقه سيدنا محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

وكان الفراغ منه في نهار الأربعاء سابع عشر شهر رمضان المعظم قدره سنة سبع وأربعين وثماني مائة بالقاهرة المحروسة على يدي أفقر الخلق إلى رحمة ربه عبد الرزاق بن حمزة بن علي الحنفي المقرىء القادري الطرابلسي عفا الله تعالى عنهم بمنه وكرمه وغفر لهم وللمسلمين أجمعين آمين

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البيان فى عد آى القرآن صـ 334.300﴾

(492/840)

أهم المصادر والمراجع

بسم الله الرحمن الرحيم

- تفسير مجاهد

المؤلف : مجاهد بن جبر المخزومي التابعي أبو الحجاج

دار النشر : المنشورات العلمية - بيروت ، تحقيق : عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي

- تفسير مقاتل بن سليمان

المؤلف : أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء البلخي

دار النشر : دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - 1424 هـ - 2003 م

الطبعة : الأولى

تحقيق : أحمد فريد

- جامع البيان في تأويل القرآن

المؤلف : محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي ، أبو جعفر الطبري [224 - 310 هـ]

المحقق : أحمد محمد شاكر

الناشر : مؤسسة الرسالة

الطبعة : الأولى ، 1420 هـ - 2000 م

- بحر العلوم

المؤلف : أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي

دار النشر : دار الفكر - بيروت

تحقيق : د . محمود مطرجي

- تفسير التستري

المؤلف : أبو محمد سهل بن عبد الله التستري

دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت

: 1423 هـ

الطبعة : الأولى

تحقيق : محمد باسل عيون السود

- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

المؤلف : علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن

دار النشر : دار القلم , الدار الشامية - دمشق , بيروت - 1415

الطبعة : الأولى

تحقيق : صفوان عدنان داوودي

- معالم التنزيل

المؤلف : محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي [المتوفى 516 هـ]

المحقق : حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش

الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع

الطبعة : الرابعة ، 1417 هـ - 1997 م

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف : أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي

دار النشر : دار الكتب العلمية - لبنان - 1413هـ / 1993م

الطبعة : الأولى

تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد

- درة التنزيل وغرة التأويل

المؤلف : الإمام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافى

الناشر : دار المعرفة. بيروت

الطبعة : 1422 هـ / 2002م

- لطائف الإشارات

المؤلف : أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن

عبد الملك القشيري النيسابوري الشافعي

دار النشر : الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1420 هـ-2000م

الطبعة : الثالثة 2000م

تحقيق : د . إبراهيم بسيونى

- (تفسير الماوردى) النكت والعيون

المؤلف : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري

دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان -

تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم

- الكشف والبيان

المؤلف : أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري

دار النشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – 1422 هـ – 2002 م

الطبعة : الأولى

تحقيق : الإمام أبي محمد بن عاشور

مراجعة وتدقيق الأستاذ نظير الساعدي

- تفسير السلمي (حقائق التفسير)

المؤلف : أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي السلمي

دار النشر : دار الكتب العلمية – لبنان / بيروت – 1421 هـ – 2001 م

تحقيق : سيد عمران

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

المؤلف : العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (467.538 هـ)

الناشر : دار الكتاب العربي . بيروت

سنة الطبع : 1407 هـ

- الفرائض وشرح آيات الوصية

المؤلف : عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي أبو القاسم

الناشر : المكتبة الفيصلية – مكة المكرمة

الطبعة الثانية ، 1405

تحقيق : د . محمد إبراهيم البنا

– إيجاز البيان عن معاني القرآن

المؤلف : بيان الحق محمود بن أبى الحسن النيسابورى الغزنوى

الناشر : دار الغرب الإسلامى . بيروت

سنة الطبع : 1415هـ

المحقق : الدكتور / حنيف بن حسن القاسمى

– باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن

الناشر : جامعة أم القرى . مكة المكرمة حرسها الله تعالى

سنة النشر : 1417 هـ : 1997م

- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)

المؤلف : الإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي

دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت - 1421هـ - 2000م

الطبعة : الأولى

- زاد المسير في علم التفسير

اسم المؤلف : عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي

دار النشر : المكتب الإسلامي - بيروت - 1404

الطبعة : الثالثة

- تفسير السمعاني

المؤلف : أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني

دار النشر : دار الوطن - الرياض - السعودية - 1418هـ- 1997م ،

الطبعة : الأولى ، تحقيق : ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم

- الجامع لأحكام القرآن

المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : 671 هـ)

المحقق : هشام سمير البخاري

الناشر : دار عالم الكتب ، الرياض ، المملكة العربية السعودية

الطبعة : 1423 هـ/ 2003 م

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان

المؤلف : نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري

دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1416 هـ - 1996 م

الطبعة : الأولى

تحقيق : الشيخ زكريا عميران

- تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل

المؤلف : علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير بالخازن

دار النشر : دار الفكر – بيروت / لبنان –

1399 هـ / 1979 م

– تفسير النسفي

المؤلف : الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

دار النشر : دار الكتاب العربى . بيروت . لبنان

– تفسير البيضاوى المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)

المؤلف : ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي

دار النشر : دار الفكر – بيروت

– ملاك التأويل القاطع بذوي الالحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل

المؤلف / الحافظ العلامة أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي

دار النشر / دار الكتب العلمية . بيروت . 2001

الطبعة الأولى 1426 هـ 2006 م

- تفسير البحر المحيط

المؤلف : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي دار النشر : دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - 1422 هـ - 2001 م

الطبعة : الأولى

تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض

شارك في التحقيق د . زكريا عبد المجيد النوقي

د . أحمد النجولي الجمل

- تفسير القرآن العظيم

المؤلف : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي [700 -774 هـ]

المحقق : سامي بن محمد سلامة

الناشر : دار طيبة للنشر والتوزيع

الطبعة : الثانية 1420هـ - 1999 م

- تفسير ابن عرفة المالكى

المؤلف : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي

دار النشر : مركز البحوث بالكلية الزيتونية – تونس – 1986 م

الطبعة : الأولى

تحقيق : د . حسن المناعي

– اللباب في علوم الكتاب

المؤلف : أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي

دار النشر : دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان – 1419 هـ –1998 م

الطبعة : الأولى

تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض

– التسهيل لعلوم التنزيل

اسم المؤلف : محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي

دار النشر : دار الكتاب العربي – لبنان – 1403هـ / 1983م

الطبعة : الرابعة

– الجواهر الحسان في تفسير القرآن

المؤلف : عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي

الناشر : مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت

– بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز

المؤلف : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى

دار النشر : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. القاهرة

تحقيق : الأستاذ / عبد العليم الطحاوى

– الدر المنثور في التأويل بالمأثور

اسم المؤلف : عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي

دار النشر : دار الفكر – بيروت – 1993

– إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

المؤلف : أبو السعود محمد بن محمد العمادي

دار النشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

المؤلف : محمد بن علي بن محمد الشوكاني

دار النشر : دار الفكر - بيروت

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور

المؤلف : برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي

دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت - 1415

الطبعة : الثانية 2003م.1424هـ

تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي

- مراح لبيد لكشف معنى القرآن مجيد

المؤلف : محمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما ، التناري بلدا

الناشر : دار الكتب العلمية

مكان الطبع : بيروت

سنة الطبع : 1417 هـ

تحقيق : محمد أمين الصناوى

- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير

المؤلف : محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (المتوفى : 977 هـ)

دار النشر / دار الكتب العلمية - بيروت

- الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية

المؤلف : نعمة الله بن محمود نعمة الله النخجواني

الناشر : دار ركابى للنشر

مكان الطبع : مصر

سنة الطبع : 1999م

- تفسير روح البيان

المؤلف : إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي

دار النشر / دار إحياء التراث العربى

الطبعة الأولى 1421 هـ 2001 م

- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد

المؤلف : أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس

الناشر : الدكتور : حسن عباس زكى

مكان الطبع : القاهرة. 1419 هـ

تحقيق : أحمد عبد الله قرشى رسلان

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ،

المؤلف : العلامة أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي

دار النشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

المؤلف : عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي

المحقق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق

الناشر : مؤسسة الرسالة

الطبعة : الأولى 1420هـ -2000 م

- تفسير المظهرى

المؤلف : محمد ثناء الله العثماني المظهري

دار إحياء التراث العربي ، ببيروت ، 1425 هـ 2004 م

سنة الطبع : 1412 هـ

(497/840)

- بيان المعاني

المؤلف : الشيخ العلامة عبد القادر ملاحويش آل غازى الفراتي الديرزوري

مكان الطبع : دمشق

سنة الطبع : 1382 هـ

- التفسير الحديث

المؤلف : محمد عزت دروزة

دار الغرب الإسلامي ـ دمشق

- تفسير المراغي

المؤلف : الشيخ / أحمد مصطفى المراغى

دار النشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر

- التفسير القرآني للقرآن

المؤلف : الدكتور / عبد الكريم الخطيب

دار النشر : دار الفكر العربي - القاهرة

- التفسير الواضح

المؤلف : الدكتور / محمد محمود حجازى

دار النشر : دار الجيل الجديد

- فى ظلال القرآن

المؤلف : الشيخ / سيد قطب إبراهيم

دار النشر : دار الشروق

- زهرة التفاسير

المؤلف : الإمام الجليل / محمد أبو زهرة

دار النشر : دار الفكر العربي

- التحرير والتنوير - الطبعة التونسية

المؤلف : الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

دار النشر : دار سحنون للنشر والتوزيع - تونس - 1997 م

وله طبعة ثانية

مؤسسة التاريخ العربي ، بيروت - لبنان

الطبعة : الأولى ، 1420هـ/2000م

- تفسير الشعراوى

المؤلف : الشيخ / محمد متولى الشعراوى

دار النشر : مؤسسة أخبار اليوم

- صفوة التفاسير

المؤلف : الشيخ / محمد على الصابونى

دار النشر : دار البيان العربى

- التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج

المؤلف : وهبة بن مصطفى الزحيلى

الناشر : دار الفكر المعاصر

مكان الطبع : بيروت دمشق

سنة الطبع : 1418 هـ

(498/840)

كتب أحكام القرآن

- أحكام القرآن للشافعى

المؤلف : الإمام / محمد بن إدريس الشافعي أبو عبد الله

دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت - 1400

تحقيق : عبد الغني عبد الخالق

- أحكام القرآن للجصاص

اسم المؤلف : أحمد بن علي الرازي الجصاص أبو بكر ،

دار النشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت - 1405 ، تحقيق : محمد الصادق قمحاوي

-أحكام القرآن لابن العربي

المؤلف : محمد بن عبد الله الأندلسي (ابن العربي)

الناشر : دار الكتب العلمية

-أحكام القرآن (الكيا هراسي)

المؤلف : الكيا هراسى أبو الحسن على بن محمد

(المعروف بالكيا هراسى)

الناشر : دارلكتب العلمية ـ بيروت

سنة الطبع : 1405 هـ

تحقيق : موسى محمد على ـ عزت عبده عطية

-نيل المرام من تفسير آيات الأحكام

المؤلف : صديق حسن خان القنوجي البخاري

تحقيق : محمد حسن إسماعيل - أحمد فريد المزيدي

دار النشر : دار الكتب العلمية تاريخ النشر : 2003/01/30

- تفسير آيات الأحكام

المؤلف : محمد علي السايس

الناشر : المكتبة العصرية للطباعة والنشر تاريخ النشر : 2002/10/01

- روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن

المؤلف : الشيخ محمد على الصابونى

دار النشر : مكتبة الغزالى - دمشق

(499/840)

- معانى القرآن للأخفش

المؤلف : أبو الحسن سعيد بن مسعدة

تحقيق : د . هدى محمود قراعة .

دار النشر : مكتبة الخانجي .

سنة الطبع : الطبعة الأولى (1411هـ / 1991م) .

- معاني القرآن الكريم للنحاس

المملكة العربية السعودية

جامعة أم القرى

معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الاسلامي

* من التراث الاسلامي

مركز إحياء التراث الاسلامي

مكة المكرمة

للإمام أبي جعفر النحاس (المتوفى سنة 338 هـ)

تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني

الأستاذ بجامعة أم القرى

- معاني القرآن للفراء

المؤلف : أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء

القرن : الثاني

الناشر : دار المصرية للتأليف والترجمة

مكان الطبع : مصر

تحقيق : أحمد يوسف نجاتى / محمد على نجار / عبد الفتاح إسماعيل شلبى

- مفردات ألفاظ القرآن

المؤلف : الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم

دار النشر / دار القلم - دمشق

(500/840)

- إيجاز البيان عن معاني القرآن

المؤلف : بيان الحق محمود بن أبى الحسن النيسابورى الغزنوى

الناشر : دار الغرب الإسلامى

مكان الطبع : بيروت

سنة الطبع : 1415 هـ

المحقق : الدكتور / حنيف بن حسن القاسمى

- ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن

المؤلف : أبو عمر محمد بن عبد الواحد البغداي الزاهد المعروف بغلام ثعلب

تحقيق حققه وقدم له محمد بن يعقوب التركستاني

الناشر مكتبة العلوم والحكم

سنة النشر 1423هـ - 2002م

مكان النشر السعودية / المدينة المنورة

(501/840)

- إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات

المؤلف : أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبري

دار النشر : المكتبة العلمية - لاهور - باكستان

تحقيق : إبراهيم عطوه عوض

- الجدول في إعراب القرآن الكريم

المؤلف : صافى محمود بن عبد الرحيم

دار النشر / دار الرشيد - مؤسسة الإيمان

دمشق . بيروت

تاريخ النشر : 1418 هـ

إعراب القرآن الكريم (دعاس)

المؤلف : قاسم حميدان دعاس

القرن : الخامس عشر

الناشر : دار المنير . دار الفارابى

مكان الطبع : دمشق

سنة الطبع : 1425 هـ

-إعراب القرآن وبيانه

المؤلف : محيي الدين الدرويش

دار النشر : دار الإرشاد - سورية

(502/840)

كتب التجويد والقراءات

-البيان في عدّ آي القرآن

أبو عمرو عثمان بن سعيد الأموي الداني

سنة الولادة 371 هـ / سنة الوفاة 444هـ

تحقيق غانم قدوري الحمد

الناشر مركز المخطوطات والتراث

سنة النشر 1414هـ - 1994م

مكان النشر الكويت

- النشر في القراءات العشر

المؤلف : ابن الجزري

أشرف على تصحيحه ومراجعته : علي محمد الضباع -شيخ عموم المقارئ : بالديار المصرية

دار النشر : المكتبة العصرية. صيدا . بيروت

الطبعة الأولى 1427هـ. 2006م

- هداية القارى إلى تجويد كلام الباري

المؤلف : عبد الفتاح السيد عجمي المرصفي

دار النشر : مجد الإسلام. القاهرة

الطبعة الأولى 1426 هـ 2007م

- إبراز المعاني من حرز الأماني في القراءات السبع

عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم

سنة الولادة / سنة الوفاة 665 هـ

تحقيق إبراهيم عطوة عوض

الناشر شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي

مكان النشر مصر

-الحجة في القراءات السبع

الحسين بن أحمد بن خالويه أبو عبد الله

سنة الولادة 314/ سنة الوفاة 370

تحقيق د . عبد العال سالم مكرم

الناشر دار الشروق

سنة النشر 1401

مكان النشر بيروت

-حجة القراءات

المؤلف : عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة

أبو زرعة

دار النشر / مؤسسة الرسالة - بيروت

الطبعة الثانية 1402 - 1982

تحقيق : سعيد الأفغاني

- شرح الشاطبية المسمى : إبراز المعاني من حرز الأماني

في القراءات السبع

للإمام الشاطبي المتوفي سنة 590 هـ

المؤلف : الإمام : عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم

المعروف بـ : أبي شامة

والمتوفى سنة 665هـ

دار النشر : شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي – مصر

تحقيق : إبراهيم عطوة عوض

- إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر

المؤلف / شهاب الدين أحمد بن محمد بن

عبد الغني الدمياطي

دار النشر / دار الكتب العلمية – لبنان – 1419هـ1998م

الطبعة : الأولى

تحقيق : أنس مهرة

- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة من طريقي الشاطبية والدرة

دار الكتاب العربى. بيروت 1426 هـ. 2005 م

تحقيق : أحمد عناية

- منار الهدى فى بيان الوقف والابتدا

المؤلف : أحمد بن عبد الكريم الأشموني

- المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء

المؤلف : شيخ الإسلام / زكريا بن محمد الأنصاري

دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1422هـ - 2002م

الطبعة : الأولى

تحقيق : شريف أبو العلاء العذوي

- هداية القارى إلى تجويد كلام الباري

المؤلف : عبد الفتاح السيد عجمي المرصفي

دار النشر : مجد الإسلام. القاهرة

الطبعة الأولى 1426 هـ 2007 م

كتب علوم القرآن

- البرهان في علوم القرآن

المؤلف : بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى : 794هـ)

المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم

الناشر : دار المعرفة ، بيروت

(503/840)

- الإتقان في علوم القرآن

المؤلف : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

دار النشر : دار الفكر - لبنان - 1416هـ - 1996م ، الطبعة : الأولى ، تحقيق :

سعيد المندوب

- مناهل العرفان في علوم القرآن

المؤلف: محمد عبد العظيم الزرقاني (المتوفى: 1367هـ)

الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه

الطبعة الثالثة

- أسرار التكرار في القرآن

المؤلف: محمود بن حمزة بن نصر الكرماني

الناشر: دار الاعتصام - القاهرة

الطبعة الثانية، 1396

تحقيق: عبد القادر أحمد عطا

- أسرار ترتيب القرآن

عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي أبو الفضل

سنة الولادة 849 / سنة الوفاة 911

تحقيق : عبد القادر أحمد عطا

الناشر دار الاعتصام-القاهرة

-الحيدة والاعتذار في الرد على من قال بخلق القرآن

المؤلف : أبو الحسن عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم بن ميمون الكناني المكي الكناني، المتوفى سنة 240

والمردود عليه هو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة أبي المريسي المعتزلي المتوفى سنة 218

حققه وعلق عليه دكتور علي بن محمد بن ناصر الفقيهي ، أستاذ لقسم الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية

الناشر

مكتبة العلوم والحكم

المدينة المنورة

-النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن

المؤلف : محمد عبد الله دراز

الناشر : دار الثقافة-الدوحة

الطبعة : 1985

مؤسسة مناهل العرفان ـ بيروت

- مجاز القرآن

المؤلف: أبو عبيدة معمر بن المثنى

الناشر: مكتبة الخانجى

مكان الطبع: القاهرة

تحقيق: محمد فواد سزگين

- إحياء علوم الدين

المؤلف: حجة الإسلام / محمد بن محمد الغزالي أبو حامد

سنة الولادة 450/ سنة الوفاة 505

تحقيق

الناشر دار المعرفة

- جواهر القرآن

المؤلف: الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي

الناشر: دار إحياء العلوم - بيروت

الطبعة الأولى ، 1985

تحقيق : د . محمد رشيد رضا القباني

(504/840)

- المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى

المؤلف : محمد بن محمد الغزالي أبو حامد

الناشر : الجفان والجابي - قبرص

الطبعة الأولى ، 1407 - 1987

تحقيق : بسام عبد الوهاب الجابي

- مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار

المؤلف : حجة الإسلام الإمام / أبو حامد محمد بن محمد الغزالي

دار النشر : عالم الكتب - بيروت / لبنان - 1407 هـ - 1986م

الطبعة : الأولى

تحقيق : الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان

- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام

المؤلف : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (المتوفى : 581هـ)

المحقق : عمر عبد السلام السلامي

الناشر : دار إحياء التراث العربي، بيروت

الطبعة : الطبعة الأولى، 1421هـ/ 2000م

- فتاوى السبكي

المؤلف : الإمام أبو الحسن تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي

سنة الولادة 683هـ/ سنة الوفاة 756 هـ

الناشر دار المعرفة. بيروت

- أنموذج جليل فى أسئلة وأجوبة من غرائب آى التنزيل

المؤلف : محمد بن أبى بكر الرازى

دار النشر : دار الفكر المعاصر . بيروت. لبنان / دمشق. سورية

الطبعة : الثانية

سنة النشر : 1416 هـ / 1995 م

تحقيق : الدكتور : محمد رضوان الداية

- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها

المؤلف : أبو الفتح عثمان بن جنى

الناشر : وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

1420هـ - 1999م

- تلخيص البيان فى مجازات القرآن

المؤلف : الشريف الرضى

دار النشر : دار الأضواء . بيروت

- الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير

المؤلف : الدكتور / محمد بن محمد أبو شهبة . رحمه الله .

الناشر : مكتبة السنة

- الفروق اللغوية

المؤلف : أبو هلال العسكرى

دار النشر : المكتبة التوفيقية . القاهرة

- نحو تفسير موضوعي

المؤلف : الشيخ محمد الغزالي

الناشر : دار نهضة مصر

الطبعة : الأولي

- دفع ايهام الاضطراب عن آيات الكتاب

المؤلف : محمد الأمين الشنقيطي

دار النشر : دار الريان للتراث

(505/840)

كتب السنة النبوية المطهرة وشروحها

1- صحيح البخاري . بترقيم فؤاد عبد الباقي ، طبع دار المعرفة .

2- صحيح مسلم . بترقيم فؤاد عبد الباقي ، طبع دار إحياء التراث العربي .

3- سنن أبي داود . بترقيم محيي الدين عبد الحميد ، طبع دار إحياء السنة النبوية .

4- سنن الترمذي . بترقيم أحمد شاكر ثم فؤاد عبد الباقي ثم إبراهيم عطوة عوض ، طبع دار إحياء التراث العربي .

5- سنن النسائي جزء وصفحة، طبع دار القلم.

6- سنن ابن ماجة. بترقيم فؤاد عبد الباقي، طبع دار الفكر.

7- سنن الدارمي جزء وصفحة، طبع دار صادر.

9- مسند الطيالسي. بترقيم دار الباز، طبع دار المعرفة.

10- صحيح ابن حبان. بترقيم شعيب الأرناؤوط، طبع مؤسسة الرسالة.

11- مستدرك الحاكم جزء وصفحة، طبع دار المعرفة.

12- سنن الدارقطني. طبع مكتبة المتنبي.

13- سنن البيهقي. طبع دار الفكر.

14- موطأ الإمام مالك. بترقيم فؤاد عبد الباقي، طبع دار الكتب العلمية.

15- مسند الشافعي. طبع دار الكتب العلمية.

16- مجمع الزوائد. طبع دار الكتاب العربي.

17- مسند الفردوس للديلمي. طبع دار الكتب العلمية.

18- الكامل لابن عدي. طبع دار الفكر.

19- العلل المتناهية لابن الجوزي. طبع دار الكتب العلمية.

20- سيرة ابن هشام. طبع دار المكتبة التوقيفية.

21- المنتقى لابن الجارود. بترقيم عبد الله عمر البارودي، طبع دار الجنان.

22- المطالب العالية لابن حجر . بترقيم حبيب الرحمن الأعظمي ، طبع دار المعرفة .

المراجع اللغوية المعتمدة في هذا العمل :

1- لسان العرب ، طبع دار بيروت .

2- القاموس المحيط . طبع دار الفكر .

3- مختار الصحاح للرازي . طبع دار الكتاب العربي .

4- المغرب للمطرّزي . طبع مكتبة أسامة بن زيد .

5- المصباح المنير للفيومي . طبع دار الفكر .

كتب الرجال المعتمدة :

1- الجرح والتعديل ، للرازي .

2- الكامل في الضعفاء ، لابن عدي .

3- الضعفاء ، للعقيلي .

4- المجروحون ، لابن حبان .

5- ميزان الاعتدال ، للذهبي .

6- لسان الميزان، لابن حجر.

7- تقريب التهذيب، لابن حجر.

8- الضعفاء والمتروكون، لابن الجوزي.

9- وفيات الأعيان، لابن خلكان.

10- الوافي بالوفيات، للصفدي.

11- الديباج المذهب، لابن فرحون.

12- جذوة الاقتباس، لابن القاضي.

13- تذكرة الحفاظ، للذهبي.

14- بغية الملتمس، لابن عميرة الضبي.

الكتب المعتمدة في الحكم على الحديث:

1- نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية، للإمام الحافظ جمال الدين الزيلعي رحمه الله.

2- الدراية في تلخيص نصب الراية، لابن حجر.

3- تلخيص الحبير في تخريج الرافعي الكبير، لابن حجر.

4- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لابن الجوزي.

5- العلل، لابن أبي حاتم الرازي.

متفرقات

-التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد

المؤلف : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي

(المتوفى : 463هـ)

المحقق : مصطفى بن أحمد العلوى ومحمد عبد الكبير البكرى

الناشر : مؤسسة قرطبة

-فتح الباري .لابن رجب

المؤلف : زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير

بابن رجب

دار النشر : دار ابن الجوزي - السعودية / الدمام - 1422هـ

الطبعة : الثانية ، تحقيق : أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد

-الكبائر

المؤلف : محمد بن عثمان الذهبي

دار النشر : دار الندوة الجديدة – بيروت

– فتح الباري شرح صحيح البخاري ،

المؤلف : أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي

دار النشر : دار المعرفة – بيروت

تحقيق : محب الدين الخطيب

– عمدة القاري شرح صحيح البخاري

المؤلف : بدر الدين محمود بن أحمد العيني

دار النشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت

– تاريخ الطبرى

المؤلف : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري

سنة الولادة / سنة الوفاة

الناشر دار الكتب العلمية – بيروت

– التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة

المؤلف : الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن فرح الأنصارى القرطبى

المتوفى 671 هـ

دار النشر : دار الريان للتراث

الطبعة الثالثة

1411 هـ : 1991 م

- دلائل النبوة

المؤلف : إسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الأصبهاني

الناشر : دار طيبة - الرياض

الطبعة الأولى ، 1409

تحقيق : محمد محمد الحداد

- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة . للبيهقي (384 . 458 هـ)

المؤلف : أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي

الناشر : دار الكتب العلمية . ودار الريان للتراث

الطبعة الأولى

تحقيق : وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه : الدكتور / عبد المعطى قلعجى

1408 هـ / 1988 م

- تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري

المؤلف: جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي (المتوفى: 762 هـ)

المحقق: عبد الله بن عبد الرحمن السعد

الناشر: دار ابن خزيمة - الرياض

الطبعة: الأولى، 1414هـ

- البداية والنهاية

المؤلف: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء

الناشر: مكتبة المعارف - بيروت

- سير أعلام النبلاء

الطبعة التاسعة 1413 هـ 1993 م

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة

- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين

المؤلف : ابن علان الصديقى

دار النشر : المكتبة العصرية صيدا . بيروت

1428 هـ. 2007م

- إمتاع الأسماع بما للنبى من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع

المؤلف : تقى الدين أحمد بن على المقريزى (845) ،

دار النشر : دار الكتب العلمية ، ط الأولى ، 1420/1999 . ، بيروت ،

تحقيق محمد عبد الحميد النميسى

- العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها

المؤلف : الإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي

سنة الولادة 3 / ربيع الآخر / 673هـ/ سنة الوفاة 3 / ذو القعدة / 748هـ

تحقيق : أبو محمد أشرف بن عبد المقصود

الناشر مكتبة أضواء السلف

سنة النشر 1416هـ - 1995م

مكان النشر الرياض

- أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات

المؤلف : مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي

سنة الولادة / سنة الوفاة 1033

تحقيق شعيب الأرناؤوط

الناشر مؤسسة الرسالة

سنة النشر 1406

مكان النشر بيروت

- درء تعارض العقل والنقل

المؤلف : تقي الدين أحمد بن عبد السلام بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية

سنة الولادة 661هـ / سنة الوفاة 728هـ

تحقيق عبد اللطيف عبد الرحمن

الناشر دار الكتب العلمية

سنة النشر 1417هـ - 1997م.

مكان النشر بيروت

- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم

المؤلف : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس

سنة الولادة 661/ سنة الوفاة 728

تحقيق محمد حامد الفقي

الناشر مطبعة السنة المحمدية

سنة النشر 1369

مكان النشر القاهرة

- الفصل في الملل والأهواء والنحل

المؤلف : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الطاهري أبو محمد

سنة الولادة 384/ سنة الوفاة 548

تحقيق

الناشر مكتبة الخانجي - القاهرة

- الملل والنحل

المؤلف : محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني

سنة الولادة 479/ سنة الوفاة 548

تحقيق محمد سيد كيلاني

الناشر دار المعرفة

سنة النشر 1404

مكان النشر بيروت

- ذم التأويل

المؤلف : عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد

سنة الولادة 541/ سنة الوفاة 620

تحقيق بدر بن عبد الله البدر

الناشر الدار السلفية

سنة النشر 1406

مكان النشر الكويت

- حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر

المؤلف : شيث بن إبراهيم بن حيدرة أبو الحسن

الناشر : مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت

الطبعة الأولى ، 1405

تحقيق : عبد الله عمر البارودي

- حجج القرآن

المؤلف : أبو الفضائل أحمد بن محمد بن المظفر بن المختار الرازي

دار النشر : دار الرائد العربي - لبنان - 1402 هـ - 1982م

الطبعة : الثانية

تحقيق : أحمد عمر المحمصاني الأزهري

(510/840)

- الشفا بتعريف حقوق المصطفى - صلى الله عليه وسلم -

المؤلف : العلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي السبتي المغربي

دار الفكر سنة النشر : 1423هـ / 2002م

- المنثور في القواعد

المؤلف : محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله

الناشر : وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية - الكويت

الطبعة الثانية ، 1405

تحقيق : د . تيسير فائق أحمد محمود

- إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق من أصول التوحيد

المؤلف : محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

الطبعة الثانية ، 1987

- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية

المؤلف : عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور

سنة الولادة / سنة الوفاة 429

الناشر دار الآفاق الجديدة

سنة النشر 1977

مكان النشر بيروت

- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين

المؤلف : علي بن إسماعيل الأشعري أبو الحسن

سنة الولادة / سنة الوفاة 324

الناشر دار إحياء التراث العربي - بيروت

-

- جامع بيان العلم وفضله

يوسف بن عبد البر النمري

الناشر دار الكتب العلمية

سنة النشر 1398

مكان النشر بيروت

- المبسوط

المؤلف : شمس الدين السرخسي

دار النشر : دار المعرفة - بيروت

- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع

المؤلف : علاء الدين الكاساني

سنة الولادة / سنة الوفاة 587

تحقيق

الناشر دار الكتاب العربي

سنة النشر 1982

مكان النشر بيروت

بداية المجتهد ونهاية المقتصد

المؤلف : محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي أبو الوليد

دار النشر : دار الفكر - بيروت

- الحاوي في فقه الشافعي - الماوردي

المؤلف : أبو الحسن الماوردي

الناشر : دار الكتب العلمية

الطبعة : الأولى 1414هـ - 1994

- نهاية الزين في إرشاد المبتدئين

المؤلف : محمد بن عمر بن علي بن نووي الجاوي أبو عبد المعطي

دار النشر : دار الفكر – بيروت

الطبعة : الأولى

(511/840)

– المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني

المؤلف : عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي أبو محمد

دار النشر : دار الفكر – بيروت – 1405

الطبعة : الأولى

– المحلى بالآثار شرح المجلى بالاختصار

المؤلف : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد

سنة الولادة 383/ سنة الوفاة 456

تحقيق لجنة إحياء التراث العربي

الناشر دار الآفاق الجديدة – بيروت

– إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل

المؤلف : محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة

الناشر : دار السلام

الطبعة الأولى ، 1990

تحقيق : وهبي سليمان غاوجي الألباني

- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر

المؤلف : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

دار النشر : مؤسسة الرسالة - لبنان / بيروت - 1404هـ - 1984م

الطبعة : الأولى

تحقيق : محمد عبد الكريم كاظم الراضي

- التبصرة

أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي

سنة الولادة 510هـ / سنة الوفاة 597 هـ

تحقيق د . مصطفى عبد الواحد

الناشر دار الكتاب المصري - دار الكتاب اللبناني

سنة النشر 1390هـ - 1970م

مكان النشر مصر - لبنان

- صيدُ الخاطِرِ في التخلّي من الأمراض النفسيَّة والتحلّي بالآداب الشرعيَّة والأخلاقِ المَرْضِيَّةِ

المؤلف : جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى : 597 هـ)

بعناية: حسن المساحي سويدان

الناشر : دار القلم - دمشق

الطبعة : الطبعة الأولى

1425هـ - 2004م

- العقد الفريد

أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي

سنة الولادة 246هـ/ سنة الوفاة 328هـ

الناشر دار إحياء التراث العربي

سنة النشر 1420هـ - 1999م

مكان النشر بيروت /لبنان

- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء

محمد بن حبان البستي أبو حاتم

سنة الولادة / سنة الوفاة 354 هـ

تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد

الناشر دار الكتب العلمية

سنة النشر 1397 - 1977

مكان النشر بيروت

(512/840)

- بستان الواعظين ورياض السامعين

جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله البغدادي

سنة الولادة 510 هـ/ سنة الوفاة 597 هـ

تحقيق : أيمن البحيري

الناشر مؤسسة الكتب الثقافية

سنة النشر 1419 - 1998

مكان النشر بيروت – لبنان

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر

أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف با بن الأثير

سنة الولادة 588 هـ / سنة الوفاة 637 هـ

تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد

الناشر المكتبة العصرية للطباعة والنشر

سنة النشر 1995م

مكان النشر بيروت

الطبعة الرابعة

- الكليات. لأبى البقاء الكفوى

معجم في المصطلحات والفروق اللغوية

المؤلف: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي،

دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – 1419هـ – 1998م.

تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري

- المستطرف في كل فن مستظرف

المؤلف : شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

الطبعة الثانية ، 1986

تحقيق : د . مفيد محمد قميحة

- المدهش

المؤلف : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن هادي

بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي

تحقيق الدكتور مروان قباني

الناشر دار الكتب العلمية

سنة النشر 1405هـ - 1985م

مكان النشر بيروت - لبنان

- تلبيس إبليس

المؤلف : عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج

الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت

الطبعة الأولى ، 1405 – 1985

تحقيق : د . السيد الجميلي

– ذم الهوى

المؤلف : أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن الجوزي

تحقيق : مصطفى عبد الواحد

– فقه السيرة

المؤلف : محمد الغزالي

الناشر : دار نهضة مصر

الطبعة : الأولي

– قذائف الحق

المؤلف : محمد الغزالي

الناشر : دار نهضة مصر

الطبعة : الأولي

كتب شيخ الإسلام ابن تيمية

- مجموع الفتاوى

المؤلف : تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، أبو العباس

المحقق : أنور الباز - عامر الجزار

الناشر : دار الوفاء

الطبعة : الثالثة ، 1426 هـ / 2005 م

- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح

المؤلف : أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس

الناشر : دار العاصمة - الرياض

الطبعة الأولى ، 1414

تحقيق : د . علي حسن ناصر , د . عبد العزيز إبراهيم العسكر , د . حمدان محمد

- منهاج السنة النبوية

المؤلف : شيخ الإسلام ابن تيمية

الطبعة الأولى 1406

مؤسسة قرطبة

المحقق : د . محمد رشاد سالم

(514/840)

كتب الإمام ابن القيم

- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي

الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان

الأولى ، 1405هـ/1985م

- هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى

الناشر : دار ابن زيدون ، بيروت ، لبنان

الأولى ، 1410هـ /1990م

- الطب النبوي

دراسة وتحقيق : السيد الجميلي

الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان

الأولى ، 1410هـ/1990م

- الطرق الحكمية في السياسة الشرعية

دراسة وتحقيق : محمد جميل غازي

الناشر : مطبعة المدني ، القاهرة ، بمصر

- الفوائد

الناشر : دار الكتب العلمية, بيروت, لبنان

الثانية ، 1393هـ/1973م

- أمثال القرآن

دراسة وتحقيق : ناصر بن سعد الرشيد

الناشر : مطابع الصفا ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية

الثانية ، 1402 هـ /1982م

- تحفة المودود بأحكام المولود

دراسة وتحقيق : عبد المنعم العاني

الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان

الأولى ، 1403هـ/1983م

- روضة المحبين ونزهة المشتاقين

الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان

1403 هـ/1983م

- زاد المعاد في هدي خير العباد

الناشر : مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان

الثالثة, 1406 هـ/ 1986م

(515/840)

- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل

الناشر : دار المعرفة ، بيروت ، لبنان

1398هـ/ 1978م

- الروح

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت ، 1395 - 1975

- الوابل الصيب من الكلم الطيب

الناشر : دار الكتاب العربي - بيروت

الطبعة الأولى ، 1405 - 1985

تحقيق : محمد عبد الرحمن عوض

- طريق الهجرتين وباب السعادتين

الناشر : دار السلفية ، القاهرة ، مصر

الطبعة : الثانية ، 1394هـ

- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح

الناشر : مطبعة المدني ، القاهرة

- جلاء الأفهام

الناشر : دار ابن كثير

الطبعة : الأولى, 1408هـ/1988م

- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين

الناشر : دار ابن كثير ، دمشق ، بيروت / مكتبة دار التراث ، المدينة المنورة ، المملكة العربية السعودية

الطبعة : الثالثة ، 1409هـ / 1989م

- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين

الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان

الطبعة : الثانية ، 1393هـ/1973م

- إعلام الموقعين عن رب العالمين

المحقق : طه عبد الرؤوف سعد

الناشر : مكتبة الكليات الأزهرية ، مصر ، القاهرة

الطبعة : 1388هـ/1968م

- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان

دار النشر : دار المعرفة - بيروت - 1395 - 1975

الطبعة : الثانية

تحقيق : محمد حامد الفقي

- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية

الناشر : مكتبة ابن تيمية ، مصر

الأولى ، 1408 هـ / 1988م

- بدائع الفوائد

الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان

- التبيان في أقسام القرآن

المحقق : محمد حامد الفقي

الناشر : دار المعرفة ، بيروت ، لبنان

انتهى والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

تم بحمد الله

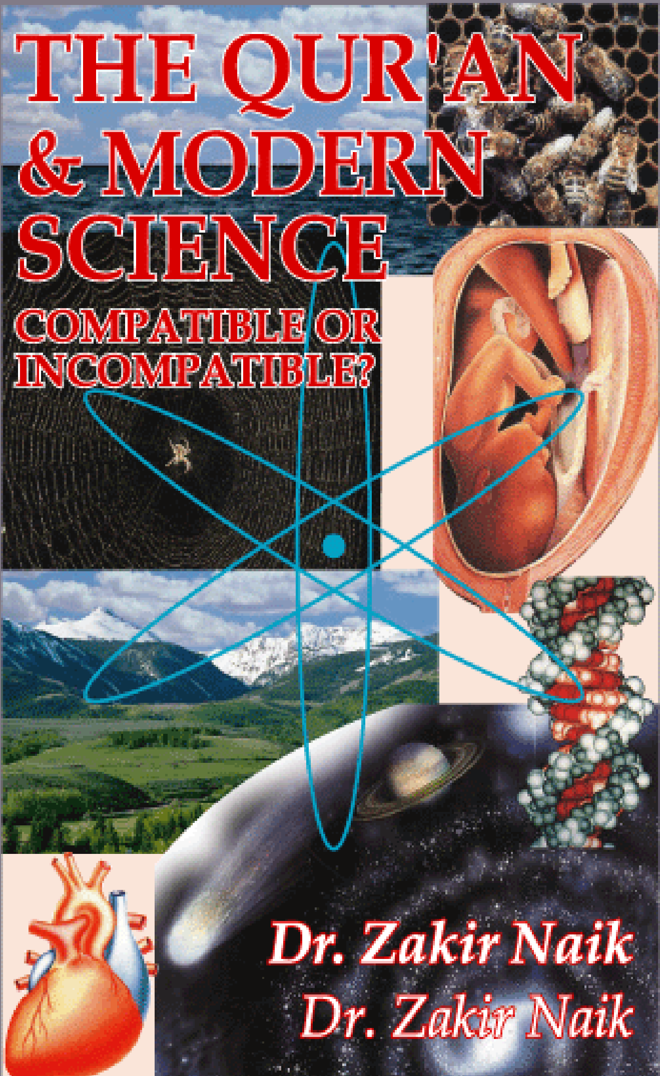
THE QUR'AN
& MODERN
SCIENCE
COMPATIBLE OR
INCOMPATIBLE?
Dr. Zakir Naik
Dr. Zakir Naik

In the Name of Allah, Most Gracious, Most Merciful

1. INTRODUCTION

Ever since the dawn of human life on this planet, Man has always tried to understand Nature, his own place in the scheme of Creation and the purpose of Life itself. In this quest for Truth, spanning many centuries and diverse civilizations, organized religion has shaped human life and, to a large extent, has determined the course of history. While some religions have been based on written text, claimed by their followers to be divinely inspired, others have relied solely on human experience.

Al-Qur'an, the main source of the Islamic faith, is a book believed by its followers, the Muslims, to be completely of Divine origin. Muslims also believe that it contains guidance for all humankind. Since the message of the Qur'an is believed to be for all times, it should be relevant to every age. But does the Qur'an pass this test?

In this booklet, I intend to give an objective analysis of the Muslim belief regarding the Divine origin of the Qur'an, particularly in the light of established scientific discoveries.

There was a time, in the history of world civilization, when 'miracles', or what were perceived to be miracles, took precedence over human reason and logic. Of course, the normal defination of 'miracle' is simply, anything that takes place out of the normal

course of life and for which humankind has no explanation.

However, we must be careful before accepting something as a miracle. In 1993, ‘The Times of India’, Mumbai, reported that ‘a saint’ by the name ‘Baba Pilot’ claimed to have stayed continuously submerged under water in a tank for three consecutive days and nights. However, when reporters wanted to examine the bottom of the tank of water in which he claimed to have performed his ‘miraculous feat’, he refused to let them do so. He argued by asking as to how one could examine the womb of a mother that gives birth to a child. Obviously the ‘saint’ had something to conceal! His claim was a gimmick simply to gain publicity. Surely, no modern person with even the slightest inkling towards rational thinking would accept such a ‘miracle’. If such false miracles are the tests of divinity, then we would have to accept all world famous magicians known for their ingenious magical tricks and illusions, as genuine God-men!

A book, claiming to be of Divine origin, is in effect, claiming to be a miracle. Such a claim should be easily verifiable in any age, according to the standards of that age. Muslims believe, that the Qur’an is the last and final revelation of God, the miracle of miracles, revealed as a mercy to mankind. Let us therefore investigate the veracity of this belief.

THE CHALLENGE OF THE QUR’AN

Literature and poetry have been instruments of human expression and creativity, in all cultures. The world also witnessed an age when literature and poetry occupied pride of position, similar to that now enjoyed by science and technology.

Even non-Muslim scholars agree that the Qur’an is Arabic literature par excellence – that it is the best Arabic literature on the face of the earth. The Qur’an challenges mankind to produce the likes of it:

“And if ye are in doubt
as to what We have revealed
from time to time to Our servant,

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا
نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا

then produce a Surah like
thereunto;

فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ص

and call your witnesses or helpers
(if there are any) besides Allah,

وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم
مِّن دُونِ اللَّهِ

if your (doubts) are true.

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ○

“But if ye cannot –
and of a surety you cannot –

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا

then fear the Fire
whose fuel is Men and Stones –

فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا
النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ج

which is prepared for those
who reject Faith.”

أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ○

[Al-Qur’an 2:23-24][1]

---

[1] Al-Qur’an 2:23-24 indicates *Surah* or Chapter No. 2 and *Aayaat* or Verses 23 and 24. The same notation is followed throughout this book. References and translation of the Qur’an are from the translation of the Qur’an by Abdullah Yusuf Ali, new revised edition, 1989, published by Amana Corporation, Maryland, USA.

The challenge of the Qur'an, is to produce a single *Surah* (chapter) like the *Surahs* it contains. The same challenge is repeated in the Qur'an several times. The challenge to produce a *Surah*, which, in beauty, eloquence, depth and meaning is at least somewhat similar to a Qur'anic *Surah* remains unmet to this day.

A modern rational man, however, would never accept a religious scripture which says, in the best possible poetic language, that the world is flat. This is because we live in an age, where human reason, logic and science are given primacy. Not many would accept the Qur'an's extraordinarily beautiful language, as proof of its Divine origin. Any scripture claiming to be a divine revelation must also be acceptable on the strength of its own reason and logic.

According to the famous physicist and Nobel Prize winner, Albert Einstein, "Science without religion is lame. Religion without science is blind." Let us therefore study the Qur'an, and analyze whether the Qur'an and Modern Science are compatible or incompatible?

The Qur'an is not a book of Science but a book of 'Signs', i.e. *Aayaats*. There are more than six thousand 'Signs' in the Qur'an of which more than a thousand deal with hard core Science.

We all know that many a times Science takes a 'U-turn'. In this book I have considered only established scientific facts and not hypotheses and theories based on mere assumptions and not backed by proof.

2. ASTRONOMY

CREATION OF THE UNIVERSE: ‘THE BIG BANG’

The creation of the universe is explained by astrophysicists as a widely accepted phenomenon, popularly known as ‘The Big Bang’. It is supported by observational and experimental data gathered by astronomers and astrophysicists for decades. According to ‘The Big Bang’, the whole universe was initially one big mass (Primary Nebula). Then there was a ‘Big Bang’ (Secondary Separation) which resulted in the formation of Galaxies. These then divided to form stars, planets, the sun, the moon, etc. The origin of the universe was unique and the probability of it happening by ‘chance’ is nil.

The Qur’an contains the following verse regarding the origin of the universe:

“Do not the Unbelievers see that the heavens and the earth	أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا
were joined together (as one unit of Creation), before	أَنَّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ
We clove them asunder?”	كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنٰهُمَا ط

[Al-Qu’ran 21:30]

The striking similarity between the Qur’anic verse and ‘The Big Bang’ is inescapable! How could a book, which first appeared in the deserts of Arabia 1400 years ago, contain this profound scientific truth?

INITIAL GASEOUS MASS BEFORE CREATION OF GALAXIES

Scientists agree that before the galaxies in the universe were formed, celestial matter was initially in the form of gaseous matter. In short, huge gaseous matter or clouds were present before the formation of the galaxies. To describe initial celestial matter, the word ‘smoke’ is more appropriate than gas. The following Qur’anic verse refers to this state of the universe by the word *dukhaan* which means smoke.

“Moreover, He Comprehended in His design the sky,	ثُمَّ اسْتَوٰٓى اِلَى السَّمَآءِ
and it had been (as) smoke:	وَهِىَ دُخَانٌ
He said to it and to the earth: ‘Come ye together,	فَقَالَ لَهَا وَلِلْاَرْضِ ائْتِيَا
willingly or unwillingly.’	طَوْعًا اَوْ كَرْهًا ؕ
They said: ‘We do come (together), in willing obedience.’”	قَالَتَآ اَتَيْنَا طَآئِعِيْنَ ۝

[Al-Qur’an 41:11]

Again, this fact is a corollary to the ‘Big Bang’ and was not known to anyone before the prophetehood of Muhammad (Peace be upon him)[1]. What then, could have been the source of this knowledge?

---

[1] Muslims also send salutations upon all the previous divinely inspired Prophets on taking their names.

SHAPE OF THE EARTH IS SPHERICAL

In early times, people believed that the earth was flat. For centuries, men were afraid to venture out too far, for fear of falling off the edge! Sir Francis Drake was the first person who proved that the earth is spherical when he sailed around it in 1597.

Consider the following Qur'anic verse regarding the alternation of day and night:

"Seest thou not that Allah	أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ
merges Night into Day	يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ
and He merges Day into Night?"	وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ

[Al-Qur'an 31:29]

Merging here means that the night slowly and gradually changes to day and vice versa. This phenomenon can only take place if the earth is spherical. If the earth was flat, there would have been a sudden change from night to day and from day to night.

The following verse also alludes to the spherical shape of the earth:

"He created the heavens and the earth in true (proportions):	خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ
He makes the Night overlap the Day,	يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ

and the Day overlap the Night.”

وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى الَّيْلِ

[Al-Qur’an 39:5]

The Arabic word used here is *Kawwara* meaning ‘to overlap’ or ‘to coil’– the way a turban is wound around the head. The overlapping or coiling of the day and night can only take place if the earth is spherical.

The earth is not exactly round like a ball, but geo-spherical, i.e. it is flattened at the poles. The following verse contains a description of the earth’s shape:

“And the earth, moreover, hath He made egg shaped.”

وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحٰهَا

[Al-Qur’an 79:30]

The Arabic word for egg here is *dahaahaa*[1] which means an ostrich-egg. The shape of an ostrich-egg resembles the geo-spherical shape of the earth.

Thus the Qur’an correctly describes the shape of the earth, though the prevalent notion when the Qur’an was revealed was that the earth was flat.

MOONLIGHT IS REFLECTED LIGHT

It was believed by earlier civilizations that the moon emanates its own light. Science now tells us

---

[1] The Arabic word *dahaahaa* has been translated by A. Yusuf Ali as “vast expanse”, which also is correct. This word also means an ostrich-egg.

that the light of the moon is reflected light. However this fact was mentioned in the Qur’an 1,400 years ago in the following verse:

“Blessed is He Who made Constellations in the skies, and placed therein a Lamp and a Moon giving light.”

تَبٰرَكَ الَّذِىۡ جَعَلَ فِى السَّمَآءِ
بُرُوۡجًا وَّجَعَلَ فِيۡهَا سِرٰجًا
وَّقَمَرًا مُّنِيۡرًا ۝

[Al-Qur’an 25:61]

The Arabic word for the sun in the Qur’an, is *shams*. It is also referred to as *siraaj* which means a ‘torch’ or as *wahhaaj* meaning ‘a blazing lamp’ or as *diya* which means ‘shining glory’. All three descriptions are appropriate to the sun, since it generates intense heat and light by its internal combustion. The Arabic word for the moon is *qamar* and it is described in the Qur’an as *muneer* which is a body that gives *noor* i.e. reflected light. Again, the Qur’anic description matches perfectly with the true nature of the moon which does not give off light by itself and is an inactive body that reflects the light of the sun. Not once in the Qur’an, is the moon mentioned as *siraaj*, *wahhaaj* or *diya* nor the sun as *noor* or *muneer*. This implies that the Qur’an recognizes the difference between the nature of sunlight and moonlight.

The following verses relate to the nature of light from the sun and the moon:

"It is He who made the sun to be a shining glory

هُوَ الَّذِیْ جَعَلَ الشَّمْسَ ضِیَآءً

and the moon to be a light (of beauty)."

وَّالْقَمَرَ نُوْرًا

[Al-Qur'an 10:5]

"See ye not how Allah has created

اَلَمْ تَرَوْا كَیْفَ خَلَقَ اللّٰهُ

the seven heavens one above another,

سَبْعَ سَمٰوٰتٍ طِبَاقًا ۙ

"And made the moon a light in their midst,

وَّجَعَلَ الْقَمَرَ فِیْهِنَّ نُوْرًا

and made the sun as a (Glorious) Lamp?"

وَّجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝

[Al-Qur'an 71:15-16]

The Glorious Qur'an and modern science, are thus in perfect agreement about the differences in the nature of sunlight and moonlight.

THE SUN ROTATES

For a long time European philosophers and scientists believed that the earth stood still in the centre of the universe and every other body including the sun moved around it. In the West, this geocentric concept of the universe was prevalent right from the time of Ptolemy in the second century B.C. In 1512, Nicholas Copernicus put forward his Heliocentric Theory of Planetary Motion, which asserted that the sun is

motionless at the centre of the solar system with the planets revolving around it.

In 1609, the German scientist Yohannus Keppler published the ‘*Astronomia Nova*’. In this he concluded that not only do the planets move in elliptical orbits around the sun, they also rotate upon their axes at irregular speeds. With this knowledge it became possible for European scientists to explain correctly many of the mechanisms of the solar system, including the sequence of night and day.

After these discoveries, it was thought that the Sun was stationary and did not rotate about its axis like the Earth. I remember having studied this fallacy from Geography books during my school days.

Consider the following Qur’anic verse:

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

“It is He Who created the Night and the Day,

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ

and the sun and the moon:

كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

All (the celestial bodies) swim along, each in its rounded course.”

[Al-Qur’an 21:33]

The Arabic word used in the above verse is *yasbahoon* . This word is derived from the word *sabaha*. It carries with it the idea of motion that comes from any moving body. If you use this word for a person on the ground, it would not mean that he is rolling but would imply that he is walking or

running. If you use this word for a person in water, it would not mean that he is floating but would imply that he is swimming.

Similarly, if you use the word *yasbah* for a celestial body such as the sun, it would not only mean that it is flying through space but would also mean that it is rotating as it goes through space. Most school textbooks have now incorporated the fact that the sun rotates about its axis. The rotation of the sun about its own axis can be proved with the help of an equipment that projects the image of the sun on the top of a table, so that one can examine the image of the sun without being blinded. It is noticed that the sun has spots which complete a circular motion once every 25 days i.e. the sun takes approximately 25 days to rotate round its axis.

The sun travels through space at roughly 240 km per second, and takes about 200 million years to complete one revolution around the centre of our Milky Way Galaxy.

"It is not permitted to the Sun to catch up the Moon, لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِيْ لَهَآ اَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ

nor can the Night outstrip the Day: وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ

Each (just) swims along in (its own) orbit (according to Law)." وَكُلٌّ فِيْ فَلَكٍ يَّسْبَحُوْنَ ۝

[Al-Qur'an 36:40]

This verse mentions an essential fact discovered

only recently by modern astronomy, i.e. the existence of the individual orbits of the Sun and the Moon, and their journey through space with their own motion.

The ‘fixed place’ towards which the sun travels, carrying with it the solar system, has been located preirsely by modern astronomy. It has been given a name, the Solar Apex. The solar system is indeed moving in space towards a point situated in the constellation of Hercules (alpha Lyrae) whose exact location is now firmly established.

The moon rotates around its axis in the same duration that it takes to revolve around the earth. It takes approximately 29½ days to complete one rotation.

One cannot help but be amazed at the scientific accuracy of the Qur’anic verses. Should we not ponder over the question: “What is the source of knowledge contained in the Qur’an?”

THE SUN WILL EXTINGUISH

The light of the sun is due to a chemical process on its surface that has been taking place continuously for the past five billion years. It will come to an end at some point of time in the future, when the sun will be totally extinguished, leading to extinction of all life on earth. Regarding the impermanence of the sun’s existence, the Qur’an says:

وَالشَّمْسُ تَجْرِىْ

“And the Sun runs its course

for a period determined for it; that is لِمُسۡتَقَرٍّ لَّهَا ؕ ذٰلِكَ

the decree of (Him) the exalted in Might, the All-Knowing." تَقۡدِيۡرُ الۡعَزِيۡزِ الۡعَلِيۡمِ ۟

***[Al-Qur'an 36:38]*[1]**

The Arabic word used here is *mustaqarr*, which means a place or time that is determined. Thus the Qur'an says that the sun runs towards a determined place, and will do so only up to a pre-determined period of time – meaning that it will end or extinguish.

INTERSTELLAR MATTER

Space outside organized astronomical systems was earlier assumed to be a vacuum. Astrophysicists later discovered the presence of bridges of matter in this interstellar space. These bridges of matter are called plasma, and consist of completely ionized gas containing equal number of free electrons and positive ions. Plasma is sometimes called the fourth state of matter (besides the three known states viz. solid, liquid and gas). The Qur'an refers to the presence of this interstellar material in the following verse:

"He Who created the heavens الَّذِىۡ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ

---

[1]A similar message is conveyed in the Qur'an in 13:2, 35:13, 39:5 and 39:21.

and the earth and all that is between.”

وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

[Al-Qur’an 25:59]

It would be ridiculous for anyone to even suggest that the presence of interstellar galactic material was known 1400 years ago!

THE EXPANDING UNIVERSE

In 1925, American astronomer Edwin Hubble, provided observational evidence that all galaxies are moving away from one another, which implies that the universe is expanding. The expansion of the universe is now an established scientific fact. This is what the Qur’an says regarding the nature of the universe:

“With power and skill did We construct the Firmament:

وَالسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا

For it is We Who create the vastness of Space.”

بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝

[Al-Qur’an 51:47]

The Arabic word *musioon* is correctly translated as ‘expanding it’, and it refers to the creation of the expanding vastness of the universe.

One of the greatest astrophysicist Stephen Hawking, in his book, ‘A Brief History of Time’,

says, “The discovery that the universe is expanding was one of the great intellectual revolutions of the 20th century.” The Qur’an mentioned the expansion of the universe, before man even learnt to build a telescope!

Some may say that the presence of astronomical facts in the Qur’an is not surprising since the Arabs were advanced in the field of astronomy. They are correct in acknowledging the advancement of the Arabs in the field of astronomy. However they fail to realize that the Qur’an was revealed centuries before the Arabs excelled in astronomy. Moreover many of the scientific facts mentioned above, such as the origin of the universe with a Big Bang, were not known to the Arabs even at the peak of their scientific advancement. The scientific facts mentioned in the Qur’an are therefore not due to the Arabs’ advancement in astronomy. Indeed, the reverse is true: they advanced in astronomy, because astronomy occupies a place in the Qur’an.

3. PHYSICS

ATOMS CAN BE DIVIDED

In ancient times a well-known theory by the name of ‘Theory of Atomism’ was widely accepted. This theory was originally proposed by the Greeks, in particular by a scholar called Democritus, who lived about 23 centuries ago. Democritus and the people that came after him, assumed that the smallest unit of matter was the atom. The ancient Arabs used to believe the same. The Arabic word *zarrah* most commonly meant an atom. In recent times modern science has discovered that it is possible to split even an atom. That the atom can be split further is a development of the 20th century. Fourteen centuries ago this concept would have appeared unusual even to an Arab. For him the *zarrah* was the limit beyond which one could not go. The following Qur’anic verse however, refuses to acknowledge this limit:

“The Unbelievers say,	وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا
‘Never to us will come The Hour’:	تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ
say, ‘Nay! but most surely, by my Lord, it will come upon you –	وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ

by Him Who knows the unseen – عٰلِمِ الْغَيْبِ ۚ
from Whom is not hidden
the least little atom لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ

in the Heavens or on earth: فِى السَّمٰوٰتِ وَلَا فِى الْاَرْضِ

nor is there anything less
than that, or greater, but وَلَآ اَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلَآ اَكْبَرُ

is in the Record Perspicuous.'" اِلَّا فِىْ كِتٰبٍ مُّبِيْنٍ ۙ

***[Al-Qur'an 34:3]*[1]**

This verse also refers to the Omniscience of God, His knowledge of all things, hidden or apparent. It then goes further and says that God is aware of everything, including what is smaller or bigger than the atom. Thus the verse clearly shows that it is possible for something smaller than the atom to exist, a fact discovered only recently by modern science.

---

[1] A similar message is conveyed in the Qur'an in 10:61.

4. HYDROLOGY

THE WATER CYCLE

In 1580, Bernard Palissy was the first person to describe the present day concept of ‘water cycle’. He described how water evaporates from the oceans and cools to form clouds. The clouds move inland where they rise, condense and fall as rain. This water gathers as lakes and streams and flows back to the ocean in a continuous cycle. In the 7th century B.C., Thales of Miletus believed that surface spray of the oceans was picked up by the wind and carried inland to fall as rain.

In earlier times people did not know the source of underground water. They thought the water of the oceans, under the effect of winds, was thrust towards the interior of the continents. They also believed that the water returned by a secret passage or the Great Abyss. This passage is connected to the oceans and has been called the ‘Tartarus’, since Plato’s time. Even Descartes, a great thinker of the eighteenth century, subscribed to this view. Till the nineteenth century, Aristotle’s theory was still prevalent. According to this theory, water was condensed in cool mountain caverns and formed underground lakes that fed springs. Today, we have come to know that the rainwater that seeps into the cracks of the ground is responsible for this.

This is described by the Qur’an in the following verses:

“Seest thou not that Allah

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ

**sends down rain
from the sky,**

أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

**and leads it through
springs in the earth?**

فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ

**then He causes to grow,
therewith, produce of
various colours.”**

ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ
زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ

[Al-Qur’an 39:21]

**“He sends down rain
from the sky**

وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

**and with it gives life to
the earth after it is dead:**

فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

**Verily in that are Signs
for those who are wise.”**

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ○

[Al-Qur’an 30:24]

**“And We send down water
from the sky**

وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

**according to (due) measure,
and We cause it
to soak in the soil;**

بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ

**and We certainly are able
to drain it off (with ease).”**

وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ

[Al-Qur’an 23:18]

No other text dating back 1400 years ago gives such an accurate description of the water cycle.

EVAPORATION

"By the Firmament which returns (in its round),"

وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجۡعِ ۝

[Al-Qur'an 86:11]

WINDS IMPREGNATE CLOUDS

"And We send the fecundating winds,

وَاَرۡسَلۡنَا الرِّيٰحَ لَوَاقِحَ

then cause the rain to descend from the sky,

فَاَنۡزَلۡنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً

therewith providing you with water (in abundance)."

فَاَسۡقَيۡنٰكُمُوۡهُ ۚ

[Al-Qur'an 15:22]

The Arabic word used here is *lawaaqih* which is the plural of *laqih* from *laqaha*, which means to impregnate or fecundate. In this context, impregnate means that the wind pushes the clouds together increasing the condensation that causes lightning and thus rain. A similar description is found in the following verses of the Qur'an:

"Seest thou not that Allah makes the clouds move gently, then joins them together, then makes them into a heap?–then wilt thou see rain issue forth from their midst. And He sends down from the sky

اَلَمۡ تَرَ اَنَّ اللّٰهَ يُزۡجِىۡ سَحَابًا
ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهٗ ثُمَّ
يَجۡعَلُهٗ رُكَامًا فَتَرَى الۡوَدۡقَ
يَخۡرُجُ مِنۡ خِلٰلِهٖ ۚ وَيُنَزِّلُ
مِنَ السَّمَآءِ مِنۡ جِبَالٍ فِيۡهَا

mountain masses (of clouds) wherein is hail: He strikes therewith whom He pleases and He turns it away from whom He pleases. the vivid flash of His lightning well-nigh blinds the sight.”	مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهٖ مَنۡ يَّشَآءُ وَيَصۡرِفُهٗ عَنۡ مَّنۡ يَّشَآءُ ؕ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهٖ يَذۡهَبُ بِالۡاَبۡصَارِ ؕ
[Al-Qur’an 24:43]	
“It is Allah Who sends the Winds, and they raise the Clouds:	اَللّٰهُ الَّذِىۡ يُرۡسِلُ الرِّيٰحَ فَتُثِيۡرُ سَحَابًا
then does He spread them in the sky as He wills,	فَيَبۡسُطُهٗ فِى السَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ
and break them into fragments, until thou seest raindrops issue from the midst thereof:	وَيَجۡعَلُهٗ كِسَفًا فَتَرَى الۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلٰلِهٖ ۚ
then when He has made them reach such of His servants as He wills,	فَاِذَاۤ اَصَابَ بِهٖ مَنۡ يَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِهٖۤ
behold, they do rejoice!”	هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُوۡنَ ۚ
[Al-Qur’an 30:48]	

Modern data on Hydrology agrees perfectly with the Qur'anic description on the same subject.

The water cycle is described in several other verses of the Glorious Qur’an, including 7:57, 13:17, 25:48-49, 35:9, 36:34, 45:5, 50:9-11, 56:68-70 and 67:30.

5. GEOLOGY

MOUNTAINS ARE LIKE TENT PEGS

In geology, the phenomenon of 'folding', is a recently discovered fact. Folding is responsible for the formation of mountain ranges. The earth's crust, on which we live, is like a solid shell, while the deeper layers are hot and fluid, and thus inhospitable to any form of life. It is also known that the stability of the mountains is linked to the phenomenon of folding, for it was the folds that were to provide foundations for the reliefs that constitute the mountains.

Geologists tell us that the radius of the Earth is about 6,035 km and the crust on which we live is very thin, ranging between 2 to 35 km. Since the crust is thin, it has a high possibility of shaking. Mountains act like stakes or tent pegs that hold the earth's crust and give it stability. The Qur'an contains exactly such a description:

"Have We not made the earth as a wide expanse, أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝

and the mountains as pegs?" وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝

[Al-Qur'an 78:6-7]

The word *awtaad* means stakes or pegs (like those used to anchor a tent); they are the deep foundations of geological folds.

A book entitled ‘Earth’ is regarded as a basic reference textbook on geology in many universities around the world. One of the authors of this book is Dr. Frank Press, who was the President of the Academy of Sciences in the USA for 12 years and was the Science Advisor to former US President Jimmy Carter. In this book, he illustrates the mountain in a wedge-shape and the mountain itself as a small part of the whole, whose root is deeply entrenched in the ground.[1] According to Dr. Press, the mountains play an important role in stabilizing the crust of the earth.

The Qur’an clearly mentions the function of the mountains in preventing the earth from shaking:

“And We have set on the earth mountains standing firm, وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ

lest it should shake with them.” أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ

[Al-Qur’an 21:31][2]

The Qur’anic descriptions are in perfect agreement with modern geological data.

MOUNTAINS FIRMLY FIXED

The surface of the earth is broken into many rigid plates that are about 100 km in thickness. These

---

[1] *Earth*, Press and Siever, p. 435. Also see *Earth Science*, Tarbuck and Lutgens, p. 157

[2] A similar message is contained in the Qru'an in 31:10 and 16:15

plates float on a partially molten region called aesthenosphere.

Mountain formations occur at the boundary of the plates. The earth's crust is 5 km thick below oceans, about 35 km thick below flat continental surfaces and almost 80 km thick below great mountain ranges. These are the strong foundations on which mountains stand. The Qur'an refers to the strong mountain foundations in the following verse:

"And the mountains hath He firmly fixed."

وَالْجِبَالَ أَرْسٰهَا ۙ

***[Al-Qur'an 79:32]*[1]**

Thus, the information contained in the Glorious Qur'an about the nature of mountains, is in perfect agreement with recent discoveries in geology.

---

[1] A similar message is contained in the Qur'an in 88:19.

6. OCEANOLOGY

BARRIER BETWEEN SWEET AND SALT WATERS

"He has let free the two bodies of flowing water, meeting together: مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيٰنِ ۙ

Between them is a Barrier which they do not transgress." بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيٰنِ ۚ

[Al-Qur'an 55:19-20]

In the Arabic text the word *barzakh* means a barrier or a partition. This barrier, however, is not a physical partition. The Arabic word *maraja* literally means 'they both meet and mix with each other'. Early commentators of the Qur'an were unable to explain the two opposite meanings for the two bodies of water, i.e. they meet and mix, and at the same time there is a barrier between them. Modern Science has discovered that in the places where two different seas meet, there is a barrier between them. This barrier divides the two seas so that each sea has its own temperature, salinity and density.[1] Oceanologists are now in a better position to explain this verse. There is a slanted unseen water barrier between the two seas through which water from one sea passes to the other.

But when the water from one sea enters the other sea, it loses its distinctive characteristic and

---

[1] *Principles of Oceanography*, Davis, pp. 92-93.

becomes homogenized with the other water. In a way this barrier serves as a transitional homogenizing area for the two waters.

This phenomenon is also mentioned in the following verse of the Qur'an:

"And made a separating bar between the two bodies of flowing water?"

وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ

[Al-Qur'an 27:61]

This phenomenon occurs in several places, including the divider between the Mediterranean and the Atlantic Ocean at Gibralter. A white bar can also be clearly seen at Cape Point, Cape Peninsula, South Africa where the Atlantic Ocean meets the Indian Ocean.

But when the Qur'an speaks about the divider between fresh and salt water, it mentions the existence of "a forbidding partition" with the barrier.

"It is He Who has let free the two bodies of flowing water:

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ

one palatable and sweet, and the other salty and bitter;

هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَّهٰذَا مِلْحٌ اُجَاجٌ ۚ

yet has He made a barrier between them, and a partition that is forbidden to be passed.

وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَّحِجْرًا مَّحْجُوْرًا ○

[Al-Qur'an 25:53]

Modern science has discovered that in estuaries, where fresh (sweet) and salt water meet, the situation is somewhat different from that found in places where two salt water seas meet. It has been discovered that what distinguishes fresh water from salt water in estuaries is a "pycnocline zone with a marked density discontinuity separating the two layers."[1] This partition (zone of separation) has a salinity different from both the fresh water and the salt water.[2]

This phenomenon occurs in several places, including Egypt, where the river Nile flows into the Mediterranean Sea.

These scientific phenomena mentioned in the Qur'an was also confirmed by Dr. William Hay, a well-known marine scientist and Professor of Geological Sciences at the University of Colorado, U.S.A.

DARKNESS IN DEPTHS OF OCEAN

Prof. Durga Rao is a world renowned expert in the field of Marine Geology and was a professor at King Abdul Aziz University in Jeddah. He was asked to comment on the following verse:

"Or (the Unbelievers' state) is like the depths of darkness in a vast deep ocean,

أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ

---

[1] *Oceanography*, Gross, p. 242. Also see *Introductory Oceanography*, Thurman, pp. 300-301.

[2] *Oceanography*, Gross, p. 244 and *Introductory Oceanography*, Thurman, pp. 300-301.

overwhelmed with billow
topped by billow,
topped by (dark) clouds:

depths of darkness,
one above another:

if a man stretches out his hand,
he can hardly see it!

For any to whom Allah
giveth not light,
there is no light!"

[Al-Qur'an 24:40]

Prof. Rao said that scientists have only now been able to confirm, with the help of modern equipment, that there is darkness in the depths of the ocean. Humans are unable to dive unaided underwater for more than 20 to 30 metres, and cannot survive in the deep oceanic regions at a depth of more than 200 metres. This verse does not refer to all seas because not every sea can be described as having accumulated darkness layered one over another. It refers especially to a deep sea or deep ocean, as the Qur'an says, "darkness in a vast deep ocean". This layered darkness in a deep ocean is the result of two causes:

1. A light ray is composed of seven colours seen in the rainbow. These seven colours are Violet,

Indigo, Blue, Green, Yellow, Orange and Red (VIBGYOR). The light ray undergoes refraction when it hits water. The upper 10 to 15 metres of water absorb the red colour. Therefore, if a diver is 25 metres under water and gets wounded, he would not be able to see the red colour of his blood, because the red colour does not reach this depth. Similarly, orange rays are absorbed at 30 to 50 metres, yellow at 50 to 100 metres, green at 100 to 200 metres, and finally, blue beyond 200 metres and violet and indigo above 200 metres. Due to successive disappearance of colour, one layer after another, the ocean progressively becomes darker, i.e. darkness takes place in layers of light. Below a depth of 1000 meters there is complete darkness.[1]

2. The sun's rays are absorbed by clouds which in turn scatter light rays thus causing a layer of darkness under the clouds. This is the first layer of darkness. When light rays reach the surface of the ocean they are reflected by the wave surface giving it a shiny appearance. Therefore, it is the waves which reflect light and cause darkness. The unreflected light penetrates into the depths of the ocean. Thus, the ocean has two parts. The surface characterized by light and warmth and the depth characterized by darkness. The surface

---

[1] *Oceans*, Elder and Pernetta, p. 27.

is further separated from the deep part of the ocean by waves.

The internal waves cover the deep waters of seas and oceans because the deep waters have a higher density than the waters above them.

The darkness begins below the internal waves. Even the fish in the depths of the ocean cannot see; their only source of light is from their own bodies.

The Qur'an describes this aptly:

"Darkness in a vast deep ocean overwhelmed with waves topped by waves".

In other words, above these waves there are more types of waves, i.e. those found on the surface of the ocean. The Qur'anic verse continues, "topped by (dark) clouds; depths of darkness, one above another."

These clouds as explained are barriers one over the other that further cause darkness by absorption of colours at different levels.

Prof. Durga Rao concluded by saying, "1400 years ago a normal human being could not explain this phenomenon in so much detail. Thus the information must have come from a supernatural source".

---

[1] The reference for this statment is the video tape titled '*This is the Truth*'. For a copy of this video tape contact the Islamic Research Foundation.

“It is He Who has
Created man from water:

then has He established
relationships of lineage
and marriage:

for thy Lord has power
(over all things).”

[Al-Qur’an 25:54]

Was it possible 14 centuries ago for any human being to guess that every living being was made from water? Moreover would such a guess be conceivable by a human being in the deserts of Arabia where there has always been scarcity of water?

8. BOTANY

PLANTS HAVE MALE AND FEMALE

Previously, humans did not know that plants too have male and female gender distinctions. Botany states that every plant has a male and female gender. Even the plants that are unisexual have distinct elements of both male and female.

"'And has sent down water from the sky.'

وَّاَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً ؕ

With it have We produced diverse pairs of plants

فَاَخْرَجْنَا بِهٖۤ اَزْوَاجًا

each separate from the others."

مِّنْ نَّبَاتٍ شَتّٰى ۝

[Al-Qur'an 20:53]

FRUITS HAVE MALE AND FEMALE

"And fruit of every kind He made

وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرٰتِ جَعَلَ

in pairs, two and two."

فِيْهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

[Al-Qur'an 13:3]

Fruit is the end product of reproduction of the superior plants. The stage preceding fruit is the flower, which has male and female organs (stamens and ovules). Once pollen has been carried to the flower, they bear fruit, which in turn matures and frees its seed. All fruits therefore imply the existence of male and female organs; a fact that is mentioned in the Qur'an.

In certain species, fruit can come from non-fertilized flowers (parthenocarpic fruit) e.g. bananas, certain types of pineapple, fig, orange, vine, etc. They also have definite sexual characteristics.

EVERYTHING MADE IN PAIRS

“And of everything
We have created pairs.”

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ

[Al-Qur’an 51:49]

This verse lays emphasis on everything. Besides humans, animals, plants and fruits, it may also be referring to electricity in which the atoms consist of negatively – and positively – charged electrons and protons. And many more things!

“Glory to Allah, Who created in pairs

سُبْحٰنَ الَّذِىْ خَلَقَ الْاَزْوَاجَ

all things that the earth produces,

كُلَّهَا مِمَّا تُنْۢبِتُ الْاَرْضُ

as well as their own (human) kind

وَمِنْ اَنْفُسِهِمْ

and (other) things of which they have no knowledge.”

وَمِمَّا لَا يَعْلَمُوْنَ ۝

[Al-Qur’an 36:36]

The Qur’an here says that everything is created in pairs, including things that the humans do not know at present and may discover later.

9. ZOOLOGY

ANIMALS AND BIRDS LIVE IN COMMUNITIES

“There is not an animal (that lives) on the earth,	وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ
nor a being that flies on its wings,	وَلَا طَآئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ
but (forms part of) communities like you.”	إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم

[Al-Qur’an 6:38]

Research has shown that animals and birds live in communities, i.e. they organize, and live and work together.

THE FLIGHT OF BIRDS

“Do they not look at the birds, held poised in the midst of (the air and) the sky?	أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ السَّمَآءِ
Nothing holds them up but (the power of) Allah.	مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ
Verily in this are Signs for those who believe.”	إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ○

[Al-Qur’an 16:79]

Another verse also touches on birds:

"Do they not observe the birds above them,	أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ
spreading their wings and folding them in?	فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ
None can uphold them except (Allah) Most Gracious:	مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ ۚ
truly it is He that watches over all things."	إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ ۝

[Al-Qur'an 67:19]

The Arabic word *amsaka* literally means, 'to put one's hand on, seize, hold, hold someone back,' which expresses the idea that Allah holds the bird up in His power. These verses stress the extremely close dependence of the birds' behaviour on Divine law. Modern scientific data has shown the degree of perfection attained by certain species of birds with regard to the programming of their movements. It is only the existence of a migratory programme in the genetic code of the birds that can explain the long and complicated journey that very young birds, without any prior experience and without any guide, are able to accomplish. They are also able to return to the departure point on a definite date.

Prof. Hamburger in his book 'Power and Fragility' gives the example of 'mutton-bird' that lives in the Pacific with its journey of over 24,000 km in the shape of figure '8'. It makes this journey over a

period of 6 months and comes back to its departure point with a maximum delay of one week. The highly complicated instructions for such a journey have to be contained in the birds' nervous cells. They are definitely programmed. Therefore, should we not at least reflect on the identity of this 'Programmer'?

THE BEE AND ITS SKILL

"And thy Lord taught the Bee to build its cells in hills,

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ
أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا

on trees, and in (men's) habitations;

وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۙ

then to eat of all the produce (of the earth),

ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ

and find with skill the spacious paths of its Lord."

فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ

[Al-Qur'an 16:68-69]

Von-Frisch received the Nobel Prize in 1973 for his research on the behaviour and communication of the bees. The bee, after discovering any new garden or flower, goes back and tells its fellow bees the exact direction and map to get there, which is known as 'bee dance'. The meanings of this insect's movements that are intended to transmit information between worker bees have been discovered scientifically using photography and other methods. The Qur'an mentions in the above verses how the bee with its skill, finds the spacious paths of its Lord.

The gender used for the bee in the above verses is the female gender (*fa'slukî* and *kulî*), indicating that the bee that leaves its home for gathering food is a female bee. In other words the soldier or worker bee is a female bee.

In fact, in Shakespeare's play, 'Henry the Fourth', some of the characters speak about bees and mention that the bees are soldiers and that they have a king. That is what people thought in Shakespearean times. They thought that the worker bees are male bees and they go home and are answerable to a king bee. This, however, is not true. The worker bees are females and they do not report to a king bee but to a queen bee. But it took modern investigations in the last 300 years to discover this.

SPIDER'S WEB, THE FRAGILE HOME

"The parable of those who
take protectors other than Allah

is that of the Spider,
who builds (to itself) a house;

but truly the flimsiest of houses
is the Spider's house –

if they but knew."

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ
كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ ۚ
اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ
وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ
لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ
لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝

[Al-Qur'an 29:41]

Besides giving the physical description of the spider’s web as being very flimsy, delicate and weak, the Qur’an also stresses on the flimsiness of the relationship in the spider’s house, where the female spider many a times kills its mate, the male spider.

The parable also has reference to the weakness of such relationship of the people who seek protection for this world and for the hereafter from those other than Allah.

LIFESTYLE AND COMMUNICATION OF ANTS

“And before Solomon were marshalled his hosts –	وَحُشِرَ لِسُلَيْمٰنَ جُنُوْدُهٗ
of Jinns and men and birds,	مِنَ الْجِنِّ وَالْاِنْسِ وَالطَّيْرِ
and they were all kept in order and ranks.	فَهُمْ يُوْزَعُوْنَ ○
“At length, when they came to a (lowly) valley of ants,	حَتّٰۤى اِذَاۤ اَتَوْا عَلٰى وَادِ النَّمْلِ
one of the ants said : ‘O ye ants, get into your habitations,	قَالَتْ نَمْلَةٌ يّٰۤاَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوْا مَسٰكِنَكُمْ
lest Solomon and his hosts crush you (under foot) without knowing it.’”	لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمٰنُ وَجُنُوْدُهٗ وَهُمْ لَا يَشْعُرُوْنَ ○

[Al-Qur’an 27:17-18]

In the past, some people would have probably mocked at the Qur'an, taking it to be a book of fairy tales in which ants talk to each other and communicate sophisticated messages. In recent times however, research has shown us several facts about the lifestyle of ants, which were not known earlier to humankind. Research has shown that the animals or insects whose lifestyle is closest in resemblance to the lifestyle of human beings are the ants. This can be seen from the following findings regarding ants:

(a) The ants bury their dead in a manner similar to the humans.

(b) They have a sophisticated system of division of labour, whereby they have managers, supervisors, foremen, workers, etc.

(c) Once in a while they meet among themselves to have a 'chat'.

(d) They have an advanced method of communication among themselves.

(e) They hold regular 'markets' where they exchange goods.

(f) They store grain for long periods in winter and if the grain begins to bud, they cut the roots, as if they understand that if they leave it to grow, it will rot. If the grain stored by them gets wet due to rains, they take it out into the sunlight to dry, and once dry, they take it back inside as though they know that humidity will cause development of root systems which will cause the grain to rot.

10. MEDICINE

HONEY: HEALING FOR HUMANKIND

The bee assimilates juices of various kinds of flowers and fruit and forms honey within its body, which it stores in its cells of wax. Only a couple of centuries ago humans came to know that honey comes from the belly of the bee. But this fact was mentioned in the Qur'an 1,400 years ago in the following verse:

"There issues from within their bodies يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ

a drink of varying colours, wherein is healing for men." مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ

[Al-Qur'an 16:69]

We are only now aware that honey has healing properties and is also a mild antiseptic. The Russians would use honey to cover their wounds in World War II. The wound would retain moisture and would leave very little scar tissue. Due to the density of honey, no fungus or bacteria could grow in the wound.

Dramatic improvements were visible in 22 incurable chest and Alzheimer's disease patients at nursing Homes in England who were treated by Sister Carole, a nun, with propolis, a substance which bees produce to seal hives against bacteria.[1]

---

[1] The reference for this statment is the video tape titled '*This is the Truth*'. For a copy of this video tape contact the Islamic Research Foundation.

A person suffering from an allergy of a particular plant may be given honey from that plant so that the person develops resistance to that allergy. Honey is also rich in fructose and vitamin K.

The knowledge contained in the Qur'an regarding honey, its origin and properties, was discovered centuries after its revelation.

11. PHYSIOLOGY

BLOOD CIRCULATION AND MILK

The Qur'an was revealed 600 years before the Muslim scientist Ibn Nafees described the circulation of the blood and 1,000 years before William Harwey brought this understanding to the Western world. Roughly thirteen centuries before it was known what happens in the intestines to ensure that organs are nourished by the process of digestive absorption, a verse in the Qur'an described the source of the constituents of milk, in conformity with these notions.

To understand the Qur'anic verse concerning the above concepts, it is important to know that chemical reactions occur in the intestines and that, from there, substances extracted from food pass into the blood stream via a complex system; sometimes by way of the liver, depending on their chemical nature. The blood transports them to all the organs of the body, among which are the milk-producing mammary glands.

In simple terms, certain substances from the contents of the intestines enter into the vessels of the intestinal wall itself, and these substances are transported by the blood stream to the various organs.

This physiological concept must be fully appreciated if we wish to understand the following verses of the Qur'an:

"And verily in cattle there is a lesson for you.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ

We give you to drink of what is inside their bodies,

نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ

coming from a conjunction between the contents of the intestine and the blood,

مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ

a milk pure and pleasant for those who drink it."

لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ۝

***[Al-Qur'an 16:66]*[1]**

"And in cattle (too) ye have an instructive example:

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ

from within their bodies We produce (milk) for you to drink;

نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا

there are, in them, (besides), numerous (other) benefits for you;

وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ

and of their (meat) ye eat."

وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝

[Al-Qur'an 23:21]

---

[1] Translation of this Qur'anic verse is from the book "The Bible, the Qur'an and Science" by Dr. Maurice Bucaille.

The 1400 year old Qur'anic description of the production of milk in cattle is strikingly similar to what modern physiology has discovered in recent times

12. EMBRYOLOGY

MUSLIMS SEEK ANSWERS

A group of Muslim Scholars, under the direction of an eminent Yemani Scholar, Sheikh Abdul Majid Azzindani, collected information concerning embryology[1] and other sciences in the Qur'an and undisputed Hadith[2] and translated it into English. They then followed the Qur'anic advice:

"If ye realise this not,

ask of those who possess the Message."

فَسْـَٔلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ

إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝

[Al-Qur'an 16:43 & 21:7]

All the information from the Qur'an and the undisputed Hadith concerning embryology so gathered, after being translated into English and presented to Prof. (Dr.) Keith Moore, Professor of Embryology and Chairman of the Department of Anatomy at the University of Toronto, in Canada. At present he is one of the highest authorities in the field of Embryology.

He was asked to give his opinion regarding the material presented to him. After carefully examining it, Dr. Moore said that most of the

---

[1] Embryology is the study of human development before birth.

[2] Hadith or Sunnah means the sayings or actions of Prophet Muhammed (pbuh).

information concerning embryology mentioned in the Qur'an and the undisputed Hadith is in perfect conformity with modern discoveries in the field of embryology and does not conflict with them in any way. He added that there were a few verses however, on whose scientific accuracy he could not comment. He could not say whether the statements were true or false, since he was himself unaware of the information contained therein. There was also no mention of this information in modern writings and studies on embryology.

One such verse is:

"Proclaim! (or Read!)	اِقْرَاْ
In the name of thy Lord and Cherisher, Who created –	بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِىْ خَلَقَ ۚ
Created man, out of a (mere) clot of congealed blood."	خَلَقَ الْاِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۚ

[Al-Qur'an 96:1-2]

The Arabic word *alaq*, besides meaning a congealed clot of blood, also means something that clings, a leech-like substance.

Dr. Keith Moore had no knowledge whether an embryo in the initial stages appears like a leech. To check this out he studied the initial stage of the embryo under a very powerful microscope and compared what he observed with the diagram of a leech. He was astonished at the striking resemblance between the two!

In the same manner, he acquired more information on embryology, that was hitherto not known to him, from the Qur'an.

Dr. Keith Moore answered about eighty questions dealing with embryological data mentioned in the Qur'an and Hadith. Noting that the information contained in the Qur'an and Hadith was in full agreement with the latest discoveries in the field of embryology, Prof. Moore said, "If I was asked these questions thirty years ago, I would not have been able to answer half of them for lack of scientific information".[1]

In 1981, during the Seventh Medical Conference in Dammam, Saudi Arabia, Dr. Moore said, "It has been a great pleasure for me to help clarify statements in the Qur'an about human development. It is clear to me that these statements must have come to Muhammad from God or Allah, because almost all of this knowledge was not discovered until many centuries later. This proves to me that Muhammad must have been a messenger of God or Allah".[2]

Dr. Keith Moore had earlier authored the book, 'The Developing Human'. After acquiring new knowledge from the Qur'an, he wrote, in 1982, the 3rd edition of the same book, 'The Developing

---

[1] xxxxxxxxxxxxxxxxx

[2] The reference for this statment is the video tape titled '*This is the Truth*'. For a copy of this video tape contact the Islamic Research Foundation.

Human'. The book was the recipient of an award for the best medical book written by a single author. This book has been translated into several major languages of the world and is used as a textbook of embryology in the first year of medical studies.

Dr. Joe Leigh Simpson, Chairman of the Department of Obstetrics and Gynaecology, at the Baylor College of Medicine, Houston, U.S.A., proclaims: "...these Hadiths, sayings of Muhammad (pbuh), could not have been obtained on the basis of the scientific knowledge that was available at the time of the writer (implying in the 7th century). It follows that not only is there no conflict between genetics and religion (implying Islam) but in fact religion (Islam) may guide science by adding revelation to some of the traditional scientific approaches . . . there exist statements in the Qur'an shown centuries later to be valid which support knowledge in the Qur'an having been derived from God."

DROP EMITTED FROM BETWEEN THE BACK BONE AND THE RIBS

"Now let man but think from what he is created!

فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝

He is created from a drop emitted –

خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝

Proceeding from between the back bone and the ribs."

يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝

[Al-Qur'an 86:5-7]

In embryonic stages, the reproductive organs of the male and female, i.e. the testicles and the ovaries, begin their development near the kidney between the spinal column and the eleventh and twelfth ribs. Later they descend; the female gonads (ovaries) stop in the pelvis while the male gonads (testicles) continue their descent before birth to reach the scrotum through the inguinal canal. Even in adulthood after the descent of the reproductive organs, these organs receive their nerve supply and blood supply from the Abdominal Aorta, which is in the area between the backbone (spinal column) and the ribs. The lymphatic drainage and the venous return also go to the same area.

NUTFAH – MINUTE QUANTITY OF LIQUID

The Glorious Qur'an mentions no less than eleven times that the human being is created from *nutfah*, which means a minute quantity of liquid or a trickle of liquid that remains after emptying a cup. This is mentioned in several verses of the Qur'an including 22:5 and 23:13.[1]

Science has confirmed in recent times that only one out of an average of three million sperms is required for fertilising the ovum. This means that only $^{1}/_{3}$ millionth part or 0.00003% of the quantity of sperms that are emitted is required for fertilisation.

---

[1] The same is also mentioned in the Qur'an in 16:4, 18:37, 35:11, 36:77, 40:67, 53:46, 75:37, 76:2 and 80:19.

SULALAH – QUINTESSENCE OF LIQUID

"And made his progeny from a quintessence of the nature of a fluid despised."

ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝

[Al-Qur'an 32:8]

The Arabic word *sulaalah* means quintessence or the best part of a whole. We have come to know now that only one single spermatozoon that penetrates the ovum is required for fertilization, out of the several million produced by man. That one spermatozoon out of several million, is referred to in the Qur'an as *sulaalah*. We have also come to know now that only one ovum is fertilized out of the tens of thousand produced by the female. That one ovum out of tens of thousand is also refered to in the Qur'an as *Sulaalah*. This word also means gentle extraction from a fluid. The fluid refers to both male and female germinal fluids containing gametes. Both ovum and sperm are gently extracted from their environments in the process of fertilization.

NUTFATUN AMSHAAJ – MINGLED LIQUIDS

"Verily We created man from a drop of mingled sperm."

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ

[Al-Qur'an 76:2]

The Arabic word *nutfatin amshaajin* means mingled liquids. According to some commentators of the Qur'an, mingled liquids refers to the male or female agents or liquids. After mixture of male and female gamete, the zygote still remains *nutfah*. Mingled liquids can also refer to spermatic fluid that is formed of various secretions that come from various glands.

Therefore, *nutfatin amshaaj*, i.e. a minute quantity of mingled fluids refers to the male and female gametes (germinal fluids or cells) and part of the surrounding fluids.

SEX DETERMINATION

The sex of a foetus is determined by the nature of the sperm and not of the ovum. The sex of the child, whether female or male, depends on whether the 23rd pair of chromosomes is XX or XY respectively.

Primarily, sex determination occurs at fertilization and depends upon the type of sex chromosome in the sperm that fertilizes an ovum. If it is an 'X' bearing sperm that fertilizes the ovum, the foetus is a female and if it is a 'Y' bearing sperm then the foetus is a male.

وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝

مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝

"That He did create in pairs – male and female,

from a seed when lodged (in its place)."

[Al-Qur'an 53:45-46]

The Arabic word *nutfah* means a minute quantity of liquid and *tumnaa* means ejaculated or planted.

Therefore *nutfah* specifically refers to sperm because it is ejaculated.

The Qur’an says:

“Was he not a drop of sperm emitted (in lowly form)?

أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ

“Then did he become a clinging clot; then did (Allah) make and fashion (him) in due proportion.

ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ

“And of him He made two sexes, male and female.”

فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ

[Al-Qur’an 75:37-39]

Here again it is mentioned that a small quantity (drop) of sperm (indicated by the word *nutfatan min maniyyin*) which comes from the man is responsible for the sex of the foetus.

Mothers-in-law in the Indian subcontinent, usually prefer having male grandchildren and often blame their daughters-in-law if the child is not a boy. If only they knew that the determining factor is the nature of the male sperm and not the female ovum! If they were to blame anybody, they should rather blame their sons, not their daughters-in-law, since both the Qur’an and Science hold that it is the male fluid that is responsible for the sex of the child!

FOETUS PROTECTED BY THREE VEILS OF DARKNESS

"He makes you, in the wombs of your mothers,	يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ
in stages, one after another,	خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ
in three veils of darkness."	فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ

[Al-Qur'an 39:6]

According to Prof. Keith Moore, these three veils of darkness in the Qur'an refer to:

(i) anterior abdominal wall of the mother

(ii) the uterine wall

(iii) the amnio-chorionic membrane.

EMBRYOLOGICAL STAGES

"Man We did create from a quintessence (of clay);	وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝
then We placed him as (a drop of) sperm	ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ
in a place of rest, firmly fixed;	فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝
then We made the sperm into a clot of congealed blood;	ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ
then of that clot We made a (foetus) lump;	فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ

then We made out of that lump bones and clothed the bones with flesh;

فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا
فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا

then We developed out of it another creature.

ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ

so blessed be Allah, the Best to create!”

فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝

[Al-Qur’ an 23:12-14]

In this verse Allah states that man is created from a small quantity of liquid which is placed in a place of rest, firmly fixed (well established or lodged) for which the Arabic word *qaraarin makeen* is used. The uterus is well protected from the posterior by the spinal column supported firmly by the back muscles. The embryo is further protected by the amniotic sac containing the amniotic fluid. Thus the foetus has a well protected dwelling place.

This small quantity of fluid is made into *alaqah*, meaning something which clings. It also means a leech-like substance. Both descriptions are scientifically acceptable as in the very early stages the foetus clings to the wall and also appears to resemble the leech in shape. It also behaves like a leech (blood sucker) and acquires its blood supply from the mother through the placenta.

The third meaning of the word *alaqah* is a blood clot. During this *alaqah* stage, which spans the third and fourth week of pregnancy, the blood clots within closed vessels. Hence the embryo acquires the appearance of a blood clot in addition to

acquiring the appearance of a leech. Compare the readily available Qur'anic knowledge with Man's struggle with scientific findings:

In 1677, Hamm and Leeuwenhoek were the first scientists to observe human sperm cells (spermatozoa) through a microscope. They thought that a sperm cell contained a miniature human being which grew in the uterus to form a newborn. This was known as the perforation theory. When scientists discovered that the ovum was bigger than the sperm, it was thought by scientists like De Graf and others that the foetus existed in a miniature form in the ovum. Later, in the 18th century, Maupertuis propagated the theory of biparental inheritance.

The *alaqah* is transformed into *mudghah* which means ‘something that is chewed (having teeth marks)’ and also something that is tacky and small which can be put in the mouth like gum. Both these explanations are scientifically correct. Prof. Keith Moore took a piece of plaster seal and made it into the size and shape of the early stage of foetus and chewed it between the teeth to make it into a *mudghah*. He compared this with the photographs of the early stage of foetus. The teeth marks resembled the ‘somites’ which is the early formation of the spinal column.

This *mudghah* is transformed into bones (*izâm*). The bones are clothed with intact flesh or muscles (*lahm*). Then Allah makes it into another creature.

Prof. Marshall Johnson who is one of the leading scientists in the USA, and is the head of the Department of Anatomy and Director of the Daniel Institute at the Thomas Jefferson University in Philadelphia in the USA, was asked to comment on the verses of the Qur'an dealing with embryology. At first he said that the verses of the Qur'an describing the embryological stages cannot be a coincidence. It was probable that Muhammad (pbuh) had a powerful microscope. On being reminded that the Qur'an was revealed 1400 years ago, and microscopes were invented many centuries after the time of Prophet Muhammad (pbuh), Prof. Johnson laughed and admitted that the first microscope invented could not magnify more than 10 times and could not show a clear picture.

Later he said: "I see nothing here in conflict with the concept that Divine intervention was involved when Muhammad (pbuh) recited the Qur'an."[1]

According to Dr. Keith Moore, the modern classification of embryonic development stages which is adopted throughout the world, is not easily comprehensible, since it identifies stages on a numerical basis i.e. stage 1, stage 2, etc. On the other hand, the divisions revealed in the Qur'an are based on distinct and easily identifiable forms or shapes, which the embryo passes through. These are based on different phases of pre-natal development

[1] The reference for this statment is the video tape titled '*This is the Truth*'. For a copy of this video tape contact the Islamic Research Foundation.

and provide elegant scientific descriptions that are comprehensible and practical.

Embryological stages of human development have also been described in the following verses:

“Was he not a drop of sperm emitted (in lowly form)?

أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّنْ
مَّنِيٍّ يُّمْنٰى ۙ

Then did he become a clinging clot; then did (Allah) make and fashion (him) in due proportion.

ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً
فَخَلَقَ فَسَوّٰى ۙ

and of him He made two sexes, male and female.”

فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ
الذَّكَرَ وَالْأُنْثٰى ۝

[Al-Qur’an 75:37-39]

“Him Who created thee, fashioned thee in due proportion, and gave thee a just bias;

الَّذِي خَلَقَكَ
فَسَوّٰكَ فَعَدَلَكَ ۙ

in whatever Form He wills, does He put thee together.”

فِيْٓ أَيِّ صُوْرَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝

[Al-Qur’an 82:7-8]

EMBRYO PARTLY FORMED AND PARTLY UNFORMED

At the *mudghah* stage, if an incision is made in the embryo and the internal organ is dissected, it will be seen that most of them are formed while the remaining are not yet completely formed.

According to Prof. Johnson, if we describe the embryo as a complete creation, then we are only describing that part which is already created. If we describe it as an incomplete creation, then we are only describing that part which is not yet created. So, is it a complete creation or an incomplete creation? There is no better description of this stage of embryogenesis than the Qur’anic description, “partly formed and partly unformed”, as in the following verse:

“We created you out of dust,	خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ
then out of sperm,	ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ
then out of a leech-like clot,	ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ
then out of a morsel of flesh,	ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ
partly formed and partly unformed	مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ
that We may manifest (Our Power) to you.”	لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ

[Al-Qur’an 22:5]

Scientifically we know that at this early stage of development there are some cells which are differentiated and there are some cells that are undifferentiated – some organs are formed and yet others unformed.

SENSE OF HEARING AND SIGHT

The first sense to develop in a developing human embryo is hearing. The foetus can hear sounds after the 24th week. Subsequently, the sense of sight is developed and by the 28th week, the retina becomes sensitive to light.

The Qur'an explains it thus:

"And He gave you (the faculties of) hearing

وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

and sight and feeling (and understanding)."

وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ

[Al-Qur'an 32:9]

"Verily We created man from a drop of mingled sperm, in order to try him:

إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ

so We gave him (the gifts), of Hearing and Sight."

فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا

[Al-Qur'an 76:2]

"It is He Who has created for you (the faculties of)

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ

hearing, sight, feeling and understanding:

السَّمْعَ وَالْاَبْصَارَ وَالْاَفْـِٕدَةَ ؕ

little thanks it is ye give!”

قَلِيْلًا مَّا تَشْكُرُوْنَ ○

[Al-Qur’an 23:78]

In all these verses the sense of hearing is mentioned before that of sight. Thus the Qur’anic description matches perfectly with the discoveries in modern embryology.

13. GENERAL SCIENCE

FINGERPRINTS

"Does man think that We cannot assemble his bones?

أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝

Nay, We are able to put together in perfect order the very tips of his fingers."

بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝

[Al-Qur'an 75:3-4]

Unbelievers argue regarding resurrection taking place after bones of dead people have disintegrated in the earth and how each individual would be identified on the Day of Judgement. Almighty Allah answers that He can not only assemble our bones but can also reconstruct perfectly our very fingertips.

Why does the Qur'an, while speaking about determination of the identity of the individual, speak specifically about fingertips? In 1880, fingerprinting became the scientific method of identification, after research done by Sir Francis Golt. No two persons in the world can ever have exactly the same fingerprint pattern, not even identical twins. That is the reason why police forces worldwide use fingerprints to identify criminals.

Fourteen hundred years ago, who could have known the uniqueness of each human's fingerprint? Surely it could have been none other than the Creator Himself!

PAIN RECEPTORS IN THE SKIN

It was thought that the sense of feeling and pain was dependent only on the brain. Recent discoveries however prove that there are pain receptors present in the skin, without which a person would not be able to feel pain.

When a doctor examines a patient suffering from burn injuries, he verifies the degree of burns by a pinprick. If the patient feels pain, the doctor is happy, because it indicates that the burns are superficial and the pain receptors are intact. On the other hand, if the patient does not feel any pain, it indicates that it is a deep burn and the pain receptors have been destroyed.

The Qur’an gives a clear indication of the existence of pain receptors in the following verse:

“Those who reject our signs,

إن الذين كفروا بآياتنا

We shall soon cast into the Fire;

سوف نصليهم نارا

as often as their skins are roasted through, We shall change them for fresh skins,

كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها

that they may taste the Penalty:

ليذوقوا العذاب

for Allah is Exalted in Power, Wise.”

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝

[Al-Qur’an 4:56]

Prof. Tagatat Tejasen, Chairman of the Department of Anatomy at Chiang Mai University in Thailand, has spent a great amount of time on research of pain receptors. Initially he could not believe that the Qur’an mentioned this scientific fact 1,400 years ago. He later verified the translation of this particular Qur’anic verse. Prof. Tejasen was so impressed by the scientific accuracy of the Qur’anic verse, that at the 8th Saudi Medical Conference held in Riyadh on the Scientific Signs of Qur’an and Sunnah, he proudly proclaimed in public:

لَآ إِلٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ

“There is no God but Allah and
Muhammad (pbuh) is His Messenger.”

14. CONCLUSION

To attribute the presence of scientific facts in the Qur’an to coincidence would be against common sense and a true scientific approach.

Indeed the scientific accuracy of the Qur'anic verses confirm the Qur'an's open declaration.

“Soon will We show them
Our Signs in the (furthest)
regions (of the earth), and
in their own souls, until
it becomes manifest to them
that this is the Truth
it is not enough that
Thy Lord doth witness
all things?”

سَنُرِيهِمْ اٰيٰتِنَا فِي الْاٰفَاقِ
وَفِيٓ اَنْفُسِهِمْ حَتّٰى يَتَبَيَّنَ
لَهُمْ اَنَّهُ الْحَقُّ ۗ اَوَلَمْ
يَكْفِ بِرَبِّكَ اَنَّهٗ عَلٰى
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيْدٌ ۝

[Al-Qur’an 41:53]

The Qur’an invites all humans to reflect on the Creation of this universe in the verse:

“Behold! In the creation
of the heavens and the earth,

اِنَّ فِيْ خَلْقِ السَّمٰوٰتِ
وَالْاَرْضِ

and the alternation
of Night and Day –

وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ

there are indeed Signs
for men of understanding.”

لَاٰيٰتٍ لِّاُولِي الْاَلْبَابِ ۝

[Al-Qur’an 3:190]

The scientific evidences of the Qur’an clearly prove its Divine origin. No human could have produced a book, fourteen hundred years ago, that would contain such profound scientific facts.

The Qur’an, however, is not a book of Science but a book of ‘Signs’. These signs invite Man to realize the purpose of his existence on earth, and to live in harmony with Nature. The Qur’an is truly a message from Allah, the Creator and Sustainer of the universe. It contains the same Message of the Oneness of God, that was preached by all prophets, right from Adam, Moses, Jesus to Muhammad (peace be upon them).

Several detailed tomes have been written on the subject of Qur’an and modern science and further research in this field is on. Inshallah, this research will help mankind to come closer to the Word of the Almighty. This booklet contains only a few of the scientific facts present in the Qur’an. I cannot claim to have done full justice to the subject.

Prof. Tejasen accepted Islam on the strength of just one scientific ‘sign’ mentioned in the Qu’ran. Some people may require ten signs while some may require hundred signs to be convinced about the Divine origin of the Qur’an. Some would be unwilling to accept the Truth even after being shown a thousand signs. The Qur’an condemns such a closed mentality in the verse:

“Deaf, dumb and blind,

They will not return
(To the path).”

صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ
فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَۙ

[Al-Qur’an 2:18]

The Qur’an contains a complete code of life for the individual and society. Alhamdulillah (Praise be to Allah), the Qur’anic way of life is far superior to the ‘isms’ that modern man has invented out of sheer ignorance. Who can give better guidance than the Creator Himself?

I pray that this humble effort is accepted by Allah, to whom I pray for mercy and guidance (Aameen).

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman
Bin Mohammed
AL-QAMMASH

41